تفسير القرآن العظيم

المسمّى

تأويلات أهل السنة

تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريديّ السمرقنديّ الحنفيّ

(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الأول

مؤسسة الرسالة ناشرون

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

تأويلات أهل السنّة

تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريديّ السمرقنديّ الحنفيّ

(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الأول

مؤسسة الرسالة ناشرون

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
مروان رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon
Email:
resalah@resalah.com
Web site:
http://www.resalah.com

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

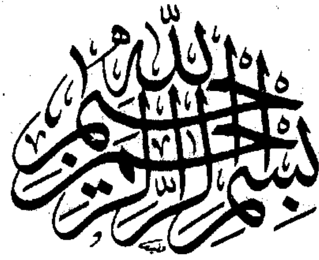

اللهمَّ

اجْعَلْنِي ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومن يَقْرَؤُهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

تصدير

بقلم محمد علي حمد الله

هل بُعِثَتْ رابعةُ العَدَويَّة؟

هذا أوّلُ ما نطقَ بِهِ القلمُ حينَ جلسْتُ لأكتبَ هذا التصديرَ، وإذا لم يَجُزْ لي ذلكَ، والله أعلم، قلتُ:

قامَتْ في جَنَباتِ هذا القرنِ تقيَّةٌ شبيهةٌ برابعةَ العَدَويَّةِ، عَدَويَّةِ القرنِ الثاني للهجرةِ، عدويَّةِ القدسِ الشريفِ، حيث بقيَ قبرُها إلى اليومِ يُشرِفُ من رأسِ جبلٍ على مآذنِهِ القديمة والقادمةِ...

رويدَكَ يا قارئي! لا تعذلْني بما قلتُ... وإلا... فما دلالةُ أنّ كُتُبَها المطبوعةَ صارَتْ ثلاثةً، وكُلُّها في القرآنِ حصراً!؟ ما معنى أنها منذُ تقاعدَتْ، أي قَبْلَ عشرينَ عاماً، تعيشُ مع التراثِ الإسلاميّ في مكتبة الأسد: تعريفاً للمخطوطات الواردة ووصفاً لها، ثم في منزلها: تحقيقاً وبحثاً، عِلْماً أنها وحيدةٌ: لا أبوينِ ولا إخوة أو أخوات، ولا أعمام أو عمّات، ولا أخوال أو خالات. فكيف تحملَتْ وحشةَ الوحدةِ!؟ إنها القراءةُ والكتابةُ سُلْواناً ما بعدَهُ سُلْوانٌ... فهنيئاً لها بما ادَّخَرَتْهُ لصحيفتِها.

ما أنا مِمَّنْ يكبُرُ المحقّقةَ عُمُراً أو ذِكراً، ولكنّني منْ أترابِها الذينَ احتضَنَتْ أجفانُهُمْ صورةَ سعيد الأفغاني، وأمجد الطرابلسي، وشفيق جبري، وعمر فرّوخ، وعز الدين التنوخي، وشكري فيصل، وصبحي الصالح، وجودة الركابي، ويوسف العش، وإبراهيم الكيلاني، وعبد الكريم اليافي، ومصطفى الزرقا، وغيرِهِمْ. وأوشكُ أنْ أقولَ:

أولـئـكَ أسـنـادي فـجِـئـنـي بـمـثـلِـهِـمْ ....

أنا الآن لا أترجمُ ثقافةَ المحقّقةِ، ولكنّي أترجِمُ العوامِلَ الثقافيَّة التي كوّنَتْ هذه المحقّقة تحديداً.

كانَتِ المحقّقة تسمعُ ـ منْ خلالِ الكتبِ ـ أشياءَ عنِ الماتريديِّ في فَتَراتٍ متباعدةٍ إلى أن عظُمَتْ لَدَيها الرغبةُ في استِجلاءِ أمرِهِ. ولمّا سنحَتْ لها فرصةٌ، لم تخطرْ على البالِ، حصلَتْ على نسختينِ منْ كتابِ الرجل. فإذا هو ليسَ تفسيراً محضاً، ولكنهُ (تأويلات أهل السنة) بمعنى أنهُ تفسيرٌ، غرضُهُ الأولُ: الرَّدُّ والحوارُ ومقارعةُ الحُجَّةِ بالحُجّةِ. ومِنْ هنا أمَلَتِ المحقّقةُ أنْ يكونَ لهُ قُرّاؤُهُ، رغمَ التفاسيرِ الأُخرَى المُتاحة.

مَضَتِ المحقّقةُ في قراءةِ المخطوطةِ قراءةً مُتأنّيةً رغمَ طولها [٣٢٠٠ صفحة مِنَ القطعِ الكبيرِ] ورغمَ صعوبتِها البالغةِ.. بسببِ الناسخِ أحياناً، وبسببِ أسلوبِ الماتريديِّ الذي يدلُّ جهرةً أنَّ صاحبَهُ لم يُحاذِ تماماً أسلوبَ الأعاجم الذينَ ارْتَقَوا سُدَّةَ الفصاحة بالعربيةِ في محافِلِ العراقِ التي لم يَطَأْها. ولكنَّ المحقّقةَ عزمَتْ متوكّلَةً على اللهِ أنْ تُحقّقَ الكتابَ باعْتِمادِها على النسخِ التي وصفَتْها، وعلى تفسيرِ كتاب الماتريديِّ بقلمِ السمرقنديِّ.

وفي أثناءِ العملِ كانتِ المحقّقةُ لا تألو جَهْداً، إذا غَمَضَ نصٌّ لسوءِ خَطٍّ فيه، أو سَقَطٍ، أو تَحريفِ ناسخٍ... أنْ تلجأَ، إمّا: إلى المراجعِ، وإمّا: إلى أهلِ التفسيرِ، وعلمِ العقائدِ، وعلومِ اللغةِ، وتاريخِ الفرقِ الدينيةِ، ولا سيما أنَّ الماتريديَّ أسهبَ في نقدِ عقيدةِ المعتزلةِ.

معَ كلِّ هذا (الوَرَعِ) و(العِلْم) و(الخبرةِ بالمخطوطاتِ) و(الدأبِ ثماني سنواتٍ)، وهي العناصرُ التي صنَعَتْ هذا الكتابَ، ظَلّتِ المحقّقةُ تدعو بتواضع:

اللهمَّ قيِّضْ لهذا الكتاب منْ يزيدُهُ حُسْناً وتحقيقاً. وحسبي أنْ دَلَلْتُ الناسَ عليهِ، وأكملتُهُ بعدَ تَحَوُّلِ غيري عنه، أو قَطْعِهِ الطريقَ دونَهُ.

قَيْدُ شُدَّ، وكتبه الضارع إلى الله محمد علي حمد الله

دمشق ٢٧ رمضان المبارك ١٤٢٤هـ

٢٢ تشرين الثاني ٢٠٠٣م

استهلال

الحمدُ للهِ حَمْداً، لا يُعَدُّ، ولا يُحْصَى، والصلاةُ والسلامُ على خَيرِ خَلْقِهِ ذي الصفاتِ المُثْلى .

وبَعْدُ، فإنَّ اللهَ ﷻ دعا رسولَهُ الكريمَ محمداً ﷺ في أُولَى آياتِهِ التي أَنْزَلَهَا عليهِ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١و...] إلى التَّفَكُّرِ بوحدانِيَّتِهِ والعَمَلِ بما أُنْزِلَ عليهِ.

وَعَكَفَ الصحابةُ والفُقهاءُ والتَّابعونَ على القرآنِ العظيمِ، يُحاوِلونَ تفسيرَهُ وبَيانَ إعجازِهِ ليكونوا خيرَ خَلَفٍ لِخَيرِ سَلَفٍ طالِبِينَ ثوابَ الله ﷻ في الدنيا والآخِرَةِ. وخلَّفوا تُراثاً ثَرّاً ما زالَ أكْثَرُهُ حَبِيسَ المَكتَبَاتِ الخاصَّةِ والعامَّةِ، يَحْتاجُ إلى مَنْ يُخْرِجُهُ، ويُقَدِّمُهُ لِطُلابِ العِلْمِ لِيَنْهَلُوا مِنْ مَعِينِهِ.

وقد سَهَّلَ اللهُ ﷻ لي بِفَضْلِهِ ومَنِّهِ العَمَلَ في تَحْقِيقِ وطَبْعِ كتابِ (الوجوه والنظائر لألفاظِ كتابِ اللهِ العزيزِ ومعانيها) لِمُصَنِّفِهِ أبي عَبدِ اللهِ الحُسَينِ بْنِ مُحَمَّدٍ الدامَغانيِّ المُتَوَفَّى سنةَ /٤٧٨/ هجرية وكتابِ (وجوه القرآنِ العظيمِ) لِمُؤَلِّفِهِ أبي عَبْدِ الرحمنِ إسماعيلَ بْنِ أحمدَ الضَّريرِ الحِيريِّ النَّيسابوريِّ المُتَوَفَّى بَعْدَ سنةِ /٤٣٠/ هجرية بِيَسيرٍ.

وكانَ منْ نِعَمِ اللهِ ﷻ عليَّ أنْ يَسَّرَ لي أيضاً سُبُلَ تَحقيقِ هذا الكتابِ (تأويلات أهلِ السنةِ) لِمُصَنِّفِهِ أبي منصورٍ محمدِ ابنِ محمدِ بنِ محمودٍ الماتُريديِّ السَّمَرْقَنْدِيِّ الحَنَفِيِّ المُتَوَفَّى سنةَ /٣٣٣/ هجرية لأقدِّمَهُ إلى طالبي معرفةِ عُلومِ القرآنِ العظيمِ سائلةً المولَى ﷻ القَبولَ والفائدةَ، إنّه هو السميعُ المُجيبُ.

فاطمة يوسف الخيمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ترجمةُ المؤلفِ

هو أبو منصورٍ محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمودٍ الماتُريديُّ السمرقنديُّ نسبةً إلى مسقطِ رأسِهِ: ما تُريدَ أو ماتُريتَ[1] وإلى المدينةِ القريبةِ مِنْ مولدِهِ: سمرقندَ[2]. وقد نسبهُ الإمامُ كمالُ الدينِ أحمدُ البياضيُّ في كتابِهِ (إشاراتُ المرامِ مِنْ عباراتِ الإمامِ) إلى أبي أيوبَ الأنصاريّ[3].

وظنَّ بعضُ الباحِثينَ المحدَثينَ أنَّ هذا المؤلفَ العالمَ، لم يحظَ باهتمامِ المؤرِّخينَ القدماءِ لأنَّ بعضَ كتبِ التراجمِ لم تذكرْهُ، ولأنَّ تاريخَ مولدِهِ لم يعرفْهُ أحدٌ، وعَزوا فضلَ التعريفِ بهِ إلى ما كتبَ الباحثونَ في العقدَينِ السابعِ والثامنِ مِنْ هذا القرنِ[4]. وردَّ الدكتورُ بلقاسم الغالي سببَ إغفالِ المؤرِّخينَ القدامى أبا منصورٍ إلى أسبابٍ أربعةٍ.

«أوّلُها: بعدُ الماتريديِّ عنْ مركزِ الخلافةِ العباسيةِ ببغدادَ.

وثانيها: دعمُ القوةِ السياسيةِ مدرسةَ أبي الحسنِ الأشعريِّ التي نشأ صاحبُها، وماتَ في بغدادَ سنةَ / ٣٢٤/ هجرية.

وثالثُها: نصرةُ المذهبِ المالكيِّ الشافعيِّ المدرسةَ الأشعريةَ وبقاءُ المدرسةِ الماتريديةِ وحدَها لم يدعَمْها أيُّ مذهبٍ.

ورابعُها: سهولةُ المواصلاتِ على العلماءِ الدارسينَ بينَ مركزِ الخلافةِ وبلادِهِمْ القريبةِ منه»[5].

والحقيقةُ أنَّ هذه الأسبابَ ليسَتْ أربعةً، وإنما السببُ واحدٌ، هو بعدُ الماتريديِّ عَنْ مركزِ الخلافةِ وما ينجمُ عنهُ، وهو ما أشارَ إليه الدكتورُ فتحُ اللهِ خليفُ في مقدمة كتابِهِ (التوحيدُ)[6]، إذْ كلُّ حدثٍ يتأثرُ بهِ مَنْ حولَهُ، ويتفاعلُ معهُ، ويبقى البعيدُ عنهُ في مَعزِلٍ، وكأنّهُ لا يمتُّ إليهِ بصلةٍ.

ولعلَّ أكبرَ دليلٍ على ذلكَ استقلالُ بعضِ الدولِ الإسلاميةِ وانفصالُها عنِ الدولةِ العباسيةِ الأمِّ كالدولةِ السامانيةِ في ما وراءَ النهرِ حيثُ نشأَ الماتريديُّ وغيرُهُ منَ الأعلامِ في سمرقندَ والدولةِ اليزيديةِ في خوزستانَ والدولةِ الصُّفّاريةِ في فارسَ وما حولَها والدولةِ الحَمْدانيّةِ في الموصلِ وديارِ بكرٍ والدولةِ الإخشيديةِ في مصرَ والشامِ. وكانَ لحكامِ هذه الدولِ اليدُ الطُّولى في ازدهارِ الحياةِ الاقتصاديةِ والعلميةِ ودَعْمِ أصحابِ المذاهبِ الدينيةِ والفكريةِ وتنشيطِ حركةِ التأليفِ فيها وفي جاراتِها منَ الدولِ[7].

ورغمَ ظنِّ البعضِ أنَّ مؤلفَنا أبا منصورٍ الماتريديَّ قد أهملَهُ المؤرخونَ القدماءُ أُطلِقَتْ عليهِ ألقابٌ، لم يُعرفْ بها أحدٌ مِنْ قبلِهِ أو بعدِهِ، فسمَّاهُ أصحابُهُ وتلامذتُهُ والذينَ ترجمُوهُ: إمامَ الهدى وإمامَ المتكلِّمينَ ومصحِّحَ عقائدِ المسلمينَ ورئيسَ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ ومُهديَ هذه الأمّةِ وناصرَ السنَّةِ وقامعَ البدعةِ ومُحيِيَ الشريعةِ ومُوطِّدَ عقائدِ أهلِ السنَّةِ[8].

---

(١) الأنساب ٥/ ١٥٥.

(٢) معجم البلدان ٣/ ٢٤٦ و...

(٣) ص: ٢٣.

(٤) مقدمة كتاب (التوحيد) لأبي منصور الماتُريدي تحقيق الدكتور فتح الله خليف ص/ ٢ ومقدمة كتاب (تفسير الماتريدي المسمى تأويلات أهل السنة) تحقيق وتعليق الدكتور إبراهيم عوضين والسيد عوضين ص/٩و...، وكتاب (أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقدية) تأليف الدكتور بلقاسم الغالي ص/ ١١و...

(٥) (أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقدية) ص/ ٤٣.

(٦) ص/ ١٠.

(٧) (محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية) تأليف محمد الخضري ص/ ٢٩٦ وكتاب (ظهر الإسلام) تأليف أحمد أمين ج١/ ٩١و..

(٨) (الجواهر المضيَّة في طبقاتِ السادةِ الحنفيةِ) ج٢/ ١٣٠ و...، وذيلها ج٢/ ٥٦٢ و(تاج التراجمِ في طبقات الحنفيةِ) رقم الترجمة / ٢١٧/ ص/ ٢٤٩، ومقدمة (إشارات المرام مِنْ عباراتِ الإمامِ) ص/ ٦، و(إتحاف السادةِ المتقين بشرحِ إحياء علومِ الدينِ) ج٢/ ٥، و(الفوائد البهيّة في تراجِمِ الحنفية) ص/ ١٩٥.

فإنْ قيلَ: إنَّ ما وصلَنا عَنْ حياةِ أبي منصورٍ الماتريديِّ قد اقتصرَ على ذكرِ اسمِهِ وكنيتِهِ وألقابِهِ وتاريخِ وفاتِهِ التي كانَتْ سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ وثلاثِ مئةٍ ومكانِ قبرِهِ في سمرقندَ وذكرِ أساتذتِهِ وتلامذتِهِ وعرضِ أسماءِ كتبِهِ في التفسيرِ والعقيدةِ والفقهِ فإنّنا نقولُ: ألا يَفِي بغرضِ الباحثِ والمتعلِّمِ الإطّلاعُ على حياةِ الفردِ العلميةِ وإسهامِهِ في ما قدَّمَهُ للحضارةِ الإسلاميةِ مِنْ آثارٍ وكتبٍ؛ يدافعُ بها بحججِهِ القاطعةِ وبراهينِهِ الدامغةِ عنْ مذهبِ الفقيهِ الأكبرِ أبي حنيفةَ النعمانِ بنِ ثابتٍ، ويردُّ بها كلَّ تيّارٍ أرادَ أنْ يستهدِفَ تهديمَ دعائمِ العقيدةِ الإسلاميةِ، ويأخذُ بيدِ المرءِ كائناً مَنْ كانَ وحيثُ كانَ إلى طريقِ السعادةِ والفلاحِ في الدنيا والآخرةِ؟

وإنْ أردْنا أنْ نقدِّرَ تاريخَ ولادةِ أبي منصورٍ فإننا نستطيعُ ذلكَ بمعرفةِ تاريخِ وفاةِ بعضِ أساتذتِهِ؛ فإذا كانَ أستاذُهُ محمدُ ابنُ مقاتلٍ الرازيُّ قد تُوفِّيَ سنة /٢٤٨/ هجرية[1] وأستاذُهُ نُصيرُ بنُ يحيى البلخيُّ قد ماتَ سنةَ /٢٦٨/ هجرية[2]، وكانَتْ صُغرى سِنٍّ يتقدمُ بها المرءُ إلى مجالسِ العلمِ، هي الخامسةُ، ولا يبلغُ الثامنةَ إلا وقد حفظَ القرآنَ العظيمَ، فإننا نستطيعُ أن نقولَ: إنَّ أبا منصورٍ الماتريديَّ قد وُلِدَ حوالَيْ سنةِ /٢٣٨/ هجرية.

هذا وقالَ مُحقِّقا الجزءِ الأوَّلِ مِنْ كتابِ (تأويلاتِ أهلِ السنةِ) في مقدِّمَتِهِما[3]: (نستطيعُ أنْ نتلمَّسَ مولدَهُ في العقدِ الرابعِ من القرنِ الثالثِ الهجريِّ، أي إنَّهُ وُلِدَ في عهدِ خلافةِ المتوكِّلِ على الله الخليفةِ العباسيِّ / ٢٣٢ ـ ٢٤٧/ هجرية، وإنَّهُ يتقدمُ في مولدِهِ على أبي الحسنِ الأشعريِّ ببضعٍ وعشرينَ سنةً)[4].

فعلى هذا يُمكنُنا القولُ: إنَّ أبا منصورٍ الماتريديَّ قد عاشَ قُرابةَ مئةِ عامٍ؛ إذْ وُلِدَ على ما قدَّرْنا سنةَ /٢٣٨/ هجرية تقريباً، وتُوفِّيَ سنة /٣٣٣/ هجرية، ودُفِنَ في سمرقَندَ تاركاً تراثاً ثَرّاً يهتدي بهِ أقرانُهُ وتلامذتُهُ والأجيالُ مِنْ بعدِهِ إلى الطريقِ القويمِ لفهمِ القرآنِ العظيمِ والسنةِ الشريفةِ وعقيدةِ أهلِ السنّةِ.

(١) و(٢) مقدمة (إشارات المرام مِنْ عباراتِ الإمامِ) ص/٦، و(إتحاف السادةِ المتقينَ بشرحِ إحياءِ علومِ الدين) ج٢/٥، و(الفوائد البهيّة في تراجِمِ الحنفيةِ) ص/٢٠١ وص/٢٢٢.

(٣) ص/١٠.

(٤) وُلِدَ أبو الحسنِ الأشعريُّ سنة/ ٢٦٠/ هجرية وتوفي سنة / ٣٢٤/ هجرية. انظر الأعلام لخير الدين الزركلي.

مدرسةُ أبي منصورٍ الماتريديِّ

عُرِفَ أبو منصورٍ الماتريديُّ بينَ أقرانِهِ العلماءِ ومَنْ ترجمَ له أنهُ حنفيُّ المذهبِ.

فقد ذكرَهُ صاحبُ أقدمِ كتابِ ترجمَ رجالَ المذهبِ الحنفيِّ عبدُ القادرِ بنُ أبي الوفاءِ محمدٍ القرشيُّ المتوفَّى سنةَ /٧٧٥/ هجرية في كتابِهِ (الجواهر المضيَّة في طبقاتِ السادةِ الحنفيَّةِ)، فقالَ: (محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمودٍ أبو منصورٍ الماتريديُّ، كانَ مِنْ كبارِ العلماءِ؛ تَخَرَّجَ بأبي نصرِ العِياضيِّ. كانَ يقالُ لهُ: إمامُ الهدى، له كتابُ (التوحيد) وكتابُ (ردّ الأدلّة للكَعْبِيّ) وكتابُ (وَهْم المعتزلةِ) وكتابُ (تأويلات القرآنِ)؛ وهو كتابٌ لا يوازيهِ فيهِ كتابٌ، بل لا يدانيهِ شيءٌ مِنْ تصانيفِ مَنْ سبقَهُ في هذا الفنِّ، ولهُ كتبٌ شتَّى. ماتَ سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ وثلاثِ مئةٍ بعدَ وفاةِ أبي الحسنِ الأشعريِّ بقليلٍ، وقبرُهُ بسمرقندَ)(١).

وحذا المترجمونَ بعدَ القرشيِّ حذوَهُ، فكانَ ما ذكرُوهُ في كتبِهِمْ تأكيداً لقولِهِ وتثبيتاً لمكانةِ أبي منصورٍ العلميّةِ(٢).

اساتذةُ ابي منصورٍ الماتريديِّ

يبدو لنا مِن استعراضِ ما قالَ هؤلاءِ المترجمونَ أنَّ أبا منصورٍ الماتريديَّ ارتادَ مجالسَ العلمِ منذُ نعومةِ أظفارِهِ، وتفقَّهَ على كبارِ أئمةِ عصرِهِ الذينَ اتخذُوا المذهبَ الحنفيَّ سبيلاً، وتمسَّكُوا بأفكارِ وآراءِ وعقيدةِ الفقيهِ الأكبرِ أبي حنيفةَ النعمانِ ابنِ ثابتٍ الذي يُعَدُّ أوَّلَ متكلمي أهلِ السنَّةِ مِنَ الفقهاءِ(٣).

فَمِنْ شيوخِهِ الإمامُ أبو بكرٍ أحمدُ بنُ إسحاقَ الجَوزجانيُّ الذي أخذ العلمَ عن أبي سليمانَ موسى بنِ سليمانَ الجَوزجانيِّ، وجمعَ بينَ الأصولِ والفروعِ وصنَّفَ كتابَينِ: الأولُ (الفرق والتمييز) والثاني (التوبة)(٤).

وَمِنْ شيوخِهِ الإمامُ أبو نصرٍ أحمدُ بنُ العباسِ.. بنِ عِياضٍ.. بنِ عُبادةَ الأنصاريُّ السمرقنديُّ، ذكرَهُ الإدريسيُّ في تاريخِ سمرقندَ، وقالَ: (كانَ مِنْ أهلِ العلمِ والجهادِ؛ حاربَ الكفرةَ في بلادِ التركِ، ولم يكنْ أحدٌ يُضاهيهِ بعلمِهِ وَوَرَعِهِ وجَلادَتِهِ وشهامَتِهِ إلى أنِ استُشهدَ مُخَلِّفاً أربعينَ رجلاً مِنْ أصحابِهِ كانُوا مِنْ أقرانِ أبي منصورٍ)(٥).

ومِنْ شيوخِهِ نُصيرُ بنُ يحيى البَلخيُّ الذي أخذَ العلمَ عَنْ أبي سليمانَ موسى بنِ موسى الجَوزجانيِّ وكانَ بارعاً في الفقهِ الحنفيِّ والكلامِ، تُوفِّي سنةَ /٢٦٨/ هجرية(٦).

ومِنْ شيوخِهِ أيضاً محمدُ بنُ مقاتلٍ الرازيُّ الذي تفقَّهَ على محمدِ بنِ الحسنِ الشيبانيِّ؛ كانَ عَلَماً من أعلامِ تفسيرِ القرآنِ العظيمِ والحديثِ الشريفِ، شغلَ منصبَ القضاءِ في الرَّيِّ إلى أنْ توفِّيَ سنةَ /٢٤٨/ هجرية، وتركَ كتباً كثيرةً منها كتابَ (المدَّعِي والمدَّعَى عليهِ)(٧).

وقد حقَّق هؤلاءِ الأربعةُ السلسلةَ المتكاملةَ بينَ الفقيهِ الأكبرِ أبي حنيفةَ النعمانِ بنِ ثابتٍ المتوفَّى سنةَ /١٥٠/ هجرية

---

(١) ح٢/ ١٣٠ و١٣١.

(٢) ذيل كتاب (الجواهر المضيّة في طبقات السادة الحنفيّة) للإمام علي بن (سلطان) محمد القاري ح٢/ ٥٦٢ وكتاب (تاج التراجم في طبقات الحنفية) رقم الترجمة /٢١٧/ ص /٢٤٩/ وكتاب (كتائب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان) المخطوط الورقتين /١٢٩/ و/ ١٣٠م وكتاب (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) ح٢/ ١٣٣ وكتاب (إشارات المرام من عبارات الإمام) ص/ ٤ و/ ٦ و.. وكتاب (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين) ح٢/ ٥ وكتاب (الفوائد البهيّة في تراجم الحنفية) ص/ ١٩٥.

(٣) (إشارات المرام من عبارات الإمام) ص/ ١٩.

(٤) (إشارات المرام من عبارات الإمام) ص/ ٦ و(إتحاف السادة المتقين..) ح٢/ ٥ و(الفوائد البهيّة في..) ص/ ١٤ و/ ٢١٦.

(٥) (إشارات المرام من..) ص/ ٦ و(إتحاف السادة المتقين..) ح٢/ ٥ و(الفوائد البهيّة في..) ص/ ٢٣.

(٦) (إشارات المرام من..) ص/ ٦ و(إتحاف السادة المتقين..) ح٢/ ٥ و(الفوائد البهيّة في..) ص/ ٢١٦ و٢٢١.

(٧) (إشارات المرام) ص/ ٦ و(الفوائد البهية) ص/ ١٦٣ وص/ ٢٠١ و(إتحاف السادة المتقين) ح٢/ ٥ .

وأبي منصورٍ الماتُريديِّ؛ فقد كانَ الإمامُ أبو بكرٍ أحمدُ بنُ إسحاقَ الجَوزجانيُّ والإمامُ أبو نصرٍ أحمدُ بنُ العباسِ العِياضِيُّ ونُصَيرُ بنُ يحيى البلخيُّ تلامذةَ أبي سليمانَ موسى بنِ سليمانَ الجَوزجانيِّ المتوفَّى بعدَ سنة / ٢٠٠/ هجرية، وكان أبو سليمانَ موسى الجَوزجانيُّ قد تتلمذَ على أبي يوسفَ يعقوبَ بنِ إبراهيمَ المتوفَّى سنةَ / ١٨٢/ هجرية وعلى محمدِ بنِ الحسنِ الشيبانيِّ المتوفَّى سنةَ / ١٨٩/ هجرية، وكانَ كلاهما: أبو يوسفَ ومحمدُ بنُ الحسنِ الشيبانيُّ قد لازما أبا حنيفةَ، وأخذا عنهُ العلمَ(١)، وكنّا ذكرْنا أنَّ محمدَ بنَ مقاتلٍ كانَ قد أخذَ العلمَ عنْ محمدِ بنِ الحسنِ الشيبانيِّ.

ومِنَ الجديرِ بالذكرِ أنَّ الزمنَ غالباً ما يدورُ فيجلسُ الأستاذُ والتلميذُ في حَلْقَةٍ بحثٍ واحدةٍ، فيتشاورانِ، ويشتركانِ في الرأيِ، أو يختلفانِ؛ وإلى هذا أشارَ الكفويُّ في كتابِهِ المخطوطِ (كتائبُ أعلامِ الأخيارِ مِنْ فُقهاءِ مذهبِ النعمانِ): (ورغم أنّ أبا نصرٍ أحمدَ بنَ العباسِ العِياضيَّ كان شيخاً للماتريديِّ فإنّهُ كانَ يجلسُ معهُ في حَلْقَةِ أبي بكرٍ أحمدَ بنِ إسحاقَ الجوزجانيِّ، وتخرَّجا معاً في حَلْقتِهِ)(٢).

تلامذةُ ابي منصورٍ الماتريديِّ

يذكرُ المترجمونَ أنّه تخرَّجَ على يدي أبي منصورٍ كثيرٌ مِنْ أئمةِ العلماءِ:

منهمْ أبو القاسمِ إسحاقُ بنُ محمدِ بنِ إسماعيلَ الشهيرُ بالحكيمِ السمرقنديِّ المتوفى سنةَ / ٣٤٥/ هجرية؛ تولّى قضاءَ سمرقندَ، وألّفَ كتباً كثيرةً منها: (الصحائفُ الإلهيةُ) و (السوادُ الأعظمُ) و (الردُّ على أصحابِ الهوى) و (والإيمانُ جزءٌ مِنَ العملِ)(٣).

ومنهمُ الإمامُ أبو الحسنِ عليُّ بنُ سعيدٍ الرُّسْتُغْفُنيُّ نسبةً إلى رُسْتُغْفَنَ إحدى قرى سمرقندَ المتوفَّى سنةَ / ٣٥٠/ هجرية؛ صنَّفَ كتباً كثيرةً منها: (إرشادُ المهتدي) أو (إرشادُ المبتدي) و (الزوائدُ والفوائدُ في أنواعِ العلومِ)(٤).

ومنهمُ الإمامُ أبو محمدٍ عبدُ الكريمِ بنُ موسى البزدويُّ المتوفَّى سنةَ / ٣٩٠/ هجرية؛ برعَ في الفقهِ خاصةً، وكانَ مِنْ أسرةٍ تخرَّجَ منها عباقرةُ العلماءِ في الفقهِ والأصولِ(٥)؛ منهمْ عليُّ بنُ محمدٍ المُكَنَّى أبا الحسنِ والملقبُ بفخرِ الإسلامِ والمتوفَّى سنةَ / ٤٨٢/ هجرية (٦).

ومنهمْ أبو الليثِ نصرُ بنُ محمدٍ السمرقنديُّ الذي ألَّفَ ما يقاربُ خمسةَ عشرَ كتاباً في التفسيرِ والعقيدةِ والفقهِ والتصوفِ، توفِّيَ سنة / ٣٧٣/ هجرية (٧).

مؤلفاتُ ابي منصورٍ الماتريديِّ

إنَّ تلكَ الحياةَ المديدةَ التي عاشَها أبو منصورٍ الماتريديُّ بصحبةِ الفقهاءِ والعلماءِ والمحدِّثينَ أتاحَتْ لهُ أنْ يشاهدَ، ويسمعَ، ما يجري هنا وهناكَ مِنْ أحداثٍ، ويقرأَ ما يطرحُ أصحابُ الفرقِ والمذاهبِ مِنْ أفكارٍ وآراءٍ، وكوَّنَتْ لَدَيهِ حَصيلةً واسعةً ضمَّتِ الثقافةَ العربيةَ واليونانيةَ والفارسيةَ.

وإنَّ أسماءَ الكتبِ التي صنَّفَها أبو منصورٍ وذكرَها المترجمونَ تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ مؤلِّفَنا قد نذرَ فكرَهُ، وبذلَ

(١) (إشارات المرام) ص/ ٦ و(الفوائد البهيّة) ص/ ١٦٣ وص/ ٢٢٥، و(إتحاف السادة المتّقين) ح٢/ ٥.
(٢) الورقة / ١٢٩ من الكتاب المخطوط و(إتحاف السادة المتقين) ح٢/ ٥.
(٣) (الجواهر المضيّة) ح١/ ١٣٩، و(مفتاح السعادة) ح٢/ ٢٥٦، و(الفوائد البهيّة) ص/ ٤٤.
(٤) (الجواهر المضيّة) ح٢/ ١٣٠، و(مفتاح السعادة) ح٢/ ٢٥٦، و(الأعلام) ح٤/ ٢٩١ .
(٥) (الجواهر المضيّة) ح٢/ ١٣٠، و(الفوائد البهيّة) ص/ ١٠١.
(٦) (الفوائد البهيّة) ص/ ١٢٤ و(الأعلام) ح٤/ ٣٢٨.
(٧) (الجواهر المضيّة) ح٢/ ١٩٦، و(الفوائد البهيّة) ص/ ٢٢٠.

حياتَهُ للدفاعِ عنِ العقيدةِ الإسلاميةِ والردِّ على المنحرفينَ عنِ السنَّةِ القويمةِ. ولا يخفَى على الباحثِ أو الدارسِ ما أصابَ الأمةَ الإسلاميةَ وتُراثَها مِنْ أحداثٍ ضَيَّعَتْ أكثرَ مؤلفاتِها، ونسبَتْ كثيراً منها إلى غيرِ أصحابِها.

هذا وقد عَدَّدَ أوَّلُ مَنْ ترجمَ لهُ، وهو عبدُ القادرِ القرشيُّ صاحبُ كتابِ (الجواهر المضيّة في طبقاتِ السادةِ الحنفيةِ) المتوفَّى سنة / ٧٧٥/ هجرية كتبهُ، فقال: «له كتابُ (التوحيد) وكتابُ (ردّ أوائلِ الأدلةِ للكَعْبيّ) وكتابُ (بيان وَهْمِ المعتزلةِ) وكتابُ (تأويلاتِ القرآنِ). ثم قال: «وله كتبٌ شتَّى»[1].

وزادَ قاسمُ بنُ قُطْلُوبُغا صاحبُ كتابِ (تاج التراجمِ في طبقاتِ الحنفيةِ) المتوفَّى سنةَ / ٨٧٩/ هجرية على تلكَ الكتبِ كتابَ (المقالاتِ) وكتابَ (ردّ وعيدِ الفُسَّاقِ للكَعْبيّ) وكتابَ (ردّ تهذيبِ الجدلِ للكَعْبيّ) وكتابَ (ردِّ الأصولِ الخمسةِ لأبي محمدٍ الباهليّ) وكتابَ (ردِّ الإمامةِ لبعضِ الروافضِ) وكتابَ (الردّ على أصول القرامطةِ) وكتابَ (الردّ على فروعِ القرامطةِ) وكتابَ (مأخذ الشرائعِ) وكتابَ (الجدلِ)[2].

واستمرَّتْ هذه الزيادةُ لَدَى بعضِ المترجمِينَ، فقالُوا: (له: (رسالة في ما لا يجوز الوقوفُ عليه في القرآنِ) و (وصايا ومناجاة) أو (فوائد))، وهذا الأخيرُ باللغةِ الفارسيةِ. ونسبَتْ بعضُ المصادرِ إلى أبي منصورٍ خطأً كتابَ (الدُّرر في أصولِ الدينِ) وكتابَ (شرح الإبانةِ) وكتابَ (شرح الفقهِ الأكبرِ) وكتابَ (العقيدة الماتريدية)[3].

ويُعدُّ كتابُ (أبو منصورٍ الماتريديُّ: حياته وآراؤُهُ العقديةُ) لمصنِّفِهِ الدكتورِ بلقاسمِ الغالي أحدثَ مؤلَّفٍ درسَ حياةَ أبي منصورٍ وثقافتَهُ ومدرستَهُ ومؤلفاتِهِ؛ وقد بيَّنَ لنا في نهايةِ الأمرِ حصيلةَ ما ابقى لنا الزمنُ مِنْ مآثرِ أبي منصورٍ، وصنَّفَها في علومٍ ثلاثةٍ: التفسيرُ وأصولُ الفقهِ وعلمُ الكلامِ[4].

أ ـ فأمّا علمُ التفسيرِ فقد صنَّفَ فيه كتاباً واحداً هو (تأويلات أهلِ السنةِ) وهو موضوعُ ما بينَ دفَّتَي هذا الكتابِ الذي مَنَّ اللهُ ـ تعالى ـ عليَّ بتحقيقِهِ.

ب ـ وأمّا علمُ أصولِ الفقهِ فقد صنَّفَ فيه كتابَينِ اثْنَينِ هما: (مأخذ الشرائعِ) و(الجدل)، ويعدُّهما العلماءُ جامعَينِ للأصولِ والفروعِ عندَ الأحنافِ ومرجعَينِ لعلمِ أصولِ الفقهِ إلى القرنِ الخامسِ الهجريِّ حينَ ظهرَ كتابُ (مقدمة أحكام القرآنِ) لأبي زيدٍ الدبوسيِّ المتوفَّى سنةَ / ٤٣٠/ هجرية، وكتابُ (كنزِ الوصولِ إلى علمِ الأصولِ) لأبي الحسنِ البزدويِّ المتوفَّى سنةَ / ٤٨٢/ هجرية. وكتابُ (الأصولِ) لأبي بكرٍ السرخسيِّ المتوفَّى سنةَ / ٤٨٣/ هجرية وكانَتْ هذهِ الكتبُ خيرَ تعويضٍ عَنْ كتابَي أبي منصور اللَّذَينِ فُقِدا في ما فُقِدَ مِنَ المكتبةِ العربيةِ الإسلاميةِ[5].

جـ ـ وأمّا علمُ الكلامِ فقد كانَتْ تصانيفُهُ فيها كثيرةً، تحدَّثَتْ عَنِ التياراتِ الفكريةِ التي هزَّتْ كيانَ الأمة الإسلاميةِ، وجمعَتِ القضايا العقيديةَ التي تناولَتْها الفرقُ السياسيةُ والدينيةُ، وردَّتْ عليها رداً موضوعياً بعيداً عنِ الهوى والإسفافِ.

ونستطيعُ أن نصنِّفَ كتبَ أبي منصورٍ في علمِ الكلامِ في موضوعاتٍ ثلاثةٍ: المقالاتُ والردودُ وأصولُ التوحيدِ.

أ ـ أمّا المقالاتُ فقد جمعَ كثيرٌ مِنَ العلماءِ في تلك الحقبةِ وما يليها أقوالَ الفِرَقِ الإسلاميةِ، وسَمَّوا كتبَهُمْ في ذلكَ (المقالاتِ)؛ فكانَ منها (مقالاتُ الإسلاميِّينَ) لأبي القاسمِ عبدِ اللهِ بنِ أحمدَ الكَعْبيِّ المتوفَّى سنةَ / ٣١٩/ هجرية و(مقالاتُ الإسلاميِّينَ واختلافُ المصلِّينَ) لأبي الحسنِ عليِّ بنِ إسماعيلَ الأشعريِّ المتوفَّى سنةَ / ٣٢٤/ هجرية و(المقالاتُ) لمؤلِّفنا أبي منصورٍ الماتريديِّ المتوفَّى سنةَ / ٣٣٣/ هجرية و.. وما زالَ كتابُ (المقالات) لأبي منصورٍ مخطوطاً حبيساً في مكتبةِ كبرلي في إستانبول تحت رقم / ٨٥٦/ يحتاجُ إلى دراسةٍ وتحقيقٍ[6].

---

(١) ج٢/ ١٣٠ و١٣١.

(٢) ص/ ٢٤٩ و٢٥٠.

(٣) ص/ ٧ من مقدمة كتاب (التوحيد) وص/ ٦٥ و٦٦ و٦٧ من كتاب (أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقدية).

(٤) الصفحات / ٧٠ ـ ٨٥ . (٥) المرجع السابق ص/ ٦٠و...

(٦) ص/ ١٤ من مقدمة (تفسير الماتريدي المسمى تأويلات أهل السنّة) وص/ ٦٦ من كتاب (أبي منصور الماتريدي) وص/ ٧ من مقدمة كتاب (التوحيد).

ب ـ ولم يكنْ أمرُ علماءِ الكلامِ مُقْتَصراً على ذكرِ أقوالِهِمْ في كتبهِمْ، وإنما كانُوا يحاولُونَ أنْ يُثبتُوا صحةَ مذاهِبِهِمْ بالردِّ على كلِّ مَنْ يخالفُهُمُ الرأيَ بإيرادِ الحجَجِ السديدةِ القاطعةِ والبراهِينِ الدامغةِ لبيانِ بُطلانِ كلِّ مذهبٍ غيرِ مذهبِهِمْ.

وإنما نذكرُ في هذا المجالِ كتبَ إمامِ المعتزلةِ الأكبرِ أبي القاسمِ عبدِ اللهِ بنِ أحمدَ الكَعْبِيِّ المتوفَّى سنةَ /٣١٩/ هجرية: كتابَ (تهذيب الجدلِ) وكتابَ (وعيد الفُسَّاقِ) وكتابَ (أوائل الأدلَّةِ)، ونذكرُ كتابَ (الأصول الخمسة) لإمامِ المعتزلةِ أبي محمدٍ أو أبي عمرَ محمدِ بنِ سعيدٍ الباهليِّ المتوفَّى سنةَ /٣٠٠/ هجرية.

وقد تصدَّى أبو منصورٍ الماتريديُّ إلى كلِّ مَنْ كتبَ في مذهبٍ غيرِ مذهبِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ ولاسيما في مذهبٍ منحرفٍ عنِ السنةِ ليبيِّنَ للعالِمِ والمتعلِّمِ مَدَى خطإِ ذلكَ المذهبِ البعيدِ عنِ السنَّةِ وصحةَ مذهبِ أهلِ السنَّةِ؛ فردَّ على أبي محمدٍ الباهليِّ في كتابِ (ردّ الأصولِ الخمسةِ)، وردَّ على أبي القاسمِ الكَعْبِيِّ على كتبِهِ بكتابِ (ردّ تهذيبِ الجدلِ) وكتابِ (ردّ وعيدِ الفُسَّاقِ) وكتابِ (ردّ أوائلِ الأدلةِ)، وبيَّنَ ضياعَ أتباعِ المعتزلةِ في كتابِ (بيان وَهْمِ المعتزلةِ)، وردَّ على الروافضِ في كتابِ (ردّ الإمامةِ لبعضِ الروافضِ)، وردَّ أخيراً على القرامطةِ في كتابَينِ: الأوّلُ (الردّ على القرامطةِ) والثاني (الردّ على فروعِ القرامطةِ).

ومهما يكنْ مِنْ أمرِ فقدانِ هذهِ الردودِ مِنَ المكتبةِ العربيةِ الإسلاميةِ فإنَّ عناوينَها تدلُّ دلالةً واضحةً على شدةِ تياراتِ تلكَ المذاهبِ المخالفةِ التي أرادتْ أنْ تُسيءَ إلى الأمةِ الإسلاميةِ وإلى دينِها الحنيفِ وتمكُّنِ أبي منصورٍ مِنَ الوقوفِ بوجهِها والردِّ عليها بأسلوبٍ علميٍّ منطقيٍّ، يدعُونا إلى الدعاءِ لهُ مردِّدِينَ قولَ اللهِ ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦] لِما بذلَهُ في الدفاعِ عَنْ مذهبِ أهلِ السنةِ الذي يُعَدُّ مِنَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ.

جـ ـ ويتصدَّرُ كتابُ (التوحيدِ) كتبَ أبي منصورٍ في علمِ الكلامِ لأنَّ أبا منصورٍ بيَّنَ فيه المبادئَ والأصولَ التي يجبُ أنْ يدركَها أهلُ السنَّةِ ليكونُوا جديرينَ بحملِ صفاتِ المسلمينَ المؤمنينَ ويعملُوا ما فيه الخيرُ، فينالُوا ثوابَ اللهِ ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرةِ، وجعلَ عنوانَ الكتابِ (التوحيدَ) ليؤكِّدَ أنَّ الإسلامَ هو دينُ اللهِ ﷻ.

بدأَ أبو منصورٍ كتابَهُ (التوحيدَ) ببيانِ فسادِ التقليدِ ووجوبِ معرفةِ الدينِ بالدليلِ الذي يقبلُهُ العقلُ، ويعبِّرُ عنه الكلامُ، ثم انتقلَ إلى ذكرِ صفاتِ اللهِ ـ جلَّ شأنُهُ ـ وردَّ على أفكارِ بعضِ الفرقِ كالمعتزلةِ والمُشَبِّهةِ والثَّنَوِيَّةِ والخوارجِ والمانَوِيَّةِ و. . . ، وختمَ كتابَهُ بمعالجةِ بعضِ المسائلِ الكلاميةِ والردِّ عليها؛ وكانتِ المسألةُ الأولى منها مسألةَ القضاءِ والقدرِ، وكانتِ المسألةُ الأخيرةُ مسألةَ الإسلامِ والإيمانِ.

وقدِ احتلَّ هذا الكتابُ مكانةً عظيمةً في كتبِ علمِ الكلامِ، وحَظِيَ باهتمامِ العلماءِ عَبْرَ العصورِ؛ فكانَ كلُّ مَنْ يحصلُ على نسخةٍ مخطوطةٍ لهُ يَعُدُّ نفسَهُ مِنَ السُّعداءِ لأنهُ يجدُ فيهِ بغيَتَهُ في كلِّ موضوعٍ مِنْ موضوعاتِ علمِ التوحيدِ.

ولم يُبْقِ الزمنُ مِنْ تلكَ النسخِ إلا واحدةً ظلَّتْ في مكتبةِ جامعةِ كمبردج إلى أنْ هَيَّأَ اللهُ لها الدكتورَ: فتحَ اللهِ خليفْ، فحققَها، ووضعَ لها مقدمةً غنيَّةً بموضوعِها وفضلِ مصنِّفِها في الدفاعِ عَنِ العقيدةِ الإسلاميةِ وأهلِ السنَّةِ. وصدَرَتْ أوَّلُ طبعةٍ لهذا الكتابِ سنةَ /١٩٧٠/م، وأعيدَ طبعُهُ سنةَ /١٩٨٢/م.

التعريفُ بكتابِ تاويلاتِ أهلِ السنَّةِ

يُعَدُّ هذا الكتابُ مِنْ أهمِّ ما صنَّفَ أبو منصورٍ الماتريديُّ لأنهُ يمثِّلُ قمةَ ما وصلَ إليه علمُهُ الذي نَذَرَ فكرَهُ وحياتَهُ لهُ لِبيانِ صحةِ مذهبِ أهلِ السنةِ والجماعةِ والدفاعِ عنهُ تجاهَ تياراتِ المذاهبِ المخالفةِ الراغبةِ في زعزعةِ صرحِ العقيدةِ الإسلاميةِ.

وإنَّ عنوانَ الكتابِ (تأويلات أهلِ السنةِ) يدعُونا إلى بيانِ معنى التفسيرِ والتأويلِ لغةً واصطلاحاً.

فالتفسيرُ في اللغةِ، هو التَّفعيلُ مِنَ الفَسْرِ، وهو البيانُ والكشفُ، فَسَرَ الشيءَ يفسِرُهُ بالكسرِ، ويفسُرُهُ بالضمِّ فَسْراً، وفسَّرَهُ أبانَهُ، وكشفَ عنهُ. قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

والتفسيرُ في الاصْطِلاحِ، هو بيانُ كلامِ اللهِ ـ جلَّ شأنُهُ ـ وإيضاحُهُ والكشفُ عنِ المرادِ مِنْ ألفاظِهِ المُشْكِلَةِ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في بيانِ شأوِهِ، فَوَجَدوهُ أخيراً يضمُّ علوماً كثيرةً كَعلمِ التجويدِ وعلمِ القراءاتِ وعلومِ اللغةِ: صرفِها ونحوِها وبيانِها وبديعِها وعلومِ أحكامِ القرآنِ: أسبابِ نزولِ آياتِهِ الكريمةِ وناسخِها ومَنسوخِها ومُحْكَمِها ومُتشابَهِها وعِبَرِها وأمثالِها وحلالِها وحرامِها و ...[١].

والتأويلُ في اللغةِ، هو التفعيلُ مِنَ الأَوْلِ، وهو الرجوعُ؛ آلَ يَؤولُ أوْلاً ومآلاً رجعَ يرجعُ، وأوَّلَ الشيءَ رجَعَهُ، وأُلْتُ عَنِ الشيءِ ارْتَدَدْتُ.

والتأويلُ في الاصْطِلاحِ، هو صَرْفُ الآيةِ الكريمةِ إلى ما تحملهُ مِنْ معانٍ يقتضيها المرادُ منها؛ أوَّلَ الكلامَ وتأوَّلَهُ فَسَّرَهُ، وقَدَّرَهُ، ودبَّرَهُ. قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

وقد اختلفَ العلماءُ في تعريفِ كلٍّ مِنَ التفسيرِ والتأويلِ؛ فوجدَ أبو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ ابنُ المُثَنَّى المتوفَّى سنةَ / ٢١٠/ هجرية وطائفةٌ معه: أنهما بمعنى واحدٍ[٢]، وبَيَّنَ ابنُ قُتَيبَةَ عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ المتوفَّى سنةَ / ٢٧٦/ هجرية في كتابِهِ (تأويل مشكلِ القرآنِ) أنَّ التأويلَ زيادةٌ في الشرحِ والإيضاحِ[٣].

ووضعَ أبو منصورٍ الماتريديُّ حدوداً واضحةً لكلٍّ مِنَ التفسيرِ والتأويلِ، فقالَ في أوَّلِ مقدمةِ كتابِهِ (تأويلات أهلِ السنَّةِ): (الفرقُ بينَ التأويلِ والتفسيرِ، هو ما قيلَ: التفسيرُ للصحابةِ والتأويلُ للفقهاءِ)، ثم بيَّنَ الفرقَ بينَ التفسيرِ والتأويلِ بأسلوبِ علمِ الكلامِ الذي برعَ فيه في كلِّ كتبِهِ، ثم أتى بمثالٍ، هو قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة ١ و..] عرضَ فيه أقوالَ المفسرينَ والمؤوِّلينَ منتهياً إلى قاعدةٍ هي (.. التفسيرُ ذو وجهٍ واحدٍ والتأويلُ ذو وجوهٍ) محذِّراً مَنْ يعتمدُ في تفسيرِهِ على رأيِهِ ومردِّداً قولَ رسولِ اللهِ ﷺ: «.. وَمَنْ قالَ في القرآنِ برأيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مقعَدَهُ مِنَ النارِ»[٤].

ومِنَ المعلومِ أنَّ الفقهَ هو العلمُ بالشيءِ والفهمُ لهُ، وغلبَ على علومِ الدينِ لسيادتِهِ وشرفِهِ وفضلِهِ على سائرِ أنواعِ العلومِ. قالَ اللهُ ـ تعالى شأنُهُ:

﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ولمّا دعا النبيُّ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رضي الله عنهما بقوله: «اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدينِ، وَعَلِّمْهُ التأويلَ»[٥] أي فَهِّمْهُ معناهُ وتأويلَهُ، استجابَ اللهُ ـ تعالى ـ دعاءَهُ، فكانَ.. أعلمَ الناسِ في زمانِهِ بكتابِ اللهِ ﷻ.

---

(١) (الإتقان في علوم القرآن) ٤/ ١٦٩.

(٢) (مجاز القرآن): المقدمة ج١ /١٨و/ ١٩، و(الإتقان في علوم القرآن) ٤/ ١٦٧، و(التفسير والمفسرون) ١/ ١٩.

(٣) ص/ ٧٧ من المقدمة.

(٤) سنن الترمذي ح٥/ ١٩٩ رقم الحديث / ٢٩٥١.

(٥) مسند أحمد ح١/ ٢٦٦ و..

وقد بيَّنا في ذكرِ ترجمةِ أبي منصورٍ أنهُ كانَ مِنْ أتباعِ أبي حنيفةَ النعمانِ بنِ ثابتٍ الذي كانَ يعتمدُ في شرحِ أفكارِهِ وآرائِهِ على العقلِ والنقلِ بآنٍ واحدٍ، فكانَ أبو منصورٍ في مقدمةِ علماءِ الكلامِ الذينَ أخذوا عنهُ أصولَ علمِ الكلامِ، وعَلِمْنا أنَّهُ ردَّ على أئمةِ المعتزلةِ ولا سيما أبو القاسمِ الكَعْبِيُّ وأبو محمدٍ الباهليُّ وعلى الروافضِ والقرامطةِ وأنهُ سجَّلَ خلاصةَ أفكارِهِ العقيديةِ في كتابِهِ (التوحيد).

وكانَ مِمَّا فضَّلَ اللهُ ﷻ على أبي منصورٍ أنْ وفَّقَهُ إلى تصنيفِ هذا الكتابِ في تأويلِ آيِ الذكرِ الحكيمِ ليكونَ عمدةً لأهلِ السنةِ والجماعةِ على مَرِّ الأزمانِ والعصورِ.

منهجُ ابي منصورٍ في هذا الكتابِ

يستطيعُ القارئُ أنْ يستخلصَ منهجَ أبي منصورٍ في تصنيفِهِ هذا الكتابَ مِنْ مقدمتِهِ التي يعرِّفُ بها كتابَهُ ومِنْ عملِهِ نفسِهِ:

أ ـ فهو بعدَ أنْ يذكرَ اسمَ السورةِ يقولُ: (وقولُهُ تعالى: ﴿...﴾ قيلَ فيه) أو (يحتملُ وجْهَينِ أو ثلاثةَ وجوهٍ..)، ويعرِضُ كلَّ وجهٍ، ويُناقِشُهُ، ويُورِدُ أقوالَ المفسِّرينَ مِنَ الصحابةِ والتابِعينَ والمؤوِّلينَ أهلِ الثقةِ، ثم يرجِّحُ الوجهَ الذي يذهبُ إليه مؤيِّداً إياه بذكرِ آيةٍ كريمةٍ أو حديثٍ شريفٍ أو خبرٍ صحيحٍ لِيُثْبِتَ صحةَ ما أرادَ أنْ يقرِّرَهُ ومصدِّراً إياهُ بقولِهِ: (والأصلُ عندَنا..) أو بقولِهِ (وعندَنا..).

ب ـ وإذا كانَ هناكَ أحدٌ قد فسَّرَ الآيةَ الكريمةَ بوجهٍ مخالفٍ لرأيِ أهلِ السنةِ فإنهُ يذكرُ اسمَهُ صراحَةً كأبي بكرٍ الأصمِّ أو جعفرِ بنِ حربٍ، أو يسمِّي الفرقةَ التي تقولُ بذلكَ الوجهِ كالمعتزلةِ والكرَّاميَّةِ والباطنيَّةِ والخوارجِ و...، ويعرضُ الرأيَ المخالفَ، ثم يردُّ عليهِ بالأدلّةِ النقليةِ والعقليةِ التي يلتزمُ بها لإيضاحِ عقيدةِ أهلِ السنَّةِ الصحيحةِ مُتَوَخّياً جادةَ الصوابِ والحكمةِ.

جـ ـ والحكمةُ هي صفةُ العالِمِ الحقِّ الذي يقفُ أمامَ ميزانِ الصوابِ، لا يحيدُ عنهُ قيدَ أُنمُلَةٍ، ويعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، ولا يعبأُ بغيرِ الحقِّ، ويُقِرُّ لخصمِهِ بصوابِ رأيِهِ، إنْ صحَّ لَدَيهِ، أيّاً كانَ خصمُهُ.

فليس عجيباً إذنْ أنْ ينقُلَ أبو منصورٍ قولَ بعضِ العلماءِ مؤيِّداً إياهُمْ كقولِهِ في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم ٢١]: (قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ الكفرةَ جميعاً أتباعَهُمْ ومتبوعِيهِمْ أعلمُ بهدايةِ اللهِ مِنَ المعتزلةِ؛ لأنهم قالُوا: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ عَلمُوا أنَّ اللهَ ﷻ لو هداهُمْ لاهتَدَوا، ويملِكُ هدايتَهُمْ، والمعتزلةُ يقولُونَ: قد هدى اللهُ جميعَ الكفرةِ وجميعَ الخلائقِ، فلم يهتَدُوا، وإنَّهُ لو أرادَ أنْ يهدِيَ أحداً لم يملِكْ، والكفرةُ حينَ: ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ رَأَوا، وعلمُوا أنَّ اللهَ لو هداهُمْ لاهتَدَوا؛ لأنَّهُمْ لو لم يهتَدُوا بهدايتِهِ إذا هداهُمْ لم يعتذِرُوا إلى أتباعِهِمْ: ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾).

وليسَ غريباً أيضاً أنْ يُبرزَ أبو منصورٍ غلطَ المعتزلةِ بهذا الأسلوب التهكميِّ في قولِهِ: (إبليسُ أعلمُ باللهِ مِنَ المعتزلةِ حينَ رَأَوا أنَّ اللهَ لا يُغوِي أحداً، ولا يختصُّ أحداً إلّا بصنعِ منهُ)، وذلكَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر ٣٩].

د ـ وإذا كانتِ الآيةُ الكريمةُ في بيانِ مسألةٍ فقهيةٍ كانَ أبو منصورٍ يفسِّرُها معتمداً على رأيِ إمامِهِ الفقيهِ الأكبرِ أبي حنيفةَ النعمانِ بنِ ثابتٍ، ويردُّ بهِ على الفقهاءِ الآخَرينَ.

هـ ـ وكانَ أبو منصورٍ يلجأُ لتأكيدِ أفكارِهِ إلى أسلوبِ الإثباتِ مرَّةً وإلى أسلوبِ النفيِ مرَّةً أخرى ليُقَرِّبَهَا إلى ذهنِ القارئِ، فَيَتَفَهَّمَهَا تَفَهُّماً جَيِّداً.

و ـ وكثيراً ما كانَ يعودُ إلى تفسيرِ الآيةِ مكرِّراً ما أتى بهِ ومُضِيفاً إليهِ ما فتحَ اللهُ عليهِ مِنْ أفكارٍ جديدةٍ تزيدُ ما بيَّنَهُ وُضوحاً وتثْبيتاً.

ز ـ وكانَ يتجاوزُ أحياناً ذكرَ آيةٍ كريمةٍ أو بعضَ آيةٍ لأنَّها لم تكُنْ مَحَطَّ اختِلافِ آراءِ المُؤوِّلِينَ.

ح ـ وكانَ يشيرُ إلى وجوهِ قراءةِ بعضِ الآياتِ القرآنيةِ الكريمةِ حتى وجوهِ القراءاتِ الشاذَّةِ ليؤيِّدَ بذلكَ صحّةَ تأويلِ أهلِ السنةِ.

ط ـ وإذا كان تأويلُ الآيةِ الكريمةِ يحتاجُ إلى بيانٍ لغويٍّ كانَ أبو منصورٍ يرجِّحُ رأيَهُ كتسميتِهِ الكلمةَ حرفاً في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ١] الذي يجمعُ خصالَ الخيرِ، وقولِهِ: (منها أنَّ في الحرفِ الأولِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ شكراً لجميعِ النعمِ..).

ي ـ وكانَ أبو منصورٍ يعتمدُ في ذكرِ الأحاديثِ الشريفةِ على حافظتِهِ، فكانَتْ نصوصُها عندَهُ تختلفُ أحياناً عنِ النصوصِ المكتوبةِ في كتبِ السنةِ.

ك ـ وكانَ ينهي حديثَهُ غالباً بعباراتٍ نجدُها في كتابِهِ (التوحيد) أيضاً تصورُ شكرَه للهِ ﷻ على ما أنعمَ عليهِ بهدايتِهِ إلى ما وصلَ إليهِ مِنَ التفكيرِ والمناقشةِ والرَّدِّ السليمِ، فيقولُ: (واللهُ الهادي) أو (وباللهِ التوفيقُ) أو (وباللهِ العِصْمَةُ والرَّشادُ) أو نَحْوَ ذلكَ.

ل ـ وإذا كانَ مَنْ يَرُدُّ عليه مُغالياً في تَعَنُّتِهِ بَيَّنَ غَلَطَهُ، ثم قالَ: (فَنَعُوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القَولِ).

م ـ وكانَ مِنْ مَنْهَجِ أبي مَنصورٍ في هذا التفسيرِ أنْ يُعْنى بالمَواضِيعِ التي لا يُؤْمَنُ فيها مِنَ الوُقوعِ في الزَّيغِ. مثالُ ذلك مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة ٢٩ وفصلت١١] وقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف ٥٤ ويونس٣ والرعد٢ والفرقان ٥٩ والسجدة ٤ والحديد ٤] وقولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه ٥].

فقد وَقَفَ عندَ مَعْنى (الإسْتِواء) و(العَرْشِ) وأحالَهُ إلى مَواطِنِ ذِكْرِهِ في القرآنِ العظيمِ لِيَقْرِنَ النَّظيرَ بِنَظيرِهِ، ثم أرْسَى مُناقَشَتَهُ للموضوعِ، وحَسَمَ رَدَّهُ على (المُشَبِّهَةِ) بأنَّ مَنْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى ١١] عَظَمَةً وقُدْرَةً، لا بُدَّ أنْ يكونَ مَدْلُولُ (العَرْشِ) و(الإسْتِواءِ) في تنزيلِهِ على غَيرِ مِثالٍ ممّا يمرُّ في خاطِرِ البَشَرِ مِنَ القعودِ والإسْتيلاءِ والسَّيْطَرَةِ.

فأنّى لِلْبَشَرِ أنْ تُدْرِكَ عقولُهُمُ (المَخلوقَةُ) ما لا قِبَلَ لها بإدراكِهِ مِنْ عَظَمَةِ (الخالِقِ) جلَّ شأنُهُ! وأنّى لها أنْ تُحيطَ بِمَنْ يُحيطُ بها وبما في الأكوانِ جميعاً! وما كانَ اللهُ لِيَخْلُقَ عَقْلَ العَبْدِ لأكْثَرَ ممّا تَحْتاجُهُ حياتُهُ الدنيا.

فطبيعيٌّ جِدًّا إذنْ أنْ يكونَ الإسلامُ اسْتِسْلاماً وتَسْليماً لِلْحُدودِ والقُدُراتِ التي رُسِمَتْ لنا. وما كانَ لنا أنْ نكونَ أكْبَرَ مِنْ أنْفُسِنا أو أقْدَرَ أو أعْظَمَ. وإنّها لَذاتُ حَدٍّ ليسَ شيئاً إزاءَ مَنْ لا حُدودَ لهُ.

وكانَ لذلكَ المَنْهَجِ العَجيبِ الذي مَهَرَ بهِ أبو منصورٍ حُظْوةٌ كبيرةٌ مِنَ التَّقْريظِ في ما وَصَفَهُ بهِ الإمامُ عبد القادِرِ بْنُ أبي الوفاءِ القُرَشِيُّ المُتَوَفّى سَنَةَ / ٧٧٥/ هجرية في قولِهِ: (هو كتابٌ لا يُوازيهِ فيهِ كتابٌ، بل لا يُدانيهِ شيءٌ مِنْ تَصانيفِ مَنْ سَبَقَهُ في ذلكَ الفَنِّ)[١].

واعْتَمَدَ هذا القولَ كلُّ مَنْ أتى بَعْدَهُ مِنَ المُتَرْجِمينَ لأنهمْ لم يَجدوا خيراً منهُ في بيانِ مَكانَتِهِ في عِلْمِ التَّفْسيرِ.

ونَسْتَطيعُ أنْ نقولَ في نهايةِ حَديثِنا عنْ أبي منصورٍ: إنَّ الألقابَ التي أطْلَقَها عليهِ أصحابُهُ وتلامِذَتُهُ ومُتَرْجِمُوهُ: إمامَ الهُدَى وإمامَ المُتَكَلِّمينَ ومُصَحِّحَ عَقائِدِ المُسْلِمينَ ورئيسَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ ومُهْدِيَ هذهِ الأمَّةِ وناصِرَ السُّنَّةِ وقامِعَ البِدْعَةِ ومُحْيِيَ الشَّريعَةِ ومُوَطِّدَ عَقائِدِ أهلِ السُّنَّةِ[٢] أفْضَلُ إجازةٍ لهذا العالِمِ الإمامِ الجَليلِ، رَحِمَهُ اللهُ، وأسْكَنَهُ فَسيحَ جَنّاتِهِ.

(١) (الجواهر المضية في طبقات السادة الحنفية) ٢/ ١٣٠ و١٣١.

(٢) المراجع المذكورة في ترجمة المؤلف.

عملي في تحقيقِ هذا الكتابِ

لا شكَّ أنَّ أوّلَ عملٍ يقومُ بهِ المُحقِّقُ، هو حصولُهُ على أكثرِ مِنْ نسخةٍ للكتابِ الذي يريدُ العملَ بهِ ليضعَ بينَ يدي القارئِ صورةً صحيحةً لِما كتبَ المؤلفُ.

وقد حصلْتُ بعدَ معاناةٍ شديدةٍ على صورتَينِ مِنْ نسخِ الكتابِ: الأولى مِنْ نسخةِ المكتبةِ الظاهريةِ في دمشقَ والمحفوظةِ في مكتبةِ الأسدِ الوطنيةِ، والثانيةُ مِنْ نسخةِ دارِ الكتبِ المصريةِ في القاهرةِ.

وكانَتْ لجنةُ القرآنِ الكريمِ المنبثقةُ عنِ المجلسِ الأعلى للشؤونِ الإسلاميةِ في القاهرةِ قد أصدرَتِ الجزءَ الأولَ مِنْ هذا الكتابِ المتضمِّنَ سورةَ الفاتحةِ والآياتِ ١ـ ١٤٠ مِنْ سورةِ البقرةِ؛ حقَّقَهُ الدكتور إبراهيم عوضين والسيد عوضين سنةَ ١٣٩١هجرية = ١٩٧١ ميلادية.

وأصدرَتْ وزارةُ الأوقافِ والشؤونِ الدينيةِ في بغدادَ قسماً مِنْ هذا الكتابِ يتضمَّنُ سورةَ الفاتحةِ وسورةَ البقرةِ كاملةً؛ قامَ بتحقيقِهِ الدكتور محمدُ مستفيضُ الرحمنِ سنةَ ١٤٠٤هجرية =١٩٨٣ميلادية.

وإنّي لأجدُ مِنَ الجديرِ بالذكرِ عرضَ أوصافِ ما صارَ بينَ يديَّ. فأبدأُ بوصفِ نسخةِ المكتبةِ الظاهريةِ فأقولُ: إنّها محفوظةٌ اليومَ في مكتبةِ الأسدِ الوطنيةِ برقم ٤٩٥ ومصوَّرَةٌ (بميكروفيلم) برقم ٣٠٠٥، وهي نسخةٌ خزائنيةٌ نفيسةٌ مغلفةٌ بغلافٍ جلديٍّ مزخرفٍ على الأسلوب العثمانيِّ المتأخِّرِ، وعددُ أوراقِها ٦٦٠ ورقةً، طولُ كلِّ ورقةٍ ٣١,٥سم، وعرضُها ٢٠,٥ سم، وأُطِّرَ النصُّ بإطارٍ مُذَهَّبٍ، وعددُ أسطرِ كلِّ صفحةٍ ٤٥ سطراً، وعددُ كلماتِ كلِّ سطرٍ ٢٥ كلمةً تقريباً.

وعلى وجهِ الورقةِ الأولى (ا ـ أ) قيدُ خاتَمِ المكتبةِ العموميةِ الظاهريَّةِ تاريخُهُ ١٢٢٩هجرية، وبأعلى ظهرِ الورقةِ (ا ـ ب) لوحةٌ مستطيلةُ الشكلِ مزخرفةٌ بزخارفَ نباتيَّةٍ دقيقةٍ ملونةٍ بألوانٍ مختلفةٍ ومؤطَّرةٌ بإطارٍ مُذَهَّبٍ، كتبَ الناسخُ ضِمْنَها عبارةَ: فاتحة الكتابِ، وتحت هذهِ اللوحةِ بدءُ الكتابِ: قالَ الشيخُ أبو منصورٍ:.. وكانَ الناسخُ يؤطِّرُ اسمَ كلِّ سورةٍ بإطارٍ مُذَهَّبٍ.

واستخدمَ الناسخُ لَونَينِ مِنَ المدادِ: الأحمرَ والأسودَ، كتبَ بالمدادِ الأحمرِ أسماءَ السوَرِ و: قوله تعالى، و: قوله، ووضعَ بهِ خطوطاً فوقَ العباراتِ المهمةِ. وكانَتْ نهايةُ الكتابِ محصورةً بِحَرْدَةٍ، كانَتْ آخرُ عبارةٍ فيها: وعلى ذلكَ تركُ كتابةِ فاتحةِ الكتابِ، واللهُ أعلمُ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وكانَ خطُّ الناسخِ تعليقاً حيناً وفارسيّاً حيناً آخرَ.

ويبدو أنَّ النسخةَ مُصَحَّحَةٌ لوجودِ كلمةِ (صح) في بعضِ الهوامشِ. وقد سميتُ هذهِ النسخةَ (الأصلَ).

أمّا نُسخةُ دارِ الكتبِ المصريةِ فإنّي أُثبتُ ما ذكرَهُ المحقِّقانِ في وصفِها في مقدِّمَتِهِما: أنها محفوظةٌ بالدارِ المذكورةِ برقم: ٦ تفسير قوله، مجلدةٌ بمجلدٍ واحدٍ، مُذَهَّبَةُ الصفحات، عددُ أوراقِها ٦٥٦ ورقةً، وعددُ أسطرِ كلِّ صفحةٍ ٤٥ سطراً، وعددُ كلماتِ كلِّ سطرٍ ٢٥ كلمةً تقريباً.

كتَبَها مصطفى بنُ محمدِ بنِ أحمدَ سنةَ ١١٦٥هجرية منْ نسخةِ المؤلفِ بخطٍّ واضحٍ مُسْتَخْدِماً المدادَ الأحمرَ لكتابةِ أسماءِ السورِ وكلمةِ (قوله ﷻ) في بَدْءِ كلِّ آيةٍ. وعلى هامش بعضِ الصفْحاتِ تَعْليقاتٌ: إمّا تكميلُ آيةٍ وردتْ مَنْقوصةً في الأصلِ وإمّا تعْليقٌ على رأيٍ بِمَزيدٍ منْ توضيحٍ وتَبْيينٍ لِمَعْنىً لُغَويٍّ وغَيرِهِ.

وقد سَقَطتِ الورقةُ الأولَى مِنْ هذهِ النسخةِ؛ فكانَ أوّلَ ما بَينَ أيدينا ظَهْرُ هذه الورقةِ المَبْدوءةِ بعبارةِ: في الأرضِ وغَيرِها.. والتأويلُ عندَنا ما أجْمَعَ عليهِ أهلُ الكلامِ. وقد رَمَزْت إلى هذهِ النسخةِ بالحرفِ: م.

ويبدو منْ مقابلةِ النسخةِ الظاهريةِ بالنسخةِ المصريةِ أنهما أقربُ إلى التّطابُقِ الذي يَدْعونا إلى القولِ: إنَّ النسختَينِ الظاهريةَ والمصريةَ قد نُسِختا مِنْ نُسْخةِ المؤلِّفِ.

وقد اعتمدَ المُحقِّقانِ: الدكتور إبراهيم عوضين والسيد عوضين نسخةَ دارِ الكتبِ المصريةِ التي ذَكَرْنا أوصافَها ونسخةَ كبرللي التركيةَ التي رَمَزا إليها بالحرفِ: ك. ورَمَزْتُ إلى كتابِهِما بـ: ط م (ط: يَعْني مطبوعاً، وم: يَعْني مصرياً).

أمّا المُحقّقُ الدكتور محمدُ مستفيضُ الرحمنِ فقد اعْتَمَدَ غيرَ نُسخةٍ. ورَمَزْتُ إلى كِتابِهِ بـ: ط ع (ط: يَعْني مطبوعاً، وع: يَعْني عراقياً).

ووضَعْتُ أمامي النسخةَ التي سَمَّيْتُها (الأصلَ) وكتابَ المُحقِّقينِ الذي رَمَزْتُ إليهِ بـ: ط م وكتابَ المُحقِّقِ الذي رَمَزْتُ إليهِ: بـ: ط ع، وقُمْتُ بِمُقابلةِ بعضِها على بعضٍ. ولمّا انْتَهَتِ المقابلةُ على الكتابَيْنِ المذكورَيْنِ تناوَلْتُ نسخةَ دارِ الكتبِ المصريةِ، وأصبحَتِ المُقابلةُ مُقْتَصِرَةً على نسخةِ (الأصلِ) ونسخةِ دار الكتب المصريةِ (م).

وحاوَلْتُ الاسْتِفادَةَ مِنْ تلكَ النسخِ لِيَخْرُجَ النَّصُّ أكثرَ صِحَّةً وأقْرَبَ إلى ما كَتَبَهُ المؤلِّفُ، ورَجَعْتُ إلى كُتُبِ القراءاتِ القرآنيةِ وكتبِ السُّنَّةِ الشريفةِ وكتبِ التفاسيرِ، وبَيَّنْتُ في الحواشي ما هو بحاجةٍ إلى التفسيرِ.

وبَعْدَ بَدْءِ العَمَلِ في هذا الكتابِ الجليلِ شاءَ اللهُ ﷻ أنْ يُيَسِّرَ مِنْ أمرِهِ ما قد كانَ يَتَعَسَّرُ، فَحَصَلْتُ على صورةٍ لإحدى نُسْخَتَي الكتابِ المحفوظَتَينِ في مكتبةِ الحَرَمِ المكِّيِّ الشريفِ؛ والحمدُ للهِ أوّلاً وآخِراً، والشُّكْرُ لِمَنْ أسْعَفَ، وأعانَ!

فإذا هذهِ الصورةُ هي شرحُ الكتابِ، كتبَهُ علاءُ الدين... رئيسُ أهلِ السنة والجماعةِ أبو بكر بنُ محمدِ بنِ أحمدَ السمرقنديُّ. لِذا رأيتُ ألّا أعُدَّ صورةَ النسخةِ المكيّةِ بمرتبةِ النسختَينِ المذكورَتَينِ، وأنْ أرجعَ إليها أحياناً لكشفِ الحقِّ في مواضِعِ الغموضِ أو التَّصحيفِ الواقعَينِ في النُّسْخَتَينِ المُعْتَمَدَتَينِ.

وعلى الرغْمِ منْ ذلكَ كلِّهِ لا بدَّ مِنَ التعريفِ بالنسخةِ المكيّةِ: انْتَهَى مِنْ نسخِها موسى السيدُ عبدُ العزيزِ سنةَ ١١٩٢هجرية، وهي محفوظةٌ في مكتبةِ الحَرَمِ المكيِّ الشريفِ في جُزأينِ مُرَقَّمينِ بـ ٥٢٩ و٥٣٠، ومصورةٌ بفيلمَينِ رقَمُهُما ٢٧٦٨ و٢٧٦٩.

وأخيراً لا بدّ لي مِنَ الإشارةِ إلى أمرَينِ:

أحدُهما: ما ذَكَرَهُ أبو منصورٍ في تفسيرِهِ، ولهُ تَعَلُّقٌ بالعَقيدةِ، مُتَّفِقٌ معَ مَنْهجِهِ في علمِ الكلامِ، وقد يكونُ هذا المَنْهَجُ مُخالِفاً مَنْهَجَ السَّلَفِ وبَعضَ فِرَقِ أصحابِ علمِ الكلامِ في بعضِ المسائلِ.

والثاني: وُرودُ جملٍ في الكتابِ ذاتِ تركيبٍ خاصٍّ، قد يَعْجَزُ عنْ معرفةِ المرادِ منها الكثيرُ مِنَ القُرّاءِ الكرامِ، وذاتِ ألفاظٍ على غيرِ وجهِ استعمالِها كاستخدامِهِ لكلمةِ (حيث) في موضعِ الدلالةِ على الزمانِ.

لذلكَ كلِّهِ آثَرْتُ تَرْكَ التَّعليقِ على هذهِ المُخالفاتِ وتَرْكَ شرحِ التراكيبِ حِرْصاً مني على تقديمِ الكتابِ كما أرادهُ المؤلِّفُ وَوَفْقَ المَنْهَجِ الذي الْتَزَمْتُهُ لإخراجِ هذا الكتابِ غَيرَ مُثْقَلٍ بكثرةِ الحَواشي خدمةً لهذا الدينِ الحنيفِ وأداءً لأمانةِ العلمِ.

وإني أتَوَجَّهُ إلى اللهِ ﷻ في الدعاءِ أنْ يُوَفِّقَني لأداءِ هذا العملِ وإنجازِهِ على الوجهِ الذي يَرْتَضيهِ، فتكونَ فيهِ الفائدةُ. إنهُ هو السميعُ المجيبُ.

فاطمة يوسف الخيمي

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الصفحة الأولى من نسخة المكتبة الظاهرية المحفوظة بمكتبة الأسد الوطنية

وقف

الصفحة الأخيرة من نسخة المكتبة الظاهرية المحفوظة بمكتبة الأسد الوطنية

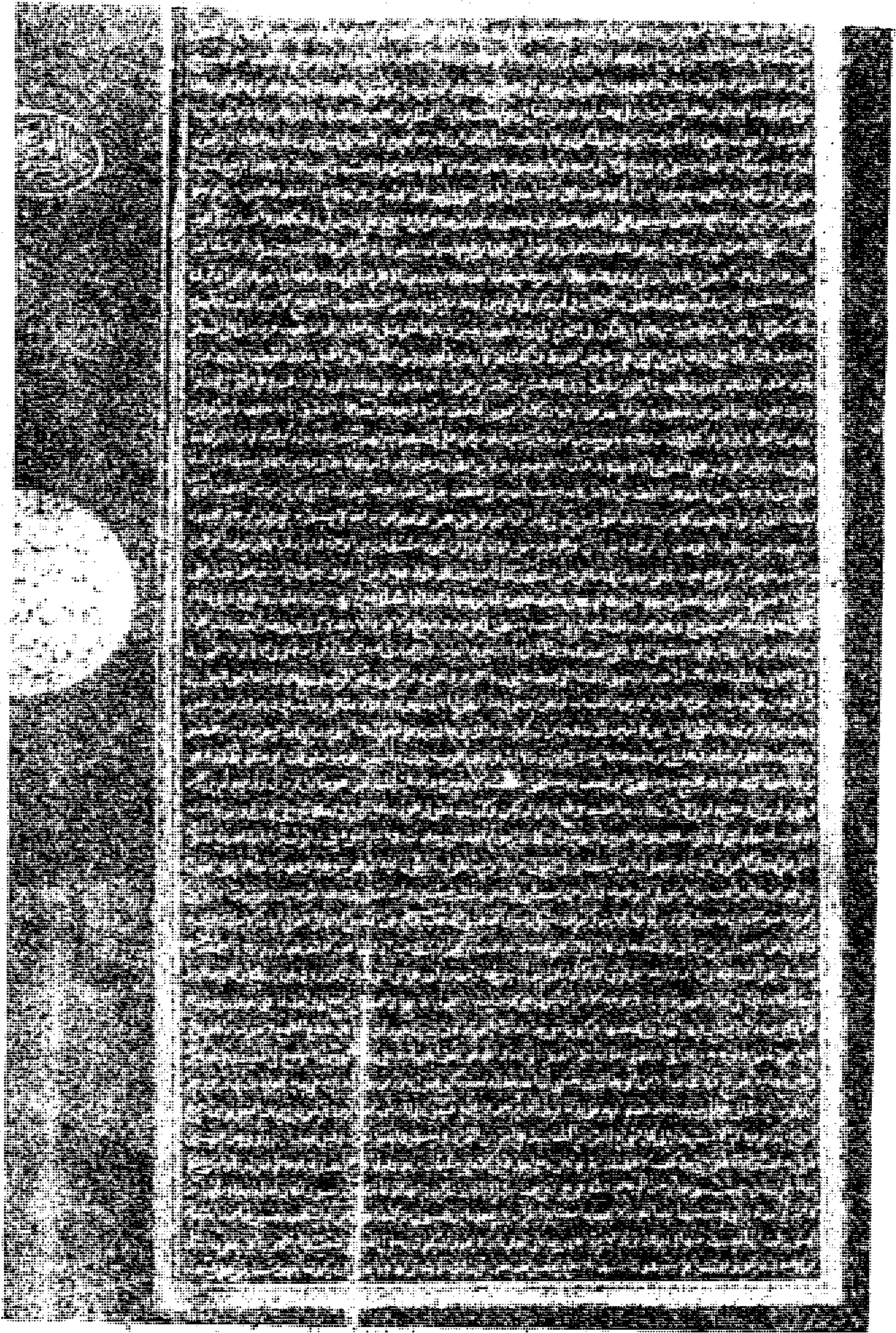

الصفحة الثانية من نسخة دار الكتب المصرية المسماة قوله

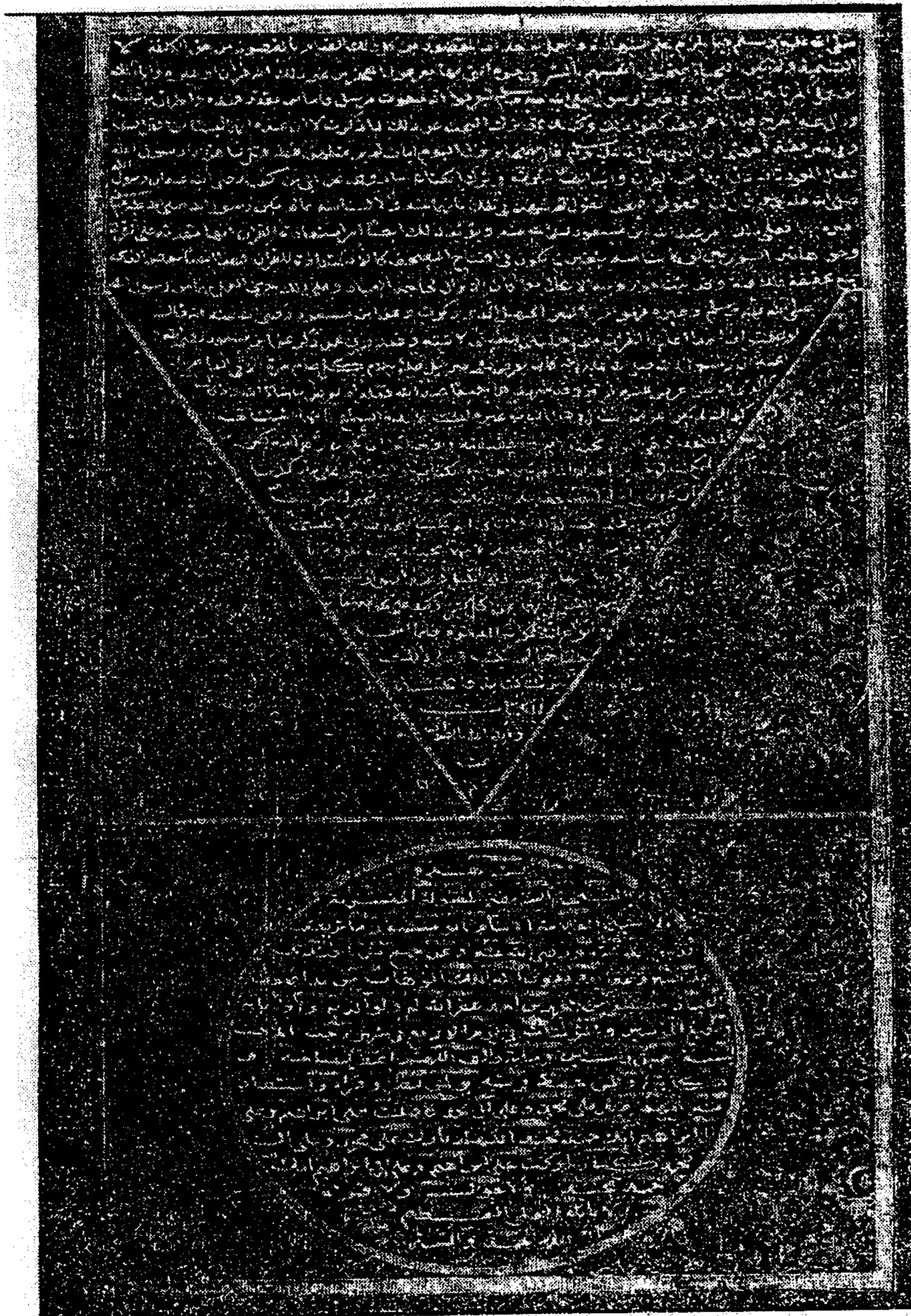

الصفحة الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية المسماة قوله

فتوح المسلمين
بعد نهاوند (٢١هـ / ٦٤٢م)
في إيران وأذربيجان
وأرمينية وما وراء النهر

فتوح أبي موسى الأشعري والي البصرة في المشرق
فتوح عمار بن ياسر والي الكوفة
فتوح المغيرة بن شعبة والي الكوفة
خط التقسيم بين ولايتي الكوفة والبصرة
حدود الدولة الساسانية قبل الفتح الإسلامي
حملات قواد عبد الله بن عامر
حملات عبد الله بن عامر
نهاية الفتوح الإسلامية حتى قتيبة
حدود الدولة الإسلامية عند وفاة قتيبة
حملات عبيد الله بن زياد بن أبيه وقواده وولاته
الحملات في عهد عبد الملك بن مروان

أطلس تاريخ الإسلام ـ د. حسن مؤنس ـ القاهرة ـ الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٧م

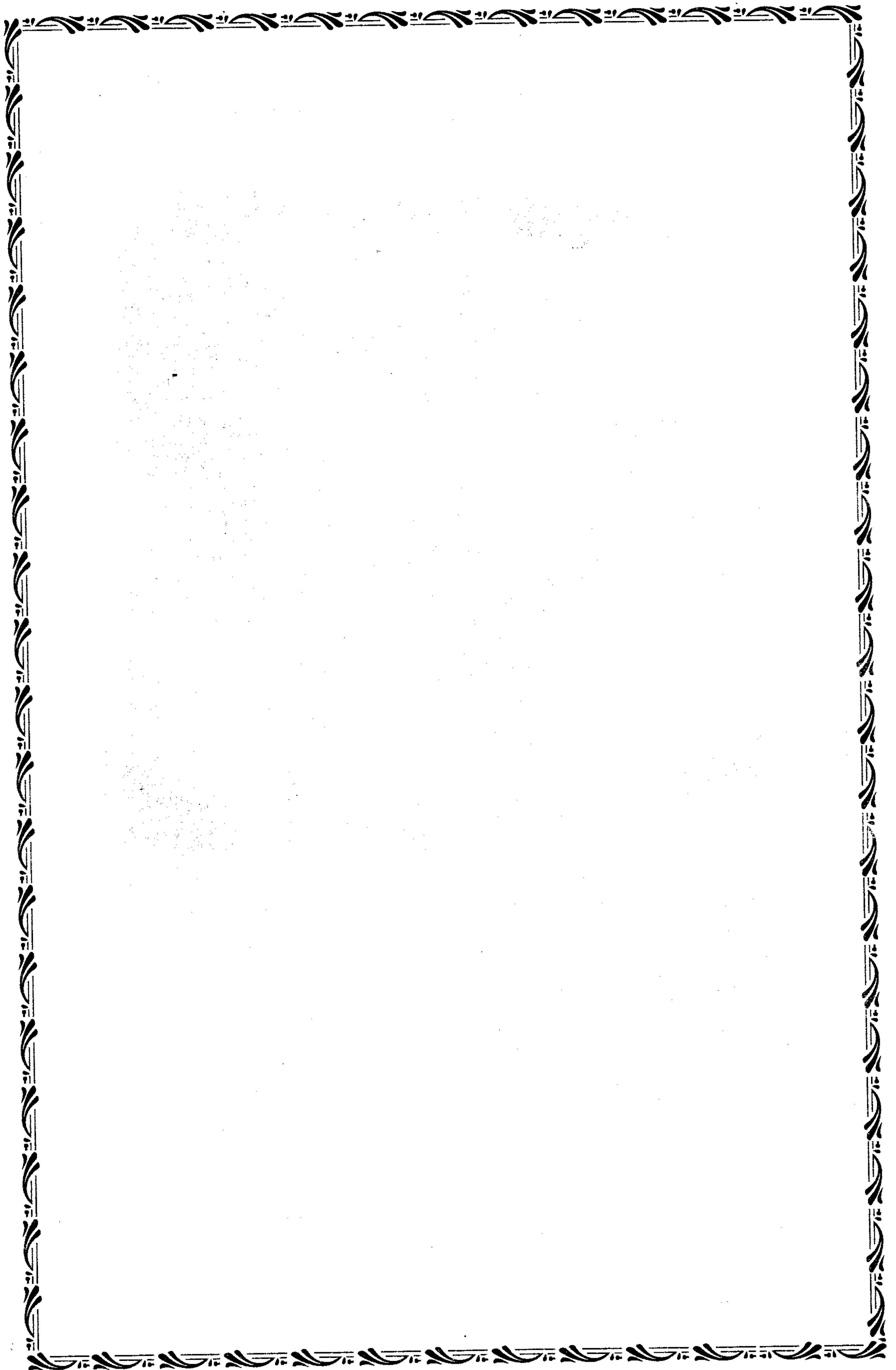

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

/ ١ ـ ب/ [قالَ الشيخُ أبو منصور ﷺ: الفرقُ بينَ التأويلِ والتفسيرِ، هو ما قيلَ: التفسيرُ للصحابةِ ﷺ والتأويلُ للفقهاءِ.

ومَعنَى ذلكَ أنَّ الصحابةَ شَهِدوا المشاهِدَ، وعَلِموا الأمرَ الذي نزلَ فيهِ القرآنُ. فتفسيرُ الآيةِ أهمُّ لِما عايَنوا، وشَهِدوا؛ إذْ هو حقيقةُ المُرادِ، وهو كالمشاهَدَةِ، لا يَصلحُ[١] إلّا لِمَنْ عَلِمَ، ومنهُ قيلَ: مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ فَلْيَتبوَّأْ [مَقعَدَهُ مِنَ النارِ][٢] لأنهُ في ما يُفسِّرُ يَشهَدُ على اللهِ بهِ.

وأمّا التأويلُ، فهو بيانُ مُنتهَى الأمرِ، مأخوذٌ مِنْ آلَ يَؤولُ، أي يَرْجِعُ. ومعناهُ كما قالَ أبو زيدٍ: (لو كانَ كلامَ غيرِهِ لَوُجِّهَ إلى كذا وكذا منَ الوجوهِ) فهو توجيهُ الكلامِ إلى ما يَتوجَّهُ إليهِ. ولا يَقَعُ التشديدُ في هذا مِثلَ ما يَقَعُ في التفسيرِ؛ إذْ ليسَ فيهِ الشهادةُ على اللهِ لأنهُ لا يُخبِرُ عنِ المرادِ، ولا يقولُ: أرادَ اللهُ بهِ كذا، أو عَنَى، ولكنْ يقولُ: يَتوجَّهُ هذا إلى كذا وكذا[٣] مِنَ الوجوهِ. هذا ممّا تكلَّمَ بهِ البشرُ، واللهُ أعلمُ ما صِحَّتُهُ مِنَ الحِكْمَةِ.

ومثالُهُ أنَّ أهلَ التفسيرِ اختَلفُوا في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ اللهَ تعالى حَمِدَ نفسَهُ. وقال بعضُهُمْ: أَمَرَ أنْ يُحمَدَ. فمَنْ قالَ: عَنَى هذا دونَ هذا فهو المفسِّرُ لهُ.

وأمّا التأويلُ، فهو أنْ يقولَ: يَتوجَّهُ الحَمْدُ إلى الثناءِ والمَدْحِ لهُ، وإلى الأمْرِ بالشُّكْرِ[٤] للهِ ﷻ واللهُ أعلَمُ بما أرادَ. فالتفسيرُ ذو[٥] وجْهٍ واحدٍ، والتأويلُ ذو[٦] وجوهٍ][٧].

---

(١) في ط ع: سمح.
(٢) من ط ع، ويشير هذا القول إلى ما رواه عبد الله بن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ: «..ومنْ قالَ في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» انظر (سنن الترمذي) ج٥/١٩٩ رقم الحديث /٢٩٥١/.
(٣) من ط ع، الواو ساقطة من الأصل.
(٤) من ط ع، في الأصل: الشكر.
(٥) و (٦) من ط ع، في الأصل: ذا.
(٧) لم تدرج مقدمة المصنف في ط م.

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَبِهِ نستعينُ

الآية ١ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ احتَمَلَ أنْ يكونَ ـ جلَّ ثناؤهُ ـ حَمِدَ نفسَهُ لِيَعْلَمَ الخلْقُ[١] استِحقاقَهُ الحَمْدَ بذاتِهِ، فيَحْمَدوهُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ يجوزُ أنْ يَحْمَدَ نفسَهُ، ومِثْلُهُ في الخَلْقِ غيرُ محمودٍ؟ قيلَ لهُ: لِوَجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ استَحَقَّ الحَمْدَ بذاتِهِ لا بأحدٍ، فيكونُ[٢] في ذلكَ تعريفُ الخَلْقِ لما يُزلِفُهُمْ لَدَيهِ بما أثنى على نفسِهِ لِيُثْنوا عليهِ. وغيرُهُ إنما يكونُ ذلكَ لهُ بِهِ ﷻ فعليهِ توجيهُ الحَمْدِ إليهِ لا إلى نفسِهِ؛ إذْ نفسُهُ لا تَسْتَوجِبُهُ بها بل باللهِ تعالى.

والثاني: أنَّ اللهَ تعالى حَقيقٌ لِذلكَ؛ إذْ لا عَيبَ يَمَسُّهُ، ولا آفَةَ تَحُلُّ بِهِ، فَيَدْخُلُ نُقصانٌ[٣] في ذلكَ، ولا هو مأمورٌ[٤] بشيءٍ. والعَبْدُ لا يَخلو عنْ عُيوبٍ تَمَسُّهُ وآفاتٍ تَحُلُّ به، ويُمْدَحُ بالإئتِمارِ، ويُذَمُّ بتركِهِ. وفي ذلكَ يَكْمُنُ[٥] النقصانُ، وحَقَّ لِمِثْلِهِ الفزعُ إلى اللهِ تعالى والتضرُّعُ إليهِ لِيَتغمَّدَهُ برحْمَتِهِ، ويَتجاوَزَ عنْ صَنيعِهِ.

وعلى ذلكَ معْنى التكبُّرِ[٦]؛ نحْمَدُ بهِ ربَّنا، ولا نحْمَدُ غيرَهُ؛ إذْ ليسَ للعبدِ مَعْنىً يَسْتقيمُ [بِهِ][٧] تكَبُّرُهُ؛ إذْ هُمْ جميعاً أكْفاءٌ مِنْ طريقِ [المِحْنةِ والخِلْقةِ][٨] وما أدْرَكَ أحَدٌ مِنْ فَضيلةٍ أو رفعةٍ فَباللهِ أدركَهُ لا بنفسِهِ. فعَلَيهِ تنزيهُ الربِّ والفزعُ إليهِ بالشكرِ لا بالتكَبُّرِ على أمثالِهِ، واللهُ تعالى، عنْ هذا الوصفِ مُتعالٍ.

ويَحْتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إضمارِ الأمرِ، أي قولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنَّ الحَمْدَ يُضافُ إلى اللهِ. فلا بدَّ مِنْ أنْ يكونَ لهُ علينا، فأمَرَ بالحَمْدِ لِذلِكَ.

ثم مُخرَجُ[٩] ذلكَ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ؓ أنهُ قالَ: (﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الشُّكْرُ للهِ [بما صنعَ إلى خَلْقِهِ][١٠]). فيُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ على هذا الترتيبِ[١١] على الأمرِ بتوجيهِ الشُّكرِ إليهِ. وذلكَ يَتضمَّنُ الأمْرَ أيضاً بكلِّ المُمْكِنِ مِنَ الطاعةِ على ما رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنه صلَّى حتى تورَّمَتْ قَدَماهُ، فقيلَ لهُ: أليسَ قد غفرَ [اللهُ][١٢] ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟ قالَ: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟» [البخاري ١١٣٠] فصَيَّرَ أنواعَ الطاعاتِ شُكراً لهُ. فَمَنْ أطاعَ اللهَ تعالى فقدْ شَكَرَ لهُ. فيُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ على هذا.

والوجهُ الثاني: أنْ[١٣] يُخَرَّجَ مُخرَجَ الثناءِ على اللهِ ﷻ والمدْحِ لهُ والوصفِ بما يَسْتحِقُّهُ والتنزيهِ عمّا لا يَليقُ بهِ مِنْ توجيهِ النعمِ إليهِ وقَطْعِ الشِّرْكَةِ عنهُ في الإنعامِ والإفضالِ على عِبادِهِ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّ اللهَ ﷻ يقولُ: «قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصفَينِ» [مسلم ٣٩٥] فإذا قالَ العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ اللهُ ﷻ «حمِدَني عبدي» فَجَعَلَ الحمْدَ هذا الحَرْفَ، وصَيَّرَهُ منهُ ثناءً لوجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ نَسَبَ الرُّبوبيَّةَ إليهِ في جميعِ العالَمِ، وقَطَعَها عنْ غيرِهِ.

والثاني: أنهُ سَمَّى[١٤] ذلك صلاةً. والصلاةُ أتمُّ للثناءِ والدعاءِ. وذلكَ خِلافُ الذمِّ ونقيضُهُ. وفي الوصفِ بالبراءةِ مِنَ

---

(١) في ط ع: الحق. (٢) في ط م: ليكون. (٣) في ط ع: نقصاناً. (٤) في ط م: خاص. (٥) في النسخ الثلاث: يمكن. (٦) في ط م: التكبير. (٧) في ط ع: معه، ساقطة من الأصل. (٨) في ط م: المحبة والخلق. (٩) في ط م: يخرج. (١٠) من ط ع. (١١) ساقطة من ط م. (١٢) من ط م، في ط ع: الله لك، ساقطة من الاصل. (١٣) في ط م: أنه. (١٤) من ط م، في الأصل: يجيء، في ط ع: يسمي.

الذمّ مَدْحٌ وثناءٌ بغايةِ المَدْحِ والثناءِ. ولذلكَ يُفرِّقُ القولُ بينَ الشُّكرِ والحَمْدِ؛ إذْ أُمِرْنا بالشُّكْرِ للناسِ بما جاءَ عَنْ رسول الله ﷺ: «إنَّ مَنْ لم يَشْكُرِ الناسَ لم يَشْكُرِ اللهَ» [أحمد ٢/٢٥٨] صَيَّرَهُ بمَعْنى المجازاةِ، والحمدَ بمَعْنى الوصفِ بما هو أهلُهُ. فلم يُسْتحَبَّ الحَمْدُ إلّا للهِ.

وقولُهُ تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رُويَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ([﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي][1] سَيِّدِ العالمينَ). والعالَمُ كلُّ مَنْ دبَّ على وجهِ الأرضِ. وقد يَتَوجَّهُ الرَّبُّ إلى الربوبيّةِ لا إلى السُّؤْدُدِ؛ إذْ يَسْتقيمُ القولُ بـ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] مِنْ بني آدمَ وغيرِهِ ونحوِ[2]: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦ و. . .] [مِنَ الربوبيةِ][3] و﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩ و. . .] ونحوِهِ، وغيرُ مستقيمٍ لِسَيِّدِ السمواتِ ونحوِهِ.

وقد يَتوجَّهُ اسْمُ الرَّبِّ إلى المالكِ؛ إذْ[4] كلُّ مَنْ يُنسَبُ إليه المُلْكُ يُسمَّى مالِكَهُ[5]، ولا يُسمَّى سيّداً[6] إلّا في بَني آدَمَ خاصَّةً.

واسْمُ الرَّبِّ يَجْمَعُ[7] ذلكَ كلَّهُ. لِذلكَ كانَ التوجيهُ إلى المالكِ أقرَبَ، وإنِ احْتَمَلَ المَرْويَّ عَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ إذْ هو في الحقيقةِ سَيِّدُ مَنْ ذَكَرَ وربُّهُم. واللهُ الموفقُ.

ثم اختلَفَ أهلُ التفسيرِ في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فمنهمْ مَنْ ردَّ إلى كلِّ رُوحٍ، دبَّ على وجهِ الأرضِ. ومنهمْ مَنْ ردَّ إلى [كلِّ][8] ذي رُوحٍ في الأرضِ وغيرِها.

ومنهمْ مَنْ قالَ: للهِ كذا وكذا[9] عالَمٌ.

والتأويلُ عندَنا ما أجمعَ [عليه][10] أهلُ الكلامِ: أنَّ العالَمينَ اسْمٌ لِجَميعِ الأنامِ والخَلْقِ جميعاً. وقولُ أهلِ التفسيرِ يَرْجِعُ إلى مِثْلِهِ إلا أنهم ذكَروا أسماءَ الأعلامِ، وأهلُ الكلامِ ما يَجْمَعُ ذلكَ وغيرَهُمْ.

ثم العالَمُ اسْمٌ للجميعِ[11]، وكذلكَ الخَلْقُ. ثم تعريفُ ذلكَ بالعالَمينَ والخلائقِ يَتوجَّهُ إلى جَمْعِ الجَمْعِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ في التحقيقِ تَفاوُتٌ. وقد يَتوجَّهُ إلى عالَمِ كلِّ زمانٍ وكذا خلْقِ كلِّ زمانٍ على حُكْمِ تجَدُّدِ العالَمِ. وباللهِ التوفيقُ.

وفي ذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ ادَّعى لنفسِهِ [أنه][12] ربُّ العالَمينَ كلِّهِمْ: مَنْ تَقَدَّمَ ومَنْ تأخَّرَ ومَنْ كانَ، ويكونُ [ولم يَقْدِرْ][13] أحدٌ أنْ يَنْطِقَ بالتَّكذيبِ [أو][14] يَدَّعِيَ مِنْ ذلكَ شيئاً لنفسِهِ. دلَّ ذلكَ أنْ لا ربَّ غيرُهُ ولا خالقَ لِشيءٍ سِواهُ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يكونَ حكيماً أو إلهاً يُنشِئُ، ويُبْدِعُ /٢ - أ/ ولا يَدَّعيهِ، ولا يَفصِلُ ما كانَ منهُ ممّا[15] كانَ لِغيرِهِ، وبنفسِهِ قامَ ذلكَ لا بغيرِهِ. وعلى ذلكَ مَعْنى قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فهذا مَعَ ما [في اتِّساقِ][16] التدبيرِ واجْتماعِ التَّضادِ وَتعلُّقِ حوائجِ بَعْضٍ ببَعْضٍ وقيامِ مَنافِعِ بَعْضٍ ببَعْضٍ على تباعُدِ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ وتضادِّهَا دليلٌ واضحٌ على أنَّ مُدَبِّرَ[17] ذلكَ كلِّهِ واحدٌ وأنهُ لا يجوزُ كَونُ مِثْلِ ذلكَ مِنْ غيرِ مُدَبِّرٍ عليمٍ[18]. واللهُ المُسْتعانُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسْمانِ مأخوذانِ مِنَ الرَّحْمَةِ. لكنهُ رُويَ فيهما[19]: (رقيقانِ: أحَدُهُما أرَقُّ مِنَ الآخَرِ) وكانَ الذي رُوِيَ عنهُ هذا أرادَ بهِ لطيفانِ: أحَدُهُما ألطَفُ مِنَ الآخرِ؛ دليلُ ذلكَ وجهانِ:

أحَدُهُما: مَجيءُ الأثَرِ[20] في ذلِكَ: اللطيفُ في أسماءِ اللهِ تعالى [مما][21] نطَقَ بهِ الكتابُ، ولم يُذكَرْ في شيءٍ مِنْ ذلكَ رقيقٌ. ومَعْنى اللطيفِ في[22] اسْتِخْراجِ الأمورِ الخفيَّةِ وظهورِها[23] لهُ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ

---

(١) من ط ع. (٢) الواو ساقطة من الأصل و ط م. (٣) في ط ع: من التربية، ساقطة من الأصل و ط م. (٤) في ط ع: إن. (٥) أدرج قبلها في ط م و ط ع: أنه. (٦) في النسخ الثلاث: أنه سيد. (٧) في الأصل: بجميع. (٨) من ط م و ط ع. (٩) الواو ساقطة من الأصل و ط م. (١٠) من ط م. (١١) من ط م و ط ع، في الأصل: لجميع. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) من ط م، في الأصل و ط ع: لم يقدره. (١٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٥) في ط م: ما، ساقطة من ط ع. (١٦) من ط م و ط ع، في الأصل: استاق. (١٧) من ط م و ط ع، في الأصل: يدبر. (١٨) من ط م، في الأصل و ط ع: عليهم. (١٩) المروي عنه عبد الله بن عباس. (٢٠) في ط ع: الآثار. (٢١) من ط م و ط ع، في الأصل: ما. (٢٢) ساقطة من ط م. (٢٣) من ط م و ط ع، في الأصل: وظهور ما.

خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ [إلى قولِهِ][1] ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وباللهِ التوفيقُ.

والثاني: أنَّ اللطيفَ حرفٌ يَدلُّ على البرِّ والعطفِ، والرقة [تدلُّ][2] على رقةِ الشيءِ التي هي نقيضُ الغِلَظِ والكثافةِ كما يُقالُ: فلانٌ رقيقُ القلبِ. وإذا قيلَ فلانٌ لطيفٌ فإنما يُرادُ بهِ: بارٌّ عاطفٌ. فلذلكَ يجوزُ لطيفٌ، ولا يجوزُ رقيقٌ. وكذلكَ فسَّرَ مَنْ فسَّرَ الرحمنَ بالعاطفِ على خلقِهِ بالرِّزقِ. وذَهَبَ وَهْمُ الأوَّلِ إلى الرِّقَّةِ[3]، وهو بعيدٌ. وإنما هو مِنَ اللُّطفِ.

وقولُهُ[4]: (أحَدُهما أرَقُّ مِنَ الآخَرِ) بمعنى اللطفِ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: التحقيقُ بأنَّ اللطفَ بأحدِ الحرفينِ أخصُّ وأليقُ وأوْفَرُ وأكمَلُ. فذلِكَ رَحْمَتُهُ بالمؤمنينَ أنهُ يُقالُ: رحيمٌ بالمؤمنينَ على تخصيصِهِمْ بالهدايَةِ[5] لِدينِهِ. ولذا ذَكَرَ أُمَّتَهُ، وإنْ أشرَكَهُمْ في الرزقِ في ما يراهُمْ غيرُهُمْ. ألا ترَى أنهُ لا يُقالُ: رحمنٌ بالمؤمنينَ، وجائزٌ القولُ، رحيمٌ بهِمْ، وكذلكَ لا يقالُ: رحيمٌ بالكافرِ[6] مُطْلَقاً؟ وباللهِ التوفيقُ.

[والثاني][7]: أنَّ أحَدَهُما ألْطَفُ مِنَ الآخرِ كأنهُ وصفَ الغايةِ في اللطفِ حتى يُتعَذَّرَ وجهُ إدراكِ ما في كلِّ واحدٍ مِنَ اللطفِ، أو يوصفَ بقَطعِ الغايةِ عما يَتضمَّنُهُ كلُّ حرفٍ. وباللهِ التوفيقِ.

ثم في هذا أنَّ اسْمَ الرحمنِ، هو المخصوصُ بهِ [اللهُ، لا يُسَمَّى بهِ غَيرُهُ][8] والرحيمُ: يجوزُ تسْمِيَةُ غيرِهِ بهِ. فلذلِكَ يُوصَفُ: أنَّ الرحمنَ[9] اسْمٌ ذاتيٌّ، والرحيمَ فِعْليٌّ. وإنِ احْتَمَلَ أنْ يكونا مُشتقَّينِ مِنَ الرحمةِ. ودليلُ ذلكَ إنكارُ العربِ الرحمنَ، ولا أحَدَ منهمْ أنكرَ الرحيمَ حينَ قالوا: ما ندري: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠] وذلك قولُهُ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] يدلُّ على أنهُ ذاتِيٌّ لا فِعْلِيٌّ، وإنْ كانَ الفِعْلُ صِفَةَ الذاتِ؛ إذْ مُحالٌ صِفَتُهُ بغيرِهِ لما يوجبُ ذلكَ الحاجةَ إلى غيرِهِ لِيُحدِثَ لهُ الثناءَ والمَدْحَ، وفي ذلكَ خَلْقُ الخَلْقِ لِنفعِ الاِسْتِمداحِ، وهو عَنْ ذلكَ مُتعالٍ، بل بنفسِهِ مُستحِقٌّ لكلِّ حَمْدٍ ومَدْحٍ، ولا قوةَ إلَّا باللهِ.

وَرُويَ في خبَرِ القسمةِ أنَّ العَبْدَ إذا قالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قالَ اللهُ تعالى: «أثنى عليَّ عبدي» وإذا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قالَ ﷻ: «مجَّدَني عبدي» [مسلم ٣٩٥/ ٤٠]. وذُكِرَ أنهُ قالَ في الأوَّلِ: بالتمجيدِ، وفي الثاني: بالثناءِ. وذلكَ واحدٌ، لأنَّ مَعْنى الثناءِ الوَصْفُ بالمَجْدِ والكَرَمِ والجودِ، والتمجيدُ هو الوَصْفُ بذلِكَ. وبالله التوفيقُ.

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾][10] أُجمِعَ [على][11] أنَّ قولَهُ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أنهُ يومُ الحسابِ والجَزاءِ. وعلى ذلكَ القولُ ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] وهو الجزاءُ. ومِنْ ذلكَ [قولُ][12] الناسِ: (كما تُدينُ تُدانُ).

وجائزٌ أنْ يكونَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ على جَعْلِ ذلكَ اليومِ لِما يُدانُ اليومَ؛ إذْ بهِ يُظْهِرُ حقيقَتَهُ وعِظَمَ مرتبَتِهِ وجليلَ مَوقِعِهِ عندَ ربِّهِ.

وفي الآيةِ دلالةُ وصفِ الرَّبِّ بِمُلْكِ ما ليسَ بموجودٍ لِوَقتِ الوصفِ بمُلكِهِ، وهو يومُ القِيامَةِ. ثبَتَ أنَّ اللهَ تعالى بجميعِ ما يستحقُّ الوصفَ بهِ يَسْتحِقُّهُ[13] بنفسِهِ لا بغيرِهِ. ولذلِكَ قلْنا نحنُ: هو خالقٌ لم يزلْ، وجوادٌ لم يَزَلْ، وسَميعٌ لم يَزَلْ، وإنْ كانَ ما عليهِ[14] وَقعُ ذلكَ لم يكُنْ. وكذلكَ نقولُ: هو ربُّ كلِّ شيءٍ، وإلهُ كلِّ شَيءٍ في الأزلِ، وإنْ كانتِ الأشياءُ غيرَ حادثةٍ كما قالَ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ اليومَ[15]، وإنْ كانَ اليومُ بَعْدُ غيرَ حادثٍ، وبالله التوفيقُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فهوَ، واللهُ أعلمُ، على إضمارِ الأمرِ؛ أي قُلْ: [ذا][16]. ثم لم يَجْعَلْ لهُ أنْ يَسْتَثنِيَ في القولِ بهِ، بل ألْزَمَهُ القولَ بالقولِ فيه. ثم يَتوَجَّهُ وجهَينِ:

---

(١) أدرج صاحب ط ع الآية كاملة بدل هذه العبارة. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) في النسخ الثلاث: اللطافة. (٤) يعود الضمير على ابن عباس. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) في ط م: بالكافرين. (٧) في النسخ الثلاث: ووجه آخر. (٨) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٩) من ط م و ط ع، في الأصل: الرحمة. (١٠) من ط ع، في الأصل و ط م: ثم. (١١) من ط م. (١٢) من ط م و ط ع. (١٣) من ط م، في الأصل و ط ع: يستحق. (١٤) من ط م و ط ع، في الأصل: قبله. (١٥) ساقطة من ط م. (١٦) من ط م.

أحَدُهما: يُحالُ القولُ بِهِ على الخَبَرِ عن حالِهِ، فيَجبُ ألّا يُستثنى[١] في التوحيدِ. وإنَّ مَنْ يَستثني فيهِ عن شكٍّ يَستثني، واللهُ تعالى وصفَ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية[٢] [الحجرات: ١٥] وكذا[٣] سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن أفضلِ الأعمالِ، فقال: «إيمانٌ لا شكَّ فيه» [أحمد٢/٢٥٨].

والثاني: عنِ الأحوالِ التي تَرِدُ[٤] في ذلكَ، لكنهُ إذا كانَ ذلكَ على اعتِقادِ المَذهَبِ لم يَجُزِ الشَّكُّ فيهِ، إذ المذاهبُ لا تُعتقدُ لأوقاتٍ[٥]، إنما تُعتقدُ للأبَدِ. لِذلكَ لم تَجُزِ الثُّنيا[٦] فيه. وباللهِ التوفيقُ.

ثم قولهُ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتوجَّهُ وجهَينِ[٧]:

أحَدُهما: إلى التوحيدِ. وكذا رُويَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما[٨] أنهُ قالَ: (كلُّ عبادةٍ في القرآنِ فهو توحيدٌ).

والوجهُ الآخرُ: أنْ يكونَ على كُلِّ طاعةٍ: أنْ يَعْبُدَ اللهَ بها. وأصْلُها يرجِعُ إلى واحدٍ لِما على العَبْدِ أنْ يُوَحِّدَ اللهَ في كلِّ عبادةٍ، لا يُشرِكُ فيها أحداً. بل يُخلِصُها. فيكونُ مُوَحِّداًللهِ تعالى بالعبادةِ والدينِ جميعاً.

وعلى ذلكَ قَطْعُ الطَّمَعِ والخوفِ والحَوائجِ كلِّها عنِ الخلْقِ، وتَوجيهُ ذلكَ إلى اللهِ تعالى بقولِهِ: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وعلى ذلكَ المؤمنُ لا يَطْمَعُ في الحقيقةِ بأحدٍ غيرِ اللهِ، ولا [يَرْفَعُ إلّا][٩] إليهِ الحوائجَ، ولا يخافُ إلّا مِنَ الوَجْهِ الذي يَخشَى أنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَبَباً لوصولِ بَلاءٍ مِنْ بَلاياهُ على يديهِ. فعلَى ذلكَ يَخافُهُ، أو يرجو أنْ يكونَ اللهُ تعالى جَعَلَ سَبَبَ ما دَفَعَهُ إليهِ على يديهِ. فبذلكَ يرجو، ويَطْمَعُ، فيكونُ بذلكَ[١٠] مِنَ الضالِّينَ. فيكونُ في ذلكَ التعوُّذُ مِنْ جميعِ أنواعِ الذنوبِ، والِاسْتِهْداءُ إلى كلِّ أنواعِ البِرِّ.

[القولُ في التسْمِيَةِ][١١]

ثم التسميةُ هي آيةٌ مِنَ القرآنِ، وليسَتْ [مِنْ][١٢] فاتحةِ القرآنِ. دليلُ جَعْلِها آيةً [ما][١٣] رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ لأبيِّ بنِ كَعْبٍ رضي الله عنه: «لأعَلِّمَنَّكَ آيةً لَمْ تنزلْ على أحدٍ قبلي إلّا على سُليمانَ بنِ داوودَ[١٤]، فأخرجَ [مِنَ المَسْجِدِ][١٥] إحدَى قدمَيهِ، ثم قالَ: بأيِّ [آيةٍ تفتتِحُ بها القرآنَ][١٦]؟ قالَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقالَ: هيَ هيَ» [بنحوه: البخاري ٤٤٧٤].

ففي هذا [دليلٌ][١٧] أنها آيةٌ مِنَ القرآنِ، وأنها لو كانَتْ مِنَ السُّورِ لكانَ يُعَلِّمُهُ نَيِّفاً ومِئَةَ آيةٍ لا آيةً واحدةً. ولو كانَتْ منها أيضاً لكانَ لا يَجْعَلُها مِفتاحَ القرآنِ، بل يَجْعَلُها مِنَ السُّوَرِ.

ثم الظاهرُ أنَّ مَنْ لم يَتكَلَّفْ تفسيرَها عندَ ابْتِداءِ [السورِ يُثْبِتُ][١٨] أنها ليسَتْ منها. ولِذلكَ[١٩] تَرَكَ الأمّةُ الجَهْرَ بها على العِلْمِ بأنهُ لا يَجوزُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ يَجْهَرُ بها، ثم يَخفَى ذلكَ على مَنْ معهُ، وأنْ يكونوا غَفَلوا[٢٠]، ثَمَّ يُضَيِّعونَ سُنَّةً بلا نفعٍ يَحْصُلُ لهمْ، حتى توارثتِ الأمّةُ تَرْكَها في ما لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ الجَهْرُ سُنَّةً، ثم يَخْفَى، فيكونُ في فِعْلِ الناسِ دليلٌ واضحٌ أنها ليسَتْ مِنَ السُّوَرِ.

ودليلٌ آخَرُ على ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ عنِ اللهِ تعالى أنهُ قالَ: «قَسَمْتُ الصلاةَ بَيني وبَينَ عبدي نِصْفينِ؛ فإذا

---

(١) من ط م وط ع، في الأصل: يثنى. (٢) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٣) في ط م: وكذلك. (٤) من ط م، في الأصل و ط ع: تردد. (٥) من ط م، وط ع، في الأصل: لارادات. (٦) في ط م: الثناء. (٧) من ط م و ط ع، في الأصل: بوجهين. (٨) من ط م وط ع، في الأصل: عنهُ. (٩) في الأصل و ط م: يرفع، في ط ع: يدفع إلا. (١٠) في النسخ الثلاث: ذلك. (١١) من ط ع، وأدرج موضوع التسمية في ط م قبل تفسير قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تحت عنوان: التسمية هي آية من القرآن وليست من فاتحة الكتاب، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]. (١٥) من ط ع. (١٦) في ط ع: شي نفتح القرآن إذا افتتحت الصلاة. (١٧) من ط ع. (١٨) في ط م: السورة ثبت، في ط ع: السور ثبت. (١٩) في ط م: وكذلك. (٢٠) في ط ع: فعلوا.

قالَ العبدُ[١]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾][٢] [الفاتحة: ١و٢و٣] [قالَ اللهُ][٣]: «هذا لي» [مسلم ٣٩٥/ ٤٠] وهي ثلاثُ آياتٍ، وقالَ بَعْدَ قولِهِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[٤] [الفاتحة ٥ و٦ و٧] [قالَ اللهُ][٥]: «هذا لعبدي» ثَبَتَ أنها ثلاثُ آياتٍ لتستَوِيَ القِسْمَةُ. ثم قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤] «هذا بيني وبَينَ عبدي نِصْفَين» [مسلم ٣٩٥/ ٤٠] فَثَبَتَ أنها آيةٌ واحدةٌ. فصارَتْ بغَيرِ التسميةِ سَبْعاً. وذلكَ قولُ الجميعِ: إنها سَبْعُ آياتٍ مَعَ ما لم يُذكَرْ في خَبَرِ القِسْمَةِ. فَثَبَتَ أنها دونَها سَبْعُ آياتٍ.

وقد رُوِيَ عنْ أنسِ بْنِ مالكٍ رضي الله عنه أنهُ [قالَ][٦]: صَلَّيتُ خَلْفَ رسولِ الله ﷺ وخَلْفَ أبي بكرٍ [الصِّدِّيقِ][٧] وعمرَ وعثمانَ رضي الله عنهم فلم يكونوا يَجْهَرونَ بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ورُوِيَ ذلكَ عنْ عليٍّ [بنِ أبي طالبٍ][٨] رضي الله عنه وعبدِ الله بْنِ عُمَرَ وجماعةٍ [مِنَ الصحابةِ ـ رضوانُ الله عليهِمْ ـ][٩] وهو الأمرُ المَعْروفُ في الأمَّةِ مَعَ ما جاءَ في قصةِ السِّحْرِ أنَّ العُقَدَ كانَتْ إحْدَى عَشرةَ، وقرأَ عليها المُعَوِّذَتَينِ دونَ التسميةِ. فكذا خَبَرُهما مِنَ السُّوَرِ مَعَ ما إذا[١٠] جُعِلَتْ مِفتاحاً كانتْ كالتعوُّذِ. واللهُ الموَفِّقُ.

والأصلُ عندنا أنَّ المَعْنَى الذي تَضَمَّنَتْهُ فاتحةُ القرآنِ فَرْضٌ على جميعِ البَشَرِ؛ إذْ فيهِ الحَمْدُ [للهِ][١١] والوصفُ لهُ بالمَجدِ والتوحيدِ لهُ، والاسْتِعَانَةُ بهِ، وطَلَبُ الهدايةِ، وذلكَ / ٢ ـ ب/ كُلُّهُ يُلزِمُ كافَّةَ العقلاءِ مِنَ البَشَرِ؛ إذْ فيهِ مَعْرِفَةُ الصانعِ على ما هو معروفٌ، والحَمْدُ على ما هو مَعْروفٌ، والحَمْدُ لهُ على ما يَسْتحِقُهُ. إذْ هو المُبْتدِئُ بنعَمِهِ على جميعِ خَلْقِهِ، وإليهِ فَقْرُ كلِّ عبدٍ، وحاجَةُ كلِّ محتاجٍ. فصارَتْ لنفسِها بما جَمَعَتِ الخِصالَ التي بيَّنّا فريضَةً على عِبادِ اللهِ.

ثم[١٢] لَيسَتْ هي في حقِّ الصلاةِ فَريضةً، وذلكَ نَحْوُ التسبيحاتِ بما فيها مِنْ تنزيهِ اللهِ، والتكبيراتِ بما فيها مِنْ تعظيمِهِ فريضَةً لنفسِها؛ إذْ ليسَ لأحدٍ ألّا يُنَزِّهَ ربَّهُ، ولا يُعظِّمَهُ مِنْ غَيرِ أنْ يوجِبَ ذلكَ فَرِيضَتَها.

ثم لَيسَتْ هي [بفريضَةٍ في حقِّ][١٣] القراءةِ [في الصلاةِ لِوجوهٍ:

أحدُها: أنَّ فريضَةَ[١٤] القراءةِ[١٥] عَرَفْناها[١٦] بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠] وفيها الدلالةُ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ قد يكونُ غَيرُها أيْسَرَ.

والثاني: [أنَّ فريضَةَ][١٧] القراءةِ مِنْ حيثُ الامْتِنانُ بالتخفيفِ علينا والتيسيرِ، ولو لم تكُنْ فريضَةً لم يَكُنْ علينا في التخفيفِ مِنَّةٌ [إذْ لنا التَّرْكُ، ثم لا تَخَيُّرَ][١٨] في فاتحةِ القرآنِ، والآيةُ التي بها عَرَفنا [الفريضَةَ، فيها][١٩] تَخَيُّرُ ما يُختارُ مِنَ الأيْسَرِ. ثَبَتَ أنها رَجَعَتْ إلى غَيرِها. وباللهِ التوفيقُ.

والثاني: أنَّ نبيَّ الله أخْبَرَ عنِ الله تعالى أنهُ جَعَلَها[٢٠] في حقِّ الثناءِ، وهو ما ذُكِرَ في خَبَرِ القسمةِ، فَصارَتْ تُقرأُ بذلكَ الحقِّ، فلم يُخْلِصْ لها حقَّ القراءةِ، بل ألْحَقَ بها حقَّ الدعاءِ والثناءِ، وليسَ ذلكَ مِنْ فرائضِ الصلاةِ، وباللهِ التوفيقُ.

والثالثُ: ما رُوِيَ عَنْ عبدِ الله بْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ أحْيَى ليلةً بقولِهِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [الآية][٢١] [المائدة: ١١٨] بِهِ كانَ يقومُ، وبهِ كانَ يَركَعُ، وبهِ يَسْجُدُ، وبهِ يَقعُدُ. فَثَبَتَ أنهُ لا تَتَعَيَّنُ قراءتُها في الصلاةِ معَ ما أيَّدَهُ الخَبَرُ

---

(١) في ط ع: عبدي. (٢) من ط ع، في الأصل و ط م: إلى قولِهِ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. (٣) في النسخ الثلاث: فقال. (٤) من ط ع، في الأصل و ط م: إلى آخرها. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) من ط م وط ع. (٧) من ط ع. (٨) من ط ع. (٩) من ط ع. (١٠) من ط م، في الأصل وط ع: إذ. (١١) من ط م. (١٢) أدرج في ط ع قبلها عنوانٌ هو: ليست فاتحة الكتاب في حق الصلاة فريضة. (١٣) من ط م، في الأصل: بفرضيه، في ط ع: بفرضية في حق. (١٤) في ط م: فرضية. (١٥) من ط م و ط ع. (١٦) في النسخ الثلاث: عرفنا. (١٧) في الأصل: بفرضيه، في ط م و ط ع: أن فرضية. (١٨) في ط م: إذاً بالترك ثم لا تخير في، في ط ع: إذ لنا الترك ثم لا تخير في، في الأصل: إذ لنا الترك ثم قد لا نجيز. (١٩) في ط م: الفرضية في ما، في الأصل وط ع: الفرضية فيها. (٢٠) في النسخ الثلاث: جعل بها. (٢١) في ط ع أدرجت الآية كاملة بدل: الآية.

الذي فيه: «ارْجِعْ فَصَلِّ فإنكَ لم تُصَلِّ» [البخاري ٧٥٧] إذ[١] قالَ لهُ وقتَ التعليمِ: «اقرأْ ما تيسَّرَ عليكَ» [البخاري: ٧٥٦] فَثَبَتَ أنَّ المَفروضَ ذلكَ.

وأيضاً رُويَ عنْ رسولِ الله ﷺ أنهُ قالَ: «لا صلاةَ إلّا بفاتِحَةِ الكتابِ» [البخاري ٧٥٦]. ثم رُويَ عنهُ بَيانُ مَحلِّها: «إنَّ كلَّ صلاةٍ لم تُقرأْ فيها[٢] بفاتحةِ الكتابِ فهي خِداجٌ؛ نُقصانٌ غيرُ تمامٍ» [مسلم ٣٩٥/٣٨] والفاسِدُ لا يوصَفُ بالنقصانِ، وإنما الموصوفُ بمِثلِهِ ما جازَ معَ النقصانِ. وباللهِ التوفيقُ.

ثم خَصَّ فاتحةَ الكتابِ بالتأمينِ بما سُمِّيَ بالذي ذَكَرَهُ خَبَرُ القِسْمَةِ وغيرِ الفاتحةِ، وإنْ كانَ فيهِ الدعاءُ فإنهُ لم يُخَصَّ بهذا الاسْمِ. لِذلِكَ لم يُجْهَرْ بهِ. فالسبيلُ فيهِ ما ذَكَرْنا في التسميةِ معَ ما كانَ هو أخلَصَ بمَعْنَى الدعاءِ منها.

ثم السُّنةُ في جميعِ الدعواتِ المُخافَتَةُ. والأصلُ أنَّ كلَّ ذِكْرٍ يَشتَرِكُ فيهِ الإمامُ والقومُ فَسُنَّتُهُ المُخافَتَةُ لِحاجَةِ الإعلامِ. وهذا يَعُمُّ[٣] قولَهُ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَيَزولُ مَعْناهُ. وسَبيلُ[٤] مِثلِهِ المُخافَتَةُ مع ما جاءَ بهِ مرفوعاً ومُتواتراً[٥]. وخَبَرُ الجَهْرِ يَحْتَمِلُ السَّبْقَ كما كانَ يُسْمِعُهُمْ في صلاةِ النهارِ أحياناً، ويَحْتَمِلُ الإعلامَ أنهُ كانَ يَقرأُ بهِ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم جَمَعَتْ هذهِ خِصالاً مِنَ الخَيْرِ. ثم كلُّ خصلةٍ منها تجمَعُ[٦] جميعَ خِصالِ الخَيْرِ.

منها أنَّ في الحَرْفِ الأوَّلِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ شُكْراً لِجميعِ النعَمِ، وتَوجيهاً[٧] لها إلى اللهِ، لا شريكَ لهُ، ومَدْحاً لهُ بأعْلَى ما يَحْتَمِلُ [المَدْحُ][٨] وهو ما ذَكَرْنا مِنْ عُمومِ نِعَمِهِ وآلائهِ جَميعَ[٩] بريَّتِهِ.

ثم فيهِ الإقرارُ بوحدانيَّتِهِ في إنشاءِ البَرِيَّةِ كلِّها، وتحقيقُ الرُّبوبيَّةِ لهُ عليها بقولِهِ تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكلُّ واحدٍ منها ممّا[١٠] يَجْمَعُ خِصالَ خَيرِ الدارَيْنِ، ويُوجِبُ لِلقائِلِ[١١] بهِ عَنْ صِدْقِ القَلْبِ دَرْكَ الدارَيْنِ.

ثم الوَصْفُ للهِ ﷻ بالاسْمَيْنِ يَتعالَى عَنْ أنْ يكونَ لأحدٍ مَعْناهما حقيقَةً، أو يَجوزَ أنْ يكونَ منهُ الاسْتِحْقاقُ[١٢] نحوُ اللهِ والرحمنِ.

ثم الوصفُ لهُ[١٣] بالرحمةِ التي بها[١٤] نَجاةُ كلِّ ناجٍ، وسَعادةُ كلِّ سعيدٍ، وبها يَتَّقي المَهالِكَ كلَّها معَ ما مِنْ رَحْمَتِهِ خَلْقَ الرحمةِ التي بها تعاطُفُ بينَهُمْ، وتَراحُمُهُمْ.

ثم الإيمانُ بالقيامةِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مع الوصفِ [لهُ][١٥] بالمَجْدِ وحُسْنِ الثناءِ عليهِ.

ثم التوحيدُ [وما][١٦] يُلْزِمُ العبادَ مِنْ إخلاصِ العبادةِ لهُ والصدقِ فيها معَ[١٧] جَعْلِ كلِّ رِفعَةٍ وشَرَفٍ مَنالاً بهِ ﷻ.

ثم رَفْعُ جميعِ الحوائجِ إليهِ والاسْتِعانَةُ بهِ على قضائِها والظَّفَرُ بها على طُمأنينَةِ القَلْبِ وسُكونِهِ؛ إذْ لا خَيبَةَ عندَ مَعونتِهِ، ولا زَيغَ عندَ عِصْمَتِهِ.

ثم الاسْتِهداءُ إلى ما يُرضيهِ، والعِصْمَةُ عمّا يُغويهِ في حادثِ الوَقْتِ على العِلْمِ بأنهُ لا ضَلالَ لأحدٍ معَ هِدايَتِهِ، في التحقيقِ الرجاءُ والخوفُ مِنَ اللهِ لا مِنْ غَيرِهِ. وعلى ذلكَ جميعُ مُعاملاتِ العِبادِ ومَكاسِبِهِمْ على الرجاءِ مِنَ اللهِ تعالى أنْ يكونَ جَعْلُ ذلكَ سَبَباً، بهِ يَصِلُ إلى مَقصودِهِ، ويَظْفَرُ بمُرادِهِ، ولا قوةَ إلا باللهِ[١٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فذلكَ طَلَبُ المَعونةِ مِنَ اللهِ تعالى على [قَضاءِ جميعِ حوائِجِهِ][١٩] ديناً ودُنيا. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هو على إثْرِ الفَزَعِ إلى اللهِ تعالى بقولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على طَلَبِ التوفيقِ لِما أمَرَ بهِ والعصمةِ عمّا حَذَّرَهُ عنهُ. وكذلكَ الأمْرُ البَيِّنُ في الخَلْقِ مِنْ طَلَبِ التوفيقِ والمعونةِ مِنَ اللهِ تعالى والعصمةِ عنِ المَنهيِّ عنهُ، جَرَتْ بهِ سُنَّةُ الأخيارِ، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: إن. (٢) من ط ع، في الأصل و ط م: فيه. (٣) من ط ع، في الأصل و ط م: يعلم. (٤) من ط م وط ع، في الأصل: وسئل. (٥) من ط ع، في الأصل وط م: متوارثاً. (٦) من ط م، في الأصل و ط ع: مجمع. (٧) في ط ع: متوجها. (٨) من ط م وط ع. (٩) في ط ع: لجميع. (١٠) ساقطة من ط م. (١١) من ط ع، في الأصل وط م: القائل. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: لاستحقاقه. (١٣) ساقطة من ط م. (١٤) في ط م: هي. (١٥) من ط م. (١٦) من ط م، في الأصل وط ع: ما. (١٧) في ط ع: مع ما. (١٨) هنا انتهى قول المصنف عن التسمية. (١٩) من ط م، في الأصل وط ع: جميع قضاء حوائجه.

ثم لا يَصْلُحُ هذا على قولِ المُعتزلَةِ لأنَّ تلكَ المَعونةَ على أداءِ ما كُلِّفَ [المرءُ][١] قد أُعطِيَ؛ إذْ على قولِهِمْ: لا يجوزُ أنْ يكونَ مُكَلَّفاً، وقد بقيَ شيءٌ ممّا بهِ أداءُ [ما كُلِّفَ][٢] عندَ اللهِ، وطَلَبُ ما أُعْطِيَ، وكتمانُ[٣] العطيّةِ كُفرانٌ، فيَصيرُ كأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ أنْ يَكفُرَ [المرءُ][٤] نِعَمَهُ، ويَكْتُمَها، ويَطْلُبَها منهُ تَعَنُّتاً. وظَنُّ مِثْلِهِ باللهِ ﷻ كُفرٌ.

ثم لا يَخلو مِنْ أنْ يكونَ عندَ اللهِ ما يَطْلُبُ، فلم يُعْطِهِ التمامَ إذنْ، أو ليسَ عندَهُ، فيكونَ طَلَبُهُ اسْتِهزاءً بهِ؛ إذْ مَنْ طَلَبَ إلى آخرَ ما يَعْلَمُ أنهُ ليسَ عندَهُ، فهو هازئٌ بهِ في العُرْفِ، معَ ما كانَ الذي يَطْلُبُ: إمّا أنْ يكونَ للهِ ألّا يُعْطِيَهُ معَ التكليفِ، فيَبْطُلَ قولُهُمْ: إذْ لا يَجوزُ أنْ يُكَلِّفَ، وعندَهُ ما بهِ الصلاحُ في الدينِ، فلا يُعْطيَ، أو ليسَ لهُ أنْ يُعْطِيَ؛ فكأنهُ قالَ: اللهمَّ لا تَجُرْ[٥]. ومَنْ هذا عِلْمُهُ بربِّهِ فالإسلامُ أولَى بهِ.

وهذا معَ ما كانَ لا يدعو اللهَ أحدٌ بالمَعونةِ إلّا ويَطمَئِنُّ قَلْبُهُ أنهُ لا يَذِلُّ عندَ المَعونةِ، ولا يَزيغُ[٦] عندَ العصمةِ. وليسَ مِثلَهُ يملِكُ اللهُ[٧] عندَ المُعتزلَةِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقد رُويَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ في خَبَرِ القسمةِ: «اللهُ تعالى يَقولُ: قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصْفَينِ» [مسلم ٣٩٥/ ٤٠] وذلكَ يَحتمِلُ أنْ يكونَ كلُّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ بما فيها[٨] جميعاً: الفَزَعُ إلى اللهِ تعالى بالعبادةِ والاسْتِعانةُ ورَفْعُ[٩] الحاجةِ إليهِ وإظهارُ غِناهُ ـ جلَّ، وعلا ـ عنهُ. فيَتضمَّنُ ذلكَ الثناءَ عليهِ وطَلَبَ الحاجةِ إليهِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الحَرْفُ الأوّلُ: للهِ بما فيهِ عِبادَتُهُ وتوحيدُهُ. والثاني: للعبدِ بما فيهِ طَلَبُ معونتِهِ وقَضاءُ حاجَتِهِ. ويؤيِّدُ ذلكَ بقيةُ السورةِ أنهُ أخرجَ على الدعاءِ.

وقالَ[١٠] اللهُ ﷻ: «هذا لِعبْدي، ولِعَبْدي ما سَألَ» [مسلم ٣٩٥/ ٤٠].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: «[﴿ٱهْدِنَا﴾][١١] أرْشِدْنا، والإرشادُ والهدايَةُ واحدٌ. بلِ الهدايَةُ في حقِّ التوفيقِ أقرَبُ إلى فهمِ الخَلْقِ مِنَ الإرشادِ بما هي أعمُّ في تعارُفِهِمْ».

ثم القولُ بالهدايَةِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: البَيانُ. ومَعلومٌ أنَّ البَيانَ قد تقدَّمَ مِنَ اللهِ ﷻ لا أحَدَ يريدُ بهِ ذلكَ لِمَعْنَى ما بهِ البَيانُ مِنْ كتابٍ وسُنَّةٍ. وإلى ذلكَ تذهبُ المُعتزلَةُ.

والثاني: التوفيقُ والعِصْمَةُ عنْ زَيْغِهِ. وذلكَ مَعْنَى قولِهِمْ: اللهمَّ اهْدِنا في مَنْ هَدَيتَ. وقولُهُ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٥و٦] وصَفُهُمْ إلى آخِرِ السورةِ. ولو كانَ على البَيانِ على ما قالتِ المُعتزلَةُ فهو و﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ في ذلكَ سواءٌ. ثَبَتَ أنهُ على ما قُلنا دونَ ما ذَهبوا إليهِ. واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: أنْ يكونَ على طَلَبِ خَلْقِ الهِدايَةِ لنا؛ إذْ نُسِبَ إليهِ مِنْ جِهَةِ الفِعْلِ، وكُلُّ ما يَفعَلُهُ خَلْقٌ؛ كأنهُ قالَ: اخْلُقْ لنا هِدايَتَنا، وهو الاهتِداءُ مِنّا[١٢]. وباللهِ التوفيقُ.

ثم تأويلُ طَلَبِ الهِدايَةِ مِمَّنْ قد هداهُ اللهُ تعالى يَتوجَّهُ وجهَينِ:

أحَدُهما: طَلَبُ الثَّباتِ على ما هداهُ اللهُ تعالى. وعلى هذا مَعنَى زياداتِ[١٣] الإيمانِ، وأنها بمَعْنَى الثَّباتِ عليهِ. وذلكَ كرجلَينِ ينظرانِ إلى شيءٍ، فيَرْفَعُ أحَدُهُما بَصَرَهُ عنهُ، جائزٌ القولُ بازْدِيادِ نَظَرِ الآخَرِ.

[والثاني: أنهُ][١٤] في كلِّ حالٍ يُخافُ على المَرْءِ فَقْدُ الهُدى، فيَهديهِ مكانَهُ ابْتِداءً. فيكونُ لهُ حُكْمُ [الابْتِداءِ؛ إذْ][١٥]

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) في ط ع: كل مكلف. (٣) الواو ساقطة من ط م. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) انظر حاشية الآية ١١٢ من سورة الأنبياء. (٦) من ط م وط ع، في الأصل: يرفع. (٧) في ط م: لله. (٨) من ط م وط ع، في الأصل: فيهما. (٩) في ط ع: ودفع. (١٠) في ط م: فقال. (١١) من ط ع. (١٢) من ط م و ط ع، في الأصل: أمنا. (١٣) في ط ع: زيادة. (١٤) في النسخ الثلاث: ووجه آخر على أن. (١٥) من ط ع، في الأصل: الاهتداء ان، في ط م: الاهتداء اذ.

في كلِّ وقتٍ إيمانٌ منهُ دَفعَ بهِ ضِدَّهُ. وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] ونحوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ. وقد يَحْتمِلُ أيضاً /٣ - أ/ مَعْنَى الزيادةِ هذا النوعُ. وباللهِ التوفيقُ.

وأمّا ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فهو الطريقُ والسبيلُ في جميعِ التأويلِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثم اختلَفوا في ما يُرادُ بهِ؛ فقالَ بعضُهمْ: هو القرآنُ، وقالَ بعضُهمْ: هو الإيمانُ والإسلامُ، وأيُّهما كانَ فهو القائمُ الذي لا عِوَجَ لهُ، والقَيِّمُ الذي لا اختِلافَ فيهِ؛ مَنْ لَزِمَهُ وَصَلَ إلى ما ذَكَرَ. وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قيلَ: هو القائمُ بمَعْنى الثابتِ بالبَراهينِ والأدلَّةِ، لا يُزيلُهُ شيءٌ، ولا ينقضُ حُجَجَهُ كيدُ الكائدينَ ولا حِيَلُ المُريبينَ. وقيلَ: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي يَسْتقيمُ بمَنْ تمسَّكَ بهِ حتى يُنجيَهُ [ويُدْخِلَهُ الجنةَ][1].

[وقيلَ: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بمَعْنى يُسْتقامُ بهِ كقولِهِ][2] ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أي يُبْصَرُ بهِ؛ يَدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآيةَ[3] [فصلت: ٣٠] فالمستقيمُ هو المُتَّبَعُ لهُ. وباللهِ التوفيقُ.

ثم ذَكَرَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ المُنعَمِ[4] عليهِمْ، وللهِ ﷻ على كلِّ مؤمنٍ نِعَمٌ بالهدايةِ. وما ذَكَرَ دليلٌ على أنَّ الصراطَ هو الدينُ لأنهُ أنعَمَ بهِ على جميعِ المؤمنينَ.

الآية ٦ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾][5].

لكنَّ تأويلَ مَنْ يَرُدُّ إلى الخصوصِ يَتوجَّهُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ أنعَمَ عليهِمْ بمَعْرفةِ الكتبِ والبراهينِ. فيكونُ على التأويلِ الثاني مِنَ القرآنِ والأدلَّةِ.

والثاني: أنْ يكونَ لهمْ خصوصٌ في الدينِ، قُدِّموا [بهِ][6] على جميعِ المؤمنينَ كقولِ داوودَ وسليمانَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وعلى هذا الوجهِ يكونُ ﴿ٱهْدِنَا﴾.

وَوَجْهٌ آخَرُ، وهو الخصوصُ الذي خَصَّ بهِ كثيراً مِنَ المؤمنينَ مِنْ بَينِ غيرِهِمْ. لكنَّ الثُّنْيا تدلُّ على صَرْفِ الإرادةِ إلى جملةِ المؤمنينَ إذِ انصَرَفَ إلى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ على قولِ المُعْتزلةِ: ليسَ لله على أحدٍ من المؤمنينَ نِعْمَةٌ ليسَتْ على ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ إذْ لا نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ ﷻ على أحدٍ إلّا الأصلَحُ في الدينِ والبيانُ للسبيلِ المَرْضيِّ، وتلكَ قد كانتْ على جميعِ الكفَرةِ. فَيَبْطُلُ على قولِهِمُ الثُّنْيا، واللهُ الموفقُ.

الآية ٧ [وقولُهُ تعالى][7] ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [اختُلِفَ فيهِ][8]:

منهمْ مَنْ قالَ: هو واحدٌ؛ إذْ كلُّ [ضالٍّ][9] قدِ استحقَّ الغضبَ عليهِ، وكلُّ مَغضوبٍ عليهِ استحقَّ الوصفَ بالضلالِ. ومنهُمْ مَنْ قالَ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ همُ اليهودُ. وإنما خُصّوا بهذا بما كانَ منهمْ مِنْ فَضْلِ تَمرُّدٍ وعُتُوٍّ، لم يكنْ ذلكَ مِنَ النصارى: نَحْوُ إنكارِهِمْ عيسى ﵇ وقَصْدِهِمْ قتلَهُ ممّا لم يكنْ ذلكَ مِنَ النصارى ثم قولِهِمْ في اللهِ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ الآيةَ [المائدة: ٦٤] وقولِهِمْ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٨١] [وقولِ اللهِ تعالى فيهم][10] ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ الآيةَ [المائدة ٨٢] وكُفْرِهِمْ برسولِ اللهِ ﷺ بعدَ استِفتاحِهِمْ وشِدَّةِ تعنُّتِهِمْ وظهورِ النفاقِ. فاستحقُّوا بذلكَ اسْمَ الغَضَبِ عليهِمْ، وإنْ كانوا شُرَكاءَ غَيرِهِمْ في اسْمِ الضلالِ. وباللهِ التوفيقُ.

وفي هذا وجْهٌ آخَرُ [وهو][11] أنْ تُحْمَلَ الذنوبُ على وجهَينِ:

---

(١) من ط م، في الأصل و ط ع: ويدخل الجنة. (٢) في ط ع: ﴿لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾. (٣) أدرجت تتمة هذه الآية في ط ع بدل: الآية. (٤) من ط م، في الأصل وط ع: النعم. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) من ط م. (٧) من ط ع. (٨) في ط م: ثم اختلف في، مدرجة قبل الآية، في ط ع: ثم اختلف فيه، ساقطة من الأصل. (٩) من ط م وط ع. (١٠) من ط م، في الأصل وط ع: وقولهم. (١١) من ط ع.

أَحَدُهما[١]: ما يوجبُ الغَضَبَ، وهو الكفرُ.

والثاني[٢]: ما يوجبُ اسْمَ الضلالِ، وهو ما دونهُ كقولِ موسى ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

ورُؤْيةُ الهدايةِ لأهلِها[٣] والتعوُّذُ بهِ منْ كلِّ ضلالٍ ومنْ جميعِ ما يوجبُ مَقْتَهُ وغَضَبَهُ، وباللهِ النجاةُ والخلاصُ، معَ ما في خَبَرِ القِسْمَةِ وعْدٌ جليلٌ مِنْ ربِّ العالمينَ في إجابَةِ العَبْدِ ممّا يَرْفَعُ إليهِ مِنَ الحوائجِ إذْ قال: «قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصفينِ» [مسلم ٣٩٥/ ٤٠] ثم صَيَّرَ آخِرَ السورةِ لِعَبْدِهِ.

وليسَ في صلاتِهِ[٤] سِوَى إظهارِ الفَقْرِ ورَفعِ الحاجَةِ وطلَبِ المَعونةِ والاسْتِهداءِ إلى ما ذَكَرَ مِنَ[٥] التعوُّذِ عما وَصَفَ. وليسَ ذلكَ ممّا يُوصَفُ بهِ العَبْدُ أنهُ لهُ. فَثَبَتَ أنَّ لهُ في ذلكَ إجابةَ ربِّهِ في ما أَمَرَهُ به، وَوَعَدَ ذلكَ، وهو لا يُخلِفُ وَعْدَهُ.

فأنّى لا يُحْتَمَلُ ذلكَ بَعْدُ[٦] أمرِهِ العَبْدَ بالذي تَضَمَّنَهُ أَوّلُ السورةِ، فقامَ بهِ العَبْدُ مع لؤمِهِ وجَفائِهِ، واللهُ بكرَمِهِ وجودِهِ لا يُنجِزُ لهُ ما وَعَدَ؟ لا يكونُ هذا البَتَّةَ. وقد قالَ ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وغيرَ ذلكَ ممّا فيهِ الإنجازُ وأنهُ لا يُخلِفُ الميعادَ.

ثم [قد جُعِلَتْ][٧] بما جاءَ مِنَ الحديثِ [في تلاوتِها][٨] أنَّ [اللهَ تعالى قَدَّمَها][٩] على التوراةِ والإنجيلِ [في الثوابِ][١٠] [وَعَدَلَها بثلثي][١١] القرآنِ، وجَعَلَها[١٢] شِفاءً مِنْ أنواعِ الأدواءِ للدينِ والنفسِ والدنيا، وجَعَلَها[١٣] مَعاذاً مِنْ كلِّ ضلالٍ ومَلجأً إلى كلِّ نِعْمَةٍ، وباللهِ نستعينُ، معَ ما أوضحَ في الأسماءِ التي لُقِّبَ بها فاتحةَ القرآنِ عظيمَ [مَوقِعِها وجليلَ قدْرِها][١٤] وهو أنْ سَمّاها[١٥] فاتحةَ القرآنِ بما [بها يُفتتحُ][١٦] القرآنُ، وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يَفتتِحُ القراءةَ بها[١٧]. وسَمّاها[١٨] فاتحةَ الكتابِ بما بها تُفتَتَحُ كتابةُ المَصاحفِ والقرآنُ. وسَمّاها[١٩] أُمَّ القرآنِ لِما [تَؤُمُّ غَيرَها][٢٠] في القراءةِ.

وقيلَ: الأمُّ بِمعْنى الأصلِ، وهو ألّا يُحتملَ شيءٌ ممّا فيهِ النسخُ ولا الرفعُ، فصارَ أصلاً.

وسمّاها[٢١] المثانيَ لِما تُثَنّى في الركعاتِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وفي قولِهِ: ﴿ٱهْدِنَا﴾ إلى آخِرِهِ وجهانِ سِوَى ما ذكَرْنا؛ إذْ قولُهُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ دعاءٌ كافٍ عمّا تضمَّنَ إلى آخِرِ السورةِ؛ إذْ ليسَ فيها غيرُ تفسيرِ هذهِ الجملةِ:

أحَدُهما: تذكيرُ نِعَمِ اللهِ على الذينَ يَقبلونَ دينَهُ في قلوبِهِمْ، والتوفيقُ [لهمْ بذلِكَ][٢٢] وإفضالُهُ عليهِمْ بما ليسَ لهمْ عليهِ.

والثاني: تعَوُّذُهُمْ عنْ كلِّ زيغٍ ومَقْتٍ وضلالٍ وذنبٍ والْتِجاؤُهُمْ إليهِ في ذلكَ بقولِهِ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

---

(١) في الأصل وط ع: منهما، في ط م: منها. (٢) في النسخ الثلاث: ومنها. (٣) في ط ع: لأصلها منْ نعمة. (٤) من ط م، في الأصل: صلاتها، في ط ع: متلوها. (٥) في ط م وط ع: مع. (٦) من ط م وط ع، في الأصل: بعده. (٧) من ط م، في الأصل: قد جعل، في ط ع: قيل. (٨) من ط م، في الأصل: في تلاوته، في ط ع: من تلاوته. (٩) في الأصل: قدمه، في ط م: قدمها، في ط ع: الله تعالى قدمه. (١٠) من ط ع. (١١) من ط م، في الأصل وط ع: وعدله بثلثي. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: وجعله. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: وجعله. (١٤) في النسخ الثلاث: موقعه وجليل قدره. (١٥) في النسخ الثلاث: سماه. (١٦) في الأصل وط ع: به يفتتح، في ط م: به يفتتح. (١٧) في النسخ الثلاث: به. (١٨) و (١٩) في النسخ الثلاث: وسمى. (٢٠) في النسخ الثلاث: يؤم غيره. (٢١) في النسخ الثلاث: وسمى. (٢٢) من ط م، في الأصل: بهم بذلك، في ط ع: لهم.

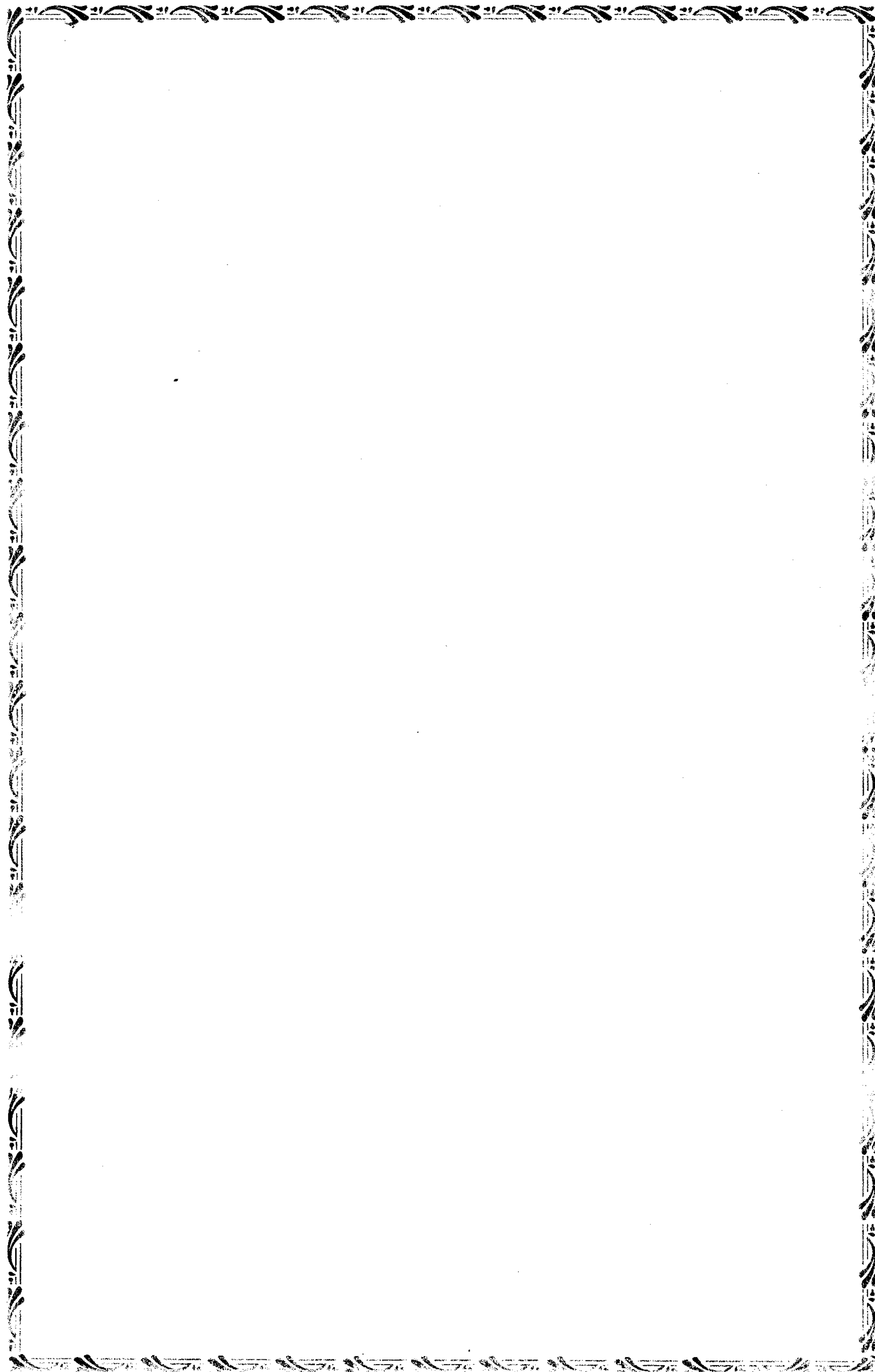

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبهِ نستعينُ على القومِ الكافرينَ

الآية ١ [قولُهُ تعالى][1]: ﴿الٓمٓ﴾. قيل: فيه وجوهٌ؛ رُوِيَ عَنِ ابنِ عباسٍ [ﷺ أنهُ قالَ][2]: (قولُه ﴿الٓمٓ﴾ أنا اللهُ أعلمُ).

وقيلَ: إنهُ قسمٌ أقسمَ بهِ. وقيلَ: إنَّ هذه الحروفَ المُقطَّعَةَ[3] مفتاحُ السورةِ. وقيلَ: إنَّ كلَّ حرْفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ كنايةٌ عنِ اسْمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ: الألفُ اللهُ، واللامُ لطفُهُ، والميمُ مُلكُهُ. وقيلَ: إنَّ اللامَ آلاؤهُ، والميمَ مجدُهُ. وقيلَ: إنَّ الألفَ هو اللهُ، واللامَ جبريلُ، والميمَ محمدٌ. وقيلَ: مِنَ التشبيبِ ليفصِلَ بينَ المنظومِ مِنَ الكلامِ والمنثورِ مِنْ نحوِ الشعرِ ونحوِهِ. وقيلَ: إنَّ تفسيرَ هذهِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ ما ألحقَ ذكرَها بها على إثْرِها نحوُ قولِهِ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١ و٢] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هو تفسيرُ ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١و٢] و﴿الٓمٓصٓ﴾ ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١و٢] و﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ [هود: ١ وإبراهيم: ١] و﴿الٓمٓ﴾ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾ [لقمان: ١ و٢]؛ كلُّ ملحَقٍ بها فهو تفسيرُها.

وقيلَ: إنَّ فيها بيانَ غايةِ ملكِ هذهِ الأمةِ مِنْ حسابِ الجُمَّلِ، لكنهُمْ[4] عَدُّوا بعضَها، وتركُوا البعضَ. وقيلَ: إنهُ مِنَ المُتَشابِهِ الذي لم يُطْلِعِ اللهُ خلْقَهُ علمَ ذلكَ. وللهِ أن يَمتحنَ عبادَهُ بما شاءَ مِنَ المِحَنِ.

وقيلَ: إنهمْ كانوا لا يستمعُونَ لهذا القرآنِ [كقولِهِم][5] ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وكقولِهِ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ﴾ [الأنفال: ٣٥]، فأنزلَ اللهُ ﷻ هذهِ الحروفَ المقطَّعةَ[6] ليستمعُوا إليها، فَيُلْزِمَهُمُ الحجةَ.

الأصلُ في الحروفِ المقطَّعَةِ أنه يجوزُ أنْ تكونَ على القَسَمِ بها على ما ذكَرْنا، وأُريدَ بالقَدْرِ الذي ذكرَ كُلِّيَّةُ الحروفِ بما كانَ مِنْ شأنِ العربِ القَسَمُ بالذي جلَّ قدرُهُ، وعَظُمَ خطرُهُ. وهي مِمَّا بها قِوامُ الدارَينِ، وبها يُتَّصَلُ إلى المنافعِ أجمعَ مَعَ ما دَلَّتْ على نعمتَينِ عظيمتَينِ، اللسانُ والسمعُ، وهما مَجْرَى كلِّ أنواعِ الحكمةِ؛ فأقسمَ بها على معنَى إضمارٍ بها أو على ما أجلَّ قدرَها في أعيُنِ الخَلْقِ، فَيُقسِمُ بها، وللهِ[7] ذلكَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ بمعنى الرمزِ والتضمينِ في كلِّ حرفٍ منها أمراً جليلاً يعظمُ خطرُهُ على ما عندَ الناسِ في أمرِ حسابِ الجُمَّلِ. ثم يُخَرَّجُ على الرمزِ بها عنْ أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ ونعمِهِ على خَلْقِهِ أو على بيانِ مُنْتَهَى هذهِ الأمةِ أو عددِ أئمتِها وملوكِها والبقاعِ التي ينتهي أمرُها. وذلكَ هو في نهايةِ الإيجازِ، بل بالإكْتِفاءِ بالرمزِ عنِ الكلامِ بما هو بمعنَى الإشارةِ في الإكْتِفاءِ بها عنِ البسطِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ، ليعلمَ الخلائقُ قدرةَ اللهِ وأنَّ لهُ أنْ يُضَمِّنَ ما شاءَ فيما شاءَ على ما عليهِ أمرُ[8] الخلائقِ مِنْ [لطيفِ][9] الأشياءِ التي كادَتِ العقولُ وأسبابُ الإدراكِ تُقْصُرُ عنها وكُنْهِهَا التي يدركُها كلُّ [واحدٍ، وبيَّنَ][10] الأمرَينِ. فعلى ذلكَ أمرُ تركيبِ الكلامِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنَى اسْمِ السورِ، وللهِ تَسمِيَتُها بما شاءَ كما سَمَّى كتبَهُ، وعلى ذلكَ: مُنْتَهى أسماءِ الأجناسِ خمسةُ أحرفٍ، وكذلكَ أمرُ السورِ؛ دليلُ ذلكَ وصلُ كلِّ سورةٍ فُتِحَتْ بها إليها، كأنهُ بَنَى بها، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) في ط م: عنهما قال، في ط ع: عنه قال. (٣) من ط ع، في الأصل وط م: المعجمة. (٤) في ط م: ولكنهم. (٥) من ط م و ط ع. (٦) من ط ع، في الأصل وط م: المعجمة. (٧) من ط م وط ع، في الأصل: والله. (٨) من ط م، في الأصل و ط ع: أثر. (٩) من ط م. (١٠) في ط ع: أحد بين.

ويجوزُ أنْ يكونَ على التشبيبِ على ما ذكَرْنا للتفصيلِ[(١)] بينَ المنظومِ مِنَ[(٢)] الكلامِ والمنثورِ؛ وفي[(٣)] المُتعارَفِ أنَّ المنظومَ في الشاهدِ يُشبَّبُ، فيخرجُ عنِ المقصودِ بذلكَ الكلامِ. فعلى ذلكَ أمرُ الكلامِ المُنزَلِ. ألَا ترى أنهُ خرجَ على ما عليهِ فنونُ الكلامِ في الشاهدِ، إلّا أنهُ على وجهٍ ينقطعُ له المثالُ مِنْ كلامِهِمْ؟ فمثلُهُ أمرُ التشبيبِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ أنزلَها على ما أرادَ ليمتحنَ عبادَهُ بالوقفِ فيها وتسليمِ/ ٣ ـ ب/ المرادِ في حقيقةِ معناهُ. والذي لهُ يزولُ ذلكَ ويعترفُ أنه مِنَ المتشابهِ، وفيها جاءَ تعلُّقُ الملحدةِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ، إذ علمَ اللهُ مِنْ تعنُّتِ قومٍ وإعراضِهِمْ عنهُ وقولِهِمْ ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] أنزلَ على وجهٍ يبعثُهُمْ على التأمّلِ في ذلكَ بما جاءَ بالعجيبِ الذي لم يكونُوا يعرفُونَ ذلكَ: [إمّا لِعِنْدِهِمْ][(٤)] أنهُ كأحدِهِمْ [وإمّا لسبيلِ][(٥)] الطعنِ، إذ خرجَ عنِ المعهودِ عندَهم، فتَلَا عليهم ما يضطرُّهُمْ إلى العلمِ بالنزولِ مِنْ عندِ مَنْ يملكُ تدبيرَ الأشياءِ. ولذلكَ اعترضُوا لهذه[(٦)] الأحرفِ بالتأمُّلِ فيها مِنْ بينِ الجميعِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وقيلَ: إنه دعا خَلْقَهُ إلى ذلكَ؛ واللهُ أعلمُ بما أرادَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي هذا[(٧)] الكتابُ إشارةٌ إلى ما عندَهُ. وذلكَ شائعٌ في اللغةِ، جائزٌ بمعنى هذا. وقيلَ: ذلكَ بمعنى ذلكَ إشارةٌ إلى ما في أيدي السَّفَرةِ والبَرَرةِ.

وقولُهُ تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيلَ: فيهِ وجوهٌ، لكنَّ الحاصلَ يرجعُ إلى وجهَين: أي لا ترتابُوا فيهِ، إنهُ مِنْ عندِ اللهِ، وقيلَ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إنه مُنزلٌ على أيدي الأمناءِ والثقاتِ.

وقولُهُ تعالى ﴿هُدًى﴾ قيل [فيهِ][(٨)] بوجهَينِ.

[أحدُهما][(٩)]: ﴿هُدًى﴾ أي بَياناً وَوُضوحاً. فلو كانَ المرادُ هذا فالتَّقِيُّ وغيرُ التَّقِيِّ سواءٌ.

والثاني: ﴿هُدًى﴾ أي رُشداً وحُجّةً ودليلاً.

ثم اختلَفُوا في الدليلِ؛ فقالَ الدُّوَيديُّ[(١٠)]: الدليلُ إنما يكونُ دليلاً بالاِستِدلالِ، لأنهُ فعلُ المُستَدِلِّ، مشتقٌّ مِنَ الاِسْتِدلالِ كالضربِ مِنَ الضاربِ وغيرِهِ.

وقالَ غيرُ هؤلاءِ: الدليلُ بنفسه دليلٌ، وإنْ لم يُستدَلّ بِهِ، لأنهُ حجةٌ، والحجةُ حجةٌ، وإنْ لم يُحْتَجَّ بها. غير أنَّ الدليلَ يكونُ دليلاً بالاِسْتِدلالِ، ومَنْ لم يستدلَّ بِهِ فلا يكونُ لهُ دليلاً، وإنْ كانَ بنفسِهِ دليلاً. بل يكونُ عليهِ عمىً وحَيرةً كقولِهِ ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ...[(١١)] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾[التوبة: ١٢٤ و١٢٥].

وقولُهُ تعالى ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحدُهُما: يؤمنُونَ باللهِ غَيباً، ولم يطلبُوا منهُ ما طلبَ[(١٢)] الأممُ السالفةُ مِنْ أنبيائهِمْ كقولِ بني إسرائيلَ لِموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: ٥٥].

والثاني: يؤمنونَ بغيبِ القرآنِ وبما يخبرُهُمُ القرآنُ مِنَ الوعيدِ والأمرِ والنهيِ والبعثِ والجنةِ والنارِ. والإيمانُ إنما يكونُ بالغيبِ لأنهُ تصديقٌ، [والكفرُ هو التكذيبُ][(١٣)]، والتصديقُ والتكذيبُ إنما يكونانِ عنِ الخبرِ. والخبرُ يكونُ عَنْ غَيبٍ لا

---

(١) من ط م و ط ع، في الأصل، التفصيل. (٢) من ط م، في الأصل و ط ع: عن. (٣) الواو ساقطة من الأصل و ط م. (٤) في ط م: لما عندهم. (٥) في الأصل وط ع: أو لسبيل، في ط م: أو السبيلِ. (٦) من ط م، في الأصل و ط ع: لهذا. (٧) من ط م، في الاصل و ط ع: ذلك. (٨) من ط م و ط ع. (٩) ساقطة في النسخ الثلاث. (١٠) في ط م: الرواندي، وقال المحققان في حاشيتهما: إنه أبو الحسين الرواندي أو ابن الرواندي.. فيلسوف مجاهر بالإلحاد، كان متكلماً ثم تزندق وإليه نسبت الراوندية، توفي سنة ٢٩٨هـ. وقال محقق ط ع في حاشيته: إنه جد محمد بن سهل.. بن دويد محدث سكن بغداد، وتوفي سنة ٢٥١هـ. (١١) في ط ع أتم الناسخ الآية بدل النقط، وفي ط م: ثم قال. (١٢) في ط م: طلبه. (١٣) من ط ع.

عَنْ مشاهدةٍ. والآيةُ تنقضُ قولَ مَنْ يقولُ بأن جميعَ الطاعاتِ إيمانٌ لأنهُ أثبتَ لهمُ اسْمَ الإيمانِ دونَ إقامةِ الصلاةِ والزكاةِ بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية: ٣].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

يَحتمِلُ الصلاةَ المعروفةَ؛ يُقيمُونها بتمامِ رُكوعِها وسُجودِها والخُشوعِ لهُ فيها وإخلاصِ القلبِ في النيَّةِ على ما جاءَ مِنَ الخبرِ «انظرْ مَنْ تُناجي» [الموطأ ١/ ٨٠].

ويَحتمِلُ الحمدَ لَهُ والثناءَ عليهِ. فإنْ كانَ المرادُ هذا فهو لا يَحتمِلُ النسخَ ولا الرفعَ في الدنيا والآخرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مِنَ الأموالِ: يَحتمِلُ فَرْضاً ونَفْلاً، ويَحتمِلُ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِنَ القِوى في الأنفسِ وسلامةِ الجَوارحِ. ﴿يُنفِقُونَ﴾ يُعينُونَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما[1]: ما أُنزِلَ إليكَ مِنَ القرآنِ.

والثاني[2]: ما أُنزِلَ إليكَ مِنَ الأحكامِ والشرائعِ التي ليسَ ذكرُها في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ أيضاً:

يَحتمِلُ[3] الكتبَ التي أُنزِلَتْ على سائرِ الأنبياءِ ﷺ.

ويَحتمِلُ: الشرائعَ والأخبارَ سِوَى الكتبِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بمعنى يؤمنونَ: والإيقانُ بالشيءِ العلمُ بِهِ، والإيمانُ هو التصديقُ لكنهُ إذا أيقنَ آمنَ بِهِ، وصدَّقَ بِهِ لِعلمِهِ بِهِ؛ لأنَّ[4] طائفةً مِنَ الكفارِ كانُوا على ظنٍّ مِنَ البعثِ كقولِهِ ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية: ٣٢]، فأخبرَ ﷻ عَنْ حالِ هؤلاءِ أنهمْ على يقينٍ، ليسُوا على الظَّنِّ والشَّكِّ كأولئكَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قيلَ: على صوابٍ ورشدٍ مِنْ ربِّهِمْ، وقيلَ: إنهمْ على بيانٍ مِنْ ربِّهِمْ. لكنَّ البيانَ ليسَ المؤمنُ أحقَّ بِهِ مِنَ الكافرِ؛ لأنهُ يبيِّنُ للكافرِ ما يحتاجُ إليهِ: إمّا مِنْ جهةِ العقلِ وإمّا من جهةِ السمعِ. فظهرَ بهذا أنَّ الأوَّلَ أقربُ إلى الاحتمالِ مِنَ الثاني.

وقولُهُ تعالى ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: الباقُونَ في نِعَمِ اللهِ تعالى والخيرِ، وقيلَ: الظافِرونَ بحاجتِهِمْ، يُقالُ: أفلحَ: أي ظَفِرَ بحاجتِهِ، وقيلَ: المفلحونَ، هُمُ السعداءُ؛ يُقالُ: أفلحَ أي سَعِدَ، وقيلَ: المفلحونَ الناجُونَ، يُقالُ[5]: أفلحَ: أي نجا. وكلُّهُ يرجعُ إلى واحدٍ، كقولِهِ ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران: ١٨٥]، [وكلٌ واحدٌ: مِمَّنْ][6] زُحزِحَ عَنِ النارِ فقد فازَ، [ومَنْ أُدخِلَ الجنةَ فقد فازَ][7]. فكذلكَ الأولُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا، واللهُ أعلمُ، في قومٍ خاصٍّ علمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنُونَ، فأخبرَ ﷻ رسولَهُ بذلكَ، فكانَ كما قالَ.

وفيهِ آيةُ النبوةِ. ويَحتَملُ أيضاً أنهمْ لا يؤمنُونَ ما داموا في كفرِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] و﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ما داموا كافرينَ ظالمينَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رُوِيَ عنِ الحسنِ ﷺ: (أنَّ للكافرِ[8] حدّاً؛ إذا بلغَ ذلكَ الحَدَّ، وعَلمَ اللهُ أنهُ لا يؤمنُ، طبعَ على قلبِهِ حتى لا يؤمنَ).

---

(١) في النسخ الثلاث: أي. (٢) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٣) في النسخ الثلاث: يعني. (٤) في ط ع: لأنه. (٥) من ط م، في الأصل و ط ع: فيقال. (٦) من ط ع، في الأصل: وكل واحد من زحزح، في ط م: وكله واحد ممن زحزح. (٧) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٨) من ط م و ط ع، في الأصل: الكافرين.

وهذا فاسدٌ على مذهبِ المعتزلةِ لوجهَين:

أحدُهما: أنَّ مذهبَهُمْ أنَّ الكافرَ مكلَّفٌ وإن كانَ قلبُهُ مطبوعاً عليهِ.

والثاني: أنَّ اللهَ ﷻ عالمٌ بكلِّ مَنْ يؤمنُ في آخرِ[1] عُمُرِهِ وبكلِّ مَنْ لا يؤمنُ أبداً، بَلَغَ ذلكَ الحَدَّ أو لم يَبلغْ.

فعلى ما يقولُهُ الحسنُ إبهامٌ؛ إنهُ لا يُعلَمُ ما لم يَبلُغْ ذلكَ. والمعتزلةُ يقولُونَ: إنَّ قولَهُ ﴿خَتَمَ﴾ و﴿طَبَعَ﴾ يُعلِمُ علامةً في قلبِهِ أنهُ لا يؤمنُ كإعلامِ الكتبِ والرسائلِ.

ولكنْ عندَنا [وجهانِ:

أحدُهما][2]: خَلْقُ ظلمةِ الكفرِ في قلبِهِ.

والثاني: خَلْقُ الخَتْمِ والطبعِ على قلبِهِ إذا [فَعَلَ فِعْلَ الكفرِ لأنَّ][3] فِعْلَ الكفرِ مِنَ الكافرِ مخلوقٌ عندَنا، فخلَقَ ذلكَ الختمَ عليهِ، وهو كقولِهِ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥] أي خلقَ الأكنةَ، وغيرِهِ منَ الآياتِ.

والأصلُ في ذلكَ أنهُ ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [لَمَّا تركوا التأمُّلَ والتفكُّرَ في قلوبِهِمْ][4] فلم يقعْ، ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ لمّا لم يَسْمَعُوا قولَ الحقِّ والعدلِ خَلَقَ الثقلَ عليهِ، وخَلَقَ على أبصارِهِمُ الغطاءَ لمّا لم ينظُروا في أنفسِهِمْ ولا في خَلْقِ اللهِ ليعرفُوا زوالَها وفناءَها وتغيُّرَ الأحوالِ ليعلَمُوا أنَّ الذي خَلَقَ هذا دائمٌ لا يزولُ أبداً.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ إخبارٌ عنهمْ أنهم قالُوا ذلكَ بألسنتِهِمْ قولاً، وأظهرُوا خلافَ ما في قلوبِهِمْ. فأخبرَ ﷻ نبيَّهُ ﷺ أنهم ليسُوا بمؤمنينَ؛ أي بمصدِّقينَ بقلوبِهِمْ، وكذلكَ قولُهُ ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وكذلكَ قولُهُ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآيةَ[5] [النساء: ٦٥] هذه الآياتُ كلُّها تنقضُ على الكَرَّاميةِ لأنهمْ يقولُونَ: الإيمانُ قولٌ باللسانِ دونَ التصديقِ. فأخبرَ اللهُ ﷻ عنْ جملةِ المنافقينَ أنهمْ ليسُوا بمؤمنينَ لِما لم يأتُوا بالتصديقِ. وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ تصديقٌ بالقلبِ. والكرَّاميَّةُ يقولُونَ: بل همْ مؤمنُونَ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لا يقصِدُ أحدٌ قصدَ[6] مخادعةِ اللهِ. لكنهُمْ كانُوا يقصِدونَ مُخادعةَ المؤمنينَ وأولياءِ اللهِ. فأضافَ اللهُ ﷻ ذلكَ إلى نفسِهِ لعظيمِ قدرِهِمْ وارتفاعِ منزلتِهِمْ عندَ اللهِ، وهو كقولِهِ ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، واللهُ لا يَحتاجُ أنْ يُنْصَرَ، ولكنْ كأنهُ قالَ: إنْ تنصُرُوا أولياءَ اللهِ ينصُرْكُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] واللهُ لا يُبايَعُ، ولكنْ أضافَ[7] ذلك إلى نفسِهِ لعظيمِ قدرِ نبيِّهِ وعُلُوِّ منزلتِهِ عندَ اللهِ تعالى. فكذلكَ الأوَّلُ؛ أضافَ مُخادعَتَهُمْ أولياءَهُ[8] إلى نفسِهِ لِعُلُوِّ منزلتِهِمْ عندَ اللهِ وقدرِهِمْ لَدَيهِ. والمُخادعةُ هو فعلُ اثنَينِ كَخِداعِ هؤلاءِ بحضورِ المؤمنينَ، فذلكَ[9] معنى ذكرِ المُفاعلةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [فيه وجهانِ:

الأوَّلُ][10]: أي ما يشعُرونَ أنَّ حاصلَ الخداعِ يرجِعُ إليهِمْ في الآخرةِ.

والثاني: ما يشعُرونَ أنَّ اللهَ يُظهِرُ، ويُطلِعُ نبيَّهُ، ما أضمَرُوا هُمْ في قلوبِهِمْ/ ٤ ـ أ/ واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى[11]: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ يقالُ: شكٌّ ونفاقٌ. سَمَّى اللهُ ﷻ المنافقينَ مَرضَى لِاضطرابِهِمْ في الدينِ؛ لأنهم كانُوا يُظهِرُونَ المُوافقةَ للمؤمنينَ بالقولِ، ويضمِرُونَ الخِلافَ لهُمْ في القلبِ. فكانَ حالُهُمْ كحالِ المريضِ

---

(١) من ط م و ط ع، في الأصل: آخرة. (٢) ساقطة من الأصل و ط م و ط ع. (٣) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٤) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٥) أتم الناسخ في ط ع الآية بدل كلمة الآية. (٦) ساقطة من ط م. (٧) في ط م: إضافة. (٨) من ط م و ط ع، في الأصل: أولياء. (٩) من ط ع، في الأصل و ط م: لذلك. (١٠) في ط م: الأول، ساقطة من الأصل و ط ع. (١١) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل.

الذي هو مضطربٌ بينَ الموتِ والحياةِ؛ إذِ المريضُ يشرفُ ربما على الموتِ، ويرجو الإقبالَ [عليهِ][١] منهُ ثانياً، فهو مضطربٌ بينَ ذلكَ. فكذلكَ همْ لِما كانُوا مضطربينَ؛ سمّاهُمْ مَوتَى لِما لم ينتفِعُوا بحياتِهِمْ، ولم يكتسِبُوا الحياةَ الدائمةَ. وسمَّى المؤمنينَ أحياءً لِما انتفعُوا بحياتِهِمْ، واكتسبُوا الحياةَ[٢] الدائمةَ لِمُوافقتِهِمْ باللسانِ والقلبِ جميعاً لدينِ اللهِ ﷻ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ: قالتِ المعتزلةُ: هو التَّخْلِيةُ بينَهُمْ وبينَ ما اختارُوا. وأمّا عندنا [فهو][٣] على خَلْقِ أفعالِ زيادةِ الكفرِ والنفاقِ في قلوبِهِمْ لمّا زادُوا في كلِّ وقتٍ مِنْ إظهارِ المُوافقةِ للمؤمنينَ بالقولِ وإضمارِ الخلافِ لهمْ بالقلبِ؛ خلقَ [اللهُ][٤] ﷻ تلكَ الزيادةَ مِنَ المرضِ في قلوبِهِمْ باختيارِهِمْ. وقد ذكرْنا الوجهَ في ذلكَ في ما تقدَّمَ في قولِهِ: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: ٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ لأنَّ عذابَ الدنيا قد يكونُ، ولا ألمَ فيهِ، فأخبرَ اللهُ ﷻ أنَّ عذابَ الآخرةِ عذابٌ شديدٌ عظيمٌ ليسَ كعذابِ الدنيا.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمُخادعةِ للمؤمنينَ وإظهارِ المُوافقةِ لَهُمْ بالقولِ وإضمارِ الخِلافِ لهمْ والاِسْتِهزاءِ بهِمْ عندَ الخَلْوةِ والقولِ فيهِمْ بما [لا][٥] يليقُ بهِمْ وعبادةِ غيرِ اللهِ. وأيُّ فسادٍ أكبرُ [مِنْ هذا؟ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بإظهارِ المُوافقةِ بالقولِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ أخبرَ تعالى[٦] أنهمْ ﴿هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ لِما أضمرُوا من الخِلافِ لَهُمْ والمُخادعةِ والاِسْتِهزاءِ بهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [فيهِ وَجهانِ:

الأوّلُ][٧]: أي أنهُمْ لا يشعرونَ أنَّ حاصلَ ذلك لا يرجعُ إليهِمْ.

والثاني: لا يشعرُونَ أنَّ ما كانُوا يفعَلُونَ الفسادُ. فإنْ كانَ هذا فهو ينقضُ قولَ مَنْ يقولُ بأنَّ الحجةَ لا تَلْزَمُ إلّا بالمعرفةِ، وهو قولُ الناسِ لأنهُ ﷻ أخبرَ بفسادِ [صنيعِهِمْ][٨]، وإنْ لم يشعُرُوا بهِ، وهو كقولِهِ [أيضاً][٩]: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]؛ أخبرَ بحبطِ الأعمالِ، وإنْ كانُوا لا يعلَمُونَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾؛ تَحتمِلُ الآيةُ أنْ تكونَ في المنافقينَ، وتَحتمِلُ في أهلِ الكتابِ. فإنْ كانَتْ في المنافقينَ فكأنَّ قولَهُ: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ يا أهلَ النفاقِ في السرِّ والعلانيةِ كما آمنَ أصحابُ محمدٍ ﷺ في السرِّ والعلانيةِ جميعاً، وهو كقولِهِ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٧]. وإنْ كانَ في أهلِ الكتابِ ففيهِ الأمرُ بالإيمانِ الذي هو إيمانٌ، وهو التصديقُ. والإيمانُ عندنا هو التصديقُ بالقلبِ؛ دليلُهُ قولُ جميعِ أهلِ التأويلِ والأدبِ أنهمْ فسَّرُوا ﴿ءَامِنُوا۟﴾ صدِّقوا في جميعِ القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الآيةَ[١٠]؛ السَّفَهُ، هو ضدُّ الحكمةِ، وهو العملُ بالجهلِ على العلمِ أنهُ يبطُلُ، والجهلُ هو ضدُّ العلمِ، والسَّفَهُ هو الشَّتْمُ. يقولُ الرجلُ لآخرَ: يا سَفيهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يقول بعضُ المتكلمينَ: إنَّ هذا شتمٌ مِنَ اللهِ لهم جواباً عنِ المؤمنينَ، ويَستجيزُونَ ذلك على الجوابِ، وإنْ لم يَجُزْ على الاِبْتِداءِ والمكرِ والكَيدِ والاِسْتِهزاءِ والخِداعِ ونحوِهِ. فعلى ذلك هذا.

وأمّا عندَنا فهو جائزٌ لأنَّ مَنْ شَتَمَ آخرَ يُذَمُّ عليهِ، وهو عملُ السفهاءِ، فأخبرَ ﷻ أنهم هُمُ الذينَ يعملونَ بالجهلِ على علمِهِمْ أنَّ دينَهُمُ الذي يَدينونَ بهِ باطلٌ[١١] وأنَّ الدينَ الذي يَدِينُ بهِ المؤمنونَ حقٌّ.

---

(١) من ط م. (٢) من ط م و ط ع، في الأصل: بالحياة. (٣) من ط م. (٤) من ط م. (٥) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٦) من ط م.
(٧) في ط م: الأول، ساقطة من الأصل و ط ع. (٨) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٩) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل.
(١٠) ساقطة من ط ع. (١١) من ط م و ط ع، في الأصل: بالباطل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ قيلَ فيه بوجهَين:

أحدُهُما: لا يعلمونَ أنهمْ همُ السفهاءُ.

والثاني: لا يعلَمُون ما يَحُلُّ بهمْ مِنَ العذابِ لذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني أصحابَ محمدٍ ﷺ.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أظهرُوا لهمُ[(٢)] المُوافقةَ في العَلانيَةِ، وهمْ[(٣)] يُضمِرونَ لهمُ الخِلافَ في السِّرِّ.

[وقولُهُ تعالى][(٤)]: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قيلَ فيه بأوجهٍ؛ قيلَ: إنَّ شياطينَهُمْ، يعني الكهنةَ؛ سُمُّوا بذلكَ لِبُعدِهِمْ عنِ الحقِّ، يُقالُ: شَطَنَ، أي بَعُدَ. وقيلَ: إنَّ كلَّ عاتٍ ومتمرِّدٍ يُسَمَّى شيطاناً لِعُتُوِّهِ وتمرُّدِهِ كقولِهِ: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] سُمُّوا بذلك لِعُتُوِّهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ، إذ مِنْ قولِهِمْ: إنَّ الشياطِينَ، أصلُهُمْ مِنَ الجنِّ. وقيلَ: سُمُّوا شياطِينَ لأنهُ كانَ معَ كلِّ كاهنٍ شيطانٌ يَعمَلُ بأمرِهِ، فَسُمُّوا بأسمائِهِمْ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ جارٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ قيل: فيهِ وَجهانِ:

[أحدُهُما][(٥)]: أي معكمْ في النصرِ[(٦)] والمعونةِ.

والثاني: [قولُهمْ][(٧)] ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على دينِكُمْ لا على دينِ أولئكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بإظهارِ المُوافقةِ لهم في العَلانيَةِ وإظهارِ الخِلافِ لهمْ في السِّرِّ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: أي[(٨)] يَجزيهِمْ جزاءَ الاِستِهزاءِ، وكذلكَ قولُهُ ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] أي يَجزيهِمُ اللهُ جزاءَ المُخادعةِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] أي يَجزيهِمُ اللهُ جزاءَ المكرِ؛ يُحمَلُ على الجزاءِ لِما لا يجوزُ إضافةُ المكرِ والخداعِ والاِستِهزاءِ مُبتَدأً إلى اللهِ لأنهُ مذمومٌ مِنَ الخَلقِ إلّا على المجازاةِ؛ فكيفَ مِنَ اللهِ ﷻ؟ وقالَ بعضُهُم: يجوزُ إضافةُ الاِستِهزاءِ إلى اللهِ، وإنْ كانَ لا يجوزُ مِنَ الخَلقِ أنْ يَستَهزِئَ [بعضُهُمْ من بعضٍ][(٩)]؛ كالتكبُّرِ يجوزُ للهِ، ولا يجوزُ للخلقِ، لأنَّ الخَلقَ أشكالُ بعضِهِمْ لبعضٍ وأمثالٌ، واللهُ ﷻ لا شَكْلَ لهُ، ولا مِثْلَ، وكذلكَ الاِستِهزاءُ يجوزُ لهُ، ولا يجوزُ لغيرِه، لأنَّ الاِستِهزاءَ، هو الاِستِخفافُ، فلا يجوزُ أنْ يَستخفَّ أحدٌ مِمَّنْ هو مِثْلُهُ في الخِلقةِ وما خلَقَ لهُ مِنَ الأحداثِ والغِيَرِ، واللهُ تعالى يتعالى عنْ ذلكَ، والأوَّلُ أقربُ. واللهُ أعلمُ. أو[(١٠)] أضافَ اسْتِهزاءَ المؤمنِينَ بهمْ إلى نفسِهِ كما ذكرْنا في المُخادعةِ.

ثم اختُلِفَ في كيفيةِ الاِستِهزاءِ؛ فقالَ الكلبيُّ: (هو أن يُفتَحَ لهمْ بابٌ مِنَ الجنةِ، فيَدْنُوا[(١١)] منهُ، ثم يُغلَقَ دونَهُم) فإنْ ثبتَ ذا فهو كما قالَ، وقيلَ: إنه يُرفَعُ لأهلِ الجنةِ نورٌ يمضُونَ بهِ، فيقصِدُ أولئكَ المضيَّ معهمْ بذلك النورِ، ثم يُطفأُ[(١٢)] ذلكَ النورُ، فَيَتَحيَّرُونَ؛ وهو قولُهُمْ ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. وقيلَ: أنْ يُعطى لهمْ في الدنيا ما يَنتفِعُونَ بهِ مِنْ أنواعِ النعمِ ظاهراً على ما أظهرُوا لهمُ الموافقةَ في العلانيةِ، ويُحرَمُ [ذلك لهمْ][(١٣)] في الآخرةِ بإضمارِهِمُ الخلافَ في السِّرِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ الآيةُ[(١٤)] في قومٍ علمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ كقولِهِ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. غيرَ أنَّ هذهِ [في][(١٥)] المنافِقِينَ، والأُولَى في الكفرةِ، وهي تنقضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ؛ لأنهمْ يقولُونَ: إنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ أنْ يَستنقذَهُمْ في حالِ الاختِيارِ، وإنما يقدرُ الاِسْتِنْقاذَ منهمْ في حالِ الاِضطرارِ، فأخبرَ ﷻ أنه يستنقذُهُمْ على فعلِ الطغيانِ.

---

(١) من ط ع. (٢) من ط م وط ع، في الأصل: هم. (٣) في النسخ الثلاث: و. (٤) من ط ع. (٥) في ط م (الأول) ساقطة من ط ع. (٦) في ط م: القصد. (٧) في ط ع: قوله، ساقطة من ط م. (٨) ساقطة من ط م. (٩) في النسخ الثلاث: بعضهم بعضاً. (١٠) من ط م و ط ع، في الأصل: و. (١١) في ط م: فيدنون. (١٢) في ط م: يطفئوا. (١٣) في ط م: لهم ذلك. (١٤) ساقطة من ط ع. (١٥) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي يخلق فعلَ الطغيانِ فيهِمْ، ويَحتمِلُ أنْ يَخذلَهُمْ، ويَترُكَهُمْ [لِما][١] اختارُوا مِنَ الطغيانِ إلى آخرِ عُمُرِهِمْ، ويَحتملُ أنهُ لم يهدِهِمْ، ولم يوفِّقْهُمْ، [و][٢] في هذا إضافةُ المدِّ إلى اللهِ، وإضافةُ المدِّ[٣] على الطغيانِ لا يضافُ إليه إلّا للمدحِ[٤]، والمدحُ يكونُ بالأوجهِ الثلاثةِ التي بيَّنّا، وفي هذا: أنهُ إذا كانَ هو الذي يمدُّهُمْ في الطغيانِ قدَرَ على ضِدِّهِ مِنْ فعلِ الإيمانِ، فدلَّ أنَّ اللهَ [تعالى][٥] خالقُ فعلِ العبادِ، إذْ مِنْ قولِهِمْ: إنَّ القدرةَ التامةَ، هي التي إذا قُدِرَ على شيءٍ قُدِرَ على ضِدِّهِ. والعَمَهُ الحَيرةُ في اللغةِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي اختارُوا الضلالةَ على المدعُوِّ إليهِ، وهو الهُدَى، مِنْ غيرِ أنْ كانَ عندَهُمُ الهُدَى، فتركوهُ بالضلالةِ، وهو كقولِهِ[٦]: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ... يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] مِنْ غيرِ [أنْ][٧] كانُوا فيهِ، فكذلكَ الأوَّلُ؛ تركُوا الهُدَى بالضلالةِ ابتِداءً. وقيلَ: الضلالةُ الهلاكُ؛ أي اختارُوا ما بهِ يهلِكُونَ على ما بهِ نجاتُهُمْ، وإنْ كانُوا لا يقصِدُونَ شراءَ الهلاكِ بما بهِ النجاةُ كقولِهِ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يصبِرَ على النارِ، ولكنْ فما أصبرَهُمْ على عملٍ يَستوجِبُونَ به النارَ؟ وكذلكَ قولُهُ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠] أي بئسما اختارُوا ما بهِ هلاكُ أنفسِهِمْ على ما بهِ نجاتُهُمْ.

وفي هذه الآيةِ دلالةُ جوازِ البيعِ بغيرِ لفظةِ البيعِ لأنهمْ ما كانُوا يتلفَّظُونَ باسْمِ البيعِ، ولكنهمْ كانوا يتركُونَ الهُدَى بالضلالة / ٤ ـ ب/. وكلُّ مَنْ تركَ لآخرَ شيئاً لهُ ببَدلٍ[٨] يأخذُهُ منهُ فهو بيعٌ؛ وإنْ[٩] لم يتَكلَّمُوا بكلامِ البيعِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١١]، وهو على بذلِ الأموالِ والأنفسِ لهُ بالموعودِ[١٠] الذي وَعَدَ لَهُمْ، وهو الجنةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي ما ربحُوا [في][١١] تجارتِهِمْ، لأنَّ التجارةَ لا تربحُ، [ولكنْ بالتجارةِ يُربحُ][١٢]، وقد يُسَمَّى الشيءُ بِاسْمِ سببِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦]؟ والنهارُ لا يُبْصِرُ، ولكنْ بالنهارِ يُبْصَرُ، وذلكَ شائعٌ في اللغةِ جائزٌ تسميةُ الشيءِ باسْمِ سببِهِ.

ثم في قولِهِ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ نفيُ الربحِ دونَ [نفيِ][١٣] الأصلِ في الظاهرِ. غيرَ أنَّ النفيَ على وجهَينِ؛ نفيُ شيءٍ يُوجبُ إثباتَ ضِدِّهِ؛ [وهو][١٤] نفيُ الأصلِ[١٥]، كقولِكَ: فلانٌ عالِمٌ، نَفَيْتَ الجهلَ عنهُ، وفلانٌ جاهلٌ: نَفَيتَ العلمَ عنهُ. ونفيُ شيءٍ لا يُوجبُ إثباتَ ضِدِّهِ؛ وهو[١٦] نفيُ الأعراضِ، لأنكَ إذا نَفَيْتَ لوناً لم توجِبْ[١٧] ضدَّ ذلكَ اللونِ. وقولُهُ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ نفيُ الأصلِ، كأنهُ قالَ: بل خسرَتْ تجارتُهُمْ؛ أوجبَ إثباتَ ضدِّهِ؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠] و﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: إنها نزلَتْ في المنافقينَ لأنها على إثْرِ ذكرِ المنافقينَ، وهو قولُهُ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية [البقرة: ١٤]، وقيلَ: إنها نزلَتْ في اليهودِ، [لأنهُ سبقَ ذكرُ اليهودِ][١٨]، وهو قولُهُ: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية [البقرة: ٦، ويس: ١٠]، ويُحتَملُ نزولُها في الفريقَينِ جميعاً.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ[١٩] أنهُ قالَ: (إنَّ هذا مِنَ المكتومِ)، فلا يُحتَمَلُ ما قالَ؛ لأنهُ مثلٌ ضربَهُ[٢٠] اللهُ، والأمثالُ إنما تُضرَبُ لِتُفْهَمَ، وتُقرِّبَ إلى الفهمِ [ما بَعُدَ منهُ. فلو حُمِلَ على ما قالَ لم يُفْهَمْ مرادُهُ، وما قَرَّبَ إلى الفهمِ][٢١] شيئاً، إلّا أنْ يريدَ مِنَ المكتومِ أنهُ لم يُعلَمْ في مَنْ نزلَ، فهو مُحتَمَلٌ. واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط م. (٢) من ط م. (٣) في ط ع: مد. (٤) من ط ع، في الأصل: المدح، في ط م: لمدح. (٥) من ط ع. (٦) من ط م، في الأصل وط ع: كقولهم. (٧) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٨) من ط ع، في الأصل وط م: يبذل. (٩) من ط م وط ع، في الأصل: فإن. (١٠) من ط م وط ع، في الأصل: بالمدعو. (١١) من ط م، في ط ع: ب، ساقطة من الأصل. (١٢) من ط م. (١٣) من ط م. (١٤) من ط م. (١٥) من ط ع، في الأصل وط م: الصفة. (١٦) من ط م، في الأصل وط ع: وهي. (١٧) في الأصل وط ع: يجب، في ط م: يوجب. (١٨) من ط م وط ع. (١٩) في ط م: عنهما. (٢٠) من ط م، في الأصل وط ع: ضرب. (٢١) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل.

وقولهُ ﷻ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآية: يَحتمِلُ أنْ تكونَ الإضافةُ إلى مَنْ ذكرَ مِنَ المنافقِينَ بقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٨] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ الآية [البقرة: ١٤ و٧٦]. وذلك يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أنهمْ قَصدُوا قَصدَ المُخادعةِ أولياءَ اللهِ والاستِهزاءِ بهمْ، ففضَحَهُمُ اللهُ تعالى بذلكَ في الدنيا والآخرةِ.

فأمّا في الدنيا [فبما][1] هتكَ سِرَّهُمْ، وأطْلَعَ على ذلكَ أولياءَهُ، فعادَتْ إليهِمُ المخادعةُ، وعُوقِبوا بما أطلعَ على ضميرِهِمْ وبما أرادُوا بذلكَ الأمنَ، فأعقبهُمُ اللهُ خوفاً دائماً كما وصفَهُمُ اللهُ: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ الآية [النساء: ٧٧]، وقالَ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقالَ: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[2] [محمد: ٢٠]، وقالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الآية [الأحزاب: ١٩]، وقالَ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ الآية [التوبة: ٦٤]، أو أنْ يكونوا طلبوا بإظهارِ المُوافقةِ في الدينِ الشرفَ فيهم والعِزّةَ وكذلكَ عندَ الكفرة[3] بما أظهرُوا أنهمْ يُخادِعُونَ بذلكَ المؤمنِينَ ويَسْتهزئونَ بهمْ، فعُلِمُوا أنهمْ كذلكَ يُظهِرونَ للمؤمنِينَ حالَهُمْ معهمْ، فطُرِدُوا مِنْ بَيْنِهِمْ؛ فقال اللهُ تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤]، وقالَ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية [النساء: ١٤٣]، فزالَ عنهمْ ما الْتَمسُوا مِنَ الشرفِ والعزِّ، وأبدلَ لهمْ بهِ الهوانَ والذُّلَّ. فمَثَلُهُمْ في ذلكَ مَثَلُ مستوقدِ نارٍ ليستَضيءَ بضَوئِها، وينتفعَ بحرِّها، [فأذهبَ اللهُ ضوءَهُ][4] حتى ذهبَ ما كانَ يأمُلُ مِنَ الاستِنارةِ بها والانتِفاعِ، وأعقبَهُ اللهُ تعالى خوفَ الاحتِراقِ لو دَنَا منها، وذهبَ عنهُ ما طلبَ بذلكَ مِنْ شرفِ الوقودِ في الأيامِ الشاتيةِ[5] أو ما يُصلِحُ بها مِنَ الأغذيةِ بذهابِ البصرِ. فيكونُ ذلكَ معنى قولِهِ: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] و﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]؛ إذ عُوقِبُوا بالخوفِ بما قصدُوا بهِ الأمنَ والذلَّ بما طلبُوا بهِ العزَّ، وكذلكَ مستوقدُ النارِ الذاهبُ نورُهُ، واللهُ أعلمُ.

وعلى ذلك قولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] أي اختارُوا الضلالةَ لمّا رجعُوا إلى شياطينِهِمْ بالهُدَى الذي قد أظهرُوهُ عندَ المؤمنِينَ، فيكونُ تحقيقُ استِهزاءِ اللهِ بهمْ ومُخادعتِهِ إياهمْ فعلَ أوليائِهِ بهمْ بما أُخبِرُوا مِنْ سرائِرِهِمْ وبما [خَطُّوا أقدارَهُمْ][6]، وذَلُّوا في أعينِهِمْ، فأضيفَ ذلكَ إلى اللهِ؛ [إذْ بهِ][7] فعلُوا، كما أُضيفَتْ مُخادعَتُهُمُ المؤمنِينَ إليهِ؛ إذْ عَنْ دينِهِ خادعُوهمْ، واللهُ أعلمُ.

وعلى هذا التأويلِ أمكنَ أنْ يُخرَّجَ قولُ مَنْ زعمَ أنَّ الآيةَ نزلَتْ في الكافرينَ؛ إنهمْ كانُوا يعرفونَ رسولَ اللهِ ﷺ بما[8] وجدُوا نعتَهُ في التوراةِ والإنجيلِ أنهُ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقولَهُ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى آخرِ السورة [الفتح: ٢٩]، وقولَهُ[9] ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقولَهُ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، كانوا كمستوقِدِ النارِ أي طالبِ الوقودِ ليستضيءَ بهِ، فلما ظفِرَ بهِ [أذهبَ اللهُ نورَهُ][10]، بعدَ معرفتِهِمْ بمنفَعَةِ نورِ النارِ، فلم ينتفعْ بهِ. فكذلكَ لمّا كفرُوا عندَ بعثِ [رسولِ اللهِ][11] ﷺ حَسَداً مِنْ أنفسِهِمْ وبَغياً إذْ كانَ مِنْ غيرِهِمْ أو خشيةً منهمْ على مُلكِهِمْ أو مَآكلَتِهِمْ بعدَ العلمِ منهمْ بِعِظَمِ[12] المنفعةِ فيهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وأمّا في الآخرةِ[13] [إنهمْ][14] قصدُوا مخادعةَ المؤمنِينَ وموالاتَهُمْ في الظاهرِ ومشاركتَهُمْ إياهمْ في المنافعِ نحوِ المَغانمِ والتوارُثِ والتناكحِ، وخالفُوهمْ في الباطنِ، فكذلكَ اللهُ أشركَهُمْ في المنافعِ الظاهرةِ الحاضرةِ في الدنيا، وخالفَهُمْ بمنافعِ دينِهِ في الباطنِ الغائبِ، وهيَ الآخرةُ؛ أراهُمُ المشاركةَ معَ المؤمنِينَ، وصرفَها عنهمْ[15] في الآخرةِ، فكما أرَوهُمُ المُوافقةَ في الظاهرِ مَعَ المُخالفةِ في الباطنِ، فذلكَ مستوقدُ النارِ أظهرَ مِنْ نفسِهِ الرغبةَ في ضوئها بالإيقادِ، وقد أذهبَ اللهُ

---

(١) من ط م. (٢) أدرج في ط م وط ع بعد كلمة الموت: الآية. (٣) في ط ع: الكفر. (٤) من ط م، في الأصل: فأذهب الله بضوئه، في ط ع: فذهب الله بضوئه. (٥) من ط م وط ع، في الأصل: الشاتي. (٦) من ط م وط ع، في الأصل: وبما خطوا أخبارهم. (٧) من ط م وط ع، في الأصل: بإذنه. (٨) في ط م: لما. (٩) في النسخ الثلاث: وقال. (١٠) في ط ع: ذهب الله بنوره. (١١) في ط م: النبي. (١٢) من ط م وط ع، في الأصل: بعضهم. (١٣) هذه فضيحة الله المنافقين والكافرين في الآخرة. (١٤) من ط م. (١٥) من ط م، في الأصل وط ع: عنها.

تعالى ضوءَ[1] بصرِهِ، فذهبَ عنهُ منفعتُهُ عندَ ظنِّهِ أنهُ يصلُ إليها كالمنافقينَ في الآخرةِ إذْ ظنُّوا في الدنيا أنهمْ شركاؤُهُمْ في الآخرةِ، لو كانَتْ. ولذلكَ قالُوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] وقالوا[2]: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤١].

فذلكَ وجهُ الاِسْتِهزاءِ بهمْ والمُخادعةِ أنهُ أشركَهُمْ في أحكامِ الدنيا، وخالَفَهُمْ في أحكامِ الآخرةِ.

وعلى ذلكَ اشْتِراءُ الضلالةِ بالهُدَى على معنَى اخْتِيارِهِمْ ما فيهِ الهلاكُ على ما فيهِ نجاتُهُمْ.

وعلى ذلك يُخَرَّجُ تأويلُ مَنْ صرَف إلى أهلِ الكتابِ لأنهمْ آمَنُوا بمحمدٍ ﷺ إذْ آمَنُوا بكتُبِهِمْ؛ وقد كانَ فيها نعتُهُ الشريفُ، فلما وصلُوا إلى منافعِ الإيمانِ بالبعثِ إليهِمْ، وشاهدُوا، كفروا[3] بهِ، فَعُوقِبوا بحرمانِ منافعِ كتبِهِمْ وإيمانِهِمْ عندَ مُعاينةِ الجزاءِ كما رَدُّوا إيمانَهُمْ عند المُشاهدةِ، واللهُ أعلمُ.

ورُوِيَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه[4] أنهُ ضمَّ تأويلَ هذهِ الآيةِ والتي تَتْلُوها مِنْ قولِهِ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] إلى قولِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]. وذلكَ، واللهُ أعلمُ، أنهمْ قومٌ لا يعرفونَ اللهَ حقَّ المعرفةِ، فيعبدونَهُ بحقِّ الربوبيةِ لهُ قِبَلَهُمْ، ولا يؤمنونَ بالآخرةِ، فيكونَ عملُهُمْ للعواقبِ، ولا يعرفونَ غيرَ الدنيا ومنافِعَها، فجعلُوا دينَهُمْ وعبادَتَهُمْ ثمناً لها؛ فإذا رَأَوا في دينِ الإسلامِ الغنائمَ والسلوةَ أو تجارتَهُمْ مربحَةً اطمأنُّوا بها، واجتهدُوا بالسعيِ فيها. وإذا أصابتْهُمُ الشدةُ والبلايا رَأَوا تجارتَهُمْ مُخْسِرَةً، فانصرفُوا[5] إلى غيرِ ذلكَ الدينِ. فمثَلُهُمْ مَثَلُ المستوقدِ[6] ناراً، إنهُ يجتهدُ في الإيقادِ مادامَ يطمعُ في نورِ النارِ ومنافعِ حرِّها لمصالحِ الأطعمةِ. فإذا ذهبَ نورُ بصرِهِ أبغضَ النارَ بما يخشى مِنَ الاِحْتِراقِ بالدنُوِّ منها وبما يذهبُ مِنْ منافعَ خفيَّةٍ إنْ لم يكنِ اسْتَوقدَ؛ كالمنافقِ في ما اسْتَقبَلَهُ المكروهُ في الإسلامِ تمنَّى أنْ لم يكنْ أسلمَ قطُّ. وذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ [الأحزاب: ٢٠] وقولُهُمْ[7]: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقولُهُمْ: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠] وقولُهُ: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢].

وكذلكَ البرقُ الذي يضيءُ؛ يمشي المرءُ في ضوئِهِ. وكذلكَ المنافقُ إذا رَأى خيراً في الإسلامِ مشى إليهِ، وإذا أظلمَ عليهِ قامَ مُتحَيِّراً حزيناً ألَّا يكونَ اختارَ السلوكَ، واللهُ الموفقُ.

قال أبو بكرٍ الأصمُّ: (مَثَلُ مَنْ يُظْهِرُ / ٥ ـ أ/ الإيمانَ في ما يتزيَّنُ بنورِهِ في الناسِ مَثَلُ مُستوقِدِ النارِ في ما يَستضيءُ حولَ النارِ بنورِها، ثم يُذهِبُ اللهُ نورَهُ في الآخرةِ كما أذهبَ هو في السِّرِّ، وكذلكَ أذهبَ اللهُ نورَ المُستوقِدِ، فيُذهِبُ بهِ التَّزَيُّنَ بالنورِ حولَ النارِ. قالَ: وقيلَ: ذا لعنٌ؛ كما يُقالُ: أذهبَ اللهُ نورَهُ، أي الذي كانَ يُظهِرُهُ. فيبقى المنافقُ في ظلماتِ الآخرةِ والمُستوقدُ في ظلماتِ العَمَى والليلِ. ثم قالَ: جعلَ الدعاءَ إلى الإسلامِ كالصَّيِّبِ، وما فيهِ مِنَ الجهادِ كظلمةِ[8] الليلِ، وما فيهِ مِنَ الغنيمةِ كالبرقِ، وجعلَ أصابِعَهُمْ في الآذانِ مِنْ سماعِ ما في الإسلامِ مِنَ الشدائِدِ نحوَ جعلِ ذلكَ مِنَ الصواعقِ).

الآية ٢٠[9] وقولُهُ تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي ما في الإسلامِ مِنَ الغنيمةِ يَدْعُوهُمْ إليهِ، ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ بالشدائدِ قامُوا، وصدُّوا عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ﴾ بما ذكرَ؛ أي أصمَّهُمْ، وأعماهُمْ.

ورُوِيَ عنِ [الضَّحَّاكِ عنِ][10] ابنِ عباسٍ رضي الله عنه[11] (أنَّ ضوءَ البرقِ والنارِ ليسا بدائمَينِ، فشبَّهَ بهِ إيمانَ المنافقِ؛ أنهُ عنْ سريعٍ يزولُ).

وقالَ القُتَبيُّ: كانَ المنافقُ في ظلمةِ الكفرِ، فاهتدَى بما أُعْطِيَ مِنَ النورِ كمستوقِدِ النارِ[12] بنورِهِ في ظلمةِ الليلِ، وكذلكَ السالكُ في ظلمةِ الليلِ، فلما ذهبَ نورُهُ، أو سكنَ لمعانُ البرقِ، رجَعَ إلى ما فيهِ مِنَ الظلمةِ.

---

(١) من ط م وط ع، في الأصل: بضوء. (٢) في النسخ الثلاث: وقوله. (٣) في ط ع: وكفروا. (٤)في ط م: عنهما. (٥) في النسخ الثلاث: فصرفوا. (٦) من ط م وط ع، في الأصل: استوقد. (٧) في الأصل وط م وط ع: وقولُهُ. (٨) من ط م وط ع، في الأصل: وكظلمة. (٩) لقد تجاوز محقق ط ع تفسير الآيتين (١٨ و١٩) للسياق وسيعود إلى تفسيرهما بعد تفسير الآية ٢٠، وقد رأينا ما رآه، وأثبتناه من النسخ الثلاث: الأصل وط ع وط م. (١٠) من ط م. (١١) في ط م: عنهما. (١٢) تكررت كلمة النار في الأصل.

والأصلُ في هذا البابِ: أنَّ اللهَ تعالى خلقَ هذهِ الدارَ لِمحنةِ أهلِهَا، وجعلَ لهمْ داراً يَجزيهمْ فيها ممّا لولا هي لكانَ يكونُ خَلْقُ هذه الدارِ بما فيها عَبَثاً؛ إذ يكونُ خَلْقُ الخَلْقِ[1] للفناءِ بلا عواقبَ لهمْ. وذلكَ عَبَثٌ في العقولِ؛ لأنَّ كُلَّ شارعٍ في ما لا عاقبةَ لهُ عابثٌ، وفي ما لا يريدُ [معنًى يكونُ][2] في العقلِ هازلٌ. ولذلكَ قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فإذا كانَ كذلكَ صارتْ هذِهِ الدارُ [دليلَ الأخرَى][3]. فعلى ذلكَ ضربَ لِلأخرَى مثلاً بالمعروفِ مِنْ هذهِ؛ إذْ بهذِهِ عُرِفَتْ تلكَ، ولهذا خلقَ اللهُ المُمْتَحَنِينَ بحيثُ يَأْلَمُونَ، ويَتَلَذَّذُون لِيعرِفُوا قَدْرَ الآلامِ التي بها أُوعِدُوا واللذاتِ التي فيها رُغِّبُوا.

فعلى ذلكَ ضربَ اللهُ مثلَ مَنْ عَمِيَ عَنِ الآخرةِ وصَمَّ عَنْ سماعِ ما يرغَبُ فيها، أو عَمِيَ عَنْ أمرِ اللهِ ونهيِهِ، أو أَلْحِقَ بالأعمى والأصمِّ والميِّتِ ونحوِ ذلكَ، لذهابِ منافعِ البصرِ والسمعِ والحياةِ، إذْ هي مخلوقةٌ لِيُعرَفَ بها ما غابَ عنها بالتَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ. فإذا أغفلَ عَنْ ذلكَ سُمِّيَ بالذي ذكرْنا، وبيَّنّا: أنهُ لولا الآخرةُ ودارُ الجزاءِ لم يكنْ للخَلْقِ شيءٌ مِنْ ذلكَ حكمةً نعقِلُها نحنُ. فعلى ذلكَ ضربَ [اللهُ المثلَ][4] لذهابِ نورِ القلبِ الذي بهِ تُبصَرُ العواقبُ، ويُنتفَعُ بها، بذهابِ نورِ البصرِ في زوالِ منافعِ الدنيا ممّا يتصلُ بنورِهِ. وكذلكَ أمرُ السمعِ وغيرِهِ. فكانَ على ذلكَ أمكنَ إخراجُ المثلَينِ جميعاً على الكفرةِ والمنافقينَ.

أمّا المنافقُ فإذا ذهبَ نورُ حقيقتِهِ عنهُ، وهو نورُ البصرِ، لم ينتفعْ بنورِ النارِ على قيامِ النارِ بنورِها لكلِّ ذي بصرٍ، وكذلكَ سائرُ منافعِ النارِ، فمَثَلُهُ: إذا ذهبَ عنه نورُ بصرِ القلبِ وحياتُهُ لم ينتفعْ بنورِ الآخرةِ وجزائِها. وكذلكَ الذي ذهبَ عنه ضوءُ البرقِ يبقى متحيِّراً؛ إذْ بهِ يُبصِرُ الطريقَ، كمن يذهبُ عنهُ بصرُ القلبِ؛ إذْ بهِ يُبْصِرُ عواقبَ الأشياءِ. بلِ الذي قصدَ السلوكَ بالبروقِ[5] والاسْتِضاءةَ بنورِ النارِ؛ إذا[6] ذهبَ كانَ أعظمَ حسرةً وأشدَّ خوفاً مِنَ النارِ وشدةِ المطرِ وخُبثِ الطريقِ [مِنَ الذي][7] لم يعرفْ في الاِبْتِداءِ نفعَ النارِ أو البرقَ، ويكرَهُ[8] المطرَ على شدةِ رغبتِهِ فيهِ والنارِ بما ذَهبَ منهُ. وكذلكَ المنافقُ في الآخرةِ إنْ لم يكنْ منهُ ما أظهرَ؛ إذْ بهِ يُرَدُّ إلى دَرْكِ الأسفلِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وكذلكَ الكافرُ لم يبصِرْ بما أعطاهُ مِنَ البصرَ عواقِبَ البصرِ الظاهرِ، ولا يسمعُ بما أنعمَ عليهِ مِنَ السمعِ عواقِبَ السمعِ؛ إذْ حقُّ ذلكَ أنْ يؤدِّيَ ذلكَ ما أدركَهُ إلى العقلِ لِيعتبِرَ بهِ أنهُ لم يُخْلَقْ شيءٌ مِنْ ذلكَ بالاِسْتِخفافِ، ولا[9] يَحتمِلُ عقلُهُ الإحاطةَ بِكُنْهِ ما فيهِ مِنَ الحكمةِ، فيَعلَمَ عِظَمَ نعمةِ اللهِ وخروجَ مثلِهِ عنِ العبثِ، فيقومَ بأداءِ شكرِهِ. وبذلكَ يصيرُ بهِ إلى الجزاءِ في العواقبِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٨[10] وقولُهُ ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ يَحتمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: ﴿صُمٌّ﴾ لأنهُ ختَم على آذانِهِمْ وعلى سمعِهِمْ وعلى قلوبِهِمْ، فلا يسمَعُونَ، ولا يُبْصِرُونَ، ولا يَعقِلُونَ.

والثاني[11]: أنهُمْ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [لِما][12] لم ينتفِعوا بأسماعِهِمْ وأبصارِهِمْ وقلوبِهِمْ.

ثم اختُلِفَ في جوازِ إضافةِ لفظِ الاِسْتِهزاءِ إلى اللهِ تعالى؛ فأجازَهُ قومٌ، وإنْ كانَ ذلكَ قبيحاً مِنَ الخَلْقِ، لِما قَبُحَ منهُمْ بما لا أحدَ يَسْتهزئُ بأحدٍ [إلّا بجَهلِهِ أو بِقُبحٍ في خِلْقَتِهِ، والمُسْتَهزئُ مثلُهُ، قد يَحتمِلُ ذلكَ بإنعامِ اللهِ عليه الذي قد أغفلَهُ عنهُ][13] بِاشْتِغالِهِ بما ذكَرَ مع ما الإغفالُ عنْ[14] هذا أوحَشُ وأقبحُ مِنْ حالِ المستهزِئِ بهِ. ولذلكَ قالَ ﷻ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [الحجرات: ١١]؛ وذلكَ نحوُ التكبُّرِ، إنه قبيحٌ مِنَ الخَلْقِ بمالَهُمْ أشكالٌ في الحَدَثِ[15] وآثارِ الصنعةِ واحتِمالِ كلٍّ منهُمْ بما احْتَملَ غيرُهُ.

---

(١) في ط ع: الخالق. (٢) من ط م، في الأصل وط ع: يكون معنى في. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: دليلاً أخرى. (٤) في ط م: (المثل)، ساقطة من ط ع. (٥) في ط ع: بالبرق. (٦) في ط ع: وإذا. (٧) في ط ع: فالذي. (٨) الواو ساقطة من ط ع. (٩) من ط م، الواو ساقطة من الأصل وط ع. (١٠) انظر حاشية الآية ٢٠، وهي قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] في الصفحة السابقة. (١١) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (١٢) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وط ع: إما بجهله أو بقبح في الخلقة والمستهزئ نحو هذه قد يحتمل ذلك لولا إنعام الله عليه الذي قد أغفل عنه، في ط م: إما لجهله أو لقبح في الخلقة إلا والمستهزئ نحو هذه قد يحتمل ذلك لولا إنعام الله عليه الذي أغفل عنه أو لدناءة في الخلق. (١٤) من ط ع، في الأصل وط م: من. (١٥) من ط م وط ع، في الأصل: الحديث.

وجائزٌ إضافتُهُ إلى اللهِ تعالى لِتعاليهِ عنِ الأشباهِ والأشكالِ وإحاطةِ[١] احْتِمالِ ما احْتَمَلَ غيرُهُ. وبهِ يقولُ حسينُ النجارُ. وأبى قومٌ ذلكَ إلّا على إثرِ أحوالٍ تصرفُ فهمَ السامعِ إلى معنَى الاِسْتِهزاءِ؛ نحوُ أن يُذكرَ على إثرِ فعلٍ لهُ جزاءٌ، فيفهَمَ منهُ جزاءَ الاِسْتِهزاءِ كَذِكرِ السيئةِ في الجزاءِ والمكرِ ونحوِ ذلكَ.

ثم يُخرَّجُ ما[٢] نحنُ فيهِ على [وجهَينِ:

أحدُهُما][٣]: ما بيَّنّا.

والثاني: ما يُنسَبُ إليهِ فعلُ المامورِ نحوُ قولِ المؤمنِينَ للمنافِقِينَ في الآخرةِ ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديد: ١٣] وقولِ أهلِ الجنةِ ودعائِهِمْ أهلَ النارِ بالخروجِ، لو ثبتَ ما ذكرَهُ الكلبيُّ، وقولِ الملائكةِ ﴿فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠] وغيرِ ذلك.

الآية ١٩ [وقولُهُ تعالى ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ﴾][٤]، ثم ما ذكرَ مِنَ الظلماتِ يُخرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: ظلماتُ كفرِهِمْ بقلوبِهِمْ إذ[٥] أظهروا الإيمانَ أوَّلاً.

والثاني: المُتشابِهُ في القرآنِ، وهو الذي تعلَّقَ بهِ كثيرٌ مِنَ المشركِينَ حتى نزلَ قولُهُ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ الآية [آل عمران: ٧].

والثالثُ: ما في الإسلامِ مَنَ الشدائدِ والإفزاعِ مِنَ الجهادِ والحدودِ وغيرِ ذلكَ. وأمكنَ صرفُ الأوَّلِ والأخيرِ[٦] إلى الفريقَينِ الكافرِ والمنافقِ، وصرفُ تأويلِ المُتشابِهِ إلى الكافرِ؛ على أنا بيَّنّا أنَّ لكلٍّ مِنْ ذلكَ حظًّا[٧]، ويدلُّ آخرُ الآيةِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على [أنَّ المثلَ لهمْ إلّا][٨] أنَّ المنافقَ شريكُهُمْ في الكفرِ، واللهُ الموفقُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المثلُ المضروبُ بالآيةِ إنما هو للقومِ الذينَ شَهِدُوا رسولَ اللهِ ﷺ لأنهم كانُوا قبلَ بعثِهِ صِنفَينِ:

صِنفٌ: يَنْتحِلُ الكتابَ الذي هو[٩] عندهُمْ ممّا جاءَ بهِ الرسلُ، [لكنَّ أئمَّتَهُمْ][١٠] قد غيَّرُوا ما في كتبِهِمْ مِنْ دينِ اللهِ وأحكامِهِ حتى عَطَّلوا[١١] ذلكَ، وأبدعُوا غيرَ الذي جاءَتْ بهِ الرسلُ مِنَ الدينِ والأحكامِ؛ بيَّنَ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٥] [وقولُهُ ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾[المائدة ١٥ و١٩]][١٢] وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٩]. ومنهُمْ مَنْ أبدعَ الكتابَ، ونسبَ إليهِمْ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨] الآية تبيِّنُ ما ظهرَ مِنَ التفرُّقِ فيهِمْ ومِنَ القولِ في أنبيائِهِمْ وفي اللهِ ﷻ.

ومعلومٌ أنَّ دينَ الرسلِ واحدٌ غيرُ مختلِفٍ، وبما كانَ مِنَ الفترةِ اندرسَتِ الكتبُ، وذهبتِ الرسومُ[١٣] فصارُوا في ظلمةِ الضلالةِ وحَيرةِ الزَّيغِ، وتاهُوا في سبيلِ الشيطانِ، وانقطعَ مِنْ بينِ أظهرِهِمُ الأئمةُ الذينَ يُوثَقُ بهمْ في الدينِ بما ليسَ لأحدٍ برهانٌ يَشهدُ لهُ بالتَّمسُّكِ بسبيلِ الأنبياءِ والاِعْتِصامِ بكتبِهِمْ؛ إذ كلُّهُمْ يَدَّعي ذلكَ. وقد ظهرَ فيهمُ القولُ المختلِفُ المُتناقِضُ الذي لا تَحتمِلُهُ الحكمةُ ولا يَصيرُ[١٤] عليهِ العقلُ.

وصنفٌ لا يَحتمِلُ[١٥] الكتابَ، ولا يُؤمِنُ بنبيٍّ مَنَ الأنبياءِ، بل يعبدُونَ الأوثانَ والنيرانَ والأحجارَ وما يَهْوَونَ مما لا يملكُ الضررَ ولا النفعَ، ولا لهمْ شرعٌ، بل همْ حَيارَى لا يَعرفُونَ معبوداً، ولا يُبصِرُونَ طريقاً، وليسَ فيهِمْ مَنْ إذا فَزِعُوا إليهِ دلَّهُمْ على المَحجَّةِ، ولا أطلَعَهُمْ على الحقِّ، بل همْ في [الضلالةِ تائهونَ، وفي الظلماتِ مُتحَيِّرُونَ][١٦].

---

(١) في ط م: وإحالة. (٢) من ط م، في الأصل و ط ع: في ما. (٣) في النسخ الثلاث: أوجه أحدها. (٤) من ط م. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: أنْ. (٦) في الأصل و ط م و ط ع: الآخر. (٧) من ط م، في الأصل و ط ع: خطأ. (٨) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من ط م و ط ع. (١٠) من ط م، في الأصل و ط ع: لكنهم. (١١) من ط م، في الأصل و ط ع: غلطوا. (١٢) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٣) في ط ع: الرسل. (١٤) في الأصل و ط م: يثير، في ط ع يبصر. (١٥) في ط م: ينتحلُ، وفي ط ع: يتحملُ. (١٦) في الأصل و ط ع: الضلالة تائهينَ وفي الظلمات متحيرين، في ط م: نحون الضلال تائهون وفي الظلمات متحيرون.

فأخوجَ الفريقَينِ جميعاً ما حلَّ بهمْ مِنَ الحَيرةِ والتيهِ إلى مَنْ يَشْفِيهِم مِنْ داءِ الضلالةِ بنورِ الهُدَى ومنْ ظلمةِ الاختِلافِ بضياءِ[1] الائتِلافِ، ويُخرِجُهُمْ مِنْ سبيلِ الشيطانِ إلى سبيلِ اللهِ، ويَدلُّهُمْ على معرفةِ المعبودِ الحقِّ لئلا يَتَّخِذوا مِنْ دونِهِ أرباباً. فبعثَ إليهِمْ عندَ شدةِ حاجتِهِمْ رسولاً، وأكرَمَهُمْ بما أراهُمْ مِنَ الآياتِ التي يعلَّمُهُمْ[2] أنهُ أنعمَ بِهِ عليهِمْ لِيَسْتَنْقِذَهُمْ مِنَ الضلالةِ إنْ هُمْ أطاعُوهُ/ ٥ ـ ب/ وشكَروا نعمةَ اللهِ. فكانُوا كقومٍ بُلُوا بظلماتِ الليلِ والسحابِ، فَتحَيَّرُوا فيها بما حالتِ الظلمةُ بينهَم وبينَ حاجاتِهِمْ، وتعذَّرَ عليهِمُ الوجهُ في وضعِ أقدامِهِمْ، فتاهُوا، فدفَعَهُمُ التيهُ إلى اسْتِيقادِ النارِ لِيَبلُغُوا حوائجَهُمْ، ويأمنُوا العطبَ في وضعِ الأقدامِ، وكقومٍ بُلُوا بِشدةِ الجوعِ والعطشِ لضيقِ الزمانِ وجَدْبِهِ، فاستغاثُوا بمَنْ يملكُ كشفَ ذلكَ عنهمْ، فأغاثَهُمْ بالمطرِ.

ثم منهمْ مَنْ عَرَفَ نعمةَ مَنْ أنْعَمَ عليهِمْ بالوقودِ وأغاثَهُمْ بالمطرِ، فَتَلَقَّوا نعمتَهُ بالشكرِ، فَنَجوا بذلكَ ممّا[3] خَشُوا مِنَ الهلاكِ، ووصلُوا إلى حوائجِهِمْ بالنارِ والمطرِ. وذلكَ مثلُ مَنِ اتبعَ محمداً ﷺ وعرفَ نعمَ اللهِ، وشكرَهُ[4].

ومنهمْ مَنْ تلقَّى نورَ النارِ بالكفرانِ والجهلِ بالمنعَمِ بِهِ عليهِ، [ونسيَ ما كانَ عليهِ][5]؛ وهو قولُهُ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ﴾ [الزمر: ٨ و٤٩]: آياتٌ[6] فيها ذكرُ ما ثبتَ[7]، وقولُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ الآية [الإسراء: ٦٧]، فأذهبَ اللهُ نورَهُ؛ فلم[8] يَنتفِعْ بنورِ النارِ، ولا وصلَ إلى حاجتِهِ التي بها يَقضِي. وذلكَ مثلُ الذينَ كفرُوا بمحمدٍ ﷺ؛ إنهمْ لم يَنتفِعُوا بِهِ، ولا قَضَوا حاجاتِهِمْ، بل زادَهُمْ ذلك ظلمةً وحَيرةً كَمُسْتَوقِدِ النارِ إذا ذهبَ بصرُهُ.

وكذلكَ قومٌ بُلُوا بالسلوكِ[9] في الطريقِ عندَ شدةِ الظلمةِ، ولم يَتَلَقَّوْا النعمةَ بالشكرِ بالوجوِ[10] الذي جُعِلَ لهمْ [لِوَضعِ أقدامِهِمْ][11] بنورِ البرقِ، فأذهبَ [اللهُ][12] نورَهُ، وسكنَ لمعانُ البرقِ، فعادَ الغياثُ لهُ هَلاكاً والمطرُ الذي [هو رحمةٌ][13] عليهِ بَلاءً. فَمَثَلُهُ مَنْ كابرَ رسولَ اللهِ ﷺ واعْتَرضَ على الاسْتِماعِ إليه. ولا قوةَ إلا باللهِ.

الآية ٢١[14] وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ فالخطابُ يَحتمِلُ الخُصوصَ والعُمومَ. وقولُهُ ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وحِّدُوا ربَّكُمْ؛ جعلَ العبادةَ عبارةً عنِ التوحيدِ لأنَّ العبادةَ التي هي للهِ لا تكونُ، ولا تخلُصُ لهُ إلّا بالتوحيدِ. ويُقال: اعبُدُوا: [أي أطيعُوا لهُ][15]، أيِ اجعلُوا عبادَتَكُمْ للهِ، لا تَعْبُدُوا غيرَهُ؛ في كلا التأويلَينِ يرجِعُ إلى الكفرةِ. ويقالُ: اعبُدُوا: أي أطيعُوا لهُ؛ العبادةُ جعلُ العبدِ كُلِّيَّتَهُ للهِ قَولاً وعَمَلاً وعَقْداً، وكذلكَ التوحيدُ والإسلامُ، والطاعةُ ترجعُ إلى الائْتِمارِ لأنهُ يجوزُ أنْ يُطاعَ غيرُ اللهِ، ولا يجوزُ أنْ يُعبَدَ غيرُ اللهِ؛ لأنَّ كلَّ مَنْ عَمِلَ بأمرِ آخرَ فقدْ أطاعَهُ كقولِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، ولا كلُّ مَنْ عَمِلَ بأمرِ آخرَ فهو عابدٌ لهُ، وباللهِ نستعينُ.

ثُمَّ بيَّنَ الذي أمرَ بالتوحيدِ [إيّاهُ][16] والعبادةِ[17] لهُ خالصاً، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، [أيِ الذي خلقَكُمْ وخلَقَ الذينَ مِنْ قبلِكُمْ][18]، [والذينَ تعبدُونَهُمْ لم يخلقُوكُمْ، ولا خلَقُوا الذينَ][19] مِنْ قبلِكُمْ. فكيفَ تعبدُونَهُمْ دونَ الذي خلقَكُمْ؟ وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ تَتَّقُونَ المعاصيَ والمناهيَ والمحارمَ التي حرَّمَ اللهُ عليكمْ؛ فإذا كانَ هذا، هو المرادُ، فذلكَ راجعٌ إلى المؤمنينَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ الشركَ وعبادةَ غيرِ اللهِ تعالى: فذلكَ راجعٌ إلى الكفرةِ.

قالَ الشيخُ: (الأحسنُ[20] في الأمرِ بالتَّقْوَى والتوحيدِ أنْ يُجْعَلَ عامّاً، وفي الخبرِ عنِ التَّقْوَى خاصّاً).

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: بصيت. (٢) أدرج في ط م بعدها: بها. (٣) من ط ع، في الأصل و ط م: فما. (٤) في ط م: فشكره. (٥) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٦) في ط ع: الآية. (٧) في ط م: بينت. (٨) في ط م: فلا. (٩) من ط م، في الأصل و ط ع: في السلوك. (١٠) في ط ع: من الوجه. (١١) من ط م، في الأصل: لوضع، في ط ع: فوضح. (١٢) من ط م. (١٣) من ط ع، في الأصل: رحمة، في ط م: وجه. (١٤) انظر الحاشية التاسعة في الصفحة: ٢١ . (١٥) ساقطة من ط ع. (١٦) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٧) في ط م: وبالعبادة. (١٨) من ط ع. (١٩) في ط ع: والذي تعبدونه لم يخلقكم ولا خلق الذين. (٢٠) من ط ع وط م، في الأصل: الحسن.

[وقولُهُ][1]: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي كي تَتَّقُوا[2].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾؛ بيَّنَ ذاتَهُ[3] الذي أمرَ بالتوحيدِ لهُ وتوجيهِ العبادةِ إليهِ وإخلاصِ النِّيَّةِ لهُ، فقالَ: الذي أمرَ بالتوحيدِ لهُ وتوجيهِ العبادةِ إليهِ وإخلاصِ النِّيَّةِ لهُ، فقالَ: الذي فرشَ لكمُ الأرضَ لِتَنتَفِعُوا[4] بها، وتَقضُوا حوائجَكُمْ فيها مِنْ أنواعِ المَنامِ عليها واتِّخاذِ المُستقرِّ والمَسْكَنِ فيها.

[وقولُهُ][5]: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ [أي رفعَ السماءَ بناءً][6]، والسماءُ: كلُّ ما عَلَا، وارتفعَ، كما يقالُ لسقفِ البيتِ سماءٌ لِارْتِفاعِهِ وسمَّى[7] السماءَ بِناءً، وإنْ كانَ لا يُشبِهُ بِناءَ الخَلْقِ حتى يُعلَمَ أنَّ البناءَ ليسَ اسْمَ ما يَبني الناسُ خاصةً[8].

ثم بيَّنَ بقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: وجِّهُوا العبادةَ إلى الذي يُنَزِّلُ لكمْ مِنَ السماءِ ماءً عندَ حَوائِجِكُمْ، ولا تعبُدُوا مَنْ تعلَمونَ أنهُ لم يخلقْكُم، ولا أنزلَ مِنَ السماءِ ماءً، ولا أخرجَ مِنْ ذلكَ الماءِ المُنْزَّلِ مِنَ السماءِ رزقاً تأكلونَهُ وماءً عذباً تشربُونَهُ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ المقصودَ في خلْقِ السماءِ والأرضِ وإنزالِ الماءِ منها وإخراجِ هذِهِ الثمراتِ وأنواعِ المنافعِ بنو آدمَ؛ وهمُ المُمْتَحَنُونَ [فيها][9] بدلالةِ قولِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وما ذكرَ مَنَ المُخْرَجِ والمُنْزَلِ منها وما ذكرَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] ومنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣ والنحل: ١٢]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ممَّا [يكثرُ مِنَ الآياتِ][10]. أضافَ ذلكَ كلَّهُ إلينا.

ثم جعلَ ﷻ بلطفِهِ منافعَ السماءِ مُتَّصِلةً بمنافعِ الأرضِ على بُعْدِ ما بينَهُما مِنَ المسافةِ حتى لا تُخرِجَ الأرضُ شيئاً إلَّا بما يُنَزِّلُ مِنَ السماءِ [مِنَ الماءِ لِيُعْلَمَ أنَّ منشِئَ السماءِ][11] هو منشِئُ الأرضِ لأنهُ لو كان منشِئُ هذا غيرَ منشِئِ الآخرِ لكانَ لا معنًى لِاتِّصالِ منافعِ هذا بمنافعِ الآخرِ على بعدِ ما بينَهما ولَتُوُهِّمَ كونُ الخلافِ مِنْ أحدِهِما للآخرِ. فإذا كانَ كذلكَ دلَّ على [أنَّ][12] منشِئَهُمَا واحدٌ، لا شريكَ لَهُ ولا نِدَّ.

ثم زعمَ قومٌ أنَّ الأشياءَ كلَّها حِلٌّ لنا طِلْقٌ غيرُ محظورٍ علينا حتى يجيءَ ما يُحْظِرُ، فاسْتَدَلُّوا بظاهِرِ هذِهِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ وبقولِهِ: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقالَ آخرونَ: لا يدلُّ ذلكَ على الإباحةِ، وذلكَ أنَّ الأشياءَ لم تَصِرْ لَنا مِنْ كُلِّ الوجوهِ، فهو على الحَظْرِ حتى تجيءَ الإباحةُ، ولأنَّ الأشياءَ لا تحِلُّ إلَّا بأسبابٍ تَتَقَدَّمُ[13]، فظهرَ الحَظْرُ قبلَ وجودِ الأسبابِ، فهو على ذلكَ حتى يجيءَ ما يُحِلُّ ويُبيحُ، أو يقالُ: خَلَقَ هذه الأشياءَ لنا مِحْنةً امْتُحِنَّا بها أو فتنةً بها [افْتُتِنَّا][14] كقولِهِ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنعام: ٢٨] وكقولِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥]، ولأنَّ في العقلِ ما يدفعُ حَمْلَ الأشياءِ كلِّها على الإباحةِ لِما في ذلك فسادُ الخَلْقِ وتَفانيهِمْ. فبيَّنَ لكلٍّ[15] منهمْ مُلْكاً على حِدَةٍ بسببٍ يَكتسِبُ بِهِ لئلا يَحمِلَهُمْ على التفاني والفسادِ، وباللهِ نستعينُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أعدالاً وأشكالاً في العبادةِ، وكلُّهُ واحدٌ؛ نِدُّ الشيءِ، هو عِدْلُهُ، وشَكْلُهُ، هو مِثْلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) في ط م: تتقون. (٣) في ط م: اتقاه. (٤) من ط م، في الأصل و ط ع: فتنتفعوا. (٥) ساقطة من الأصل و ط م و ط ع. (٦) من ط م. (٧) من ط م، في الأصل و ط ع: وسماه. (٨) في ط ع: خاصته. (٩) من ط م. (١٠) من ط م، في الأصل و ط ع: يكثر ذلك من الآيات. (١١) من ط م و ط ع. (١٢) من ط م و ط ع. (١٣) من ط م و ط ع، في الأصل: تقدم. (١٤) ساقطة من الأصل و ط م. (١٥) من ط م، في الأصل وط ع: بكل.

الأولُ][١]: أنْ[٢] لا نِدَّ، ولا عِدْلَ، ولا شَكْلَ لِما أراكُمْ مِنْ إنشاءِ هذهِ الأشياءِ، ولم تَروا [مِنْ][٣] ذلكَ مِمَّنْ تعبدُونَه شيئاً.

والثاني: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لِما أنشأ فيكمْ مِنَ الأشياءِ ما لو تَدَبَّرْتُمْ، وتفكَّرْتُمْ، وتأمَّلْتُمْ، عَلِمْتُمْ أنهُ لا نِدَّ لَهُ، ولا شكلَ لهُ، كقولِهِ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

الآية ٢٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ مِنَ القرآنِ أنهُ مُختلَقٌ مُفترًى وأنه ليسَ منهُ[٤] كقولِهِمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] وقولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] و﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي [ائْتُوا أنتُمْ][٥] بِمِثْلِ ما أتى هو؛ إذْ أنتمْ وهو سَواءٌ في الجوهرِ والخِلْقَةِ واللِّسانِ، ليس هو أولَى بذلكَ منكُمْ أعني في الاِخْتِلاقِ[٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي اسْتَعِينُوا بآلِهتِكُمُ الذينَ تَعبدُونَ مِنْ دونِ اللهِ حتى تُعِينَ لكمْ على إتيانِ مِثْلِهِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالتِكُمْ إنهُ مُختلَقٌ مُفترًى. ويُقالُ: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ يعني شعراءَكُمْ وخُطباءَكُمْ ليُعِينُوكُمْ على إتيانِ مِثْلِهِ. ويُقالُ: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ مِنَ التوراةِ والإنجيلِ والزبورِ وسائرِ الكتبِ المُنَزَّلَةِ على الرسلِ السالفةِ أنهُ مُختلَقٌ مُفترًى.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً: يَحتَمِلُ أنهمْ أقَرُّوا على إثرِ ذلكَ بالعجزِ[٧] عن إتيانِ مثلِهِ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ ولا اشْتِغالٍ كانَ منهم لَمَّا دفعَ ﷻ عَنْ أطماعِهِمْ إتيانَ مِثْلِهِ نظماً، [ويَحتَمِلُ][٨] لاجْتَهَدوا كلَّ جهدِهِمْ، وتكلَّفُوا كلَّ طاقتِهِمْ على إطفاءِ النورِ، لِيَخرُجَ قولُهُمْ على الصدقِ بأنهُ مُختلَقٌ مُفترًى، ويَظهَرَ كذبُ الرسولِ ﷺ أنهُ كلامُ ربِّ العالَمِينَ. [فأقَرُّوا عندَ ذلكَ بالعجزِ][٩]؛ فدلَّ إقرارُهُمْ بالعجزِ عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ وتركُ اشْتِغالِهِمْ بذلكَ أنهُ كلامُ ربِّ العالَمِينَ مُنَزَّلٌ على نبيِّهِ رسولِهِ[١٠] ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ الوَقودُ بالنصبِ، هو الحطبُ، وبالرفعِ، هو النارُ؛ أخبرَ[١١] ﷻ أنَّ حطبَها الناسُ/ ٦ - أ/ كُلَّما[١٢] احترَقُوا أُعِيدُوا، وبُدِّلُوا كقولِهِ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فيه وجهانِ: قيلَ: هي الكبريتُ، وقيلَ: الحجارةُ بعينِها لصلابتِها، وشدتُها أشدُّ احْتِراقاً وأكثرُ إحماءً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآيةِ دلالةٌ أنها لم تُعَدَّ لغيرِ الكافرينَ، وهي تَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ حينَ خَلَّدُوا صاحبَ الكبيرةِ في النارِ، ولم يُطْلِقُوا لهُ اسْمَ الكفرِ[١٣]، [وفي زعمِهِمْ][١٤] أنها أُعِدَّتْ للكافرينَ أيضاً، وإنْ كانَ تعذيبُ المؤمنِ بمعاصٍ يَرْتَكِبُها وأوزارٍ حَمَلَها وفواحِشَ تَعاطاها. وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُعذِّبُ مَنْ يشاءُ بما شاءَ، وليسَ إلى الخلقِ الحُكْمُ في ذلكَ لِقولِهِ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

فإن قالُوا: إنَّ أطفالَ المشركينَ في الجنةِ، والجنةُ لم تُعَدَّ لهمْ، وإنما أُعِدَّتْ للمؤمنِينَ، ثم جازَ دخولُ غيرِهِمْ فيها وتخليدُهُمْ. وكذلكَ النارُ، وإنْ كانَتْ مُعَدَّةً للكافرينَ جازَ لغيرِ الكافرِ التعذيبُ والتخليدُ فيها، كقولِهِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦] شَرَطَ الكفرَ بعدَ الإيمانِ. ثم مَنْ ينشأُ على الكفرِ والذي كفرَ بعدَ الإيمانِ سَواءٌ في التخليدِ، فكذلكَ مرتكبُ الكبيرةِ والكافرُ سَواءٌ في التخليدِ، فيقالُ لهمْ: إنَّ كُلَّ كافرٍ تَشْهَدُ خِلْقَتُهُ على وحدانيَّةِ ربِّهِ؛ فإذا تركَ النظرَ في نفسِهِ، واختارَ [الإعنادَ، صارَ][١٥] كَكُفْرٍ بعدَ الإيمانِ لأنهُ لم يكنْ مؤمناً، ثم كفرَ.

---

(١) في ط م: الأول، ساقطة من الأصل و ط ع. (٢) من ط م و ط ع، في الأصل: أي. (٣) من ط م. (٤) من ط م، في الأصل و ط ع: منهم. (٥) من ط م، في الأصل: ائتوني، في ط ع: ائتوني أنتم. (٦) من ط م و ط ع، في الأصل: الاختلاف. (٧) من ط م، في الأصل و ط ع: العجز. (٨) من ط ع. (٩) من ط ع. (١٠) في ط م: ورسوله. (١١) في ط ع: أخبره. (١٢) من ط م و ط ع في الأصل: كلها. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: الكفرة. (١٤) من ط م. (١٥) في الأصل وط م: الإعناد، فصار، في ط ع: الاختيار، فصار.

وأمّا قولُهُمْ في الأطفالِ فإنَّهم إنما أُخلِدُوا[١] [في][٢] الجنةِ جزاءً لهم مِنْ ربِّهِمْ، ولله[٣] أن يعطيَ الجزاءَ مَنْ شاءَ بلا فعلٍ ولا صنعٍ كانَ منهُ فضلاً وكرامةً. وذلكَ في العقلِ جائزٌ إعطاءُ الثوابِ بلا عملٍ على الإفضالِ والإكرامِ.

وأمّا التعذيبُ فإنه غيرُ جائزٍ في العقلِ بلا ذنبٍ يَرتكبُهُ، والله أعلمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ الآيةُ تنقضُ قولَ مَنْ جعلَ جميعَ الطاعاتِ إيماناً لِما أثبتَ لهمُ اسْمَ الإيمانِ بدونِ[٤] الأعمالِ الصالحاتِ، غيرَ أنَّ البِشارةَ لهمْ وذهابَ الخوفِ عنهمْ إنما أُثبِتا بالأعمالِ الصالحاتِ. وتَحتمِلُ الأعمالُ الصالحاتُ عملَ القلبِ؛ وهو أنْ يأتيَ بإيمانٍ خالصٍ للهِ لا كإيمانِ المنافقِ بالقولِ دونَ القلبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [يعني بساتينَ. وقولُهُ: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: إنَّ البساتينَ ليسَتْ هيَ اسْمَ الأرضِ والبقعةِ خاصةً، ولكنْ ما يجمعُ مِنَ الأشجارِ وما ينبتُ فيها مِنْ ألوانِ الغروسِ المثمرةِ، فعندَ ذلك يُسمَّى بستاناً. وقولُهُ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾][٥] أي مِنْ تحتِ أشجارِها وأغراسِها الأنهارُ. وقيلَ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ ممّا يقعُ البصرُ عليها، وذلكَ أنزهُ عندَ الناسِ وأجلَى وأنبلُ. وقيلَ أيضاً: و﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي مِنْ تحتِ ما عَلَا منها [مِنَ القصورِ والغرفِ][٦] لا تحتَ الأرضِ [ممّا يكونُ في الدنيا في بعضِ المواضعِ، يكونُ الماءُ تحت الأرضِ][٧] كقولِهِ[٨] ﷺ «تحتَ كلِ شعرةٍ جَنابةٌ» [البيهقي في الكبرى ١/ ١٧٥] أي تحتَ ما عَلا لا تحتَ الجلدِ، فكذلكَ الأوّلُ مِنْ تحتِ ما عَلَا مِنَ القصورِ والغُرَفِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قيلَ: هو بوجوهٍ: ﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [أي][٩] في الدنيا [وقيلَ: ﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾][١٠] أي هذا الذي وُعِدْنا في الدنيا أنْ[١١] في الجنة هذا. وقيلَ: ﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ هُمْ[١٢] في الجنةِ قبلَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ، [قيلَ: متشابهاً][١٣] في المنظرِ مختلفاً في الطعمِ، وقيلَ متشابِهاً في الطعمِ مختلِفاً في رأيِ العينِ والألوانِ، لأنَّ مِنَ الفواكِهِ ما يُستَلَذُّ بالنظرِ إليها دونَ التناولِ منها، وقيلَ: متشابِهاً في الحُسْنِ والبَهاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ مِنْ سوءِ الخُلُقِ والدناءةِ، ليسَ كنساءِ الدنيا لا يسلَمْنَ عنْ ذلكَ. وقيلَ: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الأمراضِ والأسقامِ وأنواعِ ما يُبلى بهِ في الدنيا مِنَ الدَّرَنِ والوَسَخِ والحَيضِ. وقيلَ: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ لِصفاءِ جَوهرِها كما يُقالُ: يُرَى مخُّ ساقِيها مِنْ كذا وكذا. وقيلَ: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ مُختارةٌ مُهذَّبةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مُقيمونَ أبداً. فالآيةُ تردُّ على الجَهْمِيَّةِ قولَهُمْ؛ لأنهمْ يقولُونَ بفَناءِ الجنةِ وفَناءِ ما فيها، ويذهبونَ[١٤] إلى أنَّ اللهَ تعالى، هو الأوّلُ والآخرُ والباقي، ولو كانتِ الجنةُ باقيةً غيرَ فانيةٍ لكانَ ذلكَ [تشبيهاً، لكنَّ ذلكَ][١٥] وَهْمٌ عندَنا؛ لأنَّ اللهَ تعالى، هو الأوّلُ بذاتِهِ والآخرُ بذاتِهِ، والباقي [بذاتِهِ][١٦]، والجنةُ وما فيها باقيةٌ بغيرِها. ولو كانَ في ما ذكرَ تشبيهٌ لكانَ في العالِمِ والسميعِ والبصيرِ تشبيهٌ، ولكانَ في الخَلْقِ أيضاً في حالِ البقاءِ تشبيهٌ. فإذا لم يكنْ في ما ذكرْنا تشبيهٌ لم يكنْ في ما تقدَّمَ تشبيهٌ. وأيضاً[١٧] فإنَّ اللهَ تعالى جعلَ الجنَّةَ داراً مُطَهَّرَةً مِنَ[١٨] المعايِبِ كلِّها لمَّا سمَّاها: دارَ قدسٍ ودارَ سلامٍ. ولو كانَ آخرُها للفناءِ لكانَ[١٩] فيها أعظمُ المعايبِ؛ إذِ المرءُ لا يهنأُ بعيشٍ إذا نُغِّصَ عليه بزوالِهِ. فلو كانَ آخرُهُ للزوالِ كانَ نعمةً مُنَغَّصَةً على أهلِها؛ فلمّا نُزِّهَ عنِ العيوبِ كلِّها، وهذا أعظمُ الغُيوبِ، لذلكَ[٢٠] كانَ التخليدُ لأهلِها أولَى بها.

---

(١) في ط م: خُلِّدُوا. (٢) من ط ع. (٣) من ط م و ط ع، في الأصل: والله. (٤) من ط ع، في الأصل وط م: دون. (٥) من ط م و ط ع. (٦) من ط م. (٧) من ط م. (٨) في ط م: دليله ما روي أن. (٩) من ط ع. (١٠) من ط م، في ط ع: وقيل، ساقطة من الأصل. (١١) من ط م وط ع، في الأصل: أي. (١٢) ساقطة من ط م. (١٣) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وط م. (١٥) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٦) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٧) الواو ساقطة من ط ع. (١٨) في ط ع: عن. (١٩) من ط ع، في الأصل وط م: كان. (٢٠) من ط م، في الأصل وط ع: كذلك.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ كأنَّ هذا، والله أعلم، يخرجُ جواباً على إثرِ قولٍ قالَهُ الكفرةُ لرسولِ اللهِ ﷺ على ما ذكرَهُ بعضُ أهلِ التأويل، فقالُوا: ما يَسْتَحِيي ربُّكَ أنْ يذكرَ البعوضَ والذبابَ ونحوَها مِمّا[1] يصغُرُ في نفسِهِ، وملوكُ الأرضِ لا يذكُرونَ ذلكَ، ويَسْتَحْيُونَ؟ فقالَ ﷻ جواباً لقولِهِمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ الآية لأنَّ ملوكَ الأرضِ إنما ينظرونَ إلى هذهِ الأشياءِ بالإسْتِحقارِ لها والإسْتِذْلالِ، فَيَسْتَحيُونَ مِنْ ذكرِها على الإنكافِ[2] والأنفَةِ، واللهُ ﷻ لا يَسْتَحْيِي مِنْ ذلكَ؛ لأنَّ الأعجوبةَ في الدلالةِ على وحدانيةِ اللهِ تعالى وربوبيتِهِ في خَلْقِ الصغيرِ مِنَ الجُثَّةِ والجسمِ أكبرُ مِنَ الكبارِ منها والعظامِ، لأنَّ الخلائقَ لو اجتمعُوا على تصويرِ صورةٍ مِنْ نحوِ البعوضةِ والذبابِ وتركيبِ ما يَحتاجُ إليهِ [مِنَ][3] الفمِ والأنفِ والرجلِ واليدِ والمدخلِ والمخرجِ ما قَدَرُوا، ولعلَّهُمْ يقدِرُونَ [على][4] ذلكَ في العظامِ مِنَ الأجسامِ والكبارِ منها. فأولئكَ لم ينظُروا إليها لِما فيهِ مِنَ الأعجوبةِ واللطافةِ، ولكنْ نَظَرُوا للحقارةِ والخَساسةِ أنَفاً منهمْ وإنكافاً.

ثم اختلَفَ أهلُ الكلامِ في إضافةِ الحياءِ إلى اللهِ تعالى؛ فقالَ قومٌ: يجوزُ ذلكَ لِما رُوِيَ في الخبرِ «أنَّ اللهَ يَسْتَحْيِي أنْ يعذِّبَ مَنْ شابَ في الإسلامِ» [العجلوني في كشف الخفاء ٧٤١] ولأنهُ يجوزُ كالتكبُّرِ والإسْتِهزاءِ والمُخادعةِ، وقد ذَكَرْنا الوجهَ في ما تَقَدَّمَ[5]. وقالَ آخرونَ: لا يجوزُ إضافتُهُ إلى اللهِ تعالى لأنَّ تحتَهُ الإنكافَ والأنفةَ، وذلكَ عَنِ اللهِ تعالى مَنْفِيٌّ. ولكنَّ الحياءَ هو الرِّضا ههنا، والحياءُ التركُ، أي لا يتركُ، ولا يَدَعُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي علمُوا أنَّ ضربَ المثلِ بما ذكرَ مِنْ صِغارِ[6] الأجسامِ حقٌّ لِما نظرُوا إلى ما فيها مِنَ الأعجوبةِ والحكمةِ واللطافةِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ لم ينظُروا فيها [لِما فيها][8] مِنَ الأعجوبةِ والحكمةِ ولكنْ نظَرُوا لِلخَساسةِ والحَقارةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ الآية [وفيهِ وجهانِ:

الأوَّلُ][9]: يَنقضُ[10] على المعتزلةِ قولَهُمْ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ [المدثر: ٣١] فقالَ: أرادَ أنْ يُضلَّ بهذا المثلِ كثيراً، وأرادَ أنْ يهديَ بهِ كثيراً؛ أضلَّ بهِ مَنْ عَلِمَ منهُ[11] أنهُ يختارُ الضلالةَ، ويهدي به مَنْ عَلِمَ أنهُ يختارُ الهُدَى، أرادَ مِنْ كلٍّ ما عَلِمَ منهُ أنهُ يختارُ، ويُؤْثِرُ، واللهُ أعلمُ. [وهمْ يقولُونَ][12]: بل أرادَ أنْ يهديَ بهِ الكلَّ، ولكنَّهُمْ لم يَهتدُوا.

والثاني: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أي خلقَ فعلَ الضلالةِ مِنَ الضالِّ، وخلقَ فعلَ الإهْتِداءِ مِنَ المُهْتَدي. وقد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[13].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي ما يضلُّ بهذا المثلِ إلّا الفاسقَ الذي لا ينظرُ إلى ما فيها مِنَ الأعجوبةِ واللطافةِ في الدلالةِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ عهدُ اللهِ يكونُ على وجهَينِ: عهدُ خِلْقَةٍ: لِما يَشْهَدُ خَلْقَهُ كلُّ أحدٍ على وحدانيةِ الربِّ كقولِهِ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وكقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨] الآية؛ إنهُ إنْ نظرَ في نفسِهِ، وتأمَّلَ عرفَ أنَّ لهُ صانعاً، وأنهُ واحدٌ لا شريكَ لهُ. وعهدُ رسالةٍ [على ألسنةِ الأنبياءِ][14] والرسلِ ﷺ كقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ الآية [المائدة: ١٢] وكقولِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧]. فَنَقَضُوا العهدَينِ جميعاً: عهدَ الخِلْقَةِ وعهدَ الرسالةِ.

---

(١) من ط م، في الأصل و ط ع: ما. (٢) الإنكاف: مصدر أنكف: أنفت منه. (٣) من ط م. (٤) من ط م. (٥) ذلك في تفسير الآية ١٥ . (٦) من ط م وط ع، في الأصل: صغائر. (٧) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٨) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٩) زدنا هذه العبارة لذكر الوجه الثاني للآية. (١٠) في ط م وط ع: تنقض. (١١) من ط م، في الأصل: به، ساقطة من ط ع. (١٢) ساقطة من ط ع. (١٣) ذلك في تفسير قولِهِ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥]. (١٤) من ط م، ساقطة من الأصل و ط ع.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يَحتمِلُ وجهَين: يقطعُونَ الإيمانَ ببعضِ الرسلِ، وقد أُمِرُوا بالوصلِ كقولِهِ: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]. وقيلَ: يقطعُونَ ما أمرَ اللهُ بهِ مِن صِلَةِ الأرحامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قيلَ [فيهِ](١) بوجهَين: يُفسِدُون بما يأمُرُونَ(٢) في الأرض [بالفسادِ](٣) كقولِهِ: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقيلَ: يُفسِدُونَ أي يَتعاطَونَ بأنفُسِهِمْ في الأرضِ/٦ ـ ب/ بالفسادِ كقولِهِ(٤): ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣ و٦٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يَحتمِلُ أيضاً وجهَينِ: خَسِرُوا لِما [فاتَ عنهم، وذهبَ](٥) مِنَ المُنى والأماني في الدنيا.

ورُوِيَ عَنِ الحسنِ أنهُ قالَ: في قولِهِ: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (أي قَذفُوا بأنفسِهِمْ باختيارِهِمُ الكفرَ بينَ أطباقِ النارِ، فذلكَ هو الخسرانُ المُبينُ).

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: ﴿كَيْفَ﴾ مِنْ أينَ ظهرَتْ لكُمُ الحجةُ أنْ تعبدُوا مِنْ دونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغيرِها أنهُ حقٌّ؟ ولم يظهرْ لكمْ منها الإنشاءُ بعدَ الموتِ ولا الإماتةُ بعدَ الإحياءِ؟ وقيلَ: وكيفَ تكفُرُونَ بالبعثِ بعدَ الموتِ ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ يعني نُطفاً ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾، وأنتم لا تُنكِرونَ إنشاءَ الأوَلِ، فكيفَ تُنكِرُونَ البعثَ والإحياءَ بعدَ الموتِ؟ [وقيلَ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ بالإحياءِ والبعثِ بعدَ الموتِ](٦)؟ وفي العقلِ أنَّ خَلْقَ الخَلْقِ للإفناءِ والإماتَةَ مِنْ غيرِ قصدِ العاقبةِ عَبَثٌ ولَعِبٌ؟ لأنَّ كلَّ بانٍ بَنَى للنقضِ فهو عابثٌ. وكذلكَ كلُّ ساعٍ في ما لا عاقبَةَ لهُ فهو عابثٌ هازلٌ. فكيف تجعلُونَ فعلَهُ ﷻ إذ لو(٧) لم يجعلْ للخَلْقِ داراً للجزاءِ والعقابِ كانَ في خَلْقِهِ إياهمْ عابثاً هازِلاً خارِجاً مِنَ الحكمةِ؟ تعالى اللهُ عمّا يقولُ الظالِمونَ علوّاً كبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فيه وَجهانِ:

الأوّلُ](٨): أنكم تُرجَعُونَ إليهِ. وكذلكَ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و..] و﴿مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

والثاني: تُرجَعُونَ إلى [ما](٩) أعدَّ لكمْ مِنَ العذابِ. احتجَّ عليهِمْ بما أخبرَهُمُ اللهُ أنهُ أنشأهُمْ بعدَ المَوتةِ الأُولى وانهُ(١٠) يبعثُهُمْ بعدَ المَوتةِ الأخرى ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: ثم اعْلَمُوا أنكم إليهِ تُرجَعونَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قيلَ: إنهُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي كيفَ تكفُرونَ بالذي خلقَ لكمْ ما في الأرض ما يدلُّكُم على وحدانيَّتِهِ(١١)؟.

ويحتملُ: كيف تكفُرونَ بالذي خَلَقَ لكمْ ما في الأرضِ نعيماً مِنْ غيرِ أنْ كانَ وجبَ لكمْ عليهِ حقٌّ مِنْ ذلكَ لِتشكُرُوا لهُ عليها؟ [فَكَيفَ](١٢) وجَّهتُمْ أنتمُ الشكرَ فيها إلى غيرِهِ؟.

ويَحتمِلُ: خلقَ لكمْ ما في الأرضِ مِحنةً يَمتَحِنُكُمْ بها في الدنيا كقولِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧ والملك: ٢]، ثم لِتُجزَوْنَ في دارٍ أُخرَى، فكيفَ أنكرتُمُ البعثَ؟.

وفي(١٣) خَلْقِ الخَلْقِ في الدنيا للفَناءِ [وإحيائِهِمْ في الآخرةِ](١٤) حكمةٌ، وفي إنكارِها ذهابُ الحكمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قيلَ: فيه وجوهٌ(١٥): قيلَ: اسْتَوَى [إلى](١٦) الدخانِ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى

---

(١) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٢) من ط م، في الأصل: يؤمر، في ط ع: يؤمرون. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: و. (٤) من ط م، في الأصل و ط ع: وكقوله. (٥) من ط م وط ع، في الأصل: عنهم ذهب. (٦) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من ط ع. (٨) زدنا هذه العبارة لذكر الوجه الثاني للآية. (٩) من ط م وط ع، ساقطة منَ الأصل. (١٠) من ط م، في الأصل وط ع: أن. (١١) أدرج في ط م بعد كلمة وحدانيته: (لأنه ليس شيء في الأرض إلا وفيه دلالةُ واحدانيتِهِ)، في وط ع: (وليس شيء من الأرضِ إلا وفيه دلالةُ وحدانيتِهِ). (١٢) من ط م وط ع، ساقطة منَ الأصل. (١٣) أدرج بعدها في النسخ الثلاث: بيان حكمة. (١٤) في النسخ الثلاث: والإحياء للآخرة. (١٥) من ط ع، في الأصل: وجوهاً، في ط م: بوجوه. (١٦) من ط م.

﴿ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وقيلَ: استوى: تَمَّ كقولِهِ: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]: أي تَمَّ. وقيلَ: استَوى: أي استَولَى.

والأصلُ عندنا في قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...] وغيرِها مِنَ الآياتِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآيةَ مِنَ الآياتِ التي ظنَّتِ[1] المُشَبِّهةُ أنَّ فيها تحقيقَ وصفِ اللهِ تعالى بما يستحِقُّ كثيرٌ مِنَ الخَلْقِ الوصفَ بِهِ على التَّشابُهِ.

في الحقيقةِ أنها تَحتمِلُ وجُوهاً:

أحدُها: أنْ نصفَهُ بالذي جاءَ بِهِ التنزيلُ على ما جاءَ، ونعلمَ أنهُ لا يُشَبَّهُ على ما ذُكِرَ مِنَ الفعلِ فيهِ بغيرِهِ لأنكَ بالجملةِ تعتقدُ[2] أنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وأنهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ لهُ مثلٌ[3] في شيءٍ؛ إذ لا يوجدُ حدثُهُ فيهِ أو قِدَمُ ذلكَ الشيءِ مِنَ الوجهِ الذي أشبهَ اللهَ. وذلكَ مدفوعٌ بالعقلِ والسمعِ جميعاً مَعَ ما لم يَجُزْ أنْ يُقَدَّرَ الصانعُ عندَ الوصفِ بالفعلِ كغيرِهِ، وأنهُ حيٌّ قديرٌ سميعٌ بصيرٌ نَفَى ما عليه أمرُ الخَلْقِ لِما يصيرُ بذلكَ أحدُ الخلائقِ. وإذا [بطلَ هذا بطلَ][4] التشابُهُ، وانتَفَى، ولَزِمَ أمرُ السمعِ والتنزيلِ على ما أرادَ اللهُ، وباللهِ التوفيقُ.

والثاني أنْ يُمكِّنَ فيهِ معانٍ تُخرِّجُ الكلامَ مُخرَجَ الاختِصارِ والاكتِفاءِ بمواضعِ إفهامٍ في تلكَ المواضعِ على إتمامِ البيانِ؛ وذلكَ نحوُ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] أي بالملكِ. وذلكَ كقولِهِ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] [أي بربِّكَ ﴿فَقَٰتِلَآ﴾][5]؛ إذْ معلومٌ أنهُ يقاتلُ بربِّهِ، فَفُهِمَ منهُ ذلكَ. وكذلكَ معلومٌ أنَّ الملائكةَ يأتونَ فكأنَّهُ بيَّنَ ذلكَ؛ يدلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وكذلكَ [قولُهُ][6]: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآيةَ.

وممّا يوضِّحُ أنهُ لم يكنْ أحدٌ اعتَقَدَ أو تَصَوَّرَ في وَهْمِهِ[7] النظرَ لإتيانِ الربِّ ومجيئِهِ، ولا كانَ بنزولِهِ وعدٌ يُنْظَرُ[8]، وكانَ بنزولِ[9] الملائكةِ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ﴾ [الفرقان: ٢٢] الآيةَ وقولِهِ: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] في ما ذكرْنا عظيمَ أمرِهِمْ وجليلَ شأنِهِمْ.

ومثلُهُ[10] في قولِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] مَعَ مالَهُ وجهانِ:

أحدُهُما: أنْ يكونَ معنى العرشِ المُلْكَ والاستِواءَ التامَّ الذي لا يُوصفُ بنقصانٍ في مُلْكٍ أوِ الاستيلاءَ عليهِ وأنْ لا سلطانَ لغيرِهِ ولا تدبيرَ لأحدٍ فيهِ.

والثاني: أنْ يكونَ العرشُ أعلى الخَلْقِ وأرفَعَهُ، وكذلكَ تُقدِّرُهُ[11] الأوهامُ، فيكونُ موصوفاً بعلُوِّهِ على التعالي عنِ الأمكنةِ وأنهُ على ما كانَ قبلَ كونِ الأمكنةِ، وهو فوقَ كلِّ شيءٍ، أي بالغلَبةِ والقدرةِ والجلالِ عنِ الأمكنةِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وأصلُهُ ما ذكرْنا: ألّا نُقَدِّرَ فعلَهُ بفعلِ الخَلْقِ ولا وصفَهُ بوصفِ الخَلْقِ لأنهُ أخبرَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ مرةً[12] قالَ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾، ومرةً قالَ: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٢، والملك: ٣]، ومرةً قالَ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] الآيةَ[13]، ومرةً قالَ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة: ١١٧]. وكلُّهُ يرجعُ إلى واحدٍ.

---

(١) من ط م وط ع، في الأصل: ظننت. (٢) من ط م وط ع، في الأصل: تعقد. (٣) في ط ع: مثلاً. (٤) من ط م، في ط ع: بطل هذا، في الأصل: بطل. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) من ط ع. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: وجه. (٨) في ط م: بنظر. (٩) من ط م، في الأصل وط ع: بنزل. (١٠) ساقطة من ط م. (١١) من ط م و ط ع، في الأصل: تقدر. (١٢) من ط م وط ع، في الأصل: ومرة. (١٣) ساقطة من ط ع.

الآية ٣٠ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾][(١)]؛ قالَ الشيخُ ﷺ: (القولُ في ما يتوجَّهُ إليه ممّا تضمَّنَ قصةَ آدمَ ﷺ مِنْ سورةِ البقرةِ، والكشفُ عما قالَ فيها أهلُ التفسيرِ مِنْ غيرِ شهادةٍ لأحدٍ مِنّا لإصابةِ جميعِ [ما][(٢)] فيهِ من الحكمةِ أو القطعِ على تحقيقِ شيءٍ، ووجَّهوا[(٣)] إليهِ بالإحاطةِ. ولكنَّ الغالبَ ممّا يَحتمِلُهُ تدبيرُ البشرِ، ويَبْلُغُهُ مبلغَ علمِنا مما يجوزُ أنْ يوصفَ بهِ أهلُ المِحنةِ، وإنْ كانَ تنزيهُ الملائكةِ عَنْ كلِّ معنًى، فيه وحشةٌ، أولَى بما وصفَهُمُ اللهُ مِنَ الطاعةِ بقولِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٦ و٢٧] الآيةَ[(٤)]، وقولِهِ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] الآيةَ[(٥)]، وقولِهِ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وما جاءَتْ بهِ الآثارُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ [وصفِ][(٦)] طاعتِهِمْ للهِ تعالى ومُواظبتِهِمْ على العبادةِ وما لا يُذْكَرُ مِنْ أحدٍ مِنَ الرسلِ وصفُ مَلَكٍ بالمعصيةِ. بل إنما ذلكَ يُذْكَرُ عَنْ بعضِ السلفِ ممّا لا لَومَ في مخالفتِهِ في فروعِ الدينِ فضلاً مِنْ أنْ يُبْسَطَ اللسانُ في ملائكةِ اللهِ، سبحانَهُ، وباللهِ المعونةُ والعصمةُ[(٧)]).

قالَ اللهُ تعالى لملائكتِهِ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآيةَ[(٨)]. زعمَ قومٌ أنَّ هذا زلَّةٌ منهُمْ، لم يكنْ ينبغي لهُمْ أنْ يقابلُوا قولَهُ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ بهذا لِما يُتْبِعُ قولَهُمْ هذا. ومعلومٌ عندَهمْ أنْ يكونَ هوَ يعلَمُ ما لا يَعلَمونَ، وأيَّدَ ذلكَ بما امتحنَهُمْ بالإنباءِ عَنْ أسماءِ الأشياءِ مقروناً بقولِهِ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، ولو لا أنهُ سبقَ منهمْ ما[(٩)] استحقُّوا عليهِ [التَّوَعُّدَ][(١٠)] لم يكنْ لذلكَ الشرطِ عندَ القولِ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] فائدةٌ معَ ما يُوضَعُ موضعَ التوبيخِ والتهدُّدِ.

ومنهم مَنْ قالَ: إنَّ قولَهُ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قولُ إبليسَ؛ هو الذي تعرَّضَ بهذا القولِ، وإنْ كانَ الكلامُ مذكوراً باسْمِ الجماعةِ؛ لأنهُ جائزٌ خطابُ الواحدِ على إرادةِ الجماعةِ وذِكْرُ الجماعةِ على إرادةِ الواحدِ، وإنْ كانَ خطابُ اللهِ تعالى لجملةِ[(١١)] ملائكتِهِ حينَ قالَ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الآيةَ قولَهُ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ بكذا؛ وهو يعلمُ أنهمْ لا يعلَمُونَ ذلكَ، ولا يُحتملُ أنْ يأمرَهُمْ بذلكَ؛ وهمْ لا يَعلمونَ. ولو تكلَّفُوا ذلكَ لَلَحِقَهُمُ الكذبُ في ذلكَ. ثبتَ أنَّ ذلكَ على التوبيخِ والتهديدِ لِما فَرَطَ منهمْ.

ويكشِفُ عنْ ذلكَ أيضاً عندَ اعترافِهِمْ بأنْ لا علمَ لهمْ إلّا ما علَّمَهُمُ اللهُ /٧ ـ أ/ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣] الآيةَ، ولو لم يكنْ منهمْ ما استحقُّوا بهِ التأديبَ والتنبيهَ عَنْ غفلةٍ سبقَتْ منهمْ لم يكنْ لذلكَ كثيرُ معنًى؛ إذْ لا يَخفَى على اللهِ ﷻ عِلْمُ[(١٢)] ما ذكرَ مِنَ الكفرةِ الأشقياءِ فضلاً عَنِ[(١٣)] الكرامِ البَرَرَةِ.

ولكنْ قدْ يُعاتِبُ الأخيارَ عندَ الهفوةِ والزَّلَّةِ بما يَحُلُّ مِنْ خوفِ التنبيهِ والتوبيخِ نحوُ قولِهِ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقولِهِ لرسولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [الإسراء: ٧٥] الآيةَ وملائكتِهِ[(١٤)]: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٢٩]. واستَجازُوا إمكانَ العصيانِ عندَ المِحنةِ. [ودليلُ][(١٥)] المِحنةِ ما بيَّنّا مِنَ الفعلِ بالأمنِ والخوفِ المذكورِ وما مُدِحُوا بعبادتِهِمْ للهِ تعالى، وما أُوعِدُوا لَوِ ادَّعَوُا الألوهيَّةَ، ولِما لم يُحتمَلْ أنْ يُحمَدُوا على العبادةِ والطاعةِ في ما كانَ فعلُهُمْ على الخيرِ والشرِّ، ولا تعظمُ المِحنةُ في ما لا يمكنُ للمعصيةِ[(١٦)]، ولا تحتمِلُها البيِّنَةُ؛ إذِ الطاعةُ هي اتِّقاءُ المعصيةِ.

---

(١) من ط م. (٢) من ط م وط ع، ساقطة منَ الأصل. (٣) الواو ساقطة من ط ع. (٤) في ط ع أدرجَ الناسخُ تتمةَ الآيةِ بدلَ كلمةِ الآيةِ. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) من ط م وط ع، ساقطة منَ الأصل. (٧) من ط م وط ع، في الأصل: بالمعونةِ. (٨) أدرج الناسخ في ط ع تتمة الآية بدلَ كلمةِ الآيةِ. (٩) من ط م، في الأصل وط ع: لما. (١٠) من ط م، في ط ع: الوعد، ساقطة من الأصل. (١١) من ط م، في الأصل وط ع: بجملة. (١٢) من ط م، في الأصل: يعلمَ، في ط ع: بعلم. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: من. (١٤) في ط م: ولملائكته. (١٥) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٦) في ط م: المعصية.

وقالَ أيضاً: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾ [التحريم: ٦]، ولا يُقالُ مثلُهُ لمنْ لا يَحتمِلُ فعلَ المعصيةِ.

فثبتَ أنَّ المعاصيَ منهمْ ممكنةٌ؛ ولذلكَ خطرُ طاعاتِهِمْ وعِظَمُ قَدْرِ عباداتِهِمْ. والمُمْتَحَنُ مَخوفٌ منهُ الزَّلَّةُ والهَفْوةُ بلِ المعصيةُ وكلُّ بلاءٍ إلّا أن يعصمَهُ اللهُ تعالى، ويَحفظَهُ. وذلكَ مِنَ اللهِ إفضالٌ وإحسانٌ لا يُسْتَحَقُّ قِبَلَهُ، ولا يُلْزِمُهُ أحدٌ مِنْ خَلْقِهِ. فجائزٌ الابتِلاءُ بهِ مَعَ ما في زلَّةِ أمثالِهِمْ مِنْ تركِ الرجاءِ بالخَلْقِ وقطعِ الإياسِ والحثِّ على الفراغِ إلى اللهِ تعالى بالعصمةِ والمعونةِ، إذْ لم يقمْ لطاعتِهِ أحدٌ، وإنْ جلَّ قدرُهُ، عندَما وُكِلَ إلى نفسِهِ بما يَعلمُ اللهُ أنهُ يَختارُ في شيءِ الخلافَ، لا أنهُ يَفْرَغُ إليهِ، ويَتَضَرَّعُ إليهِ.

وعلى ذلكَ معنى زلاتِ الرسلِ ﷺ.

وزعمَ قومٌ أنَّ ذلكَ منهم ليس بالزَّلَّةِ، بلِ اللهُ تعالى عَصَمَهُمْ عنها. ولكنَّ قولَهُ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: على السؤالِ بعدَ أنْ أعلمَهُمُ اللهُ تعالى أنهم يَفعَلُونَ، فقالوُا: كيف يفعلُونَ ذلكَ، وقد خلقْتَهُمْ ورزقْتَهُمْ، وأكرمْتَهُمْ بأنواعِ النعمِ؟ ونحنُ إذْ خلقْتَنا نُسَبِّحُكَ بذلكَ، ونُقَدِّسُ لكَ.

أو كيفَ تَحتمِلُ عقولُهُمْ عِصياناً مَعَ عِظَمِ نعمَتِكَ عليهمْ؟ ونحنُ معاشرَ الملائكةِ تأبى[1] علينا العقولُ ذلكَ. فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أيِ امْتَحَنْتُهُمْ بما رَكَّبَ فيهمْ [مِنَ][2] الشهواتِ التي لِغَلَبَتِهَا على أنفسِهِمْ [تَعْتَرِيهِمْ أنواعُ][3] الغفلةِ، ويَصعبُ عليهمُ التيقُّظُ لكثرةِ الأعداءِ لهمْ وغلبةِ الشهواتِ، فلما عَظُمَتِ المِحنةُ عليهمْ يكونُ منهمْ ذلكَ. وهذا الوجهُ يُخَرَّجُ على سؤالِ الحكمةِ في خَلْقِ مَنْ يَعصيهِ، فأخبرَ أنهُ يَعلَمُ[4] ما لا يَعلمونَ؛ إذْ بذلكَ بيانُ الأولياءِ والأعداءِ وبيانُ أنَّ اللهَ لا يخلقُ مَنْ يخلقُ لِحاجةٍ أو لِمنفعةٍ لهُ؛ إذْ لو كانَ كذلكَ لم يخلُقْ منْ يخالِفُهُ[5] في القولِ الذي أمرَ بِهِ، وإنما خلقَ الخَلْقَ بعضَهُمْ لبعضٍ عِبراً وعِظَةً، فيكونُ في عقوبةِ العصاةِ ووعيدِهِمْ مَزْجَرٌ لغيرِهِمْ ومَوعظةٌ ولغيرِ ذلكَ مِنَ الوجوهِ.

والثاني[6]: أنْ يكونَ المعنى مِنْ قولِهِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ على الإيجابِ، أي أنتَ تفعلُ ذلكَ إذْ ليسَ عليكَ في خَلْقِ مَنْ يعصيكَ ضررٌ، ولا لكَ في خَلْقِ مَنْ يُطِيعُكَ[7] نفعٌ ـ جلَّ ثناؤُكَ ـ مِنْ أنْ يكونَ فعلُكَ لأحدِ هذَيْنِ. وذلكَ كقولِهِ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [النور: ٥٠] الآيةَ على إيجابِ ذلكَ لا على الاستِفهامِ، مَعَ أنَّ الألِفَ زائدةٌ كقولِهِ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩]، وقولِهِ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] بمعنى إنكمْ، وتريدُ، وذلكَ يرجعُ إلى الأولِ.

[وقالَ قومٌ][8]: ومعنى قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [أنَّ اللهَ قد كانَ أخبرَهُمْ عنِ الذينَ يُفسِدونَ، ولم يكنْ أعلَمَهُمْ ما فيهمْ مِنَ الرسلِ والأخيارِ، فهو يَعلَمُ ما لا يَعلَمونَ][9] مِنَ الأخيارِ[10] فيهِمْ؛ ولذلكَ ذكَّرَهُمْ عندَ سؤالِ الإنباءِ بما أعلمَهُمْ مِنْ عِظَمِ امْتِنانِهِ على آدمَ أنْ جعلَهُ بمعنَى نبيٍّ إلى الملائكةِ بما علَّمَهُمُ الأسماءَ، ولم يكنْ بلغَ توهُّمُهُمْ أنَّ في البشرِ ما يحتاجُ المخلوقُونَ[11] مِنَ النورِ الذي هو سببُ رفعِ الأستارِ عنِ الأشياءِ وجلاءِ الأشياءِ بهِ، ثم يَحتاجونَ في اقْتِباسِ العلمِ إلى مَنْ هوَ مِنْ جوهرِ الترابِ والماءِ الذي هو أصلُ السَّترِ والظلمةِ، فأراهُمُ اللهُ تعالى بذلكَ لِيَعْلَمُوا أنْ ليسَ طريقُ المعرفةِ والعلمِ بالأشياءِ الخِلْقَةَ، ولكنْ لطفُ اللهِ وامْتِنانُهُ. ولا قوةَ إلا باللهِ.

وقالَ قومٌ: كانَ منهمْ منِ استحقَّ العتابَ مِنْ طريقِ الخَطَرِ بالقلوبِ لا مِنْ طريقِ الزَّلَّةِ التي هي العصيانُ، ولكنهمْ يُعاتَبُونَ على أمثالِ ذلكَ، وإنْ لم تبلُغْ بِهِمُ المعصيةُ لعلوِّ شأنِهِمْ ولِعِظَمِ قدرِهِمْ، كما قد عاتبَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ في أشياءَ، وإنْ لم يكنْ ذلكَ منهُ معصيةً، كقولِهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] الآيةَ وقولِهِ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: تأتي. (٢) من ط م. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: تغيرهم على. (٤) في ط ع: بعلم يعلم. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: يخالفُ. (٦) في النسخ الثلاث: والوجه الأخر. (٧) من ط م وط ع، في الأصل: يعطيك. (٨) في ط م: وقال، في الأصل و ط ع: قال. (٩) من ط م. (١٠) من ط م، في الأصل وط ع: الاختيار. (١١) من ط م، في الأصل: المخلون، في ط ع: المخلوق.

[النساء: ١٠٧] وقولِهِ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية، ولم يكنْ إثمٌ في ذلكَ، وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الآية [التحريم: ١] [لأنهُ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ عصيانٌ][1]؛ فمثلُ ذلكَ أمرُ الملائكةِ.

ثم تكلَّمُوا في معنَى ذلكَ؛ فمنهمْ مَنْ يقولُ: ظَنُّوا أنهمْ أكرمُ الخَلْقِ على اللهِ وأنه لا يفضِّلُ أحداً عليهِمْ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: ظَنُّوا أنهمْ أعلمُ مِنْ جميعِ مَنْ يُخلَقُ مِنْ جوهرِ النارِ أو الترابِ مِنْ حيثُ ذُكِرَتْ مِنْ جوهرِهِمْ[2]، أو لِعِظَمِ عبادتِهِمْ للهِ تعالى وعلمِهِمْ بأنَّ في الجنِّ والإنسِ عُصاةً. فَلِهذا امْتَحَنَهُمْ بالعلمِ ثم بالسجودِ لإظهارِ عُلُوِّ البشرِ وشرفِهِ وعِظَمِ ما أُكرِمُوا [بِهِ][3] مِنَ العلمِ.

ومنهمْ مَنْ [قالُوا بقولِهِ][4]: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[5] قيلَ: بأمرِكَ، وقيلَ بمعرفتِكَ، وقيلَ بالثناءِ عليكَ؛ إذْ[6] كانوا اضافُوا ذلكَ إلى أنفسِهِمْ دونَ أنْ يذكرُوا عظِمَ مِنَّةِ اللهِ عليهِمْ بذلكَ واختصاصَهُ إياهُمْ بالتوفيقِ لهُ؛ إذْ كيفَ ذكرُوا مِنْ نعوتِ البشرِ شَرَّ ما فيهِمْ دونَ أن يَحْمَدُوا اللهَ بما وُفِّقُوا لهُ، أو يَدْعُوا للبشرِ بالعصمةِ أو[7] المغفرةِ بما ابْتُلُوا؟ ولذلكَ، واللهُ أعلمُ، صرفُوا شغلَهُمْ مِنْ بعدُ إلى الاستِغفارِ لِمَنْ في الأرضِ ونصرِ أولياءِ اللهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ومِنَ الناسِ مَنْ أخبرَ في ذلكَ أنَّ إبليسَ سألَهُمْ: لو فُضِّلَ آدمُ عليهِمْ، وأُمِروا بالطاعةِ لهُ ما يَصنَعُونَ؟ فأظهرَ اللهُ ﷻ أنهُ عَلِمَ ما كتمَ إبليسُ مِنَ العِصيانِ، وأظهرُوا[8] هُمْ مِنَ الطاعةِ؛ وهذا شيءٌ لا تُعلَمُ حقيقتُهُ لأنَّ المعاتبةَ كانَتْ في جملةِ الملائكةِ والمخاطبةِ بالإنباءِ، وما أُلحِقَ بهِ، وأُمِرَ بالسجودِ كانَ في غيرِهِ؛ ولم يُحتَمَلْ أنْ يكونُوا يُؤاخَذُونَ بسؤالِ إبليسَ اللعينِ، ولكنْ[9] يُحتَمَلُ وجوهُ العتابِ الأخيارَ في ما [لم][10] يبلُغُوا العِصيانَ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ[11] تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[12] ظاهرُهُ أمرٌ، ولكنهُ يَحتَمِلُ التَّوَعُّدَ والمُعاتبةَ على ما بيَّنَّا، وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ. وإنْ كانَ في الحقيقةِ أمراً[13]؛ ففيهِ دلالةُ جوازِ الأمرِ في ما لا يعلَمُهُ المأمورُ إذا كانَ يُحتَمَلُ العلمُ بهِ إلى ذي العلمِ بهِ تَبَيَّنَ لهُ إذا طلبَ، واسْتَوجبَ رتبةَ التَّعلُّمِ والبحثِ.

ويُحتملُ أنْ يكونُوا نُبِّهُوا حتى لا يسبقَ إليهِمْ عندَ إعلامِ آدمَ أنَّ ذلكَ مِنْ حيثُ يدركُونَهُ لو تكلَّفُوا، أو أرادَ أنْ يُرِيَهُمْ آيةً عجيبةً تدلُّ على نبوَّتِهِ، ذكَّرَهُمْ عجزَهُمْ عَنْ ذلكَ، وألزمَهُمُ الخضوعَ لآدمَ ﷺ في[14] إفادةِ ذلكَ العلمِ لهُ كما قالَ ﷻ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]؛ ذكَّرَهُ أوّلاً حالَهُ وحالَ عصاهُ لِيَعلَمَ ما أراهُ ما[15] في يدِهِ مِنْ آيةِ نبوَّتِهِ، على نبيِّنا وعليهِ السلامُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال[16] قومٌ: يريدُ به آدمَ ﷺ يخلفُ الملائكةَ في الأرضِ ومَنْ تقدَّمَهُ مِنَ الجانِّ. وذلكَ بعيدٌ؛ لأنهمْ[17] قالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ولم يكن آدمُ ﷺ بالذي [كانَ يفسِدُ][18] في الأرضِ ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بل كانَ يُسبِّحُ بحمدِهِ، ويُقدِّسُ لهُ.

ولكنْ يَحتمِلُ أنْ يريدَ آدمَ ووُلْدَهُ إلى يومِ القيامةِ: أنْ يجعلَ بعضَهُمْ خُلفاءَ لبعضٍ كقولِهِ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] [أو يجعلَهُمْ خُلَفاءَ][19] مَنْ ذُكِرُوا، إنْ صحَّ الذي قالُوا. وجائزٌ أنْ يكونُوا على وجهِ الأرضِ إذْ هي مخلوقةٌ لهمْ قَراراً ومِهاداً[20]، وهمْ جُعِلُوا سُكَّانَها وعُمَّارَها، أنْ يكونُوا خُلفاءَ في إظهارِ أحكامِ اللهِ تعالى ودينِهِ كقولِهِ لِداوُدَ

---

(١) في ط ع: ان كان منه من غير عصيان. (٢) من ط م وط ع، في الأصل: جورهم. (٣) من ط ع. (٤) في ط ع: يقول: منهم قالوا بقوله. (٥) أدرج المحققان في ط م تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال قوم ... وبذلك أمر بنو آدم. قبل قولِهِ هذا مدعيين أن ترتيبَ قولِ الله تعالى يقتضي ذلك. (٦) في ط ع: أن. (٧) في ط م: و. (٨) في ط م: وما أظهروا. (٩) من ط م، في الأصل وط ع: ولكنه. (١٠) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١١) الواو ساقطة من الأصل. (١٢) أدرج المحقّقان في ط م تفسيرَ هذا القولِ بعد تفسير قولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: أمر. (١٤) من ط م وط ع، في الأصل: من. (١٥) من ط م، في الأصل وط ع: مما. (١٦) من ط م وط ع، في الأصل: وقال. (١٧) من ط ع، في الأصل وط م: كأنهم. (١٨) من ط م، في الأصل: كانَ يفسده، في ط ع: يفسده. (١٩) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٢٠) ادرج بعدها في ط م وط ع: ومعاداً.

ﷺ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فجعلَهُ كذلكَ ليحكمَ بينَ أهلِها بحكمِ اللهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]. وبذلكَ أُمِرَ بنو آدمَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ يُحتَمَلُ أنْ يكون عَلَّمَ ألهمَ[1]، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ عَلَّمَ بإرسالِ[2] مَلَكٍ مِنْ غيرِ الذينَ امتُحِنُوا بهِ. وفي ذلكَ يَثْبُتُ أحدُ وجهَينِ: إمّا أنْ يكونَ العلمُ بالأشياءِ حقيقةً ضرورةً/ ٧ - ب/ يقعُ عندَ النظرِ في الأسبابِ التي هي أدلَّةٌ وقوعِهِ[3] عندَ التأمُّلِ فيها نحوَ وقوعِ الدَّرْكِ بالبصرِ عندَ النظرِ وفتحِ العينِ، وإمّا أنْ كانَ[4] اللهُ تعالى خلقَ فعلَ التعلُّمِ الذي يُعَلِّمُ المرءَ في ما يضافُ إلى اللهِ تعالى أنهُ علمٌ. وكذا قولُهُ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]، وكذا قولُهُ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]. ولا يَحتمِلُ هذهِ الأسبابَ لِما كانَتْ لَهُ كُلُّها، ولم يكنْ تعلُّمَ حقيقةً ليؤذِنَهُ. وكذلكَ قولُ الملائكةِ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في المعاني التي ذكروا، أو[5] إذ كنتُمْ مُذْ خُلِقْتُمْ موصوفِينَ بالصدقِ، أو على تحذيرِ القولِ بلا علمٍ؛ وكأنه قالَ: واصدُقوا، واحذَرُوا القولَ بالجهلِ. وفي ذلكَ أنَّهمْ لم يتكلَّفُوا بالقولِ في شيءٍ، ولم يُعْلِمْهُمُ اللهُ تعالى.

قالَ أبو بكرٍ عبدُ الرحمنِ بنُ كَيسانَ: هذا يُبْطِلُ قولَ المُنَجِّمَةِ[6] والقافةِ[7] بدعواهِمْ على الغيبِ بلا تعليمِ ادَّعَوهُ[8] مِنَ اللهِ تعالى وفي قصةِ آدمَ ﷺ دلالةُ نبوةِ محمدٍ ﷺ بما عَلِمَ، إذْ أخبرَ نبيُّنا محمدٌ ﷺ بما عَلِمَ بما في غيرِ القرآنِ مِنَ الكتبِ السماويَّةِ مِنْ غيرِ أنْ عُرِفَ بالإخْتِلافِ إليهِمْ أو معرفةِ الألسنِ التي بها ذُكِرَتْ في كتبِهِمْ؛ ذكرَها على ما لم يَدَّعِ أحدٌ لهُ العلمَ بها النُّكرَ[9] عليهِ ليُعْلَمَ أنهُ باللهِ علمَ ذلكَ.

وفيها دلالةُ فضلِ آدمَ ﷺ - أبي البشرِ - إذْ أحوجَ ملائكتَهُ[10] لإقتباسِ أصلِ الأشياءِ، وهو العلمُ الذي كُلُّ خيرٍ لهُ كالتابعِ [بهِ يصلُحُ][11]، وينفعُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وفيها دَلالةُ مِحنةِ الملائكةِ بوجهَينِ:

أحدُهما: تعلُّمُهُمُ العلمَ الذي هو أحقُّ شيءٍ يَحتمِلُ الخيرَ؛ إذْ قد يُلْهَمُ المرءُ رُبَّما مِنْ غيرِ تَكَلُّفٍ، وهُمْ قد أُمِرُوا بِهِ مَعَ ما قَدَّمَ ما يُخَرِّجُ مُخرَجَ التهدُّدِ في القولِ مِنْ قولِهِ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾. وذلكَ في ما لا مِحنةَ فاسدٌ مع ما سبقَ مِنْ دليلِ المِحنةِ.

والثاني: في ما أمرَهُمْ بالسجودِ لآدَمَ ﷺ حتى صَيَّرَ مَنْ أبى كافراً إبليساً. وفي ذلكَ أيضاً دليلُ فضلِ آدمَ ﷺ إذْ جُعِلَ موضِعَ عبادةِ خِيارِ خَلْقِ اللهِ للهِ، وباللهِ التوفيقُ.

وفي[12] ذلكَ أنَّ السجودَ ليسَ بنفسِهِ عبادةً؛ إذْ قد يجوزُ السجودُ لأحدٍ مِنَ الخَلْقِ كما أمرَ بهِ لآدَمَ ﷺ كقولِهِ[13]: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ولم يَجُزِ الأمرُ بالعبادةِ لآدمَ. واللهُ اسْمُ المعبودِ، ولو جازَ لأحدٍ ذلكَ لكانَ غيرُ اللهِ آلهةً. دليلُ ذلكَ تسميةُ العربِ كلَّ شيءٍ يُعبدُونَهُ إلهاً، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم السجودُ يَحتمِلُ [وجهَينِ:

الأوَّلُ:][14] الخضوعُ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الحج: ١٨]، وقولِهِ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن ٦]. فإنْ كانَ المرادُ منهُ الخضوعَ والتعظيمَ [فذلكَ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ اللهَ تعالى إذْ[15] فَضَّلَهُ عليهِمْ بما أَطْلَعَهُ على علومٍ خصَّهُ بها أمرَهُمْ بالخضوعِ والتعظيمِ][16]. وذلكَ[17] الحقُّ على كلِّ محتاجٍ إلى آخرِ ما بِهِ رجاءُ النجاةِ أو دَرْكُ العلوِّ والكرامةِ أن يُعَظِّمَهُ، ويُبَجِّلَهُ، ويَخْضَعَ لهُ.

---

(١) من ط ع، في الأصل وط م: لهم. (٢) من ط م وط ع، في الأصل: بالرسالِ. (٣) ساقطة من ط ع. (٤) في ط م: يكون. (٥) ساقطة من ط م. (٦) المنجمة ج منجم، وهو من ينظر في النجوم ويزعم معرفة حظوظ الناسِ (اللسان). (٧) في ط م العافة، أمّا القافة فهي جمع قائفٍ وهو مَنْ يتتبعُ الآثارَ ويدعي معرفة النسب بالنظر إلى أعضاء الوليد (اللسان). وأما العافةُ فهي جمع عائف وهو الذي يعيفُ الطير فيزجرها ويتفاءل ويتشاءم بأسمائها وأصواتها وممرها (اللسان). (٨) من ط م، في الأصل وط ع: ادعوهم. (٩) في ط م وط ع: النكير. (١٠) في ط ع: الملائكة. (١١) في الأصل وط ع: به ويصلح، في ط م: وبه يصلح. (١٢) ادرج المحقق في ط ع قبل هذه الكلمة العنوان التالي: السجود ليس بنفسه عبادة. (١٣) ساقطة من ط م. (١٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٥) في الأصل وط ع: إذا. (١٦) ساقطة من ط م. (١٧) في ط م: فذلك.

والثاني: أنهُ[1] امْتَحَنَهُمْ بوجهٍ يُظهِرُ قَدْرَ الطاعةِ؛ لأنَّ الخضوعَ لِمَنْ يعلو أمرُهُ، ويَجِلُّ قَدْرُهُ أمرٌ سهلٌ، عليه طُبِعَ الخَلْقُ. فإذا كانَ في تقديرِ المأمورِ [ما][2] بالخضوعِ أنهُ دونَهُ في الرتبةِ[3] أو شكلُهُ أو لَمْ يكنْ بينَهُمْ كثيرُ تفاوُتٍ اشتَدَّتِ المِحنةُ في مثلِهِ بالطاعةِ لهُ والخضوعِ، فامتَحَنَهُمُ اللهُ بهِ حتى ظهرَ الخاضعُ للهِ والمُسْتَسْلِمُ لِحقِّهِ والمتكبِّرُ في نفسِهِ، وهو إبليسُ. وعلى[4] ذلكَ الغالبُ مِنَ اتباعِ الأنبياءِ ﷺ والذينَ يأبَونَ ذلكَ أنَّ الذي يَحمِلُهُمْ على الإباءِ عِظَمُهُمْ في أنفسِهِمْ وظنُّهُمْ أنهمْ أحقُّ بأنْ يكونُوا متبوعِينَ، واللهُ أعلمُ.

والوجهُ الثاني: أن يكونَ المرادُ مِنْ ذكرِ السجودِ [حقيقتَهُ][5]؛ [فهو يُخرَّجُ على وجهَينِ][6]:

أحدُهما: أن يُجعلَ السجودُ تحيةً، ألزَمَ الملائكةَ تحيةَ آدمَ بهِ، وهو ابْتِداءُ ما أكرِمَ بهِ أصلُ الإنسِ، وإليهِ يرجعُ جملةُ المؤمنينَ في الجنةِ أنْ يأتيَهُمُ الملائكةُ بالتحياتِ والتحفِ، وإنِ اختلفَتْ[7] أنفسُ التحياتِ. وفي ذلكَ دليلٌ بيِّنٌ أنَّ السجودَ ليسَ عبادةً[8] في نفسِهِ؛ إذْ قد يُؤمَرُ بهِ للبشرِ، ولا يجوزُ الأمرُ بعبادةِ غيرِ اللهِ، فيكونُ السجودُ لغيرِهِ مِنْ حيثُ الفعلُ، والعبادةُ بهِ للهِ، كغيرِهِ مِنَ المعروفِ يُصْنَعُ إلى الخَلْقِ؛ ومثلُهُ أمرُ سجودِ[9] يعقوبَ وأولادِهِ ليوسفَ ﷺ واللهُ أعلمُ.

والثاني أنْ يكونَ السجودُ لهُ بِمَعنى التوجُّهِ إليهِ [وهو في الحقيقةِ][10] للهِ تعالى نحوُ السجودِ [للكعبةِ للهِ تعالى تعظيماً لهُ وتبجيلاً لكعبةِ اللهِ تعالى][11] وتخصيصاً مِنْ بينِ البِقاعِ[12].

كذلكَ أمرُ السجودِ لآدمَ ﷺ تعظيماً لهُ وتبجيلاً مِنْ سائرِ البشرِ. كلاهما سِيَّانِ.

ثم قد ثبتَ نسخُ السجودِ للخَلْقِ بما رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لو كانَ يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يسجدَ لأحدٍ لأمَرْتُ المرأةَ أنْ تسجدَ لزوجِها» [الترمذي ١١٥٩].

ولمّا جُعِلَ السجودُ في العبادةِ عبادةً للمسجودِ لهُ واعْتِرافاً بِعُرفِ الأشرارِ بعبادةِ عظمائِهِمْ ومَنْ يعبدونَهُ مِنْ دونِ اللهِ تعالى يصيرُ ذلكَ المعنى، هو السابقُ في القلوبِ، وذلك ممّا لا يُحتَمَلُ [لأحدٍ][13] دونَ اللهِ، فَنُهِيَ [عنهُ][14] لذلكَ[15]، وإنْ لم يكنْ بنفسِهِ عبادةً للمسجودِ لهُ في الحقيقةِ كما نُهِيَ عَنْ أشياءَ بما يتصلُ بها مِنَ الوحشةِ، وإنْ لم يكنْ ذلكَ في الحقيقةِ مُحتملاً لهُ، فكذلكَ الأمرُ الأوّلُ كما نُهِيَ عَنْ سبِّ مَنْ يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ خوفاً لسبِّ اللهِ تعالى. ويُؤمَرُ [بأمورٍ][16] ليسَتْ بنفسِها بقربةٍ لِيُتَوصَّلَ بها إلى القربةِ كالسعيِ إلى الحجِّ والجمعةِ ونحوِ ذلكَ.

وفيه أنَّ السنةَ تنسخُ الكتابَ لأنَّ السجودَ لآدمَ ﷺ في الكتابِ، ومثلُهُ السجودُ ليوسفَ ﷺ ثم نَهى[17] رسولُ اللهِ ﷺ عنْ ذلكَ، فَحرَّمَ، فدلَّ أنَّ السنةَ تنسخُ الكتابَ.

الآيتان ٣٢و٣٣ [وقولُهُ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾][18]

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يشبهُ أنْ يكونَ السابقُ إلى وَهْمِهِمْ معنًى[19] أو خطرُ فعلٍ ممّا[20] كانَ باللهِ خرجَ مِنْ أنْ يعقِلُوا حكمتَهُ: إمّا بما لم يبلُغْهُمُ العلمُ بها أو يخطرْ ببالِهِمْ [أنهُ تعالى كيف يأمرُهُمْ؟ وهو يعلمُ أنهم لا يَعلمونَ بها أو خطرَ ببالِهِمْ][21] مِنْ غيرِ تحقيقِ ذلكَ، ولكنْ على ما يُبلى بِهِ الأخيارُ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج: ٥٢] الآية، أو [كانَ][22] كما لا يَخلُو بِهِ الممتحَنُ عَنِ

---

(١) ساقطة من ط م. (٢) من ط م. (٣) من ط م وط ع، في الأصل: التربة. (٤) من ط م، الواو ساقطة من الأصل وط ع. (٥) في ط م: حقيقة السجود، ساقطة من الأصل وط ع. (٦) من ط م، في الأصل وط ع: فهو مخرج على الوجهين. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: اختلف. (٨) في ط م وط ع: بعبادة. (٩) من ط م، في الأصل وط ع: بسجود. (١٠) في الأصل وط ع: وهي في الحقيقة، في ط م: وهو الحقيقة. (١١) في الأصل: لكعبة لله تعالى تعظيماً له وتبجيلاً للكعبة، في ط ع: لكعبة، في ط م: لكعبته. (١٢) من ط م وط ع، في الأصل: البقاء. (١٣) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٤) من ط م. (١٥) من ط م، في الأصل وط ع: كذلك. (١٦) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٧) من ط م وط ع، في الأصل: نفى. (١٨) من ط ع. (١٩) في النسخ الثلاث: منى. (٢٠) في ط م: ما. (٢١) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٢٢) من ط ع.

الخواطرِ التي تبلغُ المِحنةُ بهمُ المُجاهدةَ بها في دفعِها، وإنْ لم يكنْ بما يخطرُ ببالِهِمْ صنعٌ، فقالُوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ نَزَّهُوا عمّا خطرَ ببالِهِمْ، وسبقَ إلى وَهْمِهِمْ، ووصفُوا بأنهُ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لا يخطِئُ[١] في شيءٍ، ولا يخرجُ فعلُهُ عنِ الحكمةِ، وباللهِ التوفيقُ والعصمةُ.

وفي الآيةِ منعُ التكلُّمِ في الشيءِ إلّا بعدَ العلمِ بهِ، والفزعُ بهِ إلى اللهِ تعالى عَنِ القولِ بهِ إلّا بعلمٍ. وهذا هو الحقُّ الذي يُلزِمُ كلَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ تعالى، وبهِ أمرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ فقالَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] الآيةَ.

وسُئِلَ أبو حنيفةَ ﷺ عَنِ الإرجاءِ ما بَدْؤُهُ؟ فقالَ: (فعلُ الملائكةِ إذا[٢] سُئِلُوا عَنْ أمرٍ، لم يَعْلَمُوا، فَوَّضُوا ذلكَ إلى اللهِ تعالى). ومعنى الإرجاءِ نوعانِ:

أحدُهما: محمودٌ، وهو إرجاءُ أصحابِ الكبائرِ ليحكُمَ اللهُ تعالى فيهِمْ بما يشاءُ، ولا يُنزِلَهُمْ ناراً ولا جنةً لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

[والثاني][٣]: الإرجاءُ المذمومُ هوَ الجَبْرُ، أنْ تُرْجَأَ الأفعالُ إلى اللهِ تعالى، لا يُجْعَلُ للعبدِ فيهِ فعلاً ولا تدبيرَ شيءٍ [مِنْ][٤] ذلكَ. [وعلى ذلكَ][٥] المرويُّ [في ما][٦] قالَ ﷺ: «صنفانِ مِنْ أمتي لا يَنالُهُمْ شفاعَتِي القَدَرِيَّةُ والمُرْجِئَةُ» [الترمذي ٢١٤٩]. والقدريَّةُ هي التي لم ترَ للهِ في فعلِ الخلقِ تدبيراً، ولا لَهُ عليهِ قُدْرةُ التقديرِ، والمرجئةُ هي التي لم تَرَ للعبدِ في ما يُنْسَبُ إليهِ مِنَ الطاعةِ والمعصيةِ فعلاً البَتَّةَ. فأُبطِلَتِ الشفاعةُ لهما، وجُعِلَتْ للمذهبِ الأوسطِ بينَهُما؛ وهو الذي يحقِّقُ للعبدِ فعلاً وللهِ تقديراً، ومِنَ العبدِ تحرُّكاً بخيرٍ وشرٍّ، ومِنَ اللهِ خَلْقَهُ. وذلكَ على المعقولِ ممّا عليه طريقُ العدلِ والحقِّ أنه بينَ التفريطِ والتقصيرِ. وكذلكَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «خيرُ الأمورِ أوساطُها[٧]» [البيهقي في الكبرى ٣/ ٢٧٣]. وكذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] الآيةَ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

[قالَ ابنُ جُرَيْجٍ][٨]: (سجودُ الملائكةِ لآدمَ [ﷺ][٩] إيماءٌ) ولم يكنْ يَحِلُّ وضعُ الوجهِ بالأرضِ لأحدٍ، [وقالَ ابنُ][١٠] عباسٍ ﷺ (كان سجودُ الملائكةِ/ ٨ ـ أ/ سجودَ تحيَّةٍ، ولم يكنْ سجودَ عبادةٍ)، [وقالَ قتادةُ][١١]: (كانتِ الطاعةُ للهِ تعالى والسجدةُ لآدمَ ﷺ إكراماً لَهُ [بِهِ][١٢])، واللهُ أعلمُ.

ثم[١٣] اخْتُلِفَ في إبليسَ؛ قالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الملائكةِ، وقالَ آخرونَ: لم يكنْ مِنَ الملائكةِ، وهو قولُ[١٤] الحسنِ والأصمِّ؛ ذهبُوا [في][١٥] ذلكَ إلى وجوهٍ:

أحدُها: ما ذكرَ ﷻ عَنْ طاعةِ الملائكةِ لهُ بقولِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] الآيةَ[١٦]، وقولِهِ[١٧]: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ الآيةَ[١٨] [الأنبياء: ٢٧]، وقولِهِ[١٩]: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]؛ وصفَ اللهُ ﷻ طاعتَهُمْ لهُ وائْتِمارَهُمْ إياهُ، فلو كانَ اللعينُ الرجيمُ منهُمْ لأطاعَهُ كما أطاعُوهُ[٢٠].

والثاني قولُهُ: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] والملائكةُ إنما خُلِقُوا مِنَ النورِ.

والثالثُ: قولُهُ تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، ولم يقلْ مِنَ الملائكةِ، فدلَّتْ هذِهِ الآياتُ أنهُ لم يكنْ مِنَ الملائكةِ.

---

(١) من ط م، في الأصل و ط ع: يخطر. (٢) من ط م، في الأصل وط ع: إذ. (٣) في النسخ الثلاث: و. (٤) من ط م. (٥) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٦) في النسخ الثلاث: حين. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: أوسطها. (٨) في الأصل: قال ابن جريج قال، في ط م: وعن ابن جريج قال، وادْرَجَ المحقق في ط ع قبل كلمة قال العنوان التالي: سجود الملائكة لآدم إيماء. (٩) من ط ع. (١٠) في النسخ الثلاث: وعن ابن عباس. (١١) في الأصل و ط م: وعن قتادة قال، في ط ع: وعن قتادة أنه قال. (١٢) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٣) ادرج في ط ع قبل كلمة ثم العنوان التالي: الاختلاف في إبليس عليه اللعنة. (١٤) ساقطة من ط ع. (١٥) من ط م. (١٦) ادرج الناسخ في ط ع تتمة الآية بدل كلمة الآية. (١٧) في النسخ الثلاث: وقال. (١٨) ساقطة من ط ع. (١٩) في النسخ الثلاث: وقال. (٢٠) من ط م، في الأصل وط ع: أطاعوا له.

الآية ٣٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾][1] ثم قالَ في قولِهِ: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أنهُ يجوزُ الاستثناءُ مِنْ غيرِ نوعِ المُستَثنى منهُ نحوُ ما يُقالُ: دخلَ أهلُ الكوفةِ هذهِ الدارَ إلّا رجلاً مِنْ أهلِ المدينةِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. ويُستَدَلُّ بالاستثناءِ أنَّ الأمرَ كانَ عليهِمْ جميعاً في الأصلِ، وكانَ الأمرُ بالسجودِ لهُ وللملائكةِ جميعاً كقولِهِ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] دلَّ أنْ كانَ هنالِكَ أمرٌ للناسِ بالإفاضةِ[2]. فكذلكَ الأوَّلُ. واللهُ أعلمُ.

وذهبَ مَنْ قالَ: إنهُ مِنَ الملائكةِ أنهُ لِما لم يُذكَرْ في قصةٍ مِنَ القِصَصِ مَعَ كثرةِ التكرارِ لها في القرآنِ وغيرِهِ مِنَ الكتبِ السالفةِ أنهُ ليسَ منهمْ، وليسَ في ما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ ما يدلُّ [على][3] أنهُ لم يكنْ منهمْ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] لو[4] لم يُتَوَهَّمْ منهمُ العِصيانُ والخِلافُ للهِ تعالى لم يكنْ للمدحِ بالطاعةِ والخضوعِ لهُ معنًى. ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ الآيةَ[5] [الأنبياء: ٢٩] مَعَ ما ذكَرْنا أنهمْ يُمتَحَنونَ[6] بأنواعِ المحنِ، وكلُّ مُمتَحَنٍ في شيءٍ يجوزُ كونُ المعصيةِ منهُ والخلافِ لَدَيْهِ؟.

وأمّا قولُهُ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، [يُحتَمَلُ: أي صارَ مِنَ الجنِّ. وقيلَ: ﴿ٱلْجِنِّ﴾][7]: أرادَ بهِ الملائكةَ، سُمُّوا جِنًّا لِاستتارِهِمْ عَنِ الأبصارِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وأمّا قولُهُ: خَلَقَ الملائكةَ مِنَ النورِ وإبليسَ مِنَ النارِ فهو واحدٌ لأنهُ أخبرَ ﷻ أنه خَلَقَهُ: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]. وقيلَ: المارجُ هو لَهَبُها مَعَ ما ليسَ في القرآنِ ولا في الخبرِ أنهمْ إنما خُلِقوا مِنَ النورِ[8]، ولم يُخلَقوا مِنْ غيرِهِ.

ثم[9] اختُلِفَ في إبليسَ: أنهُ لِمَ[10] كفرَ [باللهِ تعالى؟ قيلَ: إنه كفرَ][11] لِما لم يَرَ الأمرَ بسجودِ مَنْ فوقَهُ لِمَنْ هو دونَهُ حكمةً. وقيلَ: لِما رأى أنَّ اللهَ تعالى وضعَ الأمرَ في غيرِ موضعِ الأمرِ، ورآه جَوْراً، فكفرَ بهِ.

وقيلَ: كفرَ لَمّا أبى الائتِمارَ بالسجودِ، واستكبَرَ، فكفرَ. وقيلَ: لَمّا أرادَ إضلالَ الخَلْقِ. وقيلَ: أبى الطاعةَ في ما أمرَهُ[12] بهِ، واستَكبَرَ على آدمَ [ﷺ][13] لَمّا رأى لنفسِهِ فضلاً عليه بقولِهِ: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢ وص: ٧٦].

وقولُهُ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي صارَ، كقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢] وكقولِهِ: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي صارَ، وقيلَ: كانَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنَّهُ سيكفُرُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ أنَّ الجنةَ هي اسْمُ البقعةِ التي حُفَّتْ بالأشجارِ والغُروسِ وأنواعِ النباتِ؛ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وكذلكَ أيضاً ظاهرٌ معروفٌ عندَ الناسِ ألّا تُسَمّى[14] كُلُّ بقعةٍ مِنَ الأرضِ بستاناً ولا جنةً حتى يجتمعَ فيها ما ذكَرْنا.

ثم لا يُدْرى ما تلكَ الجنةُ التي أمرَ آدمَ وحواءَ بالكونِ والمُقامِ فيها: أهي ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥ و..] أم جنةٌ مِنْ جناتِ الدنيا؟ إذْ ليسَ في الآيةِ [بيانُ ذلكَ. وفي الآيةِ][15] دَلالةٌ أنَّ الشرطَ في الذِّكرِ قد يُضمَرُ، ويكونُ شرطاً بلا ذِكرٍ لأنهُ قالَ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨]، ثم قد جاعَ، وعَرِيَ حينَ [عَصى][16]، فدلَّ أنَّ تركَ المعصيةِ كانَ شرطاً فيهِ.

---

(١) من ط ع. (٢) من ط م وط ع، في الأصل: بالإضافة. (٣) من ط م. (٤) من ط م، في الأصل وط ع: ولو. (٥) أدرج الناسخ في ط ع تتمة الآية بدل كلمة الآية. (٦) من ط م، في الأصل و ط ع: يمتحنون الممتحنون. (٧) من ط ع، في ط م: أي صار من الجن وقيل، ساقطة من الأصل. (٨) من ط م وط ع، في الأصل: النار. (٩) أدرج محقق ط ع قبل هذه الكلمة العنوان التالي: اختلف لما كفر إبليس لعنه الله. (١٠) في ط ع: لما. (١١) من ط م وط ع. (١٢) في ط م وط ع: أمر. (١٣) من ط ع. (١٤) من ط م، في الأصل و ط ع: يسمى (١٥) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٦) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل.

ثم[1] مَضَى الأمرُ مِنَ اللهِ تعالى لآدمَ وزوجتِهِ بالسُّكنَى والمُقام فيها [أمرَهُمَا بالتناوُلِ مِنْ جميع ما فيها][2] إلّا شجرةً نَهيًا عَنِ التناوُلِ منها، وأمرا بالاجْتِناب عنها بقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وذي صورةُ المُمْتَحَنِ أنْ يُؤْمَرَ، ويُنهَى[3] عنْ شيءٍ.

وقولُهُ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي سَعَةً؛ يُقال: أرغَدَ فلانٌ إذا وُسِّعَ عليهِ، وكثُرَ مالُهُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي لا تأكُلا؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾، ولأنهُ بالقربانِ ما يُوصَلُ إلى التناوُلِ، واللغةُ لا تأبَى[4] تسميةَ الشيءِ باسْمِ سببِهِ.

ثم[5] اخْتُلِفَ في تلك الشجرةِ، فقالَ بعضُهُمْ: هي شجرةُ العنبِ؛ ولذلكَ[6] جعلَ للشيطانِ فيها حظًّا لَمَّا عصَيا ربَّهُما بها. وقيلَ: إنها كانَتْ شجرةَ الحنطةِ؛ ولذلكَ جعلَ غذاءَ آدمَ وحواءَ ﷺ وغذاءَ أولادِهِما منها[7] إلى يوم القيامةِ لِيقاسُوا جَزاءَ العِصيانِ والخِلافِ لهُ. وقيلَ: إنها شجرةُ [العلمِ لِما عَلِمَا][8] مِنْ ظهورِ عورتِهِما، ولم يكونا يَعلَمانِ قبلَ ذلكَ؛ وهو قولُهُ: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، واللهُ أعلمُ.

والقولُ في ما هيَتِهَا[9] لا يجوزُ إلّا مِنْ طريقِ الوَحْيِ، ولا وَحْيَ في تِلاوتِهَا، ولا يجوزُ القطعُ على شيءٍ [مِنْ شيءٍ][10] مِنْ ذلكَ.

ثم[11] احْتَمَلَ معنَى النَّهيِ عَنِ التناوُلِ منها وجوهاً:

أحدُها: إيثارُ الآخَرِ عليهِ، وقد يكونُ هذا أنْ يُنهَى الرجلُ عَنِ التناوُلِ مِنْ شيءٍ إيثاراً لآخرَ عليهِ.

والثاني[12]: يَحْتَمِلُ النهيُ عَنِ التناوُلِ مِنَ الشيءِ لِداءٍ يكونُ فيهِ لِما يُخافُ الضرَرُ بهِ لا على حجةِ[13] الإيثارِ ولكنْ إشفاقاً عليهِ ورحمةً.

[والثالثُ: يَحتَمِلُ][14] النهيُ عَنِ التناوُلِ مِنَ الشيءِ على حُجَّةِ[15] الحُرْمَةِ.

فإذا كانَ مُمْكِناً هذا مُحْتَمَلاً حملَ آدمَ وحواءَ على التناوُلِ منها لِما اشْتَبَهَ عليهما، ولم يعرِفا[16] معنَى النهيِ بأنهُ نهيُ حُرْمَةٍ أو نهيُ إيثارِ غيرِهِ عليهما أو نهيُ داءٍ لأنهما لو كانا يعلمانِ [أنَّ ذلكَ النهيَ نهيُ حرمةٍ لكانا][17] لا يأتيانِ، ولا يتناولانِ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الحالَ التي يكونُ فيه الإنسانُ[18] في سَعَةٍ ورغدٍ يشتدُّ على الشيطانِ اللعينِ لأنهُ إنما تعرَّضَ لآدمَ وحواءَ بالوَسْوَسَةِ التي وسوسَ إليهما لِيُزيلَ تلكَ الحالَ عنهما؛ وإنما يُبْلَى بالسَّعَةِ والرخاءِ، ثم لَمَّا لَحِقَتْهُ الشدائدُ والبلايا ممّا كسبَتْ أيدينا بقولِهِ[19]: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

ثم الآيةُ تردُّ على بعضِ المُتَقَشِّفَةِ قولَهُمْ بتحريمِ الطَّيِّباتِ والزينةِ.

وقولُهُ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الضارِّينَ[20] لأنَّ كلَّ ظالمٍ ضارٌّ نفسَهُ في الدارَيْنِ جميعاً، [أو أي تَصيرُونَ منهمْ، وكذلكَ القولُ في إبليسَ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] أي صارَ منهمْ. ويُحتَمَلُ مِمَّنْ يكونُونَ كذلكَ أنَّ في علمِ اللهِ أنهم يصيرونَ مِمَّنْ في علمِ اللهِ كذلكَ مَعَ جوازِ القولِ بلا تحقيقِ آخرَ كقولِهِ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لا أنْ ثَمَّ خالقٌ غيرُهُ][21].

---

(١) ادرج محقق ط ع قبل هذه الكلمة العنوانَ التاليَ: معنى الأمرِ بالسكنى. (٢) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: ونهى. (٤) من ط م وط ع، في الأصل: يأبى. (٥) ادرج المحقق في ط ع قبل هذه الكلمة العنوانَ التاليَ: الاختلافُ في الشجرة. (٦) من ط م، في الأصل وط ع: وكذلك. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: منه. (٨) من ط م، في الأصل: السلم لما علموا، في ط ع: شجرة العلمِ لما علموا. (٩) من ط م، في الأصل وط ع: بينا. (١٠) من ط ع. (١١) ادرج محقق ط ع قبل هذه الكلمة العنوانَ التاليَ: معنى النهي عن التناول عنها. (١٢) في النسخ الثلاث: و. (١٣) في ط م وط ع: جهة. (١٤) في الأصل: ويحتمل، في ط م وط ع: ويحتمل أيضاً. (١٥) في النسخ الثلاث: جهة. (١٦) من ط م وط ع، في الأصل: يعرفها. (١٧) من ط م، في الأصل: ذلك النهي لكان، في ط ع: أن ذلك نهي حرمة لكانا. (١٨) من ط م، في الأصل وط ع: للإنسان. (١٩) من ط ع، في الأصل وط م: لقوله. (٢٠) من ط م، في الأصل وط ع: ضارين. (٢١) من ط ع، وادرج المحقق بعد كلمة غيره العنوان التالي: كلام في ما أصابَ آدم مِنَ الشجرة.

الآية ٣٦ [وقولُهُ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ أي دعاهُما، وزيَّنَ لهُما إلى سببِ الزلةِ والإخراجِ [منها لا][1] أنْ تولّى إخراجَهُما وإزلالَهُما، وقد ذكَرْنا[2] أنَّ الأشياءَ تُسمّى بِاسْمِ أسبابِها والأسبابَ باسْمِ الأشياءِ، وذلكَ ظاهرٌ معروفٌ في اللغةِ غيرُ ممتنِعٍ تسميةُ الشيءِ بِاسْمِ سببِهِ][3].

ثم تكلَّمُوا في ما أصابَ آدمَ مِنَ الشجرةِ وفي جهةِ النهيِ عنها[4]؛ فقالَ قومٌ: أكلَ منها، وهو ناسٍ لِعَهدِ اللهِ نسيانَ تركِ الذكرِ، وأبى ذلكَ قومٌ، واحتجَّ الحسنُ بأنَّ نِسيانَهُ نِسيانُ تَضييعٍ واتِّباعِ الهَوَى لا نسيانُ الذكرِ بأوجهٍ:

أحدُها: ما جَرَى في حكمِ اللهِ تعالى مِنَ العفوِ عَنِ النسيانِ الذي هو تركُ الذكرِ وألّا يلحقَ صاحبَهُ اسْمُ العِصيانِ، وقد عُوقِبَ هو بِهِ، ونُسِبَ إلى العِصيانِ بقولِهِ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] مَعَ ما تقدَّمَ القولُ فيهِ أنْ يكونا مِنَ الظالِمينَ.

والثاني: أنَّ عدوَّهُ قد ذكَّرَهُ[5] لو كانَ ناسياً حينَ قالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠] الآيةَ[6] وقالَ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١] وقالَ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾ [الأعراف: ٢٢]. ولو كانَ نسيانَ الذكرِ لم يكونا ليغتَرّا[7] بالقَسَمِ والإغواءِ عنْ ذلك، ولا وُصِفا بأنِ[8] استزَلَّهُما الشيطانُ ونحوِ ذلكَ، فثبتَ أنهُ كانَ نسيانَ تضييعٍ. وذلكَ[9] كقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٦]، وقولِهِ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وغيرُ ذلكَ ممّا ذُكِرَ فيهِ النسيانُ، ومعناهُ التَّضييعُ، سُمِّيَ بِهِ لِما كانَ [كلُّ][10] مَنسِيٍّ مَتروكاً، وتركُ اللازمِ تضييعٌ، أو بما يُنسَى بِهِ[11]، ويُغفَلُ عمّا يَحُلُّ بِهِ مِنْ نعمةِ[12] اللهِ، فَسُمِّيَ بِهِ كما وُصِفَ ذنبُ المؤمنِ بجهالةِ الجَهَلَةِ بما يَحُلُّ بِهِ لا بجهلِهِ بحقيقةِ فعلِهِ، أو سُمِّيَ بِهِ مِنْ حينِ لا يُقصَدُ بذلكَ عصيانُ الربِّ أو طاعةُ الشيطانِ. وإلى ذلكَ يُصرَفُ بعضُ وجوهِ النسيانِ لا حقيقتُهُ.

ومَنْ يقولُ بأنه كانَ على النسيانِ فهو يُخرِّجُ النسيانَ على [وجهَينِ:

أحدُهما:][13] أنهُ لكثرةِ ما بينَهُ وبينَ عدوِّهِ مِنَ التراجعِ اشْتَغَلَ قلبُهُ بوجوهِ الدفاعِ لهُ والفِكرِ في الأسبابِ التي بها نجاتُهُ وتخليصُ مِنْ مكائدِهِ حتى أنساهُ ذلكَ ذكرَ[14] العهدِ.

والسببُ الذي/ ٨ ـ ب/ يدفعُ الأشياءَ عنِ الأوهامِ في الشاهدِ كثرةُ الِاشْتِغالِ، وإنما كانَ النسيانُ عُذْراً[15] في الأمورِ وسبباً للعفوِ لأنه لا يُخرِجُ الآخذَ بهِ عَنِ الحكمةِ. وذلكَ معلومٌ في الشاهدِ أنَّ مَنْ أقبلَ على شيءٍ، وأخذَ في تَحَفُّظِهِ وتَذَكُّرِهِ سَهُلَ عليه ذلكَ، وإذا أحبَّ ذلكَ مَعَ الِاشْتِغالِ بغيرِهِ مِنَ الأمورِ صَعُبَ عليهِ، بَلِ الغالبُ في مثلِهِ الخفاءُ.

وجائزٌ معاتبةُ آدمَ مَعَ ذلكَ[16] وتسميتُهُ عِصياناً بأوجهٍ:

أحدُها: أنهُ لم يكنِ امْتُحِنَ بأنواعٍ مختلفةٍ يتعذَّرُ عليهِ وجهُ الحفظِ في ذلكَ، وإنما امْتُحِنَ بِالِانْتِهاءِ عَنْ شجرةٍ واحدةٍ بالإشارةِ إليها، فجائزٌ ألّا يُعْذَرَ في مثلِهِ. وكذلكَ النسيانُ في ما يُعْذَرُ في الشاهدِ إنما يُعْذَرُ في النوعِ الذي يُبْتَلَى بِهِ، وتكثُرُ بِهِ النوازلُ؛ ألَا تَرَى أنهُ يُعْذَرُ بالسلامِ في الصلاةِ وتركِ التسميةِ في الذبيحةِ ونحوِ ذلكَ؟ ولا يُعْذَرُ في الأكلِ في الصلاةِ وفي الجِماعِ في الحجِّ ونحوِ ذلكَ. فمثلُهُ الأمرُ الذي نحنُ[17] فيهِ.

والثاني: أنهُ جائزٌ أخذُ الأخيارِ ومعاتبةُ الرسولِ بالأمرِ الخَفيفِ اليَسيرِ الذي لا يُؤخَذُ بمثلِ ذلكَ غيرُهُ لكثرةِ نعمِ اللهِ عليهِمْ وعظمِ مِنَّتِهِ عندَهُمْ كما أُوعِدُوا التضاعُفَ في العذابِ على ما كانَ مِنْ غيرِهِ وعلى ما ذُكِرَ في أمرِ يونسَ ﷺ مِنَ العقوبةِ بماءٍ[18]، لعلَّ ذلكَ مِنْ عظيمِ خيراتِ غيرِهِ، إذْ فارقَ قومَهُ لِما عايَنَ مِنَ المناكيرِ فيهِمْ، وما[19] فَعَلَ مثلَهُ مِنْ أحدٍ ما يوصفُ بِهِ غيرُهُ. وكذلكَ ما عوتِبَ[20] محمدٌ ﷺ في ما خطرَ ببالِهِ تقريبُ أجِلَّةِ الكفرةِ إشفاقاً عليهِمْ وحِرْصاً على إسلامِهِمْ

---

(١) في الأصل: منها إلى، في ط م: عنها لا. (٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ من الآية ٣٥. (٣) ساقطة من ط ع. (٤) ادرج في ط ع بعدها: في ما بينهما. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: ذكر. (٦) ادرج الناسخ في ط ع تتمة الآية بدل كلمة الآية. (٧) في ط ع: ليغرا. (٨) ساقطة من ط ع. (٩) من ط م وط ع، في الأصل: وكذلك. (١٠) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من ط م. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: نقمة. (١٣) في النسخ الثلاث: وجوه أحدها. (١٤) من ط م، في الأصل وط ع: عن ذكر. (١٥) في ط م: عدواً. (١٦) ادرج المحقق في ط ع بعد كلمة ذلك العنوانَ التالي: تسميته عصياناً. (١٧) من ط م وط ع، في الأصل: نحوه. (١٨) ساقطة من ط ع. (١٩) أدرجت ما في النسخ الثلاث بعد: أحد. (٢٠) من ط م، وط ع في الأصل: عوقِبَ.

ومَنْ تَبِعَهُمْ[(١)]، على ذلكَ ممّا لعلَّ مَنْ دونَهُ لا يُعدَلُ شيءٌ مِنْ خيراتِهِ بالذي عوتبَ بهِ، وباللهِ التوفيقُ.

والثالثُ: أنهُ لَمَّا عُوتِبَ بالذي يجوزُ ابْتِداءُ المحنةِ بهِ ولمثلِهِ خَلَقَهُ حينَ قالَ: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، لكنهُ [يُكرِمُهُ بالذي][(٢)] عَوَّدَ خَلْقَهُ مِنْ تقديمِ إحسانِهِ وإنعامِهِ في الإبْتِلاءِ[(٣)] على الشدائدِ والشرورِ، وإنْ كانَ لهُ التقديمُ بالثاني؛ وذلكَ في جملةِ قولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقولِهِ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وباللهِ التوفيقُ.

وعلى ما [في][(٤)] ذلكَ مِنْ مُعاتبةٍ[(٥)] غيرِهِ الزجرُ عَنِ المعاصي وتعظيمُ خطرِهِ في القلوبِ إذْ جُوزِيَ أبو البشرِ وأوَّلُ الرسلِ منهمْ على ما فضَّلَهُ بما امْتَحنَ [فيهِ][(٦)] ملائكتَهُ بالتعلمِ منهُ والسجودِ بذلكَ القدْرِ مِنَ الذِّلةِ ليَعلمَ الخَلْقُ أنهُ ليسَ في أمرِهِ هوادةٌ ولا في حكمِهِ مُحاباةٌ فيكونُونَ أبداً على حذرٍ مِنْ عقوبتِهِ والفزعِ إليهِ بالعصمةِ عما يُوجِبُ مقتَهُ وألّا يَكِلَهُمْ[(٧)] إلى أنفسِهِمْ إذ علمُوا بابْتِلاءِ الذي[(٨)] ذكرْتُ محلَّهُ في قلوبِهِمْ بذلكَ القدرِ مِنَ الذلةِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

والثاني[(٩)]: أن يكونَ حَفِظَ النهيَ عنهُ، لكنه خطرَ ببالِهِ [النهيُ عَنْ وجهٍ][(١٠)] لا يَلحقُهُ فيهِ وصفُ العصيانِ، أو نَسِيَ قولَهُ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. وقد ذكرْنا النهيَ في وقتِ الفعلِ؛ ولكنْ يُسَمَّى الوصفُ بالفعل مِنَ [الظُّلْمِ و][(١١)] النهيِ، لعلَّهُ سبقَ إلى وَهْمِهِ غيرُ جهةِ التحريمِ؛ إذ يكونُ النهيُ على أوجهٍ:

أحدُها: للحرمةِ.

والثاني: نهيٌ[(١٢)] لما فيهِ مِنَ الداءِ، وعليهِ في أكلِهِ ضررٌ، وهذا معروفٌ في الشاهدِ بما عليهِ الطباعُ: نهيُ قومٍ عَنْ أشياءَ مُحَلَّلَةٍ هي لهمْ ما يُؤذي، ويَضُرُّ، فَيَحتَمِلُ أنْ يسبقَ إلى وَهْمِهِ ذلكَ لِما وُعِدَ لهُ في ذلكَ مِنْ عظيمِ النفعِ، تَحَمَّلَ[(١٣)] ما خُوِّفَ بهِ لِيَصِلَ إلى ما وُعِدَ على [ما][(١٤)] سبقَ وَجْهُ النهيِ إلى ما وُجِّهَ مِنْ حيثُ الضررُ والمشقةُ، ونَسِيَ قولَهُ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، أو ذَكَرَا، وعَرَفَا أنَّ الظلمَ قد يقعُ على الضَّررِ كقولِهِ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] لم[(١٥)] يُنْقِصْ منهُ، والنقصانُ في النفسِ ضَرَرٌ.

وعلى ذلك فسَّرَ عامةُ أهلِ التفسيرِ الظلمَ في القرآنِ أنهُ الضررُ؛ واسمُ الضررِ يأخذُ ضررَ الداءِ وضررَ المأثمِ؛ وإنْ كانَ حقيقتُهُ وضعَ الشيءِ في غيرِ موضعِهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقد يَحتمِلُ النهيُ أنْ يُخَرَّجَ مُخرَجَ المنعِ ليكونَ غيرُهُ هو الذي يَبدأُ بِهِ، ويَخُصُّ ذلكَ بهِ لا على التحريمِ [نحوُ[(١٦)] الأمرِ بالمعروفِ في ما يمنعُ الرجلُ ولدَهُ عَنِ التناوُلِ ممّا يريدُ بهِ غَيْرُهُ لا على التحريمِ][(١٧)]. وإذا احْتَمَلَ ذا، ثُمَّ بَيَّنَ لهُ عظيمَ ما في ذلكَ مِنَ البركةِ مِنْ غيرِ أنْ عاينَ عدوَّهُ لِيعَلَمَ أنَّ ذلكَ [صنيعُهُ، وجائزٌ ان سبقَ[(١٨)] إليهِ أنَّ ذلكَ][(١٩)] إشارةُ مَلَكٍ أو إلهامٌ في النفسِ على ما يكونُ لكثيرٍ مِنَ الأخيارِ إلّا أنهُ مِنْ وَحْيِ عَدُوِّهِ، فدعَتْهُ نفسُهُ إلى الأكلِ، فيكونُ كالناسي والجاهلِ بحقيقةِ وجهِ النهيِ، وإن كانَ تَعَمَّدَ أكلَهُ. ولا قوةَ إلا باللهِ.

والأصلُ في هذا أنَّ فعلَهُ [ﷺ][(٢٠)] إنْ كانَ على نسيانِ العهدِ أو على الذكرِ لَهُ فإنَّ الذي أصابَهُ عقوبةٌ، وإنْ كانَ بالذي يكونُ بهِ المحنةُ؛ فلولا أنَّ اللهَ [إنَّ][(٢١)] يعاقبُهُ على ما فعلَهُ لم يكنْ لِيُغَيِّرَ عليهِ نعمةً بعذابِ أنعمَها عليهِ. وقد قالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. وما لا يَحتمِلُ العقوبةَ بالتغييرِ لم يكنْ لِيَفعَلَ بعدَ وعدِهِ ذلك مَعَ ما قدِ اعْتَرَفَا بالظلمِ إذْ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

---

(١) في ط م: يتبعهم. (٢) في الأصل وط ع: يكرمه وبالذي، في ط م: بكرمه وبالذي. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: الابتداء. (٤) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٥) في النسخ الثلاث: مبالغة. (٦)من ط م. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: يكلمهم. (٨) في الأصل وط ع: من الذين، في ط م: من الذي. (٩) الثاني من وَجْهَي تخريج النسيان. (١٠) من ط م. (١١) من ط م. (١٢) في ط ع: منهي. (١٣) من ط ع، في الأصل وط م: يحتمل. (١٤) من ط م. (١٥) في ط م: ولم. (١٦) في ط ع: ونحو. (١٧) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٨) في ط م: يسبق. (١٩) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٢٠) في ط م: صلى الله عليه وسلم. (٢١) من ط م.

[الأعراف: ٢٣]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وقد كان قال لهما ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]؛ فكانَ ما بُلِيَ بِهِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ ذلكَ لم يُزِلْ عنهما اسْمَ الإيمانِ ولا دُعِيَا[1] إليهِ بعدُ لِفِعْلِهِما ذلكَ. ثبتَ أنهُ لا كلَّ ذنبٍ يزيلُ اسْمَ الإيمانِ، وأنَّ [الذنوبَ لا يُحقَّقُ فيها][2] الكذبُ في ما اعتقدَ ألّا يعصيَ اللهَ في شيءٍ، وفي ذلكَ فسادُ أهلِ الخوارجِ والمعتزلةِ وبيانُ أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا﴾ [النساء: ١٤] ليسَ على كلِّ عصيانٍ، ولا الوعيدُ بالظلمِ المطلقِ يوجِّهُ كلَّ ظلمٍ وكلَّ عصيانٍ وغِوايةٍ، بل يُلزِمُ بهِ تقسيمٌ[3] هذهِ الحروفِ على ما يليقُ بهِ. ومَنْ يريدُ بها الجمعَ في كلِّ الآثامِ[4] خارجٌ عَنِ المعروفِ في أحكامِ اللهِ في أهلِ المآثِمِ.

والثاني: أنهُ قد عُوقِبَ بوجهٍ لا يُوجَبُ[5] جزءٌ منها بما يُسمِّيهِ المعتزلةُ كبيرةً، بل يُزيلُ اسْمَ الإيمانِ مِنْ نحوِ شربِ قطرةٍ مِنَ الخمرِ [أو قذفِ][6] محصنةٍ أو أخذِ عشرةِ دراهمَ مِنْ مالِ آخرَ، وكذلكَ فعلُ أولادِ يعقوبَ. ثم لم يَجْتَرِئْ أحدٌ على دَعوَى خروجِ [مَنْ ذكرْتُ][7] مِنْ دينِ اللهِ، لزمَ بطلانُ قولِهِمْ: إنَّ الصغيرةَ لا يجوزُ في الحكمةِ التعذيبُ عليها ولا الكبيرةَ العفوُ عنها. وقد كانَ عذَّبَ آدمَ ﷺ بأنواعِ العذابِ لِما لو لم يكنْ ما أظهرَ فعلَهُمَا على رؤوسِ الخلائقِ لكانَ عظيماً.

ثم[8] اختُلِفَ في الوجهِ الذي بُلِيَ؛ منهمْ مَنْ يقولُ: لِما كانَ مِنْ صلبِهِ مِنَ الكفرةِ، وهمْ ليسُوا بأهلِ الجنةِ. وقيلَ: رحمةً للخَلْقِ لئلا يَيْأسُوا، ولا يُزيلَ الولايةَ بكلِّ ذنبٍ. وقيلَ: بُلِيَا لِتَنْبِيهِ[9] الخَلْقِ بهما ألّا يقومَ أحدٌ بتعاهُدِ نفسِهِ عما يُذَمُّ إليهِ إذا وكَلَ نفسَهُ إليهِ، فيكونَ ذلك سبباً لزجرِ الخَلْقِ عَنِ النظرِ إلى أنفسِهِمْ في شيءٍ مِنَ الخيرِ والفزعِ إليه بالعصمةِ عَنْ كُلِّ شيءٍ. وقيلَ: بُلِيَ بحقِّ المِحنةِ إذْ هي تردُّ صاحبَها بينَ اللذاتِ والآلامِ وبينَ أحوالٍ مختلفةٍ لا يَحتَمِلُ أن يَصْبِرَ [عليها][10] بحيثُ يأمَنُ الزلَلَ، وإنما ذلكَ بحفظِ اللهِ ومَنِّهِ لا بتدبيرِ أحدٍ وجَهْدِهِ، وإنْ كانَ اللهُ تعالى يوفِّقُ على قَدْرِ الجَهْدِ، ويَعْصِمُ على قَدْرِ[11] الرغبةِ إليهِ والاعْتِصامِ بهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وليسَ بنا حاجةٌ إلى ذكرِ حكمةِ الزَّلَّةِ إذْ[12] كانَتْ نفسُهُ مجبولةً على حبِّهِ باعثةً إلى مِثْلِهِ لولا نعمةُ الرَّبِّ كما قالَ يوسفُ ﷺ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] الآية[13]، وقالَ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ثم[14] اختُلِفَ في ماهيةِ الشجرةِ: قيلَ: بأنها[15] شجرةُ العنبِ، وجعلَ للشيطانِ فيها نصيباً مِمَّا بُلِيَ بِهِ أبو البشرِ وأمُّهُمْ. وقيلَ: [الحنطةُ: فيها][16] جعلَ غذاءَ وُلْدِهِ لِيُبْدِلَ[17] بالراحةِ الكدَّ وبالنعمةِ[18] البؤسَ. وقيلَ: شجرةُ العلمِ إذ بَدَتْ سَوْآتُهُمَا، فَعَلِمَا بذلكَ ما لم يَسْبِقْ لهما في ذلكَ، وفَزِعا إلى ما يُسْتَرَانِ بهِ مِنَ الورقِ.

فالأصلُ أنَّ هذا نوعُ ما يُعْلَمُ بالخبرِ[19] مِنْ عندِ عالِمِ الغيبِ. وليسَ بنا إلى تعرُّفِ حقيقتِهِ[20] حاجةٌ، وإنما علينا معرفةُ قَدْرِ المعصيةِ، فَنَعْتَصِمُ باللهِ عنها، والطاعةِ فنرغبُ[21] فيها، وباللهِ العصمةُ.

والأصلُ فيه أنَّ اللهَ تعالى فرَّقَ بينَ دارِ المِحنةِ ودارِ الجزاءِ؛ إذِ الجمعُ بينَهما يُزيلُ البَلْوَى، ويكشِفُ الغِطاءَ؛ فجعلَ اللذيذَ الذي لا راحةَ فيه والمؤلمَ الذي لا تنقيصَ فيه جزاءً والتردُّدَ بينهما[22] مِحنةً، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

---

(١) من ط م، في الأصل: داعياً، في ط ع: راغبا. (٢) من ط م، في الأصل: الذنوب لا تحقق فيه، في ط ع: الذنب لا تحقق فيه. (٣) في ط ع: تفسير. (٤) من ط ع، في الأصل: الأيام، في ط م: الأنام. (٥) في ط م: يجب. (٦) من ط م وط ع، في الأصل: وقذف. (٧) من ط م. (٨) ادرج المحقق في ط ع قبل كلمة ثم العبارة التالية: اختلاف في الوجه الذي بُلِيَ. (٩) في الأصل وط ع: لتنبه، في ط م: لتنبئة. (١٠) ساقطة من النسخ الثلاث. (١١) ساقطة من ط ع. (١٢) من ط م، في الأصل و ط ع: إذا. (١٣) ادرج الناسخ في ط ع تتمة الآية بدل كلمة الآية. (١٤) ادرج المحقق في ط ع قبل كلمة ثم العنوان التالي: ماهية الشجرة. (١٥) من ط م، في الأصل وط ع: بأنه. (١٦) من ط م، في الأصل وط ع: حنطة فيما. (١٧) من ط م، في الأصل وط ع: لبدل. (١٨) من ط م: في الأصل وط ع: وبالنعم. (١٩) من ط م وط ع، في الأصل: الخير. (٢٠) من ط م وط ع، في الأصل: حقيقة. (٢١) من ط م وط ع، في الأصل: فرغب. (٢٢) من ط م، في الأصل وط ع: منها.

وقولُه[1] تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أي تصيرا /٩ ـ أ/ منهمْ، وكذلكَ القولُ في إبليسَ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] أي صارَ منهمْ، ويُحتَمَلُ مِمَّنْ يكونونَ كذلكَ إذْ[2] في عِلْمِ اللهِ أنهمْ يصيرونَ مِمَّنْ في عِلْمِ اللهِ كذلكَ مَعَ جوازِ القولِ بلا تحقيقِ آخرَ كقولِهِ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنين: ١٤] لا أنْ ثَمَّ خالِقٌ غيرُهُ.

ثم اخْتُلِفَ في الوجهِ الذي أوصلَ إبليسُ إليهِ الوسوسةَ: فقالَ الحسنُ: (كانَ آدمُ ﷺ في السماءِ، وإبليسُ في الأرضِ، ولكنهُ أوصلَ إليهِ بالسببِ الذي جعلَ اللهُ لذلكَ). وقالَ قومٌ: كانَ خاطبَهُ في رأسِ حيَّةٍ.

وقيلَ: كانَ[3] تصوَّرَ بغيرِ [الصورةِ التي كانَ عليهاعندَ][4] قولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] الآية، فاغترَّ بِهِ، ولو عرفَهُ لما اغترَّ بِهِ بعدَ [أنْ][5] حذَّرَهُ اللهُ عنهُ. واللهُ أعلمُ كيفَ كانَ ذلكَ.

[وعلى ذلكَ][6] اخْتُلِفَ في الوجوهِ التي يُوَسْوِسُ إلى بني آدمَ: منهمْ مَنْ يقولُ: يجري بينَ الجلدِ واللحمِ كما يجري الدمُ[7]، فيقابلُ وجهَ بصرِهِ بقلبِهِ، فيقذفُ فيهِ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو بحيثُ جُعِلَتْ لهُ قوةُ إيصالِ الخطرِ ببالِهِ والقذفِ في قلبِهِ مِنَ الوجهِ الذي جُعِلَ لهُ، وذلكَ لا يعلمُهُ البشرُ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ النفسَ كأنها سَيَّالةٌ في الجسدِ دائرةٌ في جميعِ الآفاقِ، لولا الجسدُ الذي كانَ يحبسُهُ لكانَ لهُ الانتشارُ على ما يظهرُ[8] في حالِ النومِ عندَ سكونِ جسدِهِ، ومِنْ ذلكَ سلطانُ فكرةِ الرجلِ [على][9] مَنْ في أقصى بِقاعِ الأرضِ حتى يصيرَ لهُ كالمُعَايِنِ، ففي ذلكَ يكونُ قَدْحُهُ وقَذْفُهُ.

ونحنُ نقولُ، وباللهِ التوفيقُ: إنا لا نعلمُ حقيقةَ كيفيةِ ذلكَ، لكنَّ اللهَ تعالى جعلَ للحقِّ أعلاماً وكذلكَ للباطلِ. وكلُّ معنًى يدعو إلى الباطلِ، ويحجبُ عَنِ الحقِّ، فهو عملُ الشيطانِ؛ يجبُ التعوُّذُ منهُ والفزعُ إليهِ. وإنْ لم يعلَمْ حقيقةَ كيفيةِ ذلكَ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ وفصلت: ٣٦]، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقالَ الحسنُ في قولِهِ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. (وقد علِمَ آدمُ أنَّ الملائكةَ أفضلُ، وقد علِمَ أنْ لا خلودَ يكونُ معهُ، وقد أُخبِرَ أنهُ يموتُ، وقد علِمَ أنهُ لا يكونُ مَلَكاً، وقد خُلِقَ مِنْ طِينٍ والملائكةُ مِنْ نورٍ، ولكنْ يكونُ على فضلِ الملائكةِ).

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١] حَلَفَ لهما في [وسوستِهِ أنهُ يقولُ ذلكَ عنْ نصيحةٍ][10]، فتابَعاهُ في الأكلِ لا على القَبولِ منْهُ ما ذَكَرَ؛ إذ لو كانَ عَنْ قَبولٍ [لكانَ ذلكَ أعظمَ][11] مِنَ الأكلِ، ولكنْ أكَلا على الشهْوَةِ واتِّباعِ الهَوَى. ولو صَدَّقاهُ في ذلكَ لَكَفَرا، وكانَ هذا أعظمَ مِنَ الأكلِ، ولم يقلْ لهما ذلكَ فيها لأجلِ ذلكَ الشيءِ[12]؛ وذلكَ كما يقولُ رجلٌ لآخرَ في شيءٍ يُقْتَلُ عليهِ أو يُقْطَعُ [لهُ][13]: لو فعلْتَ لا يُفعَلُ[14] بكَ ذلكَ[15]، فيُقْدِمُ عليهِ. إنهُ [يُقْدِمُ][16] لشهوتِهِ لا على التصديقِ لهُ في ذلكَ. وكذا مَنْ يذكُرُ أحداً بمثلِ[17] امرأةٍ يُحبُّها وإيثارِها إياهُ، فيأتيها بشهوةٍ لا بتصديقِ الآخرِ. فمثلُهُ أمرُ آدمَ في ما وسوسَ إليهِ الشيطانُ.

وهذا الذي يذكرُ الحسنُ يوجبُ أنْ يكونَ آدمُ كانَ يَعلَمُ أنَّ ذلكَ مِنَ الشيطانِ عَدُوِّهِ. وذلكَ إقدامُ[18] على إثرِ ما ذَكَرَ على ما يصفُ أنهُ كانَ يعلمُ [أنهُ][19] أمرٌ فظيعٌ[20] يُوجِبُ فِعلَهُ على العلمِ بالنهيِ أنهُ لا ينالُ بِهِ خيراً، ولا يصلُ بذلكَ إلى

---

(١) هذه العبارة: وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا﴾ ... الوسوسة أُدرجَ بدلاً منها في ط ع العنوانُ التالي: اختلاف في الوجه الذي أوصل إبليس إليه الوسوسة. ثم الأصل أن معرفة موت البشر وما عنه خلق كل شيء إنما هو. (٢) من ط م، في الأصل: إن. (٣) ساقطة من ط م. (٤) من ط م، في الأصل وط ع: صورة كانَ عند. (٥) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٦) من ط م، وأدرج في ط ع بدلاً عنها العنوان التالي: كيف كان ذلك. (٧) إشارة إلى الحديث الشريف: «يجري في الإنسان بين الجلد واللحم مجرى الدم» [البخاري ٧١٧١]، انظر أيضاً في ما سيرد من بيان اختلاف العلماء في الشيطان وسلطانه. (٨) من ط م وط ع، في الأصل: ظهر. (٩) من ط م. (١٠) من ط م، في الأصل: وسوسة أنه يقولُ ذلك عن نصحه، في ط ع: وسوسته عن نصحه. (١١) من ط ع، في الأصل: كان ذلك أعظم، في ط م: كان أعظم. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: شيء. (١٣) من ط م. (١٤) من ط م، في الأصل وط ع: تفعلُ. (١٥) من ط م، في الأصل وط ع: ولك. (١٦) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٧) من ط م، في الأصل وط ع: مثل. (١٨) ساقطة من ط م. (١٩) من ط م. (٢٠) من ط م، في الأصل وط ع: قطع.

فضلٍ، بلِ [اتَّبعَ][(١)] الشيطانَ بما هَوِيَ، واشتَهى. وهذا لو كانَ شَهِدَهُ كانَ فظيعاً أنْ يَدَّعيَهُ على أبي البشرِ ومَنْ قد فضَّلَهُ اللهُ تعالى بالذي سبقَ ذكرُهُ، بل لو قيلَ لهُ: إنهُ لو لم[(٢)] يكنْ عِلْمٌ مِنْ عدوِّهِ أو إلهامٌ على ما يكونُ للأخيارِ أو كانَ أُسمِعَ [عنْ غيرِ الصورةِ التي رآها مِنْ قبلُ كانَ][(٣)] أقربَ وأحقَّ أنْ يظنَّ بهِ مِنْ أنْ يذكرَ الذي ذكرَ.

ومتى يكونُ الإقدامُ [الجهةِ يَجُزْ لا][(٤)] على طمعٍ في ذلكَ، بل لا يُنكَرُ أنْ يكونَ لهُ، ولكنْ على ما بيَّنّا، وليسَ مِنْ ذلكَ الوجهِ الوحشةُ في الدينِ.

ثم قد ذكرَ ملكَينِ؛ والكلامُ في الفضلِ وغيرِ الفضلِ على قولِهِ لا معنى لهُ؛ لأنهُ يجعلُ فعلَهُمْ جَبْراً[(٥)]، ومَنْ فعلُهُ جَبْرٌ[(٦)] لا ترتفعُ درجتُهُ، ولا يعلو قدرُهُ. ثم يجعلُ الفضلَ لهمْ بالخِلْقَةِ فكيفَ كانَ يطمعُ في ذلكَ ولم يكنْ هو بِخِلْقَتِهِمْ؟ ولهذا أُنكِرَ أنْ يكونَ[(٧)] منهم عِصيانٌ؛ إذ خُلِقُوا مِنْ نورٍ. ومَن لا يَعصي بالخِلْقَةِ فإنه لا يُحْمَدُ. ولو كانَ يجبُ الحمدُ [بهِ لوجَبَ][(٨)] في كلِّ مَواتٍ وكلِّ حيوانٍ لا يَعصي بالخِلْقَةِ. وذلكَ بعيدٌ.

وجائزٌ، أنْ يكونَ آدمُ ﷺ طمعَ أنْ يكونا ملكَينِ بأنْ يُجعَلَ على ما عليهِ صنيعُهُمْ مِنَ العصمةِ والإكْتِفاءِ بذكرِ اللهِ وطاعتِهِ عَن جميعِ الشهواتِ. واللهُ قادرٌ على أنْ يَجعلَ البشرَ على ذلكَ؛ وذلكَ ما يوجدُ فيهِمْ مِنْ معصومٍ ومخذولٍ لِيُعْلَمَ أنَّ الخِلْقَةَ لا توجبُ شيئاً ممّا ذكرَ. ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم الأصلُ أنَّ معرفةَ موتِ البشرِ وما عنهُ خَلْقُ كلِّ شيءٍ، إنما هو سمعيٌّ، ليسَ هو حِسّيّاً، ولا في الجوهرِ دليلُ الفناءِ. وللهِ تعالى أنْ يُميتَ مَنْ شاءَ [ويُبقيَ مَنْ شاءَ][(٩)].

فقولُ الحسنِ، إنهُ عَلِمَ، ذلكَ: ثَبَتَ بثباتِ الخبرِ عَنِ اللهِ تعالى، ينتهي إليهِ، أنهُ كانَ بلغَهُ في ذلكَ. وكذلكَ أمرُ الملائكةِ وحالُ [الأضدادِ ومحبةُ][(١٠)] الذكرِ وظهورُ العصمةِ تُعْرَفُ بالمحبةِ والمشاهدةِ بِمَنِّها، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم ذكرَ الحسنُ في خلالِ ذلكَ أنَّ آدمَ ﷺ قد عَلِمَ أنَّ الملائكةَ لا يموتُونَ. لا أدري ما هذا؟ أهو عقدٌ اِعْتَقدَ؟ أم جَرَى على لسانِهِ؟ [لأنَّ مثلَ هذا][(١١)] لا يُعلَمُ إلّا بما لا يُرتابُ في ذلكَ أنهُ جاءَ عَنِ اللهِ تعالى، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي دعاهُما، وزيَّنَ لهُما إلى[(١٢)] سببِ الزَّلَّةِ والإخراجِ منها، لا أنْ تولّى هو إخراجَهُمَا وإزلالَهُمَا، وقد ذكرْنا [أنه قد تُسمّى][(١٣)] الأشياءُ بِاسْمِ أسبابِها والأسبابُ بِاسْمِ الأشياءِ، وذلكَ ظاهرٌ معروفٌ في اللغةِ غيرُ ممتنعٍ تسميةُ الشيءِ بِاسْمِ سببِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ مِنَ الخِصْبِ والسَّعَةِ والنِّعَمِ[(١٤)] التي أنزلَهُمَا اللهُ تعالى فيها، وأباحَ لهُما التناوُلَ ممّا[(١٥)] فيهِ.

ثم اخْتُلِفَ في وسوسةِ الشيطانِ لآدمَ وحواءَ ﷺ فيمَ كانَ؟ ومِنْ أينَ كانَ؟ ولماذا كانَ؟ قيلَ: إنهُ كانَ في السماءِ فوسوسَ إليهما مِنْ رأسِ الحيَّةِ حَسَداً منهُ لَمّا رآهما يَتَقَلَّبَانِ في نعيمِ[(١٦)] اللهِ، ويتنعَّمانِ فيهِ، فاشتَدَّ ذلكَ عليهِ، وقيلَ: إنهُ كانَ في الدنيا، فوسوسَ لهما مِنْ بُعْدٍ، واللهُ أعلمُ.

ثم[(١٧)] اخْتُلِفَ في الشيطانِ؛ ألَهُ سلطانٌ على القلوبِ؟ أم يوسوسُ في صدورِهِمْ مِنْ بُعْدٍ؟ فقالَ بعضُهُمْ: لَهُ سلطانٌ على القلبِ على ما جاءَ [في الحديثِ الشريفِ][(١٨)]: أنهُ «يجري في الإنسانِ بينَ الجلدِ واللحمِ مَجْرَى الدَّمِ» [البخاري ٧١٧١]

---

(١) من ط م وط ع، ساقطة مِنَ الأصل. (٢) ساقطة من ط م. (٣) في الأصل: على الصورة التي أراها من كان، في ط م: على غير الصورة التي أداها من قبل كان، في ط ع: عن الصورة التي أراها من قبل كان. (٤) في ط م: بجهة بخير لا. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: خيراً. (٦) من ط م، في الأصل وط ع: خيرٌ. (٧) من ط م وط ع، في الأصل: يقولُ. (٨) من ط م، في الأصل وط ع: ليجب، والضمير في به يعود إلى الفضل. (٩) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٠) من ط ع، في الأصل: الأضداد محبة، في ط م: الاغذاءِ ومحبة. (١١) من ط ع، في الأصل: لأنه مثله لا، في ط م: لان مثله لا. (١٢) في ط م: أي. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: أن قد يسمي. (١٤) في النسخ الثلاث: والنعيم. (١٥) من ط م، في الأصل وط ع: فيما. (١٦) في النسخ الثلاث: نعم. (١٧) أدرجَ في ط ع قبل: ثم العنوان التالي: اختلف في الشيطان. (١٨) ساقطة من النسخ الثلاث.

وقيلَ: إنهُ لا سلطانَ لَهُ على القلوبِ، ولكنهُ يقذِفُ فيهم مِنَ البعدِ، ويدعوهُمْ إلى الشَّرِّ بآثارٍ تُرى في الإنسانِ مِنَ الأحوالِ مِنْ حالِ الخيرِ والشَّرِّ؛ وكأنَّ تلكَ الأحوالَ ظاهرةٌ مِنْ أثرِ الخيرِ والشَّرِّ. فإذا رأى ذلكَ فعندَ ذلكَ يوسوسُ، ويدعُوهُ إلى الشَّرِّ. وعلى ذلكَ قولُهُ ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ أخبَرَ أنَّهُ لا سلطانَ لهُ علينا سِوى الدعاءِ لنا. وهو لا يُشْبِهُ. واللهُ أعلمُ.

ثم[1] قيلَ في مَنْ عصى ربَّهُ: أليسَ قد أطاعَ الشيطانَ؟ قيلَ: بلى. فإنْ قيلَ[2]: فإذا أطاعَ الشيطانَ ألا[3] كَفَرَ؟ قيلَ: [لا][4] لأنه ليسَ يقصِدُ قصدَ طاعةِ الشيطانِ، وإنما يكفرُ بقصدِ طاعةِ الشيطانِ، وإنْ كانَ في عصيانِ الربِّ طاعتُهُ. وكذلكَ رُوِيَ عَنْ أبي حنيفَةَ ﷺ أنهُ سُئِلَ عَنْ ذلكَ، فأجابَ بمثلِ هذا الجوابِ.

والأصلُ أنَّ الفعلَ الذي يُبْلَى لهُ ليسَ هو لنفسِهِ فعلُ الطاعةِ للشيطانِ ليصيرَ بِهِ مطيعاً؛ إنما يجعلُهُ طاعةَ القصدِ بأنْ يجعلَهُ طاعةً له. وقد زالَ ذلكَ، وإنْ سُرَّ هو بِهِ، وفَرِحَ كما[5] سُرَّ بزوالِ السرورِ عنهما واللذةِ، وإن كانَ بفعلِ مَنْ لا يجوزُ وصفُ مَنْ فعلَ ذلكَ بطاعةِ الشيطانِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ قيلَ: الهبوطُ[6] النزولُ في موضعٍ كقولِهِ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] أي انزِلُوا فيهِ. ويُحتَمَلُ الهبوطُ منها أنه النزولُ مِنَ المكانِ المرتفعِ إلى المنحدِرِ والدُّونِ مِنَ المكانِ.

وقولُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قيلَ: يعني إبليسَ وأولادَهُ [وآدمَ وأولادَهُ][7] بعضُهُمْ لبعضٍ عَدُوٌّ، والعداوةُ في ما بينَنا [وبينَ الحَيَّاتِ[8] عداوةُ طبعٍ، والعداوةُ التي بينَنا][9] وبينَ إبليسَ عداوةُ اختِيارٍ وأمرٍ؛ إذِ الطبعُ ينفرُ عَنْ كُلِّ مُؤذٍ ومُضِرٍّ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ تَقَرُّونَ فيها كقولِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤].

وقولُهُ: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي متاعاً لكمْ لِانْقِضاءِ آجالِكُمْ. ويَحتمِلُ متاعاً لكمْ لِانْقِضاءِ الدنيا وانْقِطاعِها.

الآية ٣٧ وقولُهُ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي أخذَ. وقولُهُ: [10] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قيلَ: [إنَّ][11] فيهِ وجوهاً: قيلَ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي وَفَّقَ لهُ التوبةَ، وهداهُ إليها، كقولِهِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨] أي وَفَّقَ لَهُمُ التوبةَ، فتابُوا. وقيلَ: خلقَ فعلَ التوبةِ منهُ، فتابَ، كما قُلْنَا في قولِهِ: /٩ ـ ب/ هداهُ إليها، فتابَ؛ أي خلقَ فعلَ الاهْتِداءِ [منهُ][12] فاهْتَدَى. وقيلَ: تابَ عليهِ؛ أي تجاوَزَ. وقيلَ: إنَّ التوبةَ هي الرجوعُ؛ [رجَعَ آدمُ عَنْ عصيانِهِ][13] فرجَعَ هو إلى الغفرانِ والتجاوُزِ، وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وفي الآيةِ[14]: أنهُ إنما تابَ عليهِ لكلماتٍ تَلَقَّاها مِنْ رَبِّهِ. والآيةُ تنقضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ؛ لأنهُمْ يقولونَ: إنَّ مِنَ ارتكبَ صغيرةً فهو مغفورٌ لهُ لا يحتاجُ إلى الدعاءِ ولا إلى التوبةِ. فآدمُ ﷺ دعا بكلماتٍ تلَقَّاها منهُ[15] فتابَ عليهِ. ولو كانَ مغفوراً لهُ ما ارتكبَ لكانَ الدعاءُ [فضلاً وتكلُّفاً][16] وباللهِ التوفيقُ.

والكلماتُ هي ما ذُكِرَتْ في سورةٍ أخرى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] الآيةَ[17].

وقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي قابلُ التوبةِ، وقيلَ: [أي][18] موفِّقٌ لِلتَّوبةِ وهادٍ [لها][19] لِقولِهِ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] وقد ذكرْنا في قولِهِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ ما احتَمِلَ فيهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنينَ ورحيمٌ بالتائِبينَ.

---

(١) أُدرجَ في ط ع قبل هذه الكلمة العنوان التالي: في من عصى ربه. (٢) من ط م، في الأصل وط ع: قال. (٣) في الأصل وط ع: أن لا. (٤) من ط م. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: كلما. (٦) في ط م: الهبوط هو. (٧) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٨) من ط م وط ع، في الأصل: الحياة. (٩) في ط م: وبينهم ظاهرة. وقيل: وبين الحية التي حملت إبليس حتى وسوس لهما من ذوابتها. فهذا لا يُعلم إلا بالسمع، إذ ليس في الكتابِ ذلكَ غيرَ أنَّ العداوة بيننا. (١٠) من ط م، في الأصل و ط ع: وقيل. (١١) من ط م. (١٢) من ط م. (١٣) من ط م، في الأصل: راجع آدم عن عصيانه، في ط ع: رجع آدم من عصيانه. (١٤) أدرج في ط ع بعدها: آية. (١٥) من ط م، في الأصل و ط ع: عنه. (١٦) من ط م، في الأصل و ط ع: فضلٌ وتكلفٌ. (١٧) أدرجت في ط ع تتمة الآية بدل كلمة الآية. (١٨) من ط م. (١٩) من ط م.

الآية ٣٨ وقولُهُ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ ذكرَ هبوطَهُمْ جميعاً، فإذا هبَطُوا فُرادَى لم يَخرُجُوا مِنَ الأمرِ، بل كانُوا في الأمرِ، [فَدَلَّ أنَّ الجمعَ في الأمرِ][١] والذكرَ لا يُصَيِّرُ الجمعَ في الفعلِ شرطاً.

وقولُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي لَيَأْتِيَنَّكُمْ. وهذا جائزٌ في اللغةِ. [وقولُهُ][٢]: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي مَنْ تَبِعَ هدايَ، ودَاوَمَهُ[٣] حتى ماتَ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] في الآخرةِ إذا ماتَ عليهِ.

الآية ٣٩ وهذه الآيةُ والتي تليها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تنقُضُ على الجَهْمِيَّةِ لأنهمْ يقولون بفناءِ الجنةِ والنارِ وانْقِطاعِ ما فيهما. فلو كانتِ الجنةُ تفنَى، وينقطعُ ما فيها، لكانَ فيها خوفٌ وحزنٌ؛ لأنَّ مَنْ خافَ[٤] في الدنيا زوالَ النعمةِ عنهُ وفوْتَها يحزنُ [عليه][٥] ويُنَغِّصُهُ ذلكَ. ولذلكَ وصفَ الدنيا بالخوفِ والحزنِ لِما يزولُ [نعيمُها][٦]، ولا تبقَى. فأخبَرَه، ﷻ ألّا خوفَ عليهمْ فيها؛ [أي][٧] خوفَ التبِعَةِ[٨]، ولا حزنَ؛ أي حزنَ فواتِ النعمةِ. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ دلَّ أنها باقيةٌ، وأنَّ نَعيمَها دائمٌ[٩]، لا يزولُ.

وكذلكَ أخبرَ ﷻ أنَّ الكفارَ في النارِ خالِدُونَ وأنَّ عذابَها أليمٌ شديدٌ فلو كانَ لهمْ رجاءُ النجاةِ منها [لَخَفَّ ذلكَ عليهِمْ، وهانَ؛ لأنَّ مَنْ عُوقِبَ في الدنيا بعقوبةٍ، ولهُ رجاءُ النجاةِ منها][١٠] هانَ ذلكَ عليهِ، [وخفَّ][١١]، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ﴾ خصَّصْتُ لكم دونَ غيرِكم مِنْ نحوِ ما جعلَ منكمُ الأنبياءَ والملوكَ إذ جعلَ فيكمْ أنبياءَ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] ويَحْتَمِلُ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ يعني النجاةَ مِنَ فرعونَ حينَ كانَ يَستعبِدُكُمْ، ويَستخدِمُكُمْ ويَسْتَحْيِي نساءَكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١] الآيةَ[١٢]. ويَحْتَمِلُ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ مِنْ نحوِ ما أعطاهُمْ ﷻ المَنَّ والسلوى وتظليلَ الغمامِ وغيرَ ذلكَ مِنْ دونِ غيرِهِمْ.

وقيلَ: نعمتُهُ محمدٌ ﷺ بعثَهُ[١٣] وقتَ اختِلافِهِمْ في الدينِ وتَفَرُّقِهِمْ في ما كانَ عليهِ مَنْ مضى مِنَ النبيِّينَ لِيَدُلَّهُمْ على الحقِّ مِنَ ذلكَ، ويؤلِّفَ بينهُمْ بالبيِّناتِ كما أحوجَهُمُ الاختلافُ إلى مَنْ يقومُ[١٤] بذلكَ مِنْ وجهٍ يُعْلَمُ صدقُهُ في ذلكَ، فبعثَ [اللهُ][١٥] رسولَ اللهِ ﷺ نعمةً منهُ عليهِمْ؛ إذْ بطاعتِهِ نجاتُهُمْ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ أي وجِّهُوا شكرَ نعمتي إليَّ، ولا تُوَجِّهُوها إلى غيري. فإنْ كانَ هذا المرادَ فهمْ وغيرُهُمْ فيه سواءٌ: [إذْ على][١٦] كلِّ مُنْعَمٍ عليه أنْ يوجِّهَ شكرَ نعمِهِ إلى ربِّهِ. وكانَ الأمرُ بذكرِ النعمةِ، واللهُ أعلمُ، أمراً[١٧] بِعِرفانها في القلبِ أنها مِنَّةٌ لا الذكرَ باللسانِ؛ إذْ لا سبيلَ إلى ذكرِ كلِّ ما أنعمَ عليهِ سِوَى الاعْتِرافِ بالعجزِ عَنْ أداءِ شكرِ واحدةٍ منها طوالَ عُمُرِهِ.

وقولُهُ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾، قد ذكرْنَا في ما تقدَّمَ[١٨] أن عهدَ اللهِ على وجهَينِ[١٩]: عهدُ خِلْقَةٍ لِما جعلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ دلائلَ تدلُّ على معرفتِهِ وتوحيدِهِ وأنه لم يَخْلُقْهُ للعبثِ، ولا يتركُهُ سُدىً، وعهدُ رسالةٍ على ألسنِ الرسلِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾[٢٠] [المائدة: ١٢] وكقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: ١٢] [الآيةَ وكقولِهِ][٢١] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٨٧] الآيةَ. [وكقولِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]][٢٢].

---

(١) من ط م. (٢) من ط م و ط ع. ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: ودام، في ط م وط ع: ودام عليه. (٤) من ط م و ط ع، في الأصل: خالف. (٥) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٦) من ط م. (٧) من ط م. (٨) في ط م: النقمة. (٩) في ط ع: دائمة. (١٠) من ط م. (١١) من ط م. (١٢) ساقطة من ط ع. (١٣) من ط ع، في الأصل و ط م: بعث. (١٤) من ط م، في الأصل و ط ع: يقولُ. (١٥) من ط ع. (١٦) في ط م: وعلى كل. (١٧) من ط م، في الأصل و ط ع: أمر. (١٨) ذلك في تفسير الآية: ٢٧ . (١٩) من ط م و ط ع، في الأصل: توجيهين. (٢٠) أدرجت في ط ع الآيةُ كاملة بدل تقسيمها وإدراج القسم الثاني منها قبلَ الأول: كقوله تعالى: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ قبل وكقوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾. (٢١) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٢٢) من ط ع.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الذي وعَدْتُكُمْ وهو الجنةُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ [المائدة: ١٢] ويُقالُ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [أي أدُّوا ما فرضتُ عليكم مِنْ فرائضَ، وَوَجِّهوا إليَّ شكرَ نعمتي ولا تَشكُروا غيري ويكونُ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾][1] الذي أخذَ على النبيِّينَ بقولِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١] الآيةَ، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فيكونُ عهدُهُ تبليغَ ما بيَّنَ في كُتُبِهِمْ مِنْ بعثِ محمدٍ ﷺ والإقرارِ بِهِ والنصرِ لهُ إذ بُعِثَ محمدٌ ﷺ.

وقولُهُ ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي اخشَوا سُلطاني وقُدرَتي. وقيلَ: اخشَوا عذابي ونقمتِي. وقيلَ: اخشَوا نقضَ عهدي وكتمانَ بعثِ[2] نَبِيِّي محمدٍ ﷺ.

الآية ٤١ وقولُهُ: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ على نبيِّي محمدٍ ﷺ مِنَ القرآنِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ الكتبِ مِنَ التوراةِ والإنجيلِ وغيرِهما، وهمْ قد عَرَفُوا موافقَتَهُ كتبَهُمْ؛ إذْ لم يَتَكلَّفوا جمعَ هذا إلى كتبِهِمْ ومقابلةَ بعضٍ ببعضٍ.

أو يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي موافقاً ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مَنَ الكتبِ. وليسَ كما قالَ صِنفٌ مِنَ الكفرةِ، وهمُ الصابئونَ: إنَّ الإنجيلَ نزلَ بالرُّخَصِ، والتوراةَ نزلَتْ بالشدائدِ، فقالُوا باثنَينِ لِمَا لَمْ يَرَوا نزولَ الكتبِ: بعضِها على الرُّخَصِ وبعضِها على الشدائدِ مِنْ واحدٍ حكمةً. فقالَ ﷻ: ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي موافقاً للكتبِ، وإنها إنما نزلَتْ مِنْ واحدٍ لا شَريكَ لهُ، وإنْ كانَ فيهِ شدائدُ ورُخَصٌ؛ إذْ للهِ أنْ يَنْهَى هذا عَنْ شيءٍ، ويأمرَ آخرَ، وينهَى في وقتٍ؛ ويأمرَ به في وقتٍ، وليسَ فيه[3] خروجٌ عَنِ الحكمةِ؛ [إنما الخروجُ عَنِ الحكمةِ][4] أن يأمرَ أحداً، وينهاهُ في وقتٍ واحدٍ وفي حالٍ واحدةٍ وفي شيءٍ واحدٍ.

ثم في الآيةِ دلالةٌ أنَّ المنسوخَ موافقٌ للناسخِ غيرُ مخالفٍ لهُ لأنَّ مِنَ الأحكامِ والشرائعِ ما كانَتْ في كتبِهِمْ، ثم نُسِخَتْ لنا، فلو كانَ فيها خلافٌ[5] لظهرَ القولُ منهمْ: إنهُ مخالفٌ، وإنهُ غيرُ موافقٍ. وكذلكَ في القرآنِ ناسخٌ ومنسوخٌ، [فلم يكنْ][6] بعضُهُ مخالِفاً لبعضٍ[7] كقولِهِ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ قيلَ فيه بوجهَينِ: قيلَ: لا تكونُوا أوَّلَ قدوةٍ يُقتَدَى بِكُمْ في الكفرِ. وقيلَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ﴾ في ما آمَنتُمْ بِهِ؛ لأنهمْ كانُوا آمَنُوا بِهِ قبلَ أنْ يُبْعَثَ، فلمَّا بُعِثَ كفرُوا بِهِ.

[وقيلَ: همْ أولُ مَنِ الْتَقَوا برسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ ظهرَ بينَ أظهُرِهِمْ، فلو كفرُوا لكانُوا أوَّلَ مَنْ يكفرُ بِهِ][8] فَيَلْحَقُهُمْ ما يلحقُ مَنْ سَنَّ [الكفرَ لقومِهِ][9] مَعَ ما يكونُونَ هُمْ بمعنى الحُجَّةِ لغيرِهِمْ، إذ كانُوا أعرفَ بِهِ وابصرَ بما مَعَهُ مِنَ الأدلَّةِ والبراهينِ، فيقتدي بهمْ مَنْ لم يَشْهَدْ، ولا عَلِمَ، فيكونُ عليهم لو كفرُوا ما على أوَّلِ مَنْ كفرَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ مَعَ ما يَلْحقُهُمْ فيهِ وصفُ التعنُّتِ والتمرُّدِ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قيل: بحُجَّتي. قالَ الحسنُ: (الآياتُ[10] في جميعِ القرآنِ هي الدينُ كقولِهِ: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦ و١٧٥]). وأمّا عندَنا فهي الحُجَجُ. وقد ذكرْنا أنَّ اسْمَ الشِّراءِ قد يقعُ مِنِ اختيارِ شيءٍ بشيءٍ، وإنْ لم يُتَلَفَّظْ بلفظِ الشِّراءِ.

وقولُهُ: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ أي اتَّقُوا عذابي ونقمتي. ويَحتمِلُ سُلْطاني وقُدرَتي. وقد ذكَرْنَاهُ.[11]

الآية ٤٢ وقولُهُ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: يَحْتمِلُ لا تشترُوا الحقَّ بالباطلِ[12]، ويَحتَمِلُ [لا تَلْبِسوا أي لا تَلبِسوا، هو تلبيسُ الحَقِّ بالباطل، ويَحْتَمِلُ][13] لا تلبِسُوا أي لا تُشَبِّهُوا الحقَّ بالباطِلِ، ويَحْتَمِلُ: لا تَلْبِسُوا أي لا تَكْتُمُوا، ويَحْتَمِلُ، لا تَلْبِسُوا أي لا تمحُوا بعثَ[14] محمدٍ ﷺ ولا تُثْبِتُوا غيرَهُ، وكلُّهُ يرجعُ إلى واحدٍ.

---

(١) من ط م. (٢) من ط م، من الأصل و ط ع: نعت. (٣) ساقطة من ط م. (٤) من ط م. (٥) من ط م، في الأصل و ط ع: خلافاً. (٦) من ط م، في الأصل و ط ع: فلو لم يكن. (٧) في ط م: لبعضه. (٨) من ط م. (٩) من ط م، في الأصل: السن القوم، في ط ع: السنة لقوم. (١٠) في ط ع: آيات. (١١) ذلك في تفسير الآية: ٢١ . (١٢) من ط م و ط ع، في الأصل: بالحق بالباطل. (١٣) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٤) من ط م، في الأصل وط ع: نعت.

ثم ﴿ٱلْحَقَّ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ محمداً ﷺ وبعثَهُ. ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الإيمانَ، والباطلُ هو الظلمُ والكفرُ، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لِما ذُكِرَ هو وبعثُهُ أنهُ حقٌّ؛ أنْ كانَ محمداً، عليهِ أفضلُ الصلواتِ وأكملُ التحياتِ، أوِ القرانَ [أوِ الإيمانَ][١] ولكنْ تُعانِدونَ، وتُكابرونَ.

الآية ٤٣ وقولُهُ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ الأمرُ بإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ أمراً بقبولِ الصلاةِ المعروفةِ [والزكاةِ المعروفةِ][٢] والدعوةِ[٣] إليهما كقولِهِ ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ليسَ هو إخباراً[٤] عَنْ إقامةِ فعلِهِمَا ولكنْ القَبولُ لهما والإيمانُ بهما. واللهُ أعلمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ بإقامةِ الصلاةِ و[إيتاءِ][٥] الزكاةِ أمراً بكونِهِمْ على حالٍ تكونُ صلاتُهُمْ [صلاةً وزكاتُهُمْ][٦] زكاةً. [وكأنهُ][٧] قالَ: كُونُوا في حالٍ تكونُ صلاتُكُمْ صلاةً وزكاتُكُمْ زكاةً في الحقيقةِ لأنَّ الآيةَ نزلَتْ في بني إسرائيلَ، وهم كانُوا أهلَ كتابٍ، وكانُوا يصلُّونَ، ويَصَّدَّقونَ[٨]، ولكنَّ صلاتَهمْ وزكاتَهُمْ لم تكنْ للهِ لِما لم يأتُوا بإيمانِهِمْ، أُمِرُوا أنْ يأتُوا بالإيمانِ/ ١٠ ـ أ/ لتكونَ صلاتُهُمْ تلكَ صلاةً في الحقيقةِ.

[ويَحْتَمِلُ الأمرُ بإقامةِ الصلاةِ [وإيتاءِ][٩] الزكاةِ أمراً][١٠] بإقامتِها بأسبابِها وشرائِطِها مِنْ نحوِ الطهارةِ واللباسِ وإخلاصِ النيَّةِ لَهُ. وذلكَ راجعٌ إلى المؤمنينَ][١١].

ويَحْتَمِلُ الأمرُ بإقامةِ الصلاةِ و[إيتاءِ][١٢] الزكاةِ [أمراً لمعنىً][١٣] فيهما؛ وهو الخضوعُ والطاعةُ [لَهُ][١٤] والثناءُ عليهِ. وذلكَ [على كلِّ][١٥] أحدٍ أنْ يخضعَ لربِّهِ ويُطيعَهُ ولا يعصيَهُ، وكذلكَ الزكاةُ على كُلِّ [أحدٍ][١٦] أنْ يزكّيَ نفسَهُ مِنْ جميعِ القاذوراتِ، ويَحفظَها، ويَصونَها[١٧] عنْ جميعِ ما [يَضُرُّها][١٨]، وذلك فرضٌ على كلِّ أحدٍ.

وقولُهُ ﷺ[١٩]: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ قيلَ: هو بوجوهٍ: قيلَ: إنَّ اليهودَ كانُوا [يُصلُّونَ، ولا يَركَعُونَ، فأُمِرُوا أنْ يُصلُّوا للهِ، ويركَعُوا فيها على ما يفعَلُهُ المسلِمُونَ. وقيلَ: إنهمْ كانُوا][٢٠] يُصلُّونَ وِحداناً لغيرِ اللهِ، فأُمِرُوا بالصلاةِ معَ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ بالجماعةِ. وفيهِ أمرٌ بحضورِ الجماعةِ. وقيلَ: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي كونُوا معَ المصلِّينَ؛ يعني المسلِمينَ، ولا تُخالِفُوهُمْ في الدينِ والمذهبِ؛ أي أعتِقاداً.

الآية ٤٤ وقولُهُ [ﷺ][٢١]: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني الأتباعَ[٢٢] والسَّفَلَةَ باتِّباعِكُمْ وتعظيمِكُمْ لعلمِكُمْ وتلاوتِكُمُ الكتابَ ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ولا تأمرونَها باتِّباعِ محمدٍ ﷺ وتعظيمِهِ لعلمِهِ ونبوتِهِ ولفضلِ منزلتِهِ عندَ اللهِ؟

[وقولُهُ][٢٣]: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي تجدونَ في كتابِكُمْ أنهُ كذلكَ. [وقولُهُ][٢٤]: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ ذا لا يصلُحُ؟

وقيلَ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني الفقراءَ والضعفةَ[٢٥] بالإيمانِ بمحمدٍ ﷺ ولا تأمُرُونَ الأغنياءَ وأهلَ المروةِ[٢٦] بِهِ لِما تخافُونَ فَوْتَ المأكلةِ والبِرِّ وانقطاعِهِ عنكُمْ؟

ويَحْتَمِلُ [أنَّ ذا][٢٧] الخِطابُ لهمْ ولجميعِ المسلمينَ ألّا[٢٨] يأمرَ أحدٌ بمعروفٍ إلّا ويأمرُ نفسَهُ بمثِلِه، بلِ الواجبُ أنْ

---

(١) من ط ع، في الأصل و ط م: والإيمان. (٢) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل و ط ع: المدعوة، في ط م: والمدعوة. (٤) في النسخ الثلاث: اخبار. (٥) من ط ع. (٦) من ط م و ط ع، ساقطة منَ الأصل. (٧) ساقطة من النسخ الثلاث. (٨) في ط ع: ويتصدقون. (٩) من ط ع. (١٠) من ط م. (١١) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) من ط م و ط ع، في الأصل: أو المعنى. (١٤) من ط م. (١٥) في ط م: على جميع (المؤمنين) على كل. (١٦) من ط م. (١٧) من ط م، في الأصل و ط ع: ويصون. (١٨) في الأصل: يغرقه به، في ط م: يضر به، في ط ع: يغرق به. (١٩) من ط م. (٢٠) من ط م. (٢١) من ط م. (٢٢) من ط م، في الأصل و ط ع: لأتباعِه. (٢٣) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٢٤) من ط م و ط ع ، ساقطة من الأصل. (٢٥) من ط م و ط ع، في الأصل: أو الضعفة. (٢٦) من ط م، في الأصل و ط ع: الثروة. (٢٧) من ط م، في الأصل: إذ، في ط ع: ذا. (٢٨) في ط ع: إن.

يبدأ بنفسِهِ ثم بغيرِهِ؛ فذلكَ أنفعُ وأسرعُ إلى القبولِ. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ [ذلكَ][1] في العقلِ أنْ يجعلَ أوَّلَ السعْيِ في إصلاحِ نفسِهِ ثم الأمرَ لغيرِهِ، والله أعلمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى[2]: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً: يَحتَمِلُ أنِ[3] اسْتَعِينُوا بالصبرِ على تركِ الرئاسةِ والمأكلةِ في الدنيا؛ لأنَّ الخطابَ كانَ للرؤساءِ منهمْ بقولِهِ ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ إلى قولِهِ ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ أنِ اصْبِرُوا على تركِ الرئاسةِ لمحمدٍ ﷺ والانْقِيادِ لهُ والخضوعِ [لِما بيَّنَ لكمْ مِنَ الثوابِ في الآخرةِ لِمَنْ آمنَ بهِ وأطاعَهُ وتركَ الرئاسةِ لهُ.

ويَحتَمِلُ أنِ اصْبِرُوا على المَكارِهِ وتركِ الشهواتِ بأنَّ الجنةَ لا تُدْرَكُ إلّا بذلكَ لِما جاءَ [بهِ الحديثُ الشريفُ][4]: «حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ والنارُ بالشهواتِ» [مسلم ٢٨٢٢]

ويَحتَمِلُ أنِ اسْتَعِينُوا بالصوم والصلاةِ على آدائِهِمَا. لكنَّ هذا يرجعُ إلى المؤمنينَ، والآيةُ نزلتْ في رؤساءِ بني إسرائيلَ، دليلُهُ قولُهُ ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾. وإنما يصلُحُ هذا التأويلُ في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ الآيةَ[5] [البقرة: ١٥٣].

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ يُخرَّجُ، والله أعلمُ، على ما ذكرْنا مِنْ تركِ الرئاسةِ والمأكلةِ في الدنيا؛ إنها لَكبيرةٌ عليهمْ إلّا على الخاشِعِينَ، فإنها غيرُ كبيرةٍ ولا عظيمةٍ عليهمْ. ويَحتَمِلُ: أنَّ تركَ الرئاسةِ لمحمدٍ ﷺ والانْقِيادَ لهُ والخضوعَ][6] لثقيلٌ إلّا على الخاشِعِينَ، فإنهُ لا يثقلُ ذلك عليهمْ، ولا يكبرُ [وقيلَ: إنَّ تحويلَ القبلةِ إلى الكعبةِ لَثقيلٌ][7] ويَحتَمِلُ أنْ يُقالَ: إنَّ الصبرَ على الطاعةِ وأداءِ هذِهِ الفرائضِ لَكبيرةٌ على المنافقينَ إلّا على المؤمنينَ خاصةً؛ فإنه لا يتعاظمُ ذلك عليهمْ. وقيلَ: إنَّ تحويلَ القبلةِ إلى الكعبةِ لَثقيلٌ على اليهودِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [قيلَ][8]: فيه وجوهٌ: قيلَ: الخاشعُ هو الخائِفُ بالقلبِ، وقيلَ: الخاشِعُ المتواضعُ، وقيلَ: الخاشِعُ هنا المؤمنُ. وقالَ الحسنُ: (الخشوعُ، هو الخوفُ اللازمُ بالقلبِ).

الآية ٤٦ وقولُهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ يعني يعلَمُونَ، ويَسْتَيْقِنُونَ أنهم مُلاقُو ربِّهِمْ بكسبِهِمْ وصنيعِهِمْ.

[وقولُهُ][9] ﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي سيعلَمُونَ يومئذٍ أنهمْ راجعُونَ إليهِ. قالَ صاحبُ المنطقِ: الظَّنُّ هو الوقفُ[10] على أحدِ طرفَيِ اليقينِ، والشَّكُّ هو الوقوفُ على أحدِ طرفَيِ الظَّنِّ، والهمَّةُ بينَ هَذَيْنِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً: يَحتَمِلُ ﴿أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بمحمدٍ ﷺ وذلكَ أنَّ الناسَ كانُوا على فترةٍ مِنَ الرسلِ وانْقِطاعٍ مِنَ الوَحْيِ واخْتِلافٍ في الأديانِ والمذاهبِ، فبعثَ اللهُ محمداً ﷺ لِيجمَعَهُمْ، ويدعُوَهُمْ إلى دينِ اللهِ تعالى، ويؤلِّفَ بينَهُمْ، ويُخرِجَهُمْ مِنَ الحَيرةِ والتِّيهِ. وذلكَ مِنْ أعظَمِ نِعَمِهِ التي أنْعَمَهَا عليهِمْ، وباللهِ التوفيقُ.

وذلك أيضاً يَحتَمِل [في ما][11] تقدَّمَ مِنَ الآياتِ، وقولِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقولِهِ: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤١] يعني محمداً ﷺ وعهدُهُ في الأرضِ رسولُهُ كقولِهِ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾ [إلى قولِهِ][12] ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ [آل عمران: ٨١] أي عهدي. وعلى ذلك قولُهُ ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٤١] يعني بمحمدٍ ﷺ وقولُهُ ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ

---

(١) في ط ع: في ذلك. (٢) من ط ع. (٣) من ط م، في الأصل و ط ع: أن أي. (٤) ساقطة من ط م وط ع. (٥) أدرج الناسخ في ط ع تتمة الآية بدل: الآية. (٦) ما بين هذا القوس ونهايته [لما بين . . والخضوع] من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من ط م. (٨) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٩) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٠) في ط م: الوقوف. (١١) ساقطة من ط ع. (١٢) أدرج في ط ع بدل: إلى قولِهِ تتمة الآية.

﴿بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢] يعني محمداً ﷺ وكذلك قولُهُ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] أمكنَ تخريجُ هذه الآياتِ كلِّها على محمدٍ ﷺ.

ويَحتمِلُ أيضاً قولُهُ: ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ الوجوهَ التي ذكرْنا[1]:

أحدُها: أنْ جعلَ منكُمُ الأنبياءَ والملوكَ كقولِهِ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] كما قيلَ: إنَّ كُلَّ نبيٍّ مِنْ[2] لَدُنْ يعقوبَ إلى زمنِ عيسى عليه السلام كانَ مِنْ بني إسرائيلَ.

ويَحتمِلُ ما آتاهمْ ﷻ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ ما لم يُؤتِ أحداً مِنَ العالمِينَ كقولِهِ ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ﴾ مِنَ المَنِّ والسلوى وتظليلِ الغمامِ [كقولِهِ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]][3] وامْتِدادِ اللباسِ على قَدْرِ القامةِ والطولِ كما قيلَ: إنَّ ثيابَهُمْ كانَتْ تزدادُ، وتمتدُّ عليهِمْ على قَدْرِ ما تزدادُ قامَتُهُمْ، وكانَتْ لا تَبْلَى عليهِمْ، ولاَ تَتَوسَّخُ. وذلكَ مما لم يُؤتِ أحداً سِواهُمْ.

ويَحتمِلُ أيضاً قولُهُ ﴿نِعْمَتِيَ﴾ النجاةَ مِنْ فرعونَ وآلِهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] الآيةَ وقولُهُ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ﴾ قيلَ: فُضِّلُوا على جميعِ مَنْ على وجهِ الأرضِ؛ على الدوابِّ بالجوهرِ وعلى الجِنِّ بالرسلِ وعلى البشرِ بالإيمانِ.

ويَحتمِلُ تفضيلُهُمْ على العالَمِينَ وجوهاً أيضاً: ما ذكرْنا مِنْ بعثِ الأنبياءِ منهمْ والنجاةِ مِنْ أيدي العدوِّ وإهلاكِ العدوِّ، وهم يَرَونَهُ، وفَرْقِ البحرِ بِهِمْ والنجاةِ منهُ وإهلاكِ العدوِّ فيهِ. وذلكَ مِنْ أعظمِ النعمِ[4] أنْ تَرَى عدوَّكَ في الهلاكِ، وأنتَ بِمَعزِلٍ منهُ آمِنٌ.

وقولُهُ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قولِهِ ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ﴾ يَحتمِلُ فضلَ أوائلِهِمْ. وفي هذه الآيةِ وجهانِ على المعتزلةِ:

أحدُهُما: قولُهُ ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعندَهُم أنَّ جميعَ ما فعلَ ممّا عليهِ الفعلُ، ولو فعلَ غيرَهُ لكان يكون [بهِ جائراً][5] فإذا كانَ تركُهُ لِفِعْلِهِ جائراً[6] ففعلُهُ حقٌّ عليهِ، ولا أحدَ يكونُ بفعْلِ ما لا يجوزُ له التركُ مُنعِماً على أحدٍ فثبتَ أنْ كانَ ثَمَّ منهُ معنًى زائدٌ[7] خصَّهُمْ بهِ[8] وأنْ ليسَ التخصيصُ مُحاباةً كما زعمتِ المعتزلةُ، ولا تركُ الإنعامِ بُخلاً كما قالوا.

والثاني: قولُهُ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ﴾. فلو لم يكنْ منهُ[9] إليهِمْ فضلُ معنىً لم يكنْ لهمْ تفضيلٌ على غيرِهِمْ. فثبتَ أنْ كانَ فيهِمْ ذلكَ.

ومِنْ قولِ المعتزلةِ: أنْ ليسَ للهِ أن يَخُصَّ أحداً بشيءٍ إلّا باسْتِحقاقٍ بفعلِهِ، وبذلك هُمْ فَضَّلُوا أنفسَهُمْ على العالَمِينَ، لا هو. فكيفَ يَمُنُّ عليهِمْ بذلكَ؟ ولا قوةَ إلّا باللهِ، مَعَ ما لا يخلو تفضيلُهُ[10] إياهُمْ على غيرِهِمْ مِنْ[11] أنْ يكونَ لهمُ الفضلُ في الدينِ أوْ لا. فإن لم يكنْ فليسَ ذلكَ بتفضيلٍ. [فإنْ كانَ][12] ثبتَ أنْ ليسَ مِنَ الحقِّ عليهِ التسويةُ بينَ الجميعِ في أسبابِ الدينِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ ﷻ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ الآيةَ، واللهُ أعلمُ، كأنّها مؤخّرةٌ في المعنَى، وإنْ كانَتْ في الذكرِ مقَدَّمَةً لأنهُ قالَ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ﴾ ثم ذكرَ الإفضالَ والمِنَنَ فقالَ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] الآية[13]، وقولَهُ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ وقولَهُ: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]. ذكَّرَهُمْ ﷻ نعمَهُ ومنَنَهُ عليهِمْ ليشكُرُوا لهُ وليعرِفُوا أنها مِنَّةٌ وأنّها فضلٌ منهُ، ثم حذَّرَهُمْ ﷻ فقالَ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ

---

(١) في ط ع: ذكرناها، وكان الذكر في تفسير الآية: ٤٠ . (٢) ساقطة من ط م. (٣) من ط ع. (٤) في ط م: النعمة. (٥) في ط م وط ع: به جائزاً، في الأصل: جائراً. (٦) في ط م وط ع: جائزاً. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: زائداً. (٨)من ط م، في الأصل وط ع: بهم. (٩) من ط م، في الأصل و ط ع: منهم. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) في ط ع: ومن . (١٢) في ط م: وإن كانَ، في الأصل و ط ع: فإن كانت. (١٣) ساقطة من ط ع.

عَن نَّفْسٍ﴾ الآية[١] ليكونوا على حذرٍ لئلا يُصيبَهُمْ ما أصابَ الأممَ السالفةَ مِنَ الهلاكِ وأنواعِ العذابِ بعدَ الأمنِ والتَّوسيعِ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ إلى قولِهِ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٤٣ و٤٤] الآية.

ثم في الآيةِ دليلٌ لقولِ أبي حنيفةَ وأصحابِهِ: إنَّ الولدَ يصيرُ مَشتوماً مقذوفاً بشتمِ والدَيْهِ لِما عيَّرَهُمْ ﷻ بصنيعِ آبائِهِمْ بقولِهِ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [البقرة: ٥١]؛ وهمْ لم يَتَّخِذُوا العجلَ، وإنما اتَّخذَ[٢] ذلك آباؤهُمْ.

وكذلكَ ذكرَ ﷻ صُنْعَهُ ومِنَّتَهُ عليهِمْ من نحوِ النجاةِ مِنَ الغرقِ وإخراجِهِمْ مِنْ أيدي العدوِّ وفَرْقِ البحرِ بهِمْ وإهلاكِ العدوِّ؛ وإنما كانَ ذلكَ لآبائِهِمْ [دونَهمْ][٣]، لكنْ ذكَّرَهُمْ ﷻ عظيمَ مِنَنِهِ على آبائِهِمْ ليشكُرُوا لهُ على ذلكَ. وكذلكَ عيَّرَهُمْ بصنيعِ آبائهم مِنِ اتِّخاذِ العجلِ وإظهارِ الظلمِ ليكونُوا على حذرٍ مِنْ ذلكَ. والله أعلمُ.

وفي قولِهِ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بما كانَ إنعامي عليهمْ باتِّباعِهِمُ الرسولَ موسى ﷺ وطاعتِهِمْ لهُ، فاتَّبِعُوا اسْمَ الرسولِ محمداً[٤] ﷺ وأطيعُوا له / ١٠ ـ ب/ ولا تتركُوا اتِّباعَهُ.

وقولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ قيلَ: أي لا تؤدِّي نفسٌ عَنْ نفسٍ شيئاً كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و ٣٥و...] الآيات[٥].

وقولُهُ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: لا يكونُ لهمْ شفعاءُ يشفَعُونَ كقولِهِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وكقولِهِ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤] وقيلَ: لو كانَ لهمْ شفعاءُ لا تُقبلُ شفاعتُهُمْ كقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا يُؤذَنُ لهمْ بالشفاعةِ كقولِهِ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقولُهُ: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ والعَدْلُ هو الفِداءُ؛ إمَّا مِنَ المالِ وإمَّا منَ النفسِ. وذلكَ أيضاً يَحْتَمِلُ وجهَينِ: [يَحْتَمِلُ أنْ][٦] لا يكونُ لهمُ الفداءُ على ما ذكرْنا في الشفيعِ، ويَحْتَمِلُ أنْ لو كانَ، لا يُقْبَلُ منهمْ كقولِهِ[٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

ثم الوجوهُ التي تخلِّصُ المرءَ في الدنيا إذا أصابَتْهُ نكبةٌ بثلاثٍ: إمَّا بفداءٍ يَفْدِي عنهُ مالاً أو نفساً، وإمَّا بشفعاءَ يشفَعُونَ لهُ، وإمَّا بأنصارٍ ينصرُونَ لهُ، فَيَتخلَّصُ مِنْ ذلكَ. فقطعَ[٨] ﷻ عنهمْ جميعَ وجوهِ التخلُّصِ في الآخرةِ.

والآيةُ نزلَتْ، والله أعلمُ، في اليهودِ والنَّصارى، وهمْ كانُوا يؤمنونَ بالبعثِ والجنةِ والنارِ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وقولِهِ: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] ولذلكَ ذكرَ اسْمَ الفداءِ والشفيعِ [وما ذكرُوا، أمَّا][٩] مَنْ لم يؤمِنْ بالآخرةِ فلا معنًى لذكرِ ذلكَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيلَ: آلُ الرجلِ شِيعتُهُ، ولذلكَ قيلَ: آلُ رسولِ اللهِ قرابتُهُ. وقيلَ: كُلُّ مؤمنٍ هو مِنْ آلِهِ. وعلى ذلكَ الأمرُ بالصلاةِ عليهِ وعلى جميعِ مَنْ آمنَ بهِ.

وقولُهُ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قيلَ فيه بوجهَينِ: قيلَ: يقصِدُونَكُمْ سوءَ العذابِ؛ وذلكَ يرجِعُ إلى الاِسْتِعبادِ والاِستِخدامِ بأنفسِهِمْ. وقيلَ: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يُذيقونَكُمْ أشدَّ العذابِ، وذلكَ يرجعُ إلى ما يسوؤُهُمْ مِنْ تذبيحِ الأبناءِ وتقتيلِهِمْ كقولِهِ: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي يقتلُونَ[١٠] أبناءَكُمْ.

وقولُهُ: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أيضاً وجهَينِ: يَحتملُ: يَسْتَحيُونَ مِنَ الحياءِ؛ أي اسْتَحْيَوا قتلَ النساءِ لِما لا يخافونَهُنَّ[١١]، ويَحْتَمِلُ مِنَ الإحياءِ؛ أي تركوهُنَّ أحياءً فلمْ يقتلوهُنَّ.

---

(١) ساقطة من ط ع. (٢) من ط م، في الأصل و ط ع: اتخذوا. (٣) من ط م. (٤) من ط م، في الأصل و ط ع: محمد. (٥) في الأصل و ط م: الآية، وأدرج الناسخ في ط ع بدلاً عنها الآيتين (٣٦ و ٣٧). (٦) من ط م وط ع، في الأصل: أي. (٧) من ط م و ط ع، في الأصل: قوله. (٨) من ط م، في الأصل و ط ع: يقطع. (٩) في النسخ الثلاث: وما ذكرَ. وأما. (١٠) من ط م وط ع، في الأصل: ويقتلونَ. (١١) في النسخ الثلاث: يخافهن.

وقولُهُ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ قيلَ: البلاءُ ممدودٌ هو النعمةُ؛ كأنه قالَ: في ما نجّيناكُم[1] مِنْ فرعونَ وآلِهِ نعمةٌ عظيمةٌ، وقيلَ: البَلَى[2] مقصورٌ هو الابتِلاءُ والامتِحانُ؛ كأنهُ قالَ: في استِعبادِهِ[3] إياكُم واستِخدامِهِ امتِحانٌ عظيمٌ.

الآية ٥٠ وقولُهُ: [ﷻ][4]: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قيلَ: ﴿فَرَقْنَا﴾ أي جعلْنا لكُمُ البحرَ فِرَقاً أي طُرُقاً تمرُّونَ فيها[5]. وقيلَ: ﴿فَرَقْنَا﴾ أي [جاوَزْناكُم][6] البحرَ.

الآية ٥١ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ كانَ الوعدُ لهمْ، واللهُ أعلمُ، وعدَينِ[7]:

أحدُهما: مِنَ اللهِ ﷻ بصرفِ موسى إليهِمْ معَ التوراةِ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦] أي صِدْقاً.

ووعدٌ آخرُ، كانَ مِنْ موسى بانصرافِهِ إليهِمْ بالتوراةِ على رأسِ أربعينَ ليلةً كقولِهِ: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

وقولُهُ: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ][8]: يَحتَمِلُ[9] ﴿اتَّخَذْتُمُ﴾: أي عبدْتُمْ، فاستوجَبُوا ذلكَ التَّعييرَ[10] واللائمةَ بعبادةِ العجلِ لا باتِّخاذِهِ نفسَهُ، ويَحتَمِلُ ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً، فاستوجَبُوا ذلكَ باتِّخاذِهِمْ إلهاً كقولِهِ: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] وهذا كأنهُ[11] أقربُ. وقيلَ: ﴿اتَّخَذْتُمُ﴾ أي صَنَعْتُمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ قيلَ في الظلمِ بوجوهٍ: قيلَ: إنَّ كُلَّ فعلٍ يستوجبُ بهِ الفاعلُ عقوبةً فهو ظلمٌ. وقيلَ: إنَّ كلَّ عملٍ لم يُؤذَنْ لَهُ فهو ظلمٌ؛ وههنا، حينَ فعلُوا ما لم يُؤذَنْ لهمْ، نسبَهُمْ إلى الظلمِ؛ لأنهمْ ظلمُوا أنفسَهُمْ. وقيلَ: إنَّ الظلمَ هو وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِهِ، فَسُمُّوا بذلكَ لأنهُمْ وضعُوا الألوهيَّةَ في غيرِ موضعِها، وهذا كأنهُ، واللهُ أعلمُ، أقربُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الآيةَ[12]، تنقضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ؛ لأنهم يزعُمُونَ أنَّ اللهَ إذا علمَ مِنْ أحدٍ أنه يؤمِنُ به، في آخرِ عمرِهِ، وإنْ طالَ، أو يكونُ في[13] نسلِهِ مَنْ يؤمِنُ إلى آخرِ الأبدِ، لم يكنْ لهُ أنْ يميتَهُ، ولا لَهُ أنْ يقطعَ نسلَهُ. فإذا كانَ على اللهِ أنْ يُبْقِيَهُمْ، ولا يقطعَ نَسْلَهُمْ، لم يكنْ لِلامْتِنانِ عليهِمْ ولا لِلإفضالِ وطَلَبِ الشكرِ منهِمْ معنًى، إذْ فَعَلَ ﷻ[14] ما عليهِ أنْ يفعَلَ، وكلُّ مَنْ فَعَلَ ما عليهِ أنْ يفعلَ لم يكنْ فعلُهُ فعلَ امْتِنانٍ ولا فعلَ إفضالٍ؛ لأنهُ ﷻ مَنَّ عليهِمْ بالعفوِ [عنهِمْ، حينَ لم يستأصِلْهُمْ، وتركَهُمْ حتى تناسَلُوا، وتوالَدُوا، ثم وجَّهَ الإفضالَ والامْتِنانَ على هؤلاءِ، وإنْ كانَ ذلكَ العفوُ][15] لآبائِهِمْ؛ لأنهُ لو أهلكَ آباءَهُمْ، وقطعَ تناسُلَهُمْ، انْقَرَضُوا، وتَفَانَوا، ولم يتوالَدُوا. فالمِنَّةُ[16] عليهِمْ حصلَتْ؛ لذلكَ طلبَهُمْ بالشكرِ لهُ. واللهُ أعلمُ.

فإذا كانَ هذا ما وصفْنا دلَّ أنْ ليسَ على اللهِ أن يفعلَ الأصلحَ[17] لهمْ في الدينِ؛ وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكرُوا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي لكي يوحِّدوني[18]. وذلكَ يَحتَمِلُ [وجوهاً: يَحتمِلُ][19] أنْ يُشهِدَ خَلْقَهُ كلَّ أحدٍ على وحدانيَّتِهِ، وكذلكَ يشكُرُ خَلْقَهُ كلُّ أحدٍ لَهُ، ويَحتمِلُ عبادةَ الأخيارِ[20] بوحدانيَّتِهِ والشكرِ لهُ بما أنعمَ، وأفضلَ عليهِ؛ وذلكَ يرجِعُ إلى مَنْ يَعبُدُ، ويُوَحِّدُ، ويَحتَمِلُ [أنهُ][21] خَلَقَهُمْ ليأمرَهُمْ بالعبادةِ والشكرِ لهُ؛ مَنِ احْتَمَلَ منهمُ الأمرَ بذلكَ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراةَ. والكتابُ اسْمُ كلِّ مكتوبٍ. وقولُهُ ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ قيلَ: سُمِّيَ فرقاناً لما فَرَّقَ، وبَيَّنَ فيها الحلالَ والحرامَ، وكُلُّ كتابٍ فُرِّقَ فيه بينَ الحلالِ والحرامِ فهو فرقانٌ، وقيلَ:

---

(١) من ط ع، في الأصل وط م: ينجيكم. (٢) في النسخ الثلاث: البلاء. (٣) من ط م وط ع، في الأصل: استبعاده. (٤) ساقطة من ط م وط ع. (٥) في النسخ الثلاث: فيه. (٦) من ط م، في الأصل وط ع: جاوزنا بكم. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: وعدان: من علماء اللغة من يلزم المثنى الألف. (٨) من ط م. (٩) ساقطة من ط م. (١٠) من ط م، في الأصل وط ع: التغيير. (١١) في ط م: كان. (١٢) في ط ع: لأنه. (١٣) في ط م، و ط ع: من. (١٤) في ط م: جل وعز. (١٥) من ط م. (١٦) في ط ع: فالسنة. (١٧) من ط م و ط ع، في الأصل: الأصح. (١٨) في الأصل و ط م: يوحدون، في ط ع: يوحدوا. (١٩) من ط م. (٢٠) في ط م: الإخبار. (٢١) من ط م.

سُمِّيَ فرقاناً لِما فُرِّقَ فيه بينَ الحقِّ والباطلِ، وهما واحدٌ، وقيلَ: سُمِّيَتِ التوراةُ فرقاناً لِما فيها المخرجُ مِنَ الشُّبُهاتِ.
وقيلَ: الآيةُ[1] على الإضمارِ؛ كأنه قالَ: وإذْ آتينا موسى الكتابَ، يعني التوراةَ، ومحمداً ﷺ الفرقانَ كقولِهِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فالكلامُ فيه كالكلامِ في قولِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقد ذكرْنا فيهِ ما أمكنَ. واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ بعبادتِكُمُ العجلَ، [وقيلَ: ظلَمْتُمْ أنفسَكُمْ باتّخاذِكُمُ العجلَ إلهاً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ قيلَ: ارجِعُوا عن عبادةِ العجلِ][2] إلى عبادةِ ربِّكُمْ. وقيلَ: ارجِعوا عَنِ[3] اتّخاذِ العجلِ إلى اتّخاذِ خالقِكُمْ إلهاً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ قالَ الفقيهُ أبو منصورٍ، رحمَهُ اللهُ، لولا اجْتِماعُ أهلِ التأويلِ والتفسيرِ على صرفِ ما أمرَ اللهُ تعالى[4] إياهمْ بقتلِ أنفسِهِمْ على حقيقتِهِ[5] وإلّا لم نكنْ نصرفُ الأمرَ [بقتلِ أنفسِهِمْ][6] على حقيقةِ القتلِ؛ وذلك لأنَّ الأمرَ بالقتلِ [كانَ بعدَ][7] التوبةِ ورجوعِهِمْ إلى عبادةِ [اللهِ تعالى][8] والطاعةِ لهُ[9] والخضوعِ؛ دليلُهُ قولُهُ ﷻ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. ظهرَ بهذا أنهمْ تابُوا قبلَ أنْ يُؤْمَرُوا بالقتلِ. وقد شَرَعَ على ألسنِ الرسلِ قتالَ الكفرةِ حتى يُسْلِموا، فلا يجوزُ ذلكَ إنْ أسلَمُوا، فيحصلُ الإرسالُ للقتلِ خاصةً لا للدينِ،[10] واللهُ أعلمُ.

ولأنَّ القتلَ، هو عقوبةُ الكفرِ لا عقوبةُ الإسلامِ، وخاصةً[11] قتلُ اسْتِئْصالٍ، على ما رُوِيَ في الخبرِ: أنهُ قُتِلَ سبعونَ ألفاً في يومٍ واحدٍ، وذلك اسْتِئْصالٌ وإهلاكٌ، ولم يُهلِكِ اللهُ قوماً إلّا في حالِ الكفرِ والعِنادِ، إذِ الإسلامُ سببُ دَرْءِ القتلِ وإسقاطِهِ: لأنَّ [مَنْ][12] يُقتَلُ لكفرِهِ، إذا أسلمَ سقطَ القتلُ عنهُ، وزالَ، وكذلكَ إذا أسلمَ، وماتَ عليهِ، لم يُعاقَبْ في الآخرةِ لكفرِهِ في الدنيا. فعلى ذلكَ يجبُ ألّا يُعاقَبَ هؤلاءِ في الدنيا بالقتلِ بعد التوبةِ والرجوعِ إلى عبادةِ اللهِ تعالى وطاعتِهِ.

ويُصرفُ الأمرُ بالقتلِ إلى إجهادِ[13] أنفسِهِمْ بالعبادةِ للهِ والطاعةِ لهُ واحْتِمالِ الشدائدِ والمشقَّةِ لتفريطِهِمْ في عصيانِ ربِّهِمْ باتخاذِهِمُ العجلَ إلهاً وبعبادتِهِمْ إياهُ دونَ اللهِ؛ وذلك جارٍ في الناسِ؛ يُقالُ: فلانٌ يقتلُ نفسَهُ في كذا، لا يَعْنُونَ حقيقةَ [القتلِ، ولكنْ إجهادَهُ][14] نفسَهُ في ذلكَ وإتعابَهُ إياها واحْتِمالَ الشدائدِ والمشقةِ فيهِ. فعلى ذلكَ يُصرفُ الأمرُ بقتلِ أنفسِهِمْ إلى ما ذكرَ بالمعنَى الذي وصَفْنا، واللهُ أعلمُ.

[ثم صرفُ ذلكَ إلى حقيقةِ القتلِ، إنِ احتُمِلَ، بوجهَينِ][15]:

أحدُهما: أنْ يُجعلَ ذلكَ ابْتِداءَ محنةٍ مِنَ اللهِ تعالى لهمْ بالقتلِ لا عقوبةً، لما سبقَ مِنَ العصيانِ. وللهِ أنْ يمتحِنَهُمْ بقتلِ أنفسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ /١١ ـ أ/ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦] الآيةَ، على تأويلِ كثيرٍ مِنَ المتأوِّلِينَ في ذلكَ؛ إذْ لهُ أنْ يُميتَهُمْ بجميعِ أنواعِ الإماتةِ، فعلى ذلك لَهُ أنْ يأمرَ بقتلِ أنفسِهِمْ؛ وفيه إماتةٌ مَعَ ما فيهِ الاسْتِسلامُ لعظيمِ ما دُعُوا إليه مِنْ بذلِ النفسِ للهِ ممّا في مثلِهِ جَعْلُ وفاءِ إبراهيمَ الأمرَ بالذبحِ وبذلِ وَلَدِهِ النفسَ لهُ، فيكونُ في ذلكَ القدرِ وفاءٌ وتوبةٌ لا حقيقةُ القتلِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط م، في الأصل و ط ع: لأنه. (٢) من ط م. (٣) من ط م و ط ع، في الأصل: إلى. (٤) في ط م: ﷻ، ساقطة من ط ع. (٥) من ط م، في الأصل و ط ع: حقيقة. (٦) من ط م. (٧) من ط م و ط ع، في الأصل: وذلك. (٨) من ط ع، في ط م: الله، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من ط م. (١٠) من ط م، في الأصل و ط ع: الدين. (١١) الواو ساقطة من ط ع. (١٢) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: اجتهاد. (١٤) من ط م، في الأصل وط ع: الأمر ولكن اجتهاده. (١٥) في الأصل وط ع: ثم اصرف ذلك إلى حقيقة القتل إن احتمل وجهان، في ط م: ثم صرْف ذلك إلى حقيقة القتل احتمل وجهين.

والثاني: يجوزُ ذلكَ لأنهُ عقوبةُ الدنيا [وعقوباتُ الدنيا][(١)] وثوابُها مِحنةٌ، فجازَ الإمْتِحانُ بعدَ التوبةِ والرجوعِ إلى طاعةِ اللهِ تعالى لأنها دارُ محنةٍ. وأمّا عقوباتُ الآخرةِ وثوابُها [فليسَتا بِمِحْنةٍ][(٢)] لأنها ليسَتْ بدارِ امْتِحانٍ؛ ولذلكَ جازَ التعذيبُ في الدنيا بعدَ التوبةِ، ولم يَجُزْ في الآخرةِ إذا ماتَ على التوبةِ. واللهُ أعلمُ.

ثم قيلَ في قولِهِ: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بوجوهٍ، قيلَ: أُمِرُوا ببذلِ الأنفسِ للقتلِ[(٣)] والتسليمِ لهُ، فصارُوا كأنْ قد قتلُوا أنفسَهُمْ. ويجوزُ أن يكونَ الأمرُ بقتلِ أنفسِهِمْ أمراً[(٤)] بمجاهدةِ الأعداءِ، وإنْ كانَ فيها تَلَفُهُمْ على ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] مذكورٌ ذلكَ في التوراةِ، وكذا قولُهُ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] نهيٌ عَنِ القتلِ الذي فيه قتلُ أنفسِهِمْ. وقد قيلَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] بمعنى أي لا تقتلُوا مَنْ تقتلُونَ، فكأنما [قد][(٥)] قتلْتُمْ أنفسَكُمْ. وعلى هذا التأويلِ خرَّجَ أبو بكرٍ [الأصمُّ][(٦)] قولَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، واللهُ الموفقُ.

وقيلَ: أمرَ بعضاً بقتلِ بعضٍ كقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٦١] أي يسلِّمُ بعضُهُمْ على بعضٍ. وقيلَ: أمرَ كلَّ مَنْ عبدَ العجلَ بقتلِ [نفسِهِ][(٧)]، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ قيلَ: إنَّ التوبةَ خيرٌ لكمْ عندَ خالقِكُمْ، وقيلَ: قتلُكُمْ[(٨)] أنفسَكُمْ خيرٌ لكم مِنْ لزومِ عبادةِ العجلِ. ويَحتمِلُ: عبادةُ الربِّ ﷻ خيرٌ لكمْ مِنْ عبادةِ العجلِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقد ذكَرْنا المعنى في ما تقدَّمَ[(٩)]. وفي بذلِ أنفسِهِمْ للقتلِ والصبرِ عليهِ وكفِّ أيديهِمْ عَنِ الدفعِ والمُمارسةِ فيهِ وجهانِ:

أحدُهُما: أنهُ كأنهمْ طُبِعُوا[(١٠)] على أخلاقِ البهائِمِ والدوابِّ. وذلكَ أنَّ موسى [ﷺ][(١١)] استنقذَهُمْ مِنْ خدمةِ فرعونَ وآلِهِ، ونَجّاهُمْ مِنَ الشدائدِ التي كانَتْ عليهِمْ ولحوقِ الوعيدِ بهِمْ، وأراهُمْ مِنَ الآياتِ العجيبةِ: مِنْ آيةِ[(١٢)] العصا واليدِ البيضاءِ وفَرْقِ[(١٣)] البحرِ وإهلاكِ العدوِّ وتفجيرِ الأنهارِ مِنْ حجرٍ واحدٍ وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ ما يكثُرُ ذكرُها، أنْ لو كانتْ واحدةً منها لَكفتْهُمْ، ودَلَّتْهُمْ على [صدقِهِ ونبوتِهِ][(١٤)] ثم مع ما أراهمْ مِنَ الآياتِ إذْ فارقَهُمْ دعاهُمُ السامريُّ إلى عبادةِ العجلِ واتِّخاذِهِ إلهاً كقولِهِ: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] فأجابوهُ إلى ذلكَ، وأطاعُوهُ.

وكان هارونُ ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنا وعليهِ ـ فيهِمْ يقولُ: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠] فلم يُجيبوهُ، ولا صَدَّقوهُ، ولا اكْتَرَثوا إليهِ معَ ما كانَ هارونُ مِنْ[(١٥)] أحبِّ الناسِ إليهِمْ، فلولا أنهمْ كانوا مطبوعينَ على أخلاقِ البهائمِ والدوابِّ لما[(١٦)] تركوا إجابتَهُ، ولا عَبَدوا العجلَ معَ ما أُروا مِنَ الآياتِ التي ذكَرْنا.

فإذا كانَ إلى هذا تَرْجِعُ أخلاقُهُمْ لم يُبالوا ببذلِ[(١٧)] أنفسِهِمْ للقتلِ، واللهُ أعلمُ. ونحوُ ذلكَ قولُهُ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وعلى ذلك جُعِلَتْ آياتُ موسى كلُّها حِسِّيَّةً لا عقليةً؛ إذْ عقولُهُم كادَتْ تَقْصُرُ عنْ فهمِ المحسوسِ ودَرْكِهِ فضلاً عنِ المُسْتَدَلِّ عليهِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنهمْ أُروا[(١٨)] ثوابَ صبرِهِمْ [على القتلِ][(١٩)] في الآخرةِ وجزيلَ جزائِهِمْ وكريمَ مآبِهِمْ، فهانَ ذلكَ عليهِمْ، وخَفَّ، كما رُوِيَ أنَّ امرأةَ فرعونَ [لما علمَ فرعونُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ بعبادتِها][(٢٠)] ربَّها وطاعَتِها لهُ أمرَ أنْ تُعاقَبَ بأشدِّ

---

(١) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٢) من ط م، في ط ع: ليست بمحنة، ساقطة من الأصل. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: بالقتل. (٤) من ط م وط ع، في الأصل: أمر. (٥) من ط م. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) من ط م. (٨) من ط م، في الأصل وط ع: قتل. (٩) كان في ذلك في تفسير الآية ٣٧ . (١٠) من ط م، في الأصل وط ع: أطبعوا. (١١) في ط م: صلى الله عليه وسلم. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: آله. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: وخرق. (١٤) من ط م وط ع، في الأصل: صدق نبوته. (١٥) ساقطة من ط ع. (١٦) في النسخ الثلاث: وإلا ما. (١٧) من ط م، في الأصل وط ع: إلى بذل. (١٨) من ط م، في الأصل وط ع: رأوا. (١٩) من ط م. (٢٠) من ط م، في الأصل: بعبادة، في ط ع: لما علم فرعون بعبادتها.

العقوباتِ، فَفُعِلَ بها، فضحكتْ في تلك الحالِ لِما أُريَتْ مُقامَها في الجنةِ وكريمَ مآبها، فهانَ ذلكَ عليها، وسَهُلَ. فعلى ذلك يَحْتَمِلُ بذلُ هؤلاءِ أنفُسَهُمْ [للقتلِ][١] والصبرُ عليهِ لذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ الذينَ اختارَهُمْ موسى [وكانُوا] [٢] سبعينَ رجلاً: لنْ نصدِّقَكَ بالرسالةِ والتوارةِ حتى نرى اللهَ جهرةً؛ يُخبِرُنا أنهُ أنزلَها[٣] عليكَ. ويَحتمِلُ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أنه إلهٌ، ولا نعبدُهُ حتى نراهُ جهرةً عِياناً.

فاحتجَّ بعضُ مَنْ ينفي الرؤيةَ في الآخرةِ بهذهِ الآيةِ حينَ [قالُوا: فلو كانَ يجوزُ أنْ يُرى لكانَ لا تأخُذُهُمُ الصاعقةُ][٤]، ولا اسْتَوجَبُوا بذلكَ العذابَ والعقوبةَ.

وأمّا عندنا فليسَ[٥] في الآيةِ دليلُ نفيِ الرؤيةِ، بل فيها إثباتُها؛ وذلكَ أنَّ موسى ﷺ لَمّا سألُوا[٦] الرؤيةَ لم ينهَهُمْ عَنْ ذلكَ [ولا][٧] قالَ لهمْ: لا تسألُوا [هذا، وكذلكَ سألَ][٨] هو ربَّهُ الرؤيةَ، فلم ينهَهُ عنها، بل قالَ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وذا حرفُ[٩] الوعدِ. [لا][١٠] يجوزُ ذلكَ لو كانَ لا يُحتملُ لأنهُ كفرٌ، ومُحالٌ تركُ النهيِ عنهِ. وكذلكَ ما رُويَ في الأخبارِ مِنْ سؤالِ الرؤيةِ لرسولِ اللهِ ﷺ حينَ قالُوا: أنرى ربَّنا؟ لم يأتِ النهيُ عنهُ عَنْ ذلكَ ولا الردُّ عليهمْ؛ فلو كانَ لا يكونُ لَنُهُوا عَنْ ذلكَ، ومُنِعُوا.

وإنما أخذَ هؤلاءِ الصاعقةُ بسؤالِهِمُ الرؤيةَ لأنهمْ لم يسألُوا سؤالَ اسْتِرشادٍ، وإنما سألُوا سؤالَ تَعَنُّتٍ؛ دليلُ التعنُّتِ في ما جاءَ مِنَ الآياتِ مِنْ وجهِ الكفايةِ لِمَنْ يُنْصِفُ؛ لذلكَ أخذَتْهُمُ الصاعقةُ [واللهُ أعلمُ، أو أنْ يقالَ: أخذَتْهُمُ الصاعقةُ][١١] بقولِهِمْ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لا بقولِهِمْ: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾. وسنذكرُ هذه المسألةَ في موضِعِها إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وقولُهُ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ قيلَ: الصاعقةُ: كلُّ عذابٍ فيهِ هلاكٌ. لكنَّ الهلاكَ على ضربَينِ: هلاكُ الأبدانِ والأنفسِ، وهلاكُ العقلِ والذهنِ كقولِهِ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قيلَ: مَغْشِيّاً، وفيهِ هلاكُ الذهنِ والعقلِ وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] أي غُشِيَ، واللهُ أعلمُ. وقيلَ: الصعقةُ صِياحٌ شديدٌ.

وقولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قيلَ [فيهِ] [١٢] بوجهَينِ: قيلَ: تعلَمُونَ أنَّ الصاعقةَ [قد أخذَتْهُمْ، وأهلكَتْهُمْ بقولِهِمُ الذي قالُوا، فكونُوا على حذرٍ مِنْ ذلكَ القولِ. وقيلَ: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الخطابُ لأولئكَ الذينَ أخذَتْهُمُ الصاعقةُ؛ أي تنظرونَ إلى الصاعقةِ][١٣] وقتَ أخذَتِها[١٤]، أي لم تأخذْكُمْ فجأةً ولا بغتةً ولكنْ عِياناً جهاراً، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ[١٥] ﷻ مِنَّتَهُ عليهمْ وجزيلَ عطائِهِ لَهُمْ ببعثِهِمْ بعدَ الموتِ وتظليلِ الغَمامِ عليهِمْ، وإنزالِ المنِّ والسلوى مِنَ السماءِ لهمْ، وذلكَ مِمّا[١٦] خُصُّوا بهِ دونَ غيرِهِمْ، ثم ما كانَ مِنَ الموعودِ في الجنةِ، فكانَ ذلكَ لهمْ في الدنيا معاينةً مِنْ نحوِ البعثِ بعدَ الموتِ ومِنَ الظِّلِّ الممدودِ والطيرِ المشويِّ والثيابِ التي كانَتْ لا تبلَى عليهِمْ، ولا تتوسَّخُ. فذلكَ كُلُّهُ مِمّا وَعَدَ لنا في الجنةِ، وكانَ لهمْ في الدنيا مُعاينةً؛ يعايِنُونَ مَعَ ما كانَ لهمْ [مِنْ][١٧] هذا، لم يُجيبُوا إلى ما دُعُوا، ولا ثَبَتُوا على ما عاهدُوا؛ وذلكَ لقلةِ عقولِهِمْ وغِلَظِ أفهامِهِمْ ونشوئِهِمْ على أخلاقِ البهائِمِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [يَحتمِلُ وجهَينِ][١٨]: يَحتمِلُ ما لم يُحِلَّ لهمُ الفضلَ على حاجتِهِمْ، فأباحَ لهمُ القَدْرَ الذي لهمْ إليهِ حاجةٌ، وسمّاهُ طَيِّباتٍ. ويَحتمِلُ

---

(١) من ط م. (٢) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٣) من ط م، في الأصل و ط ع: أنزلَ. (٤) من ط ع، في الأصل: أخذتهم الصاعقة، في ط م: أخذتهم الصاعقة لما سألوا الرؤية. (٥) في ط م: فإنه ليس. (٦) في ط م: سئل. (٧) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٨) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٩) في ط م: صرف. (١٠) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١١) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٢) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٣) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٤) في ط م: أخذها. (١٥) في ط ع: يذكر. (١٦) ساقطة من ط ع. (١٧) من ط ع. (١٨) ساقطة من ط ع.

أنهُ سَمّاهُ طَيِّباتٍ لِما لا يشوبُهُ[1] داءٌ يؤذيهِمْ ولا أذىً [يضرُّ بهِمْ، ليسَ][2] كطعامِ الدنيا ممّا لا يَسلَمُ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ. وقد قيلَ: الطَّيِّبُ هو المباحُ الذي يستطيبُهُ الطبعُ، ويتلذَّذُ بهِ النفسُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قد[3] ذكرْنا معنى الظلمِ في ما تقدَّمَ[4]. وقد يَحتمِلُ وجهاً آخرَ؛ وهو النقصانُ كقولِهِ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تُنقِصْ منهُ. وحاصلُ[5] ما ذكرْنا: أنَّ الظلمَ هو وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِهِ، وكلُّ ما ذكرْنا [يرجعُ][6] إلى واحدٍ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ اختُلِفَ[7] في تلكَ القريةِ: قيلَ: إنها بيتُ المقدسِ كقولِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]؛ أُمِرُوا بالدخولِ فيها والمُقامِ هنالِكَ لِسَعةِ عيشِهِمْ فيها ورزقِهِمْ إذ هو الموصوفُ بالسَّعةِ والخِصْبِ، وقيلَ: إنَّ تلكَ القريةَ التي أُمِرُوا بالدخولِ [فيها][8] والمُقامِ هنالكَ هي قريةٌ على انْقِضاءِ التيهِ والخروجِ منها. غيرَ أنْ ليسَ لنا إلى معرفةِ تلكَ القريةِ حاجةٌ، وإنما الحاجةُ إلى الخلافِ الذي كانَ منهمْ وما يَلْحَقُهُمْ بتركِ الطاعةِ لهُ والائْتِمارِ، واللهُ أعلمُ/ ١١ ـ ب/.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ والرغَدُ قد ذكَرْنا في ما[10] تقدمَ أنهُ سَعةُ العيشِ وكثرةُ المالِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ يَحتمِلُ المرادُ مِنَ البابِ حقيقةَ البابِ، وهو بابُ القريةِ التي أُمِروا بالدخولِ فيها، ويَحتمِلُ [المرادُ][11] مِنَ البابِ القريةَ نفسَها لا حقيقةَ البابِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ذكرَ القريةَ، ولم يذكرِ البابَ، وذلكَ في اللغةِ سائغٌ[12] جائزٌ؛ يُقالُ: فلانٌ دخلَ في بابِ كذا، لا يعنُونَ حقيقةَ البابِ، ولكنْ كونَهُ في أمرٍ هو فيهِ.

وقولُهُ: ﴿سُجَّدًا﴾ يَحتملُ المرادُ مِنَ السجودِ حقيقةَ السجودِ، فيُخَرَّجُ على وجوهٍ: يُخَرَّجُ على التحيةِ لذلكَ المكانِ، ويُخَرَّجُ[13] على الشكرِ لَهُ لِما أهلكَ أعداءَهُمُ الذين كانُوا فيها [لقولِهِ][14]: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]، ويَحتمِلُ [حقيقةَ السجودِ][15] لِما رُوِيَ عَنْ أبي هريرةَ ﷺ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ قالَ][16]: «إنَّ بَنِي إسرائيلَ أُمِرُوا بالدخولِ سُجَّداً، فدخلُوا مُنْحَرِفِينَ» [بنحوه مسلم: ٣٠١٥] فما أصابَهُمْ إنما أصابَ بخلافِهِمْ أمرَ اللهِ تعالى، ويَحتمِلُ الكنايةَ عَنِ الصلاةِ؛ إذِ العربُ تُسَمّي السجودَ صلاةً، كأنَّهُمْ أُمِرُوا بالصلاةِ فيها[17].

ويَحتمِلُ الأمرَ بالسجودِ لا حقيقةَ السجودِ والصلاةِ، ولكنْ أمرٌ بالخضوعِ لهُ والطاعةِ والشكرِ لهُ على أياديهِ التي [أسْدَى إليهِمْ، وأزَلَّ مِنْ سَعَةِ العيشِ][18] والتصرفِ فيها في كلِّ حالٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ قيلَ بوجهينِ: قيلَ: الحِطَّةُ: هو قولُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥]؛ سُمِّيَتْ حِطَّةً لأنها تحطُّ كلَّ خطيئةٍ كانَتْ مِنَ الشركِ وغيرِهِ؛ فكأنَّهم أُمِرُوا بالإيمانِ والإسلامِ، وقيلَ: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي اطلُبُوا المغفرةَ، والتجاوزَ عما ارْتَكَبْتُمُوهُ مِنَ المآثِمِ والخطايا، والندامةَ على [ما كانَ منكمْ؛ فكأنهمْ أُمِرُوا أنْ يأتُوا بالسببِ الذي بهِ يغفرُ الذنوبَ، وهو الاسْتِغفارُ والتوبةُ والندامةُ على ذلكَ، واللهُ أعلمُ؛ وذلكَ يَحتمِلُ الشركَ والكبائرَ وما دونَها.

ذكرَ ﷻ مرةً خطايا، ومرةً خطيئاتٍ، ومرةً قالَ: ادخُلوا، ومرةً قالَ: اسكنُوا، ومرةً قالَ: فأنزلْنا، ومرةً قالَ:

---

(١) من ط م، في الأصل و ط ع: يشوبهم. (٢) من ط ع، في ط م: يضرهم ليس، ساقطة من الأصل. (٣) في النسخ الثلاث: وقد. (٤) في تفسير الآية: ٥١ . (٥) في ط م: وحاصله. (٦) من ط م. (٧) من ط م و ط ع، في الأصل: اختلفوا. (٨) من ط ع. (٩) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٠) في تفسير الآية: ٣٥ . (١١) من ط م. (١٢) من ط م، في الأصل و ط ع: شائع. (١٣) من ط م، في الأصل و ط ع: ويحتملُ. (١٤) من ط م، في ط ع: كقولِهِ، ساقطة من الأصل. (١٥) من ط م، في ط ع: حقيقته، في الأصل: حقيقة. (١٦) في ط م و ط ع: قالَ، ساقطة من الأصل. (١٧) في ط م: بها. (١٨) في الأصل: أسند إليهم وأزل من سعة الصلاة، في ط م: أسدى إليهم وأزل من سعة التعيش، في ط ع: أسد إليهم وأزل من سعة العيش.

فأرسلنا، والقصةُ واحدةٌ، حتى يُعلَم أنْ ليسَ في اختِلافِ الألفاظِ والألسنِ تغييرُ المعنَى، والمرادُ أنّ[1] الأحكامَ والشرائعَ التي وُضِعَتْ لم توضَعْ للأسامي والألفاظِ ولكنْ للمعاني المدرجَةِ والمودَعَةِ فيها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ يَحتمِلُ المرادُ مِنَ المحسِنينَ المسلمَ[2] الذي كانَ أسلمَ قبلَ ذلكَ، ويَحتملُ الذي أسلمَ بعدَ قولِهِ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وكانَ كافراً إلى ذلك الوقتِ.

والزيادةُ تَحْتَمِلُ التوفيقَ بالإحسانِ مِنْ بعدِ [ذلكَ][3] كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥] الآية، وتَحْتَمِلُ الثوابَ على ما ذكرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] الآية.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ قولُهُ: ﴿فَبَدَّلَ﴾ يَحتملُ إحداثَ ظلمٍ بعدَ أنْ لم يكنْ، والخلافَ لِما أمرَهُمْ بهِ ﷻ ويَحْتَمِلُ نشوءَهُمْ على غيرِ الذي قيلَ لهمْ. ولم يُبيِّنْ ما ذلكَ القولُ الذي بَدَّلوا، وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ القولِ حاجةٌ؛ وإنما الحاجةُ إلى معرفةِ ما [يكونُ بهمْ][4] بالتبديلِ وتركِ العملِ بأمرِهِ وإظهارِ الخلافِ لهُ، فقد تولّى اللهُ تعالى بيانَ ذلك بفضلِهِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قيلَ الرجزُ هو العذابُ المنزَّلُ مِنَ السماءِ على أيدي الملائكةِ كعذابِ قومِ لوطٍ وغيرِهِ، وعذابٌ يُنزَّلُ مِنَ السماءِ لا على أيدي أحدٍ مِنْ[5] نحوِ الصاعقةِ والصيحةِ ونحوهِما.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ مرةً ذكرَ ﴿يَفْسُقُونَ﴾ ومرةً ذكرَ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢] وهو واحدٌ.

وفي هذه الآياتِ التي ذكَرْناها والأنباءِ التي وصَفْنا دلالةُ رسالةِ محمدٍ ﷺ وإثباتِ نبوتِهِ. وذلكَ أنَّ أهلَ الكتابِ كانُوا عَرَفُوا هذه الأنباءَ بِكتبِهِمْ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يذكرُ ذلكَ بَمشهَدِهِمْ كما في كتابِهِمْ، ولم يكنْ ظهرَ منهُ اختِلافٌ إليهِمْ، ولا درسَ كتابَهُمْ. فدلَّ أنه باللهِ عرفَ. وكانَ فيها تسكينُ قلبِ رسولِ اللهِ ﷺ وتَصْبيرُهُ[6] لظهورِ الخلافِ لهُ مِنْ قومِهِ وتركِ طاعتِهِمْ إياهُ. وإنَّ [ذلكَ][7] ليس بأوّلِ خلافٍ كانَ لهُ مِنْ قومِهِ ولا أوّلِ تكذيبٍ، بل كانَ مِنَ الأممِ السالفةِ لأنبيائهمْ ذلكَ، فصبرُوا عليهِ. فاصبرْ أنتَ كما صَبَروا همْ[8] كقولِهِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ يعني طلبَ الماءَ لقومِهِ عندَ حاجَتِهِمْ إليهِ، فأوحَى اللهُ تعالى إليهِ ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠] قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[9] أنَّ اللهَ ﷻ قد أراهُ مِنْ عصاهُ آياتٍ عجيبةً مِنْ نحوِ الثعبانِ الذي كانَ يتلقَّفُ ما يأفكُونَ كقولِهِ: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] وقولِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]، ومِنْ ضربِهِ البحرَ بها حتى انفلقَ كقولِهِ: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[10] [الشعراء: ٦٣]، أو مِنْ ضربِهِ الحجرَ بها وانفجارِ العيونِ منهُ، وغيرَ ذلك مِنَ الآياتِ ممّا يَكْثُرُ ذِكْرُها ﷻ مِنْ آياتِ رسالتِهِ وآياتِ نبوتِهِ.

وفي ما أرَى منها مِنْ عجيبِ آياتِهِ دلالةُ حدثِ العالَمِ وإبداعِهِ [مِنْ لا][11] شيءٍ؛ لأنهُ ﷻ قد أخرجَ بلطفِهِ مِنْ حَجرٍ[12]، يصغُرُ في نفسِهِ ممّا يَحْمِلُ [مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ][13] مِنَ الماءِ ما يكفي الخَلْقَ، لا يُحصي عددَهُمْ [إلا اللهُ][14]، [وفجّرَ][15] منهُ أنهاراً، لكلِّ فريقٍ نَهَرٌ على حِدَةٍ. ثم لا يُحتمَلُ كونُ ذلك الماءِ بِكُلِّيَّتِهِ فيهِ لِصِغَرِهِ وخِفَّتِهِ، ولا كانَ ينبغي ذلكَ مِنْ أسفَلِهِ. فإذا كانَ [هذا][16] كما ذكَرْنا ظهرَ[17] أنَّ اللهَ ﷻ كانَ يُنْشِئُ ذلكَ الماءَ فيهِ، ويُحدِثُ مِنْ لا شيءٍ، لأنَّ ذلكَ الحجرَ لم يكُنْ مِنْ جوهرِ الماءِ ولا مِنْ أصلِهِ. فإذا كانَ قادراً على [هذا فإنهُ لَقادرٌ][18] على إنشاءِ العالَمِ [مِنْ لا][19]

---

(١) في ط م: وأن. (٢) في النسخ الثلاث: المعلم. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) من ط ع، في الأصل: يكون، في ط م: يلزمهم. (٥) ساقطة من ط م. (٦) في النسخ الثلاث: والتصبر عليه. (٧) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من ط م و ط ع. (٩) في تفسير الآية: ٣٧ . (١٠) أدرج بعدها في ط م: كذا. (١١) في النسخ الثلاث: لا من. (١٢) في النسخ الثلاث: عجز. (١٣) من ط ع و ط م، في الأصل: نفسه وقوله من الماء. (١٤) من ط م وط ع. (١٥) ساقطة من ط ع. (١٦) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٧) من ط م، في ط ع والأصل: أظهر. (١٨) في الأصل و ط ع: هذا القادر، في ط م: فإنه قادر. (١٩) من ط م، في الأصل و ط ع: لم يكن.

شيءٍ سبقَ ولا أصلَ تقدَّمَ. وكذلكَ ما أراهُمْ ﷺ مِنَ العصا الثعبانَ والحَيَّةَ؛ لم يكونا[1] مِنْ جوهَرِها ولا مِنْ أصْلِها، ولا تَوَلُّدُهُمَا[2] منها، بل أنشأَ ذلكَ، وأبدعَ بلطفِهِ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قيلَ: كانوا اثني عشرَ سِبطاً لقولِهِ:[3] ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] وهمْ بنو يَعقوبَ، فجعلَ لكلِّ سِبْطٍ نَهَراً على حِدَةٍ، فانضمَّ كلُّ فريقٍ إلى أبيهمُ[4] الذي كانُوا منهُ، ولم يَنْضمُّوا[5] إلى أعمامِهِمْ وبني أعمامِهِمْ؛ ففيهِ أنَّ المواريثَ لا تُصرَفُ إلى غيرِ الآباءِ إلّا بعدَ انقطاعِ أهلِ الاتِّصالِ بالآباءِ، وفيه دلالةٌ أنَّ القومَ في الصحارَى [والبراري ينزِلُونَ][6] مجموعِينَ غيرَ متفرِّقِينَ ولا متباعِدِينَ بعضُهُمْ عَنْ بعضٍ [بحيثُ يكونُ بعضُهُمْ][7] عَوْناً لبعضٍ وظهيراً لأنهم نَزَلُوا جميعاً في موضعٍ واحدٍ مجموعِينَ مَعَ كثرَتِهِمْ وازدحامِهِمْ غيرَ متفرِّقِينَ ولا مُتباعِدِينَ، وإنْ كانَ ذلكَ أنفعَ لهمْ وأهونَ عليهِمْ مِنْ جهةِ الرَّغْيِ والرَّبْعِ وسَعَةِ المنازِلِ، وفي الأوَّلِ سبقُ المعنَى الذي وصَفْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي موردَهُمْ. وفيهِ دلالةُ قطعِ التَّنازعِ ورفعِ الاختلافِ مِنْ بَيْنِهِمْ لِما بَيَّنَ لكلِّ فريقٍ منهمْ مَوْرِداً على حِدَةٍ. ولو كانَ مشتَرَكاً لَخِيفَ وقوعُ التَّنازعِ والاختلافِ بينَهُمْ؛ وفي وقوعِ ذلكَ بينَهُمْ قطعُ الأنسابِ والأرحامِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا﴾ يعني المَنَّ والسلوى. وقولُهُ: ﴿وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الماءِ الذي أخرجَ لكمْ مِنَ الحجرِ. وكلاهُما رزقُ اللهِ الذي ساقَهُ إليهِمْ مِنْ غيرِ تَكَلُّفٍ ولا مَشَقَّةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قيلَ: لا تَسْعَوا في الأرضِ بالفسادِ. ويَحتمِلُ ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ أي لا تُفسِدُوا لأنَّ العُثُوَّ هو الفسادُ نفسُهُ؛ كأنهُ قالَ: لا تفسِدُوا في الأرضِ، وتكونُوا مُفسِدِينَ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: أوَّلُ ما أنزلَ المَنُّ؛ فعندَ ذلكَ قالُوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ ثم أنزلَ السَّلْوَى، وقيلَ: كانُوا يتخذُونَ مِنَ المَنِّ القُرصَ فيأكُلُونَ مَعَ السَّلْوَى، فهو طعامٌ واحدٌ؛ فقالُوا: لَنْ نَصْبِرَ عليه، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ طعامُهُمْ في اليومِ مرَّةً، فطلَبُوا الأطعمةَ المختلفَةَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ قالَ: يُبيِّنُ لنا معنى إضافةِ خصوصيَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ ﷻ يُخرِّجُ لنا مُخرَجَ التعظيمِ لذلكَ الشيءِ المخصوصِ؛ مِنْ ذلكَ: بيتُ اللهِ و﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٢١ و ..] و﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣ و ...]/ ١٢ ـ أ/ هذا كُلُّهُ يُخَرَّجُ مُخرَجَ التعظيمِ [لهذهِ الأشياءِ، وإضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ][8] إلى اللهِ تعالى، تُخَرَّجُ مُخرَجَ تعظيمِ الربِّ وإجلالِهِ [نحوُ ما قالَ: ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] و﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦ و ...] و﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦ و ...] و ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١ و...] ونحوُهُ؛ هذا كلُّهُ وصفُ تعظيمِ الربِّ وإجلالِهِ][9].

وقدِ اخْتُلِفَ في الفومِ؛ قيلَ: الفومُ هو الثومُ، وكذلكَ رُوِيَ في قراءةِ عبدِ اللهِ أنهُ قرَأَهُ[10]: وثومِها[11]، وقيلَ: الفومُ: البُرُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ قيلَ في أدنى بوجوهٍ: قيلَ: أدنى في القيمةِ، وقيلَ: أدنى في الخطَرِ والرغبةِ، وقيلَ: أدنى في المنافعِ، وقيلَ: أدنى لِما لا يصلُ هذا إليهِمْ إلّا بالمُؤْنةِ والمَشَقَّةِ، وذلكَ لهمْ بلا مُؤْنةٍ ولا مَشَقَّةٍ، فهو خيرٌ، وكلٌّ يرجعُ إلى واحدٍ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط م، في الأصل و ط ع: يكن. (٢) في النسخ الثلاث: ولا يولدهما. (٣) من ط م، في الأصل و ط ع: بقوله. (٤) من ط م، في الأصل، أبهم، في ط ع: آبهم. (٥) من ط م، في الأصل و ط ع: ينضخوا. (٦) في الأصل و ط ع: والبراري يتولون في، في ط م: والبوادي ينزلون. (٧) من ط م. (٨) من ط م، في الأصل و ط ع: بهذه الأشياء. (٩) من ط م. (١٠) في ط ع: قرأ. (١١) ذكر ابن جني في المحتسب أن هذه القراءة لعبد الله بنِ مسعودٍ وعبدِ الله بن عباس، انظر ١/٨٨ .

ويَحتملُ أدنى أدْوَنَ وأقلّ، ولا شكَّ أنَّ ما طلبُوا، وسألُوا دونَ الذي كانَ لهمْ. ويَحتمِلُ ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ قد أُعطُوا، ولو كانَ ذلكَ أصلحَ لهمْ في الدينِ لم يكنْ موسى لِيَلُومَهُمْ عليهِ. ثبتَ أنّه لم يكنْ. ثم أُعطُوا ذلكَ؛ فثبتَ أنَّ اللهَ تعالى قد يجوزُ لهُ في الحكمةِ فعلُ ما كانَ غيرُهُ أصلحَ لهمْ في الدينِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى[1]: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ قيلَ: المصرُ المعروفُ، وقيلَ: مصرٌ مِنَ الأمصارِ لأنَّ ما طلَبُوا لا يوجدُ إلّا في الأمصارِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ مِنَ الأطعمةِ المختلِفةِ إنْ كانَ المُرادُ منهُ المِرارَ[2]، وإنْ كانَ الأطعمةَ المختلِفةَ فهو كما قالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ [ذِلَّةُ][3] احتِمالِ المُؤنةِ والشّدائدِ لِما سألُوا مِنَ الأطعمةِ المختلِفةِ، وقيلَ: ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ ذِلَّةُ الجزيةِ والصَّغارِ، بعصيانِهِمْ رَبَّهُمْ[4]، وقيلَ [﴿ٱلذِّلَّةُ﴾][5] ذِلّةُ الكسبِ والعملِ لأنَّ الأوّلَ كانَ يأتيهِمْ مِنْ غيرِ كسبٍ ولا مُؤنةٍ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ قيلَ: هي[7] الفقرُ والحاجةُ، وقيلَ: قطعُ رجائِهِمْ عَنِ[8] الآخرةِ لِما عَصَوا ربَّهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قِيلَ فيهِ بوجوهٍ: قِيلَ: باؤُوا رَجعُوا، وقِيلَ: [باؤُوا][9] استوجبُوا، وقِيلَ: [باؤُوا][10] أقرُّوا، وكلُّهُ يرجعُ إلى واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[11] أنَّ الآياتِ، هي الحججُ والتي أعطى الرسلَ، وأجراها على أيديهِمْ. وقالَ الحسنُ: (هي دينُ اللهِ).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا في غيرِهِمْ لأنهُ لم يكنْ في زمنِ موسى نبيٌّ سِوَى هارونَ، وهمْ لم يقتُلُوهُ، إلّا أنْ يقالَ: إنَّ ذلكَ كانَ مِنْ أولادِهِمْ [بعدَ موسى أو كانَ مِنْ غيرِهِمْ سِوَى هؤلاءِ وأولادِهِمْ][12] على أنَّ قتلَ الأنبياءِ في بني إسرائيلَ كانَ ظاهراً حتى قِيلَ: قُتِلَ في يوم كذا كذا نبيًّا، ولم يُذكَرْ قتلُ رسولٍ مِنَ الرسلِ؛ وذلكَ، واللهُ أعلمُ، لقولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ولقولِهِ[13]: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]. أخبرَ أنهُ ينصرُهُمْ[14] وأنهم منصورونَ؛ ومَنْ كانَ اللهُ ناصرَهُ فهو المنصورُ أبداً، ولأنَّ الرسلَ هُمُ الذينَ أُوتُوا الآياتِ[15] المعجزةَ لم يكنْ لهمْ استقبالُ الرسلِ [بتلكَ للآياتِ][16] التي كانَتْ معهمْ. وأمّا الأنبياءُ فلم يكنْ معهمْ تلكَ الآياتُ المعجزةُ، وإنما كانوا يدعُونَ الخَلْقَ إلى دينِ اللهِ بالآياتِ [التي كانَتْ للرسلِ والحججِ][17] التي كانَتْ معهمْ. لذلكَ[18] كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلمُ.

قَالَ قومٌ: لم يُقتَلْ أحدٌ مِنَ الرُّسلِ، وإنما قُتِلَ الأنبياءُ أو رُسُلُ الرُّسُلِ. فإنْ كانَ كذلكَ فعلى ذلكَ يُخرَّجُ ما ذكرْنا مِنَ الآياتِ، وإنْ لم يكنْ فالنصرُ كانَ بالحججِ والآياتِ. فكانَتْ تلكَ للكُلِّ. وعلى ذلكَ لا دلالةَ في كونِ الآياتِ مَعَ الأنبياءِ وغيرِ كونِهما[19]. فإنْ لم يكنْ لهمُ ابْتِداءُ شرعٍ ولا نسخٌ، فَعَلَى[20] الدعاءِ إلى ما سبقَ مِنَ الشرائعِ، وكانَتْ آياتُهُمْ كآياتِ الرسلِ أو دلالاتِ العصمةِ مَعَ ما كانَ بهمْ حفظُ الكتبِ السماويةِ بلا تبديلٍ، واللهُ أعلمُ بالحقِّ في ذلكَ. ونعتصمُ باللهِ عَنْ بسطِ اللسانِ في ذلكَ بالتدبيرِ دونَ شيءٍ ظهرَ على ألسنِ الرسلِ أوِ القولِ فيهِمْ بشيءٍ[21] إنْ كانَتْ آيةً أوْ لَا. لكنَّ اللهَ تعالى قد أقامَ حجتَهُ لِكلٍّ على قَدْرِ الكفايةِ[22] والتمامِ.

---

(١) من ط م و ط ع، في الأصل: وقيل. (٢) من ط م وط ع، في الأصل: المراد. (٣) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٤) من ط م، في الأصل و ط ع: ذلهم. (٥) من ط ع. (٦) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٧) من ط م، في الأصل و ط ع: ذي. (٨) في ط م: من. (٩) من ط ع. (١٠) من ط ع. (١١) في تفسير الآية: ٤١ .(١٢) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٣) من ط م، في الأصل: لقوله، ساقطة من ط ع. (١٤) من ط م في الأصل، لم ينصرهم، في ط ع: لينصرهم. (١٥) أدرج بعدها في الأصل وط ع: من. (١٦) في الأصل و ط ع: بذلك الآيات، في ط م: بذلك للآيات. (١٧) من ط م. (١٨) من ط م، في الأصل و ط ع: بذلك. (١٩) من ط م، في الأصل وط ع: كونهما. (٢٠) في النسخ الثلاث: بل على. (٢١) من ط م، في الأصل و ط ع فنبي. (٢٢) في ط ع: الكفاءة.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قيلَ: [إنَّه لليهودِ][1] والنصارى، وهؤلاءِ جائزٌ أنْ يكونَ لهمْ تعلُّقٌ بظاهرِ هذهِ الآيةِ لأنهمْ يقولُونَ. إنا آمنَّا باللهِ وآمنَّا باليومِ الآخرِ، فليسَ علينا خوفٌ وحزنٌ[2]. لكنَّ الجوابَ لهذا وجوهٌ:

أحدُها: أنهُ ذكرَ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وإيمانُهُمْ ما ذكرَ في آيةٍ أخرى؛ وهو قولُهُ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ وهُمْ قد فرَّقُوا بينَ الرسلِ بقولِهِمْ: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وفرَّقُوا بينَ الكتبِ أيضاً؛ آمَنُوا ببعضٍ، وكفرُوا ببعضٍ. فهؤلاء الذين ذكرَهُمْ ﷺ في هذهِ الآيةِ همُ الذينَ آمَنُوا بجميعِ الرسلِ [وآمَنُوا بجميعِ الكتبِ][3] أيضاً. فإذا كانَ هذا إيمانَهُمْ لم يكنْ عليهمْ خوفٌ ولا حزنٌ.

والثاني: [أنهُ][4]: ذكرَ الإيمانَ باللهِ [والإيمانُ باللهِ، هو][5] الإيمانُ بجميعِ الرسلِ وبجميعِ الكتبِ. لكنهمْ لايؤمنُونَ باللهِ، ولا يعرفُونَهُ[6] في الحقيقةِ، أو أنْ يُقالَ: ذكرَ عملَ الصالحاتِ، والكفرُ ببعضِ الرسلِ ليسَ منْ عملِ الصالحاتِ، لذلكَ بَطَلَ تَعَلُّقُهُمْ بهذا. واللهُ أعلمُ.

[والثالثُ:][7] في ذلكَ على[8] التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنه قالَ: إنَّ الذينَ هادُوا والنصارى مَنْ آمَنَ منهُمْ باللهِ واليومِ [الآخرِ][9] والذين آمَنُوا.

وللمعتزلةِ: تعلقٌ بظاهرِ قولِهِ: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وصاحبُ الكبيرةِ عليهِ خوفٌ وحزنٌ؛ فلو كانَ مؤمناً لكانَ لا خوفَ عليهِ لأنهُ أخبرَ أنَّ المؤمنَ لا خوفَ عليهِ ولا حزنَ؛ فدلَّ أنهُ يَخْرُجُ مِنْ إيمانِهِ إذا ارتكبَ كبيرةً. فقالَ لهمْ: لم ينفِ عنهُمُ الخوفَ والحزنَ في[10] كلِّ الوقتِ، فَيَحتمِلُ أنْ يكونَ عليهِ خوفٌ في وقتٍ، ولا خوفَ عليهِ في وقتٍ آخرَ؛ لأنَّ لكلِّ مؤمنٍ خوفَ البعثِ وفزعَهُ حتى الرسلِ بقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٩] لشدةِ فزعِهِمْ مِنْ هَوْلِ ذلكَ اليومِ. فإذا دخلُوا الجنةَ، ونزلُوا منازلَهُمْ، ذهبَ ذلكَ الخوفُ والفزعُ عنهمْ. فعلى ذلكَ المؤمنُ يكونُ لهُ خوفٌ في وقتٍ، ولا خوفَ عليهِ في وقتٍ آخرَ، واللهُ أعلمُ.

واختُلِفَ في الصابئِينَ؛ قيلَ: الصابئونَ[11] قومٌ يعبدُونَ الملائكةَ، ويقرؤُونَ الزَّبورَ، وقيلَ: إنهمْ قومٌ يعبدُونَ الكواكبَ، وقيلَ: هم قومٌ بينَ المجوسِ والنصارَى، وقيلَ: همْ قومٌ يذهبونَ مذهبَ الزنادقةِ؛ يقولُونَ بِاثْنَينِ لا كتابَ لهُمْ، ولا عِلْمَ لَنَا بهِمْ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ ذكَرْنَا في ما تَقَدَّمَ[12] أنَّ ميثاقَ اللهِ وعهدَهُ على وجهَينِ: عهدُ خِلْقَةٍ وفِطْرَةٍ[13] وعهدُ رسالةٍ ونبوةٍ. وقولُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ في التوراةِ أنْ يعملُوا بما فِيها، فنقضُوا ذلكَ العهدَ لَمّا رَأَوا فيها الحدودَ والأحكامَ والشرائعَ كَرِهُوا، فرفعَ اللهُ الجبلَ فوقَهُمْ، فقبلُوا ذلكَ. ويَحتمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ عهدِ خِلْقَةٍ وفِطْرَةٍ فنقضُوا ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ قِيلَ خُذوا التوراةَ[14] بالجِدِّ والمواظبةِ، وقيلَ: بقوةٍ، يعني بالطاعةِ لهُ والخضوعِ.

ثم احتجَّ بعضُ المعتزلةِ بهذهِ الآيةِ على تقدُّمِ القدرةِ الفعلَ لأنهُ أَمرَهُمْ ﷺ بالقَبولِ لهُ والأخذِ والعملِ بما فيها؛ فلو لم يُعْطِهِمْ قوةً [الأخذِ والقَبولِ لهُ قبلَ الأخذِ لهُ والفعلِ][15] لكانَ لا يأمُرُهُمْ بذلكَ. لأنهمْ يقولُونَ: لا قوةَ لنا على ذلكَ. [فدلَّ

---

(١) في الأصل و ط ع: إن لليهود، في ط م: إن اليهود. (٢) في ط م و ط ع: ولا حزن. (٣) من ط م و ط ع، في الأصل: وبجميع. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) من ط م، في الأصل و ط ع: هو. (٦) من ط م و ط ع، في الأصل: لا يعرفون. (٧) في النسخ الثلاث: وقيل. (٨) ساقطة من ط ع. (٩) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من ط ع . (١١) في ط ع: الصابئين. (١٢) في تفسير الآية ٢٧ . (١٣) من ط م، في الأصل و ط ع: وعهد وفطرة. (١٤) من ط م و ط ع، في الأصل: النبوة. (١٥) من ط م و ط ع، في الأصل: لأخذوا القبول له الفعل.

أنهُ أعطاهمْ قبلَ ذلكَ][١]. لكنَّهُ غلطٌ عندنا، لأنهُ لو أعطاهُمُ القوةَ قبلَ الفعلِ ووقتَ الأمرِ بهِ، ثم تذهبُ عنهمْ تلكَ القوةُ وقتَ الفعلِ، لكانَ الفعلُ بلا قوةٍ؛ إذ مِنْ قولِهِمْ: أنَّ القوةَ لا تبقَى وقتَيْنِ. فدلَّ أنها تحدثُ بحدوثِ الفعلِ؛ لا يتقدَّمُ، ولا يتأخَّرُ، ولكنْ يكونانِ[٢] معاً، ولأنها سُمِّيَتْ قدرةَ الفعلِ، [فلو كانَتْ تَتَقَدَّمُ الفعلَ][٣] لم يكنْ لإضافةِ الفعلِ إليها معنىً، واللهُ أعلمُ.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ ومعلومٌ أنَّ المرادَ مِنْ ذلكَ الأخذُ [بقوةِ الآخذِ][٤]. ثم فيهِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ للأخذِ[٥] قوةً غيرَ التي للتركِ.

والثاني: أنه ذكرَ الأخذَ [بقوةٍ][٦]، فإذا لم تكنْ مَعَهُ لم يكنْ بها أنْ يَرَى أنَّ الوقتَ إذا تباعَدَ لم يَحتمِلْ بما تقدَّمَ مِنَ القوةِ أوقاتاً، فمثلُهُ وقتٌ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: اذكرُوا، واحفظُوا ما فيهِ مِنْ أمْرِهِ ونَهْيِهِ، ولا تُضَيِّعُوهُ.

[وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ المعاصِيَ والمآثمَ. ويَحتمِلُ اذكرُوا ما فيهِ مِنَ التوحيدِ والإيمانِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ الشركَ والكفرَ، ويَحتمِلُ: اذكرُوا ما فيهِ مِنَ الأحكامِ والشرائعِ، ويَحتمِلُ الثوابَ والعقابَ والوعدَ والوعيدَ، وكلُّهُ واحدٌ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ يعني مِنْ بعدِ القبولِ. دلَّ هذا على أنهمْ كانُوا قَبِلوا ذلكَ مرَّةً قبلَ أنْ يأتِيَهُمْ موسى [ﷺ][٨] بها، فلما أتاهُمْ، ورَأَوُا[٩] التشديدَ والمشقَّةَ، أبَوْا قَبُولَها، وتركُوا العملَ بما فيها مِنَ الأحكامِ والشرائعِ، فَخُوِّفُوا برفعِ الجبلِ فوقَهُمْ، فقبِلُوا ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يحتملُ وجوهاً: [قيلَ][١٠]: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ الإسلامُ، ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾القرآنُ، وقيلَ[١١]: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بمحمدٍ ﷺ بُعِثَ إليكمْ لِيَجْمَعَكُمْ، ويؤلِّفَ بينكُمْ/ ١٢ - ب/ ويدعُوَكُمْ إلى دينِ اللهِ[١٢] الحقِّ بعدَ ما كُنتُمْ في فترةٍ مِنَ الرسلِ وانقطاعٍ مِنَ الدينِ والعملِ، ويَحتمِلُ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ لمّا أنجى آباءَكُمْ مِنَ العذابِ، ولم يرسِلْ عليهمُ الجبلَ، وإلّا ما توالَدْتُمْ أنتمْ، وقيلَ: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ لمّا أعطاهُمُ التوارةَ ووفَّقَهُمْ على قَبولِها، وإلّا كنتُمْ مِنَ الخاسِرِينَ، وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ فيه دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍﷺ كأنهُ قالَ: ولقد علمْتُم أنَّ محمداً ﷺ لم يكنْ يعلمُ الذينَ اعْتدَوا مِنْكُمْ في السبتِ، ولا كانَ علمَ ما فُعِلَ بهِمْ، ثم عَلِمَ ذلكَ؛ فإنما علمَ باللهِ ﷻ لأنهُ لم يَكنْ قرأَ كتابَكُمْ، ولا كانَ يختلفُ إلى أحدٍ مِمَّنْ يعرفُ ذلكَ، فباللهِ ﷻ [عرفَ][١٣] ذلكَ، وبهِ عَلِمَ، فدلَّ أنهُ رسولُ اللهِ إليكُمْ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ اي عَلِمْتُمْ ما أصابَ أولئكَ باعتدائِهِمْ يومَ السبتِ بِالإصْطِيادِ، وكنْتُمْ تقولُونَ: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨] يعني أبناءَ رسلِ اللهِ وأحباءَهُ. فلو كانَ كما تقولُونَ لم يَكُنْ لِيَجْعَلَكُمْ[١٤] قردةً، وهي أقبحُ خَلْقِ اللهِ وأوحشُهُ؛ إذ مثلُ ذلكَ لا يُفْعَلُ بالأحِبّاءِ والأبناءِ. أو أنْ يُحْمَلَ على التحذيرِ لهؤلاءِ لئلا يُكَذِّبوا محمداً ﷺ ولا يَعْصُوهُ في أمرِهِ، فيصيبَكُمْ ما أصابَ أولئكَ بتكذيبِهِمْ موسى وعِصْيانِهِمْ أمرَهُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٢) في النسخ الثلاث: يكون. (٣) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٤) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٥) من ط م، في الأصل و ط ع: الأخذ. (٦) من ط م. (٧) من ط ع. (٨) في ط م: ﷺ. (٩) من ط م، الواو ساقطة من الأصل و ط ع. (١٠) من ط م. (١١) من ط م، الواو ساقطة من الأصل و ط ع. (١٢) ساقطة من ط ع. (١٣) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٤) من ط م وط ع، في الأصل: ليجعلهم.

ثم[1] سببُ تحريمِ الاصْطِيادِ في السبتِ كانَ، واللهُ أعلمُ، لِما قِيلَ: إنَّ موسى [ﷺ][2] أرادَ أن يَجْعلَ يوماً للهِ خالصاً للطاعةِ لهُ والعبادةِ فيهِ. وهو يومُ الجمعةِ فخالَفُوا همْ أمرَهُ ونهيَهُ، وقالُوا: نجعلُ ذلكَ اليومَ[3] السبتَ لأنهُ لم يُخلَقْ لعملٍ، فَحُرِّمَ الاصْطِيادُ في ذلكَ اليومِ لذلكَ، وحُوِّلُوا قِرَدَةً عقوبةً لهمْ؛ لِما نُهوا عَنِ الاصْطِيادِ في ذلكَ اليومِ، فاصْطادُوا. وعلى ذاكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[النحل: ١٢٤] يعني [يومَ الجمعةِ، وقيلَ: ﴿ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾يعني][4] في اللهِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ قالَ قومٌ: قولُهُ: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ مِنَ الأصلِ على ذهابِ الإنسانيةِ منهمْ، وقيلَ: حَوَّلَ جوهَرَهُمْ إلى جوهرِ القردةِ على إبقاءِ الإنسانيةِ فيهمْ مِنَ الفهمِ والعقلِ لأنهُ قيلَ: إنَّ الذينَ يَنْهَونَهُمْ عنِ الاصْطِيادِ في ذلكَ اليومِ دخلُوا عليهِمْ، فقالُوا:[5] لهمْ: ألم ننهَكُمْ عَنْ ذلكَ، ونزجرْكُمْ؟ فأَوْمَوا[6] أي نعمْ، ودموعُهُمْ تفيضُ على خدودِهِمْ. فلو كانَ التحويلُ على ذهابِ جميعِ الإنسانيةِ منهمْ لكانُوا لا يفهمُونَ ذلكَ، ولا حَزِنُوا على ما أصابَهُمْ، لأنَّ كلَّ ذي جوهرٍ راضٍ بجوهرِهِ الذي خَلَقَهُ اللهُ، سبحانَهُ، يُسَرُّ بِهِ، ولأنَّ تحويلَهُ إياهمْ قردةً عقوبةٌ لِتَمَرُّدِهِمْ في التكذيبِ وجراءتِهِمْ على اللهِ لِيَعلَمُوا ذلكَ، ويَرَوا أنفسَهُمْ أقبحَ خَلْقِ اللهِ وأوحشَهُ.

وفيهِ نقضُ قولِ المعتزلةِ لأنهمْ يقولُونَ: ليسَ في خلقِ اللهِ قبيحٌ؛ فلو لم يكنْ في خلقِ اللهِ قبيحٌ[7] لم يكنْ لتحويلِ صورتِهِمْ مِنْ صورةِ الإنسانِ إلى أقبحِ صورةٍ معنىً لِيَرَوا قبحَ أنفسِهِمْ عقوبةً لهمْ بما عَصَوا أمرَ اللهِ، ودخَلُوا[8] في نهيِهِ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا﴾ قيلَ: ها[9] راجعةٌ إلى القريةِ التي كانُوا فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ مِنْ أهلِ القريةِ.

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ حواليها. وقيلَ: أرادَ [بـ: ها][11]: القريةَ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ مِنَ القرى ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ مِنَ القرى. وقيلَ: أرادَ [بـ: ها][12] العقوبةَ والنَّكالَ .﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يعني لِما مضى مِنَ الذنوبِ ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يعني ما بقيَ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى][13]: ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾قيلَ[14]: الخاسِئُ الصاغِرُ، وقيلَ: الخاسِئُ الذليلُ، وقيلَ [الخاسِئُ][15] البعيدُ، وكلُّهُ يرجعُ إلى واحدٍ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ قيلَ: [قُتِلَ قتيلٌ][16] في بني [إسرائيلَ][17]، وأُلقِيَ على بابِ غيرِهِمْ، فَتَنازَعُوا فيهِ، واختلفُوا، فأمرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ موسى ﷺ أنْ يذبَحوا بقرةً، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾، فاضربُوا ببعضِها ذلكَ الميتَ، فَيَحْيى، فيقولَ: مَنْ قَتَلَني.

[وقولُهُ تعالى][18]: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[19]، قالَ بعضُهُمْ: كفرُوا بهذا القولِ لأنهمْ سَمَّوهُ هازئاً، ومَنْ سمَّى رسولاً مِنَ الرسلِ هازئاً يَكْفُرُ[20]؛ ألا تَرى أنهمْ قالُوا في الآخِرِ ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؟ [البقرة: ٧١] دلَّ أنَّ [ما][21] قالَ لهمْ أوّلَ مرةٍ ليسَ بحقٍّ عندَهُمْ. وليسَ هذا بشيءٍ، ولا يَحْتَمِلُ ما قالُوا [على الهُزْءِ][22] ولكنْ يَحْتَمِلُ ما قالُوا [على المُجازاةِ][23]؛ كأنهمْ قالُوا: أتُجازينا بهذا لِما مَضى مِنّا، وسبقَ مِنَ العصيانِ بكَ والخلافِ [لكَ][24]؟ لما لَمْ يعلَمُوا أنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ يأمرُ بذلكَ. وهذا وأمثالُهُ على المُجازاةِ جائزٌ على ما ذكَرْنا[25] مِنَ الاِسْتِهزاءِ

---

(١) أُدرج في ط ع قبل هذه الكلمة العنوانُ التالي: سبب تحريم الاصطياد في السبت. (٢) في ط م: ﷺ. (٣) في ط م، يوم. (٤) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٥) في النسخ الثلاث: فيقولون. (٦) في ط م: فأوحوا. (٧) من ط م، في الأصل و ط ع: قبيحاً. (٨) من ط م و ط ع، في الأصل، وخلقوا. (٩) في النسخ الثلاث: الهاء. (١٠) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١١) في النسخ الثلاث: بالهاء. (١٢) في النسخ الثلاث: بالهاء. (١٣) أدرج هذا القول في ط ع قبل تفسير قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا﴾. (١٤) من ط م، في الأصل و ط ع: يعني: قيل. (١٥) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٦) من ط م، في ط ع، قتيل قتل. (١٧) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (١٨) من ط م. (١٩) أدرجَ في ط م و ط ع بعدها الآية ٦٨ . (٢٠) من ط م، في الأصل و ط ع: لكفر. (٢١) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٢٢) ساقطة من لانسخ الثلاث. (٢٣) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٢٤) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٢٥) في تفسير الآيتين: ١٤ و١٥ .

والمخادعةِ والمكرِ، كلُّهُ على المجازاةِ جائزٌ، وكقولِ نوحٍ لقومِهِ: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] على المُجازاةِ. فكذلكَ الأوّلُ.

وأمّا الاِسْتِهزاءُ في ما بينَ الخلقِ فهو جهلٌ: يسخرُ بعضُهُم ببعضٍ لجهلٍ بأحوالِ أنفسِهِمْ، إذْ كُلُّهُمْ سَواءٌ مِنْ جهةِ الجوهرِ والخِلْقَةِ وتركيبِ الجوارحِ وتصويرِ الصُّورَ وتَمثيلِها. ألا تَرَى أنَّ موسى أجابَ لهمْ عنِ الهزءِ بالجهلِ فقالَ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] وأنَّ[١] الهزءَ في الخلْقِ لجهلٍ فيهِمْ؟ وباللهِ التوفيقُ.

ثم استدلَّ قومٌ بهذِهِ الآيَةِ على عمومِ الخطابِ وقتَ قَرْعِ السمعِ لأنهُ أمَرَهُمْ بذبحِ بقرةٍ، لم يبيِّنْ لهمْ كيفِيَّتَها ولا ماهِيَّتَها وقتَ الخطابِ إلّا بعدَ البحثِ والسؤالِ عنها، ، فثبتَ أنهُ على العمومِ. ألا تَرَى ما رُوِيَ في الخبرِ: «لو عَمَدُوا إلى أدنى بقرةٍ لَجَزَتْهُمْ[٢]، لكنَّهُمْ شَدَّدُوا على أنفسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عليهِمْ»؟ [ابن جرير الطبري في تفسيره ١/٣٣٨]. لكنَّ هذا لا يَصِحُّ لأنهُ دعوى على اللهِ لحدوثِ شيءٍ في أمرِهِ وبُدُوٌ في حكمِهِ، فذلكَ كفرٌ؛ لا يقولُهُ مسلمٌ فضلاً عنْ [ألّا يقولَهُ][٣] رسولٌ مِنَ الرسلِ. تأويلُ هذا أنهُ قالَ: إنهُ يقولُ كذا، فلو كانَ الأولُ على غيرِ ذلكَ لكانَ قد بَدَا لهُ في ما [عَمَّمَ، وفَسَّرَ أنهُ][٤] لم يكُنْ أرادَ، [البداءَ، بل][٥] معنَى الرجوعِ عنِ الأوّلِ مما أرادَ والتفسيرَ لهُ بغيرِهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم في الآيةِ دليلُ خصوصِ الخطابِ مِنْ وجهَيْنِ:

أحدُهما: أخذُ كلِّ آيةٍ خرجَتْ في الظاهرِ على العمومِ [حتى الخصوصِ.

والثاني: جوازُ تأخيرِ البيانِ على تَقَدُّمِ الأمرِ به لِما ذكَرْنا أنها لو حُمِلَتْ على العمومِ][٦] وهو مرادُها، ثم ظهرَ الخصوصُ، فهو بُدُوٌّ وحدوثٌ في الأحكامِ والشرائعِ، فذلكَ حالُ مَنْ جَهِلَ العواقبَ والنهاياتِ. تعالى اللهُ عَنْ ذلكَ.

ومعنَى سُؤالِهِمْ بدعاءِ الربِّ لهُمُ البيانَ بما أُريدَ جعلُ ذلكَ آيةً، فوقعَ عندهمْ أنْ لا كلُّ بقرةٍ تصلُحُ للآياتِ؛ ولذلكَ لم يسألُوا موسى عَنْ تفسيرِها، إذِ اللهُ تعالى هو الذي يعلمُ الآياتِ.

والحرفُ الثاني هو الأوّلُ الذي قُلْنا: إليهِ انصرفَ المرادُ في الاِبْتِداءِ لِما يوجِبُهُ، وإنَّ الأمرَ بالذبحِ في الاِبْتِداءِ كانَ على ما آلَ أمرُها إليهِ، وظهرَ. لكنهمْ أُمِرُوا بالسؤالِ عنها والبحثِ عن أحوالِهَا ليَصِلُوا إلى المرادِ فيهِ، لا[٧] أنهُ أحدثَ لهمْ ذلكَ بالسؤالِ. وعلى ذلكَ ما رُوِيَ في الخبرِ: «أنَّ صلةَ الرحمِ تزيدُ في العُمُرِ» [ابن عساكر ٥/ ٢١٠] [أي][٨] لمّا عَلِمَ مِنْ عبدِهِ أنهُ يَصِلُ رحمَهُ جعلَ مدةَ عُمُرِهِ أكثرَ مِمّا لو عَلِمَ أنهُ لا يَصِلُ لا أنهُ يجعلُ أجلَهُ إلى وقتٍ. فإذا وصلَ رحمَهُ زادَ على ذلكَ لا على ما يقولُهُ المعتزلةُ: إنَّ اللهَ تعالى يجعلُ لكلِّ أحدٍ أجلَينِ؛ فإذا وصلَ [رحمَهُ][٩] أماتَهُ في أبعدِ الأجلَينِ، وإذا لم يصلْ جعلَ أجلَهُ الأوّلَ. فهذا أمرُ مَنْ يجهلُ العواقبَ؛ فأمّا مَنْ كانَ عالماً بالعواقبِ فلا؛ لأنه بُدُوٌّ ورجوعٌ عمّا تقدَّمَ مِنَ الأمرِ.

ثم [مَنِ][١٠] استدلَّ بهذِهِ الآيَةِ بقبولِ قولِ أولياءِ المقتولِ وَهِمَ لِأوجُهٍ:

أحدُها: ما لا يُقْبَلُ قولُ القتيلِ قبلَ خروجِ الروحِ منهُ: إنَّ فلاناً قَتَلَني في قطعِ حقِّ الميراثِ وإغرامِ الدِّيَةِ.

والثاني أنَّ ذلكَ كانَ آيةً عظيمةً لهمْ لم يكنْ ذلكَ لغيرِهِمْ.

والثالثُ: أنَّ أولياءَ المقتولِ قد كانُوا قبلَ أنْ يَحْيَى يَدَّعُونَ عليهمُ القتلَ، فلو كانَ لهمْ حقُّ القبولِ لم يحتجْ إلى تلكَ الآيةِ.

والرابعُ: أنَّ قبولَ قولِ الميتِ أحقُّ مِنْ قبولِ قولِ الوليِّ، لأنَّ الوليَّ ينتفعُ بقولِهِ [شيئاً][١١]. ثم القتيلُ لا يُقْبَلُ قولُهُ في شَريعَتِنا، فكذلكَ الوليُّ، واللهُ الموفقُ.

---

(١) في ط م: دلّ أنّ. (٢) في ط م: لأجْزَتْهم، وجزى وأجزى بمعنى واحد. (٣) في الأصل و ط ع: أن يقوله، في ط م: أن يقول له. (٤) من ط م، في الأصل وط ع: عم وفسر بما. (٥) من ط م: في الأصل وط ع: وذلك. (٦) من ط م. (٧) من ط م، في الأصل و ط ع: إلا. (٨) من ط م. (٩) من ط م. (١٠) من ط م. (١١) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل.

ثم[١] تُوَجَّهُ[٢] حكمةُ[٣] جعلِ البقرةِ آيةً دونَ غيرِها وجهَينِ[٤]:

أحدُهما: ما رُويَ أنَّ رجلاً كانَ بارّاً بوالدَيه مُحسِناً[٥] إليهما [عاطفاً عليهما][٦]، وكانَتْ لهُ بقرةٌ على تلكَ الصفةِ والشَّبهِ، فأرادَ اللهُ ﷻ أنْ يُوصِلَ إليهِ في الدنيا جزاءَ ما كانَ منهُ بمكانِ والِدَيْهِ.

والثاني: أنهمْ كانُوا يعبُدونَ البقورَ والعجاجيلَ، وحُبِّبَ / ١٣ ـ أ/ ذلكَ إليهِمْ كقولِهِ: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]، ثم تابُوا، وعادُوا إلى عبادةِ اللهِ وطاعتِهِ، فأرادَ اللهُ أنْ يمتحِنَهُمْ بذبحِ ما حُبِّبَ إليهِمْ ليظهرَ منهمْ حقيقةُ التوبةِ وانقلاعُ ما كانَ في قلوبِهِمْ مِنْ حُبِّ البقورِ والعجاجيلِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٨ [وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾][٧]؛ قولُهُ:[٨] ﴿لَّا فَارِضٌ﴾ يقولُ: ليسَتْ بكبيرةٍ ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ ولا شابةٌ[٩] ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بينَ الشابةِ والكبيرةِ، وقيلَ: ﴿لَّا فَارِضٌ﴾ لا بكبيرةٍ على ما ذَكَرْنا و ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي ولا ما تَلِدُ ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي قد وَلَدَتْ بَطْناً أو بَطْنَينِ.

الآية ٦٩ [وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾][١٠] قولُهُ[١١]: ﴿صَفْرَاءُ﴾ قيلَ: [الصفراءُ التي تضربُ إلى السوادِ،][١٢] وذلكَ لِشِدَّتِهِ، وقيلَ: الصفراءُ مِنَ الصُّفْرِ المعروفِ.

وقولُهُ: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قيلَ: [صافٍ. وقولُهُ][١٣] ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ تُعجبُ الناظِرِينَ، وقيلَ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ صفراءُ الظِّلْفِ والقَرْنِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٠ [وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾][١٤].

وقولُهُ: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ قيلَ: لَمْ يُذَلِّلْها العملُ، أي لم يُزرَعْ عليها، ولا هي مما يُسقَى[١٥] عليها [الحرثُ، وقيلَ: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾][١٦] أي بقرةٌ وحشيةٌ صعبةٌ ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ولكن إثارةُ الأرضِ لم تُذَلِّلْها لِصُعُوبَتِها وشدتِها.

وقولُهُ: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قيلَ فيه بوجوهٍ: [قيلَ][١٧]: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ خوفاً على أنفسِهِمْ أنْ يفتضِحُوا لظهورِ القاتلِ، وقيلَ: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاءِ ثمنِها، والأوّلُ أقربُ، واللهُ أعلمُ. وقيلَ: إنهمُ استَقْصَوْا في [صفةِ][١٨] تلكَ البقرةِ والسؤالِ عَنْ أحوالِهَا، والاِسْتِقْصاءُ في الشيءِ ربما يكونُ للمدافعةِ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ[١٩]: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وقومُ موسى مَعَ غِلَظِ أفهامِهِمْ ورقةِ عقولِهِمْ، أعرفُ باللهِ وأجملُ[٢٠] توحيداً مِنَ المعتزلةِ: لأنهمْ قالُوا: لو[٢١] شاءَ اللهُ لكنّا مِنَ المهتدِينَ، والمعتزلةُ يقولُونَ: قد شاءَ اللهُ أن يهتدُوا [وشاؤوا همْ ألّا يهتدُوا][٢٢] فغلبَتْ مشيئتُهُمْ على مشيئةِ اللهِ تعالى على قولِهِمْ[٢٣]. فنعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ والجهلِ في الدينِ.

---

(١) أدرج في ط ع قبل هذه الكلمة العنوان التالي: حكمة جعل البقرة آية دون غيرها. (٢) في النسخ الثلاث: وجه. (٣) ساقطة من ط م. (٤) في النسخ الثلاث: وجهان. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: محسن. (٦) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٧) لم تدرج هذه العبارة في النسخ الثلاث. (٨) في النسخ الثلاث: وقوله. (٩) أدرج في ط م بعد ولا شابة: وقوله: ﴿عَوَانٌ ... بَقَرَةٌ﴾. (١٠) لم تُدرج الآية كاملة في الأصل و ط م، وأدرج في ط ع بعدها الآيتان: ٧٠ و٧١ . (١١) في النسخ الثلاث: وقولُهُ. (١٢) من ط م، في الأصل: الصفر الذي تضرب، وفي ط ع: الصفر الذي يقرب. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: صادق. (١٤) لم تُدرج الآيتانَ كاملتين في الأصل. (١٥) من ط م، في الأصل و ط ع: يُبْقَى. (١٦) من ط م. (١٧) من ط م. (١٨) من ط ع. (١٩) من ط م. (١٩) أدرجت العبارة: وقوله.... في الدين في ط م قبل تفسير قوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾. (٢٠) في ط م: وأمهل، في الأصل وط ع: وأجهل. (٢١) في النسخ الثلاث: إنْ. (٢٢) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٢٣) من ط م، في الأصل و ط ع: قلوبهم.

وفي قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ دليلٌ لأبي حنيفةَ ﷺ وأصحابِهِ أنَّ مَنْ حلفَ لا يأكلُ لحمَ بقرةٍ، فأكلَ لحمَ ثورٍ حنثَ، لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَ البقرةَ، ثم بيَّنَ في آخرِهِ ما يدلُّ أنهُ أرادَ بهِ الثورَ لِقولِهِ[1]: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ والثورُ هو الذي يثيرُ الأرضَ، ويسقي الحرثَ دونَ الأنثى[2]؛ لذلكَ كانَ الجوابُ على ما ذكَرْنا إلّا أنْ يكونُوا هُمْ كانُوا يحرثُونَ بالأنثى[3] كما يحرثُ أهلُ الزمانِ بالذَّكَرِ، فحينئذٍ لا يكونُ فيهِ دليلٌ لِما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٢ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ في الآيةِ دليلُ مرادِ الخصوصِ وإنْ خرجَتْ في الظاهرِ مَخرجَ العمومِ لأنهُ قالَ ﷻ ﴿قَتَلْتُمْ﴾ وإنما قتَلَهُ واحدٌ، وقالَ: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وإنما كَتَمَهُ الذي قتَلَهُ؛ لذلكَ قُلْنا: [علينا][5] ألّا نصرفَ مرادَ الآيةِ إلى العمومِ بلفظِ العمومِ ولا إلى الخصوصِ بلفظِ الخصوصِ إلّا بعدَ قيامِ الدليلِ والبرهانِ على ذلكَ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يعني بفخذِها الأيمنِ. لكنَّ هذا لا يُعلَمُ إلّا بخبرٍ عَنِ اللهِ تعالى، ولكنْ يُقالُ: ﴿فَقُلْنَا﴾ بِقَدْرِ ما في الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ﴾ أي هكذا يُحيي اللهُ الموتى مِنَ الوجهِ الذي لا يتوهَّمُونَ إحياءَهُ[6] بضربِ بعضِ البقرةِ عليه. كذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] فكما أحيَى الأرضَ بعدَ موتِها بالمطرِ المنزَّلِ مِنَ السماءِ يَقدِرُ على إحياءِ المَوتَى وبعثِهِمْ على الوجهِ الذي لا يظنُّونَ، ولا يَتَوَهَّمُونَ[7]، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ إحياءَ ذلكَ القتيلِ لِما لم يكونُوا اطمأنُّوا على إحياءِ المَوتَى، فأراهمُ اللهُ ﷻ ذلكَ لِيطْمَئِنُّوا، ولِيَسْتقِرُّوا على ذلكَ، ولا يَضطَرِبُوا فيهِ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يَحتملُ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ [أي][9] يريكُمْ آياتِ وحدانيّتِهِ، ويحتملُ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ [أي][10] آياتِ إحياءِ المَوتَى وآياتِ البعثِ، ويَحتمِلُ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ في ما يَحتاجون إليهِ كما أرى مَنْ تَقَدَّمَهُمْ عندَ حاجتِهِمْ، ويَحتمِلُ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ آياتِ [نبوةِ][11] محمدٍ ﷺ إذ هو خبرٌ عنِ الغيبِ؛ وأوضحُ آياتِ الرسالةِ الخبرُ عَنِ الغيبِ وذكرُ القصةِ على الوجهِ الذي يُعلِمُ أنَّ الاختراعَ لا يبلغُ ذلكَ ليعلَمُوا أنهُ باللهِ عَلِمَ، إذْ[12] لم يُذكَرْ لهُ خطُّ كتابٍ ولا اختلافٌ إلى مَنْ عندَهُ، على أنهُ لو كانَ مسموعاً منهمْ لَجَرَى[13] على مثلِهِ القولُ بالزيادةِ والنقصانِ، ولكنْ مَنَعَهُمُ اللهُ تعالى عَنْ ذلكَ إذْ علمُوا صدقَهُ إشفاقاً على أنفسِهِمْ أنْ تنزلَ عليهِمْ نِقمةُ اللهِ.

وقولُهُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [لكي تَعْقِلُوا][14] آياتِ وحدانيّتِهِ، وتعقلُوا[15] أنهُ قادرٌ على إحياءِ المَوتَى بعدَ الموتِ.

الآية ٧٤ وقولُهُ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ضربَ اللهُ لقلوبِهِمْ مثلاً بالحجارةِ، وشبَّهَها بها لِقساوَتِها وشدةِ صلابتِها وأنها أشدُّ قسوةً مِنَ الحجارةِ؛ وذلكَ أنَّ مِنَ الحجارةِ معَ صلابتِها وشِدَّتِها مَعَ فَقْدِ أسبابِ الفهمِ والعقلِ وزوالِ الخطابِ منها [ما][16] تخضعُ لهُ، وتتصدَّعُ [كقولِهِ]:[17] ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وقولِهِ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ الآية[18] [الأعراف: ١٤٣]. وقلبُ الكافرِ مَعَ وجودِ أسبابِ الفهمِ والعقلِ وسَعةِ سببيَّةِ القبولِ لا يخضعُ لهُ ولا يلينُ، وكذلكَ أخبرَ اللهُ ﷻ [عنِ الجبالِ أنها تلينُ، وتخضعُ لِهَولِ ذلكَ اليومِ

---

(١) من ط م، في الأصل و ط ع: بقوله. (٢) و(٣) أدرج في النسخ الثلاث بعدها: منها، والصواب حذفها. (٤) من ط م و ط ع. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) من ط م، في الأصل و ط ع إحياءً. (٧) من ط م، في الأصل و ط ع: يتوهمونه. (٨) من ط م و ط ع. (٩) من ط ع. (١٠) من ط ع. (١١) من ط م و ط ع. (١٢) من ط م، في الأصل و ط ع: أنه إذا. (١٣) في الأصل و ط ع: ليجري، في ط م: يجري. (١٤) من ط م، في ط ع: لكي تعقلون، ساقطة من الأصل. (١٥) من ط م، في الأصل و ط ع: وتعقلون. (١٦) من ط م. (١٧) من ط م و ط ع. (١٨) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة.

بقولِهِ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقلبُ الكافرِ لا يلينُ أبداً، أو أن يقالَ: إنَّ اللهَ ﷻ[(١)] جعلَ مِنَ الجبالِ[(٢)]. منافعَ للخلقِ مَعَ صلابتِها وشدتِها حتى يتفجَّرَ منها[(٣)] الأنهارُ والمياهُ، وقلبُ الكافرِ مَعَ احْتِمالِ ذلكَ وإمكانهِ لا منفعةَ منهُ لأحدٍ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم[(٤)] وَجْهُ حكمةِ ضربِ قلوبِهِمْ مثلاً بالحجارةِ وتشبيهها بها دونَ غيرِها مِنَ الأشياءِ الصلبةِ مِنَ الحديدِ والصُّفْرِ وغيرِهما: ذلكَ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الحديدَ يُلَيِّنُهُ النارُ، وكذلكَ الصُّفْرُ حتى يُضرَبَ منها الأواني، [والحجرُ لا تُلَيِّنُهُ النارُ][(٥)] ولا شيءٌ؛ لذلكَ شبَّهَ قلبَ الكافرِ بها. وهذا، واللهُ أعلمُ، في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنُونَ أبداً.

وقولُهُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ خرجَتْ على الوعيدِ أبلغَ الوعيدِ والوعظِ حتى ذكَّرَهُمْ علمَهُ بما يعملُونَ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ قيلَ: الآيةُ وإنْ خرجَتْ على عُمومِ الخطابِ فالمرادُ منها الخُصوصُ، وهو الرسولُ ﷺ وإلى هذا يذهبُ أكثرُ أهلِ التفسيرِ. وقيلَ: إنَّ المرادَ منها بعُمومِ الخطابِ العُمومُ، يعني النَّبِيَّ ﷺ وأصحابَهُ، وكأنَّها خَرجَتْ على النهيِ عَنْ طمعِ الإيمانِ منهمْ[(٦)]. كأنهُ قالَ: لا تطمعُوا في إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾؟ [الزمر: ١٩] أي لا تنقذُ، وكقولِهِ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾؟ [الزخرف: ٤٠].

وقولُهُ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ الآيةَ[(٧)]. لِقائلٍ أنْ يقولَ: [أيش][(٨)] في ما كانَ فريقٌ منهمْ يسمعونَ كلامَ اللهِ، ثم يُحَرِّفُونَهُ، ما يجبُ أنْ يدفعَ الطمعَ عنْ إيمانِ هؤلاءِ؟ فهو، واللهُ أعلمُ، لِوجهَيْنِ:

أحدُهما: أنهمْ كانُوا أصحابَ تقليدٍ، كقولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فأخبرَ ﷻ أنَّ هؤلاءِ، وإنْ رَأَوُا الآياتِ العجيبةَ فإنهمْ لا يؤمنونَ أبداً؛ لأنهمْ أصحابُ تقليدٍ لا ينظُرُونَ إلى الحججِ والآياتِ.

والثاني: أنهمْ مَعَ كثرةِ ما عَايَنُوا مِنَ الآياتِ وشاهَدُوا مِنَ العجائبِ في عهدِ رسولِ اللهِ [موسى][(٩)] ﷺ لم يطمعْ في إيمانِهِمْ، فكيفَ طمِعْتُمْ أنتمْ في إيمانِ هؤلاءِ، وهم أتباعُهُمْ؟ واللهُ أعلمُ. ولهذا وجهانِ آخرانِ.

أحدُهما: كأنهُ قالَ: لا تطمعْ في إيمانِهِمْ [لأنهمْ][(١٠)] في علمِ اللهِ على ما عليهِ مِنْ ذِكْرٍ.

والثاني: لأنَّ أولئكَ كانُوا خيراً مِنْ هؤلاءِ وأرْغَبَ في الحقِّ منهمْ، ثم لم يؤمِنُوا مَعَ سماعِ الحججِ [وما][(١١)] يجبُ بهِ الإيمانُ، فكيفَ تطمعُ في إيمانِ هؤلاءِ؟.

وقولُهُ: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ [ﷻ وقولُهُ:][(١٢)] ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهُ رسولُ اللهِ، وأنه حقٌّ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[(١٣)] أنها في المنافِقينَ نزلَتْ.

وقولُهُ: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ: خَلَا بعضُ المنافِقينَ إلى بعضٍ ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ بكذا؟ ويَحتمِلُ [خَلَا المنافقونَ][(١٤)] إلى اليهودِ.

وقولُهُ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قِيلَ: ﴿فَتَحَ ٱللَّهُ﴾ قصَّ اللهُ، وقيلَ: ﴿فَتَحَ ٱللَّهُ﴾ قضى اللهُ، وقيلَ [﴿فَتَحَ ٱللَّهُ﴾][(١٥)] مَنَّ اللهُ عليكُمْ في التوارةِ، وكلُّهُ يرجِعُ إلى واحدٍ.

وقولُهُ: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ أي باعترافِكُمْ عندَ هؤلاءِ، ويَحتمِلُ على إضمارِ رسولِ اللهِ ﷺ كأنَّهُ قالَ: ليحاجُّوكُمْ

---

(١) من ط م. (٢) في ط ع: الجبل. (٣) في النسخ الثلاث: منه. (٤) أُدرجَ في ط ع قبل هذه الكلمة العنوان التالي: حكمة ضرب قلب الكافر مثلا بالحجارة. (٥) من ط م و ط ع، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من ط ع. (٧) ساقطة من ط م و ط ع. (٨) في ط ع: أي شيء، في ط م: أليس. (٩) من ط م. (١٠) من ط م و ط ع. (١١) من ط م، الواو، ساقطة من الأصل و ط ع. (١٢) من ط ع. (١٣) في تفسير الآية: ١٤. (١٤) في ط م: خلاء المنافقين. (١٥) من ط ع.

بإقرارِكُمْ عندَ رسولِ اللهِ، ويَحتمِلُ على معنَى يُحاجُوكُمْ بهِ عندَ ربِّكُمْ أي في ربِّكُمْ /١٣ ـ ب/ إذِ العربُ تستعملُ حروفَ الخفضِ بعضَهَا في موضعِ بعضٍ، ويَحتمِلُ ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي يومَ القيامةِ، ويكونُ لِيُحاجُوكُمْ بما عندَ اللهِ أي بالذي جاءَكُمْ مِنْ عندِ اللهِ.

لكنْ لِقائلٍ أنْ يقولَ: مامعنَى ذِكْرِ المُحاجَّةِ عندَ ربكمْ؟ والمُحاجَّةُ لا تكونُ إلّا عندَهُ، ولا يكونُ ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ إلّا عندَ اللهِ، أي بالذي جاءَكُمْ مِنْ عندِ اللهِ. قيلَ: لأنَّ ذلكَ أشدُّ إظهاراً وأقلُّ كتماناً لِما سبقَ منهمُ الإقرارُ بذلكَ؛ لذلكَ نُهُوا عَنْ ذلكَ لأنهمْ كانُوا يَنْهَوْنَ أولئكَ عَنِ الإقرارِ بالإيمانِ عندَ المؤمنينَ وإظهارِ ما في التوراةِ مِنْ بعثِ رسولِ اللهِ ﷺ وصفتِهِ.

وقولُهُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ هذه حجةٌ لهُمْ عليكُمْ حينَ تعترفُونَ بهِ، وتُظهِرُونَ بَعْثَهُ[1] وصفتَهُ، ثم لا تبايِعُونَهُ[2]، ويَحتمِلُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّهُ حقٌّ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قيلَ: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في الخلوةِ مِنَ الكفرِ بهِ والتكذيبِ لهُ، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لأصْحابِهِ مِنَ التصديقِ لَهُ والإيمانِ بهِ، وقيلَ: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ مِنْ كتمانِ بَعْثِهِ[3] وصفتِهِ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِنْ إظهارِ بَعْثِهِ[4] وصفتِهِ الذي في التوراةِ، ويَحتمِلُ: ما يُسِرُّ هؤلاءِ لهمْ مِنَ النهيِ عَنْ إظهارِ ما في التوراةِ وما يُعْلِنُ هؤلاءِ للمؤمنينَ مِنْ إظهارِ بَعْثِهِ[5] وصفتِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يقولُ: مِنَ اليهودِ مَنْ لا يقرأُ التوراةَ، ولا يعرفُها، إلّا أنْ يُحدِّثَهُمُ العلماءُ والرؤساءُ عنها. والأميُّ الذي لا يكتبُ، ولا يقرأُ عَنْ كتابةٍ، لكنهُ يقرأُ لا عَنْ كتابةٍ كالنبيِّ ﷺ كانَ لا يكتبُ، ولا يقرأُ عَنْ كتابةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ويُقالُ أيضاً: الذي لا يقرأُ، ولا يكتبُ [لا عَنْ كتابةٍ، ولا عَنْ][6] غيرِ كتابةٍ.

وقولُهُ: ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ قيلَ: أحاديثَ باطلةً يحدِّثُ لهمْ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وقيلَ: ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ يعني إلّا كَذِباً. وقالَ الكسائيُّ: ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ إلّا تلاوة [كقولِهِ ﷻ][7] ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] يعني في تلاوتِهِ.

وقولُهُ: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يقولُ: ما هُمْ إلا كَمَنْ[8] يَظُنُّونَ في غيرِ يقينٍ. وأصلُهُ: أي لا يعلَمُونَ علمَ الكتابِ، إنّما عندَهُمْ أمانيُّ النفسِ وشهواتُها كقولِهِ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قيلَ: الويلُ: الشدةُ، وقيلَ: الويلُ: وادٍ في جهنمَ، وقيلَ: الويلُ: هو قولُ كلِّ مكروبٍ وملهوفٍ يقولُ: ويلٌ لهُ بكذا.

وقولُهُ: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ[9]: يَحتمِلُ ﴿يَكْتُبُونَ﴾ يمحُونَ بَعْثَهُ[10] وصفَتَهُ عنِ التوراةِ، ويَحتمِلُ ﴿يَكْتُبُونَ﴾ يُحدثُونَ كتابةً على غيرِ بَعْثِهِ[11] وصفتِهِ.

[وقولُهُ][12]: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فتكونُ الكتابةُ في هذا إثباتاً[13] كقولِهِ: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. والمُثْبَتُ هو ذلكَ المُلْحَقُ لِيُظَنَّ أنهُ كذلكَ في الأصلِ.

وقولُهُ: ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قد ذكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ[14]

وقولُهُ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ذكَرَ لهمْ ثلاثَ ويلاتٍ: [أحدُها][15] ويلٌ بإحداثِ كتابةِ

---

(١) في النسخ الثلاث: نعته. (٢) من ط م، في الأصل و ط ع: تبايعوه. (٣) في النسخ الثلاث: نعته. (٤) في النسخ الثلاث: نعته. (٥) في النسخ الثلاث: نعته. (٦) في الأصل و ط ع: لا عن، في ط م: لا عن كتابة ولا. (٧) من ط ع وط م، في الأصل: لقوله، في ط م: كقوله. (٨) في الأصل وط ع: ظن، في ط م: لَمَنْ. (٩) من ط م وط ع، في الأصل: بوجهين. (١٠) في النسخ الثلاث: نعته. (١١) في النسخ الثلاث: نعته. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) من ط م، في الأصل و ط ع: إثبات. (١٤) في تفسير الآية ٤١ . (١٥) ساقطة من النسخ الثلاث.

ببعثِ رسولِ اللهِ ﷺ ونحوِهِ وتغييرِهِ، والثاني: بقولِهِمْ: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والثالثُ: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ المأكلةِ والهدايا.

الآية ٨٠ وقولُهُ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أجمعَ أهلُ التفسيرِ والكلامِ على صرفِ الأيامِ المعدودةِ المذكورةِ في هذهِ الآيةِ إلى أيامِ عبادةِ العجلِ. وذلكَ لا معنى لهُ لوجهينِ:

أحدُهُما: أنَّ هؤلاءِ لم يعبدُوا العجلَ، وإنما عبدَ آباؤهُمْ، فلا معنى لصرفِ ذلكَ إلى هؤلاءِ.

والثاني: لو صُرِفَ[1] ذلكَ إلى آبائِهِمُ الذينَ عبدُوا العجلَ لم يُحتمَلْ أيضاً لأنهمْ قد تابوا، ورجَعُوا عنْ ذلكَ، فلا معنَى للتعذيبِ على عبادةِ العجلِ بعدَ التوبةِ والرجوعِ إلى عبادةِ اللهِ كقولِهِ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، واللهُ أعلمُ.

وتُصْرَفُ الأيامُ المعدودةُ إلى العُمُرِ الذي عَصَوا فيه، لِما لم يَرَوُا التعذيبَ إلّا على قدْرِ وقتِ العصيانِ والذنبِ، أو لِما لم يكونوا يَرَونَ التخليدَ في النارِ أبداً، أو لِما هُمْ عندَ أنفسِهِمْ كما أخبرَ اللهُ عنهمْ كقولِهِمْ[2]: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وكقولِهِمْ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] يقولُونَ إنّا لا نُعَذَّبُ أبداً، إنما نُعَذَّبُ تعذيبَ الأبِ ابنَهُ الحبيبَ[3] ونُعَذَّبُ[4] في وقتٍ قليلٍ، ثم يرضَى، وندخلُ[5] الجنَّةَ. ولكنْ عقوبةُ الكفرِ أبداً والتخليدُ فيها لا لوقتٍ. فعلى ذلكَ جزاؤهُ للأبدِ لا لوقتٍ. وأمّا مَنِ ارتكبَ ذنباً مِنَ المسلمينَ بشهوةٍ تغلبُهُ في وقتٍ، فيرتكبُهُ، ثم يتركُهُ، فإنما يُعاقَبُ، إنْ عوقبَ، على قَدْرِ ما ارتكبَ في وقتٍ، لأنهُ لم يرتكبْهُ للأبدِ، لذلكَ افْتَرَقا. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ والعهدُ يَحتمِلُ [وجهَينِ:

أحدُهما][6]: هَلْ خبرٌ عَنِ اللهِ تعالى بأنكمْ لا تُعَذَّبونَ أبداً، ولكنْ أياماً معدودةً؟ فإنْ كانَ لكمْ هذا فهو لا يُخلِفُ عهدَهُ.

والثاني ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي ألكمْ[7] أعمالٌ صالحةٌ عندَ اللهِ، فوعَدَكمْ بها الجنةَ، فهو لا يُخلِفُ وعدَهُ؟ أي ليسَ لكمْ واحدٌ مِنْ هذَينِ: لا خبرٌ عَنِ اللهِ بأنهُ لا يعذبُكُمْ ولا أعمالٌ صالحةٌ وَعَدَ لكمْ بها الجنةَ.

وقولُهُ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا إكذابٌ مِنَ اللهِ ﷻ إياهمْ بذلكَ القولِ، كأنهُ قالَ: بل تَقُولُونَ على اللهِ مالا تعلَمُونَ.

الآية ٨١ [وقولُهُ تعالى][8] ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؟ يقولُ: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ يعني شِرْكاً ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي ماتَ عليها ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يموتُونَ فيها، ولا يخرجُونَ منها، وقيلَ: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ﴾ بقلبِهِ.

الآيتان ٨٢ و ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قد ذكرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ[9]. وقولُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قد ذكرْنا عهدَ اللهِ وميثاقَهُ أنهُ يكونُ على وجهَينِ: عهدِ خِلْقةٍ وفطرةٍ، وعهدِ رسالةٍ[10] ونبوةٍ.

وقولُهُ: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهُما][11]: يَحتمِلُ لا تَجعلونَ الأُلوهيَّةَ إلّا للهِ.

(١) في ط م: صرفت. (٢) في النسخ الثلاث بقوله. (٣) في ط م: أو الحبيب حبيبه. (٤) في النسخ الثلاث: يعذبُ. (٥) في النسخ الثلاث: ويدخل. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) الهمزة ساقطة من النسخ الثلاث. (٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (٩) في تفسير الآية/ ٢٥ . (١٠) ذكر في تفسير الآيتين / ٢٧ و/ ٦٣ . (١١) ساقطة من النسخ الثلاث.

[والثاني][1] يَحتمِلُ نفسَ العبادةِ أي لا تَعبدونَ [إلا اللهَ، ولا تَعْبُدونَ][2] الأصنامَ والأوثانَ وغيرَها.

وقولُهُ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بِرًّا بهما وعطفاً عليهما وإلطافاً لهما ولِينَ القولِ لهما كقولِهِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ الآيةَ[3] [الإسراء: ٢٣ و٢٤]. وكقولِهِ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. فإنْ قيلَ: إنَّ الأمرَ بالإحسانِ في ما بينَ الخلقِ يُخرَّجُ مُخرَجَ الإفضالِ والتَّبرُّعِ لا على الوُجوبِ واللُّزومِ [فهو عندَنا على وجهَينِ:

أحدُهُما][4]: أنَّ الإحسانَ يجوزُ أنْ يكونَ الفعلَ الحسنَ نفسَهُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] اسْتوجَبُوا هذا بالفعلِ الحَسَنِ لا بالإحسانِ إلى اللهِ تعالى، والفعلُ[5] الحَسَنُ فرضٌ واجبٌ على كلِّ أحدٍ.

والثاني: أنَّ الإحسانَ إليهِمْ يجوزُ أنْ يكونَ مِنْ حقِّ اللهِ عليهِمْ [وحقُّ اللهِ تعالى عليهِمْ][6] لازمٌ. وعلى ذلكَ صِلةُ القرابةِ والمحارِمِ والإنفاقُ عليهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تعالى عليهِمْ، وهو لازمٌ.

فهذا ينقضُ على الشافعيِّ قولَهُ: إنهُ لا يوجبُ النفقةَ إلّا على الوالِدَينِ، ولا يتكلمُ في الآباءِ والأمهاتِ بالقرابةِ، ولا سُمُّوا بهذا الإسْمِ، فدلَّ أنه أرادَ بِهِ غيرَ الوالِدَينِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ يَحتمِلُ على النَّفْلِ مِنَ الصدقةِ والفرضِ جميعاً.

وقولُهُ: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ يَحتمِلُ وجوهاً:

يَحتمِلُ: لا تكتمُوا صفةَ محمدٍ ﷺ [وبعثَهُ، ولكنْ أظهِرُوهما[7]] ويَحتمِلُ: الدعاءَ إلى شهادةِ: أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، [ويَحتمِلُ: المرادَ بِهِ الكلُّ، كلُّ شيءٍ وكلُّ قولٍ، أي لا تقولُوا إلّا حُسْناً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحتمِلُ الإقرارَ بها، والقبولَ بها][8] ويَحتمِلُ: إقامتَها في مواقيتِها بِتَمامِ رُكوعِها وسُجودِها وخشوعِها، ويَحتمِلُ أنْ كونُوا في حالٍ/ ١٤ ـ أ/ تكونُ لكمُ الصلاةُ والتزكيةُ.

[وقولُهُ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحتمِلُ][9] الوجوهَ التي ذكَرْناها في الصلاةِ.

وقولُهُ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ الآيةُ[10] ظاهرةٌ.

الآية ٨٤ وقولُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ قد ذكَرْنا الميثاقَ والعهدَ في غيرِ[11] موضعٍ.

وقولُهُ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ؛ يَحتمِلُ[12]: لا تَسْفِكُونَ دماءَ غيرِكُمْ، فَتَسْفِكوا[13] دماءَكُمْ، فتصيرُوا[14] كأنكم سفَكْتُمْ دماءَكُمْ، ويَحتمِلُ: لا يَسْفِكُ بعضُكُمْ دماءَ بعضٍ كقولِهِ: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي يُسَلِّمُ بعضُكُمْ على بعضٍ.

وذِكْرُ نقضِ العهدِ في هؤلاءِ، وإنْ كانَ في أوائِلِهِمْ، بوجهَينِ:

أحدُهما: لَمَّا رضيَ هؤلاءِ بفعلِ آبائِهِمْ.

والثاني بقولِهِمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ [وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ و﴿مُّقْتَدُونَ﴾][15] [الزخرف: ٢٢ و٢٣].

وقولُهُ: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ يَحتمِلُ أيضاً وجهَينِ: يَحتمِلُ[16] ولا يُخرِجُ بعضُكُمْ بعضاً، ويَحتمِلُ لا تُخرِجُوا غيرَكُمْ مِنْ ديارِهِمْ فَتُخرَجُوا[17] مِنْ ديارِكُمْ على ما ذكَرْنا في قولِهِ: ﴿تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ واللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: و. (٢) في ط م: غير الله من، في الأصل وط ع: إلا الله ولا تعبدوا. (٣) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل كلمة الآية.
(٤) في النسخ الثلاث: غير. (٥) في النسخ الثلاث: وفعلُ. (٦) من ط م وط ع. (٧) في الأصل: ونعته ولكن أظهروها، في ط م: ونعته ولكن أظهروها، في ط ع: ولكن أظهروها. (٨) من م ط. (٩) في ط ع: ويحتمل. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) في تفسير الآيات/ ٢٧ و/ ٦٣ و/ ٨٣.
(١٢) من ط ع، في الأصل و ط م: أي. (١٣) في النسخ الثلاث: فيسفك. (١٤) في النسخ الثلاث: فتصيرون. (١٥) من ط ع، في الأصل و ط م: الآية.
(١٦) ساقطة من ط م. (١٧) في النسخ الثلاث: فتخرجون.

وقولُهُ: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يحتملُ: ثم أقررْتُمْ، وأنتم معرِضُونَ بالعهدِ والميثاقِ، وتَشهدُونَ [أنهُ][١] في التوراةِ.

الآية ٨٥ وقولُهُ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني يا هؤلاءِ [وقولُهُ][٢]: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ يَحتملُ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذكَرْتُهُمَا في قولِهِ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤].

وقولُهُ: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي تعاوَنونَ عليهِمْ؛ يُعاوِنُ بعضُكُمْ بعضاً بالإخراجِ، وهو الظلمُ والعدوانُ، [وقولُهُ: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾][٣] أي ذلكَ الإخراجُ مُحرَّمٌ عليكُمْ.

وقولُهُ: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ الآيةَ[٤] وإنْ كانَتْ مؤخَّرةً في الذكرِ فهي مقدَّمةٌ؛ كأنهُ قالَ: لا تسفِكُونَ دماءَكُمْ ولا تُخرِجونَ انفسَكُمْ وإنْ يأتوكُمْ أسارى تُفادُوهُمْ.

وقولُهُ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ آمَنوا بالمُفاداةِ مِنَ الأسارَى، وكفَرُوا بالإخراجِ وسفكِ الدماءِ، ويَحتمِلُ: الإيمانَ ببعضِ ما في التوراةِ، والكفرَ[٥] ببعضِها، وهو بعثُ[٦] محمدٍ ﷺ وصفتُهُ، إذ لم يكنْ على موافقةِ مرادِهِمْ، ويَحتمِلُ: أنْ فادُوا أسراهُمْ مِنْ غيرِهِمْ، وسَبَوا ذَرارِيَّ غيرِهِمْ.

وقولُهُ: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ قيلَ: الخِزيُ في الدنيا إجلاءُ بني النَّضيرِ مِنْ ديارِهِمْ وإخراجُهُمْ إلى الشامِ، وقيلَ: مُقاتلةُ بني قُرَيظَةَ وسَبْيُ ذَرارِيِّهِمْ، وذلكَ لِحَرْبٍ وقعَ بينَهُمْ، واللهُ أعلمُ، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أنهمْ[٧] لا يُعاقَبُونَ في الحياةِ الدنيا، بل يُرَدُّونَ إلى أشدِّ العذابِ في الآخرةِ، وإنِ استَوجَبُوا ذلكَ في الدنيا كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ الآيةَ[٨] [إبراهيم: ٤٢].

وقولُهُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ. قد ذكَرْنا [ذلكَ][٩] في ما تَقدَّمَ[١٠].

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يَحتمِلُ أنهمْ كانُوا آمَنُوا بمحمدٍ ﷺ قبلَ خروجِهِ وبعثِهِ، فلمَّا بُعِثَ على خِلافِ مُرادِهِمْ كَفَروا به، فذلكَ اشْتِراءُ الحياةِ الدنيا بالآخرةِ، ويَحتمِلُ ابْتِداءَ اخْتِيارِ الضلالِ على الهُدَى والحياةِ الدنيا على الآخرةِ مِنْ غيرِ أنْ آمَنُوا بهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراةَ، وهو ظاهرٌ.

وقولُهُ: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ وقيلَ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أرْدَفْنا، وهو مِنَ القَفَا؛ قَفَا يَقْفُو، وقيلَ: أتْبَعْنا رسولاً على إثْرِ رسولٍ[١١] كقولِهِ: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] واحداً على إثْرِ واحدٍ.

وقولُهُ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيلَ: البيِّناتُ الحججُ، وقيلَ: العجائبُ التي كانَتْ تجري على يديهِ مِنْ خَلْقِ الطينِ، وإحياءِ الموتى، وإبراءِ الأكمهِ والأبرصِ، وإنباءِ ما يأكلونَ، وما يدَّخِرُونَ، وقيلَ: البيِّناتُ الحلالُ والحرامُ.

ثم الرسلُ انفسُهُمْ[١٢] حُججٌ فلم يَحتَجْ [كُلُّ قولٍ يقولونَ إلى أنْ يكونَ مصحوباً][١٣] بدليلٍ وبيانٍ على صدقِهِمْ لأنهمْ انفسُهُمْ حجةٌ. وأمّا سائرُ الناسِ فليسُوا بحججٍ، فلا بدَّ لكلِّ قولٍ يقولُونَ أنْ يأتوا بدليلٍ يدلُّ على صدقِهِمْ وبيانٍ يُظهِرُ الحقَّ مِنَ الباطلِ والصوابَ مِنَ الخطإِ والصدقَ مِنَ الكذبِ، وباللهِ التوفيقُ.

[وقولُهُ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾؛ قولُهُ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ وقَوَّيناهُ. واخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾][١٤] قيلَ: رُوحُ

---

(١) من ط م. (٢) من ط م. (٣) من ط م، في الأصل و ط ع: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾. (٤) أدرج في ط ع تتمةُ الآيةِ بدلَ كلمةِ الآيةِ. (٥) في النسخ الثلاث: وكفروا. (٦) في النسخ الثلاث: نعت. (٧) في النسخ الثلاث: ولكن. (٨) أدرج في ط ع تتمةُ الآيةِ بدلَ كلمةِ الآية. (٩) من م ط. (١٠) في تفسير الآية ٧٤ . (١١) في النسخ الثلاث: رسول الله. (١٢) في ط م: في أنفسهم، في الأصل وط ع: في أنفسهم حفظوا. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: إلى كل قول يقولون بدليل. (١٤) في ط م والاصل: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناهُ ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ اختلف فيه، في ط ع: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وقوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قوّيناه، واختلف في قوله: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

القدس: جبريلُ. وفي الأصلِ: القُدُوسِ، لكنْ طُرِحَتِ الواوُ [والتضعيفُ][(١)] للتخفيفِ. وتأييدُهُ، هو أنْ عصمَهُ على حفظِهِ حتى لم يدنُ منهُ شيطانٌ فضلاً أنْ يدنُوَ لشيءٍ[(٢)] واللهُ أعلمُ.

وقيلَ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني بالرُّوحِ رُوحَ اللهِ. ووجهُ إضافةِ رُوحِ عيسى إلى اللهِ ﷺ [تعظيماً لهُ وتخصصياً][(٣)] وذلكَ أنَّ كل خاصٍّ أضيفَ[(٤)] إلى اللهِ تعالى [أضيفَ][(٥)] تعظيماً لذلكَ الشيءِ وتفضيلاً كما يُقالُ لموسى: كليمُ اللهِ ولعيسى: روحُ اللهِ ولإبراهيمَ: خليلُ اللهِ على التعظيمِ والتفضيلِ. وإذا أُضيفَ الحَمْلُ إلى اللهِ ﷺ فإنما يُضافُ تعظيماً لهُ ﷺ كقولِهِ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦ و...]؛ أُضِيفَ [ذلكَ إليهِ تعظيماً وتنزيهاً، واللهُ الموفقُ.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ خاصِّيَّةَ الأشياءِ إذا أضيفَ ذلكَ إليهِ أُضيفَ تعظيماً لتلكَ الخاصيَّةِ، وإذا أُضِيفَ][(٦)] حَمْلُ الأشياءِ إلى اللهِ فهو يُخرَّجُ على تعظيمِ الربِّ تعالى والتبجيلِ لهُ.

وقولُهُ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ في ظاهرِ هذهِ الآيةِ أنهمْ كذَّبُوا فريقاً مِنَ الرسلِ، وقتلُوا فريقاً منهمْ. ويقولُ بعضُ الناسِ: إنهمْ قتلُوا الأنبياءَ، ولم يقتلوا الرسلَ بقولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وبقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]؛ أخبرَ أنهُ يَنصُرُهُمْ، ومَنْ كانَ اللهُ ناصرَهُ فهو لا يُقتَلُ، [ومنهمْ][(٧)] مَنْ يقولُ: إنهمْ قتلُوا الرسلَ والأنبياءَ؛ فنقولُ: يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ في رسولٍ دونَ رسولٍ، فَمَنْ نصرَهُ اللهُ فهو لم يُقتَلْ، أو كانَ ما ذكرَ مِنَ النصرةِ لهمْ كانَ بالحججِ في الآياتِ.

ثم في الآيةِ، دلالةُ رسالةِ محمدٍ [عليه أفضلُ الصلواتِ وأكملُ التحياتِ][(٨)] ونبوتِهِ لأنهُ[(٩)] أخبرَهُمْ بتكذيبِ بعضِ الرسلِ وقتلِ بعضِهِمْ، فسكَتُوا عَنْ ذلكَ. فلولا عرفُوا أنهُ رسولٌ، عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى، وإلّا لم يسكُتُوا عَنْ ذلكَ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ يعني في أكِنَّةٍ، عليها الغطاءُ، فلا نَفْهمُ ما تقولُ، ولانفقَهُ ما تُحدِّثُ؛ يَدَّعُونَ زوالَ الخطابِ عَنْ أنفسِهِمْ كراهيةَ لِما سمِعُوا، وكذَّبَهُمُ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردَهُمُ اللهُ تعالى ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ وعُتُوِّهِمْ وتفريطِهِمْ في تكذيبِ الرسولِ[(١٠)] [ﷺ][(١١)] وعِنادِهِمْ إياهُ، [لا أنَّ][(١٢)] قلوبَهُمْ بمحلٍّ لا يفهَمُونَ [شيئاً مِمّا][(١٣)] يُخاطَبُونَ [بهِ][(١٤)] كما يزعَمُونَ، ولكنَّ ذلكَ لتركِ التفكُّرِ والتدبُّرِ فيها.

وقيلَ[(١٥)]: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ يعني أوعيةَ تفهَمُ، وتَعِي ما يُقالُ، ويُخاطَبُ، ولكنْ لا تَفْهَمُ ما تقولُ، ولا تَفْقَهُ ما تُحدِّثُ. فلو كانَ حقّاً وصِدقاً لَفَهِمَتْ[(١٦)]، ولَفَقِهَتْ؛ يَدَّعُونَ إبطالَ ما يقولُ الرسولُ ﷺ لهمْ، وذلكَ نحوُ ما قالُوا لشُعَيبٍ ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١].

وقولُهُ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: [قيلَ: ﴿فَقَلِيلًا﴾ أي بقليلٍ ﴿مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ مِنَ التوارةِ لأنهم عَرَفُوا بعثَهُ[(١٧)] وصفتَهُ وحَرَّفُوهُ، فلم يؤمِنُوا بهِ، وقيلَ[(١٨)]: ﴿فَقَلِيلًا﴾ أي قليلاً منهمْ يؤمنُونَ بالرسلِ [ﷺ][(١٩)].

الآية ٨٩ وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فلولا أنهمْ عَرَفُوا أنَّ هذا الكتابَ هو موافقٌ لِما معهمْ مِنَ الكتابِ غيرُ مخالفٍ لهُ، لأظهرُوا[(٢٠)] الخلافَ لو عَرَفُوا ذلكَ، ولَتَكَلَّفُوا إطفاءَ[(٢١)] هذا النورِ ودفعَهُ. فدلَّ سكوتُهُمْ عَنْ ذلكَ وتركُ اشتغالِهِمْ بذلِكَ أنهمْ عَرَفُوا موافقتَهُ لِما مَعَهُمْ مِنَ التوارةِ؛ ففيه آيةُ نبوةِ محمدٍ ﷺ.

وقولُهُ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصِرُون ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قبلَ أنْ يُبعثَ محمدٌ ﷺ يقولُونَ: اللهمَّ انصرْنا بحقِّ نبيِّكَ الذي تبعثُهُ. فلمّا لم [يجئْهُمْ على هواهُمْ][(٢٢)] ومرادِهِمْ كفرُوا بهِ ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط م، في الأصل و ط ع: بشيء. (٣) في ط م: أن تكونَ أضيفت تعظيماً له وتفضيلاً. (٤) من ط م، في الأصل وط ع: يضيف. (٥) من ط م. (٦) من ط م. (٧) من ط م. (٨) في ط م: صلى الله عليه وسلم. (٩) من ط م، في الأصل و ط ع: لأنهم. (١٠) في ط م: الرسل. (١١) من ط م. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: لأن. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: على ما. (١٤) من ط م. (١٥) في ط م: وقيل في قوله. (١٦) من ط م، في الأصل وط ع: ففهمت. (١٧) في ط م: نعته. (١٨) من ط م. (١٩) في ط م: صلى الله عليه وسلم. (٢٠) في النسخ الثلاث: وإلا لأظهروا. (٢١) في النسخ الثلاث: على إطفاء. (٢٢) في الأصل و ط ع: يجئهم على هوانهم، في ط م: يجيء عل هواهم.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يقولُ: اشتَرَوا ما [بِهِ][١] هلاكُهُمْ بما بِهِ نجاتُهُمْ؛ وذلكَ أنهمْ كانُوا آمَنُوا بمحمدٍ ﷺ فكانَ إيمانُهُمْ بِهِ نجاتَهُمْ في الآخرةِ، فكفَرُوا بِهِ، وذلكَ هلاكُهُمْ، وباللهِ التوفيقُ.

وقيلَ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا﴾ باعُوا بِهِ أنفسَهُمْ بِعَرَضٍ يَسيرٍ مِنَ الدنيا بعذابٍ في الآخرةِ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قِيلَ: حَسَداً منهمْ؛ وذلكَ [أنهمْ][٢] قد هَوُوا أنْ يُبْعَثَ محمدٌ ﷺ مِنْ أولادِ إسرائيلَ لأنهمْ كانُوا أُمّتَهُ / ١٤ ـ ب/ فلمّا بُعِثَ مِنْ أولادِ إسماعيلَ [عليه السلام][٣] والعربُ مِنْ أولادِهِ، كفَرُوا بِهِ، وكتَمُوا بعثَهُ[٤] حَسَداً منهمْ.

[وقولُهُ: ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعني النبوةَ والكتابَ على محمدٍ رسولِ اللهِ][٥] ﷺ وقيلَ: ﴿بَغْيًا﴾ أي ظُلْماً؛ ظلمُوا أنفسَهُمْ بكفرِهِم بمحمدٍ ﷺ[٦] وتكذيبِهِمْ إياهُ.

وقولُهُ: ﴿فَبَآءُو﴾ قد ذكرْنا في ما تقدَّمَ[٧] وقولُهُ: ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: قيلَ: استَوجَبُوا الغضبَ مِنَ اللهِ بكفرِهِمْ بمحمدٍ ﷺ على إثْرِ غضبٍ بكفرِهِمْ بعيسى [عليه السلام][٨] وبما جاءَ بِهِ، وقيلَ: إنما استَحَقُّوا اللعنةَ على إثْرِ اللعنةِ بِعصيانٍ بعدَ عِصيانٍ وذَنبٍ على إثْرِ ذَنبٍ[٩]، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على محمدٍ ﷺ مِنَ القرآنِ [وقولُهُ][١٠] ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني التوراةَ، وهُمْ لم يكونُوا آمَنُوا بها[١١] [لأنهمْ لو كانوا آمَنُوا بها][١٢] لكانَ في الإيمانِ بها إيمانٌ بمحمدٍ[١٣] ﷺ وبما أُنزلَ إليه وإيمانٌ بجميعِ الأنبياءِ [والرسلِ ﷺ وبجميعِ ما أُنزلَ عليهمْ][١٤] لأنَّ فيها الأمرَ بالإيمانِ بجميعِ [الأنبياءِ][١٥] والرسلِ وكتبِهِمْ، لأنهُ قالَ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [أي مُوافقاً لهُ][١٦]. فالإيمانُ بواحدٍ منهم إيمانٌ بجميعِ الكتبِ، إذ بعضُها موافقٌ لبعضٍ.

وقولُهُ: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قيلَ: وراءَ التوراةِ كفَرُوا بالإنجيلِ والفرقانِ، كأنهُ قالَ: كفَرُوا بالذي وراءَهُ [وهو الحقُّ؛ إذْ هما موافقانِ لما مَعَهُ][١٧] غيرُ مخالِفَينِ[١٨] لهُ، ويَحتَمِلُ: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾][١٩] يعني وراءَ موسى بعيسى وبمحمدٍ [صلواتُ اللهُ عليهِمْ وسلامُهُ][٢٠] كأنه قالَ: مَنْ وراءَهُ ﷺ.

وقولُهُ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنْ قالُوا: إنّا لم نقتلِ الأنبياءَ، ونحنُ مؤمنونَ، قيلَ لهمْ: إنكمْ وإنْ لم تَتَوَلَّوا القتلَ، فقد رضيتُمْ بصنيعِ أولئكَ، واتَّبَعْتُمْ لهُمْ مَعَ ما قد هَمُّوا بقتلِ محمدٍ ﷺ [مراراً][٢١]، ولذلكَ أُضيفَ إليهِمْ، وقيلَ: أخبرَ ﷻ نبيَّهُ [سيدَنا محمداً][٢٢] ﷺ غايةَ سفَهِهِمْ وعُتُوِّهِمْ ومكابرَتِهِمْ في تكذيبِهِ؛ وذلكَ أنَّ النبيَّ ﷺ دعا اليهودَ إلى الإيمانِ بِهِ وبما أُنزلَ عليهِ، فقالُوا: ائْتِنا[٢٣] بالآياتِ والقربانِ كما كانتِ الأنبياءُ مِنْ قبلُ يأتُونَ بها قومَهُمْ.

يقولُ اللهُ ﷻ: قد كانتِ الأنبياءُ مِنْ قبلُ تجيءُ بما تقولونَ إلى آبائِكُمْ مِنَ الآياتِ والقربانِ، فكانُوا يقتلُونَهُمْ، فيقولُ اللهُ ﷻ لمحمدٍ ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهُمْ[٢٤] ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾؛ يقولُ: لِمَ قتلَ آباؤُكُمْ أنبياءَ اللهِ قبلَ محمدٍ ﷺ؟ وقد جاؤُوا بالآياتِ والقربانِ إنْ كنتُمْ صادقِينَ بأنَّ اللهَ تعالى ﴿عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ في التوراةِ ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣] وقد جاؤُوا بِهِ، فَلِمَ قَتَلُوهُمْ؟ [فَهُمْ، واللهُ أعلمُ][٢٥]، أخذُوا هذهِ المُحاجَّةَ مِنْ أوائِلِهِمْ، وقد[٢٦] عَلِموا

---

(١) من ط م. (٢) من ط م. (٣) ساقطة من ط م. (٤) في النسخ الثلاث: نعته. (٥) من ط م. (٦) أدرج في ط ع بعدها: حسداً منهم ما أنزل الله من فضله. (٧) في تفسير الآية/ ٦١ . (٨) ساقطة من ط م.(٩) في النسخ الثلاث: الذنب. (١٠) من ط م. (١١) في ط م: بالتوراة. (١٢) من ط م. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: محمد. (١٤) في الأصل: عليهم السلام، في ط م: والرسل وبجميع ما أنزل إليهم، في ط ع: والرسل وبجميع ما أنزل عليهم، عليهم السلام. (١٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٦) في النسخ الثلاث: وموافقاً. (١٧) في ط م: معهم. (١٨) في ط م: مخالف. (١٩) من ط م، ساقطة من الأصل وط ع. (٢٠) في ط م: صلى الله عليه وسلم. (٢١) من ط م. (٢٢) في الأصل وط ع: سيدنا محمد، ساقطة من ط م. (٢٣) في ط ع: آمنا. (٢٤) في ط م: أن قل لهم. (٢٥) في النسخ الثلاث، فهو والله أعلم أنهم. (٢٦) في النسخ الثلاث: وإن.

بما ظهرَتْ نبوّةُ محمدٍ ﷺ وأنهُ مبعوثٌ، وأنتمْ تُقلّدُونَهُمْ، فقلّدُوهُمْ بما أُنبِئْتُمْ][1] لو أُوتيتُمْ، كما قلّدْتُوهُمْ، وقد[2] عَلِمْتُمْ بما عايَنْتُمْ أنْ[3] لا حجةَ لكمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٢ وقولُهُ: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ البيّناتُ ما ذكَرْنا في ما تقدّمَ[4] مِنَ الآياتِ المُعْجزةِ والحججِ العجيبةِ والبراهينِ الظاهرةِ على رسالتِهِ ونبوتِهِ وصِدقِ ما يدعُوهُمْ إليهِ مما يدلُّ كُلُّهُ أنهُ مِنْ عِندِ اللهِ. ثم مَعَ ما جاءَهُمْ موسى بها؛ عَبَدُوا العجلَ، واتّخذُوه إلهاً، وكَفَرُوا باللهِ. يُعَزّي نبيَّهُ ﷺ لِئلاّ يظنَّ أنهُ أوّلُ مُكذَّبٍ مِنَ الرسلِ، وأوّلُ مَنْ كُفِرَ بهِ، حتى لا يضيقَ صدرُهُ بما يقولُونَ، ويستقبلُونَهُ بما يكرَهُ، وباللهِ التوفيقُ، كقولِهِ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]

الآية ٩٣ وقولُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ قد ذَكَرْنا[5] في ما تقدّمَ[6] ما فيهِ مقنعٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وقولُهُ: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي وأجيبُوا، ويَحتمِلُ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ وأطيعُوا. لكنَّ هذا في ما بينَ الخلقِ جائزٌ: السمعُ والطاعةُ. وأمّا إضافةُ الطاعةِ إلى اللهِ [ﷻ][7] [فإنه غيرُ جائزٍ؛ إذ][8] لا يجوزُ أنْ يُقالَ: أطاعَ اللهُ، وأمّا السمعُ فإنه يجوزُ لقولِهِ [ﷺ][9]: «سَمِعَ الله لِمَنْ حمدَهُ» [البخاري ٦٩٠].

[وقولُهُ][10]: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [أي][11] ﴿سَمِعْنَا﴾ قولَكَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ [أمرَكَ][12] لكنَّ قولَهُمْ[13] ﴿وَعَصَيْنَا﴾ لم يكنْ على إثْرِ قولِهِمْ ﴿سَمِعْنَا﴾ ولكنْ بعدَ ذلكَ بأوقاتٍ؛ لأنهُ قيلَ: لَمّا أبَوا قَبولَ التوراةِ لِما فيها مِنَ الشدائدِ والأحكامِ رفَعَ اللهُ الجبلَ فوقَهُمْ، فَقَبِلُوا خوفاً مِنْ[14] أنْ يُرسِلَ عليهِمُ الجبلَ، وقالُوا: أطَعْنا، فلمّا زايلَ الجبلُ[15] وعادَ إلى مكانِهِ، فعندَ ذلكَ قالُوا ﴿وَعَصَيْنَا﴾، وهو كقولِهِ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٤] فالتّوَلّي منهمْ كانَ بعدَ ذلكَ بأوقاتٍ.

وقولُهُ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قيلَ ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ أي جُعِلَ ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ حبُّ عبادةِ العجلِ [﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ باللهِ ﷻ، وقيلَ: سُقُوا حبَّ العجلِ][16]، وقيلَ: إنَّ موسى لَمّا أحرقَ العجلَ، ونسفَهُ في البحرِ جَعَلُوا يشربُونَ منهُ لحبِّهِمُ العجلَ، وقيلَ: لَمّا أُحرِقَ، ونُسِفَ في البحرِ جعلُوا يلحَسُونَ الماءَ حتى اصفَرَّتْ وجوهُهُمْ، وقيلَ: إنهمْ لَمّا رأَوا في التوراةِ ما فيها مِنَ الشدائدِ قالُوا عندَ ذلكَ: عبادةُ العجلِ أهونُ مما فيها مِنَ الشرائعِ، وكلُّهُ يرجِعُ إلى واحدٍ، وذلكَ كلُّهُ آثارُ الحبِّ.

وقولُهُ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيلَ: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالعجلِ الكفرَ باللهِ ﷻ، وقيلَ: إنَّ اليهودَ ادّعَوا أنهمْ مؤمنونَ بالتوراةِ، فقالَ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم﴾ أي بالتوراةِ إذْ كفرْتُمْ بمحمدٍ ﷺ وقد وجَدْتُمُوهُ فيها: بعثَهُ[17] ووصفَهُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وذلكَ أنَّ أعداءَ اللهِ تعالى كانُوا يقولُونَ: إنَّ الجنةَ لنا في الآخرةِ بقولِهِمْ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[البقرة: ١١١] وقولِهِمْ[18]: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥] وقولِهِمْ[19] ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، [فقالَ اللهُ تعالى ﴿قُلْ﴾ لهمْ ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ كما تزعُمونَ، وأنكمْ ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾][20] كما تقولُونَ ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وذلكَ أن المرءَ لا يكرهُ الإنتِقالَ إلى دارِهِ وإلى بستانِهِ، بل يتمنّى ذلكَ. وكذلكَ المرءُ لا يكرهُ القدومَ على [أبيهِ][21] ولا على ابنِهِ ولا على حبيبِهِ، ولا يخافُ نقمتَهُ ولا عذابَهُ، بل

---

(١) في النسخ الثلاث: فتقلدونهم لو آوتيتم. (٢) في النسخ الثلاث: وإن. (٣) في النسخ الثلاث: إذ. (٤) في تفسير الآية: ٦٠ . (٥) من ط م و ط ع، في الأصل: ذكر. (٦) في تفسير الآية: ٦٣ . (٧) في ط ع: تعالى. (٨) من ط م. (٩) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٠) من ط ع. (١١) من ط ع. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: قوله. (١٣) ساقطة من ط ع. (١٤) ساقطة من ط ع. (١٥) في ط ع: زال. (١٦) من ط م. (١٧) في النسخ الثلاث: نعته. (١٨) في النسخ الثلاث: وكقولهم. (١٩) في النسخ الثلاث: وكقولهم. (٢٠) من ط م. (٢١) من ط م.

يجدُ عندهُ الكراماتِ والهدايا. فإنْ كانَ كما تقولُونَ ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلۡمَوۡتَ﴾ حتى تنجوا مِنْ غَمِّ الدنيا ومِنْ تَحَمُّلِ الشدائدِ التي فيها ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمِكُم بأنَّ الآخرةَ لكُمْ، وأنكُمْ ﴿أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ فإنْ قيلَ: إنكمْ تقولونَ: إنَّ الآخرةَ للمؤمنينَ، ثم لا أحدَ منهمْ يَتمنَّى الموتَ إذا قيلَ لهُ: تَمَنَّ الموتَ، [فما معنَى الِاحْتِجاجِ][1] عليهِمْ بذلكَ؟ وذلكَ على المؤمنِينَ كَهُوَ عليهِمْ؛ قيلَ بوجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ المؤمنِينَ لم يجعَلُوا لأنفسِهِمْ مِنَ[2] الفضلِ والمنزلةِ عندَ اللهِ [ما جعلَ أولئكَ][3] لأنفسِهِمْ، فكانَ في تمنِّيهِمْ صِدْقُ ما ادَّعَوا لأنفسِهِمْ، وفي الِامْتِناعِ عنْ ذلكَ ظهورُ صِدْقِ رسولِ اللهِ ﷺ.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنهمْ ادَّعَوا أنهمْ ﴿أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وفي تمنِّيهِمُ الموتَ ردُّهُمْ وصرفُهُمْ إلى الحبيبِ والأبِ الذي ادَّعَوهُ، ولا أحدَ يرغَبُ[4] عنْ حبيبِهِ وأبيهِ، فدلَّ امْتِناعُهُمْ عنْ ذلكَ على كذبِهِمْ في دعاوِيهِمْ، وباللهِ نستعينُ.

فإنْ سألُونا[5] عنْ قولِهِ: ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلۡمَوۡتَ﴾ [أنهمْ][6] إذا تمنَّوْا [أليسَ][7] كانَ انْقِضاءُ عُمُرِهِمْ بدونِ الأجلِ الذي جُعِلَ لهمْ؟ وفي ذلكَ تقديمُ الآجالِ عن الوقتِ الذي كانَ أجلاً، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤ و....] قيلَ: إنَّ علمَ اللهِ منهمْ في سابقِ علمِهِ وأزليَّتِهِ أنهمْ لا يتمنَّون جعلَ أجلِهِمْ ذلكَ. ولو علمَ منهمْ أنهمْ يتمنَّونَ الموتَ لكانَ يجعلُ أجلَهُمْ ذلكَ في الِابْتِداءِ، وكذلكَ هذا الجوابُ لِما رُوِيَ: «أنَّ صلةَ الرحمِ تزيدُ في العمرِ» [ابن عساكر ٥/ ٢١٠][8] أنه كذلكَ يَحْتَمِلُ في الِابْتِداءِ لا أنْ يجعلَ أجلَهُ إلى وقتٍ، ثم إذا وصلَ رحمَهُ يزيدُ على ذلكَ الأجلِ، أو ينقصُ، يتمنَّى[9] الموتَ عنِ الأجلِ المجعولِ المضروبِ لهُ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ فيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ وذلكَ أنهُ أخبرَ ﷺ أنهمْ لا يَتمنَّونَ أبداً، فكانَ كما قالَ؛ فدلَّ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ علمَ ذلكَ.

وقولُهُ: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ مِنَ الذنوبِ والعِصيانِ / ١٥ ـ أ/ والتكذيبِ بمحمدٍ ﷺ والحسدِ لهُ، وهُمْ، واللهُ أعلمُ، قد عَرَفُوا عن صنيعِهِمْ ومالَهُمْ عندَ اللهِ مِنَ العذابِ والجزاءِ، لكنهمْ قالُوا ذلكَ على التَّعَنُّتِ والمُكابرةِ والسَّفَهِ، لذلكَ لم يَتمنَّوا، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هو على الوعيدِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]. ويَحْتَمِلُ ﴿عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بما يفضَحُهُمْ بالحججِ، ويُظْهِرُ كذبَهُمْ في الدنيا لئلا[10] يظنَّ أحدٌ أنهُ عنْ غفلةٍ بما يعمَلُونَ [بلْ][11] خلقَهُمْ على علمٍ منهُ بما يعملُونَ، خَلَقَهُمْ ليُعْلَمَ أنهُ لا لنفعٍ لهُ بخَلْقِهِمْ، خَلَقَهُمْ، وأنَّ ذلكَ لا يضرُّهُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ يعني اليهودَ، ﴿أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ وعلى كراهيةِ الموتِ. فدلَّ حرصُهُمْ على حياةِ الدنيا أنهمْ كَذَبَةٌ في ما [يدَّعُونَ، ويزعُمونَ][12].

وقولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ يعني المجوسَ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ﴾ أي همْ أحرصُ الناسِ على حياةِ الدنيا مِنَ المجوسِ الذينَ لا يؤمِنُونَ بالبعثِ وبالقيامةِ، وهُمْ يؤمنُونَ بهما، فهمْ مَعَ إيمانِهِمْ بالبعثِ وتصديقِهِمْ بالقيامةِ أحرصُ على حياةِ الدنيا مِنَ المجوسِ الذينَ لا يؤمنُون بالبعثِ ولا بالقيامةِ.

وقيلَ: إنه على الِابْتِداءِ [والِائْتِنافِ؛ يقولُ][13] ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ يعني المجوسَ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾

---

(١) في الأصل: فما احتجاج، في ط م وط ع: معنى الاحتجاج. (٢) أدرج بعدها في الأصل: أنهم من. (٣) في النسخ الثلاث: جعلوا هم. (٤) أدرج في ط م بعدها: (وينفر). (٥) في ط ع: سألوا. (٦) من ط م. (٧) من ط ع، في الأصل وط م: ليس. (٨) أدرج هذا الخبر في تفسير الآية: ٦٧ من السورة. (٩) في ط م: فيتمنى. (١٠) من ط م، في الأصل: دليلاً، في ط ع: ولئلا. (١١) من ط م. (١٢) في ط م: يزعمون ويدعون. (١٣) في ط م: ولا يتنافى بقولِ.

لأنهُمْ يقولُونَ في ما بينَهُمْ: [﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾][(١)] تأكلُ النيروزُ والمِهْرَجَانُ، [و]يقولونَ[(٢)] بالفارسيةِ: (هزار سال[(٣)] بزه) فأخبرَ اللهُ تعالى: أنَّ طولَ العُمْرِ في الدنيا لا يُنجيهِ مِنَ العذابِ في الآخرةِ ولا يباعِدُهُ عنهُ، وهو قولُهُ: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ هو على الوعيدِ أيضاً.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلكَ أنَّ اليهودَ قالُوا: لو كانَ الذي يُنَزِّلُ[(٤)] على محمدٍ بالوَحْيِ ميكائيلَ لتابَعْناهُ، وآمَنَّا[(٥)] بهِ؛ لأنَّ ميكائيلَ هو الذي يُنَزِّلُ بالغيثِ والرحمةِ، وجبريلَ هو المُنَزِّلُ بالعذابِ والحربِ والشدائدِ، فهو عدوٌّ لنا، لذلكَ لا نَتَّبِعُهُ.

وفي جهةِ العداوةِ بينهُمْ وبينَ جبريلَ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنْ قالُوا: إنَّ جبريلَ أُرسِلَ بالوَحْيِ والرسالةِ في أولادِ إسرائيلَ، لكنَّهُ أنزلَها في أولادِ إسماعيلَ عَداوَةً لنا وبُغضاً، لذلكَ نَصَبُوا العداوةَ بينَهُ وبينَهُمْ، واللهُ أعلمُ بذلكَ. فأكذبَهُمُ اللهُ تعالى بزعمِهِمْ، فقالَ: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لا كما تقولُ اليهودُ، وما يُنَزِّلُ مِنَ العذابِ والشدائدِ إنما يُنَزِّلُ بأمرِهِ لا مِنْ تلقاءِ نفسِهِ وذاتِهِ.

ثم كانَ إظهارُهُمْ عَداوَةَ جبريلَ لِاعْتِقادِهِمْ عَداوَةَ [اللهِ][(٦)] ﷺ لكنهُمْ لم يَجْتَرِئُوا على عداوةِ اللهِ على التصريحِ، فدلَّ أنهُ على الكنايةِ عنْ عداوةِ اللهِ، تباركَ، وتعالى، ويدلُّ هذا على أنَّ الروافضَ طعَنُوا في رسولِ اللهِ ﷺ حينَ طعنُوا.

وقولُهُ: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تقولُ الباطنيَّةُ: إنَّ القرآنَ لم ينزلْ على رسولِ اللهِ ﷺ بالأحرفِ التي نقرؤُها، ولكنَّهُ إلهامٌ نزلَ على قلبِهِ، ثم هو يصوِّرُهُ، ويرسمُهُ بالحروفِ، ويعبِّرُ بهِ، ويُعربُهُ بالمُعْرَبَةِ التي نقرؤُها. فلو كانَ على ما [يقولُونَ لزالَ][(٧)] موضعُ الاحتِجاجِ عليهِمْ بما أتى بهِ مُعْجِزاً كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، إذْ[(٨)] كانَ لهمْ أنْ يقولُوا: نَزَلَ[(٩)] على لسانِ العَجَميِّ، لكنهُ غَيَّرَ ذلكَ بلسانِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] مخافةَ النسيانِ والذهابِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، فدلَّتْ هذهِ الآياتُ كلُّها [على][(١٠)] بطلانِ قولِهِمْ وفسادِ مذهبِهِمْ وبُعْدِهِمْ عنْ دينِ اللهِ المستقيمِ.

وقولُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [أي][(١١)] هُدىً مِنَ الضلالةِ وبُشْرى للمؤمنِينَ بالجنةِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية[(١٢)]. يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ مَنْ كانَ عَدُوًّا للهِ أو ملائكتِهِ أو رسلِهِ، ويَحتمِلُ افْتِتاحَ العداوةِ بهِ دونَ هؤلاءِ على التعظيمِ لهمْ وفضلِ المنزلةِ عندَ اللهِ وحسنِ المآبِ لَدَيهِ. كقولِهِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ معنى إضافةِ ذلكَ إليهِ على التعظيمِ لهُ، والأفضالُ للهِ، لا على جعلِ ذلكَ للهِ مُفْرَداً. فعلى ذلكَ [معنى][(١٣)] افتِتاحِ العداوةِ بهِ على ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [بيَّنَ فيها الحلالَ والحرامَ، وما يُؤتَى، وما يُتَّقى[(١٤)]، ومايُنْهَى، وما يُؤمَرُ، ويَحتمِلُ الآياتِ التي أنزلَها عليهِ ليُنْصَرَ بها على المعانِدينَ لهُ والمكابِرِينَ، واللهُ أعلمُ][(١٥)].

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾ يقولُ: كلَّما عاهَدُوا عهداً ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَحتمِلُ العهودَ التي أُخِذَتْ عَلَيهِمْ في التوراةِ: أنْ يؤمِنُوا بمحمدٍ ﷺ ولا يكفرُوا بهِ بعدَ الإيمانِ، أو أخذَ عليهمْ ألّا يَكْتُمُوا بعثَهُ[(١٦)] وصفتَهُ الذي في التوراةِ [عن أحدٍ][(١٧)]، فنبذُوا ذلكَ، ونقضُوا تلكَ المواثيقَ والعهودَ التي أُخِذَتْ عليهِمْ.

---

(١) من ط م وط ع. (٢) الواو ساقطة من الأصل وط ع. (٣) من ط م وط ع، في الأصل: ساله. (٤) من ط م، في الأصل و ط ع: نزل. (٥) في النسخ الثلاث: ونؤمن. (٦) من ط م وط ع. (٧) من ط م وط ع، في الأصل: تقول لزوال. (٨) في ط م: إذا. (٩) في ط م: أنزل. (١٠) من ط م. (١١) من ط م. (١٢) أدرج في ط م تتمة الآية قبل كلمة الآية وفي ط ع تتمة الآية بدل كلمة الآية. (١٣) من ط م. (١٤) في ط ع: ينفى. (١٥) أدرجت في ط ع بعد كتابة الآيات: ٩٩ و١٠٠ و١٠١ و١٠٢. (١٦) في النسخ الثلاث: نعته. (١٧) في النسخ الثلاث: لأحدٍ.

ثم في الآيةِ دلالةُ جعلِ القرآنِ حجةً لأنهُ قالَ: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ ولو كانَ في كتبِهِمْ ما ادَّعَوا مِنَ الحجةِ والإتِّباعِ لأتَوا بِهِ معارِضاً لدفعِ ما احتُجَّ بِهِ عليهِمْ. فثبتَ أنهمْ كانُوا كَذَبَةً في دعاوِيهِمْ حينَ امْتَنَعوا عَنْ معارضَتِهِ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ﴾ أي ما يكفرُ بتلكَ الآياتِ ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ. ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ مِنَ الكتابِ أي نعتُهُ الذي كانَ في التوراةِ موافقٌ لمحمدٍ ﷺ وقيلَ: لَمّا جاءَهُمْ محمدٌ ﷺ عارَضُوهُ بالتوراةِ، فخاصَمُوهُ بها، فاتَّفَقَتِ التوراةُ والقرآنُ، فنبذُوا التوراةَ والقرآنَ، وأخذُوا بكتابِ السحرِ الذي كتبَهُ الشياطينُ. ويَحتمِلُ أنَّ محمداً ﷺ لَمّا جاءَهُمْ كانَ موافقاً لِما مَضى مِنَ الرسلِ غيرَ مخالفٍ لهمْ لأنَّ الرسلَ كلَّهُمْ آمَنوا بِهِ، وصدَّقَ بعضُهُمْ بعضاً.

وقولُهُ: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ يَحتمِلُ كتابُ اللهِ التوراةَ على ما ذكَرْنا، ويَحتمِلُ كتابُ اللهِ القرآنَ العظيمَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمُونَ، ولكنْ تركُوا العملَ بِهِ والإيمانَ بما مَعَهُمْ كأنهُمْ لا يعلمُونَ؛ لَمّا لَمْ ينتفِعُوا بعلمِهِمْ خرجَ فعلُهُمْ فعلَ مَنْ لا يعلَمُ. أخبرَ أنهمْ نبذُوا نبذَ مَنْ لا يَعلمُ، لا أنهمْ لم يُعْلَمُوا، ولكنْ نبذُوهُ سَفَهاً وتَعَنُّتاً. واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ قيلَ: تتلُو ما كتبتِ الشياطينُ مِنَ السحرِ، وقيلَ: تتلُو مِنَ التلاوةِ، وقيلَ: ﴿مَا تَتْلُوا۟﴾ مايروي الشياطينُ مِنَ السحرِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وهو يرجعُ إلى واحدٍ.

والآيةُ[1] في موضعِ الإحتجاجِ على اليهودِ لأنهمْ ادَّعَوا أنَّ الذي هُمْ عليهِ أُخِذَ عنْ سليمانَ ﷺ فإنْ كانَ كُفراً[2] فقد كفرَ سليمانُ. فأخبرَ اللهُ ﷻ نبيَّهُ ﷺ أنَّ سليمانَ ما ﴿كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما علَّمُوا الناسَ مِنَ السحرِ.

ويحتملُ: أتباعَ الشياطِينِ كفرُوا باعْتِقادِهِمُ السحرَ وعملِهِمْ بِهِ بتعليمِ الشياطينِ، فَنُسِبَ[3] ذلكَ إلى الشياطِينِ بما بهمْ كفرُوا كما نُسِبَتْ عبادةُ الأصنامِ بما بهمْ عبدُوا، واللهُ أعلمُ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (كانَ آصفُ كاتبَ سليمانَ، وكانَ يعلمُ الإسْمَ الأعظمَ، فكانَ[4] يكتبُ كلَّ شيءٍ بأمرِ سليمانَ، ويدفنُهُ تحتَ كرسيِّهِ، فلمّا ماتَ سليمانُ أخرجَتْهُ الشياطينُ، فكتبُوا بينَ كلِّ سطرَينِ سِحراً وكُفراً وكَذِباً، فقالُوا: هذا الذي كانَ يعملُ بِهِ سليمانُ، فأكفرَهُ جُهّالُ الناسِ، وسبُّوهُ، ووقفَ علماؤُهُمْ. فلم يزلْ جُهّالُهُمْ / ١٥ ـ ب/ يَسُبُّونَهُ حتّى أنزلَ اللهُ ﷻ على محمدٍ ﷺ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية).

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الشياطِينَ ابتدعَتْ كتاباً مِنَ السحرِ والأمرِ العظيمِ، ثم أفْشَتْهُ في الناسِ، وعلَّمَتْهُ إياهُمْ، فلمّا سمعَ بذلكَ سليمانُ تَتَبَّعَ تلكَ الكتبَ، فدفَنَها تحتَ كُرسِيِّهِ كراهيةَ أنْ يتعلَّمَهَا الناسُ، فلمّا قُبِضَ سليمانُ ﷺ عَمَدَتِ[5] الشياطِينُ إلى تلكَ الكتبِ، فاستَخْرَجَتْها [مِنْ مكانِهَا، وعلَّمُوهَا الناسَ، وأخبرُوهُمْ أنهُ عِلْمٌ كانَ سليمانُ يكتُمُهُ، ويستأثِرُهُ، فعذَرَ اللهُ نبيَّهُ سليمانَ][6]، وبرَّأَهُ مِنْ ذلكَ على لسانِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ الآية.

وقيلَ أيضاً: لَمّا ماتَ سليمانُ ﷺ وقعَ في الناسِ أوصابٌ وأوجاعٌ، فقالَ الناسُ: لو كانَ سليمانُ ﷺ حيّاً لكانَ [عندَهُ مِنْ هذا فَرَجٌ، فظهرتِ الشياطينُ][7] لهمْ، فقالُوا: نحنُ ندلُّكُمْ على ما كانَ يعملُ بِهِ سليمانُ ﷺ فكتبُوا كتباً فجعلُوها في البيوتِ، فاستخرَجُوا الكتبَ التي كتبَتْ[8] لهمُ الشياطينُ مِنَ السحرِ والسجعِ[9]، فقالُوا: هذا ما كانَ يعملُ بِهِ سليمانُ، فأنزلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ الآية.

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: ولأنه. (٢) في ط ع: لغز. (٣) من ط م، في الأصل و ط ع: فنسبت. (٤) في ط م: وكانَ. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: عهدت. (٦) من ط م. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: عند فرجٌ وظهرت الشياطين. (٨) من ط م، في الأصل وط ع: كتب. (٩) ساقطة من ط م.

فلا ندري كيفَ كانتِ القصةُ. غيرَ أنَّ اليهودَ تركَتْ كتبَ الأنبياءِ والرسلِ، واتَّبَعُوا كتبَ الشياطينِ وما دَعَوهُمْ إليهِ مِنَ السحرِ والكفرِ، وباللهِ التوفيقُ.

وفيه دلالةُ رسالةِ محمدٍ ﷺ بما أخبرَهُمْ عنْ قصتِهِمْ على ما كانَ، فدلَّ أنهُ كانَ عرفَ ذلكَ باللهِ ﷻ وفي ذلكَ أنْ [قد][1] نُسِبَ إلى سليمانَ ﷺ مابَرَّأَهُ اللهُ مِنْ غيرِ أنْ يبيِّنَ ماهِيَّتَهُ؛ ذكرَهُ اللهُ ﷻ لوجهَينِ: دلالةً لرسولِهِ وتكذيباً للذينَ نَحَلُوهُ بما هو كفرٌ.

وقولُهُ: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي في ملكِهِ، إذْ[2] كانَ ذلكَ الوقتُ هو وقتَ ظهورِهِمْ، ثم سخَّرَهُمْ ﷻ لسليمانَ، فأمكنَ ذلكَ منهمْ؛ إلقاءُ على ألسنِ المعاندِينَ لسليمانَ في السِّرِّ، فَرَوَوْهُ عنهُ بعدَ الوفاةِ، فكذَّبَهُمُ اللهُ ﷻ وبرَّأَ نبيَّهُ ﷺ مِنْ ذلكَ، وبيَّنَ كيفَ كانَ بَدْؤُهُ. فإنما بيَّنَها للخَلْقِ لئلا يتَّبِعُوا في الروايةِ كلَّ مَنْ [لَقِيَ النبيَّ][3]؛ إذْ قد يكونُ مِنْ أمثالِهِمُ اختِراعُ الروايةِ وإلزامُ السامِعِينَ الأمورَ غيرَ المعتادةِ مِنَ الرسلِ وردُّ ما لا يوافقُ ذلكَ مِنَ الروايةِ. ولذلكَ أبطلَ أصحابُنا خبرَ الخاصِّ في ما يُبلَى بِهِ العامُّ.

وقولُهُ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ قيلَ ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ على النفيِ والجحدِ معطوفاً على قولِهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، وقيلَ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ [والذي أُنزِلَ على المَلَكَينِ ببابلَ][4]، وقيلَ سُمِّيَ[5] بابلَ لِما تَبَلْبَلَتْ بِهِ الألسنُ، يعني: اختَلَفَتْ، فلا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالسمعِ.

ثم[6] اختُلِفَ في هاروتَ وماروتَ؛ فقالَ الحسنُ: (لم يكونا مَلَكَينِ، ولكنهما كانا رجلَينِ فاسقَينِ مُتَمَرِّدَينِ، وذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ وصفَ ملائكتَهُ بالطاعةِ لهُ والإئتِمارِ بأمرِهِ بقولِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ الآيةَ[7] [التحريم: ٦] وقولِهِ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ الآيةَ[8] [الأنبياء: ٢٧]. وكذلكَ يقولُ الحسنُ [في إبليسَ][9]: (إنهُ لم يكنْ مِنَ الملائكةِ) وقد ذكَرْنا هذِهِ المسألةَ في ما تقدَّمَ[10]، ثم عارضَ نفسَهُ بقولِهِما: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾، (فقالَ: إنَّ[11] المُخبِرَ بمثلِهِ إذا عرفَ ولوعَ السامِعِ [بِهِ ربما][12] يعرِضُ مثلَهُ على العلمِ منهُ أنه يفعلُ، ولا يرتدِعُ[13] عنْ ذلكَ. يُقالُ: ذلكَ ترغيباً منهُ، واللهُ أعلمُ).

ومنهم مَنْ يقولُ: كانا مَلَكَينِ، لكنهما عَلِمَا الإسْمَ الأعظمَ، فيقضِيانِ بِهِ الحوائجَ إلى أنْ حلَّ بهما ما حلَّ. وبهذا يُحتَجُّ في بَلْعامَ بقولِهِ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآيةَ[14] [الأعراف: ١٧٥] [ثم][15] اختُلِفَ بعدَ هذا على أوجهٍ: قالَ بعضُهُمْ: لم يكنْ ذلكَ منهما سحرٌ، بل هوَ تعويذُ الفِرْيَةِ[16] يُقدَرُ [عليهِ][17]، وقالَ قائلونَ: [إنَّ][18] ما أُنزِلَ على المَلَكَينِ أُنزِلَ كلاماً حسناً صواباً، لكنه خُلِطَ بالذي لَقَّنَهُمُ الشيطانُ، فصارَ سحراً، وقالَ آخرونَ: بلى كانَ هو في نفسِهِ سحراً، يعلِّمانِ الناسَ ذلكَ، لكنهُ لا يُنهَى عنْ تعليمِهِ، ولا يُكَفَّرُ الذي[19] تعلَّمَ، إنما يُنهَى عنِ الإعْتِقادِ لهُ، فكانَ كالكفرِ الذي يُعلَّمُ، لا يُنهَى عنْ ذلكَ، لأنهُ مالم يُعلَمْ[20] لم يُعلَمْ قبحُهُ وفسادُهُ، ولكنْ إنما يُنهَى عنِ الإعتِقادِ في تعلُّمِهِ، واللهُ أعلمُ.

ثم نقولُ: إنَّ قولَهُما: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ على الإختيارِ [منهما][21]، وكلمةُ السحرِ جارٍ [عليهما][22] في اللسانِ مِنْ غيرِ صنعٍ لهما فيهِ. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: إلّا بعلمِ اللهِ وقضائِهِ[23]، وقيلَ: بخِذْلانِهِ وتَخلِيَتِهِ[24]، وقيلَ: بمشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ. وأمّا ظاهرُ الإذنِ فهو يُخرَّجُ على الإباحةِ، فالعقلُ يدفَعُهُ. وقيلَ: إنهُ لا يصلُ إلى هاروتَ وماروتَ أحدٌ مِنْ بني آدمَ، وإنما يختلِفُ بينَهُمْ شيطانٌ في كلِّ مسألةٍ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط م وط ع. (٢) من ط م، في الأصل وط ع: إذا. (٣) من ط م وط ع. (٤) من ط م. (٥) في ط م: سميت. (٦) أدرج في ط ع قبل هذه الكلمة العبارة التالية: اختلاف في هاروت وماروت، وجعلت عنوانا. (٧) ساقطة من ط ع. (٨) ساقطة من ط ع. (٩) من ط م. (١٠) في تفسير الآية: ٣٤ من السورة. (١١) من ط م، في الأصل وط ع: أنا. (١٢) في الأصل: به ترتع وبما، في ط م وط ع: له وبما. (١٣) في الأصل: يرتع. (١٤) أدرج في ط ع تتمة الآية بدلها. (١٥) من ط م وط ع. (١٦) في ط م: الفرقة. (١٧) من ط م وط ع. (١٨) من ط م. (١٩) من ط م، في الأصل وط ع: التي. (٢٠) من ط م وط ع، في الأصل: يكن. (٢١) من ط م. (٢٢) من ط م. (٢٣) من ط م وط ع، في الأصل: فقضائه. (٢٤) من ط م، في الأصل وط ع: وتخيل.

ثمّ[1] السحرُ يكونُ على وجهَين. سحرٌ يكفرُ بهِ صاحبُهُ؛ فإنْ كانَ ذلكَ منهُ بعدَ الإسلام يُقتَلُ[2] بهِ صاحبُهُ لأنهُ ارتدادٌ منهُ، وسحرٌ لا يكفرُ بهِ صاحبُهُ، فلا يُقتَلُ بهِ إلّا أنْ يسعَى في الأرضِ بالفسادِ مِنْ قتلِ الناسِ وأخذِ الأموالِ، فهو كقاطعِ الطريقِ يُحكَمُ بحكمِهِمْ مِنَ القتلِ وسائرِ العقوباتِ، وإذا تابَ قُبِلَتْ توبتُهُ. ألَا ترَى أنَّ سحرةَ فرعونَ لمّا رأَوُا الآياتِ آمَنُوا باللهِ تعالى، وتابُوا توبةً لا يُطْمَعُ [في][3] مثلِ تلكَ التوبةِ مِنَ المسلمِ الذي نشأَ على الإسلامِ؛ حينَ أوعدَهُمْ فرعونُ بقطعِ الأيدي والأرجلِ والصَّلْبِ وأنواعِ العذابِ، فقالُوا: ﴿لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؟ [الشعراء: ٥٠].

وذُكِرَ عنْ أبي حنيفةَ ﷺ في الساحرةِ أنها لا تُقتَلُ مرةً. وذُكِرَ عنه مرةً أنها تُقتَلُ. وقالَ في الساحرِ بالقولَين. وأمّا [ما][4] رُوِيَ عنه فيهِ بالقتلِ بعملِ السحرِ فهو على ما ذَكَرْنا مِنْ قتلِهِ الناسَ بالسحرِ؛ فهو كالساعي في الأرضِ بالفسادِ لا بعينِ[5] السحرِ، أو [كَمَنْ][6] كفَرَ بسحرِهِ بعدَ الاسلامِ، فيُقتَلُ كالمرتدِّ عنِ الإسلامِ. وما ذُكِرَ عنهُ أنهُ لا يُقتَلُ فهو إذا لم يكنْ سحرُهُ سحرَ كفرٍ، ولا يسعى بالقتلِ في الأرضِ، لم يُقتَلْ بهِ.

ثم قولُهُ في الساعي في الأرضِ بالفسادِ: إنهُ إذا تابَ قبلَ أنْ يُقدَرَ عليهِ سقطَ عنه القتلُ، فكذا الساحرُ. وأمّا الذي هو لأجلِ الكفرِ يُلزَمُ القتلُ قبلَ التوبةِ بعدَ القُدرةِ عليهِ. وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ في الساحرةِ أيضاً؛ ففي ما قالَ: إنها لا تُقتَلُ لمّا كانَ سحرُها سحرَ كفرٍ، والنساءُ لا يُقتَلْنَ للكفرِ، وفي ما قالَ: يُقتَلْنَ فلأنهُنَّ يُقتَلْنَ للسعيِ في الأرضِ بالفسادِ كالرجلِ. واللهُ أعلمُ.

وقال بعضُ [الناسِ][7]: لا تُقبَلُ توبةُ الساحرِ[8]، وهو غلطٌ، وأحقُّ مَنْ تُقبَلُ توبتُهُ الساحرُ؛ إذْ هو أبلغُ في تمييزِ[9] ما هو حجةٌ مما لاحجةٌ. وهذا هو الأصلُ: إنَّ المدعيَ لشيءٍ على عهدِ الأنبياءِ، إذا استقبلَهُمْ بِمَثَلَةِ الأنبياءِ ﷺ فهو أحقُّ مَنْ يلزمُهُمُ الإيمانُ بهِ لعلمِهِمْ بالحقِّ منهِ، والعوامُّ[10] لا يعرفُونَ إلّا ظاهرَ ما يلزمُهُمْ مِنْ تصديقِ الحججِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في آخرتِهِمْ. وقيلَ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في آخرتِهِمْ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إنْ عَلِموهُ. وقولُهُ[11]: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ يعني اليهودَ في التوراةِ ﴿لَمَنِ اشْتَرَىٰهُ﴾ يعني اختارَهُ للسحرِ[12]، يقولُ[13]: لقد علمَتِ اليهودُ أنَّ في التوراةِ آيةً لِمَنِ اختارَ السحرَ. وقولُهُ: ﴿مَا لَهُۥ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ يقولُ: نصيبٌ في الثوابِ، وقيلَ: ﴿مَا لَهُۥ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي مالَهُ عندَ اللهِ وجهٌ[14].

وقولُهُ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي بئسَ ما باعُوا بهِ [أنفسَهُمْ؛ يعني اليهودَ الذينَ يُعلِّمونَ الفِرْيَةَ[15] والسحرَ. وقيلَ: ﴿مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ يقولُ[16] ما باعُوا بهِ أنفسَهُمْ [مِنَ السحرِ والكفرِ؛ يعني مَنْ لا يقرأُ التوراةَ، أو يعني: أنْ لو كانُوا يعلمُونَ ما باعُوا بهِ أنفسَهُمْ][17]، ولكنهمْ لا يعلَمُونَ؛ أي لو علمُوا أنهمْ بما باعُوا أنفسَهُمْ مِنَ العذابِ الدائمِ لَعَلِمُوا أنهمْ بئسَ ما باعُوا بهِ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى[18]: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بتوحيدِ اللهِ ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشركَ [والسحرَ][19] ﴿مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ يقولُ: لكانَ ثوابُهُمْ ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ مِنَ السحرِ والكفرِ ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. ولكنهمْ لا يعلَمُون علمَ الانتفاعِ [بهِ][20]؛ وهو كقولِهِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] ليسُوا بِصُمٍّ ولا بُكْمٍ ولا عُمْيٍ في الحقيقةِ، ولكنهم صُمٌّ مِنْ حيثُ لا ينتفعُونَ[21] بهِ؛ إذِ الحاجةُ مِنَ العلمِ والبصرِ والسمعِ الانتفاعُ [بهِ][22]، فإذا ذهبَتِ المنافعُ بها كانَ[23] كَمَنْ لا علمَ معهُ، ولا بصرَ لهُ، ولا سمعَ، حيث لا ينتفعُ، ولا يعملُ[24] بهِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) أدرج قبل هذه الكلمة في ط ع العبارة التالية: السحر على وجهَين، وجُعلت عنواناً. (٢) من ط م، في الأصل وط ع: فقتل. (٣) من ط م. (٤) من ط م. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: بغير. (٦) من ط م وط ع. (٧) من ط م وط ع. (٨) من ط م، في الأصل وط ع: للساحر. (٩) من ط م، في الأصل وط ع: تميز. (١٠) أدرج في ط م وط ع بعدَها: منهم. (١١) في ط م: وقيل قوله. (١٢) من ط م وط ع، في الأصل: في السحر. (١٣) في ط م وط ع: وقيل. (١٤) أدرج القولُ الأول في هذه الآية في ط ع بعد القول الثاني. (١٥) في ط م: الفرقة. (١٦) في ط ع: يعني. (١٧) ساقطة من ط ع. (١٨) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٩) من ط م. (٢٠) من ط م وط ع. (٢١) في ط ع: ينتفعوا. (٢٢) من ط م. (٢٣) في النسخ الثلاث: فكان. (٢٤) من ط م، في الأصل وط ع: عمل.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ قيلَ: كانتِ الأنصارُ في الجاهليةِ يقولُونَ هذا لرسولِ اللهِ ﷺ فَنَهَاهُمُ اللهُ تعالى أنْ يَقُولُوها، وقيلَ: كانتِ اليهودُ تقولُ للنبيِّ ﷺ رَاعِنَا /١٦ ـ أ/ مِنَ الرعونةِ؛ مِنْ قولِكَ للرجلِ: ياأرعنُ وللمرأةِ يا رعناءُ. وكانَ الحسنُ يقرؤُها راعِناً بالتنوينِ. وقالَ الكلبيُّ: كانَ في كلامِ اليهودِ: راعِنا سَبًّا قبيحاً؛ يسبُّ بعضُهُمْ بعضاً، وكانُوا يأتونَ محمداً ﷺ فيقولُونَ: راعِنا، ويضحكُونَ، فينهَى المؤمنينَ عنْ ذلكَ خلافاً لهمْ.

وقولُهُ: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ قيلَ ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ فَهِّمْنَا [بقولٍ، بيِّنٍ لنا][1]، وقالَ مقاتلٌ: أيِ اقصِدْنا[2]. وقيلَ: إنَّ الأمرَ بالإنظارِ يقعُ موقعَ الشَّفْعِ في النظرةِ لوجهَيْنِ:

[الأول:][3] [بالصحبةِ مرةً وبالخطابِ ثانياً؛ فقولُهُمْ ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ لِما لا تبلغُ أفهامُنا القَدْرَ][4] الذي يعني ما تخاطبُنا بهِ.

والثاني: على قصورِ عقولِهِمْ عنْ ما يستحقُّهُ مِنَ الصحبةِ والإيجابِ لهُ ﷺ [فأمّا الأمرُ][5] بـ: راعِنا فهو استِعمالٌ في الظاهرِ بالمراعاةِ، وذلكَ يُخرِّجُ على التكبُّرِ عليهِ وتركِ التواضعِ [لهُ][6] والخضوعِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ [قيلَ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾][7] أي أجيبُوا لـه، وقيـلَ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ [أي][8] أطيعُوا لهُ، وقيلَ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ [أي اسمَعُوا][9]، وَعُوا.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ أي ما يريدُ، وما يتمنَّى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهودُ والنصارى ﴿وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ما يَوَدُّ هؤلاءِ ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ يَحتمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنهم كانُوا يَهْوَونَ، ويحبُّونَ أنْ يُبْعَثَ الرسولُ مِنْ أولادِ إسرائيلَ، وهمْ كانُوا مِنْ نسلِهِ، فلمّا بُعِثَ مِنْ أولادِ إسماعيلَ ﷺ على خِلافِ ما أحبُّوا، وهَوُوا لم تَطِبْ أنفسُهُمْ بذلكَ، بل كَرِهَتْ، وأبَتْ أشَدَّ الإباءِ والكراهيةِ.

والثاني: لم يحبُّوا ذلكَ لِما كانَتْ تذهبُ منافِعُهُمُ التي كانَتْ لهمْ والرئاسةُ بخروجِهِ ﷺ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ قيلَ: الخيرُ النبوةُ، وقيلَ: الخيرُ الإسلامُ، [وقيلَ: الخيرُ الرسولُ ههنا. واللهُ أعلمُ][10].

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ الآية[11]، ينقضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ [بوجهَينِ:

أحدُهما][12]: لأنهم يقولونَ: إنَّ على اللهِ تعالى أنْ يُعطيَ لكلٍّ[13] الأصلحَ في الدينِ في كلِّ وقتٍ وكلِّ زمانٍ. فلو كانَ عليهِ ذلكَ لم يكنْ لِلاختِصاصِ معنًى ولا وجهٌ.

والثاني: [لأنهُ][14] قالَ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ والمفضِّلُ عندَ الخلقِ، هو الذي يعطي، ويبذلُ ما ليسَ عليهِ لا ما عليه؛ لأنَّ مَنْ عليهِ شيءٌ فأعطاهُ، أو قَضَى [ما][15] عليهِ مِنَ الدَّينِ لا يُوصفُ بالإفضالِ، فدلَّ أنهُ اسْتَوجَبَ ذلكَ الِاختِصاصَ، وذلك الفضلُ لِما لم يكنْ عليه ذلكَ[16]. ولو كانَ لكانَ يقولُ: ذو العدلِ لا ذو الفضلِ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ قالَ بعضُ أهلِ الكلامِ: ﴿نَنسَخۡ﴾ مِنَ اللوحِ المحفوظِ ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾ نَدَعْها في اللوحِ. وقيلَ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ أي نَرفَعْ بآيةٍ أخرى أو نتركُها في الأُخرَى، وقيلَ: ﴿نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ فَنَرْفَعُ حكمَها والعملَ بها ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾ [أي][17] نَترُكْ قراءَتَها وتلاوتَها، [فيجوزُ رفعُ عينِها][18]، ويجوزُ رفعُ حكمِها وإبقاءُ عينِها لأوجهٍ:

أحدُها: ظهورُ المنسوخِ، فبطلَ قولُ مَنْ أنكرَ إذ وُجِدَ[19]، ومَنْ أنكرَ ذلكَ فإنما أنكرَ لجهلٍ بالمنسوخِ، لأنَّ النسخَ بيانُ الحكمِ إلى وقتٍ ليسَ على البَدْءِ كما قالتِ اليهودُ.

---

(١) ساقطة من ط ع. (٢) من ط م، في الأصل: مصدقاً، في ط ع: قصدنا. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) ساقطة من ط ع. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: فالأمر. (٦) من ط م. (٧) من ط م. (٨) من ط ع. (٩) من ط م. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) أدرج في ط م وط ع تتمة الآية بدلها. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) في ط ع: كل. (١٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٥) من ط ع وط م، ساقطة من الأصل. (١٦) من ط ع وط م، في الأصل: لكان. (١٧) من ط م. (١٨) من ط م وط ع. (١٩) في الأصل: وجدوا.

والثاني: أنَّ للتلاوةِ [فيها فضلاً][١] كما للعملِ، فيجوزُ رفعُ فضلِ العملِ وبقاءُ فضلِ التلاوةِ.

والثالثُ: على جعلِ الأوّلِ في حالةِ الاضطرارِ والثاني في وقتِ السَّعةِ كقولِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

ثم يجوزُ أنْ تُرْفَعَ عينُها، فيُنْسَى ذكرُها كما رُوِيَ عَنْ عمرَ [بنِ الخطابِ][٢] ﷺ أنهُ قالَ: (كنّا نعدِلُ سورةَ الأحزابِ بسورةِ البقرةِ حتى [رُفِعَ منهَا][٣] آياتٌ؛ منها: الشيخُ والشيخةُ إذا زَنَيا فارْجمُوهما البَتَّةَ).

وأمّا قولُهُ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [فاختُلِفَ فيه: قيلَ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾][٤] أي أخفَّ وأهونَ على الأبدانِ. كقولِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤]. إنَّ الأمرَ بالصومِ كانَ لوقتٍ دونَ وقتٍ؛ إذْ رجعُ الحكمِ عندَ الطاقةِ إلى غيرِهِ[٥]، وكذا ما كانَ مِنَ الحكمِ في تحريمِ الأكلِ عندَ النومِ والجماعِ، وكذا تحريمُ الميتةِ [لو][٦] لم يرِدْ فيها الإباحةُ والحِلُّ عندَ الضرورةِ، لَكُنّا نعرفُهُ بالحرمةِ، وذلكَ أخفُّ وأهونُ، [واللهُ أعلمُ][٧].

وقيلَ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ في الثوابِ في العاقبةِ، وقيلَ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ في المنفعةِ أو مثلِها في المنفعةِ، وقيلَ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ وهو أنْ يظهرَ لكمْ [بهِ الخيرُ في حقِّ الاتّباعِ والمثلُ في حقِّ الأمرِ، فيشتركُ أصحابُ المنكرينَ للنسخِ في حقِّ الائتمارِ بالمثلِ، ويَفْضُلونَهُ بظهورِ الأخيرِ][٨]؛ وهو كالصلاةِ إلى بيتِ المقدسِ، كانَ لهمْ مثلُ ما لليهودِ في حقِّ الائتمارِ ما كانَ ظهرَ لهمُ الأخيرُ في وقتِ ظهورِ الأمرِ، وأُبْهِمَ الخيرُ، وظهرَ عندَهُ في مَنْ أبى أنَّ اتّباعَهُ لم يكنْ لأجلِ حقِّ المتابعةِ بل لِما كانَ عندَهُ الحجةُ.

فأمّا مَنْ جعلَهُ خيراً على البدلِ، فاستبْدلَ[٩] بها الآخرُ رخصةً وإباحةً؛ والإباحةُ ورُودُها للتخفيفِ. ومَنِ استدلَّ على أنَّ النسخَ أبداً يَرِدُ على ما هو أغلظُ [فقد عُورِضَ][١٠] بقولِهِ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥] فأبدلَ بعقوبةٍ أشدَّ مِنَ الأوّلِ، وهو الرجمُ، بقولِهِ ﷺ «خُذُوا عني، خُذُوا عني» [مسلم ١٦٩٠].

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [وجهاً آخرَ، وهو آيةٌ، والآياتُ هي الحججُ. فيكونُ معناهُ: ما نرفعْ مِنْ حجةٍ، فنَنْفِها عنِ الأبصارِ إلّا ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾][١١] يعني أقوى منها في إلزامِ الحجةِ ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾. ولا شكَّ أنَّ مايعترضُ هو أقوى حالةِ الاعتراضِ في لزومِ الحجةِ على ما غابَ[١٢] عنِ الأبصارِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ على هذا الوزنِ؛ أي نأتِ بحجةٍ، هي أقوى وأكثرُ مِنَ الأُولَى أو مثلُها في القوةِ.

فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في النسخِ؟ وما وجهُهُ؟ قيلَ: مِحنةٌ يُمْتَحَنُ بها الخلقُ. وللهِ أنْ يَمتحِنَ خَلْقَهُ بما يشاءُ في أيِّ وقتٍ شاءَ؛ يأمرُ بأمرٍ في وقتٍ، ثم يَنهَى عَنْ ذلكَ، ويأمرُ بآخرَ، وليسَ في ذلكَ خروجٌ عنِ الحكمةِ، ولا كانَ ذلكَ منهُ لِبَداءٍ يبدو لهُ، بل لم يزلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ، حكيماً، يحكمُ بالحقِّ والعدلِ، فنعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ.

وقولُهُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ [لهُ ﷺ والمرادُ بالخطابِ][١٣] الذينَ سبقَ ذكرُهُمْ في قولِهِ: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [البقرة: ١٠٥] أنه قادرٌ على إنزالِ الخيرِ على مَنْ يشاءُ واختصاصِ بعضٍ على بعضٍ وتفضيلِ بعضِهِمْ على بعضٍ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ في الخطابِ لهُ ﷺ على حقيقةِ العلمِ على التَّذْكيرِ والتَّنبيهِ؛ أي: تعلمُ أنتَ أنَّ اللهَ على كل شيءٍ قديرٌ، وهو كقولِهِ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] على حقيقةِ العلمِ، ويَحتمِلُ على الإعلامِ والإخبارِ لقومِهِ[١٤]، وقد ذكَرْنا.

الآية ١٠٧ وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مَنْ كانَ يملكُ مُلكَ السمواتِ وملكَ الأرضِ يملِكُ تخصيصَ بعضٍ على بعضٍ وتفضيلَهُمْ فيها، ويحكمُ فيها [بما][١٥] يشاءُ ويُحدِثُ [مَنْ][١٦]

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: فيما فضل. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: يرفع. (٤) من ط م وط ع.
(٥) من ط م، في الأصل وط ع: غير. (٦) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) من ط ع. (٨) من ط م، في الأصل وط ع: الخير.
(٩) من ط م، في الأصل وط ع: فاستدل. (١٠) في الأصل وط ع: فعورض، في ط م: عورض. (١١) من ط م. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: غابت. (١٣) من ط ع، في ط م: له عليه السلام والمرادُ بالخطابِ، ساقطة من الأصل. (١٤) من ط م، في الأصل وط ع: لقوله. (١٥) من ط م وط ع. (١٦) من ط م.

الأمرِ ما أرادَ، واللهُ أعلمُ. ويَحْتمِلُ نزولَهُ على إثْرِ نوازِلَ لم تُذْكَرْ فيهِ، وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ، وإنما يُقالُ هذا الحرفُ عندَ ضيقِ القلبِ تسكيناً لهُ، ومعنَى تخصيصِ السمواتِ والأرضِ بالملكِ لهُ لِمُنْتهى عِلْمِ الخَلْقِ بهما، وإنْ كانَ لهُ ملكُ الدنيا والآخرةِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدلُّ هذا على أنهُ خرجَ على إثْرِ نوازلَ، وإنْ لم تُذْكَرْ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ سؤالَ تعنُّتٍ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. وقيلَ: إنهمْ سألُوا ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ كما سألَ قومُ موسى [موسى][1]. وقيلَ: سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يجعلَ الصفا لهمْ ذهباً إنْ كانَ ما يقولُهُ حقّاً. وقيلَ: سؤالُهمْ ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وكانوا يسألونَ سؤالَ تعنُّتٍ لا سؤالَ اسْتِرْشادٍ واهْتِداءٍ.

وقولُهُ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ قيلَ: اختارَ الكفرَ بالإيمانِ، وقيلَ: ومَنْ يَخْتَرْ شدةَ الآخرةِ على رخائِها وسَعَتِها. وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ: ومَنْ يَشْتَرِ الكفرَ بالإيمانِ؛ وذلكَ كلُّهُ واحدٌ.

[وقولُهُ: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قيلَ: عَدَلَ عنِ الطريقِ. وقيلَ: عَدَلَ عَنْ قصدِ الطريقِ. وقيلَ: أخطأَ قصدَ الطريقِ. وكلُّهُ واحدٌ][2].

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ إنهم كانُوا يَجْهَدُونَ كُلَّ جهدِهِمْ حتى يصرفُوا، ولم يَرُدُّوا أصحابَ محمدٍ ﷺ عَنْ دينِ اللهِ الإسلامِ إلى ما هُمْ عليهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩] وكقولِهِ: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] وقولِهِ[3]: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩]. وذلكَ، واللهُ أعلمُ، لخوفِ[4] فَوتِ رياستِهِمْ التي كانَتْ وذهابِ المنافعِ[5] /١٦ ـ ب/ التي ينالُونَ مِنَ الأتباعِ والسَّفَلةِ، فَوَدُّوا ردَّهُمْ وصرفَهُمْ إلى دينِهِمْ.

ثم احتَجَّتِ المعتزلةُ علينا بظاهرِ قولِهِ تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ قالُوا: دلَّتِ الآيةُ على أنَّ الحسدَ ليسَ مِنْ عندِ اللهِ بما نفاهُ ﷺ عنهُ، وأضافَهُ إلى أنفسِهِمْ بقولِهِ: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾. قيلَ: صدقْتُمْ في زعمِكُمْ بأنَّ الحسدَ ليسَ مِنْ عندِ اللهِ تعالى. وكذلكَ نقولُ، ولا نجيزُ إضافةَ الحسدِ إليه بحالٍ. ولكن نقولُ: خَلَقَ فعلَ الحسدِ مِنَ الخَلْقِ. وكذلكَ يُقالُ في الأنجاسِ والأقذارِ والحيَّاتِ والعقاربِ ونحوِها، إنهُ لا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ تعالى، فيُقالُ: ياخالقَ الأنجاسِ والحيَّاتِ والعقاربِ، وإنْ كانَ ذلكَ كلُّهُ خَلْقَهُ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ. فعلى ذلكَ نقولُ: بخَلْقِ فعلِ الحسدِ وفعلِ الكفرِ مِنَ العبدِ، ولا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ تعالى.

ثم يقولُونَ في الطاعاتِ والخيراتِ كلِّها: إنها مِنْ عندِ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ؛ فَلَئِنْ كانتِ العلةُ في الذي لا يكونُ مخلوقاً، إنهُ ليسَ هو مِنْ عندِه [فالواجبُ القولُ][6] بخَلقِهِ مما[7] هو مِنْ عندِهِ، ثم لم يقولُوا بهِ، فبانَ أنَّ ما يقولُونَ فاسدٌ باطلٌ ليسَ بشيءٍ.

ثم جهةُ الحسدِ ما ذكَرْنا أنهم أحبُّوا أنْ تكونَ الرسالةُ فيهِمْ، وأنْ يكونَ مِنْ عندِهِ سَعَةٌ كقولِهِ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: ١١] وكقولِهِ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. فَلِهذَينِ الوجهَينِ يُخَرِّجُ حسدَهُمْ قولُهُ: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي مِنْ قِبَلِها [لا أنَّ][8] اللهَ تعالى أمرَهُمْ، وليسَ يُضافُ إلى اللهِ تعالى بأنهُ [مِنْ عندِهِ][9] بما يخلُقُ، ولكنْ بما يأمرُ، [أو يُلزِمُ][10]. ألا تَرَى أنَّ الأنجاسَ كلَّها والخبائثَ والشياطينَ كلَّهُمْ مخلوقةٌ، وإنْ لم يَجُزْ نسبتُها

---

(١) من ط م. (٢) من ط م وط ع. (٣) في ط م: وكقوله. (٤) من ط م، في الأصل وط ع: الخوف. (٥) من ط ع، في الأصل: منافع، في ط م منافعهم. (٦) في ط م: لوجب القول، ساقطة من الأصل وط ع. (٧)في النسخ الثلاث: ما. (٨) من ط م، في الأصل وط ع: لأن. (٩) من ط م وط ع. (١٠) من ط م وط ع، في الأصل: ويلزم.

إلى اللهِ تعالى بمعنَى أنهُ مِنْ عندِهِ، كذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ الحسدِ، على أنهُ معلومٌ أنهم لم يكونُوا يَدّعُونَ مِنْ عندِ[1] اللهِ خَلْقاً؟ فذلكَ[2] الوجهُ يُنْكَرُ عليهِمْ، بل كانُوا يَدّعُونَ الأمرَ في كلّ ما نُسِبَ إلى اللهِ تعالى؛ فعلى ذلكَ وردَ العقابُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي بيَّنَ لهمْ في التوراةِ أنَّ محمداً ﷺ نبيٌّ [وأنَّ][3] دينَهُ الإسلامُ كقولِهِ: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٤٦ والأنعام: ٢٠].

وقولُهُ: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾. يَحتمِلُ النهيَ عنْ مكافأةِ ما يُؤذُونَهُ في الدنيا [ثم لم يُنْسَخْ. وقيلَ: فيه نهيٌ عنْ قتالِهِمْ حتى يأتيَ أمرُ اللهِ في ذلكَ][4]. ثم جاءَ بقولِهِ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية[5] [التوبة: ٢٩] وقيلَ: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ أي بعذابِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ على[6] التعذيبِ والانتقامِ [وعلى كلّ شيءٍ][7]، ولم يُنْسَخْ هذا.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ كرّرَ اللهُ ﷻ الأمرَ بإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ في القرآنِ تكراراً كثيراً حتى كانَتْ لا تخلو سورةٌ إلّا وذكرُهُما فيها في غيرِ موضعٍ. ذلكَ[8] لِعِظَمِ شأنِهِما وأمرِهِما وعُلُوِّ منزلتِهِما عندَ اللهِ وفضلِ قَدْرِهِما. وعلى ذلكَ جعلَهُما شريعةً في الرسلِ [السالفةِ][9] [صلواتُ اللهِ عليهِمْ، وسلامُهُ][10] ألا ترى إلى قولِ إبراهيمَ [على نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ][11] ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقولِهِ لموسى وهارونَ: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾ إلى قولِهِ[12]: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ [يونس: ٨٧] وقولِ عيسى: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣١] وقولِهِ: ﴿إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢].

وذلكَ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الصلاةَ قُرْبَةٌ في ما بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ، تجمعُ جميعَ أفعالِ الخيرِ، وفيها غايةُ مُنْتَهَى الخضوعِ [لهُ][13] والطاعةِ مِنَ القيامِ بينَ يديهِ والمناجاةِ فيهِ والركوعِ لهُ والسجودِ على الأرضِ وتعفيرِ[14] الوجهِ فيها حتى[15] لو أنَّ أحداً مِمَّنْ أخلَصَ دينَهُ للهِ لو أُعطِيَ ما في الدنيا أنْ يُعَفِّرَ وجهَهُ بالأرضِ[16] لأحدٍ مِنَ الخَلْقِ ما فَعَلَ، وباللهِ التوفيقُ.

والزكاةُ في ما بينَ العبدِ وبينَ الخَلْقِ لتأليفِ[17] القلوبِ واجتماعِها، وفيها إظهارُ الشفقةِ لهمْ والرحمةِ.

لذلكَ عظَّمَ اللهُ تعالى شأنَهُما، وشرَّفَ أمرَهُما، وأعلَى منزلتَهُما، وعلى ذلكَ قَرَنَهُما بالإيمانِ في المواضعِ كُلِّها، أثبتَ بينَ الخَلْقِ الأُخوّةَ بهما بقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١]. ثُمّ هما تُكَرَّمانِ بالعملِ لأنَّ الصلاةَ تجمعُ جميعَ أنواعِ خيراتِ الفعالِ، وفيها غايةُ الخضوعِ لهُ والخشوعِ على ما ذكَرْنا، وذلكَ مما يوجبُهُ العقلُ، وإنْ لم يَرِدْ فيهِ السمعُ. وكذلكَ الزكاةُ؛ فيها تزكيةُ الأنفسِ وتطهيرُها، وذلكَ مما في العقلِ واجبٌ.

فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في وجوبِهِما[18]؟ قيلَ: إظهارُ ما أنعمَ اللهُ على العبادِ[19] مِنَ الأموالِ والسَّعةِ فيها وما[20] أعطاهُمْ مِنْ سلامةِ الجوارحِ مِنْ جميعِ الآفاتِ يُخرِّجُ مُخرَجَ الأمرِ بأداءِ شكرِ ما أنعمَ عليهِمْ ﷻ.

فإنْ قيلَ: [ما الحكمةُ][21] في وجوبِهِما[22] في ما أعطى منهُما[23]، يعني مِنَ النفسِ والمالِ دونَ غيرِهِ؟ قيلَ: لأنَّ الوجوبَ مِنْ غيرِهِ يُخرِّجُ مُخرَجَ المُعارضةِ والمُبادلةِ لا مُخرَجَ أداءِ الشكرِ، واللهُ أعلمُ.

ثم الحكمةُ في إيجابِ الصلاةِ [والزكاةِ][24] وغيرِهما مِنَ العباداتِ أنَّ اللهَ تعالى إذْ عَمَّهُمْ بنعمِهِ في ما فَضَّلَهُمْ بالجوهرِ، وسخَّر لهمْ جميعَ ما في الأرضِ، وبسطَ عليهِمُ النعمَ حتى صارَ كلٌّ منهُمْ لا يبصِرُ غيرَ نعمِهِ مِنْ غيرِ اسْتِحقاقِ منهُمْ شيئاً مِنْ ذلكَ ألزمَهُمْ[25] الشكرَ عليها.

---

(١) في ط م: دون. (٢) من ط م، في الأصل وط ع: فبذلك. (٣) من ط م وط ع. (٤) من ط م. (٥) أدرجت تتمة الآية في ط ع بدلها. (٦) في النسخ الثلاث: من. (٧) في النسخ الثلاث: وبكل. (٨) في ط م وط ع: وذلك. (٩) من ط م. (١٠) في ط ع: صلوات الله عليهم وسلامه، ساقطة من ط م. (١١) في ط م: ﷺ. (١٢) أدرجت الآية كاملة في ط ع بدل العبارة: إلى قوله. (١٣) من ط م. (١٤) من ط م، الواو ساقطة من الأصل وط ع. (١٥) ساقطة من ط ع. (١٦) في ط م: في الأرض. (١٧) في ط م: التألف، في ط ع: لتألف. (١٨) في ط م: وجوبها. (١٩) في ط م: عليه. (٢٠) الواو ساقطة من الأصل. (٢١) من ط م. (٢٢) في ط م: وجوبها. (٢٣) في ط م: منها. (٢٤) من ط م وط ع. (٢٥) في النسخ الثلاث: لزمهم.

ثم كانتِ الصلاةُ تجمعُ استِعمالَ جميعِ الجوارحِ في ما للهِ فيها[1] القِيامُ شكراً له معَ ما فيها توفُّرُ[2] أحوالِ نفسِهِ بالإختيارِ بما هي عليهِ بالإضطرابِ والخِلْقةِ والقلبِ بالنيَّةِ والخوفِ والرجاءِ وإحصارِ[3] الذهنِ والعقلِ بالتعظيمِ والتبجيلِ، [فيكونُ كلٌّ][4] شيءٍ منهُ في شكرِهِ لِمَا لهُ فيه مِنْ سُبُوغِ النعمةِ، واللهُ أعلمُ.

وكذلكَ بالأموالِ فُضِّلُوا في هذه الدنيا، واستَمتَعُوا بلذيذِ العيشِ، فأُمِروا بالإخراجِ للهِ معَ ما إذ سُخِّرَتْ هذهِ الأرضُ بما فيها بجميعِ البشرِ أَلْزَمَ مِنْ ذلكَ صلةَ مَنْ لم يملِكْ لِيَسْتَوُوا في الاستِمتاعِ بالتسخيرِ لهُمْ مِنَ الوجهِ الذي عَلِمَ اللهُ لهُمْ في ذلكَ صلاحَ الدارَينِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية[5]. تُخَرَّجُ على خلافِ قولِ المعتزلةِ؛ لأنهُمْ يقولُونَ: إنَّ مَنِ ارتكبَ كبيرةً، ثم أقامَ الصلاةَ، وآتى الزكاةَ، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ، وحجَّ بيتَ اللهِ الحرامَ، وقدَّمَ خيراتٍ كثيرةً، فإنهُ لا يجدُ ممّا[6] قدَّمَ شيئاً، ولكنْ يجد ما قَدَّمَ مِنْ شرٍّ، وذلكَ ليسَ مِنْ فعلِ الكريمِ والجوادِ، ولا كذلكَ وصفَ اللهُ نفسَهُ، بل وصفَ نفسَهُ على خلافِ ما وصفُوا هُمْ، فقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]. وهمْ يقولُونَ: لا يَتَقبَّلُ عنهُمْ ما قَدَّمُوا مِنَ الخيراتِ، ولا يتجاوزُ عَنْ سيّئاتِهِمْ؛ وذلكَ سَرَفٌ في القولِ، فنعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ والحكمِ على اللهِ، وباللهِ [العصمةُ][7] والتوفيقُ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بما قدَّمتُمْ مِنَ الخيرِ والشرِّ تنبيهٌ مِنْهُ ﷻ ليكونُوا على حَذَرٍ مِنَ الشرِّ وترغيبٌ منهُ لهُمْ بالخيراتِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: يَحتمِلُ هذا وجهَينِ: يَحتمِلُ أنْ قالُوا ذلكَ جميعاً لمّا أرادُوا أنْ يُرُوا الناسَ المُوافقةَ في ما بينَهُمْ لِيَرْغَبُوا في دينِهِمْ، ويَنْفِرُوا عَنْ دينِ الإسلامِ، وإنْ كانُوا هُمْ في الباطنِ على الخلافِ والعداوةِ. ويَحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ القولُ مِنْ كُلِّ فريقٍ في نفسِهِ لا عَنْ كُلِّ الفريقَينِ جميعاً على الموافقةِ؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]؛ دلَّتِ الآيةُ أنَّ ذلكَ القولَ لم يكنْ مِنَ الفريقَينِ جميعاً على الموافقةِ ولكنْ كانَ من كلٍّ في نفسِهِ على [غيرِ][8] موافقةٍ منهُمْ ولا مساعدةٍ، واللهُ أعلمُ.

ثم في الآيةِ دليلٌ أَلْزَمَ الدليلَ على النافي لأنهُمْ نَفَوا دخولَ غيرِهِمُ الجنةَ بقولِهِمْ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فَطُولِبُوا بالبرهانِ بقولِهِ[9]: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهُ لا يدخلُ فيها سِواكُمْ.

فإنْ قيلَ: إنهم إذا نَفَوا دخولَ غيرِهِمْ فيها ادَّعَوا لأنفسِهِمُ الدخولَ، فإنما طُولِبُوا بالبرهانِ على ما ادَّعَوا ليسَ على ما نَفَوا؛ [قيلَ: لا يُحتملُ ذا][10] لأنهمْ لم يذكُرُوا دخولَ أنفسِهِمْ /١٧ ـ أ/ تصريحاً، إنما نَفَوا دخولَ غيرِهِمْ، وهو كَمَنْ يقولُ: لا يدخلُ هذه الدارَ إلّا فلانٌ [وفلانٌ][11] ليسَ فيهِ أنَّ فلاناً وفلاناً يدخُلانِ، ولكنْ فيهِ نفيُ دخولِ غيرِهِما.

أو نقولُ: نَفَوا دخولَ غيرِهِمْ تصريحاً، وادَّعَوا لأنفسِهِمُ الدخولَ مُسْتَدَلًّا، وإنما نَطْلُبُ الحجةَ على مُصَرَّحِ قولِهِمْ لا على مُسْتَدَلِّهِمْ.

ألا تَرَى أنَّ الجوابَ مِنَ اللهِ ﷻ بالإكذابِ والرَّدِّ عليهِمْ خرجَ [على][12] ما نَفَوا [دخولَ][13] غيرِهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿بَلَىٰ﴾ يدخلُ الجنةَ ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؟ ألَا تَرَى إلى ما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا نِكاحَ إلّا بشهودٍ» [نصب الراية: ٣/ ١٦٧] ليسَ فيهِ إثباتُ النكاحِ إذا [ما][14] كانَ ثَمَّ شهودٌ، ولكنْ فيهِ نفيُ النكاحِ بغيرِ شهودٍ تصريحاً؟ ألَا تَرَى مَنْ قالَ: «لا نِكاحَ إلّا بشهودٍ» لا يُسْأَلُ: أنْ لِمَ قُلْتَ: إنَّ النكاحَ يجوزُ بالشهودِ؟ ولكنْ يُسْأَلُ: أنْ لِمَ[15]

---

(١) في ط م: بها. (٢) في ط م: توقف. (٣) في ط م: وإحضار. (٤) من ط م، في الأصل وط ع: ليكون لكل. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) من ط م، في الأصل وط ع: ما. (٧) من ط م. (٨) من ط م. (٩) ساقطة من ط ع. (١٠) من ط م وط ع، في الأصل: لا يحتملُ قبل ذا. (١١) من ط م و ط ع. (١٢) من ط م. (١٣) من ط م وط ع. (١٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٥) في ط ع: لما.

قُلْتَ: إنهُ[١] لا يجوزُ بغيرِ شهودٍ؟ فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ ليسَ فيهِ إثباتُ الدخولِ لهمْ تصريحاً، وفيهِ نفيُ دخولِ غيرِهِمْ تصريحاً، واللهُ أعلمُ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ قد قُلْنا: إنه خُرِّجَ مُخرَجَ الرَّدِّ عليهِمْ والإنكارِ بِحُكْمِهِمْ[٢] على اللهِ، فقالَ: ﴿بَلَىٰ﴾ يدخلُها ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ قيلَ: أخلصَ للهِ دينَهُ وعَمَلَهُ، وقيلَ: أسْلَمَ نفسَهُ للهِ، وقد يجوزُ أنْ يُذْكَرَ الوجهُ على إرادةِ الذاتِ كقولِهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] يعني: إلّا هو، وقيلَ: ﴿أَسْلَمَ﴾ أي وجْهَ أمرِهُ إلى دينِهِ، فأخلَصَ، وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ، [وقيلَ][٣]: ﴿أَسْلَمَ﴾ نفسَهُ أي بالعبوديةِ كقولِهِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾[٤] [الزمر: ٢٩]؛ وذلكَ معنى الإسلامِ: أنْ تُخلِصَ نفسَكَ للهِ، ألا تجعلَ لأحدٍ شِرْكاً مِنْ [عبوديةٍ ولا مِنْ عبادةٍ][٥].

وقولُهُ: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قد ذكَرْنا متضمَّنَهُ[٦] في ما تقدَّمَ[٧].

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ عاتبَهُمْ بهذا القولِ، وقد أمرَ نبيَّهُ ﷺ في آيةٍ أخرى أنْ يقولَ لهمْ[٨] ذلكَ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]؟ قيلَ: أمَرَ نبيَّهُ ﷺ أنْ يقولَ لهُمْ ليسُوا على شيءٍ إذا لم يُقيموا التوراةَ، فأمّا إذا أقامُوا التوراةَ، وفيها أمرٌ لهُمْ بالإسلامِ واتِّباعِ الرسولِ محمدٍ ﷺ فهمْ على شيءٍ، ومعنَى هذا الكلامِ، واللهُ أعلمُ، أنْ قالَ لهُمْ: كيفَ قُلْتُمْ ذلكَ، وعندكُمْ [مِنَ][٩] الكتابِ ما يبيِّنُ لكمْ، ويُمَيِّزُ الحقَّ مِنَ الباطلِ، ويرفعُ مِنْ بينِكُمُ الاخْتِلافَ لو تأمَّلْتُمْ، وتدبَّرْتُمْ؟

ويَحْتَمِلُ أنَّ كلَّ فريقٍ لمّا قالَ لفريقٍ آخرَ ذلكَ: إنهمْ ليسُوا على شيءٍ [أكذبَهُمُ اللهُ تعالىَ، وَرَدَّ عليهمْ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ منهُمْ فهُمْ على شيءٍ][١٠] لأنهُ كانَ أسلمَ مِنْ أوائلِهِمْ، ويَحْتَمِلُ أنهمْ ليسُوا على شيءٍ على نفسِ دعاوِيهِمْ وقولِهِمْ في اللهِ بما لا يَليقُ، وهُمْ على شيءٍ في تكذيبِ بعضِهِمْ بعضاً بما قالُوا. وقيلَ: لَمّا قالتِ: ﴿ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ مِنَ الدينِ، فما لَكَ يامحمدُ؟ اتَّبِعْ دينَنَا؛ فإنهُمْ ليسُوا على شيءٍ. وكذلكَ قولُ الفريقِ الآخرِ لهُ[١١].

ثم اختُلِفَ في الإسلامِ؛ قيلَ: الإسلامُ هو الخضوعُ، وقيلَ: الإسلامُ هو الإخلاصُ بالأفعالِ؛ وهو أنْ يُسلِمَ نفسَهُ للهِ، أو يُسلِمَ دينَهُ، ألّا يُشركَ فيهِ.

وقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هـمُ الذيـنَ لا كتـابَ لـهُـمْ، وهـم مشركُو العربِ. وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هـمُ الذينَ لا يقدِرُونَ على تلاوةِ القرآنِ والكتابِ[١٢] وتمييزِ ما[١٣] فيهِ، وهُمْ جُهّالُهُمْ؛ سَوّى ﷻ بينَهُمْ في القولِ: مَنْ عَلِمَ منهمْ ومَنْ لم يَعلمْ؛ لأنَّ مَنْ عَلِمَ منهمْ لم ينتفِعْ بعلمِهِ، فكانَ كالذي لم يَعلمْ شيئاً، وقد ذكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في قولِهِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] أنهُ سمّاهُمْ بذلكَ لِما لم ينتفعُوا بالآياتِ والأسبابِ التي أعطاهُمُ اللهُ ﷻ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [بالعذابِ][١٤] لاختلافِهِمْ في ما بينَهُمْ وبقولِهِمْ في اللهِ تعالى بما لا يَليقُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[١٥] [الإسراء: ٤٣].

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: إذ. (٢) في ط م: لحكمهم. (٣) من ط ع. (٤) في الأصل: سالماً، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وأما قراءة الباقين فهي سَلَماً، انظر حجة القراءات ص/ ٦٢١، في ط م وط ع: سَلَماً. (٥) من ط ع، في الأصل: عبودية لا لمن عبادة، في ط م: عبودة ولا من عبادة. (٦) في الأصل وط ع: متضمناً، في ط م: متضمنها. (٧) في تفسير الآيتين: ٣٨ و٦٢ . (٨) من ط م وط ع، في الأصل: بقولهم. (٩) من ط م. (١٠) من ط م وط ع. (١١) في النسخ الثلاث: لأولئك. (١٢) ساقطة من ط م. (١٣) من ط م، في الاصل وط ع: وتمييزها. (١٤) من ط م وط ع. (١٥) في النسخ الثلاث: تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يقولُ: لا أحدَ أظلَمُ لنفسِهِ ولا أوْضَعُ لها. [وقولُهُ][١]: ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [اختُلِفَ فيهِ: قيلَ:][٢] مساجدُ اللهِ الأرضُ كلُّها لأنَّ الأرضَ [كلَّها][٣] مساجدُ اللهِ كقولِهِ ﷺ «جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مَسجِداً وطَهوراً» [البخاري ٣٣٥] منعَ [أهلُ الكفرِ][٤] أهلَ الإسلامِ أنْ يذكُرُوا فيها اسْمَ اللهِ [وأنْ يُظهِرُوا][٥] فيها دينَهُ.

وقولُهُ: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣ و٦٤]. ويُخرَّجُ قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي لا يدخُلُونَ البلدانَ والأمصارَ إلّا بالخوفِ أو بالعهدِ كقولِهِ: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] وهو العهدُ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ ما[٦] كانَ يَنْبغي لهُمْ بما عليهِمْ مِنْ حقِّ اللهِ وتعظيمِهِ أنْ يدخُلُوا المساجدَ إلّا خائِفِينَ وَجِلِينَ لِما كانَتْ هي بقاعٌ اتُّخِذَتْ لِعبادةِ [اللهِ تعالى][٧]، ونُسِبَتْ إليهِ تعظيماً لها. فدخَلُوا مخرِّبِينَ لها مانِعِينَ أهلَها مِنْ عبادةِ اللهِ فيها.

وقيلَ: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ المسجدُ[٨] الحرامُ؛ وذلكَ أنهمْ حالُوا بينَها وبينَ دخولِ محمدٍ ﷺ، وأصحابِهِ فيها حتى رجَعُوا مِنْ عامِهِمْ ذلكَ، ثم فتح اللهُ ﷻ مكةَ لهُمْ، فصارَ لا يدخلُ مشرِكٌ فيها إلّا خائفاً كقولِهِ ﷻ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وقيلَ: أرادَ بمساجِدِ اللهِ بيتَ المقدسِ؛ قيلَ: إنَّ النصارى استعانُوا بـ: بختنصرَ، وهو رئيسُ المجوسِ حتى خرَّبُوا المساجدَ، وقتلُوا مَنْ فيها مِنْ أهلِ الإسلامِ، [ثم بنى أهلُ الإسلامِ][٩] بعدَ ذلكَ بزمانٍ مساجدَ، فكانَ[١٠] لا يدخلُ نصرانيٌّ فيها إلّا خائفاً مُستخْفِياً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قيلَ: الخزيُ الجزيةُ، ويَحتمِلُ: القتالَ[١١] ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: إنَّ رَهْطاً [مِنْ][١٢] أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ انطلقُوا سَفَراً، وذلكَ قبلَ أنْ يَصرِفَ[١٣] القبلةَ إلى الكعبةِ، فحضرَ وقتُ الصلاةِ، فاشتبَهَ عليهِمْ، فَتَحَرَّوْا؛ فمنهُمْ مَنْ صلّى إلى المشرقِ، ومنهُمْ مَنْ صلّى إلى المغربِ؛ صَلُّوا إلى جهاتٍ مختلفةٍ؛ فلما بانَ لهُمْ ذلكَ قَدِمُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فسألُوا عَنْ ذلكَ، فنزلَتِ الآيةُ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

وهذا يَرُدُّ على الشافعيِّ قولَهُ؛ لأنهُ يقولُ: (إنْ صلّى إلى جهةِ القبلةِ يجوزُ، وإلّا فَلا). وليسَ في الآيةِ ذكرُ جهةٍ دونَ جهةٍ، بل فيها ذكرُ المشرقِ والمغربِ، وكذلكَ في الخبرِ ذكرُ المشرقِ والمغربِ، فخرجَ قولُهُ على ظاهرِ الآيةِ، وهذا عندَنا في الاشتِباهِ والتَّحرّي، وأما عندَ القصدِ فهو قولُهُ: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤ و١٥٠].

ورُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ ﷺ أنَّ قولَهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ الآيةَ نزلَتْ في النوافلِ والأسفارِ. ولكنْ عندَنا على ما ذكَرْنا في الكُلِّ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: ثَمَّ وَجْهُ اللهِ، يعني ثَمَّ ما قصدْتُمْ وجهُ اللهِ، وقيلَ: [ثَمَّ وجهُ اللهِ][١٤] ثَمَّ قِبلةُ اللهِ، وقيلَ: [﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾][١٥] ثَمَّ اللهُ على ما ذكَرْنا مِنْ جوازِ التَّكلُّمِ بالوَجْهِ على إرادةِ الذاتِ[١٦]، أي ليسَ هو عنهُمْ بغائبٍ، وقيلَ: [﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي][١٧] ثَمَّ رِضا اللهِ، وقيلَ: [﴿فَثَمَّ﴾][١٨] ما ابتغَيْتُمْ بهِ ﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وقيلَ فيه: ثَمَّ وَجْهُ الذي وجَّهَكُمْ إليهِ إذاً[١٩] لم يَجِئْ منكُمُ التقصيرُ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في أكلِ الناسي «إنما أطْعَمَكَ اللهُ وسَقاكَ» [أحمد ٢/ ٤٢٥] وقيلَ فيه: ثَمَّ بُلوغُكُمْ ما[٢٠] قصدْتُمْ بفعلِ الصلاةِ مِنْ وَجْهِ اللهِ ورِضاهُ؛ أي ظَفِرْتُمْ[٢١] بهِ.

---

(١) من ط م. (٢) من ط م، في ط ع: ثم اختلف في قوله: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ساقطة من الأصل. (٣) من ط م. (٤) ساقطة من ط ع. (٥) في ط ع: ويظهروا. (٦) أدرج قبلها في ط ع: أي. (٧) من ط م و ط ع. (٨) من ط م وط ع، في الأصل: مسجد الحرام. (٩) من ط م. (١٠) من ط م: في الأصل وط ع: وكان. (١١) في ط م: اقتتال، في ط ع أدرجت العبارة: قيل الخزيُ.. القتال بعد تتمة الآية. (١٢) من ط م وط ع. (١٣) في ط م: تصرف. (١٤) من ط ع. (١٥) ساقطة من ط م. (١٦) في تفسير الآية: ١١٢ . (١٧) من ط ع. (١٨) من ط م وط ع. (١٩) من ط م وط ع، في الأصل: إذ. (٢٠) من ط م، في الأصل وط ع: مما. (٢١) في ط ع: غفرتم.

ثُمَّ(١) الغرضُ في القِبْلَةِ ليسَ إصابةَ عينِها، ولكنْ أغلبُ الظنِّ وأكبرُ الرأيِ أنه(٢) ليس لنا إلى إصابةِ عينِها سبيلٌ؛ إذْ سبيلُ معرفتِها بالاجتِهادِ لا(٣) باليَقينِ والإحاطةِ؛ ليسَ كالمياهِ والأثوابِ وغيرِها مِنَ الأشياءِ [لأنَّ هذهِ الأشياءَ](٤) في الأصلِ طاهرةٌ والنجاسةُ /١٧ ـ ب/ عارضةٌ، فيظفرُ بأعينِها على ما هي في الأصلِ. وأمّا أمرُ القِبْلَةِ فإنما بُنِيَ على الاجتِهادِ والقَصدِ دونَ إصابةِ(٥) عينِها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قيلَ: ﴿وَاسِعٌ﴾ الغنيُّ، وقيلَ ﴿وَاسِعٌ﴾ الجوادُ حينَ جادَ عليهِمْ بقبولِ ما ابْتَغَوا بهِ وجهَ اللهِ وحينَ وسَّعَ عليهِمْ أمرَ القِبْلَةِ .﴿عَلِيمٌ﴾ بما قصَدُوا، ونَوَوا.

الآية ١١٦ [وقولُهُ تعالى](٦): ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ فيه تنزيهٌ؛ نَزَّهَ بهِ نفسَهُ عما قالُوا فيهِ بما لا يَليقُ، وردٌّ عليهِمْ؛ ومَعناهُ، واللهُ أعلمُ أنَّ اتِّخاذَ الولدِ والتَّبَنِّي في الشاهدِ إنما يكونُ لأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ تحوجُهُ إلى ذلكَ: إمّا لِشهواتٍ(٧) تَغلِبُهُ فَيقضيها بهِ [وإمّا لِوحشةٍ](٨) تأخذُهُ، فَيحتاجُ إلى مَنْ يَستأنسُ بهِ، وإمّا(٩) لدفعِ عدوٍّ يقهَرُهُ؛ فَيحتاجُ إلى مَنْ يَستنصِرُ بهِ، ويستغيثُ.

فإذا كانَ [اللهُ](١٠) ﷻ يتعالى عَنْ أنْ يمسَّهُ حاجةٌ، أو يَأخذَهُ وحشةٌ، أو يَقهَرَهُ عدوٌّ فلأيِّ شيءٍ يَتَّخِذُ وَلَداً؟

وقولُهُ: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [ردٌّ على ما قالُوا: مَنْ مَلَكَ السمواتِ](١١) وما فيها ومَلَكَ الأرضَ وما فيها لا يَمَسُّهُ حاجةٌ، ولا يقهَرُهُ عدوٌّ؛ إذْ ذلكَ مُلْكٌ لهُ، يَجري فيهِمْ تقديرُهُ، ويَمضي عليهِمْ أمرُهُ وتدبيرُهُ. وإنما يرغبُ إلى مثلِهِ إذا اعْتَرضَ لهُ شيءٌ ممّا ذكَرْنا [﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾](١٢) [الإسراء: ٤٣].

فإنْ عُورِضَ بالخَلَّةِ [فإنها تقعُ على وجوهٍ:

الأوَّلُ: قيلَ](١٣): تقعُ على غيرِ جوهرِ مَنْ مِنهُ الخَلَّةُ، والوَلَدُ لا يكونُ إلّا مِنْ جوهرِهِ، وإلى هذا يذهبُ الحسينُ.

والثاني: أنَّ الخَلَّةَ تقعُ لأفعالٍ تُكتَسَبُ وتُستاقُ(١٤) منهُ، فيعلُو أمرُهُ، وتَرتفِعُ مَرتبتُهُ، فَيَسْتوجِبُ بذلكَ الخَلَّةَ بمعنى الجزاءِ، وأمّا الولدُ فإنه لا يقعُ عن أفعالٍ تُكْتَسَبُ، بل بَدْوُ ما بهِ اسْتِحقاقُهُ يكونُ(١٥) مِنْ مولدِهِ، وقد نفَى عَنْ نفسِهِ ما بهِ يكونُ بقولِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

والثالثُ: ما قالَهُ الراوَنْديُّ: (إنهُ لا بدَّ مِنْ أنْ يُدعى إلى التَّسَمِّي أو إلى التحقيقِ؛ إذ في الخَلَّةِ تحقيقُ [ما](١٦) بهِ تَسَمَّى(١٧) ثم لم يَحتمِلْ [في هذا تحقيقَ ما بهِ يُسمَّى، والاسْمُ لم يَرِدْ بهِ الإذنُ، وباللهِ التوفيقُ.

ويَحتمِلُ](١٨) قولُهُ: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجهاً آخرَ؛ وهو أنْ يُقالَ: إنَّ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، كلُّهُمْ عبيدُهُ وإماؤُهُ، فأنتمْ معَ شدةِ حاجتِكُمْ إلى الأولادِ لا تستحسِنُونَ أنْ تتخذُوا عبيدَكُمْ وإماءَكُمْ أولاداً، فكيفَ تستحسِنُونَ ذلكَ للهِ ﷻ وتنسبُونَ إليهِ معَ غِناهُ عنهُ؟ وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ(١٩): إنَّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ مِنَ الملائكةِ وعيسى وعُزَيرٍ وغيرِهِمْ مِنَ الذينَ قُلتُمْ: إنهُ اتَّخذَ وَلَداً ﴿قَانِتُونَ﴾ له مُقِرُّون لهُ بالربوبيةِ لهُ و[عبوديةِ أنفسِهِمْ](٢٠) لهُ، وقيلَ: ﴿قَانِتُونَ﴾ مُطيعُون مُتَواضِعونَ، وقيلَ: القانتُ هو القائمُ، [لكنَّ القائمَ](٢١) يكونُ على وجهَينِ: يكونُ القائمُ المنتصِبَ على الأقدامِ، ويكونُ القائمُ بالأمرِ والحفظِ.

---

(١) أدرج في ط ع قبل هذه الكلمة العبارة التالية: الغرض من القبلة، وجعلت عنواناً. (٢) في النسخ الثلاث: لأنه. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: ولا. (٤) من ط م وط ع. (٥) من ط م وط ع، في الأصل: أصلية. (٦) من ط م وط ع. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: الشهوات. (٨) من ط م، في الأصل: أو الوحشة، في ط ع: وأما الوحشة. (٩) من ط م، في الأصل وط ع: أو. (١٠) من ط م. (١١) من ط م، في ط ع: بل له ما في السموات، ساقطة من الأصل. (١٢) في النسخ الثلاث: تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. (١٣) في ط م وط ع: قيل، ساقطة من الأصل. (١٤) من ط م، في الأصل: وتستو، في ط ع: وتستؤ. (١٥) ساقطة من ط ع. (١٦) من ط م وط ع. (١٧) في ط م: يسمى. (١٨) من ط م. (١٩) من ط م، في الأصل وط ع: وقيل. (٢٠) في النسخ الثلاث: والعبودية لأنفسهم. (٢١) من ط م.

ثم لا يَحتمِلُ أنْ يُرادَ بالقانتِ ههنا المنتصبَ بالقدمِ [وإنما هو رجوعٌ][(١)] إلى الطاعةِ لهُ وحِفظِ ما عليهِ، وهو كقولِهِ: ﴿هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرعد: ٣٣]. ويَحتمِلُ تنزيهَ [الخالقِ][(٢)] لأنَّ خِلْقَةَ كلِّ أحدٍ تنزِّهُ ربَّهُ عَنْ جميعِ ما يقولُونَ فيهِ، أو أنْ يُقالَ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ في الجملةِ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧].

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ابتَدَعَهُما، ولم يكونا شيئاً، والبديعُ والمُبْدِعُ [والمُبتَدِعُ][(٣)] واحدٌ، وهو الذي لم يسبِقْهُ أحدٌ في إنشاءِ مثلِهِ، ولذلكَ[(٤)] سُمِّيَ صاحبُ الهوى مُبْتَدِعاً لِما لم يسبِقْهُ في مثلِ[(٥)] فعلِهِ أحدٌ. ثم فيهِ الحجةُ على هؤلاءِ الذينَ قالُوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ [البقرة: ١١٦] [بوجهَينِ:

الأولُ: أنْ يُقالَ][(٦)]: مَنْ قَدَرَ على خلقِ السمواتِ والأرضِ مِنْ غيرِ شيءٍ ولا سببٍ كيفَ لا يقدِرُ على خلْقِ عيسى مِنْ غيرِ أبٍ؟

والثاني: أنْ يُقالَ مَنْ لهُ القدرةُ على خلقِ ما يصعُبُ، ويعظُمُ في أعينِكُمْ بأقلِّ الأحرفِ عندَكُمْ كيف لا يقدرُ على خَلْقِ عيسى مِنْ غير أبٍ؟.

وقولُهُ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ قيلَ[(٧)]: وإذا حكَمَ حكماً[(٨)]: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [وقيلَ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾][(٩)] يعني قَضى بإهلاكِ قومٍ واستِئصالِهِمْ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ثم قولُهُ: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾ ليس هو قولٌ[(١٠)] مِنَ اللهِ أنْ ﴿كُن﴾ بالكافِ والنونِ، ولكنهُ عبارةٌ بأوجزِ كلامٍ يؤدِّي المعنى التامَّ المفهومَ؛ إذ ليسَ في لغةِ العربِ كلامُ التحقيقِ بحرفَينِ يؤدِّي المعنى المفهومَ بأوجزَ مِنْ هذا، وما سِوى [هذا][(١١)] فهو مِنَ الصِّلاتِ والأدواتِ، فلا يُفْهَمُ مَعناها، واللهُ أعلمُ.

ثم الآيةُ تردُّ على مَنْ يقولُ بأنَّ الشيءَ هو ذلكَ الشيءُ نفسُهُ لأنهُ قالَ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ ذَكَرَ ﴿قَضَىٰٓ﴾، وذَكَرَ ﴿أَمۡرٗا﴾، وذَكَرَ ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾؛ ولو كانَ التكوينُ والمُكوَّنُ واحداً لم يحتجْ إلى ذِكرِ ﴿كُن﴾ في موضعِ العبارةِ[(١٢)] عنِ التكوينِ؛ قال ﴿كُن﴾ تكوينُهُ ﴿فَيَكُونُ﴾ المكوَّنُ، فيدلُّ أنهُ غيرُهُ.

ثم لا يخلو التكوينُ: إمَّا أنْ لم يكنْ، فحدَثَ، [وإمَّا أنْ][(١٣)] كانَ في الأزلِ. فإنْ لم يكُنْ فحدَثَ؛ [وإمَّا أنْ يحدُثَ][(١٤)] بنفسِهِ، ولو جازَ ذلكَ في شيءٍ لجازَ في كلِّ شيءٍ، وإمَّا[(١٥)] بإحداثٍ آخرَ فيكونُ إحداثاً[(١٦)] بإحداثٍ إلى ما لا نهايةَ لهُ، وذلكَ فاسدٌ. ثبتَ[(١٧)] أنَّ الإحداثَ والتكوينَ ليسَ بحادثٍ وأنَّ اللهَ تعالى موصوفٌ في الأزلِ أنهُ مُحْدِثٌ مُكَوِّنٌ فيكونُ كلُّ شيءٍ في الوقتِ الذي أرادَ كونَهُ فيهِ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يعلمُونَ في الحقيقةِ، ولكنْ سمَّاهُمْ بذلكَ لِما لم ينتفعُوا بعلمِهِمْ. وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ توحيدَ ربِّهِمْ، وهُمْ مشركُو العربِ؛ قالُوا للنبيِّ ﷺ ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ﴾ فَيُخبِرُنا[(١٨)] بأنكَ رسولُهُ. وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي لا يعلَمُونَ أنهُمْ لم يَبْلُغوا المبلَغَ الذي يتمنَّونَ تكليمَ اللهِ. وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنهُ[(١٩)] قد كلَّمَهُمْ، وأخبرَهُمْ بالوَحْيِ وإيتاءِ رسولِهِ ﷺ آياتٍ على رسالتِهِ، لكنهُمْ يُعانِدُونَ.

وقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ بنو إسرائيلَ قالُوا لموسى عليه السلام[(٢٠)] مثلَ ما قالَ مشركُو العربِ لمحمدٍ ﷺ وهو قولُهمْ[(٢١)]: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١]. وقيلَ: اليهودُ سألُوا مثلَ سؤالِ النصارى. وقيلَ: النصارى سألُوا مثلَ سؤالِ اليهودِ. واللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: فرجع. (٢) في ط م: الخلقه، ساقطة من الأصل وط ع. (٣) من ط ع. (٤) من ط م، في الأصل وط ع: وكذلك. (٥) من ط م وط ع، في الأصل: مثله. (٦) في الأصل: يقولون، في ط م وط ع: يقول. (٧) أدرج في ط م قبل هذه الكلمة تتمة الآية. (٨) أدرج بعدها في الأصل وط م: وقيل، وفي ط ع: وقوله. (٩) من ط ع. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) من ط م. (١٢) في ط م: العبادة. (١٣) في النسخ الثلاث: أو. (١٤) في الأصل وط ع: فإما حدث، في ط م: فأما أن يحدث. (١٥) في النسخ الثلاث: أو. (١٦) في النسخ الثلاث: إحداث. (١٧) في ط م: يثبت. (١٨) في ط م: فتخبرنا. (١٩) من ط م، في الأصل وط ع: أنهم. (٢٠) من ط ع. (٢١) في النسخ الثلاث: قوله.

وقولُهُ: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ قيلَ: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ بالكفرِ والسَّفَهِ. وقيلَ: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ في المقالةِ، يشبهُ بعضُها بعضاً في السّؤالِ لأنهُمْ سألوا سؤالَ مُتعَنِّتٍ لا سؤالَ مُسترشِدٍ.

وقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: هذا القولُ.

والثاني: أنْ سألوا[1] سؤالَ التَّعنُّتِ والعُتُوِّ لا سؤالَ الإسْتِرشادِ؛ إذِ اللهُ تعالى قد أثبتَ آياتِ الإرشادِ لِمَنْ يَبْتَغي الرشدَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ قيلَ ﴿بَيَّنَّا﴾ أمرَ محمدٍ ﷺ بالآياتِ والحججِ التي أقامَها: أنهُ رسولُ لِمَنْ آمنَ بهِ، وصدَّقَهُ، ولم يعانِدْهُ.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ قيلَ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يامحمدُ لِتدعُوَهُمْ إلى الحقِّ، وهو التوحيدُ، [وقيلَ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بالقرآنِ][2]. وقيلَ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بالحججِ والآياتِ ﴿بَشِيرٗا﴾ لِمَنْ أطاعَهُ بالجنةِ و﴿وَنَذِيرٗاۖ﴾ لِمَنْ عصاهُ، وخالَفَ أمرَهُ بالنارِ. وقيلَ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي للهِ على الخَلْقِ و﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي لبعضٍ على بعضٍ لِتدعُوَهُمْ إليه، وتدلَّهُمْ عليهِ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وجائزٌ أنْ يكونَ بمعنى لا تَسْألْ بعدَ هذا عنهُمْ، ولم يُذكَرْ أنهُ سألَ عنهُمْ بعدَهُ، فيكونُ ذلكَ آيةً لهُ بما هو خبرٌ عَنْ عِلْمِ الغيبِ. قيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ليتَ شعري ما فعلَ أبَوَايَ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١/ ٥١٦] فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ.

وفيها لغتانِ: ولا تَسْألْ بنصبِ[3] التاءِ وهو ما ذكَرْنا، ويَحتمِلُ وجهاً آخرَ: أي لا تشتغِلْ بأصحاب الجحيمِ فإنَّ ذلك تكلُّفٌ وشُغلٌ. وفيها لغةٌ أخرى برفعِ التاءِ ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي لا تُسْألُ أنتَ يا محمدُ عَنْ ذنوبِ أصحابِ الجحيمِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤ و١٤١] وكقولِهِ: ﴿عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤] / ١٨ ـ أ/ وكقولِهِ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام/ ١٦٤ و ...] ونحوِهِ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ اختُلِفَ في المِلَّةِ، فقيلَ[4]: المِلَّةُ السُّنَّةُ كقولِهِ[5]: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ وعلى مِلَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ وكقولِهِ: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقيلَ: المِلَّةُ الدينُ كقولِهِ ﷺ: «لا يتوارثُ أهلُ المِلَّتَينِ» [الترمذي: ٢١٠٨]، وقيلَ: المِلَّةُ مهنا القِبْلَةُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٥] آيَسَ ﷻ رسولَهُ ﷺ عَنِ اتِّباعِ أولئكَ دينَهُ وقِبلَتَهُ لأنهُمْ يختارُونَ الدينَ والقبلةَ بهوَى أنفسِهِمْ لا بطلبِ الحقِّ وظهورِهِ ولزومِ الحجةِ؛ وذلكَ أنَّ النصارى إنما اختارُوا قبلتَهُمُ المشرقَ لأنَّ مكانَ الجبلِ الذي كانَ فيه عيسى في ناحيةِ المشرقِ بقولِهِ: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ [مريم: ١٦]، واليهودُ اختارُوا قبلتَهُمْ ناحيةَ المغربِ لأنَّ موسى ﷺ[6] كانَ بناحيةِ المغربِ لَمَّا أُعطِيَ الرسالةَ، وكلَّمَهُ ربُّهُ كقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ [القصص: ٤٤]. وأمّا أهلُ الإسلامِ فإنما اختاروا الكعبةَ. شرَّفَها اللهُ. قِبلَةً بالأمرِ لا اتِّباعاً لِهوَاهُمْ؛ والعقلُ يوجبُ أن تكونَ[7] الكعبةُ قِبلَةً: إذْ هي مَقصِدُ الخَلْقِ مِنَ آفاقِ الدنيا، فلمَّا احتيجَ[8] في الصلاةِ إلى التَّوجُّهِ إلى [وَجْهِ اللهِ][9] كانَ أحقُّ ذلكَ الموضعِ الذي جُعِلَ للخَلْقِ مقصِداً أخرَى[10].

ثم قولُهُ تعالىَ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ أخبرَ ﷻ رسولَهُ أنْ ليسَ في وُسْعِكَ إرضاءُ هؤلاءِ لاختلافِهِمْ في الدَّعاوَى في المِلَلِ.

---

(١) في ط م: يسألوا. (٢) من ط م. (٣) هذه قراءة نافع، انظر حجة القراءات ص: ١١١ و١١٢ . (٤) في ط م وط ع: قيل. (٥) أي كقول القائل. (٦) في ط م: ﷺ. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: يكون. (٨) في ط ع: احتج. (٩) في ط م: وجه، ساقطة من ط ع. (١٠) من ط م، في الأصل: آخر، في ط ع: اخرى.

فإنْ قيلَ: كيفَ نَهَى رسولَهُ عَنِ اتباعِ مِلَّتِهِمْ على عِلْمٍ منهُ أنهُ[1] لا يَتَّبِعُ؟ قيلَ: لأنَّ العصمةَ [لا تُزيلُ المِحنةَ، ولا تدفَعُها، بلِ المِحنةُ][2] إنما تقعُ في العصمةِ لوجْهَيْنِ:

أحدُهما: أنَّ عصمتَهُ لِمَا مَضى: لا تُوجِبُ عصمتَهُ في الحادثِ.

والثاني: أنَّ أحقَّ مَنْ يُنْهَى عَنِ الأشياءِ مَنْ أُكرِمَ بالعصمةِ إذ على زوالِ النهيِ يرتفعُ عنهُ جهةُ العصمةِ لأنهُ يصيرُ برفعِ النهيِ مُباحاً. فلهذا دلَّ القولُ على النهيِ عَنْ[3] ما فيهِ إرضاؤهُمْ، وإنْ كانَ في الأصلِ معصوماً عنهُ، وباللهِ التوفيقُ. وفي إزالةِ الأمرِ والنهيِ إزالةُ فائدةِ العصمةِ لأنَّ العصمةَ هي[4] أنْ يُعْصَمَ في الأمرِ حتى يؤدِّيَهُ، وفي النهيِ حتى ينتهيَ عنهُ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ قيلَ: إنَّ دينَ اللهِ الذي اختارَهُ أهلُ الإسلامِ بالأمرِ واتِّباعِ الآياتِ والحججِ، هو الدينُ لا كما اختارَ[5] أولئكَ بِهَوى أنفسِهِمْ واستِقبالِ الآياتِ والحججِ بالردِّ والإنكارِ والمُعاندةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ في قولِهِ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [لهُ][6] والبيانُ لأصحابِهِ[7] ومَنْ دخلَ في دينِهِ، وصَدَّقَهُ، لا هو. وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ؛ يُخاطَبُ هو، والمرادُ غيرُهُ.

وقولُهُ: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ظاهِرُهُ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يتولّى الدفاعَ عنكَ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعُكَ مِنَ العذابِ، ويَحتمِلُ: ينصرُكَ، فتَغْلِبُ بِهِ سلطانَ اللهِ [في ما][8] يريدُ تعذيبَكَ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قيلَ: ﴿الْكِتَابَ﴾ أرادَ بهِ التوراةَ [أو الإنجيلَ، وقيلَ: ﴿الْكِتَابَ﴾ أرادَ بهِ القرآنَ، وقيلَ: ﴿الْكِتَابَ﴾ أرادَ بهِ التوراةَ والإنجيلَ][9]. ومَنْ حملَهُ على التوراةِ والإنجيلِ قالَ: فيهِ إضمارٌ، وكأنه قالَ: الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ [التوراةَ والإنجيلَ][10] ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [﴿أُولَٰئِكَ﴾][11] ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [أي][12] إذا تَلَوا حقَّ التلاوةِ فحينئذٍ يؤمنونَ بهِ. وقيلَ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ يعني يعملُونَ بهِ حقَّ عملِهِ، ولا يكتُمونَ بَعْثَهُ[13] ﷺ ولا[14] يُحرِّفُونَهُ ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وهُمُ الذينَ أسلَمُوا منهُمْ، وقيلَ: يَتَّبِعُونَهُ حقَّ اتِّباعِهِ، وهو واحدٌ. ومَنْ حملَهُ على القرآنِ فالذينَ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ.

[وقولُهُ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[15].

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قد ذكَرْنا متضمَّنَها في ما تقدَّمَ[16].

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[17]][18].

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قيلَ: الابتِلاءُ والامتِحانُ في الشاهدِ استِفادةُ عِلْمٍ خَفِيَ مِنَ المُمْتَحَنِ والمُبْتَلَى بهِ ليقعَ عنهُ علمُ ما كانَ ملتبِساً عليهِ. [و][19] في الغائبِ لا يَحتمِلُ ذلكَ إذِ اللهُ ﷻ في الأزلِ بما كانَ وبما يكونُ في أوقاتِهِ أبداً.

ثم يَرْجِعُ الابتِلاءُ منهُ إلى [وجهَيْنِ:

أحدُهما[20] أنْ يُخرَّجَ مُخرَجَ الأمرِ بالشيءِ أو النهيِ عنهُ، لكنَّ الذي ذكرَ يَظْهَرُ بالأمرِ والنهيِ فَسُمِّيَ ابتِلاءً مِنَ اللهِ.

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: أن. (٢) من ط م وط ع: ساقطة من الأصل. (٣) من ط م، في الأصل وط ع: على. (٤) في النسخ الثلاث: هو. (٥) في ط م: يختار، في ط ع: اختاروا. (٦) من ط م. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: أصحابه. (٨) من ط م وط ع. (٩) من ط م، في الأصل: والإنجيل أراد به القرآن، في ط ع: أو الإنجيل وقيل أراد به القرآن. (١٠) من ط م، ساقطة من الأصل، وط ع. (١١) من ط م وط ع. (١٢) من ط م وط ع. (١٣) في النسخ الثلاث: نعته. (١٤) الواو ساقطة من ط ع. (١٥) في تفسير الآية: ٢٧ . (١٦) في تفسير الآيتين: ٤٠ و٤٧ . (١٧) في تفسير الآية: ٤٨ . (١٨) من ط ع. (١٩) من ط م وط ع. (٢٠) في الأصل وط ع: وجوه أحدهما، في ط م: وجوه أحدها.

والثاني: [أنْ يكونَ ما قد علمَ اللهُ الغيبَ والشهادةَ أنهُ يوجدُ موجوداً، ويكونَ ما قد عَلِمَ اللهُ][1] أنهُ سيكونُ كائناً، وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] حتى يَعلَمَهُ موجوداً كما عَلِمَ أنهُ يوجدُ كما قالَ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣ و...] عَلِمَ الغيبَ: عَلِمَ أنهُ مُوجَودٌ[2]. وعَلِمَ الشهادةَ: عَلِمَ [أنها موجودةٌ][3] حتى يوجدَ الذي عَلِمَ أنهُ يُجاهدُ منهُمْ مجاهداً، ويَصبِرُ منهُمْ صابراً.

ثم[4] اخْتُلِفَ في الكلماتِ التي ابْتلاهُ بها؛ فقالَ بعضُهُمْ: الكلماتُ هي التي ذُكِرَتْ في سورةِ الأنعامِ، [وهي][5] قولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ و﴿رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ و﴿رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الآيات: ٧٦ و٧٧ و٧٨]، [وهي][6] الحججُ التي أقامَها على قومِهِ بقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقيلَ: ابتلاهُ بعشرٍ بالطهارةِ[7]: خَمْسٍ في الرأسِ وخَمْسٍ في الجسدِ[8] لكنْ في هذا ليسَ كبيرُ حكمةٍ؛ إذْ يفعَلُ هذا كلُّ واحدٍ، ولكنَّ الحكمةَ فيهِ هي ما قيلَ: إنَّ ابْتِلاءَهُ[9] بالنارِ حينَ أُلْقِيَ فيها، فصبرَ حتى قالَ لهُ جبريلُ: أتَسْتَعِينُ بي؟ فقالَ لهُ: أمَّا بكَ فَلَا. وَابْتُلِيَ بإسكانِ ذُرِّيَّتِهِ بالوادي الذي لا ماءَ فيهِ ولا زرعَ ولا غَرْسَ، وَابْتُلِيَ بالهجرةِ مِنْ عندِهِمْ وتركِهِمْ هنالكَ وهُمْ صغارٌ، ولا ماءَ معهُمْ ولا زرعَ ولا غَرْسَ، وابْتُلِيَ بالهجرةِ إلى الشامِ، وابْتُلِيَ بذبحِ ولدِهِ؛ ابْتُلِيَ بأشياءَ لم يُبْتَلَ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ بمثلِهِ، فصبرَ على ذلكَ. ففي مثلِ هذا يكونُ وجهُ الحكمةِ.

وفيه لغةٌ أخرى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾ إبراهيمُ بالرفعِ ربَّهُ بنصبِ الباءِ[10]، ومعناهُ، واللهُ أعلمُ: أنهُ سألَ ربَّهُ كلماتٍ، فأعطاهُنَّ، وهو تأويلُ مقاتلٍ؛ وهو أنْ قالَ: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[11] [الفرقان: ٧٤]، قالَ: نعمْ. [قالَ][12]: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] قالَ: نعمْ[13]. [قالَ][14]: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، قالَ نعمْ، [قالَ][15]: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] قالَ: نعمْ. [قالَ][16]: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قالَ: نعمْ. قالَ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] قالَ: نعم. مثلَ هذا سألَ ربَّهُ[17]، فأعطاهُنَّ إيَّاهُ.

وقولُهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يَحتمِلُ جعلَهُ رسولاً يُقتَدَى بهِ لأنَّ أهلَ الأديانِ معَ اختلافِهِمْ يَدينُونَ بهِ، ويُقِرُّونَ نبوتَهُ. ويَحتمِلُ ﴿إِمَامًا﴾ مِنَ الإمامةِ والخِلافةِ.

وقولُهُ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [فإنْ قيلَ: كيفَ كانَ قولُهُ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟][18] جواباً لقولِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وكانتِ الرسالةُ في ذُرِّيَّتِهِ [كقولِهِ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]، يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أحبَّ أنْ تكونَ الرسالةُ تدومُ في ذُرِّيَّتِهِ][19] أبداً حتى لا تكونَ[20] بينَ الرسلِ؛ فتراتٌ [قيلَ][21]: فأخبرَ أنَّ في ذرِّيَّتِهِ مَنْ [هو][22] ظالمٌ، فلا ينالُ الظالمُ عهدَهُ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ سؤالُهُ جعلَ الرسالةِ في أولادِ إسماعيلَ لأنَّ العربَ مِنْ أولادِ إسماعيلَ ﷺ فأخبرَ أنَّ في أولادِهِ [مَنْ هو][23] ظالمٌ فلا ينالُهُ. والعهدُ ما ذكَرْنا[24] هو الرسالةُ والوحيُ. وقالَ الحسنُ: (لا ينالُ الظالمَ في الآخرةِ العهدُ). ويَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ مِنْ ذلكَ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فأخبرَ أنَّ فيهِمْ مَنْ لا يصلُحُ لذلكَ. ويَحتمِلُ أنْ يريدَ بهِ الإمامةَ لا النبوةَ،

---

(١) في الأصل وط ع: ليوجد ما قد علم الغيب والشهادة علم الله أنه يوجد موجودا وليكون ما قد علم، في ط م ليكون ما قد علم الله أنه يوجد موجوداً ويكون ما قد علم. (٢) في ط م: موجد. (٣) في النسخ الثلاث: به موجوداً. (٤) أدرج في ط ع قبل هذه الكلمة العبارة التالية: اختلاف في الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم، وجعلت عنوانا. (٥) في النسخ الثلاث: وهو. (٦) الواو ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) أدرج بعدها في ط ع: ففعلهن. (٨) انظر تفسير الطبري والدر المنثور ١/ ١١١. (٩) في ط م وط ع: ابتلاه. (١٠) وهي قراءة ابن عباس وأبي الشعثاء، وقد قرأها أبو حنيفة، انظر المختصر في شواذ القرآن ص: ٩. (١١) في النسخ الثلاث: اجعلني للناس إماماً. (١٢) من ط ع. (١٣) ساقطة من ط م. (١٤) من ط م وط ع. (١٥) من ط م وط ع. (١٦) من ط م وط ع. (١٧) أدرج بعدها في الأصل وط م: هذا. (١٨) من ط م وط ع. (١٩) من ط م. (٢٠) في ط ع: يكون. (٢١) من ط ع. (٢٢) من ط م وط ع. (٢٣) من ط م. (٢٤) في تفسير الآيات: ٢٧ و٤٠ و٦٣ و٨٣.

وقد كانَتْ[١] في نسلِ كلِّ الفرقِ [و][٢] النبوةُ كائنة فيهمْ منهمْ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قصدَ خصوصاً مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِمَّنْ عَلِمَ اللهُ أنَّ فيهمْ مَنْ لا يَصلُحُ لذلكَ. ولا يَحتمِلُ أنْ يريدَ بهِ الإمامةَ لا النبوةَ، وقد ذكرَ أو قالَ: الإنسانُ، قيلَ لهُ: إنهُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، لكنْ لا ينالُ مَنْ ذكرَ. ولهذا خصَّ بالدعاءِ ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ [البقرة: ١٢٦] دونَ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦].

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [قيلَ: المَثابةُ المَجمَعُ]. وقيلَ[٣]: المَثابةُ المَرجِعُ [يَثوبونَ: يَرجِعُونَ][٤]. وقيلَ: يَحُجُّونَ. وقولُهُ ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ هو فعلُ العبادِ لأنهمْ يأمَنُونَ، ويثوبونَ؛ أخبرَ أنهُ جعلَ ذلكَ، ففيه دلالةُ خلْقِ أفعالِ العبادِ. ثم بيَّنَ فيهِ ﷺ شدةَ اشتياقِ الناسِ إليهِ وتمنِّيهمُ الحضورَ بها معَ احتمالِ/ ١٨ ـ ب/ الشدائدِ والمشقةِ وتَحمُّلِ المُؤَنِ معَ بُعْدِ المسافةِ والخطواتِ[٥]. فدلَّ أنَّ اللهَ تعالى بلُطفِهِ وكَرَمِهِ حبَّبَ ذلكَ إلى قلوبِ الخَلْقِ وأنهُ جعلَ آياتِ الربوبيَّةِ والوحدانيَّةِ مِنْ تدبيرٍ سماويٍّ لا مِنْ تدبيرِ البشريَّةِ. وفيه دلالةُ نبوةِ محمدٍ ﷺ إذْ أخبرَ عمَّا قد كانَ، فثبتَ أنهُ أخبرَ عَنِ اللهِ ﷻ.

وقولُهُ: ﴿وَأَمْنًا﴾ لِمَنْ دخلَهُ مِنْ عذابِ الآخرةِ. وقيلَ: ﴿وَأَمْنًا﴾ لكلِّ مجرمٍ[٦] أوَى إليهِ مِنَ القتلِ وغيرِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] مِنْ كُلِّ ما ارتكبَ. وأمّا عندنا فإنهُ إنْ قتلَ قتيلاً، ثم التجأَ إليهِ، فإنهُ لا يُقتَلُ ما دامَ فيه لأنه لا يُقتَلُ للكفرِ هنالكَ. فعلى ذلك القِصاصُ لقولِهِ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩١] وما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ مكّةَ حرامٌ بتحريمِ اللهِ إياها يومَ خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ؛ لم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، وإنما أُحِلَّتْ لي ساعةً مِنْ نهارٍ، لا يُختَلَى خَلاها، ولا يُعْضَدُ شجرُها، ولا يُنَفَّرُ صيدُها» [البخاري ١٨٣٣ و١٨٣٤]. وما رُوِيَ عَنِ ابنِ عمرَ ﷺ أنهُ قالَ: (لو ظَفِرْتُ بِقاتِلِ عمرَ في الحرمِ ما قتلْتُهُ). وإذا قتلَ في الحرمِ يُقتَلُ بهِ هنالكَ.

والوجهُ فيه أنَّ إقامةَ مثلِهِ عليهِ في ما يرتكبُهُ في الحرمِ أحقُّ، إذْ هي كفّارةٌ لينزجرَ عمّا ارتكبَ، وأحقُّ ما يقعُ فيه الزجرُ بمثلِهِ ما هو فيهِ مِنَ المكانِ.

وإذا قتلَ في غيرِ الحرمِ، ثم التجأَ إلى الحرمِ؛ قالَ أبو حنيفةَ ﷺ[٧]: (لا يُخرَجُ مِنَ الحَرَمِ). وأبو يوسفَ ﷺ[٨] جَعَلَ ذلكَ للسلطانِ؛ ذهبَ إلى أنهُ قالَ: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] كما قالَ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، فأوجبَ الإخراجَ مِنْ حيثُ [أخرجَ كما أوجبَ القتلَ مِنْ حيث قَتَلَ][٩]. قيلَ: لم يُخرَجْ مِنَ الحرمِ إذا لَمْ يَخرُجْ منهُ كما لم يُقتَلْ في الحرمِ إذا لم يَقتُلْ فيهِ. أو نقولُ بالإخراجِ للقتلِ قَصْدَ ما لم يَسَعْ[١٠] فعلُهُ فيهِ، كانَ كالصيدِ يُخرَجُ[١١]، يُلزَمُ فيهِ ما يجبُ بالقتلِ، فمثلُهُ في موضعِ الخطرِ.

وبعدُ فإنهُ لو أُخرجَ لم يأمَنْ بالحرمِ، بل زيدَ في عقوبتِهِ؛ إذِ الإخراجُ عقوبةٌ، فقد زيدَ عليهِ مع ما لم يَجُز في الكفارِ الذين نُهِيَ[١٢] عن قتلِهِمْ إخراجُهُمْ للقتلِ، كذلكَ القاتلُ. وذهبَ الآخرُ إلى أنهُ يُخرَجُ لإقامةِ الحدِّ عندَ أبي حنيفةَ ﷺ[١٣] وإنْ لم يَرتكِبْ فيهِ. وإخراجُ المرتكِبِ لهُ أقلُّ في الحكمِ مِنْ إقامتِهِ عليهِ. غيرَ أنهُ غلطٌ لأنَّ إخراجهُ للقتلِ يَرْفَعُ[١٤] مِنَ الحدِّ لأنهُ يصلُ إلى قتلِهِ ولِما في القتلِ عقوبةٌ واحدةٌ، وفي الإخراجِ عقوبتانِ، ثم لم يُلزِمْهُ العقوبةَ الواحدةَ، وهي القتلُ إذا لم يقتُلْ فيهِ كانَ مِنَ ألّا يُلزمَهُ العقوبتانِ أحقّ.

وقولُهُ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ اختُلِفَ[١٥] في مقامِ إبراهيمَ ﷺ: منهُمْ مَنْ جعلَ الحرمَ كلَّهُ مقامَهُ [﴿مُصَلًّى﴾][١٦]؛ يصلّي إليهِ لِمَقامِهِ هنالكَ بأولادِهِ. ومنهُمْ مَنْ جعلَ المسجدَ مقامَهُ لأنهُ كانَ مكانَ عبادتِهِ، فهو المُصلَّى. ومنهُمْ مَنْ جعلَ ما ظهرَ مِنْ مقامِهِ، وهو موضعُ ركوبِهِ ونزولِهِ، لِما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ لمّا قَدِمَ مكةَ قامَ إلى الركنِ

---

(١) من ط ع، في الأصل: كان، في ط م: كانت هي. (٢) من ط م. (٣) من ط م وط ع، في الأصل: قيل. (٤) من ط م وط ع. (٥) في ط م: الخطرات. (٦) في ط م: مجترم، في ط ع: محرم. (٧) في ط م: رحمه الله. (٨) في ط م: رحمه الله. (٩) من ط م. (١٠) في ط م: يَسُغْ. (١١) من ط م، في الأصل وط ع: مخرج. (١٢) في النسخ الثلاث: نهوا. (١٣) في ط م: رحمه الله. (١٤) من ط م، في الأصل وط ع: ليرفع. (١٥) أدرج في ط ع قبلَ هذه الكلمة العبارة التالية: اختلاف في مقام إبراهيم عليه السلام. وجُعلَت عنواناً. (١٦) في ط ع: فصلى، ساقطة من الأصل وط م.

اليمانيّ، فقالَ عمرُ: يارسولَ اللهِ: ألا تتّخذُ مَقامَ إبراهيمَ مُصلىً؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.
وعندَنا: القِبْلةُ البيتُ لقولِهِ[1]: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤ و١٥٠] وقولِهِ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] أي مَقاماً لِقيامِ العباداتِ.

وقولُهُ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ فيه الأمرُ ببنائِهِ.

وقولُهُ: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾[2] يحتملُ التطهيرُ وجهَينِ[3]:

أحدُهُما: مِنَ الأصنامِ والأوثانِ التي كانَتْ هنالك وعبادةِ غيرِ اللهِ والأنجاسِ.

والثاني[4]: التطهيرُ مِنْ كلِّ أنواعِ الأقذارِ [ومنْ][5] كلِّ أنواعِ المكاسبِ على ما رُوِيَ في جملةِ المساجدِ.

وقولُهُ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ قيلَ: الطائفُ هو القادمُ، سُمِّيَ طائفاً لدخولِهِ[6] بطوافِهِ. وقيلَ: الاسْتِيجابُ[7] للطوافِ، لذلكَ قالَ أصحابُنا: [رحمهُمُ اللهُ][8] الطوافُ للقادمِ أفضلُ مِنَ الصلاةِ، والصلاةُ للمقيمِ أفضلُ. وقيلَ: العاكِفُونَ المجاوِرُونَ [أي مِنْ أهلِ مكةَ والقادِمِينَ إليها][9].

الآية ١٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ قد ذكَرْنا الوَجْهَ[10] في قولِهِ ﴿وَأَمْنًا﴾.

وقولُهُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ لَمّا عَلِمَ أنَّ المكانَ ليسَ بمكانِ ثمرٍ ولا عشبٍ دعا، وسألَ ربَّهُ أنْ يرزُقَ أهلَهُ عطفاً على أهلِهِ وعلى كلِّ مَنْ ينتابُ إليهِ مِنَ الآفاقِ. ثُمَّ خصَّ المؤمنِينَ بذلكَ لوجوهٍ:

أحدُها: أنهُ لَمّا أمرَهُما بتطهيرِ البيتِ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ ظنَّ أنهُ لا يُجعَلُ لِسِوَى أهلِ الإيمانِ هنالكَ مَقاماً، فَخَصَّهُمْ[11] بالدعاءِ وسؤالِ الرزقِ.

والثاني: أنهُ أرادَ أنْ يُجعَلَ آيةً مِنْ آياتِ اللهِ لِيُرَغِّبَ الكفارَ إلى دينِ اللهِ، فيصيرُوا أمّةً واحدةً، [فكانَ كقولِهِ:][12] ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآيةَ[13] [الزخرف: ٣٣].

ووجهٌ آخرُ: قيلَ لَمّا كانَ قيلَ لَهُ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فَلَعَلَّهُ خَشِيَ أن يُخَرَّجَ ذلكَ مُخْرَجَ المعونةِ لَهُمْ على ما فيهِ العصيانُ. وفي ذلكَ أنْ لا بأسَ ببيعِ الطعامِ مِنَ الكفرةِ، ولا يصيرُ ذلكَ كالمعونةِ على ما هُمْ عليهِ. ويَحتمِلُ الدعاءُ المبهمُ للكفرةِ القبيحُ[14] إذْ ذلكَ اسمُ مَنْ يعبدُ غيرَ اللهِ.

وقولُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ بالنعمِ[15] لأنَّ الدنيا دارُ محنةٍ لا تُوجِبُ النظرَ إلى المُسْتَحِقِّ للنعمِ مِنْ غيرِ المُسْتَحِقِّ ولا إلى الوليِّ مِنَ العدوِّ في الدنيا. وأمّا الآخرةُ فهي دارُ جزاءٍ ليسَتْ بدارِ محنةٍ، فَتوجبُ النظرَ إلى المستَحِقِّ. ومعنَى قولِهِ: ﴿قَلِيلًا﴾ لأنَّ الدنيا كلَّها[16] قليلٌ. ثم[17] الامتِحانُ على وجهَينِ: امتِحانٌ بالنعمِ وامتحانٌ بالشدائدِ. وقد قُرِئَ ﴿فَأُمْتِعْهُ﴾ على معنى دعاءِ إبراهيمَ ﷺ ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا﴾ بالجزمِ[18].

فإنْ قِيلَ: لِمَ لا كانَ تفاضُلُ الامْتِحانِ بتفاضلِ النعمِ؟ وإنما يُعْقَلُ فضلُ الامْتِحانِ بفضلِ العقلِ، ويُعْلَمُ أنَّ المؤمنَ هو المُفَضَّلُ بالعقلِ، كيفَ لا وقعَ فضلُ ما بهِ يُمْتَحَنُ وهو النعمُ؟ [نَقُلْ: إنَّ][19]: العقلَ الذي بهِ [يُدْرَكُ الحقُّ واحدٌ، ثم العقلُ الذي بهِ][20] يُمْتَحَنُ واحدٌ؛ فهما متساويانِ في ما فيهِ دَرْكُ الحقِّ. إلّا[21] أنَّ أحدَهُما يدرِكُهُ، فيتبَعُهُ، والآخرُ يدرِكُهُ، فيعانِدُهُ، فهو من حيثُ معرفتُهُ ذو عقلٍ أعرضَ عنهُ فسُمِّيَ معانِداً؛ إذْ مَنْ لا عقلَ لهُ يُسَمَّى مجنوناً.

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: كقوله. (٢) أدرج في ط ع تتمة الآية. (٣) في النسخ الثلاث: لوجهَين. (٤) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٥) الواو ساقطة من الأصل. (٦) في ط م: بدخوله. (٧) من ط م وط ع، في الأصل: الاستحباب. (٨) من ط م. (٩) من ط ع. (١٠) في تفسير الآية: ١٢٥ . (١١) في النسخ الثلاث: فَخَصَّ لهم. (١٢) من ط م وط ع. (١٣) أدرج في ط ع بدل هذه الكلمة تتمة الآية. (١٤) في ط م وط ع: القبح. (١٥) من ط م، في الأصل: للنعم، في ط ع: النعم. (١٦) من ط م، في الأصل وط ع: كله. (١٧) أدرج في ط ع قبلَ هذه الكلمة العبارةُ التالية: الامتحان على وجهين، وجُعلت عنواناً. (١٨) هذه قراءة ابن عامر، انظر المحتسب ١/ ١٠٤ وحجة القراءات/ ١١٤ . (١٩) في النسخ الثلاث: لأن. (٢٠) من ط ع. (٢١) من ط م، في الأصل وط ع: لا .

وقولُهُ: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ ذكرَ الاضطرارَ، وهو كقولِهِ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧] وهو السَّوْقُ، وكقولِهِ[١]: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]؛ إنهمْ يُساقُونَ إليها، ويُدْعَونَ، لا إنهمْ يأتُونَها[٢] طوعاً واختياراً.

[وقولُهُ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئسَ ما صارُوا إليهِ][٣].

الآية ١٢٧ وقولُهُ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أُمِرا برفعِ البيتِ وبنائِهِ، ففَعَلا، ثم سَألا رَبَّهُما أنْ يتقبَّلَ منهما. فهكذا الواجبُ على كلِّ مأمورٍ بعبادةٍ أو قربةٍ إذا فرغَ منها، وأدَّاها، أنْ يتضرَّعَ إلى اللهِ، ويبتهلَ ليقبلَ منهُ، ولا أنْ يَرُدَّ عليهِ ليضيعَ سَعْيُهُ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لدعائِهِمْ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما نَوَوا، وأضمَرُوا.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ والإسلامُ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[٤] أنهُ يتوجَّهُ إلى وجهَيْنِ:

أحدُهُما: هو[٥] الخضوعُ والتذلُّلُ.

والثاني: هو الإخلاصُ.

ثم اختلفَ أهلُ الكلامِ في الإسلامِ؛ فقالَ بعضُهُمْ: إنه يتجدَّدُ في كلِّ وقتٍ: لذلكَ سألوا[٦] ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ [معناهُ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾][٧] في حادثِ الوقتِ [لأنَّ الإيمانَ تركُ فعلِ الكفرِ في كلِّ وقتٍ؛ فبتركِ][٨] الكفرِ يتجدَّدُ الإيمانُ. وعلى ذلكَ يخرجُ تأويلُنا في الزيادةِ بقولِهِ[٩]: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، يتجدَّدُ لهمْ[١٠]، ويزدادُ في حادثِ الوقتِ.

وقالَ آخرونَ: كانَ سؤالُهُمُ الإسلامَ سؤالَ الثباتِ عليهِ والدوامِ، وقد ذكَرْنا أنَّ العصمةَ لا ترفَعُ خوفَ الزوالِ، ومثلَ هذا الدعاءِ[١١].

والسؤالُ على قولِ المعتزلةِ يكونُ عبثاً لأنهُ لا يملكُ إعطاءَ ما سألُوا، عندَهُمْ، بل هُمُ الذينَ يملِكُونَ ذلكَ فيُخرِّجُ السؤالُ في هذا عندَهُمْ مُخرَجَ اللعبِ والعبثِ[١٢]، فنعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ والزَّيغِ عَنِ الهُدَى.

ثم الإيمانُ هو التصديقُ بالقلبِ، يتجَدَّدُ في كلِّ وقتٍ /١٩ ـ أ/ فلا وقتَ يخلو القلبُ عنهُ في حالِ سكونٍ أو حالِ حركةٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يَحتمِلُ أنَّ الأمَّةَ المسلمةَ هي أُمَّةُ محمدٍ ﷺ وذلكَ أنهُ لَمْ يكنْ مِنْ أولادِ إسماعيلَ[١٣] ﷺ[١٤] رسولٌ سوى محمدٍ ﷺ فسألَا أنْ يجعلَ[١٥] مِنْ ذُرِّيَّتِهِما رسولاً وأُمَّةً مسلِمَةً خالِصَةً لهُ. وإنما الرسلُ كانُوا مِنْ أولادِ إسحاقَ ﷺ[١٦] ومِنْ نسلِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ قيلَ[١٧]: في قولِهِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ يريدُ الإراءةَ إلى يومِ القيامةِ؛ يدلُّ عليهِ قراءةُ عبدِ اللهِ [ابنِ مسعودٍ]: وأرِهِمْ مناسِكَهُمْ. وفي قراءةِ غيرِهِ ضمٌّ[١٨] الرؤيةِ إلى نفسِهِ. والمَنْسَكُ هو القُرْبةُ. [وأفعالُ الحجِّ] سُمِّيَتْ مناسِكَ][١٩]. ثم لا يُحتَمَلُ أنْ يَسألَا[٢٠] ذلكَ مِنْ غيرِ أمرٍ سبقَ منهُ ﷻ بذلكَ لأنهُ ليسَ مِنَ الحكمةِ سؤالُ إيجابِ فضلِ

---

(١) الواو ساقطة من ط ع. (٢) من ط م وط ع، في الأصل: يأتوننا. (٣) أدرجت هذه العبارة في الأصل بعد شرح قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾. (٤) في تفسير الآية: ١١٢ . (٥) ساقطة من ط ع. (٦) في الأصل سئلوا. (٧) من ط م وط ع. (٨) في الأصل: فيترك، في م ط وط ع: لأنه تارك فعل الكفر في كل وقت فتبرك. (٩) من ط ع، في الأصل وط م: بقولهم. (١٠) من ط م، في الأصل وط ع: له. (١١) في تفسير الآية: ١٢٠ . (١٢) من ط م وط ع، في الأصل: والبعث. (١٣) من ط م وط ع، في الأصل: محمد. (١٤) من ط ع. (١٥) من ط م وط ع، في الأصل يجعلا. (١٦) من ط ع. (١٧) في النسخ الثلاث: وقيل. (١٨) من ط م، في الأصل وط ع: على ضم، هذا وجاء في حجة القراءات ص ١١٤ ما يلي: قرأ أبو عمرو: ﴿وَأَرِنَا﴾ مختلساً، والاختلاس هو الإتيان بثلثي الحركة، وقرأ ابن كثير ﴿وأرْنا﴾ ساكنة في جميع القرآن، وقرأ الباقون ﴿وَأَرِنَا﴾ بكسر الراء. (١٩) في الأصل: أفعال الحج سمّى مناسكا، في ط ع: وأفعال الحج سميْت مناسكا، في ط م: وأقفال الحج سمى مناسكا. (٢٠) من ط م و ط ع، في الأصل: يسأل.

عبادةٍ أو قُربةٍ بغيرِ أمرٍ، فدلَّ أنهُ قد سبقَ منهُ بذلكَ أمرٌ، لكنهُ لم يبيِّنْ لهما، فسألَا تعليمَ ماهيَّتِها وكيفيَّتِها، فعلَّمَهُمَا جبريلُ ذلكَ.

ففيهِ[١] دلالةُ تأخيرِ البيانِ عَنْ وقتِ قَرْعِ السمعَ الخطابُ [بوجوهٍ:

الأوَّلُ][٢]: ألَا تَرَى أنهُ أُمِرَ بالنداءِ للحجِّ، ولم يُعَلَّمْ؟

والثاني: أنَّ آدمَ والملائكةَ كانُوا حَجُّوا هذا البيتَ قبلَ إبراهيمَ ﷺ فدلَّ أنَّ الأمرَ بهِ قد سبقَ.

والثالثُ: قولُهُ في نفسِ الحجِّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ثم لا يَحتمِلُ لزومَ الكلفةِ بالخروجِ قبلَ وجوبِ الحجِّ لِما لم يأمرْ بِفعْلٍ مالَهُ إيجابُ الحقوقِ والفرائضِ، لكنَّها أوجَبَتْ شكراً لِما أنعمَ عليهِ، فدلَّ أنَّ الحجَّ كانَ واجباً قبلَ الخروجِ، وقد تأخَّرَ الإمكانُ. فمثلُهُ البيانُ، واللهُ أعلمُ.

واحتُجَّ بقولِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣ و...] أنَّ ظاهرَهُ يُوجبُ خضوعاً لزمَ بهِ ما أدَّاهُ السمعُ على تأخُّرِ ماهيَّتِهِ[٣]، وكذلكَ الزكاةُ، وكذا ظاهرُ قولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

واحتُجَّ أيضاً بقولِ القائلِ [وسؤالِهِ][٤] رسولَ اللهِ ﷺ عَنْ أوقاتِ الصلاةِ، فَفَعَلَهُ في يومَينِ، وكانَ يمكنُهُ تعليمَهُ[٥] وقتَ السؤالِ، لكنَّهُ آخَّرَ، فدلَّ أنَّ البيانَ يجوزُ تأخيرُهُ[٦] عَنْ وقتِ قرعِ الخطابِ السمعَ.

ثمَّ في تأخيرِ البيانِ محنةُ المخاطَبِ؛ بِهِ أمرٌ في تعلُّمِ العلمِ [وطلبُ][٧] مرادِ ما تضمَّنَ الخطابُ، واللهُ أعلمُ.

وذُكِرَ في أمرِ الحجِّ عنْ[٨] كلِّ نُسُكٍ مِنَ المناسِكِ معانٍ[٩]، لكنها ذُكِرَتْ لأحوالٍ[١٠] كانَتْ في شأنِ آدمَ [وأمرِ إبراهيمَ][١١] ومحمدٍ [عليهما الصلاةُ والسلامُ][١٢]. وقد كانَ الحجُّ قبلَهُمْ.

وقد ذُكِرَ في أمرِ الرَّمَلِ أنهُ كانَ مِنْ رسولِ اللهِ ومَنْ معهُ لِيُعْلِمَ بهِ قُوَّتَهُمْ حتى قالَ عمرُ ﷺ علامَ أهزُّ كتفيَّ؟ وليسَ أحدٌ إزاءَهُ، لكني أتبعُ رسولَ اللهِ ﷺ[١٣] أو كما قالَ ﷺ[١٤]. وقد ذُكِرَ ذلكَ في قصةِ إبراهيمَ ﷺ[١٥] أنهُ رَمَلَ ولم يكنْ في وقتِهِ مَنْ كانَ الفعلُ لأجلِهِ، وكذلكَ غيرُهُ مِنَ الأنبياءِ ﷺ إلا أنّا نقولُ: جعلَ اللهُ ذلكَ[١٦] لِعِلْمِهِ بالحاجةِ إلى ذلكَ في وقتٍ قد جعلَ ذلكَ نُسُكاً، فحفظَ ذلكَ على حقِّ النُّسكِ، وإنْ لم يكنِ المعنى مقارِناً لهُ [في][١٧] كل وقتٍ، على ما [قالَ رسولُ اللهِ ﷺ][١٨]: «إنَّ صلةَ الرحمِ تزيدُ في العُمُرِ» [ابن عساكر: ٥/ ٢١٠] بمعنى جعلَ[١٩] اللهُ أجلَهُ، ذلكَ بما عَلِمَ أنهُ يصلُ الرحمَ، فيكونُ صرفُ العمرِ إلى تلكَ المدةِ لذلكَ، وكما يُكتَبُ شَقيّاً أو سَعيداً في الأزلِ للوقتِ الذي فيهِ يكونُ كذلكَ ونحوَ ذلكَ، واللهُ الموفقُ.

ثم الأصلُ أنَّ اللهَ، جلَّ ثناؤُهُ، جعلَ على عبادِهِ في كلِّ الأنواعِ التي يتقلَّبُ[٢٠] فيها البشرُ للمعاشِ أو لأنواعِ اللذاتِ لتكونَ العبادةُ منهُمْ في كلِّ نوعٍ مقابلَ ما يختارُ [صاحبُ][٢١] ذلكَ شكراً[٢٢] لِما مُكِّنَ مِنْ[٢٣] مثلِهِ لِما يتلَذَّذُ بهِ، ويتعيَّشُ؛ إذْ كُلُّ لذةٍ وكلُّ ما يتعيَّشُ [بهِ][٢٤] نعمةٌ خصَّ اللهُ بها صاحبَها بلا تقدُّمِ سببٍ يَستوجِبُها العبدُ، فلزمَهُ في الحكمةِ الشكرُ لِمَنْ أسدَى إليهِ تلكَ النعمةَ. وعلى ذلكَ نجدُ التقلُّبَ مِنْ حالِ القيامِ إلى حالِ القعودِ والاضْطِجاعِ أمراً [عامّاً][٢٥] في البشرِ مِنْ أنواعِ اللذاتِ؛ فمثلُهُ تكونُ[٢٦] العبادةُ بذلكَ النوعِ عامّةً نحوُ الصلواتِ، وعلى ذلكَ معنَى الرقِّ والعبودةِ لازمٌ لا يُفارَقُ؛

---

(١) أُدرج في ط ع قبل هذه الكلمة العبارة التالية: الحكمة في تأخير البيان عن الخطاب المجمل، وجُعِلَتْ عنوانا. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) في ط م: ما بيّنه. (٤) من ط م وط ع. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: تعظيمه. (٦) في ط م: تأخره. (٧) من ط م. (٨) من ط م، في الأصل وط ع: عند. (٩) في الأصل وط ع: معانيا. (١٠) من ط م، في الأصل وط ع: الأحوال. (١١) من ط م وط ع، في الأصل: وإبراهيم. (١٢) في ط ع: عليهم الصلوات والسلام، في ط م ﷺ. (١٣) في ط م: عليه السلام. (١٤) في ط م: رحمه الله. (١٥) سقط هذا السلام من ط م. (١٦) في النسخ الثلاث: كذلك. (١٧) من ط م وط ع. (١٨) في النسخ الثلاث: قيل. (١٩) من ط م، في الأصل وط ع: جعله. (٢٠) في الأصل وط ع: ينقلب. (٢١) من ط م. (٢٢) من ط م، في الأصل وط ع: شكر. (٢٣) من ط م، في الأصل وط ع: عن. (٢٤) من ط م. (٢٥) من ط م، في الأصل وط ع: أمر عام. (٢٦) من ط ع، في الأصل وط م: يكون.

فمثلُهُ الِاعْتِرافُ بهِ والِاعْتِقادُ دائمٌ، لا محالةَ، لا يخلو منهُ، وعلى ذلكَ أمرُ إعطاءِ النفسِ شهواتِها مِنَ المطاعِمِ ونحوِ ذلكَ لا يعمُّ الأوقاتَ عمومُ التقلُّبِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ إذْ لا يخلو منها المرءُ، وإن كانَتْ مختلفةً، فَجُعِلَتْ[(١)] عبادةُ الصِّيامِ في خاصِّ الأوقاتِ، ثم لم يمتَدَّ ما بينَ الأوقاتِ [امْتِداداً مُتراخِياً][(٢)]، فعلى ذلكَ جُعِلَ العفوُ عَنِ الصيامِ، لم يُجْعَلْ كذلكَ، بل في كلِّ سنةٍ معَ ما يدخلُ الصيامُ في كثيرٍ مِنَ الأمورِ.

ثم للناسِ في الأموالِ معاشٌ، وبها تلذُّذٌ، [و][(٣)] منها قوتٌ لا بُدَّ منهُ؛ فالِارْتِفاقُ بمثلِهِ لازمٌ، لا يحتملُ جعلَ القُربةِ فيهِ سوى أنْ جُعِلَ [ذلكَ][(٤)] بعينِهِ قُربةً إذْ فُرِضَ على المرءِ الِاسْتِمتاعُ بهِ.

ومنها فضلٌ بهِ[(٥)] جُعِلَتْ قُرَبُ التَّصدُّقِ[(٦)] لأنهُ لهُ بحقِّ التَّلَذُّذِ لا بحقِّ ما لا بُدَّ منهُ.

وكذلكَ نوعُ تَقَلُّبِ الأحوالِ في النفسِ التي هي بحقِّ الضرورةِ لم يُجْعَلْ لمثلِ[(٧)] ذلكَ فضلُ قُربةٍ يُؤَدِّيها سِوَى ما بهِ حياتُهُ، وذلكَ يُجْعَلُ بحكمِ الفَرْضِ عليهِ، ولا بُدَّ منهُ[(٨)].

وكذلكَ أمرُ الصيامِ لم يُجْعَلْ عمّا لا بُدَّ [منهُ للقوةِ][(٩)] ولكنْ فضلُ قوةٍ في الِاحْتِمالِ.

لكنَّ الزكاةَ هي مِنْ حقوقٍ ما يجوزُ أنْ تكونَ هي لغيرِ مَنْ عليهِ، فَفُرِضَ عليهِ البذلُ إلى غيرِهِ.

وحقوقُ الأفعالِ لا تَحتمِلُ أن يصيرَ السببُ الذي لهُ بهِ يجبُ[(١٠)] أنْ يكونَ [لغيرِهِ][(١١)]، فيجبُ عليهِ، فَجُعِلَ فرضُ ذلكَ الفعلِ في نفسِهِ، وهي تجبُ للأحوالِ لوجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ فيها [حقًّا شائعاً][(١٢)] على نحوِ النفقاتِ[(١٣)]، فأُخِّرَتْ هي إلى الحَولِ تخفيفاً أو لِما هي تجبُ في ما لَهُ حكمُ الفضلِ.

[والثاني: أنَّ][(١٤)] الفضلَ ما يَفْضُلُ عنِ الحاجةِ، والحاجاتُ تتجدَّدُ في أوقاتٍ لا أنها تتابَعُ، ولا يظهرُ في مثلِهِ الفضلُ إلّا بمدَّةٍ مبيَّنةٍ، أكثرُها حَولٌ.

ثم فرضُ الحجِّ جُعِلَ في العُمُرِ[(١٥)] مرةً لأنهُ في حقِّ الأسفارِ المديدةِ[(١٦)] التي لا يُختارُ مثلُها لِلَّذّاتِ إلّا في النوادِرِ، فلم يُوجَبْ مثلُهُ إلّا خاصاً، فأُوجِبَ في جميعِ العُمُرِ[(١٧)] مرةً. وقد أُوجِبَ في الأموالِ في كلِّ سنةٍ لأنَّ أربابَ الأموالِ قد يتقلَّبُونَ في البلادِ النائيةِ رغبةً في فضولِ اللَّذّاتِ، فلذلكَ يجوزُ فرضُ مثلِ ذلكَ.

[وعلى ذلكَ][(١٨)] أمرُ الجهادِ؛ على أنَّ الجهادَ كالذي لا بُدَّ مِنَ الأقواتِ، إذ في تركِ ذلكَ خوفُ غلبةِ الأعداءِ، وفيها تَلَفُ الأبدانِ والأديانِ [والأموالِ][(١٩)]، فَفُرِضَ على قَدْرِ ما فُرِضَ مِنَ الأقواتِ لِما بَيَّنْتُ مِنَ الخَلَلِ. ثم كانَتْ أحوالُ السفرِ؛ يكونُ على غيرِ المعروفِ مِنْ أحوالِ المقيمينَ في حقِّ الرزانةِ والوقارِ[(٢٠)] وحقِّ الِانْبِساطِ والنشاطِ. فعلى ذلكَ فرائضُ الأمرَينِ: نحوُ الجهادِ: فيهِ أنواعُ ما عُدَّ[(٢١)] في غيرِهِ مِنَ اللعبِ، وكذلكَ أمرُ الحجِّ. وعلى مثلِ هذا يُخَرَّجُ رميُ الجِمارِ والرَّمَلُ والسعيُ ومثلُ ذلكَ، فَجُعِلَ ذلكَ في حقِّ الأسفارِ سُنَّةً، وإنْ كانَ مثلُ ذلكَ عُدَّ في غيرِ ذلكَ عبثاً؛ إذْ قد بَيَّنّا مخرجَ العباداتِ على ما عليهِ أحوالُ العبادِ بأنفسِهِمْ لولا العباداتُ، واللهُ أعلمُ. ثم جُعِلَ ذلكَ في أمكنةٍ متباعدةِ الأطرافِ، إذْ هو بحقِّ أمرِ الأسفارِ يجبُ في المعهودِ، فَجُعِلَ [في][(٢٢)] النُّسُكِ بنفسهِ بالذي بِهِ يقطعُ الأسفارَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ووجهٌ آخرُ مِنَ المعتبراتِ[(٢٣)] أنَّ العباداتِ جُعِلَتْ أنواعاً: منها ما يبلُغُ القيامُ بحقِّها العامَ فصاعداً، [وهذهِ][(٢٤)] لم

---

(١) من ط م. (٢) من ط م وط ع، في الأصل امتداد امتزاجنا. (٣) من ط ع، في ط م: لكن، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من ط ع. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: فيه. (٦) من ط م، في الأصل وط ع: التصديق. (٧) في ط ع: بمثل. (٨) في النسخ الثلاث: ولا ندبه. (٩) من ط م، في الأصل وط ع: من القوة. (١٠) من ط م وط ع، في الأصل: يجيب. (١١) من ط م. (١٢) في الأصل: حقوق شائعة، في ط م: حقوقا شائعاً، في ط ع: حق شائع. (١٣) في ط م: نفقات. (١٤) في النسخ الثلاث: و. (١٥) من ط م وط ع، في الأصل: العمرة. (١٦) من ط م، في الأصل: المدينة، ساقطة من ط ع. (١٧) من ط م وط ع، في الأصل: العمرة. (١٨) في ط ع: مثل ذلك، ساقطة من الأصل. (١٩) من ط م. (٢٠) في ط ع: والوفاء. (٢١) من ط م، في الأصل و ط ع: وعد. (٢٢) من ط م. (٢٣) في ط م: المعتبر. (٢٤) من ط م.

يجزْ أنْ يُجعَلَ وقتُها[١] ينقصُ عَنِ احتِمالِ فِعْلِها[٢]، ولا وقتَ مِنْ طريقِ الإشارةِ أجمعُ لمختلِفِ[٣] الأحوالِ بعدَ سقوطِ اعْتِبارِ العُمُرِ مِنَ السنةِ.

ثم [لأنَّ][٤] فعلَ الحجِّ قد يمتدُّ [على][٥] ذلكَ، ويُجاوَزُ؛ لم يُجْعَلْ ذلكَ وقتاً لهُ، [وإنما جُعِلَ العُمُرُ لِما كانَ لا وقتَ يُشارُ إليهِ إلّا وجميعُ ما فيهِ مما يَحتمِلُهُ العامُ الآخرُ، وما تَقَدَّمُهُ، وماتأخَّرَهُ. ثم في العُمُرِ أحوالٌ، لا تَحتمِلُ إضافتَها إلى الأعوامِ؛ لأنَّ ما يُضافُ إلى عامٍ فذلكَ لكلِّ عامٍ. وليسَ ما يُضافُ إلى العُمُرِ موجوداً بحقِّ الأعوامِ، فجُعِلَ ذلكَ وقتَهُ، واللهُ أعلمُ][٦].

ثم الزكاةُ، هي تجبُ للأموالِ [صوناً لها][٧] لكسبِ عُدَدٍ وفضلِ غِنًى / ١٩ ـ ب/ ولكنْ على ذلكَ تُكتَسَبُ[٨] لأحوالِ الحياةِ لا لِما يختلِفُ[٩]، فلم يمتدَّ أمرُها إلى العُمُرِ؛ على أنها جُعِلَتْ حقّاً[١٠] للفقراءِ. ومتى أُريدَ جعلُ الوقتِ لهُ العُمَرَ يصيرُ لغيرِهِ، ويجبُ فيهِ ما يجبُ في الأوّلِ، فتبطلُ الزكاةُ، ويبقى الفقراءُ بلا عيشٍ. إذِ اللهُ بفضلِهِ قَدَّرَ أقواتَ[١١] الخَلْقِ، ثمَّ فضَّلَ الخلقَ في الأملاكِ حتى كانَ بعضُهُمْ لا يملِكُ شيئاً، وبعضُهُمْ يجاوزُ ما ينالُ أضعافَ غيرِهِ[١٢].

ثبتَ أنَّ ذلكَ لهُ بما[١٣] يقتضي بهِ كفايةَ الفقراءِ، فلا بدَّ أنْ يجعلَ لذلكَ مدةً يتوسَّعُ في ذلكَ الفريقانِ جميعاً. ثم كانتِ الأقواتُ التي [هي مجعولةٌ][١٤] للخَلْقِ [جميعاً][١٥] تتجدَّدُ في كلِّ عامٍ على ذلكَ؛ إذْ جُعِلَتْ أقواتُ الفقراءِ في أموالِ الأغنياءِ؛ جُعِلَتْ في كلِّ عامٍ على أنهُ إذْ جُعِلَتْ أقواتُ الخَلْقِ في كلِّ[١٦] بركاتِ السماءِ والأرضِ؛ جعَلَها متجدِّدَةً بتجدُّدِ الأعوامِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

والصلاةُ والصيامُ عبادتانِ تلزمُ قوى الأبدانِ؛ فعلى ما تَختلفُ قواهما اخْتلِفَ[١٧] في الأمرِ بهما والتركِ وفي أنواعِ الرُّخَصِ. لكنَّ الصلاةَ ليسَ فيها مكابدةُ [الشهواتِ][١٨] ولا مدافعةُ اللّذّاتِ؛ إذْ لا سَبيلَ إلى مثلِها متتابعاً لِما يُصَيِّرُ اللّذّةَ ألَماً والشهوةَ وَجَعاً، فَيُبْطِلُ حقَّ التتابعِ، وقَدْرُ المفروضِ مِنَ الصلواتِ لا يَشْتغِلُ عمّا يقومُ بها النفسُ. والصيامُ يضادُّ[١٩] ذلكَ، ويَضُرُّ في البدنِ، فجعلَ عبادةَ الصلواتِ في كلِّ يومٍ وعبادةَ[٢٠] الصيامِ في أوقاتٍ[٢١] متراخيةٍ؛ إذْ هي تضادُّ[٢٢] معنَى المجعولِ لهُ الأغذيةَ بينَ إقامةِ الأبدانِ، وفي الصيامِ خوفُ فنائِها، لذلكَ استُعينَ بطولِ الاغْتِذاءِ على أوقاتِ الصيامِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: إنَّ اللهَ أنعمَ على البشرِ بما هو غِذاءٌ وقِوامٌ وبما هو لذةٌ وشهوةٌ، ثم أنعمَ عليهِمْ بما هو لهُمْ بهِ رفعةٌ وجاهٌ عندَ الخَلْقِ، وهي الأموالُ، فألزَمَهُمْ في كلِّ نوعٍ مِنْ هذه الأنواعِ عباداتٍ.

وعلى ذلكَ وضعَ[٢٣] كلَّ نوعٍ منها لِقُوَّةِ[٢٤] النعمةِ التي هي المرغوبةُ المختارةُ في الطبيعةِ، وإلى ما يُديمُ[٢٥] تلكَ [النعمةَ][٢٦] يدعو العقلَ لِيَبْذِلَ[٢٧] ما ينقطعُ منهُ، ثم جُعِلَتْ قِوَى النفسِ بشهواتِها، ونِعَمُ الأموالِ بأنواعِ الكدِّ والجهدِ.

فعلى ذلكَ خَفَّفَ حقوقَ الأموالِ، فلم يجعلْ إلّا في الفضلِ الذي الإختِيارُ[٢٨] لهمْ ألّا يَبلغُوا بالجهدِ ذلكَ. [ففي ذلكَ][٢٩] جُعِلَتِ الحقوقُ على ما يَحتمِلُ الوُسْعُ لهمْ مِنَ الترتيبِ مع اليُسْرِ الذي أخبرَ اللهُ أنهُ يريدُ بهمْ ذلكَ لا العُسْرَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ دلَّ سؤالُهُ[٣٠] التوبةَ أنَّ الأنبياءَ ﷺ قد يكونُ منهُمُ الزلاتُ والعَثَراتُ

---

(١) من ط م، في الأصل وط ع: وقته. (٢) من ط م، في الأصل وط ع: فعله. (٣) من ط م وط ع، في الأصل: المختلف. (٤) من ط م. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) من ط م. (٧) من ط م، في الأصل: صولها، في ط ع: وصولها. (٨) في ط م: يكتب. (٩) في ط م: يخلف. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) من ط م وط ع، في الأصل: أوقات. (١٢) في النسخ الثلاث: عمره. (١٣) من ط م وط ع، في الأصل: بها. (١٤) من ط ع، في الأصل: مجعولة، في ط م: هي مجهولة. (١٥) من ط م. (١٦) ساقطة من ط م. (١٧) من ط م، في الأصل وط ع: اختلفا. (١٨) من ط م. (١٩) في ط ع: يضار. (٢٠) من ط م وط ع. في الأصل: عبادة. (٢١) من ط م، في الأصل وط ع: أيام. (٢٢) في ط م: قضاء. (٢٣) من ط م، في الأصل وط ع: وقع. (٢٤) في ط م: يفوت، في ط ع: لفوت. (٢٥) في النسخ الثلاث: يدوم. (٢٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢٧) في النسخ الثلاث: يبذل. (٢٨) في ط م: لا اختيار. (٢٩) من ط م وط ع. (٣٠) في ط م: سؤال.

[على][1] غيرِ قصدٍ منهُم. ثم فيه الدليلُ على أنَّ العبدَ قد يُسألُ عَنْ زَلَّةٍ لم يَتَعَمَّدْها، ولم يقصِدْها لأنهمْ سألُوا التوبةَ مُجمَلاً. ولو كانَ سبقَ منهُمْ شيءٌ عَلِمُوا بهِ، وعرفُوهُ، لَذَكَرُوهُ، فدلَّ سؤالُهُمُ التوبةَ مُجمَلاً، على أنَّ العبدَ مسؤولٌ عَنْ زَلَّاتٍ لم يتعَمَّدْها.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [يَحْتمِلُ وجوهاً: يَحْتمِلُ ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ مِنَ المسلمينَ لأنهُ أخبرَ أنّ عهدَهُ لا يَنالُ الظالمَ. ويَحْتمِلُ ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾][2] مِنْ جنسِهِمْ مِنَ البشرِ [لأنه أقربُ][3] إلى المعرفةِ والصدقِ مِمَّنْ كانَ مِنْ غيرِ جنسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الآيةَ[4] [الأنعام: ٩]. ويَحْتمِلُ ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي مِنْ قومِهِمْ[5] ومِنْ جنسِهِمْ وبلسانِهِمْ لا مِنْ غيرِهِمْ ولا بغيرِ لسانِهِمْ كقولِهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ١٢٨]. [واللهُ أعلمُ][6].

وقولُهُ: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ قيلَ: الآياتُ هي الحججُ. وقيلَ: الآياتُ هي الدينُ. ويَحْتمِلُ: يدعوهُمْ إلى توحيدِكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ: ما أمرَهُمْ بهِ، ونهاهُمْ عنه ونحوَ ذلكَ[7]. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قيلَ: الفقهُ؛ يقولُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وما فيهِ مِنَ الفقهِ. وقيلَ: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: ما فيهِ مِنَ الأحكامِ مِنَ الحلالِ والحرامِ. [وقيلَ: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي السُّنَّةُ ههنا][8]. وقيلَ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي الإصابةُ. وبعضُ هذا قريبٌ[9] مِنْ بعضٍ، وباللهِ التوفيقُ.

وقالَ [الحسنُ][10]: (الحكمةُ، هي القرآنُ أعادَ القولَ بهِ، يعني تكراراً)[11]. وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما (الحكمةُ: الفقهُ).

وقولُهُ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما (يأخذُ زكاةَ أموالِهِمْ؛ فذلكَ يزكيهِمْ كقولِهِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾) [التوبة: ١٠٣]. وقيلَ: يزكِّيهِمْ إلى ما بهِ زكاةُ أنفسِهِمْ. وقيلَ: يزكِّيهِمْ بعملِ الصالحِ.

فإنْ قالَ لنا قائلٌ مِمَّنْ يَنْتَحِلُ مذهبَ الاعتزالِ: أليسَ اللهُ ﷻ أضافَ التزكيةَ والهدايةَ إلى رسولِهِ، ولم يكنْ منهُ حقيقةُ فعلِ التزكيةِ والهدايةِ، ولا خُلِقَ ذلكَ منهُ؟ كيفَ لا قلتُمْ أيضاً في ما أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ: أنْ ليسَ فيهِ منهُ خَلْقٌ ولا حقيقةٌ سِوَى الدعاءِ والبيانِ على مالم يكنْ في إضافةِ ذلكَ إلى رسولِهِ سِوَى الدعاءِ والبيانِ؟

قيلَ: كذلكَ على ما قلتُمْ: إنهُ أضافَ ذلكَ إلى رسولِهِ بقولِهِ: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ [التوبة: ١٠٣] وبقولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقالَ[12]: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] غيرَ أنهُ جعلَ إلى نفسِهِ فضلَ هدايةٍ لم يجعلْ ذلكَ لرسولِهِ ﷺ. وأثبتَ زيادةَ تزكيةٍ، لم يُثْبِتْ ذلكَ لرسولِهِ ﷺ كقولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] [وكقولِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]][13]؛ فدلَّتْ إضافةُ تلكَ الزيادةِ إلى نفسِهِ على أنَّ لهُ [فضلَ فعلٍ][14] ليسَ ذلكَ لرسولِهِ، وهو خَلْقُ فعلِ الاهتداءِ وفعلِ التزكيةِ، وباللهِ التوفيقُ.

وبعدُ فإنَّ الرسولَ لا يَحتمِلُ أنْ يملكَ قدرةَ فعلِ أحدٍ يُقْدِرُهُ عليهِ لو أرادَهُ بما أقْدَرَهُمُ اللهُ على الفعلِ حتى قَدَرُوا، فجازَ أنْ يكونَ لهُ عليهِ قُدْرةٌ، و[في][15] تحقيقِها جوازُ خَلْقِ ذلكَ لهُ، [ومثلُهُ][16] في رسولِ اللهِ ﷺ لا يُحتَمَلُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي لا شيءَ يُعجِزُهُ. والعزيزُ بذاتِهِ. وكلُّ شيءٍ دونَهُ غيرُ عزيزٍ ذليلٌ. وقيلَ: العزيزُ: المنيعُ. وقيلَ: العزيزُ: المنتقِمُ مِنْ أعدائِهِ، والحكيمُ: هو المصيبُ في فعلِهِ، [والحكيمُ في أمرِهِ ونهيِهِ][17]، والحكيمُ: هو الذي أحكَمَ كلَّ شيءٍ وجعلَهُ[18] دليلاً على وحدانيتِهِ.

---

(١) من ط م وط ع. (٢) من ط م. (٣) من ط م، في الأصل و ط ع: لأنَّ الأقرب. (٤) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٥) من ط م وط ع، في الأصل: قولهم. (٦) ساقطة من الأصل وط م. (٧) أدرج في ط م بعد هذه الكلمة: وقوله. (٨) من ط م. (٩) في ط ع: أقرب. (١٠) من ط م. (١١) من ط م، في الأصل وط ع: تكرار. (١٢) في الأصل وط ع: وكقوله. في ط م: قوله. (١٣) من ط م. (١٤) من ط م، في الأصل: فضل فعمل، في ط ع: فضلاً فعملاً. (١٥) من ط م. (١٦) من ط م. (١٧) من ط م وط ع. (١٨) الواو ساقطة من النسخ الثلاث.

ثم ذكرَ بعضُ المفسرينَ عِلَلَ المناسِكِ؛ فقالَ: سُمِّيَتِ العرفاتُ عرفاتٍ لِما قيلَ لهُ: عَرَفْتَ، [ومِنىً لِما قِيلَ لهُ: تَمَنَّهُ][(١)]، ورميُ الجمارِ لِما استقبلَ إبراهيمَ[(٢)] الشيطانُ فرمى: فهذه العللُ لا تطمئنُّ بها القلوبُ، وتنفرُ عنها الطباعُ. ألَا تَرَى أنهُ ذُكِرَ في قصةِ آدمَ فعلُ ذلكَ جملةً، فزالَ المعنى الذي ذُكِرَ [في][(٣)] إبراهيمَ ﷺ ثم قد ذُكِرَ في الخبرِ أنَّ الملائكةَ قالتْ لآدمَ: (حَجَجْناها قبلَكَ بألفي عامٍ)، فثبتَ أنهمْ قد فعلُوا هذا كلَّهُ؟

ثم يمكنُ نصبُ الحكمةِ فيه مِنْ طريقِ الفِعْلِ[(٤)]، وهو أنَّ الحجَّ قصدٌ لزيارةِ ذلكَ المكانِ، أُمِرَ[(٥)] بمختلفِ الأفعالِ الواقعِ بها[(٦)] الزيارةُ؛ كالصلاةِ: إنها الخضوعُ لعينِهِ؛ أُمِرَ فيها بإحضارِ الأفعالِ المختلفةِ مِنْ حالِ الخضوعِ. ثم المرءُ قد يخضعُ مرةً بالقيامِ، ومرةً بالركوعِ، ومرةً بالسجودِ؛ أُمِرَ بإحضارِ مختلِفِ[(٧)] الأفعالِ التي فيها الزُّورةُ[(٨)]، غيرَ أنَّ الصلاةَ تخالِفُ الحجَّ [فَلِأَنَّ][(٩)] أفعالَها فعلُ المعاشِ أُمِرَ بإحضارِ حالةٍ تذكِّرُهُ [الخضوعَ والوقوفَ للهِ][(١٠)] مفرّقاً بينَ [تلكَ][(١١)] الحالةِ وحالةِ المعاشِ، ولهذا تُقْضَى في كلِّ مكانٍ.

ثم أفعالُ الحجِّ في ظاهرِها إلى أفعالِ المعاشِ وما إليهِ وقعَ القصدُ لا عينِها، غيرَ أنَّ فيهِ تَكَلُّفَ[(١٢)] المعاشِ، ولهذا ما لايُقْضَى[(١٣)] في كلِّ مكانٍ.

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ثم اخْتُلِفَ في الملةِ: قيلَ: الملةُ [الدينُ، وقيلَ: الملةُ: السُّنَّةُ][(١٤)]، وقيلَ: [الملةُ][(١٥)] الإسلامُ، وكلُّهُ واحدٌ؛ و[قد][(١٦)] ذكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ[(١٧)].

وقولُهُ: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ بما يعملُ مِنْ عملِ السَّفَهِ. ويَحتمِلُ ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [أي بنفسِهِ][(١٨)] فكانَ انْتِصابُهُ لِانْتِزاعِ حرفِ الخافضِ. وقيلَ: [﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾][(١٩)] جَهِلَ نفسَهُ، فيضَعُها في غيرِ موضعِها.

[وقولُهُ][(٢٠)]: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالنبوةِ والرسالةِ والعصمةِ. ويَحتمِلُ ما جَزاهُمْ في الدنيا بثناءٍ حسنٍ، لم يُنْقِصْ مِنْ جزائِهِمْ في الآخرةِ.

[وقولُهُ][(٢١)]: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في المنزلةِ والثوابِ. ويَحتمِلُ ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لَمِنَ المرسَلِينَ أنْ يكونَ بشَّرَهُ في الدنيا أنهُ كانَ مِنَ الصالحِينَ في الآخرةِ؛ فيكونُ في ذلكَ وعدٌ لهُ بصلاحِ الخاتمةِ كما وعدَ محمداً ﷺ مغفرةَ /٢٠ ـ أ/ ما تقدَّمَ مِنَ الذنبِ وما تأخَّرَ. وفي ذلكَ أيضاً وعدٌ بصلاحِ الخاتمةِ، واللهُ أعلمُ، فأخبرَ بما كانَ بشَّرَهُ. ويجوزُ تفاضُلُهُمْ في الآخرةِ على ما كانُوا عليهِ.

الآية ١٣١ وقولُهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيلَ [﴿أَسْلِمْ﴾][(٢٢)] أخلِصْ. ويَحتمِلُ [أنْ يكونَ أمراً بابْتِداءِ إسلامٍ على][(٢٣)] ما ذكَرْنا[(٢٤)] مِنْ تجدُّدِهِ في كلِّ وقتٍ يَهُمُّهُ[(٢٥)]، ثم يَحتمِلُ أن يكونَ[(٢٦)] وحياً أوحَى إليهِ؛ أنْ قُلْ: كذا، فقالَ بهِ، فإنْ كانَ وحياً فهو على أنْ يُسلِمَ نفسَهُ للهِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ إسلامَ القلبِ بتغاضي[(٢٧)] الخِلْقةِ بالإسلامِ. فإنْ كانَ على هذا فهو على الإسلامِ دونَ التوحيدِ[(٢٨)]، ويَحتمِلُ [أن يكونَ][(٢٩)] إسلامَ خِلقةٍ كقولِهِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] بالخِلْقةِ[(٣٠)]. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ لإبراهيمَ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، فدعاهُمْ، فأجابُوهُ في أصلابِ آبائِهِمْ إجابةَ الخِلْقةِ وقتَ كونِهِمْ.

---

(١) من ط م، في الأصل: ومنا لنا قيل: ثمنه، في ط ع: ومنا لما قيل له: ثمنته. (٢) في النسخ الثلاث: لإبراهيم. (٣) من ط م وط ع. (٤) في ط م وط ع: العقل. (٥) في ط م: فأمر. (٦) من ط م، في الأصل وط ع: به. (٧) من ط م، في الأصل وط ع: مختلفة. (٨) من ط م، في الأصل: المرورة، في ط ع: الضرورة. (٩) من ط م. (١٠) في ط م: الخضوع والوقوف. (١١) من ط م وط ع. (١٢) من ط م وط ع، في الأصل: يتكلف. (١٣) من ط م وط ع، في الأصل: يقتضى. (١٤) من ط م وط ع، في الأصل: والدين السنة. (١٥) من ط م وط ع. (١٦) من ط م وط ع. (١٧) في تفسير الآية: ١٠٢ . (١٨) من ط م وط ع. (١٩) من ط ع. (٢٠) من ط م وط ع. (٢١) من ط م وط ع. (٢٢) من ط ع. (٢٣) في الأصل: أمر بالأمر بابتداءِ إسلام، في ط م: (أن يكون أمر) بابتداء الإسلام، في ط ع: أمر بالأمر بابتداء إسلامه. (٢٤) كان ذلك في تفسير الآية: ١٢٨ . (٢٥) من ط م، في الأصل وط ع: يهمه. (٢٦) سقطت العبارة: أن يكون من ط ع. (٢٧) من ط م، في الأصل وط ع: يتقاضى. (٢٨) من ط ع، في الأصل: توحيد، في ط م: توحيده. (٢٩) من ط م. (٣٠) من ط م، في الأصل: بخلقة، ساقطة من ط ع.

وقيلَ: يَحتمِلُ [أنْ يكونَ أمرًا](1) بابْتِداءِ الإسلامِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] إلى آخرِهِ، ثم قالَ: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] يكونُ جوابَ قولِهِ: ﴿أَسْلِمْ﴾ واللهُ أعلمُ.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ يعني بالملَّةِ، [والملَّةُ](2) تَحتمِلُ ما ذكَرْنا. [وقولُهُ](3): ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ وهو الإسلامُ، ردّاً على قولِ أولئِكَ الكَفَرَةِ: (إنَّ إبراهيمَ كانَ على دينِهِمْ؛ لأنَّ اليهودَ زعمَتْ أنهُ كانَ على دينِهِمْ يهوديًا) وقالتِ النصارى: (بل كانَ على النصرانيَّةِ). وعلى ذلكَ [كانُوا لغيرِهِمْ يقولُونَ](4): ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥]. فلمّا ادَّعى كُلُّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ أنهُ كانَ على دينِهِمْ أكْذَبَهُمُ اللهُ ﷻ في قولِهِمْ، وردَّ عليهِمْ ذلكَ(5)، فقالَ: [قُلْ](6) يامحمدُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: أخبرَ ﷻ أنَّ دينَهُ كانَ دينَ الإسلامِ، وهو الذي اصْطفاهُ لَهُ، والدينُ(7) الذي اختارُوا هُمْ مِنَ اليهوديَّةِ والنصرانيَّةِ لِقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]: أي ليسَ لهُ.

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ يقولُ: أكنتُمْ شهداءَ ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي ما كُنْتُمْ شهداءَ حينَ حضرَ يعقوبَ الموتُ.

قيلَ: ويَحتمِلُ أنْ يكونَ(8) أنْ قالُوا للنبيِّ ﷺ أَلَسْتَ تعلمُ أنَّ يعقوبَ يومَ ماتَ أوصَى بَنيهِ بدينِ اليهوديَّةِ؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي أكنتُمْ شهداءَ وصيةِ يعقوبَ بَنيهِ؟ أي لم تَشهَدُوا وصيَّتَهُ، فكيفَ قلْتُمْ ذلكَ؟.

ثم أخبرَ ﷻ عَنْ وصيةِ يعقوبَ بَنيهِ، فقالَ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(9) يعني مُخلِصِين(10) بالتوحيدِ وبجميعِ الكتبِ(11) والرسلِ، ليسَ كاليهودِ والنصارى يؤمنُونَ ببعضٍ، ويكفُرون ببعضٍ، ثم يَدَّعُون [أنَّ ذلكَ](12) دينُ إبراهيمَ ودينُ بَنيهِ. ثم في الآيةِ دلالةُ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبرَ عنِ الأخبارِ التي قالُوا مِنْ غيرِ نظرٍ منهُ(13) في كتبِهِمْ ولا سماعٍ منهُمْ ولا تعلُّمٍ؛ دلَّ أنهُ باللهِ عَلِمَ، وعنهُ أخبرَ.

الآية ١٣٤ [وقولُهُ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لـمّا(14) ادَّعوا أنَّ إبراهيمَ ومَنْ ذكرَ مِنَ الأنبياءِ كانُوا على دينِهِمْ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ أنتمْ عن دينهِمْ وأعمالِهِمْ(15)، ولا هُمْ يُسألُونَ عَنْ دينِكُمْ وأعمالِكُمْ، بل كُلٌّ يُسألُ عنْ دينِهِ وما يعملُ بهِ](16).

الآية ١٣٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾](17) [قد ذكَرْناهُ(18) متضمَّناً فيما تقدَّمَ](19).

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية؛ فالآيةُ تَنْقُضُ على مَنْ يَستثني في إيمانِهِ: لأنهُ أمرَهُمْ أنْ يقولُوا قولاً باتّاً لاثُنيا فيهِ، ولا شكَّ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧]. ثم يَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا ردّاً على أولئكَ الكفرةِ حينَ فرَّقُوا بينَ الرسلِ؛ آمَنُوا ببعضِهِمْ، وكفَرُوا ببعضٍ، وكذلكَ آمنُوا ببعضِ الكتبِ، وكفرُوا ببعضِها، فأمرَ اللهُ ﷻ المؤمنِينَ، ودعاهُمْ إلى أنْ يؤمِنُوا بالرسلِ كُلِّهِمْ والكتبِ جميعاً، لا يفرِّقونَ بينَ أحدٍ منهُمْ كما فرَّقَ أولئكَ الكفرةُ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ابْتِداءَ تعليمِ الإيمانِ مِنَ اللهِ ﷻ لهمْ(20) بما ذكرَ مِنَ الجملةِ.

---

(١) من ط م. (٢) من ط م وط ع. (٣) من ط م وط ع. (٤) من ط ع، في الأصل: كانوا، في ط م: في ذلك. (٥) في ط م: في ذلك. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) في ط م: لا الدين. (٨) سقطت العبارة: أن يكون من ط م. (٩) أدرج قبلها في الأصل: الآية وقوله. (١٠) من ط ع وط م، في الأصل: مختلفين. (١١) من ط م وط ع، في الأصل: الكتاب. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: دليل. (١٣) من ط م، في الأصل و ط ع: منهم. (١٤) أدرج قبلها في الأصل وط ع: كانه، في ط م: كان. (١٥) ساقطة من ط ع. (١٦) أدرج تفسير هذه الآية في الأصل وط م بعد تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ . . . فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٧]. (١٧) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٨) في ط ع: ذكرناها. (١٩) من ط ع. (٢٠) من ط م، في الأصل وط ع: بهم.

ثم اختُلِفَ في الحنيفِ: قيلَ: الحَنيفُ المسلِمُ، وقيلَ: الحَنيفُ[1] الحَجّاجُ، وقيلَ: كُلُّ حَنيفٍ ذُكِرَ بعدَهُ مسلِمٌ فهو الحَجّاجُ، وكلُّ حنيفٍ لم يُذْكَرْ بعدَهُ مسلِمٌ فهو مسلِمٌ، وقيلَ[2]: الحَنيفُ المائلُ إلى الحقِّ والإسلام.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][3] قالَ: (لا تقرأ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فإنَّ اللهَ ليسَ له مِثْلٌ، ولكنِ اقرأ: فإن آمنوا بالذي آمَنْتُمْ به [أو بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ][4]) وكذلكَ في حرفِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه فإن آمنوا بما آمنْتُمْ به[5] تصديقاً لذلكَ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أنَّ الكافَ زائدةٌ، أي ليسَ مثلَهُ شيءٌ، وهو في[6] حرفِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه كذلكَ. ويَحتمِلُ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بلسانِهِمْ ﴿ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ﴾ بلسانِكُمْ مِنَ الرسلِ والكتبِ جميعاً ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾[7].

[وقولُهُ: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾][8]؛ قيلَ: الشقاقُ هو الخلافُ الذي فيه العداوةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا وعيدٌ مِنَ اللهِ تعالى لهمْ، ووَعْدٌ، وعدَ نبيَّهُ بالنصرِ[9] لهُ؛ لأنَّ أولئكَ كانُوا يتناصَرونَ بتناصرِ بعضِهِمْ ببعضٍ، فوعدَ لهُ تعالى بقتلِ بعضٍ وإجلاءِ آخرينَ إلى الشامِ وغيرِهِ.

الآية ١٣٨ وقولُهُ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [قيلَ: دينُ اللهِ، وقيلَ: فطرةُ اللهِ][10]، كقولِهِ [صلى الله عليه وسلم][11]: «كُلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ» [مسلم ٢٦٥٨]، وقيلَ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ حجةُ اللهِ التي أقامَها على أولئكَ، وقيلَ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ سُنَّةُ اللهِ. ثم يُرَجَّحُ[12] قولُهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي ديناً وسُنَّةً وحجَّةً تُدرَكُ بالدلائلِ التي نصبَها[13]، وأقامَها فيهِ، ليسَ كدينِ أولئكَ الذينَ أسَّسوا على الحَيرةِ والغفلةِ بلا حجةٍ ولا دليلٍ.

وقيلَ: إنَّ النصارى كانوا يضَعُونَ[14] أولادَهُمْ في ماءٍ لِيُطَهِّرُوهُمْ[15] بذلكَ، فقالَ اللهُ تعالى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ يعني: الإسلامُ هو الذي يُطَهِّرُهُمْ لا الماءُ.

وقولُهُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾، قيلَ: ﴿عَٰبِدُونَ﴾[16] موحِّدُونَ، وقيلَ: ﴿عَٰبِدُونَ﴾[17] مسلِمُونَ، [وقيلَ: ﴿عَٰبِدُونَ﴾ مخلِصُونَ][18]، ويَحتمِلُ: نحنُ عبيدُهُ.

الآية ١٣٩ وقولُهُ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾؛ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ونحنُ أولَى باللهِ منكُمْ، فأنزلَ اللهُ في ذلكَ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾؛ وقيلَ: ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ يعني في دينِ [اللهِ][19]، أي أتحاجُّونَ، وتخاصِمُونَ في دينِ اللهِ؟.

وقولُهُ: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي أتحاجُّونَ في اللهِ معَ علمِكُمْ[20] وإقرارِكُمْ أنهُ ربُّنا وربُّكُمْ بقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقولُهُ: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ قيلَ: لَنا دينُنا ولَكُمْ دينُكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ويَحتملُ ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ لا تُسألُونَ أنتُمْ عنها، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ ولا نُسألُ نحنُ عَنْ أعمالِكُمْ، كقولِهِ: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤ و١٤١].

[وقولُهُ][21]: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [أي][22] ديناً وعملاً، لا نشركُ فيهِ غيرَهُ.

---

(١) من ط م وط ع، في الأصل: المسلمُ. (٢) من ط م، في الأصل وط ع: وقال. (٣) في الأصل: عنه، في ط ع: عنه أنه، في ط م: عنهما. (٤) ساقطة من ط ع. (٥) من ط ع، في الأصل وط ع: بمثل، انظر المحتسب ١/ ١١٣ وتفسير الطبري ٣/ ١١٤. (٦) ساقطة من ط ع. (٧) وأدرج بعد هذه الكلمة في الأصل وط ع ما ذكرنا في نهاية تفسير الآية ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ انظر ذلك؛ وأدرج بعد هذه الكلمة في ط م أيضاً العبارة التالية: ويحتمل ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي بلسان غير لسانهم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾. (٨) ساقطة من ط ع. (٩) من ط ع، في الأصل وط م: بالصبر. (١٠) في ط ع: قيل: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ دين الله، وقيلَ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ فطرة الله. (١١) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٢) من ط م، في الأصل وط ع: يرجع. (١٣) من ط م، في الأصل وط ع: يصيبها. (١٤) في النسخ الثلاث: يصبغون. (١٥) في الأصل وط ع: ليطهرهم، في ط م: ليطروهم. (١٦) من ط ع. (١٧) من ط ع. (١٨) من ط ع، في الأصل وط م: مخلصون. (١٩) من ط م وط ع. (٢٠) في الأصل: عملكم، وهو سهو الناسخ. (٢١) من ط ع. (٢٢) من ط ع.

الآية ١٤٠ وقولُهُ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾؛ قيلَ: بل تقولُونَ، وقيلَ: على الِاسْتِفهامِ في الظاهرِ: أتقولُونَ؟ لكنهُ على الرَّدِّ والإنكارِ عليهِمْ؛ وذلكَ أنَّ اليهودَ قالُوا: إنَّ إبراهيمَ وبَنِيهِ كانوا هوداً أو نصارى. وقالَ[1] اللهُ تعالى: قُلْ يامحمدُ: أنتمْ أعلمُ بدينِهِمْ أمِ اللهُ، معَ إقرارِكُمْ أنه ربُّكُمْ، لا يَخفَى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ؟ ومعنَى الِاسْتِفهامِ هو تقريرُ ما قالُوهُ كالرَّدِّ عليهِمْ والإنكارِ.

[وقولُهُ][2]: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ قيلَ: الشهادةُ التي [عندَهُ: عِلْمُهُمْ أنهمْ كانُوا مسلِمينَ، ولم يكونُوا على دينِهِمْ، وقيلَ: الشهادةُ التي][3] عندَهُمْ بالإسلامِ أنهُ دينُ اللهِ، وأنهُ حقٌّ، وقيلَ: الشهادةُ التي كانَتْ عندَهم محمدٌ ﷺ في كتابِهِمْ، وأخذَ عليهِمُ المواثيقَ والعهودَ بقولِهِ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فكتَمُوهُ، وكذَّبُوهُ، وقيلَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في قولِ اليهودِ لإبراهيمَ عليه السلام وما ذُكِرَ مِنَ الأنبياءِ كانُوا هوداً أو نصارى، فيقولُ اللهُ ﷻ لا تكتمُوا الشهادةَ إنْ كانَ عندَكُمْ علمٌ بذلكَ[4] / ٢٠ ـ ب/ وقد علمَ اللهُ أنكمْ[5] كاذِبُونَ، وقيلَ: الأسباطُ بنو يعقوبَ سُمُّوا أسباطاً لأنهُ وُلِدَ لكلِّ رجلٍ منهُمْ أمةٌ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ خرجَ على الوعيدِ؛ أي لا تحسَبُوا أنهُ غافلٌ عمَّا تعمَلُونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ لم ينشِئْهُمْ على غفلةٍ مما يعمَلونَ، بل على علمٍ بما يَعمَلُونَ؛ خَلَقَهُمْ ليُعلَمَ أنْ ليسَ لهُ في شيءٍ مِنْ عملِ الخَلْقِ لهُ حاجةٌ لِيخلُقَهُمْ على رجاءِ النفعِ لهُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ، خلقَهُمْ، وهو يعلَمُ بأنهمْ[6] يعصونَهُ[7].

الآية ١٤١ وقولُهُ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ الآيةَ، قد ذكَرْنا هذا فيما مرَّ[8].

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هذا، واللهُ أعلمُ، وعدٌ، كانَ وعدَهُ ﷻ نبيَّهُ ﷺ أنهُ يحوِّلُهُ إلى الكعبةِ مِنْ بيتِ المقدسِ، وإخبارٌ عما يقولُ لهُ اليهودُ قبلَ أنْ يحوِّلَ، وقبلَ أنْ يقولُوا لهُ شيئاً! ألَا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] أنه لو لم يكنْ فيها وعدٌ بتحويلِ القبلةِ مِنْ بيتِ المقدسِ إلى الكعبةِ لكانَ تَقَلُّبُ وجهِهِ إلى السماءِ بذلكَ تخييرٌ منهُ وحكمٌ[9] عليهِ، وليسَ لأحدٍ على اللهِ التخييرُ والحكمُ[10] في الأحكامِ والشرائعِ ولا في غيرِها؟ فدلَّ أنه على الوعدِ ما فعلَ، واللهُ أعلمُ.

ثمَّ فيه إثباتُ رسالةِ محمدٍ ﷺ حينَ كانَ أخبرَهُ على ما أخبرَ مِنَ التحويلِ إلى الكعبةِ؛ وذلكَ لأنهمْ[11] يَرَونَ نسخَ الشرائعِ والأحكامِ أنهُ[12] كالبَداءِ والرجوعِ عنها؛ وذلكَ فعلُ مَنْ يجهلُ عواقبَ الأمورِ: كبانٍ بنى بناءً، ثم نقضَهُ لجهلٍ منهُ بهِ، لكنَّ ذلكَ منهمْ جهلٌ بمعرفةِ النسخِ وقدرِهِ. ولو عرفُوا ما النسخُ ما نَفَوُا الشرائعَ والأحكامَ.

وأما النسخُ عندَنا فهو بيانُ مُنتَهى الحكمِ إلى وقتٍ ليسَ فيهِ [بَداءٌ ولا نَقْضٌ][13] لِما مَضَى، بل تجديدُ حكمٍ في وقتٍ بعدَ انقضاءِ حكمٍ على بقاءِ الأولَى لوقتِ كونِهِ، ليسَ على ما فهمتِ اليهودُ مِنَ البَداءِ والنقضِ لِما مضى كالبناءِ الذي وضعُوا، وباللهِ التوفيقُ.

وإنْ كانتِ الآيةُ في غيرِ اليهودِ مِنْ أهلِ مكةَ، على ما يقولُ بعضُ أهلِ التفسيرِ، فقالُوا: لمّا رجعَ محمدٌ إلى قبلتِنا مِنَ القبلةِ الأولَى رَجَعَ[14] إلى دينِنا، فقالَ[15] اللهُ ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾[16]: ﴿قُلْ﴾ يامحمدُ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ والأمكنةُ كلُّها والنواحي؛ يأمرُ بالتوجُّهِ إلى أيِّ ناحيةٍ شاءَ شرقاً وغرباً. فالطاعةُ لهُ في الِائْتِمارِ لأمرِهِ والقبولِ لدعائِهِ[17] لا للتوجُّهِ نحوَ المشرقِ أو نحوَ المَغرِبِ لِهَوَى هَوُوا وتَمَنٍّ تَمَنَّوا؛ لأنَّ اليهودَ جعلُوا قِبْلَتَهُمُ المغربَ اتّباعاً

---

(١) في ط م وط ع: قال. (٢) من ط م وط ع. (٣) من ط م. (٤) من ط م وط ع، في الأصل: ذلك. (٥) من ط م، في الأصل وط ع: أنهم.
(٦) في ط م: أنهم. (٧) انتهت في هذه الآية المقابلة على ط م بانتهائه وتحولت إلى م. انظر ما ذكرته في عملي في المقدمة، أدرج في م وط ع تتمةُ الآية. (٨) في م وط ع: تقدم، وكان ذلك في تفسير الآية (١٣٤). (٩) في النسخ الثلاث: وتحكم عليه. (١٠) في النسخ الثلاث: والتحكم عليه. (١١) في النسخ الثلاث: أنهم لا. (١٢) في النسخ الثلاث: لأنه. (١٣) في ط ع: بده ولا نقص. (١٤) في النسخ الثلاث: يرجع. (١٥) من ط ع، في الأصل وم: قال. (١٦) من ط ع. (١٧) في الأصل: لدعاء.

لِهَوَاهُمْ لا اتّباعاً لأمرٍ أُمِرُوا بِهِ. وكذلكَ النصارى اتَّخذُوا المشرقَ قِبْلَةً لِهَوى أنفسِهِمْ، فأخبرَ اللهُ ﷻ المؤمنينَ[1] أنهمْ يأتَمِرُونَ باللهِ، حيثما أُمِرُوا توجَّهُوا نحوَهُ.

وقولُهُ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا على المعتزلةِ لأنهُ أخبرَ ﷻ أنهُ ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، ولا جائزٌ أنْ يهديَ، وهو لا يهتدي، وهم يقولُونَ: شاءَ أنْ يهديَ ولكنْ لم يهتَدُوا. قولُهُ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ على أنَّ مشيئةَ الهدايةِ ليسَتْ للكُلِّ على ما قالتِ المعتزلةُ: إنَّ هدايتَهُ بيانٌ؛ وذلكَ للجميعِ.

وفيهِ دليلُ نسخِ السُّنَّةِ بالكتابِ؛ لأنَّ القِبْلَةَ إلى بيتِ المقدسِ لم تكنْ مذكورةً في الكتابِ، بل عملُوا على سُنَّةِ الأولينَ الماضِينَ. وهذا على الشافعيِّ؛ لأنهُ لا يرى نسخَ السُّنَّةِ بالكتابِ إلّا بعدَ عملِ رسولِ اللهِ ﷺ فإذا عملَ بهِ صارَ سُنَّةً، فهو نسخُ السُّنَّةِ بالسُّنَّةِ، لا نسخٌ بالكتابِ. فهذا منهُ قبيحٌ فاحشٌ، وفيهِ نَبْذُ الكتابِ وهَجْرُهُ، وقد نُهينا عنهُ والحكم على اللهِ ﷻ لأنهُ لم يجعلِ الكتابَ مِنَ القَدْرِ ما يقعُ فيهِ الزجرُ على ما كانَ عليهِ آنفاً، لولا عِلْمُهُ ﷺ فنعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ والزَّيغِ عنِ الهُدَى، ولكنْ لم يَعْرِفْ ما النسخُ، وما قَدْرُهُ، ولو عَلِمَ لما قالَ بمثلِهِ.

وهو عندنا ما ذكرْنا مِنْ بيانِ مُنْتَهى الحكمِ إلى وقتِهِ، وللهِ، جلَّ جلالُهُ، نصبُ الأحكامِ والشرائعِ في كُلِّ وقتٍ؛ بيَّنَ ذلكَ مَرَّةً بالكتابِ وتارةً على لسانِ المصطفى ﷺ وباللهِ التوفيقُ، ولمّا جعلَ لهُ ﷺ أنْ يعملَ بهِ، نَسَخَ الكتابُ فيه تلكَ الشريعةَ، فكذلكَ في غيرِهِ مِنَ الناسِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٤٣ وقولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وكذلكَ لا يَتَكَلَّمُ رسولُ ﷺ إلّا على العطفِ على ما سبقَ مِنَ الخطابِ، وهو، واللهُ أعلمُ، معطوفٌ على قولِهِ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦]؛ كأنهُ قالَ: كما وفَّقَكُمْ على الإيمانِ بما ذكرَ، وهداكُمْ للإسلامِ، كذلكَ جعلَكُمْ ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ يعني عَدْلاً ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ قيلَ ﴿عَلَى﴾ بمعنى اللامِ، أي: للناسِ، وهذا جائزٌ في اللغةِ سائغٌ كقولِهِ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، أي للنُّصُبِ؛ وقيلَ: ﴿عَلَى﴾ بمعنى على أن تَشْهَدُوا على الأممِ للأنبياءِ على تبليغِ الرسالةِ، ويشهدُ لهمُ الرسولُ بالعدالةِ. وفيهِ دليلُ قبولِ شهادةِ أهلِ الإسلامِ على أهلِ الكفرِ وردُّ شهادتِهِمْ علينا؛ لأنهُ لو قُبِلَتْ شهادتُنا عليهِمْ على التبليغِ، ثم شهدَ أولئكَ بأنهُمْ لم يُبَلِّغُوا لَكانَ فيهِ تناقضٌ. فدلَّ أنَّ شهادتَنا تُقْبَلُ عليهِمْ، ولا تُقْبَلُ شهادتُهُمْ علينا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الذينَ أبَوا إجابةَ الرسلِ ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ إن جحدْتُمُ الرسالةَ: وذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآيةَ؛ أضافَ اللهُ إليهِ جَعْلَهُمْ أمَّةً وسطاً. ثبتَ أنَّ للهِ في فِعْلِ ذلكَ فِعْلاً، بهِ ذكرُ مِنَّتِهِ، واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فالوَسَطُ العَدْلُ؛ أخبرَ ﷻ أنهُ جعلَ هذهِ الأمةَ عَدْلاً؛ فالعَدْلُ هو المستحِقُّ للشهادةِ والقَبولِ لها. ففيهِ [وجوهٌ]:

الأولُ[2]: الدلالةُ على جعلِ [إجماعِ هذهِ الأمةِ][3] حُجَّةً، لأنهُ وصفَها بالعدالةِ، وصيرَّها مِنْ أهلِ الشهادةِ، فإذا اجتمعُوا على شيءٍ، وشَهِدُوا بهِ لَزِمَ قَبولُ ذلكَ، والحكمُ بما شَهِدُوا، والشهادةُ فيه أنهُ مِنْ عندِ اللهِ وقَعَ لهمْ ذلكَ.

والثاني: قالَ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]؛ أخبرَ أنَّ فيهِمْ صَدَقَةً يَلْزَمُ اتّباعُهُمْ.

والثالثُ: ما قالَ ﷻ ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]، ولا يجوزُ الوعيدُ في مثلِهِ إذا لم يكنْ ذلكَ، هوَ الحقُّ عندَ اللهِ.

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: من المؤمنين. (٢) أدرج في ط ع بدلها العبارة التالية: الدلالةُ على حجةِ إجماعِ هذهِ الأمةِ وجعلت عنواناً. ساقطة من الأصل وم. (٣) من ط ع، في الأصل وم: هذه الإجماع.

والرابعُ: قولُهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ أمرَ ﷻ عندَ التنازعِ بالرَّدِّ إلى كتابِ اللهِ وإلى سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ فدلَّ أنهُ إذا لم يُتنازَعْ لم يجبِ الردُّ إلى ما ذكرَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (يسألُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ الأممَ عنْ تبليغِ الأنبياءِ رسالتَهُ إليهِمْ، فيُنكِرونَ، ثم يأتي بهذِهِ الأمّةِ يشهدُونَ عليهِمْ بالتبليغِ)، فذلكَ قولُهُ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ يعني لهُمْ بالعدالةِ والتزكيةِ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ رحمه الله: (وفي قولِهِ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وجهانِ:

أحدُهما: على الكَفَرةِ؛ وفي ذلكَ قبولُ شهادةِ المسلمِينَ عليهِمْ وردُّ شهادتِهِمْ عليهِمْ لِما تَناقضُ، فتزولُ منفعةُ الشهادةِ عليهِمْ.

والثاني: مَنْ شهِدُوا[1] رسولَ اللهِ ﷺ [هُمْ][2] شهودٌ على مَنْ يكونُ بعدَهُمْ؛ وفي ذلكَ دليلٌ مِنْ تأخُّرِ الصحابةِ، رضوانُ الله تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، عَنِ الخلافِ لهمْ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ إذا خالَفْتُمُوهُ، وعَصَيتُمُوهُ).

وقولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ فهذا، واللهُ أعلمُ، لِما كانُوا في المُتابعةِ على قسمَينِ: منهُمْ مَنْ تَبِعَ هَوَاهُ، ومنهُمْ مَنْ تَبِعَهُ لَمّا عَلِمَ أنهُ الحقُّ مِنْ عندِ اللهِ [فامْتَحَنَهُمُ اللهُ][3] ﷻ لِيَتبيَّنَ لهُمْ، ويقعَ عِلْمُ ذلكَ عندَهُمْ مَنِ المتَّبِعُ لَهُ بِهَوَاهُ ومَنِ المتَّبِعُ لَهُ بالأمرِ والطاعةِ؟ وقيلَ أيضاً في قولِهِ: ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ قيلَ: ليعلَمَ ما قد عَلِم / ٢١ - أ/ أنهُ يكونُ كائناً، وليعلَمَ ما قد عَلِمَ[4] أنهُ يوجدُ، وقيلَ: إنهُ يجوزُ أنْ يُرادَ بالعلمِ المعلومُ؛ ومعناهُ[5]، واللهُ أعلمُ: إلّا ليكونَ المتَّبعُ لهُ والمنقلِبُ على عَقِبَيهِ.

ثم الأصلُ في هذا ونحوِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]؛ أنّا لا نصفُ اللهَ تعالى بالعلمِ في الخَلْقِ: قالَ غيرَ الحالِ [التي الخَلْقُ عليها؛ لأنّ وصْفَنا إياهُ بالعلمِ على][6] غيرِ الحالِ التي عليها الخَلْقُ يومِئُ إلى وصفِهِ بالجهلِ؛ لأنه لا يجوزُ أنْ يقالَ: يَعلَمُ مِنَ الساكنِ في حالِ السكونِ حركةً أو السكونَ في حالِ الحركةِ، أو يَعلَمُ مِنَ الجالسِ قياماً أو القائمِ جلوساً. وكذلكَ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: يَعلمُ مِنَ العدَمِ مَوجوداً أو مِنَ الموجودِ مَعدوماً في حالِ وجودِهِ لأنهُ وصفٌ بعلمِ ما ليسَ [مَوجوداً][7]، وهو مُحالٌ، وباللهِ العصمةُ.

وقيلَ: إنَّ كلَّ علمٍ يُذكَرُ على حدوثِ المعلومِ يُذْكَرُ بذكرِ الوقتِ للمُحدَثِ بفتحِ الدالِ: أي يستندُ علمُهُ إلى المُحدَثِ بذكرِ الوقتِ: لأنهُ[8] لا يُفهَمُ بذكرِهِ قِدَمُ المعلومِ في الأزلِ. وإذا وصَفْنا اللهَ بما هو حقيقةٌ بلا ذكرِ الخَلْقِ، معَ ذلكَ نَصِفُهُ بالذي نَصِفُهُ بِهِ في الأزلِ لِتعاليهِ عنِ التغيُّرِ والزوالِ وعنِ الانتِقالِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾ يعني تحويلَ القِبْلةِ ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلةً على مَنْ كانَ اتّباعُهُ لِهَوَاهُ دونَ أمرِ أُمِرَ بِهِ إلّا على الذي يَتَّبِعُ أمرَ اللهِ فيها، ويَعتقدُ طاعَتَهُ، فإنها ليسَتْ ثقيلةً عليهِ[9] ولا كبيرةً.

وقولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التفسيرِ: إنَّ قوماً صَلُّوا إلى بيتِ المقدسِ، ثم ماتُوا على ذلكَ، فلما حُوِّلَتِ القِبْلَةُ إلى الكعبةِ قالُوا: ضاعَتْ صلواتُهُمُ التي صَلُّوا إليها إشفاقاً عليهِمْ. لكنَّ هذا بعيدٌ لا يُحتَملُ لأنَّ الذي اعْتقدَ الإسلامَ مِنَ الصحابةِ رضي الله عنهم وعرفَ موقعَ أمرِ اللهِ وأمرِ رسولِهِ، لا يجوزُ أنْ يخطرَ ببالِهِمْ حتى يسألُوا عنْ ذلكَ، بل كانُوا أعلَمَ باللهِ مِنْ أنْ يجدُوا[10] عدوَّ اللهِ فيهِمْ، ذلكَ، ولأنهُمْ قومٌ يأتمِرُونَ بأمرِ اللهِ وطاعتِهِ، ويموتُونَ على التصديقِ، وعلمُوا أنهمْ مُؤمِنونَ. ثم يشكُّونَ في أحوالِهِمْ؟

لكنْ إذا كانَ ثَمَّ سؤالٌ، فهو مِنَ اليهودِ الذين اعتقدُوا بُطلانَ التناسخِ في الأحكامِ والشرائعِ، فكانُوا يحتجُّونَ على

---

(١) في النسخ الثلاث: شهدَ. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) ساقطة من ط ع. (٤) في ط ع: علمه. (٥) في النسخ الثلاث: معناه. (٦) من ط ع وط م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من النسخ الثلاث. (٨) في النسخ الثلاث: لأن. (٩) من ط ع وم، في الأصل: عليهم. (١٠) في النسخ الثلاث: يجد.

رسولَ اللهِ ﷺ بأنهُ ينهَى عنِ التفريقِ والاختلافِ، ثم يدعُوهُمْ إلى ذلكَ، أو [مِنْ][1] قومٍ مِنَ الكفرةِ آذَوا رسولَ اللهِ ﷺ وأفرطُوا في التكذيبِ لهُ والخِلافِ والمُعاداةِ، فأرادُوا الإسلامَ، فظنُّوا أنَّ ما كانَ منهُمْ مِنَ العِصيانِ والتكذيبِ يمنعُ قبولَ الإسلامِ، فأنزلَ اللهُ ﷻ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ لِما كانَ منكُمْ في حالِ الكفرِ، ألا ترَى أنَّ آخرَ الآيةِ يدلُّ عليهِ؟

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أخبرَ أنهُ رحيمٌ يتجاوزُ عمنْ تابَ، أو [عَنْ][2] قومٍ علمُوا أنْ لا تناسخَ في الدينِ ولا اختِلافَ فيهِ، فظنُّوا أنَّ نسخَ الأحكامِ وتبديلَها يوجبُ اختِلافاً في الدينِ وتفرُّقاً فيهِ.

فنقولُ: إنَّ الإيمانَ في الأصلِ بالذي لا يقعُ على اعْتِقادِ الصلاةِ إلى جهةٍ دونَ جهةٍ، بل يقعُ على الائتِمارِ. فالإيمانُ مِنَ الصحابةِ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، الذينَ ماتُوا على اعْتِقادِ[3] الائتِمارِ، فَهُمْ مؤمنونَ باعْتِقادِ الائتِمارِ إلى بيتِ المقدسِ، مؤمِنُونَ باعْتِقادِ الائتِمارِ إلى الكعبةِ؛ فلا تفرُّقَ ولا اختِلافَ في الإيمانِ؛ إذْ في الأصلِ بهِ وقعَ الاعْتِقادُ لِلائتِمارِ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ تأويلُهُ: أي لا يُضيعَ إيمانَكُمْ بالصلاةِ إلى بيتِ المقدسِ. ولو كانَ على الصلاةِ فهو لِوجهَينِ:

أحدُهما: أنها إنما قامَتْ بالإيمانِ، فهو سببٌ لها، وقد يُذكَرُ الشيءُ باسْمِ سببِهِ.

والثاني: أنَّ اليهودَ عرفُوهُ إيماناً، فوردَ الخطابُ على ما عندَهُمْ معروفٌ، كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]؛ لا أنْ كانَ ثَمَّ آلهةٌ، لكنْ لِما عندَهُمْ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ لا أنْ كانَ ثَمَّ خالقٌ سِواهُ، ولكنْ لِما عرفُوا [أنَّ][4] لكلِّ صانعٍ خالقاً، يخرجُ الخطابُ على ما عرفُوا هُمْ، فعلى ذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ قد ذكرْنا[5] أنهُ يُخرَّجُ على الوعدِ لهُ.

وقولُهُ: ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ قالَ بعضُ المفسِّرينَ: إنهُ كانَ يقلِّبُ بصرَهُ إلى السماءِ لِما كانَ يكرَهُ أنْ تكونَ قِبلتَهُ قِبلةُ اليهودِ. ولكنَّ هذا بعيدٌ؛ لأنَّ مثلَ هذا لا يُظَنُّ بأحدٍ مِنَ المسلمِينَ، فكيفَ برسولِ اللهِ ﷺ؟ إلّا أنْ يُقالَ: كَرِهَ كراهةَ الطبعِ والنفسِ، أمّا كراهةُ الاختِيارِ فلا تُحتَملُ، ويُقالُ: إنهُ كانَ حُبِّبَ إليهِ الصلاةُ، حتى لا يَصْبِرَ عنها، وقد نُهِيَ عَنِ الصلاةِ إلى بيتِ المقدسِ، ولم يؤمَرْ بعدُ بالتوجُّهِ إلى غيرِها، فكانَ تَقَلُّبُ وجهِهِ إلى السماءِ رجاءَ أنْ يُؤمَرَ بالتوجُّهِ إلى غيرِها، أو يُقالُ: ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ لأنها كانَتْ قبلةَ الأنبياءِ مِنْ قبلُ، فلا شكَّ أنهُ كانَ يرضاها؛ وهذا جائزٌ في الكلامِ: يقولُ الرجلُ لآخرَ: أعطيكَ شيئاً تَرْضاهُ، وإنْ لم تظهرْ منهُ الكراهةُ في ذلكَ لا الرَّدُّ.

وقولُهُ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وقد ذكرْنا القولَ في القبلةِ والاختِلافَ فيهِ [في][6] ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ﴾؛ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ وجهَينِ:

[أحدُهما][7]: أي علمُوا أنَّ تحويلَ القبلةِ مِنْ بيتِ المقدسِ إلى الكعبةِ [حقٌّ][8]، لكنهم يُعانِدون، ويَتَّبِعُونَ هواهُمْ.

[والثاني][9]: أنْ علمُوا بما بيَّنَ لهمْ في كتبِهِمْ أنَّ محمداً ﷺ رسولٌ، وأنهُ حقٌّ.

[وقولُهُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾][10]؛ وهو على ما ذكرْنا[11] أنهُ على الوعيدِ والتهديدِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ الآيةَ[12] في قومٍ علمَ اللهُ أنهم لا يؤمنونَ، ولا يتابِعُونَ محمداً ﷺ في قِبلتِهِ: حينَ آيَسَهُ مِنْ متابعتِهِمْ إياهُ، لأنها لو كانَتْ في أهلِ الكتابِ كُلِّهِمْ لكانَ لهمْ

(١) ساقطة من النسخ الثلاث، والصواب إثباتها. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) من ط ع وم، في الأصل: اعتقادهم. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) كان ذلك في تفسير الآية: ١٤٢ . (٦) من ط ع، وكان الذكر في تفسير الآية: ١٤٢ . (٧) من ط ع. (٨) من ط ع وم. (٩) من ط ع، في الأصل وم: يحتمل. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ (١١) كان ذلك في تفسير الآية: ٧٤ . (١٢) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة.

الاحتجاجُ على رسولِ اللهِ [ﷺ][1] ودَعوَى الكذبِ عليهِ؛ لأنَّ مِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ قد آمَنَ، فدلَّ أنهمْ لم يفهمُوا مِنْ عمومِ اللفظِ عمومَ المرادِ، ولكنْ فهمُوا مِنْ عمومِ اللفظِ خصوصاً، وكانَ ظاهراً في أهلِ الإسلامِ وأهلِ الكفرِ جميعاً المعنَى[2] الذي وصَفْنا لكَ، فظهرَ أنهُ لا يجوزُ أنْ يُفهَمَ مِنْ مخرَجِ عمومِ اللفظِ عمومُ المرادِ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ في موضعِ الإخبارِ بالإياسِ مِنَ الاتّباعِ لهُ، ولا يُوصَلُ إلى مثلِهِ إلّا بالوحيِ عنِ اللهِ ﷻ وفيهِ أنَّ كثرةَ الآياتِ وعظمَها في نفسِها لا يُعجِزُ المعاندَ عن اتّباعِ هَوَاهُ والاعتِقادِ لِما يُخالِفُ هَواهُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ فيهِ الوَعدُ لهُ بالعصمةِ في حادثِ الوقتِ ومايتلُوهُ، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أي ومالَكَ أنْ تُتابِعَهُمْ في القبلةِ، وهذا التأويلُ كأنهُ أقربُ لِما خرجَ آخرُ الآيةِ على الوعيدِ لهُ بقولِهِ[3]: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآيةَ[4]؛ وقد ذكرْنا[5] أنَّ العصمةَ لا تمنعُ النهيَ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ [المرادُ مِنَ الخطابِ][6] غيرَهُ.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ لأنَّ الأولادَ إنما تُعرفُ بالأعلامِ وأسبابٍ تتقدَّمُ. فعلى ذلكَ معرفةُ الرسلِ ﷺ إنما تكونُ بالدلائلِ والأعلامِ؛ وقد كانَتْ تلكَ الدلائلُ والأسبابُ في رسولِ اللهِ ظاهرةً، لكنهُمْ تعانَدوا، وتناكَروا، وكتمُوا بعدَ معرفتِهِمْ بهِ أنهُ الحقُّ. دليلُهُ [قولُهُ][7]: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. والكتمانُ أبداً إنما يكونُ بعدَ العلمِ بالشيءِ؛ لأنَّ الجاهلَ بالشيءِ لا يوصَفُ بالكتمانِ. ورُوِيَ عَنْ عبدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ أنهُ قالَ: (أعرِفُهُ أكثرَ مما أعرفُ ولدي لأني لا أدري ما أحدثَ النساءُ بعدي). وفيهِ الدلالةُ أنَّ بعثَهُ[8] وصِفَتَهُ كانَتْ غيرَ مُغَيَّرَةٍ يومئذٍ، وإنما غُيِّرَتْ بعدُ؛ حينَ أخبرَ أنهمْ كتمُوا ذلكَ. [وقيلَ: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾][9]، لا يؤمنونَ، وهو على ما بيَّنا[10] مِنْ نفيِ بذهابِ نفعِهِ. وجائزٌ أن يكونُوا عرفُوهُ[11] بما وجدُوهُ بنعتِهِ في كتبِهِمْ كما قالَ اللهُ ﷻ ﴿الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ الآيةَ[12] [الأعراف: ١٥٧].

الآية ١٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يَحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ لهُ، والمرادُ غيرَهُ، ويحتملُ هوَ، وإنْ كانَ يَعلَمُ أنهُ لا يَمترِي لِما ذكرَ في غيرِ موضعٍ أنَّ العصمةَ لا تمنعُ النهيَ عنِ الشيءِ.

الآية ١٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ قيلَ[13] فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ ومُحَوِّلُها، وقيلَ: / ٢١ ـ ب/ ﴿هُوَ﴾ يعني المُصلّي هو مُوَلِّيها، وقيلَ: ولَّى: أقبلَ، وأدبرَ، هو مستقبِلُها. ويقالُ في قولِهِ: لكلِّ ملَّةٍ مِنَ المسلمينَ قبلَكُمْ جُعِلَتْ قِبلَتُها الكعبةَ.

وقولُهُ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ بادِرُوا الأمَمَ السالفةَ بالخيراتِ والطاعاتِ، وقيلَ: اسْتبِقوا هو اسْمُ الازدِحامِ، يقولُ: تبادرَ بعضُكُمْ بعضاً بالخيراتِ، ويَحتمِلُ: أي اسْتبِقُوا في أمرِ القبلةِ والتوجُّهِ إليها غيرَكُمْ مِنَ الكفرةِ، واللهُ ورسولُهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾؛ قيلَ: أينَ ما كنتُمْ يقبضِ اللهُ أرواحَكُمْ مِنَ البقاعِ البعيدةِ[14] والأمكنةِ الحَصِينةِ، وقيلَ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ أي في أيِّ حالٍ كنتُمْ: عِظاماً ناخرةً[15] أو باليةً أو رُفاتاً يَجمَعْكُمُ اللهُ، ويُحْيِكُمْ، ولا يتعذَّرُ عليهِ ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٩ و٥٠ و٥١]؛ أخبرَ أنَّ شدةَ الحالِ عندَكُمْ لا تتعذَّرُ عليهِ ولاتَشتدُّ مِنَ الإحياءِ والإماتةِ.

---

(١) ساقطة من ط ع. (٢) من ط ع، في الأصل وم: لمعنى. (٣) في النسخ الثلاث: بقوة. (٤) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٥) كان ذلك في تفسير الآية: ٢٠ . (٦) من ط ع، في الأصل وم: من المراد الخطاب. (٧) من ط ع. (٨) في النسخ الثلاث: نعته. (٩) من ط ع، في الأصل وم: قيل. (١٠) كان ذلك في تفسير الآية: ٢٠ . (١١) من ط ع وم، في الأصل: عرفوا. (١٢) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٣) م ط ع وم، في الأصل: وقيل. (١٤) ساقطة من م. (١٥) في م: نخرة.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنْ جَمْعِ ما ذكَرْنا مِنَ الأشياءِ المتفرقةِ وإحياءِ العظامِ البالية.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ يقولُ، واللهُ أعلمُ: حيث ماكنْتَ مِنَ المدائنِ والبلدانِ ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: شطرَهُ: تِلْقاءَهُ ونحوَ وِجهتِهِ. وهذا ما يُبطِلُ قولَ مَنْ يقولُ: إنَّ المسجدَ الحرامَ قِبْلةٌ لِمَنْ نأى عَنِ البيتِ، وبَعُدَ، مِنْ أهلِ الآفاقِ حيثُ أمرَ نبيَّهُ ﷺ بالتَّوَجُّهِ إلى شطرِ المسجدِ الحرامِ حيثُ ما كانَتْ مِنَ البلدانِ. وباللهِ العصمةُ والتوفيقُ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: (ذكرَ المسجدَ، ومعناهُ موضِعٌ[1] منهُ؛ عرَفَ ذلكَ بالفحصِ مِنَ البقاعِ البعيدةِ والأمكنةِ الخفيةِ لا بالظاهرِ ولا ذكرِ وصلِ البيانِ بهِ).

وقولُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ قيلَ ﴿وَإِنَّهُ﴾ تحويلُ القبلةِ هو الحقُّ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقيلَ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني محمداً ﷺ هو الحقُّ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، [ويَحتملُ ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني القرآنَ، هو الحقُّ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾][2].

[وقولُهُ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قد ذكرْنا هذا فيما تقدَّمَ][3].

الآية ١٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ على ما ذكرْنا[4]. وقولُهُ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ خاطبَ الكُلَّ، وأمرَهُمْ بالتوجُّهِ إليهِ حيثُ ما كانُوا حتى لا يكونَ هو المخصوصَ بهِ دونَهُمْ.

وقولُهُ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ تأويلُ هذا الكلامِ، [واللهُ أعلمُ][5]، أنهُ لمّا اختارَ اليهودُ ناحيةَ المغربِ قبلةً والنصارى ناحيةَ المشرقِ بِهَواهُمْ، أنزلَ اللهُ ﷻ: [﴿لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾][6] [البقرة: ١٤٢]، وقالَ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]؛ عذرَهُمْ وحِجاجُهُمْ بما في كتبِ لهُمْ أنهُ يحوِّلُهُمْ، وذلكَ معنى قولِهِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

[ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾][7]؛ قيلَ: أرادَ بالناسِ أهلَ الكتابِ، وأرادَ بالذينَ ظلَمُوا غيرَهُمْ مِنَ الكفَرةِ. وتأويلُهُ: لئلا يكونَ لأهلِ الكتابِ حُجّةٌ ولا الذينَ ظلمُوا، وقيلَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ يعني أهلَ الكتابِ ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، فيقولُوا: ليسَ هذا الوصفُ في كتبِهِمْ: أنهُ يُصلّى إلى بيتِ المقدسِ وقتاً، ثم يُتحوَّلُ إلى الكعبةِ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ يقولُ: إلّا مَنْ ظلمَ منهُمْ عليكُمْ في الكلامِ بلا حجّةٍ [ولا دليلٍ][8]، [فيقولُوا: ليسَ هذا الوصفُ][9]. ومثلُ هذا جائزٌ في الكلامِ: يقولُ [رجلٌ][10] لآخرَ: ليسَ لكَ عليَّ حُجّةٌ إلّا أنْ تظلِمَني بلا حجّةٍ، وقالَ الفرّاءُ: هذا كما يقولُ الرجلُ لآخرَ: الناسُ لكَ حامِدُونَ إلّا المعتديَ عليكَ. صوابٌ في المعنى، خطأٌ في العربيةِ، وذكرَ بيتاً يدلُّ على الجوازِ:

ما بالمدينةِ دارٌ غيرُ واحدةٍ ... دارُ الخليفةِ إلّا دارُ مروانِ[11]

[بمعنى ولا دارُ مروانَ][12]، وقيلَ أيضاً: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ على القطعِ مِنَ الأوّلِ والابتداءِ بهذا: أي لا تخشَوُا الذينَ ظلمُوا في الضررِ لكُمْ، ولكنِ اخشَوني في ترككُمْ إياها، ويقالُ: لا تخشَوهمْ بالقتالِ والغَلبةِ؛ فذلكَ لهمْ مِنّةُ أمنٍ مِنَ[13] الأعداءِ. وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ يعني [الأمنَ مِنَ][14] الأعداءِ. أو أرادَ بالنعمةِ كلَّ نعمةٍ مِنَ الإسلامِ والنصرِ وغيرِهِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ القِبْلةَ، وتهتدونَ الإرشادَ والصوابَ.

---

(١) في النسخ الثلاث: موضعا. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) من ط ع، كان الذكر في تفسير الآية: ٧٤ والآية: ١٤٤ . (٤) كان ذلك في تفسير الآية ١٤٩ . (٥) من ط ع وط م، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع، في الأصل: ﴿لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ في ط م: ﴿لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ الآية ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾. (٧) من ط ع وم، ساقطة من الأصل، وأدرج قبلها في ط ع: وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (٨) من ط ع وم. (٩) ساقطة من م، وأدرج بعدها في الأصل: ولا دليل. (١٠) ساقطة من النسخ الثلاث. (١١) نسب هذا البيت في: كتاب سيبويه إلى الفرزدق ٢/ ٣٤٠، والمقصود بالخليفة، مروان بن الحكم. (١٢) من ط ع وم. (١٣) في النسخ الثلاث: عن. (١٤) من ط ع، في الأصل وم: لا من.

الآية ١٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا﴾ كما حرفٌ لا يصحُّ ذكرُهُ إلّا على تقدُّمِ كلامٍ؛ إذ هو حرفُ عطفٍ ونسقٍ؛ وهو، واللهُ أعلمُ، كما أرسَلْنا إليكُمْ رسولاً، وأنعمَ عليكُمْ بمعرفةِ وحدانيَّتِهِ وبمعرفةِ مُحاجَّةِ الكفرةِ عليكمْ بإكرامِهِ إياكُمْ بمحمدٍ ﷺ كذلكَ يجبُ عليكُمْ أنْ تذكرُوهُ، وتشكرُوا لهُ. ويَحتمِلُ على التقديمِ والتأخيرِ على ما قالَهُ أهلُ التفسيرِ؛ كأنهُ قالَ: فَاذْكروني كما أرسَلْنا فيكُمْ رسولاً منكُمْ، وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ.

قالَ الفرّاءُ: (يَحتمِلُ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ أذكُرْكُمْ، فيكونُ فيهِ جوابُهُ: لذلكَ جزمَ. وهذا كقولِ الرجلِ: كما أحسنْتَ فأحسِنْ[1]. [وقولُهُ: ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾) قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما (يأخذُ زكاةَ أموالِكُمْ، ففيهِ زكاتُكُمْ) وقيلَ: ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ يدعُوكُمْ إلى مابهِ زكاةُ أنفسِكُمْ وصلاحُها، وهو التوحيدُ، وقد ذكرْنا هذا فيما تقدَّمَ][2].

وقولُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: الحكمةُ: الفقهُ، وقيلَ: الحكمةُ: الحلالُ والحرامُ، وقيلَ: الحكمةُ: السُّنَّةُ، وقيلَ: الحكمةُ: الوَعْظُ، وقيلَ: الحكمةُ [هي الإصابةُ][3]، ومنهُ سُمِّيَ الحكيمُ حكيماً لأنهُ مُصيبٌ. وقالَ الحسنُ: (الكتابُ والحكمةُ واحدٌ، وهو على التكرارِ كقولِهِ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]، وهما واحدٌ).

وقولُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ مِنَ التوحيدِ والشرائعِ والمُحاجَّةِ، وما أكرمَهُمْ بمحمدٍ وما أنعمَ عليهِمْ مِنْ أنواعِ النعمِ.

وقولُهُ: ﴿رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ خاطبَ العربَ، وذكَّرَهُمْ بما أنعمَ عليهِمْ مِنْ بعثِ الرسولِ فيهِمْ ومنهُمْ، وإنزالِ[4] الكتابِ بلسانِهِمْ، وهُمْ كانُوا يتمنَّونَ ذلكَ كقولِهِ[5]: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧] فَمَنَّ عليهِمْ بذلكَ، وبهِ استوجبُوا الفضيلةَ على غيرِهِمْ، [وكفى بهِ][6] فضلاً، وقولِهِ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ [الآية][7] [فاطر: ٤٢].

الآية ١٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾؛ قيلَ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بالطاعةِ في الدنيا ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ في الآخرةِ بالتَّجاوُزِ عنْ سيئاتِكُمْ، وقيلَ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ في الرخاءِ والسعةِ ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ في الضيقِ والشدةِ، وقيلَ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ في الخَلَواتِ ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ في مَلإٍ [مِنَ][8] الناسِ، وأذكرْكمْ في مَلإٍ مِنَ الملائكةِ. ويَحتمِلُ ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بالشكرِ بما أنعمْتُ عليكُمْ ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ بالزيادةِ عليها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾: أي وجِّهُوا شكرَ نِعمتي إليَّ، ولا تشكُرُوا غيري، ويَحتمِلُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ﴾ أي وجِّهُوا العبادةَ إليَّ، ولا تَعبدُوا غيري، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ الآيةَ[9]: قد ذكَرْنا تأويلَ هذه الآيةِ فيما تقدَّمَ[10].

الآية ١٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: إنَّ العربَ تُعرِّفُ الميتَ[11]: مَنِ انقطعَ ذكرُهُ؛ إذا لم يبقَ لهُ أحدٌ يُذكَرُ بهِ مِنْ نحوِ الولدِ وغيرِهِ، فيقولُونَ عَنْ[12] هؤلاءِ: إنَّ ذكرَهُمْ قدِ انقطعَ، فأخبرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنهمْ مذكورُونَ في مَلإٍ مِنَ الملائكةِ.

وقالَ الحسنُ: (إنَّ أرواحَ المؤمِنينَ تُعرَضُ على الجِنانِ، وتُعرَضُ أرواحُ الكَفَرَةِ على النيرانِ، فيكونُ لأرواحِ الشهداءِ

---

(١) انظر معاني القرآن للفرّاء ١/ ٩٢ . (٢) كان ذلك في تفسير الآية: ١٢٩، من ط ع، وقد أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد نهاية قول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾. (٣) من م، في ط ع: الإصابة، في الأصل: هي الإضافة. (٤) من ط ع، في الأصل وم: وأنزل. (٥) من ط ع، في الأصل وم: كقولهم. (٦) في ط ع: كفى بهم، في الأصل وم: بهم. (٧) من م، وأدرجت تتمة الآية في ط ع بدلاً منها، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (٩) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٠) كان ذلك في تفسير الآية: ٤٥ . (١١) في النسخ الثلاث: الموتى. (١٢) في النسخ الثلاث: عند.

فضلُ لَذّةٍ ما لا يكونُ لغيرِهِمْ مِنَ الأرواحِ، ويكونُ لأرواحِ آلِ فرعونَ فضلُ ألم بعرضِها على النارِ ما لا يكونُ لغيرِهِمْ مِنَ الكفرةِ ذلكَ، فاستَوجَبُوا اسْمَ الحياةِ بفضلِ لذةٍ ما يجِدُونَ مِنَ اللذةِ على غيرِهِمْ). أخبرَ ﷻ أنَّ [أرواحَ الشهداءِ][١] في الغَيبِ تتلذَّذُ مثلَ تلذُّذِهِمْ على ما كانَتْ عليهِ في الأجسادِ في دُنْياهُمْ هذِهِ.

وقيلَ: إنَّ الشهيدَ حيٌّ عندَ ربِّهِ كما عُرِفَ في اللغةِ أنَّ الشهيدَ، هو [الحاضرُ. أخبرَ ﷻ أنهُمْ حضورٌ عندَ ربِّهِمْ، وإنْ غابُوا عنكُمْ][٢]، وقيلَ: إنَّ الحياةَ والموتَ على ضروبٍ: فمنها الحياةُ الطبيعيَّةُ[٣] والحياةُ العَرَضِيَّةُ[٤] [والموتُ الطبيعيُّ][٥] والموتُ العرضيُّ؛ فالحياةُ [العَرَضيَّةُ، هي اليقظةُ، وهي][٦] الحياةُ بالدينِ كقولِهِ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وكقولِهِ:/ ٢٢ ـ أ/ ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [غافر: ٥١] بالعلمِ [والموتُ العَرَضِيُّ، هو الموتُ][٧] بالجهلِ. والحياةُ [الطبيعيَّةُ هي التي بها][٨] قِوامُ النفسِ، والموتُ الطبيعيُّ هو الذي بِهِ فواتُ النفسِ، والشهادةُ [هي التي بها][٩] اكْتِسابُ الحياةِ في الآخرةِ، سُمّي بِهِ حيّاً، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ[١٠] تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ [أي لا تقولوا ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾][١١] لِما ينفُرُ طبعُكُمْ عنِ الموتِ، ولكنْ قُولُوا ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ لترغبَ أنفسُكُمْ في الجهادِ؛ إذ هو يَرِدُ بحياةِ الدنيا والدينِ مع ما يَحتمِلُ أنْ يكونَ اللهُ بفضلِهِ يَجعلُ لهُمْ ما كانَ لهم لو كانوا أحياءً يعمَلُونَ، فكأنهُمْ أحياءٌ فيما جُعِلَتْ لهُمْ حياةُ الدنيا، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾، وما ذُكِرَ فيهِ تذكيرٌ مِنَ اللهِ ﷻ الخلْقَ[١٢] لئلا يجزَعُوا على ما يصيبُهُمْ مِنْ أنواعِ ما ذكرَ مِنَ المصائبِ؛ وفي كلِّ نوعٍ [مِنْ ذلكَ][١٣] إضمارُ شيءٍ مِنْ نحوِ: شيءٍ مِنَ الخوفِ وشيءٍ مِنَ الجوعِ، واللهُ أعلمُ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ أخبرَ في غيرِ آيةٍ[١٤] أنهُ خلَقَهُمْ للموتِ والفناءِ، وأنَّ ما أعطاهُمْ مِنَ الدنيا والزينةِ فيها، كلُّهُ للفناءِ والفواتِ، بقولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ الآية[١٥] [الملك: ٢] وقولِهِ[١٦]: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [إلى قولِهِ][١٧]: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧ و٨]؛ أخبرَ أنَّ الدنيا وزينَتَها للفناءِ، فَمَنْ عرف أنَّ ذلكَ كلَّهُ دونَ ما ذكَرَ؟ يَعْلَمُوا[١٨] أنَّ ما أعطاهُمْ مِنَ الحياةِ والصحةِ والسلامةِ لم يكنْ أعطاهُمْ لحقٍّ[١٩] لهُمْ، بلِ للإفضالِ والإحسانِ، وقد جعل ذلكَ لمدةٍ لا للأبدِ، فكأنها في غيرِ تلكَ المدةِ لغيرِهِمْ لا لَهُمْ، فعرفُوا بِهِ مِنَّتَهُ لوقتٍ، وحقَّهُ وقتَ الأخذِ.

ثم يَحتمِلُ ما ذكرَ مِنَ الخوفِ وجهَينِ: على جهةِ العبادةِ منْ نحوِ الأمرِ بمجاهدةِ العدوِّ والقتالِ معَهُ، ويَحتمِلُ لا على جهةِ العبادةِ. وكذلكَ[٢٠] الجوعُ يَحتمِلُ الجوعَ الذي فيهِ عبادةٌ، وهو الصومُ، ويَحتمِلُ ما يصيبُهُمْ مِنَ المجاعةِ في القحطِ ما أصابَ أهلَ مكةَ سنِينَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ [يَحتمِلُ امْتِحانَهمْ][٢١] بأداءِ الزكاةِ والصدقةِ، ويَحتمِلُ الهلاكَ بسببِهِ[٢٢]. وكذلكَ ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ يَحتمِلُ الصرفَ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذكرْتُهُما. وكذلكَ ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ثم لا يَحتمِلُ خصوصَ الامْتِحانِ بما ذكرَ دونَ غيرِهِ، لأنهُمْ كلَّهُمْ عبيدُهُ؛ لهُ أنْ يمتحنَهُمْ أجمعينَ[٢٣] بجميعِ أنواعِ المحنِ. لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذكرْنا أنهُ لما عرَّفَهُمْ أنَّ كلَّ ذلكَ إنما خَلَقَ للفناءِ، فالبعضُ منهُ كذلكَ لِيَخِفَّ ذلكَ عليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٥٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾][٢٤].

أمرَ نبيَّهُ ﷺ أنْ يبشِّرَ الذينَ صبرُوا على المصائبِ التي امْتَحنَهُمْ بها ﷻ ولم يجْزَعُوا عليها و﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: أرواحهم. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) في النسخ الثلاث: الطبيعي. (٤) في النسخ الثلاث العرضي. (٥) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (٦) في النسخ الثلاث: العرضي هو اليقظة وهو. (٧) في النسخ الثلاث: إنه ميت. (٨) في النسخ الثلاث: الطبيعي هو الذي به. (٩) في النسخ الثلاث: هو الذي به. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: وقوله. (١١) من ط ع. (١٢) في ط ع: للخلق. (١٣) في ط ع: ما ذكر من المصائب. (١٤) في النسخ الثلاث: آي. (١٥) أدرج في ط ع: تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٦) في النسخ الثلاث: وقال. (١٧) في ط ع: تتمة الآية. (١٨) في النسخ الثلاث: وليعلموا. (١٩) في م: لخير. (٢٠) الواو ساقطة من الأصل. (٢١) من ط ع، في الأصل: يمتحنهم، في م: يحتمل: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ يمتحنهم. (٢٢) في النسخ الثلاث: بنفسها. (٢٣) في النسخ الثلاث: بأجمعهم. (٢٤) في النسخ الثلاث: ثم.

رَٰجِعُونَ﴾؛ فيه الإقرارُ بوحدانيَّتِهِ ﷻ وبالبعثِ بعدَ الموتِ، وقيلَ: إنَّ هذا الحرفَ خصَّ بهِ هذهِ الأمَّةَ دونَ غيرِها مِنَ الأممِ، لأنهُ لم يُذكَرْ هذا الحرفُ عنِ الأممِ السالفةِ. ألَا ترَى أنَّ يعقوبَ ﷺ على كثرةِ ما أصابَهُ مِنَ المحنِ والمصائبِ والحزنِ على يوسفَ لم يُذكَرْ هذا الحرفُ عنهُ، ولكنْ قالَ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]؟ ولو كانَ لهُمْ هذا لظهرَ منهُمْ على ما ظهرَ غيرُهُ، فدلَّ أنه مخصوصٌ بهذِهِ الأمةِ، واللهُ أعلمُ. ورُوِيَ عَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنه][1] قالَ: «مَنِ استرجَعَ [عندَ المصيبةِ][2] جَبَرَ اللهُ مصيبتَهُ، وأحسنَ عُقباهُ، وجعلَ لهُ خلَفاً صالحاً يرضَى بهِ» [الطبراني في الكبير: ١٣٠٢٧].

ثم الصبرُ هو حبسُ النفسِ عنِ الجزعِ على ما يفوتُ؛ إذْ هو كلُّهُ للهِ ﷻ مُستعارٌ[3] عندَ الخلقِ، والجزعُ على فوتِ ما لغيرِهِ مُحالٌ؛ ألَا ترَى إلى قولِهِ ﷻ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؟ [الحديد: ٢٣] نهانا أنْ نحزنَ على ما يفوتُ عنا؛ إذْ هو، في الحقيقةِ، ليسَ لنا، وأنْ نفرحَ بما آتانا؛ إذْ هو في الحقيقةِ لغيرِنا. واللهُ الموفقُ.

[4][[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾: فهو على إضمارِ الشيءِ في كلِّ حرفٍ؛ إذْ هو بحقِّ العطفِ على ما تقدَّمَ، فكأنهُ قالَ: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ وبشيءٍ مِنَ الجوعِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم يتوجَّهُ إلى ما أخبرَ مِنَ البَلْوَى إلى وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَبْلُوَهُ بعبادةٍ، فيها ما ذكرَ.

والثاني: أنْ يَبْلُوَهُ بالذي ذكرَ لا على عبادةٍ يُدفَعُ إليها[6]، وذلكَ نحوَ أنْ يَبْلُوَهُ بالجهادِ، وفيه الخوفُ، أو يَبْلُوَهُ بأنواعِ أوصابٍ تَحُلُّ بهِ، فيخافُ عندَ ذلكَ على نفسِهِ، ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ أنْ يَبْلُوَهُ بالصيامِ الذي فيهِ ذلكَ، أو بِقِلَّةِ الأترابِ وغلاءِ الأسعارِ، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ يكونُ في الجهادِ والحجِّ والزكاةِ والمُؤَنِ المجعولةِ في الأموالِ، ويكونُ[7] في الخُسرانِ في التجاراتِ وما يلحقُ أنواعَ المكاسِبِ[8] مِنَ الحوائجِ، ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ يكونُ بالجهادِ ومحاربةِ الأعداءِ، ويكونُ بأنواعِ الأمراضِ، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ترجعُ إلى قلةِ الأنزالِ وقُصورِ الأيدي عمّا بهِ يُنالُ ومُفارقةِ الأوطانِ للجهادِ والحجِّ ونحوِ ذلكَ ممّا فيهِ.

ثم اللهُ ﷻ أخبرَ أنهُ يَبْلُوهمْ بشيءٍ مما ذكرْنا لا بالكلِّ؛ دلَّ أنهُ ﷻ لم يقطعْ عليهِمْ كلَّ المخارجِ بل جعلَ لهُمْ في كلِّ نوعٍ مِنْ ذلكَ مسلَكاً، وإنْ كانَ في ذلكَ [نقصٌ وضررٌ][9]. وجائزٌ بلوغُ ذلكَ تمامَ ما في كلِّ نوعٍ، لكنَّهُ بلطفِهِ قَرَّبَ إليهِمْ، فيما خوَّفَهُمْ وجهَ الرجاءِ. وعلى ذلكَ جميعُ أفعالِ ذي المِحنِ: إنها مقرونةٌ بالخوفِ والرجاءِ، وكذلكَ في أنفسِهِمْ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم إنَّ اللهَ دلَّهُمْ على ما عليهِمْ مِنَ الحقِّ، فيما أخبرَ أنهُ يَبْلوهُمْ بهِ، بحرفِ البشارةِ والوعدِ الجزيلِ الذي يسهُلُ / ٢٢ ـ ب/ بمثلِهِ البذلُ بمَنْ لا حقَّ لهُ، فكيفَ ومَنْ لهُ [كُلِّيَّةُ ذلكَ][10]؟ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ثم وصفَ الصابرينَ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ هَدَى اللهُ عبدَهُ إلى الاعْتِمادِ بحرفِ التوحيدِ عندَ المصيبةِ؛ إذ جُلُّ التوحيدِ داخلٌ في ذلكَ الحرفِ، وفيهِ التَّبَرِّي مِنْ أنْ يكونَ لهُ في حكمِ اللهِ أيُّ[11] رأيٍ، وبذلُ النفسِ لهُ ليحكمَ فيها بما شاءَ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ كأنهُ قالَ: ما لَنا فيما ليسَ لنا حكمٌ ولا تدبيرٌ، وأبداً يكونُ الحكمُ في كلِّ مُلْكٍ لمَنْ يملِكُهُ، وبمثلِ هذا يقدِرُ على كفِّ الأنفسِ عنِ الجزعِ وحَمْلِها على ما تَكرَهُ.

وقولُهُ: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فكأنهُ: إذْ إليهِ مرجِعُنا، لا فرقَ أنْ نرجِعَ إليهِ جُملةً أو بالتفاريقِ، بل بالتفريقِ علينا الإبقاءُ،

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط ع. (٣) في النسخ الثلاث: مستعاد. (٤) من ط ع، وأُدرج ما بعد هذين المعقوفين والمعقوفين المقابلين لهما من هنا إلى الصفحة التالية س ١٢ ... ولا قوة إلّا باللهِ]][9] في الأصل وم بعد العبارة: وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾... فهو على ما أخبرت من كرمه فيما يعامل عبيده ﷻ ولا قوة إلا بالله. ص ١١٠ س ٩ و س ١٠ . (٥) ساقطة من ط ع. (٦) في النسخ الثلاث: إليه. (٧) من م وط ع، في الأصل: فيكون. (٨) من ط ع، في الأصل وم: المكاتب. (٩) في النسخ الثلاث: نقصاً وضرراً. (١٠) في ط ع: كليته ذلك. (١١) في الأصل وم: أو رأى في ط ع: أدرأى.

وفضلُ القبولِ منا البعضَ دونَ الكُلِّ. وفي ذلكَ تذكيرُ النفسِ عاقبتَها ليكونَ كمَنْ يُقدِّمُ شيئاً ممّا بهِ قِوامُهُ إلى مكانِ قرارِهِ، وقدِ انتهى الخبرُ بالبلوغِ. فمعلومٌ أنَّ ذلكَ أطيبُ لنفسِهِ وأسكنُ لِقلبِهِ مِنْ أنْ يكونَ جميعُ ذلكَ معَهُ، وباللهِ التوفيقُ.

وجملةُ ذلكَ أنَّ هذهِ الدنيا أُنشِئَتْ لا لها[1]، ولكنْ لِيُكْتَسَبَ بها الآخرةُ، وجعلَ كلَّ شيءٍ منها زائلاً فانياً لِيُنالَ بهِ الدائمُ الباقي. فهذا لأنَّ حقَّ كُلٍّ فيما يصيبُهُ أنْ يَرَى الذي أُنْشِئَ ومالَهُ؛ يسعىَ فيعلَمُ أنهُ بلغَ في تجارتِهِ غايتَها مِنَ الربحِ، وأنهُ باعَ الشيءَ الفانيَ بالباقي، مع ما كانَ كلُّ شيءٍ مِنَ الدنيا مَؤُوفٌ[2] بآفاتِ الفناءِ والهلاكِ، [فأبدلَ المَؤُوفَ][3] بالذي لا آفةَ فيهِ، فيجبُ في التدبيرِ ألّا يُعدَّ ذا مصيبةٍ، بل هو أعلى السرورِ وأرفعُ الربحِ، لكنَّ البشرَ جُبِلَ على طباعٍ نافرةٍ عَنْ كلِّ آلامٍ، جاهلٌ بالعواقبِ التي لعلها يرغبُ فيها كُلُّ أحدٍ، لا أنْ ينفرَ عنها. واللهُ المستعانُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: هذا الاسْتِرجاعُ خصَّ بهِ هذهِ الأمةَ إذ قالَ يعقوبُ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الآية [يوسف: ٨٤]، واللهُ أعلمُ، إنْ كانَ، فهو موضعُ التلقينِ[4] والتعليمِ: أنْ قولُوا ذلكَ، لا لأنَّ[5] هذا المعنى مما يَحتمِلُ أنْ يكونَ يعقوبُ لا يحقِّقُهُ، بل حقَّقَهُ بقولِهِ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ الآيةَ[6] [يوسف: ٨٣] وقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾[7] [يوسف: ٨٦]، وهو مع ذلكَ قد كانَ بما أخبرَهُ يوسفُ وبما أوحَى إليهِ أنهُ قد عَلِمَ أنهُ لم يَهْلِكْ بعدُ، ولم يوجدْ منهُ [الجَزَعُ][8] إلى حينِ يرجِعُ إليهِ مِنَ البعثِ بعدَ الموتِ. ولا قُوةَ إلّا باللهِ]][9].

الآية ١٥٧ وقولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ قيلَ: الصلاةُ مِنَ اللهِ ﷻ تحتمِلُ[10] وجوهاً: تَحتمِلُ[11] الرحمةَ والمغفرةَ، وتَحتمِلُ[12] الصلاةُ منهُ مباهاتَهُ الملائكةَ جواباً لهمْ لِما ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] كيفَ قلْتُمْ هذا؟ وفيهمْ مَنْ يقولُ كذا، وقيلَ: الصلاةُ منهُ الثناءُ عليهمْ، [وأيُّ كرامةٍ تبلغُ كرامةَ ثناءِ اللهِ عليهم؟][13].

وقولُهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾؛ شهدَ اللهُ ﷻ بالاهتِداءِ لِمَنْ فَوَّضَ أمرَهُ إلى اللهِ، ويسلِّمُ لقضائِهِ[14] وتقديرِهِ السابقِ، وهو كائنٌ لا محالةَ، كقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: قولُهُ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ يَبلوهُمْ بالذي كانَ بهِ عالماً ليكونَ بهِ ما علمَهُ يكونُ بالأمرِ والنهيِ بحقِّ المحنةِ، وهو كما يستخبِرُ[15] عما هو بهِ خبيرٌ، مع ما كانَتِ المحنةُ في الشاهدِ لِاسْتِخراجِ الخَفِيّاتِ بكونِ الأمرِ والنهيِ [فاستُعمِلَتْ في الأمرِ والنهيِ][16]، وإنْ كانَ لا يخفى عليهِ شيءٌ، بل هو كما قالَ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣ و ...] ثم لَهُ جُعِلَ الغيبُ شاهداً، فجرَتْ بهِ المحنةُ ليعلمَ ما قد علمَهُ غائباً شاهداً؛ إذ هو موصوفٌ بذلكَ في الأزلِ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم كانَ العبدُ بجميعِ ما هو له مِنَ السَّعَةِ والسلامةِ، فهو للهِ في الحقيقةِ، بِفضلِهِ وكرمِهِ يعاملُ عبيدَهُ معاملةَ مَنْ ليسَ لهُ ما كانَ يطلبُ منهُ، ويأمرُهُ بهِ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآيةَ[17] [التوبة: ١١١]، وقالَ: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآيةَ[18] [المزمل: ٢٠] ليكونَ ذلكَ أطيبَ لأنفسِهِمْ وأرغبَ لهم في البذلِ لِما طلبَ منهمْ، وإنْ كانَ لهُ أخذُ ذلكَ منهمْ بلا شيءٍ يَعِدُهُمْ عليهِ. فعلى ذلكَ قالَ ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ بالذي ذكرَ؛ يَدُلُّهُمْ على أنَّ ذلكَ منهُ ليعلمُوا أنهُ، فيما كانَ وَعَدَ الاشْتِراءَ منهمْ، وطلبَ منهمُ البذلَ بجزيلِ العِوَضِ لهمْ، فيخِفُّ ذلكَ عليهمْ، وتَطيبُ[19] بهِ أنفسُهُمْ، وأنْ يكونَ

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: لأنها. (٢) في الأصل وم: مارق بافات، في ط ع: مأوى بآفات، الآفة: العاهةُ أو عرضٌ مفسدٌ لما أصابه: إيفَ الزرع كقَيل: أصابته الآفة، فهو مَؤوف ومئيف: اللسان. (٣) في الأصل: في إبدال الماوف، في م: فأبدل المأوى، في ط ع: فأبدل المأوى. (٤) من ط ع وم: في الأصل: التعلين. (٥) في النسخ الثلاث: أن. (٦) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٧) أدرج في ط ع تتمة الآية بعدها. (٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (٩) هنا نهاية ما أشرنا إليه آنفاً في: الصفحة السابقة: س٩: : "[[وقوله تعالى: . (١٠) في النسخ الثلاث: يحتمل. (١١) في النسخ الثلاث يحتمل. (١٢) في النسخ الثلاث يحتمل. (١٣) من ط ع وم: ساقطة من الأصل. (١٤) من ط ع وم، في الأصل: قضاءه. (١٥) من ط ع وم، في الأصل: يستخير. (١٦) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٧) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٨) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٩) من ط ع، في الأصل وم: ويطلب.

يذكُرُ أوّلاً أنهُ يبْتليهمْ بالذي ذكرَ لِيُطَيِّبُوا[١] أنفسَهُمْ بهِ، ولا يَتكلَّفُوا ذلكَ مِنْ قلوبِهِمْ، فَيَضجَرُونَ عندَ الابْتِلاءِ بذلكَ، وكذا خلافٌ للطبعِ إذا كانَ عنْ رياضَتِهِ إياهُ وإشعارِهِ بهِ قبلَ النزولِ، كانَ ذلكَ أيسرَ عليهِ مِنْ أنْ يأتيَهُ ذلكَ مِنْ حيثُ لم يعلمْ بهِ، معَ ما كانَ في ذلكَ خطرَ في القلوبِ نسبةُ مثلِهِ إلى الخَلْقِ والتشاؤُمِ بهمْ. فقدَّمَ اللهُ في ذلكَ البيانَ لِيَعلمُوا أنَّ ذلكَ بالذي جَرَى بهِ الوعدُ، وذلكَ كقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الحديد: ٢٢]، فبيَّنَ أنَّ ذلكَ مكتوبٌ عليهِمْ لِتَطيبَ الأنفسُ، وتَطْمَئِنَّ القلوبُ عليهِ.

والأصلُ في هذا: أنَّ جميعَ ما ذكرَ البَلْوَى بهِ في التحقيقِ ليسَ بحقٍّ للعبدِ، بل هو امْتِنانٌ مِنَ اللهِ وإفضالٌ منهُ، وأنهُ لم يُنْشِئْهُ، ولا أحياهُ نشوءَ الأبديةِ ولا حياةَ السرمديَّةِ. فعلى ذلك [جميعُ][٢] ما أنعمَ عليهِ، وإذا سكنَ العبدُ على هذا الذي جُبِلَ عليهِ أمرَ نفسَهُ وما ملكَ عليهِ، سهُلَ عليهِ ذهابُهُ، وطابَتْ بهِ نفسُهُ، معَ ما يَعلَمُ أنهُ أنعمَ عليهِ بوقتٍ، ثم هو نعمةٌ [لهُ][٣] ولغيرِهِ، فيكونُ المأخوذُ منهُ في الحقيقةِ لغيرِهِ، وإنْ كانَ اللهُ ﷻ ذَكَرَهُ بالابْتِلاءِ والمصائبِ، فهو على ما أخبرْتُ مِنْ كرمِهِ فيما يعاملُ عبيدَهُ ﷻ ولا قوةَ إلا باللهِ.

ثم بيَّنَ اللهُ ﷻ ما يُكرِمُهُمْ، [إذْ خَنعُوا لحكمِهِ][٤]، ورَضُوا بقضائِهِ[٥]، معَ ما دلَّ عليهِ أيضاً بقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ﴾ الآيةَ[٦] [الأحزاب: ٣٦]، فقالَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فكانَ مِنْ فضلِهِ أنْ سمَّى ما وعدَهُمْ على الصبرِ أجراً. ومعلومٌ، أنْ كانَ ذلكَ حقاً. للهِ عليهِمْ بالسابقِ مِنْ نعمِهِ معَ عِظَمِ مِنَنِهِ، لكنهُ سمَّى ما أفضلَ بهِ أجراً لَهُ، مع ماكانَ العبدُ يَعمَلُ لنفسِهِ، ولا يَحتمِلُ أنْ يستحِقَّ بهِ الأجرَ، لولا الإنعامُ منهُ، جلَّ ثناؤُهُ.

ثم وعدَ لَهُ في حالِ فعلِهِ بخصالٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنَّ عليهِ صِلاتَهُ، وصِلاتُهُ تَحتمِلُ مباهاتَهُ [الملائكةَ بهِ][٧] تعظيماً لِما بذلَ عبدُهُ لهُ، وخضعَ لِحُكمِهِ عليهِ؛ وهو أنْ قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ الآيةَ[٨] [البقرة: ٣٠]، فيخبرُهُمْ أنَّ هذا قد سبَّحَ حضرةَ المصيبةِ، وخضعَ لحكمِهِ بالاسْتِرجاعِ. وتَحتمِلُ مغفرتَهُ وإيجابَ الثوابِ الجزيلِ لهُ بقولِهِ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ الآيةَ[٩] [آل عمران: ١٥٧]، وقولِهِ: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ و١٧٠]، وقولِهِ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾ [الصف: ١٠] إلى ما ذكرَ مِنَ الأفضالِ، واللهُ الموفقُ. وتَحتمِلُ ثناءَهُ وذكرَهُمْ في إخبارِ عبادِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ الآيةَ[١٠] [البقرة: ١٥٤]، وقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾[الآية][١١] [آل عمران: ١٦٩] معَ ما يُرْجَى لهُ مِنْ زيادةِ الهُدَى في الدنيا بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ الآيةَ[١٢] [العنكبوت: ٦٩]، وقولِهِ[١٣]: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

[والثانيةُ: الرحمةُ][١٤]: قد يُرجِعُ [اسْتِرجاعَهُ رحمةً، يُكرمُهُ بها][١٥] وتَحتمِلُ محبةً[١٦] يُلقيها في قلوبِ العبادِ حتى يحبُّوهُ[١٧] بها أو خَلَفاً[١٨] يعطيهِ في الدنيا.

[والثالثةُ: الهدايةُ][١٩]: ثم شهدَ اللهُ لهمْ بالهدايةِ؛ وذلكَ يَحتمِلُ أنْ يكونُوا اهْتَدَوا لدينِهِ ولِما مَنَّ عليهِمْ في المصيبةِ مِنَ التسليمِ للهِ، ويَحتمِلُ الاهْتِداءَ لطريقِ الجنةِ على ما بيَّنَهُ أنهُ وعدَ الشهداءَ بقولِهِ[٢٠]: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، وقولِهِ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] لِلاسْتِرجاعِ. وقد رُوِيَ عَنْ نبيِّ اللهِ أنهُ قالَ: «لم يُعْطَ الاسْتِرجاعُ مَنْ كانَ

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: ليطلبوا. (٢) من م وط ع، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) من ط ع، في الأصل وم: خصوا الحكمة. (٥) في النسخ الثلاث: لقضائه. (٦) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٧) في النسخ الثلاث: بالملائكة. (٨) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٩) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٠) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١١) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٣) في م: كقوله. (١٤) في الأصل وم: رحمة، في ط ع: والثاني: الرحمة. (١٥) في النسخ الثلاث: رحمته هي التي أكرمته بذلك الاسترجاع. (١٦) في النسخ الثلاث: النعمة أو رحمة. (١٧) في النسخ الثلاث: يحبونه. (١٨) في النسخ الثلاث: خلف. (١٩) في ط ع: والثالث، ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في النسخ الثلاث: و.

قبلَكُمْ» [عزاه زغلول في موسوعته إلى المسانيد ٢/ ٧٧٤]. فهو على ما بيَّنَّا مِنَ القولِ بهِ. وأمَّا حقُّ التسليمِ فقد كانَ في توقيتِ وقتِ الصبرِ، ثم رُوِيَ [عَنْ][1] رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الصبرُ عندَ الصدمةِ الأولَى» [البخاري: ١٢٨٣].

وقد رُوِيَ عَنْ أنسٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ما مِنْ مصيبةٍ، وإنْ طالَ عهدُها، فيجدِّدُ لها العبدُ بالاسْتِرجاعِ إلّا جُدِّدَ لهُ ثوابُها كلما[2] اسْترجعَ» [بنحوه ابن ماجه: ١٦٠٠]؛ فلعلَّ هذا لِمَنْ أحسنَ القَبولَ وقتَ المصيبَةِ، أو رجَعَ عمَّا فرطَ منهُ، وتابَ، والأوّلُ في غيرِ ذلكَ، واللهُ الموفقُ.

ثم في الآيةِ وجوهٌ مِنَ المعتَبرِ:

أحدُها: ما يلزمُ العبدَ مِنَ المصائبِ وما يستوجبُهُ إذا وفَّى بما عليهِ.

والثاني: في ذلكَ بيانُ أنَّ الصحةَ والأمنَ وحفظَ المُقَدَّرِ لأحدٍ ليسَ بلازمٍ في الحكمةِ، لكنها إنعامٌ مِنَ اللهِ، ولَهُ الابْتِلاءُ بأخذِهِ؛ إذْ لو كانَ عليه الأولُ لم يكنْ يلزمُهُ الشكرُ في ذلكَ. واللهُ الموفقُ.

والثالثُ: أنَّ اللهَ تعالىَ ذكرَ أنه بَلَا العبادَ بالذي ذكرَ.

ومعلومٌ أنَّ ذلك يجري على أيدي العبادِ بهِ[3]، فأضافَ ذلك إلى نفسِهِ. ثبتَ أنَّ لهُ في ذلكَ تدبيراً حتى يَبْلُوَهُمْ بهِ، واللهُ أعلمُ. وفيه أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ [الأنبياء: ٣٥] بكذا، ولم يكنْ كانَ يومئذٍ، ثم كانَ ذلكَ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ الآيةَ[4] [البقرة: ٢١٤]، ثم بُلُوا[5] بذلكَ لِيُعْلَمَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ علمَ ذلك باللهِ. وتبيَّنَ أيضاً أنهُ بموضعِ البشارةِ بما يَعظمُ على الخَلْقِ، ويَقتضي القرارَ[6] في الطبعِ لم يَحتمِلْ أنْ يُجيزَهمْ[7] بهِ لولا الأمرُ بهِ وطاعةُ اللهِ في ذلكَ.

وأيضاً أنهُ ذكرَ الخوفَ، فيُعلَمُ أنَّ الخوفَ مِنَ الخَلْقِ لا يوهِنُ الاعْتِقادَ؛ وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]. فعلىَ ذلكَ الرجاءُ والطمعُ؛ وجملتُهُ أنَّ أمرَ الدنيا محمولٌ كلُّهُ على أسبابٍ؛ لا أنها تُوجَبُ، ولكنَّ اللهَ تعالى أجْرَى أحكامَهُ عليها، فيكونُ الخوفُ والرجاءُ في التحقيقِ مِنَ اللهِ، تعالى أنْ يكونَ جعلَ ذلكَ سبباً، واللهُ الموفقُ.

وأيضاً أن يُعْلَمَ أنَّ المصائبَ في الدنيا ليستْ كلُّها عقيبَ الأيامِ، بل للهِ تعالى الابْتِلاءُ بالحسناتِ والسيئاتِ، [لا تَدُلُّ أيضاً][8] على وَهْنِ الاعْتِقادِ[9] ولا زلةٍ[10] بَلَا بها. وعلى ذلكَ أمرُ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ ولكنْ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ [يكونَ][11] اللهُ تعالى يريدُ أنْ يحميَ وليَّهُ لذَّاتِ الدنيا لينالَها مُوفورةً في الآخرةِ.

والثاني: أنْ يكونَ لهمْ بعدَهُ زلاتٌ[12] لا يسلَمُ منها البشرُ، فَيُبْتَلَوا، فيُبْعَثُوا يومَ القيامةِ، ولا زلَّةَ بقيَتْ مما تَجزيهمْ تلكَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وإنما كذلكَ جُعِلَتْ لِمحنةٍ[13].

الآية ١٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾؛ إن صعودَهُما مِنَ اللازمِ في نُسكِهِ؛ وكذلكَ صعِدَ رسولُ اللهِ ﷺ الصفا، وقالَ: «نبدأُ بما بدأَ اللهُ» [مسلم: ١٢١٨]، وقد قالَ اللهُ تباركَ، وتعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ الآية، ولم يقلْ بينَهما؛ فمَنْ لم يصعَدِ الصفا والمروةَ، فلم يطفْ بهما، معَ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٢]، ففي تركِ صعودِهِما إحلالُ شعائرِ اللهِ، وقد[14] بيَّنَ اللهُ أنهما مِنْ شعائرِهِ. وما رُوِيَ «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ طافَ بينهما على ناقتِهِ»[أحمد: ١/ ٢٣٧] ومعلومٌ أنَّ ناقتَهُ لا تصعَدُهُما، فهو عِندَنا للعذرِ فعلَ ذلكَ؛ وقد[15] رُوِيَ عَنِ النبيِّ ﷺ «أنهُ صعِدَهُما، واستقبلَ البيتَ، وقالَ: «نبدأُ بما بدأَ اللهُ» [مسلم: ١٢١٨]. دليلُ ذلكَ ما رُوِيَ عَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ «أنه طافَ بينَهما على ناقتِهِ وبالبيتِ لعذرٍ بهِ»[أحمد: ١/ ٢٣٧]. ولا يَحتمِلُ أيضاً أنْ يكونَ بغيرِ عذرٍ، وهو المُلَقَّبُ[16] بالسَّعْيِ لِما فيهِ مِنْ فعلِ السَّعْيِ، والراكبُ لا يَسْعَى.

---

(١) من ط ع. (٢) من ط ع، في الأصل وم: كلها. (٣) في النسخ الثلاث: بهم. (٤) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٥) من ط ع وم، في الأصل: يبلو. (٦) من ط ع، في الأصل: الفوار، في م: الغوار. (٧) في م: يخبرهم. (٨) في الأصل: أيضاً لا بد، في م وط ع: أيضاً لا يدل. (٩) في النسخ الثلاث: عقد المصائب. (١٠) من ط ع وم، في الأصل: ذلة. (١١) من ط ع. (١٢) من ط ع وم، في الأصل: ذلات. (١٣) أدرج بعدها في النسخ الثلاث: قال دل. (١٤) في ط ع: إذ قد. (١٥) في النسخ الثلاث: وإلا فإنه قد. (١٦) من ط ع وم، في الأصل: المقلب.

وقالَ الشافعيُّ: /٢٣ - أ/ (رُوِيَ عَنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ طافَ بالبيتِ وبينَ الصفا والمروةِ على ناقتِهِ لِيُرِيَ الناسَ» [الشافعي في مسنده: ٨٩١]، وقالَ: [خبرُ جابرٍ أولَى مِنْ خبرِ][١] ابنِ جُبَيرٍ)؛ فكأنهُ وقعَ عندَهُ أنهُ عنِ ابنِ جُبَيرٍ، وذلكَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ وهو أولَى: لأنَّ العذرَ كامِنٌ لا يُعرفُ بالنظرِ مِنْ بعدٍ، وإنما يُعرف بالتأمُّلِ أو بالخبرِ مِنْ عندِ ذي العذرِ. وعلى هذا خرجَ خبرُ ابنِ عباسٍ ﷺ على أنَّ خبرَ جابرٍ، لو صحَّ على ما يُروَى، فهو لِما ذكرَ أنهُ «لِيُرِيَ الناسَ»؛ فكأنهُ أرادَ أن يعلِّمَهُم، [وذلكَ عذرٌ لهُ ﷺ إذْ خرجَ مَخرجَ التبليغِ][٢]، وذلكَ كالتعليمِ منهُ، [والتعليمُ][٣] عليهِ لازمٌ؛ فهو بتركِهِ يُلامُ عليهِ، فذلكَ عذرٌ، واللهُ أعلمُ، أنهُ[٤] يجوزُ أنْ يكونَ فعلُهُ ذلكَ ليسَ هو فعلَ ما كانَ عليهِ أنْ[٥] يفعلَهُ؟ فكانَ ذلكَ، لمكانِ الدلالةِ للخَلْقِ بذلكَ، هو الأمرُ المتوارثُ مِنْ صنيعِ الحجِّ والعمرةِ أنَّ الأوَّلِينَ[٦] يفعلُونَ ما يفعَلُ الحاجُّ، لا على فِعْلِ الحجِّ، ولكنْ على التعليمِ. فعلى[٧] ذلكَ أمرُ المرويِّ عنهُ ﷺ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ الصعودَ على الصفا والمروةِ مِنْ شعائرِ اللهِ لا الطوافُ بينَهما خاصةً على ما قالَهُ[٨] قومٌ؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ولم يقلْ أنْ يَطَّوفَ بينَهما، ولِما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «نبدأُ بما بدأَ اللهُ» ثم صَعِدَ الصَّفَا [مسلم: ١٢١٨]، فإنْ عُورِضَ بما رُوِيَ أنهُ طافَ بينَهما على ناقتِهِ، ولم يصعَدْ، قيلَ لهُمْ: يَحتمِلُ أنهُ لم يصعَدْ لِما كانتِ الناقةُ لا تَقْدِرُ الإرْتِفاعَ بهِ[٩] ولا الصعودَ، أو كانَ بهِ عذرٌ، فتركَ الصعودَ للعذرِ، وقد تُباحُ الأشياءُ في حالِ العذرِ مالا يُباحُ في غيرِ تلكَ الحالِ][١٠].

ثم اختُلِفَ في الطوافِ بينهمَا بعدَ ما قيلَ: إنَّ الجُنَاحَ فيهِ لوجهَينِ:

أحدُهما: ما قيلَ: كانَ بالصفا صنمٌ، [وبالمروةِ صنمٌ][١١]، فَيَتَحرَّجُونَ[١٢] لمكانِهما، [وقيلَ: كانَ بينَهما][١٣] أصنامٌ، لذلكَ كانَ حَرَجُهُمْ[١٤].

ثم قالَ الشافعيُّ: («إنَّ السعيَ بينَهما مفروضٌ حتى لو نزلَ الحاجُّ خَطوةً منهُ، وأتى أقصى بلادِ المسلمِينَ، أُمِرَ بالعَودِ ليضعَ قَدَمَهُ موضِعَهَا، ويخطوَ تلكَ الخَطْوَةَ») [رقم الحديث في مسنده: ٨٩١]، واحتجَّ بما رَوَتْ صفيَّةُ بنتُ فلانٍ أنها سمعَتِ امرأةً سألَتْ رسولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذلكَ، فقالَ: «إنَّ اللهَ كتبَ عليكُمُ السَّعْيَ بينَ الصفا والمروةِ فَاسْعَوا» [أحمد: ٦/ ٤٢٢]. وهو يأتي مَرَّةً بقبولِ المراسيلِ لِتَوَهُّمِ الغلطِ، ومرَّةً يحتجُّ بامرأةٍ لا تُعرفُ، ولا يذكرُ اسْمَها.

والوجهُ فيهِ، إنْ ثبتَ، وصَحَّ أنَّ الكتابَ يَحتمِلُ غيرَ ما قالَهُ، وهو أنْ يُقالَ: كَتَبَ أي حَكَمَ، كقولِهِ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]، [وقولِهِ][١٥]: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]؛ قيلَ: بهِ حكمُ اللهِ عليكُم.

وقالَ آخرونَ: ليسَ بفرضٍ ولا لازمٍ، واحتَجُّوا بما ذُكِرَ في حرفِ [أُبَيِّ بْنِ كعبٍ][١٦]: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ ألا ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[١٧]، ولا يُذكَرُ ذلكَ في شيءٍ واجبٍ.

والثاني: أنَّ هذه اللفظةَ لفظةُ رخصةٍ، ولا يُرَخَّصُ بتركِ ما [هو][١٨] فرضٌ أو لازمٌ.

ثم الجوابُ عنِ الحرفِ الأولِ أنَّ اللَّاءاتِ[١٩] ربَّما تُزادُ، وتنقُصُ، ولا تُوجَبُ زيادتُها ونقصانُها بغيرِ حكمِها كقولِه تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] أي لا تضِلُّوا، ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ.

[والجوابُ عنِ][٢٠] الثاني: ما ذكرْنا أنَّ المسلِمينَ كانُوا يَتحرَّجُونَ عَنِ الطوافِ بينَهما لمكانِ الأصنامِ، فبيَّنَ ﷻ أنْ لا حَرَجَ عليهِمْ في ذلكَ، لا أنْ ليسَ الجُناحُ يَدفعُ الحَرَجَ في تركِهِ.

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٤) أدرج قبلها في النسخ الثلاث: وأيضاً. (٥) في النسخ الثلاث: أنه كيف كان. (٦) في الأصل وم: الأولي، ولعل الناسخ أراد الأوالي، فسقطت الألف من رسمه، في ط ع: الأوال، ولعل الناسخ أراد الأواول، فسقطت الألف والواو في رسمه. (٧) من ط ع، في الأصل وم: فعل. (٨) من م، في الأصل: على ماله. (٩) في الأصل وم: بهم. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٢) في النسخ الثلاث: فيخرجوا. (١٣) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٤) في النسخ الثلاث: يخرجهم. (١٥) من ط ع. (١٦) في الأصل وم: أبي، في ط ع: آتى. (١٧) انظر المحتسب ١/ ١١٥. (١٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٩) في النسخ الثلاث: الذات. (٢٠) في النسخ الثلاث: و.

وأمّا عندَنا: [فهو لازمٌ؛ لأنهُ نوعُ مالا يُتبرَّعُ بهِ. والأصلُ عندَنا][1] أنَّ ما لا يُتبرَّعُ بهِ يخرجُ الأمرُ بهِ مخرجَ الوجوبِ واللزوم كالطوافِ وسجدةِ التلاوةِ وكالوترِ والأضحيةِ وغيرِهِ. وقد رُوِيَ عنْ عائشةَ / ٢٣ ـ ب/ ﵂ أنها قالَتْ: (ماتَمَّ حجُّ امْرِئٍ قطُّ إلّا بالسَّعْيِ)، فهو وصفٌ [بالنقصانِ لا وصفٌ][2] بالفسادِ، وفرقٌ بينَ التَّمامِ مِنَ النقصِ وبينَ الجوازِ مِنَ الفسادِ.

وقولُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾: [قيلَ ﴿شَاكِرٌ﴾ أي يَجزيهِمْ جزاءَ الخَطيرِ بعملِ اليسيرِ، وقيلَ: يقبلُ القليلَ، ويعطي الجزيلَ، وهو واحدٌ][3]؛ عاملَ اللهُ ﷻ بكرمِهِ ولطفِهِ عبادَهُ مُعاملةَ مَنْ لا حقَّ لهُ في أموالِهِمْ وأنفسِهِمْ؛ حينَ وعدَ قبولَ اليسيرِ مِنَ العملِ وإعطاءَ الجزيلِ مِنَ الثوابِ؛ وحينَ طلبَ منهمُ الإقراضَ، ووعَدَ لهمُ العظيمَ مِنَ الجزاءِ كَمَنْ لا حَقَّ لَهُ فيها بقولِهِ: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وحينَ خرجَ القولُ منهُ في الابْتِلاءِ والامْتِحانِ مخرجَ[4] الاعْتِذارِ لهمْ كانَ لا حقَّ لهُ فيهِ بقولِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥]، ثُمَّ بشَّرَ لهمْ بالجنةِ بِما صبَروا على أخذِ مالَهُ أخْذُهُ، وهو مِنْ غايةِ اللطفِ والكرمِ.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: قيلَ: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هي: الحججُ، أي كتمُوا ما أنزلَ اللهُ مِنَ الحججِ التي كانَتْ في كتبِهِمْ، وقيلَ: كتمُوا ما بيَّنَ في كتبِهِمْ مِنْ بعثِ[5] محمدٍ وصفتِهِ. وجائزٌ أنْ تكونَ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ما بيَّنَ للخَلْقِ مِمَّا عليهِمْ أنْ يأتُوا، ويتَّقُوا مِنَ الأحكامِ مِنَ الحلالِ والحرامِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾: قيلَ: الصوابُ والرشدُ، وقيلَ: ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ ما جاءَتْ بهِ أنبياؤُهُمْ مِنْ شأنِ محمدٍ ﷺ وهمْ ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

[وقولُهُ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾][6]؛ اختُلِفَ في ﴿بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾؛ قيلَ: بيَّنَّا للمؤمنينَ ما كتمَ[7] اليهودُ مِنْ بعثِهِ[8] ودينِهِ. ويَحتمِلُ: البيانَ بالحججِ والبراهينِ، ويَحتمِلُ: البيانَ بالخبرِ، أخبرَ المؤمنينَ بذلكَ.

وقولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ قالَ بعضُ أهلِ الكلامِ: اللعنُ هو الشتمُ مِنَ اللهِ تعالى. لكنّا لا نَسْتَحسنُ إضافةَ لفظِ الشتمِ إليهِ؛ لأنَّ المضافَ إليهِ الشتمُ يكونُ مذموماً بهِ في المعروفِ مِمّا جُبِلَ عليهِ الخَلْقُ، ونقولُ: اللعنُ هوَ الطردُ في اللغةِ، طرَدَهُمْ ﷻ عَنْ أبوابِ الخيرِ.

وقولُهُ: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني الداعِينَ عليهِمْ باللعنِ، سُمّوا بذلكَ اللاعِنينَ، ويَحتمِلُ: يَستبعِدُهُمْ عنِ الخيراتِ وأنواعِ البِرِّ، وقيلَ: [﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾][9] همُ البهائمُ؛ إذا قحطتِ السماءُ وأسْنَتِ[10] الأرضُ، قالتِ البهائمُ: مُنِعْنا القطرَ بذنوبِ بني آدمَ، لعنَ اللهُ عُصاةَ بني آدمَ.

الآية ١٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾؛ قيلَ: ﴿تَابُوا۟﴾ عَنِ الشِّرْكِ، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أعمالَهُمْ فيما بينَهمْ وبينَ ربِّهِمْ، ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ صفةَ محمدٍ ﷺ، وقيلَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عنِ الكِتمانِ، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدُوا بالكِتمانِ [﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ ماكتَمُوا][11].

[وقولُهُ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾][12]؛ قيلَ: يتوبُ عليهِمْ: يقبلُ توبةَ مَنْ يتوبُ، وقيلَ: يتوبُ عليهِمْ: أي يُوَفِّقُهُمْ على التوبةِ. وقيلَ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ هو المتجاوزُ عَنْ ذنبِهِمْ في هذا الموضِعِ، وقيلَ: الكاشِفُ عَنْ كربِهِمْ.

الآية ١٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾؛ قيلَ: ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ هو إدخالُهُ إياهُمُ النارَ وإخلاؤُهُمْ فيها، ولعنةُ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠] جواباً لِما سألُوهمْ مِنْ تخفيفِ العذابِ، كقولِهِ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] وكقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا﴾

---

(١) من ط ع. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) من ط ع، وأدرجت في الأصل وم بعد العبارة: غاية اللطف والكرم. (٤) في الأصل وم: يخرج. (٥) في النسخ الثلاث: نعت. (٦) ساقطة من ط ع. (٧) في النسخ الثلاث: كتمهم. (٨) في النسخ الثلاث: نعته. (٩) من ط ع. (١٠) أسْنَتْ: مِنَ السنة، وهي الجدبُ: أسنتِ الأرضُ: أجدبَتْ. (١١) من ط ع وم، ساقطة من الاصل. (١٢) من ط ع، في الأصل وم: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

الآية[1] [المؤمنون: ١٠٧]، فتقولُ لهمُ الملائكةُ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، هذا ما قيلَ مِنْ لعنةِ الملائكةِ. وقيلَ: لعنةُ ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أنهمْ لَمّا طلبُوا مِنْ أهلِ الجنةِ الماءَ بقولِهِمْ[2]: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]. هذه لعنةُ الناسِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ قيلَ لا يُقالُونَ، ولا يُرَدُّونَ إلى ما تَمَنَّوا، كقولِهِ: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقيلَ: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ولا يؤجَّلُونَ، وقيلَ: لا يُناظِرُهُمْ خُزّانُ النارِ بالعذابِ.

الآية ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ذكرَ هذا الاسْمَ لأنَّ كلَّ معبودٍ يُعبَدُ عندَ العربِ يُسَمُّونَ إلهاً، كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]، وكقولِهِ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. لهذا ذكرَ أنَّ إلهَكُمُ الذي يستحقُّ الألوهيَّةَ والعبادةَ واحدٌ بذاتِهِ، لا واحدٌ مِنْ جهةِ العددِ كالخلقِ ذي[3] أعدادٍ وأزواجٍ وأشكالٍ، بل واحدٌ بذاتِهِ وبجلالِهِ وعظمتِهِ وارْتِفاعِهِ عَنْ شِبْهِ الخَلْقِ وجميعِ مَعايِبِهِمْ؛ يُقالُ: فلانٌ واحدُ زمانِهِ: يُرادُ لِارْتِفاعِ أمرِهِ وعلوِّ مرتبتِهِ، لا بحيثُ العددُ؛ إذْ بحيثُ العددُ مثلُهُ كثيرٌ.

وقولُهُ: ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فيه إثباتُ إلهٍ واحدٍ، وفي قولِهِ: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفيُ غيرِهِ مِنَ الآلهةِ. [فمن قالَ][4]: لِمَ كانَ هذا دليلاً؟ وهو في الظاهرِ دَعْوَى؟ قيلَ لهُ: دليلُ وحدانيتِهِ [في وجوهٍ:

أحدُها:][5] في قولِهِ تعالى:

الآية ١٦٤ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾. خلقَ السمواتِ، وجعلَ فيها منافعَ[6]، وخلقَ الأرضَ، وجعلَ فيها منافعَ[7] للخَلْقِ، ثم جعلَ منافعَ السماءِ مُتَّصلةً بمنافعِ الأرضِ [معَ بُعدِ][8] ما بينَهما، إذْ لا منفعةَ للخَلْقِ في منافعِ إحداهُما إلّا باتِّصالِ منافعِ الأُخرَى بها مِنْ نحوِ ما جعلَ مِنْ معرفةِ الطرقِ في الأرضِ بالكواكبِ وإنضاجِ الأعنابِ والثمارِ ويَنْعِها بالشمسِ والقمرِ، وجعلَ إحياءَ الأرضِ وإخراجَ ما فيها مِنَ النباتِ مِنَ المأكولِ والمشروبِ والملبوسِ بالأمطارِ، فدلَّ اتِّصالُ منافعِ أحدِهما بالآخرِ وتعلُّقُها بِهِ على أنَّ مُنْشِئَهما واحدٌ لأنهُ لو كانَ مِنِ اثْنَينِ لكانَ إذا قطعَ هذا وصلَ الآخرُ، وإذا وصلَ هذا قطعَ الآخرُ، فإذا لم يكنْ، ولكنهُ اتَّصلَ، دلَّ أنه فعلُ واحدٍ، فهو ينقضُ على الثَّنَوِيَّةِ والزنادقةِ قولَهُمْ، وكذلكَ يدلُّ اخْتِلافُ الليلِ والنهارِ على أنَّ خالِقَهُما واحدٌ، لأنهُ لو كانَ مِنِ اثْنَينِ لكانَ إذا أتى هذا بالليلِ منعَ الآخرُ بالنهارِ، وإذا أتى أحدُهما بالنهارِ منعَ الآخرَ بالليلِ، وفيه ذهابُ عيشِ الخَلْقِ، وفي ذهابِهِ تفانيهِمْ وفسادُهُمْ، فدلَّ أنهُ واحدٌ.

والثاني: أنهُ جعلَ للخَلْقِ في الليلِ والنهارِ منافعَ[9]، وجعلَ بعضَها مُتَّصِلَةً ببعضٍ مُتَعَلِّقَةً مع تضادِّهِما كقولِهِ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] فدلَّ اتِّصالُ منافعِ أحدِهِما بالآخرِ معَ اخْتِلافِهما وتضادِّهِما أنَّ مُحْدِثَهُما واحدٌ.

[والثالثُ: فيهِ][10] دلالةُ حَدَثِ العالَمِ لِما ذكرْنا مِنْ تَغْيِيرِها وزوالِها مِنْ حالٍ إلى حالٍ، فدلَّ تَغْيِيرُها وزوالُها على أنها حَدَثٌ، ودلَّ أنَّ جَهْلَ هذهِ الأشياءِ بِابْتِدائِها وعجزَها على قُدْرةِ مثلِها على أنَّ لهما [مُحْدِثاً، وأنَّ][11] كلَّ واحدٍ منهما؛ أعني الليلَ والنهارَ، يصيرُ بمجيءِ الآخرِ مغلوباً، فلو أنْ كانَ ثَمَّ لغيرِ فيهِ تدبيرٌ، لما[12] احْتَملَ أنْ يصيرَ مغلوباً بعدَ ما كانَ غالباً، فدلَّ أنَّ لهما مُحْدِثاً، وأنهُ واحدٌ.

[والرابعُ: فيهِ][13] دلالةُ البعثِ والحياةِ بعدَ الموتِ لأنَّ الليلَ يأتي على النهارِ فيُتْلِفُهُ، ويَذْهَبُ بهِ حتى لا يبقَى مِنْ أثرِ

(١) أُدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٢) في النسخ الثلاث: بقوله. (٣) من ط ع، في الأصل وم: ذو. (٤) في النسخ الثلاث: فإن قيل. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) من ط ع ، في الأصل وم: منافعا. (٧) من ط ع ، في الأصل وم: منافعا. (٨) في النسخ الثلاث: لبعد. (٩) في النسخ الثلاث: منافعا. (١٠) في النسخ الثلاث: وفيه. (١١) في النسخ الثلاث: محدث. والثاني أن. (١٢) في النسخ الثلاث: وإلا. (١٣) في النسخ الثلاث: وفيه.

[النهارِ شيءٌ، وكذلكَ النهارُ يأتي على الليلِ فَيُتْلِفُهُ حتى لا يبقَى مِنَ](١) الليلِ شيءٌ، ثم وُجِدَ بعدَ ذلكَ كلُّ واحدٍ منهما على ما وُجِدَ في البدءِ(٢) مِنْ غيرِ نُقصانٍ ولا تَفاوُتٍ؛ فدلَّ أنهُ قادرٌ على إنشاءِ ما أماتَهُ، وأتلفَهُ، وإنْ لم يبقَ لهُ أثرٌ على ما قَدَرَ مِنْ إيجادِ ما أتلفَ وإنشاءِ ما أذهبَ مِنَ الليلِ بالنهارِ ومِنَ النهارِ بالليلِ، وإنْ لم يبقَ لهُ أثرٌ.

وقولُهُ(٣): ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ قيلَ(٤): اختلافُهما لِما جعلَ أحدَهما مُظلِماً والآخرَ مُضِيئاً، وقيلَ: اختلافُهما لنُقصانِهما وزيادَتِهما، إذْ ما يَنْتَقِصُ مِنْ أحدِهما يَزدادُ في الآخَرِ، فدلَّ انتِقاصُهُما وزيادتُهُما على أنَّ منشئَهُما واحدٌ؛ لأنهُ لو كانَ مِنِ اثْنَينِ لمنعَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ مِنَ الزيادةِ والنقصانِ، وباللهِ التوفيقُ، ولتَغَيَّرَ التدبيرُ، ولا يجري كلَّ عامٍ الأمرُ فيهِ على ما جَرَىَ عليهِ في العامِ الأولِ.

وقولُهُ: / ٢٤ ـ أ/ ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ فالآيةُ تَنقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ؛ لأنه ﷻ جعلَ ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ مِنْ آياتِهِ، والمعتزلةُ جعلُوها مِنْ آياتِ البحارينَ لأنَّ الفلكَ قبلَ أنْ يُعملَ فيها، ويُنحتَ، لا تُسَمَّى فُلْكاً، ولكن تُسَمَّى خشباً، فلو لم يكنْ عملُ العبادِ وفعلُهُمْ فيها مِنْ مصنوعِهِ ومخلوقِهِ [لَزالَ بهِ موضِعُ](٥) الحِجاجِ وتَسميتُهُ باسْمِ الآياتِ. فدلَّ أنَّ لهُ فيها صُنْعاً وتقديراً حينَ صارَ مِنْ عجيبِ آياتِهِ.

ثم فيهِ أعجوبةٌ؛ وهي(٦) أنَّ الطباعَ تنفرُ من معافجَةِ(٧) البحرِ بالاطّلاعِ على أمواجِهِ وأهوالِهِ، وأراهُمْ مِنْ عِظَمِ آياتِهِ ما يُجريهِ في البحرِ على الحفظِ والأمرِ الواقعِ لهمْ. فدلَّ أنهُ مِنْ عندِ قادرٍ لطيفٍ خبيرٍ.

وفيهِ أيضاً دلالةُ وَحدانيَّتِهِ؛ وذلكَ أنَّ أهلَ البرِّ لهمُ الانْتِفاعُ بأهلِ البحرِ، ولأهلِ البحرِ الانْتِفاعُ بأهلِ البرِّ على بُعْدِ ما بينَهما وتضادِّهما، فدلَّ أنَّ مُحدِثَهُما واحدٌ. ثم فيهِ دلالةُ إباحةِ التجاراتِ مع الخَطَراتِ على احتِمالِ المَشَقّاتِ وتَحمُّلِ المَؤُوناتِ. وفي ذلكَ دلالةُ النبوّةِ لأنَ يُعْلِمَ أنَّ اتّخاذَ السفنِ وما(٨) فيهِ مِنَ المنافعِ لا يقومُ لهُ تدبيرُ البشرِ؛ ثبتَ أنهُ علمَ ذلكَ بمَنْ عَلِمَ جواهرَ الأشياءِ، وما يُصلِحُ الأشياءَ وما لا يُصلِحُ، وفي الحاجةِ إلى ذلكَ إيجابُ القولِ بالرسالةِ للبشرِ.

وقولُهُ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فيهِ(٩) دلالةُ فضلِ العلويِّ على السفليِّ لأنَّ ما ينزلُ مِنَ السماءِ مِنَ الماءِ ينزلُ عذباً، وما يَخرُجُ مِنَ الأرضِ يخرجُ مُختلِفاً، منهُ ما هو عَذْبٌ، ومنه ما هو أُجاجٌ، وماهو مرٌّ، فدلَّ دلالةَ فضلِ العلويِّ على السفليِّ.

وقولُهُ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قد ذكَرْنا هذا(١٠) أنَّ فيهِ دلالةَ البعثِ.

وقولُهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾؛ قيلَ: خلَقَ، وقيلَ: بسطَ، وقيلَ: فرَّقَ.

[وقولُهُ](١١): ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ قيلَ: جعلَ فيها مِنْ كلِّ جوهرِ الدابَّةِ؛ منها ما جعلَ مأكولاً مُنتَفعاً بها مِنْ كلِّ أنواعِ المنافعِ لِيَدُلَّهُمْ، ويُرغِّبَهُمْ على ما وعدَ لهمْ في الجنةِ، ومنها ما جعلَ غيرَ مأكولةٍ ولا مُنْتَفَعٍ بها، بل جعلَها أعداءً لهمْ لِيَدُلَّهُمْ على تحذيرِ ما أُوعِدُوا، وحُذِّرُوا في النارِ.

وقولُهُ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ(١٢):

يَحتمِلُ: تصريفَها مرةً للعذابِ ومرةً للمنافعِ، لأنهُ جعلَ فيها منافعَ كثيرةً للخَلْقِ؛ بها تجري السفنُ في البحارِ، وبها ينتشرُ السحابُ في الهواءِ، وبها تُنتَقَى الأشياءُ، وبها يَتَمَيَّزُ ما للخَلْقِ مما للدوابِّ مما يكثرُ ذلكَ. ثم يُعلَمُ مِنْ عِظَمِ لطفِهِ أنهُ جعلَ الهواءَ بحالٍ لا يَقِرُّ فيها شيءٌ، وإنْ لَطُفَ، والسحابَ معَ غِلَظِهِ وكثافتِهِ، جعلَ الهواءَ معَ [لَطافَتِهِ ورِقَّتِهِ](١٣) مَقَرّاً للسحابِ حتى يُعلَمَ أنْ ليسَ لغيرِ اللهِ فيهِ تدبيرٌ.

---

(١) من ط ع وط م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: البداء، في ط ع: البنوء. (٣) ساقطة من م. (٤) من ط ع، في الأصل وم: وقيل. (٥) في الأصل: لزوال به موضوع، في ط ع وم: الزوال به موضع. (٦) في النسخ الثلاث: وهو. (٧) عفج يعفج: ضرب. (٨) في النسخ الثلاث: وبما. (٩) في ط ع: وفيه. (١٠) في النسخ الثلاث: ذا. (١١) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٢) ساقطة من ط ع. (١٣) في النسخ الثلاث: لطافتها ورقتها.

ويَحتَمِلُ تصريفُ الرياحِ صرْفَهُ[(١)] إياها مرةً صَباً ومرةً دَبوراً ومرةً جُنوباً ومرةً نَسيماً ومرةً يَميناً ومرةً شِمالاً للمنافعِ.

ثم فيهِ دلالةٌ أنها مِنَ الأجسامِ لا مِنَ الأعراضِ لأنهُ ﷻ جعلَها ماسَّةً مانعةً لا صارعةً مَنْ قامَ في ناحيتِها، وذلكَ صفةُ الأجسامِ لا صفةُ الأعراضِ، لكنْ لا تُرَى لِلَطافتِها، فدلَّ أنَّ[(٢)] مِنَ الأجسامِ ما لا يُرَى، ولا يُمَسُّ كالهواءِ، لا يُرَى ولا يُمَسُّ، وكالذرَّةِ لا تُرَى ولا تُمَسُّ.

ثم دلَّهُمْ ﷻ أنَّ الذي سخَّر السحابَ بالرياحِ التي جعلَها في الهواءِ، وما[(٣)] فيها مِنَ المنافعِ التي تقدَّمَ ذكرُها على أنَّ مدبِّرَها واحدٌ. إذْ لو كانَ التدبيرُ مِنْ عندِ اثْنينِ لأوجبَ التناقضَ في التدبيرِ والصنعةِ، إذْ يجعلُ كلٌّ منهما على خلافِ ما جعلَهُ الآخرُ، ويتدبَّرُ كلٌّ منهما لينقُضَ تدبيرَ الآخرِ في اتِّساقِ التدبيرِ. وإتقانُ[(٤)] الصنعةِ وإحكامُها دليلٌ أنَّ إلهَكُمْ، هو الواحدُ الذي دعتكُمْ هذهِ الأشياءُ إلى الإقرارِ بوَحدانيَّتِهِ، وألزمَتْكُمُ العبوديَّةُ لهُ بما أودعَ لهُ في كلِّ هذهِ المصنوعاتِ مِنْ أدلَّةِ وَحدانيَّتِهِ وآياتِ رُبوبيَّتِهِ. ولهذا قالَ: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ليَعْتَبِروا ما فيها مِنَ الأدلَّةِ والحججِ؛ إذْ مَنْ لا يعقِلُ جهةَ الحكمةِ في خلقِ هذهِ الأشياءِ: مِمَّ خُلِقَتْ، ولماذا خُلِقَتْ؟ وما الحكمةُ فيها؟ يستوي[(٥)] عليهِ خلقُها وغيرُ خلقِها.

ثم فيه دلالةٌ أنَّ ما خلقَ مِنَ السمواتِ والأرضِ والليلِ والنهارِ والرياحِ والسحابِ، خَلَقَها لِيَدُلَّهُمْ على وحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ، وجعلَها مسخَّرةً مذلَّلَةً لهمْ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: ﴿يَتَّخِذُ﴾: يَعبدُ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾، وقيلَ: ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ في التسميةِ، يعني[(٦)]: يَتَّخِذُ الجواهرَ التي تصاغُ، أو تُنْحَتُ، ونحوَ ذلكَ مما يتعلَّقُ كونُهُمْ بصنيعِهِمْ؛ يُسَفِّهُهُمْ بهذا: أنهمْ تركُوا عبادةَ مَنْ بهِ قامَتْ لهمْ كلُّ نعمةٍ، وسَلِمَ لهمْ كُلُّ خيرٍ، وعبدُوا ما اتَّخذوهُ بالمعالجاتِ، [ولا قوةَ إلّا باللهِ][(٧)].

[(٨)][[وقولُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أي أشباهاً في التسميةِ أو أعدالاً في العبادةِ، أو شركاءَ في الحقوقِ بقولِهِ: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ الآيةَ[(٩)] [الأنعام: ١٣٦]؛ يسفِّهُهُمْ بما عَبدوا ما قد صنعُوهُ بالصناعةِ أو النحتِ، وزيَّنُوا بأنواعِ الزينةِ، وأعرضُوا بذلكَ عنْ عبادةِ مَنْ عرفُوهُ بشهادةِ جميعِ العالَمِ بهمْ، [وعلموا أنهُ لا يملكُ شيئاً ممّا عبدُوهُ ضرّاً ولا نفعاً][(١٠)]، بل لو كانَ[(١١)] يجوزُ العبادةُ لغيرِ اللهِ لكانَ أولئكَ الذينَ اتَّخذُوا أَوْلَى مِنَ المُتَّخذينَ.

ثُمَّ بيَّنَ عِظَمَ سَفَهِهِمْ، [وهو][(١٢)] علمُهُمْ بجهلِهِمْ بعبادتِهِمْ وعجزِها عنِ الدفعِ عنها ونصرِها[(١٣)] والدفعِ عنها سَفَهاً بغيرِ عِلْمٍ.

وقولُهُ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾؛ قيلَ: يحبُّونَ عبادةَ الأندادِ وطاعتَهُمْ [كحُبِّهِمْ عبادةَ][(١٤)] اللهِ وطاعتَهُ لأنهمْ يقولونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، ويقولُونَ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقيلَ: يحبونَ عبادةَ الأندادِ كحبِّ المؤمنينَ عبادةَ ربِّهِمْ. وقيلَ: يحبونَ آلهتَهُمْ كما يحبُّ الذينَ آمنُوا ربَّهُمْ.

ثم قالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ منهمْ لآلِهتِهِمْ: قيلَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي أشدُّ حبّاً لأجلِ اللهِ، وقيلَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي أشدُّ اختياراً لِطاعتِهِ وأكثرُ ائْتِماراً وإعظاماً وإجلالاً لأمرِهِ مِنْ إعظامِهِمْ وإجلالِهِمْ آلِهتَهُمْ، واللهُ أعلمُ، [وقيلَ:][(١٥)] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي لعبادتِهِ منهمْ لعبادةِ الأوثانِ مِنْ حيثُ لا يؤثرُ المؤمنُ على

---

(١) في ط ع: عرفه. (٢) في النسخ الثلاث: أنها. (٣) في النسخ الثلاث: ومما. (٤) في ط ع: اتفاق. (٥) في م: لا يستوي. (٦) في النسخ الثلاث: ومعنى. (٧) من الأصل وم، ساقطة من ط ع. (٨) أدرج تفسير هذه الآية في الأصل وم مرتين: الأولى في الأصل في ص: ٢٣أ س ٧ ـ ٢١، وفي م ص: ٢٣ وس ١٢ ـ ٢٨ وذلك قبل أن ينتهي تفسير الآية: ١٥٨ وبعد العبارة: فعلى ذلك أمر المرويّ عنه ﷺ، والله أعلم. والمرة الثانية في الأصل في ص: ٢٤أ س ٢٦ ـ ٣٦، وفي م ص: ٢٤ وس٣١ ـ ٤٢، وقد جمعنا من هاتين النسختين (الأصل وم) ما رأيناه مناسباً لسياق النص وقريباً من الكمال وقابلناه بما جاء في ط ع، وأثبتناه ما بين هذه المعقوفات: المعقوفات الأربع في هذه الصفحة س١٧ : [(٨)][[وقولُهُ . . . إلى الصفحة التالية س١٣ : . . . الموفق]][(٣)]. (٩) أدرج في ط ع بدل هذه الكلمة تتمة الآية. (١٠) من ط ع. (١١) من ط ع، في الأصل وم: كانوا. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) في النسخ الثلاث: ثم قاموا بنصرها. (١٤) في الأصل و م: كحبهم كعبادة، في ط ع: كعبادة. (١٥) ساقطة من النسخ الثلاث.

عبادةِ اللهِ، أعني في الاختيارِ لا فيما يوجدُ مِنْ ظاهرِ الأحوالِ في الدارَينِ جميعاً، وهُمْ يتركونَ عبادةَ الأوثانِ بوجودِ ما هو أعجبُ منها أو بأدْنى شيءٍ مِنْ مَتاعِ الدنيا.

ثم المحبةُ، محبةُ الشهوةِ والميلُ إليها، وهو في الخَلْقِ، لا يُحتَملُ في اللهِ؛ ومحبتُهُ الطاعةُ وإيثارُ الأمرِ والإعظامُ، فهو في اللهِ يَحتمِلُ.

وبعدُ فإنَّ الحبَّ يُخَرَّجُ على الثناءِ وعلى العبادةِ والطاعةِ وعلى التبجيلِ والتعظيمِ. وقد يُخَرَّجُ على مَيلِ القلوبِ. فحبُّ الكفرةِ هذا، وهو حبُّ الجسدانيِّ بِهِ الذي يولِّدُهُ الشهوةُ، أو يستحسنُهُ البصرُ. وحبُّ اللهِ مِنَ المؤمنينَ مِنْ هذَينِ الوجهَينِ فاسدٌ، بل هو مِنَ الوجوهِ التي ذكَرْنا. وقد كانَ حبُّ الهيبةِ والرغبةِ؛ إذ علمُوا النعمَ مِنَ اللهِ تعالى، وعلمُوا أنَّ السلطانَ والعزَّ للهِ، ولا أحدَ ينالُ شيئاً إلّا باللهِ، فأوجبُ ما عندَهُ مِنَ النِعمِ الرغبةُ، ومالَهُ مِنَ السلطانِ الهيبةُ. فذلكَ طريقُ حبِّ المؤمنينَ معَ ما ظهرَ مِنْ أياديهِ التي لا تُحصى وأفضالِهِ التي لا تُحاطُ، والعلمُ بهما موجِبٌ[1] تعظيمَ الأمورِ والمبادرةَ بالقيامِ بها معَ الأدلةِ المظهرَةِ تعاليَهُ عَنْ تقديرِ العقولِ وتصويرِ الأوهامِ، فيكونُ حبُّهُ في الحقيقةِ في تعظيمِ أمورِهِ وحسنِ صحبةِ نعمِهِ ومعرفةِ حقوقِهِ، لا في تَوَهُّمِ ذاتِهِ وإشعارِ القلبِ ما يعقلُهُ ليُرْجِعَ المحبةَ إلى ذلكَ، بل هو ما ذكرْتُ. ولذلكَ أمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يقولَ لهمْ: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١] وهو مَنْ أحبَّ آخرَ محبَّةَ الجلالِ والرفعةِ عظَّمَ رسولَهُ ﷺ وانْقادَ لِما يدعُوهُ إليهِ، وإنْ كانَ في ذلكَ هلاكُهُ تعظيماً[2] لأمرِهِ وتبجيلاً، فكيفَ فيما فيه نجاتُهُ وفوزُهُ في الدارَينِ؟ واللهُ الموفقُ]][3].

وقولُهُ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ قُرِئَ بالياءِ والتاءِ[4] جميعاً؛ ومَن قرأ بالتاءِ جعلَ الخطابَ لرسولِ اللهِ ﷺ يقولُ: ﴿وَلَوْ﴾ ترى ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ يامحمدُ شهِدُوا لَكَ ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، ومَنْ قرأ بالياءِ: يقول: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ في الدنيا إذ رَأَوُا العذابَ يعلمُونَ ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

[ويَحتمِلُ لو عَلِمَ الذينَ ظلمُوا إذا علمُوا عذابَ الآخرةِ يعلمُونَ ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾][5]، ويَحتمِلُ المرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿يَرَى﴾ أي يدخلُ كقولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] أي لِمَنْ يدخلُها، ويَصليها.

الآية ١٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ يعني الرؤساءَ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ يعني الأتباعَ والسفلةَ؛ تَبرَّأَ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ [القادةُ مِنَ الأتباعِ والأتباعُ مِنَ القادةِ][6]، وهو كقولِهِ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ الآية[7] [الأعراف: ٣٨]، [وكقولِهِ][8]: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ الآية[9] [الأعراف: ٣٩]، وكقولِهِ: [﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ وكقولِهِ[10] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [سبإ: ٣٢ و٣٣]][11] [مثلَ هذا][12]، وكقولِهِ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية[13] [العنكبوت: ٢٥].

وقيلَ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ يعني الشياطينَ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ الإنسَ، وقيلَ: يُبْدي[14] اللهُ كُلًّا غداً أنَّ أوثانَهُمْ لَنْ تُغْنيَ عنهم شيئاً، ولا شركاؤُهُمُ الذينَ أضلُّوهُمْ ولا أشرافُهُمُ [الذينَ][15] شُغِلُوا عنهُمْ حينَ عايَنُوا النارَ.

وقولُهُ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾؛ قيلَ: الأرحامُ والأنسابُ كقولِهِ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وكقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية[16] [عبس: ٣٤]، وقيلَ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ يعني العهودَ والأيمانَ التي كانَتْ بينَهُمْ في الدنيا، وقيلَ: تواصُلُهم في الدنيا وتوادُّهُم لم ينفعْهُمْ شيئاً لأنهُمْ كانُوا يتواصلُونَ، ويتوادُّونَ في الدنيا رجاءَ أن ينفعَ بعضُهُمْ بعضاً كقولِهِ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

---

(١) في النسخ الثلاث: موجباً. (٢) في النسخ الثلاث: وتعظيماً. (٣) هنا انتهى ما أشرنا إليه في بداية تفسير الآية في الصفحة السابقة: س١٦ [8][[وقولُهُ: ﴿ومن الناس...﴾ أي أشباها... وفوزه في الدارين والله الموفق.]][3] س١٣ في هذه الصفحة. (٤) انظر حجة القراءات ص: ١٢٠. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) في الأصل: العادة، في م: القادة من الأتباع من القادة، في ط ع: العبادة من الأتباع من القادة. (٧) أدرجت في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٨) في ط ع: وقوله، ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرجت في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٠) من م، في الأصل: و. (١١) أدرج في ط ع الآيات: ٣١ و٣٢ و٣٣ من السورة. (١٢) ساقطة من ط ع. (١٣) أدرجت في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٤) في النسخ الثلاث: يبرأ. (١٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٦) أدرج في ط ع الآيات: ٣٥ و٣٦ و٣٧ من السورة.

الآية ١٦٧ [وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي لم يريدُوا بها الله ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي حسرةً عليهِمْ وندامةً، وقيلَ: كلُّ عملٍ عملُوهُ أرادُوا بهِ غيرَ وجهِ اللهِ كانَ ذلكَ عليهِمْ حسرةً يومَ القيامةِ، وقيلَ: أعمالُهُمُ التي عملُوها في الدنيا تصيرُ ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ حينَ يرفعُ اللهُ لهُمُ الجنةَ، فينظرُونَ إلى مساكنِهِمُ التي كانَتْ لَهُمْ/ ٢٤ ـ ب/ وبأسمائِهِمْ لغيرِهِمْ وبأسماءِ غيرِهِمْ لَهُمْ.

قالَ: وهذا عندي لا يصحُّ أنْ يجعلَ اللهُ لأحدٍ نصيباً في الجنةِ، ثم يحرمُهُ، ولكنَّ هذا على أصلِ الوعدِ وعدِ مَنْ أطاعَ اللهَ [فلَهُ][(٢)] الجنةُ ومَنْ عصاهُ [فلَهُ][(٣)] النارُ. فهو على أنَّ هؤلاءِ لو أطاعُوا كانَ لهُمْ نصيبٌ[(٤)] في الجنةِ، وهؤلاءِ لو عَصَوا كانَ لهُمْ نصيبٌ[(٥)] في النارِ، أو يكونُ ذكرُ النصيبِ لهؤلاءِ في الجنةِ هو الذي ادَّعوهُ لأنفسِهِمْ كما قالُوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فَيُحْرَمُونَ، ويورَثُ عنهُمْ ما ذكرُوا أنهُ لهُمْ في الجنةِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠].

الآية ١٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: إنهمْ كانُوا يحرِّمُونَ التناولَ مِنَ أشياءَ والانْتِفاعَ مِنْ نحوِ [البَحِيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامي][(٦)]، فيقولُونَ: حُرِّمَ الانْتِفاعُ بها، فأنزلَ اللهُ تعالى، فقالَ: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وانْتَفِعُوا بها، فإنَّ اللهَ تعالى لم يحرِّمْها عليكُمْ كقولِهِ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ الآيةَ[(٧)] [المائدة: ١٠٣]، وقيلَ: خَلَقَ في الأرضِ ما هو حلالٌ، وما هو حرامٌ، وأباحَ التناوُلَ مِنَ الحلالِ، ونَهَى عنِ الحرامِ، وقيلَ: إنَّ قوماً يحرِّمُونَ التناوُلَ مِنَ الرفيعِ منَ الطعامِ والرفيعِ مِنَ الملبوسِ، ويتناولُونَ مِنَ الدَّرَنِ والرَّثَّةِ،[(٨)] فنُهُوا عَنْ ذلكَ.

ولا يَحتمِلُ أنْ يُرادَ بالطيباتِ الحلالُ منها، ولكنْ ما تطيبُ النفسُ مِنَ التناوُلِ، لأنَّ النفسَ لا تتلذَّذُ بالتناوُلِ مِنْ كلِّ حلالٍ، ولكنْ وإنما تطيبُ مما هو لها ألَذُّ وأوفَقُ، واللهُ أعلمُ. وعلى ذلكَ قولُه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ[(٩)] [الأعراف: ٣٢]، فيكونُ: كانَ الذي في الأرضِ حَلالاً وحراماً، ثم ممّا حَلَّ طيِّبٌ ودُونٌ، فأمرَ بأكلِ ما طابَ مِنْ ذلكَ إذا قَدَرَ عليهِ؛ لأنهُ على قَدْرِ طيبِهِ يعظُمُ مَحَلُّهُ في القلبِ، وعلى ذلكَ يُرَغِّبُ نفسَهُ بالشكرِ لِمَنْ أنعمَ بِهِ عليهِ والتعظيمِ لِمَنْ أكرمَهُ بالذي طابَتْ لهُ بِهِ النفسُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ [اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾][(١٠)]؛ قيلَ: آثارُ الشيطانِ، وقيلَ: وَساوِسُ الشيطانِ، وقيلَ: سبلُ الشيطانِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فهو يرجعُ إلى واحدٍ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وذكرَ في موضعٍ آخرَ، وسمَّاهُ وليّاً بقولِهِ: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ فالوَجْهُ أنه يريهِمْ في الظاهرِ المُوَالاةَ، ولكنهُ يريدُ في الباطنِ إهلاكَهُمْ. فإذا كانَ كذلكَ فهو في الحقيقةِ عدوٌّ. وجائزٌ أنْ يكونَ [وليّاً لهُمْ][(١١)]: أي هو أولَى بِهِمْ إذ عمِلُوا ما عمِلُوا بأمرِهِ أو وليّاً[(١٢)] بما [أتوهُ مِنَ][(١٣)] الفعلِ، وشارَكوهُ[(١٤)] في الشرِّ، وكانَ[(١٥)] في الحقيقةِ لهمْ [عدوّاً: وفي ذلكَ][(١٦)] هلاكُهُمْ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] لأنهُ يُوَسْوِسُ، ويَدْعو، فإنْ أطاعَهُ، وإلّا ليسَ لهُ عليهِ سلطانٌ سِوَى ذلكَ، فهو ضعيفٌ لأنَّ مَنْ لا يُنَفِّذُ على رغبتِهِ سِوَى قولِهِ فهو ضعيفٌ، يوصفُ بالضعفِ، واللهُ أعلمُ، ويكونُ ضعيفاً على مَنْ [يتأمَّلُ مكايدَهُ، ويَتَحَفَّظُ][(١٧)] أحوالَهُ.

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: وكذلك قوله. (٢) و(٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) و(٥) في النسخ الثلاث: نصيباً. (٦) في ط ع: البحائر والسوائب والوصائل والحوامي. (٧) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٨) الدرن: الوسخ، والرثة: سقَطُ كل شيء. (٩) في ط ع: الآيات. (١٠) من ط ع. (١١) في النسخ الثلاث: أولياؤهم. (١٢) في النسخ الثلاث: أولياؤهم. (١٣) في الأصل وم: وأتوهم، في ط ع: وأتفوهم في. (١٤) في النسخ الثلاث: وشاركهم. (١٥) في النسخ الثلاث: وكانوا. (١٦) في الأصل: أعداء إذ لك، في م وط ع: أعداء إذ ذلك. (١٧) من ط ع، في الأصل وم: مكايده وتحفظ.

الآية ١٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ﴾؛ قيلَ: يَحتمِلُ أنْ يكونَ السوءُ هو الفحشاءَ، والفحشاءُ هو السوءَ لِما أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يَشتمِلُ على كلِّ نوعٍ مِنَ الآثامِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ السوءُ ما خفيَ مِنَ المَعاصي، والفحشاءُ ما ظهرَ منها، وقيلَ: السوءُ ما لاحدَّ فيهِ، والفحشاءُ ما فيه حَدٌّ مِنْ نحوِ الزِّنى وشربِ الخمرِ وغيرِهِ، وقيلَ: الفحشاءُ ما فحشَ في العقلِ، والسوءُ ما ينتهي بالنهيِ عنهُ.

وقولُهُ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يُخرَّجُ على[1] الأوَّلِ، وهو السوءُ والفحشاءُ، يأمرُهُمْ بذلكَ، فيقولُونَ[2]: اللهُ أمرَنا بها، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما قالُوا: إنَّ اللهَ حرَّمَ هذه الأشياءَ أو القولَ على اللهِ مالا يعلَمُونَ بما لايليقُ بهِ مِنَ الولدِ وإشراكِ غيرِهِ في عبادتِهِ[3]، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٧٠ وقولُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ يَحتمِلُ هذا وَجهَينِ: يَحتمِلُ أنَّ آباءَهُمْ كانُوا أوصَوهُمْ ألّا يفارِقُوا دينَهُمُ الذي همْ عليهِ، فقالُوا عندَ ذلكَ: لا نَدَعُ وصيَّةَ آبائِنا كقولِهِ: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؟ [الذاريات: ٥٣]، أو كانُوا قوماً سفهاءَ أصحابَ التقليدِ، فقالُوا: إنا [قَلَّدْنا آباءَنا فلا][4] نقلِّدُ غيرَهُمْ.

وقولُهُ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ يُخرَّجُ هذا الكلامُ على وجهَينِ: أي تقلِّدُونَ أنتمْ[5] آباءَكُمْ، وإنْ كانُوا لا يعقِلُونَ شيئاً؟ [ويَحتمِلُ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ أي وقد كانَ آباؤُكُمْ ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾][6] فكيفَ تقلِّدونَهُمْ؟ وهو كقولِهِ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤] أي وقد جئتُكُمْ، أو أنْ يقالَ: مَنْ جعلَ آباءَكُمْ قدوةً يُقْتَدَى بهِمْ؟

الآية ١٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾؛ قيلَ فيه بوجهَينِ: قيلَ: ما مَثَّلْنا ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ﴾ أي يُصَوِّتُ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ يسمعُونَ الصوتَ، ولا يفقَهُونَ ما فيهِ، وقيلَ: ﴿يَنْعِقُ﴾ بمعنى يُنعَقُ: ذكرَ الفاعلَ على إرادةِ المفعولِ كقولِهِ: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي مَرضيَّةٍ. فعلى ذلكَ الأوَّلُ[7]، وهو في اللغةِ جائزٌ جارٍ.

وقولُهُ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ سمَّاهُمْ بذلكَ، وإنْ لم يكونُوا في الحقيقةِ كذلكَ، إذ الحاجةُ مِنْ هذهِ الأشياءِ الإنتِفاعُ بها، ولذلكَ سمَّاهُمْ سفهاءَ لِما لَمْ ينتفعُوا بعلمِهِمْ وعقلِهِمْ.

الآية ١٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ [يتوجَّهُ وجهَينِ:

أحدُهُما: الإذنُ في الأكلِ ما تستطيبُهُ النفسُ [وتتلذَّذُ بهِ][8] بهِ ليكونَ أرْضَى وأشْكَرَ للهِ فيما أنعمَ عليهِ.

والثاني[9]: على إرادةِ الحلالِ [بقولِهِ: ﴿طَيِّبَـٰتِ﴾][10]، فيكونُ في الآيةِ دليلُ كَونِ الرزقِ[11] حلالاً وحراماً؛ إذْ قالَ: ﴿مِن﴾ ذا، ولم يقُلْ: كُلُوا ذا، ولو كانَ كلُّ الرزقِ حلالاً لكانَ يقولُ: كُلُوا ممَّا رزقْناكُمْ، واللهُ أعلمُ.

ثم حقُّ المِحنةِ التمكينُ ممَّا يُحَرَّمُ، ويُحَلُّ، وممَّا ترغبُ إليهِ النفسُ، وتزهَدُ. فجائزٌ جميعُ ذلكَ كلِّهِ في الملكِ وفي الرزقِ ليُمَكَّنَ مِنَ الأمرينِ بالمِحنةِ، إذْ ذلكَ حقُّ المِحنةِ، واللهُ الموفقُ]][12].

وقولُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾؛ يدلُّ[13] على أنَّ الذي كانَ لهمُ الأكلُ، وأمرَهُمْ بالتناوُلِ منهُ، هو الحِلُّ. ثم فيهِ الدليلُ على أنَّ مِنَ الرزقِ ما هو طيبٌ حلالٌ، وما هو خبيثٌ حرامٌ؛ إذ لو لم يكنْ منهُ [طَيِّبٌ وخَبيثٌ][14] لكانَ لا يَشترِطُ فيهِ ذكرَ الطيِّبِ، بل يقولُ: كُلُوا مما رزقْناكُمْ.

فإنْ قيلَ: فما وَجْهُ الحكمةِ في الإمتِحانِ بجعلِ الخبيثِ رزقاً لهمْ؟ قيلَ: هذا أصلُ[15] المحنةِ في كلِّ شيءٍ: يجعلُ

---

(١) في الأصل: عن. (٢) في النسخ الثلاث: فيقولوا. (٣) في الأصل: عبادة. (٤) من م وط ع، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) ساقطة من الأصل. (٧) في النسخ الثلاث: الأولى. (٨) في الأصل: يتلذذه. (٩) في النسخ الثلاث: ويكون. (١٠) في الاصل وم: بقول الطيبات، في ط ع: بقوله الطيبات. (١١) في ط ع: المرزوق. (١٢) ما بين المعقوفات الأربع من ط ع، وفي الأصل: ص ٢٣ أس ٢١ ـ ٢٤ وفي م: ص: ٢٣ وس ٢٨ـ٣٢). (١٣) في الأصل وم: دلّ. (١٤) في النسخ الثلاث طيبا وخبيثا. (١٥) في النسخ الثلاث: أهل.

لهمُ الغذاءَ، فما يأمُرُهُمْ بالامتِناعِ عنهُ، ويجعلُ لهمْ قضاءَ الشهوةِ في المحرَّمِ، يأمُرُهُمْ بالكفِّ عنهُ، وهو في الظاهرِ مِنَ المِحَنِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على ما أباحَ لكم مِنَ الطَّيِّباتِ، [وقولُهُ][1]: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾: [أي إنْ كنتُمْ ترونَ منهَ ذلكَ، ويَحتمِلُ: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾][2]: أي إياهُ توحِّدونَ، ويَحتمِلُ: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ تعبُدونَ[3]، إياهُ تقصِدُونَ، فاجعلُوا عبادتكُمْ لهُ خالصةً، لا تعبدُوا غيرَهُ، ليكونَ لهُ [الشكرُ][4]، ولا قوةَ إلا باللهِ. وقيلَ: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ بمعنى إنْ آثرْتُمْ عبادتَهُ، فاشكُرُوا لهُ، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على جميعِ ما أنعمَ عليكمْ مِنَ الدينِ والنبيِّ والقرآنِ وغيرِ ذلكَ مِنَ النعمِ، أي كونُوا لهُ شاكرِينَ.

الآية ١٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ [أمَا][5] ذكرُ ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ فمعناهُ: حرَّمَ عليكُمُ الأكلَ مِنَ الميتةِ والتناوُلَ منها. فإذا كانَ كذلكَ فليسَ فيهِ حرمةُ ما لا يؤكَلُ والانتِفاعُ بهِ مِنْ نحوِ الصوفِ والشعرِ والعظمِ ونحوِهِ. ألَا ترَى أنَّ هذا إذا أُريدَ مِنَ الشاةِ، وهي حيَّةٌ، وأُبينَ منها، لم يَصِرْ ميتةً، ألا[6] يجوزُ الانتِفاعُ بهِ؟ وغيرُهُ مِنَ اللحمِ إذا أُبينَ منها، صارَ ميتةً لِما رُوِيَ في الخبرِ: «ما أُبينَ مِنَ الحَيِّ فهو ميتٌ» [نصب الراية ٤/٣١٧]، ولأنَّ الصوفَ واللبنَ وغيرَهُما ليسُوا بذوي الروحِ، فيموتُ باستِخراجِ الروحِ منها كالحيوانِ على ما ذكرْنا مِنَ الخبرِ. ورُوِيَ عَنْ عمرَ ﷺ أنه سُئِلَ عنِ الأنفحةِ، استُخرِجتْ مِنَ الميتةِ، فقالَ: (أفيها دمٌ)؟ فقيلَ: لا، فقالَ: (لا بأسَ [كُلوا فإنَّ اللبنَ على ذكاةٍ فيهِ) أو كلامٌ نحوُ هذا. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ ﷺ، أنهُ قالَ: (لا بأسَ)][7].

فإنْ قيلَ: ألا فسدَ بنجاسةِ الضرعِ كالوعاءِ النجِسِ، يكونُ فيه اللبنُ، يفسدُ بفسادِهِ؟ قيلَ: إذا كانَ الشيءُ موضِعاً للشيءِ ومعدِنهِ في الأصلِ فإنَّ فسادَ ذلكَ الموضِعِ لا يُوجِبُ فسادَ ما فيهِ. ألَا ترَى أنَّ الدمَ الذي يجري بينَ الجلدِ واللحمِ إذا[8] ذُبحَ لا يُفسدُ اللحمَ لِما كانَ ذلكَ موضِعَهُ ومظانَّهُ؟ فعلى ذلكَ اللبنُ في الضرعِ.

وأمّا الإهابُ فإنه إذا دُبغَ فقد طَهُرَ لِما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أيُّما إهابٍ دُبغَ فقد طَهُرَ» [الترمذي: ١٧٢٨].

والدمُ المذكورُ في هذه الآيةِ هو الدمُ المسفوحُ؛ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فالمُحرَّمُ مِنَ الدماءِ هو[9] السائلُ. ألَا ترَى أنَّ الشاةَ إذا ماتَتْ[10] صارتْ ميتةً بهلاكِ ذلكَ المحرَّمِ مِنَ الدمِ فيها[11]؟

وقولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ اختُلِفَ فيهِ على أوجهٍ: قيلَ: قولُهُ: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ هو[12] تفسيرُ قولِهِ ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾/٢٥ ـ أ/ [النساء: ٢٥] فصارَ قولُهُ: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ تفسيرَ قولِهِ: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ لأنها إن كانَتْ محصنَةً، كانَتْ غيرَ مسافحةٍ ولا متخذةَ الأخدانَ. فعلى ذلكَ إنْ كانَ مضطراً كانَ ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي غيرَ مُستَحِلٍّ لِتناوُلِهِ ﴿وَلَا عَادٖ﴾ بعَدْوٍ على أكلِهِ للجوعِ، وقيلَ: قولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾ غيرَ مُتَجاوِزٍ حدَّهُ ﴿وَلَا عَادٖ﴾ ولا مقتصِرٍ نهايتَهُ، [وقيلَ[13]: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ في [أكلِهِ][14] ﴿وَلَا عَادٖ﴾ على حدِّ اللهِ، إذْ حرَّمَهُ عليهِ في غيرِ حالِ الاضطرارِ، فيصيرُ باغياً في الأكلِ عادياً على حدِّ اللهِ[15]، وقيلَ[16]: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ في مُجاوَزتِهِ في أكلِ حدَّ المجعولِ لهُ مِنْ إقامةِ المهجةِ ودفعِ الضرورةِ، فأكلَ بشهوةٍ أو لحاجةٍ غيرِ حاجةِ الجوعِ خاصةً، وقيلَ[17]: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ على المسلمينَ ﴿وَلَا عَادٖ﴾ عليهِمْ][18]. [لكنْ تصريحَ النَّهْيِ عنِ الانتِفاعِ بالشيءِ

---

(١) من ط ع. (٢) من ط ع وم: ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: ممن يعبدونه، في ط م: تعدونه. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) في النسخ الثلاث: لا. (٧) من ط ع. (٨) في ط ع: اما. (٩) في النسخ الثلاث: وهو. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: مات. (١١) في الأصل وط م: فيه. (١٢)في النسخ الثلاث: وهو. (١٣) من ط ع، في الأصل وط م: يحتمل. (١٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٥) أدرج في الأصل وم بعدها العبارة التالية: ويحتملُ أن يكون ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ تفسيراً لقوله ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ كقوله ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ الآية، وقد حذفناها لورودها في بده تفسير الآية. (١٦) من ط ع، في الأصل وم: ويحتمل. (١٧) من ط ع، في الأصل وم: ويحتمل. (١٨) من ط ع، وأدرجت هذه العبارة سهوا في الأصل (الورقة ٢٣ ـ أمس ٢٥ـ٢٧) وفي م (الورقة ٢٣ و س ٣٢ـ٣٥).

حرمةَ هتكِها، صاحبُها نُهِيَ عمّا كانَ مباحاً لهُ كما رُوِيَ عَنْ نبيِّ اللهِ ﷺ «لا صلاةَ للمرأةِ الناشزةِ ولا للعبدِ الابقِ» [بنحوه مسلم ٧٠، وليس فيه ذكرُ المرأةِ]، وذلكَ نَهْيٌ عنِ الإباقِ والنشوزِ لا عنِ الصلاةِ. فمثلُهُ لو كانَ نهياً، فكيفَ ولا نَهْيَ؟ ولكنْ ذكرُ إباحةٍ على صفةٍ لم يُذكَرِ الحِلُّ والتحريمُ في الابْتِداءِ معَ تلكَ الصفةِ. وجملَتُهُ أنَّ بَغْيَهُ [في وجهَينِ:

الأوَّلُ][1] لا يُحَرِّمُ ما قد أُحِلَّ بالجوهرِ بالإنفاقِ، فكذلكَ ما أُحِلَّ بالسببِ؛ دليلُ ذلكَ أمرُ الكَفَرَةِ وسائرِ الفَسَقَةِ أنهُ لم يُحَرِّمْ عليهِمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

والثاني: النهيُ عَنْ قتلِهِ][2].

ثم اختُلِفَ في حُرْمَةِ عَينِ الميتةِ في حالِ الاضطرارِ وحِلِّها؛ قالَ بعضُهُمْ: عينُها حلالٌ ليسَ بمحَرَّمٍ، وقالَ آخرونَ: عينُها مُحَرَّمةٌ، لكنَّ التناوُلَ منها مُباحٌ، وهو قولُ أصحابِنا، رحمَهُمُ اللهُ.

فمَنْ قالَ بحِلِّ عينِها للضرورةِ ذهبَ إلى أنَّ الحَظْرَ أوِ[3] الإباحةَ لا يقعُ في الأصلِ لعينِ الشيءِ، ولا يُتَكَلَّمُ فيها بحِلٍّ ولا حُرْمَةٍ بحِقِّ[4] العينِ، بلِ الحرمةُ والحِلُّ هي الواردةُ عليها موجبةٌ حقَّ الحرمةِ. ثم الحرمةُ ترتفعُ بالضرورةِ، فتُبقي عينَهُ على ما كانَ في الأصلِ. ومَنْ قالَ بحرمةِ عينِها وبحِلِّ التناوُلِ منها ذهبَ إلى أنَّ الحرمةَ حدثَتْ [لِما كانَتْ][5] ميتةً ومُهَلًّا [بها][6] لغيرِ وجهِ اللهِ. فَحُدُوثُ[7] الحِلِّ للضرورةِ يدلُّ على أنَّ العلَّةَ كانَتْ هي الضرورةَ في رفعِ حُرمةِ التناوُلِ، ولم تَرفَعْ حُرمةَ عينِها، إلّا أنهُ أُبيحَ التناوُلُ منها للضرورةِ على بقاءِ الحرمةِ. ولكن يجبُ ألّا يُتَكَلَّمَ في هذا ومثلِهِ بحرمةِ العَينِ وحِلِّها بعدَ أنْ تكونَ الإباحةُ للضرورةِ؛ إذْ للهِ أنْ يُحِلَّ عَيناً مُحَرَّمةً في حالِ الاضطِرارِ، ولَهُ أنْ يُحَرِّمَ عينَها، ويُحِلَّ التناوُلَ منها لِلاضطرارِ. فالتكلُّمُ فيهِ فضلٌ وتكلُّفٌ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم المسألةُ في الباغي والعادي يُحرَّمُ عليهِ التناوُلُ منها في حالِ الاضطِرارِ أم لا؟ قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: مُحَرَّمٌ ذلكَ عليهِ لِأوجهٍ:

أحدُها: لأنهُ ظالمٌ، وفي المنعِ عنِ التناوُلِ منها زجرٌ عنِ الظلمِ، وفي [[إباحةِ التناوُلِ][8] منها إعانةٌ على الظلمِ، لذلكَ حُرِّمَ عليهِ.

والثاني: أنَّ القاتلَ يُعاقَبُ عندَما يأوي إلى الحَرَمِ بتركِ المؤاكَلَةِ والمشارَبَةِ والمجالَسَةِ إلى أنْ يُضطَرَّ، فَيَخرجَ عقوبةً لهُ. فكذلكَ هذا يُحرَّمُ عليهِ التناوُلُ منهُ عقوبةً لهُ إلى أنْ ينزَجِرَ.

وقالَ [أحدُهمْ][9]: إنهُ قدِ استحقَّ بالبغيِ على أهلِ الإسلامِ العقوبةَ العظيمةَ، ويُعاقَبُ في هذا أيضاً.

ثم مِنْ قولِ هذا الرجلِ في الباغي: أنهُ إذا أتلفَ أموالَ أهلِ العدلِ لا يُتَعَرَّضُ لهُ بها، ولا يُغَرَّمُ، وكذلكَ العادلُ إذا أتلفَ أموالَ البغيِ لا غرامةَ عليهِ. والغرامةُ نوعٌ مِنَ العقوباتِ، فإذنِ استَوَيا في سقوطِ الغرامةِ. وإنْ كانَ أحدُهما ظالماً كيفَ لا يَستَوِيانِ أيضاً في هذا؟ وما الذي يوجبُ التفرقةَ بينَهما؟ ثم نقولُ لهذا المخالفِ لنا: إنَّ الباغيَ يمسحُ يوماً وليلةً، وإذا سافرَ لم يُرخَّصْ لهُ المسحُ، وهو في الحضرِ رخصةٌ كَهِيَ في السفرِ، فما بالُهُ حُرِمَ إحدى الرخصتَينِ على إباحةِ الأخرى معَ وجودِ الظلمِ والبغيِ؟ فقالَ: لأنَّ الضرورةَ طريقُ التناوُلِ، فيهِ رخصةٌ، لا تُرَخَّصُ للظالمِ، إذْ هو تخفيفٌ.

والأصلُ في المسألةِ أنَّ الباغيَ على أهلِ الإسلامِ يأتمرُ بأحكامِ أهلِ الإسلامِ، إذْ لو ائتُمِرَ أُمِرَ بالكفِّ عَنْ بغيِهِ، وإذا لم يأتمرْ في ذا لا شكَّ أنهُ لا يأتمرُ في الثاني، ولا يؤمَرُ فيهِ العبثُ، ولا يزجرُهُ التحريمُ عنِ التناوُلِ؛ إذْ على العلمِ بحرمةِ البغيِ بَغَى ما اشتهَتْ نفسُهُ، فكيفَ ينتهي للحرمةِ التي اضطُرَّتْ إليهِ نفسُهُ؟ ولم يملكِ الغَلَبَةَ عليها في شهوتِها إيثاراً لها، كذلكَ إنظاراً لها، كذلكَ لا معنًى لإحداثِ الحرمةِ عليهِ ببغيِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرجت هذه العبارة في الأصل أيضاً سهوا (الورقة ٢٣. أس ٢٧-٣١) وفي م (الورقة ٢٣ و س ٣٤ -٣٧)، ساقطة من ط ع. (٣) في النسخ الثلاث: و. (٤) في النسخ الثلاث: بحيث. (٥) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) في ط ع: فحدث. (٨) في النسخ الثلاث: الإباحة عن التناول. (٩) ساقطة من النسخ الثلاث.

وأصلُهُ قولُهُ ﷺ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقولُهُ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ حَرَّمَ عليهِمْ إلقاءَ أنفسِهِمْ إلى المهالِكِ وقتلَهُمُ الأنفسَ][1]. وفي دفعِ هذهِ الرخصةِ عنهُ إباحةُ محرَّمٍ، وهو أعظمُ مِنَّةٍ عليهِ، فلم يَفعَلْ.

وأمّا [ما][2] قالَ بأنَّ مَنْ قتلَ، فأوَى إلى الحرمِ فإنَّ أهلَهُ نُهُوا عنْ مؤاكلتِهِ ومشارَبتِهِ، ولم يُنْهَ في نفسِهِ [عنِ][3] الأكلِ والشربِ؛ إذْ لا يقدِرُ أحدٌ منعَهُ عنْ ذلكَ. فالقولُ في مثلِهِ تَكَلُّفٌ فكذا الأولُ، واللهُ أعلمُ.

ثم المسألةُ في القَدْرِ الذي يجوزُ أنْ يُتناوَلَ منهُ[4]: فعندنا: أنَّ الإباحةَ كانتْ لِلاضطِرارِ، فهو على القَدْرِ الذي لهُ الدفعُ والإزالةُ، وذلكَ بدونِ ما فيهِ شدةُ المجاعةِ. وذلكَ الأصلُ في إنْتِفاءِ الضرورةِ.

الآية ١٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي في الكتابِ؛ يَحتمِلُ [هذا][5] وجهَيْنِ: يَحتمِلُ: أنْ كتمُوا ما في كتبِهِمْ مِنْ بعثِ محمدٍ صلى اللهُ عليهِ [وعلى آلِهِ][6] وصفتِهِ، ويَحتمِلُ ما كتَمُوا مِنَ الأحكامِ والشرائعِ مِنْ نحوِ الحدودِ والرجمِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأحكامِ، وقد ذكَرْنا هذا فيما تَقَدَّمَ[7].

وقولُهُ: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قد ذكَرْنا تأويلَ هذا فيما تَقَدَّمَ[8].

وقولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ يَحتمِلُ[9] وجهَيْنِ: يَحتمِلُ ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ في دُنياهُمْ إلّا أوجبَ ذلكَ لهمْ في الآخرةِ أكلَ النارِ؛ ويَحتمِلُ ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ في دُنياهمْ إلّا أكلُوا في الآخرةِ عينَ النارِ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ قيلَ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بكلامِ خيرٍ، ولكنْ يكلِّمُهُمْ بغيرِهِ، كقولِهِ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقيلَ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ غَضباً عليهِمْ؛ يقال: فلانٌ لا يكلِّمُ فلاناً لِما غَضِبَ عليهِ.

الآية ١٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ قيلَ: استحبُّوا الضلالةَ على الهُدَى، وقيلَ: اختارُوا العذابَ على المغفرةِ، وما قالَهُ الكلبيُّ فهو أحسنُ: (أنهمُ اشتَرَوُا اليهوديةَ التي هي تُحَصِّلُ عذاباً بالإيمانِ الذي يُحَصِّلُ مغفرةً) وقد ذكَرْنا ذلكَ فيما تقدَّمَ[10] أيضاً.

وقولُهُ: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ قيلَ: فما أدْوَمَهُمْ على النارِ! وقيلَ: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى﴾ العملِ الذي يُوجِبُ لهمُ النارَ. وقيلَ: فما أجراهُمْ على عملِ أهلِ النارِ! وقيلَ: ما أعمَلَهُمْ بأعمالِ أهلِ النارِ. وقالَ الحسنُ: (فما لهمْ عليها صبرٌ، ولكنْ ما أجراهُمْ على النارِ)! وقد يُقالُ لِمَنْ يطولُ حبسُهُ: فما أصبَرَكَ على الحبسِ! لا على حقيقةِ الصبرِ لكنْ على وجودِهِ فيهِ.

الآية ١٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي خالفُوا، وإلّا قد اختلفَ أهلُ الإيمانِ والكفرِ، ولكنْ أرادُوا، واللهُ أعلمُ، بالإختِلافِ الخلافَ أي خالفُوا الكتابَ، ولم يَعملُوا بهِ، ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ قيلَ: لَفي خلافٍ بعيدٍ، وقيلَ: لَفي ضلالٍ طويلٍ، وقيلَ: لَفي عداوةٍ. قيلَ: حرفُ البعيدِ في الوعيدِ إياسٌ؛ كأنهُ قالَ: لا انقِطاعَ لهُ.

الآية ١٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾؛ قيلَ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ في نفسِ التوجُّهِ إلى ما ذكرَ دونَ الإيمانِ، [ويَحتمِلُ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ في ذلكَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ لِما يقصِدُ إليهِ أنْ قد يقعُ][11] ذلكَ لحوائجَ تعرضُ؛ تخرجُ عنِ القُربةِ، ويَحتمِلُ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ في التوجهِ إلى كذا، ولكنْ في الإئتِمارِ لأمرِهِ والطاعةِ لهُ، والبِرُّ هو الطاعةُ في الحقيقةِ. وقيلَ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ تحويلُ الوجهِ إلى المشرقِ والمغربِ، ولكنَّ البرَّ ما ثبتَ في القلبِ مِنْ طاعةِ اللهِ، وصَدَّقَتْهُ[12] الجوارحُ، وقيلَ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ أنْ تُصَلُّوا، ولا أنْ تعملُوا غيرَ الصلاةِ، كلُّ ذلك يرجعُ إلى واحدٍ. وجملَتُهُ [بوجهَيْنِ]:

---

(١) احتلت هذه العبارة التي أولها: الإباحة التناول... في ط ع الصفحة ٣٢٦ محل ما في الصفحة ٣٣٦، وقد أزلنا الالتباس بوضع كل في مكانه. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) في النسخ الثلاث منها. (٥) من ط ع. (٦) ساقطة من ط ع. (٧) كان ذلك في تفسير الآية: ١٥٩ . (٨) كان ذلك في تفسير الآية : ١٦ . (٩) من ط ع، في الأصل وم: أي. (١٠) كان ذلك في تفسير الآية: ١٦ .
(١١) في ط ع: وقولُهُ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ... وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ﴾. (١٢) في ط ع: وصدقه.

أحدُهما][(١)]: أنْ يُقالَ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ كلُّهُ ذلكَ، لكنْ ما ذكرَ؛ إذ ذلكَ الوجهُ استعظَمُوهُ[(٢)]، حتى قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]،

والثاني: أنْ يكونَ ذلكَ بنفسِهِ ليسَ بِرّاً، وإنما صارَ بِرّاً بالأمرِ بهِ أو بما ذكرَ مِنَ الإيمانِ والخيراتِ، فما[(٣)] زالَ عنهُ الوجهانِ سقطَ فِعلُهُ[(٤)] أنْ يكونَ بِرّاً.

وقولُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ بأنَّهُ واحدٌ لا شريكَ لهُ؛ يعني صدَّقَ باللهِ، وبأنه[(٥)] واحدٌ لا شريكَ لهُ، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: وصَدَّقَ بالبعثِ الذي [فيهِ][(٦)] جزاءُ الأعمالِ، وصَدَّقَ بالكتبِ والملائكةِ والنبيِّينَ.

وللبِرِّ[(٧)] تأويلانِ: أحدُهما: ما قيلَ، والثاني على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: ليسَ البِرُّ بِرَّ [مَنْ يُوَلِّي وجهَهُ، ولكنَّ البِرَّ بِرُّ][(٨)] مَنْ آمنَ باللهِ، كما قالَ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: ١٩] كإيمانِ مَنْ آمنَ باللهِ؟ وقيلَ: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ صاحبَ السقايةِ[(٩)] ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وقيلَ: إنَّ البَرَّ بمعنى البارِّ مَنْ يحوِّلُ وجهَهُ / ٢٥ ـ ب/ قِبَلَ كذا، ولكنَّ البارَّ ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [الآيةَ][(١٠)].

وقولُهُ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ قيلَ: أعطى على حاجتِهِ، وقيلَ: على قِلَّتِهِ، آثرَ غيرَهُ على نفسِهِ كقولِهِ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وقيلَ: ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي ذَوي قرابتِهِ.

وفيه دلالةُ أنَّ الأفضلَ أنْ يَبدأَ بالصِّلَةِ قرابتَهُ ثم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ لأنَّ على جميعِ المسلمينَ حفظَهُمْ ولأنهمْ أضعفُ، فيبدأُ بهمْ قبلَ ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾. ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «ليسَ المسكينُ الذي يردُّهُ اللقمةُ واللقمتانِ والتمرةُ والتمرتانِ، قيلَ: فما المسكينُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الذي لايجدُ ما يُغنيهِ، ولا يسألُ الناسَ، ولا يُفطَنُ[(١١)] بهِ، فيُتصدَّقَ عليهِ»[البخاري: ١٤٧٩].

[وقولُهُ][(١٢)]: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ قيلَ: هو الضيفُ ينزلُ [بالمسلمينَ][(١٣)]، وقيلَ: هو المنقطِعُ: [حاجًا أو غازياً][(١٤)]، وهو المجتازُ، وهو واحدٌ. ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾؛ قيلَ: همُ المكاتبونَ. ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ظاهرٌ. ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾؛ [يَحتمِلُ: العهودَ التي بينَهُمْ وبينَ الناسِ][(١٥)]، ويَحتمِلُ: العهودَ التي بينَهُمْ وبينَ ربِّهِمْ، وقد ذكَرْنا العهدَ مِنَ اللهِ تعالى ما هو؟ فيما مضَى[(١٦)]. وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ والمُوفينَ على النسقِ على الأوَّلِ. قيلَ: إذا عاهدْتَ عهداً بلسانِكَ فَفِيءْ[(١٧)] بهِ بعملِكَ وفعلِكَ. ثم ليسَ في القرآنِ آيةٌ أجمعُ لشرائطِ الإيمانِ مِنْ هذهِ، وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنه سُئِلَ عنِ الإيمانِ، فقرأَ هذهِ الآيةَ» [السيوطي في الدر المنثور: ١/ ٤١١]، وهكذا رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﷺ عنِ الإيمانِ، فَتَلا هذه الآيةَ.

وقولُهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ قيلَ: في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ: السائلينَ وفي الرقابِ والصابِرينَ. وعلى هذا يُخرَّجُ حرفُ ابنِ مسعودٍ ﷺ ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾.

وقولُهُ: ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ مِنَ البأسِ، وهو الفقرُ، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ قيلَ: هو المرضُ [والسَّقَمُ][(١٨)]، ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ قيلَ: عندَ القتالِ.

وقولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في إيمانِهِمْ [أنهم مؤمنونَ][(١٩)]، وصبَرُوا على طاعةِ ربِّهِمْ.

[وقولُهُ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ قيلَ][(٢٠)]: الذين صدَقُوا في إيمانِهِمْ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ رُوِيَ عَنْ عمرِو بنِ

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) في النسخ الثلاث: استعظموهم. (٣) في النسخ الثلاث: فلا. (٤) من ط ع وم، في الاصل: قبله. (٥) في ط م وط ع: بأنه. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) من ط ع، في الأصل وم: البر. (٨) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٩) من ط ع وم، في الأصل: الشفاعة. (١٠) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١١) من ط ع، في الأصل وم: يعطي. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) من ط ع. (١٤) في النسخ الثلاث: حاج أو غاز. (١٥) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٦) كان ذلك في تفسير الآية: ٢٧ . (١٧) في النسخ الثلاث: تفيء. (١٨) من ط ع. (١٩) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (٢٠) في الأصل وم: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وقيلَ، في ط ع: وقوله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وقيل.

شُرَحْبِيلَ أنهُ قالَ: (مَنْ عَمِلَ بهذه الآيةِ فهو مُسْتَكْمِلُ الإيمانِ)، قالَ الفقيهُ أبو منصورٍ: (تمامُ كلِّ شيءٍ بِاجْتِماعِ ما يَزِينُهُ، ألَا تَرَى أنَّ المُصَلِّيَ إذا اقْتَصَرَ على فرائضِها لم يتمَّ لهُ)؟

الآية ١٧٨ وقولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ الآيةَ[1]؛ قيلَ: نزلَتْ هذهِ الايةُ في حَيَّينِ مِنَ العربِ، كانَ وقعَ بينَهُما حربٌ وقِتالٌ، وكانَ لِإحداهُما فضلٌ وشرفٌ على الأُخرَى، فأرادُوا بالعبدِ منهمُ الحرَّ مِنْ أولئكَ، وبالأنثى منهمُ الذَّكَرَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وهي منسوخَةٌ لأنَّ فيها قتلَ غيرِ القاتلِ؛ نَسَخَها قولُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]؛ قيلَ: ﴿فَلَا﴾ تُسْرِفْ ولا تقتُلْ غيرَ قاتلِ وليِّكَ، وقيلَ: ﴿فَلَا﴾ تُسْرِفْ أي لا تُمَثِّلْ في القتلِ، وقيلَ: ﴿فَلَا﴾ تُسْرِف في القتلِ[2] أي لا تَقْتُلْ أنتَ، إذ هو منصورٌ، فثبتَ بهذا نسخُها؛ إذْ لم يؤذَنْ بقتلِ غيرِ القاتلِ، وقولِهِ أيضاً: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولا يَحتمِلُ نفسَ غيرِ القاتلِ يُقتلُ بنفسٍ؛ دليلُهُ [في وَجهَينِ:

أحدُهُما:][3] قولُهُ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولا يُتصَدَّقُ على غيرِ القاتلِ، ثبتَ [أنفاً منسوخُها][4] بما ذكَرْنا.

والثاني: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [لما إذا][5] هَمَّ بقتلِ آخرَ يُنكِرُ قتلَ نفسِهِ، فَيَرْتَدِعُ عن قتلِهِ، فتَحيَى بِهِ النفسانِ جميعاً، فلو لزمَ قتلُ غيرِ القاتلِ لم يكنْ فيه حياةٌ؛ إذْ لا يَخشَى تلَفَ نفسِهِ.

ثم هذا يدلُّ على وجوبِ القِصاصِ بينَ الحرِّ والعبدِ وبينَ الكافرِ والمسلمِ، إذْ لو لم يُجعلْ بينَهما قِصاصٌ لم يَرْتَدِعْ أحدٌ عنْ قتلِهِمْ، إذْ لا يَخشَى تَلَفَ نفسِهِ بهِمْ. فدلَّ أنهم يُقتَلونَ، واللهُ أعلمُ. هذا فيما يجعلُ الآيَةَ ابْتِداءً لا في الحَيَّينِ اللَّذَينِ ذُكِرا بهِ. ثم يُقالُ: ليسَ في ذكرِ شكلٍ مُشْكِلٍ تخصيصُ الحكمِ فيهِ وجعلُهُ شرطاً ونفيُهُ في [غيرِ شَكلِهِ][6]؛ دليلُهُ ما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «خُذُوا عني، خُذُوا عني؛ قد جعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً: البِكرُ بالبِكرِ: [جَلْدُ مئةٍ][7] وتغريبُ عامٍ والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مئةٍ ورَجْمٌ بالحجارةِ» [مسلم: ١٦٩٠]، ثم إذا زَنَى البِكرُ بالثَّيِّبِ وجبَ ذلكَ الحكمُ، فدلَّ أنْ ليسَ في ذكرِ شكلٍ تخصيصٌ في الحكمِ، ولكنْ فيهِ إيجابُ الحكمِ في كلِّ شكلٍ؛ إذا ارتكبَ ذلكَ، وهو أنْ يُقتَلَ الحرُّ إذا قتلَ آخرَ. والحريةُ لا تمنعُ الاقْتِصاصَ لفضلِهِ، وكذلكَ العبدُ إذا قتلَ آخرَ يُقتَلُ بهِ، والرِّقُّ لا يمنعُ ذلكَ للذُّلِّ الذي فيهِ، وكذلكَ الأنثى تُقتَلُ إذا قتلَتْ أُخرَى، ولا يمنعُ ما فيها مِنْ ضعفٍ في وجوبِ القِصاصِ، وباللهِ التوفيقُ.

ولهُ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنهُ قالَ: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ ومِنَ الإناثِ إماءٌ، [وقد أمرَ بالاقْتِصاصِ بينَهنَّ][8]. فَلَئِنْ وجبَ تخصيصُ ما ذكرَ خاصّاً[9] وجبَ أنْ يذكرَ عامّاً [ما][10] ذُكِرَ فيه العمومُ. فإنْ قيلَ: على عمومِ الاسْمِ في أحدِهِما وخصوصِ القولِ في الآخرِ؟ قيلَ: ليس هكذا؛ لو كانَ في ذِكْرِ الوِفاقِ في الاسْمِ مُنِعَ الحَقُّ عن ذلكَ الوجهِ المذكورِ، إنْ ذُكِرَ في الخلافِ، لم يُدخِلْ فيما ذُكِرَ في الوِفاقِ ما ليسَ منهُ، فإذا دخلَ عُلِمَ أنَّ ذِكْرَ الوِفاقِ في الخِلافِ في حقِّ إدخالِ ما ليسَ مِنْ شكلِهِ بمحلٍّ واحدٍ.

ثم يُقالُ: إنَّ نفسَ العبدِ للعبدِ في حقِّ الجنايةِ لا لِلمولَى، إنما لِلمولَى في نفسِهِ المُلْكُ والملكيَّةُ[11]؛ الا تَرَى أنَّ العبدَ لو أقرَّ على نفسِهِ بالقِصاصِ أُخِذَ بهِ، ولو أقَرَّ عليهِ مولاهُ لم يُؤخَذْ بهِ؟ فدَلَّ أنَّ نفسَهُ لهُ لا لِلمَولَى، فكان كنفسِ الحرِّ للحُرِّ، فيجبُ أنْ يُقتَلَ الحرُّ بهِ إذْ هو ساوَى الحُرَّ في حقِّ النفسِ، فيجبُ أنْ يُسَوَّى بينَهما في حقِّ القِصاصِ.

وقالَ بعضُ الناسِ: لا يُقتَلُ الحرُّ بالعبدِ لأنهُ أفضلُ منهُ، ثم هو يقولُ: إنهُ يُقتَلُ الذكرُ بالأنثى، وهو أفضلُ. وقالَ: إنَّ القِصاصَ إنما ذُكِرَ في المؤمِنينَ، ثم قالَ بالعمومِ، وألزمَ قتلَ الكافرِ بالمؤمنِ، ولم يذكرْ في القِصاصِ الكافرَ، وتركَ

---

(١) أُدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٢) انظر حجة القراءات ص: ٤٠٢ . (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) من ط ع، في الأصل وم: ومنسوخه. (٥) في ط ع: لماذا. (٦) من ط ع، في الأصل وم: غيره. (٧) في ط ع: مائة جلد. (٨) في ط ع: وقد أمر بالاقتصاص وقد أمر بالقصاص بينهن. (٩) في الأصل: خالصاً. (١٠) من ط ع. (١١) في ط ع وم: والمالية.

القِصاصَ للكافرِ مِنَ المؤمنِ على عمومِ إيجابِ القِصاصِ على المؤمنِينَ. فإذنْ جازَ تركُ القِصاصِ، على ما ذكرَ فيهِ، وإدخالُ مَنْ لم يذكُرْ في حقِّ الإقتِصاصِ ما يجبُ إنكارُ مثلِهِ في الذي ذكرَ عقيبَ ذكرِ الحقِّ؟ وهُمْ بأجمعِهِمْ تحتَ الإيجابِ مذكُورونَ. ثم الإناثُ بالإناثِ معَ اختِلافِ الأحوالِ يَلْزَمُ القِصاصُ، كيفَ لا لزمَ مثلُهُ في الأحرارِ؟

والأصلُ في هذا ألّا يُعتبَرَ في الأنفسِ المساواةُ؛ ألّا ترَى أنَّ الأنفسَ[1] تُقتَلُ بنفسٍ واحدةٍ؟ وهكذا رُوِيَ عَنْ عمرَ رضي الله عنه أنهُ قتلَ رجلاً بامرأةٍ، ورُوِيَ أنهُ قتلَ سبعةَ نفرٍ بامرأةٍ، وقالَ: (لو تمالأَ لَهُ أهلُ صنعاءَ لقتلْتُهُمْ) وروَى[2] عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لايُقتَلُ مسلمٌ بكافرٍ» [البخاري: ١١١].

ثم قالَ صاحبُ هذا القولِ: لو أنَّ كافراً قتلَ كافراً، ثم أسلمَ القاتلُ، يُقتَلُ بهِ: فهو قتلَ مسلماً [تَقِيًّا][3] برّاً بكافرٍ، إذِ الإسلامُ يُطهِّرُهُ، ولم يَقتُلْ مسلماً فاسقاً ارتكبَ الكبيرةَ بالكافرِ، إذ القتلُ بفسقِهِ[4]، والمسلمُ أحقُّ أنْ يُقتَلَ بالكافرِ منَ الكافرِ بالمسلمِ، ونحوُ[5] ذلكَ أنَّ المسلمَ هتكَ حرمةَ الإسلامِ بقتلِ الكافرِ لأنهُ اعْتَقدَ بِاعْتِقادِ دينِ الإسلامِ حرمةَ دمِ الذِّمِّيِّ، وهو بقتلِهِ كَمُسْتَخِفٍّ بمذهبِهِ، وأمّا الذِّمِّيُّ فإنهُ لا يعتقدُ بِاعْتِقادِ مذهبِهِ حرمةَ دماءِ أهلِ الإسلامِ، فهو ليسَ بقتلِ المسلمِ كمُسْتَخِفٍّ بمذهبِهِ، والمسلمُ كَمُسْتَخِفٍّ بدينِهِ على ما ذكَرْنا. لذلكَ كانَ أحقَّ بالقِصاصِ مِنَ الكافرِ، ألا ترَى أنَّ مَنْ قتلَ في الحرَمِ قُتِلَ بهِ لأنهُ هتَكَ حرمةَ الحرمِ كالمستَخِفِّ بهِ؟ وإذا قتلَ خارجاً منهُ، ثم التجأَ إليهِ لم يُقتَلْ فيهِ[6] حتى يخرجَ منهُ لأنهُ ليسَ كَمُسْتَخِفٍّ بهِ، والأوَّلُ مُسْتَخِفٌّ، لذلكَ افتَرَقا، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلمُ.

والخبرُ عندَنا يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: قيلَ: إن قوماً قتلَ بعضُهُمْ بعضاً في الجاهليةِ، فأسلمَ /٢٦ ـ أ/ بعضُهُمْ، فأرادَ أولئكَ أنْ يأخذُوا مَنْ أسلمَ منهمْ بالقِصاصِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا يُقتلُ مسلمٌ بكافرٍ» [البخاري: ١١١] كما قالَ: «كُلُّ دمٍ كانَ في الجاهليَّةِ فهو موضوعٌ تحتَ قدمي هذا» [مسلم: ١٢١٨].

والثاني: أنهُ أرادَ بالكافرِ المستأمِنَ لأنهُ قالَ: «لا يُقتَلُ مسلمٌ بكافرٍ ولا ذو عهدٍ في عهدِهِ» [البخاري: ١١١] فنسَقُ قولِهِ: ذو عهدٍ على المسلمِ، فكانَ معناهُ: لا يُقتلُ مسلمٌ بكافرٍ ولا ذو عهدٍ بهِ، فكلُّ كافرٍ لا يُقتَلُ بهِ ذو عهدٍ في عهدِهِ، لم يُقتَلْ بهِ المسلمُ. فالذِّمِّيُّ يُقتَلُ بهِ ذو العهدِ، لذلكَ يُقتلُ بهِ المسلمُ، والمسلمُ إذا قتلَ مستأمِناً لم يُقتَلْ بهِ، وكذلكَ الذِّمِّيُّ. فدلَّ بما ذكرْنا أنهُ أرادَ بالكافرِ المستأمِنَ لا الذِّمِّيَّ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾؛ اختُلِفَ في تأويلِهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو القاتلُ إذا عُفِيَ لهُ: معناهُ: عنهُ، فَلْيَتَّبِعِ الوليُّ بأخذِ الديَةِ منهُ بالمعروفِ، شاءَ القاتلُ أو أبى. احتجَّ بما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ «في رجلٍ اختصمَ إليهِ في قاتلِ أخيهِ، فقالَ: أتعفو عنهُ؟ قال: لا. قالَ: أتأخذُ الدِّيَةَ؟ قال: لا، قالَ: أتقتُلُهُ؟ قالَ: نعم» [أبو داوود: ٤٤٩٩] عرضَ عليهِ[7] الديةَ، ولو كانَ غيرَ حقِّهِ لم يعرضْ عليهِ. وقالَ في بعضِ الأخبارِ: «وليُّ القتيلِ بينَ خيرَتَينِ بينَ قتلٍ وأخذِ دِيَةٍ» [أبو داوود: ٤٥٠٤].

وأمّا عندَنا: فتأويلُ قولِهِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ ليسَ هو القاتلَ لأنهُ يكونُ معفوّاً عنهُ، ولأنهُ [لا][8] يَتبَعُ أحداً، وهو المُتَّبَعُ، بل هو الوليُّ، لأنهُ هو المعفوُّ لَهُ، لا القاتلُ، حينَ أُمِرَ بالاتِّباعِ بالمعروفِ؛ كأنهُ قالَ: مَنْ بُذِلَ لَهُ، وأُعطِيَ ﴿مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: العفوُ بمعنى البذلِ والإعطاءِ على ما قيلَ: خُذْ ما أتاكَ عَفْواً صَفْواً؛ أي فضلاً. وكذلكَ رُوِيَ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: (﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ﴾ أي أُعطِيَ لَهُ) والحقُّ عندَنا هو القَوَدُ لا غيرَ على ما جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «العمدُ قَوَدٌ إلّا أنْ يَعْفُوَ وليُّ المَقْتولِ» [ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٨٦ وعزاه للطبراني]. وقد رُوي في بعضِ الأخبارِ: «إلّا أنْ يُفادَى» [بنحوه البخاري: ٦٨٨٠]. والمفاداةُ هو فعلُ اثنينِ، فلا يأخذُهُ إلّا عَنْ تراضٍ واصْطِلاحٍ منهما جميعاً.

---

(١) من ط ع وم: في الأصل: النفس. (٢) في النسخ الثلاث: وقال: روي. (٣) من ط ع. (٤) في الأصل: بضعه. (٥) ساقطة من ط ع.
(٦) في النسخ الثلاث: إليه. (٧) ساقطة من م. (٨) ساقطة من الأصل.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ الحقَّ هو القِصاصُ [لا غيرَ بقولِهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾](١) أخبرَ أنَّ المكتوبَ عليهِ والمحكومَ القِصاصُ. فلو كانَ الخيارُ بينَ القِصاصِ والعفوِ وأخذِ الدِّيَةِ، شاءَ أو أبى، لكانَ لا يكونُ مكتوباً عليهِ القِصاصُ، وتذهبُ فائدةُ قولِهِ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾. إنما كانَ يكونُ عليهِ أحدُهما، كما لا يُقالُ في الكفارةِ بأنَّ المكتوبَ عليهِ العتقُ، بل أحدُ الثلاثةِ. فلما قالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ دلَّ أنَّ أخذَ الدِّيَةِ كانَ كالخَلَفِ عنهُ. وما رُوِيَ عنهُ ﷺ حينَ قالَ لوليِّ القتيلِ: «أتعفو عنهُ؟ قال: لا، فقالَ: أتأخذُ الديةَ؟ قالَ: لا» [أبو داوود: ٤٤٩٩]، إنما عرضَ عليهِ الدِّيَةَ لِما علِمَ أنَّ القاتلَ يرضَى بذلكَ، على ما رُوِيَ أنَّ امرأةً جاءَتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأخبرَتْهُ بغضَ زوجِها، فقالَ: «أتردِّينَ عليهِ حديقتَهُ؟ قالَتْ: نعمْ وزيادةً، فقالَ النبيُّ ﷺ أمّا الزيادةُ فَلَا»[بنحوه ابن ماجه: ٢٠٥٦]. وإنما قالَ لها ذلكَ الأولَى. ولو كانَتْ لفظةُ العفوِ تعبِّرُ عنْ إلزامِ الدِّيَةِ ما أحوجَهُ إلى ذكرِ الإشارةِ إلى العفوِ مرةً وإلى أخذِ الدِّيَةِ ثانياً. فثبتَ أنْ ليسَ للذي يعفو أنْ يأخذَ الدِّيَةَ بالعفوِ.

وقيلَ في قولِهِ: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أصلُها: أنها نزلَتْ في دمٍ: بينَ نفرٍ يعفو أحدُهُمْ عنِ القاتلِ، ويَتبعُ الآخرونَ بالمعروفِ في نصيبِهِمْ لأنهُ ذكرَ ﴿شَيۡءٞ﴾، والشيءُ هو العفوُ عَنْ بعضِ الحقِّ، فألزمَ الاتِّباعَ الآخرينَ عندَ العفوِ بعضَ حقِّهِ. ثبتَ أنَّ العفوَ لا يَلزمُ الدِّيَةَ.

ورُوِيَ عَنْ عمرَ وعبدِ اللهِ بن مسعودٍ [وعليٍّ](٢) وعبدِ اللهِ بنِ عباسٍ ﷺ أنهُمْ أوجَبُوا في بعضِ عفوِ الأولياءِ للذينَ لم يعفُوا الدِّيَةَ على تركِ السؤالِ عمَّنْ عفا عنكَ عَفوْتَ بدِيَةٍ، ولو كانَ ثَمَّ حقٌّ ذكرُوهُ لهُ، فدلَّ أنَّ العفوَ لا يوجبُ الدِّيَةَ، واللهُ أعلمُ.

ثم لا يخلو: إمَّا أنْ يكونَ حقُّهُ القِصاصَ، ثم لهُ تركُهُ بالدِّيَةِ؛ فهو إلزامُ بَدَلِ حقِّ قتلِ آخرَ مِنْ غيرِ رضاهُ، وذلكَ ممّا لم يُعقَلْ في شيءٍ، أو كلاهما، فهو أيضاً كذلكَ؛ لا يكونُ أحدُهما إلاّ باجتماعِهِما أو أحدُهما، وهو مجهولٌ، فالعفوُ عنهُ يُبطِلُ حقَّهُ؛ إذِ العفوُ تركٌ. وقالوا(٣): إنَّ في أخذِ الدِّيَةِ إحياءَ النفسِ التي أمرَ اللهُ بإحيائِها، وفي الامْتِناعِ عنْ أداءِ الدِّيَةِ إليهِ والبذلِ لهُ إذنٌ بالقتلِ. ومِنْ قولِ الجميعِ: إنَّ أحداً لو قالَ لآخرَ: اقتُلْني أنهُ لا يَعمَلُ بإذنِهِ، فإذا كانَ معنَى الامْتِناعِ عنْ أداءِ الدِّيَةِ، هو إذنٌ بالقتلِ، لم يَأْذَنْ لهُ؛ يقالُ: أبعدتَ القياسَ والتشبيهَ لأنَّ فيما نحنُ فيهِ إذناً(٤) بالقتلِ، وظهورَ(٥) الأمرِ بهِ، وفيما ذكرْتَ لم يظهرْ حينَ قالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ فأنَّى يُشبَّهُ هذا بذلكَ، ويُقاسُ عليهِ؟ وإمّا أنْ يُقالَ(٦): لو كانَ الأمرُ كما ذكرْتَ لكانَ يجيءُ أنْ يكونَ الصلحُ على كلِّ شيءٍ [ممّا لهُ](٧)، وفيهِ تَلَفُ نفسِهِ أنْ ليسَ لهُ منعُهُ.

ومِنْ قولِ الجميعِ أنَّ لهُ المنْعَ، وجائزٌ وقوعُ الصلحِ على ما فيهِ تلَفُ مالِهِ، ثبتَ أنَّ ما يقومُ لهُ وَهْمٌ.

وبَعدُ فإنَّ الذي ذكرْتُ تدبيرُ الحقِّ، عليهِ أنْ يفعلَ، لا تدبيرُ الإلزامِ، ولو كانَ ذلك لازماً لكانَ يقتلُهُ ببذلِ نفسِهِ، فيُغرَّمُ فاعلُ ذلكَ، وهذا كما [يَفْنَى الرجلُ بشراءِ مابِهِ](٨) قِوامُ نفسِهِ عندَ الضرورةِ إلّا أنْ يُلزَمَ لو أبَى ذلكَ، فمثلُه دِيَتُهُ بمعنَى أنَّ في ذلكَ تَلَفَ نفسٍ؛ تلكَ قيمتُهُ، فمثلُهُ الأوَّلُ.

وما رُوِيَ في التخييرِ بينَ أخذِ الديَةِ وما ذكرَ فهو، واللهُ أعلمُ، على بيانِ الحِلِّ والرخصةِ على ما قيلَ: إنَّ حُكْمَ التوارةِ القتلُ، ولا يجوزُ لهمُ العفوُ ولا أخذُ الدِّيَةِ. ومِنْ حُكْمِ أهلِ الإنجيلِ العفوُ، لا يُقتلُ بالقِصاصِ، ولا تؤخذُ الدِّيَةُ. فحكمُ اللهِ ﷻ على أهلِ القرآنِ أنْ جعلَ لهمُ القتلَ مرةً والعفوَ ثانياً وأخذَ الديَةِ تارةً، فدلَّ أنهُ يُخَرَّجُ مُخرَجَ بيانِ الحِلِّ والرخصةِ إذا طابَتْ بهِ نفسُ مَنْ عليهِ ذلكَ ببذلِهِ إذا طُلِبَ، ولا يُوجبُ قطعَ الخِيارِ مِنَ الآخرِ، ولهذا ما نقولُ في قولِهِ: ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقولُهُ في التخييرِ والكفارةِ: إنَّ ذلكَ إلى مَنْ [عليهِ لا إلى مَنْ](٩) يأخذُ؛ إذِ الحقُّ ههنا مِنْ جانبٍ واحدٍ، فيجعلُ الخِيارَ إلى مَنْ عليهِ إذا كانَ مِنْ كِلا الجانبَيْنِ يَعتبِرُ رِضاهما جميعاً، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط ع وم: ساقطة من الأصل. (٢) من ط ع. (٣) في النسخ الثلاث: وقال. (٤) في النسخ الثلاث: إذنٌ. (٥) في النسخ الثلاث: وظهر. (٦) في النسخ الثلاث: أو. (٧) في النسخ الثلاث: ماله. (٨) من م وط ع، في الأصل: يفنى الرجل بشرا مامه. (٩) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لِما ذكَرْنا مِنْ إباحةِ العفوِ في حكمِ القرآنِ، ولم يكنْ في حكمِ غيرِهِ مِنَ الكتبِ أخذُ الديَةِ أو القتلُ، ولم يكنْ في حكمِ التوراةِ والإنجيلِ إلا واحدٌ، ويَحتمِلُ أنْ كانَ في التوراةِ هذا أو هذا كما قالَ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، واحْتَملَ أنهُ ذكرَ القَوَدَ شَرْعاً لنا، بقولِهِ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾: لنا خاصةً.

وقولُهُ: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ فيه دلالةٌ: ألّا يُقطعَ صاحبُ الكبيرةِ عنْ رحمةِ اللهِ، لأنهُ أخبرَ أنَّ التخفيفَ رحمةٌ في الدنيا، [فإذا لم يُؤْيِسْهُمْ في الدنيا عَنْ رحمتِهِ فلا يُؤْيِسُهُمْ][(١)] في الآخرةِ عنها.

[وفي][(٢)] قولِهِ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ دلالةٌ: ألّا يزولَ اسْمُ الإيمانِ بارْتِكابِهِ الكبيرةَ [لأنه سَمّاه أخاً][(٣)] مِنْ غيرِ إخوةِ نَسَبٍ، دلَّ أنهُ أخوهُ في الدينِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]؛ أبقِيَ لهمُ اسْمُ الإيمانِ بعدَ البغيِ والقتلِ، دلَّ أنَّ ارْتِكابَ الكبيرةِ لا يُخرِجُهُ مِنَ الإيمانِ. وهذا يردُّ علىَ المعتزلةِ قولَهُمْ؛ لأنهمْ يقولُونَ: إنَّ مَنِ ارتكبَ كبيرةً أخرجَهُ مِنَ الإيمانِ. وما ذكرَ مِنَ التخليدِ في قتلِ العمْدِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ: أحدُهما: باسْتِحلالِ[(٤)] قتلِهِ [والثاني][(٥)] بِتَعمُّدِ دينِهِ، وإلّا فَتُخَرَّجُ الآيتانِ على التناقضِ في الظاهرِ لو لم تُجعَلْ على ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ قيلَ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ على القاتلِ بعدَ ما عُفِيَ عنهُ أو بعدَ ما أخذَ الدِّيَةَ، وقيلَ: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مِنْ بعدِ النهيِ عنْ قتلِهِ، وقيلَ: إذا أرَى مِنْ نفسِهِ / ٢٦ ـ ب/ العفوَ، ثم أخذَ الدِّيَةَ، ثم أرادَ قتلَهُ، فهو الاعْتِداءُ. ثم اختُلِفَ بعد هذا بوجهَينِ: قالَ قومٌ إذا فعلَ هذا يُترَكُ القِصاصُ فيهِ للعذابِ المذكورِ في الآخرةِ: إذا اقْتُصَّ ارتفعَ عنهُ العذابُ، وإن لم يُقتَصَّ فلا.

وجائزٌ عندَنا: أنْ يكونَ العذابُ الأليمُ في الدنيا: إذا لم يُخَلِّ[(٦)] شيءٌ مِنَ العذابِ؛ إذِ القتلُ هو الغايةُ مِنَ الألمِ والوجعِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ، وإلّا فظاهرُ القِصاصِ لا يكونُ حياةً.

[أحدُهما: من تَفَكَّرَ][(٧)] في نفسِهِ قَتْلَها إذا قَتَلَ آخرَ، ارْتَدَعَ عنْ قتلِهِ، فَتَحْيا النفسانِ جميعاً.

والثاني: مَنْ نظرَ، فَرَأى يُقتَلُ بغيرِهِ، امْتَنعَ عنْ قتلِ كُلٍّ، ففيهِ الحياةُ لِلأنفسِ جميعاً. ولهذا نَقولُ بوجوبِ القِصاصِ في الأنفسِ كلِّها، وإنِ اختلفَتْ أحوالُها؛ إذْ لو لم يُجعلْ بينَ الأنفسِ على اختلافِ الأحوالِ قِصاصٌ لم تكنْ في القِصاصِ حياةٌ. فأحقُّ منْ يُجعَلُ فيهِ القِصاصُ عندَ مختلِفِ الأحوالِ لِما يُغضِبُ الشريفَ على الوضيعِ، فيحملُهُ غضبُهُ على قتلِهِ، فَجُعِلَ القِصاصُ لهُ أو لِما يُستخَفُّ بِهِ.

وأما الوارثُ لِما يطمعُ وصولَهُ إلى مورِّثِهِ، [فَيَحمِلُهُ على][(٨)] قتلِهِ. فسببُ القتلِ ليسَ ما يُذكَرُ، لكنهُ شدةُ الغضبِ. وفي المواريثِ زيادةٌ، وهو ما يصلُ إلى مالِهُ، وفي الكافرِ منِ اسْتِخفافِهِ بدينِهِ مِنَ المقتولِ. فطُلِبَ فيه المعنى الذي فيهِ الإحياءُ، وهو حرمانُ الميراثِ. فعلى ذلك التقديرُ: يُقتَلُ المسلمُ بالكافرِ لأنَّ المسلمَ قد يَسْتَخِفُّ بالكافرِ في دارِ سَلْمِهِ، فَيَحمِلُهُ اسْتِخفافُهُ إياهُ على قتلِهِ؛ ففيهِ معنىً يدعو إلى الفناءِ، فيجبُ أنْ يُقتَصَّ مِنَ المسلمِ بالكافرِ لتحقيقِ معنَى الحياةِ. وعلى هذا التقديرِ يُقتَلُ الحرُّ بالعبدِ لأنَّ الحرَّ يَسْتَخِفُّ بالعبدِ، فيدعُوهُ اسْتِخفافُهُ بِهِ على قتلِهِ، فهو يُقتَلُ.

أو نقولُ: يُقتَلُ الولدُ بالوالدِ لِما يستعجِلُ الوصولَ إلى ملكِهِ، فيحملُهُ على قتلِهِ، فلِزمَ حفظُ ما لأجلِهِ الحياةُ. ثم في الوالدِ شفقةٌ ومحبةٌ تمنعُ الوالدَ عنْ قتلِ ولدِهِ لذلكَ انْتَهَى عنِ[(٩)] القِصاصِ. وهذا معنَى قولِهِ ﷺ «لايُقادُ والدٌ [عن ولدِهِ»][(١٠)] [الترمذي: ١٤٠٠]، وباللهِ التوفيقُ.

---

(١) من م، في الأصل: لم يؤيسهم... فلا، في ط ع: فإذا لم يواسيهم... فلا يواسهيم. (٢) من ط ع وم، في الأصل: و. (٣) من ط ع، أدرجت في الأصل وم بعد الدين. (٤) في النسخ الثلاث: لاستحلال. (٥) في النسخ الثلاث: أو. (٦) في النسخ الثلاث: يخلو. (٧) في النسخ الثلاث: لكن قيل: من تفكره. (٨) من ط ع، في الأصل وم: فيطمع في. (٩) في النسخ الثلاث: عنه. (١٠) في ط ع: لا يُقادُ الوالد بولده.

قالَ الشيخُ ﷺ الوالدُ يحبُّ ولدَهُ لأنه يرغبُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، وأمّا الولدُ فإنما يحبُّ والدَهُ لهُ لنفسِهِ ومنافعَ لهُ، فإذا كانَ [الولدُ لهُ][1] لم يُقتصَّ منهُ.

الآية ١٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تكلَّموا فيه بأوجهٍ: قيلَ: إنهُ منسوخٌ بما بيَّنَ ﷺ في آيةٍ أخرى مِنْ حقِّ الميراثِ، ومنهمْ مَنْ قالَ: لم يُنسَخْ. ثم قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: إنه قد كانَ ذلكَ لأنَّ الناسَ كانُوا حديثي[2] عهدٍ في الإسلامِ؛ يُسلِمُ الرجلُ، ولا يُسلِمُ أبواهُ. فقولُهُ: ﴿كُتِبَ﴾ إنما وقعَ على مَنْ كانَ لا يَرِثُ، ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنها كانتْ للوارثِ، ولم يُنسَخْ، ولربما يقعُ الأمرُ في غيرِ مَنْ يَرِثُ مِمَّنْ ذكرَ. لكنْ في ذلكَ ذكرُ ﴿كُتِبَ﴾، وذلكَ إيجابٌ، ولا يُحتَملُ أنْ يُفرَضَ عليهِمْ معَ التحذيرِ عنِ اتِّخاذِهِمْ أولياءَ بقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وقولِهِ[3]: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ الآيةَ[4] [المجادلة: ٢٢] وفي إلزامِ الفرضيَّةِ مِنْ حيثُ المعروفُ إبقاءُ الموالاةِ وإلزامُ المحبةِ، وقد حَذِرَ وجودَ ذلكَ، فثبتَ أنَّ الايةَ فيمَنْ يتوارَثُونَ اليومَ، لكنَّها نُسِخَتْ، واللهُ أعلمُ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: لا، ولكنه وقعَ على مَنْ كانَ يرثُ وعلى مَنْ [كانَ لا يرثُ][5] بقولِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾، فهو كانَ مكتوباً عليهِمْ مفروضاً في حقِّ الوصايةِ.

ثم مَنْ رأى نسخَهُ اسْتَدلَّ بقولِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]؛ ذكرَ فيه الوصايةَ على بيانِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ. فليسَ الذي أوصَى اللهُ يمنعُ وصايتَهُ التي كتبَ عليهِمْ. لكنْ في الآيةِ دليلٌ، لم يُنسَخْ بهذهِ، لوجهَينِ[6]:

أحدُهما: قولُهُ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فهو وصيةٌ، ذِكْرُهُ كَذِكرِ الوصايةِ في الأوَّلِ؛ ففيه جَعلَ حقّاً[7] كالحقِّ المجعولِ لهمْ إذا لم يذكرْ ذلكَ الوصيةَ مع الميراثِ، ثمّ نفاهُ.

والوجهُ الآخرُ: أنهُ قالَ: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١٢] فجَعَلَ حكمَ الإرثِ على ذكرِ الوصيةِ، والإرثَ بعدَ الوصيةِ، فبانَ أنَّ لها حكمَ البقاءِ.

ثم قيلَ فيه بوجهَينِ: قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] لم يكنْ ميراثاً، ولا هو مِنْ أجلِ[8] الميراثِ؛ فحدوثُ الإرثِ بهِ يمنعُ حقَّ القَطعِ عنهُ بالمكتوبِ الأوَّلِ. ومنهمْ مَنْ جعلَ ذلكَ فيمَنْ كان وارثاً فورَدَ البيانُ مِنْ بعدِ يقطعُ عنهُ المكتوبَ لهُ.

ثم مِنَ الناسِ مِنِ ادَّعى نسخَ هذا بقولِهِ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] ولو جعلَ الوصيةَ لهُ ما جعلَ اللهُ لهمْ فيهِ النصيبَ[9]، خصَّ بهِ الكثيرَ دونَ القليلِ، فثبتَ أنَّ ذلكَ الكتابَ رُفِعَ عنهمْ ممّا جعلَ لهمُ الحقَّ في الذي ذكرَ، قلَّ، أو كثُرَ.

ثم الوجهُ فيهِ عندَنا: فهو أنهُ لم يكنْ نُسِخَ بهذهِ الآياتِ، على ما قالَهُ بعضُ الناسِ، فهو منسوخٌ بقولِهِ ﷺ «إنَّ اللهَ أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ فلا وصيَّةَ لوارثٍ» [الترمذي: ٢١٢١] فبيَّنَ أنهُ قد كانَ أعطى ذا حقٍّ حقَّهُ على رفعِ ما كانتْ لهمْ مِنَ الوصايةِ فيهِ.

ثم اختلفُوا في الخبرِ الذي رُوِيَ أنَّ اللهَ تبارَكَ، وتعالى قد «أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ فلا وصيَّةَ لوارثٍ» [الترمذي: ٢١٢١]: قالَ [قائلونَ: لا][10] يجوزُ ورودُ النسخِ على الآيةِ إذِ السُّنَّةُ لا تَرِدُ على نسخِ الكتابِ، وقالَ آخرونَ: لا، ولكنَّهُ مِنْ أخبارِ الآحادِ، وأخبارُ الآحادِ على قولِكُمْ، لا تَرِدُ على نسخِ خبرٍ مثلِهِ، فكيفَ على كتابِ ربِّ العالَمين؟

فأمّا الأولُ في أنَّ السنةَ لا تعملُ في نسخِ الكتابِ فقد سبقَ القولُ[11] فيه: إنَّ الذي حَملَهُمْ على هذا، هو جهلُهُمْ

---

(١) من ط ع، في م: الوالد، ساقطة من الأصل. (٢) في النسخ الثلاث: حديث. (٣) من ط ع، في الأصل وم: قوله. (٤) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٥) من ط ع وم، في الأصل: فهو كان لا يرث. (٦) في النسخ الثلاث: الوجهين. (٧) في النسخ الثلاث: حق. (٨) في النسخ الثلاث: أهل. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (١٠) من ط م، في الأصل: قائل: لا، في ط ع: قائلون: فلا. (١١) كان ذلك في تفسير الآية ١٠٦ و١٤٢ .

بموقعِ السنةِ، وإلّا لو علمُوهُ ما أنكرُوهُ، وهو ما قلْنا: إنَّ النسخَ بيانُ منتهى الحكمِ إلى الوقتِ المجعولةِ [لهُ][1]. فأمّا مَنْ قالَ: إنهُ مِنْ أخبارِ الآحادِ فإنَّ الأصلَ في هذا أنْ يُقالَ: إنهُ مِنْ حيثُ الروايةُ مِنَ الآحادِ، ومِنْ حيثُ عِلْمُ العملِ بهِ متواترٌ. ومِنْ أصلِنا أنَّ المتواترَ بالعملِ هو أرفعُ خبرٍ بعملٍ؛ إذِ المتواترُ المتعارَفُ قَرْناً بقَرْنٍ ممّا عملَ الناسُ بهِ لم يَعْمَلوا بهِ إلّا لظهورِهِ، وظهورُهُ يُغني الناسَ عَنْ روايتِهِ لِما علمُوا خُلُوَّهُ مِنَ الخفاءِ، ولهذا يقولُ في الخبرِ: جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ نَهى عنْ أكلِ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السباعِ [أحمد: ١/ ٣٣٢] فَتَرُدُّ بهِ الخبرَ المرويَّ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنه مِنْ أخبارِ الآحادِ؛ هو مِنْ حيثُ الروايةُ مِنَ الآحادِ، ولكنه مِنْ حيثُ تواترُ الناسِ العملُ بهِ، صارَ بحيثُ يوجبُ عِلْمَ العملِ. فما لم يجزْ أنْ تجتمعَ الأمةُ على شيءٍ، عَلِموا[2] كلَّهُ مِنْ كتابٍ أو سُنَّةٍ غيرَ ما وَرَدَ، فيكونُوا قد اجتمعُوا على تضييعِ كتابٍ أو سنَّةٍ، وكذا هذا: لا يجوزُ أنْ يجتمعَ الناسُ على تركِ الوصيةِ للوارثِ [من غيرِ][3] كتابٍ نسخَهُ أو سُنَّةٍ أُخرى تُلزِمُ العملَ به، فلهذا قضَينا بنسخِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ قيلَ فيه بوجهَينِ؛ [يَحتمِلُ][4]: فَمَنْ بدَّلَ هذهِ الوصايةَ المكتوبةَ للوالدَينِ إن كانَ هذا أرادَ بقولِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الآيةَ ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾ عَلَيهِ، ويَحتمِلُ: مَنْ بَدَّلَ الوصيةَ ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ مِنَ الموصِي ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾. ثم يَحتمِلُ بعدَ هذا وجهَينِ: يَحتملُ أنهُ أرادَ تبديلَ الوصيِّ بعدَ موتِ الموصِي، ويَحتمِلُ تبديلَ مَنْ حضرَ الوصايةَ[5] ذلك الوقتَ مِنَ الشهودِ وغيرِهِمْ[6].

[وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي ﴿سَمِيعٌ﴾ لمقالتِهِ ووصايتِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بجَورِهِ وظلمِهِ أو ﴿عَلِيمٌ﴾ بتبديلِهِ، واللهُ أعلمُ][7].

الآية ١٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ قيلَ فيه بوجهَينِ؛ يَحتمِلُ: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ أي علمَ مِنَ الموصِي ظلماً وجَوراً على الورثةِ بالزيادةِ على الثُّلُثِ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تبديلِهِ ومنعِهِ وردِّهِ إلى الثُّلُثِ وقتَ وصايةِ الموصِي، ويَحتمِلُ ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ أي علمَ مِنَ الموصِي خطأً وجَوراً بعدَ وفاتِهِ بالوصيةِ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تبديلِهِ وردِّهِ إلى ما يجوزُ مِن ذلكَ، ويَصِحُّ، وهو الواجبُ على الأوصياءِ أنْ يعملُوا بما يجوزُ في الحكمِ. وإنْ كانَ الموصِي أوصَى بخلافِ ما يُجيزُهُ الحكمُ، ويُوجِبُهُ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: وكانَ صرفُ الخوفِ إلى العلمِ أولَى، إذْ هو تبديلُ الوصيةِ، وقد نُهِيَ عنهُ، وأُذِنَ بهِ للجَورِ. فإذا لم يُعلَمْ فهو تبديلٌ بلا عذرٍ، وقد [يَخِفُ لخوفٍ][8] حقَّ العلمِ إذا / ٢٧ ـ أ/ غَلَبَ الوجهُ، كما أُذِنَ للإكراهِ إظهارُ الكفرِ، وذلكَ في حقيقتِهِ خوفٌ عما في التحقيقِ على العلمِ بغلبةِ الوفاءِ في ذلكَ.

وقولُهُ: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني بينَ الورثةِ بعدَ [موتِ][9] الموصِي وردِّ ما زادَ على الثُّلُثِ بينَ الورثةِ على قدرِ أنصبائِهِمْ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِجَورِ[10] الموصِي وظلمِهِ إذا بدَّلَ الوَصِيُّ ذلكَ، وردَّهُ إلى الحقِّ، ويَحتمِلُ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ ردَّ على الموصِي جَنَفَهُ ومَيلَهُ في حالِ وصايتِهِ، واللهُ أعلمُ.

والأصلُ في أمرِ الوصايةِ للوارثِ أنَّ آياتِ المواريثِ لم تكنْ نزلَتْ في أوَّلِ ما بِهِمْ حاجةٌ إلى معرفةِ ذلكَ، فيجوزُ أنْ يكونَ في الابْتِداءِ كانتِ الوصايا بالحقِّ الذي اليومَ هو ميراثٌ؛ يبيِّنُ ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في ابْنَتَي سعدِ [بنِ الربيعِ][11]، قُتِلَ بأُحُدٍ، وقد كانَ اسْتولَى عَمُّهما على ميراثِهِ، [فسألتْ أُمُّهما][12] عن ذلكَ، فقالَ: «لم ينزلْ في شيءٍ» ثم دعاهُمْ، وأعطاهُما ما بيَّنَ اللهُ في كتابِهِ في قولِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ [النساء: ١١]. وكذلكَ كانَ للنساءِ الحَوْلُ في تركةِ الأزواجِ وصيةً لهنَّ. فعلى ذلكَ [كانَ][13] الأمرُ بالوصيةِ، فقالَ اللهُ ﷻ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ كالمبيِّنِ بما كانَ أوجبَ التبيينَ على

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) من ط ع وم، في الأصل: عملوا. (٣) في النسخ الثلاث: ثم. (٤) من ط ع. (٥) في ط ع وم: الوصي، في الأصل: الوحي. (٦) في النسخ الثلاث: وغيره. (٧) من ط ع، أدرجت في الأصل وم، بعد: بغلبة الوفاء في ذلك. (٨) في الأصل وم: يخف للخوف، في ط ع: يخفف للخوف. (٩) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٠) من ط ع وم، في الأصل: لجواز. (١١) ساقطة من النسخ الثلاث، انظر سنن الترمذي ٤/ ٤١٤ باب ما جاء في ميراث النساء، رقم الحديث (٢٠٩٢). (١٢) في الأصل وم: أيهما في ط ع: أيتهما. (١٣) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

الميتِ، فقالَ: [رسولُ اللهِ][(١)] «إنَّ الله تعالى قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصيَّةَ لوارثٍ» [الترمذي: ٢١٢١]. ومِمَّا يبيِّنُ ذلكَ أنهُ معلومٌ أنْ تكونَ الوصيَّةُ للوارثِ ليسَتْ تثبُتُ فيما هي لهُ، لأنهُ اليومَ، فيكونُ حصولُ الوصيةِ بنصيبٍ بعضِ الورثةِ. [وعلى][(٢)] ذلكَ الوجهِ لا يجوزُ وصيةُ الميتِ لأحدٍ، فكذلكَ للورثةِ، وهذا يبيِّنُ أنها كانتْ في وقتٍ لم يُبيَّنِ الميراثُ، فلا تكونُ الوصيةُ لِمَنْ يثبُتُ له ميراثٌ[(٣)] بنصيبِ غيرهِ في التحقيقِ، فكانَ يجوزُ، ثم بطلَ ببيانِ السنةِ؛ إذ ليسَ في متلوِّ القرآنِ حقيقةُ ذلكَ، وإنما يكونُ ذلكَ بحقِّ الاِنتزاعِ منهُ والنسخِ، ومعناهُ بالاِنتزاعِ أبعدُ عنِ الاِحتمالِ منهُ بالسنَّةِ، ولا قوةَ إلَّا باللهِ.

ثم حقُّ التواتُرِ عندَنا يقعُ بظهورِ العملِ بالشيءِ على غيرِ ظهورِ المنعِ منهمْ والتكثيرِ عليهمْ بالفعلِ[(٤)]. وفي هذا وجودُ ذلكَ مِنْ طريقِ الفعلِ[(٥)].

ثم القولُ أيضاً مِنَ الأئمةِ بالفتوى بهِ بلا تنازعٍ ظهرَ فيهمْ معَ ما قد ذكرَ اللهُ في المواريثِ: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]، وتخصيصُ الورثةِ قصدَ مضارَّةٍ بغيرِهِمْ[(٦)] واستعمالُ الرأيِ فيما قد تولّى قسمَهُ على غيرِ الذي قَسَمَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هؤلاءِ الآياتُ فيهنَّ فرضيَّةٌ بقولِهِ: ﴿كُتِبَ﴾، وأيَّدَ ذلكَ الإبدالَ فيها الإفطارُ بعذرٍ والأمرُ[(٧)] بالقضاءِ، وذلكَ ليسَ بشرطِ الآدابِ معَ الاِمتِنانِ علينا بقولِهِ ﷺ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي يريدُ بكمُ الإذنَ لكمْ في الفطرِ للعذرِ، ولو كانَ غيرَ فرضٍ بدؤُهُ لم يكنِ الفطرُ للعذرِ بموضعِ الرخصةِ معَ شرطِهِ إكمالَ العِدَّةِ في القضاءِ معنىً. وفي ذلكَ لزومُ حفظِ المتروكِ لئلا يدخلَ التقصيرُ في القضاءِ، وعلى ذلكَ إجماعُ الأمةِ.

ثمَّ بيَّنَ ﷺ أنهُ[(٨)] لم تكنْ هذه الأمةُ بمخصوصةٍ في الصيامِ، بل [هي][(٩)] أحقُّ مَنْ فيهمُ اسْتَعملَ العفوَ والصفحَ[(١٠)] بما خصَّهُمْ بأنْ جعلَهُمْ ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وأخبرَ أنهُ لم يجعلْ عليهمْ ﴿فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ولا ألزمَهُمُ العباداتِ الشاقَّةَ ﴿فَضْلًا﴾ [الأحزاب: ٤٧ و...] منهُ عليهِمْ وتخصيصاً لهمْ إذْ جَعَلَهُمْ ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فقالَ ﷺ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لكنْ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ العذرَ الذي كتبَ عليهِمْ، ويَحتمِلُ الفرضيَّةَ في الجملةِ لا عَيْنَ ما فرضَ عليهِمْ مِنْ حيثُ الإشارةُ إلى ذلكَ؛ ولذلكَ اختُلِفَ في الكافِ في قولِهِ ﴿كَمَا﴾ أنها زائدةٌ وحقيقةٌ. ثم اختُلِفَ في ماهِيَّةِ[(١١)] ذلكَ الصيامِ.

فَمِنَ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، مَنْ جعلَهُ صومَ عاشوراء وأيامَ البيضِ، ثم اسْتَعمَلوا نسخَ ذلكَ بصيامِ الشهرِ؛ [وقد رُوِيَ مرفوعاً «أنَّ صومَ شهرِ رمضانَ نسخَ كلَّ صيامٍ كانَ»][(١٢)] [الدارقطني: ٤٧٠٢]، ورُوِيَ[(١٣)] عَنْ جماعةٍ في أمرِ صومِ عاشوراءَ: أنا كُنَّا نصومُهُ حتى نزلَ صومُ الشهرِ، فلم يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ يأمرُنا بهِ، ولا ينهانا.

وأصلُ هذا أنهُ كانَ يُصامُ، لو كانَ ابْتِداءُ الآيةِ عليه بحقِّ الفرضِ، فأبدلَ ذلكَ بصومِ الشهرِ، فارتفعَ عنهُ الفرضيَّةُ على ما إذا كانَ يخرجُ منهُ بالفداءِ [لم يكنْ معهُ فرضيَّةُ][(١٤)] القضاءِ، وبقيَ الفضلُ فيهِ؛ إذِ النسخُ][(١٥)] لم يكنْ مِنْ حيثُ نفسُ الصومِ، إذْ مثلُهُ مِنَ النسخِ يكونُ بغيرِ الصومِ، ولا بصومٍ. فثبتَ أنهُ في نسخِ الفرضيَّةِ[(١٦)]، فَبَقيَ فيهِ حقُّ الأدبِ والفضلِ، وتبيَّنَ النسخُ بالصومِ[(١٧)] إذْ [هو][(١٨)] مثلُهُ، وأنَّ ذلكَ غيرُ صومِ الشهرِ [المذكورِ في صومِ الشهرِ][(١٩)] بقولِهِ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ الآيةَ، ولو كانَ الكلُّ واحداً لكانَ الذكرُ في موضعٍ منهُ كافياً عنِ الإعادةِ، فثبتَ أنهُ على تناسخِ الصيامِ. وقد

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من ط ع. (٣) في النسخ الثلاث: وصية. (٤) من ط ع، في الأصل وم: بالعقل. (٥) من ط ع، في الأصل وم: بالعقل. (٦) في النسخ الثلاث: بغيره. (٧) من ط ع، في الأصل: وإلا، في م: والأمن. (٨) من م، في الأصل وط ع: أن. (٩) من ط ع. (١٠) في وط ع: أو لصفح. (١١) في م والأصل: مائية، في ط ع: ما يأتيه. (١٢) من م وط ع، ساقطة من الأصل. (١٣) من ط ع وم، في الأصل: وقد روي. (١٤) من م، في الأصل: فريضة. (١٥) من الأصل وم، ساقطة من ط ع. (١٦) من م وط ع، في الأصل: فريضة. (١٧) في النسخ الثلاث: الصوم. (١٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٩) في ط ع وم: الذكر في صوم الشهر، ساقطة من الأصل.

رَوى مُعاذٌ ﷺ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ](١) أنهُ قالَ: «أُحيلَ الصيامُ ثلاثةَ أحوالٍ» [أحمد: ٥/٢٤٦]، وبيَّنَ(٢) الخبرَ على وجهِهِ في ذلكَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ منهُ صومَ الشهرِ، ويكونُ تكرارُ الذكرِ في الرخصةِ لِمكانِ رفعِ الفداءِ أو لمكانِ ذكرِ حقِّ الامْتِنانِ بالتيسيرِ أو التحريضِ على حفظِ العددِ، واللهُ الموفقُ.

وأيُّ ذلكَ كانَ، فليسَ بنا حاجةٌ إلى معرفةِ حقيقةِ ذلكَ؛ لأنَّ كيفيةَ الابْتِداءِ لم نُكلَّفْ، وإنما كُلِّفْنا ما أبقى فرضَهُ، وهو صيامُ الشهرِ الذي لم يُختَلَفْ في ذلكَ.

ثم قد خاطبَ، جلَّ ثناؤُهُ، بالصيامِ مَنْ قد آمنَ بقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فكانَ فيما خاطبَ وجهانِ:

أحدُهما: أنهُ خاطبَ االمؤمنينَ(٣)، فعرفَ المخاطَبونَ أنَّ الاسْمَ يأخذُهُمْ؛ إذْ لم يُذكَرْ عنْ أحدٍ أنهُ ظنَّ خروجَهُ مِنْ حكمٍ مِنْ حيثُ لم يكنْ وفاءً بما بهِ يستحِقُّ الاسْمَ، وكذلكَ سائرُ [أفعالِ العباداتِ](٤). وهذا مِنْ أوضحِ ما يجبُ بهِ العلمُ أنَّ الإيمانَ ليسَ باسْمٍ لجميعِ القُرَبِ، بل تحقيقُهُ يُصَيِّرُ أفعالَ القُرَبِ قُرَباً. وفيهِ: إذْ لم يُقلْ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾، قلتُمْ: نحنُ مؤمنونَ بهِ ﷺ دلالةٌ ظاهرةٌ على هجرِ هذا القولِ، وأنهُ مِنْ تلقينِ الشيطانِ لِيُبطِلَ عليهِمْ عقدَهُمْ كما يُبطِلُ كلَّ عقدٍ يستعملُهُ فيهِ صاحبُهُ مما أرادَ إلزامَهُ العقدَ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنَّ اللهَ تعالى خصَّ بالعباداتِ المؤمنينَ، وأنهنَّ، لا يُلزِمْنَ غيرَهُمْ، فيها الاعْتِقادُ لا الأفعالُ التي هي تقومُ بالاعْتِقادِ. وليسَ الاعْتِقادُ بواجبٍ لِمكانِ تلكَ الأفعالِ حتى تكونَ كالأسبابِ التي تُوجَبُ بإيجابِ أفعالٍ بها تقومُ، بل لهُ أوجبَ غيرَهُ. ألَا ترى أنهُ لا يجوزُ أنْ يرتفعَ ذلكَ عنِ الخلائقِ بحالٍ مِنَ الأحوالِ في الدنيا والآخرةِ مع ارْتفاعِ غيرِ ذلكَ مِنَ العباداتِ؟ ثبتَ أنَّ الأمرَ بذلكَ بحيثُ نفسُهُ لا لغيرِهِ، ثم لا قيامَ لغيرِهِ معَ عدمِهِ؛ ثبتَ أنَّ المعنى الذي بهِ يصيرُ المرءُ أهلاً لِاحْتِمالِ فعلِ العباداتِ. لذلكَ لا يجوزُ الأمرُ بشيءٍ منها دونَ ذلكَ. ولهُ وجهانِ يَحتملانِ(٥) الأمرَ أيضاً:

أحدُهما: العقلُ؛ أنهُ مِنَ البعيدِ أنْ يكونَ مَنْ لم [يُقِرَّ بالعبودةِ](٦)، ولا أقرَّ بالرسالةِ، يؤمَرُ بالعبادةِ وباتِّباعِ الرسولِ بحقِّ الرسالةِ، بل يقولُ: ألزِمُونا الأوَّلَ حتى يكونَ الثاني؛ وهو كما حالُ الناسِ المناظرةُ في الرسلِ معَ مُنكرِي الصانعِ والمرسَلِ، فمثلُهُ الأوَّلُ، بل تَجِبُ كلَّ قُرْبةٍ بهِ؛ إذْ لا يكونُ إلّا بهِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: القولُ: بأنَّ مَنْ أسلمَ بعدَ أوقاتِ العباداتِ لا يَلزَمُهُ القضاءُ، ثم لذلكَ وجهانِ مِنَ المعتَبرِ:

أحدُهما: أنهمْ(٧) إذا لم يدخلُوا في خطابِ القضاءِ بما ليسَ معهمْ في الحالِ ما يَحتمِلُ معهُ القضاءَ، فكذلكَ خطابُ الابْتِداءِ؛ إذ هو الذي بهِ لزمَ القضاءُ في الإسلامِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني أنهُ لا يلزمُ القضاءُ بعدَ الإسلامِ، ولا يجوزُ الابْتِداءُ في حالِهِ، فكانَ ذا تكليفاً(٨)، لم يجعلِ اللهُ للمكلَّفِ وجهَ القيامِ، وقد تبرَّأَ اللهُ مِنْ هذا الوجهِ مِنَ التكليفِ /٢٧ ـ ب/ بقولِهِ ﷻ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] مَعَ ما بيَّنَ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٢٦] أنَّ ما للكافرِ [التمتعُ في الدنيا لا العباداتُ](٩) في ذلكَ، واللهُ الموفقُ.

فثبتَ بالآيةِ التي ذكرْنا دخولُ جميعِ المؤمنينَ في الخطابِ؛ إذ بيَّنَ الرخصةَ للذي(١٠) له العذرُ في الإفطارِ على وجوبِ القضاءِ، فإذنْ يَحتمِلُ خروجَ مَنْ له العذرُ في الفطرِ عنْ أنْ يتضمَّنَهُ الخطابُ وجهَ ألزمَ القضاءَ. ثبتَ أنَّ مَنْ لا عذرَ له داخلٌ فيه، ولا يَسَعُهُ الفِطرُ. وعلى هذا جاءَ ممَّنِ ابْتُلِيَ بالجماعِ نهاراً أنه ﷺ أكَّدَ عليهِ الأمرَ، وألزمَهُ الكفارةَ على غيرِ سؤالٍ عنْ أحوالٍ سِوى ما علِمَ مِنْ حالِهِ أنه ليسَ بمريضٍ أو مسافرٍ(١١). فكانَ في ذلكَ دليلُ تأكيدِ الفرضِ، وفي ذلكَ إيجابُ الكفارةِ

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) سيدرج هذا الحديث عن أنس في تفسير الآية ١٨٥ ص.١٣٦ (٣) في النسخ الثلاث: من المؤمنين. (٤) في النسخ الثلاث: عبادات الأفعال. (٥) في النسخ الثلاث: يحيلان. (٦) في النسخ الثلاث: يقل العبودة. (٧) في ط ع: بأنهم. (٨) في النسخ الثلاث: تكليف. (٩) من م، في الأصل: التمتع في الدنيا للعبادات، في ط ع: للتمتع في الدنيا لا للعبادات. (١٠) في النسخ الثلاث: الذي. (١١) في ط ع: مسافراً.

لِيَعْدِيَهِ على الصيامِ على حالٍ لا يَحتمِلُ الإرخاصَ[١]، إذ كانَتْ[٢] تلكَ البَلِيَّةُ في الليالي، فلم يُؤمَرُوا[٣] بها مِن حيثُ كانُوا يملِكونَ إبقاءَ الرخصةِ لأنفسِهِمْ، لولا النومُ، وفي ذلكَ أنَّ فرضَ الصيامِ يعمُّ المؤمنينَ.

ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ والشهرُ اسمٌ للكُلِّ، ولو كانَ المرادُ [راجعاً إليهِ][٤] لكانَ الصيامُ[٥] في غيرِهِ لأنهُ عندَ هجومِ غيرِهِ يَتِمُّ شهودُهُ، ثم يتناقضُ[٦] لأنهُ قالَ: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾، ومحالٌ أنْ يصومَ في غيرِهِ ابتداءً، فرجعَ التأويلُ إلى أنَّ مَنْ ﴿شَهِدَ مِنكُمُ﴾ شيئاً مِن شهرٍ ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾؛ فمَنِ اعترضَ الجنونُ فيهِ فهو ممَّنْ قد تَضَمَّنَهُ الخطابُ، ويجوزُ في حالةِ الفرضِ أيضاً؛ إذ لو شهدَ ليلةَ الصيامِ، فعزمَ على الصيامِ، يجوزُ له [فرضُهُ، فدخلَ][٧] في حقِّ الخطابِ، ثم اعترضَهُ في سائرِ الليالي عذرٌ منعَ النيَّةَ لا عذرٌ منعَ الصيامَ، فيقتضيهِ، إذ هو أصلُ[٨] الحكمِ: الآيةُ التي ذكرْنا والقيامُ[٩] بذلكَ الفرضِ على ما وصَفْنا، ففاتَهُ بِفَوتِ النيَّةِ كمَنْ كانَ فَوتُ لعذرٍ[١٠] المرضِ والسفرِ والحيضِ ونحوِ ذلكَ، بعدَ أنْ عَلِمَ أنهُ ممَّنْ تضمَّنَهُ الآيةُ، فعليهِ قضاؤُهُ.

وعلى ذلكَ في الصبيِّ والكافرِ، لم يدخُلا في معنى الآيةِ، ولا كانا يَحتمِلانِ في حالِ قضاءِ فرضِ الصيامِ، فالقضاءُ في غيرِهِ عنْ ذلكَ لا يعملُ في حقِّ الفرضِ، لذلكِ لم يلزمْ. وقد رُوِيَ عَن محمدٍ ـ رحمَهُ اللهُ ـ على هذا أنَّ مَنْ أدركَ مجنوناً، ثم أفاقَ في بعضِ الشهرِ، إنهُ لا يَقضي مامضى على ما ذكرْتُ. وعنْ أبي حنيفةَ ﷺ [في هذا أنهُ يقضي][١١] إن كانَ في أولِ الشهرِ بالغاً لِما أخبرْتُ أنَّ صيامَهُ لم[١٢] يَجُزْ لعدمِ النيَّةِ، والكافرُ بنفسِهِ، ومَنْ فَوَّتَهُ لعدمِ النيَّةِ فهو داخلٌ في حكمِ فرضِهِ، فعليهِ القضاءُ، واللهُ الموفقُ.

ومَنْ جُنَّ الشهرَ كلَّهُ لا يَقضي بشرطِ الشهودِ، وهو لم يشهدْ شيئاً منهُ مع إمكانِ الإسقاطِ بدليلٍ آخرَ، وإنْ كانَ حقُّ الخطابِ قدِ اقتضاهُ على مثلِ المريضِ الذي لا يصحُّ والمسافرِ الذي لا يقيمُ، واللهُ الموفقُ.

وفي قولِهِ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ دلالةُ أنَّ ابتداءَ الآيةِ في غيرِ صومِ الشهرِ، إذْ صومُ الشهرِ يُحفَظُ بالأهلَّةِ لا بالأيامِ، لكنَّ اللهَ تعالى إذْ علمَ الأمرَ الظاهرَ في الخلْقِ أنهمْ يَعُدُّونَهُ بالأيامِ، وإنْ كانَ لهمْ عنْ ذلكَ غِنىً. وقد رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الشهرُ هكذا وهكذا وهكذا بأصابعِ يديهِ كِلْتَيهما، وعقدَ إصبعاً منها في آخرِ المراتِ» [مسلم: ١٠٨٠]، وجاءَ عنْ غيرِ واحدٍ أنهمْ قالُوا: (ما كنّا نصومُ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ تسعةً وعشرينَ أكثرَ ممّا نصومُ ثلاثينَ) فجائزٌ ذكرُ قولِهِ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني يَعُدُّها[١٣] الخلْقُ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما حرَّمَ عليكمْ مِنْ أنواعِ اللذاتِ بكفِّ الأنفسِ عنِ الذي يدعُو بها إلى الأغذيةِ، أو ﴿تَتَّقُونَ﴾ نِقمةَ اللهِ في الآخرةِ ومخالَفَتَهُ في الفعلِ في الدنيا، وقد جعلَ اللهُ، جلَّ ثناؤُهُ، عباداتِهِ أعواناً للمعتادِينَ بها على الكفِّ عنِ المعاصي والخلافِ للهِ في الشهواتِ، فقالَ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقالَ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وغيرَ ذلكَ، واللهُ الموفقُ.

والأصلُ أنَّ العباداتِ تذكِّرُ أصحابَها عِظَمَ أحوالِهِمْ في أوقاتٍ فيها مِنَ المَقامِ بينَ يدي الجبارِ، وتُطلِعُهُمْ على الموعودِ لهمْ في المَعادِ، وهما أمرانِ عظيمانِ:

أحدُهما: في الزجرِ بما يُعلَمُ مِنْ عِظَمِ المَقامِ واطِّلاعِ الواحدِ القهارِ عليهِ.

والثاني: في الترغيبِ بما يُشعِرُ قلبَهُ مِنْ لذيذِ الموعودِ ما يَضمَحِلُّ لَدَيهِ كلُّ لَذَّةٍ دُونَهُ، وتنقطِعُ شهَواتُهُ التي بينَهُ وبينَ ما وُعِدَ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في ط ع: الأوخاص. (٢) في النسخ الثلاث: كان. (٣) في النسخ الثلاث: يأمروا. (٤) في م: إليه راجعاً. (٥) في الأصل: القيام. (٦) في النسخ الثلاث: يتناقض. (٧) في ط ع: فرصة تدخل. (٨) في النسخ الثلاث: أهل. (٩) من ط ع، في الأصل وم: وللقيام. (١٠) في الأصل: للعذر. (١١) من م، في الأصل: هذا أنه يقضي، ساقطة من ط ع. (١٢) ساقطة من ط ع. (١٣) ساقطة من ط ع.

الآية ١٨٤ ثم قال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ الآيةَ مِنْ غيرِ أنْ ذكرَ فِطراً[1]، فلا أشارَ إلى ما ذكرَ مِنَ السفرِ والمرضِ اللذينِ جعَلَا لهُ تأخيرَ الصيامِ إلى أيامِ أُخرَ، ولا أشارَ إلى أعينِ تلكَ الأيامِ. وكذلكَ قالَ مثلَهُ فيما عرَّفَ الوقتَ لِابتداءِ الصيامِ بقولِهِ ﷻ ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ على إثرِ المعرِّفِ لهُ بقولِهِ ﷻ ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ لكنَّ الفطرَ يُعرَفُ أنهُ مضمَرٌ فيهِ بالعقلِ والسمعِ. فأمّا السمعُ فما جاءَ مِنَ الآثارِ في الإذنِ بالإفطارِ للسفرِ والمرضِ؛ دلَّ أنَّ في ذِكرِ العِدَّةِ مِنْ أيامٍ أخرَ إضمارَ فطرٍ، واللهُ أعلمُ. [وأمّا العقلُ فإنَّ][2] اللهَ تعالى جعلَ المرضَ والسفرَ سَبَبَي الرُّخَصِ، فلا يجوزُ أنْ يَصيرا سَبَبَيْ زيادةِ فرضٍ على ما كانَ قبلَ اعْتِراضِهما. على أنَّ قولَهُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ دليلٌ أنهُ لو كانَ يُلزِمُ القضاءَ معَ فرضِ فعلِ الصومِ لكانَ ذلكَ عُسْراً وحَرَجاً في الدينِ. وعلى ذلكَ قالَ بعضُ الناسِ: يَلزمُهُما القضاءُ: إنْ أفطَرا أوْ لا محتجّاً بما لم يُذكرْ في القرآنِ الإفطارُ، وذَكرَ عدَّةً ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، كأنهُ جعلَ الوقتَ لهما غيرَ الذي هو لغيرِهما. يؤيِّدُ ذلكَ المرويُّ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الصائمُ في السفرِ كالمفطرِ في الحضرِ» [النسائي: ٤/ ١٨٣]. ومعلومٌ أنَّ على المفطِرِ في الحضرِ القضاءَ فكذلكَ الصائمُ في السفرِ.

ولكنَّ الآيةَ عندَنا على الإضمارِ. وعلى ذلكَ يجري ذكرُ [الرُّخَصِ على إثرِ ذكرِ][3] الحَظْرِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ إلى قولِهِ ﷻ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ الآيةَ[4] [البقرة: ١٧٣] مِنْ غيرِ ذِكرِ الأكلِ: أنهُ على إباحتِهِ. وقالَ اللهُ ﷻ ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ثم قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] ولم يذكرْ منهُ الإحلالَ، لكنهُ معلومٌ أنهُ على الشكِّ مالم يوجدْ؛ إذْ لا يكونُ العذرُ سببَ الزيادةِ في الفرضِ. وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ثم قالَ ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ الآيةَ؛ وذلكَ على إطلاقِ الحَلْقِ، ثم يُلزِمُهُ لأنَّ الأذى والمرضَ يَلزمانِهِ، فمِثْلُهُ الأولُ.

ثم الأصلُ أنهُ لا أحدَ يُلزَمُ فرضَ صيامِ الشهرِ في غيرِهِ إذا لم يدرِكِ الشهرَ، وقد أُمِرَ مَنْ نحنُ في ذكرِهِ، فبانَ أنهُ لزمَهُ بإدراكِ الشهرِ لإدراكِ وقتِ الإمكانِ بلا عذرٍ. وقالَ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وقالَ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ لِنعلمَ أنَّ الذي يُلزمُهُ [يُلزِمُهُ][5] بالشهرِ في أوقاتِ الإمكانِ؛ وذلكَ على ما يُلزِمُ الإحداثُ الطهارةَ لأوقاتِ عبادةٍ لا تقومُ دونَها وفعلُ الجناباتِ لأوقاتِ الحلولِ، وإنْ تأخرتْ. فمثلُهُ أمرُ الشهرِ. دليلُهُ ما بيَّنّا وما ثبتَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعنْ صحابتِهِ فعلُ الصيامِ في ذلكَ الوقتِ والفطرُ جميعاً.

ثبتَ أنَّ الصومَ يجوزُ، على أنَّ المرضَ والسفرَ، إذْ هما لأنفسِهِمْ، لا يُناقضانِ الصيامَ بما جازَ مَعَهُما، وقد أُمِرَ بهِ المتمتِّعُ، وهو مسافرٌ، أنْ ليسَ ذلكَ على حاضِري المسجدِ الحرامِ وذابحِ الصيدِ والبادي بهما لا يُضادّانِ الصيامَ. ثم كانَ القضاءُ عنِ الشهرِ بظاهرِ التلاوةِ، فبانَ أنهُ يجوزُ فيهما، وإذا جازَ ثبتَ أنَّ التأخيرَ رخصةٌ، والفضلَ في الفعلِ، واللهُ أعلمُ.

والخبرُ /٢٨ ـ أ/ على مَنْ يُجهِدُهُ الصيامُ حتى خيفَ عليهِ. ما جاءَ من الأثرِ[6]: أنْ «ليسَ مِنَ البِرِّ الصيامُ في السفرِ» [البخاري: ١٩٤٦] واللهُ أعلمُ. وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُ أصحابِنا في المُكْرَهِ على الفطرِ: إنهُ إن كانَ [مريضاً أو][7] مسافراً لا يَسَعُهُ ألَّا يفطرَ لِما جاءَ في ذلكَ مِنَ الوعيدِ في الفعلِ في السفرِ في حالِ الضرورةِ، ويَسَعُهُ لو كانَ صحيحاً مقيماً لِما لم يذكرْ لهُ الرخصةَ، ويَلزَمُهُ فيهِ القضاءُ معَ ما فيهِ، إذْ لم يكنْ ظهرَ الإذنُ في تلكَ الحالِ، كانَ كفُّهُ عنهُ تعظيماً لأمرِ دينِهِ مِنْ غيرِ أن ذكرَ لهُ في الدينِ النهيَ عنهُ، فهو في سَعَةٍ، وليسَ كالمكرَهِ على أكلِ الميتةِ، ماليسَ ذلكَ بذي بدلٍ. وقد فرَّقَ[8] بينَ ذي بدلٍ وما لا بدلَ لهُ نحوَ إتلافِ مالِ آخرَ وأكلِ الميتةِ، ولأنَّ عِلَّتَهُ الإضطرارُ، وليستْ عِلَّتُهُ الفطرَ في السفرِ، تلكَ إذ قد يجوزُ لا لَهُ، فهو عذرُ النفسِ لا ضرورةُ النفسِ، فكأنه غيرُ معقولِ العِلَّةِ، وفيهِ تعظيمُ الدِّينِ، وليسَ في أكلِ الميتةِ وما ذكرَ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

(١) ساقطة من م. (٢) في النسخ الثلاث: والعقل أن. (٣) ساقطة من ط ع. (٤) أدرج في م والأصل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ وهذا القول هو من الآية الثالثة من سورة المائدة وذكرت الآية كاملة في ط ع بدل العبارة إلى قوله. . . الآية. (٥) من ط ع. (٦) في ط ع: الآثار. (٧) من ط ع وم. (٨) ساقطة من ط ع.

ثم السفرُ الذي لهُ الرُّخَصُ أُجمِعَ أنهُ لم يُرَدْ بِهِ المكانُ لِما جاءَ الفطرُ في الأمصارِ، ثبتَ أنهُ لِنفسِ السفرِ. ثم كانَ السفرُ حقيقةَ الظهورِ الخروجَ عنِ الأوطانِ، وقد يكونُ مثلُهُ في الخروجِ إذِ[1] الضياعُ ونحوُهُ، ولم يؤذَنْ في الفطرِ، ثبتَ أنهُ راجعٌ إلى الحَدِّ. وعلى ذلكَ مُتّفَقُ القولِ.

ثم كانَ الحدُّ المرخِّصُ عندَنا الخروجَ على قصدِ سفرِ ثلاثةِ أيامٍ [لِوجوهٍ ثلاثةٍ][2]:

أحدُها: الإجماعُ على أنَّ هذا الحدَّ مرخِّصٌ، ودونَهُ تنازعٌ، والتنازعُ يُوجِبُ الفطرَ لأنَّ الفَتوى بالرُّخَصِ، وذلكَ أمرٌ بفعلِ الصيامِ.

والثاني مجيءُ الخبرِ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: في تقديرِ مسحِ السفرِ بثلاثةِ أيامٍ؛ ومعلومٌ أنهُ جُعِلَ السفرُ حدّاً ووقتاً لفعلِ رخصةِ المسحِ، وأوقاتُ الأفعالِ على اختِلافِها تتّفِقُ على أنها لا تقصُرُ عنِ احتِمالِ [الأفعالِ][3] على الوفاءِ، وليسَ بما لم تَدخُلِ الليالي في حقِّ السفرِ عبرةٌ لأنَّ الأسفارَ، ولو كانتْ مؤسَّسةً على قطعِ الطرقِ والسيرِ فيها، فإنَّ دوامَ السفرِ يُجحِفُ صاحبَهُ، ويُهلِكُهُ، وفي ذلكَ منعُ السفرِ. ثبتَ أنَّ أوقاتَ السعيِ والسيرِ مشتركةٌ داخلةٌ في حقِّ السفرِ؛ لذلكَ صارتِ الليالي كالمعفوّةِ، فتكونُ محيطةً بما فيها مِنْ فعلِ المسحِ.

والثاني: ما جاءَ مِنَ الأثرِ[4] في النهيِ عنْ سفرِ ثلاثةِ أيامٍ إلّا لِمُحْرِمٍ، وهو المَنهِيُّ لما جاءَ بِهِ النهيُ، وفيما دونَهُ تنازعٌ لم يُوجِبِ الرخصةَ للإشكالِ في حقِّ التّمامِ لِما لهُ الرخصةُ على ما كانَ لِما لهُ النهيُ، واللهُ أعلمُ.

والوجهُ الثالثُ: أنَّ السفرَ عذرٌ، والنهاياتُ في الأعذارِ الثلاثةِ[5]، فكذلكَ بالأيامِ، إذْ بها يسافرُ. وقالَ موسى ﷺ ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

وأمّا المرضُ فلم يَجُزْ أنْ يكونَ اسْمُهُ سبباً للرخصةِ؛ إذ ربما كانَ المرضُ يُخفِّفُ الصيامَ، ويسهُلُ عليهِ سبيلَ فعلِهِ، ومِنَ البعيدِ الترخيصُ بما يسهُلُ فيهِ الفعلُ والتضييقُ لِما يشتدُّ، فثبتَ أنهُ ليسَ لِاسْمِ المرضِ. وعلى ذلكَ الإجماعُ؛ فهو، واللهُ أعلمُ، لِما يُخافُ أن يزدادَ لهُ بتركِ الأكلِ الداءُ، [ويقبحُ على المرءِ اكْتِسابُ الداءِ][6] وتعاطي الضاريةِ[7]، فَرُخِّصَ لهُ الفطرُ بذلكَ، وذلكَ معنَى [اليُسْرِ بِهِ][8]؛ إذْ بِهِ تخفيفُ ما بِهِ أو مَنْعُ ما يَعْتَريهِ مِنَ الضررِ. ولهذا ما رَخَّصَ أصحابُنا بِمنْ بِهِ رَمَدٌ، يخافُ الزيادةَ فيهِ، وقد رُوِيَ عنْ أنسِ بن مالكٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «يفطِرُ المريضُ والحُبْلَى إذا خافَتْ أنْ تضعَ ولدَها والمرضِعُ إذا خافتِ الفسادَ على ولدِها» [بنحوه: أبو داوود ٢٣١٨]. ثبتَ أنَّ الرخصةَ لِما يُخافُ مِنْ فسادٍ يَنزِلُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ﷺ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ ماتَ مِنْ طعامٍ أو شرابٍ، وهو يقدرُ، فلهُ النارُ»، وباللهِ المعونةُ.

وقولُهُ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾؛ قالَ قائلونَ: يُطيقُونَ الفداءَ، وذلكَ في الأمرِ الأولِ في المسافرِ والمريضِ أنَّ لهُ أنْ يقضيَ في أيامٍ أُخرَ، وأنْ يفديَ. وفيهِ: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أنْ تقضُوا الصيامَ، واللهُ أعلمُ؛ إذْ قد يَحتمِلُ أيضاً إنْ كانتِ الرخصةُ مِنْ قبلُ فيمَنْ عليهِ بالخِيارِ بينَ أنْ يفديَ وبينَ أنْ يصومَ، والصومُ خيرٌ على ما ذكرَ في الآيةِ. ثم نسخَ ذلكَ؛ إنْ كانَ على التأويلِ الأوّلِ بقولِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ الآيةِ أنهُ ألزمَ القضاءَ على كلِّ حالٍ، وإنْ كانَ الثاني بقولِهِ: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ أنهُ ألزمَ الفعلَ على حالٍ. وبمثلِ ذلكَ خبرُ مُعاذٍ[9] في إحالةِ الصيامِ أنهُ كانَ للمرءِ خيارٌ بينَ الفطرِ والفداءِ، وبينَ الصيامِ، ثم نُسِخَ في قولِهِ: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على إثرِ ذكرِ السفرِ والمرضِ دلالةَ جعلِ الصيامِ في السفرِ خيراً مِنَ الفطرِ والفداءِ في غيرِهِ، وإنِ احْتَمَلَ الذي ذكرْتُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: أن. (٢) في النسخ الثلاث: لخصال ثلاث. (٣) من ط ع وط م، ساقطة من الأصل. (٤) في ط ع: الآثار. (٥) في النسخ الثلاث: الثلاث. (٦) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٧) الضارية: ضَرِيَ يَضرَى، ضَرِيَ النبيذُ يضرَى: إذا اشتدَّ. (٨) في النسخ الثلاث: البشرية. (٩) هو قوله ﷺ: «أُحيل الصومُ ثلاثةَ أحوالٍ» [أحمد: ٥/٢٤٦]، وقد ذُكر في أصل فرضِ الصوم: (ص ١٣١).

ثم الدلالةُ على النسخِ في الوجهِ الذي ذكرتُ مُتّفَقُ القولِ، على أنَّ المطلَقَ[١] لم يكنْ لهُ الخروجُ مِنْ ذلكَ بالفداءِ، فبذلكَ عُرِفَ النسخُ معَ ما ثبتَ مِنْ قطعِ الآيةِ على القضاءِ في أحدِ الوجهَينِ وفعلِ الصيامِ في الآخَرِ. وعلى ذلكَ معتَبرُ القولِ في الشيخِ الفاني الذي لا يقومُ للقضاءِ: أنَّ لهُ الفطرَ والفداءَ لأنَّ الصومَ قد ثبتَ أنهُ يحتملُ الوفاءَ بالفداءِ، لكنْ نُسِخَ بالصيامِ. فإذا ارتفعَ الصيامُ بالعَجْزِ عمَّنْ يَحتملُ الخطابُ بعباراتِ الأموالِ، وهمُ المشايخُ، جازَ أنْ يُخاطَبُوا بالصيامِ ليخرُجُوا عنهُ بالفداءِ. وعلى ذلكَ ما جاءَ في الأثرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ بالأمرِ بالصيامِ عنِ الميتِ أنهُ الصيامُ الذي هو صيامُ مَنْ لا يَحتمِلُ فعلَهُ، وهو الفداءُ، واللهُ أعلمُ.

وقد قُرئَ يُطَوَّقونَه[٢] بمعنى يُكلَّفُونَهُ ولا يُطيقونَهُ. لكنْ في الآيةِ: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ ولو كانَ لا يُطيقُونَهُ: لا يرغبونَ فيهِ إلّا أنْ يُشترطَ فيهِ طاقةُ الجَهدِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ مِنْ زيادةِ فداءٍ وما يستزيدُ مِنَ الخيراتِ، التي لم تعترضْ ليعودَ بهِ الخيرُ أو تطوَّعَ فيما أُذِنَ لهُ في الفداءِ بالصومِ، واللهُ أعلمُ. ورُوِيَ عنْ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا تُسَمُّوا شهرَ رمضانَ رمضانَ فإنما هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، انْسُبُوهُ إلى ما نسبَهُ القرآنُ» [النسائي: ٤/ ١٣٠].

الآية ١٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ أضافَ ﷻ الفعلَ إلى الشهرِ بقولِهِ: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ فلذلكَ إذا قُصِدَ بهِ صومُ الشهرِ جازَ الصومُ، وإنْ لم يُنْوَ الفَرْضُ سِوَى ما ذكرْنا، وكذلكَ سائرُ الفرائضِ نحوُ الظهرِ والعصرِ يُنوَى ذلكَ، فيكونُ ذلكَ على ما جعلَهُ اللهُ مِنْ فرضٍ، وإنْ لم يُنْوَ الفَرْضُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وعلى ذلكَ مَنْ نوَى بالصيامِ غيرَ صيامِ الشهرِ جازَ عن صيامِ الشهرِ، لِما أمرْنا بصيامِ الشهرِ ولم نؤمرْ بأن نجعلَ ذلكَ [الشيءِ سِواهُ، والشهرُ موجودٌ لنفسِهِ، لا يحتاجُ صاحبُهُ إلى أنْ يوجدَهُ، كانَ مِنْ ذلكَ][٣] على كلِّ حالٍ. وكذلكَ كلُّ حقٍّ مُعيَّنٍ في شيءٍ لم يُزِلْ عنهُ نِيَّتَهُ إلى غيرِهِ كمَنْ يأمرُ إنساناً بشراءِ شيءٍ بعينِهِ، لم يتحوَّلْ عنهُ بالنيةِ، [على أنَّ ذلكَ كالظهرِ والعصرِ ونحوِ ذلكَ][٤] فمُحالٌ على تحقيقِ ذلكَ قصدُ غيرِهِ. وبعدُ فإنَّ كلًّا يُجمِعُ ألَّا يجوزَ غيرُهُ، فثبَتَ أنَّ اسْتِحقاقَ الشهرِ بصومِهِ لا يَسْتَحِقُّ عليهِ غيرُهُ مِنَ الصيامِ، فجازَ عنهُ.

وعلى ذلك أجازَ أبو حنيفةَ في السفرِ غيرَهُ مِنْ حيثُ أُذِنَ لهُ في تأخيرِ هذا، أو غيرُهُ فُرِضَ عليهِ نحوُ صومِ الظِّهارِ والقتلِ، ولا رخصةَ لهُ في تأخيرِهِ. فجازَ فيهِ إذْ هو وقتُ صيامِ حُوِّلَ إلى وقتِ غيرِهِ، فصارَ هذا الوقتُ بالحكمِ لغيرِهِ، وليسَ كنيّةِ المتطوِّعِ لأنهُ في موضعِ الرخصةِ، وفي العملِ بهِ قد يكونُ لهُ مقدارُ[٥] التَّطوُّعِ مِنَ الفضلِ على غيرِهِ، فهو أولَى بهِ، ولِما قد يجوزُ النفلُ بلا نِيّةِ نَفْلٍ، فكانَ[٦] لم ينوِ النَّفْلَ، فهو رجلٌ لم يعملْ برخصةِ اللهِ، بل عملَ بوجهِ العزمِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ ﷻ: /٢٨ ـ ب/ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ قيلَ: ﴿تَتَّقُونَ﴾: الأكلَ والشربَ والجماعَ، ويَحتمِلُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ المعاصيَ، لأنَّ النفسَ إذا جاعَتْ شبعَتْ عنْ جميعِ ما تهوَى وتشتهِي، وإذا شبعَتْ تمنَّتِ الشَّهواتِ، وتَمَنَّتْ[٧] ما تهوَى، ويَحتمِلُ: ﴿تَتَّقُونَ﴾ عذابَ اللهِ وعقابَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ ألزمَ بعضُ الناسِ على المريضِ والمسافرِ قضاءَ عدّةِ الأيامِ، وإنْ صامُوا، فاستدلُّوا بهذهِ الآيةِ، فقالُوا: أوجبَ عليهمُ القضاءَ على غيرِ ذكرِ الإفطارِ فيها، واحتجُّوا أيضاً بما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الصائمُ في السفرِ كالمُفطِرِ في الحضرِ» [النسائي: ٤/ ١٨٣]؛ فقد حقَّقَ لهُ حكمَ الإفطارِ في أنْ لا صومَ لهُ، فدلَّ أنهُ لم يُجزِ، فكانَ كتقديمِ الصومِ عنْ وقتِهِ.

وأما عندَنا فهو على إضمارِ الإفطارِ، كأنهُ قالَ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ فأفطرَ ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾،

---

(١) من ط ع وم، في الأصل: المنطق. (٢) انظر المحتسب: ١/ ١١٨. (٣) ساقطة من ط ع. (٤) من ط ع وم. (٥) من م، في الأصل: مقدر، في ط ع: مقدارا. (٦) من ط ع، في الأصل وم: فكأنه. (٧) في النسخ الثلاث: وتمنى.

وهو كما ذكرَ ﷻ في المتأذّي: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكما قالَ في المضطَرِ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ومثلُهُ كثيرٌ في القرآنِ، فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يأتيَ ذلكَ، لأنَّ [للمرضِ والسفرِ أعذاراً][(١)] رُخِّصَ الإفطارُ فيها تخفيفاً وتَوسيعاً على أربابِها. فلو كانَ على ما قالَ هو لكانَ فيهِ تضييقٌ عليهِمْ، ولأنه إذا قضى في عدَّةٍ مِنَ الأيامِ إنما يقضي عَنْ ذلكَ الوقتِ فلو لم يَجُزِ الفعلُ في ذلكَ الوقتِ وفي تلكَ الحالِ لكانَ لا يأمرُ بالقضاءِ عنْ ذلكَ الوقتِ ولا عنْ تلكَ الحالِ، فدلَّ أنهُ على ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وأصلُهُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ صامَ في السفرِ، ورُوِيَ أنهُ أفطرَ، ورُوِيَ عنِ الصحابةِ أنهمْ صامُوا في السفرِ، ولو كانَ لا يجوزُ لكانَ لا معنَى لصومِهِمْ. وأمَّا قولُهُ: «الصائمُ في السفرِ كالمُفطِرِ في الحضرِ» [النسائي: ٤/١٨٣]؛ فهو عندنا، إذا كانَ الصومُ أجهدَهُ، وضَعَّفَهُ، لزمَهُ أنْ يُفطِرَ، صارَ كالذي أفطرَ في الحضرِ، واللهُ أعلمُ، ورُوِيَ عَنْ أنسٍ ﷺ «الصومُ أفضلُ والفطرُ رخصةٌ» [بنحوه معاني الآثار ٢/ ٧٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾؛ قرأ بعضُهُمْ: وعلى الذين يُطَوَّقونَهُ[(٢)] فمعناهُ يُكَلَّفونَهُ، وقالَ بعضُهُمْ: لا يُطيقُونَهُ. لكنَّ هذا لا يُحتمَلُ؛ وذلكَ أنهُ قالَ: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، دلَّ أنَّ قولَهُ: لا يُطيقُونَهُ: لا يُحْتَمَلُ، وقيلَ: كانَ أوَّلَ ما تُرِكَ الصومُ؛ كانَ مَنْ شاءَ صامَ، ومَنْ شاءَ أفطرَ، وأطعمَ مسكيناً كلَّ يومٍ، فلمّا نزلَ صومُ[(٣)] شهرِ رمضانَ نسخَ ما كانَ قبلَهُ عمَّنْ يُطيقُ الصومَ، وأثبتَ[(٤)] الرخصةَ لِمَنْ لا يُطيقُ مِنْ نحوِ الشيخِ الفاني والحُبلَى والمرضعِ إذا خافَتْ على ولدِها.

وقيلَ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي الفديةُ، وقيلَ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ ثم عجزُوا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كلَّ يومٍ، وقيلَ: إنَّ المريضَ والمسافرَ إنْ [شاءا أفطرا، وقَضَيا، وإنْ شاءا][(٥)] أفطرا، وفَدَيا.

لكنَّ ذلك كلَّهُ منسوخ بما ذكرْنا بنزولِ شهرِ رمضانَ؛ ورُوِيَ عنْ أنسٍ ﷺ أنه قالَ: «أحيلَ الصومُ ثلاثةَ أحوالٍ، فمرَّةً يُقضَى، ومرَّةً يُطعَمُ ومرَّةً يُصامُ، ثم نُسِخَ هذا كلُّهُ» [أحمد: ٥/ ٢٤٦][(٦)].

ثم الأصلُ في هذا: أنَّ مَنْ عجزَ عن قضائِهِ جُعِلَ له الخروجُ بالفداءِ، بِعَجْزِهِ عنِ ابْتِدائِهِ مِنْ نحوِ الشيخِ الفاني وغيرِهِ، ومنْ لم يَعجزْ عنْ قضائِهِ لم يُجعَلْ له الخروجُ بالفداءِ مِنْ نحوِ المرضعِ والحبلى والمريضِ والمسافرِ لأنهمْ لم يَعجَزُوا عنْ غيرِ المفروضِ والبدلِ أبداً، إنما يجبُ إذا عجزَ عنْ إتيانِ الأصلِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾؛ يَحتمِلُ زيادةَ الطوافِ، ويَحتمِلُ نفسَ الحجِّ، [ويَحتمِلُ][(٧)] أصلُ التَّطَوُّعِ أنَّ كلَّ ما يُتَطَوَّعُ بِهِ فهو خيرٌ لهُ.

وقولُهُ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ [قيلَ: يهتدُونَ بهِ الطريقَ المستقيمَ، وقيلَ: بيانٌ للناسِ مِنَ الضلالةِ. وقولُهُ: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ قيلَ: حججٌ للناسِ إذا تأمَّلُوهُ، وقيلَ: بيِّناتٌ: أي فيهِ الحلالُ والحرامُ والأحكامُ والشرائعُ][(٨)].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ يفرِّقُ بينَ الحقِّ والباطلِ، وقيلَ: الفرقانُ المُخرِجُ في الدينِ مِنَ الشُّبْهَةِ والضلالةِ. قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ (نزلَ الفرقانُ[(٩)] إلى السماءِ الدنيا مِنَ اللوحِ المحفوظِ جملةً في شهرِ رمضانَ في ليلةِ القدرِ ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] جملةً واحدةً، ثم أُنزِلَ بعدَ ذلكَ على مواقعِ النجومِ رسلاً[(١٠)] رسلاً في الشهورِ والأيامِ على قدرِ الحاجاتِ[(١١)]).

---

(١) في النسخ الثلاث: المرض والسفر أعذار. (٢) انظر المحتسب ١/ ١١٨ . (٣) ساقطة من م. (٤) في النسخ الثلاث: ويثبت. (٥) في الأصل وم: شاء أفطر أو قضيا وإن شاء، في ط ع: شاء أفطرا وقضيا. (٦) أدرج هذا الخبر عن معاذٍ بن جبلٍ في بيان أصلِ الصوم: ص ١٣١ وص١٣٤ .(٧) من ط ع وم، ساقطة في الأصل. (٨) أدرجت في الأصل بعد العبارة: قدر الحاجة، وفي م: قدر الحاجات الواردة بعد تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾. (٩) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (١١) من ط ع، في الأصل وم: الحاجة.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ يحتمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ وهو مقيمٌ صحيحٌ ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾، ثمَّ رُخِّصَ للمريضِ والمسافرِ الإفطارُ بقولِهِ ﷻ ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي شَهِدَ منكم بعقلِهِ ﴿ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فلا يدخلُ في الخطابِ المجانينُ ولا الصبيانُ؛ ألَا ترَى أنَّ أوَّلَ الخطابِ خرجَ للمؤمنينَ[1] بقولِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾؟ فهؤلاءِ لم يدخلُوا فيهِ، فدلَّ أنَّ قولَهُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ أي شهدَ منكم بعقلِهِ ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾.

ثم[2] يَحتملُ أنْ تكونَ فريضةُ[3] الصومِ [بوجوهٍ:

أحدُها][4]: بقولِهِ ﷻ ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾.

والثاني[5]: لا بهذا، ولكنْ بقولِهِ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ إذْ لا يجبُ إكمالُ العدَّةِ لِما مضى إلّا على حقِّ الفرضيةِ.

[والثالثُ: بما][6] قالَ اللهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ بما رخَّصَ للمريضِ والمسافرِ الإفطارَ، ولو كانَ غيرَ فرضٍ لمْ يكنْ لِما ذكرَ مِنَ الامْتِنانِ علينا بالتيسيرِ معنىً؛ لأنَّ المِنَّةَ لا تُذكَرُ فيما لهُ تركُهُ، فدلَّ أنهُ فرضٌ.

والرابعُ[7]: يَحتمِلُ أنْ تكونَ فرضيَّتُهُ بقولِهِ ﷻ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ لأنَّ قولَهُ: ﴿كُتِبَ﴾: قيلَ: فُرِضَ، فدلَّتْ هذه الاياتُ على أنهُ فرضٌ.

ثم[8] اختُلِفَ في قضاءِ ما فاتَ منهُ برخصتِهِ الإفطارَ في السفرِ أو في المرضِ: قالَ بعضُهُمْ: لا يجوزُ إلّا مُتتابعاً، وكذلك رُوِيَ في حرفِ أُبيِّ بنِ كعبٍ في قولِهِ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مُتتابعاتٍ. وأما عندَنا: فإنهُ يجوزُ مُتتابعاً ومُتفرِّقاً اتّباعاً بما رُوِيَ عَنْ خمسةٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أنهمْ قالُوا: (إنْ شاءَ فرَّقَ، وإنْ شاءَ تابعَ)، سِوَى أنَّ عليًّا ﷺ قالَ: (يتابعُ، لكنّه إنْ فرَّقَ جازَ).

ثم [رُوِيَ عنْ][9] عليٍّ وعبدِ اللهِ بن عباسٍ وأبي سعيدٍ الخدريِّ وأبي هريرةَ وآخرَ لستُ أذكرُهُ ﷺ أنهم قالُوا بجوازِ ذلكَ، ولا يُحتمَلُ أنَّ التتابعَ شرطٌ[10] فيهِ، [خَفِيَ ذلكَ][11] على هؤلاءِ، أو تركُوهُ أنْ عرفُوهُ، فدلَّ أنهُ لا يصحُّ ذكرُ التتابعِ شرطاً فيهِ، وليسَ كذكرِ التتابعِ في صومِ كفارةِ اليمينِ في حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ لأنهُ لم يخالفْهُ أحدٌ مِنَ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهمْ أجمعينَ، في ذلكَ، فصارَ كالمتلوِّ، وههنا قد خالفُوا أُبيّاً في حرفِهِ، فلم يَصِرْ كالمتلوِّ، لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلمُ.

وحرفُ[12] أُبيٍّ، إنْ ثبتَ عنهُ، فهو على الإرْبِ لِما ذكرَ مِنْ إجماعِ الصحابةِ ﷺ وبما أنهُ وجبَ بوقتٍ، وكلُّ ذو[13] وقتٍ، فليسَ التتابعُ بشرطٍ فيهِ في غيرِ ذلكَ الوقتِ. ولو كانَ التتابعُ شرطاً لكانَ حقُّ الإفطارِ يُلزِمُ الكُلَّ حتى يكونَ القضاءُ موصولاً [لا مُتفرِّقاً][14]. فأمّا إذا جازَ التفريقُ بينَ بعضٍ، لهُ حكمُ الابْتِداءِ، وبعضٍ لهُ حكمُ القضاءُ جازَ[15] في غيرِهِ مِنَ الإيعاضِ؛ إذ كلُّ ذلكَ لهُ في الابْتِداءِ، جازَ الفعلُ والتركُ، فصارَ حقُّ كلِّ يومٍ في القضاءِ لنفسِهِ لا لِغيرِهِ، إذ كذلكَ حقُّهُ في التركِ القضاءُ، وفي الفعلِ في الابْتِداءِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وما ذُكِرَ مِنَ المسائلِ فهو مَبنيٌّ[16] على هذا الذي ذكَرْتُ: أنَّ التتابعَ للفعلِ لا يَحتمِلُ اعتراضَ رخصةِ التفريقِ على إمكانِ الجمعِ، ثبتَ أنَّ الجمعَ شرطٌ فيهِ. وما نحنُ فيهِ يَحتمِلُ صومَ كلِّ يومٍ على الانْفِرادِ أنْ يؤخِّرَ فعلَهُ في الشهرِ بالرخصةِ عنْ غيرِهِ، كذلكَ القضاءُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: المؤمنين. (٢) وضع محقق ط ع قبل هذه الكلمة العنوان التالي: فرضية الصوم بما؟ (٣) من م، في الأصل وط ع: فرضية. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٦) في النسخ الثلاث: والثاني. (٧) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٨) وضع محقق ط ع قبل هذه الكلمة العنوان التالي: الاختلاف في قضاء رمضان. (٩) في النسخ الثلاث: من. (١٠) في ط ع وم: شرطاً، ساقطة من الأصل. (١١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٢) في النسخ الثلاث: وقراءة. (١٣) في النسخ الثلاث: ذي. (١٤) في النسخ الثلاث: أو الابتداء. (١٥) في النسخ الثلاث: لجاز. (١٦) في النسخ الثلاث: مبنية.

ويعدُ لو كانَ التتابعُ شرطاً لم يكنْ لقولِهِ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وقولِهِ ﷻ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ كبيرُ فائدةٍ، لأنَّ في التتابعِ شرطَ الجملةِ لا أنْ يُكلَّفَ لهُ العددُ. وعلى الرجلِ أنْ يُتِمَّ المدةَ التي للقضاءِ لا أن يحفظَ الحِسابَ لإكمالِ العِدَّةِ، واللهُ أعلمُ/ ٢٩ ـ أ/.

والأصلُ أنَّ كلَّ صومٍ يؤمَرُ بالتتابعِ بحيثُ الفعلِ يكونُ شرطاً فيهِ حيثُ ما كانَ الفعلُ، وكلُّ صومٍ يكونُ التتابعُ فيهِ بحيثُ الوقتُ ففوتُ ذلكَ الوقتِ يُسقِطُ حَقَّ التتابعِ. ولهمْ على هذا مسائلُ:

[الأولى](١): إذا قالَ: للهِ عليَّ أنْ أصومَ شعبانَ فلزمَهُ أن يصومَ مُتتابعاً، لكنهُ إذا فاتَ شيءٌ منه يقضي إنْ شاءَ مُتتابعاً، وإنْ شاءَ مُتفرِّقاً، لأنَّ التتابعَ بحيثُ الوقتُ يسقطُ لسقوطِهِ.

والثانيةُ(٢): لو قالَ: للهِ عليَّ أنْ أصومَ شهراً مُتتابعاً يلزمُهُ أنْ يصومَ مُتتابعاً، لا يخرجُ مِنْ نذرِهِ إلّا بِهِ، لأنَّ التتابعَ ذُكِرَ للصومِ، فهو لا يسقطُ عنهُ أبداً.

[والثالثة](٣): ما قالَ ﷻ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾، واليسرُ رخصةٌ، لم يَجُزْ أنْ يُجعلَ فيهِ ما هو عَسِرٌ وضَيِّقٌ، وهو التتابعُ، واللهُ أعلمُ.

والرابعةُ(٤): في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ دلالةٌ أنهُ إذا صامَ عَنْ غيرِهِ لم يَجُزْ، لأنهُ أضافَ ﷻ الصومَ إلى الشهرِ، وأشارَ إليهِ بقولِهِ ﷻ ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾؛ فلو جازَ [لهُ أنْ](٥) يصومَ عنْ غيرِهِ لكانَ فيه صرفٌ إلى غيرِ ما جعلَهُ اللهُ، وفي ذلكَ خوفُ اعْتِراضٍ لأمرِهِ وإشراكٌ في حكمِهِ، ونسألُ اللهَ العصمةَ مِنَ الزَّيغِ عنِ الحقِّ.

وأمّا قولُهُ ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [فقد](٦) قالتِ المعتزلةُ: مَنْ صامَ في السفرِ أو(٧) في المرضِ فعلَ مالم يُرِدِ اللهُ لأنَّ اللهَ ﷻ أخبرَ أنهُ لم يردِ العُسْرَ، وإنما أرادَ اليُسْرَ. فإذا صامَ في المرضِ أو(٨) في السفرِ أرادَ العُسْرَ، واللهُ تعالى أخبرَ لم يُرِدِ [العُسْرَ](٩)، فدلَّ أنهُ فعلَ ما لم يردِ اللهُ.

لكنَّ الوجهَ عندَنا أنَّ قولَهُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ﴾ معناهُ: أرادَ اللهُ بكمُ ﴿ٱلْيُسْرَ﴾ لمّا رخَّصَ لكمُ الإفطارَ في السفرِ لأنهمْ أجمعُوا على أنَّ الصومَ في السفرِ أفضلُ، والإفطارَ الرخصةُ، ولا جائزٌ أنْ يُقالَ: لم يردِ اللهُ ما هو أفضلُ، وأرادَ ما هو دونَهُ على قولِهِمْ، ولكنْ يُقالُ: أرادَ لِمَنْ أفطرَ اليسرَ، وأرادَ لِمَنْ تركَ الإفطارَ العُسْرَ، وأرادَ بهِ نافذَهُ؛ فلا جائزٌ أنْ يُنَفَّذَ في وجهٍ، [ولا يُنَفَّذَ في وجهٍ](١٠) آخرَ، وقولُهُ ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ أي يريدُ أنْ يُيَسِّرَ عليكمْ بالإذنِ في الفطرِ [لا أن](١١) يُعَسِّرَ عليكمْ بالنهيِ عنهُ. وقد يَحتمِلُ الفعلَ لكنهُ لم يُذكَرْ عن أحدٍ أنَّ اللهَ تعالى أرادَ بهِ اليسرَ، فصامَ. فثبتَ أنَّ الإرادةَ موجِبَةٌ مع ما لا يَحتمِلُ على قولِهِمْ أن يكونَ الصومُ(١٢) في السفرِ غيرَ مرادٍ، وقد قضى بهِ فرضَ اللهِ، وأطاعَ اللهَ فيهِ. والمعتزلةُ يقولونَ بالإرادةِ في كلِّ فعلِ الطاعةِ فضلاً عنِ الفريضةِ.

وقولُهُ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ قيلَ: يعني: تعظِّمُونَ ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، لأمرِ دينِهِ، ويجوزُ أنْ يريدَ بالتعظيمِ الأمرَ بالشكرِ لِما أنعمَ عليهمْ منْ أنواعِ النعمِ منَ التوحيدِ والإسلامِ وغيرِهِ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١٣) ربَّكُمْ بهذِهِ النعمِ التي أنعمَها عليكُمْ. ويَحتمِلُ أنهُ أمرَ بالتعظيمِ لهُ والشكرِ لِما رخَّصَ لهمُ الإفطارَ في السفرِ والمرضِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ هو على الإضمارِ، واللهُ أعلمُ؛ كأنه قالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ أينَ أنا؟ عنْ إجابتِهم فقلْ لهمْ: إني قريبٌ. ويَحتمِلُ قولُهُ ﴿قَرِيبٌ﴾ وجوهاً: يَحتمِلُ الإحسانَ والبرَّ والكرامةَ، لِمنْ أطاعَني، ويَحتمِلُ أني ﴿قَرِيبٌ﴾ قربَ العلمِ والإجابةِ لا قربَ المكانِ والذاتِ كَقُرْبِ بعضِهِمْ منْ بعضٍ في المكانِ؛ لأنهُ كانَ، ولا مكانَ، ويكونُ على ما كانَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآيةَ(١٤)

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) في النسخ الثلاث: و. (٣) في النسخ الثلاث: والثاني. (٤) في النسخ الثلاث: ثم. (٥) في النسخ الثلاث: لأن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من ط ع، في الأصل وم: و. (٨) من ط ع، في الاصل وم: و. (٩) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) في الأصل: لأن. (١٢) في النسخ الثلاث: الصائم. (١٣) أدرج في ط ع بعد الآية: أي. (١٤) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة.

[المجادلة: ٧]، وكقولِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، [وكقولِهِ][1]: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]. كلُّ ذلكَ يَرجِعُ إلى قربِ العلمِ والإحاطةِ وارتفاعِ الجهاتِ لا قربِ الذاتِ على ما ذكَرْنا.

وإن كانتِ القصةُ على ما قالَهُ بعضُ أهلِ التفسيرِ بأنَّ اليهودَ قالُوا: كيفَ يسمعُ ربُّكَ دعاءَنا؟[2] وأنتَ تزعمُ أنَّ بينَنا وبينَ السماءِ مَسيرةَ خمسِمئةِ عامٍ، وأنَّ غِلَظَ كلِّ سماءٍ مَسيرةُ خمسِمئةِ عامٍ، فنزلَ قولُهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، هذا لِما [لم][3] يعرفُوا الصانعَ، ألا تَراهم جعلُوا لهُ الولدَ، وجعلُوا لهُ شركاءَ؟ فخرجَ سؤالُهُمْ، إنْ كانَ، مَخرجَ سؤالِ التعنُّتِ لا سؤالِ المُسترشِدِ.

وقولُهُ: ﴿أُجِيبُ﴾ أي أقبلُ ﴿دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ يعني توحيدَ المُوَحِّدِ ﴿إِذَا دَعَانِ﴾. وكذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] (أي وحِّدُوني أغفِرْ لكمْ) وقيلَ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ على حقيقةِ الإجابةِ.

وقولُهُ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي إلى ما دَعَوْتُهُمْ، ويَحتمِلُ على ما ذكرْنا في قولِهِ: ﴿أُجِيبُ﴾ لكمْ إذا استجبْتُمْ لي بالطاعةِ والائتِمارِ، ويحتمِلُ ﴿أُجِيبُ﴾ لكمْ إذا أخلَصْتُمُ الدعاءَ لي، ويَحتمِلُ على ابتِداءِ الأمرِ بالتوحيدِ؛ كأنهُ قالَ: وَحِّدُوني. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إذا فعلُوا ذلكَ؟

الآية ١٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ سمَّاهُ ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾: الليلُ مضافٌ إلى يومِهِ؛ كأنهُ قالَ: ليلةَ يومِ الصومِ، وإنْ لم يكنْ فيها صومٌ في الحقيقةِ لِانتِظامِ الصيامِ فيها بالنهارِ، على ما جاءَ عن رسولِ اللهِ ﷺ إذ قالَ: «مُنتظِرُ الصلاةِ ما دامَ يَنتظِرُ فهو في الصلاةِ» [بنحوه مسلم ٦٤٩/ ٢٧٤ المساجد]، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أضافَ الصومَ إلى الشهرِ، يدخلُ فيهِ الليلُ والنهارُ، لأنَّ اسْمَ الشهرِ يجمعُ الليلَ والنهارَ جميعاً.

وقولُهُ: ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾؛ قيلَ: ﴿الرَّفَثُ﴾ الجماعُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، وقيلَ: ﴿الرَّفَثُ﴾ هو حاجاتُ الرجالِ إلى النساءِ مِنْ نحوِ الجِماعِ والمَسِّ والتقبيلِ وغيرِهِ.

وقولُهُ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾؛ قيلَ: هنَّ سَتْرٌ لكمْ عمّا لا يَحِلُّ، وأنتمْ سَتْرٌ لهنَّ أيضاً؛ يَعِفُّ الرجلُ بالمرأةِ، والمرأةُ بالرجلِ، وقيلَ: [﴿هُنَّ﴾][4] سكَنٌ لكمْ ﴿وَأَنتُمْ﴾ سكَنٌ لهنَّ؛ يَسْكُنُ الزوجُ بالزوجةِ والزوجةُ بالزوجِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠] أي سَكَناً. [وكقولِهِ][5]: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [غافر: ٦١]، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ أحدُهما لِباسَ الآخرِ بالليالي، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: ﴿تَخْتَانُونَ﴾ وتخونونَ واحدٌ؛ قيلَ: نزلتِ الآيةُ في شأنِ عمرَ رضي الله عنه وذلكَ أنَّ الناسَ إذا صامُوا، ثم نامَ أحدٌ منهم، حُرِّمَ عليهِ الطعامُ والجماعُ حتى يُفطِرَ مِنَ الغدِ، فواقعَ عمرُ رضي الله عنه امرأتَهُ يوماً بعدَ ما نامَ، أو نامتْ، فغدا [إلى][6] رسولِ اللهِ ﷺ فأخبرَهُ بذلكَ، فنزلَ قولُهُ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تظلِمُونَ لأنَّ كلَّ خائنٍ ظالمٌ نفسَهُ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ فتابَ اللهُ عليهِ، وعفا عنهُ، ثم رخَّصَ لهمُ المباشرةَ بقولِهِ: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ على الرخصةِ، هو على الإباحةِ لا على الأمرِ بهِ.

وقولُهُ: ﴿وَابْتَغُوا﴾ أي اتَّبِعوا[7] ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مِنَ الوَلَدِ، وقيلَ: ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مِنْ ليلةِ القدرِ، وما فيهِ مِنْ نزولِ الرحمةِ، وقيلَ: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مِنَ الرخصةِ والإباحةِ في الجماعِ في ليةِ الصيامِ، والأكلِ بعدَ النومِ، وهو كما جاءَ: «مَنْ لم يقبلْ رُخصَنا كما يقبلُ عزائِمَنا فليسَ مِنّا» [بنحوه الطبراني في الكبير ١١٨٨٠].

وقولُهُ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾. ذُكِرَ عن عَدِيِّ بنِ حاتمٍ أنهُ قالَ: «كنتُ

---

(١) من ط ع. (٢) من م، في الأصل: دعا، في ط ع: دعانا. (٣) من م وط ع. (٤) من ط ع. (٥) في الأصل وم: و، ساقطة من ط ع. (٦) من م وط ع، ساقطة من الأصل. (٧) من ط ع، في الأصل وم: ابتغوا.

أضعُ خيطيْنِ تحتَ وسادَتي بعدَ نزولِ هذهِ الآيةِ، أحدُهما أبيضُ، والآخرُ أسودُ، فكنْتُ أنظرُ فيه متى ما تبيَّنَ لي إلى أنْ أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فأخبرْتُهُ» فقالَ: «إنَّ وسادتَكَ لَعَريضٌ» [البخاري: ٤٥١١] يعني أنَّ الفجرَ هو المعترضُ في الأفقِ. ورُوِيَ عنْ رسول اللهِ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: «لا يَغُرَّنَّكُمُ الفجرُ المستطيلُ إنما الفجرُ المستطيرُ في الأفقِ» [الترمذي: ٧٠٦]، ورُوِيَ أنهُ قالَ: «الفجرُ فجرانِ: فجرٌ مستطيلٌ في السماءِ وفجرٌ مستطيرٌ في الأفقِ، فهو الذي يُحرِّمُ الطعامَ على الصائمِ ويُحِلُّ الصلاةَ» [الدارقطني: ١٠٤١] ورُوِيَ أنهُ قالَ: «لا يَغُرَّنَّكُمْ أذانُ بلالٍ؛ فإنهُ إنما يؤذِّنُ بالليلِ ليُوقِظَ نائمَكُمْ، ويُرْجِعَ قائمَكُمْ» [البخاري: ٥٢٩٨]، وفي بعضِ الأخبارِ قالَ: «لا يَغُرَّنَّكُمْ أذانُ بلالٍ عنْ سُحورِكُمْ[2]؛ فإنهُ إنما يؤذِّنُ بليلٍ» [البخاري: ٥٢٩٨] أو كلامٌ نحوُ هذا.

والأصلُ في هذا: أنَّ اللهَ ﷻ جعلَ حدَّ الصيامِ مِنْ وقتِ تبيُّنِ وقتِ النهارِ إلى وقتِ غَيبوبةِ الشمسِ: [الإمتناعَ عنِ][3]: الطعامِ والشرابِ والجِماعِ تحقيقاً منهُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾، [وقدِ اختلَفَ أهلُ التأويلِ في معنى المباشرةِ؛][4] قيلَ المباشرةُ عَنَى [اللهُ بِهِ الجِماعَ وما دونَ الجِماعِ][5]، فإنما/ ٢٩ ـ ب/ نُهُوا عنها، وقيلَ: المباشرةُ كنايةُ عنِ الجِماعِ.

ثم قولُهُ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ فيهِ أدلةٌ مِنْ أوجهٍ: الآيةُ كأنها نزلَتْ في [ما][6] بُلُوا بها، لا أنْ كانُوا يباشِرونَ نساءَهُمْ في المساجدِ لأنَّ المساجدَ كانَتْ أجلَّ عندَهم مِنْ أن يجعلُوها مكاناً لِوَطْءِ النساءِ. ولكنَّهُ، واللهُ أعلمُ: أنِ الإعْتِكافُ: هو اللَّبْثُ في مكانٍ يأخذُ الحقَّ في نفْسِهِ عندَ عكوفِهِ المسجدَ وخروجِهِ منهِ، فذكرَ أنَّ العكوفَ نفسَهُ يُحَرِّمُ الجِماعَ في الأحوالِ كلِّها، ليسَ كالصومِ يحرِّمُ حالاً دونَ حالٍ في الوقتِ الذي لم يكونُوا فيها ليعلَمُوا أنَّ حكمَ المُقَامِ في المَساجدِ أخذُ لهمْ، وليسُوا هُمْ فيها. ولو لم يكنْ شرطاً في ذلكَ لكانَ قولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ﴾ كافياً إذْ لم يكونُوا في المساجدِ وقْتَ لحوقِ النهيِ للمباشرةِ[7]، واللهُ أعلمُ.

وفيه دليلٌ أنَّ الاعتكافَ لا يكونُ إلّا في المسجدِ حيثُ خصَّ المساجدَ دونَ غيرِها منَ الأمكنةِ، وفيه دليلٌ أنَّ المعتكفَ قد يخرجُ مِنْ مُعتكَفِهِ، لكنهُ لا يخرجُ إلّا لِما لا بدَّ منه على ما جاءَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ كانَ لا يخرجُ إلّا لحاجةِ إنسانٍ» [البخاري: ٢٠٢٩]. وحاجةُ الإنسانِ تَحتمِلُ وجهَيْنِ: تَحتمِلُ لِما يرفعُ إليهِ مِنَ الحوائجِ، وتَحتمِلُ حاجةَ الإنسانِ، الحاجةَ المعروفةَ التي لا يُحتمَلُ قضاؤُها في المسجدِ.

ثم الضرورةُ تقعُ بالخروجِ في العكوفِ بوجهَيْنِ: مرَّةً في نفسِهِ، ومرةً في أفعالٍ يَكتسِبُها. وبهذا يقولُ أصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ تعالى، في فرضيةِ الخروجِ إلى الجُمَعِ لأنَّ مَنِ اعتكفَ على ألّا يشهدَ الجمعةَ لا يُؤذَنُ لهُ في ذلكَ لِما لا جائزٌ أنْ يؤذَنَ بإيجابِ قُربةٍ، هي ليسَتْ عليهِ بِتضييعِ أُخرَى، هي عليهِ، لذلكَ كانَ ما ذكرْنا. فإنْ قيلَ: رُوِيَ أنهُ كانَ لاتّباعِ الجنازةِ وعيادةِ المريضِ، قيلَ: إنْ ثبتَ هذا، فهو إذ خرجَ لوجهِ إذْنٍ بالخروجِ، فخرجَ، ثم عادَ مريضاً، أو شهدَ جنازةً، وذلك جائزٌ، ولو كانَ يُؤذَنُ لذلكَ لكانَ[8] يُؤذَنُ لكلِّ قُربةٍ، إذِ الجنازةُ إذا شيَّعَها الكافي سقطَ فرضُ التشييعِ، فإذنْ[9] لم يُؤذَنْ في غيرِ هذا، وهذا مثلُ ذلكَ أو دونَهُ مِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ، وفي ذلكَ دليلٌ أنَّ الخبرَ على ما بيَّنْتُ، واللهُ أعلمُ.

ورُوِيَ عنْ عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: (مِنَ السنةِ ألّا يخرجَ المعتِكفُ مِنْ معتكَفِهِ) دلَّ هذا مِنْ عائشةَ ﵂ أنَّ خبرَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﵁ على ما ذكرْنا، إنْ ثبتَ. وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ دليلٌ أنَّ الإعْتِكافَ يكونُ في جميعِ المساجدِ لأنهُ عمَّ المساجدَ. وما رُوِيَ: أنْ لا اعْتِكافَ إلّا في المسجدِ الحرامِ، إنْ ثبتَ، فهو على التناسخِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ اعْتَكفَ في مسجدِ المدينةِ، فدلَّ فعلُهُ أنهُ منسوخٌ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط ع. (٢) من ط ع، في الأصل وم: سحركم. (٣) في ط ع: إلى وقت تبين النهار، ساقطة من الأصل وم. (٤) من ط ع، في الأصل وم: اختلف في المباشرة. (٥) من ط ع، في الأصل: به الجماع، في م: به الجماع وما دون الجماع. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) من م وط ع، في الأصل: المباشرة. (٨) في النسخ الثلاث: لمكان. (٩) في النسخ الثلاث: فإذا.

وقولُهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ قيلَ: ﴿تِلْكَ﴾ المباشرةُ معصيةٌ ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ في الاعتِكافِ، فحدُّ الأمرِ ألّا تقربُوها، وقيلَ: إنه جعلَ لكلِّ طاعةٍ وأمرٍ ونهيٍ حدّاً وغايةً، فلا يُجاوَزُ، ولا يُقصَّرُ عنهُ، وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ فرائضُ اللهِ، وقيلَ: ﴿تِلْكَ﴾ سُنَنُ اللهِ، وكانَ الأوَّلُ أقربَ.

الآية ١٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾؛ قيلَ: لا تأكُلوا أموالَكُم بينَكُم بالباطلِ، ولا تُدلُوا بها إلى الحكامِ، [وفي قراءةِ][1] أبيٍّ: فلا تُدلوا بها إلى الحكام وجهانِ[2]:

[أحدُهما][3]: على إضمارِ: لا كقولِهِ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢] أي ولا تكتمُوا الحقَّ.

[والثاني على إظهار: لا][4]: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ بما تَلْبِسُوا على الحكامِ، وتقيمُوا على ذلكَ حُججاً باطلةً، على ما جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّكُمْ تختصِمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكُم ألحنُ بحجَّتِهِ مِنْ بعضٍ، فمَنْ قضيْتُ لهُ بحقِّ أخيهِ المسلمِ فكأنما قضيْتُ لهُ بقطعةٍ مِنَ النارِ» [البخاري: ٢٦٨٠].

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ جعلَ مالَ أخيهِ كمالِهِ ونفسَ أخيهِ كنفسِهِ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]؛ فإذا أكلَ مالَ أخيهِ بالباطلِ لزمَهُ مثلُهُ؛ جُعِلَ كآكلِ مالِهِ بباطلٍ، وجُعِلَ قتلُ نفسِ أخيهِ بالباطلِ كقتلِ نفسِهِ، لأنهُ إذا قتلَهُ بباطلٍ قُتِلَ بهِ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ استدلَّ بهذا على أبي حنيفةَ ﷺ فيما يقولُ: يمضي العقدَ إذا شهدَ الشهودُ على ذلكَ عندَ الحاكمِ، وقضى بهِ، ثم ظهرَ أنَّ الشهودَ شهودُ زُورٍ حينَ قالَ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾، وما رُوِيَ مِنَ الوعيدِ للآخذِ مكانَ ما أَخذَ قطعةً مِنْ نارٍ، فإذا لم يَحِلَّ ذلكَ لم يُمضَ العقدُ.

غيرَ أنَّ الأصلَ في كلِّ مالٍ اجتمعَ الخصمانِ على ذلكَ بسببٍ جعلِ ذلكَ لهما، فإذا قضى الحاكمُ بذلكَ السببِ نَفَذَ.

وقولُهُ: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: يعني طائفةً منْ أموالِ الناسِ.

الآية ١٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾؛ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي سألوكَ ﴿عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾، ويَحتمِلُ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ مِنْ بعدِ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ دليلُ رسالتِهِ لأنهُ كانَ كما أخبرَ مِنَ السؤالِ عنِ الأهلةِ، واللهُ أعلمُ، هو أنهمْ لَمّا رأَوُا الشمسَ تطلُعُ دائماً على حالةٍ واحدةٍ، ورأَوُا القمرَ مختلِفَ الأحوالِ مِنَ الزيادةِ والنقصانِ، فَحَمَلَهُمْ ذلكَ على السؤالِ عنْ حالِ القمرِ، فأخبرَ ﷻ أنهُ جعلَ الهلالَ معرِّفاً للخَلْقِ الأوقاتَ والآجالَ والمددَ ومعرفةَ وقتِ الحجِّ لأنهُ لو جعلَ معرفةَ ذلكَ بالأيامِ لاشتدَّ حسابُ ذلكَ عليهِمْ، ولتعذَّرَتْ[5] معرفةُ السنينَ والأوقاتِ بالأيامِ، فجعلَ ﷻ بلطفِهِ وبرحمتِهِ الأهِلَّةَ ليعرفُوا بذلكَ الأوقاتَ والآجالَ، ويعرفُوا وقتَ الحجِّ ووقتَ الزكاةِ طلباً للتخفيفِ والتيسيرِ عليهِمْ.

ثم قالَ: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ جعلَ الأهِلَّةَ كلَّها وقتاً للحجِّ. ولهذا ما قالَ أصحابُنا: إنهُ يجوزُ الإحرامُ في الأوقاتِ كلِّها على ما يجوزُ بقاءُ الإحرامِ في الأوقاتِ كلِّها. وأمّا أفعالُ الحجِّ فإنها لا تجوزُ إلّا في وقتِ فعلِ الحجِّ، وهو قولُهُ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] فإنما هي على أفعالِ فيهِ؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ ولا[6] تُفرضُ مِنَ الحجِّ في غيرِ الإحرامِ. دلَّ أنه عنى به أفعالَ الحجِّ. وقد جاءَ أنهُ سَمّى الإحرامَ على الانفرادِ حجّاً، وسمّى[7] الطوافَ بالبيتِ حجّاً، وقالَ: «الحجُّ عرفةُ» [الترمذي: ٨٨٩]، وسمّى الذبحَ حجّاً حيث قالَ: «أفضلُ الحجِّ العَجُّ بهِ والثَّجُّ»[8] [الترمذي: ٨٢٧]؛ وإنما سَمّى كلّاً منها حجّاً لِما جعلَها أوقاتاً معلومةً يؤدّى فيها. وأمّا الإحرامُ فإنهُ جعلَ الأشهرَ كلَّها وقتاً لهُ بقولِهِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

---

(١) في النسخ الثلاث: وقراءةُ. (٢) انظر تفسير الطبري: ٥/ ٥٥٢ . (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) في النسخ الثلاث: وقيل. (٥) في النسخ الثلاث: ولتعذر. (٦) من م وط ع، في الأصل: فلا. (٧) الواو ساقطة من النسخ الثلاث. (٨) العَجُّ: رفعُ الصوتِ بالتلبيةِ، والثجُّ: سيلان دم الهدي.

وقولُهُ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ لا معنى لعطفِ هذا على الأولِ إلّا على إضمارِ[1] السؤالِ؛ كأنهمْ سألوهُ عنِ الأهلّةِ وعنْ إتيانِ البيوتِ منْ ظهورِها، فأخبرَ أنْ ليسَ البِرُّ في إتيانِ البيوتِ مِنْ ظهورِها، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾. ثم اختُلِفَ في قصةِ هذا الكلامِ.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ بعضَ العربِ إذا أحرمَ أحدُهُمْ لم يدخلْ بيتَهُ مِنْ بابِهِ، ولكنْ يدخلُ مِنْ ظهرِ البيتِ مخافةَ تغطيةِ الرأسِ إذا دخلَ مِنْ بابِهِ، وقيلَ: إنَّ بعضَ العربِ إذا خرجَ أحدُهُمْ لحاجةٍ، ولم[2] يقضِ حاجتَهُ، فرجَعَ، لم يدخلِ البيتَ مِنْ بابِهِ، ولكنْ يدخلُ مِنْ وراءِ ظهرِهِ، يَكرَهُ دخولَ بيتٍ غيرَ مُنْجحٍ، يَتَطَيَّرُونَ بهِ، ويتفاءَلُونَ بقضائها ثانياً. فقالَ اللهُ ﷻ ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ فيما[3] تصنعُونَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ واتَّبعَ أمرَ اللهِ، وانْتهى عما نُهِيَ عنهُ، ويأتي البيوتَ مِنْ أبوابِها، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ على التمثيلِ والرمزِ، ليسَ على التحقيقِ كقولِهِ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وكقولِهِ: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١] فهو ليسَ على حقيقةِ الطرحِ، ولكنْ كانُوا لا يسمعُونَ كلامَ اللهِ، ولا يعبَؤونَ بهِ، وكذلكَ كلامُ رسولِ اللهِ ﷺ لا يسمعُونَهُ، ولا يكترثُونَ لهُ[4]، فأخبرَ أنه كالمنبوذِ والمَطْروحِ وراءَ الظهرِ لِما لم يعملُوا[5] بهِ. فعلى ذلكَ الأولُ: أخبرَ أنْ ليسَ البرُّ في تركِ اتّباعِ محمدٍ ﷺ والائتِمارِ بأمرِهِ؛ ليسَ فعلُ البرِّ مخالفةَ محمدٍ ﷺ ولكنَّ البرَّ في الاتِّباعِ لهُ / ٣٠ ـ أ/ والائتِمارِ بأمرِهِ.

وقالَ القرامطةُ: إنَّ المرادَ مِنَ الأبوابِ هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﵁ والبيوتِ هو رسولُ اللهِ ﷺ؛ أُمِرُوا بإتيانِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ عندِ عليٍّ ﵁ على ما جاءَ أنهُ قالَ: «أنا مدينةُ العلمِ، وعليٌّ بابُها، فمَنْ أرادَ الدخولَ في البيتِ لا بدَّ منْ أنْ يأتيَ البابَ، فيدخلَ مِنَ البابِ» [الحاكم في المستدرك: ٣/ ١٢٦]. لكنَّ الجوابَ لقولِهِمْ على قَدْرِ ما تأوَّلوا ذكرَ البيوتِ وذكرَ الأبوابِ أيضاً، والبيوتُ كثيرةٌ، والأبوابُ كذلكَ أيضاً؛ فعليٌّ وغيرُهُ مِنَ الصحابةِ مِنْ نحوِ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ ﵃ فيهِ شَرْعٌ سواءٌ. ألَا تَرى أنهُ قالَ: (أنا مدينةُ الحكمةِ)، والمدينةُ لا يُعرفُ لها بابٌ واحدٌ، بل يكونُ لها أبوابٌ؟ فدلَّ أنَّ تأويلَهُمْ في عليٍّ ﵁ خاصّةً، لا يَصِحُّ، وباللهِ العصمةُ.

وقولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اتقُوا اللهَ، ولا تعصُوهُ، ولا تتركُوا أمرَهُ، وانْتَهُوا عنْ مناهِيهِ.

الآية ١٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾؛ سبيلُ اللهِ هو دينُهُ وطاعتُهُ، أي في إظهارِ دينِهِ. قيلَ: هي أولُ آيةٍ نزلَتْ في الأمرِ بالقتالِ، وقيلَ: أوّلُ آيةٍ نزلتْ في الأمرِ بالقتالِ قولُهُ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، ويَحتمِلُ أنهُ أخبرَ: كأنهمْ نُهُوا أولاً، ثم أُذِنَ لهمْ، فقاتَلُوا، فأنْكِرَ عليهِمْ، فأنزلَ اللهُ أنهُ أذِنَ لهمْ إخباراً، فلا يُدرَى أيُّهما أوّلُ؟ ولكنَّ فيهِ الأمرَ بالقتالِ والنهيَ عنِ الاعْتِداءِ ههنا؟ وقيلَ[6]: هو نهيٌ عن قتلِ الذَّراري والنساءِ والشيخِ الفاني على ما جاءَ أنهُ بعثَ سَرِيَّةً: أوصَى لهمْ ألّا يقتلُوا وليداً ولا شيخاً، وقيلَ: نهاهُمْ أنْ يقاتِلُوا[7] في الشهرِ الحرامِ إلّا أنْ يبدَأَهُمُ المشركونَ بالقتالِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ إنَّ اللهَ لا يحبُّ الاعْتِداءَ، ولم يحبَّ مَنِ اعْتَدى.

الآية ١٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ قيلَ: لفظُ: حيثُ[8] يعبِّرُ عنِ المكانِ، ففيهِ إذْنٌ بقتلِهِمْ في جميعِ الأمكنةِ، وفي تعميمِ الأمكنةِ تعميمُ الأوقاتِ، فهو على عمومِ المكانِ إلّا فيما استُثْنِيَ منَ المسجدِ الحرامِ مُطلَقاً. وأمّا قولُهُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] فالاستِثْناءُ فيهِ مُقيَّدٌ، فلا يخرجُ عنْ ذلكَ العامِّ، واللهُ أعلمُ. ثم منهمْ منْ جعلَ لهمُ القتالَ في الحرمِ وفي أشهرِ الحجِّ بظاهرِ هذه الآيةِ، ومنهمْ منْ قالَ: لا يُقتَلُ فيهما جميعاً.

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: الإضمار. (٢) من ط ع، في الأصل وم: فلم. (٣) من ط ع وم، في الأصل: مما. (٤) في النسخ الثلاث: إليه، والصواب ما أثبت لأن فعل اكترثَ يُعدّى بالباء واللام ولا يُعدّى بـ إلى، انظر اللسان. (٥) من ط ع، في الأصل وم: يعلموا. (٦) من ط ع، في الأصل وم: قيل. (٧) من ط ع، في الأصل وم: يقاتلوهم. (٨) من ط ع، في الأصل وم: الحيث.

وقالَ أصحابُنا، رحمهمُ اللهُ تعالى: نُقاتِلُ[1] في الأشهرِ الحُرُمِ، ولا نُقاتِلُ[2] في الحَرَمِ إلّا أنْ [يَبْدَأَ العَدُوُّ][3] بالقتالِ، فحينئذٍ نُقاتِلُ[4]. وكذلكَ يقولونَ في مَنْ قتلَ آخرَ، ثم التجأَ إلى الحَرَمِ: لم يُقتَلْ فيهِ، ولكنْ لا يُؤاكَلُ، ولا يُشارَبُ، ولا يُجالَسُ حتى يُضطَرَّ، فيخرُجَ، فيُقتَلَ، وإذا قتلَ في الحَرَمِ يُقتَلُ. فعلى ذلكَ لا يُقاتَلُ في الحرمِ إلّا أنْ [يَبْدَأَ العَدُوُّ][5] بالقتالِ، فعند ذلك يحِلُّ القتالُ[6]. وإنما لم يحِلَّ القتالُ في الحَرَمِ إلّا أنْ [يَبْدَأَ العَدُوُّ][7] بهِ، وإنْ كانَ[8] ظاهرُ قولِهِ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يُبيحُ القتلَ في الأمكنةِ كلِّها، بقولِهِ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ استثنى الحرَمَ دونَ غيرِهِ منَ الأماكنِ. وأمّا قولُهُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ ظاهرُ هذهِ الآيةِ يحرِّمُ القتالَ في أشهرِ الحجِّ، لكنَّ فيهِ دليلَ حِلِّ القتالِ بقولِهِ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] يعني بالفتنةِ الشركَ؛ جعلَ القتلَ فيهِ كبيراً، ثم أخبرَ أنَّ الشِّرْكَ فيهِ أكبرُ وأعظمُ منَ القتلِ.

فالأصلُ عندنا أنَّ الابتِلاءَ، إذا كانَ، منْ وجهَينِ: يُختارُ الأيسرُ منهُما والأخفُّ؛ فلذلكَ قُلْنا: إنَّه يُختارُ القتلُ في الحرمِ على بقاءِ الفتنةِ، وهو الشركُ، إذ هو أكبرُ وأعظمُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾؛ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَخْرِجُوهُم﴾ مِن مكةَ كما أخرجُوكُمْ عامَ الحديبيةِ، ويَحتمِلُ أنْ أمرَهُمْ بأنْ يُضيِّقُوا عليهِمْ، ويَضطَروهُمْ إلى الخروجِ كما فعلَ أهلُ مكةَ بهِمْ، ويَحتمِلُ الإخراجُ على ما جاءَ: «ألا لا يَحُجَّنَّ مشركٌ بعدَ عامي هذا» [البخاري: ٣٦٩]، ويَحتمِلُ أنْ يمنعُوهُمْ عنِ الدخولِ فيه. كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وكقولِهِ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]: المنعُ عنِ الشِّركِ إخراجاً.

وقولُهُ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي الشِّرْكُ أعظمُ جُرْماً عندَ اللهِ منَ القتلِ فيهِ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ كما ذكرْنا أنَّ هذا وقولَهُ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١ والنساء: ٨٩] كلَّهُ يُخرَّجُ على المُجازاةِ لهمْ. وفيه لغةٌ أخرى: ولا تقتُلُوهُمْ[9] عندَ المسجدِ الحرام حتى يَقتلوكُمْ فيه. فإنْ قتلوكم فاقتلوهُمْ. [قيلَ][10]: فإن قَتَلونا، لا سبيلَ لنا أنْ نقتلَهُمْ، فمَا معنى هذا؟ قيلَ: يَحتمِلُ قولُهُ: ولا تَقتلوهُمْ عندَ المسجدِ الحرام حتى يَقْتُلوكُمْ. أي إذا قتلُوا واحداً منكُمْ فحينئذٍ تَقتلونَهُمْ، أو لا تقتلُوهُمْ حتى يبدَؤُوا هُمْ[11] بقتلِكُمْ، أو أنْ يقولَ: لا تقتُلُوهُمْ حتى يقتُلُوا بعضَكمْ، فإذا فعلُوا ذلكَ فحينئذٍ تقتلونَهُمْ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هكذا جزاءُ منْ لم يقبلْ نعمَ اللهِ، ولم يستقبلْها بالشكرِ، ويَحتملُ ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ﴾ مَنْ بدأ بالقتالِ في الحَرَمِ أنْ يُقتَلَ.

الآية ١٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَحتملُ وجهَينِ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عنِ الشركِ، وأسلمُوا يتغمَّدُهُمُ اللهُ برحمتِهِ، ويَحتملُ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عنْ بدءِ القتالِ، وأسلَمُوا فإنَّ اللهَ يرحمُهُمْ، ويغفرُ ذنوبَهُمْ.

الآية ١٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ إنما أمرَنا بالقتالِ معَ الكفرةِ ليُسلموا، فإنْ قيلَ: إيش الحكمةُ في قتلِ الكفرةِ، وهو في الظاهرِ غيرُ مستحسَنٍ في العقلِ؟ قيلَ: إنّا نقاتِلُهُمْ[12] لِيُسلِموا، ولا نقتلُهُمْ إلّا أنْ يَأبَوا[13] الإسلامَ، فإذا أبَوا ذلكَ، ثم لم نقتلْهُمْ لا يسلِمُونَ أبداً. لذلكَ قتلْناهُمْ، إذْ في القتلِ ذهابُ الفتنةِ، ويَحتمِلُ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ على وجهِ الأرضِ؛ أي تطهُرَ من الشركِ، وقالَ قومٌ: الفتنةُ ههنا العذابُ؛ أي قاتلُوا حتى لا يقدرَ[14] عليهِ كفارٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي ليكونَ الدينُ دينَ اللهِ في الأرضِ لا الشركُ، و ﴿ٱلدِّينُ﴾ الحكمُ. وقولُهُ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟

---

(١) في النسخ الثلاث: يقتل. (٢) في النسخ الثلاث: يقتل. (٣) في النسخ الثلاث: يبدأهم. (٤) في النسخ الثلاث: يقتلهم. (٥) من م وط ع، في الأصل: يبداؤهم. (٦) في النسخ الثلاث: القتل. (٧) من م وط ع، في الأصل: يبدؤهم. (٨) في ط ع: كل. (٩) هذه قراءة حمزة والكسائي، انظر حجة القراءات ص ١٢٧ . (١٠) من ط ع. (١١) ساقطة من ط ع. (١٢) من ط ع، في الأصل وم: فقاتلوهم. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: يأتوا. (١٤) في النسخ الثلاث: يقدروا.

﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإن قيلَ: فإذا صارَ الدينُ كلُّهُ للهِ، فلا ظالمَ هنالكَ، فما معنى هذا الكلامِ؟ قيلَ: يَحتمِلُ [أنْ](١) لا عدوانَ إلا على الظالمِ الذي أحدثَ الظلمَ مِن بعدُ، ويَحتمِلُ: أنْ لا عدوانَ إلّا على مَنْ بقيَ منهم معَ الظلم. فإنْ قيلَ: فلمَ(٢) سمَّى عدواناً، والعدوانُ هو ما لا يَحِلُّ؟ قيلَ: لأنهُ جزاءُ العدوانِ، وإن لم يكنْ هو في الحقيقةِ عدواناً(٣)، فسمَّى باسمِهِ كما سمَّى جزاءَ السيئةِ سيئةً، وإنْ لم يكنْ هو سيئةٌ كقولِهِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وكما سمَّى جزاءَ الاعْتِداءِ [اعْتِداءً](٤)، وإنْ لم يكنْ في الحقيقةِ اعْتِداءً، فكذلكَ الأوَّلُ.

الآية ١٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾؛ قيلَ: خرجَ النبيُّ ﷺ في الشهرِ الحرامِ، يريدُ مكةَ، فَصَدَّهُ المشركُونَ عَنْ دخولِها، فجاءَ مِنْ عامٍ قابلٍ في الشهرِ الحرامِ، فدخَلَها، وأقامَ ثلاثاً، وقضى عمرتَهُ التي فاتَتْهُ في العامِ الأوّلِ، فَسُمِّيَتْ عمرةَ القضاءِ. فذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾. هذهِ الثانيةُ صارَتْ قِصاصاً بالأُولى. وقيلَ: إنَّ الجاهليةَ كانُوا يعظِّمُونَ الشهرَ الحرامَ، ولا يُقاتِلونَ فيهِ، فلَّما أنْ ظهرَ الإسلامُ عظَّمَهُ(٥) أهلُ الإسلامِ أيضاً، ولم يقاتِلُوا فيهِ حتى جعلَ الكفارُ يَغيرُونَ على أهلِ الإسلامِ، ويستنصِرُونَ عليهِمْ، حتى نُسِخَ ذلكَ، وأُمِرُوا بالقتالِ فيهِ بقولِهِ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧] كأنهُ قالَ: ما هتكتُمْ مِنْ حرمةِ الشهرِ قِصاصٌ لِما هتكُوا.

وقولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قد ذكَرْنا فيما تقدَّمَ(٦)، وقولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يَحتمِلُ اتَّقُوا مخالفةَ اللهِ، [ويَحتمِلُ](٧) اتَّقُوا عذابَ اللهِ، وقولُهُ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني معَ المؤمنِينَ جملةً، ويَحتمِلُ: اتَّقُوا القتالَ في الحرمِ قبلَ أن يبدَؤُوا هُمْ(٨) فإنَّ اللهَ معَ المتقينَ في النصرِ والمعونةِ لهمْ.

الآية ١٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: بالإنفاقِ ترغيباً بالخروجِ إلى الجهادِ، وإلّا كلُّ منفقٍ على نفسِهِ بما يعلمُ / ٣٠ ـ ب/ حاجتَهُ إليهِ، ولا يُلقي نفسَهُ في الهلاكِ مِنْ حيثُ منعُ الإنفاقِ، وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ هو أنْ يذنبَ ذنباً، ثم ييأسُ مِنَ العفوِ عنهُ، وقيلَ: انفقُوا أي لا تَضِنُّوا(٩) بالإنفاقِ مخافةَ الفَوتِ في الوقتِ الثاني فإنهُ يُخلِفُ لكمْ ما أنفقتُمْ، وقيلَ: أنفِقُوا أي أعينُوا أصحابَكُمْ، ولا تُلقُوهُمْ إلى التهلُكَةِ بتركِ المعونةِ لهم بالإنفاقِ والتجهيزِ لهمْ، وقيلَ: أنفِقُوا أي تصدَّقُوا فإنَّ فيهِ حياةَ أبدانِكُمْ وأنفسِكُمْ.

وقولُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾؛ قيلَ: أحسِنُوا إلى أصحابِكُمْ بالإعانةِ والتصدُّقِ، وقيلَ: أحسِنُوا الظَّنَّ باللهِ في الإنفاقِ، وقيلَ: أحسِنُوا الظنَّ بربِّكُمْ في الخروجِ إلى الغزوِ، ويَحتمِلُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي أسلِمُوا

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنِينَ.

الآية ١٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ اختلَفُوا في تأويلِهِ وفي قراءتِهِ: قالَ بعضُ الناسِ: العمرةُ فريضةٌ بهذهِ الايةِ لأنهُ أمرَ بإتمامِها كما أمرَ بإتمامِ الحجِّ، وقيلَ: هي الحجةُ الصغرى. وأما عندَنا ليسَتْ بفريضةٍ، وليسَ في قولِهِ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ دليلُ فرضيَّتِها(١٠) لأنّا لم نعرفْ فرضيَّةَ الحجِّ بهذهِ الايةِ، ولكنْ إنما عرفْناهُ بقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ثم في الأمرِ بالإتمامِ وجوهٌ:

أحدُها: أنهمْ كانُوا [يَفْتَخُونَ الحجَّ والعمرةَ](١١)، فأُمِرُوا بإتمامِهَا على ما رُوِيَ عن عمرَ ﷺ قال: (متعتانِ كانتا على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ وأنا أُنهي عنهما، وأعاقِبُ عليهما: متعةُ الحجِّ ومتعةُ النساءِ).

---

(١) من ط ع. (٢) في ط ع: فلما. (٣) في النسخ الثلاث: عدوان. (٤) من ط م وط ع، ساقطة من الأصل. (٥) في النسخ الثلاث: عظم. (٦) كان ذلك في تفسير الآيات: ١٩٠ و١٩١ و١٩٢ . (٧) من ط ع. (٨) في الأصل وم: يبدؤهم. في ط ع: يبدؤا هم. (٩) من ط ع، في الأصل وم: تظنوا. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: فريضة. (١١) في م: يفتخون الحج بالعمرة، في ط ع: يفتتحون الحج بالعمرة، يفتخونَ: من الفتخ، واصل الفتخ: اللينُ، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٤٠٨ والمراد من الفتخ أن العربَ لم يكونوا يتمون الحجَّ والعمرة، فأمروا بإتمامها.

والثاني: أنهمْ كانُوا لا يجعلُونَ العمرةَ للهِ، فأُمِروا بجعلِها للهِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قرأ ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ﴾ والعمرةُ[1] للهِ [وعنْ عليٍّ وأبي هريرةَ ﷺ][2] [أنهما قالَا: (إنَّ][3] مِنْ تمامِهما أنْ تحرمَ منْ دُوَيرَةِ أهْلِكَ).

واحتجَّ أصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ، أيضاً بما رُوِيَ عنْ جابرٍ ﷺ أنَّ رجلاً قالَ: يا رسولَ اللهِ «العمرةُ واجبةٌ هي؟ قالَ: لا، وإنْ تَعْتَمِرْ خيرٌ لكَ» [الترمذي: ٩٣١]، ورُوِيَ أيضاً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الحجُّ مكتوبٌ، والعمرةُ تطوُّعٌ» [نصب الراية: ٣/ ١٤٩]، وفي بعضِها قالَ: «الحجُّ جهادٌ، والعمرةُ تَطَوُّعٌ» [ابن ماجه: ٢٩٨٩] وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: «الحجُّ فريضةٌ والعمرةُ تَطَوُّعٌ» [نصب الراية: ٣/ ١٤٩] وعنْ عائشةَ ﷺ [أنها][4] قالَتْ: قلْتُ: يارسولَ اللهِ[5] أَكُلُّ أهلِكَ يرجعُ بحجةٍ وعمرةٍ غيري؟ قالَ: «انفري فإنهُ يَكْفيكِ» [البخاري: ١٥٦١]. إلى هذهِ الأخبارِ ذهبَ أصحابُنا.

والأصلُ: احتجَّ أصحابُنا أيضاً بشيءٍ مِنَ النظرِ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى فرضَ الصلاةَ[6] والزكاةَ والصيامَ في أوقاتٍ خصَّها بها، وأجمعَ أهلُ العلمِ أنَّ المتطوِّعَ بالصدقةِ والصلاةِ والصيامِ[7] يفعلُ ذلكَ متى شاءَ، ثم أجمعُوا أنَّ العمرةَ لا وقتَ لها، فدلَّ ذلكَ على أنها تطوُّعٌ؛ إذ لو كانتْ فريضةً كانَ لها وقتٌ مخصوصٌ تُفعَلُ فيهِ كغيرِها مِنَ الفرائضِ. فإنْ قيلَ: إنَّ الحجَّ: التطوُّعُ مخصوصٌ بوقتٍ كمخصوصِ المفروضِ منهُ، فكما لا يدلُّ الخصوصُ الذي في الحجِّ التطوُّعَ على وجوبِهِ، فكذلكَ العمومُ الذي في العمرةِ لا يدلُّ أنها تطوُّعٌ. قيلَ: وجَدْنا الفرضَ كلَّهُ مخصوصاً لوقتٍ، ووجدْنا التطوُّعَ على ضربَينِ: منهُ ما هو مخصوصٌ كالحجِّ، ومنهُ ما هو غيرُ مخصوصٍ كالصلاةِ والصيامِ والصدقةِ. فلما لم نجدْ في الفرضِ ماليسَ بمخصوصٍ بوقتٍ، [فالعمرةُ تطوُّعٌ][8] غيرُ فرضٍ.

واحتجُّوا أيضاً بأنا وجدنا العمرةَ تُفعَلُ في أشهرِ الحجِّ، ولم نجدْ صلاتَينِ تُفعَلانِ بوقتٍ واحدٍ فريضتَينِ، ولكنْ تُفعَلُ الصلاةُ التطوُّعُ في وقتِ الفريضةِ. فثبتَ لِما جازَ أنْ يُجْمَعَ بينَ فعلِ الحجِّ والعمرةِ في وقتٍ واحدٍ أنها تطوُّعٌ كالصلاةِ التي تُفعَلُ في وقتِ الظهرِ وغيرِها.

واحتجَّ مَنْ جعلَها فرضاً بأنْ قالَ: لم نجدْ شيئاً يُتَطوَّعُ بهِ إلّا ولهُ أصلٌ في الفرضِ، فلو كانتِ العمرةُ تطوُّعاً لكانَ لها أصلٌ[9] في الفرضِ. قيلَ: العمرةُ إنما هي الطوافُ والسعيُ، ولذلكَ أصلٌ في الفرضِ: فرضِ الحجِّ معَ ما أنا وجدْنا الاعْتِكافَ تَطَوُّعاً، وليسَ له أصلٌ في الفرضِ. فعلى ذلكَ العمرةُ.

والأصلُ أنَّ[10] كلَّ ما يَبتدِئُ اللهُ إيجابَهُ على عبادِهِ فإنهُ يُوجِبُ فعلَهُ[11] بأوقاتٍ، أو يَجعلُ [لأدائِهِ أوقاتاً][12]، والعمرةُ ليسَ لوجوبِها وقتٌ ولا لأدائِها، ثبتَ أنها ليستْ ممّا أوجبَها اللهُ.

وقولُهُ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ الآيةُ على الإضمارِ، كأنهُ قالَ، واللهُ أعلمُ ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ عنِ الحجِّ فأردْتُم أنْ تحِلُّوا، فاذْبَحُوا ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ إذِ الإحصارُ نفسُهُ لا يوجبُ الهديَ، لكنه إذا أرادَ الخروجَ منهُ يَخرُجُ بهَدْيٍ. وعلى ذلكَ يخرجُ قولُهُ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣] كأنهُ قالَ، واللهُ أعلمُ، مَنْ ﴿كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ فأفطرَ[13] ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وقولُهُ[14]: ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ معناهُ، واللهُ أعلمُ ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾ وإلّا كونُ الأذى مِنْ رأسِهِ لا يوجِبُ عليهِ الفداءَ حتى يزولَ[15]، وقولُهُ[16]: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] أي مَنِ ﴿اضْطُرَّ﴾ فأكلَ منها ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والإضطرارُ نفسُهُ لا يوجبُ الإثمَ.

ثم اختلَفَ أهلُ العلمِ في الإحصارِ، ما هو؟ وبمَ يكونُ؟ وهل يَحِلُّ؟ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا أُحصِرَ

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢/ ١٢٠ . (٢) من ط ع. (٣) في الأصل وم: قالا، في ط ع: قال إنَّ. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) أدرج بعدها في الأصل: ﷺ. (٦) في الأصل: من الصلاة. (٧) في الأصل: والقيام. (٨) من ط ع، في الأصل وط م: تطوعاً. (٩) من ط ع، في الأصل وط م: أصلاً. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: بأنَّ. (١١) في النسخ الثلاث فعلها. (١٢) في النسخ الثلاث: لأدائها أوقات. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: فأكل. (١٤) في النسخ الثلاث: وكقوله. (١٥) من ط ع، في الأصل وم: تزيل. (١٦) في النسخ الثلاث: كقوله.

الرجلُ مِنْ مرضٍ أو حبسٍ أو كسرٍ أو شبهِ ذلكَ بعثَ الهَدْيَ، وواعدَ يومَ النحرِ، ومكثَ على إحرامِهِ على أنْ ﴿يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ وعليهِ الحجُّ والعمرةُ جميعاً مِنْ قابلٍ» [الموطأ: ١/ ٣٦٢]. وعَنْ عروةَ بنِ الزبيرِ [أنهُ][1] قالَ: «المحصَرُ مِنْ كلِّ شيءٍ يحبسُهُ: عدوٌّ أو مرضٌ» [الموطأ: ١/ ٣٦٢]. ورُوِيَ مرفوعاً عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «مَنْ كُسِرَ أو عَرِجَ فقد حَلَّ وعليهِ الحجُّ مِنْ قابلٍ» [الترمذي: ٩٤٠]. ومعنَى قولِهِ: «فقد حَلَّ» أي جازَ لهُ أنْ يَحِلَّ بغيرِ دمٍ، لأنَّ اللهَ تعالى أذِنَ لهُ في الإحلالِ بدمٍ، وهذا عندَنا كقولِ رسولِ اللهِ ﷺ «إذا أقبلَ الليلُ، وأدبرَ النهارُ، وغابتِ الشمسُ، فقد أفطرَ الصائمُ» [مسلم ١١٠٠] فمعناهُ: فقد حَلَّ له الإفطارُ. فعلى ذلكَ الأوَّلُ: حَلَّ لهُ أنْ يَحِلَّ.

ثم قالَ بعضُ أهلِ اللغةِ مِنْ نحوِ الكِسائيِّ وأبي مُعاذٍ، قالُوا: إنَّ الإحصارَ مِنَ المرضِ، والحصرَ مِنَ العدوِّ. فإنْ قيلَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ [وابنِ عمرَ ﷺ أنهما قالا][2]: (لا حصرَ إلّا عن حصارِ العدوِّ). ولكنْ في هذا نسْخُ الكتابِ بقولِهما، إنْ ثبتَ، وهو[3] لا يرى نسخَ الكتابِ بالسنةِ فضلاً أنْ يراهُ بقولِ واحدٍ مِنَ الصحابةِ ﷺ معَ ما تركَ قولَهما، لأنه رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (ذهبَ الحصرُ).

ثم يُقالُ للشافعيِّ، رحِمَهُ اللهُ، إذْ أجازَ أنْ يجعلَ المرأةَ بمنزلةِ المُحْصَرِ مِنْ غيرِ أنْ تخافَ عدوّاً، لكنها لمّا منَعَها مَنْ لهُ أنْ يمنَعَها، جَعَلْتَها محصَرَةً، فهلّا جعلْتَ المريضَ مثلَها، وإنْ كانَ النصُّ في القرآنِ جاءَ في المحصَرِ مِنَ العدوِّ على زعمِكَ؟ فقالَ: لأنَّ المرأةَ حَبَسَها مَنْ لهُ أنْ يَحْبِسَها، فهي أشدُّ حالاً مِمَّنْ [حَبَسَهُ عدوٌّ، وليسَ لهُ أنْ يحبِسَهُ][4]، فيُقالُ لهُ: المريضُ أمرضَهُ مَنْ لهُ أنْ يُمرِضَهُ، فاجعلْهُ أشدَّ حالاً مِنَ الذي حبسَهُ عدوٌّ، وليسَ لهُ أنْ يحبسَهُ، أو فَرِّقْ بينَ[5] المرأةِ والمريضِ. فقالَ: بل بينَهما فرقٌ؛ وذلكَ أنَّ الخائفَ بعدوٍّ يخافُ القتلَ على نفسِهِ، وقد أباحَ اللهُ للخائفِ في القتالِ أنْ يتحيَّزَ إلى فئةٍ، فينتَقِلَ بذلكَ مِنَ الخوفِ إلى الأمنِ. قيلَ له: كما رخَّصَ للخائفِ في ذلكَ فقد رخَّصَ للمريضِ ألّا يحضرَ القتالَ، فالرخصةُ لهُ أكثرُ مِنَ الرخصةِ للخائفِ. فإنْ قالَ: إنَّ المريضَ لا يبرأُ بالقعودِ، والخائفَ يأمنُ، قيلَ لهُ: إنَّ الرُّخَصَ[6] التي جُعِلَتْ للأعذارِ لا تُجعَلُ لِتُرْخِصَها، ولكنَّ الرخصةَ لترفيهِ المشقةِ، وقيلَ[7] لهُ أيضاً: قد جعلْتَ المرأةَ محصَرَةً إذا منعَها زوجُها، وهي لا تخافُ القتلَ على نفسِها، فبطلَتْ عِلَّتُهُ، وانتقضَتْ؛ فإنْ قالَ: إنكمْ لم تجعلُوا مَنْ ضلَّ الطريقَ محصَراً، وهو ممنوعٌ مِنَ المضيِّ إلى حجِّهِ، فما الفرقُ بينَهُ وبينَ[8] المريضِ؟ فيُقالُ: لو جعلْنا الضالَّ عنِ الطريقِ محصَراً لم يَجُزْ له أنْ يَحِلَّ مِنْ إحرامِهِ إلّا بدمٍ /٣١ ـ أ/ يوجِّهُهُ إلى الحرمِ، فيُذبحُ عنهُ. وإذا وجدَ مَنْ يذهبُ إلى الحرمِ، فيذبحُ هدْيَهُ، فليسَ بضالٍّ، لأنه قد وجدَ دليلاً يدلُّهُ على طريقِهِ؛ لذلكَ افترَقَا[9].

وبعدُ فإنَّ المريضَ[10] أحقُّ أنْ يكونَ مُحصراً[11] في ذلكَ مِنَ العدوِّ وغيرِهِ؛ لأنهُ [لا يقاتلُ][12] العدوَّ والسباعَ، فيدفعُ عنْ نفسِهِ الإحصارَ، والمرضُ لا سبيلَ لهُ إلى[13] دفعِهِ. دلَّ أنهُ أحقُّ أنْ يكونَ عذراً.

وقالَ بعضُهُمْ: يكونُ مُحْصَراً مِنَ الحجِّ، ولا يكونُ مِنَ العمرةِ؛ لأنَّ الحجَّ مما يَحتمِلُ الفوتَ، والعمرةُ لا.

وأمّا عندَنا: فإنه يكونُ مُحْصَراً منهما جميعاً؛ لأنَّ اللهَ ﷻ ذكرَ الإحصارَ على إثرِ ذكرِ العمرةِ بقولِهِ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾. ورُوِيَ في الخبرِ، يرويهِ ابنُ عمرَ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ «خرجَ مُعْتَمِراً، فحالَ كفارُ قريشٍ بينَهُ وبينَ البيتِ الشريفِ، فنحرَ هديَهُ، وحَلَقَ رأسَهُ بالحديبيةِ» [البخاري: ١٨٠٧].

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ فيه دلالةٌ أنَّ المُحصَرَ يبقَى حراماً على حالِهِ، لا يَحِلُّ حتى يُنحَرَ عنهُ الهدْيُ.

واختلَفَ أهلُ العلمِ أينَ يُذبَحُ الهَدْيُ؟ فعندَنا أنهُ لا يجوزُ أن يُذبَحَ إلّا في الحرمِ؛ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ:

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط ع، وم، في الأصل: أنه قال. (٣) إنه ابن عباس. (٤) من ط ع وم، في الأصل: يحبسه. (٥) من ط ع، في الأصل وم: من. (٦) ط ع: الرخصة. (٧) في النسخ الثلاث: فقال. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من ط ع وم، في الأصل: افترق. (١٠) في ط ع وم: المرض. (١١) في النسخ الثلاث: عذراً. (١٢) في الأصل: يقال، في ط ع وم: يقاتل. (١٣) ساقطة من ط ع.

«يبعثُ بهدْيٍ، ويواعدُهُمْ يوماً. فإذا نُحِرَ[1] عنهُ حَلَّ» [ابن أبي شيبة ٤/ ٥٤].

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه مثلُ ذلكَ، وعنِ ابنِ الزبيرِ [رضي الله عنه وعروةَ بنِ الزبيرِ رضي الله عنه][2]: «أنَّ المحصَرَ يبعثُ بالهَدْيِ، فإذا نُحِرَ عنهُ حَلَقَ» [ابن أبي شيبة: ٤/ ٥٤]. وظاهرُ القرآنِ يدلُّ على ما رُوِيَ عنْ هؤلاءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾، فجعلَ للهَدْيِ محِلاً يبلغُهُ، وبيَّنَ مَوضِعَ مَحِلِّهِ، فقالَ: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وكانتِ الكعبةُ مَحِلًّا لجزاءِ الصيدِ والدمِ للمحصَرِ.

قالَ الشيخُ رحمه الله: المَحِلُّ: اسمُ الموضعِ الذي يُحَلُّ فيهِ، ولو كانَ كلُّ موضعٍ لهُ مَحِلًّا لم يكنْ لذكرِ المَحِلِّ فائدةٌ. واحتجَّ مَنْ خالفَ أصحابَنا، رحمَهُمُ اللهُ، بما رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ ذبحَ الهَدْيَ يومَ الحديبيةِ في الحرمِ، يرويهِ مروانُ بنُ الحكمِ. وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][3] قالَ: (نزلَ رسولُ اللهِ ﷺ الحديبيةَ، فحالَ المشركونَ بينَهُ وبينَ دخولِ مكةَ، وجاءَ سُهيلُ بنُ عَمْرٍو يعرضُ عليهمُ الصلحَ، «فصالَحَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ وأمرَهُمْ أنْ يَسوقُوا البُدْنَ حتى تُنحَرَ حيثُ شاءَ») [أحمد: ٤/ ٣٢٦]. ولا يُتَوَهَّمُ أنْ يكونَ النبيُّ ﷺ يهدي الهديَ في الحِلِّ، وقد أطلقَ لهُ المشركونَ أنْ ينحرَها حيثُ شاءَ، وهو بقربِ الحرمِ، بل هو فيه.

ورُوِيَ عنْ مروانَ والمُسَوَّرِ بنِ مَخْرَمَةَ [أنهُ][4] قالَ: «نزلَ رسولُ اللهِ ﷺ بالحديبيةِ في الحِلِّ، وكانَ يصلي في الحرمِ» [بنحوه أحمد: ٤/ ٣٢٦]، هذا يبيِّنُ أنه كانَ قادراً أنْ ينحرَ هديَهُ في الحرمِ حيث كانَ يصلي، ولا يُحتَمَلُ أنْ يتركَ نحرَ الهدي في الحرمِ، وهو على ذلك قادرٌ؛ ولأنَّ الحديبيةَ مكانُ مجمعِ الحِلِّ والحرمِ جميعاً، فإنما ذبحَ في الحرمِ لا في الحِلِّ لِما ذكرْنا أنهُ لا يُحتملُ أن يذبحَ في الحِلِّ، وليسَ سبيلُ الذبحِ إلّا في الحرمِ.

فإنْ قيلَ: حلَّ النبيُّ ﷺ عامَ الحديبيةِ منْ إحصارِهِ بغيرِ دمٍ، قلْنا: ليسَ الأمرُ عندَنا هكذا؛ [لأنهُ][5] لا يُتَوَهَّمُ على النبيِّ [ﷺ][6] أنْ يكونَ حَلَّ بغيرِ دمٍ، وقد أمرَ اللهُ المُحصَرَ بالدمِ. فإنْ قالَ[7]: كذلكَ قالَ، وليسَ في حديثِ صلحِ الحديبيةِ أنهُ نحرَ دَمَينِ، وإنما نحرَ دماً واحداً. فما وجهُ[8] ذلكَ عندكم؟ قيلَ: وجهُ ذلكَ عندَنا، واللهُ أعلمُ، أنَّ الهديَ الذي ساقَهُ كانَ هدْيَ[9] متعةٍ أو قِرانٍ، فلمّا مُنِعَ عنِ البيتِ سقطَ عنهُ دمُ القِرانِ، فجازَ لهُ أنْ يجعلَهُ مِنْ دمِ الإحصارِ.

فإنْ قيلَ: فكيفَ قلْتَ[10]: إنَّ النبيَّ ﷺ أزالَ الهدْيَ عنْ سبيلِهِ، وأنتَ تزعمُ أنَّ منْ باعَ هديَهُ فهو مسيءٌ؟ قيلَ لهُ: إنَّ النبيَّ ﷺ لم يصرفِ الهَدْيَ عن نحرِهِ للهِ والتقرُّبِ بهِ إليهِ، وإنما صرفَ النيَّةَ إلى ما هو أفضلُ منها وأوجبُ، فكانَ ذلكَ في فعلِهِ مُتَّبعاً. والذي باعَهُ صرفَهُ عنْ سبيلِهِ، وتركَ أنْ ينحرَهُ بعدَ أنْ كانَ نَوَى بهِ القُربةَ، فكانَ مسيئاً. ومما يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ جعلَ الهديَ لإحصارِهِ لِما رُوِيَ أنهُ لم يحلقْ حتى نحرَ هديَهُ، وقالَ: «يا أيها الناسُ انحرُوا وحِلُّوا» [أحمد: ٤/ ٣٢٦].

ثم المسألةُ: ما يجبُ على المحصَرِ بالحجِّ والعمرةِ مِنَ القضاءِ إذا حلَّ؟ فعلى قولِ أصحابِنا: إذا كانَ مُحرِماً بالحجِّ يلزمُهُ الحجُّ مكانَ الأوَّلِ وعمرةٌ بتفويتِ الحجِّ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ اختلَفَ أهلُ العلمِ في تأويلِ ذلكَ؛ فرُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه، فيما يكونُ الرجلُ بهِ محصَراً، أنهُ قالَ: (﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ مِنَ الخوفِ والمرضِ ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أي اعتَمَرَ في أشهرِ الحجِّ؛ كأنهُ يقولُ: إنَّ عليهِ لإحلالِهِ بغيرِ الطوافِ عُمْرةً. فإنْ أخرَها حتى يقضيَها معَ[11] الحجِّ في أشهرِهِ فعليهِ لِجَمعِهِ بينَهما دمٌ). وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ في رجلٍ أهلَّ بعمرةٍ، وأحصِرَ: (يبعثُ بهدْيِهِ: فإذا بلغَ ﴿الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ حَلَّ، فإنِ اعتَمرَ مِنْ وَجهِهِ، ذلكَ إذا بَرَأَ[12]، فليسَ عليهِ هَدْيٌ، وإنِ اعتمرَ مِنْ قابلٍ بعدَ حجٍّ فليسَ عليهِ هَدْيٌ، فإن وصلَهَا بحجٍّ مِنْ قابلٍ فعليهِ

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: يخبر. (٢) في ط ع وم: وعروة بن الزبير رضي الله عنه. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث.
(٥) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٦) في ط ع: عليه الصلاة والسلام. (٧) من ط ع و الأصل، في م: سأل. (٨) من ط ع، في الأصل وم: وجد. (٩) في النسخ الثلاث: هديا. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: قلنا. (١١) من ط ع، في الأصل وم: منع. (١٢) من ط ع، في الأصل وم: بدأ.

هَدْيٌ. والحاجُ إذا أُحصِرَ فإنهُ يبعث بهدْيٍ، فإذا بلغَ مَحِلَّهُ حلَّ، وإنِ اعْتَمرَ مِنْ وجهِهِ، ذلك إذا بَرَأَ، فإنه يحجُّ مِنْ قابلٍ، وليسَ عليهِ هديٌ، وإنْ لم يَزُرِ البيتَ حتى يحجَّ، وجعلَها سفراً واحداً، كانَ عليه هدْيٌ آخرُ: سَفرانِ وهدْيٌ، أو هَدْيانِ وسَفَرٌ) وقالَ قومٌ: عليهِ حَجٌّ واحدٌ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (أمرَ اللهُ بالقِصاصِ، فيأخذَ منكمُ العددَ) أي حجةً بحجةٍ وعُمرةً بعُمْرةٍ، ورُوِيَ في خبرِ عمرَ ﷺ وعنِ النبيِّ ﷺ لمّا قالَ: وقد حلَّ، «وعليهِ الحجُّ مِنْ قابلٍ» [الترمذي: ٩٤٠]، ولم يذكرْ عُمْرةً. إلّا أنهُ قد يجوزُ أنْ يكونَ عليهِ العُمْرةُ، وإنْ لم يَذكرْ في الحديثِ، كما أنَّ الدمَ واجبٌ، وإنْ لم يذكرْ في الحديثِ؛ فعلى ذلكَ العُمْرةُ يجوزُ وجوبُها وإنْ لم يَذكرْ.

أمّا إيجابُهُمُ العُمْرةَ لفسخِ الحجِّ بغيرِ طوافٍ وحجّةً مكانَ حَجّتِهِ؛ فإنْ كانَ التأويلُ في قولِهِ: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ﴾ أي بالعُمْرةِ التي لزمَتْهُ بإحلالِهِ كما قالَ ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وابنُ الزبيرِ ﷺ فكفَى بهِ حَجّةً.

وإنْ كانَ تأويلُ الآيةِ غيرَ ذلكَ فإنا وجدْنا مَنْ يَفوتُهُ الحجُّ يَلزمُهُ أنْ يطوفَ بالبيتِ، ثم يجبُ[1] بعدَ ذلكَ قضاءُ الحجِّ؛ فأَرْجَعُوا على المحصَرِ عُمْرةً مكانَ الطوافِ الذي يجبُ على مَنْ يفوتُهُ الحجُّ، وأوجبُوا الحجَّ لِما دخلَ فيهِ.

فإنْ قيلَ: يجبُ أن تسقطَ عنهُ العمرةُ التي تجبُ على مَنْ يفوتُهُ الحجُّ؛ [لأنَّ الذي يفوتُهُ الحجُّ لا يَحِلُّ منهُ بدمٍ، وإنما يَحِلُّ بالطوافِ][2]، والمحصَرُ قد حلَّ بالدَّمِ، فقامَ: الدمُ الذي لزمَهُ يَحِلُّ بهِ مقامَ الطوافِ في الذي يفوتُهُ الحجُّ. قيلَ لهُ: إنَّ المحصَرَ لو لم يذبحْ عنهُ هدْياً احتاجَ أنْ يقومَ على إحرامِهِ حتى يصلَ إلى البيتِ، فيطوفَ بهِ، ولو سنينَ، ثم يحجُّ بعدَ ذلكَ مكانَ الحجّةِ التي دخلَ فيها، فجعلَ لهُ أنْ يتعجّلَ إلى الخروجِ مِنْ إحرامِهِ، ويؤخِّرَ الطوافَ الذي لزمَهُ بدمٍ يُهريقُهُ، فبالدمِ جازَ لهُ أنْ يَحِلَّ، و[لم يُبطِلِ الطوافَ عنهُ، وإذا][3] لم يُبطِلِ الدمُ عنهُ الطوافَ، ولم يُجعَلْ بدلاً منهُ، فعليهِ أنْ يأتيَ بهِ بإحرامٍ جديدٍ، فيكونُ ذلكَ عمرةً. فإنْ قيلَ: ما الدليلُ على أنَّ الدمَ الذي يحِلُّ بهِ المحصَرُ جُعِلَ عليهِ لِيَتَعَجَّلَ بهِ الإحلالَ، ولم يُجعَلْ بدلاً عنِ الطوافِ؟ قيلَ: لأنَّ أهلَ العلمِ أجمعُوا على أنَّ الذي يفوتُهُ الحجُّ ليسَ لهُ أنْ يفسخَ الطوافَ الذي لزمَهُ بدمٍ يُهريقُهُ، يجعلُهُ بدلاً عنِ الطوافِ، فدلَّ أنه إنما يُهريقُ الدمَ لِيَتَعَجَّلَ[4] بهِ إلى الإحلالِ لا بدلاً مِنَ الطوافِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ رُوِيَ عنْ عليٍّ وابنِ عباسٍ ﷺ أنهما قالا: شاةٌ. وأصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ، يَرَوْنَ الشاةَ مُجْزِيةً في المتعةِ والإحصارِ والفديةِ، والحُجّةُ لهمْ في ذلكَ ما ذَكَرْنا مِنْ قولِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، وما رُوِيَ عنْ [رسولِ اللهِ][5] / ٣١ ـ ب/ ﷺ أنهُ قالَ [لكعبِ بنِ عُجْرَةَ][6]، «النُّسكُ شاةٌ» [السيوطي في الدر المنثور: ١/ ٥١٥]. وإجماعُ الناسِ على أنها مُجْزِيَةٌ في الأضحيةِ.

ثم المسألةُ في المحرمِ إذا حلقَ رأسَهُ مِنْ أذىً؛ رخّصَ اللهُ تعالى للمتأذّي حَلْقَ رأسِهِ بِفِدىً بقولِهِ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. رُوِيَ في الخبرِ عنْ كعبِ بنِ عُجْرَةَ أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «ياكعبُ أيؤذيكَ هَوَامُ رأسِكَ؟ قلتُ: نعم يا رسولَ اللهِ، قالَ: فاحلقْهُ، واذبحْ شاةً، أو أطعمْ ستةَ مساكينَ» [البخاري: ١٨١٤]. وقالَ كعبٌ: فيَّ نزلَتْ هذهِ الآيةُ.

ثم اختلفَ أهلُ العلمِ في الذبحِ، أينَ يُذبحُ؟ قالَ أصحابُنا ﷺ لا يجوزُ أنْ تُذبحَ الفديةُ إلّا بمكةَ. وأمّا الصدقةُ والصومُ فإنه يأتي بهِ حيثُ شاءَ؛ وذلكَ عندَهُمْ بمنزلةِ هَدْيِ المتعةِ؛ لأنَّ [هَدْيَ][7] المتعةِ إنما وجبَ بجمعِهِ بينَ الحجِّ والعمرةِ في سفرٍ واحدٍ، ولأنهُ لو شاءَ أنْ يُفرِدَ لكلِّ واحدٍ منهما سفراً فعلَ، فبأخذِهِ بالرخصةِ لزمَهُ دمٌ. وكذلكَ دمُ الفديةِ إنما وجبَ لأخذِهِ بالرخصةِ في حلقِ رأسِهِ، فصارَ سبيلُ الدَّمَيْنِ سواءً يَجبانِ[8] بمكةَ، وكذلكَ دمُ الإحصارِ إنما وجبَ لأنهُ أَخذَ بالرخصةِ في حلقِ رأسِهِ، فحلَّ مِنْ إحرامِهِ. ولا يجوزُ أن يُذبحَ إلّا بمكّةَ. فدمُ الفديةِ، أينما كانَ، إنما وجبَ لأنهُ رخِّصَ لهُ في حلْقِ مثلَ ذلكَ.

---

(١) ساقطة من ط ع. (٢) من م، في الأصل: لأنَّ الذي يفوتُهُ الحج لا يحل بالطواف، في ط ع: لا يحل منه بدم وإنما يحل بالطواف. (٣) من ط ع وم. (٤) من ط ع وم في الأصل: يستعجل. (٥) من ط ع وم، في الأصل: ذلك. (٦) من ط ع وم، في الأصل: كعب بن عجرة. (٧) من ط ع. (٨) من ط ع وم، في الأصل: يجبان.

والصدقةُ هي ثلاثةُ أصوُعٍ على ستةِ مساكينَ، على ما ذُكرَ في خبرِ كعبٍ ﷺ وأما الصومُ فإنَّ المتمتِّعَ، إذا لم يجدْ هدْياً، صامَ ثلاثةَ أيامٍ في الحجِّ وسبعةً إذا رجعَ، فأجمعُوا على أنهُ يصومُ السبعةَ بمكةَ وفي غيرِها، فصومُ الفديةِ كذلكَ. وكذلكَ ثلاثةُ الأيامِ إذا صامَها بعدَ إحرامِهِ بالعمرةِ عندَنا، وبعدَ إحرامِهِ بالحجِّ عندَ مخالِفنا بمكةَ أو بغيرِها، فهي مُجزيَةٌ. وكذلكَ صيامُ الفديةِ يُجزيهِ حينَ صامَهُ قياساً على صومِ المتمتِّعِ.

فأمّا الصدقةُ فإنَّ الشافعيَّ ذكرَ أنها لا تُجزَى إلّا بمكةَ، وقالَ: لأنَّ أهلَ الحرمِ ينتفعُونَ [بها كما ينتفعُونَ][1] بالهَدْيِ. فيُقالُ لهُ: أرايتَ [منْ ذبحَ][2] الهديَ بغيرِ مكةَ، ثم تصدَّقَ بهِ على أهلِ الحرمِ، هل يَجزيهِ ذلكَ؟ فإنْ قالَ: لا، قيلَ لهُ: قد بطلَتْ علَّتُكَ حينَ لم تُجزِ التصدقَ على أهلِ الحرمِ، وبانَ أنَّ الدمَ خُصَّ بأنْ يُهَرَاقَ في الحرمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾، فأمّا الصدقةُ فهي مُجزِيةٌ حيثُ كانَتْ.

ثم اختُلِفَ في الذي يحلقُ قبلَ أنْ يذبحَ بغيرِ أذىً: فقالَ أبو حنيفةَ ﷺ يجبُ عليهِ دمٌ، والحُجَّةُ لهُ بأنَّ اللهَ تبارَكَ، وتعالى مَنَعَ المحصَرَ منَ الحلْقِ ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ فإنْ حلَقَ رأسَهُ لأذىً فعليهِ دمٌ آخرُ؛ لأنَّ الآيةَ الكريمةَ في الحلْقِ في المحصَرِ، فإذا كانَ الذي يصيبُهُ الأذى في رأسِهِ قبلَ الوقتِ الذي أُذِنَ لهُ، فعليهِ[3] فديةٌ، بل الذي يحلِقُ رأسَهُ بغيرِ أذىً أحرَى أن يكونَ عليهِ الفديةُ. وأبو حنيفةَ ﷺ يزيدُ في التغليظِ عليهِ؛ يقولُ: لا يَجزيهِ غيرُ الدمِ، ويُخَيِّرُ صاحبُ الأذى بينَ الدمِ والصدقةِ والإطعامِ كما أخبرَ اللهُ تعالى، فدليلُ القرآنِ شهدَ لمذهبِهِ.

وخالفَهُ جماعةٌ مِنْ أهلِ العلمِ فيمَنْ حلَقَ قبلَ أنْ يذبحَ، وليسَ بمحصَرٍ، ووافَقُوهُ بالمحصَرِ، واحتجُّوا بما رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ «أنهُ لمّا سُئِلَ عَنْ رجلٍ حلَقَ قبلَ أنْ يذبحَ فقالَ: اذبحْ، ولا حرَجَ» [مسلم: ١٣٠٦]. لكنَّ قولَهُ: «افعلْ، ولا حرَجَ» يرجِعُ إلى الإثمِ دونَ الكفارةِ؛ افعَلْ، أي لو فعلْتَ لم يكنْ عليكَ حرجٌ، لأنَّ الكفارةَ قد تُحْجَبُ[4] في أشياءَ يفعَلُها الرجلُ خطأً وعلى جهةِ الجهلِ إنما تجبُ في ذلكَ. فلا حجةَ لِمَنِ احتجَّ بهذا الحديثِ في زوالِ الكفارةِ.

وأصلُهُ في ذلكَ أنَّ أحوالَ الضرورةِ سببُ تخفيفِ الحكمِ وتيسيرِهِ، لم يَجُزْ إيجابُ ذلكَ الحكمِ في غيرِ أحوالِ الضرورةِ والعذرِ. وعلى هذا يخرجُ قولُهُمْ في جميعِ الأصولِ: إنَّ حالَ الاضطرارِ والعذرِ خلافُ ما هو في حالِ الاختيارِ. ولهمْ على هذا مسائلُ مما يكثرُ عددُها.

وفي الآيةِ دليلٌ لزومِ الفِداءِ على المتدَهِّنِ، لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ وقد ذكرْنا أنَّ فيه إضماراً. ثم معروفةٌ حاجةُ المريضِ في حالِ مرضِهِ إلى الدُّهنِ، فصارَ كأنه مذكورٌ في الآيةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ وقد ذكَرْنا هذا وأقاويلَهُمْ.

وقولُهُ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ اختلفَ أهلُ التأويلِ فيهِ؛ قال بعضُهُمْ: مِنْ حينِ يحرِمُ، آخرُها يومُ عرفةَ. وعنِ ابنِ عمرَ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: «ولا تصومَهُنَّ حتى تحرمَ» [السيوطي في الدر المنثور: ١/ ٥١٨]، وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنه][6] قالَ: «مابينَ الهلالِ ويوم عرفةَ» وعنْ عليٍّ ﷺ [أنه][7] قالَ ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ «قبلَ يوم الترويةِ [بيومِ ويومُ الترويةِ ويومُ عرفةَ][8] فإنْ فاتَ ذلكَ فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ بعدَ أيامِ التشريقِ» [أحمد: ٦/ ٢٤٣].

أمّا تأخيرُهُ الصومَ رجاءَ أنْ يجدَ الماءَ، فيغنيَهُ عنِ التَّيَمُّمِ[9]. فعلى ذلكَ يؤخِّرُ الصومَ حتى يكونَ آخرُهُ يومَ عرفةَ رجاءَ أنْ يَجِدَ الهدْيَ.

وأمّا ما اختلفُوا فيهِ منْ صيامِهِنَّ حلالاً بعدَ العمرةِ، فإنَّ منْ لم يُجزْ ذلكَ ذهبَ إلى أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ فتأوَّلَ ذلكَ على الإحرامِ. [وقد يجوزُ أنْ يكونَ الأمرُ كما قالَ، ويجوزُ][10] أنْ يكونَ معناهُ في أشهرِ الحجِّ. ألا ترَى

---

(١) من ط ع. (٢) في النسخ الثلاث: أن اذبح. (٣) في النسخ الثلاث: فيه. (٤) من ط ع، في الأصل وم: تجب. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) ساقطة من النسخ الثلاث. (٨) من ط ع وم، في الأصل: ويوم عرفة. (٩) من ط ع، في الأصل وم: التتميم. (١٠) من ط ع وط م، في الأصل: وقد يجوز.

أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] ومعناهُ، واللهُ أعلمُ: أنَّ الحجَّ يُفعَلُ في هذه الأشهرِ، ولفعلِهِ ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾. فلما احتملَتِ الآيةُ ما ذكَرْنا وجَدْنا السنةَ في المتمتِّعِ أنْ يحرِمَ بالحجِّ عشيَّةَ الترويةِ. كذلكَ رُوِيَ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه [أنهُ][1] قالَ: «قَدِمْنا مكةَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ مُهِلِّينَ بالحجِّ لأربعِ ليالٍ مَضَينَ منْ ذي الحجةِ، فطافَ بالبيتِ [سبعاً، وسَعَى][2] بينَ الصفا والمروةِ، ولم يُحِلَّ لأنهُ كانَ ساقَ الهدْيَ، وأمرَ منْ لم يَسُقِ الهديَ أنْ يطوفَ، ويَسْعَى، ويقصرَ، ثم يُحِلَّ، فلما كان يومُ الترويةِ أمرَهُمْ أنْ يُلَبُّوا بالحجِّ» [بنحوه البخاري: ١٦٩١]. فإذا كُنَّا نأمرُ المتمتعَ أنْ يحرمَ بالحجِّ عشيةَ الترويةِ فكيفَ يصومُ ثلاثةَ الأيامِ بعدَ ذلكَ وإنما بَقِيَ لهُ يومٌ واحدٌ؟ فدلَّ ما وصَفْنا[3] أنهُ يجوزُ لهُ أن يصومَهُنَّ حلالاً بعدَ العمرةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: إذا رُجِعَ مِنْ مِنىً، وقيلَ: إذا أتى وقتُ الرجوعِ، وقيلَ: إذا رجعْتُمْ إلى أهليكُمْ.

وقولُهُ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيلَ: تلكَ العشرةُ، وإن كانَتْ متفرِّقةً فهي كالموصولةِ في حقِّ الحجِّ، وقيلَ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ عنِ الهدْيِ وافيةٌ أي[4] يُكمَلُ بها حقُّ الدمِ، وقيلَ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ في حقِّ الثوابِ أي ثوابُها كثوابِ الهدْيِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ جعلَ الحكمَ الذي ذكرَهُ في المتمتِّعِ والمحصرِ لمَنْ لا يحضُرُ أهلُهُ المسجدَ الحرامَ. عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما[5] أنهُ قالَ: «ليس على أهل مكةَ هديٌ في المتعةِ» [بنحوه ابن أبي شيبة: ٤/ ٤٢]. ولأنَّ أهلَ مكةَ لو كانُوا كغيرِهِمْ لم يكنْ للمخصوصِ[6] معنىً. وإذا كانَ المعتمرُ في أشهرِ الحجِّ إذا رجعَ إلى أهلِهِ، ثم حجَّ مِنْ عامِهِ ذلكَ، فلا هدْيَ عليهِ. فالمكِّيُّ مقيمٌ في منزلِهِ بعدَ عمرتِهِ، فهو أحرَى ألَّا يجب عليه دمُ المتعةِ، إنْ حجَّ منْ عامِهِ ذلكَ، ولكنه إذا تمتَّعَ فعليهِ دمُ الحلالِ لأنه مَنْهِيٌّ عنِ التمتعِ.

ثم اختلفَ [أهلُ التأويلِ][7] في ﴿حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ مَنْ هُمْ؟ قالَ أصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ: (كلُّ مَنْ كانَ مِنْ أهلِ المَواقيتِ فما دونَها إلى مكةَ، فلَهُمْ أنْ يدخُلُوها بغيرِ إحرامٍ، فلَهُمْ جميعاً حكمُ ﴿حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾) ورُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنهُ خرجَ مِنْ مكةَ، فلما بلغَ قُدَيداً، بلغَهُ أنَّ بالمدينةِ جيشَينِ مِنْ جيوشِ الفتنةِ، فرجعَ، ودخَلَها بغيرِ إحرامٍ.

وعندَنا إذا جاوزَ جميعَ المواقيتِ، ثم رجعَ فعليهِ /٣٢-أ/ الإحرامُ. وقالَ آخرونَ: ليسَ ﴿حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. وأمَّا لأصحابِنا، رحمَهُمُ اللهُ، ما ذكَرْنا. وأمّا قولُنا: ليسَ عليهِمْ إحصارٌ؛ لأنَّ الإحصارَ هو الجيشُ والحيلولةُ بينَهم وبينَ دخولِهِمْ مكةَ. فإذا كانوا همْ [فهمْ][8] قادرُونَ على الطوافِ بالبيتِ في كلِّ وقتٍ، وبذلكَ[9] بطلَ الإحصارُ.

الآية ١٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾؛ عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾: (شوالٌ وذو القعدةِ وعشرٌ منْ ذي الحجّةِ) [السيوطي في الدر المنثور: ١/ ٥٢] وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما وعنِ الحسنِ[10] والشعبيِّ ومجاهدٍ وجُوَيبرٍ [وإبراهيمَ وعطاءٍ][11] مثلُهُ. وعنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (إنها شوالٌ وذو القعدة وذو الحجةِ) ونرى أن عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ رضي الله عنه أرادَ ما أرادَهُ الأوَّلُونَ؛ لأنهُ لا يبقَى بعدَ أيامِ مِنىً [شيءٌ][12] مِنْ مناسكِ الحجِّ، فكيفَ تكونُ الأيامُ التي[13] بعدَ النَّفْرِ مِنْ أيامِ الحجِّ، لا عملَ فيها للحجاجِ؟

ثم المسألةُ فيمَنْ يُحرِمُ بالحجِّ قبلَ أشهرِ الحجِّ؟ ما عليهِ؟ وهل يجوزُ إحرامُهُ؟ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: «مِنْ سُنَّةِ الحجِّ ألَّا يُحرَمَ بالحجِّ إلَّا في أشهرِ الحجِّ» [الحاكم في المستدرك: ١/ ٤٤٨]. وعنْ جابرٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (لا يُحرَمُ بالحجِّ

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) من ط ع، في الأصل: سعى، في م: سبعاو. (٣) في ط ع: وصفناه. (٤) من ط ع، في الأصل وم: أن. (٥) من ط ع. (٦) من ط ع، في الأصل وم: المخصوص. (٧) من ط ع. (٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (٩) الواو ساقطة من النسخ الثلاث. (١٠) أدرج بعدها في الأصل: مثله. (١١) من ط ع، في الأصل: وابن إبراهيم، في م: ابن إبراهيم. (١٢) من ط ع. (١٣) من ط ع وم، في الأصل: الذي.

قبلَ أشهرِ الحجِّ) [السيوطي في الدر المنثور: ١/٥٢٦]. فأصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ، يكرهونَ الإحرامَ قبلَ أشهرِ الحجِّ، واتَّبَعُوا في كراهيتِهِمْ ما رُوِيَ عنِ السلَفِ: النهيُ عنْ ذلكَ. لكنهُمْ يقولُونَ: (إنْ أحرَمَ يجوزُ)، واحتجَّ بعضُ أصحابِنا في ذلكَ بأنْ قالَ: للحجِّ ميقاتٌ ووقتٌ، وأجمعُوا أنَّ مَنْ أحرَمَ بالحجِّ قبلَ الميقاتِ فإحرامُهُ صحيحٌ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ الأشهرُ كلُّها، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: ٣٦] [وهي الأشهرُ][(1)] كلُّها. وهي معلومةٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]؛ فإنْ كانَ هذا تأويلَ الآيةِ ففيهِ دليلُ جوازِ الإحرامِ بالحجِّ في الأشهرِ كلِّها.

وقالَ آخرونَ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾؛ وهو ما ذكَرْنا مِنْ قولِ جماعةٍ مِنَ السلفِ، قالُوا: (إنها شوالٌ وذو القعدةِ وعشرٌ مِنْ ذي الحجَّةِ) غيرَ أنهُ يتوجَّهُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنَّ لفعلِ الحجِّ ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ دليلُهُ قولُهُ [تعالى][(2)]: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ سمَّاهُ حجًّا بأبعدِ[(3)] مسببِ الإلزامِ، فثبتَ أنَّ ما بعدَ الإحرامِ حجٌّ.

والوجهُ الثاني: أنَّ للحجِّ ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ لا يدخلُ فيها غيرُهُ، ثم أدخلَ فيها العمرةَ رخصةً. دليلُهُ قولُهُ [ﷺ][(4)]: «دخلتِ العمرةُ في الحجِّ إلى يوم القيامةِ، وشَبَّكَ بينَ أصابِعِه» [مسلم: ١٢٤١]؛ فيكونُ معناهُ: إنَّ للحجِّ أشهراً[(5)]، أي لفعلِهِ ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ اختُلِفَ فيما بهِ فرضُ[(6)] الحجِّ؛ قالَ بعضُهُمْ: إذا نَوَى الحجَّ صارَ محرماً؛ لبَّى، أو لم يُلَبِّ، وقالَ آخرونَ: إذا نَوَى أنْ يعملَ بجميعِ ما أُمِرَ، وأنْ ينتهيَ عنْ جميعِ ما نُهِيَ صارَ بذلكَ محرماً. وأمّا عندَنا فإنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي لبَّى فيهنَّ بالحجِّ. دليلُهُ ما رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباسٍ وابنِ عمرَ، رضوانُ اللهِ تعالى عنهمْ أجمعينَ، أنهمْ قالُوا: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي لبَّى. وأمّا بالنيةِ مُجَرَّداً فإنهُ لا يكونُ محرماً. وما رُوِيَ أيضاً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ قالَ لعائشةَ رضي الله عنها وقد رآها حزينةً. ما لَكِ؟ فقالَتْ: أنا قَضَيتُ عمرَتي، وألْفاني الحجُّ عاركاً، فقالَ: ذلكَ شيءٌ كتبَهُ اللهُ تعالى على بناتِ آدمَ، فحجِّي، وقولي ما يقولُ المسلمونَ في حجِّهِمْ» [مسلم: ١٢١١/١١٩].

فبيَّنَ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ لعائشةَ رضي الله عنها باتِّباعِهِمْ فيها. وعنْ عائشة رضي الله عنها أنها قالَتْ: (لا يُحرِمُ إلاّ مَنْ أهَلَّ، ولبَّى). فدَلَّتْ هذهِ الأحاديثُ النبويَّةُ على أنَّ التلبيةَ فرضُ الحجِّ، وعنْ هؤلاءِ الأئمةِ وأمثالِهِمْ [نأخُذُ الدينَ منهمْ][(7)]، فلا تجوزُ مخالفتُهُمْ ولا العدولُ عنْ سبيلِهِمْ.

وقالَ أصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ [إنْ خرجَ رجلٌ][(8)] معَ بدنتِهِ، وقلَّدَها، ونَوَى الإحرامَ، فهو محرمٌ، [ويقومُ][(9)] ذلكَ الفعلُ منهُ مقامَ التلبيةِ والحجَّةِ. لذلكَ «إنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لأصحابِهِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهمْ أجمعينَ، في حجتِهِ لمّا أمرَهُمْ أنْ يَحِلُّوا العمرةَ، فقالُوا [لهُ][(10)]: إنكَ لم تَحِلَّ قالَ: «إني قلَّدْتُ الهدْيَ، فلا أَحِلُّ مِنْ إحرامي إلى يومِ النحرِ» [البخاري: ١٥٦٦]. وقالَ: «لوِ استقبلْتُ مِنْ أمري ما استدْبَرْتُ ما سُقْتُ الهدْيَ» [البخاري: ٧٢٢٩]. فأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الذي منعَهُ مِنَ الحِلِّ تقليدُهُ الهدْيَ، وأنَّ ذلكَ قامَ مقامَ الإحرامِ لوجدَّدَهُ بعدَ الطوافِ.

ورُوِيَ عنْ عليٍّ وعبدِ اللهِ [بنِ مسعودٍ][(11)] وجابرٍ رضي الله عنه أنهمْ قالُوا: (إذا قَلَّدَ فقدْ أحرَمَ)، وكذلكَ قالَ [عبدُ اللهِ][(12)] بنُ عباسٍ رضي الله عنهما (إذا قلَّدَ، ويريدُ الحجَّ والعمرةَ، فقد أحرَمَ)، وما رُوِيَ عنْ عائشةَ رضي الله عنها (لا يُحرِمُ إلا مَنْ أهلَّ، ولبَّى)؛ فذلكَ عندَنا في الذي يقلِّدُ، ولا يخرجُ معها، لا يصيرُ محرِماً. ألا تَرَى ما رُوِيَ عنْ عائشةَ رضي الله عنها أنها قالَتْ: (كانَ النبيُّ ﷺ يبعثُ بهديِهِ، ويقيمُ، فلا يُحَرَّمُ عليهِ شيءٌ)؟

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) من ط ع. (٣) في ط ع: ما بعد، ساقطة من م. (٤) من ط ع. (٥) في النسخ الثلاث: أشهر. (٦) من ط ع، في الأصل وم: كفرض. (٧) في النسخ الثلاث: الذين منهم الدين نأخذ. (٨) في ط ع: أن رجلاً إذا خرج. (٩) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٠) من ط ع. (١١) من ط ع. (١٢) من ط ع.

وقولُهُ: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾؛ قيلَ: الرفثُ جميعُ حاجاتِ الرجالِ إلى النساءِ، وقالَ ابنُ عباسٍ: (الرفثُ: الجماعُ)، [وعنْ عبدِ اللهِ][1] بنِ عمرَ ﷺ مثلُهُ. وأجمعَ أهلُ العلمِ أنَّ المحرمَ لا يجوزُ لهُ أنْ يقبِّلَ امرأتَهُ، ولا يمسَّهَا بشهوةٍ، ويوجِبُونَ على منْ فعلَ ذلكَ دماً. رُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ ﷺ: (إذا باشرَ المحرمُ امرأتَهُ أهرقَ دماً)، وعنْ عليٍّ ﷺ (إذا قبَّلَ المحرمُ امرأتَهُ فعليهِ دمٌ). وسُئِلَتْ عائشةُ ﷺ عمّا يحِلُّ للمحرمِ منِ امرأتِهِ؟ فقالَتْ: (يُحَرَّمُ عليه كلُّ شيءٍ سِوَى الكلامِ).

وقولُهُ: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾؛ قيلَ: الفُسوقُ: السَّبُّ، وقيلَ: هو كلُّ فِسقٍ، والفِسقُ، حقيقةً، الخروجُ مِنْ أمرِ اللهِ تعالى؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أي خرجَ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾؛ قيلَ: [الجدالُ][2]: المِراءُ؛ وذلكَ أن العربَ كانَتْ تُؤخِّرُ الأشهرَ الحُرُمَ، وتُعجِّلُ؛ وفي ذلكَ نزلَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، فبيَّنَ رسولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «إنَّ السَّنَةَ قدِ استدارَتْ كَهَيْئَتِها يومَ خلقَ السمواتِ والأرضِ، فعلى ذلكَ استدارَ وقتُ الحجِّ إلى حيثُ جعلَ؛ لا يتقدَّمُ أبداً، ولا يتأخَّرُ، فلا تُمارُوا فيهِ» [بنحوه البخاري: ٤٦٦٢]. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: (لا تجادِلْ صاحبَكَ، حتى تغضبَهُ). وأشبهُ الأمورِ، واللهُ أعلمُ، بتأويلِ الآيةِ أنَّ اللهَ ﷻ أمرَ بحفظِ اللسانِ والفرجِ في الإحرامِ عنْ كلِّ ما يُذكَرُ مِنْ فُسوقٍ ومَعصيةٍ ومُجادلةٍ ومُخاصمةٍ، وعنِ الرَّفثِ بالفعلِ والقولِ؛ لأنهُ يُروى أنَّ الفضلَ بنَ العباسِ كانَ رَدِفَ النبيِّ ﷺ وكانَ الفتى يلاحظُ النساءَ، فينظُرُ إليهنَّ، فجعلَ[4] النبيُّ ﷺ يصرِفُ وجهَهُ بيدِهِ مِنْ خلفِهِ، فقالَ النبيُّ ﷺ «إنَّ هذا يومٌ: مَنْ ملكَ سمعَهُ وبصرَهُ ولسانَهُ غفرَ لهُ» [الطبراني في الكبير: ١٢٩٧٤] أو كما قالَ. ورُوِيَ عنه أنهُ قالَ: «مَنْ حجَّ فلمْ يرفُثْ، ولم يفسُقْ، رجعَ كيومِ ولدتْهُ أمُّهُ» [البخاري: ١٥٢١].

وقولُهُ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ويُجزِهِ، ترغيبٌ منهُ في كلِّ خيرٍ. وقولُهُ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ قيلَ: تَزَوَّدُوا للحجِّ والعمرةِ ما تكفُونَ بهِ وجوهَكُمْ عنِ المسألةِ، ولا تخرُجُوا بلا زادٍ لتكونُوا عِيالاً على الناسِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ بالتزوُّدِ للمعادِ؛ يدلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ يقولُ: إنَّ تقوى اللهِ خيرٌ مِنْ زادِ الدنيا.

وقولُهُ: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ يَحتمِلُ ﴿وَٱتَّقُونِ﴾ المعاصيَ والمناهيَ وكلَّ فِسقٍ، ويَحتمِلُ على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: وتزوَّدُوا يا أولي الألبابِ، واتَّقُوني في المسألةِ مِنَ الناسِ.

الآية ١٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ قيلَ: التجارةُ؛ وذلكَ أنَّ أهلَ الجاهليةِ كانُوا يَتحرَّجونَ مِنَ التجارةِ في عشرٍ منْ ذي الحجَّةِ، فلمّا أنْ كانَ الإسلامُ امتنَعَ أهلُ الإسلامِ عنِ التجارةِ، وأحبُّوا أنْ يكونَ خروجُهُمْ للحجِّ خاصةً دونَ أنْ يخالطَ[5] غيرَهُ مِنَ الأعمالِ، فرخَّصَ اللهُ ﷻ [للحجّاجِ طلبَ][6] الفضلِ. ورُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ ﷺ أنَّ رجلاً سألَهُ، فقالَ: إنا قومٌ نُكارَى[7]، ويزعُمونُ / ٣٢ - ب/ أنهُ ليسَ لنا حَجٌّ، فهل لنا حَجٌّ؟ فقالَ: ألسْتُمْ تُحرِمُونَ، وتقفُونَ؟ فقالَ: بلى. [قالَ][8]: فأنتم حجاجٌ. [وقالَ: جاءَ][9] رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فسألَهُ عما سألْتَني عنهُ مثلَهُ، [فلمْ يجبْهُ، حتى أنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فقالَ النبيُّ ﷺ «أنتم حجاجٌ][10]» [أحمد: ٢/ ١٥٥].

وأصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ تعالى، يَرَونَ حجَّ الأجيرِ والتاجرِ تامّاً، وظاهرُ القرآنِ يدلُّ على ذلكَ. وكانَ عندَ القومِ أنَّ الاستِئجارَ على الطاعةِ لا يجوزُ أمراً ظاهراً حتى سألُوا في هذا.

وأصلُهُ: أنَّ الحجَّ لا يمنعُ أفعالَ غيرِهِ، فأشبَهَ الصومَ، ويجوزُ فيه الإجارةُ، وكذا[11] في هذا. وأما الصلاةُ فهي مانعةٌ لِما سِواها مِنَ الأفعالِ، فاختلَفا.

---

(١) من ط ع. (٢) من ط ع. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) من ط ع، في الأصل وم: وجعل. (٥) في النسخ الثلاث: يختلط. (٦) في الأصل وط ع: للحاج وطلب، في م: للحجاج وطلب. (٧) في النسخ الثلاث: نُكرى. (٨) من ط ع. (٩) من ط ع، في الأصل وم: قال فجاء. (١٠) من ط ع. (١١) الواو ساقطة من النسخ الثلاث.

وقولُهُ: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ قيلَ: إنَّ أهلَ الجاهليةِ كانُوا يُفيضُونَ مِنْ عرفاتٍ قبلَ غروبِ الشمسِ، ومِنَ المزدلفةِ[١] بعدَ طلوعِ الشمسِ، فأُمِرَ أهلُ الإسلامِ بالخلافِ في الحالَتينِ جميعاً: أنْ يجعلُوا الإفاضةَ مِنْ عرفةَ بعدَ الغروبِ ومنَ المزدلفةِ قبلَ طلوعِ الشمسِ، واللهُ أعلمُ.

وفي الخبرِ: «خالِفُوهُمْ في الرجْعَتَينِ جميعاً». والإفاضةُ هيَ[٢] الإسراعُ في المشيِ في اللغةِ، وقيلَ: الإفاضةُ الانحدارُ.

وقولُهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ يعني المزدلفةَ، ويحتملُ الدعاءَ فيهما جميعاً، وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ ﴿ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ الجبلُ[٣] وما حولَهُ، وهو الذي يُوقَفُ عليهِ، يُقالُ لهُ: قُزَحُ، وسُمِّيَ: جَمْعاً أيضاً لأنه اجْتَمعَ فيهِ آدمُ وحواءُ. ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنه قالَ (سُمِّيَ العرفاتُ عرفاتٍ لأنَّ جبريلَ ﷺ لمّا علَّمَ إبراهيمَ المناسكَ كانَ يقولُ لهُ: عرَفْتُ عرفْتُ)، واللهُ أعلمُ بذلكَ.

وقولُهُ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: يَحتمِلُ الأمرُ بالذكرِ أمراً[٤] بالشكرِ على ما أنعمَ عليهِمْ منْ أنواعِ النعمِ، ويَحتمِلُ: اذكرُوهُ ﴿كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ وأرشدَكُمْ لأمرِ المناسكِ، ويَحتمِلُ الأمرَ بالتوحيدِ؛ كأنهُ قالَ: وَحِّدُوهُ كما وفَّقَكُمْ لدينِهِ. وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عنِ الهُدَى وعنِ المناسكِ وعنْ معرفةِ النعمِ والشكرِ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ ﷺ (الهُدَى على وجهَينِ: هُدَى عُرِّفَ ليوحِّدُوهُ، وهُدَى وُفِّقَ لطاعتِهِ).

الآية ١٩٩ وقولُهُ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾؛ قيلَ: إنَّ أهلَ الحرمِ كانُوا لا يقفونَ بعرفاتٍ، ويقولونَ: [إنا][٥] نحنُ، أهلَ حرمِ اللهِ، لا نُفيضُ كغيرِنا ممَّنْ قصدَنا، فأنزلَ اللهُ فيهِمْ [﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ يأمرُهُمْ][٦] بالوقوفِ بعرفاتٍ والإفاضةِ منها: منْ حيثُ أفاضَ غيرُهُمْ مِنَ الناسِ.

وذُكرَ عنْ عائشةَ ﷺ أنها قالَتْ: (كانَتْ قريشٌ ومنْ كانَ على دينِها[٧] يقفُونَ بالمزدلفةِ، ولا يقفونَ بعرفةَ، [وكانَ مَنْ سِواهُمْ يقفُونَ بعرفةَ][٨]، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾). وفيهِ دليلٌ أنَّ الوقوفَ بعرفةَ فرضٌ. وعلى ذلكَ جاءَتِ الآثارُ؛ رُوِيَ عنْ [رسولِ اللهِ][٩] ﷺ: «الحجُّ عرفةُ، ومنْ أدركَ عرفةَ بليلٍ، وصلَّى معنا بِجَمْعٍ، فقد تمَّ حجُّهُ» [أبو داوود: ١٩٤٩]. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ معنىً آخرَ؛ وهو أنهمْ رأوا غيرَهُمْ منْ أهلِ الآفاقِ، فإذا قصدُوا على الإحرامِ مِنْ وراءِ الحرمِ، وهمْ أُمِرُوا بالإحرامِ، فلمَّا خُصُّوا هُمْ بذلكَ ظنُّوا أنَّ قضاءَ غيرِهِ مِنَ المناسكِ في الحرمِ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ أبو منصورٍ، رحمَهُ اللهُ: (أمرَ بالإفاضةِ بحرفِ: ﴿ثُمَّ﴾ بعدَ ذكرِ المزدلفةِ، والإفاضةُ مِنْ عرفاتٍ بتقديمِ المزدلفةِ، فبانَ أنَّ حرفَ: ثمَّ مِمّا قد يُبتَدأُ بهِ أيضاً).

الآيات ٢٠٠ ـ ٢٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ قيلَ فيه بوجهَينِ: قيلَ: إنهم في الجاهليةِ كانُوا إذا قَضَوُا المناسكَ يجتمعونَ في مكانٍ، ويذكُرون آباءَهُمْ ومناقبَهُمْ، يَفتخِرونَ بذلكَ، فلمّا أسلمُوا أمرَهُمْ أنْ يذكرُوا ربَّهُمْ في الإسلامِ كذكرِهِمْ آباءَ هُمْ في الجاهلية ﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ فإنهُ أولَى بذلكَ منَ الآباءِ.

وقيلَ: إنْ يكونُوا يذكُرونَ آباءَهُمْ: ما أنعِمَ عليهِمْ، وأُحسِنَ إليهِم، فقالَ: اذكُروا لي فيما تذكُرونَ آباءَكمْ[١٠] مكانَ آبائِكمْ ما أنعمتُ عليكُمْ [وعلى آبائِكم][١١]، فاجعلُوا ذلكَ لي دونَ آبائِكمْ.

(١) من ط ع، في الأصل وم: مزدلفة. (٢) في النسخ الثلاث: هو. (٣) من ط ع وم: في الأصل: الجبيل. (٤) في النسخ الثلاث: أمر.
(٥) من ط ع. (٦) من ط ع، في الأصل: أمرهم، في م: يأمرهم. (٧) من ط ع، في الأصل وم: ديننا. (٨) من ط ع. (٩) في ط ع: النبي.
(١٠) من ط ع، في الأصل وط م: أباءهم. (١١) ساقطة من ط ع.

وقولُهُ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ الآيةُ في قوم لا يؤمنونَ بالبعثِ والإحياءِ بعدَ الموتِ؛ [طلبَوا][1] خيراتِ الدنيا، ولم يطلبُوا الخيراتِ في الآخرةِ، فأُعطُوا ما سألُوا مِنْ حسَناتِ الدنيا، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، فأُعطُوا ما سألُوا مِنْ نصيبٍ، [وكقولِهِ فيها][2]: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي يُؤتَ حرثَ الدنيا والآخرةِ؛ فمنْ كانَ رُكونُهُمْ إلى الدنيا ومَيلُهُمْ إليها لم يركَنُوا إلى دعاءِ غيرِها. وأمّا مَنْ آمنَ بالبعثِ والإحياءِ بعدَ الموتِ فإنهمْ سألُوا خيراتِ الدنيا والآخرةِ جميعاً بقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ طلبُوا حسناتِ الدنيا لأنَّ الدنيا جعلَها محلَّ الزادِ للآخرةِ لأنها جعلَها لهم، إنما خلقَهُمْ للآخرةِ كقولِهِ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثم اختُلِفَ في الحسَنَةِ في الدنيا والحسنةِ في الآخرةِ؛ قيلَ: حسنةُ الدنيا العلمُ والعبادةُ، وحسنةُ الآخرةِ الجنةُ والمغفرةُ، وقيلَ: حسنةُ الدنيا النصرُ والرزقُ، وحسنةُ الآخرةِ الرحمةُ والرضوانُ، وكلُّهُ واحدٌ.

ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ للهِ عباداً يَحْيَونَ في عافيةٍ، ويموتُونَ في عافيةٍ، ويدخلُونَ الجنةَ في عافيةٍ، قيلَ: يا رسولَ اللهِ بمَ؟[3] قالَ: بكثرةِ قولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾» [الطبراني في الأوسط: ٣١٢٧].

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ كأنهُ قالَ: حسابُهُ ﴿سَرِيعُ﴾، وقيلَ: ﴿سَرِيعُ﴾ لِما أنَّ الإبطاءَ في الحسابِ يكونُ للتفكُّرِ فيهِ والاستِذكارِ وحفظِ عقدِ الأصابعِ أو لشغلٍ شغلَهُ، فاللهُ يتعالى عنْ ذلكَ: أنْ يُوصَفَ به، أو يشغَلَهُ شيءٌ، وقيلَ: ﴿سَرِيعُ﴾ أي قريبٌ؛ كأنْ قد جاءَ، كقولِهِ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وكقولِهِ: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧] أي قريبٌ، وقيلَ: كنايةٌ عنْ عذابٍ شديدٍ، أي شديدُ العقابِ والعذابِ، وهو كقولِهِ [ﷺ][4]: «مَنْ نوقِشَ العذابَ عُذِّبَ» [مسلم: ٢٨٧٦].

الآية ٢٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾؛ قيلَ: إنهُ يحتمِلُ وجهَينِ: قيلَ: إنهُ أرادَ بالأيامِ المعدوداتِ أيامَ النحرِ والذبحِ، أي اذكُرُوا اللهَ بالنحرِ والذبحِ في أيامِكُمْ. فهو عندَ أبي حنيفةَ، رحمَهُ اللهُ، يومُ النحرِ ويومانِ بعدَهُ، وقيلَ: أرادَ بالأيامِ المعدوداتِ أيامَ رمي الجمارِ: دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وهي أيامُ التشريقِ، وهي ثلاثةُ أيامٍ بعدَ النحرِ. ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ أنه قالَ: (الأيامُ المعدوداتُ يومُ النحرِ ويومانِ بعدَهُ، اذبَحْ في أيِّها شِئتَ، وأفضلُها أوَّلُها)، وكذلكَ رُوِيَ عنْ عمرَ ﷺ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ قيلَ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [أي][5] بعدَ يوم النحرِ يومينِ[6]؛ يقولُ: مَنْ نفرَ مِنْ مِنىً قبلَ غروبِ الشمسِ [في اليوم الثاني][7] ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ومَنْ لم ينفرْ حتى غربتِ الشمسُ، وأقامَ إلى الغدِ، اليومِ[8] الثالثِ، فيرمي الجمارَ، ثم ينفرُ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وقيلَ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ مِنْ أيامِ التشريقِ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ومنْ تأخَّرَ إلى اليومِ[9] الثالثِ مِنْ أيامِ التشريقِ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

ثم لا يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وَمَنْ تأخَّرَ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أنْ يكونا جميعاً على [رخصةِ التعجُّلِ والتأخُّرِ][10] جميعاً، فلا يلحَقُهُ الإثمُ بكلَيهِما؛ لأنهُ إذا كانَ التعجُّلُ هو الرخصةَ، فالتأخُّرُ لا يكونُ رُخصةً، وإذا كانَ التأخُّرُ هو الرخصةَ فالتعجُّلُ ليسَ برخصةٍ. لكنَّ الوجهَ فيهِ، واللهُ أعلمُ: ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ غُفِرَ لَهُ ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ غُفِرَ لَهُ ما كانَ مِنَ الإثمِ والذنبِ في اليومِ الذي أخَّرَ)، واللهُ أعلمُ. ويَحتمِلُ أنهُ خيَّرَهُ:

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) في ط ع: بما. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) من ط ع.. (٦) ساقطة من م. (٧) من ط ع. (٨) من ط ع، في الأصل وم: يوم. (٩) من م، في الأصل وط ع: يوم. (١٠) في الأصل وم: الرخصة التعجل والتأخر، في ط ع: رخصة التعجيل والتأخير.

أي إنْ فعلَ ذا أو ذا ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾. وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][١] قالَ في قولِهِ: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾: (رجعَ مغفوراً [لهُ][٢]).

وقولُهُ:/٣٣ ـ أ/ ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾؛ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ قتلَ الصيدِ في الإحرامِ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي فلا تستحِلُّوا قتلَ الصيدِ في الإحرامِ. وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ (مَنِ اتَّقى معاصيَ اللهِ جملةً). وقيلَ: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ جميعَ ما يحرِّمُ عليهِ الإحرامُ مِنَ الرَّفَثِ والفسوقِ والجدالِ وغيرِهِ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾؛ خوَّفَهُمْ ﷻ لِيتَّقوهُ[٣] في كلِّ معصيةٍ؛ خرجَ الخطابُ في الظاهرِ للمؤمنينَ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ للكفارِ أيضاً بأمرِهِمْ أنْ يتَّقُوا الشركَ وإشراكَ غيرِهِ في أفعالِهِمْ لِما أوعدَهُمْ بالحَشْرِ والجزاءِ لأعمالِهِمْ.

الآية ٢٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾؛ قيلَ: إنَّ رجلاً مِنَ الكفارِ كانَ يأتي رسولَ اللهِ ﷺ فيخبِرُهُ أنهُ يحبُّهُ، وكانَ يَعِدُ لهُ الإيمانَ والمتابعةَ لهُ في دينِهِ، ويَحلِفُ على ذلكَ، وكانَ النبيُّ ﷺ يعجبُهُ ذلكَ، ويُدْنيهِ في المجلسِ، وفي قلبِهِ خِلافُ ذلكَ، فأنزلَ اللهُ ﷻ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ الآيةَ.

وقيلَ: إنها نزلَتْ في المنافِقِينَ؛ لأنهم كانُوا يُرونَ مِنْ أنفسِهِمُ الموافقةَ لهُ في الدينِ، ويُظهِرونَ أنهمْ على دينِهِ ومذهبِهِ، ويُضمِرونَ الخلافَ لهُ في السِّرِّ[٤] والعداوةَ، ويَحلِفُونَ على ذلكَ، فأنزلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ الآيةَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾؛ قيلَ: أشدُّ الخصامِ، وقيلَ: أظلمُ في الخصومةِ، لا يستقيمُ أبداً.

الآية ٢٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾؛ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي يقتلُ النساءَ، وهنَّ حرثٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وفي إهلاكِ النساءِ إهلاكُ [الناسِ][٥]، وقيلَ: أرادَ بالحرثِ نفسَهُ، وهو الزرعُ، وبالنسلِ[٦] الدوابَّ؛ يَحرُقُ الحرثَ، ويَعقِرُ الدوابَّ وكلَّ حيوانٍ، وقيلَ: إنهمْ كانوا يَسْعَونَ بالفسادِ، ويعملونَ بالمعاصي، فيمسِكُ اللهُ عنهمُ المطرَ، فيهلِكُ كلُّ شيءٍ مِنَ الناسِ وغيرِهِمْ. ويَحتمِلُ: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ﴾ قتلَ وَلَدِ آدمَ، وفي إهلاكِهِمْ إهلاكُ كلِّ حرثٍ؛ لأنهمْ هُمُ الذينَ يحرُثُونَ، ويتناسَلُونَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾؛ ظاهرٌ.

الآية ٢٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾: ﴿قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ عن صنيعِكَ، وهو السعيُ في الأرضِ بالفسادِ، حملَتْهُ الحميَّةُ على الإثمِ تكبُّراً منهُ، قالَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلمُ: أعرِضْ عنهُ، واتركْهُ وصنيعَهُ، فإنَّ جهنَّمَ مصيرُهُ ومأواهُ. ورُوِيَ[٧] عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: (إنَّ أبغضَ الناسِ مَنْ يُقالُ لهُ: اتقِ اللهَ، فيقولُ: عليكَ نفسَكَ).

الآية ٢٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾؛ يَحتملُ ﴿يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ﴾ أي يُهلِكُ نفسَهُ، أي يَبيعُ نفسَهُ في عبادةِ اللهِ تعالى وطاعتِهِ، فذلكَ شراؤُهُ إياها، ويَحتمِلُ ﴿يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ﴾ أي يبذُلُ نفسَهُ للجهادِ في سبيلِ اللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فهؤلاءِ بذلُوا أنفسَهُمْ لذلكَ بتفضيلِ اللهِ ﷻ ببذلِ الجنةِ لهمْ، فهو [الشراءُ][٨]، واللهُ أعلمُ، وهو ما رُوِيَ أنَّ أبا بكرٍ الصديقَ ﷺ ألقى نفسَهُ على رسولِ اللهِ ﷺ عندما هَمَّ المشركُونَ قتلَهُ. وفيهِ دلالةُ أنَّ أبا بكرٍ [الصِّدِّيقَ][٩] ﷺ كانَ أشجعَ الصحابةِ وأصلبَهُمْ، وإنْ كانَ ضعيفاً في نفسِهِ، لِما لا يتجاسَرُ أحدٌ مِنَ الصحابةِ على مثلِهِ. وما رُوِيَ [أيضاً][١٠] أنهُ خرجَ لمقاتلةِ أهلِ الرِّدَّةِ وحدَهُ. فدلَّ هذا كلُّهُ أنهُ كانَ أشجعَهُمْ وأصلبَهُمْ في الدينِ. وقيلَ: إنَّ هذهِ الآيةَ نزلَتْ في صُهَيبٍ: ابتاعَ دينَهُ بأهلِهِ ومالِهِ على ذلكَ.

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط ع، وم. (٣) في الأصل وم: ليتقوا، في ط ع: ليتقوا الله. (٤) من ط ع، في الأصل وم: السير.
(٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) في النسخ الثلاث: والنسل. (٧) من ط ع، في الأصل وم: وما روي. (٨) من ط ع، في م: الشرى، ساقطة من الأصل. (٩) من ط ع. (١٠) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ يَحتمِلُ إنْ أرادَ كلَّ العبادِ، وهو أنَّ الكافرَ إذا أسلمَ، وأخلصَ دينَهُ للهِ، يتغمَّدُهُ في رحمتِهِ، ويقبلُ منهُ ذلكَ، ويتجاوزُ عنهُ عمّا كانَ منهُ في الشركِ والكفرِ، واللهُ أعلمُ. ويَحتمِلُ إنْ أرادَ بالعبادِ المؤمنينَ[1] خاصةً، [فهوَ][2] رحيمٌ بهمْ.

الآية ٢٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ فيه لغتانِ[3]؛ بالكسرِ والنصبِ، فمَنْ قرأَ [ذلكَ][4] بالكسرِ، فهو الإسلامُ، ومنْ قرأَ [ذلكَ][5] بالنصبِ، فهو الصلحُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩] إلى آخرِ الآيةِ. فإنْ قيلَ: كيفَ أمرَ بالدخولِ، وهمْ فيهِ لأنهُ خاطبَ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ قيلَ بوجوهٍ:

أحدُها: أنهُ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آمنتمْ][6] بالسنتِكُمْ آمِنُوا بقلوبِكُم، ويَحتمِلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ببعضِ الرسلِ مِنْ نحوِ عيسى وموسى وغيرِهما[7] مِنَ الأنبياءِ آمِنُوا بمحمدٍ ﷺ وقيلَ: أمْرُهُ إياهُمْ بالدخولِ أمرٌ بالثباتِ عليهِ. وقيلَ: إنهُ تعالى إنما[8] أمرَهُمْ فيهِ لأنَّ للإيمانِ حكمَ التجدُّدِ والحدوثِ في كلِّ وقتٍ؛ لأنهُ فعلٌ، والأفعالُ تنقضِي، ولا تبقَى، كأنهُ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيما مضَى مِنَ الأوقاتِ، آمِنُوا في حادثِ الأوقاتِ. وعلى هذا يُخرَّجُ تأويلُ قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ قد ذكرْنا تأويلَهُ فيما تقدَّمَ[9].

الآية ٢٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي مِلْتُمْ، وتركتُمْ مِنْ بعدِ ما ظهرَ لكمُ الحقُّ، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قيلَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي منتقمٌ بمَيلِكُمْ وتركِكُمُ الحقَّ بعدَ الظهورِ، ويَحتمِلُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي غنيٌّ عنْ طاعتِكُمْ لهُ وعبادتِكُمْ إياهُ، [وقيلَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ [أنْ يُقهَرَ، أو يُذَلَّ، أو يُغلَبَ؛ لأنَّ العزيزَ نقيضُ الذليلِ][10]، وقيلَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يقدرُ أحدٌ أنْ يصلَ إليهِ، ولا[11] يُقهرُ الإذلالُ نفسَهُ كما يُقالُ:][12] ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُرامُ.

الآية ٢١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بأمرِهِ، وهو قولُ الحسنِ، وقيلَ: ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أمرُ اللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ [النحل: ٣٣]، وكقولِهِ: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] على إضمارِ الأمرِ فيهِ، وقيلَ: ﴿فِي ظُلَلٖ﴾: الـ: في بمعنى الـ: باء، وكأنهُ قالَ: يأتيهُمُ اللهُ بِظُلَلٍ مِنَ الغمامِ، وذلكَ جائزٌ استعمالُ الـ: في مكانَ الـ: باءِ لأنهما جميعاً مِنْ حروفِ الخفضِ، والعربُ تفعلُ ذلكَ، ولا تأبَى.

والأصلُ في هذا ونحوِهِ أنَّ إضافةَ هذهِ الأشياءِ إلى اللهِ ﷻ لا تُوجِبُ حقيقةَ وجودِ تلكَ الأشياءِ منهُ على ما يوجَدُ مِنَ الأجسامِ، لِما يجوزُ إضافتُهُ إلى مالا يوجدُ منهُ تحقيقُ ذلكَ نحوَ ما يُقالُ: جاءني أمرٌ فظيعٌ، [وقولِهِ تعالى][13]: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: ٨]، وجاءَ فلانٌ بأمرِ كذا، وقولِهِ[14]: ﴿جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فذكرُ المجيءِ والإتيانِ لا على تحقيقِ وجودِ ذلكَ منهُ. فعلى ذلكَ يُخرَّجُ ما اضافَ اللهُ ﷻ إلى نفسِهِ مِنَ المجيءِ والإتيانِ والاِسْتِواءِ منهُ على تحقيقِ ما يكونُ مِنَ الأجسامِ. وفي الشاهدِ أنَّ ملوكَ الأرضِ يُضيفُونَ إلى أنفسِهِمْ ما عُمِلَ بأمرِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ يَتَولَّوها بأنفسِهِمْ، وكذلكَ أضافَ، جلَّ ذكرُهُ، أمرَ القيامةِ إلى نفسِهِ لفضلِ ذلكَ الأمرِ.

ثم الأصلُ أنَّ الإتيانَ والاِنْتِقالَ والزوالَ في الشاهدِ إنما يكونُ لخَلَّتَينِ: إمّا لحاجةٍ بَدتْ، فَيَحتاجُ إلى الانتقالِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ والزوالِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ لِيقضِيَها، وإمّا[15] لسآمةٍ ووحشةٍ، تأخذُهُ، فَيَنتقِلُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ لِينفِيَ عنْ

(١) من م، في الأصل وط ع: بالمؤمنين. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) قرأ نافع وابن كثير والكسائي في السِّلم بالكسر: انظر حجة القراءات ص ١٣٠ . (٤) من ط ع. (٥) من ط ع. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) في النسخ الثلاث* وغيرهم. (٨) ساقطة من ط ع.
(٩) كان ذلك في تفسير الآية ١٦٨ . (١٠) من م. (١١) في ط ع وم: أو. (١٢) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٣) في النسخ الثلاث: و.
(١٤) في النسخ الثلاث: و. (١٥) في النسخ الثلاث: أو.

نفسِهِ ذلكَ. وهذانِ الوجهانِ في ذا[1] المكانِ، واللهُ يَتعالى عنْ أنْ تمسَّهُ حاجةٌ، أو تأخذَهُ سآمةٌ، فبطلَ الوصفُ بالإتيانِ وَالمجيءِ والانْتِقالِ منْ حالٍ إلى حالٍ، أو [مِنْ][2] مكانٍ إلى مكانٍ، وباللهِ التوفيقُ.

وقيلَ: إنَّ النصَّ قد وردَ بالإِسْتِواءِ والمجيءِ، والخبرَ بالنزولِ والرؤيةِ، ثم قد وردَ السمعُ بأنْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ لزمَ نفيُ التشبيهِ فيما وَرَدَ عَنْ ذاتِهِ، ولزمَ الإقرارُ بما جاءَ مِنْ عندِهِ منْ غيرِ طلبِ الكيفيَّةِ لهُ والتفسيرِ. فالسبيلُ فيهِ الإيمانُ بالتنزيلِ والكفُّ عنِ التفسيرِ، واللهُ أعلمُ.

وفي الشاهدِ: الإتيانُ في العَرَضِ /٣٣ ـ ب/ ظهورُهُ، وفي الجسمِ بنقلِهِ منْ مكانٍ إلى مكانٍ، وهو، جلَّ ذكرُهُ، جلَّ أنْ يوصفَ بجسمٍ أو عَرَضٍ. كذلكَ إتيانُهُ لا يُشبهُ إتيانَ الأجسامِ والأعراضِ، ويكونُ إتياناً[3] لا تُعرفُ كيفيتُهُ، وكما جازَ أنْ يكونَ هو مثبتاً بدليلٍ لا يُشبهُهُ عَرَضٌ ولا جسمٌ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢١١ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ يحتملُ وجوهاً:

يَحتملُ أنْ يكونَ أمرَ ﷻ نبيَّهُ ﷺ [بسؤالِهِ إياهمْ عمّا أتاهُمْ مِنَ الاياتِ على إثْرِ سؤالٍ منهمْ بطلبِ الآياتِ، فقالَ: سلْ يا محمدُ كم آتيناهُمْ وأجدادَهُمْ مِنَ الآياتِ على يَدَي موسى؟ فكفرُوا بهِ، ولم يؤمنُوا. فأنتمْ، وإنْ آتيناكُمْ آياتٍ لا تؤمنُونَ أيضاً. يخبرُ نبيَّهُ ﷺ][4] أنَّ سؤالَهُمْ كانَ سؤالَ تَعَنُّتٍ لا سؤالَ قبولٍ وتصديقٍ، واللهُ أعلمُ.

ويحتملُ أنْ يكونَ لا على إثْرِ سؤالٍ كانَ منهمْ، ولكنْ على الإِبْتِداءِ: أنْ سلْ[5] علماءَ بني إسرائيلَ: الآيةَ. ويَحتملُ: ﴿سَلْ﴾ لا على الأمرِ بهِ في التحقيقِ والتبيينِ لأنكَ[6] لو سألتَهُمْ لأخبرُوكَ، أو يكونَ المرادُ منْ ذلكَ في الذينَ تضيقُ صدورُهُمْ عندَ الإخبارِ أنهمْ لو جاءَتْهُمُ الآياتُ التي سألُوا عنها لا يؤمنُونَ ليُخبَرُوا بذلكَ، فتطمئنَّ بذلكَ قلوبُهُمْ، فتزولَ عنها الخَطَراتُ وأنواعُ الوَساوِسِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ قيلَ: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ دينُ اللهِ؛ مَنْ بدَّلَهُ بعدَ ظهورِهِ وبيانِهِ، وقيلَ: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ أي مَنْ كفرَ بهِ بعدَ ما علمَ أنهُ رسولُ اللهِ، ويحتملُ ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ النعمَ المعروفةَ التي كانَ آتاهُمْ مِنَ المنِّ والسَّلْوى والغمامِ وغيرِها[7] ممّا لم يُؤتِ أحداً مِنَ العالمِينَ مِثْلَها[8].

وقولُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ خوَّفَهُمْ ﷻ وحذَّرَهُمْ على تبديلِ ذلكَ وتركِهِ والكفرِ بِنَبيِّهِ ﷺ بعدَ معرفتِهِمْ أنهُ حقٌّ، واللهُ أعلمُ. ويكونُ تبديلُ ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ بتوجيهِ الشكرِ إلى غيرِهِ، وهو أنْ يُعبدَ غيرُهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قالَ الحسنُ: (زيَّنَ لهمُ الشيطانُ ذلكَ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾) [النمل: ٢٤]. ولكنْ معناهُ، واللهُ أعلمُ، أنْ زيَّنَ لهمُ التزيُّنَ، يكونُ بوجهَينِ: بزينةِ الطبعِ لقربِ الشهواتِ وبزينةِ العقلِ لقيامِ الأدلةِ، فيكونُ التزيُّنُ بالثوابِ. وأمّا ما ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لِما رُكِّبَ فيهمْ مِنَ الشهواتِ وميلِ الطبعِ إليهِ. وأمّا الوجهانِ الآخرانِ فهما للمؤمنِينَ.

وقولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. يَحْتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الحجةِ؛ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ويَحتمِلُ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الجزاءِ والثوابِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: يَحتمِلُ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغيرِ تَبِعةٍ، ويَحتمِلُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا على قَدْرِ الأعمالِ، ولكنْ على قَدْرِ الشهوةِ وزيادةً عليها؛ لأنَّ رزقَ الجنةِ على ما يُنتَهى إليه مِنَ الشهواتِ، ورزقَ الدنيا مقدَّرٌ على قَدْرِ الحاجةِ والقوتِ؛ إذ لا أحدَ يبلغُ مناهُ في الدنيا وحاجتَهُ، وفي الآخرةِ: كلٌّ ينالُ فوقَ مناهُ، ولأنَّ أكلَ الشهوةِ في الدنيا هو المؤذي. ويَحتمِلُ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي من غيرِ أنْ يُنقِصَ ذلكَ مِنْ ملكِهِ وخزائنِهِ، وإنْ عِظَمُ عطاياهُ وكُثْرُ مالِهِ ليسَ كخزائِنِ المخلوقِينَ تنتقِصُ بالدفعِ، وتَنفَدُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: ذي. (٢) من ط ع. (٣) في النسخ الثلاث: إتيانٌ. (٤) من م وط ع. (٥) في النسخ الثلاث: سئل. (٦) في النسخ الثلاث: أنك. (٧) في النسخ الثلاث: وغيره. (٨) في النسخ الثلاث: مثله.

الآية ٢١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قالَ أبو موسى الأشعريُّ ﷺ وآخرُ معهُ منَ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، قالا: (﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ كُلُّهُمْ كفارٌ إلى أنْ بعثَ اللهُ ﷺ فيهِمُ النبيِّينَ) وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﷺ: (﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مؤمنينَ كُلُّهُمْ زمنَ نوحٍ ﷺ [وهمُ][1] الذين كانوا في السفينةِ إلى أنِ اختلفُوا منْ بعدُ، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ فيهِمُ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾) وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [مؤمنينَ كلُّهُمْ زمنَ آدمَ ﷺ][2] إلى أنْ أنزلَ اللهُ الكتابَ عليهِمْ، وبعثَ فيهِمُ الرسلَ.

ولو قيلَ بغيرِ هذا كانَ أقربَ؛ قولُهُ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني صِنفاً واحداً، ومعنى الأمةِ معنى الصِّنفِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] يعني أصنافاً، ثم خصَّ اللهُ تعالى صِنفاً: بَعَثَ الرسلَ إليهِمْ، وأنزلَ الكتبَ عليهِمْ منْ بينِ غيرِها منَ الأصنافِ تفضيلاً[3] لهم وإكراماً؛ وبعثَ كلَّ رسولٍ إلى قومِهِ، فيهِمْ كفارٌ، وفيهِمْ مؤمنونَ، لأنَّ الأرضَ لا تخلو مِنْ نبيٍّ أو وليٍّ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] ليعلَمُوا أنَّ سائرَ أصنافِ الخَلْقِ خُلِقوا لهمْ ولِحاجاتِهِم، وهو قولُ الحسنِ، وكذلكَ قولُ أبي حنيفةَ ﷺ: (إنَّ الأرضَ لا تخلو منْ نبيٍّ أو وليٍّ) واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ﴾ لمَنْ أطاعَهُ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمَنْ عصاهُ. وجائزٌ أن تكونَ البشارةُ والنِّذارةُ جملةً له[4] عنِ الوقوعِ بما بهِ يقعانِ مختلفٌ، كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] وقولِهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقولُهُ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ وجهينِ: يَحتمِلُ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الكتابُ المُنزلُ عليهِمْ بالحقِّ فيما بينَهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٢]. وقرأَ بعضُهُمْ ﴿لِيَحْكُمَ﴾[5] بالياءِ، وقرأ آخرونَ بالتاءِ؛ فمنْ قرأَ بالياءِ جعلَ الكتابَ، هو المنذِرُ، ومنْ قرأَ بالتاءِ صيَّرَ الرسولَ، هو المنذِرُ. فكذلكَ في هذا لِيحكمَ الكتابُ بينَهُمْ بالحقِّ، ولِيحكمَ الرسولُ بالكتابِ فيما بينَهُمْ بالحقِّ.

وقولُهُ: ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ وجوهاً: يَحتمِلُ ﴿فِيهِ﴾ في محمدٍ ﷺ ويحتملُ ﴿فِيهِ﴾[6] في دينِهِ؛ ويَحتملُ [﴿فِيهِ﴾ في ما اختلفُوا فيهِ في كتابِهِ][7].

وقولُهُ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي ما اختلفُوا فيهِ إلَّا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ والعلمُ؛ إمّا مِنْ جهةِ العقلِ، وإمّا مِنْ جهةِ السمعِ والكتبِ والخُبْرِ، وإمّا مِنْ جهةِ المُعاينةِ والمُشاهدةِ، لكنهمْ تعانَدُوا، وكابرُوا، وكفرُوا بهِ.

[وقولُهُ: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾؛ قيلَ: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي][8] حَسَداً بينَهُمْ، وقيلَ: [﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾][9] ظلماً منهمْ؛ ظلَموا محمداً ﷺ.

وقولُهُ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ، أي هَدَى اللهُ الذينَ آمنُوا، ولم يختلِفُوا مِنْ بينِ الذينَ اختلَفُوا. ويَحتمِلُ: هدَى اللهُ منْ أنصفَ، ولم يُعانِدْ، ولم يهدِ الذينَ عاندُوا، ولم يُنصِفُوا.

وقولُهُ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ [يَحتمِلُ وجوهاً: قيلَ:][10] ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمرِهِ، وقيلَ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾[11] بفضلِهِ. لكنَّ قولَهُ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾[12] بأمرِهِ لا يَحتمِلُ، ولكنْ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بِمشيئتِهِ وإرادتِهِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيهِ دلالةُ [أنهُ][13] مَنْ شاءَ أنْ يَهْتَدِيَ هداهُ[14]، ومَنْ لم يشأْ أنْ يَهْتَدِيَ

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط ع، في الأصل وم: زمن آدم مؤمنين. (٣) في النسخ الثلاث: تفضلا. (٤) ساقطة من م. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج١/ ٢٩١ و٢٩٢ . (٦) من ط ع. (٧) في الأصل وم: ما اختلفوا فيه في كتابه، في ط ع ﴿فِيهِ﴾ في كتابه. (٨) من ط ع، في الأصل وم: ﴿بَغْيًۢا﴾ قيل. (٩) من ط ع. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: قيل. (١١) من ط ع. (١٢) من ط ع. (١٣) من ط ع وم. (١٤) في النسخ الثلاث: فاهتدى.

لم يَهْدِهِ[١]، لأنهُ لو كانَ شاءَ أنْ يهتدُوا جميعاً[٢] على ما يقولُهُ المعتزلةُ لكانَ يقولُ: واللهُ يَهْدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ، ولم يقلْ: مَنْ يشاءُ [على أنهُ شاءَ][٣] إيمانَ منْ آمنَ، ولم يشأْ إيمانَ منْ لم يؤمنْ. فالآيةُ تنقضُ[٤] على المعتزلةِ قولَهُمْ: إنه شاءَ أن يؤمنُوا، لكنْ آمنَ بعضُهُمْ، ولم يؤمنِ البعضُ.

وفي قولِهِ: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ دلالةٌ على ألّا يُفهمَ منَ البعثِ والإتيانِ والمجيءِ الانْتِقالُ منْ مكانٍ إلى مكانٍ، ولا الزوالُ منْ موضعٍ إلى موضعٍ، لأنهُ ذكرَ البعثَ، وهمْ كانُوا بينَ ظهرانيهِمْ، فدلَّ أنهُ يرادُ الوجودُ، لا غيرُ.

الآية ٢١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾؛ قيلَ: معنى قولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ على إسقاطِ أم[٥] وقيلَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بمعنى: بل حسبْتُمْ.

وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾؛ قيلَ: شبهُ[٦]، وقيلَ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾، خبرُ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ وقيلَ: [﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ سُنَنُ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾][٧] منَ البلاءِ والمحنِ التي أصابتِ الماضينَ منَ المؤمنينَ.

وقولُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ الآيةُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبلَ أنْ تُبتَلوا كما ابْتُلِيَ مَنْ قبلَكُمْ؛ أي لا تظنُّوا ذلكَ جملةً، وإنْ كانَ فيها مَنْ يدخلُ، واللهُ أعلمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ [العنكبوت: ٢] [إلى آخرِ الآيةِ][٨].

وقيلَ: إنَّ القصةَ فيها[٩] أنَّ المنافقينَ قالُوا للمؤمنينَ: لِمَ تقتلُونَ أنفسكُمْ/ ٣٤ ـ أ/ وتُهلكُونَ أموالَكُمْ؟ فإنهُ لو كانَ محمدٌ نبياً لم نُسلَّطْ عليهِ، فقالَ المؤمنونَ لهمْ: إنَّ مَنْ قُتلَ مِنّا دخلَ الجنةَ، فقالُوا: لِمَ تمنُّونَ الباطلَ والبلايا؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ مِنْ غيرِ أنْ تُبتَلوا، ويصيبَكُمُ الشدائدُ ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ خبرُ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾.

وقولُهُ: ﴿وَزُلْزِلُوا﴾؛ قيلَ: حُرِّكُوا، وقيلَ: جُهِدُوا.

وقولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [يعني: قالَ الرسولُ][١٠] ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾؟ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: [﴿يَقُولَ الرَّسُولُ﴾][١١] والمؤمنونَ جميعاً ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ثمَّ يقولُ اللهُ لهمْ: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، [وقيلَ: يقولُ المؤمنونَ ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾؟ ثم يقولُ الرسولُ: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾][١٢]. ويَحتمِلُ هذا في كلِّ رسولٍ بعثَهُ اللهُ إلى أمتِهِ؛ يقولُ هذا، وأمتُهُ يقولونَ أيضاً. ويَحتمِلُ أنْ كانَ هذا في [رسولٍ دونَ رسولٍ،][١٣] على ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ فلانٌ. وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ سبيلٌ إلّا مِنْ جهةِ السمعِ، ولا حاجةَ لنا إلى معرفتِهِ.

[وفي قولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]، وفي قولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وجهٌ آخرُ، وهو أنهمْ، واللهُ أعلمُ، ظنُّوا لَمّا أتَوا بالإيمانِ أنْ يدخلُوا الجنةَ، ولا يُبْتَلَونَ بشيءٍ مِنَ المِحَنِ والفتنِ وأنواعِ الشدائدِ، فأخبرَ ﷺ أنَّ في الإيمانِ المِحَنَ والشدائدَ، لا بدَّ منها، كقولِهِ [ﷺ][١٤]: «حُفَّتِ الجنةُ بالمكارهِ وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ» [مسلم: ٢٨٢٢]، واللهُ أعلمُ. وكقولِهِ: ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت١ و٢]؛ ولأنَّ الإيمانَ منْ حيثُ نفسُهُ ليسَ بشديدٍ، لأنهُ معرفةُ حقٍّ وقولُ صدقٍ، ولا فرقَ بينَ قولِ الصدقِ [وقولِ الكذبِ][١٥]، ومعرفةُ الحقِّ [ومعرفةُ الباطلِ][١٦] في احتمالِ المُؤَنِ، والإيمانُ مخالفةُ الهوى والطبعِ؛ وذلكَ في أنواعِ المِحَنِ][١٧]، [واللهُ أعلمُ][١٨].

---

(١) في النسخ الثلاث: يهتد. (٢) أدرج بعد هذه الكلمة في ط ع: أنه من شاء أن يهتدوا جميعاً. (٣) من ط ع. (٤) في ط ع: تنقص. (٥) في الأصل وم: الميم. (٦) من ط ع، في الأصل وم: الذين من. (٧) في الأصل وم: سنن ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾، في ط ع: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾. (٨) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه العبارة. (٩) في النسخ الثلاث: فيه. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) من ط ع. (١٢) من ط ع. (١٣) من ط ع وم. (١٤) من ط ع. (١٥) من ط ع، في الأصل وم: والكذب. (١٦) من ط ع، في الأصل وم: والباطل. (١٧) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم في آخر تفسير الآية ٢١٥، بعد: وفيه دلالة لزوم نفقة الوالدين والمحارم. (١٨) من ط ع.

الآية ٢١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ فظاهرُ هذا القولِ لم يُخرَجْ لهُ الجوابُ؛ لأنَّ السؤالَ عمّا يُنفَقُ؟ فخرجَ الجوابُ على مَنْ يُنفَقُ؟ غيرَ أنهُ يحتملُ أنْ يكونَ: ماذا؟ بمعنى: مَنْ؛ وذلكَ مستعملٌ في اللغةِ غيرُ ممتنعٍ. ويَحتمِلُ أنْ يكونُوا سألُوا سؤالَينِ: أحدُهما عما يُنفَقُ؟ والثاني على مَنْ[1] يُنفَقُ؟ فخرجَ لأحدِهما الجوابُ على ما كانَ مِنَ السؤالِ: على من يُنفَقُ؟ ولم يخرجْ جوابُ ما كانَ مِنَ السؤالِ: عمَّا يُنفَقُ؟ وهذا أيضاً جائزٌ، كثيرٌ في القرآنِ: أنْ تكثرَ الأسئلةُ[2]، ويخرجَ الجوابُ لبعضٍ، ولا يَخرُجَ لبعضٍ. ويكونُ جوابُ سؤالٍ: ممَّ يُنفَقُ؟ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فيكونُ على ما ذكرَ، واللهُ أعلمُ.

ويدلُّ لِما قلْنا: إنهُ كانَ ثَمَّ سؤالانِ: أحدُهما: عمّا يُنفَقُ؟ والآخرُ: على مَنْ ينفَقُ؟ ما رُوِيَ عن عمرِو بنِ الجَموحِ الأنصاريِّ ﷺ أنهُ قالَ: يا رسولَ اللهِ كم نُنفِقُ؟ وعلى مَنْ ننفقُ؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ الآيةَ [السيوطي في الدر المنثور: ١/ ٥٨٥]. ثم اختُلِفَ في هذه النفقةِ.

قالَ بعضُهُمْ: هذه النفقةُ كانتْ تَطوُّعاً[3]، فنُسِخَتْ بالزكاةِ، وقيلَ: هذهِ النفقةُ صدقةٌ يتصدقُونَ بها على الوالدَينِ والأقربِينَ الذينَ يَرِثونَ، نسخَتْها آيةُ المواريثِ، وقيلَ: فيهِ الأمرُ بالإنفاقِ على الوالدَينِ والأقرَبِينَ عندَ الحاجةِ، وكان هذا أقربَ، واللهُ أعلمُ. وفيهِ دلالةٌ لزومِ نفقةِ الوالدَينِ والمحارِمِ.

الآية ٢١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾ الآيةَ[4]. والكراهةُ المذكورةُ ههنا والمحبةُ كراهةُ الطباعِ والنفسِ لا كراهةُ الإختيارِ، ولا يكونُ في كراهةِ الطباعِ خطابٌ، لأنَّ طبعَ كلِّ أحدٍ ينفرُ عَنِ القتالِ والمجاهدةِ معَ العدوِّ، لا أنهمْ[5] كرهُوا ذلكَ كراهةَ الإختيارِ؛ لأنهُ لا يَحتمِلُ أنْ يكونَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يؤمَرون بالقتالِ والمجاهدةِ مع العدوِّ، ثم همْ يكرَهُونَ ما أُمروا بهِ اختياراً منهمْ، لأنَّ ذلكَ دأبُ أهلِ النارِ. فثبتَ أنهُ على ما ذكَرْنا مِنْ نُفُورِ كلِّ طبعٍ عنِ احتمالِ الشدائدِ والمشقةِ وكراهيتِهِ.

وقولُهُ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ﴾ يَحتمِلُ هذا في القتالِ خاصةً، وهو أنْ يكونُوا كَرِهوا القتالَ لِما فيهِ مِنَ المشقةِ والشدةِ، ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾ لِما فيه مِنَ الفتوحِ والظفرِ وسَعَةِ العيشِ ومنالِ الثوابِ والدرجاتِ في الاخرةِ. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ يعني التعوُّدَ على الجهادِ ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ﴾ لِما فيه مِنَ اجْتِراءِ[6] العدوِّ والأسرِ والقتلِ والذلِّ والصَّغارِ وقطعِ الثوابِ في الآخرةِ[7]. ويَحتمِلُ هذا في كلِّ أمرٍ يحبُّ [الرجلُ][8] في الإبْتِداءِ، وتكونُ عاقبتُهُ شرّاً، ويَكرَهُ أمراً فتكونُ عاقبتُهُ خيراً لهُ؛ هذا لجهلِنا بعاقبةِ الأمورِ وخواتيمِها لنعلمَ أنْ ليس إلينا مِنَ التدبيرِ شيءٌ[9]، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خيرٌ لكمْ في العواقبِ مما هو شرٌّ لكمْ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الآية ٢١٧ وقولُهُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ﴾ معناهُ، واللهُ أعلمُ، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ عنِ القتالِ في الشهرِ الحرامِ وفي المسجدِ الحرامِ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ﴾ لو لم يكنْ مِنَ الكفرةِ ما ذكرَ مِنَ الصدِّ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ والكفرِ بهِ ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ لكنْ إذا فعلُوا ذلكَ لم يكنِ القتالُ بجنبَيهِ كبيراً، بل الكفرُ فيهِ أكبرُ مِنَ القتلِ. فكأنهُ، واللهُ أعلمُ، ذكرَ هذه الأحرفَ، وعنى بها[10] الكنايةَ عنِ الكفرِ، ثم جعلَ الكفرَ أكبرَ مِنْ هذا كلِّهِ، مع المعرفةِ أنَّ الذي يوازيهِ[11] أقلُّ منهُ. ثم ألزمَهُمُ اختيارَ الأيسرِ عندَ البَلْوَى بما بيَّنَ. والقتالُ بنفسِهِ كبيرٌ لأنَّ فيهِ تفانيَ الخَلْقِ، ولم يُخلَقُوا للفناءِ.

---

(١) من الأصل وط ع، في م: ما. (٢) من ط ع، في الأصل وم: الأسولة. (٣) في النسخ الثلاث: تطوع. (٤) أدرجت في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٥) من ط ع، في الأصل وط م: لأنهم. (٦) من ط ع، في الأصل وم: الفتوح والظفر من اجتراء. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: هذا. (٨) من ط ع. (٩) في النسخ الثلاث في شيء. (١٠) في النسخ الثلاث: به. (١١) في الأصل وم: يوازيه، في ط ع: يؤذيه.

ثم فيه نقضٌ على المعتزلةِ بوجهَينِ:

أحدُهُما: أنهُ ذكرَ القتلَ، وجعلَ الكفرَ أكبرَ منهُ، ولو أوجبَ القتلُ التخليدَ ما أوجبَ الكفرُ لكانَ فيه التساوي، ولا يكونُ الكفرُ أكبرَ منَ القتلِ، فبانَ أنَّ الكبيرةَ لا توجبُ التخليدَ ما أوجبَ الكفرُ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: قالَ: والكفرُ أكبرُ منهُ؛ فصَيَّرَهُ أكبرَ، ثم لأَكبَرُهُ في[1] أنْ يكونَ بنفسِهِ أو بالكافرِ أو باللهِ، ولا يَحتمِلُ أن يكونَ بالكافرِ؛ لأنَّ فعلَ الكفرِ أصغرُ عندَهُ منْ فعلِ الزِّنى والقتلِ لأنه يدينُ بالكفرِ، ويستحسنُهُ، ويستقبحُ ذلك، فبانَ أنهُ يَكْبُرُ بنفسِهِ أو باللهِ. فإنْ قالُوا: بنفسِهِ قيلَ لهمْ: لمَّا جازَ أن يكونَ كِبْرُهُ بغيرِ مَنْ [ينشِئُهُ لِمَ لا][2] جازَ خلقُهُ بغيرِ مَنْ يفعلُهُ، أو يكونَ باللهِ، وهو قولُنا؟

وقولُهُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ فيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبرَ أنهمْ يفعلُونَ كذا، فكانَ كما قالَ، فدلَّ أنهُ إنما عرفَ ذلكَ باللهِ ﷻ.

وقولُهُ: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ ولكن لا يستطيعُونَ أنْ يرُدُّوكم عنْ دينِكمْ؛ ففيه إياسُ الكفرةِ عن ردِّ هؤلاءِ إلى دينِهِمْ، وأمنُ هؤلاءِ عنِ الرجوعِ إلى دينِهِمْ. وقيلَ: ﴿إِنِ﴾ بمعنَى لو: أي [لو][3] قدَرُوا أن يردُّوكُمْ عنْ دينِكُمْ إلى دينِهِمْ لَفَعَلُوا؛ أخبرَ ﷻ عمَّا وَدُّوا ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ لكنَّ اللهَ بما أكرمَهُمْ، وبشرَهُمْ مِنَ النصرِ وإظهارِ الدينِ لا يستطيعُونَ إلى[4] ذلكَ؛ أظهرَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ الآيةَ[5] [المائدة: ٣].

وقولُهُ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ذكرَ إحباطَ الأعمالِ بالموتِ على الكفرِ، والعملُ يُحبَطُ بالكفرِ دونَ الموتِ. والوجهُ فيهِ أنهُ لا يَحتمِلُ أنْ يكونَ الموتُ هو سببَ إحباطِ الأعمالِ بل الكفرُ نفسُهُ إذا وُجِدَ؛ إذِ الموتُ لا صنعَ فيهِ للعبادِ، والكفرُ فيهِ لهمُ اختيارٌ، لم يُجِزْ جعلَ العملِ حَبْطاً بما لا صنعَ لهُ فيهِ؛ دلَّ أن الكفرَ هو المحبِطُ لا الموتُ. ولكنَّ ذكرَ الموتِ في هذا، لِما فيه تمامُ الحَبطِ والإبطالِ. ومالم يمتْ تُرجَى لهُ المنفعةُ بحسابِهِ، لأنهُ إذا كفرَ جحدَ تلكَ الحسناتِ، فأبطلَها. فإذا أسلمَ بعدَ ذلكَ ندمَ على جعلِ ذلك باطلاً، فصارَ مقابلاً سيئاتِهِ[6] /٣٤ـ ب/ بحسناتٍ، فهوَ [حالةُ إحالةِ][7] الانتفاعِ بهِ كما قالَ ﷻ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقولُهُ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أمَّا في الدنيا فذهابُ التعظيمِ والإجلالِ والثناءِ الحسنِ الذي يُستوجبُ بالخيرِ والدينِ عندَ الناسِ، فإذا ارتدَّ عنِ الإسلامِ حَبِطَ ذلكَ كلُّهُ، وصارَ على أعينِ الناسِ أخفَّ منَ الكلبِ والخنزيرِ. وأمَّا حَبْطُهُ في الآخرةِ فذهابُ ثوابِ أعمالِهِ، وكانَ ما يستوجبُ المرءُ منَ الثوابِ، إنما يستوجبُ بما يأتي منَ الأعمالِ، ويُحضِرُها[8] عندَ اللهِ لا بالعملِ نفسِهِ، ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقولِهِ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ [طه: ٧٥] [فلَهُ كذا][9]؟ دلَّ هذا أنَّ الثوابَ إنما يُستوجَبُ بإحضارِهِ وإتيانِهِ عندَ اللهِ لا بالعملِ نفسِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ تضمَّنَ قولُهُ: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ الإيمانَ باللهِ والإيمانَ بجميعِ ما جاءَ بهِ الرسلُ مِنَ الرسالاتِ وغيرِها.

وقولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾؛ الهجرةُ على وجهَينِ: الهجرةُ المعروفةُ التي كانتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينةِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآيةَ [النساء: ١٠٠]. ثم رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنَّهُ قالَ][10]: «لا هجرةَ بعدَ فتحِ مكةَ» [النسائي: ٧/ ١٤٦].

---

(١) في النسخ الثلاث: من. (٢) من م، في ط ع: ينشئه لما لا، في الأصل: يشيئه لم لا. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) في م وط ع: على. (٥) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٦) في النسخ الثلاث: لسيئاته. (٧) في الأصل وم: حالة، في ط ع: حالة الإحالة. (٨) في ط ع: ويحضره. (٩) في ط ع: تتمة الآيتين: ٧٥ و٧٦ . (١٠) من ط ع، في م: قال، ساقطة من الأصل.

والهجرةُ [الثانيةُ: هجرةُ][1] الآثامِ والأجرامِ، فهي لا ترتفعُ أبداً. وقالَ الحسنُ: (في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي بالعداوةِ منهُ لِمَنْ كفرَ باللهِ)، وقالَ أبو بكرٍ [الصدّيقُ][2] ﷺ: (أنْ يهجرَ قومَهُ ودارَهُ، ويخرجَ للهِ).

وقولُهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المجاهدةُ تكونُ على وجوهٍ: مجاهدةُ العدوِّ ومجاهدةُ الشيطانِ ومجاهدةُ النفسِ [وقولُهُ][3]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فيهِ دلالةٌ على أنَّ الذي يحقُّ رجاؤُهُ يَعملُ ما ذكرَ اللهُ[4]. وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يَحتمِلُ وجهينِ: الرحمةُ الجنةُ، والرحمةُ المغفرةُ.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لِما كانَ منهمْ مِنَ التقصيرِ فيما ذكرَ مِنَ المجاهدةِ والمهاجرةِ.

الآية ٢١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ بعدَ الحرمةِ ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قبلَ الحرمةِ ﴿وَإِثۡمُهُمَآ﴾ بعدَ الحرمةِ ﴿أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ قبلَ التحريمِ، والمنفعةُ: في الميسرِ: بعضُهُمْ يَنتفعُ بهِ، وبعضُهُمْ يخسَرُ، وهو القمارُ؛ وذلكَ أنَّ نفراً كانُوا يشترُونَ الجزورَ، فيجعلونَ لكلِّ رجلٍ منهمْ سَهماً، ثم يقترِعُونَ، فَمَنْ خرجَ سهمُهُ بَرِئَ مِنَ الثمنِ حتى يبقى آخرُ رجلٍ، فيكونُ ثمنُ الجزورِ عليهِ وحدَهُ، ولا حقَّ لهُ في الجَزورِ، ويقتسمُ[5] الجَزورَ بقيتُهُمْ، وقيلَ: تُقسَمُ[6] بينَ الفقراءِ، فذلكَ الميسرُ.

ثم قالَ: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ في ركوبِهما، لأنَّ فيها تركَ الصلاةِ وتركَ ذكرِ اللهِ وركوبَ المحارمِ والفواحشِ. ثم قالَ: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ يعني التجارةَ واللذةَ والربحَ. ثم اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ قومٌ: إنَّ الخمرَ محرَّمَةٌ بهذهِ الآيةِ حيثُ قالَ: ﴿إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾، والإثمُ محرَّمٌ بقولِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقالَ قومٌ: لمْ تُحرَّمْ بهذهِ الآيةِ إذْ فيها ذكرُ النفعِ، ولكن حُرِّمَتْ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾ [المائدة: ٩٠] والرجسُ محرَّمٌ، وقالَ [اللهُ تعالى][7]: ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] وعملُ الشيطانِ محرَّمٌ. ثم أخبرَ أنهُ ﴿يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١]. وذلكَ كلُّهُ محرَّمٌ.

والأصلُ عندَنا في هذا أنهمْ أجمعُوا على حرمةِ الميسرِ معَ ما كانَ فيهِ مِنَ المنافعِ للفقراءِ وأهلِ الحاجةِ والمعونةِ لهمْ؛ لأنهمْ كانُوا يُقتَسِمونَ على الفقراءِ. فإذا حرَّمَ اللهُ هذا ثبتَ أنَّ المَقرُونَ بهِ أحقُّ في الحرمةِ معَ ما فيه مِنَ الضررِ الذي ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: في قولِهِ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ ولم يبيِّنْ في السؤالِ أنهُ عنْ أيِّ [أمرِ منهما][8] كانَ السؤالُ؟ وأمكنَ استخراجُ حقيقةِ ذلكَ عنِ الجوابِ بقولِهِ: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾؛ كأنَّ السؤالَ كانَ عما فيهما؟ فقالَ: فيهما كذلكَ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠] كأنَّ السؤالَ عمّا يُعملُ في [أموالِ اليتامى][9] مِنَ المخالطةِ وأنواعِ المصالحِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٢] كأنهُ سألَ[10] عنْ غشيانٍ في المحيضِ؛ إذْ في ذلكَ جَرَى الجوابُ، لم يبيَّنْ في السؤالِ لِما في الجوابِ دليلُهُ أو لِما كانَ الذينَ سألُوا معروفِينَ يُوصَلُ بهمْ إلى حقيقةِ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ: هذهِ الآيةُ تدلُّ على حرمتِهما بما قالَ: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ [الأعراف: ٣٣] ثبتَ أنَّ الإثمَ محرَّمٌ. وأكثرُ السلفِ على أنَّ الحرمةَ فيهما ليسَتْ بهذهِ الآيةِ لكنْ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾ [المائدة: ٩٠].

وقولُهُ: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ يبلغُ أمرُ الشربِ والميسرِ إلى ما يكونُ ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ مِنْ نحوِ ما بيَّنَ عندَ السكرِ والميسرِ في سورةِ المائدةِ [الآية: ٩٥] مِنْ وقوعِ العداوةِ والبغضاءِ والصدِّ[11] عما ذكرَ، وفيهما ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ في ذلكَ الوقتِ

---

(١) من ط ع وم. (٢) من ط ع. (٣) من ط ع. (٤) من ط ع، في الأصل وم: لله. (٥) من م، في الأصل وط ع: وتقسيم. (٦) في النسخ الثلاث: يقسم. (٧) من ط ع. (٨) في النسخ الثلاث: أمرهما. (٩) من ط ع، في الأصل وم: أموالهم. (١٠) في النسخ الثلاث: قال. (١١) من ط ع، في الأصل وم: وصد.

بوجوهٍ: أمّا في الخمرِ فإلى(١) أنْ يسكرَ، وفي التجارةِ فيها، وفي الميسرِ لِما كانَ يُفرِّقُ ما فيهِ ذلكَ على الفقراءِ وما فيهِ على التجارةِ ونحوِ ذلكَ. وعلى التأويلِ الأوّلِ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي في الشربِ والعملِ إذْ حُرِّما ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قبلَ أنْ يُحرَّما، واللهُ أعلمُ.

ثم الذي علينا أن نعرفَ حرمتَهما اليومَ، إنْ كانتْ في هذهِ الآيةِ أو(٢) لم تكنْ، فَنَهْيُ الانتفاعِ بهما [وتحذيرُ ذلكَ](٣)؛ وقد بيَّنَ اللهُ الكافيَ مِنْ ذلكَ في سورةِ المائدةِ [الآيتين/ ٩٠ و /٩١]، وجاءتِ الآثارُ في تحريمِهما على ما في الميسرِ مِنَ الخطرِ والجهالةِ، كذلكَ(٤) جاءتِ الآثارُ على كونِ أمثالِها في حكمِ الربا، وفي حكمِ الخمرِ مالا يُتَّخذُ للمنافعِ، وإنما يُتَّخذُ لِلَّهوِ والطربِ، وكلُّ ذلكَ ممّا نُهينا عنهُ، معَ ما في ذلكَ مِنْ ذهابِ العقلِ الذي هو أعزُّ ما في البشرِ وغَلَبةِ السفهِ في أهلِهِ. فحقيقٌ لِمَنْ عقلَ اتِّقاؤُهُ، لو كانَ حلالاً، لِما في ذلكَ مِنَ التبذيرِ(٥)، فكيفَ وقد ظهرتِ الحرمةُ؟

ثم كانَ معلوماً علّةُ حرمةِ الخمرِ إذا سَكِرَ منها الشاربُ، ثم جاءَ به القرآنُ، وليسَتْ تلك العلةُ في شربِ القليلِ منهُ، فلم يلحقْ بحقِّ القليلِ غيرُها، وأُلحِقَ بالكثيرِ كلُّ شرابٍ يعملُ [ذلكَ العملَ](٦) لِما فيه المعنى الذي ذكرَ، إذْ كانتِ الخمرُ لا تُتَّخذُ في المتعارَفِ للمصالحِ وأنواعِ المنافعِ، بل تُتَّخذُ لِما ذكرْتُ مِنَ اللَّهوِ والطربِ، ولا يستعملُ شربَها إلّا المعروفونَ بالفِسقِ، فتكونُ حرمةُ الخمرِ لعينِها لا لِما ذكرْتُ مِنْ قصدِ العواقبِ بها، وكلُّ جوهرٍ لا يُتَّخذُ، لا يُقصَدُ باتّخاذِ ذلك، فهو محرمٌ بعينِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ وهو الفضلُ عنِ القوتِ؛ وذلكَ أنَّ أهلَ الزروعِ كانوا يتصدَّقونَ بما(٧) يفضُلُ عنْ قوتِ سَنَةٍ، وأهلَ الغَلّاتِ يتصدَّقونَ بما(٨) يفضُلُ عنْ قوتِ الشهورِ، وأهلَ الحرفِ والأعمالِ يتصدَّقونَ بما يفضلُ عنْ قوتِ يوم، ثم نُسِخَ ذلكَ بما رُوِيَ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ أنهُ قالَ: «الزكاةُ نسخَتْ كلَّ صدقةٍ كانَتْ، وصومُ رمضانَ نسخَ كلَّ صومٍ كانَ، والأضحيَةُ نسخَتْ كلَّ دمٍ كانَتْ» [الدارقطني: ٤٧٠٢]، فإنْ ثبتَ هذا فهو ما ذكرْنا، ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ](٩) قالَ: (كانَ هذا قبلَ أنْ تُفرضَ الصدقةُ)؛ دليلُ ذلكَ ظهورُ أموالٍ كثيرةٍ لأهلِها في الصحابةِ [رضوانُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ](١٠) إلى يومِنا، لم يُخرِجوا مِنْ أملاكِهِمْ، ولا أُنكِرَ /٣٥ ـ أ/ عليهِمْ، فثبتَ أنَّ الأمرَ في ذلكَ منسوخٌ أو هو على الإرْبِ بقولِهِ(١١) تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

الآية ٢٢٠ [وقولُهُ تعالى](١٢): ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ قيلَ: أمّا في الدنيا فتعلَمونَ أنها دارُ بلاءٍ وفناءٍ، وأما الآخرةُ [فهي](١٣) دارُ جزاءٍ وبقاءٍ [فتفكّرُونَ، فتعلَمُونَ](١٤) الباقيةَ منهما. وقالَ الحسنُ: (إي واللهِ! ومَنْ تفكَّرَ فيهما لَيَعْلَمَنَّ أنَّ الدنيا دارُ بلاءٍ، وأنَّ الآخرةَ دارُ بقاءٍ)، وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنه قال](١٥): (﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ (يعني في زوالِ الدنيا وفنائِها](١٦) إقبالَ الآخرةِ وبقاءَها، بل يَعلَمُ بالتفكُّرِ أنَّ الدنيا للزوالِ، وأنها(١٧) هي للتزوُّدِ لدارِ القرارِ، فيصرِفُ سعيَهُ إلى التقديمِ وجهدَهُ في فكاكِ رقبتِهِ وإعتاقِها، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وفي قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ دلالةُ جوازِ تأخيرِ البيانِ لأنهُ أمرَ بالتفكُّرِ والتدبُّرِ، وجعلَ لهمْ عندَ التفكرِ الوصولَ إلى المرادِ في الخطابِ، فدلَّ أنهُ يتأخَّرُ عَنْ وقتِ قرعِ الخطابِ السمعَ.

وقولُهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ كانَ في السؤالِ إضماراً لأنهُ قالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ ولم يبيِّنْ في أيِّ حكمٍ، وإضمارُهُ، واللهُ أعلمُ، أنْ يُقالَ: يسألونَكَ عنْ مخالطةِ اليتامى؛ يبيِّنُ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أنَّ السؤالَ كانَ عنِ المُخالطةِ، [وكذلكَ قولُهُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولم يبيِّنْ في أيِّ حكمٍ،

---

(١) الفاء ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط ع، في الأصل وم: إذ. (٣) في النسخ الثلاث: ويحذر لك. (٤) في النسخ الثلاث: التي. (٥) من ط ع وم، في الأصل: التدبر. (٦) ساقطة من ط ع. (٧) في النسخ الثلاث: ما. (٨) في النسخ الثلاث: ما. (٩) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: ﷺ. (١١) في النسخ الثلاث: وقوله. (١٢) من ط ع. (١٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٤) من ط ع، في الأصل وم: فتعرفوا. (١٥) ساقطة من النسخ الثلاث، وأدرج فيها بعد ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: قال. (١٦) من ط ع، في الأصل وم: زوالها وبقائها. (١٧) في النسخ الثلاث: علم أنها.

فكأنَّهُ قالَ: يسألونكَ عنْ شربِ الخمرِ والعملِ بالقمارِ والميسرِ، ثم قالَ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾؛ دلَّ قولُهُ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أنَّ السؤالَ كانَ عنِ شربِ الخمرِ والعملِ بالمَيسِرِ، وهذا جائزٌ في اللغةِ، وفي القرآنِ كثيرٌ: أنْ يكونَ في الجوابِ بيانُ السؤالِ أنه ثَمَّ كانَ، وإنْ لم يُذكَرْ في السؤالِ كقولِهِ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]؛ دلَّ ما ذكرَ منَ الفُتْيا أنَّ الاِسْتِفتاءَ كانَ عنِ الميراثِ][1]، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [إلى قولِهِ][2] ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾] [النساء: ١٢٧] [دلَّ قولُهُ: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾][3] أنَّ السؤالَ كانَ عنِ النساءِ اليَتامَى، وهذا جائزٌ. وربَّما يخرجُ الجوابُ على إثرِ نوازلَ، فَيُعرفُ مرادُهُ بالنوازلِ دونَ ذِكرِ السؤالِ.

ثم السؤالُ يَحتمِلُ وجوهاً[4]: يَحتمِلُ أنْ يكونَ عنْ مخالطةِ الأموالِ والأنفسِ جميعاً بقولِهِ: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فإنما حملَهُمْ، واللهُ أعلمُ، على سؤالِ المُخالطةِ ما قيلَ لَمّا نزلَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [إلى قولِهِ ﴿سَعِيرًا﴾][5] [النساء: ١٠] [وقولُهُ: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦]][6] أشفقَ المسلمُونَ مِنْ مُخالطةِ اليتامى، فعزلُوا لهمْ بيتاً، وعزلُوا طعامَهُمْ وخدَمَهُمْ وثيابَهُمْ، فشقَّ ذلكَ عليهمْ جميعاً، فسألُوا عنْ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ فنزلَتْ هذه الآيةُ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية.

وفي الآيةِ دليلُ جوازِ المُناهداتِ والمُواكلاتِ في الأسفارِ وغيرِها حينَ أباحَ لهمُ المخالطةَ بأموالِ اليتامى، فإذا احتَملَ ذلكَ مالَ الصغارِ مِنَ اليَتامَى فاحتِمالُهُ في مالِ الكبيرِ أشدُّ؛ إذْ مالُ الكبيرِ يَحتمِلُ الإباحةَ والإذنَ، ومالُ الصغيرِ لا.

وفي الآيةِ دليلُ جوازِ القليلِ مِنَ المعروفِ واليَسيرِ منهُ في ملكِ الصغيرِ واحْتِمالِهِ ذلكَ. ذلكَ لأنهُ ﷻ أباحَ لهمُ المُخالطةَ معَ اليتامىَ على العلمِ في الاِسْتِيفاءِ مبلغَ الكبيرِ، بل يقصرُ عنهُ.

وفيه دليلٌ أنَّ علةَ الربا ليس هو الأكلَ، على ما قالَهُ بعضُ الناسِ، ولكنْ هو الكيلُ والوزنُ، لأنهُ أباحَ لهمُ المخالطةَ في المأكولِ مِنَ الطعامِ والمشروبِ مِنَ الشرابِ على غيرِ كيلٍ ولا وزنٍ، على العلمِ قصورَ الصغيرِ عنِ الاِسْتِيفاءِ قَدْرَ الكبيرِ وبلوغَهُ. فلو كانَ [علّتُهُ الأكلَ لكانَ][7] يُبيحُ لهم أكلَ الربا، فدلَّ أنَّ علّتَهُ ليسَ الأكلَ ولكنْ هيَ الفضلُ عَنِ الكيلِ أو الوزنِ في الجنسِ.

وفيهِ دليلُ جوازِ بيعِ التمرةِ بالتمرتين لخروجِهِ عنِ الكيلِ، وهكذا كلُّ شيءٍ خرجَ عَنِ الكيلِ والوزنِ لتركِ الناسِ مُكايَلَتَهُ وموازنَتَهُ، وإنْ كانَ كَيْليّاً يجوزُ بيعُ واحدٍ باثْنَينِ، واللهُ أعلمُ.

وفيه دليلُ أنْ لا بأسَ أنْ يؤدِّبَ الرجلُ اليتيمَ بما هو صلاحٌ لهُ، وذلكَ كما يؤدِّبُ ولدَهُ، وأنْ يُعَلِّمَهُ بما فيه الاِعْتِيادُ لِمحاسِنِ الأخلاقِ والتوسيعِ كما أُمِرَ بالصلاةِ إذا بلغَ سبعاً والضربِ عليها إذا بلغَ عشراً اعْتِياداً. ألا ترَى أنهُ رُوِيَ في الخبرِ: «شرُّ الناسِ الذي يأكلُ وحدَهُ، ويشربُ، وفي المخالطةِ: التخلُّقُ بالأخلاقِ الحسنةِ. وفي تركِها: التَّخلُّقُ بالأخلاقِ السيِّئةِ والاِعْتِيادُ بعادةِ السوءِ»؟.

وقولُهُ: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ فيه دليلُ إضمارٍ، وهو طلبُ الصلاحِ لهمْ: إمّا بالتَّولّي لهمْ في أموالِهِمْ والنظرِ لهمْ بما يعقُبُ نفعاً لهمْ، أو طلبُ التخلُّقِ بالأخلاقِ الحسنةِ والاِعْتِيادِ بالعادةِ المحمودةِ. فذلكَ إصلاحٌ خيرٌ بطلبِكمُ الصلاحَ لهمْ، أو خيرٌ لهمْ بما يعودُ نفعُ ذلكَ إليهمْ، وإلّا فظاهرُ الصلاحِ حسنٌ لكلِّ أحدٍ، فلا وجهَ لتخصيصِهِمْ بهِ، فدلَّ على أنهُ على طلبِ النفعِ والنظرِ لهمْ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فيه دليلُ الترغيبِ كقولِهِ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) في ط ع: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾. (٣) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.
(٤) في النسخ الثلاث: وجهين. (٥) في ط ع: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، في م: إلى قوله: ﴿سَعِيرًا﴾ ساقطة من الأصل.
(٦) ساقطة من الأصل. (٧) من ط ع، في الأصل: عليه الأكل كان، في م: عليه الأكل لكان.

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾](١) [الأحزاب: ٥] رغَّبَهُمْ ﷺ بما أخبرَ أنهمْ ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ بطلبِ الصلاحِ والنظرِ والنفعِ لهمْ؛ إذْ تستوجبُ بعضَهُمْ قِبَلَ بعضِ المعونةُ لهمْ والحفظُ والصلاحُ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ دلَّ قولُهُ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الأحزاب: ٥] على أنَّ الصغيرَ قد ينفعُ(٢) والدَيهِ في الدينِ، ويجوزُ(٣) منهمُ التَّدَيُّنُ إذا عَقَلُوهُ، وإنْ لم يكونُوا بَلَغُوا، واللهُ أعلمُ.

[ثم أوعدَهُمْ ﷺ [بقولِهِ](٤): ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ أي، واللهُ أعلمُ، يَعلَمُ طالبَ النفعِ والنظرِ لهمْ مِنْ طالبِ الفسادِ والإسرافِ في أموالِهِمْ؟

[وقولُهُ](٥): ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ قيلَ: يُضَيِّقُ عليكمْ، ولم يأذَنْ لكمْ بالمخالطةِ معهمْ، وقيلَ: لآثمَكُمْ فلم يرضَ لكمْ بالمخالطةِ، وقيلَ: لأحرَجَكُمْ، وهو واحدٌ. وأصلُ العَنَتِ الإثمُ كقولِهِ تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] يعني أثِمْتُمْ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيه وعيدٌ على ماذكَرْنا، واللهُ أعلمُ](٦).

الآية ٢٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ اختلفَ [أهلُ التأويلِ](٧). في تأويلِ [هذهِ](٨) الآيةِ؛ فقالَ قائلونَ: الحَظْرُ على كلِّ مشركٍ ومشركةٍ كتابياً أو غيرَ كتابيٍّ، ثم نُسِخَ بقولِهِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥]؛ فالإماءُ على الحَظْرِ لأنهُ إنما استَثنَى الحرائرَ دونَ الإماءِ بقولِهِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وقالَ آخرونَ: هو على المشركاتِ خاصةً دونَ الكتابياتِ، والكتابياتُ مُستثنَياتٌ، فدخلَتْ كلُّ كتابيةٍ: حرَّةً كانَتْ أو أمةً [تحتَ الاستثناءِ](٩) لأنَّ الاستثناءَ إذا كانَ عنْ جملةِ الأديانِ سِوَى دينِ الكتابيّاتِ لم يَحتَمِلْ دخولَ بعضِ أهلِ ذلكَ الدينِ دونَ بعضٍ. والذي يدلُّ عليه قولُهُ: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ فجعلَ الأمةَ المؤمنةَ خيراً بالنكاحِ مِنَ المشركةِ، ومِنْ قولِهِ: أنهُ(١٠) بالقُدرةِ على طَولِ الحرةِ الكافرةِ لا يُباحُ لهُ نكاحُ الأمَةِ المؤمنةِ، فبانَ أنَّ موقعَ الآيةِ ليسَ على التناسخِ على ما يقولُهُ: على [أنَّ](١١) الإماءَ يدخلْنَ تحتَ قولِهِ ﷺ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]؛ [دليلُهُ](١٢) قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، فثبتَ أنهنَّ قد يتَعَفَّفْنَ، فيستوجِبْنَ اسْمَ الإحصانِ، وقد جعلَ شرطَ الحِلِّ هو ذِكرُ الإحصانِ، وقولُهُ أيضاً: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، وقولُهُ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] مُستثنياً(١٣) الإماءَ مِنْ جملةِ المحصَناتِ، دلَّ أنهنَّ دخلْنَ في الخطابِ، وقد أُجمِعَ على أنهنَّ حِلٌّ لنا بالسبيِ، وكلُّ مذكورٍ في الكتابِ يستوي الحِلُّ فيهِ إلّا مِنْ جهةِ العدوِّ؛ فإذا أُبيحَ لنا تزويجُ المسبيَّاتِ منهنَّ بالحرائرِ ثبتَ أنهُ محكومٌ بحكمِهِنَّ في النكاحِ، فبطلَ قولُ مَنْ أبطلَ نكاحَ الإماءِ، إذْ ثبتَ أنَّ الآيةَ بخلافِ ما قالَ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم الآيةُ تَضَمَّنَتْ أحكاماً:

أحدُها(١٤): أنَّ مِنْ قولِ أصحابِنا، رحمَهُمُ اللهُ: إنَّ المَناهِيَ بِحقِّ(١٥) النهيِ، لا توجبُ الحرمةَ.

والثاني: أنَّ الآيةَ كيفَ كانَ حملُها على الخصوصِ في بعضٍ أحقَّ والعمومِ في بعضٍ، ومخرجُ الخطابَينِ واحدٌ.

والثالثُ: أنَّ في الآيةِ ذكرَ المنعِ لعلةٍ، وهو الدعوةُ إلى النارِ، فكيفَ لم يَلْزَمْ حفظُ ما لأجلِهِ وجَبَتِ الحرمةُ على وجودِهِ؟ وهذا هو الأصلُ /٣٥ ـ ب/ أنْ يحفظَ الأحكامَ بالعللِ، ما دامَتْ توجدُ العللُ.

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: وقوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ مدرجة فيهما في آخر تفسير الآية بعد العبارة: فيه وعيد على ما ذكرنا والله أعلم.
(٢) في النسخ الثلاث: يقع. (٣) يجوز: يُستقى. (٤) من ط ع وم. (٥) من ط ع. (٦) أدرجت في الأصل وم: بعد العبارة فدل على أنه على طلب النفع والنظر لهم، والله أعلم. (٧) من ط ع. (٨) من ط ع. (٩) من ط ع. (١٠) في النسخ الثلاث: آية. (١١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٢) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٣) في النسخ الثلاث: مستثنى. (١٤) في النسخ الثلاث: منها. (١٥) في النسخ الثلاث: بحيث.

والرابعُ: البيانُ في تولّي النكاحِ، إذْ لِلأولياءِ خرجَ الخطابُ بقولِهِ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾.

وأمّا قولُنا في النهيِ فإنَّ النهيَ يُوجبُ الانْتِهاءَ، ولكنْ لا يوجبُ الحرمةَ إلّا بدليلٍ يقومُ على مرادِ الحرمةِ في النهيِ، لِما رأينا مِنَ المناهي كثيرةً لم توجبِ الحرمةَ. فلو كانَ نفسُ النهيِ موجباً ذلكَ لَوجبَ أنْ يوجِبَ في كلِّ ذلكَ، فلما لم يوجِبْ ذلك دلَّ أنَّ نفسَهُ، لا يوجِبُ الحرمةَ، ولكنَّ الدليلَ، هو الموجِبُ للحرمةِ.

وأمّا قولُهمْ وسؤالُهمْ عنِ الخصوصِ والعمومِ فذلك جائزٌ عندَنا: خروجُ الآيةِ على العمومِ يُعقَلُ بها الخصوصُ، وهو كثيرٌ في القرآنِ مما لا يُحتاجُ إلى ذكرِهِ وشرحِهِ؛ ومنْ ذلك قولُهُ: [ﷻ](١): ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ [المائدة: ١٢] عقَلَ إيجابَ تعظيمِ الرسلِ والأنبياءِ [والإيمانِ لهمْ على العمومِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ في حقّ البعضِ دونَ البعضِ](٢)، وكذا قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: ١٢٠] فالتخلُّفُ غيرُ موجودٍ في بعضِ الأحايِينِ(٣)، وإنَّ حقَّ النَّهيِ عنِ الرغبةِ عنْ نفسِهِ أخذُ الجميعِ، فعلى ذلك ههنا يجوزُ خروجُهُ عاماً يُخَصُّ بالعقولِ.

وأمّا قولُهُمْ: وجوبُ الحكمةِ لعلّةٍ، وهو الدعاءُ إلى النارِ فلَهُ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ الكتابيَّ أقرَّ بكتابٍ، يَقْدِرُ على إلزامِ الدينِ بالدعاءِ إليهِ، ففيهِ رجاءُ الإسلامِ، وغيرُهُمْ مِنْ أهلِ الشركِ لا طمعَ بمثلِهِ.

والثاني: أنَّ علةَ الحظرِ قولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ والزوجاتُ لا يدعُونَ أزواجَهنَّ إلى ذلك، بل الأزواجُ هُمُ الأصلُ في الدعاءِ، وهمُ الأمراءُ [على](٤) الزوجاتِ، والزوجاتُ بينَ الأتباعِ للأزواجِ والمذلَّلاتُ في أيديهِمْ، لذلكَ أُبيحَ.

ثم الأصلُ بأنَّ النكاحَ جُعلَ لأمْرَينِ: إمّا لإبقاءِ النَّسلِ وإمّا للتحصُّنِ والتعفُّفِ عنِ السِّفاحِ، ثم قد ينكحُ مَنْ لا نسلَ فيهِ، فما بقيَ إلّا وجهُ المنعِ عنِ السِّفاحِ. ثم الدعاءُ إلى النارِ أعظمُ مِنَ السِّفاحِ، بهذا لم يُبَحِ النكاحُ.

ثم الدلالةُ على تخصيصِها وجهانِ:

أحدُهما: قولُ(٥) الخصومِ بالنسخِ: إنهُ وردَ على بعضٍ دونَ بعضٍ، وما ذلك إلّا الخصوصُ.

والثاني: أنَّ ذكرَ ذلك في الكتابيّاتِ لم يَجُزْ بحيثُ إظهارُ ما يَحِلُّ وما يَحرُمُ، إذ شرطُ نكاحِهنَّ إنما هو عندَ العجزِ عنِ الحرائرِ، فَجرَى الذكرُ فيهنَّ، إذ هنَّ الأصلُ في عقودِ النكاحِ، وإنَّ الإماءَ دَخيلاتٌ في حقِّ النكاحِ، وإنما جَرَى الذكرُ في حِلِّهِنَّ(٦) بملكِ اليمينِ. لذلكَ تركَ ذكرَهُنَّ مع ما يجوزُ دخولُ الإماءِ في قولِهِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥] لمّا(٧) أوجبَ لهنَّ العفَّةَ والتحصُّنَ بقولِهِ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] وبقولِهِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥].

وأمّا قولُهمْ: خاطَبَ الأولياءَ [في النهيِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وخاطَبَ](٨) الأولياءَ أيضاً في الأمرِ بالنكاحِ الأيامَى بقولِهِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، فدلَّ أنَّ [شهادةَ](٩) الوليِّ شرطٌ في جوازِ النكاحِ.

فجوابُنا أنهُ إنما خاطبَ الأولياءَ في النهيِ عنِ النكاحِ لِما العرفُ في الأُمّةِ ألّا يتولّى النساءُ بأنفسهنَّ، بل الأولياءُ هُمُ الذينَ يتولَّونَ عليهنَّ النكاحَ برضاهُنَّ وأمرِهنَّ وتدبيرِهنَّ، لذلكَ خرجَ الخطابُ للأولياءِ مع ما ليسَ في تخصيصِ بالخطابِ دليلُ إخراجِ النساءِ عنْ ولايةِ النكاحِ.

(١) من ط ع. (٢) من ط ع وم، في الأصل: للكل وبعضها للخاص. (٣) ساقطة من ط ع. (٤) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٥) من ط ع وم، في الأصل: قوم. (٦) في ط ع: حلمهن. (٧) من ط ع، في الأصل وم: لا. (٨) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من النسخ الثلاث.

ألا ترى أنهُ ذكرَ في الآيةِ الصلاحَ بقولِهِ: ﴿وَالصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، لم يصِرْ ذلكَ شرطاً في الجوازِ؟ فعلى ذلكَ الأوَّلُ، وهذا يدلُّ أيضاً على أنْ ليسَ في تخصيصِ المحصناتِ مِنَ الكتابيّاتِ حظرُ نكاحِ الإماءِ منهنَّ. والثاني أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَٰتِ﴾، يَحتمِلُ أنْ يكونَ في الصغارِ خاصّةً؛ نهَى الأولياءَ عنْ تزويجِ الصغارِ مِنَ المسلِمينَ والمشركاتِ مِنْ غيرِ الكتابيّاتِ. فإذا كانَ مُحتمَلاً ما ذكَرْنا لم يكنْ لمخالِفنا الاحتجاجُ بهِ علينا في إبطالِ نكاحِ المرأةِ نفسِها دونَ وليِّها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ: قالَ قومٌ هو في غيرِ الكتابيّاتِ؛ يبيِّنُ ذلكَ قولُهُ: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [المائدة: ٥] فنسقَ الكتابيّاتِ بالإحلالِ على ما لم تختلفْ أحوالُ الحِلِّ مِنْ أوّلِ الإسلامِ إلى الأبدِ، ولا مِنْ قبلِ[1] ذلكَ، نحوُ الطيّباتِ مِنَ الطعامِ مِنْ طعامِ المؤمنينَ وأهلِ الكتابِ، ونحوُ المحصناتِ مِنَ المؤمناتِ، ومثلُهُ الكتابيّاتُ؛ إذْ يسبقُ نكاحُهُنَّ على مَنْ ذكرَ. ولو كانَ التأويلُ هذا كانتِ الآيةُ نطقَتْ بألّا تنكِحوا المشركاتِ غيرَ الكتابياتِ، فلا يكونُ في الآيةِ تحريمُ الإماءِ مِنْ أهلِ الكتابِ ولا النهيُ عنْ ذلكَ، وإنما يُعرَفُ إنْ كانَ يجوزُ أو لا بدليلٍ آخرَ سِوَى هذهِ الآيةِ.

فإنْ قيلَ: على ذلكَ لِمَ لا كانَتْ آيةُ الإحلالِ في التخصيصِ بذكرِ المحصناتِ دليلاً على حرمةِ نكاحِ الإماءِ؟ قيلَ: يكونُ الجوابُ لأوجهٍ:

أحدُها: أنَّ ذكرَ الحِلِّ في حالٍ لا يدلُّ على الحرمةِ في غيرِها، كذلكَ ذكرُ الحِلِّ في صنفٍ لا يدلُّ على حرمةٍ في غيرِهِ، ولو كانَ ذا يدلُّ لكانَ يجيءُ أنْ يكونَ حكمُ ما لا يردُ فيه السمعُ مخالِفاً لما يَرِدُ فيهِ، وذلكَ فاسدٌ؛ إذِ السمعُ هو دليلُ الحكمِ في ما لاسمعَ فيهِ بالمعنى الذي ضُمِّنَ فيهِ، واللهُ أعلمُ. وأيّدَ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]، ثم هُنَّ يَحلِلْنَ، وإنْ لم يُؤتَينَ أجورَهُنَّ، فمثلُهُ الأوّلُ.

والثاني: أنه مسوقٌ على مثلِهِ في المؤمناتِ، ثم لم يكنْ ذلكَ في المؤمناتِ على تحريمِ الإماءِ، فمثلُهُ في الكتابيّاتِ. فإنْ قيلَ: لمَ بيَّنَ في إماءِ المؤمناتِ؟ قيلَ لهمْ: لم يزعُمْ أحدٌ أنَّ ذلكَ على نسخِ هذهِ الآيةِ، فثبتَ أنه ليسَ في الذكرِ في المحصناتِ تحريمُ الغيرِ، فكذلكَ في المنسوقِ على ذلكَ مع ما لو كانَ في مثلِ هذا لكانَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَٰتِ﴾، إذْ وقعَ على غيرِ الكتابيّاتِ دليلٌ على الإحلالِ، فيكونُ ذكرُ الحرمةِ في نوعٍ دليلُ الحِلِّ في غيرِهِ[2] على مثلِ ذِكرِ الحِلِّ في نوعٍ، وفي ذلكَ تناقضُ الأدلّةِ، واللهُ أعلمُ.

ووجهٌ آخرُ: أنَّ المحصناتِ يَحتمِلُ أنْ يريدَ بهِ العفائفَ وأهلَ الصلاحِ، والإماءُ قد يستحِقّنَ هذا الاسْمَ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ﴾ [النساء: ٢٥] وقولِهِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] وقولِهِ: ﴿وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ النِّسَآءِ﴾ الآيةَ[3] [النساء: ٢٤]، وإذا استحقَقْنَ الاسْمَ فهنَّ في الآيةِ حتى يظهرَ الإخراجُ، واللهُ أعلمُ.

وبعدُ فإنا نقولُ: أكثرُ ما في ذلكَ أنْ يكونَ في ذلكَ النهيُ عنْ تزوّجِ الإماءِ مِنْ أهلِ الكتابِ، فإنَّ النهيَ في ذلكَ لا يدلُّ على الحرمةِ لأنهُ معلومُ المعنَى الذي لهُ يقعُ النهيُ عن نكاحِ الإماءِ: أنهُ لِمكانِ رقِّ الأولادِ ولمكانِ مخالطةِ الإماءِ الرجالَ وخلوَتِهِنَّ بالمولَى، وذلكَ مما ينفرُ عنه الطباعُ، ثم كانتِ النساءُ الزانياتُ، جميعُ ذلكَ فيهنّ موجودٌ، والنهيُ قائمٌ، وقد يلحقُ أولادَهُنَّ أعظمُ الشَّينِ الذي يضعُفُ على الرِّقِّ. ثم لم يمنعِ النهيُ جوازَ نكاحِهِنَّ بما هو نهيُ نِفارِ الطباعِ، لا معنًى لَهُ في ذلكَ لَهُ بكونِ الحرمةِ، فمثلُهُ أمرُ الإماءِ، واللهُ الموفقُ.

ثم دليلُ حِلِّهِنَّ أنَّ كلَّ امرأةٍ حُرِّمَتْ لنفسِها؛ فسواءٌ وجهُ الحِلِّ بهنَّ في ملكِ اليمينِ والنكاحِ، وكلُّ امرأةٍ كانتْ حرمتُها بالحقِّ فيختلفُ فيها المُلْكانِ؛ فإذا كانتْ هذه محلَّلَةً بملكِ اليمينِ ثبتَ أنها لم تُحرَّمْ لنفسِها، فهي تحِلُّ بالنكاحِ كما تحِلُّ بملكِ اليمينِ. على هذا الأصلِ أمرُ المَجوسيّاتِ والمحارِمِ ونحوِها، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من ط ع. (٢) من ط ع، في الأصل وم: غير. (٣) أدرجت في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة.

وقالَ قومٌ: الآيةُ في جميعِ المشركاتِ والكتابيّاتِ، ثم نُسختِ الكتابيّاتُ بالآيةِ التي في سورةِ المائدةِ[١]، وكانَ النسخُ بشرطِ الإحصانِ، فبقيتِ الإماءُ على الحرمةِ؛ دليلُ ذلكَ وجهانِ:

أحدُهُما: قولُهُ: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إنهُ يَدخُلُ في ذلك الكتابيُّ وغيرُهُ، فكذا في الأوّلِ.

والثاني: قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ /٣٦ ـ أ/ الآية؛ إنَّ الكتابيَّ مشرِكٌ في الحقيقةِ، إذ هو بما لا يُغفَرُ، والكتابيُّ في الدعاءِ إليها وغيرُهُ سواءٌ، فلذلكَ كانَ على ما ذكرْتُ.

فنحنُ نقول في ذلكَ، وباللهِ التوفيقُ: ليسَ في ما ذكرَ دليلٌ على ما ادَّعى؛ لأنهُ جائزٌ خروجُ آيةٍ واحدةٍ في أمرَينِ، يختلِفُ موقِعُهما مِنَ الخصوصِ والعمومِ بالدليلِ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم﴾[٢] الآية [التوبة: ١١٩]؛ أنه قد يجوزُ التخلّفُ عنهُ لعذرٍ، ولا تَجوزُ الرغبةُ عنهُ بحالٍ. وقالَ في قولِهِ: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية[٣] [المائدة: ١٢]، أنْ ليسَ كلُّ ذلكَ مما يقتضِي عمومَ الخَلْقِ، وإنْ كانَ الظاهرُ في الكلِّ بالمَخرَجِ واحداً[٤]. ثم ما ذكرْتُ مِنَ الآيةِ دليلُ الفصلِ.

والثاني أنه يجوزُ أنْ تكونَ الآيةُ في غيرِ أهلِ الكتابِ؛ دليلُ ذلكَ الأمرُ بالمعروفِ مِنَ التفريقِ في التسميةِ، وإنْ كانوا في الشركِ مجتمِعينَ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [الآية][٥] [البينة: ٦]، وغيرَ ذلكَ ممّا فضّلَ اللهُ بينَهُمْ في النسبةِ، وإنْ كانوا في حقيقةِ الشركِ مجتمِعينَ؛ فجائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ على ذلكَ، ثم حرَّمَ تزويجَ المسلماتِ مِنْ أهلِ الكتابِ، لا بهذهِ الآيةِ، ولكنْ بغيرِها مِنَ الأدلّةِ. ألا ترى أنا لا نتركُ مماليكَ أهلِ الإسلامِ تحتَ أيديهِمْ لا بهذهِ الآيةِ، فمثلُهُ أمرُ الإنكاحِ، واللهُ أعلمُ؟

ثم في الآيةِ دليلُ ذلكَ، وهو قولُهُ: تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ الآية، وكلٌّ يُجمِعُ ألّا يَحِلَّ نكاحُ الأَمَةِ المؤمنةِ على الحرّةِ الكتابيّةِ، فلو كانتْ هي مُرادةً في هذه الآيةِ لكانَ نكاحُ مَنْ هو خيرٌ منها في النكاحِ لا يُحرِّمُ عليهِ، حتى إنَّ الذي يقولُ بهذا التأويلِ يُحرِّمُ لِطَولِ الكتابيّةِ فَضْلاً عنْ نكاحِها، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وقولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ دليلٌ أنَّ الإماءَ غيرُ داخلاتٍ في الخطابِ، لأنهنَّ لا يدعُونَ، بلِ الغالبُ عليهِنَّ أنْ يتبَعْنَ، ويُجِبْنَ لِمنْ هنَّ تحتَهُمْ فيما دُعِينَ إليهِ، لا أنْ يَدعُونَ، هذا الأمرُ المتعارَفُ، واللهُ أعلمُ.

ثم نقولُ: أجعلْ كأنَّ الآيةَ نزلَتْ في الكتابيّاتِ، فقالَ: ولا تنكحوا الكتابيّاتِ؟ فإنَّ الكتابَ في جميعِ ما جرى بهِ الذكرُ في حقوقِ النكاحِ والطلاقِ والأحكامِ ضَمَّنَ[٦] الخطابَ الأحرارَ، خاصةً فيما أُبهِمَ، وعَرَّفَ أمرَ الحرمةِ في الإماءِ والعبيدِ بالأدلةِ العقليةِ مما دلَّتْ عليهِ أحكامُ السمعِ، فكذا هذا، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ محمولٌ على التحريمِ باتفاقِ الأُمَّةِ، وإنِ احتَمَلَ ما هو بهذا المَخْرَجِ على غيرِ التحريمِ، على أنَّ اللهَ تعالى قد بيَّنَ بقولِهِ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ [إلى قولِهِ][٧] ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ الآية[٨] [الممتحنة: ١٠] أنَّ النكاحَ قدِ انفسخَ حينَ أباحَ لغيرِ الأزواجِ التزوُّجَ، وفي قولِهِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] أنَّ الاستمتاعَ بذواتِ الأزواجِ إذا سُبِينَ، وقالَ: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ ذكرَ جملةَ النساءِ، ونَهى الرسلَ عنِ التمسُّكِ بعصمتِهِنَّ، واسْمُ الشركِ لفريقٍ بالإطلاقِ، واسْمُ الكفرِ للجملةِ على ما قالَ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ [كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾][٩] الآية، [النساء: ١٠٢] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ

---

(١) المقصود الآية الخامسة ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. (٢) أدرج بعدها في ط ع: ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾. (٣) أدرجت تتمة الآية في ط ع بدلا منها. (٤) في النسخ الثلاث: واحد. (٥) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٦) في النسخ الثلاث: تضمن. (٧) أدرج في ط ع بدل هذه العبارة: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ (٨) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٩) من ط ع.

ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية [البينة: ٦] وغيرَ ذلكَ مما جَمَعَ في اسْمِ الكفرِ، وفرَّقَ بأسماءِ المذاهبِ، وجعلَ اسمَ الشركِ في التفريقِ، فدلَّتْ هذه الآياتُ على الحرمةِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ الآية، ويدلُّ قولُهُ في آخرِ الآيةِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ على ذلكَ. ومعلومٌ أنَّ أوَّلَ دعائِهِمْ إلى النكاحِ، فصيَّرَ ذلكَ إلى النارِ، وما يُوجِبُها حرامٌ.

ثم فيها دلالةُ عمومِ الآيةِ في الذكورِ؛ لأنهُ في تعارُفِ الخلْقِ أنَّ الرجالَ هُمُ الذينَ يدعُونَ لا النساءُ، والنساءُ تتبعُهُمْ، وذلكَ المعنَى في رجالِ أهلِ الكتابِ وغيرِهِمْ سواءٌ، فتكونُ الحرمةُ فيهِمْ سواءً، وعلى ذلك المرويُّ مِنَ الخبرِ أنَّ رجلاً أسلمَ، وتحتَهُ ثماني نسوةٍ وأختانِ، ونحوُ ذلكَ، فأسلَمْنَ، دلَّ أنهنَّ يتبعْنَ الرجالَ، لا أنهنَّ يَدعُونَ إلى ما يَخْتَرْنَ مِنَ الدينِ، واللهُ أعلمُ.

ثم الدليلُ على أنَّ النهيَ أيضاً نهيُ تحريمٍ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أنهُ لولا خبثٌ فيهنَّ في الحقيقةِ، يوجِبُ حرمةَ الاستِمْتاعِ، لكانَ لا يَنْهَى عَنِ التناكُحِ، وذلكَ مِنْ أبلغِ أسبابِ دعوتِهِمْ إلى الإسلامِ بما ذكرْتُ مِنَ الفَرْقِ في طاعتِهِنَّ الأزواجَ فيما يختارُونَ مِنَ الدينِ في المُتعارَفِ بِمَنْ رُوِيَتْ فيهنَّ الخُبُرُ، وخاصةُ ذلكَ في المشركاتِ أحقُّ في الحِلِّ منهُ في الكتابيّاتِ؛ إذ هُنَّ إنما أخذْنَ دينَهُنَّ عن آبائهنَّ بالاعْتِيادِ والتقليدِ، ومعلومٌ أنَّ اعْتِيادَهُنَّ ما فيه رِضا الأزواجِ إيثارُ ذلكَ على ما فيهِ رِضا الآباءِ حتى يؤثِرْنَهُمْ[1] عليهِمْ بما جعلَ اللهُ بينَهُمْ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، والكتابيّاتُ أخذْنَ دينَهُنَّ بما عُلِّمْنَ[2] أنهُ دينُ الرسلِ، [وأنهنَّ أُمِرْنَ][3] بالتمسكِ بهِ، فإذا نُهُوا عَنْ نكاحِ المشركاتِ، وأُبيحَ لهم نكاحُ الكتابيّاتِ، والإسلامُ فيهنَّ بالنكاحِ أرجَى، ثبتَ أنَّ ذلكَ لخبثٍ نُهُوا، وقد حرَّمَ اللهُ الخبائثَ، واللهُ أعلمُ.

ثم اللهُ تعالى أخبرَ أنهُ حرَّمَ الخبائثَ، وأحلَّ الطيِّباتِ[4]، فلولا أنَّ فيما[5] حرَّمَ خبثاً[6]، يَحتمِلُ الوقوفَ عليهِ، وفيما أحلَّ طيِّبٌ لسؤالِ[7] الحرمةِ والحِلِّ لهُ، كانَ ذلكَ لم يَحتمِلِ التسميةَ في وصفِ التحريمِ والتحليلِ، هو لا غيرَ، وهذا كما وَصَفَ المؤمنَ بالحياةِ والسمعِ والبصرِ والكافرَ بضدِّ ذلك[8] بما في كلِّ معنى ذلكَ، لا أنهُ اسْمُ لقبٍ دونَ أنْ يكونَ لهُ حقيقةٌ، لَهُ يُسمَّى، فمثلُهُ الذي ذكرْتُ.

ثم كانَ الخُبْثُ؛ يكونُ مِن وجهَينِ: مِنْ خبثِ الأحوالِ، ومِنْ خبثِ الأفعالِ، ولهُ سمَّى الكفرَ رجساً[9]، وكذا الخمرُ والميسرُ[10]، وذلكَ كلُّه بخبثِ الأفعالِ، وعلى ذلكَ يكونُ [تحريمُ][11] تزويجِ المسلماتِ المشركينَ لخبثِ الفعلِ، وهو خوفُ وقوعِ الكفرِ، إذْ هنَّ يتبعْنَ الرجالَ فيما يؤثِرُونَ مِنَ الأفعالِ، ويقلِّدْنَهُمُ[12] الدينَ، فيكونُ التحريمُ لهذا الخوفِ؛ إذْ هو الوجهُ الذي عليه جرَتْ حُرُماتُ النكاحِ مِنْ ذلكَ نحوُ نكاحِ ما كثرَ عددُهنَّ بقولِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣]، فمنعَ عنِ الخمسِ، وأكثرُ الخوفِ وقوعُ الجَورِ الذي هو في العقلِ خبيثٌ، ونكاحُ الأمَةِ بعدَ الحرَّةِ، إذِ الطبعُ ينفرُ عنْ مناكحةِ مَنْ تخالطُ الرجالَ، [يخلُونَ بها][13] لا يُؤمَنُ عليه السِّفاحُ، فما[14] يؤثِرُ مثلَها عندَ الغِنَى بالحرَّةِ عندَهُ عنها إلّا لأمرٍ حدثَ بينَهما ممّا يبعثُ ذلكَ على الجَورِ[15]، فَنُهُوا عنْ ذلكَ، وكذلك نكاحُ المحارمِ بما قد يَجري مِنَ الأمورِ ممّا يَحمِلُ على تضييعِ الحدودِ وأنواعِ النشوزِ الذي يمنعُ ذلكَ القيامَ بحقِّ النسبِ وصلتِهِ؛ فيكونُ في ذلك تضييعُ الفرضِ، وكذلك محارمُ المرأةِ. وعلى هذا يجبُ تحريمُ المسلمةِ على الكتابيِّ وغيرِهِ لخوفِ وقوعِ فعلِ الخبثِ بينَهما، وهو الكفرُ. ولم يقعِ النهيُ عنْ نكاحِ الزانيةِ والزاني على ذلكَ؛ لأنهُ ليسَ في الطباعِ احْتِمالُ اتِّباعِ أحدِهما الآخرَ في ذلكَ الوجهِ، بل ينفرُ عنْ ذلكَ أشدَّ النفارِ، فلا يُخافُ فيهِ هذا، فهو على الأدبِ بما يُلْحِقُ الولدَ الطعنُ، وصاحبُهُ يُشتَمُ بهِ، لا أنْ يلحقَهُ وصفُهُ مواقعةَ مأثمٍ إلّا لمكانِ[16] الآخرِ، يكونُ النهيُ نهيَ تحريمٍ، بل كانَ

---

(١) من م وط ع، في الأصل: يؤثرونهم. (٢) في ط ع: أعلمن. (٣) من ط ع، في الأصل وم: وأنهم أمروا. (٤) إشارة إلى قوله في الأعراف: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الآية: ١٥٧]. (٥) من ط ع وم، في الأصل: فيها. (٦) في النسخ الثلاث: خبث. (٧) في ط ع وم: لسوء. (٨) إشارة إلى قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].
(٩) إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥]. (١٠) إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة: ٩٠]. (١١) من ط ع.
(١٢) في النسخ الثلاث: ويقلدونهن. (١٣) في النسخ الثلاث: ويخلو بهن. (١٤) من ط ع وم، في الأصل: فيما. (١٥) في ط ع: الجسور.
(١٦) من ط ع، في الأصل وم: المكان.

على الإرشادِ بما يلحَقُ مِنَ الطعنِ دونَ ما أنْ يحدثَ مِنْ تعدِّي حدٍّ أو جَورٍ في الفعلِ. وعلى ذلكَ أمرُ نكاحِ الأمَةِ، واللهُ أعلمُ.

ثم وجهُ التفصيلِ بينَ الكتابيّةِ والمشركةِ، واللهُ أعلمُ، في إباحةِ التناكحِ أنَّ المشركةَ آثَرَتْ فعلَ البهيميِّ في الدينِ على فعلِ البَشَريِّ، والكتابيّةُ آثرَتْ فعلَ البشريِّ، وهو ما يدعو إليهِ العقلُ لا الطباعُ، لأنهنَّ يرجِعْنَ في الاختيارِ إلى الإيمانِ بالرسلِ، لكنْ أُنهيَ إليهنَّ أنهمْ نُهُوا عنِ الإيمانِ بمَنْ يدعُوهنَّ إليهِ، فاعتقدْنَ على ذلك بالإيثارِ عندَهنَّ مِنَ الحججِ كما اعتقدْنا نحن بأنْ لا نبيَّ بعدَ نبيِّنا محمدٍ ﷺ لكنْ خبرُنا صحيحٌ، وخبرُهُمْ فاسدٌ، وإلّا فوجهُ الاعتقادِ على ما في العقلِ ذلكَ.

وأمّا المشركةُ لم تُخبِرْ ذلكَ بحجةٍ، إنما كانَ بوجودِ الآباءِ على ذلك مِنْ غيرِ الإنهاءِ /٣٦ - ب/ إلى [ما][1] في العقلِ اتّباعُهُ كما ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ الآية[2] [الزخرف: ٢٢]، فحُرِّمَ علينا نكاحُها لخبثِ اختيارِ واتّباعِ فعلِ البهيميِّ وإيثارِهِ على فعلِ البشريِّ، واللهُ أعلمُ. وعَلَى ذلكَ لو أسلمَتْ لم تعظُمْ درجةُ إسلامِها، لولا أنا نرجو مِنْ رحمةِ اللهِ أنَّ اللهَ، إذا قبلَتْ هي الإسلامَ بالاعتِقادِ لينيرَ قلبَها حتى ينشرحَ صدرُها للحقِّ، لكانَ لا يكونُ لإسلامِها فضلُ حمدٍ، واللهُ الموفقُ.

ووجهٌ آخرُ أنَّ الكتابيّةَ لمّا آمنَتْ بكتبِ الأنبياءِ [عليهمُ السلامُ][3] في الجملةِ، فقد آمنَتْ بذلكَ بالرسلِ جميعاً، لكنها كذَّبَتْ [مَنْ كذَّبَتْ][4] ممّا وقعَ الخبرُ عندَها بخلافِ الحقيقةِ، فأمكنَ أنْ تُنبَّهَ عنْ حقيقةِ ذلكَ بالكتابِ الذي آمنَتْ بهِ ليكونَ إيمانُها في الحقيقةِ إيماناً[5] بمَنْ كذبَتْهُ بما ظنَّتْ أنَّ في ذلكَ الكتابِ تصديقاً[6]. والمشركةُ احْتيجَ فيها على ابْتداءِ الإلزامِ، لا أنْ كانَ معها ما بهِ اللزومُ مما قد وُجِدَ إيمانُها بهِ، واللهُ أعلمُ. وعلى هذا لا يُسَلَّمُ للمرتدِّ حقُّ الكتابِ إذا اختارَهُ؛ لأنّا نعلَمُ أنهُ يُظهِرُ ذلكَ، لا أنهُ في الحقيقةِ مختارٌ؛ إذْ كتابُنا مصدِّقٌ كتابَهمْ، فلم يَجُزْ أنْ تُظهِرَ لهُ بما بهِ التصديقُ التكذيبَ ليرجِعَ إلى ردِّ هذا بقبولِ الآخرِ، فلذلكَ لم تَحِلَّ ذبائحُهُمْ، واللهُ أعلمُ.

ودليلُ النهيِ عنِ النكاحِ والإنكاحِ حتى يكونَ الإيمانُ أنَّ الإيمانَ معروفٌ عندَهم، يعْلَمُونَ بهِ حقيقةَ الشرطِ، واللهُ أعلمُ.

ومخاطباتُ الأولياءِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ تخرجُ على الأمرِ بالمعروفِ مِنَ التولّي أو على الوقتِ الذي إليهم حقُّ التوليةِ أو على أنَّ الحقَّ لهنَّ عليهمْ في التزويجِ إذا أردْنَ، فنُهُوا عنْ ذلكَ ليُعلَمَ أنْ لا حقَّ لهم في ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يحتملُ وجهَينِ:

أحَدُهما: الخبرُ عمّا يدعُو بعضُهم بعضاً إلى عبادةِ غيرِ اللهِ؛ وذلكَ دعاءٌ إلى النارِ، كما قالَ [اللهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، بما يُوجبُ الفعلَ الذي دَعَوا إليهِ ذلكَ، فكأنما دعَوا إلى ذلكَ، إذْ هو المقصودُ مِنَ الثاني. وعلى ذلكَ تسميةُ الجزاءِ [باسْمِ العملِ الذي لهُ الجزاءُ][8]، واللهُ أعلمُ.

[والثاني][9]: ﴿يَدْعُونَ﴾ في التناكحِ للّهوِ واسْتِكثارِ الأتباعِ في مُعاداةِ اللهِ تعالى ومعاداةِ أوليائِهِ بالتناكحِ، واللهُ تعالى يدعو إلى التعفُّفِ واسْتِكثارِ الأتباعِ على ما يُنالُ بهِ مغفرتُهُ ورحمتُهُ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني يدعُونَ إلى العملِ الذي يَستوجِبُ بهِ النارَ، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ يعني يدعُو إلى العملِ الذي يوجبُ لهمُ الجنةَ والمغفرةَ ﴿بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الآية ٢٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ دلَّ جوابُهُ على أنَّ السؤالَ كانَ عنْ قربانِ النساءِ في الحيضِ أو كانَ عنْ موضعِ الحيضِ، فأخبرَ [ﷻ][10] أنهُ ﴿أَذًى﴾، والعربُ تفعلُ ذلكَ؛ ربما أنْ تفهمَ

---

(١) من ط ع وم. (٢) أدرج في ط ع الآية بدل هذه الكلمة. (٣) في ط ع: عليهم الصلوات والسلام. (٤) من ط ع. (٥) في النسخ الثلاث: إيمان. (٦) في النسخ الثلاث: تصديق. (٧) من ط ع. (٨) من ط ع وم، ساقطة من الأصل، والمصنف يشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الآية: ٤٠]. (٩) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (١٠) من ط ع.

منَ الجوابِ مُرادَ السؤالِ، وربما تبيَّنُ المرادَ في السؤالِ، وإذا جازَ أنْ يُتبَعَ غيرُ وقتِ الأذىَ وقتَ الأذى بالاتّصالِ، واللهُ أعلمُ، ولا يَحتمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ باعْتِزالٍ يقعُ على اعْتِزالِ الأبدانِ والأشخاصِ بالِاتّفاقِ؛ إذْ كلٌّ يُجمِعُ أنَّ يَمَسَّها باليدِ أو أنْ يقبِّلَها وغيرَ ذلكَ، إلّا أنهمُ اختلَفُوا في موضعِ الِاسْتِمتاعِ.

قالَ أبو حنيفةَ ﷺ: (يستمتعُ بها ما فوقَ السرَّةِ وما تحتَ الركبةِ، ويجتنبُ غيرَ ذلكَ)، وقالَ محمدٌ [ﷺ][(١)]: (يجتنبُ شِعارَ الدمِ)، على ما جاءَ عَنْ عائشةَ ﷺ أنها قالَتْ: (يتّقي شِعارَ الدمِ، ولهُ ما سِوى ذلكَ). ثم دلَّ هذا الخبرُ على أنَّ النهيَ في الموضعِ الذي فيهِ الأذى؛ دليلُهُ أوّلُ الآيةِ ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾.

وحجةُ أبي حنيفةَ ﷺ ما رَوى أنهُ قالَ: (لها ما تحتَ السرَّةِ، ولهُ ما فوقَها)، وما رَوَى أنَّ أزواجَ الرسولِ ﷺ «إذا حِضْنَ أمرَ هُنَّ أنْ يتَّزِرْنَ، ثم يضاجِعُهُنَّ» [بنحوه النسائي في الكبرى: ٩٠٧٠].

وأمّا محمدٌ، رحمَهُ اللهُ تعالى، فإنهُ ذهبَ إلى ما ذكَرْنا أنهُ إنما[(٢)] يَنْهَى عنْ قُربانِ ذلكَ الموضعِ للأذى. وأمّا الموضعُ الذي لا أذى فيهِ فلا بأسَ، ويجوزُ أنْ يُنْهَى عنْ قربانِ هذه الأعضاءِ مِنْ نحوِ الفخذِ وغيرِها لِاتّصالِها بالموضعِ الذي فيهِ الأذى.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ذكرُ الإزارِ كنايةً عنِ الموضعِ؛ وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ عائشةَ ﷺ أنها سُئلَتْ عما يحِلُّ للرجلِ مِنِ امرأتِهِ، وهي حائضٌ؟ فقالَتْ: (يَحلُّ لهُ كلُّ شيءٍ إلّا النكاحَ)، وسُئلَتْ عما يَحِلُّ للمحرِمِ مِنِ امرأتِهِ؟ فقالَتْ: (لا يَحِلُّ لهُ شيءٌ إلّا الكلامُ).

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ أي لا تجامِعُوهنَّ ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ فيه لغتانِ:[(٣)] في حرفِ بعضِهم [بالتشديدِ، وفي حرفِ آخرينَ بالتخفيفِ][(٤)]؛ فمَنْ قرأَ بالتخفيفِ فهو عبارةٌ عنِ انقطاعِ الدمِ، [ومَنْ قرأَ بالتشديدِ فإنهُ عبارةٌ عنْ حِلِّ قربانِها بعدَ الِاغْتِسالِ][(٥)]. ثم مِنْ قولِ أصحابِنا، رحمَهمُ اللهُ تعالى، أنَّ المرأةَ إذا كانَتْ أيامُها عشراً يَحِلُّ لزوجِها أنْ يقربَها قبلَ أنْ تغتسلَ، وإذا كانَتْ أيامُها دونَ العشرِ لم يَحِلَّ لهُ أنْ يَقْرَبَها إلّا بعدَ الِاغْتِسالِ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ فيما كانَتْ أيامُها دونَ العشرِ في اللغتَينِ؛ إذِ الغالبُ كانَ على أنَّ الحيضَ لا يُحيطُ بكلِّ وقتٍ، على ما رُوِيَ [أنهُ ﷺ قالَ لِحَمْنَةَ[(٦)] بنتِ جَحْشٍ: «تَحيضُ][(٧)] في علمِ اللهِ مِنَ الشهرِ ستاً أو سبعاً» [الترمذي: ١٢٨]. فعلى ذلكَ أنهُ إنما يَحِلُّ قربانُها بالاغتسالِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ (إنهُ على ما دونَ العشرِ مِنَ المدةِ؛ الغالبُ كانَ على ألّا يمتدَّ إلى أكثرِ الوقتِ، ولا يقصُرَ[(٨)] عنِ الأقلِّ، واللهُ أعلمُ، على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ في النساءِ: «هنَّ ناقصاتُ [العقلِ والدينِ][(٩)]» [البخاري: ٣٠٤]، ووصفَ نقصانَ دينِهنَّ أنْ تحيضَ[(١٠)] إحداهُنَّ في الشهرِ ستاً أو سبعاً؛ وصفَهُنَّ جملةً بنقصانِ الدينِ[(١١)]، ثم ذكرَ ما بيَّنَ في التفسيرِ عنِ الجملةِ؛ ثبتَ أنَّ ذلكَ كانَ الغالبَ في الجملةِ حتى خرجَ عليهِ الجوابُ أنهُ لا يمتدُّ إلى الأكثرِ ولا يقصُرُ[(١٢)] عنِ الأقلِّ، واللهُ أعلمُ).

وأيَّدَ هذا ما أخبرَ في[(١٣)] ابْتِداءِ الآيةِ أنهُ الأذى، وأمرَ بالِاعْتِزالِ، ثم جعلَ لهُ بعدَ الِانْقِطاعِ قبلَ الِاغْتِسالِ حكمَ الأذى، فلم يَجُز أنْ يجعلَ الحكمَ لِما ليسَ بحقيقةِ الأذى، فيجعلَ لِلطُّهرِ الذي هو ضدُّهُ ذلكَ الحكمَ، واللهُ أعلمُ، وبما ليسَ لذلكَ حكمُ الأذى في العشرِ، إنْ كانَ الوقتُ يضيقُ عنهُ في رفعِ الصلاةِ، فكذا في القربانِ، واللهُ أعلمُ، وعلى ما ذكَرْتُ مِنَ العرفِ ينصرفُ أمرُ الوقتِ أنها لو أخَّرَتِ الِاغْتِسالَ عنْ وقتِ الصلاةِ كانَ للزوجِ أنْ يقربَها بما لزمَها مِنْ قضاءِ الصلاةِ، وهذا النوعُ مِنَ الأذى لا يمنعُ لزومَ القضاءِ، وحصلَ الخطابُ على الوقتِ بالعرفِ أنهنَّ لا يُؤَخِّرْنَ وبما ذكَرْتُ عنْ

---

(١) من ط ع. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: يَطَّهَّرْنَ بتشديد الطاء والهاء، وقرأ الباقون: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بتخفيف الطاء وضم الهاء انظر حجة القراءات: ١٣٤ . (٤) في ط ع: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بضم الهاء وتخفيفها، وفي حرف آخرين: بتشديد الهاء وفتحها. (٥) من ط ع. (٦) في ط ع: لحسنة. (٧) في الأصل وم: تتحيض. (٨) في ط م: يقتصر. (٩) في ط ع: عقل ودين. (١٠) من ط ع، في الأصل وط م: تتحيض. (١١) من م، في الأصل وط ع: دينهن. (١٢) من ط ع، في الأصل وم: يقتصر. (١٣) في النسخ الثلاث: عن.

لزومِ القضاءِ الذي يمنعُهُ حكمُ الأذى، وبذلكَ صارَ غسل الحيضِ كغسلِ غيرِهِ مِنَ الأحداثِ، وهو لا يمنعُ القربانَ، واللهُ أعلمُ.

[وحرَّمَ][١] إتيانَ الأدبارِ بما عليهِ اتِّفاقُ الآثارِ وبما خصَّ المكانَ بالأمرِ بالقُربانِ وبما أمرَ بالاعتِزالِ للحيضِ. ولو كانَ يحِلُّ غشيانُهُنَّ في الأدبارِ لم يكنْ للأمرِ بالاعتِزالِ معنىً؛ إذْ قد بقيَ أحدُ الموضعَينِ مِنَ المقصودِ بالغشيانِ، لوِ احتُمِلَ، واللهُ أعلمُ.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ الحِلَّ في الابتِداءِ لم يتعلَّقْ بقضاءِ الشهواتِ، ولا كانَ[٢] هذا لها، وإنما القضاءُ للشهواتِ خاصةَ الجنةِ؛ فأمّا الدنيا فإنّما جُعلَتْ لتبعثَهُمْ لقضاءِ الحاجاتِ؛ إذ بها يكونُ بقاءُ النسلِ والأبدانِ، وبها يكونُ قِوامُ الأبدانِ ودوامُ الحياةِ إلى انقضاءِ الأعمالِ، ورُكِّبَتْ فيهمُ الشهواتُ لتبعثَهُمْ على قضاءِ تلكَ الحاجاتِ؛ إذ لولا الشهوةُ لكانَ كلُّ أمرٍ مِنْ ذلكَ على الطباعِ، يكونُ كالأدويةِ والمحنةِ الشديدةِ، فخلَقَ اللهُ فيهمُ الشهواتِ ليدومَ ما بهِ جَرَى تدبيرُهُ في أمرِ العالَمِ، ولا تتعلقُ الحاجاتُ بإتيانِ الأدبارِ. ولو أُحِلَّتْ لكانَ الحِلُّ لحقِّ الشهوةِ خاصةً، والدنيا لم تُخلَقْ لها، فلذلكَ لا يُجعَلُ بها[٣] حِلٌّ مع ما لو كان يُحتمَلُ ذلكَ لَاحتُمِلَ التناكُحُ في نوعٍ، فإذا لم يُحتمَلْ بانَ أنَّ ذلكَ إنما جُعِلَ للنسلِ / ٣٧ ـ أ/، واللهُ الموفقُ.

وقالَ بشرٌ: (إذ حرَّمَ الغشيانَ للحيضِ بما هو أذىً، وهو يكونُ على ما يَتَقذَّرُ؛ فالذي [الدُّبُرُ مَجْراهُ][٤]، والذي منهُ يخرجُ مِنَ الأذى أوحشُ وأخبثُ، وذلكَ قائمٌ في كلِّ الأوقاتِ كقيامِ الحَيضِ في أوقاتِهِ، فالحرمةُ لذلكَ أشدُّ، ذُكِرَ بوجهٍ أمكنَ أنْ يُبْسَطَ ما قالَ على الذي وصفْتُهُ، واللهُ أعلمُ).

وقولُهُ: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: معنَى قولِهِ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ لا تأتوهُنَّ صائماتٍ ولا معتكِفاتٍ ولا مصلِّياتٍ، ويَحتمِلُ: لا تأتوهُنَّ حُيَّضاً، ولكنْ ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ طُهَّراً، وقيلَ: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ في الموضعِ الذي أباحَ لكمْ إتيانُها، وهو القُبُلُ، ولا تأتوهُنَّ في أدبارِهِنَّ، ويُشبِهُ، إذْ ﴿حَيْثُ﴾ يعبِّرُ بهِ عنِ المكانِ، أنْ يكونَ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أنْ تبْتغوا الولدَ بقولِهِ: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ منَ الذنوبِ، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ منَ الأحداثِ والأذى: والثاني ممَّنْ فعلَ هذا قبلَ النزولِ ﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أنفسَهمْ بالتكفيرِ [والأوَّلُ][٥] التَّوّابُ هو الرَّجّاعُ عمّا ارتكبَ، والتاركُ عنِ العَودِ إلى ذلكَ غيرُ مُصِرٍّ على الذنبِ، ويَحتمِلُ التوابُ الذي لا يرتكبُ الذنبَ.

الآية ٢٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [الحرثُ هو المَزرَعُ][٦]؛ وفيهِ دليلُ النهيِ عنِ الاعتِزالِ عنها، لأنَّ المزرعَ إذا تُرِكَ سُدىً يَضيعُ، ويَخرُبُ، وفيهِ دليلٌ أنَّ الإباحةَ في إتيانِ النساءِ طَلَبُ التناسلِ والتوالُدِ لا قضاءُ الشهوةِ، لأنَّهُ سمّى ذلكَ حَرْثاً، والحَرْثُ ما يُحرَثُ، فيتولَّدُ مِنْ ذلكَ الولدُ، وفيهِ دليلٌ أنَّ الإتيانَ في غيرِ موضعِ الحرثِ مُحَرَّمٌ مَنهِيٌّ[٧]. وعلى ذلكَ جاءتِ الآثارُ أنها سُمِّيَتِ اللوطيَّةُ الصُّغْرَى وما جاءَ أنهُ نَهَى عنْ إتيانِ النساءِ في محاشِهِنَّ؛ يعني في أدبارِهِنَّ. وفي بعضِ الأخبارِ: «إتيانُ النساءِ [في أدبارِهِنَّ][٨] كُفْرٌ» [بنحوه أبو داوود: ٣٩٠٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ يعني على أيِّ جهةٍ شِئتُمْ بعدَ أنْ يكونَ ذلكَ في المَزرَعِ. ولا بأسَ بالاعتِزالِ عنها إذا أذِنَتْ لِما ذكرْنا أنَّ الأمرَ بذلكَ أمرٌ بطلبِ النسلِ لا قضاءِ الشهوةِ. فإذا كانَ كذلكَ فلها ألّا تتحمَّلَ مشقةَ تربيةٍ، وأمّا الزوجُ فإنما عليهِ المُؤنةُ، وذلكَ ممّا ضَمِنَ اللهُ لكلِّ ذي روحٍ بقولِهِ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، لذلكَ نُهِيَ هو عنِ الاعتِزالِ دونَ إذنِها، ولم تُنْهَ هيَ عنِ الإذنِ عَنْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط ع، في م: حرم، ساقطة من الأصل. (٢) في النسخ الثلاث: كانت. (٣) من ط ع وم، في الأصل: بهما. (٤) في ط ع: مجراه الدبر. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) في الأصل وم: وهو المزرع، في ط ع: الحرث هو الزرع. (٧) في ط ع: منتهى. (٨) من ط ع.

وأمّا الاعتزالُ عن الإماءِ وملكِ اليمينِ فإنهُ لا بأسَ؛ لأنهُ لا يُطلَبُ النسلُ مِنَ الإماءِ في المتعارَفِ، لذلكَ لم يُكرَهْ، ولأنَّ في إحبالِهِنَّ إتلافاً[1]، وللرجلِ ألّا يُتلِفَ ملكَهُ، لذلكَ افتَرَقا، واللهُ أعلمُ.

والأصل أنَّ الشهواتِ مجعولةٌ لِما بها إمكانُ قضاءِ الحاجاتِ التي يُقضَى بها جَرْيُ تدبيرِ العالمِ، وبهِ يكونُ دوامُ النسلِ وبقاءُ الأبدانِ والحاجةُ لا تَحتمِلُ الوقوعَ في الأدبارِ، لذلكَ لم يُجعلْ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾: قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: قدِّموا العملَ الصالحَ، وقيلَ: قدِّموا لأنفسِكُمْ مِنَ الولدِ تحفظُونَهُ[2] عندَ الزَّيغِ عمّا لا يَجبُ.

وقولُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾: [يحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ أي][3] ما قدَّمْتُمْ مِنَ العملِ الصالحِ، فتُجزَونَ على ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ أي مُلاقُو ربِّكُمْ بوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ.

الآية ٢٢٤ وقولُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ الآيةَ[4]؛ قيلَ: كانَ الرجلُ يحلِفُ ألّا يصنعَ المعروفَ، ولا يَبَرَّ، ولا يُصلِحَ بينَ الناسِ، وإذا أُمِرَ بذلكَ قالَ: إني حلَفْتُ على ذلكَ، فنُهُوا عَنْ ذلكَ بقولِ: لا تحلِفوا على أمرٍ، هو لي معصيةٌ: ألّا تَصِلوا القرابةَ وألّا تُصلِحُوا بينَ الناسِ، وصلةُ القرابةِ خيرٌ لكُمْ مِنَ الوفاءِ باليمينِ في معصيةِ اللهِ تعالى. والعُرضةُ العِلَّةُ؛ يقولُ: لا تَعَلَّلوا؛ أي لا يَمنَعُكُمْ أنْ تَبَرُّوا أو ما ذَكَرَ.

وقولُهُ: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ حرفانِ يَخرجانِ على الوعيدِ: ﴿سَمِيعٌ﴾ بمقالتِكُمْ أو أيمانِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بإرادتِكُمْ في حلفِكُمْ.

الآية ٢٢٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قالَ][5] الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: في قولِهِ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: [إنَّ][6] كسبَ القلوبِ لا يكونُ [عقداً ولا حِنْثاً][7] إنما هو تَعَمُّدُ الكذبِ كقولِهِ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

فعلى ذلكَ أمرُ يمينِ اللغوِ والتَّعمُّدِ؛ وهذا بَيَّنَ أنَّ اليمينَ يكونُ في موجودٍ؛ لا فيما يوجَدُ؛ إذْ فيهِ وصفُ المأثَمِ، وفيما يكونُ لم يكسَبْ قلبُهُ ما يأثَمُ فيهِ. فعلى ذلكَ أمرُ اللغوِ، فهو في الماضي، ولا يأثِمُ بالخَطَإِ، ويأثَمُ في غيرِ اللغوِ بالتَّعمُّدِ. ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وبيَّنَ أنَّ المؤاخذةَ تكونُ في هذا بالكفارةِ، وفي الأوَّلِ بالمأثَمِ، وفي اللغوِ لا يؤاخِذُ بهما، فلزمَ تسليمُ البيانِ لِما جاءَ في كلِّ ذلكَ. ثم جميعُ المَوَاخِذِ في كَسْبِ القلبِ بالمأثَمِ ولزومِ التوبةِ، فكذا في هذا.

وقد رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في أمرِ اللِّعانِ أنهُ قالَ: «إنَّ أحدَكُما كاذبٌ، فهلْ منكما مِنْ تائبٍ»؟ [البخاري: ٤٧٤٧] ومعلومٌ كَذِبُ أحدِهما ولزومُ التوبةِ معَ ما في تركِهِ الوعيدُ الشديدُ مِنَ الغضبِ واللعْنِ ولو كانتْ فيه كفارةٌ لكانَ لا سبيلَ إلى العِلمِ بها إلّا بالبيانِ، فهي أحقُّ أنْ تُبَيَّنَ لو كانتْ واجبةً [دلَّ ما لم يبيِّنْ أنها غيرُ واجبةٍ][8] على أنها تجبُ للحَنْثِ، والحَنْثُ عَقِيبَ العقدِ يدفعُهُ، وكانَ ههنا ملاقياً لهُ، فهو يمنعُهُ على نحوِ جميعِ الحرماتِ التي تفسخُ الأشياءَ؛ فهي عندَ الابْتِداءِ تمنعُ، وليسَ ذلكَ كالطلاقِ ونحوِهِ لِما قد يكونُ بلا شرطٍ. واليمينُ لا يَصِحُّ إلّا بهِ، ولم يكنْ، فانفردَ قولُهُ: واللهِ.

وقد يَخرُجُ مُخرَجَ الاسْتِخفافِ الحَلْفُ باللهِ كاذباً والجراءةُ على اللهِ، فيجيءُ أنْ يكونَ كفراً، لولا أنَّ المؤمنَ يخطرُ ببالِهِ ما يحمِلُهُ على ذلكَ دونَ قصدِ الاسْتِخفافِ بهِ. وعلى ذلكَ أمرُ اللِّعانِ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يقلْ: أحدُكما كافرٌ، فهل منكمَا مِنْ مؤمنٍ؟ لأنهما لم يَقْصِدا ذا لِقصدٍ. فكذا كلُّ حالفٍ على تعمُّدِ الكذبِ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قالَ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: (هذا محمولٌ على قولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً

---

(١) في النسخ الثلاث: إتلاف. (٢) في النسخ الثلاث: يحفظونه بالياء. (٣) من ط ع. (٤) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٥) من ط ع، في الأصل وم: وقال. (٦) من ط ع. (٧) في النسخ الثلاث: عقد ولا حنث. (٨) من ط ع.

﴿أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] أي لا يؤاخِذُكُمْ بنقضِ أيمانِكُمُ التي حلفتُمْ بها لأنها معصيةُ اللهِ ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ بحفظِها والمُضِيِّ عليها.

ثم اختلفُوا في اللغوِ، ما هو؟ قالَ بعضُهم: هو الإثمُ، وقيلَ: هو الغَلَطُ. ثم اللغوُ المذكورُ الذي أخبرَ أنْ لا مؤاخذَةَ على صاحبِهِ: يَحتمِلُ ألا[1] يؤاخذَهُ بالإثمِ، ويَحتمِلُ ألّا يؤاخِذَهُ بالكفارةِ، بل إنما يؤاخِذُهُ[2] بالكفارةِ بما يعقدُ. ثم ذكرَ في الآيةِ الثانيةِ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، ولو حُمِلَ على أنهُ لا يؤاخِذُ أيضاً بالإثمِ وقعَ الكلامُ بحيثُ لا يفيدُ في حدِّ التكرارِ.

والأصلُ عندَهم بأنَّ حمْلَهُ على ما يفيدُ أحقُّ مِنْ حملِهِ على ما لا يفيدُ، فثبتَ أنَّ الأوّلَ في نفيِ الإثمِ، والثاني في نفيِ الكفارةِ. وعلى هذا القولُ في الغَموسِ: إنهُ لِعظيمِ الوِزْرِ والإثمِ لم يُلْزِمْ أنْ يكفِّرَ، فليسَ فيه الكفارةُ. ولهُ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّ سببَ الحَنثِ في اللغوِ والغَموسِ تلاقي العقدِ، فلم يصحَّ بهِ اليمينُ؛ لأنَّ الحَنثَ يُسقطُ اليمينَ؛ فإذا لاقى الحَنثُ اليمينَ منعَ صحتَها ووجوبَها. فإذا كانتْ هذه اليمينُ غيرَ صحيحةٍ في العقدِ، لم تلزمِ الكفارةُ لخروجِها عنِ الشرطِ، ثم لم يزَلْ عنهُ في الغَموسِ الإثمُ لتعمُّدِهِ الكذبَ.

وقالَ[3] الفقيهُ [أبو منصورٍ][4] رحمَهُ اللهُ: (والقياسُ عندي في التعمُّدِ بالحَلْفِ بالغَموسِ على الكذبِ أنْ يَكفُرَ، ولهذا ما لحقَهُ[5] الوِزرُ لِما أنَّ الأيمانَ جُعلَتْ لتعظيمِ اللهِ تعالى بالحَلفِ فيها، والحالفُ بالغَموسِ مُجترئٌ على اللهِ مُسْتَخِفٌّ بهِ. ولهذا نَهى رسولُ اللهِ ﷺ عنِ الحلفِ بالآباءِ والطواغيتِ لأنَّ في ذلكَ تعظيماً[6] لهمْ وتبجيلاً[7]؛ فالحالفُ بالغَموسِ في الذي هو مجترئٌ ومُسْتَخِفٌّ: فالوِزْرُ لهُ بالجراءةِ لازمٌ).

ثم المتعمِّدُ مُجْتَرِئٌ / ٣٧ ـ ب/ مُسْتَخِفٌّ باللهِ تعالى على المعرفةِ لأنهُ لا يَسَعُ؛ فسبيلُهُ سبيلُ أهلِ النفاقِ، إظهارُهُمُ الإيمانَ بما فيهِ استِخفافٌ، وإنْ كانَ سبباً للتعظيمِ، لِلاستخفافِ لَزِمَهُمُ العقوبةُ بذلكَ، كذا الأوّلُ، ولكنهُ بالحَلْفِ خرجَ فعلُهُ على الجراءةِ للوصولِ إلى مناهُ وشهوتِهِ لا للقصدِ إليهِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ أبي حنيفةَ ﷺ في سؤالِ السائلِ: (إنَّ العاصيَ مطيعٌ للشيطانِ، ومَنْ أطاعَ الشيطانَ كفرَ، كيف لا كَفَرَ العاصي؟ فقالَ: لأنهُ خرجَ فعلُهُ في الظاهرِ مَخرَجَ الطاعةِ لهُ، لا أنَّ القصدَ بكونِ طاعتِهِ، وإنما يكفرُ بالقصدِ لا بما يخرُجُ فعلُهُ فعلَ معصيتِهِ، فكذا الأوّلُ، واللهُ أعلمُ).

وعلى ذلكَ جاءَ في أمرِ اللِّعانِ مِنَ القولِ: «إنَّ[8] أحدَكما كاذبٌ، فهل منكما [مِنْ][9] تائبٍ»؟ [البخاري: ٤٧٤٧] ففيهِ وجهانِ:

[أحدهما][10]: أنهُ لم يأمرْ بالأيمانِ، ولا قالَ: أحدُكُما كافرٌ، فثبتَ أنهُ [لا][11] يكفرُ بهِ.

والثاني: أنهُ أمرَ بالتوبةِ، وقد يعلَمُ مَنْ كذبَ أنَّ عليهِ ذلكَ مع ما في القرآنِ مِنَ اللعنِ والغضبِ، ولم يأمرْ بالكفارةِ، وهي لا تُعلَمُ إلّا بالبيانِ، فهي[12] أحقُّ أنْ تُبيَّنَ لو كانتْ واجبةً، واللهُ أعلمُ.

والأصلُ عندَنا في اليمينِ الغَموسِ أنهُ آثِمٌ، وعليه التوبةُ، والتوبةُ كفارةٌ، وهكذا في كلِّ يمينٍ في عقدِها مَعصيةٌ أنْ تَلْزَمَهُ الكفارةُ، وهي التوبةُ، وأمّا الكفارةُ التي تَلْزَمُ في المالِ، فهيَ[13] لا تَلْزَمُ إلّا[14] بالحَنْثِ، لأنهُ بالحَنثِ يأثَمُ، والحَنْثُ نفسُهُ إثمٌ، لذلكَ[15] لم يَجزْ إلّا بالحَنْثِ.

وما رُوِيَ مِنَ الأخبارِ مِنْ قولِهِ [ﷺ][16]: «مَنْ حَلَفَ على يمينٍ، فَرَأى غيرَها خيراً منها، فَلْيُكفِّرْ [عَنْ][17] يمنِهِ، ثم ليأتِ الذي هو خيرٌ» [مسلم: ١٦٥٠] أنهُ إذا كانتْ يمنُهُ بمعصيةٍ يصيرُ باليمينِ آثماً، فيكُلَّفُ بالتوبةِ.

---

(١) من ط ع وم، في الأصل: أنْ. (٢) من ط ع، في الأصل وم: يؤاخذ. (٣) في ط ع: قال. (٤) من ط ع. (٥) من ط ع وم، في الأصل: خلفه. (٦) في النسخ الثلاث: تعظيم. (٧) في النسخ الثلاث: تبجيل. (٨) في النسخ الثلاث: بأن. (٩) من ط ع. (١٠) من ط ع. (١١) من ط ع وم. (١٢) من ط ع و م، في الأصل: فهو. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: فهو. (١٤) ساقطة من ط ع. (١٥) ساقطة من م. (١٦) من ط ع. (١٧) من ط ع.

فإنْ قيلَ: الحَلفُ بالطلاقِ والعِتاقِ والحجِّ بالماضي يُلزِمُ، كيف لا لَزِمَتْهُ الكفارةُ؟ قيلَ: لأنَّ الطلاقَ والعِتاقَ والحجَّ يلزمُ دونَ ذِكْرِ ما ذَكَرَ، إذا قالَ: (عليَّ حجةٌ)، أو: (أنتِ طالقٌ)، أو: (هو حرٌّ)، ولو قالَ: (واللهِ) ألفَ مرةٍ دونَ ذكرِ ذلكَ الفعلِ لا يكونُ يميناً، ولا يلزمُهُ شيءٌ؛ لذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [وقولُهُ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧] وقولُهُ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾][1] [البقرة: ٢٢٨]: قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: (الإيلاءُ معلومٌ في اللغةِ أنهُ اليمينُ) وكذلكَ كانَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه يقرأ: للذينَ يُقسِمونَ[2]. وما هو لليمينِ مِنَ الحكمِ لا يَجِبُ لغيرِها نحوُ الكفارةِ التي [تَجِبُ للحنثِ فيها، ثم][3] يَجِبُ لهُ على كل حالٍ على أيِّ وصفٍ كانتِ اليمينُ، فكذلكَ حكمُ الإيلاءِ، وهو قولُ عبدِ اللهِ [بنِ مسعودٍ وعبدِ اللهِ][4] بن عباسٍ رضي الله عنه ورُوِيَ عن عليٍّ رضي الله عنه التفريقُ بينَ الغضبِ والرِّضا.

ثم أُوجبَ التَّرَبُّصُ لِلْمولَى؛ فمَن كانَتْ يمينُهُ بدونِ أربعةِ أشهرٍ فهو بعدَ المدةِ ليسَ بمُؤْلٍ، فلم يَلْزَمْهُ الحكمُ الذي جعلَ اللهُ [للإيلاءِ][5]. ألا تَرى أنهُ في المدةِ ذكرَ الفَيْءَ؟ وهو لو وُجِدَ منهُ لم يجبْ عليهِ ما في الفَيْءِ مِنَ الكفارةِ، فكذا بمضيِّ المدةِ لا يَلْزَمُهُ الطلاقُ، وبهِ يقولُ عليٌّ وابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: [فيقولُ ابنُ مسعودٍ][6]: (يلزَمُهُ حكمُ يمينِ [يومٍ])[7]، وابنُ عباسٍ [رضي الله عنه][8] يقولُ: (الإيلاءُ يمينُ الأبدِ، وذلكَ عندنا على إرادةِ الإتمامِ، ولو جعلَهُ شرطاً لكانَ الحكمُ يلزمُهُ بمضيِّ أربعةِ الأشهرِ، فلا وجهَ للزيادةِ عليهِ، وهو قولُ عبدِ اللهِ [بنِ مسعودٍ][9] يلزمُهُ بدونِهِ.

ثم اختلفَ الصحابةُ رضي الله عنهم في الوقفِ بعدَ أربعةِ الأشهرِ على اتِّفاقِهِم على [حقٍّ][10] لزومِ الطلاقِ[11] أو حقِّهِ بمضيِّ المدةِ. ثم لا يجوزُ أنْ يحلِفَ بحقِّ الطلاقِ، فيُلزَمُ، ويجوزُ أنْ يحلِفَ بالطلاقِ، فيُلزَمَ؛ لذلكَ كانَ الطلاقُ أحقَّ مع ما ذلكَ زيادةٌ في المدةِ لِلتَّرَبُّصِ، وجميعُ المدةِ[12] التي جُعِلَتْ بَينَ الزوجَينِ لَمْ تَحتَمِلِ الزيادةَ عليها لِما جُعِلَتْ لهُ المدةُ؛ فمثلُهُ مدةُ الطلاقِ. وهذا على أنَّ اللهَ تعالى حذَّرَ نقضَ اليمينِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] وأطلقَ في هذا أربعةَ أشهرٍ بما رُوِيَ في قراءةِ أُبيٍّ [بْنِ كعبٍ]: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ [فيهنَّ][13] [البقرة: ٢٢٦]؛ [يعني في أربعةِ الأشهرِ][14]، ففي غيرِ ذلكَ حكمُ النهيِ لهُ أخذَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَٰقَ﴾ كقولِهِ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] وليسَ ذلكَ على إحداثِهِ بعدَ مضيِّ المدةِ، كذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ: ﴿سَمِيعٌ﴾ بالإيلاءِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بتحقيقِ حكمِهِ أنهُ لم يفِئْ إليها مع ما كانَ كذلكَ بذاتِهِ؛ كأنهُ قالَ على[15] علمٍ بما يكونُ مِنْ خَلقِهِ وبما بهِ صلاحُهُم وما إليهِ مرجِعُهُمْ؛ خلَقَهُمْ وهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميعِ ما بهِ تناجَوا، وأسَرُّوا، وجهَرُوا، واللهُ الموفقُ][16].

[ثم الدليلُ على أنَّ المرادَ مِنْ قولِهِ: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾؛ وإنِ احْتَملَ الطُّهرَ، يرجعُ إلى الحَيضِ [في وجوهٍ:

أحدُها:][17] أنَّ ﴿ثَلَٰثَةَ﴾ اسمٌ لِتمامِ العددِ، فيصيرُ كأنهُ قالَ: ﴿ثَلَٰثَةَ﴾ أطهارٍ، لو أرادَ بهِ الطُّهرَ، أو ثلاثَ حِيَضٍ، لو أرادَ بهِ الحَيضَ. ثم هُمْ على اخْتِلافِهِمُ اتَّفَقُوا أنهُ بالحَيضِ ثلاثةٌ، وبالطُّهرِ طُهرانِ وبعضُ الأوَّلِ. ثَبَتَ أنَّ الحيضَ أولَى مع ما كانَ فيهِ الاحْتِياطُ، إذا احْتَمَلَ الوجهَينِ أنْ يدخلا جميعاً في الحقِّ، لا يُزالُ بعدَ أنْ ثَبَتَ إلّا بالبيانِ، ويبيِّنُ ذا أنَّ في الخبرِ تلكَ العدَّةَ التي أمرَ اللهُ أنْ تُطَلَّقَ لِقِبَلِها النساءُ أنهُ الحَيضُ حتى يكونَ قبلَهُ الطُّهرُ مع ما يَحتمِلُ عِدَّةَ فعلِ الطلاقِ لا الانْقضاءَ.

---

(١) من ط ع. (٢) انظر مختصر في شواذ القرآن: ١٣ . (٣) من ط ع وم. (٤) من ط ع. (٥) من ط ع، في م: الإيلاء. (٦) من ط ع، في الأصل وم: يقول. (٧) من ط ع. (٨) ساقطة من ط ع. (٩) من ط ع. (١٠) من ط ع. (١١) من ط ع، في الأصل وم: طلاق. (١٢) في ط ع: المدد. (١٣) من ط ع، انظر الدر المنثور ١/ ٢٧٠ والبحر المحيط ٢/ ٤٤٩ . (١٤) من ط ع. (١٥) في ط ع وم: عن. (١٦) أدرجت هذه العبارة في النسخ الثلاث في تفسير الآية ٢٢٧، ورأينا إثباتها أيضاً هنا لعلاقتها بالإيلاء. (١٧) في الأصل وم: وجوه أحدها، في ط ع: وذلك.

يبيِّنُ ذلكَ ما رُوِيَ «أنَّ عِدَّةَ الأمَةِ حَيضَتانِ، وهي بعضُ عِدَّةِ الحُرَّةِ، ووقتُ طلاقِها وقتُ طلاقِ الحرَّةِ» [الدارقطني: ٣٧٨٥]، فبانَ أنَّ العِدةَ اثْنَتانِ](١).

[والثاني: ذكرُ الحيضِ عندَ ذكرِ البدلِ؛ وذلكَ حكمُ الأبدالِ أنْ تُذْكَرَ أصولُها عندَ ذكرِها.

والثالثُ: قولُهُ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ والبلوغُ اسْمٌ للتمامِ، وفاسدةٌ المراجعةُ مِنْ بعدِ الإشرافِ عليهِ، وهو بالطُّهْرِ لا يُعلَمُ حتى يُرى الدمُ، لأنَّ الطهرَ لا غايةَ لهُ، وذلكَ يمنعُ على قولِهِمُ الرجعةَ، فثبتَ أنهُ الحيضُ لأنَّ لهُ الغايةَ. وإنْ لم ينقطعِ الدمُ وقتَ [ابْتِداءِ الحرمةِ، ربما كانَ الطلاقُ وقتَ ابْتِداءِ الحرمةِ](٢)، وذلكَ طُهْرٌ، ووقتُ تَقَضِّي العِدَّةِ وقتُ تمامِ ذلكَ. فهو الطُّهْرُ مع ما يقتضِي سَلْبَ الملكِ بالطلاقِ، ووقتُهُ الطُّهْرُ، وبقيةُ الملكِ يقتضي العِدَّةَ، فيجبُ أن يكونَ وقتُهُ الطُّهْرَ على حقِّ جميعِ الفروعِ معَ الأصولِ وإلحاقِ التوابعِ بالمتبوعِينَ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ والإيلاءُ هو اليمينُ في اللغةِ؛ يدلُّ على ذلكَ حرفُ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباسٍ ﷺ حينَ قرأا: الذينَ يُقسِمُون(٣) مِنْ نسائِهِمْ](٤).

ثم اختُلِفَ فيهِ على وجوهٍ: قالَ ابنُ مسعودٍ ﷺ: (الإيلاءُ على يومٍ فقط، وأمّا التَّربُّصُ فأربعةُ أشهرٍ لأنهُ لم يَذْكُرْ في الكتابِ للإيلاءِ مدةً، وإنما ذَكَرَ المدةَ للتربُّصِ) [إلى هذا ذهبَ ابنُ مسعودٍ](٥)، وقالَ ابنُ عباسٍ: [ﷺ](٦) (الإيلاءُ على الأبدِ؛ ذهبَ في ذلكَ إلى أنَّ الإيلاءَ كانَ طلاقَ القومِ(٧)، والطلاقُ يقعُ إلى الأبدِ، وقالَ آخرونَ: مَنْ تركَ القربانَ في حالِ الغضبِ فهو مُوْلٍ، وإنْ لم يحلِفْ، لكنَّ هذا ليسَ بشيءٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَ الإيلاءَ، [والإيلاءُ](٨) هي اليمينُ؛ دليلُهُ ما ذكَرْنا.

ورُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ أنَّ رجلاً سألَهُ: أنهُ حلفَ ألّا يقرَبَ امرأتَهُ سنتَينِ؟ فقالَ: (إيلاءٌ، وإنها تَبِينُ(٩) إذا مضَتْ أربعةُ أشهرٍ، فقالَ: إنما حلَفْتُ ذلكَ لمكانِ ولدي، فقالَ: لا يكونُ إيلاءً) فرأى في ذلكَ إيلاءً إذا كانَ عاصياً، وإذا كانَ إيلاؤُهُ وتركُ قربانِهِ إياها بمكانِ الولدِ لم يرَ ذلكَ إيلاءً. ثم لا يجوزُ أنْ يُحمَّلَ ما حمَّلَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ واعتبارُهُ بالعصيانِ وغيرِ العصيانِ فالإيلاءُ هو اليمينُ، والأيمانُ لا يختلِفُ وجوبُها ووجوبُ أحكامِها في حالِ العصيانِ وفي حالِ الطاعةِ، فعلى ذلكَ حكمُ الإيلاءِ.

ولو حُمِّلَ ما حمَّلَ ابنُ مسعودٍ ﷺ لكانَ لا يبقَى الإيلاءُ بعدَ مضيِّ اليومِ. فإذا لم يكنْ يمينٌ بعدَ اليومِ لم يبقَ حكمُها، ولو حُمِّلَ على ما قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ لكانَ لا فائدةَ لذكرِ التَّرَبُّصِ؛ فإذا بطلَ /٣٨ - أ/ ما ذكَرْنا ثبتَ قولُنا: إنَّ مدةَ الإيلاءِ إذا قَصُرَتْ عنْ أربعةِ أشهرٍ لم يَلْزَمْهُ حكمُ الإيلاءِ، ولو كانَ على الأبدِ لكانَ لا فائدةَ في ذكرِ المدةِ، وألّا يُعتبَرَ العصيانُ ولا الطاعةُ ولا الغضبُ ولا الرضا على ما ذكَرْنا.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنهُ قالَ: الإيلاءُ ليسَ بشيءٍ؛ معناهُ ما قيلَ: إنَّ الإيلاءَ كانَ طلاقَ القومِ(١٠)؛ فقولُهُ: ليسَ بشيءٍ، يقعُ للحالِ دونَ مضيِّ المدةِ قبلَ أنْ يَفِيءَ إليها في المدةِ.

قالَ أصحابُنا، رحمَهُم اللهُ تعالى: إذا مضَتْ أربعةُ أشهرٍ وقعَ الطلاقُ، وقالَ قومٌ: [إنَّهُ يُوقَفُ بعدَ مضيِّ المدةِ؛ فإمّا أنْ يَفِيءَ إليها، وإمّا أنْ يُطلِّقَها](١١)، واحتجُّوا في ذلكَ إلى أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ الفَيءَ بعدَ أربعةِ أشهرٍ بقولِهِ: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو﴾ لذلكَ كانَ لهُ الفَيءُ بعدَ مضيِّ [أربعةِ](١٢) الأشهرِ، ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ الوقفُ فيهِ. ورُوِيَ عنْ عمرَ

---

(١) أدرجت هذه العبارة في تفسير الآية ٢٢٨ وسنثبتها أيضاً في حينها لفائدتها. (٢) من م، في الأصل: ربما كان الطلاق وقت ابتداء الحرمة في م: ابتداء الحرمة. (٣) في الأصل: وم: يقيمون، والصواب ما أثبت على ما ورد في مختصر شواذ القرآن: ١٣ . (٤) من الاصل وم، ساقطة من ط ع. (٥) من الأصل وم، ساقطة من ط ع. (٦) من الأصل وط ع، ساقطة من م. (٧) من ط ع، في الأصل وم: اليوم. (٨) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٩) في النسخ الثلاث: تبيين. (١٠) في النسخ الثلاث: اليوم. (١١) من ط ع، في الأصل وم: يوقف فإن فاء إليها وإلا تطلق عليه. (١٢) من ط ع.

وعليٌ وعثمانَ وعائشةَ وابنِ عمرَ ﷺ في المُؤلي: إذا مضتْ أربعةُ أشهرٍ؛ فإمّا أنْ يَفيءَ، وإمّا أنْ يُطلِّقَ. إلى هذا يذهَبُونَ، لكنَّ هذا يَحتملُ أنْ يكونَ مِنَ الراوي دونَ أن يكونَ ما قالتِ الصحابةُ.

وأمّا عندَنا أنَّ قولَهُمْ ذِكْرُ الفيءِ بعدَ ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ فذلكَ لا يُوجبُ الفَيءَ بعدَ مُضِيِّها؛ ألا تَرَى أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] ليسَ أنْ يُمسِكَها بعدَ مُضِيِّ الأجلِ، ولكنَّ معناهُ: إذا قَرُبَ انقِضاءُ[1] ﴿أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾؟ فعلى ذلك جعلَ لهمُ الفَيءَ إذا قَرُبَ انقِضاءُ[2] أربعةِ أشهرٍ. وأمّا ما رُوِيَ مِنَ الوقفِ فليسَ فيهِ الوقفُ بعدَ مضيِّ أربعةِ أشهرٍ يَحتمِلُ الوقفَ في أربعةِ الأشهرِ. وأمّا عندَنا فإنها تَبِينُ إذا مضَتْ أربعةُ أشهرٍ لِما رُوِيَ عن سبعةٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وثمانيةٍ مِنْ نحوِ عمرَ وعليٍّ وابنِ عباسٍ وجابرٍ وزيدِ بنِ ثابتٍ [رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ][3] [أنهُمْ قالُوا: إذا مضَتْ أربعةُ أشهرٍ بانَتْ منهُ][4]، فاتّبَعْناهُمْ.

ثم اختُلِفَ في الطلاقِ إذا وقعَ [في وجهَينِ:

أحدُهما: ما][5] قالَ قومٌ: هو رُجْعِيٌّ، وهو قولُ أهلِ المدينةِ؛ فهو على قولِهِمْ: لِعَنَتٍ[6]؛ لأنَّ الزوجَ يُقَدَّمُ إلى الحاكمِ، فيطلِّقُ أمامَ الحاكمِ، ثم كانَ لهُ حقُّ المراجعةِ [فيُكَلِّفُونَ الحاكمَ العَنَتَ][7].

وأمّا عندَنا فهو بائنٌ؛ وعلى ذلكَ جاءتِ الأخبارُ: رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: (إذا مضَتْ أربعةٌ فهي تطليقةٌ بائنةٌ) وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ مثلُهُ، ورُوِيَ عنْ أبيٍّ [بنِ كعبٍ][9] في قولِهِ: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ (فيهِنَّ[10] يعني في أربعةِ الأشهرِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾) فثبتَ أنهُ جعلَ الرحمةَ والمغفرةَ فيها.

والثاني[11]: قولُهُ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]؛ ولو لم يجعلْ لهُ القربانَ والنقضَ في المدةِ لكانَ لا سبيلَ لهُ إلى نَقْضِها بعدَ مضيِّ المدةِ، إذْ هي مُؤَكَّدةٌ[12]، فثبتَ أنهُ لا بما اعتبَرُوا[13].

ثم قولُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: [يَحتمِلُ][14] بما جعلَ لهُ الخروجَ ممّا ضيَّقَ على نفسِهِ لئلّا[15] تطولَ عليهِ المدةُ، ويَحتمِلُ أنَّ المغفرةَ كانَتْ بما ارتكبَ ما إذا مضى عليهِ وجدَ [أنهُ مستحِقٌّ][16] للعقوبةِ، فغفرَ لهُ صنيعَهُ، ورَحِمَهُ بأنْ يُجاوِزَ عنهُ ما فعلَ.

الآية ٢٢٧ وقولُهُ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (عزيمةُ الطلاقِ مُضِيُّ أربعةِ أشهرٍ). وقد ذَكَرْنا قولَ الصحابةِ ﷺ: إنَّ عزيمةَ الطلاقِ أربعةُ أشهرٍ.

وقولُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: ﴿سَمِيعٌ﴾ بإيلائِهِم[17] ﴿عَلِيمٌ﴾ بتركِ الفَيءِ [وتحقيقِ حكمِهِ][18]، أو ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أرادُوا[19] بالإيلاءِ [كأنهُ قالَ: إنهُ على[20] علمٍ بما يكونُ مِنْ خَلْقِهِ وبما بهِ صلاحُهُمْ وما إليهِ مرجعُهُمْ، خلَقَهُمْ وهو السميعُ بجميعِ ما تناجَوا، وأسَرُّوا، وجَهَرُوا، واللهُ الموفقُ][21].

والفيءُ الجِماعُ وهو الرجوعُ في الحاصلِ لأنهُ حلَفَ ألّا يقربَها، فإذا قربَها رجعَ عنْ ذلكَ، وهكذا رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ ﷺ أنهما قالا: (الفيءُ الجماعُ).

الآية ٢٢٨ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾؛ اختلَفَ الناسُ في الأقراءِ][22]؛ قالَ بعضُهُمْ: [الأقراءُ][23] هي الأطهارُ، وقالَ آخرونَ: هي الحِيَضُ، وهو قولُنا. وعلى ذلكَ اختلَفَ الصحابةُ: قالَ عمرُ وعليٌّ وعبدُ اللهِ

---

(١) من ط ع وم، في الأصل: القضاء. (٢) من ط ع وم، في الأصل: القضاء به. (٣) من الأصل وط ع، في م: ﷺ. (٤) أدرجت هذه العبارة في النسخ الثلاث بعد وثمانية. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) في الأصل: لغت. (٧) في ط ع: فيكلف الحاكم للعبث. (٨) من ط ع، وم، ساقطة من الأصل. (٩) من ط ع. (١٠) انظر البحر المحيط: ٢/٤٤٩ والدر المنثور: ١/٦٤٦ . (١١) هذا الوجه الثاني من وجوه اختلاف الطلاق. (١٢) في الأصل وم: تتأكد، في ط ع: تأكد. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: اعتبروا ويلزم. (١٤) من ط ع وط م، ساقطة من الأصل. (١٥) في م: لأنه لا. (١٦) في الأصل وم: ذاته مستحقاً، في ط ع: وأنه مستحقاً. (١٧) من ط ع، في الأصل وم: بالإيلاء. (١٨) من ط ع. (١٩) من ط ع، في الأصل وط م: أراد. (٢٠) في ط ع: عن. (٢١) من ط ع، في الأصل: وم: والله أعلم. (٢٢) في ط ع: ثم اختلف الناس في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. (٢٣) من ط ع.

[ابنُ مسعودٍ](١) ﷺ هي الحيَضُ، وقالَتْ عائشةُ وزيدُ بنُ ثابتٍ وابنُ عمرَ ﷺ (هي الأطهارُ)، وبهِ أخذَ أهلُ المدينةِ، وقالُوا: قُلنا ذلكَ بالسُّنَّةِ والأخبارِ عنِ الصحابةِ، رضوانُ الله تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، واللسانِ والمناقضةِ.

أمّا السُّنَّةُ فقولُهُ لعمرَ: «مُرِ ابنَكَ فَلْيُراجِعْها، ثم لِيُطَلِّقْها، وهي طاهرٌ أو حاملٌ» [بنحوه البخاري: ٥٢٥١]؛ فتلكَ العِدَّةُ التي أمرَ اللهُ تعالى أنْ تُطلَّقَ لها النساءُ هي الأطهارُ. لكنَّ الجوابَ لهذا منْ وجهَينِ:

أحدُهما أنهُ جعلَ ذلكَ عِدَّةً للطلاقِ لا عِدَّةً عنِ الطلاقِ؛ والعِدَّةُ للطلاقِ غيرُ العِدَّةِ عنِ الطلاقِ، وكذا نقولُ في الطهرِ الذي تُطلَّقُ فيها النساءُ: إنها عِدَّةٌ للطلاقِ لا عنها.

والثاني: [أنه مِنْ](٢) قولِ الرجلِ: إنَّ لهُ الإيقاعَ في آخرِ أجزاءِ الطُّهرِ؛ وقد ذُكِرَ في الخبرِ: الطلاقُ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ، ولو كانَ المعنيُّ بهِ الطُّهرَ لكانَ الطلاقُ في آخرِ أجزاءِ الطُّهرِ قبلَ الحَيضِ، في آخرِ أجزاءِ الطُّهرِ لا في القُبُلِ، فثبتَ أنَّ القولَ بجعلِ الطهرِ عِدَّةً عنِ الطلاقِ بعيدٌ.

[وأمّا اللسانُ، فهو](٣) قولُ الناسِ، قَرَأَ الماءَ في حوضِهِ، وقَرَأَ الطعامَ في شِدْقِهِ؛ أي حَبَسَ، والطُّهرُ حبسُ الدم. لكنْ عندَنا الطُّهرُ جِبِلَّةٌ وأصلٌ، وعليها خُلِقَتْ، وأُنشِئَتْ، والحَيضُ عارضٌ؛ فإذا كانَ في الرحمِ دمٌ خرجَ، وإلا كانَتْ على أصلِ خلقتِها(٤) طاهراً، لأنَّ الطُّهرَ يَحبِسُ الدمَ؛ فإذا كانَ هذا ما ذَكَرْنا بطلَ احْتِجاجُهُ باللغةِ واللسانِ.

وأما المُناقضةُ فهي(٥) أن يقولَ: جعلتُمْ هي مُعتَدَّةً مع زوالِ الأذى عنها ما لم تغتسلْ في إبقاءِ حقِّ الرجعةِ؛ فأمّا دعوةُ المناقضةِ فهي بعيدةٌ لأنَّ الكتابَ جعَلَها باقيةً [ما لم تغتسلْ](٦) على حكمِ الأذى، فإنْ كانَ فيهِ طعنٌ فعلى الكتابِ.

وقالَ: ذكرَ اللهُ تعالى ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ باسْمِ التذكيرِ لا باسْمِ التأنيثِ، فدلَّ أنه أرادَ الأطهارَ؛ يُقالُ: ثلاثةُ رجالٍ وثلاثُ نسوةٍ، فإذا أدخلَ فيه الهاءَ عُقِلَ أنهُ أرادَ الطهرَ. قيلَ: إنَّ اللغةَ لا تمتنعُ(٧) عنْ تسميةِ شيءٍ واحدٍ باسْمِ التذكيرِ والتأنيثِ كالبُرِّ والحنطةِ ونحوِ ذلكَ إذا لم يكنْ ذي روحٍ، فإذا كانَ كذلكَ فلا دلالةَ فيهِ على جعلِ ذلكَ طُهراً. وقالَ: القُرْءُ، وهو الانْتِقالُ [مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ يُقالُ: أقرأَ النجمُ إذا غابَ، وأقرأَ إذا طلعَ، ونحوُهُ. لكنَّ هذا ليسَ بشيءٍ لأنهُ لو كانَ القُرْءَ، وهو الانْتِقالُ](٨) مِنْ حالٍ إلى حالٍ، لكانَ يُقالُ للنجمِ إذا طلعَ: أقرأَ، فيكونُ الاسْمُ للظهورِ لا(٩) للغيبوبةِ أو لهما جميعاً، فلا دلالةَ في ذلكَ.

وأمّا الأصلُ عندَنا [ففي وجهَينِ:

أحدُهما: قولُهُ](١٠) ﷻ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] فأمرَ بالإمساكِ عندَ بلوغِ أجلِهِنَّ؛ [والبلوغُ اسْمٌ لِلتَّمامِ](١١)، ثم لا يخلو بلوغُ الأجلِ مِنْ أن يكونَ بالإشرافِ على أوّلِ أجزاءِ الطُّهرِ وعندَ انتهائِهِ. فإنْ كانَ عندَ انتهاءِ [الطهرِ](١٢) فلا غايةَ لهُ ينتهي إليها(١٣) ليُقطَعَ عليهِ الحكمُ، وإنْ كانَ على الإشرافِ [على أوّلِهِ فعليهِ](١٤) أيضاً كذلكَ. ثم لو حُمِلَ على الانتهاءِ أيضاً لَبَعُدَ(١٥) بما يُعرَفُ ذلكَ بالحَيضِ الذي يقطَعُ جهةَ الإمساكِ، فَيُحمَلُ(١٦) على ما يُعرَفُ [لا على ما لا يُعرَفُ، واللهُ أعلمُ. فثبتَ أنهُ الحيضُ لأنَّ لهُ الغايةَ](١٧).

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ [ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾](١٨) [الطلاق: ٤]؛ اتّفقُوا فيهِ أنهُ مذكورٌ على البدلِ، ولم يُعرَفْ ذكرُ الأبدالِ في الأشياءِ إلّا على إثرِ الأصولِ حيثُ ما ذُكِرَ، [ذُكِرَ الحيضُ عندَ ذِكْرِ البدلِ](١٩)، فبانَ أنَّ المبدَلَ مِنْ ذلكَ، إنما هي الحِيَضُ المجعولةُ أصولاً في تَقَضّي العِدَّةِ، إنما هو الحيضُ.

(١) من ط ع. (٢) في ط ع: إن من، في الأصل: إن. (٣) في الأصل وم: وقال باللسان وهو، في ط ع: وأما اللسان وهو. (٤) من ط ع وم، في الأصل: خلقها. (٥) في الأصل وم: هو، في ط ع: هي. (٦) من ط ع، في الأصل وم: لم تغسل. (٧) في ط ع: تمنع. (٨) من ط ع. (٩) ساقطة من ط ع. (١٠) في النسخ الثلاث: فقوله. (١١) من ط ع. (١٢) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٣) في النسخ الثلاث: إليه. (١٤) في ط ع: على أول عليه، في الأصل وم: عليه. (١٥) في النسخ الثلاث يبعد. (١٦) في النسخ الثلاث: حمل. (١٧) من ط ع. (١٨) من ط ع، في الأصل وم: كذا. (١٩) من ط ع.

[ثم الدليلُ على أنَّ المرادَ مِنْ قولِهِ: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، وإنِ احتَمَلَ الطُّهرَ، يرجعُ إلى الحَيْضِ؛ وذلكَ أنَّ ﴿ثَلَٰثَةَ﴾ اسمٌ لتمامِ العددِ، فيصيرُ كأنهُ قالَ: ثلاثةَ أطهارٍ، لو أرادَ بهِ الطُّهرَ، أو ثلاثَ حِيَضٍ، لو أرادَ بهِ الحَيْضَ. ثم هم على اختلافِهِمُ اتَّفقوا على أنهُ بالحَيْضِ ثلاثةٌ، وبالطُّهرِ طُهرانِ وبعضُ الأوَّلِ. ثَبَتَ أنَّ الحَيْضَ أولَى مع ما كانَ فيهِ الاحتِياطُ، إذا احتَمَلَ الوجهَينِ أنْ يدخلا جميعاً في الحقِّ، لا يُزالُ، بعدَ أن ثَبَتَ، إلّا بالبيانِ. ويُبيِّنَ ذا أنَّ في الخبرِ تلكَ العِدَّةَ التي أمرَ اللهُ أنْ تُطلَّقَ لِقِبَلِها النساءُ: إنهُ الحَيْضُ حتى يكونَ قِبَلَهُ الطُّهرُ مع ما يَحتمِلُ عِدَّةَ فعلِ الطلاقِ لا الانقِضاءَ. يبيِّنُ ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ][1]: «إنَّ عِدَّةَ الأمَةِ، حَيضتانِ، وهي بعضُ عِدَّةِ الحُرَّةِ، ووقتُ طلاقِها وقتُ طلاقِ الحُرَّةِ» [الدراقطني: ٣٧٨٥]. فبانَ أنَّ العِدَّةَ اثنتانِ. ثبتَ أنَّ أصلَ ما بهِ تنقضي العِدَّةُ هو الحَيْضُ.

وقالَ الشافعيُّ: (قولُهُ: «عدةُ الأمَةِ حَيضتانِ» أي قُرءانِ، والقُرءانِ هما الطُّهرانِ) فيقالُ لهُ: أبلَغتَ في النَّقْلَةِ[2]، وأفرَطتَ في الحِجاجِ؛ حينَ فهِمتَ مِنَ الحَيْضِ القُرْءَ، وهو أوضحُ عندَ أهلِ اللسانِ بالسماعِ مِنَ المفهومِ لهُ بهِ مع ما في ذلكَ تجهيلُ رسولِ اللهِ ﷺ باللسانِ، وهو أفصحُ العربِ، وأعلمُ البشرِ، حينَ عبَّرَ عنِ الطُّهرِ بالحَيضِ.

ووجهٌ آخرُ [أنهمُ اتَّفقُوا على][3] أنهُ لو طَلَّقَ في بعضِ الطُّهرِ، فالبقيةُ منهُ عِدَّةٌ، ومثلُهُ مِنَ الاعتِدادِ قُرءانِ ونصفٌ. والكتابُ /٣٨ - ب/ أوجبَ الاعتِدادَ بالثلاثِ، فثبتَ أنَّ الأمرَ بالاعتِدادِ أمرٌ بالحَيْضِ لا بالأطهارِ لِلْمَعنَى الذي وصَفْنا، وإنْ كانَ القُرْءُ اسماً للطُّهرِ والحَيْضِ في اللغةِ.

ثم الأصلُ [في المسألةِ: أنَّ ابتِداءَ الحِلِّ لزوجِها ولغيرِهِ، وكذلكَ نهايةُ][4] الحِلِّ إنما جُعِلَتِ بالأطهارِ.

ثم الأصلُ أنَّ ابتِداءَ حُرْمَتِها على الزوجِ الأوَّلِ بالطُّهرِ، فَيَجعَلُ انتِهاءَ الحرمةِ في مثلِهِ بالطُّهرِ. وحاصلُ هذا أنهُ جعلَ نهايةَ الحِلِّ فيهِ وفي غيرِهِ بما بهِ ابتِداءُ الحِلِّ، فكذا يجعلُ نهايةَ الحرمةِ فيه وفي غيرِهِ بما بهِ ابتِداؤُهُ، وإذا ثبتَ أنَّ المنظورَ في الحِلِّ والحرمةِ [في الابتِداءِ بالابتِداءِ، وجبَ أنْ يكونَ المنظورُ][5] في الحِلِّ، والحرمةِ بالانتِهاءِ.

ثم في قولِهِ: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ وفي قولِهِ: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفي قولِهِ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٠] [وفي نحوِ][6] هذهِ الآياتِ دلالةُ تأخُّرِ البيانِ حيثُ لم يُبيِّنْ ما الإقراءُ؟ ولم يُبيِّنِ الاعتِزالَ مِنْ أيِّ موضعٍ؟ ومنْ أيِّ مكانٍ؟ ولم يُبيِّنِ المخالطةَ في ماذا؟ وفي أيِّ شيءٍ؟ فالاختِلافُ فيهِ باقٍ إلى يومِ التنادي، فبطلَ قولُ مَنْ ينكرُ تأخُّرَ البيانِ، وثبتَ [قولُ مَنْ][7] أقرَّ بِهِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾؛ ففي الآيةِ دلائلُ: أحدُها: أنَّ ذكرَ حرمةِ الكِتمانِ في مَنْ آمنَ ليسَ بشرطٍ فيهِ دونَ غيرِهِ؛ إذ قد يُلزِمُ ذلكَ مَنْ هو غيرُ مؤمنٍ، إذْ هو غيرُ مستحسَنٍ في العقلِ. ففيهِ الدليلُ على أنَّ الحكمَ الموجبَ لعلَّةٍ يجوزُ لزومُهُ في ما ارتفعَتْ عنهُ تلكَ العِلَّةُ، وعُدِمَتْ. وهو كقولِهِ: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ [وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ][8] إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، وقد يلزمُ إصلاحُ ذاتِ البينِ في غيرِ الإيمانِ، وكذا قولُهُ: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقد يلزمُ تركُ الربا للمُعاهِدِ، وقد يجوزُ ذلكَ للمسلمِ في [غيرِ][9] دارِهِ، فدلَّ أنَّ الحكمَ إذا ذُكِرَ العِلَّةُ[10] في أحدٍ لا يمنعُ لزومَ ذلكَ في غيرِ المذكورِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: (فيهِ دليلٌ على أنَّ إضافةَ الحكمِ إلى سببٍ لا يمنَعُ حقَّهُ ارتفاعَهُ، وفيهِ دليلٌ ألّا يحِلَّ ذلكَ لِمَنْ قد آمنَ مِنَ[11] الخلقِ؛ لأنَّ حقَّهُ التصديقُ وإظهارُ الحقِّ، وفي الكتمانِ والتكذيبِ تركُ ما فيهِ مِنَ الشرطِ، واللهُ أعلمُ).

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: واحتجوا بقوله: ﷺ. (٢) في الأصل وم: العقلة، في ط ع: المقلة. (٣) من ط ع، في الأصل وم: ما اتفقوا أنه. (٤) في ط ع: أن ابتداء حرمتها على الزوج الأول بالطهر فيجعل انتهاء. (٥) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع، في الأصل وم: في. (٧) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٨) من ط ع، في الأصل وم: إلى قوله. (٩) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: لعلة. (١١) في النسخ الثلاث: في.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾؛ قالَ بعضُهُمْ: الحَبَلُ والحَيْضُ، وكذلكَ رُوِيَ عنْ عليٍّ وعبدِ اللهِ [بن مسعودٍ وعبدِ اللهِ][1] بنِ عباسٍ ﷺ أنهمْ قالُوا: (﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ الحَبَلُ والحَيْضُ) فثبتَ أنَّ موضِعَ[2] الحَيْضِ الرحمُ، ثم الرحمُ يشغَلُهُ الحَبَلُ عنْ خروجِ الدمِ، فبانَ أنَّ الحاملَ لا تَحيضُ. وعلى ذلكَ قولُهُ ﷺ: «إنما ذلكَ دمُ عِرْقٍ انْقَطَعَ» [أبو داوود: ٢٨٠]؛ وهو الأمرُ المتعارفُ في النساءِ أنَّ الحَبَلَ يحبِسُ الدمَ. وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ الحَبَلُ خاصةً دونَ الحَيْضِ لِوَجهَينِ:

أحدُهما: أنهنَّ في الجاهليةِ [كنَّ][3] يكتُمْنَ ذلكَ، فَيُلْحِقْنَ بغيرِ الآباءِ، فأُوعِدْنَ على ذلكَ بعدَ الإسلامِ، فثبتَ أنَّ الحَيْضَ لا يُحتَمَلُ.

والثاني: أنَّ الحَيْضَ لا يُنسَبُ بكونِهِ في الرحمِ؛ فإذا كانَ غيرَ منسوبٍ إليهِ لم يُحتَمَلْ كونُهُ فيهِ، واللهُ أعلمُ.

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذكَرْنا مِنْ قولِ الصحابةِ، وما فيهِ مِنَ الدلالةِ أنهنَّ[4] مُؤتَمَناتٌ في ما يُخْبِرْنَ لِوجهَينِ:

أحدُهما: ما جاءَ مِنْ أنَّ الأمانةَ أنْ تؤتَمَنَ المرأةُ على فَرجِها.

والثاني: لولا أنها مِمَّنْ يُقبَلُ [خبرُها فيهِ لَما أُوعِدْنَ][5] على الكِتمانِ.

[ثم يَحتمِلُ الكتمانُ][6] مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَكْتُمْنَ ذلكَ يَسْتَوجبْنَ بهِ الإنفاقَ مِنْ عندِ أزواجِهنَّ بقولِهِنَّ: العِدَّةُ باقيةٌ[7]، وذلكَ يَحتمِلُ الحَيْضَ والحَبَلَ جميعاً.

والثاني[8]: ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ مِنْ إبقاءِ حقِّ الرجعةِ.

ويَحتمِلُ قولُ أبي حنيفةَ، رحمَهُ اللهُ، في كتمانِها؛ إذْ قالَ في المرأةِ إذا جاءَتْ بولدٍ في العِدَّةِ، فشهدَتِ[9] امرأةٌ على الولادةِ، والحبلُ لم يكنْ ظاهراً: (يُقبَلُ[10] قولُها، إذْ أُمِرَتْ بالإظهارِ، والكِتمانُ أورثَ تُهَمَةً في القبولِ).

ويَحتمِلُ: ألّا يحِلَّ [لهنَّ][11] أنْ يكتُمْنَ الحَبَلَ، فيُلْحِقْنَ بغيرِهِمْ مِنَ الأزواجِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ أنهنَّ لا يملِكْنَ الرجعةَ ولا مَنْعَ أزواجِهِنَّ عنِ المراجعةِ، بل ذلكَ إلى بعولتِهِنَّ، ويَحتمِلُ ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ في نكاحٍ في العدةِ لا في حقِّ الرجعةِ؛ إذِ الزوجُ يملِكُ نكاحَها في العِدَّةِ، وغيرُهُ مِنَ الناسِ لا يَملِكُ، كقولِهِ: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقولُهُ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ فيهِ[12] دليلٌ أنَّ قولَهُ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ إنما عَنَى بهِ المطلَّقَ طلاقاً لم يقطعْ على نفسِهِ جهةَ العودِ[13].

وقولُهُ: ﴿فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: يَحْتمِلُ إصلاحَ ما بينَهُنَّ، ويَحتمِلُ: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟﴾ إمساكَهُنَّ بالمعروفِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ [البقرة: ٢٣١]، فهو ممسكٌ لها، وإنْ كانَ مُضِرّاً.

ثم الأصلُ في هذا أنهُ، وإنْ قالَ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ليسَ على ألّا يصيرَ مُمْسِكاً لها بغيرِ المعروفِ؛ وأصلُ هذا أنْ ليسَ في القولِ: ألّا[14] تفعَلُوا دليلَ الجوازِ، والفسادُ إذا فُعِلَ ذلكَ.

ثم اختُلِفَ[15] في قولِهِ: ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في الوقتِ الذي يعيدُ بهِ، أو ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ القروءِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (إني أحبُّ أنْ أتزيَّنَ لامرأتي كما أحبُّ أنْ تتزيَّنَ لي، لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾) وقالَ آخرونَ: لهنَّ مِنَ الكَفافِ ما عليهِنَّ مِنَ الخدمةِ،

---

(١) من ط ع. (٢) في ط ع: موضوع. (٣) من ط ع. (٤) في النسخ الثلاث: أنه. (٥) من ط ع، في الأصل: خبر فيه لما أوعد، في م: خبر فيها. (٦) من ط ع وم. (٧) من ط ع وم، في الأصل: باق. (٨) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٩) في م: فشهد. (١٠) أدرج في النسخ الثلاث: قبلها: أن. (١١) من ط ع وم. (١٢) من ط ع، في الأصل وم: وفيه. (١٣) في ط ع: العودة. (١٤) في النسخ الثلاث: بألا. (١٥) في ط ع: اختلفت.

وقالَ غيرُهُمْ: لهُنَّ مِنَ الحقِّ في المهورِ بتسليمِ الأزواجِ إليهِنَّ ما عليهِنَّ مِنْ تسليمِ البِضاعِ[1] إلى الأزواجِ. فيدلُّ هذا على أنَّ الخَلْوةَ والتسليمَ منها يَحُلُّ مَحَلَّ قبضِ الحقِّ منها لزوجِها، وقيلَ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الحقوقُ: ما تُلزِمُهُنَّ مِنْ حقوقِ الأزواجِ، [يلزمُ مثلُها على الأزواجِ لهنَّ[2]][3]، وإنْ كانتْ مختلفةً.

وقولُهُ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ قيلَ: [هي الطلاقُ][4] بيدِ الرجلِ وليسَ بيدِها، وقيلَ: هي الإمارةُ والأمرُ، وقيلَ: هي ما فضَّلَ اللهُ بهِ عليها مِنَ الجهادِ والميراثِ وغيرِهِ، وقيلَ: [هي][5] لهمْ مِنَ الفضيلةِ مِنَ الولاياتِ والشهاداتِ والعقلِ، وذلكَ ليسَ لهنَّ، وقيلَ: [هي][6] فضيلةٌ في الحقِّ وبما ساقَ إليها مِنَ المهرِ.

وقالَ[7] الشيخُ أبو منصورٍ، رحمَهُ اللهُ، في قولِهِ: (﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ أي مِنَ الحقوقِ على الأزواجِ). ثم تَحتمِلُ حقوقُهُنَّ المهرَ والنفقةَ، وتَحتمِلُ ما أتبعَ مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ وتَحتمِلُ قضاءَ ما لها مِنَ الحوائجِ خارجَ البيتِ ممّا بهِ قِوامُ دينِها وَوِقايَتُها عنِ النارِ؛ وعليها مِنَ الحقوقِ مقابلَ الأوّلِ البذلُ لهُ وألّا يوطِئْنَ فُرُشَهُنَّ أحداً، ومقابلَ الثاني أنْ يُحْسِنَّ إليهِمْ في البرِّ باللسانِ والقولِ بالمعروفِ الذي فيه تَطيبُ نفسُهُ به كما وصفَ الحميدةَ منهُنَّ: «مَنْ إذا نظَرْتَ إليها سَرَّتْكَ، وإذا دَعَوتَها أجابَتْكَ، [وإذا غِبْتَ عنها حَفِظَتْكَ في مالِكَ ونفسِها]»[8] [ابن ماجه: ١٨٥٧]، ومقابلَ الثالثِ ألّا تتلقّاهُ بمكروهٍ، ولا تُقابِلَهُ بما[9] يُضجِرُهُ، ويُغْضِبُهُ معَ الخدمةِ وكفايةِ الداخلِ مِمّا بهِ قِوامُ دينِهِ، واللهُ أعلمُ. والدرجةُ التي ما لَهُ مِنَ الملكِ فيها والفضلِ في الحقوقِ عليها وما جُعِلَ قَوّاماً عليها[10] وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ ما لهنَّ منْ قولِهِ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ وعليهِنَّ بذلُ حقِّهِمُ المعروفِ والإحسانُ إليهِمْ في ما يبغُونَ مِنَ الخدمةِ والقيامِ بكفايةِ داخلِ البيتِ معَ حفظِ مالِهِ عندَها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٢٩ وقولُهُ: [ﷻ][11]: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾؛ فيهِ[12] دلالةُ أنْ يطلِّقَ بِنيَّتَينِ بمرَّتَينِ، وقولُهُ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أنَّ لهُ الرَّجْعَةَ بعدَ طلاقَينِ بذكرِهِ مرتَينِ، وفيهِ أنَّ المطلِّقَ في الطهرِ الثالثِ مِنْ غيرِ رجعةٍ مُطلِّقٌ للسُّنَّةِ لِما خُيِّرَ بينَ الإمساكِ أو التسريحِ مِنْ غيرِ مراجعةٍ، وهو على مالكٍ /٣٩ - أ/ لأنهُ يقولُ: (ليسَ لهُ أنْ يزيدَ على تطليقةٍ واحدةٍ إلّا أنْ يراجعَ. ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ هو التطليقةُ الثالثةُ) كذلك رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه سُئِلَ عنِ التسريحِ بإحسانٍ، فقالَ: «هو التطليقةُ الثالثةُ» [بنحوه: الدر المنثور ج١/ ٦٦٤]. فإنْ قيلَ: إيش الحكمةُ في ذكرِ المعروفِ في الإمساكِ والإحسانِ في التسريحِ؟ قيلَ: فذلكَ أنَّ في التسريحِ قطعَ الحقوقِ التي أوجبَها النكاحُ، فأمرَ عندَ قطعِها عنها بالإحسانِ إليها مُبتَدِئاً[13]. والإحسانُ أبداً إنما يكونُ عندَ ابْتِداءِ الفعلِ لا عندَ المكافأةِ. وأمّا المعروفُ في الإمساكِ فالنكاحُ أوجبَ ذلكَ بقولِهِ[14]: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]؛ قيلَ: الميثاقُ الغليظُ الحقوقُ التي أوجبَ النكاحُ. وهذا، واللهُ أعلمُ، وجهُ الحكمةِ، والمعروفُ ما عَرِفَا في النكاحِ، والإحسانُ هو ما يَبْتَدِئُ ممّا لم يَعرِفا.

وقـولُـهُ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ فظاهرُ هذهِ الآيةِ الكريمةِ يُوجِبُ ابْتِداءَ الخطابِ للأزواجِ، ثم آخرُها يُوجِبُ الخطابَ لهما جميعاً، ثم آخرُها يوجبُ الخطابَ لغيرِ الأزواجِ: يَحفَظُ عليهما حدودَ الصحبةِ، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ في الآيةِ [إضمارُ: الحَكَمَينِ][15]، فيكونُ كقولِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥]، فيكونانِ هما اللذانِ يحفَظانِ الحدَّ المَحْدودَ[16].

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ في قولِهِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ للحكامِ لأنهمْ همُ الذينَ يَتَوَلَّونَ النظرَ في أمورِ الناسِ لِيُقَوِّمُوهُمْ على حفظِ حدودِ اللهِ.

---

(١) في م: الإبضاع. (٢) من ط ع. (٣) من ط ع وم. (٤) في ط ع: الطلاق هو، في الأصل وم: هو الطلاق. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث. (٦) من ط ع. (٧) من ط ع، في الاصل وم: قال. (٨) من ط ع، في الأصل وم: وتحفظك في النفس والمال. (٩) ساقطة من ط ع. (١٠) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]. (١١) من ط ع. (١٢) في النسخ الثلاث: ففيه. (١٣) في ط ع: مهتدياً. (١٤) في النسخ الثلاث: كقوله. (١٥) في الأصل وم: الإضمار فيهما الحكمين، في ط ع: الإضمار فهما الحكمين. (١٦) في ط ع: والمحدود.

ثم القولُ عندَنا في قولِهِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ إذا كانَ النشوزُ [واقعاً][1] مِنْ قِبَلِ الزوجِ، فإنه لا يحلُّ أخذُ شيءٍ على الخَلْعِ استِدلالاً بقولِهِ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]. وأمّا إذا كانَ النشوزُ مِنْ قِبَلِها فإنهُ لا بأسَ أنْ يأخذَ قَدْرَ المهرِ، وتُكرَهُ الزيادةُ، وتجوزُ[2]. وأمّا قَدْرُ المهرِ فإنهُ لا بأسَ إذا كانَ النشوزُ مِنْ قِبَلِها استِدلالاً [بقولِهِ][3]: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾؛ ذكرَ رفعَ الحَرَجِ عنِ الذي فَدَى فيما عنهُ نَهَى [في][4] غيرِ هذا، وهو المُؤتَى؛ لذلكَ قلْنا: إنه يجوزُ، إذا كانَ النشوزُ مِنْ قِبَلِها، قدرُ المهرِ. وأمّا الزيادةُ فإنها[5] تُكرَهُ استِدلالاً بما رُوِيَ في الخبرِ أنَّ امرأةً أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ فذكرَتْ بُغضَ زوجِها، فقالَ: «أترُدِّينَ عليهِ حديقَتَهُ؟ فقالَتْ[6]: نعم وزيادةً، [فقالَ: أمّا الزيادةُ][7] فلا» [بنحوه ابن ماجه: ٢٠٥٦]، ففيهِ[8] الدلالةُ أنَّ النشوزَ إذا كانَ مِنْ قِبَلِها فإنهُ يجوزُ قَدْرُ المهرِ.

وقالَ أبو داوُدَ: (خالفَ الشافعيُّ ظاهرَ الكتابِ في ما جَعَلَ لهُ أخذَ ما فدَى والزيادةَ، والكتابُ رفعَ الحرجَ[9] عنْ أخذِ ما فَدَى، لم يجعلْ لهُ غيرَهُ بقولِهِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾. وقالَ[10] ابنُ شُرَيحٍ: (ما ذلكَ الأخذُ في الطلاقِ؟ إنما ذلكَ في الطلاقِ كُرْهاً، لأنهُ ليسَ في الآيةِ ذكرُ الطلاقِ)، واستَدَلَّ بقولِهِ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]؛ فجعلَ لهُ أكلَ ما أخذَ بالوصفِ الذي ذكرَهُ. ثم كانَ لهُ أخذُ ما تبذُلُ في غيرِ الطلاقِ. فعلى ذلكَ في الطلاقِ، وفي الطلاقِ أحقُّ، واللهُ أعلمُ.

والأصلُ عندَنا جوازُ ما بذلَتْ: أخذُهُ ممّا احتجَّ بهِ الرجلُ إنْ كانَ لهُ بذلكَ في غيرِ الطلاقِ، وهو [في][11] الطلاقِ أجوَزُ؛ لأنها تَنتَفِعُ، غيرَ أنهُ يُكرَهُ الفضلُ لهُ[12] لِما ذكرْنا مِنَ الآيةِ والخبرِ، ثم يجوزُ هو لأنَّهُ تبادُلٌ؛ فكانَ كالعقودِ التي تُكرَهُ لربحِ ما لم يُضمَنْ على الجوازِ، فكذا هذا. والأصلُ بأنَّ الطلاقَ بالبَدَلِ بينَهما[13]، وهو لو لم يملكِ البينونةَ مطلقاً لم يملِكْهُ بما شرطَ، فثبتَ أنه يَملِكُ؛ وأصلُهُ أنهُ بالطلاقِ، ويصرِفُ إليها ما ملكَ عليها بالعقدِ، فانتَفَعَتْ بإزاءِ ما بذلَتْ، لذلكَ سَلِمَ للزوجِ ما أخَذَ، واللهُ أعلمُ. قالَ: ويُكرَهُ أخذُ الزيادةِ بما فيه رفعُ النكاحِ، فيصيرُ أخذُ ما يأخذُ بالذي أعطَى، فما يفضلُ عليهِ ليسَ بإزائِهِ بَدَلٌ، وذلكَ وصفُ الربا، واللهُ أعلمُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾؛ قيلَ: ﴿يَخَافَآ﴾ عَلِما؛ يعني الرجلَ والمرأةَ، وقيلَ: عَلِمَ الحكمانِ ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾. وعلى ذلكَ [قولُهُ][14]: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ قيلَ[15] عَلِمْتُمْ، وقيلَ: الخوفُ [هو الخوفُ][16]، فكانَهُ أقربُ لأنَّ العلمَ يكونُ في ما مضَى مِنَ الحالِ أنهما أقاما حدوداً، أو لم يُقيما، وأمّا الخوفُ في حادثِ الوقتِ أمكنُ لأنهُ لا يُعلَمُ باليقينِ، لذلكَ كانا ما ذكَرْنا، وهو كقولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].

[وقولُهُ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ اختُلِفَ فيهِ][17]؛ قالَ بعضُهم: أرادَ بقولِهِ: ﴿عَلَيْهِمَا﴾ عليه خاصةً، وهذا جائزٌ في اللغةِ إضافةُ شيءٍ إلى الاثنَينِ والمرادُ واحدٌ منهما كقولِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يَخرُجُ مِنْ أحدِهِما، ومثلُهُ كثيرٌ. وقالَ آخرونَ: أُريدا جميعاً: المرأةُ بالفِداءِ، والرجلُ بالأخذِ لأنَّ الزوجَ نُهِيَ عنْ أخذِ شيءٍ ممّا آتاها بقولِهِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ ثم أباحَ، ورفعَ الحرجَ منهُ بالأخذِ على الشرطِ، وقيلَ: أراد بذلكَ الزوجَ خاصةً، وهو ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾؛ قيلَ: إذا لم يُفهَمْ [بحدٍّ مِنْ حُدودِ اللهِ تعالى ما يُفهَمُ][18] مِنْ حدِّ الخلقِ. كيفَ فُهِمَ مِنِ استِواءِ الربِّ ومَجيئِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و..] [وقولِهِ][19]: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٤) من ط ع وم، في الأصل: من. (٥) من ط ع، في الأصل وم: فإنه. (٦) في ط ع: فقال. (٧) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (٨) من ط ع و م، في الأصل: فيه. (٩) في ط ع: المحرج. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وط ع. (١١) من ط ع. (١٢) ساقطة من ط ع. (١٣) في النسخ الثلاث: بينها. (١٤) من ط ع. (١٥) في ط ع: يعني. (١٦) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٧) في ط ع: ثم اختلف في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾. (١٨) ساقطة من م. (١٩) في ط ع: و، ساقطة من الأصل وم.

[الفجر: ٢٢] ما فُهِمَ مِنِ اسْتِواءِ الخَلْقِ ومَجيئِهِمْ؟ والاِسْتِواءُ والمَجيءُ إلى احْتِمالِ معانٍ: أنْ يُنفى عنهُ التشبيهُ أكثرَ مِنِ احْتِمالِ الحدودِ في الشاهِدِ. فإذا لم يُفْهَمْ مِنْ هذا ذلكَ[1] لم يَجُزْ أنْ يُفْهَمَ مِنَ الأوّلِ ما فَهِموا، وقد قالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقولُهُ: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ قيلَ: أحكامُ اللهِ وسُنَّتُهُ، وقيلَ: أوامِرُهُ ونواهيهِ [وقيلَ: إرادتُه، وهو واحدٌ][2].

وقولُهُ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ مُسْتَحِلًّا لها، فيكفُرُ بتعدّيهِ ذلكَ، فهو ظالمٌ ظلمَ كفرٍ. ويَحتمِلُ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ تجاوزَ أمرَ اللهِ وما نهاهُ عنهُ غيرَ مُسْتَحِلٍّ لها، فهو ظالمٌ نفسَهُ، غيرُ كافرٍ.

الآية ٢٣٠ وقولُهُ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ هذهِ الآيةُ رجعَتْ إلى [قولِهِ الأوّلِ][3] ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ فإنْ طَلَّقَها بعدَ التطليقتَينِ تطليقةً أُخرى ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾. وقولُهُ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ قيلَ: التطليقةُ الثالثةُ. وعلى ذلكَ جاءَ الخبرُ[4]، وهو واحدٌ عندَنا؛ يدلُّ عليهِ أيضاً قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، ويَحتمِلُ[5] عقدَ النكاحِ خاصةً دونَ الجماعِ مِنَ الثاني؛ إذ ليسَ في الآيةِ ذكرُ الدخولِ بها. وأمّا عندَنا فهو على فعلِ الجماعِ في النكاحِ الثاني؛ يدلُّ عليهِ قولُهُ، ﷺ: «لا ... حتى تذوقَ مِنْ عُسَيلتِهِ ويذوقَ مِنْ عُسَيلتِها» [البخاري: ٥٢٦٥]، فيكونُ النكاحُ مُضْمَراً، وهو أولى، لأنَّ الآيةَ في عقوبةِ الأولِ، ولا يشتدُّ عليهِ النكاحُ حتى يتصلَ بهِ الوَطْءُ. وفيهِ دلالةٌ على كراهةِ التطليقةِ الثالثةِ: أنهُ هي لا تحِلُّ لهُ بعدَها إلّا بعدَ دخولِ زوجٍ آخرَ بها، وذلكَ مما ينفرُ عنهُ الطبعُ، ويكرَهُهُ.

وقولُهُ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ فيهِ دليلٌ على أنَّ في التراجعِ إيجابَ عَقْدٍ بِهِما جميعاً؛ فدلَّ على قطعِ رَجْعتِهِ: الثاني: الحِلُّ للزوجِ الأوّلِ، وذلكَ أنْ لا رجعةَ فيهِ لغيرِهِ، وقولُهُ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أضافَ الردَّ إلى الأزواجِ؛ فدلَّ أنهُمْ ينفردُونَ بهِ دونَهُنَّ.

ثم ذِكْرُ الكتابِ: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا﴾ جَعَلَ سببَ الحِلِّ على الزوجِ الأوّلِ نكاحَ الثاني، لم يَجُزْ أنْ يُنْهَى، وقد جُعِلَ هو سببُ رفعِ الحرمةِ؛ إذْ في هذا، في أحكامِ اللهِ تعالى، لا يوجدُ /٣٩ ـ ب/ ولا يَستقيمُ هو كالوضوءِ في ما جُعِلَ سبباً لإقامةِ الصلاةِ، لم يَجُزْ أنْ يُجعَلَ سبباً لَها، ثم يُكرَهُ الإقدامُ عليهِ، ويُنْهَى عنهُ، وكالتحريمِ؛ إذْ جُعِلَ سبباً للدخولِ بهِ[6] في الصلاةِ، لم يَجُزِ النهيُ عنها، وبهِ[7] قوامُها. كذا هذا لِما جُعِلَ سبباً لرفعِ الحرمةِ بهِ، لا جائزٌ أنْ يُنْهَى عنهُ.

ثم فيهِ دلالةُ جوازِ نكاحِ المحلِّلِ؛ فإنْ سُئِلْنا عنْ قولِهِ ﷺ: «لعنَ اللهُ المُحَلِّلَ والمحلَّلَ لَهُ» [الترمذي: ١١١٩ و١١٢٠].

نَقُلْ[8]: لحوقُ اللعنِ لأجلِ النكاحِ على قصدِ الفراقِ والطلاقِ ليسَ لأجلِ التحليلِ على الأوّلِ ورفعِ الحرمةِ عنهُ؛ دليلُهُ قولُهُ ﷺ «إنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ ذوّاقٍ مِطلاقٍ» [ابن أبي شيبة: ٥/ ٢٥٣]، وذلكَ لقصدِهِ الفراقَ بالنكاحِ؛ إذِ النكاحُ بُنِيَ في الأصلِ على البقاءِ والدوامِ عليهِ، وفيهِ التعفُّفُ، [وفي][9] الطلاقِ زوالُ ما بهِ يُقصَدُ، فلهذا لَحِقَهُ ما لَحِقَهُ مِنَ اللعنِ.

ثم المحلِّلُ لهُ لمّا طلبَ بنكاحِ الزوجِ الثاني ما ينفرُ عنهُ الطباعُ، وتكرَهُه: مِنْ[10] عَودِها إليهِ بعدَ مضاجعةِ غيرِهِ[11] إياها واستِمْتاعِهِ بها، مُنِعَ لهذا المعنى عنْ إيقاعِ الثالثةِ، فإذا[12] تفكَّرَ حرمتَها عليهِ إلّا بنكاحِ آخرَ انْزَجَرَ عنْ ذلكَ. ثم العقدُ نفسُهُ لا ينفرُ عنهُ الطباعُ، ولا تكرَهُهُ، ثبتَ أنَّ الدخولَ شرطٌ فيهِ ليكونَ زَجْراً ومَنْعاً عنِ ارْتِكابِهِ.

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: ذاك. (٢) في م: ادابه، ساقطة من ط ع. (٣) في النسخ الثلاث: الأول قوله. (٤) انظر الدر المنثور ١/ ٦٦٤. (٥) من ط ع وم، الواو ساقطة من الأصل. (٦) في النسخ الثلاث: بها. (٧) في النسخ الثلاث: بها. (٨) في النسخ الثلاث: قيل. (٩) من ط ع وم، الواو ساقطة من الأصل. (١٠) من ط ع وم، في الأصل: عن. (١١) من ط ع، في الأصل وم: غير. (١٢) في النسخ الثلاث: لكن إذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يخرجُ على الترخيصِ؛ وذلكَ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الطلاقَ يُحرِّمُها عليهِ، ويُبينُها منهُ، كما تُحرَّمُ عليهِ هي بأنواعِ الحُرَمِ، فأخبرَ[١] ﷻ وأباحَ لهُ النكاحَ بعدَ وقوعِ الحرمةِ. إنَّ هذهِ الحرمةَ ليستْ كغيرِها مِنَ الحُرَمِ التي لا ترتفعُ أبداً، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، وقالَ: [ﷻ][٢] ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ذكرَ في الآيةِ الأُولَى الإمساكَ، والإمساكُ المعروفُ هو إمساكُها على ما كانَ مِنَ المُلْكِ، وذكرَ في الآيةِ الأخيرةِ الرَّدَّ، والرَّدُّ لا يكونُ إلَّا بعدَ الخروجِ مِنَ المُلْكِ. هذا هو الظاهرُ في الآيةِ، لكنَّ بعضَ أهلِ العلمِ يقولونَ: إنَّهُ يُمسِكُها على المُلْكِ الأولِ ويَرُدُّها مِنَ الحرمةِ إلى الحِلِّ، لأنَّ مِنْ مذهبِهِمْ أنَّ الطلاقَ يُوجِبُ الحرمةَ، ولا يُخرِجُها مِنْ مُلْكِهِ، وهذا جائزٌ أنْ تُحرَّمَ المرأةُ على زوجِها، وهي بَعْدُ [في][٣] مُلْكِهِ. فإذا كانَ كذلكَ فأُمِرَ بالإمساكِ على المُلْكِ الأولِ وبالرَّدِّ مِنَ الحرمةِ إلى الحِلِّ، وهو قولُ أهلِ المدينةِ، أي يَرُدُّها مِنَ العِدَّةِ إلى ما لا عِدَّةَ، ويُمسِكُها بلا عِدَّةٍ.

وأمَّا عندنا فهو واحدٌ بِحَدَثِ الإمساكِ، دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ ولو لم يكنِ الإمساكُ سِوَى القصدِ إليهِ لكانَ لم يكنْ بالقصدِ إليها مُضِرًّا، وهو في ما أَمَرَ بالإمساكِ بالمعروفِ، فيهِ وجهانِ:

أحدُهما: هو أنْ يُمسِكَها [على ما كانَ يُمسِكُها][٤] مِنْ قَبْلُ مِنْ مراعاةِ الحقوقِ ومحافظةِ الحدودِ.

والثاني[٥]: ما قيلَ ألَّا تطولَ عليها [العِدَّةُ على ما][٦] في القصةِ مِنْ تطويلِ العِدَّةِ عليها، وفيهِ[٧] نزلتِ الآيةُ، وفيه دلالةٌ أنَّ الزوجَ يملِكُ جعلَ الطلاقِ بائناً بعدما وقعَ رُجْعياً لأنهُ يصيرُ بائناً بتركِ المراجعةِ. فعلى ذلكَ يملِكُ إلحاقَ الصفةِ مِنْ بعدِ وقوعِهِ، فيصيرُ بائناً، والله أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ قالَ الشيخُ، رحمه اللهُ تعالى: (الأصلُ عندَنا في المناهي أنها لا تدلُّ على فسادِ العقلِ، ولا يُستَدَلُّ بالنهيِ على الفسادِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ إنهُ يصيرُ مُمْسِكاً لها، وإنْ كانَ فيهِ ضِرارٌ[٨] لها، وهكذا هذا في كلِّ ما يُشبِهُ هذا مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] إنَّهُ [أُذِنَ لهُ][٩] بالفعلِ في حالٍ، فهو، وإنْ أوجبَ نَهْياً في الفعلِ، فذلكَ لا يدلُّ على الفسادِ في حالٍ أُخرَى).

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ معناهُ، واللهُ أعلمُ، أي لا تعملُوا بآياتِ اللهِ عملَ مَنْ يُخرِجُ فعلَهُ بها مُخرَجَ فعلِ الهازئِ، لأنَّهُ معقولٌ أنَّ أهلَ الإيمانِ والتوحيدِ لا يتَّخذونَ آياتِ اللهِ هُزُواً، ولا يَقصِدونَ إلى ذلكَ. وقيلَ: إنهمْ في الجاهليةِ كانوا يلعَبُون بالطلاقِ والعِتاقِ، ويُمْسِكونَهنَّ[١٠] بعدَ الطلاقِ والعِتاقِ على ما كانُوا يمسِكونَ قبلَ الطلاقِ وقبلَ العِتاقِ، فَنُهُوا عنْ ذلكَ بعدَ الإسلامِ والتوحيدِ.

ثم اختُلِفَ في ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، قيلَ: حُجَجُ اللهِ، وقيلَ: أحكامُ [اللهِ][١١]، وقيلَ: دينُ اللهِ، ويحتملُ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآياتِ المعروفةَ.

وقولُهُ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: تحتمِلُ النعمةُ ههنا محمداً ﷺ وهو مِنْ أعظمِ النعمِ، [وتَحتمِلُ النعمةُ الإسلامَ وشرائعَهُ][١٢] وتَحتمِلُ النعمةُ [النعمَ][١٣] التي أنعمَها على خَلْقِهِ جملةً والنعمةُ[١٤] على ثلاثةِ أوجهٍ: النعمةُ بالإسلامِ تقتضِي منهُ المحافظةَ، [والنعمةُ الخاصةُ][١٥] تَقتضِي الشكرَ، والنعمُ [العامةُ][١٦] جملةً تَقتضِي منهُ التوحيدَ.

---

(١) ساقطة من ط ع. (٢) من ط ع. (٣) من ط ع وم. (٤) من ط ع. (٥) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٦) من ط ع وم. (٧) قال الطبري في تفسيره: ٢/ ٤٨١ وأبو حيان الغرناطي في البحر المحيط ٢/ ٤٨٨ إنها نزلت في رجل من الأنصار اسمه ثابت بن بشار وقال السيوطي في الدر المنثور ١٠/ ٦٨٢ إنه ثابت بن يسار. (٨) في النسخ الثلاث: ضراراً. (٩) من ط ع وم، في الأصل: أذل. (١٠) في النسخ الثلاث: ويمسكونهم. (١١) من ط ع وم. (١٢) من ط ع وم. (١٣) في ط ع: هي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) الواو ساقطة من النسخ الثلاث. (١٥) من ط ع، في الأصل وم: ونعمة الخاص. (١٦) من ط ع.

وقولُهُ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو القرآنُ، ففيهِ دلالةٌ أنَّ الكتابَ [هو][1] منزَّلٌ، ليسَ كما يقولُ القرامطةُ، لأنهمْ يقولونَ بأنَّ محمداً ﷺ ألَّفَ القرآنَ، وإنما كانَ يُوحَى إليهِ، [لا][2] كما يَتَوَهَّمُ الرجلُ شيئاً، فيجعلُهُ كلاماً.

وقولُهُ: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ اختُلِفَ فيهِ، قيلَ: [الحكمةُ][3] الفقهُ، وقيلَ: الحلالُ والحرامُ، وقيلَ: الحكمةُ هي الإصابةُ إصابةُ موضعِ كلِّ شيءٍ [منهُ][4]، وقيلَ: الحكمةُ المواعظُ، وقيلَ: الحكمةُ القرآنُ، وهو مِنَ الإحكامِ والإتقانِ[5]، كأنَّه قالَ ﷺ اذكُروا ما أعطاكُمْ مِنَ الفقهِ والإصابةِ والكتابِ المحكَمِ والمُتْقَنِ الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقولُهُ: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ قيلَ[6]: القرآنُ [﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فيهِ][7] تخويفٌ وتحذيرٌ ليعلَموا أنَّ كلَّ شيءٍ في علمِهِ، وأنه لا يعزُبُ عنهُ شيءٌ، [وباللهِ العصمةُ][8].

الآية ٢٣٢ وقولُهُ: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ، قالَ قائلونَ: فيه فسادُ النكاحِ دونَ الأولياءِ، واحتَجُّوا بأنْ قالُوا: قالَ اللهُ تعالى ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾، ولا يَنْهى عن القولِ مِنْ غيرِ أنْ يُعمَلَ، إذِ[9] القولُ في ما لا يُعمَلُ غيرُ ضارٍّ لعضلِها بهِ، فثبتَ أنهُ عاملٌ، وأنَّ لهُ فيهِ حقّاً، إلى أنْ نُهُوا، ثبتَ أنَّ قولَهُ: لا تَعْضُلْ مَنْعٌ إذْ لو [لم][10] يُجعَلْ منعاً لم يكنْ ضاراً بِهِ، وقالَ آخرونَ: فيهْ دليلُ جوازِ نكاحِهِنَّ دونَ الأولياءِ، لأنهُ تعالى قالَ: ﴿أَن يَنكِحۡنَ﴾ واستَدَلُّوا بأنَّ النكاحَ على وجودِ العضلِ يجوزُ، ولو كانَ العضلُ سببَ المنعِ في الجوازِ لم يُحتَمَلْ جوازُهُ إذا فاتَ. وفيهِ أنَّ العضلَ، إذا لم يكنْ، جازَ للنساءِ تولِّي النكاحِ، واحتجُّوا أيضاً بما أضافَ النكاحَ إليهِنَّ بقولِهِ: ﴿أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ وقولِهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وأضافَ [التأويلُ الأولُ][11] الإنكاحَ إلى الأولياءِ على إرادةِ إدخالِ الصغارِ. والثاني على وجوبِ الحقِّ لهُنَّ عليهِمْ لا أنْ يجبَ لهُمْ عليهِنَّ.

ثم الأصلُ بأنَّ كلَّ نكاحٍ أُريدَ بالذكرِ الصغارُ، وأُضيفَ الإنكاحُ إلى الأولياءِ كقولِهِ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ [النور: ٣٢] وقولِهِ ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٢١] معَ ما احتَمَلَ دخولَ البالغِينَ في هذا؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والفديةُ لا تَصِحُّ مِنَ الصغارِ، وقولُهُ: ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، والصغارُ لا يُخاطَبْنَ بإقامةِ حدودِ اللهِ، وقولُهُ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وإنْ كانَ متأخراً بالذكرِ بهذا؛ قيلَ[12]: إنَّ وقوعَ الإنكاحِ[13] بالإضافةِ في الصغارِ إلى الأولياءِ، وفي الكبارِ إليهِنَّ، ثم ذِكْرُ الكفاءةِ والمهرِ وجَرْيِ إضافتِهِ إلى الأولياءِ؛ لذلكَ كانَ لهمُ التَّعَرُّضُ/ ٤٠ ـ أ/ في فسخِهِ.

ثم قولُهُ: ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ راجعٌ ذلكَ[14] إلى المَهْرِ؛ لأنَّ التَّراضِيَ فعلُ اثْنَينِ، والمهرُ يُتعرَّفُ بهما؛ لأنَّ القصةَ في امرأةٍ بعينِها، وكانَتْ ظهرَتْ كفاءةُ زوجِها لها، وقالَ في الكفاءةِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ووجودُ الكفاءةِ إنما تكونُ مِنْ إحدى الجانبَينِ، فذِكْرُ ذلكَ مضافاً إلى الأولياءِ، لم يَجُزْ دونَهُمْ.

والأصلُ في مسألةِ النكاحِ أنَّ الحقَّ في النكاحِ لها على الوَلِيِّ، لا للوَلِيِّ عليها، دليلُهُ ما يُزَوَّجُ على الوليِّ إذا [عُلِمَ، ويُجبَرُ][15] عليه إذا وُجِدَ، وزُوِّجَ عليهِ إذا أبى، وهي لا تُجبَرُ بإرادةِ الوليِّ إذا أبَتْ، فبانَ أنَّ الحقَّ لها قِبَلَهُ، ومَنْ تركَ حقَّ نفسِهِ في عقدٍ لَهُ قِبَلَ آخَرَ لم يوجبْ ذلكَ فسادَهُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط ع وم. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) من ط ع. (٤) من ط ع وم. (٥) من ط ع وم، في الأصل: الاتفاق. (٦) في ط ع: يعني. (٧) في ط ع: وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾. (٨) من م، في الأصل: في علمه العصمة، في ط ع: في علمه وبالله العصمة. (٩) من ط ع وم، في الأصل: إذا. (١٠) من ط ع. (١١) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٢) في ط ع: قبلَ. (١٣) من ط ع وم، في الأصل: الإنكار. (١٤) من ط ع وم، في الأصل: إلى ذلك. (١٥) في الأصل وم: عدم ويُخبر، في ط ع: عدم ويجز.

وقولُهُ: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ فيهِ دليلٌ على أنَّ النهيَ عنِ العضلِ إنما كانَ [في][(١)] الأزواجِ كانوا[(٢)] لهُنَّ؛ دليلُهُ قولُهُ ﴿أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾، ولا يُسمَّى الأزواجُ إلا بعدَ النكاحِ، ويدلُّ أيضاً قولُهُ: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ذكرَ الطلاقَ، فدلَّ أنهُ كانَ في أزواجٍ كانوا لهنَّ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ في الابتداءِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ ثَمَّ نكاحٌ، وجائزٌ تسميةُ الشيءِ باسْمِ ما يَؤُولُ الأمرُ إليهِ لقربِ حالِهِنَّ بهِمْ.

وأمّا أهلُ التفسيرِ بأجمعِهِمْ فقد قالُوا: إنَّ الآيةَ نزلَتْ في أختِ مَعْقِلِ بنِ يسارٍ [المُزَنيِّ][(٣)]: أنَّ زوجَها قد طلَّقَها، وانقضَتْ عدَّتُها، ثم أرادَ الزوجُ أنْ يتزوَّجَها ثانيةً، وتهوَى المرأةُ ذلكَ، فيقولُ الوليُّ: لا أزوِّجُها إياهُ، فنزلَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو يَحتملُ المعنى الذي ذكرْنا، واللهُ أعلمُ[(٤)].

وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ قيلَ: [﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾][(٥)] ينهاهُ بهِ، كقولِهِ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] أي ينهاكُمْ، وقيلَ: ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي يؤمَرُ بهِ.

وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾؛ قيلَ: [إذا][(٦)] وضعْنَ أنفسَهُنَّ حيثُ هَوِيْنَ [فذلكَ][(٧)] أزكَى وأطهرُ لكُمْ مِنَ العَضلِ مِنْ ذلكَ، ولعلَّ العَضلَ يَحمِلُهُنَّ[(٨)] على الفسادِ والريبةِ، وقيلَ: المراجعةُ خيرٌ لكمْ مِنَ الفرقةِ، وأطهرُ لكُمْ مِنَ الريبةِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [أي: اللهُ يعلمُ][(٩)] مَنْ حَبَّ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلكَ، ويَحتمِلُ قولُهُ[(١٠)]: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ فيمَ[(١١)] صلاحُكُمْ؟ ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلكَ.

الآية ٢٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: هُنَّ المطلَّقاتُ ﴿يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾][(١٢)]، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، ذكرَ ههنا الأجرَ، وذكرَ هناكَ الرزقَ والكسوةَ، وهما واحدٌ، وقالَ آخرونَ: لا؛ ولكنَّ قولَهُ: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾: هنَّ[(١٣)] المنكوحاتُ، وقولُهُ: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]: هنَّ المطلقاتُ. دليلُ ذلكَ ذكرُ الأجرِ في أحدِهما وذِكرُ[(١٤)] الرزقِ والكسوةِ في الأُخرَى، على أنَّ المنكوحةَ إذا استُؤجِرَتْ على رضاعِ ولدِها منهُ، ويَستوجِبُ قِبَلَ الزوجِ الرزقُ والكسوةُ، فدلَّ هذا على أنَّ ذكرَ الأجرِ في المطلقاتِ وذكرَ الرزقِ والكسوةِ في المنكوحاتِ. فإنْ قيلَ: ما فائدةُ ذكرِ الرزقِ والكسوةِ في المنكوحةِ في الرَّضاعِ؟ وقد يَستوجِبُ ذلكَ في غيرِ الرَّضاعِ؟ قيلَ: فائدةُ ذكرِ الرزقِ والكسوةِ فيهِ، واللهُ أعلم، لأنها تحتاجُ إلى فضلِ طعامٍ وفضلِ كسوةٍ لمكانِ الرَّضاعِ، ألَا تَرَى أنَّ لها أنْ تُفطِرَ لذلكَ؟ فثبتَ أنَّ لها فضلَ حاجةٍ في حالِ الرَّضاعِ ما لا تقعُ لها تلكَ الحاجةُ في غيرِ حالِ الرَّضاعِ، فخرجَ ذكرُ الرزقِ والكسوةِ فيهِ، واللهُ أعلمُ، ذكرَ تلكَ الزيادةِ والفضلِ، واللهُ أعلمُ.

وفي القرآنِ أنَّ مؤنَةَ الرَّضاعِ على الأبِ مِنْ أوجهٍ: أحدُها: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦]، والثاني: قولُهُ [ﷻ][(١٥)]: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، والثالثُ: قولُهُ [تعالى][(١٦)]: ﴿لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فثبتَ أنهُ حقٌّ على الوالدِ إلى أنْ ذكرَ فيهِ إيتاءَ الآخرِ.

وفيهِ دلالةٌ على أنَّ شرطَ الطعامِ والكسوةِ للظِّئرِ يجوزُ بقولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ﴾ غيرَ أنَّ الكسوةَ لا تجوزُ إلّا بإعلامِ الجنسِ، والطعامُ يجوزُ؛ لأنَّ الظِّئرَ لا تُكسَى كسوةَ الأهلِ، وتُطعَمُ طعامَهُمْ، فلا بدَّ في الكسوةِ مِنْ إعلامِ جنسِهِ؛ إذ لا يجوزُ أنْ تكونَ كسوةً واحدةً لها وللأهلِ، ويجوزُ في الطعامِ ذلكَ؛ لأنَّ الكسوةَ ليسَتْ بذاتِ[(١٧)] غايةٍ تُعْرَفُ، فاحتِيجَ[(١٨)] إلى ذكرِ الجنسِ ليقعَ في حدِّ قربِ المعرفةِ والعلمِ. أمّا الطعامُ فهو ذو غايةٍ عندَ الناسِ غيرُ مُتفاوِتٍ ولا مُتفاضِلٍ عندَهُمْ، لذلكَ جازَ هذا، ولم يَجُزِ الآخرُ إلّا أنْ يُعلَمَ الجنسُ، فإذا أُعلِمَ الجنسُ فحينئذٍ يصيرُ عندَهُمْ كالطعامِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط ع. (٢) من ط ع، في الأصل وم: كان. (٣) من ط ع. (٤) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٥) من ط ع. (٦) من ط ع. (٧) من ط ع. (٨) في النسخ الثلاث: يحملن. (٩) من ط ع. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) من م، في الأصل: فيهم، في ط ع: فيما. (١٢) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٣) في النسخ الثلاث: من. (١٤) في النسخ الثلاث: و. (١٥) من ط ع. (١٦) من ط ع. (١٧) في النسخ الثلاث: بذي. (١٨) في ط ع: فاحتج.

قال الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: (يدلُّ على جوازِهِ قولُهُ: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي، واللهُ أعلمُ، مثلُ ما على المولودِ لهُ، ويكونُ ذلكَ بعدَ موتِهِ. لذلكَ يجوزُ شرطُ الكسوةِ والطعامِ في الرَّضاعِ).

وقولُهُ: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ ليسَ فيهِ جعلُ الحولَينِ شرطاً في الرَّضاعِ لوجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فلو لم يَحتمِلِ الزيادةَ والنقصانَ لم يكنْ لقولِهِ ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ معنىً.

والثاني: الإرادةُ والقدرةُ ربما تُذكَرُ على غيرِ إرادةٍ وقدرةٍ في الحقيقةِ، ولكنْ على إرادةِ حقيقةِ الفعلِ، دليلُهُ قولُهُ ﷺ: «مَنْ أرادَ الحجَّ فليفعلْ كذا، ومنِ استطاعَ [أنْ يفعلَ][1] كذا فليفعلْ» [بنحوه أحمد ١/ ٢١٤] ليسَ ذلكَ على حقيقةِ[2] القدرةِ والإرادةِ. ولكنَّ هذا، واللهُ أعلمُ، على معنَى: مَنْ فعلَ كذا فليفعَلْ كذا. فكذلكَ الأولُ ليسَ على حقيقةِ الإرادةِ ولكنْ ذكرُ تلكَ لِما لم يكنِ الفعلُ إلّا بقدرةٍ وإرادةٍ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: لا يخلو الـ ﴿حَوْلَيْنِ﴾ مِنْ أنْ يُقَدَّرَ بالأهلَّةِ، فقد ينتقِصُ عنْ سنتَينِ، أو أنْ يُقَدَّرَ بالأيامِ، فقدْ يزدادُ على المعروفِ مِنَ الوقتِ، فثبتَ أنهُ بحيثُ الاحتمالُ لِما ذكرْنا، إذْ يَحتمِلُ ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ أنْ يزيدَ حتى يتمَّ، أو ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ أنْ يقتصِرَ على التمامِ. على أنَّ الآيةَ ليستْ في حقِّ الحرمةِ، لكنَّها في حقِّ الفعلِ؛ إذْ قد تجبُ الحرمةُ لا بحولَينِ. وقد رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في تأويلِ قولِهِ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، [وقولِهِ][3]: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] [أنه][4] قالَ: (إنْ كانَ الحملُ ستةَ أشهرٍ ففصالُهُ في عامَينِ، وإنْ كانَ تسعةَ أشهرٍ فيُقدَّرُ الباقي) فدلَّ هذا على أنَّ الحولَينِ ليسا[5] بشرطٍ في الفطامِ، ولا وقتَ لهُ، لا يجوزُ الزيادةُ عليهِ ولا النقصانُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ[6]: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [قد ذكرْنا أنهُ قيلَ بوجهَينِ][7]؛ قيلَ: إنهُ في المطلَّقةِ، وقيلَ: إنهُ في المنكوحةِ، وقد دلَّلْنا على أنهُ في المنكوحةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قالَ قومٌ: قولُهُ[8] ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يَسَعُ، ويَحِلُّ. لكنَّ هذا لو كانَ على ما ذُكِرَ لكانَ بالأمرِ يَسَعُ، ويَحِلُّ، فكانَ كأنهُ قالَ: لا تُكلَّفُ إلّا ما نُكلِّفُ، وذلكَ لا يكونُ، وقالَ قومٌ: قولُهُ[9]: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني طاقتَها وقدرتَها، وهذا أشبهُ؛ ومعناهُ: لا يُكلَّفُ الزوجُ بالإنفاقِ عليها والكسوةِ إلّا ما يَحتمِلُ مُلْكُهُ، وإنْ كانتْ حاجتُها[10] تفضلُ عمّا يَحتمِلُهُ مُلْكُهُ، لم يُفرَضْ عليهِ إلّا ما احتمَلَهُ [مُلْكُهُ][11]، واللهُ أعلمُ، كقولِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

ثم اختلِفَ في تحريمِ الرَّضاعِ في الكِبَرِ؛ قالَ قومٌ: يُحرِّمُ، ورَوَوا في ذلكَ أحاديثَ، وقالَ أصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ: لا يُحرِّمُ، وذهبُوا في ذلكَ إلى آثارٍ رُوِيَتْ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ ﷺ سُئِلَ عنِ الرَّضاعِ، فقالَ: «ما أنبتَ اللحمَ، وأنشزَ العظمَ» [أحمد ١/ ٤٣٢] وفي بعضٍ عنهُ: [«لا يتمَ بعدَ حُلُمٍ»، [البزار ١٣٠٢] و«لا رَضاعَ بعدَ حُلُمٍ» و][12] «لا رَضاعَ بعدَ فِصالٍ»[13] [الطبراني في الصغير ٩٣٢] ورُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ وابنِ عباسٍ رضي الله عنهم أنهما قالا: (لا رضاعَ بعدَ الحولَينِ)، وعنْ عليٍّ وابنِ مسعودٍ رضي الله عنهما أنهما قالا: (لا رَضاعَ بعدَ الفِطامِ أو الفِصالِ، الشكُّ منّا). ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في بعضِ الأخبارِ أنهُ دخلَ على عائشةَ رضي الله عنها [فرأى مَعَها رجلاً، فرأتْ عائشةُ رضي الله عنها][14] الكراهةَ في وجهِهِ، فقالَتْ: إنهُ أخي مِنَ الرَّضاعةِ أو عمي، فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ «انظُرْنَ [مَنْ إخوانُكُنَّ؟][15] ما الرَّضاعةُ؟/ ٤٠ ـ ب/ إنما الرَّضاعةُ مِنَ المجاعةِ» [البخاري ٢٦٤٧] ورُوِيَ عَنْ أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّ رجلاً قالَ لهُ: إنَّ امرأتي أرضعَتْني، أتُحرَّمُ عليَّ؟ فقالَ نعم، فبلغَ ذلكَ ابنَ مسعودٍ رضي الله عنه فأتاهُ، فقالَ [لهُ: أأنتَ][16] تفتي بكذا؟، فقالَ: نعم، فقالَ: كذبْتَ، أو كلامٌ نحوُ هذا، «إنما الرَّضاعةُ مِنَ المجاعةِ». إلى هذهِ الأخبارِ ذهبَ أصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ، في نفيِ تحريمِ الرَّضاعِ بعدَ الفطامِ وبَعْدَ الكِبَرِ.

(١) من ط ع وم، في الأصل: سبيلاً. (٢) من ط ع، في الأصل وم: إرادة. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) في النسخ الثلاث: ليس. (٦) في ط ع: وقد ذكرنا أن قوله. (٧) في ط ع: يحتمل وجهين. (٨) ساقطة من ط ع. (٩) ساقطة من ط ع. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: حاجتهم. (١١) من ط ع وم. (١٢) من ط ع. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: الفصال. (١٤) من ط ع وم. (١٥) من ط ع. (١٦) من ط ع، في الأصل وم: أنت.

وأصلُهُ: أنْ يُنظَرَ، فإنْ كانَ غذاؤهُ باللبنِ أو أغلبُ غذائِهِ فهو ما[(١)] يُحَرِّمُ، وإذا كانَ بالطعامِ أو غالبَ غذائِهِ، فهو لا يُحَرِّمُ. وأصلُهُ ما ذُكِرَ في الخبرِ: «ما أنبتَ اللحمَ وأنشزَ العظمَ» [أحمد: ١/ ٤٣٢]، فهو يُحَرِّمُ، فإذا كانَ غذاؤهُ بالطعامِ سوى اللبنِ، فالطعامُ الذي يُنبِتُ اللحمَ، ويُنْشِزُ العظمَ، فلم يُحَرِّمْ.

ثم الأصلُ بأنَّ كلَّ مذكورٍ على الكمالِ والتمامِ، لا يمتنعُ عنِ احتمالِ الزيادةِ والنقصانِ؛ دليلُهُ قولُهُ ﷺ: «مَنْ أدركَ عرفةَ بليلٍ، وصلَّى معنا بِجَمْعٍ[(٢)]، فقد تمَّ حجُّهُ» [أبو داوود ١٩٤٩] وقولُهُ: «إذا فعلْتَ هذا فقد تمَّتْ حجتُكَ»[(٣)] [البيهقي في الكبرى ٧/ ٢٥٧]، وقولُهُ: «إذا فعلْتَ هذا فقد تمَّتْ صلاتُكَ» [أبو داوود ٨٥٦]، وصفَهما بالتمامِ، والحرمةُ باقيةٌ.

ثم قدَّرَ أبو حنيفةَ ﷺ الزيادةَ بستةِ أشهرٍ؛ ذهبَ في ذلكَ إلى أنَّ العِظامَ ربَّما تُعترَضُ، وتُعترى في حالٍ، وهو حالُ الحرِّ والبردِ، ما لو مُنِعَ الرَّضاعُ منهُ لأورثَ هلاكَ الصبيِّ وتلَفَهُ، لِما لم يُعوَّدْ بغيرِهِ مِنَ الطعامِ، ففيهِ خوفُ هلاكِهِ، فإذا كانَ فيهِ خوفُ هلاكِهِ لِما ذكَرْنا استَحسَنَ أبو حنيفةَ ﷺ إبقاءَها بعدَ الحولَينِ لِستةِ أشهرٍ؛ إذْ على هذينِ الحالَينِ تدورُ السَّنَةُ، واللهُ أعلمُ.

وقالَ زُفَرُ بزيادةِ سنةٍ؛ ذهبَ في ذلكَ إلى أنهُ لمَّا جازَ أنْ يُزادَ بالاجتهادِ على [حَولَينِ لأشهرٍ[(٤)] جازَ أنْ يُزادَ بالاجتهادِ على] [(٥)] الحولَينِ لِسَنةٍ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: وعلى ما زيدَ على المذكورِ مِنَ الحَبَلِ مثلُ أقلِّ وقتِ الرَّضاعِ يُزادُ على المذكورِ مِنَ الرَّضاعِ مثلُ أقلِّ الحَبَلِ، أو لمَّا احتمَلَ الأقلُّ الانتقالَ إلى الوسطِ يَحتمِلُ الوَسَطُ الانتقالَ إلى الأكثرِ، وذلكَ في قولِهِ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقولُهُ: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ [﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾][(٦)] في تركِ الإنفاقِ عليها، ويَحتمِلُ ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ في انتزاعِ الولدِ منها، وهي تريدُ إمساكَهُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ كذلك يَحتمِلُ وجهَينِ: [يَحتمِلُ: لا يُضارُّ الوالدُ بولدِهِ في [عَدَمِ][(٧)] رَدِّها الولدَ عليهِ ورميِهِ إليهِ بعدما][(٨)] أَلِفَ الولدُ الأمَّ، ويَحتمِلُ: لا يُضارُّ الوالدُ[(٩)] في تحميلِ فضلِ النفقةِ عليهِ، ومُلْكُهُ لا يَحتمِلُ ذلكَ، بل إنما يُحمَّلُ عليهِ ما احتَمَلَهُ ملكُهُ.

وقولُهُ[(١٠)] تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ فيهِ[(١١)] دليلٌ أنهُ إنما يُسمَّى والداً[(١٢)] على المَجازِ، ليسَ على التحقيقِ؛ لأنهُ لم يَلِدْ هُوَ، إنما وُلِدَ لَهُ، فثبتَ أنَّ الرجلَ يَستحِقُّ اسْمَ الفعلِ بفعلِ غيرِهِ، وكلُّ معمولٍ لَهُ [أنْ][(١٣)] يستحِقُّ اسْمَ الفاعلِ، وإنْ لم يعمَلْ هوَ، نحوَ[(١٤)] ما سُمِّيَ والداً[(١٥)]، وإنْ لم يَلِدْ هُوَ، وإنما وُلِدَ لَهُ، ففيهِ دلالةٌ أنَّ مَنْ حلَفَ لا يُعْتِقُ، ولا يطلِّقُ، فأمرَ غيرَهُ، ففعلَ، حنثَ، وجُعِلَ كأنهُ هو الفاعلُ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ][(١٦)]؛ قالَ بعضُهُمْ: هو معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ مَعناهُ ألَّا يُضارَّ الوارثُ أيضاً باليُتْمِ، وقالَ آخرونَ: هو معطوفٌ على الكلِّ على النفقةِ والكسوةِ والمُضارَّةِ، وقالَ غيرُهُمْ: هو راجعٌ إلى النفقةِ والكسوةِ دونَ المُضارَّةِ، وهو قولُنا لوجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ نَسَقَ الكلامِ إنما هو على قولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فَنَسَقُهُ على حرفِ ﴿عَلَى﴾ أولَى مِنْ نَسَقِهِ على حرفِ ﴿لَا﴾ يَتَّضِحُ [أنهُ لو][(١٧)] حُمِلَ على قولِهِ: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ لَكانَ ما يُوازيهِ مِنَ الكلامِ، إنما هو الوارثُ مثلُ ذلكَ.

---

(١) في ط ع: لا، ساقطة من م والأصل. (٢) من ط ع، في الأصل وم: يجمع. (٣) من ط ع وم، في الأصل حجه. (٤) من م، في ط ع: أشهر. (٥) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع، في الأصل وم: لا تضار الوالدة. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من الأصل وم، في ط ع: ويحتمل ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾في انتزاع الولد منها وهي تريد. (٩) من ط ع، في الأصل وم: الوالدة. (١٠) في ط ع: وفي قوله. (١١) ساقطة من ط ع. (١٢) في النسخ الثلاث: والد. (١٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٤) من ط ع، في الأصل وم: يحق. (١٥) في النسخ الثلاث: والد. (١٦) في ط ع: ثم اختلف في تأويل قوله ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾. (١٧) في النسخ الثلاث: أن.

والثاني: أنهُ لو حُمِلَ على إضرارٍ مِنَ الوارثِ بالولدِ في الميراثِ لقالَ: وعلى المُوَرِّثِ بحقِّ الميراثِ، فلا ضررَ يقعُ فيهِ، بل يقعُ الإنفاقُ، فثبتَ أنَّ حملَهُ عليهِ أحقُّ.

ثم [اختُلِفَ](1) في قولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾؛ قالَ بعضُهم: أرادَ بالوارثِ الوالدَ والأمَّ والجدَّ، ولا يدخلُ ذو الرحم المحرَّمُ فيهِ؛ ذهبُوا في ذلكَ إلى ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنه أوجبَ النفقةَ على العمِّ، وقالَ: (لو لم يبقَ منَ العشيرةِ إلّا واحدٌ لأوجبَ عليهِ النفقةَ) ورُوِيَ أيضاً عنْ زيدِ بنِ ثابتٍ ﷺ [أنهُ](2) قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾: (النفقةُ على كلِّ ذي الرحمِ المحرَمِ على قدرِ مواريثِهِمْ)، فاتَّبَعْنا الصحابةَ. رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، في ذلكَ، وفي الكتابِ دليلُ وجوبِ النفقةِ على المحارمِ [وهو](3) قولُهُ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ [أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ](4) أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]؛ فإنما يأكلُ بحقٍّ لا بالرضا. ألا ترَى أنهُ يأكلُ مِنْ بيتِ الأجنبيِّ إذا بَذَلَ، ورضيَ؟ فلو لم يكنْ أكلُهُ مِنْ بيتِ هؤلاءِ بحقٍّ لم يكنْ للتخصيصِ فائدةٌ؛ فإنْ عُورِضَ بالصديقِ(5) أنهُ لا يُفرَضُ عليهِ لانقطعتِ الصداقةُ بينهُما، ثم لِقائلٍ أنْ يقولَ: كيف لا أُوجِبُ النفقةَ على كلِّ وارثٍ على ظاهرِ الآيةِ؟ قيلَ: الآيةُ مخصوصةٌ بالإنفاقِ؛ لأنَّ المرأةَ وارثةٌ، ولا تُفرَضُ عليها نفقةُ الزوجِ، دلَّ أنهُ أرادَ وارثاً دونَ وارثٍ، وهو الوارثُ مِنَ الرَّحِمِ المحرَمُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾؛ قيلَ: فإنْ أرادَ الأبوَانِ فصالَ الصبيِّ وفِطامَهُ بدونِ الحَولَينِ ليسَ لهما إلّا بتراضيهما جميعاً واتّفاقِهما على ذلكَ، وأمّا بعدَ الحَولَينِ فإنهُ إذا أرادَ أحدُهما، وأمّا الفِصالُ قبلَ الحَولَينِ، فِصالٌ عنْ غيرِ تمامٍ، ذكرَهُ الكتابُ، فلا يُفصَلُ إلّا باجْتِماعِهِما واتّفاقِهِما على ذلكَ، [وأمّا](6) ما بعدَ الحَولَينِ فهو(7) على تمامِ النصِّ، فجازَ ذلكَ لرأيِ واحدٍ مِنْهُما، وما قبلَهُ لا يجوزُ إلّا لرأيِهِما جميعاً.

وأصلُهُ أنهُ بالحَولَينِ قد ظهرَ التمامُ والكفايةُ، ثم بالنصِّ وما دونَهُ يُعلَمُ بالاجْتِهادِ. وعندَ التنازعِ يَؤولُ(8) موضعُ بيانِ الصوابِ قُرْباً(9) إلى الحدِّ المذكورِ، مع ما في القرآنِ للتمامِ ذِكْرُ إرادةِ الفردِ، وللفصلِ(10) التشاورُ، واللهُ أعلمُ.

ثم إنَّ الزوجَينِ يحكمانِ على(11) أنفسِهما برَضاعِ ولدِهما؛ لذلك [لا يُحتاجُ](12) إلى نظيرِ غيرِهما ولا إلى رأيِ آخرَ، لِما لا يجوزُ أنْ يُعدِمَ شفقتَهما جميعاً عَنْ ولدِهما، وأمّا إذا كانَ الحكمُ لغيرِهما أو على غيرِهما فلا بدَّ مِنْ أنْ يَحكُمَ غيرُهُما(13). دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقولُهُ(14): ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥]؛ فهذا الحكمُ على غيرِهما، ولذلكَ احتيجَ إلى غيرِهما، وذلكُما(15) الزوجانِ يَحْكُمانِ على أنفسِهما، ويَنظرانِ لولدِهِما، لذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلمُ.

والجُناحُ والحَرَجُ واحدٌ، وهو الضيقُ، ومعناهُ: لا(16) ضِيقَ، ولا تَبِعَةَ عليهما، ولا إثمَ إذا أرادا فِطامَهُ بعدَ الحَولَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه جوازُ الرَّضاعةِ بعدَ الحَولَينِ، وحُرْمَتُهُ: لأنهُ ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ بتراضِيهما بدونِ الحولَينِ، إذْ ذُكِرَ الرَّضاعُ في الحَولَينِ بقولِهِ: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾، وذُكِرَ الفصالُ بدونِ الحَولَينِ بقولِهِ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾، فحصلَ قولُهُ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ بعدَ الحَولَينِ. وهذا [يُؤيِّدُ قولَ أبي](17) حنيفةَ ﷺ ويُقوِّي مذهبَهُ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في استِرضاعِ غيرِ الأمهاتِ إذا أبتِ الأمُّ إرضاعَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

---

(١) من ط ع. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) في الأصل وم: إلى قولِهِ. (٥) من ط ع وم، في الأصل: بالتصديق. (٦) من ط ع، في الأصل وم: و. (٧) في النسخ الثلاث: هو. (٨) في النسخ الثلاث: يزول. (٩) في الأصل: قبر، في ط ع: فبر، ساقطة من م. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: والفصل. (١١) من ط ع وم، في الأصل: عن. (١٢) في النسخ الثلاث: يحتج. (١٣) في النسخ الثلاث: غيره. (١٤) في النسخ الثلاث: وكقوله. (١٥) في النسخ الثلاث: وذلك. (١٦) من م، في الأصل و ط ع: أي لا. (١٧) في الأصل وم: بدل لأبي، في ط ع بدل لقول لأبي.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ يعني إذا سلَّمْتُمُ الأمرَ للهِ تعالى ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي قبِلْتُم، ليسَ هو على الإيتاءِ، ولكنْ على القبولِ. دليلُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. فعلى ذلكَ الأوّلُ /٤١ - أ/ و﴿ءَاتَيْتُم﴾ أي قَبِلْتُم إيتاءَ ما عَهِدوا، وهو الأجرُ. وقد يكونُ ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ عقَدْتُم [عقدَ الإيتاءِ؛ إذِ][١] الإيتاءُ هو الإعطاءُ والعطيةُ، عقَدْتُمُ التسليمَ عليهِ. وذلكَ دليلٌ لقولِ مَنْ يفرِّقُ بينَ قولِهِ: أعطَيْتَني كذا، ولم أقبِضْهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما[٢] أمرَكُمْ مِنَ الإنفاقِ والكسوةِ، ونهاكُمْ عَنْ[٣] إضرارِ أحدِهما صاحبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو[٤] وعيدٌ على ما سبقَ مِنَ الأمرِ والنهي.

الآية ٢٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾؛ قيلَ: هي ناسخةٌ لقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] إنها وإنْ [كانَتْ][٥] مُقدَّمةً في الذكرِ، وتلكَ مؤخَّرةٌ، فـ[٦]: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ناسخةٌ لتلكَ. إلى هذا يذهبُ عامةُ أهلِ التأويلِ. ألا ترَى إلى ما جاءَ [في الخبرِ][٧] أنَّ امرأةً أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ [فذكَرَتْ أنَّ بِنتاً لَها تُوُفِّيَ عنها زوجُها، واشتكَتْ عينَها، وهي تريدُ أنْ تُكحِّلَها، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قد كانَتْ][٨] إحداكُنَّ في الجاهليةِ تجلسُ حولاً في منزلِها، ثم تخرجُ عندَ رأسِ الحَولِ، فترمي [بالبعرةِ، وإنما هي أربعةُ أشهرٍ وعشرٌ»][٩] [مسلم: ١٤٨٨]؟ فثبتَ أنَّ ما كانَ ذلكَ، مما تقدَّمَ الأمرُ بهِ، نُسِخَ بالثاني.

وقالَ آخرونَ: إنهُ قد أثبتَ في الآيةِ متاعاً أو وصيةً، ثم وردَ النسخُ على كلِّ وصيةٍ كانَتْ للوارثِ بقولِهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ فلا وصيةَ لوارثٍ» [الترمذي: ٢١٢١]، وإلّا كانَ الاعتدادُ الواجبُ اللازمُ هو أربعةَ أشهرٍ وعَشراً[١٠]. وأمكنَ أنْ يُستدَلَّ بقولِهِ: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ إذ كانَ على إثرِ قولِهِ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]؛ ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ كانَ النهيُ على الإخراجِ دونَ الخروجِ، وهذا أصلٌ في الوصايا بالمتاعِ؛ ألا يُمنَعُ الردُّ، وإنْ أُجبِرَ على التسليمِ.

وفي الآيةِ دلالةُ جوازِ الوصيةِ بالسُّكنى إذا بطلَتْ بحقِّ الميراثِ لا بحقِّ الوصيةِ، واللهُ الموفقُ، وهو جائزٌ في مَنْ لم تُنسخْ لهُ الوصيةُ.

وأمكنَ الاستدلالُ بالآيةِ على عِدّةِ الوفاةِ بالحَبَلِ إذا ثبتَ ما رُوِيَ أنهُ يكونُ [أربعينَ يوماً نطفةً، و][١١] أربعينَ يوماً عَلَقةً، وأربعينَ يوماً مُضغةً، ثم يُنفَخُ فيهِ الروحُ في العشرِ. فإذا كانَ ما ذكرْنا أُمِرَتْ بتربُّصِ أربعةِ أشهرٍ وعشرٍ[١٢] ليتبيَّنَ[١٣] الحبلُ إنْ كانَ بها. وإذا كانَ بهذا معنى العدّةِ، فإذا وَلدَتْ بدونِهِ انقضتِ العدّةُ، واللهُ أعلمُ. فإنْ قيلَ: الأمَةُ اليسَتْ[١٤] لا تختلِفُ [عنِ][١٥] الحرةِ في تبيينِ الحبَلِ، ثم لم تُجعَلْ عدَّتُها أربعةَ أشهرٍ وعشراً، فإذا لم تُجعَلْ ذلكَ، كيف لا بانَ أنَّ الأمرَ بتربُّصِ أربعةِ أشهرٍ وعشرٍ إلّا لهذا المعنى؟ قيلَ [الوجوهِ:

أحدُها][١٦]: أنَّ الحرائرَ هنَّ الأصولُ في النكاحِ، وفيهِنَّ تجري الأنكحةُ، فيخرجُ الخطابُ لهنَّ.

والثاني: أنها حقٌّ أخذَتِ [الحرةُ][١٧]، والحقوقُ التي تأخذُ الحرائرُ هي الأصولُ في النكاحِ؛ إذا [صُرِفَتْ تلكَ][١٨] إلى الإماءِ تأخذُ نصفَ ما تأخذُ الحرائرُ.

والثالثُ: أنهُ لا تُقصَدُ آجالُهُنَّ لِما فيهِ رِقُّ الولدِ واكتسابُ الذُّلِّ والدَّناءةِ.

ورُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ أنهُ قالَ: «تعتدُّ أبعدَ الأجلَينِ احتياطاً»؛ ذهبَ في ذلكَ إلى أنَّ الاعتِدادَ يُوضَعُ في الطلاقِ [ولم يُذكَرْ][١٩] في الوفاةِ، فَيَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في الوفاةِ كَهُوَ في الطلاقِ، ويَحتمِلُ ألّا يكونَ، فأمرَها بذلكَ احتياطاً.

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) في ط ع: أي فيما. (٣) في النسخ الثلاث: من. (٤) في ط ع: وهو. (٥) من ط ع وم. (٦) من ط ع وم، في الأصل: يـ. (٧) من ط ع. (٨) من ط ع، في الأصل وم: إن. (٩) من ط ع، في الأصل وم: ببعرة. (١٠) في ط ع: وعشر. (١١) من ط ع وم. (١٢) من ط ع، في الأصل وم: وعشرا. (١٣) في الأصل و ط ع: لتبين، في م: لتبيين. (١٤) من ط ع، في الأصل وم: أليس. (١٥) من ط ع. (١٦) في ط ع: لوجهين: أحدها، في الأصل وم: لوجهين: أحدهما. (١٧) من ط ع وم. (١٨) من ط ع وم، في الأصل: صرف ذلك. (١٩) من ط ع، في الأصل وم: وذكر.

وأمّا عندَنا فما رُوِيَ عنْ عمرَ وعبدِ اللهِ [بنِ مسعودٍ وعبدِ اللهِ] [١] بنِ عباسٍ ﷺ أنهُمْ قالُوا: (إذا وضعَتْ ما في بطنِها، وزوجُها على[٢] السريرِ، انقضتْ عدَّتُها)، وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «أنَّ امرأةً ماتَ عنها زوجُها، وكانَتْ حاملاً، فوضعَتْ بعدَ ذلكَ بأيامٍ، فأذنَ لها بالنكاحِ» [البخاري ٥٣٢٠].

ثم الأمرُ بالإحدادِ أربعةَ أشهرٍ وعشراً ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يحِلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ تحِدَّ على ميتٍ فوقَ ثلاثةِ أيامٍ إلّا المرأةُ على زوجِها، فإنها تَحِدُّ أربعةَ أشهرٍ وعشراً» [البخاري ٥٣٣٤] فإنْ قيلَ: أليسَ وجبَ ذلكَ على المطلَّقةِ؟ والخبرُ إنما جاءَ في الموتِ، وهو فَوتُ النعمةِ في الدينِ، وذلكَ الفَوتُ في الطلاقِ كهُوَ في الموتِ. [قيلَ:] [٣] ألا تَرَى أنهُ لم يجبْ ذلكَ في موتِ أبيها ولا في موتِ ولدِها؟ دلَّ أنهُ لم يجبْ للموتِ نفسِهِ، ولكنْ لِفَوتِ النعمةِ في الدينِ. ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ في الخبرِ: «أنَّ المرأةَ الصالحةَ مفتاحُ الجنةِ» [بنحوه مسلم ١٤٦٧] فأُمِرَتْ بإظهارِ الحزنِ على ما فاتَ منها مِنَ النعمةِ بتركِ الزينةِ والتشوُّفِ؟ إذِ النكاحُ نعمةٌ، ثم الدخولُ بها سواءٌ في وجوبِ المهرِ والعدَّةِ وتركِ الزينةِ وإظهارِ الحزنِ على فوتِ النعمةِ. وأما المطلَّقةُ قبلَ الدخولِ بها لم يَلْزَمْها ذلكَ، لأنَّ العدَّةَ لم تَلْزَمْها، فتتجدَّدُ لها النعمةُ لِما لها أنْ تُنكَحَ للحالِ، فتكتسبَ نعمةً، واللهُ أعلمُ. ألا ترى أنَّ الصبيَّ الصغيرَ إذا ماتَ عنِ امرأتِهِ تَلْزَمُها أربعةُ أشهرٍ وعشرٌ[٤]؟ دلَّ هذا أنَّ وجوبَها لِفَوتِ النعمةِ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ قولُهُ: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ أي][٥] في الأكفاءِ بمهرِ مثلِهِنَّ، قد ذكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ[٦].

الآية ٢٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ قيل: التعريضُ هو أنْ يُرِيَ مِنْ نفسِهِ الرغبةَ في ما يُكنِّي بهِ مِنَ الكلامِ على ما ذُكِرَ في الخبرِ: أنَّ فاطمةَ بنتَ قيسٍ لمّا استشارَتْ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ[٧] لها: «إذا انقضَتْ عِدَّتُكِ فآذنيني فاستأذنَتْهُ في رجلَينِ كانا خطباها، فقالَ لها: أمّا فلانٌ فإنهُ لا يرفعُ العصا عنْ عاتِقِكِ[٨]، وأمّا فلانٌ فصُعْلُوكٌ[٩]، لا شيءَ لهُ، فعليكِ بأسامةَ بنِ زيدٍ[١٠]» [بنحوه: ابن ماجه ١٨٦٩]؛ فكانَ قولُهُ [ﷺ][١١]: «فآذنيني» كنايةَ خَطّابٍ[١٢] إلى [أنْ أشارَ عليها بأسامةَ] [١٣] دونَ ما ذكرَهُ أهلُ التأويلِ: إنكِ لجميلةٌ، و: إنكِ لَتُعجِبيني، و: ما أجاوزُ إلى غيرِكِ، و: إنكِ لَنافقةٌ. مثلُ[١٤] هذا لا يَحِلُّ أنْ يُشافِهَ امرأةً[١٥] أجنبيةً، لا يَحِلُّ لهُ[١٦] نكاحُها [لِما ذُكِرَ مِنَ التعريضِ لأنَّ الرجلَ لا يأتِيها منزلَها، فيعرِّضُ لها، والمرأةُ قد تخرُجُ مِنْ منزلِها، فتصيرُ في مكانِ احتمالِ التعريضِ، فعندَ ذلكَ يقولُ لها ما ذَكَرْنا.

وفي الآيةِ دلالةُ أنْ لا بأسَ للمتوفى عنها زوجُها الخروجُ بالنهارِ.][١٧] وعلى ذلك جاءتِ الآثارُ؛ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّ امرأةً ماتَ زوجُها، فأتَتْهُ فاستأذنَتْهُ لِلاكْتِحالِ، لم يأتِ أنهُ نهاها عنِ[١٨] الخروجِ. وأمّا ما رُوِيَ عنْ عمرَ وابنِ[١٩] مسعودٍ ﷺ بالإذنِ لهنَّ بالخروجِ بالنهارِ والنهيِ عنِ البَيتوتةِ في غيرِ منزلِهِنَّ، ولأنَّ المتوفَّى عنها زوجُها مُؤْنتُها على نفسِها، فلا بدَّ لها مِنَ الخروجِ. وأمّا المطلَّقةُ فإنَّ مُؤْنتَها على زوجِها، والزوجُ هو الذي يكفي مُؤْنتَها، ويُزِيحُ علَّتَها، لذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلمُ.

ثم التعريضُ لا يجوزُ في المطلَّقةِ لِوجهَينِ:

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: و. (٢) من ط ع وم، في الأصل: في. (٣) من ط ع. (٤) في النسخ الثلاث: وعشرا. (٥) من ط ع، في الأصل وم: وقوله ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾. (٦) كان ذلك في تفسير بدء الآية. (٧) في النسخ الثلاث: فقال. (٨) في ط ع: عنقك. (٩) الفاء ساقطة من النسخ الثلاث. (١٠) من ط ع وم، في الأصل: نهد. (١١) من ط ع. (١٢) الخَطّابُ: المتصرف في الخطبةِ. (١٣) في الأصل: أشار على أمة، في ط ع وم: أن أشار على أسامة. (١٤) في ط ع: ومثل. (١٥) في النسخ الثلاث: لامرأة. (١٦) ساقطة من م. (١٧) في النسخ الثلاث: وفي الآية دلالة أن لا بأس للمتوفى عنها زوجها الخروج بالنهار هذا لا يحل أن يشافه لامرأة أجنبية لا يحل له نكاحها لما ذكر من التعريض لأن الرجل لا يأتيها منزلها فيعرض لها ولكن المرأة قد تخرج من منزلها فتصير في مكان احتمال التعريض فعند ذلك يقول لها ما ذكرنا. (١٨) في النسخ الثلاث: من. (١٩) الواو ساقطة من الأصل.

أحدُهما: ما ذكرْنا: ألّا يُباحَ لها الخروجُ مِنْ منزِلها ليلاً ونهاراً، والمتوفّى عنها زوجُها يُباحُ لها الخروجُ، وإنما ذكرَ اللهُ، سبحانَهُ، التعريضَ في المتوفّى عنها زوجُها، لم يذكُرْهُ في المطلّقةِ.

والثاني: أنّ في تعريضِ المطلّقةِ اكتسابَ عداوةٍ وبغضٍ في ما بينَها وبينَ زوجِها، إذ العِدّةُ مِنْ حقِّهِ؛ دليلُهُ أنهُ إذا لم يدخلْ بها لم تَلْزَمْها العدةُ، وأمّا المتوفّى عنها زوجُها [فقد][1] لَزِمَتْها العدّةُ، وإنْ لم يدخلْ بها؛ لذلكَ يجوزُ التعريضُ في المتوفّى عنها زوجُها [ولا][2] في المطلّقةِ. قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ، ولأنَّ زوجَها في الطلاقِ متى [يَعْلَمُ ما [يَحدُثُ يَحْدُثُ][3] بينَهما الضغنُ والمكروهُ في الحالِ، وليسَ ذلكَ في الوفاةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني أخفَيتُمْ تَزَوُّجَها في السِّرِّ. [وقولُهُ][4]: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ سِرًّا وعلانيةً، وقيلَ: يعني الخطبةَ في العدّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾؛ قيلَ فيهِ بأوجهٍ؛ قيلَ: [لا تأخُذوا][5] منهنَّ عَهداً ألّا يتزوَّجْنَ غيرَكُم، وقيلَ: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ يعني الزِّنى، والسِّرُّ الزِّنى في اللغةِ، وقيلَ: السِّرُّ الجماعُ؛ تقولُ: آتيكِ الأربعةَ والخمسةَ ونحوَهُ. ثم قالَ [اللهُ تعالى][6]: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: [يقولُ لها قولاً][7] لَيِّناً حَسَناً، ولا يقولُ لها قولاً يحمِلُها على الزّنى، أو على ما يُظهِرُ مِنْ نفسِها الرغبةَ فيهِ على ما ذكَرَ في الآيةِ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وأنْ يَعِدَ لها عِدَةً حسنةً، أو[8] أنْ يَبَرَّها[9] ويُحسِنَ إليها لترغيبٍ فيه، ولا يقولُ لها ما لا يَحِلُّ، / ٤١ - ب/ ولا يجوزُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾؛ قيلَ: هو على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: لا تعزِموا على عقدةِ النكاحِ، وقيلَ: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ﴾ ولا تعقِدوا النكاحَ ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾؛ يعني بالكتابِ ما كُتبَ عليها مِنَ العِدّةِ حتى تنقضيَ. ذلكَ[10]، وفيهِ دليلُ حُرْمتِها على الأزواجِ لبقيةِ المُلْكِ؛ فالخطابُ للأجنبيِّينَ لا للأزواجِ؛ إذْ للأزواجِ الإقدامُ على النكاحِ، وإنْ كُنَّ في عِدّةٍ منهُمْ.

قالَ الشيخُ ﷺ: في قولِهِ: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ حُمِلَ على التحريمِ، وإنِ احتُمِلَ، وهو بهذا المخرجِ غيرُ التحريمِ، لاتّفاقِ الأمّةِ على صرفِ المرادِ إليهِ، ولقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي ما كُتِبَ عليها مِنَ التربُّصِ، ولِما كانَ النهيُ عَنْ ذلكَ بما لَزِمَها العِدّةُ للزوجِ الأولِ، فهيَ باقيةٌ بها على ما سبَقَ مِنَ النكاحِ المحرِّمِ لها على غيرِهِ؛ فلذلكَ بقيتِ الحرمةُ؛ ولهذا جازَ لِمَنْ لهُ العِدّةُ للزوجِ الأوّلِ، فهيَ باقيةٌ بها، النكاحُ فيها، إذ لا يجوزُ أنْ يُمنَعَ حقَّهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾؛ وهو حرفُ وعيدٍ؛ أي يعلَمُ ما تضمِرُونَ في القلوبِ، وتظهِرُونَ باللسانِ مِنَ التعريضِ ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ ولا تخالِفوا أمرَهُ ونهيَهُ. [وقولُهُ][11]: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فيهِ إطماعُ المغفرةِ وإمهالُ العقوبةِ مَنِ ارتكبَ النهيَ، وخالفَ أمرَهُ، واللهُ أعلمُ. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ حذِّرهُمْ[12] علمَهُ بما في أنفسِهِمْ ليكونُوا مراقِبينَ لهُ في ما أسَرُّوا، وليعلَموا أنهمْ مُؤاخَذونَ بما أضمَرُوا مِنَ المَعاصي والخلافِ لهُ، وأنّ[13] الذي لا يُؤاخذُ بهِ العبدُ هو الخطرُ بالبالِ لا بالعزمِ عليهِ والاعْتِقادِ.

ثم أخبرَ أنهُ ﴿غَفُورٌ﴾ ليعلَموا أنَّ استتارَ ذلكَ ممّا غفرَهُ، وأنهمُ استوجَبُوا بفعلِهِمُ الخزيَ. لكنَّ اللهَ بفضلِهِ يَستُرُه عليهِمْ ليشكُروا عظيمَ نعمِهِ، أو لئلا ييأسُوا مِنْ رحمتِهِ، فيستغفِرُوهُ. وذكرَ ﴿حَلِيمٌ﴾ لئلا يغتَرُّوا بما لم يُؤاخَذوا بجزاءِ ما أضمَرُوا في ذلكَ الوقتِ، فيظُنُّونَ الغفلةَ عنهُمْ[14] كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

الآية ٢٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[15] فيهِ دليلُ رخصةِ طلاقِ غيرِ المدخولاتِ بهِنَّ في الأوقاتِ كلِّها، إذْ لا يتكلَّمُ بنفيِ الجُناحِ إلّا في موضعِ الرخصةِ، ولم يَخُصَّ وقتاً دونَ وقتٍ.

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط ع. (٣) في الأصل و ط ع: يحدث، في م: يحدثه. (٤) من ط ع. (٥) من ط ع، في الأصل وم: لا بقاء خذوا. (٦) من ط ع. (٧) من ط ع وم. (٨) من ط ع وم، في الأصل: و. (٩) في النسخ الثلاث: يَبَرَّ. (١٠) في ط ع: تلك. (١١) من ط ع. (١٢) في النسخ الثلاث: حذره. (١٣) في الأصل: أو. (١٤) في ط ع: عنه. (١٥) في الأصل: تُماسُّوهُن: قرأ حمزة والكسائي: تُماسُّوهُنَّ بضم التاء والألف، وقرأ الباقون ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ بفتح التاء مِنْ: مَسَسْتُ، انظر حجة القراءات/ ١٣٧ .

وأمّا المدخولاتُ بهنَّ فإنهُ ﷺ ذكرَ لطلاقِهنَّ وقتاً بقولِهِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ لذلكَ قالَ أصحابُنا، رحمَهُم اللهُ تعالى: (إنهُ[1] لا بأسَ للرجلِ أنْ يطلِّقَ امرأتَهُ في حالِ الحَيضِ إذا كانَ [لم يدخلْ][2] بها؛ ووجْهُهُ[3] أنهُ إذا كانَ دخلَ بها يعرِفُ[4] وقتَ طهرِها ممّا[5] سبقَ منَ الدخولِ بها، فأمرَ[6] بالطلاقِ في ذلكَ الوقتِ ليكونَ أدْعَى إلى المراجعةِ إذا ندمَ على طلاقِها).

وأمّا التي لم يدخلْ بها، لا يعرفُ وقتَ طهرِها لِما لم يسبِقْ مِنْهُ ما بهِ يعرِفُ ذلكَ الوقتَ، فلم يُؤمَرْ بحفظِ ذلكَ الوقتِ، ولأنهُ إذا لم يدخلْ بها فإنَّ الطلاقَ بينَهما منهُ، فجعلَ كلَّ الأوقاتِ لهُ وقتاً للطلاقِ لِما لم يُجعَلْ لهُ حقُّ المراجعةِ قبلَها لتكونَ[7] بعضُ الأوقاتِ لهُ أدعَى إلى ذلك، واللهُ أعلمُ.

ولأنَّ[8] المدخولَ بها يُتَوَهَّمُ عُلوقُها منهُ، جَعَلَ[9] لطلاقِها وقتاً ليَستبينَ حالَها: أحاملٌ؟ أم لا؛ لئلا يَنْدَمَ على طلاقِها، لذلكَ كانَ الجوابُ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وفيه دليلُ رخصةِ طلاقِ المُبِينِ منهُ إذا لم يملكْ إمساكَها عندَ الندامةِ لأنَّ الطلاقَ قبلَ الدخولِ يُبِينُ المرأةَ مِنْ زوجِها.

والأصلُ في الأمرَينِ جعلُ الطلاقِ في وقتِ حِلِّها للأزواجِ وكلُّ الأوقاتِ في غيرِ المدخولِ بها وقتَ الحِلِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ معناهُ: ولم تفرضُوا لهنَّ فريضةً كأنهُ عطفٌ على قولِهِ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قولِهِ ﷺ ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾؛ دلَّ الأمرُ بالمتعةِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ﴾ معناهُ: ولم تفرِضُوا لَهُنَّ، ودلَّ قولُهُ ﷺ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أنَّ ذاكَ في غيرِ المدخولِ[10] بها؛ حينَ أوجبَ فيه[11] نصفَ المفروضِ أوجبَ المتعةَ، ثم مجيءُ في القياسِ أنْ يُوجِبَ في غيرِ [المدخولِ بها][12] نصفَ مهرِ المثلِ إلّا المتعةَ لأنهُ إذا دخلَ بها أوجبَ كلَّ المفروضِ عندَ الدخولِ بها ونصفَ المفروضِ عندَ عدمِ الدخولِ بها. لكنْ أوجبَ المتعةَ لوجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ مهرَ المثلِ إنما يُقدَّرُ بها إذا دخلَ بها، فإذا لم يدخلْ بها لم يعرِفِ الزوجُ ما قدْرُ مهرِ مثلِها، فإذا لم يعرف ما قدْرُ مهرِ مثلِها لم يعرفِ النصفَ مِنْ ذلكَ.

والثاني: أنهمْ أوجبُوا المتعةَ تخفيفاً وتيسيراً لأنَّ الحاكمَ يلحقُهُ فضلُ كلفةٍ وعناءٍ في تعرُّفِ حالِها وحالِ نسائِها، إذ مهرُ المثلِ إنما يُعتَبرُ بنسائِها، وليسَ ذلكَ في المتعةِ، واللهُ أعلمُ.

ثم قدْرُ المتعةِ يُعتَبرُ شأنُهُ اعْتِباراً بقدْرِها لأنهُ لو اعتُبِرَ شأنُهُ قدْرَ ما أوجبَ لها غِناها وغنَى أهلِها، ومهرُ المثلِ لا يبلغُ ذلكَ، فكانَ في ذلك تفضيلُ المتعةِ على مهرِ المثلِ. وقد ذكَرْنا أنَّ المتعةَ أوجبُ تخفيفاً، ولو نُظِرَ إلى قدْرِها دونَ قدْرِهِ لكُلِّفَ الزوجُ ما لا طاقةَ لَهُ بِهِ ولا وُسْعَ؛ لذلكَ وجبَ النظرُ إلى قدْرِهِ اعْتِباراً بقدْرِها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ لو نُسِقَ على قولِهِ: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[13] فهو على ما لم تفرِضُوا لهنَّ فريضةً. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ [ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾][14] [الأحزاب: ٤٩]. وعلى هذا إجماعُ القومِ[15] في جوازِ النكاحِ بغيرِ تسميةٍ. وفي ذلكَ دليلٌ أنَّ قولَهُ تعالى: [﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ][16] أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ﴾ [النساء: ٢٤]الآيةَ[17] هو ما يُبْتَغَى[18] مِنَ النكاحِ بالمالِ لا بتسميةِ المالِ، فيكونُ النكاحُ موجباً لهُ، بهِ يُوصَلُ إلى حقِّ [الاِسْتِمتاعِ لا بالتسميةِ. ولهذا كانَ لها حقٌّ][19] حبسِ

---

(١) في النسخ الثلاث: إن. (٢) في الأصل وم: لم يدخلها، في ط ع: لهم لم يدخل. (٣) الواو ساقطة من ط ع. (٤) من ط ع وم، في الأصل: تفرق. (٥) من ط ع وم، في الأصل: ما. (٦) من ط ع وم، في الأصل: بأمر. (٧) في ط ع: ليكن. (٨) في النسخ الثلاث: والثاني أن. (٩) في النسخ الثلاث: فجعل. (١٠) في النسخ الثلاث: المفروض. (١١) في النسخ الثلاث: في المفروض. (١٢) في النسخ الثلاث: المفروض. (١٣) في الأصل: تُماسُّوهُنَّ انظر الحاشية السابقة المتعلقة بهذه القراءة ص٤٠٩ . (١٤) من ط ع، في الأصل وم: الآية. (١٥) في النسخ الثلاث: القول. (١٦) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (١٧) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٨) من ط ع، في الأصل وم: ينبغي. (١٩) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

نفسِها عنهُ حتى يُسَلِّمَ إليها ما مَنَعَ عنِ المُلْكِ إلّا مهراً بهِ مُسَمّى أو غيرُ مُسَمّى كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ [وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ][(١)] إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[المائدة: ٥] وقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ [ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾][(٢)] الآية [الأحزاب: ٥٠].

وإذا جازَ النكاحُ بلا تسميةٍ لم يفسُدْهُ فسادُ التسميةِ، بلِ الذي أفسدَ في أعلى أحوالِهِ، كأنهُ لم يكنْ. وعلى ذلكَ اتّفاقٌ في ما يُزَوِّجُ المرأةَ على ما لا يَحِلُّ مِنْ خمرٍ أو ميتةٍ أو نحوِ ذلكَ. فيكونُ في ذلكَ أمرانِ:

أحدُهما: أنَّ ما لا يتعلَّقُ جوازُهُ بالشرطِ، ففسادُ[(٣)] الشرطِ لا يُفسِدُ.

والثاني: أنَّ تبيُّنَ موضعِ النهيِ عنِ الشِّغارِ أنهُ غيرُ مُفيدِ الفعلَ[(٤)] لأنهُ في جعلِ ذلكَ بدلاً للبُضعِ، واللهُ تعالى، لم يجعلِ التسميةَ شرطاً لجوازِهِ ليفسُدَ لفسادِها، واللهُ أعلمُ.

ثم جعلَ الطلاقَ قبلَ المُماسَّةِ سبباً لإسقاطِ بعضِ ما أوجبَ العقدُ؛ فهو، واللهُ أعلمُ، لِما يُوصَلُ إليهِ كمالُ[(٥)] مالَهُ بقصدِ النكاحِ؛ وإذْ هو مجعولٌ للتعفُّفِ، وحقيقتُهُ في إمكانِ الاسْتِمتاعِ لا بالعقدِ، ولولا[(٦)] ذلكَ لمّا جُعلَ النكاحُ، ولم يَبْطلْ كلُّ المهرِ لمّا تقلَّبَ في الملكِ الذي لهُ البدلُ؛ إذْ هو في الحقيقة لِلْمُلْكِ لا لِلاِسْتِمتاعِ؛ دليلُ ذلكَ ما لا يزدادُ لكثرةِ الاسْتِمْتاعِ، فثبتَ أنهُ بدلُ الملكِ في التَّقَلُّبِ فيهِ، إذ ليسَ هو سبباً[(٧)] لنسخِ السببِ الموجبِ للملكِ الذي لهُ وجبَ [البدلُ، بل هو تَقَلُّبٌ فيهِ، لم يُدفَعْ عنهُ البدلُ][(٨)] كلُّهُ، واللهُ أعلمُ، فأوجبَ ﷺ نصفَ المهرِ، وأسقطَ نصفَهُ بما فُقِدَ[(٩)] أحدُ القصدَينِ، ووُجِدَ الآخرُ، واللهُ أعلمُ.

ثم إذا لم تكنِ التسميةُ جعلَ اللهُ، تباركَ، وتعالى، المتعةَ مقابلةَ نصفَ المُسَمّى عندَ التسميةِ، وإنْ كانَ، لو تُرِكْنا والتدبيرَ بعدَ بيانِ الواجبِ في ما [لم يُسَمِّ لهنَّ][(١٠)] مهرُ المثلِ نحوُ وجوبِ المُسَمّى في ما يُسَمّى لكانَ الذي يغلِبُ على الوهْمِ أنا لا ندركُ إلى[(١١)] تدبيرِنا غيرَ نصفِ مهرِ المثلِ، فَتَولّى[(١٢)] اللهُ ﷻ ذلكَ ليعلَمَ الناسُ، واللهُ أعلمُ، أنَّ اللهَ بيَّنَ كلَّ ما بالخلقِ إليهِ حاجةٌ على قدرِ ما يحتمِلُهُ وُسْعُهُمْ، وتبلُغُهُ عقولُهُمْ، وأنَّ الذي لا يحيطُ بهِ تدبُّرُهُمْ بيَّنَ لَهُمْ بالإشارةِ إليهِ تفضُّلاً منهُ على عبادِهِ ليؤلِّفَ بهِ بينَهُمْ، ويمنَعَهُمْ عنِ التنازعِ، واللهُ أعلمُ.

ثم بيَّنَ لهم ماهيةَ[(١٣)] المتعةِ بالإشارةِ إليها[(١٤)]/ ٤٢ ـ أ/. ومعلومٌ أنَّ قدْرَ الذي يُتبيَّنُ في ما عُلِمَ قصورُ التدبيرِ عنِ الإحاطةِ يُدرَكُ ذلكَ النوعُ مِنَ الحكمةِ في ما لم يُتبَيَّنْ؛ فهو، واللهُ أعلمُ، بما عُلِمَ أنَّ العقولَ تبلُغُهُ، وأنهُ بالتدبيرِ في ما يُتَبَيَّنُ وجهُ الوصولِ إليهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. ثم بيَّنَ أنَّ الحقَّ أوكدُ عندَ التسميةِ منهُ في ما لم يكنْ بوجهَينِ:

أحدُهما: بقولِهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ في ما كانَ الطلاقُ قبلَ المُماسَّةِ، وعندَ التسميةِ أوجبَ نصفَ المُسَمّى، احتَمَلَهُ وُسْعُهُ أوْ لا، ومعلومٌ أنَّ الاِحتِمالَ على قدْرِ الوُسْعِ أخفُّ مِمّا كانَ يجبُ احتِمالُهُ عندَ الخروجِ مِنَ الوُسْعِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: بما عُلِمَ مِنْ وقوعِ الاِختِلافِ بينَ الأئمةِ[(١٥)] فيما لا تَسْمِيَةَ إذا ماتَ أحدُ الزوجَينِ في حقِّ إكمالِ المهرِ وارْتِفاعِ ذلكَ بما كانَ ثَمَّ تسميةٌ، فهو الدليلُ على أنَّ الحقَّ في أحدِ الوجهَينِ أوكدُ منهُ في الآخرِ. على أنَّ العقودَ والفسوخَ تُثبِتُ[(١٦)] لها عندَ التسميةِ البدلَ، ولا يوجِبُ[(١٧)] شيءٌ مِنْ ذلكَ بنفسِ العقدِ البدلَ حتى يُستوفَى في بعضِ ذلكَ، ولا يجبُ شيءٌ في البعضِ على كلِّ حالٍ، فثبتَ بهِ ما ذكرْتُ، فأوجبَ ما ذكرْتُ ألّا يُرادَ بالمتعةِ نصفُ مهرِ المثلِ؛ إذ [قد][(١٨)] ثبتَ

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: إلى قوله: ﷻ. (٢) من ط ع. (٣) من ط ع وم: في الأصل: فساد. (٤) من ط ع، في الأصل وم: العقل، (٥) في ط ع: كما. (٦) في الأصل: ولو. (٧) في النسخ الثلاث: سبب. (٨) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٩) من ط ع وم، في الأصل: تقدم. (١٠) في النسخ الثلاث: لهم يسمهن. (١١) من ط ع، في الأصل وم: لا. (١٢) من ط ع وم، في الأصل: فقولي. (١٣) في النسخ الثلاث: مائية. (١٤) من ط ع، في الأصل وم: إليه. (١٥) في النسخ الثلاث: الأمة. (١٦) من ط ع وم، في الأصل: ثبت. (١٧) في النسخ الثلاث: يجب. (١٨) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

بالبيانِ الأوّلِ أنَّ التدبيرَ لا يوجبُ الزيادةَ عليهِ، وبالبيانِ الثاني أنَّ الأمرَ فيهِ محمولٌ على التيسيرِ والتخفيفِ، ومِنَ البعيدِ المجاوَزةُ بالأمرِ المؤسَّسِ بالتغليظِ [في التغليظِ][1].

ولم يبيِّنْ لنا ماهِيَةَ[2] المتعةِ [ما هي؟][3]؛ ومعروفٌ أنَّ المتعةَ هي التي يُتَمتَّعُ بها، وأنَّ مهرَ المثلِ مما يُتَمتَّعُ بهِ، فجَعلْنا نصفَ مهرِ المثلِ نهايةَ المتعةِ[4] بما هو النهايةُ في ما كانَ مُبيَّناً، فلا يُجاوَزُ بها ذلكَ مع ما فيهِ وجهانِ:

أحدُهما: إحالةُ وجوبِها أكثرَ مِنْ مهرِ مثلِها، فيكونُ الدخولُ بها مسبِّباً لإسقاطِ الحقِّ؛ وقد جعلَهُ اللهُ تعالى سبباً لمنعِ السقوطِ، فثبتَ أنَّ مهرَ المثلِ مُعْتَبَرٌ في المتعةِ.

والثاني: أنها بحكمِ البدلِ عنْ ذلكَ؛ دليلُهُ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ المطابقةَ كانَتْ بمهرِ المثلِ، والطلاقُ سببُ إسقاطِ حقوقِ النكاحِ لإيجابِها، فثبتَ أنَّ المتعةَ كانَتْ مكانَ ما فيه المطالبةُ، لا أنْ حدثَ الوجوبُ بالطلاقِ.

والثاني: أنهُ متى وجبَ مهرُ المثلِ لم يُوجَبْ بها نحوَ أنْ يدخلَ بها، ثبتَ أنها كانَتْ بدلاً، فلا يُزادُ البدلُ معَ إمكانَ التحويلِ إلى غيرِ نوعِ مهرِ المثلِ. إنما هو، واللهُ أعلمُ، لِما قد يُتَعَذَّرُ تعرُّفُهُ أو أنْ لم يُعرَفْ ذلكَ بالاجْتِهادِ والتَّفَحُّصِ عنْ أحوالِها ومحلِّها ومحلِّ قومِها، وفي ذلكَ مُؤَنٌ وتكلُّفٌ. ثم بعدَ العلمِ بذلكَ لا بدَّ مِنَ الاجْتِهادِ في الوَسَطِ مِنْ ذلكَ ثُمَّ في أمرِها منهُمْ، فجعلَ اللهُ تفضُّلَهُ مِنَ [الوجهِ الذي للمرءِ][5] سبيلُ العلمِ [بهِ][6] عنْ ذلكَ التكلُّفِ، أو [لو رُفِعَ][7] هو إلى الحاكِمِ أمكنَهُ الوصولُ إلى العلمِ بهِ بدونِ ما ذكَرْتُ مِنَ النظرِ، فكانَ ذلكَ، واللهُ أعلمُ، نحوَ ما فرضَ اللهُ تعالى مِنْ زكاةِ الإبلِ لا فيها إذا صارَ بحيثُ لو كانَتْ فيها لكانَتْ جزءاً يُتَعَذَّرُ أخذُ مثلِهِ ثم التسليمُ إلى الشراءِ، فجعلَ في ذلكَ بدلاً على أنَّ الذي عليهِ لو خرجَ بتسليمِ العينِ جازَ، فمثلُهُ ما نحنُ فيهِ. وهذا هو وجهُ جَعْلِ اللهِ تعالى متعةً على أنها كانَتْ واجبةً نحوَ الإمساكِ، لو رامَ ذلكَ، إذ عليهِ النفقةُ والكسوةُ؛ فإنْ[8] طلَّقَها، جُعِلَتْ هي مكانَ مهرِ المثلِ إذا فاتَ السببُ الذي كانَ يجبُ بحقِّها، وجُعِلَتْ واجبةً بحقِّ غيرِها حتى لايقعَ في الطلاقِ وجوبُ أمرٍ لم يكنْ في ما تقدَّمَ، لو أُريدَ بهِ الإمساكُ. ومِنَ البعيدِ أنْ تزدادَ كسوةُ المرأةِ على مهرِها أو نصفِ مهرِها في الحقِّ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم ليسَ في ظاهرِ الآيةِ إبطالُ المهرِ في مالم يُسَمَّ ولا النصفُ في ما سُمِّيَ، وإنما في الأوّلِ الأمرُ بالمتعةِ، وفي الثاني بيانٌ أنَّ لها نصفَ الفَرْضِ. والقولُ: إنَّ[9] نصفَ هذا العبدِ لفلانٍ أو فلانٍ، كذا مِنَ الحقِّ لا يُبْطِلُ عنهُ الحقوقَ جملةً أو عنِ النصفِ لآخرَ بذلكَ القولِ، بل فيه أنهُ لهُ، وغيرُهُ متروكٌ لدليلِهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]؛ ليسَ في ذلكَ أنْ لا عِدَّةَ عليهِنَّ، ولكنَّ فيهِ أن لا عِدَّةَ لهمْ، ويجوزُ أنْ يكونَ عليها لا لَهُ. وكذلكَ عندَنا العِدَّةُ هي التي عَقيبُ الخَلْوةِ، لا يملِكُ هو فيها إمساكَها، ويلزَمُهُ المُؤْنَةُ، فكأنها عليهِ، لا لَهُ في المعتبَرِ. فلما ذُكِرَتْ بَطَلَ[10] قولُ مَنِ ادَّعى أنَّ القولَ بالمهرِ والعِدَّةِ في مالا مُماسَّةَ فيهِ خلافُ الظاهرِ، واللهُ أعلمُ، مع ما لو كانَ في الظاهرِ ذلكَ لأمكنَ أنْ يكونَ مِنَ المَسيسِ الإمكانُ لا حقيقتُهُ؛ دليلُ ذلكَ أنهُ لو وُجدَتِ القُبْلَةُ أو المعانقةُ في مَلإٍ[11] مِنَ الخَلْقِ لَوُجِدَ المَسيسُ في الحقيقةِ، ولم يجبْ بهِ ذلكَ، فثبتَ أنَّ المرادَ مِنْ ذلكَ [معنىً في][12] المَسيسِ لا ما يَحِقُّهُ اسْمُهُ.

ثم الذي يؤيِّدُ أنهُ الإمكانُ والاِجْتِماعُ وجهانِ:

أحدُهما: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ الآية[13] [النساء: ٢٠]؛ فأعظمَ عليهِ أخذَ شيءٍ مما آتاها بما كانَ مِنْ إفضاءِ بعضٍ إلى بعضٍ. والإفضاءُ في اللغةِ معروفٌ أنهُ الاِنْضِمامُ لا المُجامَعةُ مَعَ ما كانَتِ المُجامعةُ إلى

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) في النسخ الثلاث: مائية. (٣) من ط ع. (٤) ساقطة من ط ع. (٥) في الأصل: الوجد الذي للمراء، في م: الوجه للمرء، في ط ع: الوجه الذي للمرة. (٦) من ط ع و م: ساقطة من الأصل. (٧) من ط ع وم، في الأصل: لرفع. (٨) من ط ع وم، في الأصل: فإذا. (٩) في النسخ الثلاث: بأن. (١٠) في النسخ الثلاث: يبطل. (١١) في ط ع: الملا. (١٢) من م، في الأصل: معنى و، في ط ع: في. (١٣) أدرجت في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة.

الأزواجِ يُضافُ فعلُها، وفي هذا إضافةُ الإفضاءِ إلى كلِّ واحدٍ منهما؛ ثبتَ أنهُ في معنى ذلكَ مِنْ كلِّ واحدٍ منهما نحوُ الذي مِنَ الآخرِ، وذلكَ يكونُ في الاجْتِماعِ خاصةً، واللهُ أعلمُ.

والثاني: وجودُ القولِ مِنْ خمسةٍ مِنْ نُجباءِ الصحابةِ الخُلَصاءِ[1]، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، فَمَنْ دونَهُمْ مِمَّنْ لا يُحتَمَلُ خَفاءُ الآياتِ عليهِمْ، ومَنْ شَهِدَ الخطابَ أحقُّ بفهمِ الحقيقةِ مِنَ المرادِ أنْ يُسألوا عنْ ذلكَ مِنْ أنْ يُطلِعَهُمْ [أحدٌ][2] على حقيقتِهِ، إذا كانَ بحقٍّ[3] احْتِمالِ الخَفاءِ، والخاصةُ النجباءُ الذينَ يُعلَمُونَ أنهمْ أئمّةُ الخلْقِ، وعلى الاقْتِداءِ بهِمْ حثَّتِ الأمّةُ معَ مافي ذلكَ عدولٌ عنِ الظاهرِ وقولٌ بالذي لا يُحتمَلُ فهمُهُ عنهُ، ثَبَتَ، إنْ كانَ منهمْ، عنْ بيانٍ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ أو عنْ دليلٍ شهدُوهُ، أظهرُ المرادِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

على أنَّ في الآيةِ لو كانَ في تصريحِ جماعٍ لكانَ يلزمُ ذلك بالخلوةِ لوجهَينِ سِوَى ما ذكرْتُ:

أحدُهما: [جَرْيُ أحكامِ][4] الكتابِ والسنةِ في البذلِ[5] لأشياءَ مقصودةٍ [اسْماً وتحقيقاً][6] يَستوجبُ حقَّ العرفاءِ بها بحقِّ شرطِ اللهِ القبضُ في الرهانِ والقتالُ في المغانمِ والإيتاءُ في الأجورِ والمهورِ والخروجُ لأمرِ الهجرةِ وأمرُ رُؤيا إبراهيمَ ﷺ لمّا ﴿أَسْلَمَا﴾ [الصافات: ١٠٣] لأمرِ اللهِ. فعلى ذلكَ أمرُ الخروجِ مِنَ الأماناتِ بقولِهِ تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. ولو كانَ لا يخرجُ إلّا بإدخالٍ في الأيدي في الحقيقةِ لكانَ لا سبيلَ إلى القيامِ بما كلَّفَ اللهُ. وعلى ذلكَ إجماعُ القولِ في الإجاراتِ إذا أمكنَ الانْتِفاعُ بها، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنَّ النساءَ لا يُمكِّنَّ[7] مِنْ تسليمِ ما عليهِنَّ مِنَ الحقِّ، ومحالٌ أنْ يَلزَمَهُنَّ مِنَ الحقِّ أكثرُ مما ذُكِرَ، مكَّنَ اللهُ وُسْعَهُنَّ، فثبتَ أنْ ليسَ عليهِنَّ غيرُ الذي فعلْنَ فاستوجَبْنَ مالَهُنَّ؛ وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ثم قد أُجمِعَ على وجوبِ المهرِ في موتِ أحدِهما، وأنَّ الموتَ لا يُسقِطُهُ، وإنْ لم يكنْ ثَمَّ دخولٌ؛ فهو، واللهُ أعلمُ، أنَّ المقصودَ بالنكاحِ الملكُ وقيامُ الزوجيةِ إلى موتِ أحدِهما، وأنَّ ذلكَ الاسْتِمتاعَ، وقد وَجَبَ[8] تمامُهُ، وقد بيَّنّا أنَّ المهرَ للملكِ لا لنفسِ الاسْتِمتاعِ، فوجبَ كمالُهُ، وإنْ ماتَ أحدُهما لِما بلغَ الملكُ نهايتَهُ.

وعلى هذا يخرجُ قولُنا في مالم يُسَمَّ لها المهرُ؛ إذ مَهْرُ المثلِ إنما هو بَدَلُ المُلْكِ، دليلُهُ أنهُ يوجبُ لها المطالبةَ به عندَ قيامِهِ وإن لم يُسَمَّ بهِ.

واصلُهُ ما بيَّنّا منْ تعلُّقِ هذا الملكِ بالبدلِ حكماً، وإنْ لم يكنْ تعلَّقَ بهِ شرطاً، وقد وَجَبَ[9] ثَمَّ. وعلى هذا رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ وقامَ مَعْقِلُ بنُ يسارٍ[10]، وقالَ: (نشهدُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَضَى في بَرْوَعَ[11] بنتِ / ٤٢ ـ ب/ واشِقٍ بمثلِ الذي قَضَيتَ أنتَ[12]) فَسُرَّ بهِ عبدُ اللهِ لموافقةِ رأيِهِ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ[بنحوه أحمد ٤/ ٢٨٠]. وإذا ثبتَ ذلكَ فعلى ذلكَ؛ إذِ المعقولُ بالنكاحِ أنْ تبذُلَ المرأةُ نفسَها ليستمتِعَ بها، فإذا جاءتِ الخلوةُ وَجبَ[13] تمامُ المقصودِ منها بالنكاحِ على ما وَجبَ[14] في موتِ أحدِهما، فيجبُ كمالُ المهرِ كما وجبَ في الأوَّلِ، ويستوي في ذلكَ مهرُ المثلِ والمُسَمَّى، واللهُ أعلمُ.

وعلى ذلك في مالم يُوجَبْ جعلُهُ بَدَلَ المنفعةِ؛ إذ هو قيمةُ البِضعِ، وتجبُ قيمةُ الأشياءِ بإتلافِها، ولم يوجَبْ[15] ههنا. وعندَنا أنهُ وإنْ كانتْ قيمةُ ذلكَ فهيَ بَدَلُ مُلْكِ ذلكَ لا بَدَلُ الانْتِفاعِ نفسِهِ، إذ لا يجبُ في الزِّنَى. ثبتَ أنهُ للمُلْكِ يجبُ أو [لِشِبْهِهِ؛ وقد وَجَبَ][16] في الأوَّلِ على تمامِ ما رجعَ إليهِ المقصودُ، وَجَبَ على ما مرَّ بيانُهُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: الخلفاء. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) في النسخ الثلاث: بحيث. (٤) من ط ع، في الأصل وم: جرى الأحكام. (٥) في ط ع: البدل. (٦) من ط ع، في الأصل و م: اسماً وتحقيقاً. (٧) في م: لايملكن. (٨) في النسخ الثلاث: وجد. (٩) في النسخ الثلاث وجد. (١٠) من م، في الأصل: وط ع: سنان. (١١) من ط ع، في الأصل وم: بزوع. (١٣) من ط ع وم، في الأصل: أتيت. (١٣) في النسخ الثلاث: وجد. (١٤) في النسخ الثلاث: وجد. (١٥) في النسخ الثلاث: يوجد. (١٦) في الأصل وم، شبهته وقد وجد، في ط ع: لشبهته وقد وجد.

وأوجبَ قومٌ في المسمّاةِ بعدَ النكاحِ نصفَ المُسَمَّى إذا طلَّقَ قبلَ الدخولِ استِدلالاً بظاهرِ الآيةِ. ولكنَّ التسميةَ عندَ الناسِ إنما تكونُ في العقدِ، [حتى لا يُعرفَ لها وجودُ غيرِها، وهي التسميةُ في العقدِ][1]، فهي المرادةُ في الخطابِ؛ إذ هي المعروفةُ مِنَ الفَرْضِ، ثم غيرُها بحقِّ[2] الاسْتِدلالِ؛ فإنْ ألزمَ الدليلُ لها حقَّ التسميةِ في العقدِ لزمَ، وإلّا لا، ثم وجودُ جميعِ الأسبابِ التي تَحتمِلُ الاعْتِياضَ جعلَ ذكرَ الفرضِ بعدَ السببِ كَلَا ذِكْرٍ؛ فمثلُهُ أمرُ النكاحِ، فأوجبَ ذلك فسادَ التسميةِ، فلم يجبِ المُسَمَّى مِن بعدُ إلّا حيثُ يوجِبُهُ الدليلُ؛ وقد قامَ دليلُ الوجوبِ عندَ وجودِ مالَهُ حكمُ الدخولِ بما[3] يجبُ عندَ ذلكَ، وإلّا لا.

ثم وجهُ لزومِ القولِ بما يُخَرَّجُ على أحوالٍ:

إحداها[4]: أنَّ لهذا التسميةَ إذا جازَتْ جازَتْ بحقِّ مهرِ المثلِ؛ إذْ كلُّ[5] سببٍ، ليسَ [لهُ][6] عِوَضٌ في الحكمِ، لم يَجُزْ، ثم كانَ مهرُ المثلِ يسقطُ قبلَ الدخولِ بها كذلكَ الواجبُ بهِ، واللهُ أعلمُ.

والثانيةُ[7]: أنَّ الحكمَ يوجبُ تبيينَ[8] مهرِ المثلِ ليُدفعَ إليها، إذ لها حقُّ الامْتِناعِ، [إلّا بهِ][9]؛ فاصْطِلاحُها على ما سُمِّيَا مِن بَعدُ، لهُ مافي الحكمِ ذلكَ، وهو التبيينُ؛ ولو بيَّنَهُ الحاكمُ لكانَ يسقطُ، فمثلُهُ هذا، واللهُ أعلمُ.

والثالثةُ[10]: أنه معلومٌ أنهُ لو كانَ الذي في علمِ اللهِ تعالى مِنْ طلاقِها، لو كانَ ظاهراً وقتَ التسميةِ، لكانَ حقُّها عليهِ المتعةَ، ولم يكنْ يجبُ النظرُ إلى مهرِ مثلِها إلّا منْ وجهِ تحديدِ المتعةِ، فكذلكَ إذا ظهرَ، واللهُ أعلمُ. وأمكنَ أنْ يُقالَ: الأصلُ في ذلكَ أنَّ المتعة ليسَ يوجبُها الطلاقُ، ولكنَّ النكاحَ يوجِبُ، ثم كانَ الواجبُ بالنكاحِ مَجهولاً؛ لايُدرَى أهو مهرُ المثلِ أو المتعةُ؟ إذ لا يجوزُ أنْ يُوجَبا[11] ولا أنْ يُوجِبَ الطلاقُ أحدَهما لِما هو بيانُ ذلكَ، فثبتَ أنَّ الواجبَ في الحقيقةِ أحدُهما، لكنَّ لها مطالبةَ مهرِ المثلِ في الظاهرِ، ولها التسميةُ عنهُ بما العرفُ في النكاحِ أنهُ للدوامِ ثم هو لِلاسْتِمتاعِ، فَحمِلَ الأمرُ على ذلكَ الظاهرِ، وبهِ أُجيزتِ التسميةُ. فلمّا وردَ الطلاقُ قبلَ الدخولِ ظهرَتْ حقيقةُ الواجبِ، فبطلَ الذي كان بحقِّ المهرِ لمّا ظهرَ أنَّ الواجبَ في علمِ اللهِ المتعةُ، واللهُ أعلمُ.

وعلى أصلِ هذا المعتَبَرِ أمرُ المفروضِ الظاهرُ أنهُ نوعُ الإيمانِ، وذلكَ مما لا يزدادُ، ولا ينتقصُ، فيجبُ بالطلاقِ نصفُ مهورهنَّ. ثم إذا كانَ مِنْ نوعِ ما يُزادُ، ويُنقَصُ، فيحدثُ أحدُ الوجهَينِ، فليسَ في الكتابِ تسميةُ ذلكَ النوعِ على المعروفِ ولا القضاءُ فيه بشيءٍ. ومعلومٌ أنَّ ذلكَ لو كانَ في يدي الزوجِ لوجبَ[12] نصفُ ذلكَ في ما كانَ الطلاقُ قبلَ الدخولِ بها، فيصيرُ بحكمِ المفروضِ، وإنْ لم يكنْ [بما][13] كانَ حدثَ مِنَ الحقِّ، أو بما كانَ في حكمِ اللهِ، أنَّ الحقَّ في ذلكَ النصفُ؛ إذْ ذلكَ حكمُ الطلاقِ قبلَ الدخولِ بها على حقِّ المنصوصِ، فيكونُ الذي حدثَ مِنَ النصفِ حقَّهُ، أو بما كانَ ذلكَ مهراً، والحادثُ مُحتمِلٌ جعلَهُ مهراً؛ فهو فيهِ على ما عليهِ مُعْتَبَرُ الحقوقِ مِنْ لُحوقِ الفروعِ الأصولَ، فإذا كانَ ذلكَ بعدَ القبضِ فقدِ انْقَضَى أمرُ الحقِّ، وحدثَ ما حدثَ على مُلْكِها؛ إذْ على ذلكَ يحدُثُ.

فقلْنا: لو نَقَصَ المهرُ في العينِ لكانَ يُضيفُ النصفَ لهُ بحقِّ بعضِ القبضِ فيهِ ثم نُقِضَ العقدُ؛ وإذا كانَ كذلكَ لا يخلو أمرُ الزيادةِ مِنْ أنْ يُرَدَّ إليهِ، فيرجعَ بشيءٍ لم يُسلَّمْ إليها، وذلكَ فَضلٌ على ما أخذَ مِنَ الحقِّ يأخذُهُ بالحكمِ، فيكونُ رِباً لأنهُ لم يسمِّهِ، ولا يُسلِّمُ إليهِ، فزالَ المعنى الذي هو لها فيهِ، فيكونُ أخذُهُ بلا عِوَضٍ في عقدِ التبادلِ فيصيرُ رِباً. ولو أُبقِيَ لهُ على فسخِ القبضِ في المهرِ والعقدِ، فيصيرُ ذلكَ لِما فضلَ مِنْ أصلٍ قد فُسِخَ العقدُ فيهِ ممّا لم يكنْ لها ببدلٍ بلا بدلٍ، وذلك وصفُ الرِّبا، [وقد حُرِّمَ الرِّبا][14] فيجبُ بالضرورةِ جعلُ المفروضِ كالهالكِ، فيجبُ نصفُ القيمةِ ليزولَ معنَى الرِّبا، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من ط ع وم: ساقطة من الأصل. (٢) من ط ع وم: ، في الأصل: بغيرِ. (٣) في النسخ الثلاث: بها. (٤) في النسخ الثلاث إحداهما.
(٥) من ط ع، في الأصل وم: في كل. (٦) من ط ع وم. (٧) في النسخ الثلاث: وأيضاً. (٨) من م، في الأصل: ثبت، في ط ع: بينس.
(٩) من ط ع، في الأصل وم: الآية في. (١٠) في النسخ الثلاث: والثالث. (١١) في النسخ الثلاث: يجبان. (١٢) في النسخ الثلاث: ليجب.
(١٣) من ط ع وم. (١٤) من ط ع.

وعلى ما ذكرتُ يُخرَّجُ قولُ أبي يوسفَ، رحمَه اللهُ تعالى، في [المُتعةِ والهِبَةِ][١]: (أنه يُظهِرُ الواجبَ في الحكم).

وعندَ أبي حنيفةَ ﷺ ذلكَ في حقِّ النقضِ يصيرُ كذلكَ؛ دليلُهُ مالم يكنْ يجوزُ فيهِ تَقَلُّبُ الزوجِ، لو كانَ منهُ، ثم النقضُ لا يُرَدُّ على ما ليسَ لهُ حكمُ المهرِ، فيبقى ذلكَ للمرأةِ على ماكانَ لها قبلَ الطلاقِ؛ إذِ الطلاقُ نقضُ المُلْكِ في المهرِ، وليسَ ذلكَ بمهرٍ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخ، رحمَهُ اللهُ تعالى: (والمذكورُ مِنَ المتعةِ في ما فيه الدخولُ يَحتمِلُ ما عليهِ في حالِ النكاحِ مِنَ الكسوةِ والنفقةِ إلى تمامِ العِدَّةِ، فتكونُ الآيةُ في ذكرِ النفقةِ بعدَ الفراقِ؛ إذ لا يجوزُ أنْ يكونَ الطلاقُ سبباً لإيجابِ حقٍّ غيرِ واجبٍ قبلَهُ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ في حقِّ المتبرِّعِ شرطٌ عليهِ ليكونَ تسريحاً بالإحسانِ على ما رغبَ في غيرِ المدخولِ [بها][٢] مِنَ الإتمامِ؛ إذ لا يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ بدلاً، فيكونُ لِمُلْكٍ واحدٍ بَدلانِ، معَ ما جعلَ اللهُ الطلاقَ سبباً لتخفيفِ الحقوقِ على الزوجِ ورفعِ المُؤْنَةِ وردِّ الأمرِ إلى الغِنَى بالآخرِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] لم يَحتمِلْ بهِ الوجوبَ، فيصيرُ سبباً لإلزامِ المُؤْنَةِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ).

وقولُهُ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دليلٌ لأبي حنيفةَ ﷺ [بوجهَينِ]:

الأولُ[٣] حينَ قالَ: (إنَّ الذِّمِّيَّ إذا تزوجَ امرأةً، ولم يُسمِّ لها صداقاً، ثم طَلَّقَها قبلَ أنْ يدخلَ بها، لا متعةَ لها، لأنَّ اللهَ تعالى إنما أوجبَ المتعةَ على المحسِنينَ، والذِّمِّيُّ ليسَ بمحسنٍ. والدليلُ على أنَّ المتعةَ أوجبَتْ تخفيفاً، ومهرُ المثلِ [لا، لأنَّ][٤] مهرَ المثلِ أُوجِبَ على المرءِ، احْتَمَلَهُ مُلْكُهُ، أم لم يَحتمِلْ، والمتعةُ لم تُلزِمْ إلّا ما احْتَمَلَهُ مُلْكُهُ، فبانَ أنها أوجبَتْ تخفيفاً، [فإذا كانَتْ تخفيفاً][٥] لم تزدْ على مهرِ المثلِ.

والثاني: أنَّ المتعةَ أُوجِبَتْ بدلاً عَن نصفِ مهرِ المثلِ، ثم لا جائزٌ أنْ يُرادَ بالبدلِ المبدَلُ كما قيلَ في سائرِ الأبدالِ، واللهُ أعلمُ).

والمتعةُ هي[٦] ثلاثةُ أثوابٍ لأنهُ يُخرِجُها مِنَ المنزلِ، وأقلُّ ما تَخرجُ المرأةُ مِنَ المنزلِ إنما تخرجُ بثلاثةِ أثوابٍ. فإنْ قالَ لنا قائلٌ: إنَّ الكتابَ ذكرَ المتعةَ للمطلَّقةِ قبلَ المُماسَّةِ، إذا لم يُفْرَضْ لها فرضٌ، وذكرَ أنهُ في نصفِ المفروضِ إذا طلقَها قبلَ المُماسَّةِ، وأنتم أوجبْتُمْ كلَّ المُسَمَّى وكلَّ مهرِ المثلِ إذا خلا بها[٧]، ولم يَمَسَّها، نَقُلْ[٨]: في الآيةِ بيانُ وجوبِ المتعةِ في حالٍ [وبيانُ وجوبِ نصفِ المهرِ في حالٍ][٩] وليسَ في بيانِ وجوبِ النصفِ[١٠] نفيُ وجوبِ الكلِّ؛ لأنهُ إذا قيلَ: لفلانٍ نصفُ هذا الشيءِ، ليس فيهِ أنَّ النصفَ الآخرَ ليسَ لهُ. فإذا كانَ ما ذكَرْنا ليسَ لِمُخالِفِنا[١١] الاحْتِجاجُ علينا بظاهرِ الكتابِ ولا النسبةُ إلى مخالفةِ الآيةِ، فصارَ معرفةُ ذلكَ بتدبيرٍ آخرَ مِنْ جهةِ الكتابِ معَ ما أنهُ/ ٤٣ ـ أ/ لا يُوجِبُ المهرَ كلَّهُ لِعَيْنِ المَسيسِ؛ فكأنّا[١٢]، نحن وهو، اتَّفَقْنا جميعاً على إيجابِهِ لا بالكتابِ، واللهُ أعلمُ.

وإنْ شِئْتَ قلْتَ: إنَّ الخلوةَ لا توجبُ كمالَ الصداقِ، وإنما يوجبُهُ صحةُ العقدِ؛ دليلُهُ مطالبةُ المرأةِ الزوجَ بكمالِهِ بعدَ صحةِ النكاحِ، فدلَّ أنَّ وجوبَه لا بالخلوةِ ولكن بصحةِ العقدِ. فالكلامُ إنما وقعَ في إسقاطِ البعضِ، فيسقُطُ إذا قامَ دليلُ الإسقاطِ، واللهُ أعلمُ.

وإنْ شِئْتَ قلْتَ: إنَّ المرأةَ لا تملكُ سوى تسليمِ نفسِها إليهِ، فالعقدُ إنما وقعَ على ما تقدرُ على تسليمِهِ إليهِ، ليسَ على ما لا تَقْدِرُ، لأنها لا تَقْدِرُ على تسليمِ الاِسْتِمتاعِ إليهِ؛ إذ لو كانَ العقدُ واقعاً على ذلك لَكانَ يبطلُ؛ لأنَّ مَنْ باعَ مالا يقدِرُ على تسليمِهِ إلى المشتري لبطلَ العقدُ بأصلِهِ. فعلى [ذلكَ][١٣] عقدُ النكاحِ إذا جُعِلَ واقعاً على تسليمِ الاِسْتِمتاعِ إليهِ كانَ باطلاً كالبيعِ للمعنَى الذي وصَفْنا، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في ط ع: العلة والهيئة. (٢) من ط ع. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) من ط ع، في الأصل: لأن، في م: لا أن. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) من ط ع، في الأصل وم: وهي. (٧) في النسخ الثلاث: لها. (٨) في النسخ الثلاث: قيل. (٩) من ط ع. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) من ط ع وم، في الأصل: لمخالفتنا. (١٢) من ط ع وم، في الأصل: فكأنما. (١٣) ساقطة من النسخ الثلاث.

ثم اختُلِفَ في المرأةِ التي ماتَ عنها زوجُها، ولم يدخلْ بها، ولا فَرضَ لها مهراً: رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: «لها مهرُ مثلِها» [أحمد: ٤/ ٢٨٠] ورُوِي عن رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ قضى لِبَرْوَعَ بنتِ واشقٍ بمهرِ مثلِها» ورُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ أنهُ قالَ: (لها المتعةُ بكتابِ الله تعالى) وقالَ: (لا ندعُ كتابَ اللهِ تعالى بقولِ أعرابيٍّ) ذهبَ، واللهُ أعلمُ، إلى أنَّ الكتابَ ذكرَ المتعةَ في الطلاقِ، ثم كانَ ذلك الحكمُ في غيرِ الطلاقِ كَهُوَ في الطلاقِ. فعلى ذلكَ: الفُرْقةُ التي وقعتْ بالموتِ توجبُ المتعةَ كوجوبِها[1] في الفُرْقةِ الواقعةِ في غيرِ الطلاقِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ١٢٨]؛ ذكرَ المطلَّقاتِ، ثم كانتِ التي وقعتِ الفُرْقةُ عليها بغيرِ طلاقٍ يلزَمُها ما يلزَمُ المطلَّقةَ. ومثلُ ذلك كثيرٌ ممّا يكثُر ذكرُهُ، واللهُ أعلمُ.

وأما عندَنا: فإنهُ لا تلزمُ المتعةُ، ولكن يلزمُ المهرُ لوجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ ذكرَ في الطلاقِ قبلَ الدخولِ نصفَ المفروضِ، وفي الدخولِ كلَّ المفروضِ. فعلى ذلكَ ما أوجبَ مِنَ الحكمِ في التي لم يدخلْ بها، ولم يُسَمِّ لها مهراً، دونَ ما أوجبَ في حكمِ الدخولِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنَّ المقصودَ بالنكاحِ إنما يكونُ إلى موتِ أحدِ الزوجَينِ؛ فإذا كانَ كذلكَ لزِمَ كلُّ المسَمَّى أو كلُّ مهرِ المِثْلِ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: الخبرُ الذي ذكَرْنا أنهُ قضى بمهرِ المِثْلِ، وخبرُ أمثالِ هؤلاءِ مقبولٌ إذا كانتِ البليَّةُ في مثلِهِ بليَّةً خاصةً؛ إذ بمِثْلِ هذا لا يُبلَى إلّا الخواصُّ مِنَ الناسِ. لذلكَ كانَ ما ذكَرْنا.

الآية ٢٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ[2] وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ ذهبَ قومٌ إلى ظاهرِ الآيةِ أنهُ ذكرَ فيها: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ ولم يخصَّ المفروضَ في العقد دونَ المفروضِ بعدَ العقدِ، فكلُّهُ مفروضٌ، فَلَها نصفُ المفروضِ سواءٌ أكانَ المفروضُ في العقدِ أم بعدَ العقدِ. وعلى ذلكَ قالَ قومٌ: إنَّ الرجلَ إذا تزوجَ امرأةً على جاريةٍ، ودفعَها إليها، فولدَتْ عندَها ولداً، ثم طلَّقَها قبلَ الدخولِ بها، فإنَّ[3] لهُ نصفَ الجاريةِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، وأنتم لا تجعلُونَ لهُ نصفَ ما فَرَضْتُمْ، فخالفْتُمْ ظاهرَ الكتابِ.

أمّا الجوابُ لِمَنْ جعلَ المفروضَ بعدَ العقدِ كَهُوَ في العقدِ في ما جعلَ لَها نصفَ ما فرضَ فإنَّ الخطابَ مِنَ اللهِ تعالى. إنما خرجَ في المفروضِ بعدَ العقدِ. إنما يُتعارفُ في العقدِ، خرجَ الخطابُ على هذا المُتعارَفُ فيهِمْ، وهو المفروضُ، فيجعلُ لها نصفَ ذلكَ وما يُفرَضُ بعدَ العقدِ، فإنما يُفرَضُ بحقِّ مهرِ المِثْلِ. فإذا وُجدَ الدخولُ وجبَ ذلكَ، وإلّا لم يجبْ.

وأمّا جوابُ[4] مَنْ قالَ بأنهُ إذا تزوَّجها على جاريةٍ، ودفعَها إليها، فولدَتْ ولداً: إنَّ لهُ نصفَ ما فرضَ؛ فإنّا نقولُ: إنَّ الآيةَ ليستْ في الفرضِ الذي معه آخَرُ: ولدٌ أو غيرُه. ألا تَرى أنَّ الجاريةَ إذا كانَتْ عندَ الزوجِ، فولَدَتْ ولداً فإنَّ لها نصفَ الجاريةِ ونصفَ الولدِ، والولدُ لم يكنْ في الفَرْضِ وقتَ العقدِ[5]. فعلى ذلك الآيةُ ليست في الجاريةِ التي ولدَتْ عندَها، ولكنْ في الفرضِ لا زيادةَ معهُ. ثم لا يخلو: إمّا أنْ يُجعَلَ [له][6] نصفُ الجاريةِ لها دونَ الولدِ، فقد فُسِخَ العقدُ في الأصلِ، فبقيَ الولدُ بلا أصلٍ، فذلكَ ربا، وإمّا أنْ يُجعلَ لهُ نصفُ الجاريةِ معَ نصفِ الولدِ، وهو غيرُ مفروضٍ، واللهُ تباركَ، وتعالى، إنما جعلَ لهُ نصفَ ما فرضَ، فبطلَ قولُ مَنْ قالَ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ ﷺ: [في][7] قولِهِ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قيلَ: يريدُ بهِ المؤمنِينَ، فيكونُ في هذا التأويلِ دلالةٌ على ما قالَهُ أبو حنيفةَ ﷺ ألّا تلزَمَ الذِّمِّيَّ المتعةُ، وقيلَ: على مَنْ قَصْدُهُمُ الإحسانُ إلى الأزواجِ، ويتَّقُونَ الخلافَ لِما كانَ عليهِ النكاحُ مِنْ إمساكٍ بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسانٍ، واللهُ الموفقُ.

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: كوجوبه. (٢) في الأصل: تماسُّوهنَّ وهي قراءة حمزة والكسائي انظر حجة القراءات: ١٣٧ . (٣) في النسخ الثلاث: أن. (٤) في ط ع: الجواب. (٥) من ط ع وم، في الأصل: القصد. (٦) من ط ع. (٧) من ط ع.

واعتلَّ قومٌ في حقِّ المتعةِ[1] وكمالِ المهرِ أنهُ ذُكِرَ في الطلاقِ لا على تخصيصِ الحكم لهُ بل بكلِّ ما يكونُ بهِ تسريحُها، فمثلُهُ يكونُ ذكرُ المُماسَّةِ لا على تخصيصٍ ولكنْ كلُّ ما يكونُ بهِ تحقيقُها[2]، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

قالَ: وقُدِّرَتِ المتعةُ في الاختيارِ بالقدرِ الذي كانَ يمتِّعُها بالإمساكِ؛ إذ لابدَّ مِنْ كسوتِها ليَعلَمَ أنْ ليسَ للفرارِ[3] عنْ ذلكَ يطلِّقُ أو بما بهِ يُخرجُها مِنْ منزلِهِ، فأُمِرَ أنْ يمتِّعَها بما بهِ التي تخرجُ مِنَ المنازلِ، وأقلُّ ذلكَ ثلاثةُ أثوابٍ، واللهُ أعلمُ.

وفي هذه الآياتِ[4] دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الشيءَ التافهَ لا يُحتمَلُ أنْ يكونَ مهراً لِما أوجبَ عندَ العدمِ في مالا تسميةَ فيهِ الشيءَ الخطيرَ، وهو الذي يُمتِّعُها، وأقلُّ ما تُمَتَّعُ هي لَهُ فيهِ ثلاثةُ أثوابٍ. وفي ما سُمِّيَ أمرٌ عندَ ذلكَ [بالعفوِ؛ وجُبَّةٌ][5] لا يُحثُّ على العفوِ عنها، ولا يُرغَبُ بينَ الزوجَينِ إلى [الفضلِ بمِثْلِهِ][6]، دلَّ أنَّ لذلكَ حدّاً قد يجري بمثلِهِ التنازعُ، فيرغَبونَ في إبقاءِ ذلكَ واختيارِ ما بهِ التألُّفُ، على أنَّ ذلكَ للهِ، جلَّ ثناؤُهُ، وقد جعلَ إبقاءَ النكاحِ بالأموالِ، وبها أحلَّ.

وقالَ في ذي العذرِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ﴾ الآية [النساء: ٢٥] ولو كانَ[7] بجُبَّةٍ طولِ عشرةٍ[8] لكانَ لا أحدَ يعجزُ عنها، فَيُشْتَرطُ ذلكَ في تزويجِ المملوكةِ وبخاصةٍ على قولِ مَنْ لا يبيحُ إلّا بالضرورةِ؛ فَمَنْ رأى يُضطرُّ إلى جُبَّةٍ يتوقُ إلى الاستمتاعِ فضلاً أنْ يتخيَّرَ، ثم على ذلكَ قالَ في الإماءِ: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٢٥]، والجُبَّةُ معروفٌ أنها أنكرُ مِنَ المنكرِ، فثبتَ أنَّ مهرَ الحرائرِ يرجعُ بيِّناً[9]، ويظهرُ في أهلِ الحاجةِ، وأنَّ القولَ بجعلِ الجُبَّةِ مهراً تامًّا، وَوَصْفَ مُلْكِها بمُلْكِ الطَّولِ [قولٌ مهجورٌ][10] لا معنى لهُ. وبعدُ فإنَّ الناسَ قد أجمعُوا على أنها لا تملكُ المعروفَ ببعضِها، والبذلُ للزوجِ بلا بدلٍ يلزمُهُ، فصار كمتولِّي العقدِ على ما ليسَ لها، وحظُّ القليلِ في مثلِهِ والكثيرِ في المنعِ واحدٌ، فقياسُ[11] ذلكَ ألّا يكونَ الحظُّ مِنْ مهرِ مِثلِها، والجبَّةُ لا تكونُ مهرَ مِثْلِ أخبثِ امرأةٍ في العالمِ، فلا يجيءُ أنْ يجوزَ الحطُّ، ولكنْ أجيزَتِ[12] العشرةُ بالاتّفاقِ، ولم يَجُزِ[13] الأكثرُ للتنازعِ، وقد بيَّنّا الفسادَ مِنْ طريقِ التبذيرِ[14] واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ قيلَ: النساءُ[15]، [وقولُهُ][16]: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ اختلَفَ أهلُ التأويلِ فيهِ؛ قالَ عليٌّ وابنُ عباسٍ رضي الله عنهم [وهو الزوجُ][17]، وقالَ قومٌ: وهو الوليُّ؛ وأمكنَ أنْ يكونَ [القولُ بأنهُ] الوليُّ لِما أنَّ المهورَ في الابتداءِ كانَتْ/ ٤٣ ـ ب/ للأولياءِ؛ دليلُ ذلكَ قولُ شعيبٍ لموسى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧]، [شَرَطَ][18] المهرَ لنفسِهِ، وكما رُوِيَ في (الشفاءِ)[19] ثم نسِخَ مِنْ بعدُ، وصارَ ذلكَ للنساءِ بقولِهِ [﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٢٩] وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤] وقولِهِ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾][20] [النساء: ٢٠]، ولأنهُمْ أجمعُوا على ألّا يجوزَ لأحدِ العفوُ[21] في مُلْكِ الآخرِ إلّا بإذنِهِ. فعلى ذلكَ لمّا ثبتَ أنَّ المهرَ لها لا يجوزُ [للوليِّ العفوُ][22] فيهِ.

وقولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يعني المرأةَ تتركُ النصفَ وَلا تأخذُ منهُ شيئاً، [وقولُهُ][23]: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ يعني الزوجَ؛ يجعلُ لها كلَّ الصداقِ؛ يقولُ: كانَتْ في حَبالَتي، ومَنَعْتُها مِنَ الأزواجِ، وتُترَكُ المرأةُ، لها النصفُ، فتقولُ: لم ينظرْ إلى عورتي، ولا تمتَّعَ بي، وهو على الإفضالِ. وعلى ذلكَ يخرجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

---

(١) في الأصل وم: العقدة، في ط ع: العدة. (٢) في ط ع: تخفيفها. (٣) في ط ع وم: الفرار، في الأصل: للفراق. (٤) في م: الآية. (٥) في ط ع: وجبة، في م: بالعفو وجب. (٦) في النسخ الثلاث: الفضل ممثلة. (٧) من م، في الأصل وط ع: كانت. (٨) من م، في الأصل: عرة، في ط ع: حرة. (٩) في النسخ الثلاث: بين. (١٠) في النسخ الثلاث: قولاً مهجوراً. (١١) في النسخ الثلاث: فقاس. (١٢) في الأصل وم: أجيز، في ط ع: يجوز. (١٣) في النسخ الثلاث: يجوز. (١٤) في النسخ الثلاث: التدبير. (١٥) في النسخ الثلاث: المرأة. (١٦) من ط ع. (١٧) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٨) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٩) لعله كتاب (شفاء الصدور في تفسير القرآن الكريم) لمصنفه أبي بكر محمد بن الحسن المعروف بالنقّاش الموصلي المتوفى/ ٣٥١هـ. (٢٠) من ط ع، في الأصل وم: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]. (٢١) في النسخ الثلاث: المعروف. (٢٢) في الأصل وم: للمولى المعروف، في ط ع: للولي المعروف. (٢٣) من ط ع.

أي لا تنسَوُا الفضلَ الذي في ابْتِداءِ الأمرِ؛ لأنَّ أمرَ النكاحِ في الاِبْتِداءِ مبنيٌّ على التَّشَفُّعِ والإفضالِ، فرغَّبَهُما ﷻ على ختمِ ذلكَ على الإفضالِ على [ما][١] بُنِيَ عليهِ.

وفيه دلالةٌ على أنَّ العفوَ هو الفضلُ في اللغةِ، وهو البذلُ؛ تقولُ العربُ: عفَوتُ لكَ: أي بذلْتُهُ؛ فإنْ كانَ العفوُ هو البذلَ، فكانَ قولُهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ تركَ لهُ، وبُذِلَ ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]: يكون فيهِ دليلٌ[٢] لقولِ أصحابِنا في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ معناهُ، واللهُ أعلمُ: حقٌّ على المُتَّقِي أنْ يرغبَ فيهِ، وكذا قولُهُ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] أنْ يرغبَ فيهِ. ثم لإضافةِ ذلكَ إلى الرجالِ وجهانِ:

أحدُهما: لِما أنهُمْ هُمُ الذينَ تركُوا حقَّهُمْ، ومِنْ عندِهم جاءَ هذا التقصيرُ.

والثاني: أنَّ في تسليمِ ذلك مِنَ الرجالِ الكمالَ، وهُمْ في الأصلِ مَوصُوفُونَ بالكمالِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: قولُهُ[٣]: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يَحتمِلُ اشتِراكَ الزوجَينِ في ذلكَ لا معنَى الأخذِ بالعفوِ. والفضلُ أولَى لِمَنْ يريدُ اتِّقاءَ دناءةِ الأخلاقِ أو [المُفَضَّلُ أولَى][٤] مِمَّنْ أكرمَ باتِّقاءِ الخلافِ للهِ تعالى، ويَحتمِلُ الأزواجَ بما قد ضمنُوا الإمساكَ بالمعروفِ والتسريحَ بالإحسانِ، فهو أقربُ إلى وفاءِ ذلكَ واتِّقاءِ الخلافِ لهُ، على أنَّ سببَ الفراقِ جاءَ منهُ، فذلكَ أقربُ لِاتِّقاءِ الجفاءِ منهُمْ وأظهرُ للعذرِ لهُمْ في ما اختارُوا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ حرفُ وعيدٍ عما فيهِ التعدِّي ومُجاوَزةُ الحدِّ والخلافُ لأمرِهِ.

الآية ٢٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ والمُحافظةُ هو المُفاعلةُ، هو فعلٌ بين اثْنَينِ؛ فهو، واللهُ أعلمُ، أنهُ إذا حَفِظَها على وقتِها، ولم يَسْهُ عنها حفِظَتْهُ، وهو كما ذكرَ في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ: (إنَّ الصلاةَ تأمرُ بالمعروفِ وتَنْهى عنِ المنكرِ)؛ فعلى ذلكَ إذا حَفِظَها على أوقاتِها معَ أحكامِها وسننِها، ولم يُدخِلْ ما ليسَ فيها مِنَ الكلامِ والاِلْتِفاتِ وغيرِ ذلكَ ممّا نُهِيَ عنهُ حَفِظَتْهُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقولُهُ[٥]: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] مِنَ المفاعلةِ؛ فإذا بادرَ إليها بَدرَتْ إليهِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ [ﷻ][٦]: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [اختُلِفَ فيهِ][٧]، قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ[٨]: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أرادَ كلَّ الصلاةِ لا صلاةً دونَ صلاةٍ، وهوَ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الصلاةَ هي الوُسْطَى، هي مِنَ الدينِ، وهو على ما جاءَ: الإيمانُ كذا كذا؛ بصفةِ أعلاها كذا كذا، وأدناها كذا؛ فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ هي ﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾ مِنَ الدينِ، ليسَتْ بأعلاها ولا بأدناها، ولكنها الوسطى مِنَ الدينِ. وقالَ آخرونَ: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ هي صلاةُ العصرِ؛ وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «هي العصرُ» [الترمذي: ١٨١] وذُكِرَ في حرفِ حفصةَ ﵂ أيضاً أنها هي صلاةُ العصرِ. وقالَ قائلونَ: هي الفجرُ؛ ذهبوا في ذلكَ إلى أنَّ النهارَ يجمعُ الصلاتَينِ، والليلُ بطرفَيهِ[٩] كذلكَ؛ فالفجرُ أوسطُها، وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵁ أنهُ قالَ: (هي الفجرُ). وقالَ آخرونَ: هي الظهرُ؛ ذهبُوا في ذلكَ إلى أنها إنما تُقامُ وسَطَ النهارِ، فَسُمِّيَتْ بذلكَ، وكذلكَ رُوِيَ عَنِ ابنِ عمرَ ﵁ أنهُ قالَ: (هي صلاةُ الظهرِ).

ومنْ قالَ: هي العصرُ، ذهبَ في ذلكَ إلى ما رُوِيَ مِنَ الخبرِ وإلى أنَّ العصرَ هي الواسطةُ مِنْ صلاتَي النهارِ وصلاتَي الليلِ لأنَّ صلاتَينِ بالنهارِ قبلَها وصلاتَينِ بالليلِ بعدَها، فهي الوُسْطَى[١٠]. والقياسُ أنْ تكونَ هي المغربُ لأنَّ الظهرَ سُمِّيَتْ أولَى، والعصرَ تكونُ الثانيةَ، فالمغربُ هي الوُسْطَى[١١]، لكنْ لم يقولُوا بهِ، وفيهِ دلالةٌ أنَّ الصلاةَ وِتْرٌ؛ لأنَّ

---

(١) من ط ع وم. (٢) في النسخ الثلاث: دليلا. (٣) في الأصل وم: وقوله، في ط ع: في قوله. (٤) في النسخ الثلاث: أولى المفضل. (٥) من ط ع، في الأصل وم: و. (٦) من ط ع. (٧) في ط ع: اختلف أهل العلم في تأويله. (٨) ساقطة من ط ع. (٩) من ط ع وم، في الأصل: بطرفين. (١٠) في النسخ الثلاث: الواسطة. (١١) في ط ع وم: الواسطة، في الأصل: الواسط.

صلاتَين بالنهارِ قبلَها وصلاتَين بالليلِ بعدَها، فهي الوُسْطَى. لكنْ لم يقولُوا بهِ، وفيهِ دلالةٌ أنَّ الصلاةَ وِترٌ؛ لأنَّ الشفعَ مما لا [وَسَطَ لهُ](١). ثم جهةُ الخصوصيةِ أيُّها كانَتْ؛ فإنْ كانَتْ عصراً فهو ما ذُكِرَ أنَّ الكفرةَ حملُوا على أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ في صلاةِ العصرِ(٢) فلم يتهيأْ لَهُمْ إقامتُها، فقالُوا: احفظُوا عليهِمْ صلاةً هي أكرمُ عليهِمْ مِنْ أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ، فظهرَ بهذا أنَّ لها فضلاً(٣) وخصوصيةً مِنْ عندِ اللهِ ورسولِهِ، وما رُوِيَ في الخبرِ أيضاً مِنْ قولِهِ ﷺ: «مَنْ فاتَتْهُ العصرُ وُتِرَ أهلَهُ ومالَهُ» [مسلم ٦٢٦] فإنْ كانَتْ فجراً فلأنَّ الكتابَ ذكرَها بقولِهِ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، ولِما قيلَ: إنَّ مَلائِكَ(٤) الليلِ والنهارِ يَشهَدُونها، فذُكِرَتْ لها الخصوصيةُ والفضلُ. ومَنْ قالَ: إنها ظهرٌ ذهبَ إلى أنَّ خصوصيَّتَها وفضيلَتَها ما جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يصلِّي قبلَ الظهرِ أربعاً إذا نزلَتِ(٥) الشمسُ، وقالَ: «إنَّ أبوابَ السماءِ تُفتَحُ في ذلكَ الوقتِ» [بنحوه ابن ماجه ١١٥٧].

قالَ الشيخُ، رحمَه اللهُ تعالى: في قولِه: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ نُكَلِّمُ فيه بوجهَين:

أحدُهما: أنَّ الصلاةَ هي الوسطى مِنْ أمرِ الدينِ، فهي على أنَّ الأرفعَ مِنْ أمرِ الدينِ هو التوحيدُ والإيمانُ، وذلكَ هو الذي لا يرتفعُ بعذرٍ، ولا يسقُطُ بسقوطِ المحنةِ إذْ ذلكَ في الدارينِ جميعاً، وهو الإخلاصُ، ونفيُ جميعِ معاني الخَلْقِ بِهِ عمَّنْ يوحِّدُهُ، ويؤمنُ بهِ، وسائرُ العباداتِ قد تُقَدَّمُ معَ وجودِ أمورِ الدنيا والدينِ والمعاشِ معها، وفي حالِها بالذي بهِ قِوامُها، والتوحيدُ لا. ثم الصلاةُ ممّا بها تركُ جميعِ ما ذكرْتُ في حالِ فعلِها، فهي تشبهُ الإيمانَ مِنْ هذا الوجهِ، ثم تسقطُ للأعداءِ، ولا تجبُ في غيرِ دارِ المحنةِ على ما عليه أمرُ غيرِها مِنَ العباداتِ. فصارَتْ بذلكَ الوُسْطَى مِنْ أمرِ الدينِ، وهو الموفقُ.

والثاني: أنْ تكونَ هي صلاةً مِنْ جملتِها، فتُذكَرُ بحرفِ التخصيصِ لها مِنَ الجملةِ لوجهَين:

أحدُهما: لبيانِ جملةِ الفرائضِ أنها وِترٌ، لا شَفْعٌ(٦) إذ لا وُسْطَى للشفعِ، فيكونُ في ذلكَ بطلانُ قولِ قومٍ أنكرُوا العددَ لها، [وقولِ قومٍ](٧) زعموا أنها صلاتانِ في الجملةِ، واللهُ أعلمُ.

[والثاني](٨): أنْ يُرادَ بذلكَ التفضيلِ [الصلاةَ مِنَ الصلواتِ](٩) في الحثِّ على فعلِها والترغيبِ في [المحافظةِ عليها](١٠)، ويجيءُ أنْ تكونَ تلكَ معروفةً(١١) عندَ الذينَ خوطِبُوا إمَّا بالإسْمِ وإمّا بالحالِ مِنَ النوازلِ، لأنهُ لا يُحتَمَلُ أنْ يُرغَبَ في فعلٍ لا تُعلَمُ حقيقةُ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

ثم يكونُ لِاختِلافِ(١٢) مَنْ لم يشهدِ النوازلَ التي عَرَّفَتِ المرادَ، فقالَ: كلٌّ مُبلِغٌ جهدَهُ في ما أدَّى إليه رأيُهُ مِنَ الترغيبِ في الفعلِ: أنهُ على ذلكَ، لكنهُمُ اختلفُوا:

فمنهمْ مَنِ اعتبرَ بالركعاتِ، فقالَ: أكثرُها أربعٌ، وأقلُّها ركعتانِ، والوسطُ منها ثلاثٌ، فصرفَ التأويلَ إلى المغربِ، واستَدلَّ في الترغيبِ في تعجيلِها والمبادرةِ في فعلِها حتى لم يُؤذَنْ بالإشْتِغالِ عنها عندَ هجومِ وقتِها لنافلةٍ وللحاجةِ، وذلكَ بعضُ ما يُعرَفُ مِنْ معنى المحافظةِ، وهي أنَّ الصلواتِ جُعِلْنَ مُتَّصِلاتِ الأوقاتِ/ ٤٤ ـ أ/، وهي الوُسْطَى منهُنَّ، والله أعلمُ.

وقومٌ رَدُّوا إلى صلاةِ الفجرِ بما في ذلكَ مِنَ الترغيبِ والتخصيصِ بالأمرِ كقولِهِ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ [إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾](١٣) [الإسراء: ٧٨]، وما أخبرَ مِنْ شهودِ ملائكةِ الليلِ والنهارِ، ولأنَّ وقتَها الوَسَطُ مِنْ أحوالِ الخَلْقِ؛ إذ أحوالُهُم تكونُ سُكوناً مرةً وانْتِشاراً ثانياً، وبذلك ختمُ أوقاتِ السكونِ وانْفِتاحُ الإنْتِشارِ، وَوَسَطُ الشيءِ هو الذي فيه حظُّ المواشي(١٤)، وقد وُجِدَ ذلكَ في وقتِ هذه الصلاةِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: وسطى. (٢) من ط ع، في الأصل وم: الظهر. (٣) في النسخ الثلاث: فضل. (٤) في النسخ الثلاث: ملكي. (٥) في ط ع وم: زالت. (٦) في النسخ الثلاث: الشفع. (٧) في النسخ الثلاث: وقوم. (٨) من ط ع. (٩) في الأصل وم: الصلاة من الصلاة، في ط ع: للصلاة من الصلوات. (١٠) في النسخ الثلاث: محافظتها. (١١) من ط ع وم، في الأصل: معرفة. (١٢) من ط ع و م، في الأصل: الاختلاف. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: الآية. (١٤) في النسخ الثلاث: الحواشي.

ومنهُمْ مَنْ صرفَ إلى العصرِ بما جاءَ في ذلكَ مِنَ الترغيبِ ومِنَ الوعيدِ في تركِ ذلكَ، وبها ختمُ أحوالِ الزلاتِ التي تدخلُ في المكاسبِ، فتكونُ بها التوبةُ عنها والاستغفارُ[1]، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ﴾ على مخاطبةِ الجملةِ على الاشتراكِ؛ إذِ المفاعلةُ اسْمُ ذلكَ على تَضمُّنِ الترغيبِ في الجماعاتِ أو على لزومِ كثرةِ الصلاةِ أو على ما خرجَ الأمرُ بالمُسارَعَةِ[2] إلى الخيراتِ والمُسابَقةِ لها، وكلٌّ في ذلكَ، واللهُ أعلمُ، على أنَّ [الظُهرَ سُمِّيَتْ أُولَى][3]، فعلى ذلكَ تكونُ المغربُ الوُسْطَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾؛ قيلَ: خاشِعِينَ خاضِعِينَ فيها، لا يدخلُ فيها ما ليسَ منها. وعلى ذلكَ رُوِيَ عَنْ زيدِ بنِ أرقمَ أنه قالَ: كنّا نتكلّمُ في الصلاةِ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ فلمّا نزلَ قولُهُ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أُمِرْنا بالسكوتِ، ونُهينا عنِ الكلامِ، وعلى ذلكَ سُمِّيَ الدعاءُ قُنوتاً. وقالَ آخرونَ: ﴿قَٰنِتِينَ﴾ مُطيعِينَ؛ وذلكَ ما قِيلَ: إنَّ أهلَ الأديانِ يقومُونَ في صلاتِهِمْ خاضِعِينَ ساهِينَ، فأُمِرَ أهلُ الإسلامِ أنْ يَقُومُوا مُطيعِينَ.

والقنوتُ هو القيامُ على ما رُوِيَ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ][4] أنهُ سئلَ عنْ أفضلِ الصلواتِ، فقالَ: «طولُ القنوتِ» [مسلم٧٥٦/ ١٦٥] وأصلُ القنوتِ ما ذكَرْنا، هو القيامُ، غيرُ الذي يقومُ لآخرَ، يقومُ على الخضوعِ والخشوعِ والسكوتِ. وليسَ في الآيةِ أنهُ أمرٌ بذلكَ في الصلاةِ، غيرَ أنَّ أهلَ التأويلِ صرفُوا [إليها ذلكَ][5]، لأنها ذُكرَتْ على إثرِ ذِكرِ الصلاةِ.

الآية ٢٣٩ وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ ليس فيه أنَّ ذلكَ في الصلاةِ، لكنهُمْ صرفُوا إليها ذلكَ، لأنهُ ذُكِرَ على إثرِ ذِكرِ الصلاةِ. ثم اختُلِفَ فيهِ: قالُوا: رُكباناً على الدوابِّ حيثُ ما توجَّهَتْ بِهِمُ الدوابُّ يُصلُّونَ عليها في حالِ السيرِ والوقوفِ. وعلى ذلكَ جاءَتِ الآثارُ مِنْ فعلِ رسولِ اللهِ ﷺ وفعلِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، في النوافلِ، فتكونُ الفرائضُ عندَ العذرِ بِهِ مرادةً بالآيةِ، [بل][6] على ما ظهرَ فعلُ النوافلِ في غيرِهِ بالسُّنَّةِ.

وأمّا قولُه: ﴿فَرِجَالًا﴾ فمِمّا اختُلِفَ فيهِ؛ قولُهُمْ[7]: ما يكونُ ﴿فَرِجَالًا﴾ فَمُشاةً، وهو مِنَ الرَّجْلِ، وتَرَجَّلَ مَشَى راجلاً.

وأمّا عندَنا فهو على المعروفِ مِنَ الصلاةِ على الأرجلِ والأقدامِ قِياماً وقُعوداً، لا يُزالُ عنِ الظاهرِ والمعروفِ الذي عُرِفَ الفعلُ بِهِ على ما عُرِفَ مِنَ الصلاةِ على الأرجلِ. وقولُهُ: ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على ما عُرِفَ مِنَ الركوبِ، وهو في حالِ السيرِ؛ ولم نَرَ الصلاةَ تقومُ مع المشيِ فيها. فإنْ قيلَ: صلاةُ الخوفِ فيها مشيٌ، فقامَتْ. قِيلَ إنَّ المشيَ في فِعلِ الصلاةِ لأنهُمْ في الوقتِ الذي يمشُونَ لا يفعَلونَ فِعلَ الصلاةِ، وهو كما يقولُ: إنَّ الصلاةَ لا تقومُ معَ الحدثِ. فإنْ أحدَثَ فيها، فذهبَ ليتوضَّأَ، ليسَ هو في وقتِ الحدثِ مصلّياً[8]، وإنْ بقيَ[9] في حكمِ الصلاةِ. فعلى ذلكَ المشيُ[10] في صلاةٍ، ليسَ هو في فِعلِ الصلاةِ، وإنْ كانَ باقياً على حكمِ الصلاةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾: [يحتمِلُ أنْ يُصرفَ قولُهُ][11]: ﴿فَٱذْكُرُواْ﴾ إلى الصلاةِ؛ أي صَلُّوا كما عَلَّمْكُمْ أنْ تُصلُّوا في حالِ الأمرِ، ويَحتمِلُ أنْ يُصْرَفَ إلى غيرِهِ مِنَ الأذكارِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويَحتمِلُ أنْ يُصْرَفَ إلى الشكرِ؛ أي اذكُرُوا نعمتي التي أنعمْتُ عليكُمْ، واشكُرُوها بي كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وقولِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ٢] و﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] دليلٌ أنَّ اللهَ صنعَ فِعلَ[12] العبادِ حينَ أضافَ التعليمَ إلى نفسِهِ، وهو أنْ خَلَقَ فِعلَ التعليم منهُ؛ إذ لو لم يكنْ منهُ صنعٌ لَكانَ أضافَ[13] ذلكَ [إلى][14] المعلِّمِ دونَ البيانِ، فدلَّتْ[15] إضافتُهُ إليهِ على أنَّ لهُ فيه فِعلاً[16]، نعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ والزَّيغِ عَنِ الهُدى.

(١) من م، في الأصل وط ع: والاستغفار منها. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وسارعوا...﴾ [آل عمران: ١٣٣]، من ط ع، في الأصل وم: بالمنازعة. (٣) من ط ع، في الأصل: سميت الظهر، في م: سميت الظهر أولى. (٤) من ط ع. (٥) في النسخ الثلاث: إلى ذلك. (٦) من ط ع. (٧) في النسخ الثلاث: قال. (٨) في النسخ الثلاث: مصلى. (٩) في النسخ الثلاث: أبقى. (١٠) من ط ع وم، في الأصل: المسمى. (١١) من ط ع، في الأصل و م: وقوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ﴾ يحتمل أن يصرف. (١٢) في النسخ الثلاث: في فعل. (١٣) في النسخ الثلاث: أضيف. (١٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٥) في النسخ الثلاث: فدل. (١٦) في النسخ الثلاث: فعل.

قالَ الشيخُ، رحمَه اللهُ تعالى: في قولِهِ ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾: مِنَ الصلاةِ في حالِ الأمنِ؛ إذْ معلومٌ تقدُّمُ الأمرِ بالصلاةِ وتعليمُ حدودِها ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٨] في الرخصةِ في التخفيفِ بحالِ العُذْرِ، ويَحتمِلُ ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بشكرٍ إذْ[1] آمنكُمْ كما عَلَّمَكُمْ مِنَ الشكرِ لهُ في النعمِ، وأيُّ ذلكَ كانَ فهوَ الذي علَّمَهُمْ[2] بعدَ أنْ كانُوا [غيرَ عالِمينَ][3]، واللهُ أعلمُ.

ودَلَّتْ[4] إضافةُ التعليمِ في [هذهِ الآيةِ][5]، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] وقولِهِ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩] [إليه على وجودِ][6] الأسبابِ مِنَ اللهِ تعالى في[7] الأمرَينِ على أنْ كانَ مِنَ اللهِ تعالى في أحدِ الأمرَينِ ماليسَ منهُ في الآخرِ، ومعنى الأسبابِ فيهما واحدٌ، ثبتَ أنهُ على خَلْقِ فِعْلِ التعليمِ ونفيِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ [فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾][8] قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[9] أنها تُخرَّجُ على وجهَينِ: على النسخِ بقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ويَحتمِلُ على نسخِ الوصيَّةِ خاصَّةً دونَ نسخِ العِدَّةِ، وأنَّ الأمرَ بالاعتِدادِ في الآيتَينِ أمرٌ واحدٌ أربعةُ أشهرٍ وعَشْرٌ، ونسخَ الوصيةِ بآيةِ الميراثِ وبقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «لا وَصيَّةَ لِوارِثٍ» [الترمذي ٢١٢١].

وفيه دلالةُ أنَّ لِلْمُوصَى [لها خِياراً][10] بينَ قُبولِ الوصيةِ وبينَ رَدِّها. وفيه أنَّ لها ألّا تَرُدَّها إذا قَبِلَتْ][11] بقولِهِ تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ [فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾][12] إذْ في الخروجِ ردُّها؛ وذلكَ بعدَ القبولِ.

وقولُهُ: [﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ][13] فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ [وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾][14] قد ذكَرْنا [في ما تقدَّمَ][15] أنها تَحتمِلُ وجهَينِ: تَحتمِلُ ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ مِنَ التَّشويفِ والتَّزيينِ، وكذلكَ رُوِيَ في حرفِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: (لا جُناحَ عليهِنَّ أنْ يَتَشَوَّفْنَ، ويَتَزَيَّنَّ، ويَلْتَمِسْنَ الأزواجَ) وتَحتمِلُ وضعَهُنَّ أنفُسَهُنَّ في كُفًى[16] بمهرِ المِثْلِ[17]، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تَحتمِلُ الآيةُ [وجوهاً:

أحدُها:][18] أنْ تكونَ في المطلَّقاتِ المدخولاتِ بهنَّ، وقد فرضَ لهنَّ أنْ يأمرَ الأزواجَ بالمتعةِ أدباً لا وجوباً على ما رُوِيَ عنِ الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنه أنه مَتَّعَ بعشرةِ آلافٍ على ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ وابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنهما قالا: [قال رسولُ اللهِ ﷺ][19] «إنْ كنتَ مِنَ المتَّقِينَ أوْ مِنَ المحسِنِينَ فَمَتِّعْها» [البيهقي في الكبرى ٧/ ٢٥٧]؛ فهو أمرُ أدبٍ لا أمرُ إيجابٍ، يُجْبَرُ على ذلكَ.

[والثاني: إنْ][20] كانَتْ في المطلَّقةِ التي لم يَدْخُلْ بها، ولا فَرَضَ [لها][21] صداقاً فهو على ما يقولُهُ، وهي واجبةٌ، يُجْبَرُ على ذلكَ. فتُخرَّجُ هذه الآيةُ والتي قبلَها قولُهُ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] على مُخرَجٍ واحدٍ، غيرَ أنَّ في إحداهما بيانَ قَدْرِ المتعةِ، وليسَ في الأخرى سوى ما ذكَرَ.

والثالثُ[22]: أنَّ الأمرَ بالمتعةِ أمرٌ بالإنفاقِ عليها والكسوةِ لها إذا دخلَ بها ما دامَتْ في العِدَّةِ أو على الاختيارِ على ما ذكَرْنا لا على الإيجابِ؛ إذ لو كانَ على الوجوبِ لكانَ في ذلكَ إيجابُ بَدَلَينِ: الصداقِ والمتعةِ، ولم يُعرَفْ عقدٌ مِنَ العقودِ أوجبَ بَدَلَينِ، فكذلكَ هذا، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: إنما. (٢) من ط ع و م، في الأصل: علمتم. (٣) من ط ع و م، في الأصل: عاملين. (٤) في النسخ الثلاث: ودل. (٥) من ط ع، في الأصل وم: هذا إليه. (٦) في ط ع: إليه على وجوده، في الأصل وم: على وجود. (٧) في ط ع: له في. (٨) من ط ع، في الأصل وم: الآية. (٩) في تفسير الآية [٢٣٤]. (١٠) في النسخ الثلاث: له خيارٌ. (١١) في الأصل وم: أن له أن يردها إذا قبل. في ط ع: أيضاً أنه له أن يردها إذا قبل. (١٢) من ط ع. (١٣) ساقطة من ط ع. (١٤) ساقطة من ط ع. (١٥) من ط ع، وكان ذلك في تفسير الآية (٢٣٤). (١٦) في ط ع: الأكفاء. الكفوُ والكُفَى كهُدَى: الكُفْؤُ، انظر اللسان. (١٧) في ط ع: مثلهن. (١٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٩) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢٠) في النسخ الثلاث: وإن. (٢١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢٢) في النسخ الثلاث: ويحتمل وجه آخر وهو.

والرابعُ[1]: أنَّ الطلاقَ سببُ إسقاطٍ لا سببُ إيجابٍ؛ فإذا كانَ كذلكَ لم يُجزْ أنْ يوجبَ السببَ الذي هو سببُ الإسقاطِ، لذلكَ لم يَجِبْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٤٢ وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾/ ٤٤ ـ ب/ ما سبقَ ذكرُهُ مِنَ الأحكامِ مِنَ الأمرِ بالاعْتِدادِ والإنفاقِ عليهِنَّ والتَّمتُّعِ وغيرِ ذلكَ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أمرَهُ ونهيَهُ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي كما يبيِّنُ في هذا بيَّنَ في جميعِ ما يُعْلَمُ لكُمْ إلى بيانِ ذلكِ حاجةٌ على قَدْرِ ما أرادَ مِنَ البيانِ [مِنْ بيانِ كفايةٍ أو مبالغةٍ لِيُعلِمَ أنَّ جميعَ ما إليهِ بالخَلْقِ حاجةٌ داخلٌ تحتَ البيانِ][2] يُوصلُ إلى ذلك بقَدْرِ ما تَحتَمِلُهُ العقولُ على ما يكرِّمُ اللهُ المجاهدِينَ فيهِ في طلبِ مرضاتِهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ٢٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حرفُ تعجيبٍ وتنبيهٍ لِيُتأمَّلَ في ما يُلقى إليهِ مِمّا أُريدَ الإنباءُ عنهُ أو في ما قد سبقَ الإنباءُ عنهُ ليتجدَّدَ بالنظرِ فيهِ عهداً. وعلى ذلك المعروفُ مِنِ اسْتِعمالِ هذه الكلمةِ، وكذلكَ وجهُ تأويلِهِ إلى الخبرِ مرةً وإلى العلمِ بهِ ثانياً وإلى النظرِ فيه ثالثاً على الاخْتِلافِ ما قيلَ، وفيه كلُّ ذلكَ، واللهُ [تعالى أعلمُ][3].

[وقولُهُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: قولُهُ][4]: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم[5] تُخبَرْ، [وألم تنظُرْ، ومِثْلُ][6] هذا إنما يُقالُ عنْ أعجوبةٍ، فالقصةُ فيهِ، واللهُ تعالى أعلمُ، جوابُ قولِهِ: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦] أخبرَهُمُ اللهُ ﷺ عنْ قصةِ هؤلاءِ أنَّ جهلَهُمْ بآجالِ أولئكَ حَمَلَهُمْ على [هذا القولِ مثلُ جهلِ بني إسرائيلَ حَمَلَهُمْ على][7] الخروجِ ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ ثم لم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، بل أُميتُوا، كذلكَ[8] هذا.

ثم اختُلِفَ في قصةِ هذا[9]؛ قالَ بعضُهُم: خرجُوا فراراً مِنَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فأماتَهُمُ اللهُ، ثم أحياهُمْ، وأمرَهُمْ أنْ يخرجُوا إلى الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وقالَ آخرونَ: وقعَ الطاعونُ في قريَتِهِمْ، فخرجَ أناسٌ، وبقيَ أناسٌ، فَمَنْ خرجَ أكثرُ ممَّنْ بقِيَ، فَنَجا الخارِجُونَ، وهلَكَ الباقونَ، فلما كانتِ الثانيةُ خرجُوا بأجمعِهِم إلّا قليلاً، فأماتَهُمُ اللهُ، ثم أحياهُمْ، فلا ندري كيف كانتِ القصةُ؟

فإنْ كانتِ القصةُ في الظُّهْرِ مِنَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فَلَهُ نظيرٌ في الآياتِ: قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقولُهُ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾[10] [الأحزاب: ١٦]، وقولُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، [وقولُهُ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾][11] [النساء: ٧٨]، ومثلُهُ كثيرٌ في القرآنِ.

وإنْ كانتِ [القصةُ][12] في الطاعونِ فقد جاءَ الخبرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «إن كنتُمْ في أرضٍ، وفيها وباءٌ، فلا تَخْرُجوا منها» [أحمد ١/ ١٩٢] وأنَّ الفرارَ أنجاهُمْ إنْ لم يكونُوا فيها، فدخلُوا، فأصابَهُمْ، فأماتَهُمُ اللهُ؛ يظُنُّونَ أنهم إذا لم يكونُوا فيها لم يصِبْهُمْ ذلكَ. في الوجهَينِ نسيانُ القضاءِ، وقد جاءَ أنْ «لا عَدْوَى ولا هامَّةَ» [البخاري: ٥٧٠٧].

فإنْ قيلَ «رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ كانَ إذا مرَّ على حائطٍ مائلٍ أسرَعَ المشيَ» [أحمد: ٢/ ٣٥٦] كيفَ نَهَى عنِ الخروجِ عنْ أرضٍ فيها وباءٌ وطاعونٌ؟ قيلَ: إنْ كانَ مخرَجُهُ مخرجَ آيةٍ، وفيها إهلاكُهُمْ، فذلكَ لا يكونُ إلّا بأمرٍ سبقَ منهُمْ، فحقُّ مثلِهِ الفرارُ إلى اللهِ لا إلى غيرِهِ، وأما انكسارُ الحائطِ فليسَ لأمرٍ سبقَ منهُ، فجائزٌ أنْ يأخذَ منهُ حذَرَهُ، هذا هو الفرقُ بينهُما، واللهُ تعالى أعلمُ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: ويجوزُ أنْ يكونَ فِعْلُهُ ﷺ لِيُعلَمَ أنَّ مثلَهُ مِنَ الخوفِ لا يُعَدُّ نُقصاناً في الدينِ؛ وذلكَ كالعِدَّةِ تُتَّخَذُ للحربِ والأغذيةِ للبدنِ، لا على ظَنٍّ باللهِ أنهُ لا يملكُ الحياةَ دونَها أو قهرَ العدوِّ، ولكنْ على التأهُّبِ والائْتِمارِ، إذْ قد جعلَ الذي[13] خِيفَ فيه والذي رُجِيَ، اللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: والثاني. (٢) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٣) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (٤) في ط ع: وقوله. (٥) من ط ع، في الأصل وم: أولم. (٦) من ط ع، في الأصل: ولم ينتظر مثل، في م، ولم تنظر مثل. (٧) من ط ع. (٨) من ط ع، في الأصل وم: كذا. (٩) في ط ع: هذه. (١٠) من ط ع، في الأصل وم: الآية. (١١) من ط ع. (١٢) من ط ع. (١٣) في الأصل: الذين.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حينَ أحياهُمْ بعدَما أماتَهُمْ، وذلكَ فضلٌ منهُ، وذو ﴿فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بكُلِّ نعمةٍ أنعمَها عليهِمْ ليستحِقَّ الشكرَ مِنَ الخَلْقِ بذلكَ.

هذهِ الآيةُ على المعتزلةِ إذْ قالُوا: ليسَ للهِ أنْ يفعلَ بخلْقِهِ إلّا الأصْلَحَ لهمْ في الدينِ، ولو فعلَ غيرَ ذلكَ كانَ جائراً، فإذا كانَ هذا عليه فأنّى[1] يكونُ الإفضالُ؟ وإنما يُقالُ: ذو فضلٍ، وذو مَنٍّ إذا أعطى ما ليسَ عليهِ، وأمّا مَنْ أعطى ما كانَ عليهِ لا يُقالُ: إنَّهُ تفضَّلَ، أو مَنَّ، كَمَنْ يقضي دَيناً عليهِ لآخرَ لا يستوجبُ الشُّكْرَ بذلكَ لأنَّهُ قضى ما عليه قضاؤُهُ، فكذلكَ اللهُ تعالى إذا أخبرَ أنَّهُ ذو فضلٍ وذو مَنٍّ لم يكنْ ذلكَ عليه، فاستوجبَ الشكرَ عل الخَلْقِ بذلكَ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم الكلامُ في أنَّ أولئكَ ماتُوا بآجالِهِمْ [أوْلا بآجالِهِمْ][2]: قالتِ المعتزلةُ: لم تكنْ آجالَهُمْ. ومِنْ قولِهِمْ: إنَّ لكلِّ أحدٍ أجلَينِ: إنْ قُتِلَ فأجلُهُ كذا، وإنْ ماتَ فكذا. قيلَ ذلكَ تأجيلُ مَنْ لا يعلَمُهُ أنهُ يُقتَلُ أو يموتُ، فإذا علمَ اللهُ أنهُ يموتُ لم يكتُبْ لهُ أجلَ القتْلِ، وكذلكَ ما رُوِيَ [في الخبرِ][3] «أنَّ صِلَةَ الرَّحِم تزيدُ في العمرِ» [ابن عساكر: ٥/ ٢١٠] إذْ[4] كانَ في علمِ اللهِ في الأزلِ أنْ يَصِلَ الرحمَ، فكتَبَ عمرَهُ أزيَدَ مِمَّنْ يعلَمُ في الأزلِ أنَّهُ يقطَعُ، ولا يَصِلُ، إذْ[5] لو حُمِلَ ذلكَ على ما يقولُونَ هُمْ لخرجَ فعلُهُ فعلَ مَنْ يجهلُ العواقبَ.

فإنْ قيلَ: [فَلِمَ يُلامُ][6] القاتلُ إذا قتلَ غيرَهُ بغيرِ حقٍّ؟ قيلَ لهُ: لأنَّهُ كتبَ أجلَ المقتولِ بقتلٍ[7] هو معصيةٌ بما علمَ اللهُ أنهُ يقضي[8] بهِ، وكتابُ الآجالِ هو بيانُ النهاياتِ والأعمارِ[9].

الآية ٢٤٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قد ذكَرْناهُ مُتضمَّناً في ما تقدَّم[10]][11].

الآية ٢٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ عاملَ اللهُ تعالى [عبادَهُ][12] بلطفِهِ وكرمِهِ معاملةَ مَنْ لا حَقَّ لهُ في أموالِهِمْ لا كمعاملةِ العبادِ بعضَهُمْ بعضاً، وإنْ كانَ العبيدُ وأموالُهُمْ كلُّهُمْ لهُ حينَ طلبَ منهمُ الإقراضَ كبعضِهِمْ مِنْ بعضٍ، ثم وعدَ لهمُ الثوابَ على ذلكَ، فقالَ: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ثم لمّا سمعَ اليهودُ ذلكَ قالُوا: إنَّ إلهَ محمدٍ فقيرٌ؛ وهو قولُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ومرَّةً قالُوا لمّا رأَوُا الشدةَ على بعضِ الناسِ[13]: إنما يفعلُ ذلكَ ببخلِهِ حينَ قالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ فرأَوُا المنعَ إمّا للبخلِ وإمّا للفقرِ، فأكْذَبَهُمُ اللهُ في قولِهِمْ ذلكَ، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ [وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قيلَ: ﴿يَقْبِضُ﴾ أي يقتِّرُ، ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾ أي يُوَسِّعُ][14]، وقيلَ: ﴿يَقْبِضُ﴾ ما أعطى أي يأخذُ ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾ ويتركُ ما أعطى، ولا يأخذُ منهُ شيئاً، وقيلَ: إنها نزلَتْ في أبي الدحداحِ؛ وذلكَ أنَّ النبيَّ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ تَصدَّقَ بصدقةٍ فلَهُ مِثْلُها في الجنةِ» [بنحوه أحمد: ٥/ ٣٩١] فقالَ أبو الدحداحِ: إنْ تَصَدَّقْتُ بحديقتي فلي مِثْلُها في الجنةِ؟ فقالَ: نعم، قالَ: وأُمُّ الدحداحِ معي؟ قالَ: نعم، قالَ: والصِّبْيَةُ معي؟ قالَ نعم، فرجعَ أبو الدحداحِ، فوجدَ أمَّ الدحداحِ والصِّبْيَةَ فيها، فقامَ على بابِ الحديقةِ، فنادَى: يا أُمَّ الدحداحِ إني جعلْتُ حديقتي هذهِ صدقةً، واشترطْتُ مَثِيلَتَها في الجنةِ وأمَّ الدحداحِ والصِّبْيَةَ فيها معي، قالَتْ: بارَكَ اللهُ في ما شَرَيتَ [وفي ما اشتَرَيتَ][15] أرْبَيْتَ، فخرجُوا منها، فتركُوا ما كانوا اجتنَوا منها، وسلَّمُوا الحديقةَ للنبيِّ ﷺ فنزلَ [قولُهُ][16] ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآيةَ.

[قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى: في قولِهِ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآيةَ][17] في توجيهِ الآيةِ إليهِ [وجهانِ][18]:

---

(١) من ط ع وم، في الأصل: بأن. (٢) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٣) من ط ع. (٤) من ط ع وم، في الأصل: إن. (٥) من ط ع وم، في الأصل: إن. (٦) من ط ع وم، في الأصل: فلا يلايم. (٧) من ط ع وم، في الأصل: يعقل. (٨) من م، في الأصل وط ع: يقتضي. (٩) من ط ع وم، في الأصل: الأعمال. (١٠) في تفسير الآية السابقة. (١١) من ط ع. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) أدرج بعدها في النسخ الثلاث: فقالوا. (١٤) من ط ع، في الأصل وم: ويوسع. (١٥) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٦) من ط ع. (١٧) من ط ع. (١٨) ساقطة من النسخ الثلاث.

فمنهُمْ مَنْ يوجِّهُها إلى جميعِ المحاسنِ: يُؤثِرُها، ويختارُها للهِ، فلهُ أضعافُ ذلكَ في الموعودِ آجلاً وعاجلاً؛ فالآجلُ ما وعدَ، والعاجلُ ثناءُ الناسِ وجلالةُ القدرِ لهُ في القلوبِ، مُتعارَفٌ ذلكَ للأخيارِ، وسَمَّاهُ قَرْضاً [لِوَجهَينِ:

الأولُ][1]: بما هو اسْمُ المعروفِ ليذكِّرَهُ عِظَمَ نعمهِ عليهِ أنَّ قِبَلَهُ قولَ المعروفِ بالشكرِ لهُ في ذلكَ، وإنْ كانَ ذلكَ حقًّا لهُ عليهِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: لِيعرفَ الخَلْقُ كيفيَّةَ الصحبةِ والمعاشرةِ بينَهُمْ: أنَّ اللهَ تعالى عاملَ عبدَهُ في ما هو لَهُ معاملةَ مَنْ يستحِقُّ الشكرَ منهُ بما يُسدِي إليهِ مَنَ النِّعَمِ، وللهِ حقيقةُ ذلكَ، ليعقِلَ الحكماءُ أنَّ مثلَ ذلكَ في [معاملةِ الإخوانِ][2] وفي ما كانَ، يَعُمُّهُ في الحقيقةِ أوجبُ وأحقُّ ليعظِّمُوا المعروفينَ بالمعروفِ بما أكرمَهُمُ اللهُ تعالى بالأسماءِ الجليلةِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

ومنهمْ مَنْ يوجِّهُها /٤٥ ـ أ/ إلى الصدقاتِ خاصةً؛ سَمَّاها قَرْضاً لِوُجوهٍ:

أحدُها: أنْ جعلَ معاملةَ الفقراءِ والتصدُّقَ عليهِمْ معاملةَ اللهِ تفضيلاً لهمْ على ما نسبَ مقارضةَ[3] المؤمنينَ إلى اللهِ تعظيماً لهمْ، فمثلُهُ الصدقةُ، ثم وعدَ فيهِ العِوَضَ لتصيرَ الصدقةُ بمعنى الإقراضِ؛ إذْ يرجِعُ في عِوَضِهِ، فيزولُ وجهُ الامْتِنانِ عنِ الفقيرِ بما يأخذُ منهُ البدلَ، وباللهِ التوفيقُ.

والثاني: سَمَّى ذلكَ قَرْضاً بما هو [لَهُ][4] على ما لم يزَلِ اللهُ تعالى، عَوَّدَ بهِ عبادَهُ بالذي عَرَفُوا بهِ كرمَهُ وجودَهُ حتى سَمَّى تسليمَ الذي لهُ في الحقيقةِ قَرْضاً كالتسليمِ إلى مَنْ لا حقَّ لهُ في الحقيقةِ. وعلى ذلكَ أمرُ الشراءِ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ [أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾][5] [التوبة: ١١١] واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: أنَّهُ ذكَّرَهُمْ وجهَ القصدِ في الصدقاتِ والموقعَ لها ليكونَ ذلكَ تَبْيِيناً لِعِظَمِ مِنَّةِ الفقرِ عليهِ؛ إذْ وصلَ [بهِ إلى اللهِ][6]؛ ذكرَهُ، وأجلَّ محلَّهُ عندَهُ، [فيصيرُ عندَهُ][7] أحدَ الأعوانِ لهُ والأنصارِ على عظيمِ الموعودِ وجليلِ القدرِ عندَ اللهِ، فيحمَدُهُ على ذلكَ، ويشكُرُ لهُ دونَ أنْ يمُنَّ عليهِ أو يُؤذِيَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ في هذِهِ الآيةِ والتي قبلَها قولُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ، عليهِ أفضلُ الصلواتِ وأكملُ التحياتِ، لأنَّ القصةَ فيهِمْ كانتْ ظاهرةً في أهلِ الكتابِ، ورسولُ اللهِ ﷺ لم يختلِفْ إلى أحدٍ منهُمْ، ولا نظرَ إلى كتبِهِمْ، ثم أخبرَ على ما كانَ، دلَّ أنَّهُ إنما عرَفَ ذلكَ باللهِ ﷻ.

ثم فيه دلالةُ أنَّ كُلَّ نبيٍّ منهُمْ كانَ إنما يشاوِرُ الأشرافَ مِنْ قومِهِ والرؤساءَ منهُمْ، وإليهِم يصرِفُ تدبيرَ الأمورِ لا[8] إلى السَّفَلَةِ والرَّذَلَةِ[9]، وفيه دلالةُ أيضاً أنَّ الأنبياءَ، صلواتُ اللهِ عليهِم وسلامُهُ، لم يكونُوا يتولَّونَ الجهادَ والقتالَ بأنفُسِهِمْ، ولكنَّ الملوكَ هُمُ الذينَ يتولَّونَ ذلكَ، ثم الملوكُ هُمُ الراجعونَ إلى تدبيرِ [الأنبياءِ][10] والرسلِ، عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ، في أمرِ الدينِ والآخرةِ حينَ سألُوا مَلِكاً يقاتِلونَ معهُ عدوَّهُمْ.

ذُكِرَ أنَّ كفارَ بني إسرائيلَ قَهَرُوا مؤمنِيهِمْ، فقتلُوهُمْ، وسَبَوهُمْ، وأخرجوهُمْ مِنْ ديارِهِمْ وأبناءَهُمْ، فمضَوا زماناً ليسَ لَهم مَلِكٌ يُقاتِلُ عدوَّهُمْ، فقالوا لنبيٍّ [لَهُمْ][11]، وهو مِنْ نَسْلِ هارونَ بنِ عمرانَ أخي موسى: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ﴾ عدوَّنا، فقالَ لَهُمْ نبيُّهُمْ: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ اسْتِخبارٌ عَنْ سؤالِهِمِ الذي سألُوا: أحقٌّ هوَ أمْ شيءٌ أجرَوهُ على ألسنَتِهِمْ مِنْ غيرِ تحقيقٍ؟ لئلا يَستوجِبُوا العذابَ بتركِهِمْ ذلكَ إذا أُجيبُوا، وأُعطُوا ما سألُوا، وتَمَنَّوا لِما عُرِفَ مِنْ شدةِ القتالِ معَ العدوِّ والجهادِ في سبيلِ اللهِ وكراهيةِ ذلكَ في كلِّ قومٍ إلى أن بيَّنُوا الصلةَ التي حملَتْهُمْ على ذلكَ وغايةَ رغبتِهِمْ فيها وممّا لأجلِهِ كانَ السؤالُ: أنْ ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ مِنَ القتلِ وأخذِ الأموالِ وسَبْيِ الذَّرارِيِّ.

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط ع وم، في الأصل: مقابلة الأحوال. (٣) في النسخ الثلاث: مخادعة. (٤) من ط ع. (٥) من ط ع.
(٦) من ط ع، في الأصل: بإلى، في م: بالله. (٧) من ط ع. (٨) في النسخ الثلاث: ولا. (٩) في النسخ الثلاث: والرذالة. (١٠) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١١) من ط ع.

[وقولُهُ][(١)] ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ أي فُرِضَ ﴿تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه دلالةٌ على أنهُ قد كانَ فيهم ما كانَ في هذِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] مِنْ كراهيةِ القتالِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ.

وقيلَ: ﴿تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وهمْ ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشرَ نفراً لَمْ يَتَوَلَّوا عما سألُوا. ثم قالَ لَهُمْ نبيُّهُم:

الآية ٢٤٧ [قولُهُ تعالى][(٢)]: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ قيلَ: سَمَّى طالوتاً لطولِهِ وقوتِهِ.

وقولُهُ: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ يتوجَّهُ مثلُ هذا الكلامِ وجهَيْنِ:

أحدُهما: على الإنكارِ، فلا يُحمَلُ على الإنكار لأنهُ كفرٌ.

والثاني: على الاسْتِرشادِ وطلبِ العلمِ لهمْ منهُ في ذلكَ عَنْ جهةِ جعلِهِ لهُ مَلِكاً لِما قد عرفُوا: لا يَستوجبُ الملكَ، ولا يُوَلَّى إلّا أحدُ رجلَينِ إمّا بالوراثةِ مِنَ الآباءِ أو بالسَّعةِ مِنَ المالِ، لذلكَ قالُوا: ﴿وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ لأنهمْ كانُوا أبناءَ الملوكِ وأربابَ الأموالِ.

ثمَّ بيَّنَ لهمْ ﷻ أنَّ جهةَ الاختيارِ ليسَتْ إليهمْ وأنَّ سببَ الملكِ ليسَ ما ذكرْناهُ[(٣)] دونَ غيرِهِ، بلِ اللهُ ﷻ يختارُ من يشاءُ لذلكَ بأسبابٍ سِوَى ما ذكَرُوا بفضلِ علمٍ وبفضلِ قوةٍ حينَ ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ قَرَّرَ عندَهُم أنَّ المُلْكَ يحتاجُ إلى فضلِ علمٍ وفضلِ قوةٍ. ثم يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ علمَ الحربِ والقتالِ، ويَحتمِلُ علمَ الأشياءِ الأُخَرِ على حفظِ الرعيةِ وغيرِهِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾؛ فهوَ، واللهُ أعلمُ، لأيِّ معنًى جعلَ لهُ المُلْكَ علينا؟ أو كيفَ يكونُ لهُ المُلْكُ علينا، ونحنُ بظاهرِ الأسبابِ التي تحقِّقُ المُلْكَ أمْلَكُ، فنكونُ بها أحقَّ بالمُلْكِ منهُ؟ فبيَّنَ أنَّ المعنى الذي لهُ صارَ أحقَّ بالمُلْكِ منهمْ[(٤)] في ذلك الأمرِ، واللهُ أعلمُ.

والحرْفُ [﴿أَنَّىٰ﴾][(٥)] وإنْ كانَ بما يُتعارَفُ في الإنكارِ، فليسَ هو كذلكَ، في الحقيقةِ؛ إذ قد أخبرَهُمْ مَنْ هوَ نبيٌّ عندَهُمْ، ومَنْ تقرَّرَ عندَهُ[(٦)] نُبُوَّةُ أحدٍ لا يحتملُ تكذيبَهُ إياهُ في هذا، واللهُ أعلمُ، ويَحتمِلُ كونَ أهلِ النفاقِ فيهِمْ، فيكونُ منهمُ الإنكارُ أيضاً كما كانَ أمثالُ ذلكَ في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ يؤيِّدُ سؤالَهُمُ الآيةُ حتى قالَ: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨] كذا، واللهُ تعالى أعلمُ، ويؤيِّدُ ذلك كثرةُ مخالفَتِهِمْ إيَّاهُ لَمّا امتُحِنُوا بالنَّهَرِ، واللهُ الموفقُ.

وفي هذا ونحوِ ذلكَ دلالةُ جوازِ الآياتِ لِغيرِ[(٧)] الرسلِ إذا كانَ فيها تصديقُ الرسلِ، فيكونُ في التحقيقِ كآياتٍ لهمْ ظَهرتْ على ألْسُنِ غيرِهِمْ أو أيديهِمْ ومَنْ أرادَ ادِّعاءَ الرسالةِ لنفسِهِ، فيعجزُ عنْ ذلكَ، بلْ لا يُكَرِّمُ اللهُ بها مَنْ يعلَمُ أنهُ يدعو إلى تصديقِ الكذبِ ومُضاهاةِ الرسلِ. وبهذا إيجابُ لِمَنْ يُعارِضُ بِمَنْ يتعَلَّمُ القرآنَ، ثم يأتي موضوعاً لا يُعرفُ، فيحتَجُّ بهِ في نُبُوَّتِهِ[(٨)]، مع ما في ذلك أوجهٌ تمنعُ الاحتجاجَ بهِ: مِنْ ذلكَ ما فيهِ مِنَ الأخبارِ ومِنَ الأسئلةِ والأنباءِ عنْ أمورٍ لا توجدُ هنالكَ، واللهُ أعلمُ، وبما لا يَعْلَمُ أوَّلَهُ أنهُ مَنْ تَعَلَّمَ تقدَّمَ منهُ إلى مَنْ هوَ حجةٌ أو عَنْ وَحْيٍ إليهِ، إذْ لم يكنِ امتُحِنَ مِنْ قَبْلُ، والحُجَّةُ ما يخرُجُ مِنَ المعتادِ وحملِ الطبيعةِ يُكَرَّمُ بها وقتَ الدعوةِ بلا سببٍ سبقَ منهُ في مثلِهِ ولا عنايةٍ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وبعدُ فإنَّهُ قد ظهرَ في جميعِ [مَنْ][(٩)] لسانُهُ ذلك اللسانُ مِمَّنْ لا يُطاقُ الدفعُ[(١٠)] لمثلِهِ، والإنكارُ[(١١)]، وانتشرَ أمرُ الآتي بهِ، فيظهرُ بذلك كذبُهُ، ويفتضحُ عندَ الدعوَى قِبَلَ المحنةِ والتأمُّلِ في ما جاءَ بهِ [إلّا أنْ يأتيَ بهِ][(١٢)] مَنْ ليسَ ذلكَ لسانُهُ ولا معنًى للاحتجاجِ بهِ في أمثالِهِمْ، واللهُ الموفقُ.

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) من ط ع. (٣) في ط ع وم: ذكر. (٤) من ط ع، في الأصل وم: منه. (٥) من ط ع. (٦) في النسخ الثلاث: عند. (٧) في ط ع: بغير. (٨) في ط ع: نبوته. (٩) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٠) من ط ع وم، في الأصل: الرفع. (١١) في النسخ الثلاث: ولا إنكار. (١٣) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ ﴿وَٰسِعٌ﴾ أي غنيٌّ يُغني مَنْ يشاءُ، ويعطيهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَنْ يصلُحُ لِلمُلْكِ.

الآية ٢٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ كأنهُمْ سألُوا نبيَّهُمْ: ما آيةُ ملكِهِ؟ [فقالَ ﴿نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾][١] أن ﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ التابوتَ يكونُ معَ الأنبياءِ إذا حَضَروا قتالاً قدَّمُوا التابوتَ مِنْ بينِ أيديهِمْ إلى العَدُوِّ، ويستنصِرونَ بهِ على عَدُوِّهِمْ، و﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ كأنها رأسُ هِرَّةٍ، فإذا أنَّ ذلكَ الرأسَ سَمِعَ التابوتُ أنينَ ذلكَ الرأسِ، ودفَّ[٢] نحوَ العدوِّ، وهمْ يمضُونَ مَعَهُ ما مَضَى، فإذا استقرَّ ثبتُوا خلفَهُ. فلما هربَتْ بنو إسرائيلَ، وعَصَوُا الأنبياءَ، وسلَّطَ اللهُ تعالى عليهِم عَدُوَّهُمْ، [وأَخذَ منهمْ][٣] التابوتَ [لَمّا سَئِمُوا، ومَلُّوا منه][٤]، ثم رَدَّ عليهِمْ بعدَ زمانٍ طويلٍ، وجعلَ ذلكَ آيةَ مُلْكِ طالوتَ، فلا ندري كيف كانتِ القصةُ؟

ثم اختُلِفَ في قوله /٤٥ ـ ب/ ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ قيل: ﴿سَكِينَةٌ﴾ ريحٌ هفَّافةٌ[٥]، فيها صورةٌ كوجهِ الإنسانِ، وقيل: السكينةُ لها وجهٌ كوجهِ الهرةِ، لها جناحانِ، فإذا صَوَّتَتْ عرَفُوا النصرةَ، وقيلَ: السكينةُ طِشْتٌ مِنْ ذهبٍ مِنَ الجنةِ [كانَ][٦] يُغْسَلُ فيه قلوبُ الأنبياءِ، وقيلَ: ﴿فِيهِ﴾ أي في التابوت ﴿سَكِينَةٌ﴾ أي طمأنينةٌ مِنْ ربِّكُمْ؛ [فإذا][٧] كانَ التابوتُ في أي مكانٍ[٨] اطمأنُّوا إليهِ، وسكنُوا. فلا ندري ما السكينةُ؟ سوى أنّا عرَفْنا أنَّ قلوبَهُمْ كانَتْ تسكُنُ إليهِ، وتطمئنُّ، فليسَ لنا إلى معرفةِ السكينةِ وكيفيَّتِها حاجةٌ.

وقولُهُ: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيلَ: البَقِيَّةُ فيهِ رُضاضُ الألواحِ، وهو كِسَرُها، وثيابُ موسى وثيابُ هارونَ، وقيلَ: عصا موسى وعصا هارونَ، وقيلَ: البَقِيَّةُ قَفِيزٌ مِنْ مَنٍّ، وهو التَّرَنْجَبِينُ الذي كانَ يأكلُهُ [بنو][٩] إسرائيلَ في أرضِ التيهِ، وقيلَ: فيهِ سُنَّةُ موسى وهارونَ وعِلْمُهما، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وفي الآيةِ دليلُ جَرْيِ الآيةِ على أيدي الأولياءِ كما أعطى الطالوتَ آيةً لملكِهِ، تُشبهُ آياتِ الأنبياءِ حينَ أخبرَ أنهُ كانَ ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إيّاهُ. لكنَّ تلكَ الآياتِ في الحاصلِ تكونُ للأنبياءِ يُجريها اللهُ تعالى على أيدي الأولياءِ لا[١٠] أنْ يكونَ للأولياءِ ذلكَ. ثمَّ مَنِ ادَّعى مِنَ الأولياءِ بتلكَ الآياتِ النبوَّةَ لنفسِهِ يُعجزُهُ اللهُ تعالى عَنْ ذلكَ، ويُخرِجُ الآيةَ مِنْ أنْ تصيرَ[١١] آيةً لهُ نحوَ مَنْ أتى مدينةً مِنَ المدائنِ التي لم يَبْلُغْ أهلَها هذا القرآنَ، ولا عرَفُوهُ، ولا سَمِعُوا ذلكَ مِنْ أحدٍ قطُّ، فجعلَ يقرأُ ذلكَ عليهِمْ عنْ ظَهْرِ قلبِهِ، وادَّعى بذلك رسالةً لنفسِهِ، أَيَسَعُ أهلُ ذلكَ البلدِ أنْ يُصدِّقُوهُ في ما ادَّعى أم لا؟ فإنَّ لأصحابِنا، رحمَهُمُ الله تعالى، جوابَيْنِ[١٢]:

أحدُهُما: أنَّ[١٣] في القرآنِ ما يُظهِرُ بهِ كَذِبَ هذا المدَّعي في دعوتِهِ مِنْ نحوِ قولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ [البقرة: ١٨٩ و٢١٥ و٢١٧ و٢١٩ و٢٢٠ و٢٢٢، المائدة: ٤، الأعراف: ١٨٧، الأنفال: ١، الإسراء: ٨٥، الكهف: ٨٣، طه: ١٠٥، النازعات: ٤٢] عَنْ كذا، ومِنْ نحوِ الأخبارِ والحكاياتِ والقصصِ التي فيها ممّا لا يُحتَمَلُ كونُها إلّا بتقدُّمِ أسبابٍ، فيكذِّبُهُ ذلكَ، فلمْ يلزمْهُمْ تصديقُهُ، وباللهِ العصمةُ.

والثاني: قالُوا: إذا ادَّعى ذلكَ بهِ يُعجِزُهُ اللهُ ﷻ عَنْ تِلاوَتِهِ وإجرائِهِ على لِسانِهِ وادّعاءِ ما ادَّعَى بذلكَ، وكانَ هذا أقربَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي مِنَ المدينةِ؛ قيلَ: همْ سبعُونَ ألفاً، وقيلَ: كانُوا مائةَ ألفٍ، سارَ بهِمْ في حَرٍّ شَديدٍ، فنزلُوا في قَفْرَةٍ مِنَ الأرضِ، فأصابَهُمْ عطشٌ شَديدٌ، فسألُوا طالوتَ الماءَ، فقالَ لهمْ طالوتُ: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [قيلَ: نَهَرٌ بينَ الأردنِّ وفلسطينَ، وقيلَ: هو نَهَرُ فلسطينَ][١٤] ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

---

(١) من ط ع. (٢) الواو ساقطة من النسخ الثلاث. دفَّ: تحرَّكَ. (٣) في النسخ الثلاث: وأخذوا منه. (٤) ساقطة من ط ع. (٥) هفّافة: سريعة المرور في هبوبها (٦) من ط ع. (٧) ساقطة من النسخ الثلاث. (٨) أدرج بعدها في النسخ الثلاث: كان. (٩) في الأصل وم: هذا، في ط ع: هذا بنو. (١٠) في النسخ الثلاث إلا. (١١) من ط ع وم، في الأصل: يقرأ. (١٢) في النسخ الثلاث: جوابان. (١٣) في النسخ الثلاث: بأن. (١٤) من ط ع.

فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي ليسَ معي على عدُوِّي، أي لا يخرجُ معي، ويجوزُ ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ مِنْ أتباعي وشِيعتي، وجائزٌ أنْ يكونَ بهِ ظهورُ النفاقِ والصِّدقِ ﴿مِنِّي﴾ في الدِّينِ، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ﴾ يقولُ: [﴿مِنِّيٓ﴾ أي][1] معي على عدوّي؛ فيه دليلُ أنْ يُسمّى الشرابُ باسْمِ الطعامِ والطعامُ باسْمِهِ، ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ اسْتَثْنى الغُرْفَةَ؛ كأنهُ قالَ: مَنْ شَرِبَ منهُ فليسَ مني إلا غُرْفَةً، ففيهِ جوازُ لِثُنْيا[2] الكلامِ المتقدِّمِ، وإنْ كان دخلَ مِنْ حرفِ الثُّنْيَةِ[3] وصرفِ الأوَّلِ بشيءٍ آخر، وهو يدلُّ لأصحابنا، رحمَهُمُ الله، حينَ قالُوا في مَنْ أقرَّ، فقالَ: لِفلانٍ عليَّ كُرُّ حنطةٍ وكُرُّ شعيرٍ إلا نصفَ كُرِّ حنطةٍ، إنه يصدقُ، ويلزمُهُ مِنَ الحنطةِ نصفُ كُرٍّ، ويجعلُ أنْ تكونَ الثُّنْيا[4] على ما يليهِ: قولُهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ وقيلَ: شربَ شرابَ الدَّوابِّ، والغُرْفَةُ هي شُرْبٌ.

وقولُهُ: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؛ قيلَ: القليلُ هُمْ ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلاً اغترفُوا غُرفَةً واحدةً بأيديهِمْ؛ وكانتِ الغُرْفَةُ يشربُ منها هو وخدَمُهُ ودَوَابُّهُ، وقيلَ: إنما اسْتَثْنَى الغُرْفَةَ باليدِ لئلا يكرَعُوا كَرْعَ[5] الدَّوابِّ، ففعلَ بعضُهُمْ ذلكَ، فردَّ طالوتُ العُصاةَ منهُمْ، فلمْ يَقطعُوا معهُ، وقطعَ معهُ ثلاثُ المئةِ والثلاثةَ عشرَ رجلاً، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [قيلَ: هو قولُ بعضِهِمْ لبعضٍ: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾][6] لأنهُمْ أكثرُ مِنّا، وكانَ مئةَ ألفٍ، وهو ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشرَ، واللهُ أعلمُ بذلكَ العددِ.

وقولُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا اللَّهِ﴾ قيلَ: الذين يعلَمُونَ، ويُقِرُّونَ بالبعثِ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ وقيلَ[7]: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يعني يخشَونَ أنهُمْ [يُقتلُونَ لأنهُمْ وَطَّنوا][8] أنفسَهُمْ على الموتِ، فطابَتْ أنفُسُهُمْ بالموتِ، [﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾، وقولُهُ: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾][9]: [قالَ بعضُهُمْ][10]: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بأمرِ اللهِ، لكنهُ لا تُحتمَلُ الغلبةُ بالأمرِ، ولكنْ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ عندنا بنصرِ اللهِ. [وقولُهُ][11]: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصرِ والمعونةِ لَهُمْ.

الآية ٢٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ يعني لقتالِهِمْ[12] ﴿قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يقولُ: أصبِبْ، ويُقالُ: أتْمِمْ ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ﴾. وهكذا الواجبُ على كُلِّ مَنْ لَقِيَ العَدُوَّ أنْ يَدْعُوَ بِمِثْلِ هذا.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا معنى لهذا الدعاءِ لأنهُ قد كانَ فعلَ الأصلحِ، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُمْ، وهزمَ عدوَّهُمْ.

الآية ٢٥١ وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾؛ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمرِ اللهِ، لكنهُ لا يُحتَملُ لأنهمْ كانُوا [لا][13] يقاتِلُون بالأمرِ، [ولا يهزمُونَ بالأمرِ][14]، وقالَ آخرونَ: [﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾][15] بعلمِ اللهِ، كانَ في علمِهِ في الأزلِ أنهُمْ يهزمُونَهُمْ[16]، وقيلَ: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بنصرِ اللهِ [وهو أقربُ، واللهُ أعلمُ][17].

وقيلَ في القصةِ: إنّ داوُدَ عليه السلام كان راعياً، وكانَ لهُ سبعةُ إخوةٍ، معَ طالوتَ خرجوا[18] للقتالِ، ولمّا أبْطَأ خبرُ إخوتِهِ على أبيهِمْ، ارسلَ داوُدَ إليهِمْ ينظُرُ ما أمرُهُمْ؟ ويأتيهِ بخبرِهِمْ، قالَ: فأتاهُمْ، وهُمْ في الصفوفِ، فبرزَ جالوتُ، فلم يخرجْ إليه أحدٌ، فقالَ: يا بني إسرائيلَ لو كُنْتُمْ على حقٍّ [لَخرَجَ بعضُكُمْ إليَّ][19]، فقالَ داوُدُ لإخوتِهِ: أما فيكُمْ أحدٌ يخرجُ إلى هذا الأقلَفِ؟ قال: فقالُوا: اسكُتْ، قالَ: فذهبَ داوُدُ [إلى طالوتَ، فقالَ: أيُها المَلِكُ إني أراكُمْ تُعَظِّمونَ شأنَ هذا العَدُوِّ][20]، ما تصنَعُونَ بِمَنْ يَقتُلُ هذا الأقلَفَ؟ قالَ طالوتُ: أنكحُهُ ابْنَتي، وأجعلُ لهُ نصفَ ملكي، فقالَ داوُدُ لِطالوتَ:

---

(١) من ط ع. (٢) من ط ع، في الأصل وم: لثناء. الثُّنْيا بالضم: كل ا ستثنيته. (٣) من ط ع، في الأصل وم: الثناء. (٤) من ط ع، في الأصل وم: الثناء. ثنى الشيء كَسَعَى ردّ بعضه على بعض. (٥) كرعه كَرْعاً وكُرُوعاً: تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيّه ولا بإناء. (٦) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٧) أُدرج قبلها في ط ع: أي عددهم. (٨) من ط ع وم، في الأصل: وطنوا. (٩) ساقطة من ط ع. (١٠) من ط ع. (١١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٢) أدرج بعدها في ط ع: وقوله. (١٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٤) من ط ع. (١٥) من ط ع. (١٦) من ط ع، في الأصل: ويهزمون. (١٧) من ط ع. (١٨) أُدرج بعدها في الأصل وم: معه. (١٩) من ط ع، في الأصل وم: لخروج إلى بعضكم. (٢٠) من ط ع.

فأنا أخرجُ إليهِ، [فلمّا قالَ داوُودَ: أنا أخرجُ إليهِ، قالَ له طالوتُ: مَنْ أنتَ؟ قالَ: أنا داوُودُ ابنُ فلانٍ، فعرفَهُ[1] طالوتُ، ورأى أنهُ أجلدُ إخوتِهِ، فأعطاهُ طالوتُ درعَهُ وسيفَهُ، قالَ: فلما خرجَ داوُودُ في الدرعِ جَرَّها في الأرضِ لأنَّ طالوتَ كانَ أطولَ منهُ، قالَ: فأخذَ][2] داوُودُ العصا، ثم خرجَ إلى جالوتَ، فمرَّ بثلاثةِ أحجارٍ، فقُلْنَ: يا داوُودُ خُذْنا معكَ. ففِينا ميتةُ جالوتَ، فأخذَها، ثمّ مضى نحوَهُ، وعلى جالوتَ بيضةٌ؛ هي ثلاثمئةِ رطلٍ، فقالَ لهُ جالوتُ: إمّا أنْ ترميَني، [وإمّا أنْ][3] أرميَكَ [فقالَ له داوودُ بل أنا أرميكَ][4] فرماهُ بها، فأصابَهُ في آخرِها، فوقَعَتْ في صدرِهِ، فنفذَتْهُ، وقتلَتْهُ[5]، وقتلَ الحجرُ بعدَما نفذَ أناساً[6] كثيرةً، وهزمَ اللهُ جنودَهُ، وهو قولُهُ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ والقصةُ طويلةٌ، فلا ندري كيف كانتْ؟ وليسَ لنا إلى معرفتِها حاجةٌ.

وقولُهُ: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فالمُلْكُ يَحتمِلُ علمَ الحربِ وسياسةَ القتالِ؛ إذْ لم يكونُوا يُقاتِلُونَ إلّا تحتَ أيدي الملوكِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٣٠] ويَحتمِلُ الملكُ بما عقدَ لهُ مِنَ الخِلافةِ كقولِهِ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]. وذَكَرَ ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الأمرَينِ [ما كانَ][7] مِنْ قُرْبِ زمانِهِ على ما عليهِ ابتِداءُ [الآيةِ][8] أنَّ المَلِكَ يكونُ غيرَ نبيٍّ، فجُمِعا جميعاً لهُ، فيكونُ على ذلكَ تأويلُ /٤٦ ـ أ/ الحكمةِ أنها النُّبُوَّةُ.

[وقولُهُ][9] ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قِيلَ: هي الفقهُ، وقيلَ: هي النُّبُوَّةُ، وقد تقدَّمَ ذِكرُهُ.

وقولُهُ: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾؛ قيلَ: صَنعةُ الدروعِ كقولِهِ: [﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]][10]، [وقولِهِ][11]: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبإ: ١٠]؛ وقيلَ: كلامُ الطيرِ وتسبيحُ الجبالِ [لِقولِهِ][12]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبإ: ١٠]؛ وذلكَ مما خصَّ بهِ داوُودَ دونَ غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﷺ ويَحتمِلُ: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أشياءَ أُخَرَ.

وقولُهُ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ اختُلِفَ فيهِ، قالَ بعضُهُمْ: دفعَ بالكفارِ بعضَهُمْ ببعضٍ شرَّهُمْ عنِ المسلمِينَ لمَا فتكَ[13] بعضُهُمْ ببعضٍ، وجعلَ بعضَهُمْ لبعضٍ أعداءً إلى أنْ لم يتفرَّغُوا عَنْ أنفُسِهِمْ للمسلمِينَ، وإلّا كانَ ذلكَ فسادَ الأرضِ، وقالَ آخرونَ: دفعَ بالرسلِ والأنبياءِ شرَّهُمْ عَنِ المسلمِينَ، وكفاهُمْ بهِمْ، وقالَ غيرُهُمْ: دفعَ بالمؤمنينَ بعضَهُمْ عَنْ بعضٍ: دفعَ بالمجاهدِينَ في سبيلِ اللهِ عَنِ القاعدِينَ عَنِ الجهادِ، وإلّا لغَلَبَ المشركُونَ على الأرضِ، وقيلَ: يدفعُ بالمُصَلِّي عمَّنْ لا يُصلِّي وبالمُزَكِّي عمَّنْ لا يُزَكِّي، وبالحاجِّ عمَّنْ لا يَحُجُّ، وبالصائمِ عمَّنْ لا يَصومُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ قيلَ: لو لم يدفعْ بعضَهُمْ لقتلَ بعضُهُمْ بعضاً وأهلُ فريقٍ فريقاً، وفي ذلكَ تَفانيهِمْ وفسادُهُمْ، وفي ذلكَ فسادُ الأرضِ، وقالَ آخرُونَ: لو لم يدفعْ ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وأرادَ بفسادِ الأرضِ فسادَ أهلِها لأنهُ لو لم يدفعْ لَغَلَبَ المشركُونَ على أراضي الإسلامِ وأهلِها؛ فإذا غُلِبُوا فَسَدَ أهلُها. وقالَ: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ إذا غلبَ المشركونَ عليها هُدِّمَتِ المساجدُ والصوامعُ؛ ففيهِ فسادُ الأرضِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدفعُ ذلك كُلَّهُ عَنِ المسلمِينَ. وعلى قولِ المعتزلةِ: [ليسَ][14] هو بذي فَضْلٍ على أحدٍ لأنَّ عليهِ أنْ يفعلَ ذلكَ، وأنْ يدفعَ ذلكَ كُلَّهُ عَنِ المسلمِينَ على قولِهِمْ؛ فإذا كانَ عليهِ ذلكَ لا يصيرُ هو بما يدفعُ مُفَضِّلاً ولا مُمْتَنًّا، فنعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ.

---

(١) في ط ع: فصرفه. (٢) من ط ع، في الأصل وم: قال فأعطاه طالوت درعه وسيفه، قال: فلما خرج في الدرع جرها في الأرض لأن طالوت كان أطول منه، قال: فلما قال داوود: أنا أخرج إليه وسيفه، قال: فلما قال له طالوت من أنت؟ قال: أنا داوود بن فلان فعرفه طالوت، ورأى أنه أجلد إخوته، قال: أخذ. (٣) من ط ع، في الأصل: أو أنا، في م: وأنا أن. (٤) من ط ع. (٥) من ط ع، في الأصل: فقلت، في م: فتله. (٦) في الأصل وم: أناساً، في ط ع: جنوداً. (٧) من ط ع. (٨) من ط ع. (٩) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٠) من ط ع. (١١) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٢) من ط ع. (١٣) في النسخ الثلاث: سفك. (١٤) من ط ع.

الآية ٢٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ يَحتملُ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ما ذكَرَهُ مِنْ قتلِ داوُدَ جالوتَ بالأحجارِ[1]، ذُكِرَ في القصةِ مَعَ ضَعْفِ داوُدَ وقوةِ جالوتَ على ما قيلَ: أنَّ قامتَهُ كانَتْ قَدْرَ مِيلٍ[2]، وأنَّ بيضتَهُ كانَتْ ثلاثَمئةِ رطلٍ. ويَحتمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ قيامِ القليلِ لِلكثيرِ لأنهُ قيلَ: إنَّ جنودَ جالوتَ مئةُ ألفٍ، وجنودَ طالوتَ ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشرَ؛ وذلكَ مِنَ الآياتِ. ويَحتمِلُ جميعَ ما قصَّ اللهُ عليهِ في القرآنِ مِنْ خبرِ الأمم السالفةِ، واللهُ أعلمُ. وفي قتلِ داوُدَ جالوتَ وقتلِ القليلِ الكثيرَ دليلٌ أنهُمْ لم يَقتُلوا لقوةٍ بأنفسِهِمْ، ولكنهُمْ باللهِ وبنصرِهِ إياهُمْ. قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: مِنْ آياتِ وحدانيّتِهِ قَتْلُ داوُدَ جالوتَ مَعَ ضَعْفِ داوُدَ وقوةِ عَدُوِّهِ.

الآية ٢٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآيةَ[3]؛ يَحتمِلُ تفضيلُ بعضِهِمْ على بعضٍ ما ذكرَ: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ ومنهُمْ مَنِ اتَّخذَهُ خليلاً[4]، ومنهُمْ مَنْ سُخِّرَتْ لهُ الريحُ والطيرُ[5]، ما كانَ في الأنبياءِ مِثْلُهُ.

ويَحتملُ ﴿بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الحِجاجِ والحُجَجِ على القومِ لأنَّ فيهِمْ مَنْ كانَ أكثرَ مُحاجَّةً لقومِهِ وأعظمَ حُججاً، وهو إبراهيمُ ﷺ وموسى. ويَحتمِلُ التفضيلُ التمكينَ في الأرضِ؛ مَكَّنَ لبعضِهِمْ ما لم يُمَكِّنْ للباقينَ. ويَحتمِلُ ذلكَ في الشفاعةِ ورفعِ الدرجاتِ. ويَحتمِلُ ﴿بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرسالةِ لأنَّ منهُمْ مَنْ أُرسِلَ إلى الإنسِ والجنِّ جميعاً، ومنهُمْ من أُرسِلَ إلى الإنسِ خاصةً، ومنهُمْ مَنْ أُرسِلَ إلى نَفَرٍ، واللهُ أعلمُ.

وقد ذكرْنا ألّا يكونَ مِنَ اللهِ تفضيلٌ لبعضِ الرسلِ [ردًّا][6] على قولِ المعتزلةِ: إنهُ[7] فَعَلَ ما عليه أنْ يفعلَ، وكلُّ مَنْ فَعَلَ ما عليهِ أنْ يفعلَ فإنَّهُ لا يُوصَفُ بالفَضْلِ والإفضالِ، دلَّ أنهُ ليسَ على ما يقولُونَ، ويذهبونَ إليهِ.

وقولُهُ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قد ذكَرْناهُ في ما تقدَّمَ[8].

وقولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ هذهِ الآيةُ والآيتانِ مِنْ بَعْدِها قولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ وقولُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ على المعتزلةِ لأنَّهُ أخبرَ أنهُ لو شاءَ ألّا يَقتتِلُوا ما اقْتتلُوا، وَهُمْ يقولُونَ: شاءَ اللهُ ألّا يَقتتِلُوا، ولكنِ اقْتتَلُوا، والاقْتِتالُ هو فعلُ اثْنينِ، وفيهِمْ مَنِ اقْتَتَلَ ظالماً؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ وقولُهُ[9]: [﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أخبرَ أنهُ لو شاءَ ألّا يقتتِلُوا، وأخبرَ أنهُ يفعلُ ما يريدُ. ثبتَ الفعلُ في الإرادةِ، ومنهُمْ [مَنْ يقولُ:][10] لا يُفْعَلُ ما يريدُ، وكذلكَ قولُهُ][11] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أخبرَ أنه لو شاءَ ما اختلَفُوا، وهم يقولُونَ: شاءَ ألّا يختلِفُوا، ولكنِ اختَلَفُوا.

ثم لا يجوزُ صرفُ الآيةِ إلى مشيئةِ القَسْرِ والجبرِ لأنَّ المشيئةَ التي ذكرَها اللهُ تعالى معروفةٌ في الناسِ، فلا يجوزُ صرفُها إلى غيرِ المشيئةِ المعروفةِ إلّا بعدَ تقدُّمِ ذِكرٍ أو بيانٍ: أنها هي المرادةُ.

وقولُهُ: ﴿مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ وقولُهُ[12] ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ جَعَلَهُمْ[13] على أمرٍ واحدٍ ودينٍ واحدٍ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] والمعتزلةُ يقولُونَ: شاءَ أنْ [يصيرُوا أمّةً واحدةً، ولكنْ لم يَصيرُوا][14]، فنعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ في اللهِ بما [لا][15] يليقُ بهِ.

الآية ٢٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ يَحتمِلُ الأمرُ بالإنفاقِ أمراً بتقديمِ الطاعاتِ والمُسارعةِ إلى الخيراتِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ [يَمنعُهُمْ، ويُعجِزُهُمْ][16] عَنْ ذلكَ، وهو الموتُ، ويَحتمِلُ أمرُهُ بالإنفاقِ مِنَ الأموالِ في طاعةِ اللهِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ وهو يومُ القيامةِ ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ قيلَ: لا فِداءٌ ولا شفاعةٌ، ويَحتمِلُ

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: بأحجار. (٢) الميل: قدر مدّ البصر. (٣) أُدرجَ في ط ع بدل هذه الكلمة تتمة الآية. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث (٧) في الأصل وم: لأنه، ساقطة من ط ع. (٨) في تفسير الآية [٨٧]. (٩) في النسخ الثلاث: ثم قال. (١٠) في الأصل وم: يقولون. (١١) ساقطة من ط ع. (١٢) في النسخ الثلاث: و. (١٣) في النسخ الثلاث: نجعلهم. (١٤) من ط ع، في الأصل: يصير أمة واحدة، في م: يصيروا أمة واحدة. (١٥) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٦) في النسخ الثلاث: يمنعه ويعجزه.

قولُهُ: ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي لا ينفعُ خليلٌ خليلَهُ كما ينفعُ في الدنيا، [وكذلكَ لا شفيعَ تنفعُ شفاعتُهُ كما تنفعُ في الدنيا][١]، ويَحتمِلُ ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي لا ينفعُ أحدٌ أحداً، ولا يَخالُّ أحدٌ أحداً، ولا يَشفعُ أحدٌ أحداً، ويَحتمِلُ: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أنهمْ يملِكُونَ بيعَ أنفُسِهِمْ مِنَ اللهِ تعالى ما دامُوا أحياءً، فإذا ماتُوا لم يملِكُوا كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم [بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾][٢]؛ فأوّلُ الآيةِ، وإنْ خرجَ الخطابُ للمؤمنينَ، فالوصفُ فيها وصفُ الكافرينَ، لكنَّ فيها زجراً[٣] للمؤمنينَ [عنْ صَنيعِ][٤] مثلِ صَنيعِ الكفارِ.

الآية ٢٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ قيلَ ﴿ٱللَّهُ﴾ هو اسمُ المعبودِ، وكذلكَ تُسمّي العربُ كُلَّ معبودٍ إلهاً، ومَعناهُ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الذي يستحِقُّ العبادة، ويَحقُّ أنْ يُعْبَدَ هو اللهُ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا الذي تعبدُونَهُ أنتمْ مِنَ الأوثانِ والأصنامِ التي لا تنفعُكُمْ عبادَتُكُم إياها، ولا يَضُرُّكم ترْكُكُمُ العبادةَ لها. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ على الإضمارِ: أنْ قُلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنهم كانُوا يُقِرُّونَ بالخالقِ، ويُقِرُّونَ بالإلهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] [وكقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾][٥] [لقمان: ٢٥ والزمر: ٣٨] وكقولِهِ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩] فإذا كانُوا يُقِرُّون به، فأخبِرْهُمْ أنَّ الذي تُقِرُّونَ به، [وتُسَمُّونَهُ، هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾][٦] ويَحتمِلُ أنْ يكونَ لقومٍ مِنْ أهلِ الإسلامِ عرفُوا اللهَ تعالى، وآمَنُوا بهِ، ولم يعرفُوا نعتَهُ وصفتَهُ أنهُ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إلى آخِرِهِ.

وقولُهُ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ قيلَ: هو ﴿ٱلْحَىُّ﴾ بذاتِهِ لا بحياةٍ هي [حياةُ غيرِهِ][٧]، كالخَلْقِ، همْ أحياءٌ بحياةٍ هي [حياةُ][٨] غيرِهِمْ، حَلَّتْ فيهم، لا بدَّ مِنَ الموتِ، واللهُ ﷻ، يتعالى عَنْ أنْ يَحِلَّ فيهِ الموتُ لأنهُ حَيٌّ بذاتِهِ، وجميعُ الخلائقِ أحياءٌ لا بذاتِهِمْ، تعالى اللهُ، ﷻ عمّا يقولُ [فيهِ][٩] الملحِدُونَ.

والأصلُ أنَّ كلَّ مَنْ وُصِفَ في الشاهدِ بالحياةِ وُصِفَ /٤٦ ـ ب/ بذلكَ للعظمةِ لهُ والجلالِ والرِّفعةِ، يُقالُ: فلانٌ حيٌّ، وكذلكَ الأرضُ سَمّاها اللهُ تعالى حيَّةً إذا اهتزَّتْ[١٠]، وأنبتَتْ لِرِفْعَتِها على أعينِ الخَلْقِ. فعلى ذلكَ اللهُ ﷻ حَيٌّ للعظمةِ، وكذلكَ، الأرضُ سَمّاها اللهُ تعالى حيَّةً للعظمةِ والرفعةِ ولكثرةِ ما تكونُ تُذكَرُ في المواطِنِ كُلِّها كما سَمّى الشهداءَ أحياءً[١١] لأنهُمْ مذكورُونَ في الملإِ مِنَ الخَلْقِ، ويَحتمِلُ أنهُ يُسمّى حَيًّا لِمَا لا يَغْفُلُ عَنْ شيءٍ، ولا يَسْهُو، ولا يذهَبُ عنهُ شيءٌ، ولا يعزُبُ عنهُ مِثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ[١٢]، وباللهِ العصمةُ. وقولُهُ: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ [القائمُ على مصالِحِ أعمالِ الخَلْقِ وأرزاقِهِمْ، وقيلَ: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾][١٣]. هو القَيّامُ على كلِ شيءٍ يحفظُهُ، ويتعاهدُهُ كما يُقالُ: فلانٌ قائمٌ على أمرِ فلانٍ؛ يعنُونَ أنهُ يتحفَّظُ أمورَهُ حتى لا يذهبَ عنهُ شيءٌ. وقيلَ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي لا يغفَلُ عنْ أحوالِ الخَلْقِ.

وقولُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾؛ [قيلَ: السِّنَةُ النُّعاسُ، و][١٤] وقيلَ: السِّنَةُ بينَ النومِ واليقظةِ، وسُمّيَ وَسنانَ، وقيلَ: السِّنَةُ هي ريحٌ تجيءُ قِبَلَ الرأسِ، فتَغْشَى العينَيْنِ، فهو وَسنانٌ بينَ النائمِ واليقظانِ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ على نَفْيِ الغفلةِ والسَّهْوِ عنهُ؛ إذ لو أخَذَهُ صارَ مَغلوباً مَقهوراً، فيزولُ عنهُ وصفُهُ: حَيٌّ، قَيُّومٌ كقولِهِ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبإ: ٣] على نَفْيِ الغفلةِ، ويَحتمِلُ أنهُ نَفَى عنْ نفسِهِ ذلكَ لأنَّ الخَلْقَ إنما ينامُونَ، ويتغَشَّونَ طلباً للراحةِ

---

(١) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٢) من ط ع، في الأصل وم: الآية. (٣) في النسخ الثلاث: زجر. (٤) ساقطة من ط ع. (٥) ساقطة من النسخ الثلاث، والصواب إثباتها. (٦) ساقطة من ط ع. (٧) في النسخ الثلاث: غير. (٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (٩) ساقطة من الأصل.
(١٠) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ﴾ [الحج: ٥] وقوله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩]. (١١) إشارة إلى قوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] وقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. (١٢) إشارة إلى قوله تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبإ: ٣]. (١٣) ساقطة من ط ع. (١٤) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

والمنفعةِ إمّا لدفعِ حُزنٍ أو وحشةٍ، فأخبرَ أنهُ ليسَ بالذي يحتاجُ إلى راحةٍ وإلى دفعِ حُزنٍ أو وحشةٍ، وقيلَ: لا يَفْتُرُ، ولا ينامُ.

قالَ الشيخُ، رحمه الله تعالى: النومُ والسِّنَةُ حالانِ تَدُلّانِ على غفلةِ مَنْ حَلّا بهِ، وعلى حاجتِهِ إلى ما فيهِ راحتُهُ وعلى عَجْزِهِ؛ إذْ هما يغلِبانِ، ويقْهَرانِ، فوصفَ الرَّبُّ نفْسَهُ بالعُلُوِّ عنِ الذي دَلّا عليهِ مِنَ الوُجوهِ.

وقولُهُ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو العالي على ذلكَ القاهرُ لهُ، لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا وحشةٌ ولا معنًى يدلُّ على العجزِ والحاجةِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أخبرَ أنَّ[1] ما في السمواتِ والأرضِ عبيدُهُ وإماؤُهُ، ليسَ كما قالُوا: فلانٌ[2] ابنُ اللهِ، والملائكةُ[3] بناتُ اللهِ، بل كلُّهُمْ عبيدُهُ وإماؤُه، والناسُ لا يَتّخذُونَ ولداً مِنْ عبيدِهِمْ وإمائهِمْ، فاللهُ أحقُّ ألّا يَتّخِذَ، وقد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[4].

وقولُهُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي لا أحدَ يَجترئُ على الشفاعةِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

ثم اختُلِفَ في الشفاعةِ: قالتِ المعتزلةُ: لا تكونُ الشفاعةُ إلّا لأهلِ الخيراتِ خاصةً الذينَ لا ذنبَ لهُمْ، [أو كانَ لهُمْ][5] ذنبٌ، فتابُوا عنهُ؛ ذهبُوا في ذلكَ إلى ما ذكرَ اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]؛ أخبرَ أنهُمْ يستغفرُونَ لِلّذينَ آمَنُوا، وتابُوا، واتَّبَعُوا.

فإذا كانَ الاستغفارُ في الدنيا إنما يكونُ لِلّذينَ آمَنُوا، وتابُوا، واتَّبَعُوا، فعلى ذلكَ الشفاعةُ إنما تكونُ في الآخرةِ لِهؤلاءِ.

وأمّا عندَنا فإنَّ الشفاعةَ تكونُ لأهلِ الذنوبِ لأنَّ مَنْ لا ذنبَ لهُ [لا يحتاجُ][6] إلى الشفاعةِ، وقولُهُ: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ تكونُ [لهمْ][7] ذنوبٌ في أحوالِ التوبةِ، فإنما يغفرُ لهمُ الذنوبَ التي كانَتْ لهمْ، فقد ظهرَ الاستِغفارُ لأهلِ الذنوبِ. فعلى ذلكَ الشفاعةُ. فإنْ قيلَ: أرأيتَ رجلاً قالَ لعبدِهِ: إنْ عملْتَ عملاً تستوجِبُ بهِ الشفاعةَ [فأنتَ حُرٌّ، فأيُّ عملٍ يَعمَلُهُ لِيستوجِبَ بهِ الشفاعةَ حتى يُعتِقَ عبدَهُ: الطاعةُ أمِ[8] المعصيةُ؟ قيلَ: الطاعةُ، فعلى ذلكَ الشفاعةُ لا تكونُ إلّا لأهلِ الطاعةِ والخيرِ لا لأهلِ المعصيةِ، وقيلَ: إنّ الشفاعةَ][9] التي يستوجِبُها أهلُ الذنوبِ إنما يستوجبونَ بالطاعاتِ التي كانَتْ لهمْ حالةَ الشفاعةِ كقولِهِ: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] فالشفاعةُ بخيرِهِ.

وقالُوا: لا شفاعةَ في الشاهدِ لأحدٍ في الآخرةِ لأنَّ الشفاعةَ هي[10] أنْ يُذكَرَ عنْ مناقبِ أحدٍ عندَ أحدٍ وخيراتِهِ ليسَ سواها[11]، كذا في الآخرةِ. والجوابُ لهمْ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ إنما يُذكَرُ في الدنيا خيراتُ المُشَفَّعِ لهُ لجهالةِ هذا بأحوالِهِ، فيذكُرُ خيراتِهِ لِيُعَرِّفَهُ بها، فيشفَعُ فيهِ، واللهُ تعالى عارِفٌ لا يَتَعَرَّفُ.

والثاني: أنَّ ذكرَ خيراتِهِ لحاجةٍ تقعُ لهُ في مثلِها، لا تكونُ لهُ في الآخرةِ خاصةً، واللهُ يتعالى عنِ الحاجةِ عمّا بالعبادِ. لذلكَ اختلَفا، واللهُ أعلمُ.

فإنْ قالَ لنا قائلٌ: إنَّ جميعَ ما ذكرَ في هذهِ الآيةِ، مِنْ أوّلِها إلى آخرِها، كُلُّها دَعْوَى، عمَّ الدليلُ على تلك[12] الدَّعْوَى؟ [فالجوابُ لهُ في وجهَينِ:

---

(١) أدرج بعدها في النسخ الثلاث: له، والصواب حذفها. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦]. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]. (٤) في تفسير الآية: ١١٦ . (٥) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع، في م: لا حاجة له، ساقطة من الأصل. (٧) من ط ع وم. (٨) في ط ع وم: أو. (٩) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٠) من ط ع، في الأصل و م: هو. (١١) في الأصل: سواه، في ط ع وم: سوءاً . (١٢) في النسخ الثلاث: ذلك.

أحدُهما:][1] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ دليلُهُ ما تقدَّمَ ذكرُهُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٦٤].

والثاني: مَنْ نكرَ الصانعَ، فيُتَكَلَّمُ أوّلاً معَهُ في حَدَثِ العالَمِ وحاجتِهِ إلى مُحْدِثٍ، فإذا ثبتَ حَدَثُ العالَمِ، فحينئذٍ يُتَكَلَّمُ في إثباتِ الصانعِ ووحدانيتِهِ، وباللهِ التوفيقُ، وفي قولِهِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣ و...] ليسَ مِنْ حيثُ العددُ لأنَّ كلَّ ذي عددٍ يَحتمِلُ الزيادةَ والنقصانَ، ويَحتمِلُ الطُّولَ والعَرْضَ، و[يَحتمِلُ][2] القصرَ والكسرَ، ولكنْ يُقالُ: ذلكَ ﴿وَٰحِدٌ﴾ مِنْ حيثُ العظمةُ والجلالُ والرفعةُ كما يُقالُ: فلانٌ واحدُ زمانِهِ وواحدُ قومِهِ؛ يعنونَ [بهِ][3] رفعتَهُ وجلالَتَهُ في قومِهِ وسلطانَهُ عليهِمْ جائزَ القولِ، فهمْ لا يعنونَ مِنْ جهةِ العددِ لأنَّ مِثْلَهُ كثيرٌ فيهِمْ مِنْ حيثُ العددُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ هذا على المعتزلةِ لأنهمْ لا يصفونَهُ بالعِلْمِ، وقد أخبرَ أنَّ لهُ العلمَ. ثم احتمَلَ علمُهُ علمَ الغيبِ، وقالَ آخرونَ: علمُ الأشياءِ كُلِّها؛ لا يَعلَمُونَ إلّا ما يعلِّمُهُمُ اللهُ مِنْ ذلكَ كقولِ الملائكةِ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]. ومَنْ قالَ [علمُهُ][4] علمُ الغيبِ فهو الذي قالَ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ و٢٧].

وقولُهُ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ وَسِعَ علمُهُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وقالَ آخرونَ: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ قدرتُهُ، وهوَ وصفٌ بالقدرةِ والعظمةِ، وقيلَ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ والكرسيُّ هو أصلُ الشيءِ؛ يقالُ: كرسيُّ كذا، والمرادُ منهُ أنَّهُ المُعْتَمَدُ والمَفزَعُ للخَلْقِ، وذلكَ بالعظمةِ والقوةِ، ويُقالُ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ وهو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وقيلَ: إنَّ الكرسيَّ هو الكرسيُّ، لكنَّهُ خلَقَهُ لِيُكرِّمَ بهِ مَنْ يشاءُ مِنْ خلقِهِ. فعلى ذلكَ لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ وغيرِهِ مِنَ الآياتِ ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ بقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقولُهُ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾: قيلَ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ لا يَشُقُّ عليهِ، وهو قولُ ابن عباسٍ ﷺ أيضاً: إنهُ قالَ: لا يثقُلُ عليهِ، وقيلَ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ لا يُجْهِدُهُ، وقيلَ: لا يُعالِجُ بحفظِ شيءٍ مثالَ الخَلْقِ.

وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ عَنْ كُلِّ موهومٍ يحتاجُ إلى عرشٍ أو كرسيٍّ، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ عنْ أنْ يُحاطَ بهِ. وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قالَ: علمُهُ، [ألَا ترَى][5] إلى قولِهِ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ كلُّ شيءٍ في علمِهِ، لا يؤودُهُ حفظُ شيءٍ؟ واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ، رحمه الله تعالى: ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ عَنْ جميعِ أحوالِ الخَلْقِ وشَبَهِهِمْ، و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾[6] القاهرُ والغالبُ.

الآية ٢٥٦ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ قيلَ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي لا يُكْرَهُ على الدِّينِ، فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهوَ على بعضٍ دونَ بعضٍ. قالَ بعضُهُمْ: نزلَ في المجوسِ وأهلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنصارى: أنَّهُ يُقبَلُ منهمُ الجزيةُ، ولا يُكرَهُونَ على الإسلامِ، ليسَ كَمُشرِكي العربِ ألّا يُقبَلَ منهمْ إلّا الإسلامُ أوِ السيفُ، ولا يُقبَلُ منهمُ الجزيةُ؛ فإنْ أسلمُوا، وإلّا قُتِلُوا. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ كتبَ إلى المنذرِ بنِ / ٤٧ ـ أ/ فلانٍ: «أمّا العربُ فلا تقبَلْ منهمْ إلّا الإسلامَ أوِ السيفَ، وأمّا أهلُ الكتابِ والمجوسُ فاقبَلْ منهمُ الجزيةَ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٣/١٦] وعلى ذلكَ نطقَ بِهِ الكتابُ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

وقالَ قومٌ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما][8]: أي لا دينَ يُقْبَلُ بإكراهٍ، بل ليسَ ذلكَ بإيمانٍ.

والثاني: أنَّ الرشدَ قد تبيَّنَ مِنَ الغيِّ، وبيَّنَ ذلكَ لِكلِّ أحدٍ حتى إذا قَبِلَ الدِّينَ قَبِلَ عَنْ بيانٍ وظُهورٍ لا عنْ إكراهٍ.

---

(١) في النسخ الثلاث: قيل. (٢) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (٣) من ط ع. (٤) من ط ع. (٥) من ط ع. (٦) من ط ع، في الأصل و م: العلي. (٧) من ط ع. (٨) ساقطة من النسخ الثلاث.

وقالَ آخرونَ: قولُهُ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ أي لا إكراهَ على هذهِ الطاعاتِ بعدَ الإسلامِ لأنّ اللهَ تعالى حبّبَ هذه الطاعاتِ في قلوبِ المؤمنينَ، فلا يُكرَهونَ على ذلكَ، ومَعناهُ: إنَّ في الأممِ المتقدمةِ الشدائدَ والمشقةَ، ورفعَ اللهُ ﷻ تلكَ الشدائدَ عن هذهِ الأمّةِ، وخَفّفَها عليهِمْ؛ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ومِثْلُ ذلكَ كثيرٌ؛ كانَتْ على الأممِ السالفةِ ثقيلةً، وعلى هذهِ الأمّةِ مخفّفةً؛ فإذا كانَتْ مخفَّفةً عليهِمْ لا يُكرَهُونَ على ذلكَ.

وقالَ آخرونَ: هو منسوخٌ بقولِهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ الناسَ حتى يقُولُوا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإذا قالُوها عَصَمُوا عنّي دماءَهُمْ وأموالَهُمْ إلّا بحقِّها، وحسابُهُمْ على اللهِ» [مسلم ٢١ و٢٢ والبخاري ٢٥].

وقالَ قومٌ: إنَّ قوماً مِنَ الأنصارِ كانَتْ تُرضِعُ لهمُ اليهودُ، فلمّا جاءَ الإسلامُ أسلمَ الأنصارُ، وبقيَ مَنْ عندَ اليهودِ مِنْ وَلَدِ الأنصارِ على دينِهِمْ، فأرادُوا أنْ يكرِهُوهُمْ، فنزلَتِ الآيةُ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: ويَحتمِلُ الإكراهُ في الدينِ ما قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ يعني قد تبيَّنَ الإسلامُ مِنَ الكفرِ باللهِ، فلا تُكرِهُونَ على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: الطاغوتُ: الشياطينُ، وقيلَ: كلُّ ما يُعبَدُ مِنْ دونِ اللهِ فهو طاغوتٌ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ التي [تُعبَدُ مِنْ دونِ][1] اللهِ، وقيلَ: الطاغوتُ الكهنةُ الذينَ[2] يدعُونَ الناسَ إلى عبادةِ غيرِ اللهِ [يَكفُرُ هؤلاءِ، ويُكذِّبُهُمْ][3].

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: ومِنْ جملتِهِ: ومَنْ يكفُرْ بالذي يدعُو إلى عبادةِ غيرِ اللهِ، ويكذِّبُهُ في ذلكَ، ويؤمنُ بالذي يدعُو إلى اللهِ، ويصدِّقُهُ أنه داعٍ إلى حقٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فيه دلالةٌ أنَّ الإيمانَ باللهِ هو إيمانٌ بالأنبياءِ والرسلِ والكتبِ جميعاً. إنْ[4] لم يُذْكَرْ معَهُ غيرُهُ، والكفرُ بالذي ذكرْتُ يمنعُ حقيقةَ الإيمانِ باللهِ، لأنَّ [في آخرِ السورةِ ذكرَ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥] [على طريقِ التفصيلِ][5] مَنْ آمنَ بهِ وبأمرِهِ ونَهْيِهِ وشرائِعِهِ، لكنَّ الذي قالَ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] لقولِ قومٍ حينَ قالُوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]، وإلّا [ما كانَ][6] في الإيمانِ باللهِ إيمانٌ بجميعِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ يَحتمِلُ هذا وجهَينِ: [يَحتمِلُ][7] فقد عقدَ لنفسِهِ عَقداً وَثيقاً لا انْفِصامَ لذلكَ العقدِ، ولا انْقِطاعَ، ولا تقومُ الحجةُ ببعضِهِ، ويَحتمِلُ: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ بنصرِهِ إياهُ بالحججِ والبراهينِ النَّيِّرةِ التي مَنِ اعتصمَ بها لا انْفِصالَ عنهُ، ولا زوالَ.

ثم فيه نقضٌ على المعتزلةِ لأنهُ أخبرَ ﷻ أنَّ مَنْ آمنَ باللهِ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ بكذا، والمعتزلةُ يقولُونَ: صاحبُ الكبيرةِ يخلُدُ في النارِ، وهو مؤمنٌ باللهِ، فأيُّ عروةٍ أوهَى مِنْ هذا على قولِهِمْ؟ وأنّى[8] لهُ زوالٌ وانْقِطاعٌ مِنْ ثوابِهِ الذي وعدَ لهُ ﷻ بإيمانِهِ باللهِ وتصديقِهِ بهِ؟ وباللهِ العصمةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولِهِمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بثوابِهِمْ، أو ﴿سَمِيعٌ﴾ بإيمانِهِمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بجزاءِ إيمانِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ قيلَ: الوليُّ الحافظُ، وقيلَ: الوليُّ الناصرُ، وهو ناصرُ المؤمنينَ

(١) في الأصل و م: تعبدون. في ط ع: تعبد دون. (٢) من ط ع، في الأصل و م: التي. (٣) في النسخ الثلاث: بكفر هؤلاء وتكذيبهم.
(٤) في النسخ الثلاث: إذ. (٥) من ط ع. (٦) في النسخ الثلاث: لكان. (٧) من ط ع. (٨) في النسخ الثلاث: وإن.

وحافظُهُمْ، وقيلَ: سُمّيَ وليّاً لأنهُ قَبِلَ أمورَ الخلقِ مِنَ النصرِ والحفظِ والرزقِ وغيرِهِ. وعلى ذلكَ يُسَمَّى الوليُّ وَلِيّاً لِما يلي أمورَ الناسِ، وقيلَ: قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي اللهُ أولَى بهِمْ؛ إليهِ إجابتُهُمْ وطمعُهُمْ، وهو الذي يكرمُهُمْ، وإنَّ الطاغوتَ أولَى بالكافرينَ كما قالَ: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [فصلت: ٢٤] أي أولَى بهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ قولُهُ: ﴿يُخْرِجُهُم﴾ بمعنَى أخرجَهُمْ، وجائزٌ هذا في اللغةِ: يُفعِلُ بمعنى أفعلَ، وأفعلَ بمعنى يُفعِلُ، جارٍ فيها، غيرُ ممتنعٍ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1] هو ابْتِداءُ نشوئِهِمْ عليهِ، ليسَ أنْ كانُوا فيهِ، ثم أخرجَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] رفعَها ابْتِداءً، ليسَ أنْ كانَتْ موضوعةً، ثم رفعَها. فعلى ذلكَ الأوّلُ.

والآيةُ تنقضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ؛ إذ مِنْ قولِهِمْ: إنَّ جميعَ ما أُعطِيَ المؤمنُ مِنَ الإخراجِ مِنَ الكفرِ أُعطِيَ مِثلَهُ الكافرُ [فكأنهم يقولُونَ: أخرجَهُمْ جميعاً مِنَ الظلمةِ، وعليهِ إخراجُ الكافرِ][2] أيضاً مِنَ الظلماتِ إذ ذلكَ هو الأصلحُ لهُ، وعليهِ أن يعطيَ الخَلْقَ[3] ما هوَ الأصلحُ لهمْ في الدينِ. فإذا كانَ هذا قولُهُمْ، فهوَ وليُّ الكفرةِ والمؤمنِينَ جميعاً على قولِهِمْ، إذْ هو بالسببِ الذي ذكرَ الولايةَ للمؤمنِينَ، فيعطي أيضاً للكفرةِ.

فإنْ قالُوا: إنهُ أضافَ الكفرَ إلى الطاغوتِ، وأنتمْ تُضيفونَهُ إلى اللهِ ﷻ قيلَ: هو ظاهرُ الكذبِ؛ إنا لا نضيفُ ذلكَ إليهِ الكفرَ، إنما نقولُ: إنه خَلَقَ فعلَ الكفرِ مِنَ الكافرِ كفراً، وخلقَ فعلَ النورِ مِنَ المؤمنِ نوراً؛ على أنهُ إنْ كانَ هذا في الكفرِ، فما القولُ في الفصلِ[4] الأوّلِ مِنْ قولِكُمْ: إنهُ مُنْعِمٌ على المؤمنِ، ثم[5] لا نعمةَ فيه على المؤمنِ إلّا بالأمرِ [والإقدارِ][6] والإقدارُ منه موجودٌ للكافرِ في كفرِهِ على قولِكُمْ. ثم لا نعمةَ [تقعُ][7] في الأمرِ والدعاءِ للمؤمنِينَ إلّا ويقعُ مثلُها[8] للكافرِ؛ إذ هو في الأمرِ والدعاءِ كالمؤمنِ سواءً[9]؛ ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وليسَ في القولِ: إنهُ خالقٌ بأنهُ خالقُ فعلِ كلِّ أحدٍ على ما عليهِ إضافةُ الكفرِ إليهِ، بل إنما يُضيفُ الخيرَ إليهِ بما منهُ فيهِ مِنَ الإفضالِ على الشكرِ [لهُ][10]. فدلَّ أنَّ لهُ ﷻ في المؤمنِ فضلَ صنعٍ، ليسَ ذلكَ لهُ في الكافرِ.

والكفرُ في اللغةِ السَّترُ، وكذلكَ الظلمةُ هي السَّترُ. يُقالُ: كفرْتُ الشيءَ أي سترْتُهُ، وكذلكَ يُقالُ: ليلٌ مظلمٌ لأنه يسترُ ضوءَ النهارِ ونورَهُ، فيسترُ الأشياءَ عنْ أبصارِ الخلْقِ [وكذلكَ الكفرُ يسترُ بهِ حقائقَ الإيمانِ عن إبصارِ القلوبِ][11].

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى، في قولِهِ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾الآية: دلَّتْ هذه الآيةُ على أنْ كانَ مِنَ اللهِ إلى الذينَ آمَنُوا معنًى لم يكنْ منهُ إلى الذينَ كفرُوا بهِ، كانَ إيمانُهُمْ، ولو لم يكنْ إلّا الأمرُ والإقدارُ أو البيانُ على ما قالتِ المعتزلةُ لكانَ كلُّ ذلكَ عندَهُمْ إلى الكَفَرَةِ، فلا وجهَ لتخصيصِ المؤمنِينَ ممّا ذكرَ، وجعلَ الطاغوتَ أولَى بالكافرِينَ، وصنعَ اللهُ إلى[12] كلِّ واحدٍ، ولم يكنْ مِنَ اللهِ، تلكَ الزيادةُ. فإذا كانَ الذي ذكرَ لهمْ في أنفُسِهِمْ فلا وجهَ لِلامْتِنانِ بذلكَ. ومِنَ البعيدِ ذكرُ الامْتِنانِ في ما به الإلزامُ والأمرُ. وما ذكرتِ المعتزلةُ إنما هي أسبابُ الإلزامِ، ولولا ذلكَ كانَ أيسرَ عليهِمْ وأقلَّ لائمةً. فكيفَ بمنْ بها ثبتَ؟ إنْ كانَ منهُ فضلٌ، ليسَ كذلكَ في أعدائِهِ، فيهِ استوجبَ الحمدَ منهمْ. ولهذا تضافُ إليهِ الخيراتُ على الشكرِ لهُ وتوجيهِ الحمدِ إليهِ، ولا تُضافُ إليه الشرورُ، وربما ليسَ في ذلكَ تَشَكُّرٌ، إنما منهُ الخذلانُ بما علمَ مِنْ إيثارِ الكافرِ عداوتَهُ واختيارِهِ الكفرَ بهِ. فلذلكَ لم تَجُزِ الإضافةُ إليهِ، [والإضافةُ إليهِ][13]، جلَّ ثناؤُهُ، لا باسْمِ الخلْقِ تَخْرُجُ مُخْرَجَ التعظيمِ لهُ، والخضوعُ مِنَ العبدِ بالحمدِ له والشكرِ، ولا يجوزُ مِثلُهُ في ما ليسَ فيه ذلكَ على ما لا يُضافُ إليهِ الأنجاسُ والخبائثُ والجواهرُ القبيحةُ، وإنْ كانَتْ مِنْ طريقِ الخلِقَةِ جَرَى عليها تدبيرُهُ، وخرجَتْ على

---

(١) أدرج بعدها في النسخ الثلاث: و﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾. (٢) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من ط ع. (٤) ساقطة من ط ع. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) من ط ع. (٧) ساقطة من ط ع. (٨) في النسخ الثلاث: مثله. (٩) أدرجت في الأصل و م بعد: ولا قوة إلا بالله. (١٠) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (١١) من ط ع. (١٢) من ط ع و م، في الأصل على. (١٣) ساقطة من م.

تقديرِه. فعلى ذلكَ أفعالُ الخلْقِ، وعلى ذلكَ القولُ: بأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ، وإلهُ كلِّ شيءٍ. ثم على الإشارةِ: لا يوصفُ بذلكَ في الأشياءِ الخاملةِ المُسْتَخَفُّ بها، فَمِثْلُهُ/ ٤٧ ـ ب/ الأوَّلُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨و..] و﴿... ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤ و...] [و﴿... ٱلْفَٰسِقِينَ﴾][(١)] [المائدة: ١٠٨ و...] ونحوُ ذلكَ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أنهُ لا يهديهمْ وقتَ اختيارِهِمْ ذلكَ، ويكونُ على ألّا يخلقَ منهمْ فعلَ الهدايةِ، وَهُمْ يختارُونَ فعلَ الضلالِ.

والثاني[(٢)]: مَنْ في علمِهِ أنهُ لا يهتدي، فيرجعُ المُرادُ بهِ إلى الخاصِّ.

والثالثُ[(٣)]: لا يهدي طريقَ الجنةِ في الآخرةِ مَنْ كفرَ باللهِ في الدنيا.

والرابعُ[(٤)]: لا يجعلُهُمْ في حكمِهِمْ كقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ذكرَ أنَّ الكفرةَ هُمْ أصحابُ النارِ، وذكرَ في آيةٍ أُخرَى أنَّ الملائكةَ أصحابُ النارِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]، لكنَّهُ ذَكَرَ أصحابَ النارِ لِما يَتَوَلَّونَ تعذيبَ الكَفَرَةِ فيها، فسمَّاهمْ بذلكَ، وذكرَ الكفرةَ أصحابَ النارِ لأنهمْ همُ المعذَّبونَ فيها، والملائكةُ معذِّبُوهُمْ فيها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ قد ذكرْنا [في ما تقدّمَ][(٥)] أنَّ قولَهُ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إنما يُفْتَتَحُ بهِ لأعجوبةٍ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]. وفيه إباحةُ التكلمِ في الكلامِ والمناظرةِ فيهِ والحِجاجِ بقولِهِ: ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ وردٌّ على مَنْ يمنعُ التكلمَ فيهِ لأنّا أُمِرْنا بدعاءِ الكفرةِ جميعاً إلى وحدانيةِ اللهِ تعالى والإقرارِ لهُ بذلكَ والمعرفةِ لهُ أنهُ كذلكَ، وكذلكَ الأنبياءُ بأجمعِهِمْ أُمِرُوا، ونُدِبُوا إلى دعاءِ الكفرةِ إلى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ. فإنْ دَعَوناهمْ إلى ذلكَ فلا بدَّ مِنْ أنْ يَطلبُوا منّا الدليلَ على ذلكَ والبيانَ عليهِ والوصفَ لهُ كما هو[(٦)]. والتقريرُ عندَهُمْ أنهُ كذا؛ فلا يكونُ ذلكَ إلّا بعدَ المناظرةِ والحِجاجِ فيهِ. لذلكَ قُلْنا: إنهُ لا بأسَ بالتكلمِ والمناظرةِ فيهِ.

وفيه دلالةٌ على إباحةِ المُحاجَّةِ في التوحيدِ، وفيه الإذْنُ بالنظرِ في النظرِ لأنهُ حاجَّهُ لينظرَ، واللهُ أعلم.

[وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾][(٧)] [قالَ أهلُ الاعتِزالِ [في][(٨)] قولِهِ تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ هو إبراهيمُ ﷺ لا ذلكَ الكافرُ لقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ أخبرَ أنَّ عهدَهُ لا ينالُ الظالمَ، والمُلْكُ عهدٌ. لكنهُ غَلَطٌ عندَنا لوجوهٍ:

أحدُها: أنَّ إبراهيمَ ﷺ ما عُرِفَ بالمُلْكِ.

والثاني: أن الآيةَ ذُكِرَتْ في مُحاجَّةِ ذلكَ الكافرِ إبراهيمَ، ولو كانَ غيرَ مَلِكٍ، وكانَ إبراهيمُ ﷺ وهو المَلِكُ، لم يقدرِ المُحاجَّةَ معَ إبراهيمَ ﷺ إذْ لا مُحاجَّةَ إلَّا عنْ مُلْكٍ، دلَّ أنه هو الذي كانَ المَلِكَ.

والثالثُ: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، ثم قيلَ: إنهُ جاءَ برجلَينِ، فقتلَ أحدَهما، وتركَ الآخرَ، فلو لم يكنْ مَلِكاً لَم يتأتَّ لهُ ذلكَ بينَ يدَي إبراهيمَ ﷺ وهو الذي ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، فدلَّ أنَّ المرادَ بهِ ذلكَ الكافرُ، ثم ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ يكونُ في الخلْقِ بأحدِ الأمرَينِ: إمّا بالفضلِ والشرفِ والعزِّ والسلطانِ والدينِ، وإمّا مِنْ جهةِ الأموالِ والطَّولِ عليها والقهرِ والغَلَبَةِ؛ فإنْ لم يكنْ لهُ المُلْكُ مِنْ جهةِ الأوَّلِ لَكانَ لهُ ذلكَ بفضولِ الأموالِ، لذلكَ كانَ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

قال الشيخُ ،رحمَهُ اللهُ تعالى: أعطى المُلْكَ لِيَمْتَحِنَ بهِ كما يُعطي الغِنى والصحةَ، فيمتحِنُ بهما.

---

(١) من ط ع. (٢) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٣) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٤) في النسخ الثلاث: ويحتمل. (٥) من ط ع، وكان الذكر في تفسير الآية (٢٤٣) من السورة. (٦) أدرج بعدها في ط ع: له. (٧) ساقطة من ط ع. (٨) من ط ع.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وكانَ هذا مِنَ إبراهيمَ ﷺ واللهُ أعلمُ، عَنْ سؤالٍ سبقَ منهُ أنْ قالَ لهُ ذلكَ الكافرُ: مَنْ ربُّكَ الذي تدعُوني إليهِ؟ فقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وإلّا لا يَحتمِلُ ابْتِداءُ الكلامِ بهذا على غيرِ سَبْقِ سؤالٍ كانَ منهُ، وهو ما ذُكرَ في قصةِ فرعونَ حينَ دعاهُ موسى إلى الإيمانِ بربِّهِ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ و٥٠]، فعلى ذلك الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [إنهُ دَعا برجلَينِ][(١)]، فقتَلَ أحدَهما، وترَكَ الآخرَ، على ما قيلَ في القصةِ. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ [ﷺ][(٢)]: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾؛ قالَ بعضُ الجَدَليِّينَ: هذا مِنَ إبراهيمَ ﷺ صَرْفُ[(٣)] المُحاجَّةِ إلى غيرِ ما كانَ ابْتداؤها، ومِثْلُهُ في الظاهرِ انْقِطاعٌ وحيدٌ عَنِ الجوابِ لأنَّ جوابَهُ أنْ يقولَ: أنا أفعلُ كما فعلْتَ، أو أنْ يقولَ لهُ: إنَّ هذا الحَيَّ كانَ حيّاً، ولكنْ أَحْيِ هذا الميِّتَ، لكنَّهُ ﷺ فعلَ هذا [لأمرَينِ:

الأولُ][(٤)]: ليَظهرَ عَجزُهُ على الناسِ، لأنَّ ذلكَ كانَ منهُ تمويهاً أو[(٥)] تلبيساً على قومِهِ أخذَ قلوبَهُمْ، فأرادَ إبراهيمُ ﷺ أنْ يظهرَ عليهِ مِنَ الحجَّةِ ما هو أظْهرُ وأعْجَزُ لهُ وآخذُ للقلوبِ.

والثاني: أرادَ أنْ يُريَهُ أنَّ هذا مِمّا قدرَ عليهِ بغيرِهِ إذِ[(٦)] الذي لم يَجعَلْ لهُ القدرةَ عليهِ لم يقدرْ عليهِ. ثم لمّا ثبتَ عجزُهُ في أحدِهما ظهرَ[(٧)] عجزُهُ في الآخرِ، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ: بأنَّ هذا مِنَ إبراهيمَ انْتِقالٌ مِنْ حُجَّةٍ إلى حُجَّةٍ ليسَ بانْقِطاعٍ، وهو جائزٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ قيلَ: انقطَعَ، وتَحيَّرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ذكرَ الظالمَ لأنَّ الظلمَ هو وضعُ الشيءِ في غيرِ محلِّهِ، كَوَضْعِ[(٨)] هذا اللعينِ المُحاجِّ [الشيءَ][(٩)] في غيرِ موضعِهِ.

الآية ٢٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قيلَ: هو نَسَقٌ على قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وقيلَ: [هوَ][(١٠)] نَسَقٌ على قولِهِ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ لأنهُ بذلكَ أنكرَ البعثَ.

ثمَّ اختُلِفَ في المارِّ على القريةِ: قالَ بعضُهُمْ: كافرٌ قالَ ذلكَ، وقالَ آخرونَ: لا، ولكنْ قالَ ذلكَ مسلمٌ، وقالَ أكثرُ أهلِ التأويلِ: هو عُزيرٌ. فإنْ كانَ قائلُ ذلكَ كافراً فهو على إنكارِ البعثِ والإحياءِ [بعدَ المماتِ][(١١)]، وإنْ كانَ مسلماً فهو على معرفةِ كيفيةِ الإحياءِ، ليسَ على الإنكارِ، وهو كقولِ إبراهيمَ ﷺ ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] وليسَ لنا إلى معرفةِ قائلِهِ حاجةٌ، إنما الحاجةُ إلى معرفةِ ما ذُكَرَ في الآيةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قيلَ: خاليةٌ مِنْ سكانِها، وقيلَ: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطةٌ سقوفُها على حيطانِها، وحيطانُها على سقوفِها.

[وقولُهُ تعالى][(١٢)]: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هو على ما ذكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أرادَ، واللهُ أعلمُ، أنْ يَرى الآيةَ في نفسِهِ، والآيةُ هي آيةُ البعثِ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ آيةً في المتأخِّرينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ سؤالٌ[(١٣)] منهُ [جَلَّ، وعلا][(١٤)]: الاجتهادُ بظاهرِ الحالِ الذي ظهرَ عندَهُ ليظهرَ أنهُ اجْتهَدَ بدليلٍ أو بغيرِهِ[(١٥)] على ما يدركُهُ وُسْعُهُ، فبانَ أنَّ المجتهدَ يَحِلُّ [لهُ الاجْتِهادُ][(١٦)] بما يُدرِكُ في ظاهرِ الحالِ، وإنْ كانَ [الذي][(١٧)] حكمَ فيه الاجْتِهادُ بالغيبِ.

---

(١) من ط ع. (٢) ساقطة من ط ع و م. (٣) من ط ع و م، في الأصل: عرفت. (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) في ط ع و م: و. (٦) في ط ع: إذا. (٧) في الأصل و ط ع: يظهره، في م: يظهر. (٨) في النسخ الثلاث: حيث. (٩) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٠) من ط ع. (١١) في ط ع: بعد المماتة، ساقطة من الأصل و م. (١٢) من ط ع. (١٣) في النسخ الثلاث: سأل. (١٤) في ط ع: جل وعز. (١٥) من ط ع و م، في الأصل: بغير. (١٦) من م، في الأصل: الاجتهاد، في ط ع: له. (١٧) ساقطة من النسخ الثلاث.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: [أرادَ اللهُ تعالى][(١)] بقولِهِ ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ التنبيهَ كقولِهِ لموسى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] لِيُرِيَهُ الآيةَ مِنَ الوجهِ الذي هوَ أقربُ إلى الفَهْمِ، [والأعجوبةُ مُتَوَجِّهَةٌ][(٢)] فيهِ بوجهَينِ: مَرَّةً بإماتةِ الحمارِ إذْ مِنْ طبعِهِ الدوامُ، ومَرَّةً بإبقاءِ طعامِهِ، ومِنْ طبعِهِ التَّغَيُّرُ والفسادُ عَنْ سريعٍ؛ جعلَ في بقاءِ طعامِهِ وحفظِهِ مِنَ الفسادِ آيةً، ومِنْ[(٣)] طبعِهِ الفسادُ، وفي إحياءِ حمارِهِ بعدَ إماتتِهِ، وطبعُهُ البقاءُ، ليعلَمَ ما نازَعَتْهُ نفسُهُ في كيفيةِ الإحياءِ دَرْكَ ذلكَ، وهوَ قولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ثم قيلَ في وجهِ ما رآهُ بأوجهٍ؛ قيلَ: إنهُ أحْيَى عينَيهِ وقلبَهُ، فادركَ بهما[(٤)] كيفيةَ الإحياءِ في بقيةِ نفسِهِ، وقيلَ: أحْيَى نفسَهُ، فأراهُ ذلكَ في حمارِهِ، وقيلَ: إنهُ أراهُ ذلكَ في ولدِهِ لأنهُ أتى شاباً، وولَدُهُ [وولَدُ ولَدِهِ شيوخٌ، وذلكَ][(٥)] آيةٌ.

قالَ الشيخُ ،رحمَهُ اللهُ: /٤٨ - أ/ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ الآيةَ؛ فإنْ قالَ قائلٌ: كيفَ سألَهُ عنْ لبثِهِ؟ وقد عَلِمَ أنهُ لم يكنْ عَلِمَ بهِ، وأيَّدَ إخبارَهُ بقولِهِ: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾؛ قيلَ: القولُ ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ يَحتملُ وجهَينِ، وكذلكَ القولُ بقولِهِ: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾:

أحدُهما: على قولٍ أُلقِيَ إليهِ، ونطقٍ أُسمِعَ هو.

والثاني: أنْ يكونَ على ما حدَّثَتْهُ نفسُهُ بمدةِ لبثِهِ في حالِ نومِهِ، فتأمَّلَ في ذلكَ أحوالَ نومِهِ، وأخبرَ عمّا عايَنَ مِنْ أحوالِ الوقتِ الذي كانَ فيهِ مِمّا كانَ ابتداؤهُ وقتَ [نومِهِ][(٦)]، فقالَ بالذي ذكَرَ، ثم لَمّا تأمَّلَ شأنَ الحمارِ، واستخبرَ عَنِ الأحوالِ، قالَتْ لهُ نفسُهُ: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾، ثم أمعنَ[(٧)] نظرَهُ في حمارِهِ، وما رأى مِنْ تَغَيُّرِ أحوالِهِ، وأنشأَهُ اللهُ تعالى على ما ذكَرَ. وكلُّ ذلكَ خبرٌ عمّا حدَّثَتْهُ نفسُهُ، حَثَّهُ[(٨)] على التفكُّرِ في أحوالِهِ والنظرِ في ما عاينَ مِنْ أمرِ الحمارِ، أو كانَ عَلِمَ أنَّ ذلكَ موتٌ فيهِ، لكنَّهُ استَقَلَّ ذلكَ بما شَهِدَ نفسَهُ بما عايَنَها على ما كانَتْ عليها، فلما تأمَّلَ شأنَ حمارِهِ عَلِمَ أنهُ رُفِعَ[(٩)] إلى آياتٍ عجيبةٍ، وفزِعَ[(١٠)] إلى اللهِ تعالى، فأنبأهُ اللهُ تعالى بالذي وصفَ في القرآنِ، واللهُ الموفقُ.

ولو كانَ على القولِ فإنَّ[(١١)] في السؤالِ عما يَعلَمُ السائلُ جهلَ المسؤولِ وجهَينِ:

أحدُهما: الامْتِحانُ على ما بهِ ظهورُ أحوالِ الممتحَنِ مِنَ الاجْتِهادِ في تعريفِ الحقائقِ بالاسْتِدلالِ أوِ الخضوعِ لهُ بالاعْتِرافِ بقصورِهِ مِنَ الإحاطةِ بهِ كفعلِ الملائكةِ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] بقولِهِمْ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، والأوَّلُ كما فعلَ صاحبُ هذا أنهُ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ومِثْلُهُ أمرُ أصحابِ الكهفِ[(١٢)]، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ يُرادَ بالسؤالِ التقريرُ عندَهُ مُتَعِظاً[(١٣)] لِما يُرادُ بهِ مِنَ الاطِّلاعِ على الآيةِ كما قالَ لموسى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ الآيةَ [طه: ١٧]؛ وهذا في ما كانَ السؤالُ في الظاهرِ خارجاً[(١٤)] في الحقيقةِ مخرجَ المحنةِ[(١٥)] نحوَ ما ذكَرْنا في أمرِ الملائكةِ وأمرِ موسى ﷺ. فأمّا السؤالُ الذي [هو في حقِّ السؤالِ][(١٦)] إنما هو في حقِّ الاسْتِخبارِ لِيُعْلَمَ ما عليهِ حقيقةُ الحالِ بالسؤالِ، لكنَّ الذي ذكرْتُ في ما كانَ سبيلُهُ أنْ يكونَ مَنْ لَهُ الامْتِحانُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [قيلَ: لَمْ يأتِ عليهِ السُّنونَ، أي كأنهُ لَمْ يأتِ عليهِ السُّنونَ][(١٧)]، وقيلَ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغيَّرْ، [ولَمْ يُنْتِنْ][(١٨)]، والأوَّلُ أشبهُ لأنهُ يُقالُ: مِنَ التغيُّرِ والنَّتْنِ لم يَتَسَنَّنْ.

---

(١) من ط ع، في الأصل و م: وأراد. (٢) في النسخ الثلاث: متوجهة الأعجوبة. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) من ط ع، في الأصل وم: بها. (٥) من ط ع، في م: في ولده لأنه أتى شابا وولده شيوخ، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل و م: هي، في ط ع: هي بعثه، والصواب ما أثبت. (٩) في ط ع: دفع. (١٠) الواو ساقطة من النسخ الثلاث. (١١) من ط ع و م، في الأصل: كان. (١٢) المقصود قولُهُ تعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[الآية: ١٩] وقوله فيها ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الآية: ٢٥]. (١٣) في ط ع: متيقظاً. (١٤) في النسخ الثلاث: خارج. (١٥) من ط ع، في الأصل و م: المحسنة. (١٦) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (١٧) من ط ع وم، ساقطة من الاصل. (١٨) في ط ع: وقيل ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم ينتن.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾؛ وهو مِنَ الإحياءِ، و ﴿نُنشِزُهَا﴾ بالزاي، وهو مِنَ الارْتِفاعِ والنَّصْبِ، وفيه لغةٌ أخرى نُنْشِرُها [بالراءِ][١]، وهو مِنَ الإحياءِ، ونَنْشُرُها مِنَ النشرِ[٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [﴿أَعْلَمُ﴾][٣] بالنصبِ؛ صَرَفَ قولَهُ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى المسلمِ، ومَنْ قرأ بالخفضِ[٤] صَرَفَ إلى الكافرِ؛ يقولُ اللهُ لهُ: اِعْلَمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ويَحتمِلُ أيضاً صَرْفَهُ إلى المسلمِ؛ و﴿أَعْلَمُ﴾ على الإخبارِ كأنهُ قالَ: أعلَمُ ما كنتُ أعلَمُهُ غيباً مشاهدةً.

وفي هذهِ الآياتِ إثباتُ رسالةِ محمدٍ ﷺ؛ وذلكَ أنَّ هذهِ القصصَ كانَتْ ظاهرةً بينَهُمْ، ولم يكنْ لهُ اختِلافٌ إليهِمْ ولا النظرُ في كتبِهِمْ، ثم أخبرَ على ما كانَ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ [باللهِ جَلَّ][٥] ثناؤُهُ.

الآية ٢٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ[٦] إبراهيمُ ﷺ مُوقِناً بأنَّ اللهَ يُحْيِي الموتى، ولكنْ أحبَّ أنْ يُعايِنَ ذلكَ لأنَّ الخبرَ لا يكونُ عندَ ابنِ آدمَ كالعِيانِ على ما قيلَ: ليسَ الخبرُ كالمُعايَنةِ. وقيلَ: يَحتمِلُ سؤالُهُ عمّا يسألُ لِما نازَعَتْهُ نفسُهُ، وحدَّثَتْهُ في كيفيّةِ الإحياءِ، وقد تُنازِعُ النفسُ، وتحدِّثُ بما لا حاجةَ لها إليهِ مِنْ [حديثِ النفسِ][٧] ليقعَ لهُ فضلُ علمٍ ومعرفةٍ. وقيلَ: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ وأعلمُ أنكَ استجبْتَ لي في ما دَعَوتُكَ، وأعطيتَني الذي سألْتُكَ. وقيلَ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي أوَلَمْ تُوقِنْ بالخِلّةِ التي خالَلْتُكَ؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ سألَ ربَّهُ على الخِلّةِ. وقيلَ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ بأنكَ أريتني الذي أردْتُ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ إبراهيمُ ﷺ أرادَ بسؤالِهِ ذلكَ أنْ تكونَ لهُ آيةٌ حِسّيّةٌ لأنَّ آياتِ إبراهيمَ كانَتْ عقليّةً، وآياتِ سائرِ الأنبياءِ كانَتْ عقليّةً وحِسّيّةً، فأحبَّ إبراهيمُ، صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ، أنْ يكونَ لهُ [آيةٌ][٨] حِسّيّةٌ، على ما لَهُمْ، كسؤالِ زكريا ربَّهُ حينَ ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]: جعلَ لهُ آيةً حِسّيّةً، فعلى ذلكَ سؤالُ إبراهيمَ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ معناهُ: وَجِّهْهُنَّ إليكَ كقولِ الرجلِ: صُرْ وجهَكَ إليَّ أي حَوِّلْ وجهَكَ [إليَّ][٩]. ورُوِيَ في حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ [بالكسرِ بمعنى قَطِّعْهُنَّ][١٠] قيلَ: هو التقطيعُ، وقيلَ: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اضمُمْهُنَّ.

الآية ٢٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ [وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾][١١] يَحتمِلُ ضربُ مَثَلِ النفقةِ في سبيلِ اللهِ بالحبةِ التي ذكرَ وجهينِ:

أحدُهما: أنْ يباركَ في تلكَ النفقةِ، فَتَزدادَ، وتنموَ، على ما باركَ في حبةٍ واحدةٍ، فصارَتْ سبعَمئةٍ وأكثرَ.

والثاني: قالَ تعالى: ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] رأوْا[١٢]: الصدقةَ تتلَفُ، وتتلاشى [في أيدي][١٣] الفقراءِ، فقالُوا: كيفَ يُربي، وهي تالفةٌ؟ فقالَ: يُربي كما أربى الحبةَ في الأرضِ [بعدَ][١٤] ما تَلَفَتْ فيها، وفَسَدَتْ، فصارَتْ مئةً وزيادةً. فعلى ذلكَ الصدقةُ في طاعةِ اللهِ والنفقةُ في ما يُربي، وإنْ [كانَتْ][١٥] تالفةً.

وقيلَ: إنها منسوخةٌ بالفرائضِ، لكنَّ هذا لا يُحتمَلُ لأنه وعدَ في الآخرةِ، والوعدُ لا يَحتمِلُ النسخَ، إلّا يعنُونَ نسخَ عينِ الصدقةِ بغيرِها، فأمّا الوعدُ فهو حالٌّ[١٦]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من ط ع. (٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: نُنْشِرُها بالراء، وقرأ الباقون: ﴿نُنشِزُهَا﴾ انظر (حجة القراءات) ص(١٤٤). (٣) من ط ع. (٤) قرأ حمزة والكسائي إِعْلَمْ جزماً على الأمر، وقرأ الباقون ﴿أَعْلَمُ﴾ على الخبر عن نفسِ المتكلم انظر (حجة القراءات) ص (١٤٤). (٥) من ط ع، في م: بالله، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع و م: في الأصل: قال. (٧) في النسخ الثلاث: حيث نفسه. (٨) من ط ع. (٩) من ط ع. (١٠) من ط ع. (١١) من ط ع، في الأصل و م: الآية. (١٢) في ط ع: ورأوا، في الأصل وم: وأراد. (١٣) من ط ع و م، في الأصل: من. (١٤) من ط ع. (١٥) من ط ع. (١٦) في النسخ الثلاث: حالة؛ حلّ أمر الله عليه، وأحلّه الله عليه: وجب، اللسان.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ قيلَ: ﴿وَٰسِعٌ﴾ غنيٌّ، وقيلَ: ﴿وَٰسِعٌ﴾ جوادٌ، يُوسِعُ على مَنْ يشاءُ.

الآية ٢٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قالَ المفسِّرونَ: للجهادِ؛ حصولُ الجهادِ بهذا، واللهُ أعلمُ، لأنَّ العدوَّ إذا خرجُوا لقتالِ المسلمِينَ خرجُوا للشيطانِ، ويَسلكُونَ سبيلَهُ وطريقَهُ، والمؤمنُونَ إنما يخرجُونَ ليسلُكوا طريقَ اللهِ تعالى، وينصُرُوا دينَهُ وأولياءَهُ. لذلكَ كانَ التخصيصُ لهُ لِقولِهِمْ، وإلّا كانَ يجيءُ أنْ تُسمّى الطاعاتُ كلُّها والخيراتُ سبيلَ اللهِ لأنهُ سبيلُ اللهِ وطاعتُهُ، كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ [وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾](1) [النساء: ٧٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ قيلَ: ﴿مَنًّا﴾ على اللهِ، و: ﴿أَذًى﴾ للفقراءِ، وقيلَ: ﴿مَنًّا﴾ على الفقراءِ، و: ﴿أَذًى﴾ لهُ، ثم قيلَ: مِنّتُهُ على الفقيرِ عَدُّ ما أنفقَ عليهِ، وتصدَّقَ، وأذاهُ توبيخُهُ(2) عليهِ بذلكَ، وأمّا مِنّتُهُ على اللهِ تعالى [كقولِهِ تعالى](3): ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قد ذكرْنا تأويلَهُ في ما تقدَّمَ(4).

الآية ٢٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ قيلَ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلامٌ حسنٌ؛ يدعو الرجلُ لأخيهِ بظهرِ الغيبِ، وقيلَ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ يستغفرُ اللهَ ذنوبَهُ في السِّرِّ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لهُ يغفرُ لهُ، ويتجاوزُ عَنْ مظلمتِهِ، وقيلَ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ الأمرُ بالمعروفِ ﴿خَيْرٌ﴾ ثواباً عند اللهِ ﴿مِّن صَدَقَةٍ﴾ فيها أذًى ومَنٌّ. فإنْ قيلَ: كيفَ جمعَ بينَ قولِ المعروفِ والمغفرةِ وبينَ الأذى والمَنِّ، فقالَ: ﴿خَيْرٌ مِّن﴾ كذا، وأحدُهما خيرٌ، والآخرُ شرٌّ، وإنما يُفعَلُ هذا إنْ كانا(5) جميعاً خيرَينِ؟ فيُقالُ: أيُّهما أخيرُ؟ قيلَ: معناهُ، واللهُ أعلمُ، هذا خيرٌ لكمْ مِنْ ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ [الجمعة: ١١] في ديناكُمْ، وإنْ لم يكنِ اللهوُ والتجارةُ مِنْ جنسِ ما عندَ اللهِ. فعلى ذلكَ الأوّلُ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ على الإبتداءِ لا على الجمعِ؛ هذا خيرٌ، وهذا شرٌّ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: ووجهُ ذلكَ أنَّ الصدقَةَ قُربَةٌ، وهي خيرٌ، فإذا أتبعَها الأذى أبطلَها، فيكونُ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي ردٌّ جميلٌ للسائلِ خيرٌ مِنْ إجابةٍ في البذلِ ثم الردُّ بالأذى لأنَّ هذا يبقى، وإنْ كانَ لا ينتفعُ(6) بهِ الآخرُ، والصدقةُ لا، وإنْ كانَ ينتفعُ(7) بها الفقيرُ، واللهُ أعلمُ. [وقالَ بعضُهُمْ: المَنُّ والأذى أنْ يقولَ لِلسائلِ: خُذْهُ، لا باركَ اللهُ فيهِ لكَ](8).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عَنْ صدقاتِكُمْ ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجلُ /٤٨ ـ ب/ بالعقوبةِ عليكمْ بالمَنِّ والأذى.

الآية ٢٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾؛ المَنُّ والأذى ما ذكرْنا. ثم جهةُ البُطلانِ، واللهُ أعلمُ، أنَّ اللهَ ﷻ وعدَ لِمَنْ تصدَّقَ الثوابَ عليها بقولِهِ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقالَ: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية [التوبة: ١١١]، وإنْ كانَتْ تلكَ الأموالُ في الحقيقةِ لهُ أعطاهُمُ الثوابَ على ذلكَ، فأخبرَ أنَّ مَن أعطى آخرَ شيئاً؛ يبذُلُ، ولا(9) يمنُّ عليهِ، كالمبادلاتِ التي تجري بينَ الناسِ، ألّا يكونَ لبعضٍ على بعضٍ جهةُ المَنِّ، إذا أخذَ بدلَ ما أعطاهُ، وأنْ يُقالَ: إنَّ الأموالَ كلَّها للهِ تعالى، فإنما أعطى مالَهُ، وكلُّ مَنْ أعطى آخرَ مالَهُ لا يستوجِبُ ذلكَ حَمْداً ولا مَنّاً.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هُمُ المُنافقونَ؛ كانوا يُنفقونَ أموالَهُمْ رياءً.

---

(1) من ط ع، في الأصل و م: الآية. (2) في النسخ الثلاث: ويوبخه. (3) من ط ع. (4) وذلك في تأويل الآيات (٣٨ و٦٢ و١١٢). (5) في النسخ الثلاث: كان. (6) من ط ع، في الأصل و م: ينقطع. (7) أدرج قبلها في الأصل: لا. (8) من ط ع، وأدرجت في الأصل و م بعد: لا يعجل... والأذى. (9) الواو ساقطة من النسخ الثلاث.

دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ شبَّهَ الصدقةَ التي فيها مَنٌّ وأذى بالصدقةِ التي فيها رِياءٌ. وذلكَ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الصدقةَ التي فيها مَنٌّ وأذى لَمْ يُبْتَغَ بها وجهُ اللهِ، فكانَتْ[1] كالصدقةِ التي ينفقُها للرِّياءِ[2] لا يُبْتَغى بها وجهُ اللهِ تعالى ﷻ والدارَ الآخرةَ.

ثم ضربَ المثلَ للصدقةِ المُبْتَغى بها الرياءُ والصدقةِ التي فيها المَنُّ والأذى بالصفوانِ الذي عليه الترابُ، وهو الحجرُ الأملسُ فقالَ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ قيلَ: الوابلُ المطرُ الشديدُ عظيمُ القطرِ[3].

وفي ضربِ الأمثالِ تعريفُ ما غابَ عنِ الأبصارِ بما هو محسوسٌ، وذلكَ أنَّ الصفوانَ الذي ضربَ بِهِ المَثَلَ والترابَ محسوسٌ، ومِنَ الترابِ جعلَ الأغذيةَ للخَلْقِ والدوابِّ، ثم الثوابُ الذي وعدَ للصدقةِ[4] ليسَ بمحسوسٍ، بل هو غائبٌ، فعرَّفَ الغائبَ بالمحسوسِ، فقالَ: لمّا كانَ الترابُ الذي به تكونُ الأغذيةُ يذهبُ بالمطرِ الشديدِ حتى لا يبقى لهُ أثرٌ فكذلكَ الثوابُ الذي يكونُ للصدقةِ يذهبُ، ويتلاشى حتى [لا][5] يظفرَ بها بالمنِّ والأذى والرياءِ كما أذهبَ المطرُ الترابَ الذي على الصفوانِ، فصارَ صَلْداً، لا شيءَ[6] عليهِ مِنَ الترابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ قالتِ المعتزلةُ: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بكفرِهِمُ الذي اختاروا، وقُلْنا نحنُ: لا يهديهِمْ وقتَ اختيارِهِمُ الكفرَ، ويهديهِمُ الإيمانَ، وفي قولِهِ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ وجهٌ[7] آخَرُ؛ هو أنْ يَحتمِلَ قولُهُ: ﴿مَّعْرُوفٌ﴾ هذهِ التسبيحاتِ والثناءَ والحمدَ، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ سَتْرَ ما ارتُكِبَ مِنَ المآثمِ، وقولُهُ: ﴿خَيْرٌ﴾ أي أحبُّ على البدنِ ﴿مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ [كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾][8] في الأمثالِ التي ضَرَبَها اللهُ تعالى، وذكَرَها في القرآنِ وجوهٌ:

أحدُها: جوازُ قياسِ ما غابَ مِنَ الحكمِ عنِ المنصوصِ بالمنصوصِ إذا جمعَهُما معنًى واحدٌ.

والثاني: أنَّ علومَ المحسوساتِ والمشاهداتِ هي علومُ الحقائقِ، وهي الأصولُ التي بها يُستدَلُّ، ويُوصَلُ إلى معرفةِ الغائبِ.

والثالثُ: فيها إثباتُ رسالةِ محمدٍ، عليه أفضلُ الصلواتِ وأكملُ التحياتِ، وذلكَ أنَّ العربَ لا تضربُ الأمثالَ، ولا كانَتْ تعرفُها في أمرِ التوحيدِ وتعريفِ ما غابَ عنْ حواسِّهِمْ مِنْ أمرِ القيامةِ ونحوِ ذلكَ، ثم بعثَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ وأنزلَ عليه القرآنَ، وذكرَ فيهِ الأمثالَ ليذكِّرَهُمْ تلكَ الأمثالَ ليعلَمُوا أنهُ إنما عرفَها [باللهِ][9] ﷻ لا أنهُ أنشأَ هذا القرآنَ مِنْ تلقاءِ نفسِهِ، وذلكَ مِنَ[10] آياتِ نبوَّتِهِ ورسالتِهِ. وعلى ذلكَ جعلَ عدمَ الكتابةِ وإنشادِ الشعرِ مِنْ آياتِ نبوَّتِهِ ورسالتِهِ، لأنَّ مِنْ عادةِ العربِ إنشادَ الشعرِ والكتابةَ، ويُفَضِّلُونَ أربابَها على غيرِهِمْ[11]، لئلّا يُعرَفَ هو بها، ويقولُوا[12]: إنهُ أخذَ مِنَ الكتبِ، أوِ اختلَقَ[13] مِنْ نفسِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والرابعُ: فيها دلالةٌ أنَّ اللهَ، جلَّ، وعلا، خالقُ الدنيا وما فيها مِنَ المحاسنِ والخبائثِ والأعالي والخسائسِ حينَ ضربَ مثلَ الرفيعِ بالرفيعِ والخسيسِ بالخسيسِ، فدلَّ [أنَّ][14] خالقَ هذهِ الأشياءِ كلِّها هو اللهُ تعالى، لا شريكَ لهُ، ولا شبيهَ.

---

(١) في النسخ الثلاث: فكان. (٢) في النسخ الثلاث للزيادة. (٣) في النسخ الثلاث: القدر. (٤) من ط ع و م، في الأصل: والصدقة. (٥) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع و م، في الأصل: بشيء. (٧) أدرجَ قبلها في الأصل و م: وله. (٨) من ط ع، في الأصل و م: الآية. (٩) من ط ع و م، ساقطة من الأصل. (١٠) من ط ع و م، في الأصل: عن. (١١) من ط ع و م، في الأصل: غير. (١٢) في النسخ الثلاث: ويقولون. (١٣) من ط ع و م، في الأصل: اختلف. (١٤) من ط ع.

ثم شبَّهَ الصدقةَ التي هي للهِ ﷻ مرَّةً بالربوةِ مِنَ الأرضِ، وهي المرتفعةُ منها، ومرَّةً بالحبةِ التي تُنبِتُ كذا سنبلةً، وفي كلِّ سنبلةٍ كذا كذا حبةً، ومرَّةً بالأضعافِ المضاعفةِ كقولِهِ[1] تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ فهو، واللهُ أعلمُ، لِما عَلِمَ ﷻ رغبةَ الناسِ مرَّةً في العددِ في الدنيا، ومرَّةً في البساتينِ المرتفعةِ أرضُها وتربتُها، لِيُشرِفُوا على غيرِهِمْ مِنَ الخلائقِ والبقاعِ، ومرَّةً في الكثيرِ مِنَ الأشياءِ والعظيمِ منها؛ رغَّبَهُمْ ﷻ في الصدقةِ بما ذكَرْنا مِنَ الأشياءِ لعلمِهِ برغبَتِهِمْ فيها ليرغَبُوا في ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وعلى ذلكَ حرَّمَ اللهُ تعالى الصدقاتِ على رسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ كانَ يُرَغِّبُ الناسَ في الصدقةِ لئلَا يَظُنّوا فيهِ ظنَّ السوءِ، ويقولُوا[2]: إنهُ إنما يُرَغِّبُهُمْ فيها لينتفِعَ هو بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قيلَ: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ تصديقاً كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾[﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾][3] [الليل: ٥ و٦و٧]، وقيلَ: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ أي تَيَقُّناً بالإسلام، وقيلَ: يَتثبتُونَ في مواضعِ الصدقةِ، وقيلَ: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ في الصدقةِ إذا كانَتْ للهِ أمْضى، وتصدَّقَ بها، وإنْ خالَطَهُ شيءٌ أمسكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ قيلَ: الربوةُ المرتفعُ مِنَ الأرضِ، وقيلَ: الربوةُ الظاهرُ المستَوي مِنَ المكانِ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾؛ والوابلُ قد ذكرْنا[4] أنهُ المطرُ الشديدُ العظيمُ القطرِ][5].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ يعني الجنةَ أضعفَتْ في ثمرِها في الحَمْلِ ضِعفَينِ حينَ ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾.

كذلكَ الذي يُنفِقُ مالَهُ للهِ تعالى[في غيرِ مِنَّةٍ][6] يَمُنُّ بها، يضاعِفُ نفقتَها، كَثُرَتِ النفقةُ، أو قَلَّتْ، وقيلَ: يُضاعِفُ اللهُ للمنفِقِ الأجرَ مرَّتينِ.

وقولُهُ تعالى: [﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾] والطَّلُّ هو المطرُ الضعيفُ، وقيلَ: هو الطَّشُّ مِنَ المطرِ، [وقيلَ: هو][7] الرذاذُ[مِنَ المطرِ][8] مِثْلُ الندى، لا تزالُ الجنةُ خضراءَ دائماً ثمرُها؛ قَلَّ، أو كَثُرَ.

الآية ٢٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾الآيةَ[9]؛ ليسَ لهذا الخطابِ جوابٌ لأنَّ جوابَهُ أنْ يقولَ: يَوَدُّ، أو لا يَوَدُّ، لكنَّ الخطابَ مِنَ اللهِ تعالى يخرجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

خطابٌ يُفهمُ مرادُهُ وقتَ قرعِهِ السمعَ، وخطابٌ لا يُفهَمُ مرادُهُ إلّا بعدَ النظرِ فيه والتفكُّرِ والتَّدبُّرِ، وهو كقولِهِ تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾ الآيةَ[10] [النساء: ٨٢]، وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] و﴿يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤ و٠٠٠] وخطابٌ لا يُفهَمُ مرادُهُ إلا بالسؤالِ عنهُ رسولَ اللهِ ﷺ أو مَنْ لهُ عِلْمٌ في ذلك كقولِهِ تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فإذا كانَ ما ذكَرْنا فَيحتمِلُ أنَّ ما تُرِكَ مِنَ الجوابِ للخطابِ إنما تُرِكَ للطلبِ والبحثِ عنهُ والتفحُّصِ.

ثم إنَّ هذا الخطابَ يَحتمِلُ أنْ يكونَ في أهلِ النفاقِ؛ وذلكَ أنَّ المنافقَ يُري مِنْ نفسِهِ الموافقَةَ لأهلِ الإسلامِ في الظاهرِ، وهو مخالفٌ لَهُمْ في السِّرِّ، وعندَهُ أنهُ يستحقُّ الثوابَ بذلكَ وقتَ الثوابِ؛ كانَ كصاحبِ الضيعةِ التي ذُكِرَتْ في الآيةِ أنَّ صاحبَها/ ٤٩ ـ أ/ يَغرِسُ فيها الغرسَ، وينبتُ فيها النباتَ في حالِ شبابِهِ وقُوَّتِهِ رجاءَ[11] أنْ يصلَ إلى الانْتِفاعِ بها في وقتِ الحاجةِ والضعفِ[12]، فإذا بلغَ ذلكَ، واحتاجَ حِيلَ بينَهُ وبينَ الانْتِفاعِ فيها، فكذلكَ المنافقُ الذي كانَ دينُهُ لمنافعَ [في][13] الدنيا وسعةٍ لها، إذا بلغَ إلى وقتِ الحاجةِ حُرِمَ ذلكَ، وكذلكَ هذا في الكافرِ، لأنهُ رأى لنفسِهِ النفعَ بعملِهِ لوقتِ يأمُلُهُ[14] كصاحبِ الضيعةِ، ثم عندَ بلوغِهِ الحاجةَ حُرِمَ عنهُ ذلكَ لِاعْتِراضِ ما اعْترَضَ مِنَ الآفةِ، وهو[15] كقولِهِ تعالى:

---

(١) في النسخ الثلاث: لقوله. (٢) في النسخ الثلاث: ويقولون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في تفسير الآية(٢٦٤). (٥) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد: الأجر مرتين. (٦) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (٧) من ط ع، في الأصل وم: وهو. (٨) من ط ع. (٩) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١٠) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (١١) من ط ع، في الأصل وم: جاء. (١٢) ساقطة من ط ع. (١٣) من ط ع وم. (١٤) في النسخ الثلاث: تأمله. (١٥) في ط ع: و.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً [حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾][(١)] [النور: ٣٩] لأنَّ الكافرَ بما يَدينُ مِنَ الدِّينِ إنما يَدينُ لنفعٍ يأمُلُهُ[(٢)] في الدنيا، والمؤمنُ إنما يَدِينُ بما يَدِينُ لنفعٍ يأمُلُهُ، ويطمعُ في الآخرةِ، فرجاءُ الكافرِ في غيرِ موضعِهِ، لذلكَ كانَ ما ذكرَ، واللهُ أعلمُ.

ثم[(٣)] الأمثالُ التي ضُرِبَتْ ينتفعُ بها المؤمنونُ لأنَّ نظرَهُمْ ما في الأمثالِ مِنَ المعنى المُدْرَجِ والمُودَعِ فيها، لم ينظُروا أعينَها، وأمّا الكفارُ فإنما ينظُرونَ إلى أعينِ الأمثالِ لا إلى ما فيها، فاسْتَحقَرُوها، واسْتَبعدَتْ عقولُهُمْ ذلكَ. لذلكَ قالَ اللهُ ﷻ ﴿لَأٓيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] و﴿يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤ و٠٠٠] ووجهُ ضَرْبِ هذا المَثَلِ، وهو أنَّ الكافرَ يُحرَمُ أجرُهُ عندَ أفقرِ وأحوَجِ ما كانَ إليهِ، كما حُرِمَ هذا نفعَ بستانِهِ عندَ أفقرِ وأحوجِ ما كانَ إليهِ، حينَ كبِرَتْ سنُّهُ، وضَعُفَتْ قوتُهُ، ولا حيلةَ لهُ يومئذٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: الإعصارُ ريحٌ فيها سُمومٌ، وقيلَ: الإعصارُ ريحٌ فيها نارٌ تحرقُ الأشجارَ، وقيلَ: هي الريحُ تسطعُ في السماءِ، وهي أشدُّ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ تعالى: في قولِهِ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ الآية: فمنعناهُ، واللهُ أعلمُ: أنْ يكونَ لا يَوَدُّ أحدٌ أنْ تكونَ لهُ جنةٌ ينالُ منافعَها في وقتِ قُوَّتِهِ وغِناهُ بقوتِهِ عنها وبغيرِها مِنْ وجوهِ المعاشِ، ثم يُحرَمُ نفعُها وقتَ[(٤)] الحاجةِ إليها بِضَعفِ بدنِهِ وارتكابِ مُؤَنِ الذُّرِّيَّةِ، فكذلكَ لا ترضَونَ[(٥)] مِنْ أنفسِكُمْ في وقتِ قُوَّتِها وغِناها الغفلةَ عنها لوقتِ حاجتِها إلى الأعمالِ والاضطرار إلى ثوابِها، واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المعنَى مِنْ ذلكَ: أي لا تغتَرُّوا بظاهرِ أحوالِكُمْ في الدنيا وبما تنالُونَ مِنَ المنافعِ بالذي أظهرْتُمْ مِنْ موافقةِ المؤمنينَ كاغْتِرارِ مَنْ ذكرْتُ بجنتِهِ[(٦)] في خاصِّ ما عليهِ حالُهُ إلى آنٍ: إلى[(٧)] ما أراهُ اللهُ مِنْ عاقبتِهِ أنه يردُّ عنهُ نهايةَ ذلكَ إنْ لم يكنْ منهُ الاغْتِرارُ في ذلكَ، ولكنْ كانَ قيامُهُ على ما لا يضيعُ عنهُ ذلكَ بتلكَ الحالِ، فيخرجُ ذا على ضربِ المَثَلِ للمنافقِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ مَثلاً[(٨)] لِمَنْ كفرَ بمحمدٍ ﷺ ومَنْ[(٩)] لم يؤمنْ بالبعثِ؛ إنَّ الذي ينالُ بالكفرِ بهِ مِنَ الرياسةِ والعزِّ كالذي ذكَرَ مِنْ صاحبِ الجنةِ أنهُ لا يودُّ ذلكَ الابْتِداء بما يَعلَمُ تلكَ العاقبةَ، فكذا ما ينبغي لهمْ، إذْ بيَّنَ لهمْ عواقبَ الكفرِ بمحمدٍ ﷺ أن يُؤثِرُوا الذي نالُوا بعدَ علمِهِمْ بشدةِ تلكَ العاقبةِ، واللهُ أعلمُ.

والمَثَلُ خرجَ على غيرِ ذكرِ الجوابِ فيهِ لِما قد جرى لهُ البيانُ لعلمِهِ بالمبعوثِ نبيًا[(١٠)]، أو بما في الحالِ التي [كانَ][(١١)] نزولُ الآيةِ دليلَ التعريفِ، أو بما أرادَ اللهُ امْتِحانَ السامِعينَ بالتأمُّلِ في الآيةِ لينالَ كلُّ ذي فضلٍ فضلَهُ، وليُكْرَمَ بهِ أهلُ التدبُّرِ في آياتِهِ في صَرْفِ وجوهِ مَنْ دونَهُمْ في الصدورِ عنْ آرائِهِمْ والاعْتِمادِ على إشارتِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وجملةُ ذلكَ أنَّ أفعالَ ذوي الاخْتِيار تكونُ للعواقبِ وما إليه مَرجِعُ الفاعلِ مقصوداً في الابْتِداءِ، فبيَّنَ لِمَنْ أغفلَ عنهُ بالذي عرفَ مِنْ حَيرةِ المسرورِ بجنتِهِ ممّا انكشفَتْ لهُ عاقبتُها حتى لعلَّهُ يودُّ أنْ لم تكنْ لهُ تلك، ليكونَ سرورُهُ بما يَحمَدُ عاقبتَهُ.فعلى هذا الأمرِ الأفعالُ التي يُغفَلُ عنْ عواقبِها إذا صارَ إليها صاحبُها، واللهُ الموفقُ.

الآية ٢٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فيه دليلُ وجوبِ الزكاةِ في أموالِ التجارةِ بقولِهِ: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ لأنَّ أموالَ التجارةِ هي التي تُكْتَسَبُ، وليسَ في كتابِ الله تعالى بيانُ وجوبِ الزكاةِ في أموالِ التجارةِ في غيرِ هذا الموضعِ، وليسَ فيهِ سُنَّةٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ولكنْ ذُكِرَ عنْ بعضِ الصحابةِ ﷺ القولُ بهِ، فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما قالُوا بهذهِ الآيةِ.

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: الآية. (٢) في النسخ الثلاث: يتأمله. (٣) وَضِعَتِ الورقة ذات الصفحتين (٦٢١و٦٢٢) في ط ع بعد الورقة ذات الصفحتين (٦٣٧و٦٣٨). (٤) في النسخ الثلاث: لوقت. (٥) في النسخ الثلاث: ترضوا. (٦) في النسخ الثلاث: بجنسه. (٧) ساقطة من م. (٨) في النسخ الثلاث: مثل. (٩) في النسخ الثلاث: ممن. (١٠) في الأصل: بينا، في ط ع وم: مبينا. (١١) ساقطة من النسخ الثلاث.

وأمّا زكاةُ الفضةِ والذهبِ والمواشي في مالِها ذكرٌ في الكتابِ والسنةِ فالزكاةُ تجبُ فيها لعينِها أكتُسِبَ بها، أم لم يُكتَسَبْ؟ وأمّا أموالُ التجارةِ فإنَّ الزكاةَ تجبُ فيها بالاكتِسابِ.

وفيهِ دليلُ أنَّ النفقةَ فيهِ لازمةٌ واجبةٌ لأنهُ قال: ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾؛ ذَكَرَ الإغماضَ، والإغماضُ لا يُذكَرُ في المعروفِ إنما يُذكَرُ في اللازمِ والواجبِ الذي لا مَخرَجَ لهُ عنهُ إلّا بالأداءِ إلّا عن عفوٍ وصفحٍ والرضا بدونِ الحقِّ، ثَبَتَ أنهُ على اللزومِ.

وفيه دليلُ وجوبِ الحقِّ في الرِّطابِ والخَضراواتِ لأنهُ ذكرَ في الآيةِ المَخرَجَ، والرِّطابُ هي تخرجُ مِنَ الأرضِ. وأمّا الحبوبُ فإنما تخرجُ مِنَ الأصلِ الذي [تَخرُجُ منهُ][1]. لذلك كانَ الرِّطابُ والخضرُ أولَى بوجوبِ الحقِّ مِن غيرِهِ بظاهرِ الآيةِ.

قال الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: والوجوبُ في الحبوبِ بما كانتْ تخرجُ مِنَ الحقوقِ، والحقوقُ[2] بظاهرِ هذهِ الآيةِ[3] في التي تخرجُ مِنَ الأرضِ.

وأمّا أبو يوسفَ ومحمدٌ، رحمَهما اللهُ تعالى، فإنهما قالا: يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يعني مِنَ الأصلِ الذي يَخرُجُ لكمْ مِنَ الأرضِ [كقولِهِ تعالى][4]: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ولا ينزلُ مِنَ السماءِ اللباسُ كما هو، ولكنْ أرادَ الأصلَ الذي يكونُ بهِ اللباسُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الروم: ٢٠و...] وهو لم يخلُقْنا مِنَ الترابِ، وإنما الأصلُ مِنَ الترابِ، وهو آدمُ ﷺ فعلى ذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلمُ.

والوجهُ فيه[5] أنهُ مَنَّ اللهُ تعالى علينا بما أخرجَ لنا مِنَ الأرضِ [مِنْ أنواعِ ما أخرجَ بحبةٍ تُلقَى في الأرضِ][6] فيفسُدُ فيها، فيخرُجُ منهُ النباتُ بلطفِهِ لا صنعَ لأحدٍ فيها، وتلكَ المِنَّةُ لا تكونُ على أربابِها خاصةً دونَ الفقراءِ كَهِيَ على أربابِها، لأنهُ أخرجَهُ رزقاً للكلِّ؛ ففيهِ حقُّ الفقراءِ والأغنياءِ جميعاً، ومِنْ ثَمَّ[7] جازَ وجوبُ العُشرِ على الصِّغَرِ[8]. ألا ترَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ و٦٤] [وقولِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾][9] [النمل: ٦٠]؛ قيلَ: [أأنتم][10] تُنبِتونَهُ أم نحنُ المنبِتونَ؟ وأمّا بعدَ النباتِ فيشتركُ العبادُ بالسقيِ والحفظِ وغيرِهِ، لذلكَ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ﴾ دلالةٌ على ألّا يُتَصَدَّقَ بالرديءِ عنِ الجيِّدِ؛ فإذا تصدَّقَ بهِ يلزمُهُ فضلُ ما بينَ الرديءِ إلى الجيِّدِ على قولِ محمدٍ، رحمَهُ اللهُ تعالى، بظاهرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ﴾، وعندَ أبي حنيفةَ [وأبي يوسفَ ﵄][11]: يجوزُ، ولا يختارُ لهُ ذلكَ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أطمعَ الناسَ قَبولَ ذلكَ إذا تغامَضُوا، فهو أحقُّ أنْ يُطمَعَ فيه القبولُ لكرمِهِ ولطفِهِ، ولأنهُ ليسَ لصفةِ ما يُكالُ، ويوزَنُ مِنْ نوعِهِ قيمةٌ؛ فإذا لم تكنْ لهُ قيمةٌ لا يلزمُهُ فضلُ الصفةِ.

الآية ٢٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾؛ قولُهُ: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ في الدنيا بالتصدُّقِ والإنفاقِ ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ بتركِ الصدقةِ، ويَحتمِلُ ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ في الدنيا بطولِ الأمَلِ وفناءِ المالِ، ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ بسوءِ الظَّنِّ بربِّهِ، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ﴾ بالصدقةِ ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾ وذِكراً[12] في الدنيا، ويَحتمِلُ/ ٤٩ ـ ب/ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ﴾ في الآخرةِ ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾ في الدنيا؛ يعني خَلَفاً[13]، وقيلَ: ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لكُمْ[14] لِفحشائِكُمْ ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾ لِفقرِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي غنيٌّ يَقْدِرُ على إخلافِ ما أنفقتُمْ ﴿عَلِيمٞ﴾ بجزاءِ صدقاتِكُمْ، ويَحتمِلُ ﴿عَلِيمٞ﴾

---

(١) في ط ع: يخرج منه، في الأصل وم: يخرج من. (٢) في ط ع: العقوق. (٣) في النسخ الثلاث: الوجوب. (٤) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٥) في النسخ الثلاث: منه. (٦) من ط ع وم. (٧) في ط ع: ثمة. (٨) من ط ع وم، في الأصل: الصغير. (٩) من ط ع. (١٠) ساقطة من ط ع. (١١) من ط ع، في الأصل وم: ﵁. (١٢) الواو ساقطة من ط ع. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: خلقا. (١٤) ساقطة من ط ع.

ما تنفقُونَ مِنَ الصدقةِ والهِبَةِ[1]. وفي قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ و﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦] ونحوِهِ [دلالةٌ أنَّ اللهَ تعالى][2] إنما رغَّبَ الناسَ على الصدقاتِ والنفقاتِ ابْتِلاءً ومحنةً منهُ لا حاجةً وفقراً.

الآية ٢٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾؛ قيلَ: الحكمةُ في هذا الموضعِ معرفةُ القرآنِ وتفسيرُهُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، وكذا رُوِيَ مرفوعاً، وقيلَ: الحكمةُ الفهمُ في القرآنِ، وقيلَ: [الحكمةُ الفقهُ، وقيلَ:][3] النبوَّةُ، وقيلَ الحكمةُ هي الإصابةُ. وفيهِ دليلُ جوازِ الاجتهادِ، وأنهُ مصيبٌ في اجتِهادِهِ.

قال الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: في قولِهِ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ الحكمةِ في هذا؛ قالَ قومٌ: هي القرآنُ، وهو على ما وصفَهُ ﴿نُورًا﴾ [النساء: ١٧٤، ...] و﴿هُدًى﴾ [البقرة: ٢، ...] و﴿رُوحًا﴾ [الشورى: ٥٢] و﴿شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢ و...]؛ والنور هو الذي تُبصَرُ بِهِ حقائقُ الأشياءِ، وبالهُدَى يُدرَكُ كلُّ [شيءٍ][4]، ويُتَّقَى كُلُّ تَلَفٍ، وبالروحِ يُحيِي كلَّ ذي رُوحٍ، وبالشفاءِ يُبرِئُ كلَّ سقيمٍ، وتُزالُ كلُّ آفةٍ. والذي هذا وصفُهُ فهو الخيرُ، وباللهِ المعونةُ. وقالَ قومٌ: الحكمةُ هي الإصابةُ لحقيقةِ كلِّ شيءٍ، وبها يُتَّقَى كلُّ شرٍّ، ويُنالُ كلُّ خيرٍ، وذلكَ الخيرُ الكبيرُ. وقالَ بعضُهُمْ: الحكمةُ هي السُّنَّةُ؛ كأنهُ أكرمَ رسولَ اللهِ ﷺ بالذي مَنْ سَلَكَهُ نَجا، ومَنْ حادَ عنهُ غَوَى.

[وقيلَ: في الأصلِ][5] الحكمةُ في التحقيقِ وضعُ كلِّ شيءٍ موضعَهُ، ودفعُ كلِّ حقٍّ إلى مَحَقِّهِ، وقيلَ: هيَ مِنْ إحكامِ الأمورِ وإتقانِها، وذلكَ مُقارِبٌ لِما يُضادُّ الحكمةَ السَّفَهُ، وهو في العقلِ الاضطِرابُ في الأمورِ، واللهُ أعلمُ.

وقالَ قومٌ: الحكمةُ في القرآنِ هي فهمُ الحدودِ والسرائرِ، وهو الذي بِهِ تُدرَكُ المُوافقةُ والمُخالفةُ مِنْ طريقِ الحقائقِ لا مِنْ طريقِ الظواهرِ، وذلكَ عملُ الحكماءِ ورُعاةِ الدينِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقالَ قومٌ: الحكمةُ هي الفقهُ، والفقهُ معرفةُ الشيءِ بمعناهُ الدالِّ على نظيرِهِ، وهو الذي بِهِ يُوصَلُ إلى معرفةِ الغائبِ بالشاهدِ والغامضِ بالظاهرِ والفرعِ بالأصلِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وأيُّ هذهِ الوجوهِ كانتِ الحكمةُ، فذلكَ يجمعُ خيرَ الدارَينِ، لو حُفِظَ حقُّهُ، والذي هذا وصفُهُ فهو الخيرُ الكثيرُ، وباللهِ المعونةُ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ اللهَ لا يُؤتي كُلًّا الحكمةَ، وإنْ كانَتْ فِعلاً للحكيمِ فبإعطاءِ اللهِ تعالى نالَها، وأنهُ لا يجوزُ أنْ يُعطيَها أحداً، ثم لا يَنالُها المُعْطَى، وهذهِ الوجوهُ كلُّها تخالِفُ رأيَ المعتزلةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا﴾ مِنْ حفظِ النفسِ في الدنيا عنْ جميعِ الآفاتِ، وفي الآخرةِ عنْ وقعِ العقوباتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يعني وما يتَّعِظُ بما ذكَرَ إلّا ذَوُو[6] الفهمِ والعقلِ.

وفي الآيةِ نقضٌ على المعتزلةِ لأنهُ قالَ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [ثم قالَ][7]: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ولا كلُّ أحدٍ يُؤتَى بعضاً دونَ بعضٍ. فلو كان على اللهِ تعالى أنْ يُعْطِيَ الأصلحَ في الدينِ لكانَ قد آتى الكُلَّ، وبَطَلَ الفضلُ، ومَنْ قالَ: يُؤتَى غيرُها فكانَ خلافَ ما في الكتابِ.

الآية ٢٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾؛ يَحتمِلُ نفقةَ المحارمِ، ويَحتمِلُ النفقاتِ التي تجري بينَ الخلقِ، ويَحتمِلُ المفروضَ مِنَ الصدقاتِ، ويَحتمِلُ غيرَها. ثم رُوِيَ عنِ ابنِ العباسِ رضي الله عنهما عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في قولِهِ: ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ [أنهُ قالَ][8]: «مَنْ نَذَرَ نَذْراً لَمْ يُسَمِّهِ فكفارَتُهُ كفارةُ يمينٍ، ومَنْ نذَرَ نذراً في معصيةٍ فكفارَتُهُ كفارةُ يمينٍ، ومَنْ نَذَرَ نذراً لم يُطِقْهُ فكفارَتُهُ كفارةُ يمينٍ، ومَنْ نَذَرَ نذراً أطاقَهُ فَلْيَفِ بِهِ» [ابن ماجه ٢١٢٨] فيهِ تنبيهٌ وتذكيرٌ أنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ صدقَهُمْ ونذرَهُمْ ليحتَسِبُوا في النفقةِ، ويُخلِصُوا، وفي النذرِ يُوفُوا بِهِ.

---

(١) في النسخ الثلاث: والحبة. (٢) من ط ع. (٣) في م: الفقه وقيل، ساقطة من ط ع انظر تفسير الآية (١٢٩) والآية (٢٣١). (٤) من ط ع.
(٥) من ط ع، في الأصل و م: وفي الأصل قيل. (٦) في النسخ الثلاث: ذو. (٧) من ط ع وم. (٨) في الأصل وم: قال، ساقطة من ط ع.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ قيلَ: يقبَلُهُ، وقيلَ: يأمُرُ بوفائِهِ، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾ أي يَعلَمُ ما وَفيتُمْ منهُ، فَيجزيكُمْ على ذلكَ، ويَحتمِلُ ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾ ما أردتُمْ بصدقاتِكُمْ ونذورِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ في الآخرةِ؛ يعني مُجيرٍ يُجيرهُمْ مِنَ العذابِ، وقيلَ: ما للظالمِينَ مِنْ شفيعٍ يَشفَعُ لهمْ ولا نصيرٍ ينصرُهُم لأنهُ ما مِنْ ظالمٍ إلّا ولَهُ في الدنيا ظهيرٌ.

الآية ٢٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ قالَ بعضُهُمْ: هيَ الفريضةُ، وقالَ آخرُونَ: هو تَطوُّعٌ[1]، وهو أوجهُ، وقالَ غيرُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ هيَ الفريضةُ، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ هي التطوُّعُ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: لا يُحتمَلُ الإخفاءُ في التطوُّعِ، والإبداءُ في الفرضِ لِما أخبرَ في الإخفاءِ أنهُ خيرٌ، ولا يكونُ التطوُّعُ خيراً مِنَ الفريضةِ، ومَنْ حَمَلَهُ على الفريضةِ يَسْتَحِبُّ أنْ يُظْهِرَ الزكاةَ المفروضةَ ليُقْتَدى بِهِ، ويرغِّبَ الناسَ عليها، ومنهُمْ مَنْ يستَحِبُّ الإخفاءَ أيضاً. ويقولُونَ: في الإبداءِ شيئانِ: الصدقةُ نفسُها والاقْتِداءُ.

وفي الإخفاءِ وجوهٌ:

أحدُها: الصدقةُ.

والآخرُ: تركُ المُراآةِ، وسلامتُها.

والثالثُ: الكفُّ عنِ المَنِّ والأذى. ومنهُمْ مَنْ حَمَلَ قولَهُ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ على الفريضةِ، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ على التطوُّعِ، وذهبَ إلى أنَّ الفريضةَ ليسَ فيها الرِّياءُ لأنهُ لا شيءَ عليهِ، فسواءٌ فيها الإبداءُ و الإخفاءُ[2]، وأمّا التطوُّعُ ففيهِ الرِّياءُ لأنهُ معروفٌ ليسَ عليهِ، والإخفاءُ لهُ أسلمُ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ فيهِ دليلٌ أنَّ مِنَ السَّيئاتِ ما تُكَفِّرُها الصدقةُ، ومنها ما لا تُكَفِّرُ، وقيلَ: إنَّ ﴿مِّن﴾ ههنا صلةٌ، ففيهِ إطماعُ تكفيرِ السيئاتِ كلِّها بالصدقةِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٥]. وهو نَقْضٌ على المعتزلةِ لأنهمْ لا يَرَونَ تكفيرَ الكبائرِ بغيرِ التوبةِ عنها، ولا التعذيبَ على الصغائرِ. فأمّا إنْ كانتِ الآيةُ في الكبائرِ فبطَلَ قولُهُمْ: لا تُكَفَّرُ بغيرِ التوبةِ، أو في الصغائرِ فيبطُلُ قولُهُمْ: إنها مغفورةٌ إذْ وُعِدَتْ بالصدقةِ لأنهمْ يخلِّدُونَ صاحبَ الكبائرِ في النارِ، واللهُ تعالى أطمعَ لهُ تكفيرَ السيئاتِ كلِّها بالصدقةِ، والله الموفقُ.][3]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيهِ وعيدٌ وتحذيرٌ أنهُ ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩] في الصدقةِ، ويَحتمِلُ ﴿تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ منْ جَزائِكُمْ. قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ، في قولِهِ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآيةَ[4] (جعلَ اللهُ تعالى صدقةَ السِّرِّ في التَّطوُّعِ تفضُلُ [على][5] علانيَتِها بسبعينَ ضِعْفاً وجعلَ صدقةَ الفريضةِ علانيَتُها أفضلُ مِنْ سِرِّها بخمسةٍ وعشرينَ ضِعْفاً، وكذلكَ جميعُ[6] الفرائضِ والنوافلِ في الأشياءِ كلِّها).

وفي بعضِ الأخبارِ عنِ النبيِّ ﷺ، [أنهُ][7] قالَ: «صدقةُ السِّرِّ تطفِئُ غضَبَ الربِّ» [الطبراني في الصغير ١٠١١]. و«صنائعُ المعروفِ تدفعُ[8] مصارعَ السوءِ» [الطبراني في الأوسط ٦٢٢٢] و«صلةُ الرحم تزيدُ في العمرِ» [ابن عساكر ٥/ ٢١٠] وعن[9] الحسنِ [أنهُ][10] قالَ: (الإبقاءُ على العمل أشدُّ مِنَ العملِ) وذلكَ إنَّ العبدَ لَيَعملُ العملَ سِرًّا، فَيُكتَبُ[11] لهُ عملُ السِّرِّ، فلا يزالُ بِهِ الشيطانُ حتى يُنسَخَ مِنْ عملِ السرِّ إلى عملِ العلانيةِ، ثم لا يزالُ بهِ. الشيطانُ حتى يحبَّ أنْ يُحمَدَ حتى يُكتَبَ له مِنْ عملِ العلانيةِ في الرياءِ.

(١) في ط ع: التطوع. (٢) من ط ع، في الأصل وم: الإظهار. (٣) من ط ع، أدرجت في الأصل وم بعد: العلانية في الرياء. (٤) أدرجت تتمة الآية في ط ع بدل هذه الكلمة. (٥) من ط ع. (٦) من ط ع و م، في الأصل: جمع. (٧) من ط ع. (٨) في ط ع: تفي. (٩) الواو ساقطة من النسخ الثلاث. (١٠) ساقطة من النسخ الثلاث. (١١) في النسخ الثلاث: فكتب.

الآية: ٢٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ أخبرَ أنهُ ليسَ عليهِ هداهُمْ، وعليهِ البيانُ والتبليغُ، فدَّ ل أنَّ هناكَ فضلَ هُدىً لا يملكُ هو ذلكَ، وهو التوفيقُ على الهُدَى والتحقيقُ لهُ.

وهذا يردُّ على المعتزلةِ، ويُكَذِّبُهُمْ: أنَّ كلَّ الهُدَى البيانُ. /٥٠ ـ أ/ ولو كان كلُّ الهدى بياناً لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ، يملكُ ذلكَ؛ إذْ عليهِ البيانُ، فدلَّ أنه لا يملِكُ الهُدى المرادَ في الآيةِ، فهو على ما ذكَرْناهُ مِنَ التوفيقِ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ أي حسابُ تركِ اهْتِدائِهِمْ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٥٢] و: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [آل عمران: ٢٠و..].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ أي مالٍ[1] ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ يعني فلأنفسِكُمُ الثوابُ. قيلَ: قولُهُ[2]: ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ يعني منفعتُهُ لَكُمْ.

وفي قولِهِ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ دلالةٌ على أنهمْ كانوا يتحرَّجونَ بالتصدُّقِ على أقربائِهِمْ مِنَ الكفارِ خشيةَ ما يقعُ مِنَ التعاوُنِ على ما اعتدُّوا مِنَ الدينِ؛ إذِ المكاسبُ لكلِّ أهلِ دينٍ إنما يقعُ مِنَ العقلاءِ مكانَ ما يُنفقونَ بهِ لأجلِ الدينِ. فبيَّنَ، جلَّ، وعَلا، أنَّ ذلكَ يقعُ لكُمْ ولأنفسِكُمْ وتكفيرِ ما ارتكبْتُمْ.

ثم في الآيةِ دلالةُ جوازِ الصدقةِ على الكفارِ ودليلُ جوازِ دفعِ الكفاراتِ إليهِمْ بقولِهِ[3]: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ فهو دليلٌ لأصحابِنا لأنهُ جعلَ هذهِ الصدقةَ مُكَفِّرَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ يعني يوفَّرْ عليكمْ ثوابَ صدقاتِكمْ، وإنْ كانَ التصدُّقُ على الكَفَرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ في حِرْمانِ الثوابِ والجزاءِ.

الآية: ٢٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ قيل [﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي][4]: مِنْ سبيلِ اللهِ، يعني حُبِسُوا بالفقرِ عن الجهادِ. وهو[5] كقولِهِ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١]، والعربُ تَستعمِلُ حروفَ الخفضِ بعضَها في [موضعِ][6] بعضٍ. ويَحتمِلُ قولُهُ: تعالى ﴿أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي حَبَسُوا أنفسَهُمْ في طاعةِ اللهِ، لا يَجِدُونَ ما يتَّجِرُونَ ولا ما يَحترِفُونَ ولا ما يَكتسِبُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للتجارةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ[7] لا يُظهِرُونَ السؤالَ، أي لا يَسألُونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ١٢٣] أي لا يشفعُ لهمْ، ويَحتمِلُ: فإنْ كانَ على السؤالِ فإنهمْ إذا سألُوا لم يلحِفُوا؛ دليلُهُ قولُهُ ﷺ: «مَنْ فتحَ على نفسِهِ باباً مِنَ المسألةِ فتحَ اللهُ عليهِ باباً مِنَ الفقرِ» [البيهقي في شعب الإيمان ٣٥٢٦] وما[8] ذُكِرَ في الخبرِ: «مَنِ اسْتغْنَى أغناهُ اللهُ، ومَنِ اسْتَعَفَّ أعفَّهُ اللهُ» [النسائي ٥/٩٨] وإنْ[9] كانَ على التعريضِ ففيهِ إباحةُ التعريضِ بينَ يَدَي أهلِ الجودِ والسخاءِ.

وقولُهُ: تعالى: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾؛ [قيلَ: ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ يعني التجَشُّعَ][10] وقيلَ: ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ بسيماءِ الفقرِ [عليهِمْ][11] ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ وقيلَ: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ أي بتحمُّلِهِمْ ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ أي إلحاحاً ولا غيرَ إلحاحٍ.

الآية ٢٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ قيلَ: هي النفقةُ على الخيلِ المحتبَسَةِ للجهادِ؛ ينفِقونَ ليلاً ونهاراً سِرًّا وعلانيةً لا رِياءَ فيها، ولا إضمارَ، وعنْ عليٍّ وأبي أمامةَ

---

(١) في م: أعمال. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) من ط ع، في الأصل م: يقول. (٤) من ط ع. (٥) من ط ع، في الأصل وم: و. (٦) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٧) من ط ع، في الأصل وم: أي. (٨) في النسخ الثلاث: ثم. (٩) في ط ع: أو إن. (١٠) في الأصل وم: سيماء التجشع وقيل، في ط ع: قيل ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ يعني التخشع، والتجشع: التحرص. انظر (اللسان). (١١) من ط ع.

[الباهليّ][(١)] ﷺ: (هي النفقةُ [على الخيلِ في سبيلِ الله) وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، [أنه قالَ: (هي][(٢)] في علفِ الخيلِ والنفقةُ عليها)][(٣)]، وقيلَ: نزلَتْ [هذهِ الآيةُ][(٤)] في نفقةِ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ في جيشِ العُسْرَةِ، وقيلَ: نزلَتْ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ، ﷺ، أنهُ لم يكنْ[(٥)] يملكُ مِنَ المالِ غيرَ أربعةِ دراهمَ، ويتصدَّقُ بدرهمٍ ليلاً، وبدرهمٍ نهاراً، [وبدرهمٍ سِرّاً][(٦)]، وبدرهمٍ علانيَةً، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما الذي حملَكَ على هذا؟» قالَ: «حملَني أنْ أستوجِبَ على اللهِ الذي وعَدَني» [النسائي ٨/ ٢٤٠]، فنزلتْ فيه هذهِ الآيةُ، وقيلَ. نزلَتْ في ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ الأنصاريِّ، فلا ندري في مَنْ نزلَتْ، وليسَ لنا إلى معرفةِ المُنْزَلِ بشأنِهِ حاجةٌ سِوَى أنهُ وصفَهُمْ بالجودِ والسخاءِ، ونفقتِهِمْ على الناسِ ليلاً سِرًّا وعَلانِيَةً، لا رِياءَ فيها، ولا منٌّ، ولا أذى.

وفيهِ نَفْيُ الرِّياءِ عنْ نفقتِهِمْ، لأنَّ مَنْ عوَّدَ نفسَهُ الفعلَ في جميعِ الأوقاتِ لم يُراءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنَّ نعيمَ الدنيا مَشوبٌ[(٧)] بالحزنِ والخوفِ، لذلكَ كانَ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا﴾؛ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ على حقيقةِ الأكلِ، ولكنهُ كانَ على الأخذِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]؛ فإذا كانَ هذا على الأخذِ فقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ هو على التمثيلِ ليسَ على التحقيقِ، وقالَ الآخرُ: هو على نفسِ الأكلِ، وما ذكرَ مِنَ العقوبةِ لما أكلوا مِنَ الرِّبا، لا يقومُونَ يومَ القيامةِ إلّا كما يقومُ المجنونُ المُخْنَقُ[(٨)]، وقالَ غيرُهُمْ: ذلكَ لِاسْتِحلالِهِمُ الرِّبا، وتَخْطيئِهِمُ[(٩)] اللهَ، جلَّ وعلا، في الحكمِ في تحريمِهِ[(١٠)] الرِّبا بقولِهِمْ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا﴾.

ثم قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا﴾ فيهِ دليلُ جوازِ القياسِ في العقلِ لأنهُ [لو لم يكنْ في العقلِ جوازُهُ][(١١)] لم يكنْ لقولِهِمْ: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا﴾ معنىً، لكنهم لم يعرفوا معنى المماثلةِ.

ثم المُماثَلَةُ على الوجهَينِ: مُماثَلَةِ أسبابٍ ومُماثَلَةِ أحوالٍ. فالمُماثلةُ التي هي مُماثَلَةُ أحوالٍ، هي ابْتِداءُ مِحنةٍ في الفعلِ، لا يُقاسُ على غيرِهِ نحوُ أنْ يُقالَ: اقعُدْ، أو أنْ يُقالَ: قمْ، لا يُقاسُ القيامُ على القعودِ، ولا القعودُ على القيامِ، إنما هو محنةٌ لا يُلزَمُ غيرُ المخاطبِ بهِ. وأمّا مُماثَلَةُ الأسبابِ فهي [سببُ][(١٢)] مُماثَلَةِ الأحوالِ نحوُ أنْ يُقالَ: حِرْمُ السُّكرِ في الخمرِ، وحيثُ ما وُجِدَ السكرُ يُحَرَّمُ، لأنهُ يجني على العقلِ، فكلُّ شيءٍ يجني عليه فهو محرَّمٌ التناوُلُ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا﴾؛ يقولُونَ: لمّا جازَ أنْ يُباعَ ثوبٌ[(١٣)] يساوي عَشرةً بِأَحَدَ عَشَرَةَ، كيفَ لا جازَ أنْ تُباعَ عشَرةٌ بِأَحَدَ عَشَرَةَ؟ وقيلَ: كانَ الرجلُ منهمْ إذا حلَّ مالُهُ على صاحبِهِ طلبَهُ، فيقولُ المطلوبُ للطالبِ: زِدني في الأجلِ، وأزيدُكَ على مالِكَ، فَيُفْضِلانِ على ذلكَ، ويَعْمَلانِ بهِ، فإذا قيلَ لهما[(١٤)]: هذا رِباً، قالا[(١٥)]: هما سَواءٌ الزيادةُ في البيعِ أو الزيادةُ عندَ حِلِّ البيعِ، فأكذبَهُمُ اللهُ تعالى في ذلكَ، [وقالَ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ أي ليسَ هكذا البيعُ كالرِّبا][(١٦)]، ويَحتمِلُ: فيه ابْتِداءُ حرمةِ أنْ حَلَّ ما هو بيعٌ لا ما هو رِباً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا﴾؛ فلقائلٍ أنْ يقولَ: إنما يحرُمُ منهُ قدرَ الربا، وأما العَقْدُ فإنهُ يجوزُ لِما ليسَ فيه رِباً. لكنَّ الأصلَ عندنا فيهِ أنَّ الدرهمَ الزائدَ بأخذِ [مِنْ][(١٧)] كُلِّ درهمٍ مِنَ العشرةِ قِسطاً منهُ وجزءاً مِنْ أجزاءِ كلِّ درهمٍ منهُ، فلا سبيلَ إلى إمضاءِ العقدِ لأخذِ أجزائِهِ [مِنْ][(١٨)] كلِّ درهمٍ مِنَ الذي فيهِ العقدُ، وهو رباً.

وفيه وجهٌ آخرُ؛ وهو أنهُ ختمَ الكلامَ على[(١٩)] قولِهِ: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ولا يُزادُ رأسُ المالِ في العقدِ قدْ مضى. ثم معرفةُ الرِّبا مِنْ غيرِ الرِّبا ما ليسَ بإرادةِ بَدَلٍ.

---

(١) من ط ع. (٢) في ط ع: عنه أنه قال هي، في م: عنهما قال. (٣) من ط ع وم، في الأصل: عليها. (٤) من ط ع. (٥) ساقطة من ط ع.
(٦) من ط ع. (٧) في النسخ الثلاث: مشوبة. (٨) في ط ع: المنخنق. (٩) في النسخ الثلاث: وتخبيطهم. (١٠) في النسخ الثلاث: تحريمهم.
(١١) من ط ع، ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) في النسخ الثلاث: ثوباً. (١٤) من ط ع، في الأصل وم: لهم.
(١٥) من ط ع، في الأصل وم: قالوا. (١٦) من ط ع، في الأصل وم، وقال: ليس هكذا. (١٧) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٨) في ط ع: عله.
(١٩) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

ثم فيه دلالةٌ أنَّ حرمةَ الربا كانَ ظاهراً عندَهُمْ حتى حَكَوا، وكانَ، حرمتُهُ فيما بينَهُمْ، كَهُوَ في ما بينَ أهلِ الإسلامِ؛ [لذلكَ قالَ أبو حنيفةَ رحمه الله: إنه لا يجوزُ بيعُ الرِّبا في ما بينَ أهلِ الإسلامِ][1] وبينَ أهلِ الذمةِ. وعلى ذلكَ خرجَ الخطابُ منه ﷺ بقولِهِ: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] وقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾؛ قيلَ: [﴿مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾][2] بيانُ تحريمِ الرِّبا، [وقيلَ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ نهيٌ في القرآنِ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في تحريمِ الربا][3] ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عنِ الربا، وتحتمِلُ الموعظةُ التذكيرَ[4] لِما سبقَ، فيتذكَّرُ، فيرجِعُ عَنْ صنيعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾؛ قيلَ[5] فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [ما لَهُ][6] في الجاهليةِ صارَ مغفوراً لهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾: وذلكَ أنَّ الكافرَ إذا تابَ، ورجَعَ عنْ صنيعِهِ، يرجِعُ، لا أنْ يعودَ إلى فعلِهِ أبداً، ويندَمُ على كلِّ سيئةٍ ارتكبَها، فيجعلُ اللهُ كلَّ سيئةٍ كانَتْ منهُ حسنةً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُولَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في حادثِ الوقتِ[7] أنْ يعصِمَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ إنَّ المعتزلةَ استدلُّوا على الوعيدِ لأهلِ الإسلامِ بما ذكَرَ فيهِ مِنَ العَودِ، لكنَّ بدءَ الآيةِ على الاسْتِحلالِ. فعلى ذلكَ العودُ إليهِ على جهةِ الاسْتِحلالِ/ ٥٠ ـ ب/، يدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فأثبتَ لهُ الكفرَ بالذي كانَ منهُ في الابْتِداءِ، وهو الاسْتِحلالُ، فكذلكَ العَودُ.

الآية ٢٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾؛ قيلَ: ﴿يَمْحَقُ﴾ يُهلِكُ، وقيلَ[﴿يَمْحَقُ﴾][8] يُبْطِلُ، ولكنَّ أصلَ المَحْقِ هو رفعُ البركةِ؛ وذلكَ أنَّ الناسَ يقصِدُونَ بجمعِ الأموالِ والشُّحِّ عليها لينتفِعَ أولادُهُمْ مِنْ بعدِهِمْ إشفاقاً عليهِمْ، وكذلكَ يمتنِعونَ عنِ التصدُّقِ على الناسِ، فأخبرَ اللهُ تعالى [أنَّ][9] الأموالَ التي جُمِعَتْ مِنْ جهةِ الرِّبا[10] لا ينتفِعُ أولادُهُمْ بها، وهو الأمرُ الظاهرُ في الناسِ، وأخبرَ أنَّ الصدقاتِ التي لا يمتنِعونَ عنِ الإنفاقِ عنها تُربي، وتَخلُفُ أولادَهُمْ إذا تَصدَّقُوا، ويَمْحَقُ الرِّبا؛ ويرفعُ البركةَ عنها حتى لا ينتفِعَ أولادُهُمْ بها؛ وهو ما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «كلُّ متبايِعَينِ بالخِيارِ، ما لم يتفرَّقا، فإنْ صدَقا، وبيَّنا، بُورِكَ لهما فيهِ، وإنْ كذَبا، وكتَما، مُحِقَتْ عنهُما البركةُ» [البخاري: ٢١١٠].

الآية ٢٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآيةُ ظاهرةٌ.

الآية ٢٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: قولُهُ[11]: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ﴾ عُمُرِكُمْ ﴿ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ إذا صِرتُمْ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾، وقيلَ: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ الذي [لم][12] تقبضُوا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الرِّبا الذي لم يُقبَضْ، إذا وردَ عليهِ حرمَةُ القبضِ أفسَدَتْهُ؛ لذلكَ قالَ أصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ تعالى،: إنَّ فوتَ القبضِ عنِ المبيعِ يوجبُ فسادَ العقدِ كما كان فوتُ قبضِ الرِّبا في ذلكَ العقدِ أوجبَ منعَ قبضِ الرِّبا، والذي يدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩] فأوجبَ الفسخَ فيهِ حتى أوجبَ ردَّ رأسِ المالِ.

وفي الآيةِ دليلُ وجهٍ آخرَ، وهو أنهُ جعلَ حدوثَ الحرمةِ المانعةِ للقبضِ يرتفعُ بهِ العقدُ في فسادِ العقدِ، فعلى ذلكَ يجعلُ حدوثَ شيءٍ في عقدٍ معقودٍ قبلَ القبضِ كالمعقودِ عليهِ في [اسْتِيجابِ حقِّهِ][13] مِنَ الثمنِ.

---

(١) من ط ع. (٢) و (٣) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٤) أدرج قبلها في النسخ الثلاث: هي. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) في ط ع و م: له، ساقطة من الأصل. (٧) من ط ع و م، في الأصل: الوقف. (٨) من ط ع. (٩) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٠) ادرج بعدها في النسخ الثلاث: ان (١١) ساقطة من ط ع. (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: استيجار حصته.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ وقولُهُ ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [الآية: ٢٧٩] فيهما[١] دلالةٌ أنَّ ماجرَتْ بينَ أهلِ الإسلامِ وأهلِ الحربِ مِنَ المُداينات والمقايضاتِ، ثم أسلَمُوا، تُرَدُّ، وما أخذُوا قَهراً لا يردُّونَ؛ وذلكَ أنَّ الربا الذي قبضُوا لئلا يُرَدَّ فلم يؤمَرْ بردِّهِ. فعلى ذلكَ ما أخذُوا قَهراً أخذُوا لئلا يُرَدَّ لم يجبْ ردُّهُ، وأمّا رأسُ [المالِ][٢] فإنما أخذُوا للرَّدِّ. فعلى ذلكَ ما أخذَ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ دَيناً أو قرضاً يجبُ ردُّهُ؛ ففيهِ دليلٌ لقولِ أصحابِنا، رحمَهُمُ اللهُ تعالى: على ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ عن ابن عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ][٣]: (فمَنْ كانَ مُقيماً على الرِّبا مُستحِلاً لهُ، لا ينزِعُ عنهُ فحقٌّ على إمامِ المسلمينَ أنْ يَستتيبَهُ، فإنْ [تابَ، و][٤] نزَعَ عنهُ، وإلّا ضَرَبَ عنقَهُ).

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ فيهِ لغتانِ[٥] بالقطعِ والوصلِ؛ فمَنْ قرأ بالقطعِ فهو على الأمرِ بالإعلامِ لِمُستحِلّيهِ، أنهُ يصيرُ حرباً لهُ بالاستِحلالِ، ومَنْ قرأ بالوصلِ فهو على العلمِ كأنهُ قالَ للمؤمنينَ: إنهُ حربٌ لنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾؛ عنِ ابنِ عباسٍ، رضي الله عنه [أنهُ قالَ][٦]: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي[٧] فتَرْبُونَ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فتَنْقُصونَ.

وقتادةُ، رضي الله عنه، يقولُ: (بطلَ الرِّبا، وبقيَتْ رؤوسُ الأموالِ).

الآية ٢٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾؛ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ: (﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾][٨] هو المطلوبُ، وهو في الرِّبا).

وفيه جوازُ التَّقَلُّبِ في البيعِ الفاسدِ؛ لأنهُ جعلَ لأربابِ الأموالِ النظرةَ إلى ميسرةِ مَنْ عليهِ المالُ؛ فلو كانَ لهُ حقُّ أخذِهِ حينما وجدَهُ بعدَ ما تناسخَتِ الأيدي أو كانَ لهُ حقُّ تضمينِ مَنْ هو أغنى لم يكنْ لإنظارِ المُعْسِرِ إلى وقتِ المَيْسَرةِ معنىً، ولكنْ يحتاجُ تضمينَ أيسرِهِمْ وأغناهُمْ إذا كانَ يقدِرُ، فلهُ خصومَتُهُ.

وإذا كانَ شرطٌ سقطتِ الخصومةُ كما تقولُ في الذي يكفلُ عن مُعْسِرٍ أو عمَّنْ أجّلَ. ثم النظرةُ بالاختيارِ ممَّنْ لهُ الحقُّ لا أنهُ يكونُ هكذا شاءَ هو أو أبى؛ دليلُهُ قولُهُ، صلى الله عليه وسلم، «لِصاحبِ الحقِّ اليدُ واللسانُ» [ابن عدي في الكامل ٧/ ٥٣٤] أمّا اللسانُ فيتقاضاهُ، وأمّا اليدُ فيلازِمُهُ بها، ويحبِسُهُ، ولكنَّهُ إذا أجّلَ على نفسِهِ حقَّ اللسانِ واليدِ إلى أنْ يمضيَ ذلكَ الوقتُ، ثبتَ لهُ حقُّ اللسانِ واليدِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني برؤوسِ الأموالِ إذا ظهرَ إعسارُهُ.

وعنِ الضَّحّاكِ [رضي الله عنه، أنهُ][٩] قالَ في قولِهِ: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أخذُ رأسِ المالِ حسنٌ، وتركُهُ أحسنُ، وإنما الصدقةُ على المُعْسِرِ، فأمّا المُوسِرُ فلا. وفيه جوازُ صدقةِ الدَّينِ وهِبَتِهِ مِمَّنْ عليهِ دينٌ، وهو الأخيَرُ لهُ إذا ظهرَ إعسارُهُ وفقرُهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ [ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾][١٠]؛ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ هذهِ الآيةَ آخرُ ما نزلَتْ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه فإنْ كانَ ما ذكرُوا فهو، واللهُ أعلمُ، أنهُ عز وجل رغَّبَهُمْ في ذكرِ ذلكَ اليومِ لِما في تركِ ذكرِهِ طولُ الأملِ، وطولُ [الأملِ][١١] يُورِثُ الحِرصَ، والحِرصُ يُورِثُ البخلَ، ويشغَلُهُمْ[١٢] عنْ إقامةِ العباداتِ والطاعاتِ. فإذا كانَ كذلكَ فأحقُّ [ما نَختُمُ بهِ القرآنَ هذا النداءُ لئلا][١٣] يتركُوا ذكرَ ذلكَ اليومِ، فيَسقُطوا عن منزلِهِ والجزاءِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في النسخ الثلاث: فيه. (٢) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (٤) من ط ع. (٥) قرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم: فآذنوا مفتوحة الهمزة والذال المكسورة وقرأ الباقون ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ ساكنة الهمزة، انظر (حجة القراءات) ص(١٤٨). (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) ساقطة من ط ع. (٨) في النسخ الثلاث: ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ قالَ. (٩) من ط ع. (١٠) من ط ع. (١١) من ط ع. (١٢) في النسخ الثلاث: ويشغله. (١٣) في النسخ الثلاث: أن ما يختم القرآن هذا البلاء.

قالَ الشيخ، رحمَهُ اللهُ تعالى: ويصيرُ كأنهُ قالَ: اتَّقُوا وعيدَهُ تعالى في جميعِ ما يعِدُكُمْ وما ألزمَكُمْ مِنَ الحَقِّ.

الآية ٢٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ فيهِ دليلُ جوازِ السَّلَمِ مِنْ قولِهِ: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ لأنَّ المداينةَ هو فعلُ اثْنينِ، وهو السَّلَمُ نفسُهُ لأنهُ دينٌ مِنَ الجانبَيْنِ جميعاً. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ، ﷺ، أنهُ قال: (اشْهَدوا[1] أنَّ السَّلَمَ المضمونَ مِمّا أجازَهُ اللهُ تعالى في كتابِهِ الكريم) ثم تلا هذهِ الآيةَ.

فأمّا الخبرُ الذي جاءَ أنهُ نَهى عنِ [الدَّينِ بالدَّينِ][2] فإنَّ ذلكَ على فَوتِ القَبضِ فيهِ؛ دليلُهُ جوازُ ما كانَ دَيناً بِدَينٍ إذا قبضَ أحدُ الجانبَينِ. وقالَ آخرونَ: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ هو بيعُ كُلِّ دَينٍ إلى أجلٍ مُسمًّى، فهو يُسَمَّى التداينَ كما يُسَمَّى البائعُ والمشتري المُتبايِعَينِ[3] لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما بائعٌ في وجهٍ [ومشترٍ في وجهٍ][4]. فعلى ذلك المداينةُ والتداينُ، وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ فالعرفُ في الإسلامِ عندَ الناسِ ألّا يُخَلّى عنِ الأجل، فصارَ الأجلُ بالعرفِ شرطاً في جوازِ السَّلَمِ، وإنْ لم يُؤَجَّلْ؛ لأنَّ الرجلَ لا يُسَلِّمُ السَّلَفَ ليؤدِّيَهُ حالةَ الإسلافِ؛ لأنَّ الحاجةَ هي التي تحمِلُهُ على الإسلافِ؛ فهو إنما يَتَسَلَّفُ ليؤدِّيَهُ في وقتٍ ثانٍ لأنهُ لو كانَ عندَهُ حاضراً لا يحتاجُ إلى غيرِهِ، ولكنَّهُ يبيعُهُ، فيصلُ إلى حاجتِهِ، ولا يَتَحَمَّلُ المَؤُنَةَ العظيمةَ، فصارَ في العرفِ كأنهُ بأجلٍ يَتَسَلَّفُ[5] لتركِ بيانِ الأجلِ، واللهُ أعلمُ. وعلى ذلكَ [رُوِيَ][6] عن رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «مَنْ أسلَفَ فَلْيُسَلِّفْ في كَيلٍ معلومٍ وَوزنٍ معلومٍ إلى أجلٍ معلومٍ» [البخاري: ٢٢٤٠].

ثم أمَرَ ﷻ، بالكتابةِ في التدايُنِ بقولِهِ: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾، وذلكَ، واللهُ أعلمُ لأنهُ وصلَ إلى حاجتِهِ بقبضِ رأسِ المالِ، والآخرُ لم يصلْ، فلعلَّ ذلكَ يحمِلُهُ على إنكارِ الحقِّ والجحودِ، فأمرَ ﷻ بالكتابةِ احْتِرازاً عنِ الإنكارِ وجحودِ الحقِّ لهُ؛ لأنهُ إذا تذكَّرَ أنهُ كتبَ، وأشهدَ عليهِ، يرتدِعُ عنِ الإنكارِ والجحودِ. فهو كما ذكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] لأنهُ إذا ذكرَ أنهُ يُقتَلُ ارْتَدَعَ عنْ قتلِ غيرِهِ، فكذلكَ / ٥١ ـ أ/ إذا ذكرَ أنهُ مكتوبٌ عليه يمتنِعُ عنِ الإنكارِ والجحودِ لِما يخافُ ظهورَ كذبِهِ وفضيحتِهِ على الناسِ، واللهُ أعلمُ.

ولا كذلكَ مع العينِ بالعينِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما لا يصلُ إلى حاجتِهِ إلّا بما يصلُ إليهِ الآخَرُ، فليس هنالكَ للإنكارِ معنىً، لذلكَ لم يُؤمَرْ بالكتابةِ في بيعِ الأعيانِ، وأُمِرَ في المُداينات، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ الأمرُ بالكتابةِ في التدايُنِ وجهاً[7] آخرَ، وهو أنهُ يجوزُ أنْ يَنْسى، فينكِرَ ذلكَ، أو يَنْسى بعضَهُ ويذكُرَ بعضاً[8]، فأمرَ اللهُ تعالى بالكتابةِ لئلا يبطُلَ حقُّ الآخرِ بتركِ الكتابةِ، ولا كذلكَ بيعُ العينِ لذلكَ افْترَقا، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: والنسيانُ يعقبُ التنازعَ، والمنازعةُ توجبُ التخالفَ، وفيه الفسادُ، فأمرَ بالكتابةِ لدفعِ ذلكَ وللوفاءِ بالحقِّ ودفعِ الخصوماتِ، واللهُ أعلمُ.

ولا يَحتمِلُ ألّا[9] يفرضَ الكتابةَ، وأكثرُ ما فيهِ أنْ يحفَظَ الحقَّ، ولِمَنْ لهُ تركَهُ، كذلكَ ألّا يقبضَهُ معَ ما ليسَتْ في عقدٍ أو فسخٍ، فيُكلَّمُ بوجوبٍ واختيارٍ، إنما هي للحقِّ، فلهُ فعلُ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

ثم اختُلِفَ في الكتابةِ: قالَ بعضُهُمْ: هي واجبةٌ لازمةٌ، واسْتَدلُّوا على وجوبِها بقولِهِ تعالى:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أخبرَ برفعِ الجُناحِ في التجارةِ الحاضرةِ، فلو كانَتْ في المُدايَنةِ [غيرَ واجبةٍ لم يكنْ لرفعِ الجُناحِ فيها معنىً، فدلَّ أنها لازمةٌ في المدايَنةِ][10] حينَ رفعَ الجُناحَ منها.

وأمّا عندَنا فهيَ ليسَتْ بواجبةٍ لأنهُ قالَ ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ثم أمرَ، فقالَ[11]: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]؛ ذكرَ الرهنَ بدلاً عنِ الكتابةِ، ثم ذكرَ تركَ

---

(١) في ط ع: أشهد. (٢) في الأصل وم: الدين، في ط ع: الدين بدين. (٣) في النسخ الثلاث: المتبابعان. (٤) من ط ع. (٥) في النسخ الثلاث: يفسد. (٦) من ط ع. (٧) في النسخ الثلاث: وجه. (٨) في النسخ الثلاث: بعض. (٩) في النسخ الثلاث: أن. (١٠) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١١) في النسخ الثلاث: قال.

الرهنِ بالإئتمانِ. فإذا كانَ لهُ تركُ الإرتهانِ بالإئتمانِ، وهو بدلُ الكتابة، فعلى ذلكَ لهُ تركُ الكتابةِ بالإئتمانِ إنْ كانَ أصلُهُ مفروضاً لم يَحتمِلْ تركَ بدلِهِ بالإئتمانِ. فإذا ذلكَ لهُ دلَّ أنه ليسَ بمفروضٍ ولا لازمٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ فهذا لأنَّ الكاتبَ مأمونٌ عليهِ، فيؤدّي حقَّ ما ائْتُمِنَ فيه، لا يزيدُ على ما أُمْلِيَ عليهِ بالنصيحةِ وأداءِ الأمانةِ. وهكذا الواجبُ على كلِّ مُحكَّمٍ[1] بينَ اثْنينِ أنْ يحكمَ بالعدلِ والنصيحةِ وأداءِ الأمانةِ لقولِهِ[2] تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وقولِهِ[3] تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] وقولِهِ[4] تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾؛ قالَ بعضُهُمْ: هذا؛ وذلكَ لأنَّ[5] الكَتَبَةَ كانُوا في صدرِ الإسلامِ قليلاً، فَنُهُوا عنْ تركِ الكتابةِ إذْ في ذلكَ بطلانُ حقوقِ الناسِ وذهابُها.

وأمّا اليومَ فلا بأسَ بالإنباءِ عليها [مَنْ][6] لم يجدْ مَنْ يكتبُ لهُ بالأجرِ، فلا يبطُلُ حقُّهُ.

وفيه وجهٌ آخرُ، وهو أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ [أي لا يأبَ الكاتبُ][7] إذا كتبَ أنْ يكتبَ بالعدلِ، أي لهُ تركُ الكتابةِ، ولكنَّهُ[8] إذا كتبَ لا يكتبُ إلّا بالعدلِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ وهو نقضٌ على المعتزلةِ لأنهُمْ يقولونَ: يكتبُ، وإنْ لم يعلِّمْهُ اللهُ، واللهُ ﷻ أخبرَ أنهُ يكتبُ بتعليمِ اللهِ إياهُ، ولو كانَ التعليمُ مِنَ اللهِ إتيانَ الأسبابِ لم يكنْ لقولِهِ[9] تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩] معنىً لأنه قد أعطى أسبابَهُ. والعدلُ ما ذكرْنا: ألّا يزيدَ على الحقِّ ولا يُنقِصَ منهُ، وأصلُ العدلِ هو وضعُ الشيءِ موضعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ ما عليهِ ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ [وَلَا يَبْخَسْ﴾][10] ولا يُنقِصْ ﴿مِنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ ففيهِ دلالةٌ على أنَّ القولَ قولُهُ في قدرِ الحقِّ حيثُ أوعدَ في ما يُملَى على الكاتبِ ألّا يُنقِصَ مِنْ حقِّ الطالبِ شيئاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ قالَ قائلونَ: هذا كلُّهُ واحدٌ: السفيهُ والضعيفُ والذي لا يستطيعُ أنْ يُمِلَّ، وقالَ آخرون: بل يختلفُ: السفيهُ: هو الصغيرُ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾، والضعيفُ: هو المريضُ الذي لا يقدرُ أنْ يُمِلَّ، والذي لا يستطيعُ أنْ يُمِلَّ: هو الجاهلُ الذي لا يعرفُ أنْ يُمِلَّ.

ثم اختُلِفَ في الوليِّ: قالَ بعضُهُمْ: الوليُّ هو صاحبُ الحقِّ، يُمِلُّ بالعدلِ بينَ يدي مَنْ عليهِ الحقُّ لئلا يزيدَ على ذلكَ شيئاً، فإنْ زادَهُ، أو نقصَهُ، أنكرَ عليهِ صاحبُهُ، وقالَ آخرونَ: الوليُّ هو وصيُّ الصغيرِ أو ذو النسبِ[11] منهُ.

ثم المسألةُ في الحِجْرِ؛ قالَ أبو حنيفةَ ﷺ: (الحِجْرُ لا يُمْنَعُ عقودُهُ) وقالَ محمدُ بنُ الحسنِ: (لا يجوزُ عقودُهُ، ولكنَّ الوليَّ هو الذي يتولّى ذلكَ اسْتِدلالاً بظاهرِ قولِهِ: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ وإنما جعلَ الإملاءَ إلى الوليِّ لا إليهِ، ولو كانَ يجوزُ إملاؤُهُ لكانَ لا معنى لجعلِ ذلكَ إلى غيرِهِ، دلَّ أنهُ لا يجوزُ).

وأمّا أبو حنيفةَ ﷺ فإنهُ ذهبَ إلى أنهُ يجوزُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أجازَ تداينَهُ، فدلَّ أنَّ الحِجْرَ لا يمنعُ العقدَ عليهِ ولا تداينَهُ، ولأنَّ السفيهَ لم يستفِدِ الإذنَ مِنَ السلطانِ إنما اسْتفادَهُ عنِ اللهِ تعالى، ولا يجوزُ حِجْرُ مَنْ لم يستفدِ الأذانَ[12] منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ لم يجعَلِ الإشهادَ شرطاً في جوازِ البيعِ، ولكنهُ معطوفٌ على قولِهِ ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾؛ أمرَ ﷻ بالإشهادِ في البيعِ والتداينِ للمعنى الذي ذكرْنا: أنَّ تركَ الإشهادِ والكتابةِ يَحمِلُهُ على الإنكارِ

(١) من ط ع وم، في الأصل: يحكم. (٢) في النسخ الثلاث: كقوله. (٣) في النسخ الثلاث: وكقوله. (٤) في النسخ الثلاث: وكقوله. (٥) في النسخ الثلاث: أن. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) من ط ع. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من ط ع، في الأصل وم: كقوله.
(١٠) من ط ع. (١١) من ط ع، في الأصل و م: النصب. (١٢) في ط ع و م: الإذن.

وجحودِ الحقِّ، فإذا كانَ هنالكَ شهودٌ وكتابٌ يمتنعُ عنِ الإنكارِ لخوفِ(١) ظهورِ الكذبِ، ولم يَصِرْ شرطاً في جوازِ التدايُنِ لأنَّ الإشهادَ إنما ذُكِرَ بعدَ المدايَنةِ والمبايعةِ، وكذلكَ الكتابةُ، فهو لِما ذكَرْنا: أنَّ الإنسانَ مِنْ طبعِهِ النسيانُ والسهوُ، فأُمِرَ بالإشهادِ والكتابةِ لئلا يَنْسَى، أو يَحمِلَهُ تركُ الإشهادِ والكتابةِ على الإنكارِ.

وأمّا الأمرُ بالإشهادِ في النكاحِ ففي عقدِ النكاحِ نفسِهِ؛ دليلُهُ قولُهُ [ﷺ](٢): «لانكاحَ إلّا بشهودٍ» [نصب الراية ٣/ ١٦٧] لذلكَ صارَ شرطاً في عقدِ النكاحِ، ولم يَصِرْ شرطاً في المبايعةِ. ووجهٌ آخرُ [وهوَ](٣) أنَّ الشهادةَ في النكاحِ تدفعُ تُهَمَةَ الزِّنَى عنهما، وقد يحوجُ إليهِ في أوّلِ أحوالِهِ، والحاجةُ إلى الشهادةِ في البيعِ إلى ما يتعقَّبُ فيهِ مِنْ تَوَهُّمِ وقوعِ التنازعِ؛ إذْ لَهُ بذلُ ملكِهِ للآخَرِ مِنْ غيرِ عقدِ بيعٍ، وليسَ لها بذلُ فرجِها لهُ مِنْ غيرِ عقدِ النكاحِ. لذلكَ صارَ الإشهادُ شرطاً في عقدِ(٤) النكاحِ، ولم يكنْ شرطاً في البيعِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ في الآيةِ دلالةٌ [على أنَّ](٥) مَنْ قضى بالشاهدِ واليمينِ قضَى بخلافِ ظاهرِ الكتابِ، وهو أيضاً خلافُ السنةِ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ ليسَ هو الإشهادَ، إنما هو الإحضارُ للشهادةِ؛ إذِ العجزُ لا يقعُ في الإشهادِ إنما يقعُ عندَ الاستِحضارِ، ولو كانَ بِيَمينِهِ غُنْيَةٌ لم يأمُرِ المرأتينِ هتكَ سترِهِما، ولأنَّ الآيةَ ذكَرتْ حقَّ القضاءِ في المباهاةِ الواقعةِ، والأحكامُ إلى سبيلِها لزومُ الفصلِ بالقضاءِ بينَ أربابِها. فمَنْ فصلَ القضاءَ [بالقضاءِ](٦) بالشاهدِ واليمينِ جعلَ على خلافِ ما جعلَهُ مَنْ لَهُ نَصْبُ الشرائعِ والحججِ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وأمّا مخالفةُ السنةِ فقولُهُ ﷺ «البيِّنَةُ على المُدَّعِي واليمينُ على المُدَّعى عليه» [الترمذي ١٣٤١] فإذا أتى بشاهدٍ واحدٍ لم يخرُجِ الآخرُ مِنْ أنْ يكونَ مُدَّعًى عليهِ؛ فإذا كانَ كذلكَ، وقد جعلَ النبيُّ ﷺ حُجَّةَ المُدَّعَى عليهِ اليمينَ، ولم يجعلِ اليمينَ حُجَّةَ المدَّعِي، فلذلكَ(٧) قلنا: إنهُ المخالفُ لظاهرِ(٨) الكتابِ والسنةِ، ولأنَّ اللهَ تعالى جعلَ المرأتينِ/ ٥١ ـ ب/ في حالِ الضرورةِ، وهو حالُ عدمِ الرجلِ. فلو كان يجوزُ القضاءُ بالشاهدِ واليمينِ لم يُحتَجْ إلى أنْ يكلَّفَ النساءُ مِنَ الخروجِ إلى أبوابِ القضاءِ والسلاطينِ لأداءِ الشهادةِ، وفي ذلكَ هتكُ السترِ عليهنَّ وكشفُ عورتِهنَّ وتَكَلُّفُ القضاءِ فضلَ التفحُّصِ في حالِهِنَّ ومعرفتِهِنَّ، لذلكَ بطَلَ القضاءُ بالشاهدِ واليمينِ، واللهُ أعلمُ.

فإنْ قيلَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ إنهُ قضَى بهِ، قيلَ: إنهُ لمْ يُرْوَ أنهُ في ما قضى: في الأموالِ؟ فلو(٩) ثبتَ أنهُ في ما قضى لَكُنّا نقضي بهِ.

ثم قالَ الصحابةُ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ: إنهُ قضَى بالشاهدِ واليمينِ في الأمانِ.

ونحنُ نقضِي بعضَ أحكامِ الأمانِ بالشاهدِ الواحدِ إذا كانَ عَدْلاً، واليمينُ بابُ ما يُحتاطُ فيهِ إذا شَهِدَ شاهدٌ أنهُ أمَّنَهُ لم يُقبَلْ، ولكن يُسْتَرَقُّ. وأمّا الأموالُ فإنَّ الاحتياطَ في ذلك تركُ القضاءِ إلى أنْ تقومَ الحُجَّةُ التي تُزيلُهُ الشبهةُ مِنْ جميعِ الوجوهِ، وباللهِ التوفيقُ.

وأمّا شهادةُ النساءِ فإنها جائزةٌ في الأموالِ وفي غيرِ الأموالِ إلّا في الحدودِ خاصةً فإنها غيرُ مقبولةٍ. أمّا جوازُها في غيرِ الحدودِ [فمقبولٌ](١٠) لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَ التدايُنَ، وذكرَ في التدايُنِ الأجلَ، والأجلُ ليسَ بمالٍ. ثم أجازَ شهادتَينِ في التدايُنِ وفي الأجلِ الذي ليس هو بمالٍ. دلَّ ذلكَ أنَّ علَّةَ جوازِ شهادتَينِ ليس هو الماليةَ نفسَها، وأُجيزَتْ شهادَتُهُنَّ في الماليةِ وفيهِ، وهو الأجلُ. فظهرَتْ أنَّ عِلَّتَها ليسَتْ ماليةً.

وأمّا بطلانُ شهادَتِهِنَّ في الحدودِ فَلِأنَّ شهادَتَهُنَّ إنما أُجيزَتْ بحكمِ البدلِ عنْ شهادةِ الرجالِ، والأبدالُ في

---

(١) من ط ع، في الأصل و م: ولخوف. (٢) من ط ع. (٣) من ط ع. (٤) في النسخ الثلاث: جواز. (٥) في ط ع وم: أن، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع. (٧) من م، في الأصل و ط ع: فذلك. (٨) من ط ع و م، في الأصل: الظاهر. (٩) في النسخ الثلاث: فإن. (١٠) ساقطة من النسخ الثلاث.

الحدودِ غيرُ مقبولةٍ نحوُ الوكالاتِ والكفالاتِ.فعلى ذلكَ شهادَتُهنَّ لمّا كانَتْ، جوازُها بحكمِ البدِلِ، لم تُقبَلْ، ولأنهنَّ جُعِلْنَ على السهوِ والغفلةِ ونقصانِ العقلِ والدينِ لقولِهِ [ﷺ][1]: «إنهنَّ ناقصاتُ عقلٍ ودينٍ» [البخاري ٣٠٤]، فإذا كانَ ذلكَ[2] كذلكَ أورثَ ذلكَ شُبهةً في الحدودِ، والحدودُ ممّا فيهِ الدَّرْءُ، لذلكَ لم تُقبَلْ، واللهُ أعلمُ، ولأنَّ شهادتَهُنَّ إنما ذُكِرَتْ في ما يُبتَغى به الإعلامُ والإعلانُ لا الإسرارُ. فعلى ذلكَ تُقبَلُ شهادتُهُنَّ في ما يُبتَغى ذلكَ المعنَى. وأمّا الحدودُ وما يلزمُ [بها فإنما يُبتَغى][3] الإسرارُ والسَّتْرُ؛ لذلكَ قُلنا إنَّ شهادَتَهُنَّ تجوزُ في النكاحِ والطلاقِ والعتاقِ؛ لأنَّ النكاحَ يُبتَغى فيه الإعلانُ على ماجاءَ: «أعْلِنُوا النكاحَ» [البيهقي في الكبرى ٧/ ٢٨٨] لذلكَ قُبِلَتْ، واللهُ أعلمُ.

ومعنىً آخرُ أنَّ الخصمَ أجازَ شهادةَ النساءِ بالانفِرادِ في كلِّ شيءٍ ماخلَا الحدودَوالقِصاصَ، لذلكَ قَبِلَ بالرجالِ؛ ولأنَّ شهادةَ النساءِ أُجيزَتْ في الأصلِ توسيعاً، فلا يجوزُ أنْ يُرَدَّ في ما يُتَوَسَّعُ، ويُقبَلَ في ما يَضِيقُ. وأمرُ النكاحِ والطلاقِ في الشهادةِ أوسَعُ، فهو أحقُّ أنْ يُقبَلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾؛ فإنْ قيلَ[4]: كيفَ جاءَ اسْتِشهادُ المرأتَينِ عندَ وجودِ الرجلَينِ، واللهُ أمرَ باسْتِحضارِ الرجلينِ عندَ الحاكمِ للشهادة، لا أمْرَ بالإشهادِ عليها؟ [قيلَ لوجهَينِ:

أحدُهُما: لقولِهِ][5] ﷻ ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ أي لاتُكلَّفُ النساءُ حضورَ أبوابِ القضاةِ ومجلِسِهِمْ لأداءِ الشهادةِ إلّا عندَ العجزِ عَنْ وجودِ الرجالِ لِما في ذلكَ هتكُ أستارِهِنَّ وكشفُ عورَتِهِنَّ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: إنَّ اللهَ تعالى ذكرَ امرأتَينِ، وأقامَهُما مقامَ رجلٍ فائتٍ، والرجلُ الذي قامتِ امرأتانِ مقامَهُ هو فائتٌ أبداً، فهو غيرُ موجودٍ؛ إذ لهُ أنْ يُشهِدَ عدداً على ذلكَ الحقِّ، لذلكَ جازَتْ شهادتُهُنَّ، وإنْ كانَ[6] هناكَ رجلانِ، واللهُ أعلمُ.

فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في ذكرِ رجلَينِ دونَ ذِكرِ العددِ أو ذكرٍ واحدٍ؟ قيلَ: لوجوهٍ:

أحدُها: ذكرٌ على قدرِ الأشياءِ ومراتِبِها عندَ الناسِ؛ إذا كانَ أمراً عظيماً فظيعاً لا تُقبَلُ فيه إلّا شهادةُ عددٍ نحوُ الزِّنَى كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ الآيةَ[7] [النور: ٤]، وإذا كانَ خسيساً سهلاً عندَ الناسِ قُبِلَ قولُ الفردِ حراً كانَ أو عبداً مِنْ نحوِ الاسْتِئذانِ للدخولِ على آخرَ ونحوِهِ، ثم الأموالُ وغيرُها هي المتوسطةُ المتردِّدَةُ مِنْ هذينِ الحالَينِ، فقُبِلَ الوسَطُ مِنَ الشهادةِ، ولم يُقبَلْ دونَهَا، واللهُ أعلمُ.

ووجهٌ آخرُ: قيلَ: إنهُ ذكرَ ذلكَ عبارةً لا للمعنى[8] المودَعَ فيهِ، ولكنْ سَمْعاً، فهو على ما ذُكِرَ لا يُطلَبُ معناهُ.

والثالثُ: أنَّ الواحدَ لم تُقبَلْ شهادتُهُ في الحقوقِ بالانفِرادِ لأنهُ يُنتَفَعُ بها؛ لأنهُ مَنْ صُدِّقَ في قولِهِ يتلذَّذُ بتصديقِهِمْ إياهُ. فعلى ذلكَ لم يُقبَلْ قولُ المدَّعِي في دَعْوَاهُ، وإنْ كانَ عَدْلاً، لِما ينتفِعُ بالتصديقِ وقبولِ قولِهِ فيهِ. فإذا كانا اثْنَينِ صارَ تلذُّذُ كلِّ واحدٍ منهما لصاحبِهِ، فحصلتِ الشهادةُ خالصةً صافيةً، فقُبِلَتْ، واللهُ أعلمُ.

والرابعُ: أنَّ الإنسانَ مطبوعٌ على السهوِ والغفلةِ، فإذا كانَ فرداً يُخافُ عليهِ النسيانُ، فأمرَ بضمِّ آخرَ إليهِ ليُذكِّرَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ إذا نَسِيَهُ. وعلى ذلكَ يخرجُ قولُهُ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ لِما ذكَرْتُ[9] أنهنَّ جُبِلْنَ، وطُبِعنَ على فضلِ السهوِ والغفلةِ، أمرَ بضمِّ غيرِها إليها إذا سهَتْ[10]، وغفلَتْ عنها.

ثم اختلِفَ في قوله: ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ قالَ أصحابُنا، رحمهَمُ اللهُ تعالى: يرجعُ الخطابُ إلى الأحرارِ خاصةً دونَ العبيدِ والكَفَرَةِ أمّا الكفرةُ فلأنَّ الخطابَ في الابْتِداءِ للمؤمنينَ بقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ الآية، فخرج

---

(١) من ط ع. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) في الأصل و م: بها، في ط ع: ذلك انما يبتغى في ذلك. (٤) في النسخ الثلاث: قال. (٥) في النسخ الثلاث: لذلك قال. (٦) في الأصل و م: كانت،في ط ع: كانا. (٧) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٨) في النسخ الثلاث: المعنى. (٩) كان ذلك في شرح قوله ﷺ «إنهن ناقصات عقل ودين» [البخاري: ٣٠٤]. (١٠) من ط ع وم، في الأصل: سهمت.

الكفارُ مِنْ خطابِ الآيةِ، لذلكَ لم تُقبَلْ شهادتُهُمْ على أهلِ الإسلامِ. وأمّا العبيدُ فلم يدخلُوا تحتَ هذا الخطابِ لوجوهٍ:

أحدُها: ما ذكَرْنا أنَّ ظاهرَ الخطابِ للأحرارِ دونَ العبيدِ لِما لا يملِكُونَ هُمُ التداينَ والتبايعَ. فعلى ذلكَ خطابُ الشهادةِ. فإنْ قيلَ: أليسَ العبيدُ يملِكونُ التبايُعَ والتدايُنَ؟ [قيلَ: يملِكُونَ بالإذنِ والتّوليةِ، لا [يملكُون بأنفسِهِمْ، وذلكَ][1] القَدْرُ مِنَ التداينِ][2] وغيرُهُ يملِكُ الكفارُ، ثم لم يجبْ قبولُ شهادتِهِمْ، ولا دخلُوا تحتَ ذلكَ الخطابِ، فكذلكَ العبيدُ.

والثاني: ما قالَهُ ﷻ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾، ثم لا يملكُ العبيدُ الإجابةَ لكلِّ ما دُعُوا لحقِّ الساداتِ. فعلى ذلكَ ليسَ عليهِمُ الإجابةُ في الشهادةِ لحقِّ الساداتِ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: أنَّ اللهَ تعالى قسمَ الشهادةَ قسمةَ الميراثِ بقولِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ وقالَ في الميراثِ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، ثم لا حظَّ للعبيدِ في الميراثِ. فعلى ذلكَ لا حظَّ لهمْ في الشهادةِ.

والرابعُ: أنَّ الولاياتِ تجري مَجرى الشهاداتِ والتمليكاتِ، ثم لا ولايةَ[3] تكونُ للعبدِ على غيرِهِ ولا تمليكَ. فعلى ذلكَ الشهادةُ إذْ فيها ولايةٌ وتمليكُ الحاكمِ الحكمَ، واللهُ أعلمُ. وعلى ذلكَ بَطَلَتْ شهادةُ الكفارِ على أهلِ الإسلامِ لِما لا ولايةَ لهمْ عليهِمْ.

والخامسُ: أنَّ الشهودَ بينَ حالَينِ: بينَ أنْ يُصَدَّقُوا، فتمضيَ شهادتُهُمْ، وبينَ أنْ يُكَذَّبُوا [فلا يُضمَنُوا][4]. ولَمّا كانَ العبيدُ إذا كذبُوا لَمْ يُضمَنُوا، لأنَّ ضمانَ الشهادةِ معروفٌ، لأنهُ لا [بدلَ لهُ][5] بإزائِهِ، فمَنْ لم يكنْ مِنْ [أهلِ الضمانِ دلَّ أنهُ ليسَ][6] مِنْ أهلِ الشهادةِ. وعلى ذلكَ قُلْنا: إنَّ النكاحَ يجوزُ بشهادةِ الفاسقِ والحدودِ في القذفِ، وإنها مِنْ أهلِ الشهادةِ فيهِ لأنهما مِنْ أهلِ الضمانِ، إن كانَتْ شهادتُهما/ ٥٢ ـ أ/ رُدَّتْ لِتُهَمَةِ الكذبِ في سائرِ الحقوقِ. وأمّا العبدُ فليسَ هو مِنْ أهلِ الشهادةِ بحالٍ للمعنى الذي وصفْنا، واللهُ أعلمُ.

وألا القياسُ يَقتضي أنْ تجوزَ شهادةُ العبيدِ لأنها مِنْ حقِّ اللهِ؟ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾. [الطلاق: ٢] وقولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]. فإذا كانَتْ مِنْ حقِّ اللهِ تعالى، وحقوقُ اللهِ تعالى لا يختلِفُ العبيدُ والأحرارُ فيها، فيجبُ أنْ تُقبَلَ شهادتُهُمْ. لكنَّها لم تُقبَلْ للوجوهِ التي ذكَرْناها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾إلى[7] أنْ قالَ: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ[8] أنهنَّ لَمّا جُبِلْنَ، وطُبِعْنَ على فَضلِ سهوٍ وغفلةٍ، ضُمَّتْ[9] إليها أُخرى لتذكِّرَها[10] الشهادةَ إذا نَسِيَتْ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ الرجلَ إذا نسيَ الشهادةَ، ثم ذُكِّرَ [فَتذَكَّرَ][11] يجوزُ أنْ يشهَدَ، وإمّا أُخبِرَ بالشهادةِ، ولم يتذكَّرْ، لم يَجُزْ لهُ أنْ يشهدَ لقولِه: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ إذْ[12] لم يقلْ: فتخبرَ إحداهُما الأخرى.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ فيه دلالةٌ أنَّ مِنَ المسلِمِينَ مَنْ لا يكونُ مَرْضِيّاً، وكذلكَ فيهِمْ مَنْ يكونُ عَدْلاً، دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، ولو[13] لم يكنْ فيهِمْ مَرْضِيّاً وغيرَ مَرْضِيٍّ لكانَ يقولُ: وأشهِدُوا رجلَينِ منكُمْ، ولم يَشترِطْ فيهِ العدالةَ والرِّضا. وهو على المعتزلةِ لأنهمْ يقولُونَ: المسلمُ لا يكونُ غيرَ عدلٍ ولا غيرَ مَرْضِيٍّ، وفي الآيةِ التي ذكَرْنا دلالةُ ما قُلْنا، واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ دلالةٌ أنَّ الشهودَ إذا شهدوا على المُدَّعى عليهِ بالحقِّ، وكلهمْ مَرْضِيُّونَ عندَهُ يجبُ أنْ يُؤدِّيَ إليهِ حقَّهُ لأنّا قلْنا: إنَّ قولَهُ: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أمرٌ باستحضارِهِمْ عندَ الحاكمِ، فإذا كانَ كذلكَ فهو دليلُ ما قلْنا، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل و م: يملك أنفسهم فذلك. (٢) ساقطة من ط ع. (٣) من ط ع، في الأصل وم: دلالة. (٤) في النسخ الثلاث: فيضمنوا. (٥) من ط ع وم، في الأصل: بدله. (٦) في م: أهل الشهادة دل أنهم ليسوا، في ط ع: الشهادة دل أنهم ليسوا، ساقطة من الأصل. (٧) في النسخ الثلاث: أي. (٨) في شرح قوله ﷺ «أنهن ناقصات عقل ودين» [البخاري ٣٠٤]. (٩) في ط ع: فضمت. (١٠) في النسخ الثلاث: لتذكر. (١١) من ط ع. (١٢) من ط ع وم، في الأصل: إذا. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ للإشهادِ، وقيلَ: لا يَأْبَوْا إذا ما دُعُوا للأداءِ وهذا أشبهُ لأنَّ للشهودِ أنْ يقولُوا: أحضرَ الخصْمَ ههنا لنشهدَ[1] عليهِ؟ فإنّا لا نحضرُ المكانَ الذي هو فيهِ. وليسَ هذا القولُ في الأداءِ؛ إذِ الأداءُ لا يكونُ إلا عندَ الحاكمِ، لذلكَ كانَ أولَى، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ولا يجدُ مَنْ يُشهِدُهُمْ، ولا يجدُ مَنْ يشهدُ لهُ غيرُهُمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ فيه دلالةُ جوازِ السَّلَمِ في الثيابِ لأنَّ ما يُكالُ، ويوزَنُ، لا يُقالُ فيه: الصغيرُ والكبيرُ، ولا يُكتَبُ صغيرُهُ وكبيرُهُ، إنما يُقالُ ذلكَ في العَدَدِيِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقولُ: أعدَلُ عندَ اللهِ ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾ في الحُجَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أقربُ إلى دفعِ الظنونِ والشكوكِ الذي يحملكُمْ على التناكرِ والتنازُعِ الذي عاقبتُهُ الفَسْخُ[2]، ولهذا ما أمَرَ ﷻ بالكتابةِ والإشهادِ وذكرِ كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ لئلا يقَعَ بينَهُمْ في العاقبةِ تنازعٌ وتناكرٌ، فيحملُ ذلكَ الحاكمَ على فسخِ العقدِ بينَها. وعلى ذلكَ نصبُوا الأجلَ فيه شرطاً لقطعِ وقوعِ التنازعِ والتناكرِ [الذي حكمَهُ الفَسْخُ في العاقبةِ][3]، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً﴾ الآيةَ[4]؛ استثْنَى ﷻ التجارةَ الحاضرةَ بتركِ الكتابةِ والإشهادِ والرهنِ وغيرِهِ، وذلكَ لِما ذكرْنا آنفاً أنَّ الديونَ والقروضَ تُنسَى، وتُشتَبَهُ على الناسِ، فلذلكَ أمرَ بالكتابةِ فيها والإشهادِ، ولا كذلكَ التجاراتُ الحاضراتُ. وعلى ذلكَ أمرٌ ظاهرٌ بينَ الناسِ أنهمْ يكتبُونَ، ويشهَدُونَ في الديونِ والقروضِ، ولم يعلَمُوا ذلكَ في التجاراتِ الحاضراتِ الجارياتِ في ما بينَهُمْ لِارْتِفاعِ ما يُخافُ وُقوعُهُ في الديونِ والقروضِ وخلائها عنْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يقولُ: يداً بيدٍ، أو ليسَ فيها إيجابُ القبضِ على المجلسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أمرَ ﷻ بالإشهادِ جميعاً؛ فالأمرُ بالكتابةِ لحفظِ[5] الحقوقِ، ومَعَها عِدَّةُ[6] كلِّ قليلٍ وكثيرٍ فيهِ، والأمرُ بالإشهادِ للأدبِ، والأمرُ بالرهنِ أمرٌ بالوفاءِ، والرهنُ والكتابةُ والإشهادُ كلُّ ذلكَ يَمنَعُ صاحبَهُ عنِ الإنكارِ والجحودِ، ويذكُرُ عندَ النسيانِ والسهوِ عنهُ[7]، وذلكَ كلُّهُ لقطعِ التنازعِ الواقعِ في ما بينهَما في المتعقَّبِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ اختُلِفَ فيهِ[8]؛ قال بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ لا يُشْغَلُ الكاتبُ ولا الشهيدُ بقولِهِ لهُ: اكتبْ لي كذا، واشهَدْ على كذا، وهو يجدُ غيرَهُ، وقال آخرونَ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [أي لا يُضارُّ كاتبُ صاحبِ][9] الحقِّ، فيكتبَ ما لا يَنْبَغي أنْ يكتبَ بالزيادةِ والنقصانِ، وكذلكَ الشاهدُ لا يزيدُ على الحقِّ، ولا يُنقِصُ مِنَ الحقِّ شيئاً، ولا يكتُمُ الشهادةَ أيضاً. فهذا أقربُ، واللهُ أعلمُ.

فإنْ قيلَ: إذا كانَ المعنَى راجعاً[10] إلى ما ذكرْتُ: ألّا يزيدَ الكاتبُ، ولا يُنقِصَ، ألّا قالَ: لا يُضارُّ بالرفعِ[11]؟ قيلَ: إنهُ لا يُضارَرُهُ، [ولا يُضارِرُهُ][12] فطُرِحَتْ إحداهُما، فإذا طُرِحَتِ [الفتحةُ أوِ الكسرةُ][13] انتقضَتْ علامةُ الطرحِ، إذْ هكذا عملُ الإضمارِ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (الضِّرارُ[14] أنْ يقولَ الرجلُ للرجلِ، وهو عنهُ غنيٌّ،: إنَّ اللهَ [قد][15] أمرَكَ ألّا تأبَى

---

(١) من ط ع، في الأصل: لتشهدوا، في م: لتشهدنا. (٢) من ط ع وم، في الأصل: النسخ. (٣) من ط ع، في الأصل: الذي حكمه النسخ في الآخرة، في م: حكمه النسخ في الآخرة. (٤) أدرج في ط ع ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ قبل هذه الكلمة. (٥) في النسخ الثلاث: لمحافظة. (٦) في النسخ الثلاث: هذه، وهي التعداد والتبيان. (٧) من ط ع وم، في الأصل: عند. (٨) في ط ع: أهل التأويل في تأويل ذلك. (٩) من ط ع، في الأصل وم: لا يضار كاتب وصاحب. (١٠) في النسخ الثلاث: راجع. (١١) انظر المحتسب ١/١٤٨ و١٤٩ . (١٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٣) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٤) من ط ع، في الأصل وم: الاضرار. (١٥) من ط ع.

إذا ما دُعِيتَ، فَيُضارُهُ بذلكَ [وهو مُكْتَرِثٌ بغيرِهِ، فنهاهُ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، وقالَ: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾](١)؛ هذا يدلُّ على أنَّ التأويلَ هو ما ذكرْنا مِنَ النهيِ عنِ الزيادةِ والنقصانِ والتحريفِ والكتمانِ؛ إذ في ذلكَ خروجٌ عنِ الأمرِ، والفُسوقُ(٢) هو الخروجُ عنِ الأمرِ كقولِهِ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥]، وهو على المعتزلةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المُضارَّةِ مِنَ الزيادةِ والنُّقصانِ والكِتمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ الحكمَ والأدبَ وما يحِلُّ وما لا يَحِلُّ.

[وقولُهُ تعالى](٣): ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حرفُ وعيدٍ.

الآية ٢٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ قد ذكرْنا في ما تقدَّمَ في الأمرِ بالكتابةِ والإشهادِ: أنهما، واللهُ أعلمُ، لحفظِ الحقوقِ ما جلَّ منها، وما دقَّ، وألّا يَحمِلَهُمْ على الإنكارِ والجَحْدِ(٤)، وأنْ يذكِّرَهُمْ [ذلكَ حتى لا يَنْسَوا(٥). فعلى](٦) ذلكَ الأمرُ بالرهانِ لئلّا يؤخِّرُوا قضاءَ الدينِ، ويذكُرُوهُ، ولا ينسَوهُ(٧)، واللهُ أعلمُ.

ثم فيهِ دلالةُ ألّا يجوزَ الرهْنُ إلّا مقبوضاً؛ لأنَّ الرهنَ يُقْبَضُ لأمرينِ:

[أحدُهُما](٨): لأنَّه إذا كانَ مقبوضاً محبوساً عنْ صاحِبِه عنْ جميعِ أنواعِ(٩) منافعِهِ ذكرَهُ، وقَضاهُ(١٠) لقضاءِ دينِهِ، وإذا كانَ في يديهِ لم يتقاضَهُ(١١) على ذلكَ. لذلكَ قلْنا: إنه لا يجوزُ إلّا مقبوضاً.

والثاني: إنما يُقبضُ ليُسْتوفَى منهُ الدينُ، ولا يُستوفَى إلّا بعدَ القبضِ، أو يؤخذُ(١٢) الدينُ منهُ مِنْ غيرِ بخسٍ فيهِ، ولا منعٍ عنهُ.

ووجهٌ آخرُ في ما لا يجوزُ الرهْنُ إلّا مقبوضاً لأنه جُعِلَ وثيقةً؛ فلا جائزٌ أنْ يكونَ وثيقةً، وهو في يدي الراهنِ غيرُ محبوسٍ ولا ممنوعٍ عنْ منافعِهِ. فدلَّ ما ذكرْنا مِنْ طلبِ الناسِ بعضِهُمْ مِنْ بعضِ الرهونَ أنهمْ طلبُوا وثيقةً؛ فإذا كانَ وثيقةً فهو إنما يكونُ وثيقةً إذا كانَ في يدي المرتهنِ محبوساً عنْ صاحبِهِ. ألا ترَى أنَّ الكتابَ(١٣) أمرَ بأداءِ الأمانةِ إذا أَمِنَ بعضُهُمْ بعضاً بغيرِ رهنٍ، فلو كانَ الرهنُ يكونُ رهناً في يدي الراهنِ لذكَرَ فيهِ أداءَ الأمانةِ في [الرهنِ](١٤)، ولم يكنْ لِذكرِ القبضِ وجهٌ. لِذلِكَ قلْنا: إنَّ الرهنَ لا يجوزُ إلّا أنْ يكونَ مقبوضاً محبوساً عنْ منافعِ صاحبِهِ.

وقولُهُ تعالى:/ ٥٢ ـ ب/ ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ فيه دلالةُ ضمانِ الرهنِ: دلالةُ اسْتيفاءِ الدَّينِ مِنَ الرهنِ لأنهُ إنما ذكرَ الأداءَ في ما أَمِنَ بعضُهُمْ بلا(١٥) رهنٍ، ولم يَذْكرِ الأداءَ في ما فيهِ الرهنُ. فلولا أنْ جعلَ في الرهنِ اسْتيفاءَ الحقِّ والدَّينِ، وإلّا لَذكَرَ الأداءَ فيهِ كما ذَكَرَ في أنْ لا رهنَ، فدلَّ أنه مضمونٌ به إنْ هلكَ هلكَ بهِ، واللهُ أعلمُ.
وأيضاً قولُهُ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فيه دليلٌ لِقولِهِمْ في الشركاتِ: إنه يكتبُ اشْتِراكاً على تَقْوَى اللهِ وأداءِ الأمانةِ في ما ائْتُمِنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ ذكَرَ إثمَ القلبِ، والإثمُ مَوْضِعُهُ القلبُ، لكنهُ يشفَعُ في الجوارحِ، ويظهرُ، على ما رُوِيَ [عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ](١٦): «إنَّ في النفسِ مُضْغةً إذا صلَحَتْ صلحَ البدنُ، وإذا فسدَتْ فسدَ البدنُ» [البخاري ٥٢].

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ تعالى: وفيهِ دلالةُ أنَّ المآثمَ تُعمَدُ القلوبَ بأيِّ شيءٍ كانَ. فلذلكَ وُصِفَ القلبُ بأنهُ آثمٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وكذا قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

---

(١) من ط ع، في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ أي تضاروا ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾. (٢) في ط ع: الفسق. (٣) من ط ع. (٤) في ط ع: والجحود. (٥) في ط ع وم: ينسون. (٦) من ط ع وم. (٧) في النسخ الثلاث: ينسون. (٨) ساقطة من النسخ الثلاث. (٩) من ط ع، في الأصل وم: أنواعه. (١٠) في النسخ الثلاث: ولقضاه، قضاه تقضية وقضاء: أداه. (١١) في النسخ الثلاث: يتقاضاه. تقاضاه الدين: قبضه، والتقاضي: الطلب. (١٢) في النسخ الثلاث: يأخذ. (١٣) في النسخ الثلاث: الكاتب. (١٤) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (١٥) من ط ع وم، في الأصل: فلا. (١٦) من ط ع.

الآية ٢٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ هو ظاهرٌ؛ إذْ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ كلُّهُمْ عبيدُهُ وإماؤُهُ ردّاً على قولِهِمْ: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] و﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠] والملائكةُ بناتُ[١] اللهِ، وقد ذكَرْنا الوجهَ في ما تقدَّمَ[٢] في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ مَنِ استَدَلَّ على نسخِها [استَدَلَّ][٣] بقولِهِ ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ لكنهُ لا يُحتمَلُ [لأنَّ الآيةَ في][٤] وعدٍ وخبرٍ بالمحاسبةِ، والوعدُ لا يَحتمِلُ النسخَ لأنهُ خلْفٌ وبَداءٌ، وذلكَ ممَّنْ يجهلُ بالعواقبِ. تعالى اللهُ ﷻ عنْ ذلكَ عُلُوّاً كبيراً.

ثم اختُلِفَ فيه؛ قالَ الحسنُ: (هو على ما خطرَ بالنفسِ) وكذا قولُهُ [ﷺ][٥]: «مَنْ هَمَّ [بحسنةٍ فلم يَعمَلْها كُتِبَتْ لهُ حسنةٌ، فإنْ عمِلَها كُتِبَتْ لهُ بعَشَرةِ أمثالِها إلى سبعمِئةٍ وسبعةِ أمثالِها، ومَنْ هَمَّ بسيئةٍ فلم يَعْمَلْها لمْ تُكْتَبْ عليهِ، فإنْ عمِلَها كُتِبَتْ عليهِ سيئةٌ واحدةٌ»][٦] [مسلم ١٢٨].

ويَحتمِلُ [أنْ يكونَ على][٧] التقديمِ والتأخيرِ: إنْ تُخفُوا ما في أنفسِكُمْ أو تبدُوهُ يحاسبْكُمْ بهِ اللهُ، ويَحتمِلُ أيضاً: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ وعزمْتُمْ عليهِ، واعتقَدْتُمْ، لا على الخطرِ فيهِ أو حديثِ النفسِ أو ما رُوِيَ: «مَنْ هَمَّ بحسنةٍ» فَلَهُ كذا، «ومَنْ همَّ بسيئةٍ» [مسلم ١٢٨] [فَلَهُ كذا][٨] ليسَ على ما يخطُرُ فيهِ أو حديثِ النفسِ على ما رُوِيَ، وتحدُّثُ النفسُ بهِ، ولكنْ على العَزْمِ والاعْتِقادِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]؛ هَمَّتْ هي بهِ، هَمَّ: عزمَ، وهو هَمَّ بها؛ همَّ: خطرَ، والمرءُ غيرُ مؤاخذٍ بما يخطرُ في القلبِ، وتحدُّثُ النفسُ بهِ، إنما يُؤاخذُ على ما عزمَ، واعْتَقدَ عليهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ فيه دليلٌ لِما قلْنا: إنهُ على العَزْمِ والاعْتِقادِ عليهِ لِما ذكَرْنا مِنَ العفوِ والعقوبةِ عليهِ.

الآية ٢٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾؛ قولُهُ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ؛ [يَحتمِلُ آمنَ بنفسِ المنزَّلِ][٩] ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾. أنهُ مِنْ عندِ اللهِ وكذلكَ[١٠] المؤمنونَ أيضاً آمَنُوا بما أُنزِلَ إليهِ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ تعالى، ويَحتمِلُ قولُهُ[١١]: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ بما في المنزَّلِ إليهِ، وكانَ فيه ما ذكرَ[١٢] ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وكذلكَ المؤمنونَ آمَنُوا بجميعِ ما في المنزَّلِ، وهو ما ذكَرْنا.

وفيه دليلٌ أنَّ الإيمانَ بالمنزَّلِ على رسولِ اللهِ ﷺ إيمانٌ بجميعِ الرسلِ والكتبِ كلِّها والملائكةِ والبعثِ والجنةِ والنارِ. وفيه دلالةُ نقضِ مَنْ يُشَكُّ في إيمانِهِ، ويَستثني؛ لأنهُ ﷻ شهدَ لهمْ بالإيمانِ، فلا يخلو الاستِثناءُ: إمّا أنْ يكونَ لشكِّهِمْ في إتيانِ ما أُمِروا وإمّا في الذي أخبرَ اللهُ عنهُ بما كانَ، ففيه الويلُ لهمْ. وفيه دلالةُ نقضِ قولِ المعتزلةِ لأنَّهُ شهدَ لهم بالإيمانِ، وهم نَفَوا عنهمُ الاسْمَ الذي شهدَ اللهُ لهمْ بهِ بالإيمانِ بهِ وبالذي ذكرَ. وكلُّ صاحبِ كبيرةٍ مؤمنٌ بجميعِ ما ذكرَ، وقد سمَّاهُمُ اللهُ بهِ مؤمنينَ، وشهدَ لهمْ بهِ، واللهُ الموفقُ.

فإنْ قيلَ: فقد [ذكرَ الطاعةَ في آخرِها، قيلَ][١٣]: ذكرَ الطاعةَ في الإجابةِ، وبتلكَ الإجابةِ شهدَ لهمْ، فيلزمُهُمْ ما شهدَ اللهُ لهمْ، جلَّ، وعلا، بما أجابُوا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ ... ويَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا خبراً أخبرَ اللهُ ﷻ عنِ المؤمنينَ أنهم قالُوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ كما فرَّقَ اليهودُ والنصارى.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ﴾ [الأنعام: ١٠٠ و...]. (٢) (٢) كان الذكر أولاً في تفسير الآية (١١٦). (٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (٥) من ط ع، في الأصل وم: الاية. (٦) ساقطة من النسخ الثلاث. (٧) ساقطة من النسخ الثلاث. (٨) من ط ع، في الأصل وم: فكذا. (٩) في م: أمن بنفس المنزل، في ط ع: ويحتمل آمن الرسول. (١٠) في ط ع: بما. (١١) ساقطة من ط ع. (١٢) من ط ع، في الأصل وم: ذكرنا. (١٣) من ط ع وم، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يحتمِلُ ﴿سَمِعْنَا﴾ قولَكَ ودعاءَكَ، و﴿أَطَعْنَا﴾ أي أطعْناكَ في الإجابةِ، ويَحتمِلُ: ﴿سَمِعْنَا﴾ القرآنَ، و﴿أَطَعْنَا﴾ [أي أطعْناما][1] فيهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أي اغفرْ لنا ربَّنا ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجِعُ. وهذا جمعَ جميعَ شرائطِ الإيمانِ، لِذلكَ قلْنا: إنَّ الإيمانَ بالقرآنِ إيمانٌ بجميعِ الكتبِ والأنبياءِ والبعثِ وغيرِهِ، وباللهِ العصمةُ والنجاةُ.

الآية ٢٨٦ وقولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اختُلِفَ فيه: قالَ الحسنُ: (قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلّا ما يَحِلُّ، ويَسَعُ). لكنَّ بعضَ الناسِ يقولُونَ: هذا بعيدٌ لا يَحتمِلُ الآيةَ [لأنهُ][2] إذا كلَّفَ أحَلَّ، ووَسَّعَ، فإذا كانَ كذلكَ لم يكنْ لقولِهِ معنىً. قيلَ لهم[3]: هو كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤ و٥] فإذا أحلَّ طيَّبَ، وإذا طيَّبَ أحلَّ. فكذا الأوَّلُ، وقد ذكَرْنا[4] الأمرَينِ جميعاً. وتأويلٌ ثانٍ: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلّا طاقتَها، وكذلكَ قولُ المعتزلةِ بتقديمِ الفعلِ.

وأمّا عندنا فإنها على وجهَينِ: اسْتِطاعةُ الأحوالِ والأسبابِ واسْتِطاعةُ الأفعالِ، أمّا اسْتِطاعةُ الأحوالِ والأسبابِ فإنها بتَقدُّمِها، على ذلك يقعُ الخطابُ؛ دليلُهُ قولُهُ ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. قيلَ: يا رسولَ اللهِ: وما الاسْتِطاعةُ؟ قالَ: «الزادُ والراحلةُ» [الترمذي ٨١٣] ثم كُلٌّ يُجمِعُ أنَّ مَنْ كانَ بأقصى بلادِ المسلمينَ قد يلزَمُهُ فرضُ الحجِّ على عِلْمٍ كُلٍّ مِنهُمْ: أنَّ تلكَ الاسْتِطاعةَ لو صُرِفَتْ إلى اسْتِطاعةِ الأفعالِ لم تبقَ إلى وقتِ وجودِ الأفعالِ، ثم قد لَزِمَهُ ذلكَ، فبانَ أنَ الكُلْفةَ إنما تقعُ على اسْتِطاعةِ الأحوالِ والأسبابِ. وكذلكَ الكُلْفةُ في جميعِ الطاعاتِ.

فإنْ قيلَ: قد يقعُ هذا [على][5] الخروجِ، فيوجَدُ الفعلُ عَقيبَ قوةِ الخروجِ، قيلَ: لو كانَ كذا لكانَ لا يلزَمُ فرضُ الحجِّ [إلّا بالخروجِ، ولهُ تركُ الخروجِ، إذْ باكْتِساب الخروجِ يلزَمُهُ فرضُ الحجِّ][6] فثبتَ أنهُ لا يَحتَمِلُهُ، بل هو على ما قالَهُ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ: إنها اسْتِطاعةُ الأحوالِ والأسبابِ، وتلكَ تتقدَّمُ لِما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وأمّا اسْتِطاعةُ الأفعالِ فإنها تَحْدُثُ بحدوثِ الأفعالِ، وتتلُو كالأوقاتِ التي لا تَبْقَى في وقتٍ ثانٍ؛ فهي كالوقتِ الذي لا يَبْقَى في وقتٍ تارةً، واللهُ أعلمُ.

فإنْ سُئلْنا عنِ التكليفِ: أيكونُ[7] في ما لا يُطاقُ؟ فجوابُنا: أنهُ في ما مُنِعْنا عنهُ فلا، وفي ما لم نُمنَعْ، وضَيَّعْنا [ما أُعطِينا مِنَ القوةِ بشغلِنا بغيرِهِ][8] فَبَلَى. ثم الكافرُ بما أُعطِيَ مِنَ القوةِ والاسْتِطاعةِ شَغَلَ نفسَهُ بغيرِهِ[9]، وضَيَّعَ ما أُعطِيَ مِنَ القوةِ، فإذا ضَيَّعَ لم يكنْ تكليفُ ما لا يُطيقُ [ثم ننظُرُ أيُّنا[10] أحقُّ بالقولِ بتكليفِ ما لا يُطاقُ؟][11].

فَمِنْ قولِ المعتزلةِ: إنَّ القوَّةَ تَتَقدَّمُ على الفعلِ لِيوجِدَهُ في الوقت الثاني. ثم في الوقتِ جعلُوهُ أيضاً غيرَ قادرٍ على التركِ للفعلِ، والمتعارَفُ عنِ الأمرِ في الظاهرِ بشيءٍ يفْعَلُهُ في وقتِ ألّا يقعَ الأمرُ بهِ وقتَ ما يسمَعُهُ، ويقرعُ الخطابُ السمعَ بل في ثانٍ مِنَ الوقتِ/ ٥٣ ـ أ/. فحصلَ عندَهُمُ الأمرُ على الوقتِ الذي هو قادرٌ فيهِ. فأيُّ تكليفٍ عليَّ؟ وقولُهُ[12]: (الطَّوقُ [هو][13] الوُسْعُ أبيَنُ ممّا قالُوا) وباللهِ التوفيقُ.

ثم أفحشُ مِنْ هذا ما قالُوا: إنَّ القدرةَ تتقدَّمُ الفعلَ، والفعلُ هو الذي يدلُّ على وجودِ الولايةِ، وهو في وقتِ إيجادِ الفعلِ: إنْ كانَ كفراً يُعادِ[14]، وإنْ كانَ إيماناً يُوالِ[15]. فحصلَ القولُ على أنَّ المُوالاةَ والمُعاداةَ أبداً تقعُ في غيرِ وقتِ الإنْتِهاءِ والإئْتِمارِ.

---

(١) من ط ع، في الأصل: وأطعناك ما، في م: وأطعناك بما. (٢) ساقطة من النسخ الثلاث. (٣) في الأصل وط ع: له، ساقطة من م. (٤) من ط ع، في الأصل وم: ذكر. (٥) من ط ع وم، ساقطة من الأصل. (٦) من ط ع وم، في الأصل: أن يكون. (٧) من ط ع وم، في الأصل: أن يكون. (٨) في الأصل: بشغلنا بغير، في ط ع وم: بشغلنا بغيره. (٩) من ط ع، في الأصل وم: بغير. (١٠) من م، في الأصل: أننا. (١١) ساقطة من ط ع. (١٢) هو قول الحسن المذكور آنفاً. (١٣) من ط ع، في الأصل وم: و. (١٤) في النسخ الثلاث يعادي. (١٥) في النسخ الثلاث: يوالي.

ثم قولُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] إنهُ على الجبرِ، ولا يَحتمِلُ ذلكَ لأنهُ قد أوجَبَ لكلِّ ذلكَ مرَّةً بالجبرِ في الخِلْقةِ [ومَرَّةً بالاختيارِ](١)، وهو قولُهُ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] فقد ألزمَهُمُ الإسلامَ بالخِلْقةِ، فكانَ(٢) الثاني على الاختيارِ.

ثم قولُهُمْ في استطاعةٍ واحدةٍ لفعلَينِ خطأً، لأنَّ(٣) مِنْ قولِهِم: إنَّ الاسْتِطاعةَ لا تَبْقَى، ثم وجودُ الفعلَين معاً في وقتٍ باسْتِطاعةٍ واحدةٍ مُحالٌ، ووجودُ تلكَ الاسْتطاعةِ لأحدِ الفعلَينِ بعدمِ الآخرِ مستحيلٌ لعدمِ البقاءِ؛ ووجودُهُ عندَهُمْ على البدلِ مُحالٌ، إذْ جعَلُوا عينَ ما هو الأصلُ لأحدِهِما للآخرِ، فثبتَ أنهُ خطأٌ.

وقولُهُ(٤) تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ فيهِ(٥) دلالةٌ أنَّ اللهَ تعالى إنما يأمرُ عبيدَهُ، وينهَى لمنافعَ لهمْ ولضررٍ يَلْحقُهُمْ، لا لِمنافعَ تكونُ لهُ في الأمرِ، فيأمرُ، أو لضررٍ يَلْحقُهُ، فينهَى عنْ ذلكَ، فيكونُ في الأمرِ جارُّ منفعةٍ، وفي النَّهْيِ دافعَ مضرةٍ كما يكونُ في الشاهدِ أنَّ مَنْ أمرَ آخرَ بشيءٍ إنما يأمُرُ لمنفعةٍ يأمُلُ(٦) فيهِ، وينْهَى عَنْ شيءٍ لدفعِ ضررٍ يَخافُهُ. وتعالى اللهُ عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ يعني ترَكْنا كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وكقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥] أي تركَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَخْطَأْنَا﴾ يعني ارتكَبْنا ما نُهينا، وقيلَ: إنهُ على حقيقةِ النسيانِ والخطإِ، كأنهُ على الإضمارِ أنْ قولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ الآية.

ثم اختُلِفَ بعدَ هذا: قالتِ المعتزلةِ: أمرَ بالدعاءِ بهذا تعبُّداً أو تقرُّباً إليهِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ الآيةَ(٧) [آل عمران: ١٩٤]، وكذلكَ أمرَ لهُ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، ونحوُهُ خرجَ الدعاءُ بهِ مخرجَ التعبُّدِ والتقرُّبِ، لأنَّ [رسولَ اللهِ](٨) ﷺ أخبرَ أنهُ(٩) لا يؤاخذُنا بالنسيانِ والخطإِ(١٠)، وأنه(١١) لا يُخلِفُ الميعادَ(١٢)، وكذلكَ معلومٌ أنهُ لا يحكمُ إلّا بالحقِّ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]. وقد أخبرَ أنهُ تعالى قد غفرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخّرَ(١٣)، ولكنهُ على ما ذكَرْنا، وإلى هذا يذهبُ المعتزلةُ.

وأمّا الأصلُ عندَنا في هذا [فإنهُ في وجوهٍ

أحدُها:](١٤) أنهُ جائزٌ في الحكمةِ أنْ يُعاقِبَ(١٥) على النسيانِ والخطإِ لِيجتهدُوا في حفظِ حقوقِهِ وحدودِهِ وحُرُماتِهِ لئلا ينسَوا. ألَا ترَى أنَّ اللهَ أوجبَ على قاتِلِ الخطإِ الكفارةَ، ثم قالَ: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢]. فلو [كانَ لا يجوزُ أنْ يعاقَبَ على النسيانِ والخطإِ](١٦) لم يكنْ لوجوبِ الكفارةِ عليهِ والتوبةِ معنىً. دلَّ أنهُ جائزٌ في الحكمةِ المؤاخذةُ بهِ.

والثاني: قولُهُ ﷺ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وفعلُ الشيطانِ مِمّا يُتَّقَى، ويُحذَرُ. لذلكَ كانَ ما ذكرَ، واللهُ أعلمُ؛ لأنهُ لوِ اجتهدَ عنْ فعلِ السهوِ والنسيانِ، سَلِمَ منهُ(١٧). فجائزٌ أنْ يسألَ السلامةَ منهما(١٨)؛ إذ بالجهدِ يَسْلَمُ منهُ(١٩)، وبالغفلةِ يقعُ فيه.

والثالثُ: ما ذكَرْنا أنَّ النسيانَ، هو التركُ، والخطأُ، هو ارتِكابُ المَنْهِيِّ، والتاركُ لأمرِ اللهِ والمرتكِبُ لنهيِهِ، يَستوجِبُ العقابَ عليهِ، واللهُ أعلمُ. فيصبحُ الدعاءُ على ذلكَ لئلا يلحقَهُمُ العذابُ بتركِ ذلكَ الأمرِ وارتِكابِهِ المَنْهِيَّ.

---

(١) ساقطة من النسخ الثلاث. (٢) في النسخ الثلاث: بان. (٣) من ط ع وم، في الأصل: فان. (٤) من ط ع، في الأصل وم: وفي قوله. (٥) ساقطة من ط ع. (٦) في النسخ الثلاث: يتأمل. (٧) أدرج في ط ع تتمة الآية بدل هذه الكلمة. (٨) في ط ع: رسوله. (٩) في النسخ الثلاث: أن. (١٠) «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان» [ابن ماجه: ٢٠٤٣ والدر المنثور ١/٣٧٦]. (١١) الواو ساقطة من النسخ الثلاث. (١٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]. (١٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. (١٤) ساقطة من النسخ الثلاث. (١٥) من ط ع، في الأصل وم: يعاتب. (١٦) من ط ع. (١٧) في النسخ الثلاث: عنه. (١٨) في النسخ الثلاث: عنهما. (١٩) في النسخ الثلاث: عنه.

فإنْ قيلَ: ما معنَى قولِهِ ﷺ: «رُفِعَ عن أمتي النسيانُ والخطأُ وما استُكْرِهُوا عليه»؟ [بنحوه ابن ماجة ٢٠٤٥ وتذكرة الموضوعات ٩١] قيلَ: إنما جاءَ هذا في الكفرِ خاصةً لا في غيرِهِ؛ وذلكَ أنَّ القومَ كانُوا حديثي[1] العهدِ بالإسلامِ، يجري على ألسنتِهِمُ الكفرُ على النِّسيانِ والخَطَإِ، وكذلكَ يُكرَهُونَ على الكفرِ، فَيُجْرُونَ على ألسنتِهِمُ الكفرَ مخافةَ القتلِ، فأخبرَهُمُ النبيُّ ﷺ أنَّ ذلكَ مرفوعٌ[2] عنهمْ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: وبعدُ فإنَّ في الخبرِ العفْوَ، فيكونُ في ذلكَ دليلُ جوازِ الأخذِ، ولعلَّ الوعدَ بالعفوِ مقرونٌ[3] بشرطِ الدعاءِ؛ فلذلكَ يدعُونَ. وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا بهذا، فأوجبَ ألّا يُؤمَرَ أحدٌ أنْ يدعُوَ ابْتِداءً، واللهُ أعلمُ.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ففيهِ وجهانِ:

أحدُهما: أنهُ وعدَ المؤمنينَ جملةَ الجنةِ؛ فسؤالُ كلٍّ منهمْ أنْ يجعلَهُ مِنْ تلكَ الجملةِ التي وعدَهُمُ الجنةَ.

والثاني: يسألُ الختمَ على ما بهِ يَستوجبُ الموعودَ.

وأمّا الأمرُ بالاِسْتِغْفارِ فهو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: ما رُوِيَ: «المؤذِّنُ[4] يُغْفَرُ لهُ بِمَدِّ صوتِهِ» [احمد ٢/ ١٣٦] فهو على استيجابِ أولئكَ المغفرةَ بهِ. فعلى ذلكَ استِغْفارُهُ لِيَغْفِرَ بهِ لبعضِ أُمَّتِهِ.

والثاني: أنَّ المغفرةَ في اللغةِ هي التغطيةُ والسَّتْرُ، وكأنه يسألُ السَّتْرَ عليهِ بعدَ التجاوزِ عنهُ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: ثم الأصلُ أنَّ الاِستِغْفارَ هو طلبُ المغفرةِ؛ فلو كانَ لا يجوزُ لهُ التعذيبُ فيكونُ التعذيبُ، فيصيرُ السؤالُ في التحقيقِ سؤالَ ألّا يُجْزُوا[5] ذلكَ ممّا لا يَسَعُ المحنةَ، وكذلكَ لو كانَ مغفوراً لهُ كانَ الحقُّ فيها الشكرَ لِما أنعمَ عليهِ. وفي ذلكَ كتمانُ النعمةِ، والمحنةُ بكتمانِ نعمِ اللهِ، وكفرانُها محالٌ. لذلكَ لابدَّ أنْ يُمكِّنَ في الآياتِ ممّا تَتَمكَّنُ معهُ المِحنةُ مِنَ المعنَى، واللهُ أعلمُ.

وأمّا قولُهُ ﷺ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]؛ قيلَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ههنا هو العذابُ؛ كأنهُ أمرَهُ أنْ يسألَ بإنزالِ العذابِ عليهِم، وقيلَ: احكُمْ بحكمِكَ الذي هو الحقُّ. فإذا كانَ ما ذكرَ مُحتَمَلاً دلَّ أنهُ ليس على ما ذهبَ إليهِ أولئكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قيلَ: الإصْرُ، هو العهدُ، ويقولُ: لا تَحمِلْ علينا عهداً تعذِّبُنا بتركِهِ ونقضِهِ ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾؛ وكانَ مَنْ قبلَهُمْ إذا أخطؤوا خطيئةً حرَّمَ اللهُ عليهِمْ على نحوِها ممّا أحلَّ لهمُ الطَّيِّباتِ، فقالَ[6] تعالى: [في اليهودِ][7] ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] [وفي أصحابِ][8] الأخدودِ ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ وغيرِهِم، فخافَ المسلمونَ ذلكَ، فقالُوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ في جُرْمٍ أجرَمْنا، فتُحرِّمَ علينا الطَّيِّباتِ.

وأصلُ الإصْرِ الثِّقَلُ [والشدائدُ التي كانتْ][9] عليهِمْ مِنْ نحوِ ما كانَ [أمرُ][10] توبَتِهِمْ إلّا أمراً[11] بقتلِ بعضِهِمْ بعضاً كقولِهِ تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ أنْ ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ مِنَ القتلِ والهلاكِ؛ إذْ في ذلكَ إفناؤُهُمْ، وفي الفناءِ ذهابُ طاقتِهِمْ.

---

(١) من ط ع، في الأصل و م: حديث. (٢) في النسخ الثلاث: مرفوعاً. (٣) في النسخ الثلاث: مقروناً. (٤) في ط ع: المؤمن. (٥) في النسخ الثلاث: يجروا. (٦) في النسخ الثلاث: كقولِهِ. (٧) ساقطة من النسخ الثلاث. (٨) في النسخ الثلاث: وكأصحاب. (٩) في ط ع: والتشديد الذي كان. (١٠) ساقطة من النسخ الثلاث. (١١) في الأصل وم: إصر، في ط ع: أمر.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: أي ما نشتغِلُ عمّا أمَرْتنا، فيكونُ كالدعاءِ بالعصمةِ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ بِهِ طاقةُ الفعلِ، وهي لا تتقدَّمُ عندَنا الفعلَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾؛ قيلَ: اترُكْنا على ما نحنُ عليهِ، ولا تُعذِّبْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي استُرْ لنا، والغفرُ [هوَ][1] السَّتْرُ، ولذلكَ[2] تُسَمَّى المَغْفِرَةُ مَغْفَراً لأنهُ يَستُرُ، وسَتْرُ الذنبِ هو أعظمُ النعمِ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي تَغَمَّدْنا برحمَتِكَ [لأنهُ لا ينجو][3] أحدٌ إلّا برحمتِكَ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ قيلَ: أنتَ أولَى بنا، وقيلَ: أنتَ حافِظُنا، وقيلَ: أنتَ وَلِيُّنا وناصِرُنا، وقد ذكرْنا ذلكَ في ما تقدَّمَ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ يَحتمِلُ المعروفينَ، ويَحتمِلُ الشياطينَ، أي انصُرْنا عليهمْ//.

(١) من ط ع. (٢) الواو ساقطة من ط ع. (٣) في ط ع: لأن لم ينج. (٤) من ط ع. (٥) في تفسير الآية (٢٥٧).

سورة آل عمران(١)

/٥٣ ـ ب/ بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ هو تفسيرُ ما وُصِلَ بهِ مِنْ قولِهِ: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: [البقرة: ٢] هو تفسيرُ ﴿الٓمٓ﴾، و﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ٢] [هو تفسير ﴿الٓمٓصٓ﴾](٢) وجميعُ ما وُصِلَ بهِ [مِنَ](٣) الحروفِ المقطَّعَةِ، هو تفسيرُها. ولله أنْ يُسَمِّيَ نفسَهُ بما شاءَ؛ سمّى [نفسَهُ](٤) مَجيداً كقولِهِ: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، وسمَّى القرآنَ مَجيداً كقولِهِ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج ٢١] وقالَ بعضُهُمْ: الحروفُ المقطَّعةُ هي مفتاحُ السورةِ، وقالَ آخرونَ: إنَّ كلَّ حرفٍ منها اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، ومنهمْ مَنْ يقولُ: بأنها مِنَ التشابهِ التي لا يُوقَفُ عليها، ومنهمْ مَنْ يقولُ: [إنها مِنَ](٥) التشبيبِ إذْ منْ عادةِ العربِ ذلكَ، وقد مضى الكلامُ فيهِ في قولِهِ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١ و٢] بما يكفي.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ هو الحيُّ بذاتِهِ، وكلُّ حيٍّ سِواهُ حيٌّ [بحياةٍ هي حياةُ](٦) غيرِهِ. فإذا كانَ هو حيًّا بذاتِهِ لم يوصَفْ بالتغايُرِ والزوالِ، ولما كانَ [كلُّ](٧) حيٍّ سِواهُ حيًّا(٨) بغيرِهِ احتمَلَ التغايُرَ والزوالَ، وكانتِ(٩) الحياةُ عبارةً يوصَفُ بها مَنْ عَظُمَ(١٠) شأنُهُ، وشَرُفَ أمرُهُ عندَ الخلْقِ. ألا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى وصفَ الأرضَ بالحياةِ عندَ إنباتِها لِما يعظُمُ قدرُها، وتشرُفُ منزلتُها عندَ الخلْقِ عندَ النباتِ، وكذلكَ المؤمنُ حيٌّ(١١) لِعلوِّ قدرِهِ عندَ الناسِ، [والكافرُ ميتٌ(١٢) لِدُونِ منزلتِهِ عندَ الناسِ](١٣)، فكذلكَ سبحانَهُ سمَّى [نفسَهُ](١٤) حيًّا لعظمتِهِ وجلالِهِ وكبريائِهِ. وعلى [هذا](١٥) يخرجُ قولُهُ في الشهداءِ حيثُ قالَ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتٌۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] أي مكرَّمونَ مُعَظَّمونَ مُشَرَّفونَ عندَ ربِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾؛ قالَ بعضُهُمْ: هو القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ، وقالَ آخرونَ: ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ الحافظُ. وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ: هو القَيَّامُ. كُلُّهُ يرجعُ إلى واحدٍ: القائمُ والقيومُ والقَيَّامُ؛ يُقالُ: فلانٌ قائمٌ على أمرِ فلانٍ؛ أي يحفظُهُ حتى لا يغيبَ عنهُ مِنْ أمرِهِ. ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (إنَّ اسْمَ اللهِ الأعظمِ ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾).

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ظاهرٌ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: يَحتمِلُ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي هو الحقُّ نفسُهُ: حجَّةٌ مجعولةٌ وآيةٌ معجزةٌ أيِسَ العربُ عَنْ أنْ يعارِضُوهُ، أو يأتوا بمثلِهِ، وتحقَّقُوا(١٦) عندَ كلِّ آيةٍ [أنهُ](١٧) مِنْ عندِ اللهِ إلَّا مَنْ أعرضَ عنهُ، وكابرَ، وعاندَ، وقيلَ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالصدقِ والعدلِ، وقيلَ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي للهِ عليهِمْ وما يكونُ لبعضِهِمْ على بعضٍ.

ثم قالَ: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي موافقاً لِما قبلَهُ مِنَ الكتبِ السماويَّةِ، وهي غيرُ مختلِفةٍ، ولا متفاوِتةٍ.

وفيه دلالةُ نبوَّةِ سيدِنا محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبرَ أنهُ موافقٌ لتلكَ الكتبِ غيرُ مخالِفٍ لها، ولو كانَ على خلافِ ذلكَ لَتَكَلَّفُوا إظهارَ موضعِ الخلافِ، فإنْ لم يفعَلُوا ذلكَ دلَّ أنهمْ عرفُوا أنهُ مِنَ اللهِ وأنَ محمداً رسولُهُ، لكنهمْ كابَرُوا، وعانَدُوا.

---

(١) في بداية هذه السورة صارت المقابلة مقتصرة على نسخة الظاهرية المسماة أصلاً ونسخة دار الكتب المصرية المرموز لها ب: م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: بحياته هي، في م: بحياة هي غيره. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حي. (٩) في الأصل وم: وكان. (١٠) من م، في الأصل: عظيم. (١١) في الأصل وم: حياً. (١٢) في م: ميتا. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م. (١٦) في الأصل وم: وتحقق. (١٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ مِن بعدُ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ أي بياناً لَهُمْ وحجَّةً لِمَنِ اهْتَدَى وحُجَّةً على مَنْ عَمِيَ؛ إذْ لا يَحتمِلُ أنْ يكونَ لهُ هُدًى وعليهِ حُجَّةٌ، فيه الهلاكُ، إنما يكونُ حُجَّةً له وهُدًى إذا اهْتَدَى، وعليهِ إذْ أنزلَ الإهْتداءَ. فبانَ أنهُ بخلافِ ما يقولُهُ المعتزلةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ أنهُ إنما سُمِّيَ فرقاناً لوجهَينِ:

أحدُهما: لِما فرَّقَ آياتِهِ، وفرَّق إنزالَهُ، والثاني: لِما يفرِّقُ بينَ الحقِّ والباطلِ وبينَ الحرامِ والحلالِ[1] وبينَ ما يُتَّقَى، ويُؤتَى. فعلى هذا كلُّ كتابٍ مبيِّنٌ[2] فيه الحلالُ ومبيِّنٌ[3] ما يُتَّقَى، ويُؤتَى. والإنجيلُ [قيلَ فيه: سُمِّيَ][4] إنجيلاً لِما يُجَلِّي، وهو مِنَ الإظهارِ في اللغةِ، وقيلَ: سُمِّيَ التوراةُ توراةً مِنْ أوريْتُ الزندَ، وهو كذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: بحججِ اللهِ، وقيلَ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي باللهِ لأنهمْ إذا كفرُوا بآياتِهِ كفرُوا بهِ، وكذلكَ الكفرُ بدينِهِ كفرٌ بهِ، والبراءةُ مِنْ دينِهِ براءةٌ منهُ، والبراءةُ مِنْ رسولِهِ براءةٌ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ قيلَ فيه بوجهَينِ: قيلَ: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِ، وقيلَ: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ذو انْتِصارٍ على الأعداءِ، وقيلَ: ذو بطشٍ شديدٍ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هو وعيدٌ، كأنهُ، واللهُ أعلمُ، قالَ: لا يخفَى عليهِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ مِنَ الأمورِ المستورةِ الخفيةِ، فكيفَ تخفَى عليهِ أعمالُكُمْ وأفعالُكُمُ التي هي ظاهرةٌ عندَكُمْ؟ ويَحتمِلُ: إذا لم يَخْفَ عليهِ ما بطَنَ، وما خفِيَ في الأصلابِ والضمائرِ والأرحامِ، فكيفَ تَخْفَى أقوالُكُمْ وأفعالُكُمْ، وهي ظاهرةٌ؟ ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [آل عمران: ٦] إذْ عَلِمَ [ما][5] في الأرحامِ، وصوَّرَها على ما شاءَ، وكيفَ شاءَ؟ وهُمْ ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر: ٦].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ فيه دليلُ نقضِ قولِ مَنْ يقولُ بالقائفِ[6] لأنهُ جعلَ علمَ التصويرِ في الأرحامِ لنفسِهِ، لم يجعلْهُ[7] لغيرِهِ، كيفَ عرفَ القائفُ تصويرَ الأوّلِ؟ حينَ قالَ اللهُ: إنهُ على تصويرِهِ، وإنهُ مِنْ مأتاتِهِ[8].

ثم اختُلِفَ في خلقِ الأشياءِ: قالَ بعضُهُمْ [الخَلْقُ خلقٌ][9] الفروعِ مِنَ الأصولِ، وهنَّ أسبابٌ للفروعِ، وقالَ آخرونَ: يكونُ بأسبابٍ وبغيرِ أسبابٍ. فإنْ كانَتْ بعضُ الأشياءِ تكونُ بأسبابٍ مِنْ نحوِ الإنسانِ مِنَ النطفةِ؛ إلّا أنَّ النطفةَ تتلَفُ، فتكونُ علقةً ثم مضغةً، فدلَّ أنه يخلقُ الخلْقَ كيفَ شاءَ؟ مِنْ شيءٍ بسببٍ وبغيرِ سببٍ، وهو القادرُ على ذلكَ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ اختُلِفَ فيه: قيلَ: المحكَماتُ هُنَّ الناسخاتُ المعمولاتُ بهنَّ والمُتَشابِهاتُ مِنَ المنسوخاتِ غيرُ معمولٍ بهنَّ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وقالَ آخرونَ: المحكَماتُ هنَّ ثلاثُ آياتٍ في سورةِ الأنعامِ: قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى قولِهِ: ﴿تَتَّقُونَ﴾ [١٥١ و١٥٢ و١٥٣] وما ذُكِرَ في سورةِ بني إسرائيلَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى آخرِ هذهِ الآياتِ [٢٣ و...] سُمِّيَتْ محكَمةً لأنَّ فيها توحيداً وإيماناً باللهِ، وغيرَهُ مِنَ المُتَشابِهِ. ثم قيلَ بعدَ هذا بوجوهٍ: قيلَ: المحكماتُ هي التي يعرفُها كلُّ واحدٍ[10] إذا نظرَ فيها، وتأمَّلَ فيها، والمُتَشابِهُ هو المبهَمُ الذي يُعْرَفُ عندَ البحثِ فيهِ والطلبِ، وقيلَ: المحكماتُ ما يُوقَفُ، ويُفهَمُ مرادُهُ، والمُتَشابِهُ هو الذي لا يُوقَفُ البَتَّةَ بعدَما قضَى حوائجَ الخلْقِ مِنَ البيانِ في المحكَمِ منهُ، ولكنْ يلزمُ الإيمانَ بهِ، وهو مِنَ اللهِ محنةٌ على عبادِهِ. وللهِ أنْ يَمتَحِنَ بما شاءَ مِنْ أنواعِ المحنِ لأنها دارُ محنةٍ، وغيرُها ما لا يُفْهَمُ مرادُها.

---

(١) من م، في الأصل: والباطل. (٢) في الأصل وم: مبينا. (٣) في الأصل وم: وبين. (٤) في الأصل وم: فيه يسمى. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) القائف: من يعرف الآثار. (٧) في الأصل وم: يجعل. (٨) مأتاته: جهته. (٩) في الأصل وم: لخلق. (١٠) في الأصل وم: أحد.

ويَحتمِلُ أنْ تكونَ المحكماتُ هنَّ ما ظهرَ لكلِّ أحدٍ مِنَ الإسلام حتى لم يختلِفُوا فيها، والمُتَشابهُ هو الّذي اشتَبَهَ على الناسِ لِاختلافِ الألسنِ، فاختلفوا فيها ولِما يؤدّي ظاهرُهُ إلى غيرِ ما يُؤدّي باطنُهُ، فتعلّقَ بعضُهُمْ بالظاهرِ، فقالُوا بهِ، وتعلَّقَ آخرونَ بالباطنِ كما رأَوا ظاهرَهُ جوراً وظُلماً أو تشبيهاً على اتّفاقِهِمْ على نفيِ الجَورِ والظلم عنهُ، ويجوزُ أنْ يوقفَ على المُتشابهِ بمعرفةِ المُحكَم، وقالَ آخرونَ: المُحكَمُ، هو الواضحُ المُبيَّنُ؛ فلو كانَ على ما قالوا / ٥٤ ـ أ/ لم يكنْ لِاختلافِ الناسِ فيهِ وادّعاءِ كلٍّ أنَّ الذي هو عليهِ، هو المُحْكَمُ، لأنهُ لو كانَ ظاهراً مبيَّناً لتمسَّكوا بهِ، ولم يقعْ بينهُمُ اختِلافٌ.

وفيه دليلٌ على المعتزلةِ؛ لأنهمْ يقولونَ بالأصلَحِ في الدّينِ: أنهُ لا يُفعَلُ إلّا ذلكَ، ثم لم يبيِّنْ لهمُ المُحْكَمَ مِنْ غيرِ المُحْكَمِ، ولو بيَّنَ كانَ أصلحَ لهمْ في الدينِ. فدلَّ أنَّ اللهَ ﷻ قد يجوزُ أنْ يفعَلَ بهمْ ما ليسَ بأصلحَ لهمْ في الدّينِ امْتِحاناً وابْتِلاءً منهُ، واللهُ أعلمُ، لكنْ لا يخرجُ مِنَ الحكمةِ. ثم ما قالُوا[1] في الأمرِ حقٌّ لئلّا يأمرَ إلّا أنْ يفعلَ بهمْ ما ليسَ بأصلحَ لهمْ في الدينِ بمعنًى أقربَ وأدعَى إليهِ، واللهُ الموفقُ.

وقالَ قومٌ: المُحْكَمُ ما في العقلِ بيانُهُ، والمُتَشابِهُ ما لا يُدرَكُ في العقلِ، وإنما يُعرَفُ بمعونةِ السمعِ، وقالَ قومٌ: لا مُتَشابِهَ في ما فيهِ أحكامٌ مِنْ أمرٍ ونَهْيٍ وحلالٍ وحرامٍ، وإنما ذلكَ في ما ليسَ بالناسِ حاجةٌ إلى العلمِ بهِ نحوُ الإنباءِ عنْ مُنْتَهى المُلْكِ، وعن عددِ الملوكِ، وعنِ الإحاطةِ بحقيقةِ الموعودِ، ونحوُ ذلكَ، ولا قُوّةَ إلّا باللهِ. لكنْ أمكنَ أنْ يكونَ مُسمًّى تَشابُهٍ ممّا تَشابَهَ على أولئكَ القومِ حقيقةُ ما رامُوا مِنَ الوجهِ الذي طلبُوا. وقد بيَّنّا الحقَّ مِنْ أمرِ التشابُهِ وما يجبُ في ذلكَ مِنَ القولِ، وباللهِ العصمةُ والنجاةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يَحتمِلُ ﴿أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي أصلُ الكتابِ، ويَحتمِلُ ﴿أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي المُتقدِّمَةُ على غيرِها. وعلى هذا يخرجُ [قولُهُ تعالى][2]: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٢ و...] أعني مكةَ لأنها هي المتقدِّمَةُ على غيرِها مِنَ القُرَى، ويَحتمِلُ هي أصلُ القُرَى كما سُمِّيَتْ فاتحةُ الكتابِ أُمَّ القرآنِ لأنها أصلٌ، ولأنها هي المتقدِّمَةُ على غيرِها مِنَ السوَرِ، واللهُ أعلمُ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي مقصودُ الكتابِ؛ يعني المحكَماتِ والمُتشابهَ ممّا فيهِ شَبَهٌ مِنْ غيرِهِ، فهو مُتشابِهٌ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، وكذلكَ المشكِلُ سُمّيَ مُشْكِلاً لِما يدخلُ فيهِ شكلُ غيرِهِ، فَسُمّيَ مُشكِلاً، فكذلكَ المتشابِهُ يدخلُ فيه شَبَهُ غيرِهِ، فصارَ متشابهاً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ قيلَ: مَيلٌ عنِ الحقِّ، وقيلَ: الزّيغُ هو الريبُ والشّكُّ، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ ولو كانَ ثَمّ اتّباعٌ لعذرٍ، والاتّباعُ للشيءِ اتّباعُ ما فيهِ مِنَ المرادِ. وعلى هذا يقولُونَ في قولِهِ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] أي يتّبِعُونَهُ حقَّ اتّباعِهِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، والمُتَشابهُ قد أُنزِلَ[3] إلينا مِنْ ربِّنا، فَيُحْمَدُ متّبِعُهُ في الحقيقةِ [فثبتَ أنْ لم يكنْ ثَمَّ اتّباعٌ في الحقيقةِ][4]، وأنهُ لو كانَ لعذرٍ واقٍ، لكنهُ، واللهُ أعلمُ، اتّباعُ الآراءِ في التأويلِ بالآراءِ الفاسدةِ.

ألَا ترَى أنهمْ طَلَبُوا بالتأويلِ مُنتهَى مُلْكِ هذه الأمةِ؟ وفي الوقوفِ عليهِ وقوفٌ على علمِ الساعةِ وسببِ القيامةِ، وذلكَ علمٌ لمْ يُطْلِعِ اللهُ الرسلَ على ذلكَ فضلاً [عن أنْ لم][5] يُطلِعْ عليهِ غيرَهُمْ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: ويَحتمِلُ أنْ يكونَ اتّباعُهُمْ نظرَهُمْ في ما تَقْصُرُ أفهامُهُمْ عنِ الإدراكِ في الوقوفِ عليهِ، ولو كانَ نظرُهُمْ في المُحكَمِ مِنْ ذلكَ لكانَ لهُمْ في ذلكَ بلاغٌ وكفايةٌ في ما إليهم به حاجةٌ، ولا قُوّةَ إلّا باللهِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: في قولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ميلٌ عنِ الحقِّ، وذلكَ هِمَّتُهُمْ، وكانَ ذلكَ اعْتِقادُهُمْ، فإنْ كانَ المرادُ مِنْ ذلكَ في الكَفَرَةِ فهوَ الأوّلُ، وإنْ كانَ في أصحابِ الهواءِ مِنَ الذينَ يَدينُونَ دِينَ الإسلامِ فهو الثاني، وكذلكَ نجدُ كلَّ ذي مذهبٍ في الدينِ مِمَّنِ اعْتَقدَ حقيقةَ الأمرِ في قولِهِ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢] وقولِهِ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الآية [الإسراء: ٩]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ

(١) في م: قالوه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أنزلنا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أن.

إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [النمل: ٧٦] يتعلّقُ بظاهرِ الآيةِ، يَدَّعِي أنها محكمَةٌ بما عندَهُ أنهُ الحقُّ بعدَ أنْ أجهدَ نفسَهُ في طلبِ الحقِّ، ويُسَوِّي غيرَ ذلكَ عليهِ. فإنْ كانَ على ذلكَ فحقُّهُ التسليمُ لِما عليهِ توارُثُ الأُمّةِ ظاهراً على ما رُوِيَ عنْ نبيِّ اللهِ ﷺ أنهُ أخبرَ عنْ تفرّقِ الأمّةِ[١]. ثم أشارَ [إلى][٢] التمسكِ إلى ما عليهِ هو وأصحابُهُ ﷺ فعلى ذلكَ أمرُ المتوارَثِ؛ فيجبُ جعلُهُ مُحْكَماً وبياناً [لِما][٣] اختُلِفَ عليهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ويكونُ المبتدِعُ في ابْتِغاءِ تأويلِهِ يريدُ التلبيسَ على مَنْ لَزِمَ تلكَ الجماعةَ[٤] وكذلكَ الأهلُ جُهّلٌ في الدِّين [مِنْ فرعِ][٥] كذا التنازعِ وتركِ الاشتغالِ بتأويلِ ما اعترَضَهُ. فكانَ[٦] متّبِعُ المُحْكَمِ عندَ الأُمّةِ مطيعاً المُتَشابِهَ منهُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وإنْ كانَ هو الأوّلَ فقد ذكرَ أنَّ ذلك في استخراجِ مُنْتَهَى ملكِ الأُمّةِ وأنَّ نهايتَهُ الساعةُ، والعلمَ بهِ لم يُطْلِعْ عليهِ الرسلَ فضلاً عمَّنْ دونَهُمْ، أو كانَ ذلكَ في أشياءَ تقصُرُ عقولُ الضعفاءِ عنِ الإحاطةِ بذلكَ [فهو يريدُ][٧] بذلكَ التلبيسَ على العوامِّ وأهلِ الغباوةِ. فأخبرَ ﷻ بما ذكرَ أنهُ لا يعلَمُ إلّا هو[٨]، وكانَ ذلكَ في ما يُعَلِّمُهُ غيرَهُ، أو لا. فإنْ كانَ [محمدٌ ﷺ، عَلِمَهُ][٩] فباللهِ عَلِمَ، لا أنَّ في العقولِ بلوغَ ذلكَ، ومعنَى الاتّباعِ ما قد بيّنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي مِنَ القرآنِ: يقولُ ما اشتبَهَ حسابُهُمْ ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾، قيلَ: الفتنةُ الكفرُ، وتحتمِلُ الفتنةُ المحنةَ؛ أي يَمتحِنُونَ أهلَ الإسلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾؛ يقولُ: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ مُنْتَهى ما كتبَ اللهُ ﷻ بهذهِ الأُمّةِ مِنَ المدةِ لهمْ والوقتِ.

وأصلُ التأويلِ هو المُنْتَهى؛ [قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي وما يعلَمُ مُنْتَهى][١٠] تلكَ الأُمّةِ [﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾][١١] ثم المُتَشابِهُ إنْ كانَ ممّا يُوقَفُ فيهِ، فهو، وإنْ كانَ ممّا يعرِفُهُ أهلُ المعرفةِ، ويعلَمُهُ بالواضحِ، فهو هو. وأصلُ هذا أنَّ كلَّ ذي مذهبٍ في الإسلامِ يَدَّعِي على خصمِهِ بما ذهبَ إليهِ مِنَ الحِجاجِ بالآياتِ الوقوعَ في المُتَشابِهِ ولنفسِهِ [الوقوعَ][١٢] في الواضحِ، وعندَهُ أنَّ ما ذهبَ إليهِ هو الحقُّ، فلا فرقَ بينَ أنْ يَدَّعِيَ عليه ذهابَهُ إلى غيرِ الحقِّ أو تعَدِّيَهُ إلى المُتَشابِهِ وتركِ الواضحِ؛ فسبيلُ مثلِهِ الفحصُ والبحثُ عما ذهبَ إليهِ، إنْ جاءَ بشيءٍ يُضطَرُّ العقلُ إلى قبولِهِ سلَّمَ لهُ ما جاءَ بهِ، وإلّا فخصمُهُ منهُ في دعوى مثلِهِ بالوقوعِ لهُ في المُتَشابِهِ بمحلِّ دعواهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قالَ قومٌ موضعُ الوقفِ على قولِهِ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ ثم ابْتدأَ، فقالَ: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ يقولونَ بمعنى قالوا ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بما عَرَفْنا؛ وذلكَ جائزٌ في اللغةِ؛ يقولُ بمعنى قالَ. وقالَ آخرونَ: موضعُ الوقفِ على قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ثم استأنفَ الكلامَ، فقالَ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ المُحْكَمُ والمُتَشابِهُ وغيرُهُ. قيلَ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ هُمُ المُتَدارِسُونَ، وقيلَ: المُتَشابِثونَ: رُسُخٌ بمعنى ثُبِّتٍ، وقيلَ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ الناتِجونَ؛ يُقالُ: رَسَخَ في العلمِ، ونتجَ[١٣] فيهِ، فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في إنزالِ المُتَشابِهِ؟ قيلَ: إذا كانَ ممّا يُعْلَمُ فهو يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ لِيُعلَمَ فضلُ العالِمِ على غيرِ العالِمِ، ويَحتمِلُ أنْ جُعِلَ عليهِمْ طلبُ المُرادِ فيهِ والفحصُ عمّا أُودِعَ فيهِ. وإنْ كانَ ممّا لا يُعلَمُ يَحتملِ المحنةَ لِيمتحنَهُمْ في ذلكَ بالوقفِ فيهِ؛ إذِ الدارُ [دارُ][١٤] مِحنةٍ، وللهِ أنْ يَمتحِنَ عبادَهُ بجميعِ أنواعِ المحنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ما يَتّعِظُ إلّا أولو الحِجَى والعقلِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ فيهِ وجهانِ على المعتزلةِ:

أحدُهُما: أنهُ أضافَ الزَّيغَ إلى نفسِهِ، وهو حرفٌ مذمومٌ عندَ الخَلْقِ؛ إذا قيلَ: فلانٌ أزاغَ فلاناً عنِ الحقِّ، فإذا

---

(١) وهو قوله: «إنّ بني إسرائيلَ قد افترقت على ثنتين وسبعين فرقة، وأنتم تفترقونَ على مثلها؛ كلها في النار إلا واحدة» انظر المسند ٤/ ٢٤١، رقم الحديث (١٢٢٠٩). (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الجملة. (٥) في م: مرفوع عليه. (٦) في الأصل وم: لكان. (٧) في الأصل وم: يريدون. (٨) في الأصل وم: الله. (٩) في الأصل وم: اطلعه. (١٠) من م. (١١) من م. (١٢) من م. (١٣) الواو ساقطة من م. (١٤) من م.

أضافَ اللهُ ﷻ إلى نفسِهِ حرفَ الزَّيغِ دلَّ أنَّ فيهِ معنًى سِوَى ظاهرِهِ حتى جازتْ إضافتُهُ إليهِ، وهو أنْ خَلْقَ منهُمْ فعلَ الزَّيغِ. وكذلكَ/ ٥٤ ـ ب/ هذا في الضلالِ. وأضافَ أيضاً الهدايةَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؛ فلو كانَ الهُدَى البيانَ [على][1] ما يقولُهُ المعتزلةُ لجازَ أنْ يُضافَ ذلكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ إذْ هو يملكُ البيانَ لأنه بُعِثَ نبيّاً معلّماً، فإذا لم يَجُزْ ذلكَ دلَّ أنَّ فيه معنًى سِوَى التوفيقِ والعصمةِ حتى جازتْ إضافتُهُ إليه، ولا تجوزُ إضافتُهُ إلى غيرِهِ، واللهُ الموفقُ.

والثاني: أنهمْ سألُوا العصمةَ عنِ الزَّيغِ والضلالِ، فلو كانَ عليهِ أنْ يفعلَ ذلكَ، وأنْ يبذُلَ لهمُ العصمةَ، لم يكنْ للسؤالِ عنْ ذلكَ معنًى. دلَّ أنهُ مفضّلٌ فيهِ، فيبذُلُ ذلكَ لهمْ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ، رحمهُ اللهُ: في قولِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ الآيةَ، فيه وجهانِ:

أحدُهما: أنهُ لو لم يكنْ إلّا الأصلحُ في الدِّينِ، فَتَرْكُهُ جورٌ؛ فالقولُ: يا ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا يخلُو مِنْ أنْ تكونَ الإزاغةُ أصلحَ لهُ، وهو يدعُو بأن يجورَ، أو لا يكونُ أصلحَ، فهو يدعُو بألّا يجورَ، ومحالٌ الدعاءُ على خوفِ الجَورِ. ومَنْ خافَ جَورَ الخالقِ فهو غيرُ عارفٍ بهِ.

والثاني: أنَّ الداعيَ في ما جُبِلَ عليهِ الخلْقُ يدعو على أمْنٍ أنهُ لو أجابَهُ لكانَ لا يُزيغُ قلبَهُ، وكذلكَ مُوالي العصمةِ والهدايةِ، ولهذا يؤمِنُ بهِ أيضاً. ولو كان يكونُ معهُ زيغٌ لكانَ لا فضلَ في الأمرِ بينَ الدعاءِ بالإزاغةِ وألّا تزغْ، لأنّ الخوفَ مع الأمرَينِ قائمٌ، واللهُ الموفقُ. وفي ذلك أيضاً وجهانِ آخرانِ:

أحدُهما: أنَّ الإزاغةَ إذا أُضيفتْ إلى أحدٍ خرجَتْ مخرجَ الشَّتمِ [لهُ والتعييرِ][2]. ثبتَ أنَّ في ما أُضيفَتْ إلى اللهِ، تباركَ، وتعالى، معنًى ليسَ في ما أُضيفَتْ إلى غيرِهِ، وهو، واللهُ أعلمُ، أنَّ الإزاغةَ مِنْ كلِّ أحدٍ فعلٌ هو زيغٌ بنفسِهِ، فيهِ ذمٌّ، ومِنَ اللهِ ليسَتْ، فيكونُ فيهِ أنَّ خلْقَ فعلِ الزيغِ ليسَ بزيغٍ، وإنْ كانَ فعلُهُ يُزيغُ، واللهُ أعلمُ، وفيهِ أنَّ خَلْقَ الشيءِ ليسَ هو ذلكَ الشيءَ، وأنهُ يكونُ مِنَ اللهِ ما يوصَفُ بالإزاغةِ، ويصيرُ لديهِ الآخرُ زائغاً، ولا شيءَ يوجدُ يكونُ كذلكَ سِوَى خلْقِ فعلِ الإزاغةِ مِنَ العبيدِ، واللهُ الموفقُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ ولو لم يكنْ مِنَ اللهِ في الهدايةِ سِوى البيانِ لكانَ يَصِحُّ ذلكَ لكلِّ كافرٍ، وتجوزُ الإضافةُ إلى الرسلِ؛ فإنْ لم يَصِحَّ ذلكَ، ولَمْ يَجُزْ، ثبتَ أنْ ثَمَّ فضلٌ، وهو فعلُ الهدايةِ والتوفيقِ الذي معهُ الاهْتِداءُ، لا محالةَ، وباللهِ التوفيقُ والمعونةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [الرحمةُ تَحتمِلُ وجوهاً][3]: تَحتمِلُ الهُدَى والإسلامَ؛ إذْ به يُستفادُ، وتَحتمِلُ الجنةَ، وتَحتمِلُ أنهمْ سألُوهُ كلَّ رحمةٍ. قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: (الرحمةُ السَّعَةُ في الدنيا والثوابُ في الآخرةِ).

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ فهو على قولِ المعتزلةِ ليسَ بوَهّابٍ؛ لأنَّ الوهّابَ هو المفضّلُ الذي يَهَبُ، ويبذلُ ما ليسَ عليهِ، وهو على قولِهِمْ: عليهِ أنْ يُعطيَ الخَلْقَ كلَّ ما هو أصلحُ لهمْ في الدِّينِ؛ فالآيةُ تُكذِّبُهُمْ، وتردُّ عليهِمْ قولَهُمُ الوحْشَ في اللهِ. يتعالى اللهُ عنْ ذلكَ عُلوّاً كبيراً. ويَحتمِلُ ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ ما نَستَوجِبُ بهِ الرحمةَ، وهو عملُ الخيرِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ في هذا خاصةً أنْ يرادَ بهِ القيامةُ والبعثُ، ويَحتمِلُ ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ في كلِّ شيءٍ ممّا يصيبُ الخَلْقَ مِنَ الخيرِ والشرِّ والفرحِ والحزنِ والأسفِ. يقولُونَ: إنهُ كانَ بوعدِهِ ووعيدِهِ، وإنهُ كانَ مكتوباً عليهِمْ ولَهُمْ، وإنهُ لا يكونُ على خلافِ ما كانَ مكتوباً عليهِمْ ليصبرُوا على الشدائدِ والمصائبِ، فلا يجزَعُوا عليها، ولا يحزَنُوا، وليشكرُوا على الآلاءِ والنعماءِ، ولا يفرحُوا عليها، وهو كقولِهِ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

---

(١) من م. (٢) من م، في الأصل: وله التعيير. (٣) في الأصل: الرحمة تحتمل وجوه، في م: تحتمل وجوه.

الآية ١٠ وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وذلكَ أنهمْ كانُوا يَستنصِرُونَ بأولادِهِمْ وأموالِهِمْ في الدنيا، ويَستعينُونَ بها على غيرِهِمْ، فظنُّوا أنهمْ يَستنصِرُونَ بهِمْ في الآخرةِ، ويَدفعُونَ بهِمْ عنْ أنفسِهمُ العذابَ، وهو كقولِهِمْ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥]، فأخبرَهُمُ اللهُ ﷻ أنَّ أموالَكُمْ وأولادَكُمْ لا تغني عنكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، [أي حطبُ النارِ][(١)]، فهو، واللهُ أعلمُ، أنَّ الإنسانَ إذا وقعَ في النارِ في هذهِ الدنيا لا يحترقُ احتراقَ الحطبِ، ولكنهُ يذوبُ، ويسيلُ منهُ الصديدُ، فقالَ اللهُ ﷻ: إنهمْ يَحترِقُونَ في النارِ في الآخرةِ احتراقَ الحطبِ لا احتراقَ الإنسانِ في الدنيا، لأنها أشدُّ بطشاً وأسرعُ أخذاً وأطوَلُ احتِراقاً. وعلى[(٢)] هذا يخرجُ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ليسَ كعذابِ الدنيا، أنهُ على الانقضاءِ والنَّفادِ، ولكنْ على الدَّوامِ فيها والخُلُودِ أبَدَ الآبدِينَ. فنعوذُ باللهِ منها.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيلَ: كأشباهِ آلِ فرعَونَ، وقيلَ: كعملِ آلِ فرعَونَ وكصَنيعِهِمْ، وكلُّهُ واحدٌ، ثم يَحتمِلُ بعدَ هذا وجهَينِ: يَحتمِلُ كصنيعِ هؤلاءِ وعملِهِمْ، بل كصَنيعِ آلِ فرعَونَ ومَنْ كانَ قبلَهُمْ بموسى في الكذبِ والتَّعنُّتِ، فألْحَقَ أولئكَ مِنَ العذابِ بتكذيبِ الرسلِ وتَعنُّتِهِمْ عليهِمْ ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ قد ذكَرْنا.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وهذا، واللهُ أعلمُ، في قوم قد علمَ ﷻ أنهمْ لا يؤمنُونَ أبداً. لذلكَ قالَ تعالى لنبيِّهِ ﷺ: أنْ ﴿قُل﴾ لهمْ ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الآية، وإلّا فلا يلحقُهُمْ[(٣)] ذلكَ الوعيدُ، واللهُ أعلمُ، لأنَّ مِنَ الكفارِ مَنْ يُسلِمُ ومَنْ لا يُسلِمُ، [وإلّا فلا يلحقُ بالوعيدِ مِنَ الكفارِ مَنْ أسلمَ][(٤)].

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ﴾ فإنْ قالَ قائلٌ ما: في فئةٍ قليلةٍ، وهي فئةُ أهلِ الإسلامِ، وفئةٍ كثيرةٍ، وهي فئةُ المشركينَ، حينَ غَلَبَتْ فئةُ المسلمينَ، وهمْ قليلٌ، فئةَ المشركينَ، وهُمْ كثيرٌ يومَ بدرٍ، وقد يكونُ لأهلِ الكفرِ إذا كانوا كثيراً[(٥)]، فغُلِبُوا على أهلِ الإسلامِ، آيةٌ. قيلَ: ليستِ الآيةُ في الغَلَبةِ خاصةً، لكنَّ الآيةَ، فيها، واللهُ أعلمُ، وجوهٌ [أُخرَى][(٦)]:

أحدُها: أنَّ غَلَبَةَ المسلمينَ معَ ضَعْفِ أبدانِهِمْ وقلةِ عددِهِمْ وخروجِهِمْ لا على وجهِ الحربِ [وقتالِ المشركينَ][(٧)] معَ قوةِ أبدانِهِمْ وكثرةِ عددِهِمْ[(٨)]، فاستِعدادُهُمْ للحربِ وخروجُهُمْ على الحَربِ والقتالِ آيةٌ وعلمُ العدوِّ أنْ ليسَ لهمْ فئةٌ، ولا لهمْ رجاءُ المَدَدِ، وأنْ لا غياثَ لهمْ منَ البشرِ، وذلكَ آيةُ الجراةِ وعلامةُ الشجاعةِ، ومعهُ أمْنٌ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنَّ ما رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخذَ كفًّا مِنْ ترابٍ، فرماهُ على وجوهِهِمْ، وقالَ: «شاهَتِ الوجوهُ» [مسلم ١٧٧٧] فامتلأتْ أعينُهُمْ مِنْ ذلكَ، وعَمُوا حتى انْهزَمُوا، فصارَ آيةً.

والثالثُ: ما قيلَ: إنَّ أبا جهلٍ قامَ، فدعا، فقالَ: (أيُّنا أحقُّ دِيناً وأوصَلُ رَحِماً فانصُرْهُ، واجعلِ الغَلَبَةَ والهزيمةَ على الآخَرِ)، فاستُجيبَ[(٩)]، فكانتِ الغَلَبةُ والهزيمةُ عليهِمْ، فكانَ آيةً.

والرابعُ: ما أعانَ الملائكةُ المسلمينَ، وبعثُهُمُ اللهُ ﷻ مَدَدَ النُّصرةِ للمؤمنينَ على الكافرينَ يومَ بدرٍ، فذلكَ آيةٌ.

ووجهٌ آخرُ ما ذكَرْنا، وهو أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانُوا خرجُوا شبهَ الأغِرَّةِ[(١٠)] بغيرِ سلاحٍ غيرَ مستعدِّينَ للقتالِ على علْمٍ منهمْ بذلكَ، وأولئكَ خرجُوا مستعدِّينَ لذلكَ، وكانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يلحقه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: قليلا. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: في غيره من. (٧) في الأصل: والقتال والمشركين. (٨) أدرج بعدها في الأصل: وخروجهم. (٩) في م: فاستجيبت. (١٠) في الأصل وم: الغير.

قالَ الشيخُ [رَحِمَهُ اللهُ][(١)]: في ذكرِ القليلِ في الأعينِ مِنَ الجانبَينِ آيةٌ عظيمةٌ؛ إذ هي حِسّيّةٌ، والحواسُّ تُؤدّي عنِ المحسوساتِ حقائقَها / ٥٥ ـ أ/ فجعلَها اللهُ بحيثُ لا تُؤدّي لِما قالَ: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢ و٤٤]؛ فيَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ ممّا ذكرَ مِنَ الآيةِ في أمرِ الفئتَينِ هذا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ وفي بعضِ القراءاتِ بالتاء[(٢)]: ترَونَهُمْ؛ يَرَى المؤمنونَ أولئك مِثْلَي أنفسِهِمْ لا أكثرَ، هُمْ كانُوا ثلاثةَ أمثالٍ على ما رُوِيَ في القصةِ، وهذا لَمّا جعلَ الحقُّ عليهِمْ قيامَ الواحدِ مِنَ المسلمينَ بالاِثنَينِ منهمْ معَ ضعفِهِمْ، لجهدِهِمْ في العباداتِ وبلوغِهِمُ الغايةَ مِنِ احتِمالِ الشدائدِ والمشقاتِ. أخبرَ ﷻ بمعرفتِهِمْ أمرَ الحربِ وشدةِ رغبتِهِمْ في تعلُّمِهِمْ ما يحتاجُونَ في الحربِ والقتالِ، ولهذا قالُوا: إنَّ اللهَ ﷻ علَّمَ المؤمنينَ جميعَ ما يحتاجُونَ في الحربِ مِنَ الآدابِ وغيرِها في الكتابِ كقولِهِ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥] أمرَهُمْ بالتَّثَبُّتِ، ثم قالَ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، وقالَ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦]؛ فجعلَ التنازعَ الواقعَ بينَهُمْ على خلافِ بعضِهِمْ بعضاً سببَ الهزيمةِ، ففيهِ أمرٌ بالاِجتِماعِ وجعلِ التدبيرِ واحداً، إذِ الطاعةُ لإمامِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وإنما كانَ عبرةً لِما ذكرْنا مِنْ خروجِ المؤمنينَ بِقِلَّةِ عددِهِمْ وضعفِ أبدانِهِمْ بلا اسْتِعدادٍ للحربِ والقتالِ، إنما [هو][(٣)] خروجُ شبهِ الأغِرّةِ[(٤)]، وخروجُ أولئكَ بالعُدَّةِ[(٥)] مَعَ قوةِ أبدانِهِمْ وكثرةِ عددِهِمْ وطمعِ المددِ لهُ، ولم يكنْ للمسلمينَ ذلكَ، ففي مثلِ غَلَبَةِ المؤمنينَ الكافرينَ والظفرِ بهِمْ والنصرِ لهمْ عليهِمْ على الوصفِ الذي وصَفْناهُمْ عِبْرةٌ، وإنَّهُ لأُولي الأبصارِ والعِبَرِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أيِ الشهيّاتِ مِنَ النساءِ والبنينَ وما ذكرَ إلى آخرِهِ.

قالَ الحسنُ: (واللهِ ما زيَّنَها إلّا الشيطانُ)، إذ لا أحدَ أذَمُّ لها ولا مِثْلِها مِنَ اللهِ تعالى. وإليهِ يذهبُ المعتزلةُ. لكنَّ الأصلَ في هذا وفي أمثالِهِ أنَّ اللهَ ﷻ زيَّنَ هذهِ الأشياءَ، والتزيينُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ يقَعُ لوجهَينِ، وكذلكَ الكراهةُ تقعُ لوجهَينِ: تزيينٌ[(٦)] في الطباعِ، والطبعُ يَرْغَبُ في ما يَتَلَذَّذُ، ويَشْتَهي، وإنْ لم يكنْ في نفسِهِ حسنٌ، وتزيينٌ[(٧)] في العقلِ إلّا في ما ثبتَ حسنُهُ بنفسِهِ أوِ الأمرِ أو حمدِ العاقبةِ ونحوِ ذلكَ، ثم جعلَ العقلَ مانعاً له راداً عمّا يرغبُ إليهِ الطبعُ، ويميلُ، لأنَّ الطبعَ أبداً يَميلُ، ويَرغَبُ، إلى ما هو ألذُّ وأشهَى وأخفُّ عليهِ، أو[(٨)] ينفرُ عما يضرُّهُ، ويؤلمُهُ. والعقلُ لا ينفرُ إلّا عمّا القبيحِ في نفسِهِ، ويرغَبُ في ما هو الحسنُ في نفسِهِ. وعلى ذلكَ يخرجُ قولُهُ ﷺ: «حُفَّتِ الجنةُ بالمكارِهِ والنارُ بالشهواتِ» [مسلم ٢٨٢٢] ليسَ على كراهةِ العقلِ ولا على شهوةِ العقلِ، لكنْ على كراهةِ الطبعِ وشهوتِهِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] ليسَ على كراهةِ الاِختِيارِ ولكنْ كراهةِ الطبعِ؛ لأنَّ كراهةَ العقلِ كراهةُ الاِختِيارِ، وكذلكَ رغبةُ الاِختِيارِ، وفيها تجري الكُلفةُ، أعني على اختِيارِ العقلِ لا اختِيارِ الطبعِ لِما يَميلُ، ويَرغبُ في الألذِّ، وينفرُ عنِ المَضارِّ؛ دليلُهُ [قولُهُ تعالى][(٩)]: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أخبرَ أنهمْ لا يؤمنُونَ ما وجدُوا في قضائِهِ حَرَجاً. فدلَّتِ الآيةُ أنَّ الخطابَ والكُلفةَ إنما تكونُ على اختِيارِ العقلِ وكراهيتِهِ لا على اختِيارِ الطبعِ.

لذلكَ قُلْنا: إنهُ يجوزُ التزيينُ[(١٠)] في الطبعِ مِنَ اللهِ تعالى.

فأمّا قولُهُمْ: إنَّ الشيطانَ هو الذي زيَّنَها؛ فإنْ عَنَوا أنهُ يُزَيِّنُها لهمْ، ويدعُوهُمْ إليها، ويُريهِمْ زينتَها، فنعمْ، وإنْ عَنَوا أنهُ يُزَيِّنُها بحيثُ نفسُها لهمْ فلا؛ لأنَّ اللهَ تعالى وصفَ الشيطانَ بالضعفِ، ونَفَى عنهُ هذهِ القدرةَ، بقولِهِ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. فلو جعَلْنا لهُ التزيينَ[(١١)] لهمْ على ما قالُوا لم يكنْ كيدُهُ على ما وصفَهُ ﷻ بالضعفِ، ولكن كانَ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ٢/ ١٠ . (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: الغير. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: تزين. (٧) في الأصل وم: وتزين. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: التزين. (١١) في الأصل وم: التزين.

قَوِيّاً، ولكنهُ يدعُوهُمْ إليها، ويُرَغِّبُهُمْ فيها، ويُريهِمُ المُزَيَّنَ لَهُمْ. ثمّ دعاؤهُ إياهُمْ، وحُجَّتُهُ في ذلكَ، وقُوَّتُهُ مِنْ حيثُ ما لا يُطّلَعُ عليهِ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فالعدُوُّ الذي يَرَى هو مَنْ يُعاديهِ، ولا يُرَى هو كانَ يجبُ أنْ يكونَ أحذرَ منهُ، وأخوفَ ممَّنْ يَرَى.

ووجهٌ آخرُ: أنَّ الشهواتِ التي أضافَ التزيينَ إليها لا خلافَ بينَهُمْ في أنها مخلوقةُ اللهِ تعالى، فما بقيَ للشيطانِ إلّا الدعاءُ إليها والترغيبُ فيها.

وفيهِ وجهٌ آخرُ أنهُ لو لم يُجعَلْ هذا مُزَيَّناً مِنَ اللهِ تعالى لَزالَ موضعُ اسْتِدلالِ الشاهدِ على الغائبِ وبالدنيا على الآخرةِ؛ قد جعلَ ما في الدنيا نوعَينِ مُسْتَحْسَناً ومُسْتَقْبَحاً، وجعلَ ذلكَ عِياراً لِما أوعَدَ، ووَعدَ. فلمّا لم يكونا منهُ لا يَصِحُّ موضعُ التَّغْيِيرِ[١] لأنهُ جلَّ، وعلا، بلطفِهِ سخَّرَ كلَّ مرغوبٍ في الدنيا ومدعُوٍّ إليهِ مِنْ جوهرِهِ في الآخرةِ، وحسَّنَهُ ليرغَبَ الناسُ عن هذا إلى ما في الجنةِ بحسنِهِ ولطفِهِ وزينتِهِ، ويدعُوهُمْ إلى تركِ ما في الدنيا مِنَ الفاني إلى نعيمٍ دائمٍ أبداً.

فلو جُعِلَ هذا مِنْ تزيينِ الشيطانِ، لعنَهُ اللهُ، ومصنوعَهُ لهمْ لَذهبَ عظيمُ موضعِ الاِسْتِدلالِ الذي ذكَرْنا. فدلَّ أنَّه مزيَّنٌ منهُ ﷻ تعالى اللهُ عما يقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

ثم امتحَنَهُمُ اللهُ ﷻ بتركِ ما زيَّنَ لهمْ في الطباعِ بما ركَّبَ لهمْ مِنَ العقولِ الوافرةِ ليختارُوا ما حَسُنَ في العقولِ، وتزيَّنَ. على ذلكَ جرتِ الكلمةُ والخطابُ لا بما مالَتْ إليهِ الطباعُ، ونفرَتْ عنهُ العقولُ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم في الآيةِ دلالةُ وجوبِ الحقِّ في كلِّ ما ذُكِرَ في الآيةِ مِنَ المالِ وكذلكَ الخيلُ. وأمّا في النساءِ والبنينَ فما مُتِّعُوا بهِمْ أوجبَ عليهِمُ النفقةَ، وكذلكَ القناطيرُ المقنطرةُ والفضةُ والخيلُ المسوَّمَةُ؛ أوجبَ في النساءِ عليهِمُ النفقةَ وكذلكَ البنينَ، وأوجبَ في الذهبِ والفضةِ حقًّا. ثم ذكرَ الخيلَ المسوَّمَةَ، إنْ كانَ المرادُ منهُ جَعْلَها سائمةً. لذلكَ قالَ أبو حنيفةَ ﷺ: (إنَّ في الخيلِ صدقةً).

ثم اختُلِفَ في المُسَوَّمَةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: هي[٢] المسيَّبَةُ الراعيةُ، وقالَ آخرُونَ: هي المعلَّمَةُ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: (المسوَّمَةُ الراعيةُ)، وقالَ غيرُهُمْ: المُطْهَمَةُ، وهي المحسَّنَةُ.

ثم أخبرَ أنَّ ما ذُكِرَ في الآيةِ هو متاعُ الدنيا، أمرَهُمْ بتركِ ذلكَ، أخبرَ أنَّ لهمْ ﴿عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ إنْ هُمْ تركوا ما امتُحِنوا.

الآية ١٥ ثم قالَ: إنَّ مَنِ اتَّقَى في الدنيا خيرٌ له مِنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ إلى آخرِهِ.

ثم اختُلِفَ في القناطيرِ المقنطَرَةِ: منهُمْ مَنْ قالَ: ألفٌ ومئتا أوقيةٍ، ومنهُمْ مَنْ قالَ: اثْنتا عَشْرَةَ ألفاً، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: سَبعُونَ ألفَ دينارٍ، ومنهُمْ مَنْ يقولُ بلسانِ الروميةِ: مِلْءُ مَسْكِ ثورٍ ذهباً أو فضةً، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: كلُّ مئةِ قنطارٍ مِنْ كُلِّ شيءٍ، وهو اسْمُ المالِ العظيمِ الكثيرِ، لا يُدرَى ما مقدارُهُ، ليسَ لنا إلى معرفةِ قدرِهِ حاجةٌ ولا فائدةٌ، إنما الحاجةُ إلى معرفةِ الرغبةِ في ما كثُرَ مِنَ المالِ؛ إذ ليسَ قدرٌ أحقَّ بأنْ تُحمَلَ عليهِ الرغبةُ مِنَ الأمرِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الآفاتِ كلِّها: مِنَ الأخلاقِ السيئةِ والأقذارِ والعيوبِ كلِّها. وقد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ، وفي صدرِ [سورةِ البقرة: و﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [الآية: ٢٥] أنَّ كلَّ][٣]، أهلِ الجنةِ مُطَهَّرُونَ[٤] مِنْ جميعِ المعايبِ؛ لأنَّ العيوبَ في الأشياءِ عَلَمُ الفناءِ، وهمْ خُلِقوا للبقاءِ، إلّا أنَّ أصلَ[٥] الذكرِ جَرَى للنساءِ لِما ظهرَ في الدنيا مِنْ فَضلِ[٦] المعايبِ والأذَى.

(١) في الأصل وم: التغبير. (٢) في الأصل وم: وهي. (٣) في الأصل وم: السورة: قال: وكل. (٤) في الأصل وم: مطهرة. (٥) في الأصل وم: أهل. (٦) من م، في الأصل: الفضل.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ الآية؛ قد رضيَ منهُمْ بهذا القولِ، وفيه تزكيَةٌ لهمْ. ولو كانَ الإيمانُ جميعَ الطاعاتِ لم يرضَ منهمُ التزكيةَ بها، وقد أخبرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنَّ لِلذينَ اتَّقَوا عندَ ربِّهِمْ في الجنةِ خيراً مِنْ هذا الذي زيِّنَ للناسِ في الدنيا مِنَ النساءِ وما ذكرَ/ ٥٥ ـ ب/ إلى آخرِهِ.

وقولُهُ: ﴿ٱتَّقَوۡا﴾ يَحتمِلُ: اتَّقَوُا الشركَ، ويَحتمِلُ الذينَ اتَّقَوُا الفواحشَ والمعاصيَ كلَّها.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ قيلَ: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على المَرازي والمصائبِ والشدائدِ. والصبرُ هو حَبْسُ النفسِ عنْ جميعِ ما تَهْوَى، وتشتهي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ قيلَ: في إيمانِهِمْ، وقيلَ: ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ بما وعَدُوا، وقيل: ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في جميعِ ما يقولُون، ويُخبِرُونَ.

[[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَٱلۡقَـٰنِتِينَ﴾ قيلَ: القانتُ الخاضعُ، وقيلَ: القانتُ المطيعُ، وقيلَ: الخاشعُ، وكلُّهُ يرجِعُ إلى واحدٍ. وأصلُهُ: القيامُ، وكلُّ مَنْ قامَ لآخَرَ كانَ مطيعاً وخاشعاً وخاضعاً ومُقِرّاً، وقيلَ: القانتُ المُقِرُّ كقولِهِ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦] أي مُقِرُّونَ][2].

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ يَحتمِلُ الإنفاقَ ما لَزِمَ مِنْ أموالِهِمْ مِنَ الزكاةِ والصدقاتِ، ويَحتمِلُ: ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ المؤدِّينَ حقوقَ بعضِهِمْ بعضاً مِنْ حقِّ القرابةِ والصِّلَةِ.

وقالَ قتادةُ: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ الذينَ صبَرُوا على طاعةِ اللهِ، وصبَرُوا عنْ محارِمِه، ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ الذينَ صدَقَتْ نِيّاتُهُمْ، واستقامَتْ قلوبُهُمْ وألسنتُهُمْ، وصدقُوا في السِّرِّ والعَلانِيَةِ، ﴿وَٱلۡقَـٰنِتِينَ﴾ المطيعِينَ، ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ يعني نفقةَ أموالِهِمْ في سبيلِ اللهِ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ قيلَ: المُصلِّينَ بالأسحارِ، وقيلَ: المُصلِّينَ في أوّلِ الليلِ والمُستغفِرِينَ في آخرِهِ. وأصلُ الاستِغفارِ طلبُ المغفرةِ ممّا ارْتُكِبَ مِنَ المأثمِ على ندامةِ القلبِ والعزيمةُ على تركِ العَودِ إلى مِثْلِهِ أبداً، ليسَ كقولِ الناسِ: أستغفرُ اللهَ على غيرِ ندامةِ القلبِ. وأصلُ الاستِغفارِ في الحقيقةِ طلبُ المغفرةِ بأسبابِها، ليسَ أنْ يقولَ: [أستغفرُ اللهَ بلسانِهِ][5]، اغفِرْ لي، [ولكنْ][6] كقولِ نوحٍ ﷺ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أمرَهُمْ بالتوحيدِ. ثم أخبرَ ﷻ أنَّ الجنةَ هي للصابرينَ والصادِقينَ إلى آخرِ ما ذكَرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قيلَ فيه وجوهٌ[7]: قيلَ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ شهادةٌ ذاتيةٌ، أي هو بذاتِهِ ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي خَلَقَ مِنَ الخلائقِ ما تَشهَدُ خِلقَتُهُ كلِّ واحدٍ بوحدانيّتِهِ والهِيَّتِهِ؛ لو نظرُوا في خِلقَتِهِمْ، وتدبَّرُوا فيها، وكذلكَ ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ شهدوا أنْ لا إله إلّا هو على تأويلِ الأوّلِ، وعلى تأويلِ الثاني أنَّ [خِلْقَةَ: الملائكةِ وأولي][8] العلمِ يَشهدُونَ على وحدانيّتِهِ، فَشَهِدُوا على ذلكَ إلّا الجُهّالَ فإنهمْ لم يتأمّلُوا في أنفسِهِمْ، [ولم يتفكَّرُوا][9]، ولم يَشْهَدُوا بهِ لأنهُ أمَرَ الرسلَ والأنبياءَ ﷺ بأنْ يقولُوا: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. فقولُهُ وأمرُهُ بهِ شهادةٌ منهُ. ويَحتمِلُ شهادةَ القولِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]؛ وذلكَ مِنَ اللهِ الربوبيَّةُ، ومِنَ الخَلْقِ العبوديَّةُ لهُ، فيجبُ أنْ تُعرَفَ الربوبيَّةُ مِنَ العبوديَّةِ، ففيهِ دلالةُ خَلْقِ الإيمانِ، فَمَنْ قالَ: إنه غيرُ مخلوقٍ لم يعرِفْ ذا مِنْ ذاكَ، وباللهِ التوفيقُ.

وقيلَ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أي عَلِمَ اللهُ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وكذلكَ عَلِمَ الملائكةُ وأولو العلمِ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. فإنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرجت في الأصل وم بعد: وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ . . . والصلة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: بلسانيه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م: بوجوه. (٨) في الأصل: الملائكة وأولو. (٩) في الأصل وم: ولا يتفكروا.

قالَ لنا ملحدٌ: كيفَ صحَّ، وهو دَعْوَى؟ قيلَ: لأنَّ مَنْ ظهرَ صدقُهُ في شهادتِهِ إذا شهدَ، وهو مقبولٌ، وهو بما ادّعَى مِنَ الألوهيةِ والربوبيةِ، إذا لم يَستقبِلْهُ أحدٌ، ظهرَ صدقُهُ، وقهرَ كلَّ مكذِّبٍ لهُ في دعواهُ، وباللهِ النجاةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي [حافظاً لهُ ومتولّياً][1] كقولِهِ: ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرعد: ٣٣] أي حافظٌ لها ومُتَوَلٍّ][2] كما يُقالُ: فلانٌ قائمٌ على أمرِ فلانٍ أي حافظٌ لأمرِهِ ومتعاهدٌ لأسبابِهِ. وقالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: وقيلَ: عادلٌ أي لا يجورُ، لا أنْ ثَمَّ معنَى القيامِ كقولِهِ: ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [النساء: ١٣٥] مُقْسِطِينَ، لا أنْ ثَمَّ للقيامِ فيهِ معنًى يَسْبِقُ الوهْمَ إليهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ قالَ قائلونَ: إنَّ الدينَ الذي هو حقٌّ مِنْ بينِ الأديانِ، وهو الإسلامُ، لأنَّ كلَّ أحدٍ منهمْ ممّا دانَ دِيناً يدَّعِي أنهُ دينُ اللهِ الذي أمرَ بهِ، وقالَ قومٌ: إنَّ الدينَ الذي أمرَ بهِ الأمرُ مِنْ عندِ اللهِ لأنهم كانُوا معَ اختِلافِهِمْ مُقِرِّينَ بالإيمانِ، لكنَّ بعضَهُمْ لا يُقِرُّونَ بالإسلامِ، فأخبرَ ﷻ أنَّ الدينَ الذي أمرَ بهِ، وفيه التوحيدُ، هو الإسلامُ، لا[3] غيرُهُ. ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾؟ [آل عمران: ٦٧] أخبرَ ﷻ أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليسَ على دِينٍ سِوَى دِينِ الإسلامِ، والإسلامُ هو الإخلاصُ على ما ذكَرْنا في ما تقدَّمَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [أنهُ][4] قالَ: (﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شهدوا ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أنَّ ﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ وأنهُ قائمٌ ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾. والقِسْطُ، هو العدلُ في جميعِ القرآنِ).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ الاِختِلافُ التفرُّقَ؛ أي تفرَّقُوا في الكفرِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ﴾ الآيةَ [آل عمران: ٦٧]، ويَحتمِلُ الاِختِلافُ نفسَ الاِختِلافِ في الدينِ كقولِهِ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣]؛ أخبرَ أنهمْ[5] لم يختلِفُوا عنْ جهلٍ ولكنْ عَنْ علمٍ وبيانٍ كقولِهِ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ ثم يَحتمِلُ قولُهُ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ وجهَينِ[6]: أي لم يختلِفُوا إلّا مِنْ بعدِ ما عَلِمُوا، وعَرَفُوا، ويَحتمِلُ لم يختلِفُوا إلّا مِنْ بعدِ ما أُوتُوا أسبابَ ما لو تفكَّرُوا، وتدبَّرُوا، لوقعَ العلمُ لهمْ بذلكَ والبيانُ، لكنهمْ [تعنَّتُوا، و][7]كابَرُوا، فاختلَفُوا.

ثمّ في الآيةِ دليلٌ ألّا يجوزَ أنْ يُفسَّرَ[8] قولُهُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونحوُهُ بالاِنتِقالِ[9] مِنْ حالٍ إلى حالٍ ومِنْ مكانٍ إلى مكانٍ لأنهُ ذكرَ مجيءَ العِلْمِ، والعِلْمُ لا يوصَفُ بالمجيءِ والذهابِ[10]، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: ٨١]؛ ذكَرَ مَجيءَ الحقِّ ومَزهَقَ[11] الباطلِ، فهما لا يُوصفانِ بمجيءِ الأجسامِ وذهابِها[12] بالاِنتِقالِ والتَّحَوُّلِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ولا يُعرَفُ ذلكَ، ولا يُصرَفُ إليهِ. فعلى ذلكَ لا جائزٌ أنْ يُصرَفَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] و﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و..] ونحوُهُ إلى المعروفِ مِنِ استواءِ الخَلْقِ ومجيئِهِمْ لِتعاليهِ عَنْ ذلكَ. قالَ: والمجيءُ لا يكونُ بالاِنتِقالِ[13] خاصةً، بلْ يكونُ مرَّةً ذاكَ وأُخرَى غيرَهُ، وكذلكَ الإتيانُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ قيلَ: حَسَداً بينَهُمْ، لأنهمْ طمعُوا أنْ يُبْعَثَ الرسولُ ﷺ مِنْ بني إسرائيلَ على ما بُعِثَ سائرُ الرسلِ بعدَ إسرائيلَ منهمْ، فلما بُعِثَ مِنْ غيرِ بني إسرائيلَ حَسَدُوهُ، وخالَفُوا[14] دينَهُ الإسلامَ، ويَحتمِلُ ﴿بَغۡيَۢا﴾ مِنَ البغيِ، وهو الجَورُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي مِنَ المختلفِينَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ كأنهُ على الإضمارِ: أنْ قُلْ يا محمدُ ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من بعدِ ما جاءهمُ العلمُ والبيانُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، ولهُ ثلاثةُ أوجهٍ: لأنَّ ظاهرَ

---

(١) في الأصل وم: حافظ ومتولى. (٢) من م. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: أي. (٦) من م، في الأصل: بوجهَين. (٧) من م، في الأصل: تفننوا أو. (٨) من م، في الأصل: بغير. (٩) في الأصل وم: والانتقال. (١٠) في الأصل وم: ولا ذهاب. (١١) في الأصل وم: وزهق. (١٢) في الأصل وم: وذهابهم. (١٣) في الأصل وم: عن الانتقال. (١٤) الواو ساقطة من الأصل.

الجوابِ على غيرِ إضمارِ أنْ يكونَ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي العذابِ، واللهُ أعلمُ، سُمّيَ بهِ لأنَّ بعدَ الحسابِ عذاباً[1] لِقولِهِ ﷺ: «مَنْ نوقشَ العذابَ عُذِّبَ» [مسلم ٢٨٧٦]، فجعلَ الحسابَ عذاباً. ثم أخبرَ ﷻ أنهُ ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا كالحسابِ[2] الذي بينَ الخلقِ لأنَّ الخَلْقَ يشغَلُهُمْ أسبابٌ، ويَمنَعُهُمْ أشياءُ، يحتاجونَ إلى التفكيرِ والتَّدَبُّرِ، واللهُ يتعالى عنْ أنْ يشغَلَهُ شيءٌ، ويَمْنَعَهُ معنىً، جلَّ اللهُ عنْ ذلكَ.

وقيلَ على التقريبِ: حسابُهُ سريعٌ كأنْ قدْ جاءَ لقربِهِ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ شهادةُ ربوبيَّةٍ لا يُتَوَهَّمُ لهُ كيفيةٌ، ولا يَخطرُ على البالِ لهُ الماهيَّةُ، ولا يحتَمِلُ الوصولُ إلى حقيقةِ ذلكَ بالتَّفكُّرِ، ولا يَحتمِلُ بلوغُ العقلِ الوقوفَ على ذلكَ، إذ هو خَلْقٌ قَصُرَ عنِ الإحاطةِ بماهيَّةِ نفسِهِ وعنْ إدراكِ وجهِ قيامِهِ بالذي رُكِّبَ، أو تحديدٌ[4] مِنْ حيثُ نفسُهُ، وهو تحتَ جميعِ ما ذكرتُ، إذ هو خلقٌ جَرَى عليهِ التدبيرُ، ودخلَ/ ٥٦ ـ أ/ تحتَ التقديرِ.

فالربوبيَّةُ أحقُّ أنْ تَتَحَيَّرَ فيها الأوهامُ، وتَكِلَّ عنْ توَهُّمِ إدراكِها الأفهامُ. وعلى ذلكَ أمرُ تكوينِ اللهِ الأشياءَ على ما شَهِدَتِ الأشياءُ التي هي تحتَ التكوينِ في العبارةِ، لا على توهّمٍ في التكوينِ معنىً تَحتمِلُهُ الأفهامُ، أو تبلغُهُ العقولُ، وإنما هو عبارةٌ بها جُعلَ لا يقفُ على العباراتِ عنِ المتعالي عنْ صفاتِ الخلْقِ المحقِّقِ لهُ الجلالَ عنْ جهاتِهِمْ إلا منْ حيثُ المفهومُ في الخلقِ للتقريبِ إلى الأفهامِ دونَ تحقيقِ المفهومِ ممَّا عنِ العبارةِ عنهُ قدرةُ العباراتِ في الإخبارِ عنِ اللهِ ﷻ.

وعلى هذا القولِ: اللهُ وجميعُ ما يَتعارفُ الخلقُ مِنَ الأسماءِ على ما يقرُبُ مِنَ الأفهامِ المرادُ بها لا تحقيقُ الحروفِ أو إدخالٌ تحتَ تركيبِ الكلامِ وتأليفِ العبارةِ. وهذا معنَى معرفةِ وحدانيَّتِهِ مِنْ جهةِ ضروراتٍ توجبُ المعرفةَ على الوصفِ بالسُّبحانيَّةِ لهُ عن معاني جميعِ المعروفينَ، [وباللهِ العصمةُ][5] والمعونةُ.

ثم قد يَحتمِلُ أنْ يؤذَنَ في العبارةِ عنْ ذلكَ بما هو العطفُ، وأدفعُ لِلتَّوَهُّمِ، تَوَهُّمُ ما لعلَّ للقلبِ عندَ ذكرِ الشهادةِ فضلَ حيرةٍ، ليسَ عندَ تلكَ العبارةِ، وذلكَ يُخرَّجُ على وجوهٍ في الاحتمالِ لِما تَسَعُهُ عقولُنا دونَ القطعِ على شيءٍ مما وقعَ عندَنا، يمكنُ الرجوعُ إليهِ، واللهُ، سبحانهُ، أعلمُ:

أحدُها[6]: شهادةُ الخلائقِ كلِّهِمْ ما فيها مِنْ آثارِ الصنعةِ ودلالةِ الربوبيَّةِ وشهادةِ الألوهيَّةِ، لتكونَ شهادةً بالذي ذكرَ بأنْ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذْ في كلِّ شيءٍ سِواهُ هذهِ الشهادةُ بالصنعةِ التي جعلَها هو فيه لهُ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ يكونَ بذاتِهِ متعالٍ عنْ جميعِ معاني مَنْ سِواهُ مِنَ المعاني التي أدخلَها اسْمُ مربوبٍ، وظهرَ كلُّ شيءٍ في الحقيقةِ لهُ عندَ توَهُّمِ المعبودِ، ولا يَستحِقُّ غيرُهُ غيرَ آثارِ الحَدَثيَّةِ والجهاتِ[7] المُدخلَةِ تحتَ القدرةِ والتدبيرِ، وهو بذاتِهِ متعالٍ عن كليَّةِ الجهاتِ والمعاني التي كانَتْ[8] بعد أنْ لم تكنْ، وبها صارتْ مربوبةً عبداً، وهو متعالٍ أيضاً عنِ الوصفِ بالجهاتِ والمعاني، بل هو خالقٌ للخَلْقِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

والثالثُ: يَحتمِلُ شَهِدَ عَلِمَ، وكذا منْ شَهِدَ الشيءَ فقد عَلِمَ مخبرَ خِلْقَتِهِ بأنهُ العالِمُ، وأنهُ واحدٌ لا شريكَ لهُ، إلهُ الكلِّ وخالقُهُمْ ليعلَموا أنما أعلمَهُمْ كما أُخبِروا ذلكَ في نقضِ قولِ كثيرٍ ممنْ يَنفونَ عنِ الله تعالى أنهُ عالمٌ وشاهدُ كلِّ شيءٍ، واللهُ الموفقُ.

[والرابعُ:][9] يَحتمِلُ شَهِدَ على الخلائقِ أنْ يكونَ عليهمُ القولُ والاعتِقادُ أنهُ لا إلهَ غيرُهُ بمعنى قَضى، وأمرَ، واللهُ الموفقُ.

وليسَ في ما جَمَعَهُ اللهُ بشهادةِ مَنْ ذكرَ توهُّمُ معنىً لشهادةِ مَنْ ذكرَ مع ما قد يَحتملُ لما جمعَ لشهادتِهِ شهادةَ مَنْ ذكرَ وجهانِ:

---

(١) في الأصل وم: عذاب. . (٢) في الأصل وم: كحساب. (٣) في الأصل: قوله تعالى، في م: قوله تعالى ﷻ. (٤) في الأصل وم: وتحديد. (٥) من م، في الأصل: وبالعصمة. (٦) في الأصل وم: من ذلك. (٧) في الأصل وم: وجهات. (٨) من م، في الأصل: بها كانت. (٩) في الأصل وم: و.

أحدُهما: فضلُ منْ ذكرَ شهادتَهُ عندَ ذكرِ شهادتِهِمْ على نحوِ قولِهِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية [الأنفال: ٤١] إنهُ ذكرَ ما لهُ، وإنْ كانَ لهُ الخَلْقُ كلُّهُ بوجهينِ:

أحدُهما: بما جعلَ ذلك لوجوهِ العبادةِ كما أضافَ إليهِ المساجدَ[1] على أنها وغيرَها لهُ، وذكرَ في الملائكةِ الذينَ عندَهُ في أمرِ القيامةِ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨ و..] ونحوَ ذلكَ إمّا مخصوصٌ لما ذكرَ منَ الأوقاتِ في فضلٍ أو غيرِ ما جُعلَ لهُ، أو لِما كانَ ذلكَ لرسولِ اللهِ ﷺ فنُسِبَ إليهِ، وإمّا كانَ لكليَّةِ المعاني لعبادةٍ. فمثلهُ أمرُ شهاداتِ مَنْ ذكرَ، جرَّتْها شهادةُ[2] اللهِ تفضيلاً لأولئكَ وتخصيصاً لأولئكَ منْ بينِ الخلائقِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: على كونِ الشهادةِ منَ الإخبارِ بحقِّ الأمرِ، نسبهُ إليهِ كما نسبَ إليهِ كتابةَ الألواحِ[3] ونَفْخَ جبريلَ الروحَ[4] بما كانَ منهُ أمرٌ بهِ، فكذا فعلُهُ في الإضافةِ إليهِ، واللهُ أعلمُ.

ثم حقُّ ذلكَ في ما على التحقيقِ أنْ يُفهَمَ ما عنِ اللهِ ربوبيَّةٌ وعنِ العبدِ عبوديةٌ على جميعِ ما يُضافُ إلى اللهِ أنهُ يُفهَمُ مِنْ غيرِ الوجهِ الذي يُضافُ إلى الخلْقِ، فمثلُهُ أمرُ الشهادةِ، واللهُ أعلمُ.

وُرويَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ على معنىً جُعلَ أنه صلةٌ في الكلامِ. وحقيقتُهُ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ومَنْ ذكرَ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾؛ في الحقيقةِ جعلَ مُلْكِيَّةَ الأشياءِ للهِ تعالى بأنه ربُّها وخالقُها على ما هي عليها، جَلَّ عنِ الشركاءِ.

وقد قيلَ: الإسلامُ خضوعٌ، وقيلَ: الإخلاصُ، وهو يرجعُ إلى ما بيَّنّا، وذلكَ قولُهُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]. والإيمانُ هو التصديقُ للهِ تعالى بما أخبرَ أنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ، وأنهُ لهُ الخَلْقُ والأمرُ، وقيلَ: هو التصديقُ بما جاءتْ بهِ الرسلُ، وذلك يرجعُ إلى ما بيَّنّا أيضاً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ قيلَ: هو عادلٌ، لا يجورُ، لا إنَّ للقيامِ معنىً في ذلكَ كقولِهِ: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] بمعنى كونوا عادلينَ مُقسطينَ، واللهُ أعلمُ. وقيل: قيامُ قولٍ وحفظٍ وكفايةٍ وتدبيرٍ، فلا[5] يُقالُ: فلانٌ قائمٌ بأمرِ كذا إلا [على][6] توهُّمِ انْتِصابٍ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾، ولم يَقلْ: في ماذا يحاجونَ؟ فيَحتملُ، واللهُ أعلمُ، أنْ يكونَ هذا بعدَما علمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ، ولا يقبلونَ الحجَّةَ، أمرَهُ بتركِ المُحاجَةِ بقولِهِ: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ وكذلكَ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أسلَموا أنفسَهمْ للهِ كقولِهِ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات: ٤٥] [وقولِهِ][7]: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣ و..] إياسَةً عنْ إيمانِهِمْ، وأمرَهُ بتركِ المُحاجَّةِ معهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ أي أخلصتُ، ثم يَحتمِلُ قولُهُ ﴿وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ أي نفسي للهِ، لا أشركُ فيها أحداً، ولا أجعلُ لغيرِ اللهِ فيها على ما جعلَ الكفارُ في أنفسِهِمْ شركاءَ وأرباباً.

قال الشيخُ، رَحِمَهُ الله تعالى: وقيلَ: الإسلامُ أنْ يجعلَ نفسَهُ بكلِّيَّتِها[8] للهِ تعالى سالمةً لا شِرْكَةَ فيها لأحدٍ[9] كما قالَ: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾[10] [الزمر: ٢٩]. والإيمانُ هو التصديقُ لشهودِ الربوبيَّةِ للهِ مِنْ نفسِهِ وغيرِهِ، لأنهُ ما منْ شيءٍ إلّا وفيهِ شهادةُ الربوبيَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي منِ اتَّبعَ ديني فقد أسلَموا أنفسَهمْ للهِ تعالى أيضاً لم يُشرِكوا فيها شركاءَ وأرباباً،

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]. (٢) في الأصل وم: لشهادة. (٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. (٥) في الأصل وم: كما. (٦) من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لكليتها. (٩) في الأصل وم: أحد. (١٠) في الأصل وم: سالماً وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، انظر حجة القراءات ص(٦٢١).

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ أي أسلمتُ أمرَ ديني [وعملي للهِ، وكذلكَ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ واتَّبعَ ديني][١] فقد أسلموا [أنفسَهمْ وأعمالَهمْ][٢] وأمورَهُمْ للهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: (وَمَنْ تَبِعني)[٣] أي ومنْ معي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ قيلَ: الذينَ ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اليهودُ والنصارَى ﴿وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ العربُ الذين [لا][٤] يقرؤونَ الكتابَ، ولا لَهمْ كتابٌ ﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾ أنتمْ للهِ كما أسلمْتُ أنا وجهي للهِ ومَنِ اتَّبعَني؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ﴾ وأخلَصوا وجوهَهُمْ للهِ وأعمالَهمْ ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ أي إنْ أبَوا أنْ يُسلِموا فليسَ عليكَ إلا البلاغُ، [كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]][٥] وكقولِهِ: ﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ هو حرفُ وعيدٍ، وقيلَ: ﴿بَصِيرٌۢ﴾ غيرُ غافلٍ، وقيلَ: ﴿بَصِيرٌۢ﴾ بجزاءِ أعمالِهِمْ، وقيلَ: ﴿بَصِيرٌۢ﴾ بما أسَرُّوا، وأعلَنوا، وفي كلِّ وجهُ وعيدٍ.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ الله تعالى، في قولِهِ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ فلم يُبيِّنْ في ماذا؟ وقد يجوزُ تركُ الإخبارِ عنِ القصةِ بوجهينِ:

أحدُهُما: بِعِلْمِ أهلِهِ.

والثاني: بما في الجوابِ. دليلُهُ: قولُهُ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء: ١٢٧ و..] و﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ [البقرة: ١٨٩ و..] في غيرِ موضعٍ على غيرِ البيانِ أنهُ عمَّ ذا؟ وهو، واللهُ أعلمُ، داخلُ ذانِكَ الوجهَينِ. ثم يَحتمِلُ أنْ تكونَ المُحاجَّةُ قد كَثُرَتْ في ما قالَ ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ والحجةُ قد ظهرَتْ فيهِ، فكانوا يعودونَ إليها مرَّةً بعد مرَّةٍ عَوْدَ تعنُّتٍ وعِنادٍ، فأكرمَ اللهُ رسولَهُ بالإعراضِ عنْ مُحاجَّتِهِمْ ذلكَ بما ظهرَ [مِنْ][٦] تعنُّتِهِمْ، فقالَ: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ على الإعراضِ عنْ مُحاجَّتِهِمْ، واللهُ أعلمُ. وعلى ذلكَ يُخرَّجُ معنَى الأمرِ بالتَّولِّي عنهمْ في غيرِ موضعٍ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ المُحاجَّةُ في عبادةِ الواحدِ القهّارِ والأوثانِ التي كانوا [يعبدونَها منْ دونِ اللهِ][٧] فبيَّنَ، جلَّ ثناؤُهُ، في ذلكَ بالذي يقولُ لهمْ هو ومنِ اتَّبَعَهُ على ذلِكَ نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ﴾ الآيةَ [الشورى: ١٥] ونحوَ ذلكَ، والله أعلمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي في كتابِهِمْ منْ بعثِ محمدٍ ﷺ، وصفتِهِ، وقيلَ: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالقرآنِ/ ٥٦ ـ ب/ وبمحمدٍ ﷺ ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يَحتمِلُ ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ أي يهمُّونَ، ويرُيدونَ قتلَهُمْ، كقولِهِ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. فلو كانَ على حقيقةِ القتلِ، فإذا قتلُونا لم نقدِرْ على قتلِهِمْ، وكقولِهِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] أي إذا أردْتَ أنْ تقرأَ القرآنَ، وكقولِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾ [المائدة: ٦] كذا، أي إذا أردْتُمْ أنْ تقوموا للصلاةِ لأنه إذا قامَ إلى الصلاةِ، لم يَقْدِرْ على الغسلِ، فكذلك الأوَّلُ، ويَحتمِلُ أنْ يريدَ الرِّضا بقتلِ آبائِهِمُ الأنبياءِ، فأضافَ ذلكَ إليهِمْ، وقيلَ: إنهُ أرادَ آباءَهُمُ الذينَ قتلوا الأنبياءَ، وقيلَ: جاءَ أنهمْ كانوا يقتلونَ ألفَ نبيٍّ كلَّ يومٍ، قالَ: لا أعرفُ هذا، فإنْ صحَّ فهوَ على أنهمْ تمنَّوا ذلكَ، وقتلُوا نبيّاً وأنصارَهُ فَسُمُّوا أنبياءَ لِما كانَ يُنبِئُ بعضُهُمْ بعضاً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لو كانَ أرادَ آباءَهمْ كيفَ يأمُرُ رسولَهُ ﷺ بالبشارةِ، وهمْ موتَى؟ دلَّ هذا على أنَّ التأويلَ هو الأوَّلُ: أنْ همُّوا بقتلِهِمْ، ورَضُوا بصنيعِ آبائِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

والبِشارةُ المطلقةُ إنما تُستعمَلُ في السرورِ والخيراتِ خاصّةً، إلّا تكونُ مقيّدةً، فحينئذٍ يجوزُ في غيرِها كقولِهِ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قيَّدَ هذا هنا. لذلكَ قالَ أصحابُنا، رحمهمُ اللهُ، أنْ ليستِ الحقائقُ أولَى مِنَ المجازِ، ولا الظاهرُ أولَى من

---

(١) من م. (٢) في الأصل: أعمالهم، في م: أنفسهم. (٣) انظر حجة القراءات ص (١٥٨). (٤) من م. (٥) من م. (٦) ساقطة من الأصل وم.
(٧) في الأصل: يعبدونها من دون، في م: يعبدون من دون الله.

المجازِ، ولا الظاهرُ أولَى منَ الباطنِ إلّا بدليلٍ على ما صُرِفتْ أشياءُ كثيرةٌ عنْ حقائِقِها بالعرفِ منْ نحوِ الأيمانِ وغيرِها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يحتمل وجوهاً: يَحتمِلُ أعمالَهُمْ(١) التي فَعلوا قبلَ أنْ يُبعثَ محمدٌ ﷺ فلّما بُعثَ كفروا بهِ، فبطلَتْ تلكَ الأعمالُ، ويَحتمِلُ ما كانَ لهمْ منَ الأعمالِ منْ صلةِ الأرحامِ والقُرُباتِ والصدقاتِ، فبطلَتْ لِمَا لا قِوامَ لها إلّا بالإيمانِ، فلمّا لم يأتوا بهِ بطلَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أمّا في الآخرةِ فثوابُها، وأمّا في الدنيا فَحَمْدُها وثناؤُها، ويَحتمِلُ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ثوابَ الدنيا كقولِهِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ، رحمهُ اللهُ تعالى، في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: فالآياتُ أعلامٌ وحُججٌ، وهنَّ أنواعٌ: منها الحِسِّيَّاتُ(٢) نحوُ الخلائقِ في الدلالةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، والخارجةِ منها عنِ احتمالِ وُسْعِ البشرِ، يَظْهرُ عندَ أداءِ الرسلِ الرسالةَ، يَشْهَدُ على أنَّ الذي أرسلَهمْ هو الذي تَوَلّاها لِيُعْلِمَ بها حُجّةً يوضِحُ بها رسالتَهُم، ومنها السمعياتُ، وهي التي جاءَتْ بها الرسلُ منَ الأنباءِ عمّا لا سبيلَ إلى الوقوفِ عليها إلّا بالتعلُّمِ بلا تقدُّمِ تعليمٍ، أو ما لا يَعلَمُ حقيقةَ ذلكَ إلا اللهُ، هو الذي أطلَعَهُمْ عليها لتكونَ آيةً لهمْ، واللهُ أعلمُ. ومنها العقلياتُ، وهي التي تُعرفُ بالمِحَنِ والبحثِ عنها ممّا بها يُوصَلُ إلى معرفةِ التوحيدِ والرسالةِ ونحوِها. ثم جعلَها كلَّها لرسولِ اللهِ ﷺ فمنْ يكفرْ بها يَخرُجْ على وجهَينِ:

أحدُهما: على الكفرِ بحقيقةِ الآياتِ أنْ تكونَ هنَّ آياتٍ لِما أقيمتْ لهُ، وهنَّ منَ الوجوهِ التي ذكرتُ، فقضَى اللهُ تعالى لمنْ يكفرُ بها، بما ذكرْتُ، لتعنُّتِهِمْ ومُعاندتِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ يريدَ بالكفرِ بالآياتِ بِمنْ لهُ الآياتُ، فنسبَ إلى الآياتِ لأنها تعلِّمُ الحقيقةَ كما تُنسبُ الأشياءُ إلى أسبابِها التي بها يُوصلُ إليها، فذلكَ معنَى الكفرِ بالآياتِ.

ثم كانتِ الكتبُ السماويةُ وما فيها منَ النعوتِ وما أعجزَهُمْ عنْ إتيانِ مثلِ القرآنِ وغيرِ ذلكَ منَ الحسيّاتِ، واللهُ أعلمُ. فعلى ما ذكرْنا يُخرِّجُ معنَى الكفرِ بالآياتِ لأنها بحيثُ تأخذُها الحواسُّ، وتحيطُ بها الأوهامُ والعقولُ، ولكنْ على أنهنَّ آياتٌ للذي دلَّكمْ(٣) عليهِ أو على الكفرِ بالذي له آياتٌ توجبُ تحقيقَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٣(٤) وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إنّما يُتكلَّمُ به لأحدِ معنيَينِ: إمّا لِلتَّعجيبِ منَ الأمرِ العظيمِ، يقولُ الرجلُ لآخرَ: ألم ترَ فلاناً، يقولُ ذلكَ لهُ لعظيمِ ما وقعَ عندهُ، وإمّا للتنبيهِ، فأيُّهما كانَ ففيهِ تحذيرٌ للمؤمنينَ ليحذرَ المؤمنونَ عنْ مثلِ صنيعِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ الآية [الحديد: ١٦] حذَّرَ المؤمنينَ أنْ يكونوا مثلَ أولئكَ الذين [أُوتوا](٥) الكتابَ، [وأنْ يُخالفوا كما خالَفوا](٦).

وقولُهُ تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ أرادَ بالكتابِ التوراةَ على ما قيلَ: إنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لهمْ: «أَسْلِموا تَهتَدوا، ولا تَتكبَّروا» [بنحوه مسلم ١٧٦٥] فقالوا: نحنُ أهدَى وأحقُّ بالهُدَى منكَ، وما أرسلَ اللهُ رسولاً بعدَ موسى عليه السلام فقالَ لهمُ النبيُّ ﷺ: «بيني وبينكمُ التوراةُ والإنجيلُ» [السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٧٠] فإنهُ مكتوبٌ فيها، يعني: وأني: رسولُ اللهِ، فأبَوا ذلكَ خوفاً وإشفاقاً على ظهورِ كذبِهِمْ، وقيلَ: أرادَ بالكتابِ القرآنَ دُعُوا إليهِ لأنهُ مصدِّقٌ لِما معهمْ منَ الكتابِ فأبَوا ذلكَ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾؛ الأيامُ التي عبدَ آباؤهمُ العجلَ، فظنّوا أنهمْ إنما يُعَذَّبونَ في النارِ [بقدرِ ما عبدَ آباؤهمُ العجلَ، وأنهمْ لا يُخلَّدونَ في النارِ، لأنهمْ كانَ](٧) قد ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، ثم خوَّفَهمْ، فقالَ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؟.

---

(١) في الأصل وم: أيمانهم. (٢) في الأصل وم: حسيات. (٣) في الأصل وم: ذلكم. (٤) أدرج في الأصل وم: تفسير الآية (٢٥) قبل تفسير هذه الآية. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: ولا يخالفون كما خالفوا هم، في م: ولا يخالفون كما خالفوا. (٧) من م، في الأصل: إلا قدر عبادتنا العجل فأخبر عليه السلام أن.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقدِ ارْتابَ فيه أكثرُ أهلِ الأرضِ [بوجوهٍ]:

أحدُها][1]: قيلَ: قولُهُ: ﴿لَا رَيْبَ﴾ قد يُتكلَّمُ بهِ على تثبيتِ المَقولِ بهِ عندَ قائلهِ لا على نفيِ الشكِّ عنْ كلِّ منْ سمِعَهُ إرادةَ التأكيدِ. فعلى ذلكَ أمكنَ أنْ يُخرَّجَ معناهُ إذ هو مخاطبةٌ على ما عليهِ كلامُهمْ، وكذلكَ قولُهُمْ أبداً على دوامِهِ وامتدادِهِ لا على حقيقةِ الأبديّةِ، وكذلكَ يقولونَ: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١] وأمرٌ قديمٌ على حقيقةِ القدمِ التي تخرجُ على الكونِ بعدَ أنْ لم يكنْ، واللهُ الموفقُ.

والثاني: على أنهُ لا يرتابُ فيهِ المُتأمِّلُ المُنصِفُ بما جعلَ اللهُ لذلكَ منَ الآياتِ وعليهِ منَ الأدلّةِ التي منْ تدبَّرَ [ما فيها يرَ ما][2] أظهرَتْهُ لهُ حتى يصيرَ كالمُعايِنِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

والثالثُ: أنْ يخبرَ بهِ[3] رسولَ اللهِ ﷺ، عنْ قومٍ مخصوصينَ ما كانوا يُنازعونَ فيهِ بعدَ علمِهِمْ بصدقهِ ليعرفَ تعنُّتَهُمْ، ويُؤَنِّبُهُ عنِ الطمعِ فيهِمْ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ الآية، يحتملُ قولُهُ: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ وجهَينِ:

[أحدُهما][4]: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ كلَّ مُلْكٍ في الدنيا حقيقةَ المُلْكِ.

والثاني: أنَّ المُلْكَ لهُ يُؤتي مَنْ يشاءُ منْ مُلكِهِ، وينزعُ ممنْ يشاءُ المُلْكَ، وهو المالكُ لذلكَ، والقادرُ عليه.

والآيةُ تردُّ على القَدَريّةِ قولَهمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يعطي الكافرَ المُلْكَ، وهو أخبرَ ﷻ أنهُ يؤتي منْ يشاءُ المُلْكَ، وقد رُوِيَ: «الكافرُ لهُ المُلْكُ». فإنْ قالوا أرادَ بالمُلْكِ الدِّينَ، قيلَ: إنْ أرادَ الدينَ فقد أخبرَ ﷻ أيضاً أنهُ ينزعُ، فكيفَ يستقيمُ على قولِكُمْ في الأصلحِ هذا؟

ثُمَّ في الآيةِ تقويةٌ لمنْ قرأَ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣] بالألِفِ [بوجهَينِ:

أحدُهما: لأنهُ أعمُّ وأجمعُ، ولأنه][5] قال: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، وهو أعمُّ.

والثاني: المُلْكُ إنما يعبِّرُ عنِ الولايةِ والسلطانِ، والمالكُ إنما يعبرُ عنْ حقيقةِ المُلْكِ، ومنْ لهُ في الشيءِ حقيقةُ المُلْكِ فلهُ ولايةُ التغلُّبِ والتصرُّفِ فيهِ وولايةُ[6] السلطانِ ولا كلُّ منْ لهُ ولايةُ السلطانِ يكونُ لهُ ولايةُ التغلُّبِ فيهِ، لذلكَ كانَ بالألفِ أقربَ.

ومنْ قرأَ: مَلِكِ ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بغيرِ ألفٍ[7] ذهبَ إلى هذا كقولهِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، ومنَ المُلْكِ يُقالُ: مَلِكٌ، ويُقالُ: مالكٌ، لذلكَ كانَ ما ذكرَ، واللهُ أعلمُ. والمالكُ على الإطلاقِ لا يُقالُ إلّا على اللهِ، وكذلكَ الربُّ على الإطلاقِ لا يُقالُ إلّا على اللهِ. أمّا العبدُ فإنهُ يُقرِّبُ الشيءُ إليهِ، فيُقالُ: ربُّ الدارِ ومالِكُها، وربُّ الدّابةِ ومالِكُها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ قالَ القائلونَ:/ ٥٨ ـ أ/ الخطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ خاصةً، وقالَ آخرونَ: الخطابُ بذلكَ لكلِّ عاقلٍ، وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] إلى آخرِ السورةِ[8]، ذلكَ الخطابُ لكلِّ واحدٍ لا لرسولِ اللهِ ﷺ خاصةً.

قالَ الشيخُ ﷺ: هو خطابٌ ولكنهُ أمرٌ بالبلاغِ ليقولَهُ كلُّ أحدٍ لأنهُ لو خوطبَ بهِ، لم يذكرْ ﴿قُلْ﴾ عندَ قراءتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ يعني [يا اللهُ][9] وقالَ آخرونَ: اللهُ على القطعِ، أمَّنا: اقصِدْنا بالخيرِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: هافيها. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أعم وأجمع لأنه.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ١/ ٧ . (٨) في الأصل وم: الآية. (٩) ساقطة من الأصل و م.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية فكأنَّ اللهَ ﷻ امْتَحَنَ مَنْ رغبَ في الملكِ، أو نالَ حظاً منهُ، أنْ يصرفوا وجهَ الرغبةِ إليهِ، أو يَرَوا حقيقةَ ما نالُوه منهُ، فيوجِّهوا إليهِ الشكرَ، ويخضعوا لهُ بالعبادةِ والطاعةِ في أمرِهِمْ بهِ لينالوا شرفَهُ، ويدومَ لهُ عزةُ ذلكَ بقولِهِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] ليُريَهُمْ أنَّ الذي يَملكُ هذا النوعَ الذي رغبتْ فيهِ أنفسُكمْ، ومنعَتْكُمْ عنِ القيامِ بحقِّهِ، هو الذي يملكُ ذلكَ، فإليهِ فاصرفوا سعيَكُمْ ولِشكرِهِ استَديموا الذي لهُ اختَرْتُمْ جُلَّ كدحِكُمْ، فإنهُ يملِكُ ذلكَ دونَ غيرِهِ.

وجملةُ ذلكَ في قولِهِ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ومعقولٌ، في ما عليهِ طبعُ البشرِ، وإليهِ دعَتْهُمْ عقولُهُمْ، أنَّ كلَّ شيءٍ تُؤثِرُهُ أنفسُهُمْ كانَ الذي يحِقُّ عليهِمْ طلبُهُ عندَ منْ بهِ يُوصَلُ إليهِ واختيارُهُمْ ما بهِ يبلُغونَ ما يؤَمِّلونَ منْ أنواعِ الحِيَلِ التي تقرِّبُهُمْ إلى ذلكَ. فمثلُهُ يلزمُ أمرَ الملكِ ولَذّاتِ الدنيا، ويقرِّرُ في قلوبِهِمْ وجودَ ذلكَ لِقومٍ، لو كانَ يُنالُ بالتدبيرِ أو بحسنِ السياسةِ، وطلبُ ذلكَ منَ الوجوهِ التي يطالبُ بها البشرُ، لم يكنِ الذينَ لهمْ ذلكَ بأحقَّ منْ غيرِهِمْ، بل كانَ [فيهِمْ مَنْ حُرموا منهُ][1] أولَى بذلكَ، وأحقُّ أنْ يكونَ في ذلك متبوعاً لا تابعاً منَ الذينَ نالوهُ ليُعلَمَ أنَّ الذي يملكُ دفعَ ذلكَ إلى أحدٍ أو تمليكَهُ أحداً غيرُ الذي صَرفوا كَدحَهمْ [إليهِ][2]، وجعلوا لهُ سَعْيَهُمْ فيكونُ للهِ في كلِّ أمرٍ مما عليهِ أمرُ البشرِ آيةٌ عظيمةٌ وعلامةٌ لطيفةٌ على تقرُّرِهِ بملكِ ذلكَ وتوحيدِهِ بالتدبيرِ فيهِ لِمنْ لهُ بصيرةٌ ولمنْ بهِ يَمتحنُ عبادَهُ.

وعلى ذلكَ إذ ثَبتتْ أدلةُ التوحيدِ ولزومِ الاعتِبارِ لهُ لِيُعرَفَ مَنْ لهُ الحقُّ ثبتَ القولُ ببطلانِ ما يُنكِرُهُ كثيرٌ منَ المعتزلةِ أنَّ الملكَ الذي نالهُ الجبابرةُ، والسَّعةَ التي تصلُ إلى الكفرةِ لم يكنْ نالوهُ بتقديرِ اللهِ، ولا وصلوا إليهِ بتدبيرِهِ[3]، إذ حقُّهُ ما ذكرْتُ مِنْ عظمِ ما فيهِ منَ النعمِ ليُلزِمَهُمْ أرفعَ المِحنِ وأعلى الشكرِ، ولهُ أنْ يَبْلُوَ بالحسناتِ والسيئاتِ[4] كما وعدَ ﷻ وجملتُهُ أنَّ الدنيا إذْ هي دارُ محنةٍ ومكانُ ابْتِلاءٍ فليسَ الذي يعطي منهُ على الاسْتِحقاقِ ولا ما يمنعُ على العقوبةِ، وإنِ احتُمِلَ الدفعُ والمنعُ لذلكَ، ولكنْ لهُ وللمحنِ والمحنةُ أكثرُ ما على مخالفةِ الأهواءِ وتحمُّلِ المكارهِ، ويكونُ ذلكَ على إعطاءِ ما يعظُمُ في أنفسِهِمْ أو التمكينِ ليُمتَحَنوا، فَيَتَبَيَّنُ الإيثارُ والتركُ لوجهِ اللهِ والرغبةُ في مَنْ إليهِ حقيقةُ مُلكِ كلِّ شيءٍ، أوِ الميلُ إلى مَنْ إليهِ أنواعُ التقديرِ والمخادعاتِ منْ غيرِ تحقيقٍ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة/ ٢٥٨] يبيِّنُ ذلكَ احْتِجاجَهُ على إبراهيمَ ﵇ بالذي ذكرَ وإغضاءَ إبراهيمَ عنهُ، ولوكانَ الذي آتاهُ الملكَ إبراهيمُ ﵇ لَمْ [يكنْ ليجترِئَ][5] على تلكَ المقالةِ بقولِهِ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ ولا قوةَ إلا باللهِ.

ثم على قولِ المعتزلةِ: إنَّ اللهَ تعالى إنما يشاءُ أن يؤتيَ الملكَ أولياءَهُ، ويَنزِعَ عنْ أعدائِهِ في الجملةِ، فكيفَ ادّعى لنفسِهِ هذا السلطانَ والملكَ، وكانَ الوجودُ على ضدِّ ذلكَ؟ أيظنُّ المعتزلةُ أنَّ الملاحِدةَ تطعنُ ما هو يوجبُ الشُّبهةَ في حججِ التوحيدِ بأوضحَ مما أعطاهمُ المعتزلةُ بهذا القولِ، ويُمكِّنُهُمْ منَ الطعنِ في نقضِ ما ادَّعتِ المُوَحِّدةُ[6] منْ علوِّ الربِّ وقدرتِهِ وجلالِهِ بأبلغَ[7] مما لقّنهمُ المعتزلةُ بما لبسَتْ ثوبَ التوحيدِ، واسْتَتَرَتْ بِسترِهِ في الظاهرِ، ثم أعطتِ المُلْحِدةَ هذا لِيظنوا أنهمْ بَلغوا ما بهِ نقضُ التوحيدِ، ودفعُ[8] حُججِ أهلِهِ؟ جلَّ اللهُ عما وصفَتْهُ المُلْحِدةُ، وتعالى، وبهِ العصمةُ والنجاةُ. وما[9] أعطَتْهُم المعتزلةُ في الجملةِ سبقَهُمْ[10] بهِ إبليسُ حتى كانوا بهِ وبمثلِهِ[11] يحتجُّونَ، فَيَظُنُّونَ أنهمْ أحقُّ بالنبوّةِ منهم[5] وبما أُعطُوا منَ الملكِ والثروةِ في الدنيا، ظنُّوا[12] أنهمْ أجلُّ عندَ اللهِ تعالى، وأرفعُ في [المنزلةِ منهمْ، فلم][13] يكنْ ليؤثِرَهمْ بالرسالةِ عنهمْ. لكنَّ أولئكَ [المُوَحِّدينَ][14] حقّقوا حقائقَ النعمِ للهِ ونيلَ ما نالوا منَ الملكِ والشرفِ به، والمعتزلةُ رامتْ[15] إزالةَ ذلكَ عنِ اللهِ لِيُزيلوا عنهمْ ما لزمَهمْ منَ الشكرِ لهُ والطاعةِ لِمنْ بَعَثَهُ اللهُ، نسألُ اللهَ تمامَ نعيمِهِ في الدينِ والدنيا.

---

(١) في الأصل: فيهم حرموا منهم، في م: فيمن حرموا منهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تدبيره. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف:١٦٨]. (٥) في الأصل وم: ليجري، . (٦) في م: الملاحدة. (٧) من م، في الأصل: بالمتع. (٨) في الأصل وم: ووقع. (٩) في الأصل وم: ولما. (١٠) في الأصل: يسعفهم، في م: سبقتهم. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فظنوا. (١٣) في الأصل: المعتزلة منهم لم، في م: المعتزلة منهم من لم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في م: رأت.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ وقولُهُ: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ [وفي نحوِ][(1)] ذلكَ وجوهٌ مِنَ الأدلةِ:

أحدُها: أنْ يُعلمَ أنَّ اللهَ ﷻ [يُبيِّنُ][(2)] في ما يخلقُ على معونةِ الأسبابِ وتوليدِ الطبائعِ، لأنَّ الأسبابَ تكونُ بموضعِ الإشكالِ، وكذلكَ الطباعُ تولِّدُ الذي في جوهرِهِ نحوُ الحارِّ يولِّد الحرارةَ، والباردُ يولِّدُ البرودةَ، فبيَّنَ اللهُ تعالى الإنشاءَ على أحوالِ التضادِّ ليُعلَمَ أنهُ القادرُ على اجتماعِ ما شاءَ، ثم شاءَ بلا معونةٍ منْ ذلكَ، ولا توليدٍ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

والوجهُ الثاني: أنهُ جرى تقديرُ ذلكَ على ما [لا][(3)] تفاوُتَ لهُ، ولا اختِلافَ في اختِلافِ الأعوامِ ليُعلمَ انها مُسوّاةٌ على التدبيرِ، أحكمهُ[(4)] على ذلكَ العزيزُ الحكيمُ الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ أمرٌ، وليُعلمَ أنَّ الذي قدرَ على ذلكَ واحدٌ، إذْ لمْ يَختلِفْ، ولم يتناقضْ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وأيضاً: أنهُ صيَّرَ كلَّ جوهرٍ إحداثَ الآخرِ، كأنهُ لم يكنْ قطُّ، ولا كانَ بقيَ لهُ أثرٌ، ثم ردَّهُ بالوصفِ الذي كانَ حتى لا يفوتَ منهُ شيءٌ حتى لا سبيلَ إلى العلمِ بالتفصيلِ بينهما ليُعلمَ أنَّ قدرَتَهُ على البعثِ بعدَ أنْ يُفنيَ كلَّ الأجزاءِ والآثارِ[(5)]، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وأيضاً: أنهُ إذا بنى الأمرَ على ما فيهِ منْ عظيمِ الحكمةِ وعجيبِ التدبيرِ لم يُجزْ أنْ يكونَ فعلهُ خارجاً على [العَبَثِ]، ثم في رفعِ المحنةِ وإبطالِ الرسالةِ في تعليمِ ما في ذلكَ منَ الحكمةِ وما يلزمُ بمكانِ ذلكَ التدبيرِ منَ الشكرِ والمعرفةِ، ثم منَ الترغيبِ في ما يملكُ منَ النعمةِ والترهيبِ بما[(6)] عندهُ منَ النقمةِ إبطالُ الحكمةِ وتقريرُ العالمِ معَ ما ذكرتُ على العبثِ، وذلكَ فاسدٌ في العقولِ، وموجودٌ في الجواهرِ عِظمُ حكمةِ مُنشئِها. ثبتَ بذلك العبادةُ والرسالةُ والجزاءُ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ إلى آخرِهِ: يَحتمِلُ وجهيَنِ: يَحتمِلُ أنْ تؤتيَ ابْتِداءً مِنْ غيرِ أنْ كان أتاهُمْ مرةً، ثم تَنزِعُ أي تمنعُ ابْتِداءً منْ غيرِ أنْ كانَ أتاهُمْ، ثم تَنزِعُ، كقولهِ ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ [الرعد: ٢] رفعَ ابْتِداءً من غيرِ أنْ كانتْ موضوعةً، فرفعَها، وكقولِهِ: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة/ ٢٥٧] إخراجَ الابْتِداءِ، لا أنْ كانوا فيها، ثمّ أخرجَهُمْ. فعلى هذا [وعلى][(7)] ذلكَ قولُهُ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ إيلاجَ الابْتِداءِ، لا أنْ كانَ أحدُهما في الآخرِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا﴾ [القصص: ٧١] [إلى يوم القيامةِ والنهارَ سَرْمداً][(8)] أخبرَ أنهُ لم يجعلْ واحداً منهما مُؤبَّداً.

وكذلكَ قولُهُ ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [يونس: ٣١] [إخراجَ الابْتِداءِ: أنْ يخلُقَ الحيَّ منَ الميتِ ابْتِداءً، ويخلُقَ الميتَ منَ الحيِّ][(9)] مِنْ غيرِ أنْ كانَ فيهِ. ويَحتمِلُ هذا كلُّهُ: أنْ كانَ يُؤتِي الملكَ بعدَ أنْ لم يكُنْ، ويُعِزُّ بعدَ الذلِّ، وينزِعُ الملكَ بعدَ أنْ كانَ فيهِ. ويُذِلُّ بعدَ أنْ كانَ العزُّ. وكذا قولُهُ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أنْ يُدخلَ هذا[(10)] في هذا، وهذا في هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ قيلَ: أنْ يُخرجَ حيَّ الأقوالِ منْ ميِّتِ الأفعالِ [وميِّتَ الأفعالِ][(11)] منْ حيِّ الأقوالِ، يُخرِجُ المؤمنَ منَ الكافرِ والكافرَ منَ المؤمنِ على ما سمَّى اللهُ تعالى الكافرَ ميِّتاً والمؤمنَ حيّاً في غيرِ موضعٍ منَ القرآنِ، وقيلَ: يُخرِجُ حيَّ الجوهرِ مِنْ ميِّتِ الجوهرِ وميِّتَ الجوهرِ منْ حيِّ الجوهرِ، وقيلَ: يُخرجُ/ ٥٧ ـ ب/ الحيَّ منَ المِنىَ، ويُخرِجُ المِنىَ منَ الحيِّ، وقيلَ: البيضةَ منَ الحيِّ، والحيَّ منَ البيضةِ، وقيلَ: يُخرِجُ النخلةَ منَ النواةِ، والنواةَ منَ النخلةِ، والحبَّةَ منَ السنبلةِ، والسنبلةَ منَ الحبَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [قيلَ: لا][(12)] يعرفُ الخَلْقُ عددَهُ ومقدارَهُ، وقيلَ: بغيرِ تَبِعةٍ ولا طَلِبةٍ، أي لا يحاسِبُهُمْ في ما أعطاهمْ منْ بعدِما أعطاهمْ، ويَحتمِلُ: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي لا يعطيهِمْ بحسابِ أعمالِهِمْ، ولكنْ بتفضُّلٍ خِلافاً للعدلِ، ويَحتمِلُ ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ في الآخرةِ.

(١) في الأصل وم: ونحو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م. (٤) من م، في الأصل: أحكم. (٥) من م، في الأصل: والأوثان. (٦) في الأصل وم: عما. (٧) من م. (٨) من م. (٩) من م. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: بعد. (١١) من م. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: بغيرِ هنداز [وهي كلمةٌ][1] فارسيةٌ معرَّبةٌ، وعنْ مُقاتِلٍ: (لا يقدِّرُ ذلكَ غيرُهُ [كأنهُ][2] يقولُ: ليسَ فوقي مَلِكٌ يُحاسِبُني، واللهُ أعلمُ).

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحتمِلُ وَجهَينِ: يَحتمِلُ: ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾ أي لا يكونوا أولياءَ، [لا يَتَّخِذوا أولياءَ، وهمْ][3] لهمْ أعداءٌ كقولِهِ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآيةَ [المجادلة: ٢٢] ويَحتمِلُ على النهيِ أي لا تتَّخِذوهمْ أولياءَ كقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] وكقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: إلّا أنْ يكونَ بينَكُمْ وبينَهُمْ قرابةٌ ورَحِمٌ، فَيَصِلونَ أرحامَهمْ منْ غيرِ أنْ يَتوَلَّوا في دينِهِمْ على ما جاءَ عنْ عليٍّ ﷺ أنه قالَ لِرسولِ اللهِ ﷺ لما ماتَ أبوهُ أبو طالبٍ: (إنَّ عمَّكَ الضَّالَّ توفيَ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «اذْهبْ، فَوارِهِ» [أحمد ١/ ١٠٣ و١٣٠]. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟﴾ على أنفسِكمْ ﴿مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلّا أنْ تخافوا منهمْ، فتُظهِرونَ لهمْ ذلكَ مخافةَ الهلاكِ، وقلوبُكمْ على غيرِ ذلكَ. وعن ابنِ عباسٍ ﷺ (التقيَّةُ التكلُّمُ باللسانِ، والقلبُ[4] مطمئنٌّ بالإيمانِ).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ قيلَ: عقوبَتَهُ، وقيلَ: نقمَتَهُ يقولُ الرجلُ لآخرَ: احذرْ فلاناً، إنما يريدُ نَقمَتَهُ وبوائِقَهُ. فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ عُقوبَتَهُ، وبوائِقَهُ تكونُ منْ نفسِهِ، لِما[5] يكونُ ذلكَ بهِ لا بِغيرِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ يَحتمِلُ ما تُخفوا منْ ولايةِ الكفارِ، وتُبدوهُ ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيهِ إخبارٌ أنَّ في قلوبِهِمْ شيئاً، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ أرادَ جميعَ ما يُخفونَ، ويُبدونَ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾؛ قيلَ: تجدُ ثوابَ ما عملتْ منْ خيرٍ حاضراً لأنَّ عملَهُ إنما كانَ للثوابِ لا لنفسِ العملِ، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ يَحتمِلُ ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [تجدُهُ مكتوباً، لا][6] يُتجاوزُ عنهُ، لأنَّ اللهَ ﷻ وعدَ المؤمنينَ، وأطمعَ لهمْ قبولَ حَسَناتِهِمْ والتَّجاوُزَ عنْ سيِّئاتِهِمْ كقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] فيجدُ المؤمنُ ثوابَ ما عَملَ منْ خيرٍ حاضراً، ويُتجاوزُ عنْ مَساويهِ، وأمّا الكافرُ فيجدُ عقابَ ما عَملَ منْ سوءٍ في الدنيا كقولِهِ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] فلا يُتجاوزُ عنهمْ، وتُبطَلُ خيراتُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ قيلَ: بعيداً منْ حيثُ لا يُرى، وقيلَ: بعيداً: تَوَدُّ: ليتَ أنْ لم تكنْ. وما[7] منْ نَفسٍ مؤمنةٍ ولا كافرةٍ إلّا وتودُّ البعدَ عنْ ذنبِها[8]، وأنهُ لم يكنْ. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ قد ذكرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ إنْ أرادَ رأفةَ الآخرةِ [فهو][9] يعني بالمؤمنينَ خاصةً، وإنْ أرادَ رأفةَ الدنيا فهو بالكلِّ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ تعالى: في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فالرحمةُ منَ اللهِ، جلَّ ثناؤهُ، والرأفةُ نوعانِ:

أحدُهما: في حقِّ الابْتِداءِ أنْ خَلَقَ خلْقاً ركَّبَ فيهِمْ، ما يُمَيِّزونَ بهِ بين مختلِفِ الأمورِ، ويَجمَعونَ بينَ المؤتلِفِ، ثم لم يأخذْ كُلّا منهمْ بما اسْتَحقَّ منَ العقوبةِ، بل رَحِمَ، وأمهَلَ التوبةَ والرجوعَ إليهِ، وهذهِ الرحمةُ رحمةٌ عامةٌ، لا يخلو عنها عبدٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: بل هم. (٤) في الأصل وم: وقلب. (٥) في الأصل وم: لا.
(٦) في الأصل وم: تجد مكتوباً. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: دنبه. (٩) ساقطة من الأصل وم.

والثاني[1]: رحمةٌ في حقِّ الجزاءِ منَ التجاوُزِ والمغفرةِ وإيجابِ الثوابِ للفعلِ. فهذهِ لا ينالُها أعداؤهُ لِما يوجبُ التجهيلَ في التفريقِ بينَ الذي جعلَ في العقولِ التفريقَ، ولما يكونُ وضعُ الإحسانِ في غيرِ أهلِهِ والإكرامِ لمنْ لا يعرفُ الكرمَ بهِ، ولِما في الحكمةِ تعذيبُهُمْ تخويفاً وزَجْراً عمّا يختارونَ، وينالُها منْ يُفرِّقُ، واعْتَقَدَ الموالاةَ، وكانَ هو أعظَمَ في قلوبِهِمْ وطاعتِهِ منْ جميعِ لَذَّاتِ الدارَيْنِ، فإنْ كانوا يُبلَونَ بالمعاصي على الجهالةِ أو على رجاءِ الرحمةِ والعفوِ، إذْ هو كذلكَ في شرطِهِمُ الذي بهِ والوهُ وبالغلَبةِ، فهي رحمةٌ خاصةٌ، أي هي بالمؤمنينَ وبالعبادِ الذينَ بذلوا أنفسَهُمْ لهُ بالعبوديةِ بحقِّ الاختيارِ، وإنْ كانوا يُغْلَبونَ على ذلكَ في أحوالٍ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ قيلَ: إنَّ ناساً كانوا يقولُونَ في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ: إنا نحبُّ اللهَ حبّاً شديداً، فأنزلَ اللهُ ﷻ هذه الآيةَ، وبيَّنَ المحبةَ عِلْماً، وقيلَ: إنَّ اليهودَ لمّا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، أنزلَ[2] اللهُ تباركَ، وتعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ وذلك مَنْ أحبَّ مَلِكاً منَ الملوكِ [فهو][3] يحبُّ رسولَهُ، وَيتَّبِعُهُ في أمرِهِ، ويؤثِرُ طاعتَهُ لحبِّهِ، فإذا أظهرتُمْ أنتمْ بُغضَكُمْ لرسولي، وتركتُمْ اتِّباعَهُ في أمرِهِ وإيثارَهُ طاعتَهُ ظهرَ أنكمْ تكْذِبونَ في مقالَتِكُمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] لأنَّ منْ أحبَّ آخرَ [فهو][4] يحبُّ المتصلينَ [بهِ][5] ورُسُلَهُ وحَشَمَهُ. والمحبةُ هنا الإيثارُ بالفعلِ طاعة منْ يحبُّ[6] في ما أحبَّهُ، وكَرِهَهُ، والطاعةُ لهُ في جميعِ أمرِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآيةُ قد تقدَّمَ ذكرُها[7].

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ ومَنْ ذكرَ لرسالتِهِ ولِنُبُوَّتِهِ، وقيلَ: اختارَهُمْ لِدينِهِ، وهو الإسلامُ، وقيلَ: اختارَكُمْ في النيَّةِ والعملِ الصالحِ والإخلاصِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: الاصْطِفاءُ أنْ يجعلَهُمْ صافينَ[8] منْ غيرِ تكدُّرٍ بالدنيا [وغيرِها، وقيلَ: اختارَهُمْ][9] لأمرَينِ لأمرِ الآخرةِ ولأمرِ المعاشِ، ألَا ترَى إلى قولِهِ ﷺ: «إنّا معاشرُ الأنبياءِ لا نورثُ، نموتُ موتَ العبيدِ لسيدِهِ»؟ [بنحوه مسلم ١٧٥٧/٤٩] وقالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ، أيضاً: في قولِهِ][10]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ مَنْ ذكرَ، فهو، والله أعلمُ، ذكرُ اللهِ أولياءَهُ وأهلَ صفوتِهِ ثمَّ أعداءَهُ وأهلَ الشقاءِ ترغيباً في ما استَوجَبوا الصفوةَ وتحذيراً عمّا بهِ صاروا أهلَ الشقاءِ، إذْ هما أمرانِ يَتَولَّدانِ عنِ اختيارِ البشرِ، [ويقومُ بأعبائها][11] أهلُ المِحَنِ لا بنفسِ الخِلْقةِ والجوهرِ، فصارَ الذكرُ للمعنى الذي ذكرْتُ. وعلى ذلكَ وجهُ ذكرِ عواقبِ الفريقَينِ في الدنيا، وما إليهِ يصيرُ أمرُهُم في المَعادِ. وعلى هذا ما ضربَ اللهُ منَ الأمثالِ بأنواعِ الجواهرِ الطَّيِّبَةِ والخَبيثةِ في العقولِ والطبائعِ ترغيباً وترهيباً. وعلى هذا جميعُ أمورِ الدنيا أنها كلَّها عِبرٌ ومواعظُ، وإنْ كانَ فيها شَهَواتٌ ولَذّاتٌ وآلامٌ وأوجاعٌ لِيُعلَمَ أنها خُلِقتْ لا لها، لكنْ لأمرٍ عظيمٍ، كانَ ذلكَ هو المقصودَ منْ مُدَبِّرِ العالَمِ أنَّ بالعواقبِ يُذَمُّ أهلُ الاختيارِ، ويُحمَدُونَ، فجعلَ اللهُ عواقبَ الحكماءِ وأهلِ الإحسانِ حميدةً لذيذةً ترغيباً فيها وعواقِبَ السفهاءِ وأهلِ الإساءةِ ذميمةً وخميةً ترهيباً فيها، فخرجَ جميعُ فضلِ اللهِ على الحكمةِ والإحسانِ، وإنْ كانتْ مختلِفةً في اللذةِ والكراهةِ، لأنهُ كذلكَ طريقُ الحكمةِ في الجزاءِ، وفي ابْتِداءِ المحنةِ تكونُ مختلِفةً، والجزاءُ نوعٌ لِما هو كذلكَ في الحكمةِ والإحسانِ، إذ كذلكَ سبقَ منْ أهلِهِ الاختيارُ والجزاءُ على ما اختارَهُ مَنْ لهُ وعليهِ حكمةٌ وإحسانٌ؛ أعني بالإحسانِ في ما يجوزُ الامْتِحانُ بلا جزاءٍ بحقِّ الشكرِ لِما أولَى وأبلَى، والحكمةُ في ما لازَما ذلكَ في التدبيرِ، ولا قوّةَ إلا باللهِ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ قيلَ: ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ في النسبِ منْ ذُرِّيَّةِ آدمَ، ثم منْ ذُرِّيَّةِ نوحٍ، ثم مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ ﷺ وقيلَ: بعضُهُمْ [مِنْ][12] ذُرِّيَّةِ بعضٍ، وقيل: بعضُهُمْ مِنْ جوهرِ بعضٍ، فلا تتكبَّروا، كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢٥] منعَ الحرَّ عنِ التّعاظُمِ على العبدِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: فأنزل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في م: يحبه. (٧) في شرح الآية السابقة. (٨) في الأصل وم: صافيا. (٩) في الأصل: وغيرهم اختيارهم، في م: وغيرهم اختارهم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل: ويقومان بأعبائهما، في م: ويقومان بأسبابهما. (١٢) من م.

واختُلِفَ في الذُّرِّيَّةِ، قالَ بعضُهُمْ: الذُّرِّيَّةُ الأولادُ والآباءُ/٥٨ ـ أ/ كقولِهِ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣] وكانوا الأولادَ والآباءَ. والذُّرِّيَّةُ مأخوذةٌ منْ ذرأ يَذْرأُ ذرأً وهي[١] الخِلْقةُ، وقيلَ: الذُّرِّيَّةُ الأولادُ خاصةً، يُقالُ: ذُرِّيَّةُ فلانٍ إنما يُرادُ أولادُهُ خاصةً، دليلُهُ قولُهُ: ﴿هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] وقولُهُ: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

واختُلِفَ في الآلِ: قيلَ: آلُ الرجلِ المُتَّصِلونَ بهِ، وقيلَ: آلُ الرجلِ أتباعُهُ، وقيلَ: أقرباؤهُ. ورُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ: قالَ: «كلُّ تقيٍّ فهو منْ آلي» [بنحوه الطبراني في الصغير ٣١٠] وقيل: إنَّ عِمرانَ منْ ولَدِ سُليمانَ بنِ داوودَ ﷺ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ لمَّا أخبرَ ﷻ. أنهُ اصطفى آلَ عِمرانَ، واختارَهمْ على سائرِ العالَمينَ، وكانَ أوَّلُ ما في صَفوتِهِ واختيارِهِ[٢] أنْ جَعَلَتِ امرأةُ عِمرانَ ما في بطنِها محرَّراً، والمحرَّرُ هو العتيقُ عنِ المعاشِ بالعبادةِ، وقيلَ: المحرَّرُهو الذي يعبدُ اللهَ خالصاً مُطيعاً، لا يشغَلُهُ شيءٌ عن عبادتِهِ[٣] فارغاً لذلكَ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وقيل: المُحرَّرُ هو الذي يكونُ للهِ صافياً، وقيل: المحرَّرُ هو مِنْ خَدَمِ المسجدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ جعلَتْ ما في بطنِها للهِ خالصاً، لم تطلُبْ منهُ الاِسْتِئْناسَ بهِ، ولا ما يطمعُ الناسُ من أولادِهِمْ، وذلكَ منَ الصفوةِ التي ذكرَ ﷻ وهكذا الواجبُ على كلِّ أحدٍ أنهُ إذا طلبَ ولداً أنْ يطلبَ للوجهِ الذي طلبتِ امرأةُ عمرانَ وزكريا حينَ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] وما سألَ إبراهيمُ ﷺ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] كقولِهِ[٤]: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ الآية [الفرقان: ٧٤] هكذا الواجبُ أنْ يُطلبَ الولدُ، لا ما يطلُبونَ منَ الاِسْتِئْناسِ والاِسْتعانةِ بأمرِ المعاشِ بهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي تقبَّلْ مني قُرباني وما جعلْتُ خالصاً ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِنَذري ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بقصدي في التحريرِ، وقيلَ: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ المجيبُ لدعائي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِنِيَّتي.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ومعنى قولِها: ﴿إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ مع عِلْمِها أنَّ اللهَ عالمٌ بما في بطنِها وبما وضعَتْها [في وجهَينِ][٥]:

أحدُهُما: اعْتذارٌ[٦] لِما لَمْ يكنِ التحريرُ[٧] في ذلكَ الزمانِ إلَّا للذكورِ[٨] منَ الأولادِ، فاعْتذرَتْ ﴿رَبِّ إِنِّى﴾ ما وضَعْتُ لا يصلُحُ للوجهِ الذي ذكرْتُ.

والثاني: أنَّ الإنسانَ إذا رأى شيئاً عجيباً قد ينطِقُ بذلكَ، وإنْ كانَ قد يَعلَمُ أنَّ غيرَهُ [عَلِمَ][٩] ما عَلِمَ هو، وأنهُ رأى[١٠] مِثلَ ما رأى هو.

ويَحتمِلُ أنْ طلبَتْ ردَّها إلى منافِعِها إذ[١١] وضعتِ الأنثى لمّا رأتْ لا تصلُحُ لذلكَ. ويَحتمِلُ قولُها: ﴿إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ التعريضَ لإجابةِ اللهِ تعالى في ما قصدَتْ مِنْ طاعتِهِ بالنذرِ، وإنْ لم تكنْ صلَحَتْ لِما قصدَتْ، قد أُجيبَتْ في قولِها[١٢] بقولِهِ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ نحوَ ما يتقبَّلُ لو كانَ ذكراً[١٣] في الاِختيارِ والإكرامِ، وجَعَلَها خيرَ نساءِ العالَمينَ[١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: إنَّ ذلكَ قولُها[١٥]: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ على إثْرِ قولِها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ لِما تحتاجُ الأنثى إلى فَضْلِ حِفْظٍ وتَعاهُدٍ، والقيامُ بأسبابِها [ما][١٦] لا يحتاجُ الذكرُ، وقيلَ: إنَّ ذلكَ قولٌ قالَهُ ﷻ لمّا قالَتْ: ﴿إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ جواباً ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ في ما قصدَتْ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) من م، في الأصل: واختيار. (٣) من م، في الأصل: عبادة. (٤) في الأصل وم: وكقوله. (٥) في الأصل وم: وجهان. (٦) في الأصل وم: اعتذاراً. (٧) في الأصل وم: تحرير. (٨) في الأصل وم: الذكور. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: إذا. (١٢) في الأصل وم: قولك. (١٣) من م، في الأصل: ذاكرا. (١٤) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٠]. . (١٥) أدرج بعدها في الأصل وم: قالت. (١٦) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دلالةٌ أنَّ التسميةَ[1] إلى الأمهاتِ في الإناثِ دونَ الآباءِ، ثم التجأتْ إلى اللهِ تعالى حينَ أعاذَتْها بهِ ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وفيهِ دلالةٌ أنَّ الذكرَ يكونُ[2] مِنْ ذُرِّيَّةِ الإناثِ لأنهُ لم يكنْ منها إلّا عيسى عليه السلام.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ يحتملُ قولُهُ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ إذْ أعاذها ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ على ما سألَتْ، ويَحتملُ أنْ جَعَلَها تَصلُحُ للتحريرِ، ولِما جُعِلَتْ، وإنْ كانَتْ أنثى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يَحتمِلُ أيضاً ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أنْ لم يجعلْ للشيطانِ إليها سبيلاً، ويَحتمِلُ أنْ ربَّاها تربيةً حسنةً أنْ لم يجعَلْ رزقَها وكِفايَتَها بيدِ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ، بلْ هو الذي تولَّى[3] ذلكَ، لِما[4] يبعثُ إليها مِنَ ألوانِ الرزقِ كقولِهِ: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ وكقولِهِ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ فيه لُغتانِ:

أحدُهُما: بالتخفيفِ، والأخرى بالتشديدِ[5]، فَمَنْ قرأ بالتخفيفِ فمعناهُ: ضمَّها زكريّا إلى نفسِهِ، ومَنْ قرأ بالتشديدِ فمعناهُ: أيِ اللهُ ﷻ ضمَّها إلى زكريّا.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ قيلَ: ﴿وَجَدَ عِندَهَا﴾ فاكهةَ الصيفِ في الشتاءِ وفاكهةَ الشتاءِ في الصيفِ، ﴿قَالَ﴾ زكريّا ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؛ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: اسْتِخبارٌ عنْ موضِعِهِ، أو كيفَ لكِ هذا؟ على الاستيضافِ إنكاراً عليها واتِّهاماً لِما لا يدخلُ عليها غيرُهُ، ولا يقومُ بكفايتِها سِواهُ، فوقَعَ في قلبِهِ أنَّ أحداً مِنَ البشرِ يأتيها بذلكَ.

ثم: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يرزقُ مِن حيثُ لا يَحتسِبُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ قيلَ: فعندَ ذلكَ ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ لمّا كانَتْ نفسُهُ الخاشعةُ[6] تُحدِّثُ بالولدِ[7] أنْ يهبَ لهُ ﴿مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ قيلَ: فعندَ ذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ لمّا كانَتْ نفسُهُ.. لكنّهُ لم يدعُ لمّا رأى نفسَهُ متغيِّرةً عنِ الحالِ التي يُطمَعُ منها الولدُ، فرأى أنَّ السؤالَ في مثلِ ذلكَ[8] لا يصلُحُ. فلمّا رأى عندَها فاكهةَ الصيفِ في الشتاءِ وفاكهةَ الشتاءِ في الصيفِ غيرَ متغيِّرةٍ عنْ حالِها عَلِمَ عندَ ذلكَ أنَّ السؤالَ يصلُحُ، وأنهُ يُجابُ للدعاءِ في غيرِ مِحنةٍ، فذلكَ معنى قولِهِ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ أنه لمّا رأى ما أُكرِمَتِ امرأةُ عِمرانَ في قبولِ دَعْوَتِها وتبليغِ ابْنَتِها في الكرامةِ المبلغَ الذي رأى فيها ممّا لعلَّ أطماعَ الأنفسِ لا تبلغُ ذلكَ دعا اللهَ، جلَّ جلالُهُ، أنْ يكرمَهُ بِمَنْ يُبقي لهُ الأثرَ بهِ والذكرَ، وإنْ كانَتْ تلكَ الحالُ حالاً[9] لا تُطمِعُ الأنفسَ في ما رَغِبَ ﷺ معَ ما كانَتْ[10] قدرةُ اللهِ تعالى[11] على ما يشاءُ مِنْ غيرِ أنْ كانَ يُحسَرُ على طلبِ الإكرامِ بكلِّ ما يبلُغُهُ قدرُهُ حتى رأى ما هو في الأعجوبةِ قريبٌ مما كانتِ نفسهُ تَتَمنّى، واللهُ أعلمُ بالمعنى الذي سألَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي مُجيبُ الدعاءِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ دلَّ هذا أنَّ المحرابَ هو موضعُ الصلاةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا﴾ فيهِ دلالةٌ لقولِ أصحابِنا، رحمَهُمُ الله: إنَّ الرجلَ إذا حلفَ ألا يُبشِّرَ فلاناً، فأرسلَ إليهِ غيرَهُ يبشِّرُهُ حنثَ في يمينِهِ، لأنهُ هو البشيرُ، وإنْ كانَ المؤدِّيَ غيرُهُ. ألا ترى أنَّ البِشارةَ ههنا أُضيفَتْ إلى اللهِ تعالى، فكانَ هو البَشيرَ؟ فكذلكَ هذا.

---

(١) في الأصل وم: تسميته. (٢) في م: يكونون. (٣) في الأصل وم: متولى. (٤) من م، في الأصل: لم. (٥) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، انظر حجة القراءات ص(١٦١). (٦) في الأصل وم: الخاسية. (٧) من م، في الأصل: بالوالد. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: إن السؤال. (٩) في الأصل وم: حال. (١٠) في الأصل وم: كان. (١١) من م، في الأصل: ﷻ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: عيسى عليه السلام كانَ بكلمةٍ منَ اللهِ؛ فيحيى صدَّقَهُ برسالتِهِ، وقيلَ: أوَّلُ من صدَّقَ عيسى يحيى بنُ زكريّا، ولهذا أُوقِعَ على النصارى شُبهةٌ حينَ قالوا: عيسى ابنُ اللهِ بقولِهِ: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] [وبقولِهِ:][1] ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، ظنّوا [أنَّ كلمةَ ﴿مِّنْهُ﴾][2] في معنى فيهِ، لكنَّ ذلك يذكرُهُ[3] إكراماً لهمْ وإجلالاً، ولا يوجبُ ذلكَ ما قالوا. ألا ترى أنَّ اللهَ ﷻ قالَ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾؟ [النحل: ٥٣] ونحوُ ذلكَ لم يكنْ فيهِ أنَّ النعمةَ منهُ في شيءٍ. فَعَلى ذلكَ الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيِّدًا﴾؛ قيلَ: سيِّداً في العلمِ والعبادةِ، وقيلَ: السَّيِّدُ الحليمُ ههنا، وقيلَ: السَّيِّدُ الذي يُطيعُ ربَّهُ، ولا يَعصيهِ، فكذلكَ كانَ ـ صلواتُ الله عليهِ[4] ـ وقيلَ: السَّيِّدُ التَّقيُّ، وقيلَ: اشْتُقَّ يَحْيى مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى مِنْ: حَيٌّ، واللهُ ﷻ هو الذي سماهُ يَحيى، وكذلكَ عيسى، اللهُ هو الذي سماهُ مسيحاً بقولِهِ: ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [عليه السلام][5] [آل عمران: ٤٥] وذلكَ إكراماً لهما وإجلالاً على ما سُمّيَ إبراهيمُ خليلَ اللهِ ومحمدٌ حبيبَ اللهِ وموسى كليمَ اللهِ إكراماً لهمْ وإجلالاً، فكذلكَ الأوّلُ. وجائزٌ أنْ يكونَ يَحْيَى لِما[6] حَيِيَ بهِ الدِّينُ/ ٥٨ ـ ب/.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿يَحْيَىٰ﴾: قيلَ: سمّاهُ بهِ لِما حَيِيَ به الدِّينُ والمروءةُ، أو حَيِيَ بهِ العلمُ والحكمةُ، أو حَيِيَ بهِ الأخلاقُ الفاضلةُ والأفعالُ المَرْضيَّةُ، ولهذا، واللهُ أعلمُ، سمّيَ سَيِّداً، لأنَّ السُّودَ في الخُلُقِ يُكتَسَبُ بهذا النوعِ منَ الأحوالِ، وسُمّيَ مسيحاً بالبركةِ، أو يُبارِكُ في كلِّ شيءٍ يَمَسُّهُ بيدِهِ نحوَ أنْ يبرأَ بهِ، ويَحيى، والله أعلمُ. وحقيقةُ السُّودِ أنه يُكتَسَبُ بالأخلاقِ الحسنةِ والأفعالِ المَرْضيَّةِ. وجائزٌ أنْ يكونَ عليه السلام جَمَعَهُما فيهِ، فَسُمّيَ بهما[7]، واللهُ أعلمُ.

والأصلُ في هذا ونحوِهِ أنَّ الأسماءَ إذ جُعِلَتْ لِلمعارفِ ولِيُعْلَمَ بها المقصودُ، فالكفُّ عنِ التكلُّفِ في المعنى الذي له سَمَّوا لهُ أسلَمُ، وإن كانَ في الجملةِ يُختارُ ما يحسُنُ منهُ في الأسماءِ دونَ ما يقبحُ على المقالِ أو على الرغبةِ في ذكرِهِ على [ما][8] يُختارُ منْ كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾ قيلَ الحَصورُ الذي لا مالَ لهُ ولا شهوةَ، وقيلَ: هو المأخوذُ مِنَ النساءِ والممنوعُ منهنَّ، وقيلَ: هو الذي لا يَشتهي النساءَ، وكلُّهُ واحدٌ، واللهُ أعلمُ ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهُما:][9] ذكرَ أنهُ مِنَ الصالِحِينَ، وإنْ كانَ كلُّ نبيٍّ لا يكونُ إلّا صالحاً على ما سمّى كلَّ نبيٍّ صدّيقاً، وإنْ كانَ لا يكونُ إلا صِدّيقاً.

ووجهُ ذكرِهِ صالحاً أنه كانَ يتحقّقُ فيهِ ذلكَ لأنَّ غيرَهُ مِنَ الخلقِ، وإنْ كانَ يستحقُّ ذلكَ الاسْمَ إنما يستحقُّ بجهةٍ، والأنبياءُ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، يَتَحقَّقُ ذلكَ فيهِمْ مِنَ الوجوهِ كلِّها.

والثاني: دعاءٌ أنْ يُلحَقَ بالصالِحينَ في الآخرةِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: ما ذكرَ في كلِّ نَبيٍّ أنهُ منَ الصالحينَ يَخرُجُ على أوجهٍ: على جميعِ الصُّلاحِ وعلى البِشارةِ لهمْ في الآخرةِ أنهمْ يُلحقونَ بأهلِ الصَّلاحِ، وعلى أنهمْ منهمْ، لولا النبوةُ، لِيُعلَمَ أنَّ النبوةَ إنما تُختارُ في الدِّينِ لِمَنْ تَمَّ لهمْ وَصْفُ الصَّلاحِ، وعلى الوصفِ بهِ أنهمْ كذلكَ على ألسُنِ الناسِ، وأنَّ الذينَ رَدُّوا عليهِمْ رَدُّوا بعدَ عِلْمِهِمْ بصلاحِهِمْ، أو على الوصفِ بهِ كالوصفِ بالصدّيقِ، وإنْ كانَ كلُّ نبيٍّ كذلكَ معَ ما لعلَّ، ولذلكَ حدٌّ[10] عندَ اللهِ، ذلكَ أرادَ لم يكنِ اطَّلعَ غيرُهُ عليهِ، واللهُ أعلمُ. وجائزٌ أنْ يكونَ يَحيى بما حَيِيَتْ بهِ الأخلاقُ المحمودةُ والأفعالُ المَرْضيَّةُ، ولذلكَ سُمّيَ سَيِّداً.

وجملَتُهُ أنَّ للهِ أنْ يُسمّيَ مَنْ شاءَ بما شاءَ، وليسَ لنا تكلُّفُ طَلَبِ المعنى في ما سَمّى الجواهرَ بهِ، إذِ الأسماءُ للتعريفِ. لكنْ تُختارُ الأسماءُ الحسنةُ في السمعِ على التفاؤلِ، واللهُ أعلمُ. وقولُهُ: روحُ اللهِ وكلمَتُهُ، كقولِهِمْ[11]: خليلُ الله وحبيبُهُ وذبيحُ اللهِ ليسَ على توَهُّمِ معنىً، يُزيلُ معنَى الخِلْقةِ، ويوجبُ معنَى الرُّبوبيَّةِ أو النبوَّةِ، وذلكَ على ما قيلَ مِنَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) من م، في الأصل: يذكر. (٤) في م: عليهم. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: مما. (٧) في الأصل وم: به. (٨) من م. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: أحد. (١١) في الأصل وم، كقوله.

ثبوتِ اللهِ وعلى ما قيلَ لدينهِ: نورُ اللهِ، وقيلَ لفرائضِهِ: حدودُ اللهِ لامعنًى يخرجُ عنْ جملةِ خَلْقِهِ بل على تخصيصٍ لذلكَ في الفضلِ على أشكالِهِ. وذلكَ كما قالَ لمحمدٍ ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وقالَ في الجملةِ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] لا على ما توَهَّمَهُ النصارَى في المسيحِ، فمثلُهُ الأوَّلُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] بِشارةُ انبعاثِهِ إلى أنْ يصيرَ كهلاً.

وفيهِ وجهٌ آخرُ، وهو أنَّ قولَهُ في ذلكَ بيانٌ أنَّ كلامَهُ في المهدِ كلامٌ مُختارٌ أنَّ ذلكَ وصفُ كلامِ الكهلِ لِيُعلَمَ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] إلى آخرِهِ إنما هو حقيقةُ الخضوعِ للهِ والإنباءِ[1] عنهُ لا على خَلْقِهِ كَنُطقِ الجوارحِ في الآخرةِ، واللهُ أعلمُ، أو لِيكونَ آيةً لهُ دائمةً، إذ لم يكنْ على ما عليهِ أمرُ البشرِ منَ التَّغْيِيرِ، على أنَّ الآياتِ الجوهريَّةَ تزولُ عندَ الغِنَى نحوَ العصا في ما تعودُ إلى حالِها، واليدِ، ونحوَ ذلكَ لِيُخَصَّ هو بنوعٍ منَ الآياتِ[2] الحِسِّيَّةِ بالدوامِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

الآية ٤٠ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ الآية؛ يَحتمِلُ هذا الكلامُ وجوهاً:

أحدُها: لا على الإنكارِ أي لا يكونُ، لكنْ ههنا[4] يَحتمِلُ لأنهُ كانَ أعلمَ باللهِ وقدرتِهِ أنْ ينطِقَ بهِ، أو يخطُرَ ببالِهِ.

والثاني: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ أي كيفَ وجهُهُ وسببُهُ؟ وكذلكَ قولُهُ ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ وقولُهُ[5]: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقولُهُ[6]: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي كيفَ وجهُهُ؟ وما سببُهُ؟

والثالثُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ في الحالِ التي أنا عليها، أو أُرَدَّ إلى الشبابِ، فيكونُ ليَ[7] الولدُ[8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ وذُكرَ في سورةِ مريمَ ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [الآية: ٨] ذُكرَ على التقديمِ والتأخيرِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] وقولُهُ[9]: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، والقصةُ واحدةٌ، وذُكِرَ على التقديمِ والتأخيرِ وعلى اختِلافِ الألفاظِ واللسانِ. دلَّ أنهُ ليسَ على الخَلْقِ حفظُ اللفظِ واللسانِ [وإنما][10] عليهِمْ حفظُ المعاني المُدرجَةِ المودَعةِ[11] فيها، وباللهِ التوفيقُ وعلمٌ[12] أنهُ لم يكنْ على كِلا[13] القولَينِ، ولم يكنْ بهذا اللسانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ كقولِهِ[14]: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١] وإنِ اختَلَفَ اللسانُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ طلبَ منْ رِّبهِ آيةً لِما[15] لعلّهُ لمْ يعرف أنَّ تلكَ البِشارةَ بِشارةُ الملائكةِ أو وَساوسُ [إبليسَ][16]، فطلبَ آيةً ليعرفَ أنَّ تلكَ البِشارة بشارةُ الملائكةِ منَ اللهِ ﷻ لا بِشارةُ إبليسَ لأنهُ لا يقدرُ أنْ يفتعلَ في الآيةِ لأنَّ فيها تغيُّرَ الخِلْقةِ والجوهرِ، وهمْ لا يقدرونَ على ذلكَ، أو[17] لعلَّهُمْ يقدرونَ على الافتِعالِ بالبِشارةِ. ألا ترى أنَّ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ على نبيِّنا وعليهِ، لَمّا نزلَ بهِ الملائكةُ لم يعرفْهُمْ بالكلامِ، وهابَهُمْ[18] حتى ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٣] و[19] ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] فذهبَ ذلكَ الرَّوعُ منهُ بعدَما أخبَروهُ أنهمْ ملائكةٌ، رسلُ اللهِ، أرسَلَهُمْ إليهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التفسيرِ: حبسُ لسانهِ عقوبةٌ لهُ بقولِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ لكنَّ ذلكَ خطأ، والوجهُ فيهِ منعُهُ مِنْ تكليمِ الناسِ، ولم يمنَعْهُ عنِ الكلامِ في نفسِهِ. الا ترى أنهُ أمرَهُ أنْ يذكرَ ربَّهُ، ويُسبِّحَ بالعشيِّ والإبكارِ بقولهِ[20]: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾؟ ويَحتمِلُ

---

(١) من م، في الأصل: والأنبياء. (٢) في الأصل وم: آيات. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ادرج بعدها في الأصل وم: لا. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: إلي. (٨) ادرج بعدها في الأصل وم: هذان الوجهان يحتملان أما الأول فإنه لا يحتمل. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) من م، في الأصل: إنما. (١١) من م، في الأصل: الموعودة. (١٢) في الأصل وم: ويعلم. (١٣) في الأصل وم: كل. (١٤) في الأصل وم: وقوله. (١٥) ساقطة من م. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: علو. (١٨) في الأصل وم: وهابوه. (١٩) في الأصل وم: حتى. (٢٠) في الأصل وم: كقوله.

أنْ يكونَ أراهُ آيةً في نفسِهِ مِنْ نوعِ [ما كانَ سؤالُهُ إذا][١] كانَ عنِ العلمِ بالولدِ في غيرِ حينِهِ، فأراهُ [أنْ منعَ][٢] اللسانِ عنِ النطقِ هو[٣] أعلى أحوالِ الاحتِمالِ ليكونَ آيةً للأوّلِ.

وقيلَ: في قولِهِ ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ إنَّهُ طلبَ آيةً لجهلِهِ بعُلوقِ الولدِ، وليَعْرِفَ[٤] متى يأتيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ قيلَ: الرمزُ تحريكُ الشفتَينِ، وقيلَ: هو الإيماءُ بشفَتيهِ، وقيلَ: هو الإشارةُ بالرأسِ، وقيلَ: هو الإشارةُ باليدِ، واللهُ أعلمُ بذلكَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: هو جبريلُ ﷺ لكنَّ ذلكَ لا يُعلَمُ إلا بالخبرِ، فإنْ صحَّ الخبرُ فهو كذلكَ، وإلّا لمْ يقلْ مَنْ كانَ مِنَ الملائكةِ قالَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أيِ [اصْطفاها لعبادةِ][٥] نفسِهِ، وخصَّها لهُ، ما لم يكنْ ذلكَ لأحدٍ مِنَ النساءِ، فيكونُ بذلكَ صفوَتُها، وقيلَ: اصْطفاها بولادةِ عيسى ﷺ إذْ أخرجَ منها نبيّاً مُباركاً تَقِيّاً على خلافِ ولادةِ البشرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ قيلَ: مِنَ الآثامِ والفواحشِ، وقيلَ: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مِنْ مَسِّ الذكورِ وما قُذِفَتْ بِهِ.

[وقولُهُ تعالى][٦]: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو ما ذكرْنا مِنْ صَفْوَتِها أنْ جعلَها لعبادةِ نفسِهِ خالصةً[٧]، أو ما قد وَلَدَتْ مِنْ غيرِ أبٍ على خلافِ سائرِ البشرِ. وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: (حطَّ رسولُ اللهِ ﷺ: أربعةَ حظوطٍ، ثم قالَ: هل تدرونَ ما هذهِ؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قال: خيرُ نساءِ العالمينَ أربعٌ: مريمُ بنتُ عمرانَ وآسيةُ بنتُ مزاحمٍ وخديجةُ بنتُ خويلدٍ وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ﷺ).

الآية ٤٣ [وقولُهُ تعالى][٨]: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: الأمرُ بالقنوتِ والقيامِ[٩] ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ ثم الأمرُ بالسجودِ ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ثم الأمرُ بالركوعِ ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وهو الصلاةُ بجماعةٍ، ففيهِ الأمرُ بالصلاةِ مع الجماعةِ على ما هو علينا، لأنهُ قال: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ وعلى ذلكَ/ ٥٩ ـ أ/ رُوِيَ في الخبرِ أنه سُئلَ عنْ أفضلِ الصلاةِ، فقالَ: «طولُ القنوتِ» [مسلم ٧٥٦/ ١٦٥] ويَحتمِلُ أنهُ الأمرُ بالركوعِ ثم بالسجودِ، فيدلُّ أنَّ السجودَ، وإنْ كانَ مقدَّماً ذكرُهُ على الركوعِ فإنهُ ليسَ في تقديمِ ذكرِ شيءٍ على شيءٍ ولا تأخيرِ شيءٍ في الذكرِ، دلالةُ وجوبِ الحكمِ كذلكَ. وقيلَ: القنوتُ هو[١٠] الخضوعُ والطاعةُ كقولِهِ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] أي خاضِعينَ مطيعينَ. فإنْ قيلَ: كيفَ أُمِرَتْ بالركوعِ معَ الراكعينَ؟ قيلَ: كانوا، واللهُ أعلمُ، ذوي قرابةٍ منها ورَحِمٍ. ألا ترى أنهمْ كيفَ اختَصَموا[١١] في ضمِّها وإمساكِها حتى أرادَ كلُّ واحدٍ منهمْ ضمَّها إلى نفسِهِ [على أنهُ][١٢] الأحقُّ بذلكَ؟ دلَّ أنَّ بينَهُمْ وبينَها رَحِماً وقرابةً. وقيلَ في قولِهِ: ﴿ٱقۡنُتِي﴾ أطيلي الركوعَ في الصلاةِ، واللهُ أعلمُ.

قال الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: ويَحتمِلُ ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي مِمَّنْ يَرْكَعُ، ويَخْضَعُ لهُ بالعبادةِ، لا على الاجتِماعِ، واللهُ أعلمُ. كيف كانَ الأمرُ كذلكَ؟

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ أي مِنْ أخبارِ الغيبِ لم تَشْهَدْهُ أنتَ يا محمدُ، ولم تحضُرْهُ[١٣]، بلْ نحنُ أخبرْناكَ، وذكَّرْناكَ [عنْ ذلكَ، ثم في ذلكَ][١٤] وجوهُ الدلالةِ:

أحدُها: أرادَ أنْ يُخبِرَهُ عنْ صفوةِ هؤلاءِ وصنيعِهِمْ ليكونَ على عِلْمٍ مِنْ ذلكَ.

والثاني: دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ لأنهُ أخبَرَ على ما كانَ مِنْ غيرِ أنِ اختَلَفَ إلى أحدٍ، أو أعلَمَهُ أحدٌ مِنَ البشرِ على علمٍ منهمْ ذلكَ، دلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ ﷻ.

---

(١) من م. (٢) في الأصل وم: يمنع. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل و م: وجعلها ليعرف. (٥) في الأصل: صفاها لعبادة، في م: صفاها لعبادة. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: خالصاً. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرجت في الأصل وم: قبلَ القنوت. (١١) في الأصل وم: اختصوا. (١٢) في الأصل وم: وأنه. (١٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، في الأصل: عند ذلك.

والثالثُ: أنْ يَتأمَّلَ وَجْهَ الصفوةِ لهمْ أنهمْ بِمَ نالوهُ، واجْتَهدوا[1] في ذلكَ؟ واللهُ أعلمُ. وفي ذلكَ تأخيرُ البيانِ عنْ وقتِ الحاجةِ إلى أنْ ظهرَ ذلكَ بإلقاءِ الأقلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ الآية: قيلَ: إنهم ألقَوا أقلامَهمْ على جَرْيَةِ الماءِ، فذهبَ الأقلامُ كلُّها مع الجَرْيَةِ إلّا قلمَ زكريّا فإنّهُ وقفَ على وَجْهِ الماءِ، وقيلَ: طرحُوا أقلامَهمْ في الماءِ، وكانَ شرطُهُمْ أنَّ مَنْ صَعِدَ قلمُهُ عالياً[2] مع الجَرْيَةِ فهو أحقُّ بها، ومنْ سفلَ قلمُهُ مع الجَرْيَةِ فهو المقروعُ، فصَعِدَ قلمُ زكريّا، وتسَفَّلَتْ أقلامُهُمْ، فعندَ ذلكَ ضمَّها زكريّا إلى نفسِهِ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ احتجَّ بجوازِ القُرعةِ والعملِ بها بهذهِ الآيةِ حينَ ضمَّ زكريّا مريمَ إلى نفسِهِ كما خرجَتِ القُرعةُ، لكنَّ القُرعةَ في الأنبياءِ لِتَبْيينِ الأحَقِّ مِنْ غيرِهِ لِوجهَيْنِ:

[أحدُهُما] لِحقِّ الوَحْيِ.

والثاني: لِظهورِ إعلامٍ في نفسِ القُرعةِ ما نعلمُ أنهُ كانَ باللهِ ذلكَ لا بنفسِهِ، كارْتِفاعِ القلمِ على الماءِ، ومثلُ ذلكَ لا يكونُ للقلمِ والمُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ وفي ما بينَ سائرِ الخَلْقِ لدفْعِهِمُ التُّهَمَ، فهي لاتُدفَعُ أبداً.

ويَحتمِلُ اسْتِعمالُ القُرعةِ فيها لِتَطْييبِ الأنفسِ بذلكَ بالوحيِ فليسَ اليومَ وحيٌ، لذلكَ بطلَ الإسْتِدلالُ بجوازِ العملِ بالقُرعةِ اليومَ، واللهُ أعلمُ. وكانَ ذلكَ آيةً، والآيةُ لا يُقاسُ عليها غيرُها، نحوُ قَبولِ [قولِ][3] قتيلِ بني إسرائيلَ آيةً، ليسَ بهِ معتَبَرٌ[4] في جوازِ [قبولِ قولِ كلِّ قتيلٍ][5] آخرَ قَبْلَ الموتِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ﴾ يَحتمِلُ ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ أنْ قالَ: كُنْ فكانَ من غيرِ أبٍ ولا سَبَبٍ، وسائرُ البشرِ لم يكونوا إلّا بالآباءِ والأسبابِ مِنَ النطفةِ ثمَّ مِنَ العلقةِ ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ﴾ [الحج: ٥] على ما وصفَ ﷻ في كتابِهِ، وكانَ أمرُ عيسى ﷺ على خلافِ ذلكَ. ويَحتمِلُ ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ ما ذكرَ أنهُ كلَّمَ الناسَ في المَهْدِ[6]: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية [مريم: ٣٠] وذلكَ ممّا خصَّ بهِ عيسى، وهو بكلمةٍ مِنَ اللهِ، قالَ ذلكَ.

الآية ٤٦ فإنْ قيلَ: ما معنى قولِهِ: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ والكهلُ يكلِّمُ الناسَ؟ قيلَ [لوجهَيْنِ]:

الأولُ[7]: لأنَّ كلامَهُ في المهدِ آيةٌ، والآيةُ لا تدومُ كقولِهِ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ﴾ الآية [النور: ٢٤]، وإنما يكونُ ذلكَ مرَّةً لا أنها تشهَدُ، وتنطِقُ أبداً، فأخبرَ أنَّ تكليمَهُ الناسَ في المهدِ، وإنْ كانَ آيةً، فإنه ليسَ بالذي يدومُ، ولا يكونُ إلّا مرَّةً.

والثاني: أمنٌ مِنَ اللهِ لمريمَ وبِشارةٌ بها [مِنْ ولادتِهِ][8] إلى وقتِ كهولتِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: (﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ المُباركُ أي مَسيحٌ بالبركةِ) وقيلَ: سُمِّيَ مَسيحاً لأنهُ كانَ يَمسحُ عينَ الأعمى والأعورِ، فَتُبْصِرُ، وقيلَ: ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ العظيمُ لكنهُ، واللهُ أعلمُ بلسانِهِمْ فيُسألُ: ما ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ المسيحُ بلسانِهِمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالمنزلةِ ومَكِيناً في الآخرةِ، ومنَ المقرَّبينَ في الدرجةِ والرفعةِ[9] ومَنْ كانَ ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فهو مقرَّبٌ فيهما.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ عرفَتْ مريمُ أنَّ الولدَ يكونُ بِمَسِّ البشرِ،

---

(١) في الأصلِ وم: فيجهدوا. (٢) من م، في الأصل: غالباً به. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: معبر. (٥) في م: قبول، في الأصل: قول، والإشارة إلى قوله ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣]. (٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ [آل عمران: ٤٦]. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عن وفاته. (٩) من م، في الأصل: والرفيعة.

وعلمتْ أنها لم[1] تتزوَّجْ، ولم[2] يمسَسْها بشرٌ أبداً لأنها ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فإنْ لم يكنْ مَسَّها[3] أحدٌ قبلَ ذلكَ، [فما مَسَّها][4] في حادثِ الوقتِ، فيكونُ لها منه الولدُ. فلّما لم يقلْ لها: يَمَسُّكِ، ولكنْ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ دلَّ ذلكَ أنها علمَتْ أنها لا تتزوجُ أبداً لأنها كانتْ مُحرَّرةً للهِ مخلصةً لهُ في العبادةِ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي مِن أيِّ وَجهٍ[5] يكونُ لي ولدٌ؟ بالهِبَةِ؟ لأنها بُشِّرتْ[6] أنْ [يُوهبَ لها ولدٌ][7] فقالَتْ: مِنْ أيِّ وجهٍ يكونُ لي ولدٌ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟ ثم ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ تاويلُهُ ما ذكرَ في سورةِ مريمَ حيثُ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ الآية [٢٠] ثم ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ الآية [٢١] أي خَلْقُ الخَلْقِ عليَّ هيِّنٌ بأبٍ وغيرِ أبٍ وبِمسٍّ وبغيرِ مسٍّ وبسببٍ وبغيرِ[8] سببٍ على ما خَلَقَ آدمَ بغيرِ أبٍ ولا أمٍّ. فعلى ذلكَ يخلُقُ بتوالدِ بعضٍ مِنْ بعضٍ وبغيرِ توالدِ بعضٍ منْ بعضٍ كخلْقِ الليلِ منَ النهارِ، يخلُقُ بلا توالدِ أحدِهما منَ الآخرِ، فكذلكَ يخلقُ لكِ ولداً مِنْ غيرِ أبٍ ولا مَسِّ بشرٍ، وباللهِ الحَولُ والقوةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا قضى أمراً بتكوينِ أحدٍ أو بتكوينِ شيءٍ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يثقلُ عليهِ ولا يصعُبُ خلقُ الخَلْقِ وتكوينُهُمْ كقولِهِ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] أي خَلْقُ الخَلْقِ كُلِّهِمُ ابْتِداءً وبعثُهُمْ بعدَ الموتِ كخَلْقِ نفسٍ واحدةٍ أنْ يقولَ ﴿لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وإنما يثقلُ ذلك على الخَلْقِ، ويصعُبُ لموانعَ وأشغالٍ تشغَلُهُمْ، فأمّا اللهُ ﷻ تعالى عنْ أنْ يشغَلَهُ شُغلٌ، ويمنَعَهُ مانعٌ، أو يُحجَبَ عليهِ حجابٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ذكرَ، واللهُ أعلمُ، هذا الحرفَ لأنهُ ليسَ في كلامِ العربِ حرفٌ أو جزءٌ منهُ، يُعبِّرُ، فَيُفْهِمُ معناهُ إلّا أنْ كانَ منهُ ﷻ كافٌ ونونٌ[9] أو حرفٌ أو هجاءٌ أو صفةٌ، تُفْهِمُ، وتُعْرَفُ حقيقتُهُ، أو يوصَفُ هو بمعنىً مِنْ معاني كلامِ الخَلْقِ وصفاتِهِمْ، [أو يكونُ لِتكوينِ وقتٍ أو مدةٍ أو حالٍ][10] أو يكونُ تكوينٌ على ما يكونُ مِنَ الخَلْقِ، إنما هو حرفٌ أو جزءُ حرفٍ، يُفهَمُ معناهُ بالعبادةِ: إخبارٌ منهُ ﷻ عنْ سرعةِ نفاذِ أمرِهِ ومشيئتِهِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ بِشارةٌ منهُ أيضاً أنه ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ ثم اختُلِفَ في الكتابِ: قيلَ: الكتابُ هو الخطُّ ههنا، يخُطُّهُ بيدِهِ، ويَحتمِلُ الكتابَ الكتابَ نفسَهُ التوراةَ والإنجيلَ، ويَحتمِلُ الكتابُ كتبَ النبيِّينَ. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ قيلَ[11]: الحكمُ بينَ الخَلْقِ، وقيلَ: الفقهُ، وقيلَ: الحلالُ والحرامُ، وقيلَ: السُّنةُ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي الإصابةُ، وقد ذكرْنا في ما تقدَّمَ[12].

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي جعلَهُ رسولاً إلى بني إسرائيلَ، وهذا أيضاً بِشارةٌ لها منهُ، وكانَ عيسى، صلواتُ اللهِ على نبيِّنا وعليهِ، منْ أوَّلِ أمرِهِ إلى آخرِهِ آيَةً، لأنهُ وُلِدَ مِنْ غيرِ أبٍ على خِلافِ ما كانَ سائرُ البشرِ ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ [آل عمران: ٤٦] وأقرَّ بالعبوديةِ لهُ، ولم يكنْ لأحدٍ مِنَ البشرِ ذلكَ، وإبراءُ الأكمهِ والأبرصِ وإحياءُ الموتى وإنباءُ ما كانوا يأكلونَ، ويَدَّخِرونَ، وما كانَ لهُ مأوىً يأوي إليهِ، ولا عيشٌ/ ٥٩ ـ ب/ يَتعيَّشُ هو بهِ، والبشرُ لا يخلو عنْ ذلكَ، ثمَّ أُلقيَ شبهةً على غيرِهِ، فقُتِلَ بهِ، ورفِعُ هو إلى السماءِ، وذلكَ كلُّهُ آيةٌ، وكانت آياتُهُ كلُّها حِسِّيَّةً يَعلَمُها كلُّ أحدٍ، وآياتُ رسولِ اللهِ، عليهِ أفضلُ الصلواتِ وأكملُ التحياتِ، كانتْ حسِّيَّةً وعقليَّةً. أما الحِسِّيَّةُ فهو انْشِقاقُ القمرِ [ونبعُ الماءِ منْ بينِ أصابعِهِ][13] وكلامُ الشاةِ المسمومةِ وقَطْعُ مسيرةِ شهرٍ في ليلةٍ وغيرُ ذلكَ مِن الآياتِ مِمّا يكثُرُ عددُها، هذه كلُّها كانتْ حِسِّيَّةً. وأمّا العقليةُ فهذا القرآنُ الذي نزلَ عليهِ، وهو بينَ أظهُرِهِمْ، وهمْ فصحاءُ وبُلغاءُ وحُكماءُ يَتلُو عليهِمْ [قولَهُ][14]: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ الآية [يونس: ٣٨] وقولَهُ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ فلو كانَ بهِمْ طاقةٌ أو قدرةٌ أنْ يأتوا بمثلِهِ لجَهَدوا كلَّ جهدٍ،

---

(١) في الأصل وم: ولا. (٢) في الأصل وم: ولا. (٣) من م، في الأصل: منها. (٤) في الأصل وم: فلم يمسها. (٥) في م: جهة. (٦) إشارة إلى قوله تعالى ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. (٧) من م، في الأصل: يهب لها ولداً. (٨) من م، في الأصل: وغير. (٩) أدرج تفسير هذا القول في الآية (١١٧) من سورة البقرة. (١٠) من م. (١١) في الأصل وم: وقيل. (١٢) في الآية (٣٢) من سورة البقرة وغيرها. (١٣) من م. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وتكلّفوا كلَّ تكلُّفٍ حتى يُطفِئوا هذا النورَ ليتخلَّصوا منْ قتلِهِمْ وسَبْيِ ذراريهِمْ واستِحياءِ نسائِهِمْ، فلمّا لم يفعلوا ذلكَ دلَّ أنهُ آيةٌ مُعجزةٌ، عَجزوا عنْ إتيانِ مِثلِهِ. فأيُّ آيةٍ أعظمُ مِنْ هذا؟ وباللهِ النجاةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بعلامةٍ أني رسولٌ منهُ إليكمْ. ثم فسّرَ[1] الآيةَ، فقال: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقولُهُ[2]: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ هو على المجازِ لا على التخليقِ والتكوينِ [لِوَجهَينِ]:

الأوّلُ[3]: لأنَّ الخلْقَ ليسَ هوَ منْ فعلِ المخلوقِ، وإنما هو مِنْ فِعْلِ اللهِ ﷻ لأنَّ التخليقَ هو الإخراجُ مِنَ العَدَمِ إلى الوجودِ، وذلكَ فعلُ اللهِ [ﷻ][4] لا يقدرُ المخلوقُ على ذلكَ، فهو على المَجازِ. ألا تَرى أنهُ قالَ في آخرِهِ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؟ [آل عمران: ٥٠]، وليسَ إلى الخلْقِ[5] تحليلُ شيءٍ أو تحريمُهُ، إنما ذلكَ إلى اللهِ ﷻ فمعناهُ أني أظهرُ لكمْ حِلَّ بعضِ ما حُرِّمَ عليكمْ. فعلى ذلك قولُهُ: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي أُظْهِرُ لكمْ بيدي ما خلقَ اللهُ منَ الطينِ طائراً، فيكونُ آيةً لرسالتي إليكمْ، وكذلك الآياتُ ليسَ مِمَّا يُنشِئُ الأنبياءُ، ولكنْ تظهرُ على أيديهمْ. وإنما لم تَجزْ إضافةُ التخليقِ إلى الخَلْقِ لِما ذكرْنا أنه إخراجُ الشيءِ منَ العدمِ إلى الوجودِ، وذلكَ ليسَ إلى الخَلْقِ.

والثاني: أنَّ التخليقَ هو إخراجُ الفعلِ على التقديرِ، وفعلُ العبدِ إنما يخرجُ على تقديرِ اللهِ لا يخرُجُ على تقديرِهِ، كذلكَ لم تَجُزْ إضافةُ ذلكَ إلى الخلْقِ إلّا على طريقِ المجازِ، واللهُ أعلمُ.

قال الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: [الخَلْقُ اسمُ][6] المجازِ والحقيقةِ، والتخليقُ فعلُ حقيقةٍ خاصةٍ، وآياتُ الأنبياءِ ﷺ هي التي تخرُجُ على خلافِ الأمرِ المعتادِ بينَهُمْ يُجْريها اللهُ ﷻ على أيديهِمْ. إنَّ ذلكَ [لم يكنْ بهِمْ إنما كانَ ذلكَ][7] بالرسلِ الذينَ أرسلَهُمْ ليدلَّ على صدقِهِمْ، ولاقوةَ إلّا باللهِ. وإبراءُ الأكمهِ والأبرصِ هو منْ آياتِ النبوةِ لخروجِها عنِ الأمرِ المعتادِ فيما بينَهُمْ، فإنْ قيلَ: إنَّ إحياءَ المَوتى وإبراءَ الأكمهِ والأبرصِ منْ آياتِ النبوةِ لعجزِهِمْ عن إتيانِ مثلِهِ وخروجِهِ عن المُعْتادِ في ما بينَهُمْ، ولكنَّ أنباءَ ما يأكلونَ، ويدَّخِرونَ ما[8] كان منْ آياتِ النبوةِ؟ ويجوزُ أن يكونَ ذلكَ منْ مُنجِّمٍ، قيل: له جوابانِ، إنْ كانَ يكنْ[9] مثلَ ذلكَ في النجومِ:

أحدُهما: أنهُ مضمومٌ إلى الآياتِ، فصارَ آيةً بما ضُمَّ إليها.

والثاني: أنَّ هذا، وإنْ كانَ بعلمِ النجومِ، فعيسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، لمّا علمَ قومُهُ أنهُ لم يختلفْ إلى أحدٍ في تعلُّمِ علمِ النجومِ، ثم عرفَ ذلكَ، وأنبأهُمْ بذلكَ، دلَّ أنهُ إنما علمَ ذلكَ باللهِ، فكانَ آيةً، وباللهِ التوفيقُ، معَ ما كانَ في قومِهِ أطباءُ وحُكماءُ وبُصراءُ لم يدَّعِ احدٌ شيئاً منْ هذهِ الآياتِ التي جاءَ بها[10] عيسى ﷺ دلَّ تركُ اشْتِغالِهِمْ في ذلكَ على إقرارِهِمْ بأنها آيةٌ سماويةٌ، لكنَّهم تعاندوا، وكابَروا، فلم يؤمِنوا بهِ[11].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، قيلَ: بأمرِ اللهِ، وقيلَ: بمشيئةِ اللهِ. واختُلِفَ في الأكمهِ: عن مجاهدٍ: قال: (الأكمهُ الذي يُبصِرُ بالنهارِ، ولا يُبصِرُ بالليلِ) وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: (الأكمهُ الأعمى المَمسوحُ العينِ) وقيلَ: هو الذي وُلِدَ منْ[12] أمِّهِ أعمى، لا يتكلّفُ أحدٌ منَ الأطباءِ إبراءَ مثلِهِ، ولا اشْتغَلَ بهِ، وإنهُ دلَّ أنه عرفَ ذلكَ باللهِ تعالى، والأطباءُ يتكلّفونَ في دفعِ العللِ العارضةِ الحادثةِ، وأمّا ما كان خِلْقةً منْ جِبِلّةٍ فلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيلَ: قالَ إنَّ هذا آيةٌ لكمْ إنْ كنتمْ صدَّقتُمْ أني رسولُ اللهِ إليكمْ، وقيلَ: قالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ في رسالتي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالرسلِ، ويَحتمِلُ: إن كنتمْ تؤمنونَ: أي بالآياتِ أنها تُعرَفُ ما جُعِلَتْ[13] لهُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، في الأصل: فئة. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: تعالى. (٥) من م، في الأصل: التخليق. (٦) من م، ساقطة في الأصل. (٧) من م، ساقطة في الأصل. (٨) في الأصل وم: لم. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل وم: به. (١١) تكرر بعدها في الأصل وم العبارة المدرجة آنفا: قال الشيخ. . الخلق اسم. . حقيقة خاصة. (١٢) في الأصل: في. (١٣) في الأصل جعلتم، في م: جعلن.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية ما ذكر، وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يحتمِلُ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تكذيبي في الآياتِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في تصديقي.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ظاهرٌ [وقد ذكرْناهُ][1] في ما تقدَّمَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ رأى، وهو كقولِهِ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨] وقيلَ: ﴿أَحَسَّ﴾ أي وَجَدَ، وهو قولُ الكِسائيِّ، وقيلَ: عرَفَ: وهو كلُّهُ واحدٌ.

ثم قولُهُ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ يحتمِلُ، واللهُ أعلمُ، أنَّ قومَهُ لمّا سألوهُ أنْ يسألَ ربَّهُ أنْ يُنزِلَ عليهمْ ﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢] تكونُ لهمْ آيةً لِرسالتهِ وصدقِهِ، ففعلَ اللهُ ﷻ ذلكَ، وأنزلَ عليهمُ المائدةَ، ثم أخبرَ أنَّ مَنْ يكفُرُ[2] منهمْ بعدَ إنزالِ المائدةِ يُعَذِّبُهُ عذاباً لا يُعَذِّبُهُ أحداً[3]، فكفروا بهِ، فعَلِمَ أنَّ العذابَ ينزِلُ عليهمْ؛ فأحبَّ أنْ يَخْرُجَ بِمَنْ آمنَ بهِ لئلا يأخذَهُمُ العذابُ، فقالَ: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يُؤيِّدُ ذلكَ قولُهُ: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الآية [الصف: ١٤]، ويَحتمِلُ أنْ يكونوا أظهَروا الإسلامَ لهُ، وكانوا في الحقيقةِ على خلافِ ذلكَ، فلمّا عَلِمَ ذلكَ منهمْ، وقد هَمُّوا بقتلهِ[4] قالَ عندَ ذلكَ: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أحبَّ أنْ يكونَ معهُ أنصارٌ إلى[5] اللهِ ينصُرونَهُ، فَيَظهَرُ المؤمنونَ مِنْ غيرِهِمْ، فنصرَهُمُ اللهُ على أعدائِهِمْ، لِيُظهِرَ المؤمنينَ[6] مِنْ غيرِهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنهُ لم يكنْ في سُنّةِ عيسى ﷺ الأمرُ بالقتالِ، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] أخبرَ انهمْ أصبحوا ظاهرينَ على عَدُوِّهِمْ فلا يخلو إمّا أنْ يكونَ قِتالاً وإمّا غَلَبةً بحجةٍ أو شيءٍ مِمّا يَقهَرُهمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ اختُلِفَ في الحوارِيِّينَ: قالَ بعضُهُمْ: همُ القصّارونَ الغسّالونَ الثيابَ ومُبَيِّضوها. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: [إنما سُمُّوا الحوارِيِّينَ لِبياضِ ثيابِهِمْ، وكانوا يَصيدونَ السمكَ] وقيلَ: الحواريُّ الوزيرُ والناصرُ والخاصُّ على ما جاءَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «أنَّ لكلِّ نبيٍّ حوارِيِّينَ، وحَوارِيَّ فلانٌ وفلانٌ» [البخاري ٢٨٤٦] وذكرَ نفراً مِنَ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهم أجمعينَ، وإنما أرادَ[8]، واللهُ أعلمُ، الناصرَ والوزيرَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونوا سُمُّوا بذلكَ لِصفاءِ قلوبِهِمْ، وهمْ أصفياءُ عيسى ﷺ كذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ واللهُ أعلمُ بهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾؛ إنَّ اللهَ يتعالى عنْ أنْ يُنصَرَ، ولكنْ يَحتمِلُ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي أنصارُ دينِ اللهِ وأنصارُ نبيِّهِ أو أنصارُ أوليائِهِ تعظيماً، وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] [إنَّ اللهَ لا يُنصَرُ][9] ولكن يُنصَرُ دِينُهُ أو رُسُلُهُ أو أولياؤُهُ، وهو كقولِهِ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] إنه[10] لا يُخادَعُ، ولا يُمكِنُ [أنْ يُخادَعَ][11] ولكنْ لمّا خادعوا أولياءَهُ أو دينَهُ أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ. فعلى ذلكَ لَمّا نصَروا دينَ اللهِ ونبيَّهُ ووليَّهُ أضافَهُ[12] إلى نفسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ الآيةُ تَنْقُضُ مَنْ يجعلُ الإيمانَ غيرَ الإسلامِ لأنهم أخبَروا أنهمْ آمنوا وأنهمْ مسلمونَ، لم يُفرِّقوا بينَهما/ ٦٠ ـ أ/، وكذلكَ قولُهُ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ و٣٦] لم يفصلْ بينَهما، وجَعَلَهما واحداً، وكذلكَ قولُ موسى لقومِهِ: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] لم يجعلْ بينَ الإيمانِ والإسلامِ فَرْقاً، وهو قولُهُ: إنَّ العملَ فيهما واحدٌ، لأنَّ الإيمانَ بأنْ تصدِّقَ بأنكَ عبدُ اللهِ، والإسلامُ، هو[13] أن تجعلَ نفسَكَ للهِ سالماً، وقيلَ: الإيمانُ اسْمُ [ما][14] بطنَ، والإسلامُ اسْمُ ما ظَهرَ. ألا ترى أنه جازَ في الإسلامِ الشهادةُ وفي الإيمانِ [التصديقُ][15]؟

---

(١) في الأصل وم: قد ذكرنا. (٢) في الأصل وم: كفر. (٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]. (٤) في الأصل وم: على قتله. (٥) في الأصل وم: مع. (٦) في الأصل وم: المؤمنون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: أرادوا. (٩) من م. (١٠) من م، في الأصل: أن. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أضاف. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) من م. (١٥) من م.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ يعني، واللهُ أعلمُ. ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ مِنَ الكتبِ التي أنزلْتَها على الرسلِ جميعاً، فإنْ أرادوا ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ على عيسى ﷺ فالإيمانُ بواحدٍ منَ الكتبِ أو بواحدٍ مِنَ الرسلِ إيمانٌ بالكتبِ كلِّها وبالرسلِ جميعاً، وقد ذكرْنا هذا بما[1] تقدَّمَ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ مكروا بنبيِّ اللهِ عيسى ﷺ حينَ كَذَّبوهُ، وهَمّوا بقتلِهِ، ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي يُجازيهِمْ جزاءَ مَكْرِهِمْ، وحَرفُ[2] المَكْرِ مذمومٌ عندَ الخَلْقِ، فلا يجوزُ أن يُسَمّى اللهُ بهِ إلّا في موضعِ الجزاءِ على ما ذكرَهُ ﷻ في موضعِ الجزاءِ كقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] والاعْتِداءُ مَنْهِيٌّ [عنهُ][3] غيرُ جائزٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] فكانَ قولُهُ ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] هو جزاءُ الاعْتِداءِ، فيجوزُ. فعلى ذلكَ المكرُ والخداعُ والاسْتِهزاءُ لا يجوزُ أنْ يُسَمّى [اللهُ][4] بهِ، فيقالُ: يا ماكرُ، ويا خادعُ، ويا مستهزئُ لأنها حروفٌ مذمومةٌ عندَ الناسِ، فيشتُمُ بعضُهُم بعضاً بذلكَ، لذلكَ لا يجوزُ أنْ يُسَمّى اللهُ به إلّا في موضعِ الجزاءِ، وباللهِ العصمةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي خيرُ المُجيزينَ، [يجازي][5] أهلَ الجَورِ بالعدلِ وأهلَ الخيرِ بالفضلِ، وقيلَ: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ حينَ كذَّبوهُ، وهَمّوا بقتلِهِ، ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ حينَ رفعَ اللهُ عيسى ﷺ، وألقى شُبهةً على رجلٍ منهمْ، حتى قتلوهُ، فذلكَ خيرٌ لعيسى ﷺ مِنْ مكرِهِمْ، وقيلَ: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي قالوا ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ قالَ اللهُ: قولُهُمُ الشِّركَ، وقالَ لهمْ: قولوا [قولَ][6] التوحيدِ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي خيرُ القائلينَ.

قال الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ بما بالحقِّ يمكُرُ، ويأخذُ مَنِ اسْتَحَقَّ الأخذَ، وهمْ لا، واللهُ أعلمُ. والمكرُ هو الأخذُ بالغفلةِ، واللهُ يأخذُهُمْ بالحقِّ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ، فسُمِّيَ مكراً لذلكَ كما يُقالُ: امْتَحَنَهُ اللهُ، وهو الاسْتِظهارُ، ولكنْ يُرادُ بِهِ هذا في اللهِ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: هو على التقديمِ والتأخيرِ، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ ثمّ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ بعدَ نزولِكَ مِنَ السماءِ، ولكنْ هو التقديمُ والتأخيرُ، ولم يكنْ في الذكرِ، فهو سَواءٌ، لأنا قد ذكرْنا أنْ ليسَ في تقديمِ الذكرِ ولا في تأخيرِهِ ما يوجبُ الحكمَ كذلكَ، لأنهُ كمْ مِن مُتقدِّمٍ في الذكرِ، هو مؤخَّرٌ في الحكمِ، وكمْ مِنْ مؤخَّرٍ في [الذكرِ هو مُقدَّمٌ في الحكمِ][7] فإذا كانَ [كذلكَ لم يكنْ في تقديمِ ذكرِ الشيءِ ولا في تأخيرِهِ ما يدلُّ على إيجابِ الحكمِ كذلكَ][8] كقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فإنما هو قبضُ الأرواحِ، فَيَحتمِلُ الأوّلَ كذلكَ، ويَحتمِلُ تَوَفّيَ الجسمِ أي مُتَوَفّيكَ في الدنيا أي قابضُكَ، وليسَ بوفاةِ موتٌ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: (﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مُميتُكَ) وهو ما ذكرْنا ليُعلَمَ أنه ليسَ بمعبودٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ هو على تعظيمِ عيسى ﷺ[9] ليسَ على ما قالتِ المُشَبِّهةُ بإثباتِ[10] المكانِ لهُ، لأنهُ لو كانَ في قولِهِ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ يُوجبُ ذلكَ لَوجبَ[11] أنْ يكونَ أهلُ الشامِ أقربَ إليهِ، لأنَّ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، قالَ: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات: ٩٩]، والكفرةُ إليهِ قريبٌ منهُ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ دلَّ هذا أنَّ ما قالوا خيالٌ فاسدٌ، تعالى اللهُ عمّا يقولُ الظالمونَ عُلوّاً كبيراً، ولكنْ على التبجيلِ والتعظيمِ[12]، أعني المضافَ إليهِ. والأصلُ في هذا أنَّ الخاصَّ إذا أُضيفَ إلى اللهِ فإنما يُرادُ به تعظيمُ ذلكَ الخاصِّ نحوُ ما قالَ ﴿بَيْتِىَ﴾ [البقرة: ١٢٥] و﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣ و..] فهو على تعظيمِ الناقةِ، ونحوُهُ مما يكثُرُ وقوعُهُ، وإذا أُضيفَتْ إليهِ الجماعةُ فهو على إرادةِ تعظيمِ الربِّ، جلَّ ثناؤهُ، نحوُ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] و ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] ونحوُهُ، كلُّهُ على إرادةِ تعظيمِ الربِّ، جلَّ ثناؤهُ.

---

(١) في م: في ما. (٢) في الأصل وم: والأحرف. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: الحكم وكم من مؤخر في الذكر هو مقدم، في م: الذكر هو مقدم. (٨) من م، في الأصل: كذا. (٩) ساقطة من الأصل م. (١٠) من م، في الأصل: بإثباتها. (١١) في الأصل وم: يجب. (١٢) في م: التعظيم والتبجيل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ﴾ أذى الكفرةِ مِنْ بينِ أظهُرِ المخالِفينَ لكَ، وقيلَ: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ﴾ الكُفرِ والفواحشِ، ويَحتمِلُ ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ مِمّا قالوا فيكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يَحتمِلُ يجعلُهُ فوقَ الذينَ كفروا بالقَهْرِ والغَلَبَةِ والقتْلِ، ويَحتمِلُ بالحُجّةِ، ويَحتمِلُ في المنزلةِ والدرجةِ في الآخرةِ، ويَحتمِلُ ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ بقتلِ الكفرةِ مِنْ وجهِ الأرضِ على ما ذُكرَ في بعضِ القصةِ أنهُ يُنزَّلُ مِنَ السماءِ، فلا يبقى على وجهِ الأرضِ كافرٌ إلّا وهو يقتُلُهُ معَ الذينَ اتَّبَعوهُ، فذلكَ تطهيرُهُ، وجَعْلُ الذين اتَّبعوهُ فوق الذينَ كفروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ ذكرَ هذا، واللهُ أعلم، وإنْ كانَ المرجعُ لِلْكُلِّ إليهِ في كلِّ حالٍ، لأنهمْ يُقِرّونَ، ويَعترفونَ في ذلكَ اليومِ أنَّ المَرجعَ إليهِ، وكانوا ينكرونَ ذلكَ في الدنيا، وهو كقولِهِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] المُلْكُ كانَ في ذلكَ اليومِ وفي غيرِ ذلكَ اليومِ، ولكنَّ معناهُ: لا يُنازِعهُ أحدٌ يومئذٍ في ملكِهِ، ويُقِرّونَ لهُ بالملكِ، [وفي][1] الدنيا أنكروا ملكَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ كلُّهمْ بارِزونَ للهِ في كلِّ وقتٍ، لكنهمْ أنكروا بروزَهُمْ في الدنيا لهُ، فَيُقِرُّونَ يومئذٍ بالبروزِ لهُ، فكذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يَحتمِلُ ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ مَنِ المُحِقُّ منكمْ؟ ومَنِ المُبطِلُ؟ ويَحتمِلُ ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي أجزيكمْ على قَدْرِ أعمالِكمْ.

الآيتان ٥٦ و ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية [يَحتمِلُ أحكمُ بينَهُمْ، أي أجزي كُلًّا][2] بعملِهِ على ما يَسْتوجِبونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ قيلَ: القتلُ أوِ الجزيةُ ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ العذابُ.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ يَحتمِلُ [وجهَينِ:

أحدُهُما][3]: تَوَفّي الموتِ بما يقبِضُ روحَهُ كفعلِهِ لجميعِ البشرِ تكذيباً لِمَنْ ظنَّ أنهُ اللهُ أوِ ابنُهُ، لا يُحتمَلُ أنْ يموتَ، وقد لزِمَهُمْ هذا أيضاً بوجهَينِ ظاهرَينِ، وإنْ كانَ في ما عليهِ خِلْقَتُهُ وجوهَرُهُ، ثم يُقَلِّبُهُ[4] مِنْ حالٍ إلى حالٍ في نفسِهِ ومكانٍ إلى مكانٍ في حقِّ القرارِ والحاجةِ كفايةً لمنْ يعقلُ الحقائقَ وبلوغاً[5] لِمَنْ تأمّلَ الأشياءَ عِبراً:

أحدُهُما: بقولِهِ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٥] وقولِهِ: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٨٧ و..] حتى نطقَ بهِ لسانُ كلٍّ منهمْ. ومعلومٌ اسْتِحالةُ[6] ابنِ مريمَ بشراً إلهاً أو ولداً لإلهٍ، إذ هو يكونُ أصغرَ منها، وذلكَ آيةُ حدَثِهِ، وكذلكَ قولُهُ في المهدِ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] إلى آخرِ ما ذكرَ، مع ما لوِ احْتَمَلَ ذلكَ لكانَ آدمُ ﷺ هو الأصلُ، وهو المقدَّمُ، وهو الذي لا يُعْرَفُ لهُ والدٌ، والدانِ، أحقُّ أو هو إذ هو بجوهرِهِ[7]، فهو ولدُهُ لا غيرَ، أو ذلكَ وصفُ الأولادِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني[8]: قولُهُ: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فأخبرَ عنْ حاجتِهِ وغلبةِ الجوعِ عليهِ وفقرِ نفسِهِ إلى ما يُقيمُها مِنَ الأغذيةِ، ثم في ذلكَ حاجتُهُ إلى الخلاءِ واختيارُهُ الأمكنةَ القذرةَ لقضاءِ حاجتِهِ، وباللهِ التوفيقُ.

[والثاني: قبضُهُ][9] بنفسِهِ مِنْ بينِ أظهُرِ أعدائِهِ، ورفعُهُ إلى ما بِهِ شرفُهُ وتطهيرُهُ مِمّا كانَ يُحسُّ منهمْ مِنَ الكفرِ وأنواعِ الفسادِ، وختمُهُ مِنْ بينِ البشرِ على وجهِ آيةٍ، يكونُ لهُ عليهِمْ مِنْ أوّلِ أحوالِ ظهورِهِ إلى آخرِ أحوالِهِ مقامُهُ فيهِمْ، لِيكونَ أوضحَ لِتابعيهِ[10] في الآياتِ، وعلى مُخالفيهِ في قَطْعِ العُذْرِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

---

(١) من م، الواو ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أحكم بينكم أي أجزي كل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: يقبله. (٥) في الأصل وم: وبلغه. (٦) في الأصل وم: إحالة. (٧) من م، في الأصل: يجوز بجوهره. (٨) هذا الوجه الثاني من الوجهين الظاهرين. (٩) في الأصل وم: والثاني على قبضه، وهذا الوجه هو الثاني من وجهي ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾.. (١٠) في الأصل وم: لتبعيه.

وفي الدعاءِ إلى المُباهلةِ دلالةُ ظهورِ التَّعَنُّتِ والعَناءِ، وفي تخلُّفِهِمْ عنْ ذلكَ دليلُ علمِهِمْ بتعنُّتِهِمْ وخوفِهِمْ ممّا قد وُعِدُوا بالنزولِ عليهِمْ. ثم/ ٦٠ ـ ب/ لَزِموا مع ذلكَ ما كانوا عليهِ منَ السَّفَهِ والعِنادِ، ليُعْلَمَ أنَّ الحِيَلَ عَمَّنِ اعْتادَ المُعاندةَ مُنْقَطعةٌ. ومعلومٌ أنَّ الدعاءَ إلى المُباهلةِ لا يكونُ في أوّلِ أحوالِ الدعوةِ، وإنما يكونُ بتوفيرِ الحجةِ وقطعِ الشُّبهةِ، ففي ذلكَ بيانُ أنه كانتْ ثَمَّ مُحاجَاتٌ حتى بلغَ الأمرُ على ذلكَ: أمرُ القتالِ أنهُ لم يوضعْ في أوّلِ أحوالِ الإرسالِ، وفي الحالِ التي للقولِ وللحقّ وجهُ القبولِ منْ طريقِ النَّصَفِ والعقلِ، وإنما كانَ عندَ ظهورِ[1] مُعانَدتِهِمْ وكثرةِ[2] سَفَهِهِمْ حتى هَمّوا بالقتلِ، وأكثروا الأذى، وأكرَهوا قوماً على الكفرِ، وأخرَجوا رسولَ ربِّ العالَمينَ من بينِ أظْهُرِهِمْ بما راموا قتلَهُ، وطَردوا أصحابَهُ منْ بلادِهِمْ حتى تحصّنوا بالغيرانِ، فأذنَ اللهُ عندَ ذلكَ بالقتالِ وفتحِ الفتوحِ لتكونَ آيَتُهُ في كلِّ وجوهِ الآياتِ ظاهرةً، وحجتُهُ بَيِّنَةً، وفي ذلك جوازُ مُحاجَّةِ الكفرةِ والتوحيدِ والرسالةِ، لكنْ على ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] [وقالَ][3]: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]؛ نَهى عنِ التعمُّقِ والخوضِ في ما تَقصُرُ عنهُ الأفهامُ، وإنْ كانَ معلوماً أنَّ للهِ حُججاً ظاهرةً وغامضةً، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وفي ذلكَ تعليمُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ أنَّ ذلكَ باللطفِ والرفقِ، يُري المقصودَ بهِ ليقرَّرَ بهِ عندَهُ الحجةَ، ويُزيلَ عنهُ الشُّبهةَ منَ الوجهِ الذي يَحتمِلُهُ عقلُهُ، ويبلُغُهُ فهمُهُ، فإنْ رآهُ يتعامَى في ذلكَ يُوعِدُهُ، ويخوّفُهُ بالذي في ذاكَ منَ الوعيدِ. فإذا[4] رأيتَهُ يكابرُ عرفتَ شُؤمَ طبعِهِ وسوءَ عنصرِهِ، فَتُداويهِ[5] بما جاءَ بهِ التعليمُ منَ الضربِ والحبسِ، فإنْ نفعَ ذلكَ، وإلا فكفُّ[6] شَرِّهِ عن غيرِهِ وتطهيرُ الأرضِ، فإنهُ النهايةُ في القمعِ، والغايةُ في ما يحقُّ مِنْ مُعاملةِ السفهاءِ، واللهُ أعلمُ. لكنهُ على منازلَ لا يَحتَمِلُ انْتِهاءُ كلِّ أنواعِ المآثمِ إلى هذه الغايةِ، بل فيها ما كانَ أعظمُها دونَ هذا بكثيرٍ، واللهُ أعلمُ. لذلكَ يَلزمُ تعرُّفُ مقاديرِ الآثامِ أولاً لِيُعرَفَ[7] بها ما يَحتَمِلُ كلُّ إثمٍ منَ العقوبةِ فيهِ والزَّجرِ بهِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنه لا يحبُّ الظلمَ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ قيلَ: ذلكَ الذي ذُكرَ في الآيةِ نتلو عليكَ يا محمدُ ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ [قيلَ: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾][8] هو المُحكمُ، وقيلَ: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي منْ نظرَ فيهِ، وتفكَّرَ، يصيرُ حكيماً كما قالَ: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧ و..] أي يُبصَرُ فيهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ قيلَ في القصةِ: إنَّ نصارَى منْ أهلِ نجرانَ قَدِموا على رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا أنتَ[9] تشتُمُ صاحبَنا عيسى ابنَ مريمَ [عليه السلام][10]؛ تزعمُ أنه عبدٌ، وهو يُحيِي المَوتى، ويُبرِئُ الأكمهَ والأبرصَ، ويخلُقُ منَ الطينِ [طيراً، فأرِنا في ما][11] خلقَ اللهُ عبداً مثلَهُ يعملُ هذا.

والنصارَى في الحقيقةِ مُشَبِّهةٌ وقَدَرِيّةٌ، وأمّا التشبيهُ فإنما عِلْمُهُمْ على ذلكَ ظَنُّهُمْ في قولِ إبراهيمَ [صلواتُ اللهِ عليهِ][12]، حينَ قالَ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ظَنُّوا أنَّ عيسى لمّا قالَ: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أنه ربٌّ وإلهٌ، لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام أخبرَ أنَّ ربَّهُ ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فسمَّوا عيسى إلهاً بهذا، وهمْ كانوا يَرونَ عيسى يأكلُ، ويشربُ، وينامُ، فلولا أنهمْ عرَفوا اللهَ ﷻ [ما شبَّهوهُ][13] بهِ، تعالى اللهُ عنْ ذلكَ.

وأمّا القَدَرِيَّةُ فلّما لم يَرَوُا اللهَ في أفعالِ العبادِ، إنما رأوا ذلكَ لِلْحقِّ خاصةً، فلمّا رَأوا ذلكَ منْ عيسى عليه السلام ظَنُّوا أنهُ ربٌّ لِما لم يَرَوا ذلكَ مِنْ غيرِهِ، ولو كانوا عرَفُوا اللهَ حقَّ المعرفةِ لَعَلِموا أنْ لم يكنْ مِنْ عيسى إلا تصويرُ ذلك الطيرِ وتمثيلُهُ، ويكونُ مَثَلُهُ مِنْ كلِّ واحدٍ[14]، وإنّما الإحياءُ كانَ مِنَ اللهِ ﷻ أجراهُ[15] على يدي عيسى عليه السلام [إذْ لَهُ][16] تصويرُهُ

---

(١) من م، في الأصل: ظهرت. (٢) من م، في الأصل: وكثر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: فإن. (٥) في الأصل: فقداوه، في م: فقداوه. (٦) في الأصل وم: كف. (٧) من م، في الأصل: يعرف. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: إن. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل: فأنار فيها، في م: كهيئة الطير فيطير وفي ما. (١٢) في م: عليه السلام. (١٣) في الأصل: إلا يشبهوه، في م: إلا ما شبهوه. (١٤) في م: أحد. (١٥) في الأصل وم: جراه. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

فقط، وكذلك ما كانَ مِنْ إبراءِ الأكمهِ والأبرصِ وغيرِ ذلكَ منَ اللهِ ﷻ أجراهُ على يديهِ آياتٍ لنبوّتهِ، لأنهمُ ادَّعَوا لهُ الربوبيّةَ مِنْ وجهَينِ: لِكونهِ مِنْ غيرِ أبٍ، ولآياتِهِ.

ثم قولُهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ، واللهُ أعلمُ:

أحدُهما: أنَّ اللهَ ﷻ صوَّرَ صورةَ آدمَ مِنْ طينٍ، ثم جعلَ فيه الروحَ، لَمْ يَجُزْ أنْ يُقالَ: صارَ آدمُ حيّاً مِنْ نفسِهِ لوجودِ صورتِهِ، كيف جازَ لكمْ أنْ تقولوا: إنَّ عيسى لمّا صوَّرَ ذلكَ الطيرَ منَ الطينِ صارَ مُحيِياً بتصويرِهِ إياهُ دونَ إحياءِ اللهِ تعالى إيّاهُ، واللهُ أعلمُ؟.

والثاني: أنَّ آدمَ ﷺ خُلِقَ منْ لا أبٍ وأمٍّ، ثم لم تقولوا: إنه ربٌّ أو إلهٌ، كيفَ قلْتُمْ في عيسى: إنهُ إلهٌ؟ وإنهُ[1] خُلِقَ لا مِنْ أبٍ، إذ عَدَمُ الأُبُوّةِ في آدمَ لم توجِبْ أنْ يكونَ ربّاً، كيفَ أوجبَ عدمُ الأبوةِ في عيسى كونَهُ ربّاً وإلهاً؟ واللهُ الموفقُ، وإنما كانَ عيسى بقولِهِ: ﴿كُن﴾ كما كانَ آدمُ أيضاً بـ ﴿كُن﴾ منْ غيرِ أبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُن﴾ قد ذكرْنا أنه أوجزُ كلامٍ في لسانِ العربِ، يُعبِّرُ، فيؤدّي المعنى، فَيُفْهَمُ المرادُ إلّا أنْ كانَ مِنَ اللهِ ﷻ كافٌ ونونٌ أو وقتٌ أو حرفٌ، أو يوصَفُ كلامُهُ بشيءٍ مما يُوصفُ بهِ كلامُ الخلقِ، تعالى اللهُ عنْ ذلكَ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: ٠

أحدُهما: يَحتمِلُ ﴿فَيَكُونُ﴾ بمعنى كانَ، والعربُ تستعملُ ذلك، ولا تأباهُ.[3]

والثاني: أن تكونَ الكائناتُ بأسبابِها في أوقاتِها التي أرادَ كونَها على ما أرادَ. وأصلُ ذلك إذا ذُكِرَ اللهُ، وَوُصِفَ، يُذكَرُ بلا ذِكرِ وقتٍ في الأزلِ، وإذا ذُكِرَ الخلْقُ معهُ، يُذكَرُ الوقتُ، والوقتُ يكونُ للخلقِ بقولِ خالقٍ لم يزلْ وخالقٍ في وقتِ خلْقِهِ.

الآية ٦٠ وقولهُ تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ يَحتمِلُ هذا وجوهاً: يَحتمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ أحدٍ، قالَ في عيسى ما قالوا: أي لا تكنْ ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في عيسى. إنهُ عبدُ اللهِ خالصاً وإنهُ نبيُّهُ ورسولُهُ إليكمْ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمُرادُ غيرُهُ، وهكذا عادةُ ملوكِ الأرضِ أنهمْ إذا ما أرادوا أنْ يُعرِّفوا رعاياهُمْ[4] شيئاً يُخاطِبونَ أعقلَهمْ[5] وأفضلَهمْ وأرفعَهمْ منزلةً وقَدْراً عندَهمُ استِكباراً منهمْ مخاطبةَ كلِّ وضيعٍ وسفيهٍ، فكذلكَ اللهُ ﷻ خاطبَ نبيَّهُ إعظاماً لهُ وإجلالاً، واللهُ تعالى أعلمُ. ويَحتمِلُ ما ذكرْنا في ما تقدَّمَ أنَّ العصمةَ لا تمنَعُ الأمرَ ولا النهيَ، بل تزيدُ أمراً ونهياً، وإنْ كانَ يُعلَمُ أنهُ لا يكونُ منَ الممترينَ.

الآية ٦١ وقولهُ تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية: دعاهُمْ ﷺ إلى المُباهَلةِ. فالمُباهَلةُ في لغةِ العربِ المُلاعَنةُ، دعاهمْ إلى الدعاءِ باللعنةِ على الكاذبينَ، فامتَنعوا عنْ ذلكَ خوفاً منهمْ لخوفِ اللعنةِ، فدلَّ امْتِناعُهمْ عنْ ذلكَ أنهمْ عَرَفوا كَذِبَهُمْ، لكنّهم تعامَوا[6]، وكابَروا، فلم يُقِرُّوا بالحقِّ.

الآيتان ٦٢ و ٦٣ وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني الخبرَ الحقَّ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ظاهرٌ، وقد ذكرْناهُ فيما تقدَّمَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠] يَحتَمِلُ خبرَ الحقِّ في أمرِ عيسى ﷺ أنهُ كانَ عبداً بشراً نبياً ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي لا يحملنَّكَ شدةُ لَجاجتِهمْ وكثرتُهمْ منَ القولِ فيهِ بهذا الوصفِ على الشكِّ في الخبرِ الذي جاءَ عنِ اللهِ كقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢] إلى آخرِهِ على المَوعظةِ، لا على أنهُ يكونُ كذلكَ، أو على ما سبقَ ذِكرُهُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، في الأصل: وإن. (٢) أدرج تفسير هذا القول في تفسير الآية (١١٧) من سورة البقرة والآية (٤٧) من هذه السورة. (٣) في الأصل وم: تأتي. (٤) في الأصل وم: رعيته. (٥) من م، في الأصل: أعدلهم. (٦) في الأصل وم: تعانوا.

ويَحتَمِلُ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠] أي كلُّ حقٍّ هو عنِ اللهِ، جائزٌ إضافتهُ إليهِ على الوجوهِ التي تُضافُ إليهِ، والباطلُ منَ الوجهِ الذي هو باطلٌ، فلا تكونَنَّ في ذلكَ مِنَ الممتَرينَ، واللهُ أعلمُ.

جائزٌ أنْ يقولَ: جعلَ اللهُ ذلكَ الفعلَ مِمَّنْ فعلَهُ باطلاً، ولا يُقالُ: الباطلُ منَ اللهِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني كلمةُ الإخلاصِ والتوحيدِ سواءٌ بيْنَنا وبينكمْ، أي عدلٌ، أي تلكَ الكلمةُ عَدْلٌ بيننا وبينكمْ، لأنهم كانوا يُقِرّونَ أنَّ خالقَ السمواتِ والأرضِ اللهُ، بقولِهِ[1]: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥ و..] وكذلك يُقِرّونَ/ ٦١ ـ أ/ أنَّ خالقَهُمُ اللهُ بقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧] لكنَّ منهمْ منْ يعبدونَ [مِنْ دونِ][2] اللهِ أوثاناً، ويقولونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ومنهمْ منْ يجعلُ لهُ شركاءَ وأنداداً يُشركُهُمْ في عبادتِهِ، فدعاهمْ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى أن يجعلوا عبادَتَهُمْ إلى الذي[3] أنعمَ عليهِمْ إذِ العبادةُ لا تكونُ إلا للهِ الذي أقرّوا جميعاً أنهُ خالقُ السماواتِ والأرضِ، وأنهُ ربُّهمْ[4]، وألّا يَصرِفوا عبادَتهمْ إلى غيرِ الذي أنعمَ عليهِمْ إذِ العبادةُ هي تشكُّرٌ وجَزاءُ ما أنعمَ عليهِمْ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ العبادةَ لواحدٍ أهونُ وأخفُّ مِنَ العبادةِ لعددٍ، وأنَّ صَرْفَ العبادةِ إلى مَنْ أنعمَ عليكمْ أولَى مِنْ صرفِها إلى الذي لم يُنعِمْ عليكُمْ؛ إذْ ذاكَ جَورٌ وظلمٌ في العقلِ أنْ يُنعِمَ أحدٌ على آخرَ، فيشكرَ غيرَهُ.

قال الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ تعالى: العدلُ في اللغةِ وضعُ الشيءِ في موضِعِهِ وفي إخلاصِ العبادةِ للهِ والتوحيدِ، وذلكَ وهذا معنًى سواءٌ. وجائزٌ أنْ تكونَ كلمةٌ يستوي فيها أنها عَدْلٌ ما شَهِدَ لنا بهذا كلُّ انواعِ الحججِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ يَحتَمِلُ ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ عنْ طاعةِ اللهِ وتوحيدِهِ وصرفِ العبادةِ إليهِ، فقُلْ كذا، ويَحتَمِلُ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عنِ المُباهَلةِ والمُلاعنةِ فقلِ: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي مُخلِصونَ العبادةَ لهُ، صارفونَ الشكرَ إلى ما أنعمَ علينا، واللهُ أعلمُ.

قال الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عنْ قبولِ ما دَعَوتَهُمْ إليهِ مِنَ الاجتماعِ على الكلمةِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قيلَ: وذلكَ أنَّ اليهودَ قالوا: إنَّ إبراهيمَ كانَ على دينِنا اليهوديةِ، والنصارى ادَّعَتْ أنهُ كانَ على دينِهِمْ ومذهبِهِمْ ليسَ على دينِ الإسلامِ، فنزلَ قولُهُ: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [صلواتُ الله عليهِ؛ يعني في دينِ إبراهيمَ][5] ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ يعني مِن بعدِ إبراهيمَ؛ يعني أنَّ التوراةَ والإنجيلَ إنما نَزَلا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ وأنتمْ لهُ تَشهَدونَ؛ يعني إبراهيمَ حتى تعلَموا أنهُ كانَ على دينِكُمْ، لَمْ تقولونَ بالجهلِ: إنهُ كانَ على دينِكمْ؟ ويَحتَمِلُ ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي إنَّ التوراةَ والإنجيلَ إنما نَزَلا منْ بعدِ موتِهِ، وكانَ فيهما أنهُ كانَ حَنيفاً مسلِماً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنهُ ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾؟

الآية ٦٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو ما ذكرْنا، وفيهِ دلالةُ جوازِ المُحاجّةِ في الدِّينِ على العلمِ بهِ، وإنما نَهى هؤلاءِ عنِ المُحاجّةِ في لا علمَ لهمْ [بهِ][6] الا تَرى أنَّ الرسلَ ﷺ حَاجُّوا قومَهمْ: حاجَّ إبراهيمُ ﷺ[7] قومَهُ في اللهِ، وذلكَ قولُهُ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وموسى ﷺ[8] حاجَّ قومَهُ. وما منْ نبيٍّ إلا وقد حاجَّ قَومَهُ، في الدِّينِ، فذلكَ قولُ مَنْ يأتي المُحاجّةَ في الدِّينِ.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: وأيّدَ الحقَّ أنهُ كذلكَ عجزُ البشرِ عنْ إيرادِ مثلِهِ وعجزِهِم عنِ المُقابلةِ بما ادَّعَوا أنهمْ عَرَفوهُ باللهِ][9].

---

(١) في الأصل وم: يقول. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: غير الذي. (٤) من م، في الأصل: بربهم. (٥) في الأصل: صلوات الله عليه، في م: يعني في دين إبراهيم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من م. (٩) أدرج تفسير هذه الآية في الأصل وم بعد تفسير الآية (٦٧).

الآية ٦٧ ثم أكذبَهُمُ اللهُ ﷻ فقالَ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنهمْ عَلِموا أنهُ كانَ مُسلِماً، لكنِ ادَّعَوا ما ادَّعَوا مُتعَنِّتينَ إذْ لم يقابلوا كتابَهُمْ[1] بالذي ادَّعَوا منْ نعتِهِ، وبخلافِ ما ادَّعَى عليهِمْ رسولُ اللهِ ﷺ نعتَه، وفيهِ دلالةُ الرسالةِ إذْ[2] في دعواهمْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يُعرَفْ نَعتُهُ بهِمْ، لِما [في][3] دَعواهُمْ غيرُ الذي ادَّعَى، فثبتَ أنهُ عَرَفَ باللهِ، وذلكَ علْمُ الغيبِ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهكذا يكونُ في العقلِ أنَّ مَنِ اتَّبعَ آخرَ، وأطاعَهُ، فهو أولَى بهِ، وإنما الحاجةُ إلى السمعِ بمعرفةِ المُتَّبعِ لهُ والمطيعِ أنه ذا أو ذا، فأخبرَ ﷻ أنّ الذين آمَنوا والنبيَّ ﷺ، همُ المتَّبعونَ لهُ، فهمْ أولَى بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: الوليُّ الناصرُ، وقيلَ: هو أولَى بالمؤمنينَ، وقد ذكرْنا هذا في ما تقدَّمَ. وقد يكونُ وليَّهُمْ[4] بما دفعَ عنهمْ سَفَهَ أعدائِهِمْ في إبراهيمَ، وأظهرَ الحقَّ في قولِهِمْ.

قال الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، وفي قولِهِ[5]: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ [آل عمران: ٦٥] وفي قولِهِ[6]: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١] الآية، ونوعِ ذلك مِنَ الآياتِ التي خصَّ بالخطابِ بها أهلَ الكتابِ وجوهٌ مِنَ المُعْتَبَرِ:

أحدُها: أنَّ الذينَ خُوطِبوا بهذا الإسْمِ كانوا معروفينَ، وأنه [لم يخطرْ ببالِ مسلم أنهُ][7] قصدَ بهِ غيرَ أهلِ التوراةِ والإنجيلِ، ولا ذُكِرتْ تلاوتُها في حقِّ المُحاجَّةِ على غيرِهِمْ، ثبتَ أنَّ المجوسَ ليسوا بأهلِ الكتابِ، وأنَّ المُرادَ مِنْ ذكرِ أهلِ الكتابِ غيرُهُمْ، وأنَّ أخذَ الجزيةِ مِنَ المجوسِ ليسَ ممّا تضمَّنَهُمْ قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] لكنْ بدليلٍ آخرَ، وهو ما رُوِيَ عن نبيِّ اللهِ أنهُ قالَ: «سُنُّوا بهِمْ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ غيرَ ناكحي نسائِهِمْ ولا آكلي ذبائِحِهِمْ» [البيهقي في الكبرى: ١٨٩ و١٩٠] وعلى ذلكَ أيَّدَ قولَهُ: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦] لِيُعلَمَ أنَّ الكتابَ المعروفُ وأهلَهُ هؤلاءِ، وإنْ كانتْ ثَمَّ كتبٌ وصحفٌ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنَّ اللهَ خصَّ أهلَ الكتابِ بأنواعِ الحججِ، وجعلَ المُحاجَّةَ بَيْنَهُمْ وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ ليوضِحَ أنهُ، وإنْ كانَ مُرسَلاً إلى جميعِ البشرِ كانَ لهُ التخصيصُ في المُحاجَّةِ. وعلى ذلكَ عامَّةُ سورةِ الأنعامِ في مُحاجَّةِ أهلِ الشركِ، [على أنَّ أهلَ المدينةِ كانوا أهلَ كتابٍ، وأهلَ مكةَ كانوا أهلَ شِركٍ، فحاجَّ كُلًّا بالذي فُرضَ أنْ يُتكلَّمَ فيهِ، وإنْ كانتِ الحجةُ تلزمُ الفريقَينِ، لأنَّ مُحاجَّةَ أهلِ الشركِ][8] أكثرُها في التوحيدِ وأمرِ البعثِ، وعلى وجودِهِ فيهِ في أهلِ الكتبِ بعضُ المشاركةِ لهمْ، ومُحاجَّةُ أهلِ الكتابِ بما في كتبِهِمْ، وفيهِ وجهانِ:

أحدُهما: العلمُ بما قد غابَ عنِ السببِ الذي يُوصَلُ إليهِ بالكسبِ ليُعلمَ أنهُ وصلَ إليهِ بالوَحْيِ، فيكونُ منْ ذلكَ الوجهِ حجّةً على الفريقَينِ.

والثاني: ظهورُ سُنَّةِ أهلِ الكتابِ بوجهٍ تَسقطُ عندَ التأملِ الريبةُ [في المَحلِّ الذي][9] كان يمنَعُهُمْ ذلكَ [التأمُّلَ][10] عنِ اتّباعِهِ، وذلكَ [التأمُّلُ فيهِ][11] مديحُ كتبِهِمْ والشهادةُ[12] لها بالصدقِ والحقِّ وإظهارِ الإيمانِ برسلِهِمْ لِيُعلمَ أنهُ ليسَ بينَ الرسلِ والكتبِ اختِلافٌ في الدعاءِ إلى عبادةِ اللهِ وتوحيدِهِ، وأنَّ أولئكَ إنما كذَّبوا لِتسلمَ لهمُ الرياسةُ، ثم معَ ذلكَ ظاهَروا أهلَ الشركِ المكذِّبينَ لكتبِهِمْ ورسلِهِمْ لِيَعلمَ كلُّ ذي عقلٍ سفَهَهُمْ[13] في الباطلِ، إذ ظاهروا أعداءَهُمْ في الدينِ [على الذينَ][14] أظهَروا المُوالاةَ[15] في الدينِ [ومَنْ هو][16] وليٌّ لهُ، فيكونُ ذلكَ أبلغَ الزجرِ لِمُتَعَنِّتيهِمْ وأعظمَ الحُجَّةِ عليهِمْ في ما آثروا منَ السنَّةِ، وتركوا الحقَّ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: بكتابهم. (٢) في م: أن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: من وليهم. (٥) في الأصل وم: قولهم. (٦) في الأصل وم: قولهم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: والمحل، في م: والمحل الذي، والمحل هو منتهك الحرام. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فيها. (١٢) في الأصل وم: وشهد. (١٣) في الأصل وم: شبههم. (١٤) في الأصل: من الذي، في م: من الذين. (١٥) من م، في الأصل: موالاته. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

وفي ذلكَ وجهٌ آخرُ أنَّ أهلَ الشركِ قد عَرَفوا حاجاتِهِمْ إلى أهلِ الكتابِ في أمورِ الدينِ وما عليهِ السِّياسةُ، فيصيرُ ما يلزمُ أولئكَ مِنَ الحجةِ لازمةً لهمْ في مُحاجَّتِهِ بالذي في كتبِهِمْ لزومُ الحجةِ معاً عليهِمْ في ذلكَ بما أقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ الآية [فاطر: ٤٢] أبلغَ الحجةِ في مُحاجَّةِ أهلِ الكتابِ إذ تمنَّوا أنْ يكونَ منهمْ نذيرٌ، فكانَ وقد[1] بلغَ المبلغَ الذي ظهرَ بما خُصُّوا مِنَ الحججِ، وشاركوا أولئكَ في جميعِ ما بهِ كانَ افْتِخارُهمْ عليهِمْ ودَعْوَى الفضلِ، واللهُ أعلمُ. مع ما لم يكنْ لهُ اللسانُ الذي به ظهرَتْ[2] كتبُهُمْ لِغيرِ لسانِهِمْ لِيعلَموا أنه أدركَ[3] ذلكَ بِمَنْ له حقيقةُ كتبِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وفي ذلكَ وجهٌ آخرُ أنهُ حاجَّهُمْ بوجهَيْنِ:

أحدُهما: بالموجودِ في كتابِهِمْ والمعروفِ عند أئِمَّتِهِمْ مِنَ العلمِ بالكلمةِ التي دعاهُمْ إليها مِنَ التوحيدِ وعبادةِ مَنْ لهُ الخَلْقُ والأمرُ وإخبارِ ما في كتبِهِمْ منْ أنواعِ البشاراتِ بهِ ومِنْ مُوافقةِ الكتبِ. وعلى ذلكَ أمرُ إبراهيمَ ﷺ وغيرِهِ[4] ليكونَ أعظمَ في الحجةِ وأقطعَ للشَّغَبِ، والله أعلمُ.

والثاني: ممّا قد حَرَّفوا مِنْ كتبِهِمْ، وبدَّلوا منْ أحكامِهِمْ، وحَرَّفوا منْ صفتِهِ ونعتِ أُمَّتِهِ ليعلمَ كلُّ متأمِّلٍ أنهُ لا وجهَ لِتَعَلُّمِ ذلكَ بهِمْ، إذْ لا يُحْتَملُ أنْ يكونَ منهمْ هَتْكُ أستارِهِمْ والاِطِّلاعُ على أسرارِهِمْ بما لا يَتَهَيَّأُ لهمْ/ ٦١ ـ ب/ دفْعُ ذلكَ ولا المُقابلةُ في ذلكَ لِيَعلَمَ كلُّ الخلائقِ مَنِ انْقادَ لهمْ أوَّلاً أنَّ ذلكَ لا يدرِكهُ إلّا بمنْ لهُ العلمُ بكلِّ سرٍّ ونجوى، ولا قوّةَ إلا باللهِ، مع ما في ذلكَ وجهانِ مِنَ المُعْتَبَرِ.

أحدُهما: أنَّ ذلكَ الزمانَ لم يكنْ زمانَ حِجاجٍ ونظرٍ في أمرِ الدينِ، إنما كانَ [ذلكَ الزمانُ تباهياً][5] في أمرِ الدنيا وتفاخُراً[6] بكثرةِ الأموالِ والمواشي، فبعثَ اللهُ تعالى رسولاً ﷺ[7] نشأ منْ بينِ أظهُرِهِمْ دعاهمْ إلى تركِ التقليدِ واتّباعِ الحججِ التي لا يبْلُغُها أهلُ الحِجاجِ بعقولِهِمْ دونَ أنْ يكونَ لهمُ المعونةُ مِنْ علمِ الوَحْيِ وما فيهِ منْ حكمةِ الربوبيةِ، فكيفَ [كانَ القومُ][8] أصحابَ التقليدِ: إمّا ثقةً بأئِمَّتِهِمُ الذين ادَّعَوا علمَ الكتبِ المنزَّلةِ، وإمّا ثقةً وأمناً[9] بآبائهمْ في ما نَشَوْا عليهِ أنَّ الحقَّ لا يشذُّ عنهمْ، على ما في ذلكَ مِنَ الاِخْتِلافِ الذي يمنعُهُمُ الأمرَيْنِ جميعاً؟ لكنهمْ إذا لم يكونوا أهلَ نظرٍ في الدينِ ومُحاجّةٍ فيهِ لم يعرفوا أنَّ ذلكَ يمنَعُهُمُ التقليدَ، فأظهرَ لهمُ الحججَ، وأنبأَهُمْ بالمودَعِ مِنْ حِجاجِ[10] أنبيائِهِمْ في كتبِهِمْ، وألزمَهُمْ أنَّ في آبائِهِمْ [منْ يلزمُ التقليدَ، كانوا أحقَّ بذلكَ مما كانَ عندهمْ أنَّ آباءَهُمْ][11] كانوا على دِينِهِمْ بما [هو][12] بيِّنٌ مِنْ تغييرِهِمْ وتركِ الواجبِ عليهِمْ مِنْ حقِّ الاتِّباعِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: إذا ظهرَ فيهمُ الاِخْتِلافُ في أئِمَّتِهِمْ على ادِّعاءِ كلٍّ منهمْ أنَّ ذلكَ هو الذي كانَ عليهِ الأنبياءُ والرسلُ[13] في أهلِ الكتابِ، وحاجاتُ غيرِهِمْ بما ليسَ عندهمْ إلّا آراءُ[14] إباءِ إبليسَ عندهُمْ، فَضْلاً على القولِ.

ثم كانَ مَعْلوماً عندَ الاِخْتِلافِ والتَّفرقِ، فصارتِ الحاجةُ قد عمَّتْهُمْ، والعلمُ بهمْ في لزومِ الأحكامِ إلى منْ يدُلُّهُمْ على الحجةِ، ويعرِّفُهُمُ الحقَّ، قد تقرَّرَ عندهمْ، فبعثَ اللهُ بفضلِهِ مَنْ أظْهَرَ لهمْ بما أنْطَقَ بهِ لسانَهُ مِنَ الحججِ وأراهمْ مِنْ علمِهِ مما غُيِّرَ، وحُفِظَ، مِمّا كانَ عليهِمْ أوائلُهمْ، فكانَ ذلكَ أظهرَ للبيانِ وأولى ما يُعرَفُ مِنْ إفضالِ اللهِ عليهِمْ بالإغاثةِ والاِمْتِنانِ عليهِمْ بالفَرَجِ مما مَسَّتْهُمْ إليهِ الحاجةُ، ودفعَتْهُمْ إلى العلمِ بهِ الفاقةُ، واللهُ الموفقُ.

وفي الفصلِ الأولِ بقيَ حرفٌ لم نذكُرْهُ، وهو أنَّ دعاءَهُمْ إلى الزهدِ في الدنيا بعدَ الرُّكونِ إليها، وإلى الآخرةِ في الدينِ، بعد ظهورِ التفاخرِ بينَهُمْ بتكثيرِ العشائرِ وتقاتُلِ[15] القبائلِ والسخاءِ بجميعِ ما طُبِعوا عليهِ بما قُدِّرَ عندهمْ ما إليهِ ترجِعُ عواقبُ الأمورِ، وقامَ ذلكَ على قهرِ العادةِ ومخالفةِ الطبيعةِ التي يُعلَمُ أنَّ ذلكَ في مثلِ ذلكَ العصرِ آيةٌ[16] سماويةٌ خارجةٌ عنْ وُسْعِ البشرِ ليكونَ أقطعَ لعذرِهِمْ وأسكنَ لقلوبِهِمْ إليهِ، فللهِ الحمدُ على ذلكَ.

---

(١) من م، الواو ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ظهر. (٣) في الأصل وم: أدركه. (٤) في الأصل وم: وغيرهم. (٥) في الأصل وم: الزمان في أمر الدين وتناهي. (٦) في الأصل وم: وتفاخر. (٧) ساقطة من م. (٨) في م: والقوم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: الحجاج. (١١) من م. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: هو الرسل. (١٤) في م: الأواء. (١٥) في الأصل وم: وتقابل. (١٦) من م، في الأصل: أنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ الآية: قيلَ فيها بأوجهٍ.

أحدُها: أنها العَدْلُ، وهي كلمةُ التوحيدِ، وكانتْ عَدْلاً باتفاقِ السُّننِ[1] إذْ سُئلوا عمَّنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في الفزعِ إليها بالإجابةِ وشهادةِ الخِلْقةِ على وحدانيَّةِ مَنْ لهُ الخَلْقُ والأمرُ، والله أعلمُ. ومِنْ هذا الوجهِ أمكنَ أنْ يُحاجَّ جميعَ الخَلْقِ، وإنْ خصَّ بهِ أهلَ الكتابِ، واللهُ أعلمُ.

وآخَرُ[2]: أنْ يُسَوَّى فيها أنها حقٌّ وعَدْلٌ، وهي عبادةُ الواحدِ الذي لم يُختلَفْ في أنهُ معبودٌ، وأنَّ كلَّ مَنْ عبدَ غيرَهُ فعلى أنْ يكونَ لهُ العبادةُ، يعبُدُهُ، فيرجعُ إلى حقيقةٍ دونَ أنْ يكونَ بيننا وبينهُ مَنْ يعلمُ أنهُ لا يستحقُّ العبادةَ. وهذا المعنى يلزَمُ الجمعَ أيضاً.

والثالثُ: أنْ يكونَ ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ ظهرَ أنها عدلٌ في كتابهِمْ بما جاءتْ رسُلُهمْ، ونزلتْ بها كتُبُهُمْ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾؛ ذُكرَ في القصّةِ أنَّ المشركينَ أخذوا عمّاراً وحُذيفةَ، فقالوا لهما[3]: دِينُنا أفضلُ منْ دينِكُمْ، وأفضلُ مِنَ الأديانِ كلِّها، فنزلتْ[4] هذه الآيةُ. والأشبهُ أنْ يكونَ مثلُ هذا مِنْ رؤساءِ أهلِ الكتابِ وعلمائِهِمُ الذينَ يَتَولَّونَ هذا العملَ. وأمّا الجُهّالُ منهمْ والرَّذْلةُ فإنهمْ لا يفعلونَ هذا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ الإضلالُ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: الإضلالُ هو الإخمالُ، أرادوا أنْ يَخْمِلَ ذكرُهُمْ، ولا يُذكَرونَ بعدَهُمْ أبداً كما يَخمُلُ ذكرُ أولئكَ، وقيلَ: الإضلالُ هو الإهلاكُ، وقيلَ: الإضلالُ هو التحيُّرُ، وكلُّ ضالٍّ فهو مُتحيِّرٌ تائهٌ. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [أي وما][5] يُخمِلونَ إلا ذكرَ أنفسِهِمْ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [أنهمْ يُهلِكونَ أنفسَهمْ إذ يَجهلونَ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾][6] ماذا عليهمْ في ما وَدُّوا منْ أليمِ العقابِ، واللهُ أعلمُ.

ويُقالُ: نَزلَتْ في عبدِ اللهِ بْنِ مَسعودٍ رضي الله عنه.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ قولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يحتمِلُ وجوهاً: يَحتمِلُ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تلكَ الآياتِ، وتُعاينونَها، وتعلَمونَ أنها آياتٌ، لكنْ تُكابرونَ، وتُعانِدونَ، ولا تؤمنونَ بها، ويَحتمِلُ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي وأنتمْ تعلَمونَ ما في التوراةِ والإنجيلِ منْ بَعثِ محمدٍ ﷺ وصفتِهِ [أنه][7] رسولٌ [عليهِ أفضلُ الصلواتِ وأكملُ التحياتِ][8] ويَحتمِلُ غيرَها مِنَ الآياتِ التي جاءَ بها. وقالَ بعضُهمْ: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ بِدِينِ اللهِ وأنتمْ تعلَمونَ بدلالةِ الخِلْقةِ وشهادةِ كتبِهِمْ أنَّ دِينَ اللهِ وتوحيدَهُ حقٌّ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في الآيةِ دلالةُ جوازِ هَتْكِ السترِ[9] وإفشاءِ المكنونِ والمكتومِ مِنَ الأمرِ إذا كانَ في ذلكَ تحذيرٌ لغيرِهِمْ عنْ مِثلِهِ وترغيبٌ لهمْ في المحمودِ منَ الفعلِ، ثم فيه دلالةُ إثباتِ رسالةِ رسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ يُخبِرُهمْ عمّا كانوا يكتُمونَ، ويُسِرُّونَ في ما بينَهمْ، وذلكَ مِنْ إطلاعِ اللهِ إياهُ على ذلكَ[10]. ألا تَرَى أنهمْ لم يَتعرَّضوا لهُ بشيءٍ منْ ذلكَ، فيقولوا[11]: متى لَبِسْنا الحقَّ؟ فدلَّ أنهمْ عَلِموا أنَّهُ حقٌّ، وأنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم علْمُ ذلكَ يكونُ بأنْ كانَ ذلكَ في كتابِهِمْ، أو عَلِموا بالآياتِ المعجِزَةِ، ويَحتمِلُ [قولُهُ][12]: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكمْ تَلبِسونَ الحقَّ بالباطلِ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: قولُهُ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ يعني بأوّلِ أمرِ محمدٍ ﷺ لا النهارَ نفسَهُ، وذلكَ ما رُوِيَ في القصةِ أنَّ بعضَهمْ كانَ يقولُ لبعضٍ: إنَّ محمداً كانَ على قِبلَتِنا، وقِبلَتُهُ بيتُ المقدسِ، ويصلي إليها، فآمِنوا أنتمْ بهِ ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ يعني آخرَ أمرِهِ، يعنونَ: قِبلَتُهُ البيتُ الحرامُ الكعبةُ، أي اكفُروا بِقِبلتِهِ التي يصلّي إليها

---

(١) من م، في الأصل: السن. (٢) في الأصل وم: وأجزي. (٣) في الأصل وم: لهم. (٤) في الأصل وم: فنزل. (٥) في الأصل: أي، في م: أو وما. (٦) من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من: م. (٩) ساقطة من م. (١٠) أدرج بعدها في م: وذلك قوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. (١١) في الأصل وم: فيقولون. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

الآنَ، وهي[1] الكعبةُ، وقيلَ: إنّ بعضَهمْ يقولُ لبعضٍ[2]: آمِنوا بمحمدٍ في أوَّلِ أمرِهِ حتى يؤمنَ جميعُ العرَبِ، ثم اكفُروا بهِ في آخرِ أمرِهِ، [فيقولُ آخرونَ][3]: لمَ كفرتُمْ بهِ، ورجَعتُمْ عنْ دينِهِ؟ فيقولونَ[4] لهمْ: إنا وجدْنا في التوراةِ بَعثَ نبيٍّ وصِفَتَهُ، فحَسِبْنا أنه هذا، فآمَنَّا بهِ، ثم نظرْنا فإذا ذلكَ لم يكنْ بَعثَهُ ولا صفتَهُ، فرجَعْنا عنْ دينِهِ، وكفرْنا بهِ، حتى يرجِعوا جميعاً عن دينِهِ، فذلكَ قولُهُ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ وقيلَ أيضاً: إنَّ رؤوسَ اليهودِ قالوا للسفَلَةِ: صدِّقوا بالقرآنِ وبمحمدٍ ﷺ ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ يعني أوّلَ النهارِ، يعني صلاةَ الغداةِ، فإذا كانتْ[5] صلاةُ العصرِ اكفرُوا بهِ، فقولوا لهمْ: إنَّ قِبلةَ بيتِ المقدسِ كانتْ حقّاً، فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضَّلالُ ليرجِعوا عن دينِهِمْ. فلا ندري كيفَ كانتِ القصةُ؟ ولكنْ فيهِ دلالةُ رسالةِ محمدٍ ﷺ لِما ذكَرْنا أنهُ كانَ يُخبِرُهمْ بما يُضمِرونَ في أنفسِهِمْ، ويُسِرُّونَ، فذلكَ مِنْ إطلاعِ اللهِ إياهُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي أظهروا لهمُ الإسلامَ والموافقةَ، ولا تؤمنوا في الحقيقةِ.

الآية ٧٣ يدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣] في الحقيقةِ، أي آمِنوا بهِ ظاهراً، وأمّا في الحقيقةِ فلا تؤمنوا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

وقال الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ/ ٦٢ ـ أ/ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ الآيةُ تَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: حقيقةُ النهارِ ثم يتوجَّهُ وجهَينِ:

أحدُهما: أمرُ القِبلَةِ خاصةً، فيُريدونَ بذلكَ المُحاجَّةَ بالموافقةِ في أحدِ الوقتَينِ عليهمْ في ما خالَفوا في ذلكَ، وإنْ عَلِموا أنَّ ذلكَ حقٌّ لِيُشبِّهوا على الضَّعفةِ: أنهُ لا نزالُ نَتنقَّلُ من دينٍ إلى دينٍ ومذهبٍ إلى مذهبٍ، وأنَّ مَنْ لزِمَ الدينَ الأولَ والمذهبَ الأوّلَ أحقُّ للموافقةِ فيهِ مرةً، ولِما [لا يُلزِمُ][6] البقاءُ على الثاني: وهو كقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] وعلى ذلكَ أنكروا جوازَ نسخِ الشرائعِ سفهاً منهمْ، إذ ليسَ معنى التناسخِ [إلا اختِلافَ العباداتِ لا اختِلافَ الأوقاتِ، وذلكَ المعنى قائمٌ، وما التناسخُ إلا ما عليهِ تناسخٌ][7] الأحوالِ في كلٍّ. على أنَّ العباداتِ فيها المصلحةُ، ومنْ تعبَّدَ [وهو][8] عالمٌ بالذي بهِ الأصلحُ في كلِّ وقتٍ فلهُ ذلكَ.

والثاني: أنْ يكونَ الذي [أُنزلَ][9] أولَ النهارِ لَعَلَّهُ أُنزِلَ بما فيهِ وصفُ رسلِهِمْ وكتبِهِمْ منَ الهُدى والبَيانِ، أو وصفُ أوائِلِهِمْ في رعايةِ الحقِّ وتعاهدِ الدينِ، فأُمِروا بالإيمانِ بذلكَ لِيُروا قومَهُمْ أنْ قد ثبتَ وَصْفُ مَنْ تقدَّمَ بما ذُكِروا أنهمْ على ذلكَ. ومنهُ جاءَ في ما أخبرَ مِنْ تَبديلِ مَنْ بدَّلَ مِنْ أوائلِهِمْ وتَحريفِهِمْ إلّا أنْ كانوا كذلكَ لِيُلْزِموهُمُ التقليدَ في الأمرَينِ، واللهُ أعلمُ. وحقُّهُ أنهُ إذا عرفَ حالَ الأوائلِ لا [يلتزمْ][10] بهِمْ، فعلى ذلكَ أمرُ الآخرِ ومَنْ بهِ كانتِ المعرفةُ، ألزمَهُمُ التصديقَ في الأمرَينِ جميعاً، ومعَ ما أنَّ في القرآنِ وصفاً بتصديقِ كتبِهِمْ، فحقُّهمْ في ما هَوُوا مقابلةُ كتبِ أنبيائِهمْ لتكونَ هي القاضيةَ والمُثْبِتةَ للحقِّ أنهُ على ما ادَّعَوا، وادُّعِيَ عليهمْ، وقد ظهرَ[11] تَعنُّتُهُمْ بمظاهرَتِهِمُ المُنكِرينَ لكتبِهِمُ المُكذِّبينَ برسلِهِمْ على رسولِ اللهِ ﷺ بعدَ تصديقِهِ إياهمْ وشهادةِ كتابِهِ بذلكَ ليعلمَ المتأمِّلُ عبادَتَهُمْ بغياً وحَسَداً[12] كما أخبرَ اللهُ تعالى عنهمْ.

والوجهُ الآخرُ مِنْ تأويلِ الآيَةِ: أنْ يُرادَ بما أخبرَ عنهمْ أوّلَ أمرِهِ وآخرَهُ لا حقيقةُ بياضِ النهارِ. ثم ذلكَ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) من م، في الأصل: وهو. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: فيقولون لنا. (٤) في الأصل وم: فنقول. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل: يؤمن، في م: لا يؤمن. (٧) من م. (٨) في الأصل وم: هم. (٩) ساقطة في الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ظهرت. (١٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾[..] [البقرة: ٩٠] وقوله ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ [البقرة: ١٠٩] وقوله ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [..] [البقرة: ٢١٣]..

أحدُهُما: أنْ يكونَ دعاؤهُ في أوّلِ الأمرِ إلى التوحيدِ والإيمانِ بالكتبِ المتقدّمةِ، وهمْ يَدْعُونَ إلى ذلكَ. وعلى ذلكَ كانوا قبلَ ظهورِ رسولِ الله ﷺ وآخِرُ ذلكَ بما تبيَّنَ مِنْ تحريفِهِمْ وتعنُّتِهِمْ لمّا أخذَهُمُ البغيُ، وغلَبَهُمُ الحسدُ، وخافوا على رئاستِهِمْ، وأشفقوا على ملكِهِمْ، وجزاءِ الشُّحِّ وإظهارِ [كثيرٍ][1] ممّا قد كتمَ أوائلُهُمْ، فكذَّبوهُ في هذا، والله أعلمُ.

والثاني[2]: أنْ يكونَ مِنْ ذلكَ مِنْ أئمَّتِهِمُ اصطلاحٌ على الإيمانِ بذلكَ حتى يُعلَمَ مَحَلُّهُمْ وحِرصُهُمْ على قبولِ الحقِّ، ثم يكفرونَ بهِ ليكونَ الأوَّلُ ذريعةً لهمْ في الثاني أنهمْ إذْ ظنّوا أنهُ على الحقِّ أنْ عَنَوا[3] لهُ، فلما تَبَيَّنَ لهمْ باطلُهُ رجَعوا عنْ ذلكَ، فأطلعَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ على ما أسَرُّوا ليصيرَ ما ظنّوا حُجَّةً لهمْ حُجَّةً عليهِمْ. وجملةُ ذلكَ أنّا لا ندري ما السببُ الذي كانَ منهمُ القولُ؟ وفيمَ كانَ؟ ولكنهُ قد بانَ أنَّ ذلكَ كانَ منهمْ إسرارٌ أطلعَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ ليكونَ حجةً لهُ وزجراً لهمْ مِنْ كلِّ أنواعِ التبديلِ في شأنِ رسولِهِ، عليهِ أفضلُ الصلواتِ، بما يهتِكُ عليهِمْ، فَيَفْتَضِحون عندَ مَنْ راموا سترَ أمرِهِمْ، وتسقطُ رئاستُهُمْ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: هو على التقديمِ والتأخيرِ: قولُهُ: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ كانَ على إثرِ قولِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ يقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ: ما أنزلَ اللهُ كتاباً مثلَ كتابِكُمْ، ولا بعثَ نبيّاً مثلَ نبيِّكُمْ، قالوا ذلكَ حَسَداً منهمْ: إنَّ هذا قولُ رسولِ اللهِ ﷺ للمسلمينَ لمّا نزلَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ قالَ لهمْ: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ يقولُ: دِينُ اللهِ الإسلامُ، هو الدينُ ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾: يقولُ: لَنْ ﴿يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ مِنْ دينِ الإسلامِ والكتابِ الذي فيهِ الحلالُ والحرامُ، واللهُ أعلمُ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قالَ: [لم يُؤتَ][4] أحدٌ منَ الأنبياءِ قبلي مِنَ الآياتِ مثلَ ما أُوتيتُ أنا، لأنَّ آياتِهِمْ كانتْ كلُّها حسيَّةً يَفْهَمُها كلُّ أحدٍ، وآياتِ رسولِ اللهِ ﷺ كانتْ حسيَّةً وعقليَّةً لا يَفْهَمُها كلُّ أحدٍ إلا الخواصُّ مِنَ الناسِ وخيرتُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ فيُحاجُّوكمْ ﴿بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أنهمْ قد آمَنوا بهِ مرةً، وأقرُّوا لهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]، إنهمْ كانوا يُظهِرونَ لهمُ الإسلامَ والإيمانَ، ثم إذا ﴿خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، فقالَ بعضُهُمْ لبعضٍ: تُظهِرونَ[5] لهمُ الإسلامَ، فيُحاجُّوكمْ عندَ ربِّكمْ في الآخرةِ؟

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقولُهُ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [هاتانِ الآيتانِ][6] على المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الفضلَ ليسَ بيدِ اللهِ، وكذلكَ الاختِصاصُ، إنما ذلكَ بيدِ الخلْقِ، لأنَّ مِنْ قولِهِمْ: ليسَ[7] على اللهِ أنْ يفعلَ بالخَلْقِ إلا [ما][8] هو أصلحُ لهمْ في الدينِ، ليسَ لهُ أنْ يُؤتيَ أحداً فضلاً، ولا لهُ أنْ يَختصَّ أحداً برسالتِهِ إلّا مَنْ هو مستحقٌّ لذلكَ، مُستوجِبٌ لهُ. فذلكَ الفضلُ والاختِصاصُ إنما استَوجَبوا بأنفسِهِمْ لا باللهِ على قولِهِمْ. ففي الحقيقةِ الفضلُ عندَهُمْ كانَ بيدِهِمْ لا بيدِ اللهِ، فأكذبَهُمُ اللهُ بذلكَ، إذِ الفضلُ عندَ الخالقِ[9]، هو فعلُ ما ليسَ عليهِ، لا ما عليهِ، فنعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ والزَّيغِ عنِ الرُّشْدِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ في قولِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ يَحتمِلُ: أنْ يكونَ في السِّرِّ، وإنْ أعطيتُمْ لهمُ الظاهرَ، ويَحتمِلُ: أنْ يكونَ بعدَ ما أظهرْتُمْ ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾، ويَحتمِلُ: لا تؤمِنُوا بما جاءَ بهِ إلّا لأجلِ مَنْ تبعَ دينَكُمْ، فيكونُ عندَهُمْ قدوةً، يَثِقُونَ عندَهُمْ بالذي فعلْتُمْ: أنكُمْ أهلُ الحقِّ، فيتبَعُكُمْ كيفَ ما تَصيرونَ إليهِ، ويَحتمِلُ: لا تؤمِنُوا؛ لا تُصدِّقُوا في ما يخبرُكُمْ عنْ أوائِلِكُمْ ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ على المنعِ عنْ تصديقِ الرسولِ في ما يخبرُهُمْ مِنَ التحريفِ والتبديلِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: عفوا. (٤) في الأصل وم: لن يؤتى. (٥) في الأصل وم: تظهروا. (٦) في الأصل وم: هذه الآية. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: الخلق.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً:

أحدُها[1]: البيانُ: هوَ ما بيَّنَ اللهُ؛ إذْ هوَ الحقُّ، وكلُّ ما فيهِ الصرفُ عنهُ هو تَلبيسٌ وتَمويهٌ.

والثاني[2]: أنْ يكونَ الدينُ هو الذي دعا إليهِ بما أوضحَهُ، وأنارَ برهانَهُ، لا الدينَ الذي دعا إليهِ المتحرِّفونَ ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ أي لنْ يُؤتَى، واللهُ أعلمُ، منَ الكتابِ والحججِ.

والثالثُ[3]: أنْ يكونَ صلةَ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ وهو دينُهُ، أوِ القرآنُ، أو ما دعا إليهِ، ثم يقولُ ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ أهلَ الإسلامِ منَ الحججِ والبيِّناتِ[4] التي توضِحُ أنَّ الحقَّ في أيديكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فإنْ كانَ هو صلةَ الأوَّلِ ف: أو بمعنى: لِـ ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ أو حتى ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ إذا آمنتُمْ بما دُعوا إليهِ، فيُحاجُّوكُمْ بذلكَ ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي إذا[5] آمنتُمْ بالذي جاءَ بكمْ منْ عندِ ربِّكُمْ، فيصيرُ ذلكَ لهمْ حُجَّةً عليكُمْ، وإنْ كانَ صلةَ الثاني فهو أنهُمْ لا يُؤتَونَ ﴿مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ منَ الحججِ ليُحاجُّوكُمْ بها عندَ ربِّكُمْ في الذي هو عليهِ حقٌّ لِما قد ظهرَ تعنُّتُهُمْ وتحريفُهُمْ، واللهُ أعلمُ، ثم بيَّنَ السببَ الذي هو نيلُ كلِّ خيرٍ وفضلٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ينقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ بوجهَينِ:

أحدُهُما: أنهم لا يَرونَ للهِ أنْ يختصَّ أحداً بشيءٍ فيهِ صلاحُ غيرِهِ، ويصرفَهُ[6] عنْ ذلكَ [الغيرِ، بل إنْ فعلَ ذلكَ][7] كانَ مُحابياً عندَهُمْ وبخيلاً، بل في الابتِداءِ لم يكنْ لهُ ذلكَ، وإنما يعطي بالاستِحقاقِ، وذلك حقٌّ يَلزَمُهُ، وقد ذكرَهُ[8] بحرفِ الامْتنانِ، وعندَهمْ أيضاً ليسَ لهُ [ألّا يشاءَ][9] أو لا يُعطِيَ، فلا معنَى لِذكرِهِ الذي ذكرَ معَ ما صارَ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنَّ الذي يحقُّ أنْ يَبْذُلَ كلًّا الأصلحَ في الدينِ، وأنهُ إنْ قَصَرَ أحداً عنْ ذلكَ كانَ جائراً[10]، ثم الأفضلُ للعبدِ بشيءٍ ممّا أُعطيَ حتى يعطيَهُ في ما أمرَهُ، فيكونُ الفضلُ في الحقيقةِ في يدِ العبدِ، يُؤتي نفسَهُ إنْ شاءَ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ والقِنطارُ ما تقدَّمَ ذكرُهُ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ وصفَ ﷻ أهلَ الكتابِ بعضَهُمْ بأداءِ الأمانةِ وبعضَهُمْ بالخيانةِ، وليسَ المُرادُ منَ الآيةِ/ ٦٢ ـ ب/ واللهُ أعلمُ، القنطارَ نفسَهُ والدينارَ، ولكنْ وصفَهُمْ بأنَّ فيهِمْ أمانةً وخيانةً، قلَّتِ الخيانةُ، أوعَظُمَتْ، وكذلكَ الأمانةُ. ألا تَرَى أنهُ يستحقُّ الذَّمَّ بدونِ القنطارِ والدينارِ إذا خانَ، وكذلكَ يستحقُّ الحمدَ إذا أدَّى بدونِ ذلكَ؟ دلَّ أنهُ لم يُرِدْ به التقديرَ، ولكنْ على التمثيلِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] ليسَ على إرادةِ الذَّرَّةِ، ولكنْ على التمثيلِ لعملِ الخيرِ والشرِّ جزاءً، وإنْ قلَّ، فذلكَ الأوَّلُ.

وفيهِ دلالةُ جوازِ العملِ بالاجْتِهادِ، ولما ذكرْنا أنهُ لم يُرِدِ القدْرَ الذي ذكرَهُ، ولكنْ لمعنىً فيهِ بالاجْتِهادِ يُعرَفُ، لا بالنصوصِ. وعلى الشافعيِّ ﷺ أنَّ الدينارَ مُستكثَرٌ يحلِفُ عليهِ مُدَّعيهِ عندَ المِنْبرِ، واللهُ تعالى جعلَهُ مُستقَلًّا. وفيهِ دلالةٌ أيضاً: جوازُ شهادةِ بعضِهِمْ لبعضٍ وعلى بعضٍ، إنْ كانتْ فيهِمْ نزلَتْ على ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ لأنهُ وصفَ ﷻ بعضَهُمْ بالأمانةِ بالمالِ، وإنْ كانتِ الأمانةُ لهمْ في الدينِ، والشهادةُ أمانةٌ، واللهُ أعلمُ. ويُحتَمَلُ في مَنْ أسلمَ منهمْ وُصِفَ بالأمانةِ، ومَنْ لمْ يُسلِمْ وَصَفَهُ بالخيانةِ في غيرِ آيةٍ مِنْ غيرِ رهنٍ ولا كفالةٍ، وهو كقولِهِ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] أمرَهُمْ بأداءِ الأمانةِ في ما ائْتُمِنوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ قيلَ: مُلازماً مُواظِباً دائماً مُتقايضاً، ومَنْ عاملَ مِنَ الناسِ المسلمينَ الناسَ هذهِ المعاملةَ يُخافُ دخولُهُ في هذا النهْيِ والوعيدِ.

---

(١) في الأصل وم: وجهين. (٢) في الأصل وم: أحدهما. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) من م، في الأصل: والبيان. (٥) في الأصل وم: إنما. (٦) في الأصل وم: صرفه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ذكر. (٩) من م، في الأصل: الأشياء. (١٠) في الأصل وم: جائزاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ قالوا ذلكَ لأنهمْ كانوا يستحِلُّونَ أموالَ المسلمينَ ظُلْماً، يقولونَ: لم يَجْعَلْ علينا في كتابِنا لأموالِهِمْ حرمةَ أموالِنا علينا، يقولونَ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] أرادَ بالأُمِّيِّينَ العربَ إذ ليسَ لهمْ كتابٌ، وقيلَ: ذلكَ الإسْتِحلالُ بأنْ قالوا ليسَ علينا للهِ فيهمْ سبيلٌ، وأرادوا بالأُمِّيِّينَ المسلمينَ على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][1] قال: «نحنُ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نحسبُ ولا نكتبُ» [البخاري ١٩١٣] وقيلَ: قالوا لا حَرَجَ علينا في حبسِ أموالِهِمْ في التوراةِ، فأكذبَهُمُ اللهُ ﷻ بقولِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بأنْ ليسَ في كتابِهِمْ حرمةُ أموالِهِمْ ولا لهمْ عليهمْ سبيلٌ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهمْ يكذبونَ على اللهِ ﷻ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بَلَى﴾ ردّاً على قولِهِمْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ عليكمْ سبيلٌ فيهمْ. ثم ابْتَدأَ الكلامَ، فقالَ: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي هؤلاءِ الذينَ يُحبُّهُمْ، لا أنتمْ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذي عليهِ في التوراةِ؛ أمَرَ بأداءِ الأمانةِ وإظهارِ بعثِهِ ﷺ وصفتِهِ التي فيها ﴿وَاتَّقَى﴾ محارمَهُ وظُلمَ الناسِ في تركِ الوفاءِ وفي نقضِ العهدِ، وصدَّقَ اللهَ ورسولَهُ، ولم يكتُمْ بعثَهُ وصفتَهُ فإنَّ اللهَ يحبُّهُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ قيلَ: عهدُ اللهِ أمرُهُ ونهيُهُ، ويَحتمِلُ[2] هذا العهدَ في ما عاهدوا[3] في التوراةِ ألّا يكتُموا بعثَهُ وصفتَهُ، ولكنْ يظهرونَ ذلكَ للناسِ، ويُقِرّونَ بهِ ﴿وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وأيمانَهُمُ التي حلَفوا كذِباً أنْ ليسَ بعثُهُ وصفتُهُ فيهِ مخافةَ ذهابِ منافعِهِمْ، ويَحتمِلُ أنْ حلَفوا كَذِباً، فأخذوا أموالَ الناسِ بالباطلِ والظلمِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: «منْ حلفَ على يمينٍ [بإثمٍ لِيَقْتَطِعَ بها][5] مالَ امرئٍ مسلمٍ لقيَ اللهَ تعالى، وهو عليهِ غضبانُ» [البخاري ٤٥٤٩ و٤٥٥٠] وتلا هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ﴾ الآيةَ، والعهدُ والأيمانُ سواءٌ[6]، ألا ترى إلى قولِهِ ﷻ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ الآيةَ؟ [النحل: ٩١] ويَحتمِلُ عهدُ اللهِ ما قبِلُوا عنِ اللهِ، وما ألزمَهُمُ اللهُ، والأيمانُ ما حلَفوا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [أي][7] لا نصيبَ لهمْ في الآخرةِ ممّا ذَكَروا أنَّ لهمْ عندَ اللهِ منَ الخيراتِ والحسناتِ كقولِهِ: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً[8]:

أنه أرادَ بذلكَ كلامَ الملائكةِ الذينَ يأتونَ المؤمنينَ بالتحيةِ والسلامِ منْ ربِّهِمْ كقولِهِ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ و٢٤] [وكقولِه][9] ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الآيةَ [النحل: ٣٢] وقولُهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ الملائكةُ على ما يُكلِّمُ المؤمنينَ[10]، أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ على ما ذكرْنا في ما تقدَّمَ منْ إضافةِ النصرانيةِ على إرادةِ أوليائِهِ، فكذلكَ هذا، أو أنْ يكونَ اللهُ ﷻ كانَ قد كلَّمَهُمْ بتكليمِ الملائكةِ إياهمْ لأنهمْ رسُلُهُ، فكانَ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] صَيرَّهُ ببعثِ الرسلِ كانَ قد كلَّمَهُمْ هو، فكذلكَ الأوَّلُ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ يُكرِمُ المؤمنينَ في الجنةِ بكلامِهِ على ما كلَّمَ موسى[11] في الدنيا، فلا يكلِّمُهُمْ كما كلَّمَ المؤمنينَ.

ويَحتمِلُ لا يكلِّمُهُمْ بالرحمةِ سِوَى أنْ يقولَ لهمْ: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] كقولِهِ[12]: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عهدوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: يكون سواء. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: وجهين، في م: وجهين يحتمل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]. (١١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. (١٢) في الأصل وم: وكقوله.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ نظرَ رحمةٍ كما ينظرُ إلى المؤمنينَ بالرحمةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يَجْعلُ لخيراتِهِمْ ثواباً، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا في قومٍ، عَلِمَ اللهُ، أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً، فقالَ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يُزَكِّي[1] أعمالَهُمْ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي كانوا يُحرِّفونَ ألسنتَهُمْ بالكتابِ على التعظيمِ والتبجيلِ ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي كانوا يُحرِّفونَ بعثَهُ، عليهِ أفضلُ الصلواتِ، وصفتَهُ، ثمَّ يتلونَهُ على التعظيمِ والتبجيلِ ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المُنزَّلِ منَ السماءِ ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الذي أُنزِلَ مِنَ السماءِ، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بل هُمْ كَتَبوا بأيديهِمْ، وهو كقولِهِ ﷻ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهمْ يكذِبونَ على اللهِ، وأنَّ ذلكَ ليسَ هوَ منْ عندِ اللهِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي ما كانَ لبشرٍ اختارَهُ اللهُ للذي قالَ، وتبيَّنَ أنهمْ إنما أضافوا دينَهُمُ الذي فيهِ عبادةُ غيرِ اللهِ إلى أنبيائِهِمْ كذبةً، وأنَّ اللهَ يجعَلُ رسالتَهُ عندَ منْ يعصِمُهُ عنْ مثلِهِ بقولِهِ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] لا يجعَلُها حيثُ يُخانُ، ويُكْتَمُ، واللهُ المُوفقُ.

وهذه الآيةُ تنقضُ على الباطنيَّةِ قولَهُمْ، لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يُؤتي النفسَ البشريةَ الكتابَ ولا النبوةَ، إنما يؤتي النفسَ البساطةَ[3]، وهي الروحانيةُ ليأتيَ تَخيُّلٌ في قلوبِ الأنبياءِ، ويؤيِّدُهُمْ حتى يُؤلِّفوا كقولِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ و١٩٤ و١٩٥] فإذا ثبتَ ذلكَ في قلوبِ[4] الرسلِ ألَّفوا هُمُ الكتبَ والصحفَ، لا يقدِرُ غيرُ الرسلِ على ذلكَ. ثم الناسُ يأخذونَ ذلكَ منهُمْ، فالآيةُ تكذِّبُهُمْ، وتردُّ عليهِمْ قولَهُمْ حينَ أخبرَ: يؤتي البشرَ الكتابَ والحكمَ والنبوَّةَ بقولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ وكذلكَ قالَ عيسى ﷺ في المهدِ ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وفي الآيةِ دليلُ عصمةِ الرسلِ والأنبياءِ ﷺ عنِ الكفرِ بقولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [وخاصةً في عصمةِ رسولِنا محمدٍ ﷺ قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾][5] ﴿وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقولُهُ[6]: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ [الأحزاب: ٥٨] شرطَ في[7] المؤمنينَ اكْتِسابَ ما يَستوجِبونَ بهِ الأذى، ويكونُ مِنَ المؤمنينَ بشرطِهِ فيهِمْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا﴾ معناهُ: أي ولكنْ يقولُ لهمْ ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [وكأنَّهُ على الابْتِداءِ والاسْتِئنافِ، ويقولُ لهمْ: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾][8] ثم اختُلِفَ في ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ قيلَ: مُتَعَبِّدينَ للهِ بالذي [كانوا يعلَمونَ][9] وبالذي [كانوا][10] يَدرسونَ، وقيلَ: الرَّبَّانيونَ[11] العلماءُ الحكماءُ، وقيلَ: حكماءُ علماءُ، وقيلَ: علماءُ فقهاءُ، وهو واحدٌ.

ثم فيهِ دلالةُ أنَّ الرجلَ قد يدرسُ، ويعلِّمُ آخرَ بما لا يَفْقَهُ، ولا يَعلَمُ معناهُ، [ولا كلُّ][12] مَنْ يدرسُ شيئاً أو يعلِّمُ آخرَ[13] يكونُ فقيهاً فيهِ، ويَعرِفُ ما أُودِعَ فيهِ مِنَ المعنَى [وفيهِ دلالةُ جوازِ الاجْتِهادِ لأنهُ إنما يُوصَلُ إلى ما فيهِ مِنَ المعنَى][14] والفقهِ بالاجْتِهادِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قيلَ: /٦٣ ـ أ/ ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ أمرَهُمْ بذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وقيلَ: إنَّ عيسى وعُزيراً ومَنْ ذكرَ لا يأمُرونَكُمْ[15] ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ مِنْ دونِ اللهِ، وقد عصمَهُمْ بالنبوةِ.

---

(١) في الأصل وم: يزكو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: البسيطة. (٤) من م، في الأصل: قلوبهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) من م، في الأصل: من. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يعلمون. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: الربانيين. (١٢) في الأصل: إلا، في م: إلا كل. (١٣) في الأصل وم: آخره. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل: لا يأمركم، في م: لا يأمركما.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [يَحتمِلُ وجوهاً: يحتمِلُ أيأمُرُكُم اللهُ ﴿بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ له][1] بالخِلْقةِ لِما تشهَدُ خِلْقةُ كلِّ أحدٍ على وحدانيَّتِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣] ويَحتمِلُ: [قولُهُ][2] ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي أسلَموا لهُ، وأقرُّوا بِهِ مرّةً، ثم كفروا بِهِ[3] بعدَما كانوا مُخلِصينَ لهُ، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ بعدَ إذْ دعاكُمْ إلى الإسلامِ، فأجابَ بعضُكُمْ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية، قالَ مجاهدٌ: (هذا خطأٌ مِنَ الكاتبِ، وهي في قراءةِ ابنِ مسعودٍ ﷺ ميثاقُ الَّذِينَ أُوتوا الكِتابَ على ما ذكرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] لأنَّ الميثاقَ لا يُؤخذُ على النبيِّينَ أنْ يُصَدِّقوا، لكنهُ يجوزُ). ثم اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: ميثاقُ الأوَّلِ مِنَ الأنبياءِ: ليُصَدِّقُنَّ بما جاءَ بِهِ الآخَرُ منهمْ لو أدركَ، وقيلَ: أخذَ اللهُ ميثاقاً على النبيِّينَ أنْ يُصَدِّقَ بعضُهُمْ بعضاً، وأنْ يبلِّغوا كتابَ اللهِ ورسالاتِهِ إلى قومِهِمْ، ففعَلوا، ثم أخذُوا مواثيقَ قومِهِمْ أنْ يؤمِنوا بمحمدٍ ﷺ ويُصدِّقوهُ، وينْصُروهُ، وقيلَ أخذَ اللهُ على النبيِّينَ ميثاقاً على أنْ يبلِّغوا الرسالةَ إلى قومِهِمْ، ويدعُوا الناسَ إلى دينِ اللهِ.

قال الكسائيُّ فيهِ بوجهينِ:

(أحدُهما: يقولُ: ميثاقُ الذينَ منهمُ النَّبِيّونَ، وهمْ بنو إسرائيلَ، وكلُّ ميثاقٍ ذكرَهُ اللهُ تعالى في القرآنِ في أهلِ الكتابِ فإنما يُرادُ بِهِ بنو إسرائيلَ.

والثاني: ذكرَهُ كما ذكرْنا منْ تصديقِ بعضِهِمْ بعضاً وتبليغِ كتبِ اللهِ إلى قومِهِمْ).

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أخذَ عليهمُ الميثاقَ ليأخُذوا على قومِهِمُ المواثيقَ: أنْ يؤمِنوا بمحمدٍ ﷺ إذا خرجَ، وينصُرُوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ قالَ اللهُ تعالى للأنبياءِ: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ قيلَ: هو عهدي. والإصرُ: قيلَ: هو العهدُ ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ بالعهدِ لَنُؤمِنَنَّ ولَننصُرَنَّهُ، وإذْ أخذْنا على قومِنا [العهدَ][4] لَيُؤمِنُنَّ بِهِ، ولَيَنْصُرُنَّهُ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يقولُ اللهُ تعالى: وأنا على إقرارِكُمْ بمحمدٍ ﷺ ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وقيلَ: قالَ اللهُ: فاشهَدُوا أني قد أخذْتُ عليكمُ العهدَ ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أنكمْ قدْ أقررْتُمْ بالعهدِ.

الآية ٨٢ وقولُهُ[5] تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهدِ والإقرارِ بنقضِ العهدِ والرجوعِ عنِ القرارِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟ الدينُ كأنهُ يَتَوَجَّهُ إلى وجوهٍ: يرجِعُ اعْتِقادُ المذهبِ إلى[6] الأصلِ، ويرجِعُ إلى الحكمِ والخضوعِ كقولِهِ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾؟ [المائدة: ٥٠]، ويرجِعُ إلى الجزاءِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟ كانَ كلٌّ منهمْ يبغي ديناً، هو دِينُ اللهِ، ويدَّعي أنَّ الدينَ الذي هو عليهِ دينُ اللهِ، لكنَّ هذا، واللهُ أعلمُ، كلٌّ منهمْ في الابْتِداءِ كانَ[7] يبغي دينَ اللهِ في نفسِهِ، لكنْ بانَ لهُ منْ بَعْدُ، وظهرَ بالآياتِ والحججِ أنهُ ليسَ على دينِ اللهِ [الذي][8] هو الإسلامُ فلمْ يرجِعْ إليهِ، ولا اعْتَقَدَهُ، ولزمَ غيرَهُ بالاعْتِنادِ والمُكابرةِ، فهو باغٍ غيرَ دينِ اللهِ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ في قولِهِ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟ أي أفغيرَ ما في دينِ اللهِ منَ الأحكامِ والتوحيدِ، ويَحْتَمِلُ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ يَدينونَ، وليسَ على الاسْتِفهامِ، ولكنْ على الإيجابِ أنهمْ في صنيعِهِمْ يبغونَ غيرَ الذي هو دينُ اللهِ كقولِهِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآيةُ [البقرة: ٣٠] وكقولِهِ: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [النور: ٥٠].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقول الله. (٦) في الأصل وم: في. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ يَحتمِلُ وجوهاً: يَحتمِلُ ﴿أَسۡلَمَ﴾ أي[1] استَسْلَمَ، وخَضعَ له بالخِلْقةِ، إذْ في خِلْقةِ كلِّ دلالاتُ وحدانيَّتِهِ، ويَحتمِلُ ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني الملائكةَ، ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يعني][2] المؤمنينَ الذين أسلَموا ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ يعني أهلُ الأديانِ يُقِرّونَ أنَّ اللهَ ربُّهُمْ، وهو خلَقَهُمْ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فذلكَ إسلامُهُمْ، وهمْ في ذلكَ مشركونَ. عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][3] قال: (﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أسلَموا ﴿طَوۡعٗا﴾ وأمّا أهلُ الأرضِ فمنهمْ منْ أسلَمَ ﴿طَوۡعٗا﴾ ومنهمْ مَنْ أسلَمَ ﴿كَرۡهٗا﴾ مخافةَ السيفِ). وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][4] قال: (﴿طَوۡعٗا﴾ مَنْ وُلِدَ في الإسلام، وكلُّ مَنْ أسلَمَ، ولم يُولدْ في الإسلام، فهو كَرْهٌ). وقيل: منهمْ مَنْ أسلَمَ ﴿طَوۡعٗا﴾ ومنهمْ مَنْ جُبِرَ[5] عليهِ. والإسلامُ هو تسليمُ النفسِ للهِ[6] خالصاً، لا يُشرِكُ فيها غيرَهُ كقولِهِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ﴾ الآية [الزمر: ٢٩] دلَّتِ الآيةُ أنهُ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ. والإسلامُ هو اسْمُ الخضوعِ، وكلٌّ منهمُ قد خضعَ[7]، ولم يَجترِئْ أحدٌ أنْ يخرجَ عليهِ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآية: هذا، واللهُ أعلمُ، وذلكَ[8] أنَّ اليهودَ والنصارى لمّا آمَنوا ببعضِ الرسلِ، وكَفَروا ببعضٍ قالوا[9]: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠] أمرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ أنْ يؤمِنوا بالرسلِ جميعاً، فآمَنوا بهمْ جميعاً، وقالوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ والإسلامُ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ اختُلِفَ فيهِ: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ حسناتُ مَنْ بَغى غيرَ دينِ الإسلامِ في الدنيا، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي بالمؤمنِ بهِ ﴿فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥] ويَحتمِلُ: مَنْ أتى بدينٍ سِوى دينِ الإسلامِ ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾: يَحتمِلُ [﴿يَبۡتَغِ﴾ يطلُبُ ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾][10] كأنهُ نَهى عنْ ذلكَ أنْ يقصِدَ بالتديُّنِ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالى، فأخبرَ أنَّ ذلكَ أنْ يقصِدَ بالتديُّنِ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالى، فأخبرَ أنَّ ذلكَ لا يقبَلُهُ لِصَرفِ الطلبِ إلى غيرِ ذلكَ، وذلكَ كما دانوا بعبادةِ[11] الأوثانِ وغيرِها لتُقرِّبَهُمْ ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأخبرَ أنهُ لا يقرِّبُ لِصَرفِ الطلبِ إلى [غيرِ][12] حقيقةِ ذلكَ الدينِ ولأنَّ[13] الأديانَ كانتْ معروفةً، تأبى أنفسُ الكفرةِ قبولَ[14] اسْمِ الإسلامِ لدينِهِمْ، وادّعَوا أنَّ دينَهُمْ هو دينُ اللهِ، فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ دِينَهُ، هو الإسلامُ، وأنَّ مَنْ يبتغِ الدينَ لِيَدينَ بهِ غيرَهُ فاللهُ لا يقبَلُ منهُ، واللهُ أعلمُ. ويَحتمِلُ الابْتِغاءُ الإرادةَ فيكونُ فيهِ تحقيقُ الدينِ إذ هي تُجامِعُ الفعلَ، فكأنهُ قالَ: مَنْ دانَ غيرَ دينِ الإسلامِ ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾، وإنْ قصدَ اللهَ بالدِّينِ، واللهُ الموفقُ، أيَّدَ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ﴾ الآية؛ فالآيةُ تحتمِلُ وجوهاً: تَحتمِلُ ألّا يهديَ اللهُ قوماً همْ مُعانِدونَ مُكابِرونَ فيهِ غيرُ خاضعينَ ولا متواضعينَ، إنما يهدي مَنْ خضعَ لهُ، وتواضعَ، فأمّا مَنْ عاندَ، وكابرَ، فلا يهديهِ. ويَحتمِلُ أنَّ هذا في قوم مَخصوصينَ، علمَ اللهُ منهمْ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً، فأخبرَ اللهُ تعالى أنهُ لا يهديهِمْ، وأمّا مَنْ علمَ أنهُ يؤمنُ، وتابَ، فإنهُ يهديهِ[15] بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ الآية [النساء: ١٤٦] أطمَعَ مَنْ تابَ، وأصلَحَ، أنْ يَهْدِيَهُ[16]، ويغفرَ لهُ، ويَحتمِلُ ألّا يهديَهُمْ طريقَ الجنةِ إذا ما ماتُوا على كفرِهِمْ كقولِهِ ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨ و١٦٩].

(١) ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: جبروا. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: خضعوا. (٨) الواو ساقطة من م. (٩) من م، في الأصل: كقولهم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل: عن عبادة، في م: من عبادة. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: على. (١٤) في الأصل وم: عن قبول. (١٥) في الأصل وم: يهديهم. (١٦) من م، في الأصل: يأتيه.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: (ويَحتمِلُ: لا يَهْديهِمْ في وقتِ اختيارِهِمُ الضلالةَ) وقيلَ: بما اختاروا مِنَ الضلالةِ لا يَهْديهِمْ، أي لا يُسمِّيهِمْ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقالَ[1] الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: ودلَّ قولُهُ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أنَّ دينَ الإسلامِ هو الإيمانُ، وأنَّ الكفرَ مُقابِلُهُ مِنَ الأضدادِ؟ وكيفَ يهدي؟ معَ كُفرِهِمْ؟ وقيلَ: في وقتِ اختيارِهِمْ، وقيلَ: ذلكَ في قومٍ، علمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ، وكانتْ هِمَّتُهُمُ التعنُّتَ والمُخالفةَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآيةُ تردُّ على المعتزلةِ قولَهُمْ لأنهمْ قالوا: إنَّ الهُدى البيانُ، والبيانُ للكلِّ، قالوا بتقدُّمِ الفعلِ، فلو كانَ متقدِّماً لكانَ في ذلكَ إعطاءُ الهُدَى للظالمِ، فأخبرَ ﷻ أنهُ لا يهدي الظالمَ /٩٣ ـ ب/ وهمْ يقولونَ: لا بلْ يهدي الظالمَ، فذلك خروجٌ عليهِ.

قالَ الشيخُ [رحِمَهُ اللهُ][2] في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ فلو لم يكنِ الهُدَى غيرَ البيانِ فلقد هداهُمْ إذنْ على قولِ المعتزلةِ.

الآيتان ٨٧ و ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ [﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾][3] وقيل: لعنةُ [اللهِ][4] عذابُ اللهِ، وقيلَ: لعنةُ اللهِ، هي الإياسُ مِنْ رحمتِهِ وعفوِهِ. واللعنُ، هو الطردُ في اللغةِ. ولعنةُ الملائكةِ ما قيلَ في آيةٍ أُخرَى: قولُهُ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ الآية [غافر: ٤٩ و٥٠]، وقيلَ: لعنةُ الملائكةِ قولُهُمْ لَهُمْ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾][5] [الزخرف: ٧٧ و٧٨]، وقيلَ: يدعو عليهمْ باللعنِ، وقيلَ: لعنةُ المؤمنينَ قولُهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] فذلك لعنُهُمْ عليهِمْ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مُلحقٌ على قولِهِ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦] ذكرَ الكفرَ بعدَ الإيمانِ، ثم ذكرَ التوبةَ، فقالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ الآية؛ أطمعَ لهمُ المغفرةَ والرحمةَ بالتوبةِ بعدَ الكفرِ بقولِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وما قيلَ في القصةِ أيضاً: إنَّ نفراً ارتدُّوا عنِ الإسلامِ، ثم تابَ بعضُهُمْ، ولم يتُبِ البعضُ، فنزلَ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآية.

وفي الآيةِ دلالةُ قَبولِ توبةِ المرتدِّينَ لأنَّ قولَهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الآية.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ الآية: اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: قولُهُ: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟﴾ أي ماتوا على ذلكَ، فذلكَ زيادتُهُمُ الكفرَ، وقيلَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى بعدَ الإيمانِ بالرسلِ جميعاً ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمحمدٍ ﷺ ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قيلَ: لنْ تُقبلَ توبتُهُمُ التي تابوا مرَّةً، ثم تركوها، وقيلَ: لنْ تُقبلَ توبتُهُمُ التي أظهروا باللسانِ، وما[6] كانَ ذلكَ في قلوبِهِمْ، [أي ليستْ لهمْ توبةٌ][7] إلا أنْ تكونَ توبةٌ منهمْ، فتَرِدُ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وقيلَ: همْ قومٌ عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يتوبونَ أبداً، فأخبرَ أنهُ لا يَقبلُ توبَتَهُمْ كقولِهِ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وقيلَ: لا تُقبلُ توبتُهُمْ عند الموتِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وكقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] وكقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] إنهُ لا ينفعُ الإيمانُ في ذلكَ الوقتِ. فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ في ذلكَ الوقتِ إذا داموا على الكفرِ إلى ذلكَ الوقتِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ ذلكَ في قومٍ مَخصوصِينَ، أي لا [تكونُ لهمْ][8] كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨] أي لا شافعَ لهمْ، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ويَحتمِلُ عندَ رؤيةِ فعلِ اللهِ وجزاءِ فعلِهِ عندَ القيامةِ ومُعاينةِ الموتِ، يدلُّ على ذلكَ الآيةُ التي تقدَّمَتْ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) و (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إلى أخرى. (٦) من م، في الأصل: ولما. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: يكون منهم.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ يقولُ: لو كانَ معهمْ [ما يَفتَدونَ][1] به أنفسَهُمْ ما قُبِلَ منهمْ، ولكنْ لا يكونُ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] أي لا يكونُ لهمْ شفيعٌ، وإن[2] كانَ لهمْ شفعاءُ، فيشفَعونَ، فلا تُقبلُ شفاعتُهُمْ، ولكنْ لا يكونُ لهمْ، فهذا يدلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي لايتوبونَ، واللهُ أعلمُ.

ورُوِيَ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «يُجاءُ بالكافرِ يومَ القيامةِ، فيُقالُ لهُ: أرأيتَ لو كانَ لكَ مِلْءُ الأرضِ ذهباً أكنتَ مُفتدياً؟ فيقول: نعم يا ربُّ، فيقالُ لهُ: قد سُئلْتَ أيسرَ منْ ذلكَ» [البخاري ٦٥٣٨].

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ، واللهُ أعلمُ، في كفارٍ منعَهُمْ عنِ الإسلامِ الزكاةُ والصدقاتُ التي تجبُ في الأموالِ كقولِهِ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾ الآية إلى قولِهِ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ و٧٦ و٧٧] أخبرَ ﷻ: ﴿لَن تَنَالُواْ﴾ الإسلامَ ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ منَ الأموالِ، وكقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٧]. وتَحتَمِلُ الآيةُ في المؤمنينَ؛ رغبَهُمْ ﷻ في إنفاقِ ما يحبُّونَ كقولِهِ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾الآية [البقرة: ١٧٧] أخبرَ أنَّ البرَّ ما ذكرَ مِنَ الإيمانِ بهِ وإتيانِ المالِ في حبِّهِ.

ورُوِيَ عنْ أنسٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: (لمّا نزلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ الآية قالَ أبو طلحةَ: يا رسولَ اللهِ حائطي الذي في مكانِ كذا وكذا فهو للهِ، ولو استطعتُ أنْ أُسِرَّهُ ما أعلنْتُهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اجعَلْهُ في قرابَتِكَ أو قراباتِكَ»[4] [أحمد: ٣/ ٢٦٢] ورُوِيَ عنْ عمرَ ﷺ أنهُ لمّا نزلَ هذا أعتقَ جاريةً.

ثم اختُلِفَ في البِرِّ، قيلَ: البِرُّ هو الجنةُ ههنا، وقيلَ: البِرُّ هو الإسلامُ إنْ كانَ في الكافرينَ، وقيلَ: ﴿لَن تَنَالُواْ﴾ درجاتِ الجنةِ وما عندَ اللهِ مِنَ الثوابِ إلّا بإنفاقِ ما تُحِبُّونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ ففيهِ دليلُ قبولِ القليلِ مِنَ الصدقةِ لأنهمْ كانوا يَمتَنِعونَ عنْ قليلِ التصدّقِ استِحقاراً، فأخبرَ أنهُ بذلكَ عليمٌ، وإنْ قلَّ بعدَ أنْ يكونَ ذلكَ للهِ ﷻ واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٩٣ و ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ الآية [﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾][5] قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ... (وكانَ الطعامُ كلُّهُ حَلالاً إلّا الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزيرِ ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يعني يعقوبُ حرّمَ على نفسِهِ لحمَ الإبلِ وألبانَها، وكانَ أحبَّ الطعامِ إليهِ) إنْ ثبتَ ما ذُكِرَ في القصةِ أنَّ يعقوبَ ﷺ أقبلَ يريدُ بيتَ المقدسِ، فَلَقِيَهُ مَلَكٌ، فظنَّ يعقوبُ أنهُ لصٌّ، فعالَجَهُ [وظلَّ][6] يصارِعُهُ حتى أضاءَ له الفجرُ، فلما أضاءَ لهما الفجرُ غَمَزَ المَلَكُ فخذَ يعقوبَ، فتهيَّجَ عليهِ عِرْقُ النَّساءِ، فكانَ يبيتُ الليلَ ساهراً مِنْ وَجَعِهِ، فأقسمَ لئن شفاهُ اللهُ ليُحرِّمَنَّ أحبَّ الطعامِ والشرابِ إليهِ. فإنْ ثبتَ هذا فهو إنما حرَّمَ ذلكَ على نفسِهِ بالإذنِ مِنَ اللهِ ﷻ والأمرِ منهُ. ثم إنَّ اليهودَ قالوا: إنما كانَ تحريمُ ذلكَ مِنَ اللهِ في التوراةِ، فأمرَ[7] اللهُ نبيَّهُ أنْ قُلْ لهمْ: ﴿فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ التحريمَ مِنَ اللهِ في التوراةِ. ويَحتَمِلُ أن يكونَ التحريمُ كانَ بظلمٍ منهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾ الآية [النساء: ١٦٠] أنكروا تحريمَ ذلكَ بظلمِهِمْ[8]، فَدُعُوا بإحضارِ التوراةِ ليظهَرَ كذِبُهُمْ، فأبَوا ذلكَ، فلا ندري كيفَ كانتِ القصةُ؟ ولكنَّ فيهِ إثباتَ دلالةِ رسالةِ رسولنا محمدٍ ﷺ حينَ أخبرَ عمّا أسَرُّوا وأظهرَ ما كَتَمُوا، قالَ أبو زيدٍ[9]: (إنما قدرَ أهلُ الكتابِ على تغييرِ كتابِهِمْ والزيادةِ فيهِ [والنقصانِ منهُ، ولم يكنْ لأحدٍ تغييرُ القرآنِ عنْ وجهِهِ أو زيادةٌ فيهِ][10] أو نقصانٌ منهُ، لأنَّ [ما في كُتُبِهِمْ كانَ يُشبِهُ][11] كلامَ غيرِهِ مِنَ الحكماءِ، فغيَّروا

(١) في الأصل وم: لافتدوا. (٢) في الأصل وم: لا أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: أقربائك. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج في الأصل قبلها: ويحتمل. (٨) من م، في الأصل: بظلم. (٩) في الأصل وم: يزيد. (١٠) من م.
(١١) في الأصل وم: كتبهم تشبه.

بغيرِهِ منْ كلام[١] الحكماءِ. وأمّا القرآنُ فهو آيةٌ معجزةٌ لم يَقْدِروا على تحريفِهِ ولا تبديلِهِ، وإنْ عُلِمَ أنهُ كانَ كما ذُكِرَ، فهو[٢]، واللهُ أعلمُ، لِيَهتِكَ عليهِمْ أستارَهُمْ، وليُظهِرَ منهمْ ما كَتَمُوا. وفيهِ إثباتٌ لرسالةِ محمدٍ ﷺ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآيةَ قد ذكرْناهُ في ما تقدّمَ[٣].

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قيلَ فيه بوجوهٍ: قيلَ: أوّلُ بيتٍ مُباركٍ وُضِعَ للناسِ هو ببكةَ[٤]، وقيلَ أوّلُ مسجدٍ وُضِعَ للناسِ بمكةَ[٥]، وقيلَ: يريدُ ببكةَ البقعةَ، أي أوّلُ بقعةٍ خلَقَ اللهُ، هي[٦] بكةُ، ومنها دُحِيَتِ الأرضُ، وقيلَ: إنَّ آدمَ ﷺ لمّا أُمِرَ بالحجِّ قالَ لهُ جبريلُ ﷺ قد حجَّ فيه الملائكةُ قبلَكَ بألفي عامٍ، وقيلَ: خلَقَ اللهُ البيتَ قبلَ الأرضِ بألفَي عامٍ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿بِبَكَّةَ﴾ [قيلَ][٧] الزحامُ، وقيلَ: البكّةُ موضعُ البيتِ وسائرُ القريةِ. وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ/ ٦٤ ـ أ/ [أنهُ][٨] قالَ: (مكةُ مِنْ فَجٍ[٩] إلى التَّنْعيمِ[١٠] إلى المنحرِ[١١]، وبكّةُ مِنَ البيتِ إلى البطحاءِ[١٢]) وقيلَ: بكّةُ الكعبةُ حيثُ يَبُكُّ الناسُ أي يَزْحَمُ[١٣] بعضُهُمْ بعضاً ما وراءَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ قيلَ: تُغفرُ فيهِ الذنوبُ والخطايا ﴿وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الآية ٩٧ [وقولُهُ تعالى][١٤]: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ يَحْتمِلُ قولُهُ: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ ما لو تأمّلوا لَهداهُمْ، وذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ خلَقَ هذا البيتَ بينَ الجبالِ في أرضٍ ملساءَ قليلةِ الأنزالِ والرَّيعِ، لا ماءَ فيها، ولا شجرَ، ولا نَزْهةَ[١٥]، ولا[١٦] يرغَبُ الخَلْقُ إلى مِثْلِهِ، ثمَّ جعلَ قلوبَ الناسِ تميلُ، وتهوي إليهِ أفئدتُهُمْ من غيرِ أنْ كانَ ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ ما ذكرَ ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ وتلكَ آياتُهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ ظاهرُهُ في مَنْ جَنَى[١٧]، ثم دخلَ الحرمَ، أمِنَ، لأنَّ منْ لم يَجْنِ[١٨] فهو آمِنٌ، أنّى دخلَ إلى[١٩] الحرمِ وغيرِهِ. وإنما الآيةُ [إنما تختصُّ][٢٠] بالآمِنِ إذا دخلَ دونَ غيرِهِ. وقد رُوِيَ عنْ جماعةٍ من أصحابِ رسولِ اللهِ محمدٍ ﷺ ما يُوافقُ هذا، ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][٢١] قالَ: (إذا أصابَ الرجلُ الحدَّ في الحرمِ أُقيمَ عليهِ، وإنْ أصابَهُ [في][٢٢] غيرِ الحرمِ، ثم لجأَ إليهِ، لا يُحدَّثُ، ولا يُجالَسُ، ولا يُؤاكَلُ، ولا يُبايَعُ، حتى يخرجَ منهُ، فيُؤخذُ، فتقامُ عليهِ الحدودُ) ورُوِيَ[٢٣] عنِ ابنِ عمرَ ﷺ أنهُ قالَ: (لو وجدْنا قاتلَ أبينا في الحرمِ لم نقتلْهُ) ورُوِيَ عنِ الحسنِ، رحمَهُ اللهُ، أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (كان هذا في الجاهليةِ، فأمّا الإسلامُ فلم يَزِدْهُ إلّا شدةً: مَنْ أصابَ الحدَّ في غيرِهِ، ثم لجأَ إليهِ، أُقيمَ عليهِ الحدُّ) [وكانَ][٢٤] يقالُ للحسَنِ: إنَّ الصيدَ كان يؤمَنُ[٢٥] في الجاهليةِ، ثم الإسلامُ رفعَ[٢٦] ذلكَ الأمنَ، بل كان آمِنُ الصيدِ في حالِ الإسلامِ كَهُوَ في حالِ الجاهلية. فَعَلَى ذلكَ الأمنُ الذي كانَ في الجاهليةِ هو باقٍ غيرُ زائلٍ في الإسلامِ.

وأصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ، يذهبونَ إلى ما رُوِيَ عَنِ ابْنِ عباسٍ وابْنِ عمرَ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ حرَّمَ مكةَ يومَ خلَقَها، لم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي[٢٧]، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، وإنما أُحِلَّتْ لي ساعةً منْ نهارٍ[٢٨]، لا يُختَلَى خَلاها[٢٩]، ولا يُعضَدُ شَجَرُها، ولا يُنفَّرُ صيدُها، ولا يُحتَشُّ حشيشُها» [البخاري ١١٢ و٢٠٩٠] أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ مكةَ بعدَ الإسلامِ حرامٌ كما كانتْ قبلَهُ، وأنها لم تَحِلَّ لهُ [إلّا][٣٠] ساعةً منْ نهارٍ، فإذا كانَ المُلْتَجِئُ إليها[٣١] قبلَ الإسلامِ [آمِناً][٣٢] فالواجبُ أنْ يكونَ آمِناً بعدَ الإسلامِ حتى يَخرُجَ منها.

---

(١) ساقطة من م. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: وإلا. (٣) في تفسير الآية (١٣٥) من سورة البقرة. (٤) في الأصل وم: بكة. (٥) في الأصل وم: مكة. (٦) في الأصل وم: هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) موضع بنجد. (١٠) موضع قريب من مكة أقرب أطراف الحل إلى البيت. (١١) من م، في الأصل: المتحرك، وهو موضع نحر الهدي. (١٢) سيل فيه دقاق الحصى. (١٣) في الأصل وم: يزدحم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) الأرض النزهة القريبة من الريف. (١٦) في الأصل وم: مالا. (١٧) في الأصل وم: يجني. (١٨) من م، في الأصل: يجبن. (١٩) في الأصل وم: من. (٢٠) في الأصل وم: على ما يخص. (٢١) ساقطة من الأصل وم. (٢٢) ساقطة من الأصل وم. (٢٣) الواو ساقطة من م. (٢٤) ساقطة من الأصل وم. (٢٥) في الأصل وم: يأمن. (٢٦) في الأصل وم: يرفع. (٢٧) من م، في الأصل: قبل. (٢٨) في م: النهار. (٢٩) من م، في الأصل: خلافاً. (٣٠) من م، ساقطة من الأصل. (٣١) ساقطة من م. (٣٢) ساقطة من الأصل وم.

وحُجَّةٌ أُخرَى، وهي[1] أنَّ اللهَ تعالى أباحَ لرسولِ اللهِ ﷺ قَتْلَ المشركينَ جميعاً، بل فَرَضَ ذلكَ عليهِ إلّا أهلَ مكةَ فإنهُ لم يُحِلَّ لهُ قِتالَهُمْ إلّا ساعةً مِنْ نهارٍ، ففضَّلَ مكةَ على غيرِها بما خصَّها بهِ منَ التحريمِ، فلا يبعُدُ ألّا يُقامَ على مَنِ التجأَ إليها في الإسلامِ إذا كانتْ جنايتُهُ أقلَّ مِنْ كُفرِ أهلِها[2].

وفي الفرقِ [بينَ][3] منْ قتلَ فيها وفي غيرِها، ثم لجأَ إليهِ، وجهٌ آخرُ: قالَ[4] اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩١] أباحَ لهمُ القتلَ عندَ المسجدِ الحرامِ إذا قاتلوهُمْ[5]. فَعَلَى ذلكَ يُقامُ الحدُّ إذا أصابَ، وهو فيهِ، وإذا أصابَ، وهو في غيرِهِ لم يُقَمْ كما لم يُقاتِلوا إذا لم يُقاتَلوا. وهذا فَرْقٌ حَسَنٌ واضحٌ بحمدِ اللهِ تعالى وعونِهِ.

قال الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ خبراً عنِ[6] الحَرَمِ في قديمِ الدهرِ أنهُ كانَ، [على ما][7] بيْنَ الخَلْقِ منَ القتالِ والحربِ يأمَنونَ بالحرمِ إذا التَجَؤوا إليهِ، وذلكَ كقولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧] فيكونُ ذلكَ مِنْ عَظيمِ آياتِ اللهِ تعالى: أنَّ الجاهليةَ على عظيمِ[8] ما بَدَّلوا منَ الأمورِ، وغيَّروا مِنَ الدينِ، منعَهُمُ اللهُ تعالى عنْ هذا التغييرِ حتى بقيتْ لكلٍّ منْ شَهِدَهُ آيةً أنَّ اللهَ، لهُ هذا السلطانُ، وبهِ قامَ هذا التدبيرُ العظيمُ، لهُ العلمُ بحقائقِ الأشياءِ ووضعِ كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

وعلى ذلكَ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ٩٧]: قد جعلَ، جلَّ ثناؤهُ، ذلكَ كالمَأمَنِ في الشرعِ والطبعِ؛ فأمّا الشرعُ فما جاءتِ الرسلُ، وأمّا الطَّبْعُ فما تنافرَ الناسُ حتى سارَ ذلكَ إلى الصيدِ الذي يؤذيهِ الأخذُ وإلى أنواعِ الأشياءِ التي قامتْ بجوهرِ تلك البقعةِ منَ النباتِ[9] لا بأسبابٍ تُكتَسَبُ، ولهذ كُرِهَ بيعُ رباعِ مكةَ، ورُخِّصَ في بيعِ ما يحدثُ فيه منَ البُنْيانِ، واللهُ أعلمُ. ودلَّ قولُهُ: ﴿جَعَلۡنَا﴾ كذا على لزومِ ذلكَ الحقِّ لأنهُ مذكورٌ بحرفِ الإمْتِنانِ والإحْتِجاجِ لهُ، ولا يجوزُ تغْيِيرُ الذي هذا وصفُهُ، واللهُ أعلمُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿كَانَ﴾ صارَ ﴿ءَامِنٗاۗ﴾ أي أوجبَ لهُ الأمانَ، ومعلومٌ أنَّ الذي لم يَلْزَمْهُ القتلُ كانَ آمناً دونَ دخولِهِ، فثبتَ أنَّ ذلكَ في منْ لَزِمَهُ، وأيّدَ ذلك قولُهُ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩١] فهمْ قومٌ قد سبقَ منهمُ الكفرُ وقتَ شرعَ القتلُ بالكفرِ، لم يأخذْهُمْ حقُّ الشرعِ على ما سبقَ منَ الكفرِ في وقتٍ لمْ يكنْ ذلكَ جزاؤهُ في الدنيا إلا أنْ يُحدِثَ القتالَ. فعلى ذلكَ منْ لَزِمهُ لا فيهِ فهو يأمَنُ إلا أنْ يكونَ أحدثَ فيهِ، واللهُ أعلمُ.

وأصلُهُ أنهُ أضافَ الأمانَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ وكلُّ حدٍّ[10]، يُتلِفُ نفسَهُ، فلهُ أمانٌ بالدخولِ فيهِ، وكلُّ حدٍّ[11]، في إقامتِهِ إحياءُ ما جُعلتِ الحياةُ [لئلا يقعَ][12] مِثلُهُ، فهو يُقامُ ليكونَ زَجْراً لهُ وتكفيراً [وحفظاً][13] على بقاءِ الأمنِ بقاءَ[14] نفسِهِ وردِّهُ إلى ما يَدْرأُ أنهُ التجأَ إليهِ للهربِ منْ[15] حكمِ اللهِ تعالى أو للأمانِ باللهِ ليصلَ إلى إقامةِ أحكامِ اللهِ تعالى آمِناً، وفي إقامتِهِ هذا أيضاً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ فرضَ اللهُ تعالى الحجَّ بهذهِ الآيةِ على ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ ولم يُبَيِّنْ ما السبيلُ؟ وبيَّنَ ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَ سُئلَ عنِ الإسْتِطاعةِ، فقالَ: «الزادُ والراحلةُ» [الترمذي ٨١٣] وهكذا يقولُ علماؤُنا: إنَّ الإسْتِطاعةَ والسبيلَ، هو الزادُ والراحلةُ كما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وكانَ بعضُ الناسِ، إذا كانَ بينَهُ وبينَ الحجِّ بحرٌ، لم يَلْزَمْهُ الحجُّ، فكأنهُ ذهبَ إلى ظاهرِ الآيةِ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ فجعلَ[16] البحرَ وأشباهَهُ مُزيلاً لِلاستِطاعةِ، فخالفَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئلَ عنِ الإسْتِطاعةِ، فقالَ: «الزادُ والراحلةُ» لأنَّ النبيَّ

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم العبارة التالية: ولم يحل قتالهم إلا ساعة النهار. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: حول. (٥) في الأصل وم: قتلونا. (٦) في الأصل وم: من. (٧) من م: في الأصل: عليها. (٨) من م، في الأصل: عظم. (٩) من م، في الأصل: النبات. (١٠) في الأصل وم: حق. (١١) في الأصل وم: حق. (١٢) في الأصل وم: ليقع. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: يقي. (١٥) في الأصل وم: عن. (١٦) من م، في الأصل: فعجل.

ﷺ هو المبيِّنُ عنِ اللهِ، فعلَينا اتّباعُهُ في قولِهِ وفعلِهِ وتفسيرِهِ الآيةَ، ولكنّا نجعلُ منْ يُحالُ(١) بينَهُ وبينَ البيتِ معذوراً في التأخيرِ، ولا يأثَمُ، إنْ شاءَ اللهُ، إذا لم يقدِرْ على الوصولِ إلى البيتِ بعلّةٍ على جعلِ التأخيرِ في غيرِها مِنَ العباداتِ عندَ الأعذارِ والعللِ، ولا يأثَمُ في ذلكَ.

ثم في الآيةِ دلالةٌ ألّا تَلزَمَ المرأةَ بالحجِّ إلا بالمُحْرَمِ، لأنَّ المرأةَ، وإنْ وجدَتِ الزادَ والراحلةَ، فإنها تحتاجُ إلى مَنْ يُركِبُها، ويُنزِلُها، ولا تقدِرُ على ذلكَ إلّا بغيرِها، وهكذا العُرفُ فيهنَّ، فإذا كانَ كذلكَ جعلَها(٢) كأنها غيرُ واجدةٍ الراحلةَ، واللهُ أعلمُ.

وفيه دلالةٌ: أنَّ العبدَ إذا حجَّ، ثمَّ أُعتِقَ، لَزِمهُ حَجّةُ الإسلامِ [لا لأنهُ](٣) يملكُ الزادَ والراحلةَ، فإذا لم يملكِ الزادَ والراحلةَ لم يَجْزِهِ(٤) ذلكَ منْ حجةِ الإسلامِ، وكذلكَ رُويَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «أيُّما عبدٍ حجَّ ولو عَشْرَ حِججٍ فعليهِ إذا أُعتِقَ حَجّةُ الإسلامِ» [الطبراني في الأوسط ٢٧٥٢] وليسَ كالحرِّ الفقيرِ يحجُّ، ثم أيسرَ، جازَهُ(٥) ذلكَ منْ حَجّةِ الإسلامِ، ففرَّقوا بينَهما وإنْ كانا في زوالِ الحجِّ في الابْتِداءِ سَواءً، وذلكَ أنَّ الفقيرَ إذا بلغَ ذلكَ المكانَ صارَ غنيًّا، ولَزِمَهُ الفرضُ، لأنهُ لا يحتاجُ حينئذٍ إلى زادٍ وراحلةٍ. وأمّا العبدُ إذا حضرَ ذلكَ المكانَ، لم يُعتَقْ [فلا يَجزيهِ ذلكَ](٦) لذلكَ افْتَرَقا.

وفي ذلكَ حُجّةٌ أخرى ما جمعَ أهلُ العلمِ أنَّ فقيراً لو حضرَ القتالَ ضُربَ لهُ بسهمٍ كاملٍ كما يُضرَبُ لِمَنْ كانَ فرضُ الجهادِ لازماً لهُ، ولو أنَّ عبداً شهدَ الوقعةَ، وَضَحَ لهُ [أنه](٧) لم يكمُلْ لهُ سهمُ الحرِّ، فافترَقَ(٨) حالُ الفقيرِ والعبدِ في الجهادِ والضربِ في السهامِ. فعلى ذلكَ يفترقُ حالُهُما، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ الشيخَ الذي لا يَسْتَمسِكُ على الراحلةِ إذا وجدَ غيرَهُ، يلزَمُهُ فرضُ الحجِّ، فما يُنكِرُ ممّنْ قالَ في المرأةِ بمثلِهِ، فاحتجَّ بما رُويَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ](٩) قالَ: (جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ/ ٦٤ - ب/ فقالَ: يا رسولَ اللهِ إنَّ أبي شيخٌ أدركَتْهُ فريضةُ الحجِّ، وهو لا يستطيعُ أنْ يَسْتمسِكَ على الراحلةِ، أفيجزي أنْ أحجَّ عنهُ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أرأيت لو كانَ على أبيكَ دينٌ، فقضيتَهُ عنهُ، أكانَ يُقبَلُ منكَ؟ قالَ: نعم، قالَ: فأنتَ(١٠) أولَى بحجِّ أبيكَ» أو كلامٌ نحوُهُ [أحمد: ٦/ ٤٢٩] وليسَ في الخبرِ أنَّ فريضةَ الحجِّ [قد أدركَتْهُ وهو شيخٌ](١١)، إنما أدركَتْهُ فريضةُ الحج قبلَ ذلكَ. فكذلكَ يقولُ علماؤنا: إنَّ الحجَّ إذا وَجَبَ، فأخَّرَ أداءَهُ حتى أعسَرَ، لم يسقُطْ عنهُ الحجُّ، كذلك إذا وجبَ عليهِ الحجُّ، فلم يحجَّ حتى كبرَ، فصارَ لا يَسْتمسِكُ على الراحلةِ، عليهِ أنْ يوصيَ ليُحَجَّ عنهُ، ويَحْتَمِلُ أيضاً أنهُ رغَّبَهُ رسولُ اللهِ ﷺ في الحجِّ عنه متبرِّعاً، إلّا أنهُ ألزمَهُ الحجَّ في ذلكَ الوقتِ لأنه(١٢) يَثبُتُ على الراحلةِ. وعندَنا أنهُ لا يُلزِمُهُ لأنهُ لا يَسْتَمسِكُ على الراحلةِ، فلا راحلةَ لهُ. ثم مِن قولِ هذا القائلِ: إنَّ منْ لزمَهُ فرضُ الحجِّ فلهُ التأخيرُ، وفي التأخيرِ فَوتٌ(١٣) أو إدراكُ المَنيّةِ، ومنْ قولِهِ: إنه لو أخَّرَ حتى ماتَ يصيرُ فاسقاً، يجعلُ لهُ رخصةَ التأخيرِ، ثم يُفسِّقُهُ، فكأنهُ(١٤) يجعَلُ لهُ الرخصةَ في الفِسقِ، وذلكَ(١٥) قبيحٌ وَوَحْشٌ منَ القولِ سمجٌ. وأمّا عندنا فلا يسَعُ لهُ التأخيرُ في أوّلِ أحوالِ الإمكانِ على تمامِ شرطِ الاختيارِ كغيرِهِ منَ العباداتِ التي لَزِمَتْ مِنْ نحوِ الصلاةِ والصيامِ وغيرِهما لا يَسَعُ التأخيرُ، فعلى ذلك الحجُّ.

ثم منْ قولِ الشافعيِّ، رحمَهُ اللهُ: إنّ على الكافرِ الحجَّ والصلاةَ والصيامَ في حالِ كفرِهِ، فإذا أسلمَ سقطَ ذلك عنهُ، فذلكَ عندنا لعبٌ وعبثٌ في دِينِ اللهِ، تعالى، وتباركَ، غيرُ جائزٍ أنْ يلزَمَهُ فرضٌ في حالٍ [ليسَ عليهِ](١٦) فعلُهُ، فإذا جاءَ سببُ الجوازِ سقطَ(١٧) عنهُ ذلكَ، وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ الحجَّ إنما [كانَ](١٨) فرضاً على المؤمنينَ خاصةً بقولِهِ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلو كانَ هو على الكافرِ كما المسلمِ لم يكنْ لقولِهِ معنًى، دلَّ أنه غيرُ لازمٍ، واللهُ أمرَ بالعباداتِ باسْمِ المؤمنين.

---

(١) في الأصل وم: يحول. (٢) في الأصل وم: جعل. (٣) في الأصل وم: لأنه لا. (٤) و(٥) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: فافتراق. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فالله. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: لا. (١٣) من م، في الأصل: قوة. (١٤) في الأصل وم: فكان. (١٥) في الأصل وم: فذلك. (١٦) في الأصل وم: له. (١٧) في الأصل وم: يسقط. (١٨) من م، ساقطة من الأصل.

ثم المسألةُ بيننا وبينَ المعتزلةِ في الاستطاعةِ: قالتِ المعتزلةُ: تكونُ قبلَ الفعلِ لأنَّ اللهَ تعالى فرضَ الحجَّ، وأمرَ بالخروجِ إليه إذا قُدِرَ على الزادِ والراحلةِ على ما فَسَّرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ وإذا لم يُقدَرْ لم يُلْزِمْهُ، فدلَّ أنها تتقدَّمُ. وأمّا عندنا فهي على وجهَينِ:

أحدُهما: استِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ.

والثاني: استِطاعةُ الأفعالِ.

فأمّا استِطاعةُ الأحوالِ والأسبابِ فيجوزُ تقدُّمُها من نحوِ الزّادِ والراحلةِ والجوارحِ السليمةِ، وأمّا استِطاعةُ الأفعالِ فإنها لا تكونُ إلّا معَ الفعلِ لأنها استِطاعةُ الفعلِ وسَبَبُهُ، فلا تكون إلا معهُ، والوقتُ في الحجّ [الفعلِ الحج][(١)] لا للإيجابِ، لأنهُ لو كانَ للإيجابِ لكانَ لهُ ألّا يَخرُجَ، ولا يأتيَ ذلكَ المكانَ، فيجبَ عليه الحجُّ، ولأنه لو لم يَلْزَمْهُ إلّا بالوقتِ، ثم لا يتمكنُ فعلَهُ بِهِ دونَ المكانِ، فيجيءُ ألّا يَلْزَمَهُ إلا بحضورِ ذلكَ، فلا يَلْزمُهُ الخروجُ أبداً، إذِ الحجُّ غيرُ لازمٍ إلا بالوقتِ، ولأنهُ ليسَ على العبدِ أنْ يُكلَّفَ باكْتِسابِ إيجابِ العباداتِ، وعليهِ أنْ يجهَدَ في أداءِ الواجبِ عليهِ.

ثم الأوقاتُ على أقسامٍ ثلاثةٍ: وقتُ الإيجابِ والأداءِ جميعاً نحوُ الصلاةِ والصيامِ ونحوُهما، ووقتُ الإيجابِ نحوُ الزكاةِ، ووقتُ الأداءِ وهو الحجُّ، إنما وجوبُهُ بالزادِ والراحلةِ. وأمّا وقتُهُ[(٢)] فهو للأداءِ خاصةً، فإذا كانَ في أقصى بلادِ المسلمينَ فهو لم يُعطَ قدرةَ فعلِ الحجِّ لأنه لا يقدرُ على فعلِهِ إذا كانَ في ما ذكَرْنا، دلَّ أنَّ قدرةَ الفعلِ لا تتقدَّمُ الفعلَ وقدرةَ الأحوالِ تتقدَّمُ لِما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الآيةِ دلالةُ أنَّ اللهَ ﷻ إذا أمرَ عبادَهُ بأمرٍ، ليسَ يأمرُهُ لحاجةِ[(٣)] نفسِهِ، ويأمرُهُ لحاجةِ العبدِ لأنهُ غنيٌّ بذاتِهِ، لا حاجةَ تمَسُّهُ.

وأمّا الأمرُ في ما بينَ الخَلْقِ فإنما هو لحاجةِ بعضِهِمْ لبعضٍ: إمّا جرُّ منفعةٍ وإمّا دفعُ مكروهٍ، فذلكَ معنى قولِهِ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄ [﴿وَمَن كَفَرَ﴾ قالَ: مَنْ زعمَ أنه لم يُنزَّلْ) وعنِ الحسنِ: (﴿وَمَن كَفَرَ﴾ قالَ: مَنْ زعمَ أنَّ الحجَّ ليسَ بواجبٍ) وقيلَ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ قالَ: هو الذي إنْ حجَّ لم يُرجَ ثوابُهُ، وإنْ جلسَ لم يَجْزِ عقابُهُ، وعنِ ابنِ عباسٍ ﵄ أنهُ قالَ:][(٤)] ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ والسبيلُ أنْ يصحَّ بدنُ العبدِ، وأنْ يكونَ لهُ ثمنُ زادٍ وراحلةٍ مِن غيرِ أنْ يُحجَبَ، ثم قالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يقولُ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالحجِّ، فلمْ يرَ حَجَّهُ بِرّاً ولا تَرْكَهُ مأثماً).

[وفي قولِهِ تعالى][(٥)]: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ دلالتانِ:

إحداهُما: في الوجوبِ بقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وما جاءَ منَ الأثرِ واتّفاقِ القولِ.

والثانيةُ[(٦)]: جعلُ البيتَ شرطاً للقيامِ لما هو في قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ذلكَ، فيكونُ فيهِ دليلُ لزومِ الطوافِ، وتفسيرُهُ[(٧)] في قولِهِ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] وكذلكَ أيَّدَهُ قولُهُ: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ [البقرة: ١٥٨] وأيَّدَهُ[(٨)] أيضاً ما رُويَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ في امرأةٍ نفسَتْ: «أحابِسَتُنا هي؟» [البخاري/١٧٥٧] قيلَ: إنها أفاضَتْ. وعلى ذلكَ اتفاقُ القولِ بلزومِ الطوافِ، واللهُ أعلمُ، فلمّا دلَّ أنَّ الطوافَ لازمٌ لم يخلُ إمّا أنْ يكونَ الطوافُ: المُبْدَأُ بِهِ في الحجِّ، وإمّا[(٩)] الذي يُختَمُ بهِ. والذي يُبدأُ بهِ لا يَلْزَمُ كلَّ الناسِ. ثبتَ أنَّ الفرضَ هو الذي يُختَمُ بِهِ، وهو قولُهُ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أوجبَ جعلَ السبيلَ إليهِ والإمكانَ شرطاً للوجوبِ، إذِ الآيةُ في ذكرِ الوجوبِ لا الفعلِ. وعلى ذلكَ جميعُ العباداتِ جعلَ الإمكانَ في وجوبِها شرطاً بالوُسْعِ[(١٠)] بقولِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وغيرِ ذلكَ ممّا ذكرَ في كلِّ نوعٍ منَ العباداتِ منَ الاستِطاعةِ، وكذا حقُّ هذا بالفعلِ، وذلك يُخرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في النسخ الثلاث: الوقت. (٣) من م، في الأصل: حاجة. (٤) ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والثاني. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وأيد. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: بالسمع.

[أحدُهما][1]: استطاعةُ الفعلِ منَ القدرةِ التي تُحدِثُ لا محالةَ ما سَلِمَتِ الأسبابُ إلّا أنْ يكونَ مِمَّنْ منهُ الفعلُ الإعراضُ عنها بالشغلِ بغيرِ ذلكَ: الأفعالُ أو اشتِغالُ ذلكَ بالفعلِ، فيكونُ فوتُ الاسْتِطاعةِ بتَضْييعِهِ، ولا عُذْرَ بفوتِ ما كانَ المكلَّفُ يُفَوِّتُهُ كفوتِ العِلْمِ بهِ، على أنْ كانَ لا يقومُ دونهُ. والذي يؤيِّدُ أنَّ هذِه الاسْتِطاعةَ ليستْ[2] بشرطٍ في الإيجابِ أنها لا تبقى، ثم محالٌ وجودُها في حالٍ لو أُريدَ إقامةُ الحجِّ لا يتهيأُ، وذلكَ نحوُ أنْ نكونَ في أقصى البلادِ مِنْ مكةَ. ومعلومٌ أنَّ القدرةَ التي بها يكونُ الفعلُ ليستْ معهُ، ومحالٌ تكليفُ السببِ الذي به يجبُ الفعلُ، فلذلكَ لم يجبْ تكليفُ الخروجِ، ولا أُمِرَ بالحجِّ، فكأنهُ يُؤمَرُ بتكليفِ سببِ الإيجابِ، ثبتَ أنْ قد يجبُ الحجُّ لا بتلكَ القوةِ، وكذلكَ يجوزُ في الكفاراتِ اسْتِعمالُ الأبدالِ في حالِ العجزِ، وإنْ كانَ لا يُعلَمُ أنَّ العجزَ يمتدُّ إلى آخرِ ما يقومُ به الأصلُ بل على ظهورِ ألّا يمتدَّ بمعنى البدلِ، ثبتَ أنْ لا عبرةَ لفقدِ قدرةِ الفعلِ ووجودِها في التكليفِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: يُرادُ بالاسْتِطاعةِ سلامةُ الأسبابِ، ولا يجوزُ التكليفُ دونَها بالفعلِ لأنهُ ممنوعٌ، ومُحالٌ أمرُ الممنوعِ عن الفعلِ بهِ كالأعمى والمقعدِ ونحوُ ذلكَ. وإلى مثلِ هذا انْصَرَفَ شرطُ الاسْتِطاعةِ، وهوَ[3] اللازمُ في الفعلِ لِما القُرَبُ بحقِّ الشكرِ لما أنعمَ على المأمورِ، فإذا مُنِعَ عنهُ السببُ الذي هو النعمةُ لم يَحْتَمِلْ أنْ يُؤمَرَ بالشكرِ، ولا نعمةَ، واللهُ أعلمُ. وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنه سُئلَ عنْ ذلكَ فقالَ: «الزادُ والراحلةُ» [الترمذي ٨١٣] واللهُ الموفقُ. وعلى ما ذكرْتُ يُخرَّجُ قولُ أبي حنيفةَ ﵁: وجوبُ الحجِّ، وإنْ لم يدركِ الوقتَ الذي فيهِ[4] يقومُ الحجُّ على ما لَزِمَهُ، وإنْ لم يكنْ أصابَ المكانَ الذي فيهِ يقامُ، واللهُ أعلمُ بظاهرِ الآيةِ معَ ما ذكرْنا منْ بيانِ الأثرِ.

وأصلُهُ أنَّ الوقتَ في الحجِّ جُعِلَ بجوازِ الفعلِ إذ هو لِفواتٍ لا يُحْتَمَلُ في غيرِهِ، وكلُّ فعلٍ يجوزُ في غيرِ وقتِهِ فما يُقرِّبُ منَ الوقتِ بهِ كانَ أحقَّ بالجوازِ، فإذا لم يَجُزْ هذا، جازَ في مثلِهِ منَ القابلِ ثبتَ أنهُ للجوازِ لا للوجوبِ، وأيَّدَ ذلك ما لا يُوصَفُ بالقضاءِ متى أُدِّيَ، ولو كانَ في الأوّلِ واجباً لوقتِ الأولِ لكانَ يكونُ في الثاني قاضياً، فإذا لم يكنْ ثبتَ أنه ليسَ لوجوبِهِ وقتٌ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى:/ ٦٥ ـ أ/ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وآياتُ اللهِ ما ذكرْنا في ما تقدَّمَ بمحمدٍ ﷺ وبالقرآنِ والحُجَجِ[5] ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ هو حرفُ وعيدٍ وتنبيهٍ، يُنَبِّهُهُمْ عن صنيعِهِمْ ليكونوا على حذرٍ مِنْ ذلكَ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ﴾ منَ الأتباعِ الذين كانَ إيمانُهُمْ إيمانَ تقليدٍ لا إيماناً[6] بالعقلِ، لأنَّ [مَنْ][7] كانَ إيمانُهُ إيماناً[8] بالعقلِ فهو لا يُصَدُّ، ولا يُصرَفُ عنهُ أبداً، كما عَرَفَ حسنَ الإيمانِ وحقيقتَهُ بالعقلِ، فهو لا يتركُهُ[9] أبداً، وأمّا منْ كانَ إيمانُهُ إيمانَ تقليدٍ، ولم[10] يكنْ إيمانُهُ إيمانَ حقيقةٍ، فمثلُهُ يُصَدُّ عنهُ، إلّا أنْ منْ يَمُنُّ اللهُ عليهِ، فيشرحُ صدرَهُ حتى يكونَ على نورٍ منهُ، وذلكَ أحدُ وجوهِ اللطفِ، والمقلِّدُ غيرُ معذورٍ لِما معهُ ما لو استعمَلَهُ لأوضحَ له الطريقَ، وأراهُ قُبحَ ما آثَرَهُ منَ التقليدِ، واللهُ الموفقُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ﴾ [أي لِمَ تقصِدونَ][11] صدَّهُمْ عن سبيلِ اللهِ، وهُمْ لا يرجِعونَ إلى دينكِمْ إياساً[12] منهُ إياهُمْ عن أنْ يرجِعوا عن دينهِمُ الذي [همْ][13] عليهِ كقولِهِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فيهِ إياسُ الكفرةِ عنْ رجوعِ المسلمينَ إلى دينِهِمْ. وقيلَ: كانوا يصرفونَ المؤمنينَ عنِ الحجِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ والعِوَجُ هو [المَيلُ][14] عنْ طريقِ الحقِّ، وهو الزَّيغُ، والتعوُّجُ عنِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ﴾ [وقولُهُ][15] ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤ وآل عمران: ٧٠] واحدٌ. وحرفُ حفصة ﵂ وأنتمْ شهداءُ على الناسِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليس. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: به. (٥) في الأصل وم: بالحجج. (٦) في الأصل وم: إيمان. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: إيمان. (٩) في الأصل وم: يترك. (١٠) من م، في الأصل: فلم. (١١) في الأصل: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ قصدَ، في م: أي ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ قصد. (١٢) في الأصل وم: إياس. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هو حرفُ وعيدٍ وتنبيهٍ، لأنَّ مَنْ عَلِمَ [أنَّ عليه رقيباً وحافظاً][(١)] فيكونُ أحذرَ وأخوفَ مِمنْ[(٢)] لم يكنْ عليهِ ذلكَ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: وفيهِ أنهُ لا غفلةَ [عنِ الذي][(٣)] يكونُ منكمْ، ولكنْ على عِلْمٍ لِتَعلَموا أنهُ لا للحاجةِ خلَقَكُمْ بل لإظهارِ الغِنَى والسلطانِ لهُ، جلَّ جلالُهُ، وعمَّ نوالُهُ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: معلومٌ أنَّ المؤمنينَ لا يُطيعونَ الكفارَ بحالٍ في الكفرِ، ولكنَّ معناهُ، واللهُ أعلمُ، أنْ يدعوهُمْ إلى شيءٍ لا يعلَمونَ أنَّ في ذلكَ كفراً[(٤)]، نهاهُمْ أنْ يُطيعوهُمْ، وفي كلِّ ما يدعونكُمْ إليه كَفَروا، وأنتمْ لا تعلَمونَ، ويَحْتَمِلُ النهيَ عنْ طاعَتِهِم، نَهاهمْ عنْ أنْ يُطيعوهُمْ، وإنْ كانَ يعلمُ أنهمْ لا يُطيعونَهُمْ، كما نَهى الرسولَ ﷺ[(٥)] في غيرِ آيةٍ[(٦)] مِنَ القرآنِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤ و..] [وكقولِهِ][(٧)] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧ و..] فكذلك هذا.

قال الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: ويُشبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ في عرضِ أمورٍ عظامٍ، تُرَغِّبُ فيها [لئلا يُكفَرَ][(٨)] بها، فحذَّرَ عنْ ذلكَ بما بيَّنَ منَ الاعتِناذِ والخَسارِ في آيةٍ أُخرَى[(٩)] لِيَعلَموا أنَّ ذلكَ تجارةٌ مُخَسِّرَةٌ، وقد كانتْ لهمْ، ولأهلِ كلِّ دينٍ ومذهبٍ هذا الاعْتِناذُ، واللهُ أعلمُ. وعلى ذلك قولُهُ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ على أنَّ الذي أراكمُ الرسولُ ﷺ ألذُّ للعقولِ وأرْوَحُ[(١٠)] للأبدانِ مما وعدُوهُ معَ سوءِ المآبِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وهو على وجهِ التعجُّبِ ظاهِرُهُ؟ ولكنهُ على طلبِ الحُجَّةِ في كفرِهِمْ ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يدفعُ عنكمُ الشُّبهةَ التي عرضَتْ لكمْ بإلقاءِ الكفارِ إليكمْ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي مَنْ جعلَ اللهَ ﷻ مَلْجأً لهُ ومَفْزَعاً عندَ الشُّبَهِ والإشكالِ ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يحفظُهُ عنِ الشُّبَهِ، ويرشِدُهُ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ واللهُ أعلمُ، ويَحْتَمِلُ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ يتمسَّكْ بالذي جاءَ منَ القرآنِ ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ [أنه][(١١)] قالَ: (﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أنْ يُطاعَ، فلا يُعصَى، ويُشكَرَ، فلا يُكفَرَ، ويُذكَرَ، فلا يُنْسَى، وأرادَ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ مما يَحْتَمِلُ وُسْعَ الخَلْقِ) ورُوِيَ عنْ أنسٍ ﷺ [أنهُ كان][(١٢)] يقولُ: (لا يتّقي [اللهَ][(١٣)] أحدٌ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حتى يتخوّفَ[(١٤)] منْ لسانِهِ، ويَعُدُّ كلامَهُ مِنْ عملِهِ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أطيعُوا اللهَ حقَّ طاعتِهِ) وقيلَ: إنَّ هذا نَسخَهُ[(١٥)] قولُهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ الآية [التغابن: ١٦] لكنْ لا يُحتَمَلُ أنْ يأمرَ الخَلْقَ بشيءٍ ليسَ في وُسْعِهِمُ القيامُ بهِ، ثم نسخَ ذلك بما يُستطاعُ. ولكنَّ أصلَهُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ للهِ على عبادِهِ حقّاً، ولِعِبادِهِ عليهِ حقّاً، وحقُّ اللهِ على عبدِهِ أنْ يَعبدَ اللهَ، ولا يُشرِكَ غيرَهُ فيهِ، وحقُّ العبدِ على اللهِ أنْ يُدخلَهُ الجنةَ إذا عبدَهُ، ولم يُشرِكْ غيرَهُ فيهِ أحداً» [البخاري ٧٣٧٣] فيكونُ هذا تأويلاً للآيةِ: أنَّ قولَهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لا[(١٦)] تكفُروا، فيكونَ فيهِ الأمرُ بالإيمانِ والنهيِ عنِ الكفرِ لأنهُ ليسَ في وُسْعِ أحدٍ أن يتَّقِيَ اللهَ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ في كلِّ العباداتِ[(١٧)]، ألا ترَى إلى [ما][(١٨)] رُوِيَ منْ أمرِ الملائكةِ معَ ما وُصِفوا منْ عبادتِهِمْ أنهمْ لا يَفْتُرونَ، ولا يَسأمونَ، ثم يقولونَ: ما عبدْناكَ حقَّ عبادَتِكَ؟ وإذا كانَ أحدٌ لا يبلغُ ذلكَ، فلا يَحْتَمِلُ تكليفَ مثلِهِ. وجملَتُهُ أنَّ ذلك ليسَ بذي حدٍّ وعنايةٍ، فلذلكَ، واللهُ أعلمُ، الأمرُ فيهِ راجعٌ إلى الإسلامِ، أو في نفيِ حقِّ الإشراكِ خاصةً لا في جميعِ الأحوالِ والأفعالِ، دليلُهُ ما ختمَ به الآيةَ.

---

(١) في الأصل: رقيب وحافظ، في م: أن عليه رقيب وحافظ. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: بالذي. (٤) في الأصل وم: كفر. (٥) في م: عليه السلام. (٦) في الأصل وم: آي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ليكفر. (٩) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]. (١٠) من م، في الأصل: وأرواح. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل: يحزن، في م: يخوف. (١٥) في الأصل وم: نسخها. (١٦) في الأصل وم: ولا. (١٧) في الأصل وم: العبادة. (١٨) من م، ساقطة من الأصل.

وفي وُسْعِ الخَلْقِ ألّا يُشرِكوا أحداً في عبادَتِهِ. ألاَ ترى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ وفي ظاهرِ الآيةِ النهيُ عنِ الموتِ إلا [بالإسلامِ][1] وليسَ في الموتِ صنعٌ للخلْقِ. والمعنى، واللهُ أعلمُ، أي كونوا في حالٍ إذا أدْرَكَكُمُ الموتُ كُنتمْ مُسلِمينَ، فالنهيُ فيهِ نهيٌ عنِ الكفرِ، والأمرُ بالإسلام حتى إذا أدْرَكَهُ الموتُ أدْرَكَهُ، وهو مسلمٌ، واللهُ أعلمُ. وقد يكونُ على بيانِ أنْ لا عذرَ عندَ الموتِ، وإنِ اشتدَّ أمرُهُ بالذي ليسَ بإسلامٍ.

ورُوِيَ عنْ أبي حنيفةَ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (أكثرُ ما يُسلَبُ الإيمانُ عندَ الموتِ، كأنَّ الشيطانَ يُطمِعُهُ[2] في أمرٍ، لو أعطاهُ ما طَلَبَ). ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي احذَروا عذابَ اللهِ حقَّ حِذْرِهِ، واحذَروا نَقْمَتَهُ كقولِهِ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و٣٠] [يعني][3] نَقْمَتَهُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ اختُلِفَ فيهِ، قيلَ: حبلُ اللهِ يعني القرآنَ، وهو قولُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][4] قالَ: (حبلُ اللهِ الجماعةُ، وإنما هلكتِ الأممُ الخاليةُ بتفرُّقِها) أمرَ بالكونِ معَ الجماعةِ، ونَهى عنِ التفرُّقِ، لأنَّ أهلَ الإسلامِ همُ الجماعةُ. ألا ترَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾؟ [الأنعام: ١٥٣] وصفَ أهلَ دينِ الإسلامِ بالجماعةِ وأهلَ [الأديانِ غيرَهُمْ][5] بالتَّفرُّقِ. وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أيضاً [أنهُ][6] قالَ: (حبلُ اللهِ الجماعةُ) ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ فارقَ الجماعةَ قيدَ شِبرٍ فقد خلَعَ ربْقَةَ الإسلامِ عنْ عنقِهِ» [الحاكم في المستدرك ١/١١٧] يعني أصلَ الإسلامِ. ورُوِيَ عنهُ أيضاً: «إنَّ للشيطانِ ذئباً كذئبِ الغنمِ، يأخذُ الشاذَّةَ والقاصيةَ والناصيةَ وإياكمْ والشِّعابَ، وعليكمْ بالجماعةِ والعامةِ وهذا المسجدِ» [أحمد ٥/ ٢٣٣] وعنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه [أنهُ][7] قالَ: (دعاني رسولُ الله ﷺ ليلةً ثلاثَ مراتٍ، ثم قالَ: «يكونُ في أُمَّتي اختلافٌ» قلتُ: كيف نصنَعُ يا رسولَ اللهِ إذا كانَ كذلكَ؟ قالَ: «عليكمْ بكتابِ اللهِ فإنَّ فيهِ نبأَ مَنْ قبلَكُمْ وخبرَ ما بعدَكُمْ، وهو حَكَمٌ في ما بينَكُمْ، منْ يَدَعْهُ فما مِنْ جبارٍ يعصِمُهُ منَ اللهِ، ومنْ يتركْهُ طالباً غيرَهُ يُضِلُّهُ اللهُ، وهو حَبْلُ اللهِ المتينُ وأمرُهُ الحكيمُ، فهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تَختَلِفُ فيهِ الألسِنةُ، ولا يُخْلِقُهُ كَثْرةُ تَرَدُّدٍ، ولا تَنْقَضي عجائبُهُ») [الترمذي ٢٩٠٦] وقيلَ: حَبْلُ اللهِ دينُ اللهِ، والحبلُ، هو العهدُ، كأنهُ أمرَ بالتمسُّكِ بالعهودِ التي في القرآنِ والقيامِ بوفائِها والحفظِ لها، ونَهى عنِ التَّفرُّقِ [كما تفرَّقَتِ][8] الأُممُ الخاليةُ، واختلَفتِ[9] الأديانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بمحمدٍ ﷺ وقيلَ: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾/ ٦٥ ـ ب/ بالإسلامِ، وقيلَ: بالقرآنِ، ولم يكنْ ذلك بالدينِ نفسِهِ، ولكنْ بلطفٍ منَ اللهِ منَّ بهِ على أهلِ دينِهِ، وأخبرَ أنَّ التأليفَ بينَ قلوبِهِمْ نعمةٌ، لأنَّ التفرُّقَ يُوجِبُ التباغُضَ، والتباغضَ يوجِبُ التقاتُلَ، وفي ذلكَ التفاني. وعلى قولِ المعتزلةِ: ليسَ مِنَ اللهِ على المسلمِ منَ النعمةِ إلّا ومثلُها يكونُ على الكافرِ، لأنَّ الهُدى والتوفيقَ عندَهُمُ البيانُ. فذلكَ البيانُ للكافرِ كَهُوَ على المسلمِ، وعلى قولِهِمْ لا يكونُ منَ اللهِ على أحدٍ نعمةٌ لأنهمْ لا يجعلونَ للهِ في الهدايةِ فعلاً، إنما ذلكَ منَ الخلْقِ. وأمّا عندَنا فإنما يكونُ الإسلامُ بهدايتِهِ إياهُ، فذلكَ مِنْ أعظمِ النعمِ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي صِرتُمْ بنعمتِهِ إخواناً. وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي كنتُمْ أشفَيتُمْ [على][10] حفرةٍ منَ النارِ، وهو القُرْبُ منها لولا أنهُ منَّ بالإسلامِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على الكونِ فيها والوقوعِ، لا القُرْبِ كقولِهِ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] ليسَ على الرؤيةِ خاصةً، ولكنْ على الوقوعِ فيها، وكقولِهِ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ليسَ على البعدِ منها، ولكنْ على الكونِ، ومثلُهُ كثيرٌ يُترَجَمُ على الوقوعِ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿حُفْرَةٍ﴾ كأنهُ قالَ: كنتُمْ [على][11] شَفَا دَرْكٍ منْ دَرَكاتِ النارِ ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ وهذا أيضاً على المعتزلةِ، لأنَّ على قولِهِمْ: همُ الذينَ يُنقِذونَ أنفسَهُمْ لا اللهُ على ما ذكرْنا، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: مسلماً. (٢) من م، في الأصل: يطعمه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: أديان غيرها، في م: الأديان غيرها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: كما تفرق، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: واختلف. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ الله تعالى: يقولُ: إذا كانَ اللهُ تعالى عندَهُم[(١)] قد جمعَ بينَ الكفرةِ والبررةِ في بَذْلِ الأصلحِ لهمْ في الدِّينِ، وليسَ منهُ غيرُ ذلكَ، فلا يجيءُ أنْ يَمُنَّ عليهِم [بما بهِ تتآلفُ قلوبُهُمْ][(٢)] بنعمتِهِ، [ومنْهُ][(٣)] موجودٌ مع التفرُّقِ، بل أولئكَ تفرّقوا بنعمتِهِمْ، وبعدُ فإنَّ النعمةَ لو كانت دِيناً فما الذي كانَ منهُ حتى يَمُنَّ عليهِمْ بهِ؟ وذلكَ قولُهُمْ بلا فضلٍ منهُ فيهِ، واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾ الآية [أنْ قد يَلْزَمُ][(٤)] خطابُ الإيمانِ حينَ العَثْرَةِ[(٥)] لأنهمْ في ذلكَ الوقتِ كانوا حتى أُنقِذوا، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾ في الجاهليةِ وكفرة[(٦)] متفرّقينَ، وصِرْتُمْ إخواناً في الإسلامِ، كَلِمتُكُمْ[(٧)] واحدةٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تعرفوا نعمتَهُ ومِنَّتَهُ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: وقد يكونُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ في حادثِ الأوقاتِ لِتكونوا فيها مُهتدِينَ كما اهتديتُمْ، فيكونُ في ذلكَ وَعْدُ التوفيقِ والبِشارةِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ قولُهُ[(٨)]: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا خبراً في الحقيقةِ، وإنْ كانَ في الظاهرِ أمراً، فإنْ كانَ خبراً ففيهِ دلالةٌ أنَّ جماعةً منهمْ إذا قاموا على الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ سقطَ ذلكَ عنِ الآخَرِينَ، لأنه ذكَرَ فيهِ حرفَ التبعيضِ، وهو قولُهُ: ﴿مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ الآية، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الأمرِ في الظاهرِ والحقيقةِ جميعاً، ويكونُ قولُهُ: ﴿مِّنكُمْ﴾ صلةً. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنَّ على كلِّ أحدٍ أنْ يأمُرَ بالمعروفِ، ويَنْهى عنِ المنكرِ، وذلك واجبٌ، كأنه قالَ: كونوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الآية [آل عمران: ١١٠] لأنهُ ذكَرَ ﷺ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ في آيٍ كثيرةٍ منْ كتابِهِ، منها هذا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ ومنها قولُهُ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾][(٩)] [آل عمران: ١١٠] وذَمَّ مَنْ تَرَكَهُما بقولِهِ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

ورُوِيَ عنْ عِكرمةَ أنَّ ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما قالَ لهُ: قد أعياني أنْ أعلمَ ما فعلَ بِمَنْ أمسكَ عنِ الوعظِ، فقلتُ: أنا أعلِّمُكَ ذلكَ. اِقْرَإِ الآيةَ التاليةَ[(١٠)]: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥] فقالَ لي: أصبْتَ فاستَدلَّ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما بهذه الآيةِ على أنَّ اللهَ أهلكَ منْ عملَ السّوءَ، ومَنْ لم يَنْهَ عنه منْ[(١١)] يعملُهُ، فجعلَ، واللهُ أعلمُ، الممسكينَ عنْ نهيِ الظالمينَ [مع الظالِمينَ][(١٢)] في العذابِ، وقد رُوِيَ عن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه [أنهُ][(١٣)] قالَ: (يا أيها الناسُ إنْ كنتمْ تَقرَؤونَ هذه الآيةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإني سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إذا رأوا الظالمَ فلمْ يأخذوا على يدِهِ أوشكَ أنْ يُعمَّهُمُ اللهُ تعالى بعقابٍ» [الترمذي ٢١٦٨] وعنْ جريرٍ [أنهُ][(١٤)] قالَ: (سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الرجلَ ليكونُ في القومِ، ويعملُ فيهم بمعاصي الرحمنِ، وهُمْ أكثرُ منه وأعزُّ، ولو شاؤوا أنْ يأخذوا على يدِهِ لأخذوا على يدِهِ، فرهِبوا لهُ، فَيُعَذِّبُهُمُ اللهُ بهِ») [بنحوه ابن ماجة ٤٠٠٩] وعنْ حُذيفةَ [أنهُ][(١٥)] قالَ: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «والذي نفسي بيدِهِ لَتأمُرُونَ بالمعروفِ، وتَنْهَونَ عن المنكرِ، أو ليعُمَّكُمُ اللهُ بعقابٍ مِنْ عندِهِ، ثم لَتدعُونَهُ، ولا يَستجيبُ لكمْ») [الترمذي ٢١٦٩] وعنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ [أنهُ][(١٦)] يذكُرُ أنهُ سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ لَيسألُ العبدَ يومَ القيامةِ، حتى يقولَ: ما ينفعُكَ إذا رأيتَ منكراً أنْ تُنكِرَهُ، [فإنه إذا لقيَ عبدٌ][(١٧)] حُجَّتَهُ، فقالَ: إي ربِّ وثقتُ بكَ، وفَرَقْتُ مِنَ الناسِ» [ابن ماجه ٤٠١٧] وعنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه [أنه][(١٨)] قالَ: (اجتمَعَ نفرٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: يا رسولَ اللهِ أرأيتَ إنْ قلْنا بالمعروفِ حتى لا يَبْقَى مِنَ المعروفِ إلّا ما عَلِمْنا بهِ، وانْتَهَينا عنِ المُنْكَرِ حتى لا

---

(١) من م، في الأصل: عنهم. (٢) في الأصل وم: به تتألف. (٣) في الأصل وم: والتي منه. (٤) من م، في الأصل: أن يلزم. (٥) من م، في الأصل: العسرة. (٦) في الأصل وم: والكفرة. (٧) في الأصل وم: كلهم. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: الثانية. (١١) من م، في الأصل: ممن. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، في الأصل: فإذا الله لقي عبداً. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

يَبْقَى أيَسَعُنا ألّا نأمُرَ بالمعروفِ ولا نَنْهَى عن المنكرِ؟ فقال: «مروا بالمعروفِ وإن لم تَعْمَلوا به كلِّهُ، وانْهَوا عن المنكرِ وإنْ لم تنتهُوا عنهُ، ولا ينبغي للرجلِ أنْ يقولَ: لستُ ممنْ يعملُ بالمعروفِ كلِّهِ، وينتهي عن المنكرِ كلِّهِ، فآمرَ غيري، وأنهاهُ، فإنَّ فعلَهُ المعروفَ واجبٌ عليهِ، فلا يجبُ إذا قَصَّرَ في واجبٍ أنْ يُقَصِّرَ في غيرِهِ» [بنحوه: طرفه الأول في الطبراني في الصغير ٩٦٠].

الآية ١٠٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ لأنَّ التفريقَ هو سبيلُ الشيطانِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ والبيّناتُ هي الحججُ التي أتى بها، ويَحْتَمِلُ بيانَ ما في كتابِهِمْ مِنْ صفةِ رسولِنا محمدٍ ﷺ وبَعْثِهِ الشريفِ، ويَحْتَمِلُ ﴿تَفَرَّقُوا۟﴾ عمّا نهجَ لهمُ اللهُ، وأوضحَ لهمُ الرسلُ، فأبدَعوا لأنفسِهِمُ الأديانَ بالأهواءِ، فَحَذَّرَنا ذلكَ، وعرَّفَنا أنَّ الخيرَ كلَّه في اتِّباعِ[1] مَنْ جعلَهُ اللهُ حُجَّةً له ودليلاً عليهِ وداعياً إليه، ولا قوةَ إلا باللهِ. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ دلَّ هذا أنَّ السبيلَ هو الذي يدعو الشيطانُ إليها.

الآيتان ١٠٦و١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية [وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية][2] وصفَ اللهُ ﷻ وجوهَ أهلِ الجنةِ بالبياضِ [لأنَّ البياضَ][3] هو غايةُ ما يكونُ به الصفاءُ، لأنَّ كلَّ الألوانِ تظهرُ في البياضِ، ووصفَ ﷻ وجوهَ أهلِ النارِ بالسوادِ، فهو شبيهٌ بالظلمةِ، وقد يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ مِنْ وصفِ البياضِ والسوادِ ليس البياضَ والسوادَ، ولكنَّ البياضَ هو كنايةٌ عنْ شدةِ السرورِ والفرحِ، والسوادَ كنايةٌ عنْ شدةِ الحزنِ والأسفِ كقولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ و٣٩] ووصفَ وجوهَ أهلِ الجنةِ بالضحكِ/ ٦٦ ـ أ/ وليسَ على حقيقةِ الضحكِ، ولكنْ [هو][4] بغايةِ السرورِ والفرحِ، وكذلكَ وجوهُ أهلِ النارِ وصفَها بالغَبَرِ والقَتَرِ[5]، وهو وصفٌ لِشدةِ الحزنِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ﴾ ما آمنتُمْ بمحمدٍ ﷺ قبلَ أنْ يُبْعَثَ بوجودِكُمْ بعثَهُ وصفتَهُ في كتابِكُمْ؟ وعلى هذا قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ [في قولِهِ][6]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ [الشورى: ١٦] أي على استجابةِ كثيرٍ منهمْ مِنَ الأجلّةِ والكُبَراءِ الذينَ لا يُعرَفونَ بالتَّعَنُّتِ في الدينِ ولا بالتقليدِ، واللهُ أعلمُ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَكَفَرْتُم﴾ أنتمْ بعدَ [أنْ][7] آمنَ منكمْ فِرَقٌ؟ لأنَّ منهُمْ مَنْ قد آمنَ، ومنهُمْ مَنْ قد كفرَ، فقالَ لِمنْ كفرَ: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ أنتمْ[8]، وقدْ آمنَ منكُمْ نفرٌ؟ ألا ترى أنَّهُ قالَ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾؟ [الأعراف: ١٥٩] واللهُ أعلمُ، وقالَ[9]: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾؟ [الصف: ١٤] وقيلَ: أرادَ بالإيمانِ الذي قالوا حينَ أُخرجوا مِن ظهرِ آدمَ[10].

وفي الآيةِ ردُّ قولِ المعتزلةِ بتخليدِ أهلِ الكبائرِ في النارِ وإخراجِهِمْ منَ الإيمانِ منْ غيرِ أنْ أدخلُوهُمْ في الكفرِ لأنهُ ﷻ لم يجعلْ إلا فريقَين: بيضَ[11] الوجوهِ وسودَ[12] الوجوهِ، فبيضُ[13] الوجوهِ هُمُ المؤمنونَ وسودُ[14] الوجوهِ هُمُ الكافرونَ لأنهُ قالَ: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ فأصحابُ الكبائرِ لم يكفُروا بارْتِكابِهِمُ الكبيرةَ، ولم يجعلِ اللهُ تعالى فرقةً ثالثةً، وكذلكَ قالَ ﷻ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] لم يجعلِ الخَلْقَ إلا فريقَينِ، وهُمْ جَعَلُوا فِرَقاً كقولِهِ[15] ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] فإنْ قيلَ: ذكرَ في الآيةِ الكفرَ بعدَ الإيمانِ، ثم لم يكنْ فيه منعُ دخولِ مَنْ لم يكفُرْ بعد الإيمانِ، فامْتَنَعَ ألّا يكونَ فيه منعُ دخولِ صاحبِ الكبيرةِ، فجوابُنا ما سبقَ أنَّ خِلْقةَ كلِّ كافرٍ تشهَدُ على وحدانيةِ اللهِ تعالى، لكنهمْ كَفَروا بألسنتِهِمْ، وذلكَ كُفْرٌ بعدَ الإيمانِ، فلم يَجُزْ أنْ يدخلَ في الآيةِ مَنْ لم يكُنْ كافراً في حكمِ الكافرِ، وباللهِ التوفيقُ.

---

(١) في الأصل وم: الاتباع. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠ و٤١ و٤٢]. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: وكقوله. (١٠) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف/١٩٢]. (١١) في الأصل وم: بياض. (١٢) في الأصل وم: وسواد. (١٣) في الأصل وم: فبياض. (١٤) في الأصل وم: وسواد. (١٥) في الأصل وم: وكقوله.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ في الظاهرِ أمرٌ، لكنهُ في الحقيقةِ ليسَ بأمرٍ لأنَّ العذابَ لا يُذاقُ، وإنما يُذوَقُ هو، فكأنهُ قالَ: اعلَموا أنَّ عليكمُ العذابَ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية، تحتمِلُ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ براهينَهُ، وتحتمِلُ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ القرآنَ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ببيانِ الحقِّ، ويَحتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالدينِ، والدينُ، هو الحقُّ. قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: أي بالأمرِ بالدعاءِ إلى الحقِّ، ويَحتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي للهِ على عبادهِ ولبعضِهِمْ على بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ والظلمُ هو وضعُ الشيءِ في غيرِ موضِعِهِ، فإذا كانَ مَنْ في السمواتِ وما في الأرضِ كلُّهُ لهُ، ومَنْ وُصِفَ في الخَلْقِ بالظلمِ فإنما وُصِفَ لأنه يضَعُ حقَّ بعضٍ في بعضٍ، ويمنَعُ حقَّ بعضٍ، فيَجْعَلُ لغيرِ المُحقِّ، فاللهُ يتعالى عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لا يريدُ أنْ يظلِمَهُمْ، وإنْ شئتَ قلْتَ: الإرادةُ صفةٌ لكلِّ فاعلٍ في الحقيقةِ، فكأنهُ قالَ: لا يظلِمُهُمْ، فكيفَ يظلِمُ؟ وإنما يظلِمُ لِنفعٍ تُسِرُّهُ[١] إليهِ النفسُ أو ضررٍ يَدْفَعُ بهِ، فالغنيُّ بذاتهِ متعالٍ[٢] عنْ ذلكَ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليهِ يرجِعُ أمرُ كلِّ أحدٍ فلا يَحتَمِلُ الظلمُ وجودَ الظلمِ منهُ][٣].

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً: يَحتَمِلُ ﴿كُنتُمْ﴾ أي صِرتُمْ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أظهِرَتْ للناسِ بما تدعُو الخَلْقَ إلى النجاةِ والخيرِ، ويَحتَمِلُ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في الكتبِ السالفةِ بأنكمْ ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ويَحتَمِلُ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ إذْ[٤] أمَرْتُمْ بالمعروفِ، ونَهَيتُمْ عنِ المنكرِ، ويَحتَمِلُ ﴿كُنتُمْ﴾ صِرتُمْ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وكانوا كذلكَ: هم خيرُ أمةٍ، وكانوا كذلكَ: همْ خيرٌ مِمَّنْ تقدَّمَهُمْ منَ الأممِ بما بَذَلوا مُهَجَهُمْ للهِ في نصرِ دينِهِ، وإظهارِ كلمتِهِ والإشفاقِ على رسولِهِ حتى كانَ أحبَّ إليهمْ من أنفسِهِمْ، ويَرَونَهُ أولَى، واللهُ الموفقُ.

ثم اختُلِفَ في المعروفِ والمنكرِ: قيلَ: المعروفُ كلُّ مستحسَنٍ في العقلِ فهو معروفٌ، وكلُّ مستقبَحٍ فيهِ فهو منكَرٌ، ويَحتَمِلُ الأمرُ بالمعروفِ، هو الأمرُ بالإيمانِ، والنهيُ عنِ المنكرِ، هو النهيُ عنِ الكفرِ، دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية: يؤمنونَ همْ، ويأمرونَ غيرَهُمْ بالإيمانِ، وينهَونَ عنِ الكفرِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ في قولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [أنهُ][٥] قالَ: (خيرُ الناسِ أنفعُهُمْ للناسِ، و﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي تأمرونَهُمْ أنْ يَشْهَدوا ألا إلهَ إلا اللهُ، والإقرارِ بما أنزلَ اللهُ، وتقاتِلونَ عليهِ. ولا إلهَ إلا اللهُ هو أعظمُ المعروفِ، والمنكرُ هو التكذيبُ، فهو أنكرُ المنكرِ).

وعن عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: (قالَ النبيُّ ﷺ: «أُعطيتُ ما لمْ يُعطَ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ» قُلْنا: يا رسولَ اللهِ وما هو؟ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعبِ، وأُعطيتُ مفاتيحَ الأرضِ، وسُمِّيتُ أحمدَ، وجُعِلَ الترابُ لي طهوراً، وجُعِلَتْ أمتي خيرَ الأممِ» [أحمد: ١/ ٩٨].

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: [قولُهُ][٦] ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ لهُ وجهانِ: أي كُنتُمْ على ألسنِ الرسلِ في الكتبِ المُتَقدِّمَةِ خيرَ أمةٍ، ويَحتَمِلُ ﴿كُنتُمْ﴾ صِرتُمْ بإيمانِكُمْ برسولِ اللهِ ﷺ واتباعِكُمْ ما مَعَهُ خيرَ أمةٍ على وجهِ الأرضِ، [لأنَّ مَنْ قبلَكُمْ][٧] آمنوا ببعضٍ، وكفروا ببعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يَتَوجَّهُ إلى وجوهٍ ثلاثةٍ: المعروفُ، هو المعروفُ في العقولِ أيِ الذي تَستَحْسِنُهُ العقولُ، والمنكَرُ، هو الذي قَبَّحَتْه العقولُ، وأنكرَتْهُ، ويَحتَمِلُ أن يكونَ المعروفُ هو الذي عُرِفَ

---

(١) من م، في الأصل: شره. (٢) من م، في الأصل: تعال. (٣) أدرج تأويل الآيات ١٠٥ ـ ١٠٩ في الأصل وم بعد إدراج تأويل الآية (١١٠). (٤) في الأصل وم: أي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لأنهم.

بالآياتِ والبراهينِ أنه حسنٌ، والمنكرُ ما عُرِفَ بالحججِ أنه[1] قبيحٌ، ويَحْتَمِلُ[2] المعروفُ هو الذي جَرَى على ألسنِ الرسلِ أنهُ حسنٌ، والمنكرُ هو الذي أنكروهُ، ونَهَوا عنه. فعلى هذهِ الوجوهِ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لا شكَّ أنَّ الإيمانَ خيرٌ لهمْ منَ الكفرِ، ولكنَّ معناهُ، واللهُ أعلمُ، أنهم أبَوُا الإيمانَ، وتَمَسَّكوا بالكفرِ لوجهَين:

أحدُهُما: أنهم كانوا أهلَ عِزَّةٍ وشرفٍ في ما بينَهُمْ وأهلَ دِرايةِ الكتبِ يَنتابُ إليهمُ الناسُ، ويختلِفونَ إليهمْ بحوائجِهِمْ، فخافوا ذهابَ ذلكَ عنهمْ إذا آمَنوا، فأخبرَ اللهُ ﷻ أنهمْ إنْ آمَنوا كانَ[3] خيراً لهمْ منَ الذكرِ والشرفِ والعزِّ في أهلِ الإيمانِ أكثرَ ممّا لهمْ في أهلِ الكفرِ. ألَا تَرَى أنَّ مَنْ آمنَ منهمْ مِنْ دَرَيَةِ الكتابِ وعلمائِهِمْ كانَ لهمْ منَ الذكرِ والشرفِ في الإيمانِ ما لم يكنْ لأحدٍ [منهمْ ماتَ][4] على الكفرِ، نحوُ عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ [وكعبٍ][5] وغيرِهِ من الأحبارِ، وإنما كانوا منْ علمائِهِمْ، لم يكونوا مِنْ علماءِ أهلِ الإيمانِ، فنالوا بالإيمانِ من الذكرِ والعزِّ والشرفِ ما لم يَنَلْ أحدٌ منهمْ، ماتَ على الكفرِ، بل جَمُلَ ذكرُهُمْ، وانتشرَ في أهلِهِمْ فضلاً في أهلِ الإيمانِ والإسلامِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنهم كانوا أبَوُا الإسلامَ واتّباعَ محمدٍ ﷺ واختاروا المقامَ على الكفرِ خوفاً وإشفاقاً على ما لَهُمْ منَ المنافعِ والمنالِ، يذهبُ ذلك عنهمْ بالإسلامِ، فأخبرَ اللهُ ﷻ أنهم لو آمَنوا لكانَ خيراً لهم في الآخرةِ، إذْ ذاكَ ينقطِعُ، ويذهبُ عنْ قريبٍ، والذي لأهلِ الإيمانِ في الآخرةِ باقٍ دائمٌ لا يزولُ أبداً، لِما كانَ الذي يُنالُ بالإيمانِ غيباً[6]، وكذلكَ ما يَحُلُّ بالكفارِ مِنْ جزاءِ [الكفرِ غيباً][7] اشتدّ عليهمُ الكفرُ والتَّدَبُّرُ، فلا يمنَعُهُمْ عنِ الشهواتِ، ويُنَغِّصُ عليهمُ اللذاتِ، فآثَروا ما هَوَتْهُ أنفسُهُمْ، وَتَلَذَّذوا بهِ على التَّدَبُّرِ مع ما كانَ إدراكُ الغائبِ بالشاهدِ [أمراً عسيراً][8] لايُوصَلُ إليهِ إلّا بفضلِ اللهِ، ولم يكنْ عليهِ، ذلكَ لا يُسقِطُ معنَى الإفضالِ والإنعامِ، ويصيرُ حقّاً مع ما كانَ منهمْ بقديمِ الجفاءِ وإيثارِ زَهرةِ الدنيا وبهجةِ الغِنَى على الموعودِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كذلك كانوا: كانَ المؤمنونَ أقلَّ، والكفارُ أكثرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فيهِ بشارةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ وللمؤمنينَ والأمنُ لهمْ منْ عذابِ المشركينَ وضررِهِمْ إلا أذىً باللسانِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقولِهِ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ الآية [الحشر: ١٢] ونحوُهُ منَ الآياتِ التي فيها بِشارةٌ لأهلِ الإيمانِ بالنصرِ لهمْ على عدوِّهِمْ.

وفي قولِهِ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ الآية دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبرَ بذلك قبلَ أنْ يكونَ، فكانَ على ما أخبرَ، فدلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ ﷻ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ: (ضُرِبَتْ عليهمُ المَسْكَنَةُ) وليسَ فيهِ الذِّلَّةُ، وفي حرفِ حفصةَ: (ضُرِبَتْ عليهمُ المَسْكَنَةُ والذِّلَّةُ) [ثم اختُلِفَ في الذِّلَّةِ][9] قيلَ: هي الجزيةُ التي ضُرِبَتْ عليهمْ، وهي ذِلَّةٌ كقولِهِ: ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] لأنهمْ كانوا يأنفونَ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي وُجِدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني بعهدٍ منَ اللهِ وعهدٍ منَ الناسِ، يكونُ عندَ[10] قومٍ يُؤدّونَ الجزيةَ. وكذلكَ تأويلُ ابنِ عباسٍ ﷺ /٦٦ ـ ب/ ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي بعهدٍ منَ اللهِ وعهدٍ منَ الناسِ. وقالَ مقاتلٌ ﷺ: والناسُ في هذا الموضعِ والنبيُّ ﷺ خاصّةً. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ بكفرِهِمْ في

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: التي. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم العبارة التالية: ويحتمل أن يكون المعروف هو الذي عرف بالحجج أنه قبيح، والصواب حذفها. (٣) في الأصل وم: لكان. (٤) في الأصل وم: مات منهم. (٥) في الأصل وم: ومن أسلم منهم نحو كعب. (٦) في الأصل وم: غيب. (٧) في الأصل: غيب، في م: الكفر عيب. (٨) في الأصل وم: أمر عسير. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: تحت.

ما بَينَ المسلمينَ بعدَ ما كانوا أهلَ ذكرٍ وشرفٍ وعزٍّ في ما بينَهُمْ ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي لا يوجَدونَ ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بالإسلامِ، أي لا يَظفَرون بهِمْ، ولا يوجَدونَ إلّا أنْ يُسلِموا لخوفِهِمْ على أنفسِهِم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: استوجَبوا غَضَباً مِنَ اللهِ بكفرِهِمْ، وقيلَ: رجَعوا، وقيلَ: وَجَبَ عليهِمُ الغضبُ، وقد ذكرْنا هذا في غيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ وهي الحاجةُ والفقرُ، وهو ما ذكرْنا أنهمْ ظاهَروا المشركينَ على رسولِ اللهِ ﷺ مع قربِهِمْ برسولِ اللهِ ﷺ وبعدِهِمْ بالمشركينَ، فانَّ[1] اللهُ تعالى بذلكَ، وجعلَهُمْ أهلَ حاجةٍ وصَنْعةٍ في ما بينَ المسلمينَ بعدَ ما كانوا أهلَ عزٍّ وشرفٍ في ما بينَهمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

قال الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: وقد يَحتَمِلُ رجوعُ الآيةِ إلى خاصٍّ، وهمُ الذين ذكرَ اللهُ في قولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم﴾ الآية [الأحزاب: ٢٦] وغيرِ ذلكَ مما يصيرُ فيه المسلمونَ، يعرِفُ حقيقةَ المرادِ مَنْ شهِدَ النوازلَ، وعرَفَ الأسبابَ التي جاءتْ بالبِشاراتِ. ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تعالى جعلَ كلَّ حاجتِهِمْ إلى ما يَفْنى، وهو الدنيا التي لا بقاءَ لها، ولا منفعةَ في الحقيقةِ، فهي حاجةٌ، ثم بما فيهِمْ بالجهلِ أنَّ ذلكَ فيهِمْ حاجةٌ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ مع ما [وَسَّعَ عليهِمْ][2] الدنيا جَعَلَ في قلوبِهِمْ خوفَ الفقرِ وأعظَمَ الحاجاتِ، فهيَ المسكنةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وآياتُ اللهِ ما ذكرْنا في غيرِ مَوضعٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً: أنَّ أوائلَهُمْ قد قَتَلوا الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، وهؤلاءِ رَضُوا بذلكَ وإن كانوا لمْ يتولَّوهُمْ بأنفسِهِمْ، فأضافَ اللهُ تعالى ذلكَ إليهِمْ لأنهمْ شاركوا في صنيعِهِمْ، وهو كقولِهِ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] ويَحتَمِلُ أن يكونوا قَصَدوا[3] قتلَ محمدٍ ﷺ فإذا قَصَدوا ذلكَ فكأنهم قَصَدوا الأنبياءَ كلَّهُمْ كما ذكرْنا في قولِهِ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ الآية [المائدة: ٣٢] ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا هَمّوا بقتلِ[4] محمدٍ ﷺ ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ غارَهُمْ[5] بآبائهِمْ إذ هُمْ قلَّدوهمْ في الدينِ، فبيَّنَ سوءَ صنيعِهِمْ بالأنبياءِ ﷺ ليعرِفوا بهِ سَفَهَهُمْ وسفَهَ كلِّ مَنْ قَصَدَ تقليدَهُمْ، واللهُ أعلَمُ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا قتلُوا[6] أتباعَ محمدٍ ﷺ فأضافَ [القتلَ إليهِمْ][7]، وهو كما أضافَ مخادَعتَهُمُ المؤمنينَ إلى نفسِهِ[8] وكما أضافَ نصرَ أوليائِهِ إليهِ[9]، وإنْ كانَ اللهُ لا يُخادَعُ، ولا يُنصَرُ. فعلى ذلك إضافةُ القتلِ إليهِ[10] لقتلِهِمُ الأتباعَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية، أي لا استِواءَ بينَ مَنْ آمنَ منهمْ، ويعني ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ومَنْ لم يؤمنْ منهمْ، [لأنَّ منهمْ][11] مَنْ قد آمنَ، فصاروا أمةً قائمةً، قيلَ: عَدْلةٌ كقولِهِ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وقيلَ: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ على حدودِ اللهِ وفرائضِهِ وطاعتِهِ وكتابِهِ، لمْ يُحرِّفوهُ، وقيلَ: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ مُهتديةٌ، وهمُ الذين آمَنوا منهمْ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ: [أنهُ][12] قالَ: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ وأطرافَ النهارِ أمةُ محمدٍ ﷺ ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ولم يكنْ هذا للأممِ السالفةِ، وفي حرفِ حفصةَ: (ليسَ أهلُ الكتاب [سواءً لأنَّ][13] منهمْ أمَّةٌ قائمةٌ) كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ [جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾][14] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

---

(١) فان: يفين: جاء. (٢) من م، في الأصل: وعليهم. (٣) في الأصل وم: قصد. (٤) في الأصل وم: قتل. (٥) في الأصل وم: غيرهم، غارهم: أصابهم. (٦) في الأصل وم: قتل. (٧) في الأصل وم: إليه. (٨) إشارة إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. . (٩) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] وقوله تعالى ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]. (١٠) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: كذا. (١٣) في الأصل وم: ليسوا. (١٤) في الأصل وم: كذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يُصلّونَ، ويحتمِلُ ﴿يَسْجُدُونَ﴾ يخضعونَ. والسجودُ، هو الخضوعُ.

الآية ١١٤ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي يؤمنونَ بأنفسِهِمْ، ويأمُرونَ غيرَهُمْ بالإيمانِ، ويدعُون إليهِ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يعني الكفرَ، ويحتمِلُ ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ كلَّ معروفٍ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كلَّ منكرٍ، وقد ذكرْنا هذا، ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ كلِّها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مع الصالحينَ في الجنةِ.

قال الشيخُ [رحمةُ اللهِ عليه][2]: أي ومَنْ ذلكَ فِعلُهُ، فهو صالحٌ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي لنْ يُرَدَّ ذلك عليهِمْ، بل يُقْبَلُ، بل يُخبَرونَ به في الآخرةِ. قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: كيف تكفرونَهُ[3]؟ وهو الشكورُ الذي يقبلُ اليسيرَ، ويُعطي الجزيلَ، وهو في حرفِ حفصةَ (فلن يُترَكُوهُ) أي لن يُترَكوهُ دونَ أن يُجزَوا عليهِ، وإن قلَّ ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] معناهُ، واللهُ أعلمُ، ما ذَكَرَ: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] وقيلَ: لنْ يظلمَكُمْ، وقيلَ: لنْ يُنقِصَكُمْ، [وقيلَ][4]: فلنْ يَضِلَّ عنكمْ، بل يشكُرُ ذلكَ لكمْ، يعني فلنْ يَضيعَ عندَ اللهِ، واللهُ أعلمُ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ قالَ الشيخُ [رحمةُ اللهِ عليه][5] فهو، واللهُ أعلمُ، أنهُ[6] بمثلِهِ يكونُ التناصرُ في الدنيا، لكنَّ الذي كان فيها لا ينفعُ في الآخرةِ، بل يكونُ كما قالَ اللهُ تعالى[7]: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ الآية [عبس: ٣٤] ثُمَّ لا مالَ لهُ ثَمَّ، ولا ما كانَ ينفعُ[8]، وذلكَ أنهمْ ظنُّوا أنَّ كثرةَ[9] الأموالِ والأولادِ تمنعُهُمْ منْ عذابِ اللهِ كقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥]، فأخبرَ ﷻ أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ لا تُغني عنهمْ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ضربَ مَثَلَ نفقةِ الكفارِ التي أنفقُوها بريحٍ ﴿فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ وذلكَ، واللهُ أعلمُ. أنهم كانوا يُنفقونَ، ويعمَلونَ جميعَ الأعمالِ منْ عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، ويقولونَ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ظنّوا أنَّ تلك الأعمالَ والنفقاتِ التي أنفقوها [في الدنيا][10] تنفعُهُمْ في الآخرةِ، وتُقرِّبُهُمْ إلى اللهِ، فأخبرَ أنها لا تنفعُ، فكانتْ[11] كالريحِ التي فيها صِرٌّ وبردٌ، ظنّوا أنَّ فيها رحمةً وشيئاً ينفعُ زروعَهُمْ، وتنمو بها، فإذا فيها نارٌ أحرقَتْ حرثَهُمْ كما طَمِعوا مِنْ أعمالِهِمْ ونفقاتِهِمُ التي في الدنيا بالآخرةِ[12] قربةً وزلفةً إليهِ، فإذا هي مُهلكةٌ لأبدانِهِمْ كالريحِ التي فيها صِرٌّ كانتْ مُهلِكةً مُحرِقةً لزروعِهِمْ وحرثِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

والصِّرُّ هو البردُ الشديدُ، وقيلَ، الصِّرُّ الصوتُ كقولِهِ: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾[13] [الذاريات: ٢٩] وقيلَ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ في الصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ في قتالِ رسولِ اللهِ ﷺ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٦] أي يتأسَّفونَ[14] على ما أنفقوا تأسُّفَ صاحبِ الزرعِ على ما كانَ أنفقَ فيهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والظلمُ ما ذكرْنا، هو وضعُ الشيءِ في غيرِ مَوضِعِهِ، فهو، واللهُ أعلمُ، [ما][15] قالَ: همُ الذينَ وضَعوا أنفسَهُمْ في غيرِ موضِعِها لا أنَّ [اللهَ وضعَ][16] أنفسَهُمْ ذلكَ الموضعَ لأنهمْ عبَدوا غيرَ اللهِ، ولم يجعَلُوا أنفسَهُمْ خالِصينَ سالِمينَ للهِ، فهمُ الذين ظلَموا أنفسَهُمْ حينَ أسلَموها لغيرِ اللهِ، وعَبَدوا دونَهُ، فذلكَ وضعُها في غيرِ مَوضِعِها، لأنَّ مَوضِعَها هو أنْ يجعَلُوها خالصةً للهِ سالمةً لهُ، وقيلَ: ما ضَرُّوا اللهَ بعبادتِهِمْ غيرَهُ وبكفرِهِمْ بِهِ، إنما ضَرُّوا أنفسَهُمْ إذْ لا حاجةَ لهُ إلى عبادتِهِمْ، واللهُ الموفقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: رحمه الله. (٣) في الأصل: تكفرون، في م: تكفره. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: رحمه الله. (٦) في الأصل وم: أن. (٧) في م: ﷻ. (٨) في الأصل وم: فينفع. (٩) من م، في الأصل: كثير. (١٠) في الأصل وم: الناس. (١١) في الأصل وم: فكان. (١٢) من م، في الأصل: والآخرة. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وقيل هي الصوت. (١٤) من م، في الأصل: ينافسون. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: وضع الله.

قالَ الشيخُ [رحمةُ اللهِ عليهِ: في القولِ](١): تقديمٌ وتأخيرٌ، وأصلُ ذلك أنَّ اللهَ قد وضعَ كلَّ نفسِ الخِلْقةِ بموضعِ العبودةِ، فجعلُوها عبدةَ غيرِهِ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: [قيلَ](٢) نهى اللهُ المؤمنينَ أنْ يُخالُوا(٣) المنافقينَ، ويُؤاخوهُمْ، ويَتَوَلَّوهُمْ دونَ المؤمنينَ، وقيلَ: في حرفِ حفصةَ: (لا تَتَّخِذُوا بِطانةً مِنْ دونِ أنفسِكُمْ) يعني دُونَ المؤمنِينَ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (نهَى اللهُ المؤمنِينَ أنْ يتَّخِذوا اليهودَ والنصارى والمنافقينَ بِطانةً دونَ إخوانِهِمْ/ ٦٧ ـ أ/ منَ المؤمنينَ، فيُحَدِّثوهُمْ، ويُفشُوا إليهمْ سرَّهمْ دونَ المؤمنينَ) والبِطانةُ: قيلَ: هُمُ الإخوانُ، يَجْعلونَهُمْ(٤) موضِعَ إفشاءِ سرِّهِمْ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: والنهيُ عنِ اتّخاذِ الكافرِ بِطانةً لوجهَينِ:

أحدُهما: العرفُ بهِ، إذ كلٌّ يُعرفُ بمنْ يصحَبُهُ.

والثاني: الميلُ إليه بما يُريهِ عدوُّهُ أنهُ حَسَنُ العِشْرةِ(٥) وحسنُ الصُّحْبةِ مع ما فيه الإسقاطُ عمّا بهِ يُستعانُ على أمرِ الدِّينِ والإغفالِ عنْ حقِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يقولونَ: لا يَتِرونَ(٦) عهدَهُمْ في إفشاءِ أمرِكُمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يَوَدُّونَ، ويَتمنَّونَ ما أثِمْتُمْ. قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: أي وَدُّوا أنْ تشارِكوهمْ في أشياءَ تُؤثِمُكُمْ، وتُعْنِتُكمْ عليهِ، وقيلَ: العَنَتُ الضيقُ أي ذلكَ قَصْدُهُمْ [كالآياتِ التاليةِ](٧).

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ مَن قالَ: إنَّ أوّلَ الآيةِ في المنافقينَ يقولُ: قولُهُ ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ما ذكرَ في آيةٍ أُخرَى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] أنهم كانوا يعرفون المنافقَ في لحنِ كلامِهِ. قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ما كانَ منَ التعريضِ(٨) بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٧] وإظهارِ السرورِ بِتَكَتُّبِهِمْ ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الآية [النساء: ٧٢]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وذلكَ كانوا يُظهِرونَ المُوافقةَ لهمْ ويُضمِرون العَداوةَ والخِلافَ لهمْ. والسعيُ في هلاكِهِمْ مما(٩) كانوا يُضمِرونَ أكثرُ مما كانوا يُظْهِرونَ.

ومَنْ قالَ بأنَّ الآيةَ في الكفارِ فهو ظاهرٌ، وقولُهُ: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ مِنَ الشتيمةِ والعَداوةِ، ويُضمِرونَ أكثرَ مِنْ ذلكَ مِنَ الفسادِ والسرورِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الآياتِ، ويَحتمِلُ](١٠) ﴿إِن كُنتُمْ﴾ تَنْتفعونَ بعقولِكُمْ لأنهُ ﷻ ذكرَ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ أنهمْ لا يَعْقِلونَ، قد كانَ لكمْ عقولٌ لكنكمْ لمْ تَنْتفعوا [بها](١١)، نفى عنهمُ العقلَ رأساً.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ مَنْ قالَ: إنَّ أولَ الآيةِ في المنافقينَ فهذا يدلُّ لهُ، ويشهَدُ، لأنهُ قالَ: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ الآيةِ، يقولُ: ها أنتم يا هؤلاءِ المسلمينَ تحبُّونَهمْ، يعني المنافقينَ، ولا يحبُّونَكُمْ على دينِكُمْ، قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: وفي الآيةِ بيانٌ أنَّ أولئكَ قومٌ يحبُّهُمُ المؤمنونَ إمّا بظاهرِ الإيمانِ وإمّا(١٢) بظاهرِ الحالِ منهمْ مِنْ طَلَبِ مودَّتِهِمْ، فأطلعَ اللهُ المؤمنينَ على سِرِّهِمْ لئلا يغترُّوا بظاهرِهِمْ وليكونَ حُجَّةً لهمْ ولرسولِ اللهِ ﷺ بما أطلَعَهُ اللهُ على ما أَسَرُّوا(١٣)، واللهُ أعلمُ. ومنْ قالَ: إنَّ أوّلَ الآيةِ في الكفارِ يجعلُ قولَهُ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ على الاِبْتِداءِ والقطعِ مِنَ الأوَّلِ لأنه وصفَهُمْ بصفةِ المنافقينَ، وَوَسَمَهُمْ بِسِمَتِهِمْ، وليسَ في الأوّلِ ذلكَ.

---

(١) في الأصل: رحمه الله عليه، في م: رحمه الله. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: يتخللوا. (٤) في الأصل وم: ويجعلونهم. (٥) من م، في الأصل: العزة. (٦) في الأصل وم: يتركون، ألا يَألو: قَصَّرَ، يُقَصِّرُ، وَتَرَ يَتِرُ: نَقَصَ يَنْقُصُ. (٧) في الأصل وم: كالآية التالي. (٨) في الأصل وم: التفريق. (٩) في م: ما. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) من م، في الأصل: أمروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ هو على التمثيلِ؛ يُقالُ عندَ شدةِ الغضبِ: فلانٌ يَعَضُّ أناملَهُ على فلانٍ، وذلكَ إذا بلغَ الغضبُ غايتَهُ. قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ إنَّ ما كانَ يغيظُهُمْ ما كانَ للمسلمينَ منَ السَّعةِ والنصرِ والتكثُّرِ والعزِّ، فيكونُ في ذلكَ دعاؤُهُمْ بتمامِ ذلكَ حتى لا يَرَوا فيهمُ الغِيَرَ، واللهُ أعلمُ. وفي [حرفِ][1] حفصةَ: (﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ لَنْ تَضُرُّونا شيئاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾) على الوعيدِ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ قالَ: ليسَ هذا وصفَ المنافقينَ في الظاهرِ لأنهمْ كانوا [يُبطِنونَ عنهمْ][2] الخيراتِ، لكنهُ يَحتمِلُ أنهمْ كانوا يَضِنُّونَ[3] بخيراتٍ تكونُ لهمْ لا للمؤمنينَ ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ إذا رأَوا للمسلمينَ الظفرَ على عدوِّهِمْ والغنيمةَ يَسُوؤُهمْ ذلكَ، وإذا رأَوا القتلَ والهزيمةَ عليهمْ يفرحونَ بهمْ[4]، ويُسَرّونَ، وقيلَ: إذا رأَوا للمؤمنينَ الخِصبَ والسَّعةَ ساءَهُمْ، وإذا رأَوا لهمُ القحطَ والجدبَ وغلاءَ السِّعْرِ فَرِحوا بهِ. لكنَّ هذا يَحتمِلُ في كلِّ خيرٍ رأَوا لهمْ، اهْتَمّوا لذلكَ، وفي كلِّ مصيبةٍ ونكبةٍ رأَوا لهمْ، فَرِحوا بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ وعدُ النصرِ بشرطٍ لا يَضُرُّكُمْ كيدُهُمْ شيئاً. أخبرَ أنَّ المؤمنينَ إذا اتَّقَوا، وصَبَروا، لا يَضُرُّهُمْ كيدُهُمْ شيئاً حتى يُعلمَ أنَّ ما يصيبُ المؤمنينَ إنما يصيبُ بما كَسَبَتْ أيديهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ على الوعيدِ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ قولُهُ: ﴿تُبَوِّئُ﴾ قيلَ: تُهَيِّئُ للمؤمنينَ أمكنةَ القتالِ، وقيلَ، ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُنزِلُ المؤمنينَ، وقيلَ: ﴿تُبَوِّئُ﴾ للمؤمنينَ تَتَّخِذُ للمؤمنينَ مقاعدَ لقتالِ المشركينَ، وقيلَ: ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُوَطِّنُ، وقيلَ: تَستَعِدُّ للقتالِ، كلُّهُ يرجِعُ إلى واحدٍ.

ثم اختُلِفَ في أيِّ حربٍ كانَ؟ وفي أيِّ يومٍ؟ قالَ أكثرُ أهلِ التفسيرِ: كانَ ذلكَ يومَ أُحُدٍ، وقيلَ: إنهُ كانَ يومَ الخندقِ، وقيلَ: كانَ يومَ الأحزابِ، فلا يُعلَمُ ذلكَ إلا بخبرٍ يصحُّ أنهُ كانَ يومَ كذا، لكنَّ في ذلكَ أنَّ الأئمةَ همُ الذينَ يَتَوَلَّونَ أمرَ العساكرِ، ويَختارونَ[5] لهمُ المقاعدَ، وعليهمْ تعاهدُ أحوالِهِمْ ورفعُ الخللِ والضَّياعِ عنهمْ ما احتَمَلَ وُسْعُهُمْ، وعليهمْ طاعةُ الأئمةِ وقبولُ الإشارةِ مِنَ الإمامِ وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ذكرَ مقاعدَ القتالِ في هذهِ الآيةِ، لكنَّ الذي لَزِمَ مِنْ ذلكَ في آيةٍ أخرى ذِكرُ الصفِّ بقولِهِ ﷻ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ وذَكَرَ في الآيةِ الأخرى الثباتَ بقولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥].

والأصلُ أنهم أُمِروا بالثباتِ، فالأحسنُ أنْ يختارَ لهمْ أمكنةً لهمْ بها معونةٌ على الثباتِ، واللهُ أعلمُ، بقولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ [الأنفال: ١٥ و١٦] فيه رخصةُ الحملةِ على العدوِّ وباجتهادٍ إن كان فيها تولّي الأدبارِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ أرادَ بالمقاعدِ الأماكنَ والمواطنَ للقتالِ والحربِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَحتمِلُ ﴿سَمِيعٌ﴾ لمقالَتِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِسرائِرِكُمْ، ويَحْتَمِلُ ﴿سَمِيعٌ﴾ بذكرِكُمُ اللهَ والدعاءِ لهُ، لأنهمْ أُمِروا بالذكرِ للهِ والثباتِ للعدوِّ بقولِهِ ﷻ: ﴿فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] و﴿عَلِيمٌ﴾ بثوابِكُمْ، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البِشارةَ منَ اللهِ ﷻ بالنصرِ لهمْ والأمنِ مِنْ ضررٍ يلحَقُهُمْ كقولِهِ تعالى[6] ﷻ لموسى وهارونَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ الآية ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٤ و٤٥]، ثمَّ قالَ ﷻ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أمَّنَهُما منْ عدوِّهما بقولِهِ ﷻ: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فعلى ذلكَ يَحتمِلُ ذا في قولِهِ ﷻ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ويكونُ ﴿سَمِيعٌ﴾ أي أسمَعُ دعاءَكُمْ بمعنى أُجيبُ، وأعلمُ ما به نصرُكُمْ وظفرُكُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ قولُهُ: ﴿هَمَّت﴾ [يَحتمِلُ إذ][7] هَمُّوا هَمَّ خَطَرٍ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يطمنون، أطنّ: قطع. (٣) في الأصل وم: يطمنون، وأطنّ: قطع. (٤) في الأصل وم: به. (٥) في الأصل وم: ويختار. (٦) ساقطة من الأصل من م. (٧) في م، أن.

ويَحْتَمِلُ](١) إذْ(٢) هَمُّوا هَمَّ عَزْمٍ، وكذلكَ هذا التأويلُ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] همَّتْ هي بِهِ، هَمَّ عَزْمٍ، وهَمَّ بها هَمَّ خَطرٍ، وهَمُّ الخطرِ يقعُ منْ غيرِ صُنْعٍ] منْ صاحبِهِ، وَهَمُّ العزمِ يكونُ بالعزيمةِ والقصدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ والفشلُ ليسَ ممّا يُنهى عنه لأنهُ يقعُ منْ غيرِ فعلِهِ، لكنهُ، والله أعلمُ، هَمُّوا أنْ يفعَلوا فعلَ الفَشَلِ؛ وذُكرَ في القصةِ أنَّ الطائفتَينِ أحدُهما مِنْ بني كذا والأخرَى مِنْ بني كذا، فلا يجبُ أنْ يُذْكَروا إلا أنْ يُقِرّوا هُمْ بذلكَ، وكانوا يقولونَ: نحنُ كُنا فَعَلْنا، وما يجبُ إلّا أنْ نكونَ في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ظهرَ لنا ولايةُ اللهِ، ولو لم يكنْ لم يظهرْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قد ذكرْنا هذا في غيرِ موضعٍ، أنَّ الوليَّ، قيلَ: هو الناصرُ، وقيلَ: هو الحافظُ، وقيلَ: إنه أولَى بهمْ، قال الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: المؤمنُ يعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ منْ نصَرَهُ اللهُ لا يغلِبُهُ شيءٌ، ومَنْ يَخذِلْهُ اللهُ لا يَنصُرُهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [حقٌ على المؤمنينَ ألا يتوكَّلوا إلّا على اللهِ ﷻ قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: توكّل](٣) أي اعتَمَدَ على ما وُعِدَ، واجْتَهدَ في الوفاءِ(٤) بما عُهِدَ، وفَوَّضَ كلَّ أمرِهِ إلى اللهِ إذ عَلِمَ أنهُ بِكُلِّيَّتِهِ للهِ، وإليهِ مرجِعُهُ، وبهذِهِ الجملةِ عَهْدٌ أنْ ينصرَ دينَهُ، ويُوَلِّيَ(٥) عدوَّهُ دُبُرَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ يذكّرُهُمْ ﷻ ألّا يَكِلوا إلى أنفسِهِمْ/ ٦٧ ـ ب/ لكثرتِهِمْ ولقوتِهِمْ ولعدَّتِهِمْ، ولا يَثِقوا بأحدٍ سِواهُ، بل على اللهِ يَتَوَكَّلونَ، وإليه يَكِلونَ، وبه يَثِقونَ، لأنه أخبرَ أنهمْ كانوا ضُعفاءَ، فنصرَهُمْ، وأمدَّ لَهُمْ بالملائكةِ حتى قهرَ عدوَّهُمْ معَ ضعفِهِمْ، وقلةِ عددِهِمْ يومَ بدرٍ، ويومَ أحدٍ كانوا أقوياءَ كَثيري العددِ، فَوَكلوا [إلى](٦) أنفسِهِمْ، فكانتِ الهزيمةُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ يعني اتَّقوا معاصيَهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه دليلٌ أنَّ الشكرَ إنما يكونُ في طاعتِهِ واتّقاءِ معاصيهِ، وأنَّ المحنةَ إنما تكونُ في الشكرِ لِما أنعمَ عليه والتكفيرِ لِما سبقَ منهُ مِنَ الجفاءِ والغفلةِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ وذكرَ في سورةِ الأنفالِ: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الآية: ٩] فاختُلِفَ فيه: كانوا عشرةَ آلافٍ لأنهُ ذكرَ مرةً ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ [آل عمران: ١٢٤] ومرةً ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ [آل عمران: ١٢] ومرةً ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فيكونُ الفينِ(٧)، فذلكَ عشرةُ آلافٍ، وقيلَ: كانوا تسعةَ آلافٍ: ثلاثةَ آلافٍ وخمسةَ آلافٍ وألفاً(٨)، وقيلَ: كانوا كلُّهمْ خمسةَ آلافٍ: ثلاثةَ آلافٍ وألفينِ(٩) مَدَداً لهمْ. ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: كانَ يومَ أُحدٍ، وقالَ آخرونَ: يومَ بدرٍ بقولِهِ(١٠) تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] يومَ بدرٍ، ولا ندري كيفَ كانتِ القصةُ؟ وليسَ لنا إلى معرفةِ القصةِ حاجةٌ سِوى أنّ فيه بِشارةً للمؤمنينَ بالنصرِ لهمْ والمعونةِ بقولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦] جَعَلَ في ذلكَ تسكينَ قلوبِ المسلمينَ.

ثم اختُلِفَ في قتالِ الملائكةِ، قالَ بعضُهُمْ: قاتلَ الملائكةُ الكفارَ، وقالَ آخرونَ: لم يُقاتِلوا، ولكنْ جاؤوا بتسكينِ قلوبِهِمْ ما ذكرَ في الآيةِ [١٢٦] ولا يُحتَمَلُ القتالُ لأنه ذكرَ في الآيةِ ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] ولو كانوا يُقاتِلونَ لم يكنْ لِما يُقَلِّلُ معنىً، لأنَّ الواحدَ منهمْ كافٍ بجميعِ المشركينَ، ألَا تَرى أنَّ جبريلَ [ﷺ](١١) كيف رفعَ قرياتِ لوطٍ، فَقَلَبَهَا؟ فدلَّ لِما ذكرْنا، واللهُ أعلمُ، وقيلَ: قاتلوا يومَ بدرٍ، ولم يُقاتِلوا يومَ أحدٍ، فلا ندري كيفَ كانَ الأمرُ؟

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قيلَ: ﴿مُنزَلِينَ﴾ و﴿مُسَوِّمِينَ﴾ سَواءٌ، وهو منَ الإرسالِ والتسويمِ(١٢)، وقيلَ:

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: الدعاء. (٥) في الأصل وم: ولا يتولى. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الفان. (٨) في الأصل وم: وألف. (٩) في الأصل وم: وألفان. (١٠) في الأصل وم: وقوله. (١١) أدرجت في الأصل وم: عم. (١٢) في الأصل وم: من التسويم.

مُعلَّمينَ بعلامةٍ، وذلك، واللهُ أعلمُ، لِيَعْلَمَ المؤمنونَ حاجتَهمْ إلى العلامةِ، لا أنَّ الملائكةَ يحتاجُون إلى العلامةِ، وكذلك رُوِيَ عنْ نبيِّ اللهِ ﷺ، أنه قالَ لِأصحابِهِ يومَ بدرٍ: «تَسَوَّموا فإنَّ الملائكةَ قد تَسَوَّمَتْ» [ابن أبي شيبة ١٤/ ١٨٥١٥].

الآية ١٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لِيُعلِمَ أنَّ في النصرِ لُطفاً[١] لا يُوصَلُ إليه بشيءٍ مِنْ خلقِهِ لأنه نفاهُ عنهُمْ مع مَدَدٍ مِنَ الملائكةِ لِيُعْلِمَ أنَّ كلَّ منصورٍ على آخرَ إنما كانَ مِنَ اللهِ ﷻ.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ الآية، قالَ قتادةُ: (كانَ يومَ بدرٍ قتلُ صناديدِهِمْ وقادَتِهِمْ في الشرِّ)، وقيلَ ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني أهلَ مكةَ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ قيلَ: يُخزيهِم. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنه][٢] قالَ: (الكبتُ الهزيمةُ) وقيلَ: الكبتُ هو الصَّرْعُ على وجهِهِ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ والخائبُ هو الذي لم يظفَرْ بحاجتِهِ، أي رجَعوا، ولم يُصيبوا ما أمَّلُوا.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: ما ذَكَرَ مِنْ حضورِ الملائكةِ الحربَ، فهو، واللهُ أعلمُ، في حقِّ محنةِ الملائكةِ، وللهِ أنْ يمتَحِنَهُمْ بما شاءَ مِنَ الحضورِ والمعونةِ والكفِّ عنْ ذلكَ أو الدعاءِ لأوليائِهِ بالنصرِ وبما شاءَ اللهُ مِنَ الوجوهِ التي يَمْتَحِنُ بها عبادَهُ، وفيهِمْ منْ قدِ امْتَحَنَهُ على الأرزاقِ والأرواحِ والأمطارِ والأعمالِ وأنواعِ الأذكارِ والأفعالِ [إذْ هم خَلْقٌ اصطفاهُمْ، واختارَهُمْ لعبادتِهِ وطاعتِهِ في جميعِ مَا يأمُرُهُمْ لِيُجِلَّ به قدرَهُمْ، ويُعلِيَ رُتْبَتَهُمْ، لو أذنَ لهمْ بالمَعونةِ أعانوا المؤمنينَ على قدْرِ الإذنِ لهمْ][٣] إذْ همْ على ما وصفَهُمُ اللهُ [بقولِهِ تعالى][٤] ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقولِهِ تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] وغيرِ ذلكَ ما وصفَهُمْ بالطاعةِ لهُ والاتِّباعِ لأمرِهِ، وما أكرمَهُمْ منْ هيبتِهِ وجلالِهِ وخوفِ عِقابِهِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ، ثم كانَ للمؤمنينَ في حضورِهِمْ أنواعُ البِشاراتِ في ما لم يكنْ إذنٌ لهمْ بالقتالِ وأنواعِ الآياتِ في ما قد أذِنَ لَهمْ على ما ذَكَرَ مِنْ أمرِ بدرٍ وغيرِهِ ممّا أخبرَ اللهُ ﷻ مِنْ إرسالِ جنودِهِ وهزيمةِ أعدائِهِ بِمَنِّهِ وفضلِهِ: مِنْ ذلكَ ما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [الأنفال: ١٢] [وفيهِ وجهانِ:

أحدُهُما][٥]: أنْ يكونَ اللهُ يؤيِّدُهُمْ بما بهِ تَشجيعُ قلوبِ المؤمنينَ على ما قد أمكنَ الأعداءُ[٦] مِنْ أنواعِ الوساوسِ التي لَدَيها تضطربُ قلوبُهُمْ، فمثلُهُ يُمكِّنُ أولياءَهُ في تَشجيعِ المؤمنينَ لِيُسكِّنَ قلوبَهُمْ، ويُثَبِّتَ أقدامَهُمْ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ يكونَ الذي جُبِلَ عليهِ الخلقُ: أنْ يكونَ كلُّ أحدٍ [عندَ][٧] مُعاينةِ الحاجةِ إلى رعايةٍ، وما يَحتَمِلُهُ وُسْعُهُ منْ معونةٍ: عليه أقبلَ، وبهِ أرغبَ، فيكونُ للمؤمنينَ بحضورِهِمْ رجاءُ[٨] النصرِ بدعائِهِمْ، ويخرجُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية [غافر: ٥١] وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ واللهُ أعلمُ إذْ[٩] كانَ رسولُ اللهِ ﷺ في نصرِهِمْ[١٠] يبشِّرُهُمْ بحضورِهِمْ، فيكونُ لهمْ بذلكَ فضلُ ثباتٍ وقرارُ حياةٍ منهمْ بما أُعلِموا[١١] اطِّلاعَهُمْ على ذلكَ، أو يكونُ لهمْ فضلُ قوةٍ بذلكَ وإقبالٌ على الأمرِ على ما جُبِلَ الخلقُ مِنَ الإقبالِ على الأمورِ المهمةِ، وإذا كَثُروا، فعلى[١٢] ذلك قولُهُ: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥] ولعلَّهُمْ أيضاً بما يطمَعونَ أنهمْ لو أطاعوا اللهَ، وثَبَتوا لأعدائِهِ أنَّ لهمُ النصرَ والرفعةَ[١٣]، فكانَ ذلك بعضَ ما يَستبشِرونَ. وعلى ذلك أكثرُ ما بُلِيَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ بالهزيمةِ، إنما كانَ يَصرفُ قلوبَهُمْ إلى بعضِ ما جُبِلَ عليه البشرُ منْ حبِّ الدنيا والإعجابِ بالكثرةِ ونحوِ ذلكَ.

ثم مِنْ أعظمِ الأعلامِ في ذلكَ ما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٢٦] فتكونُ البِشارةُ والطمأنينةُ بالذي جُبِلَ عليهِ البشرُ على ما يُثَبِّتُ، ويكونُ النصرُ منْ عندِ اللهِ الذي متى أرادَ نصرَ أحدٍ فلن يُغْلَبَ: قَلَّتْ أعوانُهُ، أو كَثُرَتْ. وذلكَ لطفٌ مِنَ اللهِ العزيزِ العليمِ يُريهِمُ النصرَ مِنَ الوجهِ الذي لا يعلَمُهُ

---

(١) في الأصل وم: لطف. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أعداء. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: وجاء. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: عصرهم. (١١) في الأصل وم: اعملوا. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: والدفع.

إلا هو، وفي حالِ الأنفسِ منْ أنفسِهِمْ أنْ يقومَ لعدوِّهم لِيَعْلَموا عَظيمَ لطفِهِ الذي بمثلِهِ ارتفعَتْ درجاتُ الأخيارِ، وشرُفَتْ منازِلُهُمْ، ولو كانَ لهمْ بالإذنِ على ما ذُكِرَ منْ قوةِ جبريلَ ﷺ في قلْبِ قرياتِ لوطٍ بجناحٍ واحدٍ، لم يكنْ يقومُ لمثلِهِ أهلُ الأرضِ فضلاً مِنْ عددٍ يسيرٍ منهمْ، ولكنهمْ لا يتقدّمونَ بينَ يَدَي اللهِ، واللهُ لم يكنْ أذِنَ لهمْ في القتالِ عندَ كلِّ مَشهَدٍ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إنما أنتَ عبدٌ مأمورٌ، فليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ، إنما ذلكَ إلى الواحدِ القهّارِ الذي لا شريكَ لهُ، ولا ندَّ كقولِهِ: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقولِهِ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية فيه أنهُ كانَ منَ النبيِّ ﷺ معنًى [قولٍ وفعلٍ][(1)] حتى نزلَ[(2)] قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ ولكنّا لا نعلمُ ذلكَ المعنى؛ إنه قيلَ في بعضِ القصةِ: إنَّ النبيَّ ﷺ شُجَّ يومَ أحدٍ في وجهِهِ، وكُسِرَتْ رُباعِيَّتُهُ، فدعا عليهمْ، فنزلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وقيلَ: إنَّ سَرِيَّةً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ خَرجوا إلى قتالِ المشركينَ يقاتلونَهُمْ حتى قُتِلوا جميعاً، فشقَّ على النبيِّ ﷺ وأصحابِه بقتلِهِمْ، فدعا عليهمْ باللعنةِ، يعني على المشركِينَ أربعينَ يوماً في صلاةِ الغداةِ، فنزلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾.

وعنِ ابنِ عمرَ ﷺ أنهُ قالَ: (قالَ النبيُّ ﷺ يومَ أحدٍ: «اللَّهمَّ الْعَنْ أبا سفيان، اللهمَّ الْعَنْ» فلاناً حتى أمَّنَ نفرٌ[(3)] منهمْ، فنزلَ قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ فأمَرهُ بكفِّ الدعاءِ عنهمْ) [الدر المنثور ٢/ ٣١٢ وبنحوه في البخاري ٤٠٦٩] واللهُ أعلمُ بالقصةِ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن[(4)] كانتِ القصةُ في الكفارِ فكأنهُ طلَبَ التوبةَ والهُدى، وأفرطَ في الشفقةِ، فقالَ ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ/ ٦٨ ـ أ/ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيهديَهُمْ لدينِهِ ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ على كفرِهِمْ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ كقولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] [وإنْ كانتْ في][(5)] المؤمنينَ فقولُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ عنْ ذنبِهِمُ الذي ارْتكبوا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بذنبِهِمْ، ولا يعفوَ عنهمْ، والله أعلمُ بذلكَ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية فيهِ دلالةٌ على ما ذكرْنا في قولِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ إنما الأمرُ إلى اللهِ الذي لهُ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هو الذي ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

وفي قولِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ جوازُ[(6)] العملِ بالاجتهادِ، لأنه [ﷺ][(7)] عَمِلَ بالاجتهادِ لا بالأمرِ حتى مُنِعَ عنهُ. قالَ الشيخُ، رحمهُ اللهُ: قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ على إثرِ أمرٍ مما جُبِلَ عليهِ البشرُ: ما رأى في ذلكَ صلاحُ[(8)] الخلْقِ، وممّا عليهِ التدبيرُ بحيثُ الإطلاقُ، فَقِيلَ هذا، وأنْ يكونَ على ما رأيتَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وإنما الذي إليكَ الصفحُ عنْ ذلكَ والإعراضُ، واللهُ أعلمُ بما[(9)] كانَ. ويَحْتَمِلُ أن يكونَ يَبْتَدِئُ القولَ بهِ [منْ][(10)] غيرِ أنْ سبقَ منهُ ما يُعاتَبُ عليهِ، أو أنْ يُمنَعَ منهُ ليكونَ أبداً مُقبلاً نحوَ الإذنِ لهُ في كلِّ شيءٍ والأمرِ، ولا تطمَعُ نفسُهُ في شيءٍ لم تَسبِقْ له البِشارةُ بهِ، على [أنَّ النهيَ والوعيدَ أمرانِ جائزانِ، وإن كانَ قد عُصِمَ عن ركوبِ النهيِ ووجوبِ الوعيدِ][(11)] إذْ هنالكَ تظهرُ رتبةُ العصمةِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

والظاهرُ أنْ يكونَ على إثرِ أمرِ استَعْجَلَ ذلكَ منْ دعاءِ الهلاكِ والهدايةِ لقبولِ الحقِّ والخضوعِ، فيقولُ: ليسَ لكَ شيءٌ مِنْ ذلكَ في أحدٍ على الإشارةِ، إنما ذلكَ إلى اللهِ يصنَعُ فيهِمْ ما عندَهُ مِنَ الثوابِ والتعذيبِ على قدرِ ما يَعْلَمُ مِنْ إقبالِهِمْ على الطاعةِ أو نَفادِهِمْ[(12)] عنها، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: قولاً وفعلاً. (٢) في الأصل وم: ترك. (٣) في الأصل وم: نفراً. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) في الأصل وم: فإن كان من. (٦) في الأصل وم: لجواز. (٧) في م: عليه الصلاة والسلام. (٨) من م، في الأصل: اصطلاح. (٩) في الأصل وم: وما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: النهي والوعيد. (١٢) نفد كسمع نفاداً ونفداً: فني وذهب.

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ قولُهُ: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ كقولِهِ: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ففيهِ نهيٌ عنِ الأخذِ، وكقولِهِ: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [النساء: ١٦١] فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي لا تأخُذوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ [قيلَ: حُكمُ][1] النهيِ عنِ المُضاعفةِ وغيرِ المُضاعَفةِ حرامٌ، وقيلَ[2]: يَحتَمِلُ هذا وجوهاً: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا قبْلَ تحريمِ الرِّبا، فَنُهُوا عنْ أخذِ المُضاعفةِ، ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي لا تُكثِروا[3] أموالَكُمْ بأخذِ المُضاعفةِ، ويَحتَمِلُ ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ أي لا تَصِرُّوا على اسْتِحلالِ الربا [فَتَتْبَعوهُ آخرَ الأبدِ][4] ويَحتَمِلُ ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ تضعيفَ العذابِ، ويَحتَمِلُ ما قيلَ: كانَ أحدُهُم يبايعُ الرجلَ إلى أجلٍ، فإذا حَلَّ الأجلُ زادَ في الربحِ، وزادَ الآخرُ في الأجلِ، [ذلك][5] كانَ رِبا الجاهليةِ. قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ يَحتَمِلُ الأكلَ لأنهُ نهايةُ كلِّ كسبٍ، ويَحتَمِلُ الأخذَ كقولِهِ ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [النساء: ١٦١] وقولِهِ ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وقولِهِ ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ في الأخذِ أي لا تأخُذوا [لِتُكثِّرَ أموالُكُمْ][6] وتقصِدوا بذلك تضاعفَ أموالِكُمْ إلى غيرِ حدٍّ. وليسَ فيهِ أنَّ القليلَ ليسَ بمحرَّمٍ، لكنَّ ذلكَ هو مقصودٌ بأصلِهِ[7]، فَنُهُوا عن ذلكَ، وحرمةُ القليلِ بغيرِ ذلكَ منَ الآياتِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في [ما زادَ عليها خرجَ النهيُ][8] لا على الإذنِ بدونِ ذلكَ.

ولو كانَ على حقيقةِ الأكلِ فهو على النهيِ عنِ التوسُّعِ بالرِّبا أو الأمرِ بالعَودِ إلى ما لا رِبا فيهِ، وإن كانَ في ذلك ضيقٌ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في الآيةِ إضمارٌ، فيقولُ: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ فإنكمْ إنْ أكلتمُوهُ بعد العلمِ بالتحريمِ تضاعفَتْ عليكمُ المآثمُ والعقوباتُ، وقد جعلَ اللهُ للربا أعلاماً دلَّتْ على ما غَلَظَ شأنَها نحوَ ما أوعدَ[9] مَنْ لا يَتَّقيهِ بالخروجِ بِحَرْبِ[10] اللهِ وحربِ رسولِهِ[11] ﷺ[12] وبالتخبُّطِ[13] يومَ القيامةِ وانتفاخِ البطنِ[14] وما جرَى في مُعاقبةِ اليهودِ بتحريمِ[15] أشياءَ بمكانِ ذلكَ وقومِ شعيبٍ[16] ما حَلَّ بهم بلزومِهِمْ تَعاطي الربا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تأخُذوا الربا، ولا تَسْتَحِلُّوهُ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيهِ دلالةٌ على أنها إنما أُعِدَّتْ للكافرينَ لم تُعَدَّ لغيرِهِمْ، فذلك يَرُدُّ على المعتزلةِ حينَ خلَّدوا صاحبَ الكبيرةِ في النارِ، واللهُ تعالى يقولُ: إنها ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهم يقولونَ: ولغيرِ الكافرين.

قال الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يَحتَمِلُ للذينَ اتَّقَوُا الشركَ كقولِهِ ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ويَحتَمِلُ للذين اتَّقَوا جميعَ أنواعِ المعاصي.

فإن كانَ التأويلُ هو الأولَ، فكلُّ منْ يستحقُّ بفعلِهِ اسْمَ الكفرِ هو في الآيةِ، إذْ قالَ في النارِ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ لم يَجُزْ أن تكونَ هي أبداً لغيرِهِمْ لوجهَيْنِ:

---

(١) في الأصل: فإن قيل: ما معنى، في م: فإن قيل ما حل. (٢) في الأصل وم: لكنه. (٣) في الأصل وم: تكثرون. (٤) في الأصل وم: فتتبعون عليه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: ليكثروا أموالهم. (٧) في الأصل وم: أهله. (٨) من م، في الأصل: نازلة عليها خرج. (٩) في الأصل وم: وصف. (١٠) (١١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٧٩].. (١٢) في م: صلى الله عليه وسلم. (١٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥].. (١٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٥] وقوله ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٦ والواقعة: ٥٣] وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤] وقوله ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النساء: ١٠].. (١٥) إشارة إلى قوله ﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ﴾ [التوبة: ٣٤ و٣٥] وقوله ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ [الأنعام: ١٤٠ و١٥١].. (١٦) إشارة إلى قوله ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤] وقوله ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وقوله ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [العنكبوت: ٣٧].

أحدُهُما: إذ لا يجوزُ أنْ تكونَ الجنةُ المُتَّخَذَةُ للمؤمنينَ تكونُ لغيرِهِمْ، فكذلكَ النارُ المُعَدَّةُ للكافرينَ، وهذا أولَى بجوازِ القولِ في إيجابِ الجنةِ لِمَنْ لا يكونُ منهُ الإيمانُ، نحوُ الذُّرِّيَّةِ، وفسادُ القولِ فيهِمْ بالنارِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنها لو[1] جُعلَتْ لغيرِهِمْ أو أُعِدَّتْ لغيرِهِمْ لكانَ لا يكونُ للكفرِ فَضْلُ هيبةٍ ولفعلِهِ فزعٌ في القلوبِ بوجودِ ذلكَ. ومعلومٌ أنَّ ذلكَ بالعواقبِ لا بنفسِ الفعلِ، ثبتَ أنهُ لا يجبُ خلودُ مَنْ ليسَ بكافرٍ فيها حتى يكونَ لِمَنْ أُعدَّتْ لهُ ولغيرِهِ[2] أثرٌ وتحذيرٌ لا تحقيقُ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلمُ.

وإنْ كانَ التأويلُ هو الثانيَ مِنِ اتِّقاءِ جميعِ المعاصي فيكونُ لذلك عبارتانِ:

أحدُهُما: أنْ قد ظهرَ أهلُ الجنةِ وأهلُ النارِ، وبينَهُمْ قومٌ لم تبلُغْ بهمُ الذنوبُ الشِّركَ، فيدخُلونَ في الوعيدِ بالنارِ المُعدَّةِ لهمْ، ولا اتَّقَوا جميعَ المعاصي، فيكونونَ[3] في الوعدِ المُطلقِ في مَنْ أُعِدَّتْ له الجنةُ، فحقُّهُ الوقفُ فيهِ حتى يظهرَ ذلكَ في قولِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وفي قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] وقولِهِ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ العفوُ والمغفرةُ وما كانَ ذلكَ واجباً في الحكمةِ، فيكونُ القائمُ بهِ يستحقُّ وصفَ العدلِ لا العفوِ والمغفرةِ. ثبتَ أنَّ ذلك في ما قد وجبَ، أو في مَنْ يَجزيهِمْ، ويُدخِلُهُمُ الجنةَ، إذ أخبرَ أنهُ لا يجزي السيئةَ إلا بمثلِها، وبالتخليدِ مضاعفةُ ذلكَ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنهُ عذابُ الكفرِ، وهذا دونَهُ.

والثاني: منعُ لذةِ الحسنةِ بكلِّيَّتِها، بل حقُّ ذلك أنْ يكونَ كقولِهِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[4] [الزلزلة: ٧] أنْ يجزيَ بالأمرَينِ جميعاً، ولا قوةَ إلا باللهِ.

والثاني[5]: أنه قد جاءَ بمقابلِ [السيئةِ مِنَ الحسناتِ ومقابلِ][6] كلِّ [نوعٍ][7] مِنْ أنواعِ المعاصي مِنَ الطاعاتِ، وقد وَعدَ على الحسنةِ[8] عَشَرَةَ أمثالِها، فمُحالٌ أنْ يُقابَلَ مثلُ الذي دونَ الشركِ مِنَ السيئاتِ الشركَ في إحباطِ العملِ، ولا يُقابَلَ مثلُ الذي دونَ الإيمانِ في إحباطِ الذنوبِ، وتجبَ له الجنةُ.

ثم مع ذلكَ الإيمانُ الذي بعثَهُ على الخوفِ والرجاءِ وقتَ الإساءةِ، وعلى أنهُ لو خشيَ على نفسِهِ كلَّ بلاءٍ [وكلَّ رجاءٍ][9] يقعُ في الكفرِ بربِّهِ، لم يُؤثِرْ ذلكَ مع ما وُعِدَ على الحسنةِ عَشَرَةَ أمثالِها، ثم تُبْطِلُ لَذَّةُ ذلك كلِّهِ، ويلزِمُ خلْقَ القولِ فيهِ بالكرمِ والعفوِ والرحمةِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ ذكرَ، واللهُ أعلمُ. طاعة الرسولِ لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ لا يرى طاعةَ الرسولِ، فأمرَ ﷺ طاعةَ رسولِ اللهِ لئلا يُخالفوا أمرَ اللهِ ولا أمرَ رسولِهِ، [وإنَّ مَنْ أطاعَ اللهَ، ولم يرَ طاعةَ رسولِهِ][10] فهو لم يُطِعِ اللهَ في الحقيقةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ وأطيعوا الرسولَ في ما بيَّنَ في سنَّتِهِ، أو دعا، أو بلَّغَ. والقصْدُ في الآيةِ إلى فرضِ طاعةِ الرسولِ [في قولِهِ][11] ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] في أمرِهِ ونهيِهِ كما أطعْتُمُ اللهَ في أمرِهِ ونهيِهِ.

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا موصولاً بقولِهِ: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ فتكثِروا أموالَكُمْ، وحقيقتُهُ ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ﴾ ما فيهِ وَعْدُ المغفرةِ مِنْ ربِّكُمْ بالإجابةِ لهُ إلى ما دعا والقيامِ بهِ بحقِّ الوفاءِ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في استحلالِ الربا لأنَّ مَنِ استَحَلَّ محرَّماً فقد كفرَ. وحقيقتُهُ اتَّقُوا ما أوعدَكُم ربُّكُمْ عليه النارَ.

وأصلُ الطاعةِ الائتِمارُ بأمرِ المطاعِ في كلِّ أمرٍ، فمنْ أطاعَ اللهَ في ما أمرَ، وأطاعَ رسولَهُ، رحمَهُ ربُّهُ، وفي الطاعةِ رحمةُ الخَلْقِ على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «لن تدخلوا الجنةَ ما لم تراحَموا، قالوا: كلُّنا نرحمُ يا رسولَ اللهِ، قالَ: ليسَ رحمةَ الرجلِ ولدَهُ، ولكنهُ رحمةٌ عامةٌ» [بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧ وعزاه للطبراني].

---

(١) في الأصل وم: إذا. (٢) في الأصل وم: ولغير. (٣) في الأصل وم: فيكون. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: الآية. (٥) هذا الوجه الثاني من وجهي العبارتين في اتقاء جميع المعاصي المدرجة آنفا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: الحسنات. (٩) في الأصل وم: ورجاء كل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في تحريم الربا، ﴿وَالرَّسُولَ﴾ في تبليغِهِ إليكمْ تحريمَ الرِّبا والنَّهيِ عن أخذِهِ/ ٦٨ ـ ب/ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أنتم، وتنجُونَ منَ النارِ ومنْ عذابِ اللهِ، ثم قالَ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بادِروا بالتوبةِ والرجوعِ عنِ استحلالِ الرِّبا والتركِ عنْ أخذِهِ.

والمغفرةُ هي فعلُ اللهِ، لكنهُ، واللهُ أعلمُ، كأنهُ قالَ: بادِروا إلى الأسبابِ التي بها تَستوجبونَ المغفرةَ منْ ربِّكمْ، والمغفرةُ هي السَّترُ في اللغةِ. ثم يَحتَمِلُ أن يكونَ لا يَهتِكَ أستارَكُمْ في الآخرةِ إذْ أتيتُمْ، ويَحتَمِلُ أنْ يُنسيَكُمْ[1] سيئاتِكُمْ في الجنةِ، لأنَّ ذكرَ المساوئِ في الجنةِ تُنغِّصُ عليهمْ[2] نعمَهُ، فأخبرَ ﷻ: أنهُ يُنسيهمْ مساوِئَهمْ في الجنةِ لئلا ينغِّصَ ذلكَ عليهمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وبادروا أيضاً بالتوبةِ عنِ استِحلالِ الربا إلى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فمعنى [﴿عَرْضُهَا﴾ ضربُ الجنةِ كضربِ][3] السمواتِ والأرضِ؛ وذلكَ، واللهُ أعلمُ، [ما ذكرَ أنّ][4] للسمواتِ والأرضِ أحوالاً، وليستْ[5] تلكَ الأحوالُ كَغَيرِها منَ الخلائقِ بقولِهِ ﷻ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وذلكَ أنها عندَهُمْ مِنْ أشدِّ الخلائقِ وأقواها، فقالَ: إنَّ الذي قدرَ على اتِّخاذِ ما هو أشدُّ وأقوى وأصلبُ لَقادرٌ على إنشاءِ ما هو دونَهُ، وهو هذا العالَمُ الصغيرُ، ووصفَ أيضاً السمواتِ والأرضَ بالغِلَظِ والكثافةِ والشدةِ بقولِهِ ﷻ ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] غِلاظاً[6]. ثم أخبرَ ﷻ أنها مع غِلَظِها وكثافتِها تكادُ تَنشَقُّ لِعظيمِ ما قالوا: بأنَّ للهِ ولداً وشريكاً بقولِهِ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ و٩١] لِيَعلموا عِظَمَ القولِ وقبحَهُ لئلا يقولوا في اللهِ ما لا يَليقُ بهِ، ووصفَ أيضاً السمواتِ والأرضَ بالدوامِ إلى وقتٍ يُبعِدُ فَناءَها في أوهامِ الخَلقِ، وإن [كانتْ فانيةً][7] بقولِهِ؛ ﷻ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧ و١٠٨] فإذا كانَ للسمواتِ والأرضِ ما ذكرْنا منَ الأحوالِ عندَ الخَلقِ، وليستْ تلكَ الأحوالُ كَغيرِها منَ الخلائقِ مِنْ شِدَّتِها وقُوَّتِها وصلابتِها، وَسَعتُها شِبْهُ عَرْضِ الجنةِ، وسَعَتُها سَعَةُ السمواتِ والأرضِ، وعرضُها كما هما عندَ الخَلقِ ليسا بِذَوَي نهايةٍ، وإنْ كانا ذَوَي نهايةٍ وغايةٍ، كما وصفَ أهلَ الجنةِ وأهلَ النارِ بالدوَامِ فيها كدوامِ السمواتِ والأرضِ، وإن كانا فانِيَينِ[8] غيرَ دائمَينِ أبداً لبعدِ فنائِهما عنْ أوهامِ الخَلقِ، فعلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلمُ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ الجنةَ ذاتُ[9] نهايةِ المكانِ، والعرضُ، وإن لم يكنْ بذي نهايةِ الوقتِ وغايتِهِ، لأنهُ ذكرَ العرضَ لها، فهو[10] عرضٌ يَحتَمِلُ نهايةَ عرضِهِ، واللهُ أعلمُ. ولو لم يكنْ ذا[11] نهايةٍ منْ حيثُ العرضُ [كانَ][12] اللهُ غيرَ موصوفٍ بالقدرةِ على الزيادةِ، ومَنْ زالَ عنهُ وصفُ ذلكَ انقطعَ عنهُ الطمعُ، واضْمَحلَّ الرجاءُ.

وبعدُ فإنَّ ثَمَّ داراً[13] أخرَى سِوَى الجنةِ، فأوجبَ ذلكَ نهايةَ الجنةِ من حيثُ العرضُ][14]، إذْ كانَ غيرَ الجنةِ دارٌ أُخرَى مثلُها في ارْتِفاعِ نهايةِ الوقتِ. وجائزٌ وجودُ أمرَينِ مختلفَينِ على اتِّفاقٍ في الوقتِ، ومحالٌ وجودُهما في مكانٍ واحدٍ [على][15] اتِّفاقٍ بمكانٍ، لذلك لَزِمتْ[16] نهايتُهما، وإن زالَتْ عنهُما نهايةُ الوقتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والاتِّقاءُ، هو منَ الطاعةِ في كلِّ أمرِهِ ونهيِهِ وتركِ مُخالَفتِهِ في ذلكَ كلِّهِ. ثم سببُ التَّقوَى يكونُ بوجوهٍ ثلاثةٍ:

[أحدُها][17]: بذكرِ عظمتِهِ وجلالِهِ ورفعتِهِ، [فيمنَعُهُ][18] عنْ مُخالفةِ أمرِهِ ونهيِهِ، فَيُذَلِّلُهُ ذلكَ، ويُحقِّرُهُ، فيمنَعُهُ عنْ مُخالَفتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: ينسي عليكم. (٢) في الأصل وم: عليه. (٣) في الأصل وم: ضرب الجنة بضرب. (٤) في الأصل وم: ذكر هو. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وغلاظا. (٧) في الأصل وم: كانا فانيان. (٨) في الأصل وم: فانيان. (٩) في الأصل وم: ذو. (١٠) في الأصل وم: ذو. (١١) في الأصل وم: ذو. (١٢) في الأصل: وكان. (١٣) في الأصل: دار. (١٤) ساقطة من م. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: لزم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

والثاني[1]: بذكرِ نعمتِهِ وإحسانِهِ، فيمنعُهُ ذلك عنِ ارتكابِ ما نُهِيَ عنهُ حياءً منه[2].

والثالثُ: بذكرِ نَقْمَتِهِ وعذابِهِ في مُخالفةِ أمرِهِ ونهيِهِ، فَيَنْفي ذلكَ عذابَ اللهِ ونَقْمَتَهُ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: وقولُهُ ﷻ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثمّ فسَّرَ الذين يَتّقونَ إلى آخرِ ذلكَ، فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ المرادُ مِنْ ﴿أُعِدَّتْ﴾ مِن جميعِ الذي ذكرَ.

والثاني: أنْ يريدَ بـ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا الشِّرْكَ[3] بالذي أخبرَ ﷻ بقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ثم وصفَهُمْ بالذي ذكرَهُمْ منَ الأفعالِ المحمودةِ [لا أنَّ ذلكَ بكلِّيَّتِهِ][4] شرطٌ لأنْ تُعَدَّ الجنةُ حتى يُحْرَمَ مَنْ لم يبلُغْ ذلكَ.

فإنْ كانَ على الأوَّلِ فكأنهُ وصفَ النهايةَ [لمنْ أُعِدَّتْ لهمُ][5] الجنةُ، وقد يجوزُ أنْ يكونَ لهمْ أتباعٌ في الشِّركِ[6]، فإنْ لم يبلُغوا تلكَ الرتبةَ بفضلِ اللهِ أو بما أعطى مَنْ ذكرَ منهمْ منَ الشفاعةِ أو بما شاركوا أولئكَ في أصلِ الاعتِقادِ بقبولِ ذلكَ، وإنْ كانَ منهمْ تقصيرٌ على أنهُ يُذكَرُ في كلِّ أمرٍ منَ الأمورِ العظيمةِ والنهايةِ في تلكَ على مشاركةِ مَن دونهمْ[7] لهمْ في ذلكَ. وعلى ذلكَ ما ذكرَ منْ بعثِ الرسلِ إلى الفراعنةِ على دخولِ مَنْ دونَهُمْ في ذلكَ، وعلى من طَبَّهُ[8] أهلُ الجلالِ في ذلكَ ودخولِ مَنْ دونَهمْ في الحقِّ وكذلكَ ذُكِرَ الخطابُ في أهلِ الرفعةِ والعلوِّ على تَضَمُّنِ مَنْ دونَ ذلكَ، فكذلكَ الأوَّلُ، وكذلكَ اللهُ، سبحانهُ، ذَكَرَ في القرآنِ مَنَ الكفرةِ الذينَ جمَعُوا مع الكفرِ العنادَ[9] والتمرُّدَ، وذَكَرَ أهلَ الإيمانِ لهمْ معَ ذلكَ الخيراتُ مَنًّا منهُ أنْ ذكرَ هؤلاءِ بأعلى ما استحَقُّوا مِنَ الثناءِ، والأوَّلَ بأعلى ما بهِ يصيرُ لِمَقْتِهِ منْ غيرِ تخصيصٍ في أصلِ لهُ الوعدُ والوعيدُ إلا منْ حيثُ التشديدُ والتفصيلُ، فمثلُهُ الأوَّلُ. أيَّدَ ذلكَ قِسْمَتُهُ أهلَ الجنةِ قسمَينِ: التابعينَ وأصحابَ اليمينِ[10]، ثم قالَ في الذينَ من ذكرَ الذين خلَطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً[11]، وقد بيَّنَ في آخرِ ذلكَ ما يدلُّ على ذلكَ، وهو مَنْ ذكرَ مِنَ الذينَ يأتونَ الفواحشَ والظلمَ، ثم لم يُصِرُّوا على ما فعَلوا[12]، ويكونُ في ذلك وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ اللهَ تعالى بمنِّهِ يوفِّقُهُ بما يُرضيهِ في آخرِ أمرِهِ لِيَختِمَهُ بهِ إذا كان في وقتِ ارتكابِهِ ما ارتكبَ وتقصيرِهِ في ما قَصَّرَ معتقداً جلالَ ربِّهِ خائفاً نَقْمتَهُ[13] راجياً رحمتَهُ متعرِّضاً لما عَرَفَهُ منَ الكرمِ[14] والعفوِ، فيكونُ هو شريكَ مَنْ ذكرَ في الخاتمةِ، وإنْ كانَ منهُ تخلُّفٌ عنهُ في الابتداءِ، واللهُ أعلمُ، أو يكونُ[15] يَجزيهِ لِما قَصَّرَ، وَفَرَّطَ حتى يُطَهِّرَهُ مما كانَ منَ الخلطِ، فيرجِعَ إلى ما وافقَ الأوَّلَ في جملةِ الاعتقادِ، فتكونُ [الجنةُ][16] مُعَدَّةً لِمَنْ جَمَعَ[17] ذلكَ، والجمعُ يكونُ للذي ذكرَ، أو بالعفوِ والجودِ [إذْ جعلَ الجزاءَ: طريقُهُ الجودُ][18] والكرمُ لا الاستِحقاقُ، واللهُ أعلمُ.

وإنْ كانَ على معنى الثاني فالآيةُ تُخَرَّجُ مُخرَجَ الترغيبِ في جميعِ تلكَ الأوصافِ، وتكونُ الجنةُ في الإطلاقِ مُعَدَّةً للمتقينَ الذينَ اتَّقَوُا الشِّركَ[19]، والدرجاتُ وما فيها منَ الفضائلِ والمراتبِ على قدرِ ما يُتَّقَى مِنْ أنواعِ الخلافِ في الأفعالِ، ويُتَوسَّلُ إلى اللهِ تعالى بالمُبادرةِ والمسارعةِ إلى ما فيهِ الرغائبُ. وعلى ذلكَ أمرُ الوعدِ تفضيلٌ للدرجاتِ في الجنةِ وتعريفُ الدركاتِ في النارِ على ما أُعدَّتِ النارُ في الجملةِ للكفرةِ، ويَتفاوَتُ أهلُها بتفاوُتِ الأفعالِ مِنَ الخلافِ والتمرُّدِ، واللهُ الموفقُ.

ثم السببُ الذي بهِ يُستعانُ على التَّقْوَى [في وجوهٍ][20] ثلاثةٍ:

أحدُها: أنْ يذكرَ المرءُ عظمتَهُ وجلالَهُ وقدرتَهُ في كلِّ أحوالِهِ، فَيَتَّقِيَ مُخالَفَتَهُ بالهيبةِ والجلالِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: منهم. (٣) في الأصل وم: الشركة. (٤) من م، في الأصل: لأن ذلك. (٥) في الأصل وم: من أعدت. (٦) في الأصل وم: الشركة. (٧) في الأصل وم: دونه. (٨) طبه: أراده. (٩) في الأصل وم: والعناد. (١٠) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣ و١٤].. (١١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]. (١٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].. (١٣) في الأصل وم: عظمته. (١٤) في الأصل وم: الكريم. (١٥) في الأصل وم: أن يكون. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: جميع. (١٨) من م، ساقطة من الأصل. (١٩) في الأصل وم: الشركة. (٢٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنْ يذكرَ عِظَمَ مِنَّتِهِ عليهِ ونعمَهُ عندَهُ وأياديَهِ التي فيها يتقلَّبُ، وبها يتمتَّعُ، فيتَّقيهِ حياءً منهُ.

والثالثُ: أنْ يذكِّرَ نفسَهُ عِظَمَ نَقمتِهِ الموعودةِ وعذابِهِ المُعَدِّ[1] لأهلِ الخلافِ لهُ، فيتَّقيهِ إشفاقاً على نفسِهِ، واللهُ الموفقُ.

وجملةُ ذلكَ أنَّ منْ تأمَّلَ ما إليهِ مرجِعُهُ والذي منهُ مبدَؤُهُ معَ ما فيهِ مُتقلَّبُهُ منْ أوَّلِ أحوالِهِ إلى مُنتَهى آجالِهِ حتى صيَّرَ ذلكَ كلَّهِ كالعِيانِ لقلبِهِ سَهُلَ عليه وجهُ التَّقْوى لِما عندَ ذلكَ تذهبُ شَهَواتُهُ، وتضمَحِلُّ أمانيهِ، واللهُ الموفقُ.

الآية ١٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ قيلَ: السَّراءُ الرَّخاءُ، والضَّرَّاءُ الشِّدَّةُ / ٦٩ ـ أ/ وقيلَ: السَّرَّاءُ السَّعَةُ، والضَّرَّاءُ الضِّيقُ، وهو واحدٌ، وقيلَ: السَّرَّاءُ [ما يَسُرُّ لهمْ][2] الإنفاقَ منْ نحوِ الولدِ وغيرِهِ، يَسُرُّهُ الإنفاقُ عليهِ، والأجنبيُّ يضرُّهُ. وعلى تأويلِ أنَّ الإنفاقَ في حالِ الرَّخاءِ والسَّعةِ أيسرُ وأهونُ على المرءِ منَ الإنفاقِ في حالِ الضِّيقِ والفقرِ، فإذا أنفقَ في الأحوالِ [كلِّها][3] يَستوجِبُ بذلكَ المدحَ، واللهُ أعلمُ.

والسببُ الذي يَتَيَسَّرُ عليهِ الأمرُ [في وجهَينِ][4]:

أحدُهُما: علمُهُ بأنَّ الذي في يديهِ في الحقيقةِ في يدِكَ، فهو يَصرِفُ ذلكَ حينَ يصرفُهُ لمْ يُخرِجْهُ من يدِهِ، [بل أبقاهُ][5] في يدِهِ.

والثاني: علمُهُ[6] بجودِ ربِّهِ وقدرتهِ حيثُ يكونُ ذلكَ في ما بهِ قضاءُ حاجتِهِ والوصولُ إلى منفعتِهِ معَ ما يعلَمُ بالوجودِ وكثرةِ الانتفاعِ بما لا مُلكَ للمنتفعِ بهِ وحرمةِ ذي المُلكِ فيهِ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ يَحتَمِلُ في ما يَسُرُّهُمْ، ويَضُرُّهُمْ أو في حالِ يُسْرٍ وعُسْرٍ أو حالِ بلاءٍ ونعمةٍ، ثم السببُ الذي يُسهِّلُ سبيلَ الإنفاقِ في تلكَ الأحوالِ، وإنْ كانَ بالذي ذكرَ في تسهيلِ التَّقْوى [هو في][7] وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنْ تَرَى ما في يدِكَ لمنْ لهُ [ما في][8] يدِكَ، امْتَحَنَكَ بحقِّ ذلكَ وحفظِهِ، وأنكَ إذا بذلْتَهُ ارتفعَتْ عنكَ مَؤُنَةُ الحفظِ ومراعاةُ الحقِّ على ما لم يكنْ زالَ عنكَ نفعُهُ الذي كانَ لهُ وقتَ كونِهِ في يديكَ، إذ هو بعدَ البذلِ في يدِ من يديكَ قبلَهُ في يدِهِ، فكأنهُ لم يَخرجْ منْ يدِكَ بحيثُ النفعُ، وإنما سقطتْ[9] عنكَ ما ذكرْتُ منَ المؤنةِ، إذْ معلومٌ وجودُها في الظاهرِ، لا منتفعٌ بهِ، ومنْ لا مُلكَ لهُ في الشيءِ مُنْتَفِعٌ بهِ على العلمِ باسْتِواءِ الأمرِ على منْ لهُ بُذِلَتْ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ تُشعِرَ قلبكَ جودَهُ بمَنْ أثرُهُ على ما عندَهُ وقدرتَهُ على إعطائهِ إياهُ منْ خزائنِهِ التي لا تَنْفَدُ، ولا يَتَعَذَّرُ عليهِ، فَتَتيقَّنَ بذلكَ، وتَعلمَ أنهُ لكَ على الإيصالِ إليهِ في ما لم يكنْ أوصلَهُ. وعلى ذلكَ في ما أعطاهُ في القدرةِ واحدٌ، فيهونُ عليهِ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: أنْ تعلمَ أنَّ الذي عليهِ جُبِلَ، وإليهِ دُفِعَ، ليس للوقتِ الذي فيهِ، ولكنْ ليتزوَّدَ لِمَعادِهِ، ويكتسِبَ بهِ الحياةَ الدائمةَ والمنفعةَ التي لا تَنْفَدُ، فيصيرَ كبائعِ الشيءِ بإضعافِ ثمنِهِ أو باذلِ ما فيهِ مكانَ رقبتِهِ أو كمقدِّمِ ما يُمْتَهَنُ إلى مكانِ مهنتِهِ أو كمنْ يُعِدُّ الشيءَ في مسكنِهِ لوقتِ حاجتِهِ، فإنَّ مِثلَهُ أثرُ الشيءِ في الطبيعةِ، والذي [هو][10] شيءٌ في العقلِ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

ثم الأصلُ في قولِهِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ منْ لم يبلغْ بما ترتكبُ منَ المعاصي الكفرَ لم يمتنعْ منِ احْتِمالِ التسميةِ المتَّقينَ على إرادةِ خصوصِ التَّقْوى، وهو ممتَنِعٌ عنِ احْتِمالِ التسميةِ بالكفرِ على ما صرفَ الآيةَ في إعدادِ[11] النارِ إلى خصوصِ

---

(١) في الأصل وم: المعدة. (٢) من م، في الأصل: يأسرهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يعلم. (٧) في الأصل وم: هذا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: سقت. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أعداء.

أو عموم، فثبتَ بهِ خروجُ صاحبِ الكبائرِ عنْ أهلِ الإسْمِ الذي أعدّتِ النارُ [لهمْ][1] ولم يثبُتْ خروجهُ عنْ أهلِ الإسْمِ الذي أُعِدَّتِ الجنةُ [لهمْ][2]، فالقولُ فيهِ بالقطعِ في النارِ. وإنما ذلكَ في الجنةِ فاسدٌ بأوجهٍ:

أحدُها: معَ الإشكالِ في ما يُحرِّمُ الجنةَ والإحاطةِ بأنَّ النارَ لم تُذكرْ أنها أعدتْ لهُ، أدخلَ فيها، فيكونُ في ذلكَ إسقاطُ شهادةٍ [ثبتَتْ][3] بيقينِ الشَّكِّ وإيجابُ شهادةٍ][4] لم تجبْ بالخيالِ.

والثاني: أنْ يكونَ في ذلك إسقاطُ اسْمِ العودِ الرَّحمةَ؛ إذْ لو لم يُجعلْ لِمثلِهِ لَبَطَلَ أنْ يكونَ موضِعَ ما في غيرِهِ استحقاقٌ، واللهُ أعلمُ،

والثالثُ: ما فيه إسقاطُ الموازنةِ وإفسادُ المقابلةِ مع مجيءِ الآياتِ والكتبِ التي تُقِرُّ الموازينَ التي توزَنُ مع ما في ذلكَ مُخالفَتُهُ التَّوهُّمَ بالكريمِ الذي أُمِرْنا أنْ نُسَمِّيَهُ بها معَ ما قد جاءَ مِنَ التجاوُزِ عنِ السيئاتِ والتَّقبُّلِ للحسناتِ مِنْ واحدٍ، وفي ذلكَ قلبُ ذلك؛ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى[5]: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ رُويَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: «مَنْ كظمَ غيظاً، وهو يقدرُ على إنفاذِهِ، ملأهُ اللهُ أمْناً وإيماناً» [السيوطي في الدر المنثور ٢/٣١٦] والغيظُ كأنَّه متردِّدٌ بينَ الحزنِ والغضبِ؛ والحزنُ على مَنْ فوقَهُ، والغضبُ على مَنْ دُونهُ، والغيظُ بينَ ذلكَ. مدحَهمْ ﷻ بترديدِ حزنِهِمْ وغيظِهِمْ في أجوافِهِمْ.

وقولُهُ تعالى[7]: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي عمَّنْ ظَلَمَ. ورُوِيَ عَنْ رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: «ما عفا رجلٌ عن مظلمةٍ إلّا زادَهُ اللهُ بها عِزّاً، ومَنْ عفا عنِ الناسِ عنْ مظلمةٍ فقد أحسنَ بذلك كما يُقالُ: فلانٌ يُحسِنُ كذا، ولا يُحسِنُ» [بنحوه أحمد ٢/٤٣٨].

وقولُهُ تعالى[8]: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ والإحسانُ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ العلمَ والمعرفةَ، ويَحتمِلُ أنْ يفعلَ فعلاً ليسَ عليهِ مِنْ نحوِ المعروفِ والأيادي التي ليسَ عليهِ، إنما فِعْلُهُ الإفضالُ؛ ذكرَ ههنا المحسنِينَ وحبَّهُ [إياهمْ][9]، وأخبرَ في الآيةِ الأولَى أنَّ الجنةَ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بقولِهِ ﷻ ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ثم قالَ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وأخبرَ أنَّ النارَ ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤ وآل عمران: ١٣٢].

ثم اختلفُوا فيه: قالَ بعضُهُمْ: مَنْ لم يكنْ مِنَ المتَّقينَ لمْ تُعَدَّ الجنةُ لهُ، فهو ممَّنْ أُعِدَّتْ لهُ النارُ، وهو قولُ الخوارجِ والبغاةِ، وقالَ آخرونَ: إنَّهُ أخبرَ أنَّ النارَ ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فهو إذا لم يكنْ كافراً ممَّنْ أُعِدَّتْ لهُ النارُ فهو ممَّنْ أُعِدَّتْ لهُ الجنةُ، وقالَ غيرُهُمْ: أخبرَ أنَّ النارَ ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وأخبرَ أنَّ الجنةَ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فوصفَ المُتَّقينَ بأنهمُ[10] الذينَ اتَّقَوا معاصيَهُ، وتركُوا مُخالفةَ أمرِهِ ونهيِهِ. فإذا كانَ قومٌ لهمْ مساوئُ لم يدخلوا في إطلاقِ قولِهِ ﷻ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولا دَخلُوا في قولِهِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فيكونُ لهمْ موضعٌ بالنارِ.

وأمّا عندَنا فإنهُ [في وجهَينِ:

أحدُهُما][11]: يُرجىْ دخولَ مَنِ ارتكبَ المساوئَ مِنَ المؤمنينَ في قولِهِ ﷻ ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ كذا ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقولِهِ[12] ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] ذَكرَ خلْطَ عملِ الصالحِ بعملِ السيِّءِ، ثم وَعَدَلَهُمُ التوبةَ بقولِهِ ﷻ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وال ﴿عَسَى﴾ مِنَ اللهِ واجبٌ.

والثاني: قولُهُ: ﷻ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]؛ فإذا تجاوَزَ لم تبقَ مساوئُ، فصارُوا مِنْ أهلِ هذهِ الآيةِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقولِهِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠ و..] وقولِهِ أيضاً:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: له. (٣) في م: ثبت. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: ﷻ. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م: ﷻ. (٨) في م: ﷻ. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فهم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: بقوله.

الآية ١٣٥ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أخبرَ أنهمْ ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ وقد ذكرْنا في ما تقدَّم أنهمْ لأيِّ معنىً ظلمُوا أنفسَهُمْ حينَ لمْ يُسْلِمُوا أنفسَهُمْ خالِصينَ، والظلمُ هو وضعُ الشيءِ في غيرِ موضِعِهِ، فإذا لمْ يُسلِمُوا وضعُوا أنفسَهُمْ في غيرِ موضِعِها؛ لذلكَ صاروا ظَلَمَةَ أنفسِهِمْ، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [أي طلَبُوا لذنوبِهِمْ][1] مغفرةً، وأقرُّوا أنهُ لا يغفِرُ الذنوبَ إلّا اللهُ ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ﴾ ذنوبِهِمْ؛ والإصرارُ هو الدوامُ عليه.

الآية ١٣٦ ثم أخبرَ أنَّ جزاءَ هؤلاءِ ﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ. دَلَّتْ هذهِ الآياتُ على تأييدِ قولِنا: إنَّ أهلَ المساوئِ والفواحشِ إذا تابُوا صاروا مِمَّنْ أُعِدَّتْ لهمُ الجنةُ، وإنْ لم يكونُوا مِنَ المتَّقِينَ مِنْ قبلُ، فَمِثْلُهُ إذا تجاوزَ اللهُ عن سيِّئاتِهِمْ، [وعفا عنْهُمْ][2] بما هو عَفُوٌّ غفورٌ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الظلمُ غيرَ الفاحشةِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونا واحداً في المُرادِ؛ إذْ قدْ يكونُ في المعنى أنَّ كلَّ عاصٍ[3] ظالمٌ لنفسِهِ بمعنى ضرِّها، بِفُحشٍ[4] لَحِظِها، إذا فعلَ ما هو ليسَ لهُ الفعلُ، ووضعَ اختيارَهُ في غيرِ موضِعِهِ، وهُما مَعْنيَا[5] الظلمِ، وكذلكَ مَنْ تَعَدَّى حدَّ اللهِ، أو آثرَ ما يَزْجُرُهُ العقلُ والشرعُ فقد فحشَ فعلُهُ، وذلكَ معنى الظلمِ الذي وصفْتُ، إذْ فعلُ ما ليسَ لهُ واختيارُهُ غيرَ الذي لهُ هو الذي يزجُرُهُ العقلُ والشرعُ، واللهُ أعلمُ. ويَحْتَمِلُ التفريقَ؛ وهوَ أنَّ الظلمَ يجمعُ كلَّ وجوهِ الخلافِ عَظُمَ، أو صَغُرَ؛ ولذلكَ قد نسبَ ذلكَ إلى زلاتِ الأخيارِ نحوَ ما قيلَ لآدمَ ﷺ وحواءَ في أكلِ الشجرةِ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥ والأعراف: ١٩] وقيلَ في الشِّرْكِ: إنّ اللهَ لا يحبُّ القومَ الظالمينَ والفَواحِشَ، ما يظهرُ، ويتبيَّنُ قبحُهُ/ ٦٩ - ب/ لا ما قلَّ، أو كَثُرَ في الذنوبِ. وعلى ذلكَ النقصانُ ظُلْمٌ[6] بقولِهِ: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]. وقد يوصَفُ العيبُ والنقصانُ بالفحشِ) لكنهُ إذا كثُرَ، وظهرَ، فَمِثْلُهُ في الزلاتِ، ويكونُ كالطَّيِّبِ في المُحَلَّلاتِ مِنَ المُباحِ ونحوِهِ في الدرجةِ، واللهُ أعلمُ.

ثم ليسَ بنا حاجةٌ إلى معرفةِ المقصودِ بالذكرِ في الآيةِ لما فيهِ الرجوعُ عنْ ذلكَ وطلبُ المغفرةِ. وكلُّ أنواعِ المآثمِ بالتوبةِ تُغفرُ بما وعدَ اللهُ في الشِّرْكِ والزِّنى والقتلِ فما دُونَهُ بقولِهِ: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى تمامِ الآيةِ [الفرقان: ٦٩] واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ تحتمِلُ الفاحشةُ ما فَحُشَ في العقلِ، وقَبُحَ. وقالَ آخَرونَ: كلُّ محرَّمٍ مَنْهِيٍّ [عنه][7] فهو فاحشةٌ، والأوَّلُ كأنّهُ أقربُ لأنَّ الشيءَ ما لم يبلُغْ في الفحشِ والقبحِ غايتَهُ فإنّه لا يُقالُ: فاحشةٌ، وإذا بلغَ الغايةَ فحينئذٍ، كالطَّيِّبِ: إنهُ ذلكَ إذا بلغَ غايتَهُ في الحِلِّ واللَّذَّةِ، فأمّا أنْ يُقالَ لكلِّ حِلٍّ في الإطلاقِ طيِّباً فلا. فعلى ذلك الفواحشُ لا يُقالُ لكلِّ محظورٍ محرَّمٌ، إنما ما بلغَ في القبحِ والفحشِ غايتَهُ، فأمّا أنْ يقالَ ذلكَ لكلِّ محرَّمٍ مَنْهِيٍّ [عنهُ][8] فلا، وباللهِ التوفيقُ. والطَّيِّبُ ما استطابَهُ الطبعُ، فإذا بلغَ طيبُهُ غايتَهُ في الطبعِ فهو طَيِّبٌ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يحتمِلُ أحكاماً. والأحكامُ تكونُ على وجهينِ: حُكْمٌ يجبُ لهمْ، وهو الثوابُ عندَ الطاعةِ واتّباعِ الحقِّ، وعذابٌ يَحُلُّ[9] بهمْ عندَ الخلافِ والمعصيةِ، وتَحتَمِلُ السُّنَنُ الأحكامَ المشروعةَ ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى تَرَوا آثارَ مَنْ كذَّبَ الرسلَ، وما حَلَّ بهمْ حتى يُخبِروكُمْ، أو سِيروا في الأرضِ أي سَلُوا من يَعْلَمُ ما الذي حَلَّ بهمْ حتى يخبِروكُمْ وما مَضَى مِنَ الهلاكِ في الأممِ الخاليةِ. فهذا تنبيهٌ مِنَ اللهِ ﷻ إياهُمْ: إنكم إنْ كذَّبتُمُ الرسلَ فَسَيَحُلُّ[10] بكمْ ما قدْ حَلَّ[11] بمَنْ كانَ قَبلَكُمْ وإنْ أطعتُمُ الرسولَ ﷺ فَلَكُمْ مِنَ الثوابِ، ما لهمْ، فاعتبِروا به كيفَ كانَ جزاؤهُمْ بالتكذيبِ؟ وما في القرآنِ مثلُ هذا فمعناهُ: لو سألتَ لأخبَروكَ. وقيلَ: سِيرُوا في الأرضِ أي تفكَّرُوا في القرآنِ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل و م: وعفاهم. (٣) من م، في الأصل: عالم. (٤) في الأصل وم: ويحسن. (٥) من م، في الأصل: معنيات. (٦) في الأصل وم: ظلما. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) من م، في الأصل: يحتمل. (١٠) في الأصل و م: فيحل. (١١) في الأصل و م: قل.

يخبرُكُمْ عنِ الأممِ الماضيةِ، فكأنكُمْ سِرْتُمْ في الأرضِ، وما في القرآنِ مثلُ هذا فمعناهُ: لو سألتَ لأخبَروكَ، فإنَّ فيهِ خبرَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ مِنَ الأممِ الماضيةِ، وما لَهمْ مِنَ الثوابِ بالتصديقِ والطاعةِ وما عليهِمْ مِنَ العقابِ بالتكذيبِ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى][١]: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يَحتمِلُ في المكذِّبينَ بالرسلِ والمصدِّقينَ، [وقولُهُ][٢]: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَحتمِلُ لو سِرْتُمْ فيها لرأيتُمْ آثارَهُمْ ولعرَفْتُمْ ما إليهِ ترجِعُ عواقبُ الفريقَينِ ويَحتمِلُ الأمرَ بالتأمُّلِ في آثارِهِمْ والنظرِ في الأنباءِ[٣] عنهمْ ليكونَ لهمْ[٤] بهِ العِبَرُ وعمّا هُمْ مَزْجَرٌ. وتَحتمِلُ السُّنَنُ الموضوعَ مِنَ الأحكامِ وبما بهِ امْتُحِنَ مَنْ قَبْلَهُمْ ليَعلَموا أنَّ الذي بُلُوا بهِ ليسَ ببديعٍ، بل على ذلكَ أمرُ مَنْ تقدَّمَهُمْ كقولِهِ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] واللهُ أعلمُ.

الآية ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ﴾ يعني القرآنُ هو ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾ مِنَ الضلالةِ ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي يتَّعِظُ بهِ المتَّقونَ، ويَحتمِلُ ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ ما ذكرَ مِنَ السُّنَنِ التي في الأممِ الخاليةِ. دلَّ قولُهُ ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أنَّ للهِ في صرفِ الدَّولةِ إلى أهلِ الشركِ [فعلاً وتدبيراً][٥]؛ أضافَ ذلكَ إليهِ ما بهِ الدَّولةُ ثُمَّ ذلكَ معصيةٌ وقَهْرٌ وتذليلٌ، فثبتَ جوازُ كونِ ما هو فعلٌ بمعصيةٍ إلى اللهِ مِنْ طريقِ التخليقِ والتقديرِ، واللهُ أعلمُ أنَّ ذلكَ لهمْ بما همْ عصاةٌ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ ولا تضعُفُوا في محاربةِ العدوِّ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ بما يصيبُكُمْ مِنَ الجِراحاتِ والقُروحِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ويَحتمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ في الحربِ، وأنتمْ تَعمَلونَ للهِ، فلا[٦] تَضعُفونَ فيها، وهم يعمَلونَ للشيطانِ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما فاتَكُمْ مِنْ إخوانِكُمُ الذينَ قُتِلُوا، ويَحتمِلُ ما أصابَكُمْ مِنَ القُروحِ؛ أي تلكَ القُروحُ والجِراحاتُ لا تمنَعُكُمْ عَنْ قتالِ العدوِّ، ولكمُ الأجرُ والشهادةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ قِيلَ فيهِ بوجوهٍ: قِيلَ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ المُحِقُّونَ[٧] بالحُجَجِ، وقِيلَ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ في النصرِ، أي ترجِعُ عاقبةُ الأمرِ إليكمْ، ويَحتمِلُ أنَّ النصرَ لكمْ إنْ لم تَضعُفوا في الحربِ ولم تَعصُوا اللهَ ﷻ ورسولَهُ ﷺ ويَحتمِلُ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ لكُمُ الشهادةُ إذا قُتِلْتُمْ، وأحياءٌ عندَ اللهِ وهمْ أمواتٌ. وقولُهُ تعالى[٨]: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ليسَ على الشرطِ، ولكنْ على الخبرِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أي إذ كُنَّ يؤمِنَّ باللهِ، وإذْ[٩] كنتُمْ مؤمنينَ بالوعدِ والخبرِ.

الآية ١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ في آخرِ الأمرِ، يعني في أُحُدٍ، فقد مَسَّ المشركينَ قَرْحٌ مِثْلُهُ يومَ بدرٍ؛ يَذكُرُ هذا، واللهُ أعلمُ، على التسكينِ ليعلَموا أنهمْ لم يُخَصُّوا بذلكَ.

وقولُهُ تعالى[١٠]: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ تَحتمِلُ الآيةُ وجوهاً: يوماً للمؤمنينَ ويوماً عليهِمْ؛ وذلكَ أنَّ الأمرَ بمجاهدةِ العدوِّ والقتالِ معهُمْ مِحنةٌ مِنَ اللهِ ﷻ يمتحِنُهُمْ، ويَبْتَلِيهِمْ مَرَّةً بالظَّفَرِ [لهمْ والنَّصْرِ على عدوِّهِمْ ومَرَّةً بالظفرِ][١١] للعدوِّ عليهِمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وكقولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] يمتحِنُ عبادَهُ بجميعِ أنواعِ المِحَنِ بالخيرِ مَرَّةً وبالشَّرِّ ثانياً، وتَحتمِلُ المُداوَلَةُ أيضاً وجهاً آخرَ، وهو أنَّ الظَّفَرَ والنَّصْرَ لو كانَ أبداً للمؤمنينَ لَكانَ الكفارُ إذا أسلَمُوا [أسلَمُوا][١٢] إسلامَ [الاختيارِ، ولكنْ][١٣] إنما آمَنوا إيمانَ قَهْرٍ وكُرْهٍ وجَبْرٍ لِما يخافونَ على أنفسِهِمْ مِنَ الهلاكِ إذا رأَوُا الدَّولةَ والظفرَ للمؤمنينَ، وإنْ كانَ الظَّفَرُ والنَّصْرُ أبداً للكفارِ

---

(١) في الأصل و م: وفي قوله. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، في الأصل: الأنبياء. (٤) في الأصل و م: له. (٥) في الأصل و م: فعل وتدبير. (٦) في الأصل و م: إذ هم لا. (٧) في الأصل: المحققون، في م: للحقوق، . (٨) في م: ﷻ. (٩) في الأصل و م: وإن. (١٠) في م: ﷻ. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل و م. (١٢) من م، في الأصل: اختيارهم لكن.

فلعلَّهُمْ يظنونَ أنهمُ المُحِقّونَ، فمنَعَهُمْ ذلكَ عنِ الإسلامِ، و يَحتمِلُ أنَّ ما يصيبُ المؤمنينَ[1] إنما يصيبُ بمعصيةٍ سبقَتْ منهمْ أو خِلافٍ كانَ منهمْ: مِنْ تركِ أمرٍ أوِ ارْتكابِ نَهيٍ، [واللهُ أعلمُ][2]

فإن طعنَ طاعِنٌ مِنَ المُلحِدَةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]؛ أليسَ وَعَدَ أنكمْ إنْ نصرتُمْ دينَهُ ينصرُكُمْ ؟ وأخبرَ أيضاً أنهُ إنْ نصرَكُمْ فلا غالبَ لكُمْ، فإذا نصرتُمْ دينَهُ، فلم ينصرْكُمْ، أليسَ يكونُ خُلفاً في الوعدِ؟ وإنْ نصرَكُمْ، فَغُلِبْتُمْ يكونُ كذِباً في الخبرِ؟ قيلَ لهذا جوابٌ مِنْ أوجهٍ: قيل: يَحتمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُوا﴾ دينَ ﴿اللَّهَ﴾ في الدنيا ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ في الآخرةِ بالحججِ كقولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية [غافر: ٥١] وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، وقيلَ: ﴿إِن تَنصُرُوا﴾ دينَ ﴿اللَّهَ﴾ ولم تعصُوا اللهَ فيهِ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقيلَ: يَحتمِلُ ﴿إِن تَنصُرُوا﴾ دينَ ﴿اللَّهَ﴾ جملةَ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ كقولِهِ [ﷺ][3]: «لنْ يُغلبَ اثنا عشرَ ألفاً مِنْ قلةٍ كلمتُهُمْ واحدةٌ» [عزاهُ زغلولٌ إلى المسانيد: الجامع الكبير ٢/ ٢٦٤] وكقولِهِ ﷻ ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقيلَ ﴿إِن تَنصُرُوا﴾ دينَ ﴿اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أي يجعلِ الظفرَ والنصرَ في العاقبةِ لكمْ. وكذلك إنْ كانَ في ابْتداءِ الأمرِ الغَلَبةُ على المؤمنينَ فإنَّ العاقبةَ لهمْ في الحروبِ كلِّها، ومقدارُ ما كانَ عليهِمْ إنما كانَ لأمرٍ سبقَ منهمْ، إمّا إعجاباً بالكثرةِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، وإمّا خلافاً لرسولِ اللهِ ﷺ.

وفي قولِهِ ﷻ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ دلالةٌ أنْ كانَ مِنَ اللهِ معنًى لديهِ: تكونُ الغَلَبةُ لهمْ بقولِهِ ﷻ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] [ولا كانَ][4] هو يجعلُ أبداً الدَّولةَ لأحدِ الفريقَينِ، وقد أخبرَ أنهُ يَجْعَلُها[5] لهما، ومعلومٌ أنْ كانتِ الدَّولةُ بالغَلَبةِ، فثبتَ أنَّ مِنَ اللهِ في صُنْعِ العبادِ صُنْعاً[6] لهُ، أُضيفَ إليه صنيعُهُمْ، واللهُ أعلمُ، ثم معلومٌ أنَّ الغَلَبَةَ لو كانتْ للمسلِمِينَ كانَ ذلك الزمَ للحُجّةِ وأظهرَ للدعوةِ وأدعَى إلى الإجابةِ، وفيها كلُّ صلاحٍ، فثبتَ أنْ ليسَ في المِحنةِ شرطُ إعطاءِ الأصلحِ[7]، واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ ﷻ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ردُّ قولِ الأصلحِ حينَ قالوا[8]: إنَّ اللهَ لا يفعلُ/ ٧٠ ـ أ/ إلّا الأصلحَ في الدينِ. يُقالُ لهمْ: أيُّ صلاحٍ للمؤمنينَ في مداولةِ الكافرينَ على المؤمنينَ؟.

وقولُهُ تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليَعْلَمَ ما قد عَلِمَ بالغيبِ أنهُ يكونُ[9] بالامْتِحانِ مؤمناً شاهداً، وليَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً. وجائزٌ أنْ يُرادَ بالعلمِ المعلومُ كقولِهِمْ[10]: الصلاةُ أمرُ اللهِ أي بأمرِ اللهِ.

وقولُهُ[11] ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية يُخَرَّجُ على أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ ما وصفْتَ اللهَ بهِ إذا ذكرْتَ معهُ الخَلْقَ [ذكرْتَ وقتَ كونِ الخَلْقِ][12] لئلا يُتَوَهَّمَ قِدَمُهُ، وإذا وصفْتَ اللهَ تعالى بلا ذكرِ الخَلْقِ وصفْتَهُ بهِ في الأزلِ نحوَ أنْ تقولَ: عالمٌ قادرٌ سميعٌ في الأزلِ، فإذا ذكرْتَ المسموعَ والمقدورَ عليهِ والمعلومَ ذكرْتَ وقتَ كونِهِ لِتُزيلَ تَوَهُّمَ القِدَمِ على الآخرِ. وعلى هذا عندَنا القولُ بـ: خالقٌ ورازقٌ ونحوُ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: على تسميةِ معلومِهِ عِلْماً في مجازِ اللغةِ، وذلكَ كما سُمّيَ عذابُ اللهِ في القرآنِ أمرَهُ، وسمّى الناسُ الصلاةَ وغيرَها مِنَ العباداتِ أمرَهُ على أنها تُفعَلُ بأمرِهِ، وكذلكَ ما سُمِّيَتِ الجنةُ رحمتَهُ على أنْ كانَتْ بهِ، فيكونُ ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليكونَ الذينَ آمَنُوا على ما عِلْمُهُ يكونُ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الغيبِ شهوداً إذ هو عالمُ الغيبِ والشهادةِ[13]، وتحقيقُ ذلكَ لا يكونُ

---

(١) في الأصل: للمؤمنين، في م: بمعصية للمؤمنين. (٢) من م، في الأصل: الله وأعلم. (٣) في م: عليه السلام. (٤) في الأصل وم: ولكان.
(٥) في الأصل وم: يجعل. (٦) في الأصل و م: صنع. (٧) هذا الشرط هو من مذهب المعتزلة وأحد ادعاءاتهم، وقد ورَدَ كثيراً، وَرَدَّ عليه الماتريدي رحمه الله. (٨) انظر الحاشية السابقة. (٩) في الأصل وم: يؤمن. (١٠) في الأصل وم: كقوله. (١١) في الأصل وم: وفي قوله.
(١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) إشارة إلى قوله ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣ و...].

بحادثِ العلمِ؛ وذلكَ نحوُ مَنْ يعلمُ الغدَ يكونُ بعلمِهِ بعدُ الغدِ، وإنْ لم يكنْ لهُ حدوثُ العلمِ قد كانَ. وعلى هذا قَبْلَ كونِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ليكونَ الذي علْمُهُ يكونُ بالمحنةِ ظاهراً موجوداً، وهو يرجعُ إلى ما بيَّنّا، وقالَ بعضُهُمْ: لِيَراهُ، وهذا مِنْ صاحبِهِ ظنٌّ أنَّ الكلامَ في الرؤيةِ لِعِلَّةِ اليُسْرِ، وعنِ التَّشْبُّهِ أبعدُ، وعنْهُ: مَنْ يغزو للهِ حَقَّ المعرفة: هما واحدٌ.

والأصلُ في هذا ونحوِهِ في الإضافاتِ إلى اللهِ أنها كانَتْ بالأحرفِ المُتعارَفِ[عليها][1] في الخَلْقِ، ثم هي تُؤَدّى عنْ كلِّ [ما] [2] يُضافُ إليهِ، ويُشارُ إليهِ ما كانَ عُرِفَ مِنَ حالِ ذلكَ قَبْلَ الإضافةِ [لا أنْ] [3] يُقدَّرَ عندَ الإضافةِ معنىً لا يُعرَفُ[4] بهِ لو لا ذلكَ على ما عُرِفَ مِنَ الاشتِراكِ في اللفظِ والاختِلافِ في المعنىَ. فعلى ذلكَ أمرُ الإضافةِ إلى اللهِ تعالى. ويوَضِّحُ ذلكَ ما لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنْ قولِهِ ﷺ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧و...] ما فُهِمَ مِنْ إضافةِ الحدودِ إلى غيرِهِ، وكذلكَ بيوتُ اللهِ[5] وعبادُ اللهِ [6] وروحُ اللهِ[7] وكلمتُهُ[8] ونحوُ ذلكَ لِمِثْلِهِ الذي نحنُ فيهِ.

وجائزٌ في الجملةِ أنْ يُوصَفَ اللهُ بأنهُ لم يَزَلْ عالماً[9] بكونِ كلِّ ما يكونُ مع كلِّ ما يكونُ كيفَ يكونُ ؟ وفي وقتِ كونِهِ كائناً بعدَ كونِهِ قد مَضى كونُهُ على تحقيقِ التغيّرِ في أحوالِ الذي يكونُ لا في اللهِ ﷻ إذْ تغيُّرُ الأحوالِ واسْتِحالَتُها مِنْ آياتِ الحديثِ وأماراتِ الصنعةِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ، في قولِهِ ﷺ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحدُهما: ولم يعلَمْ، وهو يُخرَّجُ على وجهَينِ :

أحدُهما: على إثباتِ أنهُ عَلِمَ [مَنْ][10] لم يجاهِدُوا كقولِ الناسِ: ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يَشأْ لم يكنْ، أي ما شاءَ الّا يكونَ .

والثاني: أنهُ عالمٌ بكلِّ شيءٍ، فلو كانَ منكُمْ جهادٌ لَكانَ يَعْلَمُهُ، وإنما لمْ يَعلَمْهُ لأنهُ لمْ يكنْ. وعلى ذلكَ قولُهُ ﷺ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي ليسَ لَهُمْ.

والثاني[11]: قولُهُ ﷺ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ بمعنى إلّا كقولِهِ: ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]؛ فيكونُ معنى الآيةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ لا تُدخلُوها إلّا أنْ يَعلَمَ اللهُ مجاهدَتَكُمْ أي حتى تجاهِدُوا، فَيَعلَمَ اللهُ ذلكَ منكمْ موجوداً، واللهُ أعلمُ. وكذلكَ قولُهُ ﷺ: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] أي لِيَعلَمَ ما قد عَلِمَ [أنهمْ صاروا صابرينَ][12]، وكذلكَ قولُهُ ﷺ ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] أي لَيَعْلَمَنَّ الذينَ قد عَلِمَ أنهمْ يصدُقُونَ صادِقِينَ، ولَيَعْلَمَنَّ الذينَ قد علمَ أنهم يكذِبُونَ كاذِبينَ، وكذلكَ قولُهُ ﷺ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] أي حتى يَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهُمْ يُجاهِدُونَ مجاهِدِينَ.

وأصلُه قولُهُ ﷺ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] لِيعْلَمَ شاهداً ما قد عَلِمَ غائباً، واللهُ أعلمُ .

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي يُستشهَدُونَ في سبيلِ اللهِ بأيدي عدوِّهِمْ، ويَحتمِلُ [قولُهُ][13]: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ على الناسِ كقولِهِ ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وفيه دلالةٌ أنهمْ لا يَستَوجِبُونَ بنفسِ الإيمانِ الشهادةَ على الناسِ حتى تظهرَ الصيانةُ والعدالةُ في أنفسِهِمْ.

الآية ١٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يُمَحِّصَ ذنوبَهُمْ وسيئاتِهِمْ . وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: لأن. (٤) في الأصل وم: يعرفه. (٥) إشارة إلى قوله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]. (٦) إشارة إلى قولِهِ ﴿هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٤٠ و . . .]. (٧) إشارة إلى قوله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]. (٨) إشارة إلى قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١٧١ و . . .] (٩) في الأصل وم: عالم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. . (١١) هذا هو الوجه الثاني من وجهي تعليق الشيخ على قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. (١٢) في الأصل وم: يصير صابرا . (١٣) ساقطة من الأصل وم.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يُهلِكَهُمْ، ويستأصِلَهُمْ. وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ما ذكَرْنا مِنْ تَمحيصِ الذنوبِ على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «السيفُ مَحَّاءٌ للذنوبِ» [بنحوه أحمد ٤/ ١٨٥] ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يُهلِكَهُمْ، ولا يكونُ السيفُ تمحيصاً لهمْ مِنَ الكفرِ، بل يُهلِكُهُمْ في النارِ.

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ قِيلَ: بل ﴿حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ﴾ [قيلَ فيهِ بوجهَيْنِ:

أحدُهُما: أي لم يُجاهدُوا.

والثاني]:[1]: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ﴾ [لمّا يعلَمْ بمعنى إلّا أنْ يعلمَ، يعني][2] لا تدخُلُوا الجنةَ إلّا أنْ يعلَمَ اللهُ الذينَ جاهَدُوا منكُمْ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] مَنْ قرأ بالتشديدِ فمعناهُ[3]: إلّا عليها حافظٌ، ومَنْ قرأ بالتخفيفِ فمعناهُ: لَعَلَيها حافظٌ، وما صلةٌ[4].

وفي قولِهِ ﷻ أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ أي ظنَنْتُمْ ذلكَ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ﴾، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] بمعنى أوَلم تجاهِدُوا، أوَلم يصبْكُمْ مثلُ الذي ذُكِرَ، ففي ذلكَ وعدٌ أنْ يصيبَ أولئكَ الذينَ خاطبَهُمْ بهِ ما أصابَ مَنْ تقدَّمَهُمْ، وأنَّ اللهَ قد يَعلَمُ أنهمْ يجاهِدُونَ قَبْلَ الموتِ. وعلى هذا قالَ قومٌ في تأويلِ قولِهِ ﷻ: ﴿صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أنْ يدخُلُوا الجنةَ إذا أصابَ مِثْلَ قولِهِ ﷻ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] بالتشديدِ[5]: إلّا عليها حافظٌ، فيكونُ بمعنى الإضمارِ: أي لا تدخُلُوا إلّا أنْ يعلمَ اللهُ الذينَ جاهَدوا منكمْ. وقد بيَّنّا ما في العِلْمِ في الحرفِ الأوّلِ [أنَّ لهُ وجهَيْنِ][6] أيضاً:

أحدُهما: أنَّ اللهَ لم يعلمْ بذلكَ، وهو العالمُ بكلِّ شيءٍ، فلو كانَ لكانَ يَعلَمُ.

والثاني: أنْ يَعلَمُوا أنْ يكونُوا لم يجاهدُوا بعدُ، وسيجاهِدُونَ على ما بيَّنّا، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَيْنِ: قيلَ: قولُهُ ﷻ ﴿تَمَنَّوْنَ﴾ ما فيهِ الموتُ، وهو القتالُ، وقيلَ: ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ نفسَ الموتِ. ثم يَحتمِلُ وجوهاً: يَحتمِلُ: يَتمنَّونَ إشفاقاً على دينِهِمُ الإسلامِ لئَلا يخرجُوا مِنَ الدنيا على غيرَ دينِهِمُ الذي هُمْ[7] عليهِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونُوا تَمنَّوا الموتَ لينْجُوا، ويتخلَّصوا مِنْ تعذيبِ الكفارِ إياهُمْ وتعييرِهِمْ، على ما قِيلَ: إنَّ أهلَ مكةَ كانُوا يُعذِّبونَهُمْ، فطلبُوا[8] النجاةَ منهُمْ والخلاصَ، واللهُ أعلمُ، وقيلَ: يتمنَّونَ الموتَ أي يَتَمنَّونَ الشهادةَ لِما سَمِعُوا لها مِنْ عظيمِ الثوابِ وجزيلِ الأجرِ، تمنَّوا أنْ يكونوا شهداءَ للهِ ﷻ أحياءً عندَ ربِّهِمْ، واللهُ أعلمُ. وقيلَ في قولِهِ ﷻ: ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ وذلكَ حينَ أخبرَ اللهُ ﷻ عَنْ قتلى بدرٍ وما هُمْ فيهِ مِنَ الخيرِ، فتمنَّوا يوماً مِثْلَ يومِ بدرٍ[9]، فأراهُمُ اللهُ يومَ أُحُدٍ، فانهزمُوا، فعُوتِبُوا بذلكَ: ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعني يومَ أُحُدٍ[10].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ أيضاً وجوهاً: يَحتمِلُ فقدْ رأيتُمْ أسبابَ الموتِ وأهوالَهُ، ويَحتمِلُ فقد رأيتُمْ أصحابَكُمُ الذينَ قُتِلُوا بينَ أيديكُمْ على تأويلِ مَنْ صَرَفَ قولَهُ ﷻ ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ إلى القتالِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ يَحتمِل ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى الموتِ، يعني إلى موتِ أصحابِكُمْ أو إلى القتالِ، ويَحتمِلُ ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي تعلَمونَ أنكُمْ ﴿كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ واللهُ أعلمُ.

الآية ١٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يَحتمِلُ هذا وجهَيْنِ:

---

(١) في الأصل: أي لم يجدوا وقيل، في م: قيل فيه بوجهين أي لم يجدوا وقيل. (٢) في الأصل وم: ولما بمعنى إلا يعلم بمعنى. (٣) في الأصل وم: فكان معناه. (٤) انظر حجة القراءات ص (٧٥٨). (٥) انظر الحاشية السابقة. (٦) في الأصل وم: على أن له وجهان. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: طلبوا. (٩) في الأصل وم: البدر. (١٠) ساقطة من م.

[أحدُهما][(١)]: يَحتمِلُ / ٧٠ ـ ب/ واللهُ أعلمُ، أنكمْ لَمّا آمنْتُمْ بحمدٍ ﷺ قبلَ أنْ يُبعَثَ لم تؤمِنُوا به لأنهُ محمدٌ ﷺ ولكنْ آمَنْتُمْ بالذي أرسلَهُ إليكُمْ، والمُرْسَلُ حتى وإنْ كانَ محمدٌ ﷺ قُتِلَ، أو ماتَ على زعمِكُمْ، فكيفَ ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾؟.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: وفي الآيةِ خبرُ انْقِلابِ مَنْ عَلِمَ اللهُ أنهُ يرتَدُّ بموتِ رسولِ اللهِ ﷺ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٧].

[وقولُهُ: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾][(٢)] الذينَ جاهدُوهُمْ؛ قد أخبرَ اللهُ تعالى أنهُ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقالَ الحسنُ: (إنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ كانَ، واللهِ، إمامَ الشاكرِينَ). ويَحتمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ مِنْ قومِ موسى وعيسى عليهما السلام كانُوا يكذِّبونَ رسُلَهُمْ ماداموا أحياءً حتى قالَ لهمْ موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] وكذلكَ قالَ عيسى عليه السلام: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا﴾ الآية [الصف: ٦]. فإذا ماتُوا ادَّعَوا أنهُمْ على دينِهِمْ، وأنهُمْ صَدَّقُوهُمْ[(٣)] في ما دَعَوهُمْ إليهِ، وإنْ لم يكونُوا على ذلكَ، فلم ينقلِبُوا على أعقابِهِمْ[(٤)]، فكيفَ تَنقلبُونَ أنتُمْ على أعقابِكُمْ؟ إنْ ماتَ محمدٌ ﷺ أو قُتِلَ. والانقِلابُ على الأعقابِ على الكنايةِ والتمثيلِ، ليسَ على التصريحِ، وهو الرجوعُ إلى ما كانُوا عليهِ مِنْ قَبْلُ مِنَ الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي مَنْ يَرتَدَّ بعدَ الإسلامِ ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لأنهُ لم يَستعملْهُمْ لنفسِهِ، ولكنْ إنما استَعملَهُمْ لأنفسِهِمْ ليَستوجِبُوا بذلكَ الثوابَ الجزيلَ في الآخرةِ، فإنما يَضُرُّونَ بذلكَ أنفسَهُمْ لا اللهَ تعالى.

والثاني[(٥)]: أنهُ إنما يأمرُهُمْ، ويُكلِّفُهُمْ لحاجةِ أنفسِهِمْ لا أنهُ يأمُرُ لحاجةِ نفسِهِ. ومَنْ أمرَ آخَرَ في الشاهدِ إنما يأمُرُ لحاجةِ نفسِ الأمرِ، فإذا لم يأتمِرْ لَحِقَهُ[(٦)] ضَرَرُ نفسِ ذلكَ الأمرِ. فإذا كانَ اللهُ ﷻ يتعالى عنْ أنْ يأمرَ لحاجتِهِ، فإنما يأمُرُ لحاجةِ المأمورِ، فإذا تركَ أمرَهُ ضَرَّ نفسَهُ، وباللهِ التوفيقُ.

[وقولُهُ تعالى][(٧)]: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ قيلَ: الموحِّدينَ للهِ[(٨)]، وقيلَ: الذينَ آمَنُوا، وجاهَدُوا، يَجزيهِمْ في الآخرةِ، وكلُّ مُتمسِّكٍ بأمرِ اللهِ ومؤتَمِرٍ بأمرِهِ، فهو شاكرٌ.

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى[(٩)]: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يموتُ إلّا بقبضِ المُسلَّطِ على قبضِ الأرواحِ روحَهُ كقولِهِ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] إنْ ماتَ، أو قُتِلَ، ويَحتمِلُ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلّا بعلمِ اللهِ ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ قيلَ: وقتاً مُوقَّتاً لا يَتقدَّمُ، ولا يتأخَّرُ، ماتَ، أو قُتِلَ، ما لم تَستوفِ رزقَها وأجلَها، وقيلَ: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي مُبيَّناً[(١٠)] في اللوحِ المحفوظِ مكتوباً فيه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي أرادَ بمحاسنِ أعمالِهِ الدنيا ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بأعمالِهِ الصالحاتِ ومحاسنِهِ ﴿ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ على قدرِ ما قدَّرَ ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. فكذلكَ هذا أيضاً، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ قيل فيه لُغاتٌ[(١١)]:

أحدُها: قاتلَ معه بالألِفِ، وتأويلُهُ. وكمْ ﴿مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فقيلَ على الإضمارِ: [وقاتلَ][(١٢)]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والشاكرون. (٣) من م، في الأصل: صدقوا. (٤) في الأصل وم: أعقابكم. (٥) هذا الوجه هو الثاني من الوجهين اللذين ذكرهما المؤلف في بدء تفسير الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾. (٦) في الأصل وم: لحق. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من م. (٩) في م: ﷻ. (١٠) من م، في الأصل: بينا. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية (١/ ٥٨٩). (١٢) ساقطة من الأصل وم.

والثانية[1]: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ قُتِلَ ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ برفع القاف.

والثالثة[2]: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ قَتَلَ ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ قَتَل بالنصب، ومعنى الآيةِ، واللهُ أعلمُ: وكَمْ ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ [قَتَلَ، وقُتِلَ][3] ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ فلم يَنْقَلِبْ أتباعُهُ على أعقابِهِمْ، بل كانوا بعدَ وفاتِهِمْ أشدَّ اتِّباعاً لهمْ مِنْ حالِ حياتِهِمْ، قالوا: لن يَبعَثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رسولاً فما بالُكُمْ يَخطُرُ ببالِكُمُ الانقلابُ على أعقابِكُمْ إذا أُخبِرْتُمْ أنهُ قُتِلَ نبيُّكُمْ، أو ماتَ؟

وفي أنباءِ هذهِ الأمةِ وقَصَصِ الأُمَمِ الخاليةِ وأخبارِهِمْ وجهانِ:

أحدُهما: دلالةُ إثباتِ رسالةِ رسولِ اللهِ محمدٍ ﷺ لأنهم عَلِموا أنهُ لم يختلِفْ إلى أحدٍ منهمْ مِمَّنْ يعلَمُ هذا، ثم أخبرَ بذلكَ، فكانَ ما أخبرَ، فدلَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ باللهِ.

والثاني: العملُ بشرائِعِهِمْ وسُنَنِهِمْ إلّا ما ظهَرَ نسخُهُ بشَريعَتِنا. ألا تَرَى أنهُ ذَكَر محاسِنَهُمْ وخيراتِهِمْ؟ وإنما [ذكرَ][4] ليتبَعَهُمْ في ذلك، ويقتدِيَ بهِمْ، وذكرَ مساوِئَهُمْ وما لَحِقَهُمْ بها لِيَنْتَهِيَ عنها، ويكونَ على حَذَرٍ ممّا أصابَهُمْ بذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ اختُلِفَ فيهِ: عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (عالِمٌ كثيرٌ) وعنهُ: (الجموعُ الكثيرةُ) وعنِ الحسنِ، رَحِمَهُ اللهُ، مِثْلُهُ، وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (الألوفُ). وعنِ ابْنِ مسعودٍ رضي الله عنه في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ يقولُ: قاتلَ، ألا تَرَى أنهُ يقولُ: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾؟

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ قيلَ: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ في الدينِ ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ في أنفسِهِمْ في قتالِ عدوِّهِمْ بذهابِ النبيِّ ﷺ مِنْ بينِهِمْ، فما بالُكُمْ تضعُفُونَ أنتمْ؟

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ يعني فما عَجِزُوا لِما نزلَ بهمْ مِنْ قَتْلِ أنبيائِهِمْ، ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ في أنفسِهِمْ لِما أصابَهُمْ في سبيلِ اللهِ مِنَ البلايا، وقيلَ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ يُرجِعُ ﴿قَٰتَلَ﴾ إلى المقاتِلينَ وقُتِلَ[5] إلى الباقِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ قيلَ: لم يَزِلُّوا في عَدُوٍّ لَهُمْ، ولم يخضَعُوا[6] لِقتلِ نبيِّهِمْ، بل قاتَلُوا [بعدَهُ على ما قاتَلُوا معَهُ][7]، فهلّا قاتَلْتُمْ على ما قاتَلَ عليهِ نبيُّكُمْ كما قاتَلَتِ القرونُ مِنْ قبلِكُمْ إذا أُصيبَ أنبياؤُهُمْ؟ واللهُ أعلمُ، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على قتالِ عدوِّهِمْ وعلى كلِّ مصيبةٍ تُصيبُهُمْ.

الآية ١٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ قيلَ: ﴿وَمَا كَانَ﴾ قولُ الأممِ السالِفَةِ عندَ قتلِ نبيِّهِمْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ الآيةُ تقولُ: يُعَلِّمُ اللهُ هذهِ الأمّةَ، ويعاتِبُهُمْ: هَلّا قُلْتُمْ أنتمْ حينَ نُعِيَ إليكُمْ نبيُّكُمْ كما قالَ[8] القومُ في الأممِ السالفةِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ قِيلَ: الذنوبُ، هي المعاصي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ والإسرافُ هو المُجاوَزَةُ في الحدِّ والتعدِّي عنِ أمرِهِ، وقيلَ: هما واحدٌ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: ثَبِّتْنا على الإيمانِ ودينِ الإسلامِ. والقَدَمُ: كنايةٌ كقولِهِ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤] أي تكفرُ بعدَ الإيمان كقولِهِ: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، وذِكْرُ القدمِ لِما بالقدمِ يَثْبُتُ، ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في قتالِ العدوِّ لَمّا[9] فَزِعُوا إلى اللهِ ﷻ بعدَ ذهابِ نبيِّهِمْ ليحفَظَهُمْ على ما كانَ يحفَظُهُمْ في حياةِ نبيِّهِمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتَمِلُ النصرَ عليهِمْ بالحججِ والبراهينِ، ويَحْتَمِلُ النصرَ بالغلَبَةِ [عليهِمِ والهزيمةِ][10].

---

(١) في الأصل وم: والثاني. (٢) في الأصل وم: والثالث. (٣) في الأصل وم: ﴿قاتل﴾. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: في قتل. (٦) من م، في الأصل: يحفظوا. (٧) في الأصل: معه، في م: معه على ما قاتلوا عليه. (٨) في الأصل وم: قالوا. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: والهزيمة عليهم.

الآية ١٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ الذكرَ والثناءَ، وَهُمْ كذلكَ اليومَ، يَتْبَعُهُمْ، وتُقتدى آثارُهُم، وَهُمْ مَوتى. ويَحتمِلُ على ما قيلَ: النصرَ والغنيمةَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ الدائمَ؛ وذكرَ في ثوابِ الآخرةِ الحُسْنَ، ولم يذكرْ في ثوابِ الدنيا الحُسْنَ لأنَّ ثوابَ الآخرةِ دائمٌ لا يزولُ أبداً، وثوابَ الدنيا قد يزولُ، أو أنْ يكونَ[1] في ثوابِ الدنيا آفاتٌ وأحزانٌ، فيَنْقُصَ ذلكَ، وليسَ ثوابُ الآخرةِ كذلكَ، واللهُ أعلمُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسانُ يَحتمِلُ وجوهاً ثلاثةً: يَحتمِلُ المحسنَ العارفَ كما يُقالُ: فلانٌ يَحسُنُ، ولا يُحسِنُ، ويَحتمِلُ المعروفَ مِنَ الفعلِ ممّا ليسَ عليهِ صُنْعٌ إلى آخرَ تفضُّلاً منهُ وإحساناً، ويَحتمِلُ اختيارَ الحَسَنِ مِنَ الفعلِ على القبيحِ مِنَ الفعلِ والسوءِ، وكانَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] هذا يختارُ المحاسِنَ مِنَ الأفعالِ على المساوِئِ، والله أعلمُ، ويَحتمِلُ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى أنفسِهِمْ باستعمالِها في ما بهِ نَجاتُها.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ﴾ تحتمِلُ الطاعةُ لهمْ طاعةَ الدينِ: أي تُطيعوا لهمْ[2] في كفرِهِمْ، وتحتملُ الطاعةُ لهمْ في تركِ الجهادِ معَ عدوِّهمْ كقولِهِمْ: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٥٦]. وقولُهُ تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ قد ذَكَرْنا / ٧١ ـ أ/ أي يَرُدُّوكُمْ على دِينِكُمُ الأوّلِ، وهو على التمثيلِ والكنايةِ.

الآية ١٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولى بكمْ، أو ناصِرُكُمْ، أو حافِظُكُمْ، أو ولِيُّكُمْ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ أي خيرُ مَنْ يَنصُرُ مَنْ نَصَرَهُ، فلا يُغلَبُ، كقولِهِ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

الآية ١٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ و كذلكَ رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرعبِ مَسيرةَ شهرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥] وكانَ ما ذكرَ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يأتيهِمْ بعدَ ذلكَ، ويقصِدُهُمْ، لا أنهم أتوهُ. وكانوا قَبْلَ ذلكَ يأتونَ رسولَ اللهِ ﷺ ويَقصِدُونَهُ ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي بالشِّرْكِ ما قَذَفَ في قلوبِهِمْ مِنَ الرُّعبِ[3] مِنْ غيرِ أنْ كانَ لَهُمْ بما أشرَكُوا حُجّةٌ أو كتابٌ أو برهانٌ أو عذرٌ. قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما (السلطانُ في القرآنِ حُجّةٌ).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مَقامُهُمُ النارُ[4] ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي النارُ بئسَ مَقامُ الظالمين.

الآية ١٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي أنْجزَ اللهُ وَعْدَهُ حينَ أخبرَ أنهُ يُلْقِي في قلوبهمُ الرعبَ، وقد فَعَلَ ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ قال أهلُ التفسيرِ: إذْ تُضِلُّونَهُمْ. وقولُهُ تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ وهو على التقديمِ والتأخيرِ: حتى إذا تنازَعْتُمْ فَشِلْتُمْ؛ إذِ التنازُعُ هو سببُ الفشَلِ والجُبْنِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ قيلَ في القصةِ: إنَّ نَفَراً مِنْ رُماةٍ أمَرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يكونُوا في مكانٍ، وألّا يَدَعُوا مَوقِفَهُمْ، فتركُوهُ، ووقَعُوا في غنائِمِهِ، فعُوقِبوا على ذلكَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ يَحتمِلُ ﴿مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ مِنَ الهزيمةِ والغنيمةِ، ويَحتمِلُ ﴿مَآ أَرَىٰكُم﴾ مِنَ النصرِ لكُمْ على عَدُوِّكُمْ وإنجازِ الوَعْدِ لَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (ما كُنّا نعرفُ أنَّ أحداً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ يريدُ الدنيا حتى نزلَ قولُهُ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾) وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ تعالى ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ (يعني هُزِمَ المسلمونَ؛ يقولُ: صُرِفوا عنِ المشركِينَ منهزِمِينَ بعدَ أنْ كانوا هزمُوهُمْ. لكنْ لمّا عَصَوا، وتركُوا المركزَ، صَرَفَهُمُ اللهُ عَنْ عدوِّهِمْ ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي ذلكَ الصرفُ كان لكُمْ مِنَ اللهِ ابتِلاءً ومِحْنةً) وقيلَ كانَ العصيانُ الذي منكُمْ كانَ مِنَ اللهِ ابتِلاءً لِيَعْلَمَ مَنْ قدْ عَلِمَ أنهُ يعصِي

---

(١) في الأصل وم: يثوب. (٢) في الأصل وم: بهم. (٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦ والحشر: ٢].
(٤) من م، في الأصل: في النار.

عاصياً، واللهُ أعلمُ. ودلَّ قولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ وإنْ كانَ الانصرافُ فعلَهُمْ، فإنَّ اللهَ لِفِعْلِهِمْ على ما عليهِ فِعْلُهُمْ خالقُهُمْ، وإنَّ خُلُوَّ الشيءِ ليسَ هو ذلكَ الشيءَ، إذ ذلكَ إذا كانَ انصرافاً عنِ العدوِّ معصيةٌ، وقد يَسَّرَ اللهُ، تعالى عن أنْ يُضافَ إليهِ المعاصي، وقد أضافَ انصرافَهُمْ إلى فعلِهِ، وهو الصرفُ، ثبتَ أنهُ على فعلِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ ﴿عَفَا عَنكُمْ﴾ حينَ لم يَستأْصِلْكُمْ بالقتلِ، ويَحتمِلُ ﴿عَفَا عَنكُمْ﴾ حينَ قَبِلَ رجوعَكُمْ وتوبتَكُمْ عنِ العصيانِ.

وهذهِ الآيةُ: قولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾ وقولُهُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] يَرُدّانِ[2] على المعتزلةِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤] لأنهُمْ يقولونَ: هُمُ الذينَ صَرَفُوا لا اللهُ، وهُمُ الذينَ كتبُوا عليهِمُ القتلَ لا اللهُ، وهُمُ الذينَ يُداوِلُونَ لا اللهُ، وقد أضافَ ﷻ ذلكَ إلى نفسِهِ. فعلى ذلكَ لا يُضيفُ إليهِ إلّا [فِعْلاً لهُ صُنْعٌ][3] فيهِ، ولأنهُمْ يقولُونَ: لا يفعَلُ إلّا الأصلحَ لهُمْ في الدينِ، فأيُّ صلاحٍ كانَ لهمْ في صَرفِهِ إياهُمْ عنْ عَدُوِّهِمْ؟ وأيُّ صلاحٍ لهمْ في ما كتبَ عليهِمُ القتلَ؟ فدلَّ أنَّ اللهَ قد يفعَلُ بعبادِهِ ما ليسَ ذلكَ بأصلحَ لهمْ في الدينِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفوِ عنهُمْ وقبولِ التوبةِ حينَ عَصَوا رسولَ اللهِ ﷺ. وتركُوا أمرَهُ. وعلى قولِ المعتزلةِ: عليهِ أنْ يفعلَ ذلكَ؛ فعلى قولِهِمْ: ليس هَو بِذي فضلٍ على أحدٍ، نعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ.

قالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: الفائدةُ في تخصيصِ المؤمنينَ بالامْتِنانِ[4] عليهِمْ دُونَ جُمْلَةِ مَنْ بُعِثَ النبيُّ ﷺ فيهِمْ ومنهُمْ، معَ ما ذكرَ مِنَّتَهُ[5] بالبعثِ مِنْ أنفسِهِمْ. وقد بَيَّنّا وَجْهَ المِنَّةِ في البعثِ مِنْ جوهرِ البشرِ [في وجهَينِ][6]:

أحدُهُما: أنَّ مَنْ لم يُؤْمِنْ بهِ لم يكنْ عرفَهُ نعمةً مِنَ اللهِ [تعالى][7]، وإنْ كانَ في الحقيقةِ نعمةً منهُ لهُمْ ورحمةً للعالَمينَ؟ فَخَصَّ مَنْ عَرَفَهُ ليشكرُوا لهُ بما ذكَّرَهُمْ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] أي هم يقبَلُونَ، ويعرفُونَ حقَّ الإنذارِ.

والثاني: أنهُ صارَ لهمْ حُجَّةً على جميعِ الأعداءِ أنهمْ لا يُطيعونهُ لمعنىً كانَ منهُمْ إلّا [وهو][8] للمؤمنينَ عليهِمْ وَجْهُ رفعِ ذلكَ بما كانَ عليهِ ممّا عَرَفُوهُ قبلَ الرسالةِ، كما فيهِ لزومُ القولِ بصدقِهِ، فيكونُ ذلكَ منهُ لهمْ سروراً ونعمةً عظيمةً، فاسْتَأداهُمُ اللهُ لِشُكْرِها، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ﴾ فيه لغتانِ[9]: تَصَعَّدونَ بفتحِ التاءِ، وهو مِنَ الصعودِ: أنْ صَعَدُوا الجبلَ، و﴿تُصْعِدُونَ﴾ بالرفعِ: هو أنْ أصعَدُوا أصحابَهُمْ نحوَ الوادي، لأنَّ المنهزمَ إذا التَفَتَ، فرأى منهزماً آخرَ اشتَدَّ، وقيلَ: الإصعادُ هو الإبعادُ في الأرضِ، وقيلَ: ﴿تُصْعِدُونَ﴾ مِنْ صعودِ الجبلِ، ﴿تُصْعِدُونَ﴾ في الوادي مِنَ الجبلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي لا تَلتفِتونَ على أحدٍ، ولا ترجِعونَ؛ أي الرسولُ ﴿يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ الرسولُ يدعوكُمْ، ويُنادي وراءَكُمْ: إليَّ أنا الرسولُ، وقيلَ: يُناديكُمْ مِنْ بُعْدِكُمْ: إليَّ أنا رسولُ اللهِ يا معشرَ المؤمنينَ، وكانَ يَصْعَدُ نداؤُهُ في أُخراهُمْ بأوّلِهِمْ بعضِهِمْ ببعضٍ، فلم يرجعوا إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ اختُلِفَ فيه: قيلَ: الغَمُّ الأوّلُ الهزيمةُ والنكبةُ التي أصابَتْهُمْ، والغَمُّ الآخرُ الصوتُ الذي سمِعُوا: قُتِلَ محمدٌ، عليهِ أفضلُ الصلواتِ وأكملُ التحياتِ، فذلكَ غَمٌّ على غَمٍّ، ويَحتمِلُ ﴿غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ [الأوّلُ بِعِصيانِهِمْ][10] رسولَ اللهِ ﷺ اغتمُّوا، والغمُّ الآخَرُ أنْ[11] كيفَ يعتذِرُونَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بتركِهِمُ المركزَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل و م: يرد. (٣) في الأصل وم: عن فعل وضع له. (٤) من م، في الأصل: الإنسان. (٥) من م، في الأصل: منه. (٦) في الأصل و م: وجهان. (٧) من م. (٨) من م، في الأصل: و. (٩) تَصَعَّدونَ يفتح التاء وتشديد العين: أبو حيوة، ﴿تُصْعِدُونَ﴾ في الوادي: أبي بن كعب، انظر المختصر في شواذ القرآن ص (٢٣) والبحر المحيط ٣/ ٣٨٤. (١٠) في الأصل و م: عصيانهم. (١١) من م، في الأصل: أي . .

وعصيانِهِمْ إياهُ والخلافِ لَهُ ؟ وقيلَ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ أي مَرَّةً بعدَ المَرَّةِ الأولَى، وقيلَ: ﴿غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ أي هزيمةً بعدَ هزيمةٍ؛ أصابَتْهُمْ هزيمةٌ بعدَ هزيمةٍ مِنْ قِبَلِ إخوانِهِمْ، وأصابَتْهُمُ الجراحاتُ، وقيلَ: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا﴾ بعصيانِكُمْ رسولَ اللهِ ﷺ ﴿بِغَمٍّ﴾ الذي أدخلُوا على رسولِ اللهِ وبتركِكُمُ المركزَ والطاعةَ. وفي قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ هو[1] غمُّ الهزيمةِ والنكبةِ بالغمِّ الذي أدخلوا على رسولِ اللهِ ﷺ في عصيانِهِمْ إياهُ وإهمالِهِمُ المقعدَ الذي أمرَهُمْ بالمقامِ فيهِ. وقيلَ: ﴿غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ الذي لهُ تركُوا المركزَ، وهو أنَّ غمَّهُمُ اغتِنامُ أصحابِهِمْ. وقيلَ: غمُّ الاعتِذارِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بالغمِّ الذي جَفَوهُ بهِ حينَ مالُوا إلى الدنيا في ما أمرَهُمْ. وقيلَ: ﴿غَمَّۢا﴾ على إثرِ غمٍّ نحوَ القتلِ والهزيمةِ والإرجافِ بقتلِ رسولِ اللهِ ﷺ وحقيقتُهُ أنْ يكونَ أحدُ الغمَّينِ جزاءً، والآخرُ ابتِداءً؛ وفي ذلك تحقيقُ الزلَّةِ والجزاءِ، وذلك كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ مِنَ الدنيا ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ يعني مِنَ الفتحِ والغنيمةِ ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ مِنَ القتلِ والهزيمةِ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ مِنَ الدنيا ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ فيها مِنْ أنواعِ الشدائدِ بما أدخلْتُمْ على رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ الغمِّ بعصيانِكُمْ إياهُ. [وقولُهُ][2] ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الوعيدِ/ ٧١ ـ ب/.

الآية ١٥٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: الطائفةُ التي أتاها النعاسُ، هُمُ المؤمنونَ؛ سَمِعُوا بانصرافِ العدوِّ][3] عنهُمْ، فصدَّقُوا الخبرَ، فنامُوا، لأنَّ الخوفَ إذا غلبَ يمنعُ النومَ، وأمّا الطائفةُ التي قد أهمَّتْهُمْ أنفسُهُمْ، هُمُ المنافقونَ، لم يصدِّقُوا الخبرَ، فلم يذهبْ عنهمُ الخوفُ، فلم ينعَسُوا، وذلكَ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ الآية [الأحزاب: ٢٠]. وقيلَ: كانتِ الطائفتانِ جميعاً مِنَ المؤمنينَ؛ لكنَّ إحداهُما قد أتاها النعاسُ لمّا أمِنُوا العدوَّ، والأخرى لا؛ بعصيانِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وتركِهِمْ أمرَهُ مُنِعَ ذلك النومُ عنهُمْ؛ أنْ كيفَ تَلْقَونَ رسولَ اللهِ ﷺ؟ وكيفَ تعتذِرُونَ إليهِ؟ واللهُ أعلمُ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: (النعاسُ في الصلاةِ مِنَ الشيطانِ وفي القتالِ أمَنَةٌ).

وقولُهُ تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾؛ قيلَ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ ألّا يَنْصُرَ محمداً ﷺ وأصحابَهُ؛ ذا في غيرِ المؤمنينَ. وقيلَ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ ظنوناً كاذبةً؛ إنما هُمْ أهلُ شِرْكٍ وريبةٍ في أمرِ اللهِ ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ قيلَ ﴿يَقُولُونَ﴾ بعضُهُمْ لبعضٍ: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ يعني بالأمرِ النصرَ و الغنيمةَ. وقيل: قالوا ذلك للمؤمنينَ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ يعني النصرُ والفتحُ كُلُّهُ بيدِ اللهِ ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾. والذينَ يخفُونَ قولَهُمْ: لو أقَمْنا في منازِلِنا ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ وقيلَ: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ﴾ قالوا: ليسَ ﴿لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ إنما الأمرُ إلى محمدٍ، [ولَو ما][4] كانَ الأمرُ ما خرَجْنا إلى هؤلاءِ حتى ﴿قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾.

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾، قيلَ: ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ كما يَقُولُونَ ﴿لَبَرَزَ﴾ يعني لخَرَجَ مِنَ البيوتِ ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ لظهرَ الذي كُتِبَ عليه [القتلُ][5] حيثُ كانَ. وقيلَ: إذا كُتِبَ على أحدٍ القتلُ أتاهُ، ولو كانَ في البيتِ، [وهو][6] كقولِهِ ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٨]. وقيلَ: متى كتبَ اللهُ على قومٍ القتلَ فلم يموتُوا أبداً. وفي هذا بيانُ الآجالِ المكتوبةِ؛ [وهي][7] التي تنقضي بها الأعمارُ[8] إنْ كانَ [البيانُ][9] قتلاً فَقَتْلٌ، وإنْ كان موتاً فَمَوتٌ، لا على ما قالتِ المعتزلةُ: إنَّ القتلَ تعجيلٌ عنْ أجلِهِ المكتوبِ[10] لهُ وعليهِ، واللهُ أعلمُ.

(١) في الأصل و م: وهو. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، في الأصل: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾. (٤) في الأصل و م: ولو. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل و م: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل و م: الأعمال. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: المكتوبة.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ والابْتِلاءُ هو الاسْتِظهارُ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]: يُبْدِي، ويُظهِرُ، وذلك يكونُ بوجهَينِ: يُظهِرُ بالجزاءِ مَرَّةً، ومَرَّةً بالكتابِ، يُعلِمُ الخَلْقَ مَنْ كانتْ سريرَتُهُ حسنةً بالجزاءِ، وكذلكَ إذا كانَتْ سَيِّئةً، ويُعْلِمُ بالكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ ممّا مضى، ولِيجعَلَهُ ظاهراً لهُمْ ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الذنوبِ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (الابْتِلاءُ والتمحيصُ هما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يقولُ: هو عالمٌ بما في صدورِهِمْ مِنْ سرائِرِهِمْ، ولكنْ يجعلُها ظاهرةً[١] عندَكُمْ. ويَحتمِلُ الابتِلاءُ ههنا الأمرَ بالجهادِ لِيَعلَموُا المنافقَ منهُمْ مِنَ المؤمِنِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ يعني إنَّ الذينَ انصرَفُوا عنْ عَدُوِّهِمْ مُدْبِرينَ مِنهُمْ مُنهزِمينَ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمْعُ المؤمنينَ وجمْعُ المشركينَ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أي إنما انهزَمُوا، ولم يَثبُتُوا خوفاً أنْ يُقتَلُوا بالثباتِ، فيَلْقَونَ اللهَ، وعليهِمْ عصيانُ رسولِ اللهِ ﷺ كَرِهُوا أنْ يُقتَلوا، وعليهِمْ معصيةُ رسولِ اللهِ ﷺ خوفاً مِنَ اللهِ ﷻ ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما خافوا اللهَ بعصيانِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أنَّ اللعينَ لمّا رآهمْ أجابُوهُ إلى ما دَعاهُمْ مِنِ اشتِغالِهِمْ بالغنيمةِ وتركِ المركزِ وعِصيانِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ دعاهُمْ إلى الهزيمةِ، فانهزَمُوا، وتَوَلَّوا عدُوَّهُمْ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أي بكسْبِهِمْ؛ قالَ اللهُ ﷻ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فكذلكَ هذا، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ قَبِلَ توبَتَكُمْ، وعفا عنكُمْ، ﴿حَلِيمٌ﴾ لم يأخُذْكُمْ[٣] وقتَ عصيانِكُمْ، ولا عاقَبَكُمْ، و﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخيرِ العذابِ عنكمْ.

الآية ١٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ الآية: اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَهى المؤمنينَ أنْ يكونوا كالذينَ كفَرُوا في السِّرِّ والعلانيةِ، وقالوا لإخوانِهِمْ؛ يعني المنافقِينَ: لو كانُوا عندَنا ما ماتُوا، وما قُتِلُوا. وقيلَ: لا تكونُوا كالمنافِقِينَ الذين[٤] قالُوا لإخوانِهِمْ؛ يعني لبعضِهِمْ: لو كانوا عندَنا ما ماتوا، وما قُتِلُوا. وقيلَ: قالوا لإخوانِهِمْ؛ يعني المؤمنينَ: تَوَلَّوا، وهُمْ كانُوا إخوانَهُمْ في النَّسَبِ، وإنْ لم يكونُوا إخوانَهُمْ في الدينِ والمذهبِ. فلا[٥] حاجةَ لنا إلى معرفةِ قائِلِهِ مَنْ كان؟ ولكنَّ المعنَى ألّا يقولُوا مِثْلَ قولِهِمْ لِمَنْ قُتِلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تُجّاراً ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ أي غُزاةً. وقيلَ: قولُهُ ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ على إسقاطِ الألفِ[٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي لِيَجْعَلَ اللهُ ذلكَ القولَ الذي قالُوا حَسْرَةً تَتَرَدَّدُ في أجوافِهِمْ، ويَجْعَلَ قولَهُ: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً﴾ يومَ القيامةِ كقولِهِ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي واللهُ ﴿يُحْىِۦ﴾ مَنْ ضَرَبَ في الأرضِ، وغَزا، ﴿وَيُمِيتُ﴾ مَنْ أقامَ، ولم يَخرُجْ غازياً، أي لا يتقدَّمُ الموتُ بالخروجِ في الغزوِ، ولا يَتأخَّرُ في المُقامِ وتركِ الخروجِ، دعاهُمْ إلى التسليمِ: إنما هي أنفاسٌ معدودةٌ وأرزاقٌ مقسومةٌ وآجالٌ مضروبةٌ ما لم [يُفْنِها، ويَستَوفِها، ويُنقِصْ][٧] أجلَها، لا يأتِها ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وَعيدٌ.

(١) في الأصل و م: ظاهراً. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: يأخذ. (٤) في الأصل و م: عنه. (٥) الفاء ساقطة من الأصل و م. (٦) قرأ الحسن والزهري بتخفيف الزاي، وقرأ الجمهور [[غُزّى]] بتشديد الزاي، انظر البحر المحيط ٣/٤٠١. (٧) في الأصل وم: يفناها واستوفاها وأنقص.

الآية ١٥٧ وقولُهُ تعالى[1]: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ إنّ الموتَ وإنْ كانَ لابدَّ نازلٌ بكُمْ بقتلِكُمْ أو موتِكُمْ في طاعتِهِ وجهادِهِ، خيرٌ مِنْ أنْ ينزلَ بكُمْ في غيرِ طاعةِ اللهِ وسبيلِهِ، ومغفرةُ مِنَ اللهِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِنَ الأموالِ.

الآية ١٥٨ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إنْ مُتّمْ على فراشِكُمْ أو قُتِلْتُمْ في سبيلِ اللهِ فإليهِ تُحشَرونَ، فمعناهُ، واللهُ أعلمُ، أي [إنْ][3] لم تَقْدِروا على أنْ لم تُحشَروا إليهِ كيفَ تَقْدِرُونَ [على أنْ][4] لا ينزلَ على فراشِكُمْ بكُمُ الموتُ؟ وإنْ أقمتُمْ في بيوتِكُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يَحتمِلُ هذا وجهَينِ: يَحتمِلُ فَبِرَحْمةٍ مِنَ اللهِ عليكَ ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ فيجبُ أنْ يكونَ الإنسانُ رحيماً على [خَلْقِ اللهِ][5] على ما جاءَ في الخبرِ، قالَ لأصحابِه: «لَنْ تدخُلُوا الجنةَ حتى تَراحَمُوا» فقيل: كُلُّنا نَرْحَمُ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: «ليسَ تراحمَ الرجلِ ولدَهُ أو أخاهُ، ولكن تراحُمُ بعضِهِمْ بعضاً» [بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧ وعزاه للطبراني] أو كلامٌ نحوُ هذا، وما جاءَ: «مَنْ لم يرحَمْ صغيرَنا ولم يُوَقِّرْ كبيرَنا فليسَ مِنا» [الترمذي ١٩٢١] وما جاءَ: «مَنْ لم يرحَمْ أهلَ الأرض لم يرحَمْهُ أهلُ السماءِ» [المنذري في الترغيب ٣٣٣٤] كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ الآية [الجاثية: ١٤]، وقد أمرَ اللهُ عبادَهُ أنْ يُعامِلَ بعضُهُمْ بعضاً بالرَّحمةِ واللِّينِ إلا عندَ المعُانَدَةِ والمُكابَرَةِ؛ فحينئذٍ أمرَ بالقتالِ كقولِهِ لموسى وهارُونَ حينَ أرسلَهُما إلى فرعَونَ، فقالَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وكانَ اللّينُ مِنَ القولِ أنفذَ في[6] القلوبِ وأسرَعَ إلى الإجابةِ وأدْعَى إلى الطاعةِ مِنَ الخَشِنِ مِنَ القولِ، وذلكَ ظاهرٌ في النّاسِ. لذلكَ أمرَ اللهُ ﷻ رُسُلَهُ[7] باللينِ مِنَ المعاملةِ والرحمةِ على خَلْقِهِ، وجَعَلَهُ سببَ تأليفِ القلوبِ وجمعِها، وجعلَ الخَشِنَ مِنَ القولِ والفَظَّ سَبَبَ الفُرْقةِ بقولِهِ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ في القولِ ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لو كُنْتَ في الابتداءِ فظّاً غليظاً لتَفرَّقُوا، ولم يجتمِعُوا عندَكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ بأذاهُمْ إيّاكَ ولا تُكافِئْهُمْ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾/ ٧٢ ـ أ/ في ما بينَهُمْ وبينَ ربِّهِمْ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بما عَصَوكَ، وألّا تَنْتَصِرَ منهُمْ. وكذلكَ أمرَ اللهُ المؤمنينَ جملةً أن يعفُوا عنهمْ، وألّا ينتصروا منهُمْ بقولِهِ ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وكان أرجى آيةٍ للمؤمنين بقوله ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ الآية [الجاثية: ١٤]، وقولِهِ أيضاً: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وللمؤمنينَ والمؤمناتِ، لا جائزٌ أنْ يأمرَ بالاستغفارِ لهُمْ، ثم لا يفعَلُ. وإذا فعلَ الإيجابَ، فدلَّ أنهُ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ. وكذلكَ دعاءُ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] ودعاءُ نوحٍ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]. ولا يجوزُ أنْ يدعُوَ هؤلاءِ الأنبياءُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، وسلامُهُ، ثمَّ لا يُجابُ لَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أمرَ اللهُ ﷻ نبيَّهُ ﷺ أنْ يُشاوِرَ أصحابَهُ في الأمرِ؛ ففيهِ [وجهانِ اثْنانِ]:

أحدُهُما[8]: أنهُ لا يجوزُ أنْ يأمرَهُ بالمُشاوَرَةِ في ما فيهِ النَّصُّ، وإنما يأمُرُ بهما في ما لا نَصَّ فيهِ، ففيهِ دليلُ جوازِ العملِ بالاجْتِهادِ.

والثاني: لا يخلُو أمرُهُ بالمشاوَرَةِ إمّا لِعِظَمِ قدرِهِمْ وعُلُوِّ منزلَتِهِمْ عندَ اللهِ أو لِفَضْلِ العقلِ ورُجحانِ اللُّبِّ. فكيفَ ما كانَ فلا يجوزُ لِمَنْ دُونَهُمْ أنْ يُسَوُّوا أنفسَهُمْ بهِمْ، ولا جائزٌ أنْ يأمرَ نبيَّهُ ﷺ بمشاوَرَةِ أصحابِهِ ﷺ ثم لا يعملُ برأيِهِمْ. دلَّ أنهمْ إذا اجتمعُوا كانَ الحقُّ لا يشُذُّ عنهمْ. وقالَ بعضُهُمْ: إنما أمرَ نبيَّهُ ﷺ بمشاوَرَتِهِمْ في أمرِ الحربِ والقتالِ.

وعَنِ الحسنِ ﷺ لـمّا أنزلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ ورسولَهُ غنيّانِ عن

---

(١) في م: ﷻ. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م. (٤) في الأصل: أي، في م: أن. (٥) في الأصل وم: خلقه. (٦) في الأصل وم: من.
(٧) في الأصل وم: أرسلهم. (٨) في الأصل و م: وجوه ثلاثة: أحدها.

مشاوَرَتِكُمْ» [البيهقي في الشعب ٧٥٤٢] ولكنهُ أنْ يكونَ سُنَّةً لأُمَّتِهِ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ كانَ يقرأُ ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ في بعضِ الأمرِ، وقيلَ: أمرَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ أنْ يُشاوِرَ أصحابَهُ في الأمورِ، وهو يَأتِيهِ وَحْيُ السماءِ لأنهُ أطيبُ لأنفسِ القومِ، وأنَّ القومَ إذا شاوَرَهُمْ: بعضَهُمْ بعضاً، فأرادُوا بذلكَ وجهَ اللهِ، عزمَ اللهُ لَهُمْ على أرشَدِهِ. وقيلَ: إنَّ العربَ في الجاهليةِ كانُوا إذا [رأوْا سَيِّدَها] [1] يقطعُ أمراً دونَهُمْ، لا يُشاوِرُهُمْ في الأمرِ، شَقَّ عليهِمْ، فأمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنْ يُشاوِرَهُمْ في الأمرِ إذا أرادَ؛ فإنَّ ذلكَ أعطفُ لهُمْ عليهِ، وأذهبُ لأضغانِهِمْ.

في بعضِ الأخبارِ قِيلَ: يا رسولَ اللهِ: ما العَزْمُ [2]؟ قالَ: «أنْ تَسْتَشِيرَ ذا الرأيِ، ثم تُطيعُهُ» [البيهقي في الكبرى ١٠/ ١١٢] وكان يُقالُ: ما هلكَ امرؤٌ عَنْ مشورةٍ، ولا سَعِدَ بتورٌ. قيلَ: البَتورُ الذي لا يَسْتَشِيرُ، ويَعملُ برأيِهِ.

وقولُهُ تعالى [3]: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا تَتَّكِلَنَّ إلى نفسِكَ، ولا تعتمدَنَّ على أحدٍ، ولكنِ اعْتَمِدْ على اللهِ، وَكِلِ الأمرَ إليه. وقيلَ: فإذا فَرَقَ ذلكَ الأمرُ بعدَ المشاوَرَةِ فامضِ لِأمرِكَ، فإنْ كانَ في أمرِ الحربِ على ما قيلَ، فهو، واللهُ أعلمُ: لا تَعْجَبَنَّ بالكثرةِ، ولا تَرَيَنَّ النصرَ بهِ، ولكنِ اعْتَمِدْ بالنصرِ على اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] واللهُ أعلمُ، بما أرادَ بذلكَ، وكقولِهِ [4]: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

الآية ١٦٠ وقولُهُ تعالى [5]: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ صَدَقَ اللهُ: مَنْ كانَ اللهُ ناصرَهُ فلا يغلِبُهُ العدوُّ مِنْ بَعْدِهِ [6] ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي يَتْرُكْكُمْ ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم﴾؟ والنصرُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ المعونةَ، ويَحْتَمِلُ المنعَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢ و...]. وقولُهُ ﷻ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾، أي أعانَكُمُ اللهُ، فلا يغلبُكُمُ العدوُّ ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن﴾ الذي أعانَكُمْ سواهُ؟ ومَنْ يَمنعُ [7]؟ أي إنْ منعَ اللهُ منكُمُ العدوَّ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ولَمْ يُعِنْكُمْ فَمَنِ الذي أعانَكُمْ؟ ويمنعُكُمْ [8] مِنْ بعدِهِ؟ والخِذلانُ في الحقيقةِ، هو تركُ المأمورِ منهُ ما أمَّلَ منهُ، واسْتُعمِلَ في هذا كما استُعمِلَ الابْتِلاءُ على حقيقتِهِ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ هو على الأمرِ في الحقيقةِ؛ كأنهُ قالَ: وعلى اللهِ فتوكَّلُوا أيُّها المؤمنونَ. والتوكُّلُ، هو الاعْتِمادُ عليهِ وتفويضُ الأمرِ إليهِ لا بالكثرةِ والأسبابِ التي يقومُ بها مِنْ نحوِ القُوَّةِ والعُدَّةِ والنُّصْرَةِ والغَلَبَةِ. وفي الشاهدِ إنما يكونُ عندَ الخَلْقِ بثلاثٍ: إمّا بالكثرةِ وإمّا بِفَضلِ قوةِ بَطْشٍ وإمّا بِفَضلِ تدبيرٍ ورأيٍ في أمرِ الحربِ. وجميعُ نصرِ رسولِ اللهِ ﷺ وغلَبَتِهِ على عدوِّهِ إنما كانَ لا بذلكَ، ولكنْ بالتوكُّلِ عليهِ وتفويضِ الأمرِ إليهِ. دلَّ أنَّ ذلكَ كانَ باللهِ ﷻ وذلكَ مِنْ آياتِ نبوَّتِهِ ﷺ

الآية ١٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ فيهِ قراءتانِ [9]: بنصبِ الياءِ وبرفعِ الياءِ ونصبِ الغينِ؛ ومَنْ قرأَ بنصبِ الياءِ فذلك يَحتمِلُ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي لم يكنْ لنبيٍّ مِنَ الأنبياءِ غِلٌّ قطُّ، وهو أحقُّ [ألّا تَتَّهِموهُ لِعِلْمِكُمْ] [10] بهِ، فكيفَ اتَّهَمْتُمْ [11] هذا بالغُلولِ؟ وقيلَ: إنَّ ناساً مِنَ المنافقينَ خَشُوا ألّا يَقْسِمَ رسولُ اللهِ ﷺ الغنيمةَ بينَهُمْ، فطلبُوا القِسْمَةَ، فنزلتْ هذه الآيةُ. وقيلَ: قالُوا: اعْدِلْ يا محمدُ في القِسمةِ، فنزلَ هذا. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي قد كنتُمْ عَرَفْتُموهُ مِنْ قبلِ أنْ يُرْسَلَ، فما عرفتُموهُ خانَ قطُّ، وغَلَّ. فكيفَ يَحتَمِلُ الخيانةَ بعدما أُرسِلَ؟ هذا لا يُحْتَمَلُ.

ومَنْ قرأَ بالرفعِ فهو أيضاً يَحتَمِلُ وجهينِ: أي يُتَّهَمُ بالغُلُولِ في الغنيمةِ، فهو يرجعُ إلى التأويلِ الأوّلِ. ويَحتمِلُ قولُهُ أنْ يُغَلَّ أنْ يُخافَ في الغنيمةِ؛ لا يَجوزُ، ولا يَحِلُّ أنْ يُخافَ النبيُّ في الغنيمةِ، فإنهُ يَطَّلِعُ على ذلك؛ يُطْلِعُ اللهُ ورسولَهُ على ما جاء في بعضِ الأخبارِ «أنهُ مرَّ بقبرٍ، فقالَ: إنَّه في [12] عذابٍ، قيلَ: بماذا يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: إنهُ كانَ أخذَ مِنَ الغنيمةِ قَدْرَ دِرْهَمَينِ

---

(١) في الأصل و م: أرادوا سيدها أن. (٢) من م، في الأصل: الحزم. (٣) في م: ﷻ. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: ﷻ.
(٦) في الأصل و م: بعد. (٧) في الأصل و م: المنع. (٨) الواو ساقطة من الأصل و م. (٩) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ﴿أَن يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وقرأ الباقون أن يُغَلَّ بضم الياء وفتح الغين، انظر حجة القراءات (١٧٩). (١٠) في الأصل و م: من لا يتهمون لعلكم.
(١١) في الأصل و م: اتهمتموه. (١٢) من م، في الأصل: من.

أو نَحْوَهُ» [بنحوه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٢٧] ويَحتمِلُ خصوصَ الغنيمةِ بما يَتَناوَلُ[١] الغالُّ حِلَّهُ بما لا يُعرَفُ لهُ صاحبٌ كالمالِ الذي لا مالكَ لهُ، وربَّما يُباحُ التَّناوُلُ[٢] منهُ للحاجةِ والأخذُ بغيرِ البدلِ بوجهٍ لا يَحتمِلُ بتلكَ أكلَ الحِلِّ مِنْ ذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يؤخَذ بهِ يومَ القيامةِ. وهكذا كُلُّ مَنْ أخذَ مِنْ مالِ غيرِهِ بغيرِ إذنِهِ فإنهُ يُؤخَذُ، وقالَ بعضُ الناسِ: وإنما خصَّ الغنيمةَ بفضلِ وَعيدٍ لأنَّ الغُلولَ فيها يُجحِفُ بحقِّ الفقراءِ وأهلِ الحاجةِ، أو يضُرُّ. ذلك أضافَهُ لِلْخَلْقِ، وسائرُ الأموالِ ليسَ كذا. وقيلَ: إنما جازَ الوعيدُ في هذا أنهُمْ كانُوا أهلَ نفاقٍ يَسْتَحِلُّونَ الغُلولَ في الغنيمةِ والأخذَ منها، وهذا كانَ أشبَهَ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ:][٣] بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ جيشاً، فَغَلُّوا رأسَ ذهبٍ، فنزلَتِ الآيةُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾. وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه أيضاً [أنهُ][٤] قالَ: (فُقِدَتْ قطيفةٌ حمراءُ يومَ بدرٍ ممّا أُصيبَ مِنَ المشركينَ، فقالَ الناسُ: لعلَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخذَها لنفسِهِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾).

الآية ١٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: أفَمَنْ لم يَغُلَّ، ولم يأخُذ مِنَ الغنيمةِ شيئاً كَمَنْ غَلَّ، وأخذَ منها؟ ليسا سَواءً؛ رجَعَ أحدُهما برضوانِ اللهِ، والآخرُ بسخطِهِ، ويَحْتَمِل ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ افمَنْ أطاعَ اللهَ، واتَّبَعَ أمرَهُ كَمَنْ عَصَى اللهَ، واتَّبَعَ هَواهُ.

الآية ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ والدرجاتُ، واللهُ أعْلَمُ، ما يقصِدُها أهلُها، والدَّرَكاتُ ما يُدْرِكُهُمْ مِنْ غيرِ أنْ يقصِدوها كالدَّرَكِ في العقودِ يُدرِكُ مِنْ غيرِ قَصْدٍ، وقيلَ: الدَّرجاتُ ما يَعْلُو، والدَّرَكاتُ ما يَسْفُلُ، واللهُ أعلمُ. فهذا في التسميةِ المعروفةِ أنْ سُمِّيَتِ النارُ دَرَكاتٍ والجنةُ دَرَجاتٍ، وحقيقةُ ذلك واحدٌ. والآيةُ تدلُّ على الأمرَينِ.

الآية ١٦٤ وقولُهُ تعالى[٥]: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وجْهُ المِنَّةِ في ما بَعَثَ الرسلَ عليهِمُ [السلامُ][٦] مِنَ البشرِ، ولمْ يُرسِلْهُمْ مِنَ الملائكةِ ولا مِنَ الجنِّ [في][٧] وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ كلَّ جوهَرٍ يألفُ بِجوهرِهِ، ويَنضَمُّ إليهِ ما لم يألَفْ بِجَوهرِهِ غيرَهُ، ولا يَنضَمُّ إلى جنسٍ آخرَ. فإذا كانَ كذلكَ، والرسلُ إنما بُعِثُوا لتأليفِ قلوبِ الخَلقِ/ ٧٢ ـ ب/ وجمعِهِمْ والدعاءِ إلى دينٍ يُوجِبُ الجمعَ[٨] بينَهُمْ، ويدفَعُ الاختِلافَ مِنْ بينِهِمْ، فإذا كانَ [هذا][٩] وَصفُنا بُعِثُوا مِنْ جوهرِهِمْ وجنسِهِمْ ليبالغُوا[١٠] بهِمْ، وينضمُّوا إليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنَّ الرسلَ لا بدَّ لهمْ مِنْ أنْ يُقيمُوا آياتٍ وبراهينَ لرسالتِهِمْ، فإذا كانُوا مِنْ غيرِ جَوهرِهِمْ وجنسِهِمْ لا تظهرُ لهمُ الآياتُ والبراهينُ لِما يقعُ عندَهُمْ أنهمْ إنما يأتُوا ذلكَ بطباعِهِمْ دُونَ أنْ يأتُوهُمْ بغيرِ إعطائِهِمْ إياها ذلك.

والثالثُ: أن ليسَ في وُسْعِ البشرِ معرفةُ غيرِ جَوهَرِهِمْ وغيرِ جِنسِهِمْ مِنْ نحوِ الملائكةِ والجِنِّ. ألا تَرَى أنَّ البشرَ لا يَرَونَهُمْ ؟فإذا كان كذلكَ بُعِثُوا منهُمْ ليعرِفُوهُمْ، ولتظهَرَ لهمُ الحجةُ، واللهُ أعلمُ.

ثم المِنَّةُ الثانيةُ حينَ بَعَثَهُمْ مِنْ نَسَبِهِمْ وجنسِهِمْ لم يبعَثْهُمْ مِنْ غيرِهِمْ [تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما][١١]: أنهُمْ إذا بعِثُوا مِنْ غيرِ قبيلتِهِمْ وجنسِهِمْ لم يظهَرْ لَهُمْ صدقُهُمْ ولا أمانتُهُمْ في ما ادَّعَوا مِنَ الرسالةِ، فَبَعَثَهُمْ منهُم ليظهَرَ صدقُهُمْ وأمانتُهُمْ كما ظهرَ صدقهُمْ وأمانتُهُمْ في غيرِ ذلكَ، فيدلُّ ذلكَ لهُم أنهُمْ لمّا لم يكذبوا بشيءٍ قَطُّ، ولا خانُوا في أمانةٍ لا يكذبونَ على اللهِ تعالى.

والثاني: أنهُمْ إذا كانوا مِنْ غيرِ نسبِهِمْ فلعلَّهُمْ إذا أتَوا بآيةٍ أو براهينَ يقولونَ: إنما كانَ ذلكَ بتعليمٍ مِنْ أحدٍ واختِلافٍ إلى أحدٍ ممَّنْ يفتعِلُ بمثلِ هذا؛ بعثَهُمُ اللهُ منهُمْ ليعلَموا [أنهُمْ لم[١٢] يَتَعلَّموا][١٣] مِنْ أحدٍ، ولا اختَلَفُوا إليهِ[١٤]. إنهمْ

---

(١) من م، في الأصل: يتأول. (٢) من م، في الأصل: التأول. (٣) و(٤) ساقطة من الاصل وم. (٥) في م: ﷻ. (٦) و (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: نجمع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) بالغ يبالغ مبالغة وبلاغا إذا اجتهد في الأمر، انظر اللسان. (١١) في الأصل و م: وذلك. (١٢) أدرج قبلها في م: إذ. (١٣) . من م، ساقطة من الأصل . (١٤) في الأصل وم: فيه.

إنما عَلِمُوا ذلكَ باللهِ تعالى لا بأحدٍ مِنَ البشرِ، واللهُ أعلمُ. ألا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى ما أتى بهِ موسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، مِنَ الآياتِ مِنْ نحوِ العصا واليدِ البيضاءِ وغيرِ ذلكَ، لو كانَ سحراً في الحقيقةِ لكانَ مِنْ أعظمِ آياتِ رسالتِهِ؟ لأنه لم يُعرَفْ أنه اختلَفَ إلى أحدٍ في تعلُّمِ السحرِ قطُّ، وقد نشأَ بينَ أظهرِهِمْ، فكيفَ ولم يكنْ سحراً؟ فدلَّ أنَّ للهِ على خلْقِهِ مِنَّةً عظيمةً في ما بَعَثَ الرسلَ من نسبِهِمْ وممَّنْ نشأَ بينَ أظهرِهِمْ للمعنى الذي وصَفْنا، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ: قولُهُ: ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي مِنَ العربِ معروفَ النسبِ أُمِّيّاً ليعلَمُوا أنهُ إنما أتى بما[1] أتى سماوِيّاً وحْياً، وألّا يرتابُوا في رسالتِهِ وفي ما يقولُهُ: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يَحتمِلُ أعلامَ رسالتِهِ ونبوَّتِهِ، وتَحتمِلُ الآياتُ الحججَ، والبراهينَ وهما[2] واحدٌ، وتَحتمِلُ الآياتُ[3] القرآنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يَحتمِلُ التزكيةَ مِنَ الزكاةِ والنماءِ؛ وهو أنْ أظهرَ ذِكْرَهُمْ، وأفشى شرَفَهُمْ ومذاهِبَهُمْ حتى صاروا أئِمَّةً، يُذكَرُونَ، ويُقْتَدَى[4] بِهِمْ بعدَ موتِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] أظهرَهُمْ[5]، ولم يُخمِلْ ذِكْرَهُمْ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؟ [الشمس: ١٠] أي أخفاها، وأخمَلَها. ويَحتمِلُ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يُطهِّرُهُمْ بالتوحيدِ. وقيل: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي [يأخذُ منهُمْ][6] الزكاةَ ليُطهِّرَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أنْ ينصرِفَ إلى وجوهٍ، وقد ذكَرْنا في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ وقد كانوا ﴿مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وقد ذكَرْنا الضلالَ أنهُ يتوجَّهُ إلى وجوهٍ: إلى الهلاكِ وإلى الحَيرةِ وإلى خُمولِ الذِّكْرِ وغيرِهِ.

الآية ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يومَ أُحدٍ حيثُ قُتِلَ منكُمْ سَبعُونَ ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يومَ بدرٍ، قَتَلْتُمْ سَبعِين، وأسرْتُمْ سَبعينَ. وقيلَ: إنَّ ذلك كلَّهُ يومَ أُحُدٍ كانتِ الدَّبْرَةُ والهزيمةُ على المشركينَ في ابْتدائِهِ، ثم هُزِمَ المؤمنونَ؛ يقولُ: إنْ أصابَكُمْ في آخرِهِ ما أصابَ فقد أصابَهُمْ أيضاً ﴿مِّثْلَيْهَا﴾؛ يذكرُ هذا لهمْ، واللهُ أعلمُ، على التَّسْلِيَةِ بما أُصِيبُوا ليتسلَّى ذلكَ بذلكَ، أو يذكِّرُهُمْ نِعَمَهُ عليهِمْ بما أُصيبَ المشركونَ مِثْلَي ذلك لِيَشْكُروا لهُ عليها، ولِيَعْلَموا أنهمْ لم يُخَصُّوا بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ كأنهُ يعاتِبُهُمْ بتركِهِمُ الاشْتِغالَ بالتوبةِ عَنْ ما ارتكبُوا مِنْ عِصيانِ ربِّهِمْ والخلافِ لِنَبِيِّهِمْ ﷺ إذْ مِثلُ ذلكَ لا يكونُ إلّا مِمَّنْ كانَ مُتبرِّئاً عنِ ارْتِكابِ المَنْهِيِّ والخلافِ لأمرِهِ، فأمّا مَنْ كانَ منهُ ارْتِكابُ المَناهِي والخِلافُ لربِّهِ فلا يَسَعُ ذلكَ، أو كانَ ما أصابَهُمْ إنما أصابَ مِحنَةً مِنْهُ، وللهِ أنْ يَمتَحِنَ عبادَهُ بأنواعِ المحنِ على أيدي مَنْ شاءَ، إذْ كُلُّهُمْ عبيدُهُ، فعاتبَهُمْ لَمّا لم يعرِفُوا مِحنَتَهُ، و﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ونحنُ مُسْلِمُونَ نُقاتِلُ في سبيلِ اللهِ، وهمْ مشركُونَ؟ فقالَ: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ يقولُ: بمعَصيتِكُمُ الرسولَ ﷺ وبترِكِكُمْ ما أمَرَكُمْ بهِ مِن حفظِ المركزِ وغيرِهِ كقولِهِ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

قال الشيخُ، رحمَهُ اللهُ، في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ يُخرَّجُ، إنْ كانَ مِنْ أهلِ النفاقِ، مُخرَجَ الاسْتِهزاءِ، أي لو كانَ ما يقولُ محمدٌ ﷺ مِنَ النصرِ والرسالةِ حقّاً فمن أينَ؟ بل بهذا وذلكَ كقولِهِمْ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقولِهِمْ يومَ الخندقِ ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] وغيرُ ذلكَ ممّا عليهِ مُعْتَمَدُهُمْ في إظهارِ الإسلامِ، واللهُ أعلمُ، وإنْ كانَ ذلكَ مِنْ أهلِ الإيمانِ فهو سؤالُ تعريفِ الوجهِ الذي بُلُوا بِهِ، وهمْ أنصارُ دينِ اللهِ، وعَدَ لأنصارِ دينِهِ النصرَ، وإنَّ الذي يَنْصُرُهُ اللهُ لا يغلِبُهُ شيءٌ. وكانوا[7] قد وُعِدُوا بإلقاءِ[8] الرعبِ في قلوبِ أعدائِهِمْ أو بما كانُوا يَرَونَ[9] الدَّبْرَةَ عليهِمْ والهزيمةَ مِنَ الأعداءِ، فيقولونَ: بِمَ انْقَلَبَ علينا الأمرُ؟ فبيَّنَ أنهُ بما قد عَصَوا،

---

(١) في الأصل وم: به ما. (٢) الواو ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل وم: آيات. (٤) في الأصل و م: ويقتدون. (٥) في الأصل وم: ظهره. (٦) في الأصل وم: يأخذهم. (٧) في الأصل وم: وكأن. (٨) في الأصل وم: إلقاء. (٩) في الأصل و م: رأدا.

ومالُوا عنِ اللهِ. وإنْ كانَ عن بعضِهِمْ لا عنْ كُلِّهِمْ فجائزٌ ذلكَ بحقِّ المحنةِ؛ إذ قد يجوزُ الابتداءُ بهِ مع ما ذلك عَنِ المعاصي أزجَرُ، ولِلاجْتِماعِ على الطاعةِ أدعَى؛ إذِ المحنةُ بمثلِهِ تدعُو كُلًّا إلى اتِّقاءِ الخلافِ ومنعِ إخوانهِ أيضاً عنْ ذلكَ، فيكونُ بهِ التآلفُ وصلاحُ ذاتِ البَينِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنَ النصرِ والهزيمةِ، ولكنْ ما أصابَكُمْ إنما أصابَ بِمَعْصِيَتِكُمْ ربَّكُمْ وخلافِكُمْ رسولَ اللهِ ﷺ وأصابَكُمْ محنةً منهُ إياكُمْ.

الآية ١٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جَمْعُ المؤمنِينَ وجَمْعُ المشركينَ ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: فَبِمَشيئَةِ اللهِ وإرادتِهِ، وقيل: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فَبِتخليةِ اللهِ إياكم لما لِعِلْمِهِمْ [أنهمْ][1] رأَوا النصرَ والغلبةَ بالكَثْرَةِ أو بالقوَّةِ والعُدَّةِ، فَخلَاهُمُ اللهُ بينهُمْ وبينَ عَدُوِّهِمْ لِيَعلَموا أنّ أمثالَهمْ مع قِلَّتِهِم وضَعْفِهِمُ انتصرُوا[2] منْ أمثالِ هؤلاءِ معَ كثرةِ عددِهِمْ وقوةِ أبدانِهِمْ وعُدَّتِهِمْ في سلاحِهِمْ. ولكنْ باللهِ يُنْصَرُون منهُمْ، ويَغلبُونَ عليهِمْ، وقيلَ: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فَبِعِلْمِ اللهِ أي بِعِلمِ اللهِ ما يُصيبُكُمْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، ليسَ عَنْ سَهْوٍ وغَفْلَةٍ منهُ يُصيبُكُمْ.

الآية ١٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ لِما ذكَرْنا في ما تقدَّمَ: لِيَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهمْ يؤمِنُونَ، ويَصْبِرُونَ على البلايا والقتالِ مؤمنينَ صابرينَ مُحْتَسِبِينَ[3]، وكذلكَ لِيَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهمْ يُنافِقونَ، ولا يَبَرُّونَ[4]، منافِقِينَ غيرَ صابرينَ ولا مُحْتَسِبينَ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ قولُهُ: ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ يحتَمِلُ ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ أي كَثِّروا السَّوادَ لأنَّ المشركينَ إذا رَأَوا سَوادَ المؤمنينَ كثيراً يُرْهِبُهُمْ ذلكَ، ويُخَوِّفُهُمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ويَحتَمِلُ ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ العدوَّ عن أنفسِكُمْ لِما لعلَّهُمْ يقصِدُونَ أنفسَ المؤمنِينَ المقاتِلِينَ ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ عَنْ أموالِكُمْ وذَرارِيِّكُمْ، ويَقصِدُون ذلكَ ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ عن دينِكُمْ إذا قصَدُوا دينَكُمْ، وقد يقصِدُون ذلكَ. أو أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ واحداً أي قاتِلوا في سبيلِ اللهِ أوِ ادفعوا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ يعني المنافقِينَ؛ أخبرَ أنهُمْ إلى الكفرِ أقربُ مِنَ الإيمانِ لِلْكفرِ وإلى الكُفرِ مِنَ الكُفرِ، كلُّ ذلكَ لغةٌ وفي حرفِ حَفْصَةَ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ﴾ هُم إلى الكُفرِ أقربُ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلمُ، أنَّ المنافقينَ كانُوا لا يَعرفُونَ اللهَ ﷻ ولا كانُوا يعبُدُونَهُ؛ فإنما هُمْ عبادُ النعمةِ، يَميلُونَ إلى حيثُ مالَتِ النعمةُ، إنْ كانَتْ معَ المؤمنينَ فَيُظْهِرونَ مِنْ أنفسِهِمُ الوِفاقَ لَهُمْ، وإنْ كانَتْ معَ المشركِينَ فَمَعَهُمْ كقولِهِ ﷻ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ/ ٧٣ ـ أ/ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤١] وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

وأمّا الكفارُ فإنَّهُمْ كانُوا يعرِفُونَ اللهَ لكنَّهُمْ يعبُدونَ الأصنامَ والأوثانَ لوجهَيْنِ:

أحدُهما: لِما اتَّخَذُوها أرباباً.

والثاني: يطلُبُونَ بذلك تقريبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] لكنهُمْ إذا أصابَتْهُمُ الشدةُ، ولم يَرَوا في ما عبدُوا الفَرَجَ عَنْ ذلك، فَزِعُوا إلى اللهِ ﷻ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فإذا ذهبَ ذلكَ عنهُمْ عادُوا إلى دينِهِمُ الأوَّلِ، وقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ الآية [الزمر: ٨].

وأمّا المؤمِنُونَ فَهُمْ في جميعِ أحوالِهِمْ: الرَّخاءِ والشِّدَّةِ والضَّرّاءِ والسَّرّاءِ مُخلصينَ لِلّهِ صابرِينَ على مصائِبِهِمْ وشدائِدِهِمْ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

---

(١) ساقطة الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لا تنصرون. (٣) احتسب بكذا أجراً عند الله: اعتده ينوي به وجه الله. (٤) في م: يصبرون. (٥) من م، في الأصل: تحسبين.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجوهاً: قيلَ: إنما كانُوا كذا لأنهُمْ كانُوا يقولُونَ للمؤمنينَ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] ذكَروا كونَهُمْ معَ المؤمنينَ، وذكَروا في الكافِرينَ استِحواذَهُمْ عليهِمْ ومنعَهُمْ على المؤمنينَ، فذلك آيةُ الأقربِ منهُمْ. ويَحتَمِلُ ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ لأنّ ما أظهَرُوا مِنَ الإيمانِ كَذِبٌ، والكفرُ نفسُهُ كَذِبٌ، فما أظهَرُوا منَ الإيمانِ فهو كَذِبٌ إلى الكَذِبِ الذي هُم عليهِ أقربُ، وهو الكُفرُ. وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أنهُ قالَ: (هُمْ يومئذٍ أقربُ لأنهُمْ كانُوا في الحقيقةِ كُفّاراً على دينِهِمْ). وفي قولِهِ تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ يَحتَمِلُ الذَّمَّ، وقيلَ: كقولِهِ ﷺ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤] فيكونُ الوصفُ بالقُربِ على الوُقوعِ والوُجوبِ كقولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي هي لَهُمْ، وباللهِ التوفيقُ.

وذلكَ لأنهمْ كانُوا أهلَ نفاقٍ، والكفرُ لم يكنْ يُفارِقُ قلوبَهُمْ، وما كانَ مِنْ إيمانِهِمْ كانَ بظاهرِ اللسانِ، ثم قد يُفارِقُها أكثرَ أوقاتِهِمْ، واللهُ أعلمُ. وقد يكونُونَ[1] على القربِ مِنْ حيثُ كانُوا شاكّينَ في أمرِ الكفرِ والإيمانِ تاركي[2] الإيمانَ. إنَّ حقيقتَهُ تصديقٌ عنْ معرفةٍ، ولم يكنْ لهمْ معرفةٌ، والكفرُ قد يكونُ بالتكذيبِ، كانَ لهمْ بما يُكَذِّبُ عِلْمٌ بالكَذِبِ أوّلاً، فلذلك كانَ الكفرُ أقربَ إليهِمْ.

ويَحتَمِلُ ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ﴾ أولَى بهِمْ، وهمْ بهِ أحقُّ أنْ يَعرِفوا بما جعلَ اللهُ لَهُمْ مِنْ أعلامِ ذلك في لحنِ القولِ ثمَّ في أفعالِ الخيرِ ثم في [أحوالِ][3] الجهادِ وممّا يَظهَرُ منْهُمْ مِنْ آثارِ الكفرِ في الأقوالِ والأفعالِ ممّا جاءَ بهِ القرآنُ، واللهُ أعلمُ.

فإنْ قيلَ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ كيفَ عَمَّ هؤلاءِ بالعقوبةِ؟ وإنّما كانَ العِصيانُ والخِلافُ في الأمرِ مِنْ بعضِهِمْ لا مِنَ الكُلِّ؟ قيلَ: لمّا خَرَجَ لهمْ ذلك مَخرَجَ الامْتِحانِ والابتِلاءِ لا مَخرَجَ الجزاءِ لِفِعْلِهِمْ، وللهِ أنْ يمتَحِنَ عبادَهُ ابتِداءً بأنواعِ المِحَنِ مِنْ غيرِ أنْ يَسْبقَ منهُمْ خِلافٌ في الأمرِ وعِصيانٌ، وكُلُّ عقوبةٍ خَرَجَتْ مَخرَجَ جزاءِ عِصيانٍ وخلافٍ في أمرٍ لَمْ يُؤاخَذْ غيرُ مُرتكِبِها لِقولِهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وما خَرَجَ مَخرَجَ الامْتِحانِ جازَ أنْ يَعُمَّهُمْ لِمَا ذكَرْنا أنَّ لهُ ابْتِداءً، وإنْ كانَ ما كانَ منهُمْ بمعونةِ غيرِهِمْ، فَعَمَّهُمْ لذلكَ بذلكَ كقُطّاعِ الطريقِ والسُّرّاقِ[4] أنْ تَعُمَّهُمُ العقوبةُ جميعاً: مَنْ أخذَ، ومَنْ لم يأخُذْ، ومَنْ تولّى ومَنْ لم يَتَوَلَّ، فكذلكَ هذا، وكانوا جميعاً كنفسٍ واحدةٍ، فعَمَّهُمْ بذلك، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في الدينِ ومعارِفِهِمْ مِنَ المُنافقينَ ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ ولم يَخرُجوا إلى الجهادِ ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾ وقيلَ: لإخوانِهِمْ في النسبِ والقرابةِ، ولَيسُوا بإخوانِهِمْ في الدينِ [والولايةِ كقولِهِ ﷺ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] ليسَ بأخيهِمْ في الدين والولايةِ، ولكن كانَ أخاهمْ في النَّسبِ والقرابةِ ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ وقَعَدوا عنِ الخروجِ في الجهادِ لَما قُتِلوا في الغَزْوِ.

ثمَّ قالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي ادفعُوا عنْ أنفسِكُمُ الموتَ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنهمْ لو قَعَدُوا في بيوتِهِمْ ما قُتِلُوا. فمعناهُ، واللهُ أعلمُ: أنَّ مَنْ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ فمكتوبٌ ذلكَ عليهِ، ومَنْ ماتَ في بيتٍ فمكتوبٌ عليهِ. فإذا لم يَقْدِرُوا دفعَ ما كُتِبَ عليهِمْ[5] منَ الموتِ كيفَ زعمْتُمْ أنهُمْ لو قَعَدوا ما قُتِلوا؟ وهو مكتوبٌ عليهِمْ كالموتِ.

وفي هذه الآيةِ ردٌّ[6] على المعتزلةِ قولِهِمْ: إنهم يقولُونَ: إنَّ مَنْ قُتِلَ ماتَ قبلَ أجلِهِ وقبلَ أنْ يَستوفِيَ[7] أجلَهُ، فهُمْ واليهودُ، في ما أنكَرَ[8] اللهُ عليهمْ قولَهُمْ ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ وقَعدُوا ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾، سَواءٌ بقولِهِ: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الآية ١٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ قِيلَ فيهِ بوجوهٍ: قِيلَ: إنَّ المنافقينَ قالُوا: لِلّذينَ

(١) في الأصل و م: يكون. (٢) في الأصل و م: تاركو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: وكسراق، في م: والسارق.
(٥) في الأصل و م: عليكم. (٦) في الأصل و م: ترد. (٧) من م، في الأصل: يسوي. (٨) في الأصل وم: أنكروا.

قُتِلوا بأُحُدٍ وبِبَدْرٍ أمواتاً كسائِرِ المَوتَى ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقيلَ: قالوا إنَّ مَنْ قُتِلَ لا يَحْيَى أبداً، ولا يُبْعَثُ، فقالَ ﷺ: بل يَحْيَونَ، ويُبْعَثُونَ، كما يَحْيَى، ويُبْعَثُ غيرُهُمْ مِنَ المَوتَى، وقيلَ: إنَّ العربَ كانَتْ تَسمِّي المَيْتَ مَنِ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ، أو ماتَ، ولم يُذكَرْ، أي لم يبقَ لهُ أحدٌ يُذكَرُ بهِ، فقالوا: إذا قُتِلَ هؤلاءِ ماتوا، أي لا يُذكَرُونَ، فأخبرَ اللهُ ﷻ أنهم مذكُورُونَ في مَلإِ الملائكةِ ومَلإِ البشرِ، وهو الظاهِرُ المعروفُ في الخَلْقِ: أنَّ الشهداء مذكُورُونَ عندَهُمْ، وقيلَ: قولُهُ ﷻ: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي تَجري أعمالُهُمْ بعدَ قَتلِهِمْ كما كانتْ[1] تجري في حالِ حياتِهِمْ، فهمْ كالأحياءِ في ما يجري لهمْ ثوابُ أعمالِهِمْ وجزاؤهُمْ، لَيسُوا بأمواتٍ، وقيلَ: إنَّ حياتَهُمْ حياةُ كُلْفَةٍ، وذلكَ أنهُمْ أُمِرُوا بإحياءِ أنفسِهِمْ في الآخرةِ، فسُمُّوا أحياءً لذلكَ، والكفارُ لم يُحْيُوا أنفسَهُمْ، بل أماتُوها، فسُمِّيَ أولئكَ أحياءً، والكفارُ موتَى، وقيلَ: سُمِّيَ هؤلاءِ أحياءً لأنهُمْ انْتَفَعُوا بحياتِهِمْ، وسُمِّيَ الكفارُ أمواتاً لِما لَمْ يَنْتَفِعوا بحياتِهِمْ. ألا تَرَى أنهُ ﷻ سَمَّاهُمْ مرَّةً ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] لِما لم ينتفِعُوا بِسَمْعِهِمْ ولا ببَصَرِهِمْ ولا بِلِسانِهِمْ، ولم يُسَمِّ بذلكَ المؤمنين لِما انْتَفَعوا بذلكَ كلِّهِ؟ فعلى ذلكَ سَمَّى هؤلاءِ أحياءً لِما انْتَفَعُوا بحياتِهِمْ وأولئكَ الكفرةَ مَوْتَى لِما لم يَنْتَفِعوا بحياتِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقال الحسنُ: (إنَّ أرواحَ المؤمنينَ تُعْرَضُ[2] على الجِنانِ وأرواحَ الكفارِ على النارِ، فيكونُ لأرواحِ الشهداءِ أفضلُ اللذةِ ما لا يكونُ لأرواحِ غيرِهِمْ مِنَ الكَفَرةِ ذلك، فاستَوجَبُوا لِفضلِ اللذةِ على غيرِهِمُ اسْمَ الحياةِ). ألا تَرَى أنه قالَ تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾؟ وقيلَ: إنَّ الناسَ كانُوا يَقُولُونَ في ما بينَهُمْ: مَنْ قُتِلَ بِبَدْرٍ وأُحُدٍ ماتَ فلانٌ، وماتَ فلانٌ، فقالَ ﷻ ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ [البقرة: ١٥٤].

الآية ١٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ رُوِيَ عَنْ مسروقٍ أنهُ قالَ: سألْتُ عبدَ اللهِ بْنَ مسعودٍ ﷺ عنْ هذهِ الآيةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قالَ: سألْتُ عنْ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: «أرواحُهُمْ عندَ اللهِ في حواصِلِ طيرٍ خُضْرٍ لها قَناديلُ مُعَلَّقَةٌ بالعرشِ، تَسْرَحُ في الجنةِ في أيِّها شاءَتْ، ثم تأوي إلى قناديلِها» [مسلم ١٨٨٧] والحديثُ طويلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (ينزلُ عليهِمْ صُحُفٌ مكتوبٌ فيها مَنْ يلحَقُ بهِمْ مِنَ الشهداءِ، فبذلكَ يَستبشِرُونَ). وقيلَ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ لإخوانِهِمُ الذينَ فارَقُوهُمْ على دينِهِمْ وأمرِهِمْ بما قَدِمُوا عليهِ مِنَ الكرامةِ والفَضلِ والنِّعَمِ التي أعطاهُمُ اللهُ. وقيلَ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾/ ٧٣ ـ ب/ يعني يَفرحُونَ بالذينَ لم يَلْحقوا بِهِم مِنْ خلفِهِمْ، يعني مِنْ بعدِهِمْ مِنْ إخوانِهِمْ في الدنيا رأوا قتالاً، استُشهِدوا، فَلَحِقوا. وقيلَ: ﴿لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ الذينَ يدخُلُونَ في الإسلامِ مِنْ بعدِهِمْ، والاستِبشارُ هو الفرحُ أو طلبُ البشارَةِ؛ كأنهمْ طلبُوا البشارَةَ لقومِهِمْ ليَعْلَمُوا بكرامتِهِمْ عندَ اللهِ ومنزلتِهِمْ كقولِ مَنْ ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ و٢٧]. وقيلَ: إنَّ الحياةَ على ضربَينِ: حياةُ الطبيعيِّ وحياةُ العَرَضيِّ، وكذلكَ الموتُ على وجهَينِ: موتِ الطبيعيِّ وموتِ العَرَضيِّ. ثمّ حياةُ العَرَضيِّ على وجوهٍ: أحدُها: حياةُ الدينِ والطاعةِ كقولِهِ ﷻ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وحياةُ العلمِ والبصيرةِ واليقظةِ، سُمِّيَ العالمُ حَيّاً والجاهلُ مَيْتاً، وحياةُ الزينةِ والشرفِ على ما سمَّى اللهُ تعالى الأرضَ ميتةً في حالِ يُبوسَتِها وحَيَّةً في حالِ خُروجِ النباتِ منها بقولِهِ ﷻ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] [إنهُ هو][3] الذي أحياها، وحياةُ الذِّكرِ واللَّذةِ، فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى لمّا أخبرَ أنهُمْ ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أنْ يكونَ لهمْ حياةٌ مِنَ الوجوهِ التي ذكَرَ: حياةُ ذِكْرٍ ولَذَّةٍ، أو حياةُ زينةٍ وشرفٍ، أو حياةُ العلمِ بأهلِ الدنيا على ما كانَ لهمْ قبلَ ذلكَ، أو حياةُ دينٍ وعبادةٍ، أو يُجزي عليهِمْ أعمالَهُمْ قبلَ الشهادةِ، وإنْ كانَتْ أجسامُهُمْ في الحقيقةِ مَيْتَةً في أحكامِ الدنيا عندَ أهلِ الدنيا. وهذا يُقوِّي قولَنا في المرتَدِّ: إنهُ إذا لَحِقَ بدارٍ يُحْكَمُ في نفسِهِ ومالِهِ في قسمةِ المواريثِ، وإنْ كانَ هو في الحقيقةِ حيّاً على ما حُكِمَ في أموالِ الشهداءِ وأنفسِهِمْ بحكمِ الموتى لِما [لا يَعُودونَ][4] إلى الدنيا، وإنْ كانُوا عندَ

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: يعرضون. (٣) في الأصل وم: إن. (٤) في الأصل وم: يعدون.

ربِّهِمْ أحياءً. فعلى ذلك يُحكَمُ في نفسِ المرتدِّ وأموالِهِ بحكمِ المَوتى لِما لا يعودُ إلى دارِنا، وإنْ كانَ هو في الحقيقةِ حيّاً عندَ اللهِ لِما جازَ أنْ يكونَ حَيّاً عندَ اللهِ مَيتاً عندنا جازَ أنْ يكونَ مَيتاً عندنا حَيّاً عندَ اللهِ، واللهُ أعلمُ.

وحياةُ الطبيعيِّ وهو هَلاكُهُ ومَوتُهُ، واللهُ أعلمُ، وموتُ العَرَضيِّ هو جَهلُهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [يَحتَمِلُ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾][١] أي بِدينٍ مِنَ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] قيلَ: بدينِهِ، ويَحتَمِلُ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجنةَ ﴿وَفَضْلٍ﴾ زياداتٍ لَهُمْ وكراماتٍ[٢] مِنَ اللهِ ﷻ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا يُضيعُ مِنْ حسناتِهِمْ وخيراتِهِمْ، وإنْ قَلَّ، وصَغُرَ، كقولِهِ ﷻ: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٦] [وكقولِهِ تعالى][٣]: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية [النساء: ٤٠].

الآية ١٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية قيلَ: أجابُوا اللهَ ﷻ والرسولَ ﷺ إلى ما دعاهُمْ إليه، وأطاعُوا في ما أمَرَهُمْ بهِ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي الجِراحةُ، قيلَ: دعاهُمْ إلى بدرِ الصُّغرى بعدَما أصابَهُمْ بأحُدٍ القروحُ والجِراحاتُ، فأجابُوهُ، فذلك قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ في الإجابةِ لهُ بعدَ ما أصابَتْهُمُ الجِراحةُ، وشَهِدُوا القتالَ معَهُ ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الخلافَ لهُ وتركَ الإجابةِ، ويَحتَمِلُ اتَّقَوُا النارَ وعقوبتَهُ ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الجنةِ وثوابٌ جزيلٌ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ الآية: قيلَ: إنَّ المنافِقينَ قالُوا لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بعدَما انهزمَ كُفّارُ مكةَ، وَوَلَّوا دُبُرَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ يُخَوِّفُونَهُمْ حتى لا يتبعُوا على إثْرِهِمْ، فتلكَ[٤] عادتُهُمْ لم تَزَلْ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] إلّا فساداً، وقيلَ: إنهُ إنما قالَ ذلكَ لَهُمْ رجلٌ، يُقالُ لهُ: نُعَيمُ بنُ مَسْعودٍ، ولا ندري كيفَ كانَتِ القصةُ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لمّا وجَدُوا الأمرَ على ما قالَ لَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ وَوَعَدَ لَهُمْ لا على ما قالَ أولئكَ، فزادَهُمْ ذلكَ إيماناً أي تصديقاً زادَهُمْ، قيلَ: جراءةً وقوةً وصلابةً على ما كانوا مِنْ قَبْلُ في الحربِ والقتالِ. ويَحتَمِلُ زادَهُمْ ذلكَ في إيمانِهِمْ قوةً وصلابةً وتصديقاً. وقيلَ: قولُهُ ﷻ ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي تصديقاً ويَقيناً بجراءتِهِمْ على عَدُوِّهِمْ ويقينِهِمْ بربِّهِمْ واستجابتِهِمْ لنبيِّهِمْ ﷺ فإنْ قالَ قائلٌ: ما معنى قولِهِ ﷻ: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾؟ على إثْرِ قولِهِ ﷻ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ وقولُ ذلكَ قولٌ لا يَحتَمِلُ أنْ يزيدَ الإيمانَ، وليسَ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] لأنها حججٌ، والحججُ تزيدُ التصديقَ، أو تُحدِثُ، أو تَدعُو إلى الثباتِ على ذلكِ، فيزيدُ الإيمانُ، فقولُهُمْ: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ كيفَ يزيدُ؟.

قيلَ يَخرُجُ ذلكَ، واللهُ أعلمُ، على وجوهٍ:

أحدُها: أنهُمْ إذْ عَلِمُوا أنهُمْ أهلُ النفاقِ[٥]، وأنهُمْ يُخَوِّفُونَ بذلك، وقد كانَ وَعَدَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بصنيعِهِمْ، فكذَّبُوهُمْ بذلكَ، وأقبلُوا نحوَ أمرِ رسولِ اللهِ ﷺ إجابةً لأمرِهِ وتصديقاً لِوعدِهِ ومجانبةً لِاغترارِهِمْ بأخبارِ أعدائِهِ والنزولِ على قولِهِمْ، فكان ذلكَ منهمُ اسماً[٦] زائداً في أسمائِهِمْ معَ ما في تكذيبِهِمْ ذلكَ نحوَ قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الآية [آل عمران: ٧] إنهُ إذا زادَ بتكذيبِ آياتِ اللهِ رجساً فَمِثْلُهُ تكذيبُ المُكذِّبِ بالآياتِ. لذلكَ يزيدُ إيماناً، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ أخبرَهُمْ بتفرُّقِ أعداءِ اللهِ وتشتُّتِ أمرِهِمْ، وأخبرَهُمُ المنافقونَ بالاجتماعِ، فصارُوا إلى ما

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: بذلك، في م: وذلك. (٥) من م، في الأصل: النار. (٦) في الأصل وم: ذلك.

نَعَتَهُم بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ فوجَدُوا الأمرَ على ما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ٤٤] والإنباءُ عنِ الغيبِ مِنْ أعظمِ آياتِ النبوّةِ، فزادَهُمْ ذلكَ إيماناً، واللهُ أعلمُ، كقولِهِ[1] ﷻ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٢].

والثالثُ: لا اغْتَرُّوا[2] بقولِ المنافقينَ، ولا قَصَدوا لذلكَ، ولا ضَعُفُوا، فأنزلَ اللهُ سكينتَهُ على قُلوبِهِمْ لِيَزيدَهُمْ بذلكَ إيماناً كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٤] وباللهِ التوفيقُ.

ثم معنى زيادةِ الإيمانِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: نحوُ الابتداءِ في حادثِ الوقتِ، إذْ لهُ حكمُ التجدُّدِ في حقِّ الأفعالِ بما هو لِلكفرِ به تاركٌ. وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية، فيكونُ ذلكَ بحقِّ الزيادةِ على ما مضى، وإنْ كانَ بحقِّ التجدُّدِ في حقِّ الحادثِ الفردِ.

والثاني: أنْ يكونَ لهُ الثباتُ عليهِ، إذ حججُ الشيءِ توجِبُ لزومَهُ والدوامَ عليهِ، فَسُمِّيَ ذلكَ زيادةً. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ يَزدادُ في أمرِهِ بَصيرةً وعلى ما رغِبَ فيه إقبالاً، [ولحُقُوقِهِ مُراعاةً][3]، فيكونُ في ذلكَ زيادةٌ في قوتِهِ أو في نورِهِ أو بِزينتِهِ وتمامِهِ، وذلكَ أمرٌ معروفٌ.

والثالثُ[4]: أن يكونَ ذلكَ داعياً[5] إلى محافظةِ حقوقٍ والتمسُّكِ بأدلَّتِهِ والوفاءِ بشرائطِهِ، فيزيدُ بذلكَ فضلُهُ كما عُدَّتْ صلاةٌ واحدةٌ في التحقيقِ ألفاً بما في ذلكَ مِنْ حفظِ الحقوقِ ومُراعاتِها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فَزِعُوا إلى اللهِ تعالى بما رَأوا مِنْ صِدْقِ وعدِ رسولِ اللهِ ﷺ لهمْ وظهورِ كذبِ قولِ المنافقِينَ لهمْ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ الآية، أو قالُوا ذلكَ عندَ قولِ المنافقِينَ إياهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فَوَّضُوا أمْرَهُمْ إلى اللهِ تعالى، وسلَّموا لِمَا رأَوُا النصرَ منهُ رضاً منهمْ بكلِّ ما يُصيبُهُمْ بقولِهِ ﷻ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] مَدَحَهُمُ اللهُ ﷻ بما رأوا أنفسَهُمْ للهِ. فكذلكَ هذا[6].

الآية ١٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ تَحتمِلُ النعمةُ نعمةَ الدينِ على ما ذكَرْنا. وقيلَ: انقلبُوا بنصرِ مِنَ اللهِ والغنيمةِ. وتَحتمِلُ النعمةُ مِنَ اللهِ لا مِنَ العدوِّ / ٧٤ ـ أ/ لأنَّ المنافقِينَ كانُوا يُخَوِّفُونَهُمْ بقولِهِمْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وتَحتمِلُ النعمةُ الجنةَ، ﴿وَفَضْلٍ﴾ الزيادةَ على ذلكِ. وقيلَ: انصرَفُوا بأجرٍ مِنَ اللهِ ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو ما تَشَوَّقُوا به مِنَ الشَّوقِ ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ولا قتلٌ ولا هزيمةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ورِضا رسولِهِ ﷺ وقيلَ: اتَّبَعُوا طاعتَهُ ورضاهُ. ويَحتمِلُ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ الزيادةَ في الإيمانِ، وهو الصلابةُ والقوةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ممّا كانُوا يُخَوِّفُونَهُمْ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رجَعُوا بمحمدٍ ﷺ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي ذو فَضْلٍ عظيمٍ يدفعُ المشركينَ عَنِ المؤمنينَ][7].

الآية ١٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ يُخَوِّفُ أولياءَهُ وأعداءَهُ، [لكنَّ أعداءَهُ لا يَخافُونَهُ، وأولياءَهُ يَخافُونَهُ][8] كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] ومَنْ لم يَتَّبِعْ. لكنَّ مَنِ اتَّبعَ كانَ يقبَلُ إنذارَهُ، ومَنْ لم يتَّبِعِ الذكرَ لا، وإلّا كانَ يُنذِرُ الفريقَيْنَ جميعاً. فعلى ذلكَ الشيطانُ كانَ يُخَوِّفُ أولياءَهُ وأعداءَهُ جميعاً. لكنَّ أعداءَهُ لا يخافُونَهُ، وأولياءَهُ يَخافُونَهُ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي بأوليائِهِ. وجائزٌ هذا في الكلامِ كقولِهِ: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧] أي بيومِ الجَمْعِ.

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: يغترروا. (٣) في الأصل: لحوقه من إعادة، في م: و لحوقه مراعاة. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) في الأصل وم: داع. (٦) أدرج بعد هذه الكلمة في الأصل وم العبارة التالية: وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي ذو فضل عظيم يدفع المشركين عن المؤمنين، ومحل هذه العبارة بعد: رجعوا بمحمد ﷺ. (٧) ذكرنا أن هذه العبارة قد أدرجت في الأصل وم قبل تفسير قوله تعالى ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾. (٨) من م، في الأصل: ولا يخافونه.

الا ترى أنهُ قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾؟ [الأنعام: ١٢١] فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أو بأوليائِهِ، واللهُ أعلمُ. وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما (يُخَوِّفُكُمْ أولياؤُهُ)، وهذا يؤيِّدُ تأويلَ مَنْ يتأوَّلُ: ويخوِّفُ بأوليائِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي لا تخافوهُمْ[1] لمُخالَفَتِكُمْ إياهُمْ[2]، وخافوني أي خافوا مخُالفتكمْ أمري كقولِهِ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ [النحل: ٩٩ و١٠٠] أخبرَ أنْ ليسَ لهُ سُلْطانٌ على الذين آمنوا إنما سُلْطانُهُ على أوليائِهِ، لذلكَ قالَ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ لِما ليسَ لهُمْ[3] عليكُمْ سُلْطانٌ ﴿وَخَافُونِ﴾ لِما لي عليكُمْ سُلْطانٌ، وباللهِ العصمةُ.

الآية ١٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ تحتملُ الآيةُ وجهينِ: تحتملُ ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ﴾ ظاهَروا غيرَهُمْ مِنَ المشركينَ عليكُمْ، وقد ظاهرَ أهلُ مكةَ غيرَهُمْ مِنَ المشركينَ عليكَ، فإنَّ اللهَ ينصرُكُمْ، فيُخرَّجُ هذا مُخرَجَ البِشارةِ لهُ بالنصرِ على أعدائِهِ والغَلَبَةِ عليهِمْ.

وتَحتملُ أيضاً وجهاً آخرَ، وهو أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَشتدُّ عليهِ كفرُهُمْ باللهِ، ويحزَنُ لذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] فيُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾ مُخرجَ تَسكينِ [الحزنِ][4] ودفعِهِ عنهُ والتَّسلّي على ذلكَ لا مُخرجَ النهيِ، إذِ الحزنُ يأخذُ الإنسانَ، ويأتيهِ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ ولا تَصنُّعٍ، وكقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] هو على مُخرَجِ التسكينِ والدفعِ عنهُ لا على النهيِ، فكذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلمُ، وكقولِهِ تعالى لأمِّ موسى عليه السلام ﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓ﴾ [مريم: ٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ أي لَنْ يَضُرُّوا أولياءَ اللهِ عليهم السلام لأنَّ ضَرَرَ ذلك عليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]. ويَحتمِلُ ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ لأنهُ ليسَ لِلّهِ في نفعِهِمْ وعمَلِهِمْ نفعٌ، ولا في تركِ ذلكَ عليهِ ضَررٌ؛ إنما المنفعةُ في عملِهِمْ لهُمْ، والضَّررُ في تركِ عملِهِمْ عليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ هذه الآيةُ تَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: أرادَ ألّا يجْعَلَ لهُمْ في الآخرةِ حظّاً، والمعتزلةُ يقولونَ: بل أرادَ أنْ يجعَلَ لَهُمْ حظّاً في الآخرةِ، إذ يقولُونَ: أرادَ لهُمُ الإيمانَ، وبالإيمانِ يكونُ لهمُ الحظُّ في الآخرةِ. فثبتَ بالآيةِ أنهُ لم يكُنْ أرادَ لَهُمُ الإيمانَ، والآيةُ في قومٍ خاصٍّ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهُم لا يؤمِنُونَ أبداً، فأرادَ ألّا يجعَلَ لهُمْ حظّاً في الآخرةِ، ولو كانَ على ما تقولُهُ المعتزلةُ بأنه أرادَ أنْ يجعلَ لهُمْ حظًّا في الآخرةِ لِما أراد لهُمْ أنْ يؤمِنُوا، ولكنْ لم يؤمِنُوا، لكانَ حاصلُ قولِهِمْ أرادَ اللهُ ألّا يجعلَ لِمَنْ أرادَ أنْ يؤمنَ في الآخرةِ، وذلك جَورٌ عندَهُمْ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذكرَ مَرَّةً ﴿أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠] ومرَّةً ﴿شَدِيدٞ﴾ [آل عمران: ٤ و..] لأن التعذيبَ بالنارِ أشدُّ العذابِ في الشاهدِ وأعظمُ، ولذلك أوعَدَ بها في الغالِبِ[5]، وجَعَل شرابَهُمْ وطعامَهُمْ ولباسَهُمْ منها، فنعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ.

الآية ١٧٧ وقولُهُ تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ قد ذكَرْنا تأويلَ هذا في ما تقدَّمَ[6] ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ ما ذكَرْنا أنهُ على الوجهَينِ اللذَينِ وصَفْتُهُما، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ الآيةُ اختُلِفَ في قراءتها[7]؛ قرأ بعضُهُمْ

---

(١) في الأصل وم: تخافوه. (٢) في الأصل وم: إياه. (٣) في الأصل وم: له. (٤) من م. (٥) في الأصل وم: الغائب. (٦) كان ذلك في تفسير الآية (١٦) من سورة البقرة. (٧) قرأ حمزة بالتاء وقرأ الباقون بالياء، انظر حجة القراءات (١٨٢).

بالياءِ، وبعضُهُمْ بالتاءِ، فَمَنْ قرأ بالتاءِ صَرَفَ الخطابَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ وَلَا تحسبنَّ يا محمدُ ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾ لَهُمْ إنما نملي لَهُمْ ليزدادُوا شرّاً وإثماً لهُمْ. فالآية على المعتزلةِ، لكنّهم تأوّلوا بوجهَين:

أحدُهما: على التقديم والتأخيرِ؛ كأنّه قالَ: ولا تحسبَنَّ الذينَ كفرُوا أنما نُملي لَهُمْ ليزدادُوا إثماً، إنَّ ما نملي لهُمْ خيرٌ لأنفسِهِمْ. فيقالُ لَهُمْ: لو جازَ حَمْلُ[1] الآية وصرفُها على ما حَمَلْتُمْ عليهِ، وصَرفْتُمْ إليهِ، جازَ حَمْلُ جميعِ الآياتِ التي فيها وَعْدٌ للمؤمنينَ وصَرْفُها إلى الكافرينَ[2] وما كانَ فيها وعيدٌ للكافرينَ [جازَ صَرْفُها][3] إلى المؤمنينَ، إذْ لا فرقَ بينَ هذا وجَعْلِكُمُ الخيرَ مكانَ الإثمِ والإثمَ مكانَ الخيرَ، وبينَ جعلِ الوعدِ[4] في موضعِ الوعيدِ والوعيدِ في موضعِ الوعدِ.

والوجهُ الثاني: [تأوّلُوهُ بوجهينِ أيضاً:

الأوّلُ][5]: قالوا: أخبرَ اللهُ تعالى عمّا يَؤولُ أمرُهُمْ في العاقبةِ لا أنْ كانَ في الابْتِداءِ كذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ومعلومٌ أنهمْ لم يلتقِطوا ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، ولكنْ إخبارٌ عَنْ ما آلَ أمرُهُ في العاقبةِ، أنْ صارَ لهُمْ عدوّاً وحزناً، وكذلك يقالُ للرجلِ: سَرَقْتَ لتُقْطَعَ [يدُكَ] [6] وقتَلْتَ [نفساً] [7] لِتُقْتَلَ، وهو لم يَسْرِقْ ليُقْطَعَ [يَدُهُ][8]، ولا قتلَ [نفساً] [9] ليُقتَلَ، ولكنْ إخبارٌ عنْ ما آلَ أمرُهُ وحالُهُ في العاقبةِ، فكذلكَ هذا. لكنَّ الأخبارَ عمّا يؤولُ الأمرُ يُخرَّجُ مُخرَجَ التنبيهِ عنِ السهوِ والغفلةِ في الابْتِداءِ، فاللهُ ﷻ يتعالى عنْ ذلكَ، فخرجَ ذلك مَخرَجَ التحقيقِ في الابْتِداءِ لا مَخرجَ الإخبارِ عمّا يَؤولُ الأمرُ في العاقبةِ، وباللهِ التوفيقُ.

والثاني[10]: مَنْ أرادَ أمراً يعلَمُ أنهُ لا يكونُ فهو لجهلٍ يريدُ ذلك أو لعبثٍ؛ فاللهُ سبحانهُ يتعالى عنِ الجهلِ بالعواقبِ أو العبثِ في الفعلِ. دلَّ أنهُ كانَ على [ما][11] أرادَ لا ما لم يُرِدْ. ولو كانَ اللهُ ﷻ لا يفعَلُ بخلْقِهِ إلّا ما هوَ أصلحُ لهُمْ في الدينِ وأخيرُ لم يكنْ لِنَهْيِ رسولِ اللهِ ﷺ عنِ الإعجابِ ما أعطى الكفَرةَ مِنَ الأموالِ والأولادِ بقولِهِ ﷻ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥٥ و٨٥] [معنىً][12] دلَّ أنهُ قدْ يُعطِي ما ليسَ هو بأصلَحَ[13] في الدينِ، ولا أخيرَ، واللهُ أعلمُ.

قال الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وقولِهِ ﷻ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ الآية [التوبة: ٥٥ و٨٥] وقولِهِ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ و٥٦] ونحوِ ذلكَ مِنَ الآياتِ، فيها وجهانِ على المعتزلةِ:

أحدُهما: قولُهُمْ في الأصلحِ: إنَّ اللهَ تعالى لو فعلَ بالخَلْقِ شيئاً غيرُهُ أصْلَحُ لَهُمْ في الدينِ في حالِ المحنةِ كانَ ذلكَ جَوراً[14].

ومعلومٌ أنَّ الفعلَ بهم لِيَزدادوا إثماً لا يبلغُ في الصلاحِ في الدينِ الفعلَ بهمْ ليَزْدادُوا به بِرّاً، ومعلومٌ أنهُ لو كانَ كذلكَ لم يكُن لِيَجوزَ أنْ يُحذِّرَ رسولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذلكَ. فيقولُ: لا يُعْجِبْكَ كذا، فكأنه قالَ: لا يَعْجِبْكَ الذي هو صلاحٌ في الدين، ثم يُؤكِّدُ ذلكَ بأنهُ [يُملِي][15] لَهُمْ ذلك لِيُعَذِّبَهُمْ بها، ثم شَهِدَ على مَنْ حَسِبَ ما حَسِبَتْهُ المعتزلةُ بأنَهُمْ لا يشعُرُونَ، فكانَ ذلكَ شهادةً منهُ تعالى، ﷻ على كلِّ مَنْ وافقَ رَأيُهُ رَأيَ أولئكَ الكفَرةِ بأنهُمْ لا يشْعُرُونَ.

ومعلومٌ أنَّ الجبابرةَ والفراعنةَ لو لم يجعلِ اللهُ تعالى لهم تلكَ الحواشيَ والمُلْكَ والقوةَ لم يكونُوا[16] لِيَجْتَرِئُوا على دَعْوَى / ٧٤ ـ ب/ الرُّبوبيَّةِ، ويَبلُغُوا في المآثمِ ما بَلَغُوا، فيكونُ فوتُ ذلكَ أصلَحَ لهُمْ في الدينِ. وقد قالَ اللهُ تعالى:

---

(١) في الأصل وم: جعل. (٢) من م، في الأصل: الكافر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الوعيد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من وجهي مآل الأمر في العاقبة. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل و م. (١٣) في الأصل: بما صلح، في م: بإصلاح. (١٤) من م، في الأصل: جوازاً. (١٥) ساقطة من الأصل و م. (١٦) في الأصل و م: يكن.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣]. ثم كان معلوماً أنه إذا كانَ بِما يَجعلُ ذلك للكفَرةِ يكفُرُونَ، فلو جعلَ للمؤمنينَ يُؤمِنونَ، ثم لم يجعلْ كذلكَ، واللهُ اعلمُ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ الآية [التوبة: ٥٥].

والثاني[1]: أن الإرادةَ إذ هي صفةٌ لكلِّ فاعلٍ مختارٍ في الحقيقةِ، قد [أخبرَ][2] لأيِّ وَجْهٍ أعطى، ثبتَ أنهُ أرادَ ذلكَ معَ ما كانَ المتعالَمُ مِنْ فعلِ كلِّ أحدٍ لا يخرجُ على ما أرادَهُ، ولا يبلُغُ بهِ ما لو فَعلَ أنهُ يكونُ مِنْ جَهْلٍ أو سَفَهٍ؛ فالأوَّلُ: يكونُ فِعْلُهُ على ظنٍّ أنْ يكونَ ذلكَ، فلا يكونُ. والثاني: إذا عَلِمَ ألّا يكونَ، فيكونُ لهُ بهِ عابثاً سَفِيهاً، جلَّ اللهُ، تعالى عنِ الوجهَينِ. ثبتَ أنَّ فِعْلَهُ لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ لا لغيرِهِ ليُلحَقَهُ بهِ وصفُ جَهْلٍ أو سَفَهٍ، وبهما سقوطُ الربوبيَّةِ.

وجهةُ المعتزلةِ [على الآيةِ إلى][3] وجهَينِ:

أحدُهما: على التقديمِ والتأخيرِ بمعنًى: ولا يحسَبَنَّ الذين كفَروا أنما نُملِي لهُمْ لِيَزدادُوا إثماً إنّما نُملي لهُمْ لِيَزدادوا خَيراً؛ وذلكَ فاسدٌ لِوَجهَينِ:

أحدُهما: لو كانَ جعلَ الخيرَ شراً والشرَّ خيراً بالتأويلِ، وصَرفَ الآيةَ عنْ سِياقِها ونظمِها، جازَ ذلكَ في كلِّ وَعْدٍ وَوَعيدٍ وأمرٍ ونَهيٍ وتحليلٍ وتحريمٍ، فيَصيرُ كلُّ أمورِ الدنيا مَقْلوباً.

والثاني[4]: أنهُ لو كانَ كذلكَ لكانَ يَجِبُ[5] أنْ يُعجَبَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ إذْ [كانَ][6] على ذلكَ مُعْجَباً، ولكانُوا في ما حَسِبُوا أنَّ ذلكَ خيرٌ[7] لَهُمْ، يشعُرُونَ، لا ألّا يَشعُروا معَ ما قيلَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياءِ، وفي بعضِ القراءاتِ [بالتاءِ][8]، ومتى كانَ يحسَبُ الكَفَرَةُ ذلكَ شرّاً حتى يُعاتَبوا على الحُسبانِ؟ واللهُ الموفقُ.

والثاني[9]: قالُوا: ذلكَ خيرٌ عمّا يؤولُ الأمرُ إليهِ كقولهِ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وَهُمْ لا لذلكَ التقطُوا، وكَمَنْ يقولُ للسارقِ: سَرَقْتَ لِتُقْطَعَ يَدُكَ؟ وكما يُقالُ: لِدُوا لِلْمَوتِ وابْنُوا للخَرابِ. والذي قالُوهُ إنما هو تنبيهٌ وإيقاظٌ لِقومٍ لا يَذْكُرُونَ عواقبَ الأمورِ، فَيَحْرِصُونَ عليها عن غفلةٍ بالعواقبِ.

فأمّا اللهُ ﷻ فَمُحالٌ أنْ يكونَ أمرُهُ على ذلكَ ليكونَ في ما يذكُرُهُ ذلك. الا ترى أنَّ أحداً لا يقولُ: وَلَدْتُ للموتِ، أو بَنَيْتُ للخرابِ؟ لأنهُ لا لذلكَ يَفعَلُ، وإنْ كانَ إليهِ يَؤولُ، وإنّما هو قولُ الواعظِ لهمْ بما ذكَرْتُ، كذلكَ بَطَلَ هذا، أو أمرُ قومِ فرعونَ لم يُقَلْ ليكونَ لهُمْ عندَ اللهِ أو بما أرادَ اللهُ، وكانَ كذلكَ، ولا قوةَ إلا باللهِ. وقد بيَّنّا ما في الحكمةِ حقيقةً مِنْ طريقِ الاعتِبارِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ، وأصلٌ في ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ بِمَنْ يُؤثِرُ عَداوتَهُ، ويُعانِدُ آياتِهِ؛ فإرادتُهُ ألّا تكونَ منهُ [في][10] ذلكَ حاجةٌ إليهِ في موالاتِهِ أو إيجابُ غَلَبَةٍ عليهِ في بعضِ ما يريدُ. جلَّ اللهُ عنْ هذا الوصفِ.

الآية ١٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: لا يَترُكُ اللهُ المؤمنينَ على [ما][11] أنتمْ عليهِ أيُّها المنافِقونَ، ولكنْ يَمتَحِنُكُمْ بالجهادِ وبأنواعِ المِحَنِ لِيَظْهَرَ المنافِقُ لَهُمْ مِنَ المؤمنِ وقيلَ: لِيَظْهَرَ الكافرُ لَهُمْ مِنَ المؤمنِ المصدِّقِ، وقيلَ فيه بوجهٍ آخرَ: وذلك أنَّ المنافقينَ كانوا يَطْعَنُونَ أصحابَ[12] رسولِ اللهِ ﷺ ويَستَهزِئُونَ بهمْ سرّاً، فقالَ اللهُ ﷻ: لا يَدَعُ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ مِنَ الطَّعْنِ فيهمْ والاستِهزاءِ بهمْ، ولكنْ يمتحنُكُمْ بأنواعِ المِحنِ لِتَفْتَضِحُوا، ولِيَظْهَرَ نفاقُكُمْ عندَهُمْ، ويَحتمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنَّ قولَهُ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي لا يَدَعُ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ مِنَ النِّفاقِ والكُفرِ في دارٍ واحدةٍ، ولكنْ يجعَلُ لكُمْ داراً أُخرَى يَميزُ بها الخبيثَ مِنَ الطِّيِّبِ، يجعَلُ الخبيثَ في النارِ والطَّيِّبَ في الجنةِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ الآية[الأنفال: ٣٧].

---

(١) من وجهي رد الشيخ على المعتزلة. (٢) من م. (٣) في الأصل وم: الآية إلا. (٤) الثاني: من وجهي فساد رأي المعتزلة في التقديم والتأخير. (٥) في الأصل وم: يجيب. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: خيراً. (٨) ساقطة من الأصل وم، وقد ذكرت القراءتان في حاشية تفسير الآية ص١٩٣. (٩) الثاني من وجهي جهة المعتزلة في الآية. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لأصحاب.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: إنهُمْ كانوا يقولونَ: لا نؤمِنُ حتى نُؤتى مِثْلَ ما أُوتيَ الأنبياءُ كقولِهِمْ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ومِثْلَ قولِهِ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ ﴿كَلَّا﴾ [المدثر: ٥٢ و٥٣] فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ إلا مَنِ اجتباهُ لِوَحيِهِ، وجعلَهُ موضِعاً لِرسالتِهِ، أي لا يَجعَلُكُم رُسُلاً، إنْ عِلْمُ الغيبِ إلّا[1] مِنْ آياتِ رسالتِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ: إنّ الشياطينَ كانُوا يصعدُونَ إلى السماءِ، فَيَسْتَرِقُونَ، فيأتُونَ بأخبارِها إلى الكهنةِ قبلَ أنْ يُبعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ ثم إنَّ الكَهَنَةَ يُخبِرونَ بها غيرَهُمْ مِنَ الكَفَرَةِ، فأنزلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ بعدَ ما بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ نبيًّا كما كُنْتُمْ تَطَّلِعونَ على أخبارِ السماءِ قبلَ بعثِهِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَصطفِي مَنْ يَشاءُ، فيجعلُهُ رسولاً، فيُوحِي إليهِ ذلكَ، أي ليسَ الوحيُ مِنَ السماءِ إلى غيرِ الأنبياءِ ﷺ ويَحتَمِلُ[2] قولُهُ تعالى: ﴿يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي لا يُطْلِعُ أحداً منكُمْ على الغَيبِ إلّا مَنِ اجْتَباهُ منكُمْ لِرِسالَتِهِ[3]. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَنسَخُ شرائعَهُ وأحكامَهُ برسولٍ آخَرَ نحوَ ما بينَ موسى إلى عيسى ﷺ إنْ كانَ في ما بينَهما نَبِيٌّ. لم يجعَلْ لهُ أحكاماً[4] سِوَى أحكامِ موسى ﷺ أبْقَى تلكَ الأحكامَ والشرائعَ، وكذلكَ ما بينَ عيسى إلى محمدٍ ﷺ فاجْتَبَى هؤلاءِ لإبقاءِ شرائِعِهِمْ وأحكامِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ ظاهرٌ ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ برُسُلِهِ كُلِّهِمْ ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ المعاصيَ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ويَحتَمِلُ ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ الشِّرْكَ ﴿فَلَكُمْ [أَجْرٌ عَظِيمٌ]﴾[5].

الآية ١٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ أوتُوا الكتابَ أنَّ ما يُؤتَونَ مِنَ المالِ، ويَنالُونَ مِنَ النَّيلِ بكتمانِ بَعْثِ محمدٍ ﷺ وصفَتِهِ وتحريفِهِما أنَّ ذلكَ خيرٌ لَهُمْ ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرةِ. ولو لم يكتُمُوا كانَ خيراً لَهُمْ في الدنيا وشرفاً، وفي الآخرةِ ثواباً وجزاءً. وقيلَ: نزلَتْ في [مَنْ مَنَعُوا][6] الزكاةَ كقولِهِ تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإنْ كانَ على التأويلِ الأوّلِ مِنْ كتمانِ بعثِهِ[7] وصفتِهِ فهو، واللهُ أعلمُ، يُطَوَّقُ ذلكَ في صفةِ يومِ القيامةِ لِيَعْرِفَهُ كلُّ أحدٍ كقولِهِ ﷻ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. وإن كانَ على التأويلِ الثاني قيلَ: إنَّ الزكاةَ التي منعَها تصيرُ حيَّةً[8] ذَكَراً شُجاعاً[9] أقرَعَ[10] ذا[11] زَبيبَتَينِ؛ يعني نابَيْنِ، فيُطَوَّقُ بها في عُنُقِهِ، فتنهَشُهُ بنابَيها[12] فيتَّقِيها بذراعَيهِ حتّى يقضيَ بينَ الناسِ، فلا تزالُ معَهُ حتى يُساقَ إلى النارِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في الآيةِ دلالةٌ أنَّ أهلَ السمواتِ والأرضِ يَموتُونَ ليسَ على ما يقولُهُ القرامطةُ: إنهم لا يَموتُونَ لأنهُ أخبرَ أنَّ لهُ ميراثَ السمواتِ والأرضِ. والوارثُ هو الذي يَخْلُفُ المُوَرِّثَ، دلَّ أنهُ ما ذكَرْنا، وإنْ كانُوا هُمْ وجميعُ ما في أيديهِمْ للهِ تعالى، ﷻ مُلْكٌ لهُ وعبيدُهُ. ألا ترى أنهُ رويَ في الخبرِ: «لا يَرِثُ الكافِرُ المسلِمَ ولا المسلِمُ الكافِرَ إلّا المَولَى من عبدِهِ»؟ [الترمذي ٢١٠٧] سُمّيَ ما يكونُ للمَولَى مِنْ عبدِهِ ميراثاً، وإنْ كانَ العبدُ وما في يدِهِ مُلكاً[13] للمَولَى. فعلى ذلكَ الأوّلُ سَمّى اللهُ ﷻ ذلكَ ميراثاً لَهُ، وإنْ كانُوا[14] عبيدَهُ وما في أيديهِمْ مُلْكاً[15] لهُ، واللهُ أعلمُ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكانَتْ لهُ لا بِحقِّ الميراثِ لوجهَينِ:

أحدُهما: /٧٥ ـ أ/ على الإخبارِ عَنْ ذهابِ أهلِها وبقائِهِ ﷻ دائماً، إذْ ذلكَ وصفُ المَواريثِ أنْ يكونَ لِمَنْ يكونُ لهُ البقاءُ بعدَ فناءِ مَنْ تقدَّمَ. واللهُ ﷻ هو الباقي بعدَ فَناءِ الكُلِّ معَ ما يجوزُ القولُ بما هو لهُ في الحقيقةِ مِنْ قبلِهِ بالميراثِ مِنْ

---

(١) في الأصل وم: إنه. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: برسالته. (٤) في الأصل وم: أحكام. (٥) من م، في الأصل: كذا. (٦) في الأصل وم: ما بقي. (٧) في الأصل وم: نعته. (٨) من م، في الأصل: بحية. (٩) الشجاع بالضم الحية الذكر. (١٠) الأقرع هو الذي تمرط جلد رأسه لكثرة سُمّه وطول عمره. (١١) في الأصل وم: ذو. (١٢) في الأصل وم: بنابين. (١٣) في الأصل وم: ملك. (١٤) في الأصل وم: كان. (١٥) في الأصل وم: ملك.

حيثُ مُلْكُ غيرِهِ الإنتِفاعُ بذلكَ. وعلى ذلكَ المَرْوِيُّ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «لا يَرِثُ الكافرُ المسلِمَ ولا المسلِمُ الكافرَ إلّا المَوْلَى مِنْ عبدِهِ» [الترمذي ٢١٠٧] وليسَ ذلكَ في الحقيقةِ ميراثاً[١]، إذْ كانَ لهُ في حالِ حياتِهِ، ولكنْ كانَتْ ولايَةُ الإنْتِفاعِ بهِ، فزالَ. وعلى مِثْلِ هذا وراثةُ المسلِمينَ في الجنةِ لا على انْتِقالٍ مِنْ غَيرِهِمْ إليهِمْ، ولكنْ على بقائِهِمْ فيها وحصولِ أمرِها لهُمْ أو على وراثةِ ما لو كانَ مَنْ لم يؤمِنْ آمَنَ وما ادَّعَوا أنها لهُمْ بقولِهِمْ ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] فصارَتْ ميراثاً لِغَيرِهِمْ ما ادَّعَوا أنها لهُمْ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ يَعْلَمَ كلٌّ بالموتِ حقيقتَها أنها لهُ، فأُضيفَتْ إليهِ بالميراثِ عنهُمْ كما قالَ تعالى ﷻ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] [وقالَ][٢] ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨ و..] والمَرْجِعُ[٣]، ونحوَ ذلكَ مِنْ غيرِ غَيبةٍ، ولكنْ ممّا يعلَمُ كلٌّ إذْ ذاكَ ذلكَ، وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وهو في الحقيقةِ في كلِّ يومٍ لهُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وفي الذكْرِ والأخبارِ أنها لهُ ميراثٌ تحريضٌ على الإنفاقِ والتَّزوُّدِ، إذْ هي في الحقيقةِ لغيرِ أهلِها، إنما لهُمْ ما ينفقُونَ، ويَتَزَوَّدُونَ دونَ ما يُمْسِكُونَ. وفيهِ منعُ الإمساكِ، وذلكَ كقولِهِ تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠] وقولُهُ[٤]: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وعيدٌ منهُ ﷻ إياهُمْ.

الآية ١٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قيلَ: لمّا نزلَتْ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية [البقرة: ٢٤٥] قالتِ اليهودُ: وربُّكُمْ يَستقرِضُ منكُمْ، ونحنُ أغنياءُ، وليسَ في الآيةِ بيانُ أنَّ ذلكَ القولَ إنما قالَهُ اليهودُ أو غيرُهُمْ مِنَ الكفرةِ، ولكنْ فيهِ أنهُمْ قالوا ذلكَ، فلا ندري مَنْ قالَ ذلكَ؟ ولا يجوزُ أنْ يُشارُ إلى أحدٍ بعينِهِ إلّا بِبَيانٍ.

ثم يَحتمِلُ هذا القولُ وجوهاً:

[أحدُها][٥]: أنْ يكونَ قالَ ذلكَ أوائلُهُمْ على ما قالَ في قتلِ الأنبياءِ ﷺ وهؤلاءِ لم يَقْتُلُوا، ولكنْ إنما قتلَهُمْ أوائلُهُمْ؛ أُضيفَ ذلكَ إليهِمْ رضاً منهمْ بِصَنيعِهِمْ. فعلى ذلك القولُ الذي قالُوا يَحْتَمِلُ ما ذكَرْنا.

والثاني[٦]: أنْ يكونَ هؤلاءِ قالُوا ذلكَ بحضرةِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وبِمَشْهَدِهِمْ، أو قالُوا ذلك في سِرٍّ؛ فإنْ قالَ ذلكَ أوائلُهُمْ فإنَّهُ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يكونَ اللهُ تعالى أعْلَمَ ذلكَ رسولَهُ تَصْبيراً لهُ وتَسكيناً لِيَصْبِرَ على الكفارِ حينَ قالُوا في اللهِ ما قالوا، فكيفَ فيهِ، واللهُ أعلمُ؟ ذلكَ لِيكونَ ذلك آيةً مِنْ آياتِ رسالتِهِ.

[والثاني][٧]: إنْ كانُوا قالُوا ذلكَ بحضرةِ أصحابِهِ ﷺ ففيهِ أيضاً وجهانِ:

أحدُهُما: ما ذكَرْنا مِنَ التَّسْكينِ والتَّصْبيرِ على أذاهُمْ.

والثاني: لِيَعْلَموا أنَّ جميعَ ما يقولُونَ محفوظٌ عليهِمْ، ليسَ بغائبٍ ولا غافلٍ عنهُ كقولِهِ ﷻ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢] لكنهُ يؤخِّرُ ذلكَ إلى وقتٍ، وإنْ كانُوا قالُوا ذلكَ سِرّاً ففيهِ أيضاً وجهانِ:

أحدُهُما: ما ذكَرْنا أنْ يكونَ آيةً مِنْ آياتِ النبوّةِ ليَعْلَموا أنه إنما عَلِمَ ذلك باللهِ، على علمٍ منهُمْ أنهُ لم يكُنْ في ما بينَهُمْ مَنْ يُنْهي الخَبرَ إليه.

والثاني: خرجَ على التَّعْزِيةِ والتَّصْبيرِ على أذاهُمْ.

ثم معنى قولِهِ تعالى ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] وقولِهِ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] يحتمِلُ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: ميراث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [آل عمران ٥٥]. (٤) في الأصل وم: الآية. (٥) في الأصل وم: يحتمل. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) في الأصل وم: و.

أحدهما: لئلا يَمُنّوا على الفقراءِ، إنما يتصدَّقُونَ عليهمْ، إذْ يَعْلَمُونَ أنهُ ليسَ بفقيرٍ، ولا يحتاجُ إلى غيرِهِمْ، فَيَسْتَقْرِضُ لفقرِهِ ولِحاجتِهِ، وكلُّ مَنْ أقرضَ آخَرَ لا لحاجةٍ لَهُ في ذلكَ القرضِ ولا فقرٍ، ولكنْ لِيكونَ مالُهُ عِنْدَهُ محفوظاً في الشاهدِ فإنه لا يَمُنُّ المُقرِضُ عليهِ، بل تكونُ المِنَّةُ لِلذي عندَهُ القرضُ على المُقرِضِ حيثُ يحفظُ مالَهُ في السَّفاتِجِ[1]. فعلى ذلكَ المالُ الذي يُقرِضونَ، ويتَصدَّقُونَ، على الفقراءِ، يكونُ محفوظاً عندَ اللهِ ليومِ حاجتِهِمْ إليهِ، فلا مِنَّةَ تكونُ على الفقيرِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: إنباءٌ عنْ جودِهِ وكرمِهِ لأنَّ العبدَ، وما في يدِهِ، لَهُ فلو أرادَ أنْ يأخذَ جميعَ ما في يدِهِ لكانَ لهُ ذلكَ، ثم يطلُبُ منهُ بَبَدلٍ يُضاعِفُ على ذلكَ.

والثالثُ[2]: أنّ المولَى في الشاهِدِ إذا طلبَ مِنْ عبدِهِ القرضَ يكونُ في ذلكَ شرفٌ للعبدِ وعِظَمٌ.. فعلى ذلكَ اللهُ ﷻ إذا طلبَ مِنْ عبدِهِ القرضَ على عِلْمٍ منهُ في أنهُ غنيٌّ بذاتِهِ لا يجبُ أنْ يَبْخلَ عليهِ، وفي ذلكَ شرفُهُ وعِظَمُهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: قالتِ اليهودُ، وذلكَ تنبيهٌ لِصنيعِهِمْ وشدةِ سَفَهِهِمْ حتى زَعَموا أنّ يدَ ﴿ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] لكنْ ليسَ في الآيةِ بيانُ القائلِينَ، ولا في النسبةِ [إلى][3] أحدٍ نفعٌ سوى خوفِ الكذبِ، لو لم يكنْ ذلكَ منهُ، لكنّهمْ قالُوهُ. والأغلَبُ على مِثلِهِ أن يكونُوا قالوهُ سِرّاً؛ يكونُ في إظهارِهِ آيةُ الرسالةِ، أو كانتِ الأوائلُ يقولُونَ، فيكونُ في ذلكَ، إذْ لا يَحتمِلُ أنْ يصيرَ لمِثْلِهِ يُقالُ بحضرةِ الصحابةِ ﷺ أجمعينَ إلّا أنْ يكونَ في وقتٍ أُمِرُوا بالكَفِّ. فيكونُ في ذلكَ بيانُ قدْرِ طاعتِهِمْ للهِ معَ عِظَمِ ما سَمِعُوا مِنَ القولِ؛ وجملتُهُ أنَّ في ذِكْرِ ذلكَ دعاءً إلى الصبرِ على أذاهُمْ وسُوءِ قولِهِمْ، إذْ هُمْ معَ تَقَلُّبِهِم[4] في نِعَمِ اللهِ تعالى وعلمِهِمْ بأنهُمْ لمْ ينالُوا خيراً إلّا باللهِ تعالى اجْتَرَؤوا[5] عليهِ بِمِثلِ هذا القولِ، وبَلَغَ عُتُوُّهُمْ هذا، واللهُ، جلَّ ثناؤُهُ، مَعَ قدرتِهِ وسُلطانِهِ يَحْلُمُ عنهُمْ ليومِ وَعَدَهُمْ فيهِ الجزاءَ. فمَنْ ليسَ منهُ إليهمْ نعمةٌ، ولا تقدَّمَ عليهِمْ كبيرُ مِنَّةٍ، أحقُّ بالصَّبْرِ لأذاهُمْ والإعراضِ[6] عنْ مكافأتِهِمْ. وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى [لرسولِهِ ﷺ][7] ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [الجاثية: ١٤]، [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ قيلَ سَنجزيهِمْ جزاءَ ما قالوا[9]، وقيلَ: سَنحفَظُ ما قالوا، وسَنُثْبِتُ، وسنُلْزِمُ[10] كقولِهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قد ذكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ أنهُ يَحتمِلُ أنْ قتلَ أوائلِهِمُ الأنبياءَ [قد أُضيفَ][11] إليهِمْ لِرِضاهُمْ بفِعْلِهِمْ كقولِهِ ﷻ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] لِرضاهُ بقتلِهِ. فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في قولِهِ: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والأنبياءُ، صلواتُ اللهِ تعالى عليهِمْ، وسَلامُهُ، لا يرتَكِبُونَ ما يجبُ بهِ قتلُهُمْ كقولِهِ تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٧] أطلقَ القولَ فيهِ مِنْ غيرِ ذكرِ اكْتِسابِ شيءٍ يستوجبُ بهِ ذلكَ، وشرطٌ في المؤمنينَ اكتسابُ ما يَسْتَوجِبُونَ كقولِهِ تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ الآية [الأحزاب: ٥٨]، فكيف ذَكَر ههنا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهُمْ لا يكتَسِبُون ما يَستوجِبونَ بِهِ القتلَ؟

قيلَ: يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بغيرِ حاجةٍ لأنهمْ كانوا يقتُلُونَ بلا منفعةٍ تكونُ لهمْ في قتلِهِمْ على ما قيلَ: إنهمْ كانُوا يَقْتُلُون كذا كذا نبيّاً حينَ[12] يَهيجُ لَهُمْ سُوافٌ[13]. فإذا كانَ كذلكَ يَحتَمِلُ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بغيرِ حاجةٍ كقولِ لوطٍ

(١) مفرده: السُّفْتَجَةُ، وهو أنْ يعطيَ مالاً لآخر وللآخر مال في بلده، فيوفيه إياه ثم فيستفيد أمن الطريق (اللسان). (٢) هذا الوجه هو الثالث من وجوه قوله تعالى ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾. (٣) من م. (٤) من م، في الأصل: تقبلهم. (٥) في الأصل وم: اجتراء. (٦) في الأصل وم: إعراض. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: قال الله تعالى لرسوله ﷺ. (٩) من م، في الأصل كانوا. (١٠) في الأصل وم: وسألزم. (١١) في الأصل وم: فأضيف. (١٢) في الأصل وم: ثم. (١٣) السُّواف: الموتة، بالضم: الغشي والجنون.

ﷺ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٨ و٧٩] أي مِنْ حاجةٍ، واللهُ أعلمُ. ويَحتمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ أي قَصدُوا قَصْدَ قَتْلِ رسولِ اللهِ ﷺ، فكأنْ قد قَتلُوهُ، أو قَتلُوا أصحابَهُ ﷺ فأضيفَ إليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي المُحرِقِ، وقد ذكَرْنا هذا.

الآية ١٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ذكَرَ الأيديَ لما بالأيدي يُقدَّمُ، وإنْ لم يكُنْ هذا مُقدَّماً باليدِ في الحقيقةِ، وكذلكَ قولُهُ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] لِما باليد يُكتَبُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ﴾ قيلَ: إنهم لمّا دُعُوا إلى الإسلام؛ يعني اليهودَ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ وكانَ ذلكَ آيةً في بني إسرائيل، فسألَ اليهودُ مِنْ نبيِّنا محمدٍ ﷺ ذلكَ؟ وقيلَ: كانَ/ ٧٥ ـ ب/ مِنْ قَبلِنا في الأممِ الخاليةِ ذلكَ، فسألوا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ؟ ولكن لم يكنِ القربانُ مِنْ آياتِ النبوّةِ والرسالةِ. إنْ كانَ فهو مِنْ آياتِ التَّقْوَى كقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. كانَ القُربانُ مِنْ آياتِ التَّقْوَى.

ألا تَرَى أنّه قالَ: يا محمدُ ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ يعني القربانَ[1] ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ أنه[2] مِنْ [آياتِ][3] النبوةِ، أو ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهُ عَهِدَ إليكمْ ألّا تؤمِنُوا به حتى يأتيَ بقُربانٍ؟ واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ ﷻ أيضاً: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [أنّ أوائلَهُمْ، واللهُ أعلمُ][4] ادَّعَوا الذي ذكَرُوا مِنَ العهدِ، وهُمْ تبعُوا أولئكَ، فعرَّفَهُمْ صنعَ مَنْ [يَدَّعُونَ أنّ][5] بهِمُ احتجُّوا لهُمْ فيهِ آيةٌ: إمّا يكذِّبُهُمْ بما احتجُّوا بوصيةِ المتقدِّمينَ في ذلكَ فَبطَلَ عذرُهُمْ، إذْ هُمْ قَتلُوهُمْ، فلا يجوزُ تصديقُهُمْ على العهدِ الذي ادَّعوا، وذلكَ صَنيعُهُمْ، وإمّا يُقِرُّونَ أنهُمْ أُخبرُوا بالعهدِ من غيرِ أنْ [يتبيّنُوا أنْ كانَ][6] كَذِباً وباطلاً، فَبَطَلَ حِجاجُهُمْ. على أنَّ في الآيةِ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] فجعلَ ذلكَ آيةَ التُّقَى لا آيةَ النبوّةِ.

والأصلُ فيهِ أنّا لمّا عَرَفْنا آياتِ الرسلِ ﷺ لا يُذْكَرُ فيها القرابينُ ثبتَ أنَّ هذا الذي ادَّعَوا ليس هو بعهدٍ جاءَ بهِ الرسلُ ﷺ ولكنهُ حِيَلُ السفهاءِ بتلقينِ الشياطينِ وَوَحْيِهِمْ، لذلكَ لم يجبِ الذي ذكَرُوا، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمدُ في القولِ وما جئتَ مِنْ آياتٍ تَدلُّ، وتُوضِحُ أنَّكَ رسولُ اللهِ، وأنَّكَ صادقٌ في قولِكَ ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يُعزِّي نبيَّهُ ﷺ ويُصَبِّرُهُ ليصْبِرَ على أذاهمْ وتكذيبِهِمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٣٥].

وفي قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وجوهٌ:

أحدُها: أنْ يُصَبِّرَهُ على ذلكَ بما لَهُ فيه أجرٌ كما[7] صَبَروا على عِظَمِ ذلكَ عليهِمْ؛ وذلكَ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثاني: على رفعِ العذرِ عنهُ في تركِ الإبلاغِ أنَّ ذلكَ لم يمنعْ مِنْ تقدُّمِهِ.

والثالثُ: على الإنباءِ أنهُمْ أصحابُ تقليدٍ في التكذيبِ لا أنْ يُكذِّبُوا مِنْ محنةٍ وظهورٍ؛ فذلكَ أقلُّ لِلتَّأَذِّي بهِ ولِتَوَهُّمِ الارتيابِ في الأنباءِ لِيَستَيقنَ مَنْ حضرَهُ، وصَدَّقَهُ، أنَّ ذلكَ منهُمْ على الاعْتِيادِ والتقليدِ دونَ المحنةِ. والظهورِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، وفي الأصل: القرآن. (٢) أدرج في الأصل قبلها: أن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول إلا بكذا أي إن كان ذلك من آيات النبوة لم تقتلم الأنبياء الذين أتوا به أو لم قتل أوائلكم الأنبياء إذ أتوا بالقربان ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فهو والله أعلم ادعوا أن أوائلهم. (٥) في الأصل وم: يدعو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أن.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قد ذكَرْناها في ما تَقَدَّمَ في غيرِ موضعٍ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ قيلَ: أحاديثُ الأنبياءِ ﷺ مِنْ قَبلِهِمْ بالنبوةِ على ما يكونُ، وقيل: والزُّبُرُ هي الكتبُ؛ أي جاؤوا بالبيِّناتِ والزُّبُرِ، يعني الكتبَ ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ قيلَ: الزُّبُرُ والكتابُ واحدٌ، وقيلَ ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ هو الذي فيه الحلالُ والحرامُ والأحكامُ المكتوبةُ عليهِمْ، والمنيرُ هو الذي أنارَ قَلْبَ كلِّ مَنْ تَمَسَّكَ بالهُدى كما قيلَ في الفرقانِ: إنهُ[1] يفصِلُ، ويُفَرِّقُ بينَ الحقِّ والباطلِ، واللهُ أعلمُ. وتُسَمّى كتبُ اللهِ كلُّها فرقاناً ومنيراً بما يُفَرِّقُ [فيها][2] بينَ الحقِّ والباطلِ، ويُبَيِّنُ السبيلَينِ جميعاً، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ فيه دلائلُ:

أحدُها: دليلُ إثباتِ الرسالةِ لأنه ليسَ في العقلِ ألّا تَبْقَى هذهِ الأنفس أبداً، [ولا][3] تدومَ، ولا فيها آثارُ فنائِها، ثم وجودُ العِلْمِ مِنْ كلِّ منهُمْ بالموتِ والتسليمِ لهُ والإقرارُ منهُمْ أنَّ كلَّ نفسٍ تموتُ، يدلُّ أنهُم إنما عرفُوا ذلكَ، وأيقَنُوا بهِ مِنْ خبرِ السماءِ بالوحيِ، واللهُ أعلمُ.

ثم إنَّ كلَّ حيٍّ[4] يتلَذَّذُ بحياتِهِ، وجبَ [الموتُ عليهِ][5] ويُنْكِرُهُ، ويُبْغِضُهُ[6]، دلَّ أنَّ هذا العالَمَ لم يكُنْ بالطباعِ ولكنْ كانَ بغيرِهِ لِما يَتَلَذَّذُ بهِ طبعُ كلِّ منهُمْ بالحياةِ، ويُنْكِرُهُ بالموتِ، ويَتَبَغَّضُهُ[7]؛ إذ لو كانَ بهِ[8] لكانَ يختارُ ما يتلذَّذُ به، ويدفعُ ما يُنْكِرُه، ودلَّ أنَّ غيراً فَعَلَ ذلكَ، وخلَقَ لِما ذكَرَ: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ الآية [الملك: ٢]. وفي ذلك بطلانُ قولِ أصحابِ الطَّبائعِ. وأيضاً إنَّ كلَّ نفسٍ يَجتَمِعُ فيها الطَّبائعُ المختلِفَةُ المتُضادَّةُ التي مِنْ طبعِها الناقورُ[9] لم يُجزْ أنْ تكونَ لنفسِهِ تَجتمِعُ، ودلَّ أنَّ لهُ جامعاً[10] وأيضاً أنَّ العالمَ لو كانَ بنفسهِ وطبعِهِ لَاختارَ كلٌّ لنفسِهِ أموالاً أحسنَ الأموالِ وألَذَّها، فَيُبْطِلُ بهِ الشرورَ والقبائحَ. فدلَّ وجودُ ذلكَ على كونِهِ بغيرِهِ.

ثم فيهِ أنَّ ذلكَ الغيرَ الذي كانَ بهِ العالمُ واحدٌ لا عددٌ؛ إذ لو كان بعَدَدٍ لم يَحْتَمِلْ وجودَ العَالَمِ على الطبائعِ المختلفةِ والهِمَمِ المتفرقةِ ما جَمَعَ هذا فَرَّقَ الآخرُ، وما أثبتَ هذا نَفَى[11] الآخرُ، وفي ذلكَ هنا فسادُ الرُّبُوبِيَّةِ. فدلَّ وجودُهُ على ما ذكَرْنا أنهُ واحدٌ لا عَدَدٌ، فاتَّسَقَ تدبيرُهُ، ونفَذَ أمرُهُ معَ ما كانَ الأمرُ المعتادُ بينَ الملوكِ في الشاهدِ أنَّ ما فعلَ هذا نَقَضَ الآخرُ، وما رامَ هذا إيجادَهُ يريدُ الآخرُ إعدامَهُ، وما أبقَى هذا أرادَ الآخرُ إفناءَهُ، وفي ذلك تَناقُضٌ وتَنافٍ. فدلَّ الوجودُ على أنَّ الذي بهِ كانَ واحداً[12] لا عدداً[13]. ثم يَحْتَمِلُ على الاصطِلاح منهُمْ لأنهُ يَدُلُّ على العجزِ والجهلِ؛ إنَّ العجزَ والجهلَ هو الذي حَمَلَهُمْ على الاصطِلاحِ، والعاجزُ والجاهلُ لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ إلٰها وربّاً، وباللهِ التوفيقُ.

ثم الدلالةُ على حكمتِهِ وعلمِهِ ما لم يُعايَنْ شيءٌ، ولا يُشاهَدْ، إلّا وفيهِ حكمةٌ عجيبةٌ ودلالةٌ بديعةٌ مِمّا يُعْجَزُ عنْ إدراكِ ماهيَتِهِ وكَيْفيَّةِ خروجِهِ على ما خرجَ. وعلمُ كلِّ أحدٍ يَقْصُرُ[14] على ما عندَهُ مِنَ الحكمةِ والعلمِ عن إدراكِ كُنْهِ ذلكَ في ما ذكَرْنا. وخُروجُ الفعلِ مُتْقَناً مُحكَماً دلالةُ حِكْمَةِ مُبْدِعِهِ وخالقِهِ وباللهِ التوفيقُ.

ثم الدلالةُ أنهُ لم يخلُقِ الخَلْقَ للفناءِ خاصةً، ولكنْ خَلَقَ لِلعَواقِبِ؛ يُؤَمَّلُ[15]، ويُرجَى، ويُخافُ، ويُحْذَرُ.

وخروجُ فعلِ كلِّ أحدٍ في الشاهدِ منَ الحكمةِ إذا بُنِيَ للفناءِ والنقضِ. فإذا كانتِ[16] الحكمةُ التي هي جزاءٌ، خَرَجَ[17] فعلُهُ عنِ الحكمةِ، إذا كانَ ذلك [للفناءِ والهلاكِ خاصةً، وخروجُ كلِّ [فعلٍ][18] عَنْ ذلكَ][19] أحرَى وأولَى أنْ يكونَ سَفَهاً لا حكمةً، واللهُ الموفقُ.

قالَ: دَلَّتْ طُمأنِينَةُ القلوبِ بموتِ كلِّ نفسٍ، وتركُ حكماءِ البشرِ الاحتيالَ في دفعِهِ على ما ليسَ في الجوهرِ دليلُهُ، ولا في العقلِ امتِناعُهُ، أنهُ عُرِفَ بِمَنْزِلَةِ التدبيرِ فيها بالوحيِ إليهِ، وفي ذلكَ إيجابُ القولِ بالرسولِ. ثم دلَّ قهرُ جميعِ الحكماءِ

---

(١) في الأصل و م: أن. (٢) ساقطة في الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: و. (٤) من م، في الأصل: وحي. (٥) في الأصل وم: ذلك إليه. (٦) في الأصل و م: ويقبضه. (٧) من م، في الأصل: ويبتغظه. (٨) من م، في الأصل: فيه. (٩) الناقور: القلب. (١٠) في الأصل و م: جامع. (١١) من م، في الأصل: لفي. (١٢) في الأصل و م: واحد. (١٣) في الأصل و م: عدد. (١٤) في الأصل و م: يتصور علمه. (١٥) في الأصل و م: يتأمل. (١٦) في الأصل و م: كان. (١٧) في الأصل: ويخرج، في م: يخرج. (١٨) ساقطة من م. (١٩) ساقطة من الأصل.

فيهِ على حبِّ الحياةِ إليهِمْ وبُغضِ الموتِ عندَهُمْ على خروجِ جميعِ الأحياءِ عَنْ تدبيرِهِمْ، و في خُروجِهِمْ خُروجُ الأمواتِ إذ هِمْ تحتَ تدبيرِ الإحياءِ.

ثم طمأنينةُ كلِّ قلبٍ على الموتِ دلالةُ التدبيرِ للواحدِ، إذ لو كانَ لأكْثَرَ لَتجَوَّزَ التَّمانُعُ وإبطالُ الواردِ مِنَ الحَيِّ؛ وفي ذلكَ ارْتِيابٌ مع ما كانتْ كلُّ نفسٍ تحتَ أمورٍ تَقْهَرُها، وتُحْوِجُها[1] إلى أمورٍ، تعلَمُ أنَّ مُدَبِّرَها هَيَّأَها على ذلكَ، وطَبَعَها، وأنهُ العليمُ بما بهِ صَلاحُها وقِوامُها، وإليهِ حاجتُها. وعلى ذلكَ جَبَلَها لِيَظْهَرَ عِظَمُ حكمتِهِ وتعاليهِ عَنِ الشِّرْكِ في التدبيرِ أو المعونةِ في التقديرِ.

ثم لا يَحْتَمِلُ نشوءُ مِثْلِهِ على ما جَرَى عليهِ مِنْ حكمتِهِ في موتِ كلٍّ أنهُ كانَ للموتِ أنشأ لا لغيرِهِ[2]، إذْ تدبيرُ فعلِ واحدٍ للفناءِ خاصةً مِنْ حكماءِ البشرِ يَخْرُجُ عَنْ معنى الحكمةِ، يدلُّ على قصورِ صاحبِ ذلكَ وسَفَهِهِ. فَجُملةُ العالَمِ الذي كانتْ حكمةُ الحكماءِ جُزْءاً[3] منها وعقلُ العقلاءِ بعضاً[4] منها أحقُّ وأولى. فثبتَ أنها أُنْشِئَتْ ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ و٦] يومَ تُجزَى كلُّ نفسٍ بما عَمِلَتْ[5]، وذلكَ قولُهُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ الآيةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لِمَا /٧٦ ـ أ/ ذكرْنا أنهمْ لَهَا خُلِقُوا؛ أعني: الآخرةُ للجزاءِ والثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ قِيلَ: أُبْعِدَ[6]، ونَجا، عنها ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ قيلَ: فازَ نَجا، وقِيلَ: سَعِدَ، وقِيلَ: الفائزُ السابقُ، وقيلَ: فازَ غَنِمَ. وأصلُ الفوزِ النجاةُ أي نَجا مِمّا يَخافُ، ويحذَرُ، ويظفَرُ بما يأمُلُ[7]، ويَرْجُو.

وقولُهُ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ حياةُ الدنيا غُرورٌ كقولِهِ ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠] حَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وغُرورٌ، والآخرةُ ليستْ بِلَعِبٍ ولا لَهْوٍ ولا غُرورٍ. وأصلُ الغُرورِ هو أنْ يَتراءَى الشيءُ في ظاهرِهِ حَسَناً مُمَوَّهاً، يَغْتَرُّ بها كلُّ ناظرٍ إليها ظاهراً، فإذا نظرَ في باطِنِها وَجَدَها قاتِلَةً مُهْلِكَةً، نَعُوذُ باللهِ مِنَ الاغْتِرارِ بها. وقيلَ: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ على ما عندَ أُولئِكَ الكَفَرةِ لَعِبٌ ولَهْوٌ وعندَ المؤمنينَ حكمةٌ.

الآية ١٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ يَحتمِلُ الابْتِلاءُ في الأموالِ والأنفسِ أنْ يَبْلُوَ في النقصانِ فيها كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٥٥] ويَحْتَمِلُ أنْ يَبْلُوَ بما جَعَلَ فيها مِنَ العباداتِ مِنْ نَحوِ الزكاةِ في الأموالِ والصدقاتِ والحقوقِ التي جعلَ فيها وفي الأنفسِ مِنَ العباداتِ مِنْ [نحوِ][8] الصلاةِ والجهادِ والحجِّ وغيرِها مِنَ العباداتِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني الذينَ لهُمْ علمٌ بالكتابِ، ومِنْ غيرِهِمْ ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ اي تَسْمَعُونَ أنتمْ مِنْ هؤلاءِ ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ على ما سَمِعَ إخوانُكَ الذينَ كانوا مِنْ قبلِكَ مِنْ أقوامِهِمْ ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على أذاهمْ ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ مكافأتَهمْ كما[9] صَبَرَ أُولئكَ، واتَّقَوا مكافأتَهمْ ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قيلَ: مِنْ خيرِ الأمورِ؛ هذا يُحتَمَلُ.

وقيلَ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مِنْ قولِهِمْ: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ و﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ يعني العربَ ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ نَصْبَ الحروبِ في ما بينَهُمْ والقتالِ والسيفِ وغيرَ ذلكَ ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على ذلكَ والطاعةِ ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ معاصيَ الرَّبِّ ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يعني مِنْ حَزمِ الأُمورِ.

---

(١) في الأصل: يجورحها. (٢) في الأصل و م: لغير. (٣) في الأصل و م: جزء. (٤) في الأصل و م: بعض. (٥) في الأصل و م: عمل. (٦) في الأصل و م: بعد. (٧) في الأصل وم: بتأمل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل و م: على.

الآية ١٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الذينَ[١] أُوتُوا العلمَ بالكتابِ؛ وإذْ أخذَ المِيثاقَ لِيُبَيِّنُوا أي يُبَيِّنُوا للناسِ ما في الكتاب مِنَ الأمرِ والنَّهيِ وما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأحكامِ، ولا يَكْتُمُوا ذلكَ. ويَحْتَمِلُ أنْ أخذَ عليهِمُ الميثاقَ أن يَبَيِّنُوا للناس بعثَ[٢] محمدٍ ﷺ وصفتَهُ، ولا تكْتُمُوهُ بالتحريفِ وتركِ البيانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لم يَعْلَمُوا بما فيهِ، ولا بَيَّنُوا للناسِ، فهو كالمَنْبُوذِ وراءَ ظهورِهِمْ ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآيةَ قد ذكَرْنا معنَاهُ في غيرِ موضعٍ. وعن عليٍّ ﷺ [أنهُ][٣] قالَ: (ما أخذَ اللهُ مِيثاقاً على أهلِ الجهلِ بطلبِ العلمِ حتى أخذَ ميثاقاً مِنْ أهلِ العلم لأنَّ العلمَ كانَ قبلَ الجهلِ)

الآية ١٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ قيلَ: بما غَيَّرُوا مِنْ بَعْثِ[٤] محمدٍ [عليه افضلُ الصَّلواتِ][٥] وصفتِهِ في كتابِهِمْ، وكتمُوهُ، وتبديلِهِمُ الكتابَ وإعجابِ[٦] الناسِ ذلكَ وحَمْدِهِمْ على ذلكَ، وقيلَ: إنَّ اليهودَ دخلُوا على رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: نحن نَعْرِفُكَ، ونُصَدِّقُكَ، وليسَ ذلكَ في قلوبِهِمْ، فلمّا خرجُوا مِنْ عندِ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ لَهُمُ المسلمُونَ: ما صَنَعْتُمْ، فيقولُونَ: عَرَفْناهُ، وصَدَّقْناهُ، فيقولُ المسلمونَ: أحْسَنْتُمْ، باركَ اللهُ فيكُمْ؛ يَحْمَدُهُمُ المسلمُونَ على ما أظْهَرُوا مِنَ الإيمانِ، وهُمْ يُحبُّونَ أنْ يُحْمَدوا بما لم يَفْعَلوا. وقيلَ: إنهُمْ قالوا: نحنُ أهلُ الكتابِ الأوّلِ والعلمِ، وأهلُ الصلاةِ والزكاةِ، ولم يكونوا كذلكَ، وأحَبُّوا أنْ يُحمَدُوا على ذلكَ، واللهُ أعلمُ بالقصةِ.

وفي قولِهِ أيضاً ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الآيةَ دلَّ ما ذَمَّ اللهُ عبادَهُ، وأوعَدَهُمْ عليهِ أليمَ عقابِهِ في ما أحَبُّوا الحَمْدَ على ما لم يَفْعَلُوا. تعالى الرَّبُّ عن قولِ المعتزلةِ في قولهِمْ: ليسَ للهِ في الإيمان تدبيرٌ سِوى الأمرِ، ولا صُنْعَ، وقد أحبَّ أنْ يُحْمَدَ عليهِ بقولِهِ ﷻ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦] وبقولِهِ ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [البقرة: ٦٤ و٠٠] في غيرِ موضعٍ مِنَ القرآنِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ امتدَحَ، جلَّ ثناؤُهُ، بإدخالِ كُلِّيَّةِ الأشياءِ تحتَ قدرتِهِ، وبِهِ خوَّفَ مَنْ عانَدَ نعمتَهُ، وأطْمَعَ مَنْ خضَعَ لهُ عَظِيمَ ثَوابِهِ. فلئِنْ جازَ إخراجُ شيءٍ تحتَ القدرةِ عَنْ قدرتِهِ اضمَحَلَّ الخوفُ عمّا خَوَّفَهُ، وأرجاهُ في ما أطْمَعَهُ[٧] إنْ لم يُظهِرْ على ذلك قدرتَهُ إلّا بقولِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢ و٠٠] وما لا صُنْعَ لأحدٍ في شيءٍ إلّا بإقدارِهِ؛ ومَحالٌ أنْ يُقدَرَ على ما لا يَقْدِرُ هو عليهِ، أو تزولَ بهِ قدرتُهُ لِما فيهِ ما ذكَرْتُ، فلذلكَ قُلْنا في بُطلانِ قولِ المعتزلةِ بإخراجِ أفعالِ صُنْعِ الخَلْقِ عنْ قدرةِ اللهِ وامتناعِهِ عنْ تدبيرِهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قولِهِ ﷻ ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ نقولُ، وباللهِ نَستعينُ، أخبرَ اللهُ ﷻ أنَّ في ما ذَكَرَ آياتٍ لِمَنْ ذَكَرَ. ومعلومٌ أنَّ الآياتِ إنما احتيجَ إليها لمعرفةِ أمورٍ غابَتْ عنِ الحواسِّ، يُوصَلُ إليها بالتأمُّلِ والبحثِ عنِ الوجوهِ التي لها جُعِلَتْ تلكَ الأشياءُ المحسوسةُ التي يُغْني مَنْ لهُ اللُّبُّ دخولُها تحتَ الحواسِّ عنْ تكلُّفِ العلمِ بها بالتدبيرِ. بل علمُ الحواسِّ هو علمُ الضروراتِ، وأوائلُ علومِ البشرِ الذي منهُ ترتقي إلى درجاتِ العلومِ، تَلْزَمُ[٨] طلبَ ذلكَ، فَبَطلَ بهِ قولُ مَنْ قالَ: العلومُ كُلُّها ضروراتٌ، لا تَقَعُ بالأسبابِ، ولا تُلْزِمُ الخطابَ دونَ تَوَلّي الرَّبِّ إنشاءَ العلمِ في القلوبِ تحقيقَ[٩] ما في الخطابِ إذ ذلكَ يرفَعُ حقَّ الطَّلَبِ، ويَستوفي فيهِ الموصوفُ باللُّبِّ وغيرُ الموصوفِ والمتفكِّرُ [في الأمرِ وغيرُ المُتفكِّرِ][١٠]، وقد قالَ اللهُ تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ؛ في ذلكَ دليلٌ أنَّ المقصودَ بما أظْهَرَ، ويُعْلَمُ ما جَعَلَ في الذي دليلُهُ عُلِمَ[١١]. وهذا لكلِّ أنواعِ العلومِ؛ إنَّ منها [ظاهراً مُسْتَغْنِياً][١٢] بظهورِهِ عنِ الطلبِ وخفِيّاً[١٣] يُطلَبُ بمالَهُ في الذي ظَهَرَ مِنْ أثرٍ يُنْبِئُ عنهُ التأمُّلُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل و م: الذي. (٢) في الأصل و م: من نعت. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م: نعت. (٥) في م: ﷺ. (٦) من م، في الأصل: وأعجب. (٧) من م، في الأصل: أطمعه. (٨) في الأصل وم: فتلزم. (٩) في الأصل وم: تحقيقه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وعلم. (١٢) في الأصل وم: ظاهر مستغن. (١٣) في الأصل وم: وخفي.

وفي ذلكَ دليلُ لزوم التوحيدِ باللُّبِّ إذْ صَيَّرَها آياتٍ لِمَنْ لهُ ذلكَ، وأوّلُ درجاتِ العلومِ (١) أن يُعرفَ مُنْشِئُها وجاعِلُها آياتٍ، واللهُ أعلمُ. ثم دلَّ اتِّصالُ منافعِ السماءِ والأرضِ، على تَباعُدِ ما بَينهما، حتى قامَ بها، وحَيِيَ جميعُ مَنْ دبَّ على وجهِ الأرضِ، وانتفَعَ بشيءٍ، ثم في إيصالِ الليلِ بالنهارِ في منافعِ كلِّ حيٍّ، على تضادِّ ما بينهما، حتى صارا كالشكلَين، والسماءُ والأرضُ كالقرينَين، على أنَّ مُنْشِئَ ذلكَ كلِّهُ واحدٌ، وأنهُ لوِ اختلَفَ المُنْشِئُ(٢) لتَناقضَ التدبيرُ وبطَلَ وجودُ(٣) النفعِ، وأنَّ الذي أنشأَ ذلكَ عَلِمَ كيفَ يدبِّرُ لإيصالِ المنافعِ واجْتِماعِها بغيرِها على اخْتِلافِ ما بينهما، وأنهُ حكيمٌ؛ وَضَعَ كلَّ شيءٍ، على ما لو تدبَّرَ الحكماءُ فيه، لم يكنْ يُعْرَفُ اتِّصالُ(٤) أقربُ في المنافِعِ على اخْتِلافٍ في الجَواهِرِ وتَضادٍّ في الأحوالِ وأبلغُ(٥) مِنْ ذلكَ، بل تَقْصُرُ حكمَتُهُمْ عنِ الإحاطةِ بوجهِ الحكمةِ أو الظَّفَرِ بِطَرَفٍ منها إلّا بمَعُونَةِ مَنْ دبَّرَ ذلكَ، سُبْحانَهُ!

وذلكَ هو الدليلُ على قدرتِهِ، وهو سلطانُهُ، إذْ سَخَّرَ ذلكَ [كلَّهُ لبذلِ](٦) ما فيها مِنَ المنافِعِ لِمَنْ جَعَلَها لهُ، وجَعَلَ لبعضٍ على بعضٍ سلطاناً وقهراً لِيُعْلَمَ أنَّ التدبيرَ يرجِعُ إلى غيرِ ذلكَ، ويُعْلَمَ أنَّ مَنْ قدَرَ على ذلكَ، عَلِمَ قبلَ [خَلْقِ](٧) المُنْتَفِعِينَ بمَا خَلَقَ على أيِّ تدبيرٍ يخلُقُ ذلكَ؟ وبأيِّ وجهٍ يَصِلُ كلُّ خَلْقٍ في ذلكَ إلى منافِعِهِ بها؟ وما الذي سَوَّى معاشَهُمْ؟ وعلى أيِّ تدبيرٍ دَلَّهُمْ عليه؟ [وإنهُ](٨) لَقادِرٌ على إعادةِ مِثْلِهِ والزيادةِ منهُ على أنواعِ ذلكَ؟ إذْ كلُّ أمرٍ له حقُّ الابتِداءِ، وكانَ ذلكَ أبعدَ عنِ التدبيرِ ممّا /٧٦ ـ ب/ لهُ حقُّ الاحتِذاءِ بغيرِهِ أوِ الإعادةِ معَ ما كانَ في إعادةِ الليلِ والنهارِ، وجعلَ كلَّ مِنْ ذلكَ كالذي مَضى، وإنْ كانَ الذي مَضى مرَّةً دلالةً كافيةً للبعثِ والقدرةِ عليهِ، واللهُ الموفقُ.

ومنها(٩) أنها جُعِلَتْ على تدبيرٍ يُعرَفُ صاحبُها ومنشِئُها، وأنه دبَّرَها على ما فيها مِنْ وجوهِ الحكمةِ التي صارَتِ الحكمةُ جُزْءاً منها وفنونِ العِلْمِ التي تُتَناوَلُ بالتأمُّلِ فيها ممّا يُوَضِّحُ أنَّ الذي أبرَمَها حكيمٌ عليمٌ معَ ما فيها مِنْ آثارِ الإحكامِ والإتقانِ الكافيةِ في الإنباءِ عنِ الإنشاءِ لِلْحِكْمَةِ، وأنَّ الذي أبدعَ ذلكَ ليسَ بعابثٍ ولا سفيهٍ. ثم معلومٌ أنَّ الفعلَ للهلاكِ والفناءِ غيرُ داخلٍ في الحكمةِ، ثبتَ أنَّ ذلكَ غيرُ المقصودِ، فصارَ المَقصودُ مِنْ ذلكَ وجهاً يَبْقى، فثبتَ أنَّ بعدَ(١٠) هذهِ [الدارِ داراً](١١) أُخرى تَبْقى، [وهي المقصودةُ](١٢)، جُعِلَتْ بحقِّ الجزاءِ.وفي ذلكَ لزومُ المحْنَةِ والقولِ بالرسالةِ لِيُعْلَمَ بالوَحْيِ كَيفيَّةُ وجودِ(١٣) المِحنَةِ معَ ما لم يَخْلُ شيءٌ مِنْ أنْ يكونَ فيهِ آثارُ النِّعْمَةِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ ما يَسْتَحِقُّ ذلكَ، فثبتَ أنهُ في حقِّ الابتِداءِ ولازمٌ شكرُ المُنْعِمِ في العقولِ، فيجبُ بهِ وجهانِ:

أحدُهما: القولُ بالرسلِ لِبيانِ وُجوهِ الشكرِ، إذ النِّعَمُ مُخْتَلِفَةٌ.

وأصلُ الشكرِ يَتفاضلُ على قَدْرِ المُنْعِمينَ، وكذلكَ النِّعَمُ تَتَفاضَلُ على قَدْرِ تَفاضُلِ مُتَوَلِّيها؛ لابُدَّ مِنْ بيانِ ذلكَ مِمَّنْ يعرفُ حقيقةَ مقاديرِ النِّعمِ وجلالةَ حقِّ المُنْعِمِ، وباللهِ التوفيقُ، فكانَ فيها آياتُ الرسالةِ والتوحيدِ وحكمتِهِ وعلمِهِ وجلالِهِ عنِ الأشباهِ والشركاءِ، وبها جلَّ عنِ احتِمالِ الشِّرْكِ في صُنْعِهِ أو الشِّبْهِ.

على أنَّ كُلِّيَّةَ كلِّ مَنْ سِواهُ تحتَ القدرةِ، وهو المُتعالي عَنْ ذلكَ. وفيهِ دلالةُ البعثِ لِما ذُكِرَتْ عقوبةُ الكفرانِ، وقد يَخرُجُ المعروفُ بهِ سليماً غريقاً في النِّعَمِ. وفي الحكمةِ والعقلِ عقوبتُهُ، لَزِم أنْ يكونَ ثَمَّ دارٌ أُخرَى مَعَ ما كان خُلِقَ الخَلْقُ لا لِمَنْ يعرفُ الحكمةَ مِنَ السَّفَهِ، والولايَةَ مِنَ العداوةِ، والخيرَ مِنَ الشَّرِّ، والرَّغْبَةَ [مِنَ الرَّهْبَةِ؛ إذْ](١٤) لا معنى لهُ بما فيه تضييعُ الحكمةِ وجَمْعٌ بينَ الذي حقُّهُ التفريقُ والفعلُ، وذلك آيَةُ السَّفَهِ، ومحالٌ كونُهُ مِنَ الحكمةِ صفتُهُ والعدلِ نعتُهُ، فَلَزِمَ بِهِ خَلْقُ المُمْتَحَنِ بالذي ذَكَرْتُ، فصارَ جميعُ الخلائِقِ لِلْمِحَنِ.

ثم لابدَّ مِنْ ترغيبٍ وترهيبٍ؛ إذْ على مِثْلِهِ جُبِلَ، يَحتَمِلُ(١٥) المِحَنَ، فَلَزِمَ بِهِ القولُ بالدارِ الأُخرَى، وهو البعثُ،

---

(١) في الأصل: الأيات. (٢) في الأصل وم: الإنشاء. (٣) في الأصل وم: وجوه. (٤) في الأصل وم: اتصالاً. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كلها البذل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) المقصود: ومن قدرته. (١٠) في الأصل وم: مع. (١١) في الأصل وم: دار. (١٢) في الأصل وم: فهي المقصود. (١٣) في الأصل وم: وجوه. (١٤) في م: من الرهبة، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: يحتملوا.

لِتكونَ إحداهما بحقِّ ابْتِداءِ النِّعَم[1]، والأُخرى بحقِّ استِحقاقِ الجزاءِ، وإنْ كانَ للهِ التكليفُ [بالجزاءِ لِسابقِ][2] النِّعَمِ: ولا قوةَ إلّا باللهِ. والمعاقبةُ واجبةٌ في الحكمةِ للجفاءِ والكفرانِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ وقيل ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ أي بنجاةٍ مِنَ العذابِ، وهو ما ذكَرْناهُ مِنَ الفوزِ أنهُ نجاةٌ على ما يُخافُ، ويُحذَرُ، أي ليسُوا همْ بِمَنْجاةٍ مِنَ العذابِ، بل لهمْ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ١٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يُشْبِهُ، واللهُ أعْلَمُ، أنْ يكونَ هذا جواباً لقولِهِمْ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] أي كيف جازَتْ[3] نسبةُ الفقرِ إليهِ والحاجةِ، ولَهُ مُلْكُ ما في السمواتِ والأرضِ، ونسبةُ الغِنى إلى أنفسِكمْ، وأنتمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، وما في يدِ العبدِ يكونُ لِمولاهُ؟ أو أنْ يكونَ جواباً لقولِهِمْ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] أي كيف يجوزُ أنْ يتَّخِذَ ولداً، ولَهُ مُلْكُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، كُلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ؟ والولدُ في الشاهدِ إنما يُتَّخذُ لأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا لِوَحْشَةٍ أصابَتْهُ، فَيَسْتأنِسُ بهِ، وإمّا[4] لحاجةٍ تَبْدو له، فيَدْفَعُ بهِ، وإمّا[5] لِقهرٍ وغَلَبَةٍ؛ يَخافُ مِنْ عَدُوٍّ، فَيَسْتَنْصِرُ بهِ على أعدائِهِ، ويَرِثُ مُلْكَهُ إذا ماتَ.

فإذا كانَ اللهُ لهُ مُلكُ ما في السموات وما في الأرض يتعالى عنْ أنْ يُصيبَهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ كيف جازَ لكُمْ أنْ تَقولُوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١٦٦] وكانَ[6] الخلْقُ، كُلُّهُمْ عبيدُهُ وإماؤُهُ، وأنتمْ لا تَتَّخِذُونَ الأولادَ مِنْ عَبيدِكمْ وإمائِكُمْ؟ كيفَ زعمتُمْ أنهُ اتَّخَذَ ولداً مِنْ عبيدِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا على المعتزلةِ لأنهمْ يقولُونَ: لا يقدِرُ على خلْقِ فعلِ العبدِ، وعلى قولِهِمْ: غيرُ قادرٍ على أكثرِ الأشياءِ، وهو قد أخبرَ أنهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الآية ١٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في الآيةِ وجوهٌ:

أحدُها: أنهُ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ لِلْبَشَرِ ولِمنافِعِهِمْ، لا أنهُ خَلَقَهُا لأنفسِهما، لا مَنْفَعَةَ لَهُما بِخَلْقِهِ إياهما حتى يكونَ خَلْقُهُ لأنفسِهما أنَّ خَلْقَ الشيءِ لا لِمنْفَعَةِ أحدٍ أو للفناءِ خاصةً عَبَثٌ. فإذا كانَ ما ذكَرْنا أنهُ لا مَنْفَعَةَ لهما في خلْقِهِما، دلَّ أنهُ إنما خلَقَهما لِمنافِعِ البشرِ، وسخَّرَهما لَهُمْ. ثم جَعَلَ منافِعَ السماءِ معَ بُعْدِها مِنَ الأرضِ مُتَّصِلةً بِمنافِعِ الأرضِ، حتى لا تَقُومُ منافِعُ هذا إلّا بمنافِعِ الآخَرِ، فَيُصَيِّرُهُما كالمُتَّصلينِ لاتِّصالِ المنافعِ معَ بُعْدِ ما بَيْنَهما. فدلَّ هذا أنَّ الذي أنشأهُما واحدٌ.

وكذلكَ اخْتِلافُ الليلِ والنهارِ؛ هما مُخْتلِفانِ؛ أحدُهُما ظلامٌ، والآخَرُ نورٌ، يُفْنِيانِ الأعمارَ، ويُقرِّبانِ الآجالَ في رأيِ العينِ لا تَشابُهَ، ولا تَشاكُلَ، وإنَّ أحدَهُما نورٌ، والآخرَ ظلامٌ، وهما مُتضادّانِ، لكنْ خَلَقَهُما لِمنافِعِ البشرِ، والمقصودُ بخلْقِهما[7] بَنُو آدمَ لا نَفْساهما[8] على ما ذكَرْنا أنْ لا مَنْفَعَه [لَهما في خَلْقِهما][9]، ثم صَيَّرَهما معَ اخْتِلافِهما وتَضادِّهِما كالشَّكْلَينِ لاتِّصالِ مَنافِعِ بعضِهما ببعضٍ. دلّ أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ، وأنهُ حكيمٌ عليمٌ حينَ جَمَعَ مِنَ المتضادَّينِ المختلِفَينِ كالشَّكْلينِ، وهما لِعِلْمٍ وحكمةٍ وتدبيرٍ صارا كذلكَ.

وفيهما دلالةُ البعثِ لأنهما يَفْنَيانِ حتى لا يَبْقَى مِنَ الليلِ أثرٌ حتى يجيءَ النهارُ، فيذهبُ النهارُ حتى أيضاً لا يَبْقَى مِنَ النهارِ أثرٌ، فَيَجيءُ آخَرُ، لا يزالانِ كذلكَ، فإذا كانَ كذلكَ قادراً على خَلْقِ الليلِ وإنشائهِ مِنْ غيرِ أثرٍ بقيَ مِنَ النهارِ، فكذلكَ [هو][10] قادرٌ على إنشاءِ النهارِ مِنْ غيرِ أنْ يَبْقَى مِنَ الليلِ أثرُ ظلامٍ، [فإنهُ][11] لَقادرٌ على أنْ يُنْشِئَ الخَلْقَ ثانياً، ويُحْيِيَهُمْ، وإنْ فَنُوا، وهَلَكُوا، ولم يَبْقَ منُهمْ أثرٌ فإذا كانَ خَلْقُ[12] السمواتِ والأرضِ وما فيهما لِمنافِعِ البشرِ، وهو المقصودُ في خَلْقِهما لا غيرُهُ مِنَ الخلائقِ لِما ركَّبَ فيهمْ مِنَ العقولِ [والبَصَرِ اللّذَينِ][13] بهما يُمَيِّزُونَ بينَ المنافعِ والمَضارِّ

---

(١) في الأصل وم: والنعم. (٢) في الأصل وم: بلا جزاء السابق. (٣) في الأصل: جاز، ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: وإن كان. (٧) في الأصل وم: بخلقهم. (٨) في الأصل وم: أنفسهم. (٩) في الأصل وم: لهم في خلقهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (١٣) في الأصل وم: والصبر الذي.

وبَينَ الخبيثِ والطَّيِّبِ وبينَ الحَسَنِ والقبيحِ، ولَمْ يُرَكِّبْ ذلكَ في غيرِهِمْ منَ الخلائقِ لابُدَّ مِنْ أمرٍ ونَهيٍ، يأمُرُ بأشياءَ، ويَنهَى عنْ أشياءَ، يمْتَحِنُهُمْ على ذلكَ ؛ إذْ هُمْ أهلُ التمييزِ[1] والفهمِ والبَصَرِ. فإذا كانَ ما ذكَرْنا لابُدَّ أيضاً مِنْ دارٍ أُخرَى لِلْجَزاءِ، يُكْرِمُ المُطيعُ لهُ فيها والوليَّ، ويُعاقِبُ العَدُوُّ فيها والعاصي، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ يَحتمِلُ هذا لِما جَعَلَ اللهُ تعالى على العبدِ في كلِّ حالٍ نعمةً، ليستْ تلكَ في غيرِها مِنَ الأحوالِ نحوَ أنْ جعلَ القيامَ نعمةً في قضاءِ حوائجِهِ وتَقَلُّبِهِ في تلكَ الحالِ، وجَعَلَ القُعودَ راحةً لَهُ عندَ الإعياءِ، كذلكَ الاضطجاعُ، فاستأداهُمْ بالشكرِ لَهُ في كلِّ نعمةٍ على كلِّ حالٍ مِنْ تلكَ الأحوالِ، ومَدَحَهُمْ على ذلكَ إذا فَعَلوا.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أمرَهُمْ أنْ يذكُرُوهُ في كلِّ حالٍ: [في حالِ][2] الرخاءِ [والشِّدَّةِ وفي حالِ][3] الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ لا في [حالٍ][4] دُونَ حالٍ على ما يفعَلُهُ بعضُ خَلْقِهِ، يذكُرُونَهُ في حالِ الشِّدَّةِ والضَّرَّاءِ، ولا يَذكُرُونَهُ في حالِ الرَّخاءِ واليُسْرِ، ولا يذكرونَهُ في حالِ [الرَّخاءِ، ويَذكرُونَهُ في حَالِ][5] الشِّدَّةِ والبَلاءِ. فَمَدَحَ المؤمنينَ أنهُمْ يَذْكُرُونَهُ في كُلِّ حالٍ، لا على ما فَعَلَهُ أهلُ الشِّرْكِ على إرادةِ نَفْسِ القيامِ ونَفْسِ القعودِ والاضطجاعِ ولكنْ على كُلِّ [حالٍ][6] وفي كلِّ وقتٍ، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ: إنهُ جاءَ في رُخصةِ صلاةِ المريضِ، يُصَلِّي قائماً إنِ اسْتَطاعَ، وإلّا فَقاعِداً إنْ لم يَسْتَطِعْ، وإلّا فَمُضطَجِعاً. وكذلك عَنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنَّ في/ ٧٧ ـ أ/ خَلْقِهِا دليلَ وَحدانيَّتِهِ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي عَبَثاً، ولكنْ خَلَقْتَهُما دَليلاً على وَحدانيَّتِكَ وشاهداً على ربوبيَّتِكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ هو التنْزِيهُ، والتَّنزيهُ هو إبعادُهُ عنِ العَيبِ وتَبرئتُهُ منهُ وتَطهيرُهُ ممّا يقولُ الكفارُ، وهو حرفٌ يُقَدَّمُ[7] عندَ حاجاتٍ تُرْفَعُ إليهِ ودَعَواتٍ يُدْعَى بها.

الآية ١٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ قيلَ: أذْلَلْتَهُ، وفَضَحْتَهُ، وأهَنْتَهُ ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي مانعٍ يَمْنَعُ عنهُمُ العذابَ، ويدفَعُ. ويَحتمِلُ الأنصارُ الأعوانَ ؛ أي ليسَ لَهُمْ أعوانٌ يُعينونَهُمْ في الآخِرَةِ.

الآية ١٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ يَحْتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: على حقيقةِ السمْعِ أنْ سَمِعُوا مُنادياً يَدْعوهُمْ إلى الإيمانِ، وهو رسولُ اللهِ ﷺ أو القرآنُ، كِلاهُما يَدعُوانِ الخَلْقَ إلى الإيمانِ باللهِ. ويَحْتمِلُ قولُهُ: ﴿سَمِعْنَا﴾ أي عَقَلْنا، وعَقَلَ كلُّ أحدٍ يُدعَى[8] إلى التوحيدِ والإيمانِ به، وقيلَ: سَمِعُوا دَعْوةَ اللهِ، فأجابُوا لها، وصَبَرُوا عليها. وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: (المُنادي محمدٌ ﷺ)، ثم قرَأ ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الآية [الأنعام: ٧٩] وعَنْ غيرِهِ: المُنادي هو القرآنُ يَدْعُوهُمْ ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ فيهِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ ليسَ هو جميعَ الطاعاتِ على ما يقولُ بعضُ الناسِ، ولكنهُ فَرْدُ تَصديقٍ، لأنهُ قالَ لَهُمْ ﴿ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ لم يَطْلُبوا التفسيرَ، ولا قالُوا: كمْ أشياءَ تكونُ؟ ولكنْ أجابُوهُ إجابةً مُوجَزةً، فقالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا﴾.

ثم فيهِ دلالةُ أنْ لا ثُنيا في الإيمانِ لأنَّهُمْ أطلَقُوا القولَ في الإخبارِ عنْ إيمانِهِمْ مِنْ غيرِ حرفِ الثُّنيا. دلَّ أنَّ الإيمانَ ممّا لا يَحتَمِلُ الثُّنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي اعْصِمْنا في ما بَقِيَ مِنْ عُمُرِنا، أو وَفِّقْنا لِلْحَسَناتِ التي تُكفِّرُ سَيِّئاتِنا لِما قد يَلْزَمُ العَبيدُ[9] التَّكفيرَ لِما أساؤوا، وقيلَ: المَغْفِرةُ والتَّكفيرُ كِلاهُما سَواءٌ لأنَّ المغفرةَ هو السَّتْرُ، وكذلكَ سُمِّيَ الحَرّاثُونَ كُفاراً لِسَتْرِهِمُ البِزْرَ في الأرضِ، وكذلكَ الكافرُ سُمِّيَ كافراً لِسَتْرِهِ الحَقَّ بالباطلِ ولِسَتْرِهِ جميعَ ما أنعمَ اللهُ عليه بتوجيهِ الشكرِ إلى غيرِهِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، في الأصل: التميز. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: وفي، في م: و. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: تقدم. (٨) في الأصل وم: يدعو. (٩) في الأصل وم: العبد.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ يحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ توفّنا، اجعلْنا معَ الأبرار، ويحتمِلُ ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ مِنَ الأبرارِ، وفي الأبرارِ. ثم اختُلِفَ في البرّ: قيلَ: هو الذي لا يُؤذي أحداً، وقيلَ: الأبرارُ الأخيارُ ويَحتمِلُ: ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ على ما عليهِ تُوفِّيَتِ الأبرار ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ وإنّا أبرارٌ. والبِرُّ الطاعةُ، والتقوى تَرْكُ المعصيَةِ.

الآية ١٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ؛ قيلَ: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ﴾ ألْسُنِ رُسُلِكَ على إضمارِ ألْسُنِ كقولِهِ ﷻ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]، وقيلَ ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ ما جَعلْتَ عليهِمْ مِنَ الاسْتِغفارِ للمؤمنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] وكقولِ إبراهيمَ ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ الآيةَ[1] [إبراهيم: ٤١] وكقولِ نوحٍ ﷺ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨].

ثم بَيْنَنا وبَيْنَ المعتزلةِ كلامٌ في الآيةِ: قالتِ المعتزلةُ: يجوزُ الدعاءُ والسؤالُ عنهُ بما قد أعطى، وما عليهِ أنْ يُعطيَ نحوُ ما ذَكَرَ مِنَ السؤالِ بما وَعَدَ، وما وَعَدَ لاشكَّ أنهُ يُعطِي، وأنهُ لا يُخلِفُ الميعادَ، ونحوُ قولِهِ ﷻ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وهو لا يَحكُمُ بالجورِ. وما عندنا أنَّ السؤالَ عمّا عليهِ أنْ يُعطيَ يَخرُجُ مَخرَجَ الدعاءِ لهُ: ربَّنا لاتَجُرْ، ولا تَظْلِمْ؛ إنَّ هذا لا يُقالُ إلّا لِمَنْ يُخافُ الجَورُ منهُ والظُّلْمُ، إذْ يَعْلَمُ أنَّ ذلكَ عليهِ، والسؤالَ عمّا أعطى مُحالٌ لأنهُ يَخرُجُ مَخرَجَ كِتمانِ ما أعطى، وليسَ عندَهُ ما يُعطيهِمْ، فَيَخرُجُ مَخرَجَ السُّخريةِ بهِ، لذلكَ بَطَلَ السؤالُ، واللهُ أعلمُ.

ثم تأويلُ الآيةِ عندَنا على وجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ الوعدُ منهُ لِرُسُلِهِ باسْتِغفارِ الرُّسُلِ إذا كانَ مِنَ المؤمنينَ اسْتِغفارٌ وسؤالٌ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤] وعَدَ لَهُمُ المغفرةَ لهُمْ باسْتِغفارِ الرسولِ، إذا كان منهُمُ اسْتِغفارٌ وسؤالٌ؛ يقولُ: اجعَلْ دُعائي دُعاءَ مَنْ جاءَ إلى النبيِّ ﷺ مُسْتَغْفِراً، فاسْتَغْفَرَ لَهُ، وكقولِهِ أيضاً: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الوعدُ لَهُمْ إذا ماتُوا على ذلكَ، فالدعاءُ كانَ منهُمْ، والسؤالُ أنهُ إذا أماتَهُمْ يُميتُهُمْ على الإيمانِ على ما كانُوا أحياءً، والمغفرةُ والرحمةُ حينئذٍ تكونُ لهُمْ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كذا؟ ولم يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بها فَلَهُ كذا، ولكنْ ذكرَ مَجيئَهُ. فعلى ذلكَ الأوّلُ، ثم يَحتمِلُ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ، وفي ما ذُكِرَ مِنْ تأويلِ الآيةِ في الابتِداءِ كِفايةٌ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يَدعُو لِيجعَلَهُمْ مِنَ الجملةِ الذينَ كانَ لَهُمُ الوَعْدُ، إذِ الوَعْدُ غيرُ مُبيَّنٍ لِمَنْ هو، فَسَألُوا أنْ يَجعَلَهُمْ في تلكَ الجملةِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الوعدَ لَهُمْ كانَ مَقروناً بشرطِ السُّؤالِ لأنهُ قالَ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ﴾ والاستِجابةُ تكونُ على إثْرِ السؤالِ[2] كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٨٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ قيلَ مِنَ الخَلْقِ كُلِّهِمْ، لكنْ جعلَ جزاءَ أعمالِ الكَفَرةِ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]، وأمّا المؤمنونَ [فجزاؤهُمْ][3] في الدنيا والآخرةِ، وأمّا الكُفّارُ فإنَّ ما يُعطيهِمْ ليسَ بجزاءٍ، وقولُهُ تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي نَرُدُّها عليهِمْ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] أرزاقَهُمْ. وقيلَ: قولُهُ: ﴿مِّنكُم﴾ إشارةٌ إلى المؤمنينَ خاصةً كقولِهِ ﷻ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ الآيةَ [التوبة: ٧١].

---

(١) ساقطة من م. (٢) من م، في الأصل: الرسول. (٣) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ الآية ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ إلى اللهِ ورسولِهِ طوعاً ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي اضطرُّوهُمْ حتى خرَجُوا مِنْ ديارِهِمْ، فهاجَرُوا ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ أي في طاعتي ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ حتى قُتِلُوا، ويحتَمِلُ هذا كُلُّهُ: أنْ هاجرَ بعضٌ طوعاً، [وأُخرِجَ بعضٌ][(1)] مِنْ ديارِهِمْ حتى هاجَرُوا، وقاتَلَ بعضٌ حتى قُتِلُوا، وقاتَلَ بعضٌ، ولم يُقتَلُوا، وقُتِلَ بعضٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الآية. وتأويلُها ظاهرٌ.

الآيتان ١٩٦و١٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ يحتَمِلُ تقلُّبُهُمْ وجوهاً:

[أحدُها: ذلكَ][(2)] نعمةٌ مِنَ اللهِ عليهِمْ لِتركِهِمْ يتَّجِرُونَ في البلدانِ مع كُفرِهِمْ بربِّهِمْ.

والثاني: أعطاهُمْ أموالاً يتنعَّمُونَ فيها، ويتلذَّذُونَ.

والثالثُ: ما أخَّرَ عنهُمُ العذابَ والهلاكَ إلى وقتٍ. يقولُ: لا يَغُرَّنَّكَ يا محمدُ ذلكَ؛ إنما هو مَتاعٌ يَسيرٌ، مصيرُهُمْ إلى النارِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ الآية [التوبة: ٥٥ و٥٨] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗا﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨]. قالَ: وليسَ الاغترارُ في نفسِ التقلُّبِ لأنهُ جَهدٌ ومَشقَّةٌ، ولكنْ لِما فيهِ مِنَ الأمنِ والسَّعةِ والقوةِ، دليلُهُ قولُهُ تعالى ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾. ثم قولُهُ[(3)]: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ منهُمْ: سعيُهُمْ[(4)] للآخرةِ مَتاعٌ، لا ينقطِعُ.

الآية ١٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ يعني الشِّرْكَ ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ ثواباً ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يحتَمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ ما ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنّ بعضَ المؤمنينَ قالُوا: إنَّ الكُفّارَ في خِصْبٍ ورخاءٍ، ونحنُ في جَهدٍ وشدَّةٍ، فنزلَ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في ذلكَ، إنما هو ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ وذلكَ ثوابُهُمْ في الدنيا. وأمّا ثوابُ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فما[(5)] ذَكَرَ.

الآية ١٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ/ ٧٧ - ب/ إِلَيۡكُمۡ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ يعني التوراةَ. ثم اختُلِفَ في نزولِهِ: قالَ بعضُهُمْ: نزلَ في شأنِ عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ وأصحابِهِ [الذينَ][(6)] أقرُّوا بأنهُ واحدٌ، لا شَريكَ لَه، وصَدَّقُوا رسولَهُ ﷺ وما أنزِلَ عليهِ[(7)]، وقيلَ: نزلَ في شأنِ النّجاشيِّ. ورُوِيَ عنْ جابرِ بنِ عبدِ الله ﷺ (أنَّ النبيَّ ﷺ. لمّا صلّى [على][(8)] النجاشيِّ قالَ أناسٌ مِنَ المُنافِقينَ: يُصَلِّي على حَبَشِيٍّ، ماتَ في أرضِ الحبشةِ؟ فأنزلَ اللهُ تعالى، ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية).

[وعَنِ][(9)] الحَسنِ أنهُ قالَ: (لمّا ماتَ النّجاشيُّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «استغفِرُوا لأخيكُمْ» قالُوا: يا رسولَ اللهِ: لذلِكَ العِلْجِ؟ فأنزلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾» [البخاري ١٣٢٧] الآية) وقيلَ: لمّا صلّى عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ قالَ المنافِقُونَ: صلّى على مَنْ ليسَ مِنْ أهلِ دينِهِ، فأنزلَ اللهُ تعالى الآيةَ.

وعنِ الزُّهريِّ عنْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ أنهُ قالَ: (إنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ صلّى على النجاشِيِّ، فَكَبَّرَ أربعَ تكبيراتٍ، وصَفَّنا في المُصَلّى خَلْفَهُ، وكانَ ماتَ في الحبشةِ، قالَ: والنوازِلُ على وجهَينِ، مَنْ ترِكَ بسببِهِ خيراً وسَعَةً فلَهُ فيهِ فضلٌ لأنهُ كانَ مفتاحَ الخيرِ، ومَنْ تَرَكَ بسببِهِ ضيقاً فعليهِ [ضيقُ يوم لأنه كانَ][(10)] مفتاحَ الضيقِ. وأمّا الأحكامُ فإنهُ يُنظَرُ إلى ما فيهِ نَزَلَ، فيشتِركُ فيهِ الخَلْقُ، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ: نزلَ في شأنِ فلانٍ لا في شأنِهِ) [بمعناه: الطبري في تفسيره: ٤/ ٢٢٠].

الآية ٢٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ قيلَ: على أداءِ الفرائضِ والعِباداتِ، وقيلَ: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على

---

(١) في الأصل وم: وبعض أخرجوا. (٢) في الأصل وم: وذلك. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: وسعيهم. (٥) في الأصل وم: وإلى آخر ما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: الآية. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فضل يوم كأنه.

البلايا والمصائبِ والشّدائدِ ﴿وَصَابِرُواْ﴾ في الجهادِ لِعَدُوِّكُمْ، وقيلَ ﴿اَصْبِرُواْ﴾ على أمرِ اللهِ وفرائضِهِ ﴿وَصَابِرُواْ﴾ مع النّبيِّ ﷺ وعلى آلِهِ وصحبِهِ في المواطِنِ.

وعَنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: (أُمِرُوا أن يَصْبِرُوا على دينِهِمُ الذي ارتَضَى لَهُمْ، وهو الإسلامُ، ولا يَدَعُوا دينَهُمْ لِشِدَّةٍ ولا لِرَخاءٍ ولا ضَرّاءَ ولا سَرّاءَ حتى يَمُوتُوا، ويكونُوا يُصَابرونَ[1] الكُفّارَ حتى يكونُوا يميلُونَ[2] عَنْ دينِهِمْ، وأُمِرُوا أنْ يُرابطُوا المشركينَ) وقيلَ: ﴿اَصْبِرُواْ﴾ على الجِهادِ ﴿وَرَابِطُواْ﴾ لِعَدُوِّكُمْ ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أي داوِمُوا على دينِكُمْ ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. قالَ: والصبرُ في نفسِهِ خاصةً في طاعةٍ يَصبرُ عليها ومعصيةٍ يَصبِرُ عنها، وفي بَلْوَى، والمصَابَرَةُ معَ غيرِهِ. وقد يكونُ كلُّ واحدٍ على المَعْنَيَيْنِ لأنهُ لا يخلُو عنْ مُصابَرَةِ عدوٍّ في ما يُطيعُ دينَهُ. وقيلَ ﴿وَرَابِطُواْ﴾ معَ عدُوِّكُمْ ما أقامُوا ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في ما أمَرَكُمْ بهِ، فلا تَدَعُوا ذلكَ معَ نبيِّكُمْ، وذرُوا ما نَهَاكُمْ عنهُ.

(١) في الأصل و م: يصابروا. (٢) في الأصل وم: يميلوا.

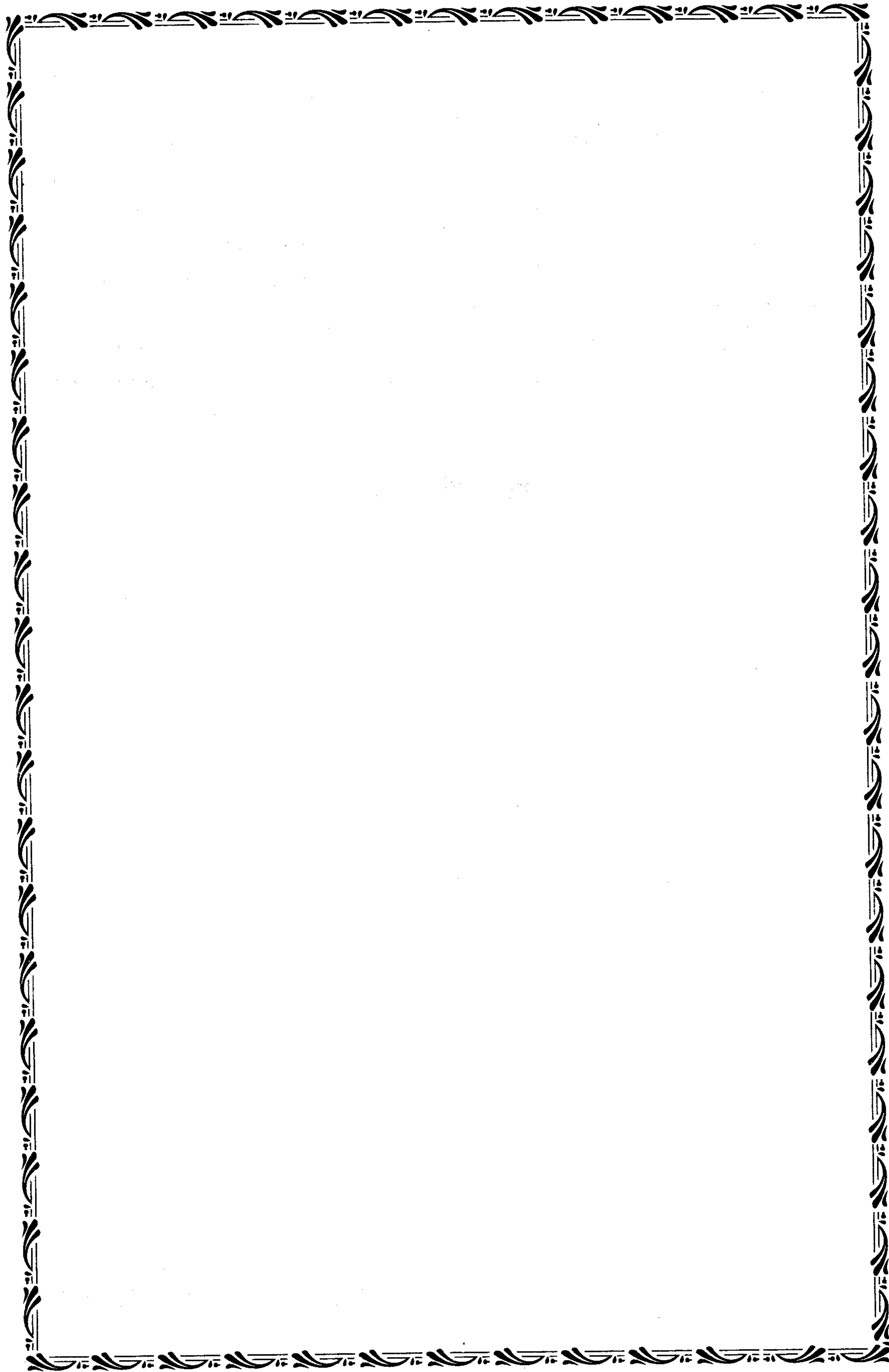

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

[وبهِ نَستعينُ][1]

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ في ما كانَ الخطابُ لِلْكَفرةِ ذكَرَ اللهُ ﷻ على إثْرِهِ حجَجَ وَحدانيَّتِهِ ودلائلَ ربوبيَّتِهِ لأنهُمْ لمْ يَعرِفوا ربَّهُمْ مِنْ نحوِ ما ذكَرَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية، وكقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١] وكقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [فاطر: ٥] وغيرُهُ كثيرٌ. ذكَرَ الحُجَجَ والدلائلَ التي بها يُوصَلُ إلى معرفةِ الصانعِ وتوحيدِهِ ليتَفكَّروا، فيَعْرِفوا بها خالِقَهُمْ وإلهَهُمْ.

وفي كلِّ ما كانَ الخطابُ لِلمؤمنينَ لم يَذْكُرْ حُججَ الوَحدانيَّةِ ولا دائلَ الرُّبوبيَّةِ لأنهمْ قد عَرَفوا ربَّهُمْ قبلَ الخطابِ، ولكنْ ذكَرَ على إثْرِهِ نِعَمَهُ التي أنعَمَها عليهِمْ وثوابَهُ [الذي][2] وَعدَ لَهمْ نحوَ قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٢ و١٠٣] إلى آخرِ ما ذكرَ نِعمَهُ التي أنْعَمها عليهِمْ، وكقولِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨] إلى [آخِرِ][3] ما ذكَرَ. على هذا يَخرُجُ الخطابُ في الأغلَبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ قيلَ: ﴿ٱتَّقُواْ﴾ عذابَهُ ونَقْمَتَهُ، وقيلَ: ﴿ٱتَّقُواْ﴾ عِصيانَهُ في أمرِهِ ونَهيِهِ، وقيلَ: ﴿ٱتَّقُواْ﴾ اللهَ بحقِّهِ في أمرِهِ ونهيِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أضافَ خَلْقَنا إلى آدمَ، إذِ الإنسانُ مِنَ النطفةِ. قالَ: دلَّتِ إضافةُ خَلْقِنا مِنْ آدمَ، وإنْ لم تكُنْ أنفسُنا مُستخرَجةً منهُ، على أمرَينِ:

أحدُهما: جوازُ إضافةِ الشيءِ إلى الأصلِ الذي، إليهِ المرجعُ، وإنْ بَعُدَ ذلكَ عنِ الراجعِ إليهِ على التَّوالدِ والتَّتابُعِ.

والثاني: أنّا لم نكُنْ بأبدانِنا فيهِ، وإنْ أُضيفَ خَلقُنا إليه؛ إذ لو كُنّا فيه لكُنّا منهُ بِحقِّ الإخراجِ لا بِحقِّ الخَلْقِ منهُ. وذلكَ يُبْطِلُ قولَ مَنْ يَجعَلُ صورةَ الإنسانِ مِنَ النطفةِ [مع الإحالةِ أنْ يكونَ مضافاً إلى[4] الترابِ أو النطفةِ][5] إذْ هما مِنَ المُواتِ[6] الخارجِ مِنِ احتِمالِ الدَّركِ، ونحنُ أحياءٌ[7] درَّاكونَ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أي فرَّقَ، ونَشرَ، وأظهرَ مِنْهُما أولاداً كثيراً ذكوراً وإناثاً][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ قولُهُ: ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ أي اتَّقوا اللهَ الذي تَساءلونَ بعضُكُمْ مِن بعضٍ، أي يسالُ بعضُكمْ مِن بعضِ الحَوائجَ والحقوقَ بهِ؛ يقولُ: أسألُكَ بوجهِ اللهِ، وبحقِّ اللهِ، وبآدمَ، ويسالُ بعضُكُمْ مِنْ بعضٍ بالرَّحِمِ؛ يقول الرجلُ لآخرَ: أسألُكَ بالرَّحِمِ والقرابةِ أنْ تُعطِيَني.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾؛ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ يقولُ: (﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ واتَّقُوا في الأرحامِ، وصِلوها). وقُرِئَ بالنصبِ والخفضِ[9]: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾؛ فَمَن قرأ بالنَّصبِ فيقولُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا تَعصوهُ، واتَّقوا الأرحامَ

---

(١) ساقطة من م. (٢) من م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: في. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في م: الموت. (٧) من م، في الأصل: أحياناً. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) قرأ حمزة: والأرحامِ خفضاً، وقرأ الباقون ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ نصباً. انظر حجة القراءات ١٨٨ والمحتسب ١/ ١٧٩ .

فلا تقطعوها، ومَنْ قرأ بالخفضِ فيقولُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ والأرحامِ. ورُوِيَ في الخبَرِ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «اتقوا الله وصِلُوا الأرحامَ فإنهُ أتقى لكُمْ في الدنيا وخيرٌ لكُمْ في الآخرةِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٤/ ٢٢٧] والآيةُ في الظاهرِ على العظَةِ والتنبيهِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ هو على التنبيهِ والإيعاظِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يحتمِلُ هذا وجهَين:

أحدُهما: احفَظوا أموالَهُمْ إلى أنْ يخرُجوا مِنَ اليُتْمِ، فإذا خرَجوا مِنَ اليُتْمِ أعطوهُمْ أموالَهُمْ.

والثاني[١]: قولُهُ ﷻ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي أنفِقوا عليهِمْ مِنْ أموالِهِمْ، [ووَسِّعوا][٢] عليهِمُ النفقةَ، ولا تُضيِّقوها لتنظُروا إلى أموالِهِمْ[٣]. و﴿وَءَاتُوا۟﴾ بمعنى وأتُوا لوقتِ[٤] الخروجِ مِنَ اليُتْمِ، أي احفَظوا لِتُؤتُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [أي لا تأخذوا][٥] الخبيثَ، فتترُكوا لَهُمْ ما وَعدَ لكُمْ في الآخرةِ بحفظِ أموالِهِمْ. وقيلَ: لا تأخذوا الجِيادَ مِنْ مالِهِ وتُعْطوا[٦] الرديءَ منهُ[٧] لَهُ؛ فذلكَ تبديلُ الخبيثِ، وهو أموالُ اليَتامى، وتَذَروا الطَّيِّبَ، وهو أموالُكُمْ إشفاقاً على أموالِكُمْ أنْ تَنْفَقَ[٨]. وقيلَ: لا تأكُلوا الحرامَ مكانَ الحلالِ لأنَّ أكلَ مالِ اليتيمِ حرامٌ، وأكلَ مالِكُمْ حلالٌ[٩]، فَنَهى أنْ يُبدِّلوا الخبيثَ بالطَّيِّبِ. ويَحتمِلُ: لا تأخذْ مالَهُ، وهو خَبيثٌ فيُؤخَذَ[١٠] منكَ الذي لكَ، وهو طَيِّبٌ. ويَحتمِلُ: لا تأكُلوا ذلكَ إبقاءً لأموالِكُمُ التي /٧٨ ـ أ/ طيَّبَها اللهُ [تعالى لَكُمْ بما جَعلَ اللهُ لكُمْ طَيِّباً][١١]. ويحتمِلُ: لا تأكُلوا أموالَهُمْ في الدنيا، فتكونَ هي ناراً تأكُلونَها، فتترُكوا الموعودَ لكُمْ في إبقاءِ الخبيثِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآيةَ [النساء: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ يَحتمِلُ هذا، والله أعلمُ، وجهَينِ: يحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي معَ أموالِكُمْ، أي لا تخلُطوا أموالَهُم مع أموالِكُمْ، فتأكُلوها، ففيهِ نَهْيٌ عنِ الخَلطِ والجمْعِ. ويَحتمِلُ ﴿أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي بأموالِكُمْ، ففيهِ النَّهيُ عنْ أكلِ أموالِهِم بأموالِ أنفسِهِمْ تبَعاً كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بمعنى لا تجمَعوها إليها، فتأكُلوها[١٢] معاً. ويحتمِلُ: معَ أموالِكُمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾؛ قيلَ: [جوراً، وقيلَ:][١٣] الحُوبُ الإثْمُ، وهو واحدٌ، وقيلَ: خطأً، وقيلَ: ذنباً كبيراً، وقيلَ: إثماً، وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ؛ قيلَ: إنهُمْ كانوا يَخافونَ مِنْ أموالِ اليَتامى، ويتحرَّجونَ منها لكثرةِ ما جاءَ منَ الوعيدِ فيها، فنزلَ هذا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ وتحرَّجْتُمْ مِنْ أموالِ اليَتامى فكذا، فتحرَّجوا مِنَ الزِّنى ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآيةَ.

عَنْ عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: (نزلَتْ في يَتامى مِنْ يَتامى النساءِ كُنَّ عندَ الرجالِ، فتكونُ اليَتيمةُ الشَّوهاءُ عندَ الرجلِ، وهي ذاتُ مالٍ، فلا يَنكِحُها لِشَوهَتِها ضنّاً بمالِها لتموتَ، فيَرِثُها، وإنْ نَكَحَها أمسَكَها على غيرِ عَدْلٍ منهُ في أداءِ حقِّها إليها، والأولَى لها سِواهُ، يطالِبُهُ بحقِّها، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآيةَ). ورُوِيَ عنها أيضاً أنها سُئلَتْ عنْ هذهِ الآيةِ فقالَتْ: (نزلَتْ في اليَتيمةِ، تكونُ في حِجْرِ وليِّها، فيَرغَبُ في جَمالِها، ويَنفُرُ مِنْ صَداقِها، فنُهوا عنْ نِكاحِهِنَّ إلّا أنْ يُقسِطوا في إكمالِ الصَّداقِ، وأُمِروا بنِكاحِ مَن سِواهُنَّ مِنَ النساءِ). قالَتْ عائشةُ ﵂: (واستَفتى الناسُ رسولَ اللهِ ﷺ بعدَ ذلكَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) في م: وسعوا، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: غيرهم. (٤) من م، في الأصل: الوقت. (٥) من م، في الأصل: وتأخذوا. (٦) في الأصل وم: وتعطى. (٧) في الأصل وم: منهما. (٨) في الأصل وم، تبقى. (٩) في الأصل وم: ماله. (١٠) في الأصل وم: ليؤخذ. (١١) في الأصل: لكم طيبا، في م: تعالى لكم بما جعل الله لكم خبيثاً. (١٢) في الأصل وم: تاكلونها. (١٣) في الأصل: قيل.

تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] فأنزلَ اللهُ تعالى لهُمْ في هذهِ الآيَةِ أنَّ اليتيمةَ إذا كانتْ ذاتَ جمالٍ ومالٍ رَغِبوا فيها في نِكاحِها وأمسَكوا[1] في إكمالِ الصَّداقِ، وإذا كانَتْ مرغوباً عنها لِشوهَتِها وقلةِ مالِها تركُوها، وأخذوا غيرَها مِنَ النساءِ). قالَتْ: (فكما يَتْرُكونَها حتى يرغَبوا عنها، فليسَ لهُمْ أنْ ينكِحوها إذا رَغِبوا فيها إلّا أنْ يُقسِطوا لها، ويُعطوها حقَّها الأوفرَ مِنَ الصَّداقِ).

وقيلَ: لمّا أنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية [النساء: ١٠] تركَ المؤمنونَ مُخالطةَ اليَتامى، وتنزَّهوا عنها، فشقَّ ذلكَ عليهِمْ، فاسْتَفتَوا رسولَ اللهِ ﷺ في مُخالَطتِهِمْ، [وقالَ: «يكونُ][2] عندَ الرجلِ عددٌ منَ النساءِ، ثم لا يَعدلُ بينَهُنَّ» [بمعناه الطبري في تفسيرِهِ ٢: ٢٣٤] فأنزلَ الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ الجورَ في مخالطةِ اليَتامى، فكذلكَ خافُوا جَمْعَ النساءِ وتَرْكَ التَّسْويةِ بينَهُنَّ في النفقةِ والجِماعِ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يُبيحُ نِكاحَ التِّسعِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾، فذلك تسعةٌ. وأمّا عندَنا فإنه لا يَحتمِلُ ذلك [لوجهَينِ:

أحدُهما][3]: لأنَّ معنَى قولِهِ تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ مَثْنى أو ثلاثَ أو رُباعَ لأنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ اسْتَثْنى الواحدةَ إذا خافَ ألّا يعدِلَ بينَهُنَّ. فلَو كانَ ما ذُكِر لَكانَ لا معنَى لاسْتِثْناءِ واحدةٍ منهنَّ، ولكنْ يقولُ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ بينَ التِّسْعِ [فثمانيَ أو سَبْعاً أو سِتّاً][4]. فلمّا لم يَسْتَثْنِ إلّا واحدةً دلَّ أنَّ التأويلَ ما ذكَرْنا مَثْنى أو ثلاثَ أو رُباعَ على الِانْفِرادِ.

والثاني: ما ذُكِرَ في القصةِ أنهُ كانَ عندَ الرجلِ عددٌ منَ النساءِ عشراً وأكثرَ أو أقلَّ، فخرجَ ذلكَ على بيانِ ما يَحِلُّ مِنَ العددِ، وذلكَ أربعةٌ.

ورُوِيَ أنَّ رجلاً أسلَمَ، وتحتَهُ ثَماني نِسْوةٍ، فأَسْلَمْنَ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «اخْتَرْ منهنَّ أربعاً، وفارقِ البَواقيَ» [أبو داوود ٢٢٤١] والخبرُ في بيانِ مُنْتَهى ما يَحِلُّ منَ العددِ دونَ وجهِ الحِلِّ، فاحتملَ أنْ يختارَ أربعاً على اسْتِقْبالِ النكاحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الآية، قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

أحدُها: أنهُ قالَ: إذا خِفتُمُ الجورَ في كَفالةِ اليَتامى، فاتَّقَيْتُموها، فخافوا في كفالةِ النساءِ، فلا تُكْثِروا منهُنَّ.

والثاني: أنكم[5] إذا خِفتُم في أموالِ اليَتامَى، فتحرَّجْتُمْ ضمَّ أموالِهِمْ إليكُمْ إشفاقاً على أنفسِكُمْ أنْ تأكُلوا منها، فَخافوا النساءَ مُواقَعتَهُنَّ مِنْ وجهٍ يُحرَّمُ عليكُمْ، فانكِحوهُنَّ.

والثالثُ: أنكمْ[6] خِفتُم في يَتامى النساءِ لو تزوَّجْتُموهُنَّ مِن حيثُ ليسَ معهُنَّ مَنْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ ظُلمِهِنَّ، فانكِحوهُنَّ مِنْ غيرِهِنَّ في ما[7] إذا جُرْتُمْ مُنِعْتُمْ منْ ذلكَ.

لكنَّهُ معلومٌ أنَّ الحدَّ في عَددِ النساءِ لِخوفِ الجَورِ، وبما عَلِمَ اللهُ مِنْ عَجزِ البشرِ على ما جُبِلَ عليهِ أخبَرَ أنهُ لا يقومُ بوفاءِ الحقِّ في أكثرَ ممّا ذكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ ليسَ على الحُكْمِ والحَتْمِ، [ولكنَّه على الأدبِ][8]، لأنهُ، وإنْ خافَ ألّا يَعدلَ فتزوَّجَ أربعاً، جازَ، وهو مِثلُ الذي نَهى في المراجعةِ، وأمرَ بالقَصْدِ فيها والعَدْلِ، فإنْ فعلَ ذلكَ أثِمَ، ورجْعَتُهُ صَحيحةٌ، وكذلكَ الأمرُ بالطلاقِ في العِدَّةِ والنَّهيِ في غيرِ العِدَّةِ، ثم إذا طلَّقَ في غيرِ العِدَّةِ وقَعَ، فكذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ في القَسْمِ والجِماعِ والنَّفقةِ ﴿فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ إنْ خفتُمْ ألّا تعدِلوا فواحدةٌ لأنهُ ليسَ للإماءِ قِبَلَ سادَتِهِنَّ حقُّ الجِماعِ والقَسْمِ؛ ينكِحُ ما شاءَ، كأنهُ قالَ هذا لِما ليسَ لأكثرَ مِنْ غايةٍ، فلهُ أنْ يجمعَ ما

---

(١) في الأصل وم: ونسبتها. (٢) من م، في الأصل: وكانَ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فثمان أو سبع أو ست. (٥) في الأصل وم: انهم. (٦) في الأصل وم: انه. (٧) في الأصل وم: من (٨) في الأصل: أدب، ساقطة من م.

شاء مِنَ الإماءِ في مُلْكِهِ، وليس لهُ أن يَجْمَعَ بالنكاحِ أكثرَ من أربعٍ. ولو كانَ التأويلُ ما ذهبَ إليهِ لم يكُنْ لقولِهِ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وجهٌ، وفيهِ إذنٌ بتكثيرِ العِيالِ، [معَ ما أنَّ كثرةَ العِيالِ][(1)] معدودةٌ منَ الكَرَمِ إذا أحسنَ إليهِمْ لم يَحتمِلِ أنْ يزهدَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ مِن كثرةِ العِيالِ: أعالَ يُعيلُ إعالةً، فهو مُعيلٌ، ولا يُقالُ: عالَ يعولُ، وإنما يُقالُ ذلكَ في الجَوازِ.

فإنْ قيلَ: رُوِيَ في الخبرِ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «ابْدَأْ بِمَنْ تَعولُ» [البخاري ١٤٢٦] لكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلمُ، ابْدَأْ بِمَنْ تلزمُكَ نَفَقَتُهُ، أي ابْدَأْ بِمَنْ تَصيرُ[(2)] جائراً بتركِ النفقةِ عليهِ. وكذلكَ يُقالُ: عالَ يَعولُ عَولاً إذا أنْفقَ على عِيالِهِ، وليسَ عن كَثرةِ[(3)] العِيالِ في شيءٍ. ألا تَرى أنَّ على الرجلِ أنْ يبدأَ بِمَنْ يَعولُ؟ فلو كانَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ مِنَ العِيالِ لَكانَ المُتزوِّجُ واحدةً ذا عِيالٍ، وأنَّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ المُتزوجُ واحدةً يعولُها. فدلَّ بما ذكَرْنا أنَّ قولَهُ ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أي لا تَجوروا، ولا تَميلوا على ما قِيلَ.

وعنْ عائشةَ ﵂ ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ ألّا تَميلوا. وعنِ ابنِ عباسٍ ﵄ مثلُهُ. والقولُ هو المُجاوزةُ عنِ الحدِّ، ولذلكَ سُمِّيَ الحِسابُ الذي ازْدادَ على أصلِهِ عَولاً لمُجاوزَتِهِ الحدَّ. فعلى ذلكَ العَولُ ههنا: هو المجاوزةُ عنِ الحدِّ الذي جُعِلَ لهُ، وهو الجَورُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ ليسَ بشرطٍ لمُنْفِقِ العَولِ، ولأنهُ لا حاجةَ لمعرفةِ حدِّ الخَوفِ[(4)] الذي يُجعَلُ شرطاً للجوازِ، وكلُّ عَدلٍ يَخافُ أدنى خوفٍ. بل جميعُ أمورِ الدينِ هو على الخوفِ والرجاءِ، ولأنهُ يوجبُ جهلَ النساءِ بِمَنْ يَحِلُّ لهنَّ النكاحُ، ويُحرِّمُ إذْ لا يعرفْنَ ذلكَ. ومتى حُرِّمَ عليه حُرِّمَ عليها. ولا يَحتمِلُ أنْ يجعلَ للحِلِّ شرطاً لا يُوصِلُ إلى حقيقةٍ ولِظُهورِ الجَورِ في الأمَّةِ على / ٧٨ ـ ب/ الإبقاءِ على النكاحِ فضلاً مِن خوفِهِ معَ ما قولُهُ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ الآيةَ [النساء: ١٢٩] دلالةٌ ظاهرةٌ. وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآيةَ [النساء: ١٢٨] وقولِهِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄: ﴿نِحْلَةً﴾ أنهُ قالَ: المَهرُ، وقيلَ: النِّحلةُ الفريضةُ، أي آتوهُنَّ فريضتَهُنَّ، وقيلَ: ﴿نِحْلَةً﴾ أي عَطِيَّةً أي [لَها لا لوَلِيِّها][(5)] وهو مِنَ النُّحْلى. وقيلَ: نِحْلَةٌ مِنْ نِحَلِ[(6)] الدينِ أنْ تُؤتوا النساءَ صدُقاتِهِنَّ، ليسَ على ما كانوا يَفْعَلونَ في الجاهليَّةِ؛ يَتزوَّجونَ النساءَ بِغيرِ مُهورِهِنَّ، ففيهِ أنَّ لأهلِ الكفرِ النكاحَ بِغيرِ مَهْرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾؛ في[(7)] الآيةِ دلالةُ جوازِ هبةِ المرأةِ لزوجِها[(8)] وفسادُ قولِ مَنْ لا يُجيزُ هِبةَ المرأةِ [مالَها، تَلِدُهُ، وتَبْقى في بيتِهِ سَنَةً][(9)]، فيجورُ أمرُها. وفي الآيةِ أيضاً دليلٌ أنَّ المهرَ لَها حينَ أضافَ إحلالَ الهِبةِ إليهِنَّ بقولِهِ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾. وفيهِ دليلٌ أيضاً أنَّ هبةَ الديونِ والبراءةَ منها جائزةٌ كما جازَتْ هبةُ المرأةِ مَهرَها، وهو دَينٌ.

وقيلَ: فيه وجهٌ آخَرُ، وهو أنَّ الآباءَ في الجاهليَّةِ والأولياءَ كانوا يأخُذونَ مُهورَ نسائِهِمْ، فأمَرَهُمْ ﷻ ألا[(10)] يأخُذوا ذلكَ، وحكَمَ أنَّ المَهرَ للمرأةِ دونَ وَليِّها [إلّا أنْ تَهَبَهُ لوَليِّها][(11)]، فيَحِلُّ حينئذٍ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا﴾ لا داءَ فيهِ ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ لا إثْمَ فيهِ. وقيلَ: الهَنيءُ، هو اللذيذُ الشَّهِيُّ الذي [يُمتِعُ][(12)] عندَ تناوُلِهِ وسيرِهِ، والمَريءُ الذي تُحمَدُ عاقبتُهُ.

ثمَّ الحكمةُ في ذكرِ الهَنيءِ والمَريءِ هنا [في وجهَينِ][(13)]:

---

(١) من م، في الأصل: كثيرة. (٢) في الأصل وم: تصيره. (٣) في الأصل: كثيرة. (٤) في م: القذف، في الأصل: الحذف. (٥) في الأصل وم: هي لا وليها. (٦) في الأصل وم: نحلة. (٧) في الأصل: وفي. (٨) في الأصل وم: من زوجها. (٩) في الأصل وم: بمالها تلد أو تبقى في بيته سنة، ولَدُهُ: خصمه (اللسان). (١٠) في الأصل وم: أن. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: وجهان.

أحدُهما: ما ذُكِر في الآياتِ مِنَ الوَعيدِ بأخذِه منها؛ بقولِهِ[1] ﷻ: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١و٢١] لئلا يَمْتنِعوا عنْ قَبولِ ذلكَ لِلوَعيدِ الذي ذُكِرَ في الآياتِ.

والثاني: أنَّ الِامْتِناعَ عنْ قبولِ ما بذلتِ الزوجةُ يَحمِلُ[2] على حُدوثِ المكروهِ، ويُورِثُ الضَّغائنَ، وذلكَ سببُ قطعِ الزَّوجيَّةِ ما في بينَهما.

وقيلَ: قولُهُ ﷻ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ يعني بطيبةِ أنفسِكُمْ؛ يقولُ: لا تُعْطوهُنَّ مُهورَهُنَّ، وأنتُم كارهونَ، ولكنْ آتوهُنَّ، وأنفسُكُم بِهِ طَيِّبَةٌ؛ إذْ كانتِ[3] المُهورُ لهُنَّ دونَكُمْ.

وقيلَ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾ أي ما طابَتْ بِهِ أنفسُهُنَّ مِنْ غيرِ كُرهٍ، هو حَلالٌ. وعنْ علْقمةَ أنهُ قالَ لامرأتِهِ: أطْعِميني مِنَ الهَنيءِ المَريءِ. وعنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: (إذا اشتكى أحدُكُم فلْيَسألِ امرأتَهُ ثلاثةَ دراهِمَ مِنْ[4] صَداقِها، ثم يَشتري بها عَسلاً، ثم يُشرِبُهُ بماءِ السماءِ، فيجمَعُ اللهُ تعالى الهَنيءَ والمَريءَ والشِّفاءَ والماءَ).

وفي قولِهِ أيضاً ﷻ: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أنَّ النفقةَ، وإنْ كانتْ عليهِ، فَهيَ إذا قامَتْ بها في نفسِها، لا يخرجُ هو، لأنَّ نفقتَها عليها ليسَتْ بأعظمَ مِنْ مالِها إذا تطيَّبَتْ. ووُصِفَ بالهَنيءِ المَريءِ بما ربما يَسْتَثقِلُ[5] الطبعُ عن مالِها كراهةَ الِامْتِنانِ، أو بما كانَ عليهِ كِفايَتُها، أو بما جَرى مِنَ الوعيدِ الشديدِ في منعِ مهرِها، أو بما قد تَحْتشِمُهُ، فتبذلُ لهُ، أو بما يُوهِمُ الطمعُ في مالِها والرغبةِ في النكاحِ لذلكَ، فطَيَّبهُ اللهُ تعالى حتى وصفَهُ بغايةِ ما يَحتمِلُ المآلُ. وفيهِ بيانُ جوازِ معروفِها، وترغيبٌ في حُسْنِ المُعاشرةِ بينَهُما حتى أبقى ذلكَ بعدَ الفراقِ بقولِهِ ﷻ: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ الآية [البقرة: ٢٣٧] وذلكَ أخذُ ما يورِثُ المحبةَ والمودةَ، أو يُديمُها، أنْ جعلَ اللهُ بينَهُما ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١].

مسألةٌ في العبدِ لا يتزوَّجُ أكثرَ من اثْنتينِ: رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عُيينةَ ﷺ أنهُ قالَ عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ: (يَنكِحُ العبدُ اثْنتَينِ، ويُطلِّقُ اثْنتَينِ، وتعْتدُّ الأمَةُ حَيضَتينِ، فإنْ لم يحِضْنَ فشهرٌ ونصفٌ). وعنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: (لا يَحلُّ للعبدِ أنْ ينكِحَ فوقَ اثْنتَينِ). وعنْ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ أنهُ قالَ: (يتزوَّجُ العبدُ اثنتَينِ). وعنْ عُمرَ ﷺ أنهُ قالَ لابنِ مَسْعودٍ ﷺ: (ما يَحلُّ لِلعَبْدِ مِنَ النساءِ؟ قالَ: اثنتانِ[6]»، قالَ عمرُ ﷺ: (ذلكَ أرى). وعنِ الحكَمِ قالَ: اجتمعَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ على أنَّ العبدَ لا يَجمعُ مِنَ النساءِ فوقَ اثْنتَينِ، فهؤلاءِ ستةُ نفرٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، هُمْ[7] عمرُ بنُ الخطابِ وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ وعليٌّ وابنُ مسعودٍ والفضلُ بنُ عباسٍ والأنصاريُّ ﷺ اتَّفَقوا على أنَّ العبدَ يتزوَّجُ اثْنتَينِ، ولا يتزوَّجُ أكثرَ مِنْ ذلكَ.

وأيضاً عنِ ابنِ عمرَ ﷺ أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الأمَةُ تُطلَّقُ تطليقتَينِ، وتعْتدُّ حَيضَتينِ» [الموطأ ٢/ ٥٨١]. فإنِ احتجَّ مُحتجٌ لِعُمومِ الآيةِ: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ ولم يذكُرْ عبداً ولا حُرّاً، فهو على عُمومِهِ. قيلَ: في الآيةِ دليلٌ أنَّ الخطابَ للأحرارِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فهو على مَنْ لهُ النكاحُ بنفسِهِ، والعبدُ يكونُ لهُ النكاحُ بغيرِهِ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] فكانَ المخاطبَ بنكاحِ العبيدِ مَواليَهِمْ، ليسَ لهُ أنْ ينكحَ المرأةَ إلّا بإذنِ مولاهُ، ومولاهُ يُزوِّجهُ إذا شاءَ بغيرِ أمرِهِ، فإنما الخطابُ لمنْ لهُ أنْ يتزوَّجَ إنْ شاءَ، والعبدُ منْ ذلكَ خارجٌ.

الا ترى أنَّهُ قالَ ﷻ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ والعبدُ لا يملكُ مُلكَ اليمينِ؟ فدلَّ أنَّ الخطابَ راجعٌ إلى الأحرارِ دونَ العبيدِ. فإنْ قيلَ: قد جعلْتُم للعبدِ أنْ يُطلِّقَ الحُرَّةَ ثلاثاً، فجعلْتُم له مِنَ الطلاقِ مثْلَ الذي جعلْتُموهُ للحُرِّ، فيجبُ أنْ تَجعَلوا لهُ مِنْ تزوُّجِ النساءِ مثْلَ الذي يَجوزُ للحُرِّ. قيلَ: الفرقُ بينَهُما أنَّ الطلاقَ عندَنا بالنساءِ لأنَّ الحُرَّ يُطلِّقُ امرأتَهُ الأمَةَ

(١) من م، في الأصل: يقول. (٢) في الأصل وم: يحتمل. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) أدرج بعدها في م: ما طابت به أنفسهن من غير كره فهو حلال. (٥) في م: يشتغل. (٦) في الأصل وم: اثنتين. (٧) في الأصل وم: منهم.

تطليقتين، فتُحرَمُ عليهِ، والتزويجُ بالرجالِ لا يُنظرُ فيهِ إلى النساءِ. فللعبدِ أنْ يتزوَّجَ النِّصفَ مِنْ تزويجِ الحُرِّ، كما أنَّ عدَّةَ الأمَةِ وطلاقَها على النِّصْفِ منْ عدَّةِ الحُرَّةِ على ما رَوينا منَ الخبرِ عنْ رسولِ الله ﷺ حتى يكونَ للعبدِ في امْرأتينِ شيءٌ[1] نِصفُ ما للحُرِّ منَ الأربعِ.

ورُوِيَ [عَنِ][2] الحسنِ أنهُ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥] يعني الكفارَ، وقيلَ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ فيكونُوا قِياماً عليكُمْ، ولكنْ أنتُمْ قِياماً عليهِمْ. وقيلَ: لا تُؤتوهُمْ أموالَكُم فيكونوا أرباباً عليكُمْ، وكونوا أرباباً بأموالِكُمْ عليهِم.

ومنْ صرفَ التأويلَ إلى اليَتامى جعلَ معنَى قولهِ ﷻ: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وكقولِهِ: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] يريدُ [مَنْ][3] تَرونَهُ في البيوتِ. فعَلى ذلكَ إضافةُ أموالِ اليَتامى إلى الأولياءِ.

الآية ٥ وقولُه ﷻ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ الآية: السَّفيهُ[4] في الحقيقةِ مَنْ يعملُ عمَلَ الجُهّالِ [أو لِما][5] قد يُلقَّبُ العالِمُ بهِ إذا ضيَّعَ الحدودَ، وتعاطَى الأفعالَ الذَّميمةَ. وعلى ذلكَ ما جاءَ الكتابُ بتَسْفيهِ علماءِ أهلِ الكتابِ. ثم قد يُسمَّى الجُهّالُ بهِ لِما الجهلُ، هو السببُ الباعثُ على فعلِ السَّفهِ.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ يحتمِلُ ذلكَ الوجهَينِ. وأيُّ الأمرينِ كانَ ففيهِ التحذيرُ للمعنى الذي بُيِّنَ منْ قولِهِ: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [سواءٌ][6] كانتْ قِياماً للمَعاشِ أم[7] للمَعادِ أوْ لهُما.

وطريقُ الإنفاقِ في الوجهَينِ والإمساكُ، لهما التدبُّرُ ومُراعاةُ الشَّرعِ /٧٩ ـ أ/ وتعاهُدُ الأسبابِ. والوجهانِ جميعاً يمنعانِ الوفاءَ بما جُعلَتْ لهُ الأمورُ، فحذَّرَ مَنْ أنعَمَ بها مِنْ تضييعِ ذلكَ بالتسليمِ إلى مَنْ ذكرَ معَ ما يكونُ في ذلكَ اتّباعُ مَنْ يستحِقُّ أنْ يكونَ متبوعاً لمَنْ حقُّهُ أنْ يُجعَلَ تابعاً، وذلكَ خارجٌ عنْ حدِّ الحُكْمِ وما يَحمَدُهُ العقلُ.

ثم قد صُرفَتِ الآيةُ إلى النساءِ بما جعَلَ مَنْ إليهِ التدبيرُ، وهو الذي أنشأهنَّ تحتَ أيدي الرجالِ في الأمورِ معَ وصْفِ الرجالِ أنهمْ ﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وصُرِفَتْ أيضاً إلى الصغارِ بما ضَمِنَ حِفظَ مثلِهِمُ الكبارُ، وجُعِلوا مَكْفولينَ عندَ البالِغينَ. فأموالُ البالِغينَ أحقُّ بذلكَ، وحقيقةُ السَّفهِ ما ذكَرْتُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المقصودُ بالذِّكْرِ مَنْ ذَكَرَ الصغارَ والنساءَ بما خاطبَ مَنْ حذَّرَ بالدفعِ إلى منْ ذكرَ رزقَ أولئكَ وكسوتَهمْ، ولا يجبُ رزقُ الجُهّالِ والسُّفهاءِ على غيرِهِمْ، فيكونُ ما ذَكَروا أوْلى بمرادِ الآيةِ، وإنْ كانَ للمعنى الذي قصدَ بالآيةِ التي ذكَرتُهُمْ قدِ استحَقُّوا. ولمّا غلبتْ تلكَ الأحوالُ على هؤلاءِ جعلَ منْ ذكَرتْ قُوّاماً عليهِمْ.

وقد ذكرْتُ عنِ الحسنِ أنهُ صرفَ الآيةَ إلى الكفارِ؛ فكأنهُ تأوَّلَ في القيامِ القيامَ بأمرِ الدينِ، والكُفّارُ لا يجوزُ الإستعانةُ بهِمْ، ولا[8] جَعْلُ المالِ عندَهُمْ[9]، معَ ما كرِهَ العلماءُ تسليطَ [الكفرةِ على العُقودِ][10] لجهلِهِمْ بحقِّ شرعِ الإسلامِ فيها. فمِثْلُهُ دفعُ الأموالِ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾؛ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ يعني قِوامَ أمرِكُمْ ومعيشتِكُمْ، وهو كذا؛ جعلَ اللهُ هذهِ الأموالَ [أغذيةً للخَلْقِ، بها يقومُ دينُهُمْ وأبدانُهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ يقولُ: لا تُؤتوهُمْ، ولكنِ ارزُقوهُمْ أنتُمْ، واكسوهُمْ، وقيلَ: يقولُ: أنفِقوا عليهِمْ منها، وأطعِموهُمْ، وقيلَ: لمّا أضافَ الأموالَ[11] إلى الدافِعينَ لا [إلى][12] المَدفوعةِ إليهِمْ دلَّ على وجوبِ نفقةِ الولَدِ وكسوتِهِ على الرجلِ.

---

(١) في الأصل وم: شيئاً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فالسفيه. (٥) في الأصل وم: في الحقيقة أولا لما. (٦) في الأصل وم: فاما إنْ. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: وله. (٩) في الأصل وم: عنده. (١٠) في الأصل: الكفر العقود، في م: الكفر العقوبة. (١١) ساقطة من م. (١٢) ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قيلَ: عِدَةً حَسنةً جَميلةً: سأفعلُ، وسأكسُوهُ، وقيلَ[1] مُروهُمْ بالمعروفِ، [وانهَوْهُم][2] عنِ المُنكَرِ، وقيلَ: علِّموهُمُ الأدبَ والدينَ، وقولوا لهُمْ كلامَ البِرِّ واللِّينِ واللُّطفِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ [بعضُهم][3]: قولُهُ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ﴾ صلةٌ[4]، وتأويلُهُ: وابتَلُوا اليَتامى إذا بلَغوا النكاحَ، وهو قولُ الشافعيِّ، رحِمَهُ اللهُ: يجعلُ الابْتِلاءَ بعدَ البلوغِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ بالابْتِلاءِ قبلَ البُلوغِ لوجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يُبْتَلى الأيتامُ قبلَ البلوغِ[5] بأنواعِ العباداتِ ليَعتادوا بها، ويتأدَّبوا[6] ليَعْرِفوا حقوقَ الأموالِ وقَدْرَها، ويَحفَظوها، إذا بَلَغوا؛ لأنهُمْ إذا ابْتُلوا بعدَ البلوغِ لم يعرِفوا ما عليهِمْ منَ العباداتِ والفرائضِ وقتَ البلوغِ، وكانَ في ذلكَ تَضييعُ حقوقِ اللهِ وفرائضِهِ؛ إذْ لا سبيلَ إلى القيامِ بها وقتَ[7] البلوغِ. فأمرَ الأولياءَ أنْ يَبْتَلوهُمْ قبلَ البلوغِ حتى إذا بَلَغوا بَلَغوا عارِفينَ لِما عليهِمْ منَ العباداتِ والحقوقِ حافِظينَ لها.

ألَا ترى إلى ما رُوِيَ في الخبرِ أنهُ أمرَ الأبَ[8] أنْ يأمرَ ولدَهُ بالصلاةِ إذا كانَ ابنَ سبْعٍ، وأمرَهُ[9] بالضربِ والتأديبِ إذا كانَ ابنَ تِسْعٍ والتَّفريقِ في المضاجِعِ، وهو منْ حُقوقِ الخلْقِ؟ فهذا لِيَعْتادوا، ويأخُذوا الآدابَ[10] قبلَ البلوغِ، حتى إذا بلَغوا عرَفوا ما عليهِمْ، وهانَ القيامُ بها. وإذا لم يُعوَّدوا قبلَ ذلكَ يَشتَدُّ عليهِمُ القيامُ بإقامةِ العباداتِ وأداءِ الحقوقِ. فعلى ذلكَ الأولُ.

والثاني[11]: أنْ تُبْتَلَى عقولُهُمْ بشيءٍ منْ أموالِهِمْ يتَّجِرونَ بها، ويتقلَّبونَ[12] فيها لِيَنْظُروا هل يقْدِرونَ على حفظِ أموالِهِمْ عندَ حُدوثِ الحوادثِ والنَّوائبِ؟ ففيهِ دليلُ جوازِ الإذْنِ في التجارةِ حالَ الصِّغَرِ لأنهُ لا يَظْهَرُ ذلكَ إلّا بالتجارةِ.

وإنْ كانَ المرادُ بالابْتِلاءِ بعدَ البلوغِ والكِبَرِ فهو أيضاً يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ العلمَ بها نفسَهُ، ويَحتمِلُ العلمَ بها والعملَ، فلا يضَعونَها[13] في غيرِ مَوْضِعِها.

وقولُهُ: إنَّ حرفَ ﴿حَتَّىٰ﴾ صلةٌ أنهُ لو جازَ لهُ أنْ يجعلَ هذا صلةً لجازَ لغيرِهِ أنْ يجعلَ ﴿رُشْدًا﴾ صلةً فيهِ، إذْ لا فرقَ بينَ هذا وبينَ الأوَّلِ أنْ يُجعَلَ صلةً.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو أنْ يَصيرَ هوَ منْ أهلِ الشهادةِ. فحينئذٍ يُدفَعُ إليهِ المالُ. فَعَلى قولِهِ: يجيءُ أنْ تُنتزَعَ الأموالُ منْ أيدي الفُسّاقِ لأنهُ لا شهادةَ لهُمْ، ومنْ قولِهِ: إنَّ اليَتيمَ منْ أهلِ الكُفرِ لا يُدفَعُ إليهِ المالُ إلّا بعدَ اسْتِئناسِ الرُّشْدِ منهُ. فلو كانَ شرطُ الرُّشدِ هو شهادةً لكانَ لا يُدفَعُ إليه لِما لا يَقبَلُ الشهادةَ ما لَزِمَ الكفرُ على أحدٍ. دلَّ أنَّ الرُّشدَ ليسَ ما ذكرَ، ولكنْ ما قيلَ منَ العقلِ والحفظِ لِمالِهِ [والإصلاحِ فيهِ][14].

ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ قالَ: إنْ أدركَ بحلمٍ وعقلٍ ووقارٍ. وهو يقولُ أيضاً في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ إنَّ اللهَ ﷻ يقولُ: اختَبِروا اليَتامى منْ عندِ الحِلْمِ؛ فإنْ عرَفْتُمْ منهُمْ رُشداً في حالِهِمْ والإصلاحِ في أموالِهِمْ فادفَعوا[15] إليهِمْ أموالَهُمْ.

وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه فإنْ حسِبْتُمْ منهمْ رشداً فادفعوا إليهم أموالَهمْ. وفي حرفِ حفصةَ: وابتَلُوا اليتامى في أموالِهِمْ حتى إذا بلغوا النكاحَ بعدَ كبرِهِمْ.

ثم لا يخلو مَنْعُ الأموالِ منهُمْ منْ أوجهٍ ثلاثةٍ، إمّا أنْ تُمنَعَ لفَرْطِ البَذْلِ والإنفاقِ جُوداً وسَخاوةً وحُسْنِ الظَّنِّ باللهِ أنهُ ﷻ يرزُقُهُمْ، ويُعطيهِمْ خلَفَ نفقتِهِمْ. وهذا لا يُحتمَلُ لأنَّ هذا منْ أخلاقِ الأنبياءِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، وسيرَتِهِمْ، فلا

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وانهوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: إذا صرف. (٥) في الأصل وم: بلوغ. (٦) في الأصل وم: ويتأدبون. (٧) في الأصل وم: حتى. (٨) من م، في الأصل: الأدب [أبو داوود: ٤٩٥]. (٩) في الأصل وم: وأمر. (١٠) في م: الأدب. (١١) في الأصل وم: ووجه آخر. (١٢) من م، في الأصل: ويتلقبون. (١٣) في الأصل: ولا تضعوها، في م: ولا تضعوها. (١٤) في الأصل وم: والاصطلاح فيها. (١٥) من م، في الأصل: لي ادفعوا.

يُحتمَلُ النَّهيُ عنْ ذلكَ. [وإمّا أنْ](١) تُمنَع لغَلبةٍ ولِقضاءِ وطَرِهِمْ وحاجتِهِمْ، يُنْفِقونَ الأموالَ لِيصلوا إلى ذلكَ؛ فإنهمْ إنْ مُنِعوا عنْ أموالِهِمْ يتناولوا(٢) منْ أموالِ غيرِهِمْ، ويَتعاطَوا(٣) ما لا يَحِلُّ، ويحسُنُ، فلا يُحتمَلُ أن يُمنَعوا لذلكَ. وإمّا(٤) أنْ تُمنَعَ عنهُمُ الأموالُ لآفةٍ في عقلهِمْ ونقصٍ في لُبِّهِمْ. فإنْ كان لهذا(٥) تُمنَعُ أموالُهمْ عنهُمْ فيجبُ أنْ تُمنَع أبداً، لا وقتَ في ذلكَ، ولا مُدّةَ إلّا بعدَ ارتفاعِ ذلكَ وزوالِهِ عنهُمْ. وهو الوجهُ [الذي](٦) يُمنَعُ منهُ حتى يُؤنَسَ منهُ الرُّشدُ.

ثم جعلَ إدراكَهُ وبلوغَهُ بالاحتلامِ لأنَّ كلَّ جارحةٍ منْ جوارحِ الإنسانِ يجوزُ استِعمالُها إلّا الجارحتَينِ منها؛ فإنهُ لا يقدِرُ على استِعمالِهِما(٧) إلّا صاحبُهما، فجعلَ الاحتِلامَ علماً لبلوغِهِ وإدراكِهِ لذلك. ولهذا ما لم يُعمَلِ الإكراهُ عليهِما نحوُ منْ أُكرِهَ بالزِّنى فزنى فإنَّ عليهِ الحدَّ لأنَّ الإكراهَ لا يُعمَلُ عليهِ، فإنما كانَ يُفعَلُ منهُ إلّا الواليَ فإنهُ إذا أكرَهَ آخرَ بالزِّنى، ففعلَ، لم يُقَمْ عليهِ الحدُّ، لِما جعلْنا ذلكَ كالعِلْمِ بالسببِ الذي يحِلُّ. وكذلكَ لو أُكرِهَ حتى وطِئَ امرأةً لزِمَهُ العَقْرُ، ولا يَرجِعُ على المُكرِهِ. ولو أُكرِهَ على إتلافِ مالٍ منْ أموالِهِ، ففعلَ، لرجعَ(٨) على المُكرِهِ للمعنى الذي وصفْنا. ولهذا ما وقعَ طلاقُ المكرَهِ ونكاحُهُ وعتاقُهُ لأنَّ(٩) هذهِ الأشياءَ إنما تقعُ باللِّسانِ، واللسانُ مما لا يعمَلُ عليهِ الإكراهُ، لذلكَ جازَ، واللهُ أعلمُ.

وأمّا البيوعُ والأشربةُ والعقودُ كلُّها سوى هؤلاءِ يكونُ التسليمُ والقبضُ [بها](١٠) دونَ النُّطقِ باللسانِ والتكلُّمِ بِها، فالإكراهُ مِمّا يُعمَلُ عليها ما أمكنَ استعمالَها غيرُهُ. لذلكَ افترَقا.

ولهذا ما قُلْنا: إنَّ الإيمانَ يكونُ بالقلبِ دونَ اللسانِ لأنه إذا أُكرِهَ حتى يكفُرَ، فأجرَى كلمةَ الكُفرِ على لسانِهِ، وكانَ قلبُهُ مُطمئِناً(١١) بالإيمانِ، لم يَكفُرْ. فإذا اطمأنَّ قلبُه بالكُفرِ كفرَ؛ لأنَّ الإكراهَ لا يعملُ على القلبِ، ولا يَصيرُ المكرِهُ مُستعمِلاً لهُ، إنما المستعمِلُ هو لا غيرَ. لذلكَ كانَ الجوابُ ما ذكرْنا.

ومعنَى الاحتِلامِ بُلوغاً هو استعمالُ سائرِ الجوارحِ دونهُ يعني الفَرْجَ إلا بعدَ الكِبَرِ. وما كانَ المعروفُ منَ الآباءِ والأولادِ وما كانَ يجري الأمرُ بابتغاءِ المكْنونِ(١٢) منَ الولدِ يكونُ بعدَ البلوغِ. وبعيدٌ ذلكَ إلّا في الوقتِ الذي لوِ ابْتغى لوجدَ، ولعُذِرَ عليهِ، وكذلكَ ذلكَ إلا في خروجِ الماءِ للشَّهوةِ، ثمَّ يكونُ في المتعارَفِ الاحتِلامُ /٧٩ - ب/ عنْ ذلكَ، فجُعِلَ علَماً لهُ، ولذلكَ قيلَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ ثمَّ فرَّقَ في حقِّ الكتابِ بينَ اللسانِ وغيرِهِ منْ حيثُ لا يملِكُ أحدٌ قهرَ لسانِ آخرَ حتى ينطِقَ دونَ صاحبِهِ فيهِ، يُظهِرُ سببَ جريِ القلمِ منَ الأفرادِ بالبُلوغِ. وهذا ما جُعلَ سببُهُ بما لا يَعلَمُهُ غيرُهُ ليكونَ أوّلَ أحوالِ البلوغِ ووقوعَ قولِهِ بحقِّ(١٣) البلوغِ مع ما كانَ النطقُ فعلَ مَنْ يجري في جنسِهِ الخطابُ، وكأنهُ اتَّصلَ أمرُهُ بالسببِ الذي خُصَّ بهِ المُمتحَنُ مِنَ العقلِ إذْ كانَ العقلُ يُعرَفُ بالمحْنةِ، والاحتِلامُ لا.

فأُمِرْنا بالابْتِلاءِ مِن حيثُ المعقولُ، ولم نُؤمَرْ من حيثُ الاحتِلامُ، بل يُقبَلُ قولُهُ في ذلكَ.

ودلَّ قبولُ قولِ مَنْ بلغَ بالإخبارِ عنِ احتِلامِهِ، وبهِ يجري القلمُ عليهِ، وتُلزِمُ الحقوقَ أن يقْبلَهُ؛ يجوزُ في ذلكَ الوقتِ، وبخاصةٍ على قولِ منْ يَرى الابْتِلاءَ بعدَ الإدراكِ أنهُ لو لم يقبَلْ فيمَ يَبْتَليهِ؟

ثم إذْ جازَ قولُهُ لزِمَ كلَّ أمرٍ عَلِقَ بهِ، وعلى ما ذكرْتُ مِنْ أوّلِ ما عَلِقَ بهِ القولُ في حقِّ البُلوغِ دليلُ اتصالِ حكمِ القولِ بالعقلِ وتمامِ العقلِ بالبُلوغِ إذْ بهِ يجري القلمُ. ودلَّ ما ذكرْتُ مِنِ امْتِناعِ اللسانِ عنْ سلطانِ غيرِ صاحبِهِ عليهِ على لزومِ كلِّ حقٍّ متعلّقٍ بهِ على الإكراهِ، إذْ لا يُلزَمُ بغيرِهِ، وهو لا يجري عليهِ، ثم كلُّ أمرٍ يكونُ لأنه يَصيرُ اللسانُ سبباً فيهِ كالمُعلِمِ عنهُ، وهو ممّا يجري عليهِ القلمُ، وتُعلَمُ قوتُهُ بهِ، فيَبْطُلُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ الإسرافُ هو أكلُ ما نَهى عنهُ، وقيلَ: الإسرافُ هو أكلٌ في غيرِ حقٍّ، وكانَ

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: يتناولون. (٣) في الأصل وم: يتعاطون. (٤) في الأصل: و، في م: أو. (٥) في م: لهذا ما.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: استعمالها. (٨) في الأصل وم: ليرجع. (٩) في الأصل وم: لأنه. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) في الأصل وم: مطمئن. (١٢) في الأصل وم: المكتوب. (١٣) في الأصل وم: بحيث.

الإسرافُ هو المجاوزةُ عنِ الحدِّ، وهو كقولهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ [الفرقان: ٦٧]. وكانَ المُقتِرُ مذموماً. فعلى ذلكَ الإسرافُ في النَّفقةِ في مالِ اليتيمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ قيلَ: البِدارُ هو المُبادَرةُ، وكلاهُما لُغتانِ كالجِدالِ والمُجادلةِ، وهو أنْ يُبادِرَ بأكلِ مالِ اليتيمِ خشيةَ أنْ يتكبَّرَ، فيَحولَ بينَهُ وبينَ مالِهِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه، وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: ولا تأكلوها إسرافاً وبِداراً خَشيةَ أنْ يكبَروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أطلقَ اللهُ تعالى لِوليِّ اليتيمِ بظاهرِ الآيةِ إذا كانَ فَقيراً أنْ يأكلَ بالمعروفِ منْ غيرِ إسرافٍ، وذلكَ هو الوسَطُ منها. وكذلكَ رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً سألَهُ، فقالَ: ليسَ لي مالٌ، ولي يتيمٌ، فقالَ: «كُلْ مالَ يَتيمِكَ غيرَ مُسرفٍ ولا مُتأثِّلٍ[1] مالَكَ بمالِهِ».

وفيه دليلٌ أن الغنيَّ لا يجوزُ لهُ أنْ يأكلَ مالَ اليتيمِ، وأنَّ الفقيرَ إذا أكلَ منهُ أنفقَ نفقةً لا إسرافَ فيها. وعنْ عمرَ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (إني أنزلتُ في نفسي مالَ[2] اللهِ منزلةَ مالِ اليتيمِ؛ إنِ استغنَيتُ استعفَفْتُ، وإنِ احتجْتُ أكلْتُ بالمعروفِ، فإذا أيسَرْتُ قضيتُ). ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (الوصيُّ إنِ احتاجَ وضعَ يَدَهُ معَ أيديهِمْ، ولا يَكْتسي عِمامَتَهُ). وعنْ عائشةَ رضي الله عنها أنها قالَتْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: (يأكلُ وليُّ اليتيمِ منْ مالِ اليتيمِ إذا كانَ يقومُ لهُ على مالِهِ، ويُصلِحُ، إذا كانَ مُحتاجاً). وقيلَ: يأكلُ قَرْضاً، [ثم يرُدُّ عليهِ][3] إذا أيْسرَ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه وقيلَ: يأكلُ بالمعروفِ أي منْ مالِ نفسِهِ حتى لا يُفضي[4] إلى مالِ اليتيمِ. وقيلَ: يأكلُ إذا كانَ يعمَلُ لهُ، ويقومُ عليهِ. وقيلَ: يأكلُ قَرْضاً. الا ترى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أمرَ بالإشهادِ عليهِمْ عندَ الدفعِ؟ ولو كانَ أمانةً في يدِهِ لم يحتَجْ إلى الإشهادِ في الدفعِ، ولكنْ يجوزُ أنْ يأمرَ بالإشهادِ لا لمكانِ الوصيِّ نفسِهِ، ولكنْ لا يجوزُ أنْ يحدُثَ بينَهُ وبينَ ورثةِ الوصيِّ خصومةٌ، فيُشهِدَ ليدفعَ تلكَ الخصومةَ عنهُمْ. وقيلَ: الأكلُ بالمعروفِ هو ما يسدُّ بهِ جوعَهُ، ويواري عورَتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ قيلَ: شهيداً بما أخذَ منْ مالِهِ، وأنفقَ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿حَسِيبًا﴾ يُحاسبُهُ في الآخرةِ إذا لم يُحاسبْهُ اليتيمُ في الدنيا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ الآية. يَحتمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ، واللهُ أعلمُ، نزلَتْ بسببِ ما لمْ يكنْ يُورِّثُ أهلُ الجاهليَّةِ الإناثَ والنساءَ والصغارَ، ويجعَلونَ المَواريثَ لِذَوي[5] الأسنانِ منَ الرجالِ الذينَ[6] يصلُحونَ للحربِ، ويُحرِزونَ الغنيمةَ، فنزلَتِ الآيةُ بتوريثِ الرجالِ والنساءِ جميعاً. ويُقالُ: إنَّ الآيةَ نزلَتْ في شأنِ رجلٍ يُقالُ: أوسُ بنُ ثابتٍ الأنصاريُّ تُوفِّيَ، وتركَ بناتٍ وامرأةً، فقامَ رجلانِ منْ بني عمِّهِ، وهما وصيّانِ، فأخذا مالَهُ، ولم يُعطِيا امرأتَه ولا بناتِهِ شيئاً، فجاءتِ امرأةُ أوسِ بنِ ثابتٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فشكَتْ، وأخبرَتْ بالقصةِ، فقالَ لها: «ارجعي إلى بيتك حتى أنظرَ ما يُحدِثُ اللهُ في ذلك» [السيوطي في الدر المنثور ٢/٤٣٨] فانصرفَتْ، فنزلَ قولُهُ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الآية. وقيلَ: نزلتِ الآيةُ في شأنِ امرأةٍ منْ بني [سعدِ بنِ الربيعِ][7] استُشْهِدَ بأحُدٍ، وتركَ ابْنتَينِ وامرأةً، فاحتَوَى أخو سعدٍ على مالِ سعدٍ، ولم يُعْطِ المرأةَ ولا الابنَتينِ شيئاً، فاختصمَتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأخبرَتْهُ بالقصةِ، فقالَ لها: «لم يُنْزِلِ اللهُ عليَّ فيكُم شيئاً» ثم نزلتِ الآيةُ، فأخذَ منْ عمِّهما ثُلُثَي المالِ، وردَّهُ إليهما، ودفعَ الثُّمُنَ إلى المرأةِ، وتركَ البقيَّةَ للعمِّ، واللهُ أعلمُ في مَنْ كانَ نُزولُها [أبو داوود: ٢٨٩١].

وفي[8] هذا الخبرِ دليلٌ أنَّ لِلابنتَينِ الثُّلُثينِ[9] كما للثَّلاثِ فصاعداً، ليسَ كما قالَ بعضُ الناسِ: إنَّ لهُما النِّصفَ[10] لأنَّ الله تعالى إنما جعلَ [الثُّلُثينِ للثَّلاثِ][11].

---

(١) أثَّل ماله: عظمه. (٢) في الأصل وم: من ماله. (٣) ساقطة من م. (٤) أفضى: اتَّسع. (٥) في الأصل وم: لذي. (٦) في الأصل وم: الذي. (٧) في الأصل وم: سعدان. (٨) الوار ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: الثلثان. (١٠) من م، في الأصل: نصف. (١١) في الأصل وم: الثلاثين للثلاثة.

ثم تحتملُ الآيةُ وجهَين بعدَ هذا: تَحتمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ الأولادَ خاصةً، لا غيرَ، فيدخُلُ كلُّ ولدٍ [منْ](١) ولدِ البناتِ وولدِ البَنينَ لأنهُمْ كلَّهُمْ أولادُهُ. وتَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ منها الرجالَ والنساءَ، فيدخُلَ ذوُو(٢) الأرحامِ في ذلكَ. فلمّا لمْ يُدخِلْ بناتِ البناتِ في ذلكَ، وهُمْ أولادُهُ دلَّ أنهُ أرادَ النساءَ والرجالَ جميعاً لا الأولادَ خاصةً.

وفيهِ دلالةُ نسخِ الوصيّةِ للوارثِ لأنهُ قالَ ﷻ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ إلى قولِهِ: ﴿مَّفْرُوضًا﴾ أي معْلوماً بما أوجبَ في كلِّ قليلٍ، ثم قالَ في قولهِ: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ قيلَ: ذا يرجعُ إلى ما بيَّنَ فرضَهُ، وهُمْ(٣) أصحابُ الفرائضِ دونَ العَصَباتِ، فيكونُ على ما أشارَ إلى حقِّهِ منْ حيثُ الاسْمُ في القرآنِ.

ويَحتمِلُ ما بيَّنَ، وقد جرى فيهِ ذِكْرُ حَقَّينِ؛

أحدُهُما: حقُّ العَصَبةِ كما ذكَرَ في الأبِ والإخوةِ والأولادِ.

[والثاني: حقُّ](٤) أصحابِ الفرائضِ. ولو كانَ على ذلكَ فقد يتضمَّنُ الفرضُ ما يُعْلَمُ بالإشارةِ إليهِ والدلالةِ لأنَّ أكثرَ منْ يُوصي بحقِّ العَصَبةِ هو ما لا نصَّ فيهِ. والذي فيهِ النصُّ هو في الأولادِ والإخوةِ خاصةً والوالدِ. وقيلَ: يتضمَّنُ كلَّ الأقرباءِ على اختِلافِ الدرجاتِ، فيكونُ منصوصاً وأيضاً مَدْلولاً عليهِ، ويؤيّدُ هذا التأويلَ قولُهُ: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

ثم منَ المؤمنينَ والذين هاجَروا أولئكَ همُ البُعداءُ الذينَ هُمْ(٥) إخوةُ الدِّينِ والهجرةِ. فإذا بقِيَ أحدٌ لم يَصْرِفْ ذلكَ إلى المؤمنينَ، وقد قدَّمَ حقَّهُمْ على المؤمنينَ والمُهاجِرينَ بالرَّحِمِ، لذلكَ هُمْ أولَى معَ ما للإمامِ صرفُ ذلك بحقِّ الإيمانِ إليهِمْ، فيصيرُ الدَّفعُ إليهِمْ بحقِّ الجوارِ، وإلى غيرِهِمْ شكٌّ عندَ قيامِهِمْ، فالدَّفْعُ إليهِمْ أولَى لِوَجهَينِ: أحدُهُما: عُمومُ الكتابِ على تحقيقِ حقٍّ لكلِّ آيةٍ منها دونَ إدخالِ حُكمٍ أنه في حكمِ آخرينَ بلا ضرورةٍ. والثاني: الإجماعُ منَ الوجهِ الذي/ ٨٠ ـ أ/ ذكرْتُ معَ اتّفاقِ أكثرِ الصحابةِ ﵃ والفَتْوَى إلى يومِنا هذا.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قيلَ فيهِ: بوجهَينِ: قيلَ: أرادَ بالقِسمةِ قِسْمةَ المواريثِ بينَ الورثةِ بعدَ مَوتِ المَيتِ، وقيلَ: أرادَ بهِ قسْمةَ المُوصِي، وهو الإيصاءُ؛ يُوصي، ويبرُّ مَنْ(٦) ذكَرَ مِنَ الأقرباءِ واليَتامى والمساكينِ بشيءٍ، فالخطابُ للمُوصي، ومَنْ قالَ بقسْمةِ المواريثِ فالخطابُ للورَثةِ؛ إنْ كانوا كِباراً يُعْطُوا(٧) لهؤلاءِ شيئاً، ويبرُّوهمْ(٨) بشيءٍ، وإنْ كانوا صِغاراً يَقولوا(٩) لهُمْ قولاً مَعْروفاً أي [يَعِدوا لهُمْ عِدَةً](١٠) حسنةً إلى وقتِ خروجِ الأنزالِ أو إلى وقتِ البيعِ إنْ باعوها.

ثم اختلَفَ المتأوّلونَ فيها؛ قالَ بعضُهُمْ: هيَ منسوخةٌ، وقالَ آخرونَ: هي مُحْكَمةٌ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﵄ ومنْ قالَ: هي منسوخةٌ قالَ: نسخَها آيةُ المواريثِ قولُهُ ﷻ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١] لأنَّهُمْ كانوا يُوصونَ للأولادِ والآباءِ والأمهاتِ كقولهِ ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] نَسَخَتْ آيةُ المواريثِ وصيَّةَ المُوصي. ومنْ قالَ: هي مُحْكَمةٌ مُتْقَنةٌ، فهو ابنُ عباسٍ والحسنُ ومُجاهدٌ وغيرُهُمْ لأنَّهُ المعروفُ والبِرُّ والإحسانُ، وذلكَ ما لا يَحتمِلُ النَّسْخَ.

وقيلَ: إنَّ عبدَ الله بْنَ عبدِ الرحمنِ قسَمَ ميراثَ أبيهِ، وعائشةُ حيَّةٌ، فلم يدَعْ مِسْكيناً ولا ذا القَرابةِ إلّا قسَمَ لهُ منْ ميراثِ أبيهِ، وتَلا هذهِ الآيةَ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ الآية، فذُكِرَ ذلكَ لابْنِ عباسٍ ﵄ فقالَ: ما أصابَ ليسَ ذلكَ لهُ، إنما ذلكَ في الوصيَّةِ، يريدُ الميتَ أنْ يُوصيَ لهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قيلَ: إذا كانَ المالُ كثيراً رضَخَ(١١)، وأعطى شيئاً، وإذا كانَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذوي. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: وحق. (٥) في الأصل وم: لهم. (٦) في الأصل وم: لمن. (٧) في الأصل وم: يعطون. (٨) في الأصل وم: يبرونهم. (٩) في الأصل وم: يقول. (١٠) في الأصل وم: يعد لهم.
(١١) رضخ: أعطى عطاءً غيرَ كثيرٍ.

قليلاً اعتذرَ إليهِمْ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وقيلَ: أمرَ من يرِثُ أنْ يَرْضخَ، ويُعطيَ لمَنْ لا يرِثُ شيئاً، وهو قولُ الحسنِ، ويقولَ[1] لهُمْ قولاً مَعْروفاً. والقولُ المعروفُ يَحتمِلُ ما ذكرْنا: أنْ يُعطيَ لهُمْ، إنْ كانوا كِباراً؛ أعني الورَثةَ، ويعِدَ لهُمْ عِدَةً إنْ كانَ المالُ ضِياعاً إلى وقتِ خروجِ الأنزالِ والغَلّاتِ أو إلى وقتِ خروجِ الثَّمنِ، أو يعطيَ الورثةَ، إنْ كانوا كِباراً، أو يعتذِرَ إليهمُ الوصيُّ إنْ كانوا صغاراً.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ قيلَ: هو الرجلُ يحضرُهُ الموتُ، ولهُ وُلْدٌ صغارٌ، فيقولُ لهُ آخَرُ: أوصِ بكذا، أوِ اعْتِقْ كذا، أوِ افْعَلْ كذا، ولو كانَ هو الميتَ لأحبَّ أنْ يترُكَ لوُلْدِهِ، فخوَّفَ هذا القائلَ بقولِهِ: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ وأمرَ أنْ يقولوا لهُ مثلَ ما يُحبُّ أنْ يُقالَ لهُ في وُلْدِهِ بالعَدلِ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وقيلَ: هو الرجلُ يحضُرُهُ الموتُ، فيقولُ لهُ مَنْ يحضرُهُ: اتّقِ اللهَ، وامْسِكْ عليكَ لوُلْدِكَ الصِّغارِ والضعفاءِ، ليسَ أحدٌ أحقُّ بمالِكَ منهُمْ، ولا تُوصِ مِنْ مالِكَ شيئاً، فنهى أنْ يُقالَ لهُ لِما لو كانَ هو الموصيَ، ولهُ ورثةٌ صغارٌ ضُعفاءُ، أحبَّ أنْ[2] يُقالَ لهُ ذلكَ، فكذلكَ لا يقولُ هو لهُ. والأوّلُ أشبهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قيلَ: عدلاً؛ يأمُرُ أنْ يُوصِيَ بما عليهِ مِنَ الدَّينِ والوصيَّةِ، ولا يجورُ في الوصيّةِ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (نَهى مَنْ حضرَ منهُمْ مَريضاً عندَ الموتِ أنْ يأمرَهُ أنْ ينفِقَ مالَهُ في العِتْقِ والصدقةِ أو في سَبيلِ اللهِ. ولكنْ أمَرَهُ أن يُبيِّنَ ما لهُ وما عليهِ منْ دينٍ [أو حقٍّ][3]).

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ أي استِحْلالاً؛ فإذا استحَلَّ كَفرَ. فذلكَ الوعيدُ لهُ. وقيلَ: ﴿ظُلْمًا﴾ أي غَصْباً. والأكلُ هو عبارةٌ عنِ الأخذِ كقولِهِ: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]؛ إنما هو نَهى عنْ أخذِهِ. وكذلك قولُهُ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقولُهُ: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨] إنّما هو نَهيٌ عنْ قبضِ الرِّبا، فعلى ذلكَ الأكلُ في هذه الآيةِ عبارةٌ عنِ الأخذِ والاستِحلالِ.

ومَنْ حملَ الآيةَ على الغصْبِ جعلَ الوَعيدَ عليهِ إلّا أنْ يتوبَ؛ إذ للهِ العذابُ مَنْ شاءَ مَنِ ارْتكبَ مِنْ عِبادِهِ جُرْماً كما جعلَ الوعيدَ على المُستحِلِّ إلّا أنْ يتوبَ. وقيلَ: إنَّهُ على التمثيلِ أنَّ الذي يأكلُ منْ مالِ اليتيمِ كأنهُ يأكلُ ناراً لِخبْثِهِ وشدَّتِهِ.

وعنْ قتادةَ أنهُ قالَ: (ذُكرَ لنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ: «اتَّقوا اللهَ في الضَّعيفينِ» قيلَ: ومَنْ هما يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «اليتيمُ والمرأةُ، فإنَّ اللهَ أيتمهُ، وأوصى بهِ، وابْتلاهُ، وابْتَلى بهِ») [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٥/ ٢٤٥]. وقيلَ: في قولِهِ: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا﴾ للمَيتِ إذا جلَسوا[4] إليهِ: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي عَدْلاً في وصيَّتِهِ. ولا يجورُ منْ عدلَ في وصيَّتِهِ عندَ موتِهِ، فكأنما وجَّهَ مالَهُ في سبيلِ اللهِ.

قالَ[5] سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ: (فسُئلَ[6] النبيُّ ﷺ: بكَمْ[7] يُوصي الرجلُ منْ مالِهِ؟ فقال: «الثُّلثِ، والثُّلثُ كثيرٌ؛ لأنْ تدَعَ عيالَكَ أغنياءَ خيرٌ منْ أنْ تترُكَهُمْ عالةً، يتكفَّفونَ الناسَ» [البخاري ٢٧٤٣ و٢٧٤٢]. ثم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى تصدَّقَ عليكُمْ بثُلُثِ أموالِكُمْ [زيادةً في أعمالِكُمْ][8] عندَ وفاتِكُمْ»). [أحمد: ٦/ ٤٤١].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ [أي يَفرِضُكمُ اللهُ][9]، وقد سمّى اللهُ تعالى الميراثَ فَريضةً في غيرِ آيةٍ منَ القرآنِ بقولِهِ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾ ثم قالَ: ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، وقالَ أيضاً في آخرِ هذهِ الآيةِ: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾. ولأنهُ شيءٌ تولّى اللهُ إيجابَهُ مِنْ غيرِ اكْتِسابِ أهلِهِ فهو كالفرائضِ التي أوجبَها اللهُ على عبادِهِ مِنْ غيرِ اكْتِسابِ أهلِها، فعلى ذلكَ سمّى هذهِ فريضةً، لأنَّ اللهَ تعالى أوجبَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ: قولُهُ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ إلى آخرِ ما ذكَرَ فيهِ[10] نسخُ الوصيَّةِ للوالدَينِ والأقربينَ في قولِهِ: ﴿كُتِبَ

---

(١) في الأصل وم: ويقال. (٢) في الأصل وم: بأن. (٣) في الأصل وم: أحق. (٤) في الأصل وم: جلس. (٥) في الأصل وم: فقال. (٦) في الأصل وم: فسأل. (٧) في الأصل وم: وكم. (٨) من م. (٩) من م. (١٠) في الأصل وم: وفيه.

عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. ودليلُ نسْخِهِ ما رُوي عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ تعالى أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصيَّةَ لوارثٍ» [الترمذي ٢١٢١]. ثم قيلَ: إنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا لا يُورِّثونَ[١] النساءَ ولا الصِّغارَ منَ الأولادِ والإناثِ، وإنما كانوا يُورِّثونَ الرجلَ ولم يُجوِّزوا][٢] الغنيمةَ، فنزلَ قولُهُ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ﴾ الآية [النساء: ٧]. فالآيةُ في بيانِ الحقِّ للإناثِ في الميراثِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فيهِ بيانُ حقِّ الميراثِ للذُّكورِ والإناثِ جميعاً.

وقيلَ: تأويلُ هذهِ الآيةِ ما بيَّنَ في ذوي الأرحامِ، وإنْ كانوا مُختلِفينَ في سببِ ذلكَ، وأنَّ الآياتِ التي بعدَها منْ قولِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ إلى آخرِ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ المواريثِ فسَّرَ بها مبلَغَ النَّصيبِ الذي أوجبَهُ اللهُ للنساءِ والرِّجالِ في الآيةِ الأولى مُجْملاً. وأجمَعوا أنَّ الرجلَ إذا ماتَ، وتركَ وُلْداً ذُكوراً وإناثاً، فالمالُ بينهُمْ ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ أولادَ[٣] موتاكمْ. وهذا جائزٌ في اللغةِ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يُفرضَ على الرجلِ قسمةُ الميراثِ في أولادِهِ، وهو حيٌّ. دلَّ أنهُ أرادَ أولادَ الموتى، أو يَحتمِلُ ما ذكرْنا لأنهُمْ[٤] كانوا لا يورِّثونَ[٥] الإناثَ مِنَ الأولادِ والصِّغارَ منهُمْ؛ فخاطبَ الجملةَ بذلكَ لِئَلّا يحرِموا الإناثَ منَ الأولادِ والصغارَ.

وفي قولِهِ أيضاً: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ أي في أولادِ مَنْ ماتَ منكُمْ؛ إذْ لا يَحتمِلُ خطابُ الحيِّ ما ذكرَ في ولَدِهِ. فهذا إنْ كانَ تأويلُ: يُوصي: يَفرِضُ أو يأمرُ، وإنْ كانَ تأويلُ ذلكَ: يُبيِّنُ فذلكَ جائزٌ بعدَ أن يجيزَ الحيُّ ما يُبيِّنُ اللهُ في أولادِهِ بعدَ موتِهِ في مالِهِ. وذلكَ يمنعُ الوصيَّةَ لأنهُ يُزيلُ حقَّ البيانِ، ولِما يُمكِنُ رفعُ القسْمةِ وتحصيلُ/ ٨٠ ـ ب/ الوصيَّةِ على بعضٍ لبعضٍ، وذلك بعيدٌ إذْ لا يملِكُ في غيرِهِمْ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ رأى نسخَ الوصيَّةِ للوارثِ بقولِهِ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ الآية [النساء: ٧] لأنَّ[٦] الآيةَ أوجبَتِ[٧] الميراثَ في ما قلَّ أو كثُرَ. فلو كانتِ الوصيَّةُ تجبُ للوالدَيْنِ بقولِهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الآية [البقرة: ١٨٠] لكانَ الميراثُ لا يَجِبُ في ما قلَّ منهُ، وإنما يجِبُ في ما يفضُلُ منهُ. لكنَّ الآيةَ إذا لم تَمنعِ الوصيَّةَ للأجنبيِّ، وهو يَصرفُ السهمَ المفروضَ إلى ما يفضُلُ منَ الوصيَّةِ، فمثلُهُ للوارثِ. لكنَّ في الآيةِ دلالةٌ على رفعِ الكتابِ؛ إذ في الأولَى أنها كُتبَتْ. فلما أوجبَ الحقُّ في كلِّ قليلٍ وكثيرٍ لم يبْقَ معهُ الفَرْضُ والوجوبُ، ولكنْ يجبُ الفضْلُ.

ثم كانَ حقُّ الوالدَيْنِ ومنْ ذكرَ بحقِّ اللُّزومِ، وقد سقَطَ ذلكَ، وبهِ كانَ يجوزُ. فلمّا سقطَ الحقُّ جاءَ في الخبرِ أنْ «فلا وصيَّةَ لوارثٍ». وقالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ فلا وصيَّةَ لِوارثٍ» [الترمذي ٢١٢١] فسقَطَ الحقُّ بالآيةِ منَ الوجهِ الذي يثبتُ والنقلِ [بقولِهِ: ﷺ][٨]: «فلا وصيَّةَ لوارثٍ».

فمنْ هذا الوجهِ الذي ذكرْتُ يسْقطُ حقُّ الوصيَّةِ بالقرآنِ، لكنْ قد ذُكِرَ للمرأةِ لا بحرفِ الوجوبِ بقولِه: ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠] ثم سقطَ أيضاً بالخبرِ الذي فيه نظرٌ؛ إذْ ليسَ في الآيةِ ذكرُ المرأةِ بما ذكَرَ فيها ميراثَ الأولادِ والأقربينَ، وقد بقيَ حقُّ المَتاعِ، إذْ لهُ أنْ يُوصيَ لغيرِ الورثةِ، لكنْ ذكَرَ في ميراثِ المرأةِ وصيَّةً كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ [البقرة: ٢٤٠] ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]. والوصيَّةُ منهُ مكتوبةٌ على ما للوالدَينِ والأقربينَ. ثم أشركَ الزَّوجينِ في ميراثِ الوالدَينِ والأقربينَ ممّا قلَّ أو كثُرَ، كقولِهِ: ﴿ٱلنِّصْفُ﴾ [النساء: ١١] و﴿ٱلرُّبُعُ﴾ [النساء: ١٢] و﴿ٱلثُّمُنُ﴾ [النساء: ١٢] ممّا تركَ. وقد بيَّنّا أنَّ الآيةَ نسخَتْ ما ذكَرْتُ، فصارَتْ ناسخةً للأمرَينِ جميعاً.

فهذا منْ جهةِ الاستِخراجِ في حقِّ النَّسخِ، على أنها[٩] على مذْهبِنا [أهلَ][١٠] السنةِ كافيةٌ في بيانِ نسخِ الحُكْمِ الذي بيَّنَهُ الكتابُ إذْ هو بيانُ مُنتهَى الحكمِ منَ الوقتِ، وقد جعلَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ بحيثُ البيانُ ممّا في القرآنِ.

---

(١) في الأصل وم: يرثون. (٢) في الأصل وم: ومن يجوز. (٣) من م، في الأصل: وأولاد. (٤) في الأصل وم: أنهم. (٥) في الأصل وم: يرثون. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: أوجب. (٨) من م، الأصل: بقول. (٩) في الأصل وم: أنه. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [فيهِ][١] دلالةٌ أنَّ المالَ كلَّهُ للذَّكَرِ منَ الولدِ إذا لم يكُنْ ثَمَّةَ أُنثى لأنهُ جعلَ للذَّكرِ مثلَي [ما][٢] جعلَ للأنثى، و﴿يُوصِيكُمُ﴾ [النساء: ١١] إذا لم يكنْ معها ذَكَرٌ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء: ١١]. فدلَّ أنَّ للذَّكرِ منَ الولدِ [مثلَي ما][٣] جُعِل للأنثى عندَ الجمعِ، لهُ ذلكَ بحقِّ الكلِّ. ففي حالِ الانفِرادِ لهُ الكلُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قالَ بعضُهم: بَيَّنَ الحقَّ لِما فوقَ اثنتَينِ، ولمْ يُبيِّنْ للاثنتَينِ، ولهما النِّصفُ الذي ذكَرَ للواحدةِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

وأمّا عندَنا فإنَّ للاثنتَينِ ما للثَّلاثِ فصاعداً، فيكونُ بيانُ الحقِّ للثَّلاثِ بيانَهُ[٤] للاثنتَينِ، لأنَّ اللهَ تعالى جعلَ حقَّ ميراثِ الواحدةِ منَ الأخواتِ النِّصفَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] كما جعلَ حقَّ الابنةِ النِّصفَ إذا لم يكنْ معها ذكرٌ بقولِهِ: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]. ثم جعلَ للأختَينِ الثُّلثَينِ بقولِهِ: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦].

فإذنْ نزلَتِ الأخواتُ منزلةَ البناتِ في استِحقاقِ النِّصفِ إذا كانَتْ واحدةً واستِحقاقِ الثُّلُثَينِ إذا كانتا اثْنَتينِ فصاعداً، فعلى ذلكَ نزلَ بيانُ الحكمِ في الأختينِ منزلةَ بيانِ الحكْمِ في الابنَتَينِ. وقيلَ: يفوقُ اثْنَتينِ اثْنَتانِ فما فوقَهُما، وقيلَ: يُبيِّنُ الكتابُ الاستِواءَ بينَ الابنةِ الواحدةِ والأختِ الواحدةِ ليُعلَمَ استِواءُ حقِّ الوالدِ ووالدِ الأبِ.

ثم بَيَّنَ [الحُكْمَ][٥] في الأخواتِ: لِلبِنْتَينِ[٦] ﴿الثُّلُثَانِ﴾ [النساء: ١٧٦] وفي البناتِ لما فوقَهما، ليكونَ الذِّكرُ في الأختَينِ دليلاً على الابنَتينِ، وفي ما كثُرَ منَ البناتِ على ما ذكرَ منَ الأخواتِ. وأيَّدَ ذلكَ أمرُ الاجتِماعِ بينَ البَنينَ[٧] والبناتِ، وإنْ كثُروا بالإخوةِ والأخواتِ، وإنْ كثُروا، معَ ما كانَ معلوماً أنَّ بناتِ الرجلِ أحقُّ من بناتِ أبيهِ[٨]. أيَّد ذلكَ أنَّ بناتِ ابنِهِ قد يرِثْنَ، وبناتِ أبيهِ لا، فلا يجوزُ أنْ تكونَ الأختانِ[٩] أكثرَ حقاً مِنَ الابنَتَينِ، وفي الأغلبِ أنْ يُجعَلَ لهنَّ ميراثُ هؤلاءِ. وأيَّدَ ذلكَ أنهُ ما دامَ يوجدُ في الأولادِ منْ لهُ فرضٌ أو فَضلٌ لم يُصْرَفْ إلى أولادِ الأبِ، ثبَتَ أنهمْ بمعنَى الخلَفِ مِنْ هؤلاءِ. وعلى ما ذكَرَ جاءتِ الآثارُ، واجتمَعَ أهلُ الفتوى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ ﴿إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بالولدِ الذُّكورَ خاصةً، لأنهُ جعلَ للأبوينِ لكلِّ واحدٍ السُّدُسَ إذا كانَ الولدُ ذكراً. أمّا إذا كانَ الولدُ أنثى فللأبِ يكونُ الثُّلُثُ.

وأمّا عندَنا فإنَّ اسمَ الولدِ يجمَعُ الذكورَ والإناثَ جميعاً، فإنهُ إنْ كانَ الولدُ ههُنا ذَكراً أو[١٠] أنثى يُنظَرُ[١١] إنْ كانَ ذَكَراً يكونُ لكلِّ واحدٍ منَ الأبوينِ السُّدُسُ، والباقي للولَدِ، وإنْ كانَ أنثى فلَها النِّصْفُ وللأبَوينِ السُّدُسانِ[١٢]، والباقي للأبِ على ما جاءَ في الخبرِ: «ما أبقَتِ الفرائضُ فلِأولَى رجلٍ ذَكَرٍ» [البخاري: ٦٧٣٢].

وقالتِ الرَّوافضُ: الباقي لِلابنةِ؛ ذهبوا في ذلكَ إلى أنَّ الذي يقابلُ الابنةَ، هو الابنُ، والذي يُقابلُ الأبَ، هي الأمُّ. فالذي يُقابلُ الابنةَ هو أولَى بإحرازِ الميراثِ مِنَ الذي يُقابلُ الأمَّ، وهو الأبُ. فعلى ذلكَ الذي يُقابلُ الابنَ، وهي الابنةُ، أولَى بذلك مِنَ الذي يُقابلُ الأمَّ، وهو الأبُ.

وأمّا عندَنا فإنَّ الأبَ أولَى بذلكَ منَ الابنةِ لأنَّ للأبِ حقَّينِ: حقَّ فريضةٍ وحقَّ عَصَبةٍ. أمّا حقُّ الفريضةِ [فهو][١٣] بقولِهِ: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ وأمّا حقُّ العَصبةِ [فهو][١٤] بقولِهِ ﷺ: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾؛ جعلَ الباقيَ لهُ. فذو حقَّينِ أولَى بذلكَ مِنْ ذي حقٍّ واحدٍ، والابنةُ ليسَ لها إلّا حقُّ الفريضةِ. لذلكَ كانَ الأبُ أولَى. وفي الخبرِ دلالةٌ أنَّ حُكْمَ الابنَتينِ وما فوقَهما سواءٌ، وهو الثُّلُثانِ: ما رُوِيَ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنهُ قالَ: جاءتِ امرأةُ ثابتِ بنِ قيسٍ بابْنَتَينِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: إذا. (٤) في الأصل وم: بيان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: للثلثين. (٧) في الأصل وم: البنتين. (٨) من م، في الأصل: ابنه. (٩) في الأصل وم: الأختين. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: فينظر. (١٢) في الأصل وم: السدس. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ هاتانِ ابْنَتا ثابتِ بنِ قيسٍ، أُصيبَ معكَ يومَ أُحُدٍ، وقد أخذَ عمُّهُما مالَهُما، ولم يدَعْ لهُما شيئاً إلّا أخذَهُ، فما تَرى يا رسولَ اللهِ؟ فواللهِ لا تُنكَحانِ إلّا ولهُما مالٌ، فنزلَ قولهُ تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعَمِّ الجاريتَينِ: «أعْطِهِما الثُّلُثَينِ، وأعْطِ أمَّهُما الثُّمُنَ، ولكَ ما بَقِيَ»[1] [أبو داوود ٢٨٩١].

ثم في الآيةِ دلائلُ: أحدُها[2]: يُخَرِّجُ الخطابُ على العمومِ، والمرادُ منهُ خاصٌّ لأنهُ ذكرَ الأولادَ، والولدُ قد يكونُ على غيرِ دينهِ فلا يرثُ، وقد يكونُ مملوكاً فلا يرثُ على ما رُوِيَ في الخبرِ: «لا يَتوارثُ أهلُ مِلَّتَينِ» [الترمذي ٢١٠٨]. وما رُوِيَ: «لا يرثُ المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ إلّا العبدَ مولاهُ» [الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٤٥]. وذلكَ في الحقيقةِ ليسَ بميراثٍ، ولكنْ ما للعَبْدِ يكونُ لمولاهُ. وفي هذا دليلُ جوازِ الاستِثناءِ مِنْ غيرِ نوعهِ حيثُ استَثْنى العبدَ، وذلكَ في الحقيقةِ ليسَ بميراثٍ[3].

وفي الآيةِ دليلُ[4] جوازِ القياسِ والفكرِ فيها والاعتِبارِ لأنَّ ميراثَ الابْنَتَينِ مُستدَلٌّ عليهِ[5] غيرُ منصوصٍ، وكذلكَ ميراثُ الذكورِ منَ الأولادِ بالانفِرادِ مُستدَلٌّ عليهِ غيرُ منصوصٍ، وما يُحرِزُ الأبُ منَ الميراثِ لِحَقِّ العصَبَةِ مُستدَلٌّ عليهِ لا منصوصٌ، وما يَستحِقُّ بالفريضةِ فهو منصوصٌ عليهِ. وهكذا كلُّ منْ يَستحِقُّ/ ٨١ - أ/ شيئاً بحقِّ الفريضةِ فهو منصوصٌ عليهِ. فدلَّ أنَّ ما تُرِكَ ذِكْرُهُ إنما تُرِكَ لِلاجتِهادِ والتَّفكُّرِ فيهِ والاعْتِبارِ.

وفيهِ دليلٌ[6] أنهُ يجوزُ ألّا يُطلِعَ اللهُ عبادَهُ على الأشياءِ بقولِهِ تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ إذ لم يُبيِّنْ أيُّهُمْ[7] أقربُ نفعاً. دلَّ قولُهُ: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ إذْ ذكرَ وراثَتَهُما، ولم يُبيِّنْ حقَّ الأبِ أنهُ جعلَهُ عَصَبَةً يُرَدُّ إليهِ الفضلُ، فيظهَرُ للأبِ في هذهِ الآيةِ من قولِهِ ﷻ ﴿يُوصِيكُمُ﴾ إلى آخرِها أمرانِ:

أحدُهُما: حقُّ العَصَبَةِ.

والثاني: حقُّ الفرضِ بقولِهِ: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾.

ثم بعدَ هذا فيهِ أمرانِ:

أحدُهُما: أنهُ إذا ثبتَ لهُ حقُّ العصبَةِ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى نَصيبَ الابنةِ أنهُ النِّصفُ، ونصيبَ الأبِ معَ الولدِ أنَّ لهُ السُّدُسَ. فزعَمتِ الشِّيعةُ أنَّ الفضلَ يُرَدُّ إلى الابنةِ لأنها ولدٌ، ولم تَذْكُرْ لهُ مع الولدِ إلّا السُّدُسَ.

وعندنا يُرَدُّ إلى الأبِ لأنهُ لم يَذْكُرْ لِلابْنةِ إلّا النِّصفَ. ثم قد جعلَ الأبَ عَصَبةً في ما، لَهُ حقُّ الفضلِ عنِ المفروضِ، ولم يَجعلِ الابْنةَ، لذلكَ كانَ الرَّدُّ إلى الأبِ أحقَّ معَ ما يَحتَمِلُ إنْ كانَ لهُ ولدٌ ذكرٌ، ثم حُرِمَتِ الأمُّ بالابنةِ إذ هي تُحرَمُ بالأخواتِ، فالبناتُ أحقُّ إذْ هُنَّ أقرَبُ.

والثاني: أنهُ إذْ جعلَ للأبِ السَّهْمَ منْ وجهَينِ، ثم الذي لهُ في أحدِ الوجهَينِ، صارَ للجدِّ دونَ أولادِهِ، وبيَّنَ لأولادِ الأبِ الحقَّ وإبقاءَ حقِّ الجدِّ لما بيَّنَ لولدِهِ. فعلى ذلكَ مالَهُ منَ الوجهِ الثاني، وهو أولَى لأنَّ حقَّ العَصَباتِ يُخرَّجُ على إلحاقِ الأبْعَدينَ فيهِ بالأقرَبينَ، وحقَّ الفرائضِ لا حتى تُبيَّنَ.

ثم فيهِ وجهٌ آخرُ: أنهُ أتبَعَ ذلكَ الذِّكرَ ذِكرَ الزَّوجَتَينِ[8]، وذكَرَهما مع الولدِ، ولم يذْكُرْ معَهُما الوالِدَينِ[9]، فثبتَ أنَّ أمرَهُما يدخُلُ في حالِهِما في ما كانَ لا في حالِهِما أيِ الزَّوجَتينِ[10]. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ: إنهُ بقِيَ حالُهُما مع [الزَّوجَتَينِ[11] معَ الولدِ[12] على ما كانَ عليهِ دونَ الزَّوجتَينِ معهُ، فعلى ذلكَ حالُهُما بلا ولدٍ. وفي ذلكَ وجوبُ صرْفِ حقِّهما إلى ما فضَلَ كما ذكَرَ في قولِهِ: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾، فيكونُ الفضلُ بينَهما على ما كانَ عليهِ بالكلِّ لولا الزَّوجتانِ[13].

---

(١) روي مثل هذا الخبر في تأويل الآية (١٨٢) من سورة البقرة في زوجة ابن الربيع وابنتيه. (٢) في الأصل وم: أحدهما. (٣) من م، في الأصل: ميرات. (٤) هذا هو الدليل الثاني. (٥) في الأصل وم: عليهما. (٦) هذا هو الدليل الثالث. (٧) في الأصل وم: أنهم. (٨) في الأصل وم: الزوجين. (٩) في الأصل وم: الوالدان. (١٠) في الأصل وم: الزوجين. (١١) في الأصل وم: الزوجين (١٢) من م، في الأصل: الوالد. (١٣) في الأصل وم: الزوجان.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ اختُلِفَ في حُكْمِ الآيةِ من أوجهٍ ثلاثةٍ: قالَ بعضُهمْ: لا يَحْجبُ الأمَّ عنِ الثُّلُثِ أخوانِ أو أُختانِ حتى يكونوا[1] ثلاثةً لأنَّ الله تعالى قالَ: ﴿يُوصِيكُمُ﴾، وأقلُّ الإخوةِ ثلاثةٌ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ. وقالَ آخرونَ: يحجُبُ الأمَّ عنِ الثُّلُثِ الذكورُ، ولا تحْجُبُ الإناثُ لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَ الإخوةَ، [والإخوةُ][2] اسمٌ للذكورِ منْهُمْ دونَ الإناثِ، إذِ الإناثُ اسمٌ على حِدَةٍ، وهو الأخواتُ. لذلكَ حجَبَ الذكورَ، ولم يحجُبِ الإناثَ.

وأمّا عندَنا فإنَّ الإخوةَ اسْمٌ للذُّكورِ والإناثِ جميعاً في الحُكْمِ. وإنْ لم يكنِ اسْماً[3] لهُما جميعاً في الحقيقةِ. ألا ترى أنَّ اللهَ تعالى ذكرَ الإخوةَ، ثم جعلَ بالتفسيرِ اسْماً[4] لهُما جميعاً بقولِهِ: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١٧٦] وأنَّ اسْمَ الإخوةِ يجمَعُ الذُّكورَ والإناثَ جميعاً في الحُكْمِ. لذلكَ حجَبَ الأمَّ عنِ الثُّلُثِ ذُكوراً كانوا أو إناثاً؟

وأمّا قولُنا بأنَّ الإثنينِ يحْجُبانِها عنِ الثُّلُثِ ما رُوِيَ عنْ عليٍّ وعبدِ الله وزيدِ بنِ ثابتٍ أنهُمْ قالوا: يحْجبُ الأخوانِ الأمَّ عنِ الثُّلُثِ كما يَحْجُبُها الثلاثةُ، وجعَلوا الأخوَينِ إخوةً، والفرائضُ على اختِلافِها اتَّفقَتْ في أنَّ حُكْمَ الإثنَينِ حُكْمُ الأكثرِ، فكذلكَ في حقِّ الحجابِ، واللهُ أعلمُ.

وحُجةٌ أُخرَى، وهي أنَّ اللهَ تعالى حكَمَ في الكلامِ إذا كانَ واحداً أنَّ لهُ السُّدُسَ، فإنْ كانوا أكثرَ من ذلكَ فهُمْ شُركاءُ في الثُّلُثِ، فجعلَ حُكمَ الإثنَينِ والثلاثةِ واحداً؛ يشتَرِكونَ في الثُّلُثِ، فوجبَ أنْ يكونَ حكْمُ الإثنَينِ والثلاثةِ منَ الإخوةِ في حجبِ الأمّ عنِ الثُّلُثِ سَواءً.

وحُجَّةٌ أخرى، وهي أنَّ اللهَ، تباركَ، وتعالى، جعَلَ للأُختَينِ منَ الأبِ والأمّ الثُّلُثَينِ، وسوَّى بينَ حكْمِ الأُختَينِ والثُّلُثِ في الميراثِ. فعَلى ذلكَ يجبُ أنْ يُسوَّى [بينَ حُكمِ][5] الأخوينِ والثُّلُثِ في حجابِ الأمّ عنِ الثُّلُثِ.

ثم المسألةُ بينَنا وبينَ الروافضِ [في وجوهٍ:

أحدُها:][6] أنَّ الإخوةَ منَ الأمّ يحْجُبون[7] الأمَّ عنِ الثُّلُثِ لأنهمْ منها. فمنَ البعيدِ أنْ يحْجُبوها، ويمْنَعوا ذلكَ عنها، ويجْعَلوا[8] ذلكَ لغيرِها؛ يَضُرُّونَ بالأمّ، وينفَعونَ غيرَها، وقد قالَ: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

والثاني: أنَّ الحِجابَ قد يجوزُ أنْ يقعَ بمنْ يُحصِّلُ لهُ ما حجبَ عنها نحوَ الإخوةِ منَ الأبِ والأمّ إذا حجَبوا الأمَّ عنِ الثُّلُثِ وقعَ لهمْ ذلكَ. وأمّا الإخوةُ منَ الأمّ فإنْ وقعَ لهمُ الحِجابُ لم يجعَلْ لهمْ ذلكَ المحْجوبَ منها، فلا يُحتمَلُ الحجابُ بهمْ. وأمّا عندَنا فإنه ليسَ لهُمْ بحقِّ القُربِ والبُعدِ ما يَحْجُبونَ، ولكنْ بحقِّ الميتِ، فإذا كانَ ما ذَكرْنا فسَواءٌ كانوا منْ قِبَلِ الأمّ أو منْ قِبَلِ الأبِ في حقِّ الحجابِ.

والثالثُ[9]: أنَّ المواريثَ جُعِلَتْ بحقِّ الإبتداءِ لا بحقِّ الوارِثينَ؛ فلا[10] يَحتَمِلُ أنْ يختارَ المورِّثُ منْ هوَ أبعدُ على منْ هو أقربُ نحوُ منْ يموتُ عنِ ابنةٍ وابنِ عمٍّ لا يُحتمَلُ أنْ يختارَ ابنَ العمِّ على الإبنةِ في النِّصفِ الباقي. دلَّ أنهُ على الإبتِداءِ.

ونقولُ في الإخوةِ منَ[11] الأمّ: إنهُمْ في الحجابِ كالإخوةِ منَ الأبِ والأمّ، وإنْ كانَ الحقُّ لغَيرِهمْ لِما أنَّ الإخوةَ لمّا تفرَّقتْ حُقوقُهمْ ذُكِرتْ، وكذلكَ الأولادُ. فلو كانَ الحجابُ يتفرَّقُ لكانَتِ الحاجةُ إلى الذِّكْرِ لازمةً[12]؛ إذْ بَعيدٌ تركُ الأمرِ للنَّظرِ في ما لا أصلَ لهُ في الأثرِ، ولا أصلَ لهُ في هذا بالتفريقِ. بل قد جمعَ ذلكَ بينَ الإخوةِ والأخواتِ على ما في ذلكَ منِ اختِلافِ الحقوقِ [لِميتٍ أنَّ غيرَ الحجابِ منَ الحقوقِ][13] ليسَ بأصلٍ لهُ.

والأصلُ أنَّ ذلكَ لو كانَ على اعْتِبارِ الحقِّ هو بحقِّ الميتِ لا بِحقِّ الأبوَينِ لأنهُ لم يُعرَفْ إيجابُ حقٍّ ممّا لا حقَّ لهُ،

---

(١) في الأصل وم: يكون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: اسم. (٤) في الأصل وم: اسم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يحجب. (٨) في الأصل وم: ويجعلون. (٩) في الأصل وم: والثاني. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: لازم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ولا حقَّ لهُمْ معَ الأبِ، فبانَ أنهُ ليسَ بمُعتبَرٍ حقُّ الميتِ يقعُ بالحجابِ[1]، والمعنى منهُ واحدٌ. ولو كانَ حجابُ الإخوةِ منَ الأبِ بالأبِ لكانَ الأبُ إذَنْ حجبَ الأمَّ. فإذا كانَ هو لا يحجُبُ بانَ أنَّ وُلْدَها لا يحْجُبونَها، إذْ هو بحقِّ الميتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ ذكرَ اللهُ تعالى الوصيَّةَ قبلَ الدَّينِ، وأجمعَ أهلُ العلمِ أنَّ الدَّينَ يُبدأُ بهِ قبلَ الوصيَّةِ والميراثِ. ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ قالَ:][2] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الدَّينُ قبلَ الوصيَّةِ، والوصيَّةُ قبلَ الميراثِ، ولا وصيَّةَ لوارثٍ» [الترمذي: ٢٠٩٤]. وأجمَعوا أنه إذا قُضِيَ الدَّينُ [نُظِرَ][3] إلى أهلِ الوصايا، ووَصاياهُمْ، إنْ جاوزَتِ[4] الثُّلُثَ، تُردُّ[5] إلى الثُّلُثِ، إنْ لم يُجِزِ الورثةُ، ويُقْسَمُ الثُّلُثانِ بينَ الورثةِ على فرائضِ اللهِ تعالى.

وليسَ معنى قولِ اللهِ ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ أنْ يُخرجَ الثُّلُثُ، فيُبْدَأُ بدفعِهِ إلى المُوصَى لهُمْ، ثم يُدْفَعُ الثُّلُثانِ إلى الورثةِ لأنَّ المُوصَى لهُ شريكُ الورثةِ، إنْ هلكَ منَ المالِ شيءٌ قبلَ القِسْمَةِ ذهبَ منَ الورثةِ والمُوصَى لهُ جميعاً، ويبقَى سائرُ المالِ بالشَّرْكةِ بينهُمْ. ولكنَّ معناهُ ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ إعلامٌ أنَّ الميراثَ يجري في المآلِ بعدَ وضعِ الوصيَّةِ منْ جملتِهِ إذا كانَ الثُّلُثُ أو دونهُ، وإنْ لم يَكُنْ دُفِعَ ذلكَ إلى أصحابِ الوصايا.

ثم لم يُذكَرْ في الآيةِ قدْرُ الدَّينِ أو الوصيَّةِ. ومنْ قولِهِمْ: إنَّ الدَّينَ إذا أحاطَ بالتركةِ منعَ الميراثَ والوصيَّةَ، وإذا لم يُحِطْ لم يمْنَعْ. والوصيةُ تَجوزُ قدْرَ الثُّلُثِ، ولا تَجوزُ أكثرَ منَ الثُّلُثِ إلّا أنْ يُجيزَ الورثةُ. والآيةُ لم تخصَّ قدْراً منَ الدَّينِ دونَ قدْرٍ، وكذلكَ الوصيةُ. لكنَّ تفسيرَهُ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الثُّلُثُ/ ٨١ ـ ب/ والثُّلُثُ كثيرٌ» [البخاري ٢٧٤٣] وما رُوِيَ في خبرٍ آخرَ: «أنَّ اللهَ تعالى تصدَّقَ عليكُمْ بثُلُثِ أموالِكُمْ عندَ وفاتِكُمْ زيادةً في أعمالِكُمْ» [أحمد ٦/ ٤٤١] لم يجعَلْ لهُ أكثرَ منْ ذلكَ، وما رُوِيَ في خبرٍ آخرَ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ وعمرَ وعثمانَ ﷺ: (الخُمُسُ اقتِصادٌ، والرُّبُعُ جَهْدٌ، والثُّلُثُ حَيفٌ، ثم الوصيَّةُ جَوازُ الاستِحسانِ، والإفضالُ منَ اللهِ تعالى، والقياسُ يُبطِلُها)؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى لم يُملِّكِ الخلقَ أعيُنَ الأموالِ، وإنما جعلَ الانتِفاعَ لهُمْ بها.

ألا ترى أنهُمْ نُهوا عنْ إضاعَتِها؟ ولو كانَ أعينُ المالِ لهُمْ لكانَ لا معنًى للنَّهْيِ عنْ إضاعتِها. دلَّ أنهُ إنما جعلَ لهُمُ الانتِفاعَ[6] فيها إلى وقتِ موتِهِمْ، وبالموتِ ينقطِعُ الانتِفاعُ بها، فيُنظَرُ منِ الأحقُّ بها بعدَ الموتِ: الغَريمُ صاحبُ الدَّينِ أو الوارثُ وإلا جوازُ الوصيةِ الإفضالُ منَ اللهِ تعالى على عبادِهِ بقولِهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تصدَّقَ عليكُمْ بثُلُثِ أموالِكُمْ [عندَ وفاتِكُمْ»][7] [أحمد ٦/ ٤٤١]. دلَّ هذا الخبرُ أنَّ جوازَها الإفضالُ والاستِحسانُ منهُ إلى عبادِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ يدلُّ على أنَّ ما ليسَ بدَينٍ، ولم يُوصِ بهِ الميتُ فإنهُ لا يخرجُ منْ مالِهِ. ويدخلُ عندَنا في هذا الجنسِ الحجُّ، يكونُ على الرجلِ، والنَّذْرُ والزكاةُ، وأشباهُ ذلكَ ليسَ بشيءٍ منها دَينٌ، فإذا لم يُوصِ الميتُ بها فلا يجِبُ أنْ تُؤدَّى منَ التركةِ إلّا أنْ يُنفِّذَها الورثةُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: هي دَينٌ كسائرِ الدُّيونِ قيلَ له: أرأيتَ إنْ كانَ عليهِ دينٌ وزكاةٌ يُبْدَأُ بالدَّينِ أو تُقْسَمُ التركةُ بالحِصَصِ إذا لم يفِ بذلكَ كلِّهِ؟ فإنْ قالَ: يُبْدَأُ بالدَّينِ قيلَ: لهُ: لو كانتِ الزكاةُ ديناً كدُيونِ الناسِ كانَتْ أُسوتُها في القضاءِ. فإنْ قالَ: أجعلُ الزكاةَ أُسْوةً في القضاءِ معَ الدُّيونِ؟ قيلَ: لهُ: ما تقولُ في رجلٍ أفلسَ، وعليهِ ديونٌ، هل يُقْسَمُ بينَ غُرمائِهِ؟ فإنْ قالَ: نعم قيلَ: فإنْ كانتْ عليهِ زكاةٌ هل يُضرَبُ لها بسَهمٍ؟ فإنْ قالَ: لا قيلَ: كيفَ ضرَبْتَ لها بسهمٍ بعدَ الموتِ لمّا قسَمْتَ مالَهُ، ولم تَضرِب لها بسهمٍ في الحياةِ إنْ كانتْ كسائرِ الدُّيونِ بعدَ الموتِ فيجبُ أنْ تكونَ كسائرِ الدُّيونِ في الحياةِ؟ إلّا أنَّ الزكاةَ حالةٌ واجبةٌ على منْ كانَ عندهُ مالٌ، فحالَ عليهِ الحولُ، فاستَهْلَكَهُ، وليسَ بجوازٍ لهُ تأخيرُ قضاءِ الدَّينِ. وفي إقرارِكَ أنَّكَ تبدأُ بالدَّينِ قبلَ الزكاةِ في الحياةِ دليلٌ على أنهُ يجبُ أنْ يُبدأَ بالدَّينِ قبلَ الزكاةِ بعدَ الموتِ.

فإنْ قيلَ: قولُ رسولِ اللهِ ﷺ للمرأةِ التي سألتْ: هلْ تحُجُّ عنْ أبيها؟ «أرأيتِ لو كانَ على أبيكِ دينٌ، فقضَيتِهِ، ألمْ

---

(١) في الأصل وم: الحجاب. (٢) في الأصل: قال، ساقطة من م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: جاوز. (٥) في الأصل وم: فترد. (٦) من م، في الأصل: الانقطاع. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

تُجزي عنهُ؟» [النسائي ٥/١١٨] يدلُّ على أنَّ الحجَّ دينٌ، قيلَ لهُ: ليسَ فيهِ دلالةُ الوجوبِ عليها، إنما فيهِ دليلُ جوازِ الحجِّ عنِ الميتِ وقبولِهِ إذا كانَ قضاءُ ما هو أوكدُ منهُ من ديونِ العبادِ قضاءً صحيحاً. فالحجُّ الذي هو دونَ ذلكَ في التأكيدِ أحرَى أنْ يقبَلَ، كأنهُ أرادَ هذا، واللهُ أعلمُ.

ودليلٌ آخرُ أنَّ الزكاةَ لا تَجوزُ أنْ تُؤدَّى عنِ الميتِ إذا لم يُوصِ بها لأنَّ الزكاةَ لا تُؤدَّى إلا بِنيَّةِ المُزكِّي، والنيَّةُ عملُ القلبِ، ولا خِلافَ في أنهُ لا يُصلَّى عنِ الميتِ، ولا يُصامُ عنهُ. فلما لم يُجزِ أنْ يُقضَى عنِ الميتِ عملُ الأبدانِ لم يُجزِ أنْ تقومَ نيَّةُ الورثةِ في أداءِ الزكاةِ مقامَ نيَّةِ الميتِ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ ظاهرُهُ أنْ تُقدَّمَ الوصيةُ على الميراثِ. ولكنْ أُجمِعَ أنَّ الابتِداءَ عنْ حقِّ حدِّ الميراثِ، ثم يُوزَّعُ. فَيُخرَّجُ التأويلُ على وجوهٍ.

أحدُها: أنَّ قولَهُ تعالى[1]: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ كأنه سوًى، أي سواءٌ لكُمْ أنْ توصوا [وما][2] أوصاكُمُ اللهُ فيهِ بكذا.

والثاني: أنْ يكونَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ أي من بعدِ ما أوصيتُم، ويكونُ الميراثُ بعدَ الإيصاءِ.

[والثالثُ: يَحتمِلُ][3] ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ أنْ كانَ عليكُمُ الإيصاءُ. والدَّينُ أمرَكُمْ بالمواريثِ، فيكونُ فيهِ نسْخُ قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [النساء: ١٢]. فدلَّتْ هذهِ الآيةُ على حجْرِ بعضِ الوصايا بقولِهِ ﷻ: ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ لكنْ يُحتمَلُ أنْ تكونَ المُضارَّةُ تُبطِلُ الفَضلَ.

[والرابعُ: يَحتمِلُ][4]: ألَّا تُبطَلَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا﴾ [البقرة: ٢٣١] في الرَّجعةِ على إمضاءِ الرَّجعةِ على ذلكَ. لكنَّ الإضرارَ في الرجعةِ مقصودٌ في هذا مفضولٌ، فيُمكِنُ التَّفريقُ بينَ الأمرينِ. فقالَ ﷻ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ١٣] الآيتَينِ[5]، وأوعدَ جهنَّمَ على تعدِّي هذهِ الحدودِ. وهذا لا يُحتمَلُ معَ جوازِ الفضلِ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٨٢] ولو كانَ يجوزُ لكانَ لا يُملَكُ معهُ الإصلاحُ، فثبتَ أنَّ منَ الوصايا ما يبطُلُ مع ما كانَ اللهُ ذكرَ في المواريثِ ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ فلا يُملَكُ إبطالُ فريضةِ اللهِ. وبالإذنِ منهُ يجوزُ فعلُهُ، لذلكَ تَبطُلُ بعضُ الوصايا.[6]

والأصلُ في ذلكَ أنَّ الأموالَ أُنشِئَتْ للأحياءِ، وخُلِقَتْ لمَنافعِ الأحياءِ، فكأنَّهُمْ ملَكوا منافِعَها إلى انْقِضاءِ أجلِهِمْ، ثم صارتْ إلى منْ بهِ ملَكوها، يجعَلُها لمنْ شاءَ، ويضعُها عندَ من يشاءُ. وقد بيَّنَ ﷺ أنها لمَنْ، ومَنْ أحقُّ بها فصارَ المُوصِي كأنهُ أوصى بحقِّ منْ بيَّنَ أنَّ بحقِّهِ فيهِ غيرَهُ، فإنْ تفضَّلَ اللهُ عليهِ في ذلكَ من شيءٍ، وإلّا فذلكَ كسائرِ الأملاكِ التي بُيِّنَتْ أربابُها لم يكنْ لغيرِهِمْ فيها حقٌّ إلّا بجَعْلِ اللهِ أو جعْلِ منْ لهُ.

فعَلى ذلكَ هذا قد جاءَ عنِ اللهِ بيانُ حدِّهِ بعدَ ما بيَّنَتْ هذهِ الآياتُ جعْلَ الحقِّ لهُ إلى الثُّلُثِ؛ فذلكَ له صدقةٌ منَ اللهِ تعالى. وفي الفضلِ إنْ أجازَ المجعولَ، جازَ، وإلّا لا، واللهُ أعلمُ. فَجُعِلَتْ للوصيَّةِ حدّاً، ولم تُجعَلْ للدَّينِ [حدًّا][7] لأنَّ الدَّينَ ممّا يتَّصِلُ بحوائجِهِ في حالِ حياتِهِ؛ إذْ هو يلزَمُ بالأسبابِ التي بها معاشُهُ وغذاؤُهُ، فصارَ مُقدَّماً على المتروكِ في الحُكْمِ. وإنما جُعِلَتِ المواريثُ في المتروكِ معَ ما كانَ الغُرماءُ أحقَّ بمُلْكِهِ في حياتِهِ، يَعجَزُ عنْ كثيرٍ منَ المعروفِ في مرضِهِ بهِمْ. فلو لم يكُنْ لهمُ الحقُّ لامْتَنَعوا منَ المداينَاتِ إلّا بوثائقَ يكونونَ هُمْ أحقَّ بها بعدَ الوفاةِ منَ الورثةِ، أو يمتَنِعونَ منَ المدايَناتِ، وفي ذلكَ تقصيرُ القوتِ والأغذيةِ عنْ مُضيِّ الأجلِ، وهو بهِ مأمورٌ، فَجُعِلَتِ الدُّيونُ كأنها اسْتَحقَّتِ الأملاكَ في حالِ الحياةِ، فلم تَجرِ منهُمُ التركةُ، وليستْ كالعباداتِ لأنها تجبُ في الفُضولِ عنِ الحاجاتِ، والدُّيونُ في الأصولِ، فليستِ العباداتُ بالتي تمنَعُ الوفاءَ بالآجالِ، ولا كانَ بأربابِها تلكَ الضروراتُ، فإنما هي بحقِّ القُرَبِ، وهيَ

---

(١) من م، في الأصل: سبحانه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) المقصود الآيتان [١١ و١٢]. (٦) في الأصل وم: وصاياه. (٧) ساقطة من الأصل وم.

عملُ الأحياءِ. فإذا ماتوا زالَ الإمكانُ، وجرَتْ في الأموالِ المواريثُ. وكذا المعروفُ منَ الدَّينِ المذكورِ في القرآنِ منْ قولِهِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ إنَّ العباداتِ لا تُوصَف بالدُّيونِ، ولا يُفهَمُ منْ إطلاقِ القولِ بالدُّيونِ، فصارتْ بمعنى الفضلِ عنِ الوصايا والدُّيونِ إلى أنْ تُؤجَّلَ، وهو [في][1] الحقيقةِ ألّا يكونَ للمَولَى على عبدِهِ دينٌ، فيكونُ المذكورُ دَيناً في الأفعالِ كما ذُكِرَتِ العِداتُ دَيناً في الأخلاقِ لا في حقيقةِ الذِّمَمِ معَ ما كانتْ هي للهِ، وقد جعلَ اللهُ لهُ فريضةً لأقوامٍ بأعيانِهِمْ، لا يمنعُ عنهُمْ، إلّا بالوصيَّةِ كما جعلَ للمُوصي.

وعلى أنَّ العباداتِ لا تقومُ إلّا بالبيِّناتِ، ولا تُؤدَّى عنْ أحدٍ في حياتِهِ إلّا بأمرِهِ، وإنِ احتُمِلَ قيامُ بعضٍ منها عنْ بعضٍ، وسائرُ الدُّيونِ تجوزُ دونهُ. فعَلى ذلكَ بعدَ الوفاةِ، وإنْ كانَ كلُّ ما يُؤدَّى بهِ، فهو الذي حدثَتْ بهِ الوصيةُ. وقد جاءَ الحدُّ/ ٨٢ ـ أ/ لها معَ ما كانتِ العباداتُ لا تَحْتَمِلُ لحوقَ الأمواتِ ولا الإيجابَ عليهِمْ في أموالِهِمْ، ثبَتَ أنها حقوقُ الحياةِ خاصةً. والدُّيونُ تَحتمِلُ، فهي حقوقُهُمْ في الحالَينِ.

ثم قد ذَكَرَ في الدَّينِ ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ بلِ الدَّينُ أقربُ إلى حرْفِ الثُّنيا. ومعلومٌ أنهُ لا يقعُ منهُ في الديونِ الظاهرةِ المعلومةِ مُضارةٌ بالورثةِ، إنْ كانَ يقعُ يقعُ في الغُرماءِ، إذ تُؤخَذُ منهُ بلا إيصاءٍ، ولا يُحتمَلُ النَّهيُ منْ حيثُ الغُرماءُ لِما فيهِ إلزامُ المكاسبِ في أوقاتِ العجزِ لِقضاءِ الدُّيونِ. فثبتَ أنَّ ذلكَ لا يُعرَفُ منَ الدُّيونِ، وإنما يُرجَعُ فيها إلى قولِهِ، فبطَلَ بالذي ذكرْتُهُ جوازُ إقرارِهِ[2] إلى كلِّ حالٍ لكلِّ أحدٍ، إذْ لا ضررَ يقعُ منْ حيثُ فعلُهُ، فيُرَدُّ. وقد بيَّنّا أنَّ المُضارةَ في هذا تمنَعُ الجوازَ، فثبتَ أنَّ منَ الإقرارِ ما لا يجوزُ، فقالَ أصحابُنا، رحِمَهمُ اللهُ، لا يجوزُ إقرارُهُ لبعضِ الورثةِ وقتَ الإياسِ منْ نفسِهِ لأنهُ وقتُ الإيثارِ والسخاءِ ممّا عندَهُ منَ المالِ، وما أبطلَ وصيَّتَهُ للوارثِ بما يخرُجُ مخرَجَ الإيثارِ.

فنحنُ إذا أجَزْنا إقرارَهُ فيهنَّ لنَظْرَةٍ، لم نمْنعِ الوصيةَ، لا ينْتَفِعُ، بل يذهبُ الكلُّ، وفي الأوّلِ لم يكُنْ يذهبُ، واللهُ أعلمُ.

ثم الأصلُ أنهُ أُجيزَ في الكلِّ بحقِّ الأمانةِ وصيَّتُهُ بحقِّ المِلْكِ، ثم جُعِلَ في وراثةٍ كمَنْ لا مُلْكَ لهُ إذ قد يُقصَدُ بهِ التفضيلُ والتخصيصُ إلى القُربةِ. فعَلى ذلكَ في ما خانَ في الأمانةِ، يُجعَلُ كمَنْ لا أمانةَ لهُ لِما يُخرَجُ على ما بيَّنّا وإسقاطِ الأخيارِ لتوهُّمِ منَ الأمناءِ أوجهٌ[3] في الأحكامِ ومنْ إسقاطِ المعروفِ عنِ الأملاكِ، واللهُ أعلمُ.

وعلى ذلكَ في ما كانتْ عليهِ ديونٌ ظاهرةٌ قد يبقى الضَّررُ[4] بأهلِها لبعضِ منْ لهُ بشأنِهِ غايةٌ، وفي ما بينَهُما حقوقٌ تُوجِبُ الحثَّ[5] على المعروفِ والصلةِ لهُ وقتَ السخاءِ بمالِهِ، وللعِلْمِ [بأنهُ عنِ [الانتفاعِ بهِ][6] عاجزٌ، فيُقِرُّ لهُمْ، ذلكَ يُفهَمُ[7] في الحقوقِ التي ظَهرتْ.

ثم كانتْ عباداتُ الأموالِ قد تُقامُ عنِ الأمواتِ بالأمرِ، ولا تُقامُ عباداتُ الأفعالِ لِوجهَينِ:

أحدُهُما: جوازُ بعضٍ عنْ بعضٍ في أحدِ النوعينِ في ما للعبادِ بلا أمرٍ في الحياةِ. ولا يجوزُ في الآخَرِ، فمثلُهُ العباداتُ بالأمرِ.

والثاني: أنَّ السببَ الذي بهِ تجبُ عباداتُ الأموالِ لا يُجوِّزُ فعلُ ذلكَ حقَّ القيامِ بالأفعالِ. وعلى ذلكَ النِّيّاتُ إذ ليستْ منَ الحقوقِ التي تتَّصِلُ بالأموالِ في شيءٍ منَ الأمورِ، لم يقُمْ بها أحدٌ عنْ أحدٍ. لذلكَ لم يُجوِّزْ إلا بأمرٍ، فيكونُ الأمرُ بالأمرِ لِما أمرْنا بهِ [ناوياً لهُ][8]، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ اختُلِف فيهِ: قالَ بعضُهُم: هذا في الدنيا، وهو أنْ يُلزَمَ الابنُ نفقةَ والدِهِ عندَ الحاجةِ والقيامَ بأمرِهِ، والأبُ يُلزَمُ أنْ يُنفِقَ على ولدِهِ في حالِ صغرِهِ وعندَ الحاجةِ إليهِ والقيامُ بحفظِهِ وتعاهُدِهِ. فإذا كانَ ما ذكرْنا لم يُدْرَ أيُّهُما أقرَبُ نفعاً نفْعُ هذا لهذا؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إفراده. (٣) في الأصل وم: أوجد. (٤) من م، في الأصل: الضرب. (٥) في الأصل وم: البعث. (٦) من م، في الأصل: الانقطاع. (٧) في الأصل وم: يتهم. (٨) في الأصل: ناو، في م: ناوله.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قالَ: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ أنتمْ أيُّ نفعِ [أقربُ إليكُمْ نفعُ](١) الآباءِ أمْ نفعُ الأبناءِ؟ فإنْ كانَ التأويلُ ما ذكرْنا ففيهِ دلالةُ بُطْلانِ شهادةِ الولدِ لوالدِهِ إذا أخبرَ أنَّ هذا نفعَ في مالِ هذا ولهذا في مالِ هذا. فإذا ثبتَ النَّفعُ لم تُقبَلْ شهادةُ منْ ينتفِعُ بشهادتِهِ. ولهذا قالَ أبو حنيفةَ ﷺ: إنهُ(٢) لا يجوزُ للوكيلِ بالبيعِ والشراءِ أنْ يبيعَ مِنْ أبيهِ أو ابنِهِ أو والدتِهِ لِما ينتفِعُ ببيعِهِ منهُ وبالشِّراءِ منهُ. وكذلكَ قالوا: إذا اشترى منْ هؤلاءِ ليسَ لهُ أنْ يبيعَ مُرابحةً إلّا أنْ يُبيِّنَ [أنهُ لا](٣) ينتفِعُ بهِ.

وقيلَ: هذا في الآخرةِ؛ ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ يقولُ: أطوعُكُمْ للهِ منَ الآباءِ والأبناءِ أرفعُكُمْ درجةً عندَ اللهِ يومَ القيامةِ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ يشفعُ المؤمنينَ بعضَهُمْ في بعضٍ. وقيلَ: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ أنتُمْ في الدنيا ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ في الآخرةِ في الدرجاتِ الوالدُ لولدِهِ أمِ الولدُ لوالدِهِ؟ إذْ همْ في الدنيا لا يدرونَ أيُّهُمْ أقربُ لصاحبِهِ نفعاً في الآخرةِ حتى يَرْجوا(٤) في الآخِرةِ؟ قالَ: فإنْ كانَ الوالدُ أرفعَ [درجةً](٥) في الجنةِ منْ ولدِهِ فسيَرْفعُ(٦) اللهُ تعالى إليهِ ولدَهُ في درجتِهِ لتقرَّ بذلكَ عينُهُ، وإنْ كانَ الولدُ أرفعَ درجةً منْ [والدِيهِمْ فسيَرْفعُ](٧) اللهُ تعالى الوالدِينَ إلى الولَدِ في درجتِهِمْ لتقرَّ بذلكَ أعينُهمْ برفعِ الأسفلِ إلى الأعلى والأدْوَنِ إلى الأفضلِ. وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ يعني بإيمانِ الآباءِ ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ يعني الآباءَ ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا في الشفاعةِ، أو لا يُدْرَى ما ذلكَ النَّفعُ؟ وما مقدارُهُ؟ ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ ليسَ على حقيقةِ القربِ، ولكنْ على الكِبَرِ والعِظَمِ [وقد](٨) يتكلَّمُ بهذا قولُهُ: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] ليسَ على أنَّ آيةً أكبرُ منْ أُخرى، ولكنْ على وصفِ الكلِّ منها بالكِبَرِ(٩) والعِظَمِ. فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ على وصفِ كلٍّ منهُمْ بالنَّفعِ على الإعظامِ والإكبارِ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي أوجبُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] أي واجبٌ للمُحسِنينَ، وغيرِهِ منَ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ سمّى اللهُ تعالى المواريثَ فرائضَ لِما ذكرْنا لأنهُ كانَ بإيجابِ اللهِ تعالى لا باكتِسابٍ؛ إذْ لمْ يملِكِ الخلْقُ أعيُنَ هذهِ الأموالِ، ولكنهُ إنما ملَّكَهُمُ المنافعَ منها إلى وقتِ وفاتِهِمْ، إذا ماتوا صارَ ذلكَ المالُ للذي جعَلَ اللهُ لهُ. لذلكَ سمّى اللهُ فرائضَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ببَدْوِ حالِهِمْ وبمعاشِهِمْ ومصالِحِهِمْ وما يصلُحُ لهُمْ وما لا يصلُحُ، ﴿حَكِيمًا﴾ في ما فرضَ منْ قِسمتِها، وبيَّنَها. والحكيمُ هو المصيبُ، واضعُ كلِّ شيءٍ موضِعَهُ. والظالمُ هو واضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ إلى آخرِ ما ذكرَ فيهِ يُرادُ الخُصوصُ. وإنْ كانَ مخرَجُ الخطابِ عامًّا(١٠) لأنَّ الزَّوجَ أوِ الزَّوجةَ، إذا لم يكُنْ على دينِ صاحبِهِ وعلى وصفِهِ لم يَجُزْ بينَهُما التَّوارثُ، دلَّ أنْ ليسَ لأحدٍ الاحتِجاجُ بعمومِ المخرَجِ على ما ذكَرْنا في الولَدِ والوالِدِ والأمِّ وغيرِهِمْ أنهُ إذا لم يكُنْ بعضُهُمْ على وصفِ بعضٍ لم يَجُزْ بينَهُما التَّوارثُ، دلَّ أنّ عمومَ مَخرَجِ الخطابِ لا يدُلُّ على عُمومِ المُرادِ.

ثم الآيةُ معطوفةٌ على ما سبقَ منَ الآياتِ لأنها ذُكِرَتْ بحَرْفِ العطفِ والنَّسَقِ بقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ والرُّبعُ إنْ كانَ لهُنَّ ولدٌ ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ والثُّمنُ إنْ كانَ لكُمْ ولدٌ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾.

بيَّنَ في الآيةِ الأولى ميراثَ الأبِ والأمِّ وميراثَ الأولادِ، ولم يُبيِّنْ ميراثَ الأزواجِ. ثم بيَّنَ في هذهِ الآيةِ، فنسَقَ على الأوَّلِ؛ دلَّ أنَّ الأزواجَ والزَّوجاتِ إذا كانوا معَهُمْ فإنَّ الحُكْمَ لا يختلِفُ فيهِمْ: يكونُ للأمِّ ﴿الثُّلُثُ﴾ إذا لم يكُنْ هنالكَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ان. (٣) في الأصل وم: لانه. (٤) في م: يرجعوا. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: رفع. (٧) في الأصل وم: والده رفع. (٨) من م، في الأصل: دون. (٩) من م، في الأصل: والكبر. (١٠) في الأصل وم: عام.

[ولدٌ][1] ولا اثنانِ منَ الإخوةِ والأخواتِ فَصاعداً، و﴿ٱلسُّدُسُ﴾ إنْ كانَ لهُ ولدٌ أوِ اثنانِ من الإخوةِ والأخواتِ؛ يكونُ لها مع هؤلاءِ ثُلُثُ ما بقِيَ حينَ نَسَقَ هذهِ على الأولى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ اختُلِفَ في الكَلالةِ: قالَ بعضُهُمْ: الكَلالةُ الميتُ الذي لا ولَدَ لهُ ولا والدَ؛ وعنِ الحسنِ، رحمةُ اللهِ عليهِ، أنهُ قالَ: (الكَلالةُ الإخوةُ والأخواتُ منَ الأبِ والأمِّ) أو (الإخوةُ والأخواتُ منَ الأمِّ) أو (الإخوةُ والأخواتُ منَ الأبِ). ذهَبَ في ذلكَ إلى ما ذُكِرَ في آيةٍ أخرى قولُهُ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ/ ٨٢ ـ ب/ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] إلى آخِرِ ما ذكَرَ.

والنِّصفُ إنما يكونُ للأختِ منَ الأبِ والأمِّ أو الأختِ منَ الأبِ. وذلكَ تفسيرُ الكَلالةِ؛ دلَّ أنَّها الإخوةُ والأخواتُ منَ الأبِ والأمِّ [أو منَ الأبِ][2]. ورُوِيَ عن أبي بكْرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (الكلالةُ ما خَلا الولَدَ والوالِدَ)، ورُوِيَ عن عمرَ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (أتى عليَّ زمانٌ، وما أدري ما الكَلالةُ؟ ألا إنَّ الكَلالةَ ما لم يكُنْ لهُ ولدٌ ولا والِدٌ). وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: (الكَلالةُ ما خَلا الولدَ والوالِدَ). ورُوِي عنْ أبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنه أنهُ قالَ في خطْبَتِهِ: (ألا إنَّ الآيةَ التي أنزلَها اللهُ تعالى في أوّلِ سورة النساءِ في مِثالِ الفرائضِ أنزلَها في الولدِ والوالِدِ[3]، والآيةَ الثانيةَ[4] أنْزلَها في الزوجِ والمرأةِ والإخوةِ منَ الأمِّ، والآيةَ التي ختَمَ بها سورةَ النساءِ أنْزَلَها في الإخوةِ منَ الأبِ والأمِّ، والآيةَ التي في سورةِ الأنفالِ في: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٧٥] في ما جرَتْ في الرَّحِمِ منَ العَصَبَةِ).

ورُوِي عنْ عمرَ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (الكلالةُ اسْمٌ يقعُ على الإخوةِ منَ الأبِ، ويقَعُ على الإخوةِ منَ الأبِ والأمِّ)، وهو ما ذكَرْنا في قولِ أبي بكرٍ الصِّدّيقِ وعمرَ رضي الله عنهما أنَّ الكَلالةَ ماعدا الولدَ والوالدَ، فكانوا يذهبونَ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الأعمامَ وبَني الأعمامِ يرجِعونَ في النَّسبِ معَ الميتِ إلى جدِّهِ، وقد تَكَلَّلَهمُ الأبُ والأمُّ، إلّا أنَّهُمْ لمّا كانوا أبْعدَ في النَّسبِ معَ الميتِ إلى جدِّهِ، وقد تَكَلَّلَهُمْ أبو الأمِّ، فسبيلُهُمْ في ذلكَ سبيلُ الإخوةِ والأخواتِ الذينَ تَكَلَّلَهُمُ الأبُ والأمُّ، إلّا أنهمْ لمّا كانوا أبْعدَ في النَّسبِ منَ الإخوةِ والأخواتِ لم يرِثوا معهُمْ، فأجْمَعوا أنَّ معنَى قولِ اللهِ عز وجل: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ [النساء: ١٧٦] في الأختِ منَ الأبِ والأمِّ ومنَ الأبِ إذا ماتَ الرجلُ، ولا ولَدَ لهُ، ذكَرٌ أو أنثى، تُعطَى الأختُ النِّصفَ تسميةً.

فقالَ قومٌ منَ الشيعةِ: الآيةُ تدلُّ على أنهُ إنْ تركَ ابْنةً وأختاً فإنّ[5] المالَ كلَّهُ لِلابْنةِ، ولا شيءَ للأختِ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَ لها الميراثَ إذا لم يكنْ لهُ ولدٌ، فسوّى الذَّكرَ والأنثى منَ الأولادِ. وليسَ الأمرُ كما قالوا لأنّا إذا جعلْنا لِلابْنةِ النِّصفَ، وجعلْنا ما بقِيَ للأختِ، فلم نُعطِها ما أعطيناها بالتَّسميةِ.

ألا تَرى أنهُ لو كانَتا أختَينِ كانَ لهما عندَنا ما بقِيَ؟ ولو جعَلْنا ذلكَ لهُما تَسميةً أعطيناهُما الثُّلثَينِ لأنَّ اللهَ تعالى جعلَ [لهما الثُّلثَينِ بالتَّسميةِ، وليسَ سبيلُ ما تأخذُهُ الأختُ بالتَّسميةِ لأنه يُنقِصُ فيهما شيئاً مما تأخذُهُ منَ الباقي بغيرِ تَسْميةٍ.

ألا ترى أنَّ][6] اللهَ تعالى جعلَ للأبوَينِ السُّدُسَينِ معَ الولدِ؟ فإنْ كانَتِ ابنةً وأباً فلهُما النِّصفُ، وما بقِيَ للأبِ، فقدْ أعطينا الأبَ أكثرَ ممّا سمّى اللهُ تعالى، ولكنّا لم نُعطِهِ الزيادةَ بالتَّسميةِ، فلم يَلْزَمْنا الخلافُ في زيادتِهِ.

فإنْ خالَفونا في ذلكَ نَقْلٌ[7]: قد سبَقَ لذلكَ جوابُ ما يدُلُّ على أنَّ الأبَ بالباقي أولَى منَ الابنةِ. لذلكَ لم نذكُرْهُ في هذا الموضعِ. فإنْ قالَ [قائلٌ][8]: الابنةُ أولَى بما زادَ على النِّصفِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] فكانَتِ الابنةُ أحقَّ بذلكَ منْ غيرِها قيلَ لهُ: إنَّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ إنما أوجبَ أنهُمْ أولَى ببعضٍ منَ الأجنبيِّينَ. بيَّنَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦] لأنهمْ كانوا يَتوارَثونَ

(١) من: م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) المقصود الآية (١١). (٤) المقصود الآية (١٢). (٥) في الأصل وم: ان.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: قيل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

بالهجرةِ، فنسَخَ اللهُ ذلكَ، وجعلَ الميراثَ لِذوِي القرابةِ. وليسَ في الآيةِ دليلٌ على أنَّ الغريبَ أولَى بالميراثِ ممَّنْ هو أبعدُ منهُ في القرابةِ.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ﴾ [النساء: ١٧٦] يقولُ، واللهُ أعلمُ، : الأخُ منَ الأبِ يرثُ الأختَ المالَ كُلَّهُ، إنْ لم يكُنْ لها ولَدٌ، وتَرِثُ منَ الأخِ النِّصفَ، إذا كانَ هو الميتَ. وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ [النساء: ١٧٦] فأجمَعوا أنَّ الرجلَ والمرأةَ إذا ماتَ أحدُهُما، وتركَ أخاً وأختاً، فما زادَ على ذلكَ من الذكورِ والإناثِ كانَ الميراثُ بينَهُمْ ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١]. فهذا ما نصَّ اللهُ تعالى عليهِ في فرائضِ المواريثِ. وقد تكلَّمَ أهلُ العلْمِ في الردِّ والعَولِ وميراثِ ذوي الأرحامِ. فأمّا ميراثُ ذَوي الأرحامِ فإنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥ و...].

فمَنْ زَعَم أنَّ المالَ لبيتِ المالِ، فلمْ يجعَلْ بعضَ الأرحامِ أولَى ببعضٍ [بل جعَلَ الغُرباءَ [أولَى][1] بالميتِ منْ أولي الأرحامِ][2]، فكانَ قولُ المُورِّثينَ عندَنا أولَى، وهو قولُ عمرَ وعليٍّ وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ وجماعةٍ منَ الصحابةِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، إلّا زيدَ بنَ ثابتٍ ﷺ فإنهُ جعَلَ ذلكَ لبيتِ المالِ.

فإنْ قيلَ: إنَّ قولَ اللهِ [ﷻ][3]: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥ و...] إنما هو في منْ سوَّاهُ اللهُ بهِمْ؛ ما قيلَ في الخبرِ دليلٌ أنهُ في غيرِ الذينَ سمّى اللهُ لهُمْ سِهاماً: ما رُوِيَ عن عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ أنهُ كتبَ إلى أبي عُبيدةَ بنِ الجرّاحِ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ ورسولهُ وَليُّ منْ لا وليَّ لهُ، والخالُ وارثُ منْ لا وارثَ لهُ» [الترمذي ٢١٠٣]. ورُوِيَ أيضاً أنَّ عمرَ ﷺ قَضى للخالةِ بالثُّلُثِ والعمَّةِ الثُّلثينِ، وعنْ زِرِّ بنِ حُبيشٍ عن عمرَ ﷺ أنهُ قسمَ الميراثَ بينَ العمَّةِ والخالةِ، وعنْ عبدِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ في العمَّةِ: (للعمَّةِ الثُّلثانِ وللخالةِ الثُّلُثُ). فأخذَ عُلماؤنا في ذلكَ بما رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ وعنِ الأجلَّةِ منَ الصحابةِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ. وكانَ ذلكَ مُوافِقاً لظاهرِ الآيةِ وعُمومِها، وكانَ اتِّباعُ ذلكَ عندهُمْ أولَى منْ غيرِهِ.

فأمّا الكلامُ في العَولِ فإنَّ ابنَ عباسٍ ﷺ كانَ يُنكِرُهُ، ويقولُ: (لا تَعولُ الفريضةُ)، وكانَ عليٌّ ﷺ وعبدُ اللهِ وزيدُ بنُ ثابتٍ يقولونَ بقولِ الفرائضِ. ورُوِيَ عنِ الحارثِ [أنهُ][4] قالَ: (ما رأيتُ أحداً قطُّ أحسبَ منْ عليٍّ ﷺ؛ أتاهُ آتٍ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ رجلٌ ماتَ، وتركَ ابْنَتيهِ وأبَويهِ وامرأتَهُ، ما لامْرأتِهِ؟ قالَ: صارَ ثُمُنُها تُسعاً)، وكانَ ابنُ عباس ﷺ يكرَهُ أنْ يُنقِصَ الأبَ منَ السُّدُسِ. وقد يُسمِّي اللهُ تعالى له السُّدُسَ. ثم لم يَقْضِ[5] على هذا الأصلِ لأنهُ قالَ في الابْنَتَينِ وأبوَينِ وامرأتِهِ (للمرأةِ الثُّمنُ، وللأبوينِ السُّدُسانِ، وما بَقِي فَلِلابنَتَينِ)، فنقصَ الابنَتَينِ ممّا سمَّى اللهُ لهُما. فلِمَ كانَتا[6] أولَى بالنُّقصانِ كلِّهِ منْ غيرِهما؟ وسائرُ الصحابةِ أدخلوا النُّقصانَ على كلِّ وارثٍ بقدْرِ نَصيبهِ لئلّا يلْحَقَ النُّقصانُ على أحدٍ، ويأخُذَ البقيَّةُ كمالَ نَصيبِهِمْ، وجعَلوا ذلكَ كقومٍ أوصيَ لهُمْ بوصايا تتجاوزُ الثُّلُثَ إذا جُمِعتْ؛ فالحُكمُ أنْ يُقسَمَ الثُّلُثُ بينَهمْ بالحِصَصِ، وكقومٍ صحَّ لهُمْ دَينٌ على ميتٍ، وتَرِكتُهُ لا تَفي بذلكَ، فهُمْ جميعاً أُسوةٌ يلْحَقُ كلَّ واحدٍ منهُمُ النُّقصانُ بقَدْرِ حِصَّتِهِ.

وأمّا الرَّدُّ فإنَّ عليّاً ﷺ [وعبدَ اللهِ ﷺ][7] قالا بهِ على اختلافِهِما في منْ يُرَدُّ عليهِ وسبيلِ ذوي الأرحامِ لأنَّ ذا الرَّحِمِ بباقي المالِ أولَى منَ الأجنبيِّينَ بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥ و..] فمنْ لا رَحِمَ لهُ فلا حقَّ لهُ غيرُ سهْمِهِ. وليسَ في الزوجِ والزوجةِ خِلافٌ، وبيَّنَ أهلُ العلْمِ أنهُ لا يُرَدُّ عليهِما، ولأنَّ في الآيةِ الرَّدَّ على غيرِهِ من أهلِ السهامِ، ومُنِعَ الرَّدُّ عليهِما لأنهُ ﷻ ذكَرَ للأبوينِ السُّدُسينِ إذا كانَ/ ٨٣ ـ أ/ لهُ ولَدٌ وسمَّى للأمِّ الثُّلُثَ، ولَمْ يُسمِّ للأبِ شيئاً، فَيُرَدُّ الباقي عليهِ، وكذلكَ سمَّى للذُّكورِ منَ الأولادِ معَ الإناثِ نَصيباً بقولِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ

(١) ساقطة من م. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: تعالى. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يمض. (٦) في الأصل وم: كانت. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ولم يُسمِّ لهُمْ شيئاً في حالِ الإنفِرادِ، فَيَرُدُّ الكلَّ عليهِمْ. ولم يزَلْ للزَّوجَينِ ذِكْرُ تَسْمِيةِ سِهامِهِما في حالٍ، بل ذَكَرَ سِهامَهُما في الأحوالِ كلِّها: في حالِ الولَدِ وفي حالِ الذي لا ولَد لهُ؛ فلِذلكَ منَعَ دليلَ الرَّدِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ومرَّةً ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حتى يُعلَمَ أنهما واحدٌ. ثم ذكرَ المُضارَّةَ في ميراثِ الإخوةِ والأخواتِ، ولم يَذْكُرْ في الولَدِ والوالِدِ والزوجِ والزوجةِ. فهوَ، واللهُ أعلمُ، يحتمِلُ وجهَينِ: يحتمِلُ أنهُ ذكَرَ في هذا لأنهُ بهِمْ ختَمَ المواريثَ، فتكونُ تلكَ المُضارَّةُ؛ كانَتْ كالمَذْكورةِ في الأولادِ أو الوالِدِينَ والأزواجِ؛ إذْ بذلكَ ختَمَ. ويَحتمِلُ أنهُ ذكَرَ هَهُنا المُضارَّةَ، ولم يذْكُرْ في ما ذكَرْنا لِما في الطَّبعِ يقصِدُ الرجلُ إلى مُضارَّةِ الأخِ والأختِ، ومَنْ بَعُدَ منهُ، ولا يقصِدُ في المُتعارَفِ إلى مُضارَّةِ الآباءِ والأولادِ ومنْ ذكَرْنا. فإذا جاءَ النَّهيُ في مُضارَّةِ من يقصِدُ الرجلُ مُضارَّتَهُ فَلأَنْ يُنْهَى عنها في ما لا يقصِدُ بالطَّبعِ أحقُّ.

ثم بيانُ المُضارَّةِ في الوصيّةِ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قولُهُ[1]: «الثلثُ والثلُثُ كثيرٌ» [البخاري ٢٧٤٣] وقولُهُ: «إنكَ إنْ تدَعْ ورثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ منْ أنْ تدعَهُمْ عالةً يتكفَّفونَ» [البخاري ٢٧٤٢] وما رُوِيَ عن أبي هُريرةَ ﷺ قولُهُ[2]: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الرجلَ لَيعمَلُ عمَلَ الخيرِ سِتِّينَ سنةً، فإذا أوصَى خانَ في وصيَّتِهِ، فيُخْتَمُ لهُ بشرِّ عملِهِ، فيدخُلُ النارَ، وإنَّ الرجلَ لَيعمَلُ عملَ أهلِ الشَّرِّ سنةً، فيعدِلُ في وصيَّتِهِ، فيُخْتَمُ لهُ عملُهُ، فيدخُلُ الجنةَ» [أحمد ٢/ ٢٧٨]. ثم يقولُ أبو هُريرةَ ﷺ: (اقرَؤوا إنْ شِئتُمْ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ و١٤] وما رُوِيَ: (الثُّلُثُ حَيفٌ)، وما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ قولُهُ[3]: (لا ضِرارَ في الوصيَّةِ منَ الكفارِ). ثم قرَأ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٤] إلى [آخِرِ ما][4] قالَ في الوصيَّةِ، وقولُهُ ﷺ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢].

ثم الإضرارُ قد يكونُ أيضاً: إذا أوصَى لوارِثٍ، ولم يُوصِ للباقِينَ لأنهُ أضرَّ بهِ بالوصيَّةِ لبعْضِ ورثَتِهِ الباقينَ، فلا فَرْقَ [بينَ أنْ يُضِرَّ بعْضَ الورثةِ وبَيْنَ][5] أنْ يُضِرَّ الورثَةَ كلَّهُمْ. ففيهِ دليلُ بُطلانِ الوصيَّةِ لبعضِ الورثةِ دونَ بعضٍ. ثم الإضرارُ قد يكونُ بالدَّينِ على ما يكونُ بالوصيَّةِ لأنهُ إذا أقرَّ المريضُ لبعضِ الورثةِ بدَينٍ فإنَّ إقرارَهُ لا يجوزُ كما لا تجوزُ وصيَّتُهُ. والإقرارُ بالدَّينِ أحقُّ ألّا يجوزَ منَ الوصيَّةِ لأنَّ الإقرارَ في المَرَضِ جوازُهُ بحقِّ الأمانةِ؛ إذ يجوزُ جوازَ الشَّهادةِ، والشَّهادةُ أمانةٌ، والوصيَّةُ جوازُها بحقِّ المِلْكِ؛ فإذا بطَلَتِ[6] الوصيَّةُ لوارثِهِ، فإقرارُهُ لهُ في المرضِ أحقُّ أنْ يَبْطُلَ. وعلى ذلكَ إذا كانَ عليهِ دَينٌ في الصِّحَّةِ، فأقرَّ بدَينٍ، فغُرماءُ الصحَّةِ أولَى بدَينِهِمْ منْ غُرماءِ المَرَضِ، لأنَّ في ذلكَ إضراراً بغُرماءِ الصحَّةِ لأنَّ دَينَهُمْ قد تعيَّنَ في مالِهِ، وتحوَّلَ منَ الذِّمَّةِ إلى التَّرِكَةِ.

الا ترَى أنهُ ليسَ لهُ أنْ يقضيَ غَريماً دونَ غريمٍ؟ فإذا كانَ ما ذكَرْنا لم يكُنْ لهُ قسمةُ المالِ بينَ غُرماءِ الصحَّةِ وبينَ منْ[7] أقرَّ لهُمْ بالدَّينِ في المرضِ، إذْ فيهِ الإضرارُ بهِمْ، إذْ تعيَّنَ حقُّهمْ، فلا فَرْقَ أنْ يَكْسِبَ الضَّررَ على الوارثِ وبيْنَ أنْ يُكْسِبَ الضَّررَ على الغُرماءِ. فإذا باعَ شيئاً بقيمتِهِ في المرضِ، أوِ استقرضَ، فإنهُ يجوزُ، ويُبدأُ بهِ لأنهُ يعمَلُ للغُرماءِ إذْ تُقضَى دُيونُهمْ ممّا أخذَ، وإذا تزوَّجَ، أوِ استأجرَ، فيكونُ أُسوةَ الغُرماءِ لأنهُ لم يعمَلْ لهُمْ، إنما يعمَلُ لنفسِهِ، وليس فيهِ[8] اكتسابُ الضَّررِ على الغُرماءِ، فيكونُ أُسوةً. ثم إذا أضرَّ لم يَجُزْ، ويُرَدُّ ذلكَ الضَّررُ، ويُنسَخُ[9]. فإنْ قيلَ: إنَّ الرجلَ قد يُنْهَى عنِ الإضرارِ في نفسِهِ ومالِهِ، ولو فَعَلَ، يجوزُ، قيلَ: إنَّ الإضرارَ إذا حصَلَ في ملكِهِ أو في نفسِهِ يُنْهَى، ويجوزُ لأنهُ لم يَضِرَّ غيرَهُ، وإذا حصَلَ في ملكِ غيرِهِ لم يُجزْ، ويُرَدُّ. وههنا إنّما حصلَ في مُلكِ الورثةِ والغُرماءِ، لذلكَ بطَلَ. ولا يُوصَى بأكثرَ منَ الثُّلثِ، ولا يُوصَى لوارثٍ، ولا يُقَرُّ بحقٍّ[10] عليهِ مُضارَّةٌ للورثةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الذي[11] نَهى عنِ المُضارَّةِ وصيّةٌ، ويَحتمِلُ الذي فَرَضَ عليهِمْ منَ المواريثِ ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وفريضةً منه، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: آخره. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بطل. (٧) من م، في الأصل: ما. (٨) من م، في الأصل: منه. (٩) من م، في الأصل: ويصبح. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: ليس. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: أي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمنْ ضارَّ الوارثَ، وزادَ على الثُّلُثِ، وبمَنْ [لَمْ][1] يُضارَّ ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعجِّلُ بالعقوبةِ على منْ ضارَّ. ويَحتمِلُ العَليمُ والحَليمُ أنْ يكونا سواءً لأنَّ ضِدَّ [العَليمِ السَّفيهُ][2]، وكذلكَ الحليمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: فَرائضُ اللهِ التي أمرَكُمْ بها منْ قِسمةِ الميراثِ، وتَحتمِلُ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ ما حدَّ لَنا حتى لا تَجوزَ مُجاوزَتُها لا لِما فُهِمَ منْ حدِّ الخَلْقِ؛ كيفَ فُهِمَ منْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و..] و﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ما فُهِمَ مِنِ اسْتِواءِ الخلْقِ. فإذا لم يُفْهَمْ منْ حُدودِ اللهِ ما فُهِمَ منْ حدِّ الخَلْقِ لم يَجُزْ أنْ يُفْهَمَ مِنِ اسْتِواءِ اللهِ ما يُفْهَمُ مِنِ اسْتِواءِ الخلْقِ، وكذلكَ لا يُفْهَمُ منْ رُؤْيةِ الرَّبِّ ما يُفْهَمُ منْ رؤْيةِ المخْلوقِ، ولا يُفْهَمُ منْ مَجيئِهِ مَجيءُ الخلْقِ ولا منْ نُزولِهِ نُزولُ الخلْقِ على ما لمْ يُفْهَمْ منْ قولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ حُدودُ الخلْقِ: أنهُ[3] لا فَرْقَ بينَ هذا وبينَ الأوّلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أوامِرُهُ ونواهِيهِ وما حرَّمَ، وأحَلَّ.

والثاني:[4] حُدودُ شيءٍ منْ ذلكَ، فيَرجِعُ تأويلُ الأوَّلِ إلى نفسِ العباداتِ والثاني إلى نِهاياتِ العباداتِ.

والمعروفُ منَ الحدودِ التي تُنسَبُ إلى الخلْقِ وجهانِ:

أحدُهُما: نهايةُ المنْسوبِ إليهِ، وذلك حقُّ حدِّ الأعيانِ.

[والثاني: الأثَرُ][5] الذي يُضافُ إليهِ؛ وذلكَ حدُّ الصفاتِ: أنْ[6] يُقالَ: حدُّ الفعلِ كذا، وحدُّ البصَرِ والسَّمْعِ يُرادُ بهِ الأثَرُ الذي بهِ يُعرَفُ، أو هنالكَ ما ذُكِرَ. ثم لم تكُنِ الحدودُ التي أضيفَتْ إلى اللهِ ﷻ على واحدٍ منَ الوجهَينِ اللَّذينِ يُضافانِ[7] إلى الخلْقِ إذْ قد ثبَتَ بضرورةِ العقْلِ وحُجَجِ السَّمْعِ تعاليهِ عنِ المعاني التي هُنَّ معاني خلْقِهِ. فعَلى ذلكَ ما أُضيفَ إليهِ منْ طريقِ العقلِ منَ الاسْتِواءِ والمجيءِ والرُّؤْيةِ لم يَجُزْ في ذلكَ تصويرُ المعنى الذي في إضافةِ ذلكَ إلى الخلْقِ يكونُ بما في ضَرورةِ العقْلِ والسَّمْعِ جلالُهُ وكبْرِياؤُهُ عنْ ذلكَ المعنَى، وباللهِ العِصمةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قيلَ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في أداءِ فرائضِهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾ إلى آخرِ ما ذُكِرَ. وقيلَ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في ما أمَرَ، ونَهى، وأطاعَ رَسولَهُ في أمرِهِ ونهْيِهِ فلهُ ما ذكَرَ. وقيلَ: إذا أطاعَ اللهَ فقدْ أطاعَ رَسولَهُ، وإذا أطاعَ رَسولَهُ فقدْ أطاعَ اللهَ تعالى، وهو واحدٌ، كقولِهِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ تعالى في ما أمَرَ، ونَهى، وحرَّمَ، وأحَلَّ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في ما بلَّغَ، وبيَّنَ. وقيلَ: ذا[8] ليسَ بتفريقٍ، لكنْ مَنِ الذي يُطيعُ اللهَ هو الذي يُطيعُ رَسولَهُ لأنهُ إلى طاعةِ اللهِ دعاهُ، [وفي عبادتِهِ رغْبَهُ][9]، فتكونُ طاعتُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وكقولِهِ سبحانَهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١].

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ وهذا/ ٨٣ ـ ب/ كذلكَ أيضاً إذا عَصى اللهَ فقد تعَدّى حُدودَهُ، ومنْ تعدَّ فقدْ عَصى اللهَ، ومنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ في ما لم يرَ أمْرَهُ أمْراً ونهْيَهُ نهْياً، ويتعَدَّ حُدودَهُ وشرائِعَهُ، أي لمْ يرَها حقاً ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ﴾ ما ذكَرَ.

الآيتان ١٥ و ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ قيلَ: كانَ هذانِ الحُكْمانِ في أوَّلِ الإسلامِ: الأوَّلُ منهما للمرأةِ، والثاني: للرجلِ، وقيلَ: إنَّ آيةَ الأذى

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: الحكيم سفيه، في م: الحليم سفيه. (٣) في م: إذ. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) في الأصل: والباقي الآت، في م: والباقي الأثر. (٦) من م، في الأصل: إذ. (٧) في الأصل وم: يضاف. (٨) في الأصل وم: ذي. (٩) في الأصل وم: وعلى عبادته رغب.

كانَتْ في الرجلِ والمرأةِ، وآيةَ الحبْسِ كانَتْ في حبْسِ المرأةِ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ آيةُ الأذى في البِكْرِ في الرجلِ والمرأةِ جميعاً، وآيةُ الحبْسِ في الثَّيِّبِ في الرجلِ والمرأةِ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ آيةُ الأذى في الرجالِ خاصةً في ما يأتي الذُّكَرُ ذكَراً على ما كانَ منْ فعْلِ قومِ لوطٍ، وآيةُ الحبْسِ في الرجالِ والنساءِ جميعاً.

فإنْ كانت[1] آيةُ الأذى في الرجالِ خاصةً ففيها حُجّةٌ لأبي حَنيفةَ ﷺ حينَ لم يُوجِبْ على منْ عمِلَ عمَلَ قولِ لوطٍ الحدَّ، ولكنْ أوجَبَ التَّعْزيرَ، والأذى، هو منسوخٌ، إنْ كانَ في هذا، وإنْ كانَتْ في الأوَّلِ فهي منسوخةٌ.

ثم اختُلِفَ بما بهِ نسْخُ؛ فقالَ قومٌ: نُسِخَ بقولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. لكنْ عندَنا: هذا يُجوِّزُ أنْ يجمَعَ بينَ حُكْمَيهِما، فكيفَ يكونُ بهِ النَّسْخُ؟ ولكنْ نُسِخَ عندَنا بالخبَرِ؛ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: «خُذوا عنّي، خُذوا عنّي، قد جعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلاً: البِكْرُ بالبِكْرِ والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ، البِكْرُ يُجلَدُ، ويُنْفى، والثَّيِّبُ يُجلَدُ، ويُرجَمُ» [مسلم ١٦٩٠] ففيهِ دليلُ حُكْمِ نسْخِ القرآنِ بالسُّنَّةِ. فإنْ قيلَ: في الآيةِ دليلُ وعْدِ النَّسْخِ بقولِهِ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فإنما صارَ منسوخاً بما وعَدَ اللهُ في الآيةِ منَ النَّسْخِ لا[3] بالسُّنَّةِ. وقيلَ: ما منْ آيةٍ أو سُنَّةٍ، كانَ منْ حُكْمِ اللهِ النَّسْخُ، إلّا والوعدُ فيهِ النَّسْخُ، وإنْ لم يكنْ مذكوراً؛ لأنَّ اللهَ ﷻ لا يجْعَلُ الحكْمَ في الشَّيءِ للأبَدِ، ثم ينْسَخُ، لأنهُ بَدْوٌ، وذلكَ فِعْلُ البشَرِ لا فِعْلُ الرُّبوبيَّةِ. فإذا كانَ ما ذكَرْنا فلا فرْقَ بينَ أنْ ينْسخَهُ الوَحْيُ[4]، يكونُ قُرْآناً يُتْلى، [والسنَّةُ، فيها][5] أخبارٌ كثيرةٌ. رُوِيَ أنهُ رُجِمَ ماعزٌ إذْ أقرَّ بالزِّنى مِراراً، ورُجِمَ أيضاً غيرُهُ: [بما رُوِيَ أنَّ رجلاً عسَفَ آخَرَ، فزَنى بامرأتِهِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ][6]: «سأقْضي بينَكُما بكتابِ اللهِ تعالى» وقالَ [رَسولُ اللهِ ﷺ][7]: «واغْدُ يا أنيسُ على امْرأةِ هذا؛ فإنْ هيَ اعْترَفَتْ فارْجُمْها» [البخاري ٢٦٩٥ و٢٦٩٦].

وعنْ عمرَ ﷺ أنهُ قالَ: (خَشيتُ أنْ يَطولَ بالناسِ زمانٌ حتى يقولَ قائلٌ: ما نَجِدُ الرَّجْمَ في كتابِ اللهِ، فيَضِلّوا بتَرْكِ فريضةٍ أنزلَها اللهُ. ألا وإنَّ الرَّجْمَ حقٌّ [على منْ زَنى، إذا أُحْصِنَ الرجلُ والمرأةُ][8]، وقامتِ البيِّنةُ، أوِ اعْترَفا[9]، وقدْ قرأناها: الشيخُ والشيخةُ إذا زَنَيا فارْجُموهما البَتَّةَ نكالاً منَ اللهِ. رجَمَ رسولُ اللهِ ﷺ ورجَمْنا بعدَهُ).

وقالَ قومٌ: الرجْمُ بينَ اليَهودِ والنَّصارى كهُوَ بينَ المسلِمينَ كالجَلْدِ بالآيةِ، ولِما رُوِيَ عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ أنهُ رجَمَ يهودياً؛ قيلَ: إنما رجَمَ بحُكْمِ التوراةِ. ألا تَرى أنهُ رُوِيَ أنهُ دَعا بالتوراةِ، فأمرَهُمْ أنْ يقْرَؤوا عليهِ، فوضَعوا أيْديَهُمْ على الموضِعِ الذي فيهِ ذِكْرُ الرَّجْمِ، فقرَؤوا غيرَهُ. قالَ ابنُ سلام: إنهُمْ كتَموهُ يا رسولَ اللهِ، ثم قرأَ هو: فأمَرَ برجْمِهِ[10]. ولا شكَّ أنَّ القرآنَ نسَخَ حُكْمَ التوراةِ، لذلكَ لم يُقِمْ عليهِمُ الرَّجْمَ. فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ الحدَّ يُقامُ على منْ عمِلَ عمَلَ لوطٍ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. قيلَ: لا يَحتمِلُ وجوبَ الحدِّ بذلكَ لأنهُ مُختلِفٌ حُكْمُ هذا منْ هذا في الحُرمةِ ووُجوبِ الرَّجمِ[11] وغيرِ ذلكَ. فلا يَحتمِلُ أنْ يُعرَفَ حكْمُ شَيءٍ بما[12] يُخالفُهُ في جميعِ أحكامِهِ وجَميعِ الوجوهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ في الآيةِ دليلُ جوازِ القياسِ لأنهُ ذَكَرَ الحُكْمَ في النساءِ، ولم يَذْكُرْ في الرجالِ ذلكَ الحُكْمَ، وهما لا يختَلِفانِ في هذا الحُكْمِ لِما يلزَمُ المرأةَ في ذلكَ الفِعْلِ يلْزَمُ الرجلَ مثْلُهُ، دلَّ ما تركَ ذكْرَهُ في المنْصوصِ والانتزاعِ منهُ. وقالَ قومٌ: إنَّ على الثَّيِّبِ الجلْدَ والرَّجْمَ جَميعاً، ذَهبوا في ذلكَ إلى ما رُوِيَ عنْ عُبادةَ ابنِ الصامتِ عنِ النبيِّ ﷺ [أنهُ][13] قالَ: «خُذوا عنّي، قد جعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلاً، البِكْرُ بالبِكْرِ يُجلَدُ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ يُجلَدُ، ويُرجَمُ» [مسلم ١٦٩٠] أوجبَ الجلْدَ والرَّجْمَ على الثَّيِّبِ.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: وإلا. (٤) في الأصل وم: بوحي. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) في الأصل وم: ما روي أن عسيف الرجل زنى بامرأة وقال، انظر المسند ٤/ ١١٥. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إذا أحصن الرجل. (٩) في الأصل وم: اعترف. (١٠) في الأصل وم: يرجمهم. (١١) من م، في الأصل: المهر. (١٢) في الأصل وم: لما. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وأمّا عندنا فإنهُ لا يُوجِبُ معَ الرَّجْمِ الجلْدَ لِما رُوينا منَ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ رجَمَ ماعِزاً، ولمْ يُذْكَرْ أنهُ جلدَهُ، وما رُوِي عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: «واغدُ يا أنيسُ على امرأةِ هذا، فإنِ اعترَفَتْ فارجُمْها» [٢٦٩٥ و٢٦٩٦] لم يُذْكَرْ هنالكَ جَلْدٌ. والأخبارُ كثيرةٌ في هذا. ورُوِي أنهُ قالَ: «منْ أصابَ منْ هذهِ القاذوراتِ شَيئاً فليَسْتَتِرْ بسَتْرِ اللهِ الذي سَتَرَهُ عليهِ، فإنَّ منْ أبْدى لَنا صفحَتَهُ أقَمْنا عليهِ حدَّ اللهِ» [مالك في الموطأ ٢/ ٨٢٥].

ثم يَحتمِلُ قولُهُ ﷺ: «والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ يُجلَدُ، ويُرجَمُ» في اختِلافِ الأحوالِ: يُجلَدُ في حالٍ، ويُرجَمُ في حالٍ، أو يُجلَد ثَيِّبٌ، ويرْجَمُ آخرُ، لأنهُ لا كلُّ ثَيِّبٍ يُرجَمُ؛ لأنهُ إذا كانَ ثَيِّباً غيرَ مُحصَنٍ لا يُرجَمُ. دلَّ أنهُ على ما ذكَرْنا، أو يَحتمِلُ قولُهُ ﷺ: «البِكْر بالبِكْرِ يُجلَدُ، ويُنفى، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ [يُجلَدُ، ويُرجَمُ][2]» [مسلم ١٦٩٠] أي البِكْرُ معَ البِكْرِ، والثَّيِّبُ معَ الثَّيِّبِ؛ فيكونُ ثَيِّبٌ يُجلَدُ، وثَيِّبٌ آخرُ يُرجَمُ.

ثم اختلفَ أهلُ العِلْمِ في نفْيِ البِكْرِ، قالَ قومٌ: النفيُ ثابتٌ واجِبٌ. وعندَنا إنْ كانَ فهو منسوخٌ؛ ودليلُ نسْخِهِ ما رُوِي في خبرِ زيدِ بنِ خالدٍ [الجُهَنيِّ][3]، وكانَ الرجلُ بِكْراً، يُذْكَرُ أنهُ نُفِيَ، وما رُوِي عنْ عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ أنهُ نَفى رجلاً، فارتَدَّ، ولحِقَ بالرومِ، وقالَ: لا أُنفي بعدَ هذا أبداً، وما رُوِي أنهُ قالَ: (كَفى بالنَّفْيِ فِتْنَةً). وإنْ كانَ فهو عقوبةٌ، وليسَ بحدٍّ كحبْسِ الدَّعارةِ وغيرِهِ. والدليلُ على أنَّ النَّفيَ ليسَ بحدٍّ أنَّ اللهَ ﷻ قالَ في الإماءِ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

والأمَةُ لا تُنفى لِما رُوِي عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا زَنَتْ أمَةُ أحدِكُمْ فليَجلِدْها، ثم إذا زَنَتْ فليَجْلِدْها، ثم إذا زَنَتْ فليَبِعْها ولوْ بضَفيرٍ» [البخاري ٢١٥٢ـ ٢١٥٤] أمرَ بجَلْدِها، ولم يأمُرْ بالنَّفْيِ، ولو كانَ حدّاً لأمرَ بهِ كما أمرَ بالجَلْدِ. دلَّ أنهُ ليسَ بحدٍّ في الحُرَّةِ[4]، ولأنهُ أوجَبَ على الإماءِ نصفَ ما أوجبَ على الحرائرِ ولا نصفَ لِلنَّفْيِ دلَّ أنهُ ليسَ بحدٍّ، ولا يجِبُ ذلكَ، أو إنْ كانَ فهو حبْسٌ، وفي الحبْسِ نفْيٌ، فيُحْبَسانِ[5]، أو يُنْفَيانِ، لِيُنْسَيا ما أصابا لأنَّ كلَّ منْ رآهُما يَذْكُرُ فِعْلَهُما، فيُنْفَيانِ لذلكَ، لا أنهُ حدٌّ، ولكنْ لِيُنْسيا ذلكَ، ولا يُذْكَرا[6].

وقولُهُ تعالى أيضاً: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ [النساء: ١٥ و١٦] يُخرَّجُ على وجهَينِ، لو كانتِ الآيتانِ في الزِّنى:

أحدُهما: أنْ يكونَ في جميعِ الإناثِ الحبْسُ، وفي الذكورِ الإيذاءُ. ولذلِكَ جميعٌ منَ الجَميعِ في الخبَرِ الذي بهِ النَّسْخُ، فارتَفعَ الحبْسُ والأذى جميعاً، وذلكَ مفعولُ تأنيبِ الرجلِ بهِ أزجَرُ لهُ، وحبْسُ المرأةِ أقْطَعُ لوُجوهِ الزِّنى.

والثاني: [7] أنْ تكونَ الآيةُ الأُولى في المُحْصَناتِ على تضمُّنِ المُحْصَنينَ بالمعنى والآيةُ الثانيةُ في الذكورِ والإناثِ [على تضمُّنِ الإناثِ][8] بالمعنى. لكنْ جَرى الذِّكْرُ على ما ظهَرَ منْ فضلِ صيانةِ الأبكارِ في الإناثِ إمّا تديُّناً أو حَياءَ افْتِضاحٍ[9] أو بما الغالِبُ عليهِنَّ الصَّوْنُ منَ المحارِمِ والحفْظُ عنْ قُرْبِ الذكورِ، ليسَ منْ شيءٍ منْ ذلكَ في الذكورِ ولا في الثَّيِّباتِ منَ النساءِ[10] على أنهُ بَعيدٌ بُلوغُ النساءِ في قِلَّةِ الحَياءِ إلى أنْ يُعْلِنَّ حتى يشهدَهُ أربعةٌ[11]. والغالِبُ عليهِنَّ ألّا يُخالِطْنَ هذا القَدْرَ منَ العدَدِ.

ثم الدلالةُ على دُخولِ الكلِّ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: «خُذوا عنّي، قد جَعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلاً» ذِكْرُهُنَّ على ما جَرى بهِ الذِّكْرُ في القرآنِ، ثم جمَعَ في التفسيرِ بينَ الكُلِّ. ثبَتَ أنَّ الذِّكْرَ قد يُضمِّنُ الكلَّ. وذلكَ يُبطِلُ تأويلَ/ ٨٤ ـ أ/ منْ يَصْرِفُ الآيةَ إلى الأبكارِ منَ الإناثِ والذكورِ. ومتى يَحتمِلُ وجودُ [الكُلِّ][12] مثلَ ذلكَ بعدَ النكاحِ على إثْرِ خَلْوةِ الأزواجِ بهِنَّ والاطِّلاعِ على ما فيهِ المسبَّةُ الدائمةُ والعارُ اللازمُ لهُ، ثم كشْفُ ذلكَ لجميعِ محارِمِها، ثم خَوفُ الانتِشارِ بهِ ظاهرٌ. وكيفَ يَحتمِلُ في مثْلِ تلكَ الحالِ إلى مُمْكِنٍ مَنْ ذَكَرَ دونَ أنْ ينضمَّ إلى زوجِها؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الحر. (٥) في الأصل وم: فيحبس. (٦) في الأصل وم: يذكر. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في م: الافتضاح. (١٠) في الأصل وم: الناس. (١١) في الأصل وم: أربع. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

فتأويلُ من وجَّهَ الآيةَ إلى الأبكارِ خارجٌ عنِ المعروفِ، ثم المرْوِيُّ منَ السُّنَّةِ، ثم [ما][1] أجْمَعَ عليهِ أهلُ التأويلِ عمْدَ صاحبِهِ على هذا جهلُهُ بألّا يجوزَ بيانُ نسْخِ حُكْمٍ بيِّنَهُ الكتابُ بالسُّنَّةِ، ويحكُمَ على اللهِ تعالى وعلى رسولِهِ بحَجْرِ هذا النوعِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ﴾ الآية؛ ومعلومٌ أنَّ عقوبةَ الزُّناةِ يتولّاها الأئمةُ، فكانَ الخطابُ عليهِمْ خرجَ، ثمَّ قدْ ثبَتَتْ[2] الفاحِشةُ منهُنَّ، ولم يأذنْ في إقامةِ عُقوبَتِها حتى يُستحضرَ أربعةٌ، فيشهَدوا[3] بها. فعَلى هذا أنْ ليسَ لِلأئِمّةِ تولّي حدِّ الزُّناةِ بعلْمِهِمْ حتى يكونَ ثَمَّ شُهودٌ. وفي ذلكَ لُزومُ حقِّ السَّتْرِ إلى أقْصى ما يُنْتهى إليهِ الفِعْلانِ منَ الزُّناةِ، إذْ ذلكَ أمرٌ معلومٌ في ما يحِلُّ ألّا يُفعَلَ إلا في أحوالِ الخلَواتِ التي تُعلَمُ حقيقَتُهُ؛ ذلكَ بالولَدِ يكونُ. فأمّا منْ حيثُ الكونُ دونَهُ فإنما هو غالِبُ الظَّنِّ. فالذي لا يحِلُّ منْ ذلكَ أنْ يكونَ بحيثُ لا تُعْلَمُ حقيقَتُهُ أبداً. يدلُّ على ذلكَ جميعُ الأمورِ التي منها المُباحُ والمحْظورُ؛ إذِ المحظورُ منهُ أبْعَدُ منَ الظُّهورِ والعِلْمِ منَ المُباحِ.

فعَلى ذلكَ أمرُ هذا معَ ما أيَّدَ ما جعَلَ فيهِ منْ هذا الرَّمْيِ وجهَيْنِ:

أحدُهما: الزَّجْرُ عنْ هَتْكِ هذا النوعِ منَ السَّتْرِ حتى خرَجَتْ شهادةُ منْ رَمى بذلكَ بِما هتَكَ سِتْرَ اللهِ.

والثاني: فُحْشُ الشَّينِ بفاعلِ ذلكَ ولُزومُ المسبَّةِ في صاحبِ ذلكَ، وذلكَ غايةُ معْنى لُزومِ الشَّينِ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «منْ أصابَ منْ هذهِ القاذوراتِ شيئاً فليستَتِرْ بسَتْرِ اللهِ فإنهُ منْ أبْدى صفْحَةَ أقمْنا عليهِ حدَّ اللهِ» [الموطأ ٢/ ٨٢٥]. فإذا بلغَ العمْدُ الذي حدُّهُ ما ذكَرْتُ منَ العقوبةِ منْ نهايةِ السَّتْرِ النهايةَ منَ الإعلانِ حتى ظهَرَ ذلكَ للجماعةِ؛ يفْعَلُ ما يَشينُهُ فعْلُهُ ما ذكَرْتُ اسْتَحَقَّ ما ذكَرْتُ منَ العقوبةِ بجرأتِهِ على ذلكَ وبِقِلَّةِ[4] حيائِهِ حينَ أظهرَ الذي ذلكَ حقُّهُ السَّتْرُ عقوبةَ ذلكَ الفعلِ، فألزمَ مَنْ إليهِ ذلكَ القيامُ بهِ للهِ. ثم جعَلَ اللهُ في ذلكَ عُقوباتٍ مخْتلِفةً على اخْتِلافِ أوقاتِ الفِعْلِ وأهلِهِ على ما علِمَ منْ مصلَحَةِ الخلْقِ بها وزَجْرِهِمْ وتكْفيرِهِمْ بها.

ثمَّ إنَّ اللهَ ﷻ جعَلَ أوَّلَ عقوبةِ الزِّنى في نوعٍ منَ الخلْقِ ظاهراً يَكْتَسِبونَ بهِ عرَضَ الدنيا في[5] ذلكَ في الإماءِ حتى قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ الآيةَ [النور: ٣٣]، وحتى كانوا يدْعونَ الأنسابَ في أولادِ الزِّنى منَ الإماءِ حتى بلَغَ منْ ظُهورِ ذلكَ إلى أنْ يُمازِحَ بهِ الحرائرُ في الطُّرُقِ تعامياً عنْ حالِهِنَّ، فنزلَ قولهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وإنْ كانَ هذا حالَهُمْ في ذلكَ الوقتِ فعَلَيهِمْ[6] خوفُ مُواقعةِ الزِّنى، وكذلكَ على الحرائرِ لكَثْرةِ ما يَرَيْنَ[7]، أو يسْمَعْنَ. وذلكَ [في وجهَيْنِ:

أحدُهما][8]: معنىً يبْعثُ منْ شرِهَتْ نفسُهُ، وقلَّ[9] تفكُّرُه في أمْرِ عاقِبتِهِ مما يَنْزِلُ بهِ، أو يَشينُهُ، وقد رُكِّبَتْ هذهِ الشَّهوةُ في كلِّ البشَرِ، فخفَّفَ اللهُ عقوبَتَهُ في الِابتداءِ أنْ جعَلَ في الحبْسِ والإمساكِ في البيوتِ، ثم صارَ ذلكَ إلى الضَّرْبِ لِما أنْ يُخْرِجَ الناسَ منْ بُيوتِهِمْ، ويعْظُمَ[10] ذلكَ في أعينِهِمْ. وجعَلَ في الشَّتْمِ بهِ الحدَّ ليَعْرِفوا عِظَمَ موقِعِه عندَ اللهِ، وينْتَهُوا[11] عنْ فعْلِهِ.

وقد جعَلَ في ذلكَ في بعْضِ الأحوالِ الرَّجْمَ، وهي الحالُ التي يزولُ فيها كلُّ وُجوهِ العذرِ، وترْتفعُ جميعُ معاني الشُّبَهِ لِعظَمِ أمْرِهِ.

والثاني: أنَّ السَّبَبَ الباعثَ على ذلكَ قرْبُ بعْضٍ ببَعْضٍ ومُخالطَةُ بعْضٍ ببعْضٍ على عِظَمِ الشَّهوةِ، فغَلَبَ عليهِمُ الأمْرُ، واستَعْذَنْهُمُ الشَّهوةُ حتى واقَعوا ذلكَ.

ثم في الحبْسِ [وُجوهٌ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: اثبت. (٣) في الأصل وم: فيشهدون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: محله. (٥) من م، في الأصل: وفي. (٦) في الأصل وم: عليهم. (٧) في الأصل وم: يدين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقلة. (١٠) في الأصل وم: وعظم. (١١) في الأصل وم: وانتهوا.

أحدُها[١] الكفُّ عنِ المعنَى الذي يدْعو إليهِ منَ الاختِلاطِ وتَلاقي الأبصارِ.

والثاني: ما فيهِ منْ ضجَرٍ وتضييقِ الحالِ إذْ جعَلَ ذلكَ إلى الموتِ، فيكونُ في ذلكَ عقوبةٌ منْ حيثُ الضَّجَرُ ومعونةٌ على الكفِّ عنهُ بالحبْسِ حتى لا يَقَعَ بصَرُ ذكَرٍ على أُنثى وأُنثى على ذكَرٍ.

والثالثُ: أنْ يكونَ في الحبْسِ ترْغيبُ الأرحامِ في الحِفظِ والزامِ القرابةِ بعدَ ما يُزْجَرُ عنْ تضييعِ حقوقِ الرَّحِمِ، ويدْعو إلى القيامِ بالكِفايةِ إنْ ضُيِّقَ على الفاعِلِ ذلكَ. وذلكَ يوجِبُ قبْلَ المواقَعةِ الاستِعلامَ عنِ الأحوالِ والجهْرِ في الحِفْظِ، إذْ في ذلكَ بعْضُ عقوبةِ أهلِ الاتِّصالِ منْ تكليفِ الإمساكِ والقيامِ بالكِفايةِ، فيكونُ أبْلغَ في العَفافِ وأقْرَبَ إلى الصَّلاحِ. وعلى مثْلِ ذلكَ جُعِل أمْرُ المعاقلِ ليَقومَ أهلُ الصَّلاحِ في كلِّ قبيلةٍ في كفِّ أهلِ الفسادِ، واللهُ أعلمُ.

ثم لمّا انقطعَتِ العادةُ، وقامَ الناسُ بالتَّعاهُدِ، وتفرَّقَ الفريقانِ حتى لا يُؤْذَنَ بالاجتِماعِ إلا أنْ يكونَ ثَمَّ منْ جُبِلَ على الإياسِ منْ ذلكَ، ونَثَى[٢] على قطعِ الشهوةِ فيهنَّ، فجُعِلَ في ذلكَ حدٌّ، وفي ذلكَ ﴿لَهُنَّ سَبِيلًا﴾. وذلكَ، واللهُ أعلمُ، يُخَرَّجُ على أوجهٍ يجبُ التَّأمُّلُ في الوجهِ [الأوّلِ][٣] الذي سُمِّي ما نُسِخ بهِ اللازمَ في ذلكَ، وذُكِر في ما ذُكِرَ حدٌّ مرَّةً ورجْمٌ ثانياً. ومعلومٌ أنَّ المجعولَ لهُ السبيلُ: والرَّجْمُ والحدُّ أشدُّ عليهِمْ منَ الحبْسِ. وقد رُوِيَ عنْ نبيِّ الرَّحْمةِ ﷺ: «خُذوا عنّي، خُذوا عنّي، قد جعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلاً، البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مئةٍ وتغريبُ عامٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ يُجْلَدُ، ويرْجَمُ» [مسلم ١٦٩٠]. فهو، واللهُ أعلمُ، أنهُ[٤] بهذهِ الشريعةِ خلَّى سبيلَهُنَّ، لا أنْ أوجَبَ على المحْبوساتِ إقامةَ ذلكَ بما قد حُبِسْنَ[٥] بالزِّنى، ولكنَّ في هذا تخْليةَ السبيلِ على أنهنَّ إذا زَنَينَ فُعِلَ بهنَّ ذلكَ على رفْعِ الحبْسِ عنهُنَّ إذا حُبِسْنَ[٦] بما لَمْ يُبيِّنْ حدُّ ذلكَ؛ فإذا بُيِّنَ زالَ ذلكَ، ولا حدَّ حتى يكونَ منها ذلكَ. فالسَّبيلُ المجعولُ لهُنَّ تخليةُ السَّبيلِ، ثُمَّ بُيِّنَ الحُكْمُ في الحادِثِ.

والرابعُ[٧]: أنَّ السبيلَ في الحقيقةِ مجعولٌ لمَنْ كُلِّفَ إمساكَهُنَّ، وإنْ أُضيفَ إليهِنَّ بما فيهِنَّ، ضيِّقَ عليهِمُ الأمْرَ، وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥]، والإماءُ لا يُؤْتَينَ الأجْرَ لكنْ بمعنَى فيهِنَّ ذُكِرَ الأجرُ، فأضيفَ إليهِنَّ نحوُ ما أُضيفَ أهلُ القُرى إلى القُرى بالتَّسميةِ فأُخرِجَتْ على تسْميةِ القُرى. وإذا كانَ المُرادُ أهلَ ذلكَ في تَسْميةِ الأهلِ التَّذكيرَ والقرْيَةَ التَّأنيثَ فكانَّهُ جعلَ للمأمورينَ بالإمساكِ سَبيلاً في أنْ يُقيموا الحدَّ، ويُزيلَ[٨] عنهُمْ مؤْنَةَ الإمساكِ والقيامِ بالكِفايةِ.

والخامسُ: أنْ يكونَ في طولِ الحبْسِ ضَجَرٌ وضِيقٌ وحَيلولةٌ بينَ المحْبوسِ والشَّهَواتِ كلِّها وقطْعُ بينَهُ وبينَ الأحبابِ وتحمُّلُ مثْلِهِ بمُرِّهِ[٩] أيسَرُ على النَّفْسِ وأهْوَنُ منْ دَوامِ الذُّلِّ والقهْرِ. ثم لا مَخْلَصَ عنْ ذلكَ إلّا بما في الأوّلِ يكونُ مُرُّهُ[١٠]. فلذلكَ سمَّى، واللهُ أعلمُ، ﴿لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

ثم دلَّ الخبَرُ الذي ذكرْتُ على أمْرَينِ:

أحدُهُما: أنَّ الحبْسَ، وإنْ كانَ مَذْكوراً في النساءِ، فهو في جميعِ الزُّناةِ لأنهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «خُذوا عنّي، خُذوا عنّي، قد جعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلاً». ثم ذكَرَ ما بهِ جعَلَ لهُنَّ السَّبيلَ في الذُّكورِ والإناثِ في المحْصَنينَ وغيرِهِمْ جميعاً ليُعْلَمَ أنَّ الحُكْمَ يجْمَعُ الكلَّ، وإنْ كانَ الذِّكْرُ فيهنَّ؛ وذلكَ كما ذَكَرَ حدَّ المماليكِ/ ٨٤ ـ ب/ في الإماءِ وحدَّ الزُّناةِ في قَذْفِ المحْصَناتِ، والحُكْمُ يجْمَعُ الذَّكَرَ والأنثى منْ حيثُ اتِّفاقُ المعنى الذي جُعِل، فمِثْلُهُ في ما نحنُ فيهِ.

والثاني: بيانُ نَسْخِ المذكورِ منَ الحُكْمِ في الكتابِ بالسُّنّةِ. وذلكَ لوجهَينِ.

أحدُهما: أنهُ لم يُوجَدْ على الترتيبِ الذي ذُكِر في القرآنِ معَ ما ذَكَرَ تخليةَ السَّبيلِ، وليسَ بمذكورٍ في شيءٍ منَ القرآنِ، ثبَتَ أنَّ ذلكَ كانَ بوحْيٍ غيرِ القرآنِ.

---

(١) في الأصل وم: وجهان أحدهما. (٢) في الأصل وم: وانثى، نثى الحديث: حدّث به، وأشاعه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: حبس. (٦) في الأصل وم: حبس. (٧) في الأصل وم: ووجه آخر. (٨) في الأصل وم: ويزول. (٩) في الأصل وم: ثمره. (١٠) في الأصل وم: ثمره.

والثاني: أنهُ ﷺ قالَ: «خُذوا عنّي، خُذوا عنّي» ثم أخبَر عنْ جعلِ اللهِ لهُنَّ السَّبيلَ. فدلَّ قولهُ ﷺ: «خُذوا عنّي، خُذوا عنّي» أنهُ بيانُ جعْلِ اللهِ. وهكذا معنى النَّسْخِ أنهُ[1] بيانُ جعْلِ اللهِ مدَّةَ حُكْمِ الأوَّلِ بما يَحْدُثُ فيهِ الحُكْمُ.

وليسَ لقَولِ[2] منْ يقولُ: في هذا القرآنِ وعْدٌ بقولِهِ ﷻ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ معنى أنَّ[3] كلَّ شيءٍ في حكْمِ اللهِ يَنْسَخُهُ[4]؛ فالوَعْدُ في حُكْمِهِ قائمٌ [لا بأنَّ][5] يقولَ قائلٌ: لا يَصْدُقُ الرسولُ ﷺ ببيانِ وعْدِ الحُكْمِ، وإنما يَصْدُقُ ببيانِ وعْدِ الشَّرْطِ، فيحتاجُ أنْ يُحْدِثَ منهُ إيماناً، واللهُ الموفِّقُ، مع ما إذا جازَ أنْ يعِدَ النَّسْخَ المذكورَ في القرآنِ حقيقةً يجوزُ أنْ يَنْسَخَ المذكورَ حقيقةً[6].

وبعْدُ فإنَّ منْ يقولُ هذا بعثَهُ عليهِ جهْلُهُ بمعنى النَّسْخِ أنهُ البَيانُ عنْ مُنْتهى حُكْمِ المذكورِ منَ الوقتِ، ولا[7] ريبَ أنَّ لرسولِ اللهِ ﷺ بيانَ مُنْتَهى الحكمِ منَ النوعِ، فمثلُهُ الوقتُ. ثم إذا كانَ هذا أوَّلَ عقوبةٍ في الإسلامِ، فثبتَ بهِ نسخُ الحكمِ بالتوراةِ والعملُ إذا كانَ فيها الرجمُ، وقد ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنما رجَمَ بحُكْمِ التوارةِ، وقالَ: «أنا أوَّلُ منْ أحْيَى سُنَّةً أماتوها» [بنحوه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٤٢]. وإذا ثبَتَ أنَّ ذلكَ حُكْمُ التوراةِ، ثم ثبَتَ نسْخُ حُكْمِهِ، فلا يُقامُ عليهِمُ الرَّجْمُ إلّا بعْدَ البَيانِ معَ ما جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «منْ أشْرَكَ باللهِ فليسَ بمحْصَنٍ» [الدارقطني ٣٢٦٦] وأنهُ أخْبَرَ بالرَّجْمِ في القرآنِ للمُحْصَنِ. وقالَ قومٌ: عقوبةُ الحبْسِ في الإناثِ خاصَّةً.

وأمّا في الذُّكورِ ففيهِمُ الأذَى باللسانِ والتَّعْزيرُ[8] بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ الآية. وهذا قريبٌ منْ حيثُ كانتِ النساءُ، مكانُهُنَّ البيوتُ، وأمْكَن حفظُهُنَّ عنِ الزّنى بِتَسْليمِهِنَّ[9] إلى الأزواجِ مرَّةً والمحارِمِ ثانياً.

والرجالُ إذا حُبِسوا تحوَّلتْ مؤُنتُهُم إلى غيرِهِمْ، فيكونُ عقوبةُ فِعْلِهِمْ تلْزَمُ غيرَهُمْ، والراحةُ تكونُ لهُمْ. وأمّا النساءُ فَمَؤُنتُهُنَّ في الأصلِ على غيرِهِنَّ، فليسَ في حبْسِهِنَّ زيادةٌ على غيرهِنَّ، فذلكَ عقوبةٌ لهُنَّ[10] مع ما كانَ الرجالُ بحيثُ يمكِنُ تغييرُهُمْ، وذلكَ أبْلَغُ ما يزْجُرُ العقلاءَ.

وقد يحتمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في الرجالِ؛ إذْ لا يُذْكَر في عملِ قومِ لوطٍ العقوبةُ، وقد علِمَ اللهُ ﷻ حاجةَ الناسِ إلى معْرفةِ ذلكَ؛ إذْ جعَلَ اللهُ تعالى في إتيانِ النساءِ حُقوقاً وحرُماتٍ وأحكاماً ليسَتْ في إتيانِ الذُّكورِ، عرَّفَ الخلائقَ تلكَ، فلم يحتمِلْ أنْ يُنْزِلَ عقوبةَ الذُّكورِ في الزّنى بعدَ أنْ فرَّقَ أحكامَ الأمْرينِ، فيُشبِهُ أن تكونَ الآيةُ على ذلكَ. وأيَّدَ ذلكَ ﷻ أنهُ ﷻ قالَ: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ ولم يذكُرْ في ذلكَ جعْلَ السبيلِ.

وقد ذكَرَ رسولُ اللهِ ﷺ ذلكَ في كلِّ أقسامِ الزّنى؛ ثبَتَ أنَّ ذلكَ في ما ذكَرَ، فتكونُ العُقوبةُ[11] الأولَى في ذلكَ أخفَّ منَ الحدِّ، [فتِلْكَ العقوبةُ][12] الثانيةُ معَ ما يكونُ في ما يُؤْذَيانِ بتفريقٍ، وهو تعزيرٌ، وذلكَ هو الباقي أبداً، إذا لم يظْهَرْ معْنى النَّسْخِ. وأيَّدَ الذي ذكَرْتُ اسْتِواءُ الذُّكورِ والإناثِ في جميعِ عُقوباتِ الزّنى في قديمِ الدَّهرِ وحديثِهِ منْ حُدودِ المماليكِ والأحرارِ والثَّيِّباتِ والأبكارِ. فعَلى ذلكَ أمْرُ تأويلِ الآيةِ.

والنَّفْيُ المذكورُ في الخبَرِ يَحتمِلُ [وجهَين:

أحدُهما:][13] ما ذهَبَ إليهِ الخصومُ منْ جعْلِهِ عقوبةً، وأنهُ النَّفْيُ منَ البلدِ. ولكنَّ الحدودَ إذا جُعِلَتْ كفّاراتٍ قد جُعِلْنَ زواجرَ في الزّنى بخاصَّةٍ؛ إذْ أُمِرَ فيهِ بالحبْسِ أُريدَ قطْعُ السَّبيلِ إليهِ، وفي الإشخاصِ والإخراجِ منَ البُلْدانِ تمْكينٌ، وذلكَ بعيدٌ، واللهُ أعلمُ. فعَلى ذلكَ لو كانَ عقوبةً، فهو على الحبْسِ، فَيُنْفَى عنْ وجوهِ الاجْتِماعِ[14] على ما كانَ منْ قبلُ، فيُنْفى ذلكَ العذْرُ منهُ لظهورِ خُشوعِ التوبةِ.

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: قول. (٣) في الأصل وم: لأنه. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه. (٥) في الأصل وم: الا. (٦) في الأصل وم: حقيقته لا فيه. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: التعريد. (٩) في الأصل وم: وتسليمهن. (١٠) في الأصل وم: لهم. (١١) في الأصل وم: عقوبة. (١٢) في الأصل وم: فذلك عقوبة. (١٣) في الأصل وم: وجوها أحدها. (١٤) من م، في الأصل: الإجماع.

والثاني[1]: يَحتمِلُ أنْ يُرادَ بالنَّفْي قطعُ الذِّكْرِ ورفعُ المسبَّةِ، فيُنْفَى، ليُنْسَى ذلكَ، فلا يُعيَّرُ بذلكَ، وكذلكَ في الإماءِ لا في الكفَرَةِ؛ إذْ ما فيهمْ منَ الذُّلِّ أعظمُ، معَ ما لا يجبُ لسَبٍّ[2] منْ ذكَرْتُ حدٌّ ليُعْلَمَ عَظيمُ موقعِ ذلكَ في الأحرارِ. ولو كانَ على العُقوبةِ فهو منسوخٌ بما جرتِ السُّنَّةُ في الإماءِ بحدِّهنَّ منْ غيرِ ذِكْرِ الحبْسِ، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]. والمذكورُ في الثَّيِّبِ يَحتمِلُ بجَلْدٍ في حالٍ وبرَجْمٍ في حالٍ؛ إذ لا كلُّ ثَيِّبٍ تُجلَدُ، وإنْ كانَ ثَمَّ نَسْخٌ بما ذُكِرَ منْ خبَرِ ماعزٍ وغيرِه.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾؛ قيلَ: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بالجَلْدِ، وقيلَ: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بالتَّعْييرِ ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ كُفُّوا عن ذلكَ، وقيلَ: فسُبُّوهما، لكنَّ ذا قبيحٌ، والتَّعْييرُ أقربُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ يحتمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ﴾ كذا؛ أي توفيقُ التَّوبةِ وهِدايتُهُ على اللهِ ﷻ إذا كانَتْ نفسُه ترْغَبُ فيها، وتَميلُ إليها، على اللهِ توفيقُهُ[3] على ذلكَ إذا عَلِمَ اللهُ منهُ أنهُ يتوبُ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﷻ أي قَبولُ التَّوبةِ على اللهِ سُبْحانهُ إذا تابَ، ورجعَ عمّا كانَ فيهِ، وارْتكَبَهُ.

وفي قولِهِ أيضاً: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ﴾ [لِمَنْ ذَكَرَ][4] يُحتمَلُ قبولُها [بوجهَينِ:

الأوّلُ][5]: بمعنى أنَّ الذي لا يُسوِّفُ التَّوبةَ، ولا يَنْتظِرُ بها وقتَ المنعِ عنْ رُكوبِ ما عنهُ يتوبُ والإياسِ منْ إمكانِ العَودِ إلى ما عنهُ يَتوبُ للهِ[6]، فاللهُ يقبلُها إذا كانَ ذلكَ دأبُهُ وعادتُهُ، وإنْ بلَغَ ذلكَ الضِّيقُ بأمْرٍ دُفِعَ إليهِ، أو كانَ يتوبُ منْ قَريبٍ منَ الذَّنْبِ بألّا يستخِفَّ بهِ، فيترُكُ الرجوعَ لقلَّةِ مُبالاتهِ بهِ، فلا يقْبَلُها ممَّنْ هذا وصْفُ توبَتِهِ وحالُ استِخْفافهِ بالذنبِ.

والثاني: أنْ يكونَ توفيقُ التَّوبةِ والهِدايةِ إليهِ ممَّنْ يُفزِعُهُ ذنْبُهُ، ويبعثُهُ على الرُّجوعِ إلى اللهِ والتَّعرُّضِ لِرحْمتِهِ وإحسانِهِ. ولا يُوفَّقُ مَنْ لا يُبالي بالذي يُذكَرُ، ولا يتضَرَّعُ إليهِ. وقيل: [حالٌ][7] الأوّلِ في الصَّغائرِ، والثاني: في الكبائرِ، والثالثُ[8]: في الكُفرِ؛ فإنَّ صاحبَ الصَّغيرةِ أرقُّ قَلْباً وأخلصُ[9] ذِكراً لهُ ورُجوعاً إلى ربِّهِ. وصاحبُ الكبيرةِ أقسى قَلْباً منَ الأوّلِ وأظلَمُ؛ فهو لا يَنْدَمُ إلا بعْدَ شِدَّةٍ وبعْدَ طولِ المِحْنةِ وضيقِ القَلْبِ، قيلَ[10]: فلَيسَ على اللهِ قبولُ توبةِ منْ يتوبُ في تلكَ الحالِ، ولا توبةَ مَنْ بانَ منهُ ما يأمُلُهُ بالذي عليهِ قَبولُ ذلكَ، ولكنْ يقبَلُ، ويُوفِّقُ لهُ بما كانَ منهُ منَ الخيراتِ والحسَناتِ التي هُنَّ أسبابُ التَّقرُّبِ إلى اللهِ ﷻ والكافرُ لا يقْبَلُها؛ إذْ هو لا يتوبُ حتى يموتَ، فيسْتَيقِنَ بالعذابِ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الآخِرةُ في الكفارِ، فيكونُ فيهِمْ منْ يُظْهِرُ التَّوبةَ عندَ الضرورةِ والدَّفعِ إلى الحالِ يزولُ عنهُ وضْعُ الإمكانِ، ويَأسٌ منَ الإمهالِ، ويصِلُ إلى مالَهُ كانَ يُذنِبُ، فاللهُ لا يقبَلُ توبتَهُ؛ إذْ ليسَتْ في الحقيقةِ توبةَ مُتمكِّنٍ[11]، بل توبةُ مُضطرٍّ أو توبةُ دفعِ ما حلَّ بهِ؛ إذ هو وقتٌ يَشغَلُ عنِ الإستِدلالِ وعنِ الوقوفِ على الأسبابِ منْ جهةِ التأمُّلِ والنَّظرِ، ولا يُري غيرَ الذي أقبَلَ عليهِ؛ يظُنُّ أنَّ لهُ الخلاصَ بالذي يُبدِّلُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ هذا أيضاً يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ جهْلَ الفِعْلِ، فيقَعُ فيهِ منْ غيرِ قصْدٍ، ويَحتمِلُ قصْدَ الفعْلِ، والجهلُ بموقِعِ الفعْلِ. والعملُ بجهالةٍ يُخرَّجُ على وجوهٍ: يكونُ عنْ غلبَةٍ: تغلِبُ عليهِ شهوتُهُ، فيعْمَلُ ذلكَ العمَلَ على طمَعٍ منهُ أنهُ سيَتوبُ منْ بعْدُ، ويَصيرُ رجلاً صالحاً على ما فعَلَ إخوةُ يوسُفَ حينَ قالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]. ثم سمَّاهُمْ جهَلةً بذلكَ في آيةٍ أُخرى حيثُ قالَ لهُمْ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم/ ٨٥ ـ أ/ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

---

(١) في الأصل وم: وقد. (٢) من م، في الأصل: نسب. (٣) في الأصل وم: يوفقه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) المقصود حال الكفر. (٩) في الأصل وم: وأخص. (١٠) في الأصل وم: مثل. (١١) في الأصل وم: ممكن.

ويَحتمِلُ العمَلُ بجهالةٍ جَهالةَ عقوبةِ عملِهِ على ذلكَ. وكذلكَ الخطأُ والنِّسيانُ. [والخطأُ][١] على وجهَينِ: خطأُ الفِعْلِ، وهو الذي ليسَ بصوابٍ ولا رُشْدٍ، وخطأُ القصْدِ عمْدَ الفعْلِ، وهو الذي قصَدَ أمْراً[٢]، فأصابَ غيرَهُ. والنِّسيانُ على وجهَينِ أيضاً: نِسْيانُ تَرْكٍ، وهو الذي يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ ﷻ من هذا الوجْهِ، [ونِسْيانُ عمْدٍ][٣].

وقيلَ: نزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ الآية في المؤمنينَ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [النساء: ١٨] في الكافِرينَ، وقيلَ: إنَّهما جَميعاً في المؤمنينَ، والثالثةُ[٤] في الكفارِ. وعنْ عمرَ بنِ الخطّابِ ﷺ أنهُ قالَ: (إنّ اللهَ تعالى يقْبَلُ توبةَ العبْدِ ما لم يُغَرْغِرْ). ورُوِي عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][٥] قالَ: «منْ تابَ قبْلَ أن تُغَرْغِرَ نفسُهُ، ويُعايِنَ الملائكةَ قبِلَ اللهُ توبتَهُ» [أحمد ٥/ ٣٦٢].

والأصلُ في هذا أنّ توبةَ الكافرِ [تُقْبَلُ إذا كانتْ][٦] توبةَ اختِيارٍ. وأمّا إذا كانَتْ توبتُهُ توبةَ اضطرارٍ ودفعٍ فإنها لا تُقْبَل أبداً كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] إذا كانَ إيمانُهُ إيمانَ دفْعٍ واضطرارٍ عندَ مُعاينةِ العَذابِ فإنهُ لا يُقْبَل أبداً، وهو أيضاً كإيمانِ فِرعونَ حينَ قالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [يونس: ٩٠] لم يُقْبَلْ إيمانُهُ لأنهُ إيمانُ دفْعٍ واضطرارٍ.

فعَلى ذلكَ كلُّ إيمانِ دفْعٍ واضطرارٍ فإنهُ لا يُقْبَلُ أبداً. [وهو كقولِهِ:][٧] ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤].

الآية ١٨ وقولُهُ[٨] تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ همُ الذينَ يَتوبونَ عندَ معايَنتِهِمُ الموتَ؛ أخْبَرَ أنهُ لا يقبَلُ توبَتَهُمْ، لأنهُمْ يتوبونَ في الآخِرةِ دفْعَ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وكقولِهِ[٩]: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ قالَ بعْضُهُمْ: كانَ يجوزُ لهُمْ أنْ يرِثوا النساءَ طَوعاً لأنهُ إنما نَهى أنْ يرِثوهُنَّ كَرْهاً، فكانَ فيهِ دليلُ جوازِ وراثتِهِنَّ طَوعاً. وأمّا عندَنا فإنهُ ليسَ فيه دليلُ جوازِ وراثتِهِنَّ طَوعاً. وإنْ كانَ النَّهيُ فإنما[١٠] كانَ في حالِ الكَرْهِ، لأنَّ الأصلَ عندَنا أنْ ليسَ في حظْرِ الحُكْمِ في حالٍ: دليلُ إباحتِهِ في حالٍ أُخرَى، ولا في إباحَتِهِ في حالٍ دليلُ حظْرِهِ في حالٍ أُخرَى، ولا في حِلِّهِ في حالٍ: دليلُ حُرْمَتِهِ في حالٍ أُخرَى، ولا في حُرْمتِهِ في حالٍ: دليلُ حِلِّهِ في حالٍ أُخرَى. دليلُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] ليسَ على أنَّ لهُمْ أنْ يقتلوهُمْ إذا لم يخشَوُا الإملاقَ، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وقولُهُ[١١] تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

والقصةُ في الآيةِ ما قيلَ: إنَّ الرجلَ إذا ما ترَكَ امرأةً كانَ أولياؤُهُ أحقَّ بامرأتِهِ منْ تَوَلّي[١٢] نفسِها؛ إنْ شاؤُوا زوَّجوها، وإنْ شاؤوا لم يُزوِّجوها، فنزَلَتِ الآيةُ في ذلكَ، وقيلَ أيضاً: كانوا في أوّلِ الإسلامِ إذا ماتَ الرجلُ [أقبَلَ][١٣] أقربُ الناسِ منهُ، فيُلْقي على امرأتِهِ ثوباً، حدَثَ نِكاحُها طَوعاً وكَرْهاً، فنزلَتِ الآيةُ في ذلكَ. والآيةُ عندَنا خرجَتْ مَخرَجَ بيانِ التحريمِ على ما كانوا يفعَلونَ. دليلُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] نَهى الأبناءَ أنْ ينْكِحوا ما نَكَحَ آباؤُهُم منَ النساءِ، فدلَّ أنَّ النَّهيَ كانَ في الحالَينِ جميعاً في حالِ الكَرْهِ والرِّضا، واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ الآية تَحتمِلُ حُرمَةَ وراثتِهِنَّ أبداً؛ وإنَّ ذكرَهُ ﴿كَرْهًا﴾ لأوجهٍ:

أحدُها: أنْ ليسَ في ذِكْرِ الحُرْمةِ في وجهٍ أو ذِكْرِ الحُرْمةِ دلالةُ تخصيصِ الحالِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أحداً. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) المقصود قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كان توبته. (٧) في الأصل وم: وكقوله. (٨) في الأصل وم: وقيل. (٩) في الأصل وم: وقوله. (١٠) في الأصل وم: إنما. (١١) في الأصل وم: وكقوله. (١٢) في الأصل وم: ولي. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] وقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. وقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ إنهُنَّ [لا يحلِلْنَ إنْ](١) لم يُؤْتَيْنَ أجورَهنَّ، وإذا لم يصِرْ ذلكَ شرطاً صارَ كأنهُ قالَ اللهُ ﷻ: يَحِلُّ لكمْ أنْ تَرِثوا النساءَ كَرْهاً، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ تكونَ الوِراثةُ(٢) أبداً كرْهاً، ويجِبُ الميراثُ، سواءٌ(٣) مَنْ فيهِ، ولهُ أولادٌ؛ إذا كانَ هذا وجهُ الوِراثةِ فذِكْرُهُ ذلكَ وغيرُ ذكرِهِ سواءٌ.

والثالث: أنهُمْ كانوا يَتوارثونَ النِّكاحَ، وهو أمرٌ لا يَحتمِلُ [الانْقِسامَ، ولا عندَ الاشْتِراكِ الاسْتِمتاعَ، فكانَ ذلكَ على تراضٍ منهُمْ لواحدٍ، أو أنْ يكونَ في ما كانَتِ الوِراثةُ ترجِعُ إلى واحدٍ، فيكونُ ذلكَ بحَقِّ النكاحِ لا الميراثِ، فإذا حُرِّمَ النكاحُ](٤) في حقِّ مَنْ يرِثُ منَ الذكورِ، وهُمُ الآباءُ والأبناءُ، فبَطَلَ الميراثُ لو كانَ يجوزُ أنْ يورَثَ.

ثم دلَّتْ هذهِ الآيةُ على قطْعِ وِراثةِ منافِعِ الإبضاعِ، [وملْكُ الإبضاعِ](٥) أدْوَمُ منْ مِلْكِ الإجاراتِ، فيجبُ أنْ يكونَ قطْعُ الإجاراتِ أولَى.

ودليلٌ آخرُ على بُطلانِ الوِراثةِ أنَّ المرأةَ قدْ ترِثُ الميراثَ، فتكونُ وِراثةُ بعضِ نفسِها، فبطَلَ منْ حيثُ يُرادُ إثباتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بعْضُهمْ: هو معطوفٌ على ما تقدَّمَ، وهو ما ذكَرْنا منَ الوِراثةِ؛ نَهى أنْ يَعْضِلوهُنَّ لِيَذْهَبوا بما آتوهُنَّ ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، قيلَ: لم يكُنْ يومئذٍ عُقوبةٌ إذا أتتِ المرأةُ بفاحشةٍ سوى أخْذِ المُهورِ منها، وكانوا يُمسِكونها على الوِراثةِ، فإذا أتَتْ بفاحِشةٍ(٦) أخذَ ما آتاها، ثم يُسرِّحُها. فإنْ قيلَ: إنما نَهاها عنِ الوِراثةِ لأنَّ الوليَّ إذا ورِثَها ورِثَتْ هي نفسَها، فيبْطُلُ بذلكَ، فالنَّهْيُ لذلكَ، قيلَ: لو كانَ لذلكَ فالمرأةُ، إنْ كانَتْ مِمَّنْ لا ترِثُ عنِ الزوجِ، مملوكةٌ، يجيءُ أنْ يَحِلَّ ذلكَ، إذْ لا وِراثةَ ثَمَّةَ. فإذا لم يجُزْ دلَّ أنها خرجَتْ على بيانِ التحريمِ، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ على الابْتِداءِ، ليسَتْ على الأوَّلِ نَهى الزَّوجَ أنْ يأخُذَ منها ما آتاها منَ المهْرِ ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ، هو الزِّنى، وهو ما ذكَرْنا، وقالَ آخرونَ: الفاحشةُ ههنا هو النُّشوزُ، أي إذا نشَزتْ فلا بأسَ أنْ يأخُذَ منها ما آتاها، وقيلَ: هو ما ذكَرَهُ ﷺ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] نَهى الأزواجَ أنْ يأخُذوا منهُنَّ ﴿شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ فحينئذٍ أباحَ أخْذَ ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾. فعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ وما ذكَرْنا منَ النُّشوزِ خوفَ ترْكِ إقامةِ حدودِ اللهِ، فعندَ ذلكَ أباحَ لهُمْ أخْذَ ما آتاها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: هو كقولِهِ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقيلَ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يَحتمِلُ بالفَضْلِ، ويَحتمِلُ كما لو فُعِلَ بكَ مثلُ ذلكَ لم تنْكِرْهُ، بل تعرِفُهُ، وتقبلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ بوجهَينِ: قيلَ: كرِهْتُمْ صحْبتَهُنَّ من قُبْحِهنَّ ودَمامَتِهنَّ أو سوءِ خُلُقِهنَّ، فصبَرْتُم على ذلكَ ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قيلَ: يهَبُ لكُم منهُنَّ أولاداً تقَرُّ بِهِمْ أعينُكُم، أو يُعطي لكُم في الآخِرةِ ثواباً جزيلاً بصحبتِكَ إياهُنَّ. وقيلَ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي كرِهْتُم فِراقَهُنَّ يجعلِ(٧) اللهُ تعالى في الفراقِ ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠].

---

(١) في الأصل وم: يحللن وإن. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: يكون. (٣) في الأصل وم: ساء. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج بعدها في م: ليذهبوا بما آتوهن إلى. (٧) في الأصل وم: ويجعل.

الآية ٢٠ وقولهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ منَ الذَّهبِ. وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (إنْ كرِهتَ امرأتَكَ، أو أعْجَبَتْكَ غيرُها، فطلَّقتَ هذهِ، وتزوَّجتَ تلكَ، فأعْطِ هذهِ مهرَها، وإنْ كانَ قِنطاراً) والقِنطارُ اثنا عشرَ ألفَ درهمٍ أو ألفُ دينارٍ، [وقيلَ: القِنطارُ ألفٌ ومئتا دينارٍ][1] فهذا على التَّمثيلِ، ليسَ على التَّقديرِ.

ووجهُ النَّهيِ والوَعيدِ في ذلكَ، واللهُ أعلمُ، ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ النساءَ عندَكُمْ عَوانٌ؛ اتَّخذتُموهُنَّ بأمانةِ اللهِ تعالى، واسْتَحْلَلْتُمْ فُروجَهُنَّ/ ٨٥ ـ ب/ بكلِمَةِ اللهِ تعالى» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٤/ ٣١١] توعَّدَ ﷻ الأزواجَ في غيرِ آيةٍ منَ القرآنِ عنْ أخذِ مُهورِ النساءِ وغيرِها منَ الأموالِ لضَعْفِهِنَّ في أنفُسِهِنَّ، والرجالُ هُمُ القوَّامونَ عليهِنَّ، لئلَا يَبْسُطَ الأزواجُ في أموالِهِنَّ إشفاقاً عليهِنَّ، أي لمَّا إذا أخذَ منها مهرَها بقِيَتْ لهُ المنفعةُ بلا بدَلٍ. لكنَّهُ أُجيزَ لهُ ذلكَ لأنهُ تقلُّبٌ في المِلْكِ، وكلُّ منْ تقلَّبَ في مِلْكِهِ ببدَلٍ جازَ لهُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ قيلَ: ظُلماً بغيرِ حقٍّ، وقيلَ: إذا أرادَ طلاقَها لا يُضارُّها بكَذِبٍ لتفتَدِيَ منهُ مهرَها ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ويحتمِلُ أنْ يكونَ البُهتانُ والإثمُ واحداً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقيلَ: الإفضاءُ هو الجِماعُ، والأشبهُ أنْ يكونَ الإفضاءُ الاِجتِماعَ لأنهُ أضافَ إليهِما جميعاً، فهو بالاِجتِماعِ أشبَهُ، وإليهِ أقرَبُ، فيجِبُ المهرُ بالاِجتِماعِ والخلوةِ بها، والجِماعُ فعْلُ الزَّوجِ يُضافُ إليهِ خاصَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ قيلَ: عُقْدةُ النِّكاحِ، وقيلَ: هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقيلَ: الميثاقُ الغليظُ ما ذُكِرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقولُ: «اتَّقوا اللهَ في النساءِ فإنَّكُمْ إنَّما اتَّخذتُموهُنَّ بأمانةِ اللهِ، واسْتَحلَلتُمْ فُروجَهُنَّ بكلمةِ اللهِ، وإنَّهُنَّ عندَكُمْ عَوانٌ لا يملِكْنَ منْ أمرِهِنَّ شيئاً» [مسلم ١٢١٨]. وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «يا أيُّها الناسُ إنَّ لكُمْ على نِسائِكُمْ حقاً، وإنَّ منْ حقِّكُمْ عليهِنَّ أنْ لا يُوطِئنَ فُرُشَكُمْ [أحداً][2]، ولا يأذَنَّ [في][3] بيوتِكُمْ لأحدٍ تكرهونَهُ، ولا يأتِينَ بفاحشةٍ مُبيِّنةٍ. فإنْ هنَّ فعَلْنَ ذلكَ فقدْ أحلَّ اللهُ لكُمْ أنْ تضرِبوهُنَّ ضَرْباً غيرَ مُبرِّحٍ» يعني غيرَ شائنٍ. «وإنَّ منْ حقِّهِنَّ عليكُمُ الكِسوةَ والنَّفقةَ بالمعروفِ» [مسلم ١٢١٨] وقيلَ: إنَّ رجلاً سألَ رسولَ اللهِ ﷺ: ماذا يَحِلُّ لنا منْ نِسائِنا؟ وماذا يُحرَّمُ علينا منهُنَّ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «حرْثُكَ، فأتِهِ أنَّى شئتَ، ولا تضرِبِ الوجهَ، ولا تُقبِّحْهُ، ولا تهجُرْها إلَّا في بيتِها، وأطعِمْها إذا أكَلْتَ، واكْسُها إذا اكْتَسيْتَ» [أحمد ٤/ ٤٤٧ و٥/ ٣].

وقيلَ: الميثاقُ الغَليظُ ما أقرُّوا بهِ منْ قولِ اللهِ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حرَّمَ اللهُ تعالى على الأبناءِ نِكاحَ نِساءِ الآباءِ؛ وذلكَ أنهُمْ كانوا يعمَلونَ في الجاهليَّةِ ما قيلَ في القِصَّةِ: إنَّ أبا قيسٍ [بنَ الأسلَتِ][4] تُوفِّيَ، فعَمَدَ ابنُهُ، يُقالُ لهُ: مُحصَنٌ، فتزوَّجَ امرأةَ أبيهِ، فنهى اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، فقالَ ﷻ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. وقيلَ: إنَّ رجلاً منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ خرجَ سالًّا سيفَهُ، فقيلَ لهُ: ما شأنُكَ؟ فقالَ: إنَّ رجلاً تزوَّجَ بامرأةِ أبيهِ. فهذا إذا تزوَّجها مُستحِلًّا لها، فهو يكفُرُ، لذلكَ كانَ قصدَ قتْلَهُ، وكذلكَ[5] حرَّمَ اللهُ ﷻ على الآباءِ نِكاحَ نساءِ الأبناءِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ [النساء: ٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي إنكُمْ إذا انتهَيْتُمْ عن ذلكَ في الاِئتِنافِ[6] يغفِرِ لكُمْ ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وإنَّهُ ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ في الإسلامِ ﴿وَمَقْتًا﴾ قيلَ: بُغضاً ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئسَ المسلَكُ تزوُّجُ نساءِ الآباءِ. ويحتمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في الطلاقِ؛ إذا كانَ الرجلُ يطلِّقُ امرأتَهُ، ثم يندَمُ على طلاقِها، فيتزوَّجُها ابنُهُ، فيمقُتُ ذلكَ الأبُ، ويبغُضُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئسَ السَّبيلُ نكاحُ امرأةِ أبيهِ: المسلكُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم، انظر تفسير الطبري ٤/ ٣١٨.
(٥) في الأصل وم: ولذلك. (٦) في م: الاتيان.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ إلى آخِرِهِ، يحتمِلُ وجهَينِ: أي حُرِّمَ عليكمُ الاِسْتِمتاعُ بأمَّهاتِكُمْ وبناتِكُمْ وأخواتِكُم وما ذكَرَ والجِماعُ بهِنَّ، ويَحتمِلُ حُرمةَ النكاحِ، أي حُرِّمَ عليكُمْ نِكاحُ أُمَّهاتِكُمْ وبناتِكُمْ وأخواتِكُمْ. فإنْ كانَ هذا أرادَ فلا يُحرِّمُ النِّكاحَ لنفْسِ النِّكاحِ، ولكنْ يُحرِّمُ النِّكاحَ لِما بِهِ يُوصَلُ إلى الاِسْتِمتاعِ بالنساءِ، وإليهِ يُقصَدُ. فدلَّ أنهُ يُحرِّمُ الجمْعَ بينَ الأختَينِ في الاِستِمْتاعِ في مِلْكِ اليَمينِ، ولا يُحرِّمُ الجمْعَ بينَهما في العقْدِ.

ثم الحرْمةُ في الأمَّهاتِ والبناتِ والأخواتِ، ولم يذكُرْها[1] في الجَدَّاتِ، فهُنَّ محرَّماتٌ، وإنْ علَونَ، ولم يذكُرْها[2] في بناتِ البناتِ، فهُنَّ مُحرَّماتٌ وإنْ سفَلْنَ. فعندَنا أنَّ ذِكْرَ الحُرْمةِ في الأمَّهاتِ والبناتِ ذِكْرٌ في الجَدَّاتِ، وإنْ علَونَ في بناتِ البناتِ، وإنْ سفَلْنَ لأنهُ ذكَرَ الحرمةَ في العمّاتِ والخالاتِ، والعمّاتُ منْ ولَدِ الجَدِّ، والخالاتُ من ولَدِ الجَدَّاتِ، فإنما ذُكِرَتْ في الأولادِ والحرْمةِ في الأخواتِ والإخوةِ. فعَلى ذلكَ ذكرُ الحُرْمةِ في الأمهاتِ ذِكْرُ الحرْمةِ في البناتِ وبناتِ البناتِ لِما ذكَرْنا. أو يُقالُ: إنَّ بناتِ البناتِ، وإنْ سفَلْنَ، دخلْنَ[3] في ذِكْرِ الحرْمةِ نصّاً، وكذلكَ أمُّ الأمِّ، وإنْ علَتْ دخلَتْ[4] في الخطابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ ذكَرَ الأخواتِ، ولم يذكُرِ البناتِ. قالَ: إنما يذكُرُ ﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ لأنهُ لا يمكِنُ ﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ البناتُ، لذلكَ لم يذكُرِ [البناتِ][5]. وذلكَ الاِختِلافُ بينَنا وبينَهُ في لبَنِ الفحْلِ؛ فعندَنا لبَنُ الفحْلِ مُحرِّمٌ، وعندَ البشرِ لا يُحرِّمُ لبَنُ الفحْلِ.

ذكَرَ اللهُ ﷻ الحُرْمةَ في النَّسبِ بيْنَنا، وبيَّنَ بيانَ إحاطتِهِ وحقيقتَهُ، وذكَرَ الحُرْمةَ في الرَّضاعِ، وبيَّنَ بيانَ كِفايةٍ لا بَيانَ إحاطةٍ. فأمّا إنْ تُرِكَ لِلاِجْتِهادِ والاِسْتِنْباطِ منَ الذكورِ، وقد أجمَعوا جميعاً أنَّ بناتِ الإخوةِ والأخواتِ منَ الرَّضاعةِ [كالذكورِ في أولادِهِمْ][6]. فعَلى ذلكَ يجِبُ أنْ يكونَ ذِكْرُ الحرْمةِ في الأمّهاتِ منَ الرَّضاعةِ ذِكْراً[7] في بناتِها أو ترْكُ بيانِ ذلكَ للسُّنَّةِ.

رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «يحرُمُ منَ الرَّضاعةِ ما يحرُمُ منَ النَّسبِ» [البخاري ٢٦٤٥]. وما رُوِيَ عنْ عائشةَ ﵂ [أنها][9] قالَتْ: (جاءَ عمّي منَ الرَّضاعةِ، فاستأذنَ عليَّ، فأبيتُ أنْ آذنَ لهُ حتى أسألَ رسولَ اللهِ ﷺ فجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فسألْتُهُ عنْ ذلكَ، فقالَ: إنهُ عمُّكِ، فأْذَني لهُ، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ إنّما [أرضعَتْني المرأةُ، ولم يُرْضِعْني][10] الرجلُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنهُ عمُّكِ، فلْيَلِجْ عليكِ» [البخاري ٥٢٣٩] فقالَتْ عائشةُ ﵂: (وذلكَ بعْدَ أنْ ضُرِبَ علينا الحِجابُ).

وعنِ ابنِ عباسٍ ﵄ سُئِلَ عنْ رجلٍ لهُ امْرأتانِ أو جاريةٌ وامْرأةٌ، فأرضَعَتْ هذهِ جاريةً وهذهِ غلاماً، هل يصْلُحُ للغلامِ أنْ يتزوَّجَ الجاريةَ؟ فقالَ: (لا اللقاحُ واحدٌ).

وعنْ عمْرةَ [بنتِ عبدِ الرحمنِ][11] عنْ عائشةَ ﵂ أنها أخبرَتْها أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ عندَها، وأنها سمِعَتْ رجلاً يستأذِنُ في بيتِ حفصةَ ﵂ قالَتْ عائشةُ ﵂ (فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ هذا رجلٌ يستأذِنُ في بيتِكَ)، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أُراهُ فلاناً، [إنهُ][12] لِعَمِّ حفصةَ منَ الرَّضاعةِ» [البخاري ٢٦٤٦]. فقالَتْ عائشةُ ﵂: (يا رسولَ اللهِ لو كانَ فلانٌ حيّاً، [وهو عمُّها][13] منَ الرَّضاعةِ [أَأدخِلُهُ عليَّ])؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نعم إنَّ الرَّضاعةَ[14] تُحرِّمُ ما تُحرِّمُ الوِلادةُ» [البخاري ٢٦٤٦].

وعنْ عليٍّ ﵁: (لا تنْكِحْ منْ أرضعَتْهُ امْرأةُ أبيكَ ولا امْرأةُ أخيكَ ولا امْرأةُ ابنِكَ).

---

(١) في الأصل وم: يذكر. (٢) في الأصل وم: يذكر. (٣) في الأصل وم: فدخلن. (٤) في الأصل وم: فدخلت. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: كالذكر في أولادها. (٧) في الأصل وم: ذكر. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أرضعتني، انظر أحكام القرآن (٢/١٢٦). (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: لعمها. (١٤) ساقطة من الأصل وم، انظر المسند (٦/١٧٨).

وعنْ عائشةَ ﵂: (أنَّ أفلحَ أخا أبي القعيسِ استأذنَ عليها وهو عمُّها منَ الرَّضاعةِ بعدَ أنْ نزلَ الحِجابُ، قالتْ: فأبيْتُ أنْ آذنَ لهُ، فلمّا جاءَ رسولُ اللهِ ﷺ أخبرْتُهُ بالذي صنعْتُ، فأمرَني بأنْ آذنَ لهُ عليَّ).

وحُجَّةٌ أخرى منَ النَّظرِ بأنَّ اللهَ تعالى حرَّمَ الابنةَ على أبيها وعلى جدِّها، والابْنةُ حدثَتْ عنْ ماءِ الأبِ بعينِهِ، ولم تحدُثْ عنْ ماءِ الجدِّ، ولكنَّ الجدَّ سببُ ماءِ الأبِ الذي حدثَتْ عنهُ الابْنةُ. قالَ: فاللَّبنُ، وإنْ كانَ حدوثُهُ منَ الأمِّ/ ٨٦ ـ أ/ فإنَّ سببَ كوْنِهِ هو الأبُ، فيجِبُ أنْ تُحرِّمَ المرأةُ التي أرضعَتْها امْرأتُهُ عليهِ إذا كانَ سبباً لذلكَ اللَّبنِ كما يُحرِّمُ المُرضِعُ إذا كانَ سبَباً على الذي أرْضعَتْهُ.

ثم بقيَتْ مسألتانِ: إحداهُما في التَّقديرِ، والأُخرى في الحدِّ. أمّا في التَّقديرِ فعُمومُ قولِهِ ﷻ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ لم يخُصَّ قَدْراً دونَ قدْرٍ. ورُوِيَ عنْ عليٍّ وعبدِ اللهِ [﵄ أنهُ][1] قالَ: «الرَّضْعةُ الواحدةُ تُحرِّمُ» [لا تحرم عند مسلم ٢/ ١٠٧٤، أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٦٧]. فإنْ قيلَ: رُوِي عنْ عائشةَ ﵂ [أنها قالَتْ: (كانَ في ما أُنْزِلَ][2] عشْرُ رَضعاتٍ، ثُمَّ صِرْنَ إلى خمْسٍ، فتوفِّي النَّبيُّ ﷺ [وهُنَّ في ما يقرأُ منَ القرآنِ) قيلَ:][3] لسْنا نجِدُ في القرآنِ آيةَ الناسِخِ [ولا آيةَ المنسوخِ][4] ولا يجوزُ أنْ يُقالَ منَ القرآنِ شيءٌ، فلا نترُكُ ما نجِدُهُ ثابتاً في القرآنِ، مخفوظُهُ بروايةٍ قد غلِطَتْ فيها.

ورُوِي عنها أنها قالَتْ: (يُحرِّمُ منَ الرَّضاعِ ما أنبتَ اللَّحْمَ والدَّمَ)، ورُوِي عنها أيضاً أنها قالَتْ: (لا تُحرِّمُ المصَّةُ والمصَّتانِ ولا الإملاجةُ والإملاجتانِ) قيلَ[5] ذلكَ لابنِ عمرَ ﵁ فقالَ: (حُكْمُ اللهِ أوْلاً وخيْراً، [منْ حكمِها، وكلامٌ نحوُ هذا][6].

وعنْ عمرَ بنِ دينارٍ قالَ: سألْتُ ابنَ عمرَ ﵁ فذكَرَ شيئاً منَ الرَّضاعِ، فقالَ: (لا نعْلَمُ إلا أنَّ اللهَ حرَّمَ الأختَينِ منَ الرَّضاعةِ)، قالَ: فقلْتُ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ ابنَ الزُّبيرِ يقولُ: (لا تُحرِّمُ المصَّةُ والمصَّتانِ ولا الإملاجةُ والإملاجتانِ لِما لم يُتحقَّقْ بالمصَّةِ والمصَّتَينِ أنَّ اللبنَ قد صارَ في جوفِ الصَّبيِّ، ووصَلَ إليهِ، فلذلكَ لم يُحرِّمْ بهِ).

وأمّا المسألةُ في الحدِّ فإنَّ[7] الرَّضاعَ في الكِبَرِ لا يُحرِّمُ عندَنا، وما رُوِيَ في خبَرِ عائشةَ ﵂ (أنهُ ﷺ دخَلَ عليها، فرأى عندَها رجلاً، فتغيَّرَ وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: منْ هذا؟ قالَتْ: إنهُ أخي[8] منَ الرَّضاعةِ)، فقالَ: «[انْظُرْنَ منَ تُرضِعْنَ فإنما][9] الرَّضاعةُ منَ المجاعةِ» [البخاري ٢٦٤٧]، وما رُوِي عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][10] قالَ: «الرَّضاعُ ما فَتَقَ الأمعاءَ» [الترمذي ١١٥٢]. إنما يكونُ في الصِّغَرِ لأنَّ أمعاءَ الصَّبيِّ تكونُ ضيِّقةً[11] لا تَحتمِلُ الطعامَ لضِيقِها، وأمّا فتْقُهُ باللَّبنِ [فهو][12] على ما وصَفَهُ ﷻ: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]. فإذا كانَ غذاؤُهُ إنما يكونُ باللبنِ للمعنى الذي وصفْنا كانَتْ كِفايَةَ مجاعتِهِ بهِ، وكانَ هذا معنَى قولِهِ ﷺ: «إنَّما الرَّضاعةُ منَ المَجاعةِ»، وكذلكَ ما رُوِي عنهُ [ﷺ][13]: «ما أنْبَتَ اللَّحْمَ، وأنْشَزَ العظمَ» [أحمد ١/ ٤٣٢] وفي الكِبَرِ لا يُنْبِتُ اللَّحْمُ، ولا يَنْتشِزُ العظْمُ.

ورُوِي أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ﵁ قالَ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «الجُرعةُ تُحرِّمُ كما يُحرِّمُ حولانِ كامِلانِ». فإنْ ثبَتَ هذا فهو الأصلُ في ذلكَ، والمعْتَمَدُ عليهِ، فإنْ عورِضَ بما في خبَرِ سالِمٍ [ابْنِ حُذَيفةَ][14] حينَ قالَ [لِسَهْلةَ بنْتِ سُهيلِ ابنِ عمْروٍ][15]: «أرْضِعي سالِماً خمْسَ رَضعاتٍ تَحْرُمي عليه» [أحمد ٦/ ٢٠١] [فإنهُ يُقالُ:][16] هذا يَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ لسالِمٍ خاصةً دونَ غيرِهِ منَ الناسِ. فإذا كانَ كذلكَ لا يُقاسُ عليهِ غيرُهُ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ منْسوخاً بما رُوينا منَ الأخبارِ المرْفوعةِ والموقوفةِ بإيجابِ الحُرْمةِ بالقَليلِ منهُ والكثيرِ.

---

(١) في الأصل: رضي الله تعالى عنه، ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: قالت كان فيما ترك. (٣) في الأصل وم: وهو فيما يقرأ، قيل. انظر الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٠٩). (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) في الأصل وم: وكلام نحو هذا من حكمها.
(٧) في الأصل وم: ان. (٨) في الأصل وم: عمي. (٩) في الأصل وم: انظري ما الرضاعة انما، انظر المسند (٦/ ٢١٤). (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ضيقا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. انظر المسند (٦/ ٢٠١). (١٥) ساقطة من الأصل وم. انظر المصدر السابق. (١٦) في الأصل وم: قيل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ الآية؛ اجتمَعَ أهلُ العِلْمِ في الرَّبيبةِ على أنها لا تَحْرُمُ على الرجلِ الذي كانَ قد تزوَّجَ أمَّها، وطلَّقَها قبْلَ الدُّخولِ، أو ماتَتْ، وإنما تحرُمُ عليهِ إذا دخَلَ بها.

واختُلِفَ في أمِّ المرأةِ إذا لم يدخُلْ بالابنةِ حتى بانَتْ منهُ. قالَ أصحابُنا، رحِمَهُمُ اللهُ: هي حرامٌ عليهِ؛ كانَ دخَلَ بالأمِّ أمْ لم يدخُلْ. وقالَ آخرونَ: بشَرْطٍ: الدُّخولُ في آخِرِ القصَّةِ راجعٌ إلى الرَّبيبةِ والأمِّ جميعاً. فما لم يدخُلْ بواحِدةٍ منْهُما حلَّ لهُ أنْ[1] يتزوَّجَ بالأُخرى إذا فارَقَها، وهو القياسُ الظاهرُ في الكتابِ في أمرِ الشَّرْطِ. والثُّنيا أنْ يكونَ الشرطُ فيهما جميعاً لأنهُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ ذكَرَ أمهاتِ النساءِ وربائبَ النساءِ، ثم شرَطَ الدخولَ بهنَّ، فيجبُ أنْ يكونَ الشرطُ لاحقاً بهما جميعاً. وكذلكَ رُوِيَ عن عليٍّ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: (هي بمنزلةِ الرَّبيبةِ)، وعنْ جابرٍ [أنهُ][3] قالَ: (ينكِحُ أمَّها إنْ شاءَ)، وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ أفتى في امرأةٍ تزوَّجَها رجلٌ، فطلَّقَها قبْلَ أنْ يدخُلَ بها، أو ماتَتْ، قالَ: (لا بأسَ أنْ يتزوَّجَ أمَّها)، فلمّا أتى المدينةَ رجَعَ، فأتاهُمْ، فنهاهُمْ عنْ ذلكَ، فقيلَ: إنها ولَدَتْ أولاداً، فقالَ: (ولو ولَدَتْ). إلى هذا يذهبُ[4] أولئكَ، وهو الظاهرُ من الآيةِ.

واحتَجَّ بعضُ أصحابِنا في ذلكَ أنَّ الثُّنيا المُلْحَقَ في آخِرِ الكلامِ ربَّما يلْحَقُ الكلَّ على ما تقدَّمَ منَ الكلامِ، وربَّما يقَعُ على ما يليهِ. فلمّا كانَ غيرَ مُلْحَقٍ على الكلِّ منَ المذكورِ وقَعَ على ما يَليهِ. فإنْ قيلَ: يلْحَقُ على ما تقدَّمَ منَ الذِّكْرِ ما لا يُحتَمَلُ، [فهو][5] ليسَ على ما لا يُحتَمَلُ. الا ترى أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣] ثم ألحَقَ الكلَّ؛ ولا أوْقَعَ على ما يليهِ خاصةً، ولكنهُ ألحَقَ على ما احتُمِلَ عليهِ؟ فعلى ذلكَ في هذا لم يُلْحِقِ الكُلَّ لأنهُ لا يُحتَمَلُ، وأوقعَ على الأمِّ والرَّبيبةِ لأنهُ يُحتَمَلُ.

واحتجَّ أصحابُنا، رحِمَهُم اللهُ، أيضاً أنَّ الحُرمةَ ثبتَتْ بقولِهِ ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ فلا تُستَحَلُّ بالشَّكِّ، وفي الرَّبيبةِ لم تثبُتْ إلا بالشَّرْطِ، فلا تُحرَّمُ بالشكِّ.

وقيلَ أيضاً: إنَّ الدخولَ لو كانَ شرطاً في الأمِّ والرَّبيبةِ جميعاً لاكْتفَى بذِكْرِ النساءِ: الأمهاتِ والرَّبائبِ، فنقولُ: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ مِنْ ربائبِكُمُ ﴿ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، ولم يحتَجْ إلى أنْ يذكُرَ ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ على ما اكْتفَى بذِكْرِ الحُرْمةِ في الأنسابِ والرَّضاعِ في الأصولِ عنِ الشُّعوبِ. فلمّا لم يكْتَفِ بذلكَ دلَّ أنَّ الرَّبائبَ مخصوصاتٌ بالشَّرْطِ دونَ الأمهاتِ. وممّا يُبيِّنُ ذلكَ أنَّ الرَّبيبةَ لو لم تُذكَرْ لم يَجُزْ أنْ يبقَى منَ الكلامِ ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ اللاتي دخَلْتُم بهنَّ، ولو لم يذكُرِ الأمهاتِ، فبَقِيَ منَ الكلامِ ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ كانَ كلاماً تامّاً. فدلَّ ذلكَ على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ إنما هو في الرَّبائبِ دونَ الأمهاتِ.

وأصلُهُ ما رَوَى عَمْرُو بْنُ شُعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدِّهِ أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أيُّ ما رجُلٍ تزوَّجَ امرأةً، فطلَّقَها قبْلَ أنْ يدخُلَ بِها، أو ماتَتْ عندَهُ، فلا بأسَ بأنْ يتزوَّجَ ابْنتَها» و«أيُّ ما رجُلٍ تزوَّجَ امرأةً، فطلَّقَها قبْلَ أنْ يدخُلَ بِها، أو ماتَتْ عندَهُ، فلا يحِلُّ لهُ أنْ يتزوَّجَ أمَّها» [البيهقي في الكبرى ٧/ ١٦٠].

وعنِ ابنِ عبّاسٍ وعِمرانَ بنِ حُصينٍ في ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ [أنهما][6] قالا: (هي مُبهَمةٌ).

وقالَ أكثرُ أهلِ العِلْمِ: إذا تزوَّجَ الرجُلُ امرأةً، ودخَلَ بها، لم يجُزْ لهُ أنْ يتزوَّجَ ابْنتَها، وإنْ لم تكُنْ ربيبتَهُ وفي بيتِهِ وحجْرِهِ، وهي في ذلك بمنْزلتِها لو كانَتْ في حِجْرِهِ يُربِّيها. وأجمَعوا جميعاً أنَّ الجمْعَ بينَ المرأةِ وأمِّها وابنتِها في الجِماعِ

---

(١) من م، في الأصل: انه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يذهبون. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

في [مِلْكِ][1] اليَمينِ حرامٌ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ عمرَ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنْ ذلكَ، فقالَ: (ما أُحِبُّ ذلكَ) فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ الخِطابَ كما ذكَرْتِ [الآيةُ][2] يدلُّ على الشَّرْطِ في الدخولِ بالأمَّهاتِ إنما هو سبَبُ الرَّبائبِ، فما تُنْكِرُ أنْ يكونَ حُكْمُ الأمَّهاتِ حُكْمَ الرَّبائبِ كما كانَ حكْمُ حلائِلِ الأبناءِ حكْمَ نساءِ الآباءِ، قيلَ: لا يجوزُ أنْ تُقاسَ المنصوصاتُ بعضُها على بعْضٍ، وإنَّما يُقاسُ ما لا نصَّ فيهِ على المنصوصِ. فعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلمُ.

ثمَّ يجبُ أنْ يُنْظَرَ أيُّ حِكْمةٍ أوجبَتْ تحْريمَ الجمْعِ بينَ المحارمِ: بينَ محارِمِ الرجالِ ومَحارِمِ النساءِ؟ ورُوِيَ عن أنسٍ [أنهُ][3] قالَ: (أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا[4] يكرَهونَ الجمْعَ بينَ القرائبِ في النِّكاحِ، وقالوا: (لأنهُ يُورِثُ الضغائنَ)، أو كلاماً[5] نحوَ هذا. فقيلَ لهُ: (يا أبا حمْزةَ مَنْ منْهُمْ؟ فقالَ: أبو بكْرٍ وعمرُ وعثمانُ ﷺ) ورُوِيَ مرفوعاً: /٨٦ ـ ب/ أنهُ [قالَ][6]: «لا تُنْكَحُ المرأةُ على عمَّتِها ولا على خالتِها» [مسلم ١٤٠٨/٣٧]. ورُوِيَ في بعضِها أنهُ يُوجِبُ القَطيعةَ. ورُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ كرِهَ الجمْعَ بينَ ابْنَتَي [عمَّيْنِ][7]، وقالَ: (لا أُحرِّمُ، ولكنْ أكْرَهُ لأنهُ يوجِبُ القَطيعةَ). فلمْ يُحرِّمْ لأنَّ صلةَ القرابةِ في ما بينَهما ليسَتْ بمُفْترَضةٍ، والصلةَ بينَ المحارمِ مفترَضةٌ فإذا كانَتْ مفترَضةً فالجمعُ بينَهما يَحمِلُ على القَطيعةِ، فحرَّمَ.

وعلى ذلكَ في نساءِ الآباءِ وحلائلِ الأبناءِ إذا فارَقَ واحدٌ امْرأتَهُ، فلِعِلَّةٍ يندَمُ على ذلكَ، فيُريدُ العَوْدَ إليها، فإذا تزوَّجها أبوهُ أوِ ابْنُهُ أوْرَثَ ذلكَ في ما بيْنَهما الضَّغائنَ والقَطيعةَ، لذلكَ حرَّمَ، واللهُ أعلمُ. وكذلكَ هذا المعنى في الإِبْنةِ، إذا طلَّقَها [زوْجُها][8]، ثم تزوَّجَ بأمِّها، حمَلَها على الضَّغينةِ في ما بينَهُما. وأمّا إذا تزوَّجَ الأمَّ، ثمَّ فارَقَها قبْلَ أنْ يدخُلَ بها، حلَّ أنْ يتزوَّجَ بابْنَتِها، لأنَّ الأمَّ تُؤْثِرُ ابنتَها على نفْسِها في المُتَعارَفِ، فلا يحْمِلُ ذلكَ على القَطيعةِ، والإبنةُ لا تُؤْثِرُ أمَّها على نفْسِها، بلْ تُؤْثِرُ نفْسَها على أمِّها. لذلكَ[9] كانَ ما ذُكِرَ.

وأمّا إذا دخَلَ بالأمِّ لم يحِلَّ لهُ أنْ ينْكِحَ الإبنةَ[10] لأنهُ يذْكُرُ استِمْتاعَ هذهِ، فيكونُ جامعاً بينَهما في الاِستِمتاعِ، لذلكَ حرَّمَ.

ثم اختُلِفَ في الجِماعِ والدخولِ بها إذا كانَ منْ غيرِ رُشْدٍ، قالَ أصحابُنا، رحمَهُم اللهُ: يُحرِّمُ كما يُحرِّمُ الحَرامُ[11]، ويُمنَعُ نكاحُ الرَّبيبةِ كما يمنَعُ الحرامُ[12]. وقالَ قومٌ: لا يُحرِّمُ، ولا يُمْنَعُ نكاحُ الرَّبيبةِ، واستَدلّوا في ذلكَ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ لأنَّ اللهَ تعالى حرَّمَ ربائبَ النساءِ إذا دخَلَ بالأمَّهاتِ، والمُزْنَى بها ليسَتْ بزوجةٍ للزّاني، فلا تُحرِّمُ ابْنتُها. لكنهُ لا حُجَّةَ لهُمْ في ذلكَ، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى [ﷻ][13] ذكَرَ الدخولَ بهنَّ، ولم يذْكُرِ النِّكاحَ، ولا خَصَّ الدخولَ في النِّكاحِ، وهو على كلِّ [حالٍ][14] دخولٌ رُشْداً كانَ أو سِفاحاً، والسِّفاحُ أحقُّ في الحرْمةِ منَ الحلالِ، إذْ حكْمُهُ أغلظُ وأشدُّ. فعَلى ذلكَ في إيجابِ الحرْمةِ منَ الحلالِ يجيءُ أنْ يكونَ أشدَّ وأغلظَ، وهو، ولو كانَ ذكَرَ الدخولَ هَهُنا في النكاحِ [لم يكنْ فيهِ ما يمْنَعُ وُجوبَ الحرْمةِ إذا كانَ في النكاحِ][15]. ألا تَرى إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾؟ [والرَّبيبةُ التي لا تكونُ في حِجْرِ الرجلِ مثْلُها في الحرْمةِ، ولم يجْعَلْ قولَهُ تعالى: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾][16] خُصوصاً فيها دونَ ما أشبَهها. وكذلكَ يجوزُ ألّا يجْعَلَ قولَهُ: ﴿نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ خُصوصاً الدخولَ بالزوجاتِ دونَ ما أشْبَهَهُنَّ، وهُنَّ المَوطوءاتُ مع ما ذكَرْنا أنْ ليسَ في الآيةِ ذِكْرُ نِسائِنا، لذلكَ لم يكُنْ فيه دليلُ الحظْرِ في غيرِهِ.

وبعدُ [فإنّا][17] قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ أنْ ليسَ في حظْرِ شيءٍ في حالٍ حظْرُهُ في غيرِ تلكَ الحالِ، والحرْمةُ منْ ذلكَ الاِستِمتاعِ أنهُ إذا استَمْتَعَ بإحداهُما لم يكُنْ لهُ الاِسْتِمْتاعُ بالأُخرَى، ألا تَرى إلى ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كان. (٥) في الأصل وم: كلام. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: كذلك. (١٠) في الأصل وم: بالابنة. (١١) في الأصل وم: الحلال. (١٢) في الأصل وم: الحلال. (١٣) ساقطة من م. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) من م، ساقطة من الأصل. (١٧) ساقطة من الأصل وم.

«ملعونٌ منْ نظرَ إلى فرْجِ امرأةٍ وابنتِها»؟ [ابن حجر في فتح الباري ٩/ ١٩٥ رقمه ٥١٠٥]. ومعْلومٌ أنهُ لا ينْظُرُ إلى فرْجَيهما[1] في وقْتٍ واحدٍ، وإنما ينظرُ في وقْتَينِ، فهو، واللهُ أعلمُ، إذا نظَرَ إلى فرْجِ إحداهُما، ثم نظرَ إلى فرْجِ أُخرى يذْكُرُ نظرَهُ في فرْجِ هذهِ، فهو كالقاضي وطرَهُ فيهما. كذلكَ في الزِّنى كهُوَ في النِّكاحِ، واللهُ أعلمُ.

على أنهمْ أجْمَعوا أنَّ منْ وطِئَ أمَةً لهُ لم يكنْ لهُ أنْ يتزوَّجَ ابنتَها، فدلَّ أنَّ الدخولَ بهما في النكاحِ وفي غيرِ النكاحِ سواءٌ، وأنهُ مُحرِّمٌ. وما أجمَعوا عليهِ أيضاً أنهُ إذا وطِئَ امرأةً في النكاحِ [فاسِدةً في][2] الشُّبْهَةِ حُرِّمَتِ ابْنَتُها عليهِ، وهو وَطْءٌ حرامٌ. فدلَّ هذا على أنَّ التحريمَ إنما يكونُ بالاسْتِمتاعِ بها لا غيرَ. ورُوِي أيضاً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «منْ نظرَ إلى فرْجِ امرأةٍ لمْ تحِلَّ لهُ أمُّها ولا ابنتُها» [ابن أبي شيبة ٤/ ١٦٥]. وعنْ عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ في رجلٍ زَنى بأمِّ امْرأتِهِ [أنهُ][3] قالَ: (حُرِّمَتْ عليهِ امْرأتُهُ)، وعنْ عبدِ اللهِ [أنهُ][4] قالَ: «لا ينْظرُ اللهُ إلى رجلٍ نظَرَ إلى فرْجِ امرأةٍ وابنتِها» [الدارقطني ٣٦٤٠]. إلى هذهِ الأخبارِ ذهبَ أصحابُنا، رحِمَهُم اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ الآية: الأصلُ أنَّ اللهَ ﷻ بيَّنَ المحرَّماتِ في الأنسابِ بيانَ الإبلاغِ، وفي غيرِ الأنسابِ بيانَ الكِفايةِ؛ إذْ بيَّنَ في الأنسابِ الحرْمَةَ في الطَّرفَينِ: في اللَّواتي علَوْنَ، وسفَلْنَ، نحوِ الأمَّهاتِ والبناتِ، ثم في اللَّواتي يتَّصلْنَ بالآباءِ والأمَّهاتِ نحوِ العمّاتِ والخالاتِ، ثم في اللَّواتي يشْرُكْنَ الطَّرفَينِ بالاِسْمِ كالأخواتِ. وذكَرَ في الرَّضاعِ منَ الأنفُسِ أحدَ الطَّرفَينِ، وفي الشُّعوبِ ما يشْرُكْنَ الطَّرفَينِ على الاكْتِفاءِ بذِكْرِ طرفٍ منَ الأنفُسِ عنِ الطَّرفِ الآخَرِ، وبذِكْرِ المُشْتركاتِ منَ الشُّعوبِ على الاكْتِفاءِ بهِ عنْ ذِكْرِ المُنفرداتِ. فعَلى ذلكَ أمْرُ الأنفُسِ في الخطابِ بالحُرُماتِ. فلمّا ذكَرَ في ذلكَ الأمَّهاتِ والبناتِ جميعاً على ما ذَكَر في الواحدِ في ما كانَ المذْكورُ في نوعِهِ بحقِّ الكِفايةِ منَ البيانِ لا بحَقِّ الإبلاغِ دلَّ أنَّ ذلكَ لِما أُريدَ بهِ التَّفْريقُ في الأمْرَينِ.

وآيَةُ ذلكَ خبَرُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنه عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وأقاويلُ جماعةِ الصحابةِ معَ ما كانَ في ذلكَ إمكانُ شُبْهةٍ. فحقُّهُ، إذْ لو اقْتصَر على ابْتِداءِ الآيةِ، الحُرمةُ بالعقْدِ، لا يُزالُ ذلكَ بالشَّكِّ.

على أنَّ وجْهَ الاعْتِبارِ الاسْتِواءُ في الحرمَةِ قبْلَ الدخولِ لتكونَ حرْمَةُ الابْنَةِ على الأمِّ في زوجِها حرمةَ الأمِّ عليها، على ما عليها أمْرُ الابنِ منَ الأبِ في زوجَتِهِ. لكنْ [هناكَ][5] فرْقٌ منْ حيثُ إساءةُ الرجلِ في الاخْتِيارِ إذا اختارَ الأمَّ على الابنةِ إنْ علِمَ، أوِ الغفلةِ إنْ لم يكُنْ علِمَ. وحقُّ مثْلِهِ الزَّجْرُ عنهُ والتَّوبةُ عنْ مثْلِهِ. فجعَلَ لهُ مُفارقتَها لابْنتِها. وقد يُعْلَمُ بذلكَ قبْلَ الدخولِ. على أنَّ المدخولَ مذكورٌ[6] لهُ ما كانَ بها في حالِ الاسْتِمْتاعِ بها.

وقد حُرِّمَ ذلكَ الجمْعُ حرْمةً أبَديَّةً ما ينْبَغي أنْ يُجعَل بما يُذْكَرُ، وسبيلُ الحظْرِ بالقلْبِ، واللهُ أعلمُ.

وليسَ أمْرُ الابنِ والأبِ هذا؛ إذ إليهما في الابْتِداءِ الاخْتِيارُ والإيثارُ. وكلٌّ يُؤثِرُ الذي لهُ على الذي هو لغيرِهِ. وفي النساءِ إنما يجِبُ بعدَ الخِطابِ، وليسَ منهُنَّ عرْضٌ. لذلكَ لم يُعتَبَرْ حالُهنَّ. على أنَّ الأمَّهاتِ في العُرْفِ يُؤْثِرنَ[7] لذاتِ بناتِهنَّ على لذّاتِهنَّ، فلا تلْحَقُهُنَّ في الفراقِ لأجلِ البناتِ غَضاضةٌ وتلْحَقُ البناتِ[8]. فلذلكَ فُرِّقَ.

وأمّا بعدَ الدخولِ فهو مُوجِبُ الحرْمةَ لا مِنْ حيثُ الإيثارُ، إذ مِنْ جهةِ حرامٌ أو حلالٌ، يُوجِبُ ذلكَ. فلذلكَ اخْتلَفَ الأمرانِ. قال بشْرٌ: دلَّ تخصيصُ ذِكْرِ الأصلابِ في حلائلِ الأبناءِ على رفْعِ حُرمَةِ الرَّضاعِ أو على ألّا يكونَ الابنُ إلّا مِنَ الصُّلْبِ. ونحنُ نقولُ: لا دلالةَ فيهِ على ما ذكَرْنا، ولو[9] اسْتَدلَّ بهِ على الكونِ كانَ أقربَ؛ إذ خصَّ ذِكْرَ الأصلابِ، ولو لم يكُنِ الابنُ إلّا منَ الصُّلْبِ لكانَ القولُ بحلائلِ أبنائِكُمْ كافياً عنْ ذكرِ الأصلابِ معَ ما فيهِ وجوبُ الإلحاقِ بقولِه [ﷺ][10]: «يَحْرُمُ منَ الرَّضاعةِ [ما يَحْرُمُ منَ الوِلادةِ][11]» [البخاري ٢٦٤٦]. ومعْلومٌ أنَّ الحرْمَةَ منَ الوِلادةِ بما كانَ سبباً

---

(١) في الأصل وم: فرجهما. (٢) في الأصل وم: الفاسدة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: مذكر. (٧) في الأصل وم: يؤثر. (٨) في الأصل وم: للبنات. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

لهُ، فلذلكَ يَصيرُ مُرْضِعاً لِما كانَتْ هي مُرضعةً، وإنْ لم يكنْ منهُ حقيقةُ الإرضاعِ لِما كانَ، هو سببٌ لِما فيهِ دُرورُ اللّبنِ. وأيّدَ ذلكَ أمْرُ حلائلِ أبناءِ الأبناءِ بل حلائلِ أبناءِ البناتِ، وإنْ لم يَكونوا للصُّلْبِ للاتّصالِ بهِ بالنَّسبِ[1] على البُعْدِ عمّا ذكَرْنا أحقّ، واللهُ أعلمُ، مع ما يجوزُ أنْ يُقالَ: صارَ الرَّضاعُ وَلاداً في الحُكْمِ بالخبرِ، فيَصيرُ للصُّلْبِ بالحُكْمِ نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ثم يُعتبَرُ فيهِمُ الولاءُ في الحِجابِ لِما جاءَ أنَّ الولاءَ لُحمةٌ كلُحْمةِ النَّسبِ، ويَصيرُ ذا[2] نسَبٍ ورحِمٍ بالحُكْمِ بما ذُكِرَ منَ الخبَرِ. فمثْلُهُ الأوّلُ مع ما قد قيلَ: إنَّ فائدةَ ذِكْرِ الصُّلْبِ ألّا تتحقّقَ حُرْمةُ حلائلِ أبناءِ النّبيِّ بالأصلابِ. ولذلكَ قالَ تعالى، واللهُ أعلمُ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقالَ[3] ﷺ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ إذْ يَحتمِلُ الجمْعُ في العقْدِ/ ٨٧ ـ أ/ والجمْعُ في الملكِ والجمْعُ في الاسْتِمتاعِ، ويَحتمِلُ الجمْعُ في حبْسِ الاستِمْتاعِ، ويَحتمِلُ ألّا يرجِعَ المرادُ إلى معنًى منْ ذلكَ، ولكنْ يرجِعُ إلى الكلِّ. ثم كانَ الاسْتِمتاعُ بهما مرّةً واحدةً غيرَ ممْكِنٍ، وإنْ كانَتْ فيهِ حرْمةٌ، فهو لمعنًى، هنالِكَ يوجَدُ في حالِ الجمْعِ، لا أنَّ الخطابَ يأخُذُهُ، إذْ هو غيرُ ممْكِنٍ وجودُهُ، ولا يتهيّأُ احْتِمالُهُ ليُقْصَدَ بالخطابِ نحوُهُ. ولكنْ منْ خاطَبَ، يجوزُ أنْ يخاطِبَ، يجعلُ فيهِ تحريمَهُ، وإنْ لم ينُصَّ عليهِ في الخطابِ.

ثم الملْكُ المطْلَقُ والعقْدُ المطْلَقُ قد يُوجَدانِ غيرَ مُحرَّمَينِ نحوُ عقْدٍ[4] بهِ يُمْلَكُ مُلْكُ يمينٍ، فثبَتَ أنَّ المقصودَ لو كانَ مُلْكاً أو عقْداً فهو مقيّدٌ نحوُ ملْكِ النكاحِ أو عقْدُ ملْكِ النكاحِ، وقد أُجمِعَ على دخولِ هذا في حقِّ الخطابِ، إذْ قد أُجْمِعَ على أنَّ الجمعَ[5] بينَ الأختينِ في النكاحِ[6] لا يَصِحُّ، وأجمَعوا أنه لو تزوجَ بعقدينِ كانَ[7] نكاحَ الثانيةِ فاسداً[8] مِنْ غيرِ أنْ كانَ جُمِعَ في العقدِ بل في الملْكِ، لو ثبَتَ العقْدُ في الثانيةِ، وإذْ أثبتَ الحرْمةَ بهذا العقدِ، والملْكُ لم يكنْ لعقْدِ ملْكِ اليَمينِ، ولا يمْلِكُهُ، ولا للعقدِ؛ إذْ كلُّ ذلكَ على الانفِرادِ لا يعْمَلُ هذا العمَلَ، فيجبُ أنْ يكونَ المعنى منْ ذلكَ الاستِمتاعَ، والجمعُ في الفعلِ بهِ غيرَ ممكنٍ، فثبتَ أنهُ لمعنًى قد وصفَ الجمعَ بالاستِمتاعِ. وذلك على وجوهٍ:

أحدُها: عقدُ الاستِمتاعِ، وهو عقدُ النكاحِ، إذْ عقدُ ملكِ اليمينِ قد يوجدُ ولا يوجِبُ حقَّ الاسْتِمتاعِ.

والثاني[9]: ملْكُ النكاحِ؛ إذ هو لا يخلو منْ [أنْ][10] يوجِبَ ذلكَ الحقَّ. ثم كانَ نفسُ الاسْتِمتاعِ بحقِّهِ أحقَّ منَ الأسبابِ المُوجِبةِ لهُ، والعِدَّةُ ممّا يوجِبُ الاسْتِمتاعَ نفسُهُ، فهي أحقُّ أنْ تكونَ شرْطاً للمنْعِ بل هو أولَى، إذ يمنَعُ الاسْتِمتاعَ بملْكِ اليَمينِ، ولا يمنَعُ الحِلَّ ولا الملْكَ ولا السَّبَبَ. فإذا وجَبَ المنْعُ في النكاحِ لِما هو سبَبٌ لهُ فهو لأنْ يجِبَ بحقيقَتِهِ أحقُّ. وإنْ شِئتَ قلْتَ: إنْ لم يتفرّدِ الخلْقُ لنوعٍ منَ السَّبَب دونَ أنْ يُشاركَهُ غيرُهُ منَ الأسبابِ لزِمَ أنْ تكونَ حقيقةُ السببِ مجْهولةً[11] لا تُطْلِقُ ما قد يُثْبِتُ الحرْمةَ إلا بيقينٍ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ[12]: أنَّ عقْدَ النكاحِ قد حرَّمَ عليهِ وعليها، لكنَّ الذي حُرِّمَ عليهِ في محارِمِها، وعليها في الكلِّ. ثم معلومٌ أنْ يملكَ الزوجُ فيها ما بِهِ يحِلُّ لغَيرِهِ منَ الفِراقِ لحضْرةِ فعْلِهِ. فلمّا دخَلَ عجزَ عنْ ذلكَ بما أحدثَ لهُ فيها الاسْتِمْتاعُ بها حقّاً بعدَ الفِراقِ، أبقاها على ما سبَقَ منَ الوصْلِ بلا فِراقٍ. فعلى ذلكَ ما فيهِ منَ الحقِّ أنَّ ذلكَ واجبٌ بما فيهِ الشِّرْكُ على أنها في بقِيّةِ ملْكٍ لهُ بنكاحٍ، عمِلَتْ فيها بقِيّةُ ملْكِهِ عمَلَ صِلَةِ ملْكِهِ. فمثْلُهُ فيهِ.

وقد ألْحَق بعْضُ منْ أنْكَر حرْمةَ الجمْعِ في العِدّةِ بالوطْءِ حرْمةَ ما ترَكَ فيها[13] منَ اللّبَنِ على احْتِمالِ دُرورٍ دونَهُ ودونَ الولدِ بما هو كانَ سَبَباً[14] في ذلكَ، كانَتْ حرمَةُ العِدّةِ أحقَّ بذلكَ.

والأصْلُ أنَّ الحرْمةَ قد ثبَتَتْ بالنكاحِ، فلمّا وقعَتِ الفرقةُ أشْكَلَ زوالُها، فلا يُزالُ بالشكِّ معَ ما في الإزالةِ تعْليقُ الحرْمةِ بالحِلِّ أو بالملْكِ خاصةً. وقد بيّنّا وُجوبَها لا لتِلكَ الوجوهِ.

---

(١) من م، في الأصل: بالنسبة. (٢) في الأصل وم: ذو. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: عقدة. (٥) في الأصل وم: من أجمع. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: أنه. (٧) في الاصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: فاسد. (٩) في الاصل وم: و. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: مجهولا. (١٢) في الأصل وم: وأيضاً. (١٣) في الأصل وم: منها. (١٤) في الأصل وم: سبب.

ثم الأصلُ في النكاحِ أنَّ المقصودَ منهُ الِاسْتِمتاعُ، وبحِلِّهِ يحِلُّ، وبحرمتِهِ يحْرُمُ، فيجبُ أنْ يكونَ هو الأصلَ للتَّحْريمِ والتَّحْليلِ. وعلى هذا يُحرِّمُ كثيراً منَ الإماءِ في حقِّ الِاسْتِمتاعِ بهِنَّ، وإنْ لم يُحرِّمْ فيهِنَّ المِلْكَ، ويُحرِّمُ بالِاسْتِمتاعِ في ذلكَ، وإنْ كانَ المِلْكُ لا يوجِبُ الحرمَةَ. فإذا ثبَتَ أنَّ الِاسْتِمتاعَ أحقُّ بالتَّحْريمِ[1]، والعِدَّةُ، حقُّ الاسْتِمتاعِ أوجبَها، فيجبُ أنْ تكونَ هي مُحرِّمةً. لذلكَ لم يجُزْ نكاحُ الأختِ فيها مع ما كانَتْ مُوجبةً في مِلْكِ اليَمينِ. ثم كانَ الِاسْتِمتاعُ بمِلْكِ اليَمينِ يُحرِّمُ الِاسْتِمتاعَ بالأختِ. فالعِدَّةُ التي هي مجْعولةٌ لتأكيدِ الحرُماتِ وقطعِ المجْعولِ للحِلِّ خاصةً أحقُّ أنْ تَمْنَعَ، والله أعلمُ.

وعلى ما بيَّنَّا إذا ثبَتَ أنَّ الِاسْتِمتاعَ هو الأصلُ في التحريمِ، سؤالُهُ وقعَ منْ وجهٍ يحِلُّ أوْ لا؟ فيهِنَّ[2] الحرمةُ، حرمةُ الأنفسِ لا حرمةُ الجمعِ، إذْ لا أيْنَ يقَعُ جمْعٌ؟

ثم الأصلُ [في][3] ذلكَ أنَّ تُعلُّقَ الحُرماتُ بالمُحَرَّمِ منَ الأعيانِ أظْهرُ منهُ بالمُحَلَّلةِ منها. ثم كانَ الِاسْتِمتاعُ بالأعيانِ المحلَّلةِ تُوجِبُ حرمةَ الأمَّهاتِ والبناتِ، فهو بالمحرَّمِ أحقُّ معَ ما لا يخلو أنْ تكونَ الحرْمةُ لا تجبُ إلا في ما يحِلُّ، فيجبُ ألّا يجبَ في النكاحِ الفاسدِ ولا في وطْءِ جاريةٍ بعْدَ وطْءِ الابْنِ، إذْ[4] المُلْكُ فيهما أيضاً زائلٌ لا[5] النَّسَبُ. فيجبُ ألّا تجبَ الحرْمةُ في ما لا يكونُ منهُ نَسَبٌ وفي وقتٍ لا يُتمكَّنُ أو بإيجابِ الحقوقِ، فيجبُ ألّا تجبَ في مُماسَّتِهِ الأمَةَ دونَ الفرْجِ أوِ الِاسْتِمتاعِ خاصةً، فيجبُ اسْتِواءُ حالِ السِّفاحِ والنِّكاحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو كِنايةٌ عنِ الجماعِ، لكنَّهُ عندَنا الدُّخولُ بها هو أخْذُهُ يدَها في إدخالِها في مَوضِعِ الخلْوةِ والجماعِ لا نفسِ الجماعِ كما يُقالُ: فلانٌ دخَلَ بفلانٍ موضِعَ كذا، لا يُرادُ بهِ عينُ الدُّخولِ بهِ المعْروفِ، وهو أخْذُ اليدِ، والدُّخولُ فيهِ، لذلكَ قُلْنا بأنهُ إذا أدخلَها[6] في موضِعٍ، وخلا بِها، وجَبَ كمالُ المَهْرِ بظاهرِ الآيةِ، ووجَبَتِ[7] الحُرْمةُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ كَنّى بهِ عنِ الجماعِ منْ حيثُ لا يكونُ الجماعُ إلّا بالدُّخولِ بِها مكاناً يسْمو[8] بها، وإلا فحَقيقةُ الدُّخولِ بآخَرَ ليسَ بجماعٍ، ولا يصْلُحُ القولُ بهِ مطْلَقاً دونَ ذكْرِ المكانِ إلا في المرأةِ بما يُعْلَمُ أنهُ[9] لماذا يدْخلُ؟ وفيمَ يدْخلُ؟ فجائزٌ أنْ يكونَ في الحرمَةِ على حقِّ الكِنايةِ، والمُرادُ منهُ الجماعُ. وجائزٌ على حقيقةِ الدُّخولِ بها مكاناً لذلكَ؛ إذ هو الظاهِرُ.

وهذا الثاني يكونُ بأخذِ يدِها أو شيءٍ منها ليكونَ هو الداخلَ، لا هِيَ. ووُجودُهُ لا يكونُ إلّا للشَّهوةِ، فيكونُ هو المذكورَ للحرمةِ. فإذا لم يُظْهِرْ حقيقةَ المرادِ يجِبُ الاحْتِياطُ في إيجابِ الحرْمةِ منْ كلِّ وجْهٍ، أو تحْقيقُ هذا، إذْ هوَ أظهرُ لهُ. ولهُ أدلَّةٌ ثلاثةٌ:

أحدُها: ما رُوِي: «ملْعونٌ منْ نظرَ إلى فرْجِ امْرأةٍ وابْنتِها» [ابن حجر في فتح الباري ٩/ ١٩٥ رقمه ٥١٠٥]. إنهُ أوجبَ اللَّعْنَ بالنَّظرِ، فلولا أنَّ النظرَ الأوَّلَ قد حرَّمَ الثانيَ، لم يلْحَقْ بهِ اللعنُ، ثم النَّظرُ دونَ اللَّمْسِ في العباداتِ والأحكامِ، فالمُراهِقُ في إيجابِ الحرْمةِ.

والثاني: ما بيَّنّا أنَّ علَّةَ الحرْمةِ الِاسْتِمتاعُ. ومعْلومٌ أنَّ معناهُ في القُبْلةِ، والمباشرَةَ أعلى منْهُ في السَّببِ الذي بهِ يفْضي بهِ الِاسْتِمتاعَ، وهو النِّكاحُ. وقد أوجِبَ لهُ؛ فالقُبْلةُ أحقُّ أنْ يُوجِبَ لها، وذلكَ كما أوجَبَ بسببِ الحدَثِ، وهو النَّومُ، حُكْمَهُ. ثم لا يجِبُ إلّا مِنْ حالٍ دونَ حالٍ. وقد يجِبُ لنفسِ الحدَثِ على كلِّ حالٍ؛ فمثْلُهُ سببُ الِاسْتِمتاعِ مِنْ حقيقتِهِ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: أنَّ كلَّ أنواعِ الِاسْتِمتاعِ في الحرْمةِ، والحِلُّ مُتَّصِلٌ بالجماعِ، ولخاصةٍ في حقوقِ الأملاكِ. فعلى ذلكَ في

---

(١) في م: في التحريم. (٢) المقصود بذلك الإماء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: أدخلت. (٧) في الأصل وم: ووجب. (٨) من م، في الأصل: يسمى. (٩) في الأصل وم: أنها.

فسْخِ الأملاكِ وتحريمِها، على أنهُ يَبْعُدُ أنْ يكونَ المرءُ يستَمتِعُ بالمرأةِ عاماً، ثم يسْتَمتِعُ بها وَلَدُهُ[١]، وكذلك بابْنتِها دونَ الفرْجِ، أو أنْ يكونَ مَنْ لا يقْدِرُ على الإيلاجِ لعُنَّةٍ أو جَبٍّ، ترْتفِعُ عنهُ الحرْمةُ أبداً، فيشْتري أمّاً وابنةً، ويسْتمتِعُ بهما أبداً، وذلكَ بعيدٌ، فتجِبُ الحرْمةُ منَ الوجهِ الذي ذكَرْتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ يَحتمِلُ ذِكرُ[٢] الصُّلْبِ وجوهاً: يحتمِلُ أنْ يكونَ ذكَرَ الصُّلْبَ ليُعْلَمَ أنَّ الحرْمةَ في حليلةِ الولَدِ، كَهِيَ[٣] في ولَدِ الصُّلْبِ، وكذلكَ الحرْمةُ في حَليلةِ ابْنِ الرَّضاعِ كَهِيَ في حَليلةِ ابْنِ الصُّلْبِ على ما كانَتْ في مَحارِمِ الرَّضاعِ. وإنهُ لم يذكُرْ [مَحارِمَ الرَّضاعِ][٤] نحْوَ أنْ ذَكَرَ أمّهاتِ الرضاعِ وأخواتِهِ، ولم يذكُرْ غيرَها. ثم دخَلَ ما دونَ ذلكَ في الحرْمةِ. فعَلى ذلكَ هذا.

وقالَ بشْرٌ: دلَّ تخصيصُ الأصلابِ على نسْخِ حرْمةِ حَليلةِ الابنِ، إذ لا يكونُ منَ الرَّضاعِ ابنٌ. قلنا: لو لم يكُنْ مِنَ الرَّضاعِ ابنٌ لم يكنْ لِذِكْرِ الصُّلْبِ لِلإبنِ معنىً ولا فائدةٌ. دلَّ أنهُ مِنَ الرَّضاعِ ابنٌ على ما يكونُ مِنَ النَّسَبِ، وأنَّ الحرْمةَ مِنَ الرضاعِ كَهِيَ في النَّسَبِ، وإنْ [كانَ الأولادُ][٥] في الحقوقِ [مختَلِفينَ نحْوُ][٦] العِتاقِ، بعتْقِ بعضٍ على بعضٍ يوجِبُ لبعْضٍ في أموالِ بعْضٍ النَّفقةَ. وحقوقٌ بمثْلِهِ لا تُوجَبُ في محارِمِ الرَّضاعِ./ ٨٧ ـ ب/ ذلكَ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الرَّضاعَ انتِفاعٌ، والنَّسَبَ حُدوثُ نفْسٍ[٧] بعضِهِمْ مِنْ بعْضٍ. فإذا كانَ كذلكَ لم يُوجِبِ الرضاعُ إلّا حرْمةَ الانْتِفاعِ خاصةً، وهو الاِسْتِمتاعُ.

وأمّا النَّسَبُ فهو كونُ الولَدِ منهُ وحُدوثُ نفْسِهِ منهُ، فأوجَبَ معَ ذلكَ حُقوقاً. ولأنَّ في إقرارِ بعضِهِمْ [أنَّ][٨] في يدِ بعْضٍ مماليكَ وعبيداً قهْراً وغلَبةً، لم يُوجِبْ ذلكَ [في ما][٩] لم يحْصَلْ لبعضِهِمْ قهْرُ بعْضٍ. لذلكَ كانَ الجوابُ ما ذَكَرَ.

وقيلَ: إنهُ ذكَرَ أبناءَ الأصلابِ، وذلكَ لأنَّ[١٠] النَّبيَّ ﷺ تزوَّجَ امرأةَ زيدِ بنِ حارثةَ بعْدَما طلَّقَها، وقد كان تبَنّاهُ، فعَابَهُ المنافِقونَ على ذلكَ، وقالوا: تزوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ امْرأةَ ابْنِهِ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ وجوهاً: يَحتمِلُ الجمْعَ بينَهما في العقدِ، وقد أجْمَعوا أنهُ إذا لم يُجْمَعْ بينَهما، ولكنَّهُ تزوَّجَ إحداهُما، ثم تزوَّجَ أُخرَى، لم يحِلَّ لهُ نِكاحُ الأُخرَى. دلَّ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ الجمْعَ في العقدِ.

ويَحتمِلُ الجمْعَ في المِلْكِ، وقد أجْمَعوا أيضاً أنَّ لهُ الجمْعَ بينَهما في مِلْكِ اليَمينِ. فدلَّ أنهُ إنما أرادَ الجمْعَ بينَهما في الاِسْتِمتاعِ. وإذا اسْتَمتَعَ بإحْداهُما[١١] بنِكاحٍ، ثم فارَقَها، لم يحِلَّ لهُ أنْ يتزوَّجَ أخْتَها، والأولَى في عِدَّةٍ منهُ منْ طلاقٍ بائنٍ؛ لأنَّ الاِسْتِمتاعَ هو الذي حبَسَها عنِ الأزواجِ، فكانَ كالجمْعِ بينَهما في الاِسْتِمتاعِ، ولأنَّ المعنَى الذي بِهِ حرَّمَ الجمْعَ في مِلْكِ النكاحِ، ذلكَ، إذا كانَتْ في عدَّةٍ منهُ، موجودٌ، وهو خَوفُ القَطيعةِ، في ما بينَهما، واللهُ أعلمُ؛ ولأنَّ أكثَرَ أحكامِ الزَّوجاتِ قائمٌ بينَهما نحوُ الإسكانِ والإنفاقِ عليها وإلحاقِ الولَدِ وغيرُ ذلكَ مِنَ الحقوقِ.

وعنْ عليٍّ ﷺ أنهُ سُئِلَ عن رجلٍ طلَّقَ امْرأتَهُ، فلَمْ تنقَضِ عِدَّتُها حتى تزوَّجَ أخْتَها؟ ففرَّقَ عليٌّ ما بينَهما، وجعَلَ الصَّداقَ بما اسْتحَلَّ مِنْ فرْجِها، وقالَ: (تُكمِلُ الأُخرَى عِدَّتَها، وهو خاطبٌ).

وعنْ زيدِ بنِ ثابتٍ أنهُ سُئِلَ عنْ رجلٍ، تحتَه أرْبَعُ نسوَةٍ، فطلَّقَ إحداهُنَّ ثلاثاً، أيَتزوَّجُ رابعةً؟ فقالَ: (لا حتى تنْقضيَ عِدَّةُ التي طلَّقَ). وعنْ عائشةَ ﵂ مثْلُهُ.

واخْتُلِفَ في الجمْعِ بينَ الأخْتَينِ منْ مِلْكِ اليَمينِ؛ عنْ عمرَ ﵁ أنهُ سُئِلَ عنِ المرأةِ وأخْتِها منْ مِلْكِ اليَمينِ، هل تُوطأُ

---

(١) في الأصل وم: ولدها. (٢) في الأصل وم: أن ذكر. (٣) في الأصل: فهو، في م: كهو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كانوا. (٦) في الأصل: مختلف عن، في م: مختلف نحو. (٧) من م، في الأصل: بعض. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فما. (١٠) في الأصل وم: ان. (١١) في الأصل وم: أحدهما.

بعدَ الأُخرَى؟ قالَ: (ما أحِبُّ أنْ أُجيزَهما جَميعاً)، ونَهى عنهُ. وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ إنهُ جِنْثٌ في الأختَينِ منْ ملْكِ اليَمينِ، فقالَ: (حمَلَ أحدُكُمْ [جِنثَ][1] ملْكِ اليَمينِ). وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: (يَحْرُمُ منْ جميعِ الإماءِ ما يَحرُمُ منْ جميعِ الحرائرِ إلّا العدَدَ). وعنِ ابنِ عمرَ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنْ رجلٍ، لهُ أمَتانِ أختانِ، وقَعَ على إحداهُما، أيَقَعُ على الأخرَى؟ قالَ: (لا ما دامَتْ في مِلْكِهِ).

وأجْمَعوا أيضاً على أنهُ إنْ تزوَّجَ بامْرأةٍ، فاشْترَى أختَها، لم يحِلَّ لهُ أنْ يَطأَها. إلى هذا ذهَبَ أصحابُنا، رحِمَهُمُ اللهُ تعالى، ثم إنْ طلَّقَ امرأتَهُ، وانقضَتْ عدَّتُها، أو ماتَتْ، [فإنهُ يحِلُّ][3] لهُ أنْ يتزوَّجَ أختَها، ولم يحِلَّ لهُ أنْ يتزوَّجَ بأمِّها. وذلكَ، واللهُ أعلمُ، بأنَّ الحُرْمَةَ في الأختِ في نفْسِها، وليسَ في ولَدِها، والحرمَةَ في الأمِّ والابْنَةِ في [نفْسَيهِما، وهي في ولَدِهما][4].

فإذا كانَتِ الحرْمةُ في الأختِ من وجْهٍ، وفي الأمِّ منْ وجهَينِ؛ ففي ما كانَتِ الحرْمَةُ منْ وجْهٍ كانَتِ الحرْمةُ الجمْعَ لا حرْمَةَ التّأبيدِ، وفي ما كانَتْ مِنْ وجهَينِ [كانَتْ][5] حرْمَةَ جمْعٍ وحرْمَةَ تأبيدٍ، لأنها بادَتْ إلى أولادِها، وفي الأختِ لم تَبِدْ، لذلكَ اختَلفا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يَحتمِلُ [قولُهُ][6]: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قبلَ التّحْريمِ في الجاهلِيَّةِ. فإنهُمْ إذا انْتَهوا عنْ ذلكَ في الإسلامِ يَغْفِرُ اللهُ لهمْ، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ [قولَهُ][7]: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢] كانَ في ذلكَ الوقتِ فاحِشةً، ويَحتمِلُ ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي صارَ فاحِشةً في الإسلامِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ: قالَ ابنُ مسْعودٍ ﷺ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ قالَ: (ذواتُ[8] الأزواجِ منَ المسلِمينَ والمشْركينَ)، وقالَ عليٌّ ﷺ: (ذواتُ[9] الأزواجِ منَ المشْركينَ). ذهبَ [عبدُ اللهِ][10] بنُ مسْعودٍ إلى أنَّ بيعَ الأمةِ طلاقُها، يُحِلُّ للمشْتَري وَطْأَها، وأسْرَ الكتابيَّةِ والمشْركةِ يُحِلُّها لمَولاها، وإنْ كانَ لها زوجٌ في دارِ الحربِ، وذهبَ عليٌّ ﷺ إلى أنَّ الآيَةَ نزَلَتْ في المُشْركاتِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][11] قالَ: (كلُّ ذاتِ زوجٍ إتيانُها زِنىً إلّا ما سُبِيَتْ).

ورُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ [أنهُ][12] قالَ: (وقعَتْ في سهْمي يومَ أوطاسَ[13] جاريةٌ، فبَينا أنا أسوقُها إذْ رفَعَتْ رأسَها إلى الجِلِّ، فقالَتْ: ذلكَ زَوجي، فأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ الآيةَ. قالَ أبو سعيدٍ ﷺ: فاسْتَحْلَلنا فُروجَهُنَّ بها)؛ بيَّنَ أبو سعيدٍ الخُدْريُّ ﷺ في حديثِهِ أنَّ الآيَةَ نزَلَتْ في المُشْركاتِ ذواتِ[14] الأزواجِ، وكانَ حديثُهُ يُقَوّي قولَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ ومَنْ وافقَهُ.

وقيلَ أيضاً في تأويلِ الآيةِ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ قيلَ[15]: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حرامٌ على الرجالِ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ [أيمانُهُمْ؛ قيلَ:][16] ملْكُ يَمينِهِ امْرأتُهُ. وعنْ أبي قِلابةَ قالَ: (ما سبَيْتُمْ مِنَ النساءِ) إذا سُبِيَتِ المرأةُ، ولها زوجٌ منْ قومِها، فلا بأسَ أنْ يطأَها.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قالَ: (لا يحِلُّ لهُ أن يتزوَّجَ فوقَ أربعِ نسْوةٍ، وما زادَ عليهِنَّ، وهو عليهِ حرامٌ كأمِّهِ وابْنتِهِ وأختِهِ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ الإماءُ؛ فإنهُ [زيادةٌ][17] على أربعٍ، [وأكثرُ مِنْ أربعٍ][18]).

وعنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ (هُنَّ نساؤُكُمْ. [قالَ: كانَ النساءُ يأتينَنا][19]؛ يُهاجِرْنَ ولا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حل. (٤) في الأصل: أنفسهما وهي ولدهما. في م: أنفسهما وهي ولدها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ذات. (٩) في الأصل وم: ذات. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) أوطاس: واد بديار هوازن. (١٤) في الأصل وم: ذات. (١٥) في الأصل وم: قال. (١٦) في الأصل وم: يمينك. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) من م، ساقطة من الأصل. (١٩) من م، في الأصل: يصبهن. انظر تفسير الطبري [٨/ ١٦٤].

يُهاجرُ أزواجُهنَّ، فمَنعْناهنَّ في هذهِ الآيةِ. ثم أنزلَ اللهُ ﷻ في الممتحنةِ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ [فقولُهُ تعالى][١]: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أحلَّهنَّ[٢] لنا بعدَ أنْ نتزوَّجَهنَّ. وفيهِ نَهى عنِ الزِّنى، وأباحَ [التزوُّجَ، فجعلَ][٣] مُلْكَ اليمينِ التزوُّجَ[٤].

وأصحُّ [التأويلاتِ وأولاها][٥] ما رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ ولِما رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ في ذلكَ، وظاهرُ القرآنِ يدلُّ على أنَّ ذلكَ هو الحقُّ لأنَّ اللهَ تعالى قد فصَلَ في غيرِ [هذا][٦] الموضعِ بينَ التزوُّجِ ومُلْكِ اليمينِ، فجعلَ مُلْكَ اليمينِ الإماءَ. ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦ والمعارج: ٣٠]؟ قالَ: لا يَحِلُّ لكَ النساءُ مِنْ بعْدُ، ولا أنْ تُبْدِلَ بهِنَّ مِنْ أزواجٍ. فهاتانِ[٧] الآيتانِ تدلّانِ على أنَّ قولَ اللهِ ﷻ في آيةِ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ على غيرِ الزَّوجاتِ[٨] كما رُوِيَ عنِ الجماعةِ مِنَ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، الذينَ ذكَرْناهُمْ.

ثم الكلامُ بينَ عليٍّ وأبي مسعودٍ ﷺ ونحنُ نعلَمُ أنَّ أبا مسْعودٍ ﷺ أوجَبَ على الأمَةِ، إذا باعَها مولاها، ولها زوجٌ، العدَّةَ، إذا كانَ قد دخَلَ بها، وأنها عندَهُ، لا تحِلُّ لِمولاها حتى تنقضيَ عِدَّتُها، فلم يجْعلْها حَلالاً لِلمَولى الثاني بملْكِهِ إيّاها. فكانَ قولُ عليٍّ ﷺ أشبهَ بظاهرِ الآيةِ لأنهُ تأوَّلَ الآيةَ على مُتزوِّجةٍ تحِلُّ بالمِلْكِ لِمولاها في حالِ المِلْكِ مِنْ قولِ عبدِ اللهِ [بنِ مسْعودٍ][٩] إذْ جعَلَها مُحرَّمةً، وإنْ كانتْ مملوكةً حتى تنقضيَ[١٠] عدَّتُها.

وفي ذلكَ وجهٌ آخرُ، وهو أنَّ اللهَ تعالى [في قولِهِ][١١]: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يُحرِّمُها[١٢] على البائعِ، ويُحلِّلُها للمُشتري، ولم يخُصَّ اللهُ تعالى أحداً منَ المالِكينَ. رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ حمْلُ الآيةِ على امرأةٍ كافرةٍ مُتزوِّجةٍ سُبِيَتْ فأحلَّها/ ٨٨ـأ/ اللهُ تعالى لِمالِكِها، فلمْ تُعْزَلْ منْ حالِ المملوكةِ. هذا مع موافقةِ الحديثِ الذي رَواهُ أبو سعيدٍ الخُدْريُّ ﷺ.

وظاهرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّ المأسورةَ ذاتَ الزَّوجِ لا عِدَّةَ عليها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] فأمرَ ألّا يَردُّوهُنَّ[١٣]، ويُنكَحْنَ. فلمّا جازَ أنْ يتزوَّجَ الحُرَّةَ إذا خرجَتْ مسْلِمةً، ولا عدَّةَ عليها، حلَّتْ إذا سُبِيَتْ، فمُلِكَتْ.

قيلَ: [فيهِ وُجوهٌ:

أحدُها][١٤] تعْتدُّ.

والثاني: إنما كانَتْ حرَّةً، فأبطَلَ السَّبْيُ حكْمَ الحرِّيّةِ والزَّوجيَّةِ، فكذلكَ يُبْطِلُ حكْمَ العِدَّةِ. هذا كلُّهُ إذا سُبِيَتْ، ولم يكنْ معَها زوجُها. فإمّا سُبِيَتْ، وزوجُها معها، فإنَّ الفرقةَ لا تقَعُ بينَهما، لأنها لو [بانَتْ مِنْ زوجِها][١٥] بانَتْ للرِّقِّ، والرِّقُّ لا يَمْنَعُ ابْتِداءَ النِّكاحِ، كيفَ يعْمَلُ في فسْخِ نِكاحٍ ثابتٍ؟ ولكنَّ اخْتِلافَ الدارَيْنِ هو المُوقِعُ في ما بينَهما الفرقةَ لفَوتِ الاجْتِماعِ بينَهما، وإذا فاتَ الاجْتِماعُ بينَ الزَّوجَيْنِ والإياسُ منَ الانْتِفاعِ، وقعَتِ الفرقةُ في ما بينَهما. وهذا يُبطِلُ قولَ مَنْ يقولُ: تقَعُ[١٦] الفرقةُ في ما بينَهما للرِّقِّ.

والثالثُ: إنَّ العِدَّةَ حقٌّ منْ حقوقِ الزَّوجِ، يُبيِّنُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]. فلا يجوزُ أنْ يَبْقى للحَربيِّ على المسلِمةِ الخارجةِ إلى دارِ الإسلامِ حقٌّ. فإذا لم يكُنْ عليها العدَّةُ لها أنْ تتزوَّجَ، وسَبيلُ الأمَةِ المسْبيَّةِ تزوُّجُها، وَوَطْؤُها لِمَولاها، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تزوَّجَ صفيَّةَ بنْتَ حُيَيِّ بنِ أخْطَبَ في رجوعِهِ منْ خيْبَرَ قبْلَ أنْ يَصِلَ إلى المدينةِ. ومعْلومٌ أنها كانَ لها زوجٌ كبيرٌ، وأنَّ عِدَّتَها منهُ لو كانتْ واجبةً لم تنْقضِ في تلكَ المدةِ. فهذا يُبيِّنُ أنْ لا عدَّةَ على مَسْبيَّةٍ مِنْ زوجِها المُقيمِ في دارِ الحربِ ولا على مسلمَةٍ إذا خرجَتْ منْ دارِ الحربِ، وأقامَ زوجُها هنالكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فاحللن. (٣) في الأصل وم: التزويج فجعلوا. (٤) في الأصل وم: التزويج. (٥) في الأصل وم: التأويلين وأولاهما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فهذان. (٨) في الأصل وم: الأزواج. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: تبقى. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: وعند الله. (١٣) في الأصل وم: يردهن. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) أدرج قبلها في الأصل وم: إنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، قيلَ فيه بأوجهٍ أربعةٍ(١):

أحدُها: في [المَسْبِيَّاتِ ذَواتِ](٢) الأزواجِ، وكذلكَ رُوِيَ عن عليٍّ وأبي سعيدِ الخُدْريِّ ﷺ فيكونُ فيه أمْرانِ:

أحدُهُما: الحرْمةُ على الأزواجِ.

والثاني: ارْتِفاعُ العدَّةِ، إذ هما حقَّانِ للحرْبيِّ؛ وحقُّهُ في نفسِهِ لا يمنَعُ الِاسترقاقَ، ولو كانتْ حرمةُ الِاسْتِمتاعِ، فمثْلُهُ في زوجتِهِ، لكنْ يدخُلُ على هذا سبْيُ الزّوجِ معَها: أنَّ الرِّقَّ قد يثْبُتُ فيهما، ولم يُبْطِلِ النكاحَ. فيُجابَ لِهذا بوجهَيْنِ:

أحدُهُما: الِاسْتِحسانُ من حيثُ يُلزِمُ المَولَى حقَّ الإنكاحِ بقولِهِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآية [النور: ٣٢]، ولم يُبْطِلْ عليهِ التَّجديدَ. وليسَ هذا في سبْيِ الزَّوجةِ؛ إذْ لا تعَفُّفَ لَها بهِ [وهو](٣) في دارِ الحربِ.

والثاني: أنْ يكونَ الزوجُ، وحقُّ الرِّقِّ إنما يجبُ إذا خرجَ المرءُ منْ يدِ نفسِهِ، والمملوكُ قد يكونُ لهُ يدٌ في النِّكاحِ، فكأنها لم تخْرُجْ من يدِهِ إذا سُبِيَ معَها، وإذا لم يُسْبَ(٤) لا يكونَ لِمَنْ في دارِ الحربِ يدٌ في دارِ الإسلامِ.

وفي حقِّ الآيةِ عبارةٌ(٥) أُخرَى؛ أنها إذا سُبِيَتْ دونَهُ انْقَطعَتْ عنها عِصمةُ الزوجِ، وقد جعَلَ اللهُ تعالى انْقِطاعَ عصْمتِهِ بسببِ حِلِّ غيرِهِ بقولِهِ(٦) تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقد جعَلَ ذلكَ في الزَّوجِ سبباً لقطعِ عصْمتِهِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وعصْمةُ الزَّوجينِ عصْمةٌ مشْتَركةٌ؛ أيُّهما(٧) خرَجَ مسلِماً خرَجَ لِئلّا يعودَ. وكذلكَ المختلِفُ يختلِفُ لئلا يُخرَجَ، فتبطُلَ العصْمةُ بينَهما، فأحلَّ التَّناكُحَ، ولو خرَجا معاً، لا. فمثْلُهُ أمرُ السَّبْيِ.

وتأويلٌ آخرُ(٨) أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية وقولَهُ: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [النساء: ٣] على ألّا يحِلَّ وراءَ الأرْبَعِ إلّا ملْكُ يَمينٍ. وعلى هذا في غيرِ ذَواتِ(٩) الأزواجِ. وقد رُوِي مثْلُهُ عنِ ابنْ عباسٍ ﷺ ويكونُ في ذلكَ بيانُ ما كانَتْ حرمَتُهُ من حيثُ العدَدُ يخْتصُّ في النِّكاحِ. فإنْ كانَ النِّكاحُ وملْكُ اليَمينِ في ما كانَتِ الحرْمةُ مِن حيثُ المنكوحةُ يسْتَوي مِنْ حيثُ كانَتْ حرمةُ العددِ بحيثُ العقدُ بما فيهِ منَ الحقوقِ التي لا يقومُ لها إلا بشَرٌ قد عُصِمَ، وقد ملَكَ اليَمينَ، وما كانَتِ الحرْمةُ بحَيثُ نفسُ امرأةٍ يستوي لِاسْتِواءِ المُلْكَينِ في حقِّ الحِلِّ والحرمةِ.

ووجهٌ آخَرُ(١٠): قيلَ: المُحْصناتُ هُنَّ الحرائرُ وما ملكَتْ أيمانُكُمْ بالنكاحِ، فذهبَ مَنْ يقولُ بهذا إلى ما لو لم يُذْكَرْ أيمانٌ. ولكنْ قالَ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا [مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾](١١)، فيكونُ التحريمُ في غيرِ النكاحِ، لكنَّهُ بعيدٌ على المَعهودِ منَ الكلامِ: أنهُ لا يُتكَلَّمُ بهِ إلا في ملْكِ اليَمينِ خاصَّةً، ويجوزُ جعْلُ الأمرَينِ في الإماءِ على حظْرِ وطْءِ الزانياتِ على المَوْلَى واخْتيارِ المُتَعَفِّفاتِ منهنَّ لمكانِ الأولادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ قيلَ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ما ذكَرَ ممّا مرَّ هؤلاءِ الإناثِ. وقالَ الكسائيُّ نصبَ ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ على قولِهِ: حَرَّمَ كذا، وأحلَّ كذا: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على الأمرِ [يقولُ](١٢) عليكُمْ كتابَ اللهِ، دونَكُمْ كتابَ اللهِ، اتَّبِعوا كتابَ اللهِ، في نحوِ هذا المعنَى. وقيلَ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يقولُ: هذا حرامُ اللهِ عليكُمْ في الكتابِ. وقيلَ: هذا التَّحْريمُ منَ النِّكاحِ قضاءُ اللهِ عليكُمْ في الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما سِوَى ذلكُمْ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١] أي سِواهُ. وقيلَ: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما قبْلَهُ وأمامَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، وهو كانَ أمامَهُمْ. وقيلَ: وراءَ ذلكَ أي بعدَ ذلكَ وخَلْفَهُ، وهو ظاهرٌ.

---

(١) في الأصل وم: ثلاثة. (٢) في الأصل وم: المسبية ذات. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: مسبياً. (٥) هذا هو الوجه الثاني من الوجوه الأربعة التي أشار إليها المؤلف في قوله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. (٦) في الأصل وم: لقوله. (٧) في الأصل وم: أيها. (٨) هذا هو الوجهُ الثالث من الوجوه الأربعة الآنفة الذكر. (٩) في الأصل وم: ذات. (١٠) هذا هو الوجه الرابع والأخير من الوجوه الأربعة السابقة الذكر. (١١) في الأصل وم: ما ملكتم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

ومَنْ قالَ سِوَى ذلكَ يقولُ: أُحِلَّ لكُمْ ما سِوَى ذَلِكُمُ الذي حُرِّمَ عليكُمْ ما لَمْ يُسمَّ لكُم. ومنْ قالَ: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أمامَ ذلكَ وقبْلَهُ، وهو ما ذكَرَ قبْلَ هذهِ المُحرَّماتِ قولَهُ: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣]. ومنْ قالَ: ﴿مَّا وَرَآءَ﴾ بعدَ أي بعدَ أربعةِ الأصنافِ المُحرَّمةِ: المُحرَّماتِ بالنسبِ والمحرَّماتِ بالرَّضاعِ والمُحرَّماتِ بالصِّهْرِ والمحرَّماتِ بالجمعِ، يقولُ: أُحِلَّ لكُمْ ما بعْدَ هؤلاءِ أربعةِ الأصنافِ. وقيلَ: في قولِهِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هُنَّ المتعفِّفاتُ منَ الإماءِ: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ منَ الإماءِ المُسافِحاتِ الزانياتِ؛ كأنهُ قالَ: فاسْتَمْتِعوا بالمتعفِّفاتِ منهُنَّ، ولا تستَمْتِعوا بالزانياتِ لأنهُ يُلْبِسُ عليكُمُ النسبَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ النِّكاحَ لا يكونُ إلَّا [ببدَلٍ، يكونُ مالاً][1] لأنهُ قالَ: ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾. وفي الآيةِ دلالةٌ أيضاً أنَّ ما يُملَكُ، لا يقعُ عليهِ اسمُ المالِ لا يكْفِيَنَّ مهراً لأنهُ قالَ: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ ولا يُسمَّى الدانِقُ والحبَّةُ مالاً، ولو كانتِ الحبَّةُ مالاً كانتِ[2] التمرةُ مالاً، فثبتَ بما وصَفْنا مِنْ دلالةِ الآيةِ أنَّ المهورَ لا تكونُ إلا منَ الأملاكِ. فإنْ قيلَ: رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لرجلٍ: «قد زوَّجْتُكَها بما معَكَ منَ القرآنِ» [البخاري ٥٠٢٩] فقُلْ[3]: تأويلُهُ عندَنا، واللهُ أعلمُ، «بما معَكَ»: بسبَبِ ما معَكَ منَ القرآنِ. ولا يجوزُ أنْ تكونَ السورةُ مهْراً بدليلِ الكتابِ لأنها ليسَتْ بمالٍ. وكذلكَ كلُّ شيءٍ ليسَ بمالٍ، ولا يكونُ لهُ قيمةٌ، فلا يجوزُ أنْ يكونَ مهراً، وكذلكَ قولُهُ ﷺ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] يدلُّ على أنَّ السورةَ وما [لا][4] يُتَموَّلُ لا يكونُ مهْراً.

ورُوِيَ عنْ أنسٍ أنَّ عبدَ الرحمنِ بْنَ عَوفٍ رضي الله عنه تزوَّجَ على وزنِ نَواةٍ مِنَ الذهبِ؛ يكونُ ديناراً. فإنْ قيلَ: قد بُيِّنَ في الخبرِ، فقيمتُها: ثلاثةُ دراهمَ وثُلُثُ، لكنْ لا نَدْري مَنْ كانَ المُقَيِّمُ للنواةِ؟ ولا يَجوزُ أنْ يُجعَلَ تَقْييمُ ذلكَ المُقيِّمِ وتفسيرُهُ[5] حُجَّةً على علمائِنا حتى نعلَمَ ذلكَ معَ ما قالَ قومٌ: إنَّ النواةَ عشْرةُ دراهِمَ، وهو ما قالَ إبراهيمُ/ ٨٨ ـ ب/.

فإنْ قيلَ: رُوِيَ عنْ جابرٍ [بنِ عبدِ اللهِ][6] رضي الله عنه [أنهُ][7] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ أعطى في نِكاحٍ ملْءَ كفِّهِ طعاماً أو دقيقاً أو سُوَيقاً فقدِ استَحلَّ» [الدارقطني ٣٥٥٣]. وكذلكَ يقولُ أصحابُنا، رحمَهُمُ اللهُ تعالى: (ولكنْ يُتَمُّ لها عشَرةَ دراهمَ)، ولم يقُلِ النَّبيُّ ﷺ ولا شيءَ عليهِ سِوى ذلكَ معَ ما يقولُ المخالِفُ لنا: إذا كانَ المهْرُ ممّا لا يُتَموَّلُ لم يكُنْ مهْراً، وملْءُ الكفِّ منَ الطعامِ لا يُتَموَّلُ، وإنْ جعلَ ذلكَ مهْراً، فقد تُرِكَ أصلُهُ أنَّ ما لا يُتمولُ ليسَ[8] بمهْرٍ. فكذلكَ ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: «زوَّجْتُكَها بما معَكَ منَ القرآنِ» [البخاري ٥٠٢٩] ولم يذكُرْ [أنْ][10] ليسَ عليهِ سِوى ذلكَ.

وأهلُ العلْمِ مُجمِعونَ على أنَّ السورةَ لا تكونُ مهْراً. ومنَ الحُجَّةِ لعلمائِنا ما رُوِيَ عنْ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا مهْرَ دونَ عشَرةٍ» [الدارقطني ٣٥٥٩]. ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضي الله عنه [أنهُ][11] قالَ: (لا يكونُ المهْرُ أقلَّ مِنْ عشَرةِ دَراهمَ)، وعنِ ابْنِ عمرَ رضي الله عنه مثْلُهُ.

على أنَّ أهلَ العلْمِ أجمَعوا أنَّ النكاحَ لا يكونُ إلَّا ببدَلٍ، وأنهُ خالَفَ سائرَ الأملاكِ التي تُوهَبُ، ويُتصدَّقُ بها بغيرِ بدَلٍ. وكلٌّ يجعَلُ لذلكَ حدّاً، وإنِ اختَلَفوا في ذلكَ المُقدَّرِ والحَدِّ. [ولمْ][12] يُجعَلِ البدَلُ إلَّا ما أجْمَعوا عليهِ، وهو عشَرةُ دراهِمَ إذْ كانَ النِّكاحُ مَخصوصاً ألَّا يُملَكَ إلا ببدَلٍ دونَ غيرِهِ منَ الأملاكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ قيلَ: مُتَناكِحينَ غيرَ زانينَ بكلِّ زانيةٍ. وقيلَ: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أي عفائفَ للفُروجِ وغيرَ مسافِحينَ في العلانيةِ بالزِّنى. وكأنهُ أمَرَ ﷻ بابْتِغاءِ[13] النكاحِ بالأموالِ، ونَهَى عنِ الاستِمْتاعِ بغيرِ مالٍ. وقيلَ: السَّافِحُ الذي يزْني بكلِّ امرأةٍ يجِدُها، والمُسافِحةُ كذلكَ تزْني بكلِّ أحدٍ. والمتَّخِذاتُ أخدانٍ هنَّ اللّاتي لا يزْنينَ إلّا بأخْدانِهِنَّ. والسِّفاحُ منَ الفعْلِ ما ظهَرَ، وعَلا مُسْلِمةً في النِّكاحِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وكان. (٣) في الأصل وم: قيل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وتفسير. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فليس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ابتغاء.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ذهَبَ قومٌ إلى جوازِ المتعةِ بهذهِ الآيةِ؛ يقولونَ: ذكَرَ الاسْتِمتاعَ بهنَّ، ولم يذكُرِ النّكاحَ، وذكَرَ الأجرَ بعدَ الاستِمتاعِ. والمهرُ إنما يجبُ في النّكاحِ بالعقدِ، يُؤخذُ [منَ][1] الزّوجِ أوّلاً بالمهرِ، ثم يستَمتِعُ بها، فهو بالمُتعةِ والإجارةِ أشْبهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦] أمَرَ بإيتاءِ الأُجرَةِ إذا أرْضعْنَ، ذلكَ لِما ذكَرْنا الِاسْتِمتاعَ بهنَّ، وأمَرَ بإيتاءِ الأجرِ لا المهرِ. دلَّ أنها نزلَتْ في المتعةِ.

وأمّا عندَنا فإنّها نزلَتْ في النّكاحِ؛ دليلُهُ ما تقدَّمَ منَ الذِّكْرِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ وقولُهُ[2] تعالى: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ مُتناكِحينَ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ غيرَ زانينَ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ كلُّ ذلكَ يدُلُّ أنهُ في النّكاحِ. فكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ في النّكاحِ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وقد سمَّى اللهُ المهرَ أجراً بقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] وقولِهِ[3] تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥].

وأمّا قولُهُمْ: ذكَرَ إيتاءَ الأجرِ بعدَ الاستِمتاعِ، والمهرُ يجِبُ بالنّكاحِ، فهو على التّقديمِ والتّأخيرِ، كأنهُ قالَ: فآتوهُنَّ أجورَهُنَّ إذا استَمتَعتُمْ بهنَّ، كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] أي طلِّقوهُنَّ إذا طلَّقتُمْ ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ ونحوُ ذلكَ كثيرٌ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: دلَّ قولُهُ: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ مُهورَهُنَّ كُمُلاً، وإذا لم يدخُلوا بهنَّ فالنِّصفُ بالآيةِ الأُخرى[4]. فهذا فائدةُ ذِكرِ الأجورِ والِاستِمتاعِ، وهو بالنّكاحِ أشْبهُ وأولى مِنَ المتعةِ لِما ذكَرْنا مِنْ تحريمِ الأجناسِ مِنَ المُحرَّماتِ [في أوّلِها][5] وباجتِهادٍ في آخِرِها ما وراءَ ذلكَ. وبيَّنَ أيضاً أنَّ الِاستِمتاعَ، هوَ النّكاحُ، وأنَّ الأجرَ هو المَهرُ لِما ذكَرْنا.

ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][6] قالَ: (رحِمَ اللهُ عمرَ[7]، ما كانَتِ المتعةُ إلّا رحْمةً رحِمَ اللهُ بها أمّةَ محمدٍ. فلولا نهْيُهُ عنها إيّاها ما زَنى إلا شَقيٌّ)، وكانَ يَراها حراماً حَلالاً، وكانَ يقولُ في حرْفِ أُبيٍّ [بنِ كعبٍ][8] ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ورُوِيَ أنهُ قالَ: (إنَّ النّاسَ بهذا، قد أكْثَروا في المتعةِ)، فقالَ: (إنها لا تحِلُّ إلّا لمنِ اضْطُرَّ إليها كالميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ)[9]. فدلَّ قولُهُ أنها بمنزِلةِ الميتةِ، على أنهُ رجَعَ عنْ قولِهِ الأوّلِ. فإنْ كانَتِ المتعةُ في حالِ غيرِ الضرورةِ حراماً، فهي في حالِ الضرورةِ حلالٌ[10]. وإنما أحلَّ اللهُ المحرَّمَ في الضرورةِ إذا خافَ الرجلُ على تلَفِ نفسِهِ، وليسَ في ترْكِ الوطْءِ خوفُ تلَفِ نفسِهِ.

رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ [أنهُ][11] قالَ: (نسخَها [قولُهُ تعالى][12]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾) الآيةَ [الطلاق: ١]. هذا يدلُّ على أنهُ رجَعَ عنْ قولِهِ الأوّلِ. ومنَ الدليلِ على تحريمِها قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥و٦] فحرَّمَ اللهُ تعالى [المتعةَ][13] مِنَ الجماعِ ما عدا مِلْكَ النّكاحِ، ومِلْكَ اليمينِ. والمتعةُ ليسَتْ بمِلْكِ نِكاحٍ ولا مِلْكِ يَمينٍ، فهيَ داخلةٌ في التّحريمِ.

ومنَ الدليلِ على تحريمِها ما رُوِيَ عن عليٍّ رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ نَهى عنْ متعةِ النساءِ يومَ خيْبَرَ وعنْ أكلِ لُحومِ الحمُرِ الإنْسيَّةِ. وعنْ سبْرةَ الجُهَنيِّ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ نَهى عنْ متْعةِ النساءِ يومَ فتْحِ مكةَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: قولُهُ. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) المقصود قوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. (٥) ساقطة من م. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) المقصود بذلك قول عمر وهو على المنبر أيام خلافته: (متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما) وسيدرج هذا القول بعد حين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. (١٠) في الأصل وم: حرام. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وعنِ ابنِ عمرَ ﷺ [أنهُ](١) قالَ: (نَهَى النَّبيُّ ﷺ يومَ خيبَرَ عن متعةِ النساءِ، وعن أكلِ لُحومِ الحمُرِ الأهليَّةِ [البخاري ٤٢١٦] وفي(٢) خبرٍ آخرَ أنهُ كانَ قائماً بينَ الرُّكنِ والمُقامِ، وهو يقولُ: «إنّي كنتُ أذِنتُ لكُمْ في المتعةِ، فمنْ كانَ عندَهُ شيءٌ فَلْيُفارِقْهُ، ولا تأخُذوا ممّا آتيتُموهُنَّ شيئاً، فإنَّ اللهَ ﷻ قد حرَّمَها إلى يومِ القيامةِ» [مسلم ١٤٠٥/ ٢١].

وعنِ ابنِ عمرَ ﷺ [أنهُ](٣) قالَ: (سمِعْتُ عمرَ ﷺ يقولُ في المتعةِ: (لو تقدَّمْتُ فيها لرجَمْتُ). وعنْ عبدِ اللهِ [أنهُ](٤) قالَ: (المتعةُ متعةُ النساءِ منسوخةٌ نسخَها الطَّلاقُ والصَّداقُ والعِدَّةُ والمواريثُ والحقوقُ التي تُوجِبُ النِّكاحَ). وعنْ عائشةَ ﷺ أنها إذا ذُكِرَ لها [المتعةُ](٥) قالَتْ: (واللهِ ما نجدُ في كتابِ اللهِ النِّكاحَ والاسْتِسْرارَ)، ثم تتلو هذهِ الآيةَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الآيةَ [المؤمنون: ٥ و: ٦].

وعنْ عمرَ ﷺ [أنهُ](٦) قالَ: (متعَتانِ كانَتا على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ وأنا أنهَى عنهما، وأعاقِبُ عليهما). فأنكرَ قومٌ على عمرَ ﷺ إقرارَهُ أنَّهُما فُعِلا في عهدِ النَّبيِّ ﷺ ونهيَهُ(٧) عنهما.

لكنَّ الجوابَ في ذلكَ كحُكمِ أنهُ علِمَ بنَهْيِ النَّبيِّ ﷺ عنْ متعةِ النساءِ وما نزَلَ فيها مِنْ نصِّ القرآنِ، فكانَ وعيدُهُ لاحِقاً بمَنْ فعَلَها لعِلْمِهِ بأنها منسوخةٌ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يَحتمِلُ الأجارةَ، ويَحتمِلُ التَّشريحَ بالنِّكاحِ: أنهُ إذا كانَ بعدَ الاستِمتاعِ(٨) يُؤتيهنَّ كلَّ المهرِ لأنهُ ذكَرَ في النِّكاحِ والبعْضَ بعدَ الطَّلاقِ في هذا. وأيَّدَ هذا التَّأويلَ ما كانَ عليهِ ذكْرُ المحرَّماتِ والإحلالِ أنهُ كلَّهُ بالنِّكاحِ. وكذلكَ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] أنَّ كلَّهُ في النِّكاحِ لا في الأجارةِ وُصِفَ أنهُ بغْيٌ، ونهَوا عنْ ذلكَ.

وبقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥] ذكَرَ أنَّ مُبْتَغي وراءَ ذلكَ باغياً بهذا لو عرَفَ بحُكمِ الكتابِ، فما ذكرْتَهُ لهُ [الآيةَ](٩) ناسخٌ؛ ولو عرَفَ بالأخبارِ؛ لكانَتِ(١٠) الإباحةُ رُوِيَتْ مقرونةً بهذا النَّهْيِ. فمَنْ رامَ الأخذَ بطرَفٍ منها على الإغضاءِ عنِ الطَّرَفِ الثاني أغطى خصْمَهُ الإغضاءَ عنهُ(١١) بالطَّرَفِ الثاني والمنْعَ عمّا قالَ بهِ. ثم امتناعُ الأمَةِ/ ٨٩ ـ أ/ عنِ العملِ على ظهورِ الحاجةِ، ونفورُ الطباعِ عنْ قَبولِ مثْلِهِ منْ أحَدٍ منَ(١٢) المتَصَدِّينَ فأصبرُ على الحقِّ. ثم دلَّ ما رُوِيَ عنِ ابنِ مسْعودٍ ﷺ نسخَهُ الطلاقُ والعدَّةُ أنَّ الأوَّلَ كانَ نكاحُها يمْضي بمُضيِّ المدةِ، أبْطلَهُ ارتفاعُ أحكامِ النِّكاحِ عنه.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ في الآيةِ دلالةٌ أنَّ الزيادةَ في المهْرِ جائزةٌ، لأنَّ الفريضةَ هي التسميةُ. فإنْ قيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُم﴾ معناهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] هو أنْ تَبذُلَ المرأةُ من مهْرِها شيئاً للزَّوجِ(١٣) أوِ الزوجُ لها، قيلَ: لو كانَ ذلكَ كذلكَ بِرضاها؛ يعني رِضا زوجِها.

وقالَ: ﴿تَرَاضَيْتُم بِهِ﴾ فجعَلَ للزَّوجِ في الرِّضا نَصيباً. ومعناهُ، واللهُ أعلمُ: أنَّ الزَّوجَ إذا زادَ على المهْرِ، فذلكَ جائزٌ، فهذا التَّراضي إنما يكونُ منْهُما جميعاً في الحالَيْنِ. وذلكَ أصلُ الزِّيادةِ في المهْرِ والثَّمَنِ في البيعِ وأشباهِ ذلكَ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ كانَ يخْطُب امَّ سلَمةَ، ويقولُ: «إنْ كانَ إيمانُكِ أنْ أزيدَكِ في الصَّداقِ زدْتُكِ، [وإنْ أزدْكِ أزِدِ](١٤) النِّسْوةَ». ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ](١٥) قالَ: (زِدْها فهوَ أعظمُ للبرَكةِ). ورُوِيَ عنْ عثمانَ وعمّارٍ كذلكَ. وقد دلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ وقولُ الصحابةِ على جوازِ ذلكَ، فهو الحقُّ، وعلى(١٦) ذلكَ جمْهورُ المسلِمينَ في بِيَاعاتِهِمْ وتِجاراتِهِمْ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ونهاه. (٨) في الأصل وم: الانتفاع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فكانت. (١١) في الأصل وم: عليه. (١٢) في الأصل وم: في. (١٣) في الأصل وم: الزوج. (١٤) في الأصل وم: وأن أزيدك أزيد. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

ومنَ الدليلِ أيضاً على جوازِ الزِّيادةِ في الثَّمَنِ والمهرِ وأنّها تَصيرُ كأنها كانَتْ مُسمّاةً في عقدِ البيعِ أنَّ رجلاً اشترى من رجلٍ عبداً بَيعاً باتّاً، ثم أنَّ أحدَهما: جعَلَ لصاحِبِهِ الخيارَ يوماً، فنقَضَ البيعَ، إنَّ نقضَهُ جائزٌ، ويَصيرُ ذلكَ [كالخيارِ المشروطِ][1] في أصلِ البيعِ. وكذلكَ رجلٌ اشترى عبداً بألفِ درهَمٍ حَوالةً[2]، ثم إنَّ البائعَ أجَّلَ المُشتَريَ بالثَّمنِ شهراً، كانَ الأجلُ جائزاً، ويصيرُ كأنهما سمَّيا الأجلَ في عقدِ البيعِ، فوجَبَ أنْ تكونَ الزيادةُ بعْدَ البيْعِ في الثَّمنِ كأنها كانَتْ في عقدِ البيعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ في ما حرَّمَ، وأحلَّ ﴿حَكِيمًا﴾ حيثُ وضعَ كلَّ شيءٍ موضِعَهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ وقالَ ﷻ [في الآيةِ نفسِها][3]: ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ فقالَ بعضُ أهلِ العلْمِ: لا يجوزُ تزوُّجُ الأمَةِ حتى يعْجَزَ عنْ نكاحِ الحرَّةِ، ويَخْشى مع ذلكَ العنَتَ. فإذا اجْتمَعَ الأمْرانِ فحينئذٍ يجوزُ أنْ يتزوَّجَ الأمَةَ. ولا يجوزُ أنْ يكونَ تأويلُ الآيةِ في هذا وذلكَ أنَّ الإماءَ أعزُّ وُجوداً اليومَ منَ الحرائرِ، ويجدُ الرجلُ حُرَّةً يتزوَّجُها بأدنى شيءٍ ما لم يجدْ بمثْلِهِ الأمَةَ لا أنْ يُقالَ: الإماءُ في ذلكَ الزمانِ أوجَدُ، وإنَّ الحرائرَ أعزُّ، وإنَّ مَؤُنةَ الإماءِ ومهورَهُنَّ أقلُّ، فخرَجَ الخطابُ على ذلكَ.

وإنهُ لمّا نزَلَ قولُهُ ﷻ بـ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] رغِبَ الساداتُ في تزوُّجِ[4] الإماءِ بشيءٍ يَسيرٍ. فعندَ ذلكَ نزلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الآية، وإلّا الأمرُ الظاهرُ ما ذكرْنا أنهُنَّ أعزُّ وُجوداً منَ الحرائرِ وأكثرُ مَؤُنةً، وأنَّ الحرائرَ أهْونُ وجوداً ومَؤُنتُهُنَّ أقلُّ، أو أنْ تكونَ الآيةُ في الإنفاقِ عليهِنَّ، ليسَ في ابْتِداءِ النِّكاحِ. وهو أنَّ الرجلَ إذا تزوَّجَ حُرَّةً لزِمَهُ أنْ يُنْفِقَ عليها شاءَ، أو أبى. فإذا عجِزَ عنِ الإنفاقِ عليها يُطلِّقُها، ويتزوَّجُ بأمَةٍ؛ إذْ نفقةُ الأمةِ على سيِّدِها، ونفقةُ الحرَّةِ عليهِ، فأمرَ أنْ يُطلِّقَ الحرَّةَ التي نفقتُها عليهِ، ويتزوَّجَ أمَةً تكونُ نفقتُها على سيِّدِها. هذا أشبهُ، واللهُ أعلمُ، بما قالَهُ أولئكَ. أو أنْ يُقالَ: إنهُ أرادَ بالنِّكاحِ الوطءَ لا العقدَ والتزوُّجَ[5] على ما قالَ عليُّ ابنُ أبي طالبٍ ﷺ: (والنِّكاحُ اسْمٌ للوطْءِ والتزوُّجِ[6] جميعاً).

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] وتأويلُهُ: الواطئُ، فكذلكَ الأوَّلُ. ومعنى قولِ عليٍّ ﷺ حينَ حملَ الآيةَ على الوطْءِ لأنهُ لا يتزوَّجُ الأمَةَ على الحرَّةِ: كأنهُ منعَهُ منْ ذلكَ أنهُ[7] قادرٌ على وطْءِ الحرَّةِ، ويتزوَّجُ الحرَّةَ على الأمَةِ؛ يقولُ: يتزوَّجُ الأمةَ، ولم يكُنْ قادراً على وطْءِ الحرَّةِ، فجازَ نِكاحُهُ. أو إنْ كانَتِ الآيةُ في ابْتِداءِ النِّكاحِ والتزوُّجِ[8] على ما قالوا، فليسَ فيها حظْرُ نِكاحِ الإماءِ وبُطلانُهُ في حالِ الطَّولِ والقدْرةِ لأنهُ أباحَ نِكاحَهُنَّ في حالِ عدمِ الطَّولِ والقُدْرةِ.

ومنْ أصلِنا أنْ ليسَ في إباحةِ الشيءِ وحِلِّهِ في حالٍ دلالةُ حظْرِهِ ومنْعِهِ في حالٍ أُخرى؛ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ليسَ فيهِ أنهُ لا يُحِلُّ لهُ إذا لمْ يُؤْتِ أُجورَهُنَّ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣] ليسَ فيهِ حظْرُ الأربعِ، وإنْ خافَ ألّا يعْدِلَ، فهذا يدُلُّ على أنَّ حظْرَ الشَّيءِ ومنْعَهُ [في حالٍ][9] لا يُوجِبُ الحظْرَ في حالٍ أُخرى، وإباحةَ الشَّيءِ في حالٍ وحِلَّهُ لا يُوجِبُ منْعَهُ وحرمَتَهُ في حالٍ أُخرى.

على أنَّ المُخالفَةَ لِما لم يجْعَلِ الإيمانَ المذكورَ في الآيةِ شرْطاً لقولِهِ تعالى: ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فإذا لم يصِرِ الإيمانُ شرْطاً في حالِ نِكاحِ الإماءِ كيفَ صارَ الطَّولُ والقدرةُ شرطاً فيهِ؟ إذْ منْ قولِهِ ليسَ لهُ أنْ ينكِحَ الأمَةَ إذا كانَ لهُ طَولُ نِكاحِ المُحْصَنةِ الكِتابيَّةِ لأنهُ يقولُ: لأنَّ اللهَ تعالى شرَطَ فيهِنَّ الإيمانَ بقولِهِ ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فإذا لمْ يصِرِ الإيمانُ شرْطاً في المحصَناتِ كيفَ كانَ شرْطاً في الإماءِ؟ وذلكَ كلُّهُ عندَنا ليسَ بشرْطٍ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ﴾ [المجادلة: ٤] كذا ليسَ صارَ ذلكَ شرطاً حتى لا يجوزَ

---

(١) من م، في الأصل: كالمشروط. (٢) في الأصل وم: حالة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تزويج. (٥) في الأصل وم: والتزويج. (٦) في الأصل وم: والتزويج. (٧) في الأصل وم: لأنه. (٨) في الأصل وم: والتزويج. (٩) ساقطة من الأصل وم.

غيرُهُ، إذا كانَ لهُ طَولُ العِتاقِ وقُدْرةُ الصومِ ما يُنْكَرُ أنْ يكونَ الأوَّلُ بمثْلِهِ، قيلَ صارَ ذلكَ شرطاً فيهِ لأنهُ فرْضٌ لزِمَهُ بشَريطةٍ، لم يكنْ لهُ الخروجُ والتَّعدِّي إلى غيرِهِ.

وأمّا النّكاحُ فليسَ هو بفرْضٍ لزِمَهُ بوجودِ الطَّولِ والقُدْرةِ، والعتاقُ وما ذكَرَ فرْضٌ لَزِمَهُ بوُجودِ الطَّولِ والقدرةِ عليهِ، ويجوزُ الطعامُ، لكنْ لم يَسْقُطِ الفَرضُ الذي لَزِمَهُ عنْهُ. لذلكَ صارَ شرطاً فيهِ، والأوَّلُ لم يصِرْ.

فإنْ قالَ: ما معنى الآيةِ إذَنْ؟ قيلَ: معنَى الآيةِ على الاخْتِيارِ والأدَبِ، أو على الإنفاقِ الذي ذكَرْنا، أو ألّا يختارَ نِكاحَ الأمَةِ على نِكاحِ الحرَّةِ إذا كانَ لهُ طَولُ الحرَّةِ على ما جاءَ عنْ عمرَ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: (أيُّ ما حُرٍّ تزوَّجَ فقدْ أرَقَّ نِصْفَهُ، وأيُّ ما عبدٍ تزوَّجَ فقدْ أعْتَقَ نِصْفَهُ، لا يختارُ نِكاحَ الأمَةِ، ولهُ إلى طَولِ الحرَّةِ سَبيلٌ). ويَجيءُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ ألّا يُحمَلَ على الزِّنى، ولكنْ يُحمَلُ على مُخالطَتِهِنَّ الناسَ واسْتِرقاقِ الأولادِ. فإذا أمِنَهُ السَّيِّدُ عنِ استِرْقاقِ الولَدِ وعنْ ترْكِ الاختِلاطِ بالناسِ، فعندَ ذلكَ يتزوَّجُها؛ إذْ قلوبُ الناسِ لا تَحتمِلُ اخْتِلاطَ أزواجِهِنَّ بالناسِ واسْتِرقاقَ الأولادِ، فحمْلُ العنَتِ على هذا أشْبهُ منَ الزِّنى.

ومنَ الدليلِ أيضاً على ألّا يُعتَبَرَ الطَّولُ على التزوُّجِ على ما قالوا: إذا تزوَّجَ أمَةً، ثم قدَرَ على تزوُّجِ الحرَّةِ لم يفسُدْ نِكاحُ الأمَةِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ فعَلى ذلكَ طَولُهُ في الابْتِداءِ على نِكاحِ الحرَّةِ لا يمْنَعُ جوازَ نكاحِ الأمَةِ، واللهُ أعلمُ. على أنَّ عدَمَ الطَّولِ في الأصلِ لا يمْنَعُ نِكاحَ الحرَّةِ؛ إذْ شيءٌ يلزَمُ الذِّمَّةَ، وعدمُ النَّفقةِ يمنَعُ الإمساكَ عندَهُ. فدلَّ أنَّ الآيةَ لِعدمِ نفقةِ الحرَّةِ أشْبهُ منْ عدمِ طَولِ مهْرِ الحرَّةِ في الابْتِداءِ على ما ذكَرْنا.

والأصلُ إنْ كانَ أمرٌ يجوزُ بشرْطِ الاضطرارِ فإنَّ ارتفاعَ الضَّرورةِ يمنَعُ البقاءَ. فإذا لم يمنَعْ بانَ أنهُ لا على الحِلِّ بالضرورةِ. وعلى ذلكَ يختارُ لِمَنْ تحتَهُ حُرَّةٌ مُفارقَةُ الأمَةِ؛ إذْ بإمْساكِها رِقُّ الولَدِ الذي يقْبُحُ في العقلِ اخْتِيارُهُ، ومُخالطةُ الزَّوجةِ في الطَّبْعِ نِفارٌ منهُ. فمثْلُهُ في الابْتِداءِ، واللهُ أعلمُ، معَ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وليسَ عنِ الذي فيهِ الضرورةُ شرْطُ الصَّبرِ.

ثم القولُ واحدٌ فيهِنَّ بملْكِ المالِ، وهو غائبٌ عنهُ، يَخشى العنَتَ إلى أن يبلُغَ ذلكَ أنهُ لا يمْنَعُ النكاحَ، وجميعُ ما لَهُ الحرْمةُ يستَوي غيْبةُ/ ٨٩ ـ ب/ ذلكَ وحضرَتُهُ كنِكاحِ الأمَةِ على الحرَّةِ والأختِ على الأختِ ونحوُ ذلكَ معَ ما لو كانَتْ خشْيةُ العنَتِ تَصيرُ سبباً للحِلِّ في شيءٍ لكانَ ملْكُ الحرَّةِ التي هي عنهُ غائبةٌ إذا لم تَصِرِ الضَّرورةُ مُبيحةً. فإذَنْ بانَ أنَّ الحرْمَةَ لنفْسِ النِّكاحِ في الوُجودِ، والحِلَّ لعدَمِهِ لا للسَّبيلِ إلى ذلكَ وغيرِ السَّبيلِ.

ثم قولُهُ ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ﴾ إنما هو الضِّيقُ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] أي يُضيِّقُ عليكُم مُخالطةَ الأيتامِ أوِ الإثْمِ، وكقولِهِ[2] ﷻ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وكلُّ رجلٍ فيهِ وسْعُ الاسْتِمتاعِ فهو يَخشى الإثْمَ، فيَجيءُ أنْ يُباحَ لهُ على كلِّ حالٍ أو يُرْجَعَ إلى الضِّيقِ، فيكونُ المقصودُ منهُ الإمساكَ دونَ العقدِ، واللهُ أعلمُ.

ثم خشْيةُ الزِّنى أنْ يَحتَمِلَ أنْ يَصيرَ شرطاً للحِلِّ، وقد حصَلَ لهُ عُقوبةٌ، فيها أبْلغُ الزَّجْرِ لمَنْ غفَلَ عنْ رجْمٍ أو حَدٍّ، بل يُفرَضُ عليهِ إبقاءُ ذلكَ بكلِّ وُجوهِ الإمكانِ. ومعْلومٌ أنَّ اللهَ قد جعَلَ عنهُ بغَيرِ النِّكاحِ سَبيلاً في الامْتِناعِ أيضاً.

وقد جاءَ أيضاً الأمْرُ بالصِّيامِ بأنهُ[3] لهُ وِجاءٌ، فإنما خَشيةُ ذلكَ خشْيةُ خطَرٍ لا حَقيقةٍ، فلم يجُزْ أنْ يُجعَلَ عذراً لرفْعِ الحرُماتِ، ويُقْدَرَ عليهِ بالمُباحِ منَ الصيامِ.

القولُ في قولِهِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية: نقولُ، وباللهِ التوفيقُ، تَحتمِلُ الآيةُ وُجوهاً:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: بان.

أحدُها: طَولُ عقْدِ النِّكاحِ مذكورٌ أيضاً في نِكاحِ الأمةِ بقولِهِ: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ومعْلومٌ وُجودُ الحرَّةِ بالمهْرِ الذي يُوصَفُ في المعروفِ مِنَ المُهورِ، بل لعلَّ ذلكَ في الحرائرِ أوجَدُ؛ إذْ قد جازَ نِكاحُ الحرائرِ بالأشياءِ الضَّعيفةِ. ومعْروفٌ وجودُهنَّ في كلِّ عصْرٍ بدونِ ما يوجَدُ [في مثْلِهِ][1] الإماءُ، فمُحالٌ أنْ يُشتَرَطَ في نكاحِ الإماءِ عدَمُ ما لا يُوجَدُ السَّبيلُ إليهِ إلاّ بوُجودِ ذلكَ أو ما هو أعْظَمُ في الوُجودِ.

وأمّا النَّفقةُ والمسْكَنُ فقد يكونُ بمالِ السَّيِّدِ دونَ أنْ يُؤخَذَ بهِ، وفي الحرَّةِ هي لا سبيلَ إليها إلّا بمالِ الزوجِ. ففيها يُذكَرُ الوُجودُ لا في ما يستَوي الذِّكْرُ فيهِ في المَتْلُوِّ. ثم في الحاجةِ على ما عليه العرْفُ فيهِ فضلٌ. ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

والوجهُ الثاني: ما رُوي عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا تُنْكَحُ الأمَةُ على الحرَّةِ» [البيهقي في الكبرى ٧/ ١٧٥] ولو كانَ يجوزُ نِكاحُها عندَ وجودِ طَولِ الحرَّةِ لم يكُنْ للنَّهيِ عنْ ذلكَ بعْدَ النِّكاحِ وجْهٌ؛ إذْ ليسَ لذلكَ وُجودٌ لِما الطَّولُ يمْنَعُ وُجودَهُ.

والثالثُ: أنَّ الذي بهِ يجِبُ النِّكاحُ ليسَ للوجودِ شرْطٌ فيهِ، والذي بهِ الإمْساكُ شرْطٌ؛ إذْ قد يجوزُ بذِمَّةِ مَنْ لا يَمْلِكُ، ولا يُمْسِكُ. ثبَتَ أنّ ذلكَ في حقِّ الإمْساكِ. وبعْدُ لو كانَ يُمْنَعُ بالذي ذُكِرَ لكانَ جوازُهُ بحقِّ الضَّرورةِ، وهذا ممّا لا يقَعُ بالضرورةِ[2]. ثبَتَ أنَّ ذلكَ في حقِّ الإمْساكِ.

ثم لو كانَ التّأويلُ على النِّكاحِ لم يكُنْ في ذلكَ تحريمُ النِّكاحِ على وُجودِ طَولِ الحرَّةِ لخِصالٍ[3]:

إحداها: أنَّ ذلكَ يوجِبُ أنْ يكونَ نِكاحُ الإماءِ يجوزُ بحقِّ الإبدالِ والاضْطِرارِ. وذلكَ لا يَحتمِلُ حقَّ النِّكاحِ لوُجوهٍ:

أحدُها أنَّ طريقَ ذلكَ إباحةٌ ورُخَصٌ، والفروجُ لا تَحتمِلُ الإباحاتِ، بلِ الإباحاتُ توجِبُ حدَّ المُبيحِ وعُقوبتَهُ، وتُجْعَلُ كمُبيحِ ما لا يملِكُهُ.

والثاني: أنَّ الحرُماتِ التي كانَتْ في جميعِ النكاحِ كانَتْ ظاهرةً لم يُرْفَعْ شيءٌ منها لحاجاتٍ، وكذلكَ نِكاحُ الإماءِ لو كانَ منَ المحرَّماتِ. بل الحكْمُ أنَّ كلَّ امرأةٍ لا تَحتمِلُ [النكاحَ][4] فهي لا تحِلُّ بملْكِ اليَمينِ. فلو قُلْنا: إنه لا يحِلُّ نِكاحُها لِذاتِها لم تحِلَّ في ملْكِ اليَمينِ فأُدخِلَتْ بما[5] ذُكِرَتْ، وليسَ كالزيادةِ على الأربعِ، لأنَّ ملْكَ الحرْمةِ لحقِّ المنكوحةِ لا لِمكانِ المرأةِ، وكذلكَ الأختُ ونحوُ ذلكَ. دليلُ ذلكَ جوازُ ذلكَ لا بحقِّ الإبدالِ والاضطرارِ إذا عُدِمَ نكاحُ غيرِهِ بعدَ وفاتِهِ لم يُجْعَلْ في شيءٍ منَ الحِلِّ والحرْمةِ المالُ، بل قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ الآية [النور: ٣٣] صَبراً لعدَمِ شرْطِ التَّرْكِ، ولهُ قد يُفْسَخُ لأنهُ شرْطُ الإباحةِ، فلذلكَ أمرُ نِكاحِ الإماءِ.

والثالثُ: أنَّ الأصلَ في الإضافةِ الحِلُّ والحُرْمَةُ إلى أنهُ لا يُوجِبُ عندَ ذلكَ في غيرِ مُلْكِ الحالِ بل هو في غَيرِها مَوقوفاً على قِيامِ الدَّليلِ مِنْ ذلكَ المضافِ إليهِ أو غيرِهِ، لا أنهُ يُوجِبُ ذلكَ. دليلُ ذلكَ أمورُ النِّكاحِ. قالَ اللهُ تعالى لِنَبيِّهِ: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] لا أنهُ يُعلِمُ لو لم يُؤتِهِنَّ الأجورَ لَمْ يَحْلِلْنَ، وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥].

وقالَ ﷻ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ﴾ الآية لأنَّ الحدَّ لا يَجِبُ لو لم يُحْصَنَّ. وقالَ ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ لا على جَعْلِ الإيمانِ شَرْطاً، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣] لأنَّ الأمَةَ لا تَحِلُّ إذا لم يُخَفِ العَدْلُ في الحَرائرِ وغيرُ ذلكَ ممّا يَكْثُرُ؛ إذ ليسَ في إضافةِ الحِلِّ إلى حالٍ قَطْعِهِ عنْ غيرِهِ. فمثلُهُ أمرُ النِّكاحِ في ما نحنُ فيهِ.

ثم احْتَجَّ بعضُهُمْ بالآياتِ التي فيها: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ [النساء: ٢٥و..] و﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ [البقرة: ١٩٦و..] لِتَوجيهِ ذلكَ الحقِّ ههنا. وقد دخلَ جوابُ هذا في ما قُلْنا: إنَّ الحُكْمَ في غَيرِهِ موقوفاً على الدليلِ، فيهِ مُنِعْنا لا بهذا، معَ ما بَيَّنّا دليلَ ما نحنُ فيهِ ليسَ بِشَرْطٍ.

---

(١) في الأصل وم: من فمثله. (٢) في الأصل وم: الضرورة. (٣) في الأصل وم: الخصال. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: بأن ما.

ألا ترى أنهُ ذكَرَ شرْطَ الإيمانِ في المُحصناتِ وما[1] لم يَصِر شرْطاً، وقد صارَ في الكفاراتِ ونحوِ ذلكَ، فمِثْلُهُ ما نحنُ فيهِ؟ ثم الفصْلُ بينَ الأمرَينِ يقَعُ [مِن][2] وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ تلكَ بِحَقِّ الإبدالِ والاضطِرارِ، دليلُهُ زوالُ حُكمِهِ عندَ الارْتِفاعِ، وفي هذا، إلّا أنْ يَرتَفِعَ لنكاحِ الحُرَّةِ، فلذلكَ اختَلَفَ الأمرانِ. ولو جعَلْنا الأمرَ بهِ في حالٍ أو الإشارةَ بالحِلِّ إليها دليلاً على النَّهْيِ عن ذلكَ نَهْياً عن نكاحِ الإماءِ في حالِ طَولِ الحرائرِ. فلا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ النَّهْيُ مُبطِلاً لِلفِعلِ لأوجهٍ:

أحدُها: أنَّ المعنى الذي له يَقَعُ النَّهْيُ كانَ مَفقوداً، ومثلُهُ لا يَحتَمِلُ الفسادَ، وذلكَ يُخرَّجُ على وَجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يُرَقَّ وَلَدُهُ.

والثاني: أنْ تُخالِطَ امرأتُهُ الرجالَ، وذلكَ بَعْضُ ما يَشِينُ الرجلَ. ثم كانَ نكاحُ الزانيةِ معَ النَّهْيِ عنْ ذلكَ. ويجوزُ مع الأمرِ بطلاقِها. ومعلومٌ أنَّ ذلكَ أعظَمُ في الشَّينِ إذ قد ظهَرَ بهِ ما يَخافُهُ في المملوكةِ، ويَصيرُ وَلَدُهُ مَشتوماً أمامَهُ، وهو أوحَشُ في العقولِ منْ كلِّ رقٍّ وعُبودةٍ، ويُقالُ لهُ: يا ابنَ الزانيةِ، وذلكَ أيضاً تَلبيسُ النَّسَبِ وشُبهَتُهُ[3]. ثم لم يُجَبَّ بهِ الفسادُ. فأمرُ المَملوكةِ الأحرَى.

والثاني[4]: لم يُختَلَفْ على نَهْيِ الحُرْمَةِ عنْ نكاحِ العبيدِ، ولهُ يُفرِّقُ الأولياءُ، ويُصْرَفُ حَقُّ نَسَبِ الآباءِ إلى المَوالي. إذ مَعْلومٌ أنَّ الطَّعنَ عليهِنَّ في الخِلافِ أقبَحُ منهُ عليهِمْ، ثم لم يَمْنَعْ ذلكَ جوازَ النِّكاحِ، فمِثْلُهُ ما نحنُ فيهِ.

والثالثُ[5]: أنَّ الحُرْمَةَ على وجهَينِ: حُرْمَةُ النفسِ المَنكوحةِ لِلاستِمتاعِ[6]، وحُرْمةٌ لِحَقِّ النِّكاحِ. وكُلُّ مُحَرَّمَةٍ لِذاتها: فهي لا تَحِلُّ بِمُلكِ اليمينِ ولا بِمُلْكِ النِّكاحِ، وما كانَتِ الحُرْمَةُ بحقِّ[7] النِّكاحِ تَحِلُّ. فإذا كانَتِ الأمَةُ تَحِلُّ بِمُلْكِ اليمينِ ثَبَتَ أنَّ حُرْمَتَها ليسَتْ لِنَفسِها ولا لِلاستِمْتاعِ؛ فهي تَحِلُّ بمُلكِ اليمينِ؛ بل حِلُّها في الأصلِ بملكِ النكاحِ أحقُّ، إذ ليسَ إلّا لِلاستِمتاعِ. فإذا حَلَّتْ بهِ فَبِالأحرَى أنْ تَحِلَّ بالنِّكاحِ. ثم قد يُحَرِّمُ النِّكاحُ الخاصَّ، لا يُجازُ مِنَ الأموالِ بِحِلٍّ. فكذا ما نحنُ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ؛ يَحتَمِلُ؛ واللهُ أعلَمُ، حقيقةَ ذلكَ، [ويَحتَمِلُ ما][8] فيهِ لُزومُ العملِ بالظاهِرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ يَحتَمِلُ ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ في الدِّينِ، ويَحتَمِلُ ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ﴾ نَسَبِ ﴿بَعۡضٖۚ﴾. فهذا يَدُلُّ على أنَّ نَسَبَ/ ٩٠ ـ أ/ بَعْضِهِمْ مِنْ دينِ بَعْضٍ ومِنْ نَسَبِ بَعْضٍ، فليسَ لِبَعضٍ على بَعْضٍ فَضلٌ مِنَ الدِّينِ والنَّسَبِ؛ إذْ نَسَبُهُمْ ودِينُهُمْ واحدٌ، وليسَ لِلْحُرَّةِ على الأمَةِ فَضلٌ مِنْ هذا الوجهِ.

وفي قولِهِ: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ لأنها إذا كانَتْ على غيرِ هذا الوَصْفِ لَزِمَها ذلكَ الحُكمُ. دلَّ أنَّ وُجوبَ الحُكمِ في حالٍ على وَصْفٍ لا يَمْنَعُ وُجوبَ ذلكَ الحُكمِ في حالٍ أُخرَى على غيرِ الوَصْفِ الذي وُصِفَ في تلكَ الحالِ. وهذا بالمُخالِفِ لنا ألْزَمُ، لأنهُ قالَ ﷺ ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ﴾ [البقرة: ٢٢١] إنَّ النَّهْيَ وقَعَ على جميعِ المُشرِكاتِ كِتابيّاتٍ وغيرَ كِتابيّاتٍ. ثم صارَ [نَهْيُ الكِتابيّاتِ مَنسوخاً][9] بقولِهِ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المائدة: ٥].

ثم قالَ: إذا كانَ لَهُ طَولُ مُحصَنَةٍ كِتابيَّةٍ لم يَحِلَّ لَهُ نِكاحُ الأمَةِ المُؤمِنَةِ. وأخبَرَ ﷺ أنَّ الأمَةَ المؤمنةَ خيرٌ مِنْ مُشْرِكةٍ، وهو يقولُ: بَلِ المُشرِكةُ خيرٌ مِنَ الأمَةِ، فهذا يَدُلُّ على اضطِرابِهِ في قولِهِ على مَذهَبِنا ما قُلْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٢١] على المُشرِكاتِ خاصةً مِنْ غيرِ الكِتابيّاتِ عندَنا؛

---

(١) في الأصل وم: ومن. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وشبهه. (٤) في الأصل وم: وأيضاً. (٥) في الأصل وم: وأيضاً. (٦) في الأصل وم: الاستمتاع. (٧) في الأصل وم: بحيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: الكتابيات منسوخة.

دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] ذكَرَ المُشْرِكاتِ، وذكَرَ الكِتابيّاتِ؛ دلَّ هذا أنَّ المُشْرِكاتِ في هذهِ الآيةِ غَيرُ الكِتابيّاتِ. وقد ذكَرْنا الوَجْهَ في ذلكَ في صَدْرِ السورةِ ما يُغْني [عن][(١)] ذِكْرِهِ في هذا المَوضِعِ. فإذا كانَ ما ذكَرْنا حَلَّ لهُ أنْ يَتزَوَّجَ كتابيَّةً مُحصَنَةً كانَتْ أو أمَةً. وقد أقَمْنا الدَّليلَ على أنهُ[(٢)] ليسَ في ذِكْرِ الإيمانِ فيهنَّ دليلُ جَعْلِهِ شَرْطاً في جَوازِ نِكاحِهِنَّ على ما لم يكُنْ في ذِكْرِ الإيمانِ فيهِنَّ شرطٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ أي هو أعلَمُ بِحَقيقةِ إيمانِهِنَّ، وأنتُمْ لا تَعْلَمُونَ حقيقَتَهُ[(٣)]، وإنْ كانَ أثبتَ لنا عِلْمَ الظاهِرِ[(٤)] بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] أمَرَنا بالعَمَلِ بِعِلْمِ الظاهِرِ لا بِعِلْمِ الحقيقةِ بقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فهذا يَدُلُّ على أنَّ الإيمانَ هو عَمَلُ القَلْبِ لا عَمَلُ اللسانِ، لأنهُ لو كانَ عَمَلَ اللسانِ لَكانَ يَعْلَمُ حقيقَتَهُ كُلُّ أحدٍ، فَظَهَرَ أنهُ ما وَصَفْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ قيلَ فيهِ بِوُجوهٍ: [قيلَ][(٥)]: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ في الوِلاياتِ في الدِّينِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقيلَ: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ في النَّسَبِ، إذْ كلٌّ منهُمْ مِنْ أولادِ آدَمَ، ويَحْتَمِلُ ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ قَبْلَ الإسلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي بإذْنِ ساداتِهِنَّ، سَمَّى الساداتِ أهلاً لَهُنَّ. دلَّ أنهنَّ مِنْ أهلِهِمْ. وفيهِ أنَّ لِلمرأةِ أنْ تُزَوِّجَ نَفْسَها إذا أذِنَ لها وَليُّها لأنهُ تعالى قالَ: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ والمرأةُ إذا كَبِرَتْ[(٦)] لها أنْ تَتزَوَّجَ[(٧)] مِنْ غيرِهِ. وهذا في النساءِ أولَى لأنَّ الرجلَ إذا كانَتْ لهُ جاريةٌ يَسْتَمْتِعُ بها، ولا يُزَوِّجُها[(٨)] مِنْ غيرِهِ، والمرأةُ إذا كانَتْ لها جاريةٌ، هي التي احْتاجَتْ إلى تزويجِ جاريَتِها. لذلكَ كانَ في هذا أولَى. وفيهِ أنْ ليسَ لِلْعَبْدِ ولا لِلأمَةِ أنْ يَتَزَوَّجَ إلّا بإذْنٍ مِنْ سَيِّدِهِ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][(٩)] قالَ: «أيُّ ما عبدٍ تزَوَّجَ بِغَيرِ إذْنِ مولاهُ فهو عاهِرٌ» [أبو داوود ٢٠٧٨].

وقال بعضُ أهلِ العِلْمِ: قولُهُ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ إذا كُنَّ مُؤمِناتٍ على ما سَبَقَ مِن ذِكْرِ الإيمانِ بقولِهِ ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ لكنَّ هذا؛ إنْ[(١٠)] كانَ نَهْياً عنْ نكاحِ الإماءِ، إذا كُنَّ غيرَ مُؤْمِناتٍ.

ألا تَرَى أنَّ النساءَ نُهِينَ عنْ تَزْويجِ أنفُسِهِنَّ مِنَ العَبيدِ، وذلكَ ما يَشْتَهِينَ؟ ثم لم يَمْنَعْ ذلكَ النَّهْيُ عنِ التَّزويجِ منْهُمْ. فعلى ذلكَ لا يُمْنَعُ شَرْطُ الإيمانِ فيهِنَّ، والنَّهْيُ عنْ نكاحِهِنَّ[(١١)] إذا فُعِلَ جازَ ذلكَ النكاحُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] ذَكَرَ الصلاحَ فيهِمْ. ثم إذا كانُوا على غَيرِ ذلكَ الوَصْفِ جازَ. فكذلكَ الأوَّلُ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ ذَكَرَ الإحصانَ فيهِنَّ، ثم لَمْ يَصِرِ الإحصانُ فيهِنَّ شرطاً في جَوازِ النِّكاحِ لأنهُنَّ إذا كُنَّ غيرَ مُحْصَناتٍ يجوزُ نكاحُهُنَّ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

ولو كانَ الطَّولُ والقُدْرَةُ ممّا يَمْنَعُ جَوازَ نِكاحِ الإماءِ بمعنى البَدَلِ لَكانَ إذا تَزَوَّجَ أمَةً، ولم يكُنْ له طَولٌ على نِكاحِ الحُرَّةِ في ذلكَ الوقتِ. ثم كانَ الطَّولُ على نِكاحِ الحُرَّةِ يَجِيءُ أنْ يُفْسِدَ النِّكاحَ لأنهُ إذا مُنِعَ الابتداءُ يُمْنَعُ القرارُ في مُلْكِهِ. فإذا لم يُمْنَعْ دلَّ أنهُ ليسَ على حُكْمِ البَدَلِ؛ إذِ الأبدالُ لا قرارَ لها، ولا ثباتَ عندَ وجودِ الأُصولِ. دلَّ أنهُ ليسَ عليهِ، ولكنْ على الاختِيارِ والتأديبِ ألّا يُخْتارَ نكاحُ الإماءِ على الحرائرِ والمسافحاتِ، ولا تُختارُ المشركاتُ على المؤمناتِ. فإنْ قيلَ: إنكُمْ تَمْنَعُونَ[(١٢)] نكاحَ الأمَةِ على الحُرَّةِ، ثم لا تَفْسَخُونَ نِكاحَ الأمَةِ على الحُرَّةِ لِحَقِّ حُرْمَةِ الجَمْعِ كالجَمْعِ بينَ الأُخْتَينِ وبَينَ المرأةِ وعَمَّتِها [يُقَلْ][(١٣)] فأمّا إذا لم يَكُنْ ثَمَّ جَمْعٌ لم يُمْنَعْ، وهذا ليسَ بِشَيءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ بإذْنِ أهلِهِنَّ على ما ذَكَرَ الإذْنَ في النِّكاحِ بقولِهِ ﷻ ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: حقيقة. (٤) في الأصل وم: الظاهرين. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: كانت. (٧) في الأصل وم: تزوج. (٨) في الأصل وم: يتزوجها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وإن.
(١١) في الأصل وم: نكاحها. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: على. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتمِلُ أنْ يُؤتِيَ أجرَها، وإنْ لم يأذَنْ لهُ مَولاها إذا كانَتِ الجاريةُ مِمَّنْ تَحفَظُ مالَ سيِّدِها، وتتعاهَدُهُ؛ إذِ الناسُ يَشتَرُونَ المَماليكَ لِحِفظِ أموالِهِمْ وَصونِ أملاكِهِمْ، نحوُ ما جاءَ مِنَ الوعيدِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ حتى العبدُ عنْ مالِ سيِّدِهِ» [البخاري ٥١١٨] فإذا كانَ ما وَصَفْنا لا بأسَ بأنْ يُدفَعَ الأجرُ والمَهرُ إليها إذا كانَتْ هي مِمَّنْ تَحفَظُ مالَهُ، وتَصُونُهُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على حَقيقةِ المُلْكِ لِلمَماليكِ، ويُبيحُ لَهُمُ التَّمَتُّعَ بالجَواري وبقولِهِ تعالى أيضاً: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] لو لم يَملِكُوهُمْ حَقيقةَ المُلْكِ.

وأمّا عندَنا فإنهُمْ لا يملكُونَ حَقيقةَ المُلْكِ اسْتِدلالاً بقولِهِ تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أخبَرَ أنْ ليسَ لَهُمْ في ما رَزَقَهُمْ شُركاءُ ممّا مَلَكَتْ أيمانُهُمْ. دلَّ أنهُمْ لا يَملِكُونَ حَقيقةَ المُلْكِ. فإنْ قالُوا: ليسُوا[1] يملكونَ التَّمَتُّعَ في النِّكاحِ إذا مَلَكُوا، ما يَمنَعُ[2] أيضاً أنْ يَملِكُوا رقابَ الأشياءِ إذا مَلَكُوا؟ قيلَ: إنَّ الساداتِ لا يَملِكُونَ مِنَ النِّكاحِ إذا مَلَكُوا، بهِ بالأمسِ. ألا تَرَى أنَّ السَّيِّدةَ لا تَملِكُ مِنْ غيرِها التَّمَتُّعَ بهِ؟ إنَّ مُلْكَ ذلكَ لِلعبدِ خاصةً، لِذلكَ مَلَكَ مُلْكَ التَّمَتُّعِ في النِّكاحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ما ذكَرْنا مِنَ الإذنِ مِنْ أهلِهِنَّ ولِما جَعَلَ النَّهيَ حِفظَ الأموالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قيلَ: مَهرٌ غيرُ مَهرِ البَغيِ، وقيلَ: هو المَعلُومُ[3] وقولُهُ تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ قد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ. وأمّا قولُهُ ﷻ: ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] بِغنَى ساداتِهِمْ، إذْ مِقدارُ ما يُطعَمونَ، ويُشرَبُونَ، ممّا جَعَلَ لهُمُ الانتِفاعَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ قيلَ: فإذا أَسْلَمْنَ، وقيلَ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ فإذا تَزَوَّجْنَ. ويَحتَمِلُ ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ فإذا بَلَغْنَ مَبلَغَ النساءِ. وقيلَ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي عَفَفْنَ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، ما ذكَرَهُ في أوّلِ الآيةِ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ/ ٩٠ ـ ب/ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] إذا تُركْنَ لِلتَّعَفُّفِ، ولم يُكرِهْنَ على البَغيِ ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فهنَّ[4] الحَرائرُ؛ لأنَّ عذابَ المُتزَوِّجةِ، إذا دخلَ بها زَوجُها، الرَّجمُ، ولا نِصفَ لِلرَّجمِ، وإنما حَدُّ الأمةِ الجَلْدُ، فلا يَجوزُ أنْ تكونَ المُحصَناتُ في هذا المَوضِعِ [مَوضعَ ذواتِ][5] الأزواجِ؛ لأنَّ عذابَ ذواتِ[6] الأزواجِ الرَّجمُ، ولا نِصفَ لَهُ. دلَّ أنهُ أرادَ بالإحصانِ الإسلامَ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما وسعيدِ بنِ جُبيرٍ وجماعةٍ مِنْ أهلِ العِلْمِ أنْ لا حَدَّ على الأمةِ حتى تتزَوَّجَ.

وأمّا عندَنا فإنَّ عليها الحَدَّ لِما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ أمَرَ بِجَلْدِ الأمةِ إذا زَنَتْ، وإنْ لم تَتزَوَّجْ. فذلكَ حُجَّةٌ لِقولِ مَنْ قالَ: إحصانُها إسلامُها، وهو ما رُوِيَ عنْ أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه وزَيدِ بنِ خالدٍ وشِبْلٍ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ، قالُوا: كُنّا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فسألَهُ رجلٌ عنِ الأمةِ؛ تَزني قبلَ أنْ تُحصَنَ، قالَ: «اجْلِدُوها[7]، فإنْ زنَتْ فاجْلِدُوها[8]» ثم قالَ في الثالثةِ أو الرابعةِ: «فَبِيعُوها ولو بِضَفِيرٍ». [البخاري ٢٢٣٢و٢٢٣٣]. هذا الخَبَرُ يَدُلُّ على أنَّ الأمةَ إذا زَنَتْ تُجلَدُ، وإنْ [لم][9] تَتزَوَّجْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وإنْ تَصبِروا، ولا تَتزَوَّجُوا الإماءَ فهو خيرٌ لَكُمْ، لأنَّ أولادَكُمْ يَصيرونَ عَبيداً، فهذا يدلُّ على أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ كلُّهُ على الاختيارِ، ليسَ على الحُكمِ ألّا يَختارَ، لا على أنهُ إذا فَعَلَ لا يَجوزُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ؛ يَحتَمِلُ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حينَ كَفَّرَ عنكُمْ ما ارْتَكَبْتُمْ في الدنيا

---

(١) في الأصل وم: ليس. (٢) من م، في الأصل: منع. (٣) من م، في الأصل: الحلوم. (٤) من م، في الأصل: فهو. (٥) في الأصل وم: ذات. (٦) في الأصل وم: ذات. (٧) في الأصل وم: اجلدها. (٨) في الأصل وم: فاجلدها. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

بالعذابِ الذي يُقامُ عليكُمْ، ولم يَجْعَلْ عذابَكُم في الآخِرَةِ؛ إذْ عذابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ مِنْ عذابِ الدنيا، وذلكَ مِنْ رحمتِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مِنْ رحمتِهِ أنْ يَجْعَلَ الحدودَ في الدنيا زَوَاجِرَ مِنَ العَوْدِ إلى ارتكابِ مِثْلِهِ مِنَ الأفعالِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ أنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ ما تُؤْتُونَ، وما تَتَّقُونَ، وما لَكُمْ، وما عليكُمْ، ويُبَيِّنَ[1] ما بِهِ صلاحُكُمْ ومعاشُكُمْ في أمرِ دِينِكُمْ ودُنْياكُمْ. لكنَّ حَقِيقَةَ المرادِ بالآيةِ إمّا أنْ تكونَ أرادَ جَمِيعَ ما ذَكَرَ أو معنىً خاصاً ممّا احْتَمَلَهُ الكلامُ. وليسَ لنا القَطْعُ على ما أرادَ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يَحتَمِلُ وُجوهاً: أي يُبَيِّنُ لَكُمْ سَبيلَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، أي سَبيلَ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ. [وَهُمْ أهلُ][2] الهُدَى والطاعةِ منهُمْ، لِيَعْمَلوا ما عَمِلُوا هُمْ، ويَنْتَهُوا [عمّا انْتَهَوا] وكذلكَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أَمْرَ الرسالةِ والنُّبوَّةِ [لَيَهْدِيَنَّكُمْ محمدٌ ﷺ وهو رسولٌ، إذْ أَمْرُ الرسالةِ والنُّبوَّةِ][3] ليسَ بِبَديعٍ، قد كانَ في الأُمَمِ السالفةِ رُسُلٌ وأنبياءُ ﷺ فأمْرُ رسالةِ محمدٍ ﷺ، ونُبُوَّتِهِ لَيسَ[4] بَبَديعٍ ولا حادثٍ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي يُبَيِّنُ لَكُمْ أنْ كيفَ [كانَتْ سُنَّتُهُ][5] في الذينَ خَلَوا مِنْ قَبلُ في إهلاكِ مَنْ عانَدَ اللهَ ورسولَهُ واسْتِئصالِ مَنِ اسْتَأْصَلَهُمْ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ والأنبياءِ ﷺ والخِلافِ لهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقيلَ: ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ شرائعَ ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مِنَ المُحَرَّماتِ والمُحَلَّلاتِ مِنْ أهلِ التوراةِ والإنجيلِ والزَّبُورِ وسائرِ الكُتُبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يُريدُ[6] أنْ يَتوبَ عليكُمْ. وفي قولِهِ تعالى: أيضاً ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ يَهْدِيكُمْ تلكَ السُّنَنَ [سُنَنَ][7] الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ؛ يَحْتَمِلُ يَهْدِيكُمْ تلكَ السُّنَنَ التي[8] بَيَّنَها لكُمْ أنها كانَتْ ماذا؟ ويَحْتَمِلُ ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بمعنى جَعَلَ تلكَ السُّنَنَ الهِدايةَ لَكُمْ. ثم قولُهُ ﷻ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ سُنَّةَ وسِيرَةَ الذينَ[9] مِنْ قَبْلِكُمْ لِتَعْتَبِرُوا بِها. ويَحْتَمِلُ سُنَّتَهُمُ التي لَزِمُوها وسِيرَتَهُمُ التي سَلَكُوها بما لَها مِنَ العواقِبِ لِتَتَّعِظُوا بها، واللهُ أعلَمُ بِحَقيقةِ ما انْصَرَفَ إليهِ مُرادُ الآيةِ. لكنْ [في ما][10] احْتَمَلَهُ هُنا[11] مَوْعِظَةُ نَبِيِّنا فيه. وعلى ذلكَ مَعْنَى قولِهِ ﷻ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ كلَّ ما بِهِ نفعٌ أو كلَّ [ما إلينا][12] حاجةٌ، أوكُلَّ ما عَلينا القيامُ بِهِ، أو يرجِعُ ذلكَ إلى الخاصِّ ممّا يُريدُ بالآيةِ الإخبارَ عنهُ.

وإنَّ الذي علينا النَّظَرُ في ما يَفْضُلُ البيانُ عنهُ وفي ما أنْبَأنا عنْ سُنَّةٍ [مِنْ سُنَنِ مَنْ][13] تَقَدَّمَنا مِمّا نَرجو بِهِ الهِدايةَ والشِّفاءَ للقيامِ بِما علينا في ذلكَ مِنَ الحقِّ دونَ الشهادةِ عليهِ، جَلَّ ثناؤُهُ، بالمُرادِ فيها في مَخْرَجِ الكِنايةِ دونَ التَّصْريحِ مِنَ المَوْعُودِ[14].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [أنَّ ما][15] بَيَّنَ في مَفْهومِ الخطابِ وما جَرَى بِهِ الذِّكْرُ في هذهِ الآيةِ واحدٌ. إذْ لو كانَ [ذِكْرُ ما][16] يَسبِقُ إلى الفَهْمِ غيرَ الذي سَبَقَ في هذا [ما عُلِمَ][17] ما حقَّ على العِبادِ مِنَ التَّفاهُمِ، واللهُ أعلمُ. ثم كانَ مَعْلُوماً في ما أرادَ بقولِهِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ أنهُ لو لم يُبَيِّنْ ما أرادَ بهذا الوَعْدِ، ولم يَهْدِ، كانَ يَلْحَقُهُ الخُلْفُ في الوَعْدِ.

فَعَلَى ذلكَ في ما[18] قالَ: يُريدُ اللهُ ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ و﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٧و٢٨] [لو لم يَكُنْ يُخَفِّفُ][19]، ويتوبُ، على مَنْ أُريدَ بقولِهِ: ﴿يَتُوبَ﴾ و﴿يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ لَلَحِقَهُ[20] الخُلْفُ في الوَعْدِ.

---

(١) في الأصل وم: وبين. (٢) في الأصل وم، هل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم، وليس. (٥) في الأصل وم: كان سنة. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٠) من م، في الأصل: فيها. (١١) في الأصل: فههنا. (١٢) في الأصل وم: بينا. (١٣) في الأصل وم: في من. (١٤) من م، في الأصل: العود. (١٥) في الأصل وم: وإن. (١٦) في الأصل وم: ذكران. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: من. (١٩) ساقطة من م. (٢٠) في الأصل وم: يلحقه.

ثم يُخالفُ وصفَ كافرٍ في حالِ أنهُ مِمَّنْ تابَ اللهُ عليهِ. ثَبَتَ أنه لم يَدْخُلْ في قولِهِ ﷺ: ﴿يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]. فإذا ثَبَتَ أنهُ لم يَدْخُلْ فيهِ وجَبَ فيهِ أمْرانِ:

أحدُهما: أنَّ الإرادةَ لَيْسَتْ بِأمْرٍ إذْ قد أمَرَ الكافِرَ بالتوبةِ.

والثاني: أنَّ كُلَّ مَنْ لم يَتُبْ فهوَ مِمَّنْ لم يُرِدِ اللهُ أنْ يَتُوبَ عليهِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

على أنَّ اللهَ تعالى قالَ في المؤمنينَ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقالَ في الكفارِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]؛ على التَّفريقِ: مَنِ الذي في عِلْمِهِ أنْ يَخْتِمَ مؤمِناً ومَنْ في علمِهِ أنْ يَخْتِمَ كافراً على إرادةِ الهدايةِ مع إرادةِ ألّا يَجعَلَ له الحظَّ في الآخرةِ على الموعودِ خُلْفٌ وإرادةِ مَنْ لا تَدْبيرَ لَهُ في فِعْلِهِ، ولا يَتَّصِلُ فيهِ بهِ فِعْلُهُ تَمَنٍّ في مُتعارَفِ الأمْرِ وَتَشَهٍّ، ولا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ تعالى الإرادةُ، وهي التي يُوصَفُ بها مَنْ فِعْلُهُ الاختيارُ. ثَبَتَ أنَّ للهِ[1] تَعالى في فِعْلِ العبادِ فِعْلاً بِحَيثُ فِعلُهُ يُوصَفُ بالإرادةِ. وفي ذلكَ وُجوبُ القولِ بِخَلْقِ أفعالِ العِبادِ، أو أنْ يكونَ المُرادُ مِن تلكَ الإرادةِ، إذْ لم يَحْتَمِلِ التَّمَنِّيَ ولا الأمرَ، أنْ تكونَ الإرادةُ التي تَنْفِي القَهْرَ والغَلَبَةَ، فَيَلْزَمُ إذا ثَبَتَ نَفْيُ القَهْرِ الوَصْفُ بالإرادةِ، ويَثْبُتُ أنهُ مريدٌ لِكلِّ فِعْلٍ نُفِيَ عنهُ القَهْرُ في وجودِهِ. وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يُؤتَى، ويُتَّقَى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما بِهِ معاشُكُمْ وصلاحُكُمْ وما بِهِ فَسادُكُمْ وفَسادُ مَعاشِكُمْ ونحوُهُ: ﴿حَكِيمٌ﴾ وَضَعَ كلَّ شَيْءٍ مَوضِعَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قالَتِ المعتزلَةُ: قد أرادَ اللهُ توبةَ مَنْ لا يَتُوبُ. فَيُقالُ لَهُمْ: ما التَّوبةُ عندَكُمْ؟ [أليْسَتِ التَّوبَةُ عندَكُمْ][2] التَّجاوُزَ والدعاءَ؟ فإذا وَعَدَ أنْ يَتُوبَ، فَلَمْ يَفْعَلْ، فهلْ تَرَكَ، لا بِعَجْزٍ، أو بِهِ، أو ذلكَ الوصفُ لهُ بالعَجْزِ أوِ الجَهْلِ، فَنَعوذُ باللهِ مِنَ الزَّيغِ عنِ الحَقِّ والسَّرَفِ في القولِ.

وأمّا تأويلُهُ عندَنا: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ في الذي عِلْمُهُ أنهُمْ يَتُوبُونَ، أو كانَ في ذلكَ إخبارٌ عنْ قومٍ أرادَ اللهُ أن يَتوبَ عليهِمْ، فتابُوا: وقالَ قومٌ: قولُهُ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يأمُرُ أنْ يَتُوبُوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ الآية. مَنِ اختارَ الدُّنيا على الدِّينِ، والأولَى على الآخِرَةِ [هَوًى يَتْبَعُهُ][3]، وشَهْوَةً تَغْلِبُهُ؛ لا لِتَقْصِيرٍ /٩١ ـ أ/ مِنَ اللهِ ﷻ عنِ البَيانِ بل لِتَرْكِهِمُ النَّظَرَ والتَّأمُّلَ بالعَواقِبِ، غَلَبَتْ عليهِمْ شَهَواتُهُمْ، واتَّبَعُوا أهواءَ أنْفُسِهِمْ: إمّا رئاسةً طَلَبُوها، وإمّا سَعَةً في الدنيا بَغَوها. فذلكَ الذي يَمْنَعُهُمْ عَنِ النَّظَرِ في العاقبةِ والتَّأمُّلِ في الآخِرَةِ. لِذلكَ مالُوا مَيلاً عَظيماً، وخَسِرُوا خُسْراناً مُبيناً، وضَلُّوا ضَلالاً بَعيداً.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ هذا. إنهُ خَفَّفَ علَينا، ولم يَحْمِلْ ما حَمَلَ على الأُمَمِ السالِفَةِ مِنَ الأصْرِ والشدائدِ والأثقالِ والمَشَقّاتِ ممّا جَعَلَ تَوبَتَهُمْ قَتْلَ بعضِهِمْ بَعضاً، وجَعَلَ تَوبَتَنا النَّدامَةَ بالقَلْبِ والرجوعَ عمّا ارْتَكَبْنا[4]، أو يُقالُ: خَفَّفَ عنّا حينَ[5] لم يَسْتَأصِلْنا، ولم يُهْلِكْنا بالخلافِ وتَرْكِ الطاعةِ على ما اسْتَأصَلَ أولئكَ وأهْلَكَهُمْ. ويَحْتَمِلُ التَّخْفيفُ عنّا أيضاً ما خَفَّفَ علَينا مِنْ إقامةِ العِباداتِ والطّاعاتِ مِنْ نَحْوِ الحَجِّ والجِهادِ وغَيرِهِ حتى جَعَلَ القِيامَ بِذلكَ أخَفَّ على الإنسانِ وأيْسَرَ مِنْ قِيامِهِ بأخَفِّ العِباداتِ والطاعاتِ وأيْسَرِها. وذلكَ مِنْ تَخْفيفِ اللهِ عَلينا وتَيسيرِهِ، وفَضْلٌ[6] منهُ ورحمةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ بِهِ الكافرَ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ١٩و٢٠]. وقد قيلَ: كلُّ مَوضعِ ذُكِرَ الإنْسانِ [فيهِ][7] فهو في كافرٍ، مِنْ ضَعْفِهِ يَضيقُ صَدْرُهُ، وتَمَلُّ نفسُهُ بِطُولِ التَّرْكِ في النِّعَمِ حتى يَضْجَرَ فيها. ويَحْتَمِلُ أنهُ أرادَ بِهِ الكافِرَ والمسلِمَ، وَوَصَفَهُ في ابْتِداءِ حالِهِ أنهُ

---

(١) في الأصل وم: الله. (٢) في الأصل: أليس التوبة عندكم، في م: أليس عندكم التوبة. (٣) لهؤلاء يتبعه. (٤) في الأصل وم: ارتكبوا. (٥) في الأصل و م: حيث. (٦) في الأصل وم: وفضلا. (٧) ساقطة من الأصل وم.

كانَ ضَعيفاً كقولِهِ ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤]، ويَحتمِلُ وَصْفَهُ بالضَّعفِ لأنهُ ضعيفٌ في نَفسِهِ مَلُولٌ[1] مِنَ الطاعاتِ والعباداتِ التي جَعلَ اللهُ عليهِ؛ ليسَ كالملائكةِ حينَ وَصفَهُمْ أنهُمْ لا يَفتُرونَ ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩و٢٠]. ولا كذلكَ بَنو آدَمَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ الظاهِرُ في الثُّنيا أنهُ مِنْ غيرِ جِنسِ المُستَثنَى لأنهُ استَثنَى التجارةَ ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ مِنْ أكلِ المالِ بالباطِلِ بينَهُمْ. وأكلُ المالِ بالباطِلِ ليسَ مِنَ التجارةِ، ولا التجارةُ مِنْ نوعِ أكلِ المالِ بالباطِلِ. والثُّنيا في الأصلِ جَعْلُ تحصيل المُرادِ في المُجمَلِ مِنَ اللفظِ. فإذا لم يكُنْ مِنْ نوعِهِ كيفَ جازَ؟ لأنهُ يَحتمِلُ، واللهُ أعلمُ، أنْ يكونَ على الابْتِداءِ أو الاِئْتِنافِ؛ كأنهُ قالَ ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ولكنْ كُلُوا بِتجارةٍ. وعلى ذلكَ يَخرُجُ قولُهُ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥و٢٦] استَثنَى السَّلامَ، والسَّلامُ ليسَ مِنْ جِنسِ اللَّغْوِ. لكنْ مَعناهُ ما ذَكَرْنا: لا يَسْمَعُونَ فيها لغواً، ولكن[2] يَسْمَعُونَ فيها سَلاماً.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ في الثُّنيا بيانُ تَخصِيصِ المُرادِ في المُطلَقِ مِنَ الكَلامِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ [الحجر: ٥٨ و٥٩]. دلَّ استِثناؤهُ آلَ لُوطٍ على أنَّهُ أرادَ بِقَومٍ مُجرِمِينَ قَومَ لُوطٍ خاصةً لأنهُ قد كانَ في قومِ إبراهيمَ ﷺ وفي[3] غَيرِهِمْ مِنْ أقوامٍ مُجْرِمِينَ. دلَّتِ الثُّنيا على مُرادِ الخُصوصِ.

فَعَلَى ذلكَ يدلُّ اسْتِثناؤهُ التجارةَ عَنْ تَراضٍ مِنهُمْ على أنهُ أرادَ بأكلِ المالِ بالباطِلِ تجارةً مِنْ غَيرِ تَراضٍ، وإنْ كانَ في الحَقيقةِ يَصِيرُ مَآلُهُ هذا، وهو أنْ يأخُذَ مالَ غَيرِهِ، فيُتلِفَهُ، فيُلزِمَهُ بَدَلَهُ، فَيَصِيرُ ما عُوِّضَ مِنْ بَدَلِهِ بما أتلَفَهُ قِصاصاً. فهو في الحَقيقةِ تجارةٌ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ أكلُ المالِ بالباطلِ بَيْنَهُمْ ما لا يَجوزُ، ولا يَطِيبُ، لأنَّ حَرْفَ البَينِ لا يُسْتَعْمَلُ إلّا في ما كانَ البَدَلُ مِنَ الجانِبَينِ. فإذا كانَ ما وَصَفْنا مُحتَمَلاً كانتِ[4] الثُّنيا مِنْ ذلكَ مِنْ وَجهٍ يَطِيبُ، ومِنْ وَجهٍ لا يجوزُ، ولا يَطِيبُ. وفيهِ دليلٌ أنَّ التجارةَ هي جَعْلُ الشيءِ بِبَدَلٍ، وتَرْكُ الشَّيءِ بالشَّيءِ. ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾؟ [البقرة: ١٦]. ذَكَرَ الشِّرَى، ولم يكُنْ منهُمْ إلّا تَرْكُ الهُدَى بالكُفرِ. ثم سَمَّى ذلكَ تِجارةً بقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وفيهِ دلالةٌ أنَّ البيعَ يَتِمُّ بِوُقوعِ التَّراضِي بَينَ المُتبايِعَينِ، وليسَ كما قالَ قومٌ: لا يَتِمُّ البَيعُ، وإنْ تَراضَيَا على ذلكَ حتى يَتفرَّقَا عنِ المكانِ، فَيَكُونا[5] تارِكِينَ عندَنا بِظاهِرِ هذهِ الآيةِ، فإنِ احْتَجُّوا بالخَبَرِ الذي رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لَمْ يَتفرَّقا» [البخاري ٢١٠٨]. لكنَّ مَعناهُ عندَنا أنْ يقولَ الرجلُ للرجلِ: بِعْتُكَ عبدي بكذا. فَلِصاحِبِهِ أنْ يَقولَ: قَبِلْتُ البَيعَ ما دامَ في مَجْلِسِهِ. أو يَحتمِلُ أنْ يكونَ إذا قالَ: بِعْتُكَ كانَ لهُ الرُّجوعُ قَبْلَ أنْ يقولَ الآخَرُ: قَبِلْتُ. على أنَّ قولَهُ ﷺ: «ما لَمْ يَتفرَّقا» لا يُوجِبُ أنْ يكونَ تَفرُّقاً عنِ المكانِ وتَفرُّقَ الأبدانِ.

ألا تَرى أنَّ اللهَ ﷻ [قالَ][6]: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] ولا يُفهَمُ المعنى مِنْ ذلكَ تَفرُّقَ المكانِ والأبدانِ؟ ولكنْ وَقَعَ ذلكَ على القَولِ والطَّلاقِ. على أنَّ في الآيةِ بَيانَ تَمامِ البيعِ بِوجودِ التَّراضي بقولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ ومِمّا يَدُلُّ على ذلكَ أيضاً قولُهُ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فلو كانَ البيعُ لا يَتِمُّ بالتَّراضي فَمَتَى يُشْهَدُ قبلَ التَّفرُّقِ؟ فَهَلِ المُقِرُّ صادِقٌ في أنَّ لصاحِبِهِ عليهِ الثَّمَنَ، أم كاذبٌ إذا كانَ البَيعُ لم يَتِمَّ؟ وما يَنفَعُهُ الإشهادُ إذْ كانَ لِلْمُقِرِّ أنْ يُبْطِلَ قرارَهُ، ويَرُدَّ[7] السِّلْعَةَ؟ وإنْ كانَ إنما يَشْهَدُ فَقَدْ يَجوزُ أنْ يُتْلَفَ المالُ قَبْلَ الإشهادِ، فأينَ التَّحصِينُ الذي أمَرَ اللهُ تعالى؟

---

(١) في الأصل وم: معل. (٢) من م، في الأصل: ولا. (٣) من م، الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: كان. (٥) في الأصل وم: فكانوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

ومما يدلُّ على تأويلنا في الخَبَرِ ما رُوِيَ عن أبي هُريرةَ ﷺ[أنه][1] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لم يَتفَرَّقا، ولا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يُعَجِّلَ فِراقَهُ خَشْيَةَ أنْ يَسْتَقِيلَهُ» [الترمذي: ١٢٤٧] وقولُهُ: «يَسْتَقِيلَهُ» يدلُّ على أنْ ليسَ لهُ أنْ يَرُدَّهُ إلّا بأنْ يُقِيلَهُ صاحِبُهُ. ويدلُّ[2] قولُهُ ﷺ «ما لم يَتفَرَّقا» [على][3] بَيْعِهِما. على أنَّ التفَرُّقَ هو الفراغُ مِنْ عَقْدِ البيعِ لا غيرِهِ.

ومما يدلُّ على أنَّ الخِيارَ ليسَ بواجبٍ قولُ عُمَرَ ﷺ: (إنَّ البَيْعَ عنْ صَفْقَةٍ أو خيارٍ) فكانَ مُوافِقاً لِما رَوَى أبو هُرَيرَةَ ﷺ: يَقولُ: (دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا﴾ إلى قولِهِ: ﴿تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ﴾ على الإذْنِ في الأكلِ إذا وُجِدَتِ التجارةُ عنْ تراضٍ مِنَ الناسِ).

والتجارةُ مَعْرُوفةٌ عندَ جميعِ مَنْ لهُ عَقْلٌ، ومعروفٌ أنْ يَتَفَرَّقَ[4] المُتعاقِدانِ بعدَ الفراغِ مِنَ العَقْدِ؛ لم يُعْرَفْ في ما هو عندَ الخَلْقِ تجارةٌ. ولكنَّ التَّفَرُّقَ بانْقِضاءِ ما لهُ الاجتماعُ والفراغُ منهُ بما ليسَ مِنْ مُعاقَدَةِ العُقلاءِ الوقوفُ في مكانٍ بلا حاجةٍ، فليسَ التَّفَرُّقُ لِما يُحتَمَلُ أنْ يَظُنَّهُ حَكيمٌ أو سَفيهٌ مِنَ التجارةِ. وقد أُذِنَ في الأكلِ، والأكلُ عِبارةٌ عنِ الأخذِ وكلِّ أنواعِ المنَافِعِ بالباطلِ. فثبَتَ أنْ قد مُلِكَ بالفراغِ عنِ التجارةِ بغيرِ الرِّضا. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والتَّبايُعُ [هو][5] الذي عليهِ الإشهادُ، وهو التَّعاقُدُ لا التَّفَرُّقُ. ومِنَ البَعيدِ أنْ يُكَلَّفُوا الإشهادَ على التبايُعِ قبلَ وجوبِ الواجبِ مِنَ الحقِّ الذي عليهِ الإشهادُ.

فثَبَتَ بذلكَ وجوبُ ما جَعَلَ البائعَ بِوُجُوبِهِ دونَ التَّفَرُّقِ. وإذا ثَبَتَ الذي ذكَرْنا مِنْ أحكامِ القرآنِ معَ الكفايةِ بالأمرِ الذي لا يُجَوِّزُ شُذوذَ حقٍّ لا يَسْلَمُ منهُ بَشَرٌ عنْ علمِ البشرِ، وكلُّ أهلِ التَّبايُعِ بهِ يَتَعارَفُونَ [الحَقَّ بَيْنَهُم][6] بالفراغِ مِنَ العُقودِ، ولا يَجوزُ شُذوذُ العِلْمِ بِحَقٍّ، ذلكَ مَحَلُّهُ، فيكونُ اتِّفاقُ الخَلْقِ على الجهلِ بالاعْتِقادِ في أمرٍ يُعَرِّفُهُ الرسولُ ﷺ ثم أئِمَّةُ الهُدَى لا يَنْهَونَ[7] عَنْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

فإذا لَزِمَ ذا الولاءُ المَرْوِيُّ مِنَ الخِيارِ[أنَّ كلَّ متبايِعَينِ بالخِيارِ][8] «ما لم يَتفرَّقا» حَمَلَ الخَبَرَ على [ما][9] فيهِ بَعضُ العِلْمِ بِحَقِّ القرآنِ وما عليهِ أمْرُ الخَلْقِ على اتِّساعٍ لِغَيرِ ذلكَ الوجهِ، بل لَعَلَّهُ بغيرِهِ أولَى. ثم يُخَرَّجُ على [وجهَينِ:

أحدُهما][10]: على إضمارِ حقٍّ، على المتبايِعَينِ أنْ يكونا كذلكَ في حَقِّ الجَعْلِ لا في حَقِّ العِبارةِ عنْ واجبٍ، دليلُهُ روايةُ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ﷺ أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لم يَتفرَّقا» [البخاري ٢١٠٨] أي لا يَحِلُّ لأحدِهما أنْ يُفارِقَ صاحبَهُ خَشْيَةَ أن يستَقِيلَهُ. ثبتَ أنَّ المعنى بالخِيارِ في حقِّ الجَعْلِ لو طَلَبَ الفَسْخَ/ ٩١ ـ ب/ في الاستِقالةِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني: أنْ يُريدَ بهِ ما في التَّبايُعِ: دليلُ ذلكَ احتِمالُ اللفظِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الإشهادَ على التَّبايُعِ. والتَّبايُعُ هو فِعلُ اثْنَينِ، وقد ثَبَتَ مِنْهُما معَ الفراغِ الإشهادُ على التَّبايُعِ. وهذا أحقُّ بوجوهٍ:

أحدُها: حقُّ اللغةِ أنهُ اسْمُ التَّفاعُلِ، وهو اسْمٌ لِفِعْلِهِما، فيستَحِقّانِ ذلكَ في وقتِ كونِهِما فيه كالتَّضارُبِ والتَّقاتُلِ ونحوِ ذلكَ، وبعدَ الفراغِ التَّسمِيَةُ. ويكونُ بحَقِّ الحِكايةِ دونَ تحقيقِ الفِعْلِ.

والثاني: بِما رُوِيَ عنْ أبي هريرةَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «البَيِّعانِ بالخيارِ ما لم يَتفَرَّقا مِنْ بَيْعِهِما» [البخاري ٢١٠٨] وبَيْعُهُما مَعْرُوفٌ، واللهُ أعلمُ.

والثالثُ: مُتَّفَقُ القولِ مِنْ أهلِ العقلِ على رُؤيَةِ وُجوبِ البَيعِ دونَ التَّفَرُّقِ عنِ المكانِ، واللهُ أعلمُ.

والرابعُ: أن يُجْعَلَ ذلك الحدُّ لإصلاحِ البَياعاتِ أنهما ما لم يَتفَرَّقا يمْلِكانِ الإصلاحَ، وإذا [تَفرَّقا لا][11] وهو أولَى.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: عليه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تفرق. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: ينتهون. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وجوه. (١١) في الأصل و م: تفرق إلا.

إنَّ الحدَّ[1] جَعْلُ التَّفرُّقِ التمامَ شرطاً لِلْفسادِ ومَنْعِ الإصلاحِ، وقد كانَ في بعضِ العقودِ ممّا تَصِحُّ[2] العُقودُ بالقَبْضِ، فهو على الوُجودِ قبلَ التَّفرُّقِ، ثم لا تَصِحُّ[3] إذا وُجِدَ التَّفرُّقُ. فمِثْلُهُ ممّا كانَ الصَّلاحُ بالقولِ في الإصلاحِ. وعلى ذلكَ إذا قالَ أحدٌ لِلآخَرِ: اخْتَرْ، انقَطَعَ خِيارُهُ لو كانَ تَفرُّقاً مِنَ القولِ، وليسَ فيهِ زِيادةٌ على ما في قولِهِ: بِعْتُ مِنْكَ في حقِّ الإصْلاحِ، فَثَبَتَ أنَّ التَّفرُّقَ بقَطْعِ الإصلاحِ لا لِلإصلاحِ، واللهُ أعلمُ، وأنَّ[4] لِلنّاسِ عُرْفاً[5] في التَّبايُعِ في وجهَيْنِ:

أحدُهُما: في التَّعاقُدِ.

والثاني: في التَّقابُضِ، فيكونُ المَعنى مِنَ الخَبرِ في ما البَيْعُ عنْ تَقابُضٍ وهو بَيْعُ المُداوَمَةِ؛ إذا تَرَكَ كُلُّ واحدٍ منهما الآخَرَ يُفارِقُهُ على ما سَلَّمَ، وقَبضَ، كانَ ذلكَ بينَهما. وجازَ ذلكَ أيضاً بِحَقِّ الآيةِ في الإباحةِ عنْ تَراضٍ.

واسْمُ التجارةِ قد يَقَعُ على تَبادُلٍ ليسَ فيهِ قولُ البَيعِ كقولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦و١٧٥] وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، وذلكَ مع قولِهِ ﷺ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] أنَّ البَيعَ المَوقوفَ إذا أُجيزَ يُباحُ الأكلُ لِما كانَ وقتُ الأكلِ قد وُجِدَتِ التجارةُ عنْ تَراضٍ. وفي ذلكَ دليلُ وجوبِ خيارِ الرؤيةِ إذْ قد جَعَلَ الرِّضا سَبَباً، وهو بما يُجْهَلُ غيرُ مُحِقٍّ، وإنما يُعْلَمُ بالرُّؤْيَةِ، وفيهِ أنهُ بالقَبْضِ يَمضي حقُّ العقدِ؛ إذِ التجارةُ لِلأكلِ، ولا يوصَلُ إليهِ إلّا بالقبضِ. فإذا فاتَ [فاتَ انْتِهاءُ][6] التجارةِ، فَيَبْطُلُ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ [ﷺ أيضاً: «البَيِّعانِ»][7] وإنْ كانَ اسماً لِفِعْلِ اثْنينِ فَلِما تَتَّصِلُ صحةُ كلامِ كُلٍّ منهما، إذا كانَ الآخَرُ حاضِراً، فكأنهما اشْتَرَكا في صِحَّتِهِ، فَصارا بِهِ مُتابِعَينِ نحوَ قولِهِ [ﷺ: «كُلُّ بَيِّعَينِ فلا بَيعَ بَينَهما حتى يَتَفرَّقا إلّا بَيعَ الخِيارِ»][8] [البخاري ٢١١٣].

والتَّفرُّقُ اسْمٌ لِفَعْلِ اثْنَينِ، لكنَّ أحدَهُما إذا فارَقَ مكانَ البيعِ، والآخَرَ لم يُفارِقْهُ، فقد وُجِدَ حَقَّ التَّفرُّقِ مِنْ أنْ ليسَ أحدُهُما: بِجَنْبِ الآخَرِ، فكأنَّهُما اشْتَرَكا في التَّفرُّقِ، وإنْ لم يُوجَدِ الفِعْلُ مِنْ أحدِهِما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما[9]: لا يَقْتُلْ بعضُكُمْ بعضاً؛ فإنهُ إذا قَتَلَ [أحدٌ][10] آخَرَ يُقْتَلُ بِهِ، فكأنهُ هو الذي قَتَلَ نفسَهُ، إذْ لولا قَتْلُهُ إياهُ لم[11] يُقْتَلْ بِهِ.

والثاني: أنهُ أضافَ القتلَ إلى أنفسِهِمْ لأنهُمْ كلُّهُمْ كَنَفْسٍ واحدةٍ؛ إذ كُلُّهُمْ [مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ][12] وجَوهرٍ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي مِنْ رحمتِهِ أنْ جَعَلَ في ما بَينَكُمُ القِصاصَ وأخذَ النَّفْسِ بالنَّفْسِ والمالَ بالمالِ، وفي ذلكَ حياةُ أنفسِكُمْ وإبقاءُ أموالِكُمْ. ومِنْ رحمتِهِ أيضاً أنْ جَعَلَكُمْ مِنْ جوهرٍ واحدٍ؛ إذْ كُلُّ ذي جوهرٍ يُؤْلَفُ بِجَوهرِهِ، ويُسْكَنُ إليهِ، واللهُ أعلمُ. ومِنْ رحمتِهِ [أنْ][13] أرسَلَ إليكُمُ الرُّسُلَ، وأنزلَ عليكُمُ الكتبَ، وأوضَحَ لَكُمُ السُّبُلَ. ومِنْ رحمتِهِ أنْ أمْهَلَ لَكُمْ، وسَتَرَ عليكُمْ، ودَعاكُمْ إلى المَتابِ، ومِنْ رحمتِهِ رفَعَ عنكُمُ الآفاتِ، وأوسَعَ لكُمُ الرِّزْقَ. والمؤمنونَ[14] خاصةً برحمتِهِ اهْتَدَوا، وسَلِمُوا مِنْ كلِّ داءٍ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ ﴿عُدْوَٰنًا﴾ لِمُجاوَزَتِهِ حُدودَ اللهِ ﴿وَظُلْمًا﴾ على صاحِبِهِ. والعُدوانُ هو اسْمُ التَّعَدّي والمُجاوَزَةِ عنْ حدودِ اللهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَظُلْمًا﴾ على نفسِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. وهذا الوعيدُ، واللهُ

---

(١) في الأصل و م: حد. (٢) و (٣) في الأصل: يصح، في م: تصلح. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عرف. (٦) في الأصل: ناه، في م: فات ناه، ناه: انتهى. (٧) في الأصل وم: تبايعاً. (٨) في الأصل وم: تعالى: حتى يتفرقا. (٩) في الأصل وم: أي. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وإلا ثم. (١٢) في الأصل: بنفس واحدة، في م: من جنس واحد. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: وبالمؤمنين.

أعلمُ، لِمَنْ يَفعَلُ ذلكَ مُسْتَخِفّاً بحدودِ اللهِ واسْتِحلالاً منهُ لذلكَ. وإلّا لو كانَ ذلكَ على غَيرِ وَجْهِ الإسْتِخْفافِ بها والإسْتِحْلالِ لها لم يَسْتَوجِبْ هذا الوعيدَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، ثم قالَ ﷻ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] إنما جاءَ هذا في قَتْلِ العَمْدِ، ثم أبقَى الأُخوّةَ في ما بَينَهما، وأخبرَ أنَّ ذلكَ تخفيفٌ منهُ ورَحْمَةٌ وتَخليدٌ[١] في النارِ؟ وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] إذا قَتَلَهُ مُسْتحِلّا لهُ مُسْتَخِفّاً بِتَحْريمِ اللهِ إيّاهُ اسْتَوجَبَ[٢].

وأمّا مَنْ فَعَلَ على غَيرِ الإسْتِحلالِ والإسْتِخفافِ بحدُودِهِ فالحُكْمُ فيهِ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ يَحتَمِلُ [وجهَينِ:

أحدُهما:][٣] الإستِحْلالُ، دليلُهُ قولُهُ ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ وقولُهُ[٤] ﷻ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ وقولُهُ[٥]: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] أبقَى[٦] الأخُوّةَ التي كانَتْ بقولِهِ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٧٨] فثَبَتَ أنَّ الإيمانَ بَعْدُ باقٍ، فما بَقِيَ لَهُ الرحمةُ والأُخُوةُ. وههنا[٧] زالَ. كذلكَ افْتَرَقَ[٨] الإثنانِ.

والثاني: أنهُ وَعَدَ إصلاحَهُمْ، ولم يَذْكُرِ الخُلودَ؛ وجائزٌ تعذيبُهُ في الحكمةِ. والتنازعُ في الخُلودِ.

والأصلُ في هذا ونحوِهِ أنهُ لم يُتَنازَعْ أنْ يكونَ فِعْلُهُ. وإنما التَّنازُعُ في إبقاءِ اسْمِ الإيمانِ في لُزومِ الوَعيدِ. فالآيةُ[٩] في مَنْ لم يَبْقَ لهُ الاسمُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ، فقالَ بعضُهُمْ ﴿كَبَائِرَ﴾ الشِّرْكُ، لأنَّ كَبائِرَ الشِّرْكِ أنواعٌ: منها: الإشراكُ باللهِ، ومنها: الجحودُ ببعضِ الرُّسُلِ ﷺ ومنها: جُحودُ العِباداتِ واسْتِحلالُ المُحرَّماتِ وتَحريمُ المُحلَّلاتِ وغيرُ ذلك، وكلُّ ذلكَ شِركٌ باللهِ. فَقِيلَ: أرادَ بالكَبائِرِ الشِّرْكَ. فإذا اجْتَنَبَ كبائِرَ الشِّرْكِ صارَتْ ما دُونَها مَوعودٌ لها المَغفِرةُ بالمَشيئةِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وَعَدَ بالمغفِرَةِ لِما دُونَ الشِّرْكِ، وقَرَنَهُ بِمَشيئتِهِ؛ فهو في مَشيئةِ اللهِ تعالى: إنْ شاءَ عذَّبَهُ، وإنْ شاءَ عَفا عنهُ. وباللهِ التوفيقُ.

وقيلَ: أرادَ بالكبائرِ كَبائِرَ الإسلامِ. ثم يَحْتَمِلُ وجهَينِ بعدَ هذا: يَحتَمِلُ أنْ تكونَ الصغائرُ مَغْفُورةً باجتِنابِ الكَبائِرِ. ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الصَّغائِرُ مَغْفورَةً بالحَسَناتِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؟ والتَّكفيرُ إنما يكونُ بالحَسَناتِ؟ أوَلا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾؟ [هود: ١١٤] أخْبَرَ أنّ مِنَ السَّيِّئات ما يُذْهِبُها[١٠] الحَسَناتُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ التَّكفيرُ لها جميعاً، وإنْ لم تُجْتَنَبْ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وقالَ ﷻ: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؟ [التحريم: ٨] ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ عنْ أنس ﷺ [أنهُ][١١] قالَ: [قالَ][١٢] رسولُ اللهِ ﷺ: «شفاعتي نائلةٌ لأهلِ الكبائرِ مِنْ أُمتي»؟ [أبو داوود ٤٧٣٩] ورُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ أنهُ سَمِعَ امْرأةً تدعو: اللّهُمَّ اجعَلْني مِنْ أهلِ شفاعةِ محمدٍ ﷺ [فقالَ: (مَهْ، فَقُولي: اللهمَّ اجعلني مِنَ الفائزينَ؛ فإنَّ شفاعةَ محمدٍ ﷺ لأهلِ الكبائرِ][١٣] ثم قَرَأَ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآيةَ).

ثم اخْتُلِفَ في كيفيَّةِ الكَبائِرِ وماهيّتِها، فقالَ بعضُهُمْ: ما أوجَبَ / ٩٢ ـ أ/ الحَدَّ فهو كبيرةٌ مِنَ نحوِ الزِّنَى والسرقةِ

(١) في الأصل وم: ويخلد. (٢) في الأصل وم: فاستوجب. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ثم قال. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: فأبقى. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: افترقت. (٩) في الأصل وم: فهي. (١٠) في الأصل: يذهبنا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

والقَذْفِ، وغيرِ ذلك. وقالَ آخرونَ: الإشراكُ باللهِ وقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ بِغَيرِ حَقِّها وأكلُ مالِ اليَتِيمِ وأكلُ الرِّبا وقولُ البُهْتانِ والفرارُ مِنَ الزَّحفِ. ورُوِيَ عَنْ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ][1]: (الكبائر تِسْعٌ) فقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه: (هُنَّ إلى التِّسْعِينَ أقربُ، ولكنْ لا كَبِيرةَ معَ تَوبةٍ، ولا صَغِيرَةَ معَ إِصْرارٍ).

ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][2] قالَ: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وما تَقولُونَ في الزِّنَى والسرقةِ وشُرْبِ الخَمْرِ»؟ قالَ: (اللهُ ورسولهُ أعْلَمُ) قالَ: «هُنَّ فَواحِشُ، وفيهنَّ عُقوبةٌ». ثم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ألا أُنبِئُكُمْ بِأكبَرِ الكَبائِرِ»؟ قالُوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: «الإشراكُ باللهِ وعُقوقُ الوالِدَينِ» قالَ: وكانَ مُتَّكِئاً، فجلَسَ، ثم قالَ: «ألا وقولُ الزُّورِ ألا وقولُ الزُّورِ» قالَهُ ثلاثاً «وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾») [الطبراني في الكبير ٨/ ١٤٠، رقم الحديث ٢٩٣] ذكَرَ تَكفيرَ السَّيِّئاتِ إنِ اجْتنَبَ الكَبائِرَ، ولم يذكُرِ الحُكْمَ إذا لم يَجْتَنِبْها، فليسَ فيهِ أنهُ إذا لم يَجْتَنِبْ لا يُكَفِّرُ، فهو في مَشيئَةِ اللهِ، إنْ شاءَ كَفَّرَ، وإنْ شاءَ عذَّبَهُ، على ما ذكَرْنا أنَّ وجوبَ الحُكْمِ لا يُوجِبُ إيجابَ ذلكَ الحُكْمِ في حالٍ أخرَى حَظْراً كانَ، أو حلالاً، واللهُ أعلَمُ.

ويُقرَأُ في بعضِ القراءةِ: إن تَجْتَنِبُوا كَبِيرَ[3] ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ فإنْ ثَبَتَ هذا فهو يدلُّ على التأويلِ الذي ذكَرْنا آنفاً أنهُ أرادَ بالكبائِرِ كبائرَ الشِّرْكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ قيلَ: الجنةُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآيةَ. قيلَ: لا يَتَمَنَّ الرجلُ مالَ أخيهِ ولا امرأتَهُ ولا دارَهُ ولا شيئاً مِنَ الذي لهُ، ولكنْ لِيَقُلْ اللهمَّ ارْزُقْني، ويذكُرِ[4] النوعَ الذي ذكَرَ، واللهُ واجدُ ذلكَ، وهو الواسِعُ العَليمُ. وقِيلَ: هو كذلكَ في التوراةِ. وقيلَ: إنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قالَتْ: يارسولَ اللهِ يَغْزُو الرجالُ ولا نَغْزُو، ويُذْكَرُ الرجالُ ولا نُذْكَرُ، فَنزلَتِ الآيةُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ إلى قولِهِ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا التَّمنِّي في الديانةِ وفي الدُّنياوِيَّةِ[5] أمَّا في الديانةِ فهو أنْ يَتَمَنَّى أحدٌ أنْ يكونَ قدرُهُ مثلَ قدرِ الآخرِ عندَ الناسِ مِنَ العلمِ والزهدِ وغيرِ ذلكَ، فَنُهِيَ أنْ يَتَمَنَّى ذلكَ؛ لم يبلُغْ هو ذلكَ المَبْلَغَ إلّا بِاحْتِمالِ المكارِهِ والمَشَقَّةِ والجَهْدِ، وفي الدُّنياوِيَّةِ هو أنْ يَتَمَنَّى مالَ أخيهِ وزوجتَهُ وخدَمَهُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ معنى التَّمَنِّي ما ذُكِرَ في خبرِ أمِّ سَلَمَةَ لأنَّ في ذلكَ الكُفْرانَ بنعمِ اللهِ؛ لأنَّ النساءَ، وإنْ لم يَجْعَلْ عليهِنَّ القتالَ، وبِغَيرِها[6] مِنَ الخيراتِ رفعَ عنهنَّ بعضَ المَؤُناتِ، ففي التَّمَنِّي الكُفْرانُ بتلكَ النِّعَمِ التي أنعمَ اللهُ تعالى عليهِنَّ.

وفي قولِهِ أيضاً: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي الذي ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فهو، واللهُ أعلَمُ؛ لِما فيهِ السُّخْطُ لِحُكْمِهِ، تُرِيدُ الصرفَ إليكَ، أو لِما فيهِ أنهُ قَصَرَ فَضْلَهُ على ما رَأى، وألّا يَسَعَ فضلُهُ لهُ وللذي فَضَّلَهُ، ولِما النَّظَرُ إلى ما أكْرَمَ بهِ غيرَهُ بِحَقِّ التَّمَنِّي تَلَهِّي عنْ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهِ، أو يُخَرِّجُ ذلكَ مُخْرَجَ العَداوَةِ. وحقُّ نِعَمِ اللهِ على كلِّ أحدٍ أنْ يعرِفَ التَّعْظيمَ لَهُ. وكذلكَ فَضَّلَهُ على غيرِكَ لِيَرْحَمَهُ، ويَتَفَضَّلُ عليكَ[7] للتَّعْظِيمِ.

والتَّمَنِّي أوحَشُ مِنَ الحَسَدِ، لأنَّ الحَسَدَ هو إرادةُ الصَّرْفِ عنهُ، وفي التَّمَنِّي ذلكَ وإرادةُ الفَضْلِ لهُ بهِ عليهِ، [وما سألُوا][8] اللهَ ﷻ مِنْ فَضْلِهِ [وكانَ فضلُهُ][9]، هو مالَهُ ألّا يَبْذُلَ؟ وذلكَ يُخَرَّجُ على فَضْلٍ في الدينِ أو فَضْلٍ في الخَلْقِ والمروءةِ. فأمّا في ما يرجِعُ إلى نِعَمِ الدنيا مِمّا يَسْتَعْمِلُهُ في أحدِ ذَينِكَ الوَجْهَينِ فهو في الظاهِرِ نعمةٌ، وفي الحقيقةِ بَلِيَّةٌ ومِحْنَةٌ. قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الآيةَ [التوبة: ٥٥ و٨٥] وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥].

---

(١) في الأصل: يقول، في م: عنهما يقول. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) هي قراءة سعيد بن جبير، انظر المختصر في شواذ القرآن (٢٥). (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الدنيا. (٦) في الأصل وم: وغيرها. (٧) في الأصل وم: عليه. (٨) من م، في الأصل: وسالوا. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

وجائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في النّهيِ معَ ما مُكّنُوا مِنَ النِّعَمِ لو وُفِّقُوا لِلْخيراتِ. فإنْ كانَ، لمّا[1] وُفِّقوا للخيراتِ، فَحَقُّ ذلكَ أنْ يَشْكُروا اللهَ بما أكرمَهُمْ[2] مِنَ حَسَناتٍ، ويُرَغِّبُهُمْ[3] في التوفيقِ لِمِثْلِهِ. وإنْ كانَ في أمرِ النِّعَمِ فَحَقُّهُ أنْ يُعِينَهُ بالدُّعاءِ لِتكونَ النِّعْمَةُ لهُ نِعْمَةً لا بَلِيَّةً ونَقْمَةً، وتُرَغِّبَ في ما يُقَرِّبُكَ إلى اللهِ في عاقبةٍ.

وقد ذكَرْنا أنَّ أمَّ سَلَمَةَ تَمنَّتْ بَعْضَ ما يَقُومُ بهِ الرجالُ مِنَ العباداتِ نحوَ الجهادِ وأشكالِهِ، فَنَزَلَ النَّهْيُ عَنْ ذلكَ والترغيبُ في فَضْلِهِ في نَوعِ ما تَحْمِلُ هيَ مِنَ الخَيراتِ دُونَ الذي تَفَضَّلَ عليهِنَّ بالرَّفْعِ عَنْهُنَّ.

وفي قولِهِ أيضاً: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ الآيةَ يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ على ما خاطبَ رسولَ اللهِ ﷺ، بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآيةَ: [الحجر: ٨٨ وطه: ١٣١]، فأخبرَ أنَّ الذي أعْطَى لم يُعْطِ لِلْكَرامةِ، ولكنْ لِيَفْتِنَهُ بهِ. والعقلُ يأبَى الرغبةَ في ما يُفْتَنُ بهِ دونَ ما يُكْرَمُ بهِ، ثم بَيَّنَ الذي هو أولَى بالمُشْتَهَى مِنَ التَّمَنِّي، فقالَ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ فرَغَّبَ في مالِهِ، وإمّا بالسُّؤالِ مِنْ فَضْلِهِ ألّا يكونَ كَسْبُهُ لهُ إلّا بفَضْلِهِ كقولِهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] فَبَيَّنَ أنَّ كَسْبَهُ لهُ[4] بفضلِ اللهِ، وبَيَّنَ أنَّ الأولَى بِهِ الإقبالُ على مالُهُ عاقِبَةٌ والتَّضَرُّعُ إلى اللهِ تعالى: بالإكرامِ دَونَ الذي عليهِ في ذلكَ خوفُ المَقْتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مِثْلُهُ؛ فإنَّ فَضْلَهُ واسِعٌ، ولا تَتَمَنَّ مالَ أخيكَ[5] ودارَهُ، واسْأَلِ[6] اللهَ تعالى الإعانةَ[7] ولا تَتَمَنَّ ألّا يكونَ لأخيكَ، ويكونَ لكَ.

ثم أخبَرَ أنَّ ما يكونُ للرجالِ إنما يكونُ بالاكتِسابِ، وما يكونُ للنساءِ يكونُ بالاكتِسابِ؛ يكونُ لِلْكُلِّ ما اكْتَسَبَ مِنَ الأجرِ وغيرِهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ احتَمَلَ هذا، واللهُ أعلَمُ، أن يكونَ مَعْطوفاً مَرْدُوداً إلى قولِهِ ﷺ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ﴾ الآيةَ [النساء: ٧] ذَكَرَ ههنا ما يَرِثُ الرجالُ والنِّساءُ مِنَ الوالِدَينِ والأقرَبينَ، ولم يَذْكُرْ ما يرِثُ الوالِدانِ مِنَ الأولادِ والأقرَبُونَ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ نَحْوِ العَمِّ وابْنِ العَمِّ وغيرِهِمْ مِنَ القراباتِ، فَذَكَرَها هنا لِيُعْلَمَ أنَّ لِلْمَولَى مِنَ الميراثِ مِمّا تَرَكَ الوالِدانِ والأقرَبونَ ما لأولئكَ مِنَ الوالِدَينِ والأقرَبينَ، إذا لم يكنْ أولئكَ؛ أنْ جَعَلَ لهؤلاءِ ما جَعَلَ لأولئكَ. ولم يذكُرْ أيضاً ما لِلْوالِدَينِ مِنَ الأولادِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ﴾ الآيةَ [النساء: ٧] ولكنْ ذَكَرَ في آيةِ الوَصِيَّةِ في قولِهِ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠] ذكَرَ الوَصِيَّةَ لِلْوالِدَينِ والأقرَبينَ، ولم يذكُرْ للأولادِ، واللهُ أعلمُ، لأنَّ الرجلَ قد يُؤْثِرُ ولدَهُ على نفسِهِ وعلى غيرِهِ مِنَ الأقرباءِ، ولا كذلكَ [الولدُ للوالدِ][8]. فَذَكَرَ الوصِيَّةَ للوالِدَينِ والأقرَبينَ لهذا المعنَى: لِيَصِلَ[9] إليهِمُ المعروفُ. وأمّا الأولادُ فإنهمْ لا يُؤْثِرونَ[10] على غيرِهِمْ، لذلكَ لم يذكُرْهُمْ، واللهُ أعلمُ.

وقيلَ في قولِهِ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا﴾ أي بَيَّنّا، فيكونُ فيها بيانُ ما في الأولَى مِنَ المَواريثِ. ثم قيلَ في المَوالي: إنهُمْ هُمُ العَصَبَةُ. وقيلَ: هُمْ أولياءُ الأبِ أوِ الأخِ وغيرِهِما[11] مِنَ العَصَبةِ. وقيلَ: هي الوارِثةُ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ، وكلُّهُ واحدٌ.

ورُوِيَ عنْ أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه [أنهُ][12] قالَ: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أنا أولَى بالمؤمنينَ؛ مَنْ ماتَ، وتركَ مالاً، فمالُهُ لِموالي العَصَبَةِ، ومَنْ تَرَكَ كَلّا أو ضِياعاً فأنا وَلِيُّهُ فَلْأُدْعَى لَهُ») [البخاري ٦٧٤٥] عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما، [أنهُ][13] قالَ: (قالَ

(١) في الأصل وم: فلما. (٢) في الأصل وم: أكرم. (٣) في الأصل وم: يرغب. (٤) في الأصل وم: عليه لا. (٥) في الأصل وم: أخيه. (٦) في الأصل وم: واسألوا. (٧) في الأصل وم: العبادة. (٨) في الأصل: الوالد، في م: الولد الوالد. (٩) في الأصل وم: يصل. (١٠) في الأصل وم: يرثون. (١١) في الأصل وم: وغيرهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

رسولُ الله ﷺ، : «ألحِقُوا الفرائضَ بأهلِها فما أبقَتِ السهامُ فلأولى رجلٍ ذكرٍ» [البخاري ٦٧٣٢] وعن عُمَرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه [أنهُ][1] قالَ: (سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ، [يقولُ][2]: «ما أحرزَ الوالدُ أو الوَلَدُ فهو لِعَصَبَتِهِ مَنْ كانَ») [أبو داوود ٢٩١٧] وعن عُمَرَ رضي الله عنه أنهُ كَتَبَ: إذا كانَتِ العَصَبَةُ أقربَ فهمْ أحقُّ بالمالِ.

وأجمَعَ أهلُ العِلْمِ على أنَّ أهلَ السهامِ إذا استَوفَوا سِهامَهُمْ، وبَقِيَ مِنَ المالِ شيءٌ، فإنهُ[3] لِعَصَبَةِ الميِّتِ، وهُمُ الرجالُ مِن قرابَتِهِ مِنْ قِبَلِ أبيهِ ومواليهِ، وأنهُ لا يكونُ أحدٌ مِنَ النساءِ عَصَبَةً/ ٩٢ ـ ب/ إلا أخواتٌ مِنَ الأبِ والأمِّ أو[4] مِنَ الأبِ معَ البناتِ والمرأةُ المُعْتَقَةُ، فإنَّ هؤلاءِ[5] عَصَبَةٌ.

وأجمَعُوا أنَّ كُلَّ مَنِ اتصَلَتْ قرابَتُهُ مِنْ قِبَلِ النساءِ بالميتِ فليسَ عَصَبَةً[6]، وأنَّ المرأةَ إذا أعْتَقَتْ عبداً أو أمَةً فإنها عَصَبَةٌ بعدَ موتِ أمَتِها[7] إلا ابنَ مسعودٍ رضي الله عنه فإنهُ يجعَلُ لِذَوي الأرحامِ دونَ المَوالي.

وأجمَعُوا أنهُ إذا اجتَمَعَ عَصَبَتانِ فأقرَبُهُما أولى، وأقربُ العَصَبَةِ الابْنُ، ثُمَّ ابنُ الابْنِ، وإنْ سَفَلَ، ثُمَّ الأبُ، ثُمَّ الجَدُّ وإنْ عَلا، والأخُ مِنَ الأبِ والأمِّ، ثُمَّ العَمُّ مِنَ الأبِ، ثُمَّ ابنُ العَمِّ مِنَ الأبِ والأمِّ، ثُمَّ ابنُ العَمِّ مِنَ الأبِ، ثم مُوالي النِّعْمَةِ، وإنْ سَفَلَ، فهؤلاءِ كُلُّهُمْ عَصَبَةُ الميتِ. وأقربُهُمْ أولاهُمْ بما فَضَلَ مِنَ المالِ عنْ أصحابِ السهامِ المذكورةِ سِهامُهُمْ؛ هو، واللهُ أعلَمُ، مُوافِقٌ لِما ذكرْنا مِنْ دَليلِ الآيةِ والسُّنَّةِ وما تَوارَثَتْ مِنَ الرواياتِ عنِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِنَ المَوالي جَعَلْنا على إضمارِ نصيبٍ أو حَقٍّ في ما تَرَكَ الوالِدانِ والأقربونَ، فيكونُ تأويلُهُ قولَهُ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] فيكونُونَ هُمْ مَوالِيَهُ بِحَقِّ المِيراثِ على تأويلِهِ أنهُمْ أولى مما تَرَكُوا، أو على مِثْلِهِ: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

ووليُّهُ مَنْ يُلْحِقُهُ في مُلْكِهِ بغيرِهِ [في][8] قولِهِ تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١] وجميعِ الآياتِ في المَواريثِ إلا أنهُ لم يذكُرِ الوالِدَينِ في هذِهِ الجملةِ ولا الزَّوجَينِ، ولا يدخُلُونَ في اسْمِ القرابةِ ولا في اسْمِ الأولادِ. وقد جاءَ بالإيجابِ لهُمْ كتابٌ، واجْتَمَعَتْ عليهِ الأمَّةُ على غَيرِ دَعْوَى النَّسْخِ فيهِ مِنْ أحدٍ لِيُعْلَمَ أنَّ التَّخْصِيصَ بالذِّكْرِ في الحقِّ لا يَقْطَعُ حقَّ غَيرٍ.

لكنَّهُ يكونُ الأمرُ مَوقوفاً على وجودِ دليلِهِ، واللهُ أعلَمُ، على أنَّ في الإيجابِ لِلأقْرَبِينَ ولِلْمَوالي كفايةً عنْ ذِكْرِ مَنْ ذَكَرَ؛ إذْ بِهِمْ تكونُ كلُّ القرابةِ، وبالتَّناكُحِ يكونُ النَّسْلُ، وهو المجعولُ لذلكَ. وكذلكَ لا يسقُطُ حقُّ هؤلاءِ، ولا يُحْجَبُونَ عنِ الكُلِّ بأحدٍ، وقد جَرَى ذكرُ حقِّهِمْ في ما نَسَخَتْهُ هذِهِ الآيةُ مِنَ الوصيَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أنْ[9] يُرْجَعَ إلى المَوالي إلى الذينَ وَرِثُوهُ مِنْ تَرِكَةِ الأبَوَينِ والأقربينَ، يُخْبِرُ أنْ قد تجري المَواريثُ في ما قد وَرِّثَتْ نحوَ ما يجري في ما لم يكنْ وُرِّثَ مَرَّةً، فَرَجَعَ ذا إلى غيرِ أولادِ الأُوَلِ وأقربائِهِمِ الأُوَلِ، أو أنْ يكونَ المقصودُ في ما تَرَكَ الوالِدانِ والأقربونَ بما ذَكَرَ في أبيهِمْ ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] أنْ يكونَ هذا في ما تَرَكَ الوالِدانِ والأقربونَ معَ أصحابِ الفرائضِ. فتكونُ الآيةُ في حَقِّ العَصَباتِ إذْ لم يذكُرْ لَهُمْ دُونَ أنْ يكونَ مَعَهُمْ أصحابُ الفرائضِ يَرِثُونَ بِحَقِّ السِّهامِ ولا بِحَقِّ الفُضُولِ، فيكونُ حَمْلُ الآيةِ في المَواريثِ [في ثلاثةٍ][10]

أحدُها: في أصحابِ الفرائضِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

والثاني: في حقِّ العَصَباتِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ الآية.

والثالثُ: في حقِّ ذَوي الأرحامِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية [الأنفال: ٧٥والأحزاب: ٦].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أنه. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) في الأصل وم: هاتين. (٦) في م: بعصبة. (٧) في الأصل وم: أمة. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: أي. (١٠) في الأصل وم: ثلاث.

ثم ألحق بهؤلاءِ الأبْعَدِينَ أهلَ العَقْدِ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾. إنما ذكَرَ ذلكَ في ما يَتْرُكُ الميتُ وأوجهِ العَونِ والرِّفْدِ والنَّصْرِ مع ما ذكرَ نصيبَهُمْ في التَّرِكَةِ كما ذَكَرَ لأصحابِ الفرائضِ. وعلى ذلكَ المرفوعُ لرسولِ اللهِ ﷺ في «مَنْ أسْلَمَ على يَدَيِ آخَرَ فإنه[1] أحقُّ الناسِ [به][2] مَحياه ومماتَهُ» [أحمد ٤/ ١٠٢].

وكذلكَ رُوِيَ عنْ عُمَرَ وعليٍّ وعبدِ اللهِ ﷺ مَعَ ما كانَتِ المَوارِيثُ بهذا منْ قَبْلُ، فَنُسِخَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥والأحزاب: ٦] فإذا ارْتَفَعَ ذلكَ ذهبَ التَّناسُخُ، فَوَجَبَ لَهُمْ؛ إذْ بيتُ المالِ يَرِثُ بِولايَةِ الإيمانِ جملةً. ولهذا مَلَكَ[3] الولاءُ لَهُ ولايةَ أُخرَى، فهو أحقُّ، واللهُ أعلَمُ، ويَخْلُفُ هؤلاءِ مَنْ له رَحِمٌ كما خَلَفَ ولاءُ العَتاقَةِ بما تقدَّمَ مِنَ النِّعمةِ بالإعتاقِ حقَّ العَصَبَةِ مِنْ ذي النَّسَبِ بقولِهِ ﷺ: «الولاءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ» [البيهقي في الكبرى ١٠/ ٢٩٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ قيلَ: هو مِنَ الأيمانِ؛ كانَ حِلْفٌ في الجاهليَّةِ: يقولُ الرجلُ لآخَرَ: يَرِثُني وارثُكَ، وتَعقِلُ عنّي، وأعقِلُ عنكَ، وتَنصُرُني، وأنصُرُكَ، ويَتَحالَفانِ[4] على ذلكَ. وقد قُرِئَ بالألفِ[5] على عاقَدَتْ، فهو مِنَ المُحالَفَةِ. ثم رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ قالَ][6] «لا حِلْفَ في الإسلامِ، وما كانَ مِنْ حِلْفٍ في الجاهليَّةِ لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلّا شِدَّةً» [ابن حِبّان ٤٧٠].

وقيلَ: هو مِنْ ضَرْبِ اليَمينِ، وهو المُبايَعَةُ؛ كانَ الرجلُ يُعاقِدُ الرجلَ، ويبايِعُهُ في الجاهليَّةِ، فيموتُ، فَيَرِثُهُ. وقيلَ: إنَّ أبا بكرٍ ﷺ عاقَدَ رجلاً، فماتَ، فَوَرِثَهُ، ولذلكَ خَصَّ المَماليكَ بالذِّكرِ بهذا مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] لأنهُمْ يُشْتَرَوْنَ للخدمةِ، والمَرْءُ[7] إذا خَدَمَ نَفْسَهُ إنما يَخدِمُها بِيَمِينِهِ. فإذا كانَ تأويلُ الآيةِ ما ذَكَرُوا فهو مَنْسُوخٌ بقولِهِ ﷻ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال ٧٥ والأحزاب: ٦] وبما رَوَينا مِنَ الخَبَرِ مِنْ قولِهِ ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلامِ، وما كانَ مِنْ حِلْفٍ في الجاهليَّةِ لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلّا شِدَّةً».

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في مَنْ أسْلَمَ على يَدَي آخَرَ، وَوَالاهُ على ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «مَنْ أسْلَمَ مِنْ أهلِ الكُفرِ على يَدَي رجلٍ مِنَ المسلمِينَ فهو أولَى الناسِ به مَحياهُ ومَماتَهُ» [أحمد ٤/ ١٠٢].

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنَّ رجلاً سألَ عنْ رجلٍ أسْلَمَ على يَدَي رجلٍ، ويُواليهِ، قالَ: هو مَولاهُ، فإنْ أبَى فَلِبيتِ المالِ.

ورُوِيَ عنْ مسروقٍ [أنهُ][9] قالَ: أتيتُ عبدَ اللهِ، فقلْتُ: إنَّ رجلاً كانَ عامِلاً عَلَينا، فخرجَ إلى الجبلِ، فماتَ، وتَرَكَ ثلاثَمِئَةِ درهمٍ، فقالَ عبدُ اللهِ: هل تركَ وارثاً، أو لأحدٍ عليهِ وَلاءٌ؟ قلتُ: لا، فجعلَ مالَهُ لِبيتِ المالِ.

وكذلكَ يقولُ أصحابُنا، رَحِمهُمُ اللهُ: مَنْ ماتَ، وتَرَكَ وارثاً، فمالُهُ لِوارِثِهِ، وإنْ لَمْ يكنْ لهُ وارثٌ فَلِلَّذي أسلَمَ على يَديهِ، وَوَالاهُ، لِما رَوَينا من الخَبَرِ؛ «هو أولى الناسِ بهِ مَحياهُ ومَماتَهُ» [أحمد ٤/ ١٠٢] وقولُهُ «مَحياهُ» في الفِعْلِ، «ومَماتَهُ» في الميراثِ، وما رَوَينا مِنَ الصحابةِ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهم أجمعينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ[10] أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ قيلَ: هي الوصيَّةُ إلى تَمامِ الثُّلُثِ؛ لأنَّ الميراثَ قد نُسِخَ بالآيةِ التي في الأحزابِ[11] بقولِهِ ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وبقولِهِ[12] ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الآية: ٦] فهي الوصيَّةُ إلى تَمامِ الثُّلُثِ. فإذا كانَتِ الآيةُ في الذي أسلَمَ على يديهِ، وَوَالاهُ، وعاقَدَهُ، فهو ليسَ بِمَنسوخٍ. وقيلَ: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ مِنَ النَّصْرِ والمَعُونةِ والمَشُورةِ، ولا ميراثَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ بما ذَكَرَ مِنَ الشَّرْطِ والوَفاءِ بهِ، وباللهِ التوفيقُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: تلك. (٤) في الأصل وم: وتحالفان. (٥) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف، أنظر تفسير الطبري (٨/ ٢٧٣) وحجة القراءات (٢٠١). (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: والمراد. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل: عاقدت، انظر تفسير الطبري (٨/ ٢٧٣) وحجة القراءات (٢٠١). (١١) في الأصل وم: الأنفال، والآية المقصودة (٦). (١٢) في الأصل وم: ثم قال.

الآية ٣٤ وقولهُ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: الآيةُ نزلَتْ في الأزواجِ؛ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾. والأزواجُ هُمُ المأخوذونَ بنَفقةِ زوجاتِهِمْ. وفيهِ دليلُ وجوبِ نَفَقةِ المرأةِ على زَوجِهَا، وعلى ذلكَ إجماعُ أهلِ العِلْمِ.

وقالَ بعضُ أهلِ العِلْمِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ دليلٌ ألّا يَجوزَ النِّكاحُ إلّا بالوَليِّ حيثُ أخبَرَ أنَّهُمُ القوّامُونَ عليهنَّ دونَهُنَّ. قيلَ لَهُ: إنْ كانتِ الآيةُ في الأزواجِ وفي الأولياءِ على ما ذكَرْتَ ففيهِ دليلُ جَوازِ النِّكاحِ بِغيرِ وليٍّ لا بُطْلانِهِ؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أخبَرَ أنهُ فَضَّلَ ﴿بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وذلكَ التَّفضيلُ [تفضيلُ][1] خِلقةٍ، وهو أنْ جَعَلَ الرجالَ مِنْ أهلِ المكاسِبِ والتِّجاراتِ والقيامِ بأنواعِ الحِرَفِ والتَّقَلُّبِ في حاجاتِهِنَّ.

فالرجالُ هُمُ القوّامُونَ كذلكَ، بل جَعَلَهُنَّ ضعيفاتٍ[2] عاجزاتٍ عنِ القيامِ بالمكاسِبِ والحِرَفِ والتَّقلُّبِ في حاجاتِهِمْ، فالرجالُ هُمُ القوّامُونَ /٩٣ ـ أ/ عليهِنَّ ومُؤَلِّفو[3] أمورِهِنَّ وقاضو حَوائِجِهِنَّ، قائِمُونَ[4] على ذلكَ. فَفَرَضَ على الرجالِ القيامَ بمصالِحِهِنَّ كما ذكَرَ[5] معَ ما فَرَضَ ذلكَ على الرجالِ [ما][6] يَجوزُ إذا وُلِّينَ بأنفسِهِنَّ، وقُمْنَ بحوائجِهِنَّ مِنَ البِياعاتِ والأشربةِ وغَيرِ ذلكَ، فَعلَى ذلكَ النِّكاحُ. وإنْ كانَ الرِّجالُ هُمُ القُوّامَ عليهِنَّ فإنَّهُنَّ إذا وُلِّينَ ذلكَ بأنفُسِهِنَّ، وقُمْنَ، جازَ ذلكَ كما جازَ غَيرُهُ.

ولهذا ما أمَرَ الأولياءَ بالتَّزويجِ في قولِهِ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الآية [النور: ٣٢]، ونهاهُمْ عنِ العَضْلِ عنِ النِّكاحِ بقولِهِ ﷻ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ الآية [البقرة: ٢٣٢] لأنَّ ذلكَ حقٌّ عليهِمْ أنْ يَفعَلُوا حتى يَلِينَ ذلكَ بأنفُسِهِنَّ إذْ لا بُدَّ مِنْ حُضورِ مَشْهَدِ الرجالِ ومَجْلِسِهِمْ لِيَشْهَدُوا على ذلكَ.

فذلكَ [على][7] الأولياءِ القيامُ بهِ، ولهذا جَعَلَ نَفَقتَهُنَّ إذا لم يَكُنْ لَهُنَّ مالٌ على مَحارِمِهِنَّ لأنهنَّ لا يَقُمْنَ بالمكاسِبِ وأنواعِ الحِرَفِ والتِّجاراتِ، والرجالُ يَقومُونَ، فَجَعَلَ مُؤْنَتَهُنَّ عليهِمْ لِضَعْفِهِنَّ وعَجْزِهِنَّ عنِ القيامِ بالمكاسِبِ خِلقَةً.

ولهذا ما لم يَجْعَلْ للذكورِ مِنَ المَحارِمِ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ النَّفَقَةَ لِما يَقُومُونَ بالمكاسِبِ. فإذا صارَ زَمِناً، وعَجِزَ عنِ المكاسِبِ، جَعَلَ نَفَقتَهُ على مَحارِمِهِ لأنهُ صارَ في الخِلْقَةِ كالمرأةِ، واللهُ أعلَمُ. وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه، في قولِهِ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [أنهُ][8] قالَ: (أمراً عليهِنَّ أنْ يُطِعْنَهُمْ[9] في ما أمَرَ اللهُ بهِ مِنْ طاعَتِهِ. وطاعَتُهُ أنْ تكونَ [المرأةُ][10] مُحْسِنةً إلى أهْلِها حافظةً [لِمالِ زَوجِها][11] وفَضلِهِ عليها بِنَفَقَتِهِ عليها وسَعَتِهِ).

وقيلَ: نَزَلَتِ الآيةُ في رجلٍ لَطَمَ امْرأتَهُ لَطْمَةً في وَجهِها[12]، فَنَشَزَتْ عنْ فِراشِ زَوجِها، واسْتَعْدَتْ إلى رسولِ اللهِ [ﷺ فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ][13] لَطَمَني زَوجي فلانٌ لَطْمَةً، وهذا أثَرُ يَدِهِ في وَجْهي، فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ: «اقْتَصّي منهُ، وكانَ القِصاصُ بينَهُمْ يومَئذٍ بينَ الرجالِ والنِّساءِ في اللَّطْمَةِ والشَّجَّةِ والضَّرْبَةِ، ثم أبصَرَ النَّبيُّ ﷺ جِبريلَ عليه السلام يَنزِلُ، فقالَ لها: كُفّي حتى أنْظُرَ ما جاءَ بهِ جبريلُ في أمْرِكِ» فأتاهُ بهذهِ الآيةِ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾» [ابن جرير: تفسيره: ٥/ ٥٨] أي المُسَلَّطُونَ على آدابِ النِّساءِ في الحَقِّ. وقيلَ: تَفضيلُهُمْ عليهِنَّ بالعَقْلِ والمِيراثِ والفَيْءِ، واللهُ أعلَمُ. ثم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أرَدْنا أمْراً، وأرادَ اللهُ أمْراً، والذي أرادَ اللهُ خَيرٌ ممّا أرَدْنا» [السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٥١٣].

وقيلَ: في قولِهِ: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بما ساقُوا مِنَ المَهْرِ والنَّفَقَةِ. اسْتَدَلَّ الشافِعيُّ، رَحِمَهُ اللهُ، بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية على أنَّ النِّكاحَ لا يجوزُ إلّا بالوَليِّ، فَصَرَفَ في تأويلِ الآيةِ إليهِمْ، وفيها ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ فَيَلْزَمُ النَّفَقَةَ، وهو لا يَقولُ بهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ضعفاء. (٣) في الأصل وم: وأليفو. (٤) في الأصل وم: قائمين. (٥) في الأصل وم: ذكروا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تطيعه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لماله. (١٢) من م، في الأصل: زوجها. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

وبَعْدُ فإنَّ الآيةَ لو كانَتْ في الأولياءِ فهو في كلِّ أمْرٍ، لَهُنَّ إليهِمْ حاجةٌ، فَخَرَجَ ذلكَ مَخْرَجَ الحَقِّ لَهُنَّ في أنْ يَتَوَلَّوهُنَّ العقودَ كُلَّها، ويَقومُوا في كِفايَتِهِنَّ وكفالَتِهِنَّ، لا أنَّهُنَّ لو قُمْنَ بأنفُسِهِنَّ يُبْطِلْنَ فِعْلَهُمْ[1]. فمثلُهُ أمرُ النِّكاحِ.

وأهلُ التَّأويلِ يَحمِلُونَ الآيةَ على الأزواجِ. وَمَنْ تَدَبَّرَ الآيةَ عَلِمَ أنَّها في ما قالَ أهلُ التَّأويلِ دونَ الذي ذهبَ إليهِ الشافِعِيُّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ عن ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: (﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ يعني مُطيعاتٍ، والقانِتُ هو المُطيعُ). ويَحتَمِلُ: مُطيعاتٍ للهِ تعالى، ويَحتَمِلُ مُطيعاتٍ لِلأزواجِ. ويَحتَمِلُ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي قائماتٌ بأداءِ ما فَرَضَ اللهُ عليهِنَّ مِنْ حُقوقِهِ وحقوقِ أزواجِهِنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ قيلَ: ﴿حَٰفِظَٰتٌ﴾ لِما اسْتَوْدَعَهُنَّ اللهُ مِنْ حَقِّهِ، و﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لغيبِ أزواجِهِنَّ. وقيلَ: ﴿حَٰفِظَٰتٌ﴾ لأنفُسِهِنَّ لِغَيْبَةِ أزواجِهِنَّ في فُرُوجِهِنَّ. ويَحْتَمِلُ ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي لِلهِ في أمُورِهِ ونواهِيهِ، والقائِماتُ[3] بِحُقوقِهِ. وقانتاتٌ وحافظاتٌ، هو تفسيرُ صالحاتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ اخْتُلِفَ في تلاوَتِهِ. وتأويلِهِ: في حَرْفِ بَعْضِهِمْ بالنَّصْبِ ﴿بِمَا حَفِظَ﴾ اللهَ وتأويلُهُ بِحِفْظِ اللهِ، لكنهُ نُصِبَ لِسُقوطِ حَرْفِ الخافِضِ[4]. وَمَنْ رَفَعَهُ جَعَلَ تَأويلَهُ بما اسْتَحْفَظَهُنَّ اللهُ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ الأدبِ: سَمَّى العِلْمَ خَوفاً لأنهُ اضطُرَّ في العِلْمِ، وقالَ آخرُ، وهو الفرَّاءُ: الخائفُ الظَّانُّ لأنهُ يَرْجُو، ويَخافُ.

وأمَّا الأصلُ في أنهُ سَمَّى العِلْمَ خوفاً لِغَلَبَتِهِ شِدَّةَ الخوفِ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ[5] العِلْمِ بالشَّيءِ على غَيرِ حقيقتِهِنَّ لأنهُ يُعرفُ بالاجتِهادِ وبأكْبَرِ الرَّأيِ والظَّنِّ. وهكذا كلُّ ما كانَ سبيلُ مَعْرِفَتِهِ الاجتِهادَ، فإنَّ غالِبَ الظَّنِّ وأكْبَرَ الرَّأيِ يَعْمَلُ عَمَلَ اليَقِينِ[6] في الحُكْمِ، وإنْ لم يكُنْ هنالِكَ حَقيقةٌ.

ألا تَرى قولَهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] ألْزَمَنا العملَ بظاهِرِ عِلْمِنا، وإنْ لم نَصِلْ إلى حَقيقَةِ إيمانِهِنَّ؟ فَعَلَى ذلكَ إذا عُلِمَ منها النُّشوزُ عِلْمَ أكْبَرِ الظَّنِّ. وأغلَبُهُ يعملُ عَمَلَ الذي ذَكَرَ في الآيةِ العِظَةَ وغيرَها؛ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ ليسَ على وجودِ النُّشوزِ منها للحالِ حَقيقةً، ولكنْ على غالِبِ الظَّنِّ وأكْبَرِ الرَّأيِ؛ لأنها إذا كانَتْ ناشزَةً كيفَ يَعِظُها؟ وكيفَ يَهْجُرُها، ويَضْرِبُها؟ فدلَّ أنهُ على غالِبِ العِلْمِ.

أوَ لا تَرَى أنهُ مَنْ أُكْرِهَ على أنْ يَنْطِقَ بكلمةِ الكُفْرِ، فَقُبِلَ، أو ضُرِبَ، فَخافَ منهُ التَّلَفَ، كانَ في حِلٍّ وسَعَةٍ أنْ يَنْطِقَ بهِ بعدَ أنْ يكونَ قلبُهُ مُطمَئِناً بالإيمانِ؟ وذلكَ إنما يَعْلَمُ عِلْمَ غالِبِ الظَّنِّ وأكْبَرِ الرَّأيِ لا يَعْلَمُ عِلْمَ حَقيقةٍ، ثم أُبيحَ لهُ أنْ يَعْمَلَ عَمَلَ حَقيقَةِ العِلْمِ. فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

نَهَى اللهُ ﷻ المرأةَ عن خيانةِ زَوجِها، وأمَرَها بطاعتِهِ في نفسِها كما أمَرَهُ أنْ يُحْسِنَ عِشْرَتَها. وهذا هو، واللهُ أعلَمُ، هو الحَقُّ الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في سورةِ البقرةِ مُجْمَلاً بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٢٨]. وفَسَّرَ الحَقَّ عليهِنَّ في هذهِ السورةِ؛ وهو[7] أنْ تُطِيعَهُ في نَفْسِها، وتَحفَظَ غَيبَتَهُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؟ ورُوِيَ عن رَسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «حَقُّ الزَّوجِ على امْرَأتِهِ، إنْ دَعاها، وهي على قَتَبٍ، أنْ تُطِيعَهُ» [ابن ماجه ١٨٥٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، [أنهُ قالَ][8]: (عِظوهُنَّ بِكتابِ اللهِ ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ أي رَجَعْنَ إلى الفراشِ والطاعةِ، وإلَّا ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾ والهَجْرُ ألَّا يُجامِعَها، أو لا يُضاجِعَها على فراشِهِ، ويُولِّيها الظَّهرَ. فإنْ أقبَلَتْ، وإلَّا فقد أذِنَ اللهُ لكَ أنْ تَضرِبَها ضَرْباً غيرَ مُبَرِّحٍ، ولا تَكْسِرَ لَها عَظْماً، فإنْ أقبَلَتْ، وإلَّا فقد حلَّ لكَ منها الفِداءُ).

---

(١) في الأصل وم: فعلن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: القائم. (٤) انظر المحتسب (١/١٨٨) والمختصر في شواذ القرآن (٢٦). (٥) من م، في الأصل: علم. (٦) من م، في الأصل: اللتين. (٧) في الأصل وم: وهذا (٨) في الأصل وم: فقال.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي يقولُ لها: كُوني مِنَ الصالِحاتِ ومِنَ القانتاتِ ومِنَ الحافظاتِ، ولا مِنْ كذا، على الرِّفْقِ واللِّينِ. فإن تَرَكَتْ[1] ذلكَ، وإلّا فاهْجُرْها. والهَجْرُ يَحْتَمِلُ وجهَين:

[أحدُهما][2]: التَّخويفُ على الاعْتِزالِ منها وتَرْكِ المُضاجَعَةِ والجماعِ.

والثاني[3]: أنْ يَهجُرَها، ولا يُجامِعَها لا على التَّخويفِ مِنْ تَرْكِ ذلكَ. فإنْ هي تركَتْ[4] ذلكَ، وإلّا ضَرَبَها عند ذلكَ الضَّرْبَ الذي ذَكَرْنا غيرَ مُبَرِّحٍ ولا شائِنٍ، واللهُ أعلمُ، على الترتيبِ: يَعِظُها أوّلاً بما ذَكَرْنا مِنَ الرِّفْقِ بها واللِّينِ، لعَلَّها أطاعَتْهُ، وتركَتْ ذلكَ. ثم إذا لم تُطِعْهُ خَوَّفَها بالهِجْرانِ، فَلَعَلَّ قَلْبَها لا يَحْتَمِلُ الهِجْرانَ وتَرْكَ المُضاجَعَةِ، فَتُطِيعُهُ. فإنْ أبَتْ ذلكَ حِينَئِذٍ هَجَرَها، ولم يُجامِعْهَا، ولا يُضاجِعُها. فإنْ أطاعَتْهُ، وإلّا عند ذلكَ ضَرَبَها. فإنْ هي أطاعَتْهُ، وإلّا فَعِنْدَ ذلكَ يَرْفَعانِ [أمرَهُما][5] إلى الحاكِمِ. وهذا يَجِبُ الأمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ على الرِّفْقِ واللِّينِ أوّلاً، ولا [يُغْلِظُ لَهُ][6] في القَولِ. فإنْ هو قَبِلَ ذلك، وإلّا عندَ ذلكَ [أغْلَظَ لهُ في القَولِ][7] فإنْ قَبِلَ ذلكَ، وإلّا بَسَطَ يَدَهُ فيهِ على ما أمَرَ اللهُ ﷻ الأزواجَ أنْ يعامِلُوا[8] النِّساءَ مِنَ العِظَةِ ثم الهِجْرانِ ثم الرَّفْعِ إلى الحاكِمِينَ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رَسولِ اللهِ/ ٩٣ ـ ب/ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: «لا تَضرِبُوا إماءَ اللهِ، فَتَرَكَ الناسُ ضَرْبَهُنَّ، فجاءَ عُمَرُ ﷺ وقالَ[10]: (واللهِ لَقَدْ ذَئِرَ[11] النِّساءُ يا رَسولَ اللهِ) فأمَرَ بِضَرْبِهِنَّ، قالَ: (فطافَ[12] بآلِ محمدٍ نِساءٌ كَثِيرٌ؛ يَشتَكِينَ أزواجَهُنَّ، فلمّا أصْبَحَ رسولُ اللهِ ﷺ قالَ: «لقد طافَ[13] اللَّيلَةَ بآلِ محمدٍ سَبْعُونَ امْرَأةً يَشْتَكِينَ الضَّرْبَ، واللهِ لا تجدونَ أولئكَ خِيارَكُمْ») [أبو داوود ٢١٤٦] وقالَ: «خَيْرُكُم خَيْرُكُم لِأهلِهِ، وأنا خَيْرُكُمْ لأهلي» [الترمذي ٣٨٩٥] وقالَ: «[أكمَلُ][14] المؤمنينَ إيماناً أحسَنُهُمْ خُلُقاً وألْطَفُهُمْ بأهلِهِ» [أبو داوود ٤٦٨٢].

والمَوعِظةُ كلامٌ يُلِينُ القُلُوبَ القاسِيَةَ، ويُرَغِّبُ الطبائِعَ النافِرَةَ. فيكونُ ذلكَ تذكيرَ عَواقِبِ الأمورِ ومَبادِرَ الأحوالِ، واللهُ أعلَمُ. وعلى ذلكَ يَعِظُها زوجُها بأنْ يُذَكِّرَها نِعَمَ الرَّبِّ، جلَّ جَلالُهُ، وما جَعَلَ مِنَ الحقِّ، وما وَعَدَ في ذلكَ، وأوعَدَ.

ففي هذهِ الآياتِ دَلالَةٌ لُزومِ الاجْتِهادِ تكليفَ ما لا يَصِلُ إلى مَعْرِفَةِ المُكلَّفِ بهِ إلّا بالتَّدَبُّرِ والعَرْضِ على الأمورِ المعتادَةِ أو الأسبابِ المعقولةِ في جَعْلِها أسباباً لِلْمَصْلَحَةِ وسُبُلاً لِلْوُقُوفِ على ما في الأصولِ تلكَ النَّوازِلُ مِنَ الحِكْمَةِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ثم جَعَلَ تأديبَهُنَّ إلى الأزواجِ لا إلى الأئمةِ؛ إذِ العُقوبَةُ[15] تكونُ بالضَّرْبِ والحَبْسِ وما يَلْحَقُها مِنَ المَكْروهِ في ما لَهُ أمْرٌ بالتَّأديبِ مَعَ ما في ذلكَ مِنَ السِّرِّ، ويكونُ الغالبُ منهُ ما لا يَجِدُ لِسَبيلِ الإظهارِ عندَ الحاكِمِ، ويكونُ في أوقاتٍ تَضيقُ عنِ احْتِمالِ ذلكَ، ويكونُ ذلكَ أصلاً لِتأديبِ كُلِّ كافِلٍ [مَنْ أجْرَمَ مِنَ][16] الأيتامِ والصغارِ وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والأصلُ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] فَيَجعَلُ التَّأديبَ مِنَ الوَجْهِ الذي فيهِ حِفْظُ المَجْعولِ لنا آيَةً ورِعايةً[17] ما جَعَلَ بَيْنَهُمْ مِنَ المَوَدَّةِ والرَّحْمَةِ والمُنازَعاتِ الخُصوماتِ إلى [الحاكِمِ يَقْطَعُ تلكَ][18]. فجعَلَ[19] لهمْ مِنْ ذلكَ قدْرَ ما لا يَقْطَعُ مِثْلَهُ مِنَ التَّأديبِ المعنى المَجْعُولَ بَيْنَهُمْ. ولذلكَ لم يأذَنْ بالضَّرْبِ المُبَرِّحِ، ولا أذِنَ إلّا عندَ انْقِطاعِ الحِيَلِ التي تَجْعَلُ الأُلْفَةَ والمَحَبَّةَ. على أنَّ في خَفيفِ ذلكَ إظهارَ الإشفاقِ على ما اعْتَرَضَ مِنْ خَوفِ انْقِطاعِ المَوَدَّةِ والرَّحْمَةِ وإبداءِ العتابِ الذي هو آيةُ النُّصْحِ والرَّحْمَةِ إذْ ذلكَ بما يُخافُ في تَرْكِ ذلكَ تَمامُ ما قد افْتُتِحَ مِنَ السِّرِّ والشَّفَقَةِ، واللهُ أعلَمُ [وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بما ساقُوا مِنَ المَهْرِ والنَّفَقَةِ][20].

---

(١) في الأصل وم: ترك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: ترك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يغلظه. (٧) في الأصل وم: غلظ القول به. (٨) في الأصل: تعامل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: دبر. (١٢) في الأصل وم: أطاف. (١٣) في الأصل وم: أطاف. (١٤) في م: أحسن، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: عقوبة. (١٦) في الأصل وم: أجر من. (١٧) من م، في الأصل: ودعاية. (١٨) في الأصل: الحكام يقطع، في م: الحكام يقطع تلك. (١٩) في الأصل وم: جعلت. (٢٠) من م، ساقطة من الأصل.

وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يَهجُرَها في حالِ مُضاجعَتِهِ[١] إياها، في ألّا يُكلّمَها، [لا في أنْ][٢] يَترُكَ مُضاجعَتَها، إذِ المُضاجَعَةُ حقٌّ بَيْنَهُما، عليهِ في تَرْكِها ما علَيها؛ لا يُؤدِّبُها بما[٣] يَضُرُّ حقَّهُ ونَفسَهُ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: أن يَهجُرَها في المَضجَعِ][٤]، ومضاجَعَةُ أُخرَى في حَقِّها، فيكونُ حقّاً عليهِ في حالِ المُواقَعَةِ وحِفظِ حُدودِ اللهِ بينَهما إلّا في حالِ التَّضييعِ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﵁، أنه قالَ: (يَهجُرُها في ألّا يُجامِعَها، ولا يُضاجعَها على فِراشِهِ، ويُوَلّيها ظهرَهُ) لكنّهُ على هذا يشتركانِ في التأديبِ لأنهُ بهِ يُؤدِّبُ نفسَهُ في ذلكَ إلى حاجتِهِ. لكنّ المعنَى مِنْ ذلكَ ألّا يُجامِعَها لِوَقتِ عِلمِهِ بِشَهوتِها وحاجتِها، وإنما يَنظُرُ شَهوَتَهُ دونَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ إنْ أطَعنَكُم؛ أي لا تَطلُبُوا عليهِنَّ عِلَلاً، وقيلَ: لا تُكلّفُوهُنَّ الحُبَّ، وإنما جَعَلَ اللهُ المُواعَظَةَ[٥] والهِجرانَ والضَّرَرَ في المَضاجِعِ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﵁ أنهُ قالَ: (فإنْ أطاعَتْهُ فلا سَبيلَ لهُ عَلَيها).

ثم الضربُ هو ما ذكَرْنا أنهُ يَضرِبُها ضرباً غيرَ مُبرِّحٍ، وهو ما رُوِيَ عنِ النّبيِّ ﷺ، [أنهُ][٦] قالَ: «عَلِّقْ سَوطَكَ، أو ضَعْ حيثُ تراهُ أهلُكَ، ولا تَضرِبْها بهِ، قيلَ: وبِمَ نَضرِبُ؟ قالَ: بِنَعْلَيكَ ضرباً غيرَ مُبرِّحٍ» [الطبراني في الكبير ١٠٦٧٢] يعني غَيرَ مؤثّرٍ ولا شائِنٍ. ورُوِيَ في خَبَرٍ آخَرَ [أنهُ][٧] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اتّقُوا اللهَ في النساءِ فإنكُم أخَذْتُمُوهُنَّ، بأمانةِ اللهِ، واستَحلَلْتُم فروجَهُنَّ بكلمةِ اللهِ، وإنَّ لَكُم عليهِنَّ أنْ لا يُوطِئنَ فُرُشَكُم أحداً تكرهُونَ، فإنْ فَعَلنَ فاضرِبوهُنَّ ضَرباً غيرَ مُبرِّحٍ، ولَهُنَّ عليكم رِزقُهُنَّ وكِسوَتُهُنَّ بالمعروفِ» [مسلم ١٢١٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، تَذكيرٌ مِنَ اللهِ عبادَهُ وأمرٌ منهُ إيّاهُم أنهُ مع عُلُوِّهِ وسُلطانِهِ وعَظَمَتِهِ وجَلالِهِ وقُدرَتِهِ لا يُؤاخِذُنا بأوّلِ عِصيانٍ نَعصيهِ ولا بأوّلِ عَثرَةٍ نَعثِرُها مع قُدرَتِهِ على الأخذِ على ذلكَ وإهلاكِهِ إيّاهُم، لا تُواخِذُوهُنَّ أيضاً بأوّلِ مَعصيَةٍ يَعصِينَ فيكُم، واللهُ أعلمُ. ويَحتَمِلُ ذِكرُ هذهِ الآيةِ، وهو كذلكَ، لِيُذَكّرَ عُلُوَّهُ وكِبْرَهُ، فَيُخفّفَ حَدَّهُ في ما جَعَلَ لهُ مِنَ التأديبِ، ويُذَكّرَ قُدرَتَهُ عليهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ الآيةَ. كانَتْ[٨] هذهِ المُخاطَبَةُ، واللهُ أعلَمُ، لِغَيرِ[٩] الأزواجِ، لأنهُ قالَ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ ولو كانَتِ المُخاطَبَةُ في ذلكَ لِلأزواجِ[١٠] لَقالَ[١١]: فإنْ خافا شِقاقَ بَينِهِما [أو إنْ][١٢] خِفتُم شِقاقَ بينِكُم. وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ الآيةَ [النساء: ٣٤] خاطَبَ بذلكَ الأزواجَ لأنهُ قالَ: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ وذلكَ إلى الزَّوجِ، أي لِلزَّوجِ إذا خافَ نُشوزَ امرأتِهِ أنْ يَعِظَها أوّلاً، فإنْ قَبِلَتْ، وإلّا فَبَعدَ ذلكَ يَهجُرُها[١٣]، ثم يَضرِبُها إن لم تَقبَلْ ذلكَ. فإنْ لم يَنفَعْ ذلكَ كُلُّهُ فَبَعدَ ذلكَ يرفَعُ[١٤] الأمرَ إلى الحاكمِ [أو الإمامِ، الذي يُوَجِّهُ][١٥] الحكَمَينِ. ورُوِيَ نحوُ ذلكَ عَن عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﵁ [أنهُ قالَ: يَبْعَثُ الحَكَمَينِ][١٦] حَكَماً مِن أهلِهِ وحَكَماً مِن أهلِها [فيقولُ حكمُ أهلِها][١٧] يا فلانُ ما تَنقِمُ مِن زوجِكَ؟ [فَيُجيبُ][١٨] أنقِمُ منها كذا وكذا، يقولُ: أرأيتَ أنْ[١٩] تَرغَبَ عمّا تَكرَهُ إلى ما تُحِبُّ؟ هل أنتَ تَتّقِي اللهَ، وتُعاشِرُها بالحَقِّ عليكَ مِن نَفقَتِها وكِسوَتِها؟ فإذا قالَ: نَعَمْ قالَ الحكَمُ مِن أهلِهِ: يا فلانةُ ما تَنقِمِينَ مِن زوجِكِ؟ فتقولُ مِثلَ ذلكَ. فإنْ قالَتْ: نعمْ جَمَعَ اللهُ بينَهُما بالحَكَمَينِ بما[٢٠] يَجمَعُ اللهُ، [وبما يُفرّقُهما][٢١].

ثم اختُلِفَ في الحَكَمَينِ؛ هل يُفرّقانِ بَينَهما؟ قالَ بعضُهُم: يُفرّقانِ بَينَهما؛ إنْ شاءَ اللهُ، وإنْ شاءَ جَمَعاهُما. ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵁ [أنهُ][٢٢] قالَ: (بُعِثْتُ أنا ومُعاوِيةُ حَكَمَينِ، فقيلَ لنا: إنْ رَأَيتُما أنْ تَجمَعَا جَمَعْتُما وإنْ رَأيتُما أنْ تُفرّقا فَرّقتُما).

---

(١) في الأصل وم: مضاجعه. (٢) في الأصل وم: لا أن في أن. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: ويحتمل اهجروهن عن المضاجع. (٥) في م: الموعظة. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) من م، في الأصل: بغير. (١٠) في الأصل و م: الأزواج. (١١) من م، في الأصل: تقال. (١٢) من م، في الأصل: فإن. (١٣) في الأصل وم: هجرها. (١٤) في الأصل وم: رفع. (١٥) في الأصل وم: الإمام يوجه. (١٦) في الأصل: يبعث الحكمان، في م: قال: يبعث الحكمان. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من م. (٢٠) في الأصل وم: بهما. (٢١) في الأصل وم: وبهما يفرقان. (٢٢) ساقطة من الأصل وم.

وأمّا عندنا فإنهما لا يُفرِّقانِ إلّا بِرِضا الزَّوجَين: ما رُوِيَ أنَّ رجلاً وامرأتَهُ أتَيا [عليّاً][1] رضي الله عنه مع كُلِّ واحدٍ منهما فِئامٌ مِنَ الناسِ، فقالَ عليٌّ، رضي الله عنه: ما شأنُ هذَين؟ قالوا بَينَهما شِقاقٌ، قالَ عليٌّ رضي الله عنه: ابعثوا ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [ثم قال][2]: هل تدريانِ ما عليكما إنْ رأيتُما أنْ تُفرِّقا فرِّقْتُما. قالَتِ المرأةُ: رَضِيتُ بكتابِ اللهِ، قالَ الرجلُ: أما الفُرْقَةُ فلَا، فقالَ عليٌّ، رضي الله عنه: كَذَبْتَ واللهِ لا تَنفلِتُ مِنّي حتى تُقِرَّ كما أقرَّتْ. أخبَرَ عليٌّ أنَّ فُرْقَةَ الحَكَمينِ إنما تَجِبُ برضا الزَّوجَين. فلو كانَتْ فُرْقَتُهُما تَجوزُ بِغَيرِ رِضا الزَّوجَينِ لم يُنظَرْ إلى سُخْطِ الزَّوجِ في الفُرْقَةِ، ولَقالَ عليٌّ رضي الله عنه لِلحَكَمَينِ: فَرِّقا إنْ رأيتُما ذلكَ: كَرِهَ الزَّوجُ، أو رَضِيَ.

وفي قولِهِ أيضاً: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أي عَلِمْتُمْ؛ إذْ حَقُّ ذلكَ أنْ يُجتَهَدَ في الحالِ بَينَهما، فيُعلَمَ على الغالِبِ وللغالِبِ حَقُّ العِلْمِ في الأعمالِ وحَقُّ الرَّيبِ في الشَّهادةِ، فذَكَرَ باسْمِ الخَوفِ على ما فيهِ مِنْ عِلْمِ العَمَلِ، على أنَّ في ظاهِرِ الآيةِ التَّفرُّقَ في المَنزِلِ حتى يُبعَثَ عنْ كلِّ واحدٍ [منهُما، ولو كانا في مَنزِلٍ واحدٍ][3] فَحَقُّهُ أنْ يَجمَعَ بَينَ الحَكَمَينِ لا أنْ [يُبعَثَ ما][4] يَدُلُّ على ظهورِ الخِلافِ والشِّقاقِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: وأمرُ / ٩٤ ـ أ/ الحَكَمَينِ بالإصلاحِ بَينَ الزَّوجَيْنِ، وهو الأمرُ الذي أمرَ بَينَ جَميعِ المؤمنينَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] وقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وقولِهِ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وذلكَ في حَقِّ التَّأليفِ وما بِهِ تَمامُ الأُخوَّةِ بقولِهِ: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] لا بما يَضُرُّ بِهِ أهلَهُ، ويُوجِبُ التَّفريقَ بينَهُمْ والتَّباغُضَ. وعلى ذلكَ أمرُ الحَكَمَينِ في النكاحِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ هما الحَكَمانِ. وعنْ مجاهدٍ مِثلُهُ. وقالَ آخَرونَ: قولُهُ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ هما الزَّوجانِ.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنهُ ليسَ لِلحَكَمَينِ أنْ يُفرِّقا لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ وليسَ فيها دليلٌ أنَّ فُرْقَتَهُما جائزةٌ بِشَيءٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] يدلُّ على أنَّ الخَلْعَ إليهما دُونَ الحَكَمَينِ. وكانَّ الحَكَمينِ يُوَجَّهانِ لِيُعرَفَ مَنِ الظالِمُ مِنَ الزَّوجَينِ؟ يُستَظهَرُ بهما على الظالِمِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما ذو[5] شِكايةٍ بَينَ الناسِ مِنْ صاحِبِهِ، لا يُعرَفُ الظالِمُ منهُما مِنْ غَيرِ الظالِمِ. فإنْ كانَ الزوجُ هو الظالمَ أُخِذَ على يَدِهِ، وقيلَ [لَهُ][6]: لا يَحِلُّ لكَ أنْ تفعلَ هذا لِتَختلِعَ منكَ، وأُمِرَ أنْ يُنفِقَ عليها. وإنْ كانتْ هي الظالمةَ وكانتْ في غيرِ منزلِهِ ناشزةً لم يُؤمَرْ بالإنفاقِ عليها، وقيلَ لهُ: قد حَلَّتِ[7] الفِدْيَةُ، وكانَ في أخذِها مَعْذوراً بما ظَهَرَ لِلحَكَمَينِ مِنْ نُشوزِ المرأةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وفي قولِهِ أيضاً ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ لا يَخلُو مِنْ أمرَينِ: إمّا أنْ يُريدَ بهِ الزَّوجَينِ وإمّا[8] الحَكَمَينِ. ثم الإصلاحُ يكونُ مَرَّةً بالجَمْعِ ومَرَّةً بالتَّفريقِ. فَعَلَى الجَمْعِ تأويلُ التوفيقِ الجَمْعُ بَينَهما، وعلى إرادةِ التفريقِ تأويلُهُ التوفيقُ لِلإصلاحِ، وعلى التوفيقِ لِلإصلاحِ يدخُلُ فيه الأمرانِ. وفي ذلكَ أنَّ الفُرْقَةَ والاجتِماعَ إليهما؛ إذْ عليهما إرادةُ الإصلاحِ. وانصَرَفَ معنى الآيةِ إلى الزَّوجَينِ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ﴾ الآية [النساء: ١٢٨ و١٢٩]. ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ الآية [النساء: ١٣٠].

فَعَلَى ما ظَهَرَ منهُ النشوزُ صرَفَ أمرَ التَّفرُّقِ إلى الزَّوجَينِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فأشرَكَهُما في الابتِداءِ الذي بهِ الفِراقُ، ويُريدُ بهِ الحَكَمَيْنِ، فيكونُ ذلكَ على الترغيبِ في طَلَبِ الأصلَحِ بَينَهما وعلى إيثارِ العَدْلِ والصَّوابِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٧] وقولِهِ تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية [النساء: ١٣٥].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فقال علي: رضي الله عنه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يبعثا. (٥) في الأصل وم: ذا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: خلت. (٨) في الأصل وم: أو.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ له وَجْهانِ:

[أحدُهما: التوفيقُ][(٢)] بينَ الزّوجَينِ بِبَرَكَةِ قيامِ الحَكَمَينِ للهِ وابْتغائِهِما الصّلاحَ بَينَهما، فَيُوفِّقُ الزَّوجَينِ لِما لهُ النّكاحُ مِنَ السَّكَنِ والرَّحْمَةِ والمَوَدَّةِ والعِفَّةِ.

والثاني[(٣)]: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ بينَ الحَكَمَينِ في إصابةِ ما أرادَا مِنَ الإصلاحِ.

ثم العِلْمُ بإرادتِهِما الأَصْلَحَ لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ. فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُوجِبَ لهما في الحُكْمِ التَّفريقَ. والذي جَوابُهُ وَعْدُ التوفيقِ لم يُبَيَّنْ، فلذلكَ لم يكنْ لهما حَقُّ التَّفريقِ، إنما إليهما إعلامُ ما اتَّفَقا عليهِ، ثم هُما عَمِلا لهما، فيكونُ لهما الرِّضا بما رَأَيا وغَيرُ الرِّضا.

واصلُهُ وَجْهانِ:

أحدُهما: أنهما اسْتوجَبَا القِيامَ بالتَّوليَةِ والرِّضا مِنَ الزَّوجَينِ وبِمَنْ يَخافُ الشِّقاقَ بَيْنَهُما؛ فإنْ قاما بِبَعْثِ الناسِ، فَقاما بِبَعْثِ مَنْ لا يَمْلِكُ الفِراقَ، يَسْتوجِبانِ بِهِمْ ذلكَ. أو إنْ قاما بِبَعْثِ الزَّوجَينِ فَرَضِيا، وهُما بُعِثا في ذلكَ لم يكُنْ لهما غَيرُ الذي كانَ فيهِ الرِّضا عليهِما، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهما بُعِثا لِلْعِلْمِ بالسَّبَبِ الذي حَمَلَها على الشِّقاقِ، ولَعَلَّ السَّبَبَ منهما، فلا يَحْتَمِلُ أن يُلْزِماهُ[(٤)] الطَّلاقَ بلا ذَنْبٍ منهُ، فتُمَكَّنَ كلُّ امرأةٍ تريدُ مُفارَقَةَ الزَّوجِ وإغرامَهُ المَهْرَ. وإذا لم يَحْتَمِلْ أنْ يكونَ لَهُما حَقُّ التَّفريقِ بهذا البَعْثِ مَعَ ما بُعِثا لِدَفْعِ الشِّقاقِ الهائجِ بَيْنَهما والرَّدِّ إلى الصَّلاحِ الذي لهُ كانَ النِّكاحُ، على أنهُ يُمْكِنُ الأخذُ على يَدَي الظالِمِ مِنْهُما والقَهْرُ على العَوْدِ إلى ما فيهِ الصَّلاحُ بالتَّأديبِ، لم يَجُزْ أنْ يُلْزِما الفِراقَ، وإنْ كَرِهاهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأَصْلُ أنهما بالغانِ لا يُلْزِمانِ النِّكاحَ إذا كَرِها، ورَأى[(٥)] القومُ الصَّلاحَ إلى التَّناكُحِ على احْتِمالِ وجودِ الولاياتِ. في النِّكاحِ؛ كانا أنْ يُلْزِما[(٦)] الطلاقَ إذا كَرِها على امْتِناعِهِ عنْ وجوبِ الولاياتِ بهِ لِغَيرِ الزَّوجَينِ أخرى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ مَنِ الظالِمُ مِنهُما؟ ومَنِ المَظلومُ؟ وقيلَ: ﴿عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ بنصيحَتِهِما لهما ﴿عَلِيمًا﴾ بما أشارَتِ[(٧)] المرأةُ إلى حَكَمِها والزَّوجُ إلى حَكَمِهِ ﴿خَبِيرٗا﴾ بما اطَّلَعَ كُلُّ واحدٍ مِنَ الحَكَمَينِ مِنْ صاحِبِهِ على ما أفتى بهِ إليهِ، أصَدَّقَهُ؟ أم لم يُصَدِّقْهُ، واللهُ أعلَمُ. وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: فَأْتوا حِكْمَةً مِنْ أهلِهِ وحِكْمَةً مِنْ أهلِها.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ قيلَ: وَحِّدوا اللهَ، وقيلَ: أطيعوا اللهَ.. وقد ذكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ يَحْتَمِلُ النَّهْيَ عَنِ الإشراكِ في العِبادَةِ والطاعةِ، ويَحْتَمِلُ النَّهْيَ عنِ الإشراكِ في الرُّبُوبِيَّةِ والأُلوهِيَّةِ. ويَحْتَمِلُ النَّهْيَ عَنِ الإشراكِ في سُلْطانِهِ وغيرَ ذلكَ، [وكلُّ ذلكَ][(٨)] إشراكٌ باللهِ، وباللهِ العِصْمَةُ.

قالَ بَعْضُ أهْلِ اللُّغَةِ: العِبادةُ هي الطاعةُ التي معها الخُضوعُ. وقالَ بَعضُهُمْ: التوحيدُ. وأصلُها: أنْ يَجْعَلَ العبدُ نفسَهُ للهِ عبداً، لا يُشْرِكُ فيها غَيْرَهُ مِنْ هؤلاءِ. وما كانَ مِنْ وُجوهِ الإشراكِ ثَمَّ وجهانِ: أحدُهُما: في الاعْتِقادِ، والثاني: في الاسْتِعْمالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ أَمَرَ اللهُ تعالى بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ، وأَمَرَ بالإحسانِ إلى ذي القُرْبَى واليَتامَى والمساكِينِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَهُ. لكنَّ المعنَى الذي بهِ أَمَرَ بالإحسانِ إلى هؤلاءِ الأصنافِ والفِرَقِ مُخْتَلِفٌ.

أمّا الإحسانُ إلى الوالِدَينِ [فهو أنْ][(٩)] يَشْكُرَ لهما بما أحْسَنَا إليهِ، ورَبَّياهُ صَغيراً كقولِهِ تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ الآية ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٣ و٢٤] يذكرُ حالَ صِغَرِهِ وضَعْفِهِ؛ إذْ كيفَ رَبَّياهُ، ويَشْكُرُ لَهُما على ذلكَ. ويُحْسِنُ إليهما جَزاءً لِما أحْسَنَا إليهِ، ورَبَّياهُ صَغيراً. وقالَ اللهُ ﷻ أيضاً:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: يلزمانه. (٥) في الأصل وم: وراه. (٦) في الأصل وم: يلزمان. (٧) في الأصل وم: أشرت. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥] فالإحسانُ إلى الوالِدَينِ جزاءٌ وتَشكُّرٌ لِما أنعَمَا هُما عليهِ، وذلكَ يكونُ مِنْ جانِبِ الوَلَدِ، لأنَّ مِثْلَهُ لا يُلْزِمُ الوالِدَينِ لِوَلَدِهِما[1] وذلكَ فَرْضٌ على الوَلَدِ حتى عُدَّ عُقوقُ الوالِدَينِ مِنَ الكبائِرِ.

رُوِيَ عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ، [أنهُ][2] قالَ: «أكْبَرُ الكبائِرِ الإشراكُ باللهِ وعُقوقُ الوَالِدينِ» [البخاري: ٥٩٧٦] والواجبُ على الرجلِ أنْ يُطيعَ والِدَيهِ وكُلَّ واحدٍ منهما إلّا أنْ يأمُرَاهُ بِمَعْصِيَتِهِ، أو يَنهَيَاهُ[3] عنْ أداءِ فَرِيضَتِهِ أو تأخيرِها عنْ وَقتِها، فإنَّ طاعَتَهُما حينئذٍ مَعْصِيَةٌ للهِ. ألا تَرى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؟ [لقمان: ١٥] أمَرَهُ بِمُصاحَبَتِهِما[4] بالمَعْروفِ إلّا أنْ يأمُرَاهُ بِمَعْصِيَتِهِ[5] ولهذا قالَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ: لا ينبغي للرجُلِ أنْ يَقتُلَ أباهُ الكافرَ إذا كانَ مُحارِباً إلّا أنْ يَضطَرَّهُ الأبُ إلى ذلكَ لأنه قالَ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾. فَمِنَ المعروفِ في الدُّنْيا ألّا يَقتُلَهُ، ولا يُشْهِرَ عليهِ السِّلاحَ. وقالُوا أيضاً: إنْ ماتَ أحدُهُما يَتوَلَّ[6] دَفْنَهُ؛ وذلكَ مِنْ حُسْنِ الصُّحْبَةِ والمَعْرُوفِ.

رُوِيَ أنَّ أبا طالِبٍ لَمّا ماتَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه «اذْهَبْ فَوارِهِ» [أحمد ١/ ٩٧].

ثم في هذِهِ الآيةِ تَسْوِيَةٌ بَينَ الوالِدَينِ في ما أمَرَ لهُ مِنَ الإحسانِ إليهما، وأنْ لم يَجْعَلْ لِلأبِ فَضْلاً في ذلكَ على الأمِّ، فذلكَ يَدُلُّ على أنَّ إسلامَ كُلِّ واحدٍ / ٩٤ ـ ب/ مِنَ الأبوينِ للصَّغيرِ؛ إذْ كانَ الإجماعُ قائماً في إسلامِ الأبِ إسلامُ وُلْدِهِ الصِّغارِ. وكذلكَ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ، «غَيرَ أنَّ أبَوَيهِ يُهَوِّدانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ» [البخاري ١٣٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أمَرَ بالإحسانِ إلى ذي القُرْبَى، ومعنَى الأمْرِ بهِ، واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ بَعْضِهِمْ بعضاً؛ وذلكَ مِنْ جانِبَينِ: ما يُلْزِمُ هذا أنْ يُحسِنَ إلى هذا، لَزِمَ الآخَرَ أنْ يُحسِنَ إليهِ؛ وذلكَ إبقاءٌ لِلْمَوَدَّةِ في ما بَيْنَهُمْ والمَحَبَّةِ. وذلكَ فَرْضٌ أيضاً أنْ يَصِلَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، لأنَّ صِلَةَ القَرابَةِ فَرِيضةٌ.

والأمْرُ بالإحسانِ إلى اليَتامَى يَحتَمِلُ وجهَينِ: لِما ليسَ لهمْ والدٌ يَقومُ بِكِفايَتِهِمْ على ما يَقومُ لهُ واحِدُهُ. وأمَرَ بذلكَ لِما يَبَرُّ الرجلُ وَلَدَ آخَرَ لِمَكانِ والدَيهِ. فإذا ماتَ والدُهُ لا يمتنِعُ عنْ ذلكَ، فأمَرَ أنْ يُحسِنَ[7] إليهِ بعد موتِ والدِهِ على ما [كانَ يُحسِنُ][8] في حياتِهِ لأنهُ في ذلكَ الوقتِ أحْوَجُ إليهِ إذْ لا شَفَقَةَ عليهِ، وشَفَقَةُ والدِهِ معدومةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الأمْرِ بالإحسانِ إلى المساكينِ يَحتَمِلُ أيضاً وجهَينِ: يَحتَمِلُ شُكْراً على ما مَنَّ عليهِمْ، وأنْعَمَ بالإفضالِ على أولئكَ أنْ لم يسبِقْ منهُمْ إلى اللهِ معنىً يَسْتَوجِبُونَ ذلكَ دونَهُمْ، أمَرَ بالإحسانِ إليهِمْ. [ويَحْتَمِلُ ثناءً لِما أنهمْ][9] مِنْ جَوهَرِهِمْ وجِنْسِهِمْ في الخِلْقَةِ يَحتاجُونَ إلى ما يحتاجُ هؤلاءِ مِنَ المَأكِلِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ وغيرِ ذلكَ. يأمُرُهُمْ بالإحسانِ إليهِمْ شَفَقَةً منهمْ لِيَتَقَوَّوا على أداءِ ما فَرَضَ اللهُ عليهِمْ؛ إذْ هُمْ [في الحَقيقةِ مِثْلُهُمْ][10] في الخِلْقَةِ والجَوهرِ. وهذا[11] الإحسانُ إلى[12] اليتامَى والمساكِينِ مِنْ جانبٍ لَيسَ مِنْ جانِبَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أمَرَ اللهُ بالإحسانِ إلى ابْنِ السبيلِ لِلْوَجْهَينِ اللّذينِ وصَفْتُهُما في المساكينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ في اليتامَى: إنهُ أمَرَ الأوصياءَ بالقيامِ على ما لِهِمْ وحِفْظِهِمْ رَحْمَةً لَهُمْ ولِلِينِ لَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو[13] ذو قَرابَةٍ، ولَهُ حَقّانِ؛ حَقُّ الجوارِ وحَقُّ الرَّحِمِ. كذلكَ رُوِيَ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «الجِيرانُ ثلاثةٌ، جارٌ لهُ حَقٌّ واحدٌ، وجارٌ لَهُ حَقّانِ، وجارٌ لَهُ ثلاثةُ حُقوقٍ. فأمّا الذي لهُ حُقوقٌ ثلاثةٌ [فَلَهُ][14] حَقُّ القَرابَةِ. وحَقُّ الإسلامِ وحَقُّ الجِوارِ، والذي لهُ حَقّانِ [هما][15] حَقُّ الإسلامِ وحَقُّ الجوارِ، والذي له حَقٌّ واحدٌ هو حَقُّ الجِوارِ» [كشف الأستار عن زوائد البزار ١٨٩٦].

---

(١) في الأصل وم: لولده. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ينهاه. (٤) في الأصل وم: بمصاحبتهم. (٥) في الأصل وم: معصيته. (٦) في الأصل وم: يتولى. (٧) في الأصل وم: يحسنوا. (٨) في الأصل وم: كانوا يحسنون. (٩) في الأصل وم: والثناء في أنه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وهذه. (١٢) في الأصل وم: وهذه. (١٣) في الأصل وم: وهم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ خصَّ اللهُ ﷻ الجارَ الجُنبَ دونَ غَيرِهِ مِنَ الجِيرانِ المُلازِقِينَ، وكانَ ذلكَ دليلاً على أنَّ الحُقوقَ التي تَلْزَمُ بِالجِوارِ إنما تَلْزَمُ في الجِيرانِ المُلازِقِينَ لأنَّهُمُ الجِيرانُ بالمُلْكِ، يَمَسُّ مُلْكُ بعضِهِمْ بعضاً، ويَلْصِقُ بهِ، كما في الرَّحِمِ يَمَسُّ أنفسُ بعضِهِمْ لِبَعْضٍ.

ولهذا قالَ أبو حَنيفَةَ ﷺ إنهُ إذا أوصَى لجيرانِهِ فالوصيَّةُ لِلْمُلازِقِينَ دُونَ غيرِهِمْ، لأنهمْ همُ الذينَ يَلْزَمُ لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ حقُوقٌ يقومُونَ بأدائِها في حالِ حياتِهِمْ. فإذا ماتُوا فأوصَوا إنما أوصَوا[1] بأداءِ ما كانَ بينَهُمْ. وكذلكَ قالَ في الوصيَّةِ لِذي قَرابَةٍ: إنها لِقرابَةِ الذينَ يَفْرِضُ عليهِمْ صِلَتَهُمْ إذا كانُوا أحياءً، فإذا ماتَ، فَأَوصَى، فإنما يُوصِي بما كانَ يُؤدِّي في حالِ حياتِهِ، وذلكَ عمّا عليهِ الأداءُ.

وفيهِ دليلٌ على أنَّ الشُّفْعَةَ الواجبَةَ للجارِ إنما تكونُ لِلجَارِ الجُنُبِ الملازِقِ دونَ غَيرِهِ مِنَ الجِيرانِ. وقد ذَكَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ حقَّ الجارِ، وأمَرَ بِمُسامَحَتِهِ.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما زالَ جِبريلُ يُوصِيني بالجارِ حتّى ظَنَنْتُ أنهُ سَيُورِّثُهُ» [أبو داوود ٥١٥١].

وفي بعضِ الأخبارِ: «مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ» [المنذري في الترغيب ٣٧٧٠] وفي بَعْضِها: «ما آمَنَ مَنْ أمسى شَبْعانَ، وجارُهُ جائعٌ» [الطبراني في الكبير ١/ ٧٥١] و: إذا بِيعَ بِجَنْبِهِ دارٌ وأرضٌ فَلَهُ أنْ يأخُذَها بالشُّفْعَةِ لِما رُوِيَ عن عَمْرِو بْنِ أبي رافعٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ، [أنهُ][3] قالَ: «الجارُ أحقُّ بِسَقَبِهِ» [البخاري ٢٢٥٨] وعَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّريدِ عَنْ أبيهِ [أنهُ][4] قالَ: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ أرضٌ ليسَ لأحدٍ فيها شِرْكٌ إلا الجارُ، فقالَ: «الجارُ أحقُّ بِشُفْعَةِ جارِهِ ما كانَ» [الترمذي ١٣٦٩].

وعنْ رافِعِ بْنِ خَديجٍ [أنهُ][5] قالَ: (عَرَضَ عليَّ سعدٌ بيتاً، فقالَ: خُذْهُ، فإني قد أُعْطِيتُ بهِ أكْثَرَ مِمّا تُعْطِيني، ولكنكَ أحقُّ لأني سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «الجارُ أحقُّ بِسَقَبِهِ»).

وعَنِ ابنِ الزُّبَيرِ عنْ جابِرٍ ﷺ (أنَّ النبيَّ ﷺ، قضى بالشُّفْعَةِ بالجِوارِ)، وعنهُ أيضاً [أنهُ][6] قالَ: «قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: الجارُ أَحقُّ بِشُفْعَةِ جارِهِ إذا كانَ طَريقُهُما واحداً، يُنْتَظَرُ بها، وإنْ كانَ غائباً» [الترمذي ١٣٦٩]. وقولُ النَّبيِّ «يُنتَظَرُ بها، وإنْ كانَ غائباً» يَدُلُّ على أنهُ لا يُنْتَظَرُ بها أكْثَرَ مِنْ ذلكَ.

وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّ الشَّفيعَ إنْ أمْسَكَ عنْ طَلَبِ الشُّفْعَةِ، وقد عَلِمَ بالبيعِ، بَطَلَتْ شُفْعَتُهُ. ومِمّا يدلُّ على ذلكَ أيضاً أنَّ الشُّفْعَةَ إنما جُعِلَتْ للجارِ، واللهُ أعلَمُ، بما يُخافُ عليهِ مِنْ سُوءِ جِوارِ المُشْتَري والضررِ الذي عسى أنْ يَلْحَقَهُ منهُ. فلو جَعَلْنا الشفيعَ على شُفْعَتِهِ أبداً لم يُؤمَنْ أنْ يبنِيَ المشتري في الدارِ، ويُنْفِقَ فيها نَفَقَةً عظيمةً، ثم يَجِيءُ الشفيعُ، فَيَطْلُبُ الشُّفْعَةَ، فيُقالُ لِلْمُشتَري: سَلِّمِ الدارَ، أوِ ارْفَعْ بناءَكَ، وفي ذلكَ ضَرَرٌ عليهِ بَيِّنٌ.

وعَنْ عليٍّ وعبدِ اللهِ ﷺ، [أنهما][7] قالا: (قَضَى رَسولُ اللهِ ﷺ، بالشُّفْعَةِ بالجِوارِ). وعَنْ شُرَيحٍ [أنهُ][8] قالَ: (كَتَبَ إليَّ عُمَرُ ﷺ أنِ اقْضِ لِلْجارِ بالشُّفْعَةِ).

وإلى هذهِ الآثارِ ذهبَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في إيجابِ الشُّفْعَةِ للجارِ، وأنْكَرَ قومٌ ألّا تكونَ إلّا في ما يُقْسَمُ مِنَ الدُّورِ والأرَضِينَ، واحتَجُّوا في ذلكَ بِما رُوِيَ عَنْ سعيدِ بْنِ المُسَيَّبِ وابْنِ سَلَمَةَ. [أنهما][9] قالا: (قَضَى رَسولُ اللهِ ﷺ، بالشُّفْعَةِ في كُلِّ ما لم يُقْسَمْ، فإذا وُضِعَتِ الحُدودُ، ورُصِفَتِ الطُّرُقُ، فلا شُفْعَةَ). وكذلكَ رَوى أبو هريرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، بِمِثْلِهِ.

(١) في الأصل وم: أوصى (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

لكنَّ تأويلَ الحديثِ عندنا، والله أعلمُ، أنَّ قولَهُ: قَضَى بإيجابِ الشُّفعَةِ في ما لم يُقْسَمْ قولُ الرّاوي لأنهُ لم يُحْكَ عنهُ أنهُ قالَ: لا شُفْعَةَ في ما قُسِمَ: فَيُحْتَملُ أنْ يكونَ عَلِمَ ذلكَ، فحكاهُ، ولم يُعْمَلْ بما رواهُ الآخَرُونَ بإيجابِ الشُّفعَةِ في ما قد قُسِمَ.

وأمّا قولُهُ: فإذا وُضِعَتِ[1] الحدودُ فلا شُفْعَةَ، فليسَ فيهِ بيانُ حكايةٍ عنِ النَّبِيِّ ﷺ وقد يجوزُ أنْ يكون ذلكَ مِنَ الراوي. أو إنْ قالَ ذلكَ فإنما قالَ في القسمةِ: «لا شُفْعَةَ في القِسْمَةِ» عندنا. ثم قد جَعَلَ اللهُ تعالى لِبعضِهِمْ[2] على بَعْضِهِمْ حُقوقاً باتِّصالِ أملاكِهِمْ حتى قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أرادَ أنْ يَبيعَ دارَهُ فَلْيَسْتَأْذِنْ جارَهُ» فإذا أرادَ البائعُ اختيارَ الجارِ الذي لا حَقَّ لَهُ على الجارِ الذي لهُ حَقٌّ جُعِلَ لهُ أبطالُ ذلكَ؛ إذْ ليسَ غَرَضُهُ مِن البيعِ إلّا الثَّمنَ، وقد[3] يوجَدُ في الجارِ. وأمّا البَيْعُ فالمقصودُ فيه الثَّمنُ.

وقولُهُ تعالى أيضاً: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ البعيدُ بَيِّنٌ، واللهُ أعلَمُ، لِيُعْلَمَ أنَّ الحقَّ الذي ذُكِرَ للجارِ مِنَ الإحسانِ إليهِ ليسَ هو بِحَقِّ القَرابةِ، بل هو بِحَقِّ الجِوارِ، فأمَرَ بالإحسانِ إلى مَنْ لهُ جِوارٌ بالنَّسَبِ. ثُمَّ كانَ الحَقُّ قد يَصيرُ مَنْ بِجِوارِ النَّسَبِ بحالٍ مَعَ ما كانَتِ الصلةُ مفروضَةً في مَنْ مَسَّ مُلْكُهُ مُلْكَهُ، في المُلْكِ وجوبُهُ، في ما وَقَعَ التَّماسُّ بالبَدَنِ في البَدَنِ.

على أنَّ الآيَةَ في ما أمَرَ بالإحسانِ إلى جميعِ مَنْ ذَكَرَ قد يَصيرُ ذلكَ حقاً يَلْزَمُ بحالٍ، فَمِثْلُهُ حقُّ الجوارِ. وذلكَ لا يَعْرِفُ غيرَ حقِّ الشُّفْعَةِ. وقد جاءَتِ بهِ الآثارُ، وتوارَثَ المُسْلِمونَ في ذلكَ [الطَّلَبِ والاحتيالِ في الصَّرْفِ والمَنْعِ، فبانَ أنَّ الحقَّ بهِ ظاهرٌ لا يَحْتَمِلُ الخَفاءَ مع ما لا يَشُكُّ [أحدٌ][4] مِنَ العَوامِّ في[5] ذلكَ إلّا وعندَهُ حظٌّ مِنَ العِلْمِ فيهِ /٩٥ ـ أ/ لا يُوجَدُ مِثْلُهُ لِشيءٍ مِنَ الحقوقِ][6] في عينِ أملاكِ المُحِقِّينَ.

وهذا البَيانُ والظُّهورُ ثَبَتَ أنَّ أمْرَهُ[7] كانَ معروفاً في الأُمَّةِ حتى جَرَى بهِ التَّوارُثُ. ثم هذا النوعُ مِنَ العِلْمِ لا يُحْتَمَلُ انتِشارُهُ ونَيْلُهُ بالرَّأْيِ، فصارَ كسُنَّةٍ ظاهِرَةٍ، ، لها حقُّ التَّواتُرِ ممّا قد يُسْتَغْنَى عنْ روايتِهِ، واللهُ أعلَمُ. ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ الناسَ على اخْتِلافِهِمْ مُتَّفِقونَ[8] على وُجوبِ حقِّ الشُّفْعَةِ بِحَقِّ الشِّرْكِ في ما يَحْتَمِلُ القِسْمَةَ.

فأمّا أنْ يَجِبَ بِحَقِّ القِسْمَةِ فَيَجِبُ ذلكَ في كلِّ مُحْتَمِلِ القِسْمَةِ، وذلكَ ممّا يأباهُ [أنفسُ][9] الجميعِ أو يَجِبُ بما جُعِلَ مِنَ الحقِّ الجِوارُ الذي جاءَ بهِ الكتابُ، وجَرَتْ بهِ السُّنَّةُ، أو بما جُعِلَ مِنْ تَأَذِّي بَعْضِ الجيرانِ بِبَعْضٍ والأمْرِ بالمَعْروفِ في الخَلْقِ مِنَ الاسْتِخْبارِ عنْ أحوالِ الجيرانِ قَبْلَ تَأَمُّلِ الدُّورِ وتَفاوُتِ القِيَمِ باخْتِلافِ الجيرانِ بما في ذلكَ مِنَ المُؤَنِ والمَضارِّ. وأيَّ هذَينِ كانَ فالشُّفعَةِ واجبةٌ بالجِوارِ لأنهما أمْرانِ لا يُسْلَمُ مِنْهُما على ثَباتِ الجِوارِ، فَيَجِبُ به الشُّفْعَةُ مع ما أمْكَنَ الجَمْعُ بَينَ الآثارِ بما لا يَحْتَمِلُ تسميَةَ الشريكِ جاراً مِنْ حَيثُ الشِّرْكُ لِوَجْهَينِ:

أحدُهُما: ، قولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] لم يَجْعَلِ الأرضَ مِنْ حيثُ الأرضُ مُتَجاوِرَةً حتى أثبتَ لها القِطَعَ، فأوجَبَ بالقِطَعِ التَّجاوُرَ معَ ما كانَ الجِوارُ في اللغةِ اسْمَ التَّقارُبِ والالْتِصاقِ لا لِتَداخُلٍ معروفٍ ذلكَ [عِنْدَ مَنْ][10] نَفْسُهُ مُكابَرَةُ المَعارِفِ.

والوجهُ الآخرُ: ما لا يُسَمّي الشركاءَ في عَينِ العَرَصاتِ جيراناً. ثَبَتَ أنَّ ذلكَ ليسَ اسْماً[11] لِلشِّرْكِ؛ فلا وَجْهَ لِصَرْفِ الخَبَرِ باسمِ الجِوارِ إلى الشِّرْكِ مع ما قد جاءَ ما يُقْطَعُ مِنْ عَوارِضَ ليسَ لأحدٍ فيها شِرْكٌ إلّا الجِوارَ أنهُ قالَ [رسولُ اللهِ ﷺ][12] «الجارُ أحَقُّ بِسَقَبِهِ» [البخاري ٢٢٥٨] وقالَ: «الجارُ أحَقُّ بِشُفْعَةِ جارِهِ يُنْتَظَرُ بها، وإنْ كانَ غائباً إذا كانَ طَريقُهُما واحداً» [الترمذي ١٣٦٩].

---

(١) في الأصل وم: وقعت. (٢) في الأصل وم: إن بعضهم. (٣) في م: هو قد. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: عن. (٦) ساقطة من م. (٧) من م، في الأصل: أمراه. (٨) في الأصل وم: متفقين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عندهن. (١١) في الأصل وم: أسماء. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

فَيَجِبُ بما ذَكَرْتُ صَرْفُ غَيرِ الشَّرِيكِ إلى وجهٍ يوافِقُ خَبَرَ الجارِ. ولهُ أوجهٌ ثلاثةٌ:

أحدُها: أنَّ قولَهُ: قَضَى بالشُّفْعَةِ لِشِرْكٍ[1]، لم يُقْسَمْ، غَيرُ مُقابِلٍ خَبَرَ[2] الجوارِ؛ إذْ هو أحَقُّ في القولَينِ، وما رُوِيَ مِنَ القَولِ إذا وُضِعَتِ[3] الحُدودُ، ورُصِفَتِ[4] الطُّرُقُ فلا شُفْعَةَ. فقد يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ خَبَراً عنْ هذِهِ الفُعُلِ: لا شُفْعَةَ في رَصْفِ[5] الطريقِ وإظهارِ الحُدُودِ؛ إذِ القِسْمَةُ في معنَى البَيعِ في الأُمورِ حتى مُنِعُ الاِقْتِسامُ في كُلِّ ما يَحْتَمِلُ التَّفاضُلَ إلّا بما يَجوزُ بِهِ، فقيلَ: لا شُفْعَةَ في هذا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يكونَ إذا كانَ هذا فلا شُفْعَةَ لَهُمْ معَ منْ لم تُوضَعْ[6] بينَهُمُ الحُدودُ، ولا رُصِفَتْ[7] بينَهُمُ الطُّرُقُ [واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: إذا وُضِعَتِ[8] الحُدودُ، فتبايَنَتْ، ورُصِفَتِ[9] الطُّرُقُ،][10] فتباعَدَتْ؛ إذْ في ما لم يَتَبايَنا ثَمَّ حَدٌّ، ليسَ واحداً[11] مِنَ الأمْرَينِ. وإذا احْتَمَلَ خَبَرُ الشِّرْكِ ما ذَكَرْنا ثَبَتَ أمْرُ الشُّفْعَةِ بالجِوارِ والشِّرْكِ جميعاً على التَّرتيبِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ولو كانَ الجُنُبُ اسْمُهُ لِبَعيدِ الجِيرانِ بالنَّسَبِ اسْتَحَقَّ بما كانَ الذي بِهِ الجِوارُ يَلْتَصِقانِ، ويكونُ كُلُّ واحدٍ مِنْهُما بِجَنْبِ الآخَرِ؛ إذْ لا يُسَمَّى كُلُّ بَعيدٍ بِهِ. ففيهِ وجهانِ:

أحدُهُما: الحَقُّ بِالاِتِّصالِ.

والثاني: بَيانُ ما بِهِ يكونُ الجِوارُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ عليٌّ رضي الله عنه: (هي المرأةُ)، وقالَ: عبدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ، رضي الله عنه: كذلكَ أيضاً: (هي المرأةُ). وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما (هو الرفيقُ في السَّفَرِ) وكذلكَ قولُ مُجاهِدٍ: (فإنَّ الصاحِبَ بالجَنْبِ هو المرأةُ، فالأمرُ بالإحسانِ مِنْ جانبٍ، وإنْ كانَ الرفيقُ في السَّفَرِ فَمِنْ جانِبَينِ: ما يَلْزَمُ هذا يَلْزَمُ الآخَرَ مِثْلُهُ بِحَقِّ المُصاحَبَةِ).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ الأمْرُ وجهَينِ بالإحسانِ إلى المَماليكِ: [يَحْتَمِلُ][12] شُكْراً لِما أنْعَمَ عليهِمْ ممّا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الحَقِّ مِنْ[13] جوهَرِهِمْ وأمثالِهِمْ في الخِلْقَةِ أذِلّاءَ تحتَ أيديهِمْ، يَسْتَخْدِمونَهُمْ، ويَسْتَعْمِلُونَهُمْ في حوائِجِهِمْ، [ويَحْتَمِلُ ثناءً][14] لِما هُمْ أمثالُهُمْ في الحاجَةِ مِنَ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ، وَهُمْ [مَقْهُورُونَ في أيديهِمْ. وقد يَتْرُكُ الرجلُ النَّظَرَ لِمَنْ هو][15] مَقْهورٌ في يَدِهِ. أمَرَ بالنَّظَرِ إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقد جاءَتِ الآثارُ عنْ أنَسٍ رضي الله عنه [أنهُ][16] قالَ: (كانَ عامَّةُ وصيَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ «الصلاةَ وما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ») [ابن ماجه ٢٦٩٨ وأبو داوود ٥١٥٦].

وعَنْ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه [أنهُ][17] قالَ: (كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُوصِي بالمَمْلوكِ خَيراً، ويقولُ: «واطْعِمُوهُم ممّا تأكُلُونُ، وألْبِسوهُمْ ممّا تَلْبَسُونَ») [أبو داوود ٥١٥٦].

وعن عليٍّ رضي الله عنه: [أنهُ][18] قالَ: (سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يُوصِي بالصلاةِ والزكاةِ وما مَلَكَتِ [الأيمانُ][19]) [أبو داوود ٥١٥٦]

وعنْ أمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها [أنها قالَتْ:][20] (سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، أنهُ كانَ يقولُ في مرضِهِ: «الصلاةَ وما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ». فَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ، وما يَقْبِضُ بها لسانَهُ) [ابن ماجه ٢٦٩٨].

---

(١) في الأصل وم: لشريك. (٢) في الأصل وم: لخبر. (٣) في الأصل وم: وقعت. (٤) في الأصل وم: وصرفت. (٥) في الأصل وم: صرف. (٦) في الأصل وم: تقع. (٧) في الأصل وم: صرفت. (٨) في م: وقعت. (٩) في م: صرفت. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: واحد. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: له. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل وم: عنه قال.

وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ [أنهُ][1] قال: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لِلْمَملوكِ طعامُهُ وكِسْوَتُهُ ولا يُكَلَّفُ مِنَ العَمَلِ ما لا يُطيقُ») [مسلم ١٦٦٢].

وعَنْ أنسٍ ﷺ، [أنهُ][2] قالَ: (كانَ آخِرُ وصيَّةِ رسولِ الله ﷺ، حينَ حَضَرَتْهُ الوفاةُ ـ «الصلاةَ وما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ». ثم جَعَلَ رسولُ اللهِ ﷺ يُغَرْغِرُ بها في صَدْرِهِ، ولا يُفْصِحُ بها لسانُهُ).

وعنْ أبي ذَرٍّ ﷺ [أنهُ][3] قال: (سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ [يقولُ][4] في المَماليكِ: «هُمْ إخوانُكُمْ، ولكنَّ اللهَ خَوَّلَهُمْ إياكُمْ، فأطعِموهُمْ ممّا تأكُلونَ وألْبِسوهُمْ ممّا تَلْبَسُونَ») [مسلم ١٦٦١].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ الآية؛ قيلَ: المُختالُ هو المُتَكَبِّرُ، وقيلَ: هو مِنَ الخِداعِ، وقيلَ: هو الذي يَمشِي مَرَحاً، وهو واحدٌ. يَتَكَبَّرُ [على][5] عبادَتِهِ تعالى، ويَتَكَبَّرُ على عبادِ اللهِ تعالى، ويَخدَعُهُمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨ والحديد: ٢٣] لا يُحِبُّ الاختِيالَ، وكذا كُلُّ ما ذُكِرَ: لا يُحِبُّ ذا، ويُحِبُّ ذا كقولِهِ: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧ و١٤٠] لأنه يُحِبُّ الطَّهارَةَ والتَّوبَةَ، ولا يُحِبُّ الظُّلْمَ والكُفْرَ. فإذا لم يُحِبَّ هذا لم يُحِبَّ فاعِلَهُ لِفِعْلِهِ، [وإذا أحبَّ هذا أحبَّ فاعِلَهُ لِفِعْلِهِ][6]

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ الآية. تَحْتَمِلُ الآيةُ أنْ تكونَ تفسيراً لِما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ وَوَصْفاً لَهُمْ؛ إذْ لا يُتَكَلَّمُ بِمِثْلِهِ إلّا [عمّا][7] تَقَدَّمَهُ. وتَحتَمِلُ على الابْتِداءِ كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الآية [الزخرف: ٦٩].

ثم تَحتَمِلُ وُجوهاً: يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَبْخَلُونَ﴾ بما عِندَهُمْ مِنَ الأموالِ ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾. وهكذا دأبُ كُلِّ بخيلٍ أنْ يَبْخَلَ، ويَأْمُرَ بِهِ غيرَهُ. ويَحتَمِلُ ﴿يَبْخَلُونَ﴾ بما عِندَهُمْ مِنَ العلومِ والأحكامِ؛ لم يُعَلِّموا غيرَهُمْ، ويأمُرونَ الناسَ بذلكَ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَبْخَلُونَ﴾ بإظهارِ بَعْثِ[8] محمد ﷺ ويأمُرونَ الناسَ بهِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾؟ أي يَكتُمونَ بعثَ محمدٍ ﷺ وصفَتَهُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي يَكتُمونَ مِنَ العلومِ والحِكْمَةِ. ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُمْ يَكتُمونَ ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِنَ الأموالِ، ولا يُنفِقونَها؛ [إذْ][9] في تَرْكِ الإنفاقِ والتَّصدُّقِ[10] كِتمانُ ما أنعَمَ اللهُ عليهِمْ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ [عنْ][11] رسولِ اللهِ ﷺ، [أنهُ][12] قالَ: «مَنْ آتاهُ اللهُ نِعْمةً فَلْتُرَ عليهِ» [بنحوه أبو داوود ٤٠٦٣]. لَعَلَّهُ أرادَ بقولِهِ: «فَلْتُرَ عَلَيهِ» أنْ يُنْفِقَها على نفسِهِ، ويتصدَّقَ بها، ويَلْبَسَها. وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ واللهُ أعلَمُ، الإنفاقَ والتَّصدقَ على غيرِهِ[13]. فَعَلَى ذلكَ كِتمانُ ما آتاهُمْ مِنَ الأموالِ إذا تَرَكُوا الإنفاقَ على غيرِهِمْ؛ لأنَّ مَنْ كانَتْ لهُ الأموالُ لا يَتْرُكُ الإنفاقَ على نفسِهِ.

وقيلَ في ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي بما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ مِنَ الأموالِ أو بما بَيَّنَ لَهُمْ مِنْ صفاتِهِ، عليهِ الصلواتُ، أو بما أُمِرُوا بِهِ مِنَ العباداتِ حَمَلَهُمْ على الكُفْرِ أحدُ هذهِ الأوجهِ الثلاثةِ، إذْ كانُوا اسْتَحَلُّوا أحدَها، فَكَفَرُوا بذلكَ، لَزِمَهُمُ الذي ذُكِرَ في القرآنِ، واللهُ أعلَمُ، وكِتمانُهُمْ يَرْجِعُ إلى كِتمانِ البعثِ[14] والحقوقِ والعباداتِ في أنفسِهِمْ لِئَلّا يُعْرَفُوا بالعُدُولِ عمّا في كُتُبِهِمْ وذلكَ يُخَوِّفُهُمْ[15]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ظاهرٌ. قد ذَكَرْناهُ[16] في غيرِ موضعٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: وإذا أحب فاعله لفعله، ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: نعت. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: الصدق. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: غيرهم. (١٤) في الأصل وم: النعت. (١٥) في الأصل وم: تخويفهم. (١٦) في الأصل وم: ذكرنا.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ/ ٩٥ ـ ب/ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ سِراً. وقيلَ: إنها نزَلَتْ في المُنافِقِينَ؛ كانُوا يُنفِقُونَ مُراآةً؛ كانُوا يُظهِرُونَ المُوافَقَةَ لِلمؤمنينَ بذلكَ، وكانُوا ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ سِراً. وقيلَ: إنها نزَلَتْ في الَّذِينَ يَسْعَونَ في مُعاداةِ رسولِ اللهِ ﷺ يَخْرُجُونَ معهُ، يُنفِقُونَ أموالَهُمْ مُراآةَ الناسِ، يَطْلُبُونَ بذلكَ الرِّئاسَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في الدنيا: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ الآية [فصلت: ٢٥]، ويَحتَمِلُ في الآخِرَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٨ و٣٩] فهذا، واللهُ أعلمُ، لأنَّ كلًّا منهُمْ كانَ يُقَبِّحُ الشيطانَ، ويأنَفُ عنهُ، ويُحَسِّنُ الملائكةَ، ويَحْمَدُهُمْ حتى ضَرَبَ مَثَلَ القُبْحِ منَ الأشياءِ بالشيطانِ كقولِهِ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]. فضَرَبَ مَثَلَ الحُسْنِ بالملائِكَةِ؛ وذلكَ لمعرِفَتِهِمْ بِقُبْحِ الشياطِينِ وحُسْنِ الملائكةِ؛ وذلكَ إنما عَرَفُوا بالخَبَرِ لأنهُمْ لم يُعايِنُوا مَلَكاً، عَرَفُوا حُسْنَهُ بالمُعايَنَةِ، ولا شاهَدُوا شيطاناً، عَرَفُوا قُبْحَهُ بالمشاهَدَةِ، ولكنهُمْ عَرَفُوا ذلكَ [بالخَبَرِ؛ ففيهِ دليلُ إثباتِ النُّبُوَّةِ لأنهُمْ ما عَرَفُوا ذلك][1] إلّا بِهِ. دلَّ بِهِ استِقْباحَ الجميعِ الشياطينَ واستِنْكارَهُمْ واستِحْسانَهُمُ الملائكةَ واستِعظامَهُمْ مِنْ غَيْرِ أنْ شَهِدُوا مِنْ أحدٍ مِنَ[2] الفريقَينِ على قَبولِ الاختيارِ؛ إذْ عنِ الألسُنِ نَطَقُوا بِهِ وعلى إثباتِ الرسالةِ إذْ هُمْ جاؤوا بالآثارِ عَمَّنْ شَهِدَهُمْ، وأنشَأَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، صلةُ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وذلكَ أنهمْ كانُوا يُنفِقُونَ مُراآةَ طلبَ الرئاسةِ وإبقاءَها، فقالَ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تبقَى لَهُمُ الرِّئاسةُ، ويكونُ لَهُمُ الذِّكْرُ. بل [لو آمنُوا كانُوا][3] في الإيمانِ أكثَرَ ذِكْراً وأعظَمَ قَدْراً ومَنْزِلَةً. ألا تَرَى أنهُ مَنْ أسلَمَ منهُمْ مِنَ الأئمَّةِ مِنْ نَحْوِ ابْنِ سَلام وغيرِهِ، كانَ لَهُمْ ذِكْرٌ في الإسلامِ وبَعْدَ موتِهِمْ مِنْ غَيرِ حاجةٍ وقَعَتْ بِهِمْ إليهِمْ في حَقِّ شَرائِعِ الإسلامِ؟ ومَنْ ماتَ منهُمْ على الكُفْرِ لم يُذْكَرْ أبداً. فأخبَرَ اللهُ ﷻ، أنْ ليسَ في الإيمانِ باللهِ واتِّباعِ محمدٍ ﷺ، ذهابُ شَيْءٍ مِمّا تَخافُونَ ذهابَهُ مِنَ[4] الرِّئاسةِ والمنافِعِ التي تَطْمَعُونَ وصولَها إليكُمْ، وغَيرِ ذلكَ [حينَ قُلْتُمْ:][5]: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧] فقالَ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي لم يكُنْ مِمّا خافُوا باتِّباعِ الهُدَى قليلاً أو[6] كثيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهما][7]: يَحتَمِلُ أنهُ كانَ على عِلْمٍ مِنْهُ؛ يفعَلُونَ [ما يَفْعَلُونَ][8] مِنْ فِعْلِ الكُفْرِ والشَّرِّ ونَحْوِهِ مِنْ خُلُقِ إبليسَ لا عنْ جَهْلٍ ولا غَفْلَةٍ، ليسَ كَصَنِيعِ مُلوكِ الأرضِ أنهُمْ إذا فَعَلُوا فِعْلاً، ثم أقْبَلَ[9] الخِلافُ، فإنما ذلكَ لِغَفْلَةٍ منهُمْ وجهلٍ بالعواقِبِ، فاللهُ ﷻ: كانَ، [ولم][10] يَزَلْ عالِماً بِهِمْ، لكنهُ تَرَكَهُمْ على ذلكَ لِما [لا][11] يَلْحَقُهُ الضَّرَرُ بالعِصيانِ ولا النَّفْعُ بالطاعةِ. بل حاصِلُ الضَّرَرِ والنَّفْعِ يَرْجِعُ إليهِمْ.

والثاني: يُخرَّجُ مُخرَجَ التَّحذيرِ لَهُمْ والتَّنبيهِ لا مِنْ عِلْمٍ أنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ آخَرَ يَعْلَمُ بَصَنِيعِهِ كانَ أحْذَرَ وأخوَفَ مِمَّنْ يَعْلَمُ أنهُ ليسَ عليهِ حافظٌ. وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار ١١ و١٢] لِيَكُونُوا على حَذَرٍ مِنْ ذلكَ.

وقيلَ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][12] أنهُمْ لم يؤمِنُوا في [قولِهِ هذا][13] أيضاً: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي أنشأَهُمْ لِيَعْلَمَ الخلائقُ أنَّ مُخالَفَتَهُمْ إياهُ لا تَضُرُّهُ، إذْ كلُّ مَنْ يَضُرُّهُ الخِلافُ لا يَتَوَلَّى ابْتِداءَهُ إلّا على الغَفْلَةِ بِبَعْضِهِ مَنَ الضَّرَرِ يَلْحَقُهُ بالخِلافِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: آمنوا كان ذلك. (٤) في الأصل وم: عن. (٥) في الأصل وم: حيث قالوا. (٦) من م، في الأصل: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: استقبل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: هذا قوله.

والثاني: على التَّحْذيرِ وقتَ الفعلِ بِتَذْكِيرِ المُراقِبِ عليهِ ما عليهِ الأمْرُ المُعتادُ مِنَ الانْتِهاءِ عنْ أمورٍ تَهْواها النَّفْسُ بالمراقِبِ عليهِ. ويَحْتَمِلُ كانَ على إرادةِ نَفْيِ حَدِيثِهِ العِلْمُ، أو أخْبَرَ بِعِلْمِهِ بِفِعْلِهِمْ، ومالَهُ مِنَ الجَزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩ والإسراء: ٧١] [وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] [وقولُهُ تعالى][(٢)]: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِئلّا يَظُنَّ جاهلٌ إذا رَأى ألَمَ الأطفالِ والصِّغارِ، وما يَحُلُّ بِهِمْ أنَّ ذلكَ ظُلْمٌ منهُ، لكنَّ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لِيُعلَمَ أنَّ الصِّحَّةَ والسَّلامةَ إفضالٌ مِنَ اللهِ تعالى لَهُمْ لا لِحَقٍّ عليهِ[(٣)] ذلكَ؛ إذْ لَهُ أن يَخْلُقَ كيفَ يَشاءُ صَحيحاً أو سَقيماً.

ثم مَنْ ظَلَمَ، أخْبَرَ في الشاهِدِ فإنما يَظْلِمُ لإحدى خِلَّتَيْنِ: إمّا لِجَهْلٍ بالعَدْلِ والحَقِّ، وإمّا لِحاجةٍ تَمَسُّهُ [تَدْفَعُهُ، فَتَحْمِلُهُ][(٤)]. فاللهُ ﷻ غَنِيٌّ بذاتِهِ، عالِمٌ لَمْ يَزَلْ، يَتَعالى عنْ أنْ تَمَسَّهُ حاجةٌ، أو يَخْفَى عليهِ شَيْءٌ مع ما كانَ معنَى الظُّلْمِ في الشاهِدِ هو التَّناوُلَ ممّا[(٥)] ليسَ لهُ، وكُلُّ الخلائِقِ مِنْ كُلِّ الوجوهِ لهُ، فلا معنَى ثَمَّ لِلظُّلْمِ.

ثم قيلَ في الذَّرَّةِ: إنها نَمْلَةٌ، وكَذلكَ في حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ مِثْقالُ نَمْلَةٍ. وقيلَ: مِثْقالُ حَبَّةٍ، وهو على التَّمْثِيلِ، ليسَ على التَّحقيقِ، ذَكَرَ بِصِغَرِ جُثَّتِهِ أنهُ لا يَظْلِمُ ذلكَ المقدارَ، فكيفَ ما فَوقَ ذلكَ؟ لا أنَّ مِثْلَهُ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ، لكنْ لو كانَ فهو بتكوينِهِ. وباللهِ التَّوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا على المعتزلةِ لأنهُمْ يقولُونَ: مَنِ ارْتَكَبَ كبيرَةً. يَخْلُدُ في النارِ، ومعَهُ حَسَناتٌ كَثيرةٌ. فأخْبَرَ ﷻ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهي الجنةُ، وهذا لِسُوءِ ظَنِّهِمْ وإياسِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ.

عنْ أنسٍ ﷺ، أنَّ[(٦)] النَّبيَّ ﷺ، قالَ: «إنَّ اللهَ تعالى لا يَظْلِمُ المؤمنَ حَسَنَةً؛ يُثابُ عليها إمّا بِذَوقٍ في الدنيا وإمّا بِجَزاءٍ في الآخِرَةِ» [مسلم ٢٨٠٨] وعَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «يقولُ اللهُ تعالى: أخرِجُوا مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ إحسانٍ» [بنحوه الطبراني في الصغير ٨٦١] قالَ أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ ﷺ، (فَمَنْ شَكَّ فَلْيَقْرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾).

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يعني نَبِيَّها ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمدُ ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ عليهِمْ؟ يعني على أُمَّتِهِ شَهيداً بالتَّصْدِيقِ لهمْ لِأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ على الأُمَمِ لِلرُّسُلِ أنهُمْ بَلَّغُوا ما أُرسِلُوا بِها، هو دليلُ صِدْقِهِمْ، وقامَتْ براهِينُهُمْ بالرِّسالَةِ، صارَتْ شَهادةً على هؤلاءِ، على هذا التَّأويلِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]. أي ويَحْتَمِلُ عليهِمْ لو كَذَبُوا، وزَلُّوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يعني نَبِيَّها ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا مُحمدُ على أُمَّتِكَ شهيداً على تَبليغِ الرسالةِ؟

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ قيلَ: فيه بوجوهٍ: إذا مَيَّزَ اللهُ أصحابَ اليَمينِ وأصحابَ الشمالِ قالَ لِلْوَحْشِ والطَّيْرِ والسِّباعِ كُوني تُراباً، فتكونُ تُراباً. فَعِنْدَ ذلكَ يَتَمَنَّوْنَ أنْ يكُونُوا تراباً مِثْلَ الوَحْشِ ﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾.

وعن ابنِ عباسٍ ﷺ يَجْحَدُ أهلُ الشِّرْكِ يومَ القيامَةِ أنهُمْ كانوا مُشْرِكينَ، فَيُنْطِقُ اللهُ تعالى جَوارِحَهُمْ، فَتَشْهَدُ عليهِمْ، فَيَوَدُّونَ لو[(٧)] كانوا تُراباً كقولِهِ: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] وقولِهِ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]. فذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ لَيْتَنا لم نُبْعَثْ، ولم نُحْيَ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: يدفع فيحمله. (٥) في الأصل وم: عما.
(٦) من م، في الأصل: على. (٧) في الأصل وم: أنهم.

ويُقرأ[1]: تُسَوَّى وتَسَوَّى وتَسَّوَّى وتَسْتَوِي ونَسْوِي. وفي حرفِ حفصة: لو تَسْتَوِي بِهِمُ الأرْضُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وقيلَ: لمّا أنْطَقَ اللهُ تعالى جوارِحَهُم، وشهِدَتْ عليهِمْ حينَ أنكَرُوا [أنهُمْ كانُوا][2] مُشْرِكِينَ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] لم يَسْتَطِيعُوا أنْ يكتُمُوا اللهَ حديثاً. ويَحْتَمِلُ على الاسْتِئنافِ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونُوا يَوَدُّونَ في الآخِرَةِ، ويَتَمَنَّونَ أنْ لم يكونُوا كَتَمُوا في الدنيا حديثاً.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ قيلَ: لا تَدْنُوا مَكانَ الصَّلاةِ، وأنتُمْ سُكارى، نَهى عنِ الصَّلاةِ في حالِ السُّكْرِ. وكذلكَ الجُنُبُ لا يَدْنُوا مَكانَ /٩٦ ـ أ/ الصَّلاةِ، وهو قولُ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ، وقيلَ: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ رُوِيَ أنَّ رجلاً صَنَعَ طعاماً، فدعا أبا بكرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ وعَلِيّاً وسَعْدَ بْنَ أبي وَقّاصٍ، فأكَلُوا، وسَقاهُمْ خَمْراً، وذلكَ قَبْلَ أنْ يُحَرَّمَ، فَحَضَرَتْ صَلاةُ المَغْرِبِ، فأمَّهُمْ رجلٌ منهُمْ، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] بِطَرْحِ اللاءاتِ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾. [بنحوه: السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٥٤٥].

ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، [أنهُ][3] قالَ: «لا يُصَلِّيَنَّ أحَدُكُمْ، وهو لا يَعْقِلُ صَلاتَهُ» [بنحوه: إحياء علوم الدين ١/ ٢٥٢].

في الآيَةِ دَلالَةٌ أنَّ في الصلاةِ قَوْلاً فَرْضاً، نَهى عنْ قُرْبانِها في حالِ السُّكْرِ مَخافَةَ تَرْكِهِ، أو نَهى عنْ قُرْبانِها في حالِ السُّكْرِ خَوفاً أنْ يُدْخِلَ فيها قَولاً ليسَ منها. وفي ذلك دليلُ فَسادِ الصلاةِ بالكلامِ عَمْداً، كانَ خَطَأً، لأنَّ السَّكْرانَ لا يَفْعَلُ ذلكَ على العَمْدِ، ولكنْ على الخطإِ.

والأصلُ في هذا أنهُ لم يَنْهَ[4] عَنْ فِعْلِ الصَّلاةِ في حالِ السُّكْرِ لِنَفْسِ الصَّلاةِ، ولكنْ نَهى عنِ السُّكْرِ. وذلكَ قولُهُ ﷺ: «لا صَلاةَ لِلْعَبْدِ الآبِقِ ولا لِلمَرْأةِ النّاشِزَةِ» [بنحوه مسلم ٧٠ وليس فيه ذكرَ المرأة] ليسَ النَّهْيُ فيهِ عنِ الصلاةِ، ولكنَّ النَّهْيَ عنِ الإباقِ والنُّشوزِ نَفْسِهِ. وهكذا كلُّ عبادةٍ[5] نَهى عنها بأسْبابٍ تَتَقَدَّمُ؛ فالنَّهْيُ[6] إنما يكونُ عنْ تلكَ الأسْبابِ لا عنِ العِباداتِ التي أمَرَ بها، لأنَّ الإباقَ والنُّشوزَ والسُّكْرَ [لَيسَتْ بالتي تَعْمَلُ][7] في إسقاطِ ذلكَ الفَرْضِ وتلكَ العباداتِ.

وفي الآيَةِ دَلالَةٌ أنَّ السَّكْرانَ مُخاطَبٌ بقولِهِ: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ نَهْيٌ قربانِ الصَّلاةِ في حالِ السُّكْرِ[8]. فالنَّهْيُ إنما وقَعَ في حالِ السُّكْرِ، فإذا كانَ مُخاطَباً عُمِلَ طلاقُهُ، ونُفِّذَتْ عُقُودُهُ. ألا تَرى أنهُ قالَ في آيَةٍ أُخْرى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٩١] يعني ولا ذِكْرَ عليهِمْ؟ دلَّ أنهُ مخاطَبٌ، ولهذا ما قالَ أبو يوسفَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنهُ إذا ارتَدَّ عنِ الإسلامِ [فلا][9] يكونُ ارتدادُهُ ارْتِداداً، ولَما نُفِّذَ طلاقُهُ وسائرُ عقودِهِ وفُسُوخِهِ. فعلى ذلكَ الارْتِدادُ، وعلى قولِ أبي حَنيفَةَ [رَحِمَهُ اللهُ][10]: لا يصيرُ مُرْتَدّاً اسْتِحساناً، ليسَ كسائِرِ العقودِ والفُسوخِ، لأنَّ سائرَ العقودِ يَتَعَلَّقُ جوازُها باللِّسانِ. وإنْ كانَ رِضا القَلْبِ مشروطاً فيها، وأمّا الإيمانُ والكُفْرُ فإنما يكونُ بالقَلْبِ، وإنْ كانَتِ[11] العِبارةُ باللِّسانِ، [فتكونُ][12] شرطاً في ما بَيْنَ الخلْقِ. فإذا كانَ كذلكَ: فإذا سَكِرَ يُذْهِبُ السُّكْرُ القَلْبَ، فَجُعِلَ كأنهُ لم يَنْطِقْ، وأمّا [ما][13] كانَ سائرُ العقودِ تَتَعَلَّقُ باللسانِ، فإذا نُطِقَ [بها جازَتْ][14]، واللهُ أعلَمُ.

واخْتُلِفَ[15] في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ على مَكانِ الصَّلاةِ؛ إذِ الصلاةُ فِعْلٌ، والفِعْلُ لا يُقْرَبُ، ومنهمْ مَنْ حَمَلَ على الفِعْلِ أي لا تُصَلُّوا. أيُّ الوجهَيْنِ أُرِيدَ بهِ، فالآخَرُ داخِلٌ فيهِ لأنهُ إذا نُهِيَ عنْ حُضورِ مَكانِها لِحُرْمَتِهِ فهيَ أعْلى في الحُرْمَةِ وأحَقُّ في المَنْعِ. أيَّدَ ذلكَ قولُهُ ﷺ: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ والعِلْمُ بالقولِ يُحتاجُ

---

(١) انظر حجة القراءات (٢٠٣). (٢) في الأصل وم: أن يكونوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ينهه. (٥) في الأصل وم: عادة. (٦) من م، في الأصل: بالنهي. (٧) في الأصل وم: ليسوا بالذي يعملون. (٨) في الأصل وم: السكران. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: ﷺ. (١١) في الأصل وم: كان. (١٢) في الأصل وم: يكون. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: به جاز. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم.

في حَقِّ الفِعْلِ لِئلا يُتْرَكَ المَفْروضُ مِنَ الذِّكْرِ، فَيَفْسُدَ، أو يُدْخِلَ المُحَرَّمَ فَيُفْسِدَ. وفي ذلكَ دلالةُ أحدِ الوَجْهَيْنِ، وفي حَقِّ العُمومِ الوَجْهانِ جميعاً، وهو على الخطإِ يقولُ. فَثَبَتَ أنَّ الخطأَ مِنَ القَوْلِ في الصلاةِ مُفْسِدٌ، إذْ لو كانَ لا يُفْسِدُ لم يكنْ سِوَى النَّهْيِ. وفي التأخيرِ نَهْيٌ أيضاً، واللهُ أعلَمُ. ولو أُريدَ بهِ الصَّلاةُ فإنما المكانُ لأجْلِها، فلا وجْهَ لِلْحُضُورِ دونَ مكانِ الفِعْلِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ أمْرُ الجُنُبِ واسْتِثْناءُ عابِرِي السَّبيلِ لِيَكُونَ على فِعْلِ الصلاةِ بالتَّيَمُّمِ، فَيَكُونُ في الآيةِ دلالةُ التَّيَمُّمِ لِلْجُنُبِ أو [عابِري][1] المَكانِ، فيُباحُ الدخولُ فيهِ على العُبُورِ فيهِ بالتَّيَمُّمِ. فعلى ذلكَ عندَنا الدخولُ لِلاغْتِسالِ فيهِ، إذا كانَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ. وإذا أُبيحَ لِلْجُنُبِ على المَنْعِ عن دخولِ المَسْجِدِ إلا بالتَّيَمُّمِ فَثَبَتَ أنَّ التَّيَمُّمَ قد جُعِلَ لهُ الطَّهارةُ، فلَهُ الصَّلاةُ بهِ لِعُذْرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في المَرْوِيِّ دَلالةٌ عَمَّنْ أمَّ في المغرِبِ بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] على طرحِ اللاءاتِ في حالِ السُّكْرِ حتى نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ أنَّ كلامَ الكُفْرِ في حالِ السُّكْرِ لا يُكَفِّرُ صاحبَهُ إذا خاطَبَهُمْ باسْمِ الإيمانِ. فلذلكَ لم يكُنْ عندَ أبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، كافراً، على أنَّ المُخْطِئَ لِما يَجري على لسانِهِ كلمةُ الكفرِ لا يَصيرُ كافراً في الحُكْمِ، والسَّكْرانَ يَجري على لسانِهِ على الخطإِ؛ دليلُهُ ما لا يَذْكُرُهُ، وما كانَ مِنْ عَقْدِ القَلْبِ، فهو لا يُنْسَى، ولِخاصَّةِ المذاهِبِ كلِّها يُختارُ عنْ ذِكْرِ الأسبابِ وعنِ اختيارِ الأحَقِّ مَنِ الأمورِ عندَهُ لِحُجَّةٍ أو شُبْهَةٍ أو شَهْوَةٍ مِنْ نَحْوِ الإلْفِ بالتَّقْليدِ وحُسْنِ الظَّنِّ. والذي يكونُ على ما ذَكَرْتُ لا يَحْتَمِلُ السَّهْوَ عنهُ حتى لا يَخْطُرَ بِبالِهِ، لو أرادَ بدعوةٍ عَنْ قَريبٍ، ثَبَتَ أنهُ كانَ عنْ خطَإٍ. وقد جاءَ بَرَفْعِ[2] الخَطَإِ. وأصْلُهُ [أنَّ][3] الإنسانَ، مُعَبِّرٌ عَنِ الاعْتِقادِ في أمْرِ [الدِّينِ وبخاصَّةٍ][4] في الكُفْرِ الذي يكونُ بالقلبِ خاصةً بلا اسْتِعمالِ اللِّسانِ دونَ القَلْبِ الذي اللِّسانُ عنهُ مُعَبِّرٌ. ومَنْ عَبَّرَ [عنِ][5] الكُفْرِ باللِّسانِ، ووَصَفَهُ لا يَكْفُرُ إلّا بأنْ يكونَ يُعَبِّرُ عنْ نَفْسِهِ أنهُ اعْتَقَدَهُ، فلذلكَ كانَ على ما بَيَّنّا. على أنهُ قد يَجري بِتِلاوَةِ القرآنِ على اللِّسانِ بالغَلَطِ ما يُكَفِّرُ عليهِ بالتَّعَمُّدِ، فلا يَجوزُ أنْ تُجْعَلَ تِلاوَتُهُ لِلتَّعظيمِ. والإيمانُ بها[6] كُفْرٌ. ثَبَتَ بذلكَ ورُفِعَ حُكْمُ الكُفْرِ عَمَّنْ أخطأَ في إجرائِهِ على اللِّسانِ، فَمِثْلُهُ السَّكْرانُ، إذْ هو مُخْطِئٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتَلَفَ أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ أنهُ قالَ: (هو أنْ يكونَ مسافراً ولا يجدُ الماءَ فيتيمَّمُ) وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: (هو المسافِرُ). وقيلَ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ نَهى أنْ يَدْخُلَ المسجدَ ومَكانَ الصلاةِ ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ إلَّا مُجتازاً. ومَنْ تأوَّلَ الآيةَ على المُرورِ في المَسْجِدِ فهو غيرُ بَعيدٍ. يقولُ: إنما كُرِهَ لِلْجُنُبِ أنْ يَسْتَوطِنَ المَسْجِدَ، فأمّا المارُّ لِأمْرٍ يَعْرِضُ لهُ فقدْ رُخِّصَ لهُ. ألَا تَرَى أنَّ الجُنُبَ رُخِّصَ لَهُ أنْ يَقْرَأَ بعضَ الآيَةِ؟ ولا يجوزُ أنْ يُتِمَّها. [فَمُرُورُهُ في المسجدِ][8] إذا لم يَجْلِسْ فيهِ كَقِراءَتِهِ بَعضَ الآيَةِ إذا لم يُتِمَّها وعلى ذلكَ أمْرُ الجُنُبِ واسْتِثْناءُ عابِري السَّبيلِ يكونُ على فِعْلِ الصلاةِ بالتَّيَمُّمِ، فيكونُ في الآيةِ دَلالَةُ التَّيَمُّمِ لِلْجُنُبِ، والمكانُ فَيُباحُ الدخولُ فيهِ على العُبورِ فيهِ بالتَّيَمُّمِ أيضاً، فَعَلَى ذلكَ عندَنا الدُّخولُ لِلاغْتِسالِ فيهِ إذا كانَ منهُ بالتَّيَمُّمِ، وإذا أُبيحَ للجُنُبِ دخولُ المَسْجِدِ بالتَّيَمُّمِ فَثَبَتَ أنَّ التَّيَمُّمَ قد جُعِلَ لهُ الطهارةُ، فَلَهُ الصلاةُ بهِ لِعُذْرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ الآية أباحَ اللهُ تعالى للمريضِ المُقيمِ أنْ يَتَيَمَّمَ. والآيَةُ ذَكَرَتِ المَرَضَ عامّاً. وأجْمَعُوا أنَّ المَريضَ الذي لا يَخافُ أنْ يَضُرَّ بِهِ الماءُ لا يَتَيَمَّمُ إنما أجازُوا أنْ يَتَيَمَّمَ إذا خافَ ضَرَرَ الماءِ، إنْ هو تَوَضَّأَ بهِ. فدلَّ أنَّ اللهَ تعالى لمّا[9] أباحَ لِلْمَريضِ التَّيَمُّمَ لم يُبِحْ باسْمِ المَرَضِ، ولكنّه لِمعنًى في المَرَضِ. دليلُهُ ما ذَكَرَ أنهُ لم يُبِحْ لِكلِّ مَريضٍ، وإنما يُبيحُ لِمَريضٍ دونَ مَريضٍ.

وفيه دليلٌ [قالَهُ أبو][10] حَنيفَةَ ﷺ، حينَ أباحَ لِلْمُقيمِ الجُنُبِ التَّيَمُّمَ إذا خافَ على نفسِهِ الهلاكَ. ألَا تَرَى أنهُ لا يُباحُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) إشارة إلى قوله ﷺ، «رفع عن أمتي النسيان والخطأ وما استكرهوا عليه» [ابن ماجه ٢٠٤٣]. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: الذي ولخاصة، في م: الدين ولخاصة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: به. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فمرور في المساجد. (٩) في الأصل وم: ما. (١٠) في الأصل وم: لقوله أبي.

لهُ التَّيَمُّمُ في الأمصارِ، وإنْ كانَ اسْمُ السَّفَرِ موجوداً لِعَدَمِ مَعْنى السَّفرِ؟ فَعَلى ذلكَ إباحَةُ التَّيَمُّمِ لِلمَريضِ إباحَةٌ لِمعنىً في المَرَضِ[1]. أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ مَجيئَهُ مِنَ الغائطِ؟ والغائطُ هو المكانُ المُطْمَئِنُّ الذي فيه يَقْضي الحاجةَ، ولا كلُّ مَنْ جاءَ مِنْ ذلكَ المكانَ يَلْزَمُهُ الوضوءُ والتَّيَمُّمُ. دلَّ أنهُ لِمَعنىً فيه. فعلى ذلكَ الأوَّلُ.

«ورُوِيَ أنَّ جَريحاً غُسِلَ، فماتَ فَبَلَغَ الخبرُ النبيَّ ﷺ فقالَ: قَتَلُوهُ، فإنَّما [يَكْفيهِ كَفٌّ مِنْ ترابٍ، وكذلكَ غَسْلٌ مَحْدُودٌ، إنَّما][2] يكفيهِ كذا، ونحوُ هذا» [بنحوه أبو داوود ٣٣٦]/ ٩٦ ـ ب/ فإذا ثَبَتَ أنَّ المُرادَ مِنَ المَرَضِ والسَّفَرِ والغائطِ المعنَى الذي فيهِ لا لعينِ المَرَضِ والسَّفَرِ والغائطِ لِما ذَكَرْنا أنَّ لا كلَّ مريضٍ يُباحُ له التَّيَمُّمُ، وإنما يُباحُ لِمريضٍ دونَ مريضٍ، وكذلكَ لم يُبَحْ لكلِّ سفرٍ [ومكانٍ، وإنما أُبيحَ لِسفرٍ][3] دُونَ سَفَرٍ ومَكانٍ دونَ مكانٍ، وهو المكانُ الذي يُعْدَمُ الماءُ فيه، ويُفْقَدُ، فَعَلَى ذلكَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ عَيْنُ اللَّمْسِ، وهو الجِماعُ. وكذلك رُوِيَ عنِ [ابنِ][4] عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][5] قالَ: (المُلازَمَةُ والمُباشَرَةُ والإفضاءُ والرَّفَثُ والجِماعُ النِّكاحُ ولكنَّ اللهَ تعالى كَنَّى). وعنِ الحَسَنِ وعُبَيدِ بنِ عُمَيرٍ وعطاءٍ [أنهم][6] قالُوا: المُلامَسَةُ الجِماعُ.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في ذِكْرِ المَرَضِ والسَّفَرِ والغائطِ والمُلامَسَةِ إذا كانَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِها غيرُها؟ قيلَ: الحِكْمَةُ في ذِكْرِها هو أنَّ المَرَضَ في أغْلَبِ[7] أحْوالِهِ يُعْجِزُ المَرْءَ عنْ إصابةِ الماءِ وكذلكَ السَّفَرُ في أغْلَبِ أحوالِهِ يُعْجِزُ صاحِبَهُ عنِ الماءِ، فَخَرَجَ الذِّكْرُ على أغْلَبِ الأحوالِ، وكذلكَ ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ الأغْلَبُ أنهُ يَجيءُ عنْ قَضاءِ الحاجةِ، لأنهُمْ كانُوا لا يَخْرُجُونَ إلَّا لِقضاءِ الحاجةِ، وكذلكَ المُلامسةُ مِنَ الزوجَينِ الأغْلَبُ فيها قَضاءُ الوطرِ والحاجةِ. فَعَلَى ذلكَ خَرَجَ الذِّكْرُ واحْتُمِلَ غَيرُهُ. وهذا يدلُّ على أنَّ الاحْتِجاجَ بالظَّواهِرِ والعُمُومِ [في حَقِّ][8] المَخْرَجِ باطلٌ لِما لا يَجوزُ لِأَحَدٍ أنْ يَحْتَجَّ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ أنْ يَقولَ: على كلِّ مريضٍ، أو على كلِّ مسافرٍ إلَّا كذا.

ثم اللَّمْسُ إذا أُريدَ بهِ الجِماعُ فهو مُمْكِنٌ لِوَجْهَينِ:

أحدُهُما: البَلِيَّةُ بالقبلَةِ واللَّمْسِ باليَدَينِ للزوجَيْنِ ظاهرٌ[9] لا يُحْتَمَلُ أنْ يُعْرَفَ به الرسولُ والأئمَّةُ مِنْ فِعْلِ العوامِّ. فلو كانَ الوصفُ فيهِ [مُحْتَمَلاً لَذُكِرَ][10] لأنَّ ما لا يُحْتَمَلُ تركُ إظهارِ البيانِ حتى يَلْزَمَ أكثرُ الأُمَّةِ المُنْكَرَ في فِعْلِ الصلاةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يكونَ الأمرُ بالمَعْروفِ في كُلِّ لَمْسٍ ومَسٍّ جَرَى الذِّكْرُ بهِ بَينَ الذكورِ والإناثِ فهو بِحَقِّ الكفايَةِ عنِ الجِماعِ، وكذلكَ سائرُ الحُروفِ المُحْتَمِلَةِ لِلْكِنايةِ عنهُ مِنْ نَحْوِ المُباشَرَةِ والغِشْيانِ ونَحْوِ ذلكَ. وبِهِ قالَ مَن أجازَ التَّيَمُّمَ للجُنُبِ في حقِّ الصلاةِ مِنَ الصحابةِ، رِضوانُ اللهِ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ أُريدَ غَيرُ الجِماعِ مِمَّا قُدِّمَ يَحْتَمِلُ وجوهاً، فهو لا يَجْمَعُ الكُلَّ، ولكنْ يرجعُ إلى خاصٍّ، وهو الذي في الغالِبِ أنْ يكونَ ثَمَّ خُروجٌ، وإنْ لم يكُنْ، وهي المُباشَرَةُ الفاحِشَةُ؛ دليلُهُ ذِكْرُ المرضِ والسَّفرِ على غَيرِ إقرانِ الحُكْمِ بِنفسِهِ، إذْ هما[11] اسْمانِ لِوجوهٍ، فانْصَرَفا إلى غايةِ مالَهُ وَقَعَتِ الرُّخْصَةُ مِنَ العَجْزِ والعَدَمِ. فمِثْلُهُ أمرُ الوضوءِ في الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ: تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [قيلَ: التَّيَمُّمُ القَصْدُ][12] يُقالُ: تَيَمَّمْتُ الصَّعيدَ، وأمَّمْتُهُ لُغَتانِ. وقولُهُ ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ وتَعَمَّدُوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فإذا كانَ التَّيَمُّمُ القَصْدَ فالتَّعَمُّدُ[13] إلى الصَّعيدِ لم يَجُزْ إلَّا بالنِّيَّةِ، لأنهُ ﷺ أمَرَ بالقَصْدِ إليه والتَّعَمُّدِ، وذلك أمرٌ بالنِّيَّةِ لأنَّ القَصْدَ نِيَّةٌ.

وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه: تَأمُّوا صَعيداً طَيِّباً، أي اقْصِدُوا قَصْدَهُ.

والصَّعيدُ قيلَ: هو وَجْهُ الأرضِ، وسُمِّيَ صَعيداً لِما يُصْعَدُ عليها، وقيلَ: هو الأرضُ التي تُنْبِتُ.

---

(١) في الأصل وم: المريض. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الأغلب. (٨) في الأصل وم: فحق. (٩) في الأصل وم: ظاهرا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ما هو. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: والتعمد.

ألا ترى أنه رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ، [أنهُ](١) قال: «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِداً وطَهوراً إلّا السَّبْخَةَ والمَقْبَرَةَ»؟ [البخاري ٣٣٥ و٤٣٨] وقيلَ: [لأنهما مَلْعونتانِ](٢)، ولهذا قالَ أبو يوسف، رحِمَهُ الله، إنَّ التَّيَمُّمَ لا يجوزُ مِنَ الأرضِ السَّبْخَةِ لأنها لا تُطَيِّبُ ما يَنْبُتُ.

وأمّا أبو حَنيفةَ ﷺ، فإنهُ قالَ: الطَّيِّبُ هو الطاهرُ الحَلالُ، لهُ أنْ يَتَيَمَّمَ بِهِ إذا عَدِمَ الماءَ. والطَّيِّبُ اسْمُ ما حَمَلَ مِنَ المَقْصودُ فيهِ. والمَقْصودُ في التَّيَمُّمِ التَّطَهُّرُ؛ فهو الطَّهورُ والطاهرُ. وأيَّدَهُ الخَبَرُ الذي ذُكِرَ مِنْ جَعْلِ الأرضِ طَهوراً، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ الأمرُ يَقَعُ بِمسْحِ الأيدي على الذِّراعَينِ دونَ الكفَّينِ. دليلُهُ أمْرُ الوضوءِ، أنهُ بِغَسْلِ الذراعَين وقْتَ غَسْلِهِما، فالذراعانِ دَخَلَتا في المَسْحِ بِذِكْرِ اليَدَينِ(٣)، وكذلكَ في الوضوءِ لأنَّ الكَفَّينِ يُغْسَلانِ قبلَ غَسْلِ الوجهِ، فالأمْرُ بَغَسْلِ اليَدَينِ(٤) يَقَعُ على الذِّراعَينِ وما وراءَ ذلكَ.

وعنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عنِ الأعْرَجِ عن أبي جُهَيْنَةَ [أنهُ](٥) قال: «أقْبَلَ رسولُ الله ﷺ مِنْ غائطٍ وبَولٍ، فَسَلَّمْتُ عليهِ، فلم يَرُدَّ عليَّ السَّلامَ، فَضَرَبَ باليدينِ(٦) الحائطَ ضَرْبةً، فَمَسَحَ بها وجهَهُ، ثم ضَرَبَ ضَرْبَةً أخرى، فَمَسَحَ بها يَدَيهِ إلى المِرْفَقَينِ؛ ثمّ ردَّ السَّلامَ» [ابن ماجه ٣٥١] وهكذا يقولُ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ الله، بالضَّرْبَتَينِ: ضَرْبَةٍ لِلْوَجْهِ وضَرْبَةٍ لِلذِّراعَينِ: الأصلُ أنهُ قالَ اللهُ ﷻ، في الوضوءِ: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]: [وهو](٧) أنهُ في وقتِ الأمْرِ يُفَصِّلُ الغَسْلَ إلى المَرافِقِ غَيرَ مُخاطِبٍ بِغَسْلِ الكَفَّينِ على حَقِّ [غَسْلِ الذراعَينِ](٨) إذْ قد قَضَى فَرْضَ غَسْلِهِما مِنْ قَبْلُ، فَصارتِ الآيةُ كأنها في غَسْلِ الذراعَينِ(٩) بالأمْرِ بغَسْلِ اليَدَينِ(١٠) وعَرَّفَ بذلكَ [الكَفَّينِ لا بالذراعَينِ](١١)، فَمِثْلُهُ أمْرُ التَّيَمُّمِ، وصارَتِ الآيةُ كأنها في حقِّ الذراعَينِ(١٢)، ودخلَ الكَفّانِ(١٣) في ذلكَ بالخَبَرِ على أمْرِ الطهارةِ في ما أُضِيفَتْ إلى عضوٍ أو بَدَنٍ لم يَجِدِ [الماءَ](١٤) لم يدخُلْ كالمضافِ إليه في الاشْتِراكِ بقضاءِ حقِّها نحوُ الجَنابَةِ والوجهِ والرأسِ، فكذلكَ أمْرُ اليَدَينِ(١٥) في التَّيَمُّمِ. لكنْ قُصِرَ عنِ التمامِ بِدَلالَةِ بَيانِ السُّنَّةِ وعُمومِ الفُتْيا ما لا شَكَّ في قضاءِ حكمِ الوضوءِ، وليسَ هو في بَعضِ اليَدَينِ(١٦) فلا يُجْعَلُ في ما ليسَ فيه بَدَلُهُ؛ إذْ حَقُّهُ التَّقْصِيرُ عنْ كَمالِ وظيفةِ الأصلِ لا الزيادةُ عليهِ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ لِما مَضَى مِنَ الذُّنوبِ ﴿غَفُورًا﴾ لِما يَسْتَقْبِلُ. والعَفْوُ والصَّفْحُ والمَحْوُ والغَفْرُ السَّتْرُ؛ هو يَعْفُو عنهُ، ويَسْتُرُ على صاحِبِهِ، والعَفْوُ هو التَّجاوُزُ، فَيَخْتَلِفُ اللَّفْظُ على إرادةِ معنىً واحِدٍ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ يقولُ: أُعْطُوا حَظّاً مِنْ عِلْمِ ﴿الْكِتَابِ﴾ وهمْ عُلَماؤُهُمْ ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ بِعِلْمِ الكتابِ. ويَحْتَمِلُ ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ بالهُدَى، وكذلكَ قيلَ في حرفِ حَفْصَةَ على ما ذُكِرَ في غيرِ هذهِ الآيةِ ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦ و١٣٥] وذلكَ أنهم كانُوا [آمَنوا بمحمدٍ](١٧) ﷺ، قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ. فلمّا لم يُبْعَثْ على هواهُمْ كَفَروا بهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]. ويَحْتَمِلُ يَشْتَرُونَ ضَلالَ غيرِهِمْ بالتَّحْريفِ والرِّشا وغيرِ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] وقولِهِ: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ [العنكبوت: ١٢]. ألَمْ تَرَ حرفُ التَّعْجيبِ عنْ أمرٍ قد بَلَغَهُ، فَيُخَرَّجُ مُخْرَجَ التَّذكيرِ، أو لم يَبْلُغْهُ، فَيُخَرَّجُ مُخْرَجَ التعليمِ؟ والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ أي يَتَمَنَّونَ ﴿أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ لِتَدومَ، لهُمُ الرِّئاسةُ والسياسةُ، إذْ كانَتْ لهمُ الرِّئاسةُ على مَنْ كانَ على دينِهِمْ، ولم يكُنْ لهم ذلكَ على مَنْ لم يكُنْ على دينِهِمْ، فَتَمَنَّوا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنها ملعونة. (٣) و(٤) في الأصل وم: اليد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: اليد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل : بغسل الذراع. (٩) في الأصل وم: الذراع. (١٠) في الأصل وم: اليد. (١١) في الأصل وم: الكف لا بها. (١٢) في الأصل وم: الذراع. (١٣) في الأصل وم: الكف. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: اليد. (١٦) في الأصل وم: اليد. (١٧) في الأصل وم: آمنوا محمداً.

أنْ يكونُوا على دينِهِمْ لِتكونَ لهمُ الرِّئاسةُ عليهِمْ وقيلَ: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي يأمُرُونَهُمْ ويَدْعُونَهُمْ إلى دينِهِمْ لِما ذَكَرْنا من طلبِ المنافعِ وإبقاءِ الرِّئاسةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ كأنهُمْ، واللهُ أعلَمُ، يَطْلُبُونَ مُوالاةَ المؤمنينَ، ويُظهِرُونَ[1] لَهُمُ المُوافَقَةَ، فَنهى اللهُ تعالى المؤمنينَ عَنْ مُوالاتِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ إلى قولِهِ ﷺ: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٨ و١١٩] فأخبَرَ اللهُ ﷺ، المؤمنينَ أنهُ أعلَمُ بأعدائِكُمْ منكمْ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المؤمنُونَ استَنْصَرُوهُمْ، واستَعانُوا بِهِمْ في أمرٍ، فأخبرَ ﷺ، أنهُمْ أعداؤُكُمْ، وهو أعلَمُ بِهِمْ. ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي كَفَى بِهِ وَلِيّاً ومُعِيناً، وكَفَى بِهِ ناصراً. ويحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَكَفَىٰ/ ٩٧ ـ أ/ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ وكَفَى باللهِ ممّا أعطاكُمْ مَنْ أعطاكُمْ، أي لا وَلِيَّ أفْضَلُ مِنَ اللهِ تعالى، ولا ناصِرَ أفْضَلُ مِنْهُ، منهُ البراهِينُ والحُجَجُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ و ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ على الاسْتِئنافِ والابْتِداءِ خبرٌ. وفي حرفِ غيرِهِ ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ معناهُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ لا ذِكْرَ لِلنَّصارَى في ذلكَ. وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ، ذِكْرُ النصارَى في ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾. وفي حرفِ حَفْصَةَ ﷺ، ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ مَنْ يُحَرِّفُ ﴿الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾.

ثم تحريفُ الكَلِمِ يَحتَمِلُ وجهَينِ: يَحتَمِلُ تَغييرَ المَعاني وتَبديلَ التأويلِ على جُهّالِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم﴾ الآية [آل عمران: ٧٨]، ويَحتَمِلُ تَغييرَ اللفظِ والكتابةِ نَفْسِها كقولِهِ ﷺ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قيلَ: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولَكَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمْرَكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ قيلَ: اسْمَعْ قولَنا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي غَيْرَ مُجيبٍ. وقيلَ: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ لا سَمِعْتَ على السَّبِّ. وقولُهُمْ[2] ﴿وَعَصَيْنَا﴾ الإسْرارُ بِهِ منهُمْ، أظْهَرَهُ اللهُ تعالى ليكونَ آيةَ الرسالةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَاعِنَا﴾ قيلَ: يَقُولُونَ لمحمدٍ ﷺ، ﴿وَرَاعِنَا﴾ سَمْعَكَ، وقيلَ: ﴿وَرَاعِنَا﴾، حقوقَنا، وهو مِنَ الرِّعايةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي تَحْريفاً. والتَّحريفُ ما ذَكَرْنا كقولِهِ تعالى: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ الآية [آل عمران: ٧٨]. وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي اسْمَعْ يا محمدُ مِنّا قَولَنا غيرَ مُسْمَعٍ منكَ قولُكَ، ولا مَقْبولٍ ما تقولُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي لو قالُوا: سَمِعْنا قولَكَ، وأطَعْنا أمرَكَ، وانْظُرْنا، فلا تَعْجَلْ عَلَينا، تَنْظُرْ.. وقيلَ في قولِهِ: ﴿وَانظُرْنَا﴾ أفْهِمْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [ممّا قالُوا، أي][3] لو قالُوا: سَمِعْنا قولَكَ، وعَصَينا أمْرَكَ لكانَ خَيراً لَهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ. أمّا في الدنيا فَدَوامُ الرِّئاسةِ التي خافُوا فوتَها لو أطاعُوهُ، واتَّبَعُوهُ، آمَنَ [أي آمَنَ لهمْ لو أطاعوهُ][4] تَنْبِيهٌ، فلم تذهَبْ عنهُمُ الرئاسةُ والذِّكْرُ في الدنيا، بلْ زادَهُمْ[5] شَرَفاً وذِكْراً في الحياةِ وبَعْدَ المماتِ. وأمّا في الآخرةِ فثوابٌ دائمٌ غيرُ زائلٍ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي أعْدَلَ وأصْوَبَ لِما ذكَرْنا .﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ واللَّعْنُ الطَّرْدُ، طَرَدَهُمُ اللهُ ﷺ مِنْ رَحْمَتِهِ ودينِهِ لمّا عَلِمَ منهُمْ [أنهمْ][6] لا يؤمنونَ باختيارِهِمُ الكُفْرَ.

---

(١) في الأصل وم: ويظهر. (٢) في الأصل: وقولنا. (٣) في الأصل: مما قالوا، في م: أي. (٤) في الأصل وم: إذ. آمن منهم وأطاعوه.
(٥) في الأصل وم: ازداد لهم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قيلَ: والقليلُ مَنْ نَحْوِ ابْنِ سَلَامٍ وأصحابِهِ[1]، وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يؤمِنونَ إلّا بِقَليلٍ مِنَ الكُتُبِ والأنبياءِ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ دَلّتْ[2] هذِهِ الآيةُ أنَّ المَجوسَ لَيسُوا مِنْ أهلِ الكتابِ ولا مِمَّنْ ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لأنهُ قالَ ﷻ: ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ ولَيسَ عندَ المَجوسِ كتابٌ حتى يكونَ المُنَزَّلُ على محمدٍ ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا﴾ [مَعَهُمْ ثم قولُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي مُوافِقاً لِما مَعَكُمْ][3] وإنما كانَ موافِقاً لِما مَعَهُمْ بالمعاني المُدْرَجَةِ فيهِ والأحكامِ لا بالنَّظْمِ واللِّسانِ؛ لأنهُ معلومٌ أنَّ ما مَعَهُمْ مِنَ الكتابِ مُخالِفٌ لِلقرآنِ نَظْماً ولِساناً، وكذلكَ سائرُ كُتُبِ اللهِ تعالى موافِقٌ بَعْضُها بعضاً مَعانِيَ[4] وأحكاماً، وإنْ كانَتْ مُخْتَلِفَةً في النَّظْمِ واللِّسانِ. دلَّ أنها مِنْ عندِ اللهِ تعالى نَزَلَتْ، إذْ لو كانَتْ مِنْ عندِ غَيرِ اللهِ [كانَتْ][5] مُخْتَلِفَةً.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾؟ [النساء: ٨٢]. ففيهِ دليلٌ لقولِ أبي حَنيفةَ ﷺ حينَ أجازَ الصلاةَ بالقراءةِ بالفارِسيَّةِ لأنَّ تَغْييرَ النَّظْمِ والاختلافَ باللِّسانِ لم يُوجِبْ تَغْييرَ المَعاني واختِلافَ الأحكامِ حينَ أخبَرَ ﷻ أنهُ موافِقٌ لِما مَعَهُمْ، وهو في اللِّسانِ والنَّظْمِ مُخْتَلِفٌ، والمَعْنى مُوافِقٌ لِما مَعَهُمْ، ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ بِصِفَتِهِ ونَعْتِهِ ونُبُوَّتِهِ ومَبْعَثِهِ وزَمانِهِ فيهِ لِما[6] مَعَكُمْ لا يُخالِفُ في شَيْءٍ مِنْ ذلكَ. ويَحْتَمِلُ أنهُ هو النَّبِيُّ ﷺ الذي آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، فكيفَ كَفَرْتُمْ باللهِ؟ واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ الآيةَ؛ قيلَ: لمّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ قَدِمَ عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ على رسولِ اللهِ ﷺ فأسْلَمَ، وقالَ: يا رسولَ اللهِ ما كُنْتُ أرى أني أصِلُ إليكَ حتى يَتَحَوَّلَ وَجْهي في قفايَ. وقيلَ: طَمْسُها أنْ تَعْمى أبْصارُها ورَدُّها على أدْبارِها. وقيلَ: طَمْسُ الوجوهِ أنْ تَعْمَى، وتُرَدَّ عنْ بَصيرَتِها؛ وذلكَ أنهمْ كانُوا مُؤمِنينَ بمحمدٍ ﷺ مُسْتَيْقِنينَ بمحمدٍ ﷺ أنهُ نَبِيُّ اللهِ يَجِدُونَهُ في كُتُبِهِمْ. يقولُ: حَقِّقُوا إيمانَكُمْ بِمحمدٍ ﷺ وكتابِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُضِلَّكُمْ عنْ هُداكُمْ، فَتَصيرُوا ضُلّالاً، فلا تَعْلَمُوا ما كُنْتُمْ تعمَلونَ. ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ خَرَجَتْ على الوَعيدِ، وهي على التَّمْثيلِ لا على التَّحْقيقِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى أيضاً[7]: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ يَحْتَمِلُ الحَقيقةَ، فَيَرْجِعُ إلى يومِ القيامةِ، فَيُذْهِبُ فيهِ[8] جميعَ محاسِنِ الوُجوهِ[9]، أو نَطْمِسَ وجوهَ الحقِّ [عنهُمْ بِمُعانَدَتِهِمْ، فَيُبْصِرُوا][10] الحقَّ بِغيرِ صورَتِهِ بعدَ أنْ كانُوا رأوا كُلَّ شيءٍ بِصُورَتِهِ في كُتُبِهِمُ المُنَزَّلَةِ، واللهُ أعْلَمُ، أو[11] نَطْمِسَ وجوهَهُمْ عندَ أتْباعِهِمُ الذينَ لأجْلِهِمْ غَيَّرُوا، وحَرَّفُوا، بما يُطْلِعُهُمْ على خِيانَتِهِمْ، ويُظْهِرُ لهمْ تَبْديلَهُمْ، وقد فَعَلَ بحمدِ اللهِ تعالى. وقد يَحْتَمِلُ الوَعيدُ أنْ يَفْعَلَ بِهِمْ، إنْ لم يؤمِنُوا حَقيقةً، ذلكَ كَفِعْلِهِ بأصحابِ السَّبْتِ تَغْييرَ[12] الجَوهَرِ. ثم لعلَّ أولئكَ قد أسْلَمُوا، أو [نَزَلَ بِهِمُ العَذابُ][13]، ولم يُذْكَرُوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي [كانَ بأمرِ اللهِ ﷻ][14] مَفْعولاً كما يُقالُ: الجَنَّةُ رَحْمَةُ اللهِ، والمَطَرُ رحمةُ اللهِ. فَعَلَى ذلكَ مَعْنى قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي عذابُ اللهِ نازِلاً بِهِمْ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أجْمَعَ الناسُ أنَّهُ[15] يَغْفِرُ الذنوبَ كُلَّها: الشِّرْكَ وما دونَهُ إذا انْتَهى، وتابَ، بقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] دلَّ أنَّ إطْماعَ المَغْفِرَةِ لِما دونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَنْتَهي[16] عنهُ. وقالَ الخوارجُ: الكبائرُ كُلُّها الشِّرْكُ باللهِ تعالى، فَمَنِ ارْتَكَبَها دخلَ تحتَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: وهم. (٢) في الأصل وم: دل. (٣) من م، في الأصل: معكم. (٤) في الأصل وم: معانيا. (٥) من م، ساقطة من الأصل (٦) في الأصل وم: في ما. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: عنه. (٩) في الأصل وم: الوجه. (١٠) في الأصل وم: عنه بمعاندته فيبصر. (١١) في الأصل وم: أن. (١٢) في الأصل وم: تغير. (١٣) في الأصل: بهم، في م: نزل بهم. (١٤) في م: بأمر الله كان. (١٥) في الأصل وم: أن. (١٦) في الأصل وم: لم ينته.

والمسألةُ بيْننا وبيْنَهُمْ في ذلكَ. فيُقالُ لَهُمْ: المُعْتَبَرُ الذي صار مُشْرِكاً عندكُمْ بارْتِكابِ الكبيرةِ، ذلكَ المعنى موجودٌ في ارْتِكابِ الصَّغائِرِ، فَيَجِيءُ أنْ يكونَ كافراً، فإذا لم يَصِرْ بذلكَ كافراً، لم يَصِرْ بارْتِكابِهِ الكَبائِرَ كافراً.

وقالَتِ المعتزلَةُ: صاحِبُ الكبيرَةِ يَخْرُجُ مِنَ الإيمانِ، ولا يَدخُلُ في الكُفرِ. وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ظَهَرَ الوَعيدُ في الكَبائِرِ وشَرْطُ المَغْفِرَةِ لنا دونَ الشِّرْكِ بقولِهِ تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فهو الصَّغائِرُ كقولِهِ: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] أخْبَرَ أنَّ مِنَ السَّيِّئاتِ ما يُكَفَّرُ، ومنها ما لا يُكَفَّرُ، فهو لِلصَّغائِرِ.

وأمّا عندنا فإنَّ اللهَ ﷻ أطْمَعَ المؤمنينَ المَغْفِرَةَ ما دُونَ الشِّرْكِ. ثم لهُ المَشِيئَةُ؛ إنْ شاءَ عَذَّبَهُمْ فيها، وإنْ شاءَ عَفَا عنهُمْ. وأمّا إطماعُ المَغْفِرَةِ في الشِّرْكِ فإنهُ لا يجوزُ في العقلِ؛ لأنَّ مَنِ اعْتَقَدَ ديناً/ ٩٧ ـ ب/ فإنما يَعْتَقِدُهُ لِلأبَدِ. وليسَ كُلُّ مَنِ ارْتَكَبَ ذَنْباً يرتَكِبُهُ لِلأبَدِ، بل إنما يرتَكِبُهُ لِقضاءِ شَهْوَةٍ[1] تَغْلِبُهُ، فهو يَنْدَمُ على إثْرِهِ. لِذلكَ قُلْنا: يجوزُ في العقلِ إطْماعُ المَغْفِرَةِ لِما دونَ الشِّرْكِ، ولا يجوزُ لِلشِّرْكِ، وباللهِ التَّوفيقُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ أنَّ الوعيدَ الذي ذكَرْتُهُ يَحْتَمِلُ الاسْتِحلالَ[2] والاسْتِخْفافَ بالأمْرِ والنَّهْيِ، فلا يَنْزِلُ بِما أطْمَعَ بهذِهِ الآيَةِ مِنَ المَغْفِرَةِ، فَيُزالُ الطمعُ والرجاءُ بالوَعيدِ المُتَوَجِّهِ وجهَيْنِ [في الرِّفقِ][3] فيهِمْ. فأمّا القَطْعُ في أحدِ الوجْهَيْنِ بالمُحْتَمِلِ، ومَنْعُ القَطْعِ بالآخَرِ لِلاحْتِمالِ فهو بِحُكْمٍ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ أنَّ الآيةَ في التَّفْصِيلِ بَيْنَ المُحْتَمِلِ لِلْغُفْرانِ والذي لا يَحْتَمِلُ؛ فإذا صُرِفَتْ إلى الصَّغائِرِ، يَبْطُلُ[4] تَخْصِيصُ اسْمِ الشِّرْكِ، ويَلْتَبِسُ على السامِعِ حِلُّهُ[5]. وليسَ أمْرُ الوعيدِ في ما جاءَ بموضعِ التفصيلِ، بل الذي جاءَ بحقّ التفصيلِ ذكْرُ الغفرانِ بالتكفيرِ مقابلةَ الجزاءِ مِنْ حَسَناتٍ أو عُقوباتٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [النساء: ٣١].

وَوَجْهٌ آخَرُ: قالَ اللهُ ﷻ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾. وهذا كنايةٌ عنِ الأنْفُسِ المَغْفوراتِ لا عنِ الآثامِ التي تُغْفَرُ، لم يَجُزْ صَرْفُ التَّخصيصِ إلى الآثامِ بالآيةِ المُكَنَّى بها عنِ الأنفُسِ، وفي آياتِ الوعيدِ في الذين جاءَ بهِمْ، وفي ما جاءَ عامّاً فَبانَ[أنهُ][6] لا صَرْفَ [لهُ][7] في ذلكَ، فهو أولَى، وباللهِ التوفيقُ.

وبعدُ فإنهُ ﷻ قالَ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ والصَّغائرُ عندكُمْ مَغْفورةٌ بالحِكْمَةِ لا بالوَعْدِ، والآيةُ في التعريفِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وقولُهُ أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ فمعلومٌ أنهُ في ما يَلْزَمُهُ حتى يَخْتِمَ بهِ، لا في ما يَتوبُ عنهُ. أيَّدَ ذلكَ قولُهُ: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم﴾ [الأنفال: ٣٨] وغيرُ واحدةٍ مِنَ الآياتِ التي جاءَتْ في الكَفَرَةِ لَمّا آمنُوا، واللهُ أعلَمُ، فصار كأنهُ قالَ ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ إذا لم يَتُبْ عنهُ ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وإنْ لم يَتُبْ عنهُ[8].

فلو كانَ شيئاً مِمّا دونَهُ لا يَحْتَمِلُ في الحكمةِ المغفرةَ لَضَمَّهُ إلى المُمْتَنِعِ عنِ الاحْتِمالِ لا أنْ الحَقَهُ بالمُحْتَمِلِ لهُ في ما كانَ مَعْلوماً أنهُ القصدُ فيه إلى بَيانِ ما فيهِ الرجاءُ والإياسُ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. فلو كانَ يَلْزَمُ الإياسُ لِما دَونَهُ لَوَجَبَ[9] الوصفُ لهُ بالكُفرِ؛ إذِ الإياسُ لهمْ بالكُفرِ وفي تَحقيقِهِ. فأيُّ الوجهَيْنِ لَزِمَ تَبِعَهُ الآخَرُ في حقّ الإياسِ لا في وجودِ فِعْلِهِ؛ إذ قد يوجَدُ فِعْلُ الرجاءِ في الكَفَرَةِ، ثَبَتَ أنَّ ذلكَ في الحُكْمِ والتَّحقيقِ لا في وجودِ الفِعْلِ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ قيلَ: همُ اليهودُ جاؤوا بأبنائِهِمْ أطفالاً، فقالوا: يا محمدُ هلْ على أولادِنا هؤلاءِ مِنْ ذنبٍ؟ قالَ: لا، قالوا: فَوَالذي نَحْلِفُ[10] بهِ ما نَحنُ إلّا تزكِيَتُهُمْ؛ ما مِنْ ذنبٍ نَعْمَلُهُ بالنهارِ إلّا كُفِّرَ عنّا بالليلِ، وما عَمِلْنا بالليلِ إلّا كُفِّرَ عنّا بالنهارِ، فذلكَ التَّزكِيَةُ منهُمْ. وقيلَ: تزكِيَتُهُمْ أنْفُسَهُمْ بقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] لا ذُنوبَ لنا. ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ تَزكِيَتُهُمْ أنفُسَهُمْ ما قالَ ﷻ ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ﴾

---

(١) في الأصل وم: شهوته. (٢) من م، في الأصل: الاستحال. (٣) في الأصل: الرفق، في م: الوقف. (٤) في الأصل وم: فيبطل. (٥) في الأصل وم: محله. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: منه. (٩) في الأصل وم: ليجب. (١٠) من م، في الأصل: علمنا.

عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧ و١٢٢]. وكان أكثرُ الأنبياءِ، ﷺ، إنّما بُعِثُوا مِنْ بَني إسرائيلَ، وكانوا يُزَكُّونَ أنفُسَهُمْ بذلكَ. فقال[1] ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ يُفَضِّلُ مَنْ يشاءُ أو يُبَرِّئُ مِنَ الذُّنوبِ.

ثم التَّزْكِيَةُ تُذَمُّ: أنْ يُزَكِّيَ أحدٌ نفسَهُ، لأنَّ التَّزْكِيَةَ، هي التَّنْزِيهُ مِنَ العُيوبِ كلِّها أو الذُّنوبِ، وذلكَ ممّا لا يَسْلَمُ أحدٌ منها، ولا يَبْرَأُ، ولا يَستَحِقُّ مَخلُوقٌ، وذلكَ معنى النَّهْيِ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]؛ إذْ تَخرُجُ التزكِيَةُ مَخرَجَ التَّكَبُّرِ، وذلكَ لِجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ بما لا يَرَى غيرَهُ شَكْلَ نفسِهِ ولا مِثْلَهُ، فَتَكَبَّرَ عليهِ. ولو عَرَفَ أنهُ مِثْلُهُ وشَكْلُهُ ما تَكَبَّرَ على أحدٍ قطُّ، ولا زَكّى نفسَهُ. وقولُ الرجلِ: أنا مؤمِنٌ ليسَ ذلكَ تَزْكِيَةً إنما هو إخبارٌ عن شيءٍ أكْبَرَهُ بهِ، والتَّزْكِيَةُ هي التي يَرَى ذلكَ مِنْ نفسِهِ.

وقولُهُ تعالى: أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ليسَ في إظهارِ الإيمانِ تزكِيَةٌ لِما لا يَخلُو مِنْ أنْ تُظهِرَ لِمَنْ أبى مُشارَكَتَكَ فيهِ، فَعَلَيكَ الإظهارُ بِحَقِّ الدعوةِ إليهِ لِتَدعُوَهُ إلى ما تَدِينُ بهِ، أو هو يُشارِكُكَ فيهِ، والتَّزكِيَةُ في الحقيقةِ في ما يُوجِبُ تَقدِيمَكَ، وليسَ في هذا، وأيضاً إنَّ القولَ بالإيمانِ ليسَ بِمقَدَّرٍ عنْ معنَى العبادةِ أو سَبَبٍ، فيهِ عُلُوٌّ مِنْ حيثُ ذلكَ، إنما هو خبرٌ عنْ أمرٍ، هو في اللغةِ تَصديقٌ بأمْرٍ هو ذلكَ، ليسَ بالذي يُعَدُّ في الرُّتَبِ، بل على كُلِّ ذلكَ، ولا أحَدَ إلّا وقد يُؤمِنُ بأشياءَ تُصَدَّقَ، فليسَ في القولِ بهِ مَنْقَبَةٌ.

وكذلكَ ما مِنْ أحَدٍ إلا وعليهِ التَّكذيبُ بأمورٍ، فلا بالتَّكذيبِ في الإطلاقِ لَومٌ، ولا بالتَّصديقِ بالإطلاقِ مَدْحٌ، إذْ في كُلِّ ذلكَ، لكنْ لَزِمَ في تكذيبٍ بهِنّ فيكونُ مِنْ حيثُ كذلكَ ذُمِمْتَ. ثم يَتَفاوَتُ على تَفاوُتِ دَرَجاتِ الكَذِبِ. ثم التَّصديقُ لو كانَ ثَمَّ مَدْحٌ، فهو يُصَدَّقُ كُلُّهُ، فَيصيرُ المرءُ بِوَصْفِهِ نفسَهُ صادقاً في شَيءٍ تَزكِيَةً ومَدحاً، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

على أنَّ للإيمانِ حَدّاً، وكلُّ عبادةٍ ذاتُ حَدٍّ، فلا امْتِداحَ مِمَّنْ قد أدّاها بالِاختيارِ عنِ الأداءِ ولِخاصَّةِ[2] الفرائِضِ منها، نَحْوَ: مَنْ يقولُ: أنا[3] بَرٌّ أو تَقِيٌّ أو حَبِيبُ اللهِ تعالى، أو نَحْوَ ذلكَ إلى ما لا يُعْرَفُ حَدُّهُ مِنَ الخيراتِ، فهو بذلكَ يرتَفِعُ على الأشكالِ، ويَفْتَخِرُ عليهِمْ، في ما لو كانَ صادقاً كانَ مِنْهُ إغفالٌ عنْ حَقِّ ذلكَ. ولو كانَ كاذباً [كانَ جائزاً][4] مَمْقوتاً بالكذبِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ عنِ ابنِ عبّاسٍ ﷺ، [أنهُ][5] قالَ: (الفَتيلُ ما فَتَلْتَ بينَ إصْبَعَيكَ، والنَّقِيرُ الذي يكونُ في ظَهْرِ النَّواةِ، وهو على التَّمْثيلِ). وقيلَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: ألَمْ ترَ إلى الذينَ قالُوا: إنّا نُزَكِّي أنْفُسَنا؟ بلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ الآيةُ ظاهرةٌ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قِيلَ: أُعطُوا حَظّاً مِنَ الكتابِ، وهُمْ علماؤُهُمْ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قيلَ: الجِبْتُ الشَّيطانُ، والطّاغُوتُ الكاهِنُ، وقيلَ: الجِبْتُ السِّحْرُ، والطاغُوتُ الشيطانُ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: (الجِبْتُ الشيطانُ بِكلامِ الحبشةِ، والطّاغُوتُ كُهّانُ العربِ) وقيلَ: الجِبْتُ الكاهِنُ، والطّاغوتُ الشيطانُ. وقيلَ: الجِبْتُ حُيَيُّ بنُ أخطَبَ، والطّاغوتُ كعبُ بنُ الأشرَفِ؛ يُخبِرُ ﷻ عن سَفَهِهِمْ[7] بإيمانِهِمْ بهؤلاءِ وحَسَدِهِمْ محمداً ﷺ وأصحابَهُ ﷺ، ويُحَذِّرُ المؤمنينَ عنْ صَنيعِهِمْ؛ لأنَّ هؤلاءِ كانُوا علماءَهُمْ مؤمنِينَ بالجِبْتِ والطاغُوتِ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾.

قيلَ في القصةِ: إنَّ هؤلاءِ أتَوا مَكَّةَ لِيحالِفُوا قُرَيشاً على رسولِ اللهِ ﷺ، ويَنْقُضُوا العَهْدَ الذي كانَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رسولِ الله ﷺ، قَبْلَ أجَلِهِ، فَفَعَلُوا، فَدَخَلَ أبو سُفيانَ في مِثْلِ عِدَّتِهِمْ، فكانُوا بَينَ أستارِ الكعبةِ، فَتَحالَفُوا على رسولِ اللهِ ﷺ، وعلى أصحابِهِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجْمَعِينَ: [لِتَكُنْ كَلِمَتُنا][8] واحدةً، ولا نَخْذِلْ بَعْضَنا، فَفَعَلُوا. ثم قالَ

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) من م، في الأصل: ولخصاصة. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل: ذلك جائزا فيه ولخاصة، في م: ذلك جائزاً فيه كان. (٥) في الأصل وم: هو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: سفهم. (٨) في الأصل: لتكون لكلمتنا، في م: لتكون كلمتنا.

أبو سفيانَ: وَيْحَكُمْ يا مَعْشَرَ اليهودِ أيُّنا أقربُ إلى الهُدَى وإلى الحقِّ؟ أنحنُ أمْ محمدٌ وأصحابُهُ؟ فإنّا نُعَمِّرُ هذا المَسْجِدَ، ونَحْجُبُ هذهِ الكَعْبَةَ، ونَسْقِي الحُجّاجَ، ونُفادِي الأسيرَ، أفَنَحْنُ أفضَلُ أم محمدٌ وأصحابُهُ؟ قالتِ اليهودُ: لا بل أنتُم، فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾.

الآية ٥٢ ثم قالَ اللهُ ﷻ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ واللَّعْنُ يكونُ على وُجوهٍ: اللَّعْنُ هو العذابُ. وقيلَ: لَعَنَهُمُ اللهُ: عَذَّبَهُمُ اللهُ. واللَّعِينُ المَمْنوعُ عنِ الإحسانِ والأفضالِ. وقيلَ: هو الطريدُ، أي طُرِدُوا عن رَحمَةِ اللهِ وأفضالِهِ وإحسانِهِ. وقيلَ[1]: الطّاغُوتُ /٩٨ ـ أ/ هو اسمٌ مُشتَقٌّ مِنَ الطُّغيانِ كالرَّحَمُوتِ والرَّهَبُوتِ مِنَ الرَّحْمَةِ والرَّهْبَةِ، ونحوُ ذلكَ سُمِّيَ بهِ كلُّ مَنِ انْتَهَى مِنَ الطُّغيانِ غايَتَهُ حتى اسْتَحَلَّ أنْ يُعْبَدَ هو دُونَ اللهِ، فهو طاغوتٌ. وعلى ذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي بِعِبادَةِ كُلِّ مَنْ عُبِدَ دُونَ اللهِ. وقيلَ: هُمْ مَرَدَةُ أهلِ الكتابِ. وقيلَ: هو الشيطانُ، وقيلَ: الصَّنَمُ، وذلكَ كُلُّهُ يَرْجِعُ [إلى][2] ما ذَكَرْتُ، وقيلَ: ذلكَ كاهِنٌ سُمِّيَ جِبْتاً. وقيلَ: ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾ السِّحْرُ، فهو على ما قالَ [ﷻ][3] ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية [البقرة: ١٠٢] وأيُّ شَيْءٍ مِمّا ذَكَرْتُ قد كانُوا آمَنُوا بذلكَ، فَعَيَّرَهُمُ اللهُ تعالى، وسَفَّهَ أحلامَهُمْ بالإيمانِ بِمَنْ ذَكَرْتُ ومُظاهَرَتِهِمْ على مالَهُمْ مِنَ الأتباعِ على رسولِ ربِّ العِزَّةِ، عليهِ أفضَلُ الصَّلَواتِ وأكمَلُ التَّحِيّاتِ، بعدَ عِلْمِهِمْ بِمُوافَقَتِهِ[4] ﷺ وتَصْديقِهِ لِكُتُبِهِمْ[5] وعِلْمِهِمْ بِعُدولِ أولئكَ عنْ هذهِ الرُّتْبَةِ بَغْياً وحَسَداً.

وكانَ في إظهارِ ذلكَ عليهِمْ بَيانُ الرسالةِ وإعلامُ أتباعِهِمْ تَحْريفَهُمْ كُتُبَ الرُّسُلِ إبداءَ ما في قُلوبِهِمْ مِنَ الحَسَدِ. لِتَزُولَ الشُّبْهَةُ عنِ الأتباعِ، وتَظْهَرَ المُعانَدَةُ في المَتْبوعِينَ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: لَو ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ مِنْ بُخْلِهِمْ وقِلَّةِ خَيرِهِم. وقيلَ: ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ وإذِ المُلْكُ مِنَ الشَّرَفِ والأموالِ والرِّئاسةِ في ما بَيْنَهُم، لكنْ ﴿لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ فكيفَ يَتَّبِعُونَهُمْ؟ وقيلَ: قولُهُ ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ فكيفَ يُؤْتُونَ الناسَ شَيئاً؟ إنما المُلْكُ للهِ تعالى ﷻ، هو الذي يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشاءُ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية إنما يُسْتَفادُ ذلكَ باللهِ ﷻ لا بأحَدٍ دُونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يقولُ: بلْ يَحْسُدُونَ محمداً ﷺ على ما آتاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ مِنَ الكتابِ والنُّبُوَّةِ. يقولُ اللهُ ﷻ، رداً عليهِمْ: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فلم يَحْسُدُوهُ، فكيفَ يَحْسُدُونَ محمداً ﷺ، بما آتاهُ اللهُ تعالى مِنَ الكتابِ والنُّبُوَّةِ، وهو مِنْ أولادِ إبراهيمَ ﷺ؟ فهذا، واللهُ أعلَمُ، معناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ قيلَ: وأرادَ الملائكةَ والجنودَ. وقيلَ: هو مُلْكُ سُليمانَ بْنِ داوودَ، وكانَ مِنْ آلِ إبراهيمَ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قيلَ من كَثْرَةِ النساءِ. لكنَّ ذلكَ ليسَ بحَسَدٍ، إنما هو طَعْنٌ طَعَنُوهُ، وعَيْبٌ عابُوهُ لأنَّ الحَسَدَ هو أنَّ لآخَرَ شيئاً ليسَ لهُ فَيَتَمَنَّى أن يكونَ ذلكَ لهُ دُونَهُ، وقد كانَ لهُ نِساءٌ. لكنهُ إن كانَ ذلكَ فهو طَعْنٌ طَعَنُوهُ، وعَيبٌ عابُوهُ على كَثْرَةِ النساءِ، ويقولونَ: لو كان نَبِيّاً لَشَغَلَتْهُ النُّبُوَّةُ عنِ النساءِ، ويَقُولُونَ يُحَرِّمُ على الناسِ أكثَرَ مِنْ أربعٍ، ويَتَزَوَّجُ تِسعاً وعَشْراً، فأنزَلَ اللهُ تعالى، ﷻ، رداً عليهِمْ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية [الرعد: ٣٨] وكانَ لِداوودَ تِسعٌ وتِسْعُونَ امْرأةً. وما قيلَ أيضاً: إنَّ لِسُليمانَ[6] ﷺ ثلاثمِئَةِ سُرِّيَّةٍ وسَبْعمِئَةِ حُرَّةٍ[7].

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: بموافقته. (٥) في الأصل وم: بكتبهم.
(٦) في الأصل وم: سليمان. (٧) في الأصل وم: حرائر.

إنْ ثَبَتَ ذلكَ فَكَثْرَةُ النساءِ لهُ لا تَمْنَعُ ثُبوتَ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ، وإنما تَمْنَعُ كَثْرَةُ النساءِ لِأحَدِ شَيئَينِ: إمّا الخَوفُ مِنَ الجَورِ وإمّا العَجْزُ عنِ القيامِ بإيفاءِ حَقِّهِنَّ. فالأنبياءُ ﷺ، يُؤمَنُ ناحِيَتَهُمُ الجورُ، وكانُوا يَقُومُونَ بإيفاءِ حَقِّهِنَّ مَعَ ما كانَ قيامُ رسولِ اللهِ ﷺ خاصَّةً لِتِسْعٍ أو لِعَشْرٍ مِنَ النساءِ مِنْ آياتِ النُّبوَّةِ لأنهُ كانَ مَعروفاً بالعِبادةِ للهِ لَيلاً وبالقيامِ لهُ نهاراً، ويَحْتَمِلُ الجوعَ وأنواعَ المَشَقَّةِ تِباعاً.

ومعلومٌ في الخَلْقِ أنَّ مَنْ كانَ هذا سَبيلُهُ لم يَقْدِرْ على وفاءِ حَقِّ امرأةٍ واحدةٍ فَضلاً أنْ يَقومَ بإيفاءِ[1] حَقِّ العَشْرِ وأكثرَ. فَدَلَّ أنهُ باللهِ قَدَرَ على ذلكَ.

وعلى ذلكَ قِيامُ داوودَ، صَلَواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ، [بإيفاءِ حَقِّ][2] مِئَةٍ مِنَ النساءِ وقيامُ سُلَيمانَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، [بإيفاءِ حَقِّ][3] الألفِ منهُنَّ. فذلكَ مِنْ آياتِ النُّبوَّةِ لِما ذكَرْنا أنهُ لَيسَ في وُسْعِ أحَدٍ سِواهُمُ القيامُ بذلكَ. وكذلكَ في قيامِ رسولِ اللهِ ﷺ لإظهارِ هذا الدينِ مِنْ غَيرِ أتباعٍ كانَ له أو مُلْكٍ لهُ أو سَعَةٍ دليلٌ أنهُ كانَ بِنَصْرِ اللهِ وبِعَوذِهِ بِهِ جميعُ الخَلْقِ على دينِهِ.

وفي قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ﴾ ذكَرَ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية: يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: المُحاجَّةُ: أنْ كيفَ يَحْسُدُونَ محمداً ﷺ، وأتباعَهُ مِنْ آلِ إبراهيمَ وأولادِهِ بما خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ فَضلِهِ؟ ولم يَزَلْ ذلكَ في آلِ إبراهيمَ، ولم يكونُوا حَسَدُوهُمْ.

الآية ٥٥ على هذا قولُهُ تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي بمحمدٍ ﷺ أو بكتابِهِ [الذي][4] أُنْزِلَ عليهِ.

والثاني: أنْ يكونَ على التَّصبيرِ على أذاهُمُ الذي كانَ منهُمْ بالحَسَدِ. فقد[5] كانَ هذا في مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ آلِ إبراهيمَ[6] ومِنَ الحُسّادِ لَهُمْ في ذلكَ والمُؤذِينَ لَهُمْ، فَصَبَرُوا، ولم يكافِئُوهُمْ، نحوُ قولِهِ تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بإبراهيمَ ﷺ، أو بما أُنْزِلَ عليهِ أو آلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الأصلُ في اختِلافِ التأويلِ، والآيةُ واحدةٌ في ما يَجِبُ في ذلكَ مِنَ الحَقِّ، أنهُ على أقسامٍ:

أحدُها: أنه يَتَّسِعُ الكُلَّ.

[والثاني][7]: يَحْتَمِلُ دخولَ الكُلِّ في المرادِ.

و[الثالث][8]: يَحْتَمِلُ إرادةَ البَعْضِ. فإنْ كانَ ذلكَ مِمّا يَجِبُ العملُ بِهِ يَلْزَمُ طَلَبَ الدليلِ على المَوقِعِ لِلْمُرادِ؛ فإنْ وُجِدَ مِنْ طريقِ الإحاطةِ [فقد][9] شَهِدَ عليهِ بالمُرادِ، وإنْ لم يُوجَدْ [يُعْمَلُ][10] بهِ على حَسَبِ الإذْنِ في العَمَلِ بِهِ بالاجْتِهادِ مِنْ غَيرِ الشهادةِ عليهِ أنهُ المَقصودُ لا غَيرُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنَّ ذلكَ مِمّا لا يَجِبُ العَمَلُ بِهِ، وإنَّ حَقَّهُ الشهادةُ يُشْهِدُ بِهِ على ما هو في الحكمةِ وُجوبُ تلكَ الشهادةِ مِنْ غَيرِ أنْ يُقضَى على الآيةِ بِقَصْدِ ذلكَ إذا كانَتْ بِحَيثُ تَتَّسِعُ لهُ ولِغَيرِهِ، نحوُ القولِ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] على إثْرِ [أمورِ لَهُمْ][11] مِنْ أدِلَّةِ الخُصوصِ، لو كانَتْ تَحْتَمِلُ الخُصوصَ.

وفي الحِكْمَةِ أنهُ سامِعٌ كلَّ صوتٍ وعَليمٌ بكلِّ شيءٍ؛ فيه يُشْهَدُ. ولا يُقالُ في ذلكَ: إنهُ أرادَ أنْ [يكونَ][12] مِنَ الخاصِّ نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧]. قالَ قومٌ: لا يَقَعُ الطلاقُ حتى يُوقِعَ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ ﴿سَمِيعٌ﴾ ولو أوقَعَ الطلاقَ بِغَيرِ قولٍ لم يكُنْ لِذِكْرِ السَّميعِ في هذِهِ المواضِعِ[13] فائدةٌ. وقالَ قومٌ ﴿سَمِيعٌ﴾ لإيلائِهِ، إذ[14] هو قَسَمٌ يَنْطِقُ بِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِعَزمِهِ. وقد ذكَرَ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فَيَجِبُ توجيهُ كلِّ حرفٍ لِيُفيدَ حَقيقَتَهُ، ذلك في هذِهِ المَواضِعِ. ولو كانَ لا يَقَعُ دونَ قولٍ لكانَ كلُّ أمرِهِ [سَميعاً فَيَلْتَقي][15] القولُ بأنَهُ ﴿سَمِيعٌ﴾ عنِ القَولِ بأنهُ ﴿عَلِيمٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: لإيفاء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فما. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ومن فضله. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عمل. (١١) في الأصل وم: أمورهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: الموضع. (١٤) من م، في الأصل: إن. (١٥) في الأصل: سميع ليلتقي، في م: سميع فيلتقي.

وفي جملةِ القَصْدِ[1] من طريقِ الحِكْمَةِ أنهُ سَميعٌ بكُلِّ صوتٍ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ. لكنْ في النَّوازِلِ يَتوَجَّهُ وجهَينِ:

[أحدُهُما:][2] لا يَجِبُ القطعُ عليهِ في الإرادةِ إلّا أنْ يجيءَ ما يُوجِبُ الإحاطَةَ، وقد عَمِلَ بهِ الخَلْقُ على الاختِلافِ، واللهُ أعلَمُ.

ووجهٌ آخرُ: منَ التأويلِ أنه يَحتَمِلُ وجوهاً لا يَسَعُ لِلكُلِّ في حقِّ العَمَلِ وفي حقِّ الشهادةِ، لكنها لأحدِ الحقَّينِ. فإنْ كانَ ذلكَ في حقِّ العَمَلِ يَجِبُ طَلَبُ دليلِهِ.

ويكونُ الدليلُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يُوجَبَ على حقِّ العَمَلِ والشهادةِ جميعاً، والآخَرُ أنْ يُوجَبَ [على][3] حقِّ العَمَلِ خاصةً، وقد بيَّنّا ذلكَ. وإنْ كانَ في حقِّ الشهادةِ فيجبُ الوَقْفُ في تَحقيقِ المرادِ والتَّسْليمِ لِلّهِ حتى يَظْهَرَ؛ وذلكَ في حَقِّ إضافةِ الاسْتِواءِ إلى اللهِ تعالى على العرشِ والقولِ بالرُّؤْيَةِ مِنْ حَيثُ ما بهِ يُرَى على الإشارةِ إليهِ / ٩٨ ـ ب/ لا بالإحاطةِ ونحوِ ذلكَ مِنَ الأمورِ، واللهُ أعلَمُ.

وَوَجهٌ آخرُ أنْ يكونَ احْتِمالُ وَجوهِها إنما يكونُ بِمُقَدِّماتٍ، فتختَلِفُ على اختِلافِ تلكَ المُقَدِّماتِ، فلا يجوزُ تأويلُ تلكَ إلّا بِمَعْرِفَةِ المُقَدِّمَةِ إذا لم تكُنْ فيها غيرَ مَعروفةِ المَوقِعِ مِنَ المُقَدِّمَةِ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧] لم يكُنْ لِأحَدٍ تأويلٌ واحدٌ مِنَ الوجهَينِ حتى يُعْلَمَ بالسَّمْعِ أنهُ فِيمَ كانَ مَشغولاً؟ وقولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] لم يكُنْ لِأحَدٍ طَلَبُ مُرادِ قائِلِهِ أو تأويلُ مُرادِهِ، ولا يَظْفَرُ بهِ إلّا بالوَحْيِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

والقَولُ في حقِّهِ إلى أنْ يَتَبَيَّنَ ما كانَ في حقِّ الشهادةِ فَلازِمٌ الوَقْفُ فيهِ حتى يَظْهَرَ. وما كانَ في حَقِّ العَمَلِ؛ فإنْ كانَ في نوعِ ما يَحتَمِلُ الاحتِياطَ فَحَقُّهُ القيامُ بهِ حتى يَظْهَرَ دليلُ التَّوسُّعِ على الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْتُ. وإنْ كانَ في ما لا يَحتَمِلُ الاحتِياطَ فَحَقُّهُ التَّوَقُّفُ حتى يَظْهَرَ، واللهُ أعلَمُ. ولا يَخْلُو شَيءٌ إلّا أحَدُ الوجهَينِ بهِ حاجةٌ مِنْ دليلٍ يكونُ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي غَيرَ جُلُودِ النَّضيجةِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] أي نُجَدِّدُ ما قد فَنِيَ. وكذلكَ أُعيدَ ما قد كانَ مِنَ الجُلودِ قَبْلَ النُّضجِ جديداً في رَأيِ العَينِ مِنْ حَيثُ صارَ الأوَّلُ نَضِيجاً لا أنْ كانَ هذا غَيرَ الأوَّلِ؛ بل هو الأوَّلُ غيرُ نَضيجٍ، إنَّ ذلكَ بَعْثُ[4] الأوَّلِ وتعذيبُ ما كانَ ارْتَكَبَ المَعْصِيَةَ لأنَّ التعذيبَ في الحقيقةِ على غيرِ الذي أَثِمَ فيهِ.

وقالَ قائلونَ: الجُلُودُ والعِظامُ ونَحوُ ذلكَ لم تكُنْ عَصَيَتْ، ولا أطاعَتْ بَلِ اسْتُعْمِلَتْ قَهْراً وجَبْراً، لا أنها عَمِلَتْ طَوعاً، لكنَّ الذي بِهِ عَمِلَتْ والذي اسْتَعْمَلَها في الجَسَدِ، بهِ يَتَلَذَّذُ، ويَتَألَّمُ، فهو المُعَذَّبُ والمُثابُ بما صَدَرَ مِنَ الجَسَدِ.

ألَا تَرَى أنَّ أجسادَ أهلِ الجنةِ تَزدادُ [حُسْناً وجمالاً، وجُعِلَ لأصلِها][5] حدٌّ لا يَزدادُ، ولا يَنتَقِصُ، وأجسادَ أهلِ النارِ مُشَوَّهَةٌ قبيحةٌ ليكونَ لَهُمْ في التَّقْبِيحِ عُقوبَةٌ، ولِلأوَّلِ بالتَّحْسِينِ ثوابٌ، فكانَتْ فيها أحوالٌ لِلْجَزاءِ لم تكُنْ للأعمالِ؟ فَثَبَتَ أنَّ المُثابَ والمُعاقَبَ ما ذَكَرْتُ، لكنَّهُ يتألَّمُ، ويَتَلَذَّذُ، فَجُعِلَتْ على ما بها تَمامُ اللَّذَّةِ والألَمِ مِنَ الأجسادِ لا على إعادةِ أنْفُسِ تلكَ الأجسادِ بل على التَّجديدِ كما ذَكَرَهُ القرآنُ.

وكذلكَ المَقْطوعُ بَعْضُ الأعضاءِ في حالِ الكُفْرِ إذا أسْلَمَ يُبْعَثُ سَليماً لا كذلكَ، ومثلُهُ في حالِ الإسلامِ، لو أُريدَ لَمْ يُرفَعْ عنهُ ألَمُ ذلكَ. فَدَلَّ الذي ذَكَرْتُ على حقِّ تَجَدُّدِ[6] والثاني: على ما شاءَ اللهُ، والذي بهِ كانَ المأثَمُ والبِرُّ على ما قد كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وللمذهبِ الأوَّلِ أنَّ الجزاءَ هو لِما يُخْتَمُ عليهِ، إذ[7] لو كانَ أسْلَمَ[8] لَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ أحْسَنَ الأحوالِ، وأسْلَمَ النِّيَّةَ[9] لِيَسْتَعْمِلَها بالخيرِ، فَأوجَبَ ذلكَ إبطالَ جَميعِ السَّيِّئاتِ، كانَتْ بِجَوارِحَ ذهبَتْ، أو بَقِيَتْ.

(١) في الأصل وم: العقد. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: نعت. (٥) في الأصل وم: الحسن والجمال وجعل لأهله. (٦) في الأصل وم: تجد. (٧) من م، في الأصل: إذا. (٨) في الأصل وم: إسلام. (٩) في الأصل وم: البينة.

وكذلكَ مَنِ اختارَ[1] الكُفرَ فقدْ آثرَهُ، واختارَ أنْ يكونَ على ذلكَ وإنْ سَلِمَتْ جوارِحُهُ، وتَمَّتْ، يَلْزَمُهُ[2] حُكْمُ احتياطِ جميعِ ما تَقَدَّمَ بكلِّ فائتٍ وباقٍ.

وفي الأوَّلِ اسْتوجبَ جَعْلَ ما تَقَدَّمَ منهُ بالفائتِ والباقي حَسَناتٍ لِمَا نَدِمَ عنِ الكُلِّ بكُلِّ الجوارحِ، فَلَحِقَ حُكْمُ تبديلِ السَّيِّئاتِ بالحَسَناتِ في الكُلِ، فيكونُ على حكْمِ إعادةِ الأوَّلِ بِحَقِّ التَّجديدِ في المعنَى، واللهُ أعلَمُ، نحوُ قولِهِ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [آل عمران: ٢٢] وقولِهِ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ الآية [الفرقان: ٧٠]، وفي الإعادةِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ الآية [الإسراء: ٥١] وقولِهِ تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ الآية [الرعد: ٥] وغيرِ ذلكَ مِنْ آياتِ البعثِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قائلونَ: الواجبُ مِنَ العقوبةِ لِلْكُفرِ[3] وغيرِهِ بِحُكْمِ التَّبعِ لهُ، وكذلكَ الثوابُ الواجِبُ عنهُ للإيمانِ ولِغَيرِهِ بِحُكْمِ التَّبعِ، بل بهِ قامَ، والأوَّلُ بهِ سَقَطَتْ مَشِيئةُ العَفوِ، فصارَ الذي بهِ الجزاءُ خاصّاً، وغيرُهُ بِحُكْمِ التَّبعِ يَزدادُ، ويَنْتَقِصُ. فَعَلَى ذلكَ أمْرُ الجزاءِ والتَّجديدِ والإعادةِ، وكلُّ ذلكَ لِلَّذي هو بِحَقِّ التَّبعِ والأتباعِ في الشاهِدِ تَتَجَدَّدُ عينُ الأفعالِ، ولا تَدومُ، [والاعْتِقادُ في الأمْرَينِ يَدومُ عَلَى][4] ذلكَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

ولهذا الوجهِ ما يُبْطِلُ الجلودَ لِما سِوَى الكُفرِ؛ إذْ في ذلكَ إبطالُ الجزاءِ الدائِمِ مِنْ حيثُ الأفعالُ، وإدامَةُ الجزاءِ المُنْقَطِعِ مِنْ حيثُ الأفعالُ. فيكونُ فيهِ زيادةٌ في العقوبةِ على المِثْلِ، واللهُ يَقولُ: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠ وغافر ٤٠] واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم اخْتُلِفَ في المَبْعُوثِ أنهُ يُبْعَثُ بِجَسَدِهِ، أو يُبْعَثُ [البَعْثَ][5] الرُّوحانيّ، منهُ سِمَةُ بعضِ الفلاسِفَةِ نَفْياً، وبعضِهِمْ جَوهَراً رُوحانِيّاً، وبعضِهِمْ بَسيطاً. فإنْ كانَ جَسَدٌ، فيه رُوحانيٌّ في حياتِهِ، ومنافِعُهُ وجَسَدُهُ لهُ كالمنافِعِ عن جَميعِ ما يَحْتَمِلُ مِنَ الأحوالِ[6]؛ إذِ الجَوهَرُ الرُّوحانيُّ لَطيفٌ، يَنْفُذُ في الأشياءِ، ويَتَخَلَّلُ إلّا بالحابِسِ، بَيَّنَ ذلكَ أمرُ النائمِ أنَّ النفسَ تَخرُجُ لقولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] أو هي ممّا تَسْكُنُ الجَوارحَ، ويَنْقَطِعُ عنها هَمُّ الجَسَدِ، بهِ تَرْجِعُ إلى حَقِيقَةِ[7] جوهَرِهِ، فَيَراها تطوفُ في البلادِ النائيةِ وفي الأمْكِنَةِ العُلْوِيَّةِ حتى لا تَضَعُها أرضٌ ولا سماءٌ، تأتي بالأخبارِ عنها كأنّها شاهِدَةٌ.

أمّا ما كانَ ذلكَ عَمَلُها بالجَوهرِ حيثُ يكونُ مِنَ النَّفاذِ إذا لم تُحْبَسْ، أو هي بالجوهَرِ تَخرُجُ، فَيَعْمَلُ ذلكَ، وهي تَسْمَعُ، وتُبْصِرُ، وتَعْقِلُ في المَنامِ، كأنها بالجَسَدِ كانَتْ[8]. فدلَّ أنَّ العَمَلَ في حالِ اليَقْظَةِ، ومالَهُ الجزاءُ لها. فَعَلَى ذلكَ أمرُ الجزاءِ، وعلى ذلكَ جميعُ الجواهرِ التي بها الأغذيةُ. والحياةُ ليسَتْ بأعْيُنِ تلكَ الأشياءِ، ولكنْ بما جَعَلَ [اللهُ][9] في سِرِّيَّتِها مِنَ الرُّوحانيِّ، وهي القِوَى التي تَظْهَرُ في البَدَنِ إلى كلِّ أجزاءِ البَدَنِ، فَتَقْوَى، وتَصِحُّ فيهِ بِحَياةِ رُوحِهِ، وتَزولُ عنهُ الآفاتُ. وكذلكَ عنِ السَّمْعِ والبَصَرِ حَلُّ شيءٍ ثُمَّ تِلْقاءَ نَقْلِهِ. فَعَلَى ذلكَ أمْرُ المَعادِ مِنَ الجزاءِ، فهو على ذلكَ.

وكذلكَ الثوابُ يكونُ مِنْ كُلِّ مَوعودٍ ممّا يُعْرَفُ في الشاهِدِ بِجَسَدِهِ يُرْجِعُ الرُّؤْيَةَ التي هي رُوحٌ في الجَسَدِ. ألا تَرَى أنهُ لا تَبْقَى في الآخرةِ بالكُلِّ الأجسادُ التي تُلْقَى، وهي الأثقالُ التي تَفْضُلُ في الجَسَدِ، ويَخْرُجُ عنها جَميعُ ما فيها مِنَ الأقْوِيَةِ والرُّوحِ؟ فَثَبَتَ أنَّ الأمْرَ يَرْجِعُ إلى ما ذَكَرتُ. وهذا مَعْنَى قولِهِ ﷺ: «ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [البخاري: ٣٢٤٤] لأنَّ ذلكَ الجَوهَرَ لا تَراهُ العَينُ، ولا تَسْمَعُهُ الأُذُنُ في الشاهِدِ، ولا يَخْطُرُ على القَلْبِ، وتكونُ لَذَّةُ ذلكَ روحانيَّةً[10]، لا [مِثْلَ][11] هذهِ لَذَّةُ الحياةِ، بِحَياتِها السَّمْعُ والبَصَرُ، وكلُّ باطِنٍ في الجَوهَرِ. ولَذَّةُ الأجسادِ إنما تكونُ باللَّهاةِ في الطَّعْمِ وبالعَينِ في اللَّونِ، وهذا النوعُ: يَذْهَبُ هذا، ويكونُ الأوَّلُ.

---

(١) من م، في الأصل: اختيار. (٢) في الأصل وم: فلزمه. (٣) من م، في الأصل: لكفر. (٤) في م: والاعتقاد في الأمرين يدوم فعلى، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الأموال. (٧) في الأصل وم: حصة. (٨) في الأصل وم: كذلك. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: روحانيا. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وعلى ذلكَ تَذهَبُ العباداتُ الجَسَدانيَّةُ، وتَبْقَى الروحانِيَّةُ مِنَ الحَمْدِ والثَّناءِ والتَّعْظيمِ والهَيْبَةِ والمَعْرِفَةِ، ونَحوُ ذلكَ يَبْقَى أبداً. بل يَزْدادُ لِما يذهَبُ عنها الحَواجِبُ مِنَ الجَسَدانيِّ.

وعلى ذلكَ يَبْطُلُ تَقْديرُ الرُّؤْيَةِ، وإبطالُهُ ممّا عليهِ أمرُ الشاهِدِ لِذَهابِ ما بهِ كونُها في الشاهِدِ. ورجوعُ الأمرِ إلى ما يُحاطُ بهِ على سُقوطِ الحَواجِبِ، واللهُ أعلَمُ.

اختَلَفَ مَنْ ذكَرْتُ في أمرِ البَعْثِ؛ فَمِنهُمْ مَنْ لا يَرَى على إحْياءٍ في الجَسَدِ مِنَ الرُّوحانيِّ فَناءً. والبَعْثُ هو إسقاطُ الأجْسادِ وخروجُ ما فيها مِنَ الرُّوحانيِّ بِصُوَرِها.

ومنهُمْ مَنْ يَقولُ: تَفْنَى، وتُعادُ على حالِها. ومَعْلومٌ أنَّ ذِكْرَ الجَديدِ لا يُحْتَمَلُ بلا ذهابِ الأصلِ، وذِكْرَ الإعادَةِ بِلا فَوتِهِ. وقالَ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] وجَعَلَ النَّشْأةَ الأولَى دلالةً لِأُخرَى. وليسَ ثَمَّ أُخرَى، بل هيَ الأولَى. والأولَى هي على ما تَزْعُمونَ غَيرُ مَعْروفَةٍ عندَ المُنْكِرِينَ. فَنَحْتَجُّ عليهِمْ بها، بل يَجِبُ أنْ يَعْرِفُوا الأُولَى أوّلاً، ثم يُساعِدُوا / ٩٩ ـ أ/ على نَفْيِ البَعْثِ، ويُلْزَمُوا[1] الإظهارَ.

والدَّهرِيَّةُ ومُنْكِرُو[2] البَعْثِ يَقولُونَ في جميعِ العالَمِ بالظُّهورِ بَعْدَ الكَونِ وبالكونِ في الأُصولِ بالقُوَّةِ ثم الظُّهورِ بالفِعْلِ. فكيفَ يُنْكِرُونَ البَعْثَ لِنَحْتَجَّ عليهِمْ بالخَلْقِ الأوَّلِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قومٌ بالبَعْثِ بالأجسادِ على ما كانَتْ، لكنّها كانَتْ في الدنيا مُنشَأَةً لِلْفَناءِ، مُشْتَمِلٌ عليها آثارُ الفَناءِ، ويُحِيطُ [بها مِنْ][3] أعلامِ الهَلاكِ ومِنْ آفاتٍ كُلُّها سَواتِرُ[4] تَحْجُبْنَ عنْ أعمالِ لطائِفِ الجواهِرِ وعنْ إدراكِ الرُّوحانِيِّينَ. وإلّا فهيَ كما وصَفَهُمُ اللهُ تعالى أنهمْ خَلَقَهُمْ ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وكَرَّمَهُمْ بأقْوَمِ جوهَرٍ وأكْمَلِ[5] سِرٍّ وأنقَى خِلْقَةٍ.

فإذا وقَعَتْ عليهِمُ الآفاتُ، وأُعِيدُوا لِلْبَقاءِ، تَزُولُ[6] عنهُمْ جَميعُ الظُّلُماتِ التي هي حَواجِبُ وسَواتِرُ لَهُمْ على الإحاطَةِ بِحَقائِقِ الأشياءِ وبَواطِنِها. وعلى شَكْلِهِمْ تَنشَأُ الأجسادُ المَجْعُولَةُ جَزاءً لَهُمْ، فَيُلْحَقُونَ بِجَميعِ اللَّطائِفِ أجساداً[7] بِما فيها مِنَ الجَواهِرِ الرُّوحانِيَّةِ؛ تَصيرُ هذِهِ في اللُّطْفِ، كذلكَ الجَوهَرُ. وهيَ ما تُنْقَلُ إلى الْلُطفِ مِنْ ذلكَ وأنْوَرَ لَهُمْ كما لا مَرُّوا، فَيُفَضَّلُونَ على الرُّوحانِيِّينَ بأجْسادٍ فيها مَعانيها مِنَ اللَّطافَةِ والنَّفاذِ في الأمورِ التي هي كالرُّوحانِيِّينَ في التمثيلِ، وما فيهِمْ حَقُّ الرُّوحانِيِّينَ: الظَّفَرُ عنْ ذلكَ بارتِفاعِ آثارِ الفَناءِ عنها وخُروجِها مِنْ أنْ يَعْمَلَ فيها الفَسادُ، وعلى ذلكَ أجسادُ الجزاءِ فإنها تُخْرَجُ عنِ الآفاتِ، وتُمْنَعُ عنِ الفسادِ، وتَصيرُ أجسادُها في الطِّيبِ، والضِّياءُ الرُّوحانيُّ[8] بَقِيَ فيها على كلِّ حالٍ لا يَفْنَى.

والأصلُ فيهِ الجزاءُ بِحَقِّ[9] الشَّهَواتِ واللَّذّاتِ لا بِحَقِّ الأغذيَةِ وحياةِ المُسْتَضْعَفِينَ بها، فَتَكُونُ هي بِجَسَدِها وسِرِّيَّتِها واحدةً، وبَقاءُ[10] الأجسادِ إليها أحقُّ مِنْ بقاءِ الرُّوحانيِّ في هذا العالَمِ مِنْ طريقِ الاعْتِبارِ لأنَّ الذي لهُ حَقُّ الروحانيِّ في الشاهِدِ بهِ البَقاءُ والغِذاءُ والحَياةُ لِما يدفَعُ بها الآفاتِ العارضةَ في الأرواحِ مِنْ جِهَةِ الغَوالِبِ التي تَضْعُفُ، وتَقْوَى. وفي الآخِرَةِ لا تَعْرِضُ الآفاتُ، فَتَحْتاجُ[11] فيها إلى الأغذيَةِ، وإنما تَنالُ أوفَقَ مِنْ حُجَجِ السَّمْعِ، وما عليهِ الاعتِبارُ.

وأمّا حُجَجُ السَّمْعِ فإنَّ اللهَ ﷻ قالَ: ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ الآية [الحج: ٥] وقالَ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ الآيةَ [الإسراء: ٤٩ و٩٨]، وقالَ: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨ و٧٩] وغَيرُ ذلكَ ممّا حاجَّ بهِ مُنكِرِي البَعْثِ. والإشكالُ كانَ لَهُمْ في الأجْسادِ وفي ما جَرَتْ بِهِ المُحاجّاتُ. لِذلكَ كانَتِ الأشياءُ اللَّطيفَةُ التي لا تُمَسُّ، ولا تُحَسُّ، في التَّجديدِ، لم تَكُنْ بِحَيثُ احْتِمالُ الإنكارِ لِوُجُودِهِمْ في كلِّ حالٍ، نَحْوَ العُقولِ تَذْهَبُ بأسبابٍ، ثم تَعودُ، وكذلكَ العقولُ والسَّمْعُ والبَصَرُ ونَحْوُ ذلكَ، ثم الحِسِّيّاتُ نَحْوُ الليلِ والنهارِ والنُّورِ

(١) في الأصل وم: ويلزمون. (٢) في الأصل وم: ومنكري. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وسواتر. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فتزول. (٧) في الأصل وم: جسداً. (٨) في الأصل وم: كالروحاني. (٩) في الأصل وم: لحق. (١٠) في الأصل وم: وبقايا. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم.

والظُّلمةِ والظلِّ ونحْوُ ذلكَ؛ يَرَوْنَ الفَناءَ والعَوْدَ في كلِّ حينٍ، ولا يُنْكِرُونَ[1] هذا النوعَ لِيُحاجُّوا بالذي ذَكَرَ وبهذا، فلذلكَ كانَ القولُ بالأجسادِ أحقَّ، واللهُ أعلمُ.

والاعْتِبارُ أنَّ اللهَ ﷻ أنشأَ هذا الخلْقَ على ما يَتَلَذَّذونَ، ويَتَأَلَّمونَ، لِيكونَ ذلكَ عِلْماً للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ بالمَوعُودِ وما يَحِلُّ مِنَ الآفاتِ وأضدادِها في الرُّوحانيِّ، في الجَسَدِ يكونُ لهُ سُرورٌ، وحُزْنٌ، يَتَألَّمُ، ويَتَلَذَّذُ. وقد جَرَى الوعدُ بالمُؤْلِمِ والمُلِذِّ. وكذلكَ حِكْمَةُ خَلْقِ الجَسَدِ على ذلكَ بما يُحقِّقُ العِلْمَ بالمُرْغِبِ والمُرْهِبِ مِنَ المَوعُودِ. على أنَّ السُّرورَ والغُمومَ لَيسا يُرْغَبُ فيهما، أو يُزْهَدُ، إلّا مِنْ حَيثُ يألَمُ الجَسَدُ، ويَتَلَذَّذُ، بل يكونُ فيهِ الأمرانِ لِيُسَرَّ، ويَحزَنَ. فذلكَ كانَ القولُ بالأجسادِ أحقَّ مِنْ طريقِ التقديرِ على ما جرى به حقُّ السمعِ والعَقلِ، واللهُ أعْلَمُ بِحَقيقَةِ ذلكَ، وبِيَدِهِ المُلْكُ، يُكْرِمُ مَنْ يَشاءُ بما يشاءُ فَضلاً منهُ، يُهِينُ مَنْ يَشاءُ بما يَشاءُ عَدلاً منهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بما أنْزَلَ على محمدٍ ﷺ، مِنَ اليَهودِ ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ يعني عن إبراهيمَ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ كانَّ جهنَّمَ، واللهُ أعلَمُ، مُعظَمُ النارِ وجَميعُ دَرَكاتِها، والسَّعيرُ هو التِهابُها ووَقُودُها، كقولِهِ تعالى، ﷻ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣ و٤٤].
ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ﴾ أي بالتِهابِ جَهَنَّمَ التِهاباً، إذِ السَّعيرُ الالْتِهابُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تَحتَمِلُ الآياتُ أعلامَ الدينِ وآثارَهُ، وتَحتَمِلُ الآياتُ آياتِ الرُّبوبيَّةِ لَهُ، وتَحتَمِلُ الآياتُ أعلامَ رسالةِ الرسولِ ﷺ، فيكونُ الكُفرُ بها كُفراً باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ قيلَ: ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ نَشْويهِمْ. يُقالُ: شاةٌ مُصْلَيَةٌ مَشْويَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ كُلَّما احتَرَقَتْ ﴿جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي جَدَّدْنا لَهُمْ جُلوداً غَيْرَها، لِيَزدادوا التِهاباً وإيقاداً مِنْ غَيرِ أنْ يَسكُنَ ألَمُ العَذابِ؛ فهيَ[2] مِنْ حَيثُ التَّجديدُ غيرُها[3]؛ لأنَّ الأولَى قَدِ احتَرَقَتْ، ونَضِجَتْ، ومِنْ حَيثُ العَيْنُ نَفْسُها.

ألَا تَرى ما يُقالُ: تَبَدَّلَ فُلانٌ، فإنما يُقالُ مِنْ حَيثُ تَغَيُّرُهُ مِنْ لَونٍ إلى لَونٍ، لا أنْ كانَتْ تَحوَّلَتْ نَفْسُهُ وتَبَدَّلَتْ[4] مِنْ حالٍ إلى حالٍ، فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ هي مِنْ حَيثُ العَيْنُ إنها تِلْكَ بِعَينِها واحِدَةٌ[5].

وعلى ذلكَ البَعْثُ بعدَ المَوتِ، والإنشاءُ مِنْ حَيثُ التَّجديدُ غَيرُهُ[6] حَيثُ أُفْنُوا[7]، وذَهَبَتْ آثارُهُمْ، ومِنْ حَيثُ الإعادةُ إلى الحالةِ الأولَى هم بأنفُسِهِمْ لَيسُوا بِغَيرِهِمْ[8]. وعلى ذلكَ قد سُمِّيَ البَعْثُ خَلْقاً جَديداً، وإنْ كانَ بَعْثُ الأولَى في المَعْنَى.

ثم تَكَلَّمُوا في قولِهِ تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾؛ قالُوا: كيفَ كانَ؟ أن يُعَذِّبَ جُلوداً لا مَأْثَمَ، وإنما المَأْثَمُ في الجُلُودِ التي احتَرَقَتْ، ونَضِجَتْ، وقالُوا: أيْدُنا في مَنْ قُطِعَتْ[9] يدُهُ، وهو كافرٌ، ثم أسْلَمَ، فماتَ على الإسلامِ. ما حالُ اليَدِ المقطوعةِ؟ تُعَذَّبُ في النارِ، أمْ تكونُ مَعَ النَّفسِ في الجنةِ؟ وفي مَنْ قُطِعَتْ يَدُهُ، وهو مُسْلِمٌ، ثم كَفَرَ، وماتَ على كُفْرِهِ. تَلْحَقُ النَّفسَ، أمْ تكونُ في الجَنّةِ؟ فالجوابُ لهذا كُلِّهِ أنَّ الجَوارِحَ والأعضاءَ لَيسَتْ تَعْمَلُ ما تَعْمَلُ بالاختيارِ والطَّوعِ، ولكنها كالمُكْرَهاتِ والمَقْهُوراتِ في العَمَلِ.

ألَا تَرى أنَّ الإكراهَ عليها يُوجِبُ تَحويلَ الفِعْلِ منها إلى المُكْرِهِ، فَيُجْعَلُ كأنَّ المُكْرَهَ هو الذي قد فَعَلَ ذلكَ في حَقِّ الضَّمانِ؟ فهذا يدلُّ أنَّ هذهِ الجَوارِحَ كالمُكْرَهاتِ والمَقْهُوراتِ [لِحِقَتِ النَّفسَ][10] حَيثُ كانَتْ. ثم مَعْلُومٌ أنَّ مَنْ أسْلَمَ في آخِرِ عُمْرِهِ يَتَمَنَّى سَلامَةَ جَوارِحِهِ التي كانَتْ ذَهَبَتْ عنهُ لِيَعْمَلَ بها في طَلَبِ مَرْضاةِ رَبِّهِ تعالى. وكذلكَ مَنْ كَفَرَ بعد الإسلامِ

---

(١) في الأصل وم: لها ينكرون. (٢) في الأصل وم: فهو. (٣) في الأصل وم: غير. (٤) في الأصل وم: تبدل. (٥) في الأصل وم: واحد.
(٦) في الأصل وم: غير. (٧) في الأصل وم: تفانوا. (٨) في الأصل وم: بغير. (٩) في الأصل وم: قطع. (١٠) من م، في الأصل: لحقنا أن النفس.

يَتَمنَّى سَلامَةَ جَوارِحِهِ، لِيَسْتَعْمِلَها[1] في ما اخْتارَ مِنَ الدِّينِ. فإذا كانَ كذلكَ لَحِقَتِ النَّفْسَ حَيْثُ كانَتْ في طاعَتِها ومَعْصِيَتِها.

وقالَتْ فِرقَةٌ مِنَ المُلْحِدَةِ: إنَّ الثوابَ في الآخِرَةِ لا يكونُ لهذِهِ النفسِ التي تَأْكُلُ، وتَشْرَبُ، وتَعْمَلُ كلَّ ما تَعْمَلُ، ولكنْ إنما يكونُ لِلرُّوحانِيِّ الذي جَوهَرُهُ[2] جَوهَرُ النورِ. لكنَّ هذِهِ النفسَ مُمْتَحَنَةٌ في الدنيا بالأكْلِ والشُّرْبِ مَشوبَةٌ بالآفاتِ والعُيُوبِ. فإذا صَفَتْ عنِ الآفاتِ، وتَنَزَّهَتْ عَنِ العُيُوبِ التي بها امْتُحِنَتْ، صارَتْ أهْلاً لِلثَّوابِ العظيمِ ومَحَلّاً لِلْجزاءِ الجَزِيلِ، وباللهِ العِصْمَةِ والنَّجاةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أمّا ذَوقُ الطَّعامِ والشَّرابِ فيكونُ[3] بالفَمِ، لِيُعْرَفَ طَعْمُهُ ولَذَّتُهُ. وأمّا ذَوقُ العَذابَ فإنما يكونُ بِكُلِّ جارِحَةٍ منهُ لِيُحْذَرَ[4] ألَمُ ذلكَ في جَميعِ الجَوارِحِ، واللهُ أعلمُ. والذَّوقُ / ٩٩ ـ ب/ في العُرْفِ لِيُعْرَفَ الطَّعْمُ يُقَلَّبُ فيهِ كلُّ شيءٍ، فَيُعْرَفُ[5]. يُقالُ: لِفُلانٍ ذَوقٌ في أمْرِ كذا أي بَصَرٌ ومَعْرِفَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. قيلَ: العَزِيزُ ما يَتَعَزَّزُ وُجودُهُ في الشاهِدِ. وقيلَ: هو عَزيزٌ، لا يُعْجَزُ، فهو عزيزٌ لِما لا يُوجَدُ في الأفهامِ، ولا يُدْرَكُ بالأوهامِ، وقيلَ: العزيزُ المُنْتَقِمُ، وقد ذُكِرَ في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الآفاتِ والعُيُوبِ لَيْسَ كأزواجِ الدنيا ونِسائِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ لا تَنْسَخُهُ الشمسُ، ولا أذى فيهِ؛ لأنَّ الشَّمْسَ فِيها مَنافِعُ لِلنّاسِ وأذًى، وكذلكَ القمرُ فيهِ أذًى، وإنْ كانَ فيهِ مَنافِعُ، والظُّلْمَةُ كذلكَ فِها مَنافِعُ وأذًى. وأمّا الظِّلُّ نَفْسُهُ فليسَ فيهِ أذًى على كلِّ حالٍ. فإنْ كانَ فهو لِلزَّمانِ لا لِلظِّلِّ بِنَفْسِهِ. فأخْبَرَ ﷻ أنهُ يُدْخِلُهُمُ الظِّلَّ الذي ليسَ فيه أذى الشَّمْسِ ولا أذى الظُّلْمَةِ ولا أذى الزَّمانِ، ليس كظِلِّ الدنيا مَشُوباً بِأذى غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ. وذلكَ تأويلُ الظَّليلِ أنْ يُظِلَّهُ عن جَميعِ المُؤذِياتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قِيلَ: «لَمّا فَتَحَ اللهُ مكَّةَ على [يَدِ][6] رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ[7] العَبّاسُ رضي الله عنه: يا رَسولَ اللهِ لو جَعَلْتَ السِّقايَةَ والحِجابَةَ فينا؛ فأخَذَ مَفاتيحَ الكَعْبَةِ مِنَ وَلَدِ شَيبَةَ، فَدَفَعَها إلى العَبّاسِ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى هذِهِ الآيَةَ، فَأخَذَ النَّبِيُّ ﷺ مَفاتِيحَ الكَعْبَةِ، فَرَدَّها إلى وَلَدِ شَيبَةَ. قالَ النَّبِيُّ ﷺ، يا عَمِّ إنَّ اللهَ تعالى أحبَّ أنْ يَرْزَأَ، ولا يَرْزَأَ أشياءَ» [بمعناه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٥٧٠] وقيلَ: إنها نزلَتْ في الأمراءِ في الفَيْءِ الذي استَأمَنَهُم على [جَمْعِهِ وقِسْمَتِهِ][8] والصَّدقاتِ التي استَأمَنَهُم على جَمْعِها وقِسْمَتِها.

والآيَةُ يَجِبُ أنْ تكونَ نازِلَةً في كُلِّ أمانةٍ ائْتُمِنَ المَرْءُ فيها[9] مِنْ نَحْوِ ما كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ وما كانَ فيها بَيْنَ الخَلْقِ. أمّا ما كانَ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ فَمِنْ[10] نَحْوِ العِباداتِ التي أمَرَ المَرْءَ بأدائِها ومَنْ نَحْوِ تَعْلِيمِ [العِلْمِ][11] الذي رَزَقَهُ اللهُ تعالى له كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية [المائدة: ٨] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. كلُّ ذلكَ أمانةٌ تَدْخُلُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وكذلكَ كلُّ أمانةٍ يُؤتَمَنُ المَرْءُ عليها تدخلُ في ذلكَ.

ذُكِرَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قالَ: «أدِّ الأمانَةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ عَلَيها ولا تَخُنْ مَنْ خانَكَ» [أبو داوود ٣٥٣٥].

ومَنْ قالَ: نَزَلَتْ في الأمراءِ اسْتَدَلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ لأنَّ الحُكْمَ إلى الأمراءِ. وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قالَ: (هي مُبْهَمَةٌ، المؤمِنُ والكافِرُ سواءٌ؟).

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ مِنَ الحكومةِ وأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ مُجيباً

---

(١) في الأصل وم: يستعملها. (٢) في الأصل وم: جوهرها. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ليجد. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فقال. (٨) في الأصل وم: جمعها وقسمتها. (٩) من م، في الأصل: فيهما. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

لِمَنْ [دَعاهُ، وسَأَلَهُ][1] كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يُجيبُ لِمَنِ استَجابَهُ، وأدّى الأمانَةَ. ويَحْتَمِلُ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي لا يَخفى عليهِ شيءٌ.

واختَلَفَ أهلُ العِلْمِ في العارِيَةِ إذا ضاعَتْ؛ قالَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ: لا شيءَ عليهِ. وقالَ غيرُهُم: عليهِ الضَّمانُ. ولأصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، عِدَّةُ الحُجَجِ:

أحدُها[2]: أنَّ المُسْتَعِيرَ إنْ لَبِسَ القَميصَ، أو رَكِبَ الدابّةَ، أو حَمَلَ علَيها، ما أذِنَ لهُ في حَمْلِهِ علَيها، وأصابَها في ذلكَ نُقصانٌ في قِيمَتِها، فَلا شيءَ عليهِ. فإذا لَمْ يَكُنْ عليهِ ضمانٌ في ما وَقَعَ بِها مِنَ الضَّرَرِ والنَّقْصِ بِفِعْلِهِ ولِبْسِهِ ورُكُوبِهِ فلا يَجِبُ عليهِ ضَمانُ ما هَلَكَ منها بِغَيرِ فِعْلِهِ.

والثانيةُ:[3] ما رُوِيَ عنِ [أبي حَنيفَةَ][4] عن عليٍّ ؓ [أنهُ][5] قالَ: (العارِيةُ لَيسَتْ[6] بِتَبِعَةٍ ولا مَضْمُونَةٍ إنما هي مَعروفٌ إلّا أنْ [لا][7] تُخالِفَ). ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][8] قالَ: (إذا خالَفَ صاحبُ العارِيَةِ ضَمِنَ) واحتجَّ مَنْ خالَفَ مِنْ أصحابِنا في ذلكَ حديثَ النَّبِيِّ ﷺ، أنهُ قالَ: «على اليَدِ أنْ تَرُدَّ ما أخَذَتْ إذا [كانَتْ قائمةً][9] عليها رَدُّها» [أبو داوود ٣٥٦١]. ألا تَرى أنَّ الوَدِيعةَ لا تُضْمَنُ إذ تَلِفَتْ، وعلَيهِ أنْ يَرُدَّها إذا كانَتْ قائمةً؟ فالعارِيَةُ مِثْلُها؟

والثالثةُ[10]: أنْ يَحْتَمِلَ معنى ذلكَ في الغَصْبِ وأشباهِهِ. فَعَلَى الغاصِبِ أنْ يَرُدَّها [قائمةً أو تالِفَةً][11]. ولا يدخُلُ في عمومِ الخَبَرِ العارِيَةُ. ألا تَرى أنَّ الوَديعةَ لم تدخُلْ فيهِ [وإنْ كانَ فيهِ أخذٌ][12]؟

واحتَجُّوا أيضاً بحديثِ صَفْوانَ [بْنِ أُمَيَّةَ][13] «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ استَعارَ مِنْ صَفوانَ يَومَ حُنَينٍ أدرُعاً؛ فقالَ: أغَصْبٌ يا محمدُ؟ فقالَ: بل عارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ» [أبو داوود ٣٥٦٢] ورُوِيَ في خَبَرٍ آخَرَ «أنَّ [رسولَ اللهِ ﷺ طلَبَ يومَ حُنَينٍ مِنْ صفوانَ ابنِ أميَّةَ أدرعاً][14] فقالَ: يا صَفْوانُ هل عندَكَ مِنْ سِلاحٍ؟ قالَ: عارِيَةٌ أو غَصْباً؟ قالَ: بلْ عارِيَةٌ، فأعارَهُ، ولم يذكُرْ فيه الضَّمانَ» [أبو داوود ٣٥٦٣].

فهي[15] عندَنا، إنْ ثَبَتَ خَبَرُ صَفْوانَ، مَضْمُونَةُ الرَّدِّ؛ على المُسْتَعِيرِ رَدُّ العارِيَةِ، لَيسَتْ[16] كالوَدِيعَةِ، لأنَّ الوَدِيعَةَ ما لم يَطْلُبْ صاحِبُها [رَدَّها لا][17] تُرَدُّ. وقد رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ ما يُؤَيِّدُ قَولَنا، وهو قولُهُ: «العارِيَّةُ مُؤَدّاةٌ» [البيهقي في الكبرى ٦/ ٨٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ كقولِهِ[18] ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَآئِ ذِى الْقُرْبَىٰ﴾ فَمَنْ وُلِّيَ أمراً أو حُكْماً في ما بَيْنَ الناسِ فقد وُلِّيَ الأمانَةَ، وعَلَيهِ[19] أنْ يُؤَدِّيَها إلى أهلِها.

وعلى ذلكَ جاءتِ الآثارُ عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: «ما مِنْ أحدٍ يكونُ على شَيءٍ مِنْ هذهِ الأمورِ، قَلَّتْ، أو كَثُرَتْ، فلا يَعْدِلُ فيها ألا أكَبَّهُ اللهُ تعالى في النارِ» [بمعناه أحمد ٦/ ٣]. وفي خَبَرٍ آخَرَ: «أيُّ ما امرئٍ وُلِّيَ مِنْ أمرِ الناسِ شَيئاً، ثم لم يَجْعَلْهُمْ مِثْلَ ما يَحوطُ بهِ نفسَهُ وأهْلَهُ لم يُرِحْ رائحةَ الجنةِ يومَ القيامَةِ» [البخاري ٧١٥٠] وعنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ؓ [أنهُ][20] قالَ: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ مِنْ أحَبِّ الناسِ إليَّ وأقْرَبِهِمْ مَجْلِساً مِنّي يومَ القيامَةِ إمامٌ عادلٌ، وإنَّ أبْغَضَ الناسِ إليَّ يومَ القيامةِ وأشَدَّهُمْ عذاباً إمامٌ جائرٌ») [الترمذي ١٣٢٩].

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ خصَّ اللهُ تعالى المؤمنِينَ بالخطابِ بالطاعةِ لهُ وطاعةِ الرسولِ وأُولي[21] الأمرِ بما يَعُمُّ المؤمِنَ والكافِرَ جميعاً؟ قيلَ بوجوهٍ ثلاثةٍ:

---

(١) من الأصل وم: دعا له وسأل. (٢) من م، في الأصل: أحدهما. (٣) في الأصل وم: والثاني. (٤) في الأصل: ابن الحنيفة، ابن الحنفية. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ليس. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: كان قائماً. (١٠) في الأصل وم: والثاني. (١١) في الأصل وم: قائماً أو تالفاً. (١٢) من م، في الأصل: أخذ. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: صفوان هرب من رسول الله ﷺ يريد حنينا. (١٥) في الأصل وم: فهو. (١٦) في الأصل وم: ليس. (١٧) في الأصل وم: لم. (١٨) في الأصل وم: وقال. (١٩) في الأصل: يجب، في م: عليه يجب. (٢٠) ساقطة من الأصل وم. (٢١) في الأصل وم: و.

أحدها: أنَّ عادة المُلوكِ أنهُمْ إذا خاطَبُوا بشيءٍ إنما يُخاطِبُونَ أهلَ الشَّرَفِ والمَجْدِ ومَنْ كانَ أسْمَعَ لِخطابِهِمْ وأعظَمَ لِقولِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النحل: ٣٢] وقولِهِ[1] تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ [النحل: ٣٨]؛ يُخاطِبُونَ أبداً أهْلَ الشَّرَفِ ومَنْ هو أقْبَلُ لِقَولِهِمْ وأطْوَعُ لِأمرِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ خاطبَ اللهُ تعالى المؤمنينَ، وأمَرَهُمْ أنْ يُطيعُوهُ، ويُطيعُوا رسولَهُ، وإنْ كانَ الخِطابُ يَعُمُّهُمْ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ بذلكَ للمؤمنينَ خاصّةً لأنَّ الكافِرَ إنما يُخاطَبُ باعتِقادِ الطاعةِ لهُ أوّلاً. فإنْ أجابَ إلى ذلكَ فعندَ ذلكَ يُخاطَبُ بِغَيرِهِ. والمؤمِنُ قدِ اعْتَقَدَ طاعةَ ربِّهِ وطاعةَ رسولِهِ ﷺ لذلكَ خرجَ الخطابُ منهُ للمؤمنينَ خاصةً، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ[2]: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ تَخْصِيصُ الخِطابِ لِلمُؤمِنينَ [لِمَا أمَرَ بطاعةِ][3] أولي الأمرِ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما أمرَ بطاعةِ أولي الأمرِ إذا كانُوا مؤمِنينَ، واللهُ أعلَمُ، فيهِ دلالةُ جوازِ الطاعةِ لِغَيرِ اللهِ لأنَّ كلَّ مَنْ عَمِلَ بأمرِ آخَرَ فَقَدْ أطاعَهُ. [والطاعةُ هي الِائتِمارُ بالأمرِ][4] وأمّا العبادةُ فهي[5] إخلاصُ الشَّيءِ بِكُلِّيَّتِهِ للهِ ﷻ، حَقيقةً؛ إذِ الأشياءُ كلُّها للهِ بِكُلِّيّتِها حقيقَةً ليسَ لِأحَدٍ سِواهُ. لذلكَ لم يَجُزْ أنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللهِ تعالى. وقد يجوزُ أنْ يُطاعَ غَيرُهُ لِما ذكَرْنا أنَّ الطاعةَ هي الِائتِمارُ بالأمرِ، وليسَ العبادةُ كذلكَ. لِذلكَ افْتَرَقا.

ثم طاعةُ الرسولِ ﷺ، تكونُ طاعةً للهِ؛ لأنهُ بأمرِهِ يُطاعُ، وفي طاعتِهِمْ / ١٠٠ ـ أ/ لهُ طاعَتُهُ.

ثم قيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في فَرائِضِهِ، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ، في سُنَّتِهِ. وقيلَ ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ما أمَرَكُمْ، ونَهاكُمْ في كتابِهِ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ في ما أمَرَكُمْ، ونَهاكُمْ في سُنَّتِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾. قيلَ: هُمُ الأمراءُ على السَّرايا. وقيلَ: هُمُ العُلَماءُ والفُقهاءُ. وقيلَ: هُمْ أهلُ الخيرِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾ الذين يُوَلَّونَ السَّرايا. فكيفَ ما كانَ، ومَنْ كانَ فَفِيهِ الدلالةُ ألّا يُوَلّى إلا مَنْ لهُ العِلْمُ والبَصَرُ؟ مِنْ ذلكَ: أُمراءُ السَّرايا كانُوا أو غَيرُهُمْ لأنهُ ﷻ أمَرَ بطاعَتِهِمْ. ولا يُؤمَرُ بطاعةِ أحَدٍ إلّا بِعِلْمٍ وبَصَرٍ يكونُ لهُ في ذلكَ.

والآيةُ التي تقدَّمَتْ، وهي قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ تدلُّ على أنَّ أولي الأمرِ الأمراءُ؛ لأنَّهُ تعالى أمَرَ الحُكّامَ في الآيةِ الأُولى بالعَدْلِ. وأمرَ الرَّعيةَ بالسَّمْعِ لَهُمْ والطاعةِ في ما يَحْكُمُونَ، ويأمُرُونَ، واللهُ أعلَمُ.

ألا تَرى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ[6] رسولِ اللهِ ﷺ، [أنهُ][7] قالَ: «يا أيُّها الناسُ اسْمَعُوا، وأطِيعُوا. وإنْ أُمِّرَ عليكُمْ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ فاسْمَعُوا لهُ، وأطِيعُوا ما أقامَ فيكُمْ كتابَ اللهِ»؟ [ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ١٤١] وعَنِ[8] ابنِ عُمَرَ ﷺ عن رسولِ الله ﷺ [أنهُ قالَ][9]: «على المرءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ والطاعةُ في ما أحبَّ، وكَرِهَ، إلّا أنْ يُؤمَرَ بِمَعصيَةٍ، فَمَنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ عليهِ ولا طاعةَ» [بمعناه البخاري: ٢٩٥٥].

وبَعْدُ فإنَّ[10] الآيةَ التي تَليها تدلُّ على أنَّ أولي الأمرِ الفُقَهاءُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ والتَّنازُعُ يكونُ بَينَ العُلَماءِ. فكأنهُ، واللهُ أعلَمُ، أمَرَ في [الآيةِ الأُولى بِطاعةِ ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾ وأمَرَ في الثانيةِ][11] أولي الفِقهِ بِرَدِّ ما يَخْتَلِفُونَ[12] فيه إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ.

والآيةُ تَحْتَمِلُ المَعْنَيَينِ، واللهُ أعلمُ، أنَّ على العامّةِ طاعةَ أمرائِهِمْ في أحكامِهِمْ، وعليهِمُ اتِّباعَ عُلمائِهِمْ في فُصُولِهِمْ. يُبَيِّنُ ذلكَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآيةَ [التوبة: ١٢٢] فَلَو لم يَجِبْ على قومِهِمْ قَبولُ قَولِ عُلَمائِهِمْ ما وَجَبَ عليهِمْ إنذارُ قَومِهِمْ.

وفي هذهِ الآيةِ إبطالُ قَولِ الرّافِضَةِ في الإمامَةِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل: ما أمر بطاعته، في م: لما أمر بطاعته. (٤) في الأصل وم: هو الائتمار للأمر. (٥) في الأصل وم: فهو. (٦) من م، في الأصل: من. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: هذه. (١١) في الأصل وم: آية أولي الأمر بطاعتهم وأمر. (١٢) في الأصل وم: يخلفون.

فليسَ يَخلُو أولُو الأمْرِ مِن أحدِ ثلاثةِ أوجهٍ: إمّا أنْ يكونَ الأمراءُ والفُقَهاءُ والإمامُ الذي تَدّعِيهِ الرّافِضَةُ؛ فإنْ كانَ المعنى في أُولِي الأمرِ الفقهاءَ أوِ الأمراءَ، ففيهِ إبطالُ قولِ الرّافضةِ: إنهُ الإمامُ الذي يَصِفُونَهُ، ومُحالٌ أنْ يكونَ هو الإمامَ، الذي يَذْكُرونَهُ لأنهُ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وذلكَ الإمامُ عندَهُم طاعَتُهُ مُفْتَرَضَةٌ، وهُمْ بَينَ أظْهُرِ المُتنازِعِينَ عندَهُمْ، ومخالَفَتُهُ كُفرٌ في مَذْهَبِهِمْ. فلو كانَ ذلكَ كذلكَ لَقالَ، واللهُ أعلَمُ: فَرُدُّوهُ إلى الإمامِ، فإنَّ مَنْ خالَفَهُ فقد كَفَرَ. ولكنَّهُ تعالى ﷻ أمَرَ بردِّ التَّنازُعِ إلى كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ فدلَّ عليهِ أنَّ قولَ أحدٍ لا يَقومُ في الحُجّةِ مَقامَ قولِ [رسولِ اللهِ ﷺ][1].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قيلَ: إلى اللهِ، أي كتابِ اللهِ تعالى أو إلى الرسُولِ إذا كانَ حَيّاً. فَلَمّا ماتَ فإلى سُنَّتِهِ. واسْتَدَلَّ قومٌ بهذِهِ الآيةِ على إبطالِ الاجْتِهادِ وتَرْكِ القولِ إلّا بِما يُوجَدُ في كتابِ اللهِ تعالى أو في سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ ويَقولونَ: فَنَكِلُ أمْرَهُ إلى اللهِ ﷻ ورسولِهِ، عليهِ أفضلُ الصلواتِ وأكْمَلُ التَّحِيّاتِ، وليسَ ذلكَ عندَنا.

والآيةُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يُحْمَلَ تأويلُها على أنَّ التَّنازُعَ إذا كانَ في عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ وَجَبَ أنْ يُرَدَّ إليهِ ﷺ ويُسْأَلَ عن ذلكَ، ولا يُسْتَعْمَلَ في الحادِثَةِ الاجْتِهادُ ولا النَّظَرُ. فأمّا ما كانَ مِنَ التَّنازُعِ بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّ حُكْمَ الحادثةِ يُطْلَبُ في كتابِ اللهِ أو في سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ أو في إجماعِ المُسْلِمِينَ. فإنْ وُجِدَ الحُكْمُ في أحدِها[2] بَيِّناً، وإلّا قِيلَ بالاجْتِهادِ.

والوَجْهُ الثاني: أنْ يكونَ المُجْتَهِدُ إذا ما اجْتَهَدَ فيهِ إلى كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ فيقولُ: وَجَدْتُ في الكتابِ أو في السنةِ كذا وكذا، وهذِهِ الحادِثَةُ تُشْبِهُ هذا الحُكْمَ، فَحُكْمُها حُكْمُهُ. فيكونُ [ردُّ حُكمِ][3] الحادِثَةِ إلى كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ أو شِبْهِها بِما وَجَدَ مِنَ الحُكْمِ فيهِما. وإذا كانَ ما وصَفْنا مِن تأويلٍ مُحْتَمِلاً فلا حُجّةَ لَهُمْ عَلَينا في ذلكَ، واللهُ المُسْتَعانُ.

وفي الآيةِ دَلالَةُ جَعْلِ الإجماعِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية؛ إنما أمرَ بالرَّدِّ إلى [كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ][4] الرسولِ ﷺ عندَ التنازُعِ، لم يأمُرْ بالإجماعِ[5]. دلَّ أنهُ إذا كانَ ثَمَّ إجماعٌ لا تَنازُعَ فيهِ لم يَجِبِ الرَّدُّ إلى ما أُودِعَ في الكتابِ وفي السُّنَّةِ.

وفي الآيةِ دلالةُ أنهُ يُدرَكُ بالطَّلَبِ المُودَعُ فيه، لأنهُ لولم يُدْرَكْ، أو ليسَ ذلكَ فيهِ، لم يكُنْ لِلرَّدِّ إلى ذلكَ مَعْنىً. ألا تَرى [أنَّ اللهَ تعالى قالَ][6]: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النساء: ٨٣] فإنما يُسْتَنبَطُ ما فيهِ؟ دلَّ أنَّ كلَّ أحكامِ[7] الحَوادِثِ مَذْكورٌ في هذينِ: في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ إذ لو لم يَكُنِ الفَرَجُ عندَ النَّظَرِ والطَّلَبِ لكانَ لا يُفيدُ الأمْرُ بالرَّدِّ إليهِما مَعْنىً. ثم لا توجدُ نُصوصٌ في كُلِّ ما يُبْتَلى[8]. ثَبَتَ أنهُ مطلوبٌ، وهو يدلُّ على لُزومِ البَحْثِ في اسْتِخراجِ المُودَعِ مِنَ المَنْصوصِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية تخصيصُ المؤمنينَ على اشْتِراكِ الجَميعِ في اللزومِ؛ يَخْرُجُ على أوجهٍ:

أحدُها: على مُخاطَبَةِ الأشرافِ والنُّجَباءِ. وعلى ذلكَ أمرُ المُلوكِ في الأمورِ؛ يُريدُونَ اشْتِراكَ الرَّعِيّةِ وأهْلِ المَمْلَكَةِ في ذلكَ كقولِهِ ﷻ ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ [النمل: ٢٩ و٣٢]، وقالَ سُلَيمانُ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ [النمل: ٣٨] ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ [القصص: ٣٨] وقالَ [ﷻ][9]: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: ١٠٣و...]، فَمِثْلُهُ[10] الذي نَحْنُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: الرسول الله تعالى. (٢) في الأصل وم: أحدهم. (٣) في الأصل: أراد الحكم، في م: رد الحكم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: عند الجماع. (٦) في الأصل وم: أنه قال الله تعالى. (٧) في الأصل: حكم، في م: ماحكم. (٨) في الأصل وم: يُبلى.
(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك.

والثاني: أنهُم مِمّا قد عَرَفُوا الأمورَ والمَناهِيَ[1]، فَقِيلَ لَهُمْ: أطِيعُوا ما ذَكَرُوا، عَلِمُوا أنَّهُمْ في مَنْ أُمِرُوا بِهِ، ونُهُوا عنهُ. ولم يَكُنْ مِنَ الكَفَرَةِ عِلْمٌ بالذي يُوَجِّهُونَ الأمرَ إليهِمْ. فَلِذَلِكَ خصَّ مَنْ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: أنَّ الكَفَرَةَ قد أنكَرَتِ المَعْبودَ والرسولَ، فَجَرَى الخِطابُ في مَنْ ثَبَتَ لهمُ المَعْرِفَةُ بذلكَ معَ ما يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في هذا الخطابِ في الشَّرائِعِ، وهي غيرُ لازمةٍ لِلْكَفَرَةِ، فَلِذَلِكَ كانَ على ما ذَكَرْتُ.

والرابعُ: ما أدْخَلَ في الخطابِ أُولِي الأمرِ مِنّا، ولا يُلْزِمُهُمْ طاعتَهُمْ، لِذلكَ خصَّ المؤمنينَ، وكانَ المَقْصودُ بالآيةِ بَيانَ طاعةِ أُولِي الأمْرِ مِنّا، وإلّا كانَتْ طاعةُ اللهِ تعالى وطاعةُ الرسولِ ﷺ بما كانَ إيمانُهُمْ قد ثَبَتَ. ولكنْ جَمَعَتْ طاعةَ مَنْ ذَكَرَ لِيُعْلَمَ أنْ قد يكونُ بطاعةِ أُولِي الأمرِ طاعةُ اللهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

ومِمّا يُبَيِّنُ الذي ذَكَرْتُ أنَّ الكُلَّ مَنْ عَرَفَ الإلهَ عَرَفَ أنَّ عليهِ طاعَتَهُ بما عَرَفَ اسْمَهُ الذي سَمَّى[2] كُلَّ مَعْبودٍ إلهاً. فَمَنْ عَرَفَ منهُمُ الإلهَ عَرَفَ انهُ مَعْبودٌ، ثم عَرَفَ مالَهُ عندَهُ مِنَ الأيادي، وعليهِ مِنَ النِّعَمِ، على أنَّ عليهِ شُكْرَهُ وطاعَتَهُ بهِ. ثم مَنْ عَرَفَ أنَّ طاعتَهُ هي طاعةُ اللهِ لأنهُ إليه يَدْعُو، وعَنْ أمرِهِ ونَهْيِهِ يأمُرُ، ويَنْهَى، إذْ هو رسولُ اللهِ ﷺ مِنْهُ إلى الخَلْقِ. وليسَ مَنْ عَرَفَ اللهَ، وعَرَفَ الرسولَ ﷺ يَعْرِفُ أنَّ عليهِ طاعةَ أُولِي الأمرِ بما لَمْ يُرْوَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ فَبَيَّنَ اللهُ تعالى ذلكَ في هذِهِ الآيةِ لِيَعْلَمُوا أنَّ طاعَتَهُمْ هي طاعةُ اللهِ وطاعةُ رسولِهِ ﷺ.

وذلكَ هو الدليلُ على جَعْلِ الإجماعِ حُجَّةً، وأنَّ مُتَّبِعَهُمْ[3] هو مُطِيعُ للهِ تعالى، إذْ صَيَّرَ اللهُ طاعَتَهُمْ طاعَتَهُ، وهُمْ في ذلكَ الإجماعُ.

وعلى ما ذَكَرْتُ مِنْ شأنِ/ ١٠٠ ـ ب/ الرسولِ ﷺ يُخَرَّجُ [قولُهُ تعالى][4] ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ [حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾][5] [النساء: ٦٥] صَيَّرَ الواجِدَ حَرَجاً مِمّا قَضَى واجِداً حَرَجاً مِنْ قَضاءِ اللهِ تعالى مِنْ نَفْيِ حُكْمِ الإيمانِ. وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] أي لِتَكُونَ عليهِمْ طاعتُهُ بأمرِ اللهِ تعالى؛ إذْ هي طاعةُ اللهِ أوَّلاً لِتَكُونَ طاعَتُهُ طاعةَ اللهِ بإذنِهِ وبأمرِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم اخْتُلِفَ في أُولِي الأمرِ. ومعلومٌ أنهُمْ هُمُ الذينَ إليهِمْ يَرْجِعُ تَدْبيرُ أُمورِ الدِّينِ، وعَنْ آرائِهِمْ تَصْدُرُ، وهُمُ[6] الذينَ تَضَمَّنَتْهُمْ آيةٌ، فيها[7] الكفايةُ في تعريفِ المَقْصودِ بها، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] فَجَعَلَ أُولِي الأمرِ مِنْ عِندِهِمُ الاسْتِنْباطُ، وشَهِدَ لَهُمْ بالعِلْمِ في ما رُدَّ إليهِمْ. فَثَبَتَ انهُمُ الفُقَهاءُ المَعْرُوفُونَ بالاسْتِنْباطِ ورِعايةِ أُمورِ الدينِ.

وفي هذا أيضاً دلالةٌ على إصابَتِهِمْ في ما أجْمَعُوا عليهِ؛ إذْ شَهِدَ لَهُمْ في الجملةِ بالعِلْمِ. وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠] وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

ثم كانَتِ الشهاداتُ والأمرُ والنَّهْيُ لِلْعُلَماءِ بهما. ثَبَتَ أنَّ الأمْرَ في ذلكَ يَنْصَرِفُ إلى العُلَماءِ، وأنَّهُمْ إذا اجْتَمَعُوا على شيءٍ بالأمرِ والنَّهْيِ يكونُ إجماعاً لأنَّ ذلكَ كذلكَ عندَ اللهِ تعالى. وتجوزُ شهادَتُهُمْ على جميعِ العَوامِّ ومَنْ تأخَّرَهُمْ. ومَنْ ذلكَ كانَ عندَ أولئكَ الخاصِّ على ذلكَ إذا لم يُغَيِّرُوا، ولا شَهِدُوا في ذلكَ بِغَيْرِهِ. وأمراءُ السَّرايا لو كانُوا أهْلَ البَصَرِ في الأمْرِ مع العِلْمِ بالشَّرْعِ والفُتْيا لَلَزِمَ فيهِمْ ذلكَ لأنهُمْ صُيِّرُوا في البابِ أهْلَ الأمْرِ. وأيَّدَ الأوَّلَ أنهُمُ العُلَماءُ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

ومعلومٌ أنَّ على العوامِّ الذي الإشكالُ والحاجةُ الرَّدَّ إلى أُولِي الأمْرِ بما ذَكَرْتُ مِنَ الآيةِ، فَثَبَتَ[8] أنَّ هذا في تَنازُعِ العُلَماءِ، وهو يُوَضِّحُ إبطالَ قولِ الرَّوافِضِ في جَعْلِ أُولِي الأمرِ إمامَهُمْ وإبطالَ قَولِ مَنْ يَجْعَلُ أُولِي الأمرِ [أمراءَ

---

(١) من م، في الأصل: والمنافي. (٢) في الأصل وم: سمعت. (٣) في الأصل وم: متبعيهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الآية. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: أرجو أن يكون. (٨) في الأصل وم: ثبت.

ونحوَهُم][1]. وإنما هُمُ العُلَماءُ في كلِّ نوعٍ حتى يُمْكِنَ فيهِمُ التَّنازُعُ، وإمامُهُمْ واحدٌ لا مَعْنَى لِلتَّنازُعِ [فيهِمْ. والتَّنازُعُ][2] إنما يكونُ عنْ تَدَبُّرٍ وبَحْثٍ ونَظَرٍ، ولا معنًى في ذلكَ لِلعَوامِّ الذينَ[3] لا يَعرِفونَ الأُصولَ والفُروعَ. واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم اختُلِفَ في تَأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فقالَ قومٌ: كأنهُ قِيلَ: كِلُوا الأمْرَ فيهِ إلى اللهِ تعالى والرسولِ ﷺ ولا تَجتَهِدُوا فيهِ لِقَولِهِ[4] تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] ولأنَّ الِاختِلافَ كانَ على تأويلِ الكتابِ والسُّنَّةِ. فكيفَ يُطلَبُ مَنْ بَعْدَ منهما، وبعدَ الطَّلَبِ حَدَثَ التَّنازُعُ؟

وقالَ قومٌ: الِاختِلافُ يَقَعُ في التَّأويلِ بقولِهِ ﷻ: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إلى ظاهِرِ ذلكَ. ولا تَتَأوَّلوا [تَختَلِفُوا لأنَّ الِاختِلافَ][5] كانَ على التَّأويلِ.

وقالَ قومٌ: هذا كانَ في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ يَظْهَرُ في ذلكَ نَصُّ الحُكمِ والحَقُّ في ذلكَ. فيكونُ الأمرُ الذي يَتَنازَعُ فيهِ أُولو الأمرِ لم يَجُزْ لأحدٍ العَمَلُ إلّا بالبَيانِ. ولَهُمْ وَجهُ الوُصولِ إلى البَيانِ في الحَقيقةِ، فَأُمِرُوا بذلكَ معَ ما كانَ يجوزُ أن يكونَ التَّنازُعُ في وقتٍ لم يُفْرَغْ عن بَيانِ جَميعِ ما بالخَلْقِ إليهِ حاجةٌ بالكِفايَةِ، إذ كانَ ذلكَ الوقتُ وَقتَ حُدوثِ الشَّرائِعِ وَوَقتَ احتِمالِ التَّناسُخِ وتَبديلِ الأحكامِ. فإذا وَقَعَ التَّنازُعُ [بينَ][6] المُجتَهِدينَ فَلَهُمْ معَ أشكالِ التَّنازُعِ شُبهَةُ احتِمالِ [هو][7] أنَّ أصلَهُ لم يَزَلْ، وأنَّ الذي يَتَضَمَّنُ مِن حُكمِهِ مِنَ المَنصوصِ لم يَبْلُغْهُمْ في ذلكَ . فَيَجِبُ في ذلكَ الرَّدُّ إلى اللهِ ﷻ بالرَّدِّ إلى رَسولِهِ محمدٍ ﷺ.

وأمّا بَعْدَهُ فقدْ فُرِّغَ عنْ[8] جميعِ أُصولِ الحَوادِثِ التي يَعلَمُ اللهُ ﷻ أنها تَقَعُ بَيانَ كِفايةٍ؛ إذْ لو لم يُبَيِّنْ ذلكَ القَدْرَ لَبَقِيَ[9] تنازُعٌ لا ارْتِفاعَ لهُ، ولا جازَ[10] الحُكْمُ، ولَكانَ لا يُعلَمُ الحادِثُ الذي لهُ أصلٌ يُطلَبُ ذلكَ. وفي ذلكَ تَمكِينُ المَعْنَى الذي يَخرُجُ إلى الرسالةِ معَ ما قد تَكَلَّمَ جميعُ الصحابةِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمَعينَ، ومَنْ بَعْدَهُمُ اليومَ في الحوادثِ مِنْ غَيرِ أنْ يَظْهَرَ عنْ أحدٍ قَولٌ بأنَّ هذا هو ما لم يَنزِلْ لهُ الأصلُ، فصارَ ذلكَ إجماعاً في بَيانِ أُصولِ كُلِّ حادِثٍ، فَيَجِبُ طَلَبُهُ في الأصولِ، واللهُ أعلَمُ.

والأصلُ أنهُ في ما يُوكَلُ إلى أحدٍ يُوكَلُ إلى مَنْ يَعلَمُ الحُكمَ، ويَمْلِكُ إظهارَهُ. فلو كانَ التَّنازُعُ يَجِبُ الرَّدُّ إلى اللهِ تعالى وتَرْكُ الحُكمِ في ذلكَ بالِاجتِهادِ. فإذَنْ يَبْطُلَ أنْ يكونَ في الرَّدِّ إليهِ عِلْمُ الحِكمَةِ إلّا لِلوَقتِ الذي لا يَحتاجُ إلى الحُكمِ، وهو يَومُ القيامةِ، على أنهُ مَعلومٌ لو كانَ يُرَدُّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لَكانَ لا يَدَعُهُمْ على ما هُمْ[11] عليهِ مِنَ التَّنازُعِ الذي هو أصلُ كلِّ شَيءٍ وفسادُهُ[12]. فَعَلَى ذلكَ في ما يُرَدُّ إلى اللهِ ﷻ وإذْ [أعلَمَ ﷻ أنَّ جميعَ][13] النَّوازِلِ كُلَّها مَردوداتٌ إليهِ، فَيَجِبُ أنْ يكونَ حَكَمَ فيها إذْ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وإذا لم يَحكُمْ فيها لم يَصِرِ الحُكمُ إليهِ، بل لا حُكمَ فيه إلّا للهِ تعالى. فلمّا وَجَبَ بالذي ذَكَرْتُ أنْ يكونَ مِمّا تَضَمَّنَهُ البَيانُ لَزِمَ الِاجتِهادُ.

ثم لو كانَ الحقُّ عندَ التَّنازُعِ الظاهِرِ دونَ أنْ يُطلَبَ على أصحِّ التَّأويلاتِ دَليلٌ لكانَ لا يجوزُ التَّنازُعُ أنْ يَقَعَ؛ لأنَّ الظاهِرَ قد كانَ في أيديهِمْ، وهو حُجَّتُهُ، لا يَحتَمِلُ أنْ يَترُكَهُ أحدٌ إلّا بالدَّليلِ لو كانَ حُجَّةً، وكانَ قد قامَ الدليلُ على لُزومِ العُدولِ عنِ الظاهِرِ بتأويلِ جَميعِ أُولي الأمْرِ في ذلكَ، فَثَبَتَ أنَّ دَليلَ ذلكَ مَطلوبٌ، يُوجَدُ؛ يَتَّفِقُونَ عليهِ، إذا أنصَفُوا وأمعَنُوا[14] النَّظَرَ، وأعرَبوا[15] عنْ حُسْنِ الظَّنِّ تَفويضاً[16] مِنَ الأئِمَّةِ. على أنَّ الذي يَقولُهُ هؤلاءِ يَقتَضي أحكامَ الحَوادِثِ كلِّها بِيَقينٍ، فَثَبَتَ أنَّ أحكامَهُمْ مُودَعاتٌ في المَنصوصِ، فَصِرْنَ مُتَعَلِّقاتٍ بالمعاني لا بالظَّواهِرِ.

ثم الأصلُ أنَّ العَمَلَ بالظَّواهِرِ في مُحتَمَلِ المَعاني ومُختَلَفِ التأويلاتِ ممّا فيهِ التَّنازُعُ في الأمَّةِ، والتَّنازُعُ أمْرٌ بالرَّدِّ،

---

(١) في الأصل وم: أمير ونحوه. (٢) من م، في الأصل: التنازع. (٣) من م، في الأصل: الذي. (٤) في الأصل وم: كقوله. (٥) في الأصل وم: فتختلفوا إذ الأول. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: من. (٩) في الأصل وم: ليبقى. (١٠) في الأصل وم: يجوز. (١١) في الأصل وم: هو. (١٢) في الأصل وم: وفساد. (١٣) في الأصل وم: علم ﷻ لجميع. (١٤) في الأصل وم: أنعموا.
(١٥) في الأصل وم: وأعرضوا. (١٦) في الأصل وم: تفريق.

فَبَعِيدٌ أنْ يُرَدَّ إلى ما لم يُثْبِتْ صِحَّتَهُ. بل في الظاهِرِ وَجْهٌ في ظاهِرِ الاِسْمِ باللسانِ أوِ الظاهِرِ مِنَ التَّفاهُمِ في المُعْتادِ نَحْوُ القَوْلِ[١] بأنِ اغسِلُوا وجوهَكُمْ أنهُ بأيِّ شَيْءٍ الغَسْلُ يَسْتَحِقُّ اسْمَ الغَسْلِ في اللغةِ؟ لكنْ لِما يُغْسَلُ بهِ عادةً في الاِسْتِعْمالِ.

إلى ذلكَ يَنْصَرِفُ الخطابُ، ويَصيرُ الظاهِرُ في المُعْتادِ بهِ أَوْلَى مِنَ الظاهِرِ في اللسانِ، ويكونُ في ذلكَ مَنْعُ الذي ذَكَر حتى يُوَضِّحَهُ دليلٌ، أو يُعْلَمَ أنهُ المعتادُ، فيكونُ ذلكَ دليلاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم لا يَحْتَمِلُ التَّنازُعُ في ما فيهِ المعتادُ مِنَ التَّفاهُمِ العُدُولَ عنهُ إلّا بدليلٍ، فَيَجِبُ القَوْلُ لِمَنْ عَدَلَ إنْ كانَ عندَهُ دليلٌ، فيكونُ بِما يُوجِبُ العَمَلَ مَنْعٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بأوجُهٍ ثلاثةٍ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ تعالى في ما بَلَّغَ، و﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ تعالى في ما فَرَضَ ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في ما سَنَّ، و﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ تعالى ﷻ في ما أنزَلَ، ونَصَّ، و ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في ما بَيَّنَ.

والأصلُ في مَعْبودِ اللِّسانِ أنّ الطّاعةَ تكونُ في الاِئْتِمارِ. فرسولُ اللهِ ﷺ مُطاعٌ في جميعِ ما أمَرَ، لازِمَةٌ[٢] طاعتُهُ، في ذلكَ أمرُهُ، إذا ثَبَتَ أنّ[٣] أمرَهُ، هو أمرُ اللهِ تعالى ﷻ وطاعةَ رسولِ اللهِ ﷺ طاعةُ اللهِ ﷻ ولهُ يَجِبُ ظهورُ الخُصوصِ والعُمومِ والتَّناسُخِ جميعاً، وبهِ يَبِيَّنَ الفَرْضَ والأدبَ وكلَّ نوعٍ، وما يَظْهَرُ فَبِاللهِ تعالى ظَهَرَ على لِسانِهِ ﷺ كتاباً كانَ أو تنزيلاً. فالتَّقْسِيمُ بَيْنَ الذي للهِ ﷻ والذي لِرَسولِهِ ﷺ يُوجِبُ الشُّبْهَةَ وتَوَهُّمَ الاِخْتِلافِ. جلَّ اللهُ ﷻ أنْ يَبْعَثَ رسولاً يُخالِفُهُ، وباللهِ المعونَةُ والتَّوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ذلكَ[٤] الرَّدُّ خيرٌ إلى ما ذَكَرَ. ويَحتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الاِئْتِلافَ[٥] في ما أمْكَنَ فيهِ خيرٌ مِنَ الاِخْتِلافِ وأحْمَدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾/١٠١ - أ/ أي عاقبةً. وقيلَ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي خَبَراً. وفي حرفِ حَفْصَةَ: ذلكَ خَيرٌ وأحْسَنُ ثواباً. وعنِ ابنِ عباسٍ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [أنهُ][٦] قالَ: (القرآنُ أحسنُ تأويلاً).

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية؛ ذُكِرَ في القِصَّةِ أنَّ رَجُلَيْنِ تَنازَعا؛ أحدُهُما: مُنافِقٌ والآخرُ يَهُودِيٌّ، فقالَ المُنافِقُ: اذْهَبْ بنا إلى كَعْبِ بنِ الأشرفِ، وقالَ اليَهُودِيُّ: اذْهَبْ بنا إلى مُحَمَّدٍ ﷺ فاختَصَما إلى نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَقَضى لِلْيَهُودِيِّ على المُنافِقِ. فلمّا خَرَجا قالَ المُنافِقُ: انْطَلِقْ بنا إلى عُمَرَ بنِ الخَطّابِ نَخْتَصِمُ إليهِ، فأقْبَلَ معهُ اليَهُودِيُّ إلى عُمَرَ رضي الله عنه فقالَ اليَهُودِيُّ: يا عُمَرُ إنا اخْتَصَمْنا إلى محمدٍ ﷺ فَقَضى لي عليهِ، فَزَعَمَ أنهُ لا يَرْضَى بِقَضائِهِ، وهو يَزْعُمُ أنهُ بِقَضائِكَ [راضٍ][٧]، فَاقْضِ بَيْنَنا. فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه لِلْمنافِقِ: كذلكَ؟ قالَ: نَعَم. فقالَ [رُوَيْدَ كي ما][٨] أخرجَ إليكُما، فَدَخَلَ عُمَرُ رضي الله عنه البيتَ، فاشْتَمَلَ على السَّيفِ، ثم خَرَجَ، فَضَرَبَ بهِ المُنافِقَ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ والطاغُوتُ هو كَعْبُ بنُ الأشْرَفِ. وقيلَ: الطاغُوتُ: اسْمُ الكاهِنِ. وقيلَ: الطاغُوتُ: الكافِرُ. والطاغُوتُ هو كلُّ مَعْبودٍ دونَ اللهِ تعالى. وعلى هذا التأويلِ خَرَجَ قولُهُ ﷺ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٦٢] أي جاءَ أهْلُ النِّفاقِ يَحْلِفونَ باللهِ [أنهُمْ لم يَريدُوا بالتَّحاكُمِ][٩] ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

وفي الآيةِ دَلالَةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ وذلكَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا﴾ قَصَدُوا[١٠] أنْ يَتحاكَمُوا بَعْدَهُ، فأخبَرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بذلكَ، فَعَلِمُوا أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ، لكنَّهُمْ لِشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ وتَمَرُّدِهِم لم يَتَّبِعُوهُ[١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي أُمِرُوا أنْ يَكْفُرُوا بالطاغوتِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

---

(١) في الأصل وم: قول. (٢) في الأصل وم: لازم. (٣) في الأصل وم: أنه. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: رويدكما. (٩) في الأصل وم: أنه لم يرد بالتحاكم. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: يتبعوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ أي يُزَيِّنُ لَهُمُ الشيطانُ لِيَضِلُّوا ضَلالاً بَعيداً؛ أي لا يَعُودُونَ[1] إلى الهُدى أبداً. فيهِ إخبارٌ أنهُمْ يَموتُونَ على ذلكَ. فكذلكَ كانَ. وهو في مَوضِعِ الإياسِ عنِ الهُدَى. وقيلَ: ﴿بَعِيدًا﴾ عنِ الحقِّ، وقيلَ: ﴿بَعِيدًا﴾ طَويلاً، وهو واحدٌ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي إذا قيلَ لهُمْ: تَعالَوا إلى حُكْمِ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في كتابِهِ ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ وإلى[2] أمْرِ الرسولِ ﷺ وسُنَّتِهِ ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ والصُّدُودُ هو الإعراضُ في اللُّغَةِ. والصَّدُّ الصَّرْفُ. وقالَ الكِسائيُّ: (يُقْرَأُ يُصِدّونَ بضمِّ الياءِ[3]). وفي حرفِ حفصةَ: وإذا دَعَوْتَ الكافرينَ والمنافِقينَ إلى ما أنْزَلَ اللهُ ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ يَحْتَمِلُ هذا ما ذُكِرَ في القصةِ الأولى أنَّ عُمَرَ ﷺ لَمّا قَتَلَ ذلكَ الرجلَ المنافِقَ جاءَ المُنافِقُونَ إلى الرسولِ ﷺ يَحْلِفُونَ باللهِ ما أرادَ ذلكَ الرجلُ إلّا إحْساناً أي تَحْقِيقاً وتَيسيراً عليكَ لِيَرْفَعَ عنكَ المُؤْنَةَ وتوفيقاً إلى الخيرِ والصوابِ.

وقيلَ: نَزَلَتْ في المُنافِقِينَ في بناءِ مَسْجِدٍ ضِراراً كَقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٧]. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ الآيةُ في كُلِّ مصيبةٍ تُصِيبُهُمْ وكُلِّ نَكْبَةٍ تَلْحَقُهُمْ؛ إذْ كانُوا يَأتُونَ رسولَ اللهِ ﷺ فَيَعْتَذِرونَ كما ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٩٤] لأنَّهُمْ كانُوا يَميلُونَ إلى حَيثُ ما كا نُوا يَطْمَعُونَ في[4] المَنافِعِ مِنَ الغَنِيمةِ وغَيرِها إنْ رَأَوْا[5] النَّكْبَةَ والتَّبِرَةَ على الكافِرينَ يُظْهِرُوا[6] الموافَقَةَ لَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] هذا كانَ دأْبُهُمْ عادَتُهُمْ أبداً.

وقولُهُ تعالى ﷻ: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ قيلَ فيهِ بِوُجوهٍ: قِيلَ: إلّا تَخْفِيفا وتَيسِيراً عليكَ، وقِيلَ: قالُوا: تَحاكَمْنا[7] إليهِ على أنهُ إنْ وُفِّقَ، وإلّا رَجَعْنا إليكَ. وفيهِ دَلالةُ بُطْلانِ تَحْكيمِ الكافِرِ والتَّحاكُمِ إليهِ، وذلكَ حُجَّةٌ لأصْحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ النِّفاقِ والخلافِ غَيْرَ ما حَلَفُوا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تُعاقِبْهُمْ في هذِهِ المُدَّةِ ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾ إنْ فَعَلْتُمْ مِثْلَ هذا ثانِيَةً عاقَبْتُكُمْ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ على الوَعِيدِ، أي لا تُعاقِبْهُمْ، فإنَّ اللهَ تعالى ﷻ هو مُعاقِبُهُمْ.

وقولُهُ تعال: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ قيلَ: أي تَخْفِيفاً وتَيسِيراً عليكَ؛ على أنهُ إنْ وُفِّقَ للصوابِ، وإلّا رَجَعْنا إليكَ ﴿إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ لِما نقولُ[8]: التَّحاكُمُ إليهِمْ يَحْمِلُهُمْ على الرجوعِ إلى دينِ الإسلامِ. و قِيلَ: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ يُحْسِنُونَ إلينا، ويَبَرُّونَنا بِفُضولِ أموالِهِمْ. وقيلَ: ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بِفُضولِ أموالِهِمْ. وقيلَ: ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ أي صَواباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ قيلَ: أوعِدْهُمْ وَعِيداً، حتى إذا عادُوا إلى مِثْلِهِ يُعاقَبُونَ. وقيلَ: ألْزِمْهُمُ الحُجَّةَ في ذلكَ، وأبْلِغْها إليهِمْ، حتى إذا عادُوا عاقَبْتَهُمْ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بِمَشِيئَةِ اللهِ. وقيلَ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمْرِ اللهِ. وقيلَ: ﴿لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بِعِلْمِ اللهِ. ومَنْ قالَ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) من م، في الأصل: يعون. (٢) في الأصل وم: أولى. (٣) في الأصل وم: الصاد، وأدرج في المختصر في شواذ القرآن: يصدون بضم الياء وكسر الصاد: الحسن. انظر ص (٢٦). (٤) في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: راه. (٦) في الأصل وم: يظهرون. (٧) في الأصل وم: تحكمنا. (٨) في الأصل وم: نقل.

بِمَشِيئَةِ اللهِ أي مَنْ أطاعَ الرَّسُولَ ﷺ إنَّما يُطِيعُهُ بِمَشِيئَتِهِ. وكذلكَ مَنْ عصاهُ إنما يَعْصِيهِ بِمَشِيئَةِ مَنْ أطاعهُ، أو عَصاهُ، فإنما ذلكَ كلُّهُ بمشيئةِ اللهِ، ومَنْ تأوَّلَ إلّا بإذنِ اللهِ العَليم يَقولُ: إنهُ يعلَمُ مَنْ يُطيعُهُ ومَنْ يَعْصِيهِ؛ أي كلُّ ذلكَ إنما يكونُ بِعِلْمِهِ لا عَنْ غَفلَةٍ منهُ وسَهْوٍ كَصَنيعِ مُلوكِ الأرضِ إنمّا يَستَقْبِلُهُمْ مِنَ العِصْيانِ والخِلافِ [عن غَفلَةٍ][1] مِنهُمْ وسَهْوٍ بالعَواقِبِ. فأمّا اللهُ ﷻ، إذا بَعَثَ رُسُلاً بَعَثَ على عِلْمٍ منهُ بالطاعةِ لهُمْ وبالمَعْصِيَةِ، ما[2] بَعَثَهُمْ لِما تَنْفَعُهُ طاعةُ أحدٍ، أو تَضُرُّهُ مَعْصِيةُ أحدٍ، إنمّا ضَرُّ ذلكَ عليهِمْ ونَفْعُهُ لَهُمْ.

ثم قالتِ المعتزلةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أخبَرَ أنهُ ما أرسلَ الرَّسُولَ إلّا لِيُطاعَ، وبَيْنَ الرُّسُلِ مَنْ لَمْ يُطَعْ. كيفَ لا؟ بَتَتُّمْ أنَّ مِنَ الفِعْلِ ما قد أرادَ ﷻ أنْ يُفْعَلَ، وأنْ يكونَ، ولكنْ لم يكُنْ على ما أخبَرَ أنهُ ما أرسلَ الرَّسُولَ مِنَ الرُّسُلِ[3] إلّا لِيُطاعَ. ثم مَنْ قد كانَ مِنَ الرُّسُلِ[4]، ولمْ يُطَعْ؟ قيلَ: هو ما ذَكَرَ في آخِرِهِ ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بِمَشيئَةِ اللهِ. فَمَنْ شاءَ مِنَ الرُّسُلِ أنْ يُطاعَ فقد أُطيعَ، ومَنْ شاءَ ألّا يُطاعَ فَلَمْ يُطَعْ. وكذلكَ مَنْ عَلِمَ أنهُ يُطاعُ، فَأرسَلَهُ لِيُطاعَ، فَأُطيعَ. ومَنْ عَلِمَ أنهُ لا يُطاعُ، فَلَمْ يُطَعْ. ومَنْ أرسَلَ لِيُطاعَ[5]، بأمرٍ لِيَكونَ عليهِ الأمرُ فذلكَ مستقيمٌ، ومَنْ أرسَلَ لِيُطاعَ بالأمرِ فلا يجوزُ أنْ يُطاعَ.

وقولُهُ تعالى أيضاً: ﴿لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ بأمرِ اللهِ، وقد مَرَّ بيانُهُ. وقيلَ: ﴿لِيُطَاعَ﴾ بِمَشيئَةِ اللهِ، فَيُطيعُهُ كُلُّ مَنْ شاءَ اللهُ: يَعْلَمُ اللهُ، فهو في مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُطيعُهُ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يَعْلَمَ الطاعةَ مِمَّنْ لا يكونُ.

والمعتزلةُ /١٠١ - ب/ [تقولُ في هذا: إنهُ أخبَرَ أنهُ أرسلَ الرسولَ][6] لِيُطاعَ، ولم يُطِعْهُ الكُلُّ، وما يُعْبَدُ مَنْ[7] يكونُ أرادَ لِيُطاعَ، وإنْ كانَ لا يُطيعُهُ الكُلُّ. فقُلْنا: إذْ قالَ: ﴿لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والإذْنُ يَتَوجَّهُ إلى ما ذَكَرْتُ. فعلى ذلكَ ﴿لِيُطَاعَ﴾ مِمَّنْ يُطيعُهُ لا غيرَ، فَحَصَلَ الأمرُ على الدَّعْوَى، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومَعْلُومٌ أنَّ الصِّغارَ منهُمْ لا يَعْبُدُونَ، فَخَرَجَ الجَزاءُ إلى الخُصوصِ بالوجودِ، لا أنْ كانَ في كلِّ أمْرٍ أمْرُ الإرادةِ في مَنْ وُجِدَ، لا أنَّهُ في كلٍّ على أنَّهُ فيهِ يُعْلَمُ. هو يَرجِعُ إلى بَعْضٍ دونَ الكُلِّ. فَمِثْلُهُ الإذْنُ على إرادةِ المَشيئَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي عَلِمُوا أنَّ حاصلَ ظُلْمِهِمْ راجعٌ إليهِمْ لأنَّ الظُّلْمَ هو وَضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ وهُمْ وَضَعُوا أنْفُسَهُمْ في غَيرِ مَوضِعِها، فإذا لم يَعرِفُوا أنْفُسَهُمْ لم يَعرِفُوا خالِقَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي جاؤُوكَ مُسْلِمينَ تائِبِينَ عنِ التَّحاكُمِ إلى غَيرِكَ راضينَ بِقضائِكَ نادِمينَ على ما كانَ منهمْ، واستَغْفَرَ لَهُمُ الرسولُ، لو[8] يَشْفَعُ ﴿لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي قابلاً لِتَوبَتِهِمْ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿فَلَا﴾ صِلَةٌ في كلِّ قَسَمٍ أقسَمَ بهِ كَقولِهِ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [القيامة: ١] ونَحْوُهُ كلُّ صِلَةٍ. كأنهُ قالَ: أُقسِمُ ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقيلَ: قولُهُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ ليسَ هو على الصِّلَةِ. ولكنْ يُقالُ ذلكَ على نَفْيِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ وإنكارِهِ كقولِ الرَّجلِ: لا واللهِ هو ابْتِداءُ الكلامِ، ولكنْ على نَفْيِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

وفيهِ تَفْضيلُ رسولِنا محمدٍ ﷺ على غَيرِهِ مِنَ البَشَرِ، لأنَّ الإضافَةَ إذا خَرَجَتْ إلى واحدٍ تَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّعْظيمِ لِذلكَ الواحِدِ والتَّخْصيصِ لهُ. وإذا كانَتْ إلى جماعةٍ [تخرجُ][9] تَعْظيماً لهُ كقولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] وقولِهِ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦و..] ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ، حاكماً، وإنْ لم يُحَكِّمُوهُ؛ ليسَ مَعناهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي حتى يَرْضَوا بِحُكْمِكَ وقَضائِكَ.

---

(١) في الأصل وم: إنما يستقبلهم. (٢) في الأصل وم: لكنه. (٣) في الأصل وم: الرسول. (٤) في الأصل وم: الرسول. (٥) في الأصل وم: أن يطاع. (٦) في الأصل وم: في هذا أنه أخبر أرسل. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: إن. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي اختلَفوا بَيْنَهُمْ، وتنَازعُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ قيلَ ضِيقاً. وقيلَ: شكّاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ بَيْنَهُمْ أنهُ حَقٌّ.

وقيلَ: إنمَّا ثَمّ في الآيةِ أنَّ الإيمانَ في القلبِ لأنهُ قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ أي في قُلُوبِهِمْ. ألا ترى أنهُ قالَ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾؟ [الأنعام: ١٢٥] ذَكَرَ ضِيقَ الصَّدرِ[1]، وهو واحدٌ. إلا ترى أنهُ قالَ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾؟ [المائدة: ٤١].

فهذِهِ[2] الآياتُ تَرُدُّ على الكَرّاميَّةِ قولَهُمْ لأنهُ قالَ تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ وهُمْ يقولُونَ: بل يُؤْمِنُونَ، فيُقالُ لَهُمْ: أنتُمْ أعلَمُ أمِ اللهُ؟ ثم قيلَ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في اليَهُودِيِّ والمُنافِقِ اللَّذينِ[3] تنازعا، فتحاكَما إلى الطاغوتِ، وقيلَ: نَزَلَتْ في شأنِ رجلٍ مِنَ الأنصارِ والزُّبيرِ بْنِ العَوّامِ؛ كانَ بَيْنَهُما تَشاجُرٌ في الماءِ، فترافَعا إلى النبيِّ ﷺ فقالَ للزُّبيرِ: اسْقِ، ثم أرْسِلِ الماءَ إلى جارِكَ، فَغَضِبَ ذلكَ الرجلُ، فَنَزَلَتِ الآيةُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية. ولا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفيمَ كانَتْ؟.

ثم رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في بَعْضِ الأخبارِ أنهُ قالَ: «لا يُؤمِنُ أحدٌ حتى أكونَ أحَبَّ إليهِ مِنْ نَفْسِهِ وأهلِهِ ووَلَدِهِ ومالِهِ والناسِ جَميعاً» [البخاري ١٤ و١٥].

وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في قُلُوبِهِمْ ﴿حَرَجًا﴾ أي شَكّاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أنهُ هو الحقُّ ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ لِقضائِكَ لَهُمْ وعليهِمْ ﴿تَسْلِيمًا﴾. وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ قيلَ: تأويلُهُ أنهُ ما أرسَلَ رسولاً في الأُمَمِ السالِفَةِ إلّا لِيُطيعُوهُ[4]، فكيفَ تَركْتُمْ أنتُمْ طاعةَ الرسولِ الذي أرسِلَ إليكُمْ؟ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ما أرسَلَ اللهُ رسولاً إلّا وقد أمَرَهُمْ أنْ يُطيعُوهُ. لكنَّ منهُمْ مَنْ أطاعَهُ، ومنهُمْ مَن لم يَطِعْ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ الآية قالَ أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: (لو كانَتْ فينا نَزَلَتْ يا رسولَ الله لَبَدَأْتُ بِنَفسي وأهلِ بيتي، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ذاكَ لِفَضلِ يَقينِكَ على يَقينِ الناسِ وإيمانِكَ على إيمانِ الناسِ») [بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٥٨٧].

وعنِ الحسنِ [أنهُ][5] قالَ: (لمّا نزلَتْ هذهِ الآيةُ قالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ: واللهِ لو [كانَتْ فينا نَزَلَتْ][6] لَقَتَلْنا أنفُسَنا، فقالَ النبيُّ ﷺ: «والذي نَفْسُ محمدٍ بِيَدِهِ لَلإيمانُ أثبَتُ في صُدُورِ الرجالِ مِنَ الأنصارِ مِنَ الجبالِ الرَّواسي») [السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٥٧٨].

قيلَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية هُمُ [اليهودُ يعني بهِمُ][7] العَرَبَ كما أمرَ أصحابَ موسى عليه السلام، وقيلَ: قالَ عُمَرُ رضي الله عنه ونَفَرٌ عنهُ: (واللهِ لو فَعَلَ ربُّنا لَفَعَلْنا، فالحمدُ للهِ الذي لم يَجْعَلْ بِنا ذلكَ، فقالَ: رسولُ اللهِ ﷺ «لَلإيمانُ أثبَتُ في قلوبِ المؤمنينَ مِنَ الجبالِ الرَّواسي») [السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٥٨٧].

ثم اخْتُلِفَ في قَتْلِ الأنفُسِ، قالَ بعضُهُمْ: هو أنْ يَقْتُلَ كُلٌّ نفسَهُ، وقالَ آخَرُونَ: هو أنْ يَقْتُلَ بَعْضٌ بعضاً. وأمّا قَتْلُ كُلٍّ نَفْسَهُ فإنهُ لا يُحتَمَلُ لِوَجهَينِ:

أحدُهُما: وذلكَ أنهُ عِبادةٌ شَديدةٌ ممّا لا يَحْتَمِلُهُ أحدٌ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] أخبَرَ أنهُ لا يُكَلِّفُ [أحداً][8] ما لا طاقةَ لهُ.

والثاني: أنَّ فيهِ قَطْعَ النَّسْلِ وحُصُولَ الخَلْقِ لِلإفناءِ خاصةً؛ وذلكَ ممّا لا حِكْمَةَ في خَلْقِ الخَلْقِ لِلإفناءِ خاصةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ قيلَ: هو عبدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ وعَمّارٌ وفُلانٌ وفلانٌ رضي الله عنهم ولا ندري أيَصِحُّ أم لا؟

---

(١) في الأصل وم: الأنفس. (٢) في الأصل وم: التي. (٣) في الأصل وم: التي. (٤) في الأصل وم: ليطيعوا. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل: لو كنت علينا. (٧) في الأصل وم: يهود لعنا به. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ولو كانَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ قَتْلَ بَعْضٍ فذلكَ ممّا أُمِرُوا به بِمُجاهَدَةِ العَدُوِّ والإخراجِ مِنَ المَنْزِلِ والهجرة. ثم أخْبَرَ أنهُمْ لا يَفْعَلُونَ ذلكَ ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهما:][1] لو فَعَلُوا ما يُؤمَرُونَ بِهِ مِنَ الإسلامِ والطاعةِ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ذلكَ.

والثاني[2]: يَحْتَمِلُ لو ﴿أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا﴾ يُؤمَرُونَ بِهِ مِنَ القَتْلِ، لو كُتِبَ عليهِمْ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الآخِرَةِ ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ قيلَ: حَقِيقَةً، وقيلَ: تَحقيقاً في الدنيا، وقيلَ: ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ مِنَ القرآنِ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في دينِهِمْ ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ يعني تَصديقاً بأمرِ اللهِ.

الآيتان ٦٧و٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾][3] يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهُما[4]:] الأجرُ العظيمُ في الآخِرَةِ.

والثاني[5]: يَحْتَمِلُ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٧]

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآيةَ. قيلَ في بَعْضِ القِصَّةِ: إنَّ رجلاً جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فَبَكَى، ثم قالَ: والذي لا إلهَ غَيْرُهُ لأنْتَ أحبُّ إليَّ مِنْ نَفْسي وَوَلَدي وأهلي، وإني لأذكُرُكَ، فلولا أني أجيءُ، فأنْظُرُ إليكَ لَرَأيتُ أني سَأمُوتُ، وذَكَرْتُ مَوتي ومَوتَكَ ومَنْزِلَتَكَ في الجنةِ، وتُرْفَعُ مع النَّبِيِّينَ، فإني وإنْ دَخَلْتُ الجنةَ كُنْتُ دُونَ ذلكَ، وذكَرْتُ فِراقي إياكَ عندَ المَوتِ، فَبَكَيْتُ لِذلكَ، فما أجابَني النَّبيُّ ﷺ شيئاً، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآية.

قالَ[6] رسولُ اللهِ ﷺ: خَرَجَ ذاتَ يومٍ على بَعْضِ أصحابِهِ، فَرَأى [على][7] وُجُوهِهِمْ كَآبَةً وجَزَعاً، قالَ: فقالَ النَّبيُّ ﷺ: ما لَكُمْ؟ وما غَيَّرَ وُجُوهَكُمْ ولَونَكُمْ؟ فقالُوا: يا رسولَ اللهِ ما بِنا مِنْ مَرَضٍ ولا وَجَعٍ غَيْرَ أنّا إذا لم نَرَكَ، ولم نَلْقَكَ، اشْتَقْنا إليكَ، واستَوحَشْنا وحْشَةً شَدِيدةً حتى نَلْقاكَ، فهذا الذي تَرَى مِنْ أجْلِ ذلكَ. ونَذْكُرُكَ بالآخِرَةِ فَنَخافُ ألّا نَراكَ هناكَ. فأنْزَلَ اللهُ تعالى الآيةَ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ/ ١٠٢ ـ أ/ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الآية.

ويَحْتَمِلُ أنْ لَمْ يكُنْ في واحدٍ مِنْ ذلكَ، ولكنْ في وُجوهٍ أُخَرَ:

أحدُها: أنَّ اليهودَ وغَيرَهُمْ مِنَ الكَفَرَةِ والذينَ آذَوا رسولَ اللهِ ﷺ وفَرَطُوا في تَعَنُّتِهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ في تَرْكِ إجابَتِهِمْ إياهُ وطاعَتِهِمْ لهُ، ظَنُّوا أنهُمْ، وإنْ أسلَمُوا، وأطاعُوا الرسولَ ﷺ لمْ يَقْبَلْ ذلكَ منهُمْ: تَوبَتَهُمْ، ولم يَنْزِلُوا مَنْزِلَةَ مَنْ لم يُؤْذِهِ، ولم يَتْرُكْ طاعَتَهُ، فأخْبَرَ ﷻ أنهُ إذا أطاعَ [المَرْءُ][8] اللهَ والرسولَ فيكونُ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كأنْ لم يَتْرُكْ طاعَتَهُ، واللهُ أعْلَمُ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والثاني[9]: أنْ يكونَ ذلكَ لَمّا سَمِعُوا أنَّ لِكُلِّ أحَدٍ في الجنةِ مِثْلَ الدنيا، فَظَنُّوا ألّا يكونَ لَهُمُ الاجْتِماعُ والالْتِقاءُ لِبُعْدِ بَعضِهِمْ مِنْ بَعضٍ، فأخْبَرَ ﷻ أنْ يكونَ لَهُمُ الاجْتِماعُ؛ لأنَّ ذلكَ لَهُمْ في الدنيا مِنْ أعظَمِ النِّعَمِ وأجَلِّها.

والثالثُ[10]: أنْ يكونَ على الابْتِداءِ: أنَّ مَنْ أطاعَ اللهَ تعالى ورسولَهُ ﷺ فَسَيَكُونُ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في دارٍ واحدةٍ، لا يَكُونُونَ في غَيرِها[11].

فهذِهِ الوُجوهُ كأنها أشْبَهُ، واللهُ أعلَمُ، إذا[12] هُمْ في الطاعةِ أجابُوا، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: فقال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: يحتمل. (١١) في الأصل وم: غيره. (١٢) في الأصل وم: إذ.

ثم اختُلِفَ في ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أتباعُ الأنبياءِ ﷺ وخُلَفاؤُهُمْ في كلِّ أمرٍ مِنَ التَّعليمِ والدعاءِ لَهُمْ إلى كلِّ خيرٍ وطاعةٍ. وقيلَ: الصِّدِّيقُ[١]، هو الذي يَصْدُقُ الرسولَ ﷺ في أوَّلِ دَعْوَةٍ دَعاهُ إلى دينِ اللهِ تعالى، وفي أوَّلِ ما عايَنَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قيلَ: الشهيدُ الذي قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ، وقيلَ: الشهيدُ هو القائمُ بدينِهِ، وقيلَ: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كُلُّهُ واحدٌ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ الجَزاءَ إفضالٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ إذْ سَبَقَ مِنْ عندِهِ الإنعامُ والإفضالُ عليهِمْ، فَتَخْرُجُ طاعَتُهُمْ لهُ مَخرجَ الشُّكْرِ لهُ، لا أنَّ عليهِ ذلكَ الإنعامَ الذي أنْعَمَ عليهِ والإفضالَ[٢].

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ما أحْسَنَ مِنَ الرفْعَةِ بَيْنَهُمْ فذلكَ فَضْلٌ منهُ. والآيةُ تَرُدُّ على أصحابِ الأصْلحِ[٣] لأنَّ تِلْكَ الأفعالَ إنما صارتْ قُرْبَةً للهِ بإنعامٍ مِنَ اللهِ تعالى وإفضالِهِ وتوفيقِهِ، وبِهِ اسْتَوجَبُوا الثوابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بَعْدَ العِلْمِ بأنَّ الفَضْلَ هو بذْلُ ما لم يكُنْ عليهِ وبَذْلُ ما عليهِ، وهو الوفاءُ لا الفَضْلُ في مُتعارَفِ اللسانِ والمُعْتادِ. ثم لا يَخْلُو مِنْ أنْ يَرجِعَ منهُ إلى الخَيراتِ التي اكْتَسَبُوها، فَيَبْطُلُ بِهِ قولُ المعتزلةِ بما لا يَخْلُو مِنْ أنْ كانَ منهُ ذلكَ الفَضْلُ أو مِثْلُهُ إلى الكافرِ أوْلَى. فإنْ كانَ منهُ وَجْهُ يَسْتَحِقُّهُ، وقد كانَ منهُ إلى غيرِهِ، فلم يَنَلْ تلكَ الدَّرجةَ، ولا بَلَغَ تلكَ الرُّتْبَةَ، فبانَ أنهُ لا بذلكَ بَلَغَ مَنْ بَلَغَ، فيكونُ منهُ في ما لم يكُنْ.

وأيضاً أنهُ لو لم يكُنْ مَعَهُ ذلكَ عنهُمْ لم يكنِ البَذْلُ فضلاً لِما ذَكَرْتُ. ثَبَتَ أنْ ليسَ الحقُّ عليهِ كُلَّ ما بِهِ الأصْلَحُ في الدينِ لِما يُزيلُ مَعْنَى الفَضْلِ، وإنْ لم يكُنْ إعطاءُ الكافرِ مِثْلَهُ. فهو عندَهُمْ مُحاباةٌ منهُ على المُؤمنِ، وقد مَنَعَ بَعْضَ ما عليهِ في الأصْلَحِ، وذلكَ عندَهُمْ بُخْلٌ، ﷻ عمّا وصَفُوهُ، وإنْ كانَ ذلكَ في الثوابِ. دلَّ أنَّ لهُ أنْ يُثيبَ حتى يصيرَ ما أثابَ عليهِ فَضْلاً. ولا يَحْتَمِلُ ألّا يَرْضَى بطاعةِ العبدِ واتِّباعِ رسولِهِ ﷺ فثَبَتَ أنَّ الرِّضا ليسَ هو التَّرادَّ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ قيلَ: ﴿عَلِيمًا﴾ بالآخِرَةِ وثوابِها. وقيلَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بما وَعَدَ مِنَ الخَيرِ في الآخِرَةِ لِهؤلاءِ الأصنافِ. وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][٤] قالَ: (الصِّدِّيقونَ هُمُ الذينَ أدْرَكُوا الرُّسُلَ ﷺ وصَدَّقُوهُمْ). وعَنْ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه [أنهُ][٥] قالَ: (الصِّدِّيقونَ المؤمنونَ). وقيلَ: الصِّدِّيقونَ السّابِقونَ الذينَ سَبَقُوا إلى تَصْديقِ النَّبِيِّينَ أنعمَ اللهُ عليهِمْ بالصِّدْقِ[٦]، والشهداءُ هُمُ الذينَ أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ بالشهادةِ، والصّالِحُونَ[٧] هُمُ المؤمِنُونَ أهلُ الجنةِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ قيلَ: خُذُوا عُدَّتَكُمْ مِنَ السِّلاحِ. وقيلَ: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ مِنْ جميعِ ما يُحترَسُ [مِنَ العَدُوِّ][٨] كقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٦٠] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦] أمرَ اللهُ ﷻ بالاستِعدادِ[٩] لِلْعَدُوِّ، وهو الإعْدادُ لهُ؛ إذْ يُوكَلُ الأمرُ في ذلكَ إلى اللهِ دونَ الإعدادِ لِلْعَدُوِّ قَبْلَ لِقائِهِ، وإنْ كانَ يَقْدِرُ [على][١٠] نَصْرِ أوليائِهِ وقَهْرِ عَدُوِّهِ مِنْ غيرِ الأمرِ بالقِتالِ مَعَهُمْ؛ إذْ في ذلكَ مِحْنَةٌ امْتَحَنَهُمْ بها.

فَعَلَى ذلكَ أمَرَهُمْ بالإعدادِ لِلْعَدُوِّ وأخذِ الحِذْرِ [مِنْهُمْ. وتلكَ][١١] أسبابٌ تُعَدُّ قبلَ لِقائِهِمْ إياهُ.

وفيهِ دَلالَةُ تَعَلُّمِ آدابِ الحَرْبِ قَبْلَ لِقاءِ العَدُوِّ لِيُحتَرَسَ مِنْهُ. وفيهِ دَلالةُ إباحةِ الكَسْبِ لأنهُ فَرَضَ علَيهِمُ الجِهادَ، وأمَرَ بالإعدادِ لهُ لِيُحتَرَسَ مِنَ العَدُوِّ؛ ولا يُوصَلُ إلى ذلكَ إلّا بالكَسْبِ، واللهُ أعْلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أي ما تَحذَرُونَ بِهِ عَدُوَّكُمْ. وما تَحْذَرُونَهُ [في وُجوهٍ][١٢]: مِنْها الأسْلِحَةُ، ومِنها البُنيانُ، ومنها النَّكارُ عندَ الالْتِقاءِ، والثَّباتُ، وذِكْرُ اللهِ ﷻ كما قالَ: ﴿فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾

---

(١) في الأصل وم: الصديقين. (٢) في الأصل وم: فضل من الله. (٣) هم المعتزلة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الصديق. (٧) في الأصل: الصالحين. (٨) في الأصل وم: منه العدو. (٩) في الأصل وم: بالاعتداد. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لهم وذلك. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

[الأنفال: ٤٥]. وفي هذا أمْرٌ بالإعدادِ لِلْعَدُوِّ قَبْلَ اللِّقاءِ. وأيّدَ ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فَيكونُ الأمْرُ بالإعدادِ قَبْلَ وَقْتِ الحاجةِ دليلَ جوازِ الكَسْبِ لِحاجاتٍ تَجدَّدَتْ. والإسْتِعدادُ لِلْحاجاتِ ليسَ برَغْبَةٍ في الدنيا؛ إذْ لم يَكُنْ [في][1] الإعدادِ فَشَلٌ ولا تَرْكُ التَّوَكّلِ. على أنَّ الجوعَ وحاجاتِ النَّفْسِ تُعينُ [على تَلَقّي][2] العَدُوِّ، ولا حَولَ ولا قُوّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ قيلَ: الثُّباتُ هو السَّرايا ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ يعني عَسْكَراً. وقيلَ ﴿ثُبَاتٍ﴾ يعني فِرَقاً ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ جُموعاً[3]. وقيلَ: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي عُصَباً ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾. وعن ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][4] قال: ، (زَحْفاً). وقيلَ: الثُّباتُ والتَّثْبِيَةُ في كَلامِ العَرَبِ الجَمْعُ الكثيرُ، ومَعناهُ: انْفِروا كثيراً أو قليلاً. وفي ذلكَ دلالةُ الأمرِ بالخُرُوجِ إلى العَدُوِّ فُرادى وجَماعاتٍ[5] وفِرَقاً وجَماعاتٍ[6]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي إذا اسْتُنْفِرْتُمْ فانفِرُوا كذلكَ[7]. وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ مَعْلومٌ أنَّ عليهِمُ الدَّفْعَ. فيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ إذا أُوذُوا، أي على ما اسْتُنْفِرْتُمْ مِنْ جميعٍ أو بعضٍ. فيكونُ في ذلك دلالةُ قِيامِ البَعْضِ عنِ الكُلِّ على غيرِ الإشارةِ إلى ذلكَ.

وقد يجبُ فَرْضٌ في مجهولٍ: على كلٍّ: القيامُ حتى تُعْلَمَ الكِفايةُ[8] بمَنْ خَرجَ. وهذا كفَرائضَ[9] لا تُعْرَفُ بعَينِها، أو حُرُماتٍ تظهَرُ، لا تُعْرَفُ المُحَرَّمَ بعينِهِ. فعلى ذلك مَنْ [أحْرَمَ فَعَلَيهِ][10] الإيفاءُ والقِيامُ بجميعِ[11] الفرائضِ لِيُخْرِجَ ما[12] عليهِ.

ثم إذا غَلَبَ عليهِمْ في التَّدبُّرِ الكفايةُ بِمَنْ خَرجَ، سقَطَ عنِ الباقينَ. ولو لم يكُنْ يَسْقُطُ لم يكنْ للإمامِ اسْتِنْفارُ البعْضِ. يدلُّ على ذلك [قولُهُ تعالى][13]: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ الآية [التوبة: ١٢٢] وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وأصلُهُ أنهُ فَرْضٌ لعلّةٍ لا يجوزُ نفاذُهُ، وقد زالتِ العلّةُ. على أنَّ خُرُوجَ الجميعِ مِنْ جهةِ ابْتِداءِ العورةِ مِنْ جِهاتٍ. فلذلكَ لم يَحْتَمِلْ تَكْليفُهُ خُرُوجَ[14] الجميعِ مِنْ جِهَةِ اسْتُنْفِرَ مِنْها، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ قولُهُ ﴿مِنكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وُجوهاً: يَحْتَمِلُ في الظاهرِ ﴿مِنكُمْ﴾، ويَحْتَمِلُ في الحُكْمِ ﴿مِنكُمْ﴾ ويَحْتَمِلُ في الدَّعْوى ﴿مِنكُمْ﴾ لأنهُمْ كانُوا يَدَّعُونَ أنّهمْ منّا، ويُظْهِرُونَ المُوافقةَ للمؤمنينَ، وإنْ كانُوا في الحقيقةِ لم يكُونوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ قيلَ: إنَّ المنافقينَ كانُوا يُبطِّئونَ الناسَ عنِ الجهادِ، ويتخلّفُونَ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨] كانوا يُسِرُّونَ ذلكَ/ ١٠٢ ـ ب/ ويُضْمِرونَ، فأطْلَعَ اللهُ ﷻ نَبيَّهُ على ذلكَ لِيَعْلَمُوا أنهُ إنّما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى. وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾. ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ [النساء: ٧٣] [وعلى][15] التَّقديمِ والتأخيرِ يُسَرُّ، ويَفْرَحُ: إذا أصابتْهُمْ مُصيبةٌ ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ لأنَّ كلَّ مَنْ كانَ بينَهُ وبَيْنَ آخَرَ مَوَدّةٌ إذا أصابتْهُ نَكْبةٌ يَحْزَنُ عليهِ، ويتألَّمُ. فأخبَرَ اللهُ ﷻ أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ[16] إذا أصابتِ المؤمنينَ نَكْبةٌ يُسَرُّونَ بذلكَ، ولا يَحْزَنُونَ، كأنْ لم يكُنْ بينَهُمْ مَوَدّةٌ ولا صُحْبَةٌ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني الغَنيمةَ والفَتْحَ ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أنْ يأخُذَ مِنَ الغنيمةِ نَصيباً وافِراً.

---

(١) في الأصل وم: وجوه. (٢) في الأصل وم: وتلقى. (٣) في الأصل وم: مجموعاً. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) و(٦) في الأصل وم: وجماعة. (٧) في الأصل وم: ذلك. (٨) من م. في الأصل الكتابة. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: تعرف. (١٠) في الأصل وم: حرم عليه. (١١) من م، في الأصل: الجميع. (١٢) في الأصل وم: عما. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: لخروج. (١٥) من م. في الأصل و. (١٦) في الأصل وم: المنافقون.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ هذا قولُ المُكذِّبِ الشّامتِ ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية هو قولُ الحاسِدِ، وهو قولُ قتادة. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ يعني لَيَخلِفَنَّ عنِ اليَقينِ ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ يعني شِدَّةٌ وبَلاءٌ مِنَ العَيشِ والعَدُوِّ ﴿قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ فيُصيبَني ما أصابَهُم ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ دلَّ أنَّ فَرضَ الجِهادِ فَرضُ كِفايَةٍ يَسقُطُ بِقيامِ البَعْضِ عنِ الباقينَ، لأنَّهُ قال: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ أمرَ بِتَغْييرِ الثُّباتِ. فلو كانَ لا يَسقُطُ بِقيامِهِمْ عنِ الباقينَ لم يَكُنْ للأمرِ بِهِ مَعْنىً. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، إذا قيلَ لكُم: انفِروا ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلمُ، نَهى المُنافقينَ [عنِ الخُروجِ][1] إلى الغزوِ كقولِهِ[2] تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ [التوبة: ٨٣] وأمَرَ المؤمنينَ أنْ يَخرُجوا لِذلكَ، لأنهُ قالَ تعالى: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ والمُؤمنونَ هُمُ الذينَ يشترُونَ الحياةَ الدنيا.

وقولُهُ ﷺ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: في إظهارِ دينِ اللهِ، وقيلَ: في طاعةِ اللهِ تعالى ونَصرِ أوليائِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ في الآيةِ دَلالَةٌ أنَّ بذلَ نفسِهِ ومالِهِ للهِ تعالى غايةُ ما يَجِبُ أنْ يَبذُلَ اسْتَوجَبَ العِوضَ قِبَلَهُ، وإنْ لم تَتلَفْ نفسُهُ فيهِ، ولا أحدَثَ؛ لأنهُ قالَ ﷺ: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ جعَلَ لِمَنْ تَتلَفُ نفسُهُ فيهِ الثوابَ، والعِوَضَ [لِلَّذي لم][3] تَتلَفْ نفسُهُ فيهِ. وكذلكَ قولُهُ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١] يَجعَلُ لِمَنْ قَتَلَ، ولم يُقتَلْ فيهِ العِوضَ.

فهذا يدلُّ على مسائلِ الناسِ؛ ذلك أنَّ المرأةَ إذا سَلَّمَتْ نَفسَها إلى زَوجِها في الوَقتِ الذي كانَ عليها التَّسْليمُ استَوجَبَ كمالَ الصَّداقِ، وإنْ لم يَقْضِ الزَّوجُ منها. ومِنْ ذلك البائعُ أيضاً إذا سَلَّمَ المَبيعَ إلى المُشتَري كانَ مُسَلِّماً[4]، وإنْ لم يَقبِضِ المُشتري. وكذلكَ مَنْ صلَّى صَلاةَ الظُّهرِ في مَنْزلِهِ، ثم خَرَجَ إلى الجُمُعةِ يَصيرُ وافضاً لِلظُّهرِ لأنَّ عليهِ الخُروجَ إليها، فيصيرُ بالخُروجِ إليها كالمُباشِرِ لها، وإنْ لم يُباشِرْ على سَبيلِ ما جعَلَ الباذلُ نفسَهُ للهِ، والمُسَلِّمُ إليهِ، كأنها أُخِذَتْ منهُ في استيجابِ العِوَضِ الذي وُعِدَ لهُ.

فَعلى ذلك يجبُ أنْ يُجعَلَ تَسْليمُ [الحقِّ الذي ذُكِرَ][5] كأخذِ الحَقِّ منهُ، وإنْ لم [يأخُذْهُ، لا كالقيامِ][6] إلى الخامِسَةِ ولا كالمُتوَجِّهِ إلى عَرَفاتٍ قَبلَ فراغِهِ مِنَ العُمْرَةِ، لأنَّ [على][7] هؤلاءِ الفَراغَ ممّا كانُوا فيه، ثم التَّوَجُّهَ إلى عَرَفاتٍ والقيامَ إلى الخامسَةِ، فلم يَصِحَّ ذلكَ. وأمّا المرأةُ والبائعُ ومُؤَدِّي الظُّهرِ في مَنْزلِهِ فعليهما[8] التَّسْليمُ والبَذلُ، لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ [دليلٌ][9] أنَّ اللهَ تعالى عاملَ عبادَهُ مُعامَلَةَ أهلِ الفَضلِ والإحسانِ كأنْ لا حَقَّ لهُ [إلّا][10] مُعامَلَةُ ذي الحَقِّ، وإنْ كانتِ الأنفُسُ والأموالُ كُلُّها لهُ في الحَقيقةِ حينَ فَرَضَ عليهِمُ الجِهادَ، وجعَلَ لهُمْ بذلكَ عِوَضاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وقولِهِ[11] ﷺ في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] مِنَ المؤمنينَ كثيرٌ مِمَّنْ لا حَقَّ لهُ فيها، وهي لهُ في الحقيقةِ، ووَعَدَ لهُمْ على ذلك عِوَضاً وأجراً عظيماً.

---

(١) في الأصل وم: بالخروج. (٢) في الأصل وم: قوله. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) في الأصل وم: مسلم. (٥) في الأصل وم: ما ذكر الحق. (٦) في الأصل وم: يأخذ القيام. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عليهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) في الأصل وم: وقال الله.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣٨] مثلُ هذا لا يُقالُ إلّا لِتَفريطٍ سَبَق منهُمْ، ثم لم يَزَلِ اسْمُ الإيمانِ فيهِمْ[1] بذلكَ، وكانَ[2] الجهادُ فَرْضاً عليهِمْ. فهذا يَنْقُضُ على مَنْ [قالَ][3] بِخُرُوجِ مُرْتكبِ الكَبيرةِ مِنَ الإيمانِ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ عن ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: (﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [كُنتُ أنا وأمي مِنَ المُستضعفينَ][5]) وكذلك روَى [الكِسائيُّ عنهُ][6].

وفيه دلالةٌ أنَّ على المُسْلمينَ أنْ يَسْتَنْقِذوا أسْراهُمْ مِنْ أيدي الكَفَرَةِ إذا أُسِروا بأيِّ وَجْهٍ ما قَدَرُوا عليهِ بالأموالِ والقِتالِ وغَيرِ ذلكَ، وذلك فَرْضٌ عليهِمْ، وحَقٌّ ألّا يَتْرُكوهمْ في أيديهِمْ لأنهُ قالَ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ الآية دلالةٌ أنَّ إسلامَ الصِّغارِ إسْلامٌ، وكُفْرَهُمْ كُفْرٌ، إذا عَقَلُوا؛ لأنهُ قالَ تعالى: ﴿وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ﴾ والكبارُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ لا يُسَمَّونَ وِلْداناً، إنَّما يُسَمَّى[7] الصِغارُ منهُمْ [وِلْداناً][8] لأنهُ عاتَبَهُمْ بِتَرْكِهِمْ في أيدي الكَفَرةِ، فلو كانُوا أولادَ الكَفَرَةِ لم يكُنْ للتَّغْيِيرِ[9] والعتابِ وَجْهٌ بِتَرْكِهِمْ في أيديهِمْ؛ إذْ لم يُعاتَبوا بتركِ[10] وِلْدانِ الكَفَرَةِ في أيديهِمْ. فدلَّ أنهُ إنما لَحِقَهُمُ العتابُ لأسراهُمْ[11].

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية [النساء: ٩٧] ثم استثنَى المُسْتَضْعفينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدانِ [الذينَ][12] لا يَسْتَطيعونَ حِيلَةً. فلو لم يكُنْ إسْلامُ الوِلْدانِ إسْلاماً ولا كُفْرُهُمْ كُفْراً لم يَكُنْ لِاسْتِثْنائهِمْ مِنْ أولئكَ وإخراجِهِمْ مِنَ الوَعيدِ الذي ذَكَرَ مَعْنىً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ سألُوا اللهَ ﷻ أنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ القَرْيةِ، وهُمْ عَلِمُوا أنهُ [يتولّى ذلكَ مَنْ في السماءِ][13] على أيدي قومٍ يُعينونَهمْ على ذلك، وهُمْ عَلِمُوا أنَّ للهِ[14] في ذلكَ صُنْعاً. والمُعْتزِلَةُ لم يَعْلَمُوا [ذلك][15]، وذلكَ يَنْقُضُ قولَهُمْ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ كلُّ ظالمٍ [مَنَعَ أهلَها][16] عنِ الخُروجِ إلى دارِ الإسلامِ والهجرةِ. ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ وَلِيّاً في دِينِنا ونَصيراً يَمْنَعُنا عَنِ المُشْرِكينَ. ويُقالُ: مانعاً يَمْنَعُ عنّا المُشرِكينَ. وقد ذَكَرْنا الوَليَّ والنَّصيرَ في غيرِ مَوضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذَكَرْنا الذي يأمُرُ خَلْقَهُ بالسُّلوكِ فيه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: (الطّاغوتُ هو الشَّيطانُ في هذا الموضعِ لأنهُ هو الذي يأمُرُ بالسُّلوكِ في سَبيلِهِ).

وفي الآيةِ دَلالةٌ ألّا يأمُرَ الكُفّارَ بالجهادِ ولا بالصلاةِ، ولا يأمُرَ بالزكاةِ ولا بَغيرِها مِنَ العباداتِ لأنهُ أخبَرَ أنهُمْ لو قاتَلُوا إنما يُقاتِلُونَ في سبيلِ الشَّيطانِ، وكذلكَ إذا صلُّوا صَلُّوا لَه، وكذلكَ سائرُ العباداتِ، ولكنْ يأمُرونَ أوّلاً بإتيانِ [الشيطانِ][17] ما لو فَعَلُوا مِنَ العِباداتِ/ ١٠٣ ـ أ/ كانَتْ في سَبيلِ اللهِ، وهو الإيمانُ، وهذا يَنْقُضُ قولَ مَنْ يَقولُ: إنَّ الكافرَ مأمورٌ مُكلَّفٌ بالصلاةِ والزكاةِ وغيرِها مِنَ العباداتِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ الطاغوتَ هو الشَّيطانُ هَهُنا، وكلُّ ما عُبِدَ دُونَ اللهِ فهو طاغوتٌ.

---

(١) في الأصل وم: منهم. (٢) في الأصل وم: وما كان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عن الكسائي. (٧) في الأصل وم: يسمعون. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م. في الأصل: للتغير. (١٠) في الأصل وم: ترك. (١١) في الأصل وم: لإسلامهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: لا يتولى نحو السماء ولكن. (١٤) في الأصل وم: الله. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: منعهم. (١٧) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إنَّ كَيْدَ أولياءِ ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إذا كانَ اللهُ ناصِرَكُمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ويَحتمِلُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أنهُ[1] لا يَعْمَلُ سِوَى الدعاءِ والأمرِ؛ يَدعُوهُمْ إلى سَبيلِهِ، فذلكَ لِضَعْفِهِ، لا يُباشِرُ القِتالَ ولا الضَّرَرَ، إنما هو إشارةٌ منهُ ودُعاءٌ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ الآية اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: نَزَلَتِ الآيةُ في بَني إسرائيلَ، وهي الآيةُ التي ذكَرَها اللهُ تعالى في سورةِ البقرةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآية: ٢٤٦] وقيلَ: إنَّها نَزَلَتْ في المُؤمنينَ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ استَأْذَنُوا رسولَ اللهِ ﷺ في قِتالِ كُفّارِ مكةَ سِرّاً لِكثْرَةِ ما يَلْقَونَ مِنَ الأذى مِنْهُمْ، فنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي لم يُؤْمَرُوا بالقِتالِ، فنَهاهُمْ عنْ ذلكَ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقيلَ: إنها نَزَلَتْ في المُنافقينَ الّذينَ كانُوا يُقاتِلونَ معَ النَّبيِّ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي يَخْشَونَ الناسَ؛ يعني المنافقينَ كَخَشْيَةِ المؤمنينَ اللهَ ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ كقولِهِ ﷻ ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وإنْ كانتْ في المؤمنينَ فتَأويلُهُ ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ في القِتالِ ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ في المَوتِ ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ لأنهُ أهْيَبُ وأسْرَعُ نَفاذاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية؛ تَكلَّمُوا في ذلكَ، فمِنهُمْ مَنْ جَعَلَهُ خبراً عَنْ أمرِ بَني إسرائيلَ الذينَ ﴿قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ الآية [البقرة: ٢٤٦] لأنهُمْ[2] أُمِرُوا بالكَفِّ عنِ [المُقاتَلَةِ، فتَمنَّوْا][3] الإذْنَ في ذلكَ، وسألُوا نَبيَّهُمْ ﷺ عنْ ذلكَ. ثم منهُمْ[4] مَنْ أعْرَضَ عنِ الطاعةِ، وقد كانَ أهلُ الإيمانِ يَتمنَّونَ الإذْنَ في ذلك، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]. فوُعِظُوا [لِمَا ذَكَرَ][5] لِيَقْبَلُوا العاقبةَ، ولئلا يَتمَنَّوا مِحْنَةً فيها شِدَّةٌ، فَيَبْعَثَهُمْ على ما بَعَثَ أولئكَ.

ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «لا تَتَمنَّوا لِقاءَ العَدُوِّ، واسْأَلُوا ربَّكُمُ العافيةَ، وإذا لَقِيتُمُوهُمْ فَتَسَوَّرُوا في وُجُوهِهِمْ» [البخاري ٢٩٦٦ و٣٠٢٦] وكانَ في عِلْمِ اللهِ أنْ يأمُرَهُمْ[6]، فأُخبِرُوا بالّذينَ قُتِلُوا [وما][7] حَلَّ بِهِمْ لِئَلا يَفْعَلُوا مِثْلَ فِعْلِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وخَشيَتُهُمْ ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩] إلى تمامِ القصةِ.

وقد قيلَ: الآيةُ نزلَتْ في ما سَألُوا رسولَ اللهِ ﷺ فأُجِيبُوا في ذلكَ. ثم خاطَبَهُمْ بالذي[8] ذَكَرَ. لكنِ اخْتُلِفَ في ذلكَ؛ فَمِنهُمْ مَنْ يَقولُ: كانَ في الصِّدِّيقينَ، لكنِ اشْتَدَّ عليهِمُ الأمرُ؛ وذلكَ نَحْوُ ما كانَ منهُمْ يومَ حُنينٍ وأُحُدٍ ونَحْوُ ذلكَ حتى أعانَهُمُ اللهُ تعالى، وفَرَّجَ عَنْهُمْ بِمَنِّهِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٤٣] أي ما فيهِ المَوتُ مِنَ الجِهادِ. وعلى ذلكَ ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ لمّا[9] عايَنُوا السَّبَبَ الذي فيهِ هلاكُهُمْ، وتَبلُغُ عندَ ذلكَ الخَشْيَةُ غايَتَها نَحوَ قُرْبِ المَوتِ وشِدَّةِ المَرَضِ، يكونُ المَرْءُ يَخشَى مِنهُ المَوتَ مالا يَخشَى لولا تِلْكَ الحالُ: أنهُ يَرَى المَوتَ [أفضلَ][10] مِنَ المَرَضِ، وإنْ كانَ الذي، يَظْهَرُ عليهِ مِنْ خَشْيَةِ المَوتِ في تلكَ الحالِ أشَدَّ، فهي في الحقيقةِ خَشْيَةٌ مِنَ اللهِ تعالى أنْ يكونَ جَعَلَ ذلكَ سَبَبَ الموتِ، وأنهُ حضرَهُ، وقَرُبَ منهُ، فيكونُ في ظاهرِ الأمرِ كَمَنْ يَخشَى مِنْ تِلْكَ الأحوالِ. وقد جُعِلَ لِما جُبِلَ عليهِ الخَلْقُ في مِثْلِهِ مَعْرُوفاً[11] مِثْلُهُ، أعني أنّ المَريضَ يَستَعِدُّ للمَوتِ، لَمّا يَغْلِبُ عليهِ المَوتُ، لَمّا يَغْلِبُ عليهِ الإياسُ مِنْ حياتِهِ، وإنْ كانَ الذي يُصيبُ تَستَوي عليهِ أحوالُهُ.

(١) في الأصل وم: لأنه. (٢) في الأصل وم: أنهم. (٣) في الأصل وم: مقاتلته تمنوا. (٤) في الأصل وم: فيهم. (٥) في الأصل وم: لمن ذكرت. (٦) في الأصل وم: يأمروهم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: فلما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: معروف.

فعلى ذلكَ أمرُ الأوَّلِ. وعلى ذلكَ في ما طُبِعَ عليهِ الخَلْقُ مِنْ طُمأنينةِ القَلْبِ عندَ مُلْكِ أسبابِ الرِّزْقِ والقُدْرةِ عليهِ ما لم يكُنْ في غيرِها. وإنْ كانَ مِنْ حيثُ قُدْرةُ اللهِ واحداً[1]، فتكونُ تلكَ الخَشْيَةُ جِبِلِّيَّةً طَبيعيَّةً لا اخْتِياريَّةً أو سُخطاً[2] بِحُكْمِ الرَّبِّ، وهو كالذي [جازَ فيهِ][3] قولُهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٦].

وقولُهُ تعالى على ذلكَ: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الآيةَ تحتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: الخَبَرُ عمّا في طِباعِهِمْ كما قالَ ﷺ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢١٦]. وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «حُفَّتِ الجنةُ بالمكارِهِ» [مسلم ٢٨٢٢] وإنّما ذلكَ على الطَّبْعِ كالسائلِ عن ذلكَ. ورُبَّما يُصيغُون القولَ والسؤالَ على اعْتِبارِ الأحوالِ إلى ما لا يُطيقُ لهُ. فعلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني[4]: أنْ يكونَ قولاً مِنْهُمْ عَنْ وجهِ الحكْمةِ لهُمْ بالأمرِ في ما عُلِمَ أنَّهُمْ يَبْلُغُونَ بالقتْلِ والجبْنِ إلى حالٍ لا يقُومُونَ للعدوِّ، ولا يمْلِكونَ أنفسَهمْ في ذلكَ الوقتِ. فأخبرَ اللهُ ﷺ أنَّ الذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ رَغْبَتُهُمْ في التَّمتُّعِ بالدنيا. ولو صَوَّرُوا متاعَ الآخرةِ في قُلُوبِهِمْ لذَهبَ[5] عنهُمْ ذلكَ، ويَثْبُتُونَ للعدوِّ، ولا يُنالونَ للعدوِّ، [ويَرْضَونَ][6] بما يَحُلُّ، ولا يَخْشَونَ ذلكَ، وكأنّهُ وعدَ لهمْ أنَّ مَتاعَ الآخرةِ لكُمْ، على هذا الفعْلِ لو صبرْتُمْ خيرٌ لكُمْ، وما وعدَ لكُمْ عليهِ خيرٌ مِنْ مَتاعِ الدنيا.

وأيضاً أنْ يُقالَ: إنَّ هذا، وإنْ عَظُمَ[7]، هو لَهُ على الطَّبْعِ. فإنهُ إذا كانَ للهِ بحقِّ العِبادةِ هو أيْسرُ وأهونُ مِنَ الموتِ على صاحِبِهِ إذا حضَر إذنْ يُرِيَهُمُ اللهُ مَتاعَ الآخرةِ أو بَعْضَ ما فيهِ الكرامةُ، فيصيرُ ذلكَ مَتاعَ الآخرةِ لهُمْ وقتَ الموتِ، فهو خَيرٌ مِنْ تمتُّعِهِمْ في الدنيا ثم المَوتِ، ولابُدَّ[8] منهُ كما قيلَ في [تأويلِ قولِهِ][9] ﷺ: «مَنْ أحبَّ لِقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ» [البخاري ٦٥٠٧ و٦٥٠٨].

إنَّ المؤمنَ يَرى مالَهُ مِنَ الكرامةِ، فيُحِبُّ الموتَ أنْ يُعَجِّلَ بهِ لِيَصِلَ إلى ذلكَ. والكافرُ يرى سُخْطَهُ، فَيَكْرَهُهُ.

وعلى هذا تأويلُ [قولِهِ ﷺ][10] في الدنيا: «إنَّها سِجْنُ المؤمنِ وجَنَّةُ الكافِرِ [والآخرةُ سِجْنُ الكافرِ وجنةُ المؤمنِ»][11] [مسلم ٢٩٥٦] أنْ يكونَ كذلك في ذلكَ الوقتِ، واللهُ أعلَمُ.

وتأويلٌ آخَرُ أنْ تكونَ الآيةُ في المُنافقينَ أنهُ تَظْهَرَ وقتَ النِّفاقِ المِحْنَةُ بالجِهادِ دُونَ غيرِهِ مِنَ العباداتِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ الآيةَ [محمد: ٢٠] بيَّنَ ما نزلَ بالمُنافقينَ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ الآياتِ: [الأحزاب: ١٨ و١٩ و٢٠]، واللهُ أعلَمُ، في مَنْ نَزَلَتِ الآيةُ. لكنَّها معلومٌ أنَّ فيها تَرْغيباً في ما عندَ اللهِ وتَزْهيداً في الدنيا ودُعاءً إلى الرِّضا بِحُكْمِ اللهِ تعالى في ما خَفَّ، وثَقُلَ، واللهُ المُسْتعانُ.

وعلى التأويلِ الآخَرِ جميعُ ما ذُكِرَ ظاهِرٌ في المُنافقينَ، مذكورٌ ذلكَ في الآياتِ التي ذَكَرْتُها. وفيهِمْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ١٦] وغيرَ ذلكَ ممّا دلَّ على إنكارِهِمْ وفضلِ خَوفِهِمْ مِنْ[12] ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: كيفَ قالَ [اللهُ تعالى][13]: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ وقد هَلَكَ بِهِ أكْثرُ البَشَرِ؟ قيلَ: قد يخْرُجُ على وُجوهٍ، واللهُ أعلَمُ:

أحدُها: أنهُ يَضْعُفُ كيدُهُ على مَنْ يَعُوذُ باللهِ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ الآيةَ [الأعراف: ٢٠٠]، وإنما يقولُ على مَنْ جَنَحَ لهُ، ومالَ إلى ما دعاهُ إليهِ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ الآيةَ إلى قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١ و٢٠٢].

---

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) في الأصل وم: سخط. (٣) في الأصل وم: جائز. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) في الأصل وم: ليذهب.
(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أعظم. (٨) في الأصل وم: ذلك. (٩) من م. في الأصل: تأويله. (١٠) في الأصل وم: القول.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: في. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنْ يكونَ ضعيفاً على المُقْبِلِ على ربِّهِ والذاكِرِ لهُ في أحوالِهِ/١٠٣ ـ ب/ والمُفوِّضِ أمْرَهُ إلى رَبِّهِ. فأمّا مَنْ تَوَلّاهُ، وأقبلَ على إشارتِهِ، فهو الذي جَعَلَ لهُ السُّلطانَ على نَفْسِهِ بما آثَرَهُ في شَهَواتِهِ، ومالَ بهِ هَواهُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [النحل: ٩٩]، وقد سَمّاهُ اللهُ تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] بِما يَخْنُسُ[1]. بذكرِ اللهِ تعالى، ويُوَسْوِسُ عندَ الغَفْلَةِ عنِ اللهِ، فكانَ سُلْطانُهُ، واللهُ الموفِّقُ.

والثالث: أنهُ لا يَمْلِكُ الجَبْرَ والقهرَ ولا كتابَ[2] الضَّرَرِ في الأبدانِ والأموالِ، فهو ضعيفٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ قيلَ: في حَرْفِ حَفْصَةَ: وأقيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ قالُوا ربَّنا لِمَ كَتَبْتَ علَينا القِتالَ فلَمّا كُتِبَ عليهِمُ القِتالُ إذا هُمْ يَخْشَونَ الناسَ كَخَشيَةِ اللهِ. كأنَّ في الآيةِ إضماراً[3]، يُبيِّنُ ذلكَ حَرْفُ حفْصَةَ، وإلّا لم يكُنْ في ظاهِرِ الآيةِ خَبَرٌ حتى يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الآية جَواباً لَهُ.

وقولُهُ ﷻ ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، فإنْ كانتِ الآيةُ في المُنافقينَ فهو على الإنكارِ قالُوا ذلكَ، وإنْ كانَتْ في المؤمنينَ فهو يَخْرُجُ على طلبِ الحِكْمَةِ في فَرْضِ القتالِ علَينا. وقد تُطْلَبُ الحِكْمَةُ في الأشياءِ، ولا عَيْبَ يَدْخُلُ في ذلكَ.

وأصلُهُ أنَّ كلَّ [مَنْ][4] أمَرَ في الظاهِرِ مَنْ هو فَوقَهُ فذلكَ سُؤالٌ لَهُ في الحقيقةِ لا أمْرٌ، فَيَخْرُجُ سُؤالُهُ مَخْرَجَ الخُضوعِ والتَّضَرُّعِ لَهُ. ومَنْ أمرَ مَنْ دونَهُ فهو في الحقيقةِ ليسَ بِسُؤالٍ، فهو يَخْرُجُ على الأمرِ والنَّهْيِ، وهو الأمْرُ الظاهِرُ في الناسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ مَعناهُ، واللهُ أعْلَمُ: أنّا لم نَخْلُقْكُمْ للدُّنيا ولِلْمَتاعِ فيها، إنّما خَلَقْناكُمْ لِلآخِرَةِ ولِلْمُقامِ فيها. فلَو خَلَقْناكُمْ[5] للدُّنيا، ثم كَتَبْنا[6] عليكُمُ القِتالَ لَكانَ ذلكَ عَبَثاً خارجاً عنِ الحِكْمَةِ، ولكنْ خَلَقْناكُمْ لِلآخِرَةِ ولِلْمُقامِ فيها.

ويَحْتَمِلُ فيها قولُهُ تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ إلى آخرِهِ أنْ لم يَقولُوا ذلكَ قولاً، ولكنْ كانَ ذلكَ خَطَراً في قُلُوبِهِمْ، فأخبَرَهُمْ نَبِيُّ اللهِ ﷺ عمّا أضمَرُوا لِيَعْلَمُوا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى، ﷻ لِيَدُلَّهُمْ على نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فَنموتَ حَتْفَ أُنوفِنا[7]، ولا نُقْتَلَ قَتْلاً، فَيُسَرَّ بذلكَ الأعداءُ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] وفي القَتْلِ فِتْنَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ما ذَكَرْنا أنَّهُمْ لم يُخْلَقُوا لِمَتاعِ الدُّنيا، ولكن خُلِقُوا لِمتاعِ الآخِرَةِ.

والثاني: قليلٌ مِنْ مَتاعِ الآخرةِ كقولِهِ ﷻ ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ و: ٢٠٦ و: ٢٠٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لأنَّ مَتاعَ الآخِرَةِ دائِمٌ غيرُ مُنْقَطِعٍ، ومَتاعَ الدُّنيا زائلٌ مُنْقَطِعٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قد ذَكَرْناهُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ قيلَ: لَمّا اسْتُشْهِدَ[8] مَنِ اسْتُشْهِدَ يومَ أُحُدٍ قالَ المُنافقُونَ: لو كانَ إخوانُنا عِنْدَنا ما ماتُوا، وما قُتِلُوا، قالَ اللهُ ـ تباركَ، وتعالى ـ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جواباً لِما سَبَقَ مِنَ القولِ قولُهُمْ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ يقولُ: مَنْ كُتِبَ عليهِ الموتُ يَنْزِلُ بهِ لا مَحالةَ؛ قاتَلَ، أم لَمْ يُقاتِلْ، ويقولُ[9]: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) من م. في الأصل: يختص. (٢) في الأصل وم: الكتاب. (٣) في الأصل وم: إضمار. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: خلقنكم. (٦) في الأصل وم: كتبت. (٧) في الأصل: أنفسنا. (٨) في الأصل وم: استشهده. (٩) في الأصل وم: وقوله.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ إذا كانَ المَوتُ نازلاً بكُمْ، لا محالةَ، فالقَتْلُ[1] أنفَعُ لَكُمْ؛ إذْ تَستَوجِبُونَ بالقتلِ الثوابَ الجزيلَ، ولا يكونُ[2] ذلك لكُمْ إذا مُتُّمْ حَتْفَ أنوفِكُمْ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ قالَ الفَرَّاءُ: (المَشِيدُ والمُشَيَّدُ واحِدٌ، غيرَ أنَّ المُشَيَّدَ بالتَّشديدِ في ما يَكْثُرُ الفِعْلُ، والمَشِيدَ في ما لا يَكْثُرُ الفِعْلُ. وقيلَ المُشَيَّدُ هو [المُجَصَّصُ، والمَشِيدُ بالجِصِّ][3]). وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي حَصِينَةٍ، وقيلَ: قُصورٌ مُحَصَّنَةٌ طِوالٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ مَعْلومٌ أنهُمْ لم يُريدُوا بالحَسَنَةِ والسَّيِّئَةِ حَسَنَةً في الدِّينِ وسَيِّئَةً في دينِهِمْ، ولكنْ إنَّ ما أرادُوا بالحَسَنَةِ والسَّيِّئَةِ مَعْلومٌ أنهُمْ لم يُريدُوا بالحَسَنَةِ والسَّيِّئَةِ حَسَنةً في الدِّينِ وسَيِّئَةً في دينِهِمْ، ولكنْ إنما أرادُوا بالحَسَنَةِ والسَّيِّئَةِ في الدنيا مِنَ المَنافعِ والبَلايا والشدائدِ؛ ذلكَ أنهمْ ما كانُوا يَحزَنُونَ لِما يُصيبُهُمْ مِنَ السَّيِّئَةِ في الدِّينِ، ولا كانُوا يَفرَحُون بالحَسَنةِ والخَيرِ في الدينِ، ولكنَّ فَرَحَهُمْ بما كانُوا يصْنَعُونَ في الدنيا مِنَ الخِصْبِ والسَّعَةِ، وحُزنَهُمْ بما يُصيبُهُمْ مِنَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ.

وكانُوا يَتطيَّرُون برسولِ اللهِ ﷺ وهكذا كانَ دَأْبُ الكَفَرةِ مِنْ قبلُ؛ كانُوا يَتَطيَّرونَ بالأنبياءِ ﷺ كقولِهِ ﷻ إخباراً عن قومِ مُوسَى ـ على نَبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ ـ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] وكقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]. وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

فعلى ذلكَ قولُهُمْ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ تطيُّراً[4] منهُمْ برسولِ اللهِ ﷺ

فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي[5] بتَقديرِهِ كانَ وقضائِهِ فَضلاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وجزاءً كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] أي ما أصابكُمْ[6] بِسُوءِ صَنيعكمْ[7] برُسلِ اللهِ ﷺ وتكذيبِكُمْ[8] إياهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي لا يَفقَهُونَ ما لَهُمْ وما عَلَيهِمْ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾. ورُوِيَ في حَرْفِ ابْنِ مسْعُود ﷺ [أنهُ][9] قالَ: (وأنا قَدَّرْتُها عليكَ). يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ يَرجِعُ ما ذكرْتُ مِنَ السَّعَةِ والعافيةِ ونَحوِهِما[10] ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ مِنَ البلاءِ والشِّدَّةِ ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ بِحَقِّ الجِنايَةِ على آلائهِ [يَرجِعُ][11] إلى ما ذَكَرْتُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

ويَحتملُ أنْ تكونَ الآيةُ الأُولَى في أمْرِ الدنيا والأُخرى في أمْرِ الدِّين إذا اختلَفَتِ الإضافةُ في هذا، واتَّفقَتْ في الأولى:

إذِ الأولى: على ما عليهِ أمْرُ المِحنةِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]؛ جَعَلَ اللهُ تعالى مُختَلَفَ أحوالِ العبادِ [لا يَمْتَنِعُ][12] لهُمْ في ذلكَ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٧] وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٦ والعنكبوت: ٦٢].

---

(١) في الأصل وم: في القتل. (٢) من م. في الأصل: يكونون. (٣) في الأصل: التجصص والمشيد الجص. في م: المجصص والمشيد الجص. (٤) في الأصل وم: تطير. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾. (٦) في الأصل وم: أصابهم. (٧) في الأصل وم: صنيعهم. (٨) في الأصل وم: وتكذيبهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ونحوها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل: ولا يمتنع.

والثانية(١): في حقِّ الأفعالِ، فيُضافُ إلى اللهِ ما صَلَحَ منها شُكراً وحَمْداً بِما أنعمَ اللهُ عليهِ؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [البقرة: ٦٤] وقولُهُ تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ الآية [إبراهيم: ١١] وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقولُهُ تعالى: ؟ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ الآية [الحجرات: ٧] وغيرُ ذلكَ، فيُضافُ إليه بِما مَنَّهُ(٢) في ذلكَ مِنَ الفَضْلِ والنعمةِ شُكراً. [وما في زلَّةٍ](٣) وضلالةٍ لا تجوزُ الإضافةُ إليه لِما يُشْبِهُ(٤) الاعْتِذارَ، ولا عذرَ لأحدٍ في ذلكَ؛ [فيُقالُ: إنهُ](٥) ربُّ السمواتِ والأرضِ، ولا يُقالُ: هو ربُّ الخنازيرِ والأقذارِ ونَحْوُ ذلكَ لِما يَقْبُحُ في السَّمعِ، وإنْ كانَ مِنْ حيثُ الخَلْقُ والتَّقديرُ واحِداً. فمِثْلُهُ أمرُ الأفعالِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

ونَفْيُ الإضافةِ عنهُ لا يَدُلُّ على نَفْيِ أنْ تكونَ خِلْقَتُهُ لِما بَيَّنّا مِنَ الإشباهِ الإضافةِ إليهِ، كالتَّخْصيصِ/ ١٠٤ ـ أ/، فيُقالُ: يا خالِقَ القِرَدَةِ والخَنازيرِ، ويا إلهَ الأقذارِ والخَبائثِ، ويا ربَّ الشُّرورِ والمصائبِ، وإنْ كانَ كلُّ ذلكَ داخلاً في أسماءِ الجملةِ، والحقُّ(٦) مِنْهُ تَقْديرُها وخَلْقُها، وكذلكَ الفواحِشُ والكَبائرُ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني(٧): الخيراتُ والأعمالُ الزاكيَةُ قد تُضافُ إليهِ لا مِنْ وجهِ التَّخليقِ عندَ الجميعِ، بل عندَنا مِنْ جهةِ الإفضالِ بالتوفيقِ والإنشاءِ. وعندَ المُعْتَزلةِ مِنْ جِهَةِ الأمرِ والتَّرغيبِ. فعلى ذلك نَفْيُ الإضافةِ في ما لم يُضَفْ إليهِ لِهذا. وأيَّدَتْ هذا قراءةُ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ (وأنا قَدَّرْتُها عَلَيكَ)(٨).

قالَ قائلٌ: ذلكَ لا يَقَعُ على الأفعالِ لقولِهِ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ولو كانَ عليها كانَ يقولُ: ما أصبْتُ. ثم كانَ لهُ جَوابانِ:

أحدُهما: أنَّ الإجابةَ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ: ما يُصيبُهُ هو يُصيبُ ذلكَ، فَسَواءٌ لو أُضيفَ إليهِ، أو أُضيفَ هو إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ ذلكَ يُخْرِجُ [مُخْرَجَ](٩) الجزاءِ أيضاً إذا كان على ما يقولُ، فيكونُ على، ما يُصيبُهُ مِنْ جَزاءِ حَسَنَةٍ أو سيِّئَةٍ. وإذا لم يَجْعَلِ اللهُ في حَسَنَةٍ فَضْلاً، لو يَحْتَمِلُ الإضافةَ إليهِ معَ ما قد بيَّنّا مِنْ إضافاتِ أعمالِ الخيرِ إليهِ ودَفْعِ الشَّرِّ لِما لَيسَ في فِعْلِهِ مِنَ اللهِ إفضالٌ عليه، بهِ إنعامٌ، وكانَ في فِعْلِ الخَيرِ ذلكَ لا بالأمرِ والنَّهيِ، إذْ هما يَسْتَويانِ في كُلٍّ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أوضحَ ذلكَ خَبَرُ عبدِ اللهِ [بْنِ مسعودٍ](١٠)، فطَعَنَهُ قومٌ لمُخالَفَةِ المُصْحَفِ المعْروفِ. قُلْنا: لَيسَ بذي خِلافٍ، إنما هو بيانُ المُطْلَقِ. وقد يُقْبَلُ خبرُ الآحادِ في مِثْلِهِ، واللهُ أعلمُ. وقيلَ: خبَرُ عبدِ الله [بْنِ مَسْعودٍ](١١) مِنْ خُبُرِ الآحادِ، ولَعلَّهُ لَيسَ قَبْلَ مصْحَفِهِ تَرْوي عنهُ العامَّةُ، لا يَحْتَمِلُ التَّبديلَ. وأمّا خبرُهُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فلا(١٢) يجوزُ اخْتِراعُ القراءةِ مَرْفوعاً(١٣)، وخبَرُ الفَرْدِ فيهِ يُقْبَلُ في ما لا خِلافَ فيهِ، وإنْ كانَ فيهِ تأويلُ الظاهِرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ قيلَ: في حَرْفِ حَفْصةَ: (﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ﴾ إلى الناسِ ﴿رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾) قيلَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي بأنكَ رسولُ اللهِ. وقيلَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وقيلَ: لا شاهِدَ أفْضَلُ مِنَ اللهِ بأنكَ رسولُهُ.

وفي قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وُجوهٌ:

أحدُها: إنْ جَحَدوا تَبْليغَكَ في الدنيا، وقالُوا(١٤): لمْ تُعْلَمْ رسالتُكَ.

والثاني: أنْ يكونَ بالآياتِ التي جَعَلَها اللهُ تعالى رسالتَكَ تُحقِّقُ شهادةَ اللهِ لكَ بالرسالةِ شهيداً لكَ أو مُبيِّناً أو حُجَّةً.

والثالثُ: أنْ يكونَ جعلَ علمَ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ وتَبليغَهُمُ الخبرَ إليهمْ شهادتَهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ما أضاف بَيْعَةَ الرسولِ ﷺ إليهِ، ونَصْرَ أوليائهِ إليه. قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

---

(١) في الأصل وم: والثاني. (٢) في م: لمنة. (٣) في الأصل: والثاني في زلزلة. في م: والثاني في زلة. (٤) في الأصل وم: شبه. (٥) في الأصل وم: ويقبُحُ في الإضافة. (٦) من م. في الأصل: ومحق. (٧) في الأصل وم: والثاني، المقصود بذلك القول الثاني قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾. (٨) قراها أيضاً ابن عباس وأبي بن كعب وأبو صالح. انظر تفسير الطبري (٨/ ٥٥٩) والبحر المحيط (٣/ ٧١٩). (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: لا. (١٣) في الأصل وم: مرفوع. (١٤) في الأصل وم: ويقولوا.

ويَحتَمِلُ ﴿شَهِيدًا﴾ مُبيِّناً؛ فمعناهُ: فَيُبيِّنُ لهُمْ بالمُعاينةِ ما كانَ بيَّنَهُ بالدَّلالةِ والآياتِ مُحْكَماً[1] فاصلاً بيْنَ المُحِقِّ والمُبْطِلِ، فيَخرُجُ الوجهانِ جميعاً، وخرجَ الإعراضُ عنِ المُحاجَةِ ممّا يَظْهَرُ مِنَ العِنادِ والمُكابَرةِ وتفويضُ الأمْرِ إلى اللهِ وإخبارٌ عن الفَراغِ ممّا كانَ عليهِ فيهِمْ منْ حقِّ البَلاغِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [يَحتمِلُ وجوهاً]:

أحدُها[2]: أنَّ اللهَ ﷻ أمَرَ بطاعةِ الرسولِ ﷺ فإذا أطاعَ رسولَهُ ﷺ فقد أطاعَ اللهَ؛ لأنهُ اتَّبعَ أمْرَهُ، ألا ترى أنهُ قالَ ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩...] حتى[3] جعلَ طاعةَ الرسولِ ﷺ مِنْ شَرْطِ الإيمانِ بقولِهِ ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾؟ الآية [النساء: ٦٥].

والثاني: أنَّ الرسولَ ﷺ إنَّما يأمُرُ بطاعةِ اللهِ. فإنْ أطاعَ رسولَهُ ﷺ وائْتمرَ بأمْرِهِ، فقد أطاعَ اللهَ ﷻ لأنهُ هو الآمِرُ بطاعةِ اللهِ، وباللهِ التوفيقُ.

[والثالثُ: أنَّ][4] الرسولَ ﷺ يأمُرُ بأمْرِ اللهِ تعالى، لِذلكَ كانَتْ طاعتُهُ طاعةَ اللهِ.

وذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ في المدينةِ: «مَنْ أحَبَّني فَقَدْ أحَبَّ اللهَ تعالى، ومَنْ أطاعَني فقد أطاعَ اللهَ» [بنحوه البخاري ٢٩٥٧] فعيَّرَهُ المُنافقونَ في ذلكَ، فأنزلَ اللهُ تعالى تصْديقاً لقولِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ فقَدْ ذكَرَ [اللهَ تعالى][5] وإنْ قَلَّتْ: صلاتُهُ وصِيامُهُ وتِلاوتُهُ القرآنَ، ومنْ عصاهُ فقدْ نَسِيَ اللهَ تعالى، وإنْ كَثُرَتْ: صَلاتُهُ وصِيامُهُ وتلاوتُهُ القرآنَ. فطاعةُ اللهِ تعالى إنما تكونُ في اتّباعِ أمْرِهِ [والإنْتِهاءِ عن][6] مَناهِيهِ، وكذلكَ حبُّهُ إنما يكونُ في اتّباعِ أمرِهِ ونَواهيهِ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقولُهُ تعالى أيضاً: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [الأمرُ][7] ظاهرٌ مكشوفٌ. حقيقتُهُ[8] أنهُ يُطيعهُ بطاعةِ اللهِ، إذِ الأمرُ [أنْ][9] يُطيعَهُ، على أنهُ يَدْعوهُ إلى طاعتِهِ، وطاعتُهُ إجابةٌ لهُ بما يُطيعُ اللهَ بهِ. وحِكْمَتُهُ أنهُ لم يَجْعَلْ مسْلَكَ الطاعةِ عِبادةً، وإنْ كانَتْ هي للهِ عبادةً، ولا تَجوزُ عِبادةُ الرَّسولِ، فصيَّرَ اللهُ طاعتَهُ عِبادةَ اللهِ تعالى. فاعْلَمْ أنَّ الطاعة قد تكونُ غَيْرَ مُسْتَحِقَّةٍ لِاسْمِ العِبادةِ؛ إذْ قد تُسمَّى لا مِنْ ذلكَ الوَجْهِ. ولِذلكَ[10] جازَ القَوْلُ: بِمُطاعٍ في الخَلْقِ، ولا يَجوزُ بِمَعْبودٍ، واللهُ أعلَمُ.

وأيضاً فيهِ شهادةٌ لهُ بالعِصْمَةِ في كلِّ ما دعا إليهِ، وأمَرَ بهِ، وإلزامُ الخَلْقِ الشهادةَ لهُ بالصِّدْقِ في ذلكَ والقِيامِ[11]. وبهِ أكَّدَ وبقولِهِ تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] وبقولِهِ ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] الآيتينِ جَميعاً. وتلكَ الآياءُ على لُزومُ طاعتِهِ أخْوَفَ مُخالَفَةَ العذابِ، وأزالَ عنِ الواجِدِ في نفْسِهِ مِنْ قضائِهِ الحَرَجَ الإيمانُ.

ثم ليسَتِ [الطاعةُ][12] طاعةً في فِعْلِهِ خاصةً أو قولِ ما يَقُولُهُ، ولكنَّها بوجهَيْنِ:

أحدُهُما: اعْتِقادٌ وكلُّ فِعْلٍ وقولٍ على ما عليهِ عندَهُ مِنْ خُصوصٍ وعُمومٍ أو إلزامٍ أو آدابٍ أو إباحةٍ وتَرْغيبٍ.

والثاني: في الوفاءِ بالذي منهُ المُرادُ؛ فيهِ مَنْ يَفْعَلُ كَفِعْلِهِ، أو يَتَّقِي ذلكَ، أو يَسْتَعْمِلُهُ في حَقِّ الإباحةِ، أو ما أرادَ مِنْ مُحِلِّهِ، فيهِ يَعْرِفُ مَوقِعَ كلٍّ مِنْ ذلكَ بالأدلَّةِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ. وقولُ مَنْ يقولُ: لا تَلْزَمُ طاعتُهُ، أو تَلْزَمُ، كلامٌ بهذا الإطلاقِ لا مَعْنى لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ في أعمالِهِمْ وأفعالِهِمْ، فإنما عليهِمْ ما عمِلُوا، وعليكُمْ [ما عمِلْتُمْ][13]، ما تُسْألُ أنتَ عنْ أعمالِهِمْ، ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤] واللهُ أعْلَمُ. ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ تطَّلِعُ على سرائرِهِمْ، إنّما عليكَ أنْ تُعامِلَهُمْ على الظاهرِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وحكماً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وحق. (٤) في الأصل وم: وقيل لأن. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: وانتهاء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م. في الأصل: حقيقة. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وكذلك. (١١) في الأصل وم: والقيامة. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ قيلَ: إنَّ المنافقينَ قد أظهَرُوا التَّصديقَ للهِ تعالى ولِرَسولِهِ ﷺ فإذا دَخَلُوا على رسولِ اللهِ ﷺ قالُوا: يا رسولَ اللهِ أمْرُكَ طاعةٌ فَمُرْنا بما شِئْتَ نَفْعَلْهُ، وإذا أمَرَهُمْ بأمْرٍ، ونَهاهُمْ عَنْهُ، خالَفُوا أمْرَهُ، وغَيَّرُوا ما أمَرَهُمْ[1]، ونَهاهُمْ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ [قولَهُ][2]: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ إلى قولِهِ: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ [النساء: ٨٠ و٨١].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ قولُهُ: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ قِيلَ: غَيَّرُوا[3] ما أمَرَهُمْ بِهِ: وقيلَ: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي قَدَّرُوا بالليلِ القولَ، [والَّفُوا، وكُلُّ كلامٍ، هو][4] مُقدَّرٌ بالليلِ مُؤَلَّفٌ فيهِ يُقالُ: مُبَيَّتٌ[5]؛ ومعناهُ: واللهُ أعلَمُ [أنهمْ غيَّروا قولَ][6] رسولِ اللهِ ﷺ فهذا، واللهُ أعلَمُ، معنى قولِهِ: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ وإلّا ظاهِرُ هذا ليسَ على ما قالَهُ أهلُ التَّفسيرِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي اللهُ تعالى يأمُرُ بإثباتِ ما يُبيِّتُونَ مِنَ القولِ الكَذِبِ والمُغَيَّرِ مِنَ القولِ لِيُلزِمَهُمُ الحُجَّةَ لأنَّهمْ كانُوا يُسِرُّون ذلكَ، ويُضمِرُونَهُ، لا يُظهِرُونَهُ[7] إظهاراً، لِيَجْزِيَهُمْ جزاءَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾/ ١٠٤ ـ ب/ ولا تُكافِئْهُمْ على هذا. ويَحتَمِلُ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تتكلَّفْ إظهارَ سِرِّهِمْ، ولا تَطَّلِعْ عليهِ. إنّما ذلكَ إليَّ لأُطْلِعَكَ[8] على ما يُسِرُّونَ لِيَعْلَمُوا أنكَ إنّما عَرَفْتَ ذلكَ باللهِ. ففيهِ دَلالةُ إثباتِ الرِّسالةِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وثِقْ باللهِ، ولا تَخَفْهُمْ، فإنَّ اللهَ تعالى يَدفَعُ عنكَ شَرَّهُمْ وكَيْدَهُمْ.

ويَحتَمِلُ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في جَزائِهِمْ فإنَّ اللهَ هو يَتَوَلَّى جَزاءَ تكذيبِهِمْ إيّاكَ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ في ما ذَكَرْناهُ أي ﴿وَكَفَىٰ﴾ بِهِ مانِعاً، فلا أحَدَ أمْنَعُ منهُ. وقيلَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] بما يُبَيِّتُونَ وحافظاً. وقالَ بعضُهُمْ: لا يكونُ التَّبْييتُ إلّا بالليلِ يُؤَلِّفونَ الشَّيءَ، ويُقَدِّرُونَهُ بالليلِ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ لو كانَ الحُكْمُ الظاهِرُ المَخرَجِ على ما يَقولُهُ قومٌ لَكانَ القرآنُ خَرَجَ مُختَلِفاً مُتناقِضاً. قالَ[10] اللهُ تعالى ﷻ في الآيةِ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ٤٤] وقالَ[11] في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ٤٥] [فإنْ][12] كانَ على ظاهِرِ المَخرَجِ، فهو مُختَلِفٌ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. وقالَ اللهُ ﷻ في [الآيةِ نفسِها][13]؟ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ في [أوّلِ الآيةِ][14] حظرٌ، وفي آخِرِها[15] إباحةٌ. فلو كانَ على ظاهِرِ المَخرَجِ والعُمومِ لَكانَ مُختَلِفاً ومُتناقِضاً. ويَجِدُ أهلُ الإلحادِ أوْضَحَ طَعْنٍ فيهِ وأيْسَرَ سَبيلٍ إلى القولِ بأنهُ غيرُ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ الرحمنِ، إذْ بِهِ وَصَفَهُ أنهُ لو ﴿كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ وقالَ ﷻ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الآية [فصلت: ٤٢] وقالَ ﷻ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ثم وُجِدَ أكثَرُ ما فيهِ الحُكْمُ مُتفرِّقاً إلى غيرِ المَخرَجِ، فدَلَّ بِهِ أنَّ الحُكْمَ لا كذلكَ، ولكنْ لِمَعْنًى مُودَعٍ[16] فيهِ، والمُودَعُ لا يُوصَلُ إليهِ[17] إلّا بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ فيهِ. وإلى هذا نَدَبَ اللهُ عِبادَهُ لِيتدبَّروا فيهِ، لِيَفهَمُوا مَضمُونَهُ ولِيَعْمَلُوا[18] بِهِ.

ثم يُحتَمَلُ بَعْدَ هذا وجهانِ:

أحدُهُما: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي لو كانَ هذا القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ لَكانَ لا يُوافِقُ لِما أخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ سَرائِرِهِمْ موافِقاً لَهُ، دلَّ أنهُ خَبَرٌ عنِ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: أمر لهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: غير. (٤) في الأصل وم: بالغوا وكل كلام وقوله، في م: والغوا وكل كلام وقوله. (٥) في الأصل وم: بيت. (٦) في الأصل وم: أن. (٧) في الأصل وم: لا يظهرون. (٨) في الأصل وم: لا طلعكم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (١١) في الأصل وم: ويقول. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: آية أخرى. (١٤) في الأصل وم: أحدهما. (١٥) في الأصل وم: الأخرى. (١٦) في الأصل وم: المودع. (١٧) في الأصل وم: إلى ذلك. (١٨) في الأصل وم: وليعلموا.

والثاني: أنَّهم كانُوا يَقُولُون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] و﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] ونحوَهُ، فأخبرَ اللهُ ﷻ أنهُ لو ﴿كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ لكانَ لا يُوافِقُ لِما عِندَهُمْ مِنَ الكُتُبِ، بل كانَ مُختلِفاً. فلمّا خَرَجَ هذا القرآنُ مُسْتَوِياً مُوافِقاً لِسائِرِ الكتبِ كقولِهِ تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] و﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦] دلَّ أنهُ مِنْ عِندِ اللهِ نَزَلَ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنّ هذا القرآنَ نَزَلَ على محمدٍ ﷺ في أوقاتٍ مُتفرِّقَةٍ مُتباعدةٍ على نوازِلَ مُختَلفةٍ. فلو كانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللهِ نَزَلَ لخَرَجَ مُختَلِفاً مُناقِضاً بعضُهُ بعضاً. لأنّ حكيماً مِنَ البَشَرِ لو تَكلَّمَ بِكَلِماتٍ في أوقاتٍ مُتباعِدَةٍ لَخَرَجَ كلامُهُ مُتناقِضاً مُختلِفاً إلّا أنْ يَسْتَعينَ بِكلامِ ربِّ العالمينَ، ويَعْرِضَهُ عليهِ، فَعِنْدَ ذلكَ لا يتناقَضُ[١]. فلمّا خَرَجَ هذا [القرآنُ][٢] مع تَباعُدِ الأوقاتِ غيرَ مُختَلِفٍ ولا مُتناقِضٍ دلَّ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ تعالى نزَلَ، وباللهِ التوفيقُ.

وفيهِ الاحتِجاجُ على المُلْحِدَةِ[٣] حينَ قالَ ﷻ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ فلو وَجَدُوا لأظْهَرُوا ذلكَ، وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] ولو قَدَرُوا على ذلكَ لَأَتَوا بهِ. دلَّ تَرْكُ إتيانِهِمْ ذلكَ أنَّهُمْ لم يَقدِرُوا على إتيانِ مثلِهِ، ولو وَجَدوهُ مُختلِفاً[٤] لأظهَروهُ، ولو كانَ مِنْ كلامِ البَشَرِ على ما قالُوا لأتَوا بهِ لأنهُ مِنَ البَشَرِ. فظهَرَ أنهُ مُنزَلٌ مِنْ عندِ اللهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وقولُهُ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] دلالةٌ بيِّنةٌ على [وجوهٍ:

أحدُها][٥]: أنَّ المقصودَ منهُ يُدرَكُ بالتأمُّلِ والتَّدبُّرِ، إذْ به جَرْيُ الأمرِ والتَّرغيبُ قَبْلَ وقْتِ العَمَلِ، بل إلزامُ[٦] القِيامِ بما يُعمَلُ[٧] بالتَّدبُّرِ. ثم فيه وَجْهانِ:

أحدُهُما: أنَّ الأمْرَ ليس على مَخْرَجِ كلامٍ عِنْدَ أهلِ اللِّسانِ ولا على حَقِّ الآيةِ في اللُّغةِ أو حَقِّ مثلِهِ أنْ يُرغَبَ في معرفةِ المَوقعِ عندَ أهلِ اللِّسانِ مِنَ المَخْرَجِ، والوَجْهُ إليهِ لا يَدَّبَّرُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني[٨]: أنَّ التَّدبُّرَ فيهِ حَظُّ الحُكماءِ وأهْلِ البَصَرِ لا حَظُّ العَوامِّ. وما يُعْرَفُ من حيثُ اللسانُ فهو حظُّ الفريقَينِ. ثبَتَ أنَّ على العَوامِّ اتِّباعَ الخَواصِّ في ما فَهِمُوهُمْ والاقْتِداءَ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهُ جَعَلَ وَجْهَ معْرِفةِ الاختلافِ والاتِّفاقِ بالتَّدبُّرِ فيهِ، لا يَقْرَعُ الكلامُ السَّمْعَ وإذا ثبتَ ذلك لم يَلْزمِ العملُ بِشَيءٍ مِنَ الظاهرِ حتى يُعْرَفَ المَوقِعُ أنهُ على ذلكَ بالتَّدبُّرِ لئلا يَلْحَقَ المُتَمَسِّكُ بهِ النَّقيضَ بالتَّدبُّرِ، واللهُ أعلَمُ.

والوجهُ الثالثُ: بما تضَمَّنتِ الاختِلافِ أنَّ ارْتِفاعَ الاخْتِلافِ جعلَهُ حُجّةً على أنهُ عنِ اللهِ؛ إذْ عُلِمَ [أنَّ][٩] اللهَ مِمّا جَبَلَ عليهِ الخَلْقَ أنهُ لا أحَدَ يَمْلِكُ بِحَقِّ الاختِراز[١٠] لا عنْ عِلْمِ السَّماعِ يُنْتَى إليهِ عنِ اللهِ خَبَرٌ[١١] الصادقِينَ، ويَمْلِكُ[١٢] تأليفَ الكلامِ ونَظْمَ مثلِهِ غيرَ[١٣] مُتناقِضٍ ولا مُختلِفٍ، يَنْفي بِنَفْيِ الاخْتِلافِ ما قُرِنَ بهِ مِنَ الكَهَنَةِ؛ إذْ كذلكَ كلامُ الكَهَنَةِ يَخْرُجُ مُختَلِفاً وما قُرِنَ مِنْ تَعْليمِ البَشَرِ وأساطِيرِ الأوّلينَ والسِّحْرِ ونَحْوِ ذلكَ؛ إذْ كلٌّ يُخرِجُ ذلكَ على الاخْتِلافِ.

وفي ذلكَ بيانُ خَطَرِ جعْلِ المُخْرَجِ بِحَقِّ اللِّسانِ مِنَ الاسْمِ حُجّةً ودَليلاً لِما يُوجَدُ مِنْ ذلكَ الوَجْهِ ﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾. ولو كانَ مِنْ ذلكَ الوجهِ الاحْتِجاجُ لَوُجِدَ الاخْتِلافُ. ومَنْ رامَ أنْ يَجْعَلَ القرآنَ، لولا بيانُ الخَبَرِ، مَوقِعُهُ على جِهَةٍ قد يَقَعُ فيهِ الاخْتِلافُ دُونَهُ، فهو وَصَفَ القرآنَ مَعَ اجْتِماعِ الخَبَرِ بِنَفْيِ الاخْتِلافِ.

وأمّا هوَ، في نَفْسِهِ مُختلِفٌ، فَمَثَلُهُ لِكُلِّ كاهِنٍ وبَشَرٍ أُريدَ ثَبْتُ التَّناقُضِ؛ أمكنَ لِمَنِ النَّدْبُ عنْهُ، إنْ كانَ عنهُ مُتَرجِماً مُعَبِّراً، يجِبُ ضَمُّ تأويلِهِ إليهِ، فَيَبْطُلُ أنْ يكونَ على أحدٍ وُجودُ اختِلافٍ في مكانٍ، ويكونُ احْتِجاجُ العَوِينِ غنياً. جَلَّ عن ذلكَ. ثم ما ذَكَرَ يَحْتَمِلُ الأحكامَ والحُدودَ والأُمورَ والنَّواهِيَ؛ وذلك يُوجِبُ أنَّ التناسُخَ والخُصوصَ والعُمومَ لا يكونُ

---

(١) في الأصل وم: تناقض. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م. في الأصل: الملحدات. (٤) من م. في الأصل: مختلف. (٥) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٦) في الأصل وم: ألزم. (٧) في الأصل وم: يعقل. (٨) هذا هو الوجه الثاني من وجهي التدبر. في الأصل وم: ومعلوم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في م: الاختراع. (١١) في م: الاختراع. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: عن.

مختلفاً، ويحتمِلُ الإخبارَ والوَعْدَ والوَعيدَ ونَحْوَ ذلكَ. وأعني بالإخبارِ [الإخبارَ][(١)] عنِ الغيبِ وعَمّا كانَ أخْبَرَ ﷺ عن شِرْكِ المُنافقينَ وعمّا إليه مَرْجِعُ الأمورِ وعمّا كانَ عنهمْ ونحْوِ ذلك ممّا خَرَجَ كذلكَ، والله أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وإذا جاءَهُمْ نَبأٌ مِنْ خَوفٍ أو أمْنٍ أذاعُوهُ، وكذلكَ في حرفِ حَفْصَةَ. قال الكِسائيُّ: (هما لُغتانِ: أذعْتُ بِهِ، وأذعْتُهُ، إذا[(٢)] أفْشَيْتُهُ. وقيلَ: سَمِعُوا به، وأفْشَوهُ. وقيلَ: أفْشَوهُ، وأشاعُوهُ).

ثم اخْتُلِفَ في مَنْ نزلَتْ؛ قالَ الحَسَنُ: (نزلَتْ في المؤمنينَ؛ وذلكَ أنَّهُمْ إذا سمعُوا خبراً مِنْ أخبارِ السَّرايا والعساكِرِ ممّا يُسرُّونَ، ويفْرَحونَ أفْشَوهُ في الناسِ فرَحاً منهُمْ، وإذا سمعُوا ما يُحْزِنُهمْ، ويهُمُّهُمْ، أظهرُوهُ في الناسِ حُزْناً وغَمّاً).

ثم اسْتثنى ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يُذيعونَ، ولا يُفْشُونَ الخَبَرَ. فلَو سَكَتُوا، ورَدُّوا الخبرَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ حتى يُخْبِرَ النَّبيُّ ﷺ ما كانَ مِنَ الأمْرِ، ويَرُدَّهُ[(٣)] إلى أولي الأمْرِ، حتى يكونوا هُمُ الذينَ يُخْبِرونَ بهِ، كانَ أولَى. وهو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ.

وقالَ أبو بكْرٍ الكِسائيُّ: (نزلَتِ الآيةُ في المُنافقينَ؛ وذلك أنَّ المُنافقينَ إذا سمعُوا رسولَ اللهِ ﷺ يُخْبِرُ عنْ نصْرِ المُسْلمينَ على[(٤)] الأعداءِ بذلكَ لأعْدَوا على ذلكَ، وإذا سمعُوا أنَّ الأعداءَ قدِ اجْتَمعوا، وأعدُّوا للحَرْبِ أخْبَروا بذلكَ ضَعَفَةَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ليَمْتَنِعوا عنِ الخروجِ إليهِمْ. فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ حتى كانَ هو/ ١٠٥ ـ أ/ مُخْبِرَهُمْ عن ذلك، وردُّوهُ[(٥)] إلى أولي الأمرِ منهُمْ، ليُخْبِروا بذلكَ، واللهُ أعلَمُ. ثم اخْتُلِفَ في ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ قيلَ: هُمْ أمَراءُ السَّرايا، وقيلَ: هُمْ [العُلَماءُ والفقهاءُ][(٦)] ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ الذينَ يَطْلُبونَ علْمَهُ بقولِهِ. وقيلَ: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ ههنا مثلُ أبي بكْرٍ وعُمرَ وعُثْمانَ وعَليٍّ ﷺ ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي يَسْتَخْرِجونَ مِنْ كتابِ اللهِ تعالى. وقيلَ: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وُلاةُ الأمْرِ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ والَّذينَ ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ قومٌ إمّا مُنافِقونَ، وإمّا مُؤمنونَ على ما ذكَرْنا. إنّما هُوَ ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ إلّا قليلاً منهمْ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآيةَ[(٧)].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قيلَ: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ رسولُنا [محمدٌ ـ عليهِ أفضلُ الصَّلَواتِ ـ][(٨)] ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ القرآنَ. تأويلُهُ: لولا محمدٌ ﷺ والقرآنُ لاتّبعُوا الشيطانَ إلّا قليلاً منهمْ لَمْ يَتّبِعُوهُ، ولكنْ آمَنوا بالعقلِ. وقيلَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ في الأمْرِ والنَّهْيِ عنِ الإذاعةِ والإفشاءِ، وإلّا [لأذاعُوا بِهِ][(٩)]، واتّبَعُوا الشَّيطانَ في إذاعَتِهِمْ بِهِ إلّا قليلاً منهُمْ، فإنهُمْ[(١٠)] لا يُذيعونَ بِهِ.

وعنِ الضَّحّاكِ [أنه][(١١)] قالَ: (هُمْ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ كانُوا حَدَّثُوا أنْفُسَهُمْ بأمورٍ مِنْ أُمورِ الشيطانِ إلّا طائِفَةً مِنْهُمْ لمْ يُحَدِّثُوا بها أنْفُسَهُمْ).

وقالَ آخَرُونَ: هُمُ المُنافقونَ؛ كانُوا إذا بلَغَهُمْ أنَّ اللهَ تعالى أظفَرَ المُسْلمينَ على المُشْركينَ، وفَتَحَ عليهِمْ، صَغَّرُوهُ، وحقَّرُوهُ. وإذا بلَغَهُمْ أنَّ المُسْلمينَ نُكِبُوا شَنَّعُوهُ، وعظَّمُوهُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهُمْ [أنهُ][(١٢)] يقولُ: (لَعَلِمَ[(١٣)] الأمْرَ الذينَ اسْتَثْنى اللهُ ﷻ حِينَ قالَ إبليسُ ـ لعنَهُ اللهُ ـ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] وحينَ قالَ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ـ٤٠].

وقالَ غيرُهُمْ: ما ذَكَرْنا على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ: وإذا جاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأمْنِ والخَوفِ أذاعُوا به إلّا قَليلاً منهُمْ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإذا. (٣) في الأصل وم: ورده. (٤) في الأصل وم: إلى. (٥) في الأصل وم: أوردوه. (٦) في الأصل وم: علماء الفقهاء. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: على قوله بعض. (٨) في الأصل وم: محمداً عليه أفضل الصلوات. في م: محمد ﷺ. (٩) في الأصل: لأذاعوا. في م: لأذاعوه. (١٠) من م. في الأصل: بأنهم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: لعلموا.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ قولُهُ: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهُما: كقولِهِ تعالى][١] ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤].

والثاني: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ أي تُكلَّفُ أنتَ بالقِتالِ والجهادِ، وإنْ تخلَّفَ[٢] هؤلاءِ عن الخُروجِ مَعَكَ. يُؤيِّدُ ذلكَ ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ قالَ: (هذا حينَ استَنصرَ النَّبيُّ ﷺ أصحابَهُ ﷺ بوَعْدِ أبي سُفيانَ [يومَ][٣] بَدْرِ الصُّغرى، فَخَذَلَهُ[٤] الناسُ، فأنزَلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ. فقال رسولُ اللهِ ﷺ «لأخرُجَنَّ إلى بَدْرٍ وإنْ لم يَتْبَعْني أحدٌ مِنْكُمْ» فَتَبِعَهُ[٥] أقلُّ الصحابةِ ـ رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ ـ وقال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾) [آل عمران: ١٧٣].

وفيه دليلُ وَعْدِ النصرِ لَهُ والفتحِ والنَّكْبةِ على الأعداءِ [لأنهمْ تَخلَّفوا عنِ الخروج معه][٦] فلو لم يكنْ وَعْدُ النصرِ لهُ لم يُؤمَرْ بالخُروجِ. ألا ترى أنهُ قال اللهُ ﷻ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ وعَسى مِنَ اللهِ تعالى واجبٌ؟

وفي قولِهِ تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ وَعْدُ نَصْرِهِ، وإنْ خَرَجَ وَحْدَهُ؛ إذ الـ: عَسى هو مِنَ اللهِ واجبٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ على القِتالِ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها][٧]: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ بالثوابِ لَهُمْ وكريمِ المَآبِ على ذلكَ.

والثاني:[٨] قولُهُ: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ على القِتالِ لِما في القتالِ مَعَهُمْ إظهارُ دينِ اللهِ الإسلامِ، وفي تَرْكِ المُجاهَدةِ والقتالِ مَعَهُمْ نصرُ العَدُوِّ عليهِمْ وإظهارُ دينهِمْ أمَرَ ﷻ رسولَهُ ﷺ لِيُرَغِّبَهُمْ في مجاهدةِ أعدائِهِمْ.

والثالثُ: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ على المُجاهدةِ والقِتالِ معَهُمْ وَعْداً بالنَّصْرِ لَهُمْ والفَتْحِ والغَنيمةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ والـ: عَسى مِنَ اللهِ واجِبٌ. وعَدَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ ﴿أَن يَكُفَّ﴾ عَنهُمْ ﴿بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ قيلَ: ﴿أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾ لِما يَدفَعُ بأسَ المُشرِكينَ عنكُمْ، ولا يَقْدِرُونَ هُمْ دفعَ بأسٍ عنْ أنفُسِهِمْ، فبأسُ اللهِ أشَدُّ. وقولُهُ ﷻ: ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ قيلَ: التَّنكيلُ هو العذابُ الذي يكونُ لِلآخَرِ فيهِ زَجْرٌ ومَنْعٌ. وقيلَ: حِينَ قالَ لهُ: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ ولو لم يَتْبَعْكَ أحدٌ مِنَ الناسِ لَكَفَّ اللهُ عَنْكَ بَأْسَ المُشرِكينَ. وقيلَ: البَأسُ هو عذابُ الدنيا، والتَّنكيلُ والنَّكالُ هو عذابُ الآخرةِ؛ لأنهُ يُخَوِّفُهُمْ بأسَهُ لِتَخلُّفِهِمْ عنِ العَدُوِّ ومَخافةَ بأسِهِمْ وعذابِهِمْ، فأخبرَ ﷻ أنَّ بأسَ اللهِ وعذابَهُ أشَدُّ مِنْ بأسِ الأعداءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ لم يذكُرْ ما تِلْكَ الشفاعةُ التي يَشفَعُ. فَتَحْتَمِلُ الشفاعةُ الحَسَنَةُ الدعاءَ[٩] لهُ بالمغفرةِ والرحمةِ، وهو لذلكَ مُستوجِبٌ، فيكونُ لهُ [مِنْ ذلكَ][١٠] نصيبٌ، والشَّفاعةُ السَّيِّئةُ هو الدُّعاءُ عليهِ[١١] باللَّعنِ والمَقْتِ، وهو لِذلكَ غَيْرُ مُستَوجِبٍ، فيكونُ له منها نَصيبٌ. وقيلَ: [هو كقولِهِ[١٢] ﷺ]: «الدالُّ على الخَيرِ كفاعِلِهِ» [مسلم ١٨٩٣] و«مَنْ دَلَّ آخَرَ على الخَيرِ فَلَهُ في ذلكَ نَصيبٌ» [بنحوه الترمذي ٢٦٧٤] وكذلكَ مَنْ دلَّ آخَرَ على الشَّرِّ.

وتَحتملُ الشَّفاعةُ الحَسَنَةُ في مَظْلَمةٍ [أنْ يسعَى المَرْءُ][١٣] في دفعِ مَظْلَمةٍ عنْ أخيهِ المُسْلِمِ، وهو شفاعةٌ حسَنَةٌ، فلَهُ في ذلكَ نَصيبٌ. وتَحتمِلُ الشَّفاعةُ السَّيِّئةُ [أنْ يَسعَى المَرْءُ][١٤] في فسادِ أمْرٍ يَلْحَقُهُ مِنْ ذلكَ نَقْمَةٌ ومَظْلَمَةٌ، فَلَهُ في ذلك إثْمٌ. وقيلَ: الشَّفاعةُ الحَسَنَةُ هي التي تَنْتَفِعُ بها [وتَعْمَلُ بها][١٥]؛ هي بَيْنَكَ وبينَهُ، وأنْتُما[١٦] فيها شريكانِ، [والشفاعةُ

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: تختلف. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فخذل. (٥) في الأصل وم: فاتبعه. (٦) في الأصل وم: لأنه تخلف الخروج وعده فلولا لم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ويحتمل المؤمنين. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: هي. (١٠) في الأصل وم: لذلك. (١١) أدرج في الأصل وم قبلها: له. (١٢) في الأصل وم: قوله العرب. في م: كقوله العرب. (١٣) في الأصل وم: يسعى. (١٤) في الأصل وم: هو أن يسعى. (١٥) في م: وعمل بها. ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: هما.

السَّيِّئةَ][(١)] هي التي تُصَيِّرُكُما[(٢)] فيها شَرِيكَينِ[(٣)]. ويَحْتمِلُ أنْ تكونَ الشَّفاعةُ الحَسنَةُ كلَّ مَعْروفٍ وكلَّ آمِرٍ بهِ، والشَّفاعةُ السَّيِّئةُ كلَّ مُنْكَرٍ وآمِرٍ بهِ، فهما[(٤)] شريكانِ في ذلكَ: الآمِرُ والفاعِلُ جميعاً.

وتَحْتمِلُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][(٥)] قالَ: «كلُّ معروفٍ صَدَقَةٌ» [مسلم ١٠٠٥] و«الدَّالُّ على الخَيرِ كفاعِلِهِ» [مسلم ١٨٩٣] و «اللهُ يُحِبُّ إغاثَةَ اللَّهْفانِ» [البزار في كشف الخفاء ١٩٥١] وعنِ الحَسَنِ ﷺ [أنهُ][(٦)] قالَ: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا صَدَقَةَ أفضلُ مِنْ صَدَقَةِ اللسانِ، قيلَ: وما صَدَقَةُ اللِّسانِ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: الشَّفاعةُ تُجرِيها إلى أخيكَ، وقد وَقَعَ عليهِ ثِقْلُ الكَريهَةِ، وتُخفِي بها الذَّمَّ») [بنحوه السيوطي في الدر المنثور: ٢/ ٦٠٢].

والكِفْلُ والنَّصيبُ واحدٌ. وقيلَ: الكِفْلُ الجَزاءُ، وقيلَ: إثْمٌ، ولكنْ ليسَ إثمَهُ خاصةً. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷻ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؟ [الحديد:٢٨]. والشفاعةُ مِنْ أعْظَمِ ما احْتِيجَ إليها؛ إذ قد جاءَ القرآنُ بها والآثارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ والشَّفاعةُ في المَعْهُودِ مِنَ الأمْرِ يكونُ عنهُ زَلَّاتٌ تَسْتَوجِبُ بها المَقْتَ والعُقوبةَ، فيُعْفَى عنْ مُرْتَكِبِها بِشَفاعةِ الأخيارِ وأهلِ الرِّضا بهِمْ. ثم كانتِ الصغائرُ مِنّا، لا يجوزُ التَّعذيبُ عليها عندَ القائلينَ بالخُلُودِ بالكَبائرِ، والكَبائرُ مِمَّا تُعفَى بالشَّفاعةِ. فإذَنْ بَطَلَ عِظَمُ ما جاءَ مِنَ القرآنِ والآثارِ في الاِعْتِناءِ، وسَقَطَ ما جُبِلَ عليهِ أهلُ العِلْمِ باللهِ وبِرَحْمَتِهِ، وَيَبْطُلُ رجاءُ المُسْلمينَ بِشَفاعةِ الرُّسُلِ ـ صَلواتُ اللهِ عليهِمْ ـ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقالَ بعْضُهُمْ: الشَّفاعةُ تَخْرُجُ على وجهَينِ:

[أحدهُما][(٧)]: على ذِكْرِ مَحاسِنِ أحدٍ عندَ آخَرَ لِيَقْدُرَ عندَهُ المَنْزِلةَ والرُّتْبَةَ.

والثاني: أنْ يَدْعوَ لهُ. فالأوَّلُ هو الذي يَحْتَمِلُ تَوجيهَ الشَّفاعةِ إليهِ. والثاني: قد بُيِّنَ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧و ٨ و٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والخَوفُ يَدُلُّ على وَجْهَي[(٨)] الشفاعةِ؛ لأنَّ المُرْتَضَى هو ذو مَنْزِلَةٍ وقَدْرٍ، وهو مِمَّنْ تَضَمَّنَتْهُ شَفاعةُ الملائكةِ. فيقالُ: الوجهُ الأوَّلُ في الآخرةِ لا مَعْنَى لهُ لِوَجْهَينِ:

أحدُهُما: أنهُ في تقديرِ الأمْرِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُهُ، واللهُ، جَلَّ ثَناؤُهُ، هو العَليمُ بِحَقيقةِ ذلك، بل غَيْرُهُ ممّا يجوزُ عليهِمْ خَفاءُ الحقائقِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ / ١٠٥ ـ ب/ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ الآية [المائدة: ١٠٩]، وقالَ عيسى ﷺ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ الآية [المائدة: ١١٧]. وكانَ في ذلكَ أنَّ الحَقائقَ في ذلكَ عِنْدَ اللهِ، وهُمْ تَبَرَّؤوا عنِ العِلْمِ بذلك، وأقرُّوا بأنَّ اللهَ هو المُنْفَرِدُ بِعلْمِ ذلكَ، وباللهِ التَّوفيقُ.

والثاني: أنَّ ثَمَّةَ كتباً تُقرأُ فيها أعْمالُ بَنِي آدَمَ وما سبَقَ منْهمْ مِنْ صَغيرٍ وكَبيرٍ، فهِيَ الكافيةُ في التَّقديرِ، إنْ كانَ في حقِّ الاِحْتِجاجِ، وإنْ كانَ في حَقِّ الإعلامِ. فَعِلْمُ اللهِ بهِمْ مُغْنٍ عنْ ذلكَ. ولا قوةَ إلا باللهِ.

وأمّا الدعاءُ فكذلكَ نَقُولُ بدعاءٍ لِمَنْ لهُ ذلكَ الوَصْفُ، و يُشْفَعُ لهُ في ما كانَ في ذلك مِنْهُ مِنَ المَآثِمِ والذُّنوبِ، لا أنهُ إذا [كانَتْ كلُّ أفعالِهِ][(٩)] ذلكَ فيُشْفَعُ لَهُ[(١٠)]، لأنهُ [لا يجوزُ في الحِكْمَةِ تَعْذيبُهُ][(١١)] على ذِكْرٍ مِنَ الأفعالِ، بَلْ لَهُ[(١٢)] عليها أعْظَمُ الثوابِ وأرْفَعُ المَأْوَى.

وطلبُ الشَّفاعةِ والمَغْفِرَةِ لِمِثْلِهِ يَقْبُحُ مِنْ وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ ذلكَ][(١٣)] لا يجوزُ في الحكمةِ؛ [فكأنه طُلِبَ منهُ ما][(١٤)] لا يَجوزُ، ولا يَسَعُهُ. وذلكَ لأنَّ[(١٥)] فِسْقَ الخَلْقِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ السَّفَهِ فَضْلاً مِنْ أنْ يُتَضَرَّعَ إلى اللهِ بِهِ. جَلَّ الكَريمُ الحَليمُ عنْ هذا الوصفِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تصير به مما. (٣) في الأصل وم: شريكان. (٤) في الأصل وم: فيهما. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجهين. (٩) في الأصل وم: كان كل أفعالهم. (١٠) في الأصل وم: لهم. (١١) في الأصل: تعذيبهم. (١٢) في الأصل: لهم. (١٣) ساقطة من م. (١٤) في الأصل وم: فكأنهم طلبوا منه. (١٥) في الأصل وم: لا.

والثاني: أنْ يخْلُوَ[١] في مثلِهِ، إذ هو مُثابٌ غيرُ مُعاقَبٍ؛ يَلْقَى ذلكَ مِنْهُ بالشُّكْرِ والحَمْدِ، وفي الدعاءِ كِتمانُ ذلك وكُفرانُهُ، ومُحالٌ الإذْنُ في مثْلِهِ، وباللهِ التوفيقُ.

والثالثُ: أنَّ ذلكَ في المَوعودِ بالجنةِ والمُبشَّرِ بها، فَطَلبُ مِثْلِهِ يُوصَفُ[٢] بجَهالةٍ بذلكَ، لا أنَّ الوقْتَ لم يُبيِّنْ [ذلكَ][٣]؛ يكونُ ذلكَ في الإسْتِعجالِ، وهو قولُنا في أصحابِ الكَبائرِ: إنَّهُمْ لو عُذِّبوا بِقَدْرِ الذنوبِ لَكانَ ذلكَ في الحِكْمَةِ عَدْلاً، فيُشفَعُ لِسائِلِهِمْ بالفَضْلِ والإحسانِ دُونَ العَدْلِ والإسْتِيفاءِ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

والأصلُ أنّها مَقاديرُ العُقوباتِ؛ إنّما تُعرَفُ مَنْ يَعْرِفُ مَقاديرَ الأجرامِ، وليسَ مِنَ الخلائقِ [مَنْ][٤] يَحتَمِلُ تركيبَةَ احْتِمالِ العِلْمِ بِمَقاديرِها؛ إذْ لا أحَدَ يَبْلُغُ في مَعْرِفَةِ تَعْظيمِ اللهِ كُنْهَ عَظَمَتِهِ لِيَعْرِفوا قَدْرَ الخِلافِ لأمْرِهِ، جَلَّ، وعَلا، وما كانَ هذا سَبِيلُهُ فَحَقُّ القَولِ الإتْباعُ: أنَّ اللهَ لا يَجْزي السَّيِّئَةَ إلاّ مِثْلَها.

ثم مَعْلومٌ أنْ لا سَيِّئَةَ أعْظَمُ مِنَ الكُفْرِ، وجَعْلُ مِثْلِها مِنَ الجزاءِ الخُلُودُ في النارِ. فَمَنْ ألْزَمَ ذلكَ لِما دُونَهُ وصَفَ اللهَ تعالى أنهُ يَجْزي بالسَّيِّئَةِ أكْثَرَ مِنْ مِثْلِها، واللهُ ﷻ أخْبَرَنا أنهُ لا يَجْزي ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ تكونُ في ما بَيْنَ المَرْءِ [وأخيهِ][٥]؛ يَشْفَعُ إليهِ بالمَغْفِرَةِ لأحَدٍ والتَّجاوُزِ عنِ المذنِبِ، فيكونُ [لَهُ][٦] نَصيبٌ منها. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى برحمتِهِ يُرَحِّمُهُ على أخيهِ بالشَّفاعةِ إليه بالتَّجاوزِ عنهُ والمَغْفِرَةِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى، إذا غَفَرَ لهُ، في شَفيعِهِ شَفاعَةٌ، يَهَبُهُ لَهُ كما وَهَبَ الأوّلَ لَهُ.

وفي السَّيِّئَةِ في ما يَلْعَنُهُ أو يَدعُو اللهَ عليهِ بالهلاكِ عَنْ غيرِ اسْتِحقاقٍ، أو عليهِ في بَقائِهِ ضَرَرٌ، يكونُ لهُ نَصيبٌ، بِلَعْنِ الآخَرِ، أو أحدُهُمْ[٧] يَلْعَنُهُ، ويَدْعو عليهِ بهِ أنْ يُعاقِبَهُ بإشارتِهِ إلى أخيهِ في طَلَبِ الهلاكِ بلا مَعْنىً لَهُ.

وقولُهُ تعالى أيضاً: ﴿وَمَن يَشْفَعْ﴾ الآية تَحْتَمِلُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ يَشْفَعُ لَهُ بِخَيْرٍ إليهِ مِنْ عَفْوٍ وتَجاوُزٍ أو بِسُوءٍ إليهِ مِن لَعْنِهِ أو هلاكِهِ. والنَّصيبُ مِنْها بوجهَيْنِ:

أحدُهما: المَغفِرَةُ في الأوّلِ، هي بِرَحْمَتِهِ أخاهُ وإشفاقِهِ عليهِ، أو يُعطي المَشفوعَ الشَّفاعَةَ، فيكونُ لَهُ نَصيبٌ مِنها.

والثاني[٨]: يَجْزيهِ بإصابةٍ مِنْ لَعْنِهِ ودعاءٍ عليهِ بالهلاكِ بِلا اسْتِحْقاقٍ؛ يَقْبِضُ الأوّلَ أو واحداً بِمِثْلِهِ فيهِ، واللهُ أعْلَم.

ويَحْتَمِلُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الناسِ، ثم يكونُ ذلكَ بوجوهٍ:

أحدُها: بِما يَشْفَعُ إلى مَنْ بَيْنَ أخيهِ وآخَرَ سُوءٌ في دَفْعِ ذلكَ، وقد[٩] حَلَّتِ التَّحِيَّةُ أو الإلْفَةُ أو ضِدُّ ذلكَ [أو][١٠] يَشْفَعُ في إقالَةِ عَثْرَةٍ، أو يَنُمُّ بَيْنَهُما لإلقاءِ عَداوَةٍ، أو يَشْفَعُ إليهِ بالدلالةِ على مَلْهوفٍ في إغاثةٍ أو مَظْلومٍ في نَكْبَةٍ، أو يَصْنَعُ مَعروفاً أو مُنْكَراً، يَبْعَثُ ذلكَ على خَيرٍ أو شَرٍّ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ قيلَ: هو الحافِظُ، وهو قولُ ابْنِ عبّاسٍ رضي الله عنه وقيلَ: ﴿مُّقِيتًا﴾ حَسيباً أي مُقْتَدِراً مُجازِياً بالحَسَنَةِ والسَّيِّئَةِ. ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «مَنِ اسْتأكَلَ بِمُسْلمٍ أكْلَةً أطْعَمَهُ اللهُ مِنْ نارِ جَهَنَّمَ، ومَنْ قامَ بأخيهِ مَقامَ سُمْعَةٍ ورياءٍ أقامَهُ اللهُ تعالى مَقامَ سُمْعَةٍ ورياءٍ، ومَنْ تَتَبَّعَ عَورَةَ أخيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَورَتَهُ، ومَنْ تَتَبَّعَ عورَتَهُ يَفْضَحْهُ في بَيتِهِ» [بنحوه أحمد ٥/٢٧٩].

وعَنِ الفَرّاءِ والكِسائيِّ، [أنهما][١١] قالا: (المُقيتُ المُقْتَدِرُ مِنْ: أقاتَ يُقيتُ إقاتَةً). وقيلَ: المُقيتُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ القُوتِ؛ يقولُ: رِزْقُ كلِّ دابَّةٍ على اللهِ حتى تَسْتَوفيَ أكْلَها ورزْقَها. وقيلَ: ﴿مُّقِيتًا﴾ واجداً[١٢]؛ يَكْلَؤُهُمْ، ويَرْزُقُهُمْ.

وقالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: (وهو مأخوذٌ مِنَ الكتبِ السابقةِ، ليسَ هو بِلسانِنا، فَنَحْنُ لا نَتأوَّلُهُ، فَلَعَلَّهُ على خِلافِ ما نَتأوَّلُهُ، واللهُ أعلَمُ).

---

(١) في الأصل وم: يخلق. (٢) في الأصل وم: يوجب. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وفي الثاني. (٨) في الأصل وم: أحد. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: واجبا.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ ذَكَرَ التَّحيَّةَ، ولم يَذكُرْ ما تِلْكَ التَّحيَّةُ؟ واسْمُ التَّحيَّةِ تقَعُ على أشياءَ مِنْ نَحْوِ ما جَعَلَ الصلاةَ [تَحيَّةً لِلْمَسْجِدِ][1] والطَّوافَ تحيَّةً للبيتِ[2] وغيرَ ذلك ممّا يَكْثُرُ عَدَدُها. لكنَّ أهلَ التّأويلِ أجمَعُوا على صَرْفِ هذهِ التَّحيَّةِ إلى السَّلامِ دُونَ غيرِها مِنَ التَّحيَّةِ التي ذَكَرْنا. ألا تَرَى أنهُ قال ﷻ ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾؟ ولو كانَ غيرَها[3] أرادَ لم يَقُلْ ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ لأنَّ غيرَها مِنَ التَّحيَّةِ لا تُرَدُّ، إذْ في الرَّدِّ تَرْكُ القَبولِ، ولم يَأمُرْ[4] بذلك.

دلَّ أنهُ أرادَ بالتَّحيَّةِ السَّلامَ. ويَدُلُّ على ذلك آياتٌ مِنْ كِتابِ اللهِ تعالى؛ قالَ اللهُ ﷻ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النور: ٦١] فَجعَلَ تَحيَّةَ الملائكةِ للمؤمنينَ[5] السلامَ، كقولِهِ تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] وجَعَلَ تحيَّةَ أهلِ الجنةِ السَّلامَ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠] وتحيَّةَ الملائكةِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ بالسَّلامِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷻ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾؟ الآية [النور: ٦١].

فَعلَى ذلك يُمكِنُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ السَّلامَ وجَعَلَ اللهُ ﷻ السَّلامَ عَلَماً وشِعاراً في ما بَيْنَ المُسْلمينَ وأماناً يُؤَمِّنُ بَعْضُهُمْ بعضاً مِنْ شَرِّهِ. ألا ترَى أنَّ أهلَ الرِّيبَةِ لا يُسَلِّمُونَ، ولا يَرُدُّونَ السَّلامَ؟ وإنْ كانُوا[6] لا يَعْرِفُونَ تَفْسِيرَهُ ولا مَعْناهُ، ولكنْ على الطَّبْعِ جُعِلَ ذلكَ لَهُمْ.

والسلامُ: قيلَ: هوَ اسْمٌ مِنْ أسْماءِ اللهِ تعالى، فهو يَحْتَمِلُ وُجوهاً: [مِنها أنهُ][7] سَلامٌ مُسَلَّمٌ طاهِرٌ عنِ الأشباهِ والأشكالِ، وسَلامٌ عَدْلٌ مُنَزَّهٌ عنِ العُيُوبِ كُلِّها والجَورِ والظُّلْمِ؛ وقولُهُ تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٣] أي بِرَحْمتِهِ يَنجو مِنْ نَجاءٍ، ويَسْعَدُ مِنْ سَعْدٍ ﴿وَبَرَكَاتُهُ﴾ بِهِ يُنالُ كُلُّ خيرٍ، وهي اسْمُ كُلِّ خيرٍ. ألا تَرَى أنَّ التَّحْليلَ مِنَ الصلاةِ بقولِهِ [ﷺ][8]: «السلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ اللهِ» [الطبراني في الكبير ٦١١٤] على ما جَعَلَ تَرحيمَها بِاسْمِ اللهِ؟ فَعلَى ذلكَ جَعلَ الافْتِتاحَ بِما بِهِ جَعَلَ الخَتْمَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ ﷻ ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ على أهْلِ الكتابِ. وعَنْ أنَسٍ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: (نُهينا أنْ نَزيدَ على أهلِ الكتابِ على: عَلَيْكَ، وعَلَيْكُمْ). وعن ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][10] قالَ: (السلامُ اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ وصِفاتِهِ في الأرضِ فَأفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، فإنَّ الرجلَ إذا سَلَّمَ كُتِبَتْ لهُ عَشْرُ حَسَناتٍ، فإنْ هُمْ رَدُّوها عليهِ كُتِبَتْ لَهُمْ مِثْلُها)[11].

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ بالزِّيادةِ ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ بِمِثْلِها. ورُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنه رَدَّ السلامَ فقالَ][12]: «وعَلَيْكُمْ السلامُ ورحمةُ اللهِ، ثم جاءَهُ آخَرُ، فقالَ: السلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ اللهِ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ وعَلَيْكُمْ السلامُ ورَحْمَةُ اللهِ وبركاتُهُ، ثم جاءَهُ آخَرُ، فقالَ: السلامُ عليكُمْ، ورَحْمَةُ اللهِ وبركاتُهُ،/١٠٦ - أ/ فَقالَ: وعَلَيْكُمْ، فقيلَ: إنكَ زِدْتَ في الأوَّلِ والثاني: فقالَ: إنَّ الأولَ والثانيَ: قد أبْقَيا لي زيادةً، وهذا لم يُبْقِ زِيادةً» [الطبراني في الكبير ٦١١٤].

وقيلَ: إنهُ رُوِيَ أنهُ سَلَّمَ عليهِ رجلٌ، فقالَ: السلامُ عَلَيْكُمْ، فقالَ النبيُّ ﷺ «عَشْرٌ» يعني عَشْرَ حَسَناتٍ، وسَلَّمَ عليه آخَرُ، فقالَ: السلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ اللهِ، فقالَ: «عِشْرونَ»، وقالَ آخَرُ: السلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ، فقال: «ثلاثُونَ» [البيهقي في شعب الإيمان ٨٨٧٤] ومُنْتَهى السلامِ وبركاتُهُ كقولِهِ «ورَحْمَةُ اللهِ وبركاتُهُ عَلَيْكُمْ أهْلَ البيتِ» [الطبراني في الكبير ٢٦٧٣].

فإنْ قيلَ: يُسَلِّمُ في الصلاةِ على رسولِ اللهِ ﷺ السلامُ عَلَيْكُمْ أيُّها النَّبِيُّ ورَحْمَةُ اللهِ وبركاتُهُ، ولا يقولُ في التَّحْليلِ مِنَ الصلاةِ: وبَرَكاتُهُ، قيلَ: لِوجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: لتحية المسجد. (٢) في الأصل وم: البيت. (٣) من م. في الأصل: غير. (٤) في الأصل وم: يؤمر. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: صلاة. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: يحتمل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: مثله. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

[أحدُهما: تَفْضِيلاً][(١)] لِرَسولِ اللهِ ﷺ.

والثاني: إبْقاءٌ لَهُمْ في الردِّ زِيادَةً.

ويُسَلِّمُ الراكبُ على الماشي، والقائِمُ على القاعِدِ. رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][(٢)] قالَ: «يُسَلِّمُ الراكبُ على الماشِي، والماشِي على القائِمِ، والقائِمُ على الجالِسِ، والصَّغيرُ على الكَبيرِ» [البيهقي في شعب الإيمان ٨٨٦٧].

ورُوِيَ عنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إذا انْتَهى أحَدُكُمْ إلى المَجْلسِ فَلْيُسَلِّمْ، فإنْ بَدَا لَهُ أنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ، وإنْ قامَ، والقَومُ جُلُوسٌ، فَلْيُسَلِّمْ، فَلَيسَتِ الأُولى بأحَقَّ مِنَ الأُخْرَى» [الترمذي ٢٧٠٦].

وعَنْ جابرٍ ﷺ [أنهُ][(٣)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «مَنْ تَشَبَّهَ بغيرِنا فَلَيْسَ مِنّا» [الترمذي ٢٦٩٥] وقالَ: «لا تُسَلِّمُوا تَسْلِيمَ اليَهودِ والنَّصارى؛ فإنَّ تَسْلِيمَ النَّصارَى بالأكُفِّ وتَسْلِيمَ اليَهودِ بالإشارةِ» [الديلمي في الفردوس ٧٣٢٣] ويُكْرَهُ أنْ يُبْتَدَأَ بأهلِ الكتابِ بالتَّسْليمِ. ولكنْ إذا بَدَؤوا هُمْ يُرَدُّ [عليهِمْ][(٤)]. على ذلكَ جاءَتِ الآثارُ.

وعنْ أبي هَرِيرَةَ ﷺ [أنهُ][(٥)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا تَبْدَؤوا اليهودَ والنصارَى بالتَّسْليمِ، وإذا لَقِيتُمُوهُمْ في الطريقِ فاضْطَرُّوهُمْ إلى أضْيَقِها» [مسلم ٢١٦٧] وعن أبي نَضْرَةَ الغِفاريِّ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لَهُمْ يوماً «إني راكبٌ إلى يَهُودَ، فإنْ سَلَّمُوا عَلَيكُمْ فقولُوا: وعَلَيكُمْ» [أحمد ٦/٣٩٨].

ثم قيلَ في تفسيرِ: السلامُ عَلَيكُمْ بِوُجوهٍ: قالَ بَعْضُهمْ: تأويلُهُ: اللهُ شهيدٌ عَلَيكُمْ، وقيلَ: اللهُ قائمٌ علَيكُمْ، وهو كقولِ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ [الرعد: ٣٣] بَرٌّ أو فاجِرٍ، يَرْزُقُهُمْ، ويَحْفَظُهُمْ، ويَسْتَجيبُ لَهُمْ. وقيلَ: هو الدعاءُ لَهُمْ بالمَغْفِرَةِ والسَّلامَةِ، وهو ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ قيلَ: شهيداً، وقيلَ: حَفيظاً، وقيلَ: كافياً مُقْتَدِراً، يُقالُ: حَسْبي[(٦)] هذا، أي كَفاني. وقالَ الكِسائيُّ: (مُشْتَقَّةٌ مِنَ الحِسابِ كقولِهِ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] أي حاسِباً كالأميرِ والآمِرِ والقَديرِ والقادِرِ، واللهُ أعلَمُ).

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، لَمّا ألْزَمَ اللهُ وأجْرَى على ألْسِنَتِهِمْ [كلمةَ][(٧)] اللهِ، وأنهُ خالِقُ السمواتِ والأرضِ، وأنهُ خالِقُهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] أخْبَرَ أنَّ الذي سَمَّيْتُمُوهُ اللهَ، وقُلْتُمْ: إنهُ خالِقُ السمواتِ والأرضِ هو واحِدٌ لا إلهَ غيرُهُ، ولا رَبَّ سِواهُ؛ هو واحدٌ، لا شَريكَ مَعَهُ، ولا نِدَّ، وأنَّ الأصنامَ التي تعبُدُونها دونَ اللهِ قد تعلَمُونَ أنها لا تَنْفَعُكُمْ إنْ عَبَدْتُمُوها، ولا تَضُرُّكُمْ، إنْ تَرَكْتُمْ عبادَتَها. وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، وقيلَ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ في القبورِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ثم يبْعَثُكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ معناهُ، واللهُ أعلَمُ، تَقْبَلُونَ الحديثَ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وإنَّ حَديثَكُمْ يكونُ صِدْقاً، ويكونُ كَذِباً، فكيف لا تَقْبَلُونَ حديثَ اللهِ وخَبَرَهُ في البَعْثِ وما أخْبَرَ في القرآنِ، وحَديثُهُ لا يَحْتَمِلُ الكَذِبَ؟ هذا، واللهُ أعلَمُ، تأويلُهُ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ اخْتُلِفَ في قصةِ الآيةِ؟ قيلَ: إنَّ ناساً مِنْ أهلِ مكَّةَ قَدِمُوا على رسولِ اللهِ ﷺ المدينةَ، فأسْلَمُوا، وأقامُوا بها ما شاءَ اللهُ أنْ يُقيمُوا، ثم نَدِمُوا على الهجرةِ والإقامةِ فيها، وأرادوا الرَّجعةَ إلى مكَّةَ، فَخَرجُوا يتَحوَّلُونَ مَنْقَلَةً مَنْقَلَةً حتى تَباعدُوا مِنَ المَدينَةِ، فَلَحِقُوا بمكَّةَ، فكَتَبُوا كتاباً، ثم بَعَثُوا بهِ معَ رسولٍ مِنَ

---

(١) في الأصل وم: تفضلا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أحسبني. (٧) ساقطة من الأصل وم.

قِبَلِهِمْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فَقَدِمَ بِهِ الرسولُ عليهِ بالمدينةِ، فإذا فيه: إنّا على الذي فارَقْناكَ عليهِ مِنَ التَّصْدِيقِ باللهِ وبرسولِهِ[1]، اشْتَقْنا إلى أرضِنا، واجْتَوَينا المدينةَ. ثم إنهُمْ خرجُوا مِنْ مكّةَ مُتَوَجِّهِينَ إلى الشامِ للتجارةِ، فَبَلَغَ ذلكَ المسلمينَ، وهُمْ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ بَعْضُهمْ لِبَعْضٍ: فَمَا صُنْعُنا؟ أَنَخْرُجُ إلى هؤلاءِ الذينَ رَغِبُوا عَنْ[2] دِينِنا، وتركُوا هجرَتَنا، فَنَقْتُلَهمْ، ونأخُذَ ما مَعَهُمْ؟ فقالَ فريقٌ منهُمْ: كيفَ تقتُلُونَ قوماً على دينِكُمْ؟ ورسولُ اللهِ ﷺ ساكِتٌ، لا يَنْهَى واحداً مِنَ الفريقينِ، حتَّى نزلَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ بيَّنَ اللهُ ﷻ لِرسولِهِ أَمْرَهُمْ، وما صارُوا إليهِ.

وقيلَ: تخلَّفَ رجالٌ عنْ أُحُدٍ، فكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ فِئَتَينِ: فِرْقَةٌ تقولُ: اعفُ عنهُمْ، فنزَلَتِ الآيةُ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾. وقيلَ: إنَّ قَوماً كانُوا يتحدَّثونَ، فاختَصَمُوا في أهلِ مكّةَ، فقالَ بعضُهمْ: إنهُمْ كُفّارٌ، وقالَ آخرُونَ: إنهمْ أكلُوا ذبائِحَكُمْ، وصَلُّوا صلاتَكُمْ، وأجابُوا دعوَتَكُمْ، فهُمْ مَعَكُمْ، وقالَ غيرُهُمْ: تَرَكُوا النَّبيَّ ﷺ وتخلَّفُوا عنهُ، فأكثَرُوا في ذلكَ [فنزلَ قولُهُ تعالى][3]: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآيةَ.

فلا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصّةُ؟ ولكنَّ فيهِ النَّهْيَ عَنِ الاختلافِ والتَّنازُعِ بينهُمْ، كأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: كيفَ تَخْتَلِفُونَ في قومٍ ظهرَ نِفاقُهُمْ؟ وكيفَ لا تسألُونَ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ حالِهِمْ؟ وهو بينَ أظْهُرِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩]. وظُهورُ نفاقِهِمْ يَحْتَمِلُ الخبَرَ منهُ نَصّاً أنهُمْ مُنافقونَ، ويَحْتَمِلُ الظُّهورَ بالاستِدْلالِ على أفْعالِهِمْ. وقد يُوقَفُ على حالِ المرْءِ بفعْلِهِ أنهُ كافِرٌ أو مُؤمِنٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ قالَ الكسائيُّ: (فيه لُغتانِ؛ يُقالُ: أرْكَسْتُهُ، وارْتَكَسَ الرجُلُ إذا وَقَعَ فيه، ورَجَعَ إليهِ) وقيلَ: في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ، وحَفْصَةَ ﷺ: واللهُ رَكَسَهُمْ بما كَسَبُوا. ثم قيلَ: أرْكَسَهُمْ أي رَدَّهُمْ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ وجهَينِ: [يَحتمِلُ ما أظْهَروا ما][4] كانَ في قُلُوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ والخِلافِ لِرسولِ اللهِ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، ويَحْتَمِلُ ابْتِداءَ كَسْبٍ كَسَبُوا بعدَ ما أسْلَمُوا، أي كَفَروا، وارْتَدُّوا عنِ الإسلامِ بَعْدَ ما صَحَّ إسلامُهُمْ.

وفي[5] إضافةِ ارْتكاسِهِمْ إلى اللهِ دلالةُ خَلْقِ فعْلِهِمْ وحِرْمانِ [أمرٍ][6] يملِكُهُ، واللهُ أعلَمُ، بما كَسَبوا مِنْ إحداثِ شِرْكٍ، أو بِكَسْبِهِمْ بالقُلوبِ وَقْتَ إظهارِهِمُ الإيمانَ في أنْ ظَهَرَ عليهِمْ بلُحُوقِهِمْ إخوانَهُمْ مِنَ الكَفَرَةِ، أو لِما جَعَلَ اللهُ مِنْ أعلامِ النِّفاقِ التي ظَهَرَتْ بِفَرضِ الجِهادِ والعِباداتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾ وقد أرادَ اللهُ أنْ يَضِلُّوا لِما عَلِمَ اللهُ منهم أنَّهُمْ لا يَهْتَدونَ باختيارِهِمُ الكُفْرَ. ويَحْتَمِلُ أنكُمْ لا تَقْدِرونَ على هُداهُمْ إذا لم يَهْدِهِمُ اللهُ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ قيلَ: أنْ [تُسَمُّوا مُهْدِينَ][7] وقد أظْهَرَ اللهُ ضَلالَتَهُمْ ضِلَّةً كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ حَذَّرَهُمْ عنِ الاختِلافِ في التَّسْمِيةِ بعدَ البيانِ، وقيلَ: أنْ تجعلوهُمْ مُهْتَدِينَ، وقد جَعَلَهُمُ اللهُ ضالِّينَ نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ/ ١٠٦ ـ ب/ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية؛ أيَّدَ ذا تمامُ الآيةِ، وأوْضَحَ الأوَّلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ يقولُ: مَنْ أضلَّهُ اللهُ عنِ الهُدَى ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ يَهْتَدي [بهِ][8] وقيلَ: دِيناً، وقيلَ: مَخْرَجاً، وهو واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ قيلَ: الذينَ تَركوا الهِجْرَةَ، فَرَجعوا إلى أهلِيهِمْ ومَنازِلِهِمْ: الذينَ قالَ اللهُ [فيهِمْ][9]: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨] ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ أي تَتْركونَ الهِجْرَةَ، وترجِعُونَ كَما رجَعُوا هُمْ، فتكونُونَ أنتُمْ وهُمْ سواءً شِرْعاً في الكُفْرِ، فَسَمّاهُمُ اللهُ كُفّاراً، وأمَرَهُمْ بالبَراءةِ منْهُمْ،

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في م: فنزلت الآية. (٤) في الأصل وم: أظهرهم بما. (٥) الواو ساقطة من م.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تسمعوا مهتدين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

فقالَ: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ بالهجرَةِ الأولى كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١] وكقولِهِ[١] تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] وكقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [آل عمران: ٢٨]. نَهاهُمْ أنْ يَتَّخِذوا أولياءَ ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ هِجْرَةً ثانيةً إلى المدينةِ، ويَثْبُتوا على ذلكَ.

هذا في قَولِ مَنْ قالَ: إنَّهُمْ كانُوا هاجَرُوا، ثم لِحقُوا بمكَّةَ. أمّا في قَولِ مَنْ قالَ: إنَّهُمْ كانُوا في أهليهِمْ، تكَلَّمُوا بالإسلامِ فيها، ولم يُهاجِرُوا، فمعْنَى هذا: لا ﴿تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ كما هاجرَ غيرُهُمْ.

وقيلَ: المُهاجِرُون على طَبقاتٍ: منهُمْ مَنْ هاجرَ، وأقامَ، وسَمِعَ، وأطاعَ، وثَبَتَ على ذلكَ، ومنهُمْ مَنْ هاجَرَ، ثم خَرَجَ مِنْ غَيرِ إذنِ رسولِ اللهِ ﷺ فَلَحِقَ بأهلِهِ، وأبْطَلَ هِجْرَتَهُ التي[٢] هاجَرَ وإيمانَهُ الذي[٣] آمَنَ. ومنهُمْ مَنْ تكَلَّمَ بالإسلامِ، وأقامَ بأهلِهِ، ولم يُهاجِرْ، ولَهُ قُوَّةٌ [على][٤] الهِجْرَةِ، كان كذلكَ، ومنهُمْ مَن تكلَّمَ بالإسلامِ، ولم يكُنْ لَهُ قُوَّةٌ على الهِجْرَةِ، كانُوا مُسْتَضْعَفِينَ. وهو، واللهُ أعلَمُ، ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [النساء: ٩٨] ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: (كُنْتُ أنا وأمّي مِنَ المُسْتَضعفينَ). والذينَ آمنُوا، ولم يُهاجِروا، ولَهُمْ قُوَّةٌ [على][٥] الهِجْرَةِ، ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢] و في قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢] وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [النساء: ٨٩]. و يَحْتَمِلُ مَنْ أظهَرَ المُوافقةَ مِنَ المُنافقينَ لِلْكَفَرَةِ، ولَحِقَ بهِمْ، و يَحْتَمِلُ مَنْ قد آمَنَ، ولم يُهاجِرْ؛ فيكونُ الأوَّلُ على وِلايةِ الدينِ، والثاني: على وِلايةِ المِيراثِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ومَنْ يتأوَّلِ الآيةَ على إظهارِ الكُفْرِ دونَ الخُروجِ مِنَ المدينةِ فَمُهاجَرَتُهُ تَخرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ يكونَ قد انْضَمَّ إلى مَعاني الكفرةِ، فما[٦] يَترُكُ صُحْبَتَهُمْ.

والثاني: أنْ تُهاجِرَ الأعلامَ المَجْعولةَ لأهلِ النِّفاقِ ممّا تُظْهِرُ ذلكَ في ما امْتُحِنُوا بهِ مِنَ الأفعالِ، فيظهرُ خِلافُ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأبَوُا الهِجْرَةَ ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ لأنهم صارُوا حراماً لَنا حيثُ تَركُوا الهِجْرَةَ، وأبطلُوا إيمانَهُمُ الذي تكلَّمُوا بهِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لِما ذكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: في لُحوقِ قومٍ مِنْ مُظْهِري الإيمانِ، أنهم[٧] لو لَحِقوا بِمَنْ لا مِيثاقَ بينَكُمْ وبينَهُمْ، ولا عَهْدَ، فاقْتُلُوهُمْ حتى يَتُوبُوا، ويُهاجِرُوا. ولَو لَحِقُوا بأهلِ المِيثاقِ والعَهْدِ لا تَدَعُوا لَهُمُ الوِلايَةَ التي كانَتْ بينَكُمْ وبينَهُمْ.

والثاني: أنْ تكونَ الآيةُ في قومٍ مِنَ الأعداءِ وأهلِ الحربِ لَوِ انْضَمُّوا إلى أهلِ المِيثاقِ والعَهْدِ فَلا تُقاتِلُوهُمْ، فيكونَ الأمْرُ عَقيبَ مُوادعَةٍ تَجْري بينَ رسولِ اللهِ ﷺ وبينَ قومٍ في دُورِهِمْ على ألّا تَمانُعَ بينَهُمْ لأهلِ الاتِّصالِ في الزِّيادةِ والاجْتِماعِ إلى المُدَّةِ المَجْعولةِ لِلعَهْدِ مِمَّنْ إذا خِيفَ مِنْهُمْ يُنْبَذُ إليهِمُ العَهْدُ، وتُوفَى إليهِمُ المُدَّةُ إذا وَفَوا، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٤] وقولِهِ ﷺ: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: اسْتثْنى الذينَ خَرَجُوا مِنْ دارِ الهِجْرَةِ مُرْتَدِّينَ إلى قَومِهِمْ، وكانَ بَيْنَهمْ وبَيْنَ المُؤمنينَ عَهْدٌ ومِيثاقٌ، وقالُوا[٨]... وفيهِمْ نَزَلَ قَولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٤] كأنهُ قالَ: واللهُ أعلَمُ: إنْ وصَلَ هؤلاءِ إلى أولئكَ الذينَ ﴿بينَكُمْ وبَيْنَهُمْ عَهْدٌ ومِيثاقٌ﴾ فَلا تُقاتِلُوهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: الذي. (٣) في الأصل وم: الذين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيما. (٧) من م، في الأصل: أو. (٨) في الأصل وم: وقال.

وقيلَ: كانَ هذا في حَيٍّ مِنَ العَرَبِ بَيْنَهُمْ وبيْنَ رسولِ اللهِ ﷺ أمانٌ وعهدٌ، وكانتِ[1] المُوادَعَةُ على أنَّ مَنْ أتاهُمْ مِنَ المُسلمينَ فهو آمنٌ، ومَنْ جاءَ مِنْهُمْ إلى المُؤمنينَ فهو آمِنٌ.

يَقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنْ وَصَلَ هؤلاءِ أو غَيرُهُمْ إلى أهلِ عَهْدِهِمْ، [وقالُوا: نعاهِدُكُمْ][2] فإنَّ لَهُمْ مِثْلَ الذي لأولئكَ مِنَ العَهْدِ وترْكِ القِتالِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][3]: (لَمّا صَدَّ مُشْرِكُو مكَّةَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ عَنِ البيتِ جاءَ رَجُلٌ، يُقالُ لهُ: كَذا مِنْ بَعْضِ القبائلِ لِيَنظُرَ ما أمْرُ محمدٍ ﷺ وقُرَيشٍ، فرَآهُمْ قد حَالُوا بَيْنَ رسولِ اللهِ ﷺ وبَيْنَ البيتِ، فقال: يا مَعْشَرَ قُريشٍ هَلَكْتُمْ؛ أتَرُدُّونَ قوماً عَمّا ضَفَرُوا رُؤوسَهُمْ عنِ البيتِ؟ واللهِ لا نُشْرِكُكُمْ في هذا، فصالحَ رسولُ اللهِ ﷺ ووادَعَهُ ألّا يكُونُوا معَ رسولِ اللهِ ﷺ ولا يكُونُوا عليهِ، ومَنْ لَجَأ إليهِ فهو آمِنٌ). فلا نَدْري كيفَ كانَتِ القصةُ في ذلكَ؟ غيرَ أنَّ فيهِ دليلاً أنَّ مَنِ اتَّصَلَ بأهْلِ العَهْدِ، وكانَ على رأيهِمْ، فهو بِمَنْزِلَتِهِمْ، لا يُقاتِلُهُمْ.

ومِنْ قَولِنا: إنَّ الإمامَ إذا وادَعَ أهلَ بَلْدَةٍ مِنْ بُلْدانِ أهلِ الحَرْبِ، فَمَنْ دَخَلَ فيها، أوِ اتَّصَلَ بهِمْ، فَهُمْ آمِنُونَ مِثْلُهُمْ، لا يَحِلُّ قتالُهُمْ ولا أسْرُهُمْ حتّى يُنْبَذَ إليهِمْ عهْدُهُمْ. وإذا أمَّنَ قوماً مِنْهُمْ في دارِ الإسلامِ، وَوَداعَهُمْ، ثم انْضَمَّ إليهِمْ آخَرونَ، فَدَخلُوا مَعَهُمْ دارَ الإسلامِ، [لا يَحِلُّ][4] لَهُ قِتالُهُمْ وأسْرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ قيلَ: أي ضَيِّقَةٌ صُدورُهُمْ. وهكذا قالَ الكِسائيُّ: (كُلُّ مَنْ ضاقَ صَدْرُهُ عَنْ فِعْلٍ أو كَلامٍ فقد حَصِرَ). فهذا، واللهُ أعلَمُ، ما ذكَرْنا: أنَّ المُوادَعَةَ ألّا يُعينَ بعضهُمْ بَعْضاً في القتالِ، ولا يُعِينُوا عليهِمْ عَدُوَّهُمْ. فَنَهاهُمُ اللهُ عنْ قِتالِهِمْ لِما أخْبَرَ أنَّ قُلُوبَهُمْ تَضِيقُ على أنْ يُقاتِلُوكُمْ مَعَ قومِهِمْ مَعَكُمْ.

وفي قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ حُكْمُ هذا الحَرْفِ ما ضِمْنُهُ الحَرْفُ الأوَّلُ، فيكونُ ذلكَ الشَّيءُ مِمَّنْ ذَكَرْتُ إذا كانَ هذا صِفَتُهُ: أنْ يَضِيقَ صَدْرُهُ عَنْ مُقاتَلَةِ المؤمنينَ والكافِرينَ جميعاً إمّا بالطَّبْعِ وإمّا بوَفاءِ العَهْدِ وإمّا بالنَّظَرِ في الأمْرِ لِيَتَبَيَّنَ لهُ الحَقُّ، وهو مُتَرَدِّدٌ في الأمْرِ بما يَجِدُ العارفينَ[5] بالكتُبِ التي احْتَجَّ بها رسولُ اللهِ ﷺ مُخْتَلِفينَ فيهِ على [كمالِ][6] عقولِهِمْ، مُرْتَقِبٌ بِهِمْ، أوْ تَخَلُّفٍ[7] عنِ الإحاطةِ بِحَقِّ الحَقِّ إلّا بعدَ طولِ النَّظَرِ، واللهُ أعلَمُ.

فيكونُ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ بمعنَى وجاؤُوكُمْ. و يَحْتَمِلُ في قَومٍ سِوَى [ما][8] ذَكَرْتُ مِنَ الذينَ يَصِلُونَ. لكنَّ أُولئكَ المُعاهِدِينَ [أنفُسَهُمْ هُمْ][9] الذينَ أبَتْ أنْفُسُهُمْ نَقْضَ العَهْدِ بَيْنَهمْ وبَيْنَ المؤمنينَ، وعُرِضُوا[10] على الوَفاءِ بهِ، وأبَتْ أنْفُسُهُمْ أيضاً معونَةَ المُؤمنينَ على قومِهِمْ بالمُوافقةِ بالمَذْهَبِ والدينِ. وعلى ذلك وَصْفُ جَميعِ المُعاهِدِينَ الذينَ عُرِضُوا على الوفاءِ بالعَهْدِ، وذلكَ في حقِّ الآياتِ التي ذَكَرْنا.

ثم بيَّن [لِلَّذينَ ينقضُونَ][11] العَهْدَ أوِ المُنافقينَ الذينَ متى سُئِلُوا عنِ الكَونِ على رسولِ اللهِ والعَونِ لأعدائِهِ الأمْرَ فيهِمْ؛ وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [إلى قولِهِ تعالى][12]: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٣ و١٤]. وتكونُ هذهِ الآيةُ فيهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآية [الأحزاب: ٦٠] فيكونُ في هذه الآيةِ الإذْنُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي نَزَعَ مِنْ[13] قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ والخَوْفَ ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ولم يَطْلُبوا مِنْكُمُ الصُّلْحَ والمُوادَعَةَ ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ/١٠٧ ـ أ/ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني طَلَبُوا الصُّلْحَ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ وقيلَ: قالُوا: إنّا على دينِكُمْ، وأظْهَرُوا الإسلامَ ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي حُجَّةً وسُلْطانَ القِتالِ. أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بالكَفِّ عنْ هؤلاءِ.

---

(١) في الأصل وم: وكان. (٢) في الأصل وم: أو قال عهدكم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: المعروفين. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) في الأصل وم: وتخلف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نفسه. (١٠) في الأصل وم: وعرفوا. (١١) في الأصل وم: يناقضون. (١٢) في الأصل وم: في. (١٣) في الأصل وم: في.

الآية ٩١ وقولُهُ[1] تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية. قيلَ: كانَ رجالٌ تكلَّموا بالإسلام مُتَعوِّذينَ ليأمَنُوا المُسْلمينَ إذا لَقُوهُمْ، ويأمَنُوا قومَهُمْ بكُفرِهِمْ، فأمَرَ اللهُ بِقتالِهِمْ لا[2] أنْ يَعْتَزِلُوا عَنْ قِتالِهِمْ. وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ غيرَهُمْ مِمَّنْ لا يَفي لَكُمْ ما كانَ بينكُمْ وبينَهُمْ مِنَ العهدِ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ يقولُ: يُريدونَ أنْ يأمَنُوا[3] فيكُمْ، فَلا تتعرَّضُوا لَهُمْ، ويأمَنُوا في قومِهِمْ بِكُفْرِهِمْ، فلا يَتَعرَّضوا لَهُمْ.

ثم أخْبَرَ ﷻ عَنْ صَنيعِهِمْ وحالِهِمْ، فقالَ: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ يعني الشِّرْكَ ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أي كُلَّما دُعُوا إلى الشِّرْكِ [رجعُوا فيهِ][4] فهؤلاءِ أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ[5] ﷺ بقتالِهِمْ، وعَرَّفَهُ صِفَتَهُمْ، إنْ لم يعتزِلوا، أو يكُفُّوا أيديَهُمْ عَنْ قِتالِكُمْ ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ القَتْلَ وحُجَّتَهُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: ويكُفُّوا أيديَهُمْ عنْ أنْ يُقاتِلُوكُمْ. وفي حَرْفِهِ: رُكِسُوا فيها. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: رُكِسُوا فيها. وفي حَرْفِها: أنْ يُقاتِلُوكُمْ[6]، ويُقاتلُوا قومَهُمْ.

ثم يُحْتَمَلُ نَسْخُ هذهِ الآيةِ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠] بقولِهِ[7] تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ [النساء: ٩٠] وبقولِهِ ﷻ: ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] لأنَّ الفَرْضَ في القِتالِ أوَّلَ ما كانَ فُرِضَ أنْ نُقاتِلَ مَنْ قاتَلَنا، وبَدَأنا. ثم إنَّ اللهَ تعالى قالَ[8]: ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: عَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: (﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ أي لا يَنْبغي لِمؤمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمناً بِغيرِ حَقٍّ عَمْداً إلا خَطَأً في ما يَمْلِكُهُ). وقيلَ: إلّا بِوَضْعِ الواوِ؛ كأنهُ قالَ: وما كانَ لِمُؤمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤمناً مُتعمِّداً وإلّا خَطأً، وذلك جائزٌ في اللغةِ. وقيلَ: وما كانَ يَنْبغي لمُؤمِنٍ أنْ يتْرُكَ قتلَهُ إذا قَتَلَ آخرَ عَمْداً إلّا خَطأً، فإنهُ يُتْرَكُ قَتْلُهُ، ولا يُقْتَلُ بِهِ، وهو قولُ أبي بكرٍ الكَيسانيّ. وقيلَ: وما كانَ يَنْبغي لِمُؤْمنٍ أنْ يُنْزِلَ حُكْمَ قتلِهِ إلّا خطأً. قالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: (حُكْمُ القَتْلِ ما ذَكَرْنا مِنَ القِصاصِ والقَوَدِ أو كلامٌ نَحْوُ هذا).

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ قَطُّ بَعْدَ ما سبَقَ مِنَ اللهِ بيانُهُ في[10] غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وغيرُهما[11] مِنَ الآياتِ ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾. فإنهُ لم يسْبِقْ منهُ الحُكْمُ فيهِ إلّا في هذهِ الآيةِ.

وقيلَ: ليسَ لِمُؤمِنٍ أنْ يقْتُلَ مُؤمناً على كُلِّ حالٍ إلّا أنْ يَقْتُلَهُ مُخطِئاً. فَعليهِ ما في القرآنِ، وهو قريبٌ مِمّا ذَكَرْنا عِنْدَ الخَطإ عِنْدَنا على وجهَينِ: خَطإِ قَصْدٍ وخَطإِ دِينٍ. فخَطأُ القَصْدِ هو أنْ يَقْصِدَ أحداً[12]، فَيُصيبَ غيرَهُ، وخَطأُ الدِّينِ هو أنْ يَعْرِفَهُ مُشْرِكاً[13] كافراً مِنْ قَبْلِ[14] حلالَ الدَّمِ، فَيَقْتُلَهُ على ما عَرَفَهُ مِنْ قَبْلُ، وهو لِلْحالِ مُسْلِمٌ.

فإنْ قيلَ: كيفَ لَزِمَهُ في قَتْلِ الخَطإِ ما لَزِمَهُ مِنَ الكَفّارَةِ، وقد أخبَرَ اللهُ ﷻ أنْ لا مُؤاخَذَةَ لَهُ، وأنْ لا حَرَجَ عليهِ في ذلكَ بقولِهِ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] وغيرِها مِنَ الآياتِ؟ قيلَ: إنَّ الفِعْلَ [في الأوّلِ][15] فِعْلُ مَأثَمٍ، وإنْ كانَ لم يوجَدْ منهُ القَصْدُ فيهِ، فما أُوجِبَ إنما أُوجِبَ لِما الفِعْلُ فِعْلُ مَأثَمٍ، وفي[16] الثاني يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ يُكَلِّفُنا بتَرْكِ القَتْلِ، والفِعْلُ في حالِ السَّهْوِ والغَفْلَةِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال. (٢) في الأصل وم: إلا. (٣) في الأصل وم: ليأمنوا. (٤) في الأصل وم: فرجعوا فيها. (٥) في الأصل وم: ورسوله. (٦) في الأصل وم: يقاتلكم. (٧) في الأصل وم: في قوله. (٨) في الأصل وم: قالو أن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: من. (١١) في الأصل وم: وغيرها. (١٢) في الأصل وم: أحد. (١٣) في الأصل وم: مشتركا. (١٤) من م، في الأصل: قتل. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: و.

أَلَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] والخَطأُ يَنْقُضُ[1] الصَّوابَ، فلا يُجوزُ أنْ يُؤمَرَ بِطلَبِ الصَّوابِ، ولا يُنْهَى عَنْ إتيانِ ضِدِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾؟ [القصص: ٧٧].

ثم اخْتُلِفَ في المَعْنَى الذي أوجبَ عليهِ رَقَبَةً مُؤمِنَةً [بوجهَينِ:

أحدُهما:][2] قيلَ: لأنهُ أتْلَفَ نَفْساً خَلَقَها اللهُ لِعبادَتِهِ، فأَوجَبَ مكانَها نَفْساً مُؤمِنَةً لِتَعْبُدَ اللهَ على ما عَبَدَتْ تِلْكَ. لكنَّ التَّأويلَ لو كانَ هذا لَكانَ يَجِبُ في العَمْدِ ما وَجَبَ في الخَطإِ لأنهُ وُجِدَ ذلكَ المَعْنَى. لكنْ أُوجِبَ لا لِذلكَ المَعْنَى، ولكنْ تَغْليظاً وتَشديداً عليهِ لما أتْلَفَ نَفْساً مَحْظوراً [قتلُها][3] لم يُؤْذَنْ لهُ في ذلكَ لِئلا يُقْدِمَ على مِثْلِهِ. وللهِ أنْ يُوجِبَ على مَنْ شاءَ بِما شاءَ لِما شاءَ مِنْ غَيرِ أنْ يُقالَ: لِمَ؟ و: كيفَ؟ و: أينَ؟

والثاني: أوجبَ عليهِ رَقَبَةً مُؤمِنَةً لأنهُ أبْقَى لهُ نَفْساً مُؤمِنَةً. فعَلَى ما أبْقَى لهُ نَفْساً أوجبَ عليهِ مِثْلَها رَقَبَةً مُؤمِنَةً.

وفي قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ فَمِنهُمْ مَنْ يقولُ بإضمارِ ﴿وَمَا كَانَ﴾ بِمَتْروكٍ ﴿لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ﴾ يُخَرَّجُ معنَى: بِمَتْروكٍ على وجهَينِ:

أحدُهما: ما قالَهُ أبو بَكْرٍ [المُلَقَّبُ بالأصَمِّ][4]: أي بِمَتْروكٍ لهُ في القِصاصِ إلا أنْ يَقْتُلَهُ خَطأً. لكنَّ هذا يُوجِبُ مَنْعَ العَفْوِ لِما بِهِ التَّرْكُ. ومَعْلومٌ أنهُ أمْرٌ رُغِّبَ فيهِ حتى دَعَا رسولُ اللهِ ﷺ وَلِيَّ القَتيلِ إلى العَفْوِ، ثم إلى أخذِ الدِّيَةِ. ثم لَمّا أبَتْ نَفْسُهُ عِنْدَ ذلكَ أُذِنَ لَهُ في الاقْتِصاصِ. ويَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾ الآية [البقرة: ١٧٨] وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ﴾ الآية [المائدة: ٤٥] إلا أنْ يَرْجِعَ في قولِهِ: بِمَتْروكٍ إلى الوُجوبِ؛ أي لا يُرْفَعُ عنهُ إيجابُ القِصاصِ إلا إنْ[5] قَتَلَ مُؤمِناً خَطأً. فإنهُ ليسَ عليه القِصاصُ.

والثاني: أنهُ ما كانَ بِمَتْروكٍ لَهُ مِنَ التَّأديبِ والتَّوْبيخِ والتَّعْبيرِ بسُوءِ صَنيعِهِ بأخيهِ وتَعَدِّيهِ حَدَّ اللهِ ومَعُونَةِ وَلِيِّ القتيلِ إذْ قالَ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] فَحَقُّ ذلكَ على الناسِ أنْ يُظْهِروا لَهُ التَّكَبُّرَ عليهِ، ويَقُوموا بالنَّصْرِ لِوَلِيِّهِ، واللهُ أعلَمُ، إلا أنْ يكونَ خطأً فَلا يَتَلَقَّوْنَهُ بِشَيْءٍ مِمّا ذكرْتُ، بل يقُومونَ بالشَّفاعَةِ لَهُ والمعونَةِ في احتِمالِ ما لَزِمَهُ. ولذلكَ جُعِلَ، واللهُ أعلَمُ، أمْرُ الفِعْلِ على ما بِهِ مِنْ إبقاءِ الإلْفَةِ ودَفْعِ الضَّغينَةِ واجْتِماعِ التَّألُّمِ في المُصيبَةِ.

ومنهُم مَنْ يقولُ في تأويلِهِ الآيةَ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ أي حَرامٌ عليهِ ذلكَ الفِعْلُ بِما حَرَّمَ اللهُ وبِما بَيْنَهُما مِنَ الأُخُوَّةِ في الدِّينِ وبِما هو شَفيعُهُ وجِنْسُهُ يتألَّمُ بِما يتألَّمُ بهِ الآخَرُ، ويتأذَّى الآخَرُ، والنَّفْسُ عَنْ مِثْلِهِ تنْتهي، والطَّبْعُ يَنْفُرُ، فَما كانَ لَهُ بعدَ هذا أنْ يَقْتُلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا خَطَـًٔاۚ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

أحدُها[6]: أنْ يقَعَ ذلكَ منهُ على الخَطإِ، فيكونَ على مالا تَلْحَقُهُ اللائمةُ التي ذَكَرْنا ولا وصفُ التَّعَدِّي الذي وَصَفْنا.

والثاني: أنْ يكونَ الأمرُ في موضِعِ الابْتِداءِ لِما بَيَّنَ لَهُ مِنَ الحُكمِ بِمَعْنَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ البَتَّةَ. لكنْ مَنْ ﴿قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ﴾ [مريم: ٦٢] بمعنى لا يَسْمَعونَ فيها لَغْواً البَتَّةَ، لكنَّ الذي يَسْمَعُونَ يَسْمَعُونَ سلاماً.

والثالثُ[7]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ﴾ إلا أنْ [لا][8] يَعْلَمَهُ أنهُ مُؤمِنٌ، وكانَ عَرَفَهُ كافراً، لَهُ قَتْلُهُ[9] بما رُوِيَ مِنَ الإذْنِ في البيانِ وقَتْلِ عُيونِ الكَفَرَةِ بِما سَبَقَ مِنْ ظهورِ كُفْرِهِمْ، وإنِ احْتُمِلَ إيمانُهُمْ في ما بينَ الوقتَينِ، فيكونُ بِمَعْنَى: حرامٌ عليهِمْ إلّا مَنْ هذا وَصْفُهُ.

---

(١) في الأصل وم: يقبض. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم (٤) في الأصل وم: المغلب بالأمم. (٥) في الأصل وم: من. (٦) من م. في الأصل: أحدهما. (٧) في الأصل وم: وقيلَ. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: قبله.

والرابع[1]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ أي ليسَ لِمُؤمنٍ ذلكَ قطُّ إلّا أنْ يَقْتُلَ خطأً؛ فإنهُ ليسَ في مَنْ يُقالُ: /١٠٧ ـ ب/ كانَ لَهُ أوّلاً لِما يَقَعُ بهِ إلّا أنْ يَفْعَلَهُ هو في التَّحقيقِ؛ إذْ حقيقةُ الفِعْلِ أنْ يَقَعَ بإرادةٍ، ويَخرُجَ عليها، وهذا لا يَقَعُ بها، ولا يَخرُجُ عليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فلم يذكرْ في القاتِلِ أنهُ مُؤمنٌ عِندَ ذِكرِ قتلِهِ. لكنّهُ رجَعَ إليهِ بوجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ الآيةَ في بيانِ قتْلٍ يكونُ مِنَ المؤمنِ. وعليها جَرَى تفسيرُ الحُكْمِ عندَ الوقوعِ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والتَّوبةُ بالتَّحريرِ تكونُ لِلْمؤمنِ لا غيرِهِ، واللهُ أعلمُ. على أنهُ حقُّ الشَّرْعِ مِنَ العباداتِ، فلا يَحْتَمِلُ قَصْدَ الكافرِ بهِ. وأيّدَ ذلكَ المذكورُ مِنَ الصِّيامِ، وهو لا يَقومُ إلّا بالإيمانِ.

ثم جَعَلَ الإيمانَ شَرطاً مِنْ حيثُ الذِّكْرُ، وتأكُّدُهُ بأوجهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: بالتَّأكيدِ: يُذْكَرُ كُلُّ قتيلٍ على اختِلافِ أصلِ[2] القَتْلِ. وفي ذلكَ دليلٌ أنَّ ذلكَ جُعِلَ عليه [فكانَ أمْراً][3] يَدْخُلُ على دينِهِ مِمّا عليهِ ما الحقُّ أنْ يَحفَظَ حُرمَتَهُ. وبِحُرمَتِهِ يَنْفي مَا ذكَرَ؛ إذْ حَرَّمَ دينُهُ عليهِ [القَتْلَ][4]، فيَصيرُ في قَتْلِهِ مُصيباً، وألزمَ ما ذكَرْتُ في كلِّ أنواعِ القَتْلِ[5] لِرُجوعِ أمْرِ ذلك كلِّهِ إلى تَضْييعٍ مِنْ حَقِّ دينِهِ. ولذلكَ قالَ[6]: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وذلكَ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ تَحقُّقَ مَعْنَى التَّوبَةِ في فِعْلِ اللهِ. وذلكَ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على ما تَجاوَزَ منهُ إذْ لم يأخُذْهُ بالخَطإِ، فيكونُ بِحَقِّ جَعْلِ ذلكَ شُكراً مِنَ العَبْدِ بما لم يُؤاخِذْهُ بالخَطإِ، فيكونُ مَعْنَى التوبةِ منهُ أنهُ لم يُؤاخِذْهُ بالخَطإِ، لا أنَّ [في الإعتاقِ ذلكَ][7] والإعتاقَ لِلشُّكرِ لَهُ في ما لم يَكُنْ آخَذَهُ. ويجوزُ أنْ يُؤاخِذَهُ لِما بالجَهْدِ في التَّحَفُّظِ قد يُؤمَنُ ذلكَ. فلمّا لم يُكلِّفْهُ، وتجاوزَ عنهُ، كانَ على الخَطإِ يَأمُرُ بالشُّكرِ لذلكَ.

والثاني[8]: قبولاً منهُ ذلكَ في حَقِّ التَّوبَةِ عَنْ غَيرِ القَتْلِ مِنَ الزَّلّاتِ، فيكونُ في قيامٍ بما أمْرُهُ يُوَجَّهُ في حِكْمَةِ العَفْوِ عنْ مِثْلِهِ، يَجْعَلُ ذلكَ مِنَ العَبْدِ مَقْبولاً بِحَقِّ التَّوبَةِ مِنَ الزَّلّاتِ، ونُسِبَتْ إلى التَّوبَةِ منهُ إذا كانَتْ على التوفيقِ لِفِعْلِهِ إلى ذلكَ تَسْمِيَةُ اللهِ ثواباً على التَّوفيقِ أو التَّجاوُزِ، واللهُ أعلمُ.

والثاني[9]: يرْجِعُ إلى فِعْلِ العَبْدِ، فتكونُ ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على عَبْدِهِ، والقاتلُ بأنْ يَتوبَ بإعتاقِ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ. وذلكَ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَكونَ الفِعْلُ فِعْلَ مَأثَمٍ، واللهُ تعالى مؤاخِذُهُ[10] عليه؛ لأنهُ بالجهدِ إيفاءُ ذلكَ. ولذلكَ تَعَبَّدَ بقولِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وإذا كانَ كذلكَ فيكونُ ذلكَ منهُ توبَةً إلى اللهِ لِيَحفَظَ عنْ مِثلِهِ في الدينِ.

والثاني[11]: أنْ يكونَ عليهِ حِفْظُ دينِهِ عمّا يَقَعُ فيهِ مِنَ التَّضْييعِ الذي يُبْلَى [بهِ][12] بإنساءِ الشَّيطانِ، أو [أنْ][13] يُفرِطَ غَفْلَةً، أو نَحوِ ذلكَ، فيُلْزَمَ حِينَ[14] ذلكَ بما ذُكِرَ، وإنْ لم يَعْلَمْ؛ إذْ قد يَجوزُ وقوعُ النُّقصانِ في ذي الحُرُماتِ مِنْ وَجْهٍ، لا إثْمَ يَلْحقُ، نَحْوَ المذكورِ في المُنادَى.

وفي أمْرِ السَّهْوِ في ذلكَ، فيُؤمَرُ بهِ لِيُجيزَ[15] ذلكَ؛ وذلكَ نَحْوُ ما قد يُفْسِدُ بأمورٍ مِنْ وجهٍ لا يَعْلَمُ بهِ. فكذلكَ أمْرُ النُّقصانِ، فيُؤمَرُ بالتَّوبَةِ إلى اللهِ ﷻ عن ذلك بما يَمتَحِنُ اللهُ بهِ مِنَ الأمورِ، واللهُ أعلَمُ، معَ ما قد يَتَّصِلُ بالقَتْلِ ما لَهُ في حُكْمِ الخَطإِ؛ يَأثَمُ المَرْءُ عليهِ، ويَخرُجُ. فجائزٌ أنْ يَرجِعَ حَرْفُ التَّوبَةِ مِنَ اللهِ إلى ذلكَ، وهو سَمِيُّ خَطأِ العَمْدِ.

---

(١) في الأصل وم: ويجوز. (٢) في الأصل وم: أهل. (٣) في الأصل وم: لكان أمر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: القبيل.
(٦) في الأصل وم: قيل. (٧) في م: الإعتاق في ذلك. (٨) هذا الوجه الثاني من وجهي تحقق معنى التوبة في فعل الله. (٩) هذا الوجه الثاني من وجهي تحقق معنى التوبة في فعل العبد. (١٠) في الأصل وم: مؤاخذته. (١١) هذا الوجه الثاني من وجهي فعل العبد. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: خبر. (١٥) في الأصل وم: ليخبر.

والثاني[١]: مِمّا يدلُّ على جَعْلِ الإيمانِ شَرْطاً أنهُ جُعِلَ لِما وَقَعَ في حقِّ الدِّينِ مِنَ التَّضْيِيعِ إذا تَعَلَّقتِ الحُرْمَةُ بالدِّينِ مِنَ الوَجْهِ الذي بيَّنّا، ولا فَرْقَ بَيْنَ عِبادةٍ يُشارُ إليها، يَقَعُ فيها تضييعٌ في حدٍّ منها، يُبْرِمُ تلكَ بِكَفّارةٍ، وبَيْنَ جُمْلَةٍ مِنَ العِباداتِ يَعْتَقِدُها الإنسانُ، وضَمُّ[٢] الوفاءِ بما يَقَعُ في حدٍّ منها تَضْييعٌ أو مِقْدارُ أحَدِها مِنَ الفَرْضِ لا يَعْلَمُهُ إلّا مَنْ يَعْلَمُ حدَّ التَّضْييعِ مِنَ الأصلِ، ولا يَعْلَمُ حَدَّهُ غَيرُ[٣] الذي جَعَلَ الحُدودَ، فيكونُ في ذلكَ بَيانُ المُبْرَمِ، وبدونِهِ لَعَلَّهُ لا يُنْجِزُ، فألْزَمَ بالاحْتِياطِ، ذلكَ أمْرُ الحدودِ للإحرامِ.

والثالثُ[٤]: مُتَّفَقُ القولِ على مَوقِعِ الشَّرطِ أنهُ بِحَقِّ اللُّزومِ؛ وعلى ذلكَ شُرِطَ في التَّتابُعِ في الصيامِ لَهُ هذا المَعْنَى والأوَّلُ جَميعاً. وعلى هذا الاتِّفاقِ جَعَلَ قَومٌ أمْرَ هذا أصْلاً لِغَيرِهِ مِنَ الكَفّاراتِ. ونحنُ لا نَجْعَلُها لوجهَيْنِ:

أحدُهُما: لِما[٥] لم يَجْعَلْ ذِكْرَ التَّتابُعِ [في هذا أصْلاً لِكُلِّ مالم يذْكُرْ فيهِ التَّتابُعَ][٦].

والثاني: لِما بيَّنّا مِنْ مَحَلِّ كُلٍّ مِنْ أصلِ ذلكَ أنهُ إنّما يَعْلَمُ مَنْ عَلِمَ ما حَدُّوا مِنَ الأصلِ.

ومَعْلومٌ الاخْتِلافُ في الكُلِّ. لِذلكَ لم يَجِبْ هذا. لكِنْ يُطْلِقُ المُطْلَقَ ويُقَيِّدُ المُقَيَّدَ بالذِّكْرِ، وأيَّدَ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد ذَكَرَ في كُلِّ قَتْلٍ، ولو كانَ بالذي يَحْتَمِلُ دَرْكَ الحدِّ بالتَّدبيرِ لَكانَ تركُ الذِّكْرِ في ذلكَ لإفهامِ الحُكْمِ في نوعِ المذكورِ أقْرَبَ منهُ في غَيرِ نوعِهِ، فبيَّنَ، واللهُ أعلَمُ، لِوجهَيْنِ:

أحدُهُما: لِلتَّنْبيهِ على لُزومٍ في هذا إلى الذِّكْرِ.

والثاني: لِلتَّنْبيهِ أنهُ لم يُجْعَلْ لِمكانِ القَتيلِ، لكنْ لِما وَقَعَ في الدِّينِ مِنَ التَّضْييعِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ شَرْطُ الإيمانِ بما سَبَقَ في تَضْييعِ حَدٍّ مِنَ الحُدودِ الذي اقتضَى إيجابَهُ عليه الإيمانُ، فأمَرَ بإعتاقِ مَنْ يُسْلِمُ لَهُ الرَّقَبَةَ لِحفظِ ما أَلْزَمَهُ حَقُّ الإيمانِ مِنَ الشُّغْلِ عنهُ بِحَقِّ الرِّقِّ فيهِ لِغَيرِهِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ إنما أُبْقِيتْ بهِ نفسُهُ، وهي مُؤْمِنَةٌ، فأُمِرَ أنْ يَشْكُرَ للهِ تعالى بإبْقاءِ نَفْسٍ مؤمِنَةٍ؛ إذْ بالعِتْقِ إحياءٌ. وعلى ما ذُكِرَ مِنِ اختلافِ الحُدودِ، وما لَهُ حُدودٌ، وفي حقِّ الشَّرْعِ لم يُقَسِ الطعامُ على الصِّيامِ عندَ العَجْزِ عنهُ على ما قضَى بهِ في حقِّ الظِّهارِ والفِطْرِ معَ ما في الظِّهارِ حَقٌّ لِما لم يَكُنِ التَّأخيرُ إلى القُدْرَةِ عليهِ أو مُلْكِ الرَّقَبَةِ، ولَيسَ ههنا.

وأمْرُ الفِطْرِ هو في بَعْضِ صِيامٍ قد جُعِلَ لأصْلِهِ مِنَ الطَّعامِ عِوَضاً، عُرِفَ حَدُّهُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ الآيةِ [البقرة: ١٨٤]. فَعلى ذلكَ أمْرُ عِوَضِ التَّعَدِّي فيهِ. وليسَ في أمْرِ القَتْلِ ذلكَ، ودَلَّتِ الآيةُ بِذِكْرِ الإيمانِ على أنَّ لهُ حَدّاً يُعْرَفُ مَوقِعُهُ. ثم الذي تَبَيَّنَ فيها أنهُ التَّصْديقُ خاصَّةً ما جمَعَ بيْنَ المُؤمنِ الذي يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ منهُ سائرُ الشرائعِ والذي لا يَحْتَمِلُ سِوَى نَفْسِ الإيمانِ، وهو المُؤمنُ الذي مِنْ قَومٍ عَدُوٍّ لَنا؛ إذْ قد يُؤْمِنُ مَنْ في دارِ الحَرْبِ بِما في العَقْلِ دليلُهُ، ولا يَعْلَمُ بهِ غَيرَهُ مِنَ العِباداتِ التي لها حَقُّ الشرائعِ.

وقد يَجوزُ أنْ يكونَ في الإبلاغِ في وَصْفِ ما يُكَفِّرُ بهِ إبلاغٌ في التَّحْذيرِ عَنِ الغَفْلَةِ التي لَدَيها خوفُ وُقوعِ ما ذَكَرْتُ مِنْ تَضْييعِ حَقِّ الْزَمَهُ دِينُهُ: [أَلْزَمَ التَّعَوُّذَ][٧] كلَّ واحدٍ منْهُمُ الكَفّارةَ على التَّمامِ لِما انفردَ كُلٌّ بِما لَزِمَهُ مِنَ الحَقِّ بِدِينِهِ في التَّضْييعِ. وعلى هذا قولُهُمْ في المُحْرِمينَ يَقْتُلونَ الصَّيْدَ: إنَّ كلَّ واحدٍ منْهُمْ جَنَى على إحرامِهِ الذي لم يَتَّصِلْ إحرامُهُ بإحرامِ غيرِهِ.

على أنّ النَّفْسَ إذْ هي لا تَحْتَمِلُ [التَّجْزِئَةَ لم تُجزِ][٨] المَجْعولَ لَها. وعلى هذا أمْرُ القِصاصِ. والدِّيَةُ لم تَجِبْ في الحقيقةِ لِلنَّفْسِ؛ إذْ هي تَجِبُ لِما دونَها في ما تَحْتَمِلُ التَّجْزِئةَ[٩] أكثرَ مما يَجِبُ لِلنَّفْسِ. وإذا بلَغَتِ النَّفْسَ، فَسَقَطَ بَعْضُ ما لَهُ منها حُكْمُ الوُجوبِ. ولِما هي تَرْجِعُ إلى غَيرِ الجاني. ومُحالٌ أخْذُ الكُلِّ مِمَّنْ يُرْجَعُ إليهِ بالكُلِّ بِما يكونُ في طَلَبِ

(١) هذا الوجه الثاني من وجوه جعل الإيمان شرطا. (٢) في الأصل: وضموا. في م: وجعل. (٣) من م. في الأصل: غيره. (٤) هذا الوجه الثالث من وجوه الإيمان شرطا. (٥) في الأصل وم: مما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: لزم التفرد. في م: لزم التعوذ. (٨) في الأصل وم: التجربة لم يتجر. (٩) في الأصل وم: لتجربة.

التَّخفيفِ الإجحافُ وإهلاكُ الخَلْقِ، ولما كانَ حَقُّ النَّفْسِ مِن حَيثُ القَتْلُ في المالِ يَخْتلِفُ، ومِن حَيثُ القِصاصُ والكَفَّارةُ، لا يَثْبُتُ أنَّ المَرجِعُ في هذينِ إلى أحوالٍ في نَفْسِ القائِلينَ في[1] دينٍ يضِيعُ حَقُّهُ أو امْتِناعٍ عن احْتِمالِ التَّجزئةِ[2] أو إحياءِ أُريدَ بالمَوضوعِ. ولو لم تُجعَلْ في الجَماعةِ لَذَهَبَتْ[3] فائدةُ الإحياءِ؛ إذِ الوُجودُ [بالإحياءِ غَيرُهُ][4]، فَيَبْطُلُ الإحياءُ في أبلَغِ أحوالِ الحاجةِ إليهِ.

ثم إذا رَجَعَ أمْرُ الكَفَّارةِ إلى مَنْ تَولَّى قَتْلَهُ، وقد سَبَقَ عليهِ أمْرُ الدِّيَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ بِمَعْنَى: عليهِ تَحريرُ ما ذَكَرَ، أو قد أُوجِبَ عليهِ.

وعلى ذلك جَميعُ ما في القرآنِ مِنَ الأمْرِ على إثرِ الأسبابِ.

ثم نَسَقَ على ذلك /١٠٨ ـ أ/ بقولِهِ: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ فحقُّها أنْ تكونَ عليهِ. والخَبَرُ الوارِدُ مِن رسولِ اللهِ ﷺ في أمْرِ الفِعْلِ الذي تَوارَثَتْهُ الأمةُ إلى يَومِنا هذا بلِ الأُمَمُ حتى كانَ قد ظَهَرَ عَنْ [أمَمِ الرسلِ][5] السالِفَةِ بِحَقِّ التَّواتُرِ في المُؤمنينَ ثم المُنْكِرينَ[6] لَهُم. فكانَ ذلكَ بِحَقِّ التَّعاوُنِ. ولذلكَ قالَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، في الذينَ لا عاقِلَةَ لَهُمْ: تَجِبُ الدِّيَةُ في أموالِهِمْ. وعلى ذلكَ في ما يَظْهَرُ بأقاويلِهِمْ دونَ البَيِّناتِ، وهو الحقُّ: إذْ في ما يَجِبُ فيهِ القِصاصُ، أنْفُسُهُمْ تَتْلَفُ. فَعَلَى ذلكَ الدِّيَةُ.

والأصْلُ في ذلكَ أنَّ مَعْنَى القِصاصِ مَعْقولٌ أيَّدَ الذي ذَكَرَ اللهُ تعالى في القرآنِ مِن قولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فلا مَعْنَى لِصَرْفِ ذلكَ إلى غَيرِ المُتَوَلِّي لِما يُذْهِبُ الحَياةَ. وجائزٌ شَرْعُ ذلكَ بِحَقِّ الفِعْلِ لِيَنْزَجِرَ الناسُ بِهِ، ولِتَسْلَمَ لَهُمُ الحَياةُ التي هي ألَذُّ الأشياءِ؛ إذْ بها تُعرَفُ اللَّذَّاتُ كُلُّها، وذلكَ المَعْنَى لَيسَ نَفْسُ القَتيلِ أحَقَّ مِن غَيرِهِ مِن أنْ يُجعَلَ القِصاصُ لِحَقِّهِ، بَلِ الأَولَى أنْ يُجعَلَ لا مَحالَةَ لِلْوَرَعِ مَعَ ما كانَ مَعْلوماً أنَّ نَفْسَ القَتيلِ لا تَنْتَفِعُ، بلْ إنَّما نَفْعُها في أنْ يُتَّقَى لِخَوفِ القِصاصِ.

فَمَنْ يَرُومُ قَتْلَهُ أشْفَقَ[7] على نَفْسِهِ، ولَيسَ ذلكَ في أمْرِ الدِّيَةِ بِشَيءٍ، وإنَّما تُوجَبُ بَعْدَ الوفاةِ، ولم تَجِبْ مِن وَجْهٍ تَتَوَلَّدُ منهُ الغَضاضَةُ والعَداوةُ التي لَدَيها سَفْكُ الدِّماءِ على حَقِّ تَخْصيصِ الدِّماءِ لِما هي تَجِبُ بالخَطَإ مِن وَجْهٍ يُعلَمُ عُذْرُ مَنْ مِنْهُ ذلكَ. لكنَّ اللهَ تعالى بِفَضْلِهِ بِما جَعَلَ لِلْمُتَّصِلِينَ مَعُونَةً في حياتِهِ وشَرَفاً في كثرةِ الأقوامِ ونَباهَةً في الدُّنيا مَعَ ما يَقَعُ بها التَّناصُرُ والتَّدافُعُ الذي بِمِثْلِهِ الدَّوامُ والقِوامُ، فَتَعْظُمُ في مِثْلِهِ مُصيبةُ الفِعْلِ[8] والخاصَّةِ مِن وَجْهٍ لَعَلَّهُ يَسْبِقُ إليهِمُ الأفعالُ في التَّلْبيسِ على أهلِهِ بالخَطَإ.

وإنَّ ذلكَ لَيسَ بِحَقٍّ، فَيُخافُ وُقوعُ الشَّرِّ بينَهُمْ والعَداوةِ التي تُوَلِّدُ الفَسادَ. فَجَعَلَ اللهُ تعالى بِمَنِّهِ وفَضْلِهِ لَهُمْ ما تَطيبُ بِمِثْلِهِ أنْفُسُهُمْ، وتَسْكُنُ: المَعْنَى الذي يُخافُ مِن حُدوثِ الشَّرِّ بينَهُمْ مَعَ ما لَهُ[9] جَميعُ ما لِلْخَلْقِ لَهُ ابْتِداءُ المِحْنَةِ بِما ذَكَرَ بلا سَبَبٍ يَسْبِقُ؛ فهو بالسَّبَبِ أحَقُّ. وإذا جَعَلَ بهذا مِنَ الوَجْهِ الذي لهُ حَقُّ الابْتِداءِ، فَلَهُ وَضْعُ ذلكَ في أحوالِهِمْ مَنْ [يَأْنَفُ نَفْسَ القَتْلِ][10] لَهُمْ ما ذَكَرْتُ مِنَ المَنافِعِ على ما جَعَلَ في ذلكَ، وإنْ لم يُرْجِعْ مَنْفَعَةَ الواجِبِ في ذلكَ إلى القَتيلِ بما لا يَعْلَمُ أنهُ يُقتَلُ لِيُجعَلَ ذلكَ لِوَجْهٍ يَتَزَوَّدُهُ[11] لِمَعادِهِ، وإنْ حُرِمَ ذلكَ في دُنْياهُ، فَيَصيرُ المَجْعولُ في ذلكَ في مَنْ لَهُمْ وعَلَيهِمْ بالذي ذَكَرْتُ مِن دَفْعِ الفَسادِ والقِيامِ بِحَقِّ الإحسانِ.

ثم الأصْلُ في إتلافِ الأموالِ أنَّ مَنافِعَها عِنْدَ القِيامِ ومَضارَّها[12] عِنْدَ الإتلافِ تَرْجِعُ إلى أربابِها خاصَّةً. والأنفُسُ يَرْجِعُ مالُها في ذلكَ إلى العَشائِرِ والمُتَّصِلِينَ. فَعَلَى ذلكَ المَجْعولُ فيها مَعَ ما كانَتِ الأموالُ تُمْلَكُ، فَيَصيرُ مِن ضِمْنِهِ كأنهُ اشْتَراهُ؛ وكُلُّ مُشْتَرىً بالتَّسْليمِ إليهِ الخُروجُ منهُ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُضْمَنَ مَنْ لم تَكُنْ منهُ الجِنايَةُ لِما يَسْقُطُ لو ضُمِنَ بِعَقْدِ

(١) من م. في الأصل: من. (٢) في الأصل وم: التجربة. (٣) في الأصل وم: ليذهب. (٤) في الأصل وم: الآحاد غير. (٥) في الأصل وم: أمة الرسول. (٦) في الأصل وم: والمنكرين. (٧) في الأصل وم: إشفاق. (٨) في الأصل وم: العقل. (٩) في الأصل وم: لهم. (١٠) في الأصل: يانفا نفس القاتل. في م: يانف نفس القاتل. (١١) من م. في الأصل: يتزود. (١٢) من م. في الأصل: مصارفها.

التَّسليمِ، ولا على ذلك أمْرُ جِناياتِ الأنفُسِ. فجائزٌ في حَقِّ الشَّرْعِ المَوضوعِ على غيرِ مَنْ يَتولّى؛ إذْ على غَيرِ التَّسليمِ إلى أحدٍ يَسْتوجِبُ بَدَلَهُ.

ثم وُقوعُ الخَطَإِ يكونُ مِنْ [وجوهٍ:

أحدُها](1): مِنْ جِهَةِ دِينِهِ نَحْوُ [ظَنِّهِ الرجلَ](2) كافِراً بما كانَ عَرَفَهُ كذلكَ أو بما عليهِ سيماءُ الكَفَرَةِ.

[والثاني: مِنْ](3) جِهةِ نَفْسِهِ في أنْ يَرْمِيَ غيرَهُ، فَيُصيبُهُ، والحُكْمُ [مِنْ وَجْهَيِ الخَطَإِ واحدٌ](4).

[والثالثُ: هوَ](5) الذي لم يَقْتَضِهِ حَقُّ هذهِ الآيةِ، وهَوَ عندَ الضربِ قد يَقَعُ ذلكَ في ما أخطأَ [في](6) الدِّينِ أو في ما تَعَمَّدَ أو [في](7) النفسِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ لمْ يُبَيِّنْ مَنْ أهْلُهُ؟ وقالَ تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣] ولَمْ يُبَيِّنْ مَنْ وَلِيُّهُ؟ فكانَ الأهْلُ والوَلِيُّ همْ وَرَثَتَهُ على ما جاءَ في الخَبَرِ أنَهُ وَرَّثَ امرأةَ أشْيَمَ مِنْ دِيَةِ زَوجِها، وإنْ كانَتِ الدِّيَةُ لأهلِ العَصَبَةِ منهُمْ مِنْ قَبْلُ، ولأنَّ هذهِ الدِّيَةَ إنما وَجَبتْ لِمكانِ ما لَهُمْ مِنَ المَنافِعِ مِنَ القَتيلِ في حالِ حياتِهِ. فإذا قُتِلَ، فَذَهَبَتْ منافِعُهُ عَنْهُمْ، أوْجَبَ ذلكَ لهُمْ لأنَهُمْ هُمُ المُنْتَفِعُونَ في حياتِهِ دُونَ غيرِهِمْ.

وقيلَ: إنَّ القَتْلَ يُوجِبُ الضَّغائِنَ في ما بَينَ أولياءِ القَتيلِ وأولياءِ القاتِلِ، فَيَحْمِلُ ذلكَ على الفَسادِ والإهلاكِ. فإذنْ وَجَبَتْ هذهِ الدِّيَةُ لِتَطْييبِ أنْفُسِهِمْ بذلكَ، ولا يَحْمِلُ(8) ذلكَ على الضَّغائِنِ والحِقْدِ.

وقيلَ: أُوجِبَتْ هذهِ الدِّيَةُ لِئَلا يَدَّعِيَ [القاتلُ](9) الخطأَ، فَيُسقِطَ القِصاصَ عن نَفْسِهِ بِدَعْوى الخَطَإِ؛ فَأُوجِبَتِ الدِّيَةُ لِما(10) إذا ادَّعى الخَطأَ أُخِذَ بالدِّيَةِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ الخطأَ على [وجوهٍ:

أحدُها:](11) أنْ يَقْصِدَ شيئاً(12)، فَيُصيبَ إنساناً؛ فهو خَطَأٌ لأنهُ أصابَ غيرَ الذي قصدَهُ بالضَّرْبَةِ.

والثاني: خطأُ الدِّينِ، وهو [ظَنُّهُ الرجلَ](13) كافراً، فَقَتَلَهُ على ذلكَ قاصداً لهُ، فهو خَطَأٌ.

والثالثُ(14): وهو أنْ يضرِبَ الرجلَ قاصِداً لذلكَ بِغَيرِ حَديدَةٍ.

فإنْ كانَ الذي ضَرَبَهُ [بِهِ](15) حَجَراً صَغيراً أو عصاً صَغيرةً فَحُكْمُهُ حُكْمُ الخَطَإِ، وإذا كانَ حَجَراً كبيراً، مِثْلُهُ يَقْتُلُ أو عصاً عَظيمةً، فإنَّ أصحابَنا، رحِمَهُمُ اللهُ تعالى، اخْتَلَفوا في ذلكَ:

قالَ أبو حنيفةَ ﷺ: (لا قَوَدَ في ذلكَ، وعلى ما قَتَلَهُ الدِّيَةُ مُغَلَّظَةٌ). وقال محمدٌ، رحمَهُ اللهُ: (يُقْتَلُ بهِ إذا كانَ ما(16) مِثْلُهُ لا يُنْجِي). وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ما يُبَيِّنُ أنَّ العَمْدَ ما كانَ بِحَديدٍ، فهو حُجَّةٌ لأبي حَنيفَةَ ﷺ في الحَجَرِ العظيمِ، ودليلٌ على أنَّ القَصْدَ بالضَّرْبِ قد يكونُ خَطَأً. ورُوِيَ عنِ النُّعمانِ بْنِ بَشيرٍ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنَهُ](17) قالَ: «كلُّ شيءٍ خَطَأٌ إلّا الحديدُ والسَّيفُ» [البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٤٢]. وسنذكرُ هذهِ المسألَةَ في بابِ شِبْهِ العَمْدِ(18)، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

ثم أجْمَعَ أهلُ العِلْمِ على أنَّ الرَّقَبَةَ على القاتِلِ لا على العاقِلَةِ. وأمّا الدِّيَةُ فلم يذْكُرْ على مَنْ تَجِبُ؟ فقالَ أكْثَرُ السَّلَفِ: الدِّيَةُ أيضاً على العاقِلَةِ، وعلى ذلك تَواتَرَتِ الآثارُ عنِ النَّبيِّ ﷺ وقالَ بعضُ الناسِ: الدِّيَةُ أيضاً على القاتِلِ كالرَّقَبَةِ. فَيُقالُ لهُ: إنَّ الصِّيامَ بَدَلٌ عَنِ الدِّيَةِ أو عنِ العِتْقِ؟ قيلَ لهُ؛ فذلكَ يَدُلُّ على أنَّ الذي يَجِبُ على القاتِلِ هو العِتْقُ الذي إنْ لم يَجِدْهُ صامَ مكانَهُ، ويَدُلُّ على أنَّ الدِّيَةَ لَيسَتْ عليهِ. وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ جَعَلَ الدِّيَةَ على العاقِلَةِ.

---

(١) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٢) في الأصل وم: إن ظنه القاتل. (٣) في الأصل وم: ومن. (٤) في الأصل: وجهي. في م: وجهي الخطأ واحد. (٥) في الأصل وم: والخطأ الثالث، وهو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يحتمل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: لا. (١١) في الأصل وم: وجهين وهو. (١٢) في الأصل وم: سببا. (١٣) في الأصل وم: أن عرفه. (١٤) في الأصل وم: وللخطإ وجه آخر. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: من. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ذلك في تغليظ الدية والكفارة.

«عن مُقسِم عَن ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنه][(١)] قالَ: كتبَ النَّبيُّ ﷺ كتاباً بَيْنَ المُهاجرينَ والأنصارِ: أن يَعْقِلُوا مَعاقِلَهُمْ، ويَفْدُوا عانِيَهُمْ بالمَعْرُوفِ والإصلاحِ بَيْنَ المُسْلمين» «وعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنه][(٢)] قضى في الجَنينِ عَبْداً أو أمَةً، والتي ضَرَبَتْ ضَرَّتَها بِعَمُودِ فُسْطاطٍ، فَقَتَلَتْها، فَقَضَى النَّبيُّ ﷺ بِدِيَتِها على عَصَبَةِ العاقِلَةِ وفي ما في بَطْنِها غُرَّةً، فقال أعرابيٌّ: يا نَبِيَّ اللهِ ءَأغْرَمُ مَنْ لا طَعِمَ، ولا شَرِبَ، ولا صاحَ، فَمِثْلُ ذلكَ يُطَلُّ؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ أسَجْعٌ كَسَجْعِ الأعرابِ؟ تَغْرَمُ، فإنّ الدِّيَةَ على العاقِلَةِ، والميراثُ لأهلِ الفرائضِ، وعَمُودُ الفُسْطاطِ مِمّا يَقْتُلُ مِثْلُهُ» [مسلم ١٦٨١ و ١٦٨٢]. ولم يُوجِبِ النَّبيُّ ﷺ القِصاصَ، فذلكَ حُجَّةٌ لأبي حَنيفَةَ رضي الله عنه في قولِهِ: (إنّ الخَشَبَةَ العَظيمةَ والصَّغيرةَ سَواءٌ، ولا قِصاصَ فيهِ) والأخبارُ فيهِ كثيرةٌ.

وقولُهُ تعالى أيضاً: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ على الحثِّ والتَّرْغيبِ في التَّسْليمِ والنَّهْيِ عنِ التَّعاسُرِ الذي عنهُ تُوُهِّمَ حُدوثُ الشَّرِّ والفَسادِ الذي يدفعُ مِثْلَهُ جَعْلَ الفَرْضِ في قَتْلِ الخطَإِ. وعلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقد بَيَّنَ مَنْ يُسَلِّمُ لهمْ؛ بَيَّنَ التَّسْليمَ /١٠٨ - ب/ إلى أهْلِ[(٣)] القَتيلِ، ولم يُبَيِّنْ مَنْ أهْلُهُ؟ وقد أجْمَعَ السَّلَفُ على أنّ أهلَهُ وَرَثَتُهُ.

والأصْلُ في ذلكَ أنّ الدِّيَةَ جُعِلَتْ بَدَلاً لِنَفْسِ القَتيلِ، فَتَصيرُ مَتْروكَةً عنهُ. وعلى ذلكَ لو كانَتْ مِنْهُ الوَصايا، أو عليهِ دَيْنٌ يُنْفَذُ منها، فَصارَتْ في ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ﴾ الآيات: [البقرة: ٧ - ١٢] التي فيها بَيانُ مَنْ يَرِثُ مِنْ بَعْدِ الوصِيَّةِ والدَّيْنِ. فذلكَ لَهُمْ، فَيَصيرُ أهْلُهُ بَعْدَ وفاتِهِ مَنْ يَنْتَفِعُ بِتَرِكَتِهِ؛ إذْ كذلكَ وَصْفُ الأهلِ في الحياةِ أنهُ يَرْجِعُ إلى المُتَّصِلِينَ بهِ وبِمَنافِعِهِ معَ ما كانَ اسْمُ الأهْلِ في الزوجةِ غَيْرَ مُمْتَنَعٍ اسْتِعْمالُهُ على كُلِّ حالٍ، فَيَجِبُ دخولُها في ذلكَ، وغَيْرُها مِنَ الوَرَثَةِ أحَقُّ. وقد رُوِيَ في مِثْلِ ذلكَ [الحديثُ الشريفُ][(٤)] مرفوعاً في تَوْريثِ امْرَأةِ أشْيَمَ الضِّبابِيِّ، وعَمِلَ بهِ عُمَرُ بِحَضْرَةِ الصَّحابَةِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمَعِينَ، والذينَ، لَهُمْ سائرُ الوِلاياتِ سِوَى وِلايَةِ الميراثِ، أحَقُّ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ فالثُّنْيا مِنَ الدِّيَةِ لأنهُ لا حَقَّ لأحَدٍ في العِتْقِ حتى يَحْتَمِلَ التَّصَدُّقَ. وهو كقولِهِ تعالى في القِصاصِ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥] وذَكَرَ التَّصَدُّقَ على ما عليهِ التَّرْغيبُ في الدُّيونِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ثم الأصْلُ أنّ التَّصَدُّقَ مِنَ المَعْرُوفِ إلى ذَوِي الحاجاتِ، والفِعْلُ إنّما وُضِعَ أصْلُهُ على الأغنياءِ. لكنْ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنّ الآيَةَ جاءَتْ بِذِكْرِ القاتِلِ ووجودِ الدِّيَةِ المُسَلَّمَةِ كُلِّها، ولِكُلِّ[(٥)] قاتِلٍ عَشيرٌ. فكانَ التَّرْغيبُ على ذلكَ.

والثاني: أنهُ مَعروفٌ في الدُّيونِ، وكذلكَ حُكْمُ الصَّدَقاتِ؛ إذ لا يَقَعُ لهُ الثوابُ في الدنيا لِرُبَّما يَقَعُ لِغَيْرِ المعروفِينَ، فيكونُ فِعْلُهُمْ في الحَقيقةِ للهِ، لا لِابْتِغاءِ الجَزاءِ، فَسُمِّيَ صَدَقَةً؛ إذْ هو اسْمُ ما يَقَعُ مِنَ المَعروفِ للهِ معَ ما يَتَمَكَّنُ في ذلكَ أنّ الفِعْلَ لَيسَ شرطُهُ الغِنى الذي [لَهُ][(٦)] تَجِبُ الزكاةُ.

وغَيْرُ ذلكَ النَّوعِ مِنَ الغِنَى لا يُخْرِجُ أصْلَهُ[(٧)] عن احتِمالِ الصَّدَقَةِ، بلْ جُعِلَ على أهلِ الدِّيوانِ، وهُمُ الذينَ أموالُهُمْ هي التي تُخْرَجُ بِحَقِّ العَطايا، تُؤْخَذُ لِوَقْتِ الخُروجِ لا بعدَ الوُقوعِ بالمُلْكِ، وتمامُ شَرْطِ الغِنَى لَهُ. وفي هذا صَرْفُ الثُّنْيا إلى الذي تُلِيَ مِنَ الكلامِ دونَ الذي تَقَدَّمَ، وحَمْلُهُ على بَعْضِ الكلامِ دُونَ الكلامِ لِيُعْلَمَ أنّ مَوقِعَ الفَهْمِ عنِ الحُكْمِ على ما يَقْتَضِيهِ حَقُّ الحِكْمَةِ دونَ الذي يَنْتَهي إليهِ حقُّ اللِّسانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنه][(٨)] قالَ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أهله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: أهله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

(يكونُ الرجلُ مؤمناً، وقومُهُ كفارٌ في دارِ الحَرْبِ، فَيَقْتُلُهُ مُسْلِمٌ، فلا دِيَةَ عليهِ، ولكنْ عليهِ عِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤمنَةٍ). وعنهُ أيضاً [أنهُ][1] قالَ: (كانَ الرجلُ يُسْلِمُ، ثم يأتي قومَهُ، فيُقِيمُ فيهِمْ، فَيَمُرُّ بِهِمُ الجيشُ مِنَ المسلمينَ[2]، فيُصابُ في مَنْ يُصابُ. فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾).

وقالَ بعضُهُمْ: كيفَ يكونُ لِلْمؤمنِ المُقِيمِ في دارِ الحَرْبِ دِيَةٌ، وأولياؤُهُ حَرْبٌ لنا؟ فهلْ يجوزُ أنْ نُعْطَى لَهُمُ الدِّيَةُ، ونَحْنُ نَغْتَنِمُ أموالَهُمْ؟ فإنْ قيلَ: تكونُ الدِّيَةُ لِبَيْتِ المالِ، قيلَ لهُ: إنما يَجوزُ أنْ تكونَ لِبيتِ المالِ [لأنَّ][3] مَنْ لو كانَ حيّاً كانَ لهُ في بَيْتِ المالِ حَقٌّ.

فأمّا المُسْلِمُ المُقِيمُ في دارِ الحربِ فلا حَقَّ لهُ في بيتِ المالِ لأنَّ حُكْمَنا لا يَجْرِي في دارِهِ، فكيفَ يَسْتَحِقُّ بَيْتُ المالِ دِيَتَهُ[4]؟

وبَعْدُ فإنَّ المُسْلِمَ في دارِهِمْ لَمْ يَصِرْ بالإسلامِ مُحْرِزاً نَفْسَهُ ومالَهُ، لأنَّ دارَ الحَرْبِ لَيْسَتْ بِدارٍ تُحْرَزُ بها الدماءُ والأموالُ. فإذا كانَ كذلكَ فلم يَكُنْ لِلأنْفُسِ والأموالِ هنالِكَ بَدَلٌ. لِذلكَ لم تَجِبِ الدِّيَةُ.

ألا تَرَى مَنْ أتْلَفَ مالَ ذلكَ المُسْلِمِ لَمْ يُغْرَمْ بَدَلَ نَفْسِهِ لأنَّ حُرْمَتَها سَواءٌ في دارِ الإسلامِ؟ ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ قولِهِ تعالى أيضاً: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ الآيةُ على الاتّفاقِ لا دِيَةَ فيهِ، لكنَّ الاخْتِلافَ في أنهُ يُخَرَّجُ على أربعةِ[5] أقوالٍ:

أحدُها: أنَّ ذلكَ في ما يُقْبَلُ[6] على الإغارةِ؛ نَحْوُ أنْ يُغارَ على أهلِ الحَرْبِ، وفيهِمْ مُسْلِمٌ، فإنهُ لا دِيَةَ فيهِ لِما أُبيحَتِ الإغارةُ. فيَجِبُ على هذا أمْرانِ:

أحدُهُما: أنْ يكونَ دَفْعُ الكفّارةِ[7] في ذلكَ أحَقَّ مِنْ دَفْعِ الدِّيَةِ التي هي حَقُّ العِبادِ ولم يَرِدْ مِمَّنْ هيَ لهُ الإباحَةُ. فلَمّا أوجِبَتْ هي فالدِّيَةُ أحقُّ أنْ تَجِبَ. فإذا لم تَجِبْ بانَ أنهُ ليسَ على ما قَدَّروا.

والثاني: أنْ يكونَ لو كانَ كذلكَ، فيَجِيءُ أنْ يكونَ ذلكَ في مَنْ ﴿كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أو لا سَواءَ مِنْ حَيثُ الإغارةُ [بَلْ][8] إذا صارتْ مُباحَةً، وإنْ كانَ فيهِمْ مُسْلِمٌ، ذهبَ حَقُّ النَّفْسِ مِنَ الأمْرَينِ جميعاً مِنَ الدِّيَةِ والكفّارةِ. وكذلكَ الجوابُ في قومٍ يَتَرَبَّصُونَ[9] بالمؤمنِينَ أنهُ إذا أُبيحَ الرَّمْيُ، فَيَسْتَوِي الأمرانِ جميعاً مِنَ الدِّيَةِ والكَفّارةِ. وعلى ذلكَ اخْتُلِفَ في مَنْ لَهُ القِصاصُ في ما دُونَ النَّفْسِ، فماتَ عنِ القِصاصِ، أنْ لا كَفّارةَ في ذلكَ، وقد اخْتُلِفَ في الدِّيَةِ. وعلى ذلكَ مَنْ يَقْتُلُهُ مِمَّنْ لا يَحْتَمِلُ العِلْمَ. وما أُوجِبَ مِنَ الفِعْلِ في الوُجودِ بلا دِيَةٍ يُوجِبُ أنْ تكونَ الدِّيَةُ أحَقَّ في الإيجابِ مِنَ الكَفّارةِ. فإذا لم تَجِبْ بانَ أنْ ليسَ دَفْعُ الدِّيَةِ لِما ظَنُّوا.

والقولُ الثاني[10]: ذَهَبُوا إلى القَتِيلِ الذي قومُهُ أهلُ الحَرْبِ لا تَجِبُ فيهِ الدِّيَةُ بقولِهِ تعالى: ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾. يُؤَيِّدُ ذلكَ قولُهُ: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ وأهْلُهُ عَدُوٌّ، ولا يُحْتَمَلُ التَّسْليمُ إليهِمْ بما لَنا أخْذُ أموالِهِمْ، فَيَصيرَ بذلكَ لَنا.

وأمّا الكفّارةُ فهيَ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تعالى، فَتَلْزَمُ إذْ هيَ في حقِّ التوبَةِ، والكفارةُ لِما في ذلكَ مِنْ مَعْنَى الإثْمِ، فَيَدْخُلُ على ذلك أمْرانِ:

أحدُهما: إبطالُ الدِّيَةِ عنْ كُلِّ نَفْسٍ لا وارِثَ لها إذا قُتِلَ مِنْ أهلِ دارِ الإسلامِ في دارِ الإسلامِ، إذْ لا أهْلَ لهُ، وعَدَمُ الأهْلِ أكثَرُ مِنْ كَوْنِ الأهلِ، وهُمْ أعداءٌ لهُ، بل يُغْرَمُ الذي قَتَلَهُ، وقِوامُهُ[11] لِبيتِ المالِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ لو كانَ يَجِبُ، ولكنْ لم يَجِبْ لا لِهذا إذْ قد رَأينا الوُجوبَ مَعَ ما هو أعْظَمُ في العِدَةِ مِنْ هؤلاءِ. وأيَّدَ ذلكَ الإيجابَ في المؤمنِ الذي قومُهُ مِنْ أهلِ الميثاقِ أو الكافرِ الذي هو مِنْ أهلِ الميثاقِ، والعداوةُ لم تكنِ انْقَطَعَتْ بالميثاقِ.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) من م، في الأصل، المسلم. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) في الأصل وم: دية. (5) في الأصل وم: ثلاثة. (6) في م: يقتل. (7) في الأصل وم: الكفار. (8) من م، ساقطة من الأصل. (9) في الأصل وم: يتربصوا. (10) هو القول الثاني من وجوه الاختلاف في قتل المؤمن في أهله الأعداء. (11) في الأصل وم: وقومه.

والأمر[١] الثاني: أنهُ لا تَوارُثَ يجري بَيْنَ المُسْلِمِ وأهْلِ الكُفْرِ لِيَبطُلَ حقُّ الدِّيَةِ بِوجوبِها لَهُمْ، بل يَتَحَوَّلُ الميراثُ بالإسلامِ إلى أهلِ الإسلامِ، وإنْ لم يكنْ لهُ خُصوصُ أهلٍ. وعلى ذلكَ جميعُ تَرِكَتِهِ، فبانَ أنهُ لا لهذا لم يُوجِبْ.

والقولُ الثالثُ[٢]: أنَّ الآيةَ في مَنْ أسْلَمَ في دارِ الحَرْبِ، ولم يَخْرُجْ إلينا حتى يُقْتَلَهُ مؤمنٌ خطأً: أنَّ عليهِ تَحْريرَ رَقَبَةٍ ولا دِيَةَ فيه. فيكونُ المَعْنَى: ﴿مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ هو مِنْ قومٍ في الظاهرِ عندَ القاتلِ، لم يَخْرُجوا بَعْدُ عنْ إظهارِ المُعاداةِ. ثم يكونُ قَتْلُهُ الخَطَأَ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: بما كانَ عَرَفَ كُفْرَهُ، ولم يَظْهَرِ انْتِقالُهُ عمّا كانَ عليهِ في الظاهرِ، لا بِخُروجِهِ إلى دارِ الإسلامِ، ولا سِيَّما يَظْهَرُ، وذلكَ ظاهرُ الوجودِ. وفي مِثْلِهِ نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ الآية [النساء: ٩٤] وقد أَخْبَرَ أنهم كانوا لذلكَ يَكْتُمونَ دينَهُمْ حتى [مَنَّ][٣] اللهُ عليهِمْ بالإظهارِ، فيكونُ هذا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ على الأمرِ الأوَّلِ.

وعلى ذلكَ شأنُ المسلِمِينَ الذينَ دخلُوا تلكَ الدارَ بالإيمانِ، ولا يُحْتَمَلُ أنْ يَلْحَقَهُ هذا النوعُ مِنْ قَتْلِ الخَطَإِ، فَيَلْزَمَ في نَفْسِهِ البَدَلُ، والأصلُ على حالٍ.

والثاني: أنْ يَرْمِيَ غَيْرَهُ، فَيُصيبَهُ على ما يكونُ خَطَأً أهلِ هذهِ الدارِ، ولم تَجِبْ لهُ الدِّيَةُ لِما يَقَعُ فيهِ الخَطَأُ مِنَ الوجهِ الذي على الأمرِ يُفْعَلُ ما بَيَّنْتُ. فلا يَحْتَمِلُ أنْ يُجْعَلَ لنفسِهِ بَدَلٌ.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ دارَ الحَرْبِ، وفي الحَرْبِ سَفْكُ الدِّماءِ وإتلافُ الأموالِ، فلا يَقَعُ فيها إحرازُ الدِّماءِ والأموالِ. فلذلكَ لم يَجِبْ فيها البَدَلُ، وليسَتْ[٤] كدارِ الإسلامِ لأنها دارُ سِلْمٍ وأمْنٍ حتّى جُعِلَتْ تُحْرَزُ بها الدِّماءُ والأموالُ على ما كانَتْ[٥] أنفُسُ الأعداءِ إذا دَخَلَتْ بالميثاقِ إلينا اسْتَوجَبَ/ ١٠٩ ـ أ/ حَقَّ الأعراضِ ولُزومَ البَدَلِ. وإنْ كانوا مِنْ قومٍ عَدُوٍّ لنا؛ إذْ هي الدارُ [دارُ][٦] سِلْمٍ وإحرازٍ، ولا يُشْبِهُ الذي أسْلَمَ، ولم يَخْرُجْ، الذي خَرَجَ مِنْ هذِهِ الدارِ مُسْلِماً لِما كانَ يَخْرُجُ بأمانٍ.

وفي الآياتِ لُزومُ حِفْظِ الأمرِ الأوَّلِ، وليسَ في الأوَّلِ: ذلكَ عِلْمٌ أنَّ أحدَ الأمرينِ في ابْتِداءِ الإيجابِ، والآخَرَ في البَقاءِ على ما وَجَبَ. ومَعْلُومٌ تَفاضُلُ هذينِ في الأصولِ واخْتِلافُ الأمرِ بَيْنَهُما، وقد كانَ في إبقاءِ بَعْضِ ما يَسْتَوجِبُ بالدِّينِ لِتَرْكِ الهِجْرَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢]

وقد نُسِخَتْ تلكَ الهِجْرَةُ إلى دارِ الإسلامِ، وإنْ نُسِخَتْ إلى المدينةِ فلم يَكُنْ لنا ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ وإنَّما حقُّ بَذْلِ الأنفُسِ لِمَنْ يَبْقَى عنهُ مِنَ الأولياءِ، وقد بَقِيَ ذلكَ. فلذلكَ لم يَجِبْ. وعلى ذلكَ يَخْرُجُ قولُنا فيهِ: لو قَتَلَ عَمْداً أنْ يَجِبَ القِصاصُ لا الدِّيَةُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الإسراء: ٣٣] وقد بَقِيَ في ما نَحْنُ فيهِ الوَلايَةُ كذلكَ بَطَلَ[٧] السلطانُ، وفي بُطْلانِهِ بُطْلانُ البَدَلِ، ويَجوزُ مَعَهُ بَقاءُ الحَقِّ الذي بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ لِثَباتِ تلكَ الحُرْمَةِ.

[والقولُ الرابعُ][٨] في تأويلِ قولِهِ: ﴿مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ أنَّ في قومٍ مُظْهِرَ العَداوةِ؛ دليلُ ذلكَ أنهُ، وإنْ خَرَجَ إلى هذِهِ الدارِ، فيهِمْ قَوْمُهُ، لكنهُ ليسَ فيهِمْ يَرْجِعُ إلى مُؤْمِنٍ آمِنٍ، وهو يُعَدُّ فيهِمْ، أنهُ[٩] لا شَيءَ. فإذا خَرَجَ، فإنْ عادَ أوّلاً فَلَهُ حُكْمُ نازِلِهِ؛ لم يَقْتَضِهِ حَقُّ الآيةِ؛ فيجبُ فيهِ الذي يَجِبُ على حَسَبِ الدليلِ المُوجِبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ القَتيلُ مُعاهَدٌ مِنْ قومٍ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ ميثاقٌ، فاحْتَجَّ بَعْضُ أصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، بهذِهِ الآيةِ الكريمةِ في إيجابِ الدِّيَةِ: في قَتْلِ المُعاهِدِ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ، وهي مِثْلُ دِيَةِ المُسْلِمِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ فيهما جميعاً: ﴿فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ﴾ فهما سَواءٌ. وقد رُوِيَ ذلكَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه.

---

(١) في الأصل وم: والوجه. (٢) هو القول الثالث من وجوه الاختلاف في قتل المؤمن في أهله الأعداء. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وليس. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: يطلب. (٨) في الأصل وم: ووجه آخر، وهو القول الرابع من وجوه الاختلاف في قتل المؤمن في أهله الأعداء. (٩) في الأصل وم: أن.

والآيةُ تَحتمِلُ غَيرَ هذا لأنّ الله تعالى قالَ في أوّلِ الآيةِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ فاكتفى بِذِكرِ الإيمانِ في القتيلَينِ الأوّلَينِ عن إعادةِ ذِكرِ الإيمانِ في القتيلِ الثالثِ. ولم يَكتَفِ بِذِكرِ الإيمانِ في القتيلِ الأوّلِ عن إعادتِهِ في الثاني لأنهُ لو قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ولم يَزِدْ على هذا كنايةً[1] تُوجِبُ الدّيَةَ في قَتْلِ كلِّ مؤمنٍ لَذَكَرَ الإيمانَ في الثاني لِلتّفريقِ بَيْنَهُما.

وأمّا ذِكرُ الإيمانِ في الثاني[فقط أغنى][2] عن ذِكرِهِ في الثالثِ لا تَفرِقَةَ بَيْنَهُما. كذلكَ كانَ ما ذُكِرَ عنِ الحَسَنِ ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ [أنهُ][3] قالَ: مؤمنٌ، واستَدَلَّ مَنْ ذَهَبَ إلى أنّ المَقتولَ مُسلِمٌ بأنّ الله تعالى قالَ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ولا تَجبُ الكَفّارَةُ على قاتِلِ المُعاهِدِ إذا لم يكُنْ ذِمّيّاً[4].

ألا تَرى أنّ النّبيَّ ﷺ، وَدَى قتيلَي عَمرِو بنِ أُميّةَ، وكانَ لَهُما عَهدٌ، ولم يَبلُغنا أنهُ أمَرَ بالكَفّارَةِ؟ فَيُقالُ: إنّ الكَفّارَةَ واجبَةٌ على قاتِلِ المُعاهِدِ المُستأمِنِ بِظاهِرِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾. [وقولِهِ أيضاً: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ ممّا][5] يَدُلُّ أنّ المَقتولَ مُعاهَداً أنهُ لو كانَ مُسلِماً لم تَجبْ لأهلِهِ مِنَ المُعاهِدِينَ الدّيَةُ؛ لأنهُمْ يَرِثُونَهُ إذا كانَ مُعاهَداً. وهذا يُؤيِّدُ قولَ أصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، في وجوبِ كَمالِ دِيَةِ المُسْلِمِ على قاتِلِ المُعاهَدِ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ وَدَى ذِمّيّاً دِيَةَ مُسلِمٍ، وحَديثُ عَمرِو بنِ أُميّةَ: أنهُ [بَيْنما][6] كانَ بِبَعْضِ الطريقِ أقبَلَ رجلانِ مِنْ بَنِي عامِرٍ حتى نَزَلا في ظِلٍّ، هو فيهِ، وكانَ مَعَهُما عَهْدٌ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ لم يَعْلَمْ بهِ عَمْرٌو، وقد عَلِمَ أنهما مِنْ بَني عامِرٍ. فلمّا ناما عَدَا عَلَيهِما، فَقَتَلَهُما، وهو يَرَى أنهُ أصابَ مِنهُما ثأرَهُ مِنْ بَني عامِرٍ. فلمّا قَدِمَ عَمْرٌو إلى رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: لقد قَتَلْتُ قَتِيلَينِ لا دِيَةَ لَهُما «فَوَداهُما رسولُ اللهِ ﷺ» [رواه الترمذي عن ابن عباس ١٤٠٤] ومعلومٌ أنّ الدّيَةَ كانَتْ تامّةً، وإنْ لم تُسَمَّ، لأنّ العَرَبَ كانَتْ لا تَرْضَى أنْ تُنْقَصَ دِياتُها عن دِياتِ المُسْلِمِينَ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، أنّ النَّبيَّ ﷺ، جَعَلَ دِيَةَ العامِرِيَّيْنِ دِيَةَ الحُرَّيْنِ المسلِمَينِ. وعنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: (دِيَةُ أهلِ الكتابِ مِثْلُ دِيَةِ المُسْلِمِ). فإنْ قيلَ: رُوِيَ عن عمرَ ﷺ، [أنهُ][8] قالَ: (دِيَةُ اليَهودِيِّ أو النَّصرانِيِّ أربعةُ آلافِ دِرْهَمٍ ودِيَةُ المَجوسيِّ ثمانُمِئَةِ دِرْهَمٍ)، وعنْ عُثمانَ ﷺ مِثْلُهُ، قيلَ: يَحتَمِلُ هذا مارُوِيَ عن عُمَرَ أنهُ قَوَّمَ الإبِلَ، فَبلَغَتْ قِيمَتُها أربَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ، ثم قَوَّمَها ثانياً، فَبَلَغَتْ سِتّةَ آلافٍ إلى أنْ بَلَغَتْ عَشْرَةَ آلافٍ. أو ما ذُكِرَ، فَيُحْتَمِلُ أنهُ لمّا قَوَّمَها، فَبَلَغَتْ أربعَةَ آلافٍ، كانَ ذلكَ في دِيَةِ يَهودِيٍّ أو نَصْرانِيٍّ، فَظَنَّ الراوي أنهُ إنما أوجَبَ أرْبَعَةَ آلافٍ [لا أنها في][9] دِيَةِ النصرانِيِّ أو اليَهودِيِّ، فَرُوِيَ على ذلكَ مَعَ ما رُوِيَ عن عُمَرَ وعُثْمانَ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، بِعَشَرَةِ آلافٍ.

ورُوِيَ أنّ أبا بكرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ، رِضوانِ اللهِ تعالى عليهِمْ، قالُوا: (دِيَةُ المُعاهِدِ دِيَةُ الحُرِّ المُسْلِمِ). فهذا يُوهِنُ قولَهُما الأوّلَ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على الاصْطِلاحِ.

فإنْ قِيلَ: رَوَى عَمْرُو بنُ شُعَيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جَدِّهِ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][10] قالَ: «دِيَةُ الكافِرِ نِصْفُ دِيَةِ المُسْلِمِ» [الترمذي ١٤١٣] قيلَ: إنّ كِلا الفريقَينِ تَرَكُوا العَمَلَ بهذا الخَبَرِ لأنّ مَنْ يَقولُ بأربَعَةِ آلافٍ: ثُلُثُ دِيَةِ المُسْلِمِ على قولِهِ. لأنّ دِيَةَ المُسْلِمِ الحُرِّ اثنا عَشَرَ ألفاً عندَهُ. ومَنْ يقولُ بِعَشَرَةِ آلافٍ لم يُؤخَذْ بهِ. فقد أجمعُوا على تَرْكِ العَمَلِ بهِ. وذلكَ لِما لم يَثْبُتْ عندَهُمْ، واللهُ أعلَمُ، مع ما وَصَفْنا في بابِ قَتْلِ المُسلِمِ بالكافِرِ ما يَدُلُّ على أنّ ذلكَ واجِبٌ. فإذنْ وَجَبَ قَتْلُ المُسْلِمِ بالذي وَجَبَ أنْ تكونَ دِيَتُهُما سَواءً.

ألَا تَرَى أنّ الكَفّارَةَ على قاتِلِهِما سَواءٌ؟

وقولُهُ تعالى أيضاً: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ هذا الحَرْفِ مِنْ وَجْهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: كنا. (٢) في الأصل وم: غنى. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ذمة. (٥) في الأصل وم: وقال أيضاً ومما.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: لأنه. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: أنّ الآيةَ في المُؤمِنِينَ خاصّةً، لكنّهُمْ على أقسامٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: على النُّشوءِ على الإيمانِ.

والثاني[1]: على إحداثِ الإيمانِ في دارِ الحربِ مِنْ أهلِ الحَرْبِ.

والثالثُ: على إحداثِ الإيمانِ مِنْ أهلِ الميثاقِ في دارِ العهدِ.

والثاني[2]: مِنْ وَجْهَينِ:

[أحدُهما: في][3]: الآيةِ بَيانُ جَميعِ ممّا يَجِبُ في نفسِهِ حَقٌّ إذا قَتَلَ خَطأً، مِنْ مؤمنٍ قد أحْرَزَ دمَهُ بالإيمانِ أو بالإيمانِ [في دارِ الحربِ من أهلِ الحَرْبِ أو بالإيمانِ بالعهدِ][4]. وفي ذلكَ إنما قَطَعَ الحقَّ عَنْ كثيرٍ ممنْ يَنْتَهي عنْ قتلِهِمْ إذا لم تَتَضَمَّنْهُمْ هذه الآيةُ من نحوِ نساءِ الحربِ والذّراريِّ، فلم تَجِبِ الدِّيَةُ بما لم تُحرَزْ دماؤُهُمْ بدارِ الحرب، ولم تَجِبِ الكفارَةُ بارْتِفاعِ الميثاقِ، وإنْ كُنّا لا نَقْتُلُهُمْ.

فإنْ كانَ تأويلُ الآيةِ هذا فكانَ في الآيةِ أيضاً بيانُ[5] تَخْصيصِ القَتِيلِ المُؤمِنِ مِنْ أهلِ الحَرْبِ، أنْ لا دِيَةَ فيهِ، وفيها كانَ فَهْمُ الإجماعِ أنّ اللهَ لو أرادَ الجَمْعَ بَيْنَ القَتِيلَيْنِ لَكانَ يَخْرُجُ الأمْرُ على الإبلاغِ على ما في الكَفّارَةِ وما فيهما مِنْ صِفَةِ الإيمانِ أو على الإيجازِ والتَّدْريجِ فيها بالمَعْنَى. فالذِّكْرُ في قَتيلٍ واحدٍ كانَ. فلمّا ذَكَرَ في قَتيلينِ، ولم يَذْكُرْ في الواحدِ دلَّ أنهُ على التَّفريقِ، وأيَّدَ ذلكَ أمْرُ الصِّيامِ، أنهُ ذُكِرَ مَرّةً، والحُكْمُ يأتي على الكُلِّ. وعلى/ ١٠٩ ـ ب/ ذلكَ حَقُّ الدِّيَةِ معَ ما بَيَّنَ الذي هو وَصَفَهُ.

وإنْ كانَ تأويلُ الآيةِ [الأوّلَ فَقَدْ وجَبَ][6] في المُعاهِدِ بالمَرْوِيِّ عن رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قَضَى في عامِرِيَّينِ، دَخَلا بأمانٍ، فَقُتِلا، بِدِيَةِ حُرَّيْنِ مُسْلِمِينَ[7]. وفي ذلكَ بَيانُ الدِّيَةِ، لم تَكُنْ وجبتْ بالنَّهْيِ عنِ القَتْلِ؛ إذ هو في الذَّراريِّ والنِّساءِ قائِمٌ، ولم يَجِبْ، لكنْ بالعَهْدِ. فإذا كانَ على الاتِّفاقِ في الدِّينِ، فالنَّهْيُ فَرَّقَ بَيْنَهما بالعَهْدِ. فَعَلَى ذلكَ أمْرُ المُسْلِمِينَ على الاتِّفاقِ في الدِّينِ، والنَّهْيُ يُفَرِّقُ بَيْنَهما بِمكانِ العَهْدِ والإحرازِ.

وأيَّدَ التَّأويلُ الثاني شَرْطَ الإيمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فَلَولا أنَّ الذِّكْرَ يَقْتَضي القَتيلَ مِنَ العَدُوِّ لم يَكُنْ لِيُحتاجَ إلى ذِكْرِ المؤمنِ، وقد سَبَقَ بَيانُ المَقْصودِ في ابْتِداءِ الآيةِ. في النَّهْيِ والثُّنيا جميعاً. فإذالَمْ يُذْكَرْ في أهلِ الميثاقِ، صارَ مَتْروكاً على [ما][8] يَقْتَضيهِ، وأيَّدَ ذلكَ الذي هو وَصَفَهُ أنَّ ذِكْرَ النَّوعَينِ يَدُلُّ على التَّفْريقِ، إذ ليسَ على حَقِّ الاقْتِضاءِ بالمَعْنَى لا على حَقِّ الإبلاغِ في البَيانِ. وجَميعُ الكُلِّ يَخْرُجُ على ذَينِكَ اللَّفْظَينِ في حَقِّ الحِكْمَةِ، لِذلكَ صارَ إلى حَقِّ التَّفْريقِ.

ثم الظاهِرُ قد يُضَمَّنُ الخِطابَ بأمْرينِ:

أحدُهما: في هَتْكِ الحُرْمَةِ.

والثاني[9]: في حَقِّ العِوَضِ مِنْ غَيرِ تفريقٍ في وَزْنِ المَلْفوظِ. وجاءَ البَيانُ لِلْواحِدِ، وهي دِيَةُ المؤمِنِ، فَيَصيرُ كأنَّ البَيانَ في الآيةِ. ومَعلومٌ أنهُ لو كانَ يأخُذُ الكُلَّ لكانَ[10] يَجيءُ التفريقُ على ما ذَكَرَ مِنْ أمْرِ الصِّيامِ وحَقِّ التوبَةِ. وإنْ ذُكِرَ الآحادُ في حَقِّ بَيانِ التَّضمينِ، كذلكَ في الكُلِّ الدِّيَةُ على حَدٍّ واحدٍ معَ ما اسْتَوَى أمْرُ الكُفّارِ في مالهُ حَقُّ البَيانِ التامِّ أو بَيانِ الكِفايَةِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وأيَّدَ ذلكَ وَجْهانِ:

---

(١) في الأصل وم: والآخر. (٢) في الأصل وم: والآخر، وهو الوجه الثاني من وجهي تأويل الآية. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والدار في دار العهد. (٥) في الأصل وم: على. (٦) روى ذلك الترمذي عن ابن عباس رقم الحديث (١٤٠٤). (٧) في الأصل وم: الأولى، فأوجب. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: والآخر. (١٠) في الاصل وم: إلّا أن.

أحدُهما: أنَّ الدِّيَةَ بِمَبْلَغِها كانَتْ في الجاهليَّةِ، فَأُقِرَّتْ على ذلكَ في الإسلامِ.

وكذلكَ حَقُّ القسامَةِ، وكانَتْ كذلكَ في أهلِ الكُفرِ عندَ الأمانِ. فَعَلَى ذلكَ اليومَ، أو يُلْزَمُ الذي عُرِف، حتى يَظْهَرَ، ولِذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لم يَجُزْ في الأمرِ البَيانُ لأنهُ كانَ مَعْروفاً[1]. وأيَّدَ ذلكَ جميعُ الأمورِ المُنقَسِمَةِ مِنْ نَحْوِ الحُدودِ بَيْنَ العَبيدِ والأحرارِ في التَّفريقِ والدِّياتِ بَيْنَ الذكورِ والإناثِ: أنه يَجِبُ ذلكَ الانقسامُ في أهلِ الكُفرِ. فَعَلَى ذلك حدُّ الجُمْلَةِ والنِّصْفِ.

والثاني: خَبَرُ ابْنِ عباسٍ، رضي الله عنه، في العامِرِيَّيْنِ، وعلى ذلكَ جاءَ عن عُمَرَ وعليٍّ رضي الله عنهما وما رُوِيَ عن عُمَرَ رضي الله عنه فهو في الوقتِ الذي بَلَغَتْ مِنَ الأبدالِ لأنفُسِهِمْ لأنهُ [لابِهِم جُعِلَتِ الدِّيَةُ][2] لكنْ بالشَّرْعِ؛ فيهِ يُعْرَفُ التَّفريقُ والجَمْعُ. فما لم يَثْبُتِ التَّفريقُ، والمَعْنَى في كُلِّ نَفسٍ مِنَ المَنافِعِ، وإليها ما في غَيرِها، لَزِمَ الجَمْعُ حتى يَجيءَ عِلْمُ التَّفريقِ.

والأصلُ أنَّ البَدَلَ أمْرٌ يَرْجِعُ إلى منافِعَ تَقَعُ لِلْمَجيءِ عليهِ مَكانَ ما ذَهَبَ منهُ أو لِغَيْرِهِ في ما يَدْخُلُ عليهِمْ مِنَ النُّقْصانِ بفَوتِ نفسِهِ. ثم كُلُّ أمْرٍ مَجْعُولٌ لِلْمَنافِعِ؛ فالنَّظَرُ فيها إلى قَدْرِ المَنافِعِ عندَ أهْلِها وأهْلِ الذِّمَّةِ أحَقُّ بالزِّيادَةِ لِتَعْجيلِ المَنْفَعَةِ لَهُمْ[3] في الدنيا؛ إذ لا حَظَّ لَهُمْ في الآخِرَةِ.

وقد زَعَمَ الشافِعِيُّ أنَّ العَبْدَ لو بِيعَ على أنهُ كافرٌ، فوجَدَهُ مُسْلِماً؛ أنهُ عَيْبٌ يُرَدُّ، فَيَصيرُ الإسلامُ عَيباً في قِيمَتِهِ، فلا يَجيءُ الحُرُّ مِنْهُمْ أقَلَّ قِيمَةً مِنَ الحُرِّ مِنّا، ومَحَلُّ الدِّينِ ما ذَكَرْتُ. فهذا، وإنْ كانَ منهُ القَوْلُ شَنيعاً، لا يَجوزُ أنْ يُحْتَجَّ بِهِ، فهو في مَوضِعِ التَّنْبِيهِ، وقولُهُ يَلْزَمُهُ كقولِهِ ﷺ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فَحاجَّهُمْ بالذي عندَ أئِمَّتِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ يُحاجُّ بالذي عندَهُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ. وقد حاجَّ بِنَفْيِ الإلهِيَّةِ بِما لا يَنْفَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يَسْمَعُ، ولا يُبْصِرُ، وإنْ كانَ وجودُ ما انْتَفَى لا يُوجِبُ القولَ بِهِ.

ثم القَتْلُ على أقسامٍ ثلاثَةٍ؛ [أحدُها: قَتْلُ][4] عَمْدٍ، وهو يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَينِ:

أحدُهما: أنْ يَتَعَمَّدَ نَفْسَ القَتيلِ.

والثاني: أنْ يَتَعَمَّدَ دينَهُ [فَيَقْتُلَهُ لِأجْلِ دينِهِ.

والثاني: قَتْلُ][5] خَطَإٍ؛ وهو أيضاً عَلَى قِسْمَينِ.

أحدُهما: أنْ يَقَعَ بِحَدِّ الجِنايَةِ عن غَيرِ قَصْدِهِ.

والثاني: أنْ يَقَعَ بِهِ[6] على قَصْدِهِ لكنْ [على][7] ظَنِّ لُزومِهِ الدِّينَ الذي اسْتَوجَبَ القَتْلَ بِهِ.

وبَيْنَ الخَطَإِ والعَمْدِ قَتْلٌ آخَرُ سُمِّيَ خَطأَ العَمْدِ أو شِبْهَ العَمْدِ[8] مِمّا لم يُبَيَّنْ حُكْمُهُ في مَنْصوصِ القرآنِ، ولا هو [مِمّا][9] يَحْتَمِلُ مَعْرِفَةَ حَقيقَتِهِ بالعِيانِ؛ لأنْ ليسَ في العَيْنِ جِنايَةٌ تَقَعُ مِنْ حَيْثُ الوُقوعُ إلّا عَنْ عَمْدٍ أو خَطَإٍ، فصارَ ذلكَ مَعْروفاً، وحُكْمُهُ بالشَّرْعِ، ولِلَّهِ أنْ يُشَرِّعَ في حَقيقَةِ الخَطَإِ والعَمْدِ شَرْعاً واحداً[10] على ما عليهِ أمْرُ شَرْعِهِ في جَميعِ الأمورِ.

قد جاءَ الخَبَرُ فيهِ واتِّفاقُ الصَّحابَةِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، على إيجابِ الدِّيَةِ في ذلكَ، ولَيسَ في ذلكَ ذِكْرُ الكَفّارَةِ. فلمّا ثَبَتَ إلحاقُهُ بالذي هو خَطأٌ في الحُكْمِ قِيسَ عليهِ أمْرُ الكَفّارَةِ مَعَ ما كانَ لِذلكَ أوجُهُ تقديرٍ:

أحدُها: أنَّ في العَمْدِ ما هو لِنَفْسِهِ كَفّارَةٌ، وهو القِصاصُ، وقد وَقَعَ ذلكَ في شِبْهِ العَمْدِ، والدِّيَةُ تَلْزَمُ العاقِلَةَ، فلا بُدَّ مِنْ وضعِ كَفّارَةٍ في ذلكَ كالذي ذُكِرَ في الخَطَإِ فيه.

والثاني: أنهُ ذَكَرَ في الكَفّارَةِ: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾. والتَّوبَةُ مِنَ اللهِ تُخَرَّجُ على أوجُهٍ ثلاثةٍ: على التَّوفيقِ لِفِعْلِهِ، أو على

---

(١) في الأصل: معروف، في م: على معروف. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: فهم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل: و، في م: فيقتل لأجل دينه و. (٦) في الأصل وم: بأحد. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) هو القسم الثالث من أقسام القتل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في م: واحد.

ما كانَ مِنَ الزَّلَّةِ، أو على جَعْلِ ذلكَ الفِعْلِ منهُ تَوبةً عن زَلَّتِهِ. وأيُّ هذهِ الوُجوهِ الثلاثةِ كانَ ففي ذلكَ مَعْنى وَصْفِ التَوبَةِ، فيكونُ مِمّا قد يَتَوَجَّهُ إلى عَمْدٍ يَلْحَقُ وَصْفَ الزَّلَّةِ، أو أمْرٍ تَجوزُ الكُلْفَةُ بهِ، فَيَقَعُ العُدُولُ عنهُ إذْ قالَ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. فإنْ جَعَلَ في ذا توبةً فهو في وَجْهٍ فيهِ جُناحٌ، ويكونُ لهُ حُكْمُ الخَطإِ، يُبيِّنُهُ الخَبَرُ.

والثالثُ: اتِّفاقُ أهْلِ الفَتْوَى على القولِ بهِ وأيضاً أنَّ الذي يَقَعُ الخَطأُ فيهِ لِدينِهِ قَصْدَ تَعَمُّدِ قَتْلِهِ، وأوجبَتْ عليهِ الكَفَّارَةُ، فقد وُجِدَتْ كَفَّارَةٌ مَعَ تُعَمُّدٍ في ما لا بُدَّ لِنَفْسِهِ ما فيهِ مِنَ الحقِّ على نَحْوِ ما بُيِّنَ في الخَطإِ. وإنما يَجِبُ طَلَبُ العَمَلِ بالحُكْمِ في ما لم يُبيِّنْ نُصوصاً مِنَ النَّوازِلِ أنْ يُعْلَمَ أنَّ لِلَّهِ تعالى فيها حُكْماً إنْ لم يَنُصَّ عليهِ فقدْ جَعَلَهُ مُبيَّناً بالتَّضْمينِ لا بالتَّصْريحِ، فهو مَتروكٌ لِلتَّضْمينِ.

والرابعُ[1]: أنَّ الكَفَّارَةَ في حَقِّ الزَّجْرِ عنهُ والتَّكْفيرِ لِفِعْلِهِ، وفي السَّيفِ ذلكَ والزِّيادَةِ فيهِ. فلذلكَ لم يَضُمَّ إليهِ غَيرَهُ. ثم مَعْلُومٌ أنَّ الكَفَّارَةَ إنما جُعِلَتْ بما مَعَهُ الإبْقاءُ حتى يصومَ شهرينِ، وفي ما فيه القِصاصُ لا مهلَةَ لهُ، تَسْتوجبُ بهِ بقاءَ النفسِ لتقومَ بالكفارةِ. لِذلكَ لم يَجِبْ.

والخامسُ: الاِتِّفاقُ أنَّ الذي يَقْتَصُّ لا تَلْزَمُهُ الكَفَّارَةُ. فَمَنْ وَجَبَ لهُ حُكْمُ العَمْدِ لم تَجِبْ عليهِ الكَفَّارَةُ. ولو أوجَبْنا[2] الكَفَّارَةَ على القاتِلِ جَعَلْناها حَقّاً للهِ مِنْ حَيثُ النَّفْسُ لا مِنْ حَيثُ المَعْنَى في الجِنايَةِ، لَهُ تَجِبُ. وذلكَ المَعْنَى في نَفْسِ القاتِلِ والقَتيلِ[3] سَواءٌ؛ فيكونُ وَلِيُّ القَتيلِ أخَذَ الذي لَهُ وَقَعَ القِصاصُ. لكنْ [ليسَ][4] لهُ الكَفارةُ، فَتَلْزَمُهُ. فإذا لم تَجِبْ بانَ أنها تَجِبُ بِحالٍ في النَّفْسِ والجِنايَةِ، فلمْ تَجِبْ بِحالٍ في النَّفْسِ والجِنايَةِ، فلمَ تَجِبُ في ما عَدِمَتْ تلكَ الحالةُ؟

والأصْلُ أنها لم تُجْعَلْ لِلْحَظْرِ ولا لِلنَّفْسِ الحُرْمَةُ؛ إذ قد يُوجَدُ قَتْلُ نَفْسٍ مَحْظورَةٍ لم تُجْعَلْ فيها الكَفَّارَةُ نَحْوَ الذَّراريِّ والنِّساءِ مِنْ أهْلِ الشِّرْكِ، بل لو كانَ لذلكَ كانَ الخَطأُ مِنْ أبْعَدِ ما تُجْعَلُ لَهُ الكَفّارَةُ. فَثَبَتَ أنها لم تُجْعَلْ لذلكَ. ومَنْ يَقِسْ يَقِسْ بذلكَ، فَيُبطِلُ [دَمَهُ وحَقَّهُ][5]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: لا يُجْزَى إلّا مَنْ صامَ، وصَلَّى. وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][6] قالَ: (الرَّقَبَةُ المؤمِنَةُ كلُّ مَولُودٍ وُلِدَ في الإسلامِ: صَغيراً كانَ أو كَبيراً). والأشْبَهُ أنْ يُجْزَى الصَّغيرُ مِنَ المؤمِنينَ على ما يُجْزَى عنهُ الكَبيرُ منهُمْ؛ إنْ كانَ حُكْمُ الصَّغيرِ مِنَ المؤمِنينَ حُكْمَ الكَبيرِ منهُمْا. ومِمّا يَدُلُّ على ذلكَ أيضاً أنَّ الحُكْمَ لِلصَّغيرِ مَنَ المؤمِنينَ: مِيراثِهِ[7] وتَزْويجِهِ[8] وطلاقِ الرجلِ الزوجَةَ الصغيرةَ حُكْمُ الكَبيرَةِ، فهُمْ مؤمِنُونَ في الحُكْمِ، إنْ كانُوا / ١١٠ ـ أ/ صِغاراً ولكنْ لَسْنا نَذكُرُ مِنْ أصْحابِنا رِوايةً مَنْصوصةً في جَوازِهِ. والقياسُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ وَصَفَ اللهُ ﷻ، الشَّهْرَينِ بالتَّتابُعِ، وَوَصَفَ الرَّقَبَةَ بالإيمانِ فهو، واللهُ أعْلَمُ، يَحْتَمِلُ على التَّغليظِ والتَّشْديدِ لِما يَجوزُ أنْ يُجاوِزَ [جُرْمُ الخَطإِ][9] جُرْمَ غَيرِهِ مِنَ الأشياءِ، نَحْوَ أنْ يَقْتُلَهُ بِعَصاً أو بِسَوطٍ ونَحْوِهِ قاصِداً. ولا شَكَّ أنَّ جُرْمَهُ أعْظَمُ مِنْ جُرْمِ غَيرِهِ مِنَ الأفعالِ التي تُوجِبُ مِنَ الأيمانِ والظِّهارِ وغَيرِهِ. فَغَلَّظَ فيهِ مالَمْ يُغَلِّظْ في غيرِهِ في الرَّقَبَةِ والتَّتابُعِ في الصيامِ. وهذا كما يَقُولُونَ: إنَّ ضَرْبَ التَّعْزيرِ أشَدُّ مِنْ ضَرْبِ حَدِّ الزِّنى وحَدِّ شُرْبِ الخَمْرِ وغيرِهِ؛ لأنَّ جُرْمَ فِعْلِ التَّعْزيرِ رُبَّما بَلَغَ جُرْمَ الزِّنى، أو تجاوَزَهُ[10]؛ وهو أنْ يَحْقِرَ[11] آخَرَ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ؛ لا شَكَّ أنَّ حُرْمَتَهُ أعظَمُ مِنْ حُرْمَةِ مَنْ قَذَفَ آخَرَ، وشَرِبَ قَطْرَةً مِنْ خَمْرٍ، فَغَلَّظَ فيهِ، وشَدَّدَ لِما ذَكَرْنا[12].

فَعَلَى ذلكَ شَرْطُ الإيمانِ في العِتاقِ في كَفّارَةِ القَتْلِ والتتابُعِ في الصَّومِ تغليظاً وتَشْديداً لِلْمَعْنَى الذي ذَكَرْنا؛ وهو أنْ يَقْتُلَهُ قَتْلَ شِبْهِ العَمْدِ: أي عَمْدَ القَصْدِ خَطأَ الحُكْمِ.

---

(١) في الأصل وم: والثاني. (٢) في الأصل وم: أجبنا. (٣) في الأصل وم: القتل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وميراثه. (٨) من م، في الأصل: وتجويزه. (٩) في الأصل وم: جرم حكم الخطإ. (١٠) في الأصل وم: تجاوز. (١١) في الأصل: تحقيق، في م تحيق. (١٢) كان ذلك في قتل شبه العمد.

ألا ترى أنه غلَّظ في الدِّيَةِ في شِبْهِ العَمْدِ، ولم يُغَلِّظ في غيرِهِ؟ ورُوِيَ عنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قالَ: «قَتيلُ السَّوطِ أو العَصا فيهِ الدِّيَةُ مُغَلَّظَةٌ»؟ [النسائي: ٨/ ٤٢].

وعنِ النُّعمانِ بْنِ بَشيرٍ ﷺ، [أنهُ][1] قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «كُلُّ شيءٍ خَطأٌ إلّا السيفَ والحديدَ، ولِكُلِّ خَطإٍ أرْشٌ» [البيهقي في الكبرى ٨/ ٤٢].

ذَكَرَ اللهُ تعالى قَتْلَ الخطإِ والعَمْدِ، فَبَيَّنَ حُكْمَهُما، ولم يَذْكُرْ غيرَهُما في كتابِهِ. لكنّا عَرَفْنا قَتيلَ شِبْهِ العَمْدِ والحُكْمَ فيهِ بما رَوينا مِنْ خَبَرِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ، وحَديثِ النُّعمانِ [بْنِ بَشيرٍ] عنهُ ﷺ، حيثُ قالَ: «ألا إنَّ قَتيلَ خَطإِ العَمْدِ قَتيلُ السَّوطِ والعَصا، فَفِيهِ الدِّيَةُ مُغَلَّظَةٌ. ثلاثونَ جَذَعَةً وثلاثونَ حِقَّةً وأربَعُونَ ما بَيْنَ ثَنِيَّةٍ إلى نازِلِ عامِها، كلُّها خَلِفَةٌ» [أبو داوود ٤٥٥٠].

واختَلَفَ الصحابةُ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمَعِينَ: رَوَى عُمَرُ ﷺ ما ذَكَرْنا مِنَ الخَبَرِ المَرفوعِ أثلاثاً. وعن عليٍّ ﷺ، قريباً منهُ أثلاثاً. وعنْ أبي موسى الأشعَرِي والمُغيرةِ ما رَوينا مِنَ الخَبَرِ المَرفوعِ أثلاثاً. وعنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ في شِبْهِ العَمْدِ أرباعاً: خمسةٌ وعشرون جَذَعَةً وخمسةٌ وعشرونَ بَناتِ لَبونٍ وخمسةٌ وعشرونَ بَناتِ مَخاضٍ.

ثم لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الصحابةُ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمَعِينَ، قالُوا ذلكَ[2] رأياً مِنْ أنفُسِهِمْ لأنَ هذا بابٌ لا يُوقَفُ إلا بالسَّمْعِ، والخَبَرُ عنِ اللهِ ﷺ، فَيُحْتَمَلُ[3] كأنهُمْ سَمِعُوا ذلكَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ، في وَقْتٍ واحدٍ، فَدَلَّ أنهُ في وَقْتَينِ مُخْتَلفَينِ، فهو على التَّناسُخِ، فلم يَظْهَرِ الأوَّلُ مِنْهُما مِنَ الآخَرِ، فأُوجِبَ الأخَفُّ باليَقِينِ، ولم يُوجِبِ الأغْلَظَ بالشَّكِّ. وهذا قولُ أبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى، حينَ قالَ في شِبْهِ العَمْدِ بالأرباعِ. وأما مُحَمَّدٌ، رَحِمَهُ اللهُ، فإنهُ ذهبَ إلى ظاهِرِ الخَبَرِ المَرفوعِ بالأثلاثِ.

ثم اخْتَلَفَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، في مَنْ رَمَى آخَرَ في بَحْرٍ، فَماتَ. قالَ أبو حَنيفَةَ، [رَحِمَهُ اللهُ تعالى][4]: لا يُقْتَلُ بِهِ. وقالَ في مَنْ أحْرَقَ آخَرَ بالنارِ: قُتِلَ بِهِ. وكانَ يُفَرِّقُ بَيْنَهُما بِوَجْهَينِ:

أحدُهما: أنْ يقولَ الرامي في الماءِ: أحْسَبُ[5] أنهُ يُحْسِنُ أنْ يَسْبَحَ، وذلكَ مَوجودٌ في كَثيرٍ مِنَ الناسِ، فصارَ ذلكَ شُبْهَةً يَزولُ بها القِصاصُ عنِ الرّامي. وأمّا الذي رَمَى صاحِبَهُ في النارِ ليسَ لهُ أنْ يَدَّعِيَ مِثْلَ ذلكَ، لم يَزُلْ عنهُ القِصاصُ.

والثاني: أنَّ النارَ جارحةٌ. ألا تَرَى أنها تُسْتَعْمَلُ في مَصْنَعِ[6] السِّلاحِ، ومُحارَبٌ بها، وهي مِنْ أشَدِّ السِّلاحِ، ولا كذلكَ الماءُ.

ثم القَولُ في مَبْلَغِ الدِّيَةِ مِنَ الإبِلِ: رُوِيَ أنَّ الكتابَ الذي كَتَبَهُ رسولُ اللهِ ﷺ لِعَمْرِو بنِ حَزْمٍ في العُقولِ: «في النَّفْسِ مِئةٌ مِنَ الإبِلِ» [أبو داوود ٤٥٤٧] وما رَوينا مِنْ خَبَرِ ابنِ عُمَرَ ﷺ: خَطَبَ رسولُ اللهِ ﷺ، فقالَ: «ألا إنَّ قَتيلَ خَطإِ العَمْدِ فيه الدِّيَةُ مُغَلَّظَةٌ مِئةٌ مِنَ الإبلِ» [النسائي: ٨/ ٤٢] ثم القولُ في أسنانِ الإبِلِ في الدِّيَةِ وما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، [أنهُ][7] قالَ: «دِيَةُ الخَطإِ أخماسٌ» [أحمد ٣/ ٣٨٤] وكذلكَ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بالأخماسِ، وعنْ عُمَرَ ؛ كذلكَ، [وعن][8] عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ في الخَطإِ أرباعاً.

وكانَ أبو حنيفَةَ [رَحِمَهُ اللهُ تعالى][9] يذهَبُ إلى ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، وإلى ما رُوِيَ عنْ عُمَرَ وعبدِ اللهِ ﷺ ويَجْعَلُ دِيَةَ الخَطإِ أخماساً مِنَ الإبِلِ، وفي شِبْهِ العَمْدِ بالأثلاثِ بالخَبَرِ المَرْفُوعِ. والوجهُ فيه ما ذَكَرْنا.

ثم المسألَةُ في مَبْلَغِ الدِّيَةِ مِنَ الوَرِقِ [ما][10] رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، أنهُ قَضَى بالدِّيَةِ اثْني عَشَرَ ألفاً، وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَ الدِّيَةَ اثْني عَشَرَ ألفاً. ورُوِيَ عَنْ عُبَيْدَةَ السَّلْمانِيِّ [أنهُ][11] قالَ: وَضَعَ عُمَرُ بْنُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: إن لك. (٣) في الأصل وم: فيجعل. (٤) في الأصل: رضي الله عنه، ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: حسب. (٦) في الأصل وم: موضع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل: ﷺ، ساقطة من م. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الخَطّابِ ﷺ الدِّياتِ: فَوَضَعَ على أهلِ الذهبِ ألفَ دينارٍ، وعلى أهلِ الوَرِقِ عَشَرةَ آلافِ[١] دِرْهَمٍ، وعلى أهلِ الإبلِ مِئةً مِنَ الإبلِ، وعلى أهْلِ البَقَرِ مِئتَي بَقَرةٍ، وعلى أهلِ الشِّياهِ ألْفَي شاةٍ، وعلى أهلِ الحُلَلِ مِئتَي حُلَّةٍ، ثم رَوَى عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: (قَوِّمُوا الإبلَ) فَقَوَّمُوها أُوقِيَّةً، ثم غَلَتِ الإبلُ، فقالَ: (فَقَوِّمُوا)، فَقَوَّمَتْ أُوقِيَّةً ونِصْفاً، ثم غَلَتْ حتى قُوِّمَتْ عَشَرةَ آلافِ دِرْهَمٍ. فلو عَلِمَ عُمَرُ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَضَى بالدراهِمِ لم يَحْتَجْ إلى أنْ يُقَوِّمُوا الإبلَ، ومُحالٌ أنْ يَخْفَى على عُمَرَ وغَيرِهِ مِنَ الصحابَةِ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهم أجْمَعينَ، سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، حتى يُضطَرُّوا إلى تَقْويمِ الإبلِ، فَدَلَّ أنَّ الخَبَرَ في اثْنَي عَشَرَ غيرُ ثابتٍ.

ثم الإختِلافُ أنَّ الدِّيَةَ مِنَ الدنانيرِ ألْفُ دينارٍ. فَوَجَبَ أنْ تكونَ الدِّيَةُ مِنَ الوَرِقِ عَشَرةَ آلافٍ لأنهُ رُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ جَعَلَ قِيمَةَ كلِّ دينارٍ عَشَرةً. ورُوِيَ أنهُ كَتَبَ إلى أمراءِ الأجنادِ أنْ تُؤخَذَ الجِزْيَةُ مِنْ أهْلِ الوَرِقِ؛ أربَعُونَ دِرْهماً، ومِنْ أهْلِ الذَّهَبِ أربعةُ دنانيرَ. وعنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ][٢] قال: (لا تُقْطَعُ اليَدُ إلّا في دينارٍ أو عَشَرةِ دَراهِمَ). دلَّ ما ذَكَرْنا مِنْ قولِ الصحابةِ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهم أجْمَعِينَ: أنَّ قِيمَةَ كلِّ دينارٍ عَشَرةُ دَراهِمَ. فلمّا أجْمَعُوا على[٣] أنَّ الدِّيَةَ مِنَ الذَّهَبِ ألْفُ دينارٍ وَجَبَ أنْ تكونَ مِنَ الوَرِقِ عَشَرةَ آلافٍ.

ألَا تَرَى أنهُ يُؤخَذُ في الزكاةِ مِنْ مِئتَي دِرْهَمٍ خَمْسَةُ دَراهِمَ، ومِن[٤] عِشْرينَ ديناراً نِصْفُ دينارٍ؟ دلَّ على أنَّ الدِّيَةَ عَشَرةُ آلافٍ.

ثم يَحْتَمِلُ الخَبَرُ، إنْ ثَبَتَ، أنَّ الدِّيَةَ اثْنا عَشَرَ ألفاً وَزْنَ سِتَّةٍ؛ لأنَّ الدِّيَةَ كانَ أصْلُها الإبِلَ، فَقُوِّمَتِ الإبلُ دَراهِمَ، فَبَلَغَتِ اثْنَي عَشَرَ ألْفاً مِنْ وَزْنِ سِتَّةٍ. ثم رُدَّتِ الأوزانُ إلى وَزْنِ سَبْعَةٍ، فكانَتِ اثْنَي عَشَرَ ألْفاً وكَسْرَ وَزْنِ سَبْعَةٍ، والْقَوْا[٥] الكَسْرَ لأنَّ ألْفَهُمْ لا يُعْرَفُ مَنْصوصاً، وإنما يُعْرَفُ بالإجْتِهادِ، وقد تَزْدادُ [قِيمَتُهُ][٦] وتَنْقُصُ، ويكونُ بينَ القِيمَتَيْنِ الشَّيءُ اليَسِيرُ، فَتَرَكُوا ذلكَ الكَسْرَ لِما وَصَفْنا، ولأنهُ لم يكُنْ في الدِّيَةِ في أصْلِها كَسْرٌ، وهذا وَجْهٌ مُحْتَمَلٌ، أخذَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، بآخِرِ التَّقْديرِ لأنَّ الأوزانَ اسْتَقَرَّتْ على وزنِ سبعةٍ، وبَطَلَ وَزْنُ سِتَّةٍ، ولا شَكَّ أنَّ وَزْنَ سَبْعَةٍ هي الآخِرَةُ لِاسْتِقْرارِها في الناسِ على ذلكَ، وباللهِ التَّوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ قد ذَكَرْنا مَعْنَى التَّتابُعِ[٧] / ١١٠ ـ ب/ في ذلكَ. وفي قولِهِ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ عِنْدَ جميعِ[٨] مَنْ ذَكَرَ مِنَ القائلِينَ في هذِهِ الآيَةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ العِلْمِ: نَدامَةٌ مِنْ [مَعْصِيَةِ][٩] اللهِ تعالى، وقد يَنْدَمُ الرجلُ على فِعْلِهِ خَطَأً. لكنْ عندَنا على حَقِيقةِ التَّوبَةِ لأنَّ الفِعْلَ فِعْلُ مَأْثَمٍ، وإنْ كانَ خَطَأً، ولأنهُ يَجوزُ أنْ يُكَلَّفَ الإنسانُ، ويُنْهَى في حالِ الخَطَإ لِما لا يَتَأمَّلُ في ذلكَ، ولا يَنْظُرُ، لِئَلا يَتْرُكَ التَّأمُّلَ في ذلكَ والنَّظَرَ. فتكونُ التَّوبَةُ على الحَقِيقةِ ما ذَكَرَ. وفي قولِهِ: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ قد بَيَّنّا الوَجْهَ في ذلكَ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ: التَّوبَةُ في الحَقيقةِ هي[١٠] النَّدامَةُ على الأمرِ وكلُّ مَنْ يَتَوَلَّدُ مِنْ فِعْلِهِ قَتْلُ أحَدٍ فهو يَنْدَمُ على ذلكَ الفِعْلِ الذي حَدَثَ مِنْهُ الذي ذُكِرَ، ويَحْزَنُ عليهِ، فيكونُ على هذا التَّقْديرِ مَعْنَى التوبةِ إلى[١١] اللهِ إلقاءَ ذلكَ الحُزْنِ في قَلْبِهِ أو رُجوعَهُ بالتَّأسُّفِ إلى اللهِ بالإعتاقِ والصِّيامِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بِمَنْ قَتَلَهُ [قَتْلَ][١٢] خَطَإٍ، ولم يَقْصِدْهُ، ومَنْ قَصَدَهُ، أو ﴿عَلِيمًا﴾ بما حَكَمَ [عليكُمْ مِنَ الدِّيَةِ والكَفّارَةِ، أو ﴿عَلِيمًا﴾ بما جَعَلَ الحُكْمَ ﴿حَكِيمًا﴾ في قَضائِهِ وحُكْمِهِ حيثُ وَضَعَ كُلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، واللهُ أعْلَمُ بِهِ.

---

(١) في الأصل وم: ألف. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: في. (٤) في الأصل وم: وفي. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) وذلك في الوجه الثالث من وجوه جعل الإيمان شرطا لتحقيق التوبة. (٨) في الأصل وم: الجميع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: هو. (١١) في الأصل: أمر، في م: من. (١٢) ساقطة من الأصل و م.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يُخرِّجُ ذلكَ عندَ ذِكْرِهِ هذهِ الآيةَ][1] وهو كذلكَ بذاتِهِ على أوجُهٍ:

أحدُها: أنهُ عَلِيمٌ بالذي عليهِ خَرَجَتْ[2] حَقيقةُ فِعْلِ ذلكَ القاتِلِ مِنَ القَصْدِ [وغَيْرِ القَصْدِ][3]، وهو حَكيمٌ بما حَكَمَ عَلَينا الذي ذَكَرَ بظاهِرِ أحوالِ القَتيلِ، وإنْ لم تُعْرَفْ حَقيقةُ الأمْرِ في ذلكَ، إذِ الذي لهُ حُكْمُ العَمْدِ والخَطَإِ لا يَظْهَرُ بغَيْرِهِ.

والثاني: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ولم[4] يَزَلْ ﴿عَلِيمًا﴾ بالذي يكونُ مِنْ عِبادِهِ وبالذي [هو][5] الصالِحُ [بَيْنَهُمْ، فَحَكَمَ بما فيهِ][6] الصالِحُ في ما عَلِمَ مِنْ وقوعِ الجِناياتِ.

والثالِثُ[7]: تَبيَّنَ أنهُ لا عَنْ جَهْلٍ يَقَعُ الخِلافُ لأمْرِهِ ولِما لم يَرْضَ بهِ مِنْ خَلْقِهِ ولا عَنْ خَطَإٍ في التَّدبيرِ؛ أي عليمٌ بالذي يكونُ مِنَ الخَلْقِ لا عَنْ جَهْلٍ بِهِمْ خَرَجَ أمْرُهُمْ، وحَكيمٌ في التَّدْبيرِ؛ أي لا يَلْحَقُهُ الخَطَأُ في تَدْبيرِ الخلائِقِ على ما يكونُ مِنْهُمْ مِنَ الفَسادِ والشَّرِّ؛ إذْ بِمِثْلِهِ مِنْ غَيْرِهِ يُعْلَمُ الخَطَأُ لِما فيهِ ضَرَرٌ يَقَعُ بهِ، واللهُ يَتعالى عَنْ هذا[8].

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ الآية [يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحدُها][9]: قيلَ في بَعْضِ القِصَّةِ: إنَّ رجلاً قَتَلَ آخَرَ عَمْداً. فلمّا عَلِمَ أنهُ يُقْتَلُ بهِ ارْتَدَّ عَنِ الإسلامِ، ولَحِقَ بدارِ الحَرْبِ، فَنَزَلَ الوَعيدُ. وهذا، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٧] كانُوا [يَمْتَنِعُونَ عنِ][10] الزَّكاةِ لِما كانَ عِنْدَهُمْ أنَّ الزكاةَ تُنْقِصُ المالَ، فَجَحَدُوا بها رأساً كقولِهِ تعالى: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٦] فتَرَكُوا الصلاةَ والزَّكاةَ لِما يَلْحَقُهُمْ بذلكَ مِنْ مُؤَنٍ وأشغالٍ تَشْغَلُهُمْ. ذلكَ كُلُّهُ مِمّا[11] تَهْوى أنفُسُهُمْ، فأنكَرُوا رأساً لأنهُمْ إنْ صَلَّوا، وأدَّوا الزكاةَ، لا يكونُ ذلكَ صلاةً وزكاةً إذْ كانُوا يُكَذِّبُونَ بيومِ الدِّينِ.

فَعَلى ذلكَ قاتِلُ المُسْلِمِ عَمْداً، إذا عَلِمَ أنهُ مَقْتُولٌ بهِ تَرَكَ دِينَهُ، فصارَ مِنْ أهلِ النارِ خالداً مُخَلَّداً فيها.

والثاني: [12] يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ لِدِينِهِ، يَقْتُلُهُ عَمْداً غَيْرَ غالِطٍ ولا جاهِلٍ عالماً[13] بذلكَ، وإلى قَتْلِهِ لِدِينِهِ قاصداً[14]، ومَنْ كانَ هذهِ صَفَتُهُ فقدْ كَفَرَ، وَوَجَبَ لهُ هذا الوَعيدُ الذي ذَكَرَهُ في كِتابِهِ الكَريمِ إلّا أنْ يُجَدِّدَ إيمانَهُ[15]، فإنَّ اللهَ تعالى يَقْبَلُ إيمانَهُ وتوبَتَهُ.

والثالِثُ: أنْ يكونَ الوَعيدُ الذي ذَكَرَهُ في كتابِهِ، ذلكَ جَزاؤُهُ، وللهِ الإفضالُ عليهِ بالعَفْوِ والمُجاوَزَةِ؛ إذْ ذلكَ جزاؤُهُ إنْ لم يكُنْ لَهُ حَسَناتٌ كقولِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ثم الدليلُ أنَّ الآيةَ في مَنْ قَتَلَ مُسْلِماً لِدينِهِ قاصِداً لِنَفْسِهِ دونَ دِينِهِ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] وإنما كُتِبَ[16] عَلَيْهِمْ إذا كانَ القَتْلُ قَتْلَ عَمْدٍ، وأبقى لَهُمْ بَعْدَ القَتْلِ اسْمَ الأيمانِ. ثم قالَ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ فأبقى لَهُمُ اسْمَ الأُخُوَّةِ. ثم قالَ: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أطْمَعَهُ في رَحْمَتِهِ ﷻ، وبَعيدٌ أنْ يكونَ لهُ مع هذا خلودٌ في النارِ. فدلَّتِ الآيةُ على بقاءِ اسْمِ الإيمانِ وعلى رَجاءِ الرحمةِ، وهما مَعنيانِ يَنْقُضانِ قولَ المُعْتَزِلَةِ حِينَ خَلَّدُوا [صاحبَ][17] الكبيرةِ في النارِ، ولأنهُ تعالى قالَ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾، ولم يَقُلْ: يَجْزيهِ. ولَهُ أنْ يَتَفَضَّلَ بالعَفْوِ عنهُ على ما وَصَفْنا، وباللهِ التَّوفيقُ والنَّجاةُ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه، في تأويلِ الآيةِ ما يُؤَيِّدُ ما قُلْنا؛ رُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ في قولِهِ [ﷻ]: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ الآيةَ قالَ: (جزاؤُهُ إنْ شاءَ عَذَّبَهُ، وإنْ شاءَ غَفَرَ لَهُ).

ورُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «في مَنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ][18] قَتَلَ تِسْعاً وتِسْعينَ نَفْساً، فسألَ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: خرج عليه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: والثاني. (٨) من م، في الأصل: هذه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل: يمتنعون. في م: يمنعون. (١١) في الأصل وم: عما. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: عالم. (١٤) في الأصل وم: قاصد. (١٥) في الأصل وم: إيمان. (١٦) في الأصل وم: يكتب. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من م.

عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ، فَدُلَّ على راهبٍ، فأتاهُ، فقالَ: إني قتلْتُ تِسْعاً وتسعينَ نَفْساً بِغَيرِ حَقٍّ فَهَلْ لي منْ تَوبَةٍ؟ فقالَ: لا، فَقَتَلَهُ، ثم سأَلَ عنْ أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ، فَدُلَّ على رجلٍ، فأتاهُ، فقالَ: إني قَتَلْتُ مِئَةَ نُفْسٍ بِغَيرِ حَقٍّ، فَهَلْ لي مِنْ تَوبَةٍ؟ قالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ التوبَةِ؟ انْطَلِقْ إلى أرضِ كَذا وكَذا، فإنَّ فيها ناساً يَعْبُدونَ اللهَ، فَاعْبُدْهُ مَعَهُمْ. فَانْطَلَقَ حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاهُ المَوتُ، فاختَصَمَ بِهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذابِ، فاتاهُمْ مَلَكٌ، فَجَعَلُوهُ حَكَماً بَيْنَهُمْ، فقالَ: قِيسُوا ما بَيْنَ الأرْضَينِ، قالَ: أيُّهما كانَ أدْنَى وأقْرَبَ فهو لهُ، فَقَاسُوهُ، فَوَجَدُوهُ أدْنى مِنَ الأرضِ التي أرادَ، فَقَبَضَتْهُ ملائكةُ الرَّحْمَةِ» [البخاري: ٣٤٧٠] ألا تَرَى أنهُ لمّا كانَ كافراً، فَقَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ، فَقُبِلَتْ تَوبَتُهُ. ولو كانَ مُسْلِماً كانَتْ مَظالِمُ المَقْتُولِينَ في عُنُقِهِ باقِيَةً. فهذا الحديثُ يَدُلُّ، واللهُ أعْلَمُ، على أنَّ التأويلَ ما ذَكَرْنا؟ وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ الآية: «قيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، بَعَثَ سَرِيَّةً إلى دارِ الحَرْبِ، [فَسَمِعَ العَدُوُّ][1]: سَرِيَّةً لِرسولِ اللهِ ﷺ تريدُهُمْ، فَهَرَبُوا، وأقامَ رجلٌ لإسْلامِهِ، فلمّا رَأى الخَيلَ خافَ أنْ يكونُوا مِنَ العُدُوِّ مِنْ حَرْبِ رسولِ اللهِ ﷺ، فَألْجَأَ غَنَمَهُ إلى [رُكْنٍ][2]، ثم قامَ دُونَها، فَسَمِعَ التَّكْبِيرَ، فَهَبَطَ إليهِمْ، وهو يقولُ: لا إلهَ إلا اللهُ، فأتاهُ رجلٌ مِنْ هؤلاءِ، فَقَتَلَهُ، واسْتاقَ غَنَمَهُ، وما مَعَهُ، ثم رَجَعُوا إلى رسولِ الله ﷺ: فأخبرُوهُ الخبرَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ أقَتَلْتُمُوهُ إرادةَ ما مَعَهُ؟ وهو يَقولُ: لا إلهَ إلّا اللهُ، فقالُوا: إنهُ قالَ مُتَعَوِّذاً، فقالَ: هلّا شَقَقْتُمْ عنْ قَلْبِهِ» [بنحوه مسلم ٩٦/١٥٨].

«وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً، فَلَقِيَهُمْ رجلٌ، فَسَلَّمَ عليهِمْ، وحَيّاهُمْ بِتَحِيَّةِ الإسْلامِ، فَحَمَلَ عليهِ رجلٌ مِنَ السَّرِيَّةِ، فَقَتَلَهُ، فلامَهُ أصحابُهُ، وقالُوا: أقَتَلْتَ رجلاً حَيّاناً بِتَحِيَّةِ الإسْلامِ؟ فلمّا قَدِمُوا على رسولِ اللهِ ﷺ أخْبَرُوهُ بالذي صَنَعَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ، أقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما قالَ: [لا إلهَ إلّا اللهُ؟][3]، قالَ: إنما[4] قالَها مُتَعَوِّذاً، قالَ: فَهَلّا شَقَقْتَ عنْ قَلْبِهِ؟ فَتَعْلَمَ ذلكَ، فنزلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [بنحوه مسلم ٩٦/١٥٩] فلا نَدْري كيفما كانَتِ القصةُ، ولكنَّ فيهِ الأمْرَ بالتَّثَبُّتِ عندَ الشُّبْهَةِ، والنَّهْيَ عنِ الإقدامِ عِنْدَها. وهكذا الواجبُ على المؤمنِ الوقْفُ عندَ اعْتِراضِ الشُّبْهَةِ في كلِّ فِعْلٍ وكُلِّ خَبَرٍ لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بالتَّثَبُّتِ في الأفعالِ بقولِهِ: ﴿فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وقالَ تعالى في الخبَرِ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]؛ أمَرَ بالتَّثَبُّتِ في الأخبارِ عندَ الشُّبْهَةِ كما أمَرَ في الأفعالِ نَبِيَّهُ ﷺ/ ١١١ ـ أ/ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الآيةِ دليلُ فَسادِ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ نَهاهُمْ أنْ يَقولُوا ﴿لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وهمْ يقولُونَ: صاحبُ الكبيرةِ ليسَ بمؤمنٍ، وهو يقولُ ألْفَ مَرَّةٍ على المِثْلِ: إني مُسْلِمٌ: فإذا نَهَى أنْ يَقُولُوا: ليسَ بِمؤمنٍ؛ أمَرَهُمْ أنْ يَقولُوا: هو مؤمنٌ، فَيُقالُ لَهُمْ: أنْتُمْ أعْلَمُ أمِ اللهُ على ما قيلَ لِهؤلاءِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيلَ: الغنيمةُ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [أي أجْرٌ عظيمٌ وجزاءٌ كثيرٌ]، ويَحْتَمِلُ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يُعْطِيها لكُمْ في غَيرِ هذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ الآية: [الفتح: ٢٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآيةَ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ ضُلّالاً وكُفّاراً ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلامِ والهجرةِ، وهداكُمْ بهِ. وقيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ تُخْفُونَ إيمانَكُمْ في المُشْرِكينَ، وتَكْتُمونَهُ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بإظهارِ الإسلامِ وإبدائِهِ. وقيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ تأمَنُونَ في قومِكُمْ مِنَ المؤمنِينَ بـ: لا إلهَ إلّا اللهُ، ولا تُخيفُونَ مَنْ قالَها ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالهجرةِ.

---

(١) في الأصل وم: فسمعوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بما.

وعن ابنِ عباسٍ [أنه](١) قالَ: (﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ كُفّاراً تقاتَلُونَ على الدنيا وعَرَضِها) وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ عادَ إلى الأوَّلِ، وأمَرَ بالتَّثَبُّتِ عندَ الشُّبْهَةِ. ألا ترَى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «المُؤْمِنُ وَقافٌ وَزّانٌ» وَقّافٌ عندَ الشُّبْهَةِ وَوَزّانٌ، يَزِنُ الأعمالَ، فَيَختارُ أفْضَلَها.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: (كانَ هذا في الوَقْتِ الذي كانَ الجِهادُ تَطَوُّعاً لأنَّهُ لو كانَ فَرْضاً لَكانَ لا مَعْنى لِقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ كَذا وكَذا(٢) وهما غَيْرُ مُسْتَوِيَيْنِ: أحدُهما: فُرِضَ عليهِ، والآخرُ: لا). قيلَ لهُ: هذا الذي ذَكَرْتَ لا يَدُلُّ على أنَّ الجِهادَ ليسَ بِفرضٍ في ذلكَ الوَقْتِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨] وقالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١]، جَمَعَ بَيْنَ مُتَضادَّينِ، ثم قالَ: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]. فَعَلَى ذلكَ [هذا](٣) وهو أولَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ استَثْنَى أهْلَ الضَّرَرِ مُجْمَلاً في هذهِ الآيةِ، وبَيَّنَ أمْرَهُمْ، وما أزالَ عَنْهُمْ مِنْ فَرْضِ الجهادِ في آيةٍ أُخْرى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] وقولُهُ ﷻ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الآية [التوبة: ٩١]. وهذا مِمّا أجمَعَ عليهِ أهْلُ العِلْمِ، وأزالُوا الحَرَجَ عَمَّنْ كانَ في مِثْلِ هؤلاءِ الذينَ وصَفَهُمُ اللهُ تعالى، وعَذَرَهُمْ في تَخَلُّفِهِمْ عنِ الجهادِ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه، [أنهُ](٤) قالَ: لمّا ذَكَرَ اللهُ تعالى فَضيلَةَ المُجاهِدِينَ رَغَّبَهُمْ في الجهادِ بقولِهِ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآيَةَ أتاهُ عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مَكْتومِ الأعْمَى، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ذَكَرَ اللهُ تعالى فَضِيلَةَ المُجاهِدِينَ على القاعِدِينَ، وحالُنا ما تَرى، ونَحْنُ نَشْتَهِي الجِهادَ، فَنَزَلَ ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ فَجَعَلَ لَهُمْ مِنَ الأجْرِ ما لِلْمُجاهِدِينَ لِزَمانَتِهِمْ. وعلى ذلكَ أكْثَرُ أهلِ التفسيرِ. وقالَ الكِسائيُّ: الضَّرَرُ مَصْدرُ الضريرِ، والمَضْرورُ والضَّريرُ الأعمَى؛ يُقالُ: ضُرَّ يُضَرُّ فهو ضَريرٌ ومَضْرورٌ إذا عَمِيَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ القاعدَ والمجاهدَ ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قيلَ: هذا الفَضْلُ لِلْمُجاهِدِ على القاعِدِ الذي قَعَدَ لا لِعُذْرٍ، جُعِلَ لهُ الأجْرُ العَظِيمُ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾: [المجاهِدَ](٥) على القاعِدِ الذي قَعَدَ لِعُذْرٍ [جَعَلَ لهُ](٦) فَضِيلَةً عليهِ بِدَرَجةٍ. وفي الثاني جَعَلَ فَضيلَةً عليهِ بِدَرجاتٍ.

الآية ٩٦ لكنْ قولُهُ: ﴿دَرَجَةً﴾ و﴿دَرَجَٰتٍ﴾ [النساء: ٩٦] عِنْدَنا واحِدٌ. ألا تَرى أنهُ تعالى قالَ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ليسَ، هو [شَيئاً واحداً](٧) واحدٌ، ولكنَّهُ أشياءُ، والذي قَعَدَ لِعُذْرٍ يَسْتَوِي والآخَرُ(٨) الذي خَرَجَ إذا كانَ يَتَمَنّى أنْ يَخْرُجَ إنْ قَدَرَ لأنهُ لو لم يَكُنْ كذلكَ لَكانَ لا معنَى لِلاسْتِثْناءِ؟

وفي الآيةِ دلالَةٌ أنَّ فَرْضَ الجهادِ فَرْضُ كِفايةٍ يَسْقُطُ عنِ الباقِينَ بِقيامِ بَعْضِهِمْ، وإنْ كانَ الخِطابُ يَعُمُّهُمْ في ذلكَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وفَرْضُ الخُروجِ لِطَلَبِ العِلْمِ فَرْضُ كِفايةٍ إذا خَرَجَ بَعْضُهُمْ لِيَطْلُبَهُ يَسْقُطُ عنِ الباقِينَ ذلكَ. فعلى ذلكَ الجهادُ وإنَّ ذلكَ خِلافُ ما عاتَبَ اللهُ عليهِ الثلاثَةَ الذينَ تَخَلَّفُوا(٩) في سورةِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ لأن أُولئِكَ تَخَلَّفُوا عن رسولِ اللهِ ﷺ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [الآية: ١٢٠] فإنما عاتَبَ أُولئكَ لِتَخَلُّفِهِمْ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: من كذا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لأنه جعل (٧) في الأصل وم: شيء واحد. (٨) في الأصل وم: في الآخر. (٩) في الأصل وم: خلفوا.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنه][1] قال: (نَزَلَتِ الآيةُ في قومٍ مِنَ المُنافِقينَ، خرَجُوا معَ المُشركينَ إلى بَدْرٍ، فلَمّا الْتَقَى[2] المُسْلِمُونَ والمشركونَ أبْصَرُوا قِلّةَ المُسْلِمينَ، وهُمْ معَ المُشركينَ على المؤمِنينَ قالوا[3]: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] وأظهرُوا النفاقَ، فقُتِلوا) وعامَّتُهُمْ ضَرَبَتِ الملائكةُ، [قائلَةً لَهُمْ][4]: ﴿فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾).

وقيلَ: إنها نَزَلَتْ في نَفَرٍ أَسْلَمُوا بِمَكّةَ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ، ثم أقامُوا عَنِ الهجْرَةِ، وخَرجُوا معَ المُشرِكينَ إلى القتالِ، فلّما رأوا قِلّةَ المُؤمِنينَ شَكُّوا في النَّبِيِّ ﷺ، فقالُوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ فَقُتِلُوا، فقالَتِ الملائكةُ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟﴾ كذا.

وقيلَ: نَزَلَتْ في قومٍ أَسْلَموا بمكّةَ، ولم يُهاجِرُوا، وكانَتِ الهِجْرَةُ يومَئِذٍ مُفْتَرَضَةً، فَكَفَرُوا بِتَرْكِ الهِجْرَةِ يومَئِذٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال: ٧٢] فلا نَدْرِي كيفَ كانَتِ القصةُ؟ وليسَ لَنا إلى معرفةِ القصةِ حاجةٌ بَعْدَ أنْ نَعْرِفَ[5] ما أصابَهُمْ مِمّاذا أصابَهُمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ هذا يَتَوَجَّهُ وُجوهاً:

أحدُها: مَعَ مَنْ كُنْتُمْ؟ معَ محمدٍ ﷺ وأصحابِهِ أو أعدائِهِمْ؟

والثاني: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي في دينِ مَنْ كُنْتُمْ؟ في دينِ محمدٍ ﷺ أو في دينِ أعدائِهِ.

والثالثُ: ﴿قَالُوا۟﴾ بِمَعْنَى يَقولونَ، أي يقولُ لَهُمْ [الملائكةُ][6] في الآخِرَةِ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟﴾ كُنّا كذا. وبقولِهِمْ[7] ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعتَذَرُوا أنْ كانُوا مُسْتَضْعَفِينَ في الأرضِ. وظاهِرُ هذا أنْ مُنِعْنا مِنَ الخروجِ إلى الهِجْرةِ، وحالَ المُشركونَ بَيْنَنا وبَيْنَ إظهارِ الإسلامِ فقالوا [لَهُمْ][8]: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ يعني: المَدينةُ واسِعةٌ آمِنَةٌ لَكُمْ مِنَ العَدُوِّ، فَتخرجُوا إليها، فَتَتَقَلَّبُوا بينَ أظْهُرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. كأنهُمْ اعتذَرُوا في التَّخَلُّفِ عنْ ذلكَ لِما كانُوا يَتَقَلَّبُونَ بينَ أظهُرِ الكَفَرَةِ، ويتعَيَّشُونَ فيهِمْ، فقالُوا [لَهُمْ][9]: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ [فقطَعُوا عليهِمُ الاعتِذارَ][10].

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ وهو أنهُمْ إنْ مَنَعُوكُمْ عنِ الإسلامِ ظاهِراً، وحالُوا بَيْنَكُمْ وبَيْنَ إظهارِهِ، أَلَسْتُمْ تَقْدِرونَ على دِينِ[11] الإسلامِ سِرّاً [فلا يَعلَمُوا][12] هُمْ بذلكَ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أخبَرَ أنْ لا عُذْرَ لَهُمْ في ذلكَ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ دلالةُ إخبارِ المَوْتَى في القَبْرِ والسؤالِ فيهِ عمّا عَمِلُوا في الدنيا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الآية بَيَّنَ اللهُ تعالى أهْلَ العُذْرِ في ذلكَ حينَ قالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه (كُنْتُ أنا وأمي مِنَ المُسْتَضْعَفينَ).

الآية ٩٩ [وقولُهُ تعالى][13]: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ و: عَسَى مِنَ اللهِ واجبٌ / ١١١ ـ ب/ كأنَّهُ يَقولُ: فأولئكَ يَعفُو اللهُ عَنْهُمْ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ قيلَ: المُراغَمُ: المذْهَبُ والمَلْجَأُ، ﴿وَسَعَةً﴾ في الرِّزقِ؛ أي يَجِدْ في الأرضِ: في غَيرِ الأرضِ التي هُمْ فيها ما ذَكَرَ. وقيلَ: المُراغَمُ: المُتَزَحْزَحُ؛ أي يَجِدْ مُتَزَحْزَحاً عَمّا يَكْرَهُ ومَراحاً. وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنه][14] قالَ: (المُراغَمُ التَّحَوُّلُ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ، والسَّعَةُ: في الرِّزقِ). وقيلَ: مِنَ الضَّلالةِ إلى الهُدَى، ومِنَ العَيلَةِ إلى الغِنَى. وقِيلَ: المُراغَمُ: المَهْرَبُ.

وقيلَ: لَمّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ سَمِعَها رجلٌ، وهو شَيخٌ كَبيرٌ، وقيلَ: إنهُ مَريضٌ، فقالَ: واللهِ ما أنا مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: التقت. (٣) في الأصل وم: فقال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعرف. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقولهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قطعوا عليهم. (١١) في الأصل وم: اديان. (١٢) في الأصل وم: لا يعلمون. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وإني لأجدُ حِيلَةً، واللهِ لا أبيتُ اللَّيلَةَ بِمَكَّةَ، فَخرَجُوا بِهِ يَحمِلُونَهُ حتى أتَوْا التَّنعِيمَ، فَأدرَكَهُ المَوتُ بها، فَصَفَقَ يَمِينَهُ على شِمالِهِ، ثم قالَ: اللهمَّ هذِهِ لكَ وهذِهِ لِرَسولِكَ أبايِعُكَ إلى ما بايَعَ عَلَيكَ رسولُكَ، وماتَ. فَنَزَلَ فيهِ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي وَجَبَ أجرُهُ.

وقيلَ: إنهُ لمّا سَمِعَ الرجلُ أنَّ الملائكةَ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠ ومحمد: ٢٧]، وقد أذنَفَ للموتِ، قالَ[1] أخرِجوني، فاحتَمَلَ بَيتَهُ يُريدُ[2] النَّبِيَّ، فلمّا انتَهى[3] إلى عَقَبَةَ، فتُوُفِّيَ بها، أنزَلَ[4] اللهُ هذِهِ الآيةَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ دَلالةُ أنَّ إسلامَ الولدانِ إذا عَقَلُوا إسلامَهُمْ إسلامٌ، وكُفرَهُمْ كُفرٌ، لأنهُ تعالى ﷻ استَثناهُمْ، وعَذَرَهُمْ في تَركِ الهِجرَةِ. فلو لم يكُنْ إسلامُهُمْ إسلاماً وكُفرُهُمْ كُفراً لكانَ[5] مُقامُهُمْ هنالكَ وخُروجُهُمْ منها سَواءً، ولا مَعنى لِلاستِثناءِ في ذلكَ إذا لم يكُنْ عليهِمْ خُروجٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ الآيةَ؛ أباحَ اللهُ تعالى القَصْرَ مِنَ الصَّلاةِ إذا ضَرَبَ في الأرضِ، إذا خافَ أنْ يَفتِنَهُ الكُفّارُ، ولمْ يُبيِّنِ القَصْرَ في ماذا؟ فَيَحتَمِلُ القَصْرُ قَصْراً مِنَ الرَّكَعاتِ على ما قالَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، ويَحتَمِلُ القَصْرُ قَصْرَ الاقتِداءِ؛ وذلك أيضاً مُباحٌ عندَ الخوفِ. ثم تَأوَّلَ قومٌ أنَّ الصلاةَ كانَتْ رَكعَتَينِ، فَزِيدَتْ في صلاةِ الحَضَرِ، وأُقِرَّتْ في صلاةِ السَّفَرِ. ورُخِّصَتْ[6] في القَصْرِ مِنْ رَكعَتَي السَّفَرِ [إلى رَكعَةٍ واحِدَةٍ][7] في حالِ الخَوفِ، وقالُوا: صلاةُ الخوفِ.

ورُوِيَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][8] قالَ: (فَرَضَ اللهُ تعالى صَلاةَ الحَضَرِ أربعاً، وصلاةَ السَّفَرِ رَكعَتَينِ، وصلاةَ الخَوفِ رَكعَةً على لِسانِ نَبِيِّكُمْ) وكذلكَ رُوِيَ عنْ جابِرِ بْنِ عبد اللهِ رضي الله عنه [أنهُ][9] قالَ: (صَلاةُ الخوفِ رَكعَةٌ واحدةٌ[10]).

وقالَ آخَرُونَ: إنما رَخَّصَ اللهُ تعالى في قَصْرِ الصلاةِ مِنْ أربَعٍ، إذا كانَ الخوفُ، فَرَدَّها إلى رَكعَتَينِ رُخصَةً، وقالُوا: ثم إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أعلَمَنا أنَّ اللهَ تعالى تَصَدَّقَ عَلَينا أنْ نَقصُرَ في حالِ الأمْنِ، فَثَبَتَ بالسُّنَّةِ أنَّ القَصْرَ في غَيرِ الخوفِ جائزٌ كما أجازَهُ اللهُ في حالِ الخَوفِ.

والقَصْرُ في قولِ هؤلاءِ أنْ تُرَدَّ الأربَعُ إلى رَكعَتَينِ، والقَصْرُ في قولِ الأوَّلِينَ أنْ تُرَدَّ الرَّكعَتانِ في حالِ الخَوفِ إلى رَكعَةٍ. وقالَ غَيرُهُمْ: القَصْرُ إنّما كانَ في حالِ الخَوفِ كمَا قالَ اللهُ تعالى.

فأمّا الآنَ فإنَّ المسافِرَ إذا صَلّى رَكعَتَينِ فَلَيسَ ذلكَ بِقَصْرٍ، ولكنهُ إتمامٌ بِقَولِ عُمَرَ رضي الله عنه حينَ قالَ: (صَلاةُ السَّفَرِ رَكعَتانِ تَمامٌ غَيرُ قَصْرٍ على لسانِ نَبِيِّكُمْ).

ورُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ عُمَرَ [رضي الله عنه عَنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ قالَ: وقَدْ أمِنَ الناسُ اليومَ، فقالَ عُمَرُ][11] رضي الله عنه: (عَجِبْتُ مِمّا عَجِبْتَ منهُ، فَسَأَلْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فقالَ: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ تعالى بها عَلَيكُمْ فاقبَلُوا صَدَقَتَهُ») [مسلم ٦٨٦/ ٤]، فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: (صلاةُ السَّفَرِ رَكعَتان تمامٌ غيرُ قَصْرٍ). يُريدُ بِهِ أنَّ النَّبِي ﷺ، لمّا قالَ: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بها عَلَيكُمْ، فاقبَلُوا الفَرْضَ رَكعَتَينِ» [بنحوه مسلم ٦٨٧/ ٥] وارتَفَعَ القَصْرُ، وصارَتِ الرَّكعَتانِ تماماً غَيرَ قَصْرٍ، إذْ كانَتا هما الفَرْضَ بعدَ الصَّدَقةِ التي تَصَدَّقَ بها اللهُ تعالى بها عَلَينا.

فَكُلُّ واحدٍ مِنَ الخَبَرينِ مُوافِقٌ لِصاحِبِه؛ أعني خَبَرَ عُمَرَ رضي الله عنه مَعَ ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ قالَ][12]: (كانَ النَّبِيُّ ﷺ، يُسافِرُ مِنَ المَدينةِ إلى مَكَّةَ، لا يَخافُ إلّا اللهَ، يُصَلّي رَكعَتَينِ) وهذا يُؤيِّدُ حديثَ عُمَرَ رضي الله عنه: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بها عَلَيكُمْ» لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ، كان [لا يُصَلّي][13]، وهو آمِنٌ: رَكعَتَينِ مَعَ شَرْطِ اللهِ الخوفَ، إلّا وقد رَفَعَ اللهُ شَرْطَ الخَوفِ عنِ المُسافِرِ.

---

(١) في الأصل وم: فقال. (٢) في الأصل وم: وبين. (٣) من م، في الأصل: انتنى. (٤) في الأصل وم: فأنزل. (٥) في الأصل وم: فكان. (٦) في الأصل وم: ورخص. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من م. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: من صلى.

وقالَ قومٌ: إنَّ التَّقصيرَ في السَّفرِ والحَضرِ هو الإتمامُ، واحتَجُّوا بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ قالُوا[1]: فوقعَ الحَرَجُ عنِ المُقصِّرِ، ولو كانَ التَّقصيرُ حتماً لكانَ قالَ: وعليكُمْ جُناحٌ ألّا تُقصِرُوا مِنَ الصلاةِ.

لكنَّ الأمرَ ليسَ كما توهَّمُوا، وذلكَ أنّا قد ذكَرْنا أنَّ النَّصَّ في القَصْرِ في حالِ الخوفِ. وأمّا الآمِنُ فلا نَصَّ في ما يوجِبُ القَصْرَ، وإنما جازَ القَصْرُ مِنَ الصلاةِ في حالِ الأُنسِ لِقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «صَدَقَةٌ تَصدَّقَ اللهُ بها عليكُمْ» وتقصيرِهِ في سَفَرِهِ. ومُحالٌ أنْ يَتَصدَّقَ اللهُ تعالى بالرَّكْعَتَينِ[2] علَينا، ويَقولَ قائلٌ: فَرْضٌ قائمٌ، فأينَ مَوضِعُ الصَّدَقةِ؟ إذْ لو كانَ الأمْرُ ما ذَكَرُوا.

وهذا عندَنا مَعْنَى قَولِ عُمَرَ ﷺ (إنَّ صلاةَ السَّفَرِ رَكْعَتانِ تماماً إذا كانَتا فَرْضَ المسافِرِ) معَ ما رُوِيَ أنهُ ﷺ سافَرَ أسفاراً كَثيرَةً، فَلَمْ يَرْوِ عنهُ أحدٌ أنهُ أتمَّ الصلاةَ في شَيءٍ مِنَ الأحوالِ في سَفَرِهِ. وكُلٌّ رَوَى أنهُ ﷺ كانَ يُصَلِّي رَكْعَتَينِ، فلو كانَتِ الفريضةُ أربعاً، والقَصْرُ رُخْصَةً، لَأتَمَّ في وَقْتٍ، وقَصَرَ في وقْتٍ.

ألا ترَى الإفطارَ في السَّفَرِ لمّا كانَ رُخصَةً غيرَ حَتْمٍ أفطَرَ النَّبِيُّ ﷺ في أوقاتٍ، وصامَ في أوقاتٍ؟ فَدَلَّ ذلكَ أنَّ فَرْضَ المسافِرِ رَكْعَتانِ غيرُ قَصْرٍ.

رُوِيَ عنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: (صَلَّيتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ، بِمِنىً رَكْعَتَينِ، ومعَ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ رَكْعَتَينِ، ومعَ عُمَرَ ﷺ رَكْعَتَينِ، ومعَ عثمانَ ﷺ، صَدْراً مِنْ خِلافَتِهِ، ثم صلَّى أربعاً) وما صَلَّى أرْبَعاً يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عَزَمَ على المُقامِ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ الزُّهْرِيِّ [أنهُ][4] قالَ: إنما صَلَّى أربعاً لأنهُ أزْمَعَ أنْ يُقيمَ بعدَ الحَجِّ.

وعَن عِمْرانَ بْنِ الحُصَينِ [أنهُ][5] قالَ: (حَجَجْتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ، فكانَ يُصَلِّي رَكْعَتَينِ رَكْعَتَينِ حتى يَرْجِعَ إلى المدينةِ، وأقامَ بِمَكَّةَ [ثمانيةَ عَشَرَ يوماً][6] لا يُصَلِّي إلّا رَكْعَتَينِ، وقالَ [ﷺ][7] لأهلِ مَكَّةَ: «صَلُّوا أرْبَعاً، فإنّا قومٌ سَفْرٌ») [بنحوه أبو داوود ١٢٢٩] وخالفَ بَعْضُ أهْلِ العِلْمِ هذا الحديثَ لأنَّهُمْ يَقولونَ: إذا أقامَ بِبَلَدٍ في غَيرِ حَرْبٍ أرْبَعاً يُتِمُّ بَعْدَ ذلكَ، وإنْ لم يَكُنْ عَزَمَ على المُقامِ بذلكَ البَلَدِ.

ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ بنِ الخطّابِ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، [أنهُ][8] قالَ: «صلاةُ المُسافِرِ رَكْعَتانِ حتى يَؤُولَ إلى أهلِهِ أو يَموتَ» [مسلم ٦/٦٨٧] ورُوِيَ عنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ الصلاةِ في السَّفَرِ، قالَ: (رَكْعَتانِ رَكْعَتانِ[9]، مَنْ خالَفَ السُّنَّةَ كَفَرَ).

واسْتَدَلَّ قومٌ بقولِهِ تعالى: / ١١٢ ـ أ/ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ أنَّ القَصْرَ رُخْصَةٌ، والفَضْلَ في إتمامِ الصلاةِ؛ إذْ: لا جُناحَ يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ التَّخفيفِ لا في مَوضِعِ الأمْرِ على نَحْوِ الصِّيامِ بقولِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهذا حرفٌ لا يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ الأمْرِ والإيجابِ، واللهُ أعلَمُ.

وسَلَّمَ قومٌ لَهُمْ هذا المَعْنَى في الآيةِ، ورَدُّوا القَصْرَ إلى قَصْدِ[10] الخَوفِ يَلْحَقُ عندَ الضَّرْبِ في الأرضِ، وإذا كانَ [فهو][11] على وَجْهَينِ:

أحدُهُما: في بيانِ المُرادِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] أنهُ لَيسَ على تَمامِ المَعْروفِ مِنَ الصلاةِ لكنْ على القَصْرِ على الحَدِّ الذي يَنْتَهي إليه الخَوفُ مِنْ أمْرِ القِبْلَةِ أو تركِ القيامِ والرُّكوعِ والسُّجودِ إلى الإيماءِ[12] والقُعودِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: الركعتين. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ثماني عشرة أيام (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: قصر.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في م: الإيمان.

والثاني: ما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ الآية: [النساء: ١٠٢] وإنّما يَذْكُرُ ذلكَ في أحوالِهِمْ؛ ألا نفروا مَعَهُ[1]، وهو [حالٌ مِنْ][2] أحوالِ السَّفَرِ. ومَعْلومٌ أنَّ ذلكَ في حَقِّ الاقْتِداءِ: قالَ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ بالاقْتِداءِ بِهِ، وإنْ قَصَرْتُمْ في الاقْتِداءِ عنْ تمامِ حَقِّهِ مِنَ الجماعَةِ، وكذلكَ إصابَةُ الكُلِّ أفْضَلُ، فَبَيَّنَ [أنَّ][3] ارْتِفاعَ ذلكَ لا يَمْنَعُكُمُ الاقْتِداءَ، ولا يُلْزِمُكُمْ نَصْبَ إمامٍ آخَرَ لِتُؤَدُّوا جَميعَ الصلاةِ في الجماعَةِ.

وأيَّدَ الوَجْهَيْنِ قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ [النساء: ١٠١ و١٠٢] وصلاةُ السَّفَرِ على ما عليهِ ليسَ لِلْخوفِ، أيَّدَ ذلكَ ما الْتَبَسَ على عُمَرَ ﷺ حتى سَأَلَ عنْ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بها عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ» [بنحوه مسلم ٦٨٧/ ٥] بِمَعْنى حُكْمٌ حَكَمَ اللهُ في أنْ لم يَفْرِضْ عليكُمْ في السَّفَرِ غَيْرَ رَكْعَتَيْنِ.

وكذا جَميعُ المَذْكورِ عنِ اللهِ مِنَ العَفْوِ فهو في الإسقاطِ. وأيَّدَ ذلكَ ما كانَ يَقُولُ عُمَرُ ﷺ، بَعْدَ ذلكَ: (صلاةُ السَّفَرِ رَكْعَتانِ تَمامٌ غَيْرُ قَصْرٍ على لِسانِ نَبِيِّكُمْ) فَعُلِمَ أنَّ ذلكَ ليسَ في حقِّ الآيةِ، لكنْ في ابْتِداءِ[4] الشَّرْعِ.

وعلى ذلكَ المَرْوِيُّ بأنَّ الصلاةَ كانَتْ في الأصْلِ رَكْعَتَيْنِ، فَزِيدَتْ في الحَضَرِ، وأُقِرَّتْ في السَّفَرِ. وإلى هَذينِ التَّأويلَيْنِ يَتَوجَّهُ قَوْلُ أصْحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، وقد تَحْتَمِلُ الآيةُ قَصْرَ السَّفَرِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ يَرْجِعُ إلى وَجْهَيْنِ:

أحدُهما: إلى تَرْكِ الرَّكْعَتَيْنِ، وإنْ لَمْ يَتِمَّ السَّفَرُ بَعْدَ الخُروجِ لهُ، ولَيْسَ كسائِرِ الأعذارِ نَحْوَ الحَيضِ، إذا لَمْ يَتِمَّ فإنَّهُ[5] يَلْزَمُ إعادةُ المَتْروكِ، والإغماءِ ونَحْوِ ذلكَ، وأمْرُ الصَّومِ في السَّفَرِ بَعْدَ الخُروجِ لهُ، وليسَ كسائِرِ الأعذارِ إذا تُرِكَ فإنَّهُ[6] يُعادُ.

والثاني: [قولُهُ تعالى][7]: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ في السَّفَرِ، وإنْ كانَ ذلكَ اخْتِياراً[8] مِنكُمْ لِتَرْكِ صلاةِ الحَضَرِ، أو لَيسَ عَليكُمْ ما على المُقِيمِ لو لم يَتِمَّ، فإذا رَجَعَ الجُناحُ في ذلكَ بَقِيَ الأمْرُ بالقَصْرِ، وإنْ خَرَجَ يَجِدِ الخَيْرَ، إذْ قد يكونُ الخَيرُ[9] في المَخْرَجِ أمْراً في الحَقيقَةِ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ الآيتان: [الأنفال: ٦٥ و٦٦] وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] أنهُ لمّا صارَ: لا جُناحَ عليهِ راجعاً إلى ما كانَ ثَمَّ مِنَ الأصنامِ أو الفِعْلِ بَقِيَ حَقُّ الأمرِ بالصَّوابِ عنِ الجَميعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ الآية. اخْتَلَفَ أهْلُ العِلْمِ في صَلاةِ الخَوفِ؛ قالَ بَعضُ أهْلِ العِلْمِ: يَجْعَلُ الإمامُ القومَ طائِفَتَيْنِ؛ يُصَلّي بالطائِفَةِ [الأولى][10] رَكْعَةً، وتَقومُ الطائفةُ الأُخرى مَصافَّ العَدُوِّ. فإذا صلّى بِهِمْ رَكْعَةً يَقومونَ[11]، ويُصَلّونَ الرَّكْعَةَ الثانيةَ وِحْداناً. ثم يَنْصَرِفونَ، ويَقومونَ بإزاءِ العَدُوِّ، وتَرْجِعُ الطائفةُ التي كانَتْ مَصافَّ العَدُوِّ. فَيُصَلّي بِهِمُ الإمامُ الرَّكْعَةَ الثانيةَ، ثم يُسَلِّمُ بِهِمُ الإمامُ، فَيَقومونَ، ويَقْضونَ الرَّكْعَةَ الثانيةَ وِحْداناً.

ويَقولونَ: لأنهُ لَيسَ في الآيةِ إتيانُ الطائفةِ الأولى وعَوْدُها إلى الإمامِ. كذلكَ لا يُفْعَلُ. وقالُوا أيضاً: إنَّ القِيامَ بَعْدَ الفراغِ مِنَ الصلاةِ مَصافَّ العَدُوِّ أطْمَعُ وأرْجَى مِنَ القيامِ في غَيرِ الصلاةِ.

وأمّا أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، فإنَّهُمْ ذَهَبُوا إلى ما رُوِيَ مِنَ الأخبارِ: رُوِيَ عنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ قالَ: (قالَ][12] ﷺ: «صَلاةَ الخَوفِ» [البخاري ٩٤٢] فَصَلّى بإحْدى الطائِفَتَيْنِ رَكْعَةً، والطائفةُ الأخرى مَواجِهُو العَدُوِّ. ثم انْصَرَفُوا، وقامُوا في مُقامِ أصحابِهِمْ مُقْبِلِينَ على العَدُوِّ، وجاءَ أولئكَ، فَصَلّى بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ ثم سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ. ثم قَضى هؤلاءِ رَكْعَةً، وهؤلاءِ رَكْعَةً).

---

(١) في الأصل وم: عنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الابتداء. (٥) في الأصل وم: أنه. (٦) في الأصل وم: أنه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: اختيار. (٩) في الأصل وم: خيراً. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فيقومون. (١٢) في الأصل وم: قال.

وعَنْ عبدِ اللهِ [أنهُ قالَ: (قالَ:](١) ﷺ «صلاةُ الخَوفِ» فَقامُوا صَفَّينِ؛ فَقامَ صفٌّ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ، وصَفٌّ مُسْتَقْبِلَ العَدُوِّ، وصلَّى رسولُ اللهِ ﷺ، بالصفِّ الذي يُلُونَهُ رَكْعَةً، ثم قامُوا، فَذَهَبُوا، فَقامُوا مُقامَ أُولئكَ، واسْتَقْبَلَ هؤلاءِ العَدُوَّ. وجاءَ أُولئكَ، فقامُوا مُقامَ هؤلاءِ، فَصَلَّى بِهِمْ رسولُ اللهِ ﷺ، ثم سَلَّمَ، فقامُوا يُصَلُّونَ لأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً، ثم سَلَّمُوا، فَذَهَبُوا، فَقامُوا مَقامَ أولئكَ مُسْتَقْبِلينَ العَدُوَّ، وجاءَ أُولئكَ إلى مَقامِهِمْ، فَصَلُّوا لأنفُسِهِمْ رَكْعَتَينِ، ثم سَلَّمُوا).

وَرَوَى ابنُ عباسٍ وزَيدُ بنُ ثابتٍ وحُذَيفَةُ بْنُ اليَمانِ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ نَحْوَ ذلكَ. فاتَّفَقَ على هذهِ الرِّوايَةِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، هؤلاءِ الجماعةُ مِنَ الصَّحابَةِ، رِضوانُ اللهِ تعالى أجْمَعِينَ: ابنُ مَسْعودٍ وابْنُ عُمَرَ وابْنُ عباسٍ وزيدُ بْنُ ثابتٍ وحُذَيفَةُ ﷺ كُلُّهُمْ يَقولونَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صَلَّى بإحْدَى الطائِفَتينِ رَكْعَةً والطائفةُ الأُخْرَى مُواجِهُو العَدُوِّ، ثم صلَّى بالطائفةِ الأخرَى رَكْعَةً، وإنَّ واحداً مِنْهُمْ لم يَقْضِ بَقِيَّةَ صَلاتِهِ حتى فَرَغَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ صلاتِهِ كُلِّها، وصَلَّى المُؤْتَمُّونَ ما بَقِيَ عليهِمْ مِنْ صلاتِهِمْ. وهذا نَظَرٌ لِما عليهِ المُسْلِمونَ جَميعاً في ما سَبَقَهُمُ الإمامُ، لا يَقْضُونَهُ حتى يَفْرَغَ الإمامُ مِنْ صَلاتِهِ. ثم يَقْضُونَ ما فاتَهُمْ.

والأخبارُ التي جاءَتْ بِخِلافِ ذلكَ تَحْتَمِلُ أنْ تكونَ في الوقتِ الذي كانُوا يَقْضُونَ الفائِتَةَ قَبْلَ فَراغِ الإمامِ مِنْ صَلاتِهِ. ثم نُسِخَ ذلكَ بما تَوارَثَتِ الأُمَّةُ القَضاءَ بَعْدَ الفَراغِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قِيلَ: هُمُ الطائفةُ التي بِإزاءِ العَدُوِّ، يأخُذُونَ السِّلاحَ لِيَكُونُوا أجْوَبَ(٢) لِلحَرْبِ والقِتالِ، وقِيلَ: هُمُ الطائفةُ الذينَ يُصَلُّونَ؛ يأخُذُونَ السِّلاحَ حتى إذا اسْتَقْبَلَهُمُ العَدُوُّ والحَرْبُ يَقْدِرُونَ على ذلكَ، وقِيلَ: إذا وَقَعَ بَيْنَهُمُ الحَرْبُ فَلَهُمْ تأخِيرُ الصَّلاةِ إلى وَقْتِ انْقِطاعِ الحَرْبِ بَيْنَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ: (يُصَلِّي الإمامُ لِكُلِّ طائِفَةٍ سَجْدَةً، والسَّجْدَةُ هِيَ اسْمُ التَّمامِ، وهذا جائزٌ في اللغةِ).

لكنْ عِنْدَنا ما ذَكَرْنا مِنَ الأخبارِ عنِ الصَّحابَةِ؛ عنْ عُمَرَ وابْنِ عباسٍ وغَيرِهِما(٣)، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمَعِينَ، حِينَ قالُوا: (صَلاةُ السَّفَرِ رَكْعَتانِ، وصَلاةُ الفِطْرِ والأضْحَى رَكْعَتانِ، وصَلاةُ الخوفِ رَكْعَةٌ تَمامٌ غَيْرُ قَصْرٍ). وما رَوَينا أنَّ النَّبيَّ ﷺ سَجَدَ بالصَّفِّ الأوَّلِ، ولم يَسْجُدْ مَعَهُ الصَّفُّ الثاني. فَلَمّا رَفَعَ رسولُ اللهِ ﷺ رأسَهُ مِنَ السَّجْدَتينِ سَجَدَهُما أهْلُ الصَّفِّ الثاني. فهذا يَدُلُّ على أنَّ الأمْرَ ما وَصَفْنا.

وإذا كانَ العَدُوُّ مُواجِهَةَ القِبْلَةِ فالإمامُ بالخِيارِ؛ إنْ شاءَ جَعَلَ القومَ صَفَّينِ: صَفّاً أمامَهُ بِإزاءِ العَدُوِّ، مَعَهُ يُصَلِّي بِهِمْ. هكذا رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، [أنهُ فَعَلَ](٤) بالمُسْلِمِينَ.

رَوَى جابِرُ بْنُ عبدِ اللهِ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صَلَّى بِهِمْ، والعَدُوُّ في القِبْلَةِ؛ فَصَلَّى بطائفةٍ رَكْعَةً، وجاءَتِ الأُخرَى، فَصَلَّى بها أُخرَى.

وإنْ شاءَ جَعَلَ القَومَ كُلَّهُمْ خَلْفَهُ صَفَّينِ؛ فَيُصَلِّي بِهِمْ. فإذا انْتَهَوا إلى السُّجُودِ سَجَدَ الصَّفُّ / ١١٢ - ب/ الأوَّلُ، والصَّفُّ الثاني يَحْرُسُ [مِنَ](٥) العَدُوِّ. فإذا(٦) فَرَغَ هؤلاءِ سَجَدَ الآخَرونَ. ثم كذلكَ يَفْعَلُ بِهِمْ في الثانيةِ. وهذا أيضاً رُوِيَ أنهُ يَختارُ(٧) أيَّهما شاءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي لِيَكُونوا مَصافَّ العَدُوِّ، تَحْرُسُونَهُمْ مِنَ العَدُوِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿حِذْرَهُمْ﴾ أي يأخُذونَ ما يَسْتَتِرُونَ(٨) بِهِ [ويَحْتَرِسُونَ مِنَ](٩) العَدُوِّ مِنْ نَحْوِ التُّرْسِ والدِّرْعِ [ونَحْوِهِما، ويَحْتَمِلُ](١٠) قولُهُ ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ما يُقاتَلُ بِهِ مِنَ السِّلاحِ، ويُحارَبُ. ويَحْتَمِلُ ما يُحَصَّنُ بِهِ مِن نَحْوِ الجِبالِ وغَيرِها.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: أجيب. (٣) في الأصل وم: وغيره. (٤) من م، في الأصل: فعلى. (٥) ساقطة في الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فلما. (٧) في الأصل وم: فيختار. (٨) في الأصل وم: يسترون. (٩) في الأصل وم: يحرسون. (١٠) في الأصل وم: نحوه و.

وفيهِ الأمْرُ بِتَعَلُّمِ آدابِ الحَرْبِ والقِتالِ وأخذِ الأُهْبَةِ والإعدادِ ودُونَ أنْ يَكِلُوا الأمْرَ إلى ذلكَ. ولكنْ يكِلُونَ الأمْرَ إلى ما وَعَدَ اللهُ لَهُمْ مِنَ النَّصْرِ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦ والأنفال: ١٠] وبقولِهِ تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقولِهِ تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] وغيرِها مِنَ الآياتِ؛ فيها الدَّلالةُ على تَعَلُّمِ آدابِ الحَرْبِ وأخذِ[1] الأُهْبَةِ فيهِ، حينَ أمَرَهُمْ ﷺ بِمُجاهَدةِ العَدُوِّ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ الآية هذا يُعْلَمُ بالطَّبْعِ أنَّ كلَّ أحدٍ يَطْلُبُ الفُرصةَ على عَدُوِّهِ والغفْلَةَ مِنْهُ، هذا مَعْرُوفٌ في طِباعِ الخَلْقِ. وقولُهُ تعالى: ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ ما يُحارَبُ بِهِ، ويُقاتَلُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ ما [يُحتَرَسُ بِهِ مِن][2] العَدُوِّ، ويُسْتَتَرُ بِهِ مِنْهُ؛ أي يَطْلُبونَ الغَفْلةَ عنِ الأسلحةِ والأمْتِعَةِ. وتَحْتَمِلُ الأمْتِعَةُ [ما يُرادُ][3] بِها غيرُها مِنَ الثيابِ وغيرُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ في الآيةِ دَلالةٌ أنَّ اللهَ تعالى لَمْ يُرِدْ بِقَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] بَذْلَها لِلْقَتْلِ حينَ رَخَّصَ لَهُمْ وَضْعَ الأسْلِحَةِ وأخْذَ الحِذْرِ عندَما بُلُوا بالمَطَرِ أوِ المَرَضِ لأنهُ لو كانَ المُرادُ بِشِراءِ الأنفُسِ مِنهُمْ بَذْلَها لِلْقَتْلِ لَكانَ لا يَرْفَعُ ذلكَ عندَما يَخافُونَ على أنْفُسِهِمْ مِنَ الهلاكِ؛ إذِ المَرَضُ وخَوفُ الهَلاكِ لا يَرْفَعُ ذلكَ في الأحوالِ كُلِّها إذا كانَ الأمْرُ بذلكَ أمْراً بالقَتْلِ والهَلاكِ.

ألا تَرى أنَّ مَنْ وَجَبَ عليهِ الرَّجْمُ لَمْ يُرْفَعْ عنهُ بالمَرَضِ الرَّجْمُ لأنَّ في الرَّجْمِ هَلاكَهُ، فلمّا رَفَعَ [اللهُ تعالى][4] عَنْهُمُ القِتالَ في حالِ المَرَضِ أو في الحالِ الذي يُخافُ الهَلاكُ دلَّ أنهُ لم يُرِدْ بِشِراءِ الأنفُسِ بَذْلَها لِلْقَتْلِ، ولكنْ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، إظهارَ دِينِهِ[5] ونَصْرَ أهْلِ دِينِهِ؟

ألا تَرى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؟ [النساء: ٧٤] جَعَلَ الثوابَ والأجْرَ عندَ الغَلَبَةِ على عَدُوِّهِ مِثْلَ ما جَعَلَ عندَ القَتْلِ. ولو كانَ الأمْرُ بذلكَ أمْراً بالقَتْلِ خاصَّةً لا يَستَوجِبُ الأجْرَ والثوابَ لِغيرِهِ دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

ألا تَرى أنهُ قال: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١] جَعَلَ الوَعْدَ لِلْقاتِلِ ما جَعَلَ لِلْمَقْتُولِ؟ هذا كُلُّهُ يَدُلُّ أنَّ الأمْرَ بذلكَ ليسَ على القَتْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الأمْرَ بأخذِ الحِذْرِ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحدُهُما: فيهِ الأمْرُ بِتَعَلُّمِ آدابِ الحَرْبِ وأسبابِ القِتالِ، وألّا يَكِلُوا الأمْرَ إلى ذلكَ خاصَّةً لكِنْ إلى ما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ النَّصْرِ والظَّفَرِ على عَدُوِّهِم بَعْدَ أخذِ الأُهْبَةِ.

ألا تَرى أنه قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية؟ [الأنفال: ٦٠].

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُمْ بأخذِ ما يَدْفَعُونَ بِهِ سِلاحَ العَدُوِّ عنْ أنْفُسِهِمْ، ويَقُونَ بِهِ مِنَ التُّرْسِ أوِ الدِّرْعِ أوِ البُنْيانِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي أعَدَّ لَهُمْ مِنَ العَذابِ ما يُهانُونَ فيهِ: نُصِروا، أو غُلِبُوا. وأعَدَّ لَكُمْ مِنَ الثوابِ ما تَشْرُفُونَ، وتَعتَزُّونَ بهِ: نُصِرتُم، أو غُلِبْتُم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ﴾ [النساء: ٧٥].

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ قِيلَ: يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي إذا فَرَغْتُمْ مِنها ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ على كُلِّ حالٍ تَسْتَعِينُونَ بِهِ لِلنَّصْرِ على عَدُوِّكُمْ. كقولِهِ تعالى:

(١) في الأصل وم: وأخذوا. (٢) في الأصل وم: يحرس به. (٣) في الأصل وم: يريد. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: دين الله.

﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] أمَرَ بالثباتِ عندَ لِقاءِ العَدُوّ وذِكرِ اللهِ استعانةً منهُ على عَدُوِّهِم. فَعلَى ذلكَ [الأوّلُ][(١)].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ معناهُ: إذا أردْتُمْ أنْ تَقضُوا الصّلاةَ ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ كَثيراً في أي حالٍ كُنتُمْ: في حالِ القِيامِ والرُّكوعِ والسُّجودِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢]. معناهُ، واللهُ أعلمُ، إذا كُنتَ فيهِمْ، فَأرَدْتَ أنْ تُقيمَ لَهُمُ الصّلاةَ[(٢)]، فافعَلْ كذا. فَعلَى ذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، مُقابِلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ الآية: [النساء: ١٠١] وقد ذَكَرْنا أنَّ القَصرَ يَحتَمِلُ وجوهاً؛ يَحتَمِلُ القَصرُ لِلضَّربِ في الأرضِ، وهو القَصرُ في عَدَدِ الرَّكَعاتِ، ويَحتَمِلُ لِلمَرَضِ والخوفِ، فهو قَصرُ الإيماءِ، فنحنُ نأخذُ بذلكَ كُلِّهِ على اختِلافِ الأحوالِ.

فَعلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ يَحتَمِلُ الوُجوهَ التي ذَكَرْنا: أي إذا اطْمَأْنَنْتُمْ: صِرْتُمْ أصِحّاءَ، فَصَلُّوا كذا صلاةَ الأصِحّاءِ. ويَحتَمِلُ: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ أمِنْتُمْ مِنَ الخَوفِ فَصَلُّوا كذا. ويَحتَمِلُ أيضاً ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ إذا رَجَعْتُمْ، وأقَمْتُمْ، صَلُّوا صلاةَ المُقيمينَ أرْبعاً. فهذا، واللهُ أعلمُ، على ما ذكَرْنا مُقابِلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي لَها وَقتٌ كَوَقْتِ الحجِّ، وهو قولُ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ. وقيلَ: ﴿كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ محدوداً فَنَحْنُ نَقولُ بهذا كُلِّهِ: إنها مَفروضةٌ مُوَقَّتَةٌ مَحْدودةٌ على [ما ذُكِرَ][(٣)]، واللهُ أعلَمُ.

والآيةُ تَرُدُّ على مَنْ يَقولُ بأنَّ على الكافِرِ الصلاةَ لأنهُ أخبَرَ [اللهُ تعالى][(٤)] أنها ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ وهمْ يَقولونَ على الكافِرِينَ والمؤمنِينَ. لكنّها كُتِبَتْ على المؤمِنِينَ فِعْلاً وعلى الكافِرِينَ قَبولاً. هذا، واللهُ أعْلَمُ، مَعْنى قولِهِ: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي لم تَزَلْ كما[(٥)] كانتْ ﴿كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ على الأُمَمِ السالِفَةِ لأنَّ هذِهِ الأمّةَ خُصَّتْ بها كقولِ إبراهيمَ ﷺ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقولِ عيسى ﷺ: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٣١]، وقولِ موسى ﷺ: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: ٨٧].

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿كَانَتْ﴾ صارَتْ[(٦)] ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ بَعْدَ أنْ لم تَكُنْ.

وكلُّ ذلكَ مُحْتَمَلٌ. لكِنْ لا نَشْهَدُ على اللهِ أنهُ أرادَ كذا. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١] وقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ نَتأوّلُ فيهِ، ونَعْمَلُ فيهِ بالوجوهِ كلِّها على اختِلافِ الأحوالِ التي ذَكَرْنا، فلا نَقْطَعُ القولَ فيهِ، ولا نَشْهَدُ على اللهِ أنهُ أرادَ كذا. وهكذا السَّبيلُ في جميعِ المُجْتَهَداتِ أنْ نَعْمَلَ، ولا نَشْهَدَ على اللهِ أنه أرادَ ذا وأمَرَ بـ: ذا، وباللهِ التَّوفيقُ.

ذَكَرَ اللهُ تعالى ما بَيَّنَ فَرْضَ الصلاةِ وَوُجوبَها في غَيرِ مَوضِعٍ مِنْ كتابِهِ: منها الآيةُ التي ذَكَرْناها، ومنها قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ولم تَدُلَّ هذهِ الآياتُ على كَيْفِيَّةِ الصلاةِ وعددِها إنما دلَّتْ على وُجوبِها ولُزومِ فَرْضِها. ودَلَّتْ آياتٌ أُخَرُ على عددِها وجُمَلِ أوقاتِها. قالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] فهذِهِ ثلاثةُ أوقاتٍ ذَكَرَ اللهُ تعالى فيهنَّ ثلاثَ صَلَواتٍ.

ورُوِيَ عنْ مُجاهِدٍ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][(٧)] قالَ: سألْتُهُ عنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قالَ: (إذا زالَتِ الشَّمْسُ عَنْ بَطْنِ السماءِ لِصلاةِ الظُّهرِ ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ قالَ: بَدءُ صلاةِ المَغرِبِ).

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: الصلوات. (٣) في م: ما، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: هي. (٦) في الأصل وم: أي صارت. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وعنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ، [أنهُ](١) قالَ: (﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾: دُلُوكُها(٢) زَيغُها بَعْدَ نِصْفِ /١١٣ ـ أ/ النَّهارِ، وهو وَقْتُ الظُّهرِ). وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ](٣) قالَ: (دُلوكُها: زوالُها). وقد رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعودٍ وابْنِ عباسٍ [أنهما قالا](٤): (دُلوكُ الشمسِ: غُروبُها) فأيَّ التَّأويلَينِ كانَ دلوكُ الشَّمْسِ فقد أوجَبَ فيهِ صلاةً وصلاةً عندَ غَسَقِ اللَّيلِ وصلاةً عندَ الفَجرِ، فهذِهِ ثلاثُ(٥) صَلَواتٍ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] فأحَدُ طَرَفَي النَّهارِ يَجِبُ فيهِ صلاةُ الفَجرِ، وقد ذُكِرَ في هذِهِ الآيةِ. والطَّرَفُ الآخَر قَبْلَ غُروبِ الشَّمْسِ، فهذِهِ [خامِسةٌ، وهي صلاةُ](٦) العَصْرِ.

ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ ﷺ (أنَّ الصلواتِ الخَمْسَ مَجْمُوعَةٌ في هذِهِ الآيةِ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قالَ: [في الطَّرَفِ الأوَّلِ](٧) صلاةُ الفَجرِ، والطَّرَفِ الآخَرِ الظُّهرُ والعَصْرُ، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ المَغربُ والعِشاءُ). فأيَّ التَّأويلَينِ كانَ فإنَّ صلاةَ العَصْرِ مَذْكُورَةٌ في هذِهِ الآيةِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ، [أنهُ](٨) قالَ: (جَمَعَتْ [هاتانِ الآيتانِ](٩) مَواقِيتَ الصَّلاةِ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ المَغرِبَ والعِشاءَ ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] الفَجرَ ﴿وَعَشِيًّا﴾ العَصْرَ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨] الظُّهرَ).

وعَنِ ابْنِ عباسٍ أيضاً [أنهُ قالَ: (الصلواتُ المكتوبةُ في قولِهِ تعالى](١٠) ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾) [طه: ١٣٠].

دلَّتْ هذِهِ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ ﷻ فَرَضَ على عبادِهِ في كلِّ يومٍ ولَيلَةٍ خَمْسَ صَلَواتٍ.

[وبَيَّنَ](١١) رسولُ اللهِ ﷺ، كيفَ فُرِضَتِ الصلاةُ؟ ومَتَى فُرِضَتْ؟ ورُوِيَ عن عُبادَةَ بْنِ الصامِتِ [أنهُ](١٢) قالَ: (سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «خَمْسُ صَلَواتٍ كَتَبَها اللهُ تعالى على العبادِ، فَمَنْ أتى بِهِنَّ، لم يُضَيِّعْ(١٣) مِنْ حَقِّهِنَّ شَيئاً استِخفافاً بِحَقِّهِنَّ، فإنَّ له عندَ اللهِ عهداً أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ. ومَنْ لم يأتِ بِهِنَّ فَلَيسَ لهُ عندَ اللهِ عَهْداً؛ إنْ شاءَ عَذَّبَهُ وإنْ شاءَ أدْخَلَهُ الجَنةَ») [أبو داوود ١٤٢٠].

وعنْ أبي سعيدٍ الخُدريِّ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، حِينَ بَعَثَ مُعاذاً إلى اليَمَنِ قالَ: «إنكَ تأتي قوماً أهْلَ الكتابِ، فادْعُهُمْ إلى الشَّهادةِ: أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأني رسولُ اللهِ. فإنْ أطاعُوكَ لذلكَ فأعْلِمْهُمْ أنَّ اللهَ ﷻ فَرَضَ عليهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ في كلِّ يومٍ ولَيلَةٍ» [مسلم ١٩/ ٣١].

وعلى ذلكَ اتِّفاقُ الأمةِ لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ. إلَّا أنَّ قوماً زَعَمُوا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أوجَبَ بَعْدَ ذلكَ الوِتْرَ بقولِهِ: «إنَّ اللهَ زادَكُمْ صلاةً ألَا وهيَ الوِتْرُ» [أحمد ٢/ ١٨١] وليسَ في الكتابِ ذِكْرُ ولا دَليلُ وُجوبِهِ، فَتَرَكْنا الكلامَ فيها. لكنَّ أبا حَنيفةَ ﷺ سَلَكَ مِنها مَسْلَكَ المكتوبَةِ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ في الآيةِ دَلالَةُ فَرضِيةِ الجهادِ، لأنهُ ﷻ أخبَرَ أنهُمْ يَألَمُونَ، ويَتَوَجَّعُونَ بما يُصِيبُهُمْ مِنَ الجراحاتِ كما تَألَمُونَ أنتمْ، وتَتَوَجَّعونَ. فلو(١٤) كانَ فَضْلاً لَكانَ يَرفَعُ عنهُمُ الجهادَ عندَ الألمِ والتَّوَجُّعِ [كما يَرْفَعُ شأنَ](١٥) النَّوافلِ عندَ الألمِ والتَّوجُّعِ. فدلَّ أنهُ فَرْضٌ، لكنَّهُ فَرْضُ كِفايةٍ، وفرضُ الكفايةِ يسقُطُ بقيامِ البَعْضِ عنِ الباقينَ. وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ هذا الوجهَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ فَمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي لا عُذْرَ لَكُمْ في تَألُّمِكُمْ أنْ تَهِنُوا في ابْتِغائِهِمْ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قال دلوكها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) من م، في الأصل عند.
(٦) في الأصل وم: رابعة وهي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: هذه الآية. (١٠) في الأصل وم: قال الصلاة المكتوبة: مدرجة بعد نهاية الآية. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يفيض.
(١٤) أدرج قبلها في الأصل وم العبارة التالية: في الآية دلالة فرضية بها. (١٥) في الأصل وم: ما يرفع ساه.

فإنَّهُمْ يألَمُونَ كما تألَمونَ، ولا يَضْعُفُونَ في ذلكَ، وترجُونَ أنتُمُ العاقبةَ مِنَ الثوابِ الجَزيلِ مالا يَرْجُونَ. ثم هُمْ لا يَضْعُفونَ، فَكَيفَ تَضْعُفونَ أنْتُمْ في ذلكَ؟ وكُلُّ أمْرٍ، لا عاقِبَةَ لهُ، فهوَ عَبَثٌ، ولَيسَ لِأمْرِهِمْ عاقِبَةٌ، وهو عَبَثٌ، ولِأمْرِكُمْ عاقبةٌ مَحْمُودَةٌ، فأنْتُمْ أولَى بذلكَ.

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ على تأكِيدِ[1] فرضِيَّةِ الجهادِ؛ إذ لم يأذَنْ لَهُمْ في التَّخلُّفِ عنْ ذلكَ على ما فيهِ مِنَ التَّألُّمِ وخَوفِ هلاكِ النَّفْسِ في ذلكَ، ثم بَيَّنَ ما يَخِفُّ لِمِثْلِهِ تَحَمُّلُ المَكْروهِ على الطَّبْعِ لهُ، وقد يَختارُ لهُ مُباشرةَ الإتعابِ في النَّفْسِ مِنْ عَواقِبَ تَنْقَطِعُ، وتزولُ، فكيفَ في ما لا انْقِطاعَ لهُ مِنْ رجاءِ الثوابِ بذلكَ التألُّمِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بِتَألُّمِكُمْ، أي عنْ عِلْمٍ بالتَّألُّمِ أمَرَكُمْ بذلكَ لا عَنْ جَهْلٍ، وقد ذكرْنا في غيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَتَوجَّهُ وجوهاً: [يَحْتَمِلُ][2] بِحَقِّ اللهِ عليكُمْ أنْزَلَ إليكَ الكتابَ. ويَحتمِلُ بَحَقِّ بَعْضٍ على بَعْضٍ أنْزَلَ إليكَ الكتابَ ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالمِحْنَةِ يَمْتَحِنُهُمْ بها؛ إذْ في عَقْلِ كُلِّ أحَدٍ ذلكَ، وإهمالُ كلِّ ذي لُبٍّ [أنْ يَأمُرَ][3]، ولا يُنْهى، خُروجٌ عنِ الحِكْمَةِ، وأنْ يَقولوا[4] بالحَقِّ وبالعواقِبِ لِتكونَ لهمُ العاقِبَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحَقِّ الذي للهِ أو لِبَعْضٍ [على][5] بَعْضٍ أو لِأمْرٍ كانَ[6]، وهو البَعْثُ، لِيَعْدِلَ، ويَتَزَوَّدُوا بالذي يُحْمَدُ عليهِ فاعِلُهُ؛ إذِ الحَقُّ صفةٌ لِكُلِّ ما يُحْمَدُ فاعِلُهُ، والباطِلُ لِما يُذَمُّ. وقد يَحْتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعَدْلِ والصِّدْقِ على الأمْرِ مِنَ التَّغْييرِ والتَّبديلِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ قِيلَ: إنَّ في الآيةِ جَوازَ الاجْتِهادِ لأنهُ قالَ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾. [دلَّ قولُهُ][7]: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بالكتابِ أنهُ[8] يحكُمُ بما يُريدُ بهِ اللهُ بالتَّدَبُّرِ فيهِ والتأمُّلِ. لكنَّ اجْتِهادَهُ كالنَّصِّ، لأنهُ لا يُخطِئُهُ[9]، لأنهُ أخْبَرَ أنهُ يُريدُ ذلكَ، فلا يَحتمِلُ أنْ يُريدَ غيرَ الصَّوابِ. وأمّا غَيرُهُ مِنَ المُجتهِدينَ فَيَجوزُ أنْ يكونَ صَواباً، ويَجوزُ أنْ يكونَ خطأً، لأنهُ لا يُنْكَرُ أنْ يكونَ الشيطانُ هو الذي أراهُ ذلكَ، فيكونُ خطأً، فلا يَجوزُ أنْ يُشْهَدَ عليهِ بالصَّوابِ. ما لم يَظْهَرْ. وأمّا اجْتِهادُهُ ﷺ، فهو كُلُّهُ يكونُ صَواباً لِأنَّ اللهَ تعالى هو الذي أراهُ ذلكَ، فَيَشْهَدُ أنهُ صَوابٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ قالَ أكْثَرُ أهلِ التفسيرِ: إنهُ هَمَّ أنْ يُقَوِّيَ سارقاً يُقالُ لهُ: طُعْمَةُ [بْنُ أُبَيرِقٍ][10] ويُصَدِّقَهُ في قولِهِ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾. فلو لم يَقولُوا ذلكَ كانَ أوْفَقَ وأحْسَنَ؛ فإنْ كانَ ما قالُوا فذلكَ لِما تَظْهَرُ منهُ الخيانةُ عندَهُ؛ إذْ ذُكِرَ في القصةِ أنهُ وجَدَ السَّرِقَةَ في دارِ غَيرِهِ. فَلَئِنْ كانَ ذلكَ فإنما كانَ لِما ذَكَرْنا.

وأمّا النَّهْيُ عنْ أنْ يكونَ ﴿لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ نَهْيٌ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ أنهُ لا يكونُ لِما عَصَمَهُ اللهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤ و..] [وقولِهِ][11] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] وإنْ كانَ عَصَمَهُ مِنْ أنْ يكونَ منهُمْ. والعِصْمَةُ إنما تَنْفَعُ إذا كانَ ثَمَّةَ أمْرٌ ونَهْيٌ. فأمّا إذا لم يكُنْ ثَمَّةَ أمْرٌ ولا نَهْيٌ، فلا مَعْنى لِلْعِصْمَةِ [وباللهِ][12] التوفيقُ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. قولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ ليسَ هو قولَ الناسِ: نَسْتَغْفِرُ اللهَ. ولكنْ كأنَّهُ قالَ: كُونُوا على الحالِ التي تكونُ أعمالُكُمْ مُكفِّرَةً لِلْذنوبِ. ألا تَرَى إلى قَولِ هودٍ لِقَومِهِ:

---

(١) في الأصل وم: تأكد. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لا يؤمر. (٤) في الأصل وم: يقال. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: كانت. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: ولكن تقول له. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: دل. (٩) في الأصل وم: يخصه.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ الآية [هود: ٣]، وقول[١] نوح ﷺ لقومه ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؟ الآية [نوح: ١٠] [فلَو أرادُوا][٢] أنْ يَقولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللهَ لكانَ لا يَنفعُهُمْ ذلكَ. فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وحقيقةُ الِاسْتِغْفارِ [في وجهَين][٣]:

أحدُهُما: الِانْتِهاءُ عمّا أوجبَ العُقوبةَ لِقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وعلى ذلكَ مَعْنى قولِ مَنْ ذَكَرَ.

والثاني: طَلَبُ السَّتْرِ بالعَفْوِ والتَّجاوُزِ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية: هو ما ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تَنفَعُ إنْ لم يَكُنْ أمْرٌ ونَهْيٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ لا أحَدَ يقصِدُ خِيانَةَ نَفْسِهِ.

ولكنْ لَمّا رَجَعَ في العاقبةِ حاصلُ الخِداعِ إليهِمْ صارُوا كأنَّهُمْ خَدعُوا أنْفُسَهُمْ. فعلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَين: يَحْتَمِلُ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يَحْتَشِمُونَ منَ الناسِ أنْ يَعْلَمُوا بِصَنيعِهِمْ، ولا يَحْتَشِمونَ منَ اللهِ على عِلْمٍ مِنهُمْ أنهُ لا يَخْفَى /١١٣ ـ ب/ عليهِ شيءٌ. ويَحْتَمِلُ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يَسْتَتِرونَ بِسِرِّهِمْ مِنَ الناسِ. وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: ولا يَسْتَتِرُونَ مِنَ اللهِ. ولكنَّ اللهَ يُطْلِعُ الناسَ على ما يُسِرُّونَ، وهو مَعَهُمْ، أي لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ على وجهَين:

أحدُهُما: على نَفْيِ القُدْرةِ وإثباتِها أنَّ لَهُمْ ذلكَ في الإخفاءِ مِنَ الناسِ وليسَ لَهُمْ في الإخفاءِ مِنَ اللهِ.

والثاني: على قِلَّةِ المُبالاةِ بِعِلْمِ اطِّلاعِ[٤] اللهِ عليهِمْ، وتَرْكِهِمْ مراقبةَ اللهِ في الأمورِ، واجْتِهادِهِمْ في ذلكَ عنِ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][٥] قال: (﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ﴾ يقولُ: مِنَ العَمَلِ والفِرْيَةِ مِنَ اليَهُودِيِّ بالسَّرِقَةِ). وقيلَ: ﴿يُبَيِّتُونَ﴾ أي يُؤَلِّفونَ القولَ في ما بَيْنَهُمْ، فَيَقولُونَ: نأتي بِهِ النَّبِيَّ ﷺ [فنقولُ لهُ][٦] كذا وكذا لِيَدْفَعُوا[٧] عنْ صاحِبِهِمُ الخِيانَةَ والتُّهَمَةَ، وهو طُعْمَةُ [بْنُ أُبيرِقٍ][٨] على ما قِيلَ في القصةِ: إنه سَرَقَ دِرْعَ رجلٍ في دارِ يَهودِيٍّ، وقِيلَ: إنهُ خَبَّأَها في دارِ يَهودِيٍّ، فَلَمّا طُلِبَتْ منهُ حَلَفَ باللهِ أنهُ ما سَرَقَ. وقِيلَ: التَّبْيِيتُ هو التَّقْديرُ بالليلِ، [وقد ذَكَرْناهُ][٩] في قولِهِ تعالى: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ الآية [النساء: ٨١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ هو على الوعيدِ: أي عنْ عِلْمٍ مِنْهُ يَفْعَلُونَ هذا لا عنْ غَفْلةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] لكنَّهُ يُؤَخِّرُهُمْ إلى يَومٍ على عِلْمٍ مِنْهُ ذلكَ؛ وعلى الإعلامِ أنَّ اللهَ لم يَزَلْ عالِماً بما يكونُ، وعلى ذلكَ امْتَحَنَهُمْ، وباللهِ التَّوفيقُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ يا هؤلاءِ ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قِيلَ: يَعْني أصحابَ طُعْمَةَ [بْنِ أُبيرِقٍ، أي لو][١٠] خاصَمْتُمْ عنهُمْ يا هؤلاءِ في الدُّنيا ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا أحَدَ يُخاصِمُ عنهُ يَومَ القيامةِ ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ يُخاصِمُ عنهُ يومَ [القيامَةِ][١١]. وقِيلَ: كَفيلاً أي في الدَّفْعِ عنهُمْ كقولِهِ

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: فلم يريدوا. (٣) في الأصل وم: وجهان. (٤) في الأصل وم: باطلاع. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيقوله. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: إليه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: وم: قد ذكرنا. (١٠) في الأصل: أي، في م، أي لو. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥ و...] أي في دَفْعِها وإرادةِ أنْ يَدْحَضُوا بالباطِلِ. وقيلَ: رَقيباً. وقِيلَ: كفيلاً. والوكيلُ هو القائمُ بِحِفْظِ الأمورِ والقاضي لِلْحوائجِ والمُزيحُ لِلْعِلَلِ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ هما سَواءٌ؛ أي مَنْ عَمِلَ سُوءاً فقد ظَلَمَ نَفْسَهُ، ومَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ فقدْ عَمِلَ سُوءاً. ويَحْتَمِلُ ما قالَ ابنُ عباسٍ: (﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا﴾ إلى الناسِ ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ).

ثم رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه [أنهُ][(١)] قالَ: (أرْجى آيةٍ[(٢)] في القرآنِ هذِهِ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية). ورُوِيَ عنهُ أيضاً [أنهُ قالَ][(٣)]: (أربعُ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ تعالى أحَبُّ إليَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ وسُودِها: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ إلى آخِرِهِ [النساء: ٤٠] وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٦٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية) [النساء: ١١٠].

وعنْ عَلْقَمَةَ والأسودِ [أنهما][(٤)] قالا: (قالَ عبدُ اللهِ: إنَّ في كتابِ اللهِ لآيَتينَ، ما أصابَ عبدٌ ذنباً، فقرأهما، ثم استَغْفَرَ اللهَ إلّا غَفَرَ لهُ: [الأولى][(٥)] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [آل عمران: ١٣٥] [والثانيةُ:][(٦)] ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ [النساء: ١١٠]. وقولُهُ تعالى[(٧)]: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: ١١٢] يَحْتَمِلُ كلُّ واحدٍ مِنهُما أنهُ الآخَرُ، كُرِّرَ على التأكيدِ في ما جَرى لهُ الذِّكْرُ. ويَحْتَمِلُ التَّفْريقَ أنْ يكونَ سُوءاً إلى الناسِ وخَطيئةً إليهِمْ، أو يَظْلِمَ نَفْسَهُ بما يأثَمُ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لأنَّ حاصِلَهُ يَرْجِعُ إليهِ، فكأنهُ كَسَبَ على نفسِهِ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ واحداً؛ الخَطيئةُ هي الإثْمُ، والإثْمُ هوَ الخَطيئةُ. وقيلَ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ سَرِقَةَ الدِّرْعِ ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ يقولُ بِيَمينِهِ الكاذِبَةِ: إنهُ[(٨)] لم يَسْرِقْها، وإنما سَرَقَها فلانٌ اليَهوديُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ قيلَ: لمّا طُلِبَتِ الدِّرْعُ في دارِهِ رَماها في دارِ اليَهوديِّ، ثم حَلَفَ باطلاً وزُوراً أنهُ لم يَسْرِقْها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ يقولُ كَذِباً على آخَرَ بما لم يَفْعَلْ، والبُهتانُ هو أنْ يَبْهَتَ الرجلُ كَذِباً بما لم يَفْعَلْ ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بِيَمينِهِ الكاذِبَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ قالَ أكثَرُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ في شأنِ طُعْمَةَ [بْنِ أُبَيْرِقٍ][(٩)] الذي سَرَقَ دِرْعَ جارٍ لهُ بالذي سَبَقَ ذِكْرُهُ، وقالُوا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت﴾[(١٠)] قَوْمُ طُعْمَةَ [بْنِ أُبَيْرِقٍ][(١١)] أنْ يُضِلُّوكَ أي يُخَطِّئُوكَ. وليسَ هو الإضلالَ في الدينِ، ولكنْ إنْ كانَ ما قالُوا فهو تَخْطِئَةُ الحُكْمِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ أنْ[(١٢)] يُجَهِّلُوكَ في حُكْمِ السَّرِقَةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ جاهلاً في سَرِقَتِهِ لِما لم [يَدْرِ أنهُ سَرَقَ، وكادَ][(١٣)] يَصْدُقُهُ في الحُكْمِ أنهُ لم يَسْرِقْ؛ لأنهُ إنّما كانَ يَعْلَمُ الأشياءَ بالوَحْيِ، ثم أُعْلِمَ أنهُ قد سَرَقَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في الكفارِ كُلِّهِمْ، لأنَّ الكَفَرَةَ والمُنافِقينَ لم يَزالُوا يُريدونَ[(١٤)] أنْ يُضِلُّوا رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الهُدى، ويَصْرِفُوهُ[(١٥)] عنهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الآية. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: أيضاً. (٨) من م، في الأصل: إن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لقد هم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أي. (١٣) في الأصل: يدرك أنه وكان، في م: يدر أنه سرق وكان. (١٤) أدرج قبلها في الأصل وم: كانوا. (١٥) في الأصل وم: ويصرفوا.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [وجهَين]:

أحدُهما: حِيْنَ عَصَمَكَ][1] بالنُّبوَّةِ. وإلّا لأَضلُّوكَ عنْ سَبيلِ اللهِ؛ [وهو][2] الهُدَى كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

والثاني: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ حِيْنَ أعْلَمَكَ بالحُكْمِ في ذلكَ، ونَصَرَكَ بِهِ بالوَحْيِ، وصَرَفَكَ عَنْ تَصديقِ ذلكَ الخائنِ أو تثبيتِ[3] ما قالُوا، وإلّا لَهَمُّوا أنْ يُخطِّئُوكَ[4]، ويُجهِّلُوكَ فيهِ.

ثم في الآيةِ، نَقضُ قَولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ مَنَّ على رسولِهِ ﷺ أنهُ عَصَمَهُ، وهُمْ يَقُولُونَ: كان عليهِ أنْ يَعْصِمَهُ، وهو كانَ يَسْتَحِقُّ ذلكَ قِبَلَهُ. فلو كانَ عليهِ ذلكَ لم يكُنْ لِلامْتِنانِ عليهِ بذلكَ مَعْنىً؛ إذْ فَعَلَ ما كانَ عليهِ ذلكَ، لم يَفْعَلْ أنهُ مُفَضِّلٌ. دلَّ أنهُ ليسَ كما قالُوا، وباللهِ التوفيقُ والعِصْمَةُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ يُخرَّجُ على وجْهَينِ:

أحدُهما: يَكُفُّهُمْ عمَّا هَمُّوا.

والثاني: يَعْصِمُهُ عمّا رامُوا فيهِ: أنْ يَظْفَرُوا منهُ بعد أنْ أظْهَرُوا ما طَلَبُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ يُجهِّلُوكَ الحُكْمَ بالتَّلْبِيسِ وأنواعِ التَّمْوِيهِ؛ يَرْجِعُ ذلكَ إلى [أمْرَينِ؛

أحدُهما: الزَّلَّة][6].

والثاني: أنْ يكونَ الإضلالُ عنِ السَّبِيلِ والحِيَلُ في الصَّرْفِ عنِ الحَقِّ، وهذا هو الذي لم يَزَلْ أعداءُ اللهِ يَقْصِدُونَ برسولِ اللهِ وبِجَميعِ أهْلِ الخَيرِ.

نَكَفُّهُمْ بِوَجْهَينِ: يتوجَّهُ كلُّ وجْهٍ إلى وجْهَينِ:

أحدُهما: ظواهِرُ الأسبابِ مِنَ الوَحْيِ.

[والثاني: الآياتُ][7]، وكذا في كَفِّهِمْ مَرَّةً بالقِتالِ والأسبابِ الظاهِرَةِ، ومَرَّةً باللُّطْفِ والعِصْمَةِ. وسمّى ذلِكَ فَضلاً ورَحْمَةً لِيُعْرَفَ أنَّ ذلكَ فَضْلُهُ، لَيسَ[8] حقًّا قِبَلَهُ، إذْ لَيسَ بَذْلُ الحقوقِ يُعَدُّ في الفضائِلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لا [أحدَ يَقْصِدُ][9] إضلالَ نَفْسِهِ، لكنْ لِما رَجَعَ حاصِلُ ذلكَ الإضلالِ إلى أنْفُسِهِمْ، كأنَّهُمْ[10] ضَلُّوا أنفُسَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ أمَّنَ رسولَهُ مِنْ ضَرَرِ أُولئكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قد ذكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ والأحكامِ كُلِّها وغَيرِ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] فهو كذلكَ كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ في ما عَلَّمَكَ مِنَ الأحكامِ، وعَصَمَكَ بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ، وصَرَفَ عنكَ ضَرَرَ الأعداءِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ اختُلِفَ في النَّجْوَى؛ قيلَ: النَّجْوَى القَومُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ

---

(١) في الأصل وم: حيث عصمكم. (٢) أدرجت في الأصل وم بعد: الهدى. (٣) في الأصل: ثلث، في م: ثبت. (٤) من م، في الأصل: يحفظوك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: نازله. (٧) في الأصل وم: والآيات. (٨) في الأصل وم: لا. (٩) في الأصل وم: يقصد قصد أحداً. (١٠) في الأصل وم: كانوا.

هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي رجالٌ. وقيلَ: النَّجْوى: هو الإسرارُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ / ١١٤ ـ أ/ الآية [المجادلة: ٧]. ثم استثنى ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ الآية. فإذا كانَ التَّأويلُ مِنَ النَّجْوى هو فِعْلُ النَّجْوى خاصَّةً فكأنَّهُ قالَ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ بالصَّدَقَةِ والأمرِ بالمَعْروفِ والإصلاحِ بينَ الناسِ. وإنْ كانَ هذا أقْرَبَ إلى[1] مَعْنَى الثَّناءِ الكثيرِ في ما يَرْجِعُ إلى القومِ. فكأنَّهُ قالَ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ﴾ مِنْهُمْ إلّا مَنْ يُرْجِعُ أمرَهُ إلى ما ذَكَرَ، فَيَصيرُ إلى خيرٍ.

وقد يَحْتَمِلُ أنَّ قوماً يَرْجِعُ نَجواهُمْ إلى خيرٍ، وهُمْ أقلُّهُمْ. ومِنْ [فِعْلِ النَّجْوى][2] على أنَّ الفِعْلَ ربَّما يكونُ فِعْلَ خيرٍ، وإنْ كانُوا أهْلَ النِّفاقِ والكُفْرِ. لكنْ بَيَّنَ أنهُ غيرُ مَقْبولٍ إلّا أنْ يَبْتَغِيَ مَرضاةَ اللهِ. وذلكَ لا يكونُ إلّا أنْ يُؤْمِنوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيلَ: [لما تَبَيَّنَتْ][3] خِيانَتُهُ لِرسولِ اللهِ ﷺ اسْتَحْيى أنْ يُقيمَ بالمدينةِ، فارْتَدَّ، ولَحِقَ بمكَّةَ كافراً، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾؛ يقولُ: يُخالِفِ الرسولَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ][4]: (﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ مِنْ[5] بَعْدِ ما كانَ كافراً تَبَيَّنَ الإسلامَ) وقالَ: (لمّا بانَ أمرُ طُعْمَةَ [بْنِ أُبَيرِقٍ][6]، وعُلِمَ أنهُ سَرَقَ الدِّرْعَ، وأنْزَلَ[7] اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، قيلَ لهُ: يا طُعْمَةُ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ [قاطِعٌ يَدَكَ، فَخَرَجَ][8] هارباً إلى مكّةَ).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْني غيرَ دِينِ المؤمنينَ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه: (ويَسْلُكْ غَيْرَ سَبيلِ المُؤمنينَ).

وقولُهُ تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي نَتْرُكُهُ وما تَوَلَّى مِنْ وِلايةِ الشيطانِ. وقيلَ: نَدَعُهُ وما اخْتارَ غيرَ دِينِ المؤمنينَ ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي نُدْخِلْهُ جَهَنَّمَ في الآخِرَةِ. وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي نُوَلِّهِ في الآخِرَةِ ما تَوَلّى في الدنيا ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ يقولُ: بِئْسَ المصيرُ [الذي][9] صارَ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ إنه تولّى الشيطانَ، فَجَعَلَهُ اللهُ وَلِيّاً [لهُ][10] كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا﴾ [النساء: ١١٩] وغيرَ ذلكَ. ويكونُ: ﴿يَتَّخِذِ﴾ لهُ في ما اخْتارَهُ، ويكونُ: [﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾][11] جزاءَ تَوَلِّيهِ، ويكونُ [لهُ مِنَ الخَلْقِ][12] جوراً باطلاً مُهْلِكاً لهُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الآية. في الآيةِ دليلٌ ألّا يَصيرَ [الإنسانُ][13] بكُلِّ ذنبٍ مُشْرِكاً على ما قالَهُ الخوارجُ لِمَا قُسِّمَ الكتابُ. ولا يُحْتَمَلُ إضمارُ التَّوبةِ لأنَّ الشِّرْكَ قد يُغْفَرُ بالتوبةِ، فَبَطَلَ قولُهُمْ. وفيهِ بُطلانُ قولِ مَنْ يُبْطِلُ المَغْفِرَةَ في الكبائرِ بِلا تَوْبَةٍ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لِنَفْسِهِ مَشيئَةَ المَغْفِرَةِ، وذلكَ في ما في الحِكْمَةِ وَقْعُ سَفَهٍ، فَلَزِمَ الذي ذَكَرْنا الفريقَيْنِ جميعاً.

ثم الذي يَنْقُضُ قَوْلَ الخوارجِ الذينَ[14] يُكَفِّرونَ بارْتِكابِ الصَّغائرِ ما بُلِيَ بها الأنبياءُ والأولياءُ، وما يُكَفِّرِ صاحِبَها[15] تَسْقُطُ النُّبُوَّةُ والوَلايَةُ. ومن كانَ وَصْفُ إيمانِهِ بالأنبياءِ، عليهم السلام هذا فهو[16] كافرٌ بِهِمْ.

وعلى المعتزلةِ في ذلِكَ أنَّ اللهَ وصفَ الأنبياءَ عليهم السلام، بالدعاءِ لهُ ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] و﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وبُكائِهِمْ على ما كانَ منهُمْ مِنَ الزَّلاتِ وتَضَرُّعِهِمْ إليهِ حتى أُجِيبُوا في دعائِهِمْ. [ولو لم][17] تكُنْ ذُنوبُهُمْ بِحَيْثُ تَحْتَمِلُ التَّعذيبَ عليها في الحِكْمَةِ لَكانَ في ذلكَ تَعَدِّي الحَدِّ والوَصْفُ بالجَورِ والتَّعَوُّذُ بِهِ، وذلكَ أعظمُ مِنَ الزَّلاتِ. فهذا يَنْقُضُ قولَ المعتزلةِ في إثباتِ المَغْفِرَةِ في الصَّغائرِ وإخراجِ فِعْلِ التعذيبِ عنِ الحِكْمَةِ، وقولَ الخوارجِ بإزالةِ اسْمِ الإيمانِ بها. ولا عِصْمَةَ إلّا باللهِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: الفعل. (٣) في الأصل وم: تبين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج في الأصل وم قبلها: يقول. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: قاطعك فيخرج. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: نجزه. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: الذي. (١٥) في الأصل وم: صاحبه. (١٦) أدرج في الأصل وم بعدها: على. (١٧) في الأصل وم: ولم.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحدُهُما](١) الشِّرْكُ في الاعتِقادِ، وهو أنْ يُشْرَكَ غيرُهُ في رُبوبِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ.

والثاني: أنْ يُشْرَكَ غيرُهُ في عِبادَتِهِ، وذلكَ كلُّهُ شِرْكٌ باللهِ تعالى؛ إذْ لا فَرْقَ بَيْنَ أنْ يُشْرَكَ غيرُهُ في رُبُوبِيَّتِهِ وأُلُوهِيَّتِهِ وبَيْنَ أنْ يُشْرَكَ غيرُهُ في عِبادَتِهِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷻ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، ثم قالَ اللهُ تعالى في آخِرِهِ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] جَعَلَ الإشراكَ في الألُوهِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ والإشراكَ في العِبادَةِ واحِداً، كُلُّهُ شِرْكٌ باللهِ؟ وباللهِ التوفيقُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ لا يَحْتَمِلُ [ما](٢) قالتِ المُعْتَزِلَةُ، إنهُ وَعَدَ المَغْفِرَةَ في ما يَشاءُ، ثم بَيَّنَ ذلكَ في الصغائرِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وقد ثَبَتَ الوَعيدُ في الكبائرِ. ونَفْيُ(٣) الوَعْدِ بِحَقِّهِ لم يَزَلْ بالذي ذَكَرَ لِاحْتِمالِهِ.

وقيلَ: قولُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ كِنايَةٌ عنِ الأنفُسِ المَغْفُوراتِ عنِ الآثامِ والأجرامِ التي تُغْفَرُ، لم يُجِزْ صَرْفَ التَّخصيصِ إلى الآثامِ بالآيَةِ المُكَنّي بها عنِ الأنفُسِ لأنهُ لم يَقُلْ: ما شاءَ، ولكن قالَ ﷻ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فذلكَ كِنايَةٌ عنِ الأنفُسِ. وفي آياتِ الوَعيدِ تَخصيصٌ(٤) في الذينَ جاءَ بِهِم. وفي ما جاءَ على ما قيلَ لا صَرْفَ في ذلكَ، فهو أولَى. وبَعْدُ فإنهُ قالَ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ والصَّغائرُ عندَهُمْ مَغفورَةٌ بالحِكْمَةِ لا بالوَعْدِ، والآيَةُ في التَّعْريفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ عنِ الحَسَنِ [أنهُ](٥) قالَ: (الإناثُ الأمواتُ التي لا روحَ [فيها](٦)). وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄ وقيلَ: قولُهُ ﴿إِنَٰثًا﴾ هُمُ الملائكةُ لأنهُمْ يَقولونَ: الملائكةُ بَناتُ اللهِ في السماءِ، فَعَبَدُوها، فإنهُمْ إنَّما عَبَدُوا الإناثَ عندَهُمْ، وفي زَعمِهِمْ.

وقيلَ: ﴿إِنَٰثًا﴾ مِنَ الوَثَنِ. وكذلكَ رُوِيَ في حَرفِ عائشةَ ﵂ أنها كانتْ تَقرأُ: إن تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلّا أوثاناً [وهي الأصنامُ سُمِّيَتْ](٧) إناثاً لَمّا صَوَّروها، بِصُوَرِ الإناثِ، وحَلَّوها، وقَلَّدوها، وزَيَّنوها [بِزِيِّهِنَّ، ثم عَبَدُوها](٨) على ما كانَ في الأصلِ، فَسُمِّيَتْ(٩) بذلكَ.

وقيلَ: سُمِّيَتْ(١٠) إناثاً لأنهُمْ كانُوا يُسَمُّونَ ما يَعْبُدُونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ: اللّاتَ والعُزّى ومَناةَ. فأسماؤُهُنَّ أسماءُ إناثٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أخْبَرَ اللهُ ﷻ، وإنْ كانوا يَفِرُّونَ مِنَ الشيطانِ، ولا(١١) يأْلَفُونَهُ، فإنهُمْ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ يَعْبُدُونَ الشَّيطانَ؛ لأنَّ الشَّيطانَ هو الذي يدعُوهُمْ إلى عِبادَتِهِمُ الأصنامَ، فَكَأنَّهُمْ عَبَدُوهُ. ألا تَرَى أنَّ إبراهيمَ [صَلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ](١٢) قالَ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] جَعَلَ عِبادَةَ الصنمِ عِبادَةَ الشيطانِ حينَ قالَ لَهُ: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فَدَلَّ أنَّ عِبادَتَهُمُ الأوثانَ عِبادةٌ لِلشَّيطانِ، وباللهِ العِصمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّرِيدًا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﵄: (والمَريدُ هو العاتي).

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ اللَّعْنَةُ الإبعادُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تعالى، فَسُمِّيَ مَلْعوناً لأنهُ مُبْعَدٌ مِنْ رَحمَةِ اللهِ مَطْرودٌ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ إنهُ، لَعَنهُ اللهُ، وإنْ قَطَعَ القَولَ فيهِ: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ﴾ كذا قَطْعاً فهو ظَنٌّ في الحَقيقَةِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] دلَّ أنَّ ما قالَهُ ظَنٌّ(١٣). لكنَّهُ خَرَجَ مَقْطوعاً مُحَقَّقاً. ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تحقيق. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وهو الصنم سمي. (٨) في الأصل وم: بزيهم ثم يعبدونها. (٩) في الأصل وم: سمي. (١٠) في الأصل وم: سمي. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في م: عليه السلام. (١٣) في الأصل وم: ظناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي مُبيَّناً مَعْلوماً. والنَّصيبُ المَفروضُ هو ما ذكَرَ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ إلى آخرِ ما ذكَرَ ﴿مَّفْرُوضًا﴾ أي مُبيَّناً: مَنْ يُطيعُهُ ومَنْ لا يُطيعُهُ.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الآية: قيلَ: هذا إخبارٌ عنِ اللهِ تعالى عبادَهُ عنْ صَنيعِ اللَّعينِ لِتكونُوا على حَذَرٍ منهُ. ثم قولُهُ: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ ليسَ على حقيقةِ الإضلالِ وتَزْيينِ[١] عليهِمْ طريقَهُ وإلباسِ[٢] عليهِمْ طريقَ الهُدَى. فذلكَ مَعْنَى إضافةِ الإضلالِ إليهِ. وإلّا لم يَملِكْ إضلالَ أحدٍ في الحَقيقةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ثم إذا ضَلُّوا بِدُعائِهِ إلى ذلكَ وتَزْيينِهِ عليهِمْ سَبيلاً يُمَنِّيهِمْ عندَ ذلكَ حتى يَتَمَنَّوا أشياءَ كقولِهِمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ / ١١٤ ـ ب/ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ الآية: [الأحقاف: ١١] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ، وذلكَ مِمّا يُمَنِّيهِمُ الشَّيطانُ، لَعَنَهُ اللهُ عليهِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ (﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ يَعْني عنِ الدِّينِ ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أنْ يُصيبُوا خَيراً لا مَحالةَ لِيأمَنُوا). وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ (ولَأُعَذِّبَنَّهُم، ولَأُمَنِّيَنَّهُم، ولَأُحَرِّمَنَّ[٣] عليهمُ الأنعامَ، ولَآمُرَنَّهُم فَلَيُبَدِّلُنَّ خَلْقَكَ).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ فيَجعَلُوها نَحراً للأصنامِ والأوثانِ التي كانوا يَعْبُدونَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ يَحتمِلُ هذا وجهَينِ سِوَى ما قالَ أهلُ التأويلِ:

أحدُهما: أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ هذا الخَلْقَ لِيأمُرَهُمْ بالتوحيدِ، ولِيَجعَلُوا عِبادتَهُمْ لهُ؛ لا يَعْبُدُونَ دونَ اللهِ غَيرَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم﴾ الآية [الذاريات: ٥٦ و٥٧] فهو دَعاهُمْ[٤] أنْ يَجعَلُوا عِبادَتَهُمْ لِغَيرِ اللهِ، وهو ما قيلَ في قولِهِ ﷻ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، قيل: الدِّينُ للهِ. فَعَلَى ذلكَ يَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أي عَنِ الذي كانَ خَلَقَهُ إياهُمْ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهُ ﷻ، خَلَقَ الأنعامَ والبَهائِمَ لِمَنافِعِهِمْ، وسَخَّرَها لَهُمْ، فَهُمْ حَرَّمُوها على أنفُسِهِمْ، وجَعَلُوها للأوثانِ والأصنامِ كالبَحِيرَةِ والسائبةِ والوَصيلةِ والحامِ؛ ضَيَّعُوا منافِعَها التي خَلَقَها لَهُمْ على[٥] أنفُسِهِمْ؛ وذلكَ تَغْييرُ ما خَلَقَ اللهُ لَهُم، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا أهلُ التأويلِ فإنهُمْ قالُوا غيرَ الذي ذَكَرْنا. [قالَ][٦] بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ الإخصاءُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ، وقالَ آخَرُونَ: هو دينُ اللهِ. ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أيضاً [أنه قال: (دينُ اللهِ)][٧]. وقيلَ: هو ما جاءَ مِنَ النَّهْيِ عنِ [عَمَلِ][٨] الواشِرَةِ والنامِصَةِ والمُتَفَلِّجَةِ والواصِلَةِ والواشِمَةِ، ولا يَحتمِلُ أنْ يكونَ خَطَرَ بِبالِهِ يَومَئذٍ أنهُ أرادَ بِتَغْييرِ خَلْقِ اللهِ ما قالُوا مِنَ الإخصاءِ أوِ المُثْلَةِ [وَعَمَلِ][٩] الواشِرَةِ والنامِصَةِ؛ كأنهُ إنما قالَ ذلكَ يومَ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ النَّظْرَةَ إلى يومِ البَعْثِ، ولا يَحتمِلُ لهُ عِلْمُ ما[١٠] لا يَحِلُّ هذا أوِ النَّهْيُ، عن مِثْلِهِ، إذْ قد يَجوزُ أن تَرِدَ الشريعةُ في مِثْلِهِ، لذلكَ بَعْدَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي يُطيعُهُ، ويُجيبُهُ إلى ما دَعاهُ، ويَعْبُدُهُ[١١] ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [في الدنيا][١٢] والآخِرَةِ. أمّا في الدنيا فَذَهابُ المنافِعِ عنهُ[١٣] التي جَعَلَها[١٤] لِلأصنامِ والأوثانِ، وفي الآخِرَةِ العقوبةُ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ إمّا فَقراً وإمّا سَعَةً ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنَ الأماني وقَضاءِ الشَّهَواتِ في الدنيا ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ والغُرورُ هو أنْ يَرَى شيئاً، ويُظْهِرُ خِلافَهُ.

---

(١) في الأصل وم: ويزين. (٢) في الأصل وم: ويلبس. (٣) في الأصل وم: ولا حرم. (٤) في الأصل وم: دعاؤهم. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: دين. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: و. (١٠) في الأصل وم: أن. (١١) في الأصل وم: ويعبدوه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: عنهم. (١٤) في الأصل وم: جعلوها.

الآية ١٢١ [وقولُهُ تعالى:][1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ الآيةُ ظاهرةٌ: قيلَ: مَفرّاً، وقيلَ: مَلْجأً.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قد ذَكَرْنا هذا[2] في ما تَقَدَّمَ أنَّ الإيمانَ هو التَّصْديقُ، والأعمالُ الصَّالِحاتُ غيرُ التَّصْديقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ تأويلُ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنْ يُقالَ: إنَّكُم مِمَّنْ تَقبَلُونَ الأخبارَ والقَولَ مِنَ الناسِ، ثم لا أحدَ أصْدَقُ قولاً مِنَ اللهِ تعالى ولا أنْجَزُ وَعْداً مِنْهُ. كيفَ لا تَقْبَلُونَ قولَهُ وخَبَرَهُ: أنهُ بَعْثٌ وجَنَّةٌ ونارٌ، وتُكَذِّبُونَ قولَ إبليسَ: أنْ لا جَنَّةَ ولا نارَ ولا بَعْثَ؟

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أخبَرَ ﷻ أنَّ الأمرَ ليسَ بالأمانيِّ، ولكنْ إلى اللهِ ﷻ، فهو، واللهُ أعلَمُ، يَحتَمِلُ أنْ يكونَ بالمَنْزِلَةِ والقَدْرِ عندَ اللهِ لأنهُمْ قالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] وقالُوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤] وغيرَ ذلكَ. وأهلُ التأويلِ ذَهَبُوا إلى غيرِ هذا، وقالُوا: إنَّ كلَّ فريقٍ منهُمْ كانُوا يَقولُونَ: إنَّ دينَنا خيرٌ مِنْ دينِكُمْ، ونَحْنُ أفضلُ مِنْ هؤلاءِ، فنَزَلَ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وذلكَ وَصْفُ الكافِرِ ألّا يكونَ لهُ وليٌّ يَتَوَلّى حِفْظَهُ، ولا نَصيرٌ يَنْصُرُهُ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾؟ [النساء: ١٢٤] ذَكَرَ لِلَّذينَ[3] يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ، وهُمْ مُؤمِنونَ، أنْ يَدْخُلُوا الجنَّةَ، فهذا أيضاً يَدُلُّ أنَّ قولَهُ ﷻ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أرادَ بهِ الشِّرْكَ.

وقالَ آخَرُونَ: قولُهُ ﷻ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أي[4] كلُّ سوءٍ يَدْخُلُ فيهِ المُسْلِمُ والكافِرُ. ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ عنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ لَمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ [أنهُ][5] قالَ: يا رسولَ اللهِ كيفَ الفَلاحُ بَعْدَ هذا، وكلُّ شيءٍ عَمِلْناهُ[6] جُزيناهُ؟ قالَ: غَفَرَ اللهُ لكَ يا أبا بَكْرٍ! ألَسْتَ تَحزَنُ؟ ألَسْتَ تَغْضَبُ؟ ألَسْتَ تَمْرَضُ؟ ألَسْتَ يُصيبُكَ الأذى؟ فهذا ما يُجْزَى[7] بهِ بِجَزائِهِ[8] المؤمنُ في الدنيا والكافرُ في الآخِرَةِ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا فقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ إذا لم يَرْجِعْ عنْ كُفْرِهِ، وماتَ عليهِ، وأمّا إذا رَجَعَ عنْ ذلكَ، وتابَ، وماتَ على الإيمانِ فإنهُ يَجِدُ وَلِيّاً ونَصيراً؛ يَنْصُرُهُ اللهُ تعالى، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في الآيةِ دليلٌ أنَّ الأعمالَ الصالحاتِ غيرُ الإيمانِ، لأنهُ قالَ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ولو كانَ [العَمَلُ][9] إيماناً يَصيرُ[10] كأنهُ قالَ: ومَنْ يَعْمَلِ الإيمانَ، وهو مؤمنٌ، فدلَّ بما[11] ذَكَرْنا أنها غيرُ الإيمانِ. وفيهِ دَلالةٌ أيضاً أنَّ الأعمالَ الصالحةَ إنما تَنْفَعُ إذا كانَ ثَمَّةَ إيمانٌ لأنهُ شَرَطَ فيها[12] الإيمانَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ دلَّ أنَّ الأعمالَ الصالِحَةَ لا تَنْفَعُ إذا لم يَكُنْ ثَمَّةَ إيمانٌ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قد ذَكَرْناهُ.

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآية يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:[13] مَنْ أحسنُ ديناً [مِنَ][14] المسلمينَ مَنْ[15] يَعْمَلُ جميعَ عملِهِ موافِقاً لِدينِهِ [أمْ مَنْ][16] لم يَعْمَلْ شيئاً؟ وهو كما رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لَو وُزِنَ إيمانُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ بإيمانِ جَميعِ أُمَّتي لَرَجَحَ إيمانُهُ»

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في تفسير الآيتين ٢٥ و٢٦٦ من سورة البقرة. (٣) في الأصل وم: الذين. (٤) من م، في الأصل: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل علمناه. (٧) في الأصل وم: يجزون. (٨) في الأصل وم: بجزائها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فيصير. (١١) من م، في الأصل بها. (١٢) في الأصل وم: فيه. (١٣) في الأصل وم: يحتمل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: ممن. (١٦) في الأصل وم: ممن يعمل بل الذي عمل بجميع عمله موافقا لدينه أحسن دينا من الذي.

[ابن عدي في الكامل ٥/ ٣٣٥]، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «هُوَ قَوِيٌّ في دِينِهِ ضَعِيفٌ في بدنِهِ». ألا تَرى أنهُ خَرَجَ لِمُقاتَلَةِ أهْلِ الرِّدَّةِ وَحْدَهُ، وذلكَ لِقُوَّتِهِ في الدِّينِ وصلابَتِهِ فيهِ لا لِزِيادَةِ الإيمانِ ولا لِنُقصانِ إيمانٍ في غَيرِهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: مُقابَلَةُ سائِرِ الأديانِ؛ أي ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ مِمَّنْ لم يُسْلِمْ وَجْهَهُ للهِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ عنِ الحَسَنِ [أنهُ قالَ][1] (جَميعُ جِهَةِ أمْرِهِ إلى اللهِ، جميعُ ما يَعْمَلُ إنما يعملُ للهِ لا يَعْمَلُ لِغيرِ اللهِ). وقيلَ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي أخْلَصَ نَفْسَهُ للهِ، ولا يَجْعَلُ لِأحَدٍ فيها شِرْكاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ الآية [الزمر: ٢٩] أي يُسْلِمُ نفسَهُ لهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يُحْسِنُ ما يَعْلَمُ أنَّ جميعَ ما يَعْمَلُ لِعِلْمٍ [لهُ][2] فيهِ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ مِنَ الإحسانِ، وهو أن يَزيدَ العَمَلَ على المَفْروضِ عليهِ؛ يُؤَدِّيَ المَفْرُوضَ عليهِ، ويَزيدَ على ذلكَ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ المِلَّةُ: قِيلَ: هيَ الدِّينُ، وقيلَ: المِلَّةُ السُّنَّةُ أقرَبُ لأنَّ دِينَ الأنبياءِ ﷺ/ ١١٥ ـ أ/ كُلِّهِمْ واحِدٌ؛ لا يَخْتَلِفُ دينُ إبراهيمَ ﷺ ودِينُ غَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﷺ.

وأمّا السُّنَنُ والشرائِعُ فيجوزُ أنْ تَخْتَلِفَ. ألا تَرى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ: «مِلَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ» وفي [بعضِ الأخبارِ][3]: «سُنَّةُ رسولِ الله ﷺ» جَعَلَ السُّنَّةَ تَفْسيرَ المِلَّةِ، فالمِلَّةُ بالسُّنَّةِ أشْبَهُ، ثم خصَّ مِلَّةَ إبراهيمَ ﷺ، لأنَّ سُنَّتَهُ كانَتْ تُوافِقُ سُنَنَ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ قيلَ: مُخْلِصاً، وقيلَ: سُمِّيَ ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً إلى الحَقِّ؛ ولذلكَ سُمِّيَ الأحْنَفُ أحْنَفَ لِمَيلِ إحْدَى[4] قَدَمَيهِ إلى الأُخْرَى، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ أنَّ اللهَ ﷻ أوحَى إلى إبراهيمَ: أنَّ لي خَليلاً في الأرضِ، فقالَ: يا ربِّ مَنْ هو؟ قالَ: فأوحَى اللهُ تعالى إليهِ: لِمَ؟ أي لِمَ تَسْألُني عنهُ؟ قالَ: حتّى[5] أحِبَّهُ، واتَّخِذَهُ كما اتَّخَذْتَهُ خليلاً، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، فقالَ: أنتَ يا إبراهيمُ.

وأصلُ الخُلَّةِ: المَنْزِلَةُ والرِّفْعَةُ والكرامَةُ؛ يقولُ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي جَعَلَ لهُ عندَهُ مَنْزِلَةً وكرامَةً لم يَجْعَلْ مِثْلَها[6] لأحَدٍ مِنَ الخلائِقِ لِما ابْتَلاهُ اللهُ بِبَلايَا، وامْتَحَنَهُ بِمِحَنٍ لم يَبْتَلِ [أحداً بِمِثْلِها][7]، فَصَبَرَ عَلَيها؛ مِنْ ذلكَ ما أُلْقِيَ في النارِ، فَصَبَرَ، ولم يَسْتَعِنْ بأحَدٍ سِوَاهُ، وما ابْتُلِيَ بِذَبْحِ وَلَدِهُ، فما أفْجَعَهُ، وما أُمِرَ بِتَرْكِ أهْلِهِ وَوَلَدِهِ الطِّفْلِ في جِبالِ مَكَّةَ؛ لا ماءَ هنالِكَ، ولا زَرْعَ، ولا نَباتَ، فَفَعَلَ، ومِنْ ذلكَ أمْرُ المُهاجَرَةِ مِمّا يَكْثُرُ ذلكَ، فجائِزٌ تخصيصُهُ بالخُلَّةِ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائِزٌ أنْ يكونَ ذلكَ كرامَةً أكْرَمَهُ اللهُ بها لأنَّ أهلَ الأديانِ كُلَّهُمْ ينْتَسِبونَ إليهِ، ويَدَّعُونَ أنهُمْ على دِينِهِ. وعلى ذلكَ يَخْرُجُ قولُنا[8]: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ [البخاري: ٣٣٧٠]. قِيلَ: خُصَّ هو بهذَينِ الوجْهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْتُهُما في الخُلَّةِ [والمِلَّةِ][9]. وقيلَ: إنهُ اتَّخَذَهُ خليلاً لأنهُ كانَ يُعطي، ولا يأخُذُ، وكانَ يُحِبُّ الضَّيفَ، وكانَ لا يأكُلُ وحْدَهُ، وإنْ بَقِيَ طويلاً، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وأصْلُ الخُلَّةِ ما ذَكَرْنا مِنَ الكرامَةِ والمَنْزِلَةِ لأنَّ مَنْ يُحِبُّ آخَرَ يَبَرُّهُ، ويُكْرِمُهُ. ومَنْ لا يُحِبُّهُ يُعاديهِ، ويُظْهِرُ لهُ الجَفاءَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: بعضها. (٤) في الأصل وم: أحد. (٥) في الأصل وم: من.
(٦) في الأصل وم: مثله. (٧) في الأصل وم: بمثله. (٨) في الأصل وم: قوله. (٩) ساقطة من الأصل وم.

واختُلِفَ في المَعنى الذي وُصِفَ ﷺ بالخُلَّةِ أنهُ خَليلُ اللهِ؛ فقد قيلَ: بما سَخَتْ نَفْسُهُ في بَذْلِ كلِّ لَذَّةٍ مِنْ لَذَّاتِ الدنيا للهِ؛ [إذ يَبِيتُ][1] في مكانِ إتيانِ الأضيافِ وأبناءِ السَّبيلِ، وكانَ لا يأكُلُ وحدَهُ، وكانَتْ عادَتُهُ التَّقديمَ بِكُلِّ ما يَتَهَيَّأُ لهُ عندَ نزولِ الأضيافِ عليهِ، والابْتِداءَ بذلكَ قَبْلَ كلِّ أمْرٍ، والقِيامَ لِلأضيافِ مَعَ عِظَمِ مَنْزِلَتِهِ. أيَّدَ ذلكَ أمْرُ الملائكةِ الذين[2] جاؤوهُ بالبِشارَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقِيلَ: إنما امْتَحَنَهُ اللهُ بأمورٍ، فَصَبَرَ عليها، نحوِ النارِ: أُلقِيَ فيها[3]، وذَبْحِ الوَلَدِ وبَذْلِ الأهْلِ والوَلَدِ للهِ، حَيثُ لا ضِرْعَ ولا زَرْعَ، ولا ماءَ، وغيرِ ذلكَ مِمّا أكْرَمَهُ اللهُ تعالى بالثناءِ عليهِ بَوَفاءِ ما امْتُحِنَ [بهِ وإتمامِ][4] ما ابْتُلِيَ: في[5] قولِهِ تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وفي ما حاجَّ فِرْعَونَ وجَميعَ قومِهِ، [وجادَلَهُمْ في ما][6] يَعْبُدُونَ، فَغَلَبَهُمْ، وألْزَمَهُمْ حَجَّةَ اللهِ، وغيرِ ذلكَ مِنَ وجوهِ المِحَنِ.

وقيلَ: بما بِهِ كانَ بَدْءُ البيتِ الذي جَعَلَهُ اللهُ ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] ومَأْمَناً لِلخَلْقِ ومَثاباً لَهُمْ[7] ومَنْسَكاً، فَعَظَّمَ شَأْنَهُ في ما بالخَلْقِ إليهِ حاجةٌ في أمْرِ الدينِ. وعلى ذلكَ أكْرَمَهُ اللهُ تعالى بِمَيلِ القُلُوبِ وإظهارِ التَّدَيُّنِ بِدِينِهِ مِنْ جميعِ أصنافِ أهْلِ الأديانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: إنما هي خَصائِصُ في أهْلٍ مِنَ الرُّسُلِ وأُولي[8] العَزْمِ مِنْهُمْ؛ اخْتَصَّهُمْ بأسماءٍ عُرِفْنَ في الفضائِلِ والكراماتِ نَحْوِ القوْلِ بِكَلِيمِ اللهِ ورُوحِ اللهِ وذَبيحِ اللهِ وحَبيبِ اللهِ. فَعَلَى ذلكَ كانَ لِإبراهيمَ ﷺ خُصوصِيَّةٌ في الاسْمِ، فَسَمّاهُ خَليلاً.

فَنَحْنُ نقولُ، وباللهِ التوفيقُ: ونَحْنُ نَعْلَمُ بأنَّ اللهَ تعالى: [لم يُسَمِّهِ][9] بالذي ذَكَرَ عَبَثاً باطلاً، ولكنَّهُ سَمّاهُ بهِ تَعظيماً لِقَدْرِهِ وإظهاراً لِكَرامتِهِ وبَياناً لِمَنْزِلَتِه عندَهُ لِما شاءَ مَنَ الوجوهِ التي لعلّها لَمْ يَطَّلِعْ عليها [أحدٌ][10] مِنَ الخَلْقِ، ولا يُحْتَمَلُ أنْ يُدْرَكَ ذلكَ إلّا بالوَحْيِ. فَحَقٌّ ذلكَ علينا تَعْظيمُه ومَعْرِفَتُهُ بالذي اخْتَصَّهُ اللهُ، واصْطَفاهُ دُونَ تَكَلُّفِ المَعْنَى الذي لهُ كانَ ذلكَ مَعَ لا وَجْهَ، ولا مَعْنى، صارَ حَقيقَ ذلكَ وأكْرَمَ إلا بِمَعْنَى أكْرَمَهُ اللهُ. وأكْرَمَهُ [اللهُ بِفَضْلِهِ][11] ورَحْمَتِهِ. وللهِ أنْ يَبْتَدِيَهُ بالخُلَّةِ، ثم يُكْرِمَهُ بأنواعِ الكَراماتِ التي لَدَيها تَقَعُ كرامةُ الخُلَّةِ، وتَصْلُحُ. وللهِ المَنُّ في ذلكَ والفَضْلُ، وعلينا الحَمْدُ للهِ والشُّكْرُ بما [أنْعَمَ علينا][12] مِنْ مَعْرِفَةِ كِرامِ خَلْقِهِ، وجَعَلَ في قلوبِنا مَوَدَّتَهُمْ، حتّى صارُوا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ أحَبَّ إلَينا مِنَ أمَسِّ الخَلْقِ بِنا بلْ مِنَ أنْفُسِنا، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

ثم لَيسَ لِلنَّصارى ادِّعاءُ النُّبُوَّةِ لِلّهِ مِنْ حَيثُ الكرامةُ على الاعْتِبارِ بالخُلَّةِ لأنَّ اللهَ ﷻ عَظَّمَ أمْرَ الأولادِ حتى جَعَلَهُ كالشِّرْكِ، ولا كذلكَ أمْرُ الخُلَّةِ، ولأنَّ أمرَ الأولادِ، حَقُّهُ المُجانَسَةُ، ولِلخُلَّةِ حَقُّ المُوافَقَةِ.

ثم [الأصْلُ: في][13] الأولادِ الشَّهْوَةُ والحاجةُ [وفي الخُلَّةِ][14] الطاعةُ والتَّعظيمُ، مِمّا يُرْجِعُ أحَدَ الوجهَينِ إلى شَهْوَةِ الوَلَدِ وحاجتِهِ، والآخَرَ إلى تَعْظِيمِ يكونُ مِنَ ذلكَ العبدِ وتَبْجِيلِهِ والطاعَةِ لهُ والخُضوعِ.

ثم الأصْلُ أنَّ المَعْنَى الذي تَقْتَضِيهِ الخُلَّةُ قد يَجوزُ أنْ يَظْفَرَ كُلٌّ بالطاعةِ، وإنْ كانَ الاسْمُ لهُ في حقِّ النهايةِ، نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٢٢] وقولِهِ تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] والمَحَبَّةُ قَريبةٌ مِنَ الخُلَّةِ. ومُحالٌ أنْ يَحِقَّ مَعْنَى الأولادِ والنُّبُوَّةِ بِشيءٍ مِنَ الطاعةِ، لذلكَ اخْتَلَفَ الأمرانِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ. تأويلُ هذِهِ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ، وإنْ أكْرَمَهُمْ، وأعْظَمَ مَنْزِلَتَهُمْ عِنْدَهُ، وأعلاها، فإنَّهُمْ لَمْ يَأْنَفُوا عنْ عبادَتِهِ، ولم يُخْرِجُوا أنْفُسَهُمْ مِنَ أنْ يَكُونُوا عَبيداً، بل كُلَّما[15] ازْدادَ لَهُمْ عندَ اللهِ مَنْزِلَةٌ وقَدْرٌ[16] كانُوا أخْضَعَ لهُ وأطْوَعَ كقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ

---

(١) في الأصل وم: بيتوا. (٢) من م، في الأصل: الذي. (٣) من م، في الأصل: الله. (٤) في الأصل وم: إتمام. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: ويجادلهم في من، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ﴾ [الأنعام: ٨٠]. (٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]. (٨) في الأصل وم: وأولوا، والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. (٩) في الأصل وم: لا يسميه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بفضل الله. (١٢) في الأصل وم: أنعمنا. (١٣) في الأصل: أصل، في م: الأصل. (١٤) في الأصل وم: والخلة. (١٥) في الأصل وم: كلها. (١٦) في الأصل وم: قدرا.

يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ و٢٧] وفي مَواضِعَ أُخَرَ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٦ والنحل: ٤٩ والأنبياء: ١٩ والسجدة: ١٥] ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي أحاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلْمُهُ. وهو يُخرَّجُ على الوعيدِ، أي [لا][1] عن جَهْلٍ بِصَنيعِهِمْ كَملوكِ الأرضِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ ﷺ أيضاً: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ و ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٩٦ و..] و﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩ و..] ونَحْوُ ذلكَ يُخرَّجُ على الوَعيدِ والتَّخويفِ ليكُونُوا مُراقِبِينَ لهُ حَذِرِينَ كَمَنْ يَعْلَمُ في الأمورِ أنَّ عليهِ رقيباً، واللهُ أعلَمُ.

ويَخرُجُ على الثناءِ[2] [في وجهَينِ:

أحدُهما][3]: أنهُ أمْرُ مَنْ يُكْتِبُ الأعمالَ لا لِلْخفاءِ عليهِ، لكنْ بما إذْ لا يَمْتحِنُ لِحاجةٍ بهِ، ولكنْ لِمَصْلَحَةِ عِبادِهِ[4] فَيَمْتحِنُ بما شاءَ. فَامْتَحَنَ أولئكَ الكتبةَ بما يكونون[5] مُتْقِنِينَ ناظِرِينَ لا يَغْفُلُونَ عن ذلكَ طاعةً منهُمْ للهِ.

والثاني: أن يكونَ العِلْمُ بِمَنْ يَكْتُبُ عليهِ كلَّ أمْرِهِ في ما جُبِلَ عليهِ البَشَرُ أذْكَرَ لهُ وأشَدَّ في التَّنْبيهِ، فَجَرَى حُكْمُ اللهِ في ذلكَ، إذْ أمْرُ المِحْنَةِ مَوضوعٌ على المَصْلَحَةِ؛ وذلكَ أبْلَغُ في الوجودِ، واللهُ أعْلَمُ.

ويَخرُجُ على أنَّ اللهَ تعالى بذلكَ ﴿مُّحِيطًا﴾ لِيَعْلَمُوا أنَّهُمْ لا يُتْرَكُونَ سُدًى، بل يُحْصِي عليهِمْ لِلْجزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وجُمْلَةُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَكَانَ﴾ كذا لِيَعلَمَ أنهُ لا عَنْ جَهْلٍ خَلَقَ الخَلْقَ، وبَعَثَ الرُّسُلَ ﷺ وأنشأَ الآياتِ مِمّا عليهِ أمْرُ الخَلْقِ أنهُمْ يُعامِلُونَ مَنْ ذَكَرْتُ، وذلكَ خارِجٌ على حقِّ الحِكْمَةِ، وإنْ كانَ لا يُعْرَفُ[6] في بعثِ الرُّسُلِ مَنْ يُكَذِّبُهُمْ، ولا تَقْوِيَةُ الأعداءِ على ما بذلكَ[7] قَهْرُ الأولياءِ، ولا الأمْرُ والنَّهْيُ لِمَنْ لا يَأتَمِرُ، ولا يَنْتَهي، كَبيرُ حِكْمَةٍ. وإنّما كانَ ذلكَ مِنَ اللهِ، فهو خارِجٌ على حَدِّ الحِكْمَةِ، أو ذلكَ كُلُّهُ مِنَ الخَلْقِ يَقَعُ لِحاجةٍ أو لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إليهِمْ. فإذا ناقَضَ خَرَجَ الفِعْلُ مِنَ الحِكْمَةِ.

فأمّا اللهُ ﷻ [فإنهُ][8] يَمْتَحِنُ عِبادَهُ، ويَبْعَثُ الرُّسُلَ ﷺ لِحاجَةٍ بالمَبْعوثِ إليهِمْ وبالمُمْتَحَنينَ ولِمنافِعَ تَرْجِعُ إليهِمْ، فيكونُ ذلكَ منهُ كَهَدايا. / ١١٥ ـ ب/ فَمَنْ لا يَقْبَلُها فَنَفْسُهُ [يَضُرُّها ويُلْحِقُها][9] بِنَحْسٍ، فلا[10] يَرجِعُ إليهِ ذلكَ، ويَزولُ[11] ذلكَ المَعْنَى الذي لَهُ خَرَجَ الفِعْلُ مِنَ الخَلْقِ عنِ الحِكْمَةِ. فَلَزِمَ القولُ بِمُوافَقَةِ الحِكْمَةِ والمَصْلَحَةِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ الآيةَ. ذَكَرَ الاسْتِفْتاءَ في النساءِ، وليسَ فيهِ بَيانُ عمّا وَقَعَ بهِ السُّؤالُ؛ إذْ قد يجوزُ أنْ يكونَ في الجوابِ بيانُ المُرادِ في السُّؤالِ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] دَلَّ الأمْرُ باعتِزالِ عن النساءِ في المَحيضِ، وعلى أنَّ السُّؤالَ عنِ المَحيضِ إنّما كانَ في الاعْتِزالِ، وإنْ لم يكُنْ في السؤالِ بَيانُ المُرادِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] على أنَّ السُّؤالَ إنما كانَ عنْ مُخالَطةِ اليَتامَى، وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] على أنَّ السُّؤالَ عنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ ما ذُكِرَ في الجوابِ مِنَ الإثْمِ، وإنْ لم يَكُنْ في السُّؤالِ بيانُ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ ليسَ في السُّؤالِ ولا في الجوابِ بيانُ ما وَقَعَ بِهِ السُّؤالُ في أُمورِهِنَّ جَميعاً في الميراثِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الحُقوقِ. ثم ذَكَرَ واحِداً فَواحِداً كقولِهِ تعالى ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ الآيةَ [النساء: ٣٢] هذا في الميراثِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: البناء. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: العبادة، في م، لعباده. (٥) في الأصل وم: يكون، والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]. (٦) في الأصل وم: يعرفون. (٧) في الأصل وم: به. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يضر ويلحقها. (١٠) في الأصل وم: لا أن. (١١) في الأصل وم: فزال.

وأمّا في الحُقوقِ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ويُحتَمَلُ غيرُها مِنَ الحُقوقِ سِوَى حُقوقِ النّكاحِ، فتَرَكَ البيانَ في الجوابِ لِما ذُكِرَ واحِداً فواحِداً في غيرِها مِنَ الآيِ؛ إذِ الجوابُ خرجَ مَخرجَ العِدَةِ أنهُ يَفعَلُ بقولِهِ ﷺ ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ وقد فعلَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ غيرَ هذا، وهو أنْ يُترَكَ البيانُ في السؤالِ والجوابِ لِنوازِلَ يَعرِفُها أهلُها لم يُحتَجْ إلى بَيانِ ما وقَعَ بهِ السُّؤالُ لِمَعرفةِ أهلِها بهِ. ويَحتَمِلُ ما قالَ أهلُ التأويلِ: وهو أنهمْ كانُوا لا يُوَرِّثُونَ[١] النّساءَ ولا الصِّغارَ مِنَ الأولادِ، وإنما كانوا يُورِّثُونَ المُقاتِلَةَ مِنَ الرجالِ والذينَ يُحرِزُونَ الغَنائمَ. فلمّا بَيّنَ اللهُ ﷺ للنِّساءِ والصِّغارِ نَصِيباً[٢] في الأموالِ، وفَرَضَ لَهُمْ حقَّها، سَألُوا عندَ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ ذلكَ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾.وكذلكَ رُوِيَ عن ابنِ عباسٍ ﷺ وذُكِرَتِ القِصّةُ هكذا، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ السُّؤالُ وقَعَ عنْ يَتامى النِّساءِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷺ: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ الآية؟ قيلَ كانَتِ اليتيمةُ في حِجْرِ الرجلِ ذاتَ مالٍ يَرغَبُ عن أنْ يَتزَوّجَها لِدَمامتِها، ويَمنَعُها عنِ الأزواجِ رَغبَةً في مالِها. وهكذا رُوِيَ عنْ عائشةَ ﷺ، وعلى ذلكَ يَخرُجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [النساء: ٣]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هذا واللهُ أعلَمُ، كأنهُ معطوفٌ على قولِهِ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ على ما ذَكَرْنا مِنَ الميراثِ والحُقوقِ ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ في إيفاءِ حُقوقِهِمْ وأداءِ مالَهُمْ عليكَ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ يَجزيكُمْ[٣] بِهِ منَ الخيرِ، واللهُ أعلَمُ.

وعَنَ الحَسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي تَرغَبُونَ عَنْ نِكاحِهِنَّ. وعَنِ ابْنِ سِيرِينَ: يَرغَبُ عَنْ[٤] نِكاحِها، لِدَمامَتِها، ولا يُزَوِّجُها[٥] مِنْ غَيرِهِ رَغبَةً في مالِها. وقولُ ابْنِ سِيرِينَ ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾: يَرغَبُ عَنْ نِكاحِها رَغبَةً في مالِها. وعلى ذلكَ يَخرُجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية [النساء: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ دَلالةٌ أنَّ لِلوَليِّ أنْ يُزَوِّجَ اليَتيمةَ الصغيرةَ لأنهُ لو لم يكُنْ لهُ أنْ يَتزَوَّجَها لم يكُنْ لهذا العِتابِ على ترْكِ [تَزويجِها مِنْ غيرِهِ][٦] مَعنًى. فإنْ قيلَ: اسْمُ اليُتْمِ يَقَعُ على الصَغيرةِ والكَبيرةِ جَميعاً فَلَعَلَّ المرادَ مِنَ اليَتيمةِ الكَبيرةُ ههنا، قِيلَ: كذلكَ، غيرَ أنَّ الغالبَ يَقَعُ على الصِّغارِ مِنْهُنَّ، واللهُ أعلَمُ. وفيهِ دلالةٌ أنَّ النّكاحَ قد يَقومُ بالواحِدِ لأنهُ قالَ ﷺ ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فلو لم يكُنْ لهُ أنْ يَتزَوَّجَها لم يكُنْ لهذا العتابِ معنًى، دلَّ أنَّ لهُ أن يَنْكِحَ.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قيلَ: خافَتْ، أو عَلِمَتْ ﴿مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ وقيلَ: الخَوفُ ههنا خَوفٌ، لا غيرَ. فَمَنْ قالَ بالخَوفِ فهو حَمَلَ على أنْ يَظْهَرَ لها منهُ جَفاءٌ، يَجفُوها لِدَمامتِها أو لِكِبَرِها، ويُسِيءُ صُحْبَتَها لِتَرضَى بالفِراقِ عنهُ، ولِيَتزَوَّجَ[٧] غيرَها، وهو الخَوفُ حَقِيقَةً.

وهكذا رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][٨] قالَ: (إنَّ سَودةَ بِنتَ زَمْعَةَ خَشِيَتْ أنْ يُطَلِّقَها النَّبيُّ ﷺ، فَجَعَلَتْ يَومَها لِعائِشَةَ ﷺ فَأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية، ثم قالَ: فهذا الصُّلْحُ الذي أمَرَ اللهُ [بِهِ][٩]، فَجَعَلَ الخَوفَ ههنا خَشْيَةً).

وعَنْ عائشةَ ﷺ، أنها قالَتْ: (هي المرأةُ تكونُ عندَ الرجلِ دَميمةً، ولا يُحِبُّها زوجُها [تقولُ لهُ][١٠] لا تُطَلِّقْني، وأنْتَ في حِلٍّ مِنْ شأني).

(١) في الأصل وم: يرثون. (٢) في الأصل وم: نصيب. (٣) في الأصل وم: فيجزيكم، (٤) في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: يزوج. (٦) في الأصل: تزوجهن من غيرهم، في م: تزويجهن من غيرهم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة في الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

وقيل: ﴿خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ أي عَلِمَتْ، والعِلْمُ هو أنْ يكونَ لِلرَّجُلِ امْرأتانِ؛ إحداهُما كَبيرةٌ دَميمةٌ، والأُخرَى شابةٌ، يَميلُ قَلْبُهُ إلى الشابةِ منهما، ويَكْرَهُ صُحْبَةَ الكبيرةِ منهما، ويَسْتَثْقِلُ المُقامَ مَعَها، وأرادَ فِراقَها، فَتَقولُ لهُ: لا تُفارِقْني، واجْعَلْ أيامي لِضَرَّتي، أو يُصالِحَها على أنْ يكونَ عندَ الشابةِ أكثَرَ مِنْ عِنْدِ الكبيرةِ. وهو مارُوِيَ عنْ عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: (هي المرأةُ تكونُ عندَ الرجلِ دَمِيمَةً، ولا يُحِبُّها زَوجُها، فتقولُ: لا تُطَلِّقني، وأنْتَ في حِلٍّ مِنْ شأني). فالخَوفُ هو ما يَظْهَرُ لها مِنْ نُشوزِهِ.

قيلَ: تَزَوَّجَ أخرَى بإعلامٍ، والعِلْمُ هو ما يَظْهَرُ مِنْ تركِ مُضاجَعَتِهِ إياها وسُوءِ صُحْبَتِهِ مَعَها. وعلى هذَينِ الوجهَينِ رُوِيَ عنِ الصّحابةِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، عَنْ بَعْضِهِمْ: يكونُ عندَ الرجلِ امْرأتانِ: أحداهُما كبيرةٌ، والأُخرَى شابةٌ، فيؤثِرُ الشابةَ على الكبيرةِ، فَيُجْرِي بَيْنَهُما صُلْحاً[١] على أنْ يُمْسِكَها، ولا يُفارِقَها على الرِّضا منها بإبطالِ حقِّها أو بدونِهِ؛ وهو ما رُوينا مِنْ خَبَرِ ابْنِ عباسٍ ﵁، أنَّ سَودَةَ ﵂ جَعَلَتْ أيامَها لعائشةَ ﵂ خَشْيَةَ أنْ يُفارِقَها. وكذلكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ ﵁.

ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﵁ (أنهُ أتاهُ رَجُلٌ يَسْتَفْتِيهِ في امْرأةٍ ﴿خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ فقالَ[٢]: هي تكونُ عندَ الرجلِ، فَتَنْبو عيناهُ مِنْ دَمامَتِها أو كِبَرِها أو فَقْرِها أو سُوءِ خُلُقِها، فيكونُ فِراقُهُ، فإنْ وضَعَتْ لهُ مِنْ مَهْرِها شيئاً حَلَّ لهُ، وإنْ جَعَلَتْ مِنْ أيّامِها شيئاً لِغَيرِها فلا حَرَجَ). دلَّتْ هذِهِ الأحاديثُ التي ذَكَرْنا على أنَّ الرَّجُلَ إذا كانَ لهُ نِسْوَةٌ [عليهِ][٣] أنْ يُسَوِّيَ بَيْنَهُنَّ؛ فَيُقيمَ عندَ كلِّ واحدةٍ يَوماً إلّا أنْ يَصْطَلِحْنَ[٤] على غَيرِ ذلكَ ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ كما قالَ اللهُ تعالى [في الآيةِ نَفْسِها][٥].

بَيَّنَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [النساء: ١٢٩] أنَّ على الرجلِ، وإنْ عَدَلَ بَيْنَ نِسائِهِ في قِسْمَةِ الأيامِ، ألّا يُخَلِّيَ إحداهُنَّ مِنَ الوطءِ، واللهُ أعْلَمُ، ولا يكونَ وَطْؤُهُ كُلُّهُ لِغيرِها، وتكونَ الأُخرَى كالمُعَلَّقَةِ التي لَيسَتْ بأيِّمٍ ولا ذاتِ زَوجٍ. لكنَّها إذا رَضِيَتْ بإبطالِ حقِّها أو بِدُونِ حقِّها فإنهُ لا حَرَجَ على الزوجِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رَفْعُ الحَرَجِ عنِ الزَّوجِ خاصةً، وإنْ كانَ مُضافاً إليهِما؛ إذْ لَيسَ لِلمرأةِ في تَرْكِ حَقِّها حَرَجٌ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ/ ١١٦ ـ أ/ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] لَيسَ على المرأةِ جُناحٌ في الإفتداءِ لأنها تَفْتَدي بِمالِها. ولها أنْ تُمَلِّكَ على مالِها مَنْ شاءَتْ، فكأنهُ قالَ ﷺ: فلا جُناحَ عليهِ في أخذِ ما افتدَتْ أو في إبطالِ حَقِّها، إنْ رَضِيَتْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على [ما][٦] ذَكَرَ، وهو أنْ لا حَرَجَ على المرأةِ في المُقامِ مَعَهُ، وإنِ اسْتَثْقَلَ الزوجُ ذلكَ، وكَرِهَ صُحْبَتَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄، [أنهُ][٧] قالَ: (شَحَّتِ المرأةُ بِنَصيبِها مِنْ زَوجِها أنْ تَدَعَهُ لِلأُخرَى، وشَحَّ الرجلُ بِنَصيبِهِ مِنَ الأُخرَى). وقيلَ: الشُّحُّ الحِرْصُ؛ وهو أنْ يَحْرِصَ كُلٌّ على حَقِّهِ، وكانَ الشُّحُّ والحِرْصُ واحدٌ، وإنْ كانَ أحَدُهُما في المَنْعِ والآخَرُ في الطَّلَبِ لأنَّ البُخْلَ يَحْمِلُهُ على الحِرْصِ، والحِرْصَ يَحْمِلُهُ على المَنْعِ، وكلُّ واحدٍ منهما يكونُ سَبَبَ الآخَرِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ في أنْ تُعْطُوهُنَّ أكثَرَ مِنْ حَقِّهِنَّ ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ في ألّا تَبْخَسُوا مِنْ حَقِّهِنَّ شَيئاً. ويَحْتَمِلُ: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ في إيفاءِ حَقِّهِنَّ والتَّسْوِيةِ بَيْنَهُنَّ، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الجَورَ والمَيلَ وتَفْضِيلَ بَعْضٍ على بَعْضٍ. ويَحْتَمِلُ: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ في اتِّباعِ ما أمَرَكُمُ اللهُ مِنْ طاعتِهِ ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ عمّا نَهاكُمْ مِنْ مَعاصيهِ.

وقولُهُ تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ على التَّرْغيبِ والوَعيدِ. وقد ذَكَرْنا معناهُ في غيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَن

(١) في الأصل وم: صلح. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يصطلحها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم.

﴿تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في إيفاءِ الحَقِّ أنْ يَستَوِيَ في قلوبِهِمُ الحُبُّ ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ على العَدْلِ لا تَقْدِرُونَ عليهِ في ذلكَ ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ إلى التي تُحِبُّ في النَّفَقةِ والقَسْمِ، فتأتيَ الشابَّةَ التي تُعجِبُكَ، وتَدَعَ الأُخرَى بِغَيرِ قَسْمٍ ولا نَفَقةٍ.

رُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ أنهُ كانَ يقولُ: (اللهُمَّ أمّا قلبي فلا أمْلِكُ، ولكنْ أرجو أنْ أعْدِلَ في ما سِوى ذلكَ). والعدلُ ههنا التَّسويةُ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] لَيسَ هو ضِدَّ الجَورِ، ولكنْ [هو][1] التَّسويةُ: يُسَوُّونَ بَيْنَ الأصنامِ في العبادةِ. وعن أبي عُبَيدةَ [أنهُ][2] قالَ: (﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ في الحُبِّ). ورُوِيَ عن أبي قِلابةَ ﷺ (أنَّ النبيَّ ﷺ، كانَ يَعْدِلُ بَيْنَ نِسائِهِ في القِسْمةِ، ويقولُ: «اللهُمَّ إنَّ هذِهِ قِسْمَتي في ما أملِكُ، فَلا تُؤاخِذْني في ما تَمْلِكُ أنتَ، ولا أملِكُ») [أبو داوود ٢١٣٤]

وأصلُ ذلكَ أنَّ في كُلِّ ما كانَ المَرْءُ مَدفوعاً مُضطَرّاً فإنهُ غَيرُ مُكَلَّفٍ في ذلكَ، [وفي كُلِّ ما كانَ باختيارٍ منهُ وإيثارٍ غَيرِ مَدفوعٍ إليهِ[3] فإنهُ مُكَلَّفٌ في ذلكَ][4]. والحبُّ مِمّا يَدفَعُ المَرْءَ[إليهِ، ويَضْطَرُّهُ، ولا][5] صُنْعَ لهُ فيهِ، لمْ يُكَلَّفِ التَّسويةَ في ما يكونُ [المَرْءُ مَدْفوعاً إليهِ][6] مُضطَرّاً لأنهُ لا يَملِكُ التَّسويةَ.

وعلى هذا يَخرُجُ قولُنا: إنَّ الكافرَ مُكَلَّفٌ بالإيمانِ في حالِ الكُفرِ لِشُغْلِهِ بهِ واختيارِهِ فِعْلَ الكُفرِ لَيسَ كالمُضطَرِّ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقدَّمَ أنَّ الاستِطاعةَ تكونُ على ضَرْبَينِ: استِطاعةِ أحوالٍ وأسبابٍ واستِطاعةِ أفعالٍ. والاستِطاعةُ التي هي استِطاعةُ الأحوالِ والأسبابِ مِنْ نَحوِ الصِّحّةِ والسَّلامةِ وغَيرِهِما تجوزُ قَبْلُ ومعَ وبَعْدُ. أمّا استِطاعةُ الأفعالِ[7] فإنها لا تكونُ إلّا معَ الفِعلِ، وباللهِ التَّوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ في النَّفَقةِ والقِسْمةِ؛ معناهُ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ شِدَّةُ الحُبِّ والمَيلِ بالقَلْبِ أنْ تَترُكوا الألفاظَ علَيها وإيفاءَ الحَقِّ؛ أعني حَقَّ القَسْمِ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ لَيسَتْ بأيِّمٍ ولا ذاتِ بَعْلٍ؛ لَيسَتْ بأيِّمٍ تَتَكَلَّفُ مَؤُنَتَها كما تَتَكَلَّفُ الأيِّمُ، ولا ذاتَ بَعْلٍ يَتَحمَّلُ [بَعْلُها ما علَيهِ][8]. وفي حرفِ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ: فَتَذَرُوها كالمَسْجونَةِ، وهو ما ذَكَرْنا؛ لا يَنْفَضُّ هو عنها، ولا يُطَلِّقُها لِتَتَزوَّجَ زَوجاً آخَرَ، فهيَ كالمَسْجونةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [النساء: ١٢٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ هذا يَنْقُضُ قولَ مَنْ يقولُ: إنهُ لم يَكُنْ رَحيماً ثم صارَ رحيماً لأنهُ أخبَرَ أنهُ كانَ رَحيماً، وهو يقولُ: صارَ رحيماً وباللهِ العِصْمةُ.

ثم المسألةُ بأنَّ المرأةَ إذا جَعلَتْ أيّامَها لِضَرَّتِها كانَ لها أنْ تَرجِعَ، وتَفسَخَ ذلكَ لأنها جَعلَتْ لها ما لم يَجِبْ بَعْدُ [ما لم][9] يَلْزَمْ، فكانَتْ[10] كَمَنْ أبرَأَ آخَرَ عَنْ حقٍّ لم يَجِبْ بَعْدُ، فإنَّ إبراءَهُ باطِلٌ؛ لهُ أنْ يَعودَ إليهِ، فيأخُذَهُ بهِ إذا وَجَبَ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ أيِ الزَّوجانِ إنْ تَفرَّقا لِما لم يَقْدِرِ [الزَّوجُ][11] على التَّسويةِ بَينَهُنَّ ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ المرأةُ تَتَزوَّجُ آخَرَ، والرَّجلُ [يَتَزوَّجُ][12] بامرأةٍ أُخرَى. ويَحْتَمِلُ ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ أنَّ كلَّ واحدٍ مِنهُما، وإنْ كانَ غَنِيّاً بالآخَرِ في حالِ النِّكاحِ فاللهُ قادِرٌ على أنْ يُغْنِيَ كُلَّ واحدٍ مِنهُما بَعْدَ الافتِراقِ كما كانَ يَرْزُقُهُما[13] قَبْلَ الفِراقِ.

وفيهِ دَليلُ قَطْعِ طَمَعِ الارتِزاقِ مِنْ غَيرِ اللهِ، وإنْ جازَ أنْ يَجْعَلَ غَيرَهُ سَبَباً في ذلكَ لأنهُ قالَ ﷻ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ﴾ لِيَعْلَمَ كُلٌّ أنَّ غِناهُ لم يَكُنْ بالآخَرِ حِينَ وَعَدَ لَهُما الغِنَى. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إلى

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: عليه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: وفيه ويضطر، في م: فيه يضطر ولا. (٦) في الأصل وم: مدفوعا فيه. (٧) في الأصل وم: أحوال. (٨) في الأصل وم: البعل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فكان. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يرزق.

قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢] دليلٌ قَطَعَ طَمَعَ ارتِزاقِ[١] بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ في النِّكاحِ لَمّا وَعَدَلَهُمُ الغِنَى إذْ كانُوا فُقَراءَ.

وفيهِ دليلُ وقوعِ الفُرْقَةِ بينهما بالمرأةِ بالمُكَنّى مِنَ الكلامِ لِمُشارَكَتِها فيه، وإنْ كانَ الزَّوجُ هو المُنْفَرِدَ بالفِراقِ، لِما أضافَ الفِعْلَ إليهما بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١] واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ دَليلُ لُزومِ النَّفَقةِ في العِدَّةِ لأنهُ ذَكَرَ الافْتِراقَ: إنما يكونُ بانْقِضاءِ العِدَّةِ. ثم أخبَرَ ﷺ عَنْ غِنَى كُلِّ واحدٍ مِنْهُما بالآخَرِ قَبْلَ الفِراقِ. دلَّ أنَّ لِلْمرأةِ غِنًى بالزَّوجِ ما دامَتْ بالعِدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ قِيلَ ﴿وَاسِعًا﴾ جَواداً، وقِيلَ: ﴿وَاسِعًا﴾ يُوسِعُ على كلٍّ منهُمْ رِزْقَهُ ﴿حَكِيمًا﴾ حَكَمَ[٢] على الزَّوجِ إمْساكاً بِمَعْروفٍ أو تَسْريحاً بإحسانٍ، وقيلَ: ﴿حَكِيمًا﴾ حِينَ حَكَمَ فِرْقَتَهُما.

وأصْلُ الحُكْمِ أنْ يُوضَعَ[٣] كلُّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ الآية؛ وَصَّى الخَلْقَ كُلَّهُمْ ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ثم قولُهُ ﷺ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ قيلَ: ﴿وَصَّيْنَا﴾ أمَرْنا، وقيلَ: ﴿وَصَّيْنَا﴾ فَرَضْنا على ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ قيلَ: أمَرْناهُمْ أنْ يُوَحِّدُوا اللهَ، ويَتَّقُوا الشِّرْكَ. وقالَ مُقاتِلٌ ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي وَحِّدُوا اللهَ. وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي أطيعُوهُ في ما أمَرَكُمْ، ونَهاكُمْ عنهُ. ويَحْتَمِلُ ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتَّقوا عذابَ اللهِ ونِقْمَتَهُ، ولا تَعْبُدوا غَيْرَهُ دُونَهُ ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ ولم تَتَّقُوا في ما أمَرَكُمُ اللهُ، ونهاكُمْ، فإنَّ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذَكَرَ هذا على إثْرِ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ لِيَعْلَمُوا أنهُ لم يَأمُرْهُمْ بذلكَ لِحاجةٍ لهُ في عِبادَتِهِمْ، ويَأمُرُ لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ، إذْ مَنْ لهُ مُلْكُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ لا يَحتاجُ إلى آخَرَ يَنْتَفِعُ بِهِ، ولكنْ لِيَعْلَمُوا أنهُ تعالى إنما أمَرَهُمْ بذلكَ لِحاجَتِهِمْ في ذلكَ ولِمَنْفَعةِ أنْفُسِهِمْ.

الا تَرَى أنهُ قالَ ﷺ: ﴿غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ عَنْ عِبادَتِكُمْ لهُ وطاعَتِكُمْ إياهُ، و﴿حَمِيدًا﴾ في سُلْطانِهِ؟ ويكونُ غَنِيّاً عَنْ خَلْقِهِ في الأوَّلِ ﴿حَمِيدًا﴾ في فِعْلِهِ. وذلكَ الحَميدُ في الفِعْلِ يَخْرُجُ على إتقانِ الفِعْلِ وإحكامِهِ أو على إحسانِهِ إلى خَلْقِهِ وإنعامِهِ عَلَيهِمْ.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنْ غِناهُ عَنْ عِبادةِ خَلْقِهِ وطاعَتِهِمْ لَهُ.

الآية ١٣٣ [وقولُهُ تعالى:][٤] ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ، أي مَنْ لَهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ يَقْدِرُ أنْ يُذْهِبَكُمْ أي يُهْلِكَكُمْ ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ أخيَرَ مِنْكُمْ وأخوَفَ وأطوَعَ للهِ مِنْكُمْ. لكنَّهُ لا يَفْعَلُ لأنهُ غَنِيٌّ عَنْ عِبادَتِكُمْ وطاعَتِكُمْ. لم يَخْلُقْكُمْ في الابْتِداءِ/ ١١٦ ـ ب/ لِحاجَتِهِ في عِبادَتِكُمْ ولِمَنْفَعَةٍ لهُ، ولكِنْ لِحاجةِ أنْفُسِكُمْ ومنافِعِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷺ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ في قومٍ خاصٍّ كما كانَ في الأُمَمِ الخاليةِ مِنَ الإهلاكِ عِنْدَ المُعانَدَةِ والمُكابَرَةِ. ويَحْتَمِلُ في الكُلِّ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يُهْلِكْكُمْ كُلَّكُمْ[٥] ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أي كانَ اللهُ على الإهلاكِ والإبدالِ قَديراً، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ: مَنْ كانَ

---

(١) في الأصل وم: الارتزاق. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: يضع. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الكل.

يُرِيدُ بِعَمَلِهِ الذي يَعْمَلُهُ عَرَضَ الدنيا، ولا يُرِيدُ بِهِ اللهَ آتاهُ اللهُ ما أَحَبَّ مِنْ عَرَضِ الدنيا، أو دَفَعَ عنهُ ما أَحَبَّ[1] في الدنيا، فليسَ لهُ في الآخِرَةِ مِنْ ثَوابٍ لأنهُ عَمِلَ لِغَيرِ اللهِ، هو كقولِهِ ﷺ: ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ومَنْ أرادَ بِعَمَلِهِ الذي يَعْمَلُهُ في الدنيا ثَوابَ الآخِرَةِ آتاهُ اللهُ تعالى مِنْ عَرَضِ الدنيا ما أَحَبَّ، ودَفَعَ عنهُ، وجَزاهُ في الآخرةِ الجنَّةَ بِعَمَلِهِ في الدنيا، واللهُ أَعْلَمُ.

وتَحْتَمِلُ الآيَةُ غَيرَ هذا [وجهَين:

أحدُهما][2]: أنهُمْ يَتَّخِذُونَ مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً يَعْبُدُونَها طَلَباً لِلرِّئاسةِ والعِزِّ والشَّرَفِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ [مريم: ٨١ و٨٢] فأخبَرَ أنَّ العِزَّ والشَّرَفَ لَيسَ في ذلكَ، ولكنْ عندَ اللهِ عِزُّ الدنيا والآخِرَةِ.

والثاني: أنهُمْ كانُوا يَعْبُدونَ الأوثانَ والأصنامَ، ويَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويقولُونَ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فأخبَرَ أنْ ليسَ في عِبادَتِكُمْ هذِهِ الأصنامَ مَنافِعُ تَأْمُلُونَ بذلكَ في الدنيا، والسَّعَةُ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية [العنكبوت: ١٧]. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷺ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لا ما تَطْلُبُونَ، واللهُ أَعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ لِمَقالَتِكُمْ ﴿بَصِيرًا﴾ بما تُرِيدُونَ، وتَعْمَلُونَ، وهو وَعِيدٌ.

الآية ١٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية: عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][3] قالَ: (كونُوا قَوّامِينَ بالعَدْلِ في الشَّهادةِ على ما كانَتْ مِنْ قَريبٍ أو بَعِيدٍ، ولو على [أَنْفُسِكُمْ فأَقِرُّوا][4] بها).

وكذلكَ قالَ عامَّةُ أهْلِ التَّأويلِ: قولُهُ تعالى: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ قَوّالِينَ للهِ؛ يقولُ[5]: في كلِّ عَمَلٍ وقولٍ يَلْزَمُ أنْ يَقومَ [المَرْءُ بِهِ][6] للهِ، ويَجْعَلَ الشهادةَ لهُ. فإذا فَعَلَ هكذا لا يمنَعُهُ عنِ القيامِ بها قُرْبُ أحَدٍ ولا بُعْدُهُ ولا [ما][7] يَحْصُلُ على نَفْسِهِ أو والدَيهِ.

وكذلكَ قالَ اللهُ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢] فإذا جَعَلَها [المَرْءُ][8] للهِ ﷻ لم يَجْعَلْها لِمَخلُوقٍ أمْكَنَ لهُ القيامَ بها، وإنْ كانَ على نَفْسِهِ أو مَنْ ذَكَرَ.

ثم ما يَمْنَعُ القيامَ بها مُخْتَلِفٌ: أمّا على نَفْسِهِ [فلِنَفْعٍ يَطْمَعُ بِهِ][9] أو لِدَفْعِ ضَرَرٍ يَدْفَعُهُ[10] بذلكَ، وأمّا على الوالِدَينِ بالاحتِشامِ، يَحْتَشِمُ[11] منهما، فَيَمْتَنِعُ عن أداءِ ما عليهِ، وأمّا [على][12] القرابةِ فَطَلَبُ الغِنَى لَهُمْ ودَفْعُ الفَقْرِ عَنْهُمْ، فأخبَرَ أنهُ ﴿أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فلا يَمْنَعْكَ غِنَى أحَدٍ منهُمْ ولا فَقْرُهُ القيامَ بها وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في تأويلِ هذِهِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ قيلَ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ وتَعْمَلوا لِغَيرِ اللهِ. وقيلَ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ كَراهَةَ ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ عَنِ الحقِّ مِنَ الصَّرْفِ بالعُدولِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ فيه لُغتانِ[13]: تَلُوا بواوٍ واحدةٍ مِنَ الوَلايةِ، يقولُ: كُونُوا عامِلِينَ للهِ وقائِلِينَ لَهُ مُؤَدِّينَ الشَّهادةَ لَهُ، وإنْ كُنْتُمْ وُلِّيتُمْ ذلكَ. وقيلَ: ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ بِواوَينِ مِنَ التَّحريفِ؛ يَقولُ: لا تَتَّبِعُوا الهَوَى، ولا تُحَرِّفُوا الشَّهادةَ، ولا تُعْرِضُوا عنها. وتَكْتُمُوها.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ رضي الله عنها: إنْ يَكُونُوا أغنياءَ أو فُقَراءَ فاللهُ ﴿أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ وعنْ قَتادَةَ رضي الله عنه [أنهُ قالَ في قولِهِ تعالى:][14] ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ اللهُ أولَى بِغِناكُمْ وفَقْرِكُمْ، فلا يَمْنَعُكُمْ غِنَى غَنِيٍّ أنْ [تَشْهَدُوا عليهِ لِحَقٍّ عَلِمْتُمُوهُ، أو أَمْرٌ ثَبَتَ لِفَقيرٍ أنْ تَشْهَدُوا لَهُ لِحَقٍّ عَلِمتُوهُ][15]. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ رضي الله عنها: وإنْ تَلُوا ﴿أو تُعرِضُوا﴾ وهو مِنَ الوَلايَةِ التي ذَكَرْنا. وقيلَ: ﴿وَإِن

---

(١) من م، في الأصل: أوجب. (٢) في الأصل وم: وجوها أحدها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: نفسه فأقر. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: ولكن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: لنفع. (١٠) في الأصل وم: يدفع. (١١) في الأصل وم: ويحتشم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) قرأ حمزة وابن عامر بواو واحدة وقرأ الباقون بواوين، أنظر حجة القراءات ص (٢٣٥). (١٤) في الأصل وم: يقول، مدرجة بعد قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾. (١٥) في الأصل وم: تشهد عليه لحق علمته ولأمر ثبت لفقير أن تشهد عليه لحق علمته.

تَلْوُوا﴾ مِنَ التَّحْرِيفِ وطَلَبِ الإبْطالِ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ بَيْنَ الناس، وهو مِنَ العَدْلِ على ما ذَكَرْنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو مِنَ الصَّرْفِ والعُدولِ عنِ الحَقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ خَرَجَ على الوَعيدِ على كلِّ ما ذَكَرَ: مَنْعِ الشَّهادةِ والقيامِ للهِ بها وتحريفِ مالَزِمَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وبِمِثْلِ ذلكَ رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ «مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُقِمْ شهادَتَهُ على ما كانَتْ» [بنحوه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٥/ ٣٢٢]. و: «مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومَ الآخِرِ فلا يَجْحَدْ حَقّاً هو عليهِ، ولْيُؤدِّهِ عَفْواً، ولا يُلْجِئْهُ إلى سُلْطانٍ ولا إلى خُصومةٍ لِيَقْطَعَ بها حَقَّهُ» و: «أيُّ ما رجلٍ خاصَمَ إليَّ، فَقَضَيْتُ لهُ على أخيهِ ليسَ هو إليهِ، فلا يأخُذَنَّهُ فإنما أقْطَعُ لهُ قِطعةً مِنْ جَهَنَّمَ» [البخاري: ٢٤٥٨].

وفي خَبَرٍ آخَرَ: «يا ابنَ آدمَ أقِمِ الشهادةَ [ولو على نَفْسِكَ أو على ذي قَرابَتِكَ، فإنما الشهادةُ][١] للهِ، ولَيْسَتْ للناسِ، إنَّ اللهَ رَضِيَ العدلَ والإقساطَ لِنَفْسِهِ، والعَدْلُ ميزانُ اللهِ في الأرضِ؛ يَرُدُّ على المَظْلومِ مِنَ الظالِمِ وعلى الضَّعيفِ مِنَ الشَّديدِ وعلى المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ، وبالحقِّ يُصدِّقُ اللهُ الصادِقَ، ويُكَذِّبُ اللهُ الكاذِبَ، ويَرُدُّ المُعْتَدِيَ، أو يُوَبِّخُهُ، وبالعَدْلِ أصْلَحَ اللهُ الناسَ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٥/ ٣٢٢].

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وجوهاً: [يَحْتَمِلُ][٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ في ما مَضى مِنَ الوَقْتِ ﴿ءَامِنُوا۟﴾ في حادِثِ الوَقْتِ. ويَحْتَمِلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ أي اثْبُتوا عليهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بِألْسِنَتِكُمْ ﴿ءَامِنُوا۟﴾ بقلوبِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

ويَحْتَمِلُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عندَ رَبِّهِمْ لِلْبأسِ والعذابِ ﴿ءَامِنُوا۟﴾ في الحَقيقةِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤].

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كما آمَنَ المُؤْمِنونَ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهُمْ كانُوا يؤمنونَ ببعضٍ، ويَكْفُرونَ بِبَعْضٍ.

ويَحْتَمِلُ. [قولُهُ تعالى][٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بمحمدٍ ﷺ، قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ ﴿ءَامِنُوا۟﴾ بِهِ حينَ[٤] بُعِثَ لأنهُمْ كانُوا مؤمِنِينَ[٥] بهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، فلَمّا بُعِثَ تَرَكُوا الإيمانَ بهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

[ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى][٦]: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي آمِنُوا بالكتابِ الذي نَزَّلَ على رسولِهِ وهو محمدٌ ﷺ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي آمِنُوا أيضاً بالكُتُبِ السَّماوِيَّةِ التي أنْزَلَها اللهُ.

ثم الإيمانُ باللهِ حَقيقةً إيمانٌ بِجَميعِ الرُّسُلِ والكُتُبِ لأنَّ كُلَّ نَبِيٍّ كانَ يَدْعُو إلى الإيمانِ بِجميعِ ذلكَ. وكذلكَ في كُلِّ كتابٍ مِنَ الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ دُعاءٌ إلى الإيمانِ بِجُمْلَتِهِمْ. الا تَرَى أنَّ الكُفْرَ بواحدٍ مِنْهُمْ كُفْرٌ باللهِ وبِجميعِ الرُّسُلِ والكُتُبِ وما ذَكَرَ؟ وباللهِ العِصْمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: مؤمنون.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

بِجَميعِ ما ذَكَرَ ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ وهو على التأكيدِ. ويَحتَمِلُ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾ تعالى أو ملائكتِهِ أو كُتُبِهِ أو رُسُلِهِ أو اليَومِ الآخِرِ فَقَدْ كانَ ما ذَكَرَ لأنَّ الكُفرَ بِواحِدٍ مِنْ ذلكَ كُفْرٌ بالكُلِّ حتَى لو أنْكَرَ آيةً مِنْ آياتِ اللهِ تعالى كَفَرَ باللهِ وبالكُتُبِ والرُّسُلِ كلِّها، وباللهِ التّوفيق.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][1] قالَ: (نَزَلَتِ الآيةُ في الذينَ قالَ الله تعالى في سُورةِ /١١٧ ـ أ/ آلِ عمرانَ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾)؟ [الآية: ٨٦].

وقيلَ: إنها نَزَلَتْ في الذينَ آمَنوا بِمُوسى عليه السلام ثم كَفَرُوا بَعْدَ مُوسى، ثم آمَنوا بِعُزَيرٍ، ثم كَفَروا بَعْدَهُ، ثم آمَنُوا بِعيسى عليه السلام وبالإنجيلِ، ثم كَفَروا مِنْ بَعْدِهِ ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وبالقرآنِ الكريمِ، وهو الأولَى.

وقيلَ غيرُ هذا. لكنْ ليسَ بِنا إلى أنها فيهِمْ نَزَلَتْ حاجةٌ، ولكنْ فيهِ دليلُ أنها في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنُونَ أبداً، ولا يَتوبونَ، لأنهُ قالَ: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ أخبَرَ أنهُ لا يَغفِرُ لَهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران: ٩٠] لِما عَلِمَ اللهُ أنهُمْ لا يَتوبونَ، وإلّا لو آمَنوا، وتابُوا، قُبِلَتْ توبَتُهُم. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ لِما عَلِمَ أنهُمْ لا يَتوبونَ؛ على ذلكَ أخبَرَ أنهُ لا يَغفِرُ لَهُمْ.

وفيهِ دليلُ أنْ تُقْبَلَ تَوبَةُ المُرْتَدِّ إذا تابَ، لَيسَ كما قالَ بَعْضُ الناسِ: إنهُ لا يَقْبَلُ تَوبَةَ المُرْتَدِّ لأنهُ أثبَتَ لَهُمُ الإيمانَ بَعْدَ الكُفرِ والاِرْتِدادَ بقولِهِ: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ﴾ كذا، فَدَلَّ أنهُ إذا تابَ تُقْبَلُ منهُ.

وقالَ أصحابُنا: يُسْتَتابُ المُرْتَدُّ ثَلاثاً، فإنْ أسْلَمَ، وإلّا قُتِلَ. رُوِيَ عنْ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه [أنهُ][2] قالَ: (يُسْتَتابُ المُرْتَدُّ ثَلاثاً، ثم تَلا هذِهِ الآيةَ). وعنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه كذلكَ. وعنْ عُمَرَ رضي الله عنه (أنهُ قَدِمَ عليهِ رجلٌ مِنَ الجَيشِ، فقالَ: هلْ حَدَثَ لكُمْ جَدَدٌ؟ فقالَ: إنَّ رجلاً مِنَ المُسلمِينَ ارْتَدَّ، ولَحِقَ بالمُشْرِكِينَ، فأخَذْناهُ. قالَ: ما صَنَعْتُمْ بهِ؟ قالَ[3]: قَتَلْناهُ. قالَ: هَلّا أدخَلْتُموهُ بَيتاً، وأغلَقْتُمْ عليهِ باباً؛ أطعَمْتُموهُ كلَّ يومٍ رَغيفاً، واسْتَتَبْتُموهُ ثَلاثاً؟ فإنْ تابَ، وإلّا قَتَلْتُموهُ، ثم قالَ: اللهمَّ إني لم أشهَدْ، ولمْ آمُرْ، ولم أرْضَ حينَ بَلَغَني).

وقالَ أبو حَنيفةَ رضي الله عنه: (إذا ارْتَدَّ ثَلاثاً، ثم تابَ في كُلِّ مَرَّةٍ، فإنهُ يُحْبَسُ في الثالِثَةِ، إذا تابَ حتى يَظْهَرَ منهُ خُشوعُ التَّوبَةِ؛ وذلكَ إثْرَ الثباتِ على التَّوبَةِ[4]، لأنهُ أظهَرَ الفِسْقَ، والفاسِقُ يُحْبَسُ حتى يَظْهَرَ خُشوعُ التَّوبَةِ [عليهِ][5]).

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ بقولِهِ: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ البَيانَ على ما قالَهُ قومٌ لأنهُ قد تولّى لَهُمُ البيانَ، لكنَّهُمْ تعانَدُوا، ولم يَهْتَدُوا، فَدَلَّ أنَّ ثَمَّ مَعْنىً فيهِ سِوَى البَيانِ لم يُعْطِهِمْ لِما عَلِمَ أنهُمْ لا يَهْتَدُونَ أبداً، وهو التوفيقُ، فهذا يَرُدُّ على مَنْ لا يَجْعَلُ الهُدَى إلّا بَياناً إذْ قد بيَّنَ لَهُمْ ذلكَ.

الآية ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بِكذا، البِشارةُ المُطْلَقَةُ المُرسَلَةُ لا تكونُ إلّا بالخَيرِ خاصّةً. وأمّا إذا كانَتْ مُقَيَّدَةً مُفَسَّرَةً فإنها تَجوزُ في الشَّرِّ كقولِهِ تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨] وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١ والتوبة: ٣٤]. وفي القرآنِ كَثيرٌ: ما ذَكَرَها في الشَّرِّ إلّا مُفَسَّرَةً مُقَيَّدَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يَدُلُّ هذا على أنَّ الآيةَ الأولَى في أهلِ النِّفاقِ، والمرادُ على ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلِ لأنهُ لم يَسْبِقْ في ما تَقَدَّمَ ذِكْرٌ لَهُمْ سِوَى قولِهِ تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ويَحتَمِلُ على الاِبْتِداءِ والاِئْتِنافِ على غَيرِ ذِكْرٍ تَقَدَّمَ. وذلكَ جائزٌ في القرآنِ، كَثيرٌ.

الآية ١٣٩ ثم [في المنافقين قالَ][6]: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قالوا. (٤) في الأصل وم: توبة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: المنافقين فقال.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قولاً وفعلاً. وأمّا القولُ فكقولِهِم(١): ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وغيرِهِ مِنَ الآياتِ. وأمّا الفِعلُ [فقد كانوا](٢) يَمنَعونَ المؤمنينَ أنْ يَغزُوهُم كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢] وكقولِهِ(٣) تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] كانوا يَمنَعونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ، والمُسلِمِينَ عن أنْ يَغزوهُم، ويُقاتِلوهُم. فَهُمْ، وإنْ كانُوا يُرونَ مِن أنفُسِهِمُ المُوافَقَةَ لِلْمُؤمِنِينَ في الظاهِرِ، فإنهُمْ كانُوا في الحَقيقةِ مَعَهُمْ. فهذا، واللهُ أعلَمُ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ قيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ على طَرْحِ الألِفِ، وأنها زائدةٌ؛ أي يَبْتَغُونَ بذلكَ مِنْ عِندِهِمُ العِزَّةَ، ثم يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ وجهَينِ: تَحتَمِلُ ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ المَضْنَعَةَ والنُّصْرَةَ، وكانُوا يطلُبونَ بذلكَ النُّصْرَةَ والقُدْرَةَ عندَ الكافِرينَ. وتَحتَمِلُ ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ لِيَتَعزَّزُوا بذلكَ.

والأصلُ أنَّ حَرْفَ الاسْتِفهامِ، مِنَ(٤) اللهِ، لهُ حَقُّ الإيجابِ على [ما](٥) يَقتَضِي جَوابُهُ مِن حَقيقةِ الِاسْتِفهامِ أنَّ اللهَ عالِمٌ، لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ يَسْتَفهِمُ. جَلَّ عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي القُدْرَةُ والنُّصْرَةُ، كُلُّها للهِ، مِن عِندِهِ تكونُ، وبِهِ يَتَعزَّزُ [المَرْءُ](٦) في الدنيا والآخِرةِ، لَيسَ مِنْ عندِ أولئكَ الذينَ يَطلُبونَ منهُم.

الآية ١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ قال بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو ما ذَكَرَ في سورةِ الأنعام، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الآية: ٦٨]، ثم قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الآية: ٦٩] نَهاهُمْ ﷺ عنِ القُعودِ مَعَهُمْ إذا خاضُوا في طَعْنِ القرآنِ وآياتِ اللهِ، فأخبَرَ أنْ ليسَ لَهُمْ ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ إذا قَعَدُوا. ثم قالَ في هذهِ الآيةِ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ ثم قالَ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ نَهاهُمْ ﷺ عنِ القعودِ ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ نَهاهُمْ ﷺ عنِ القُعودِ مَعَهُمْ، وأخبَرَ أنهُمْ إذا فَعَلُوا ذلكَ يكونونَ مِثْلَهُمْ.

فهوَ، واللهُ أعلَمُ، على النَّسْخِ، نَسَخَ هذا الأوَّلَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ في المُشرِكينَ، ثم يَلْحَقُهُمْ مِنَ العُقوبةِ والمَأْثَمِ، لأنهُمْ لا يَقدِرونَ على مَنْعِ المُنافِقِينَ عَنْ ذلكَ؛ فَشارَكَهُمْ(٧) في العُقوبةِ في ما يَقدِرُونَ على مَنْعِهِمْ، فلم يَمنَعُوا، ودَفْعَ عَنْهُمْ ذلكَ في ما لا يَقدِرونَ على دَفْعِهِ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ مَنْ بُلِيَ بِمُنْكَرٍ، لهُ قُدْرَةُ التَّغْيِيرِ على أهلِهِ، فلم يُغَيِّرْ، [بل شارَكَهُمْ](٨) في ذلكَ. أو إذا لم يكُنْ لَهُ قُدْرَةُ التَّغْيِيرِ عليهِمْ فَعَلَ؛ أي أنكَرَ عليهِمْ، وغَيَّرَهُ، وإلّا فارَقَهُمْ، وإلّا يخافُ أنْ يُشارِكَهُمْ في العُقوبةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ الآية لأنهمْ كانُوا مَعَهُمْ في السِّرِّ والحَقيقةِ، وإنْ كانُوا يُظهِرونَ لِلْمُؤمِنِينَ المُوافَقَةَ باللِّسانِ؛ فهذا يَدُلُّ على أنَّ الحَقائِقَ في العَواقِبِ هي(٩) ما يُسِرُّ المَرْءُ، ويُضمِرُ، لَيسَتْ(١٠) ما يُظهِرُ؛ لأنَّ المُنافِقِينَ كانُوا مَعَ المؤمِنِينَ في الظاهِرِ في جَميعِ الأحكامِ: في الأنكِحَةِ والعُقودِ كُلِّها وإظهارِ الإيمانِ لَهُمْ باللسانِ، لكنَّهُمْ إذْ(١١) أضمَرُوا خِلافَ ما أظهَرُوا لم يَنْفَعْهُمْ. ذلكَ أنَّ الحَقائِقَ في العَواقِبِ(١٢) ما يُسَرُّ، ويُضمَرُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قولهم. (٢) في الأصل وم: وكانوا. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: كله. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فشاركوهم. (٨) في الأصل وم: أن يشاركهم. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: ليس. (١١) في الأصل وم: إذا. (١٢) في الأصل وم: العقوبات.

الآية ١٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَين؛ يَحتَمِلُ ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ الغَنيمةَ والنَّصرَ. فإذا كانَ الفتحُ لِلْمؤمِنينَ ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الإيمانِ والأحكامِ كلِّها؛ يَطْلُبُونَ الغَنيمةَ والاشتِراكَ فيها كقولِهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ الآية [الأحزاب: ١٩] وإذا كانَتِ الدَّبْرَةُ والبَوارُ على المؤمِنينَ لِلْكافِرينَ يقولُونَ: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بقولِهِمْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ الآية [الأحزاب: ١٨] كانوا بَيْنَ المُسْلِمِينَ كَعُيونٍ لَهُمْ يَخْبُرُونَ[1] عَوراتِهِمْ، ويُطْلِعُونَهُمْ على مَقصودِ المؤمِنينَ؛ فذلكَ مَنْعُهُمْ مِنَ المؤمِنينَ واسْتِحْواذُهُمْ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ يعني أمْرُ محمدٍ ﷺ وأصحابِهِ عندَهُمْ بألّا يَدومَ ذلكَ بل يَنْقَلِبُ[2] عن قريبٍ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤] ثم خَرَجَ تأويلُهُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]. ثم خصَّ ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ الآية [التوبة: ٩٨]. فبَيَّنَ أنهُمْ يَتَرَبَّصونَ لانْقِلابِ الأمرِ ورجوعِهِ إلى أعداءِ اللهِ. فمَتَى ظَهَرَتْ لَهُمُ العَواقِبُ أظْهَرُوا الذي دِينُهُمْ في الحَقيقةِ أنهُ كانَ لِسَعَةِ الدنيا/ ١١٧ ـ ب/ ونَعيمِها كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الآية [النساء: ٧٢] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يَحتَمِلُ هذا أيضاً وجهَين: يَحتَمِلُ ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ في الحُجَجِ في الدنيا: أي ليسَ لِلْكافِرينَ الحُجَّةُ على المؤمِنينَ في الدينِ مِنْ شَيءٍ إلّا أنْ يُمَوِّهوا[3] عليهِ، ويفْتَعِلوا[4] بِهِ بعَجْزِ المؤمِنينَ[5] في إقامةِ الحُجَّةِ عليهِمْ[6] ودَفْعِ [تَمْويهاتِهِمْ. وليسَ للكافِرين][7] ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ في الآخِرةِ على دَفْعِ شَهادتِهِمْ لأنَّ أمّةَ محمدٍ ﷺ يَشْهَدُونَ عليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] [ثم لا سَبيلَ لَهُمْ على دَفْعِ شَهادتِهِمْ][8] لأنَّ أمّةَ محمدٍ [هُمُ الذينَ يَشْهَدونَ][9] عليهِمْ، [ويَرُدُّونَ شهادتَهُمْ][10]، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحتَمِلُ][11] ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ في الحُجَّةِ أو في الشهادةِ أو عندَ اللهِ في الخُصومةِ، وإنما إذا[12] دُعُوا إلى كُتُبِهِمْ أجابُوا في ما دَعاهُمْ إلى الإيمانِ بالكُتُبِ والرُّسُلِ ﷺ أو في النَّصْرِ، فيرجِعُ أمْرُهُ على العَواقِبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾؛ [قيلَ][13] الاسْتِحْواذُ الغَلَبَةُ، وقيلَ: الاسْتيلاءُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: أَلَمْ نُخْبِرْكُمْ بِعَورةِ محمدٍ وأصحابِهِ، ونُطْلِعْكُمْ على سِرِّهِمْ، ونَكْتُبْ بِهِ إليكُمْ؟

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][14]: أَلَمْ نُحِطْ مِنْ وَرائِكُمْ؟ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ومَنَعْناكُمْ مِنَ المؤمِنينَ؟

قالَ الكِسائيُّ: هذا في كلامِ العربِ كثيرٌ ظاهِرٌ، ومَعْنَى ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ إنا اسْتَحْوَذْنا، ومَنَعْناكُمْ، وهو ظريفٌ.

وأصلُ الاسْتِحْواذِ الغَلَبَةُ والقَهْرُ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُمْ يَجيئُونَ أصحابَ النبيِّ ﷺ يقولُونَ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

[وقولُهُ تعالى][15]: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلَمُ، أنْ يُنْزِلَ المؤمِنينَ الجَنّةَ والمنافِقينَ النارَ ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ في الحُجَّةِ على ما ذَكَرْنا. وكذلكَ رَوَى ابنُ عباسٍ ﷺ: يُقالُ: حُجَّةً، وقيلَ: ظُهوراً، لكنَّ الأوَّلَ أشْبَهُ. ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الشهادةِ أنهُ جَعَلَ يومَ القيامةِ لِلْمؤمِنينَ الشهادةَ عليهِمْ، ولم يَجْعَلْ لهمْ إلى دفعِها وردِّها عَنْ[16] أنفُسِهِمْ سَبيلاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: ليغيرون. (٢) في الأصل وم: ينفع. (٣) في الأصل وم: يموه. (٤) في الأصل وم: ويفتعل. (٥) في الاصل وم: المؤمن. (٦) في الأصل وم: عليه. (٧) في الأصل وم: تمويهاتها وإلا ليس للكافر. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: التي. (١٠) في الأصل وم: وردوها. (١١) في الأصل وم: أيضاً وهو الوجه الثاني. (١٢) أدرجت في الأصل وم: قبل: أجابوا. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: على.

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ قولُهُ ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ أولياءَ اللهِ أو دِينَهُ، فأُضِيفَ إليهِ، فهو جائزٌ، وفي القرآنِ كثيرٌ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي تَنْصُرُوا دينَ اللهِ أو أولياءَهُ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ وقد ذَكَرْنا هذا في صَدْرِ الكِتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي يَجْزِيهِمْ جَزاءَ خِداعِهِمُ المؤمنينَ، فَسَمَّى خِداعاً، وإنْ لم يكنْ في الحَقيقةِ خِداعاً لأنهُ جزاءُ الخِداعِ، وهو كما سَمَّى ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وإنْ لم تكنِ الثانيةُ في الحقيقةِ سَيِّئةً. وكذلكَ سَمَّى جَزاءَ الاعْتِداءِ اعْتِداءً، وإنْ لمْ يكنِ الثاني اعْتِداءً. فَعَلى ذلكَ سَمَّى هذا خِداعاً لأنهُ جَزاءُ الخِداعِ، واللغةُ غيرُ مُمْتَنِعَةٍ عنْ تَسْمِيَةِ الشَّيءِ بِاسْمِ سَبَبِهِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في جِهَةِ الخِداعِ، عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][(١)] قالَ: (يُعطي [اللهُ][(٢)] المُنافِقينَ على الصِّراطِ المُسْتَقيمِ نُوراً كما يُعطي المؤمِنينَ، فإذا مَضَوا بِهِ على الصِّراطِ أطْفَأَ نُورَهُمْ، ويُبقِي نُورَ المؤمنينَ، يَمضونَ بِنُورِهِمْ، فَيُنادُونَ المؤمنينَ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] فَنَجوزَ بِهِ، فَيُناديهِمُ الملائكةُ: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] وقد عَلِمُوا أنهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الرجوعَ، فذلكَ ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾) وكذلكَ قالَ الحسنُ، ثم قالَ: (فتلكَ خَديعةُ اللهِ إيّاهُمْ).

وقالَ آخَرُونَ: يُفْتَحُ لَهُمْ بابٌ مِنْ أبوابِ الجنةِ، فإذا رَأَوا ذلكَ البابَ، فلَمّا دَنَوا منهُ أُغْلِقَ دُونَهُمْ. فذلكَ الخِداعُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ وهو أنهُمْ شارَكُوا المؤمنينَ في هذِهِ الدنيا ومَنافِعِها والتَّمَتُّعِ والتَّقَلُّبِ فيها، فَظَنُّوا أنهُمْ يُشارِكُونَهُمْ في مَنافِعِ الآخِرةِ والتَّمَتُّعِ بها، فَيُحْرَمونَ. تلكَ الخديعةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى لِلْمُنافِقينَ أعلاماً في [القَولِ والفعلِ][(٣)] يُعْلَمُ بها المُنافِقونَ. أمّا في القولِ [فَهيَ][(٤)] ما قالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢] وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ الآية [الأحزاب: ١٨].

وأمّا في الفِعْلِ فَهيَ[(٥)] قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وقولُهُ عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨] أي القتالَ، وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية [الأحزاب: ١٩] ومِثْلُها[(٦)] كثيرٌ في القرآنِ مِمّا جَعَلَ ذلكَ علامةً لَهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ الآية [المنافقون: ٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية [التوبة: ١٢٧] يُراؤُونَ في جَميعِ أفعالِهِمُ الناسَ. وفي حرفِ حفصةَ رضي الله عنها ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ واللهُ يَعْلَمُ ما في قلوبِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][(٧)]: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عنِ الحَسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [أنهُ قالَ][(٨)]: (أمَا واللهِ لو كانَ ذلكَ القليلُ منهُمْ للهِ لَقَبِلَهُ، ولكنَّ ذلكَ القليلَ رياءٌ). وقيلَ: لو كانَ ذلكَ القَليلُ للهِ، يُرِيدُونَ بِهِ وجهَهُ، فَقَبِلَهُ، لَكانَ كَثيراً، ولكنْ لا يقبَلُهُ، فهو لا شيءَ، وقد يُتَكَلَّمُ بالقَليلِ واليَسيرِ على إرادةِ النَّفْيِ مِنَ الأصْلِ، واللهُ أعْلَمُ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه [أنهُ][(٩)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ الصلاةَ حَيثُ يَراهُ الناسُ، وأساءَها حَيثُ يَخْلُو، فَتِلْكَ اسْتِهانَةٌ يَسْتَهِينُ بها رَبَّهُ» [عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٣٧٣٨].

ورُوِيَ في علامةِ المنافِقِ أخبارٌ: رَوَى أبو هُرَيرةَ رضي الله عنه، قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إنَّ لِلْمنافِقينَ علاماتٍ يُعْرَفونَ بها: تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ، وطَعامُهُمْ نُهْبَةٌ، وغَنيمَتُهُمْ غُلولٌ، لا يَقْرَبونَ المساجدَ إلّا هَجْراً، ولا يأتونَ الصلاةَ إلا دَبْراً» [أحمد ٢/ ٢٩٣].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قوله وفعله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: ومثله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فقال. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ، [أنه قالَ][١]: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ مُنافِقاً خالِصاً: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا اتُّمِنَ خانَ» [البخاري ٣٤] ورُوِيَ: «ثلاثٌ».

ورُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ [أنهُ][٢] قالَ: (اعْتَبِروا المنافِقَ بِثَلاثٍ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، ثم قرأَ الآياتِ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية) [التوبة: ٧٥]. وعَنْ وَهْبٍ [أنهُ][٣] قالَ: (مِنْ خِصالِ المُنافِقِ أنهُ يُحِبُّ الحَمْدَ، ويَكْرَهُ الذَّمَّ).

الآية ١٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ قالَ أكثرُ أهلِ التأويلِ: لَيسُوا بِمُسْلِمينَ مُخلِصينَ، ولا مُشْرِكينَ مُصَرِّحينَ. وهو أيضاً قولُ قَتادَةَ. وقالَ مُقاتِلٌ: لَيسُوا مَعَ اليهودِ فَيُظْهِروا[٤] وَلايَتَهُمْ لهُمْ، ولَيسُوا مع المؤمنينَ في التَّصْديقِ معَ الوَلايةِ. ويَحْتَمِلُ غَيرَ هذا، وهو [أنهُمْ لم يُظْهِروا][٥] لِكُلِّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ مِنْهُمُ المُوافَقَةَ لَهُمْ والكَونَ مَعَهُمْ، بل ظَهَرَ منهُمُ الخِلافُ عندَ كلِّ فريقٍ لأنهُمْ كانُوا أصحابَ طَمَعٍ عُبَّادَ أنفُسِهِمْ، يكونُونَ حيثُ رَأَوُا السَّعَةَ معَهُمْ؛ فلا ﴿إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ في حَقيقةِ الدينِ عندَ أنفسِهِمْ ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ فنذلكَ، واللهُ أعلَمُ، تأويلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ قيلَ: حُجَّةً على ما قيلَ في الأوّلِ، وقيلَ: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ يعني هُدىً [وطريقاً مُستَقيماً][٦]، واللهُ أعلَمُ. وعنِ الحَسَنِ: (﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ما دامَ كافراً، فإذا تابَ، ورَجَعَ عنْ ذلكَ، فَلَهُ السَّبيلُ).

الآية ١٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][٧] قالَ: (نَزَلَتْ في المنافِقينَ الذينَ اتَّخذُوا ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سَمّاهُمُ اللهُ تعالى مؤمنينَ بإقرارِهِمْ بالإيمانِ عَلانِيَةً وتَولِّيهِمُ الكافِرينَ سِرّاً) ويُقالُ[٨]: سُمُّوا مؤمنينَ لِما كانوا يَنْتَسِبونَ إلى المؤمنينَ /١١٨ ـ أ/ فَسُمُّوا بذلكَ. وقيلَ: نزلَتْ في المؤمنينَ: نَهاهُمْ أنْ يتَّخِذوا المُنافِقينَ أولياءَ بإظهارِهِمُ الإيمانَ عَلانِيَةً، وأمَرَهُمْ أنْ يتَّخِذُوا المؤمنينَ أولياءَ.

ثم وَجْهُ[٩] النَّهيِ في الوَلايةِ واتِّخاذِهِمْ أولياءَ يكونُ مِنْ وُجوهٍ:

يَحْتَمِلُ النَّهيَ عنْ وَلايَتِهِمْ وَلايةَ الدِّينِ: أي لا تَثِقُوا بهِمْ، ولا تُصَدِّقُوهُمْ، ولا تأمَنُوهُمْ في الدينِ، فإنّهُمْ يُريدونَ أنْ يَصْرِفُوكُمْ عنْ دينِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

ويَحْتَمِلُ[١٠] النَّهيَ [عنْ وَلايةِ الأولياءِ][١١] في أمرِ الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ الآية [آل عمران: ١١٨] نَهى المؤمنينَ ﷺ أنْ يَجعَلُوا المُنافِقينَ مَوضِعَ سِرِّهِمْ في أمْرٍ مِنْ أمورِ الحَرْبِ وغَيرِهِ.

[ويَحْتَمِلُ النَّهيَ][١٢] في كُلِّ أمْرٍ، أي لا تُصادِقُوهُمْ، ولا تُجالِسُوهُمْ، ولا تأمَنُوهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ قيلَ: عُذراً مُبيناً، وقيلَ: حُجَّةً بَيِّنَةً يَحتَجُّ بها عليكُمْ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ هو[١٣]، واللهُ أعلَمُ، الإرادةُ، وهي صفةُ كُلِّ فاعلٍ في الحقيقةِ. وحَرْفُ الاستِفهامِ مِنَ اللهِ إيجابٌ، فكأنهُ قالَ: قد جَعَلْتُمْ للهِ في تَعذيبِكُمْ حُجَّةً بَيِّنَةً يَعْقِلُها الكُلُّ، أنّى ذلكَ يكونُ، وهو اتِّخاذُ الكافرينَ أولياءَ دُونَ المُؤمنينَ حجّةً ظاهرةً في لُزومِ المَقْتِ؟

وجائزٌ أنْ تكونَ الإضافةُ إلى اللهِ تَرْجِعُ إلى أولياءِ اللهِ نَحْوَ الأمْرِ بِنَصْرِ اللهِ والقولِ بِمُخادَعةِ اللهِ. وكانَ ذلكَ منهُمْ حُجَّةً بَيِّنَةً عليهِمْ لأولياءِ اللهِ أنّهُمْ لا يَتَّخِذونَ الشيطانَ وَلِيَّ عِبادَةِ غَيرِ اللهِ، فاتَّخَذُوهُ[١٤]، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم. فيظهرون. (٥) في الأصل وم: أنه لم يظهر. (٦) في الأصل وم: وطريق المستقيم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو أن يقال. (٩) من م، في الأصل: وجد. (١٠) هذا هو الوجه الثاني. (١١) في الأصل وم: أولياء. (١٢) في الأصل وم: والثالث. (١٣) في الأصل وم: فهو. (١٤) في الأصل وم: اتخذوه.

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الدَّرْكُ بالجزمِ والفَتْحِ لُغَتانِ، وهما واحدٌ. يُقالُ: لِلْجنّةِ دَرجاتٌ وغُرُفاتٌ، وللنارِ دَرَكاتٌ، بَعْضُها أسْفَلُ مِنَ بَعْضٍ. وقيلَ: كُلّما كانَتْ[1] أسْفَلَ كانَ العذابُ فيها أشَدَّ.

ألا تَرَى أنّهُ أخْبَرَ عنهُمْ بقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩] فلو لم يَكُنْ أسْفَلُ منهُمْ في الدَّرَكاتِ أشَدَّ عذاباً لم يَكُنْ لِقَولِهِمْ ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ مَعْنًى. فَدَلَّ أنَّ كلَّ ما كانَ أسْفَلَ مِنَ الدَّرَكاتِ كانَ في العذابِ الأشَدِّ، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ أنَّ النّبيَّ ﷺ «ذَكَرَ عبدَ المُطّلِبِ وهشامَ بْنَ المُغيرَةِ؛ قالَ: هما مِنْ أدْنَى أهْلِ النارِ عذاباً، وهُما في ضَحْضاحٍ مِنَ النارِ خالِدَينِ فيها. وأدْنَى أهلِ النارِ عَذاباً في رِجْلَيْهِ نَعْلانِ يَغْلي منه دِماغُهُ» [البخاري ٣٨٨٣ و٣٨٨٥].

وعنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: الأدراكُ[3] توابيتُ مِنْ حَديدٍ، تُصْمَتُ عليهِمْ في أسْفَلِ النارِ. وقيلَ: إنَّ العذابَ في النارِ واحدٌ في الظاهِرِ، وهو مُخْتلِفٌ في الحَقيقةِ، وأيّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى ﷻ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] لكنَّ بعْضَهُمْ لا يَشْعُرُ بِعذابِ غَيرِهِم كقولِهِ تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] سألُوا رَبَّهُمْ أنْ يَجْعَلَ لَهُمْ ضِعْفاً مِنَ العذابِ جَزاءَ ما أضَلُّوا، فأخبَرَ أنَّ لِكُلٍّ ضِعفاً مِنَ الآثامِ[4].

ثم تَخْصيصُ المُنافقينَ ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ مِنَ النارِ دونَ سائِرِ الكَفَرَةِ [يَحْتمِلُ وُجوهاً][5] ثَلاثةً:

أحدُها: أنّهُمْ كانُوا يَسْعَونَ في إفسادِ ضَعَفَةِ المُسْلِمينَ، ويُشَكِّكُونَهُمْ في دِينِهِمْ، ويَتَكلّفُونَ في إخراجِهِمْ مِنَ الإيمانِ. وكانَ ذلكَ دأبَهُمْ وعادَتَهُمْ، فاسْتَوجَبُوا بذلك العَذابَ جَزاءً في إفسادِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني[6]: أنْ يكونَ ذلكَ لَهُمْ لأنهُمْ كانُوا عُيُوناً لِلْكَفَرَةِ وطلائِعَ لَهُمْ، يُخْبِرونَ بذلكَ عنْ أخبارِهِمْ وسَرائِرِهِمْ، ويَطّلِعُونَ على عَوراتِهِمْ. فذلكَ سَعْيٌ في أمْرِ دِينِهِمْ ودُنْياهُمْ بالفَسادِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

والثالثُ[7]: أنهُمْ لم يَكُونُوا في الأحوالِ كُلّها أهْلَ دينٍ، يُقِيمونَ عليهِ في حالَي[8] الرَّخاءِ والضِّيقِ، ولكنْ كانُوا مَعَ السَّعَةِ والرَّخاءِ حيثُ كانَ، ولا كذلكَ سائرُ الكفرةِ، بل كانوا في حالِ الرَّخاءِ والشِّدَّةِ على دينٍ واحدٍ يَعْبُدُونَ الأصنامَ. أولئكَ كانُوا مع المؤمِنينَ في حالٍ إذا كانَتِ السَّعَةُ مَعَهُمْ، ومع الكافِرينَ في حالٍ إذا كانَتِ السَّعَةُ مَعَهُمْ، لا يَقَرّونَ على شيءٍ واحدٍ مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ ذلكَ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية [النساء: ١٤٣] والكَفَرَةُ عَبَدُوا مَنْ عَبَدُوا على رَجاءِ التَّقْريبِ إلى اللهِ ﷻ لهم بذلكَ لِيَكونُوا لَهُمْ شُفَعاءَ عندَ اللهِ[9].

وأهْلُ النِّفاقِ لم يَكُونوا يَعْبُدُونَ غَيرَ بُطونِهِمْ ومَنْ مَعَهُ شَهَواتُهُمْ. فلذلكَ ازْدادَ عذابُهُمْ على عذابِ غَيرِهِمْ ولما جَمَعُوا إلى الكُفْرِ باللهِ المُخادَعَةَ والتَّعْزيرَ وإغراءَ الأعداءِ واسْتِعلاءَهُمْ[10]، ولما قد أشْرَكُوا الفِرَقَ كُلَّهُمْ في اللَّذّاتِ وفي طَلَبِ الشَّهَواتِ، فعادَ إليهِمْ ما اسْتَحَقَّ كُلٌّ منهُمْ مِنَ العُقوبةِ، وبِما بذلكَ شارَكُوا في كُلِّ المَعاصي أو سَبيلِها إعطاءَ الأنْفُسِ الشَّهَواتِ مَعَ ما منهُمْ تَغْزيرُ ضَعَفَةِ المؤمِنينَ والتَّلْبيسُ عليهِمْ، ولا قوةَ إلا باللهِ.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][11] قالَ: تابوا مِنَ النِّفاقِ، وأصْلَحُوا أعمالَهُمْ، واعْتَصَمُوا باللهِ. وقيلَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقولُ: أي صارُوا كَسائِرِ المؤمِنِينَ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وأُبَيٍّ [بْنِ كعْبٍ][12]: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ وآمَنوا باللهِ والرسولِ والكتابِ الذي أُنْزِلَ إليهِ مِنْ ربِّهِ وما أُنْزِلَ [إلى][13] النَّبِيِّينَ منْ قَبْلُ، ثم أخْلَصُوا دينَهُمْ للهِ؛ واعْتَصَمُوا بِهِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ

(١) في الأصل وم: كان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: الأداراك، في م: الدرك. (٤) في الأصل وم: الأئمة. (٥) في الأصل وم: وجوه. (٦) في الأصل وم: يحتمل. (٧) في الأصل وم: يحتمل وجهاً آخر. (٨) في الأصل وم: حال. (٩) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (١٠) في الأصل وم: واستعلانهم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل، في م: من.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾). وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [أنه][1] قال: (لم يُراؤوا، وكانت سيرتُهم كَعَلانيتِهم وأفضل).

الآية ١٤٧ وقولُه تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ تأويلُه، واللهُ أعلم، أنْ ليسَ للهِ حاجةٌ في تعذيبِه إياكُم إنْ صدقْتُم، وآمنتُم. ولكنَّ الحِكمةَ تُوجِبُ تعذيبَ مَنْ كفرَ به. وإلّا ليسَ لهُ حاجةٌ في تعذيبِكُم، واللهُ أعلم.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في قوم فرَّطوا في التكذيبِ ومُعانَدةِ رسولِ اللهِ ﷺ فظنّوا أنهُم، وإنْ آمنوا بهِ، وصدَّقوهُ، لم يَغفِرْ لَهُم ما كانَ مِنَ التفريطِ في التكْذيبِ والتمرُّدِ في المُعانَدةِ. فأخبرَ ﷻ أنهُ لا يُعذِّبُهُم إنْ آمنوا بِهِ بما كانَ منْهُم مِنَ الكذِبِ والعِنادِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] واللهُ أعلَم.

ثم الشُّكرُ في ما بَيْنَ الخَلْقِ يكونُ على الجَزاءِ والمُكافآتِ؛ إذْ ليسَ في وُسْعِهِمُ القِيامُ بأداءِ شُكرِ أصغرِ نِعَمِ أنْعَمَها عُمرَهُم. فَدَلَّ أنهُ ليسَ يَخرُجُ الأمرُ على ما بهِ أمرُ المكافأةِ. ولكنهُ يَخرُجُ على وجوهٍ:

[أحدُها][2]: على مَعْرِفَةِ النِّعَمِ أنها منهُ.

والثاني: على مَعْرفَةِ التَّقصيرِ والاعْتِرافِ بالعَجْزِ عَنْ أداءِ شُكرِها.

والثالث: ألّا يَسْتَعْمِلُوها إلّا في طاعةِ ربِّهِم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ يقبَلُ الإيمانَ بَعْدَ الجُحودِ والتكْذيبِ، إذا تاب. وقيلَ: ﴿شَاكِرًا﴾ أي يَقبَلُ القليلَ مِنَ العَمَلِ إذا كانَ لهُ خالصاً ليسَ كَمُلوكِ الأرضِ لا يَقبلُونَ اليَسيرَ مِنَ الأشياءِ. وقيلَ: ﴿شَاكِرًا﴾ يَقبَلُ اليَسيرَ مِنَ العَمَلِ، ويُعطي الجَزيلَ مِنَ الثوابِ. وذلكَ هوَ الوَصْفُ في الغايةِ مِنَ الكرَمِ، واللهُ أعلَم.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه: ما يَعْبَأُ اللهُ بِعَذابِكُمْ ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ لأعمالِكُمُ الحَسَنةِ ﴿عَلِيمًا﴾ بها، وهوَ ما ذَكرْنا، واللهُ أعلَم.

الآية ١٤٨ وقولُه تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ وتِلاوتِهِ: قالَ بعضُهُم: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ﴾ الدعاءِ ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فإنهُ لا بأسَ أنْ يَدعُوَ [المرءُ][3] إذا كانَ مَظلوماً.

وقالَ آخرونَ: الجَهرُ بالسُّوءِ مِنَ القولِ، هوَ الشَّتمُ. أخبرَ أنهُ لا يُحِبُّ ذلكَ لأحدٍ مِنَ الناسِ. ثم استثنَى ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ واعتُدِيَ عليهِ. وكذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه قالَ: (الجَهرُ بالسوءِ مِنَ القولِ أنْ يَشْتُمَ الرجلُ المُسلِمَ في وَجهِهِ إلّا أنْ يَشْتُمَهُ، فَيَرُدَّ كما قالَ، وذلكَ قولُ اللهِ ﷻ ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾. ﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾ [التغابن: ١٤]/ ١١٨ ـ ب/ فَهوَ أفضَلُ).

وقرأ بَعضُهُم: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ بالنَّصْبِ؛ فهو يَحتَمِلُ إلّا مَنْ ظَلَمَ فإنَّ لهُ ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وإنْ لم يَكُنْ لهُ ذلكَ، وهوَ كقولِهِ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] فإنهُم وإنْ تَكُنْ [لهمْ][4] حُجَّةٌ عليكُم فإنهُم يَحتَجّونَ عليكُم. فَعَلى ذلكَ الظاهِرُ، وإنْ لم يَكُنِ الجَهرُ ﴿بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وإنْ لم يَكُنْ ذلكَ الجَهرُ ﴿بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فإنهُ يَفعَلُ ذلكَ، واللهُ أعلَم.

ومَنْ قرأ ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بالرَّفعِ فَتأويلُهُ ما ذَكرْنا، واللهُ أعلَم، أنهُ لا يُبيحُ لأحدٍ ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إلّا المَظلومَ فإنهُ[5] يُباحُ لهُ، ويُؤذَنُ[6] أنْ يَرُدَّ عليهِ مِثْلَهُ، ويَنْتَصِرَ مِنهُ. وقيلَ: نَزَلَتِ الآيةُ في أبي بَكرٍ رضي الله عنه، شَتَمَهُ رجلٌ بمكةَ، فَسَكَتَ عنهُ ما شاءَ اللهُ، ثم انْتَصَرَ [منهُ][7] رضي الله عنه وتَرَكهُ.

وعنِ الحَسَنِ رضي الله عنه، [أنهُ][8] قالَ: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «المُسْتَبّانُ ما قالا فهو على البادي حتى يَعْتَدِيَ المظلومُ» [مسلم ٢٥٨٧] وقالَ: «لا تَسُبّوا فإنْ كُنْتُم فاعِلِينَ لا مَحالةَ، فَعَلِمَ الرجلُ مَنْ صاحبُهُ فَلْيَقُلْ إنَّكَ لَجبارٌ وإنَّكَ لَبَخيلٌ»).

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٦) في الأصل وم: ولا يوذن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وأصلُ هذا الاستثناءِ أنَّ الأوَّلَ، وإنْ لم يَكُنْ مِنْ نَوعِ ما استَثْنَى فهوَ جَزاؤهُ، وجَزاءُ الشيءِ يُسمَّى باسْمِهِ كما سَمَّى ﷺ جزاءَ السَّيِّئةِ سَيِّئةً. بقولِهِ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ وسَمَّى جَزاءَ الاعْتِداءِ اعْتِداءً، وإنْ لم يَكُنِ الثاني اعْتِداءً ولا سَيِّئةً. فعلى ذلكَ استَثْنَى ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وإنْ لم يَكُنْ مِنْ نوعِهِ لأنهُ جَزاءُ الظُّلْمِ والاعْتِداءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الضَّيفِ، يَنْزِلُ بالرجُلِ فلا يُضَيِّفُهُ، ولا يُحْسِنُ إليهِ، فَجَعَلَ لهُ أنْ يأخُذَهُ بِلِسانِهِ. وإلى هذا يَذْهَبُ أكثرُ المُتأوِّلِينَ، لكنَّهُ بَعِيدٌ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ دليلٌ على أنْ لَيسَ في إباحةِ الشَّيءِ في حالٍ يُوجِبُ حَظْرَهُ في حالٍ أُخرى لأنهُ نَهى عنِ الجَهْرِ ﴿بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾. ثم لم يَدُلَّ ذلكَ على أنهُ لا يَنْهى عَنْ ذلكَ في غيرِ حالِ الجَهْرِ بهِ.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ بِجَهْرِ السُّوءِ ﴿عَلِيمًا﴾ بهِ. ثم قالَ: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾ يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلمُ، أنَّ العَفْوَ والتَّجاوُزَ خَيْرٌ عندَ اللهِ مِنَ الانتصارِ. ويَحْتَمِلُ[1] هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّرغيبِ؛ رَغَّبَهُمْ ﷺ بالعَفْوِ عَنِ السُّوءِ والمَظْلَمَةِ. فَكَما أنهُ يَعْفُو عَنْ خَلْقِهِ، ويَتَجاوَزُ عَنْهُمْ مَعَ قُدْرَتِهِ على الانتِقامِ، فاعْفُوا أنْتُمْ عَنْ ظالِمِكُمْ أيضاً، وإنْ قَدَرْتُمْ على الانْتِصارِ والانْتِقامِ مِنْهُ، فيكونَ لكُمْ عندَ اللهِ الثَّوابُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُمْ بالعَفْوِ عن مَظالِمِهِمْ لِيَعْفُوَ ﷺ عن مَظالِمِهِمُ التي في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رَبِّهِمْ. وعلى ذلكَ يَخْرُجُ قولُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ فإنَّ اللهَ ﷺ أقْدَرُ على عَفْوِ ذُنُوبِكُمْ مِنْكُمْ على عَفْوِ صاحِبِكُمُ المُسيءِ إليكُمْ.

وقال بَعْضُهُمْ: اللهُ أجْدَرُ وأحْرَى أنْ يَعْفُوَ عَنْكَ إذا عَفَوْتَ عَنْ أخيكَ في الدنيا، وهو على ذلكَ أقْدَرُ.

الآية ١٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ﴾ أي يُريدونَ أنْ يُفَرِّقوا بَيْنَ اللهِ ورُسُلِهِ، فيكونُ: ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ في الدَّهْرِيَّةِ لأنَّهُمْ يَكفُرونَ باللهِ، ولا يُؤمِنونَ بِهِ، ويَقولُونَ بِقِدَمِ العالَمِ، فَذلِكَ فيهِمْ. وقولُهُ تعالى ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ يكونُ في الدِّينِ؛ يؤمِنُونَ باللهِ، ويكفُرونَ بالرُّسُلِ كُلِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ في الذينَ كَفَروا بِبَعْضِ الرُّسُلِ، وآمَنُوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ، ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾. ثم أخْبَرَ ﷺ عَنْهُمْ جميعاً مَعَ اخْتِلافِ مَذاهِبِهِمْ أنهُمْ كُفّارٌ. وتَحَقَّقَ[2] الكُفْرُ فيهِمْ بِقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥١].

ويَحْتَمِلَ أنْ يكونَ في مَنْ آمنَ ببعضِ الرسلِ، وكَفَرَ ببعضٍ، فيكونُ الكُفْرُ ببعضِ الرسلِ كُفْراً باللهِ وبجميعِ كُتُبِهِ لأنَّ كُلّاً مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُو الخَلْقَ كُلَّهُمْ إلى الإيمانِ باللهِ والإيمانِ بِجَميعِ الرُّسُلِ والكُتُبِ؛ فإذا كُفِرَ بواحِدٍ منهُمْ كُفِرَ باللهِ وبالرُّسُلِ جَميعاً. واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما][3]: الذينَ حَقَّ عليهِمُ الكُفْرُ باللهِ.

والثاني: يَكْفُرُونَ بِبَعْضِ الرُّسُلِ: إنهُمْ، وإنْ كَفَروا بِبَعْضِ الرُّسُلِ، فقد حَقَّ عليهِمُ الكُفْرُ باللهِ تعالى لأنَّ الكُفْرَ بواحدٍ مِنَ الرُّسُلِ كُفْرٌ بالرُّسُلِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ وقولُهُ تعالى ﴿مُّهِينٗا﴾ يُهانُونَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي ويَتَّخِذُونَ غَيْرَ ذلكَ سَبيلاً. وعلى طرحِ إرادةِ أنْ: أي يَتَّخِذُونَ بَينَ ذلكَ بَيْنَ إيمانٍ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وكُفْرٍ بِبَعْضِ الرُّسُلِ دِيناً. فذلكَ لا يَنْفَعُهُمْ إذا كَفَرُوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وحق. (٣) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٥٢ ثم نَعَتَ المؤمنينَ، فقالَ ﷻ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني مِنَ الرُّسُلِ؛ قالُوا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [البقرة: ١٣٦].

وفي الآيةِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُمْ لا يُسَمُّونَ صاحِبَ الكبيرةِ مُؤمِناً، وهو قد آمَنَ باللهِ ورُسُلِهِ ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فَدَخَلَ في قولِهِ تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ وهم يَقولُونَ لا يُؤتيهِمْ أجورَهُمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أخبَرَ ﷻ أنهُ لم يَزَلْ غَفوراً رَحيماً. ولكنْ صارَ غَفوراً رَحيماً، وباللهِ العِصْمَةُ.

الآية ١٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيلَ في أحَدِ التأويلَينِ: كانَ يُريدُ كُلُّ أحَدٍ مِنْهُمْ أنْ يأتيَ إلى كُلِّ رجلٍ منهُمْ بكتابٍ أنَّ محمداً رسولُ اللهِ ﷺ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ ﴿كَلَّا﴾ [المدثر: ٥٢ و٥٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] قيلَ: سَألُوا أنْ يأتيَهُمْ بكتابٍ ﴿جُمْلَةً﴾ مِثْلِ التوراةِ مِثْلِ قولِهِمْ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] كما أُنزِلَتِ التوراةُ على مُوسَى جُمْلَةً واحدةً؛ أنها[1] غَيْرُ مُتفرِّقَةٍ، فأخبَرَ أنهُمْ ﴿سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقد سَألُوا محمداً ﷺ مِثْلَ سُؤالِ أولئكَ مُوسَى، وهو قولُهُ تعالى ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] يُعزِّي ﷻ ﷺ ويُصَبِّرُهُ على أذاهُمْ بقولِهِ، واللهُ أعلَمُ: إنهمْ سَألُوا آياتٍ على رسالتِهِ، فأتى بها، فلم يؤمِنُوا بهِ؛ يُخْبِرُ أنَّ سُؤالَهُمْ سُؤالُ تَعَنُّتٍ لا سُؤالُ اسْتِرْشادٍ لأنَّ سُؤالَهُمْ لو كانَ[2] سُؤالَ اسْتِرْشادٍ لكانوا[3] إذا أُوتُوا بها قَبِلُوها. ولذلكَ أخَذَهُمُ العذابُ بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ لأنهُمْ كانُوا يَسألونَ سُؤالَ تَعَنُّتٍ لا سُؤالَ رُشْدٍ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ المَسْؤولَ لا يَلْزَمُ الدليلَ على شَهْوَةِ السائلِ وإرادتِهِ، ولكنْ يَلْزَمُ أنْ يأتيَ بما هو دليلٌ في نَفْسِهِ. وفيها[4] دلالةٌ أيضاً أنَّ المجوسَ لَيسُوا مِنْ أهْلِ الكتابِ لأنهُ قالَ: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم يَخْطُرْ ببالِ أحَدٍ أنهُ أرادَ المجوسَ بقولِهِ تعالى: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ والصاعقةُ هي العذابُ الذي فيهِ الهلاكُ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، وإنما أخَذَهُمُ العذابُ بِكُفْرِهِمْ بِمُوسَى بَعْدَ ما أتاهُمْ مُوسَى ﷺ بآياتِ الرسالةِ لا بِسُؤالِهِمُ[5] الرُّؤيَةَ لأنهُ لو كانَ ما أخَذَهُمْ بِسُؤالِ الرُّؤيَةِ لكانَ مُوسَى بذلكَ أولَى حينَ ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فَدَلَّ أنَّ العذابَ إنما أخَذَهُمْ بِتَعَنُّتِهِمْ وبِكُفْرِهِمْ بَعْدَ ظُهورِ الآياتِ لهُمْ أنهُ رسولُ اللهِ؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ يُخْبِرُ نَبِيَّهُ ﷺ عنْ شِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ في تكذيبِ الرُّسُلِ وكَثْرةِ تَمَرُّدِهِمْ وسَفَهِهِمْ لِيَصْبِرَ على أذى قومِهِ، ولا يَظُنَّ أنهُ أوَّلُ مُكَذَّبٍ مِنَ الرُّسُلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا / ١١٩ ـ أ/ مُّبِينًا﴾ قيلَ: السُّلطانُ المُبينُ يَحتَمِلُ الآياتِ التي أراهُمْ ما يَعْقِلُ كُلُّ أحدٍ، إنْ لم يُعانِدْ، ولم[6] يُكابِرْ، أنها سَماويَّةٌ؛ إذْ هي كانَتْ مُحاجَّةً عَنِ الأمرِ المُعْتادِ بَيْنَ الخَلْقِ مِنْ نَحْوِ اليَدِ البَيضاءِ والعَصا وفَرْقِ البَحْرِ وغيرِ ذلكَ.

الآية ١٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ﴾ حينَ لم يَقْبَلُوا التوراةَ، فَعِنْدَ ذلكَ قَبِلُوا. ثم أخذَ عليهِمُ الميثاقَ بذلكَ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يقولُ: لا تَعْمَلُوا في السَّبْتِ عَمَلاً مِنَ الدنيا، تَفَرَّغوا فيهِ للعِبادةِ). وفي حَرْفِ حَفْصَةَ ﷺ لا تَعَدُّوا ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾[8] وقالَ أبو مُعاذٍ: (وتُقرَأُ: ولا تَعَدُّوا على مَعْنَى: لا تَتَعَدَّوا، تُلْقَى إحْدَى[9] التاءينِ، وإنْ شِئْتَ [فاقرَأْ][10]: تَعْتَدُوا لم تُدْغَمِ التاءُ في الدالِ).

---

(١) في الأصل وم: لأنهم. (٢) من م، في الأصل: كانوا. (٣) في الأصل وم: لكان. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: سؤالهم.
(٦) في الأصل وم: ولما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) قرأ نافع: لا تعدوا: ساكنة العين مشددة الدال، وقرأ ورش: لاتَعَدُّوا بفتح العين، وقرأ الباقون: لا تَعْدُوا خفيفة الدال، انظر حجة القراءات ص (٢١٨). (٩) في الأصل وم: على أحد. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ هو ما ذَكَرْنا. مَنْ أرسَلَ اللهُ إليهِ رَسُولاً، فأقرَّ بهِ، فَقَدْ أوجَبَ على نَفْسِهِ مِيثاقاً غليظاً. وقالَ مُقاتِلٌ: الميثاقُ الغليظُ إقرارُهُمْ بما عَهِدَ اللهُ إليهِمْ في التوراةِ.

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قالَ الكسائيُّ: ما ههنا صِلَةٌ: فَبِنَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ.

وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَتْ. وقالَ مُقاتِلٌ: (فَبِنَقْضِهِمْ إقرارَهُمْ بِما في التوراةِ وبِكُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ يعني بالإنجيلِ والقرآنِ، وهُمُ اليهودُ).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يَحْتَمِلُ على حَقيقةِ القَتْلِ، ويَحْتَمِلُ على القَصْدِ والهَمِّ، وقد هَمُّوا بِقَتْلِ[1] رسولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ. عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ[أنهُ][2] قالَ: (كانوا يَقْتُلُونَ الأنبياءَ، وأمّا الرُّسُلُ فَكانُوا مَعْصومِينَ، لم يُقْتَلْ رسولٌ قَطُّ. الا تَرَى أنهُ قالَ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وقالَ ﷻ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾؟) [الصافات: ١٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ قِيلَ بوجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنهمْ قالُوا: قُلُوبُنا أوعِيَةٌ لِلْعِلْمِ، لا تَسْمَعُ شَيئاً إلّا حَفِظَتْهُ، فالقرآنُ في هذا الوجهِ غُلُفٌ.

والثاني: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] لا تَعْقِلُ ما تقولُ، فالقراءةُ في هذا الوجهِ غُلْفٌ فيهِ.

ثم قالَ ﷻ ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا جَواباً ورَدّاً على قولِهِمْ: إنَّ قُلُوبَنا أوعِيَةٌ لِلْعِلْمِ، لا تَسْمَعُ شَيئاً إلّا وَعَتْهُ؛ أخْبَرَ أنهُ طَبَعَ على قُلُوبِهِمْ بِكُفْرِهِمْ، فلا يَفْقَهُونَ شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: قَذَفُوها بالزِّنى، وهو قولُهُمْ: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي كُفْرِهِمْ بمحمدٍ ﷺ، وبالقرآنِ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ ما ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧].

الآية ١٥٧ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ قيلَ: سُمِّيَ المَسيحُ: يعني ماسحاً[4] لأنهُ كانَ يَمْسَحُ المريضَ والأبْرَصَ والأكْمَهَ، فَيَبْرأُ، فَسُمِّيَ لذلكَ مَسيحاً وذلكَ الفَعيلُ بمعنى الفاعِلِ[5]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآية. لِبَعْضِ الناسِ تَعَلُّقٌ بهذهِ الآيةِ بِوجهَيْنِ:

أحدُهُما: في احْتِمالِ الغَلَطِ والخَطَإِ في المُشاهَداتِ والمُعايَناتِ.

والثاني: في احْتِمالِ المُتَواتِرِ مِنَ الأخبارِ والغَلَطِ والكَذِبِ؛ وذلكَ أنهُ قيلَ في القِصَّةِ: إنَّ اليهودَ طَلَبَتْ عيسى ﷺ لِيَقْتُلُوهُ، فَحاصَرُوهُ في بَيْتٍ، ومَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أصحابِهِ مِنَ الحَوارِيِّينَ، فأدْرَكَهُمُ المساءُ، فَباتُوا يَحْرُسُونَ، فأوحَى اللهُ تعالى إلى عيسى ﷺ ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] فأخبَرَ أصحابَهُ، وقالَ: أيُّكُمْ يُحِبُّ أنْ يُلْقَى عليهِ شَبَهِي، فَيُقْتَلَ، ويَجْعَلَهُ اللهُ يومَ القيامةِ معي في دَرَجَتِي؟ فقالَ رجلٌ منهُمْ: أنا يا رسولَ اللهِ، فألْقَى اللهُ تعالى عليهِ شَبَهَهُ، فَقَتَلُوهُ، وصَلَبُوهُ.

وقيلَ: إنهُ ﷺ لَمّا هَمُّوا بِقَتْلِهِ التَجأ إلى بيتٍ، فَدَخَلَ، [فلمّا][6] جاؤوا في طلبِهِ دَخَلَ رجلٌ منهُمُ البيتَ لِقَتْلِهِ، فأبْطَأَ عليهِمْ، فَظَنُّوا أنهُ يُقاتِلُهُ. فلمّا خَرَجَ، وقد ألْقَى [اللهُ][7] شَبَهَهُ عليهِ، قَتَلُوهُ[8]، وقالوا لَمّا قَتَلُوا ذلكَ [الرجُلَ][9]، وعندَهُمْ أنهُ عيسى لِما كانَ به شَبَهُهُ[10]، ثم لم يكُنْ ذلكَ ما يَمْنَعُ أيضاً أنْ يُشاهَدَ، ويُعايَنَ: إنهُ في الحَقيقةِ على غَيْرِ ذلكَ كما شاهَدَهُ أُولئكَ القومُ، وعايَنُوهُ، وعندَهُمْ أنهُ عيسى، ثم لم يكُنْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الخَبَرُ أيضاً قد تَواتَرَ فيهِمْ بِقَتْلِ عيسى، فكانَ كَذِباً ما يَمْنَعُ أيضاً أنَّ الأخبارَ المُتَواتِرَةَ بِجوازِ أنْ تَخْرُجَ كَذِباً وغَلَطاً. وقيلَ[11]: الخَبَرُ بِقَتْلِهِ إنما انْتَشَرَ عنْ سِتَّةٍ أو سَبْعَةٍ على ما ذُكِرَ في القصةِ. والخَبَرُ الذي كانَ انْتِشارُهُ بذلكَ القَدْرِ مِنَ العَدَدِ هو[12] مِنَ الأخبارِ الآحادِ عِنْدَنا.

---

(١) في الأصل وم: قتل. (٢) ساقطة من ا لأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ماسح. (٥) في الأصل وم: فاعل.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فقتلوه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: شبهة.
(١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: وهو.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [فإنه][1] يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ التّشبيهُ تشبيهَ خَبَرِ أنهُ قَتْلٌ مِنْ إلقاءِ الشَّبَهِ على غَيْرِهِ، وقَتْلُهُ حقيقةٌ؛ وذلكَ أنهُ ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُمْ لما طَلَبُوهُ[2] في ذلكَ البَيْتِ، فلم يَجِدُوهُ، ولم يَكُنْ غابَ واحدٌ مِنْهُمْ، قالوا[3]: قَتَلْناهُ لأنهُمْ قالُوا: إنهُ دَخَلَ البيتَ، فدخَلُوا هُمْ على إثْرِهِ، فَلَمْ يَجِدُوهُ، وكانَ[4] ذلكَ إنباءً عنْ[5] عظيمِ رسالتِهِ، فلم يُحِبُّوا أنْ يقولُوا ذلكَ، قالُوا: قَتَلْناهُ كَذِباً. فذلكَ تشبيهٌ منهُمْ لَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

فإنِ احْتَمَلَ هذا لم يَكُنْ ما قالُوا منْ تَخْطِئَةِ الغَيْرِ لَهُمْ دَرَكٌ. فقد[6] كانَ ما قالَ أهلُ التأويلِ مِنْ إلقاءِ شَبَهِهِ عليهِ: ذلكَ[7] مِنْ آياتِ رسالتِهِ، أرادَ اللهُ أنْ تكونَ آياتُهُ قائمةً بَعْدَ غَيْبَتِهِ عنهُمْ، وفي حالِ إقامَتِهِ بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ قيلَ: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ مِنْ قَتْلِ عيسى ﷺ قُتِلَ أو لم يُقْتَلْ. وقيلَ: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ في عِيسَى أي على الشَّكِّ؛ يَقولُونَ: إنهُ ابنُ اللهِ ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي ليسَ لهمْ بذلكَ إلّا اتّباعُ الظَّنِّ إلّا قولَ منهُمْ بِظَنِّهِمْ في غيرِ يقينٍ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي ما قَتَلُوا ظَنَّهُمْ يَقيناً ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾. وقيلَ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي يَقِيناً ما قَتَلُوهُ.

الآية ١٥٨ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ حينَ حالَ بينَهُمْ وبَيْنَ عيسَى أنْ يَقْتُلُوهُ، ويَصِلُوا إليهِ ﴿حَكِيمًا﴾ حَكَمَ أنْ يَرْفَعَهُ حَيّاً.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﵄ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أنَّ رُسُلَهُ يَكُونُونَ مَعْصومِينَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ وقولُهُ ﷻ أيضاً: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ و١٧٢] وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي قَبْلَ مَوتِ عِيسَى إذا أُنزِلَ مِنَ السماءِ آمَنُوا بِهِ أجمعُونَ. وبهِ يقولُ الحَسَنُ. وقالَ الكَلْبِيُّ: (إنَّ اللهَ تعالى إذا أنزَلَ عِيسَى ﷺ عندَ مَخْرَجِ الدَّجالِ يُؤمِنُ بهِ بَقِيَّةُ أهلِ الكتابِ فلا يَبْقَى يهوديٌّ ولا نَصْرانيٌّ إلّا أسْلَمَ).

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي قَبْلَ مَوتِ الكِتابِيِّ؛ لا يَموتُ يَهوديٌّ حتى يُؤْمِنَ بِعيسَى ﷺ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄ [أنهُ][9] قالَ: (لا يَموتُ يهوديٌّ حتى يُؤْمِنَ بعيسى ﷺ) قيلَ: وإنْ ضُرِبَ بالسَّيفِ. وقيلَ[10] في حَرْفِ أُبَيٍّ [بْنِ كَعْبٍ][11]: لما لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ موتِهِ.

لكنَّ التّأويلَ إنْ كانَ هو الثانيَ فهو في رؤسائِهِمُ الذينَ كانَتْ لَهُمْ رئاسةٌ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا خَوفاً على ذهابِ تِلْكَ الرِّئاسَةِ والمَنافِعِ التي كانَتْ لَهُمْ. فَلَمّا حَضَرَهُمُ المَوتُ أيْقَنُوا بِذَهابِ ذلكَ عنهُمْ. فَعِنْدَ ذلكَ يُؤْمِنُونَ؛ وهو، واللهُ أعْلَمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا/ ١١٩ ـ ب/ حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ في ذلكَ الوقْتِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] لأنهُ[12] إيمانُ دفعِ العَذابِ والاضطرارِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤] فكانَ إيمانُهُمْ إيمانَ دَفْعِ العذابِ عنْ أنفُسِهِمْ لا إيمانَ حَقيقةٍ، لأنهُ لو كانَ إيمانَ حَقيقةٍ لَقُبِلَ، ولكنْ إيمانُ دَفْعٍ كقولِ فرعونَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فلم يُقْبَلْ ذلكَ منهُ لأنهُ إيمانُ دَفْعِ العذابِ وإيمانُ اضطِرارٍ لا إيمانُ حَقيقةٍ. فَعَلى ذلكَ [هذا][13] وباللهِ التّوفيقُ.

وقيلَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﵁: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ ﵂ وإنَّ كلَّ أهلِ الكتابِ لَما لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ. قيلَ: باللهِ، وقيلَ: بِعِيسَى، وقيلَ: بِمحمدٍ ﷺ، [وذلكَ أنَّ عِيسَى ﷺ][14] إذا أُنْزِلَ[15] يَدعُو الناسَ إلى الإيمانِ بمحمدٍ ﷺ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: طلبوا. (٣) في الأصل وم: فقالوا. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: من.
(٦) في الأصل وم: فلو. (٧) في الأصل وم: فذلك. (٨)ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقال: هي.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: لأنها. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من م. (١٥) في الأصل وم: نزل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فإنه قد بَلَّغَ رسالةَ ربِّهِ إليهِمْ، وأقرَّ على نَفْسِهِ بالعُبُودةِ. وقيلَ: الشهيدُ الحافِظُ. وقيلَ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يكونُ محمدٌ عليهِمْ شهيداً. وهذا كُلُّهُ مُحْتَمَلٌ، واللهُ أعلَمُ بما أرادَ.

الآية ١٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ لولا آيةٌ[1] أُخرى سِوى هذِهِ، وإلّا صَرَفْنا قولَهُ ﷺ: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ﴾ على المَنْعِ دونَ تَحقيقِ التَّحريمِ لأنهُمْ أهْلُ كُفرٍ، فلا يُبالُونَ بالمُحَرَّمِ والمُحَلَّلِ، ولا يَمْتَنِعونَ عنِ التَّناوُلِ مِنْ ذلكَ. فإذا كانَ ما ذَكَرْنا فَيَجيءُ أنْ يُصْرَفَ تأويلُ الآيةِ إلى المَنْعِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] فَلَيسَ هو على التَّحْريمِ، ولكنْ على المَنْعِ؛ أي مَنَعْناهُ فلم يأخُذْ مِنْ لَبَنِ المَراضِعِ دونَ لَبَنِ أمِّهِ. فَعَلى ذلكَ يَجِبُ أنْ يكونَ الأوَّلُ.

ثم المَنْعُ لَهُمْ يكونُ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُما: مَنْعٌ مِنْ جِهَةِ مَنْعِ الأنزالِ لِقِلَّةِ الأمطارِ والقَحْطِ كَسِنِي يُوسُفَ عليه السلام وسِني مكةَ على ما كانَ لَهُمْ مِنَ القَحْطِ.

والثاني: مِنْ جِهَةِ الخَلْقِ لا يُعْطُونَ شَيئاً لا بَيعاً ولا شِراءً مَعْروفاً. ولكنْ في آيةٍ أُخرى بَيانٌ أنَّ قولَهُ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[2]: على التَّحريمِ ليسَ على المَنْعِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] فدلَّ ما ذَكَرْنا في الآيةِ أنَّ ذلكَ على تحقيقِ التَّحريمِ لِما يَحْتَمِلُ أنْ يَكونُوا لا يَسْتَحِلُّونَ ما ذُكِرَ في الآيةِ، ولكنْ كانُوا يَتَناوَلُونَ على غَيرِ الاستِحْلالِ، فَحَرَّمَ ذلكَ عليهِمْ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ دَلالةٌ لِأصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في قولِهِمْ: إنَّ مَنْ أقرَّ، فقالَ: هذا الشَّيءُ لِفُلانٍ اشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ، لا يُؤخَذُ مِنْهُ، وإلّا في ظاهِرِ قولِهِ: هذا الشَّيءُ لفلانٍ اشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ، إذا اشتراهُ مِنْهُ، لا يكونُ لِفلانٍ، فيكونُ ذلكَ إقراراً لَهُ. لكنَّهُ على الإضمارِ، كأنهُ قالَ: هذا الشَّيءُ، كانَ لفُلانٍ، اشْتَرَيْتُهُ منهُ. وكذلكَ قولُهُ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي كانَتْ لَهُمْ. وكذلكَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه وحَرْفِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ﴾ كانَتْ ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنهُمْ صَدُّوا مَنْ يَسْتَجْهِلُونَ، ويَسْتَسْفِهُونَ عنْ سَبيلِ اللهِ؛ كانُوا يَدُلُّونَ على الباطِلِ وعلى غَيرِ سَبيلِ اللهِ، فذلكَ الصَّدُّ. ويَحْتَمِلُ أنهُمْ كانُوا يَصُدُّونَ عنْ سَبيلِ اللهِ بالقِتالِ والحَرْبِ.

الآية ١٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ دلَّ أنَّ الرِّبا لم يَزَلْ مُحَرَّماً على الأُمَمِ كُلِّها كما حُرِّمَ على هذِهِ الأُمَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ[3] أكلَ أموالِهِم بالباطِلِ وهو[4] الرِّشْوةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٢ و٦٣] وقيلَ: هو الرِّشْوَةُ، وقيلَ[5]: ما كانُوا يَنالُونَ مِنْ أموالِ الأتباعِ والسَّفَلَةِ بِتَحْريفِهِمُ التوراةَ لَهُمْ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الآيةُ ظاهرةٌ.

الآية ١٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ استَثْنَى الرّاسِخِينَ في العِلْمِ مِنْهُمْ. والرُّسُوخُ هو إثباتُ الشَّيءِ في القَلْبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ رُوِيَ عَنْ

---

(١) هي قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه. (٣) هذا هو الوجه الأول. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) هذا هو الوجه الثاني.

عائشةَ رضي الله عنها [أنها][1] قالَتْ: (هذا خطأٌ مِنَ الكاتِبِ، هو والمُقيمونَ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾) وكذلكَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه والمُقيمونَ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وقالَ الكسائيُّ: (وجهُ قِراءَتِنا: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لقولِهِ تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ويؤمِنونَ بإقامةِ الصلاةِ كما قالَ عز وجل في سورةِ البقرةِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٧٧] مَعْناهُ: ولكنَّ البِرَّ الإيمانُ باللهِ).

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وبالمُقيمينَ الصلاةَ يعني الرُّسُلَ. وفي حَرْفِ حفصةَ رضي الله عنها ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمُؤتِينَ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أولئكَ نؤتيهم ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وكذلكَ في حَرْفِ أُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ][2]: والمُقيمينَ الصلاةَ بالنصبِ.

الآية ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: قولُهُ ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ الكافُ صِلَةٌ زائدةٌ؛ معناهُ: إنا أوحَينا إليكَ ما أوحَينا إلى نوحٍ ومَنْ ذَكَرَ مِنْ بعدِهِ؛ أي لا يَخْتَلِفُ ما أُنزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ إلى غيرِكَ مِنَ الرُّسُلِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] [وقولِهِ تعالى][3] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[4] [الأعلى: ١٨].

وقيلَ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الحُجَجِ والآياتِ ما يَدُلُّ على رسالَتِكَ ونُبُوَّتِكَ كما أُعْطِيَ أولئكَ مِنَ الحُجَجِ والآياتِ على صِدْقِ ما دُعوا[5] مِنَ الرسالةِ والنبوةِ، ثم لم يُؤمِنُوا.

وقيلَ: إنَّ اليهودَ قالُوا: إنَّ محمداً لو كانَ يُؤتَى كتاباً جُمْلَةً كما أُوتِيَ مُوسَى كتاباً جُمْلَةً مِنْ غيرِ وَحْيٍ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وَحياً مِنْ غيرِ أنْ أوتِيَ كُلٌّ[6] منهُمْ كِتاباً جُمْلَةً كما أُوتِيَ مُوسَى. ثم كانَ أولئكَ رُسُلاً. فَعَلَى ذلكَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم رسولٌ[7]، وإنْ لم يُؤتَ كتاباً كما أُوتِيَ مُوسَى. وللهِ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ؛ يُؤتِي مَنْ يَشاءُ كتاباً كما أُوتِيَ مُوسَى. وللهِ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ؛ يُؤتِي مَنْ يَشاءُ كتاباً جُمْلَةً مَرَّةً، ومَنْ[8] يَشاءُ يُوحِي إليهِ بالتَّفاريقِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ومَنْ ذَكَرَ. يَحْتَمِلُ ذِكْرُ إبراهيمَ ومَنْ ذَكَرَ أولادَهُ بَعْدَ قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ على التَّخصيصِ لإبراهيمَ ومَنْ ذكرَ لأنهُ ذكرَ النَّبِيِّينَ مِنْ بعدِ نوحٍ، فَدَخلوا فيهِ. ثم خَصَّهُمْ[9] بالذكرِ تفضيلاً وتخصيصاً[10]. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الرُّسُلَ الذينَ كانُوا بَعْدَ نوحٍ قبلَ إبراهيمَ. ثم ابْتَدأَ الكلامَ، فقالَ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ومَنْ ذَكَرَ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ رضي الله عنها: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ وكما أَوْحَينا إلى الرُّسُلِ مِنْ بَعْدِهِ[11] وكما أوحينا ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فهذا يدلُّ على ما ذَكَرْنا مِنِ ابْتِداءِ الذِّكْرِ لَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

والآيةُ تَرُدُّ[12] على القَرامِطَةِ وَمَذْهَبِهِمْ لأنهُمْ يقولُونَ: الرُّسُلُ سِتَّةٌ، سابِعُهُمْ قائمُ الزَّمانِ لأنهُ ذَكَرَ في الآيةِ أكثَرَ مِنْ عَشَرَةٍ، فَظَهَرَ كَذِبُهُمْ بذلكَ وحِيَلُهُمُ التي سَوَّلَها لَهُمُ الشَّيطانُ، وزَيَّنَها في قُلُوبِهِمْ.

الآية ١٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ/ ١٢٠ ـ أ/ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ اليهودَ قالُوا: ما بالُ مُوسَى لم يُذكَرْ في مَنْ ذُكِرَ مِنَ الأنبياءِ؟ فأنزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ هؤلاءِ بمكَّةَ في الأنعامِ[13] وفي غيرِها[14] لأنهُ قيلَ: إنَّ هذِهِ السورةَ مَدَنِيَّةٌ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ دَلائلُ مِنْ وُجوهٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: الآية. (٥) في الأصل وم: ادعوا. (٦) في الأصل وم: كلا. (٧) في الأصل وم: رسولا. (٨) الواو ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: بعدهم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: لهم. (١١) في الأصل وم: بعدهم. (١٢) في الأصل وم: تدل. (١٣) المقصود قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [الآية: ١٣٠]. (١٤) المقصود قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى...﴾ [الأعراف: ٣٥].

أحَدُها: أنَّ مَعْرِفَةَ الرُّسُلِ بأجْمَعِهِمْ واحِداً بَعْدَ واحِدٍ لَيسَ مِنْ شَرْطِ الإيمانِ بَعْدَ أنْ يُؤْمَنَ بِهِمْ جَميعاً لأنهُ أخْبَرَ ﷻ أنَّ مِنَ الرُّسُلِ مَنْ ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ ولو كانَتْ[1] مَعرِفَتُهُمْ مِنْ شَرْطِ الإيمانِ لَقَصَّهُمْ عَلَيهِ جَميعاً، لا يَحْتَمِلُ تَرْكَ ذلكَ. دلَّ أنهُ لَيسَ ذلكَ مِنْ شَرْطِ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ الإيمانَ لَيسَ هو المَعْرِفَةَ، ولكنَّهُ التَّصْديقُ لأنهُ لم يُؤخَذْ عَلَيهِ مَعْرِفَةُ الرُّسُلِ [وقد أُخبِرَ][2] بِتَصْديقِهِمْ والأيمانِ بِهِمْ جُمْلَةً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ اللهُ كلاماً وصَوتاً، وألقَى ذلكَ في مَسامِعِهِ. وقالَ آخَرونَ: كَتَبَ لهُ كتاباً، فَكَلَّمَهُ بذلكَ، فذلكَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ لا أنْ كَلَّمَهُ بكلامِهِ. ولا نَدْري كيفَ كانَ سِوَى أنّا نَعْلَمُ أحْدَثَ صَوتاً لَمْ يكُنْ، فأسْمَعَ مُوسى ذلكَ كيفَ شاءَ، وما يَشاءُ مِمَّنْ شاءَ لأنَّ كلامَهُ الذي هو موصوفٌ بهِ في الأزَلِ ولا يُوصَفُ بالحُروفِ ولا بالهِجاءِ ولا بالصَّوتِ ولا بِشَيءٍ مِمّا يُوصَفُ بهِ كلامُ الخَلْقِ بِحالٍ. وما يُقالُ هذا كَلامُ اللهِ، إنمّا يُقالُ على المُوافَقَةِ والمَجازِ كقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ولا سَبيلَ لهُ أنْ يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ الذي هو موصوفٌ بهِ بالأزَلِ، ولكنَّهُ على المُوافَقَةِ والمَجازِ يُقالُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ يَخرجُ هذا، واللهُ أعلَمُ، مَخْرَجَ التَّخْصيصِ لهُ، إذْ ما مِنْ رسولٍ إلّا وقد كانَ لهُ خُصوصِيَّةٌ. ولِمُوسَى[3] ﷺ إذْ كَلَّمَهُ مِنْ غيرِ أنْ كانَ ثَمَّةَ سَفيرٌ أو رَسولٌ، وكانَ لِسائِرِ الرُّسُلِ وَحْيٌ يُوحِي إليهِمْ، أي دليلٌ لِرُسُلٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ دلَّ المَصْدَرُ على تَحقيقِ الكلامِ؛ إذِ المصادِرُ مِمّا تُؤكِّدُ حَقائقَ ما لهُ المصادِرُ في مَوضِعِ اللُّغَةِ. وأيَّدَ ذلكَ الأمرُ المَشْهورُ مِنْ تَسْمِيَةِ مُوسَى: كَليمَ اللهِ، وما جَرَى على ألْسُنِ الخَلْقِ مِنَ القَولِ بأنَّ اللهَ كَلَّمَ مُوسَى، فَثَبَتَ أنهُ كانَ لهُ في ما كَلَّمَهُ خُصوصِيَّةٌ، لم يَشْرَكْهُ فيها[4] غَيرُهُ مِنَ الرُّسُلِ. وعلى حَقِّ الوَحْيِ وإنزالِ الكُتُبِ لهُ شَريكٌ[5] في ذلكَ مِنَ الرُّسُلِ. فَثَبَتَ أنَّ لِما وَصَفَ بهِ مُوسَى خُصوصِيَّةً [وخُصوصيةً][6] كثيرٍ مِنَ الرُّسُلِ بأسماءٍ أو نُعوتٍ أوْجَبَتْ لَهُمُ الفَضيلَةَ بها، وإنْ كانَ حَمْلُ ما يَحْتَمِلُ تلكَ الخُصوصِيَّةَ، قد تَتَوَجَّهُ إلى ما قد يَشْتَرِكُ في ذلكَ جُمْلَةُ الرُّسُلِ: فَعَلَى ذلكَ أمْرُ تَكْليمِ[7] مُوسَى ﷺ.

الآية ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ بَعَثَ الرُّسُلَ بالبِشارَةِ في العاقِبَةِ لِمَنْ أطاعَهُ والإنذارِ لِمَنْ عَصاهُ. فهذا لِيُعْلَمَ أنَّ كُلَّ أمْرٍ، لا عاقِبَةَ لهُ، فهوَ عَبَثٌ، ولَيسَ مِنَ الحِكْمَةِ، وأنَّ الذي دعا الرُّسُلُ الخَلْقَ إليهِ إنما دَعَوا لِأمْرٍ لهُ عاقِبَةٌ، إذْ في عقلِ كلِّ أحَدٍ أمرٌ، لا عاقِبَةَ لهُ لَيسَ بِحِكْمَةٍ، فهذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنَى قولِهِ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ لِمَنْ أطاعَ اللهَ بالجَنَّةِ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لِمَنْ عَصاهُ بالنارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ الاِحْتِجاجَ بأنهُ لَمْ يُرسِلِ الرُّسُلَ إلَينا، وإنْ لم يَكُنْ لَهُمْ في الحَقيقَةِ عِندَ اللهِ ﷻ ذلكَ، فَيقولُوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ حَقيقةَ الحُجَّةِ: [فأمّا ما][8] يكونُ في العِباداتِ والشَّرائِعِ التي سَبيلُ مَعْرِفَتِها السَّمْعُ لا العَقْلُ، فلا تكونُ [الحُجَّةُ][9]. وأمّا الدِّينُ فإنَّ سَبيلَ لُزومِهِ العَقْلُ، فلا يكونُ لَهُمْ في ذلكَ على اللهِ حُجَّةٌ، إذْ في خِلْقَةِ كُلِّ أحَدٍ مِنَ الدَّلائلِ ما لو تأمَّلَ وتَفَكَّرَ فيها لَدَلَّتْ[10] لَهُ على إلهِيَّتِهِ وعلى وَحْدانِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ، لكنْ بَعْثُ الرُّسُلِ لِقَطْعِ الاِحْتِجاجِ لَهُمْ عنهُ، وإنْ لم يَكُنْ لَهُمُ الحُجَّةُ. وإنْ كانَ على حَقيقَةِ الحُجَّةِ، فهو في العِبادَةِ والشَّرائِعِ، فَبَعْثُ الرُّسُلِ[11] على قَطْعِ الحُجَّةِ لَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: وأخذ. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيه. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: تكليف. (٨) في الأصل وم: لكن ذلك إنما. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لدل. (١١) في الأصل وم: الرجل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ عن إعزازِ مَنْ أرادَ أنْ [يُعِزَّهُ، ولا عن][1] إذلالِ مَنْ أرادَ إذلالَهُ ﴿حَكِيمًا﴾ يَعْرِفُ وَضْعَ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ في غيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: يَشْهَدُ اللهُ يومَ القيامةِ، والملائكةُ يَشْهَدُونَ أيضاً أنَّ هذا الذي أُنزلَ مِنْ عِندِ اللهِ لا كما ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] [وكقولِهِ تعالى][2] ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣][وكقولِهِ تعالى][3]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] كما قالُوا.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي يُبيِّنُ بالآياتِ والحُجَجِ [ما][4] يَعْجَزُ الخَلائِقُ عن إتيانِ مِثْلِها، ويُلْزِمُهُمُ الإقرارَ بأنهُ إنما أُنزِلَ مِنْ عندِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: [يَحْتَمِلُ][5] أنزلَهُ بالآياتِ والحُجَجِ السَّماويَّةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي أنزلَهُ على عِلْمٍ منهُ بِمَنْ يَقْبَلُ وبِمَن لا يَقْبَلُ، لَيسَ كما يَبْعَثُ مُلوكُ الأرضِ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ رسائِلَ وهَدايا؛ لا يَعْلَمُونَ قَبولَها ولا رَدَّها، ولا عِلْمَ لَهُمْ بِمَنْ يَقْبَلُها وبِمَنْ يَرُدُّها. فَلَو كانَ لَهُمْ بذلكَ عِلْمٌ ما أرْسَلُوا الرُّسُلَ، ولا بَعَثُوا الهدايا، إذا عَلِمُوا أنهُمْ لا يَقْبَلُونَ. فأخبَرَ ﷻ أنهُ على عِلْمٍ مِنْهُ أنزلَ بِمَنْ يَقْبَلُ وبِمَنْ يَرُدُّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي شاهداً على ما ذَكَرْنا مِنْ شهادَتِهِ يَومَ القيامَةِ على أحَدِ التَّأويلَينِ ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿شَهِيدًا﴾ أي مُبَيِّناً أي كَفَى باللهِ مُبَيِّناً بالآياتِ والحُجَجِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][6] قالَ: لَمّا نَزَلَ [قولُهُ تعالى][7]: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٦٢] إلى قولِهِ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [النساء: ١٦٥] قالَتْ قُرَيشٌ: مَنْ يَشْهَدُ لكَ أنَّ ما تقولُ حَقٌّ؟ فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أو أنزَلَ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٩].

الآية ١٦٧ وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي كَفروا بآياتِ اللهِ ﴿وَصَدُّوا۟﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي قد تاهُوا، وتَحَيَّرُوا تَحَيُّراً طويلاً. ويَحْتَمِلُ ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي هَلَكُوا هلاكاً، لا نَجاةَ[8] لَهُمْ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ موضعٍ.

الآية ١٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾ أي كَفَرُوا بآياتِ اللهِ وحُجَجِهِ، وظَلَمُوا أمْرَ اللهِ، وتركُوهُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَظَلَمُوا۟﴾ حينَ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ لِغَيرِ اللهِ، وجَعَلُوا العِبادَةَ لِمَنْ دُونَهُ، وهو إنّما خَلَقَهُمْ لِيَجْعَلُوا عبادَتَهُمْ لَهُ، فَقَدْ وَضَعُوا أنْفُسَهُمْ في غَيرِ مَوضِعِها؛ لذلكَ وصَفَهُمْ بالظُّلْمِ لأنَّ الظُّلْمَ وَضْعُ شَيْءٍ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَظَلَمُوا۟﴾ أنفُسَهُمْ، وإنْ كانُوا لا يَقْصِدُونَ ظُلْمَ أنفُسِهِمْ فإنَّ حاصِلَ ذلكَ يَرْجِعُ إلى أنْفُسِهِمْ، فكأنَّهُمْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ كأنهُ على الإضمارِ بألّا يَهْدِيَهُمْ في الآخِرَةِ طريقاً ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾. ويَحْتَمِلُ ما قالَ أهْلُ التَّأويلِ؛ قالُوا: لا يَهْدِيهِمْ طريقَ الإسلامِ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ طريقَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، وهما[9] طريقا جَهَنَّمَ في الدنيا، والإسلامُ، هو طريقُ الجنَّةِ في الدنيا.

وهذهِ الآيةُ والآيةُ الأولَى في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أبداً، ويَموتُونَ على ذلكَ حينَ أخْبَرَ / ١٢٠ ـ ب/ أنهُ ﷻ لا يَغْفِرُ لَهُمْ، ولا يَهْدِيهِمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

---

(١) في الأصل وم: يعجزه ولا على. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: تجارة. (٩) الواو ساقطة من الأصل.

الآية ١٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ بالحَقّ الذي للهِ عَلَيكُمْ. ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ بالحقّ الذي لِبَعْضِكُمْ على بَعْضٍ؛ قد جاءَكُمُ الرَّسُولُ مِنَ اللهِ بِبَيانِ ذلكَ كلِّهِ. ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ بالحَقّ الذي هو ضِدُّ الباطلِ ونَقيضُهُ، وفَرَّقَ بَيْنَهما، وأزالَ الشُّبَهَ إنْ لم تُعانِدُوا، ولم تُكابِرُوا ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ لأنَّ الذي كانَ يَمْنَعُهُمْ عَنِ الإيمانِ باللهِ حُبُّ الرئاسَةِ وخَوفُ زَوالِ المَنافِعِ التي كانَتْ لَهُمْ، فقالَ: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ لأنَّ ذلكَ لَكُمْ في الدنيا والآخِرةِ دائمٌ، لا يَزولُ، ذلكَ خيرٌ لَكُمْ مِنَ الذي يكونُ في وقتٍ، ثم يَزولُ عَنْكُمْ عَنْ سَريعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية: يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ[1] يأمُرُ خَلْقَهُ، ويَنْهَى، ليسَ يَأمُرُ، ويَنْهَى لِحاجةٍ لهُ ولِمَنْفَعَةٍ، ولكنْ يَأمُرُ، ويَنْهَى لِحاجةِ الخَلْقِ ومَنافِعِهِمْ؛ إذْ مَنْ لهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ومُلْكُهُما لا تَقَعُ لهُ حاجةٌ ولا مَنفعَةٌ، وهو غَنِيٌّ بذاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ ﴿عَلِيمًا﴾ عَنْ عِلْمٍ بأحوالِكُمْ؛ خَلَقَكُمْ لا عَنْ جَهْلٍ، ﴿عَلِيمًا﴾ بِما بِهِ صَلاحُكُمْ وفَسادُكُمْ ﴿حَكِيمٗا﴾ حِينَ وَضَعَ كُلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وجهاً آخرَ؛ وهو الذي تَكفُرونَهُ يَقْدِرُ أنْ يَخلُقَ خَلقاً آخَرَ سِواكُمْ يُطيعونَهُ إذْ لَهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ والغُلُوُّ في الدينِ هو المُجاوَزةُ عنِ الحَدِّ الذي حُدَّ لَهُمْ [وكذلكَ الاعْتِداءُ وهو المُجاوَزةُ عنِ الحَدِّ الذي حُدَّ لهم][2] في الفِعْلِ وفي النُّطْقِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: تفسيرُ الغُلُوِّ ما ذُكِرَ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ فالقَولُ على اللهِ بما لا يَليقُ بهِ غُلُوٌّ. وقيلَ: ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾ لا تَعمَّقوا ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ ولا تَشَدَّدوا، فَيَحمِلَكُمْ ذلكَ على الافْتِراءِ على اللهِ والقولِ بما لا يَحِلُّ، ولا يَليقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ إلا الصِّدْقَ[3].

وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ يقولُ: (لا تَقولوا: للهِ تعالى [وَلَدٌ أو صاحبةٌ][4]). وفي حَرْفِ حَفصةَ ﷺ: ولا تقولوا[5]: اللهُ ثالثُ ثلاثةٍ. إنما هو إلهٌ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الخطابُ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ في حقيقةِ المَعْنَى لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ لأنَّ على الخلائِقِ ألّا يَغْلُوا في دِينِهِمْ، وهو في الظاهرِ في أهلِ الكتابِ؛ والمقصودُ منهُ النَّصارَى دونَ غَيرِهِمْ مِنْ أهلِ الكتابِ حتى يُعْلَمَ أنْ ليسَ في مَخرَجِ عُمومِ اللفظِ دليلُ عُمومِ المُرادِ ولا في مَخرَجِ خُصوصِهِ دليلُ خصوصِهِ. ولكنْ قد يُرادُ بِعُمومِ اللفظِ الخُصوصُ وخُصوصِ اللفظِ العُمومُ، فيبطُلُ به قَولُ مَنْ يَعْتَقِدُ بِعُمومِ اللفظِ عُمومَ المُرادِ وبِخُصوصِ اللفظِ خُصوصَهُ.

ثم افْتَرَقَتِ النَّصارَى على ثلاثٍ[6] فِرَقٍ في عِيسَى، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، بَعْدَ اتِّفاقِهِمْ على أنهُ ابْنُ مَرْيَمَ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: هو إلهٌ، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: ابْنُ الإلهِ، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: هو ثالثُ ثلاثةٍ: الرَّبِّ والمَسيحِ وأمِّهِ. فَأَكْذَبَهُمْ ﷺ في قولِهِمْ، وأخبَرَ أنهُ رسولُ اللهِ ابْنُ مَرْيَمَ. ولو كانَ هو إلهاً لَكانَتْ أُمُّهُ أحَقَّ أنْ تكونَ إلهاً، لأنَّ أُمَّهُ كانَتْ قَبْلَ عِيسى ﷺ ومَنْ كانَ قبلَهُ أحقُّ بذلكَ مِمَّنْ يكونُ مِنْ بَعْدُ، ولأنَّ مَنِ اتَّخَذَ الولدَ إنما يَتَّخِذُ مِنْ جوهَرِهِ، لا يَتَّخِذُ مِنْ غيرِ جوهَرِهِ. فَلَو كانَ مِمَّنْ يَجوزُ أنْ يَتَّخِذَ مِنْ جوهَرِ البَشَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ الآية [الأنبياء: ١٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كلمتُهُ: أنْ قالَ لَهُ: ﴿كُن﴾ [آل عمران: ٤٧-٥٩ ومريم: ٣٥] فكانَ. لكنَّ الخلائِقَ كُلَّهُمْ [ليسوا][7] في هذا كَعيسَى لأنَّ كُلَّ الخلائقِ ما[8] كانوا بقولِهِ ﴿كُن﴾ [فَكانوا، فَليس لَهُمْ كَعيسى][9] ﷺ خُصوصيَّةٌ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: القول، في م: أي الصدق. (٤) في الأصل وم: ولدا ولا صاحبة.
(٥) في الأصل وم: تقول. (٦) في الأصل وم: ثلاثة. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إنما. (٩) في الأصل وم: فكان فليس لعيسى.

واصْلُهُ أنهُ سَمَّاهُ(١): كَلِمةَ اللهِ لَمّا ألقاها إلى مَرْيَمَ، ولا نَدْري أيَّ كلمةٍ كانَتْ؟ وإنما خَلَقَهُ بِكَلِمَتِهِ التي ألقاها إليها، فَسَمّاهُ بذلكَ كما خَلَقَ آدمَ مِنْ تُرابٍ، فَنَسَبَهُ(٢) إليهِ، وحَوّاءُ خَلَقَها مِنْ ضِلْعِ آدمَ، فَنَسَبَها إليهِ، وسائرُ الخَلْقِ خَلَقَهُمْ مِنَ النُّطْفَةِ، فَنَسَبَهُمْ إليها. فَعَلَى ذلكَ عِيسى لَمّا خَلَقَهُ بكلمةٍ ألقاها إليها نَسَبَهُ(٣) إليهِ. لكنْ في آدمَ وغيرِهِ مِنَ الخلائِقِ ذَكَرَ فيهِمُ التَّغَيُّرَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ولم يَذْكُرْ ذلكَ في عِيسَى، فَيَحتَمِلُ أنْ تكونَ لهُ الخصوصيَّةُ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُۖ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] فَسَمّى ذلكَ رُوحاً لِما بِهِ كانَ يُحْيِي المَوتَى. ألا تَرَى أنهُ سَمّى القرآنَ رُوحاً، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] سَمّاهُ رُوحاً يُحْيِي القُلوبَ كما يُحْيِي الأبدانَ بالرُّوحِ.

وقِيلَ: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُۖ﴾ أي أحياهُ اللهُ، وجَعَلَهُ رُوحاً، قِيلَ: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُۖ﴾ أي رسولٌ(٤) مِنْهُ. وقِيلَ: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُۖ﴾ أي أمرٌ مِنْهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ لأنَّ الرُّسُلَ كُلَّهُم لم يَدْعُوكُمْ إلى الذي أنْتُمْ عليهِ؛ إنهُ ثالثُ ثلاثةٍ، إنما دَعاكُمُ الرُّسُلُ [إلى](٥) أنَّ اللهَ إلهٌ واحدٌ لا شريكَ لهُ ولا وَلَدَ ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ بِما ذكَرْنا بالآياتِ الأُولَى. وقولُهُ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ بالرَّفعِ، أي لا تَقُولُوا: هو ثلاثةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ عَظيمِ ما قالُوا فيهِ بأنَّ لهُ وَلَداً. ثم أخبرَ أنَّ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وإنما يُتَّخَذُ الوَلَدُ لإحدَى خِصالٍ ثلاثٍ: إمّا لحاجةٍ تَمَسُّهُ، فَيَدْفَعُها بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وإمّا(٦) لِوَحشَةٍ تُصِيبُهُ، فَيَسْتَأْنِسُ بِهِ [وإمّا](٧) لِخوفِ غَلَبَةِ العَدُوِّ، فَيَسْتَنْصِرُ بِهِ، وَيَقْهَرُهُ أو لِما يَخافُ الهلاكَ، فَيَتَّخِذُ الوَلَدَ لِيَرِثَ مُلْكَهُ. فإذا كانَ اللهُ سُبْحانَهُ يتعالى(٨) عَنْ أنْ تَمَسَّهُ حاجةٌ، أو تُصِيبَهُ وَحْشَةٌ، أو [يخافَ لِمُلْكِهِ زَوالاً، فإنهُ](٩) يَتَعالى عَنْ أنْ يَتَّخِذَ ولداً، وهو عبدُهُ.

[وقولُهُ تعالى](١٠): ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ قِيلَ: حافظاً، وقِيلَ: شهيداً، وقِيلَ: الوكيلُ، هو القائمُ في الأمورِ كلِّها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ تكلَّمَ الناسُ في هذِهِ الآيةِ.

قالَ الحَسَنُ: (فيه تَفْضيلُ الملائكةِ على البَشَرِ [لِوجوهٍ:

أحَدُها:](١١) لأنهُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ لأنَّ الثانيَ يَخرجُ مَخْرَجَ التَّأكيدِ للأوَّلِ. وأبداً إنما يُذْكَرُ ما بِهِ يُؤكِّدُ إذا كانَ أفضلَ منهُ وأرفَعَ، لا يكونُ التّأكيدُ بِمِثْلِهِ ولا بما دُونَهُ، كما يُقالُ: لا يَقْدِرُ أنْ يَحْمِلَ هذِهِ الخَشَبَةَ واحدٌ ولا عَشَرةٌ، ولا يَعْمَلُ هذا العَمَلَ واحِدٌ ولا عَدَدٌ.

والثاني: [لأنهُ](١٢) قالَ تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقالَ ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وقالَ فكيفَ يَسْتَوي حالُ مَنْ يَعْصِي مَعَ حالِ مَنْ لا يَعْصِي، وحالُ مَنْ لا يَفْتُرُ عَنْ عِبادَتِهِ طَرْفَةَ عينٍ معَ حالِ مَنْ يَرْتَكِبُ المناهِيَ؟

والثالثُ: لِما(١٣) قالَ اللهُ تعالى حِكايةً عنْ إبليسَ حينَ قالَ لِآدمَ وحَواءَ ﵉: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] لو لم يَكُنْ لِلملائكةِ فَضلٌ عليهِمْ(١٤) ومَنْزِلةٌ، ليسَ ذلكَ لِلْبَشَرِ، لم يَكُنْ إبليسُ بالذي يَغُرُّهُما بذلكَ المَلَأكِ والوَعْدِ لهما أنهما يَصِيرانِ مَلَكَينِ، ولا كانَ آدمُ وحَواءُ باللَّذَينِ(١٥) يَغْتَرّانِ بذلكَ. دلَّ أنَّ المَلَكَ أفضلُ مِنَ البَشَرِ.

---

(١) في الأصل وم: سمى. (٢) في الأصل وم: فنسب. (٣) في الأصل وم: نسب. (٤) في الأصل وم: ورسولا. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) في م: أو، ساقطة من الأصل. (٨) في م: وتعالى. (٩) في الأصل وم: لملكه زوال. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ما. (١٤) في الأصل وم: عندهم. (١٥) في الأصل وم: بالذي.

الرابعُ: لأنّ(١) الأنبياء، صَلَواتُ اللهُ عليهِمْ، ما اسْتَغفَرُوا لأحَدٍ إلّا بَدَؤوا بالاستِغفارِ لأنفُسِهِمْ ثم لِغَيرِهِمْ مِنَ المؤمنِينَ كقولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ الآيةَ [نوح: ٢٨] وكقولِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى/ ١٢١ ـ أ/ وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١] وما أمَرَ اللهُ عز وجل نَبِيَّهُ محمداً ﷺ بالاسْتِغفارِ، فقالَ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الآية [غافر: ٥٥ ومحمد: ١٩] وقالَ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وما أمَرَ بذلكَ، وما فَعَلوا ذلكَ إلّا لِما يَحْتَمِلُ ذلكَ فيهِمْ).

والملائكةُ لم يَسْتَغفِروا لأنفُسِهِمْ، ولكنَّهُمْ طَلَبُوا المَغْفِرَةَ لِلْمُؤمِنِينَ مِنَ البَشَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]. وإلى هذا ذَهَبَ الناسُ بِتفضِيلِهِمُ الملائكةَ على البشرِ.

وقالَ(٢) آخَرُونَ بتفضيلِ البَشَرِ على الملائكةِ. ولا يَجِبُ أنْ يُتَكَلَّمَ في تَفْضِيلِ البَشَرِ على الإطلاقِ على الملائكةِ لأنهمْ يَعْمَلُونَ بالفَسادِ وبكُلِّ فِسْقٍ إلّا أنْ يُتَكَلَّمَ في تَفضِيلِ أهْلِ الفَضْلِ مِنَ البَشَرِ والمَعْروفِ بذلكَ على الملائكةِ.

فلذلكَ يُحتَمَلُ أنْ يَتَكَلَّمَ فيهِ، ويذهبُ مَنْ قالَ بِتَفضيلِ مَنْ ذَكَرْنا مِنَ البَشَرِ على الملائكةِ إلى أنهُ ليسَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ على أنَّ الملائكةَ كُلَّهُمْ أفضلُ مِنهُمْ لأنهُ إنما ذَكَرَ ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ لم يَذْكُرِ الملائكةَ مُطلَقاً. فيجوزُ أنْ يكونَ لِما(٣) ذَكَرَ فَضْلٌ على الملائكةِ(٤).

وكلامُنا في تَفْضِيلِ الجَوهَرِ على الجَوهَرِ، ولأنَّ البَشَرَ رُكِّبَ فيهِمْ مِنَ الشَّهَواتِ والأمانِيِّ ما(٥) يَدْعُوهُمْ إلى ما فيهِ الخِلافُ للهِ والمَعْصِيةُ لهُ، وجَعَلَ لَهُمْ أعداءَ، أُمِرُوا بالمجاهَدَةِ مَعَهُمْ مِنْ نَحْوِ أنفسِهِمْ والشياطينِ الذينَ سُلِّطوا عليهِمْ، ولا كذلكَ الملائكةُ عليهم السلام فَمَنْ حَفِظَ نَفْسَهُ، وصانَها، وأخلَصَها مِنْ بَينِ الأعداءِ، وقَمَعَ ما رُكِّبَ فيهِ(٦) مِنَ الشَّهَواتِ والحاجاتِ الداعِيةِ إلى الخِلافِ للهِ والمَعْصيةِ له، كانَ أفضَلَ مِمَّنْ لا يَشْغَلُهُ شَيءٌ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ. وما ذَكَرَ مِنِ اغْتِرارِ آدمَ وحَوّاءَ بِقَولِ إبليسَ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ آدمُ لِما(٧) خَلَقَهُ مِنْ جَوهَرِ البَشَرِ، وأخبَرَ أنهُ جَعَلَهُ خَليفَةً في الأرضِ، لا(٨) يَتَناوَلُ ما نُهِيَ عنهُ لِيَصيرَ مِنْ جَوهرِ الملائكةِ. ولكنهُ، واللهُ أعْلَمُ، رَأى أنَّ الملائكةَ طُبِعُوا على حُبِّ العِبادَةِ للهِ، ولم يُرَكَّبْ فيهِمْ مِنَ الشَّهَواتِ والحاجاتِ ما(٩) يَشْغَلُ المَرْءَ عنِ العِبادةِ للهِ والطاعةِ لهُ، فأحَبَّ أنْ يُطبَعَ بِطَبْعِهِمْ لِيَقُومَ بعبادةِ اللهِ كما قامُوا هُمْ، واللهُ أعْلَمُ. والكلامُ في مثلِ هذا [يُرْجِعُ](١٠) فَضْلَ ذلكَ إلى اللهِ تعالى، وإليهِ التَّخَيُّرُ والإفضالُ.

ثم تأويلُ قولِهِ عز وجل واللهُ أعلمُ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أنهُمْ(١١) كانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ دونَ اللهِ، ويَعْبُدُونَ المَسِيحَ دونَهُ. فأخبَرَ أنَّ أولئكَ الذينَ تَعْبُدونَهُمْ أنْتُمْ لم يَسْتَنكِفُوا عنْ عِبادَتي، فكيفَ تَسْتَنكِفُونَ أنْتُمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فهو، واللهُ أعْلَمُ. على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ، ويَسْتَكْبِرْ، ومنْ لم يَسْتَنكِفْ، ولم يَسْتَكبِرْ، فَسَيَحْشُرُهُمْ جميعاً.

الآية ١٧٣ ثم بَيَّنَ جزاءَ مَنْ لم يَستَنكِفْ عنْ عبادَتِهِ، ولم يَسْتَكبِرْ، ومَنِ استَنكَفَ، واستَكبَرَ، فقالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الآيةَ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الآيةَ وإلّا لم يكُنْ في الذينَ اسْتَنكَفُوا مؤمِنٌ بل كانوا كُلُّهُمْ كُفّاراً بالاسْتِنكافِ والاسْتِكبارِ عن عبادَتِهِ، والاسْتِنكافُ والاسْتِكبارُ واحدٌ في الحَقِيقةِ.

وقالَ الكِسائيُّ(١٢): وإنما جَمَعَ بَيْنَهُما لِاخْتِلافِ اللَّفظَينِ، وهذا مِنْ حُسْنِ كلامِ العَرَبِ كقولِ العَرَبِ: كيفَ حالُكَ؟ وبالُكَ؟ والحالُ والبالُ واحدٌ، ومِثْلُهُ في القرآنِ والشِّعْرِ كثيرٌ. لكنَّ الاسْتِنكافَ والأنَفَةَ لا يُضافانِ(١٣) إلى اللهِ تعالى. والاسْتِكبارُ يُضافُ [لأنَّ هذا](١٤) المَعْنى مُخْتَلِفٌ. وأمّا في الحَقيقةِ فهما واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: لمن. (٤) في الأصل وم: البشر. (٥) في الأصل وم: التي. (٦) في الأصل وم: فيها. (٧) من م، في الأصل: لا. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) في الأصل وم: التي. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وذلك أنهم. (١٢) في الأصل وم: الكيساني. (١٣) في الأصل وم: يضاف. (١٤) في الأصل: من لهذا، في م: من هذا.

الآية ١٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والبُرْهانُ هو الحُجَّةُ، توضِحُ[1]، وتُظْهِرُ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ. وقيلَ: بَيانٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وهُما واحِدٌ. وقالَ[2] بَعْضُهُمْ: هو النَّبِيُّ ﷺ وقالَ آخرونَ: هو القرآنُ. فأيُّهُما كانَ فهوَ حُجَّةٌ وبَيانٌ يَلْزَمُ الحَقَّ، ويُبَيِّنُ لِمَنْ لم يعانِدْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ يُبْصَرُ بِهِ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، وبِهِ يُعْرَفُ، وهو القرآنُ؛ سَمّاهُ نوراً لِما بِهِ يُبْصَرُ الحقُّ، وإنْ لم يكُنْ هو بِنَفْسِهِ نوراً كالنهارِ سَمّاهُ مُبْصِراً[3] لِما بِهِ يُبْصَرُ، وإن لم يكُنْ هو كذلكَ. وقالَ قتادةُ: (﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ هو هذا القرآنُ، وفيهِ بَيانُهُ ونورُهُ وهُداهُ وعِصْمةٌ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ).

الآية ١٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِۦ﴾ جَعَلَ الاِعْتِصامَ بِهِ ما بِهِ تُنالُ رحمتُهُ، وفَضْلُهُ في الاِعْتِصامِ هو أنْ يُلْتَجأَ إليهِ في كلِّ الأمورِ، وبِهِ تَوَكُّلٌ، لا يُلْتَجأَ بِمَنْ دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ: فأمّا الذينَ آمَنوا باللهِ واعْتَصَموا بِهِ ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾، يَعْني الجنَّةَ، ﴿وَفَضْلٍ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

الآية ١٧٦ [وقولُهُ تعالى:][4]: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ والكلالَةُ ما ذَكَرَ: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. قالَ جابرٌ ﷺ: (نزلَتْ فيَّ [الآيةُ])[5]. ورُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ، أنهُ قالَ: (ما سألْتُ النَّبِيَّ ﷺ، أكثَرَ مِمّا سألْتُهُ عنِ الكلالةِ، ثم طَعَنَ في صَدْري بإصْبَعِهِ، فقالَ: «ألا تَكْفيكَ آيَةُ النِّصْفِ التي في آخِرِ سورةِ النساءِ») [مسلم ١٦١٧].

وفيهِ دلالةٌ أنْ قد يَنْزِلُ بَيانُ ما يُدْرَكُ بالاِجْتِهادِ والنظرِ، ولا يُبَيِّنُ [إلا بأنْ يُجْتَهَدَ][6] ويُدْرَكَ بالنَّظَرِ لأنَّ عُمَرَ ﷺ سألَ غَيْرَ مَرَّةٍ رسولَ اللهِ ﷺ ولم يُبَيِّنْهُ، وأشارَ إلى الآيةِ التي فيها ذِكْرُ [ما][7] سألَ عنهُ لِيَنْظُرَ، ويَجْتَهِدَ لِيُدْرِكَ.

وفيهِ دليلُ جوازِ تأخيرِ البَيانِ لأنَّ عُمَرَ سألَهُ غيرَ مَرَّةٍ، ولم يُبَيِّنْهُ[8] حتى أمَرَهُ بالنَّظَرِ في الآيةِ، وعُمَرُ ﷺ لم يكُنْ عَرَفَ قَبْلَ ذلكَ، فدلَّ جوازاً تأخيرُ البَيانِ.

فرُوِيَ عن أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ أنهُ قالَ: (الكلالةُ مَنْ ليسَ لَهُ وَلَدٌ ولا والدٌ)، وكذلكَ قالَ عُمَرُ ﷺ وقالَ: (إني لأَسْتَحْيِي[9] مِنَ اللهِ أنْ أرُدَّ شيئاً قالَهُ أبو بَكْرٍ). وسُئِلَ ابْنُ عباسٍ ﷺ عَنِ الكلالةِ، فقالَ: (مَنْ لا وَلَدَ لَهُ ولا والدَ). ورُوِيَ عَنْ جابرٍ ﷺ [أنهُ][10] قالَ: (مَرِضْتُ، فأتاني رسولُ اللهِ ﷺ يَعودُني، وأبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ مَعَهُ، فوَجَدَني قد أُغْمِيَ عَلَيَّ، فَصَبَّ وَضوءَهُ عَلَيَّ، فأفَقْتُ، فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ كيفَ أصْنَعُ في مالي، وكانَ لي تِسْعُ أخَواتٍ، ولم يُجِبْني حتى نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. قالَ جابرٌ: فِيَّ نَزَلَتِ الآيةُ) [البخاري: ٦٧٤٣].

قالَ بَعْضُ الناسِ: إذا ماتَ الرجلُ وتَرَكَ ابْنَتَهُ وأُخْتاً فلا شَيْءَ للأُخْتِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ والاِبْنَةُ وَلَدٌ، فلا ميراثَ للأُخْتِ وللأخِ مَعَ الاِبْنَةِ لأنها وَلَدٌ، فيُقالُ: إنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لِلاِبْنَةِ النِّصْفَ إذا لم يكُنْ معها ابْنٌ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ [النساء: ١١]. فإذا ماتَ، وتَرَكَ ابْنَةً وأُخْتاً فلِلاِبْنَةِ النِّصْفُ، وذلكَ النِّصْفُ الباقي إذا لم يُعْطَ لِلأُخْتِ يُرَدُّ إلى الاِبْنَةِ، فيكونُ لها كُلُّ الميراثِ، وقد جَعَلَ اللهُ تعالى ميراثَها، إذا لم يكُنْ معها وَلَدٌ ذَكَرٌ، النِّصْفَ، أو لا يُرَدُّ إلى الاِبْنَةِ، فيَجِبُ أنْ يُنْظَرَ أيُّهُما أحَقُّ بذلكَ النِّصْفِ الباقي [فقد جاءَ][11] في بعضِ الأخبارِ أنَّ الأخَواتِ مَعَ البناتِ عَصَبَةٌ. لذلكَ كانَتِ الأُخْتُ أوْلَى بِذَلِكَ النِّصْفِ الباقي/ ١٢١ ـ ب/ واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: وتوضح. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) إشارة إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧ والنمل: ٨٦ وغافر: ٦١]. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ليجتهد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: ينتبه. (٩) في الأصل وم: لا أستحي. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فجاء.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ ذَكَرَ لِلاثْنَتَينِ الثُّلُثَينِ، ولم يَذْكُرْ لِلثَّلاثِ فَصاعداً مِنْهُنَّ، وذَكَرَ في الابْنَةِ الواحدةِ النِّصْفَ في أوَّلِ السورةِ بقولِهِ: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ ولم يَذْكُرِ الثَّلاثَ فَصاعداً بقولِهِ: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [الآية: ١١] فتَرَكَ بيانَ الحقِّ في الابْنَتَينِ لِبيانِهِ في الأُخْتَينِ، وتَرَكَ البيانَ لِلأخَواتِ لِبيانِهِ في البَناتِ. ففيهِ دَليلُ القِياسِ حينَ اكْتَفَى بِبيانِ البَعْضِ عَنِ الآخَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾: إنَّ اسْمَ الإخْوَةِ بِجَميعِ الإناثِ والذكورِ جَميعاً لأنهُ ذَكَرَ إخْوَةً، ثمَّ فَسَّرَ الرِّجالَ والنِّساءَ، فَهُوَ دليلٌ لَنا في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] أنهُم يَحْجُبونَ الأمَّ عنِ الثُّلُثِ ذُكوراً أو إناثاً، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ قيلَ: ألّا تَضِلُّوا. وقال الكِسائيُّ: العَرَبُ تَقولُ لِلرَّجُلِ: أطْعَمْتُكَ أنْ تَجوعَ، وأغْنَيتُكَ أنْ تَفْتَقِرَ على مَعْنَى ألّا تَجوعَ، ولا تَفْتَقِرَ. وفي القرآنِ كثيرٌ مِثْلُ هذا. ثم قولُهُ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ قيلَ: ألّا تَضِلُّوا في تَسْمِيَةِ المَواريثِ، وقيلَ: ألّا تُخطِئوا، وقيلَ: ألّا تَخْلِطُوا، وهو واحدٌ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ وَعيدٌ، وباللهِ الحَوْلُ والقُوَّةُ.

تم بعون الله المجلد الأول

ويليه الثاني وأوله سورة المائدة

(١) ساقطة من الأصل وم.

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

تأويلات أهل السنة

تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي

(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الثاني

مؤسسة الرسالة ناشرون

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
محمد رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon
Email:
resalah@resalah.com
Web site:
http://www.resalah.com

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

اللهمَّ

اجْعَلْنِي ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومن يقْرَؤُهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ اجْمعَ أهْلُ التأويلِ على أنَّ العُقودَ ههنا، هي العُهودُ.

ثُمَّ العُهودُ على قِسْمَينِ؛ عُهودٌ في ما بَينَ الخَلْقِ، أمَرَ اللهُ ﷻ بِوَفائِها، وعُهودٌ في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ رَبِّهِمْ؛ وهي المَواثيقُ التي أخَذَ عليهِمْ: مِنْ نَحْوِ الفَرائضِ التي فَرَضَ اللهُ عليهِمْ والنُّذورِ التي يَتَوَلَّونَ هُمْ إيجابَها، وغَيرِ ذلكَ أمَرَ ﷻ بِوَفائِها.

وأمّا العُهودُ التي في ما بَيْنَهُمْ مِنْ نَحْوِ الأيمانِ وغَيرِها [فقد][1] أمَرَ بِوَفاءِ ذلكَ إذا لم يَكُنْ فيها مَعْصِيَةُ الرَّبِّ كَقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] أمَرَ ههنا بِوَفاءِ الأيمانِ، ونَهى عَنْ تَرْكِها ونَقْضِها.

ثُمَّ جاءَ في الخَبَرِ أنَّهُ قالَ: «مَنْ حَلَفَ على يمينٍ، فَرَأى غيرَها خيراً مِنها فَلْيَأْتِ الذي هوَ خَيرٌ، ولْيُكَفِّرْ يَمينَهُ» [مسلم: ١٦٥٠] أمَرَ في ما فيهِ مَعْصِيَةٌ بِفَسْخِها، أو أمَرَ بِوَفاءِ ما لم يَكُنْ فيه مَعْصِيَةٌ، ونَهى عَنْ نَقْضِها بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ الآية [النحل: ٩١].

وعَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][2] قالَ: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ هي: العُهودُ؛ هي[3] ما أحَلَّ وما حَرَّمَ وما فَرَضَ وما حَلَّ في القرآنِ كُلِّهِ، وهي[4] ما ذَكَرْنا.

وَقيلَ: إنَّ العُقودَ التي أمَرَ اللهُ تعالى بِوَفائِها، هي العُهودُ التي أخَذَ اللهُ تعالى على أهلِ الكتابِ: أنْ يُؤمِنوا بمحمَّدٍ ﷺ ويأخُذوا بِشرائِعِهِ، ويَعْمَلُوا بما جاءَ بِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ الآية [المائدة: ١٢]. فالخِطابُ لَهُمْ على هذا التأويلِ لأنهُمْ كانُوا آمَنُوا بِهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، فلمَّا بُعِثَ كَفَروا بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هي الوُحُوشُ، وهو قَولُ الفَرّاءِ. ألا تَرى أنَّهُ قالَ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾؟ وقالَ الحَسَنُ: (هي الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ) وقالَ آخرونَ: البَهيمَةُ كُلُّ مَرْكوبٍ.

لكنْ عِنْدَنا كُلُّ مَأكولٍ مِنَ الغَنَمِ والوَحْشِ والصَّيدِ وغيرُهُ، وإنْ لم يُذْكَرْ. دليلُهُ ما اسْتَثْنى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ كانهُ قالَ ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ والصَّيدُ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مِنَ ﴿ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣] ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ على أنَّ الصَّيدَ فيهِ كالمَذكُورِ، وإنْ لَمْ يُذْكَرْ، لأنهُ اسْتَثْنى الصَّيدَ منهُ.

وأبداً إنما يُسْتَثْنى الشَّيءُ مِنَ الشَّيءِ إذا كانَ فيهِ ذلكَ. وأمّا إذا لم يَكُنْ فلا مَعْنى لِلاسْتِثناءِ. فإذا اسْتَثْنى الصَّيدَ دلَّ الاسْتِثناءُ على أنَّ الصَّيدَ فيهِ، وإنْ لَمْ يُذْكَرْ. ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢] على أنَّ النَّهْيَ كانَ عنِ الاصْطِيادِ في حالِ الإحرامِ لا عنْ أكلِهِ لأنَّ لِلْمُحْرِمِ أنْ يَأكُلَ صيداً صادَهُ حلالاً[5].

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ على أنَّ الصَّيدَ قَدْ دَخَلَ في قولِهِ تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ على ما ذُكِرَ في ما تَقَدَّمَ أنَّ البَيانَ في الجَوابِ يَدُلُّ على كَونِهِ في السُّؤالِ [وإنْ لم يكنْ مَذْكُوراً في السؤالِ][6]. فَعَلى ذَلِكَ تَدُلُّ الثُّنْيا مِنَ الصَّيدِ على كونِهِ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: حلال. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتَمِلُ [قولُهُ تعالى][1] ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ثمانيةَ[2] الأزواجِ التي ذَكَرها في سُورةِ الأنعام﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [الآية: ١٤٣]. والآيةُ تَدُلُّ على أنَّ الذي أُحِلَّ مِنَ البَهائِمِ الأنعامُ؛ مِنها ثَمانيةٌ دَلَّ عليها قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]. ثُمَّ قولُهُ[3]: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] فَصَلَ[4] بينَ الأنعامِ وبينَ الخَيلِ والبِغالِ والحَميرِ؛ [خَلَقَ هَذِهِ][5] لِلرُّكُوبِ، والأنعامَ لِلأكْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ كأنَّهُ قالَ: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهيمةُ الأنعامِ والصَّيدُ إلّا ما يُتْلى عَلَيكُم. يَحتَمِلُ ﴿يُتْلَىٰ﴾ على الوَعْدِ أي يُتْلى عليكُمْ مِن بَعْدِ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخِرِهِ. ويَحتَمِلُ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما ذُكِرَ. وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فيها في سورةِ الأنعامِ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الآية: ١٤٥] إلى آخِرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، أي إلى اللهِ الحُكْمُ، يَحْكُمُ بِمَا يَشاءُ مِنَ التَحريمِ والتَّحْليلِ في مَا شاءَ على مَا شاءَ، لَيسَ إلَيكُمُ الحُكْمُ[6] عليهِ، وهذا يَنْقُضُ قَولَ [من يَقُولُ][7]: لَمْ يُرِدْ لأنَّهُ لَو أرادَ لَحَكَمَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنَّهُ][8] قالَ: كانَ المُشرِكُونَ يَحُجُّونَ البَيتَ الحَرامَ، ويَهْدونَ الهَدايا، ويُعَظِّمُونَ حُرْمَةَ المَشاعِرِ، ويَنْحَرونَ في حَجَّتِهِمْ، فأرادَ المُسْلِمونَ أنْ يُغَيِّرُوا عليهِمْ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ يَعْني لا تَستَحِلُّوا قِتالاً فِيهِ ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ الآية. وقالَ غَيرُهُ[9]: قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ يَعني المَناسِكَ؛ لا تَستَحِلُّوا تَرْكَ شَعائِرِ اللهِ. والشَّعائِرُ هُنَّ المَناسِكُ.

ألَا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى سَمَّى كُلَّ نُسُكٍ مِنَ الحَجِّ شَعيرَةً[10] اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وكقولِهِ[11] تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾؟ [الحج: ٣٦]. كُلُّ هذا مِنْ شعائِرِ اللهِ، وهُنَّ مَعالِمُ اللهِ في الحَجِّ.

وقيلَ: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ فرائِضُ اللهِ؛ كَأنَّهُ قالَ: لا تَستَحِلُّوا تَرْكَ ما فَرَضَ اللهُ عَليكُمْ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ دِينُ[12] اللهِ، وهو واحِدٌ، وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ حتّى بَلَغَ ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [هي حَواجِزُ أبقاها][13] اللهُ بينَ الناسِ مِنَ[14] الجاهِلِيَّةِ؛ فكانَ الرجُلُ لو جَرَّ جَريرَةً، وارْتَكَبَ كَبيرةً، ثمَّ لَجأ إلى حَرَمِ اللهِ تعالى، لَمْ يُتَناوَلْ، ولم يُطْلَبْ، ولو لَقِيَ [المَرْءُ][15] قاتِلَ أبيهِ في الأشْهُرِ الحُرُمِ لم يَتَعرَّضْ لَهُ، وكانَ الرَّجُلُ لو لَقِيَ الهَدْيَ مُقَلَّداً، وهو يأكُلُ العَصَبَ مِنَ الجُوعِ ،لم يَتَعرَّضْ لَهُ، ولم يَقْرَبْهُ، وإذا[16] أرادَ [الحاجُّ البيتَ يُقَلِّدُ البَدَنَةَ][17] قِلادَةً مِنْ شَعْرٍ [تُحَرِّمُها، وتَمْنَعُها][18] / ١٢٢ ـ أ/ مِنَ الناسِ حتّى يأتِيَ [مَحِلَّهُ. تلكَ][19] حَواجِزُ [أبقاها اللهُ مِنَ الجاهِلِيَّةِ أماناً لَهُمْ][20] واللهُ أعْلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي لا تَستَحِلُّوا ما أشْعَرَكُمُ اللهُ حُرْمَتَهُ، وهو مِنَ الأعلامِ. ويَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ أرادَ بِهِ مَشاعِرَ الحَرامِ الذي ذَكَرْنا، وقالَ: لا تُحِلُّوا الحَرامَ ولا الشَّهْرَ الحَرامَ ولا الهَديَ ولا القَلائِدَ؛ وهَذِهِ أمُورٌ كانتْ مِنْ قَبْلُ، فَنُسِخَتْ[21] بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥].

وعَنِ الشَّعْبِيِّ أنَّهُ قالَ: لم يُنْسَخْ مِنَ المائدةِ غَيرُ هذِهِ الآيةِ؛ نَسَخَها [قولُهُ تعالى][22]: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الثمانية. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: ففصل. (٥) في الأصل وم: خلقها.
(٦) في الأصل وم: التحكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: غيرهم. (١٠) في الأصل وم: شعائر.
(١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٣) في الأصل وم: فقال: حواجز أبقاه. (١٤) في الأصل وم: في.
(١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: البيت يقلد. (١٨) في الأصل وم: فحرمته ومنعته. (١٩) في الأصل وم: أهله. (٢٠) في الأصل وم: أبقاه الله في الجاهلية أمان. (٢١) في الأصل وم: فنسخ. (٢٢) ساقطة من الأصل وم.

وقالَتْ عائشةُ ﵂ إنها آخِرُ ما أُنزِلَ، فما وَجَدْتُمْ فِيها مِنْ حَلالٍ فَاسْتَحِلُّوهُ، وما وَجَدْتُمْ مِنْ حَرامٍ فَحَرِّمُوهُ.

وقَولُهُ تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ هو[1] كقولِهِ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقد ذَكَرْنا أنَّ اللهَ ﷻ أطْلَقَ الحَرامَ في الشَّهرِ الحَرامِ بَعْدَ ما كان مَحظوراً بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ فهو[2] ما ذَكَرْنا مِنْ صَنيعِهِمْ في الجاهِليَّةِ في ما ذَكَرَ[3]، وفيهِ دَليلٌ لِقولِ أصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، حينَ[4] قالوا: إنَّ الغَنَمَ لا تُقَلَّدُ، والإبِلَ والبَقَرَ تُقَلَّدُ لأنهُ ذَكَرَ الهَدْيَ والقَلائِدَ، فَدَلَّ أنَّ مِنَ الهَدْيِ [ما][5] يُقَلَّدُ.

[وقوله تعالى][6]: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي آتينَ[7] البيتَ الحَرامَ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ قيلَ: إنَّ المُشركِينَ كانُوا يَقْصِدونَ البيتَ الحَرامَ، يَلْتَمِسُونَ فَضلَ اللهِ ورِضوانَهُ بما يُصْلِحُ لَهُمْ دُنْياهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقد يجوزُ أنْ يكونوا إنما التَمَسُوا، عندَ أنفُسِهِمْ رِضوانَ اللهِ، أمْرَ المُؤمِنينَ بالكَفِّ عنهُمْ، وإنْ كانُوا قد غَلِطُوا في تَوجيهِ العِبادَةِ، فَجَعلُوهَا لِغَيرِ اللهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ دلَّ هذا على أنَّ النَّهيَ في قولِهِ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] في أخذِ الصيدِ والاصْطِيادِ[8] في الإحرامِ لا أكْلِهِ، وهو إباحةٌ وإطلاقٌ ما حُظِرَ عليهِم بالإحرامِ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ أمْراً. ومَعْناهُ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ لَكُمْ أنْ تَصْطادُوا.

وأصْلُهُ أنَّ كُلَّ أمْرٍ خَرَجَ على إثْرِ مَحظورٍ فَهُوَ أمْرُ إباحَةٍ وإطلاقِ ذلكَ المَحْظورِ المُحَرَّمِ لا أمْرُ إلزامٍ و إيجابٍ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] ثُمَّ قولُهُ[9] تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] هو إطلاقُ المَحظورِ المُقَدَّمِ، وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ثم قولُهُ[10] تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ [الأحزاب: ٥٣] أمْرُ إطلاقٍ وإباحَةِ ما حُظِرَ عَليهِمْ، ومِثْلُهُ كثيرٌ في القرآنِ مِمّا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ. وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﵁ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولا تَؤُمُّوا، وكذلكَ في حَرْفِهِ: فَأمُّوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦].

وقِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ حَجُّهُمْ، فَلا يُقْبَلُ منهُمْ[11] حتَّى يُسْلِمُوا، فَنَهَى اللهُ تعالى رَسُولَهُ عنْ قِتالِهِمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: «إنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في رَجُلٍ مِنْ أهلِ اليَمامَةِ، يُقالُ لَهُ: شُرَيحٌ، وذَلِكَ [أنهُ أتى المدينةَ][12]، فَدَخَلَ على النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: أنتَ مُحمدٌ النَّبِيُّ ﷺ؟ فقالَ: نعم. فقالَ: إلامَ تَدْعُو؟ قالَ: أدْعُو إلى أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني محمدٌ رسولُ الله، [فقالَ شُرَيحٌ][13]: هذا شَرْطٌ شَديدٌ، وإنَّ لي أمراءَ خَلْفي، أرجِعُ إليهِمْ، فأعْرِضُ عليهِمْ ما اشْتَرَطْتَ عليَّ، وأسْتأمِرُهُمْ في ذلكَ. فإنْ أقْبَلُوا أقْبَلْتُ، وإنْ أدْبَرُوا أدْبَرْتُ؛ فأكُونُ[14] مَعَهُمْ. ثم انْصَرَفَ خارجاً مِنْ عِنْدِ رسولِ الله ﷺ، فلما خَرَجَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لقد خَرَجَ مِنْ عندي بِعُقْبَي غادِرٍ، ولقد دخَلَ عليَّ بِوَجْهِ كافِرٍ، وما الرجلُ بِمُسْلِمٍ، فَمَرَّ شُرَيحٌ بِسَرْحٍ لِأهْلِ المدينةِ [فساقَهُ مَعَهُ][15]. فلما كانَ مِنَ العامِ الثاني قَدِمَ شُرَيحٌ إلى مكةَ، ومعهُ تِجارةٌ عَظيمةٌ في حُجّاجٍ، وكانَتِ العَرَبُ في الجاهليَّةِ يُغيرُ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ. فإذا كانَ الشهرُ الحَرامُ أمِنَ الناسُ كُلُّهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ فَمَنْ أرادَ أنْ يُسافِرَ قَلَّدَ بَعيرَهُ مِنَ الشَّعْرِ والوَبَرِ[16]، فيأمَنُ بذلكَ الهَدْيَ حَيثُ ما ذَهَبَ. فلما سَمِعَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ بِحَجِّ شُرَيحٍ وقُدومِهِ إلى مكَّةَ، أرادُوا[17] أنْ يُغيروا على شُرَيحٍ فَيأخُذوا ما [مَعَهُ، ويَقْتُلُوهُ][18] كما أغارَ شُرَيحٌ على سَرْحِ أهْلِ المدينةِ

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: فآمين، في م: فآتين. (٨) في الأصل وم: واصطياد. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) في الأصل وم: عنهم. (١٢) في الأصل وم: أتى بالمدينة. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فكنت. (١٥) في الأصل وم: فساقها معهم. (١٦) في الأصل وم: الوبر. (١٧) في الأصل وم: فأرادوا. (١٨) في الأصل وم: معهم ويقتلوهم. وقد ذكرت هذه القصة في تفسير ابن جرير الطبري عن رجل آخر غير شريح، اسمه الحطم ٦/ ٥٩.

قَبْلَ ذَلِكَ، فاسْتَأمَرُوا رسولَ الله ﷺ في ذلكَ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ فيهِمْ: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخرِهِ؛ فلا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وليسَ بنا إلى مَعْرِفَةِ القِصَّةِ حاجَةٌ إلّا القَدْرَ الذي ذَكَرَ اللهُ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨] كقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ الآية [النساء: ١٣٥].

ذَكَرَ في بَعْضِها الاِعْتِداءَ، ونَهَى عنهُ، وهو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي حَدَّ لَهُمْ، وذَكَرَ في بَعْضِها العَدْلَ، ونَهَى عنِ الظُّلْمِ والجَورِ، ثُمَّ الأسبابَ [التي][2] تَحْمِلُهُمْ، وتَبْعَثُهُمْ على[3] الاِعْتِداءِ والظُّلْمِ، وتَمْنَعُ القِيامَ بالشَّهادةِ.

وأخبَرَ ألّا تَمْنَعَكُمُ الوِلايَةُ والقُرْبُ القِيامَ بالشَّهادةِ أو طَمَعُ غِنىً أو خَوفُ فَقْرٍ. هذِهِ الوجوهُ التي ذَكَرْنا تَمْنَعُ النّاسَ القِيامَ بالشَّهادةِ، وتَمْنَعُهُمْ[4] عنِ الجَورِ والاِعْتِداءِ. فَنَهاهُمُ اللهُ ﷻ أنْ يَحْمِلَهُمْ بُغْضُ قومٍ أو عَداوَةُ أحَدٍ على الجَورِ والاِعْتِداءِ، أو تَمْنَعَهُمُ الشَّفَقَةُ[5] أوِ القُرْبُ أو طَمَعُ غِنَى أحَدٍ أو خَوفُ فَقْرِ القِيامَ بالشَّهادةِ وما عليهِمْ مِنَ الحقِّ. وأمَرَ أنْ يَجْعَلُوهُ كُلَّهُ للهِ بقولِهِ: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

فإذا كانَ كُلُّهُ للهِ قَدَرَ أنْ يَعْدِلَ في الحُكْمِ، وتَرَكَ مُجاوَزَةَ الحَدِّ الذي حُدَّ لَهُ، وقَدَرَ على القِيامِ بالشهادةِ وما ذَكَرَ، وما يَمْنَعُ شَيءٌ مِنْ ذلكَ القِيامَ بِهِ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنَ البُغْضِ والعَداوَةِ والقُرْبِ والشَّفَقَةِ أو طَمَعِ الغِنَى وخَوفِ الفَقْرِ. إذا جَعَلَ الحُكْمَ للهِ عَدَلَ فِيهِ، ومَنَعَهُ عَنِ الجَورِ فِيهِ و الاِعْتِداءِ. وكذلكَ الشَّهادَةُ إذا جَعَلَها للهِ قامَ بأدائِها، ولو على نَفْسِهِ. أمَا ذَكَرَ [أنَّهُ لا][6] يَمْنَعُهُ شَيءٌ عنِ القِيامِ بِهِ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنَ البُغْضِ والعَداوةِ والقُرْبِ والشَّفَقَةِ أو طَمَعِ الغِنَى أو خَوفِ الفَقْرِ إذا جَعَلَ الحُكْمَ للهِ تعالى عَدَلَ فِيهِ، ومَنَعَهُ عنِ الجَورِ فيهِ والاِعْتِداءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ كانَ البِرُّ اسْمَ كُلِّ خيرٍ، والتَّقْوَى هو تَرْكُ كُلِّ شَرٍّ[7]، والاِنْتِهاءُ عنْ كُلِّ شَرٍّ ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ بإزاءِ البِرِّ الإثْمَ، والتَّقْوَى العُدْوانَ؟ فهذا يُبَيِّنُ أنَّ البِرَّ اسْمٌ لِكُلِّ خيرٍ، والتَّقْوَى هو الاِنْتِهاءُ عنْ كُلِّ شَرٍّ.

ويجوزُ أنْ يكونَ [التَّقْوَى][8] ما ذَكَرَ في الآيةِ الأُولَى، وأمَرَ بِهِ، وهُوَ قولُهُ: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾. يقولُ: عاوِنُوهُمْ على ما يأتونَ بِهِ مِنْ ذلكَ فإنهُمْ إلى البِرِّ يَقْصِدُونَ عندَ أنفسِهِمْ، وإنْ لم يكُنْ فِعْلُهُمْ بِرّاً لِعِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ تعالى. وإنما أُمِرُوا بِمُعاوَنَتِهِمْ وتَرْكِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ إنْ ثَبَتَ ما ذُكِرَ في القِصَّةِ إذا أحْرَمُوا، أو قَلَّدُوا، أو قَصَدُوا البَيْتَ الحَرامَ في الوَقْتِ الذي جازَ أنْ يُعاهِدُوا فيهِ كما يجوزُ لَنا مُعاهَدَةُ أهلِ الكتابِ على ألّا نَتَعَرَّضَ[9] لِكنائِسِهِمْ وبِيَعِهِمْ، وإنْ كانُوا يَعْصُونَ اللهَ فيها لأنهُمْ يَدِينُونَ بذلكَ، ويَقْصِدُونَ بِهِ البِرَّ عندَ أنفسِهِمْ. فلمّا أمَرَ بِنَقْضِ عُهودِ مُشْرِكي العَرَبِ أمَرَ بِمَنْعِهِمْ مِنْ دُخولِ المَسْجِدِ وأنْ يُقْتَلُوا حَيثُ وُجِدُوا.

إلى هذا المَعْنَى ذهبَ أصْحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ/ ١٢٢ ـ ب/ تعالى، واللهُ أعلَمُ، في فَرْقِهِمْ بَيْنَ شهادَةِ أهلِ الذِّمَّةِ على أمثالِهِمْ وشَهادَةِ فُسّاقِ المُسْلِمِينَ، وإنَّ[10] أهْلَ الذِّمَّةِ مُتَدَيِّنُونَ بِكُفْرِهِمْ، والفُسّاقَ مُتَدَيِّنُونَ[11] بِفِسْقِهِمْ. وكذلكَ فَرْقُهُمْ بينَ ما يَغْلِبُ عليهِ المُشْرِكُونَ مِنْ أمْوالِ المُسْلِمِينَ وبَيْنَ ما يَغْلِبُ عليهِ الفُسّاقُ مِنْها لأنَّ أمْرَ المُتَدَيِّنِ[12] بِدِينٍ خَطَإٍ مُخالِفٌ في الحُكْمِ أمْرَ المُقِرِّ بالذَّنْبِ فيهِ.

ألا تَرَى أنهُ يَجوزُ أنْ تُطْلَقَ لِمَنْ يُعاقِدونَهُ[13] مِنْ أهْلِ الكتابِ الصلاةُ في كَنائِسِهِمْ [وبِيَعِهِمْ][14] وإنْ كانَ ذلكَ عِنْدَنا [مَعْصِيَةً حَراماً][15]، ولا يَجوزُ أنْ تُطْلَقَ المَعْصِيَةُ لِفُسّاقِ المُسْلِمِينَ؟.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عن. (٤) في الأصل وم: وتبعثهم. (٥) في الأصل وم: النفقة. (٦) في الأصل وم: لم. (٧) من م،في الأصل: شيء. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نعرض. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: متدينين. (١٢) من م،في الأصل: المبتدين. (١٣) في الأصل وم: يعاقِدوهُ. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: معصية حرام.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي نَقْمَةَ الله وعذابَهُ في تَرْكِ ما أمَرَكُم بِهِ وَارْتِكابِ ما نهاكُمْ عنهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قومٍ لِصَدِّهِمْ إياكُمْ عنِ البيتِ، فَتَأثَمُوا فيهِمْ ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ فَتَقْتُلُوهُمْ، وتأخُذُوا أموالَهُمْ. وقالَ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ البِرُّ هو ما أُمِرْتَ بِهِ، والتَّقْوى الكَفُّ عَمّا نُهِيتَ عنهُ. وقالَ: ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ هو المُجاوَزَةُ عنْ حَدِّ اللهِ الذي[1] حَدَّهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يُؤثِمَنَّكُمْ بُغْضُ قومٍ ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾. وقالَ آخرونَ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ. وفيهِ لُغتانِ: يُجْرِمَنَّكُمْ برَفْعِ[2] الياءِ وبِنَصْبِها ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وهو ما ذكَرْنا.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ هو على الإضمارِ، واللهُ أعلَمُ؛ كأنهُ قالَ: حُرِّمَ عَلَيكُمْ أكْلُ المَيتةِ والدَّمِ وأكْلُ لَحمِ الخِنزيرِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: يَجوزُ الانْتِفاعُ بِصوفِ المَيْتَةِ وبِعَظْمِها. دَلَّ أنهُ على الإضمارِ: إضمارِ: أكلٍ. وأمّا الانْتِفاعُ بِجِلْدِها فَلا[3] يجوزُ إلّا بَعْدَ الدِّباغِ لأنَّ الجِلْدَ رُبّما يُشْوَى مع اللحمِ، فيؤكَلُ، فهو حَرامٌ كاللَّحْمِ، إلّا أنْ يُدْبَغَ[4].

ثم في الآيةِ دَليلُ الامْتِحانِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: إباحَةُ التَّناوُلِ مِنْ جوهَرٍ وحَظْرٌ: امْتَحَنَ بِحُرْمَةِ الخِنزيرِ والدَّمِ، لم يُحِلَّهُ بِسَبَبٍ ولا بِغَيرِ سَبَبٍ، وامْتَحَنَ بِحِلِّ الآخَرِ بِسَبَبٍ، وحَرَّمَ بِسَبَبٍ.

والثاني: امْتَحَنَ بِسَبَبِ حِلٍّ لِنَفْرِ الطَّبْعِ عنهُ لأنَّ كُلَّ روحٍ يَتألَّمُ بالذَّبْحِ واسْتِخْراجِ الرُّوحِ مِنْهُ، وجَعَلَ طَبيعةَ كُلِّ أحَدٍ مِمّا يَنْفُرُ عنهُ لِما يَتألَّمُ بِهِ لِتَطيبَ أنْفُسُهمْ بذلكَ.

ثم جَعَلَ ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ كلَّهُ حَلالاً بِلا سَبَبٍ يكْتَسِبُونَ إلّا ما لا يَقْدِرونَ على التَّناوُلِ منهُ لِخوفِ الهَلاكِ لأنهُ مَواتٌ، لا تَنْفُرُ الطِّباعُ عنهُ.

ثم جَعَلَ أسبابَ الحِلِّ أسباباً يَكْتَسِبُونَ[5] مِمّا لا يَعْمَلُ في اسْتِخْراجِ ذلكَ الدَّمِ المُحَرَّمِ منهُ حَلَّ أكْلُهُ. وإذا لم يَعْمَلْ في اسْتِخراجِ ذلكَ الدَّمِ، فَهَلَكَ فيهِ، أفْسَدَهُ لأنهُ تَلِفَ فيهِ ما هو مُحَرَّمٌ، فأفْسَدَهُ، فاسْتِخْراجُ ذلكَ الدَّمِ مِمّا يُطَيِّبُ ذلكَ، ويَمْنَعُ عَنِ الفَسادِ إلّا في طُولِ الوَقْتِ. والذي هَلَكَ فيهِ الدمُ يَفْسُدُ في قَليلِ الوَقْتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ قالَ الكِسائيُّ: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ذُكِرَ وسُمِّيَ عليهِ غيرُ اسمِ الله مُشْتَقَّةٌ مِنِ اسْتِهلالِ الصَّبِيِّ، ومنهُ إهْلالُ الهِلالِ [وإهلالُ المُهِلِّ][6] بالحَجِّ إذا لَبّى.

قال قَتادةُ: كانَ أهلُ الجاهِلِيَّةِ يخْنُقُونَ الشاةَ حتّى إذا ماتَتْ أكَلُوها. والكافِرُ في الحَقيقَةِ يُهِلُّ لِغَيرِ اللهِ لأنهُ لا يَعْرِفُ اللهَ حَقيقَةً. لكنَّهُ أجازَ[7] ذبائِحَ الكِتابِيِّ لأنَّهُ يُسَمّي عليهِ اسْمَ اللهِ تعالى ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ كانوا يَضْرِبونَ بالعَصا حتى إذا ماتَتْ ثَمَّ أكَلُوها ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ كانَتْ [تَرَدَّتْ في بِئْرٍ أو مِنْ جَبَلٍ، فماتَتْ][8] ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ كانَ الكَبْشانِ يَتناطَحانِ، فَيَموتُ أحدُهُما، فيأكُلُونَهُ ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾. كانَ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ إذا قَتَلَ السَّبُعُ مِن هذا، وأكَلَ منهُ، أكَلُوا ما بَقِيَ. فقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

ثم رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ فما أدْرَكْتَ مِنْ هذا كُلِّهِ يَتَحَرَّكُ بالذَّنَبِ[10]، أو يَطْرِفُ بالعَينِ[11]، فاذْبَحْ، واذْكُرِ اسْمَ اللهِ عليهِ، فهو حَلالٌ.

ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ][12] قالَ: إذا طَرَفَتْ بِعَينِها، أو رَكَضَتْ بِرِجْلِها، أو حَرَّكَتْ ذَنَبَها، [فَذَبَحَها، فهو

(١) من م، في الأصل: الذين. (٢) هي قراءة ابن مسعود والأعمش، انظر المختصر في شواذ القرآن ص (٣١). (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى الحديث الشريف «أيما إهاب دبغ فقد طهر» [الترمذي: ١٧٢٨]. (٥) في الأصل وم: يكسبون. (٦) في الأصل وم: وأهل المحل. (٧) في الأصل وم: أجيز. (٨) في الأصل: تردى في بر أو في جبل فتموت، في م: تردى في بر أو من جبل فيموت. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: له بالذنب. (١١) في الأصل وم: له العين. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

تَذْكِيَةٌ][1] وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ الزُّبَيرِ أنهُ سَمِعَ عُبَيدَ بْنَ عُمَيرٍ ﷺ يقولُ: ذلكَ. وكأنهُ رُوِيَ مَرْفُوعاً عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ كذلكَ.

وهذا، واللهُ أعلَمُ، إذا خنقَها، أو وَقَذَها[2]، يُغْمَى عليها. فإذا ذَبَحَها[3]، فَتحرَّكَتْ ذنَبُها، أو [طرفَتْ بِعَينِها]، أو رَكَضَتْ بِرِجْلِها، أفاقَتْ، فاستَدَلَّ بذلكَ على حَياتِها. وليسَ هذا كَشاةٍ يَنزِعُ الذِّئبُ أوِ السَّبُعُ ما في بَطْنِها، أو صارَتْ[4] بِحالٍ لا تَتَحامَلُ [فاستَدَلَّ بذلكَ أنها حَيَّةٌ][5] وإنْ تَحرَّكَتْ، أو طَرَفَتْ [بِعَينِها][6] فإنها لا تُؤكَلُ.

وأصْلُهُ أنَّ كلَّ ما لو [قُطِعَتْ عُروقُها][7]، فَتُرِكَتْ[8]، فماتتْ، تكونُ مَيْتَةً. فإذا أُدرِكَتْ[9] في تلكَ الحالِ، فَذُكِّيَتْ[10] كانَتْ ذَكِيَّةً، وكُلُّ ما لو [صارَتْ بِحالٍ، وماتَتْ كما][11] كانَتْ ذَكِيَّةً. فإذا أُدرِكَتْ[12] في تلكِ الحالِ، [فَذُكِّيَتْ ما][13] كانَتْ مَيْتةً. والمُتَرَدِّيَةُ المُمْتَنِعَةُ عنِ الذبحِ. فالذَّبحُ إذا ذُبِحَ مِنْ غَيرِ الذَّبحِ يَجوزُ أكْلُهُ.

«رُوِيَ عنْ [رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أنهُ][14] قالَ: أصَبْنا إبِلاً وغَنَماً، فَنَدَّ مِنها بَعِيرٌ، فَرَماهُ رجلٌ بِسَهْمٍ، فَحَبَسَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ لهذهِ الإبِلِ أوابِدَ كأوابِدِ الوَحْشِ. فإذا كانَ غَلَبَكُمْ شَيءٌ منها فاصْنَعُوا بهِ هكذا». [البُخاري: ٣٠٧٥].

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ في البَعِيرِ يَتَرَدَّى في البئرِ[15]: إذا لم يُقْدَرْ على مَنْحَرِهِ فهو بِمَنْزِلَةِ الصَّيدِ، يُنْحَرُ[16] مِنْ حَيثُ أُدرِكَ.

وسُئِلَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ عنْ بَعيرٍ تَرَدَّى في بِئْرٍ، فَصارَ أعلاهُ أسْفَلَهُ؟ فقالَ: (قَطِّعُوهُ أعضاءً، وكُلُوهُ). وعنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ رُوِيَ[17] أنهُ سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ فَقِيلَ: هلْ تكونُ الذَّكاةُ إلّا في الحَلْقِ واللَّبَّةِ؟ فقالَ: «أمَا إنكَ لو طَعَنْتَ في فَخِذِها لأجزَأَ عَنْكَ، وإذا ذُكِّيَ بِغَيرِ السِّكِّينِ مِنْ نَحْوِ المَرْوَةِ والقَصَبةِ مِمّا يَقْطَعُ يَجوزُ». [أبو داوود: ٢٨٢٥].

«ورُوِيَ أنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ﷺ قالَ: يا رسولَ اللهِ أُرسِلُ كلبي، فيأخُذُ الصَّيْدَ، وليسَ معي ما أُذَكِّيهِ [بِهِ][18] فأذْبَحُهُ بالمَرْوَةِ أو القَصَبةِ[19]. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أَمْرِ الدَّمَ بِما شِئْتَ، واذْكُرِ اسْمَ اللهِ عليهِ» [أبو داوود: ٢٨٢٤].

وكذلكَ رُوِيَ عنْ عليِّ بْنِ أبي طالِبٍ ﷺ ورَوَى أنَّ رجلاً أشاطَ دَمَ جَزورٍ بِجَذْلٍ، فسألَ النَّبِيَّ ﷺ [فقالَ:][20] «إنْ أنْهَرْتَ الدَّمَ فَكُلْ» [البخاري: ٥٤٩٨]. وعَنْ خَدِيجةَ ﷺ [أنها قالَتْ][21]: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اذْبَحْ بكلِّ ما أفْرَى الأوْداجَ، وأهْرَاقَ الدَّمَ، ما خَلا السِّنَّ والظُّفْرَ» [الموطأ٢: ٤٨٩].

وإلى هذا يذهبُ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في ذلكَ، ويَرَونَ كلَّ ما أنْهَرَ الدَّمَ مِنْ حَجَرٍ أو مَرْوَةٍ أو نَحْوِ ذلكَ مُذَكّى، ويُؤكَلُ، ويَحمِلُونَ قولَ رسولِ اللهِ ﷺ «إلّا السِّنَّ والظُّفْرَ» على أنهما إذا كانا غَيرَ مَنْزوعَينِ لأنَّ ذلكَ خَنْقٌ، وليسَ بِذَبْحٍ. تفسيرُ ذلكَ قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ حينَ[22] قالَ: خَنْقٌ. وفي الخَبَرِ بَيانُ [الآلةِ][23] لأنهُ قالَ: «كُلُّ ما أنْهَرَ الدَّمَ، وأفْرَى الأوْداجَ ما خلا السِّنَّ والظُّفْرَ فإنهما مُدَى الحَبَشَةِ» [بنحوه البخاري: ٣٠٧٥] وهم إنما كانُوا يذبَحُونَ بِسِنٍّ أو ظُفْرٍ غيرِ مَنْزوعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي لِلنُّصُبِ. قِيلَ: كانُوا يَذْبَحُونَ للأوثانِ والأصنامِ التي يَعْبُدُونَها؛ يَتَقرَّبونَ بذلكَ إليها كما كانَ أهْلُ الإسلامِ يَتَقرَّبُونَ بالذبائِحِ، يَذْبَحُونها، إلى اللهِ، فَحَرَّمَ اللهُ ﷻ ما كانُوا يَذْبَحُونَ لِلنُّصُبِ ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ لِما ذَكَرْنا أنَّ الأمْرَ بهِ خَرَجَ مَخْرَجَ قَبولِ النِّعْمَةِ والشُّكْرِ لهُ في ما أنْعَمَ مِنْ[24] عظيمِ النِّعَمِ. فإذا أهَلُّوا بهِ لِغَيرِ اللهِ أي لِغَيرِ وَجْهِ اللهِ لم يَقْبَلُوا نِعَمَهُ، وَوَجَّهُوا الشُّكْرَ إلى غَيرِهِ، فَحَرَّمَ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فهو ذكية. (٢) في الأصل وم: وأوقذها. (٣) في الأصل وم: ذبح. (٤) في الأصل وم: صار. (٥) في الأصل وم: بذلك أنها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قطع العروق. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: أدرك. (١٠) في الأصل وم: فزكاه. (١١) في الأصل وم: صار بحال لو ماتت. (١٢) في الأصل وم: أدركه. (١٣) في الأصل وم: فزكاه. (١٤) في الأصل وم: نافع بن خديجة، في م: نافع بن خديج. (١٥) في الأصل وم: البر. (١٦) في الأصل وم: ينحره. (١٧) في الأصل وم: وروي. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: والقصبة. (٢٠) ساقطة من الأصل وم. (٢١) في الأصل وم: قال. (٢٢) في الأصل وم: حيث. (٢٣) ساقطة من الأصل وم. (٢٤) من م، في الأصل: في.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلَٰمِ﴾ قِيلَ: سِهامُ العَرَبِ وكِعابُ فارِسَ التي يَتَقامَرونَ بها. وقيلَ: الأزلامُ هي القِداحُ؛ كانُوا يَقْتَسِمُونَ بها الأمورَ. وكانَ الرجلُ إذا أرادَ سَفَراً/ ١٢٣ ـ أ/ أخذَ قدحاً، فقالَ: هذا يأمُرُهُ بالخُروجِ؛ [فإنْ هو خَرَجَ][١] فهو مُصيبٌ في سَفَرِهِ خيراً. ويأخذُ قدحاً آخَرَ، فيقولُ: هذا يأمُرُهُ بالمُكْثِ؛ فإنْ هو خَرَجَ فليسَ بِمُصيبٍ خيراً في سَفَرِهِ. والمَنِيحُ بَيْنَهما. فَنَهَى الله تعالى عنْ ذلكَ، وأنبأَ أنَّ ذلكَ فِسْقٌ بقولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][٢] قالَ: كانُوا يَعْمَدُونَ إلى قِداحٍ، فَيَكْتُبُونَ على أحدِها: مُرْني، وعلى الآخَرِ: انْهَني، ثم يُجيلونَها إذا أرادُوا الأمْرَ. فإنْ خَرَجَ [الذي][٣] عليهِ: مُرْني مَضَى في وجْهِهِ، وإنْ خَرَجَ الذي عليهِ انْهَني لم يَخْرُجْ.

قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: إنَّ في النَّهْيِ عنِ العَمَلِ بالأزلامِ دَليلَ النَّهْيِ عنِ العَمَلِ بالنُّجُوم. فإذا نُهِيَ عنِ العَمَلِ بقولِ [المُسْتَقْسِمِينَ يُنْهَى][٤] أيضاً عنِ العَمَلِ بقولِ المُنَجِّمَةِ لأنهمْ يقولُونَ حينَ ما يقولُ أولئكَ، ويَعْمَلُونَ بهِ. لكنَّ المُنَجِّمَةَ لَيسُوا يقولُونَ: إنَّ نَجْمَ كذا يأمُرُكُمْ كذا، ونَجْمَ كذا يَنْهَى عنْ كذا على ما كانَ يَفْعَلُ أولئكَ.

ويَجوزُ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ [قدْ جَعَلَ][٥] في النجومِ أعلاماً ومعانِيَ يُدْرِكُونَ بها، ويَسْتَخْرِجونَ أشياءَ تَحْتَمِلُ ذلكَ، وتَكونُ على ما يَسْتَخْرِجُ أهْلُ الاِجْتِهادِ بالاِجْتِهادِ أشياءَ مِنْ مَعْنَى النُّصوصِ وأحكاماً لم تُذْكَرْ في المَنْصوصِ. فَعَلَى ذلكَ المُنَجِّمَةُ يجوزُ أنْ يَسْتَخْرِجوا أشياءَ مِنَ النجومِ بدلائلَ ومَعانٍ تكونُ في النُّجومِ، ولا عَيْبَ عليهِمْ في ذلكَ، ولا لائِمَةَ. وإنما اللائِمَةُ عليهِمْ في ما يَحْكُمُونَ على اللهِ، ويَشْهَدُونَ عليهِ.

قالَ القُتَبِيُّ: الأزلامُ القِداحُ، واحِدُها زَلَمٌ وزُلَمٌ. والاِسْتِقْسامُ بها أنْ تُضرَبَ. فَأَخْذُ الاِسْتِقْسامِ مِنَ القِسْمِ، وهو النَّصِيبُ، كأنهُ طَلَبُ النَّصِيبِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: اسْتَقْسَمْتُ أي ضَرَبْتُ بالقداحِ، قالَ: كأنهُ مِنَ القِسْمِ. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: إنما سُمِّيَ اسْتِقساماً لأنهمْ كانوا يطلبونَ قِسْمَ الرزقِ وطَلَبَ الحَوائِجِ بها، فكانوا يسألونَها أنْ تُقْسِمَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِسْقٌ﴾ أي العملُ بالأزلامِ والشهادةُ على اللهِ أمْرٌ، فذلكَ فِسْقٌ. وعلى هذا مَنْ يستجيزُ العملَ بالقُرعةِ، لأنهُ يقولُ بقَرْعٍ؛ فمنْ خَرَجَتْ قُرْعَتُهُ يُحكَمُ لهُ، فإنما يُحكَمُ لهُ بأمْرِ القُرعةِ، كأنَّ القُرعةَ تأمُرُهُ بالحُكْمِ بهذا لهذا، وتنهاهُ عنِ الحُكْمِ بهذا لهذا، فهو بالأزلامِ والقِداحِ التي نَهَى اللهُ عنِ العملِ بذلكَ أشبهُ، وبها أمثلُ مِنْ غيرِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي التناوُلُ ممّا ذُكِرَ مِنَ المُحَرَّماتِ مِنَ المَيْتَةِ والدمِ ولحمِ الخِنزيرِ وما أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ وما ذُبِحَ على النُّصُبِ وما ذُكِرَ في أولِ السورةِ مِنَ الاِصْطِيادِ في الإحرامِ والتناوُلِ منهُ، ذلكَ كُلُّهُ فِسْقٌ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ إنهمْ [كانوا][٦] يطمعونَ دخولَ أهلِ الإسلامِ في دينِهِمْ وعَودَهُمْ، فأيأسَهُمُ اللهُ ﷻ مِنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن﴾ تركِكُمْ دينَ الإسلامِ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أمَنَهُمْ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الآيةَ. قالَ أبو عُبَيدٍ: كانَ دينُهُمْ إلى ذلكَ اليومِ ناقصاً، فحينئذٍ كَمُلَ دينُهُمْ. فَعَلى زَعمِهِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يدعو الخَلْقَ إلى دينٍ ناقصٍ، ومَنْ ماتَ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ رضي الله عنهم ماتوا على دينٍ ناقصٍ، ويُحشَرونَ يومَ القيامةِ على دينٍ ناقصٍ، وأيُّ قولٍ أوحَشُ منْ هذا وأسمجُ؟

وقالَ آخرُ مِنْ أصحابِهِ: كانَ الدينُ كاملاً إلى ذلكَ الوقتِ، فلما بَعَثَ اللهُ بالفرائضِ، وافترضَ عليهِمْ، صارَ الدينُ ناقصاً إلى أنْ يُؤَدُّوا الفرائضَ وما افْتُرِضَ عليهِمْ. فعندَ ذلكَ يكمُلُ. فهذا القولُ أيضاً في الوحشةِ والسماجةِ والقبحِ مثلُ الأولِ، ويقالُ لأبي عُبَيدٍ: قُلْ أيضاً: إنهُ لم يكنْ رَضِيَ لهمْ بالإسلامِ قبلَ ذلكَ رِضاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: المقتسمين وينهى. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

والأصلُ في تأويلِ الآيةِ [في](١) وجوه:

أحدُها: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أي برسولِهِ وبعثِهِ ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ وبهِ أتممتُ ﴿عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾.

[والثاني](٢): قولُهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أي اليومَ أظهرتُ لكمْ دينَكُمْ، ولم يكنْ قبلَ ذلكَ ظاهراً حتى قالَ رسولُ الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرةَ شهرَينِ» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦] وقالَ: «ألا لا يَحُجَّنَّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ» [البخاري: ٣٦٩] وذلكَ لِظُهورِهِ ولِغَلَبَةِ أهلِ الإسلامِ عليهِمْ وأنهُ(٣) لم يكنْ هذا قبلَ ذلكَ.

[والثالثُ](٤): قولُهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ لمّا أَمِنوا مِنَ العدوِّ والعَوْدِ إلى دينِ أولئكَ وإياسِ أولئكَ مِنْ رُجوعِهِمْ إلى دينِ الكفرِ. وأيُّ نعمةٍ أتمُّ وأكملُ مِنَ الأمنِ مِنَ العدوِّ؟ ويقولُ الرجلُ: اليومَ تَمَّ ملكي إذا أهْلَكَ(٥) عدوَّهُ، ولأمنِهِ مِنْ عدوِّهِ، وإنْ كانَ لم يوصفْ ملكُهُ قبلَ ذلكَ بالنقصانِ. فَعَلى ذلكَ هذا، والله أعلمُ.

[والرابعُ: قولُهُ](٦): ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أي أمْرَ دينِكُمْ بما أُمِروا بأمورٍ وشرائعَ، لم يكونوا أُمِروا بها قبلَ ذلكَ. وهذا جائزٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ أي أكْرَمْتُكُمْ بالدِّينِ المَرْضِيِّ، وهو الإسلامُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ قيلَ: المَخْمَصَةُ المَجاعةُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: رجلٌ خَميصٌ أي جائعٌ، وقالَ غَيرُهُ: هو مِنْ ضِيقِ البَطْنِ، وهو واحدٌ لأنهُ مِنَ الجوعِ ما يَضِيقُ البَطْنُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ أي مُتَعَمِّدٍ(٧) لإثمٍ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما وقالَ الكِسائيُّ: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ﴾ غيرَ مُتمايلٍ، والجَنَفُ المَيْلُ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ أيضاً: الجَنَفُ المَيْلُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ يَحْتَمِلُ [وُجوهاً]:

أحدُها](٨): قيلَ: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ﴾ غيرَ مُسْتَحِلٍّ أكْلَ المَيتةِ في حالِ الاضطِرارِ وما(٩) حُرِّمَ عليهِ التَّناوُلُ مِنَ الصيدِ. وقيلَ(١٠): غيرَ مُتَلَذِّذٍ ولا مُشْتَهٍ؛ يَتناوَلُ على التَّكَرُّهِ منهُ لا على التَّلَذُّذِ والشَّهْوَةِ. وقيلَ(١١) أيضاً: إنهُ لا يَتَناوَلُ إلّا في حالِ الاضطِرارِ كقولِهِ(١٢) تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة: ١٧٣والأنعام: ١٤٥والنحل: ١١٥] وتفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ هذا، والله أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي مِنْ رَحْمَتِهِ: أي جَعَلَ لَكُمُ التَّناوُلَ مِنَ المُحَرَّمِ، ورَخَّصَ لَكُمْ؛ إذْ لَهُ أنْ يَتْرُكَكُمْ تَموتُونَ جُوعاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ الآية [النساء: ٦٦].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ ليسَ في السُّؤالِ بَيانُ عَمَّ(١٣) كانَ سُؤالُهُمْ؟ ولكنْ في الجوابِ البَيانُ(١٤) والمُرادُ مِنْ سُؤالِهِمْ، فقالَ: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ دلَّ قولُهُ تعال: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أنَّ سُؤالَهُمْ كانَ عنِ الطَّيِّباتِ وما يُصْطادُ مِنَ الجَوارحِ.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هُنَّ المُحَلَّلاتُ. لكنَّهُ بَعيدٌ لأنهُ قالَ تعالى: ﴿لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ المُحَلَّلاتُ على هذا التَّأويلِ. لكنهُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: أحَدُهُما: أنهُ أحَلَّ لَكُمْ بأسبابٍ تَطيبُ بها أنفُسُكُمْ مِنْ نَحْوِ الذبحِ والطَّبْخِ والخَبْزِ وغيرِهِ. لم يُحِلَّ لَكُمْ ما تَكْرَهُ بِهِ أنفُسُكُمْ: التَّناوُلَ منهُ غيرَ مَطبوخٍ ولا مَذْبوحٍ ولا مَشْوِيٍ. ولكنْ أحَلَّ لَكُمْ بأسبابٍ طابَتْ بها أنفسُكُمْ: التَّناوُلَ منهُ، والله أعلمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يَحْتَمِلُ. (٣) في الأصل وم: وأن. (٤) في الأصل وم: ويَحْتَمِلُ. (٥) من م، في الأصل: ملك.
(٦) في الأصل وم: وقيل. (٧) في الأصل وم: معتمد. (٨) في الأصل وم: وجهَينِ. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) هذا هو الوجه الثاني.
(١١) هذا هو الوجه الثالث. (١٢) في الأصل وم: وكقوله. (١٣) في الأصل وم: مم. (١٤) في الأصل وم: بيان.

ويحتَمِلُ[١] وجهاً آخرَ؛ وهو أنْ أحلَّ لَكُمْ ما تَطيبُ بِهِ طباعُكُمْ لا مِمَّا تَكرَهُهُ طِباعُكُمْ، وتَنْفِرُ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ كأنهم سألُوا رسولَ الله ﷺ عَمَّ يَحِلُّ مِنَ الجوارحِ؟ فَذَكَرَ لَهُمْ ذلكَ مَعَ ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أمَرَ بِقَتْلِ الكِلابِ، فأتاهُ أناسٌ؛ فقَالُوا: ماذا يَحِلُّ لنا مِنْ هذهِ الأُمَّةِ التي أمَرْتَ بِقَتْلِها؟ نَزَلَ[٢] قولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ الآية.

وقيلَ: سُمّي جَوَارِحَ لِما يُكْتَسَبُ بها، والجَوارِحُ مِنَ الكَواسِبِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ/١٢٣ ـ ب/ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] قيلَ: اكْتَسَبُوا، وجَرَحَ كَسَبَ، وقالَ أبو عُبَيدٍ: سُمِّيَتْ جَوَارِحَ لأنها صوائِدُ، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الكَسْبِ؛ يُقالُ: فُلانٌ جارِحُ أهلَهُ أي كاسِبُهُمْ. وقالَ غَيرُهُ: سُمِّيَتْ جَوَارِحَ لأنها تَجْرَحُ، وهو مِنَ الجِراحَةِ، فإذا لم يَجْرَحْ لم يَحِلَّ صَيْدُهُ. واحتَجَّ محمدٌ، رَحِمَهُ الله، بهذا المَعْنَى في صَيدِ الكَلْبِ إذا قَتَلَ. ولم يَجْرَحْ.

مسألةٌ مِنْ كتابِ الزِّيَاداتِ: ومما يَدلُّ على صحةِ ذلكَ ما رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ «أنَّ عَدِيَّ بْنَ حاتِمٍ ﷺ قالَ: سألْتُ رسولَ الله ﷺ ما[٣] المِعْراضُ؟ فقالَ: ما أُصِيبَ بِعَرْضِهِ، فلا تأكُلْ، فَهُوَ وَقِيذٌ، وما أُصِيبَ[٤] بِحَدِّهِ فَكُلْ» [البخاري: ٥٤٧٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، قال بعضُهُمْ: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ هُنَّ الكِلابُ، يُكالِبْنَ الصَّيدَ، وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أصحابُ الكلابِ. وكذلكَ قالَ الفَرَّاءُ والكِسائِيُّ: المُكَلِّبونَ هم أصحابُ الكلابِ، والمُكَلَّبُ: الكَلْبُ المُعَلَّمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ قالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ: تُضرُونَهُنَّ، يُقالُ: [كليبٌ ضارياتٌ][٥] على كلابِ[٦] الصَّيدِ، وهما يُبيحانِ الصيدَ، وإنْ أكَلَ منهُ الكَلْبُ. فَعَلَى قولِهِما يَصِحُّ تأويلُ الإضراءِ[٧]؛ إذْ يُبيحانِ التَّناوُلَ وإنْ أكلَ منهُ. [وقالاَ: تُؤَدِّبونَهُنَّ لِيُمْسِكْنَ][٨] الصَّيدَ لَكُمْ. وهو عندَنا على حَقيقَةِ التَّعَلُّمِ لِتَعَلَّمَ مَسْكَ[٩] الصَّيدِ لَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يَتَوَجَّهُ وَجهَينِ: أحدُهما: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي مما جَعَلَ بِنْيَتَكُمْ بحيثُ احتِمالُ تعليم هؤلاءِ، ولم يَجْعَلْ غيرَكُمْ مِنَ الخَلائقِ مُحْتَمِلاً لِذلكَ ولا أهْلاً. ويحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أنْ قالَ لَكُمْ: عَلِّموهُنَّ بكذا، وافْعَلُوا كذا. فكيفَ ما كانَ ففيهِ دليلُ جَعْلِ العِلْمِ شَرْطاً فيهِ.

ثم تخصيصُ الكلابِ بالذِّكْرِ دونَ غيرِها مِنَ الأشياءِ، وإنْ كانتِ الكِلابُ وغيرُها سَواءً إذا عُلِّمَتْ، لِخُبْثِ الكلابِ ومُخالَطَتِها الناسَ حتى جاءَ النَّهْيُ عنِ اقتِنائِها، وجاءَ الأمْرُ بِقَتْلِها في وَقْتٍ لم يَجِئْ بِمِثْلِهِ في سائرِ السِّباعِ لِيُعْلَمَ أنَّ ما كَسَبَ هؤلاءِ مع خُبْثِها، إذا كُنَّ مُعَلَّماتٍ[١٠] يُحْتَمَلُ التَّناوُلُ منهُ مما لم يَجِئْ فيهِ ذلكَ أُخرَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إنما أباحَ أكْلَ ما أمْسَكَ على نَفْسِهِ لأنَّ الكَلْبَ وغَيْرَهُ مِنَ السِّباعِ مِنْ [طباعِها إذا أخَذَتِ الصَّيدَ تأخُذُها لِنَفْسِها، ولا تَصْبِرُ على ألّا تَتناوَلَ منهُ فإذا أخَذَتِ الصَّيدَ، ولم تتناوَلْ منهُ دلَّ أنهُ إنما أمْسَكَتْ لِصاحِبِهِ. وإذا تَناوَلَتْ منهُ لم تُمْسِكْ لِصاحِبِهِ لأنَّ الباقِيَ لا يُدْرَى أنها أمْسَكَتْهُ لِصاحِبِهِ أو أمْسَكَتْهُ لِنَفْسِها لِوَقْتٍ آخرَ لَمَّا شَبِعَتْ][١١].

وعلى ذلكَ جاءَتِ الآثارُ: رُوِيَ عن عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ [أنهُ][١٢] قالَ: قُلْتُ: يا رسولَ الله إننا قَومٌ نَتَصَيَّدُ بهذهِ الكلابِ والبُزاةِ، فهلْ يَحِلُّ لَنا منها؟ فقالَ: «يَحِلُّ لكم ما ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) هذا هو الوجه الثاني. (٢) في الأصل وم: فنزل. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: أصاب. (٥) في الأصل وم: كلب مضرات. (٦) في الأصل وم: كلب. (٧) من م، في الأصل: الإضراع. (٨) في الأصل وم: وقال: تؤدبونهن ليمسكوا. (٩) في الأصل وم: ليمسكوا. (١٠) في الأصل وم: معلمين. (١١) في الأصل وم: طباعهم إذا اخذوا الصيد يأخذون لأنفسهم ولا يصبرون على أن لا يتناولون منه فإذا أخذوا الصيد ولم يتناول منه دل أنه إنما امسك لصاحبه وإذا تناول منه لم يمسك لصاحبه لأن الباقي لا يدرى أنه امسكه لصاحبه أو أمسك لنفسه لوقت آخر لما شبع. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

مِمَّا عَلَّمتُمْ مِنْ كَلْبٍ أو بازٍ، فَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عليهِ، قُلْتُ: وإنْ قَتَلَ [الصَّيدَ][1]؟ قالَ: إذا قَتَلَهُ، ولم يأكُلْهُ، فإنما أمْسَكَ عليكَ، وإنْ أكَلَ فلا تأكُلْ فإنما أمْسَكَ لِنَفْسِهِ[2]. فقلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ إنْ خالَطَتْ كلابَنا كلاباً أُخرى؟ قالَ: إذا خالَطَ كَلْبُكَ كلاباً فلا تأكُلْ فإنكَ إنما ذَكَرْتَ اسْمَ الله على كَلْبِكَ ولم تَذْكُرْهُ على كَلْبِ غيرِكَ» [البخاري: ٥٤٨٧ ومسلم: ١٩٢٩].

عَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: إذا أكلَ الكَلْبُ فَلَيسَ بِمُعَلَّمٍ. وعنهُ أيضاً [أنهُ][3] قالَ: إذا أكَلَ الكَلْبُ مِنَ الصَّيدِ فلا تأكُلْهُ، وإذا أكَلَ الصَّقرُ فَكُلْ لأنَّ الكَلْبَ تستطيعُ أنْ تَضرِبَهُ، والصَّقرَ لا. وعَنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: إذا أكَلَ الكَلْبُ فلا تأكُلْ، واضْرِبْهُ.

وقد ذَكَرْنا مِنَ الأخبارِ ممّا يدلُّ على أنَّ الكَلْبَ إذا كانَ غيرَ مُعَلَّمٍ يُؤكَلُ صَيدُهُ مِنْ خَبَرِ عَدِيِّ بْنِ حاتِمٍ قالَ: «قُلْتُ يا رسولَ الله: إنا قومٌ نَتَصَيَّدُ[5] بهذِهِ الكلابِ، فقالَ: إذا أرسَلْتَ كلابَكَ المُعَلَّمَةَ، وذَكَرْتَ اسْمَ الله عليها، فَكُلْ ممّا أمْسَكْنَ عليكَ، وإنْ قَتَلْنَ، إلّا أنْ يأكُلَ الكَلْبُ، فإنْ أكَلَ فلا تأكُلْ» [بنحوه البخاري: ٥٤٨٧].

وعلى هذا يَخْرُجُ قولُنا: إنهُ إذا أكَلَ [الكلبُ][6] مِنْ دَمِهِ يُؤكَلُ لأنهُ لو أمْسَكَهُ علينا كُنّا لا نأكُلُهُ؛ وذلكَ مِنْ غايةِ تَعليمِهِ لأنهُ تناوَلَ الخَبيثَ، وأمْسَكَ الطَّيِّبَةَ على صاحِبِهِ. ولو كانَ صيدُ الكَلْبِ إذا أكَلَ منهُ حَلالاً لكانَ المُعَلَّمُ وغيرُ المُعَلَّمِ سَواءً، وكانَ ما أمْسَكَ على نفسِهِ وعلى صاحِبِهِ سَواءً، لأنَّ كُلَّ الكلابِ تَطْلُبُ الصَّيدَ إذا أُرْسِلَتْ عليهِ، وتُمْسِكُهُ حتّى يَموتَ، وتأكُلُ منهُ، إلّا المُعَلَّمَ منها. فما مَعْنَى المُعَلَّمِ منها والمُمْسِكِ على صاحِبِهِ؟ لو كانَ الأمرُ على ما قالَ مُخالِفُنا.

وقد رُوِيَ عنْ أبي حَنيفَةَ ﷺ أنهُ قالَ: إنْ عُلِّمَ الكَلْبُ حتى صارَ لا يأكلُ مِنْ صَيدٍ، ثم أكَلَ مِنْ صَيدٍ يَصيدُ لم يَجُزْ أنْ يُؤكَلَ مِنْ صَيدِهِ الأوَّلِ إذا كانَ باقياً.

ومذهبُهُ عندَنا، واللهُ أعْلَمُ، أنَّ صَيدَ الكَلْبِ لا يُؤكَلُ حتى يكونَ مُعَلَّماً. وإنْ أمْسَكَ في أوَّلِ ما يُرْسَلُ، فلم يأكُلْ، فإذا أمْسَكَ مِراراً، ثم أكَلَ، وَلَنا أكْلُهُ على إمْساكِهِ عنِ الأكلِ، لم يكُنْ لأنهُ مَعْلومٌ؛ إذْ قد يُمْسِكُ غيرُ المُعَلَّمِ لِلشِّبَعِ، ولو كانَ مُعَلَّماً ما أكَلَهُ. فاسْتُدِلَّ بأكلِهِ في الرابعةِ على أنَّ إمساكَهُ في الثالثةِ كانَ على غيرِ حَقيقةِ تَعليمٍ.

وهذا عندَنا في صَيدٍ، يَقْرُبُ بَعْضُهُ مِنْ بَعضٍ. فأمّا إذا كَثُرَ إمساكُهُ، ثم تُرِكَ إرسالُهُ مُدَّةً، يجوزُ أنْ يَنْسَى فيها ما عُلِّمَ، ثم أرسِلَ، فأكَلَ، فليسَ فيها رِوايةٌ عنهُ. ويجوزُ أنْ يُقالَ: يُؤكَلُ ما بَقِيَ مِنْ صَيدِهِ الأوَّلِ، ويُفَرِّقُ بينَ المسألتَينِ بأنَّ الثانيَ قد يَنْسَى، والأوَّلَ يَبْعُدُ مِنَ النِّسيانِ لِتقارُبِ ما بيْنَ الصَّيدَينِ فلا وَجْهَ إلّا أنْ يُجْعَلَ غيرَ مُسْتَحْكِمِ التَّعَلُّمِ في صَيدِ المُتَقَدِّمِ.

وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ الصَّقرَ والبازِيَ مِنَ الجوارِحِ، واسْتَدْلَلْنا على ذلكَ بما أوْضَحْنا ما لَيسَ بِمُعَلَّمٍ مِنَ الطيرِ لا يُؤكَلُ إلّا أنْ تُدرَكَ ذَكاتُهُ. ثم يكونُ تَعليمُ البازي والصَّقرِ بإجابتِهِ صاحِبَهُ ورُجوعِهِ إليهِ، وتَعليمُ الكلابِ تَرْكَ الأكلِ منهُ؛ لأنَّ البازِيَ ونَحوَهُ مُسْتَوحِشٌ عنِ الناسِ، يَنفُرُ طَبْعُهُ عنهُمْ، فدلَّتْ[7] إلْفَةُ الناسِ وإجابَةُ أصحابِهِ[8] على التَّعَلُّمِ، وإنْ أكَلَ منهُ. ولا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ بالتَّناوُلِ منهُ يَخرُجُ عنْ حَدِّ التَّعليمِ لأنهُ إنما يُعَلَّمُ بالأكلِ مِنَ الصَّيدِ.

وأمّا الكَلْبُ فإنهُ يألَفُ الناسَ، ولا يَسْتَوحِشُ، ومِنْ طَبْعِهِ الأكلُ إذا أخَذَ الصَّيدَ. فَدَلَّ إمساكُهُ عنِ التَّناوُلِ مِنهُ على أنهُ مُعَلَّمٌ. وقد رُوِيَ عن عليٍّ ﷺ ما يَدُلُّ على تأييدِ ما ذَكَرْنا؛ قالَ: إذا أكلَ الصَّقرُ فَكُلْ، وإنْ أكَلَ الكَلْبُ فلا تأكُلْ. وعَنْ سَلْمانَ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تَسْتَحِلُّوا ما لم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عليها فإنها مَيْتَةٌ. ويَحْتَمِلُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تَرْكِ ما أمَرَ ونَهَى كُلِّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وتَحْتَمِلُ السرعةُ كِنايةً عنِ الشِّدَّةِ: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ شديدُ العِقابِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: على نفسه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: نصيد.
(٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل وم: فدل. (٨) في الأصل وم: أصحابهم.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ [كَونَهُ][(١)] حَرفَ افْتِتاحٍ يُفتَتَحُ [بِهِ][(٢)] الكلامُ لا إشارةَ إلى وقتٍ مَخصوصٍ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] وقد يُتَكلَّمُ باليَومِ لا على إشارةِ وَقتٍ مُشارٍ إليهِ، وهو، واللهُ أعلَمُ، ما حَرَّمَ عليهِمْ مِنْ ثمانيةِ[(٣)] الأزواجِ التي ذَكَرَها اللهُ تعالى في سورةِ الأنعامِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الآية: ١٤٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، ثم قولُهُ[(٤)] تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٦] وما حَرَّموا هُم على أنفُسِهِمْ مِنَ البَحيرةِ[(٥)] والسائبةِ والوَصيلةِ والحامِ وغيرِها مِنَ المُحرَّماتِ التي كانَتْ، فأحَلَّ اللهُ ذلكَ، فقالَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ وكانَتْ مُحرَّمةً عليهِمْ، قيلَ ذلكَ.

لكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفُوا الآيةَ إلى الذبائحِ، لم يَصْرِفوا إلى ما ذَكَرْنا: المَعْنى الذي بِهِ صارَتِ الذبائحُ طَيِّباتٍ في مَا تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][(٦)] قالَ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ اي ذبائحُهُمْ ﴿حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ وذبائحُكُمْ/ ١٢٤ ـ أ/ ﴿حِلّٞ لَّهُمۡۖ﴾ إلى هذا حَمَلَ أهلُ التأويلِ. فإنْ قِيلَ: أليسَ جَعَلَ ذبائحَنا مُحلَّلَةً لَهُمْ وذَبائحَهُمْ مُحلَّلَةً لنا، ثم يُحِلُّ ذبائحَنا لَهُمْ ولِغَيرِهِمْ؟ كيفَ لا حَلَّ ذبائحَهُمْ وذبائحَ غَيرِهِمْ وهي ذبائحُ المَجوسِ؟ قِيلَ: حِلُّ الذبائحِ شَرْعِيٌّ، وليسَ لِلْمَجوسِ كِتابٌ آمَنوا بِهِ، فيُحِلَّ ذبائحَهُمْ. وأمّا أهلُ الكِتابِ فإنَّهُمْ آمَنوا بما أنزَلَ الكتابُ: حِلِّهِ وحُرْمَتِهِ، لذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

والآيةُ على قولِ أصحابِ العُمومِ تُوجِبُ جَميعَ طعامِنا لَهُمْ لأنهُ قالَ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ﴾ فَعَلَى قولِهِمْ لِكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ أنْ يَتناوَلَ طعامَ الفريقِ الآخَرِ. دلَّ أنَّ مَخرَجَ عُمومِ اللَّفْظِ لا يُوجِبُ الحُكْمَ عامّاً لِلَفظِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ أرادَ بهِ الحَرائرَ، وقالَ آخَرونَ: أرادَ بهِ العَفائِفَ منهُنَّ غَيرَ زانياتٍ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ [النور: ٣] نَهى عنْ نِكاحِ الزانياتِ، ورَغَّبَ في نِكاحِ العفائفِ، وهذا أشبَهُ مِنَ الأوَّلِ لأنهُ قالَ في آخِرِ الآيةِ ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ دلَّ هذا على أنهُ أرادَ بالمُحصَناتِ العَفائِفَ مِنهُنَّ[(٧)] لا الحَرائِرَ. ودلَّتِ الآيةُ على حِلِّ نِكاحِ الحرائرِ مِنَ الكتابيّاتِ. وعلى ذلكَ اتِّفاقُ أهلِ العِلْمِ. لكِنْ يُكرَهُ ذلكَ.

رُوِيَ عنِ ابنِ[(٨)] عُمَرَ ﷺ أنهُ كَرِهَ تَزَوُّجَهُنَّ فهذا عندَنا على غَيرِ تَحريمٍ منهُ لِتَزَوُّجِهِنَّ[(٩)]. ولكنْ رَأى تَزَوُّجَ[(١٠)] المُسلِماتِ أفضَلَ وأحسَنَ لِمُشارَكَتِهِنَّ[(١١)] المُسْلِمَ في دِينِهِ[(١٢)].

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ كُرْهُهُ ذلكَ؛ وذلكَ لأنَّ حُذَيفَةَ ﷺ تَزَوَّجَ يهوديّةً، فكتَبَ إليهِ عُمَرُ ﷺ يأمُرُهُ بطلاقِها؛ ويقولُ: كَفَى بذلكَ فِتنةً لِلمُسْلِماتِ. فهذا أيضاً لا على سَبيلِ التحريمِ، ولكنْ لِما ذَكَرَ مِنَ الفِتْنَةِ فِتْنَةِ المُسْلِماتِ.

فأصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، يَكرَهونَ أيضاً تَزَوُّجَ[(١٣)] الكتابيّاتِ، ولا يُحَرِّمونَهُ.

واختَلَفَ أهلُ العِلْمِ في تَزَوُّجِ[(١٤)] إمائِهِنَّ؛ فَتأَوَّلَ قومٌ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على الحَرائِرِ، وتأوَّلَهُ آخرونَ على العَفائِفِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ صَرْفَ التأويلِ إلى العَفائفِ أشبَهُ بدلالةِ قولِهِ تعالى: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ معَ ما لو كانتِ المُحصَناتُ ههنا هُنَّ الحَرائِرَ لم يكُنْ فيهِ حَظْرُ نِكاحِ الإماءِ[(١٥)] الكتابيّاتِ لأنهُ إباحةُ نِكاحِ الحرائرِ مِنَ الكتابيّاتِ. وليسَ في إباحةِ شيءٍ في حالِ حَظْرِ غيرِهِ [تحريمٌ، وقد][(١٦)] ذكَرْنا الوَجْهَ في ذلكَ في ما تَقَدَّمَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الثمانية. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ [المائدة: ١٠٣]. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: منهم. (٨) من م، في الأصل: أبي. (٩) في الأصل وم: لتزويجهن. (١٠) في الأصل وم: تزويج. (١١) في الأصل وم: لمشاركتها. (١٢) في الأصل وم: دينها. (١٣) في الأصل وم: تزويج. (١٤) في الأصل وم: تزويج. (١٥) في الأصل وم: إماء. (١٦) في الأصل وم: فيه قد.

فالمجوسيةُ ليستْ عندنا مِن أهلِ الكتابِ، والدليلُ على ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٥، ١٥٦] فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ أهلَ الكتابِ طائفتانِ[1]، فلا يجوزُ أنْ يجعَلوا ثلاثَ طوائِفَ؛ وذلكَ خِلافُ ما دلَّ عليهِ القرآنُ.

ألا ترى أنَّ رجلاً لو قالَ: إنما لي عليكَ يا فلانُ دِرْهمانِ، لم يكُنْ لهُ أنْ يَدَّعِيَ عليهِ أكثرَ مِن ذلكَ. ولو قالَ: إنما لَقِيتُ اليومَ رَجُلَينِ، وقد لَقِيَ ثلاثةً، كانَ كاذباً؛ لأنَّ قولَهُ: إنما لَقِيتُ رَجُلَينِ كقولِهِ: لَقِيتُ اليومَ رجلَينِ. ولا يَجوزُ مِثْلُ هذا في أخبارِ اللهِ تعالى لأنهُ الصادقُ في خَبَرِهِ ﷻ؟

فإنْ قِيلَ: هذا شَيءٌ حكاهُ اللهُ ﷻ عنِ المُشرِكينَ، وقد يَجوزُ أنْ يكونُوا غَلِطُوا، فَحَكَى اللهُ تعالى عنهُمْ ما قالُوا. قِيلَ لهُ: لم يَحْكِ اللهُ تعالى هذا القولَ عنِ المُشرِكينَ، ولكنْ قَطَعَ بالقرآنِ عُذرَهُمْ، فقالَ: [﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ لِئَلَّا يقولُوا: أُنزِلَ][2] الكتابُ ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ فهذا كلامُ اللهِ واحتِجاجُهُ على المُشرِكينَ، وليسَ حِكايةً عنهُمْ.

ومِنَ الدليلِ أنَّ المَجُوسِيَّ لَيسَ مِن أهلِ الكتابِ ما قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ وهو في مَجْلِسٍ بَيْنَ القَبْرِ والمِنْبَرِ: ما أدري كيفَ أَصْنَعُ بالمجوسِ، وليسُوا بأهلِ الكتابِ؟ فقالَ عبدُ الرحمن بْنُ عَوفٍ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «سُنُّوا بالمجوسِ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ» [الطبراني ١٩: ٤٣٧ رقمهُ ١٠٥٩] صَرَّحَ عُمَرُ ﷺ بأنهُمْ ليسُوا أهلَ الكتابِ، ولم يُنْكِرْ عبدُ الرحمنِ ذلكَ عليهِ ولا أحَدٌ مِنَ الصحابةِ ﷺ فلو كانُوا أهلَ كتابٍ لم يَقُلْ: سُنُّوا بهمْ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ.

وكذلكَ «رُوِيَ عنِ الحَسَنِ بْنِ محمدٍ أنهُ قالَ: كَتَبَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى مَجوسِ هَجَرٍ، فقالَ: أدعُوكُمْ إلى الشهادةِ: أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني رسولُ اللهِ فإنْ أسْلَمْتُمْ فلَكُمْ ما لنا وعلَيكُمْ ما علَينا، ومَنْ أبى فَعَلَيهِ الجِزْيَةُ، غيرَ آكلي ذبائِحِهِمْ ولا ناكِحي نِسائهِمْ» إلى هذا ذهبَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في قولِهِمْ: إنَّ المَجوسَ لَيسُوا بأهلِ كتابٍ.

وأمّا نصارى بَنِي تَغْلِبَ فإنَّ علياً ﷺ قالَ: لا تَحِلُّ ذبائحُ نصارى العَرَبِ فإنهُمْ لَيسُوا بأهلِ كتابٍ، وقرأَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ تُؤكَلُ، وقرأَ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

والآيةُ الأُولَى تَدُلُّ على أنهُمْ أهلُ كتابٍ لأنَّ اللهَ ﷻ قد جَعَلَهُمْ منهُمْ بقولِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] فَحُكْمُهُمْ حُكْمُهُمْ؛ إذْ أخبرَ اللهُ ﷻ أنهُمْ منهُمْ. وممّا يَدلُّ على ذلكَ أيضاً قولُ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ[3] قالَ: «لا يَتَخَلَّجَنَّ في صَدْرِكَ طعامٌ ضارَعْتَ فيهِ النَّصْرانِيَّةَ» [الترمذي: ١٥٦٥] لأنهُ عَمَّ فيهِ النصارى، فدخلَ فيهِ عَرَبُهُمْ وعَجَمُهُمْ لأنهُمْ دانُوا بِدِينِهِمْ. وكُلُّ مَنْ دانَ بِدِينِ قَومٍ فَهُوَ مِنهُمْ.

ومِنَ الدليلِ على أنَّ العَرَبَ، إذا دانُوا بِدِينِ أهلِ الكتابِ فَهُمْ مِنْ أهلِ الكتابِ، أنَّ العَجَمَ لَمّا أسلَمُوا صارَ حُكْمُهُمْ حُكْمَ عَرَبِ أهلِ الإسلامِ. فإذا ارْتَدَّ أحدٌ مِنهُمْ، وسألَ [سائلٌ هلْ تُؤخَذُ منهُ][4] الجِزْيَةُ كما تُؤخَذُ في الابْتِداءِ [مِنَ المجوسِ][5] لم يُجَبْ إلى ذلكَ، وقِيلَ لهُ: إمّا أنْ تُسْلِمَ، وإمّا أنْ تُقْتَلَ؛ فهُو بِمَنزِلَةِ عَرَبِيٍّ مُسْلِمٍ لَوِ ارْتَدَّ عنِ الإسلامِ. فلما كانَ حُكْمُ[6] العَجَمِيِّ إذا دانَ بِدِينِ النَّبِيِّ ﷺ حُكْمَ العَرَبِ وَجَبَ أنْ يكونَ حُكْمُ العَرَبِيِّ إذا دانَ بِدِينِ العَجَمِيِّ مِنْ أهْلِ الكتابِ أنْ يُجْعَلَ حُكْمُهُ حُكْمَهُمْ، وباللهِ التَّوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وقد يَحْلُلْنَ لنا إذا لم نُؤتِ أُجورَهُنَّ. دلَّ أنَّ ذِكْرَ الحُكْمِ في حالٍ لا يُوجِبُ حَظْرَهُ في حالٍ أُخرَى، فهو دليلٌ لنا في جَوازِ نِكاحِ الإماءِ مِنْ أهْلِ الكتابِ، وإنْ ذَكَرَ في الآيةِ المُحْصَناتِ.

---

(١) في الأصل وم: طائفتين. (٢) في الأصل وم: أنزل الكتاب لئلا يقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ﴾. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أن يؤخذ منهم. (٥) في م: في المجوس، في الأصل: في المحسوس. (٦) في الأصل وم: حكمي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الآيةَ؛ أي ومَنْ يَكفُرْ بالذي عليهِ الإيمانُ بهِ، وهو المُؤمَنُ بهِ أي اللهِ، لأنهُ لا يُكفَرُ بالإيمانِ، ولكنْ يُؤمَنُ بهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المُوقَنُ بهِ. فَعلى ذلكَ الأوّلُ؛ مَعْناهُ مَنْ يَكفُرْ بالذي عليهِ الإيمانُ بهِ، وهو المُؤمَنُ بهِ، ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وباللهِ العِصْمَةُ والهدايةُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ لو حُمِلَتِ الآيةُ على ظاهرِها لَكانَ لا سَبيلَ لِأحدٍ القيامُ بأداءِ ما فَرَضَ اللهُ عليهِ مِنَ الصلاةِ لأنهُ كلَّما قامَ إلى الصلاةِ يَلْزَمُهُ الوُضوءُ، فلا يَزالُ يَبْقَى فيهِ، لكنَّها على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: يُقالُ ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأنتُمْ مُحدِثونَ ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ وإلّا ظاهرُ الآيةِ يُوجِبُ ما ذَكَرْنا. لكنَّ الحَدَثَ مُضمَرٌ فيهِ.

ومِنَ الناسِ مَنْ يُوجِبُ الوضوءَ لِكُلِّ صلاةٍ بظاهرِ هذهِ الآيةِ. وقد جاءَ مِنَ الصحابةِ ﷺ الفِعْلُ بذلكَ؛ رُوِيَ عن أبي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ ﷺ أنهم تَوَضَّؤوا لِكُلِّ صلاةٍ/ ١٢٤ ـ ب/ ورُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ نَحْوُ ذلكَ.

ورُوِيَ أنَّ عليَّ بْنَ أبي طالِبٍ ﷺ صلّى الظُّهْرَ، ثم قَعَدَ في الرَّحْبَةِ. فلمّا حَضَرَتِ العَصْرُ دَعا بِكُوزٍ مِنْ ماءٍ، فَغَسَلَ يديهِ وَوَجْهَهُ وذِراعَيهِ ورِجْلَيهِ، وشَرِبَ فَضْلَهُ، وقالَ: هكذا رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَفْعَلُ، وقالَ: هذا وُضوءُ مَنْ لم يُحْدِثْ. ورُوِيَ عنْ عُبَيدِ بْنِ عُمَيرٍ أنهُ كانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صلاةٍ، وتأَوَّلَ هذهِ الآيةَ.

«ورُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ يَتَوضَّأُ لِكُلِّ صلاةٍ. فلمّا كانَ يومُ فَتْحِ مكَّةَ صَلّى الصَّلَواتِ كُلَّها بِوُضوءٍ واحدٍ[١] فَقالَ عُمَرُ ﷺ: يا رسولَ اللهِ إنكَ فَعَلْتَ شيئاً لم تَكُنْ تَفْعَلُهُ، قالَ: إني عَمْداً فَعَلْتُهُ يا عُمَرُ» [مسلم: ٢٧٧ وأحمد: ٥/ ٣٥٨]. ورُوِيَ عنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ [أنهُ][٢] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لولا أنْ أشُقَّ على أمّتي لأمَرْتُ في كُلِّ صلاةٍ الوُضوءَ ومعَ كُلِّ وُضوءٍ السِّواكَ» [أحمد: ٢/ ٤٦٠].

وكُلُّ ما رُوِيَ مِنَ الأخبارِ بالوضوءِ لِكُلِّ صلاةٍ، هو[٣] على الفَضْلِ عِندَنا والاستِحْبابِ لا على الحَتْمِ. ألا تَرى أنهُ رُوِيَ عنِ النَّبيِّ أنهُ ﷺ صلّى الصَّلَواتِ[٤] كلَّها بِوُضوءٍ واحِدٍ، وقالَ: إني فَعَلْتُهُ عَمْداً. ذلكَ ما ذَكَرْنا.

وقد يَحْتَمِلُ تأويلُ الآيةِ مَعْنًى آخَرَ ما رُوِيَ عنْ بَعْضِ الصحابةِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا أراقَ ماءً، نُكَلِّمُهُ، فلا يُكَلِّمُنا، ونُسَلِّمُ عليهِ، فلا يَرُدُّ علينا حتى يأتِيَ أهْلَهُ، فَيَتَوَضَّأُ وضوءَهُ لِلصَّلاةِ، فَقُلْنا لهُ في ذلكَ حتى نَزَلَتْ آيَةُ الرُّخْصَةِ [في][٥] قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فهذا يَدُلُّ أنَّ مَعْنَى الآيةِ على الإضمارِ ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأنتُمْ مُحْدِثُونَ ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾.

ورُوِيَ في تأويلِ الآيةِ: إذا قُمْتُمْ مِنَ المَضْجَعِ إلى الصلاةِ فاغْسِلُوا وجوهَكُمْ. وقد رُوِيَتِ الأخبارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ كانَ يَنامُ، ثم يُصَلِّي الصُّبْحَ ولا يَتَوَضَّأُ، فَسُئِلَ عنْ ذلكَ فقالَ: إني لَسْتُ كَأحَدٍ مِنْكُمْ؛ تنامُ عَينايَ ولا يَنامُ قلبي، ولو أحْدَثْتُ لَعَلِمْتُ» [بنحوه البخاري: ١١٤٧].

ورُوِيَ عنْ صَفْوانَ بْنِ عَسّالٍ [أنهُ قالَ][٦]: «إذا كنا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في سَفَرٍ يأمُرُنا ألّا نَنْزِعَ خِفافَنا إذا أدخَلْناهما طاهرَتَينِ، ولا نخلَعَهما مِنْ غائطٍ ولا بَولٍ إلّا مِنْ جَنابةٍ» [النسائي: ١/ ٨٤].

فهذهِ الأحاديثُ تُوجِبُ الوضوءَ مِنَ النومِ مُجْمَلاً. وجاءَ حديثٌ آخَرُ مُفَسَّراً بإيجابِ الوضوءِ إذا نامَ مُضْطَجِعاً؛ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «ليسَ على مَنْ نامَ قاعداً وضوءٌ حتى يَضْطَجِعَ. فإذا اضْطَجَعَ اسْتَرْخَتْ مَفاصِلُهُ» [بنحوه الترمذي: ٧٧] فهذهِ الأخبارُ التي جاءَتْ مُجْمَلَةً.

---

(١) في الأصل وم: واحدة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) من م، في الأصل: الصلاة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقد جاءتِ الأخبارُ أنهُ إذا نامَ في الصلاةِ قائماً أو قاعداً أو ساجداً فلا وُضوءَ عليهِ. فَيَدُلُّ ذلكَ على أنَّ النومَ في الصلاةِ ليسَ بِحَدَثٍ. ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][١] قالَ: لا يُوجِبُ الوضوءَ حتى يَضَعَ الجنبَ، وينامَ. فهذا يؤيِّدُ [ما][٢] قُلْنا معَ ما اجْتَمَعَ أهْلُ العلمِ في أنَّ الوُضوءَ ليسَ بواجبٍ على مَنْ قامَ إلى الصلاةِ، وهو غيرُ مُحْدِثٍ. فكانَ التَّأويلُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الخِطابُ مِنَ اللهِ ﷻ بِغَسْلِ الوَجْهِ ما يُعْرَفُ أصْلُ[٣] الوَجْهِ. فالتَّكَلُّمُ فيهِ والتَّحديدُ أنهُ مِنْ كذا فَضْلُ تَكَلُّمٍ، والأمْرُ بالغَسْلِ يرجعُ إلى ما ظَهَرَ، وعُرِفَ أصْلُهُ[٤] أنهُ وجْهٌ.

وكذلكَ الأمْرُ بِمَسْحِ الرأسِ يَرْجِعُ إلى ما عُرِفَ أصْلُهُ[٥] أنهُ رأسٌ، وليسَ كالأُذُنَينِ لأنَّ مَعْرِفَةَ الأُذُنَينِ أنهما مِنَ الرأسِ سَمْعِيٌّ لأنهما لا تُعْرَفانِ أنهما مِنَ الرأسِ إلا بالسَّمْعِ.

وكذلكَ الأمْرُ بِغَسْلِ اليَدِ وغَسْلِ الرِّجْلِ يَقَعُ على ما يَعْرِفُ الناسُ. وعَرَفَ الناسُ اليدَ إلى الإبْطِ والرِّجْلَ إلى الرُّكْبَةِ، فَخَرَجَ ذِكْرُ المَرافِقِ في غَسْلِ الأيدي إلى ما وراءَ المَرافِقِ، وكذلكَ ذِكْرُ الكَعْبِ في الرِّجْلِ لإخراجِ ما وراءَ الكَعْبِ، لأنَّ اسْمَ اليَدِ على الإطلاقِ يَقَعُ مِنْ أطرافِ الأصابعِ إلى الإبْطِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ قَرَؤوا بالنَّصْبِ، وقَرَؤوهُ بالخفضِ[٦]. قالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ قرأ بالنَّصْبِ فهو يرجعُ إلى الغَسْلِ نَسَقاً على الوجهِ، وبالخَفْضِ إلى المَسْحِ مَسْحِ الخِفافِ نَسَقاً على مَسْحِ الرأسِ. لكنَّ هذا بعيدٌ لأنهُ تناقُضٌ؛ لا يجوزُ أنْ يُؤْمَرَ[٧] بالغَسْلِ والمَسْحِ جميعاً، ومَعْنَى الخَفْضِ لِقُرْبِ جوارِهِ. يقولُ تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد يجوزُ ذلكَ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢١و٢٢و٢٣] فَمَنْ قرأ بالخَفْضِ[٨] إنما قَرَأ[٩] لِقُرْبِ جوارِهِ بالخَفْضِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

ثم الحِكْمَةُ بالأمْرِ بِغَسْلِ هذهِ الأعضاءِ لِيُذَكِّرَهُمْ تَطْهيرَ باطِنِهِمْ. والمَعْنَى في غَسْلِ هذِهِ الأعضاءِ الظاهِرَةِ، واللهُ أعلَمُ، بوجهَينِ[١٠]:

أحدُهما: شُكْرٌ. أمّا اليَدُ [فَلِما][١١] بها يُتَناوَلُ، ويُقْبَضُ، وأمّا الرِّجْلُ فَلِما[١٢] بها يُمْشَى، وبها يَصِلُ إليهِ. والوجهُ مَجْمَعُ الحَواسِّ التي تُعَرِّفُ عَظيمَ نِعَمِ اللهِ ﷻ مِنْ نَحْوِ البَصَرِ والشَّمِّ[١٣] وغيرِهِما مِنَ الحَواسِّ التي بها يكونُ التَّلَذُّذُ والتَّشَهِّي.

والثاني[١٤]: أمرٌ بذلكَ تَكْفيراً لِما ارْتُكِبَ بهذِهِ الحَواسِّ مِنَ الأجرامِ لأنهُ بِها تُرْتَكَبُ جُلُّ الآثامِ، وبها يُوصَلُ إليها مِنَ المَشْيِ والقَبْضِ وغيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ قِيلَ فاغْتَسِلُوا بِأخْذِ الجَنابَةِ الظواهِرَ مِنَ البَدَنِ وبواطِنَهُ، والحَدَثُ لا يَأْخُذُ إلّا الظَّواهِرَ مِنَ الأطرافِ لأنَّ السَّبَبَ الذي يُوجِبُ الجَنابَةَ لا يكونُ إلّا باسْتِعْمالِ جَميعِ ما فيهِ مِنَ القُوَّةِ. ألا تَرَى أنهُ بِهِ يَضْعُفُ إذا كَثُرَهُ، وبِتَرْكِهِ يَقْوَى. فَعَلَى ذلكَ أخْذُ جميعِ البَدَنِ ظاهِرِهِ وباطِنِهِ. وأمّا الحَدَثُ فإنَّ سَبَبَهُ يكونُ بِظَواهِرِ هذِهِ الأطرافِ مِنْ نَحْوِ الأكْلِ والشُّرْبِ والحَدَثِ، وليسَ باسْتِعمالِ كُلِّ البَدَنِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الآية. ذَكَرَ المَرَضَ والسَّفَرَ والمَجِيءَ مِنَ الغائِطِ والمُلامَسَةَ. ثُمَّ الحُكْمُ لَمْ يَتَعَلَّقْ باسْمِ المَرَضِ ولا باسْمِ السَّفَرِ ولَكِنْ باسْمِ الغائِطِ، ولكنْ كانَ مُتَعَلِّقاً لِمَعْنًى فيهِ دلالةُ جَوازِ القِياسِ لأنَّهُ ذَكَرَ الغائِطَ [والمَجِيءَ منهُ، والغائِطُ][١٥] هو المَكانُ الذي تُقْضَى فيهِ، والمُرادُ منهُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: آهل. (٤) في الأصل وم: أهله. (٥) في الأصل وم: أهله.
(٦) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص بالفتح، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر خفضاً، انظر حجة القراءات ص (٢٢١). (٧) في الأصل وم: يأمر. (٨) قرأ حمزة والكسائي: وحورٍ عينٍ بالخفض، وقرأ الباقون بالرفع، انظر حجة القراءات ص (٦٩٥). (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: لمعنيين. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل: لما، ساقطة من م (١٣) في الأصل وم: والغم. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥)من م، ساقطة من الأصل.

المَغنَى، وهو قَضاءُ الحَاجاتِ. فَهذا أصلٌ لَنا أنَّ النَّصَّ إذا ورَدَ بِمَعْنًى، فَوُجِدَ ذَلِكَ المَعْنَى في غَيرِهِ وَجَبَ ذَلِكَ الحُكْمُ في ذَلِكَ الغَيرِ. فإذا عَدِمَ المَاءَ في المَكانِ الذي يُعْدَمُ، وإنْ لَمْ يكُنْ سَفراً، يَجوزُ التَّيَمُّمُ فيه، وكَذَلِكَ إذا خَافَ الضَّرَرَ مِنَ المَاءِ جَازَ لَهُ التَّيَمُّمُ، يكُونُ مَريضاً لأنَّهُ لَيسَ أباحَ ذَلِكَ، هذا هو المعنى الثاني لِلْمَريضِ بِاسْمِ المَرَضِ ولا بِاسْمِ السَّفَرِ، ولكنْ لِمَعْنًى فيهِ.

وقَولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ المُلامَسَةَ هو الجِماعُ. [كَذَلِكَ][1] رُوِيَ عن عليٍّ وابنِ عباسٍ ﷺ وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: المُلامَسَةُ والمُباشَرَةُ والإفْضاءُ والرَّفَثُ والغَشَيانُ، كُلُّهُ جِماعٌ، ولكنَّ الله كريمٌ يُكَنِّي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ جَعَلَ الطَّهارَةَ بالمَاءِ والتُّرابِ لأنَّهُ بِهِما مَعاشُ الخَلقِ، وبِهِما قِوامُ الأبْدَانِ حتَّى جَعَلَ جَميعَ أغْذِيَةِ الخَلْقِ وجُلَّ مَصالِحِهِمْ منهُما. فعَلَى ذَلِكَ جَعَلَ قِيامَ هَذِهِ العِبادَاتِ بِهِما، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ الحِكْمَةُ في وُجوبِ الطَّهارةِ [في وَجهَينِ][2]:

أحَدُهُما: ما ذَكَرْنا أنْ يُذَكِّرَهُمْ طهارَةَ البَاطِنِ.

والثاني: تكْفِيرٌ[3] لِما ارْتَكَبُوا بِهَذِهِ الجَوارِحِ مِنَ الأجْرَامِ، أو شكْرٌ[4] لِما أنْعَمَ عليهِمْ مِنَ المَنَافِعِ التي جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ القَبْضِ والبَسْطِ والتَّناوُلِ والأخذِ والمَشْيِ وغيرِ ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ.

ثُمَّ الحِكْمَةُ في جَعْلِ الطَّهارَةِ في أطرافِ البَدَنِ للتَّزَيُّنِ والتَّنْظِيفِ لأنَّهُ يُقْدِمُ على المَلِكِ الجَبَّارِ، ويَقُومُ بَينَ يَدَيهِ ويُناجِيهِ. ومَنْ أتَى مَلِكاً مِنَ مُلُوكِ الأرْضِ يَتَكَلَّفُ التَّنْظِيفَ والتَّزَيُّنَ. ثُمَّ يَدْخُلُ عليهِ. فعلى ذَلِكَ هذا، والله أعْلَمُ.

وقـولُـهُ تـعـالـى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ قالَ عَبدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ وعُمَرُ/ ١٢٥ ـ أ/ ﷺ المُلامَسَةُ ما دُونَ الجِماعِ، فَلَمْ يَدْخُلِ الجُنُبُ في هذِه الآيةِ، وأوجَبا[5] عليهِ الغُسْلَ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ وجَعَلا قولَ الله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النِّساء: ٤٣] على مرورِ الجُنُبِ في المَسْجِدِ. ولَمْ يَجْعَلاهُ[6] على أنَّهُ يُصَلِّي إذا كَانَ مُسافِراً، ولَمْ يَجِدِ المَاءَ. فهذا الذي مُنِعَ عِندَ اللهِ أنْ يُطْلَقَ لِلْجُنُبِ أنْ يُصلِّيَ بالتَّيَمُّمِ على حالٍ.

فأمَّا عليٌّ وابْنُ عباسٍ ﷺ فإنَّهُمَا جَعَلا اللَّمْسَ الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في هَذِهِ الآيةِ الجِماعَ، وقالا: كَنَّى اللهُ تعالى عنِ الجِمَاعِ بالمَسِيسِ والغَشَيانِ والمُبَاشَرةِ. وجَعَلا[7] قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء: ٤٣] في المُسافِرِ الذي لَمْ يَجِدِ المَاءَ، وهو جُنُبٌ.

وقد رُوِيَ عنْ رَسُولِ الله ﷺ أنَّهُ أذِنَ لِلْجُنُبِ مِنَ الجِماعِ أنْ يَتَيَمَّمَ[8] إذا لَمْ يَجِدِ الماءَ، فكانَ ذَلِكَ حُجَّةً على مَنْعِ الجُنُبِ مِنَ التَّيَمُّمِ.

ثُمَّ قَولُ الشَّافِعِيِّ قولٌ ثَالِثٌ خارِجٌ عنْ قَولِ الصَّحَابَةِ والسَّلَفِ ﷺ لأنَّهُ يَزْعُمُ أنَّ اللَّمسَ هوَ الجِماعُ وما دُونَهُ. فَذَلِكَ ابْتِداعٌ في الآيةِ قَولاً وتَفْسِيراً خَالَفَ فيهِ ما رُوِيَ في تفْسِيرِها عنِ الصحابَةِ [ﷺ][9] جُمْلَةً والسَّلَفِ. لذلكَ كانَ محيطاً.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ الوُضُوءَ، وأمَرَ بِهِ في الآيةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية، ولم يَذْكُرِ [الحَدَثَ، وأمَرَ][10] بالاغْتِسالِ مِنَ الجَنابَةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ ولَمْ يَذْكُرْ مِنْ أيِّ جَنابَةٍ. ثُمَّ ذَكَرَ الحَدَثَ[11] في قولِهِ: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ كانَ بَياناً لِما تَقَدَّمَ مِنَ الأمْرِ بِالاغْتِسالِ مِنَ الجَنابَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وجهان. (٣) في الأصل وم: تكفيرا. (٤) في الأصل وم: شكراً. (٥) في الأصل وم: وأوجبوا. (٦) في الأصل وم: يجعلوه. (٧) في الأصل وم: وجعل. (٨) في الأصل وم: يتيمموا. (٩) في الأصل ﷺ ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: الحديث وأمره. (١١) في الأصل وم: الحديث.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ قِيلَ: اقْصِدُوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. والصعيدُ هوَ وَجْهُ الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الطَّيِّبُ مَا يُنْبِتُ مِنَ الزَّرْعِ وغيرِهِ. وقالَ آخَرُونَ: الطَّيِّبُ هَهُنَا هو الطاهِرُ.

رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ [أنَّهُ][1] قالَ: «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِداً وطَهُوراً، أينما أدرَكَتْني الصَّلاةُ تَيَمَّمْتُ وصَلَّيتُ» [البخاري: ٣٣٥] أخبَرَ أنَّ الأرضَ جُعِلَتْ[2] لَهُ مَسْجِداً وطَهُوراً. فَكانَ قولُهُ: «طَهُوراً» تَفْسِيراً لِقَولِهِ تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تقَدَّمَ أنَّ التَّيَمُّمَ ضَرْبتانِ: ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وضَرْبَةٌ لِلْيَدَينِ إلى المِرْفَقَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجْهَينِ:

يَحْتَمِلُ مَا يُرِيدُ أنْ يُضَيِّقَ عليكُمْ لِيَأْمُرَكُمْ بِحَمْلِ الماءِ إلى حَيثُ ما كُنْتُمْ في الأسْفَارِ وغَيرِهِ. ولكنْ جَعَلَ لَكُمُ التَّيَمُّمَ، ورَخَّصَ لَكُمْ أنْ تُؤَدُّوا ما فَرَضَ عليكُمْ بهِ، ولم يُكَلِّفْكُمْ حَمْلَ الماءِ في الأسْفارِ وغَيرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

ووجْهٌ آخَرُ: ما أرادَ اللهُ بِما تَعَبَّدَكُمْ مِنْ أنْواعِ العِباداتِ أنْ يَجْعَلَ ﴿عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ولكِنْ أرادَ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ بالتوحيدِ والإيمانِ بهِ وبالرُّسُلِ[3] جَميعاً. ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِنَ الذنوبِ والآثامِ التي ارْتَكَبُوها كقَولِهِ تعالى: ﴿الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ويَحْتَمِلُ التَّطْهِيرَ مِنَ الأحْداثِ والجَناباتِ كما قالَ أهلُ التَّأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ تَمامُ ما ذكَرْنا مِنَ التوحيدِ والإيمانِ والهِدايَةِ لِدِينِهِ والتَّكْفِيرِ مِمَّا ارْتَكَبُوا. ويَجُوزُ أنْ يَكُونَ هذا في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنَّهُمْ يَمُوتُونَ على الإيمانِ حِينَ أخبَرَ أنَّهُ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيهِمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أمْرٌ، واللهُ أعْلَمُ، بِشُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ أنْواعِ النِّعَمِ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم﴾ يَحْتَمِلُ الميثاقُ مِيثاقَ الخِلْقَةِ[5] وشَهادَتِها، إذْ خِلْقَةُ كُلِّ أحدٍ تَشْهَدُ على وحْدَانِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ، ويَحْتَمِلُ المِيثاقُ الذي ذَكَرَ قولَ ما قالُوهُ، وقَبِلُوا ما دُعُوا إلَيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أجَبْنا دَعْوَتَكَ، وأطَعْنا أمْرَكَ. وقالَ آخَرُونَ: سَمِعْنا قولَكَ، وأطَعْنا أمْرَكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تَرْكِ ما أمَرَكُمْ رَبُّكُمْ وارتِكابِ ما نَهاكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو على الوعِيدِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ أنْ تَكُونَ الآيةُ في الشَّهادَةِ نَفْسِها، كأنَّهُ قالَ كُونُوا[6] شُهَداءَ للهِ، واجْعَلُوا الشَّهادَةَ لَهُ. فإذا فَعَلُوا هذا لا يَمْنَعُهُمْ بُغْضُ أحَدٍ ووِلايَتُهُ القِيامَ بها. نَدَبَهُمُ اللهُ أنْ يَقُولُوا في الشَّهادَةِ للهِ والحُكْمِ لَهُ؛ يَحْكُمُ لِلْعَدُوِّ كما يَقُومُ لِلْوَلِيِّ، واللهُ أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تَكُونَ في بَيانِ الحَقِّ والحُجَجِ وتَعْلِيمِ الأحكامِ والشَّرائعِ؛ كأنَّهُ يَقُولُ، واللهُ أعلَمُ، قُومُوا في بَيانِ الحُجَجِ والحَقِّ وتَعْلِيمِ الأحْكامِ للهِ، لا يَمْنَعَنَّكُمْ بُغْضُ قَومٍ ولا رِضاهُمْ على ألا تُبَيِّنُوا الحَقَّ لَهُمْ، ولا تُعَلِّمُوا الحُجَجَ والأحكامَ لَهُمْ إشارةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنَّهُ][7] قالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي ولا يَحْمِلَنَّكُمْ ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي بُغْضُ قَومٍ ﴿عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فِيهِمْ. فإنَّما العَدْلُ للهِ في الرِّضا والسُّخْطِ ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يَقُولُ: قُولُوا العَدْلَ بالحَقِّ فإنَّهُ ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جعل. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. (٦) في الأصل وم: قوموا. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي اعْدِلُوا هو التَّقوى كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] لأنَّ العَدْلَ لَيسَ إلّا التَّقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تَرْكِ ما أَمَرَكُمْ بِهِ وارتِكابِ ما نَهاكُمْ عَنْهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتُضْمِرُونَ مِنَ العَدْلِ والجَورِ. خَرَجَ على الوعيدِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: هذِهِ الآيَةُ هِيَ صِلَةُ ما تَقَدَّمَ في قولِهِ ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرْنا. فإذا فَعَلُوا وقَامُوا في الشَّهادَةِ والعَدْلِ في الحُكْمِ كانَ لَهُمْ ما ذَكَرَ مِنَ الوَعْدِ، والله أعلَمُ.

ولكن يَحتَمِلُ على الابْتِداءِ، واللهُ أعلَمُ؛ كأنَّهُ قالَ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَعْداً، ثُمَّ بَيَّنَ ما في ذَلِكَ الوَعْدِ، فقالَ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ يَسْتُرُ على ذُنُوبِهِمْ، ويَتَجاوَزُ عنها ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الجَنَّةُ. قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ في الدنيا لِذُنُوبِهِمْ ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخِرَةِ الجَنَّةُ، وهوَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قِيلَ: ﴿كَفَرُوا﴾ بِآياتِ الله ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بِآياتِهِ؛ يَعْني مُحَمَّداً ﷺ والقُرآنَ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وقيلَ: ﴿كَفَرُوا﴾ بِتَوحِيدِ الله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالقُرْآنِ بأنَّهُ لَيسَ مِنَ اللهِ تعالى، وهُمَا واحِدٌ. وهذا يَدُلُّ أنَّ الآيةَ على الابْتِداءِ. [خَرَجَتْ لَيسَتْ][(1)] على الصِّلَةِ على ما قالُوا.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ النِّعْمَةُ[(2)] التي ذَكَرَ اللهُ تعالى في هذهِ الآيةِ مِنْ كَفِّ الأعداءِ عنهُمْ بَعْدَ ما بَسَطُوا إليهِمْ أيديَهُمْ في جُمْلَةِ المؤمِنِينَ لأنَّ المُؤمِنِينَ كانُوا في ابْتِداءِ الأمْرِ مُخْتَفِينَ ما بَينَ الكَفَرَةِ؛ لا يَقْدِرُونَ على إظْهارِ الإسْلامِ وإعْلانِهِ، وقدْ هَمُّوا بِقَتْلِ المُؤمِنِينَ غَيرَ مَرَّةٍ. وفي ما كَفَّ ﴿أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ مِنَّةٌ عَظِيمَةٌ عَلَينا وعَلى جَمِيعِ المُسْلِمِينَ. ويَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ في قومٍ خاصٍّ؛ قد أحاطُوا بِهِمْ، وبَسَطُوا أيديَهُمْ إلَيهِمْ، وهَمُّوا بِقَتْلِهِمْ، فَكَفَّ اللهُ ﷻ بِفَضْلِهِ أيديَهُمْ عَنْهُمْ ومَنَعَ[(3)] أيديَهُمْ.

ثُمَّ اخْتُلِفَ فيهِ: عن ابنِ عباسٍ ﷺ [أنَّهُ][(4)] قالَ: هَمَّ بَنُو قُرَيظَةَ، وبَسَطُوا أيديَهُمْ بالقَتْلِ، فَكَفَّ اللهُ تعالى/ ١٢٥ ـ ب/ أيديَهُمْ عنهُمْ بالمَنْعِ.

وقيلَ: نَزَلَتْ في اليَهُودِ؛ دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ حائِطاً لَهُمْ في النَّخْلِ، وأصحابُهُ وراءَ الجِدارِ، واسْتَعانَهُمْ في مَغْرَمِ دِيَةٍ غَرِمَها، ثُمَّ قامَ مِنْ عِنْدِهِمْ، فائتَمَرُوا بَيْنَهُمْ بِقَتْلِهِ، فَخَرَجَ يَمْشي القَهْقَرَى مُعْتَرِضاً يَنْظُرُ مِنْ خِيفَتِهِمْ، ثُمَّ دَعا أصحابَهُ ﷺ إلَيهِ رَجُلاً رَجُلاً حتّى تَناهَوا إلَيهِ. فَلا نَدْري كيفَ ما كانَتِ القِصَّةُ؟ وليسَ لنا في مَعْرِفَةِ القِصَّةِ حاجَةٌ بَعْدَ أنْ نَعْرِفَ مِنَّةَ اللهِ التي مَنَّ عَلينا بِكَفِّ الأعداءِ عَنْهُمْ، ونَشْكُرُ لَهُ على ذَلِكَ.

وفي هذِهِ الآيَةِ دَلالَةُ إثْباتِ رِسالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّهُ أخْبَرَ عَمّا كانَ مِنْهُمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَشْهَدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أنَّهُ بِاللهِ عَلِمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي على اللهِ يَتَّكِلُ المُؤمِنُ في كُلِّ أمْرِهِ، وبِهِ يَثِقُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، تَعْليمٌ مِنَ اللهِ تعالى هذِهِ الأُمَّةَ وإنْباءٌ مِنْهُ أنَّهُ قَدْ أخَذَ العُهُودَ والمَواثِيقَ على الأُمَمِ السالِفَةِ كَما أخَذَ مِنْكُمْ لأنَّهُ ذَكَرَ أنَّهُ قَدْ أخَذَ مِنْ هَؤلاءِ المِيثاقَ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ الآية [المائدة: ٧] ثُمَّ أعْلَمَهُمْ بِما وَعَدَ لَهُمُ الثَوابَ إنْ وَفَوا بِتِلْكَ العُهُودِ والمَواثِيقِ التي أُخِذَتْ عليهِمْ وبِما أوْعَدَ لَهُمْ مِنَ العِقابِ إنْ نَقَضُوا العُهُودَ التي أخَذَ عليهِمْ لِيَكُونُوا على حَذَرٍ مِنْ نَقْضِها ولِيُقِيمُوا على وفائِها: أنْ[(5)] يُقالَ: إنَّما ذَكَرَ ما أخَذَ على أولَئِكَ مِنَ العُهُودِ والمَواثِيقِ لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً مِنْ آياتِ رِسالَةِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّهُ إخْبارٌ عَنِ الأُمَمِ السالِفَةِ، وهوَ لَمْ يَشْهَدْها، ولا حَضَرَها، لِيَعْلَمُوا أنَّهُ إنَّما عَلِمَ ذَلِكَ باللهِ.

(١) في الأصل وم: خرج ليس. (٢) في الأصل وم: المنة. (٣) في الأصل وم: ومن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: و.

ثُمَّ تَحْتَمِلُ تِلْكَ العُهُودُ والمَواثِيقُ التي أُخِذَتْ عَلَيهِمْ ما ذَكَرَ على إثْرِهَا وسِياقِهَا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ ابْنُ عَباسٍ [وهوَ إخلالُ ما][1] أحَلَّ اللهُ وتَحْرِيمُ ما حَرَّمَ اللهُ وحُسْنُ مُؤازَرَتِهِمْ، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يعني مَلِكاً، وهُمُ الذينَ بَعَثَهُمْ مُوسى إلى بَيتِ المَقْدِسِ لِيَعْلَمُوا لَهُ عِلْمَها.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونُوا[2] اخْتارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ أولئِكَ، فَسَألُوا مُوسى أنْ يَجْعَلَهُمْ عليهِمْ قُدْوَةً يَقْتَدُونَ بِهِمْ، ويُعَلِّمُونَهُمُ الدِّينَ والأحكامَ، ويَأْخُذَ عليهِمُ المَواثِيقَ والعُهُودَ، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في النَّقِيبِ؛ قالَ بعضُهم: النَّقيبُ هو المَلِكُ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه وقالَ أبو عَوسَجَةَ: النَّقِيبُ هو المَنْظُورُ إلَيهِ والمَصْدُورُ عنْ رأيِهِ، وهوَ مِنْ وُجُوهِ القَومِ، وجَمْعُهُ النُّقَباءُ مِثْلُ العُرَفَاءِ. وقالَ أبو عُبَيدٍ: النَّقِيبُ الأميرُ والضامِنُ على القومِ. وقالَ الكِسائيُّ والفَرّاءُ: يُقالُ مِنهُ: نَقِيبٌ، عليهِ أنْقَبَ، نِقابَةً، وهوَ فوقَ العَرِيفِ، ويُقالُ[3] مِنَ العَرِيفِ: عَرَفْتُ عليهِم عَرافَةً، وهُمُ النُّقَباءُ والعُرَفاءُ والمَناكِبُ، واحِدُهُمْ مَنْكَبٌ، وهُمْ كَالعَونِ يكُونُ مَعَ العَرِيفِ. وقالَ القُتَبِيُّ: الكَفِيلُ على القومِ، والنِّقابَةُ والنِّكابَةُ شَبِيهَتانِ[4] بالعَرافَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: قالَ لِلنُّقَباءِ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ في النَّصْرِ والدَّفْعِ عنكُمْ ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وهوَ قولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ هَذا الوَعدُ لِكُلِّ مَنْ قامَ بِوَفاءِ ذَلِكَ [مِنَ][5] النُّقَباءِ وغَيرِ النُّقَباءِ، وما ذَكَرَ مِنَ الوَعِيدِ في الآيةِ التي هي على إثْرِ هذهِ على كلِّ مَنْ نَقَضَ ذَلِكَ العَهْدَ النَّقِيبُ وغَيرُ النَّقِيبِ.

ثُمَّ قولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

يَحْتَمِلُ أنَّهُ أرادَ بالصَّلاةِ الخُضوعَ والثَّناءَ لَهُ وبالزَّكاةِ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ وطَهارَتَها، وذَلِكَ في الفِعْلِ؛ على كُلِّ أحَدٍ القِيامُ بِهِ في كُلِّ وقْتٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ أرادَ بِالصَّلاةِ المَعْرُوفَةَ المَعْهُودَةَ والزَّكاةِ المَعْرُوفَةَ. فَفِيهِ دَليلُ وجُوبِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ على الأُمَمِ السالِفَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ يَحْتَمِلُ أنْ تُؤمِنُوا بِرُسُلِي جَمِيعاً، ولا تُفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ: أنْ تَكْفُرُوا بِبَعْضٍ، وتُؤمِنُوا بِبَعْضٍ كَقَولِهِمْ: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ، قالا: وعَظَّمْتُمُوهُمْ، والتَّعْزِيرُ التَّعْظِيمُ. وقالَ بَعضُهُمْ: نَصَرْتُمُوهُمْ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنَّهُ][6] قالَ ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أعَنْتُمُوهُمْ؛ يَعني الأنْبِياءَ عليهم السلام.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [أي صادِقاً مِنْ كُلِّ أنفُسِكُمْ [ابْتَغَيتُمْ بِهِ][8] وجْهَ اللهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾][9] أي مُحْتَسِباً؛ طَيِّبَةً [بِهِ أنْفُسُكُمْ][10]. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي جَعَلْتُمْ[11] عِنْدَ اللهِ أنْفُسَكُمْ أيادِيَ ومَحاسِنَ؛ تَسْتَوجِبُونَ بِذَلِكَ الثَّوابَ الجَزِيلَ.

وقولُهُ[12] تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وَعْدٌ لَهُمْ بِتَكْفِيرِ[13] ما ارْتَكَبُوا مِنَ المَآثِمِ إذا قامُوا بِوَفاءِ ما أخَذَ اللهُ عليهِمْ مِنَ المَواثِيقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم شبيه. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: ابتغى بها. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: بها نفسا. (١١) في الأصل وم: اجعلوا. (١٢) في الأصل وم: ثم قال. (١٣) في الأصل وم: وتكفير.

ذَٰلِكَ﴾ أي بَعْدَ المَواثِيقِ والعُهُودِ التي أخذَ علَيهِمْ. ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مَنْ كَفَرَ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي أخطأَ سَواءَ السَّبيلِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي فَبِنَقْضِهِمْ: قيلَ: ما زائدةٌ؛ فَبِنقْضِهِمْ ﴿مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي طَرَدْناهُمْ. والمَلْعُونُ هو المَطْرودُ عنْ كُلِّ خَيْرٍ. ويَحتَمِلُ ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي دَعَونا عليهِمْ باللَّعْنِ، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ بما نُزِعَ منها الرَّحْمَةُ والرَّأفَةُ إذا نَقَضُوا العُهُودَ، وتَرَكُوا أمْرَ اللهِ لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ أنهُ جَعَلَ في قُلُوبِ الذينَ اتَّبَعُوا أمْرَ اللهِ، وأطاعُوا رَسُولَهُ، الرَّحمَةَ[1] والرَّأفَةَ بِقَولِهِ تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] فَإذا نُزِعَتِ الرَّحْمَةُ صارَتْ ﴿قَٰسِيَةً﴾[2] يابِسَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يَكُونُوا يُغَيِّرُونَ تأويلَهُ، ويَقُولُونَ: هَذا مِنْ عِنْدِ اللهِ، ويَحتَمِلُ التَّحرِيفُ تَحريفَ النَّظمِ والمَتْلُوِّ؛ [يَمْحُونَهُ، ويَكتُبُونَ][3] غَيرَهُ ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ قيلَ: ضَيَّعُوا كِتابَ اللهِ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، ونَقَضُوا عَهْدَهُ الذي عَهِدَ إليهِمْ، وتَرَكُوا أمْرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي وُعِظُوا بِهِ، وقِيلَ: تَرَكُوا نَصيباً مِمَّا أُمِرُوا بِهِ في كِتابِهِمْ مِنَ اتِّباعِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إخبارٌ عَنْ تَمَرُّدِهِمْ في المُعانَدَةِ وكَونِهِمْ في الخِيانَةِ وإياسٍ مِنْ إيمانِهِمْ. ثُمَّ استَثْنَى، فَقالَ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهمُ الذينَ أسْلَمُوا مِنْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ ولا تُكافِئْهُمْ لِما آذَوكَ. ثُمَّ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مَنْسُوخٌ بآيَةِ القِتالِ في سُورَةِ [﴿بَرَآءَةٌ﴾][4] وهوَ قولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢٩]. ويَحتَمِلُ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ إلى أنْ تُؤْمَرَ بالقِتالِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ أي كُونُوا أنْصارَ اللهِ، فَقالُوا: بَلْ نَكُونُ نَصارَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ ما مِنْ أحَدٍ إلا وقَدْ أخذَ اللهُ ﷻ علَيهِ العَهْدَ والمِيثاقَ. وقدْ أخذَ المِيثاقَ على المُؤمِنِينَ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ الآية [المائدة: ٧] وأخذَ المِيثاقَ على اليهُودِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [المائدة: ١٢]. وأخبَرَ أيْضاً أنَّهُ قَدْ أخذَ المِيثاقَ على النَّصارَى في هذهِ الآيةِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ المِيثاقِ ومعناهُ في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجْهَينِ:

يَحتَمِلُ أي تَرَكُوا حَظَّهُمْ ممَّا أُمِرُوا بِهِ مِنْ توحيدِ اللهِ والإيمانِ بالرُّسُلِ كُلِّهِمْ والتَّمَسُّكِ[5] بِكِتابِ/ ١٢٦ ـ أ/ اللهِ تعالى والوفاءِ بالعُهُودِ التي عُهِدَتْ[6] إلَيهِمْ، فَتَرَكُوا ذَلِكَ كُلَّهُ، وضَيَّعُوا.

ويَحتَمِلُ ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لَمْ يَحْفَظُوا مَا وُعِظُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قِيلَ:

أغْرَيْنا ألْقَيْنا ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ قالَ الحسَنُ: مِنْ حِكَمِ اللهِ تعالى أنْ يُلْقِيَ بَيْنَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ، ويَجعَلَ[7] قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً، ومِنْ حِكَمِهِ أنْ يَكُونَ بينَ المُسْلِمِينَ رَأْفَةٌ ورَحْمَةٌ.

وقالَ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ: قولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ أي خَذَلْناهُمْ، وتَرَكْناهُمْ. لكِنْ هذا كُلُّهُ مِنْهُمُ احْتِيالٌ وفِرارٌ عمَّا يَلْزَمُهُمْ مِنْ سُوءِ القَولِ وقُبْحِهِ، فَيُقالُ لَهُمْ: إنْ شِئْتُمْ جَعَلْتُمْ خِذلاناً، وإنْ شِئْتُمْ تَرْكاً جَعَلْتُمْ[8] ما شِئْتُمْ.

---

(١) في الأصل وم: والرحمة. (٢) في الأصل: قَسِيَّةً وهي قراءة حمزة، انظر حجة القراءات ص (٢٢٣). (٣) في الأصل وم: ومحوه ويكتسبون.
(٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وتمسك. (٦) في الاصل وم: عهد. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: جعلوا.

ولكنْ هل كانَ مِنَ اللهِ في ذَلِكَ صُنْعٌ، أو أضافَ ذَلِكَ إلى نَفْسِهِ؟ ولا فِعْلَ لَهُ في ذَلِكَ، ولا صُنْعَ لَهُ في ذَلِكَ. وذَلِكَ الحَرفُ على غَيرِ إثْبَاتِ الفِعْلِ فِيهِ أو شيءُ حَرْفِ ذَمٍّ، لا يَجوزُ أنْ يُضِيفَ ذَلِكَ إلى نَفْسِهِ، ولا فِعْلَ لَهُ في ذَلِكَ ولا صُنْعَ، فَدَلَّ أنَّ[1] لَهُ فِيهِ صُنعاً، وهوَ ما ذَكَرْنا: أنْ خَلَقَ ذَلِكَ مِنْهُمْ. وكَذَلِكَ في ما أضَافَ إلى نَفْسِهِ [مِنْ جَعْلِ][2] الرَّأفَةِ والرَّحْمَةِ في قُلُوبِ المؤمِنِينَ. فلو لَمْ يَكُنْ لهُ في ذَلِكَ صُنْعٌ لَكانَ لا يُضِيفُ ذَلِكَ إلى نَفْسِهِ، وذَلِكَ الحَرْفُ حَرْفُ الحَمْدِ والمَدْحِ.

فَدَلَّ أنَّ لَهُ فيهِ صُنعاً، وهو أنْ خَلَقَ الرَّأفَةَ والرَّحْمَةَ في قلوبِ المؤمِنينَ وخَلَقَ القَساوَةَ والعَداوَةَ في قُلُوبِ أولَئِكَ الكَفَرَةِ، وباللهِ التَّوفِيقُ.

وفي الآيةِ دَلالَةُ إثْبَاتِ رِسالَةِ سَيِّدِنا مُحمدٍ ﷺ لأنَّهُ أخبَرَ أنَّهُ ألقَى ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وأخبَرَ ألا ﴿تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] وكانَ كما قالَ على عِلْمٍ مِنهُمْ أنَّهُ لا [يَزالُ][3] يَطَّلِعُ على ما في قُلُوبِهِمْ مِنَ الخِيانَةِ والقَساوَةِ وغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ. فَدَلَّ أنَّهُ باللهِ عَلِمَ ذَلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الآخِرةِ ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ في الدنيا، وهوَ قولُ ابنِ عباسٍ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية. قالَ ﷻ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ ولَمْ يَقُلْ: فلانُ بْنُ فُلانٍ لِيَعْلَمَ أنَّ الرُّسلَ، عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، لَيسُوا يُعرَفُونَ بالأسَامِي والأنسابِ، ولكنْ إنَّمَا يُعرَفُونَ بالآياتِ المُعجِزَةِ والبَراهِينِ النَّيِّرَةِ.

وفِيهِ دَليلٌ أنَّ مَنْ آمَنَ بالرُّسلِ، ولَمْ يُعرَفْ بِأسمَائِهِمْ إنَّما[4] يَكُونُ مُؤمِناً. ولَمْ يُؤخَذْ علينا مَعرِفَةُ أسامِي الرُّسلِ، إنَّما أُخِذَ عَلَينَا الإيمانُ بِهِمْ جُمْلَةً. ألا تَرى أنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَذْكُرْ في الكِتابِ الأنبياءَ والرُّسُلَ جَميعاً واحِداً فَواحِداً، ولا ذَكَرَ أسْمَاءَهُمْ؟ إنَّمَا ذَكَرَ بَعْضاً مِنْهُمْ. أفَتَرى أنَّ مَن لَمْ يَعرِفْ أسماءَهُمْ لَمْ يَكُنْ مؤمِناً؟ هذا بَعِيدٌ.

وفيهِ دَلالَةُ إثْبَاتِ رِسالَةِ سَيِّدِنا مُحمدٍ ﷺ لأنَّهُ قالَ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهُمْ إذَنْ كَتَمُوا ذَلِكَ، وأخفَوهُ [أعْنِي الرؤساءَ، فَلَمْ يُخبِرُوا واحِداً أنَّهُمْ كَتَمُوا ذَلِكَ، وأخفَوهُ][5] حتَّى يَبْلُغَ الخَبَرُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ ولا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اختَلَفَ إلى أحَدٍ مِنْهُمْ، أو أنظَرَ في كِتابِهِمْ قَطُّ لِيَعْلَمَ مَا كَتَمُوا. فَلَمَّا بَيَّنَ لهُمْ مَا قَدْ كَتَمُوا، وأخفَوا عَنِ[6] النَّاسِ، دَلَّ ذَلِكَ لَهُمْ أنَّهُ إنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ اختُلِفَ في تَأويلِهِ وقِراءَتِهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: نُبَيِّنُ بالنُونِ ونَعفُو، كَثِيراً أي اللهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَثِيراً [مِمَّا يُخفُونَ مِنَ الكِتابِ][7] ويَعفُو [اللهُ تعالى][8] عَنْ كَثِيرٍ إذا آمَنُوا، ورَجَعُوا عَمَّا كَانُوا يُخفُونَ، ويَكْتُمُونَ[9].

وقالَ آخَرُونَ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي جَميعَ ما كَانُوا يُخفُونَ، ويَعفُو عنْ جَميعِ ذَلِكَ.

وأمَّا عِندَنا فَقولُهُ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ بالياءِ أي رَسُولُ اللهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَثِيراً ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ على قَدْرِ ما أُذِنَ لَهُ البَيانُ لَهُمْ لأنَّ الرُّسُلَ إنما يأتُونَ بالبَراهِينِ والحُجَجِ على قَدْرِ ما أُذِنَ لَهُمْ مِنَ الآياتِ. ألا تَرى أنَّ سَحَرَةَ فِرْعَونَ لَمَّا ألقَوا ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤] فَصارَت حَيّاتٍ، ولَمْ يُلْقِ مُوسى عَصاهُ حتَّى أذِنَ اللهُ لَهُ في ذَلِكَ، وهُوَ قَولُهُ تعالى ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] إنَّمَا أتَى بالآيَةِ بَعدَمَا أذِنَ لَهُ بِذَلِكَ؟ فَعلى ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾ إنَّما يُبَيِّنُ على[10] قَدْرِ مَا أُذِنَ لَهُ بِالْبَيانِ والحُجَّةِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) من م، في الأصل: ولا فعل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل: ما يخفون، في م: مما كنتم تخفون. (٨) ساقطة من م. (٩) لم أعثر على هذه القراءة وقارئها.
(١٠) في الأصل وم: أن.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ مِنَ الشَّرائِعِ والأحْكَامِ، ويَحْتَمِلُ: كَتَمُوا ما في الكِتَابِ مِنْ بَعْثِ[1] مُحمدٍ ﷺ وصِفَتِهِ الكَرِيمَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ هُوَ القُرآنُ؛ سَمَّاهُ نُوراً لِمَا يُوضِحُ، ويُضِيءُ كُلَّ شيءٍ على مَا هُوَ عَلَيهِ حَقِيقَتُهُ. وعلى ذَلِكَ يَخْرُجُ قَولُهُ ﷻ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٣٥] أي بِهِ يَتَّضِحُ كُلُّ شيءٍ على ما هوَ عليهِ في الحَقِيقَةِ، وباللهِ التَّوفيقُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ يَحْتَمِلُ قَولُهُ: ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ أي اللهُ بِمُحمدٍ[2] ﷺ ويَحْتَمِلُ بِالقُرآنِ، أي يَهْدِي اللهُ ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ يَحْتَمِلُ رِضَاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: ﴿السَّلَامِ﴾ قِيلَ: هوَ اللهُ كَقَولِهِ تعالى: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ الآية [الحشر: ٢٣] أي بِهِ يَهْدِي ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ سَمَّى سُبُلاً لأنَّ سَبِيلَ اللهِ، وإنْ كَانَ كَثِيراً في الظاهِرِ فَهُوَ في الحَقِيقَةِ واحِدٌ. وسَمَّى سَبِيلَ الشَّيطَانِ سُبُلاً، وقَالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٣] لأنَّ سُبُلَهُ مُتَفَرِّقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ لَيسَتْ تَرجِعُ إلى وَاحِدٍ. وأمَّا سَبِيلُ اللهِ، وإنْ كَانَ[3] سُبُلاً في الظاهِرِ فَهِيَ[4] تَرجِعُ إلى واحِدٍ، وهُوَ الهُدَى والصِّراطُ المُسْتَقِيمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ كَفَرُوا كُفْرَ مُكَابَرَةٍ ومُعَانَدَةٍ لا كُفْرَ شُبْهَةٍ وجَهْلٍ لأنَّهُمْ أقَرُّوا أنَّهُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: إنَّهُ إلَهٌ، فإذا كَانَ هُوَ ابْنُ مَرْيَمَ، وأُمُّهُ أكْبَرُ مِنْهُ، فَمِنَ البَعِيدِ أنْ يَكُونَ مَنْ هُوَ أصغَرُ مِنْهُ إلهاً لِمَنْ هُوَ أكبَرُ مِنْهُ ورَبًّا، وإلا الكُفْرُ قَدْ يَكُونُ بِدُونِ ذَلِكَ القَولِ. لَكِنَّ التَّأويلَ هُوَ مَا ذَكَرْنا أنَّهُمْ كَفَرُوا مُعانَدَةً ومُكَابَرَةً مَعَ إقْرَارِهِمْ أنَّهُ ابْنُ مَرْيَمَ حِينَ جَعَلُوا الأصغَرَ إلهَ الأكبَرِ ورَبًّا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي لا أحَدَ يَمْلِكُ مِنْ دُونِ اللهِ شَيئاً إنْ أرادَ إهلاكَ المَسِيحِ وأُمِّهِ[5]؛ أي لو كَانَ إلهاً كما تَقُولُونَ لَكَانَ يَمْلِكُ دَفْعَ الإهْلاكِ عَنْ نَفْسِهِ وعن أُمِّهِ ومَنْ عَبَدَهُمْ[6] في الأرضِ.

وَقِيلَ: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ أنْ يَمْنَعَ ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مِنْ عَذَابِهِ ﴿أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾ بِعَذَابٍ ﴿وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بِعَذابٍ أو مَوتٍ، وهُمَا واحِدٌ.

ثُمَّ عَظَّمَ نَفْسَهُ عَنْ قَولِهِمْ، ونَزَّهَها حِينَ ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وإمَاؤُهُ، يَخْلُقُ مِنْ بَشَرٍ وغَيرِ بَشَرٍ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادِرٌ على خَلقِ الخَلْقِ مِنْ بَشَرٍ ومِنْ غَيرِ بَشَرٍ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ هَذا القَولُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الفَرِيقَينِ جَمِيعاً، ولَكِنْ مَا كَانَ مِنْ أحَدِ الفَرِيقَينِ هذا، ومِنَ الفَرِيقِ[7] الآخَرِ غَيرُهُ، وكَانَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] كَأنَّ هذا القَولَ كانَ [مِنْ][8] كُلِّ فَرِيقٍ نَفَى دُخُولَ الفَرِيقِ الآخَرِ الجَنَّةَ لا أنْ قالوا جَمِيعاً ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾.

ويَحْتَمِلُ[9] أنْ كانَ مِنَ النَّصارَى ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ لِمَا ذُكِرَ في بَعضِ القِصَّةِ أنَّ عِيسى، على نَبِيِّنا وعليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، قالَ لِقَومِهِ: «أدْعوكُمْ إلى أبي وأبيكُمْ الذي في السماءِ» فَقَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ وكانَ مِنَ اليَهُودِ [قَولُهُمْ][10]: «نحنُ أحِبَّاءُ اللهِ».

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ هذا القَولُ كُلُّهُ مِنْهُمْ[11] جَمِيعاً؛ قالَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَرِيقَينِ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

---

(١) في الأصل وم: نعت. (٢) في الأصل وم: محمد. (٣) في الأصل وم: كانت. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) أدرج في الأصل وم بعدها: الآية. (٦) في الأصل وم: عبدهما. (٧) في الأصل وم: الفريقين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: منهما.

وقيل: إنَّهُمْ قالُوا ذَلِكَ فِي المَنْزِلَةِ/ ١٢٦ ـ ب/ والقَدْرِ عِنْدَ الله تعالى؛ أي لَهُمْ عِنْدَ الله مِنَ المَنْزِلَةِ والقَدْرِ كَقَدْرِ الوَلَدِ عِنْدَ والِدِهِ ومَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ، ولا يُعَذِّبُنا. فقالَ: ﴿قُلْ﴾ يا مُحمدُ ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ إنْ كانَ ما تقُولُونَ حَقًّا، ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ حِينَ جَعَلَ القِرَدَةَ والخَنازِيرَ، ولا أحدَ مِنَ الخَلْقِ يَحتَمِلُ قلبُهُ أنْ يَكُونَ وَلَدُهُ أو صَدِيقُهُ قِرْداً أو خِنزيراً. وقالَ: لا أحدَ يَحتَمِلُ قَلبُهُ تَعْذِيبَ ولَدِهِ وحِبِّهِ بِذَنْبِهِ بالنارِ، وقَدْ أقرَرْتُمْ أنَّكُمْ تُعَذَّبُونَ في الآخِرَةِ قَدْرَ ما عَبَدَ آباؤُكُمُ العِجلَ.

ثُمّ قالَ: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي مَنِ اتَّخَذَ وَلَداً وحِبًّا [فإنما يَتَّخِذُهُ][1] مِنْ شَكْلِهِ وجِنسِهِ فَاللهُ تعالى إنَّما خلَقَكُمْ مِنْ بَشَرٍ كَغَيرِكُمْ[2] مِنَ الخَلْقِ، وأنتُمْ وهُمْ في ذَلِكَ سواءٌ، فَكَيفَ خَصَصْتُمْ أنفُسَكُمْ بِذَلِكَ؟ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] دليلٌ أنَّ مَنْ رَفَعَ أحداً مِنَ الرُّسُلِ فَوقَ قَدْرِهِ [فهو][3] في الكُفْرِ كَمَنْ حَطَّ عنْ قَدْرِهِ ومَرْتَبَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي مَنْ تابَ، وأسْلَمَ ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ مَنْ دامَ على الكُفْرِ، ومَاتَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وإماؤُهُ وخَلْقُهُ؛ يُعَظِّمُ نَفسَهُ عَنْ قولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ولا أحدَ يَتَّخِذُ عَبْدَهُ وَلَداً ولا حِبّاً، فأنتُمْ إذ أقرَرْتُمْ أنَّكُمْ عَبِيدُهُ كيفَ ادَّعَيْتُمُ البُنُوَّةَ والمَحَبَّةَ؟ واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيَةِ دَلالَةُ رِسالَةِ نَبِيِّنا مُحمدٍ ﷺ لأنَّهُمْ قالُوا قَولاً في ما بَيْنَهُمْ، ثُمَّ أخبَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ لِيُعلَمَ أنَّهُ إنَّما عَرَفَ ذَلِكَ باللهِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ ما كُنْتُمْ تَكتُمُونَ مِنْ بَعْثِهِ[4] وصِفَتِهِ، وتُحَرِّفُونَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥] ويَحتَمِلُ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ مِمّا لَكُمْ وعَلَيْكُمْ مِنَ الأحكامِ والشَّرائِعِ. ويَحتَمِلُ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ مِمّا كانَ عليهِ الأنبِياءُ والرُّسُلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ قِيلَ: انقِطاعٍ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إسرائيلَ إلى عِيسَى ﷺ لأنَّهُ قِيلَ: إنَّهُ كانَ [رسولاً على إثْرِ][5] رسولٍ، لَمْ يَكُنْ بَينَ رسُولَينِ انقِطاعٌ. فَأخبَرَ ﷻ أنَّهُ بَعَثَ مُحمداً ﷺ على حِينِ ﴿فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ لَيسَ على انقِطاعٍ مِنْهُمْ، ولكِنْ على ضَعْفِ أمُورِ الرُّسُلِ وآثارِهِمْ[6] مِنَ الفُتُورِ؛ يُقالُ: فَتَرَ يَفْتُرُ فُتُوراً. يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّما بَعَثَ الرَّسُولَ بَعْدَما دَرَسَ آثارَ الرُّسُلِ، وضَعُفَتْ[7] ووقَعَ في ما بَيْنَهُمُ اختِلافٌ لِلضَّعْفِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ما ذَكَرَ ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ يَقطَعُ احتِجاجَهُمْ بِذَلِكَ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ في الحَقِيقَةِ، وهو كما قالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وكَقولِهِ: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ﴿بَشِيرٌ﴾ بالجَنَّةِ لِمَنْ أطاعَ ﴿وَنَذِيرٌ﴾ بالنارِ لِمَنْ عَصاهُ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحتَمِلُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنْ بَعْثِ الرُّسُلِ على فَترَةٍ مِنْهُمْ وإحياءِ ما دَرَسَ مِنْ آثارِ الرُّسُلِ وما ضَعُفَ مِنْ رُسُومِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ما ذَكَرَ مِنْ بَعْثِ الرُّسُلِ والأنبِياءِ ﷺ على فَترَةٍ مِنْهُمْ. ويَحتَمِلُ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهوَ قولُهُ: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ كأنَّهُ يقُولُ: اشكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أنعَمْتُ عَلَيكُمْ مِنْ جَعْلِ الأنبِياءِ فِيكُمْ، ولَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لأُمَّةٍ[9] مِنَ الخَلْقِ، وجَعَلَكُمْ مُلُوكاً تَستَنصِرُونَ مِنَ الأعداءِ لأنَّ المُلُوكَ في بَنِي إسرائيلَ هُمُ الذينَ كانُوا يَتَوَلَّونَ القِتالَ وأمْرَ الحَرْبِ مَعَ الأعداءِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فَأخبَرَ أنَّهُ جَعَلَ فِيهِمُ الأنبِياءَ يُعَلِّمُونَهُمْ أمُورَ الدُّنيا والآخِرَةِ، ويَحتاجُ غَيرُهُمْ إلى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ؛ وإنَّما يَعْرِفُونَ ذَلِكَ بِهِمْ، وجَعَلَ فِيهِمْ مُلُوكاً يَستَنصِرُونَ مِنَ الأعداءِ، ويَقْهَرُونَهُمْ، فَيَقَرُّونَ، ويَشْرُفُونَ في الدُّنيا والآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: أن يتخذ. (٢) في الأصل وم: كغيره. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: نعته. (٥) في الأصل: رسول على إثر، في م: رسول على. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وضعف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: الآية.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَنكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ والمُلوكِ فِيهِم. ويَحتَمِلُ ما رَزَقَهُمْ في التِّيهِ مِنَ المَنِّ والسَّلوى وغيرِهما[1] مِنَ النِّعَمِ. وقِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي جَعَلَكُمْ بِحَيثُ تَمْلِكُونَ أنْفُسَكُمْ، وكُنْتُمْ قَبلَ ذَلِكَ يَستَعبِدُكُمْ فِرعَونُ، ويَتَّخِذُكُمْ خَوَلاً لِنَفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قِيلَ: قولُهُ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي كَتَبَ اللهُ عَلَيكُمْ قِتالَ أهلِ تِلكَ الأرضِ لِيُسلِمُوا، وهوَ كَقَولِهِ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣والأنفال: ٣٩] يَعْني الكُفرَ. فَعلى ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قِتالَ أهلِها لِيُسلِمُوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ أي عَلَيكُمْ، وهذا جائِزٌ في اللُّغةِ كَقَولِهِ: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيها. وقِيلَ: قولُهُ: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فَتحَها؛ أي إنْ أطَعْتُمْ أمرَ اللهِ في ما أمَرَكُمْ بِهِ، وانتَهَيتُمْ عَمّا نَهاكُمْ عَنْهُ، وأجَبْتُمْ رَسُولَهُ إلى ما دَعاكُمْ إليهِ؛ أي إذا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ يَفتَحُ اللهُ [لَكُمْ][2] تِلكَ الأرضَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى﴾ قِيلَ: الشّامُ، وقِيلَ: غَيرُها. ثُمَّ سَمّاها مَرَّةً مُقَدَّسَةً ومَرَّةً مُبارَكَةً، وهوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] بِكَثرَةِ الثِّمارِ والفَواكِهِ وسَعَةِ عَيشِها وكَثْرَةِ رَيعِها. ويَحتَمِلُ أنْ سَمّاها مُبارَكَةً لِما كانَتْ مَعْدِنَ العُبّادِ والزُّهّادِ مُنَزَّهَةً[3] عَنِ الشِّرْكِ وجَميعِ الفَواحِشِ والمَناكِيرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كِنايَةٌ عنِ الرُّجوعِ عنِ الدِّينِ وهوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤] وإنّما صارَ ذَلِكَ كِنايَةً عنِ الرُّجوعِ عَنِ الدِّينِ، واللهُ أعلَمُ، لِما ذَكَرْنا في أحَدِ التّأويلَينِ أنَّهُ كتبَ عليهِمْ قِتالَ أهلِ تِلكَ الأرضِ، فَتَرَكُوا أمْرَ اللهِ وطاعَتَهُ. ويَحتَمِلُ أنْ وَعَدَ اللهُ لَهُمْ فَتحَ تِلكَ الأرضِ، فلَمْ يُصَدِّقُوا رَسُولَهُ في ما أخبَرَ عَنِ اللهِ مِنَ الفَتحِ لَهُمْ، فَكَفَرُوا بِذَلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾. يَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُمْ في الآخِرَةِ، ويَحتَمِلُ في الدُّنيا مُنْهَزِمِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ لا تَرجِعُوا وَراءَكُمْ، ولكنِ ادْخُلُوها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لَمّا رَأوا فِرعَونَ مَعَ قَومِهِ وكَثْرَةِ جُنُودِهِ مَعَ ادِّعاءِ ما ادَّعَى مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ لِنَفسِهِ لَمْ يَقدِرْ على فَتحِ تِلكَ الأرضِ، وعَجَزَ عن غَلَبَةِ أهلِها وقَهرِهِمْ وجَعلِهِمْ تَحتَ يَدَيهِ رَأوا هؤلاءِ أنَّهُمْ[4] لا يَقدِرُونَ على ذَلِكَ مَعَ ضَعفِهِمْ في أنْفُسِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وقُصُورِ أسبابِهِمْ؛ لِذَلِكَ امْتَنَعُوا عنِ الدُّخولِ فيها إلا بَعْدَ خُرُوجِ مَنْ فِيها مِنَ الجَبّارِينَ عنها خَوفاً مِنْهُمْ على أنْفُسِهِمْ. لَكِنَّ مُوسَى عليه السلام كانَ وَعَدَ لَهُمُ الفَتحَ والنُّصْرَةَ مَعَ ضَعفِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ إذا دَخَلُوا فيها.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ اختُلِفَ في الرَّجُلَينِ اللَّذَينِ قالا ذَلِكَ لَهُمْ؛ [قالَ][5] قائِلُونَ: كانَ ذَلِكَ الرَّجُلانِ مِنْ أولَئِكَ الذينَ بَعَثَهُمْ مُوسَى، على نَبِيِّنا وعليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، إلى أهلِ تِلكَ الأرضِ، وأمَرَهُمْ بِالدُّخولِ فِيها، وهُما مِمَّنْ قَدْ ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ مِن تَصديقِ ما وَعَدَ لَهُمْ مُوسَى مِنَ الفَتحِ والنُّصْرَةِ، فَقالا: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ صَدَّقا[6] مُوسَى بِما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الفَتحِ، وقالَ قائِلُونَ: كانَ ذَلِكَ الرَّجُلانِ اللَّذانِ قالا ذَلِكَ لَهُمْ هُما/ ١٢٧ ـ أ/ مِنْ أهلِ تِلكَ الأرضِ؛ لأنَّهُمْ إذا سَمِعُوا أنَّ مُوسَى قَصَدَ نَحوَهُمْ خافُوا مِنْ ذَلِكَ. فَذَلِكَ مَعْنى قَولِهِ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ مِنَ الإسلامِ، فقالا: ﴿ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ لِما عَلِمُوا مِنْ خَوفِ أهلِها مِنْ مُوسَى ومَنْ مَعَهُ وفَزَعِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مُصَدِّقِينَ بِوَعْدِ مُوسَى بِالفَتحِ لَكُمْ والنَّصْرِ. ويَحتَمِلُ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنَّ كُلَّ مَنْ تَوَكَّلَ على اللهِ، ووَثِقَ [بِهِ][7] نَصَرَهُ اللهُ، وجَعَلَهُ غالِباً على عَدُوِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وغيره. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: منزه. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: صدقوا. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ كأنَّ المُرادَ مِنَ البابِ لَيسَ نَفسَ البابِ ولكنْ جِهةٌ مِنَ الجِهاتِ التي يَكُونُ الدُّخولُ عَلَيهِمْ مِن تِلْكَ الجِهَةِ أوْفَقَ وأهْوَنَ؛ كأنَّهُ قالَ ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ﴾ جِهَةَ كذا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ مَنْ تَعَرَّضَ لِرَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ بِمِثْلِ ما[1] تَعَرَّضَ هؤلاءِ لِمُوسَى ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ يَكفُرُ لأنَّ مُوسَى ﷺ قَدْ وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ والفَتْحَ إذا دَخلُوهَا، فقالُوا ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ لَمْ يُصَدِّقُوا مُوسَى ﷺ في ما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الفَتْحِ. ومَنْ كَذَّبَ رَسُولاً مِنَ الرُّسُلِ بِشيءٍ يُخبِرُ فَهُوَ كافِرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ الآية. دَلَّ قولُهُ تعالى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ على أنَّ المُرادَ بِالدُّخولِ فِيهَا أمْرٌ بِالقِتالِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ قِيلَ في قولِهُ تعالى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ مِنْ وَجْهَينِ:

[أحَدُهُمَا][2]: قِيلَ: اذهَبْ أنْتَ ورَبُّكَ فَقَاتِلْ وَحْدَكَ، ولْيُعِنْكَ[3] رَبُّكَ ويَنْصُرْكَ، لأنَّكَ تَقُولُ: إنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَكَ فَتْحَهَا والنَّصرَ عليهِمْ، فَالوَاحِدُ والجَمَاعَةُ فِيهَا سَوَاءٌ إذا كانَ[4] اللهُ نَاصِرَكَ ومُعِينَكَ.

والثاني: اذهَبْ أنْتَ وأخُوكَ بِرَبِّكَ فَقَاتِلا لأنَّهُمَا كَانَا جَمِيعاً مَأمُورِينَ بِتَبْلِيغِ الرِسالَةِ لأنَّهُمَا إذا قَاتَلا إنَّمَا قَاتَلا بِرَبِّهِمَا. وتَجُوزُ الإضَافَةُ إلَيهِ والنِّسْبَةُ إلَيهِ لِمَا كَانَ يُفْعَلُ بِهِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] هُمُ المُبَاشِرُونَ لِلْقَتْلِ والرَّمْيِ في الحَقِيقَةِ، لكنهُ أُضِيفَ إلَيهِ بِنَصْرِهِ ومَعُونَتِهِ قَتَلُوا ورَمَوا. فَعَلَى ذَلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ، أُضِيفَ إلَيهِ لِمَا بِمَعُونَتِهِ ونَصْرِهِ يُقَاتِلُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ أي لَيسَ يُرِيدُ بِهِ القُعُودَ نَفْسَهُ، ولَكِنْ، واللهُ أعْلَمُ، إنَّا هَهُنَا مُنْتَظِرُونَ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ الآية؛ يَحْتَمِلُ ﴿إِنِّى لَآ أَمْلِكُ﴾ في الإجَابَةِ والطَّاعَةِ لَكَ إلّا نَفْسِي وأخِي، وأخِي أيضاً لِمَا عَرَفْتُ بِالعِصْمَةِ التي أعْطَيتَ لَهُ أنْ يُجِيبَنِي، ويُطِيعَنِي في ذَلِكَ. وأمَّا هَؤلاءِ فَإنِّي لا أمْلِكُ إجابَتَهُمْ ولا طَاعَتَهُمْ ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

ويَحْتَمِلُ[5] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى﴾ وأخِي أيضاً لا يَمْلِكُ إلا نَفْسَهُ، وعلى الإضْمَارِ لأنَّهُمَا كَانَا جَمِيعاً رَسُولَينِ مَأمُورَينِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ الآية [طه: ٤٤].

وقولُهُ تعالى ﷻ: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ قالَ قائِلُونَ: إنَّما طَلَبَ مُوسَى، ﷺ، الفُرْقَةَ [بَيْنَهُ][6] وبَينَ الذينَ أبَوُا الدُّخولَ فِيهَا، وقالُوا ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ وقالَ قائِلُونَ: إنَّما طَلَبَ مُوسَى ﷺ الفُرْقَةَ بَيْنَهُمْ وبَينَ الجَبَابِرَةِ الذينَ كانُوا في الأرضِ التي أُمِرُوا بِالدُّخولِ فِيهَا والقِتالِ مَعَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ﴾ الآية، قولُهُ تعالى: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِنَ الحِرْمَانِ والمَنْعِ هوَ، واللهُ أعْلَمُ، لَيسَ على التَّحْريمِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] لَيسَ هُوَ مِنَ التَّحْريمِ الذي هُوَ تَحْريمُ حُكْمٍ، ولكنْ مِنَ المَنْعِ والحِرْمَانِ. فعلى ذَلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ قائِلُونَ ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أبداً، لَمْ يَدْخُلُوهَا حتَّى مَاتُوا، لكنْ وُلِدَ لَهُمْ أولادٌ، فَلَمَّا ماتُوا دَخَلَ أولادُهُمْ لأنَّهُمْ قالُوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾. وقالَ قائِلُونَ: قولُهُ تعالى ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي[7] التَّوبَةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِمْ؛ لَنْ يَتُوبُوا أبَداً، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فَالمُدَّةُ هُنا لِلتِّيهِ، واللهُ أعْلَمُ، لا لِقَولِهِ تعالى: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: هذا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وليعينك. (٤) من م، في الأصل: كانت. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: أو.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في التِّيهِ: قالَ قائِلُونَ: لَمْ يَكُنْ مُوسَى وهَارُونُ عليهما السلام مَعَهُمْ في التِّيهِ لأنَّ ذَلِكَ لَهُمْ مِنَ اللهِ كَانَ عُقُوبَةً، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ اللهُ تعالى ﷻ يُعَذِّبُ رَسُولَهُ بِذَنْبِ قَوْمِهِ لأنَّهُ لَمْ يُعَذِّبْ قوماً[1] بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ قَطُّ إلا بَعْدَ مَا أَخْرَجَ الرَّسُولَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ. فَعَلى ذَلِكَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ مُوسَى يُعَذَّبُ بِعِصْيانِ قَوْمِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ آخَرُونَ: كانَ مُوسَى مَعَهُمْ في[2] الأرضِ مُقِيماً، فِيهَا ولَكِنَّ الحَيْرَةَ والتِّيهَ كانَتْ لِقَوْمِهِ؛ قِيلَ: كانُوا يَرْتَحِلُونَ، ثُمَّ يَنْزِلُونَ مِنْ [حيثُ][3] أصْبَحُوا أرْبَعِينَ سَنَةً، وكانَ مأواهُمْ [والحَجَرُ][4] الذي كانَ مع مُوسَى، كانَ[5] إذا نَزَلَ ضَرَبَهُ مُوسَى بِعَصاهُ ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] لِكُلِّ سِبْطٍ عَيْنٌ، ولَمْ يَكُنْ حَلَّ [بِمُوسَى ما كَانَ حَلَّ][6] بِقَوْمِهِ قَلِيلٌ ولا كَثِيرٌ. إنَّمَا أُمِرَ بِالمُقَامِ فِيهَا مِنْ غَيرِ أنْ كانَ بِهِ حَيرةٌ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ﴾ وقالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: لَمْ يَكُونَا ابْنَي آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ، ولكنْ كَانَا رَجُلَينِ مِنْ بَني إسْرائِيلَ ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ﴾ قُرْبَانُ أحدِهِمَا ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ وقَدْ[7] نَسَبَهُمَا إلى آدَمَ لأنَّ كلَّ البشرِ وُلْدُ آدَمَ يُنْسَبُ إلَيهِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦و...] افْعَلُوا كَذا، ولا تَفْعَلُوا كَذا؛ لَيسَ يُرِيدُ بِهِ ولدَ آدمَ لِصُلْبِهِ [ولكِنَّهُ يُرِيدُ][8] البَشَرَ كُلَّهُ. فَعَلى ذَلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

وأمَّا ابْنُ عباسٍ والكَلْبِيُّ وغَيرُهُما مِنْ أهْلِ التَّأويلِ فإنَّهُمْ قالوا: إنَّهُمَا كَانَا ابْنَي آدَمَ لِصُلْبِهِ؛ أحَدُهُمَا يُسَمَّى قابيلَ والآخَرُ هابيلَ، وكانَ لِكُلِّ واحِدٍ أُخْتٌ وُلِدَتْ معهُ في بَطنٍ واحِدٍ، وكانَتْ إحداهما جميلةً والأخرى دَميمةً، فأرادَ كلُّ واحِدٍ منهما نِكاحَ الجميلةِ منهما، فتنازَعا في ذلك، فَقالَ أحَدُهُمَا لِصاحِبِهِ: تَعالَ نُقَرِّبْ قُرْبَاناً، فإنْ تُقُبِّلَ قُرْبَانُكَ فأنتَ أحَقُّ بِهَا، وإنْ تُقُبِّلَ قُرْبَاني فَأنَا أحَقُّ بِهَا، فقرَّبَا قُرْبَانَهُما، فَقُبِلَ قُرْبَانُ قَابِيلَ، فَحَسَدَهُ، فَهَمَّ أنْ يَقْتُلَهُ. فَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ولـكـنْ لا نـدري كـيـفَ كـانـتِ [القِصَّةُ][9]؟ وفِيمَ كانتْ؟ وكانَا ابْنَي آدَمَ لِصُلْبِهِ أو لَمْ يَكُونا؟ وليسَ لنَا إلى مَعْرِفَةِ هَذا حَاجَةٌ إنَّمَا الحَاجَةُ في هَذا إلى مَعْرِفَةِ مَا فِيهِ مِنَ الحِكْمَةِ والعِلْمِ لِنَعْلَمَ ذَلِكَ، وَنَعْمَلَ بِهِ. فَهُوَ، واللهُ أعْلَمُ، مَا ذَكَرَ ﷻ في مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥] وقولِهِ[10]: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] لِتَعْلَمُوا أنَّهُ إنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ بِاللهِ لا بِأحَدٍ مِنَ البَشَرِ لأنَّهُ إنَّمَا بُعِثَ عِنْدَ دُرُوسِ آثارِ الرُّسُلِ وانْقِطاعِ العُلُومِ، فَبَيَّنَ لَكُمْ[11] واحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ.

فَفِيهِ دَليلُ إثْبَاتِ رِسالَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وسُورَةُ المائِدَةِ كَانَ أكْثَرُهَا نَزَلَ[12] في مُخَاطَبَةِ أهْلِ الكِتَابِ لأنَّهُ يَقُولُ في غَيرِ مَـوْضِـعٍ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الآيـة: ١٥] ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[13] [الآية: ١٩] يَدْعُوهُمْ إلى الإيمَانِ بِالرُّسُلِ. ونَزَلَتْ[14] سُورَةُ الأنْعَامِ في مُخَاطَبَةِ أهْلِ الشِّرْكِ لأنَّ فِيهَا دُعَاءً إلى التَّوحِيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ المَعْلُومِ المَعْرُوفِ على مَا كَانُوا لِيَعْلَمُوا أنَّهُ بِاللهِ عَلِمَ، وأنَّهُ عِلْمٌ سَمَاوِيٌّ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هَذا يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قُرْبَانَ مَنِ اتَّقَى، لا يَتَقَبَّلُ مَنْ لَمْ يَتَّقِ. وإلى هَذا يَذْهَبُ الحَسَنُ، ويَقُولُ[15]: كَانَا رَجُلَينِ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ؛ أحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ والآخَرُ مُنَافِقٌ، فَتَنَازَعا فِي شَيءٍ، فَقَرَّبَا لِيُعْلَمَ المُحِقُّ مِنْهُمَا، فَتُقُبِّلَ مِنَ المُؤْمِنِ/ ١٢٧ ـ ب/ ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ.

---

(١) في الأصل وم: قوم. (٢) من م، في الأصل: تلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: في الحجر. (٥) في الأصل وم: فكان. (٦) في الأصل: حل بموسى بما كان حل، ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: وإن. (٨) في الأصل وم: ولكن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: لهم. (١٢) في الأصل وم: نزلت. (١٣) أدرج قبل الآية في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: نزل. (١٥) في الأصل وم: وقال.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: كَانَا رَجُلَيْنِ مُصَدِّقَيْنِ لأنَّ الكَافِرَ لا يُقَرِّبُ القُرْبَانَ، لَكِنَّ أحَدَهما كانَ أتقى قَلْباً، فَتُقُبِّلَ قُرْبانُهُ، والتَّقوى شَرْطٌ في قَبُولِ القَرابِينِ وغيرِها مِنَ القُرَبِ، كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والكَافِرُ لا يُقَرِّبُ القُرْبانَ. يُقالُ: قَدْ تَقَرَّبَ لِمَا يَدَّعِي مِنَ الدِّينِ أنَّ الذي هُوَ حَقٌّ عليهِ، لِيَظْهَرَ المُحِقُّ مِنْهُمْ. ألا تَرَى أنَّهُمْ يَدَّعُونَ أنَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أحَقُّ بالرِّسَالَةِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وغيرِ ذَلِكَ مِنْ أبَاطِيلَ قَالُوهَا؟ وباللهِ التَّوفِيقُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إنَّ الوَاجِبَ علينا أنْ نَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِ أولَئِكَ، لا يَنْبَغِي لِمَنْ أرَادَ أحَدٌ قَتْلَهُ أنْ يَقْتُلَهُ، ولَكِنْ يَمْتَنِعُ[١] عَنْ ذَلِكَ على مَا امْتَنَعَ أحَدُ ابْنَي آدَمَ حِينَ[٢] قالَ لَهُ: لأَقْتُلَنَّكَ فَقَالَ لَهُ الآخَرُ: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ واحْتَجُّوا فِي ذَلِكَ بِأخْبَارٍ رُوِيَتْ: رُوِيَ عَنْ أبِي مُوسَى الأشْعَرِيِّ [أنَّهُ قَالَ][٣]: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إذَا تَوَجَّهَ المُسْلِمَانِ بِسَيْفِهِمَا، فَقَتَلَ أحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَهُمَا فِي النَّارِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ: [هذا القاتلُ، فما بالُ][٤] المَقْتُولِ؟ فَقَالَ: إنَّهُ أرَادَ أنْ يَقْتُلَ صَاحِبَهُ» [ابن ماجه: ٣٩٦٤].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ [أنَّهُ][٥] قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَكُونَ عَبْدَ اللهِ، ولا تَقْتُلَ أحَداً مِنْ أهْلِ القِبْلَةِ فَافْعَلْ» [أحمد ٥/ ٢٩٢].

وعَنِ الحَسَنِ ﷺ [أنَّهُ][٦] قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ ابْنَي آدَمَ ضَرَبَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلاً فَخُذُوا بِالخَيرِ مِنْهُمَا» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٦/ ١٩٩].

وعنْ أبِي ذَرٍّ ﷺ [أنَّهُ][٧] قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيفَ تَصْنَعُ يا أبَا ذَرٍّ إذا كَانَ بِالمَدِينَةِ قَتْلٌ بِغَيرِ حِجَارَةٍ؟ قالَ: قُلْتُ: ألْبِسُ سِلاحِي، قال: شَارَكْتَ القَومَ إذَنْ، قالَ: قُلْتُ: كَيفَ أصْنَعُ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: إنْ خَشِيتَ أنْ يَبْهَرَكَ شُعَاعُ السَّيفِ فَألْقِ نَاحِيَةَ ثَوبِكَ على وَجْهِكَ حَتَّى يَبُوءَ بِإثْمِكَ وإثْمِهِ» [أبو داوود: ٤٢٦١]. يَحْتَجُّونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الأخْبَارِ.

وقالَ آخَرُونَ: لَهُ أنْ يُقَاتِلَ إذا لَمْ يَتَّعِظْ صاحِبُهُ باللهِ، وأرَادَ قَتْلَهُ، فَهُوَ فِي سَعَةٍ مِنْ قَتْلِ مَنْ يُرِيدُ أنْ يَبْتَدِئَهُ بالقَتْلِ اسْتِدْلالاً بِمَا أمَرَ اللهُ تعالى بِقِتَالِ أهْلِ البَغْيِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] فَصارَ الحُكْمُ في أُمَّتِنَا مَا أمَرَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ قِتَالِ البُغَاةِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. على أنَّ قِتَالَ المُشْرِكِينَ كَانَ مَحْظُوراً في أوَّلِ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وقَبْلَ ذَلِكَ بِأوْقَاتٍ. وقَالُوا: فَغَيرُ مُنْكَرٍ أنْ يَكُونَ الوَقْتُ الذي ذَكَرَهُ اللهُ في هَذِهِ الآيَةِ كَانَ قِتَالُ المُشْرِكِينَ، وتَجْرِيدُ السَّيفِ فِيهِ مَحْظُوراً، فَأذِنَ اللهُ في قِتَالِهِمْ وقِتَالِ أهْلِ البَغْيِ، فَصارَ الحُكْمُ في أُمَّتِنا مَا أمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ قِتَالِ البُغَاةِ والمُشْرِكِينَ، واللهُ أعْلَمُ.

وأمَّا مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنَ الأخْبَارِ التي رُوِيَتْ مِنِ اقْتِتَالِ المُسْلِمِينَ وأشْبَاهِهَا فَإنَّ ذَلِكَ، واللهُ أعْلَمُ، مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنَ الأخْبَارِ التي رُوِيتْ في حَالِ الفِتَنِ وقِتَالِ الفِئَتَينِ اللَّتَينِ لا إمَامَ فِيهِمَا يَسْتَحِقُّ الإمَامَةَ لِحَمِيَّةٍ أو أمْرِ جَاهِلِيَّةٍ أو عَصَبِيَّةٍ، فَهُمَا على خَطَإٍ. فَالصَّوابُ في مِثْلِهِ مَا ذُكِرَ مِنَ الأخْبَارِ.

وأمَّا إذا كَانَ لِلنَّاسِ إمَامُ هُدًى، فَعَقَدُوا[٨] لَهُ البَيْعَةَ، فَخَرَجَتْ عليهِ خَارِجَةٌ ظَالِمَةٌ، فَقِتَالُهُمْ واجِبٌ اتِّبَاعاً لِعَلِيٍّ ﷺ ومَنْ حَارَبَ مَعَهُ مِنْ أصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ أهْلَ البَغْيِ والخَوَارِجَ، فَهُوَ كَانَ لإجْمَاعٍ لأنَّ جَمِيعَ الطَوائِفِ قَدْ حَارَبُوهُمْ. ورُوِيَتْ في ذَلِكَ آثَارٌ كَثِيرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلى هَذا يَذْهَبُ مَنْ رَأَى قَتْلَ مَنْ يَهُمُّ بِهِ قِبَلَهُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ أنْ تَرْجِعَ ﴿بِإِثْمِى﴾ بِقَتْلِكَ إيَّايَ ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي عَمِلْتَهُ قَبْلَ قَتْلِي [إيَّاكَ][٩].

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿بِإِثْمِى﴾ أنْ تَقْتُلَنِي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ مَا أضْمَرْتَ فِي نَفْسِكَ مِنَ الحَسَدِ والعَدَاوةِ. وقالَ الحَسَنُ: تَرْجِعُ ﴿بِإِثْمِى﴾

---

(١) في الأصل وم: يمنع. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أرأيت. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فقد عقدوا. (٩) ساقطة من الأصل وم.

بِقَتْلِكَ إِيَّايَ ﴿وَإِثْمِكَ﴾ يَعْنِي الكُفرَ الذي كَانَ عَلَيهِ، لأنَّهُ يَقُولُ: كانَ أحَدُهُمَا كَافِراً، فَقَتَلَ صَاحِبَهُ، فَيَرْجِعُ بِالكُفرِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يَجُوزُ أنْ يُتَكَلَّمَ بالإرادَةِ على غَيرِ تَحْقِيقِ الفِعْلِ كَقَولِ القائِلِ: أُرِيدُ أنْ أسْقُطَ مِنَ السَّطْحِ، وهُوَ لا يُرِيدُ سُقُوطَهُ مِنْهُ، وكَقَولِهِ تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] والجِدارُ لا فِعلَ لَهُ. فإذا جَازَتْ إضَافَةُ الإرَادَةِ إلى مَنْ لا فِعلَ لَهُ، يَكُونُ مِنْهُ، دَلَّ أنَّهُ لَيسَ على حَقِيقَةِ الفِعْلِ، ولكنْ على مَا يَقَعُ أنَّهُ يَكُونُ كَذَلِكَ، ويُؤولُ أمْرُهُ إلى ذَلِكَ، أو أرادَ أنْ يَبُوءَ بِإثْمِهِ لِمَا عَلِمَ مِنْهُ أنْ يَقْتُلَهُ، لا مَحَالَةَ، ويَعْصِيَ رَبَّهُ، أرادَ أنْ يَبُوءَ بِإثْمِهِ. وذَلِكَ جائِزٌ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: أي شَايَعَتْهُ، وانْقَادَتْ لَهُ. وقالَ أبُو عَوسَجَةَ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾ أي أمَرَتْ، وزَيَّنَتْ لَهُ. وقالَ مُجاهِدٌ: أي شَجَّعَتْهُ، وأعانَتْهُ، وكُلُّهُ يَرْجِعُ إلى وَاحِدٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ أصْبَحَ تَائِباً لأنَّ النَّدَامَةَ تَوبَةٌ؛ وذَلِكَ أنَّ مَنْ أذنَبَ ذَنْباً، فَنَدِمَ عليهِ، كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ تَوبَةً. فإنْ لم يَكُنْ تَوبَةً فَتَأوُّلُ قولِهِ: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي يُصْبِحُ في الآخِرَةِ ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، وهُوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي يَقُولُ في الآخِرَةِ، لا أنْ قالَ لَهُ. فَعَلى ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ في الآخِرَةِ، واللهُ أعْلَمُ، ويُصْبِحُ مِنَ الخَاسِرِينَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ اسْتَدَلَّ مَنْ قالَ: بأنَّ القِصَّةَ كَانَتْ في ابْنَي آدَمَ لِصُلْبِهِ بِقَولِهِ[2] تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ لأنَّ القِصَّةَ لو كانَتْ في بَنِي إسْرَائِيلَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْهَلَ دَفْنَ المَيِّتِ، إذ قَدْ رَأى ذَلِكَ غَيرَ مَرَّةٍ، وعايَنَهُ، فَدَلَّ أنَّهُ كانَ في أوَّلِ مَيِّتٍ جُعِلَتِ[3] السُّنَّةُ فِيهِ.

وقالَ مَنْ قالَ: إنَّهُمَا كَانَا رَجُلَينِ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ؛ إذْ قَدْ يَجُوزُ أنْ يَخْفَى على المَرْءِ شَيءٌ عَلِمَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وعَايَنَهُ، إذا اشْتَدَّ بِهِ الخَوفُ، ونَزَلَ بِهِ الهَولُ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [الآية: ١٠٩] وقَدْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ بِذَلِكَ، لكنْ ذَهَبَ عَنْهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في مَا أخْبَرَ عَنْ بَحْثِ التُّرَابِ في الأرضِ؛ قالَ الحَسَنُ ﷺ: يَبْحَثُ التراب على ذَلِكَ المَيِّتِ لِيُرِيَ ذَلِكَ القَاتِلَ، لا أنَّهُ كانَ يَبْحَثُ التُّرَابَ على غُرَابٍ آخَرَ على مَا ذَكَرْنَا في القِصَّةِ أنَّ غُراباً قَتَلَ آخَرَ، ثُمَّ جَعَلَ يَبْحَثُ التُّرَابَ عَلَيهِ لأنَّهُ ذَكَرَ السَّوأةَ، ولَيسَ لِلغُرَابِ سَوأةٌ، والسَّوأةُ العَورَةُ، لَكِنَّهُ لِيُرِيَهُ كَيفَ يُوارِي سَوأةَ أخِيهِ[4] [لَم يَذكُرِ السَّوأةَ في الغُرَابِ، إنَّما ذَكَرَها في أخِيهِ، وأخْبَرَ أنَّهُ يُرِيدُ أنْ [يُرِيَهُ][5] كَيفَ يُوارِي سَوأتَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ [فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾][6] ﴿أَعَجَزْتُ﴾ في الحِيلَةِ ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾؟

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ الآية، يَحْتَمِلُ وجُوهاً: يَحْتَمِلُ: أنَّ[7] مَنِ اسْتَحَلَّ قَتْلَ نَفْسٍ حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا بِغَيرِ حَقٍّ فَكَأنَّمَا اسْتَحَلَّ قَتْلَ النَّاسِ جَمِيعاً لأنَّهُ باسْتِحْلالِ قَتْلِ نَفْسٍ مُحَرَّمٍ قَتْلُها، فَكَانَ كاسْتِحْلالِ قَتْلِ النَّاسِ جميعاً لأنَّ [مَنْ يَكْفُرْ بِآيَةٍ][8] مِنْ كِتابِ اللهِ يَصِيرُ كَافِراً بالكُلِّ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ: إذا اسْتَحَلَّ قَتْلَ نَفْسٍ مُحَرَّمَةٍ يَصِيرُ كَأنَّهُ اسْتَحَلَّ قَتْلَ الأنْفُسِ كُلِّهَا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ هَذا في أوَّلِ قَتِيلٍ قُتِلَ لَمْ يَكُنْ [قُتِلَ][9] قَبلَ ذَلِكَ أحَدٌ فَلَمَّا قَتَلَ هذا قَتِيلاً جَعَلَ النَّاسَ يَقْتُلُونَ بَعْدَ

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: يقول. (٣) في الأصل وم: جهل. (٤) في م: أخي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م. (٧) من م، في الأصل: أي. (٨) في الأصل وم: يكفر بآياته. (٩) ساقطة من الأصل وم.

ذَلِكَ/ ١٢٨ ـ أ/ بَعْضَهُمْ بَعْضاً، وكانَ ذَلِكَ واحداً. وكانَ مِنْهُ سُنَّةٌ اسْتَنَّ النَّاسُ بها. فَهُوَ كَمَا رُوِيَ في الخَبَرِ أَنَّ «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُهَا ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يَومِ القِيامَةِ مِنْ غَيرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ وِزْرِهِمْ شَيْئاً، لِيَشْتَرِكَ هذا القاتِلُ في وِزْرِ قَتْلِ كُلِّ قَتِيلٍ إلى يَومِ القِيامَةِ بِغَيرِ حَقٍّ» [أحمد ٤ : ٣٦١]. وتَحْتَمِلُ الآيةُ وَجْهاً آخَرَ؛ وهُوَ ما قِيلَ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيهِ مِنَ القَتْلِ مِثْلُ ما أَنَّهُ لو قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أعطاهُ [اللهُ][2] مِنَ الأجرِ مِثْلَ مَا لَو أَنَّهُ أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً إذا أحْيَاهَا فَلَمْ يَقْتُلْهَا، وعَفَا عَنْهَا.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ][3] قالَ: ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ [أحدِ][4] ابْنَي آدَمَ حِينَ قَتَلَ أخاهُ ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بِلا نَفْسٍ وَجَبَ عَلَيهَا القِصَاصُ ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: الشِّرْكُ في الأرضِ ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقولُ: يُعَذَّبُ عَلَيهَا كَمَا لَو أَنَّهُ لو قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً بِهَا[5]، وهُوَ مِثْلُ الأوَّلِ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ [أَنَّهُ قَرَأَ][6]: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الآية، وقالَ[7]: لو لَمْ يَكُنْ يُؤْخَذُ في بَنِي إسْرائيلَ أَرْشٌ إنَّمَا كانَ قِصَاصاً بِقِصَاصٍ، يَقُولُ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي مِن اسْتَنْقَذَ [نَفْساً][8] مِنْ مَهْلَكَةٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَنْقَذَ النَّاسَ جَمِيعاً في الآخِرَةِ. وقِيلَ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بِالعَفْوِ أُجِرَ في إحْيائِهَا كَمَا يُؤْجَرُ مَنْ أحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً؛ إذْ على النَّاسِ مَعُونَةُ ذَلِكَ. فَإذا عَفَا عَنْهَا فَكَأَنَّمَا عَفَا [عَنِ][9] النَّاسِ جَمِيعاً.

قالَ الحَسَنُ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ في الأجرِ، أَمَا واللهِ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْيِيَهَا إذا جاءَ أجَلُهَا؟ ولكِنَّهُ أُقِيدَ فَعَفَا.

ووَجْهٌ آخَرُ: أَنَّهُ يُلْزِمُ النَّاسَ جَمِيعاً دَفْعَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ ومَعُونَتَهُ لَهُ. فإذا قَتَلَهَا بِهَا[10] أو سَعَى عَلَيهَا بِالفَسادِ فَكَأَنَّمَا سَعَى بِذَلِكَ على النَّاسِ كَافَّةً. فَعَلَى ذَلِكَ مَنْ أحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في الآيةِ قِلَّةُ تَصَبُّرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ على تَكْذِيبِ الكَفَرَةِ الفَجَرَةِ إيَّاهُ، وأَنَّهُ لَيسَ بِأَوَّلِ مُكَذَّبٍ في الحَقِّ، بَلْ كانَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلُ يُكَذَّبُونَ في ما يَأْتُونَ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ والبَيانِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية، قالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ نَزَلَتْ في أهْلِ الكُفْرِ وبَيانِ الحُكْمِ فِيهِمْ، وهُوَ قَولُ الحَسَنِ وأَبِي بَكْرٍ الأصَمِّ، وقالا: لِأَنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ مُحَارَبَةَ اللهِ ورَسُولِهِ، وذَكَرَ السَّعْيَ في الأرضِ بِالفَسادِ. وكُلُّ كافِرٍ قَدْ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ، وذَكَرَ السَّعْيَ في الأرضِ بِالفَسادِ، فَلِلإمامِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ بِأَيِّ أنْواعِ القَتْلِ شاءَ مَا دامَ الحَرْبُ في مَا بَيْنَهُمْ قائِماً. فَإذا أَثْخَنُوا في الأرضِ بِتَرْكِ ذَلِكَ يَمُنُّ عَلَيهِمْ إنْ شاءَ. وأمَّا المُسْلِمُ إذا قَطَعَ الطَّرِيقَ، فَإِنَّهُ لا يُقالُ: إِنَّهُ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ. فَدَلَّ أَنَّهَا نَزَلَتْ في أهْلِ الكُفْرِ لِلْكُفْرِ لا لِقَطْعِ الطَّرِيقِ.

وقالَ آخَرُونَ: نَزَلَتْ في المُشْرِكِينَ إذا قَطَعُوا الطَّرِيقَ على النَّاسِ، وأخافُوهُمْ «ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَباسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ][11] قالَ: وادَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أبا بُرْدَةَ هِلالَ بْنَ عُوَيْمِرٍ الأسْلَمِيَّ فَجاءَ أُناسٌ يُرِيدُونَ الإسْلامَ، فَقَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَيهِمْ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ على رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالحَدِّ فِيهِمْ: أَنَّ مَنْ قَتَلَ، ولَمْ يَأْخُذِ المالَ، قُتِلَ، ومَنْ أخَذَ المالَ، ولَمْ يَقْتُلْ، قُطِعَتْ يَدُهُ ورِجْلُهُ مِنْ خِلافٍ، ومَنْ جاءَ مُسْلِماً هَدَمَ[12] بِالإسْلامِ مَا كانَ في الشِّرْكِ» [القرطبي ٣/ ٢٦٦] فَدَلَّ حَدِيثُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه على أَنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في المُوادِعِينَ غَيرِ المُحارِبِينَ.

ورُوِيَ عَنْ أنَسٍ [أَنَّهُ][13] قالَ: «إِنَّ أُناساً[14] مِنْ عُكْلٍ أو عُرَيْنَةَ أَتَوا النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَوا إلَيهِ الجَهْدَ، فَبَعَثَ مَعَهُمْ بِلِقاحٍ ورَاعٍ، وقالَ لَهُمْ: اشْرَبُوا أَلْبَانَها، وتَدَاوَوا بِأَبْوالِهَا، فَلَمَّا أَنْ صَحُّوا [قَتَلُوا][15] رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ واسْتاقُوا الإبِلَ، وارْتَدُّوا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لهم. (٦) في الأصل وم: وقرأ. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في م: عدم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أناس. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

عَنِ الإسلام، فَبَعَثَ في آثارِهِمْ، فأتى بِهِمْ بَعْدَ مَا تَرَجَّلَ بِهِمُ النَّهارُ، فأمَرَ بِهِمْ، فَقُطِعَتْ أيديهِمْ وأرجُلُهُمْ، وسُمِلَتْ[1] أعْيُنُهُمْ، وقُطِعَتْ[2] ألْسِنَتُهُمْ، وتُرِكُوا بِالمَكانِ حتّى مَاتُوا، فَنَزَلَتِ الآيَةُ». [البخاري: ٢٣٣].

ورُوِيَ عنْ عَليٍّ ﷺ مَا يُخالِفُ هذا؛ رُوِيَ أنَّ حارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ، وسَعَى في الأرضِ فَسَاداً، وتَابَ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ، فَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ إلى عَامِلِهِ بِالبَصْرَةِ أنَّ حارِثَةَ [بْنَ بَدْرٍ][3] قَدْ تَابَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ، فلا تَتَعَرَّضْ لَهُ إلا بِالخَيرِ.

الا تَرَى أنَّ حارِثَةَ [بْنَ بَدْرٍ][4] قَدْ تَابَ، أُطْلِقَ فِيهِ أنَّهُ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ ﷺ وكَانَ مُؤْمِناً؟ فَهذا يَدُلُّ على أنَّ الحُكْمَ الذي أُجْرِيَ على قُطّاعِ الطُّرُقِ الكَفَرَةِ يَجْرِي ذَلِكَ الحُكْمُ في المُسْلِمِينَ إذا كانَ مِنْهُمْ مَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ مَعَ قَطْعِ الطريقِ على النَّاسِ وإخَافَتِهِ عَلَيهِمْ. وقد يُتَوَهَّمُ أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في أهْلِ الحَرْبِ، وقَدْ أُبيحَ لَنَا قَتْلُ مَنْ ظَفِرْنَا بِهِ مِنهُمْ كَيفَ شِئْنَا، وإنْ لَمْ يُفْسِدُوا في الأرضِ، ولَمْ يَقْطَعُوا الطَّرِيقَ.

وهذا يَدُلُّ [على][5] أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ بِالحُكْمِ في أهْلِ الكَفَرَةِ وأهْلِ الإسْلامِ جَمِيعاً إذا سَعَوا في الأرضِ بِالفَسَادِ.

ومِنَ الدَّليلِ على ذَلِكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] وأجْمَعُوا أنَّ الكَافِرَ إذا قَتَلَ مُسْلِماً، وأظْهَرَ في الأرضِ الفَسَادَ، فَقَدَرْنا عَلَيهِ، وأسَرْنَاهُ، ثُمَّ أسْلَمَ، انهُ يَزُولُ عَنْهُ القَتْلُ والقَطْعُ والصَّلْبُ. فَدَلَّ ذَلِكَ على أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ بِالحُكْمِ في المُسْلِمِينَ لأنَّهُ يَخْتَلِفُ حُكْمُهُ إذا تَابُوا مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِمْ، أو بَعْدَ قُدْرَتِنا عليهِمْ.

فأمّا الذينَ رَوَوا[6] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ فِعْلٍ بِالعُرَنِيِّينَ مِنْ نَحْوِ ابْنِ سِيرِينَ وغَيرِهِ فَالوَاجِبُ على مَنْ ادَّعَى أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في العُرَنِيِّينَ دَعْوَاهُ. وكَانَ أصْحابُنَا، رَحِمَهُمُ اللهُ، يَذْهَبُونَ إلى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ ويَرَوْنَ أنْ يُؤْخَذَ المُحَارِبُ إذا تَابَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ بِمَا أصَابَ مِنْ دَمٍ ومَالٍ على سَبِيلِ القِصَاصِ، ولا يُصْلَبُ، ولا تُقْطَعُ يَدُهُ ورِجْلُهُ في مَا أصَابَ مِنْ مَالٍ. فَكَأنَّهُمْ ذَهَبُوا إلى أنْ يُزَالَ الحَدُّ الذي للهِ على المُحارِبِ بِتَوبَتِهِ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ، وهُوَ مَا كَانَ إلى الإمَامِ إقَامَتُهُ، ولا أمْرَ لِلوَلِيِّ فِيهِ.

وأمّا الحُقُوقُ التي هِيَ لِلعِبَادِ فَإنَّ التَّوبَةَ لا تَعْمَلُ في إبْطَالِهَا، ولِكُلِّ ذِي حَقٍّ أنْ يَأخُذَ بِحَقِّهِ؛ لا حَقَّ للإمَامِ لأنَّ الحَقَّ صَارَ لِلْوَلِيِّ دُونَ الإمَامِ.

وفي قَولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ دَلالَةٌ على أنَّ السَّارِقَ إذا رَدَّ السَّرِقَةَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ أنْ لا قَطْعَ عَلَيهِ. وكَذَلِكَ رَوى بَعْضُ المُتَقَدِّمِينَ أنَّهُمْ قَالُوا لَيسَ على تَائِبٍ قَطْعٌ. ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ على أنَّ السارِقَ في المِصْرِ لَيلاً ونَهاراً لا يَكُونُ مُحارِباً، وإنَّمَا هوَ سَارِقٌ تُقْطَعُ يَدُهُ دُونَ رِجْلِهِ لأنَّهُ ذَكَرَ السَّعْيَ في الأرضِ بِالفَسَادِ، والسَّارِقُ في المِصْرِ لا يُقَالُ: سَعَى في الأرضِ. الا تَرَى إلى قَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١] لَمْ يُرِدِ الضَّرْبَ في المِصْرِ، ولكنْ أرَادَ الأسفارَ. فَعلى ذَلِكَ الأوَّلُ.

وأمّا الكَلامُ في القَتْلِ والصَّلبِ والقَطْعِ فَرُوِيَ عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ [أنَّهُ][7] قالَ: إذا حارَبَ، وقَتَلَ، وأخَذَ المَالَ، قُطِعَتْ يَدُهُ ورِجْلُهُ مِنْ خِلافٍ، وصُلِبَ. فَإنْ قَتَلَ، ولَمْ يَأخُذِ المَالَ، قُتِلَ: وإنْ أخَذَ المَالَ ولَمْ يَقْتُلْ، قُطِعَتْ يَدُهُ ورِجْلُهُ مِنْ خِلافٍ. وتأويلُ الآيَةِ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية على أنَّ الواجِبَ على المُحَارِبِ مِنَ العُقُوبَةِ لَهُ على قَدْرِ جِنَايَتِهِ، ويُزَادُ في عُقُوبَتِهِ بِقَدْرِ زِيادَتِهِ في جُرْمِهِ.

وتأوَّلَ غَيرُهُ الآيَةَ على أنَّها نَزَلَتْ في المُحارِبِ الذي يُصِيبُ المَالَ أوِ[8] النَّفْسَ. وإذا أصَابَ الأمْرَينِ كانَ لِلإمامِ أنْ يَقْتُلَهُ كَيفَ شَاءَ؛ إنْ شاءَ قَتَلَهُ بِالسَّيفِ قَتْلاً، وإنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ ورِجْلَهُ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ حتّى يَمُوتَ، وإنْ شَاءَ صَلَبَهُ حَيّاً./١٢٨ ـ ب/ وإنْ أبْطَأَ عَلَيهِ المَوتُ طُعِنَ بِالرِّماحِ حتّى يَمُوتَ. وإلى هَذا ذَهَبَ أبو حَنِيفَةَ ﷺ. وأمّا أبو يُوسُفَ ومُحَمَّدٌ، رَحِمَهُمَا اللهُ،

(١) في الأصل وم: وسمل. (٢) في الأصل وم: وقطع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: روي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و.

فَقَالا(١): إذا صُلِبَ لَمْ تُقْطَعْ [يَدُهُ ورِجْلُهُ](٢) مِنْ خِلافٍ، وجَعَلا عُقُوبَتَهُ مُخْتَلِفَةً على قَدْرِ جِنَايَتِهِ. فَإنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى التَّخْيِيرِ فِيهِ؟ قِيلَ مَعْنَاهُ، والله أعْلَمُ: أنْ يُقْتَلَ بِالسَّيفِ، أو يُقْتَلَ بِالصَّلْبِ أو يُقْتَلَ بِقَطْعِ اليَدِ والرِّجْلِ.

وأصلُهُ أنَّ حَرْفَ التَّخْيِيرِ إذا كَانَ في مُتَّفِقِ الأسْبَابِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّخْيِيرِ مِنْ نَحْوِ التَّخْيِيرِ في كَفَّارَةِ اليَمِينِ وكَفَّارَةِ الظِّهَارِ وكَفَّارَةِ المُتَأذِّي لأنَّ سَبَبَ وُجُوبِهِ واحدٌ. وإذا كانَ في مُخْتَلَفِ الأسْبَابِ فَيَخْرُجُ مَخْرَجَ بَيَانِ الحُكْمِ لِلكُلِّ في نَفْسِهِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] لا يَحْتَمِلُ التَّخْيِيرَ. ولكِنَّهُ على بَيَانِ الحُكْمِ لِكُلٍّ في نَفْسِهِ لأنَّ سَبَبَ وُجُوبِهِ مُخْتَلِفٌ؛ فَتَأْوِيلُهُ: إمَّا أنْ تُعَذِّبَ مَنْ ظَلَمَ، [وإمَّا أنْ](٣) تَتَّخِذَ الحُسْنَ في مَنْ آمَنَ بِاللهِ. ألا تَرَى أنَّهُ قَالَ: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾؟ [الكهف: ٨٧ و٨٨] وقولُ مَنْ جَعَلَ الحُكْمَ في مَنْ جَمَعَ القَتْلَ وقَطْعَ الطَّرِيقِ أقْرَبُ إلى التَّأويلِ، والله أعْلَمُ، مِمَّنْ لَمْ يَجْمَعْ لأنَّهُ قالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية فَمَنْ حَارَبَ، وأفْسَدَ في الأرضِ فَقَدْ أتَى بِالأمْرَينِ لأنَّ مُحَارَبَتَهُ أنْ يَقْتُلَ، وإفْسَادَهُ في الأرضِ [أنْ](٤) يَقْطَعَ الطَّرِيقَ. فَإذا جَمَعَ هُوَ بَينَ الأمْرَينِ يُجْمَعُ بَيْنَ عُقُوبَتَينِ. وأصْلُهُ أنَّ أمْرَ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ مَحْمُولٌ على فَضْلِ تَغْلِيظٍ مِنْ نَحْوِ مَا يُجْمَعُ بَيْنَ قَطْعِ اليَدِ والرِّجْلِ في أخْذِ المَالِ، وذَلِكَ لا يُجْمَعُ في أخْذِ المَالِ في المِصْرِ، ومِنْ نَحْوِ الصَّلْبِ. وذَلِكَ لَمْ يُجْعَلْ في غَيرِهِ مِنَ القَتْلِ في المِصْرِ، فَدَلَّ أنَّهُ مَحْمُولٌ على فَضْلِ تَغْلِيظٍ، فَجَازَ أنْ يُجْمَعَ مَا ذَكَرْنَا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟﴾ على إسْقَاطِ الألِفِ، ويَكُونُ في القَتْلِ والصَّلْبِ نَفْيُهُ إذا قَتَلَ، وأخَذَ المَالَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: نَفْيُهُ أنْ يُطْلَبَ(٥) فَلا يُقْدَرَ عَلَيهِ.

وعنِ الحَسَنِ [أنَّهُ](٦) قالَ: يُطْلَبُ(٧) حتَّى يَخْرُجَ مِنْ أرضِ الإسْلامِ؛ وذَلِكَ إلى الإمَامِ. وأصلُهُ مَا ذَكَرْنَا أنَّهُ إذا قُدِرَ عَلَيهِ، وقدْ قَتَلَ، وأخَذَ المَالَ، يُقْتَلُ، وفي القَتْلِ نَفْيُهُ. وإذا لَمْ يَقْتُلْ، ولَمْ يأخُذْ، حُبِسَ إنْ قُدِرَ عَلَيهِ، وفي الحَبْسِ نَفْيُهُ، وإنْ لَمْ يُقْدَرْ عَلَيهِ يُطْلَبُ(٨) حتَّى يَبْرَحَ الطَّرِيقَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُ أبي عُبَيدٍ حِينَ(٩) قالَ: إنَّهُ يُصْلَبُ بَعْدَ القَتْلِ لأنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عنِ المُثْلَةِ، [فَيُقَالُ لَهُ: المُثْلَةُ](١٠) يُرَادُ بِهَا على مَا قالَ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى: إنَّ الصَّلْبَ جُعِلَ عُقُوبَتَهُ، والمَيتُ لا يُعَاقَبُ، ولو جَازَ [له أنْ يقولَ](١١) يُصْلَبُ بَعْدَ القَتْلِ جَازَ لِغَيرِهِ أنْ يَقُولَ: تُقْطَعُ يَدُهُ ورِجْلُهُ بَعْدَ القَتْلِ، فَذَلِكَ بَعِيدٌ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ قَدْ ذَكَرْنا في مَا تَقَدَّمَ أنَّ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ إذا تَابُوا، قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِمْ سَقَطَتْ عَنْهُمُ الحُدُودُ التي هِيَ لله تعالى، لا يُؤاخَذُونَ بِهَا، ولَيْسَتْ(١٢) كَغَيرِها مِنَ الحُدُودِ التي تَلْزَمُ في غَيرِ المُحَارَبَةِ. إنَّ التَّوبَةَ لا يُعْمَلُ في إسْقَاطِهَا لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُمَا: أنَّ التَّوبَةَ مِنْ غَيرِ المُحَارِبِ لا تَظْهَرُ حَقِيقَةً، فإذا لَمْ تَظْهَرْ لَمْ يُعْمَلْ في إسْقَاطِ مَا وَجَبَ، ومِنَ المُحَارِبِ تَظْهَرُ لأنَّهُ في يَدَي نَفْسِهِ إذا تَرَكَ المُحَارَبَةَ والسَّعْيَ في الأرضِ بِالفَسَادِ، وظَهَرَتْ مِنْهُ التَّوبَةُ، فَلَمْ يُؤاخَذْ بِهِ، وفي سَائِرِ الحُدُودِ لا يَظْهَرُ مِنْهُ تَرْكُ مَا كَانَ يَرْتَكِبُ لِذَلِكَ [افْتَرَقَا.

والثَّاني: أنَّهُ لَو لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ذَلِكَ](١٣) لَتَمَادَى في السَّعْيِ بِالفَسَادِ في حَقِّ المُسْلِمِينَ مِنَ الضَّرَرِ أكْثَرَ مِمَّا لَو آخَذُوهُ(١٤) بِذَلِكَ، فَاسْتُحْسِنَ(١٥) قَبُولُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَدَرْءُ مَا وَجَبَ عَلَيهِمْ مِنَ الحُدُودِ التي هِيَ للهِ تعالى. وأمَّا الحُقُوقُ التي هِيَ لِلْعِبَادِ فَذَلِكَ إلى الأولِيَاءِ؛ إنْ شَاؤُوا تَرَكُوا، واللهُ أعْلَمُ.

وقَولُهُ(١٦): «ومَنْ جَاءَ مُسْلِماً هَدَمَ بِالإسْلامِ مَا كَانَ بِالشِّرْكِ» [القرطبي: ٣/ ٢٦٦] مَعْنَاهُ: إذا جَاءَ تَائِباً لأنَّ الحُدُودَ

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أيديهم وأرجلهم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم، يصلب. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) و(٨) في الأصل وم: يصلب. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: أن. (١٢) في الأصل وم: وليس. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: آخذوهم. (١٥) في الأصل وم: فاستحسنوا.
(١٦) الضمير يعود على الرسول ﷺ والمقصود بالقول رواية ابن عباس قصة هلال بن عويمر الأسلمي التي أدرجت في بداية تفسير الآية (٣٣).

زَوَاجِرُ، والإِسْلامَ يَزِيدُ في الزَّجْرِ والتَّغْلِيظِ، فَلا يَجُوزُ مَا كَانَ سَبَباً لِلتَّغْلِيظِ [أَنْ يَكُونَ][1] سَبَباً لإِسْقَاطِهِ. دَلَّ أَنَّ المَعْنَى مِنْهُ: مَنْ جَاءَ مُسْلِماً تَائِباً، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يُحتمَلُ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ ما مَضى مِنَ الآياتِ: مِنْ ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] أخبَرَ أنَّهُ إنَّما يَتقرَّبُ بِقُرْبَانِهِ المُتَّقِي، وقولُهُ[2] تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٣] ثُمَّ قولُهُ[3] تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي ابْتَغُوا بِتَقْوَى اللهِ عَنْ مَعَاصِيهِ القُرْبَةَ، والوَسِيلَةُ القُرْبَةُ. وكَذَلِكَ الزُّلْفَةُ. يُقالُ: تَوَسَّلَ إليَّ بِكذا أي تَقرَّبَ، وهو قولُ القُتَبِيِّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠ وق: ٣١] أي قُرِّبَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ الآية؛ يَحْتَمِلُ هذا وجْهَينِ:

أحَدُهُمَا: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ أنْفُسَكُمْ في صَرْفِهَا عَنْ مَعَاصِيهِ إلى طاعَتِهِ، وهوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والثاني[4]: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ مَعَ أَنْفُسِكُمْ وأمْوَالِكُمْ أعداءَ اللهِ في نُصْرَةِ دِينِهِ، وباللهِ التَّوفيقُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ كانَ الذي يَمْنَعُهُمْ عَنِ الإِسْلامِ والإيمانِ باللهِ والرُّسُلِ قَضاءُ شَهَواتِهِمْ وطَلَبُ العِزِّ والشَّرَفِ بالأمْوالِ، فَأَخْبَرَ: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ في صَرْفِ العَذابِ عَنْ أنْفُسِهِمْ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ولا يَنفَعُهُمْ ذَلِكَ. يَذْكُرُ هَذا، واللهُ أعْلَمُ، لِيَصْرِفُوا أنْفُسَهُمْ عَنْ مَعَاصِي اللهِ والخِلافِ لَهُ بِأدْنَى شَيْءٍ يَطْلُبُونَ مِنَ الأمْوالِ والشَّهَواتِ. وأخْبَرَ أنَّهُ لَو كانَ ﴿لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ما نَفَعَهُمْ ذَلِكَ، و﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾. والحِكْمَةُ في هَذا، واللهُ أعْلَمُ، لِيَعْلَمُوا أنَّ الآخِرَةَ لَيْسَتْ بِدارٍ تُقْبَلُ فِيهَا الرُّشَا كَمَا تُقْبَلُ في الدُّنْيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دلَّ هذا على أنَّ مِنَ العَذابِ مَا لا ألَمَ فِيهِ مِنْ نَحْوِ الحَبْسِ والقَيْدِ. فأخْبَرَ أنَّ عَذابَ الآخِرَةِ ألِيمٌ كُلُّهُ، لَيسَ كَعَذابِ الدُّنْيا؛ مِنْهُ مَا يَكُونُ ألِيماً، ومِنْهُ ما لا يَكُونُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ الآية. يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ﴾ منها أي يطْلُبُونَ، ويَسْألُونَ الخُروجَ مِنْهَا مِنْ غَيرِ عَمَلِ الخُرُوجِ نَفْسِهِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ﴾ منها ولَكِنْ يُرَدُّونَ، ويُعَادُونَ إلى مَكَانِهِمْ كَقَولِهِ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] أي يَجْهَدُونَ في الخُرُوجِ مِنْهَا ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ أنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَ الخُرُوجِ. ولكنْ يُرَدُّونَ، ويُعَادُونَ فِيهَا.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ الآيةُ عامَّةٌ في السُّرَّاقِ خاصَّةٌ في السَّرِقَةِ لأنَّهُ يُدْخِلُ جَمِيعَ أهْلِ الخِطابِ في ذَلِكَ، وإنْ كانَ يَجُوزُ أنْ يُدْرَأَ الحَدُّ عَنْ بَعْضِ السُّرَّاقِ إذا سَرَقُوا مِنْ[5] محارِمِهِمْ أو مِمَّنْ لَهُ تَأْوِيلُ المُلْكِ في مَالِهِ أو شُبْهَةُ[6] التَّناوُلِ مِنْهُ لأنَّهُ إذا سَرَقَ مِمَّنْ لَيسَ لَهُ ذَلِكَ التَّأوِيلُ ولا تِلْكَ الشُّبْهَةُ، قُطِعَ. فَدَلَّ أنَّهَا عامَّةٌ. وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه حِينَ[7] سُئِلَ عَنْ قَولِهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاصٌّ هُوَ أمْ عامٌّ؟ فَقالَ: لا بَلْ عامٌّ أي عامٌّ فِي السُّرَّاقِ. ألا تَرَى أنَّهُ قالَ في خَبَرٍ آخَرَ حِينَ[8] سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فقالَ: مَا كَانَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ قُطِعَ؟ وأمَّا قَولُنا فَخاصٌّ[9] في السَّرِقَةِ لأنَّهُ [لا][10] يَحْتَمِلُ قَلْبُ أحَدٍ قَطْعَ اليَدِ في الشَّيْءِ التافِهِ الخَسِيسِ الذي إذا أُخِذَ مِنْهُ. دَلَّ أنَّ الخِطابَ بِذَلِكَ مِنَ اللهِ ﷻ رَجَعَ إلى سَرِقَةٍ لا إلى كُلِّ مَا يَقَعُ عَلَيهِ اسْمُ [المَسْرُوقِ][11]. وكَذَلِكَ الخِطابُ بِقَطْعِ اليدِ رَجَعَ إلى بَعْضٍ، وهُوَ الكَفُّ وإنْ كانَ اسْمُ اليدِ يَقَعُ مِنَ الأصابِعِ إلى الإبْطِ، لأنَّ النَّاسَ مَعَ اخْتِلافِهِمْ/ ١٢٩ ـ أ/

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) في الأصل وم: شبه. (٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: خاص. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

اتَّفقُوا على أنَّ اليدَ لا تُقطَعُ مِنَ الإبْطِ ولا مِنَ المِرْفَقِ لكِنَّهُمُ اختَلَفُوا في مَا دُونَ ذَلِكَ. فَعَلى قَولِ بَعْضِهِمْ تُقطَعُ الأصَابِعُ دُونَ الكَفِّ. وعِندَنا أنّهُ تُقطَعُ الأصَابِعُ بالكَفِّ لأنّهُ بِهَا يُقبَضُ الشَّيءُ، ويُؤخَذُ. فَخَرَجَ الخِطَابُ بالقَطعِ عامًّا[1]، والمُرَادُ مِنْهُ رَجَعَ إلى بَعْضِ اليدِ دُونَ بَعْضٍ. وكَذَلِكَ قَولُهُ تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ فَخَرَجَ الخِطَابُ بالقَطعِ عامًّا[2]، لَيسَ فِيهِ بَيانُ مَنْ يَتَولَّى القَطعَ؛ فَالمُرَادُ مِنْهُ رَجَعَ إلى الوُلاةِ. فَهَذا كُلُّهُ يَدُلُّ على أنْ لَيسَ في مَخْرَجِ عُمُومِ اللَّفظِ دَلِيلُ عُمُومِ المُرَادِ، ولا في مَخْرَجِ خُصُوصِ اللَّفظِ دَلِيلُ خُصُوصِهِ. بَلْ يُعْرَفُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدَلِيلٍ يَقُومُ العُمُومُ بِدَلِيلِ العُمُومِ والخُصوصُ بِدَلِيلِ الخُصُوصِ. فَهذا يَنْقُضُ قَولَ مَنْ يَقُولُ: إنّهُ على العُمُومِ حتّى يَقُومَ دَلِيلُ الخُصوصِ، واللهُ أعلَمُ.

فَإنْ قِيلَ لَنَا: إيشِ الحِكمَةُ في إقامَةِ الحَدِّ في السَّرِقَةِ على مَا بِهِ تُكتَسَبُ السَّرِقَةُ، وهُوَ اليدُ؟ ولَمْ يُقَمِ الحَدُّ في سَائِرِ الحُدُودِ في مَا بِهِ كَانَ اكْتِسابُهَا مِنْ نَحْوِ القِصاصِ [في الزِّنى][3] وغَيرِهِ: إنّهُ إذَا قَتَلَ [فُلانٌ][4] آخَرَ لا تُقطَعُ يَدُهُ، وبِهَا كَانَ اكْتِسَابُ القَتْلِ، وكَذا الزِّنى لَمْ يُقَمِ الحَدُّ على مَا بِهِ كَانَ الزِّنى، بَلْ أُقِيمَ على غَيرِ مَا بِهِ كَانَ ذَلِكَ الفِعْلُ؟ وفي السَّرِقَةِ أُقِيمَ على مَا بِهِ كَانَ ذَلِكَ الفِعْلُ خَاصَّةً؟ قِيلَ، واللهُ أعلَمُ، لِخِلَّتَينِ: إمّا لِقُصُورٍ في الاستِيفَاءِ مِنَ الحَقِّ أو لِخَوفِ الزِّيادَةِ في الاستِيفَاءِ على الحَقِّ لأنّهُ إذا قُتِلَ، أو قُطِعَتْ يَدُهُ، بَقِيَتْ لَهُ النَّفْسُ، وقَدْ تَلِفَتْ نَفْسُ الآخَرِ، فَكَانَ في ذَلِكَ قُصُورٌ في اسْتِيفَاءِ الحَقِّ. وفي الزِّنى لَو أُقِيمَ بِهِ على الذي بِهِ كَانَ اكْتِسَابُ الفِعْلِ لَخِيفَ تَلَفُ نَفْسِهِ بِهِ، فَكَانَ في ذَلِكَ اسْتِيفَاءُ الزِّيادَةِ على الحَقِّ. وأمّا السَّرِقَةُ فَإنّهُ أمْكَنَ اسْتِيفَاءُ الحَقِّ مِمّا كَانَ بِهِ اكْتِسَابُهَا على غَيرِ قُصُورٍ يَقَعُ في الاستِيفَاءِ ولا خَوفِ الزِّيادَةِ في الاستِيفَاءِ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

فَإنْ قِيلَ: مَا الحِكمَةُ في يَدٍ؛ قِيمَتُهَا ألوفٌ بِسَرِقَةِ عَشرَةٍ؟ وذَلِكَ مِمّا لا يُمَاثِلُهُ في الظّاهِرِ، وقَدْ أخبَرَ أنَّ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠وغافر: ٤٠] كَيفَ جَزَى هَذا بِأضْعَافِ ذَلِكَ؟ قِيلَ: لِهَذا جَوابَانِ:

أحَدُهُمَا: أنَّ جَزاءَ الدُّنيا مِحْنَةٌ، يَمْتَحِنُ عِبادَهُ بِأنواعِ المِحَنِ ابْتِداءً على غَيرِ جَعْلِ ذَلِكَ جَزاءً لِكَسْبٍ يُكْتَسَبُ. فَمَنْ لَهُ الامْتِحَانُ بِأنواعِ المِحَنِ على غَيرِ جَعْلِها جَزاءَ الشَّيءِ كَانَ لَهُ الامْتِحَانُ بِأنْ يَجْعَلَ مَا يُسَاوِي ألوفاً فَلْساً[5] أو حَبّةً. وبِاللهِ العِصْمَةُ والنَّجَاةُ.

والثّاني: أنْ لَيسَ القَطْعُ في السَّرِقَةِ جَزاءَ مَا أخَذَ مِنَ المَالِ، ولَكِنَّهُ جَزاءُ مَا هَتَكَ مِنَ الحُرْمَةِ. ألا تَرَى أنّهُ قَالَ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ ولَمْ يَقُلْ جَزاءً بِمَا أخَذا مِنَ الأموالِ؟ فَيَجُوزُ أنْ يَبْلُغَ جَزاءُ هَتْكِ تِلْكَ الحُرْمَةِ قَطْعَ اليَدِ، وإنْ قَصُرَ عِلْمُ البَشَرِ على ذَلِكَ لأنَّ مَقادِيرَ العُقُوبَاتِ إنَّمَا يَعْرِفُهَا[6] مَنْ يَعْرِفُ مَقَادِيرَ الأجْرَامِ. ولَيسَ أحَدٌ مِنَ الخَلائِقِ يَحْتَمِلُ عِلْمُهُ مَبْلَغَ مَقَادِيرِ الأجرامِ. فَإذا لَمْ يَحْتَمِلْ عِلْمُهُمْ مَبْلَغَ مَقَادِيرِ عُقُوبَاتِهَا مَاذا[7] كَانَ؟ فَحَقُّ القَولِ فِيهِ الاتّبَاعُ والتَّسلِيمُ بعدَ العلمِ في الاتّبَاعِ أنَّ اللهَ لا يَجْزِي السَّيِّئَةَ إلّا مِثْلَهَا، وبِاللهِ التَّوفِيقُ.

ثُمَّ الكَلامُ في قَطْعِ اليُمْنَى مَا رُوِيَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ: فَاقْطَعُوا أيْمَانَهُما. وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ [أنّهُ قَالَ][8] إذا سَرَقَ الرَّجُلُ قُطِعَتْ يَدُهُ اليُمْنَى. وعلى ذَلِكَ اتِّفَاقُ الأئِمَّةِ[9].

ثُمَّ المَسْألَةُ في مِقْدارِ السَّرِقَةِ، ولَيسَ في الآيَةِ ذِكْرُ مِقْدارِهَا. واخْتَلَفَ أهْلُ العِلْمِ في ذَلِكَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تُقطَعُ في رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً. وقَالَ أصْحَابُنَا: لا تُقطَعُ اليَدُ إلّا في عَشَرَةِ دَرَاهِمَ فَصَاعِداً أو دِينَارٍ.

وقَدْ رُوِيَ مِنَ الأخْبَارِ مَا احْتَجَّ بِهِ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ: رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْطَعُ في رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً، وعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيرِ يَقُولُ: كَانَتْ عَائِشَةُ ﵂ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنّهُ قَالَ: «لا تُقْطَعُ اليَدُ إلّا في المِجَنِّ أو في ثَمَنِهِ» [النسائي ٨/ ٨١] وتَزْعُمُ أنَّ قِيمَةَ المِجَنِّ أرْبَعَةُ دَرَاهِمَ، فَدَلَّ قَولُ عَائِشَةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لا يَقْطَعُ اليَدَ إلّا في ثَمَنِ المِجَنِّ. وقَولُهَا[10]: (إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لا يَقْطَعُ اليَدَ إلّا في رُبْعِ دِينَارٍ) [يَدُلُّ على][11] أنَّ ثَمَنَ المِجَنِّ كَانَ عِنْدَهَا رُبْعَ دِينَارٍ، أو لا يَكُونُ كَذَلِكَ. وعلى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَطَعَ في مِجَنٍّ، قِيمَتُهُ ثَلاثَةُ دَرَاهِمَ[12].

---

(١) و (٢) في الأصل وم: عام. (٣) في الأصل وم: والزنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فلس. (٦) في الأصل وم: يعرف.
(٧) في الأصل وم: فإذا. (٨) ساقطة من الاصل وم. (٩) في الأصل وم: الأمة. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.
(١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: العبارة التالية: في الخبر أنه قطع في مجن.

وأمّا التّقويمُ فإنّما هُوَ مِن عِندِ عَبدِ اللهِ وأنَسِ بنِ مالِكٍ ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قَطَعَ في مِجَنٍّ، فَقِيلَ يا أبا حَمزَةَ كَم كانَت؟ قالَ: وَزنُ خَمسَةِ دَراهِمَ. هَذا يَدُلُّ على أنّ التّقويمَ، كانَ مِن [أنَسٍ](1): كانَ ذَلِكَ كَتَقويمِ ابنِ عُمَرَ وعائِشَةَ ﷺ وليسَ في التّقويمِ حُجّةٌ في واحِدٍ مِنَ المُقَوِّمِينَ لِمُخالَفَةِ كُلِّ واحِدٍ صاحِبَهُ، وإنّما قَوَّمُوهُ مِن قِبَلِ أنفُسِهِم. فأمّا إن كانَ في مِجَنَّينِ مُختَلِفَينِ فَهُوَ على التّناسُخِ. وأمّا إن كانَ في مِجَنٍّ واحِدٍ في وَقتَينِ مُختَلِفَينِ: فإنْ كانَ في وَقتَينِ مُختَلِفَينِ لَم يَكُن لِمُخالِفِنا فِيهِ حُجّةٌ لِما يَحتَمِلُ الزّيادَةَ والنُّقصانَ على اختِلافِ الأوقاتِ. وإنْ كانَ في مِجَنَّينِ مُختَلِفَينِ فَهُوَ على التّناسُخِ، فَلَم يَظهَر، فَلا يُقدَمُ على القَطعِ بِالشّكِّ. ثُمّ الأخبارُ التي تَمنَعُ القَطعَ بِدُونِ العَشَرَةِ ما رُوِيَ عن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ [أنّهُ](2) قالَ: (دَخَلتُ على سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ، فَقُلتُ لَهُ: إنّ أصحابَكَ عُروَةَ ومُحَمّدَ بنَ مُسلِمٍ [وفُلاناً ورَجُلاً](3) آخَرَ يَقُولُونَ: ثَمَنُ المِجَنِّ خَمسَةُ دَراهِمَ أو ثَلاثَةٌ، فَقالَ: أمّا هذا فَقَد مَضَتِ السُّنّةُ فِيهِ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشَرَةُ دَراهِمَ). وعَنِ ابنِ عَبّاسٍ ﷺ [أنّهُ](4) قالَ: (ثَمَنُ المِجَنِّ في عَهدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشَرَةُ دَراهِمَ). وعَن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ عَن أبِيهِ عَن جَدِّهِ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنّهُ كانَ لا يَقطَعُ اليَدَ إلّا في ثَمَنِ المِجَنِّ، وهُوَ يَومَئِذٍ يُساوِي عَشَرَةَ دَراهِمَ. فَلَمّا اختَلَفَ المُقَوِّمُونَ في قِيمَةِ المِجَنِّ رَجَعنا إلى ما رُوِيَ عن سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ حِينَ(5) قالَ: مَضَتِ السُّنّةُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَشَرَةِ دَراهِمَ وإنْ كانَ مُرسَلاً إذ لا مُعارِضَ لَهُ. ويُؤيِّدُ هَذا ما رُوِيَ عَن نُجَباءِ الصّحابَةِ ﷺ مِن نَحوِ عُمَرَ وعُثمانَ وعَلِيٍّ وعَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ ﷺ.

ورُوِيَ أنّ عُمَرَ أُتِيَ بِسارِقٍ، فأمَرَ [بِقَطعِ يَدِهِ، فقالَ](6) عُثمانُ ﷺ: سَرِقَتُهُ لا تُساوِي عَشَرَةَ دَراهِمَ. فأمَرَ بِها فَقُوِّمَت بِثَمانِيَةِ(7) دَراهِمَ، [فقالَ](8): (لا تُقطَعُ اليَدُ إلّا في دِينارٍ أو عَشَرَةِ دَراهِمَ).

ورُوِيَ عَن عائِشَةَ [ﷺ أنّها](9) قالَت: لَم تَكُنِ اليَدُ تُقطَعُ على عَهدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في الشّيءِ التّافِهِ). فأخَذَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، بِهَذِهِ الأخبارِ، ولَم يَرَوا قَطعَ اليَدِ بِدُونِ العَشَرَةِ لأنّهُم مع اختِلافِهِم اتّفَقُوا على أنّ اليَدَ تُقطَعُ في سَرِقَةِ عَشَرَةِ دَراهِمَ. واختَلَفُوا في وُجُوبِ القَطعِ في ما دُونَ العَشَرَةِ، وهُوَ حَدٌّ قد رُفِيَ لِلإشكالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ الآيةَ؛ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي عِظَةً(10) وزَجراً مِنَ اللهِ لِغَيرِهِ لأنّ مَن عايَنَ آخَرَ قُطِعَت يَدُهُ في سَرِقَةٍ اتّعَظَ بِهِ، وزَجَرَهُ ذَلِكَ عَنِ الإقدامِ عَلَيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ الآيةَ أي تابَ عَنِ الشّركِ، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ ما كانَ يُفسِدُهُ، ويَرتَكِبُهُ في حالِ شِركِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وَعَدَ لَهُ المَغفِرَةَ والرّحمَةَ إذا تابَ عَنِ الشّركِ، وأصلَحَ ما كانَ يُفسِدُهُ، ويَرتَكِبُهُ في حالِ الشّركِ حَتّى لا(11) يُؤاخَذَ بِشَيءٍ مِمّا كانَ يَرتَكِبُهُ في حالِ الشّركِ، ويَتَعاطاهُ إذا أسلَمَ.

ألا تَرى أنّهُ قالَ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾؟ [الأنفال: ٣٨] والمُسلِمُ في حالِ الإسلامِ إذا ارتَكَبَ حُدُوداً/ ١٢٩ - ب/ وتَعاطاها(12)، ثُمّ تابَ، أُوخِذَ(13) بِها لِوَجهَينِ:

أحَدُهُما: أنّ الكافِرَ لَو أُوخِذَ(14) بَعدَ ما أسلَمَ بِما كانَ ارتَكَبَ في حالِ الكُفرِ، وتَعاطاهُ، فَذَلِكَ يَمنَعُهُ عَنِ الإسلامِ، ويَزجُرُهُ. فإذا كانَ كَذَلِكَ فَكانَ في إقامَةِ ذَلِكَ والأخذِ بِها مِنَ الفَسادِ أكثَرَ مِنَ الصّلاحِ، وأمّا المُسلِمُ إذا لَم يُؤاخَذ بِما ارتَكَبَ، وتَعاطى بَعدَ التّوبَةِ يُدخِلُ في ذَلِكَ مِنَ الفَسادِ ما يَفحُشُ، وذَلِكَ أنّهُ لَمّا(15) أُرِيدَ أن يُقامَ عَلَيهِ الحَدُّ تابَ، فَسَقَطَ ذَلِكَ عَنهُ، ثُمّ عادَ ثانِياً ثُمّ ثالِثاً إلى ما لا يَتَناهى. فَعَمِلَ في الأرضِ بِكُلِّ الفَسادِ مِن غَيرِ أن لَحِقَهُ ضَرَرٌ، لِذَلِكَ أُوخِذَ بِهِ بَعدَ التّوبَةِ، والكافِرُ لا، واللهُ أعلَمُ.

والثّاني: أنّ الكافِرَ ما يَرتَكِبُ في حالِ الكُفرِ إنّما يَرتَكِبُهُ تَدَيُّناً بِدِينٍ [يَدِينُ](16) بِهِ. فإذا رَجَعَ عَن ذَلِكَ الدِّينِ، ودانَ

---

(1) من م، ساقطة من الأصل. (2) ساقطة من الأصل وم. (3) في الأصل وم: وفلان ورجل. (4) ساقطة من الأصل وم. (5) في الأصل وم: حيث. (6) في الأصل وم: بقطعه قال. (7) في الأصل وم: ثمانية. (8) ساقطة من الأصل وم. (9) ساقطة من الأصل وم. (10) من م، في الأصل: عظمة. (11) في الأصل وم: لم. (12) في الأصل وم: وتعاطاه. (13) في الأصل وم: أخذ. (14) في الأصل وم: أخذ. (15) في الأصل وم: كما. (16) ساقطة من الأصل وم.

بِدِينٍ آخَرَ، مَا يَكُونُ ذَلِكَ حَرَاماً في دِينِهِ الذي تَمَسَّكَ بِهِ، تَرَكَ مَا كَانَ يَرْتَكِبُ في دِينِهِ الأوَّلِ تَدَيُّناً، فَيظْهَرُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمْ يُقَلْ عَلَيهِ لِمَا يَظْهَرُ مِنْهُ: تَرَكَ مَا تَعَاطَى قَبْلَ ذَلِكَ. وأمَّا المُسْلِمُ فَلَيْسَ يَتَعَاطَى مَا يَتَعَاطَى تَدَيُّناً بِدِينٍ [بَدِينٍ][1] بِهِ، ولَكِنَّهُ يَتَعَاطَاهُ شَهْوَةً؛ وذَلِكَ مِمَّا لا تَظْهَرُ مِنْهُ التَّوبَةُ حَقِيقَةً. لِذَلِكَ اخْتَلَفَا، واللهُ أعْلَمُ.

وفِيهِ دَلِيلُ جَوازِ تَأخُّرِ البَيانِ لأنَّهُ قالَ تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً﴾ ولا يَحْتَمِلُ أنْ يُبَيِّنَ لَهُ جَمِيعَ شَرائِطِ السَّرِقَةِ التي يَجِبُ فِيهَا القَطْعُ وَقْتَ قَرْعِ الخِطَابِ السَّمْعَ. فَدَلَّ أنَّهُ إنَّمَا بَيَّنَ لَهُ على قَدْرِ الحاجَةِ بَعْدَ السُّؤالِ والبَحْثِ عَنْهَا، واللهُ أعْلَمُ.

وكَانَ جَمِيعُ مَا ذَكَرَ مِنَ العُقُوبَاتِ إنَّمَا نَزَلَ في أهْلِ الكُفْرِ لأنَّهُمْ هُمُ الذينَ كانوا يَتَعاطَونَ ذلكَ دونَ المسلمينَ، وتَرَكَ عامَّةَ العُقوباتِ[2] في المسلمينَ لأنهمْ هُمُ الذينَ [لا][3] يَرْغَبُونَ فِيهَا. ومِنْ ذَلِكَ قَولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ، [المائدة: ٣٣] ومَا ذَكَرَ في ابْنَي آدَمَ[4] وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً﴾ الآية، [المائدة: ٣٨].

وذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَباسٍ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ: نَزَلَتْ في طُعْمَةَ بنِ أُبَيرِقٍ سَرَقَ دِرْعَ جَارِهِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ. وعلى ذَلِكَ قالَ عَامَّةُ أهْلِ التَّأوِيلِ. ثُمَّ صَارَ الحُكْمُ في المُسْلِمِينَ إذا ارْتَكَبُوا تِلْكَ الأجْرَامَ. وفِيهِ دَلِيلُ جَوازِ القِيَاسِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ هذا، والله أعْلَمُ، على إثْرِ قولِهِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً﴾ [المائدة: ٣٨] وعلى إثْرِ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٣]. إنَّ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولَهُ أنْ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بَعْدَ التَّوبَةِ وقَبْلَ التَّوبَةِ ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ولا يُعَذِّبُ بَعْدَ التَّوبَةِ. وذَلِكَ أنَّ المُحَارِبَ إذا تَابَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ الحَدُّ الذي وَجَبَ في حَالِ المُحَارَبَةِ، والسَّارِقَ إذا تَابَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ الأخذُ[5] بِهِ أخْبَرَ أنَّ لَهُ أنْ يُعَذِّبَ مَنْ يَشاءُ.

وفِيهِ نَقْضٌ على المُعْتَزِلَةِ لأنَّهُمْ يَقُولُونَ: الصَّغِيرَةُ مَغْفُورَةٌ، لَيْسَ لَهُ أنْ يُعَذِّبَ عَلَيهَا، والكَبِيرَةُ يُخَلَّدُ صَاحِبُهَا في النَّارِ، لَيسَ لَهُ أنْ يَعْفُوَ عَنْها. فَلَو كَانَ على مَا قَالُوا لَذَهَبَ مَعْنَى التَّخْيِيرِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ إنْ عَفَا عَفَا مَا عَلَيهِ أنْ يَعْفُوَ، وكَذَلِكَ مَا عَذَّبَ عذَّبَ مَا عَلَيهِ أنْ يُعَذِّبَ، فَتَذْهَبُ فَائِدَةُ التَّخْيِيرِ، وقَدْ أخْبَرَ أنَّهُ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ الآية، يَحْتَمِلُ وُجُوهاً:

أحَدُهَا: ألّا يَحْزُنَكَ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ مِنهُم، لَيسَ على النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، ولَكِنْ ألّا يَحْمِلَ على نَفْسِهِ بِكُفْرِهِمْ مَا يَمْنَعُهُ عَنِ القِيامِ بِأمْرِهِ كَقَولِهِ[6] تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وكَقَولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ونَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ مِمَّا يَشْتَدُّ بِهِ الحُزْنُ بِكُفْرِهِمْ لِشِدَّةِ رَغْبَتِهِ في إسْلامِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ أي لا يَحْزُنْكَ تَمَرُّدُ هَؤلاءِ وتَكْذِيبُهُمْ إيَّاكَ فَإنَّ اللهَ نَاصِرُكَ ومُظْفِرُكَ[7] عَلَيهِمْ.

ويَحْتَمِلُ ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ صُنْعُ هَؤلاءِ الكَفَرَةِ وسُوءُ عَمَلِهِمْ فَإنَّكَ لا تُؤاخَذُ بِصَنِيعِهِمْ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وكَقَولِهِ تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ دَلالَةُ تَفْضِيلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ على غَيرِهِ مِنَ الأنْبِياءِ والرُّسُلِ لأنَّهُ تعالى في جَمِيعِ مَا خَاطَبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و لَمْ يُخَاطِبْهُ[8] بِاسْمِهِ، وسائِرُ الأنْبِيَاءِ، عَلَيهِمُ الصَّلاةُ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: العبادات. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) هو قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ [المائدة: ٢٧]. (٥) في الأصل وم: أخذ. (٦) من م، في الأصل بقوله. (٧) من م، في الأصل: ونظفر لك. (٨) في الأصل وم: يخاطب.

والسَّلامُ، إنَّما خاطَبَهُمْ بأسمائِهِمْ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ و﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ و ﴿يَٰنُوحُ﴾ وجَميعُ مَنْ خاطَبَ مِنْهُمْ، أو ذَكَرَ [إنَّما خاطَبَهُمْ][1] بِأسْمائِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ قالَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ولَمْ يَقُلْ: آمَنُوا بِأفْواهِهِمْ لِيُعْلَمَ أنَّ القولَ بِهِ لَيسَ مِنْ شَرْطِ الإيمانِ، إنَّما الإيمانُ هُوَ تَصْديقُ القلبِ، لكِنْ [يُعَبِّرُ][2] بِهِ اللِّسانُ عَنْ قَلْبِهِ. ألا تَرَى أنَّهُ قالَ: ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾؟ والإيمانُ هُوَ التَّصدِيقُ في اللُّغَةِ، لأنَّ ضِدَّهُ التَّكذِيبُ، فَيَجِبُ أنْ يَكُونَ ضِدَّ التَّكْذِيبِ التَّصْدِيقُ. [والإيمانُ][3] يَكُونُ بِالقَلبِ حِينَ[4] قالَ ﷺ: ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ لكِنَّ اللِّسانَ يُعَبِّرُ عَنْ ضَميرِهِ، فَهُوَ تَرْجُمانُ القَلْبِ في مَا بَيْنَ الخَلْقِ.

فَهذا يَدُلُّ أيضاً على أنَّ الإيمانَ لَيسَ هُوَ المَعْرِفَةَ لأنَّ الإيمانَ لَو كانَ مَعْرِفَةً لَكانَ يَجِبُ أنْ يَكُونَ ضِدُّهُ جَهْلاً. فلمَّا كانَ ضِدُّ الإيمانِ تَكْذِيباً وَجَبَ أنْ يَكُونَ ضِدُّ التَّكْذِيبِ التَّصْدِيقَ، والتَّصْدِيقُ والإيمانُ في اللُّغَةِ سَواءٌ. ولأنَّ المَعْرِفَةَ قَدْ تَقَعُ في القَلْبِ على غَيرِ اكْتِسابِ فِعْلٍ، والتَّصْدِيقُ[5] لا يَكُونُ إلّا بِاكْتِسابِ تَرْكِ مُضادَّتِهِ، وهُوَ التَّكْذِيبُ. لِذلِكَ قُلْنا: إنَّ الإيمانَ لَيسَ هُوَ المَعْرِفَةَ، ولَكِنَّهُ تَصْدِيقٌ.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في هَؤلاءِ: قالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ المُنافِقُونَ الذين كانُوا يُظْهِرُونَ الإيمانَ بِاللِّسانِ، وقُلُوبُهُمْ[6] كافِرَةٌ، وقالَ آخَرُونَ، هُمُ اليَهُودُ والمُنافِقُونَ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾، وهُوَ قَولُ ابْنِ عَباسٍ ﷺ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ ويَدُلُّ[7] قولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [على أنَّهُ][8] في المُنافِقِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ إلى النَّبِيِّ ﷺ خَبَرَهُ ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ خَبَرَهُ بِالكَذِبِ. ومَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ، أنَّهُمْ كانُوا يَسْتَمِعُونَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ خَبَرِهِ ومَا يقولُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأتُونَ الذينَ لَمْ يَأتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيُخْبِرُونَهُمْ خِلافَ خَبَرِهِ وغَيرَ ما سَمِعُوا مِنْهُ.

وقِيلَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقُولُ: إنَّ في التَّوراةِ كَذا مِنَ الأحْكامِ والشَّرائِعِ، فَإذا سَمِعَ هَؤلاءِ مِنْهُ ذَلِكَ أتَوا أولَئِكَ الذينَ لَمْ يَأتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيَقُولُونَ: إنَّهُ كاذِبٌ، ولَيسَ فِي التَّوراةِ مَا يَقُولُ هُوَ، ونَحْوَ ذا. وقِيلَ: إنَّهُمْ كانُوا طَلائِعَ الكَفَرَةِ وعُيوناً لَهُم. فَإذا أتى لَهُمْ خَبَرٌ يُخْبِرُونَ ضَعَفَةَ أصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ خِلافَ مَا أتاهُمْ نَحْوَ قَولِهِمْ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣] [لأنَّهُمْ كانُوا][9] يَخْشَوْنَهُمْ، لِئَلّا يَغْزُوهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ يَحْتَمِلُ التَّحْرِيفُ وَجْهَينِ:

[يَحْتَمِلُ][10] تَبْدِيلَ الكِتابَةِ مِنَ الأصلِ، كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويَحْتَمِلُ تَغْيِيرَ المَعْنَى في العِبارَةِ على غَيرِ تَبْدِيلِ الكِتابِ؛ يُغَيِّرُونَ على السَّفَلَةِ والذينَ لا يَعْرِفُونَ غَيرَ مَا فَهِمُوا مِنْهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾ يَعْنُونَ بِـ ﴿هَٰذَا﴾ مَا حَرَّفُوهُ، وغَيَّرُوهُ ﴿فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ عنِ ابْنِ عَباسٍ ﷺ [أنَّهُ][11] قالَ: نَزَلَتِ الآيَةُ في رَجُلٍ وامْرَأةٍ مِنَ اليَهُودِ، زَنَيا، وإنْ كانَ حُكْمُ اللهِ في التَّوراةِ في الزِّنَى الرَّجْمَ، وكانُوا يَرْجُمُونَ الوَضِيعَ مِنْهُمْ إذا زَنَى، ولا يَرْجُمُونَ الشَّرِيفَ، وكانا في شَرَفٍ ومَوْضِعٍ، وكانَا قَدْ أُحْصِنا، فَكَرِهَتِ اليَهُودُ رَجْمَهُما [وكانَ][12] في كِتابِهِمُ الرَّجْمُ، وكانُوا أرادُوا أنْ يَرْتَفِعَ الرَّجْمُ مِنْ بَينِهِمْ وأنْ يَكُونَ/ ١٣٠ ـ أ/ حَدُّهُمُ الجَلْدَ. فَذلِكَ قَولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾ يَعْنُونَ الجَلْدَ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ فَكَتَبُوا بِذَلِكَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَألُوا عَنْ ذَلِكَ،

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل: ربما والتصديق، في م: ربما التصديق. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هذا ويدل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: كما، في م: كانوا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

فَقَالُوا: يا مُحَمَّدُ أخبِرْنَا عن الزَّانِي والزَّانِيَةِ إذا أُحصِنا مَا حَدُّهُمَا؟ وهَلْ تَجِدُ فِيهِمَا الرَّجْمَ في مَا أَنْزَلَ اللهُ تعالى عَلَيكَ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: وهلْ تَرْضَونَ بِقَضائِي في ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعمْ. فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام وقالَ لَهُ: إنْ أَبَوا أنْ يَأْخُذُوا بِهِ، فاسْأَلْهُمْ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُ: ابنُ صُورِيا، ووَصَفَهُ[1] لَهُ، فَاجْعَلْهُ بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ أَجِدُ في مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ أنَّ الزَّانِيَةَ والزَّانِي، إذا أُحصِنَا، وفَجَرَا، فإنَّ عَلَيْهِمَا الرَّجْمَ، فَنَفَرُوا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أتعرِفُونَ رَجُلاً شابًّا، صِفَتُهُ كَذا، يُقَالُ لَهُ: ابنُ صُورِيا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قالَ: فَأَيُّ رَجُلٍ، هُوَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: وهُوَ أعْلَمُ [اليهودِ على ظَهْرِ][2] الأرضِ بِمَا أنْزَلَ اللهُ على مُوسَى، قالَ: فَأَرْسِلُوا إلَيهِ، فَفَعَلوا، فَأَتاهُمُ ابْنُ صُورِيا، فقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أنتَ ابْنُ صُورِيا؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: أنتَ أعْلَمُ اليَهُودِ؟ قَالَ: كَذَلِكَ يَزْعُمُونَ. قالَ: اجْعَلُوهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ. قالُوا: نَعَمْ رَضِينَا بِهِ إذا رَضِيتَ. قالَ: فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فأنَّى تُشْرِكُ بِاللهِ الذي لا إلَهَ إلا هُوَ الذي أنْزَلَ[3] التَّوْرَاةَ على مُوسَى؟ هَلْ تَجِدُونَ في كِتَابِكُمُ الذي أتَاكُمْ بِهِ مُوسَى في التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ على مَنْ أُحصِنَ؟ قالَ ابْنُ صُورِيا: نَعَمْ، والذي ذَكَّرْتَنِي لَولا خَشْيَةُ أنْ تُحْرِقَنِي النَّارُ إنْ كَذَبْتُ، أو غَيَّرْتُ، ما اعْتَرَفْتُ لَكَ. فَفِي هذا وجُوهٌ مِنَ الدَّلائِلِ:

أحدُهَا: أنْ سَأَلَهُمْ عَمَّا كَتَمُوا مِنَ الأحكَامِ والحُقُوقِ التي بَيْنَهُمْ و بَينَ الله تعالى لِيُظْهِرَ خِيانَتَهُمْ وكَذِبَهُمْ في مَا كَتَمُوا مِنْ بَعْثِ[4] رَسُولِ اللهِ ﷺ وصِفَتِهِ، لِيَعْلَمُوا أنَّهُ إنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللهِ. وفيهِ إثْبَاتُ رِسَالَتِهِ.

والثاني: أنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ الرُّخْصَةَ والتَّخْفِيفَ في الحَدِّ: أنَّهُمْ عَرَفُوا أنَّهُ رَسُولُ اللهِ، لَكنَّهُمْ كَابَرُوا في الإنْكارِ بَعْدَ مَا عَرَفُوا أنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَقًّا. وفيهِ دَلالَةُ شَهَادَةِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ لأنَّهُ قَبِلَ شَهَادَةَ ابنِ صُورِيا عَلَيهِمْ حِينَ[5] شَهِدَ بِالرَّجْمِ.

[والثالثُ: ما][6] قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ الآيةَ إنَّهَا نَزَلَتْ في قَتِيلٍ قُتِلَ عَمْداً بينَ قَبِيلَتَيْنِ بَنِي قُرَيظَةَ [وبَني][7] النَّضِيرِ. وكانَ القَتِيلُ مِنْ بَنِي قُرَيظَةَ. وكانَ[8] بَنُو النَّضِيرِ إذا قَتَلُوا مِنْ بَنِي قُرَيظَةَ، لَمْ يُعْطُوهُمُ القَوَدَ، ولَكِنْ يُعْطُونَهُمُ[9] الدِّيَةَ، [وإذا][10] قَتَلَ بَنُو قُرَيظَةَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ لَمْ يَرْضَوا إلّا بِالقَوَدِ؛ يَتَعَزَّزُونَ عليهِمْ. فَقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ، فَأَرَادُوا أنْ يَرْفَعُوا أمْرَهُمْ إلى رَسُولِ الله ﷺ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ المُنَافِقِينَ: إنَّ قَتِيلَكُمْ قُتِلَ عَمْداً، وأنَا أخْشَى عَلَيكُمُ القَوَدَ. فَإِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أمَرَكُمْ بِالدِّيَةِ لِقَتِيلٍ مِنْكُمْ، فَأَعْطُوهُ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ فلا نَدْرِي فِيمَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفِيهِ مِنَ الدَّلائِلِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ إثْبَاتِ الرِّسَالَةِ والنُّبُوَّةِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ قِيلَ: مَنْ يُرِدِ اللهُ عَذَابَهُ وإهْلاكَهُ فلا يَمْلِكُ أحدٌ دَفْعَ ذَلِكَ العذَابِ عَنْهُ.

وقِيلَ: الفِتْنَةُ المِحْنَةُ أي مَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَمْتَحِنَ بِالرَّجْمِ أو القَتْلِ فَلَنْ يَمْلِكَ لَهُ أحَدٌ رَفْعَ ذَلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ قالتِ المُعتَزِلَةُ: قولُهُ: ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ تأوِيلُهُ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

[الأوَّلُ][11]: يَحْتَمِلُ ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ أي لَمْ يُطَهِّرِ اللهُ قُلُوبَهُمْ.

والثاني: [يَحْتَمِلُ][12] ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ بِالشِّرْكِ والكُفْرِ، وذَلِكَ بَعِيدٌ لأنَّهُ كَيفَ يُطَهِّرُ بِالكُفْرِ؟ وبِالكُفْرِ يَتَنَجَّسُ.

لكنَّ الوجهَ عِندَنا في قولِهِ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ إنْ عَلِمَ مِنْهُمْ أنَّهُمْ يَخْتَارُونَ مَا اخْتَارُوا، ويُرِيدُونَ مَا أرَادُوا فَإنَّمَا أرَادَ مَا كَانَ عَلِمَ مِنهمْ [أنَّهُمْ][13] يُرِيدُونَ مَا أرَادُوا[14]، وإنَّمَا أرَادَ مَا كَانَ عَلِمَ مِنْهُمْ أنَّهُمْ يُرِيدُونَ، ويَخْتَارُونَ. وكَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ إنْ[15] عَلِمَ أنَّهُ يُرِيدُهَا، ويَخْتَارُهَا فَإنَّمَا يُرِيدُ مَا أرَادَ هُوَ، ويَخْتَارُ.

---

(١) في الأصل وم: وصف. (٢) في الأصل: يهودي على، في م: يهودي على ظهر. (٣) في الأصل وم: أنزلت. (٤) في الأصل وم: نعت.
(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كانت. (٩) في الأصل وم: يعطوهم
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أراد.
(١٥) في الأصل وم: من.

وظاهِرُ الآيَةِ على المُعْتزِلَةِ لأنَّهُ قالَ: ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ وذلِكَ ظاهِرُ الخِلافِ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ الخِزْيُ في الدُّنيا القَتْلُ والعَذابُ والخَزيَةُ ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

يَحْتَمِلُ: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ أي مُسْتَمِعُونَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَعْرِفُوا، فَيَكْذِبُوا عَلَيهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي قَائِلُونَ: ما[1] أُلْقِيَ إِلَيهِمْ مِنَ الكَذِبِ كَانُوا يَقْبَلُونَ[2]، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كلُّ حَرَامٍ، هُوَ سُحْتٌ. وإنْ كَانَ السُّحْتُ اسْمَ كُلِّ حَرَامٍ فَذَلِكَ يَعُمُّ كلَّ حَرَامٍ وجَمِيعَ الكَفَرَةِ أو أكْثَرَهُمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: السُّحْتُ هُوَ الرَّشْوَةُ في الحُكْمِ. فَإنْ كَانَ السُّحْتُ هذا فَذَلِكَ يَرْجِعُ إلى رُؤَسَائِهِمُ الذينَ يَحْكُمُونَ في مَا بَيْنَهُمْ، ويأخُذُونَ على ذَلِكَ رَشْوَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ اخْتُلِفَ فِيهِ، قالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ على التَّخْيِيرِ إذا رَفَعُوا إلى الإمَامِ [أمْرَهُمْ][3] إنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنَهُمْ، وإنْ شاءَ أعْرَضَ، ولَمْ يَحْكُمْ. [وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ][4] مَنْسُوخٌ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ﴾ [الآية: ٤٩] أمْرٌ بِالحُكْمِ بَيْنَهُمْ، إذا جَاؤُوا، ونَهْيٌ أنْ يَتَّبِعَ أهْواءَهُمْ، وفي تَرْكِ الحُكْمِ بَيْنَهُمْ اتِّبَاعُ هَواهُمْ. قالُوا مَنْسُوخٌ بِهَذِهِ الآيَةِ.

وأمْكَنَ الجَمْعُ بَيْنَهُمْ، وهُوَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ في قَوْمٍ مِنْ أهْلِ الحَرْبِ دَخَلُوا دَارَ الإسْلامِ بِأمَانٍ، فَرَفَعُوا إلى الإمَامِ أمْرَهُمْ، فالإمَامُ بِالخِيارِ إنْ شَاءَ رَدَّهُمْ إلى مَأمَنِهِمْ، ونَقَضَ عَلَيهِمْ أمَانَهُمْ، ولَمْ يَحْكُمْ بَيْنَهُمْ، وإنْ شَاءَ [مَا][5] تَرَكَهُمْ، وحَكَمَ بينَهُمْ، فَذَلِكَ مَعْنَى التَّخْيِيرِ، واللهُ أعْلَمُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ﴾ ذَلِكَ في أهْلِ الذِّمَّةِ الرَّاضِينَ بِحُكْمِنَا؛ إذا رَفَعُوا إلى الحَاكِمِ [أمْرَهُمْ][6] يَجِبُ أنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ولا يَرُدَّ عَلَيهِمْ مَا طَلَبُوا مِنْ إجْرَاءِ الحُكْمِ عَلَيهِمْ لأنَّهُمْ بِهِ لَيسَ لَهُ فَسْخُ مَا أعْطَى لَهُمْ مِنَ العُهُودِ والمَوَاثِيقِ، وهُمْ قَدْ رَضُوا بِحُكْمِنَا. لِذَلِكَ أُلْزِمَ الحُكْمَ بَيْنَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

يَحْتَمِلُ أنْ يَقَعَ الإعْرَاضُ عَنْهُمْ مَوقِعَ الجَفَاءِ، ويَعُدُّوا[7] ذَلِكَ جَفَاءً، فَأمَّنَ[8] ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ أنْ يَلْحَقَهُ ضَرَرٌ مِنْهُمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ أي لَيسَ عَلَيكَ ضَرَرُ مَا هُمْ فِيهِ؛ فَإنَّمَا ضَرَرُ ذَلِكَ عليهِمْ، وهُوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وكَقَولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بِالعَدْلِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] وكَقَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ الآية [النساء: ٥٨].

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي العَادِلِينَ في الحُكْمِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ يُعَجِّبُ نَبِيَّهُ ﷺ [مِنْ][10] شِدَّةِ سَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ بِتَرْكِهِمُ الحُكْمَ بِالذي صَدَّقُوا وطَلَبِ الحُكْمِ بِمَا كَذَّبُوا لأنَّهُمْ صَدَّقُوا التَّوْرَاةَ ومَا فِيهَا مِنَ الحُكْمِ، وكَذَّبُوا مَا أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ، [عليهِ أفْضَلُ/ ١٣٠ ـ ب/ الصَّلَواتِ][11]. يَقُولُ، واللهُ أعْلَمُ: إنَّهُمْ إذا لِمْ يَعْمَلُوا[12] بِالذي صَدَّقُوا كَيفَ يَعْمَلُونَ بِالذي كَذَّبُوا؟ وذَلِكَ تَعْجِيبٌ مِنْهُ إيَّاهُ [مِنْ][13] شِدَّةِ السَّفَهِ والتَّعَنُّتِ.

---

(١) في الأصل: لا، في م: لما. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: لما ألقي إليهم من الكذب. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لكنه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويعدون. (٨) في الأصل وم: فامنه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في م: ﷺ. (١٢) في الأصل وم: يعلموا. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي حُكْمُ اللهِ الذي تَنازَعُوا فِيهِ، وتَشاجَرُوا رَجْماً كَانَ أو قِصاصاً أو مَا كَانَ، واللهُ أعْلَمُ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

يَحْتَمِلُ: ﴿يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ﴾ مَا تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ عَمَّا حَكَمْتَ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ﴾ مَا عَرَفُوا مِنَ الحُكْمِ عَلَيهِمْ بِمَا في التَّوراةِ][1].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾ في مَا تَحْكُمُ عَلَيهِمْ ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ أمَنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَرَّهُمْ ونَكْبَتَهُمْ، وأمَرَ أنْ يَخْشوهُ، يَكْفِيهِ شَرَّهُمْ وأذاهُمْ.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الرَّبَّانِيُّونَ عُلَماءُ اليَهُودِ، والأحْبارُ عُلَماءُ النَّصارَى، وهُمَا واحِدٌ؛ سُمُّوا بِاسْمَينِ مُخْتَلِفَينِ. وقِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ إنَّمَا خاطَبَ عُلَماءَهُمْ؛ أي ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾ إنْ تُخْبِروهُمْ بِالحُكْمِ الذي في التَّوراةِ ﴿وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لَهُمْ خَرَجَ الخِطابُ بِهَذا على التَّأويلِ الثَّاني.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هَكذا مَنْ جَحَدَ بِمَا أنْزَلَ اللهُ، ولَمْ يَرَهُ[3] حَقًّا فَهُوَ كافِرٌ. ذُكِرَ في القِصَّةِ أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في قَتِيلٍ كانَ بَيْنَ بَنِي قُرَيظَةَ وبَنِي النَّضِيرِ؛ إنَّ بَنِي النَّضِيرِ إذا قَتَلُوا [مِنْ][4] بَنِي قُرَيظَةَ لَمْ [يُعطوهُمُ القَوَدَ][5]، ولكنْ يُعْطُونَهُمُ الدِّيَةَ فَنَزَلَ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ إلى آخِرِهِ. أخْبَرَ اللهُ ﷻ أنَّهُ كَانَ كَتَبَ على أهْلِ التَّوْراةِ ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وقَدْ كَتَبَ عَلَينا أيضاً قَتْلَ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] كَأنَّهُ قالَ: كَتَبْتُ[6] عَلَيكُمُ القِصاصَ في القَتْلِ بِالنَّفْسِ كَمَا كُنتُ كَتَبْتُ عَلَيهِمْ. وأمَّا القِصاصُ في مَا دُونَ النَّفْسِ فَإنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ في الآيَةِ التي أخْبَرَ ﷻ أنَّهُ كَتَبَ عَلَينا القِصاصَ في القَتْلِ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ إلى مَا ذكَرَ وَجْهَينِ:

يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ إخْباراً عَمَّا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيهِمْ مِنَ القِصاصِ في مَا دُونَ النَّفْسِ كَالنَّفْسِ. ألا تَرَى أنَّهُ قُرِئَ في بَعْضِ القِراءاتِ بِالنَّصْبِ نَسَقاً[7] على الأوَّلِ؟

ويَحْتَمِلُ على الابْتِداءِ على غَيرِ إخْبارٍ مِنْهُ، ولكنْ على الإيجابِ ابْتِداءً.

والذي يَدلُّ على ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ هَذا في الخَبَرِ لأنَّ ذَلِكَ تَرْغِيبٌ في العَفْوِ في الحادِثِ مِنَ الوَقْتِ. دَلَّ أنَّهُ لَيسَ على الإخْبارِ، ولكنْ على الابْتِداءِ. ألا تَرى أكْثَرَ القُرَّاءِ قَرَؤُوا بِالرَّفْعِ غَيرَ قَولِهِ: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ فَإنَّهُ بِالنَّصْبِ؟

ثُمَّ ذَكَرَ ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ ولَمْ يَذْكُرِ اليَدَ والرِّجْلَ. وذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: لِمَ يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ القِصاصُ في اليَدِ ظَاهِراً[8]، فَيُسْتَدَلُّ بِوُجُوبِهِ في مَا هُوَ أظْهَرُ مِنْهُ لأنَّ المُنْتَفِعَ بِالبَصَرِ والأنْفِ والسَّمْعِ لَيسَ إلَّا صَاحِبُهُ، وقَدْ يَنْتَفِعُ غَيرُهُ بِيَدِ آخَرَ و بِرِجْلِهِ.

والثَّاني: أنْ يَكُونَ وجُوبُ القِصاصِ في اليَدِ في قَولِهِ: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

---

(١) ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يرِ. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يرضوا إلا بالقود. انظر ما أدرج في بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [الآية: ٤١]. والحكم في القتل بين بني النضير وبني قريظة ص٨٠ و٨٩. (٦) في الأصل وم: كتب. (٧) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر كلها بالنصب والجروح رفعاً وقرأ نافع وعاصم وحمزة جميع ذلك بالنصب، وقرأ الكسائي كلها بالرفع. انظر حجة القراءات ص (٢٢٥). (٨) في الأصل وم: ظاهر.

ثُمّ تخصيصُ الأسْنانِ بوجُوبِ القِصاصِ دُونَ غيرِهَا مِنَ العِظَامِ لأنَّ الأسْنانَ بَادِيةٌ ظَاهِرَةٌ، ويَقَعُ عَلَيهَا البَصَرُ، ويَقْدَرُ[1] على الاِقْتِصاصِ.

وأمّا غيرُهَا مِنَ العِظَامِ مِمّا لا يَقَعُ عَليهَا البَصَرُ، ولا يُقدَرُ على الاِقْتِصاصِ إلّا بَعْدَ كَسْرٍ آخَرَ وقَطْعِ لَحْمٍ، لِذَلِكَ خُصَّتِ الأسْنَانُ بِالاِقْتِصَاصِ دُونَ سَائِرِ العِظَامِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمّ فِيهِ دَلِيلُ وُجُوبِ القِصَاصِ في العُضْوِ[2] الذي لا مَنْفَعَةَ فِيهِ سِوَى البَهَاءِ بِذَهَابِ البَهَاءِ لأنَّهُ ذَكَرَ الأنفَ والأُذُنَ، ولَيسَ في الأنفِ والأُذنِ إلا[3] ذَهَابُ البَهَاءِ، فَأوْجَبَ في ذَهَابِ البَهَاءِ القِصاصَ كَمَا أوجَبَهُ[4] في ذَهَابِ المَنْفَعَةِ. وعلى هَذا يَخرُجُ قَوْلُنَا: وجُوبُ الدِّيَةِ في ذَهَابِ البَهَاءِ على الكَمَالِ كَوُجُوبِهَا في ذَهَابِ المَنْفَعَةِ على الكَمَالِ. على [أنّ][5] أهْلَ العِلْمِ مُجْمِعُونَ أنَّ القِصَاصَ وَاجِبٌ بَينَ الرِّجَالِ الأحْرَارِ في العَينِ والأنفِ والأُذنِ والسِّنِ والجُرُوحِ التي لَيْسَ فِيهَا كَسْرُ عَظْمٍ إذا جُنِيَ على شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ عَمْداً تحْدِيدُهُ. وأمّا القِصَاصُ بَينَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والعَبِيدِ والأحْرَارِ في مَا دُونَ النَّفْسِ فَأهْلُ العِلْمِ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وكَانَ أصْحَابُنَا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، لا يَرَوْنَ القِصَاصَ بَينَهُمْ في ذَلِكَ، ويَرَوْنَ القِصَاصَ في الأنْفُسِ. فَأهْلُ العِلْمِ اخْتَلَفُوا فِيهِ. والفَرقُ بَيْنَهُمَا أنَّ جَمَاعَةً لَو قَتَلُوا رَجُلاً قُتِلُوا بِهِ، ولَو قَطَعَ جَمَاعَةٌ يَدَ رَجُلٍ لَمْ تُقْطَعْ أيدِيهِمْ. فَالتَّفَاضُلُ في النَّفْسِ غَيرُ مُعْتَبَرٍ بِهِ، ويُعْتَبَرُ في مَا دُونَ النَّفْسِ، وقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ المَسْألَةَ في مَا تَقَدَّمَ ذِكْراً كَافِياً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ اخْتُلِفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَاحِبُ الدَّمِ، كَفّارةٌ لِمَا كَانَ ارْتَكَبَ هُوَ. وعلى ذَلِكَ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ [أنّهُ][6] قَالَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ فَمَا دُونَهُ كَانَ لَهُ كَفّارةٌ مِنْ يَومِ وُلِدَ إلى يَومِ تَصَدَّقَ» [أبو يعلى: ٦٨٦٩] وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يَعْنِي كَفّارَةً لِلقَاتِلِ إذا عَفَا الوَلِيُّ؛ وهُوَ قَولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما. وعَنْ مُجَاهِدٍ هُوَ كَفَّارَةٌ لِلجَارِحِ وأجْرٌ لِلمُتَصَدِّقِ على اللهِ. والأوّلُ كَأنَّهُ أقْرَبُ وأشْبَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هَذا إذا تَرَكَ الحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ جُحُوداً مِنْهُ فَهُوَ[7] كَافِرٌ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ قولُهُ تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتْبَعْنَا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ وهُوَ مِنَ القَضَاءِ. وقولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ الرُّسلَ. ويَحْتَمِلُ على آثَارِ الذينَ أنزلَ فِيهِمُ التَّوْرَاةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ مِنَ الضَّلالَةِ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿وَنُورٌ﴾ لِمَنِ اسْتَنَارَهُ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فَهَذا يَدُلُّ أنَّ الكُتُبَ كَانَتْ مُصَدِّقَةً بَعْضَهَا بَعْضاً على بُعْدِ أوْقَاتِ النُّزُولِ. جَلَّ اللهُ عَمّا يَقُولُ الظّالِمُونَ ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يَحْتَمِلُ: مَوْعِظَةً لِلْمُؤْمِنِينَ[8] لأنَّ المُؤْمِنَ هُوَ الذي يَتَّعِظُ بِهِ. وأمّا غَيرُ المُؤْمِنِ فَلا يَتَّعِظُ بِهِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا المَعَاصِيَ كُلَّهَا.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، وكَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] دلالةٌ [على][9] أنَّ القِصَاصَ لِلعِبَادِ خَاصّةً [حِينَ رَغَّبَهُمْ][10] في العَفْوِ عَنْهُ والتَّرْكِ لَهُ. لَيسَ كَالحُدُودِ التي هِيَ للهِ لأنّهُ لَمْ يَذْكُرْ في الحُدُودِ العَفْوَ ولا التَّصَدُّقَ بِهِ، وذَكَرَهُ[11] في القِصَاصِ والجِرَاحَاتِ. دَلَّ أنَّ ذَلِكَ لِلعَبْدِ؛ لَهُ تَرْكُهُ، وسائرَ الحُدُودِ للهِ، لَيسَ لأحَدٍ إبْطَالُهُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ذَكَرَ في مَوضِعٍ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الآية: ٤٤] وفي مَوضِعٍ: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية: ٤٥] وفي

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل العفو. (٣) في الأصل وم: لا. (٤) في الأصل وم: أوجب، وأدرج قبل كلمة أوجب في الأصل وم: كما أوجب في ذهاب الهاء القصاص. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: ما ذكر. (٨) في الأصل وم: للمتقين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث رغبه. (١١) في الأصل وم: ذكر.

مَوضِعِ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الآية: ٤٧] فَأَمْكَنَ أنْ يَكُونَ كُلُّهُ وَاحِداً[1]؛ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ جُحُوداً مِنْهُ لَهُ واسْتِخْفَافاً فَهُوَ كَافِرٌ ظَالِمٌ فَاسِقٌ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الكُفْرِ بِتَرْكِ الحُكْمِ بِهِ جُحُوداً مِنْهُ وإنْكاراً ومَا ذَكَرَ مِنَ الظُّلْمِ والفِسْقِ في المُسْلِمِينَ لأنَّهُ قالَ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ إلى آخِرِ مَا ذَكَرَ [الآية: ٤٥]، ثُمَّ قالَ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ ثُمَّ قالَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية: ٤٥] تَرَكُوا الحُكْمَ بِمَا أنْزَلَ اللهُ اتِّبَاعاً لأهْوَائِهِمْ[2] لا جُحُوداً فَقَدْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ لأنَّ الظُّلْمَ هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، والفِسْقُ هُوَ الخُرُوجُ عَنِ[3] الأمْرِ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أي خَرَجَ. ثُمَّ يَجِيءُ أنْ يَكُونَ هذا في حَالِ الجَهْلِ والعِلْمِ سَوَاءً لأنَّهُ إذا/ ١٣١ ـ أ/ ﴿لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الآية: ٤٥] فَقَدْ وَضَعَ الشَّيْءَ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وخَرَجَ عَنْ أمْرِهِ. لَكِنَّ هذا في القولِ يَقْبُحُ أنْ يُقَالَ: هُوَ ظَالِمٌ فَاسِقٌ. وهُوَ إنَّمَا يَفْعَلُ عَنْ جَهْلٍ بِهِ، ويَجُوزُ[4] أنْ يُقَالَ: فِعْلُهُ فِعْلُ ظُلْمٍ وفِسْقٍ. وأمَّا في القولِ فَهُوَ قَبِيحٌ لِمَا ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فِيهِ مِنَ الأحْكَامِ: أيُّ حُكْمٍ كانَ فَهُوَ مَا ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قَدْ ذَكَرْنا في مَا تَقَدَّمَ في غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَدْ ذَكَرْنا أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنَّهُ][6] قالَ: مُؤْتَمِناً عليهِ، والكسائيُّ: المُهَيْمِنُ الشَّدِيدُ. وقِيلَ: الرَّقِيبُ على الشَّيْءِ، وقِيلَ[7]: هَيْمَنَ فُلانٌ على هَذا الأمْرِ، فَهُوَ مُهَيْمِنٌ إذا كَانَ الحَافِظَ لَهُ و الرَّقِيبَ عَلَيهِ. وعنِ الحَسَنِ [أنَّهُ][8] قالَ: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ مُصَدِّقاً بِهَذِهِ الكُتُبِ وأميناً عَلَيها. والقُتَبِيُّ قالَ: أميناً عليهِ، وأبو عَوْسَجَةَ قالَ: مُسَلَّطاً عَلَيهِ. وَقِيلَ: مُفَسِّراً يُفَسِّرُ التَّفْسِيرَ. وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيْسَانِيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ هِيَ كَلِمَةٌ مَأخُوذَةٌ مِنْ كُتُبِهِمْ غَيْرُ مُعَرَّبَةٍ مِنْ لِسَانِ العَرَبِ. وفِيهِ إثْبَاتُ رِسَالَتِهِ ﷺ وتَأويلُهُ: هُوَ شَاهِدٌ وحَافِظٌ على غَيرِهِ مِنَ الكُتُبِ ومُصَدِّقٌ[9] لَها مِنْ عِنْدِ اللهِ نَزَلَتْ سِوَى مَا غَيَّرُوا فِيهَا، وحَرَّفُوهُ لِيَمِيزَ المُغَيَّرَ مِنْهَا والمُحَرَّفَ. قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ القُرْآنُ شَاهِدٌ على الكُتُبِ كُلِّهَا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الرَّجْمِ في الزَّانِي الثَّيِّبِ على مَا ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّهُمْ رَفَعُوا إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ [أمْرَهُمْ][10] في الزَّانِي والزَّانِيَةِ مِنْهُمْ، فَطَلَبُوا مِنْهُ الجَلْدَ، وكَانَ في كُتُبِهِمُ الرَّجْمُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بِقَولِهِمْ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة: ٤١] أو أنْ يُقَالَ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ مِنَ القَتْلِ لأنَّهُ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ [بَنِي النَّضِيرِ][11] كانُوا يَرَونَ لأنْفُسِهِمْ فَضِيلَةً على بَنِي قُرَيْظَةَ][12]، وكَانُوا إذا قَتَلُوا مِنْهُمْ أحَداً لَمْ يُعْطُوهُمُ القَوَدَ، [ولكنْ][13] يُعْطُونَهُمُ الدِّيَةَ، واللهُ أعْلَمُ بِالقِصَّةِ أنْ كَيْفَ كَانَتْ؟ ولَيسَ بِنَا إلى مَعْرِفَةِ القِصَّةِ ومَاهِيَّتِها حَاجَةٌ بَعْدَ مَا أُودِعَ فِيهِ، وأُدْرِجَ مِنَ المَعَانِي.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الآية، فَإنْ قِيلَ: كَيفَ نَهَاهُ عَنِ اتِّبَاعِ أهْوَائِهِمْ، وقَدْ أخْبَرَ ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وقَدْ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ مَا هَوُوا هُمْ شَرِيعَةً لَهُمْ؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ النَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُمْ، لا يَجُوزُ أنْ يَهْوَوُا الحُكْمَ بِشَرِيعَةٍ، قَدْ نُسِخَ الحُكْمُ بِهَا، لِمَا اعْتَادُوا العَمَلَ بِهَا. فَالعَمَلُ بِالمُعْتَادِ مِنَ الحُكْمِ أيْسَرُ، فَهَوُوا ذَلِكَ، أو كَانَ مَا نُسِخَ أخَفَّ، فَيَهْوَونَ، فَنَهَاهُ عنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُمْ لأنَّ العَمَلَ بِالمَنْسُوخِ حَرَامٌ. وإنْ كَانَ هُوَ في بَعضٍ على غَيرِهَا شَرَعَ، وفي بَعْضِ مَا شَرَعَ، فَمَا[14] نَهَى عنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُمْ بِمَا لَمْ يَشْرَعْ، فَإنَّمَا نَهَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ولَيسَ في نَسْخِ شَرِيعَةٍ بِشَرِيعَةٍ خُرُوجٌ عَنِ الحِكْمَةِ؛ مِنْ عُرْفِ النَّسْخِ بيانُ مُنْتَهَى الحُكْمِ إلى وَقْتٍ، لَيسَ على مَا فَهِمَتِ اليَهُودُ مِنَ البَدْءِ والرُّجُوعِ عَمَّا كَانَ، وقَدْ ذَكَرْنا الوَجْهَ في ذَلِكَ في مَا تَقَدَّمَ، مَا فِيهِ مُقْنِعٌ بِحَمْدِ اللهِ ومَنِّهِ وقولِهِ ﷻ.

---

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) في الأصل وم: لهواتهم. (٣) من م، في الأصل: عند. (٤) الواو ساقطة من الاصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ومصدقا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قريظة. (١٢) في الأصل وم: النضير. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل: ما نها، في م: فإنما.

قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ الشِّرْعَةُ هيَ السَّبيلُ، وهيَ الشَّريعَةُ، وجَمْعُها شَرائِعُ، وبِها سُمِّيتْ شَرائِعُ الإسْلامِ، وكُلُّ شيءٍ شَرَعْتَ فيهِ فَهُوَ شَريعَةٌ. وقالَ: المِنْهاجُ السُّنَّةُ، والشِّرْعَةُ هيَ السَّبيلُ. وقيلَ: الشِّرْعَةُ السُّنَّةُ، والمِنْهاجُ السَّبيلُ؛ يَعني الطَّريقَ الواضِحَ الذي يَتَّضِحُ لِكُلِّ سالِكٍ فيهِ إلّا المُعانِدَ والمُكابِرَ فإنَّهُ يَتْرُكُ السُّلوكَ فيهِ مُكابَرَةً. يُخبِرُ ﷻ واللهُ أعْلَمُ، أنَّهُ لَمْ يَتْرُكِ النّاسَ حَيارَى، لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمُ الطَّريقَ الواضِحَ يَسْلُكونَ فيهِ، بَلْ يُبَيِّنُ لَهُمْ ما يَتَّضِحُ لَهُمْ، إنْ لَمْ يُعانِدوا لِيَقْطَعَ لَهُمُ العُذْرَ والحِجاجَ، وإنْ لَمْ يَكُنْ حِجاجٌ، وباللهِ التَّوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قيلَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ جَميعاً على شَريعَةٍ واحِدَةٍ لا تُنْسَخُ بِشَريعَةٍ أخرى، لَكِنْ نَسَخَ بِشَريعَةٍ أُخرى لِفَضْلِ امْتِحانٍ، وللهِ أنْ يَمْتَحِنَ [عِبادَهُ بِمِحَنٍ][1] مُخْتَلِفَةٍ كَيفَ شاءَ وبِما شاءَ.

وقيلَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي على دينٍ واحِدٍ، وهُوَ دينُ الإسْلامِ، لم يَجْعَلْ كافِراً ولا مُشْرِكاً، ولَكِنِ امْتَحَنَكُمْ بِأدْيانٍ مُخْتَلِفَةٍ على ما تَخْتارونَ، وتُؤْثِرونَ. ثُمَّ اخْتُلِفَ في المَشيئَةِ: قالَتِ المُعْتَزِلَةُ: هيَ مَشيئَةُ الجَبْرِ والقَسْرِ. وقالَ أصْحابُنا: المَشيئَةُ مَشيئَةُ الاخْتِيارِ، وقَدْ ذَكَرْناها في غَيرِ مَوْضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قيلَ: سابِقوا يا أمَّةَ مُحَمَّدٍ الأُمَمَ كُلَّها بِالخَيْراتِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ إلى ما بِهِ تَسْتَوجِبونَ المَغْفِرَةَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. وأصْلُ قولِهِ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي اعْمَلُوا الخَيْراتِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ الآيةَ، [المؤمنون: ٥١].

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ نَهى رَسولَ اللهِ ﷺ أنْ يَتَّبِعَ أهْواءَهُمْ. والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ النَّهْيَ، بَلْ يُؤَيِّدُ، وقَدْ ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَرْجِعَ النَّهْيُ إلى غَيرِهِ؛ ويُرادُ بِالنَّهْيِ والأمْرِ غَيرُ المُخاطَبِ بِهِ على ما ذَكَرْنا مِنْ عادَةِ المُلوكِ أنَّهُمْ إذا خاطَبوا مَنْ هُوَ أجَلُّ عِنْدَهُمْ وأعْظَمُ [اتَّبَعوا أهْواءَهُمْ كَما طَلَبوا مِنْكَ][2] الجَلْدَ مَكانَ الرَّجْمِ والدِّيَةَ مَكانَ القِصاصِ وكَما رَأى بَنو النَّضيرِ إلى أنْفُسِهِمْ مِنَ الفَضْلِ على بَني قُرَيْظَةَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أنْ[3] يَصُدُّوكَ عَنِ الحُكْمِ ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والفِتْنَةُ هيَ المِحْنَةُ، وهيَ تَتَوَجَّهُ إلى وُجوهٍ، وقَدْ ذَكَرْنا الوُجوهَ فيما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فإنْ أعْرَضوا عَنِ الحُكْمِ الذي تَحْكُمُ بِما أنْزَلَ اللهُ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّما يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِبَعْضِ ذُنوبِهِمْ، لا يُعَذِّبُهُمْ بِجَميعِ ذُنوبِهِمْ.

وقالَ آخَرونَ: عَذابُ الدُّنْيا عَذابٌ بِبَعْضِ الذُّنوبِ لَيسَ هُوَ عَذاباً[4] بِكُلِّ الذُّنوبِ لأنَّهُ لا يَدومُ؛ وأمّا في الآخِرَةِ فَإنَّهُمْ يُعَذَّبونَ بِجَميعِ ذُنوبِهِمْ لأنَّ عَذابَ الآخِرَةِ دائِمٌ؛ فَهُوَ عَذابٌ بِجَميعِ الذُّنوبِ، وعَذابُ الدُّنْيا زائِلٌ؛ فَهُوَ عَذابٌ بِبَعْضِ الذُّنوبِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ هذا صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [الآية: ٤١] فَقالَ ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وقالَ آخَرونَ: رُويَ عَنِ [ابنِ][5] عباسٍ ﷺ [أنَّهُ قالَ: أفَحُكْمَهُمْ][6] في الجاهِلِيَّةِ يَبْغونَ عِنْدَكَ يا مُحَمَّدُ في القُرآنِ؟ يَعْني بَني النَّضيرِ.

---

(١) من م، ساقطة من الاصل. (٢) في الأصل وم: أهواءهم في ما طلبوا منك من. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: عذاب.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: فحكمهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أيْ لا أحدَ أحسَنُ مِنَ الله حُكْماً على إقرارِهِمْ أنَّ اللهَ إذا حَكَمَ لا يَحْكُمُ إلّا بالعَدْلِ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وُجُوهاً:

[أحَدُها][1]: يَحْتَمِلُ: لا تَتَّخِذُوهُمْ أوْلِياءَ في الدِّينِ؛ أي لا تَدِينُوا بِدِينِهِمْ فإنَّكُمْ إذا دِنْتُمْ بِدِينِهِمْ صِرْتُمْ أوْلِياءَهُمْ[2] في النَّصْرِ والمَعُونَةِ.

[والثّاني[3]: يَحْتَمِلُ: لا تَتَّخِذُوهُمْ أوْلِياءَ في النَّصرِ والمَعُونَةِ][4] لأنَّهُمْ إذا اتَّخَذُوهُمْ أوْلِياءَ في النَّصْرِ والمَعُونَةِ صارُوا أمْثالَهُمْ[5]، لأنَّهُمْ إذا نَصَرُوا الكُفّارَ على المُسْلِمِينَ، وأعانُوهُمْ، فَقَدْ كَفَرُوا، وهُوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٨] نَهاهُمْ أنْ يَتَّخِذُوا أولَئِكَ مَوْضِعَ سِرِّهِمْ/ ١٣١ ـ ب/ وخَفِيّاتِهِمْ. فَعَلى ذَلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

والثّالِثُ: [يَحْتَمِلُ][6]: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في المَكْسَبِ والدُّنْيا فإنَّهُمْ إذا فَعَلوا ذَلِكَ لابُدَّ مِنْ أنْ يَمِيلُوا إلَيهِمْ، ويَصْدُرُوا عَنْ رَأْيِهِمْ في شَيْءٍ، فَذَلِكَ مِمّا يُفَسِّقُهُمْ، ويُخْرِجُ شَهادَتَهُمْ. فَهَذا النَّهْيُ يَحْتَمِلُ هَذِهِ الوُجُوهَ الثَّلاثَةَ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وفي الآيَةِ دَلالَةٌ [على][7] أنَّ الكُفْرَ مِلَّةٌ واحِدَةٌ، وإنْ اخْتَلَفَتْ مَذاهِبُهُمْ، فالواجِبُ أنْ يَرِثَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِقَولِهِ[8] تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ كَما أنَّ أهْلَ الإسْلامِ يَرِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وإنْ اخْتَلَفَتْ مَذاهِبُهُمْ.

ألا تَرَى أنَّهُ قالَ [ﷻ][9] ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الآية [التوبة: ٧١] ولَيسَ ذَلِكَ بِداخِلٍ في قَولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ «لا يَتَوارَثُ أهْلُ مِلَّتَيْنِ» [الترمذي: ٢١٠٨] لِما عَلَيهِ الآيَةُ أنَّهُمْ كُلَّهُمْ مِلَّةٌ واحِدَةٌ؟ ولَكِنَّ أحَداً مِنْهُمْ لا يَرِثُ المُسْلِمَ لِقَولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «لا يَتَوارَثُ أهْلُ مِلَّتَيْنِ» فالإسْلامُ مِلَّةٌ حَقٌّ، والكُفْرُ مِلَّةٌ باطِلٌ، ولا نَرِثُهُمْ، ولا يَرِثُونَنا، وما رُوِيَ [عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ][10]: «لا نَرِثُ أهْلَ الكِتابِ، ولا يَرِثُونَنا إلا أنْ يَرِثَ الرَّجُلُ عَبْدَهُ وأمَتَهُ» [الطبراني في الأوسط: ٨٩١١] لَيسَ بِمِيراثٍ؛ إنَّما هُوَ مُلْكٌ كانَ يَمْلِكُهُ قَبْلَ مَوتِهِ، فَعَلى ذَلِكَ بَعْدَ مَوتِهِ. ورُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكافِرَ ولا الكافِرُ المُسْلِمَ» [البخاري: ٦٧٦٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ الوُجُوهُ التي ذَكَرْنا: الوَلايَةُ في الدِّينِ والوَلايَةُ في النَّصْرِ والمَعُونَةِ فإنَّهُمْ إذا فَعَلُوا ذَلِكَ صارُوا مِنْهُمْ في حُكْمِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، والوَلايَةُ[11] في المَكْسَبِ والدُّنْيا [فإنَّهُمْ إذا فَعَلُوا ذَلِكَ][12] فَيَصِيرُونَ مِنْهُمْ في حُكْمِ الدُّنْيا. فإنْ قِيلَ: ألَيسَ يَرِثُ المُسْلِمُ المُرْتَدَّ؟ وقَدْ قالَ [ﷻ][13]: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أخْبَرَ أنَّ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ[14] مِنَ المُسْلِمِينَ فَسَيَصِيرُ[15] مِنْهُمْ، ونَحْنُ لا نَرِثُ اليَهُودَ والنَّصارَى، كَيْفَ وَرِثَ مَنْ ضادَّ[16] المُسْلِمِينَ؟ قِيلَ: مَعْنَى قَولِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ في الدِّينِ والكُفْرِ لا في الحُكْمِ والحُقُوقِ، لأنَّ المُرْتَدَّ إلى النَّصْرانِيَّةِ لَيسَ بِمَتْرُوكٍ على دِينِهِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ أهْلِ تِلْكَ المِلَّةِ، وإنَّما المِلَّةُ ما تُقارَنُ على أهْلِها.

ألا تَرَى أنَّ المُرْتَدَّ لا يَرِثُ النَّصْرانِيَّ إنْ [كانَ قَرِيبَهُ][17]؟ فَلَو كانَتِ النَّصْرانِيَّةُ لَهُ مِلَّةً ورِثَهُ بِأهْلِها لأنّا نَعْلَمُ أنَّ النَّصارَى يَرِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَلَمّا لَمْ يَرِثُوهُ دَلَّ ذَلِكَ على أنَّهُ لَيسَ مِنْ مِلَّتِهِمْ، وأنَّ حُكْمَهُ في المِيراثِ حُكْمُ المِلَّةِ التي يُخْبِرُ عَنِ الرُّجُوعِ إلَيها. وعلى ذَلِكَ جاءَتِ الآثارُ عَنِ الصَّحابَةِ ﷺ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: أولياء. (٣) في م: و. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) أدرج بعدها في الأصل بعد هذه الكلمة العبارة التالية: لأنهم إذا نصروا أمثالهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كقوله. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أو الولاية. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: تولاهم. (١٥) في الأصل وم: صار. (١٦) في الأصل وم: صار. (١٧) في الأصل وم: كانوا أقرباءه.

رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُ أُتِيَ بِرَجُلٍ، ارْتَدَّ عَنِ الإِسْلامِ، فَعَرَضَ عَلَيهِ الإِسْلامَ، فَأَبَى، فَضَرَبَ عُنُقَهُ، وجَعَلَ مِيرَاثَهُ لِوَرَثَتِهِ المُسْلِمِينَ. وعنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ كَذَلِكَ. ورُوِيَ عَنْ زَيدِ بْنِ ثَابِتٍ مِثْلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَاهُ في مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هُمُ المُنافِقُونَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلى قَولِهِ تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٢٩و٣٠] وهُوَ وَصْفُ المُنافِقِينَ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ كَانُوا يظْهِرُونَ المُوَافَقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ خوفاً مِنْهُمْ، وفي السِّرِّ مَعَ الكَفَرَةِ لأنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ رَيبٍ وشكٍّ، ولا دِينَ لَهُمْ، يَمِيلُونَ إلى مَنْ رَأَوُا السَّعَةَ مَعَهُمْ والأمْنَ، وكَانُوا على شَكٍّ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وريبٍ ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ لَعَلَّ مُحَمَّداً لا يُنْصَرُ، ولا يَتِمُّ أَمْرُهُ، فَيُسِرُّونَ[1] في أَنْفُسِهِمُ المُوافَقَةَ لِلْكُفرِ والغِشَّ لِلإسْلامِ وأهْلِهِ، ويُظْهِرُونَ المُوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَمَّا كَانُوا يَسْتَمِعُونَ [إلى][2] رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَ النَّصرِ والظَّفَرِ، لِلْمُؤْمِنِينَ، لَكِنَّ ذَلِكَ لا يَتَحقَّقُ عِنْدَهُمْ، وكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية [النساء: ١٤٣] وكَانُوا يَنْتَظِرُونَ النَّصْرَ والظَّفَرَ، فَيَمِيلُونَ إلى حَيثُ كَانَ النَّصْرُ والظَّفَرُ، فَيَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ إنْ كَانَ الظَّفَرُ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ أي بِالنَّصرِ نَصْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ الظَّفَرِ لَهُ على أعْدائِهِ وفَتْحِ البُلْدَانِ والأمْصَارِ وإظْهَارِ دِينِهِ دِينِ الإِسْلام على مَا رُوِيَ [عَنِ النَّبِيِّ ﷺ][3]: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَينِ» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦] وعلى مَا فُتِحَ لَهُ البُلْدَانُ كُلُّهَا[4].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قِيلَ: عَذَابُ أُولَئِكَ الكَفَرَةِ وهَلاكُهُمْ فِي الدُّنيا ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ عِنْدَ العَذابِ والهَلاكِ، أو يَنْدَمُونَ في الآخِرَةِ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ العَذابِ بِمَا[5] أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنيا مِنَ المَوَدَّةِ لَهُمْ والعَدَاوَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، واللهُ أعْلَمُ.

وفِي قَولِهِ: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ دَلالَةُ إِثْبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ [ﷺ][6] لأنَّهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَقُولُوا ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ مِنْ حيثُ يَسْمَعُ أَهْلُ الإِسْلامِ ذَلِكَ مِنْهُمْ. دَلَّ ذَلِكَ لَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِالله [وذَلِكَ مَا][7] أَخْبَرَ مِنَ الوَعْدِ بِالنَّصْرِ لَهُ والظَّفَرِ، ثُمَّ كَانَ على مَا أَخْبرَ[8] ووَعَدَ، دَلَّ أَنَّهُ أَخْبرَ[9] عنِ اللهِ تعالى.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَمَّا ظَهَرَ نِفَاقُ أَهْلِ النِّفَاقِ، وقُتِلُوا[10] وافْتَضَحُوا كَقَولِهِ تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]. قَالَ المُؤْمِنُونَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ وقَدْ كَانُوا يُظْهِرُونَ المُوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ، ويَحْلِفُونَ بِاللهِ على ذَلِكَ، ويُضْمِرُونَ الخِلافَ لَهُم والعَدَاوَةَ والمَوَدَّةَ لِلْكَفَرَةِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤] [وكَقَولِهِ تعالى][11]: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي عَمِلُوهَا مِثْلُ[12] إِسْرَارِ ﴿مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢] إذ[13] أَسَرُّوا فِي ذَلِكَ ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ أي صَارُوا ﴿خَٰسِرِينَ﴾ بَعْدَ الافْتِضَاحِ حِينَ[14] ذَهَبَتْ مَنَافِعُهُمُ التي كَانَتْ قَبْلَ الافْتِضَاحِ وظُهُورِ نِفَاقِهِمْ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي عَمِلُوهَا ظَاهِراً مُرَاءَاةً لِلنَّاسِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ وإنْ كَانَ حَرْفَ تَوحِيدٍ وتَفْرِيدٍ فَإِنَّ المُرَادَ مِنْهُ الجَمَاعَةُ والعِصَابَةُ، ولأنَّ الوَاحِدَ أوِ الاثْنَينِ إذا ارْتَدَّ عَنِ الإِسْلامِ يُؤْخَذُ، ويُحْبَسُ، ويُقْتَلُ، إنْ أَبَى الإِسْلامَ، والجَمَاعَةَ إذا ارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلامِ احْتِيجَ إلى نَصْبِ الحَرْبِ والقِتَالِ على [مَا][15] نُصِبَ مَعَ أَهْلِ الرِّدَّةِ.

---

(١) في الأصل وم: وأسروا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فكلهم. (٥) في الأصل وم: ما.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وكذلك بما. (٨) في الأصل وم: أخبره. (٩) في الأصل وم: خبر. (١٠) في الأصل وم: قتلوا.
(١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: قبل. (١٣) في الأصل وم: إذا. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

وفي الآيةِ دَلالَةُ إمامَةِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ لأنَّ العَرَبَ لَمّا ارْتَدَّتْ عَنِ الإسْلامِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ حارَبَهُم، وكانَ هُوَ ومَنْ قامَ بِحَرْبِهِمْ مِمَّنْ أحَبَّ الله، وأحَبَّهُ اللهُ.

وعَنِ الحَسَنِ ﷺ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. أنه[1] قالَ، واللهِ [أعْلَمُ: هُمْ:][2] أبو بَكْرٍ وأصْحابُهُ ﷺ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦] يَدُلُّ على إمامَةِ أبي بَكْرٍ ﷺ لأنَّهُ كانَ الدّاعِيَ إلى حَرْبِ أهْلِ الرِّدَّةِ.

فإنْ[3] قِيلَ: يَجوزُ أنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الذي دَعاهُمْ قِيلَ لَهُ: قالَ الله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] فَمُحالٌ أنْ يَدْعُوَهُمْ، فَيُطِيعُوا، وقَدْ قالَ الله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾. فإنْ قِيلَ: قَدْ يَجوزُ أنْ يَكُونَ عُمَرُ ﷺ هُوَ الذي دَعاهُمْ قِيلَ لَهُ: فَإنْ كانَ فَإمامَةُ[4] عُمَرَ ﷺ ثابِتَةٌ بِدَليلِ الآيةِ. وإذا صَحَّتْ إمامَتُهُ صَحَّتْ إمامَةُ أبي بَكْرٍ ﷺ لأنَّهُ المُخْتارُ لَهُ والمُسْتَخْلَفُ. فإنْ قِيلَ: قَدْ يَجوزُ أنْ يَكُونَ عَلِيٌّ ﷺ هُوَ الذي دَعاهُمْ إلى مُحارَبَةِ مَنْ حارَبَ، قِيلَ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] وهَذِهِ صِفَةُ مَنْ يُحارِبُ/ ١٣٢ ـ أ/ مِنْ مُشْرِكي العَرَبِ الذينَ لا تُقْبَلُ مِنهُمُ الجِزْيَةُ. وعَلِيٌّ ﷺ إنَّما حارَبَ أهْلَ البَغْيِ، وهُمْ مُسْلِمونَ. ولَمْ يُحارِبْ أحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أهْلَ الرِّدَّةِ غَيرُ أبي بَكْرٍ ﷺ فَكانَتْ[5] الآيَةُ دَليلاً على صِحَّةِ إمامَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ ﴿فَسَوْفَ﴾ كَقَولِهِ: ﴿فَعَسَى﴾ [الآية: ٥٢] وال: عَسى واجِبٌ. أخْبَرَ ﷺ أنَّهُ ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ لِبَذْلِهِمْ أنْفُسَهُمْ في مُجاهَدَةِ أعْداءِ اللهِ وتَرْكِهِمْ في الله لَوْمَةَ لائِمٍ، فَذَلِكَ لِحُبِّهِمُ اللهَ لأنَّهُ لا أحَدَ يَبْذُلُ نَفْسَهُ لِلْهَلاكِ وتَرْكِ لَومَةِ لائِمٍ إلّا [مَنْ يُحِبُّونَ][6] الله، ويُحِبُّهُمُ اللهُ لِما أثْنى عَلَيهِمْ بِقَولِهِ: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ وحُبُّهُمْ للهِ لِما بَذَلُوا أنْفُسَهُمْ في مُجاهَدَةِ أعْدائِهِ وتَرْكِهِمْ لَومَةَ لائِمٍ. وفيهِ دَلالَةُ إثْباتِ إمامَةِ أبي بَكْرٍ ﷺ لأنَّهُ ﷺ أثْنى عَلَيهِمْ: بِخُرُوجِهِمْ في سَبيلِ اللهِ ومُجاهَدَةِ أعْدائِهِ. فَلَو كانَ غاصِباً ذَلِكَ على عَلِيٍّ ﷺ أو كانَ غَيرَ مُحِقٍّ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيُثْنِيَ عَلَيهِ بِذَلِكَ لأنَّهُ كانَ آخِذَ ما لَيسَ لَهُ ومُضَيِّعاً حَقًّا لِغَيرِهِ. ومَنْ كانَ هذا سَبِيلُهُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَوجِبُ كُلَّ هَذا الثَّناءِ مِنَ اللهِ تعالى. فَهَذا يَنْقُضُ على الرَّوافِضِ قَولَهُمْ وما رُوِيَ [عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ][7]: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَولاهُ» [الترمذي: ٣٧١٣] وغَيرُهُ مِنَ الأخْبارِ: وذَلِكَ في الوقْتِ الذي طَلَبَ عَلِيٌّ ﷺ الخِلافَةَ، وحارَبَ عَلَيها لأنَّهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَعْلَمَ أنَّ لَهُ الخِلافَةَ في زَمَنِ أبي بَكْرٍ ﷺ ويَرى الحَقَّ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَتْرُكَ طَلَبَها لأنَّهُ كانَ مُضَيِّعاً حَقَّ اللهِ عَلَيهِ. فَدَلَّ سُكُوتُهُ وتَرْكُ طَلَبِهِ على أنَّ الحَقَّ لَيسَ لَهُ، ولَكِنْ كانَ لأبي بَكْرٍ ﷺ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لِلْمُؤْمِنِينَ أي ذَوِي[8] رَحْمَةٍ ورَأْفَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي [ذَوِي مُشاقَّةٍ][9] شَدِيدَةٍ على الكافِرِينَ، وهُوَ ما وَصَفَهُمْ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ أي في طاعَةِ اللهِ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾. وقِيلَ: ذَلِكَ الإسْلامُ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ قَدْ ذَكَرْنا هَذا في غَيرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. قالَ بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هُوَ صِلَةُ قَولِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الآية: ٥١] وكَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الآية: ٥٧] هُوَ صِلَةُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. نَهى المُؤْمِنِينَ أنْ يَتَّخِذُوا ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ والذينَ لَمْ يُؤْتَوا الكِتابَ أولِياءَ في غَيرِ آيَةٍ[10] مِنَ القُرْآنِ وأخْبَرَ أنَّ اللهَ ورَسُولَهُ هُوَ وَلِيُّ الذينَ آمَنُوا، والمُؤْمِنِينَ أيْضاً بَعْضُهُمْ أولِياءُ بَعْضٍ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) من م، في الأصل: فإقامة. (٥) من م، في الأصل: لكانت.
(٦) في الأصل وم: لمن يحب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ذوو. (٩) في الأصل وم: شاقة. (١٠) في الأصل وم: آي.

[التوبة: ٧١]. فإذا كانَ اللهُ ﷻ ﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أولياءَ لِمَنْ آمَنَ لَمْ يَنْبَغِ أنْ [يَتخِذَ المُؤْمِنُونَ][1] الكُفّارَ أوْلِياءَ. وذُكِرَ في بَعْضِ القِصّةِ أنّ عَبْدَ الله بْنَ سَلامٍ قالَ لِلنَّبيِّ ﷺ: إنّ اليَهُودَ أظْهَرُوا لَنا العَداوَةَ مِنْ أجْلِ إسْلامِنا، وحَلَفُوا ألّا يُكَلِّمُونَا، ولا يُخالِطُونا في شَيْءٍ، ومَنازِلُنا فِيهِمْ، وإنّا لا نَجِدُ مُتَحَدَّثاً دُونَ هَذا المَسْجِدِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ، فَقالُوا: قَدْ رَضِينا بِاللهِ وبِرَسُولِهِ والمُؤْمِنِينَ أوْلِياءَ. ثُمّ اخْتُلِفَ في نُزُولِها[2]: قالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ في شأنِ عَلِيٍّ ؓ تَصَدَّقَ بِخاتَمِهِ. وهُوَ في الرُّكُوعِ. ويَقُولُونَ: «خرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فإذا هُوَ بِمِسْكِينٍ، فَدَعاهُ النَّبِيُّ ﷺ [فَقالَ: هَلْ أعْطاكَ أحَدٌ شَيْئاً؟ قالَ: نَعَمْ يا رَسُولَ الله. قالَ النَّبِيُّ ﷺ][3] ماذا؟ قالَ: خاتَمَ فِضّةٍ. قالَ: مَنْ أعْطاكَ؟ قالَ: ذَلِكَ الرَّجُلُ القائِمُ؛ يَعْنِي عَلِيّاً. قالَ النَّبِيُّ ﷺ على أيِّ حالٍ أعْطاكَ؟ قالَ: أعْطانِيهِ، وهُوَ راكِعٌ. فَكَبَّرَ النَّبِيُّ ﷺ ودَعا، لَهُ وأثْنَى عليهِ» [ابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٢٩٢].

فاحْتَجَّ الرَّوافِضُ بِهَذِهِ الآيَةِ على تَفْضِيلِ عَلِيِّ بْنِ أبي طالِبٍ ؓ وإثْباتِ الخِلافَةِ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ. ويَقُولُونَ: نَزَلَتْ في شأنِهِ ؓ لِمَا رُوِيَ عَنْ أبي جَعْفَرٍ ؓ [أنّهُ][4] قالَ: تَصَدَّقَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ ؓ بِخاتَمِهِ وهُوَ راكِعٌ، فَنَزَلَ [قولُهُ تعالى][5]: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [فَيُقالُ لَهُمْ: هَبُوا][6] أنّ الآيةَ نَزَلَتْ في شأنِهِ، ولَيْسَ فِيها دَلالَةُ إثْباتِ الخِلافَةِ في زَمَنِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ[7] ؓ لِأنّا قَدْ ذَكَرْنا في الآيَةِ الأولَى ما يَدُلُّ على إثْباتِ الإمامَةِ لَهُ في الوَقْتِ الذي كانَ هُوَ إماماً، ونَحْنُ لا نَجْعَلُ لِعَلِيٍّ، كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، الخِلافَةَ لَهُ في الوَقْتِ الذي لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ[8] الخِلافَةَ لأنّهُ رُوِيَ عَنْهُ أنّهُ قالَ: إنّ أبا بَكْرٍ هُوَ خَيْرُ النّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ أو كَلامٌ نَحْوُ هذا.

وفي الخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «لو وَلَّيْتُمْ أبا بَكْرٍ لَوَجَدْتُمُوهُ قَوِيّاً في دِينِهِ ضَعِيفاً في بَدَنِهِ، ولَوْ وَلَّيْتُمْ عُمَرَ لَوَجَدْتُمُوهُ قَوِيّاً في دِينِهِ وبَدَنِهِ، ولو وَلَّيْتُمْ عَلِيّاً لَوَجَدْتُمُوهُ هادِياً مَهْدِيّاً مُرْشِداً» [أحمد١: ١٠٩] فَنَقُولُ نَحْنُ على ما كانَ مِنْ عَلِيٍّ وسائِرِ الصَّحابَةِ ؓ مِنْ تَسْلِيمِ الأمْوالِ إلى أبي بَكْرٍ وتَفْوِيضِهِمْ إلَيْهِ مِنْ غَيرِ مُنازَعَةٍ ظَهَرَتْ عَنْ عَلِيٍّ، كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، في ذَلِكَ: لَوْ[9] كانَ الحَقُّ لَهُ في ذَلِكَ الوَقْتِ لَظَهَرَتْ مِنْهُ المُنازَعَةُ على ما ظَهَرَتْ في الوَقْتِ الذي كانَ لَهُ، فَقالُوا: لأنّ عَلِيّاً ؓ لَمْ يَكُنْ لَهُ أنْصارٌ، وفي الوَقْتِ الذي ظَهَرَتِ المُنازَعَةُ مِنْهُ والطَّلَبُ كانَ لَهُ أنْصارٌ. قِيلَ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ الحَقُّ لَهُ فِيها، ثُمّ لا يَطْلُبُ لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أنْصارٌ. ألا تَرَى أنّ أبا بَكْرٍ ؓ مَعَ ضَعْفِهِ في بَدَنِهِ، خَرَجَ وَحْدَهُ لِحَرْبِ أهْلِ الرِّدَّةِ حَتّى لَمّا رَأوْهُ خَرَجَ وَحْدَهُ حِينَئِذٍ تَبِعُوهُ؟ فَأبُو بَكْرٍ لَمْ يَتْرُكِ الحَقَّ لِعَدَمِ الأنْصارِ مَعَ ضَعْفِهِ في بَدَنِهِ. فَعَلِيٌّ ؓ مَعَ شِدَّتِهِ وقُوَّتِهِ وفَضْلِ عِلْمِهِ بِأمْرِ الحَرْبِ حَتّى لَمْ يُبارِزْ أحَداً مِنَ الأعْداءِ إلّا غَلَبَهُ، وأهْلَكَهُ. فَكَيْفَ تَوَهَّمْتُمْ فِيهِ تَرْكَ طَلَبِ الحَقِّ لِفَقْدِ الأنْصارِ لَهُ والأعْوانِ في ذَلِكَ؟ هذا لَعَمْرِي لا يُتَوَهَّمُ في أضْعَفِ أصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضْلاً أنْ يُتَوَهَّمَ في عَلِيٍّ ؓ فَدَلَّ تَرْكُ طَلَبِ ذَلِكَ مِنْهُ على أنّهُ تَرَكَ لَمّا رَأى الحَقَّ [لَيْسَ][10] لَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

واحْتَجُّوا بِمَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أنّهُ قالَ لِعَلِيٍّ: «أنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى غَيرَ أنْ لا نَبِيَّ بَعْدِي» [مسلم: ٢٤٠٤] وهارُونُ كانَ خَلِيفَةَ [مُوسَى، ومَا][11] فَكَرْتُمْ أيضاً أنّ عَلِيّاً ؓ كانَ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قِيلَ: لِهَذا جَوابانِ:

أحَدُهُما: أنّ قَوْلَهُ «أنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى» يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ في الأُخُوَّةِ التي آخاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ولَيْسَ في إثْباتِ الأُخُوَّةِ إثْباتُ الخِلافَةِ لَهُ.

والثّانِي: إنْ كانَتْ لَهُ الخِلافَةُ في الوَقْتِ الذي كانَ هُوَ، ولَيْسَ في الخَبَرِ جَعْلُ الخِلافَةِ لَهُ في الأوْقاتِ كُلِّها. وهَكَذا جَوابُ ما رُوِيَ عَنْهُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ» [الترمذي: ٣٧١٣] واللهُ أعْلَمُ.

ثُمّ إنّ الحَدِيثَ الذي رُوِيَ عَنْ أبي جَعْفَرٍ ؓ صَحِيحاً فَفِي الآيَةِ مَعْنَيانِ:

أحَدُهُما: فَضِيلَةُ عَلِيٍّ، كَرَّمَ الله وَجْهَهُ، وقَدْ كانَ كَثِيرَ الفَضائِلِ مُسْتَكْمِلاً خِصالَ الخَيْرِ.

---

(١) في الأصل وم: يتخذوا. (٢) في الأصل وم: نزوله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فقال لهم حب. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: نفسه. (٩) في الأصل وم: فلو. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: موسى ما، في م: ما.

والآخرُ: أنّ العَمَلَ اليَسِيرَ فِي الصَّلاةِ لا يُفْسِدُهَا.

وَقد رُوِيَ فِي بَعْضِ الأخبارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ/ ١٣٢ ـ ب/ أَنَّهُ خَلَعَ نَعْلَهُ فِي الصَّلاةِ وأنَّهُ لَمَسَ لِحْيَتَهُ وأنَّهُ أشَارَ بِيَدِهِ وغيرُ ذَلِكَ مِنَ العَمَلِ اليَسِيرِ فَعَلَهُ فِي الصَّلاةِ. فَيُقَاسُ كُلُّ عَمَلٍ يَسِيرٍ على مَا دَلَّ عَلَيهِ الخَبَرُ على جَوازِ الصَّلاةِ.

وفِيهِ وَجْهٌ آخرُ هُوَ أنَّ صَدَقَةَ[1] التَّطَوُّعِ تُسمَّى زَكَاةً لأنَّ صَدَقَةَ عَلِيٍّ ﷺ بِالخَاتَمِ لَمْ تَكُنْ صَدَقَةً مَفْرُوضَةً، بَلْ كَانَتْ تَطَوُّعاً، فَسَمَّاهَا اللهُ زَكَاةً، وإنْ كَانَتْ تَطَوُّعاً. ألا تَرَى أنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أخرَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾؟ [الروم: ٣٩] فَسَمَّاهَا اللهُ زَكَاةً كَمَا سَمَّى صلاةَ الفَرْضِ والتَّطَوُّعِ صلاةً، وصومَ التَّطَوُّعِ والفَرْضِ صِياماً. فَعلى ذَلِكَ هَذا. وظَاهِرُ الآيَةِ فِي جُمْلَةِ المُؤْمِنِينَ لَيسَ عَلِيٌّ ﷺ أوْلَى بِهَا مِنْ غَيْرِهِ. فَإنْ [كَانَتْ فِيهِ نَزَلَتْ][2] فَهُوَ مَا ذَكَرْنَا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ظَاهِرُ هَذا لَوْ صُرِفَ إلى أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ كَانَ أقْرَبَ لأنَّهُ كَانَ هُوَ الغَالِبَ على أهْلِ الرِّدَّةِ مِنْ أوَّلِ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ إلى آخِرِهِ. وعَلِيٌّ ﷺ إنَّمَا صَارَ الأمْرُ لَهُ فِي آخِرِهِ حِينَ حَارَبَ الخَوَارِجَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ إلى آخِرِهِ يَحْتَمِلُ النَّهْيُ عَنِ اتِّخاذِ أولَئِكَ وُجُوهاً:

يَحْتَمِلُ [النَّهيُ][3] بَعْدَ مَا اتَّخَذُوا أوْلِياءَ لا فِي الدِّينِ ولكنْ فِي بَعْضِ المَكَاسِبِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ النَّهْيُ لِلْمُنَافِقِينَ ألّا يَكُونُوا مَعَ أولَئِكَ على المُؤْمِنِينَ. وقَدْ ذَكَرْنَا هَذا فِي مَا تَقَدَّمَ. والحِزْبُ هُوَ العَونُ والنَّصْرُ فِي اللُّغَةِ. قَالَ الكِسَائِيُّ: تَقُولُ العَرَبُ: فُلانٌ حِزْبِي أي نَاصِرِي وعَوْنِي.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يُخبِرُ نَبِيَّهُ ﷺ غَايَةَ سَفَهِهِمْ بِصَنِيعِهِمْ إذا نُودِيَ إلى الصَّلاةِ لأنَّهُ ذُكِرَ فِي القِصَّةِ أنَّهُمْ إذا سَمِعُوا المُنَادِيَ يَقُولُ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلّا الله وأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ [قَالَ رِجَالٌ مِنَ النَّصَارَى][4] حُرِقَ الكَاذِبُ، وقَالُوا: واللهِ مَا نَعْلَمُ أهْلَ دِينٍ مِنْ هَذِهِ الأدْيانِ أقَلَّ حَظًّا فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ مِنْهُمْ؛ يَعْنُونَ مُحَمَّداً ﷺ وأصْحَابَهُ ﷺ فَدَخَلَتْ خَادِمُهُمْ لَيْلَةً مِنَ اللَيالِي بِنَارٍ وهُمْ[5] نِيامٌ، فَسَقَطَتْ شَرارَةٌ، فَحَرَقَتِ البَيْتَ وأهْلَهُ[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ نَفَى عَنْهُمُ العَقْلَ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا عَقَلُوا، وإلّا كَانُوا يَعْقِلُونَ. وعلى ذَلِكَ يَخْرُجُ قَوْلُهُ [تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾][7] [الأعراف: ١٧٩] إنَّا نَعْلَمُ أنَّهُمْ كَانُوا يُبْصِرُونَ، ويَسْمَعُونَ. لكنْ نَفَى عنهمْ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالبَصَرِ والسَّمْعِ واللِّسَانِ كَمَنْ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ فِي أصْلٍ، واللهُ أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً[8] آخَرَ، وهُوَ أنَّ شِدَّةَ بُغْضِهِمْ وحَسَدِهِمْ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ تَمْنَعُهُمْ عَنْ فَهْمِ مَا خُوطِبُوا بِهِ، وتَحُولُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ. كَانُوا كَمَنْ لَيسَ لَهُمْ ذَلِكَ رَأْساً.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ الآية، قِيلَ: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ تَطْعَنُونَ عَلَينا، وهُوَ قَولُ ابْنِ عَبَاسٍ ﷺ وقِيلَ: هَلْ تَعِيبُونَ علينا. وقَالَ أبُو عَوْسَجَةَ: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي تُنْكِرُونَ مِنّا، وهُوَ يَرْجِعُ إلى وَاحِدٍ. والنَّقْمُ هُوَ العَيْبُ والطَّعْنُ، والِانْتِقَامُ هُوَ الِانْتِصَارُ. ومَعْنَاهُ ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي كَيفَ تَطْعَنُونَ عَلَينا، وتَعِيبُونَ، وأنْتُم مِمَّنْ قَدْ دُعِيتُمْ إلى الإيمَانِ بِمَا أُنزِلَ فِي الكُتُبِ، وأنْتُم مِمَّنْ قَدْ أُوتِيتُمُ الكِتَابَ، وفِي كِتَابِكُمُ الإيمَانُ باللهِ والإيمَانُ بالكُتُبِ كُلِّهَا؟ فَكَيفَ تُنْكِرُونَ الإيمَانَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وتَعِيبُونَ عَلَينا ولا تَعِيبُونَ على أنْفُسِكُمْ بِفِسْقِكُمْ وخُرُوجِكُمْ عَنْ أمْرِ اللهِ تعالى وعَمَّا[9] أمَرَكُمْ كِتَابُكُمْ، ودَعَاكُمْ إلَيهِ، ونَهَاكُمْ عَمَّا أنْتُمْ فِيهِ. ومَا أُنْزِلَ إلَينا، هُوَ[10]

---

(١) في الأصل وم: الصدقة. (٢) في الأصل: كان فيه نزل، في م: كان فيه نزول. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: قالوا. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: واحترق هو وأهله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجه. (٩) في الأصل وم: ومما. (١٠) في الأصل وم: وهو.

القُرْآنُ، وهُوَ يُصَدِّقُ مَا قَبْلَهُ مِنَ الكُتُبِ ومَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ مِنَ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ مِنَ التَّوْرَاةِ والزَّبُورِ والإِنْجِيلِ، وهِيَ تُصَدِّقُ القُرْآنَ؛ بَعْضُهَا يُصَدِّقُ بَعضاً؟ فَكَيفَ تُنكِرُونَ الإِيمَانَ بِهِ؟

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ الآيةِ؛ ذَكَرَ هَذا، واللهُ أعْلَمُ، على إثْرِ قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ على إثْرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الآية [الآية: ٥٨] وذلكَ أنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَهزِئُونَ بِالمُؤمِنِينَ، ويَضحَكُونَ مِنْهُمْ، ويَطعَنُونَ فِي دِينِهِمْ، ويَعِيبُونَ عَلَيهِمْ. فَقالَ على إثْرِ ذَلِكَ: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي مِمَّا المُؤْمِنُونَ عَلَيهِ؟ ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ قالوا: مَنْ؟ قالَ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ الآيَة. فَمَنْ كَانَ هَذا وَصْفُهُ فَهُوَ شَرٌّ مِمَّا عليهِ المُؤْمِنُونَ؛ وقَدْ كَانَ فِيهِمْ جَمِيعُ ذَلِكَ مِمَّا غَضِبَ اللهُ عَلَيهِمْ، ولَعَنَهُمْ. أي حَوَّلَ جَوهَرَهُمْ إلى أقْبَحِ جَوَاهِرَ وأوْحَشِهَا، وهِيَ القِرَدَةُ والخَنَازِيرُ بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ، أو يَكُونُ ذَلِكَ على إثْرِ قَولِ مَا قَالُوا مَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ القِصَّةِ: واللهِ مَا نَعْلَمُ مِنْ أهْلِ دِينٍ أقَلَّ حَظًّا فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ مِنْ هَؤُلاءِ؛ يَعْنُونَ المُؤْمِنِينَ[1]، لأنَّهُمْ كانُوا يَدَّعُونَ أنَّ الدُّنْيا والآخِرَةَ لَهُمْ، ولَيْسَ لِهَؤُلاءِ دُنْيا ولا آخِرَةٌ. قالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ثَواباً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، فَقالُوا: مَنْ هُمْ؟ قالَ ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ والمَلْعُونُ هُوَ المَطْرُودُ عَنِ الخَيراتِ. وجَعَلَ مَنْ حَوَّلَ جَوْهَرَهُ إلى جَوهَرِ [القِرْدِ والخِنْزِيرِ][2] أقْبَحَ جَوهَرٍ فِي الطَّبْعِ والعَقْلِ وأوْحَشَهُ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ يَعْنِي الشَّيطانَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فِي الدُّنْيا لِمَا حَوَّلَ جَوْهَرَهُمْ إلى أقْبَحِ جَوهَرٍ فِي الأرضِ مِنَ الذينَ لَمْ يُحَوِّلْ جَوْهَرَهُمْ إلى ذَلِكَ؛ إذْ لَمْ يَرَوا أحَداً مِنَ المُؤْمِنِينَ حُوِّلَ جَوْهَرُهُ إلى جَوهَرِ مَنْ ذُكِرَ، وقَدْ رَأَوا كَثِيراً مِنْ أوائِلِهِمْ قَدْ حُوِّلُوا مِنْ جَوْهَرِهِمْ إلى هَذِهِ الجَوَاهِرِ المُسْتَقْبَحَةِ فِي الطَّبْعِ المُؤْذِيَةِ. ويَحْتَمِلُ[4] أنْ يَكُونَ على الإضْمارِ على إثْرِ أمْرٍ كَانَ، ونَحْنُ لَمْ نَعْلَمْ بِهِ، فَنَزَلَ عِنْدَ ذَلِكَ.

وعَنِ الحَسَنِ [أنَّهُ][5] قالَ: قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ، والذينَ غَضِبَ عَلَيهِمْ والذينَ عَبَدُوا الطَّاغُوتَ والذينَ جَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ؛ مِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ قِرداً[6]، ومِنْهُمْ مَنْ أبْقَى عَلَى جَوْهَرِهِ الذي كَانَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي أخْطأُ طَرِيقاً ودِيناً، واللهُ أعْلَمُ بِالقِصَّةِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ قِيلَ: إنَّ الآيَةَ فِي اليَهُودِ، وقِيلَ: إنَّهَا فِي المُنَافِقِينَ، وهِيَ فِي المُنَافِقِينَ أشْبَهُ؛ ذَكَرَ أنَّهُمْ كَانُوا يَدْخُلُونَ على النَّبِيِّ ﷺ ويُظْهِرُونَ المُوافَقَةَ لَهُ، ويُخْبِرُونَهُ أنَّهُمْ يَجِدُونَ بَعْثَهُ[7] ﷺ وصِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ، ويُضمِرُونَ الخِلافَ لَهُ فِي السِّرِّ، ويَهْزَؤُونَ[8] بِهِ. فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أخْبَرَ تعالى ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ أنَّهُمْ دَخَلُوا بِالكُفْرِ لأنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً، وعلى ذَلِكَ خَرَجُوا.

فَفِيهِ دَلالَةُ إثْبَاتِ رِسَالَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّهُ أخْبَرَ عَمَّا أضْمَرُوا لِيَعْلَمُوا أنَّهُ إنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ بِالذي يَعْلَمُ الغَيبَ مَعَ عِلْمِهِمْ أنَّهُ لا يَعْلَمُ إلا اللهُ، واللهُ أعْلَمُ، بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ، ويُضْمِرُونَ مِنَ الكُفْرِ والهُزْءِ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ الآيَة. يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ مِنْ مُلُوكِهِمْ وعَوَامِّهِمْ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ﴾ أي فِي قَولِ الكُفْرِ ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ هُوَ المُجَاوَزَةُ عَنِ الحَدِّ الذي حَدَّ لَهُمْ، ويُسَارِعُونَ أيضاً فِي أكْلِ السُّحْتِ. والسُّحْتُ قِيلَ: هُوَ كُلُّ مُحَرَّمٍ، وقِيلَ هُوَ الرِّشْوَةُ فِي الحُكْمِ.

وعَنْ عُمَرَ ﷺ أنَّهُ قالَ: الرِّشْوَةُ هِيَ الكُفْرُ، وأمَّا السُّحْتُ هُوَ أنْ يَدْفَعَ[9] حَاجَةَ أخِيهِ إلى السُّلْطَانِ، [فَيأكُلَهَا مَعَهُ][10]، وقَدْ ذَكَرْنَا هَذا فِي مَا تَقَدَّمَ[11].

---

(١) في الأصل وم: المؤمنون. (٢) في الأصل وم: القردة والخنزير وهو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قردة. (٧) في الأصل وم: نعته. (٨) في الأصل وم: وهزؤوا به. (٩) في الأصل وم: يرفع. (١٠) في الأصل وم: فيأكل عنده. (١١) كان ذلك في تفسير الآية (٤٢) من السورة.

الآية ٦٣ [وقولُهُ تعالى:](1) على إثرِ ذَلِكَ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ/ ١٣٣ ـ أ/ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ عاتَبَ اللهُ ﷻ الرَّبَّانِيِّينَ والأحبارَ على تَرْكِهِمْ نَهْيَ أُولَئِكَ عَنْ صَنِيعِهِمْ واشْتِرَاكِهِمْ(2) في الإثْمِ شَرْعاً سَوَاءً لِيَعْلَمُوا أنَّ العَامِلَ بالإثْمِ والمَعْصِيَةِ والرَّاضِيَ بِهِ والتَّارِكَ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ سَوَاءٌ. وفِيهِ دَلالَةٌ أنَّ تارِكَ النَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ يَلْحَقُهُ مِنَ الإثْمِ مَا يَلْحَقُ الفَاعِلَ بِهِ.

[وقولُهُ تعالى](3) ﴿ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ الآية. قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي مَحْبُوسَةٌ مَمْنُوعَةٌ عَنْ تَعْذِيبِنَا لِقَولِهِمْ ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [الآية: ١٨]. وقولُهُ تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فِي الآخِرَةِ بالسَّلاسِلِ إلى أعْنَاقِهِمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. بالمَغْفِرَةِ والتَّعْذِيبِ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٨ وآل عمران: ١٢٩و...].

وقالَ ابنُ عَباسٍ ﷺ قولُهُمْ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ لا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أنَّ يَدَهُ مُوثَقَةٌ مَغْلُولَةٌ حَقِيقَةَ اليَدِ والغُلِّ، ولكنْ وَصَفُوهُ بالبُخْلِ، وقالُوا: أمْسَكَ مَا عِنْدَهُ بُخْلاً مِنْهُ. تعالى اللهُ عنْ ذَلِكَ.

وقالَ آخَرُونَ: إنَّ اللهَ، تَبارَكَ، وتعالى، قَدْ كَانَ بَسَطَ عَلَى اليَهُودِ الرِّزْقَ فَكَانُوا(4) مِنْ أخْصَبِ النَّاسِ وأكْثَرِهِمْ خَيْراً. فَلَمَّا عَصَوُا اللهَ فِي مُحَمَّدٍ، [عَلَيهِ أفْضَلُ الصَّلَواتِ](5)، وكَفَرُوا بِهِ، وبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً بالنِّعْمَةِ، كَفَّ اللهُ تعالى عنهُمْ بَعْضَ الذي كَانَ بَسَطَ عَلَيهِمْ مِنَ السَّعَةِ فِي الرِّزْقِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ لم يَقُولُوا: يَدُهُ مَغْلُولَةٌ إلى عُنُقِهِ، ولكنْ مُمْسِكَةٌ عَنْهُمُ الرِّزْقَ، فَلا تُبْسَطُ كَمَا كَانَ يَبْسُطُ، وهُوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] نَهْيٌ عَنِ البُخْلِ فِي الإنْفَاقِ، لا أنَّهُ أرادَ حَقِيقَةَ [غُلِّ يَدِهِ](6) إلى عُنُقِهِ. فَعَلى ذَلِكَ قَولُهُمْ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كِنَايَةٌ عنِ البُخْلِ ووَصْفٍ بِهِ، لا حَقِيقَةَ الغُلِّ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وتَأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ على هَذا التَّأويلِ أي أيدِيهِمْ هِيَ المُمْسَكَةُ عَنِ الإنْفَاقِ، وهُمُ المَوْصُوفُونَ بالبُخْلِ والشُّحِّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي نِعَمُهُ مَبْسُوطَةٌ؛ يُوسِعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، ويَقْتُرُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ. وفِي حَرْفِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ بَلْ يَدَاهُ بُسْطَانِ. قالَ الفَرَّاءُ: يُقَالُ: وَجْهٌ مَبْسُوطٌ(7)، ووَجْهٌ بُسْطٌ.

ثُمَّ لا يُحْتَمَلُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ إضَافَةِ اليَدِ إلى اللهِ مَا يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ لما وُجِدَ إضَافَةُ اليَدِ إلى مَنْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ لَهُ اليَدُ. مِنْ ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]. لا يُفْهَمُ مِنَ القُرْآنِ اليَدُ كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ فَعَلى ذَلِكَ لا يَجُوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ إضَافَةِ اليَدِ إلى اللهِ تعالى كَمَا فُهِمَ مِنَ الخَلْقِ. ألا تَرى أنَّهُ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] [وقالَ](8): ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] لَمْ يُفْهَمْ مِنْهُ اليَدُ نَفْسُهَا؟(9) وكَذَلِكَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؟ [آل عمران: ١٨٢] لكنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إلى اليَدِ لِمَا باليَدِ يُقَدِّمُ، ويُعْطِي، ويَكْسِبُ. ألا تَرى أنَّهُ قالَ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؟ [الحجرات: ١]؟ ومَعْلُومٌ أنَّهُ لَمْ يُفْهَمْ مِنَ اليَدِ نَفْسُهَا، ولكنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إلَيهِ لِمَا ذَكَرْنَا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ قِيلَ: عُذِّبُوا بِمَا قالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ واللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ. كَأنَّهُ قالَ: طُرِدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللهِ، ولا يُؤْمِنُونَ(10)، فَمَاتُوا على ذَلِكَ. فَذَلِكَ دَليلُ رِسَالَتِهِ، ﷺ واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قِيلَ فِيهِ بِوَجْهَينِ:

قِيلَ: يَزِيدُ مَا أنْزَلَ اللهُ إلَيكَ مِنَ القُرْآنِ كَثِيراً مِنْهُمْ، يَعْنِي اليَهُودَ ﴿طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال. (٢) في الأصل وم: وأشركهم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: فكانت. (٥) في م: ﷺ. (٦) في الأصل وم: عن اليد. (٧) في الأصل وم: مبسوطة. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نفسه. (١٠) في الأصل م: يؤمنوا.

وقيل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِنَ البيانِ عمّا تركُوا مِن بَعْثِهِ وصِفَتِهِ[1] [اللَّذينِ كَانَا][2] في كِتابِهِمْ، ومَا حَرَّفُوا فِيهِ، وغَيَّرُوهُ مِنَ الأحكام. فَذلِكَ مِمَّا زَادَهُمْ ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

قِيلَ: ﴿طُغْيَانًا﴾ أي تَمَادياً بالمَعْصِيةِ ﴿وَكُفْرًا﴾ بالقُرآنِ. وقِيلَ: الطُّغيانُ هُوَ العُدْوانُ، وهُوَ المُجاوَزَةُ عَنِ الحَدِّ الذي حُدَّ. فَإنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى إضَافَةِ زِيادَةِ الطُّغيانِ إلى القُرآنِ، والقُرآنُ لا يَزِيدُ طُغْيَاناً ولا كُفراً؟ قِيلَ: إضَافَةُ الأفعالِ إلى الأشْياءِ تَكُونُ لِوُجُوهٍ[3] ثَلاثَةٍ: مِنْهَا مَا يُضَافُ لِحَقِيقَةِ الفِعْلِ لَهَا[4]. ومِنْهَا مَا يُضَافُ لِلأحْوالِ. ومِنْهَا مَا يُضَافُ لِمَكانٍ مَا بِهِ يَكُونُ الفِعْلُ. وهَهُنَا أُضِيفَ ذَلِكَ إلى القُرآنِ لِمَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الطُّغيانِ والكُفرِ لِمَا كَانَ مَا أُنزِلَ إلَيهِمْ بِالكُفرِ الذي كَانَ فِيهِمْ. وهُوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. ﴿إِنَّهُنَّ﴾ لا يُضْلِلْنَ أحداً في الحَقِيقَةِ، ولكنْ لِمَا صَارُوا بِهِنَّ ضُلَّالاً، أُضِيفَ [الإضلالُ][5] إليهِنَّ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧] والحَياةُ الدُّنيا لا تَغُرُّ أحداً. ولكنْ لِمَا لو كَانَتْ لَهَا حَواسُّ لَكَانَ مَا بَدَتْ مِنَ الزِّينَةِ، لَغَرَّتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اختَلَفُوا فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ بَينَ اليَهُودِ والنَّصارى أي لا يُحِبُّ اليَهُودِيُّ نَصْرانِيًّا ولا النَّصْرانِيُّ يَهُودِيًّا. وقالَ آخَرُونَ: ﴿بَيْنَهُمُ﴾ أي بَينَ اليَهُودِ؛ لأنَّ اليَهُودَ عَلى مَذاهِبَ مُخْتَلِفَةٍ وأهْواءٍ مُشَتَّتَةٍ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ومِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُ مَذْهَبَ التَّشْبِيهِ. هُمْ على أهْواءٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ فَبَيْنَهُمْ عَداوَةٌ وبَغضاءُ على مَا ذَكَرَ الاختِلافَ الوَاقِعَ بَيْنَهُمْ. ثُمَّ إنَّ مَعْنَى مَا أضَافَ مِنْ إلْقَاءِ العَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ إلى نَفْسِهِ لا يَخْلُو: إمَّا أنْ يَكُونَ لَهُ في نَفْسِ العَدَاوَةِ فِعْلُهُ. وإمَّا[6] أنْ يَكُونَ في سَبَبِ العَدَاوَةِ.

ولا يَجُوزُ أنْ يَكُونَ لَهُ في فِعْلِ العَدَاوَةِ صُنْعٌ لأنَّهُ فِعْلُهُمْ، ولا في سَبَبِ العَدَاوَةِ أيْضاً لأنَّ سَبَبَهَا[7] الاخْتِلافُ، والاخْتِلافُ فِعْلُهُمْ أيْضاً. فَإذا بَطَلَ أنْ يَكُونَ لَهُ في وَاحِدٍ مِنْ هَذينِ صُنْعٌ دَلَّ أنَّ لَهُ ذَلِكَ مِنَ الوجهِ الآخَرِ؛ وَهُوَ أنْ خَلَقَ فِعْلَ العَدَاوَةِ وسَبَبَ العَدَاوَةِ مِنْهُ، وباللهِ التَّوفِيقُ والعِصْمَةُ.

فَإنْ قِيلَ: ذَكَرَ هَهُنَا أنَّهُ تعالى ألْقَى بَينَهُمُ العَدَاوَةَ، وذَكَرَ في آيَةٍ أُخرَى أنَّ بَعْضَهُمْ أوْلِياءُ بَعْضٍ بِقَولِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الآية: ٥١] كيفَ يَجمَعُ بَيْنَهُما؟ قِيلَ: ﴿أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في أصْلِ الدِّينِ، وهُوَ الكُفْرُ، وبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ لاخْتِلافِ الأهْواءِ والمَذاهِبِ، واللهُ أعْلَمُ.

وفي الآيَةِ دَلالَةُ الامْتِنانِ على رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا أخبَرَ أنَّهُ ألْقَى بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ. ولو كَانُوا على مَذْهَبٍ واحِدٍ، ولَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمُ اخْتِلافٌ وعَدَاوَةٌ لَكَانَ ذَلِكَ عَلَيهِ أشَدَّ، وفي المُقامِ بَيْنَهُمْ أصْعَبَ. لكنْ مَنَّ عَلَيهِ بِالاخْتِلافِ في مَا بَينَهُمْ لَمَّا جَعَلَ الاخْتِلافَ والتَّنازُعَ سَبَبَ الفَشَلِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ الآية [الأنفال: ٤٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُمَا[8]: كُلَّمَا أرَادُوا مَكْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأجْمَعُوا أمْرَهُمْ على قَتْلِهِ أطْلَعَ نَبِيَّهُ ﷺ على ذَلِكَ حَتَّى لَمْ يَقْدِرُوا على مَكْرِهِ.

والثَّاني: كُلَّمَا انْتَصَبُوا لِلْحَرْبِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ واجْتَمَعُوا عَلَيهِ، فَرَّقَ اللهُ شَمْلَهُمْ، وجَعَلَهُمْ بِحَيثُ لا يَجْتَمِعُونَ على ذَلِكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ أيضاً:

أحَدُهُمَا[9]: السَّعْيُ بِالفَسَادِ على حَقِيقَةِ المَشْيِ على الأقْدَامِ، وهُوَ مَا كَانُوا يَسْعَونَ في نَصْبِ الحَرْبِ مَعَ المُؤْمِنِينَ والاتِّصالِ بِغَيرِهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ والاسْتِعَانَةِ بِهِمْ، فَذَلِكَ هُوَ السَّعْيُ في الأرْضِ بِالفَسَادِ.

والثَّاني: مَا كَتَمُوا مِنْ بَعْثِ[10] الرَّسُولِ وصِفَتِهِ، وحَرَّفُوا مَا في كُتُبِهِمْ مِنْ أعْلامِ نُبُوَّتِهِ وآياتِ رِسَالَتِهِ، ودَعَوُا النَّاسَ إلى غَيرِ مَا نَزَلَ فِيهِ؛ وذَلِكَ سَعْيٌ في الأرْضِ بِالفَسَادِ، وباللهِ التَّوفِيقُ.

---

(١) في الأصل وم: نعته. (٢) في الأصل وم: التي كانت. (٣) من م، في الأصل: الوجوه. (٤) ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: سببه. (٨) في الأصل وم: يحتمل. (٩) في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: نعت.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لأنَّهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ، ولا يَرْضى بِهِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا/ ١٣٣ - ب/ وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عامَلَ اللهُ ﷻ خَلْقَهُ مُعامَلَةَ أكْرَمِ الأكْرَمينَ حِينَ[1] وَعَدَ لَهُمُ المَغْفِرَةَ وتَكْفِيرَ مَا ارْتَكَبُوا فِي حَالِ الكُفْرِ قَولَهُمْ فِي اللهِ مِنَ القَبِيحِ الوَحْشِ، لَو آمَنُوا، واتَّقَوُا الذي قالُوا في اللهِ، وهُوَ كَمَا قالَ اللهُ: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، واللهُ أعْلَمُ: إنهُ إنْ تابَ، ورَجَعَ عَنْ صَنِيعِهِ، يَرْجِعْ عنْ جَمِيعِ مَا كَانَ مِنْهُ، ويَندَمْ على ذَلِكَ، ويَتَمَنَّ أنْ يَكُونَ مَا كَانَ مِنْهُ فِي تِلْكَ الحَالِ مِنَ الشَّرِّ خَيراً. فَهُوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] لأنَّهُمْ يَنْدَمُونَ على تِلْكَ السَّيِّئاتِ التي كَانَتْ مِنْهُمْ، ويَتَمَنَّوْنَ أنْ يَكُونَ الذي كَانَ مِنْهُمْ فِي تِلْكَ الحَالِ خَيراً لا شَرّاً.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: [﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ أنَّهُمْ لو عَمِلُوا بِمَا فِي التَّوراةِ والإنْجِيلِ وبِمَا أُنزِلَ إلَيهِمْ مِنَ القُرْآنِ ﴿لَأَكَلُوا مِن﴾ كذا. ويَحْتَمِلُ][2] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ورَجَعُوا عَمَّا حَرَّفُوا فِيهِما[3]، وغَيَّرُوهُ، وكَتَمُوهُ مِنْ بَعْثِ[4] سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ وصِفَتِهِ ومَا فِيهِمَا[5] مِنَ الأحْكامِ لَكَانَ لَهُمْ مَا ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وذَلِكَ لأنَّهُمْ[6] كانُوا يَخافُونَ الضِّيقَ إذا أسْلَمُوا؛ وهُوَ، واللهُ أعْلَمُ، وذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧] فأخْبَرَ اللهُ ﷻ أنهُمْ لو آمَنُوا، واتَّقَوُا الشِّرْكَ، لَوَسَّعَ عليهِمُ العَيْشَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ ليسَ على حَقيقةِ الأكْلِ، ولكنْ يَخْرُجُ على المُبالَغةِ في الوَصْفِ والذِّكْرِ كما يُقالُ: فلانٌ مِنْ قَرْنِ رأسِهِ إلى قَدَمِهِ في نِعْمَةٍ [ليسَ][7] على حَقِيقةِ ما وَصَفَ، ولكنْ على المُبالَغةِ في الوَصْفِ بالسَّعَةِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حَقيقةِ الأكْلِ.

أمّا ما يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الأرجلِ فهوَ ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ مِنَ المَأكُولِ والمَشْرُوبِ، و﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ مِنَ الثِّمارِ والفَواكِهِ فهوَ[8] مِنَ الأشجارِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ الجبالَ[9]، و﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ الأرضَ إخباراً أنْ يكونَ [ما أُنزلَ في][10] الجَبَلِ والسَّهْلِ جميعاً.

وقيلَ: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي أرْسَلَ اللهُ عليهِمْ مِدْراراً ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ تُخْرِجُ الأرضُ بَرَكَتَها، وتُنْبِتُ الثَّمَرَةَ. وقالَ قَتادةُ: لأَعْطَتْهُمُ الأرضُ نَباتَها، والسماءُ بَرَكَتَها، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ قِيلَ فيهِ بوجهَينِ: [قِيلَ: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ مَنْ أسْلَمَ، وقيلَ:][11] ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ على كتابٍ لم يُحَرِّفُوهُ، ولا غَيَّرُوهُ، ولا كَتَمُوا شيئاً، ولا سَعَوا في الأرضِ بالفَسادِ على ما عَمِلَ أكْثَرُهُمْ مِنَ التَّحْريفِ والتَّغْييرِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، وذلكَ أنَّ أهلَ الكُفْرِ كانُوا على طَبَقاتٍ ثَلاثٍ: مِنْهُمْ مَنْ يَقولُ: لَنْ نُؤْمِنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي بَيْنَ يَدَيهِ، وقولُهُمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا﴾ [فصلت: ٢٦]، ومِنهُمْ مَنْ كانَ يُخَوِّفُهُ، ويَمْكُرُ بهِ، لِيَقْتُلُوهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠]، ومِنهُمْ مَنْ كانَ يَعْرِضُ عليهِ النساءَ والقُصورَ لِيَتْرُكَ ذلكَ، وألّا يَدْعُوَهُمْ إلى دِينِهِ الذي هو عليهِ.

كانُوا على الوجوهِ التي ذَكَرْنا، فأمَرَ اللهُ ﷻ أنْ يَقومَ على تَبْليغِ رِسالَتِهِ، وألّا يَمْنَعَهُ ما يَخْشَى مِنْ مَكْرِهِمْ وكَيْدِهِمْ على قَتْلِهِ. لأنَّ المرءَ قد يَمْتَنِعُ عنِ القِيامِ بِما[12] عليهِ إذا كُذِّبَ في القومِ، ولَحِقَهُ أذًى بذلكَ[13]. فَأمَرَ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ [ﷺ][14] بِتَبْليغِ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: نعت. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) في الأصل وم: أنهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يخرج. (٩) في الأصل وم: وهد الجبال. (١٠) في الأصل وم: نزل. (١١) من م، في الأصل: قيل. (١٢) في الأصل وم: لما. (١٣) في الأصل وم: لذلك. (١٤) ساقطة من م.

ما أُنزِلَ إليهِ، وإنْ خَشِيَ على نَفْسِهِ الهلاكَ أوِ التكذيبَ في القولِ والأذى وتَرْكِ طَلَبِ المُوالاةِ. أي لا يَمْنَعُكَ شيءٌ مِن ذلكَ مِنْ تَبليغِ ما أُنزِلَ إليكَ.

أو أنْ يكونَ الأمْرُ بِتَبْلِيغِ الرسالةِ في حادثِ الوَقْتِ أنْ تُبَلِّغَ ما أُنزِلَ إليكَ مِنَ البيانِ كما بُلِّغْتَ تَنْزيلاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤] أخْبَرَ ﷻ أنهُ إنما [أرسَلَ][1] الرسلَ على لِسانِ قومِهِمْ لِيُبَيِّنوا لَهُمْ. فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ أي وإنْ [لم][2] تُبَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ لِما تَخْشى مِنَ الهلاكِ والمَكْرِ بكَ فكأنكَ[3] لم تُبَلِّغِ الرسالةَ رَأْساً. لم يُعَذِّبْ نَبِيَّهُ ﷺ في تَرْكِ تَبليغِ الرسالةِ. وإنْ خافَ على نَفْسِهِ الهَلاكَ، ليسَ كَمَنْ أُكْرِهَ على الكُفْرِ أُبيحَ لهُ أنْ يَتَكَلَّمَ بِكلامِ الكُفْرِ بَعْدَ أنْ يكونَ قَلْبُهُ مُطْمَئِناً بالإيمانِ[4] إذا خافَ الهَلاكَ عَلَى نَفْسِهِ. ولم يُبِحْ لهُ تَرْكَ تَبليغِ الرِّسالةِ، وإنْ خَشِيَ على نَفْسِهِ الهَلاكَ.

ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، أنَّ تَبليغَ الرسالةِ يَتَعَلَّقُ[5] باللسانِ دونَ القَلْبِ، والإيمانُ تَعَلُّقُهُ بالقَلْبِ دونَ اللسانِ. فإذا أُكْرِهَ على الكُفْرِ أُبيحَ لهُ التَّكَلُّمُ بهِ بَعْدَ أنْ يكونَ القَلْبُ على حالِهِ مُطْمَئِناً بالإيمانِ.

وأمّا الرسالةُ فلا سَبيلَ أنْ يُبَلِّغَها إلّا باللِّسانِ. لِذلكَ لم يُبِحْ لهُ تَرْكَها، وإنْ خافَ[6] الهلاكَ. ولِهذا يَدُلُّ قولُنا في المُكْرَهِ بالطلاقِ والعِتاقِ: إنهُ إذا تَكَلَّمَ بهِ عَمِلَ لِتَعَلُّقِهِما باللِّسانِ دونَ القَلْبِ. فالإكراهُ لا يَمْنَعُ نَفاذَ ما تَعَلَّقَ باللِّسانِ دونَ القَلْبِ كالرسالةِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾ أي لم تُبَلِّغِ الرِّسالةَ في حادثٍ فكأنْ لم تُبَلِّغْ في ما مَضى أو إنْ لم تُبَلِّغِ البَيانَ كما بَلَّغْتَ التَّنزيلَ في ما بَلَّغْتَ الرِّسالةَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ دليلُ إثباتِ رسالَتِهِ ﷺ لأنهُ ﷻ أخْبَرَ أنهُ عَصَمَهُ مِنَ الناسِ، فكانَ ما قالَ، فَدَلَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ باللهِ. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] كانَ يقولُ بَيْنَ ظَهرانَي الكَفَرَةِ[7]: كِيدوني جَميعاً، ثم لَمْ يَلْحَقْهُ مِنْ كَيدِهِمْ شيءٌ. دلَّ أنهُ كانَ باللهِ تعالى [مُعْتَصِماً][8].

وعنْ عائشةَ رضي الله عنها [أنها قالَتْ][9]: كانَ النَّبِيُّ ﷺ [يَحْرُسُهُ أصْحابُهُ][10]. فلمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ قالَ: «انْصَرِفُوا إلى منازِلِكُمْ فإنَّ اللهَ عَصَمَني مِنَ الناسِ» [القرطبي ٦/ ١٨٠] فانْصَرَفُوا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أي بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ والبراهينِ التي جَعَلَها اللهُ أعلاماً لِرسالَتِكَ وآثاراً لِنُبُوَّتِكَ، لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ لابتداءِ الكلامِ بِمِثْلِ هذا لا[11] عنْ قولٍ أو دَعْوى تَسْبِقُ، وليسَ في الآيةِ بَيانُ ما كانَ مِنْهُمْ ما ادَّعَوا أنهُمْ على دِينِ اللهِ وعلى وَلايَتِهِ، أو ما قالُوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [الآية: ١٨] أو [ما][12] قالُوا: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١] أو نَحْوُ ذلكَ مِنْ أمانِيِّهِمْ ودَعاواهُمُ التي ادَّعَوا لأنفُسِهِمْ. فقالَ لِرسولِهِ: ﴿قُلۡ﴾ لهم ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾.

قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي حتى تُقيموا ما حَرَّفْتُمْ، وغَيَّرْتُمْ مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ، وبَدَّلْتُمْ، وتَسْتَوُوا على ما أُنزِلَ، وتُؤْمِنُوا بهِ. وقالَ غَيْرُهُ: قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ بِالشَّهادَةِ والتَّصْديقِ لِما فيهِما.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كأن. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. (٥) في الأصل وم: تعلق. (٦) في الأصل وم: خافه. (٧) في الأصل وم: الكفر. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يحرس. (١١) من م، في الأصل: إلا. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

وعن ابنِ عباسٍ ﷺ [أنه قال][(١)]: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ حتى تَعلَموا بما في التَّوراةِ والإنجيلِ مِنْ صِفَةِ محمدٍ ونَعْتِهِ ومَبعَثِهِ ونُبُوَّتِهِ ﷺ وتُبيِّنوهُ لِلنَّاسِ، ولا تكتُموهُ[(٢)]. وما ذَكَرْنا واحِدٌ.

[وقولُهُ تعالى][(٣)]: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مِنْ كُتُبِ أنبيائِكُمْ، وحتى تُقِيمُوا أيضاً ما أُنزِلَ مِنَ الكُتُبِ كُتُبِ الرُّسُلِ أجْمَعَ. لأنَّ الإيمانَ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وبِبَعْضِ الكتبِ، والكُفرَ بِبَعْضٍ لا يَنفَعُ حتّى يُؤْمِنَ بالرسلِ كلِّهِمْ وبالكُتُبِ جُمْلَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قد ذَكَرْنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآنُ مِنْ أمرِ الرَّجمِ والقِصاصِ ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ هوَ [ما][(٤)] أمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ [ﷺ][(٥)] أنْ يُبلِّغَ ما أُنزِلَ عليهِ بِقولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الآية: ٦٧]

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا تَحزَنْ على كُفرِهم كقولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ونَحْوُ قولِهِ تعالى/ ١٣٤ - أ/: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ هُمُ الذينَ آمَنُوا بألسِنَتِهِمْ، ولم تُؤمِنْ قُلوبُهُمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الذينَ، آمَنُوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ، لم يَتَسَمَّوا باليَهوديَّةِ، ولا بالنَّصْرانِيَّةِ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ مَنْ هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعْلَمُ: وإنِ اختَلَفَتْ أديانُهُمْ، وتَفَرَّقَتْ مَذاهِبُهُمْ، لو آمَنُوا باللهِ وما ذُكِرَ فلا خِلافَ عليهِمْ بما كانَ مِنهُمْ في حالِ كُفرِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فَوْتِ ما أعطاهُمْ أي لا يَفُوتُهُمْ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قد أخَذَ اللهُ ﷻ الميثاقَ على جَميعِ البَشَرِ، وخَصَّهُمْ بهِ دُونَ غيرِهِمْ مِنَ الخَلائقِ لِما رَكَّبَ فيهِمْ ما يَعْرِفُ كُلٌّ بهِ شَهادةَ الخِلْقَةِ على وَحدانيَّةِ ربِّهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم خَصَّ بَنِي إسرائيلَ مِنَ البَشَرِ بِفَضْلِ الميثاقِ كمَا أرْسَلَ إليهِمُ الرُّسُلَ مِنهُمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ وكأنَّهُمْ قد قَبِلُوا تلكَ المَواثيقَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرِهِ [الآية: ١٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] كانَ مِنَ اللهِ عَهْدٌ، فأخبَرَ أنهُمْ إذا أوفَوا بِعَهْدِهِ يُوفي بِعَهْدِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ في الآيةِ دلالةُ أنهُمْ كانُوا يُخالِفُونَ دِينَ الرُّسُلِ بأجْمَعِهِمْ لِما أحْدَثُوا مِنِ اتِّباعِ أهوائِهِمْ[(٦)]، وأنَّ الرُّسُلَ، وإنِ اختَلَفَتْ أوقاتُ مَجيئِهِمْ، فإنهُمْ إنما يَدْعُونَ بأجْمَعِهِمْ إلى دِينٍ واحِدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ مِنهُمْ مَنْ كَذَّبَ، ومِنهُمْ مَنْ قَتَلَ. لكنَّ القَتْلَ إنْ كانَ فَهُوَ في الأنبياءِ غَيرِ الرُّسُلِ لأنهُ تعالى قالَ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] أخبَرَ أنهُ يَنصُرُ رُسُلَهُ، وليسَ في القَتْلِ نَصْرٌ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي فَريقاً قَصَدُوا قَصْدَ قَتْلِهِمْ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ولم يُبَيِّنْ ما الفِتْنَةُ التي حَسِبُوا ألّا تكونَ؟ فأهلُ[(٧)] التأويلِ اختَلَفُوا فيها: قالَ قائلونَ: الفِتْنَةُ المِحْنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ؛ حَسِبُوا ألّا يأتِيَهُمُ الرُّسُلُ بامْتِحانِهِمْ على خِلافِ هَواهُمْ. بلْ جاءَهُمُ الرُّسُلُ لِيُمْتَحَنُوا على خِلافِ ما أحْدَثُوا مِنْ هَوَى أنْفُسِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تكتمونه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: ﷺ. (٦) في الأصل وم: هوائهم. (٧) في الأصل وم: قائل.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي هَلاكٌ وعَذابٌ تكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وقَصْدُهُمْ قَصْدَ قَتْلِهِمْ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ ألّا يكونَ شَرٌّ. وقيلَ: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي حَسِبُوا ألّا يُبْتَلَوا بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ وبِقَتْلِهِمُ الأنبياءَ بالبَلاءِ والقَحْطِ ﴿فَعَمُواْ﴾ عنِ الهُدَى، فَلَمْ يُبْصِرُوهُ ﴿وَصَمُّواْ﴾ عَنِ الهُدَى فَلَمْ يَسْمَعُوا لِما لم يَنْتَفِعُوا بِهِ.

[وقولُهُ تعالى:][1] ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ﴾ فَدَفَعَ عنهُمُ البَلاءَ، فَلَمْ يَتُوبُوا بَعْدَ رَفْعِ البلاءِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ ما ذَكَرَهُ في آيةٍ أُخْرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية [الإسراء: ٤ و٥ و٦]. تابُوا مَرَّةً، ثم رَجَعُوا، ثم تابُوا. فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ الآيةَ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ الآيةَ. يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷺ: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ [وجهَينِ:

أحدُهُما:][2]: أي كَفَرُوا بِعِيسَى لأنَّ عِيسَى كَذَّبَهُمْ في قولِهِمْ[3]: إنهُ ابْنُ اللهِ بقولِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ الآية، وبِقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [آل عمران: ٥١] وبقولِهِ: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية [مريم: ٣٠]. أخْبَرَ أنهُ عَبْدُ اللهِ لَيسَ هو إلهاً ولا ابْنَهُ. تعالَى اللهُ عَنْ ذلكَ.

والثاني: كَفَرُوا بِعِلْمِهِمْ لأنَّهُمْ عَلِمُوا أنهُ ابْنُ مَرْيَمَ، وسَمَّوهُ ابْنَ مَرْيَمَ، ثم قالُوا: هو اللهُ أوِ ابْنُ اللهِ. فإنْ كانَ ابْنَ مَرْيَمَ أنّى تكونُ لهُ أُلوهيَّةٌ؟ فإذا كانَتْ أُمُّهُ لم تَسْتَحِقَّ الأُلوهيَّةَ، وهي أقْدَمُ مِنْهُ، كيفَ تكونُ لِمَنْ بَعْدَها؟ ولكنْ لِسَفَهِهِمْ قالُوا ذلكَ. تَعالَى اللهُ عَنْ ذلكَ عُلُوّاً كَبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ إذا حَرَّمَ عليهِ الجَنَّةَ صارَ مَأْواهُ النارَ.

وقيلَ: سُمِّيَ مَسيحاً؛ قالَ الحَسَنُ: سُمِّيَ ذلكَ لأنهُ مَمْسوحٌ بالبَرَكاتِ، وسُمِّيَ الدَّجالُ مَسيحاً لأنهُ مَمْسوحٌ باللَّعْنَةِ.

وقيلَ: المَسيحُ بِمَعْنَى الماسِحِ، وذلكَ جائِزٌ: الفَعيلُ بِمَعْنَى الفاعِلِ؛ وهو ما كانَ يَمْسَحُ المَريضَ والأكْمَهَ، فَيَبْرَأُ، ويَمْسَحُ المَوْتَى، فَيَحْيَوْنَ، ومِثْلُ ذلكَ، فَسُمِّيَ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

والفَعيلُ بِمَعْنَى المَفْعولِ جائزٌ أيضاً؛ يُقالُ: جَريحٌ ومَجْروحٌ، وقَتيلٌ ومَقْتولٌ. هذا كُلُّهُ جائِزٌ في اللُّغَةِ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحدُهُما][4]: كَفَروا بِعِلْمِهِمْ [لأنَّهُمْ][5] عَلِمُوا بِوَحْدانِيَّتِهِ، فكيفَ يكونُ ثالِثَ ثَلاثَةٍ، وهو واحِدٌ؟ فإذا قالُوا: هو اللهُ، فلا يكونُ هناكَ ثانٍ، ولا ثالِثٌ، وذلكَ تَناقُضٌ في العَقْلِ.

والثاني: [كَفَروا لأنَّهُمْ][6] لم يَرَوا غَيرَ اللهِ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ[7]، ولا رَأَوا أحداً خَلَقَهُمْ سِوَى اللهِ[8]، كيفَ سَمَّوا [مَنْ][9] دُونَهُ إلهاً، ولم يَخْلُقْ ما ذَكَرْنا؟ إنما خَلَقَ ذلكَ اللهُ الذي لا إلهَ غَيرُهُ؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ أي يَعْلَمُونَ أنهُ لا إلهَ إلّا اللهُ، إلهٌ واحِدٌ. لكنَّهُمْ يَتَعَنَّتُونَ، ويُكابِرُونَ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ عمّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ﴾ عن مقالَتِهِمُ الشِّرْكَ؟ فإنْ فَعَلُوا فإنَّ اللهَ ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وباللهِ العِصْمَةُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قوله. (٤) في الأصل وم: قوله تعالى. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أنهم. (٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: ٦١و...]. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٥ وقولهُ تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ في الآيةِ دَلالةُ المُحاجَّةِ مَعَ الفريقَينِ [في وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُمْ][1] كانُوا فَريقَينِ؛ أحَدُ الفَريقَينِ كانُوا يكفُرونَ أنهُ رسولٌ، والفريقُ الآخَرُ يَدَّعُونَ لهُ الرُّبُوبِيَّةَ والأُلُوهِيَّةَ. فقالَ: إنهُ ابْنُ مَرْيَمَ، وابْنُ مَرْيَمَ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ إلهاً.

والثاني: أخْبَرَ أنهُ ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِ عِيسَى رُسُلٌ مَعَ آياتٍ وبراهِينَ. لم يَقُلْ أحَدٌ مِنَ الأمَمِ السالِفَةِ أنهُمْ كانُوا آلِهةً، فَكيفَ قُلْتُمْ أنْتُمْ بأنَّ عِيسَى إلهٌ؟ وإنْ كانَ مَعَهُ آياتٌ وبَراهِينُ لِرِسالتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ قيلَ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الأقذارِ كُلِّها صالِحَةٌ. وقيلَ: ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ تُشبِهُ النَّبِيِّينَ؛ وذلكَ أنَّ جِبْريلَ عليه السلام لَمّا أتاها، وقالَ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] صَدَّقَتْهُ كَتَصْدِيقِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الملائكةَ. وأمّا سائِرُ الخَلائِقِ إنَّما يُصَدِّقونَ المَلائِكةَ بإخْبارِ الرُّسُلِ إيّاهُمْ، وهي إنما صَدَّقَتْ جِبْريلَ بإخبارِهِ [إياها][2] أنهُ مَلَكٌ وأنهُ رسولٌ. لِذلكَ سُمِّيَتْ صِدِّيقةً، واللهُ أعْلَمُ.

وقيلَ: كُلُّ مُؤْمِنٍ صِدِّيقٌ كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ الآية [الحديد: ١٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فيهِ الاِحْتِجاجُ عَلَيهِمْ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الجُوعَ كانَ يَغْلِبُهُما، ويَحُوجُهُما إلى أنْ يَدْفَعا ذلكَ عَنْ نَفْسَيهِما[3]. ومَنْ غَلَبَهُ الجُوعُ، وقَهَرَهُ، كيفَ يَصْلُحُ أنْ يكونَ رَبًّا إلَهاً؟.

والثاني: أنَّهُما إذا احْتاجا إلى الطَّعامِ لابُدَّ مِنْ أنْ يَدْفَعَهُما ذلكَ إلى إزالَةِ الأذى عَنْ نَفْسَيهِما[4] ودَفْعِهِ والقِيامِ في أخْبَثِ الأماكِنِ وأقبَحِها. فَمَنْ دُفِعَ إلى ذلكَ لا يكونُ إلَهاً. تعالى اللهُ عَنْ ذلكَ عُلُوًّا كَبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ والآياتُ ما ذَكَرَ مِنْ وَجْهَيِ[5] المُحاجَّةِ عليهِمْ:

أحَدُهُما[6]: أنهُ ابْنُ/ ١٣٤ ـ ب/ مَرْيَمَ؛ ومَنْ كانَ ابْنَ آخَرَ لا يكونُ إلَهاً.

والثاني: مَنْ أكَلَ الطَّعامَ احْتاجَ أنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ الأذى، ويَقُومَ في أخْبَثِ مكانٍ. ومَنْ كانَ هذا أمْرُهُ لَمْ يَكُنْ رَبًّا. وليسَ في القُرْآنِ، واللهُ أعْلَمُ، آيَةٌ أكْثَرُ ولا أبْيَنُ احْتِجاجاً على النَّصارى[7] ولا أقْطَعُ لِقولِهِمْ [مِنْ][8] هذهِ الآيَةِ لِلْمَعاني[9] التي وَصَفْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي مِنْ أينَ يَكْذِبُونَ؟ قالَ أبو عُبَيدَةَ: يُؤْفَكُونَ يُصْرَفُونَ، ويُحادُونَ عَنِ الحَقِّ. كُلُّ مَنْ صَرَفْتَهُ عَنْ شَيءٍ فَقَدْ أفِكْتَهُ. ويُقالُ: أُفِكَتِ الأرضُ إذا صُرِفَ عَنْهَا القَطْرُ كقولِهِ[10] تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩].

وقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه: ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨] قالَ: أضَلَّهُمْ فَقَدْ صَرَفَهُمْ عَنِ الهُدَى.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الإفْكُ عِنْدِي الصَّرْفُ عَنِ الحَقِّ، وفي الأصلِ: الإفْكُ الكَذِبُ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الحَقِّ، ويَعْدِلُونَ. وقيلَ: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يُخْدَعُونَ بالكَذِبِ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ إنْ خالَفْتُمُوهُ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ إنْ أطَعْتُمُوهُ. وقيلَ: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ إنْ كانَ اللهُ أرادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ إنْ أحَلَّ[11] بِكُمُ الضُّرَّ أي لا تَمْلِكُونَ دَفْعَهُ عَنْكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لِنِسْبَتِكُمْ عِيسَى إليهِ، تعالى ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِعِبادَتِكُمْ غيرَ اللهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿السَّمِيعُ﴾ المُجِيبُ لِدُعائِكُمْ ﴿الْعَلِيمُ﴾ لِنِيّاتِكُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لأنهم. (٢) ساقطة من الاصل وم. (٣) في الأصل وم: أنفسهما. (٤) في الأصل وم: أنفسهما. (٥) في الأصل وم: وجوه. (٦) في الأصل وم: أحدُها. (٧) في الأصل وم: وأولئك. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: المعاني. (١٠) في الأصل وم: وقوله. (١١) في م: حل.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ خاطَبَ اللهُ ﷻ بالنَّهْيِ عَنِ الغُلُوِّ في الدِّينِ أهْلَ الكتابِ، لم يُخاطِبْ أهْلَ الشِّرْكِ بذلكَ في ما خاطَبَ كقولِهِ[1]: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وذلكَ أنَّ أهْلَ الكِتابِ ادَّعَوا أنَّهُمْ على دِينِ الأنْبِياءِ والرُّسُلِ كانُوا مِنْ قَبْلُ، فَنَهاهُمُ اللهُ ﷻ عَنِ الغُلُوِّ فِي الدِّينِ. والغُلُوُّ هوَ المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي حُدَّ والإفْراطُ فيهِ والتَّعَمُّقُ. فكأنَّهُ، واللهُ أعْلَمُ، قالَ: لا تُجاوِزُوا فِي الدِّينِ الحَدَّ الذي حُدَّ فِيهِ بِنِسْبَتِهِ الألُوهِيَّةَ إلى غَيرِ اللهِ والعِبادَةِ لَهُ.

وأمّا أهْلُ الشِّرْكِ فإنَّهُمْ يَعْبُدُونَ ما يَسْتَحْسِنُونَ، ويَتْرُكُونَ ما يَسْتَقْبِحُونَ، لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ، يَدِينُونَ بهِ. وأمّا هؤلاءِ فإنَّهُمْ يَدَّعُونَ أنَّهُمْ على دِينِ الأنْبِياءِ والرُّسُلِ. كذلكَ خَرَجَ الخِطابُ لَهُمْ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾ يَعْنِي مِنْ قَبْلِ الرسولِ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ أي أتْباعَهُمْ ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي عَنْ قَصْدِ طَرِيقِ الهُدَى.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لُعِنُوا بِكُلِّ لِسانٍ؛ لُعِنُوا على عَهْدِ مُوسَى ﷺ في التَّوْراةِ وعلى عَهْدِ داوودَ في[2] الزَّبُورِ وعلى عَهْدِ عِيسَى فِي الإنْجِيلِ وعلى عَهْدِ [رسولِ اللهِ محمدٍ، عليهِ أفْضَلُ الصَّلَواتِ وأكْمَلُ التَّحِيّاتِ][3] في القُرْآنِ، وهُوَ قَولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ.

وقِيلَ: مُسِخُوا [بِدُعاءِ الرسلِ][4] بِمَا اعْتَدَوا قِرَدَةً وخَنازِيرَ. قالَ ابْنُ عَباسٍ ﷺ القِرَدَةُ والخَنازِيرُ مِنْ نَسْلِ الذينَ مُسِخُوا. وقالَ الحَسَنُ: انْقَطَعَ ذلكَ النَّسْلُ. وأصْلُ اللَّعْنِ هو الطَّرْدُ، كَأنَّهُمْ طُرِدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ تَخْصِيصُ اللَّعْنِ على لِسانِ داوودَ، ﷺ، كانَ بِهِ غِلْظَةٌ وخُشُونَةٌ، وهو الذي كانَ اتَّخَذَ الأسْلِحَةَ وآلاتِ الحَرْبِ، وعِيسَى كانَ بهِ لِينٌ ورِفْقٌ لِيُعْلَمَ أنَّ اللَّعْنَ الذي كانَ مِنْهُمَا كانَ لاعْتِدائِهِمُ الحُدُودَ حُدُودَ اللهِ وعِصْيانِهِمْ رَبَّهُمْ، وكانُوا مُسْتَوجِبِينَ لذلكَ [مُحَقِّينَ. ولذلكَ][5] اسْتُجِيبَ دُعاؤُهُمْ عليهِمْ بِاللَّعْنِ؛ أعْنِي دُعاءَ الرُّسُلِ ﷺ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا وقَعَتْ بَنُو إسْرائِيلَ فِي المَعاصِي نَهاهُمْ عُلَماؤُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجالَسُوهُمْ فِي مَجالِسِهِمْ، وآكَلُوهُمْ، وشارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ولَعَنَهُمْ ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾، قالَ: فَجَلَسَ رسولُ اللهِ ﷺ وكانَ مُتَّكِئًا، فقالَ: لا والذي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ على الحَقِّ أطْراً» [أحمد ١/ ٣٩١] قالَ أبو عُبَيدٍ: يَعْنِي تَعْطِفُوهُمْ عَطْفاً. وقالَ غَيْرُهُ: حَتَّى تَكْسِرُوهُمْ كَسْراً.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قِيلَ: قولُهُ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يَعْنِي المُنافِقِينَ ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يَعْنِي اليهودَ ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ مُشْرِكِي العَرَبِ وغَيرِهِمْ؛ كانُوا يُظاهِرُونَ على رسولِ اللهِ ﷺ والمُؤْمِنِينَ، ويُعاوِنُونَ عَلَيهِمْ، قد كانَ مِنَ الفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ: قولُهُ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ مِنْ هؤلاءِ الذينَ شَهِدَ لَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يَعْنِي أسْلافَهُمْ ورُؤَساءَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ الآية [الآية: ٧٧] تَوَلَّى هؤلاءِ أولئكَ، واتَّبَعُوا أهْواءَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي مَا قَدَّمَتْ أنْفُسُهُمْ سُخْطُ اللهِ عَلَيهِمْ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ فِي المُنافِقِينَ فِي أحدِ التَّأْوِيلَيْنِ. وفِي تَأْوِيلٍ آخَرَ [في][7] اليهودِ، أي لو صَدَّقَ هؤلاءِ رسولَ اللهِ ﷺ وآمَنُوا بِهِ، وصَدَّقُوا ما ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ القُرْآنَ ما اتَّخَذُوا أولئكَ أوْلِياءَ.

---

(١) في الأصل وم: بقوله. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في م: رسولنا محمد ﷺ. (٤) في الأصل وم: بدعائهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ثم يَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ في الدِّينِ أو في النَّصْرِ والمَعُونَةِ والمُظاهَرَةِ ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ تَحتمِلُ الآيةُ وُجوهاً: تَحتمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ شِدَّةِ العَداوَةِ[١] لِلَّذِينَ آمَنُوا قوماً مَخصُوصِينَ مِنهُمْ، وتَحتمِلُ اليهودَ الذينَ كانُوا بِقُرْبِ رسولِ اللهِ [ﷺ][٢] وأصحابِهِ، هُمْ أشدُّ عداوةً لَهُمْ، ويَحتمِلُ اليهودَ جُملَةً.

فَهُوَ، واللهُ أعلَمُ، على ما كانَ مِنهُمْ مِنْ قَتْلِ الأنبياءِ وتَكذيبِهِمْ إيّاهُمْ ونَصْبِ القِتالِ والحَرْبِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ والمُؤمِنِينَ، وما كانَ مِنهُمْ مِنْ قولِ الوَحْشِ في اللهِ سُبحانَهُ ما لم يَستَقِمْ أحدٌ بِمِثْلِ ما وَصَفُوا اللهَ ﷻ بالبُخْلِ والفَقْرِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [الآية: ٦٤] [وقولُهُ تعالى][٣]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وغيرُ ذلكَ مِنَ القولِ؛ وذلكَ لِشِدَّةِ بُغْضِهِمْ وَعَداوَتِهِمْ وقَساوَةِ قُلُوبِهِمْ. فَعَلَى ذلِكَ كلُّ مَنْ دَعاهُمْ إلى دِينِ اللهِ تعالى؛ فَهُمْ لهُ أشدُّ عَداوَةً وأقسى قَلْباً.

وأمّا النَّصارَى فلم يكُنْ مِنهُمْ واحِدٌ مِمّا كانَ مِنَ اليَهُودِ مِنْ[٤] قَتْلِ الأنبياءِ ونَصْبِ الحُروبِ والقِتالِ مَعَهُمْ. ولم يَرَوا في مَذْهَبِهِمُ القِتالَ ولا الحَرْبَ، ولا كانَ مِنهُمْ مِنَ القَولِ الوَحْشِ ما كانَ مِنَ اليَهودِ. بَلْ كانَ فيهِمُ اللِّينُ والرِّفْقُ حتى حَمَلَهُمْ ذلكَ على القَوْلِ في عِيسَى ما قالُوا. وذلكَ مِنهُمْ لهُ تَعظِيمٌ فَوْقَ القَدْرِ الذي جَعَلَ اللهُ لهُ حتى رَفَعُوهُ مِنْ قَدْرِ العُبُودَةِ إلى قَدْرِ الرُّبُوبِيَّةِ. لذلكَ كَفَرُوا. وإلّا كانُوا يُؤمِنُونَ بالكُتُبِ والأنبياءِ ﷺ مِنْ قَبْلُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أخبَرَ ﷻ أنَّ ﴿مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ والرُّهْبانُ هُمُ العُبّادُ؟ وقيلَ: القِسِّيسُونَ[٥] هُمُ الصِّدِّيقُونَ. ولم يَكُنْ مِنَ اليَهودِ رُهْبانٌ ولا قِسِّيسُونَ[٦]. لِذلكَ كانَ النَّصارَى أقرَبَ مَوَدَّةً وأَلْيَنَ قَلْباً مِنَ اليَهودِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ كانَ ذلكَ في قومٍ مَخصوصِينَ مُشارٍ إليهِمْ، فَهُوَ[٧] ما ذُكِرَ في القِصَّةِ أنَّ بَنِي قُرَيظَةَ والنضيرِ كانُوا يُعاوِنُونَ، ويُظاهِرُونَ مُشرِكِي العَرَبِ على قِتالِ رسولِ اللهِ ﷺ ويأمُرُونَهُمْ. بذلكَ ظاهَرُوا، وأعانُوا لِمَنْ لم يُؤمِنْ بِنَبِيٍّ ولا كُتُبٍ/ ١٣٥ ـ أ/ قَطُّ على مَنْ قد آمَنَ بالأنبياءِ والكُتُبِ جميعاً؛ وذلكَ لِسَفَهِهِمْ وشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ حتى قاتَلَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ وأجلاهُمْ مِنْ بلادِهِمْ إلى أرضِ الشامِ.

وإنْ [كانَ ذلكَ في][٨] قومٍ بِقُرْبِ رسولِ اللهِ ﷺ والمُؤمِنِينَ فَهُوَ[٩] ما كانَ مِنْ يَهودِ المدينَةِ حينَ[١٠] بايَعُوا أهْلَ مَكَّةَ على قِتالِ رسولِ اللهِ ﷺ وكانُوا عُيُوناً لَهُمْ عليهِمْ وطَلائِعَ. ولم يُذْكَرْ في قِصَّةٍ مِنَ القِصَصِ أنهُ كانَ مِنَ[١١] النَّصارَى [شيءٌ مِنْ ذلكَ [لِذلكَ كانُوا][١٢] أقربَ مَوَدَّةً لِلْمُؤمِنِينَ، واللهُ أعلَمُ.

وما قالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ بأنَّ مَنْ أسْلَمَ مِنهُمْ كانَ أقرَبَ مَوَدَّةً لِلْمُؤمِنِينَ مِنَ اليَهودِ.

فَحاصِلُ هذا الكلامِ أنَّ المؤمِنَ أقرَبُ [مَوَدَّةً][١٣] للمؤمنينَ مِنَ الكافِرِينَ، وذلكَ لا يُفِيدُ مَعْنًى.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ سُروراً على أنفُسِهِمْ مِمّا ظَفِرُوا مِمّا كانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ نَعْتِهِ ﷺ ويُطْعِمُونَ مَنْ وَجَدُوا[١٤]. وقد يعملُ السُّرورُ هذا العملَ إذا اشتَدَّ بهِ، وفَرِحَ القَلْبُ، فاضَتْ عَيناهُ سُروراً.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ حُزناً على قومِهِمْ حينَ[١٥] لم يُؤمِنُوا بَعْدَ أنْ بَلَغَهُمْ ما بَلَغَ هؤلاءِ مِنْ أعلامِ النُّبُوَّةِ وآثارِ الرسالةِ إشفاقاً عليهِمْ أنْ كيفَ لم يُؤمِنُوا؟ كقولِهِ تعالى: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] قد فاضَتْ [أعيُنُهُمْ ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ][١٦].

(١) في الأصل وم: عداوة. (٢) من م، في الأصل: ﷺ. (٣) في الأصل وم: وقالوا. (٤) في الأصل وم: ومن. (٥) في الأصل وم: القسيسين. (٦) في الأصل وم: قسيس. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: ذلك عن. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في م: في. (١٢) ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من م. (١٤) في الأصل وم: وجده. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ بِما أنزَلْتَ، واتَّبَعْنا الرسولَ ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قِيلَ معَ أصحابِ محمدٍ ﷺ وهو واحدٌ.

ثم ذُكِرَ في القِصَّةِ أنها نَزَلَتْ في النَّجاشِيِّ وأصحابِهِ. وقيلَ: نَزَلَتْ في أربعينَ رجلاً مِنْ مُسْلِمِي أهلِ الإنجيلِ؛ بَعْضُهُمْ قَدِمُوا مِنْ أرضِ الحَبَشَةِ، وبَعْضُهُمْ قَدِمُوا مِنْ أرضِ الشامِ، فَسَمِعُوا القرآنَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فقالُوا: ما أَشْبَهَ هذا بالذي نُحَدِّثُ مِنْ حديثِ عِيسَى! فَبَكَوا، وصَدَّقُوا، فَنَزَلَتِ الآيةُ فيهِمْ. فلا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفي مَنْ نَزَلَتْ؟ إذْ لَيسَ في الآيةِ بَيانُهُ، وليسَ بِنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ سِوَى ما فيهِ مِنْ شِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ في القرآنِ وسُرورِهِمْ على ذلكَ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الحقُّ يَحْتَمِلُ الرسولَ ﷺ ويَحْتَمِلُ القرآنَ، ويَحْتَمِلُ كِلَيهِما[1].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ﴾ أي نَعْلَمُ ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجَنَّةَ إذا آمَنَّا ﴿بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قيلَ: ﴿وَنَطْمَعُ﴾ وهو الطَّمَعُ والرِّضا أي نَطْمَعُ، ونَرْجُو ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ في دِينِ قومٍ صالِحِينَ. و ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ، ويَحْتَمِلُ أصحابَ محمدٍ [صَلَواتُ اللهِ عليهِ، وسلامُهُ][2].

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ الثَّناءَ الحَسَنَ في الدنيا حينَ[3] ذَكَرَهُمْ في القرآنِ، فَيُذْكَرُونَ إلى يومِ القِيامَةِ، ويُثْنَى عليهِمْ، وفي الآخِرَةِ الجَنَّةَ ونَعِيمَها ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المُحْسِنُ كأنَّهُ هو الذي يَتَّقِي المَعاصِيَ، ويَأْتِي بالخَيراتِ والحَسَناتِ جَميعاً؛ يَعْمَلُ عَمَلَينِ جَميعاً. والتَّقِيُّ هو الذي يَتَّقِي المَعاصِيَ والمَكارِهَ خاصَّةً.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الجحيمُ هو اسْمُ مُعْظَمِ النارِ. وقالَ غيرُهُمْ: هو اسْمُ دَرْكٍ مِنْ دَرَكاتِ النارِ، وكذلكَ السَّعِيرُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيةُ تَرُدُّ على المُتَقَشِّفَةِ لأنهُ [ما][4] نَهانا أنْ نأكُلَ طَيِّباتِ ما أحَلَّ اللهُ لنا، وهُمْ يُحَرِّمُونَ ذلكَ. وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ثم لا فَرْقَ بَيْنَ ما أحَلَّ اللهُ لَنا مِنَ الطَّيِّباتِ وتَحْريمِ ما حَرَّمَ اللهُ علَينا مِنَ الخَبائِثِ. ثم يُلْزِمُهُمْ ألا[5] يُحَرِّمُوا على أنْفُسِهِمُ التَّناوُلَ مِنَ الخُبْزِ والماءِ، وهما مِنْ أطْيَبِ الطَّيِّباتِ.

ألا تَرَى أنَّ المَرْءَ قد يَمَلُّ، ويَسْأمُ مِنْ غيرِهِما مِنَ الطَّيِّباتِ إذا أكْثَرَ [مِنْ][6] ذلكَ، ولا يَمَلُّ مِنَ الخُبْزِ والماءِ؟ دَلَّ أنهُما مِنْ أطْيَبِ الطَّيِّباتِ. إلا أنْ يَتَّقُوا مِنَ التَّناوُلِ مِنْ غيرِهِما إيثاراً منهُمْ غيرَهُمْ على أنْفُسِهِمْ لِما يَلْحَقُ القومَ مِنَ المُؤَنِ[7] في غيرِهِما مِنَ الطَّيِّباتِ ولا يَلْحَقُ في الخُبْزِ والماءِ، لأنَّهُما مَوجودانِ، يَجِدُهُما كُلُّ أحدٍ، ولا يَجِدُ غيرَهُما مِنَ الطَّيِّباتِ إلا مَنْ تَحَمَّلَ مُؤْنَةً عَظيمَةً. فإنْ كانَ تَرْكُهُمُ التَّناوُلَ مِنها لِهذا الوجهِ فإنهُ لا بأسَ.

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الأطعِمَةَ والأشرِبَةَ والفواكِهَ لِلْبَشَرِ في الوَقْتِ والحالِ التي تَطيبُ أنْفُسُهُمْ بها، وتَلَذُّذُ، لأنهُ لم يُحِلَّ لَهُمْ في أوَّلِ خُروجِها مِنَ الأرضِ، والنَّخيلُ إنَّما أحَلَّ لَهُمْ بَعْدَ نُضْجِها ويَنْعِها واتِّخاذِها خُبْزاً وبُلُوغِها في الطِّيبِ نِهايَتَهُ. وجَعَلَ لِلْبَهائِمِ ذلكَ في أوَّلِ ما يَخْرُجُ. فإذا كانَ البَشَرُ خُصُّوا بذلكَ لم يَجِبْ أنْ يُحَرِّمَ ذلكَ، ويُبْطِلَ ذلكَ التَّخْصِيصَ والتَّفْضِيلَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنما لم يَتَناوَلْ مِنها لِما يُعْجِزُ عنْ شُكْرِ اللهِ، لذلكَ يُقْتَصَرُ على ما يُقِيمُ الرَّمَقَ فيهِ، قيلَ لهُ: فَيَجِبُ ألّا يَتَزَوَّجَ مِنَ النِّساءِ إلا أدْوَنَهُنَّ جمالاً وأكْبَرَهُنَّ سِنّاً لأنها [تَصُونُهُ مِنَ][8] الفُجُورِ. فإنْ لم يَكُنْ في تَزَوُّجِ[9] العجائِزِ والقَبائِحِ وتَرْكِ

---

(١) في الأصل وم: كلاهما. (٢) في م: ﷺ. (٣) في الأصل وم: حيث (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: المؤمن. (٨) من م، في الأصل: عن. (٩) في الأصل وم: تزويج.

الشُّبَّانِ الحِسانِ زَهادَةً فَلَيسَ في أكْلِ خُبْزِ الشَّعِيرِ وتَرْكِ الحُوَرِ والمَيْدَةِ زَهادَةٌ، ولكِنْ لِما خافَ أنْ تُدْخِلَهُ الرَّغْبَةُ في طِيبِ الطَّعامِ في شُبْهَةِ مَكْسَبَةٍ. فَوَاجِبٌ عليهِ ألّا تُدْخِلَهُ في ذلكَ المَكْسَبِ، ويُنَزِّهَ نَفْسَهُ عنهُ، ويَقْتَصِرَ على القُوتِ الذي لابُدَّ لهُ مِنْهُ.

وقِيلَ: الآيةُ نَزَلَتْ في أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ منهُمْ عُمَرُ وعَلِيٌّ وابنُ مَسْعُودٍ وعُثمانُ بْنُ مَظْعُونٍ والمِقدادُ وسالِمٌ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، وهؤلاءِ حَرَّمُوا على أنْفُسِهِمُ الطَّعامَ والنِّساءَ، وهَمُّوا أنْ يَقْطَعُوا مَذاكِيرَهُمْ وأنْ يَلْبَسُوا المُسُوحَ، ويَدْخُلُوا(١) الصَّوامِعَ، فَيَتَرَهَّبُوا(٢) فيها، فَبَلَغَ ذلكَ النَّبِيَّ ﷺ «[فَأتى مَنْزِلَ عثمانَ، فلم يَجِدْهُمُ النَّبِيُّ ﷺ](٣) فقالَ: النَّبِيُّ [ﷺ](٤) لِامْرَأةِ عثمانَ: أحَقٌّ ما بَلَغَني عنْ عُثْمانَ وأصحابِهِ؟ قالَتْ: ما هو يا رسولَ اللهِ؟ فأخْبَرَها النَّبِيُّ ﷺ بالذي بَلَغَهُ، فَكَرِهَتْ أنْ تُكَذِّبَ النَّبِيَّ ﷺ وتُبْدِيَ على زَوجِها، فقالَتْ: إنْ كانَ عُثمانُ أخْبَرَكَ فَقَدْ صَدَقَكَ. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ قُولي لِزَوجِكِ إذا جاءَ: إنهُ لَيسَ مِنّا مَنْ لم يَسْتَنَّ بِسُنَّتِنا، ويأكُلْ مِنْ ذَبِيحَتِنا» [بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٣٩ـ١٤٢] فَلَمّا رَجَعَ عُثمانُ وأصحابُهُ أخْبَرَتْهُ امْرَأتُهُ بِقَولِ النَّبِيِّ ﷺ فقالَ عُثمانُ: واللهِ لَقَدْ بَلَغَ النَّبِيَّ أمْرُنا، فما أعْجَبَهُ! فَذَرُوا الذي كَرِهَ، فأنْزَلَ اللهُ: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. فَلا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ ولكنَّ فيهِ بَيانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الحَلالُ هوَ الطَّيِّبَ، والطَّيِّبُ هو الحَلالَ، سَمّاهُما بِاسْمَينِ، وهما واحدٌ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا﴾ بالشَّريعَةِ والدِّينِ، و﴿طَيِّبًا﴾ بالطَّبِيعَةِ لأنَّ الحِلَّ والحُرْمَةَ مَعْرِفَتُهُما بالشَّريعَةِ، والطَّيِّبَ ما تَسْتَطِيبُ بِهِ الطَّبائِعُ.

وفي الآيةِ دليلٌ أنهُ قد يَرْزُقُ ما هو خَبِيثٌ، ليسَ بِطَيِّبٍ، لأنهُ لو [لم](٥) يَرْزُقْ لم يكُنْ لِشَرْطِ الحَلالِ والطَّيِّبِ مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ في الآيةِ دَلالَةٌ أنَّ الخِطابَ لِلْمُؤْمِنِينَ لأنهُ قالَ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ ولم يَقُلْ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، ونَحْوُ هذا قَدْ سَمّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مُطْلَقاً.

دلَّ أنهُ يَجوزُ أنْ يُسَمِّيَ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ و ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أنهُ لا يُحِلُّ، ولا يُحَرِّمُ، إلّا هُوَ. وليسَ/ ١٣٥ ـ ب/ إلى مَنْ [هو](٦) دونَهُ تَحْليلٌ أو تَحْريمٌ.

الآية ٨٩ مَسْألَةٌ(٧): اختَلَفَ النّاسُ في تأويلِ أحْرُفٍ ذُكِرَتْ في قولِهِ ﷻ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ إلى قولِهِ تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِما لِلنّاسِ حاجَةٌ إلى مَعرِفَةِ حَقِيقَةِ ما في كُلِّ حَرْفٍ منها. إنهُ لم يَزَلْ تَنازُعُ أهلِ الفِقْهِ في أحكامِهِ مِمّا يُعْلَمُ أنَّ حَقَّ البَيانِ في الخِطابِ لا يَبْلُغُ ما يَقْطَعُ مَوضِعَ التَّنازُعِ فيهِ ولا بِحَيثُ يَبْلُغُ حَقِيقَةَ كُلِّ سامِعٍ. وإنَّ في شَرْطِ المِحَنِ بالأسبابِ التي يُمْتَحَنُ بها لُزومَ الفِكْرِ فيها والبَحْثِ عَنْها [والسُّؤالِ عَنْها الذينَ](٨) خُصُّوا بِفَهْمِها بِسُؤالِهِمْ(٩): مَنْ وَلِيَ الإبانَةَ عَنْها ومقابَلَتِهِمْ بما سَبَقَ لهمُ العِلْمُ بها، في مَعْرِفَةِ ذلكَ بَيانُ ما خَفِيَ مِنْ مَعْنًى الذي قَرَعَ سَمْعَهُ، أو بِغَيرِ ذلكَ مِمّا فيهِ دليلُ ذلكَ؛ إذْ لا تَجوزُ المِحْنَةُ بالذي لا يَحْتَمِلُ الوُسْعُ الوُصولَ إليهِ، ولا في جُمْلَةِ ما بِهِ امْتُحِنَ إيضاحَ ذلكَ لِما يُوجِبُ الأمْرُ بِفِعْلِ ما هو عنهُ مَمْنوعٌ، وذلكَ بعيدٌ. بل يكونُ البَيانُ السَّمْعِيُّ على قَدْرِ البَيانِ العَقْلِيِّ؛ إنَّ مِنَ المَعارِفِ ما يكونُ بالحواسِّ، ومِنْها ما بها يُوصَلُ إليها إمّا بالتَّعليمِ وإمّا بالاسْتِدْلالِ، فَمِثْلُهُ حَقُّ السَّمْعِيِّ، واللهُ أعلَمُ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥ والمائدة: ٨٩] إنهُ ﷻ ذَكَرَ يميناً لا يُؤاخِذُ فيها في مَوضِعَينِ مِنْ غَيرِ أنْ ذَكَرَ أنّها: أيُّ يمينٍ هي؟ ولا بأيِّ شَيءٍ، لا يُؤاخِذُ فيها؟ والحاجةُ لازِمَةٌ. إنَّ ذلكَ في مَوضِعِ الاِمْتِنانِ منهُ، جَلَّ، وعَلا، في العَفْوِ عَنْ أمْرٍ كانَ لهُ المُؤاخَذَةُ. وحَقٌّ على السامعِ مَعْرِفَةُ مِنَّةِ اللهِ تعالى لِيَشْكُرَهُ عليها.

(١) في الأصل وم: ويدخلون. (٢) في م: فيترهبون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في م: ﷺ. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م: وقوله. (٨) في الأصل: الذي، في م: والسؤال عنها الذي. (٩) في الأصل وم: بسؤالهما.

ثم مَعْلُومٌ أنَّ اليَمِينَ لو كانَتْ بالطَّلاقِ والعِتاقِ كانَ صَاحبُ ذلكَ يُؤاخَذُ بِما رُوِيَ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ: «أنَّ ثَلاثاً جَدُّ هُنَّ جَدٌّ، وهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: الطلاقُ والعِتاقُ والنِّكاحُ» [أبو داوود: ٢١٩٤]. واللاغي لا يَعْدُو أمْرَينِ مَعَ ما كانَ يُلْزِمانِ بِلا شَرْطٍ، يَصِيرُ بِهِ المُوقِعُ حالِفاً. وأعْظَمُ ما في دَفْعِ المُؤاخَذَةِ في اليَمِينِ أنْ يَدْفَعَ عنهُ اليَمِينَ، وهما يَجِبانِ دونَهُما، فَيَقَعانِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ في الآيةِ ذِكْرُ التَّفْصِيلِ. ولكنْ تَجِبُ مَعْرِفَةُ حَقِيقَةِ ذلكَ بالذي بَيَّنّا مِنَ الخَبَرِ والنَّظَرِ مَعَ ما يُعْرَفُ في ذلكَ خِلافاً. وهذا يُوَضِّحُ أنَّ العَفْوَ في ما كانَتِ الأيمانُ باللهِ تعالى.

فَعَلَى ذلِكَ ما نَسَقَ على ما لا يُؤاخِذُ مِنَ المُؤاخَذَةِ؛ وذلكَ يَمْنَعُ مَنِ احْتَجَّ بإيجابِ الكَفّارَةِ على الحالِفِ بالقُرَبِ مِنْ حَيثُ كانَ ذلكَ منهُ يَميناً. واللهُ أوْجَبَ باليَمِينِ كَفّارَةً. وإنما ذلكَ في اليَمِينِ لا في اليَمِينِ بالقُرَبِ.

ثم كانَتِ اليَمِينُ بالقُرَبِ: لو كانَتْ على مَخْرَجِ اليَمينِ باللهِ لم يَجِبْ فيها شَيءٌ نَحْوَ أنْ نَقولَ بالعِتْقِ: لا أفْعَلُ كذا أو بالصَّلاةِ أو بالصِّيامِ، ولو قالَ: باللهِ يَجِبُ. ثَبَتَ أنَّ وجوبَ ذلكَ وصَيرورتَهُ يميناً كانَ بِحَقِّ النُّذورِ.

وقد أمَرَ اللهُ ورسولُهُ في النُّذُورِ بالوفاءِ. فكذلكَ اليَمِينُ بها. ومِمّا يُبَيِّنُ ذلكَ أنهُ لو قالَ: إنْ فَعَلَ كذا فَعَلَيهِ قَتْلُ فُلانٍ أو إتلافُ مالِهِ إنهُ لا يَلْزَمُهُ شَيءٌ. ثَبَتَ أنَّ ما لَزِمَ لَزِمَ بِحَقِّ لُزومِ ذلكَ في النُّذُورِ. وحَقُّ ذلكَ الوَفاءُ لا غَيرُ مَعَ ما جاءَ الخَبَرُ بالأمْرِ بالحَلْفِ باللهِ والنَّهْيِ عنِ الحَلْفِ بِغَيرِهِ. والنُّذُورُ أبداً لا تكونُ بِغَيرِهِ. ثَبَتَ أنَّ وُجوبَ ذلكَ بِحَقِّ النَّذْرِ. فَلِذلكَ يَجِبُ الوفاءُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصْلُ في ذلكَ أنَّ الحَلْفَ بِغَيرِ اللهِ يكونُ على قِسْمَينِ: قِسْمٍ ألّا يَجِبَ فيهِ شيءٌ وقِسْمٍ أنهُ لو وَجَبَ لَأوجَبَ[1] المُسَمّى نَحْوَ الطَّلاقِ والعِتاقِ في ما يَجِبُ. فلمّا كانَ في الحَلْفِ بالقُرَبِ في الذِّمَّةِ، وهو حَلْفٌ بِغَيرِ اللهِ تعالى، يَجِبُ أنْ يكونَ الواجِبُ في ذلكَ ما أوجَبَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في مَعْنَى اللَّغْوِ، فقالَ القومُ: هو الإثْمُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥] وقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

ثم اخْتُلِفَ [في][2] مَنْ قالَ بهذا على قَولَينِ:

أحدُهما: أنه لا يُؤاخِذُ بالإثمِ في أيمانِكُمُ التي لم تَعْقِدُوها[3]، لكنَّها جَرَتْ على اللِّسانِ. وبِمِثْلِ ذلكَ رُوِيَ عَنْ عائشةَ رضي الله عنها أنَّها قالَتْ: هو قَولُ الرجلِ: لا واللهِ ما كانَ كذا. وبهِ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانِيُّ في تَفْسِيرِهِ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. دلَّ أنَّ الأوَّلَ بِما يَجْرِي على اللِّسانِ دونَ ما يَقْصِدُهُ قَلْبُهُ.

والثاني: ألّا يُؤاخِذَ بِتَرْكِ المُحافَظَةِ في ما كانَ في المُحافَظَةِ مَأثَمٌ. دليلُهُ صِلَةُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٤] فَكَأنَّهُمْ يَخْرُجونَ عن تَرْكِ المُحافَظَةِ في ما سَبَقَتْ مِنهُمُ الأيمانُ قَبْلَ النَّهْيِ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ﴾ بَعْضِ أيمانِكُمْ إذا كانَ حِفْظُها مَأثماً؛ وذلكَ نَحْوُ ما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ حَلَفَ على يمينٍ، فَرَأى غَيرَها خَيراً مِنها، فَلْيَأتِ بالذي هو خَيرٌ، ولْيُكَفِّرْ عنْ يَمِينِهِ» [مسلم: ١٦٥٠].

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ﴾ ولا يَحْتَمِلُ أنْ يُؤاخِذَ بالعَقْدِ، وهو بهِ مُعَظِّمٌ رَبَّهُ، ولكنْ لِمُحافَظَةِ ما ﴿عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ﴾ إذا كانَتِ المُحافَظَةُ إثماً، وفي ما لم يكُنْ فهو في قولِهِ تعالى: ﴿وَاحْفَظُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [الآية: ٨٩] واللهُ أعلَمُ.

وإلى هذا يَذْهَبُ سَعيدُ بْنُ جُبَيرٍ في تأويلِ الآيةِ.

وقالَ قائِلُونَ[4]: هو الشَّيءُ الذي لا حَقِيقَةَ لهُ نَحْوُ اللَّعِبِ. وعلى ذلكَ [قولُهُ تعالى][5]: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا

(١) في الأصل وم: ليجب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تعتقدوها. (٤) هذا وجه ثان في معنى اللغو. (٥) ساقطة من الأصل وم.

فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] أنهُمْ لم يَقصِدُوا تَحقيقَ أمْرٍ يُظهِرُونَهُ، ولكنْ قَصَدُوا التَّلْبِيسَ بِما نَطَقَ بهِ: ما كانَ كذا. قِيلَ: لا يَسْمَعونَ فيها لَغْواً باطِلاً بل كُلُّ ما يُسْمَعُ فيها فَهوَ حَقٌّ وحِكْمَةٌ.

ثم رَجَعَ تأويلُهُ إلى وجهَينِ:

أحَدُهُما: يَجري على اللِّسانِ مِنْ غَيرِ عَقْدِ القَلْبِ على ما مَرَّ بهِ تفسيرُهُ.

والثاني: أنْ يكونَ بهِ الحَلْفُ بِما لا حَقيقَةَ لهُ على ظَنِّ أنَّ حَقيقَةَ ما حَلَفَ عليهِ الحالِفُ كما حَلَفَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ والحَسَنِ ﷺ في تأويلِ الآيةِ.

ثم لو كانَتِ الآيةُ على التَّأويلِ الأوَّلِ لَكانَتْ في رَفْعِ المَأثَمِ خاصَّةً، وهو التَّأويلُ الذي ذَكَرَهُ سَعيدُ بْنُ جُبيرٍ ﷺ.

وأمّا الكَفّارةُ فَهِيَ لازِمَةٌ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ المَرْفُوعِ في ما ذلكَ، وبِما هي واجبةٌ لِلْحِنْثِ في اليَمينِ وتَرْكِ الوفاءِ بالعَهْدِ، والمعنى في الأمْرَينِ مَوجودٌ. لذلكَ لَزِمَتِ الكَفّارةُ في الوَجهَينِ جَميعاً معَ ما لابُدَّ مِنَ الإلزامِ في ما أخطأَ أو تَعَمَّدَ مِنْ حَيثُ لم يكُنِ اسْتِثناءٌ حالاً مِنْهُما صاحِبُهُ. وذلكَ مُبَيِّنٌ أنَّ ذلكَ لِلْحَلْفِ في عَقْدِ اليَمينِ أو لِما يَخْرُجُ الفِعْلُ مَخرَجَ الاِسْتِحْقاقِ إذا قُوبِلَ فِعْلُهُ بِعَقْدٍ. وإنْ كانَ المُسْلِمُ قد عُصِمَ عنْ ذلكَ الوجهِ، فأُمِرَ بِتَكْفيرِ ذلكَ، وذلكَ المعنى مَوجودٌ في الوجهَينِ. لذلكَ لَزِمَتِ الكَفّارةُ في الأمرَينِ، واللهُ أعلَمُ.

ولو كانَتْ على التَّأويلِ الثاني أو على أحدِ وَجْهَي تأويلٍ لأمْكَنَ أنْ يُؤاخَذَ بالمَأثَمِ ولا بالكفارةِ جَميعاً.

والذي يُبَيِّنُ أنَّ هذا التَّأويلَ أنهُ ذَكَرَ المؤاخَذَةَ في الآيَتَينِ:

أحداهما[1]: بِكَسْبِ القُلوبِ.

[والثانيةُ: بِكَسْبِها][2] تَعَمُّدُها. والمؤاخَذَةُ بهِ تكونُ بالمَأثَمِ لا بالحُقوقِ والكفّاراتِ؛ إذ لا يُؤاخِذُ بشيءٍ يُكْسِبُ القَلْبَ خاصَّةً كَفّارةً أو حقّاً يُوجِبُ. وإنْ كانَ قد يُؤاخِذُ لِذلكَ عندَ أفعالِ الجَوارِحِ. فأمّا [ما][3] لهُ خاصَّةً فَلا، وقد يكونُ بهِ الطاعةُ والمَعْصِيةُ.

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. وإذا ثَبَتَ أنَّ ذلكَ في المَأثَمِ فلا يُؤاخِذُ. ثم لا مَأثَمَ في ما ذُكِرَ مِنْ عَقْدِ اليَمينِ في العَقْدِ؛ إذْ هو يَخْرُجُ مَخرَجَ التَّعظيمِ للهِ، وقد رُوِيَتْ عُقودُ الأيمانِ عنِ الرُّسُلِ، فَثَبَتَ أنَّ المؤاخَذَةَ بالكَفّارَةِ. فلا يُؤاخِذُ بها في اللَّغوِ أيضاً.

وأيَّدَ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ ما لا يُؤاخِذُ مَرَّتَينِ، وذَكَرَ المُؤاخَذَةَ كذلكَ. فلو كانَتِ المؤاخَذَةُ بِواحِدٍ لَكانَ الذِّكْرُ الواحِدُ كافِياً. فَثَبَتَ/ ١٣٦ - أ/ أنهُ بأمْرَينِ مُختلِفَينِ.

فَعَلَى ذلِكَ أمْرُ العَفْوِ، واللهُ أعلَمُ، مَعَ ما أنهُ قد تَبَيَّنَ في آيةِ المُعاقَدَةِ كَيفِيَّةُ المُؤاخَذَةِ، ولم يُبَيِّنْ في كَسْبِ القَلْبِ أنْ يكونَ العَفْوُ عمّا جَرَى بهِ بَيانُ المُؤاخَذَةِ أحَقُّ مِنْهُ مِمّا لم يَجِئْ بهِ، فَثَبَتَ أنهُ في دَفْعِ المُؤاخَذَةِ بالكَفّارَةِ.

ولو كانَ على ما يَقولُهُ سَعيدُ [بْنُ جُبيرٍ][4] لَكانَتْ تَجِبُ الكَفّارةُ بما سَلَفَ بَيانُهُ. لِذلكَ قُلْنا: إنَّ هذا أحقُّ بالآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إذا ثَبَتَ أنَّ اللَّغوَ ممّا لا تَجِبُ فيهِ الكَفّارةُ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ لم تَجِبْ مِنْ حَيثُ لم يَعْصِ اللهَ بهِ، ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ لم تَجِبْ لأنَّ يَمينَهُ كانَتْ على ما كانَتْ، الحِنْثُ بهِ مَعَهُ أو قَبْلَهُ، فَيَمْنَعُ صِحَّةَ اليَمينِ. وإنْ أطلَقَ لَها الاِسْمَ إنْ كانَتِ الأسماءُ مُطْلَقَةً لِما فَسَدَ مِنَ العُقودِ، وصَحَّتْ. وإنما تَختَلِفُ لها الأحكامُ والمَقاصِدُ منها.

فإنْ كانَ لِما لمْ يَعْصِ اللهَ فَيَجِبُ أنْ يكونَ في كلِّ حِنْثٍ يُؤمَرُ بهِ، لا تَجِبُ بهِ الكَفّارةُ. فإذا جَرَتِ السُّنَّةُ بإيجابِها على

---

(١) في الأصل وم: احدهما، والمقصود قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. (٢) في الأصل وم: وكسبها، والمقصود قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

الأمرِ بالحِنثِ قد يَجِبُ أيضاً في ما كانَ فِعْلُ الحِنثِ على حالِ خَطَإٍ أو لَومٍ أو جُنونٍ أو فِعْلُ غيرِ الحالِفِ في ما الحِنثُ بِهِ على تَعَمُّدِ أنْ يَأثَمَ بِغَيرِهِ، إذْ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤و. . .] ثَبَتَ أنَّها تَجِبُ لا لأنهُ لَمْ يَعْصِ اللهَ، ولكنْ لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرْتُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم كانَ ذلكَ المَعْنَى قائماً في اليَمينِ الذي تَعَمَّدَ عليهِ الكَذِبَ، وهو ما قِيلَ: اليَمينُ الغَمُوسُ، يَجِبُ ألّا تَلْزَمَهُ كَفّارَةُ اليَمينِ إنما يَلْزَمُهُ كفّارَةُ الجُرْأةِ والمُخالَفَةِ للهِ، واللهُ أعلَمُ.

وأيَّدَ هذا الأصلَ وَجْهانِ:

أحَدُهُما: اسْتِواءُ الأمْرَينِ في اليَمينِ المَعْقُودَةِ على الحادِثِ في ما عَصَى مِنَ الحِنثِ فيها، أو أطاعَ، أنْ يَسْتَوِيا في اليَمينِ على الماضِي في الوَجْهَينِ جَميعاً. فإذا لم تَجِبِ الكَفّارَةُ في أحَدِ الوَجْهَينِ لم تَجِبْ في الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ما رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ﷺ في شَأنِ اللِّعانِ بَعْدَ الفَراغِ منهُ: «إنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُما كاذِبٌ، فهلْ مِنكُما تائِبٌ؟» [البخاري: ٤٧٤٧] ومَعْلُومٌ أنَّ صاحِبَتَهُما لو كانَتْ تَجِبُ فيهِ الكَفّارَةُ [لَاحتيجَ][1] إلى البيانِ عنها أكثَرَ مِنْ صاحِبَتِها إلى بيانِ كَذِبِ أحدِهِما.

ثم لُزومُ التوبةِ إذْ ذلكَ يَعْرِفُهُ كلُّ سَفيهٍ وحَكيمٍ بِلا سَمْعٍ، والكَفّارَةُ لا تُعرَفُ إلا بالسَّمْعِ، ثَبَتَ أنها غيرُ واجِبَةٍ.

وكذا الأخبارُ التي رُوِيَتْ في الخَصْمَينِ أنهُ قُضِيَ لِأحَدِهِما حتى ذُكِرَ فيهِ الوعيدُ الشديدُ حتى أمَرَهُما بالتَّساهُمِ بَيْنَهُما وأنْ يُحَلِّلَ كلُّ واحِدٍ منهُما الآخَرَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ فيهِ كَفّارَةٌ، ولا تُبَيَّنُ. وكذلكَ عُلِمَ في المَوضِعِ الذي أُمِرَ بالحِنثِ؛ إذْ قد يَشْتَبِهُ على بَعْضٍ مَنْ ليسَ لهُ رُؤْيَةٌ.

وقد قالَ إسحاقُ: أجْمَعَ المُسْلِمُونَ على ألّا تَجِبَ فيهِ الكَفّارَةُ. فَقَولُ مَنْ يُوجِبُها ابْتِداءُ شَرْعٍ ونَصْبُ حُكْمِ اللهِ تعالى على الخَلْقِ، وهو لم يُشْرِكْ في حُكْمِهِ أحداً.

ثم الأصلُ في ذلكَ أنَّ الأسبابَ التي تَرْفَعُ العُقودَ تُوجِبُ الحُرُماتِ إذا تأخرتِ[2] العقودُ وأسبابُ الحِلِّ؛ فهي على اخْتِلافِها مُتَّفِقَةٌ على مَنْعِ ابْتِدائِها إذا قارَنَتْها. فَعَلَى ذلِكَ أمْرُ سَبَبِ الحِنثِ. فَلِذلكَ تُطْلَبُ اليَمينُ والكَفّارَةُ؛ وهي كَفّارَةُ اليَمينِ فلا تَجِبُ في ما لا يَمينَ تَجِبُ فيها. وليسَ ذلكَ كالقَولِ بِمَسِّ السماءِ ونَحْوِ ذلكَ لأنَّ اليَمينَ في هذا على ما يكونُ. فَسَبَبُ الحِنثِ لم يَقْتَرِنْ بها، فَصَحَّتْ. لذلكَ اخْتَلَفَ الأمرانِ.

وهذهِ المسألَةُ تُوضِحُ حالَ رجلَينِ: [حالَ][3] الشافِعِيِّ في قولِهِ: إنَّ الكفّارَةَ تَجِبُ لِلْحِنثِ، وههنا لا حِنثَ لِما لم يَصِحَّ العَقْدُ لِيَحْنَثَ فيهِ. ويكونُ الحِنثُ أيضاً بَعْدَ العَقْدِ، ولم يكنْ مع ما كانَ النَّصُّ بالكفّارةِ في اليَمينِ المعقودةِ[4] التي أمَرَ فيها بالحِفْظِ في هذهِ اليَمينِ، وإنما يَجِبُ الحِفْظُ عنها أنْ يُحْلَفَ بهِ، واللهُ أعلَمُ، وحالَ أبي عُبَيدٍ حَيثُ يُوجِبُ الكَفّارَةَ بِعَقْدِ اليَمينِ. وعندَهُ: اليَمينُ الغَموسُ يَمينٌ لا تَجِبُ فيها الكَفّارَةُ. فهذا يُوضِحُ أنَّ الكفارةَ تَجِبُ لِلّذي يَرِدُ في اليَمينِ لا لِنَفْسِها، واللهُ أعلَمُ.

ثم احْتَجَّ قومٌ بِوُجوبِ الكَفّارَةِ بِعَقْدِ اليَمينِ بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ ثم بقولِهِ[5] ﴿فَكَفَّارَتُهُۥٓ﴾ أي عندَهُمْ كَفّارَةُ ما عُقِدَ مِنَ الأيمانِ بما فيها الإضافةُ. ولم يَسْبِقْ غيرُ ذلكَ العَقْدِ يُضافُ إليهِ.

وكقولِهِ ذلكَ تَسْمِيَةُ [عقدِ اليَمينِ][6] مع ما فيهِ وَجْهانِ مِنَ المُعْتَبَرِ:

أحدُهُما: ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لَمّا رَأى بِحَمْزَةَ الطَّعْنَةَ أقْسَمَ لَيُمَثِّلَنَّ بكذا مِنْ قُرَيشٍ، فَنَزَلَ النَّهْيُ عنِ الوفاءِ بذلكَ، فَكَفَّرَ عنْ يَمينِهِ. ومَعْلُومٌ أنهُ لا يَحْنَثُ في يَمينِهِ إلّا في الوقتِ الذي لا يَحْتَمِلُ بِرَّ مَسْألَةٍ في حياتِهِ. ثَبَتَ أنها كانَتْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تأخر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: المعقود. (٥) في الأصل وم: قال.
(٦) في الأصل وم: المؤمنين.

لِلْيمين. وكذا ما جاء: «مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ» إلى أنْ قال: «ولْيُكَفِّرْ عنْ يَمينِهِ» [مسلم: ١٦٥٠] إنما أُمِرَ بِتَكْفيرِ يَمينِهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ذَكَرَ أبو عُبَيدٍ أنَّ اللهَ إنْ نَهى عنِ الوَعْدِ [فإنهُ لا يَنْهَى][1] إلّا بالثُّنيا بقولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣و٢٤] فذلكَ النَّهْيُ في اليمينِ أوكَدُ وأشَدُّ. فَمَنْ حَلَفَ بِلا ثُنيا عَصى اللهَ، فَتلْزَمُهُ الكَفّارَةُ.

والأصْلُ عندنا أنَّ الكَفّارَةَ تَجِبُ لِلْحِنْثِ في اليَمينِ؛ إذْ هي كَفّارةٌ، والكَفّاراتُ إنما تكونُ لِلسَّيِّئاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ. ومِنَ البَعيدِ في العَقْلِ تَكْفيرُ الحَسَناتِ، بل الحَسَناتُ تُكَفِّرُ[2] السيئاتِ. والحِنثُ في التَّحْقيقِ اسْمُ الإثْمِ. ثم مَعْنَى الذَّنْبِ فيهِ، لأنهُ كانَ عاهدَ اللهَ ألّا يَفْعَلَ كذا، فَفَعَلَهُ، يَخْرُجُ مَخْرَجَ نَقْضِ العَهْدِ فيهِ، فَيَأْثَمُ لا بالعَهْدِ. ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

وفي الجملةِ أمَرَ اللهُ أنْ يُوفُوا بِعَهْدِهِ لا أنْ يَنْقُضُوا، وقد جُعِلَتِ اليَمينُ عَهْدَهُ، وأمَرَنا بوفائِهِ، فَنَقْضُهُ يُوجِبُ الخُلْفَ في وَعْدِهِ والنَّقْضَ لِعَهْدِهِ، فَيَأْثَمُ الحالِفُ لا بالحَلْفِ. فلذا تَجِبُ الكَفّارَةُ. ولو كانَتْ لِلْيَمينِ كَفّارَةٌ لَكانَ الحِنثُ أحَقَّ أنْ يُوجِبَ الكَفّارَةَ.

ثم لا يَجوزُ أنْ يكونَ مَنْ حَلَفَ أنْ يُطيعَ يكونُ بهِ عاصِياً. ثَبَتَ أنَّ الكَفّارَةَ لو كانَتْ تَجِبُ لِلْيَمينِ على المَعْصِيَةِ، لَوَجَبَ[3] ثَمَّ حَقُّ كَفّارَةٍ؛ مِثْلُها الحِنثُ فيها. وعلى ذلكَ رَوى أبو هُرَيرَةَ ﷺ: «أنَّ مَنْ حَلَفَ على شَيءٍ فَرأى غَيرَهُ خَيراً منها فإنما كفّارَتُهُ أنْ يأتِيَ بالذي هو خَيرٌ وليُكَفِّرْ عن يمينِهِ» [مسلم ١٦٥٠] فكذلكَ تكونُ كَفّارَةُ اليَمينِ لو حُمِلَتْ أنْ تَرْجِعَ عنِ الوفاءِ بها.

وأمّا كَفّارَةُ ما لا وجهَ لِدَفْعِهِ؛ فتكونُ[4] بالتوبَةِ، والحَسَنَةُ تُكَفِّرُ لا بالرجوعِ. وعلى ذلكَ جميعُ أنواعِ الكَفّاراتِ أنَّ ما احْتَمَلَ دَفْعَ المَعْصيةِ[5] والرُّجوعَ عنهُ ونَقْضَ ما قد فَعَلَ، وما لا يَحْتَمِلُ، فَيُعْتَبَرُ ذلكَ. فلو كانَ لِلْيَمينِ كفّارَةٌ، فكانَتْ توبَةً وفَسْخاً لا غَيرَ، فإذا أوجَبَ اللهُ غَيرَ الرجوعِ، ثَبَتَ أنَّ ذلكَ لِلْحِنْثِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الدليلُ على[6] أنهُ لا يَحْتَمِلُ إيجابَ الكَفّارَةِ بِعَقْدِ اليَمينِ بأوجهٍ[7]:

أحدُها: أنَّ العَقْدَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّعْظيمِ للهِ والتَّبجيلِ، جَعَلَهُ مَفْزَعاً إليهِ، ومأمناً لِلْخَلْقِ عندَهُ. ولذلكَ جُعِلَتِ الأيمانُ لِدَفْعِ التُّهَمِ وتَحْقيقِ الأمْرِ لِلْخَلْقِ عندَ الحالِفينَ.

وأيّدَ ذلكَ أوجهٌ:

أحَدُها: ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا حَلَفْتُمْ فاحْلِفُوا باللهِ» [بنحوه مسلم ١٦٤٦/٣] وقالَ: «لا تَحْلِفوا بآبائِكُمْ ولا بالطواغيتِ» [مسلم ١٦٤٨] فَحَذَّرَ الحَلْفَ بِغَيرِهِ بما فيهِ تَعْظيمُ ذلكَ ودَفْعُهُ عَنْ قَدْرِهِ، والزَمَ ألّا تَجْعَلُوا لأحدٍ ذلكَ القَدْرَ إلّا للهِ ﷻ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] ولا يجوزُ أنْ يُنْهَى عنِ الرجوعِ عنِ المَعْصِيَةِ، ويُؤْمَرَ بالوفاءِ بها.

والثالثُ: الأمْرُ الظاهرُ عَنْ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ لِحَلْفِهِ وقَسَمِهِ في غَيرِ مَوضِعٍ، وما ذُكِرَ في قصةِ يَعْقُوبَ وأولادِهِ وأمْرِ إبراهيمَ، عليهِ/١٣٦ - ب/ الصَّلاةُ والسَّلامُ، في شأنِ الأصْنامِ وأمْرِ أيُّوبَ ﷺ لم يُجزْ أنْ يكونَ عُصاةً بِفِعْلِهِمْ؛

(١) من م، في الأصل: تكفير. (٢) من م، في الأصل: تكفير. (٣) في الأصل وم: فيجب. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الحقيقة. (٦) من م، في الأصل: لا. (٧) في الأصل وم: أوجه.

وذلكَ يَنْهَى عَنْ جُرْأةٍ مَنْ زعَمَ أنَّ الحالِفَ عاصٍ بِما تَرَكَ الثُّنيا. ومَنْ ذَكَرْنا مِنَ الأنبياءِ ﷺ قد تَرَكُوا الثُّنيا، وليسَ ذلكَ كالوَعْدِ لأنهُ إلى نفسِهِ يُضيفُ الفِعْلَ، وهو يَفْعَلُهُ تحتَ مَشيئةِ اللهِ تعالى.

وفي اليَمينِ باللهِ يَسْتَغيثُ، وإليهِ يَفْزَعُ، فلذلكَ اخْتَلَفَ الأمرانِ، واللهُ أعلَمُ.

والدليلُ على أنَّها لم تَجِبْ باليَمينِ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ «مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ، فَرَأى غَيرَها خَيراً منها، فَلْيَأْتِ بالذي هو خيرٌ، ولْيُكَفِّرْ عنْ يَمينِهِ» [مسلم: ١٦٥٠] أو قولُهُ[1]: «مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ فَلْيُكَفِّرْ يَمينَهُ ولْيَأْتِ بالذي هو خَيرٌ».

ولو كانَتِ الكَفَّارَةُ واجبَةً باليَمينِ لَكانَ لا[2] وَجْهَ لِلأمرِ بالذي يأتي، وهي واجبَةٌ. ويقولُ: «مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينه» فإذا لم يَقُلْ، ولكنْ قالَ في ما كانَ، ثم حَنِثَ، ثَبَتَ أنها لهُ تَجِبُ، واللهُ أعلَمُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ اتِّفاقُ القَولِ: إنهُ إذا كانَ معَ اليَمينِ بِرٌّ فلا كَفّارَةَ عليهِ، وإذا كانَ مَعَها حِنْثٌ تَجِبُ. فلو كانَتْ تَجِبُ لِلْيَمينِ لَكانَتْ هي عندَ الوفاءِ أوجَبَ. فالكَفّارَةُ فيهِ تكونُ أوجَبَ. فإذا لم يكُنْ إذا بَرَّ ثَبَتَ أنها بالحِنْثِ وَجَبَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وأيضاً ما أُجْمِعَ [على][3] أنَّ مَنْ حَلَفَ ألّا يَقْرَبَ امْرأتَهُ بِشَيءٍ لا يَلْزَمُهُ، لو حَنِثَ بِهِ لم يُلْزَمْ فيهِ حُكْمُ الإيلاءِ. فلو كانَتِ الكَفّارَةُ تَجِبُ باليَمينِ لَكانَ الحالِفُ بِهِ عندَ الفراغِ عنْ يَمينِهِ صارَ بِحَيثُ لا يَلْزَمُهُ مِنْ بَعْدُ شيءٌ. فَيَجِبُ أنْ يَسْقُطَ حَقُّ الإيلاءِ. فإذا بَقِيَ عليهِ حُكْمُهُ جاءَ بذلكَ كتابٌ، وجَرَتْ بهِ السُّنَّةُ. ثَبَتَ أنَّ القولَ بِوُجُوبِها قولٌ مَهجورٌ[4]، واللهُ أعلَمُ.

ثم إذا ثَبَتَ هذا رَجَعَ تأويلُ الآيةِ إلى وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ بِمُحافَظَةِ ما عَقَدْتُم مِنَ الأيمانِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فإنْ تَرَكْتُمْ ذلكَ فَكَفّارَتُهُ كذا.

والثاني: أنْ يكونَ على إضمارِ حينَ[5] يؤاخِذُكُم بِحِنْثِكُمْ في ما عَقَدْتُم. وذلكَ غَيرُ مَدْفوعٍ في حقِّ الكفّاراتِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٩٦] وقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٩٦] لا على الوُجوبِ لِلعُذْرِ ولكنْ باسْتِعْمالِ الرُّخصَةِ فيهِ، إذْ لا يكونُ العُذْرُ سَبَباً لإيجابٍ. فَمِثْلُهُ في الأوَّلِ لا يكونُ تَعظيمُ الرَّبِّ سَبَبَ إيجابِ الكَفّارةِ، فَيَصيرُ الحِنْثُ فيهِ مُضمَراً، واللهُ أعلَمُ.

والإضافةُ إلى الأيمانِ على إرادةِ الحِنْثِ فيها كإضافةِ كَفّارَةِ الفِطْرِ إلى الصِّيامِ والدَّمِ إلى الحَجِّ والسُّجودِ إلى السَّهْوِ[6]، وإنْ كانَتِ الكَفّاراتُ لَيْسَتْ لِما أُضيفَتْ إليهِ. أيَّدَ ذلكَ[7] ما ذَكَرْتُ، واللهُ أعلَمُ.

وتَكْفيرُ رسولِ اللهِ ﷺ يَمينَهُ لأنهُ قد عُصِمَ عنِ المَعْصِيَةِ، وفي الوفاءِ بذلكَ مَعْصِيَةٌ، إذْ نُهِيَ عنهُ، ويَمينُهُ كانَتْ قَبْلَ النَّهْيِ، فصارَ آيِساً عنِ البِرِّ بذلكَ، وبذلكَ يكونُ الحِنْثُ لا بِعَدَمِ إمكانِ الوفاءِ، لكنْ بِغَيرِهِ[8] إذْ لا يُؤْمَنُ منهُ العِصْيانُ؛ فذلكَ وقتُ إياسِهِ عنهُ. ورسولُ اللهِ ﷺ إذْ قد عُصِمَ عنْ ذلكَ، فَوَقْتُ إياسِهِ وَقْتُ النَّهْيِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ ﷻ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ في مُتَعارَفِ اللُّغةِ على التَّقْريبِ لِيَأكُلوا لا على التَّمْليكِ. وكذلكَ الأمْرُ المُتَعارَفُ بَينَ الخَلْقِ في ما يَنْسُبُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ الإطْعامَ.

وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ولا نَعْرِفُ التَّمْليكَ في إطعامِ الأهلِ، ولا خَطَرَ بِبالِ أحدٍ ذلكَ. وقد عَرَّفَهُمُ اللهُ تعالى ما فَرَضَ عليهِمْ بالذي كانَ عِلْمُهُ عندَ كلِّ أحدٍ مَعْلوماً؛ إذْ قَلَّ إنسانٌ يَخْلو مِنْ أنْ يكونَ أهلاً لِأحَدٍ، أو لهُ أهلٌ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُظَنَّ بأحدٍ الجَهْلُ بهِ حتى يَسألَهُ، فيكونَ ذلكَ إلزامَ الفَرْضِ مَعَ رَفْعِ وَهْمِ الجَهْلِ بهِ عنِ العُقولِ، ثم لا نَعْرِفُ بها، واللهُ أعلَمُ.

والذي يُوَضِّحُ[10] هذا مِنْ طريقِ العِبْرَةِ أنهُ ذَكَرَ في ذلكَ إطعامَ عَشَرَةِ مَساكِينَ. والمَسْكَنَةُ هي الحاجَةُ، وحاجةُ

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) من م، في الأصل: إلا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: مجهورٌ. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: السجود. (٧) ادرج قبلها في الأصل: إلى. (٨) في الأصل وم: غيره. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: يوضع.

المِسْكينِ إلى الطعام، مَعْلُومٌ أنها تكونُ إلى أكْلِهِ دُونَ مُلْكِهِ، وَجِهاتُ حاجاتِ الأملاكِ مِمّا يَعُمُّ المَساكينَ وغَيرَهُمْ مَعَ ما قُدِّرَ ذلكَ بالكِفايَةِ والشِّبَعِ. وحَقُّ ذلكَ في التَّقْريبِ لِلتَّطعيمِ لا في التَّمْليكِ عليهِ، ولكنْ يجوزُ التَّمْليكُ بما بِهِ التَّمْكِينُ لِذلكَ، فيجبُ بذلكَ الجوازُ بِكُلِّ ما فيهِ تَمْكينُ ذلكَ بِهِما، أو ما كانَ، أو جَوازُ التَّمْليكِ بِحَقِّ التَّمْكينِ لا بِحَقِّ النَّصْرِ مَعَ ما كانَ في تَمْليكِ الثَّمَنِ الوُصولُ إلى ما يَختارُ الاعْتِذارَ، فإنَّ ذلكَ أقْرَبُ إلى قضاءِ حاجتِهِ.

ولو كانَ الأمْرُ على تَمْليكِ المأكولِ خاصَّةً لَكانَ الدُّعاءُ والتَّقْريبُ إليهِمْ لِلْمُلْكِ أحَقَّ أنْ يَجوزَ لِوَجهَينِ:

أحدُهُما: أنهُ أقْرَبُ إلى دفعِ الجوعِ وسَدِّ المَسْكَنَةِ مِنْ تَمْليكِ بِرٍّ لا يَصِلُ إليهِ إلّا بَعْدَ تَحَمُّلِ المُؤْنَةِ وطولِ المُدَّةِ.

والثاني: أنَّ الكَفّارَةَ جُعِلَتْ بما يَنْفُرُ عنهُ الطَّبْعُ لِيُذيقَهُ ألَمَ الإخراجِ مِنَ المُلْكِ والبَذْلِ، فَيُكَفِّرُ ما أعْطى نَفْسَهُ مِنَ الشَّهْوَةِ التي لم يُؤْذَنْ فيها. وكذلكَ مَعْنَى الحَسَناتِ المُكَفِّرَةِ لِلسَّيِّئاتِ.

ثم كانَ دعاءُ المَساكينِ وجَمْعُهُمْ على الطعامِ وخِدْمَتُهُمْ والقيامُ بما فيهِ الاخْتِيارُ إليهِمْ أشَدَّ على الطَّبْعِ مِنَ التَّصَدُّقِ[١] عليهِمْ، فَيَجيءُ أنْ يكونَ أقْرَبَ لِلتَّكْفيرِ بهِ.

وعلى ذلكَ يَجوزُ بَذْلُ الثَّمَنِ لِما فيهِ تَحَمُّلُ المَكروهِ على الطَّبْعِ كَهُوَ في الطعامِ، فَيَجوزُ مَعَ ما إنْ جُعِلَ ذلكَ حقاً لِلمساكينِ [أنْ][٢] يَخْرُجَ مَنْ عليهِ التَّسْليمُ إليهِمْ مِنْ طَوعٍ منهُمْ. ويَجوزُ مِثْلُهُ مِنَ التَّبادُلِ في جميعِ الحُقوقِ؛ فَمِثْلُهُ عنِ الكَفّاراتِ، واللهُ أعلَمُ. على أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ويَجوزُ فيهِ غَيْرُ ذلكَ النوعِ، وكذلكَ في كلِّ الصَّدَقاتِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم جَعَلَ ذلكَ أكْلَتَينِ لِوَجهَينِ:

أحدُهُما: القَولُ بإطعامِ المساكينِ، ثم أُريدَ بهِ دَفْعُ المَسْكَنَةِ. والمِسْكينُ هو الخاضِعُ، فَأَحَقُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ اسْمَ السائِلِ يَخْضَعُ لِلْمَسْؤُولِ بالسُّؤالِ.

وقد رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ في يَومِ الفِطْرِ «أغْنُوهُمْ عَنِ المَسْألَةِ في مِثْلِ هذا اليوم» [الدارقطني ٢١١٤] ثم كانَ أقَلَّ ما أخبَرَ فيهِ نِصْفُ صاعٍ مِنْ حِنْطَةٍ. فَعَلَى ذلكَ صَدَقَةُ المِسْكينِ. ومِثْلُ ذلكَ إذا أطْعَمَ يكفي مَرَّتَينِ. وكذلكَ رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ في كفّارةِ المُتَأذّي ثَلاثَةُ أصْوُعٍ بَينَ سِتَّةِ مساكينَ. فَمِثْلُ مِقدارِ طعامِ المِسْكينِ في ما أُريدَ [الإطعامُ قَدْرُ][٣] ذلكَ. فَمِثْلُهُ ما نَحْنُ فيهِ، وذلكَ يَعْدِلُ أكْلَتَينِ. وبهِ قالَ عُمَرُ وعَلِيٌّ رضي الله عنهما.

والثاني[٤]: أنهُ ﷻ قالَ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾. والأوْسَطُ في مَالَهُ حدودٌ ثلاثةٌ: [يَرْجِعُ ذلكَ إلى أوجهٍ ثلاثةٍ][٥]:

أحَدُها: إلى الأوْسَطِ مِنْ صِفاتِ المَأكولِ.

والثاني: إلى الأوْسَطِ مِنْ مِقْدارِ الأكلِ.

والثالثُ: إلى الوَسَطِ مِنْ أحْوالِ الأكْلِ. فالأوَّلُ نَحْوُ الأجْوَدِ والأرْدَإ وبَيْنَ ذلكَ، والثاني: نَحْوُ السَّرَفِ والقَتْرِ وبَيْنَ ذلكَ، والثالثُ: نَحْوُ مَرَّةٍ وثَلاثِ مَرّاتٍ في يومٍ واحدٍ وبَيْنَ ذلكَ.

فإذا لم يَثْبُتْ في خَبَرٍ ما إليهِ رَجَعَ المُرادُ فَحَقُّ الاحْتِياطِ أنْ يَكونَ الوَسَطَ مِنَ الكُلِّ لِيَخْرُجَ بما فَرَضَ عليهِ. فلذلكَ[٦] وجَبَتْ أكْلَتانِ مَعَ ما حَقيقةُ الواسِطِ مِنَ الأنواعِ والمَقاديرِ لِما لا مُنْتَهى لِطَرَفَيهِ. وقد تُعْرَفُ حَقيقَةُ الأكْثَرِ والأقَلِّ مِنَ الوَقْتِ، فهوَ أنْ يُعْتَبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم كانَ الأمْرُ في الظاهِرِ بالإطعامِ، وأُجْمِعَ على رُجوعِ الأمْرِ إلى الحَدِّ، وإنْ لم يُذْكَرْ، فهوَ، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ انْتُزِعَ حَدُّهُ مِنْ حُكْمِ الكتابِ مِنْ وَجهَينِ:

---

(١) من م، في الأصل وم: التصديق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لإطعام القدر. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وذلك.

أحدُهما: أنَّ الآيَةَ إذا كانَتْ على ما يُؤكَلُ، ويُطْعَمُ، كانَ في ما عليهِ العُرْفُ ألّا يُقْرَبَ إلى آخِرِ ما يُطْعَمُهُ، فيَقْتَصِرَ على أقَلِّ ما يُسْتَحَقُّ/ ١٣٧ ـ أ/ اسْمُهُ. وقد يُتَصَدَّقُ بالقليلِ في العُرْفِ. فَلِذلكَ في الأمْرِ بِهِ تَحديدٌ، إذا كانَ بِما يُعْرَفُ فيهِ التَّحديدُ. ولِذلكَ يُذْكَرُ فيهِ التَّفْسيرُ مَرْفوعاً.

وذُكِرَ في قِصَّةِ المُتَأَذِّي لِما لَيسَ في لَفظِها دلالَةُ الحُدودِ، وفي لَفظِ الإطعامِ دلالَتُهُ؛ إذْ فيهِ عُرفٌ، وعلى هذا أمْرُ ما جاءَ مِنَ البَيانِ في الصَّدَقاتِ. ولم يُذْكَرْ في الإطعامِ إلّا لِمكانِ النَّوازِلِ. وعلى هذا يَجِبُ أنْ يجوزَ الإطعامُ أيضاً، وإنْ لم يكُنْ تَمليكٌ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ومَعْلومٌ [أنَّ كُلَّ شيءٍ لَهُ واسِطٌ، فهو ذو حُدودٍ وأطرافٍ، على أنهُ رُدَّ إلى طعامِ الأهلِ، وفيهِ الإشباعُ لا مَحالَةَ؛ لِذلكَ وَجَبَ القَولُ بالحَدِّ، واللهُ أعلَمُ.

وإذا ثَبَتَ القَدْرُ فيهِ بِحَقِّ الخِطابِ يَجِبُ][1] وَصْلُ ذلكَ بِهِ لِيُعْرَفَ بِهِ حَقيقَةُ[2] المَقصودِ، واللهُ أعلَمُ؛ وكأنهُ قالَ: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ إذْ إطعامُ عَشَرَةٍ في العُرْفِ عبارةٌ عَنْ قَدْرِ طَعامِهِمْ، وإطعامُ عَشَرَةٍ عبارةٌ عنْ فِعْلِ الإطعامِ، وقد ثَبَتَ أنهما ارْتَدّا جميعاً، فكأنَّهُما ذُكِرا مَوصولَينِ، ولو تَوَهَّمْنا ذلكَ لم يكُنْ بِحَقِّ حِفْظِ العَدَدِ بلْ بِحَقِّ حِفْظِ مِقْدارِ ذلكَ العَدَدِ مِنَ الصِّيامِ كانَ مَدْفوعاً إلى الواحِدِ أو أكثَرَ، واللهُ أعلَمُ.

لِذلكَ أجازَ أصحابُنا جَمْعَ الكُلِّ في مِسْكينٍ واحِدٍ عَشَرَةَ أيامٍ، ولم يُجيزُوا في يومٍ واحِدٍ في الأمْرِ على أنْ يُغَذّى، ويُعَشّى. وإنْ كانَ يَجوزُ الدفعُ لِما فيهِ حَقُّ الإطعامِ، فيصيرُ طعامَ كمالِ ذلكَ، وهو قَدْرُ طَعامِ مِسْكينٍ، فَتَزولُ عنهُ المَسْكَنَةُ، لكنَّ الإطعامَ فيهِ لا يَجوزُ. وإذا كانَ حَقُّ ما ذَكَرْتُ الجوازَ فَفَسادُهُ لِمَعْنًى اعْتَرَضَ، فَمَنَعَ؛ لا لأنهُ خارِجٌ عنْ أنْ يُرادَ لهُ على ذلكَ؛ وذلكَ كَخُروجِ بَعْضِ المَساكينِ لِعِلَلٍ عنِ الدَّفْعِ إليهِمْ؛ لا لأنهُ لو أُجيزَ كالخِلافِ لِلذِّكْرِ، فَمِثْلُهُ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

ودَليلٌ آخَرُ مِمّا لَهُ جَرى ذِكْرُ عَشَرَةٍ؛ لا لأنْ يَجْعَلَ العَشَرَةَ شَرْطاً أنهُ مَعْلومٌ بالمَعْنى الذي لهُ جُعِلَ الدَّفْعُ إليهِمْ والإطعامُ لَهُمْ سَبَباً لِلْجوازِ أنَّ ذلكَ بِحَيثُ تَحَمُّلُ المَكروهِ على الطَّبْعِ وكَفُّ الهَوى عن مِثْلِها وإذاقَةُ النَّفْسِ مَرارَةَ الدَّفْعِ للهِ، جَلَّ ثَناؤُهُ، يُكَفِّرُ ما أتْبَعَها هَواها، وأوْصَلَها إلى مُناها في ما خالَفَ اللهَ في فِعْلِهِ حينَ[3] لم يَفِ بالعَهْدِ الذي عَهِدَ اللهُ، أو أَلْزَمَ نَفْسَهُ عَهْداً مِنْ مَنْعٍ عنِ الوَفاءِ، فَيَخْرُجُ فِعْلُهُ مَخْرَجَ فِعْلِ ناقِضِ العَهْدِ ومُخْلِفِ الوَعْدِ باللهِ. وذلكَ المَعْنى في البَذْلِ لا في مُراعاةِ[4] العَدَدِ ولا في أنهُ كانَ حقاً لَهُمْ قَبْلَ الدَّفْعِ بلْ بِاخْتِيارِ الدَّفْعِ إليهِمْ يَجْعَلُهُمْ مُحِقّينَ فيهِ بِما لهُ إيثارُ غَيرِهِمْ والخروجُ عن ذلكَ بالعِتْقِ والصِّيامِ الذي لا يعودُ إليهِمْ نَفْعُهُ.

ولكنَّ الكَفّارَةَ إذا جُعِلَتْ مِمّا يُغَذّى، ويُعَشّى، ونَحْوِ ذلكَ إذا أُريدَ الخُروجُ بِهِ منهُ بِمِسْكينٍ واحِدٍ يَحتاجُ إلى تحديدِ الأيامِ ومُرورِ الأوقاتِ. وفي ذلكَ خَوفُ بَقاءِ الذُّنوبِ عليهِ. ولَعَلَّهُ يُعَجِّلُهُ المَوتُ[5]، فَيَبْقى ذَنْبُهُ غيرَ مُكَفَّرٍ، جَعَلَ اللهُ لهُ التَّكْفيرَ في المَساكينِ تَيسيراً وتَمْكيناً مِنَ الخُروجِ الذي رَكَنَهُ لا لِفَوتِ مَعْنًى مِمّا لهُ التَّكْفيرُ. فَلِذلكَ يجوزُ على ما ذَكَرْتُ. وهذا الوَجْهُ يُوجِبُ مَنْعَ الجوازِ في يومٍ واحِدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنهُ مَتى أطْعَمَ مِسْكيناً بَقِيَ عليهِ خِطابُ إطعامِ تِسْعَةٍ؛ وذلكَ لوِ ابْتَدَأَ الخِطابُ بِتِسْعَةٍ مِمّا يَتَضَمَّنُهُ الخِطابُ، فكذلكَ إذا كانَ بَعْدَ إسقاطِ الواحِدِ مِنَ الخِطابِ، واللهُ أعلَمُ. ثم لو كانَ العَدَدُ شَرْطاً لَكانَ بِوُجودِ مَعْنى العَدَدِ في الواحِدِ إسقاطُهُ أنَّ ذلكَ في مَوضِعِ التَّكْفيرِ والتَّطْهيرِ، وكلُّ ذلكَ يَتَعَلَّقُ بالمَعاني مِمّا ذُكِرَ فيها مِنَ الأعدادِ نَحْوُ الغُسْلِ مِنَ الأحداثِ والجَنابَةِ والأنجاسِ، فَمِثْلُهُ الكَفّارَةُ.

وبَعْدُ فإنهُ مَعْلومٌ أنَّ لِكُلِّ مِسْكينٍ قَدْراً مِنَ الطَّعامِ، ثم كانَ القَدْرُ الواحِدُ بِتَفَرُّقِ الإملاكِ عليهِ يَسْتَوجِبُ حَقَّ قَدْرِ العَشَرَةِ[6]. فَعَلى ذلكَ المِسْكينُ الواحِدُ بِما تَتَفَرَّقُ عليهِ المَسْكَنَةُ كلَّ يَومٍ، وتَتَجَدَّدُ الحاجةُ يَصيرُ عَدَدَ المَساكينِ. وذلكَ أيضاً

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: حقية. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: المراعاة. (٥) في الأصل وم: الميتة. (٦) في الأصل وم: العشر.

شَبيهٌ بما رُوِيَ مِنَ الاِسْتِنْجاءِ بِثَلاثةِ أحجارٍ على استِحْقاقِ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ حَقَّ حَجَرٍ على حِدَةٍ مِنْ حَيثُ كانَ غَيرَ مُسْتَنْجًى بِهِ. فكذلكَ ما نَحْنُ فيهِ؛ إذْ لهُ كُلَّ يومٍ حَقُّ مِسْكينٍ آخرَ مِنْ حِينٍ[1] حَدَثَتْ لهُ حاجةٌ لم تُدْفَعْ بالإطعامِ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

وليسَ كالأعدادِ في الشَّهادَةِ لِما جَعَلَ العَدَدَ فيها بِما يَلْحَقُ الواحدَ تُهَمَةٌ أولهُ بهِ مَنْفَعَةُ التَّصْديقِ أو نوعُ عِبادَةٍ في مَوضِعِ الحُكْمِ والقَضاءِ وتَسْليمِ الأمْرِ لِغَيرِهِ مِنَ الحُجَجِ. وفي هذا مَعْنَى التَّكْفيرِ قد بَيَّنّا. وذلكَ كَمَعْنَى التَّطهيرِ في الذي وَصَفْنا. على أنَّ الشَّهادَةَ في اليَومِ الثاني إعادةُ الأوّلِ، والإطعامَ هو تَحديدُ الدَّفعِ، والواحدَ قد يَقومُ في الشهادةِ مَقامَ مِئةٍ إذا كانَ لِكُلِّ حَقُّ التَّحديدِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ مِنْ غَيرِ ذِكْرِ القَريبِ والبَعيدِ أوِ المُؤْمِنِ والكافِرِ أو الصَّغِيرِ والكَبيرِ أو قَدْرِ المَسْكَنَةِ أوِ العِلْمِ الذي بهِ نَعْرِفُ. ومَعْلومٌ أنَّ لِكُلِّ جِهَةٍ مِمّا بَيَّنّا حدًّا بالناسِ إلى مَعْرِفَتِهِ حاجَةٌ، ولِلنّاسِ في كلِّ جهةٍ تَنازُعاً[2]، والاِجْتِهادَ في الوُقوفِ على الحَقيقَةِ. على أنَّ الاِتِّفاقَ، وعلى أنهُ لم يُجْعَلِ الأمرُ على الاِسْمِ خاصَّةً، وأنَّ الذي هو في حَدِّ الفَقْرِ في ما ذُكِرَ فيهِ المِسْكينُ والفَقِيرُ، قائمٌ مَقامَ المِسْكينِ ههنا في الجَوازِ لِيُعْلَمَ أنَّ المَعْنَى فيهِمْ مَقصودٌ، يَجِبُ طَلَبُهُ والبَحْثُ عنهُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم أُجْمِعَ أنَّ الصَّغِيرَ الذي قَدْرُ لُقْمَتِهِ لُقْمَةُ الكَبيرِ لم يَقُمْ في حَقِّ الإطعامِ إلّا مِنْ حَيثُ التَّمْليكِ؛ إذِ الجَمْعُ على أقَلِّ المِقْدارِ أنهُ مُدٌّ، والمُدُّ يَكْفي عَشَرَةً مِثْلَهُ، ثَبَتَ أنهُ لا إلى مِثْلِهِ رَجَعَ الخِطابُ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أنَّ مِثْلَهُ لا يَبْلُغُ أقَلَّ ما يُطعِمُ الأهْلَ. على أنهُ لو أُريدَ بالأهلِ الزَّوجَةُ لَكانَ مِثْلُها لا يُطْعِمُها الزَّوجُ، فَثَبَتَ أنَّ المُرادَ راجعٌ إلى الخُصوصِ، واللهُ أعْلَمُ.

والأصْلُ في ذلكَ ما بَيَّنّا مِنْ تَأَلُّمِ الطَّبْعِ بِدَفْعِ مِثْلِهِ، وابْنُ يومٍ يَميلُ الطَّبْعُ إلى إرضاعِ مِثْلِهِ، بل لا يَحْتَمِلُ إمهالَهُ. وبَعْدُ فإنَّ مِثْلَهُ لا يُطْعَمُ، فَثَبَتَ أنَّ الأمْرَ راجعٌ إلى واحِدٍ، واللهُ أعْلَمُ. وعلى ما ذَكَرنا قالُوا في الوالِدَينِ والوُلْدِ أنهُ لا يَجوزُ لأنَّ الطَّبْعَ يألَمُ بِمَسْكَنَةِ هؤلاءِ لا لِما بِهِ دَفْعُ المَسْكَنَةِ عنهُمْ، بل جَعَلَ اللهُ تعالى الطَّبائِعَ بَيْنَ هؤلاءِ بِحَيثُ لا يُحْتَمَلُ نُزولُ البَلاءِ والشِّدَّةِ بِهِمْ، وبِحَيثُ يَجْتَهِدُ كُلٌّ بِدَفْعِ الضَّرَرِ عنهُمْ على مِثْلِ الدَّفْعِ عنْ نَفْسِهِ وبَذْلِ المالِ لِصَونِ عِرْضِهِمْ حتى لقد يُشْتَمُ مَنْ لم يَتَعاهَدْ منهُمْ ذلكَ، ويُلامُ أعْظَمَ اللَّومِ. وإذا كانَ كذلكَ لم يَتَضَمَّنْهُمْ هذا الأمْرُ؛ إذْ هُمْ لا بِهذا يَقومُونَ بذلكَ بِحَقِّ الطبيعَةِ لا بأمْرٍ. وقد بَيَّنّا وَجْهَ الكَفّارَةِ أنهُ في مُخالَفَةِ الطَّبْعِ، واللهُ أعْلَمُ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنِ الذي أمَرَ بِتَفْريقِ زَكاتِهِ، فأعْطَى ابْنَهُ، فاخْتَصَما إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يا فلانُ: «لَكَ ما نَوَيتَ» وقالَ لِلآخَرِ: «لَكَ ما أخَذْتَ» [البخاري١٤٢٢] ولو كانَ يَجوزُ اخْتيارُ فِعْلِهِ لَكانَ ذلكَ أحَبَّ ما صارَ إليهِ، وآثَرَ.

وقد رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أنتَ ومالُكَ لِأبيكَ» [ابن ماجه ٢٢٩٢] فلا يُحْتَمَلُ مَعَ هذا الجَوازُ بِالاِخْتِيارِ، ويَصيرُ ما يَدْفَعُ إلى ابْنِهِ كأنهُ لِنَفْسِهِ دَفَعَ. فَلِذلِكَ لم يَجُزْ.

والأصْلُ في هذا وفي الزَّكاةِ أنها حُقوقٌ، جَعَلَها اللهُ تعالى في الأموالِ لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُما: بِما ابْتَدَأَ اللهُ عَبيدَهُ بالنِّعَمِ، وخَصَّهُمْ بإعطاءِ ما اشْتَهَتْ أنْفُسُهُم، ومالَتْ طِباعُهُمْ، فَاسْتَأداهُمْ شُكْرَ ذلكَ بالذي جَعَلَ في طباعِهِمُ النِّفارَ عنهُ وفي أنْفسِهِمُ الألَمَ بِهِ مِنَ الإخراجِ عنِ المُلْكِ ومَعُونَةَ مَنْ لم يُكْرِمْهُمْ بهِ ولا أنْعَمَ عليهِمْ بهِ.

والثاني: أنْ يكونُوا قَرَفُوا مَأْثَماً بِما أعْطَوا أنْفُسَهُمْ ههنا، وأوصَلُوا[3] طِباعَهُمْ إلى هَواها بِغَيرِ الوَجْهِ الذي أُذِنَ لهُ في ذلكَ مَنْ هُوَ لَهُ في الحَقيقَةِ، وهو الذي اخْتَصَّهُمْ، فَعَلَيهِمُ الخُروجُ بِما فَعَلُوا مِنَ الوَجْهِ الذي في الطَّبْعِ النِّفارُ عنهُ، وفي النَّفْسِ/١٣٧ ـ ب/ الألَمُ لِيُذيقُوا أنْفُسَهُمْ بَدَلَ[4] ما أعْطَوها مِنَ اللَّذَّةِ المَرارَةَ. فَمَنْ هو مِنَ المُتَصَدِّقِ بالمَحَلِّ الذي يَجِدُ بهِ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: تنازع. (٣) من م، في الأصل: وأصلوا. (٤) في الأصل وم: بالدال المنقوطة: بذل.

هذا فهو مُقابِلُ ما لَهُ أُكرِمَ، وبهِ أُقْرِف. ومَنْ لا يَجِدُ بِهِ هذا فَلَيسَ بِمُقابِلِ ذلكَ، فَلَمْ يَفِ بِحَقٍّ، فلم يُخرِجْ مِمّا عليهِ مِنَ الفَرْضِ، وإنْ كانَ اللهُ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ بِحَيثُ يُرْجَى [مِنْهُ العَفْو، ومنهُ القبولُ][1]، واللهُ أعْلَمُ.

وعلى ذلكَ عندَنا أمْرُ الزَّوجَينِ؛ إذْ يُوجَدُ بَيْنَهما في البَدَلِ شَهوَةٌ ومَيلُ الطَّبيعَةِ؛ وتكونُ الطَّبيعَةُ، ويكونُ التَّناكُحُ بِمِثْلِهِ على ما ذُكِرَ النِّكاحُ لِأربعةِ أوجُهٍ أحَدُها: لِمالِها، وما كذلكَ المَوجودُ في الطِّباعِ، واللهُ أعْلَمُ.

وعلى هذا المَعْنَى يَخرُجُ أمْرُ الشهادةِ، إذْ هيَ مُؤَسَّسَةٌ على دفعِ السَّهمِ عنِ المُدَّعِينَ. فإذا رَجَعَتْ مَنافِعُهُمْ إلى حُجَجِهِمْ تَمَكَّنَتْ فيهِمْ ذلكَ، فلم تُقْبَلْ.

وجُمْلَةُ ذلكَ أنَّ الشهادةَ ودَفْعَ الزَّكَواتِ والكَفّاراتِ بِحَقِّ الأماناتِ، وهي بِحَيثُ لِلْأمناءِ الانْتِفاعُ بها. فكُلٌّ وَجَدَ فيهِ انْتِفاعَ المُؤتَمِنِ، فإنّها، لهُ الانْتِفاعُ بلا تَمانُعٍ في العُرْفِ أو بِما في الطَّبْعِ إيثارُ نَفْعِهِ، فكانَ لهُ فيهِ ما بِزَوالِهِ جُعِلَ أميناً، فلا تَثْبُتُ لهُ الأمانَةُ فيهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وعلى هذا يَخرُجُ أمْرُ الدَّفْعِ إلى المُكاتِبِ والشَّهادةِ لهُ، واللهُ أعْلَمُ. ثم الدَّفْعُ إلى الكَفّارةِ: القياسُ أنْ يجوزَ جميعُ ذلكَ مِنْ حَيثُ كانَ المَعْنَى الذي يَختارُ في الدَّفعِ إليهِمْ، أو يَجِدُ مِنْ ثِقَلِ الطَّبْعِ وأَلَمِ النَّفْسِ.

وعلى ذلكَ أُجيزَتْ عندَنا الكَفّاراتُ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: [﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] صَيَّرَ][2] الصَّدَقاتِ مُكَفِّرَةً لِما ذُكِرَ. ثم يَدُلُّ على ذلكَ في ما قالَ أهلُ التَّفسيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٢] إنَّ ذلكَ في التَّصَدُّقِ على أهلِ الكُفرِ؛ أي لا يَمْنَعْكَ ذلكَ. وكانَ على إثْرِ الوَعْدِ بالتَّكفيرِ بالصَّدَقَةِ، فأمْكَنَ أنْ يكونُوا هُمْ في ذلكَ مَعَ ما كانتِ الكَفّاراتُ جُعِلَتْ بِشَرْطِ المَسْكَنَةِ. وقَبيحٌ في المُسْلِمِ دَفْعُ السُّؤالِ، وإنْ كانُوا كَفَرَةً، فجائزٌ الدَّفْعُ إليهِمْ.

وجُمْلَةُ ذلكَ أنَّ ذلكَ بِما اختارَ مِنْ إعطاءِ النَّفْسِ شَهَواتِها في ما لم يُؤذَنْ لهُ. فتكونُ كَفّارتُها بالكَفِّ عن شَهَواتِها في ما كانَ يَحِلُّ، والبَذْلُ بالذي كانَ يَسَعُهُ مَنْعُ ذلكَ. وذلكَ المَعْنَى مَوجودٌ، في ذلكَ عُلِمَ أنَّ [تَرْكَ][3] التَّصَدُّقِ عليهِمْ نَقْضُ ما يُرَغِّبُهُمْ في الإسلامِ، لم يَجُزِ المَنْعُ، واللهُ أعْلَمُ.

وأمّا الزَّكَواتُ فَهِيَ[4] مَخصُوصَةٌ بِما جاءَ مِنْ إضافَةِ الدَّفْعِ إلى ما[5] يُؤخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ، ولِما بَيَّنَ أهلَها، وجَعَلَ أهْلَها سَفارَةً لِيَتَحَرَّوُا المَواضِعَ.

وأمّا الكَفّاراتُ [فَقَدْ][6] جُعِلَ على أربابِها إيجابُها، والخُروجُ عنها في تَخَيُّرِ أهْلِها مع ما كانَتِ الزَّكَواتُ أُوجِبَتْ بلا كَسْبٍ بِحَقِّ الشُّكرِ، وحَقُّ الشُّكرِ الإنفاقُ في الطاعةِ. ثم كانَ الإنفاقُ على مَنْ يُطِيعُ اللهَ بِهِ يَخرُجُ مَخرَجَ المَعونَةِ على الطاعةِ، وعلى الكافِرِ لا [فلا يَقْتَصِرُ][7] على شَرْطِ التَّمامِ في مَعْنَى الشُّكرِ، والكَفّارَةُ[8] في حَقِّ إعطاءِ النَّفسِ الشَّهوَةَ، فَيَمْتَحِنُها بإخراجِ ما في شَهْوَتِها المَنْعُ، وذلكَ المَعْنَى مَوجودٌ في الكافِرِ على التَّمامِ، لِذلكَ اخْتَلَفا.

وبَعْدُ فإنَّ الزَّكَواتِ تَجِبُ بلا إيجابٍ، وقد قَطَعَ اللهُ الحَقَّ الذي ذلكَ سَبيلُهُ، ثم بَيَّنَ مُخْتَلِفِي المُلْكِ بِحَقِّ المَوارِيثِ. والكَفّاراتُ تَجِبُ بِما اكْتَسَبُوا. وبَيْنَ الفريقَينِ في الحُقوقِ المُكْتَسَبَةِ اشْتِراكٌ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ الزَّكَواتِ أُوجِبَتْ في الأموالِ حَقّاً لِلْفُقَراءِ. ثم هيَ تَخرُجُ إلى مَنْ أَوجَبَ لَهُمْ؛ فَمَنْ لم يَعْلَمْ مَنْ أُوجِبَتْ لهُ لم يَخرُجْ على مِثْلِ حُقوقِ المَوارِيثِ لِلْقرابَةِ، وغَيرِ ذلكَ.

والكَفّاراتُ لَيسَتْ بِواجِبَةٍ في الأموالِ تُخرَجُ، بل يُنْظَرُ إلى وَقْتِ الدَّفْعِ والقِيامِ بالتَّكفيرِ. فإنْ كانَتْ لهُ أموالٌ دَفَعَها مِنْها، وإلّا لَيسَتْ عليهِ، فَصارَتِ الحُقوقُ كأنها بالدَّفْعِ؛ إذْ لو تُوُهِّمَ وَقْتَ الوُجوبِ لهُ الغِنَى والفَقْرُ لَكانَ الأمْرُ لا

---

(١) في الأصل وم: من العفو ومنه القبول منه. (٢) من م، في الأصل ﴿إِن تُبْدُوا﴾. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: فهو.
(٥) في الأصل وم: من. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: فيقتصر. (٨) من م، في الأصل: الكفارة.

يَختَلِفُ[١]، وإذا كانَ كذلكَ، ولهُ ابْتِداءُ التَّصدُّقِ عليهِمْ بِحَقِّ التَّطوُّعِ والنُّذورِ وغَيرِها، فتجوزُ فيهِمْ. والزَّكَواتُ إذِ الدَّفعُ مِنها تَسليمٌ إلى مَنْ كانَ لهُ الحقُّ احْتِيجَ في ذلكَ إلى مُبيِّنِ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وصَدَقَةُ الفِطرِ بِحَقِّ إظهارِ السُّرورِ ودَفعِ السؤالِ كما رُوِيَ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أغنُوهُم عنِ المَسألَةِ في مِثلِ هذا اليَومِ» [الدارقطني: ٢١١٤] لا بِحَقِّ ما كانَ جُعِلَ في مالِهِ يُخرِجُ منهُ، بل بِحَقِّ المَعونَةِ؛ وذلكَ لازمٌ في العقولِ لِكُلِّ سائلٍ ولِخاصَّةِ الدَّفعِ[٢] إليهِمْ لِيَتَمَتَّعوا[٣] هُمْ بما فيهِ سُرورُ أهلِ الإسلامِ، واللهُ أعْلَمُ.

وأيضاً إنَّ الزَّكَواتِ أُوجِبَتْ في الابْتِداءِ حَقّاً لِلفُقَراءِ؛ إذِ اللهُ ﷻ أخرَجَ أرزاقَ الخَلقِ أموالاً[٤] لِبَعضِهِمْ، وألزَمَهُمْ تَحمُّلَ كَفايَةِ مَنْ لم يُمَلِّكْهُمْ أعيُنَ تلكَ الأموالِ، إذْ لم يَخلُقِ ابْتِداءً [الرِّزقَ لَهُمْ جُملَةً][٥]. وإذا كانَ مَحَلُّ الزَّكَواتِ في الابْتِداءِ، وجَعَلَ لِأهلِها بها الغِنى، وأهلُ الكُفرِ أبَوا قَبولَ الدِّينِ الذي ذلكَ حَقٌّ، جَعَلَ لِلمُحتاجينَ في أموالِ الأغنياءِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ في مَذهَبِهِمْ ذلكَ الحَقُّ، بل لو كانَ في أموالِ الأغنياءِ[٦] مَذهَبُهُمْ، ولأهلِ الإسلامِ أنَّ ذلكَ الحَقَّ في أموالِ أغنيائِهِمْ، وكذلكَ مَنْ عليهِمُ الحَقُّ قَبِلُوهُ بالدِّينِ لِأهلِهِ لم يَدخُلْ في ذلكَ غَيرُهُمْ.

ثم كانَتِ الكَفّاراتُ والنُّذورُ ونَحوُها لَيسَتْ بِمَجْعُولَةٍ بالدِّينِ لِحَقِّ الفُقَراءِ، وإنما هي واجِبةٌ يَتعاطى أربابُ مَنْ لَزِمَهُمْ لِيَتَقَرَّبوا بِها إلى رَبِّهِمْ، ويَخرُجوا بها مِمّا جَنَوا على أنْفُسِهِمْ[٧]. وقد جُعِلَ ذلكَ في جُملَةِ الصَّدَقاتِ وفي أنواعِ العِباداتِ التي لا عِبْرَةَ فيها لِمَنافِعِ الخَلقِ، فَثَبَتَ أنها لم تَجِبْ لَهُمْ، وإنما الشَّرْطُ عليهِمْ فيها ما يكونُ عِبادَةً وقُرْبَةً إلى اللهِ تعالى.

وقد جَعَلَ اللهُ تعالى في الدَّفعِ إلى مَساكِينِهِمْ قُرْبَةً وعِبادَةً فجازَتْ. وعلى هذا يَخرُجُ قَولُنا في العِتْقِ. على أنَّ قَولَنا لِجَميعِ المُخالِفِينَ لَنا في هذا أولَى؛ لأنَّ مَذهَبَهُمُ اعْتِمادُ العُمومِ إلّا في قَدْرِ ما يَمْنَعُهُمْ عن ذلكَ. والعُمومُ لِجَميعِ الفِرَقِ كُلِّهِمْ باسْمِ المَساكِينِ واسْمِ تَحريرِ الرَّقَبَةِ. ولا دَليلَ لَهُمْ على الخُصوصِ إلّا ضَرْبٌ مِنَ القِياسِ. ومَنْ مَذهَبُهُ أنَّ إخراجَ بَعضِ ما تَضَمَّنَهُ الِاسْمُ لا يُوجِبُ خُصوصَ ذلكَ، فكذا يُلْزِمُهُمْ ألّا يَخُصُّوا الوُجودَ بالتَّخصِيصِ[٨] في غَيرِهِ. فإنَّ[٩] ذلكَ أبْعَدُ. على أنهُمْ أجْمَعُوا أنْ يُقاسَ ما ليسَ فيهِ ذِكْرُ التَّتابُعِ على المَذكورِ، فَمِثْلُهُ أمْرُ الأيمانِ. وجُملَتُهُ[١٠] أنهُ قد يَجوزُ في العِتْقِ مَعَ قِيامِ كَثيرٍ مِنَ العُيوبِ التي لا تَحتَمِلُ القَفيزَ، فَعَيبُ الدِّينِ الذي يُمْكِنُهُ أحَقُّ. وكذلكَ مِنْ قَولِ الجَميعِ أنَّ العَجزَ بالمَرَضِ عنِ المَكاسِبِ لا يَمْنَعُ؛ إذْ هو قد يَزولُ. فالذي لا عَجزَ فيهِ، ويُمْكِنُهُ اخْتِيارُهُ، أحَقُّ أنْ يجوزَ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم الأصلُ أنَّ اللهَ تعالى في الكَفّارَةِ التي جَعَلَ الأيمانَ فيها شَرْطاً ذَكَرَ العِتْقَ في ذلكَ في قَتْلِ ثلاثَ مَرّاتٍ[١١]؛ ذَكَرَ في كُلِّ مَرَّةٍ تَحريرَ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ، لم يَدَعْ ذِكْرَ ذلكَ في شَيءٍ مِنها لِلذِّكْرِ في نَوعٍ مِنَ ذلكَ على قُرْبِ ما بَيْنَ أُولئكَ الأسبابِ. فلو كانَ يَحتَمِلُ الِاقْتِصارَ على بيانِ الكِفايَةِ دونَ المُبالَغَةِ أو يَجِبُ ذلكَ في النَّظَرِ لَكانَ يُذكَرُ مَرَّةً[١٢] كِفايَةً على نَحوِ الصَّومِ. فإذا لم يَكْتَفِ على تَقارُبِ المَعنَى بانَ أنَّ ذلكَ نَوعُ ما لَمْ يُؤذَنْ فيهِ تَعليقُ الحُكْمِ بالمَعنَى. بل لو كانَ مأذوناً فيهِ لَكانَ يُوجَدُ في القَتْلِ مَعانٍ لا تُوجَدُ في غَيرِ ذلكَ، فَلا يَجوزُ قِياسُ غَيرِهِ عليهِ، واللهُ أعْلَمُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إذْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] ثم قد جَعَلَ سَيِّئَةَ[١٣] الظِّهارِ والقَتْلِ عِتْقَ رَقَبَةٍ والصِّيامِ صَومَ ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢ والمجادلة: ٣] فكيفَ جَعَلَ مِثْلَ سَيِّئَةِ الحِنْثِ بالعِتْقِ عِتْقَ رَقَبَةٍ وبالصيامِ [صَومَ][١٤] ثلاثةِ أيامٍ؟ فلو كانَ [صَومُ][١٥] ثلاثةٍ عَديلَ العِتْقِ، فإذنْ زادَ في الظِّهارِ والقَتْلِ/١٣٨ ـ أ/ في الجَزاءِ. نَقُلْ[١٦]، وباللهِ التوفيقُ، لِذلكَ أجْوِبَةٌ ثلاثةٌ:

[أحدُها][١٧]: أنَّ الجزاءَ في الدنيا هو ما تَجوزُ بِهِ المِحْنَةُ ابْتِداءً لا على الجَزاءِ. فَعَلَى ذلكَ يَجوزُ فيهِ الزِّيادَةُ بِحَقِّ

---

(١) من م، في الأصل: يخلف. (٢) في الأصل وم: في الدفع. (٣) في الأصل وم: ليمتنعوا. (٤) في الأصل وم: أملاكا. (٥) في الأصل وم: الخلق لهم جملة. (٦) في الأصل وم: أغنياء. (٧) في الأصل وم: مذهبهم. (٨) الباء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: إن. (١٠) من م، في الأصل: جعلته. (١١) في الأصل وم: فرق، والآيات المقصودة في النساء: ٩٢ والمائدة: ٨٩ والمجادلة: ٣. (١٢) الآية المقصودة في النساء: ٨٩. (١٣) في الأصل وم: سببه. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: نقول. (١٧) ساقطة من الأصل وم.

المِحْنَةِ لا الجزاءِ والنُّقصانُ بِحَقِّ العَفْوِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقالَ: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِالْحَسَنَـٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وفي الآخِرَةِ لا يَكونُ بِحَقِّ ابْتِداءِ المِحْنَةِ، إنما ذلكَ بِحَقِّ الجَزاءِ، وهو ﷻ حَكيمٌ، عَدْلٌ، لا يَزيدُ على ما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ، ويُجيزُ التَّجاوُزَ بِما هو عَفُوٌّ كريمٌ. فلذلكَ اخْتَلَفَ الأمرانِ.

والثاني: أنْ يُقالَ: حَقُّ جَزاءِ كُلِّ ما فيهِ العِتْقُ صِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ، ولِما العَفْوُ فيهِ عامَلَ الحانِثَ، فَرَضِيَ مِنْهُ بِصَومِ ثلاثةِ أيامٍ لِما عَلِمَ ﷻ في ذلكَ مِنَ المَصالِحِ، واللهُ أعْلَمُ.

والثالثُ: أنْ يكونَ حَقُّ الجَزاءِ في اليَمينِ بالصِّيامِ ما ذُكِرَ. وكذلكَ في القَتْلِ والظِّهارِ؛ وفيها حَقُّ العِتْقِ كذلكَ، وفي اليَمينِ دُونَهُ. ولكنَّهُ تَمَّمَ بِما لا يَحْتَمِلُ التَّجْزِئَةَ على حَقِّ كُلِّ شَيْءٍ لا يَتَجَزَّأُ أنَّ جُزْأً مِنْهُ متى وَجَبَ يَجِبُ كُلُّهُ؛ فَعَلَى ذلكَ العِتْقُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم نقولُ: وظاهِرُ هذا يَشْهَدُ لِأبي يُوسُفَ، رَحِمَهُ اللهُ، ومحمدٍ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ متى أوجَبَ جُزْءاً منهُ أُعْتِقَ[1] كُلُّهُ، إذ لا يَحْتَمِلُ التَّجزِئَةَ. دليلُهُ أمْرُ الكَفّاراتِ، واللهُ أعْلَمُ.

ومَذْهَبُ أبي حَنيفَةَ ﷺ أنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا لِما لا يَحْتَمِلُ العِتْقُ التَّجْزِئَةَ، وإنْ كانَ العِتْقُ في نَفْسِهِ مُحْتَمَلاً فيجبُ عَرْضُ ذلكَ على ما فيهِ بَيانُهُ، فَوَجَدَ الأمْرَ بالتَّحريرِ حيثُ كانَ يَذْكُرُ الرَّقَبَةَ. ولو كانَ لا يُحْتَمَلُ مِن حَيثُ التَّحريرُ [كانَ][2] كافِياً عنْ ذِكْرِ الرَّقَبَةِ. فإنْ ذَكَرَ في كلِّ ما أمَرَ بانَ أنهُ ذَكَرَ لِيُتَمِّمَ بالإعْتاقِ، لا أنهُ يَتِمُّ بِلا ذِكْرٍ. فَعَلَى ذلكَ أمْرُ الطَّلاقِ لم يَذْكُرْ فيها مَعْنَى رَقَبَتِها لِما لا يَحْتَمِلُ، واللهُ أعْلَمُ، بَعْضَ ذلكَ.

ثم كانَتِ الحُقُوقُ تَرْجِعُ إلى الانْتِفاعِ أو إلى قَولٍ أو مَضَرَّةٍ أو نَحْوِ ذلكَ، لا يَحْتَمِلُ نفوذَ جُزْءٍ[3] المُعْتَقِ منهُ دُونَ غيرِهِ. ثَبَتَ أنَّ ذلكَ إنْ كانَ كذلكَ فهو لا يَحْتَمِلُ؛ إذ في تَرْكِ إكْمالٍ فَوْتُ نَفْعِ ما أوجَبَ، واللهُ أعْلَمُ. ثم قد يجوزُ إعتاقُ الجُزْءِ مِنْ حَيْثُ كانَ المُلْكُ والحُرِّيَّةُ بأخذِ العَيْنِ، والمَنافِعُ تَصِلُ إلى المُباشَرَةِ لا تَحْتَمِلُ التَّمْييزَ. وفي القولِ فيهِ جُمْلَةً يَحْتَمِلُ لِذلكَ اخْتِلافاً. وعلى ذلكَ أمْرُ الطَّلاقِ لا مُلْكَ. ثم في النَّفْسِ إنما حَقيقَةُ المُباشَرَةِ والانْتِفاعِ؛ وذلكَ لا يَحْتَمِلُ الجُزْءَ المُطْلَقَ منها [أو جُزْءاً][4] دُونَ غيرِهِ. فَلِذلكَ أُكْمِلَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ﴾ الآيةَ. عنِ ابنِ عباسٍ ﵄ [أنهُ][5] قالَ: المَيْسِرُ القِمارُ.

وعنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: «اجْتَنِبُوا الكِعابَ المَوسُومَةَ التي تَزْجُرُ زَجْراً فإنها مَيْسِرُ العَجَمِ» [بنحوه أحمد: ٤/ ٣٩٢] وعنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مِثْلُهُ، وعنْ أبي مُوسَى الأشْعَرِيِّ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللهَ ورسولَهُ» [أبو داوود ٤٩٣٨].

وعنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: المَيْسِرُ قِمارٌ. وعَنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ قالَ][8]: لَأنْ آخُذَ جَمْرَتَيْنِ مِنْ نارٍ فَأُقَلِّبَهُما في يَدَيَّ أحَبُّ إليَّ منْ أنْ أُقَلِّبَ كَعْبَتَي نَرْدٍ. وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ [أنهُ قالَ][9] أيضاً: الشِّطْرَنْجُ مَيْسِرُ الأعاجِمِ. وعنْ مُجاهِدٍ وسَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ والشَّعْبِيِّ وهؤلاءِ السَّلَفِ [أنهمْ][10] قالوا: المَيْسِرُ القِمارُ كُلُّهُ حتى الجَوزُ الذي يَلْعَبُ بِهِ الصِّبْيانُ.

وعنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][11] قالَ: «لا جَلَبَ ولا جَنَبَ ولا شِغارَ ولا وِراطَ في الإسلامِ» [الترمذي ١١٢٣] وقيلَ: الوِراطُ القِمارُ، وقيلَ: الجَلَبُ هو أنْ يُجْلَبَ وراءَ الفَرَسِ حتى يَدْنُوَ، أو يُحَرَّكَ وراءَهُ الشَّيءُ، يَسْتَحِثُّ السَّبْقَ، والجَنَبُ هو الذي يُجْنَبُ مَعَ الفَرَسِ الذي بِهِ يُسابِقُ فَرَساً آخَرَ حتى إذا داناهُ تَحَوَّلَ راكِبُهُ إلى الفَرَسِ الجَنوبِ، فأخَذَ السَّبْقَ.

وأجْمَعَ أهلُ العِلْمِ على أنَّ القِمارَ حرامٌ، وأنَّ الرِّهانَ هو المُخاطَرَةُ مِثْلُ القِمارِ. وما رُوِيَ عنْ أبي بَكْرٍ ﷺ أنهُ خاطَرَ

(١) في الأصل وم: عتق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حر. (٤) في الأصل وم: أوجب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: قال: مدرجة بعد أيضاً. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

أهلُ مَكَّةَ في غَلَبَةِ الرومِ فارسَ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «زِدْهُمْ في الخَطَرِ، وأبْعِدْهُمْ في الأَجَلِ» فكانَ ذلكَ، والنَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ في الوَقْتِ الذي لم يَنْفُذْ حُكْمُهُ.

فأمّا في دارِ الإسلام فلا خِلافَ في أنَّ ذلكَ لا يَجوزُ إلا ما رُخِّصَ فيهِ مِنَ الرِّهانِ في السَّبْقِ في الدَّوابِّ والإبِلِ إذا كانَ الآخِذُ واحداً: إنْ سَبَقَ أخَذَ، وإنْ سُبِقَ لم يُدْفَعْ شيءٌ، وكذلكَ إنْ كانَ السَّبْقُ بينَ الرَّجلَينِ: أيُّهما سَبَقَ أخَذَ، وإنْ دَخَلَ بَيْنَهما فَرَسٌ: إنْ سَبَقَ أخَذَ، وإنْ سُبِقَ [لَمْ][1] يَغْرَمْ صاحِبُهُ شيئاً، فهو جائزٌ. ويُسَمّى الداخِلُ بَيْنَهُما المُحَلِّلَ.

فأمّا الرُّخْصَةُ فيهِ فَما رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «لا سَبَقَ إلّا في خُفٍّ أو حافِرٍ أو نِصالٍ» [أبو داوود ٢٥٧٤].

هذا الذي وصَفْنا، كُلُّهُ مِنَ المَيْسِرِ. والأنصابُ هي الأحجارُ، والأوثانُ التي كانُوا يَنْصِبونَها، ويَعْبُدونَها، ويَذْبَحُونَ بها. وأمّا الأزلامُ فالقِداحُ التي يَسْتَقْسِمونَ بها في أمورِهِمْ، ويَسْتَعْمِلُونَها. ففيهِ دليلُ بُطلانِ الحُكْمِ بالقُرْعَةِ لأنَّ الإسْتِقْسامَ بالقِداحِ هو أنْ كانُوا يَجْعَلُونَ الثَّمَنَ على الذي خَرَجَ سَهْمُهُ أخيراً، ويَتَصَدَّقُونَ بما اشْتَرَوا على الفُقَراءِ. ففيهِ إيجابُ الثَّمَنِ على الغَيرِ، فَيَجْعَلُونَ الأمْرَ إلى مَنْ ليسَ لهُ تَمْييزٌ. فَعُوتِبُوا على ذلكَ الحُكْمِ بالقُرْعَةِ، تُسَلِّمُ[2] إلى مَنْ ليسَ لهُ تَمْييزٌ بَيْنَ المُحِقِّ وغَيرِ المُحِقِّ، فَيَلْحَقُ هذا ما لَحِقَ أولئكَ.

ثم أخْبَرَ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وليسَ في الحَقيقةِ عَمَلَ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ لا يَفْعَلُ هذا حَقيقَةً. لكنْ نَسَبَ ذلكَ إليهِ لِما يَدْعُوهُمْ إلى ذلكَ، ويُزَيِّنُ لَهُمْ.

وكذلكَ قَولُ مُوسَى ﷺ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ﴾ [القصص: ١٥] كذا، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] وهو، لَعَنَهُ اللهُ، لم يَتَوَلَّ إخراجَهُما، ولكنْ كانَ بهِ سَبَبُ الإخراجِ والإذلالِ؛ وهو الدُّعاءُ إلى ذلكَ والمُراآةُ لَهُما[3]، فَنَسَبَ ذلكَ إليهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ هُمْ في الظاهِرِ لم يَجْتَمِعُوا على العَداوَةِ والبَغْضاءِ، بل يكونُ اجْتِماعُهُمْ على الإلْفَةِ والمَوَدَّةِ، على ذلكَ يَجْمَعُهُمْ في الابْتِداءِ. لكنْ لَمّا شَرِبُوا، وأخَذَهُمُ الشرابُ، وَقَعَتْ[4] بَيْنَهُمُ العَداوَةُ. فكانَ قَصْدُهُ[5] إلى جَمْعِهِمْ في الابْتِداءِ على المَحَبَّةِ والمَوَدَّةِ لِما ظَهَرَ مِنهُ في العاقِبَةِ مِنْ إيقاعِ العَداوَةِ بَيْنَهُمْ وتفريقِ جَمْعِهِمْ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]. ولو دَعاهُمْ إلى عذابِ السَّعيرِ لَكانوا لا يُجِيبُونَهُ، لكنْ دَعاهُمْ إلى العَمَلِ الذي يوجِبُ لَهُمْ عذابَ السَّعيرِ.

فَعَلى ذلكَ هو يَدعوهُمْ إلى الاجْتِماعِ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ إلى ما يُوجِبُ، ويُوقِعُ[6] بَيْنَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ. فَفيهِ أنَّ الأعمالَ تُنْظَرُ فيها العواقِبُ كما رُوِيَ [عن رسولِ اللهِ ﷺ قولُهُ][7]: «الأعمالُ بالخواتيمِ» [البخاري: ٦٦٠٧].

وفي الآيةِ دليلُ تَحْريمِ الخَمْرِ لأنهُ قالَ: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ والرِّجْسُ حَرامٌ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وكذلكَ رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قامَ، فَخَطَبَ الناسَ، فقالَ: «أيُّها الناسُ إنَّ اللهَ يُعَرِّضُ على الخَمْرِ تَعْريضاً لا أدري لَعَلَّهُ سيَنزِلُ فيها أمرٌ» ثم قالَ: «يا أهْلَ المدينةِ قد أنْزَلَ تَحْريمَ الخَمْرِ فَمَنْ كَتَبَ هذِهِ الآيةَ وعندَهُ منها شيءٌ فلا يَشْرَبْها، ولا يَبِعْها، فَسَكَبُوها في طَريقِ المَدينةِ» [مسلم ١٥٧٨].

وعن عُمَرَ ﷺ [أنه][8] قالَ لَمّا نَزَلَ تحريمُ الخَمْرِ: اللهمَّ بَيِّنْ لنا في الخَمْرِ بَيانَ شِفاءٍ، فنزلَتِ الآيةُ التي في البقرةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [الآية: ٢١٩] فَقُرِئَتْ عليهِ، فقالَ عُمَرُ ﷺ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لنا في الخَمْرِ بَيانَ شِفاءٍ، فَنَزَلَتِ الآيةُ التي في النساءِ: ﴿لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [الآية: ٤٣] فكانَ مُنادِي رسولِ الله ﷺ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ قالَ: لا يَقْرَبِ الصَّلاةَ سَكْرانُ، فَدُعِيَ عُمَرُ ﷺ /١٣٨ ـ ب/ فَقُرِئَتْ عليهِ، فقالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لنا في الخَمْرِ بَيانَ شِفاءٍ، فَنَزَلَتِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تسليم. (٣) في الأصل وم: لهم. (٤) في الأصل وم: وقع. (٥) من م، في الأصل: تصدقوا.
(٦) في الأصل وم: ويقع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآيةُ التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [الآية: ٩١] فَدُعِيَ عُمَرُ رضي الله عنه فَقُرِئَتْ عليه. فلما بَلَغَ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قالَ انتَهينا.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه [أنهُ][1] قالَ: كُنْتُ ساقِيَ القَوْمِ، ونَبِيذُنا تَمْرٌ وزَبِيبٌ وبُسْرٌ، خَلَطْناهُ جميعاً، فَبينا نَحْنُ كذلكَ، والقَوْمُ يَشْرَبُونَ، إذْ دَخَلَ عَلَينا رجلٌ منَ المُسْلِمِينَ، فقالَ: ما تَصْنَعُونَ؟ واللهِ لقد أُنْزِلَ تَحْريمُ الخَمْرِ، فأهْرَقْنا الباطِيَةَ، وكَفَأْنا [كُؤُوسَنا][2]، ثم خرَجْنا، فَوَجَدْنا رسولَ اللهِ ﷺ قائماً على المِنْبَرِ، يَقْرأُ هذِهِ الآيَةَ، ويُكَرِّرُها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فالخَليطانِ حرامٌ. فأجمَعَ أهلُ العِلْمِ على أنَّ الخَمْرَ حرامٌ: قَليلُها وكَثِيرُها، وأنَّ عَصيرَ العِنَبِ، إذا غَلَى، واشْتَدَّ، فصارَ سَكَراً، خَمْرٌ.

واخْتَلَفُوا في ما سِوَى ذلكَ مِنَ الأشْرِبَةِ؛ فكانَ أبو حَنيفَةَ وأبو يُوسُفَ، رَحِمَهُما اللهُ تعالى، يَقولانِ: ما كانَ مِنَ الأشْرِبَةِ نِيئاً مُتَّخذاً مِنَ النَّخْلَةِ والعِنَبِ فهو حرامٌ كَنَبِيذِ البُسْرِ والتَّمْرِ والزَّبِيبِ، إذا أسْكَرَ كَثيرُه، فهو حَرامٌ عِنْدَهُما. وعلى ذلكَ جاءَ الخَبَرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الخَمْرُ مِنْ هاتَيْنِ الشَّجرتَيْنِ: مِنَ النَّخْلَةِ والعِنَبِ» [مسلم١٩٨٥] فلا يَحْرُمُ، وإنْ كانَ نِيئاً، إلّا المُسْكِرُ منهُ؛ لأنَّ غيرَهما مِنَ الأشْرِبَةِ قد يُتَّخذُ لا لِلسُّكْرِ[3]، وإنْ كانَ في مَكانٍ، لا يُتَّخذُ إلّا لِلسُّكْرِ، فهو مَكْروهٌ قَليلُهُ وكَثيرُه كالمُتَّخذِ مِنَ النَّخْلَةِ والعِنَبِ.

وكانا يَقولانِ: ما كانَ مِنَ الأنْبِذَةِ مَطْبوخاً فهو حلالٌ، وإنْ قَلَّ طَبْخُهُ، إلّا العَصيرَ، فإنهُ لا يَحِلُّ بالطَّبْخِ حتى يَذْهَبَ ثُلُثاهُ، ويَبْقَى ثُلُثُهُ. وكانا يُفَرِّقانِ بَيْنَ العَصيرِ وغَيرِهِ؛ فإنَّ العَصيرَ لَيسَ فيهِ شَيءٌ مِنْ غَيرِهِ، وإنْ تُرِكَ بحالِهِ غَلَى، فأسْكَرَ. فإذا طُبِخَ حتى يَذْهَبَ ثُلُثُهُ أو نِصْفُهُ فهو يَغْلِي، ويُسْكِرُ؛ فلم يُخرِجْهُ الطَّبْخُ مِنْ حَدِّهِ الأوَّلِ إذا كانَ يُسْكِرُ قَبْلَ أنْ يُطْبَخَ، وهو الآنَ يُسْكِرُ بِنَفْسِهِ إذْ لم يُجْعَلْ فيهِ شَيءٌ غَيْرُهُ.

وسائِرُ ما يُتَّخذُ منهُ الأنبِذَةُ، إنْ بَقِيَتْ، لم[4] تَشْتَدَّ، ولم تُسْكِرْ حتى يُلْقَى عليهِ الماءُ، ويُخْلَطَ بها غَيْرُهُ، فَحِينَئِذٍ يُسْكِرُ، فَهِيَ مِثْلُ العَصيرِ إذا ذَهَبَ ثُلُثاهُ، وبَقِيَ ثُلُثُهُ، إنْ بَقِيَ دَهْراً، لم يُسْكِرْ حتى يُلْقَى عليهِ الماءُ، فَحِينَئِذٍ يُسْكِرُ.

فإذا صارَ العَصيرُ في حالٍ، إنْ بَقِيَ مُدَّةً لم يَغْلِ بِنَفْسِهِ حتى يُلْقَى عليهِ غَيْرُهُ كانَ بِمَنْزِلَةِ الزَّبِيبِ والتَّمْرِ إذا أُلْقِيَ عَلَيهِما الماءُ، فَطُبِخا.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ عُمَرَ رضي الله عنه في الطِّلاءِ أنهُ لا يَحِلُّ حتى يَذْهَبَ عنهُ سُلْطانُهُ؛ يَقولُ: إذا كانَ يَغْلِي بِنَفْسِهِ مِنْ غيرِ أنْ يُصَبَّ عليهِ الماءُ ففيهِ سُلْطانُهُ، فإذا صارَ لا يَغْلِي بِنَفْسِهِ، وهو أنْ يُطْبَخَ حتى يَذْهَبَ ثُلُثاهُ، فقد ذهبَ سُلْطانُهُ.

ورُوِيَ عنْ أنَسِ بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه أنَّ أبا عُبَيدَةَ ومُعاذَ بْنَ جَبَلٍ وأبا طَلْحَةَ رضي الله عنهم كانُوا يَشْرَبُونَ مِنَ الطِّلاءِ ما ذَهَبَ ثُلُثاهُ، وبَقِيَ ثُلُثُهُ. وقد وصَفْنا فَرْقَ أبي حَنيفَةَ وأبي يُوسُفَ، رَحِمَهُما اللهُ، بَيْنَ المَطْبوخِ وبَيْنَ المُثَلَّثِ والمُنَصَّفِ مِنَ العَصيرِ.

وأمّا فَرْقُهُمْ بَيْنَ المَطْبوخِ ما يُتَّخذُ مِنَ النَّخْلَةِ والعِنَبِ والنِّيءِ منهُ فهو الخَمْرُ التي لا خِلافَ في تَحْريمِها في العَصيرِ النِّيءِ يَصيرُ خَمْراً. فَكُلُّ ما كانَ نِيئاً مِنَ الشَّجرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ سَمّاهُما النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ حرامٌ إذا أسْكَرَ. فإذا كانَ مطبوخاً، فَقَدْ عُمِلَ فيهِ، خَرَجَ بِهِ مِنْ حَدِّ الخَمْرِ.

فإنْ قيلَ: يَجِبُ أنْ يُقاسَ ذلكَ على النِّيءِ لأنهُ يُسْكِرُ، وفيهِ صِفاتُ الخَمْرِ قيلَ: الخَمْرُ حُرِّمَتْ لِعَيْنِها لِما لا تُتَّخذُ إلّا لِلسُّكْرِ[5]، ولا يُقاسُ عليها غَيرُها. وإنما يُقاسُ على ما حَرُمَ، وحَلَّ لِعِلَّةٍ دُونَ ما حَرُمَ بِعَيْنِهِ. وأمّا غَيْرُهُ مِنَ الأنبِذَةِ فإنما يُحَرَّمُ منهُ السُّكْرُ.

ألا تَرَى أنهُ في الخَبَرِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لمّا بَعَثَ أبا مُوسى ومُعاذاً إلى اليَمَنِ قالَ لهُ أبو مُوسَى: إنَّ شَرابَنا يُقالُ له: البِتْعُ، فما نَشْرَبُ منهُ؟ وما نَدَعُ؟ قالَ: «اشْرَبُوا ولا تَسْكَرُوا» [البيهقي في الكبرى ٨/ ٢٩٨]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: السكر. (٤) من م، في الأصل: لهم. (٥) في الأصل وم: السكر.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][1] قالَ: حُرِّمَتِ الخمرُ بِعَيْنِها، قليلُها وكثيرُها، والسُّكْرُ مِنْ كلِّ شرابٍ.

وعنْ عليٍّ رضي الله عنه [أنهُ][2] قالَ: فما أسْكَرَ مِنَ النبيذِ ثمانٍ، وفي الخَمرِ قليلِها وكثيرِها ثمانُونَ.

فدلَّ قولُ عليٍّ رضي الله عنه في ما أسْكَرَ مِنَ النبيذِ مَعْناهُ: في السُّكْرِ ثمانُونَ. وذلكَ يدلُّ أنَّ قولَ النبيِّ ﷺ: «كلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ» [البخاري ٤٣٤٤ و٤٣٤٥] أنَّ السُّكْرَ منهُ حرامٌ.

وعنْ عُمَرَ رضي الله عنه أنهُ أُتِيَ بِسَكْرانَ، قالَ: يا أميرَ المؤمنينَ إنما تَشْرَبُ مِنْ نَبيذِكَ الذي في الإداوَةِ، فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَسْتُ أضرِبُكَ على النبيذِ، إنما أضرِبُكَ على السُّكْرِ. فهذِهِ الأخبارُ التي ذَكَرْنا دَلَّتْ على تَحْريمِ الخَمْرِ بِعَيْنِها والسُّكْرِ مِنْ كُلِّ شرابٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يدلُّ على تَحْريمِها لأنهُ إذا سَكِرَ صَدَّهُ عنْ ذِكْرِ اللهِ. وعنِ الصلاةِ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في تَحريمِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ والأزْلامِ والأنْصابِ ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ مَعْصِيَتَها ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عنْ طاعَتِهِما في ما حَرَّمَ عليكُمْ، وحَذَّرَكُمْ عنهُ ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ في تَحريمِ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي شَرِبُوا مِنَ الخَمْرِ قَبْلَ تَحْريمِها ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ شُرْبَها بَعْدَ التحريمِ ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ أي وصَدَّقُوا بالتَّحريمِ ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ شُرْبَها ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ في حادِثِ الوَقْتِ ﴿وَّأَحْسَنُوا۟﴾.

وذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ لَمَّا نَزَلَ تَحْريمُ الخَمْرِ قالُوا: كيفَ بإخوانِنا الذينَ ماتُوا، وهُمْ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ؟ فَنَزَلَ ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ الآيةِ لكنَّ هذا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كما ذُكِرَ لأنهُمْ شَرِبُوا الخَمْرَ في وقتٍ كانَ شَرابُها مُباحاً، ولم يَشْرَبُوا بَعْدَ تَحْريمِها. لكنَّ هذا إنْ كانَ فإنمّا قالُوا في أنْفُسِهِمْ، فَنَزَلَ أنْ ليسَ عليكُمْ جُناحٌ في ما شَرِبتُمْ قَبْلَ تحْريمِها بَعْدَ أنِ اتَّقَيْتُمْ شُرْبَها بَعْدَ نُزولِ حُرْمَتِها، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ في الآيةِ تَكْراراً في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا ليسَ على التَّكْرارِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ وليسَ فيهِ بَيانٌ أنهُ ابْتَلَى بالأمْرِ فيهِ أو بالنَّهْيِ، لكنَّ بَيانَهُ في آيةٍ أُخرَى؛ إنما كانَ الابْتِلاءُ بالنَّهْيِ عنِ الاصْطِيادِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [الآية: ٢]. ودَلَّ هذا على أنَّ المُحْرِمَ كانَ مَنْهِيّاً عَنِ الاصْطِيادِ بقولِهِ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ وأنَّ الابْتِلاءَ الذي ذَكَرَ في الآيةِ كانَ بالنَّهْيِ عنِ الاصْطِيادِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في الآيةِ: قالَ بعضُهُمْ: النَّهْيُ ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ لأهلِ الحَرَمِ. ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ [أنهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ][3]: «لا يُنَفَّرُ صَيْدُها، ولا يُخْتَلَى خلاها، ولا يُعْضَدُ شَجَرُها»؟ [البخاري ١٨٣٣] فكانَ الابْتِلاءُ بالنَّهْيِ عنِ الصَّيدِ لأهلِ الحَرَمِ لِما أخْبَرَ أنهُ «لا يُنَفَّرُ صَيْدُها». وأمّا المُحْرِمُ فإنما نُهِيَ عنِ الاصْطِيادِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [الآية: ٢] وبقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [الآية: ٩٥].

وقالَ آخَرُونَ: الابْتِلاءُ بالنَّهْيِ عنِ الاصْطِيادِ لِلْمُحْرِمِينَ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [الآية: ٩٥] نَهْيٌ عنْ قَتْلِهِ. وهناكَ نَهْيٌ عنْ أخذِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ [الآية: ٩٤] وقولِهِ تعالى: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ أي في بَعْضِ الصَّيدِ دونَ بَعْضٍ؛ لأنَّ المُحْرِمَ لمْ يُنْهَ عنْ أخذِ صيدِ البَحْرِ بقولِهِ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ وقولِهِ[4] تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [الآية: ٩٦]. فذلكَ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾، واللهُ أعلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: وقال.

ويُحتَمَلُ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ كأنهُ قال: لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيءٍ تَنالُهُ أيديكُمْ ورِماحُكُمْ مِنَ الصَّيدِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما تَنالُهُ الأيدي هو البَيضُ، وعلى هذا يَخرُجُ قولُنا: إنَّ المُحرِمَ مَنهِيٌّ عنْ أخذِ البَيضِ. فإنْ أخذَ بَيضاً فإنَّ عليهِ الجَزاءَ.

والذي يَدُلُّ على ذلكَ ما رَوَى أبو هُرَيرَةَ ﷺ؛ قالَ: قالَ/ ١٣٩ ـ أ/ رسولُ اللهِ ﷺ «في بَيضِ النَّعامِ صِيامُ يَومٍ أو إطعامُ مِسكينٍ» [البيهقي في الكبرى ٥/٢٠٧] وعنْ كَعبِ بْنِ عُجْرَةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَضَى في بَيضِ نَعامٍ أصابَهُ مُحْرِمٌ بِثَمَنِهِ، وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ بِثَمَنِهِ[1] أو قِيمَتِهِ. وعنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ مِثْلُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ هو صَيدُ الصِّغارِ، وهي الفِراخُ التي لا تَطيرُ، فَيُؤخَذُ بالأيدي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما رَمَيْتَ، وطَعَنْتَ. وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ ما يُؤخَذُ بِغَيرِ سِلاحٍ ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ ما يُؤخَذُ بالسِّلاحِ مِنْ نَحوِ النَّبْلِ والرِّماحِ وغيرِهِما مِنَ السِّلاحِ.

ثم في الآيةِ دلالَةٌ أنَّ المُحرِمَ قد نُهِيَ عنْ أخذِ الصَّيدِ، وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ [الآية: ٢] والاِصْطِيادُ هو الأخذُ لا القَتْلُ. وإنَّما النَّهْيُ عنِ القَتْلِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [الآية: ٩٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ لِيَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً، أو يُقالُ: لِيَعْلَمَ ما قد عَلِمَ غائباً عنِ الخَلْقِ شاهداً كقولِهِ تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الآية [الأنعام: ٧٣و٠٠٠]

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ اختُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ بِغَيبِ الناسِ أي يخافُهُ وإنْ لم يكُنْ بِحَضْرَتِهِ أحَدٌ. وقالَ آخَرُونَ: يخافُ العذابَ بالإخبارِ، وإنْ لم يَشْهَدْ، ويُصَدِّقْ. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مَنِ استَحَلَّ قَتْلَ الصيدِ بَعْدَ ما وَرَدَ النَّهْيُ والتَّحريمُ ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنْ شاءَ عَذَّبَ، وإنْ شاءَ عَفا. وإذا عَذَّبَ كانَ عذابُهُ أليماً.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي وأنتُمْ مُحرِمُونَ. الآيةُ في ظاهِرِها على قَتْلِ الصَّيدِ كُلِّهِ. ثم إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رَخَّصَ في أشياءَ، أذِنَ في قَتْلِها؛ فَيُقالُ: في خَمسٍ مِنَ الدَّوابِّ لا جُناحَ على مَنْ قَتَلَهُنَّ، وهو مُحرِمٌ في الحَرَمِ: الحِدَأةُ والغُرابُ والعَقرَبُ والفَأرَةُ والكَلْبُ العَقورُ.

وعَنْ عائِشَةَ ﷺ أمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بِقَتْلِ خَمسٍ فَوَاسِقَ في الحِلِّ والحَرَمِ: الحِدَأةُ والغُرابُ والعَقرَبُ والفارةُ والكَلْبُ العَقورُ. وفي بَعْضِ النُّسَخِ والأخبارِ: والذئبُ، فَيُحتَمَلُ أنْ يكونَ العَقورُ: الذِّئبَ.

ورُوِيَ عَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عمّا يَقْتُلُ المُحرِمُ، فقالَ: «الحَيَّةُ والعَقرَبُ والفُوَيسِقَةُ والغرابُ والفِيلَةُ والكَلْبُ العَقورُ والسَّبُعُ العادي» [أبو داوود ١٨٤٨]. والكَلْبُ العَقورُ الذي أمَرَ المُحرِمَ بِقَتْلِهِ ما قَتَلَ الناسَ، وعَدا عليهِمْ مِثْلُ الأسَدِ والنَّمِرِ والذِّئبِ. وما كانَ [مِنَ][2] السِّباعِ لا يَعْدُو مِثْلَ الضَّبُعِ والثَّعْلَبِ والحُرِّ وما أشْبَهَهُنَّ فلا يَقْتُلُهُنَّ المُحْرِمُ. فإنْ هو قَتَلَ شيئاً منهُنَّ فَداهُ. وإنْ قَتَلَ شيئاً مِنَ الطَّيرِ سِوَى ما ذُكِرَ في الخَبَرِ فَعَلَيهِ جَزاؤُهُ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: «يَقْتُلُ المُحرِمُ الفَارَةَ فإنها تُوهِنُ المَشْقَا» [بنحوه البخاري ١٨٢٧و١٨٢٨]. وقالَ بَعْضُ الناسِ: ما قَتَلَ المُحرِمُ مِنَ السِّباعِ الذي[4] لا يؤكلُ لَحْمُهُ فلا فِدْيَةَ عليهِ. فكانَ تارِكاً لِظاهِرِ الآيةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

فَإنِ احْتَجَّ بِحَديثِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَّصَ لِلْمُحْرِمِ في قَتْلِ خَمْسٍ مِنَ الدَّوابِّ، وذلكَ ما لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ، قِيلَ: أباحَ النَّبِيُّ ﷺ قَتْلَ الخَمسِ لِعِلَّةِ أنهُ لا يُؤكَلُ لَحْمُها؟ فإنْ قالَ: نَعَمْ، قِيلَ: ما الدليلُ على ذلك؟ فإنْ قالَ: لأنَّها لا تُؤكَلُ؛ فَكُلُّ ما لا يُؤكَلُ مِنَ الصَّيدِ فَقَتْلُهُ مُباحٌ. فَيُقالُ لهُ: قولُكَ: لا يُؤكَلُ، ليسَ بِعِلَّةٍ؛ لأنَّ ذلكَ لا يَزولُ، لا يَتَغَيَّرُ. والعِلَّةُ هي التي تَحْدُثُ في وَقْتٍ، وتَزولُ في وَقْتٍ.

---

(١) في الأصل: ثمنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: التي.

ولو كانَ قولُ القائلِ: لا يُؤكَلُ، عِلَّةً في ما لا يُؤكَلُ، كانَ قولُهُ: يُؤكَلُ، عِلَّةً في ما يُؤكَلُ، وكانَ الشَّيءُ عِلَّةً لِنَفسِها. وهذا بَيِّنُ الخَطَإ. وإذا لم يكُنْ تَحريمُ أكْلِ الخَمْسَةِ التي أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ في قَتْلِها لِلْمُحْرِمِ عِلَّةً في إطلاقِ قَتْلِها كانَ القِياسُ عليها على ما لا يَحِلُّ أكْلُهُ مُخطِئاً لأنَّ القِياسَ إنما يكونُ على العِلَلِ. وما لا عِلَّةَ فيهِ لا يَجوزُ القِياسُ عليهِ.

وعندَنا أنَّ هذِهِ الخَمْسَةَ المُسَمَّاةَ تَبْتَدِئُ المُحرِمَ وغيرَهُ بالأذى، وإنْ لم يَبْتَدِئْها المُحرِمُ. وما سِوَى ذلكَ مِمّا لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ لا يَكادُ يَبْتَدِئُ بالأذَى حتى يَبْتَدِئَها الإنسانُ، فَحِينَئِذٍ تَعرِضُ لهُ.

وبَيانُ ذلكَ أنَّ الحِدَأَةَ ربَّما أغارَتْ على اللَّحمِ، تَراهُ في يَدَيِ الرَّجُلِ، والغُرابَ يَسْقُطُ على دُبُرِ الدَّابَةِ[١]، فَيُفسِدُهُ، والعَقْرَبَ تَقصِدُ مَنْ تَلْدَغُهُ، وتَتْبَعُ حِسَّهُ، والكَلْبَ العَقُورَ لا يَكادُ يَهْرُبُ مِنَ الناسِ كما تَهْرُبُ السِّباعُ غَيْرَهُ.

فأمّا الضَّبُعُ والخِنْزيرُ والكَلْبُ والذِّئْبُ وأشباهُها فهيَ تَرْهَبُ مِنْ بَني آدَمَ، ولا تكادُ تُؤذِيهِمْ حتى يَبْتَدِئَها بالأذَى.

جَعَلْنا العِلَّةَ في ما رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُحرِمِ قَتْلَهُ ما يُعرَفُ مِنْ قَصدِها لأذَى المُحرِمِ، وأنْ يُؤذِيَها المُحرِمُ إنْ كانَ مَعْرُوفاً فيها مَعْلُوماً أنهُ أكثَرُ شأنِها. فلمّا لم يكُنْ في سائِرِ الطَّيرِ المُحَرَّمَةِ والسِّباعِ هذهِ العِلَّةُ، وكانَ المَعْرُوفُ فيها أنها لا تَبْتَدِئُ بالأذَى لم يَجُزْ أنْ تُشَبَّهَ بالخَمْسَةِ المُسَمَّاةِ في الخَبَرِ. فإذا ابْتَدَأَ مِنها مُبْتَدِئُ المُحرِمَ بالأذَى كانَ حِينَئِذٍ مِثْلَ الخَمْسَةِ، فَجازَ لهُ قَتْلُها بِغَيرِ فِدْيَةٍ.

وبَعْدُ فإنَّ الذي لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ يُسَمَّى صَيداً. والصَّيَّادُونَ يَصِيدُونَهُ، فكانَ داخِلاً تَحْتَ عُمومِ الخِطابِ. ومخالِفُنا تارِكٌ لِأصْلِهِ في العُمومِ لأنهُ خَصَّ الآيَةَ بِغَيرِ دليلٍ.

وأصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، يَجْعَلُونَ الصَّيدَ كُلَّهُ مَحْظوراً أُكِلَ أو لم يُؤكَلْ إلّا ما عدا منها فإنْ قَتَلَهُ قَبْلَ أنْ يَعْدُوَ عليهِ لَزِمَهُ الفِداءُ. ذَهَبُوا في ذلكَ إلى ما رُوِيَ في الخَبَرِ خَبَرِ أبي سَعيدٍ [الخُدْرِيِّ][٢] ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: يَقْتُلُ المُحرِمُ كذا وكذا والسَّبُعَ العادِيَ. فالعادِي ما يَعْدُو على المُحرِمِ، وإلى ما رُوِيَ عن عليِّ بنِ طالبٍ ﷺ، وغَيرِهِ مَعَ ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ جَعَلَ على المُحرِمِ قَتَلَ ضَبُعاً جَزاءَهُ. وكذلكَ عن عُمَرَ وابْنِ عبّاسٍ وابْنِ عُمَرَ ﷺ وهي مِمّا لا تُؤكَلُ.

وعَنْ جابرٍ [أنهُ][٣] قالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عنِ الضَّبُعِ، فقالَ: هو صَيدٌ، وفيهِ كَبْشٌ. وعَنْ عُمَرَ ﷺ كذلكَ، وابْنِ عباسٍ وابْنِ عُمَرَ ﷺ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ اخْتُلِفَ في الآيةِ في تأويلِها على وجهَينِ:

فأحَدُهُما: مَنْ جَعَلَ الآيَةَ على ظاهِرِها فلم يُوجِبْ في الخَطَإِ كفّارَةً. عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][٤] قالَ: إذا أصابَ المُحرِمُ الصيدَ خَطأً فَلَيسَ عليهِ شَيءٌ. وكذلكَ رُوِيَ عن عطاءٍ وسالِمٍ وقاسِمٍ أنهُمْ قالُوا: لا شيءَ عليهِ، مِثْلَ قولِ ابنِ عباسٍ ﷺ.

والقَولُ الثاني: ما قالَهُ أكثَرُ أهلِ التأويلِ؛ قالوا: قولُهُ تعالى ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ لِقَتْلِهِ ناسِياً لإحرامِهِ فذلكَ الذي يُحكَمُ عليهِ، وهو الخَطأُ المُكَفَّرُ. وإنْ قَتَلَهُ مُتَعَمِّداً لِقَتْلِهِ ذاكِراً لإحرامِهِ يُحكَمْ[٥] عليهِ. وكذلكَ رُوِيَ عن الحَسَنِ أنه قالَ: مُتَعَمِّداً لِصَيدِهِ ناسياً لإحرامِهِ، وقالَ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ مُتَعَمِّداً لِلصَّيدِ وذاكِراً لإحرامِهِ. فكأنهُمْ ذَهَبُوا إلى أنَّ المُحرِمَ لا يَقصِدُ قَصْدَ الصَّيدِ، وهو ذاكِرٌ لإحرامِهِ، أحْسَنُوا الظَّنَّ بهِ.

وعندَنا لأنَ الإحرامَ مِمّا لا يَجوزُ أنْ يَخفَى على المُحرِمِ، ويَنْسَى. لأنَّ لِلْمُحرِمِ أعلاماً؛ تُذَكِّرُهُ تلكَ الأعلامُ الحالَ التي هو فيها. وعندَنا أنَّ ما لا يَجوزُ أنْ يُنْسَى، ويَخفَى على المَرْءِ لم يُعذَرْ صاحِبُهُ في نِسيانِهِ. وعِندَنا أنَّ على قاتِلِ الصَّيدِ الكفّارَةَ؛ عَمْداً قَتَلَهُ، أو خَطأً.

ولَيسَتْ تَخلُو الآيَةُ مِنْ أنْ تكونَ أوجَبَتِ الكفّارَةَ على المُتَعَمِّدِ لِلْقَتْلِ الناسي لإحرامِهِ كما قالَ الحَسَنُ ومُجاهِدٌ، أو تكونَ أوجَبَتِ الكَفّارَةَ على المُتَعَمِّدِ لِلْقَتلِ ذاكِراً لإحرامِهِ أولَى بالكَفّارَةِ/ ١٣٩ ـ ب/ لأنَّ ذَنْبَهُ أعظَمُ وجُرْمَهُ أكبَرُ

---

(١) في الأصل وم: الدواب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الاصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: لم.

فإنْ قيلَ: إنكُمْ لا تُوجِبونَ الكَفّارَةَ على قاتِلِ النَّفْسِ عَمْداً فما مَنَعَ أنْ يكونَ قَتْلُ الصَّيدِ مِثْلَ ذلكَ؟ وإنْ كانَ جُرْمُهُ[1] أعظمَ كما قيلَ [نَقْلُ][2] إنَّ قاتِلَ النَّفْسِ عَمْداً، وإنْ كُنّا لم نُوجِبْ عليهِ الكَفّارَةَ فَقَدْ أوجَبْنا عليهِ القِصاصَ، وهو أعْظَمُ مِنَ الكفّارَةِ. وقاتِلَ الصَّيدِ عَمْداً لِقَتْلِهِ ذاكراً لإحرامِهِ، لو أزَلْنا عنهُ الكَفّارَةَ فَلا شَيءَ عليهِ سِوَاها. لِذلكَ اخْتلَفَا

ثم نقولُ: إنّا عَرَفْنا الحُكمَ في قَتْلِ الصَّيدِ في الخطإ؛ إنما يُعْرَفُ بِغَيرِهِ، وليسَ في ذِكْرِ الحُكْمِ وبَيانِهِ في حالٍ دليلُ نَفْيِهِ في حالٍ أُخرَى. ولَنا على هذا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ [أقوالٌ][3] كَرِهْنا إعادَتَها في هذا المَوضعِ. ثم تَخْصِيصُ ذِكْرِ الكَفّارَةِ في قَتْلِ العَمْدِ يَحْتَمِلُ وجُوهاً:

أحدُها: أنَّ الكفّارَةَ في قَتْلِ النَّفْسِ إنما ذُكِرَتْ في قَتْلِ الخَطإِ، لم تُذْكَرْ في قَتْلِ العَمْدِ لِيُعْلَمَ أنها إذا وَجَبَتْ في العَمْدِ فهيَ[4] في الخطإِ أوجَبُ.

والثاني: أنَّ الكَفّارَةَ إنما وَجَبَتْ بِجِنايَتِهِ على صَيدٍ آمِنٍ بهِ في الحَرَمِ. وكُلُّ ذي أمانَةٍ إذا أتْلَفَ الأمانَةَ لَزِمَ الغُرْمَ، عَمْداً كانَ إتلافُهُ أو خَطأً. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

والثالثُ: أنَّ ذِكْرَ التَّخْييرِ في حالِ الضَّرُورةِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّوسِيعِ والتَّخْفيفِ على أهْلِها. ولا يكونُ ذلكَ في غَيرِ حالِ الضَّرُورةِ، فَدَلَّ ذِكْرُهُ في غَيرِ حالِ الضَّرُورةِ على أنَّ ذلكَ كالمذكورِ في حالِ الضَّرُورَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ اخْتلَفَ أهلُ العِلْمِ في ما يَجِبُ مِنَ المِثْلِ؛ فقالَ قومٌ: في الظَّبْيِ شاةٌ، وفي النَّعامَةِ بَدَنَةٌ، وفي حِمارِ الوَحْشِ[5] بقرَةٌ، وأشباهُ ذلكَ.

وقالَ آخَرونَ: المِثْلُ قِيمَةُ الصَّيدِ يُقَوِّمُهُ عَدْلانِ، فَيُوجِبانِ قِيمَتَهُ دراهِمَ، فَيَشْتَرِي بِتِلْكَ الدَّراهِمِ شاةً، أو يَجْعَلُهُ طعاماً، فَيَتَصَدَّقُ بهِ؛ على كُلِّ مِسْكينٍ نِصْفُ صاعٍ، أو يَصومُ عن كُلِّ نِصْفِ صاعٍ يَوماً.

وقالَ غَيرُهُمْ: إنْ بَلَغَ دماً ذَبَحَ شاةً، وإنْ لم يَبْلُغْ دماً يَصَّدَّقُ به.

وأمّا قولُنا: إنَّ المِثْلَ هو القِيمةُ لا المِثْلُ في رَأْيِ[6] العينِ، ذهَبْنا في ذلكَ إلى وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ المُحْرِمَ إذا أصابَ صَيداً في هذا الوَقْتِ حَكَمَ بِجَزائِهِ حَكَمانِ. فلو كانَ مِثْلُ الظَّبْيِ شاةً في كُلِّ الدُّهورِ والأوقاتِ كانَ ما تَقَدَّمَ مِنْ أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ والسَّلَفِ مِنَ الحكمِ في ذلكَ كافِياً لا يَحْتاجُ إلى حُكْمِ غَيرِهِمْ. فَدَلَّ اجْتِماعُهُمْ على أنَّ حُكْمَ الحَكَمينِ باقٍ، وعلى أنَّ المِثْلَ غَيرُ مُوَقَّتٍ؛ بل هو مُخْتَلِفٌ على قَدْرِ الأزمِنَةِ والمَواضِعِ والأوقاتِ.

وإذا جَعَلْنا المِثْلَ قيمةً كانَتِ الحاجةُ إلى الحَكَمينِ قائمةً. وإذا جَعَلْناهُ هَدْياً فالحاجةُ إليها زائِلَةٌ. ولا يجوزُ أنْ يُعَطَّلَ أمْرُ الحَكَمينِ، وقد ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في كتابِهِ.

والثاني: ما أجْمَعُوا عليهِ أنَّ ما لا مِثْلَ لَهُ في الأنعامِ مِنَ الصَّيدِ إذا أصابَهُ المُحْرِمُ فَعَلَيهِ قِيمَتُهُ. فإذا كانَ المِثْلُ في بَعْضِ الصَّيدِ قِيمَتَهُ فَهُوَ في كلِّ الصَّيدِ قِيمَتُهُ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ وغَيرِهِ مِنَ السَّلَفِ ﷺ أنهُمْ قالُوا ذلكَ. فإنْ قيلَ: ما لا مِثْلَ لَهُ مِنَ النَّعَمِ لا يُمْكِنُ [تَقْديرُ][7] قيمتِهِ أكثرَ منْ قِيمَتِهِ. قيلَ لَهُ: فَتَجْعَلُ ذلكَ مَثَلاً؟ فإنْ قالَ: بَلَى، قِيلَ: فقد صارَتِ القِيمةُ مَثَلا في بَعْضِ الصَّيدِ، فما مَنَعَ أنْ يكونَ مَثَلا في كُلِّ الصَّيدِ؟ فإنْ قالَ: المِثْلُ هو الهَدْيُ في ما لَهُ مِثْلٌ. فأمّا ما لا مِثْلَ لَهُ مِنَ الهَدْيِ فَلَيسَ الواجِبُ فيهِ بِمِثْلٍ، إنّما ذلكَ قِيمَةٌ. ولم يَجِبْ ذلكَ بِنَصِّ الكتابِ، وإنّما وَجَبَ ذلكَ بِنَصِّ الكتابِ: المِثْلُ مِنَ الهَدْيِ. فأمّا ما لا مِثْلَ لهُ فإنما وَجَبَتْ[8] قيمتُهُ بالإجماعِ.

قيلَ لهُ: حَدِّثْنا عنْ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ هلْ دَخَلَ في عُمومِ الآيةِ الفَرْخُ ونَحْوُهُ؟ فيكونُ مَنْهِيّاً عن قَتْلِهِ. فإنْ قالَ: نعمْ، قِيلَ: فإذا دَخَلَ الفَرْخُ في عُمُومِ النَّهْيِ عنْ قَتْلِ الصَّيدِ فَهُوَ أيضاً داخِلٌ في عُمومِ قولِهِ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم

---

(١) في الأصل وم: حرمته. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: الوحشي.
(٦) في الأصل وم: دار. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجب.

مُتَعَمِّدًا﴾ الآية. فإنْ قالَ: لا يَدخُلُ الفَرخُ في عُمومِ قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قيلَ لهُ: قد قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [الآية: ٩٤] فَرُوِيَ أنَّ[١] ذلكَ في البَيضِ والفِراخِ. فإنْ لم يَجْعَلِ الفِراخَ ولا شَيئاً مِنها داخِلاً في الآيةِ فَما مَعنَى الآيةِ؟ ونَحْنُ لا نَنالُ بأيدينا مِنَ الصَّيدِ إلّا ضِعافَهُ وما يَعجَزُ عنِ الطيرانِ والعَدْوِ مِنْهُ.

فالآيةُ تُوجِبُ أنَّ الصَّيدَ كُلَّهُ قد دَخَلَ في عُمومِها ما قَلَّتْ قيمَتُهُ وما كَثُرَتْ. وذلكَ يُوجِبُ أنْ يكونَ الواجِبُ مِنْ قيمةِ الفَرخِ والعُصْفُورِ مَثَلاً، واللهُ أعْلَمُ. ولأنَّ النَّعامَةَ، لا مِثْلَ لَها مِنَ النَّعَمِ، فَمَنْ أوْجَبَ فيها بَدَنَةً فقدْ أوجَبَ فيها ما لَيسَ بِمِثْلٍ لَها، ولا نَظيرَ. ومَنْ أوجَبَ فيها قيمَتَها فقدْ أوجَبَ مِثْلاً لها، فَهُوَ مُوافِقٌ لِلنَّصِّ عندنا، واللهُ أعْلَمُ.

وكذلكَ المُوجِبُ في الحَمامَةِ شاةً، لا تُشْبِهُ الصَّيدَ المَقْتُولَ في عَينِهِ ولا في صِفَتِهِ ولا في جِنْسِهِ، فَهُوَ غَيرُ مُوجِبِ المِثْلَ بلِ المُوجِبُ فيهِ القِيمَةَ أقْرَبُ إلى إيجابِ المِثْلِ فيهِ، واللهُ أعْلَمُ.

فإنْ قِيلَ: كيفَ سَمَّى قِيمَةَ الشَّيءِ مِثْلاً، ولَيسَتْ مِنْ جِنْسِهِ، وإنما المِثْلُ ما كانَ مِنْ جِنْسِ الشَّيءِ؟ قيلَ: قد ذَكَرْنا أنَّ قِيمَةَ ما لا مِثْلَ لَهُ مِنَ النَّعَمِ يُسَمَّى مِثْلاً، ولأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ وإذا جازَ أنْ يُسَمَّى الصِّيامُ عَدْلاً لِلطَّعامِ جازَ أنْ تُسَمَّى القِيمَةُ عَدْلاً لِلصَّيدِ. وإنما صارَ الصِّيامُ[٢] عَدْلاً بالتَّقْويمِ[٣]، والمِثْلُ والعَدْلُ في المَعْنَى مُتَقارِبانِ[٤]، واللهُ أعْلَمُ.

ولأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ولو كانَ المُرادُ مِنَ المِثْلِ المَنْظورِ في رَأْيِ العَينِ لم يَكُنْ بِشَرْطِ ذَوي عَدْلٍ فيهِ مَعْنىً؛ لأنَّ المِثْلَ في رَأْيِ العَينِ يَعْرِفُهُ كلُّ أحَدٍ بَصيرٍ فيهِ، أو لم يَكُنْ. فَدَلَّ ما شَرَطَ مِنْ نَظَرِ ذَوي عَدْلٍ باطِنٍ فيهِ وخَفِيٍّ لا[٥] ما ظَهَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ تأويلُهُ ما ذَكَرْنا: يَنظُرُ إلى رَجُلَينِ عَدْلَينِ بِهِما مَعْرِفَةٌ[٦] في ذلكَ، فَيُقَوِّمانِهِ، ثم يَشْتَري بها هَدْياً، إنْ شاءَ، فَيَهْدي، وإنْ لم يَبْلُغْ هَدْياً قُوِّمَتِ الدَّراهِمُ طَعاماً. فإنْ لم يَجِدْ صامَ مَكانَ نِصْفِ صاعٍ يَوماً.

رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ كذلكَ والحَسَنِ وإبراهيمَ والقاسِمِ[٧] والسلفِ جُملَةً.

وعِنْدَنا أنهُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ هذهِ الأشياءِ الثلاثةِ؛ يَفْعَلُ أيَّ هذهِ الثَّلاثَةِ شاءَ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ في المُحْصَرِ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] ولا خِلافَ بَيْنَهما[٨] في أنَّ لِصاحِبِ الفِدْيَةِ في حَلْقِ الرأسِ أنْ يَفْعَلَ أيَّ هذهِ الثَّلاثَةِ.

فالواجِبُ أنْ يكونَ في جَزاءِ الصَّيدِ مِثْلُهُ لأنَّ الخِطابَ خَرَجَ على حَرْفِ التَّخْيِيرِ، وكانَ سَبَبُ وُجُوبِهِ واحِداً فَهُوَ على التَّخْيِيرِ نَحْوُ كَفَّارَةِ اليَمينِ وما ذَكَرْنا في دَفْعِ الأذَى عنْ رأسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ شَرَعَ بُلوغَ الكَعْبَةِ، وهو لا يَبْلُغُ نَفْسَ الكَعْبَةِ، فَدَلَّ أنَّ المُرادَ رَجَعَ إلى بُلوغِهِ قُرْبَ الكَعْبَةِ. وعلى هذا يَخْرُجُ قولُهُمْ في مَنْ حَلَفَ ألّا يَمُرَّ على بابِ فلانٍ. فَمَرَّ بِقُرْبِ بابِهِ حَنِثَ اسْتِدلالاً بِقولِهِ: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ لم يُرِدْ بِهِ بُلُوغُهُ عَينَ الكَعْبَةِ، ولكنْ مَرَّ بها أو مَكانِها. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

وكانَ محمدُ بْنُ الحَسَنِ يَقولُ: ﴿يَحْكُمُ﴾ عليهِ بِمِثْلِهِ مِنَ النَّعَمِ حَيثُ كانَ. وأبو حَنيفَةَ يَقولُ: ﴿يَحْكُمُ﴾ عليهِ بِقيمَةِ الصَّيدِ في المَوضِعِ الذي أصابَهُ فيهِ. واخْتِلافُهُما في هذا يَرْجِعُ إلى ما اخْتَلَفَا فيهِ مِنَ المِثْلِ عَيناً أو قِيمَةً.

وقد رُوِيَ عنْ عُمَرَ وعبدِ الرحمنِ ﷺ وغيرِهِما أنَّهُمْ حَكَمُوا في الظَّبْيِ شاةً، ولَمْ يَسْأَلُوا عنِ المَوضِعِ الذي أُصِيبَ، فَدَلَّ تَرْكُهُمُ السُّؤالَ عنْ ذلكَ على أنَّ المَواضِعَ كُلَّها كانَتْ عندَهُمْ سَواءً، وأنَّهُمْ أجْرَوْهُ مَجْرَى الكَفّاراتِ دُونَ القِيَمِ. لأنَّهُمْ لو أجْرَوا ذلكَ مَجْرَى ضَمانِ القِيَمِ لَسَألُوا عنْ أماكِنِ الجِناياتِ إذا كانَ الصَّيدُ تَخْتَلِفُ قِيمَتُهُ، لا تَسْتَوي في ذلكَ الأماكِنُ كُلُّها. فهذا يُؤَكِّدُ قولَ محمدٍ ومَنْ رافَقَهُ.

---

(١) من م، في الأصل: أنه. (٢) من م، في الأصل القيام. (٣) في الأصل وم: بالتقدير. (٤) في الأصل وم: متقارب. (٥) من م، في الأصل: إلا. (٦) في الأصل وم: ومعرفة. (٧) من م، الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بينهم.

وأمّا عِندَ/ ١٤٠ ـ أ/ أبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنَّ المُلْكَ لِلْحَرَمِ في الصَّيدِ، وكلُّ مَنْ أتْلَفَ مُلْكَ آخَرَ، وجَنَى على مالِ أحَدٍ، وإنما يُنْظَرُ إلى قِيمتِهِ في المكانِ الذي أتْلَفَهُ. فَعَلَى ذلكَ النَّظَرُ في الصَّيدِ إلى المكانِ الذي أصابَهُ.

ثم المَسْألَةُ في جَزاءِ الصَّيدِ: أينَ يُذْبَحُ؟ عِندَهُمْ جَميعاً لا يَجوزُ أنْ يُذْبَحَ إلّا بِمكّةَ لأنهُ لو جازَ أنْ يُذْبَحَ في غَيرِ الحَرَمِ حَيثُ شاءَ زالَتْ فائدةُ قولِهِ تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ ولَيسَ في ذلكَ بَيْنَهُمْ خِلافٌ.

وأمّا الطَّعامُ والصِّيامُ فإنَّ اللهَ ﷻ لم يَذْكُرْ فِيهِما مَوضِعاً، ولا جَعَلَ لَهُما مَكاناً، فَلَهُ أنْ يُطْعِمَ، وأنْ يَصومَ حَيثُ شاءَ. فإنْ قيلَ: إنَّ الهَدْيَ يُذْبَحُ في الحَرَمِ لِمَنْفَعَةِ أهْلِ الحَرَمِ بِهِ، ويُتَصَدَّقُ بِهِ عليهِمْ، فَعَلَى ذلكَ الإطْعامُ يَجِبُ أنْ يُطْعَمَ أهْلُ الحَرَمِ لأنهُ جُعِلَ لِمَنْفَعَةٍ لَهُمْ، قيلَ: لا خِلافَ بَيْنَهُمْ أنهُ لو ذُبِحَ الهَدْيُ في غَيرِ الحَرَمِ ألا يجوزُ؟ دلَّ أنهُ لا لِما ذَكَرَ، ولكنْ لِما الهَدايا لا تُذْبَحُ إلّا بِمكّةَ.

ألا تَرَى ما[1] قالَ اللهُ تعالى: عليهِ أنْ يَهْدِيَ، لَيسَ لهُ أنْ يَذْبَحَ إلّا بمكّةَ؟ ولو قالَ: عليهِ الإطعامُ والصَّدَقَةُ، لهُ أنْ يَتَصَدَّقَ حَيثُ شاءَ. دلَّ أنَّ الهَدْيَ مَخْصوصٌ ذَبْحُهُ بِمكّةَ لا يَجوزُ في غَيرِها[2]. فأمّا الصَّدَقَةُ فإنَّها تَجوزُ في الأماكِنِ كُلِّها، لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي لِيَنالَ [عاقِبةَ][3] أمْرِهِ والَمَهُ كما نالَ لَذَّتَهُ. وقِيلَ: جَزاءَ ذَنْبِهِ، وهو الكَفّارَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ إذا تابَ، ورَجَعَ عمّا اسْتَحَلَّ مِنْ قَتْلِ الصَّيدِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ﴾ أي مَنْ عادَ إلى اسْتِحْلالِ[4] الصيدِ في الحَرَمِ يَنْتَقِمِ اللهُ منهُ في النارِ. ويَحْتَمِلُ مَنْ عادَ إلى قَتْلِ الصَّيدِ يَنْتَقِمِ اللهُ منهُ بالكَفّارَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ. ويُقالُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي كلُّ عِزٍّ عندَ[5] عِزِّهِ ذُلٌّ، وغَنيٌّ أي كلُّ غِنىً عِندَ غِناهُ فَقْرٌ، ونَحْوُهُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ صَيدَ البَحْرِ وطَعامَهُ حَلالٌ لِلْمُحْرِمِ. ثم اخْتَلَفَ أهْلُ التَّأويلِ في تَأويلِهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: صَيدُهُ ما صِيدَ، وطَعامُهُ ما قَذَفَ البَحْرُ. كذلكَ رُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: صَيدُهُ ما صِيدَ، وطَعامُهُ ما قُذِفَ. وعنْ أبي بَكْرٍ وابنِ عباسٍ ﷺ [أنهما][6] قالا: طعامُهُ ما قَذَفَ، وقالَ بعضُهُمْ: صَيدُهُ ما أُخِذَ طَرِيّاً، وطعامُهُ: ما تَزَوَّدْتَ في سَفَرِكَ.

ثم يَجيءُ على قَولِ أصحابِ الظَّواهِرِ أنْ يكونَ كلُّ صَيدِ البَحْرِ وطعامُهُ حَلالاً مُباحاً بِظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ الآية. وكذلكَ ما رُوِيَ عنْ نَبيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «هو الطَّهُورُ ماؤُهُ والحِلُّ مَيْتَتُهُ» [أبو داوود ٨٣] إنهُ لم يَخُصَّ مَيتةً دونَ مَيْتةٍ ولا طَعاماً دونَ طَعامٍ، غَيرَ أنَّ المُرادَ عندَنا رَجَعَ إلى السَّمَكِ خاصّةً ما رُوِيَ عنهُ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتانِ ودَمانِ» [أحمد: ٢/ ٩٧] أمّا المَيْتَتانِ فالجَرادُ والسَّمَكُ. دلَّ الخَبَرُ أنَّ المُرادَ مِنَ الآيةِ والخَبَرِ رَجَعَ إلى السَّمَكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: بَهيمةٌ[10] لا يَحِلُّ لكَ أن تَصيدَهُ، ولا أنْ تَأكُلَهُ. ورُوِيَ عن عليٍّ ﷺ وهو مُحْرِمٌ، أنهُ دُعِيَ إلى طَعامِهِ، فَقُرِّبَ إليهِ يُعْقابٌ[11] وحَجَلٌ. فلمّا رأى ذلكَ عليٌّ قامَ، وقامَ مَعَهُ ناسٌ، فَقيلَ لِصاحِبِ الطَّعامِ: ما قامَ هذا ومَنْ مَعَهُ إلّا كراهيةً لِطعامِكَ، فأرسَلَ إليهِ، فجاءَ، فقالَ: ما كَرِهْتَ منْ هذا، ما أشَرْنا، ولا أمَرْنا، ولا صِدْنا قالَ عليٌّ ﷺ ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ثم انْطَلَقَ.

(١) في الأصل وم: من. (٢) في الأصل وم: غيره. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل: قتل. (٥) من م، في الأصل: عنده. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بهمة. (١١) في الأصل وم: يعاقب.

وعنْ عثمانَ ﷺ مِثْلُهُ، وقريبٌ[١] منهُ.

وأمّا عندَنا فإنهُ يَحِلُّ لِلمُحْرِمِ أنْ يأكُلَ لَحْمَ الصَّيدِ إذا لم يَصِدْ هو، ولا صِيدَ لَهُ، ما رُوِيَ عنْ أبي قَتادَةَ ﷺ أنهُ كانَ مع النَّبيِّ ﷺ حتى إذا كانَ بِبَعْضِ الطَّريقِ بِمَكَّةَ يَخْتَلِفُ مَعَ أصحابٍ لهُ مُحْرِمِينَ، وهو غيرُ مُحْرِمٍ، فَرَأى حِمارَ وَحْشٍ، فاسْتَوَى على فَرَسِهِ، فَسَألَ أصحابَهُ أنْ يُناوِلُوهُ سَوطاً، فَأبَوا، فَسَألَهُمْ رُمْحَهُ، فأخَذَ، ثم اشْتَدَّ على الحِمارِ، فَقَتَلَهُ، فأكَلَ[٢] منهُ بَعْضُ أصحابِهِ، وأبَى بَعْضُهُمْ. فلمّا أدْرَكُوا رسولَ اللهِ ﷺ فَسَألُوهُ عنْ ذلكَ، فقالَ: إنما هي طُعْمَةٌ أطْعَمَكُمُوها اللهُ سُبْحانَهُ، وقالَ: هل مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شيءٌ؟

وفي خَبَرٍ آخَرَ عنْ جابِرِ بْنِ عبدِ اللهِ ﷺ [أنهُ][٣] قالَ: عَقَرَ أبو قَتادَةَ حِمارَ وَحْشٍ، ونَحْنُ مُحْرِمُونَ، وهو حَلالٌ، فأكَلْنا مِنْهُ، ومَعَنا رسولُ اللهِ ﷺ.

وفي خَبَرٍ آخَرَ عنْ أبي قَتادةَ ﷺ [أنهُ][٤] قالَ: أني أصَبْتُ حِمارَ وَحْشٍ، وعِندِي منهُ، فقالَ لِلْقَومِ: كُلُوا، وهُمْ مُحْرِمُونَ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ عنْ جابِرِ بْنِ عبدِ اللهِ [أنهُ][٥] قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ «صَيدُ البَرِّ حَلالٌ لَكُمْ، وأنْتُمْ حُرُمٌ، ما لم تَصِيدُوهُ، أو يُصَدْ لَكُمْ» [أبو داوود ١٨٥١] رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ في أكْلِ لَحْمِ الصَّيدِ للمُحْرِمِ، إذا لم يَصِدْ، ولم يُصَدْ لَهُ. وبذلكَ أخَذَ أصحابُنا.

وفي الآيةِ دليلٌ لِقولِنا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [الآية: ٩٥]. وقالَ تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [الآية: ٩٦] فَمَنَعَنا، واللهُ أعلَمُ، اصْطِيادَهُ. ألا تَرَى أنَّ صَيدَ ما لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ مَحْظُورٌ؟ فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في الاصطِيادِ لا في أكْلِ لَحْمِهِ؛ لأنَّ لَحْمَ الصَّيدِ مِنْ أنْ يُصادَ؛ فالتَّحْريمُ غيرُ واقِعٍ عليهِ، ليسَ كالبَيضِ قد يَصيرُ صَيداً، واللَّحْمُ ليسَ كذلكَ، ولأنَّ المحرِمَ لو أتْلَفَ البَيضَ غُرِّمَ قِيمَتَها، ولو[٦] أتْلَفَ لَحْمَ الصَّيدِ لم يَضْمَنْ شيئاً. فما لَزِمَهُ الضَّمانُ مُنِعَ عنْ أكْلِهِ، وما لم يَلْزَمْهُ لا، ولأنهُ لو حُرِّمَ على المُحْرِمِ التَّناوُلُ مِنْ لحَمِ صَيدٍ، صادَهُ حَلالٌ [لَوَجَبَ أنْ يُحَرِّمَ][٧] على أهلِ مَكَّةَ التناولُ مِنْهُ؛ إذْ هُمْ أهْلُ حَرَمِ اللهِ، وذلكَ بَعيدٌ.

فأخَذَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، بما رَوَينا مِنَ الأخبارِ [والأحاديثِ عنْ][٨] رسولِ اللهِ ﷺ مِثْلِ[٩] حديثِ أبي قَتادَةَ وغَيرِهِ، وربما دَلَّ عليهِ ظاهِرُ الكتابِ، وهو قَولُ عُمَرَ وعُثْمانَ وغَيرِهِما[١٠] ﷺ.

فإنْ قيلَ: رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ عنْ زَيدِ بْنِ أرْقَمَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهى المحرِمَ عنْ لَحْمِ الصَّيدِ، وفي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ زَيدِ بْنِ أرْقَمَ ﷺ [أنهُ][١١] قالَ: «أُهْدِيَ لِرسولِ اللهِ ﷺ عُضْوٌ[١٢] مِنْ لَحْمِ صَيدٍ، فَرَدَّهُ، فقالَ: إنّا حُرُمٌ لا نأكُلُهُ» [مسلم ١١٩٥] وفي خَبَرٍ آخَرَ «أنهُ سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عنْ مُحْرِمٍ، أُتِيَ بِلَحْمِ صَيدٍ [فقالَ: لا يأكُلْ][١٣] منهُ».

لكنَّ هذا الحديثَ يَجوزُ أنْ يُحْمَلَ على أنْ كانَ صِيدَ بَعْدَ أنْ أحْرَمَ أنْ يكونَ صِيدَ مِنْ أجْلِهِ. وإذا صِيدَ مِنْ أجْلِهِ لمْ يَحِلَّ لَهُ أكْلُهُ. دليلُهُ مِنْ خَبَرِ عُثْمانَ ﷺ: ما أمَرْتُ بِصَيدٍ، ولا صِيدَ مِنْ أجْلي، وخَبَرِ جابرٍ ﷺ عنِ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][١٤] قالَ: «لَحْمُ صَيدِ البَرِّ حَلالٌ لَكُمْ، وأنْتُمْ حُرُمٌ، ما لَمْ تَصيدُوهُ، أو يُصَدْ لكُمْ» [أبو داوود ١٨٥١]

ثم المَسْألَةُ في مَعْرِفَةِ صَيدِ البَرِّ مِنَ البَحْرِ. قالَ بعضُهُمْ: ما كان يَعيشُ في البَرِّ والبَحْرِ فلا تَصِدْهُ، وما كانَتْ[١٥] حَياتُهُ في الماءِ فَذاكَ البَحْرِيُّ. وقال آخَرُونَ: أكثرُ ما يكونُ في الماءِ حتىّ يُفَرِّخَ. وقالَ غيرُهُمْ: صَيدُ البَرِّ هو الذي أخَذَهُ الصائدُ حيّاً، فَماتَ في يَدِهِ لم يَحِلَّ [ولا يَحِلُّ إلّا إذا أدْرَكَ زَكاتَهُ بِتَزْكِيَتِهِ][١٦]. فكلُّ ما كانَتْ هذهِ صِفَتَهُ فَهُوَ البَرِّيُّ، وإنْ كانَ يَعيشُ في الماءِ، وما كانَ الصائدُ أخَذَهُ حيّاً، وهو يَعيشُ في الماءِ، فماتَ في يَدِهِ، أكَلَهُ، فذلكَ صَيدُ البَحْرِ، وذلكَ السَّمَكُ.

---

(١) في الأصل وم: وقريبا. (٢) في الأصل وم: فأكله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ولم. (٧) في الأصل: ليجب أن يخرج، في م: ليجب أن يحرم. (٨) في الأصل وم: وعن. (٩) في الأصل وم: من.
(١٠) في الأصل وم: وغيره. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: عضوا. (١٣) في الأصل وم: قال لا نأكله. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: كان. (١٦) في الأصل: إذا أدرك زكاته إلا بتزكيته، في م: ولا يحل إذا أدرك زكاته بتزكيته.

وفي ذلكَ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّ كُلَّ ما ألقاهُ البَحرُ، وقَذَفَهُ، فماتَ، فَحَلَّ لنا أكلُهُ، فذلكَ طَعامُهُ. وما لم يَحِلَّ أكلُهُ فَلَيسَ بِطَعامِهِ. فما كانَ طَعامَهُ، وألقاهُ، فماتَ، فهو إذَنْ صَيدُ البَحرِ. وما لا يَحِلُّ أكلُهُ، إذا ألقاهُ، فَلَيسَ بِصَيدِ البَحرِ إذا صِيدَ لأنَّ اللهَ تعالى أباحَ صَيدَ البَحرِ وطَعامَهُ. فما لَيسَ/ ١٤٠ ـ ب/ بِطَعامِهِ إذا ألقاهُ، فماتَ، فَلَيسَ بِصَيدٍ إذا أخَذَهُ حيّاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في استِحْلالِ قَتْلِ الصَّيدِ في حالِ الإحرامِ بَعْدَ النَّهْيِ. أوِ اتَّقُوا اللهَ في كُلِّ ما لا يَحِلُّ ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فَتُجزَونَ بأعمالِكُمْ إنْ خَيرٌ فَخَيرٌ، وإنْ شَرٌّ فَشَرٌّ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إلى حُكْمِهِ تَصِيرونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ الآية. اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُم: قولُهُ تعالى: ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي ثَباتاً لِلنّاسِ ودَواماً لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَها مَوضِعاً لإقامَةِ العباداتِ مِنْ نَحْوِ الحَجِّ والطَّوافِ والصَّلَواتِ [وإقامَةِ حُرُماتِهِ][2] والهدايا وغيرِ ذلكَ مِنَ العِباداتِ، جَعَلَها ثابتَةً دائمةً، لا تُبَدَّلُ، ولا تُنْسَخُ أبداً. فذلِكَ مَعنى القِيامِ لِلنّاسِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿قِيَٰمًا﴾ بِمَعْنَى قِواماً أي جَعَلَها قِواماً لَهُمْ في مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ لأنهُ جَعَلَها مَأمَناً لهَمْ ومَلْجأً حتى إنَّ مَنِ ارْتَكَبَ كَبِيرةً، أو أجْرَمَ جَرِيمَةً، ثُمَّ لَجأَ إليهِ، ثَمَّ لَمْ يُتَعَرَّضْ لَهُ بِشَيءٍ مِنْ ذلكَ، ولا يُنالُ[3] منهُ. وكانُوا إذا وَجَدُوا هَدْياً مُقَلَّداً لم يَتَعَرَّضُوا لهُ، وإنْ كانَتْ حاجَتُهُمْ إليهِ شديدةً، ونَحْوُ هذا كَثيرٌ مِمّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. وجَعَلَ فيها عِباداتٍ ومَقْصِداً ما لم يَجْعَلْ في غَيرِها مِنَ البِقاعِ مِنْ قَضاءِ[4] المناسكِ وغَيرِها.

وكذلكَ الشَّهْرُ الحَرامُ كانَ جَعَلَهُ مَأمَناً لَهُمْ، إذا دَخَلُوا فيهِ يأْمَنُونَ[5] مِنْ كُلِّ خَوفٍ كانَ بِهِمْ.

وجَعَلَ في الهَدايا والقَلائدِ مَنْفَعَةً لأهْلِها، فكانَ في ذلكَ قِواماً لَهُمْ في مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ. وعَنْ سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ [أنهُ قالَ][6]: قالَ اللهُ تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ شِدَّةً لِدِينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ أي ذلكَ الأمْنُ، وما ذكَرْنا مِنْ جَعْلِ الكَعْبَةِ قِواماً لَهُمْ في مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي على عِلْمٍ جَعَلَ هكذا قَبْلَ أنْ يكونَ.

وقالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ تَحْريفِ الكُتُبِ وتَغْييرٍ[7] وتبديلِ بَعْثِهِ[8] ﷺ وصفتهِ، أي على عِلْمٍ منهُ بالتَّحريفِ والتبديلِ، خَلَقَكُمْ لا عَنْ جَهْلٍ، لِيَمْتَحِنَكُمْ، لِما لا يَضُرُّهُ كُفْرُ كافرٍ، ولا يَنْفَعُهُ إيمانُ مُؤمنٍ. بل حاصِلُ ضَرَرِ الكُفرِ يَرْجِعُ إلى الكافِرِ، وحاصِلُ نَفْعِ الإيمانِ يَرْجِعُ إلى المؤمنِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَنْ عَصاهُ، و خالَفَ أمْرَهُ، على ما عَلِمْتُمْ أنهُ على عِلْمٍ منهُ كانَ جَميعُ ما كانَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ واعْلَمُوا أيضاً أنَّ ﴿ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ تابَ، وأنابَ إليهِ، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [لأنَّ مِنَ العِقابِ ما لَيسَ بِشَديدٍ، ومنهُ ما هو بِشَديدٍ][9] وخاصَّةً عِقابُ[10] الآخِرَةِ، لا انْقِضاءَ لَهُ، ولا فَناءَ، لذلكَ وَصَفَهُ[11] بالشدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ فيهِ وَجْهانِ:

أحَدُهُما: رَدٌّ[12] على مَنْ يقولُ: الموعِظَةُ لا تَنْفَعُ، ولا تَنجَعُ فيهِ، إذا لم يَكُنِ الواعِظُ مُسْتَعْمِلاً [لِما يَعِظُ غَيرَهُ][13]؛ إذْ لَيسَ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ أشَدَّ استِعْمالاً مِنَ الرُّسلِ ﷺ ثم لا تَنْفَعُ مَواعِظُهُمْ وذِكْرُهُمْ قَومَهُمْ، ولا تَنجَعُ فِيهِمْ لِشُؤْمِهِمْ ولِشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: وأراقة، في م: وإراقة حرماته. (٣) في الأصل وم: يتناول. (٤) في الأصل وم: القضاء. (٥) من م، في الأصل: مامنون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتغييره. (٨) في الأصل وم: نعته. (٩) في الأصل: لا من العقوبات ما ليس بشديد، في م: لأن العقاب منه ما ليس بشديد. (١٠) في الأصل وم: عقوبة. (١١) في الأصل وم: وصف. (١٢) في الأصل وم: ردا. (١٣) من م، في الأصل: لا يعظ غير.

والثاني: إنباءُ أنْ ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ولا ضَرَرَ عليهِمْ بِتَركِ القوم إجابَتَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ مِنَ العَداوةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ ولِأصحابِهِ ونَصْبِ[1] الحرْبِ والقِتالِ مَعَهُمْ ﴿وما تكتُمونَ﴾ مِنَ المكرِ لَهُ والقَصْدِ لِقَتْلِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] كانُوا يَمْكُرُونَهُ، ويَقْصِدونَ قَصْدَ إهلاكِهِ، لكنَّ اللهَ ﷻ أطْلَعَ رسولَهُ على مَكْرِهِمْ، وأخبَرَ أنهُ يَعْصِمُهُ مِنَ الناسِ، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [الآية: ٦٤].

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهُما: خَرَجَ عنْ سؤالٍ قد سَبَقَ مِنهُمْ عنْ كَثْرةِ الأموالِ لمّا رَأَوا أُولئكَ كانُوا يَسْتَكْبِرونَ، ويَجْمَعونَ مِنْ حَيثُ[2] يَحِلُّ، ولا يَحِلُّ، فَمالَتْ أنفُسُهُمْ إلى ذلكَ، ورَغِبَتْ، فقالَ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ كأنهُ قالَ: إنَّ القَليلَ مِنَ الطَّيِّبِ خَيرٌ مِنَ الكَثيرِ مِنَ الخَبيثِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهمْ رَغِبوا في عِبادةِ أُولئكَ مِنَ التَّرَهُّبِ والاِعْتِزالِ عنِ الناسِ لِدَفْعِ أذى خُبْثِهِمْ[3] عنهُمْ وكَثْرَةِ ما كانُوا يَتَحَمَّلونَ مِنَ الشَّدائدِ والمشَقَّةِ؛ رَغِبُوا[4] في ذلكَ، وهَمُّوا على ذلكَ على ما ذُكِرَ في القصةِ عنْ بَعْضِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُمْ هَمُّوا أنْ يَتَرَهَّبُوا، أو يَعْتزِلُوا عنِ الناسِ، فقال[ﷻ][5]: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ إنَّ العَمَلَ القليلَ مَعَ أصلٍ طَيِّبٍ خيرٌ مِنَ الكَثيرِ معَ خُبْثِ[6] الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في مَخافَةِ أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ اللهَ لا يُخاطِبُ أحداً إلا مَنْ كَمُلَ عَقْلُهُ، وتَمَّ. وباللهِ العِصْمَةُ

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النَّهْيُ عنِ السُّؤالِ عنْ أشياءَ[7]، عنْ أسْئِلَةٍ كانَتْ مِنهُمْ لم تَكُنْ لهَمْ حاجَةٌ إليها، فَنُهُوا عنْ ذلكَ إلى أنْ تَقَعَ لَهُمُ الحاجَةُ. فَعِنْدَ ذلكَ يَسألُونَ. كأنَّهُمْ سالوهُ عنِ البَيانِ والإيضاحِ قَبْلَ أنْ يَحتاجوا إليهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ [ﷻ][8]: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ الآيةَ؟

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ خَرَجَ النَّهْيُ عنِ السُّؤالِ ابْتِداءً على غَيْرِ تَقَدُّمِ سُؤالٍ كانَ مِنْهُمْ. ولكنْ نُهُوا عنِ السُّؤالِ عنها. ثُم يَحْتَمِلُ بَعْدَ هذا أنْ كانَ على ابْتِداءِ سُؤالٍ كانَ مِنْ أهلِ النِّفاقِ؛ يَسألُونَ سُؤالَ تَعَنُّتٍ لا سُؤالَ اسْتِرشادٍ؛ يَسْألُونَ عنْ[9] آياتٍ بَعْدَ ما ظَهَرَتْ لَهُمْ، وثَبَتَتْ عندَهُمُ الحُجَجُ، وعَرَفُوا أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ فإنْ كانَ النَّهْيُ لِلمُؤمِنينَ فَهُوَ ما ذَكَرْنا مِنْ سُؤالِ البَيانِ قَبْلَ وُقوعِ الحاجَةِ إليهِ. وقيلَ: نَزَلَتْ في قَومٍ سَألُوا رسولَ اللهِ ﷺ [عنِ][10] الحَجِّ، فقالَ رجلٌ: أفي كلِّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ «[فَرَدَّ عليهِ رسولُ اللهِ][11]: «لو قُلْتُ: نعمْ صارَ مَفْروضاً، فإذا صارَ مَفْروضاً تَرَكْتُمْ، وإذا تَرَكْتُمْ جَحَدْتُمْ، وإذا جَحَدْتُمْ كَفَرْتُمْ» [السيوطي في الدر المنثور ج٣/٢٠٦]. لأنَّ مَنْ جَحَدَ فَرْضاً مِمّا فَرَضَهُ اللهُ كَفَرَ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

ولا يَجِبُ أنْ يُفَسَّرَ هذا أنهُ كانَ في كذا؛ إذْ لَيسَ في كتابِ اللهِ بَيانُهُ سِوَى أنَّ فيهِ النَّهْيَ عنْ سُؤالِ ما لا يُحتاجُ إليهِ. وعَنِ ابْنِ عبّاسٍ ﷺ [أنه][12] قالَ: لا تَسألُوا عنْ أشياءَ، قد عَفَا اللهُ عنها. ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ إنْ[13] تُظْهَرَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ إنْ[14] أُمِرتُمُ العَمَلَ بها، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ النَّهْيَ عنِ السُّؤالِ في

---

(١) في الأصل وم: وبنصب. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: أنفسهم. (٤) في الأصل وم: فرغبوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: خبيث. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: خرج. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: منه. (١٠) و(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) و (١٣) و (١٤) في الأصل وم: أي.

الآيِ لأحدِ شيئينِ: إمّا أنْ يَسْألُوا [عنِ الآياتِ][1] بعدَ ما ظَهرَتْ، ونَبَتَتْ[2] لهمْ رسالَتُهُ. فلمّا أتى بها كَفَرُوا بِها. ألا ترى أنهُ قالَ تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ وقد كانَ الأمَمُ السالِفَةُ يَسْألونَ مِنَ الرُّسُلِ، عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، الآياتِ بَعْدَ ظُهورِها عندَهُمْ؟.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِمْ: أينَ نَحْنُ؟ ومَنْ أبي؟ ومَنْ أنا؟ ونَحْوِه. فلمّا أنْ أخبَرَهُمْ بذلكَ كَفَرُوا بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أي ما جَعَلَ الله قُرْباناً مِمّا جَعَلُوا هُمْ لأنهُم كانُوا يَجْعَلُونَ ما ذَكَرَ مِنَ البَحيرَةِ والسائبَةِ وما ذَكَرَ قُرْباناً يَتَقَرَّبونَ بذلكَ إلى الأصنامِ والأوثانِ التي كانُوا يَعْبُدُونَها دونَ اللهِ، فقالَ: ما جَعَلَ اللهُ مِنْ ذلكَ شَيئاً مِمّا جَعَلْتُمْ أنتُمْ مِنَ البَحيرةِ والسائبَةِ.

فقولُهُ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ وما ذَكَرَ أي ما أمَرَ بذلكَ، ولا أذِنَ بها. قِيلَ: حَرَّمَ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ هذِهِ الأشياءَ؛ مِنْها ما حَرَّمُوهُ على نِسائِهِمْ/ ١٤١ ـ أ/ دُونَ رِجالِهِمْ، ومِنْها ما حَرَّمُوهُ على الرِّجالِ والنِّساءِ، ومِنْها ما جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ بِهِ.

ثم قيلَ: البَحِيرَةُ: ما كانُوا يَجْدَعونَ آذانَها، ويَدَعُونَها لآلِهَتِهِمْ. والسائِبَةُ: ما كانُوا يُسَيِّبُونَها. والوَصِيلَةُ: ما كانَتِ النّاقَةُ إذا وَلَدَتْ ذَكَراً أو أُنْثَى في بَطْنٍ قالُوا وصلَتْ أخاها، فلم يَذْبَحُوها، وتَرَكُوها[3] لآلهتِهِمْ.

قالَ أبو عُبَيْدَة: البَحيرَةُ إذا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ قُطِعَتْ آذانُها، وتُرِكَتْ. والسائِبَةُ إذا وَلَدَتْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ سُيِّبَتْ، فَلا تُرَدُّ عنْ حَوضٍ ولا عَلَفٍ. والوَصِيلَةُ مِنَ الغَنَمِ إذا وَلَدَتْ عَناقَيْنِ تُرِكا، وإذا وَلَدَتْ عَناقاً وجَدْياً قالُوا: وَصَلَتِ العَناقُ الجَدْيَ، وتُرِكا، وإذا نُتِجَتْ [ذكَراً][4] ذُبِحَ، والحامِي إذا نُظِرَ إلى عَشَرَةٍ مِنْ وَلَدِه قيلَ: حُمِيَ ظَهْرُهُ، فلا يُرْكَبُ، ولا يُحْمَلُ عليه شَيءٌ.

وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿وَلَا حَامٍ﴾ إذا ضَرَبَ [الفَحْلُ عَشْراً تركوهُ][5] فهو الحامي، والحامي اسْمٌ. والسائِبَةُ مِنَ الغَنَمِ على نَحْوِ ذلكَ، إلّا أنّها [ما][6] وَلَدَتْ مِنْ وَلَدِ بَنِيها[7] سِتَّةَ أولادٍ كانَتْ على هَيْئَتِها، فإذا وَلَدَتِ السابِعَ ذَكَراً أو ذَكَرَينِ، نُحِرَ، فأكَلَهُ رِجالُهُمْ دونَ نِسائِهِمْ. وإنْ أتأمَتْ بِذَكَرٍ أو أُنْثى فَهِيَ[8] وَصِيلَةٌ؛ يُتْرَكُ ذَبْحُ الذَّكَرِ بالأُنْثَى. وإنْ كانَتا اثْنَتَينِ تُرِكَتا.

وقالَ القُتَبِيُّ: البَحِيرَةُ الناقَةُ إذا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ، والخامِسُ ذَكَرٌ، نُحِرَ، فأكَلَهُ الرجالُ والنِّساءُ. وإنْ كان الخامسُ أُنْثَى شَقُّوا أُذُنَها، وكانَ حَراماً على النِّساءِ لَحْمُها ولَبَنُها. فإذا ماتَتْ حَلَّتْ لِلنِّساءِ. والسائِبَةُ البَعيرُ يُسَيَّبُ بِنَذْرٍ يكونُ على الرجلِ إنْ سَلَّمَهُ اللهُ مِنْ مَرَضِهِ، أو بَلَّغَهُ مَنْزِلَهُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ.

والوَصِيلةُ مِنَ الغَنَمِ: كانوا إذا وَلَدَتِ الشاةُ سَبْعَةَ أبْطُنٍ نَظَرُوا، فإن كانَ السابِعُ ذَكَراً، ذُبِحَ، فأكَلَ منهُ الرجالُ والنساءُ، وإنْ كانَ[9] أُنْثَى تُرِكَتْ في الغَنَمِ، وإنْ [أتأمتْ ذَكَراً أو أنثى][10] قالُوا: وَصَلَتْ أخاها فلم يُذْبَحْ لِمكانِها، وكانتْ[11] لُحومُها حراماً على النساءِ، ولَيسَتِ[12] الأنثى حَراماً على النّساءِ إلّا أنْ يَموتَ مِنْهُما شَيءٌ، فيأكُلُهُ الرجالُ والنساءُ.

والحامي الفَحْلُ إذا رُكِبَ وَلَدُ وَلَدِهِ، ويُقالُ: إذا نُتِجَ مِنْ صُلْبِهِ عَشَرَةُ أبْطُنٍ قالُوا: حُمِيَ ظَهْرُهُ، ولا يُرْكَبُ، ولا يُمْنَعُ مِنْ كَلأٍ ولا ماءٍ.

كانُوا يُحَرِّمُونَ الانْتِفاعَ بما ذَكَرْنا، ويَقُولونَ: إنَّ اللهَ حَرَّمَ ذلكَ علَينا. وهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى: قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦] يُحَرِّمونَ أشياء على أنْفُسِهِمْ، ويُضِيفُونَ تَحْرِيمَها إلى اللهِ.

ثم سَفَّهَ أحلامَهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا

---

(١) في الأصل وم: الآيات عنه. (٢) في الأصل وم: ونبت. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الحمل من ولد البحير. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ادرج بعدها في الأصل وم: وبين. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) في الأصل وم: كانت. (١٠) في الأصل وم: ذكراً. (١١) في الأصل وم: وكان. (١٢) في الأصل وم: ليس.

﴿ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ [الأنعام: ١٤٣] لم يكُنْ تحريمُهُمْ هذِهِ الأشياءَ بالسَّمْعِ، ولكنْ رياءً مِنْهُمْ وتنجُّؤٌ. واحتجَّ اللهُ عليهِمْ على ذلكَ الوجهِ لِيُظهِرَ فَسادَ قولِهِمْ مِنَ الوجهِ الذي ادَّعَوا، فقالَ: ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ فإنْ قالُوا: الذَّكَرينِ فقد كانَ مِنَ الذَّكَرِ ما لم يُحَرَّمْ. فإنْ قالُوا: أُنثى فقد كانَ مِنَ الأُنثى لم[1] يكُنْ فيها تحريمٌ. ففيهِ دليلٌ أنَّ الحُكمَ إذا كانَ بعِلَّةٍ يَجِبُ وُجوبُ ذلكَ الحُكْمِ ما كانَتْ تلكَ العِلَّةُ قائمةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ الآيةُ كأنَّها نَزَلَتْ في مُشركي العَرَبِ، وكانُوا أهلَ تقليدٍ لا يُؤمِنُونَ بالرُّسُلِ، ولا يُقِرُّونَ بِهِمْ، إنما يُقلِّدُونَ آباءَهُمْ في عبادةِ الأوثانِ والأصنامِ. فإذا ما دَعاهُمْ رسُولُ اللهِ ﷺ إلى ما أنزَلَ اللهُ إليهِ، أو دَعاهُمْ أحدٌ إلى ذلكَ ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [الآية: ١٠٤]، [وقالُوا][2]: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ونَحوَ ذلكَ؛ يُقلِّدُونَ آباءَهُمْ في ذلكَ.

فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ أي تتبَعُونَ آباءَكُمْ، وتقتَدونَ بِهِمْ، وإنْ كُنتُمْ تعلَمونَ أنَّ آباءَكُمْ لا يَعْلَمُونَ شيئاً في أمرِ الدِّينِ، ولا يَهْتَدُونَ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٤] تَتبَعُونَ آباءَكُمْ، وتقتَدُونَ بِهِمْ، وإنْ جِئْتُكُمْ بأهْدَى مِمّا كانَ عليهِ آباؤُكُمْ؛ يُسَفِّهُهُمْ في أحلامِهِمْ في تقليدِهِمْ آباءَهُمْ، وإنْ ظَهَرَ عندَهُمْ أنَّهُمْ على ضَلالٍ وباطلٍ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ ظَنَّ بَعْضُ الناسِ أنَّ الآيةَ دَفَعَتِ الأمرَ بالمَعْروفِ والنَّهْيَ عنِ المُنكَرِ والسَّعْيَ[3] في تَرْكِ ذلكَ. ولَيسَ فيهِ دَفْعُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنكَرِ. ولكنْ إنباءٌ أنْ لَيسَ علَينا في ما يُرَدُّ، ولا يُقْبَلُ مِنَ الأمرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنكَرِ شيءٌ، وهو كَقولِهِ[4] تعالى: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآية [النور: ٥٤] لَيسَ فيهِ رُخصةُ تركِ تبليغِ الرِّسالةِ إليهِمْ ودَفعِهِ عنهُمْ. ولكنْ إخبارٌ أنْ لَيسَ عليهِ في ما يُرَدُّ وتَرْكِ القبولِ شَيءٌ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨] فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ [الآيةُ ليس فيها][5] رُخصةُ دليلِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنكَرِ لأنهُ قالَ: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ بِتَرْكِ قَبولِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنكَرِ ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ أنْتُمْ بالأمرِ [بالمَعْرُوفِ][6] والنَّهْيِ عنِ المُنكَرِ. بلِ الأمرُ بالمَعروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنكَرِ واجِبٌ. وبذلكَ وصفَ اللهُ تعالى هذِهِ الأمَّةَ بقولِهِ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «مَنْ لم يَرْحَمْ صَغيرَنا، ولم يُوَقِّرْ كَبيرَنا، ولم يَأمُرْ بالمَعروفِ، ولم يَنْهَ عنِ المُنكَرِ فَلَيسَ مِنّا» [أبو داوود ٤٩٤٣] وعَنْ عائشةَ ﵂ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عليَّ، وقد حَضَرَهُ النَّفَسُ، فَتَوَضَّأَ، ثم خَرَجَ إلى المَسْجِدِ، فَقُمْتُ مِنْ وراءِ الحِجابِ، فَصَعِدَ المِنبَرَ، ثم قالَ: «أيُّها الناسُ إنَّ اللهَ يَقُولُ: مُرُوا بالمَعْرُوفِ وانْهَوا عنِ المُنكَرِ قَبْلَ أنْ تَدْعُوني فلا أُجيبُكُمْ، وتَسْألُوني فلا أُعْطِيكُمْ، وتَسْتَغيثُوني فلا أُغيثُكُمْ، وتَسْتَنْصِرُوني فلا أنْصُرُكُمْ» [أحمد: ٦/ ١٥٩].

وعنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁ [أنهُ][8] قالَ: «يا أيُّها الناسُ إنكُمْ تَقْرَؤُونَ هذهِ الآيةَ، وإني سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ الناسَ إذا رَأَوا مُنكَراً فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ يُوشِكُ أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقابِهِ»» [ابن ماجة ٤٠٠٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ﴾ الآية [الآية: ٦٢] ثم الأمرُ بالمَعروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنكَرِ على مَراتِبَ مَعَ الكَفَرةِ بالقتالِ والحَرْبِ ومَعَ المُؤْمِنينَ باليَدِ واللِّسانِ.

---

(١) في الأصل وم: وليس. (٢) في الأصل وم: ولم. (٣) في الأصل وم: السعة. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل وم: في الآية ليس فيه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الأمرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ واجِبٌ فَرْضٌ ما لَمْ يَدْخُلْ في ذلكَ فسادٌ، ويَصيرُ الأمْرُ بهِ والنَّهْيُ عنهُ مُنْكَراً. فإذا خَشَوا ذلكَ يُرَخَّصُ لَهُمُ التَّرْكُ، وإلّا.

رُوِيَ عنْ عبدِ الله بْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: قُولُوها ما لم يكُنْ دُونَها السَّيْفُ والسَّوْطُ. فإذا كانَ دُونَها السَّيْفُ والسَّوْطُ فَعَلَيكُم أنفُسَكُم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الذي يَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ ويَنْهى عنِ المُنْكَرِ، والذي يَرِدُ عنهُ الأمرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عن المُنكرِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خَرَجَ على الوَعيدِ والتَّحذيرِ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ الآية. اخْتُلِفَ فيهِ:

عنْ قَتادَةَ [أنهُ][2] قالَ: رجلٌ ماتَ بقَرْيَةٍ مِنَ الأرضِ، وتَرَكَ تَرِكَةً، وأوصَى وَصِيَّةً، وأشهَدَ على وَصِيَّتِهِ رجُلَينِ [قالَ: إنَّهُما][3] في شهادَتِهِما استُحْلِفَا بَعْدَ صلاةِ العَصْرِ. وكانَ يُقالُ: عندَها تَصيرُ الأيمانُ. فإنْ عُثِرَ أي أُطْلِعَ مِنْهُما على خِيانَةٍ على أنَّهُما كَتَمَا، أو كَذَبا، وشَهِدَ رجلانِ أعدَلُ مِنهُما بخِلافِ [ما][4] قالا أُجيزَتْ شَهادَتُهُما، وأُبطِلَتْ/ ١٤١ ـ ب/ شَهادَةُ الأوَّلَينِ. ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ مِنَ المُسْلِمينَ ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ إذا كانَ بِبَلَدٍ لا يَجِدُ إلّا هؤلاءِ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][5] قالَ: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي مِنْ عَشِيرَتِكُمْ ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ﴾ غيرِ عَشِيرَتِكُمْ، فنقولُ: إنَّ الحَقَّ على المُسْلِمِ إذا أرادَ أنْ يُوصِيَ أنْ يُسْنِدَ الوِصايَةَ إلى أحَدِ عَشيرَتِهِ، وكذلكَ أنْ يُشْهِدَ على ذلكَ مِنْ أهلِ عَشيرَتِهِ لأنَّ أهلَ عَشيرَتِهِ أحفَظُ لِذلكَ وأحْوَطُ وأكْثَرُ عِنايَةً ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ولا كذلكَ الأجْنَبيّانِ.

فإنْ [قالَ][6] قائلٌ: خاطبَ اللهُ ﷻ المؤمِنِينَ جُمْلَةً بقولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية فكيفَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ مِنْ غيرِ دينِكُمْ؟ فنقولُ: سُبحانَ اللهِ ما أعظَمَ هذا القولَ: يَرُدُّ شَهادَةَ مُوَحِّدٍ مُخْلِصٍ دينَهُ للهِ لِفِسْقٍ يَرْتَكِبُهُ، ويأمُرُ بِقَبولِ شهادَةِ كافرٍ كاذِبٍ قائلٍ للهِ بالوَلَدِ والشَّريكِ! هذا مِمّا لا يُحْتَمَلُ. وقالَ أيضاً: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ وهُمْ كانُوا يَسْتَهْزِئونَ بالصلاةِ إذا نُودِيَ لَها بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [الآية: ٥٨] دلَّ أنهُ لا يُحْتَمَلُ ما ذَكَرُوا.

وعنْ سَعيدِ بْنِ جُبَيرٍ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [أنهُ][7] قالَ: إذا حَضَرَ المُسْلِمَ المَوتُ في السَّفَرِ، فلم يَجِدْ مُسْلِمَينَ، فَأَوْصَى إلى أهلِ الكتابِ، فإنْ جاؤوا بتَرِكَتِهِ، فاتُّهِمُوا، حَلَفَ هؤلاءِ أنَّ مَتاعَهُ كذا وكذا، وأخَذوهُ. وبَعْضُ الناسِ يُجيزونَ شهادَةَ النَّصارَى واليَهُودِ في السَّفَرِ في الوَصِيَّةِ بظاهِرِ الآيَةِ.

وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ مِنْ غَيرِ مِلَّتِكُمْ. وعَنْ عامِرٍ الشَّعْبِيِّ [أنهُ][8] قالَ: شَهِدَ نَصْرانِيّانِ على وَصِيَّةِ مُسْلِمٍ ماتَ عندَهُمْ، فَارْتابَ أهلُ الوَصِيَّةِ، فَأَتَوا بِهِما إلى أبي مُوسَى الأشْعَرِيِّ، فاسْتَحْلَفَهُما بَعْدَ صلاةِ العَصْرِ باللهِ: ما اشْتَرَيْنا[9] بِهِ ثَمَناً قليلاً، ولا كَتَمْنا[10] شهادَةَ اللهِ ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾. ثم قالَ أبو مُوسَى الأشْعَرِيُّ: واللهِ إنَّ هذهِ القِصَّةَ ما قُضِيَ بها مُنْذُ ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى اليومِ.

قد بَيَّنَ الشَّعْبِيُّ أنَّ أبا مُوسَى إنما اسْتَحْلَفَهُما في ما اتَّهَمَهُما بِهِ مِنْ تَرِكَةِ[11] المَيتِ. وهذِهِ يَمينٌ واجِبَةٌ عندَ المُسْلِمِينَ جَميعاً، ولم يُحَلِّفْهُما على أنَّ ما شَهِدا بِهِ كما شَهِدَا بِهِ كما زَعَمَ قَومٌ أنَّ شَهادَتَهُما تَصِحُّ بِيَمِينِهِما.

وعَنْ عبدِ الله بْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][12] قالَ: خَرَجَ رجلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَمَرَّ بِقَرْيَةٍ، ومَعَهُ رجلانِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَدَفَعَ إليهِما مالَهُ، ثم قالَ: ادْعُوا إليَّ مَنْ أُشْهِدُ على ما قَبَضْتُما، فلَمْ يَجِدا[13] أحداً مِنَ المُسْلِمِينَ في تِلْكَ القَرْيَةِ، فَدَعَوا ناساً

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: فان اتمها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: اشتريتما. (١٠) في الأصل وم: كتما. (١١) في الأصل وم: تركته. (١٢) ساقطة في الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يجدوا.

مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، وأشهَدَهُم على ما دَفَعَ إليهِما. ثم إنَّ المُسلِمَينِ قَدِما إلى أهلِهِ، فَدَفَعا مالَهُ إلى أهلِهِ. فقالَ الوَرَثَةُ: لقد كانَ مَعَهُ مِنَ المالِ أكثَرُ ممّا أتيتُما، فاستَحلَفوهُما باللهِ: ما دَفَعَ إليهِما غيرَ هذا؟ ثم قَدِمَ ناسٌ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، فَسأَلَهُم أهلُ المَيتِ، فأخبَروهُم أنهُ هَلَكَ بِقَريَتِهِم [رجلٌ][1] وتَرَكَ كذا وكذا مِنَ المالِ، فَعَلِمَ أهلُ المُتَوَفّى أنْ قد عَثَروا على أنَّ المُسلِمَينِ قدِ استَحَقّا إثماً، فانطَلَقوا إلى ابنِ مَسعودٍ، فأخبَروهُ بالذي كانَ مِن أمرِهِم، فقالَ ابنُ مَسعودٍ ﷺ ما مِن كتابِ اللهِ مِن شَيءٍ إلّا قد جاءَ على الدَّلالَةِ إلّا هذهِ الآيةُ، فالآنَ جاءَ تأويلُها، فأمَرَ المُسلِمَينِ أنْ يَحلِفا باللهِ ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾.

ثم أمَرَ اليهودَ والنَّصارى أنْ يَحلِفوا باللهِ: لَقد تَرَكَ مِنَ المالِ كذا وكذا، ولَشَهادَتُنا أحَقُّ مِن شَهادةِ هذينِ المُسلِمَينِ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم أمَرَ أهلَ المَيتِ أنْ يَحلِفوا باللهِ: أنْ كانَ ما شَهِدَتْ بِهِ اليَهودُ والنَّصارى حَقاً[2]، فَحَلَفوا، فأمَرَهُمُ ابنُ مَسعودٍ [أنْ][3] يأخُذوا مِنَ المُسلِمَينِ ما شَهِدَتْ بِهِ اليهودُ والنَّصارى. وكانَ ذلكَ في خِلافةِ عثمانَ بنِ عَفّانَ.

فإنْ ثَبَتَ هذا عنِ ابنِ مَسعودٍ ﷺ فَهُوَ خِلافُ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لو يُعطَى الناسُ بِدَعواهُم لادَّعَى قومٌ دِماءَ قَومٍ وأموالَهُم. [ولكنَّ اليمينَ على المُدَّعَى عليه» [مسلم ١٧١١] وقالَ: «البَيِّنةُ][4] على المُدَّعِي واليَمينُ على المُدَّعَى عليهِ» [الترمذي: ١٣٤١] وهو أيضاً غيرُ موافِقٍ لِظاهِرِ الآيةِ، فلا نَراهُ.

ثَبَتَ هذا عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ ﷺ قالَ: كانَ تَميمٌ الداريُّ وعَدِيُّ بنُ بَداءٍ يَختَلِفانِ إلى مَكَّةَ في التِّجارةِ، فَخرَجَ رجلٌ مِن بَني سَهمٍ، فَتُوُفِّيَ بأرضٍ، ليسَ فيها مُسلِمٌ، فأوصَى إليهِما، فَدَفَعا تَرِكَتَهُ إلى أهلِهِ، وحَبَسا جاماً مِن فِضَّةٍ، فاستَحلَفَهُما رسولُ اللهِ ﷺ ما كَتَمتُما، ولا اطَّلَعتُما. ثم عَرَضَ [رجلان][5] الجامَ بمكةَ، فقالا: اشتَرَيناهُ مِن عَدِيٍّ وتَميمٍ، فقامَ رجلانِ مِن أولياءِ السَّهميِّ [فقالا][6]: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ فأخذا الجامَ. وفيهِمْ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ.

وفي الحديثِ أنَّ اليَمينَ وجَبَتْ على المُدَّعَى عليهِما لَمّا ادَّعَى عليهِمُ الوَرَثَةُ أنَّهُما تَرَكا بَعضَ تَرِكَةِ المَيتِ، وفيهِ أنَّ الإناءَ لَمّا ظَهَرَ ادَّعاهُ[7] تَميمٌ وصاحِبُهُ، وهذانِ حُكمانِ مُوافِقانِ لِسائِرِ الأحكامِ والسُّنَنِ. فإنْ كانَ الأمرُ كما ذُكِرَ في هذا فَليسَ في الآيةِ نَسخٌ، ولا فيها ما يُخالِفُ الأحكامَ الظاهِرَةَ. وليسَ يَجوزُ عندَنا أنْ يَحلِفَ الشاهِدانِ إنْ كانا كافِرَينِ مَعَ شَهادَتِهِما لأنَّ ظاهِرَ الآيةِ نُسِخَ، ولا فيها أحكامٌ تُوجِبُ اليَمينَ على العَدلَينِ مِنّا ومِن غَيرِنا.

فلمّا لم يَجُزْ أنْ يُحلَفَ الشُّهودُ المُسلِمَيْنِ على الوَصِيَّةِ التي يَشهَدونَ لَها، وإنما يُحلَّفونَ على شيءٍ إنِ [ادُّعِيَ أنهما حَبَساهُ][8]، كانَ سَبيلُ الكَفّارَةِ كذلكَ.

وإذا كانتِ الآيةُ نَزَلَتْ في قِصةِ تَميمٍ وصاحِبِهِ، وكانا نَصرانِيَّينِ، فإنَّ ذلكَ يدلُّ على أنَّ شهادةَ بَعضِهِمْ على بَعضٍ جائزةٌ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فَمَعنَى الآيةِ على هذا التأويلِ، واللهُ أعلَمُ، أنْ يكونَ المَيتُ خلَّفَ تَرِكَتَهُ عندَ ذِمِّيَّينِ على ما ذُكِرَ في القِصَّةِ، وقالا: تَرَكَ في أيدينا كذا وكذا، وادَّعَى الوَرَثَةُ أكثَرَ مِن ذلكَ. واستُحلِفَ المُدَّعَى عليهما قِبَلَهُم، وقولُهُ: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ على هذا التأويلِ هما[9] المُدَّعَى عليهما.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ يُريدُ، واللهُ أعلَمُ، أنْ يَشهَدَ عليهما شاهِدانِ منّا أو مِنهُم بِشَيءٍ جَحَداهُ أنهُ مِن تَرِكَةِ المَيتِ، فهذا استِحقاقُ الوَرَثَةِ. فإذا قالَ المُدَّعِي قِبَلَهُما: اشتَرَيناهُ مِنَ المَيتِ فَعَلى الوَرَثَةِ أنْ يَحلِفوا. فهذا، واللهُ أعلَمُ، مَعنَى قولِهِ: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ لأنَّ الوَرَثَةَ صاروا مُدَّعًى عليهِم، فَقاموا في هذهِ الحالِ في وُجوبِ اليَمينِ عليهِمْ مَقامَ الأوَّلَينِ لَمّا كانَتِ الدَّعوَى عليهِمْ.

فهذا، واللهُ أعلَمُ، أقرَبُ الوُجوهِ في تأويلِ الآيةِ وأشبَهُها؛ وهو، إنْ شاءَ اللهُ، مَعنَى ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ وإنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لكن البينة. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ادعى. (٨) في الأصل وم: ادعوا أنهم حبسوه. (٩) في الأصل وم: هو.

لم يَذكُرْ تفسِيرَ قولِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وهو، واللهُ أعلَمُ، على غَيرِ دِينِنا لأنهُ ذَكَرَ المؤمِنِينَ جُمْلَةً. وأصحابُنا لا يُجيزونَ شهادَةَ أهلِ الكُفرِ في الوَصِيَّةِ لِمُسْلِمٍ لا في ضَرُورةٍ ولا في غيرِها لأنَّهُمْ على اختِلافِهِمْ اتَّفَقُوا في أنَّ شَهادةَ الكُفّارِ لا تَجوزُ على غَيرِ الوَصِيَّةِ في حالِ ضَرُورةٍ ولا في غَيرِها. فَشهادَتُهُمْ في الوصِيَّةِ على المُسْلِمِينَ مِثْلُ ذلكَ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ تأويلُ الآيةِ: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ في بَيانِ ما يَجُوزُ شهادَةَ ذَوِي العَدْلِ منّا في الحَضَرِ والسَّفَرِ في الوصِيَّةِ وفي غَيرِ الوَصِيَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا / ١٤٢ ـ أ/ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٢] هذا في السَّفَرِ والحَضَرِ في الدَّينِ وغيرِ الدَّينِ سَواءٌ. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

ثم ابْتَدَأَ الحُكْمُ في غَيرِهِ، فَقالَ تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

الآية ١٠٨ فإنْ قِيلَ: فَما مَعْنى قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾؟ قِيلَ: في ذلكَ بَيانٌ أنَّ المؤمِنَ إذا ادُّعِيَتْ عليهِ الخِيانَةُ، وقالَ هو: ما رَدَدْتُ ما كانَ في يَدي فإنهُ لا يَصْدُقُ إلّا بَعْدَ أنْ يَحْلِفَ. فإذا عَلِمَ أنهُ لا يُقْبَلُ قولُهُ إلّا بِيَمِينٍ كانَ أحرَى أنْ يَقولَ حَذِراً مِنْ أنْ يَحْلِفَ على كَذِبٍ، أو يُقِرَّ خَوفاً مِنَ الإثمِ في اليَمِينِ، فَتَتَبَيَّنُ خِيانَتُهُ.

فإنْ قِيلَ: ما مَعْنى قولِهِ: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على زِيادَةِ التَّغليظِ في اليَمِينِ. ولِلْحاكِمِ أنْ يُغَلِّظَ في اليَمِينِ على الخَصْمِ إذا اتَّهَمَهُ بِأكْثَرَ مِنْ هذا، وهو أنْ يَحْضُرَ يَمِينَهُ جماعةٌ، إذا سألَ الخَصْمُ ذلكَ، أو ذَكَرَ بَعْدَ الصلاةِ لِما كانَ ذلكَ الوقْتُ هو وَقْتٌ لِجُلُوسِ الحاكِمِ بَعْدَ صلاةِ الفَجْرِ أو بَعْدَ صلاةِ العَصْرِ على التَّغْلِيظِ.

وإنْ كانَتِ الآيةُ نَزَلَتْ في ما ذَكَرَ ابْنُ عباسٍ ﷺ في نَصرانِيَّيْنِ فقد يَجوزُ أنْ يكونَ اللهُ أمَرَ بذلكَ تَغْليظاً عليهِما، وهما تَمِيمٌ وصاحِبُهُ، إذْ كانُوا يُعَظِّمُونَ وقتَ غُروبِ الشَّمْسِ وما قَرُبَ مِنْ ذلكَ وَوَقْتَ طُلُوعِها لأنهُ وقتُ عِبادَتِهِمْ إيّاها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: فإنِ اطُّلِعَ مِنْهما على خيانةِ أنهما كَتَما، وكَذَبا، فجاءَ آخَرانِ يَشْهَدانِ على غَيرِ ما شَهِدا عليهِ، أُجِيزَتْ شَهادةُ الآخَرِينِ، وأُبْطِلَتْ شَهادَةُ الأوَّلَينِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي ظَهَرَ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي عُلِمَ واطُّلِعَ عليهِ؛ يُقالُ: عَثَرْتُ على فلانٍ وعلى ما يَفْعَلُ فلانٌ؛ أي عَلِمْتُ بِهِ، واطَّلَعْتُ عليهِ، أعثُرُ عَثْراً. وكذلكَ: ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في سورةِ الكهفِ [الآية: ٢١] مِنْ هذا؛ أي أطْلَعْنا عليهِمْ، وأعْلَمْناهُمْ بِمَكانِهِمْ. ويُقالُ: أعْثَرْتُ فلاناً على سِرِّ فلانٍ أي أعْلَمْتُهُ.

ثم وَعَظَ اللهُ المؤمِنِينَ، وحَذَّرَهُمْ أنْ يفعَلُوا مِثْلَ ذلكَ، فَقالَ: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا﴾ مَواعِظَهُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ماداموا في فِسْقِهِمْ، أو قالَ ذلكَ لِقَومٍ عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ أنهُمْ لا يَرْجِعُونَ عن ذلكَ أبداً.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ دَلَّ أنهُ لا لِما ذَكَرُوا، ولكنْ لِلْوَجهَينِ. قالَ أهلُ التَّأويلِ: بلْ إنما يَقولُونَ ذلكَ لِفَزَعِهِمْ مِنْ هَوْلِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِهِ تَطيرُ قُلُوبُهُمْ، وتَذهَلُ أفئِدَتُهُمْ، فَيَقُولُونَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

فَلَو كانَ ذلكَ مِنْهُمْ لِلْهَولِ والفَزَعِ على ما قالَهُ أهلُ التَّأويلِ لَكانَ لا تَتَهَيَّأ لَهُمُ الإجابَةُ، وقد قالُوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ دلَّ أنهُ لا لِما[1] ذَكَرُوا، ولكنْ لِلْوَجْهَينِ الآخَرَينِ، واللهُ أعلَمُ:

أحدُهما: أنْ سَألَهُمْ عنْ حَقيقَةِ إجابةِ قَومِهِمْ لَهُمْ بالضَّمائِرِ؛ أي لَمْ تُطْلِعْنا على عِلْمِ الضَّمائِرِ والغُيُوبِ، فأنتَ أعلَمُ بذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: لأنه.

والثاني: أنْ أحدَثُوا أموراً، وابْدَعُوها[١] مِنْ ذاتِ أنْفُسِهِمْ، فَنَسَبُوا ذلكَ إلى الرُّسُلِ كقولِهِ تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ إلى قولِهِ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [الآيتين: ١١٦و١١٧] كأنَّهُمْ قالُوا: إنَّ عيسَى [صَلَواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ السلامُ][٢] هو الذي دَعاهُمْ إلى ذلكَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ فَقالُوا ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ في ما ادَّعَوا علينا مِنَ الأمورِ التي أتَوها ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بأنَا لَمْ نَقُلْ لَهُمْ، ولم نَدْعُهُمْ إلى ما ادَّعَوا مِنَ الأمورِ.

على هذينِ الوجهَينِ يَخْرُجُ تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ. ومِثْلُ هذا السُّؤالِ لَهُمْ بِما أخبَرَ في آيةٍ أخرى أنهُ يَسْألُهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] يَسْأَلُ الرُّسُلَ عن تَبْليغِ الرسالةِ إلى قومِهِمْ، ويَسْأَلُ قومَهُمْ عنْ إجابَتِهِمْ لَهُمْ لِيَقْطَعَ احتِجاجَهُمْ، وإنْ لم يَكُنْ أمْرُ الحِجاجِ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أمّا نِعَمُهُ عليهِ فما[٣] ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾. وقولُهُ[٤]: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ الآية [مريم: ٣٠و٣١]. شَهِدَ في حالِ طُفُولَتِهِ بِوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى ورُبُوبيَّتِهِ وإخلاصِ عُبُوديَّتِهِ لهُ؛ وذلكَ مِنْ أعظَمِ نِعَمِ اللهِ عليهِ وأجلِّ مِنَنِهِ. وما ذَكَرَهُ أيضاً: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ الآيةِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ إحياءِ المَوتَى وإبراءِ الأكمَهِ والأبرَصِ وكَفِّ[٥] بني إسرائيلَ عنهُ عندَ مَجيءِ الآياتِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الآية: ٦٧]؛ فَفيهِ أعظَمُ النِّعَمِ عليهِ. وما ذُكِرَ أيضاً في بَعْضِ القِصَّةِ، إنْ ثَبَتَتْ، أنَّ عِيسَى لَمّا دَفَعَ [المُعَلِّمُ إليهِ الكِتابَ جَعَلَ][٦] يقولُ لهُ: بِسْمِ، فَيَقُولُ هو: بِسْمِ اللهِ، [فإذا قالَ][٧] المعلمُ: بِسْمِ اللهِ فيقولُ هو: الرحمنِ، وإذا قالَ: الرحمنِ فيقولُ هو: الرحيمِ، فَيَقُولُ المُعَلِّمُ: كيفَ أُعلِّمُ مَنْ هو [أعْلَمُ][٨] مني. ونحوُ هذا كثيرٌ مِمّا يَكْثُرُ، ويَطُولُ ذِكْرُهُ[٩].

وأمّا ما أنْعَمَ اللهُ على والدتِهِ فهو[١٠] ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٧] وما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] طَهَّرَها مِنْ[١١] جميعِ ما ابْتَلَى بِهِ بَناتِ آدمَ؛ فذلكَ مِنْ أعظَمِ النِّعَمِ وأجلِّ المِنَنِ.

ثم أمَرَ عِيسَى بِشُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِ وعلى والدتِهِ حِينَ[١٢] قالَ: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ وفي ذِكْرِ النِّعَمِ شُكْرُها. وأمَرَ أيضاً بِشُكْرِ ما أنْعَمَ على والدتِهِ لِيُعْلَمَ أنَّ على المَرْءِ شُكْرَ ما أنْعَمَ على والدتِهِ كما يُلْزِمُ شُكْرَ ما أنْعَمَ على نَفْسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: بِرُوحِهِ المُبارَكِ الذي بِهِ كانَ يُحْيِي المَوتَى، ويُبْرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ بِدُعائِهِ. وقالَ أهلُ التأويلِ: الرُّوحُ جِبْرِيلُ، والقُدُسُ هو اللهُ كقولِهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] أي جِبْرِيلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قالَ الحَسَنُ: الكتابُ والحِكْمَةُ واحِدٌ: الكتابُ هو الحِكْمَةُ، والحِكْمَةُ هي الكتابُ لأنَّ جَميعَ كُتُبِ اللهِ كانَ حِكْمَةً. وقالَ بعضُهُمْ: الكِتابُ ما يُكْتَبُ مِنَ العِلْمِ، والحِكْمَةُ هي ما يُعْطَى الإنسانُ مِنَ العِلْمِ على غَيرِ تَعَلُّمٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الكتابُ هو ما يُحْفَظُ، والحِكْمَةُ هي القِصَّةُ، وهو واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ قولُهُ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ أي تُصَوِّرُ، وتُقَدِّرُ ﴿مِنَ ٱلطِّينِ

---

(١) في الأصل وم: وأبدعوهما. (٢) في م: ﷺ. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: إلى قوله. (٥) من م، في الأصل: وكيف.
(٦) في الأصل وم: إلى الكتاب جعل له المعلم. (٧) من م، في الأصل: وإن. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: ذكرها.
(١٠) في الأصل وم: هو. (١١) في الأصل وم: عن. (١٢) في الأصل وم: حيث.

﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ كانَ مِنْ عِيسَى لِيكونَ لهُ آيةً لِصِدْقِهِ ونُبُوَّتِهِ. وعلى ذلكَ الآياتُ التي يَأتي بها الرُّسُلُ لَيسَتِ الرُّسُلُ يأتُونَ بها في الحَقيقةِ، بل كانَ اللهُ هو الآتيَ بها والمُنْشِئَ تِلْكَ الآياتِ حَقيقةً، لكنَّهُ يُجْريها على أيدي الرُّسُلِ لِتَكُونَ آياتِ صِدْقِهِمْ ودَلالاتِ رسالَتِهِمْ. فأمّا أنْ يأتيَ الرُّسُلُ بالآياتِ والحُجَجِ مِنْ عندِ أنْفُسِهِمْ فَلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخْلُقُ﴾ ذَكَرَ التَّخْليقَ لِما تُسمِّي العَرَبُ تَصْويرَ الشَّيءِ وتقديرَهُ[1] تَخْليقاً. فعَلَى ذلكَ خَرَجَ الخِطابُ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قِيلَ: الأكْمَهُ الذي يُولَدُ أعْمَى، وأمّا الأعْمَى فهو الذي يَذْهَبُ بَصَرُهُ بَعْدَ ما كانَ بَصيراً. وقيلَ: الأكْمَهُ هو الذي لا حَدَقَ لهُ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ/ ١٤٢ ـ ب/.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ والحَوارِيُّونَ قيلَ: هُمْ خَواصُّهُ، وكذلكَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ هُمْ حَوارِيُّوهُ. وقد ذَكَرْنا هذا، في سورةِ آلِ عمرانَ[2]، الاخْتِلافَ فيهِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ يَحْتَمِلُ الوَحْيُ إليهِمْ وَجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنهُ أوحَى إلى رسولِ الله عِيسَى ﷺ فَنَسَبَ ذلكَ إليهِمْ، وأُضِيفَ لأنَّ[3] الوَحْيَ إلى عِيسَى كالوَحْيِ إليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وما أُنْزِلَ على كذا ما أُنْزِلَ إلى رسولِ اللهِ كالمُنْزَلِ إلَينا. فَعَلَى ذلكَ الوَحْيُ إلى عِيسَى هو كالوَحيِ إليهِمْ.

والثاني: [أنهُ][4] أوحَى إليهِمْ وَحْيَ إلهامٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الآية [النحل: ٦٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] ونحوِهِ أنَّهُ وَحْيُ إلهامٍ وقَذْفٍ لا وَحْيُ إرسالٍ. والقَذْفُ في القَلْبِ مِنْ غَيرِ تَكَلُّفٍ ولا كَسْبٍ، وهو الإخطارُ بالقَلْبِ على السُّرْعَةِ ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ والخَطَرُ يكونُ مِنَ اللهِ تعالى، ويكونُ مِنَ الشَّيطانِ. لكنْ ما يكونُ مِنَ اللهِ تعالى يكونُ خَيراً؛ يَتَبَيَّنُ ذلكَ في آخِرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ؛ يَحْتَمِلُ قالُوا لِعِيسَى: واشْهَدْ أنتَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ويَحْتَمِلُ أنْ سألُوا رَبَّهُمْ أنْ يَكْتُبَهُمْ مَعَ الشاهِدينَ كقولِهِ تعالى: ﴿ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الآية: ٨٣].

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قِيلَ: إنَّ قَوماً سَأَلُوا[5] الحواريِّينَ أنْ يَسْأَلُوا عِيسَى ﷺ حتى يَسْأَلَ رَبَّهُ أنْ يُنَزِّلَ عليهِمْ مائِدَةً مِنَ السَّماءِ لأنَّ الحَوارِيِّينَ قد قُلْنا: إنهُمْ كانُوا خَواصَّ عِيسَى ﷺ فكانَ كَمَنْ بَدَتْ لهُ حاجَةٌ إلى بَعْضِ المُلُوكِ فإنهُ إنما يَرْفَعُ[6] إلى خواصِّهِ؛ فَهُمُ الذينَ يَتَوَلَّوْنَ رَفْعَها إلى المَلِكِ. فَعَلَى ذلكَ رَفَعُوا حاجَتَهُمْ إلى الحَوارِيِّينَ لِيَسْأَلُوا هُمْ نَبِيَّ اللهِ عِيسَى ﷺ لِيَسْأَلَ رَبَّهُ.

وقالَ آخَرُونَ: لم يَسْأَلْهُمْ[7] قومُهُمْ ذلكَ، ولكنَّ الحَوارِيِّينَ هُمُ الذينَ سأَلُوا عِيسَى ﷺ أنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ حتَّى يُنَزِّلَ عليهِمْ مائِدَةً مِنَ السَّماءِ.

لكنَّ سُؤالَهُمْ[8] ذلكَ يَحْتَمِلُ [وُجوهاً:

أحَدُها:][9] سألوا ذلكَ لِما أرادُوا أنْ يُشاهِدُوا الآيةَ، ولم يَكُونُوا شاهَدُوا قَبْلَ ذلكَ، فأحَبُّوا أنْ يُشاهِدُوها، وإنْ كانُوا قد آمَنُوا بِهِ، وصَدَّقُوهُ مِنْ قَبْلُ [لِيَزْدادُوا هُمْ][10] بذلكَ طَمأْنينةً ويَقِيناً، وهو كقولِ إبراهيمَ ﷺ ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] لِما يَحْتَمِلُ أنَّ نَفْسَهُ كانَتْ تُحَدِّثُ، وتُنازِعُ في ذلكَ، وأحَبَّ أنْ يُعايِنَ ذلكَ، ويُشاهِدَهُ لِيَزْدادَ هو[11] طمأنينةً ويَقِيناً. فَعَلَى ذلكَ أولئكَ كانَتْ[12] أنفسُهُمْ تُحَدِّثُ، وتُنازِعُ في مُشاهَدَةِ الآياتِ، فَأَحَبُّوا أنْ يُرِيَهُمْ بذلكَ [لِيَزْدادُوا هُمْ][13] طمأنينةً ويَقِيناً وصَلابَةً في التَّصْديقِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في تفسير الآية [٥٢]. (٣) من م، في الأصل: أن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: من. (٦) من م، في الأصل: وقع. (٧) في الأصل وم: يسألوا. (٨) في الأصل وم: سألهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ليزداد لهم. (١١) في الأصل وم: له. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) في الأصل وم: ليزداد لهم.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عِيسَى يُخْبِرُهُمْ أنَّ لَهُمْ كَرَامَةً ومَنْزِلَةً عندَ اللهِ، فأَحَبُّوا أن يَعْرِفُوا مَنْزِلَتَهُمْ عندَ اللهِ وكرامَتَهُمْ.

والثالثُ: سألُوا ذلكَ لِيَعْرِفُوا مَنْزِلَةَ عِيسَى ﷺ عندَ اللهِ وكَرامَتَهُ؛ هلْ يُجِيبُ ربُّهُ دُعاءَهُ إذا سألَ رَبَّهُ، واللهُ أعلَمُ؟

وإنْ كانَ السُّؤالُ مِنْ قومٍ غَيرِ الحَوارِيِّينَ فهو لِما بَدَتْ لَهُمْ مِنَ الحاجةِ إليها، لا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالخَبَرِ الصادِقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ يُقْرَأُ بالتاءِ والياءِ جميعاً[١]. فمنْ قرَأَ بالتاءِ ذَهَبَ في التَّأْوِيلِ إلى أنَّ فيهِ إضماراً؛ كأنَّهُمْ قالُوا: هل تستطيعُ أنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. ومَنْ قَرَأَ بالياءِ قالَ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي هل يُجِيبُ رَبُّكَ دُعاءَكَ إذا دَعَوْتَهُ؟ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

قالَ الفَرّاءُ: قد يكونُ مِثْلُ هذا السُّؤالِ على غَيرِ الجَهْلِ مِنَ السائِلِ بالمَسْؤُولِ لأنهُ يَجوزُ أنْ يُقالَ في الكلامِ: هل يَسْتَطِيعُ فلانٌ أنْ يَقومَ بِحاجَتِنا وفي أمْرِنا على عِلْمٍ منهُ؟ هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ على عِلْمٍ مِنْهُمْ أنَّ عِيسَى يَسْتَطِيعُ السُّؤالَ لِرَبِّهِ؟ لكنَّهُمْ قالُوا ذلكَ لِما ذُكِرَ. وذلكَ جائِزٌ في اللغةِ.

ويجوزُ أنْ يُرادَ بالإسْتِطاعةِ الإرادةُ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: لا أستطيعُ أنْ أنْظُرَ إلى فلانٍ، وهو يَقْدِرُ النَّظَرَ، لكنهُ يُرِيدُ بذلكَ: لا أُرِيدُ أنْ أنْظُرَ إليهِ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هل يأذَنُ ربُّكَ بالسُّؤالِ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أيِ اتَّقُوا اللهَ؛ لا تَسْألُوا شيئاً لَمْ يَأذَنْ لكُمْ في ذلكَ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ قولُهُ ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يدلُّ أنهُمْ سألُوا ذلكَ لِما كانَتْ تُحَدِّثُ أنْفُسُهُمْ، وتُنازِعُ في مُشاهَدَةِ الآياتِ ومُعايَنَتِها، وإن كانُوا صَدَّقُوا عِيسَى ﷺ في ما يقولُ لهمْ، ويُخْبِرُ عنِ اللهِ لِلْمَعْنَى الذي ذَكَرْنا في إبراهيمَ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ [وفي تَأْوِيلِهِ بِوَجْهَينِ:

أحَدُهما:][٢] قالَ بعضُهُمْ: بالنَّصْبِ نَعْلَمَ، فهيَ القِراءةُ الظاهِرةُ المَشْهُورةُ، ومَعْناهُ: وأنْ نَعْلَمَ ما قد صَدَقْتَنا.

والثاني: [قَرَأَ سَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ: ونُعْلَمَ، ويُعْلَمَ، وقَرأَ الأعْمَشُ: وتَعْلَمَ][٣]: [ومعناهُ:][٤] أنَّ العِلْمَ بالشَّيءِ مِنْ جِهَةِ الخَبَرِ ربما تَعْتَرِضُهُ[٥] الوَساوِسُ والشُّبَهُ، فَطَلَبُوا آيةً مِنْ جِهَةِ الحِسِّ والعِيانِ لِيكونَ ذلكَ أدْفَعَ لِما يَعْتَرِضُ مِنَ الشُّبَهِ والوَساوِسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي نكونَ عليها لِمَنْ أنكَرَها مِنَ الشاهِدِينَ أنها نَزَلَتْ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي طعاماً دائماً. قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي مُجْتَمَعاً، وسُمِّي يومَ العيدِ [عيداً][٦] لِاجْتِماعِ الخَلْقِ.

ثم قِيلَ: نَزَلَتْ يومَ الأحَدِ، فَجَعَلُوا ذلكَ اليومَ يومَ عِيدِهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في نُزولِ المائدةِ [بِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: ما][٧] قالَ الحَسَنُ: لم[٨] تنزلِ المائدةُ لأنهُ سألَ أنْ تكونَ ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ ونَحْنُ مِنْ آخِرِهِمْ، فلم يكُنْ لَنا ما ذَكَرَ

الآية ١١٥ والثاني: [قولُهُ تعالى][٩] ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد كَفَرَ مِنْهُمْ، ثم لم يَظْهَرْ أنهُ عَذَّبَهُمْ عذاباً لم يُعَذِّبْ أحداً مِنَ العالَمِينَ.

---

(١) قرأ الكسائي: تستطيع بالتاء، ربك بالنصب وقرا الباقون: يستطيع بالياء، ربك بالرفع، انظر حجة القراءات ص(٢٤٠). (٢) في م: وفي تأويله، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية (ح٢ص٢٤٨). (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعترض. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: ثم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ فيهِ دَلالةٌ أنها لم تَنْزِلْ لأنهُ يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ ما لَمْ يَأْتِ النَّسْخُ. فكانَ لهمْ ذلكَ إلى أنْ يُبْعَثَ نَبِيُّنا محمدٌ ﷺ فَنَسَخَ ذلكَ يومُ الجمعةِ. وقالوا: قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذُكِرَ في بعضِ القِصَّةِ أنَّ منْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذلكَ مَسَخَهُمْ خنازيرَ. فذلكَ تَعْذيبٌ لم يُعَذَّبْ ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقيلَ: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ كُلِّهِ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ هذا القولُ أوجُهاً ثلاثةً:

أحدُها: أنْ كانَ هذا القولُ منهُ في الوَقْتِ الذي كانَ عِيسَى بَيْنَ أظْهُرِهِمْ ليكونَ ذلك آيَةً وحُجَّةً لِمَنْ تَبِعَهُ على مَنْ زاغَ عَنْ طَرِيقِهِ، وضَلَّ عن سَبيلِ الهُدَى لأنهُ تَبَرَّأَ أنْ يكونَ قالَ لهمْ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لهُ وَقْتَ رَفْعِهِ إلى السماءِ؛ قَرَّ[1] عندَهُ أنَّ قومَهُ يقُولونَ ذلكَ القولَ بعد مُفارقَتِهِ قومَهُ.

وقيلَ: يقولُ ذلكَ لهُ يومَ القيامَةِ، ويكونُ قالَ بِمَعْنَى يقولُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٤٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [الآية: ١٠٩] أي[2] يقولونَ، وذلكَ جائزٌ: قالَ بِمَعْنَى يقولُ. وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ.

واتِّخاذُهُمْ عِيسَى وأمَّهُ إلهَيْنِ قولٌ مُتناقِضٌ لأنهُمْ سَمَّوها أُمَّ عِيسَى. فإذا ثَبَتَتْ لها الأُمُومَةُ بَطَلَ أنْ يكونَ إلهاً لأنهُ لا يكونُ ابنُ غيرِهِ إلهاً. لكنَّهُمْ قومٌ سُفَهاءُ؛ يقولونَ ذلكَ عنْ سَفَهٍ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ أي لأنهُ لا ينبغي أنْ أقولَ ما ليسَ لي ذلكَ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ يُتَكَلَّمُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: يُرادُ ما يُضْمَرُ.

والثاني: على إرادةِ الذَّاتِ. فإنْ كانَ اللهُ، تعالَى عَنْ أنْ يُوصَفَ بالذَّاتِ كما يُوصَفُ الخَلْقُ، دلَّ أنما يُرادُ/ ١٤٣ ـ أ/ بذلكَ غَيْرُهُ؛ وهو أنْ يُقالَ: تَعْلَمُ ما عندي، ولا أعْلَمُ ما عِنْدَكَ، أو يقولَ: تَعْلَمُ ما كانَ مِنّي، ولا أطَّلِعُ على غَيْبِكَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي أنتَ علّامٌ ما غابَ عنِ الخَلْقِ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ أي ما دَعَوتُهُمْ إلّا ما أمَرْتَني أنْ أدْعُوَهُمْ إليهِ مِنَ التوحيدِ والعبادةِ لكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي شاهِداً عليهِمْ. هذا يدُلُّ على أنَّ ذلكَ القولَ كانَ منهُ وقْتَ رفْعِهِ إلى السماءِ، ويكونُ يومَ القِيامةِ. ويُقالُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كُنْتُ عليهِم حَفيظاً ما كُنْتُ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بما أمَرْتَهُمْ مِنَ التوحيدِ والعبادةِ لكَ وشاهداً عليهِمْ بما قالُوا مِنَ البُهْتانِ.

وذُكِرَ في بعضِ القِصَّةِ لمّا قالَ اللهُ تعالى لِعِيسَى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١١٦] قيلَ: فارْتَعَدَتْ مَفاصِلُهُ، وخَشِيَ أنْ يكونَ قالَها، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ الآيةَ.

وذُكِرَ أيضاً: مُتَكَلِّمانِ يَتَكَلَّمانِ يومَ القيامةِ: نَبِيُّ اللهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ وعَدُوُّ اللهِ إبليسُ، لَعَنَهُ اللهُ، فأمّا كلامُ عِيسَى ﷺ [فهو][4] يقولُ اللهُ تعالى ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيقولُ[5] عيسى ابنُ مَرْيَمَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ إلى قولِهِ ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الآيات: ١١٦ـ ١١٨].

وأمّا كلامُ اللعينِ فهو[6]: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) في الأصل وم: قرر. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فقال. (٦) في الأصل وم: فيقول.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ اختُلِفَ فيهِ [بوجوهٍ:

أحدُها][1]: عنِ الحَسَنِ [أنهُ][2] قالَ: يقولُ: ذلكَ في الآخِرَةِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي إنْ تُعذِّبْ مَنْ ماتَ على ما كانَ منهُ مِنَ القولِ الوَحيشِ في اللهِ ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي وإنْ تَغفِرْ لِمَنْ أكرَمْتَهُ[3] بالإسلامِ والهُدى ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لأنَّ منهُمْ مَنْ أسْلَمَ[4] مِنْ بَعْدِ هذا القولِ الوَحْشِ في اللهِ.

وقالَ[5] آخرونَ: هذا القولُ كانَ مِنْ عِيسَى في الدنيا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ يقولُ: إنْ تُعذِّبْ مَنْ ماتَ على الكُفرِ الذي كانَ منهُمْ ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ﴾ لِمَنْ [أكرَمْتَهُ بالهُدى][6] ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أنتَ العزيزُ، وهم عبادُكَ أذِلّاءُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ فإنكَ أنتَ الغَفورُ الرَّحيمُ؛ وهو ظاهِرٌ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ غَفُورٌ على إثْرِ المَغفِرَةِ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كانَ أحيَى لَيلَةً بقولِهِ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قامَ، وبهِ سَجَدَ، وبهِ قَعَدَ، فهو، واللهُ أعلَمُ، على التَّشفُّعِ لهُ والتَّضرُّعِ إليهِ؛ كأنهُ قالَ: إنْ خَذَلْتَهُمْ فَمَنِ الذي يَنصُرُهُمْ، ويَدفَعُ ذلكَ عنهُمْ دُونَكَ، وهُمْ عِبادُكَ أذِلّاءُ؟ وإنْ أكرَمْتَهُمْ فَمَنْ ذا الذي يَمنَعُكَ عن إكرامِهِمْ؟

والثالثُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ فَلَكَ سُلْطانٌ عليهِمْ. ولَسْتَ أنت في تَعذيبِهِمْ إياهُمْ جائراً لأنهُمْ عِبادُكَ؛ لأنَّ الجَورَ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي لهُ إلى الحَدِّ الذي ليسَ لهُ.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا﴾ قيلَ: قالَ بِمَعْنَى يَقولُ اللهُ يومَ القِيامةِ ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾ أي اليَومُ يَنفَعُ الصّادِقِينَ صِدْقُهُمْ في الدنيا، ويَنفَعُ صِدْقُ الصّادِقِ أيضاً في الدنيا؛ لأنهُ إذا عُرِفَ بالصِّدْقِ قُبِلَ قولُهُ، وإنْ لم يَظْهَرْ صِدْقُهُ في قولِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في الصادِقِينَ مَنْ هُمْ؟ قالَ بعضُهُمْ: همُ المؤمنونَ جُمْلَةً أي يومَئِذٍ يَنفَعُ إيمانُ المؤمنينَ وتوحيدُ المُوَحِّدينَ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ [الحديد: ١٩] وقالَ بعضُهُمْ: الصادِقونَ همُ الأنبياءُ عليهم السلام.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ وخالدينَ وأبداً واحدٌ، لكنَّهُ يَذْكُرُ على التأكيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لِسَعْيِهِمْ في الدنيا ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ بالثوابِ لِسَعْيِهِمْ. ويَحتَمِلُ ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ بما وَفَّقَهُمْ على سَعْيِهِمُ المَحْمودِ في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنهُ ليسَ بَعْدَهُ خوفُ الهَلاكِ ولا خوفُ الفَوتِ، فهو الفَوزُ العَظيمُ؛ ليسَ كَفَوزِ الدنيا لأنه لا يَذْهَبُ عنهُ خوفُ الهلاكِ ولا خوفُ الفوتِ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ كانَ خَرَجَ هذا على إثْرِ قولِهِ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ أي كيفَ يَتَّخِذُ أرباباً وَوَلَداً ولهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ ومُلْكُ ما فيهنَّ مِنَ الخَلْقِ، كُلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ لا يُعجِزُهُ شيءٌ؟ [واللهُ المُوَفِّقُ][7].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أكرمت له. (٤) في الأصل وم: قرأ. (٥) هذا هو الوجه الثاني.
(٦) في الأصل وم: أكرمت له الهدى. (٧) في م: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ [قولُهُ تعالى:][(١)] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الحَمْدُ هو الثَّناءُ عليهِ بما صَنَعَ إلى خَلْقِهِ مِنَ الخَيرِ. ألا تَرَى أنَّ الذَّمَّ نَقيضُهُ في الشاهِدِ؟ ويُحْمَدُ المَرْءُ بما صَنَعَ مِنَ الخيرِ، ويُذَمُّ على ضِدِّهِ. فالتَّحْميدُ هو تَمْجِيدُ الرَّبِّ والثَّناءُ عليهِ والشُّكْرُ لهُ بِما أنْعَمَ عليهِ، والتَّسْبِيحُ هو تَمْجِيدُ الرَّبِّ وتَنْزِيهُهُ عَمّا قالَتِ المُلْحِدَةُ فيهِ مِنَ الوَلَدِ وغَيْرِهِ. والتَّهْلِيلُ هو تَمْجيدُ الرَّبِّ وتَنْزِيهُهُ عَمّا جَعَلُوا لَهُ مِنَ الشُّرَكاءِ والأضْدادِ والوَصْفُ لهُ بالوَحْدانِيَّةِ والرُّبوبِيَّةِ. والتَّكْبِيرُ هو تَمْجِيدُ الرَّبِّ والوَصْفُ لهُ بالعَظَمَةِ والجَلالِ وتَنْزِيهُهُ عَمّا وصَفُوهُ بالعَجْزِ والضَّعْفِ عنْ أنْ يكونَ يُنْشِئُ مِنَ العِظامِ البالِيَةِ خَلْقاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ سَفَّهَهُمْ ﷻ بِما جَعَلُوا لهُ مِنَ الشُّرَكاءِ والأضدادِ على إقرارٍ مِنْهُمْ أنهُ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ[(٢)]، ولم يَجْعَلْ[(٣)] لهُ شُرَكاءَ في خَلْقِهِما، وعلى عِلْمٍ منهُمْ أنهُ عَلَّقَ[(٤)] منافِعَ الأرضِ بِمنافِعِ السماءِ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهما، كيفَ جَعَلُوا شُرَكاءَ يُشْرِكُونَهُمْ في العِبادةِ والرُّبُوبِيَّةِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [قالَ الحسنُ][(٥)]: الكُفْرَ والإيمانَ، وقالَ غَيْرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: الليلَ والنهارَ. والنورُ في الحَقِيقَةِ ما يَكْشِفُ عَمّا اسْتَتَرَ مِنَ الأبصارِ إبصارَ الوُجوهِ وإبصارَ القلوبِ. والظُّلْمَةُ[(٦)] ما تَسْتُرُ، وتُغَطّي على الأبصارِ إبصارَ الوجُوهِ وإبصارَ القُلوبِ. فالظُّلْمَةُ تَجْعَلُ كلَّ شَيْءٍ مَسْتوراً عليهِ، والنورُ يَجْعَلُ كلَّ شَيْءٍ كانَ مَسْتوراً ظاهِراً بادِياً عليهِ. هذا هو تَفسيرُ الظُّلْمةِ والنُّورِ حَقيقَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ قِيلَ: يُشْرِكُونَ مَعَ ما بَيَّنَ لَهُمْ ما يَدُلُّ على وَحدانِيَّةِ الرَّبِّ ورُبُوبِيَّتِهِ، أي جَعَلُوا كُلَّ ما يَعْبُدُونَهُ دُونَ اللهِ عَدِيلاً لِلّهِ، وأثْبَتُوا المُعادَلَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ تعالى، ولَيْسَ لِلّهِ تعالى عَدِيلٌ ولا نَدِيدٌ ولا شَرِيكٌ ولا وَلَدٌ ولا صاحِبَةٌ؛ تعالى اللهُ عَمّا يَقولُ الظالِمُونَ ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقالَ الحَسَنُ: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يُكَذِّبُونَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي خَلَقَ آدَمَ أبا البَشَرِ ﴿مِّن طِينٍ﴾. فأمّا خَلْقُ بَني آدَمَ مِنْ ماءٍ [فهو][(٧)] كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] أخْبَرَ اللهُ أنهُ خَلَقَ آدمَ مِنَ الطِّينِ، وخَلَقَ بَنِي آدمَ سِوَى عِيسَى ﷺ مِنَ النُّطْفَةِ، وخَلَقَ عِيسَى ﷺ [لا][(٨)] مِنَ الطِّينِ ولا مِنَ الماءِ لِيَعْلَمُوا[(٩)] أنهُ قادرٌ على إنْشاءِ الخَلْقِ لا مِنْ شَيْءٍ وأنهُ لا اخْتِصاصَ لِلْخَلْقِ بشَيْءٍ، ولا يُنْكِروا[(١٠)] أيضاً [أنهُ قادرٌ على][(١١)] إنْشاءِ الخَلْقِ وإحيائِهِمْ ومَوتِهِمْ؛ وذلكَ لا يَخْلُو إمّا أنْ صارُوا تُراباً أو ماءً أو لا ذا ولا ذا.

فإذا رَأوا أنهُ خَلَقَ آدمَ مِنَ الطِّينِ، وخَلَقَ سائِرَ الحَيَوانِ مِنَ الماءِ، وخَلَقَ عِيسَى ﷺ لا مِنْ هذَينِ، كيفَ أنْكَرُوا إنْشاءَ الخَلْقِ/ ١٤٣ ـ ب/ بَعْدَ الموتِ، وهو لا يَخْلُو مِنْ هذهِ الوُجوهِ التي ذَكَرْنا؟ فيكونُ دليلاً على مُنْكِري البَعْثِ بَعْدَ الموتِ وعلى الدَّهْرِيَّةِ في إنْشاءِ الخَلْقِ لا مِنْ شَيْءٍ؛ فإنَّهُمْ يُنْكِرونَ ذلكَ، ويُحِيلُونَهُ. ولهذا وقَعُوا في القَوْلِ بِقِدَمِ العالَمِ، واللهُ الهادي.

---

(١) في م: وقوله ﷻ، ساقطة من الأصل. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١ ولقمان: ٢٥ والزمر: ٥٨ والزخرف: ٩٨]. (٣) في الأصل و م: يجعلوا. (٤) في الأصل و م: تعلق. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل و م: والظلم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: ليعلمن. (١٠) في الأصل و م: ينكرون. (١١) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أنْ يُرادَ بِهِ في خَلْقِ[1] جميعِ بَني آدَمَ وإضافَةِ خَلْقِنا إلى الطِّينِ، وكانَ الخَلْقُ مِنَ الماءِ لِما[2] أبْقى في خَلْقِنا مِنْ قُوَّةِ ذلكَ الطِّينِ الذي فِي آدَمَ وأثَرِهِ، وإنْ لَمْ يُرِهِ تِلْكَ القُوَّةَ وذلكَ الأثَرَ. وهذا كما أنَّ الإنسانَ يَرَى أنهُ يأكُلُ، ويَشْرَبُ، ويَغْتذِي، ويَحْصَلُ بِهِ زيادةُ قُوَّةٍ في سَمْعِهِ وبَصَرِهِ وفي جَميعِ جَوارِحِهِ، وقد تَحْيَى بِها جَميعُ الجَوارِحِ، وإنْ لَمْ يَرَ تِلْكَ القُوَّةَ، فكذلكَ هذا. ويَحْتَمِلُ أيضاً على ما رُوِيَ في القِصَّةِ أنهُ يُمازِجُ مَعَ النُّطْفَةِ شَيْءٌ مِنَ التُرابِ، فَيُؤْمَرُ المَلَكُ بأنْ يأخُذَ شَيئاً مِن التُّرابِ مِنَ المكانِ الذي حَكَمَ أن يُدْفَنَ فيهِ، فَيَخْلِطَ بالنُّطْفَةِ، فَتَصِيرَ عَلَقَةً ومُضْغَةً. فإنما نَسَبَهُمْ إلى التُّرابِ لهذا.

وتَحتَمِلُ النِّسبَةُ إلى التُّرابِ، وإنْ لم يكونُوا مِنَ الترابِ، لِما أنَّ أصْلَهُمْ مِنَ التُّرابِ، وهوَ آدَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فالقضاءُ يَتوجَّهُ إلى وُجوهٍ؛ كُلُّها تَرْجِعُ إلى مَعْنَى انْقِطاعِ الشَّيءِ وتَمامِهِ؛ وقد يكونُ لابْتداءِ فِعْلٍ وإنْشائِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] [ويُقالُ: قَضَيتُ هذا الثوبَ أي عَلِمْتُهُ، وأحكَمْتُهُ، وقد يكون بِمَعْنَى الأمْرِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي أمَرَ رَبُّكَ لأنهُ أمْرٌ قاطِعٌ حَتْمٌ، وقد يكونُ بمَعْنَى الإعلامِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] أي أعْلَمْناهُمْ إعلاماً قاطعاً، وقد يكونُ لِبيانِ الغايةِ والانْتِهاءِ منهُ والخَتْمِ كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي خَتَمَ ذلكَ، وأتَمَّهُ، وقد][3] يكون غَيْرَ ما ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يَحْتَمِلُ هَذا كُلَّهُ سِوَى الأمْرِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ المَوتَ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يومُ القِيامةِ. أطْلَعَنا على أحَدِ الأجَلَينِ، وهو المَوتُ لأنّا نَرَى مَنْ يَموتُ، ونُعايِنُ، ولم يُطْلِعْنا على الآخَرِ، وهو الساعةُ والقِيامةُ. وقيلَ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجَلَ الدنيا مِنْ خَلْقِهِ[4] إلى أنْ يَموتَ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يومُ القِيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي تَشُكُّونَ، وتُكَذِّبُونَ بَعْدَ هذا كُلِّهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، صِلَةُ قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فإذا كانَ خالِقَهُما، لم يَشْرُكْهُ أحَدٌ في خَلْقِهِما كانَ إلهَ مَنْ في السَّمواتِ وإلهَ مَنْ في الأرْضِ لم يَشْرُكْهُ أحَدٌ في أُلوهِيَّتِهِ ولا رُبوبِيَّتِهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إلى اللهِ تدبيرُ ما في السمَواتِ وما في الأرضِ، وحِفْظُهُ إليهِ لأنهُ هو المُتَفَرِّدُ بِخَلْقِ ذلكَ كُلِّهِ، فإليهِ حِفْظُ ذلكَ وتَدْبيرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قِيلَ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ ما تُضْمِرونَ في القُلُوبِ ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ ما تَنطِقُونَ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الأفعالِ التي عَمِلَتِ الجَوارِحُ. أخْبَرَ أنهُ يَعْلَمُ ذلكَ كُلَّهُ يُحْصِيهِ[5] لِيُحاسِبَهُمْ على ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] أخْبَرَ أنهُ يُحاسِبُهُمْ بِما أبْدَوهُ وما أخفَوهُ. فعَلَى ذلكَ الأوَّلُ[6]؛ فيهِ إخبارٌ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ يُحْصِيهِ عليهِمْ، ويُحاسِبُهُمْ في ذلكَ لِيكونُوا على حَذَرٍ مِنْ ذلكَ وخَوفٍ.

وقيلَ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ ما خَلَقَ فيهِمْ مِنَ الأسرارِ مِنْ نَحْوِ السَّمْعِ والبَصَرِ وغيرِهِما لأنَّ البَشَرَ لا يَعْرِفُونَ ماهِيَّةَ هذِهِ الأشياءِ وكَيفِيَّتِها، ولا يُبْصِرُونَ ذلكَ كما يَرَونَ غَيرَها مِنَ الأشياءِ، ولا يَعْرِفونَ حقائِقَها. أخْبَرَ أنهُ يَعْلَمُ ذلكَ، وأنتُمْ لا تَعْلَمُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ أي الظَّواهِرَ مِنْكُمْ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الأفعالِ والأقوالِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يحتمِلُ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ

---

(١) في الأصل و م: حق. (٢) من م، في الأصل: لا. (٣) من م، في الأصل: ويكون بيان الغاية ويكون الأمر و. (٤) في الأصل و م: خلقك. (٥) في الأصل و م: يحصيها. (٦) في الأصل و م: الأولى.

﴿ءَايَٰتِ﴾ التوحيدِ[1]. أو مِنْ آياتِ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ونُبُوَّتِهِ ﷺ في إثباتِ البَعثِ والنُّشورِ بَعْدَ الموتِ لمّا أخبَرَ أنهُ خَلَقَهُمْ مِنْ طِينٍ، فإذا ماتُوا صارُوا تُراباً. فإذا كانَ[2] بَدْءُ إنشائِهِمْ مِنْ طِينٍ، فإذا عادُوا إليهِ يَقْدِرُ على إنْشائِهِمْ ثانياً، إذْ لَيسَ إنشاءُ الثاني بِأعْسَرَ مِنَ الأوَّلِ.

ثم تَحْتَمِلُ الآياتُ آياتِ القرآنِ، وتَحْتَمِلُ الآياتُ ما كانَ أتَى بِها رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الآياتِ سِوَى آياتِ القرآنِ.

ثم أخبَرَ عنْ تعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ بقولِهِ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فإذا أعْرَضُوا عنها لم يَنْتَفِعُوا بها لِيُعْلِمَ اللهُ[3] أنهُ إنما يَنْتَفِعُ بالآياتِ مَنْ تأمَّلَها، ونَظَرَ فيها لا مَنْ أعْرَضَ[4] عنها.

ثم سُورَةُ الأنعامِ إنما نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهْلِ الشِّرْكِ. ولو لم يَكُنِ القرآنُ مُعْجِزاً كانَتْ سُورَةُ الأنعامِ مُعْجِزَةً لأنها نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهْلِ الشِّرْكِ في إثباتِ التَّوحيدِ والألُوهيَّةِ لِلّهِ والبَعثِ، فكيفَ وقد جَعَلَ اللهُ القرآنَ آيةً مُعْجِزَةً أعْجَزَ البَشَرَ عَنِ [الإتيانِ بِمِثْلِهِ][5]؟ ولم يَكُنْ يومَئِذٍ يُعْرَفُ التَّوحيدُ والبَعْثُ، كانُوا كُلُّهُمْ كُفّاراً عَبَدَةَ الأصنامِ والأوثانِ، لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ [ألِفَ ذلكَ][6] وأنشأَ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ المُحاجَّةِ في التَّوحيدِ والمُناظَرَةِ فيهِ لأنَّ أكثَرَها نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ الشِّرْكِ، وهُمْ كانُوا أهْلَ شِرْكٍ، ويُنْكِرُونَ البَعْثَ والرسالةَ، فَنَزَلَ أكْثَرُها في مُحاجَّتِهِمْ في التَّوحيدِ وإثباتِ البَعْثِ والرسالةِ.

وفيهِ أنهُ إذا ثَبَتَ فَسادُ قَولِ أحدِ الخَصْمَينِ ثَبَتَتْ صِحَّةُ قولِ الآخَرِ لأنَّ إبراهيمَ لَمّا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] أثْبَتَ فَسادَ عِبادةِ مَنْ يَعْبُدُ الآفِلَ بالأفولِ[7].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ الحَقُّ الآياتِ التي كانَ يَأْتِي بها رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ آياتِ التَّوحيدِ وآياتِ البَعْثِ، ويَحْتَمِلُ القرآنَ. ولو لم يَكُنْ يأتي رسولُ اللهِ ﷺ بآيةٍ كانَتْ نَفْسُهُ آيةً عظيمةً مِنْ أوَّلِ نَشْأتِهِ[8] إلى آخِرِ عُمُرِهِ لأنَّهُ عُصِمَ حتى لم يَأتِ منهُ ما يَسْمُجُ[9]، ويُسْتَقْبَحُ قَطُّ. فَدَلَّ أنَّ ذلكَ لِما جَعَلَهُ آيةً في نَفْسِهِ ومَوضِعاً لِرِسالَتِهِ. وعلى ذلكَ إجابَةُ أبي بَكْرٍ ﷺ في أوَّلِ دَعْوَةٍ دَعاهُ إلى ذلك لِما كانَ رَأى منهُ آياتٍ. فلمّا دَعاهُ أجابَهُ في ذلكَ مَعَ ما كانَ مَعَهُ آياتٌ عَظِيمَةٌ وأعلامٌ عَجِيبَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنْ يأتِيَهُمْ، ويَنْزِلَ بِهِمْ ما نَزَلَ بالمُسْتَهْزِئِينَ. وإلّا كانَ أتاهُمْ أنْباءُ ما نَزَلَ بالمُسْتَهْزِئينَ. ولكنَّ مَعْناهُ ما ذَكَرْنا: أي يَنْزِلُ بِهِمْ، ويَحُلُّ ما نَزَلَ وحَلَّ بالمُسْتَهْزِئينَ. ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ قولُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو العذابُ، لأنَّ الرُّسُلَ كانُوا يُوعِدُونَهُمْ أنْ يَنْزِلَ بِهِمُ العذابُ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ. فَعِنْدَ ذلكَ يَسْتَهْزِئونَ بِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وغيرَ ذلكَ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأخبَرَ أنهُ يَنْزِلُ بِهِمْ ذلكَ كما نَزَلَ بأُولئِكَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾. وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ قد رَأَوا أنّا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وهو واحِدٌ؛ قد رَأَوا آثارَ الذينَ أُهْلِكُوا بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ وتَعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ. لكنَّهُمْ لم يَعْتَبِرُوا بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أعْطَيناهُمْ مِنَ الخيرِ والسَّعَةِ والأموالِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ يا أهلَ مَكَّةَ، أي لم نُعْطِكُمْ، ثم إذا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أهْلَكَهُمُ اللهُ تعالى، وعاقَبَهُمْ بأنواعِ العُقوبةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ القُوَّةِ والشِّدَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ثم مَعَ شِدَّةِ قُوَّتِهِمْ أُهْلِكُوا إذْ[10] كَذَّبُوا الرُّسُلَ. ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في قلوبِ الناسِ مِنْ نَفاذِ القَولِ وخُضوعِ الخَلْقِ لأنهُمْ كانُوا / ١٤٤ ـ أ/ مُلُوكاً

---

(١) في الأصل وم: توحيد. (٢) في الأصل وم: كانوا. (٣) ساقطة من م. (٤) من م، في الأصل: إعراض. (٥) في الأصل و م: إثبات مثله.
(٦) في الأصل و م: ذلك ألف. (٧) من م، في الأصل: بالأقوال. (٨) في الأصل و م: نشاءة. (٩) في الأصل وم: يستسمح. (١٠) في الأصل و م: إذا.

وسَلاطِينَ الأرْضِ مِنْ نَحْوِ نَمْرودَ وفِرْعَونَ وعادٍ مَعَ ما كانُوا كذلكَ أُهلِكوا إذْ[١] كَذَّبوا الرُّسُلَ. وأنْتُمْ يا هؤلاءِ لَيسَ لَكُمْ شَيءٌ مِنْ ذلكَ أفَلا تُهلَكُونَ إذا كَذَّبْتُمُ الرُّسُلَ؟

وإنّما حَمَلَهُمْ على تكذيبِ الرُّسُلِ، واللهُ أعْلَمُ، لِما كانُوا ذَوِي[٢] سَعَةٍ وقُوّةٍ، فَرَأَوُا[٣] الخُضوعَ لِمَنْ دُونَهُمْ في ذلكَ جَوراً[٤] غَيرَ حِكْمَةٍ، وإنما أخَذُوا ذلكَ مِنْ إبليسَ اللَّعِينِ حِينَ[٥] قالَ عندَ أمْرِهِ بالسُّجودِ لآدمَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٞ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢ وص: ٧٦]. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ رَأَوُا الأمْرَ بالخُضوعِ لمحمدٍ ﷺ جَوراً[٦] منهُ حتى قالُوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ قالَ القُتَبِيُّ: مِدْراراً بالمَطَرِ أي غَزِيراً مِنْ دَرَّ يَدُرُّ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: أي دَرَّتْ عليهِمُ السَّماءُ بالمَطَرِ أي كَثُرَ، ودامَ، وتَتابَعَ واحداً بَعْدَ واحِدٍ في وقْتِ الحاجةِ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾ أخبَرَ عَنْ سَعَةِ أولئكَ[وما][٧] أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ كَثْرَةِ الأمطارِ والأنهارِ ما لم يَكُنْ ذلكَ لِهؤلاءِ. ثم مَعَ ما كانَ أعطاهُمْ إذْ[٨] كَذَّبُوا الرُّسُلَ.

فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ إهلاكَ هؤلاءِ وخَوفَ أولئكَ؛ ذلكَ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسلَ، وقد أهْلَكَ الرُّسُلَ والأولياءَ مِنْ قَبْلُ، قِيلَ: لأنَّ إهلاكَ أولئكَ إهلاكُ عُقوبةٍ وتَعْذيبٍ لأنَّهُ كانَ أهْلَكَهُمْ إهلاكَ[٩] اسْتِئْصالٍ واسْتِيعابٍ خارجاً مِنَ الطَّبْعِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ يُخبِرُ لِشِدّةِ تَعَنُّتِهِمْ [أنهُمْ، وإنْ أُوتُوا][١٠] ما سَأَلُوا مِنَ الآياتِ لم يؤمِنُوا بهِ، لأنَّهُمْ كانُوا سَأَلُوا رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يُنَزِّلَ كتاباً يُعايِنُونَهُ[١١]، ويَقْرَؤُونَهُ كقولِهِ: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] وكقولِهِ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الفرقان: ٣٢] ونحوُهُ مِنَ الآياتِ.

يقولُ: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ أي في صَحِيفَةٍ مَكْتوباً[١٢] يَعْلَمُونَ أنهُ لم يُكْتَبْ في الأرضِ، ولَمَسُوهُ بأيديهِمْ، وعايَنُوهُ، لم يُؤْمِنُوا بِهِ، ولا صَدَّقُوهُ، وقالُوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ يُصَبِّرُ رسولَ اللهِ ﷺ أنهمْ لا يُؤمِنُونَ، ويُخبِرُهُ بِشِدّةِ تَعَنُّتِهِمْ أنهُمْ لا يُؤمِنُونَ، وإنْ جِئْتَ بِكُلِّ آيةٍ؛ إذْ قد آتاهُمْ مِنَ الآياتِ ما إنْ تَأَمَّلُوا، ولم يَتَعَنَّتُوا دَلَّتْهُمْ على ذلكَ، لكنَّهُمْ أعْرَضُوا عنها، ولم يَتأمَّلُوا فيها لِتَعَنُّتِهِمْ وشِدّةِ مُكابَرَتِهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ إنَّ مُشركي العَرَبِ كانُوا لا يَعْرِفونَ الرُّسُلَ ولا الكُتُبَ، ولا كانوا آمَنُوا برسولٍ ولا كتابٍ، فقالُوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١] ونحوَهُ مِنَ السُّؤالِ يَسْألونَ إنزالَ المَلَكِ.

ثم يَحْتَمِلُ سُؤالُهُمْ إنزالَ المَلَكِ لِما لم يَكونُوا رَأَوُا الرُّسُلَ يَكونونَ مِنَ البَشَرِ، وإنّما رَأَوُا الرَّسُولَ، إنْ كانَ، يكونُ مَلَكاً، فقالُوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سُؤالُهُمْ إنزالَ المَلَكِ سُؤالَ عِنادٍ وتَعَنُّتٍ لا سُؤالَ طَلَبِ الرَّسُولِ مِنَ الملائكةِ، فقالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا﴾ على ما سَأَلُوا ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي إنَّ المَلَكَ إذا نَزَلَ على إثْرِ سُؤالِ العِنادِ والتَّعَنُّتِ لَنَزَلَ[١٣] بالعذابِ والهلاكِ، فهذا يُبَيِّنُ أنَّ سُؤالَهُمْ سُؤالُ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أنهُمْ كانُوا يَسْألُونَ إنزالَ المَلَكِ آيةً لِصِدْقِهِ ﷺ فقالَ: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾. أي يُهلَكُونَ لأنَّ الآياتِ إذا نَزَلَتْ على إثْرِ سُؤالِ القَومِ، ثم خالَفُوا تلكَ الآياتِ، وكَذَّبُوها، لَنَزَلَ بِهِمُ العذابُ والهلاكُ. وإنْ جاءتِ الآياتُ على غَيرِ سُؤالٍ، فَكَذَّبُوها، [يُمْهَلُوا، ولا يُعَذَّبُوا][١٤] عندَ تكذيبِهِمْ إيّاها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل و م: إذا. (٢) في الأصل و م: ذا. (٣) في الأصل وم: فلم يروا. (٤) في أ في الأصل: جوازاً. (٥) في الأصل و م: حيث. (٦) من م، في الأصل: جوازاً. (٧) في الأصل و م: و. (٨) في الأصل و م: إذا. (٩) في الأصل و م: هلاك. (١٠) في الأصل: وإن أتوا، في م: أنهم وإن أتوا. (١١) في الأصل و م: يعاينوه. (١٢) في الأصل و م: مكتوب. (١٣) في الأصل وم: ينزل. (١٤) في الأصل وم: يمهلون ولا يعذبون.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ قِيلَ: آدَمِيّاً بَشَراً. يَحْتَمِلُ هذا [وَجْهَينِ]:

أحَدُهُما[1] أنه لو بَعَثْنا الرسولَ مَلَكاً لَجعَلْناهُ على صُورَةِ البَشَرِ. لأنهُ لو كانَ على صُورَةِ الملائِكَةِ لَصَعِقُوا، ودُهِشُوا لأنهُ لَيسَ في وُسْعِ البَشَرِ رُؤيَةُ المَلَكِ على صُورَتِهِ.

ألا تَرَى أنَّ جِبْرِيلَ ﷺ إذا نَزَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ لم يَنْزِلْ على صُورَتِهِ، ولكنْ كانَ يَنْزِلُ على صُورَةِ البَشَرِ حَتَّى ذُكِرَ أَنَّهُ كانَ يَنْزِلُ إليهِ على صُورةِ دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، وأنهُ متى رآهُ على صورَتِهِ صَعِقَ[2]، وتَغَيَّرَ حالُهُ. فإذا رَأوا ذلكَ في وَجْهِهِ قالُوا: إنهُ مَجنونٌ، فقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ ويكونُ فيهِ ما في رسولِ اللهِ مِنَ اللَّبْسِ بِهِ.

والثاني: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لأنهُمْ لا يَعْرِفونَ صِدْقَهُ، فَيَحْتاجُونَ إلى الدلائِلِ والآياتِ تَدُلُّهُمْ على أنهُ مَلَكٌ وعلى صِدْقِهِ. فذلكَ لا يُعْرَفُ إلّا بالبَشَرِ. لأنهم لا يَعْرِفُونَهُ، ولا [يَعْرِفُونَ][3] صِدْقَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ الآية قالُوا: لا يَجوزُ إضافةُ اللَّبْسِ إلى اللهِ إلّا على المُجازاةِ لِلَّبْسِ كالاستِهْزاءِ والمَكْرِ والخِداعِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي لو جَعَلْناهُ مَلَكاً ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا﴾ لَبَسَ أولئكَ على ضَعَفِهِمْ حِينَ[4] قالُوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤ و٣٣] وقالُوا[5]: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠ ويس: ١٥] وغيرَ ذلكَ مِنَ الكلامِ. لكنّا لا نَفْعَلُ حَتَّى لا يكونَ ذلكَ لَبْساً؛ إذْ لَيسَ في وُسْعِهِمُ النَّظَرُ إلى المَلَكِ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ لَكانَ ذلكَ لَبْساً.

فإنْ قالَ لنا مُلْحِدٌ: في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] سألُوا أنْ يَنْزِلَ على رسولِ اللهِ ﷺ المَلَكُ، وقالَ: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأنْتُمْ تَقُولُونَ: إنَّهُ قد أُنزِلَ عَلَيهِ المَلَكُ، وهوَ أخبَرَ لو أنْزَلَ عليهِ المَلَكَ لَقُضِيَ الأمْرُ، ولَمْ يُقْضَ الأمْرُ. كيفَ لا بانَ لَكُمْ أنَّهُ إنَّما اخْتَرَعَ ذلكَ مِنْ نَفْسِهِ، لا أنَّ اللهَ أنْزَلَ عليه[6]؟

قِيلَ: إنهُمْ إنَّما سأَلُوا أنْ يَنْزِلَ عليهِمُ المَلَكُ، وإنْ لم يُذْكَرْ في الآيةِ السُّؤالُ ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وسألُوا أنْ تأتِيَهُمُ الملائِكَةُ، ويَأْتِيَهِ؛ قالُوا: كيفَ يُخَصُّ بإتيانِ الملائِكَةِ دُونَنا؟ وهو كَواحِدٍ مِنّا كقولِهِ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٧].

وهذا جائزٌ أنْ يكونَ أسْئِلَةً لم تُذْكَرْ، ويكونُ في الجوابِ بَيانُ ذلكَ على ما ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ في غَيرِ مَوضعٍ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ على تكذيبِ قومِهِ لِيُعْلِمَ أنهُ لَيسَ هو أوّلَ مُكَذَّبٍ، ولكنْ قد كُذِّبَ الرُّسُلُ الذينَ مِنْ قَبْلِكَ، ويُخْبِرُهُ أنهُ يَلْحَقُ هؤلاءِ بِتَكذيبِكَ كما لَحِقَ أُولئكَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَاقَ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: حاقَ أي رَجَعَ، يُقالُ: حاقَ يَحيقُ حَيقاً أي رَجَعَ عليهِمْ. وقالَ الكِسائِيُّ: حاقَ بِهِمْ أي أحاطَ بِهِمْ، ونَزَلَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لَيسَ على الأمْرِ بالسَّيْرِ في الأرضِ، ولكنْ على الاعْتِبارِ والتَّفَكُّرِ في ما نَزَلَ بأولئكَ بِتَكذِيبِهِمُ الرُّسُلَ لأنهُ ﷻ أراهُمْ آياتٍ عَقْلِيَّةً وسَمْعِيَّةً، فلم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، فأرادَ أنْ يُرِيَهُمْ آياتٍ حِسِّيَّةً لِيَمْنَعَهُمْ ذلكَ عنِ التَّكذيبِ والعِنادِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل﴾ الآية يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ يَخْرُجَ مَخْرَجَ البَيانِ لَهُمْ أنهُ لَيسَ على الأمْرِ [لأنهُ لو كانَ على الأمْرِ][7] لَكانَ يَذْكُرُ سُؤالَهُ[8] لَهُمْ، ولم يَذْكُرْ أنَّ سُؤالَهُمْ لا يَحْتَمِلُ ألّا يُخْبِرُوهُ ذلكَ. فلمّا لم يَذْكُرْ سُؤالَهُ لَهُمْ عنْ ذلكَ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُ بالسُّؤالِ، ثم لا يُسْأَلَ، أو يَسْأَلَ هو، ولا [يُخْبِرُوهُ، دَلَّ][9] أنهُ على البَيانِ خَرَجَ لا على الأمْرِ.

(١) في الأصل وم: وجوهاً. (٢) في الأصل وم: اصعق. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: حيث. (٥) في الأصل و م: و. (٦) في الأصل و م: عليك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) أدرج قبلها في الأصل: أن. (٩) في الأصل و م: يخبرونه فدل.

والثاني: على أمرٍ سَبَقَ كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٤ و٨٥] وكقولِه] تعالى: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى قولِهِ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٨ و٨٩] وكقولِهِ[1] تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١٦] ونَحْوُهُ كانَ على أمرٍ سَبَقَ، فَيُخْبِرُهُمْ ﷺ حتى قالُوا: للهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: ٦١ ولقمان: ٢٥ والزمر: ٣٨ والزخرف: ٩] ذلك مُسْتَخْبَرٌ مِنْهُ إياهُمْ حتى قالُوا: ﴿ٱللَّهُۚ﴾.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قُلْ لِمَنْ ما في السَّمواتِ والأرضِ قُلْ للهِ. أي سَلْهُمْ فإنْ أجابُوكَ، فَقالُوا: للهِ، وإلّا فَقُلْ لَهُمْ أنتَ: لِلّهِ.

وقالَ قائِلونَ: فإنْ سألُوكَ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ للتَّوّابينَ أنْ يُدْخِلَهُمْ/ ١٤٤ - ب/ الجَنَّةَ. لا أحَدَ يَدخُلُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، إنما يدخُلونَ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ. وعلى ذلكَ جاءَ الخَبَرُ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ قالَ: «لا يَدْخُلُ أحدٌ الجَنَّةَ إلّا بِرَحْمَتِهِ. قِيلَ: ولا أنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/ ٧١ و... ٢٨١٨/ ٧٨].

وقيلَ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ أنْ يَجْمَعَهُمْ إلى يوم القيامَةِ؛ أي مِنْ رَحْمَتِهِ أنْ يَجْمَعَهُمْ إلى يَوم القِيامَةِ حيثُ جَعَلَ لِلعَدُوِّ عذاباً ولِلْوَلِيِّ ثَواباً؛ أي مِنْ رَحْمَتِهِ أنْ يَجْمَعَهُمْ جَميعاً يُعاقِبُ العَدُوَّ، ويُثِيبُ الوَلِيَّ. وقيلَ: أي مِنْ رَحْمَتِهِ أنْ[2] جَعَلَ لَهُمُ الجَمْعَ، فأوعَدَ العاصِيَ العذابَ، ووَعَدَ المُطِيعَ الثوابَ لِيَمْنَعَ العاصِيَ بذلكَ[3] عنْ عِصْيانِهِ ولِيُرَغِّبَ المُطِيعَ في طاعَتِهِ. وذلكَ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ لأُمَّةِ محمدٍ ألّا يُعَذِّبَهُمْ عندَ التَّكْذيبِ، ولا يَسْتَأْصِلَهُمْ كما عَذَّبَ غيرَها[4] مِنَ الأُمَمِ، واسْتَأْصَلَهُمْ عندَ التكذيبِ. فالتَّأْخيرُ الذي أخَّرَهُمْ إلى يوم القيامَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ التي كَتَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قِيلَ: ﴿إِلَىٰ﴾ صِلَةٌ، ومَعْناهُ: لَيَجْمَعَنَّكُم يومَ القِيامَةِ. وقيل: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي لِيَوم القِيامَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [آل عمران: ٩] وقالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ في القُبورِ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ثم لَيَجْمَعَنَّكُمْ يومَ القِيامَةِ والقُرُونَ السالِفَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ أي لا رَيْبَ في الجَمْعِ والبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ عند مَنْ يَعْرِفُ أنَّ خَلْقَ الخَلْقِ لِلْفَناءِ خاصَّةً لا لِلْبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ والثَّوابِ[5] والعِقابِ لَيسَ بِحِكْمَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ في الآيةِ، واللهُ أعْلَمُ، إنْباءُ أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ تَحْتَ قَهْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ وسُلْطانِهِما مَقْهُورِينَ مَغْلُوبِينَ، إذْ لم يَكُنْ لأحَدٍ مِنَ الجَبابِرَةِ والفَراعِنَةِ الإمْتِناعُ عَنْهُما أو صَرْفُ أحدِهِما إلى الآخَرِ، بل يُدْرِكانِهِمْ شاؤُوا، أو أبَوا، وسُلْطانُهُما جارٍ عليهِمْ لِيَعْلَمُوا أنَّ لِغَيرٍ فيهِما تدبيراً وأنَّ قَهْرَهُما الخَلْقَ وسُلْطانَهُما كانَ بِسُلْطانِ مَنْ لَهُ التَّدبيرُ والعِلْمُ. ثم جَريانُهُما على سَنَنٍ واحِدٍ يَدُلُّ على أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ ومُدَبِّرَهُما عَليمٌ حَكيمٌ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ وما اسْتَقَرَّ في اللَّيْلِ والنَّهارِ مِنَ الدَّوابِّ والطَّيرِ في البَرِّ والبَحْرِ، فَمِنْها ما يَسْتَقِرُّ نَهاراً، ويَنْتَشِرُ لَيلاً، ومنها ما يَسْتَقِرُّ باللَّيلِ، ويَنْتَشِرُ بالنَّهارِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ وذلكَ أنَّ كُفّارَ أهْلِ مَكَّةَ أتَوا رسولَ اللهِ ﷺ وقالُوا:

---

(١) في الأصل و م: وقوله. (٢) من م، في الأصل: أي. (٣) في الأصل و م: ذلك. (٤) في الأصل و م: غيره. (٥) في الأصل و م: للثواب. (٦) ساقطة من الأصل و م.

يا محمدُ إنّا قد عَلِمْنا أنهُ ما يَحمِلُكَ على هذا الذي تدعو إليهِ إلّا الحاجةُ. فَنَحْنُ نَجْعَلُكَ في أموالِنا حتّى تكونَ أغنانا رجلاً، وترجعَ عمّا أنتَ عليهِ، فنَزَلَ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمقالةِ[1] أولئك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ مِنْ أينَ يَرْزُقُهُمْ.

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا آنفاً أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ تَحتَ قَهرِهما وسُلطانِهما. وفيهما وُجوهٌ مِنَ الحِكْمَةِ: أحدُها بَعْضُ ما ذَكَرْنا لِيُعْلَمَ أنَّ مُدَبِّرَهما واحدٌ. وفيهِ نَقضُ قولِ الفلاسِفَةِ لأنَهمْ يَقُولُونَ: الظُلْمَةُ كثافَةٌ سَتّارةٌ، والنورُ رَقيقٌ دَرّاكٌ. وفيهما مِنَ المَنافِعِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧] وغيرُها[2] مِنَ المنافِعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمَنْ دَعَا لَهُ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحِ الخَلْقِ وحاجَتِهِمْ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ رَبّاً. كأنَّ هذا صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قالُوا للهِ. فإذا أقرَرْتُمْ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ لِلَّهِ فكيفَ تتَّخِذونَ لهُ شُركاءَ، فتَعْبُدُونَ غيرَ اللهِ؟ وهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومُنشِئُهُما ومُنْشِئُ ما فيهما. كيف صَرَفْتُمُ العِبادَةَ إلى غيرِ اللهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: هو يَرْزُقُ، ولا يُرْزَقُ، ولَيسَ كَمَنْ لهُ عَبيدٌ في الشاهِدِ يَرْزُقُهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً الموالِيَ مِنَ العَبيدِ والعَبيدَ مِنَ الساداتِ؛ يَنْتَفِعُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ. فأمّا اللهُ ﷻ [فقد][3] خَلَقَ الخَلْقَ لا لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ لأنهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ، والخَلْقُ فُقَراءُ إليهِ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ قالَ الحَسَنُ: أوَّلُ مَنْ أسْلَمَ مِنْ قومِهِ. وأصْلُهُ: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي أُمِرْتُ أنْ أُسْلِمَ، وأخْتَضِعَ[4] أنا أوَّلاً، ثم آمُرَكُمْ بذلكَ.

واحتَجَّ بَعْضُ الناسِ بِظاهِرِ هذِهِ الآيةِ أنَّ الإسلامَ لا يُلْزَمُ إلّا بالأمرِ والدُّعاءِ إليهِ، وقالُوا: إنَّ مَنْ ماتَ قَبْلَ أنْ يُؤْمَرَ بهِ وقَبْلَ أنْ يُدْعَى إليهِ فإنهُ لا شَيءَ عليهِ. وعلى ذلكَ مَنْ ماتَ في وَقْتِ الفَتْرَةِ وانْقِطاعِ الرُّسُلِ والوَحْيِ لأنهُ قال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أخْبَرَ أنهُ أُمِرَ بذلكَ. وإذا لم يكُنْ ثَمَّ أمْرٌ لم يُلْزَمْ. لكنَّ الوجهَ في الآيةِ ما ذَكَرْنا؛ أي أُمِرْتُ أنْ أُسْلِمَ، وأخْضَعَ أوَّلاً، ثم آمُرُ غيري. فإذا كانَ التأويلُ هذا بَطَلَ أنْ يكونَ في ذلك حُجَّةٌ لَهُمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ قل يا محمدُ لِكُفّارِ أهلِ مكّةَ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ أي أعْلَمُ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ فَعَبَدْتُ غيرَهُ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. هذا التأويلُ صحيحٌ، إنْ كانَ ما ذَكَرَ مِنْ سُؤالِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وعَرْضِهِمُ المالَ عليهِ لِيَعودَ، ويَرْجِعَ إلى دينِهِمْ، فَيَخْرُجُ هذا على الجَوابِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ على الخوفِ. لكنْ لِقائِلٍ أنْ يَقولَ: كيفَ خافَ عذابَ يومٍ عظيمٍ، وقد أخْبَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ؟ وكيفَ قال: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ وقد أخْبَرَ أنهُ عَصَمَهُ، وغَفَرَ لَهُ؟ قيلَ: يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ المَغْفِرَةُ لهُ على شَرْطِ الخَوفِ. غَفَرَ لَهُ لِيَخافَ عذابَهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ قالَ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ: الرَّحْمَةُ ههنا الجَنَّةُ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في الآخِرَةِ دارَينِ: إحداهُما[5]: النارُ، سَمّاها سَخْطَةً، والأخرى: الجَنَّةُ، سَمّاها رَحْمَةً. وإنما حَمَلَهُمْ على هذا لأنَهُمْ لا يَصِفُونَ اللهَ بالرحمَةِ في الأزلِ. فَعَلَى قولِهِمْ يكونُ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ[6] قالَ «لا يدخُلُ أحَدٌ الجَنَّةَ إلّا بِرَحْمَتِهِ. قِيلَ: ولا أنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ بِرَحْمَتِهِ، فأدخُلَ فيها» [مسلم: ٢٨١٦/ ٧١ و ٢٨١٨/ ٧٨].

وعلى هذا يَخْرُجُ ما سَمّى المَطَرَ رَحْمَةً لِما بِرَحْمَتِهِ يَنْزِلُ[7]، وكذا كلُّ ما سَمّى رَحْمَةً في الشاهِدِ يَخْرُجُ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لمقابلة. (٢) في الأصل وم: وغيره. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: وأخضع. (٥) في الأصل وم: أحدهما. (٦) في الأصل و م: حيث. (٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ...﴾ [الروم: ٥٠].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ﴾ قيلَ: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ العذابُ ﴿يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾. وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: مَنْ يُصْرَفْ عنهُ شَرُّ ذلكَ اليوم فَقَدْ رَحِمَهُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥]. وكذلك رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][1] قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ قُلْ لِكُفّارِ أهلِ مَكّةَ حينَ يَدْعُونَكَ[2] إلى دينِهِمْ على ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصّةِ ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وذلكَ الصَّرْفُ؛ يعني صَرْفُ العذابِ الفوزَ المُبِينَ. وإنما ذَكَرَهُ، واللهُ أعْلَمُ، فوزاً مُبِيناً لأنهُ فوزٌ دائمٌ، لا زَوالَ لهُ، ولَيسَ كَفَوزِ هذِهِ الدنيا؛ يكونُ في وَقْتٍ، ثم يَزولُ عنْ قَريبٍ. وكذلك فَوزُ الآخِرةِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ فيهِ إخبارٌ أنَّ ما يُصيبُ العَبْدَ مِنَ الضَّرَرِ والخَيرِ إنّما يُصِيبُهُ بِهِ.

ثم الضَّرَرُ المذكورُ في الآيةِ لا يَخْلُو مِنْ أنْ يُرادَ سُقْمُ النَّفْسِ أو ضِيقُ العَيشِ أو شِدّةٌ وظُلْمٌ يكونُ مِنَ العِبادِ لا يَخلو مِنْ هذِهِ الأوْجُهِ الثلاثةِ. فإذا كانَ كذلكَ، دَلَّتْ[3] إضافةُ ذلك إلى اللهِ تعالى على أنَّ للهِ فيهِ فِعْلاً، وهو أنْ خَلَقَ فِعْلَ ذلكَ مِنهُمْ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ مِنْ كَشْفِ الضُّرِّ لهُ والصَّرْفِ عنهُ وإصابةِ الخَيرِ، لا يَمْلِكُ ذلكَ غَيرُهُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [في][4] هذهِ الآيةِ والآيةِ/ ١٤٥ - أ/ الأولى ذِكْرُ أصْلِ التَّوحيدِ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ ما يُصيبُ العِبادَ مِنَ الضَّرَرِ والشِّدّةِ لا كاشِفَ لِذلكَ إلّا هُوَ، ولا يَدْفَعُ ذلكَ عَنْهُمْ، ولا يَصْرِفُ إلّا اللهُ، وأنَّ ما يُصِيبُهُمْ مِنَ الخَيرِ إنّما يُصِيبُ ذلكَ باللهِ، وأخْبَرَ أنهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ إخبارٌ أنهُ قاهِرٌ، يَقْهَرُ الخَلْقَ عَزيزٌ قادِرٌ، ولَهُ سُلْطانٌ عليهِمْ، وأنهُمْ أذِلّاءُ تَحتَ سُلْطانِهِ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ إخبارٌ بالعُلُوِّ لَهُ والعَظَمَةِ وبالتَّعالي عَنْ أشباهِ الخَلْقِ ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ بما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ؛ إخبارٌ أنهُ[5] لا يَخفى عليهِ شَيءٌ وأنهُ يَمْلِكُ وَضْعَ كلِّ شَيءٍ مَوْضِعَهُ وأنَّ ما يُصيبُهُمْ مِنَ الضَّرِّ والشِّدّةِ إنما يكونُ بِهِ لا يَمْلِكُ أحَدٌ صَرْفَهُ، وأنَّ ما ضَرَّ أحَدٌ أحَداً في الشاهِدِ أو نَفَعَ أحَدٌ أحَداً إنما يكونُ ذلك باللهِ في الحَقيقَةِ.

وفي هذِهِ الأحْرُفِ إخبارٌ عنْ أصْلِ التَّوحِيدِ، وما يُحْتاجُ إليهِ لِما ذَكَرْنا مِنَ الوَصْفِ لَهُ بالقُدْرَةِ والقَهْرِ والوَصْفِ لَهُ بالعُلُوِّ والعَظَمَةِ والتَّعالي عنْ أشْباهِ الخَلْقِ والوَصْفِ لَهُ بالحِكْمَةِ في جَميعِ أفْعالِهِ والعِلْمِ بِكُلِّ ما كانَ، ويكونُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ كأنَّ في الآيةِ إضماراً[6]، واللهُ أعْلَمُ، أنْ قُلْ يا محمدُ ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ فَيقولُونَ ﴿ٱللَّهُۖ﴾ لأنَّهُمْ كانُوا يُقِرُّونَ أنهُ خالِقُ السَّمواتِ والأرضَ وأنهُ أعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، لكنَّهُمْ يُشْرِكونَ غَيرَهُ في عِبادَتِهِ، ويَقُولُونَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وإلّا كانُوا يُقِرُّونَ بالعَظَمَةِ والجَلالِ. فإذا سألُوا ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ فإنَّكَ إذا قُلْتَ لَهُمْ ذلكَ يَقولُونَ هُمْ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ في كلِّ اخْتِلافٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ في التَّوحيدِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ ونَحْوِهِ. ويَحْتَمِلُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ في كُلِّ حُجّةٍ وبُرْهانٍ أتاها الرسولُ إليهِمْ[7].

وفي قولِهِ: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ﴾ دلالةٌ أنهُ يُقالُ لَهُ شَيءٌ لأنهُ لو لم يَجُزْ أنْ يُقالَ لهُ شَيءٌ لم يَسْتَثْنِ الشَّيءَ منهُ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] أنهُ شَيءٌ لأنهُ[8] لا شَيءَ في الشاهِدِ. إنما يُقالُ: إمّا لِلنَّفْيِ وإمّا لِلتَّصْغيرِ، فلا يَجوزُ في الغائِبِ النَّفْيُ ولا التَّصْغيرُ، دلَّ أنهُ إنما يُرادُ بالشَّيءِ الإثباتُ، لا غَيرَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل وم: دعوك. (٣) في الأصل و م: فدل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل و م: أن.
(٦) في الأصل و م: إضمار. (٧) في الأصل و م: بهم. (٨) في الأصل و م: لن.

ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ في قولِهِ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أنَّ رُؤساءَ مَكَّةَ أتَوا رسولَ اللهِ، فقالُوا: يا محمدُ أمَا وَجَدَ اللهُ رسولاً يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ؟ ما ترَى أحداً يُصَدِّقُكَ بما تَقولُ. وقد سَألنا عنكَ اليَهُودَ والنَّصارَى، فَزَعَمُوا أنهُ لَيسَ لَكَ عندَهُمْ ذِكْرٌ ولا صِفَةٌ ولا مَبْعَثٌ، فَأرِنا مَنْ شَهِدَ لَكَ أنكَ رسولُ اللهِ؟ فقالَ اللهُ ﷺ: يا محمدُ قُلْ لَهُمْ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ يقولُ: أعْظَمُ شهادَةً؛ يعني البُرْهانَ: محمدٌ حُجَّةٌ وبُرْهانٌ، وكُلُّ نَبِيٍّ حُجَّةٌ وبُرْهانٌ. فإنْ أجابُوكَ، فقالُوا: اللهُ، وإلّا فَقُلْ لَهُمْ: اللهُ أكْبَرُ شهادَةً مِنْ خَلْقِهِ. أني رسولُهُ، واللهُ ﴿شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ في كُلِّ اختلافٍ بَيْننا وبَيْنَكُمْ: في التَّوحيدِ وإثباتِ الرسالَةِ والبَعْثِ وكُلِّ شَيْءٍ.

وذُكِرَ في هذِهِ القِصَّةِ أنَّهُمْ لَمّا قالُوا: مَنْ يَشْهَدُ أنَّ اللهَ أرْسَلَكَ رسولاً؟ قالُوا: فَهَلّا[1] أُنْزِلَ إليكَ مَلَكٌ؟ فقالَ لِنَبِيِّهِ: قُلْ لَهُمْ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فقالوا: اللهُ أكْبَرُ شهادَةً مِنْ غيرِهِ، فقالَ اللهُ: قُلْ يا محمدُ: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أني رسولُ اللهِ وأنهُ أُوحِيَ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ القُرآنُ مِنَ الجنِّ والإنْسِ فهو نَذيرٌ لَهُ. ثم قالَ لَهُمْ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ قالُوا: نَعَمْ نَشْهَدُ. فقالَ اللهُ لِنَبِيِّهِ قُلْ لَهُمْ: ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما شَهِدْتُمْ، ولكنْ أشْهَدُ أنما ﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ كأنهُ قالَ: أوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ الذي يَعْرِفُونَهُ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ لأنهُ قالَ لَهُمْ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣ ويونس: ٣٨] فَعَجِزُوا عن إتيانِ مِثْلِهِ، فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عن إتيانِ مِثْلِهِ أنهُمْ عَرَفُوا أنهُ جاءَ مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ ومَنْ[2] بَلَغَ القرآنُ صارَ رسولُ اللهِ نَذيراً بِبلوغِ القرآنِ لِمَنْ بَلَغَهُ. فإذا صارَ نَذيراً بِهِ لِمَنْ بَلَغَهُ، وإنْ كانَ هو في أقْصَى الدنيا، يَصيرُ هو نَذيراً في أقْصَى الزمانِ في كُلِّ زمانٍ. وهو، واللهُ أعْلَمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] ورسولُ اللهِ هادٍ لِقَومِهِ إلى يَومِ القِيامَةِ.

وفي الآيَةِ دلالةٌ أنَّ البِشارَةَ والنِّذارَةَ تَكُونانِ بِبَعْثِ آخَرَ يُبَشِّرُ، أو يُنْذِرُ. وهو دليلٌ لِقولِ أصحابِنا: إنَّ مَنْ حَلَفَ: أيُّ عبدٍ مِنْ عَبيدي، بَشَّرَني بكذا، فهو حُرٌّ، فَبَشَّرَهُ برسولٍ بكتابٍ فيكونُ بِشارَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ هذا في الظاهِرِ اسْتِفهامٌ، ولكنهُ في الحَقيقةِ إيجابٌ أنكُمْ تَشْهَدُونَ أنَّ معَ اللهِ آلهةً أُخرَى بَعْدَ ما ظَهَرَ عندَكُمْ آياتُ وَحدانِيَّتِهِ[3] وحُجَجُ رُبوبِيَّتِهِ[4] لَمّا عَرَفْتُمْ أنه خالِقُكُمْ وخالِقُ السمواتِ والأرضِ؛ بِهِ تَعيشُونَ، وتَحْيَوْنَ، وبِهِ تَموتُونَ بعدَما[5] ظَهَرَ لكُمْ هذا أشْرَكْتُمْ معَ اللهِ آلهةً أُخرى. ولَيسَ ذلكَ لَكُمْ مِمّا تُشْرِكونَ في عِبادَتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ، وأنا ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ وإنما أشْهَدُ أنهُ ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ سورةُ الأنعامِ في مُحاجَّةِ أهْلِ الشِّرْكِ إلّا آياتٍ نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ الكتابِ: إحداها هذِهِ. وجائزٌ أنْ يكونَ أهْلُ الشِّرْكِ يَعرِفونَ أنهُ رسولٌ كما يَعرِفونَ أبناءَهُمْ، ويكونَ الكتابُ هو القرآنَ ههنا لَمّا قَرَعَ أسماعَهُمْ هذا القرآنُ، وأُمِرُوا أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَعَجِزُوا عنهُ، أو بما كانُوا يَخْتَلِفُونَ إلى أهلِ الكتابِ، ويَسْألونَهُمْ عن بَعْثِهِ[6] وَصِفَتِهِ، ويُخْبِرُونَهُمْ. فَعَرَفَ أهْلُ الشِّرْكِ أنهُ رسولٌ كما عَرَفَ أهلُ الكتابِ بوجودِ بَعْثِهِ[7] وصِفَتِهِ، ويُخْبِرُونَهُمْ في كتابِهِمْ.

ورُوِيَ عن عُمَرَ بْنِ الخطابِ أنهُ قالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ: وإنَّ اللهَ قد أنزَلَ على نَبِيِّهِ ﷺ بِمَكَّةَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فكيفَ يا عبدَ اللهِ المَعْرِفَةُ؟ فقالَ عَبدُ اللهِ: يا عُمَرُ لقد عَرَفْتُهُ فيكُمْ حِينَ رَأيتُهُ كما أعْرِفُ ابْني إذ رَأيتُهُ معَ الصِّبْيانِ يَلْعَبُ، وأنا أشَدُّ مَعْرِفَةً بِمحمدٍ مِنّي لابْني. فقالَ: كيفَ ذلكَ؟ فقالَ: أنا أشْهَدُ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ حَقٌّ مِنَ اللهِ. ولا أدْري ما صَنَعَ النِّساءُ؟ أو ما أحْدَثَ النِّساءُ؟ وقد نَعَتَهُ في كِتابِنا. فقالَ عُمَرُ: صَدَقْتَ، وأصَبْتَ.

---

(١) في الأصل و م: فهل لا. (٢) في الأصل وم: وأنذر من. (٣) في الأصل و م: وحدانية. (٤) في الأصل و م: ربوبية. (٥) في الأصل و م: عما. (٦) في الأصل و م: نعته. (٧) في الأصل و م: نعته.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: لا أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لكنَّ هذا في الحقيقةِ كأنَّهُ سؤالٌ واستفهامٌ؛ كأنَّهُ قالَ: مَنْ أظلَمُ مِنَ الظالِمينَ؟ قالَ: مَنِ ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. يُقالُ: مَنْ فَعَلَ هذا؟ قالَ: فُلانٌ، أو مَنْ قالَ هذا؟ قالَ: فُلانٌ. فهوَ، واللهُ أعلَمُ، على السُّؤالِ والاستِفهامِ.

ثم قِيلَ: الذينَ افتَرَوا على اللهِ كَذِباً أنَّ مَعَهُ شَريكاً لِقولِهِمْ: إنَّ مَعَ اللهِ آلِهةً أُخرى.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ قيلَ: محمدٌ ﷺ وقيلَ القرآنُ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ بِظُلْمِهِمْ. لكنْ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ما داموا في ظُلْمِهِمْ، ونَقولُ[1]: لا يُفْلِحُ الظالِمونَ إذا خُتِموا، وماتُوا على الظُّلْمِ والكُفْرِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ذكَرَ ههنا شُركاءَكُمْ؛ أضافَ ذلكَ إليهِمْ لأنَّهُمْ كانُوا مِنْ جِنْسِهِمْ وجَوهَرِهِمْ يَفْنَونَ كما يَفْنَونَ. وذكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: الآيةُ نَزَلَتْ في المُنافِقينَ؛ وذلكَ أنَّهُمْ كانُوا يُكَذِّبونَ في الدنيا في ما بَيْنَهُمْ، فَظَنُّوا أنْ يَتَرَوَّجَ كَذِبُهُمْ في الآخِرةِ كما كانَ يَتَرَوَّجُ في الدنيا. وسَمّاهُمْ مُشْرِكِينَ لأنهُمْ كانُوا أشرَكُوا في السِّرِّ، فقالُوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقالَ غَيْرُهُ مِنْ أهْلِ التأويلِ: الآيةُ /١٤٥ ـ ب/ نَزَلَتْ في أهلِ الشِّرْكِ مِنَ العَرَبِ؛ وذلكَ أنَّهُمْ كانُوا يُشرِكونَ مَعَ اللهِ آلِهةً، وكانُوا يُنكِرُونَ البَعْثَ بَعْدَ الموتِ، ويُنكِرُونَ الرسالةَ. فلمّا أنْ عايَنُوا ذلكَ أنكَرُوا أنْ يَكونُوا أشرَكُوا غيرَهُ في أُلوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ أي لم يَكُنِ افتِتانُهُمْ في الدنيا بافتِرائِهِمْ على اللهِ الكَذِبَ وإشراكِ غيرِهِ[2] مَعَهُ وتكذيبِهِمْ بآياتِ اللهِ ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ في الآخِرةِ ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصّةِ أنَّ المُشرِكينَ في الآخِرةِ لَمّا رأَوا كيفَ يَتَجاوَزُ اللهُ عنْ أهلِ التوحيدِ، فقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إذا سُئِلْنا فَقُولُوا: إنّا كُنّا مُوَحِّدِينَ، فلمّا جَمَعَهُمُ اللهُ وشُرَكاءَهُمْ، فقالَ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا بأنهُمْ مَعِي شُرَكاءُ[3]؟.

[وقولُهُ تعالى][4] ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: مَعذِرَتُهُمْ وجوابُهُمْ. إلا[5] الكَذِبَ حينَ سُئِلُوا، فقالُوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تَبَرَّؤُوا مِنْ ذلكَ.

الآية ٢٤ ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ في الدنيا قِيلَ: لَمّا أنكَرُوا أنْ يَكونُوا مُشرِكينَ في الدنيا خَتَمَ اللهُ على ألسِنَتِهِمْ، وشَهِدَتِ الجَوارِحُ عليهِمْ بالشِّرْكِ. وقِيلَ: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ يقولُ: كيفَ صارَ وَبالُ كَذِبِهِمْ عليهِمْ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ قِيلَ: واشتَغَلَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يقولُونَ؛ يُكَذِّبونَ.

واصْلُهُ أنهُ يُذَكِّرُ نَبِيَّهُ شِدّةَ تَعَنُّتِهِمْ وسَفَهِهِمْ أنهُمْ كيفَ يُكَذِّبونَ عندَ مُعايَنةِ العذابِ؟ فإذا كانُوا بِنَأْيٍ منهُ وبُعْدٍ كانُوا أشَدَّ تَكذيباً وأكثَرَ تَعَنُّتاً[6] لأنهُمْ يَطلُبُونَ الرَّدَّ إلى الدُّنيا [كقولِهِمْ][7] ﴿فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] [وكقولِهِ][8] ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [يَحتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها][9]: كانُوا يَسْتَمِعُونَ إليهِ لِيُجادِلُوهُ على ما ذَكَرَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ دلَّ هذا أنَّهُمْ كانُوا يَسْتَمِعُونَ إليهِ لِلمُجادَلةِ مَعَهُ والخُصومةِ.

---

(١) في الأصل و م: ويقول (٢) من م، في الأصل: غير. (٣) في الأصل و م: شريك. (٤) ساقطة في الأصل و م. (٥) في الأصل و م: إلا أن. (٦) في الأصل و م: تعنتهم. (٧) و(٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم.

وقيلَ في بَعْضِ الحكاياتِ أنَّ الناسَ كانُوا ثلاثَ[1] فِرَقٍ في أخبارِ الرُّسُلِ والأنبياءِ ﷺ مِنهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ لِلْجَمْعِ والاِسْتِكْثارِ، ومِنهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ لِيأخُذَ عليهِمْ سَقَطاتِهِمْ وما يَجرِي على لِسانِهِمْ مِنَ الخَطَإِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ لِيأخُذَ الحَقَّ منهُ، ويَترُكَ الباقِيَ. لكنَّ هؤلاءِ يَسْتَمِعُونَ إليهِ لِيُخاصِمُوا في ذلكَ، ولِيُجادِلُوهُ لِيَعْرِفَ قومُهُمْ أنهُمْ يَستمِعُونَ إليهِ، ويَعْرِفونَ ما يَقولُ لِيَصُدُّوا بذلكَ أتباعَهُمْ.

والثاني: يَسْتَمِعُونَ، ويُحاجُونَ في ذلكَ لِيَعْرِفُوا أنهُمْ أهلُ حِجاجٍ وعِلْمٍ لِيَصُدُّوهُمْ عنهُ.

ثم يَحتَمِلُ[2] أنْ يكونُوا أهْلَ نِفاقٍ لأنهُمْ كانُوا يُرَوْنَ يُظْهِرونَ[3] المُوافَقَةَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ويُضمِرُونَ الخِلافَ لَهُ.

ويَحتَمِلُ[4] [أن يكونُوا][5] أهلَ الشِّرْكِ أي رؤساءَهُمْ يَسْتَمِعُونَ إليهِ، ويُجادِلُونَهُ[6] في ما يَسْتَمِعُونَ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [أخبَرَ أنَّ على قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً وفي آذانِهِمْ وَقْراً][7]، وقالَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] نَفى عَنْهُمْ ذلكَ لِما [لَمْ][8] يَنْتَفِعُوا بذلكَ كُلِّهِ. وإنْ لم يَكونُوا في الحَقيقَةِ صُمّاً ولا بُكْماً ولا ما ذُكِرَ لِما لَمْ يَنْتَفِعُوا بِما أنْشأَ فِيهِمْ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ فَنَفى عنهُمْ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ لا تَخلُو إضافَةُ ذلكَ إلى نَفْسِهِ مِنْ أنْ يكونَ خَلَقَ مِنْهُمْ فِعْلَ الكُفرِ، أو خَلَقَ الظُّلْمَةَ في قُلُوبِهِمْ؛ يعني ظُلْمَةَ الكُفرِ لأنَّ ظُلْمَةَ الكُفرِ تَسْتُرُ، وتُغَطِّي كلَّ شيءٍ، ونُورَ الإيمانِ يُنِيرُ منهُ كُلَّ شيءٍ. فإضافَةُ الفِعْلِ إليهِ لا تَخلُو مِنْ أحَدِ هذينِ الوَجْهَينِ؛ إمّا لِخلقِ فِعْلِ الكُفرِ منهُمْ فَفيهِ دَلالَةُ خَلْقِ أفعالِهِمْ، وإمّا لِخَلْقِ ظُلْمَةِ الكُفْرِ في قُلُوبِهِمْ فَفِيهِ رَدُّ قولِ المُعتَزِلَةِ لإنكارِهِمْ خَلْقَ فِعْلِ العِبادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قِيلَ: الوَقْرُ هو الثِّقَلُ في السَّمْعِ؛ يُقالُ: وُقِرَتْ أُذُنُهُ تُوقَرُ وَقْراً، فهيَ مَوقُورَةٌ. وأمّا الوِقْرُ فهوَ الحِمْلُ، وقالَ أبو عوسَجَةَ: الوَقْرُ الصَّدْعُ في العَظْمِ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ يَحتَمِلُ ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾ آيةَ وَحدانِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ وقُدْرَتِهِ على البَعْثِ وآيةَ رِسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ. ويَحتَمِلُ ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾ سَألُوا أنْ يأتِيَ بها؛ يقولُ: وإنْ[9] أُوتِيتَ بِكُلِّ آيَةٍ سَألُوكَ لا يُؤْمِنُوا[10] بكَ بَعْدَ ذلكَ أبداً كَقَولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] ونَحوُ ذلكَ مِمّا سَألُوا مِنَ الآياتِ؛ يَقولُ: وإنْ جِئْتَ بما سَألُوكَ مِنَ الآياتِ لا [يُؤْمِنُوا بكَ، ولا يُصَدِّقُوكَ، ويَقُولُوا][11]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قِيلَ: أحاديثُ الأوَّلِينَ. والأُسْطورَةُ: الكِتابُ.

يَقولُونَ ذلكَ تَعَنُّتاً منهُمْ لأنهُمْ كانُوا يَعْرِفونَ أنهُ حَقٌّ وأنهُ لَيسَ بِكلامِ البَشَرِ لأنهُمْ عَجِزُوا عن إتيانِ مِثْلِهِ. ولو كانَ مُفْتَرًى على ما قالُوا لَقَدَرُوا هُمْ على أنْ يأتُوا بِشَيءٍ مِثْلِهِ حِينَ[12] قِيلَ لَهُمْ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣ ويونس: ٣٨] فَعَلِمُوا بِعَجْزِهِمْ عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ أنهُ لَيسَ مِنْ كَلامِ البَشَرِ وأنهُ سَماوِيٌّ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي يَتَباعَدُونَ منهُ؛ يَنْهَونَ غَيرَهُمْ عنِ اتِّباعِهِ، ويَتباعَدُونَ[13] هُمْ. ويَحتَمِلُ ما ذُكِرَ في القِصَّةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ عندَ أبي طالِبٍ، يَدْعُوهُ إلى الإسلامِ، اجْتَمَعَتْ قُرَيشٌ عندَهُ لِيُرِيدُوا بالنَّبِيِّ سُوءاً. قالَ أبو طالِبٍ، وأنْشَدَ فيهِ:

واللهِ لَنْ يَصِلُوا إليكَ بِجَمْعِهِمْ ... حتى أُوَسَّدَ في التُّرابِ دَفِينا
فاصْدَعْ بِأمْرِكَ ما عَلَيكَ غَضاضَةٌ ... وَابْشِرْ، وَقَرَّ بِذاكَ مِنكَ عُيُونا
فَدَعَوتَنِي، وزَعَمْتَ أنَّكَ ناصِحٌ ... ولَقَدْ صَدَقْتَ، وكُنْتَ ثَمَّ أمِينا

---

(١) في الأصل و م: ثلاثة. (٢) هذا هو الوجه الثالث. (٣) في الأصل و م: ويظهرون. (٤) هذا هو الوجه الرابع. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) في الأصل و م: ويجادلوه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) من م، في الأصل: وأنا. (١٠) في الأصل وم: يؤمنون. (١١) في الأصل وم: يؤمنون بك ولا يصدقونك ويقولون. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: وتباعدون.

وعَرَضْتَ دِيناً، قَدْ عَلِمْتُ بأنَّهُ مِنْ خَيْرِ أديانِ البَرِيَّةِ دِينا
لَولا الذَّمامَةُ، أو أُحاذِرَ سَبَّةً لَوَجَدْتَني سَمْحاً بِذاكَ مَتِينا[1]

كانَ يَنْهَى الناسَ عن أذى محمدٍ ﷺ ويتباعَدُ هو عنهُ، فلا يَتَّبِعُهُ في دينِهِ، فتَرَكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إنهُمْ بذلكَ يَسْعَونَ في هَلاكِ أنْفُسِهِمْ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][2] قالَ: سَتَرَى ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: وَلَو تَرَى إذْ عُرِضُوا على النارِ. وكذلكَ في ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]: إذْ عُرِضُوا على ربِّهِمْ. ولولا ما رُوِيَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ وُقِفُوا: عُرِضُوا على النارِ، لَجازَ[3] أنْ يُحْمَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي عندَ النارِ أو في النارِ: على مَكانِ عِنْدَ أو مَكانَ في. و ذلكَ جائِزٌ في اللغةِ. ولكنْ ما رُوِيَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ أغنانا[4] عن ذلكَ.

ثم يُحْتَمَلُ، واللهُ أعْلَمُ، أنْ يكونَ هذا صِلَةَ [قولِهِ تعالى][5]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وهكذا الواجِبُ على كُلِّ أحدٍ أنْ يَرْحَمَ عَدُوَّهُ إذا كانَ عاقِبَتُهُ النارَ والتَّخلُّدَ فيها، وألّا يَطْلُبَ الاِنْتِقامَ مِنْهُ بِما كانَ منهُ بِمَكانِهِ أو أنْ يُقالَ: ولو تَراهم ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مِنَ الذُّلِّ والخُضوعِ لَرَحِمْتَهُمْ بِما كانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكَبُّرِ والاِسْتِكْبارِ في الدنيا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] الآية، أخْبَرَ عنْ ذُلِّهِمْ وخُضوعِهِمْ في الآخِرَةِ بِما كانَ مِنْهُمْ في الدنيا مِنَ الاِسْتِكْبارِ والاِسْتِنْكافِ. فَعَلَى ذلكَ يُخْبِرُ نَبِيَّهُ عمّا يُصِيبُهُمْ مِنَ الذُّلِّ بِتَكَبُّرِهِمْ في الدنيا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَمَنَّوا عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ العَودَ والرَّدَّ.

ثم فيهِ دَليلانِ:

أحَدُهُما: أنَّهُمْ عَرَفُوا أنَّ ما أصابَهُمْ بِتَكذيبِهِمُ الآياتِ وتَرْكِهِمُ الإيمانَ حينَ قالُوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

والثاني: أنَّ الإيمانَ هو التَّصْديقُ الفَرْدُ لا غيرَ لأنهُمْ فَزِعُوا عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ، تَمَنَّوُا الرَّدَّ والعَوْدَ إلى الدنيا أنْ يَكونُوا مِنَ المؤمِنِينَ، لم يفزَعُوا إلى شَيْءٍ آخَرَ مِنَ الخَيراتِ. دلَّ أنَّ الإيمانَ هو التَّصْديقُ الفَرْدُ لا غَيرَ، وأنهُ ضِدُّ التَّكْذيبِ. والتَّكْذِيبُ هو فَرْدٌ. فعَلَى ذلكَ التَّصْديقُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ قيلَ فيه بِوُجوهٍ: قالَ بَعْضُهُم: قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] إنها نَزَلَتْ في المُنافِقِينَ. يدلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ / ١٤٦ ـ أ/ مِن قَبْلُ﴾ وهو سِمَةُ[6] أهلِ النِّفاقِ: أنَّهُمْ يُظْهِرُونَ المُوافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ، ويُضْمِرُونَ الخِلافَ، ويُخْفُونَ العَداوَةَ لَهُمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ رُؤَساءَهُمْ؛ كانُوا عَرَفُوا في الدنيا أنهُ رسولُ اللهِ، وأنَّ ما أُنْزِلَ عليهِ، هو مِنَ اللهِ، وعَرَفُوا أنَّ البَعْثَ حَقٌّ، لكنَّهُمْ أخفَوا ذلكَ على أتباعِهِمْ، وأسَرُّوهُ، ثم ظَهَرَ ما كانُوا يُخْفُونَ على أتباعِهِمْ.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ وذلكَ أنَّهُمْ حِينَ قالُوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] أي حُبِسُوا؛ إذِ الوُقُوفُ حَبْسٌ، ولو وُقِفَ: حُبِسَ، والنارُ لا يُوقَفُ عليها، بل يَكونُ فِيها كما قالَ ﷺ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقالَ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

---

(١) أدرجت هذه الأبيات في البحر المحيط مع اختلاف في اللفظ [٤/٤٧١]. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وإلا يجوز.
(٤) في الأصل وم: أقنعنا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: سمته.

ويَحتمِلُ الوَقفُ عِندَها قَبلَ الدُّخولِ في حالِ الحِساب[١] لِلمُساءَلَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢]، وكقولِهِ[٢] تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أي لَو تَرَى ذُلَّهُمْ وخُضوعَهُمْ، وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢].

ولم يُبيِّنْ جَوابَ لو. وقد يُترَكُ جَوابُ لو لِما يُعلَمُ: رُبَّما يُعلَمُ بالتَّأمُّلِ أو بالذِّكْرِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] بمَعنَى ظَنَنْتُمْ أو على ما ذَكَرَ في مَوضِعٍ آخَرَ نَحوِ قولِهِ تعالى ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦] وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] إنما يُجيبُ لِ: لَو وغَيرِ ذلكَ. فَلَعَلَّ مَعناهُ: لو تَرَى ذُلَّهُمْ بَعْدَ اسْتِكْبارِهِمْ لَرَحِمْتَهُمْ على ما هُمْ عليهِ، ولَهَانَ عليكَ التَّصَبُّرُ لأذاهُمْ، ولأشفَقْتَ عليهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ما يَنزِلُ بهِمْ مِن نَقمَةِ اللهِ؛ ويَحِلُّ بهِمْ مِن عَذابِهِ لَعَلِمْتَ أنَّ القُوَّةَ للهِ جميعاً وأنهُ بِحِلْمِهِ[٣] ورَحمَتِهِ يُملِي لَهُمْ، وتَستَرجِعُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥] ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ جَوابُهُ في ما ذَكَرَ مِنْ تَمَنِّيهِمُ العَودَ ونَدامَتِهِمْ على ما سَلَفَ مِنهُمْ وشِدَّةِ تَلَهُّفِهِمْ على صَنيعِهِمْ لَرَأيْتَ ذلكَ كافياً وجَزاءً بالغاً [لِما يكونُ ما][٤] يَنزِلُ بِهِمْ أعظَمَ عِندَكَ مِمّا تَلقَى مِنهُمْ.

وقد يَخرُجُ الخِطابُ لِرَسولِ اللهِ على تَضَمُّنِ تَنبيهِ كُلِّ مُمَيِّزٍ وتَذكيرِ كُلِّ مُتَأمِّلٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ قيلَ: إلى الدنيا، وقيلَ: إلى المِحْنَةِ مِن حَيثُ لا يُحتَمَلُ كَونُ الدنيا بَعدَ كَونِ الآخِرَةِ. لكنَّ هذا تَكَلُّفُ تَحقيقِ مُرادِ قَومٍ ظَهَرَ سَفَهُهُمْ. ولَعَلَّهُ لَيسَ عِندَهُمْ هذا التَّمييزُ، أو يَقولُونَ سَفَهاً كما قالوا كَذِباً بِقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

[وقولُهُ][٦] ﷻ ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [قالَ الحَسَنُ: بِدِينِ رَبِّنا][٧]. وقالَ قومٌ: بِحُجَجِ رَبِّنا، فَيَكونُ في الآيةِ اعْتِرافُ أنَّهُمْ على التَّعَنُّتِ كَذَّبُوا في الأوَّلِ لا على الجَهلِ. وإنْ كانَ ثَمَّ آياتٌ عانَدُوها، وهُمْ قومٌ قد سَبَقَ مِنَ اللهِ الخَبَرُ عَنهُمْ مِمّا فيهِ العِنادُ مِنهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وذلك يَدُلُّ على تَعَنُّتِهِمْ في القَولِ لِيَتخَلَّصُوا[٨] مِمّا بُلُوا بِجَميعِ ما يَحتَمِلُ وُسْعُهُمْ، لا أنَّ ذلكَ كذلكَ في قلوبِهِمْ. لذلكَ، واللهُ أعلَمُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [على أمرَينِ:

الأوّل:][٩] أنهُمْ قد عَرَفُوا أنَّ الإيمانَ هو التَّصْدِيقُ.

والثاني: أنهُمْ ذَكَرُوا الآياتِ، والآياتُ يُكَذَّبُ بها، ويُصَدَّقُ، لا أنْ يُعمَلَ.

وبَعْدُ فإنَّ الذي في حدِّ إمكانِ الإتيانِ مِمّا فاتَ هو التَّصْدِيقُ؛ إذِ الغَيرُ لو تَوَهَّمَ الأمرَ لَوَجَدَ[١٠] ما سَبَقَ مِنَ التَّرْكِ. والتَّصْدِيقُ لو أُمِرَ فهوَ لِما سَبَقَ مِنَ التَّكذيبِ. على أنهُ أُجْمِعَ ألّا يُؤمَرَ مَنْ آمَنَ بِقضاءِ مِمّا فاتَ، فَثَبَتَ أنهُمْ أرادُوا بِهِ التَّصْدِيقَ. وفيهِ أنهُ اسْمٌ لِذلِكَ حتَّى عَرَفَهُ أهلُهُ وغَيرُ أهلِهِ مَعرِفَةً واحدَةً، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][١١] ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ يَخرُجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: على أنَّ الآيةَ في أهلِ النِّفاقِ تُظهِرُ[١٢] ما قَدْ أضمَرُوا مِنَ الكُفْرِ.

والثاني: أنْ تكونَ الآيةُ في رُؤَساءِ الكَفَرَةِ العُلَماءِ بالبَعْثِ وبأنَّ الرُّسُلَ يَكونونَ[١٣] مِنَ البَشَرِ.

---

(١) من م، في الأصل: الحسنات. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بحمله. (٤) من م، في الأصل: أو يكون لما. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل، (٨) من م، في الأصل: ليستخلصوا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ليوجد. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ظهر. (١٣) في الأصل وم: تكون.

[والثالثُ][(١)]: أنْ لا شريكَ لِلّهِ؛ فَبَدَا لِلأتباعِ[(٢)] ما كانَ الرُّؤساءُ يُخفُونَ في الدنيا، ويَحتَمِلُ: وبَدَا لَهُمْ مِنْ صَنيعِهِمْ ما قد أسَرُّوهُ، وأضمَروهُ في أنفُسِهِمْ؛ ظَنُّوا ألّا يَطَّلِعُ على ذلكَ أحدٌ، وذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وغيرِ ذلكَ، ويَحتَمِلُ: ما كانُوا يُخفُونَ مِنَ الخَلْقِ أو بَدَا لَهُمْ ذلكَ بالجَزاءِ.

[وقولُهُ تعالى][(٣)]: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ أي إلى ما تَمَنَّوا أنْ يُرَدُّوا إليهِ ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أخبَرَ اللهُ عَنْ عِلْمِهِ بما قد أسَرُّوهُ في ذلكَ الوقتِ أنَّ ما كانَ في عِلْمِهِ أنْ يكونَ، وإنْ كانَ مِنْ حُكْمِهِ، ألّا يُرَدُّوا في ذلك [أنَّ][(٤)] الآيةَ لا تُضطِرُّ صاحِبَها، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقالَ قومٌ: إن الخُلودَ يُلزِمُ في النارِ بِما هُمْ في عِلْمِ اللهِ أنهُمْ يَلزَمُونَ ما هُمْ عليهِ لو مَكَثُوا لِلأبَدِ. وقالَ قومٌ: إذا لم يَجُزْ لُزُومُ العذابِ بِما لم يَعْلَمِ اللهُ مِنَ العِنادِ مِنْ أحَدٍ لوِ امْتَحَنَ بلا مِحْنَةٍ ولا خِلافٍ. فعَلَى ذاكَ أمْرُ الخِلافِ لكنَّ الآيَةَ في خاصٍّ مِنْهُمْ، وهُمُ الذينَ اعْتَدَوا، وعانَدُوا[(٥)] الحَقَّ بَعْدَ الوُضوحِ على ما ذُكِرَ في كَثيرٍ مِنَ الكَفَرَةِ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ أبداً. ثم أمْهَلَهُمْ على ذلكَ. وهذا يُبَيِّنُ أنْ لَيسَ تَمْنَعُ الإعادةُ لِما يَعُودُونَ لَهُ لو كانَ تَحتَمِلُ في الحِكْمَةِ الإعادةُ؛ إذْ قد أمْهَلَ، وأبقَى على العِلْمِ بذلكَ. فعَلَى ذلكَ الإعادةُ. لكنَّهُ أخبَرَ عَنْ تَعَنُّتِهِمْ.

ثم ظَنَّتِ المُعتَزِلَةُ أنَّ اللهَ لو عَلِمَ أنهُمْ لا يُؤمِنُونَ لَرَدَّهُمْ إلى ذلكَ؛ إذْ بَيَّنَ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ، فَيَستَدِلُّونَ بهذا أنْ لَيسَ لِلّهِ قَبْضُ رُوحٍ يَعْلَمُ أنهُ لو لم يَقبِضْهُ يُؤمِنُ يَوماً مِنَ الدَّهرِ. وقد بَيَّنّا نَحنُ أنَّ ذلكَ لا يُوجِبُ، إنْ كانَ أولئكَ في عِلْمٍ، أنْ يَعُودُوا إلى ذلكَ بِما قد يَترُكُ في الدنيا مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَلزَمُ الكُفرَ، ويُنَجّي مِنَ المَهالِكِ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَعُودُ. ثم قد يَترُكُ مَنْ يَعودُ إلى الكُفرِ على وُجودِ ما بِهِ النَّجاةُ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] فَبَيَّنَ أنهُ لا[(٦)] يَبْسُطُ لِئَلّا يَبغُوا، وقالَ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣].

ثم قد جَعَلَ [البَسْطَ][(٧)] لِكَثيرٍ مِمَّنْ ضَلَّ بِهِمْ قومٌ نَحْوُ الفراعِنَةِ ولِكَثيرٍ مِنْهُمْ، وقد بَغَوا في الأرضِ إذْ [لو][(٨)] لم يَكُنِ البَسْطُ لِفِرعَونَ لم يكُنْ لِيَدَّعِيَ الإلهيَّةَ. لكنَّ الأوَّلَ طَريقُ الفَضْلِ يَفضُلُ بِهِ، والثاني طَريقُ العَدْلِ وما يَجوزُ في الحِكْمَةِ. فعَلَى ذلكَ الإمهالُ؛ يُبَيِّنُ ذلكَ ما كانَ اللهُ يأمُرُ بِقَتْلِ مَنْ لَعَلَّهُ يُؤمِنُ لو أُمْهِلَ بِما نُدِبَ إلى القِتالِ. ولا يَحتَمِلُ أنْ يَأمُرَ في قَتْلِ مَنْ لَيسَ لَهُ قَبْضُ رُوحِهِ. وقد يُبقِي مَنْ بِهِ يُهلِكُ، ويُضِلُّ، وإنْ قَبَضَ كثيراً مِنْهُمْ بِما يُضَلُّ بِهِ، لو بَقِيَ، كما قالَ: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] واللهُ أعلَمُ.

وظَنَّتِ الخَوارِجُ بهذِهِ الآيةِ أنَّ كلَّ مَنْ يَرتَكِبُ كَبيرَةً يَظْهَرُ منهُ كَذِبُهُ في ما وعَدَ أنهُ لا يَفعَلُ؛ إذِ اللهُ سَمّاهُمْ كَذَبَةً بِما في عِلْمِهِ أنهُمْ يَعُودُونَ إلى ذلكَ.

فإذا تَقَرَّرَ عِندَنا مِنْ أحَدٍ نُكوثٌ[(٩)] ما كانَ في عَهْدِهِ وإيمانِهِ أنهُ يَرتَكِبُ [ما][(١٠)] يَظْهَرُ بِهِ كَذِبُهُ، فذلكَ خَطأٌ لِما لو كانَ كذلكَ لَكانَ الصَّغائِرُ والكَبائِرُ واحِدَةً[(١١)]. ومَنْ كَذَبَ في أمْرِ الكَبائِرِ[(١٢)] في العَهْدِ، أو [رَدَّهُ، يَكْفُرْ][(١٣)]، ومَنِ ارتَكَبَ الصَّغيرَةَ لم يَصِرْ كذلكَ[(١٤)].

لكنَّ الآيَةَ تُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: أنها في قومٍ أرادُوا بذلكَ دَفْعَ العَذابِ لا أنْ عَزَمُوا على ما ذَكَرُوا. دَليلُهُ فِتنَتُهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) في الأصل و م: و. (٢) من م، في الأصل: لأتباع. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: وعندوا. (٦) في الأصل و م: لو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: ركوب. (١٠) ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل و م: واحداً. (١٢) في الأصل و م: الصغائر. (١٣) في الأصل: رد، ويكفر، في م: رد، يكفر. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم العبارة التالية: فعلى ذلك الكبائر.

والثاني: أنهُ ذَكَرَ كَذِبَهُمْ؛ أنطَقَ اللهُ جَوارِحَهُم، فَشَهِدَتْ عليهِمْ بِما كَتَمُوا مِنَ الشِّرْكِ، فَتَمَنَّوا عندَ ذلكَ العَوْدَ والرَّدَّ.

والثالثُ[1]: ﴿بَدَا لَهُم﴾ ظَهَرَ لَهُمْ ﴿مَّا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ مِنْ بَعْثِ[2] محمدٍ وصِفَتِهِ ﷺ في الدنيا، وكَتَمُوهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ تَعَلَّقَ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ الخَوارِجُ والمُعْتزِلَةُ.

أمّا المُعْتَزِلَةُ فإنهُمْ قالُوا: إنهم لَمّا طَلَبُوا الرَّدَّ لم يَرُدَّهُمْ لِما عَلِمَ أنهُمْ لو ﴿رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إلى التَّكْذيبِ ثانياً. ولو عَلِمَ منهُمْ أنهُمْ لا يَعُودُونَ لَكانَ لا يَرُدُّهُمْ. فَدَلَّ أنهُ إنما لم يَرُدَّهُمْ لِما عَلِمَ منهُمْ أنَّهُمْ يَعُودُونَ إلى ما كانُوا مِنْ قَبْلُ. فَيَسْتَدِلُّونَ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ على أنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ بالعَبِيدِ[3] إلّا الأصْلَحَ/ ١٤٦ ـ ب/ لَهُمْ في الدينِ. وقالُوا: لو عَلِمَ مِنْهُمُ الإيمانَ لَكانَ لا يَجوزُ لهُ ألّا يَرُدَّهُمْ. ومِنْ قولِهِمْ: إنهُ إذا عَلِمَ مِنْ كافرٍ أنهُ يُؤمِنُ في آخِرِ عُمُرِهِ لم يَجُزْ لَهُ أنْ يُميتَهُ، وغَيْرَ ذلكَ مِنَ المخايِلِ والأباطِيلِ.

وقالَتِ الخَوارِجُ: أخبَرَ أنهُ لو رَدَّهُمْ ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وسَمّاهُمْ بالقَولِ كاذبِينَ لِما في عِلْمِهِ أنهُمْ لا يَفْعَلُونَ بِما يَقُولُونَ. فَعَلَى ذلكَ كلُّ صاحِبِ كبيرةٍ إذا كانَ في اعْتِقادِهِ الذي أظْهَرَهُ أنهُ لا يَأْتي بها، فإذا أتى بِها يَصِيرُ في ما اعْتَقَدَهُ كاذِباً. ولِذلكَ يَجْعَلُونَ أصحابَ الكبائِرِ كَذَبَةً في القَولِ الأوَّلِ: إنهمْ لا يَأْتونَ بها. وعلى ذلكَ المُبايَعَةُ بِقَولِهِ: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ﴾ الآية [الممتحنة: ١٢] فإذا سَرَقْنَ صِرنَ كاذباتٍ في البَيْعَةِ كما جَعَلَ مَنْ ذَكَرَ كاذباً في الوَعْدِ إذا أخْلَفَ. وعلى ذلك يَجْعَلُونَهُ كافراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ أي لَيَكْذِبونَ لو رُدُّوا، أو ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولِهِمْ، ويَكُونونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ؛ أي يُضْمِرُونَ أنهُمْ لا يُؤمِنُونَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] يَقُولُونَ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ لكنَّهُمْ لَمّا أضمَرُوا خِلافَ ذلكَ في قُلوبِهِمْ سَمّاهُمْ كاذِبِينَ. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ لَمّا أضْمَرُوا في أنفُسِهِمُ التَّكْذيبَ، وإنْ رُدُّوا، فَهُمْ كاذِبُونَ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ [فيهِ وُجوهٌ:

أحدُها:][4] قيلَ: إلى الدنيا، ولكنْ رُدُّوا إلى المِحْنَةِ ثانياً ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

والثاني: أنهُ ذَكَرَ كَذِبَهُمْ بِما اعْتادُوا العِنادَ، وظَهَرَ منهُمُ الجُحودُ في القَديمِ. فَبِذلكَ سَمّاهُمْ كَذَبَةً كما سَمّى أهْلَ النارِ كَفَرةً بِما كانَ مِنْ كُفْرِهِمْ قَبْلَ أنْ يَصِيروا إليها. فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثالثُ: أنْ يكونَ على الخَبَرِ عَنْ عاقِبَتِهِمْ أنهُمْ يَصِيرونَ كاذِبِينَ لو رُدُّوا، وعُرِضَ عليهِمْ ذلكَ، وبُعِثَ إليهِمْ[5] الرُّسُلُ بالآياتِ لا أنْ يَكْذِبُوا في ذلكَ الوَعْدِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هِيَ﴾ يَحْتَمِلُ: هيَ الحَياةُ الدنيا، ويَحْتَمِلُ: هي الدنيا. ثم هذا القولُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ لأنهُمْ يُنْكِرونَ البَعْثَ والحَياةَ بَعْدَ المَوتِ، ويقولُونَ: إنَّ هذا الخَلْقَ كالنَّباتِ، يَنْبُتُ، ثم يَتَلاشَى. فَعَلَى ذلكَ الخَلْقُ، يَموتُونَ، ويَصِيرونَ تُراباً، ثم يَحْيَوْنَ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ويَحْتَمِلُ أنَّ هذا القولَ كانَ مِنْ مُشْرِكي العَرَبِ لِما لم يَرَوا إلّا الدَّهْرَ، ولم يُشاهِدُوا غيرَهُ، فَظَنُّوا أنهُ لَيسَ يُهْلِكُهُمْ إلّا ذلكَ الدَّهْرُ الذي تَدورُ الدنيا عليهِ. فإنْ كانَ ذلكَ مِنْهُمْ فإنما كانَ ذلكَ مِنْ كُبَرائِهِمْ، ورُؤَساؤُهُمْ على عِلْمٍ مِنْهُمْ بذلكَ أي بالبَعْثِ يَلْبِسُونَ على السَّفَلَةِ والأتباعِ لِيَكُونُوا أشَدَّ اتِّباعاً لَهُمْ وانْقِياداً لأنهُمْ لو أعْلَمُوا الأتباعَ بالبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ لَعَلَّهُمْ يَتْرُكونَ طاعَتَهُمْ واتِّباعَهُمْ لِما يَشْتَغِلُونَ بالاسْتِعْدادِ لذلكَ والعَمَلِ لَهُ؛ ففي ذلك تَرْكُ اتِّباعِهِمْ وطاعَتِهِمْ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي لِرَبِّهِم كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]

---

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) في الأصل و م: نعت. (٣) في الأصل و م: العبد. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: عليهم.

وكقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ. واصْلُهُ ما رُوِيَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا﴾ إنْ عُرِضوا[١] ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي البَعثُ بَعْدَ المَوتِ لأنهُمْ كانُوا يُنكِرونَ البَعْثَ، ويَقولُونَ: إنهُ باطِلٌ. ويَحتَمِلُ بما كانُوا أُوعِدُوا بالعَذابِ إنْ لم يُؤمِنُوا، فَكَذَّبُوا ذلكَ، فقالَ: أَلَيْسَ ما أُوعِدْتُم في الدنيا حَقّاً[٢]، فَأَقَرُّوا، فقالُوا ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي كَذَّبوا لِقاءَ وَعْدِ اللهِ وَوَعِيدَهُ في الدنيا. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ أحبَّ لِقاءَ اللهِ» أي أحبَّ لِقاءَ ما وَعَدَ اللهُ لَهُ «ومَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ» أي كَرِهَ ما وَعَدَ لَهُ. وأصلُهُ: «مَنْ أحبَّ الرُّجوعَ إلى اللهِ أحبَّ اللهُ رُجوعَهُ ومَنْ كَرِهَ الرجوعَ إلى اللهِ كَرِهَ اللهُ رُجوعَهُ إليهِ» [البخاري ٦٥٠٧ و٦٥٠٨] والمَحَبَّةُ لِلّهِ اختيارُ أَمْرِهِ وطاعتِهِ. وعلى ذلكَ ما رُوِيَ في الخَبَرِ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][٣] قالَ: «الدنيا جَنَّةُ الكافِرِ يَلْعَبُ فيها، ويَرْتَكِضُ في أمانيها، وسِجْنُ المؤمنِ، وراحَتُهُ بالموتِ» [مسلم: ٢٩٥٦].

واصْلُهُ أنها سِجْنُ المؤمنِ؛ لأنَّ المؤمنَ يَمْنَعُهُ دينُهُ مِنْ قَضاءِ شَهَواتِهِ لِما يَخافُ هَلاكَهُ، ويُحَذِّرُهُ عمّا يُفيضُهُ إلى الهَلاكِ. والكافرُ لا يَمْنَعُهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ عمّا يُريدُ مِنْ قَضاءِ شَهَواتِهِ في الدنيا، فتكونُ لهُ كالجَنَّةِ ولِلْمُؤمِنِ كالسِّجْنِ على ما ذَكَرْنا.

ويَحتَمِلُ وَجهاً آخَرَ وهو أنَّ الكافِرَ عندَ الموتِ يُعايِنُ مَكانَهُ وما أُوعِدَ لَهُ في النارِ؛ فَتَصيرُ عندَ ذلكَ الدنيا كالجَنَّةِ لَهُ؛ [يُريدُ الرُّجوعَ إليها][٤]، والمؤمنُ يُعايِنُ مَوضِعَهُ في الجَنَّةِ، فَتَصيرُ [الدنيا][٥] كالسِّجْنِ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قيلَ: سُمِّيَتِ القِيامَةُ ساعةً لِسُرْعَتِها لَيْسَتْ كالدنيا؛ لأنَّ في الدنيا تَتَغَيَّرُ فيها على المَرْءِ الأحْوالُ؛ يكونُ نُطْفَةً، ثم يَصيرُ عَلَقَةً، ثم مُضْغَةً، ثم يَصيرُ خَلْقاً آخَرَ، ثم إنساناً، ثم يكونُ طِفلاً، ثم رَجُلاً؛ تَتَغَيَّرُ عليهِ الأحْوالُ.

وأمّا القِيامَةُ فإنها لا تقومُ على تَغَيُّرِ الأحْوالِ؛ فَسُمِّيَتِ الساعةُ لِسُرْعَتِها بِهِمْ، وقيلَ: سُمِّيَتِ القِيامَةُ الساعةَ لأنها تقومُ في ساعةٍ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقيلَ: سُمِّيَتِ الساعةُ لِما[٦] تقومُ ساعةً فَساعةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَغْتَةً﴾ أي فَجأةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ قيلَ: التَّفريطُ هو التَّضييعُ؛ فَيَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي ما ضَيَّعْنا في الدنيا مِنَ المَحاسِنِ والطاعاتِ، ويَحتَمِلُ: ضَيَّعْنا في الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ والجَزاءِ الجزيلِ بِكُفْرِهِمْ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ هو، واللهُ أعْلَمُ، على التَّمْثِيلِ لَيسَ على التَّحْقِيقِ؛ وهو يَحتَمِلُ [وُجُوهاً]:

أحَدُها[٧]: يَحتَمِلُ أنهُ أخْبَرَ أنهُمْ ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ بما لَزِمُوا أوزارَهُمْ وآثامَهُمْ، لم يُفارِقُوها قَطُّ؛ وَصَفَهُمْ بالحَمْلِ على الظَّهْرِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. ولكنْ لِما لَزِمَ ذلكَ صارَ كأنهُ في عنقِهِ.

والثاني: إنما ذَكَرَ الظَّهْرَ [لِما على الظَّهْرِ][٨] يُحْمَلُ ما يُحْمَلُ، فَكانَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الشورى: ٣٠] [وكقولِهِ تعالى][٩]: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] لأنَّ الكُفْرَ لا يُكْتَسَبُ بالأيدي، ولا يُقَدَّمُ بها، لكنَّ اكْتِسابَ الشَّيْءِ وتَقْديمَهُ لِما كانَ باليَدِ ذَكَرَ اكْتِسابَ اليدِ وتَقْديمَهُ، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ

---

(١) انظر ما ذكره المؤلف في تفسير الآية ٢٧ ص ١٠٦. (٢) في الأصل وم: حق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م، يكره الرجوع. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) من م، في الأصل: ما. (٧) في الأصل: على وجهين، في م: وجهين. (٨) في م: لما بالظهر، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: و.

ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] إنهُمْ لَمّا تَرَكُوا العَمَلَ بِهِ والاِنْتِفاعَ صارَ كالمَنْبوذِ وراءَ الظَّهْرِ لأنَّ الذي يُنْبَذُ وراءَ الظَّهْرِ هو الذي لا يُعْبَأُ بِهِ، ولا يُكْتَرَثُ إليهِ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ [هو ما ذُكِرَ][1] في بَعْضِ القِصَّةِ أنهُ يأْتِيهِ عَمَلُهُ الخَبيثُ على صُورةٍ قَبيحَةٍ، فيقولُ لَهُ: كُنْتُ أحْمِلُكَ في الدنيا باللَّذّاتِ والشَّهواتِ، وأنتَ اليومَ تَحْمِلُني، فَيَرْكَبُ ظَهْرَهُ، فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي الحَياةُ الدنيا لِلدُّنيا خاصَّةً لأنَّ العَمَلَ إذا لم يكُنْ لِعاقِبَةٍ، تُتَأمَّلُ، فهو عَبَثٌ، كَبانٍ يَبْني بِناءً لا لِعاقِبَةٍ، يَتأمَّلُ، ويَقْصِدُ [عاقبةً][2] بُنْيانِهِ، فهو لَعِبٌ عَبَثٌ. فَعَلَى ذلكَ [العملُ في][3] الحَياةِ الدُّنيا لا لِدارٍ أُخرى، يُتَأمَّلُ، ويُرْجى بِهِ الثَّوابُ والعِقابُ لَيسَ بِحِكْمَةٍ، وإنما هو لَعِبٌ ولَهْوٌ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. أخبَرَ أنَّ خَلْقَهُ إياهُمْ إذا لم يكُنْ لِلرُّجوعِ إليهِ فهي عَبَثٌ. فَعَلَى ذلكَ الحياةُ الدنيا إذا لم يكُنْ هناكَ بَعْثٌ ولا حَياةٌ بَعْدَ المَوتِ لِلثَّوابِ والعقابِ فهو لَعِبٌ ولَهْوٌ. واللَّهْوُ ما يُقْصَدُ بِهِ قَضاءُ الشَّهْوَةِ خاصَّةً، لا تُقْصَدُ بِهِ العاقِبَةُ. واللَّعِبُ هو الذي لا حَقيقَةَ لَهُ، ولا مَقْصِدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي الدارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذينَ يَتَّقُونَ/ ١٤٧ ـ أ/ الشِّرْكَ والفَواحِشَ كُلُّها مِنَ الحَياةِ الدنيا.

وأصْلُهُ أنَّ الحَياةَ الدنيا على ما عِنْدَ أُولئكَ الكَفَرَةِ لَعِبٌ ولَهْوٌ لأنَّ عندَهُمْ لا بَعْثَ، ولا ثَوابَ، ولا عِقابَ، فإذا كانَ عندَهُمْ هكذا، فَيَصيرُ لَعِباً ولَهْواً لأنهُ يَحْصُلُ إنشاءً لا عاقِبَةَ لهُ، فيكونُ كَبِناءِ البَنّاءِ الذي ذَكَرْنا إذا كانَتْ[4] عاقِبَتُهُ غَيرَ مَقْصُودَةٍ، فهوَ لا انْتِفاعَ بِهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، إخبارٌ منهُ نَبِيَّهُ ﷺ أنهُ على[5] عِلْمٍ منهُ بِتَكذيبِهِمْ إياكَ [حين][6] بَعَثَكَ إليهِمْ رسولاً، وأمَرَكَ بِتَبْليغِ الرِّسالةِ إليهِمْ، وكانَ عالِماً بما يَلْحَقُكَ مِنَ الحُزْنِ بِتَكْذيبِهِمْ إيّاكَ، ولكنْ بَعَثَكَ إليهِمْ رسولاً مَعَ عِلْمٍ منهُ بهذا كُلِّهِ لِتُبَلِّغَهُمْ بِذِكْرِ هذا، واللهُ أعْلَمُ لِيُعْلِمَ رسولَهُ أنْ لا عُذْرَ لهُ في تَرْكِ تَبْليغِ الرِّسالةِ، وإنْ كَذَّبُوهُ في تَبْليغِها.

ثم الذي يَحْمِلُهُ على الحُزْنِ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ يُحْزِنُهُ افْتِراؤُهُمْ وكَذِبُهُمْ على اللهِ، أو كانَ يَحْزَنُ لِتَكْذيبِ أقربائِهِ وعشيرَتِهِ إيّاهُ؛ فإنْ أكْذَبَتْهُ عَشيرَتُهُ انْتَهى الخَبَرُ إلى الأبْعَدِينَ، فَيُكَذِّبُونَهُ، فَيَحْزَنُ لِذلكَ، أو يَحْزَنُ حُزْنَ طَبْعٍ لأنَّ طَبْعَ كلِّ أحدٍ، يَنْفِرُ عَنِ التَّكْذيبِ، أو كانَ يَحْزَنُ إشفاقاً عليهِمْ بما يَنْزِلُ عليهِمْ مِنَ العذابِ بِتَكْذيبِهِمْ إيّاهُ وأذاهُمْ لَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦، والشعراء: ٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ[7]: قَرَأَ بَعْضُهُمْ بالتَّخفيفِ، وبَعْضُهُمْ بالتَّشديدِ والتَّثْقيلِ؛ فَمَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ لا يُكْذِبونكَ أي لا يَجِدُونكَ كاذباً قَطُّ، ومَنْ قَرَأَ بالتَّثْقيلِ ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يَنْسِبُونَكَ إلى الكَذِبِ، ولا يُكَذِّبونكَ في نَفْسِكَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في السِّرِّ، ولكنْ يَقُولُونَ ذلكَ في العَلانِيَةِ. والتَّكْذيبُ هو أنْ يُقالَ: إنكَ كاذبٌ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [أي عادةُ الظالِمينَ][9] التكذيبُ بآياتِ اللهِ. و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على نِعَمِ اللهِ؛ عادَتُهُمُ التَّكْذيبُ بآياتِ اللهِ.

[والثاني][10] ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنْفُسِهِمْ لأنهُمْ وضَعُوها في غَيرِ مَوضِعِها.

---

(١) في الأصل و م: ما ذكره. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م: كان. (٥) في الأصل وم: من. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) قرأ نافع والكسائي بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، انظر حجة القراءات ص(٢٤٧). (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل و م: و.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ يُخبِرُ نبيَّهُ ﷺ ويُصَبِّرُهُ على تكذيبِهِمْ إيّاهُ وأذاهُمْ بتَبْليغِ الرِّسالةِ؛ يَقولُ: لَسْتَ أنتَ أوَّلَ مُكَذَّبٍ مِنَ الرُّسُلِ، بل كُذِّبَ إخوانُكَ مِنْ قَبْلِكَ على تَبْليغِ الرِّسالةِ، فَصَبَرُوا على ما كُذِّبُوا، وأُوذُوا، ولم يَترُكوا تَبْليغَ الرِّسالةِ مع تكذيبِهِمْ إيّاهُمْ. فَعَلى ذلكَ لا عُذْرَ لكَ في تَرْكِ تَبْليغِ الرِّسالةِ، وإنْ كَذَّبوكَ في التَّبْليغِ، ويُؤذُوكَ؛ وهو ما ذَكَرْنا أنهُ يُخبِرُهُ أنه بَعَثَكَ رسولاً على عِلْمٍ منهُ بكلِّ الذي كانَ منهُمْ مِنَ التَّكذيبِ والأذى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أخبرَ اللهُ أنهُ نَصَرَ رُسُلَهُ. ثم يَحْتَمِلُ هذا النَّصْرُ وُجوهاً: أحدُها: نَصَرَهُمْ إذْ[1] أظهَرَ حُجَجَهُ وبَراهينَهُ حتى عَلِمُوا جميعاً أنّها هيَ الحُجَجُ والبَراهينُ وأنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ، لكنَّهُمْ تعانَدُوا، وكابَرُوا. ويَحتَمِلُ[2] النَّصْرَ لَهُمْ بما جَعَلَ آخِرَ أمرِهِمْ لَهُمْ، وإنْ كانَ قد أصابَهُمْ شَدائِدُ في بَدْءِ الأمْرِ، ويَحْتَمِلُ نَصرَهُمْ لَمّا استأصَلَ قومَهُمْ، وأهلَكَهُمْ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ. وفي استِئصالِ القَومِ وإهلاكِهِ إيّاهُمْ وإبْقاءِ الرُّسُلِ نَصْرُهُمْ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] يَخرجانِ[3] على الوُجوهِ التي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنَ النَّصْرِ لَهُمْ واستِئصالِ قومِهِمْ وما أوعَدَهُمْ مِنَ العذابِ. فذلكَ كلماتُ اللهِ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ حُجَجَهُ وبَراهينَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢] أي بِحُجَجِهِ وآياتِهِ وكقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] أي حُجَجُ رَبِّي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ إهلاكِ القَومِ وإبْقاءِ الرُّسُلِ قد جاءَكَ ذلكَ النَّبأُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ مِنْ تَكذيبِ قومِهِمْ لَهُمْ وأذاهُمْ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ تَصْبيرُ رسولِ اللهِ ﷺ [على ما][4] يَشُقُّ عليهِ كُفْرُ قَومِهِ وإعراضُهُمْ عنِ الإيمانِ حتى كادَتْ نَفْسُهُ تَتلَفُ، وتَهلِكُ لذلكَ إشفاقاً عليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ يُشْفِقُ عليهِمْ بِتَرْكِهِمُ الآياتِ لِما يُعَذَّبُونَ أبداً في النارِ.

الآية ٣٥ فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إذْ[5] كانَ يَكْبُرُ عليهِ، ويَثْقُلُ إعراضُهُمْ لَمّا يَطلُبونَ منهُ الآياتِ. حتى إذا جاءَ بها لا يُؤمِنُونَ مِنْ نَحْوِ ما قالُوا ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي سَألُوها.

فَطَمِعَ رسولُ اللهِ ﷺ في إيمانِهِمْ إذا جاءَ بِما سَألُوا مِنَ الآياتِ، فكانَ اللهُ عالماً بأنهُ، وإنْ جاءَتْهُمْ آياتٌ، لم يُؤمِنُوا. وإنما يَسْألونَ سؤالَ تَعَنُّتٍ لا سُؤالَ طَلَبِ آياتٍ لِتَدُلَّهُمْ على الهُدَى.

فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أي أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ نَهياً عَنِ الحُزنِ عليهِمْ؛ أي لا تَحزَنْ عليهِمْ كُلَّ هذا الحُزْنِ بما يَنْزِلُ بِهِمْ، وقد تَعلَمُ صَنيعَهُمْ وسُوءَ مُعامَلَتِهِمْ آياتِ اللهِ.

وكذلكَ رُوِيَ في القِصَّةِ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيشٍ قالُوا: يا محمدُ ائْتِنا بِآيَتَينِ عَنْ ذلكَ. كما كانَتِ الأنبياءُ تأتي قَومَها بالآياتِ إذا سألُوهُمْ[6]، فإنْ أتَيْتَنا آمَنّا بكَ، وصَدَّقْناكَ. فَيَأبى اللهُ تعالى أنْ يأتِيَهُمْ بما قالُوا، فاعْرَضُوا عنهُ، فَكَبُرَ ذلكَ عليهِ، وشَقَّ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ يَقولُ: إنْ قَدَرتَ ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ يَقولُ: إنْ تَطلُبْ ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ كَنَفَقِ اليَرْبُوعِ نافِذاً أو مَخرَجاً، فَتَوارَى فيهِ[7] منهُمْ ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ يكونُ سَبَباً إلى صُعودِ السماءِ، فَتأتيهِمْ بالآيَةِ[8] التي سألُوها فافْعَلْ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل و م: يخرج. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: سألوه. (٧) في الأصل وم: منه. (٨) في الأصل وم: بآية.

قالَ القُتَبيُّ: النَّفَقُ في الأرضِ: المَدْخَلُ، وهوَ السَّرَبُ، والسُّلَّمُ في السماء: المَصْعَدُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: النَّفَقُ الغارُ، والأنفاقُ الغِيرانُ، والغارُ واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لَقَهَرَهُمْ على الهُدَى، وأكْرَهَهُمْ كما فَعَلَ بالملائكةِ [إذْ مِنْ قولِهِ: أنَّ الملائكةَ][1] مَجْبُورونَ مَقْهُورونَ. ثم هو يُفَضِّلُ الملائكةَ على البَشَرِ، ويَجْعَلُ لَهُمْ مَناقِبَ، لا يَجْعَلُ ذلكَ لأحَدٍ مِنَ البَشَرِ. فلو كانَتِ الملائكةُ مَجْبُورِينَ مَقْهُورِينَ على ذلكَ لم يَكُنْ في ذلكَ لَهُمْ كَبِيرُ مَنْقَبَةٍ، ففي قولِهِ اضْطِرابٌ.

وأمّا تأويلُهُ عندَنا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي لَجَعَلَهُمْ جميعاً بِحَيثُ اختاروا الهُدَى، وآثَرُوهُ على غيرِهِ. ولكنْ لَمّا عَلِمَ منهُمْ أنْ يَختارُوا الكُفْرَ على الهُدَى لم يَشَأْ أنْ يَجْمَعَهُمْ على الهُدَى، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ ألّا يكونَ الهُدَى في حالِ القَهْرِ والجَبْرِ، وإنّما يكونُ في حالِ الاختِيارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وُجوهاً؛ يَحْتَمِلُ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ مِنْ قَضاءِ اللهِ وحُكْمِهِ، ويَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ مِنْ إحسانِهِ وفَضْلِهِ، أي مِنْ إحسانِهِ جَعَلَ لَهُمُ الهُدَى، ويَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أنهُ يُؤْمِنُ بكَ بعضُهُمْ، وبَعْضُهُمْ لا يُؤْمِنُ.

قالَ أبو بكرٍ الكيسانيُّ في قولِهِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ابْتَلاهُمْ بِدونِ ما ابْتَلاهُمْ بِهِ لِيَخِفَّ عليهِمْ، فَيُجيبونَ بأجمعِهِمْ، أو يقولُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لَوَفَّقَهُمْ جميعاً لِلْهُدَى، فَيَهْتَدُونَ، وهو قولُنا. لكنْ لم يَشَأْ لِما ذَكَرْنا أنهُ لم يُوَفِّقْهُمْ لِما عَلِمَ منهُمْ أنهُمْ يَختارونَ الكُفْرَ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بأنَّ اللهَ قادِرٌ؛ لو شاءَ لَجَعَلَهُمْ جميعاً مُهْتَدِينَ. ثم معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مَعْصوماً، لا يجوزُ أنْ يُقالَ: إنهُ يكونُ مِنَ الجاهِلِينَ أو مِنَ الشاكِرِينَ على ما ذَكَرَ. ولكنْ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِيُعْلِمَ أنَّ العِصْمَةَ لا تَرْفَعُ الأمْرَ والنَّهْيَ والامْتِحانَ، بل تزيدُ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ، إنما يَسْتَجيبُ الذينَ يَنْتَفِعونَ بما يَسْمَعُونَ، وإلّا كانُوا يَسْمَعُونَ جميعاً. لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا: أنهُ إنما يُجيبُ الذينَ يَنْتَفِعُونَ بما يَسْمَعُونَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] كانَ النَّبيُّ ﷺ /١٤٧ - ب/ يُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ومَنْ لم يَتَّبِعْ. لكنِ انْتَفَعَ بالإنذارِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، ولم يَنْتَفِعْ مَنْ لم يَتَّبِعْ، وهو ما ذَكَرَ ﷻ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أخْبَرَ أنَّ ﴿ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا تَنْفَعُ غيرَهُمْ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ على الابْتِداءِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. وقالَ قائلونَ: أرادَ بالمَوْتَى الكُفّارَ؛ سَمَّى الكافرَ مَيتاً والمؤمِنَ حَيّاً في غيرِ مَوضِعٍ مِنَ القرآنِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهو، واللهُ أعْلَمُ، أنْ جَعَلَ لِكُلِّ بَشَرٍ سَمْعَينِ وبَصَرَينِ وحَياتَينِ [سَمْعاً أبَدِيّاً][4] في الآخِرَةِ [وبَصراً أبَدِيّاً][5] في الآخِرَةِ. وكذلكَ جَعَلَ لِكُلِّ أحَدٍ حَياتَينِ: حَياةَ الآخِرَةِ وحَياةً مُنْقَضِيَةً[6]، وهي حَياةُ الدنيا، وكذلكَ [جَعَلَ لِكُلِّ أحَدٍ سَمْعاً أبَدِيّاً][7] وهو سَمْعُ الآخِرَةِ [وسَمْعاً ذا][8] مُدَّةٍ، لها انْقِضاءٌ، وهو سَمْعُ الدنيا. ثم نَفَى السَّمْعَ والبَصَرَ والحياةَ عَمَّنْ لم يُدْرِكْ بهذا السَّمْعِ والبَصرِ والحياةِ التي جَعَلَ لهُ في الدنيا، ولم يُبْصِرْ سمْعَ الأبَدِيَّةِ لأنهُ إنما جَعَلَ لَهُمْ هذا في الدنيا لِيُدْرِكوا بهذا ذاكَ.

وكذلكَ العُقولُ التي رُكِّبَتْ في البَشَرِ إنَّما رُكِّبَتْ لِيُدْرِكُوا بها، ويُبْصِرُوا ذلكَ الأبَدِيَّ، وإلّا كانَ[9] تَرْكيبُ هذهِ العقولِ في البَشَرِ لِهذهِ الدنيا خاصَّةً لا لِعَواقِبَ تُتَأمَّلُ لِلْجَزاءِ والعِقابِ. فالبَهائِمُ قد تُدْرِكُ بالطَّبْعِ ذلكَ القَدْرَ، وتَعْرِفُ ما يُؤْتَى،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الكفرة. (٣) من م، في الأصل: فيهما. (٤) في الأصل وم: سمع أبدي. (٥) في الأصل وم: وبصر أبدي. (٦) في الأصل و م: منقبضة. (٧) في الأصل و م: سمع أبدي. (٨) في الأصل و م: وسمع ذو. (٩) في الأصل و م: كانت.

ويُتَّقَى[1]، وما يَصْلُحُ لها. فَدَلَّ أنَّ تركيبَ العقولِ في مَنْ رَكَّبَ إنما رَكَّبَ لا لِما يُدْرِكُ هذا، إذْ يُدْرِكُ ذلكَ المِقْدارَ بالطَّبْعِ مَنْ لم يُرَكَّبْ فيهِ، وهي[2] البَهائِمُ التي ذَكَرْنا.

والسَّمْعُ والبَصَرُ والحياةُ قد [جَعَلَها اللهُ][3] في الدنيا لِمَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ، وكذلكَ جَعَلَ لَهُمُ اللِّسانَ لِيَنْطِقَ بِحوائِجِهِمْ في الدنيا، ويَعْرِفَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضِ المُحاجَّةَ[4] في الدنيا، ويُدْرِكَ بهِ الأزَلِيَّ. فإذا لم يَنْتَفِعُوا بذلكَ أزالَ عنهُمْ ذلكَ، وسَمّاهُمُ العُمْيَ والصُّمَّ والبُكْمَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] لِما لم يَنْتَفِعُوا بذلكَ؟ ألا تَرَى أنَّهُ إذا لم يُدْرِكِ الأزَلِيَّ والأبَدِيَّ مِنْ ذلكَ سَمّاهُ أعْمَى حِينَ[5] قالَ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾؟ [طه: ١٢٥].

والحياةُ حياتانِ: مُكْتَسَبَةٌ، وهي الحياةُ التي تُكْتَسَبُ بالهُدَى والطاعاتِ، وحياةٌ مُنْشَأةٌ؛ وهي حياةُ الأجسادِ. فالكافِرُ لهُ حياةُ الجَسَدِ، وليسَ لهُ حياةٌ مُكْتَسَبَةٌ. وأمّا المُؤْمِنُ فَلَهُ حَياتانِ جميعاً المُكْتَسَبَةُ والمُنْشَأةُ. فَسَمَّى كُلّاً بالأسماءِ[6] التي اكْتَسَبَها. فالمؤمنُ اكْتَسَبَ أفعالاً طَيِّبَةً، فَسَمّاهُ بذلكَ، والكافِرُ اكْتَسَبَ أفعالاً قَبِيحَةً، فَسَمّاهُ بذلكَ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ هؤلاءِ قومٌ هَمُّهُمُ العِنادُ والمُكابَرَةُ؛ قد كانَ أنْزَلَ عليهِ آياتٍ عَقْلِيّاتٍ وسَمْعِيّاتٍ وحِسِّيّاتٍ.

فأمّا الآياتُ العَقْلِيّاتُ فهي[7] ما ذَكَرَ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية [الإسراء: ٨٨]. وأمّا الآياتُ السَّمْعِيّاتُ فهي[8] ما أنْبَأهم عنْ أشياءَ كانَتْ غائبةً عنهُ مِنْ غيرِ أن كانَ لهُ اخْتِلافٌ إلى مَنْ يَعْلَمُها، ويُنَبِّئُهُ[9] عنها. والآياتُ الحِسِّيّاتُ هي ما سَقَى أقواماً كَثيرةً بِلَبَنٍ قَليلٍ مِنْ قَصْعَةٍ وما قَطَعَ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ بِلَيْلَةٍ واحدة، ونُطْقُ العَناقِ الذي [شُوِيَ][10] لَهُ، وحَنِينُ المِنْبَرِ، وغَيْرُ ذلكَ مِنَ الأشياءِ مِمّا يَكْثُرُ ذِكْرُها. لكنَّهُمْ عانَدُوا، وكانَتْ هِمَّتُهُمُ العِنادَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ التي سألُوكَ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ [وُجوهاً]:

أحَدُها][11]: يَحْتَمِلُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهُ [لو][12] أنْزَلَ آيةً على إثْرِ السُّؤالِ لأنْزَلَ عليهِمُ العَذابَ، واسْتَأْصَلَهُمْ إذا عانَدُوا.

والثاني[13]: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا يُنْزِلُ الآيةَ إلّا عندَ الحاجةِ بهِمْ إليها.

والثالثُ[14]: لا يَسْألونَ الآيةَ لِيَعْلَمُوا، ولكنْ يَسْألُونَ لِيَتَعَنَّتُوا.

والرابعُ[15]: إذا أنْزَلَ آيةً على إثْرِ السُّؤالِ[16]، فلم يَقْبَلُوها، ولم يُؤْمِنُوا بها أهلَكَهُمْ على ما ذَكَرْنا مِنْ سُنَّتِهِ في الأوَّلِينَ. ولكنَّهُ وَعَدَ على إبْقاءِ هذهِ الأُمَّةِ[17] إلى يومِ القِيامَةِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ لأنهُ ذَكَرَ دابَّةً، والدّابَّةُ كُلُّ ما يَدِبُّ على وجهِ الأرضِ مِنْ ذي الرُّوحِ، وذَكَرَ الطائرَ، وهو اسْمُ كلِّ ما يَطيرُ في الهواءِ؛ لَمّا كانَ قادراً على خَلْقِ هذهِ الجواهرِ المُخْتَلِفَةِ وسَوْقِ رِزْقِ كلٍّ مِنْهُمْ إليهِ [فإنهُ][18] لَقادِرٌ على أنْ يُنَزِّلَ آيَةً، ويَضْطَرَّهُمْ[19] جَميعاً إلى القَبولِ لَها والإقرارِ بها. ولكنَّهُ لا يُنَزِّلُ لِما لَيْسَتْ لَهُمُ الحاجَةُ إليها. والآياتُ لا تُنَزَّلُ إلّا عندَ وقوعِ الحاجَةِ لَهُمْ إليها.

وإلى هذا يَخْرُجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذهِ الآيةِ على أنَّ البَهائِمَ والطَّيْرَ مُمْتَحَنَتانِ حِينَ[20] قالَ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ ثم قالَ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) في الأصل و م: وتبقى. (٢) في الأصل و م: وهو. (٣) في الأصل و م: جعل. (٤) في الأصل و م: حاجة. (٥) في الأصل و م: حيث.
(٦) في الأصل و م: بأسماء. (٧) في الأصل وم: هي. (٨) في الأصل وم: هي. (٩) في الأصل وم: وينبؤها. (١٠) في م: سوى، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وجهين: أحدهما. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يحتمل. (١٤) في الأصل وم: ويحتمل أنه. (١٥) في الأصل وم: أو. (١٦) في الأصل وم: الرسول. (١٧) في الأصل وم: الآية. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: لاضطروا. (٢٠) في الأصل و م: حيث.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ عنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه [أنه][1] قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ أي إلّا سَيُحْشَرونَ يومَ القِيامَةِ، ثم تَقتَصُّ البَهائِمُ بَعْضُها مِنْ بَعضٍ. ثم يُقالُ لها: كوني تُراباً؛ فَعِنْدَ ذلكَ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠] كالبَهائِمِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [رضي الله عنه أنهُ][2] قالَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ أي يَفْقَهُ بَعْضُها مِنْ بَعضٍ كما يَفْقَهُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، و﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ في مَعْرِفَةِ ما يُؤتَى، ويُتَّقَى.

ويَحْتَمِلُ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ في الكَثْرَةِ والعَدَدِ والخَلْقِ، والصُّنُوفُ تُعْرَفُ بالأسامي كما تُعْرَفُونَ أنتُمْ.

وأصْلُهُ إنما ذَكَرَ مِنَ الدَّوابِّ والطَّيرِ ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ سَخَّرَها لَكُمْ، لم [يكنْ][3] منهُمْ ما يكونُ منكُمْ مِنَ العِنادِ والتَّكْذيبِ لِلرُّسُلِ والخُروجِ عليهِمْ، بل خاضِعةٌ[4] لكُمْ مُذَلَّلَةٌ[5]، تَنْتَفِعُونَ بها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ في مَعْرِفَةِ وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ أو حَقِّ الطاعةِ للهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ أي ما تَرَكْنا شيئاً إلّا وقد ذَكَرْنا أصلَهُ في القرآنِ. وعَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][6] قالَ: ما تَرَكْنا شيئاً إلّا قد كَتَبْناهُ في أُمِّ الكتابِ، وهو اللَّوحُ المَحْفوظُ. وقيلَ ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ ما ضَيَّعْنا ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ ما قد تَقَعُ لكُمُ الحاجةُ إليهِ أو مَنْفَعَةٌ إلّا قَدْ بَيَّنّا لَكُمْ في القرآنِ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ قيلَ: الطَّيرُ والبَهائِمُ يُحْشَرونَ معَ الخَلْقِ، وقيلَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ يَعْني بَني آدَمَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قالَ الحَسَنُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دينِنا، وقالَ غيرُهُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حُجَجِنا: حُجَجِ وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ وحُجَجِ الرِّسالةِ والنُّبُوَّةِ. ويَحْتَمِلُ آياتِ البَعْثِ؛ كَذَّبُوا بذلكَ كُلِّهِ. وقد ذَكَرْنا هذا في غيرِ مَوْضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صُمّٞ وَبُكۡمٞ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ نَفَى عنهُمُ السَّمْعَ واللِّسانَ والبَصَرَ لِما لَمْ يَعْرِفُوا نِعْمَةَ السَّمْعِ ونِعْمَةَ البَصَرِ ونِعْمَةَ اللِّسانِ. ولا يجوزُ أن يَجْعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ، ثم لا يُكَلِّمَهُمْ ما يَسْمَعُونَ بالسَّمْعِ وما يَنْطِقُونَ باللسانِ.

دلَّ أنهُ يَحتاجُ إلى رسولٍ يَسْمَعُونَ منهُ، ويَسْتَمِعُونَ إليهِ، ويَنْطِقُونَ ما عَلَّمَهُمْ. فإذا لم يَفْعَلُوا صاروا كما ذَكَرَ ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] لِما لم يَنْتَفِعُوا بهِ، ولم يَعْرِفوا نِعْمَةَ التي جَعَلَ لَهُمْ في ما ذَكَرَ، ونَفَى عَنْهُمَ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ لِما ذَكَرْنا أنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والحَياةَ على ضَربَيْنِ: مُكْتَسَبٍ ومُنْشَإٍ، فَنَفَى عنهُمُ السَّمْعَ المُكْتَسَبَ والبَصَرَ المُكْتَسَبَ والحَياةَ المُكْتَسَبَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما:[7] ظُلُماتُ الجَهْلِ والكُفْرِ.

والثاني: هُمْ في ظُلُماتٍ؛ يَعْني ظُلُماتِ السَّمْعِ والبَصَرِ والقَلْبِ، وهم في ظُلْمَتَيْنِ جميعاً في ظُلْمَةِ الجَهْلِ والكُفْرِ وظُلْمَةِ السَّمْعِ والبَصَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور: ٤٠] والمُؤْمِنُ في النورِ كقولِهِ تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ [النور: ٣٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يَهْدِهِ. وصَفَ جل جلاله نَفْسَهُ بالقُدْرَةِ، وجَعَلَهُمْ جميعاً مُنْقَلِبِينَ في مَشيئَتِهِ، وأخْبَرَ أنهُ شاءَ لِبَعْضِهِمُ الهُدَى. فَمَنْ قالَ: إنهُ شاءَ لِلْكُلِّ الهُدَى، لكنْ لم يَهْتَدُوا، أو شاءَ لِلْكُلِّ الضَّلالَ، فهو/١٤٨ ـ أ/ خِلافُ ما ذَكَرَهُ جل جلاله لأنهُ أخْبَرَ أنهُ شاءَ الضَّلالَ لِمَنْ ضَلَّ، وشاءَ الهُدَى لِمَنِ اهْتَدَى.

وأصْلُهُ أنهُ إذا عَلِمَ مِنَ الكافِرِ أنهُ يَخْتارُ الكُفْرَ، شاءَ أنْ يُضِلَّ، وخَلَقَ فِعْلَ[8] الكُفْرِ منهُ. وكذلكَ إذا عَلِمَ مِنَ المؤمِنِ أنهُ يَخْتارُ الإيمانَ والاهْتِداءَ، شاءَ أنْ يَهْدِيَ، وخَلَقَ فِعْلَ الاهْتِداءِ منهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: خاضعين. (٥) في الأصل وم: مذللين. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: يحتمل. (٨) من م، في الأصل: كل.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ الذي وَعَدَ لَكُمْ في الدنيا أنهُ يأتيكُمْ ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لأنهُ كانَ وَعَدَ لَهُمْ أنْ يأتِيَهُمُ[1] العذابُ، وكانَ يَعِدُ لَهُمْ أنْ تَقُومَ الساعةُ، فقالَ: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ في دَفْعِ ذلكَ وكَشْفِهِ عنكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ مَعَهُ شُرَكاءَ وآلهةً، و﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ ما تَعْبُدونَ شُفَعاؤُكُمْ[2] عندَ اللهِ، أو تُقَرِّبُكُمْ عِبادتُكُمْ[3] إيّاها إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ حقيقةَ الدعاءِ عندَ نُزُولِ البلاءِ، ويَحْتَمِلُ العِبادةَ؛ أي أغيرَ اللهِ تَعْبُدُونَ على رَجاءِ الشَّفاعَةِ لكُمْ، وقد رَأيتُمْ أنها لم تَشْفَعْ لكُمْ عندَ نُزولِ البَلاءِ.

الآية ٤١ [وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾][4] أخبرَ أنهُمْ لا يَدْعُونَ غيرَ اللهِ في دَفْعِ ذلكَ وكَشْفِهِ عنهُمْ، وأخبرَ أنهُمْ إلى اللهِ يَتَضَرَّعُونَ في دَفْعِ ذلكَ عنهُمْ، وهو ما ذَكَرَ ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، أنكُمْ إذا مَسَّتْكُمُ الشَّدائِدُ والبَلايا لا تَفْزَعُونَ إلى الذينَ تُشْرِكُونَ في عِبادَتِهِ وأُلُوهِيَّتِهِ، كيفَ أشْرَكْتُمْ أولئكَ في رُبُوبِيَّتِهِ في غَيرِ الشَّدائدِ والبَلايا؟ ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؟ أي تَتْرُكُونَ ما تُشْرِكُونَ باللهِ مِنَ الآلِهةِ، فَلا تَدْعُونَهُمْ أنْ يَكْشِفُوا عَنْكُمْ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: البَأساءُ: الشَّدائِدُ التي تُصِيبُهُمْ مِنَ العَدُوِّ، والضَّرَّاءُ: ما يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ البَلاءِ والسَّقَمِ السَّماوِيِّ، وقالَ بَعْضُهُمْ: البَأساءُ: هو ما يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الفَقْرِ والقَحْطِ والشِّدَّةِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ الزَّمانَةُ والخوفُ، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ البلاءُ والجوعُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي ابْتَلاهُمْ بهذا، أوِ امْتَحَنَهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ويرجِعُونَ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ يُذْكَرُ في هذا أنهُ قد أصابَهُمُ البلاءُ والشِّدَّةُ، ولم يتَضَرَّعُوا، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ويُذْكَرُ في غَيرِهِ مِنَ الآياتِ أنهُ إذا أصابَهُمُ البلاءُ والشَّدائِدُ تَضَرَّعُوا، ورَجَعُوا عمّا كانُوا عليهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وغَيرِهما مِنَ الآياتِ.

لكنْ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً:

أنَّ هذا كانَ مِنْ قومٍ، والأوَّلَ كانَ مِن قومٍ آخرينَ؛ وذلكَ أنَّ الكَفَرَةَ كانُوا على أحوالٍ ومَنازِلَ:

مِنهُمْ منْ كانَ على حالٍ، فإذا أصابَهُ خَيرٌ اطْمَأنَّ بهِ، وإذا زالَ عنهُ، وتَحَوَّلَ، تَغَيَّرَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

ومِنهُمْ مَنْ يَتَضَرَّعُ، ويَلِينُ قَلْبُهُ إذا أصابَهُ الشِّدَّةُ والبلاءُ، وعِنْدَ السَّعَةِ والنِّعْمَةِ [يَصيرُ][6] قاسِيَ القَلْبِ مُعانِداً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [العنكبوت: ٦٥] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ومِنهُمْ مَنْ كانَ فَرِحاً عِنْدَ الرَّحْمَةِ، وعِنْدَ البلاءِ والشِّدَةِ كَفُوراً حزيناً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

---

(١) في الأصل و م: يأتيكم. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. (٤) في الأصل و م: ثم. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل و م.

ومنهُم مَنْ كانَ لا يَخضَعُ، ولا يَتضرَّعُ في الأحوالِ كُلِّها لا عندَ الشِّدَّةِ والبَلاءِ ولا عندَ الرخاءِ والنِّعْمَةِ، ويَقولُونَ. إنَّ مِثْلَ هذا يُصِيبُ غَيْرَنا، وقد ﴿مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥].

كانُوا على أحوالٍ مُخْتَلِفَةٍ ومَنازِلَ مُتفرِّقَةٍ؛ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في القومِ الذينَ لم يَتضرَّعُوا عندَما أصابَتْهُمُ الشدائدُ والبلايا.

وجائزٌ أنْ يكونُوا تَضرَّعُوا عندَ حُلولِ الشَّدائِدِ؛ فإذا انْقَطَعَ ذلكَ، وارْتَفَعَ، عادُوا إلى ما كانُوا مِنْ قَبْلُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ رَبِّهِمْ، وهذا في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ الرُّسُلِ لأنَّ الرُّسُلَ كانُوا يَدعُونَ إلى أنْ يُقِرُّوا برسالَتِهِمْ، ويُصَدِّقُوهُمْ في ما يَقولونَ لَهُمْ، ويُخبِرُونَ، فَتَكَبَّرُوا عليهِمْ، وأقَرُّوا للهِ، وتَضرَّعُوا إليه؛ تكَبَّرُوا عليهِمْ، ولم يَتَكَبَّرُوا على اللهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ في الأُمَمِ السالِفَةِ إخباراً منهُمْ أنهمْ لم يَتَضرَّعُوا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ أيضاً: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُمْ لم يَتَضرَّعُوا إذْ جاءَهُمْ بَأْسُ اللهِ، ولكنْ عانَدُوا، وثَبَتُوا على ما كانُوا عليهِ.

والثاني: تَضرَّعُوا عندَ نُزُولِ بأسِهِ، لكنْ إذا ذَهَبَ ذلكَ، وزالَ عادُوا إلى ما كانُوا عليهِ، فَيَصِيرُ كأنهُ قالَ: فلولا لَزِمُوا التَّضرُّعَ إذْ جاءَهُمْ بأسُنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي زَيَّنَ لهمْ صنيعَهُمُ الذي صَنَعُوا، ويَقولُونَ: إنَّ هذا كانَ يُصيبُ أهلَ الخيرِ، ويُصيبُ آباءَنا، وهمْ كانُوا أهْلَ خيرٍ وصَلاحٍ، أو زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الشِّرْكِ والتكذيبِ، ويَقولُ لهمْ: إنَّ الذي أنْتُمْ عليهِ حَقٌّ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ ابْتِداءَ تَرْكٍ؛ أي تَرَكُوا الإجابَةَ إلى ما دُعُوا، وتَرَكُوا ما أُمِرُوا بِهِ، ويَحْتَمِلُ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ مِنَ الشَّدائِدِ والبلايا.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا يحتاجُونَ إليه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾.

ويَحْتَمِلُ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي تَرَكُوا ما وُعِظُوا بهِ؛ يعني بالأُمَمِ الخاليةِ مِمّا دعاهُمُ الرُّسُلُ، فَكَذَّبُوهُمْ ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أنْزَلْنا عليهِمْ ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ أنواعِ الخيرِ بَعْدَ الضَّرِّ والشِّدَّةِ الذي كانَ نَزَلَ بِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][(٢)]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: [المُبْلِسُ][(٣)] الآيِسُ مِنْ كُلِّ خيرٍ، وقالَ[(٤)] القُتَبِيُّ: المُبْلِسُ الآيِسُ المُلْقِي بِيَدَيهِ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: المُبْلِسُ هو الحَزِينُ المُغْتَمُّ الآيِسُ مِنَ الرحْمَةِ وغَيرِها مِنَ الخيرِ، وقالَ الفَرّاءُ: المُبْلِسُ هو المُنْقَطِعُ الحُجَّةِ. وقيلَ: لذلكَ سُمِّيَ إبليسُ، لعنَهُ اللهُ، إبليسَ لِما أَيِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قِيلَ: اسْتُؤْصِلَ القَوْمُ الذينَ ظَلَمُوا بالهلاكِ جَميعاً، والظُّلْمُ ههنا الشِّرْكُ، وقِيلَ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي أصْلُهُمْ، وقِيلَ: ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي آخِرُهُمْ، وكُلُّهُ واحِدٌ؛ وذلكَ أنه إذا هَلَكَ آخِرُهُمْ، وقُطِعُوا، فَقَدِ اسْتُؤْصِلُوا. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي قُطِعَ افْتِخارُهُمْ وتَكَبُّرُهُمُ الذي كانُوا يَفْتَخِرُونَ بِهِ، ويَتَكَبَّرُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحَمْدُ في هذا المَوْضِعِ على إثْرِ ذلكَ الهَلاكِ يَخْرُجُ على وُجوهٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) الواو ساقطة من الأصل و م.

أحدُها: الحَمْدُ[١] إنَّما يُذكَرُ على إثْرِ ذلكَ للكرامةِ والنِّعْمَةِ؛ لكنْ ههنا، وإنْ كانَ نِقْمَةً وإهلاكاً، فيكونُ لِلأَولياءِ كَرامَةً ونِعْمَةً؛ لأنَّ هَلاكَ العَدُوِّ يُعَدُّ مِنْ أعْظَمِ الكَرامَةِ والنِّعْمَةِ مِنَ اللهِ. فإذا كانَ في ذلكَ شرٌّ لِلأعداءِ والانتِقامُ، فَيكونُ خَيْراً لِلأولياءِ وَكرامَةً. وما مِنْ شَرٍّ يكونُ لأحَدٍ إلّا ويجوزُ أنْ يكونَ في ذلكَ خَيْراً[٢] لآخَرَ. فيكونُ الحَمْدُ في الحاصِلِ في الخَيْرِ والنِّعْمَةِ.

والثاني: أنهُ يَجوزُ أنْ يكونَ في الهَلاكِ نَفْسِهِ الحَمْدُ، إذا كانَ الهَلاكُ بالظُّلْمِ لأنهُ هَلاكٌ بِحَقٍّ؛ إذْ للهِ أنْ يُهلِكَهُمْ. ولم يَكُنِ الهَلاكُ على الظُّلْمِ خارجاً عنِ الحِكْمَةِ، فَيُحمَدُ ﷻ [وَلَهُ][٣] في كُلِّ فِعْلِ حِكْمَةٌ.

والثالثُ: يَقولُ: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على إظهارِ حُجَجِهِ بِهلاكِهِمْ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ اختُلِفَ: فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: يُرادُ بأخذِ السَّمْعِ والبَصَرِ والخَتْمِ على القُلُوبِ أخذُ مَنافِعِ هذِهِ الأشياءِ: أي أخَذَ مَنافِعَ سَمْعِكُمْ ومَنافِعَ بَصَرِكُمْ ومَنافِعَ عُقولِكُمْ ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ بِمَنافِعِ سَمْعِكُمْ ومَنافِعِ بَصَرِكُمْ ومَنافِعِ عُقولِكُمْ؟ فإذا كانَتِ الأصنامُ والأوثانُ التي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وتُشْرِكُونَ /١٤٨ ـ ب/ في أُلوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ، لا يَمْلِكُونَ رَدَّ تلكَ[٤] المَنافِعِ التي أخَذَ اللهُ عَنْكُمْ، فَكيفَ تَعْبُدُونَها، وتُشْرِكونَ في أُلوهِيَّتِهِ؟

وقيلَ: يُرادُ بأخذِ السَّمْعِ والبَصَرِ وما ذَكَرَ أخذُ أعْيُنِها[٥] وأنفُسِها؛ أي لو أخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وبَصَرَكُمْ وعُقولَكُمْ لا يَمْلِكُ ما تَعْبُدونَ رَدَّ هذِهِ الأشياءِ إلى ما كانَتْ[٦]؛ لا يَمْلِكون رَدَّ السَّمْعِ إلى ما كانَ ولا رَدَّ البَصَرِ والعَقْلِ الذي كانَ إلى ما كانَ، فَكيفَ تَعْبُدُونَ دُونَهُ، وتُشْرِكونَ في أُلوهِيَّتِهِ؟ يُسَفِّهُ أحلامَهُمْ، [مَعَ ما][٧] يَعْلَمُونَ أنَّ[٨] ما يَعْبُدُونَ، ويَجْعَلُونَ لَهُمُ الأُلوهِيَّةَ، لا يَمْلِكُونَ نَفْعاً ولا ضراً، ومعَ[٩] ما يَعْرِفونَ ذلكَ مِنْهُمْ يَجْعَلُونَهُمْ[١٠] آلِهَةً مَعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ في خَطَئِهِمْ في عِبادةِ هؤلاءِ وإشراكِهِمْ في أُلوهِيَّتِهِ ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي يُعْرِضُونَ عنْ تلكَ الآياتِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ العذابَ لا يَأتي، ولا يأخُذُ إلّا الظالِمَ، ثم أنهُمْ ظَلَمَةٌ لِعِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ مَعَ عِلْمِهِمْ أنهُمْ لا يَمْلِكُونَ نَفعاً ولا ضَرّاً يَسْأَلُونَ العذابَ بِقولِهِ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وقولِهِ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وقولِهِ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ لم يُرْسِلِ الرُّسُلَ إلّا معَ بِشارَةٍ لأهْلِ الطاعةِ ونِذارَةٍ لأهلِ[١١] مَعْصِيَتِهِ. وفيهِ أنَّ الرُّسُلَ لَيسَ إليهِمُ الأمْرُ والنَّهْيُ إنما إليهِمْ إبلاغُ الأمرِ والنَّهْيِ.

ثم بَيَّنَ البِشارَةَ، فقالَ: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خَوفَ عليهِمْ لِما لَيسَ لِذلكَ فَوتٌ[١٢]، ولا زَوالٌ؛ لَيسَ كَثَوابِ الدنيا ونَعِيمِها لأنهُ[١٣] على شَرَفِ الفَوتِ والزَّوالِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنه سُرُورٌ، لا يَشُوبُهُ الحُزْنُ، لَيسَ كَسُرورِ الدنيا، يكونُ مَشُوباً بالحُزْنِ والخَوفِ.

الآية ٤٩ [وقولُهُ تعالى:][١٤] ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ هذِهِ هي[١٥] النِّذارَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ذَكَرَ المَسَّ، واللهُ أعْلَمُ، لِما لم يُفارِقْهُمُ العذابُ، ولا يُزالُ عنهُمْ. والفِسْقُ في هذا المَوضِعِ الكُفْرُ والشِّرْكُ، وما ذَكَرَ مِنَ الظُّلْمِ هو ظُلْمُ شِرْكٍ وكُفْرٍ.

---

(١) في الأصل وم: وإلا الحمد. (٢) في الأصل وم: خير. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م: ذلك. (٥) من م، في الأصل: عينها.
(٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) في الأصل و م: أنه. (٩) في الأصل و م: فمع. (١٠) في الأصل و م: يجعلون لهم.
(١١) من م، في الأصل: الأهل. (١٢) من م، في الأصل: فوق. (١٣) في الأصل و م: أنه. (١٤) ساقطة من الأصل و م. (١٥) من م، في الأصل: في.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ لم يَحْتَمِلْ ما قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ حينَ[1] قالَ: إنهُمْ قالُوا لرسولِ اللهِ ﷺ: [لَمْ][2] لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ عليكَ[3] كَنْزاً تَسْتَغْنِي بِهِ، فإنكَ مُحتاجٌ، ولا جَعَلَ لكَ جَنَّةً تأكُلُ منها، فَتَشْبَعُ مِنَ الطعامِ، فإنكَ تَجوعُ. فَنَزَلَ عندَ ذلكَ هذا.

لا يُحْتَمَلُ أنْ يَقُولُوا لَهُ ذلكَ، فَيقولَ لَهُمْ: إني مَلَكٌ، وليسَ عندِي خزائِنُ اللهِ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فإنْ كانَ مِنَ السُّؤالِ شيءٌ مِنْ ذلكَ فإنما يكونُ على سُؤالٍ سَألُوا لأنفُسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠ و٩١] ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الأسئلَةِ التي سألُوهُ لأنفُسِهِمْ، فَنَزَلَ عندَ ذلكَ ما ذَكَرَ.

فهذا لَعَمْرِي يَحْتَمِلُ [وجهَينِ]:

أحَدُهما: يقولُ[4] لَهُمْ: لَيسَ عندي خزائِنُ اللهِ، فأجْعَلَ لَكُمْ هذا ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ النَّبيُّ ﷺ أوعَدَهُمْ بالعذابِ، وخَوَّفَهُمْ، فَسَألُوا العذابَ اسْتِهْزاءً وتَكْذيباً، فقالُوا: مَتى يكونُ؟ كقولِهِمْ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ومفاتيحُهُ؛ أُنزِلُ عليكُمُ العذابَ مَتى شِئْتُ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ مَتى وَقْتُ نُزولِ العذابِ عليكُمْ؟ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ نَزَلْتُ مِنَ السماءِ بالعذابِ، إنما أنا رسولٌ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ [﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي][5] ما أَتَّبِعُ ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ هذا مُحتَمَلٌ جائزٌ أنْ يكونَ على إثْرِ ذلكَ نَزَلَ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ وهو أنهُ يُخبِرُ ابْتِداءً، أي ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ لأنّي لو قُلْتُ: عندِي خزائِنُ اللهِ، وأنا أعلَمُ الغَيْبَ، وأني مَلَكٌ، كانَ ذلكَ أشدَّ اتِّباعاً وأرْغَبَ وأكثَرَ لِطاعتي. لكنْ يقولُ أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يُوحَى إلَيَّ، ما أَتَّبِعُ إلّا ما يُوحَى إلَيَّ؛ لِتَعْلَمُوا أني صادِقٌ ومُحِقٌ في ما أدْعُوكُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ يَعْلَمُ بالإحاطَةِ.

إنَّ هذا ونَحْوَهُ خَرَجَ على الجوابِ لأسْئِلَةٍ كانَتْ منهُمْ لِرَسولِ اللهِ ﷺ لكنْ لَسْنا نَعْلَمُ ما كانَتْ تلكَ الأسئِلَةُ؛ كانَتْ مِنْ أُولئكَ حتى كانَ هذا جَواباً لَهُمْ، فلا نُفَسِّرُ، ولكنْ نَقِفُ مَخافَةَ الشهادَةِ على اللهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جَواباً لِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُمْ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: ٩٠ و٩١] فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ جَواباً لِسُؤالِ وَقْتِ الساعةِ أو وَقْتِ نُزولِ العَذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ جوابٌ لقولِهِمْ: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: ٩٣] فقالَ عندَ ذلكَ: لا أقولُ: إني ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتى أعلَمَ وَقْتَ نُزولِ العذابِ أو قِيامِ الساعةِ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتى أرْقَى في السَّماءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تَعْرِفونَ أنتُمْ أنهُ لا يَسْتَوِي الأعمَى أي مَنْ عَمِيَ والبَصِيرُ أي مَنْ لم يَعْمَ بَصَرُهُ. كيفَ لا تَعْرِفونَ أنهُ لا يَسْتَوِي مَنْ عَمِيَ عنِ الآياتِ ومَنْ لَمْ يَعْمَ عنها؟ أو نقولُ: [إذا لم يَسْتوِ][6] الأعمَى والبَصيرُ كيفَ يَسْتَوِي مَنْ يَتَعامَى عَنِ الحقِّ ومَنْ لم يَتَعامَ؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يَسْتَوِيانِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في آياتِ اللهِ وما ذَكَّرَكُمْ، أو نقولُ: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في [ما][7] وعَظَكُمْ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

---

(١) في الأصل و م: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل و م: عليكم. (٤) في الأصل و م: فيقول. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) في الأصل: إنا لم يستوي، في م: إذا لم يستوي. (٧) ساقطة من الأصل وم.

قالَ بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ إياسُ الكَفَرَةِ عمّا سألُوا مِنَ الأشياءِ رسولَ اللهِ ﷺ ثم أَمْرٌ بإنذارِ الذينَ يَخافُونَ أنْ يُحشَرُوا إلى ربِّهِمْ، وهمُ المؤمِنُونَ[1]؛ أي يَعْلَمُونَ أنهُمْ يُحشَرُونَ إلى ربِّهِمْ، وأنْ لَيسَ لَهُمْ وَلِيٌّ يدفَعُ عنهُمْ ما يَحُلُّ بِهِمْ، ولا شَفِيعٌ يَسأَلُ لَهُمْ ما لم يُعْطَوا.

وجائزٌ أنْ يكونَ تخصِيصُ الأمرِ بإنذارِ المُؤمِنينَ لِما كانَ الإنذارُ يَنْفَعُهُمْ، ولا يَنفَعُ غيرَهُمْ. ولَيسَ فيهِ [أنهُ][2] لا يُنذِرُ غيرَهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] لَيسَ فيه [بيانٌ][3] أنهُ لا يُنذِرُ مَنْ لم يَتَّبِعِ الذِّكْرَ، ولا خشِيَ الرحمنَ. [ولكنْ أنبأَ أنهُ إنما يَنفَعُ هؤلاءِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أخبَرَ أنَّ الذِّكرَى تَنفَعُ المُؤمِنِينَ، ولا تَنفَعُ أُولئكَ؛ يُنذِرُ الفريقَينِ: مَنِ اتَّبَعَ الذِّكرَ ومَنْ لم يَتَّبِعْ ومَنْ نَفَعَ ومَنْ لم يَنْفَعْ][4].

ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يعني لَيسَ لأولئكَ أولياءُ ولا شُفعاءُ لأنهُمْ يَقولُونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويَقولُونَ[5]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ونَحوَهُ؛ أخبَرَ أنْ ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ يُذكَرُ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ رِجالاً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ كانُوا يَسْبِقُونَ إلى مَجلِسِ رسولِ اللهِ ﷺ فَيَجلِسُونَ قَريباً منهُ، فَيَجيءُ أشرافُ القَومِ وسَاداتُهُمْ، وقد أخَذَ[6] أولئكَ المَجلِسَ، فَيَجلِسُ هؤلاءِ ناحِيَةً، فَقالُوا: نَحنُ نَجِيءُ، فَنَجلِسُ ناحِيَةً، فَذَكَرُوا ذلكَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ فقالُوا: إنّا سَاداتُ قَومِكَ وأشرافُهُمْ، فَلَو أدنَيْتَنا منكَ المَجلِسَ، فَهَمَّ أن يَفعَلَ ذلكَ، فأنزَلَ اللهُ هذه الآيَةَ، يُعاتِبُ نَبِيَّهُ ﷺ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآية. [إلى][7] هذا يَذهَبُ عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ. لكنَّهُ بَعيدٌ؛ يَنسِبُونَ رسولَ اللهِ ﷺ إلى أوحَشِ [فِعْلٍ][8] وأفحَشِ قولٍ][9] ما لو كانَ فيهِ إسقاطُ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ؛ إذْ لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَرِّبُ أعداءَهُ، ويُدْنِي مَجلِسَهُمْ مِنْهُ، ويُبْعِدُ الأولياءَ/ ١٤٩ ـ أ/ هذا لا يَفعَلُهُ سَفيهٌ فَضلاً أنْ يَفعَلَهُ رسولُ اللهِ المُصطَفَى على جميعِ بَرِيَّتِهِ، أو يَخطُرَ ببالِهِ شَيءٌ مِنْ ذلكَ، أو[10] كانَ فيهِ ما يَجِدُ الكَفَرَةُ عليهِ مَطْعَناً؛ يَقُولُونَ: يَدْعُو الناسَ إلى التوحيدِ والإيمانِ بِهِ والاتِّباعِ لَهُ، فإذا فَعَلُوا ذلكَ، وأجابُوهُ، طَرَدَهُمْ، وأبْعَدَ مَجلِسَهُمْ مِنْهُ.

هذا لَعَمْرِي مَدْفوعٌ في عَقْلِ كُلِّ عاقِلٍ. ولكنْ، [إنْ كانَ، فجائزٌ أنْ يكونَ][11] مِنهُمْ طَلَبُ[12] ذلكَ؛ طَلَبُوا مِنْهُ أنْ يُدْنِيَ مَجلِسَهُمْ، ويُبْعِدَ أولئكَ؛ هذا يُحتَمَلُ. وأمّا أنْ يَهُمَّ أنْ يَفعَلَ ذلكَ أو خَطَر ببالِهِ شيءٌ من ذلك فَلا يُحتَمَلُ.

وجائزٌ أن يكونَ هذا مِنَ اللهِ ابْتِداءَ تأديبٍ وتَعْلِيمٍ؛ يُعَلِّمُ رَسولَهُ صُحْبَةَ أصحابِهِ ومُعامَلَتَهُ مَعَهُمْ كقولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، [ولُهِيًا عنْ][13] أنْ يَمُدَّ عَينَيهِ إلى ما مَتَّعَ أولئكَ كقولِهِ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية [الحجر: ٨٨]، ويُخبِرُهُ عن عظيمِ قَدْرِهِمْ عندَ اللهِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ الحَظْرَ، بلِ العِصْمَةُ تَزيدُ في النَّهْيِ والزجْرِ.

وأخبَرَ أنْ لَيسَ عليهِ ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ فإنَّما عليكَ البلاغُ، وعليهِمُ الإجابَةُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ يُشبِهُ أنْ يَكونُوا يَجتَمِعُونَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ في كُلِّ غَداةٍ ومَساءٍ، فَيَسمَعُونَ منهُ، ثم يَفْتَرِقونَ على ما عليهِ أمْرُ الناسِ مِنَ الاجتِماعِ كُلَّ غَداةٍ ومَساءٍ عندَ الفُقَهاءِ وأهْلِ العِلْمِ.

(١) من م، في الأصل: من المؤمنون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) في الأصل وم: أخذوا. (٧) في م: وإلى. (٨) من م، في الأصل: ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: الناس وأفحشه، في م: فعل وأوحشه. (٩) من م، في الأصل: الناس وأفحشه، في م: فعل وأوحشه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: يغلب.
(١٣) في الأصل وم: ولهي.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ الغَداةَ والعَشِيّ كِنايةً عنِ اللَّيلِ كُلِّهِ وعَنِ النهارِ جُمْلَةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١و٢] لَيسَ يُريدُ بالضُّحى الضَّحْوَةَ خاصَّةً ولكنْ [يُريدُ][1] النَّهارَ كُلَّهُ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؟ ذِكْرُ اللَّيلِ دَلَّ أنهُ كانَ الضُّحى كِنايةً عنِ النَّهارِ جُمْلَةً. فَعَلَى ذلكَ [ذِكْرُ][2] الغَداةِ والعَشِيّ يجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عنِ اللَّيلِ والنَّهارِ جُمْلَةً[3]، واللهُ أعْلَمُ.

وجائزٌ أنْ يَكُونُوا أصحابَ الحِرَفِ والمَكاسِبِ لا يَتَفَرَّغُونَ لِلاجتِماعِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ والاستِماعِ منهُ في عامَّةِ النَّهارِ، ولكنْ يَجْتَمِعُونَ إليهِ، ويَسْتَمِعُونَ منهُ بالغداةِ والعَشِيّ، فكانَ ذِكْرُ الغَداةِ والعَشِيّ لِذلكَ أو لِما ذَكَرْنا.

وجائزٌ نْ يكونَ المُرادُ بِذِكْرِ الغَداةِ والعَشِيّ صلاةَ الغَداةِ وصلاةَ العِشاءِ؛ يقولُ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ﴾ مَنْ يَشهدُ هاتَينِ الصلاتَينِ، وإنما يَشهدُهُما أهْلُ الإيمانِ. وأمّا أهْلُ النِّفاقِ فإنهُمْ لا يَشْهَدُونَ هاتَينِ الصلاتَينِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الظُّلْمُ][4] على وُجوهٍ: ظُلْمُ كُفْرٍ، وظُلْمُ شِرْكٍ، وظُلْمٌ يكونُ بدونِهما[5]؛ وهو أنْ يُمْنَعَ [أحدٌ، أو يُؤْخَذَ منهُ حَقُّهُ][6] بِغَيرِ حَقٍّ. فهو كلُّهُ ظُلْمٌ. والظُّلْمُ ههنا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ هو وضعَ الحِكْمَةِ في غيرِ أهلِها؛ لأنهُ لو كانَ منهُ ما ذَكَرَ مِنْ طَرْدِ أُولئكَ وإدناءِ أُولئكَ، لم يكونُوا أهْلاً لِلْحِكْمَةِ، ويجوزُ أنْ يُوصَفَ واضِعُ الحِكْمَةِ في غَيرِ مَوضِعِها بالظُّلْمِ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ «مَنْ وَضَعَ الحِكْمَةَ في غَيْرِ أهْلِها فَقَدْ ظَلَمَها، ومَنْ مَنَعَها عنْ أهْلِها فَقَدْ ظَلَمَهُمْ».

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ وقولُهُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ لا يُتَكَلَّمُ إلاّ عن أمرٍ سَبَقَ؛ فهو، واللهُ أعْلَمُ، يَحْتَمِلُ أنْ يَقولَ لَمّا قالُوا: يا محمدُ أرَضِيتَ بِهؤلاءِ الأعْبُدِ مِنْ قومِكَ؟ أفَنَحْنُ نكونُ تَبَعاً لِهؤلاءِ؟ ونَحْنُ سادَةُ القومِ وأشرافُهُمْ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ أي كما فَضَّلْتُكُمْ على هؤلاءِ في أمْرِ الدنيا، فكذلكَ فَضَّلْتُهُمْ عليكُمْ في أمْرِ الدينِ، ويكونونَ[7] هُمُ المُقَرَّبِينَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ والمُدْنَيْنَ مَجْلِسُهُمْ إليهِ، وأنْتُمْ أتباعُهُمْ في أمْرِ الدينِ، وإنْ كانُوا هم أتباعَكُمْ في أمْرِ الدنيا، وذلكَ[8] امْتِحانُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ وهو أنْ يُقالَ: كما كانَ لهُ امْتِحانُ كُلٍّ في نَفْسِهِ ابْتِداءَ مِحْنَةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وكقولِهِ[9] تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥]، فَعَلَى ذلكَ لهُ أنْ يَمْتَحِنَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.

وأشَدُّ المِحَنِ أنْ يُؤْمَرَ المَتْبُوعُ ومَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ فَضْلاً بالخُضوعِ لِلتابعِ ومَنْ هو دُونَهُ. عندَهُ يَشْتَدُّ ذلكَ عليهِ، ويَتَعَذَّرُ كما[10] كانُوا يَرَونَ هُمْ لأنفُسِهِمُ الفَضْلَ والمَنْزِلَةَ في أمْرِ الدنيا، فَظَنُّوا أنهُمْ كذلكَ يكونُونَ في أمْرِ الدينِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ، لَمّا امْتُحِنَ إبليسُ بالسجودِ لآدمَ رَأَى لِنَفْسِهِ فَضْلاً عليهِ، قَولُهُ[11]: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢ وص: ٧٦]، ولم يَرَ الخُضوعَ لِمَنْ دُونَهُ عَدْلاً وحِكْمَةً، فصارَ ما صارَ.

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ لم يَرَوا أولئكَ الضَّعَفَةَ أنْ يكونوا مَتْبوعِينَ عَدْلاً وحِكْمَةً، [وظَنُّوا أنهمْ][12] لَمّا كانُوا مُفَضَّلِينَ في أمْرِ الدنيا، وكانَ لِهؤلاءِ إليهِمْ حاجةٌ يَكونُونَ في أمْرِ الدينِ كذلكَ، ويَقولُونَ: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مَوصُولٌ بالأوَّلِ بقولِهِ: ﴿فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ﴾: يَقولُ الكافرُ قَولَ الكُفْرِ والمؤمنُ قَولَ الإيمانِ ثُمَّ ابْتِداءً، فَقالَ هؤلاءِ: أي يقولُ الكَفَرَةُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ لَيسَ بِمَفْصُولٍ مِنْ قَولِهِ: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ ولكنْ مَوصولٌ بهِ ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ يَعْنِي الكَفَرةَ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجملة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بدونه.
(٦) في الأصل وم: أحداً حقه أو أخذ من حقاً. (٧) في الأصل وم: ويكون. (٨) في الأصل وم: وكذلك. (٩) في الأصل وم: وقوله. (١٠) في الأصل وم: لما. (١١) في الأصل وم: فقال. (١٢) من م، في الأصل: وأنهم.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ بالحِفظِ بالتَّقريبِ والإدناءِ في المَجْلِسِ وجَعْلِهِمْ متبوعِينَ مِنْ بَيْنِنا بَعْدَ ما كانُوا أتباعاً لَنا؟ فقالَ عندَ ذلك: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي عَرَفَ هؤلاءِ نِعْمَةَ اللهِ تعالى، وَوَجَّهُوا شُكْرَ نِعَمِهِ إليهِ، وأنْتُمْ وَجَّهْتُمْ شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيْرِهِ بَعْدَ ما عَرَفْتُمْ أنهُ هو المُنْعِمُ عليكُمْ والمُسْدِي إليكُمْ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ النَّهْيَ عنِ الطَّرْدِ ليسَ لِلإبعادِ خاصَّةً في المَجْلِسِ، ولكنْ في كُلِّ شيءٍ: في بَشاشَةِ الوَجْهِ واللُّطْفِ في الكلامِ وفي كُلِّ شيءٍ لأنهُ قالَ ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ هو أنْ يَبْدَأَهُمْ بالسَّلامِ؛ فذلكَ الذي كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ أي لم يَأخُذْهُمْ[1] في أوَّلِ ما وقَعُوا في المَعْصِيَةِ، ولكنْ أمْهَلَهُمْ إلى وَقْتٍ، وجَعَلَ لَهُمُ المَخْرَجَ مِنْ ذلكَ بالتوبَةِ. وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: فَتَحَ اللهُ لِلْعَبْدِ التوبَةَ إلى أنْ يَأتِيَهُ المَوتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي كُلُّ ﴿مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإنَّهُ[2] يَغْفِرُ لَهُ ما كانَ منهُ. ومَنْ قَرَأها بالنَّصبِ[3] عطفَهُ على ﴿ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾[4].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ أي كَتَبَ على خَلْقِهِ الرَّحْمَةَ أنْ يَرْحَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. وجائزٌ ما ذَكَرْنا أنهُ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أي أوجَبَ أنْ يَرْحَمَ، ويَغْفِرَ لِمَنْ تابَ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في الكافِرِ إذا تابَ يَغْفِرُ اللهُ لَهُ ما كانَ منهُ في حالِ الكُفْرِ والشِّرْكِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وجائزٌ أنْ تكونَ في المُؤْمِنِ[6]، ثم ذَكَرَ عَمَلاً بِجهالةٍ، وإنْ لم يكُنْ يَعْمَلُ بالجَهْلِ، لأنَّ الفِعْلَ فِعْلُ الجَهْلِ، وإنْ كانَ فِعْلُهُ لم يكُنْ على الجَهْلِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ النِّسيانِ والخَطَإِ في الفِعْلِ لأنَّ فِعْلَهُ فِعْلُ ناسٍ وفِعْلُ مُخْطِئٍ، وإنْ لم يَفْعَلْهُ الكافِرُ على النِّسيانِ والخَطَإِ. وإلَّا لو كانَ على حَقيقَةِ الخَطَإِ والنِّسيانِ لَكانَ لا يُؤاخَذُ بِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ لكنَّ الوَجْهَ ما ذَكَرْنا أنَّ الفِعْلَ فِعْلُ نِسْيانٍ وخَطَإٍ، وإنْ لم يكُنْ ناسِياً ولا مُخْطِئاً فيه. وعلى ذلكَ فِعْلُ جَهْلٍ، وإنْ لم يكُنْ جاهلاً، والفِعْلُ فِعْلُ جَهْلٍ، وإنْ لم يكُنْ بالجَهْلِ.

والمؤمِنُ جَميعُ ما يَتَعاطَى مِنَ المَسَاوِئِ يكونُ لِجَهالةٍ لأنهُ إنما يَعْمَلُ / ١٤٩ ـ ب/ السُّوءَ لِغَيْرِ[7] شَهْوَةٍ أو لِلاعْتِمادِ على كَرَمٍ بِهِ بالعَفْوِ عنهُ والصَّفْحِ عَنْ ذلكَ، أو يَعْمَلُ السُّوءَ على نِيَّةِ التوبَةِ والعَزْمِ عليها في آخِرِهِ. على هذِهِ الوُجوهِ الثلاثَةِ يَقَعُ المؤمِنُ في المَعْصِيَةِ. وأمّا على التَّعَمُّدِ فلا يَعْمَلُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ قُرِئَ[8] بالياءِ والتاءِ جميعاً؛ فَمَنْ قَرَأَ بالتاءِ نَصَبَ السَّبيلَ بِجَعْلِ الخِطابِ لرسولِ اللهِ ﷺ أي لِتَعْرِفَ سَبِيلَ المُجْرِمينَ، ومَنْ قَرَأَ بالياءِ رَفَعَ السَّبيلَ؛ كأنه قالَ: ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وُجوهاً:

[أحدُها][9]: أي نُبَيِّنُ الآياتِ ما يَعْرِفُ السامِعُونَ أنها آياتٌ مِنْ عندِ اللهِ غَيْرُ مُخْتَرَعَةٍ مِنْ عندِ الخَلْقِ ولا مُفْتراةٌ ما نُبَيِّنُ سَبِيلَ المُجْرِمِينَ مِنْ سَبِيلِ المُهْتَدِينَ.

---

(١) في الأصل وم: يأخذ. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) انظر حجة القراءات ص(٢٥٢). (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لذلك. (٥) من م، في الأصل: يشاء. (٦) في الأصل وم: المؤمنين. (٧) من م، في الأصل: لضمر. (٨) انظر حجة القراءات ص(٢٥٣). (٩) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ما بالخَلْقِ حاجةٌ إليها وإلى مَعْرِفَتِها.

والثالثُ: نُبَيِّنُ مِنَ الآياتِ ما نُبَيِّنُ بَيْنَ المُخْتَلِفِينَ أي بَيْنَ سَبِيلِ المُجْرِمِينَ وبَيْنَ سَبِيلِ المُهْتَدِينَ.

[وقولُهُ تعالَى][1] ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تأويلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ مَنْ قَرَأَ بالتاءِ حَمَلَهُ على خِطابِ رسولِ اللهِ ﷺ بالتاءِ أي نُبَيِّنُ مِنَ الآياتِ لِتَعْرِفَ سَبِيلَ المُجْرِمِينَ بالنَّصْبِ. ومَنْ قَرَأَ بالياءِ نُبَيِّنُ مِنَ الآياتِ لِيَتَبَيَّنَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ مِنْ سَبِيلِ غَيرِ المُجْرِمِينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ: إني نُهِيتُ بما أُكْرِمْتُ مِنَ العَقْلِ واللُّبِّ أنْ أعْبُدَ الذينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، أو يَقولُ: إني نُهِيتُ بِما أُكْرِمْتُ مِنَ الوَحْيِ والرسالةِ ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

[وقولُهُ تعالى][2] ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ثم أخبَرَ أنَّ ما يَعْبُدُونَ هُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنما يَعْبُدُونَ اتِّباعاً لِهَوَى أنْفُسِهِمْ، وإنما يَعْبُدُ هو لَيسَ يَتَّبِعُ هَوَى نَفْسِهِ، وإنما يَتَّبِعُ الحُجَّةَ والسَّمْعَ وما يَسْتَحْسِنُهُ العَقْلُ.

ألا تَرى أنه قالَ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؟ [الأنعام: ٥٧] أي على حُجَّةٍ مِنْ ربِّي؛ يُخْبِرُ أنَّ ما يَعْبُدُ هو[3] أنْ يَعْبُدَ اتِّباعاً لِلْحُجَّةِ والعَقْلِ، وما يَعْبُدُونَ اتِّباعاً لِهَوَى أنْفُسِهِمْ. وما يُتَّبَعُ بالهَوَى: يَجوزُ أنْ يُتْرَكَ[4] اتِّباعُهُ، ويُتَّبَعَ غَيرُهُ لِما تَهْوَى النَّفسُ[5] هذا، ولا تَهْوَى الأوَّلَ. وأمّا ما يُتَّبَعُ بالحُجَّةِ والسَّمْعِ وما يَسْتَحْسِنُهُ[6] العَقْلُ فإنهُ لا يَجوزُ أنْ يُتْرَكَ اتِّباعُهُ، ويُتَّبَعَ غَيرُهُ.

وفيهِ تَعَرُّضٌ لِسَفَهِهِمْ لأنهُ قالَ: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي لَوِ اتَّبَعْتُ أهْواءَكُمْ لَضَلَلْتُ إذَنْ، وأنْتُمْ، إذا اتَّبَعْتُمْ أهْواءَكُمْ لِعِبادَتِكُمْ غَيْرَ اللهِ، ضُلّالٌ، ولَسْتُمْ بالمُهْتَدِينَ، فهو عَرْضٌ[7] التَّسْفِيهِ لَهُمْ والشَّتْمِ مِنْهُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ قِيلَ على بَيانٍ مِنْ رَبِّي وحُجَّةٍ، وقيلَ: على دِينٍ مِنْ رَبِّي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ قِيلَ: بالقرآنِ، وقيلَ: العذابُ ما أوْعَدْتُكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي العذابُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وغَيرِهِ، فقالَ: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ مِنَ العذابِ.

ثم هذا يَدُلُّ على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] أنَّ المُرادَ بالخزائِنِ العَذابُ؛ أي لَيسَ عِنْدِي ذلكَ إنما ذلكَ إلى اللهِ، وعِنْدَهُ ذلكَ؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحُكْمُ والقَضاءُ إلّا للهِ، [أي ما الحقُّ][8] ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوتِهِ وتأويلِهِ:

قَرَأَ بَعْضُهُمْ بالضادِ وآخرونَ بالصادِ[9]؛ فَمَنْ قَرَأَ بالصادِ: ﴿يَقُصُّ﴾ يقولُ: يُبَيِّنُ الحقَّ لأنَّ القَصَصَ هو البيانُ، وقالَ آخَرُ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي خيرُ المُبيِّنِينَ. ومَنْ قَرَأَ بالضادِ يقولُ: يقضي يَحْكُمُ. ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ أي يَقْضِي بالحَقِّ، وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه أنهُ قَرَأَ: يقضي بالحقِّ، وقيلَ: فيهِ إضمارٌ أي يَقْضِي، ويَحْكُمُ، وحُكْمُهُ الحَقُّ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي القاضِينَ[10]، والفَصْلُ والقضاءُ واحدٌ؛ لأنهُ بالقضاءِ يَفْصِلُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ قالَ:][11] ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ مِنَ العَذابِ ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهْلَكْتُكُمْ. وقيلَ ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: هم. (٤) في الأصل و م: ينزل. (٥) في الأصل وم: نفسه. (٦) من م، في الأصل: يحسنه. (٧) في الأصل: تعرض. في م: تعريض. (٨) ساقطة من م. (٩) انظر حجة القراءات ص(٢٥٤). (١٠) من م، في الأصل: الفاضلين. (١١) ساقطة من الأصل و م.

وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ أي لَعَجَّلْتُهُ لَكُمْ بالقضاءِ في ما بَيْننا؛ يُخْبِرُ عنْ رَحْمَةِ اللهِ وحِلْمِهِ، أي لو كانَ بِيَدي لأرْسَلْتُ عليكُم، لكنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ يُؤَخِّرُ ذلكَ عنكُمْ.

ثم فيهِ نَقْضٌ على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنَّ[1] اللهَ لا يَفْعَلُ بالعَبْدِ إلّا الأصْلَحَ في الدينِ، لأنهُ قالَ: ﴿لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ ثم لا يُحْتَمَلُ أنَّ تأخيرَ العذابِ والهلاكِ خَيرٌ لَهُمْ وأصْلَحُ. ثم هو يُهْلِكُهُمْ، ويكونُ عِظَةً لِغَيرِهِمْ وزَجْراً لَهُمْ. ثم إنَّ اللهَ تعالى أخَّرَ ذلكَ العذابَ عنهُمْ، وإنْ كانَ فيهِ شَرٌّ لَهُمْ، فَدَلَّ أنَّ اللهَ قد يَفْعَلُ بالعَبْدِ ما لَيسَ ذلكَ بأصْلَحَ لهُ في الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عليمٌ بِمَنِ الظالِمُ مِنّا، وهمْ كانُوا ظَلَمَةً.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] وَصِلَةَ قولِهِ: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: ٥٧].

كانُوا يَطْلُبُونَ منهُ ﷺ ويَسْألونَهُ أشياءَ مِنَ التَّوسِيعِ في الرِّزْقِ وغَيرِ ذلكَ ممّا كانَ يَعِدُهُمْ مِنَ الكَرامَةِ والمَنْزِلَةِ والسَّعَةِ، وكانَ يُوعِدُهُمْ بالعذابِ، ويُخَوِّفُهُمْ بالهلاكِ، فَيَسْتَعْجِلُونَ ذلكَ منهُ ما وَعَدَ لَهُمْ، فقالَ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ لَيسَ ذلكَ عِنْدِي، لا يَعْلَمُ ذلكَ إلّا هُوَ.

ومَفاتِحُ مِنَ المَفْتَحِ لَيسَ مِنَ المِفْتاحِ، يكونُ جَمْعُهُ مَفاتِيحَ. والفَتْحُ؛ يُقالُ في النَّصْرِ والمَعونَةِ، يُقالُ: فَتَحَ اللهُ عليهِ بَلْدَةَ كذا، أي نَصَرَهُ، وجَعَلَهُ غالباً عليهِمْ، ويُقالُ في ما يُحْدِثُهُ، ويُسْتَفادُ[2] مِنْهُ: فَتَحَ فلانٌ على فلانٍ بابَ كذا، أي عَلَّمَهُ عِلْمَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي عندَهُ [ما][3] يُسْتَفادُ ذلكَ، ومِنْهُ يكونُ. ومَنْ نَصَرَ آخَرَ فإنما يَنْصُرُ بِهِ، ومَنْ عَلَّمَ آخَرَ فإنما يُعَلِّمُهُ بِهِ، ومَنْ وَسَّعَ على[4] آخَرَ رِزْقاً فإنما يُوَسِّعُهُ باللهِ. كلُّ هذا يُشْبِهُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

[أحدُها][5]: يَحْتَمِلُ ﴿مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ أي ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ مِنَ الدَّوابِّ وما يَسْكُنُ فيها مِنْ ذَوي الرُّوحِ: كَثْرَتَها وعَدَدَها وصَغِيرَها، لا يَخْفَى عليهِ شَيءٌ.

والثاني: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ أي يَعْلَمُ رِزْقَ كُلِّ ما في البَرِّ والبَحْرِ، ويَعْلَمُ حاجَتَهُ، ثم يَسوقُ إلى كُلٍّ مِنْ ذلكَ رِزْقَهُ. يُخْبِرُ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِيَعْلَمُوا أنهُ لَمّا ضَمِنَ لِلْخَلْقِ لِكُلٍّ منهُمْ رِزْقَهُ يَسوقُ إليهِ رِزْقَهُ مِنْ غَيرِ تَكَلُّفٍ ولا طَلَبٍ كما يَسوقُ أرزاقَ ما في البَرِّ والبَحْرِ مِنْ غَيرِ طَلَبٍ ولا تَكَلُّفٍ، لا تَضِيقُ قلوبُهُمْ لِذلكَ، فما بالُكُمْ تَضِيقُ قلوبُكُمْ على ذلكَ، وقد ضَمِنَ ذلكَ لكُمْ كما ضَمِنَ لأولئكَ؟

والثالثُ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ مِنَ اخْتِلاطِ الأقْطارِ بَعْضِها بِبَعْضٍ ومِنْ دخولِ بَعْضِها في بَعْضٍ؛ يَخْرُجُ هذا على الوَعيدِ أنهُ لَمّا كانَ عالماً بهذا كُلِّهِ يَعْلَمُ بأعمالِكُمْ ومَقاصِدِكُمْ. فإنْ قِيلَ: هذا الذي ذَكَرَ، كُلُّهُ في الظاهِرِ دَعْوى، فما الدليلُ على أنهُ كذلكَ؟ قِيلَ: اتِّساقُ التَّدبيرِ في كُلِّ شَيءٍ وآثارُهُ فيهِ يَدُلُّ على أنهُ كانَ بِتَدْبِيرِ واحدٍ لأنَّ آثارَ التَّدْبِيرِ في كلِّ شَيءٍ واتِّساقِهِ على سَنَنٍ واحدٍ ظاهِرَةٌ بادِيَةٌ. فذلكَ يَدُلُّ على ما ذكرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ الآية. ويَحْتَمِلُ الكِتابُ ههنا التَّقْديرَ والحُكْمَ. اخْتُلِفَ فيهِ: قِيلَ: قولُهُ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي مَحْفوظٍ كلُّهُ عندَهُ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: عَمَلُكَ كُلُّهُ عندي مكتوبٌ؛ يُريدُ الحِفْظَ، أي مَحْفوظٌ عندي، وذلكَ جائزٌ في الكَلامِ، وقِيلَ: الكِتابُ ههنا هو اللَّوحُ المَحْفوظُ أي كُلُّهُ مُبَيَّنٌ فيهِ.

---

(١) في م: بأن. (٢) في الأصل و م: يستفيد. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: إلى. (٥) ساقطة من الأصل و م.

وقالَ الحَسَنُ، رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ اللهَ يُخرِجُ كتاباً في كلِّ لَيلةِ القَدْرِ، ويَدْفَعُهُ[1] إلى الملائِكَةِ، وفيهِ مَكْتوبٌ كُلُّ ما يكونُ في تلكَ السنةِ لِيَحْفَظُوهُ[2] / ١٥٠ ـ أ/ على ما يكونُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، والله أعْلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ وقالَ بَعْضُ أهلِ الكلامِ: إنَّ لِكُلِّ حاسَّةٍ مِنْ هذِهِ الحَواسِّ رُوحاً، يُقْبَضُ عندَ النَّومِ، ثُمَّ يُرَدُّ إليها سِوَى رُوحِ الحياةِ، فإنهُ لا يُقْبَضُ، لأنهُ يكونُ أصَمَّ بَصِيراً مُتَكَلِّماً ناطِقاً، ويكونُ أعْمَى سَمِيعاً، ويكونُ أخْرَسَ سَمِيعاً بَصيراً. فَثَبَتَ أنَّ لِكلِّ حاسَّةٍ مِنْ حَواسِّ النَّفْسِ رُوحاً على حِدَةٍ، يُقْبَضُ عندَ النَّومِ، ثم يُرَدُّ إليها، إذا ذَهَبَ النَّومُ.

وأمّا الرُّوحُ الذي بِهِ يُحْيِي النَّفْسَ فإنهُ لا يُقْبَضُ ذلكَ منهُ إلّا عندَ انْقِضاءِ أجَلِهِ، وهو المَوتُ. وقالَتِ الفَلاسِفَةُ: الحَواسُّ هي التي تُدرِكُ صُوَرَ الأشياءِ بِطينَتِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ فيهِ دَلالَةٌ أنْ لَيسَ ذِكْرُ الحُكْمِ في حالٍ أو تَخْصِيصُ الشَّيءِ في حالٍ دَلالَةَ سُقوطِ ذلكَ في حالٍ أُخرَى، لأنهُ قالَ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ لَيسَ فيهِ أنهُ لا يَعْلَمُ ما جَرَحْنا باللَّيلِ، بل يَعْلَمُ ما يكونُ مِنّا باللَّيلِ والنَّهارِ جَميعاً، ولَيسَ فيهِ أنهُ لا يَتَوَفّانا بالنَّهارِ، وألّا نَجْرَحَ باللَّيلِ، لكنَّهُ ذَكَرَ الجَرْحَ بالنَّهارِ والوَفاةَ باللَّيلِ لِما أنَّ الغالِبَ مِمّا يُبْصَرُ إنّما يكونُ بالنَّهارِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ. ثم فيهِ دَلالَةٌ أنَّ النائمَ غَيرُ مُخاطَبٍ في حالِ نَومِهِ حِينَ[3] ذَكَرَ الوَعِيدَ في ما يَجْرَحُونَ بالنَّهارِ، ولم يَذْكُرْ باللَّيلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَرَحۡتُم﴾ أي أثِمْتُمْ ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾. وقيلَ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا﴾ كَسِبْتُمْ ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ يُستَدَلُّ بقولِهِ: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ على الإحياءِ بَعْدَ المَوتِ لأنهُ يُذْهِبُ أرواحَ هذِهِ الحَواسِّ، ثم يَرُدُّها إليها مِنْ غَيرِ أنْ يَبْقَى[4]، فكيفَ تُنْكِرونَ البَعْثَ بَعْدَ المَوتِ، وإنْ لم يَبْقَ مِنْ أثرٍ لِلْحياةِ[5]؟

ثم القولُ في الجَمْعِ بَعْدَ التَّفَرُّقِ مِمّا الخَلْقُ يَفْعَلُ ذلكَ، ويَقْدِرُ عليهِ، نَحْوَ ما يَجْمَعُ مِنَ التُرابِ المُتَفَرِّقِ، فَيَجْعَلُهُ طِيناً، ورَفْعِ البِناءِ مِنْ مَكانٍ وَوَضْعِهِ في مَكانٍ آخَرَ وغَيرِ ذلكَ مِنْ جَمْعِ بَعْضٍ إلى بَعْضٍ وتَرْكِيبِ بَعْضٍ على بَعْضٍ، فَدَلَّ أنَّ الأُعْجوبَةَ في رَدِّ ما ذَهَبَ كُلُّهُ حتى لم يَبْقَ لَهُ أثَرٌ لا في جَمْعٍ [ولا في][6] تَفَرُّقٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ أي يُوقِظُكُمْ، ويَرُدُّ إليكُمْ أرواحَ الحَواسِّ ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ أي مُسَمَّى العُمُرِ إلى المَوتِ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ خَرَجَ هذا على الوَعيدِ لِما ذَكَرْنا لِيَكُونُوا على حَذَرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ وقولُهُ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] يَعْلَمُ [كُلَّ][7] ما يَغيبُ عنِ الخَلْقِ، ولا يَخْفَى عليهِ شَيءٌ، لأنهُ عالِمٌ بذاتِهِ، لا يَحْجُبُهُ شيءٌ، لَيسَ [عِلْمُهُ][8] كَعِلْمِ مَنْ يَعْلَمُ بِغَيرِهِ، فَيَحُولُ بينَهُ وبَيْنَ العِلْمِ بالأشياءِ الحُجُبُ والأستارُ. فأمّا اللهُ ﷻ [فهو][9] عالِمٌ بذاتِهِ، لا [يَحْجُبُ علمَهُ][10] شَيءٌ، ولا يكونُ لهُ حِجابٌ عنْ شَيءٍ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ فيهِ جَميعُ ما يَحتاجُ أهْلُ التَّوحيدِ [إليهِ][11] لأنهُ أخْبَرَ أنهُ قاهِرٌ لِخَلْقِهِ، وهُمْ مَقْهُورُونَ. ومِنَ البَعيدِ أنْ يُشْبِهَ القاهِرُ المَقْهُورَ بِشيءٍ، أو يُشْبِهَ المَقْهُورُ القاهِرَ بِوَجْهٍ، أو يكونَ شَريكُ القاهِرِ في مَعْنىً، لأنهُ لو كانَ شَيءٌ مِنْ ذلكَ لم يكُنْ قاهِراً مِنْ جَميعِ الوُجوهِ، ولا كانَ الخَلْقُ مَقْهُوراً في الوُجوهِ كُلِّها. فإذا كانَ اللهُ قاهِراً بذاتِهِ الخَلْقَ كُلَّهُ كانتْ آثارُ قَهْرِهِ فيهِمْ ظاهِرَةً وأعلامُ سُلْطانِهِ فيهِمْ بادِيَةً على تعالِيهِ عَنِ الأشباهِ والأضْدادِ وأنهُ كما وَصَفَ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) في الأصل و م: ويدفع. (٢) في الأصل و م: ليحفظوهم. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) في الأصل و م: بقي. (٥) في الأصل و م: الحياة. (٦) في الأصل و م: ما. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يحجبه. (١١) ساقطة من الأصل و م.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ يكونُ على وجْهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ وهو ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

والثاني: على التَّقْديمِ والتَّأخِيرِ؛ وهو فَوقَ عبادِهِ القاهِرُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بالنَّصرِ لَهُمْ والمَعُونَةِ والدَّفعِ عنهُمْ كقولِهِ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بالنَّصرِ والمعونَةِ والعَظَمَةِ والرِّفْعَةِ والجَلالِ ونَفاذِ السلطانِ والرُّبُوبِيَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][(١)]: أخْبَرَ أنهُ القاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ وأنهُ أرسَلَ عليهِمُ الحَفَظَةَ لِيَعْلَمُوا أنَّ إرسالَ الحَفَظَةِ عليهِمْ لا لِحاجَةٍ لهُ؛ لم يكُنْ قاهِراً لأنَّ مَنْ وَقَعَتْ لَهُ حاجَةٌ صارَ مَقْهوراً تَحتَ قَهْرِ آخَرَ. فاللهُ، تعالَى أنْ تَمَسَّهُ حاجَةٌ، أو يُصِيبَهُ [مِثْلُ ما يُصِيبُ الخَلْقَ، بل وإنما أرسَلَهُمْ عليهم لِحاجَةِ الخَلْقِ][(٢)] إمَّا امْتِحاناً منهُ لِلْحَفَظَةِ على مُحافَظَةِ أعمالِ العِبادِ والكِتابَةِ عليهِمْ مِنْ غيرِ أنْ تَقَعَ لهُ في ذلكَ حاجَةٌ، يَمْتَحِنُهُمْ بذلكَ[(٣)]. ولِلَّهِ أنْ يَمْتَحِنَ عبادَهُ بما شاءَ مِنْ أنواعِ المِحَنِ، وإنْ أكْرَمَهُمْ، وَوَصَفَهُمْ بالطاعةِ في الأحوالِ كُلِّها بِقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

والثاني: [يرسِلُ الحَفَظَة][(٤)] عليهِمْ بِمُحافَظَةِ أعمالِهِمْ والكتابِ عليهِمْ لِيكُونُوا على حَذَرٍ في ذلكَ؛ [وذلِكَ][(٥)] في الزَّجْرِ أبْلَغُ وأكْثَرُ [نَظراً][(٦)] لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ عليهِ رَقِيباً في عَمَلِهِ وفِعْلِهِ كانَ أحْذَرَ في ذلكَ [العَمَلِ وأنظرَ][(٧)] فيه واحْفَظَ لَهُ مِمَّنْ لم يكُنْ عليهِ ذلكَ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ كُلُّ مُسْلِمٍ أنَّ اللهَ عالِمُ الغَيْبِ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، عالِمٌ بما كانَ منهُمْ، وبما يكونُ أنْ يكونَ، ومَتَى يكونُ؟

ثم اخْتُلِفَ في الحَفَظَةِ هَهُنا: قالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الذينَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ و١١ و١٢] يَكْتُبُونَ أعمالَهُمْ، ويَحْفَظُونَ عليهِمْ. وقالَ آخَرُونَ: هُمُ الذينَ يَحْفَظُونَ أنفاسَ الخَلْقِ. ويَعُدُّونَ عليهِمْ إلى وَقْتِ انْقِضائِها وفَنائِها، ثُم تُقْبَضُ منهُ الروحُ، ويَموتُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾؟ دلَّ على أنَّ الحَفَظَةَ ههنا هُمُ الذينَ سُلِّطُوا على حِفْظِ الأنفاسِ والعَدِّ عليهِمْ إلى وَقْتِ المَوتِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ دَلالةُ خَلْقِ أفعالِ العِبادِ؛ لأنهُ ذَكَرَ مَجِيءَ المَوتِ وتَوَفِّيَ الرُّسُلِ، وقالَ: خَلَقَ المَوتَ والحياةَ، ومَجيءُ الموتِ هو بِتَوَفِّي الرُّسُلِ[(٨)]، ثم أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ المَوتَ. دَلَّ أنهُ خَلَقَ تَوَفِّيَهُمْ[(٩)].

فاحْتالَ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ في هذا، وقالَ: إنَّ المَلَكَ هو الذي يَنْزِعُ الرُّوحَ، ويَجْمَعُهُ في مَوضِعٍ، ثم إنَّ اللهَ يُتْلِفُهُ، ويُهْلِكُهُ. فلأنْ كانَ ما قالَ فإذنْ لا يموتُ بِتَوَفِّي الرُّسُلِ أبداً؛ لأنهُمْ إذا نَزَعُوا، وجَمَعُوا في مَوضِعٍ، تَزْدادُ حَياةُ المَوضِعِ الذي جَمَعُوا فيهِ، لأنهُ اجْتَمَعَ كُلُّ رُوحِ النَّفْسِ في ذلكَ. فإنْ لم يكُنْ، دَلَّ أنَّ ذلكَ خَبالٌ. والوجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الدَّلالَةِ، وهو ظاهِرٌ بِحَمْدِ اللهِ؛ يَعْرِفُهُ كُلُّ عاقِلٍ، يَتَأمَّلُ فيهِ، ولم يُعانِدْ[(١٠)]، وباللهِ التوفيقُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مَلَكُ المَوتِ وَحْدَهُ، وإنْ خَرَجَ الكلامُ مَخْرَجَ العُمومِ بِقَولِهِ: ﴿رُسُلُنَا﴾ والمُرادُ منهُ الخُصوصُ: ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] أخْبَرَ أنهُ المُوَكَّلُ والمُسَلَّطُ على ذلكَ؟

وقالَ آخرونَ: يَتَوَفَّاهُ أعْوانُ مَلَكِ [المَوتِ][(١١)]، ثم يَقْبِضُهُ مَلَكُ المَوتِ، ويَتَوَفَّاهُ. وقالَ قائِلُونَ: يكونُ مَعَهُ ملائكةٌ تَقْبِضُ الأنفاسَ، ويَتَوَفَّاهُ مَلَكُ المَوتِ. لكنَّ ذلك لا يُدْرَى[(١٢)] أنْ كيفَ هو؟ ولَيسَ بنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ، ولكنْ إلى مَعْرِفَةِ ما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، في الأصل: الخلق. (٣) في الأصل و م: على ذلك. (٤) في الأصل و م: يرسله. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: وذلك. (٨) أدرج بعدها في الأصل و م: هو مجيء الموت. (٩) من م، في الأصل: الموت لهم. (١٠) من م، في الأصل: يعاندوا. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل: تدرى، في م: ندري.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فيهِ إخبارٌ عن شِدَّةِ طاعةِ الملائِكَةِ رَبَّهُمْ، وأنَّ الرأفَةَ لا تأخُذُهُمْ في ما فيهِ تأخِيرُ أمرِ اللهِ وتَفْرِيطُهُ، لأنَّ مَنْ دَخَلَ على مَنْ في النَّزْعِ أخَذَتْهُ مِنَ الرَّأفَةِ ما لو مَلَكَ حياتَهُ لَبَذَلَ لَهُ. فأخبَرَ ﷻ أنهمْ ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في ما أُمِرُوا، ولا يُؤَخِّرُونَهُ لِتَعْظِيمِهِمْ أمْرَ اللهِ وشِدَّةِ طاعَتِهِمْ لهُ.

وعلى ذلكَ وَصَفَهُمْ: ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾/ ١٥٠ ـ ب/ [التحريم: ٦]. وقالَ ﷻ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقالَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و٢٠].

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ﴾ ذَكَرَ الرَّدَّ إلى اللهِ، وأنهُ مَولاهُمُ الحَقُّ، وإنْ كانُوا في الأحوالِ كُلِّها مَرْدُودِينَ إلى اللهِ، وكانَ مَولاهُمُ الحَقَّ في الدنيا والآخِرَةِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وكذلكَ قولُهُ: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦] كانَ المُلْكُ لهُ في الدنيا والآخِرَةِ، وكانُوا بارِزِينَ لَهُ جَميعاً في الأوقاتِ كُلِّها لِما كانُوا أصحابَ الشُّكُوكِ، فارْتَفَعَ ذلكَ عنهُمْ، وخَلَصَ بُرُوزُهُمْ ورَدُّهُمْ إلى اللهِ خالِصاً لا شَكَّ فيهِ. وكذلكَ كانَ المُلْكُ في الدنيا والآخِرَةِ [وفي الأيامِ][1] كُلِّها، لكنْ نازَعَهُ[2] غَيْرُهُ في المُلْكِ في الدنيا، ولا أحَدَ يُنازِعُهُ في ذلكَ اليَومِ في المُلْكِ ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَٰحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ﴾ كانَ مَولاهُمُ الحَقَّ في الأوقاتِ كُلِّها والأحوالِ. ولكنْ عندَ ذلكَ يَظْهَرُ لهمْ أنهُ كانَ مَولاهُمُ الحَقَّ. وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ رُدُّوا إلى ما وَعَدَ لَهُمْ، وأوعَدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ في تأخيرِ المَوتِ والحياةِ وقَبْضِ الأرواحِ وتَوَفِّي الأنفُسِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ في التَّعْذِيبِ في النارِ والثَّوابِ والعِقابِ، لَيسَ يَدْفَعُ ذلكَ عنهُمْ دافِعٌ سِواهُ، ولا يُنازِعُهُ أحَدٌ في الحُكْمِ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَٰسِبِينَ﴾ [رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنهُ][4] قالَ: هو سَرِيعُ العِقابِ لأنهُ إنما يُحاسِبُ لِيُعَذِّبَ لِمَا رُوِيَ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ][5]: «مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ» [البخاري: ٦٥٣٦]، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَٰسِبِينَ﴾ لأنهُ لا يُحاسِبُ عنْ حِفْظٍ ولا تَفَكُّرٍ، ولا يَشْغَلُهُ شَيءٌ، وأمّا غَيرُهُ فإنما يُحاسِبُ عنْ حِفْظٍ وتَفَكُّرٍ وعنْ شُغْلٍ، فهو أسْرَعُ الحاسِبِينَ، ولا يَشْغَلُهُ شَيءٌ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ لَيسَ هذا على الأمرِ لهُ، ولكنْ على المُحاجَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢] لَيسَ على الأمرِ بالسَّيرِ ولكنْ على الاعْتِبارِ بأولئكَ الذينَ كانُوا مِنْ قَبْلُ والنَّظَرِ في آثارِهِمْ وإعلامِهِمْ كيفَ صارُوا بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ؟ وماذا أصابَهُمْ بذلكَ؟ فَعَلى ذلكَ هذا فيهِ الأمْرُ بالمُحاجَّةِ مَعَهُمْ في آلِهَتِهِمْ أنهُ ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ آلِهَتُكُمُ التي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وتُشْرِكُونها في أُلوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ؟ أمِ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ؟ فَسَمَرَهُمْ[6] حتّى قالُوا: هو الذي يُنَجِّينا مِنْ ذلكَ.

فقالَ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤] فإذا كانَ هو الذي يُنَجِّيكُمْ منْ هذا، لا آلِهَتُكُمُ التي تَعْبُدُونَها، فكذلكَ هو الذي يُنَجِّيكُمْ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ومِنْ كُلِّ شِدَّةٍ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قولَهُ[7]: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الأنعام: ٢١ و...] أي لا أحَدَ أظْلَمُ؛ تَخافُونَ على آلِهَتِكُمُ الهَلاكَ كما تَخافُونَ على أنْفُسِكُمْ، فلا أحَدَ سِواهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ذلكَ ومِنْ كلِّ كَرْبٍ.

قالَ أبو بكرٍ الكَيسانِيُّ: هَمْ عَرَفُوا في الدنيا أنهُ هو الذي يُنَجِّيهِمْ في الآخِرَةِ، ويُهْلِكُهُمْ. وهمْ[8] هكذا؛ عَرَفُوا اللهَ في الدنيا، ولم يَعْرِفوهُ في الآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل: وهي الأمر، في م: وهي الأيام. (٢) في الأصل وم: نازع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: عن الحسن.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فسحرهم. (٧) في الأصل وم: كقوله. (٨) في الأصل وم: وهو.

ثم اختُلِفَ في ظلماتِ البَرِّ والبَحْرِ: قالَ بَعْضُهُمْ: الظُّلماتُ هي الشَّدائِدُ والكُرُوبُ التي تُصِيبُهُمْ بالسلوكِ في البَرِّ والبَحْرِ، وقالَ آخَرُونَ: الظُّلُماتُ [هي الأسفارُ][1] لأنَّ أسفارَ البِحارِ والمَغاوِرِ إنما تُقْطَعُ بأعلامِ السماءِ؛ فإذا أظْلَمَتِ[2] السماءُ بَقُوا مُتَحيِّرِينَ لا يَعْرِفونَ إلى أيِّ ناحِيَةٍ يَسْلُكُونَ، ومِنْ أيِّ طريقٍ يأخُذونَ. فَعِنْدَ ذلك يَدْعُونَ اللهَ ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

قالَ الحَسَنُ: التَّضرُّعُ هو ما يُرْفَعُ بِهِ الصوتُ، والخُفْيَةُ هي ما يُدْعَى سِرّاً، وهو مِنَ الإخفاءِ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخِيفَةً[3]؛ وهي مِنَ الخَوفِ. قالَ الكَلْبِيُّ: في خَفْضٍ وسُكونٍ وتَضَرُّعٍ إلى اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ قال أبو بَكْرٍ: قولُهُ تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لا نُوَجِّهُ الشُّكْرَ إلى غيرِكَ. والشُّكْرُ ههنا هو التَّوحيدُ؛ أي لَئِنْ أنجيتَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ المُوَحِّدِينَ لكَ مِنْ بَعْدُ؛ لأنهم كانُوا يُوَحِّدونَ اللهَ في ذلكَ الوَقْتِ. لكنَّهُمْ إذا نَجَوا مِنْ ذلكَ أشْرَكُوا غَيْرَهُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؟ [الأنعام: ٦٤].

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بَعْدَ عِلْمِكُمْ أنَّ الأصنامَ التي تَعْبُدُونَها لم تَمْلِكِ الشَّفاعَةَ لَكُمْ ولا الزُّلْفَى إلى اللهِ[4]؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في عبادَتِهِمُ الأوثانَ على عِلْمٍ مِنْهُمْ أنها لا تَشْفَعُ، ولا تَمْلِكُ دَفْعَ شَيْءٍ عنهُمْ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ اختُلِفَ في نُزولِ الآيةِ في مَنْ نَزَلَتْ؟ في مُشْركي العَرَبِ؟ وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ لأنها نَزَلَتْ على إثْرِ آياتٍ، نَزَلَتْ في أهلِ الشِّرْكِ: مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٦] وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١ و٦٢] هذِهِ الآياتُ كلُّها نَزَلَتْ في أهلِ الشِّرْكِ. فهذِهِ كذلكَ نَزَلَتْ فيهِمْ، لأنَّها ذُكِرَتْ على إثْرِها، ولأنَّ سورةَ الأنعامِ نَزَلَ أكثرُها في مُحاجَّةِ أهلِ الشِّرْكِ [إلّا][5] آياتٍ مِنْها نَزَلَتْ في أهلِ الكتابِ، وسورةَ المائدةِ نَزَلَ أكثرُها في مُحاجَّةِ أهلِ الكتابِ.

ومِنْهُمْ مَنْ يقولُ: نَزَلَتْ في أهلِ الإسلامِ، وهو قولُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ؛ وقالَ: هُنَّ أرْبَعٌ؛ فجاءَ مِنْهُنَّ اثْنتانِ بَعْدَ وَفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ أَلْبَسَهُمْ شِيَعاً، وأُذيقَ بَعْضُهُمْ بأسَ بَعْضٍ: أمّا لِبْسُ الشِّيَعِ فهي[6] الأهواءُ المُخْتَلِفَةُ، ويُذيقُ بَعْضَهُمْ بأسَ بَعْضٍ هو السيفُ والقَتْلُ؛ هذانِ قد كانا في المُسْلِمِينَ. وبَقِيَتْ[7] ثِنْتانِ، لا بُدَّ واقِعتانِ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ: كانَتْ[8] ثِنْتانِ في المُشْرِكِينَ مِنْ أهْلِ الكتابِ، وثِنْتانِ في أهلِ الإسلامِ؛ وهو قولُ الحَسَنِ؛ قالَ: قد ظَهَرَ في أهلِ الإسلامِ الأهواءُ المُخْتَلِفَةُ والقَتْلُ والفِتَنُ، وأمّا اللَّتانِ[9] في أهْلِ الشِّركِ مِنْ أهْلِ الكِتابِ فَهُما[10] الخَسْفُ في الأرضِ والحِجارةُ مِنَ السماءِ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][11] قالَ: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي مِنْ أُمرائِكُمْ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي مِنْ سَفَلَتِكُمْ؛ لأنَّ الفِتَنَ ونَحْوَها إنما تَهِيجُ مِنَ الأمَراءِ الجائِرَةِ ومِنْ أتْباعِهِمْ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قالَ: الأهواءُ المُخْتَلِفَةُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ[12] على بَعْضٍ بالقَتْلِ[13] والعذابِ.

ومَنْ قالَ بأنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أهلِ الشِّرْكِ يقولُ: كانَ في أشياعِهِمْ ذلكَ كُلُّهُ؛ أمّا العذابُ مِنَ الفوقِ فهو[14] الحَصْبُ بالحجارةِ كما فَعَلَ بِقومِ لوطٍ ومِنْ تَحْتِ أرجُلِهِمْ، فهو[15] الخَسْفُ كَما فَعَلَ بِقارُونَ، ومن مَعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يقولُ: فِرَقاً وأحزاباً. وكانَتِ اليَهودُ والنَّصارى فِرَقاً مُخْتَلِفَةً؛ اليَهودُ فِرَقاً والنَّصارَى

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أظلم. (٣) في الأصل وم: وخفية. انظر معجم القراءات القرآنية: ج٢/ ٢٧٨ (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل و م: هي. (٧) في الأصل و م: وبقي. (٨) في الأصل و م: كان. (٩) في الأصل و م: اللذان. (١٠) في الأصل و م: هو. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل و م: عليهم. (١٣) في ا لأصل و م: القتل. (١٤) في الأصل و م: هو. (١٥) في الأصل و م: وهو.

كذلكَ كقولِهِ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقولِهِ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هو الحَرْبُ والقتالُ. وقولُ[1] الحَسَنِ ما ذَكَرْنا أنهُ ظَهَرَ في أهلِ الإسلامِ الأهواءُ المُخْتلِفَةُ، وظَهَرَ الحَرْبُ والنَّصْلُ. وأمّا الخَسْفُ والحَصْبُ فلم يَظْهَرْ، فهو في أهلِ الشِّرْكِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مِنَ السماءِ أرسَلَهُ[2] عليهِمْ، لأنهمْ قد أقَرُّوا أنهُ رَفَعَ السماءَ[3]. فَمَنْ قَدَرَ على رَفْعِ شَيْءٍ يَقْدِرُ على إرسالِهِ، [ويَحْتَمِلُ][4] قولُهُ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الخَسْفَ][5] لأنهُمْ عَرَفُوا أنهُ بَسَطَ الأرضَ[6]. ومَنْ مَلَكَ بَسْطَ شَيْءٍ يَمْلِكُ طَيَّهُ، ويَخْسِفُ بِهِمْ.

وقولُهُ تعالى:/ ١٥١ ـ أ/ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ قيلَ: أي نَرُدُّ. والآياتُ كلُّ مُزْدَجِرٍ، أو نقولُ: ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ لِيَعْلَمَ كُلٌّ صِدقَها وحقيقَتَها أنها مِنَ اللهِ جاءَتْ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

[أحَدُها:][8] صَرَفَها لِيَفْقَهُوا. وذلكَ يَرجِعُ إلى المؤمنينَ خاصّةً.

والثاني: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي لِيُلْزِمَهُمْ أنْ يَفْقَهُوا، وقد ألْزَمَ الكُلَّ أنْ يَفْقَهُوا. لكنْ مَنْ لم يَفْقَهْ إنما لم يَفْقَهْ لأنهُ نَظَرَ إليهِ بِعَينِ الاسْتِخْفافِ.

والثالثُ: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نُصرِّفُ الرُّسُلَ[9]، ونُبَلِّغُها إليهِمْ على رَجاءِ[10] أنْ يَفْقَهُوا: لكي يَفْقَهُوا، إنْ نَظَرُوا فيها، وتأمَّلُوها. وذَكَرَ لَعَلَّ لأنَّ مِنْهُمْ مَنْ فَقِهَ، ومِنْهُمْ مَنْ لم يَفْقَهْ.

الآية ٦٦ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآنِ، ويَحْتَمِلُ بما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ، ويَحْتَمِلُ الإيمانَ بهِ والتَّوحيدَ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ وهُمْ أحقُّ أنْ يُصدِّقوكَ بما جِئتَ بِهِ وإنبائِهِمْ لأنكَ نَشَأتَ بينَ أظهُرِهِمْ، فلم تأخُذْ كَذِباً[12] قَطُّ، ولا رَأوكَ تَخْتَلِفُ[13] إلى أحدٍ، يُعَلِّمُكَ، فَهُمْ أحَقُّ أنْ يُصدِّقوكَ بما جئتَ وإنبائِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: الوَكِيلُ: الحَفِيظُ، والوَكِيلُ: هو القائِمُ في الأمرِ؛ أي لَسْتُ بِقائِمٍ عليكُمْ لأُكرِهَكُمْ على التَّوحيدِ والإيمانِ، شِئتُمْ، أو أبَيْتُمْ. ولَسْتُ بِحافِظٍ على أعمالِكُمْ، إنَّما عَلَيَّ التَّبليغُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لِكُلِّ أمْرٍ حَقيقَةٌ، وقيلَ: لِكُلِّ خَبَرٍ غايةٌ ينتهي إليها[14]. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾][15] لكنْ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ في أنْ أغْنَمَ أموالَكُمْ، وأسْبِيَ ذَرارِيَّكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢٢ و٢٣].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي بما كانَ وَعَدَ، وأوعَدَ، واللهُ أعْلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ دَلالَةُ نَقْضِ المُعْتَزِلَةِ لأنّا نَعْلَمُ أنَّ لِلْخَلْقِ حَقِيقَةَ الفِعْلِ في القَتْلِ والحَرْبِ والأهواءِ المُخْتَلِفَةِ. ثم أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ. دلَّ أنَّ لهُ صُنْعاً في أفعالِهِمْ، وليسَ كما تقولُ المُعْتَزِلَةُ: إنهُ[16] لا يَمْلِكُ ذلكَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ إضافةِ تَلْبِيسِ الشِّيَعِ إليهِ رَدٌّ لِقولِهِمْ لأنهُمْ يَقولُونَ: هُمْ يَخْتَلِفُونَ، وقد أخْبَرَ أنهُ هو يَجْعَلُهُمْ شِيَعاً. وذلكَ ظاهِرُ النَّقْضِ عليهِمْ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ يُذيقُ بَعْضَهُمْ بأسَ بَعْضٍ، وهُمْ يَقُولُونَ: هو لا يُذيقُ، ولكنَّ ذلكَ القاتِلَ

---

(١) من م، في الأصل: وهو. (٢) في الأصل و م: أرسلها. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الرسول. (١٠) في الأصل وم: جاه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: كذب. (١٣) في الأصل وم: أن تختلف. (١٤) في الأصل وم: إليه. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: لأنه.

أوِ الضاربَ أو المُعَذِّبَ هو يُذيقُهُمْ دُونَ ربِّ العالَمِينَ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وهُمْ يَقُولُونَ: هو لا يُعَذِّبُهُمْ، ولكنَّ الخَلْقَ يُعَذِّبونَهُمْ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] وهُمْ يَقُولُونَ: [هو لا يَمْلِكُ][1] تعذيبَهُمْ بأيديهِمْ. وذلكَ رَدٌّ لِظاهِرِ[2] الآيةِ، وتَرْكُها خَيبَةٌ[3].

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي يَكْفُرونَ بها، ويَسْتَهْزِئونَ بها كما قالَ في سورةِ النساءِ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [الآية: ١٤٠] فيكونُ الخَوضُ في آياتِ [اللهِ][4] الكُفرَ بها والاِسْتِهزاءَ بها، ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تَقعُدْ معهمْ كما قالَ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يَحتَمِلُ النَّهْيَ عنِ القُعودِ مَعَهُمْ على ما ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ ويَحتَمِلُ الإعْراضُ الصَّفْحَ عَنْهُمْ وتَرْكَ المُجازاةِ لِمَساوِئِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] وكقولِهِ[5] تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] [فيهِ النَّهْيُ][6] عَنِ القُعودِ مَعَهُمْ، وفيهِ الأمْرُ بالتَّبْليغِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ: أنَّ الشيطانَ إذا أنساكَ القُعودَ مَعَهُمْ بعدَ ذِكْرِ الذِّكْرَى [فلا تَقْعُدْ][7] ومَعْناهُ النَّهْيُ بَعْدَما أنْساهُ الشيطانُ: أي لا تَكُنْ بالمَحَلِّ الذي يَجِدُ الشيطانُ إليكَ سَبِيلاً في ذلكَ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قِيلَ: فيهِ رُخْصَةُ الجُلوسِ مَعَهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] ثم نُسِخَ ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

وكانَ النَّهْيُ عنْ مُجالَسَتِهِمْ لَيسَ الجُلوسَ نَفْسَهُ، ولكنْ ما ذَكَرْنا مِنْ خَوضِهِمْ في آياتِ اللهِ بالاِسْتِهزاءِ بها والكُفرِ بها، هو الذي كانَ يَحْمِلُهُمْ على ذلكَ، لَيسَ ألّا يَجوزَ أنْ تُجالِسُوهُمْ، وكذلكَ ما نَهانا أنْ نَسُبَّهُمْ لَيسَ ألّا يَجوزُ لنا أنْ نَسُبَّهُمْ، ولكنْ لِما كانَ سَبُّنا إيّاهُمْ هو الذي يَحْمِلُهُمْ على سَبِّ اللهِ ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

يَحْتَمِلُ النَّهْيُ عَنِ القُعودِ مَعَهُمْ [وَجْهَينِ:

أحَدُهُما:][8] أنهُ نَهَى هؤلاءِ عَنِ القُعودِ مَعَهُمْ لِما كانَ أهْلُ النِّفاقِ يُجالِسُونَهُمْ، ويَسْتَهْزِئونَ بالآياتِ، ويَكْفُرُونَ بها، فَنَهى هؤلاءِ عَنْ ذلكَ لِيَرْتَدِعَ أهْلُ النِّفاقِ عَنْ مُجالَسَتِهِمْ.

والثاني: أنهُ نَهَى المؤمِنِينَ عنْ مُجالَسَتِهِمْ لِيَمْتَنِعُوا عَنْ صَنِيعِهِمْ حَياءً مِنْهُمْ لأنهُمْ لوِ امْتَنَعُوا عَنْ مُجالَسَتِهِمْ، لَمَنَعَهُمْ[9] ذلكَ عنِ الاِسْتِهزاءِ بها والكُفرِ بها لِما كانُوا يَرْغَبُونَ في مُجالَسَةِ المُؤمِنِينَ، فَيَتَذَكَّرُونَ عندَ قِيامِهِمْ عَنْهُمْ، فَيَتَّقُونَ الخَوضَ والاِسْتِهزاءَ، وإلّا[10] يَخافُونَ أنْ [يُعْرَفُوا في الناسِ بِتَرْكِ المؤمِنِينَ مُجالَسَتَهُمْ][11]، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الكَفِّ عَنِ الاِستهزاءِ بالآياتِ وبرسولِ اللهِ ﷺ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما][12]: أي وذَرِ الذينَ اتَّخَذُوا لَعِباً ولَهْواً ديناً لَهُمْ على التَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ.

---

(١) في الأصل وم: هؤلاء يملك. (٢) من م، في الأصل: الظاهر. (٣) في الأصل: خاتباً، في م: حديثاً. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل و م: وفيه الأمر بالتبليغ فينهى. (٧) من م، أدرجت في الأصل بعد: القعود معهم. (٨) في الأصل وم: وجوها. (٩) في الأصل و م: فيمنعهم. (١٠) في الأصل و م: ولا. (١١) في الأصل و م: يصرفوك في الناس بترك مجالستهم المؤمنين. (١٢) ساقطة من الأصل و م.

والثاني: اتَّخذُوا اللَّعِبَ واللَّهْوَ دينَهُمْ حتى لا يُفارِقُوا اللَّعِبَ واللَّهْوَ؛ لأنَّ الدِّينَ إنّما يُتَّخذُ لِلأبَدِ. فَعَلَى ذلكَ اتَّخذَ[١] أُولئكَ اللَّعِبَ واللَّهْوَ لِلأبَدِ كالدِّينِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: اتَّخذُوا دينَهُمْ عبادَةَ ما لا يَنْفَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْلَمُ، ومَنْ عِنْدَهُ[٢]، هذا وَصْفُهُ، واتَّخذَ ذلكَ ديناً، فهو عابِثٌ لاعِبٌ.

والثاني: اتَّخذُوا دينَهُمْ ما هَوَتْهُ أنْفُسُهُمْ، ودَعَتْهُمُ الشياطِينُ إليهِ، ومَنِ اتَّخذَ دينَهُ بِهَوَى نَفْسِهِ وما دَعَتْهُ نَفْسُهُ إليهِ، فهو عابِثٌ لاعِبٌ.

والثالثُ: صارَ دينُهُمْ لَعِباً وعَبَثاً لأنهُمْ كانُوا لا يُؤْمِنُونَ بالبَعْثِ. ومَنْ لم يَقْصِدْ بدينِهِ الذي دانَ بِهِ عاقِبَةً فهو عابِثٌ مُبْطِلٌ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا﴾ الآية: ﴿المؤمنون: ١١٥] صَيَّر عَدَمَ الرُّجوعِ إليهِ عَبَثاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ أي شَغَلَهُمْ ما اختارُوا مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا والمَيلِ إليها عَنِ النَّظَرِ في الآياتِ والبَراهِينِ والحُجَجِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ أيِ اغْتَرُّوا بالحَياةِ الدُّنْيا؛ أضافَ[٣] التَّغْرِيرَ إلى الحَياةِ الدُّنْيا لِما بِها اغْتَرُّوا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قِيلَ ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ قَبْلَ ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وإنما يُذَكِّرُهُمْ بهذا لِئَلّا يَقُولُوا غَداً: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وأصْلُ الإبْسالِ الإهلاكُ أوِ الإسلامُ لِلْجِنايَةِ والهَلاكِ. ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾:

عَنِ ابْنِ عباسٍ [ﷺ أنهُ][٤] قالَ: أنْ تُفْضَحَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ. وقيلَ ﴿تُبْسَلَ﴾ تُؤْخَذَ، وتُحْبَسَ، وهو قَولُ قَتادَةَ، وكذلكَ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ۖ﴾. وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][٥] ﴿أُبْسِلُوا۟﴾ أي فُضِحُوا على ما قالَ في ﴿تُبْسَلَ﴾. وعَنِ الحَسَنِ [أنه قال][٦]: ﴿تُبْسَلَ﴾ أي تُسْلَمَ لِلْهَلَكَةِ. وعَنِ الكَيسانِيِّ: [أنهُ قالَ][٧] ﴿تُبْسَلَ﴾ تُجْزَى ﴿نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾. وقالَ الفَرّاءُ: ﴿تُبْسَلَ﴾ تُوهَنَ.

وأصلُ الإبسالِ هو الإسلامُ؛ وتَفْسِيرُهُ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ كما يكونُ بَعْضُهُمْ شَفيعاً لِبَعْضٍ في الدُّنْيا وأعْواناً لَهُمْ وأنْصاراً في دَفْعِ المَضارِّ والمَظالِمِ عَنْهُمْ وجَرِّ المَنافِعِ إليهِمْ. وأمّا في الآخِرَةِ فإنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُسْلَمُ بما كَسَبَتْ / ١٥١ ـ ب/ لا شَفِيعَ لها، ولا وَلِيَّ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [البقرة: ١٦٧] وغَيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ تُسْلَمُ كلُّ نفسٍ إلى كَسْبِها؛ لا شَفِيعَ لها، ولا وليَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ بالقرآنِ والآياتِ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِهِۦٓ﴾ أي باللهِ، أي عِظْ بِهِ [قَبْلَ][٨] أنْ تَهْلِكَ ﴿نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: العَدْلُ الفِداءُ، يقولُ: وإنْ فَدَتْ نَفْسٌ كُلَّ الفِداءِ لِتَتَخَلَّصَ مِمّا حُمِّلَ بها لم يُؤْخَذْ، ولم يُقْبَلْ منها ذلكَ. وقالَ الحَسَنُ: العَدْلُ كلُّ عَمَلِ البِرِّ والخَيرِ؛ أي وإنْ عَمِلَتْ كُلَّ عَمَلِ البِرِّ والخَيرِ مِنَ الفِداءِ والتوبَةِ لم يُقْبَلْ منها ذلكَ.

يُخْبِرُ أنَّ الدارَ الآخِرَةَ لَيسَتْ بِدارِ العَمَلِ، ولا يُقْبَلُ فيها الرُّشا كما تُقْبَلُ في الدُّنْيا. وأخْبَرَ ألّا يكونَ شُفَعاءُ، يَشْفَعُونَ[٩] لَهُمْ، ولا أولياءُ يَنْصُرُونَهُمْ. لَيسَتْ[١٠] كالدنيا؛ لأنَّ مَنْ أصابَهُ في هذِهِ الدُّنْيا شَيءٌ، أو حَلَّ بِهِ عذابٌ أو غَرامَةٌ فإنما يَدْفَعُ بإحْدَى هذِهِ الخِلالِ: إمّا[١١] بِشُفَعاءَ يَشْفَعُونَهُ وإمّا[١٢] بأولياءَ يَنْصُرُونَهُ وإمّا[١٣] بالرُّشا.

---

(١) في الأصل و م: اتخذوا. (٢) في الأصل و م: عندهن. (٣) أدرج بعدها في الأصل: إلى. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: فيشفعون. (١٠) في الأصل و م: ليس. (١١) في الأصل و م: وإما. (١٢) و(١٣) في الأصل وم: أو.

فأخبَرَ أنَّ الآخِرةَ لَيستْ بِدارٍ تُقبَلُ فيها الرُّشا، فتَدفَعُ ما حَلَّ بهِمْ، أو أولياءُ يَنصُرونَهُمْ في دَفْعِ ذلكَ، أو شُفَعاءُ يَشْفَعُونَهُمْ. فإنْ قِيلَ: ما مَعْنى ذِكْرِ العَدْلِ والفِداءِ، ولَيسَ عِنْدَهُ ما يَفْدِي وما يَبْذُلُ وما يُمْكِنُ مِنَ العَمَلِ؟ قيلَ: مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ، أي لو مُكِّنَ لَهُمْ مِنَ الفِداءِ ما يَفْدُونَ في دَفْعِ ذلكَ عنْ أنفُسِهِمْ، ومُكِّنَ لَهُمْ مِنَ العَمَلِ ما لو عَمِلُوا، لم يُقْبَلْ ذلكَ مِنْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قِيلَ: الحَمِيمُ هو ماءٌ حارٌّ، يَنْتَهِي حَرُّهُ، يُغْلِي ما في البَطْنِ إذا وَصَلَ إليهِ، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ لَهُمْ مِنَ الشَّرابِ ما ذَكَرَ لو تناوَلُوا في الدُّنيا مِنَ الشَّرابِ المُحرَّمِ، فكانَ لَهُمْ في الآخِرَةِ الحَمِيمُ مكانَ ذلكَ والعذابَ الأليمَ لِما أعْطَوا أنْفُسَهُمْ في الدُّنيا مِنَ الشَّهَواتِ واللَّذَّاتِ جزاءَ ذلكَ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وُجوهاً:

[أحدُها][1]: أنْ يكونَ أُولئكَ الكَفَرَةُ دَعَوا رسولَ اللهِ ﷺ والمُؤْمِنِينَ إلى عِبادةِ الأصنامِ التي كانُوا يَعْبُدُونَها، فقالَ عندَ ذلكَ: أنَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا، ولا يَضُرُّنا بَعْدَما عَبَدْنا اللهَ الذي يَمْلِكُ نَفْعَنا وضَرَّنا.

والثاني[2]: كانَ أهْلُ الكُفْرِ يَدْعُونَ أهْلَ الإسلامِ إلى عِبادةِ الأوثانِ التي كانُوا يَعْبُدُونَها إمّا طَمَعاً بِشَيْءٍ يَبْذُلُونَهُ[3] لِيَرْجِعُوا إلى عبادةِ الأصنام عَنْ عِبادةِ [اللهِ وإمّا][4] تَخْويفاً منهُمْ لَهُمْ. فقالَ: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا﴾ يَمْلِكُ نَفْعَنا، إنْ عَبَدْناهُ، ولا يَمْلِكُ ضَرَّنا، إنْ تَرَكْنا عِبادَتَهُ.

وعَنِ[5] ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ قالَ][6] ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلأصْنامِ التي عَبَدوها دُونَ اللهِ ومَنْ يَدْعُو إليها، ولِلدُّعاةِ الذينَ يدعُونَ إلى اللهِ والى عبادَتِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ضَلَّ بِهِ الطريقُ؛ فإنهُ ضالٌّ، إذا ناداهُ مُنادٍ: يا فُلانُ ابْنَ فُلانٍ، هَلُمَّ إلى الطريقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ في الكُفْرِ والشِّرْكِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ﴾ يَقُولُ: مَثَلُهُمْ، إنْ كَفَرُوا بَعْدَ الإيمانِ، كَمَثَلِ رجلٍ كانَ مَعَ قوم على الطريقِ، فَضَلَّ الطَّريقَ، فَحَيَّرَتْهُ الشياطينُ في الأرضِ، وأصحابُهُ على الطريقِ، فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إليهِمْ؛ يَقولونَ ﴿ٱئْتِنَا﴾ فإنّا على الطريقِ. قالَ: فَلَمْ يأْتِهِمْ. فذلكَ مَثَلُ مَنْ تَبِعَكُمْ بَعْدَ المَعْرِفةِ بمحمدٍ. ومحمدٌ ﷺ هو الذي يَدْعُوهُمْ إلى الطريقِ، وهو الهُدَى.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ المَثَلُ الذي ضَرَبَهُ مِنْ وَجْهٍ آخرَ؛ وهو أنَّ مَثَلَ هؤلاءِ كَمَثَلِ مَنْ كانَ في بَعْضِ المَفاوِزِ والبَراري، فَضَلَّ الطريقَ، فَذَهَبَ بِهِ الغِيلانُ حتى أوقَعُوا في الهَلَكَةِ، وهو الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قَوْلُهُ: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ أنهُ ما مِنْ أحدٍ مِنْ مُشْرِكٍ ومؤمِنٍ إلّا ولَهُ أصحابٌ يَدْعُونَهُ. أمّا المؤمنُ فَلَهُ أصحابٌ مِنَ الملائِكَةِ ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ والكافِرُ [تَدْعوهُ الشياطينُ][7] إلى الشِّرْكِ. هذا أشْبَهُ أنْ يُحْمَلَ عليهِ.

لكنَّ أهْلَ التَّأويلِ حَمَلُوا على ما ذَكَرْنا؛ قالَ قَتادَةُ: هذِهِ خُصُومَةٌ، عَلَّمَها اللهُ محمداً يُخاصِمُ بها أهْلَ الشِّرْكِ؛ لأنَّ سورةَ الأنعام نَزَلَ أكْثَرُها في مُحاجّةِ أهْلِ الشِّرْكِ. قال ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما: اسْتَهْوَتْهُ: أضَلَّتْهُ. قالَ أبو عوسَجَةَ: أي ذهبَتْ بِهِ، اسْتَهْوَتْهُ، وأهْوَتْهُ، واحِدٌ، أي دَعَتْهُ إلى الهَلَكَةِ، وقيلَ: أضَلَّتْهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ أي نَرْجِعُ عنِ الإيمانِ إلى الشِّرْكِ بَعْدَ أنْ هَدانا اللهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ قِيلَ: بَيانُ اللهِ هو الهُدَى[8]، وقِيلَ: إنَّ دِينَ اللهِ، هو الهُدَى[9].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قِيلَ: هذا صِلَةُ قَولِهِ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ

---

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل و م يبذلونهم. (٤) في الأصل: أو، في م: الله أو. (٥) هذا هو الوجه الثالث. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل وم: يدعونه. (٨) في الأصل وم: البيان. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: وهو الدين.

عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

الآية ٧٢ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾. وقالَ بَعْضُهُمْ: لَيسَ على الصِّلَةِ، ولكنْ على الابْتِداءِ ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقُلْ لَهُمْ: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ لم يَخلُقْها باطِلاً كقولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] قيلَ: لم يَخلُقْهُما باطِلاً، ولكنْ خلَقَهُما بالحَقِّ.

وهو يَحتَمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها][2]: قيلَ: خلَقَهُما لِلْعاقِبَةِ لأنَّ كُلَّ أمرٍ لا عاقِبَةَ لهُ، هو باطِلٌ، لَيسَ بحقٍّ؛ فإنما خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بَيْنَهُما لِلْعاقِبَةِ، وذلكَ لأمرٍ عَظيمٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ و٦].

وقيلَ[3]: قولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلَقَهُما لِيَمْتَحِنَ فيهما ولِمِحْنَةِ سُكّانِهِما، لم يَخلُقْهُما لِغَيرِ شَيءٍ.

وقيلَ:[4] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلَقَهُما بالحِكْمَةِ؛ مَنْ نَظَر فيهما، وتَدَبَّرَ لِدَلالَةٍ[5] على أنَّ لَهُما خالِقاً ومُدَبِّراً أو لِدَلالَةٍ[6] على أنَّ مُدَبِّرَهُما ومُنْشِئَهُما واحدٌ، فإذا كانَ كذلكَ فكانَ خلَقَهُما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحِكْمَةِ والعِلْمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [فيهِ وجوهٌ:

أحَدُها:][7] قد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ: ﴿كُن﴾ هو أوجزُ كلامٍ في لسانِ العَرَبِ؛ يُعَبِّرُ بِهِ، فَيُفْهِمُ[8] منهُ، لا أنْ كانَ مِنَ اللهِ كافٌ أو نونٌ، لكنَّهُ ذَكَرَهُ[9] واللهُ أعْلَمُ، لِيَعْلَمُوا أنْ لَيسَ على اللهِ في الإحياءِ والإنشاءِ بَعْدَ المَوتِ مُؤْنَةٌ كما لم يَكُنْ على الخَلْقِ في التَّكَلُّمِ بـ﴿كُن﴾ مُؤْنَةٌ، ولا يَصْعُبُ عليهِمْ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ لَيسَ على اللهِ في البَعْثِ بَعْدَ الموتِ مَؤْنَةٌ ولا صُعوبَةٌ.

والثاني: ذَكَرَ هذا لِسُرْعَةِ نَفاذِ البَعْثِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أخْبَرَ أنَّ خَلْقَهُمْ[10] وبَعْثَهُمْ لَيسَ إلّا كَخَلْقِ نَفْسٍ واحدةٍ وبَعْثِ نَفْسٍ واحدةٍ، وكقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] يُخبِرُ لِسُرْعَةِ نَفاذِ[11] الساعةِ وبَعْثِهِمْ؛ وذلكَ أنَّ الرجلَ قد يَلْمَحُ البَصَرَ، وهو لا يَشْعُرُ بِهِ. فَعَلَى ذلكَ القِيامَةُ، قد تَقومُ، وهُمْ لا يَشْعُرُونَ.

والثالثُ: يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعْلَمُ، أنَّ البَعْثَ بَعْدَ المَوتِ [هو إحياءٌ][12]، والإحياءُ إعادةٌ، وإعادةُ الشَّيءِ عِنْدَهُمْ أهْوَنُ مِنِ ابْتِداءِ إنشاءٍ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي هو أهْوَنُ عليهِ عندَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ يَحتَمِلُ ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي البَعْثُ بَعْدَ المَوتِ حَقٌّ على ما أخْبَرَ، ويَحتَمِلُ ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلكَ القولُ منهُ حَقٌّ، يكونُ كما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ مُلْكُ ذلكَ اليوم كقولِهِ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وكقولِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِما [لا يُنازِعُهُ][13] أحدٌ في مُلْكِ ذلكَ اليومِ، وقد نازَعَهُ الجَبابِرَةُ في المُلْكِ في الدنيا، وإنْ لم يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ ولا أُلُوهِيَّةٌ[14].

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي مُلْكُ جَميعِ الملوكِ لهُ في الحَقيقةِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل و م: البيان. (٣) هذا هو الوجه الثاني. (٤) هذا هو الوجه الثالث. (٥) من م في الأصل: له لاه. (٦) من م، في الأصل: له لاه. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) من م، في الأصل: فيهم. (٩) في الأصل و م: ذكر. (١٠) في الأصل و م: قولهم. (١١) من م، في الأصل: فنفاذ. (١٢) ساقطة من الأصل و م. (١٣) من م، في الأصل: يتنازعه. (١٤) من م، في الأصل: ألوهيته.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: النَّفْخُ هو الرُّوحُ، والرُّوحُ مِنَ الرِّيحِ، والرُّوحُ إنما يَدْخُلُ [كقولِهِ تعالى][1]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقالَ بَعْضُهُمْ: لا يكونُ هناكَ / ١٥٢ ـ أ/ في الحَقِيقَةِ نَفْخٌ، ولكنْ يَذْكُرُهُ[2] لِسُرْعَةِ نَفاذِ السّاعَةِ؛ لأنَّ الرجلَ قد يَتَنَفَّسُ، وهو لا يَشْعُرُ بِهِ، فَذَكَرَ هذا لِسُرْعَةِ نَفاذِ الساعَةِ، لأنَّهُ لَيسَ شَيءٌ أَسْرَعَ جَرَياناً ونَفاذاً مِنَ الرِّيحِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو على حَقِيقَةِ النَّفْخِ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي يَعْلَمُ ما يُغَيِّبُ الخَلْقُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. ويَحْتَمِلُ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي يَعْلَمُ ما يكونُ، إذا كانَ كيف كانَ؟ أو يَعْلَمُ وقتَ كونِهِ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما كانَ، وشُوهِدَ. يُخْبِرُ أنهُ لا يَغيبُ عَنْهُ شيءٌ، ولا يَعْزُبُ مِنْهُ ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في خَلْقِ السّمواتِ والأرضِ وخَلْقِ ما فيها. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في بَعْثِهِمْ. والحَكِيمُ هو واضِعُ الشَّيءِ مَوضِعَهُ. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بِكُلِّ شَيءٍ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قِيلَ: آزَرُ هو اسْمُ أبي إبراهيمَ ﷺ والحَسَنُ يَقرأُ: آزَرُ بالرفعِ[3]، ويَجْعَلُهُ اسْمَ أبيهِ. وقالَ آخرونَ: هو اسْمُ صَنَمٍ، فهو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ كأنهُ قالَ: وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ أتَتَّخِذُ آزرَ أصناماً آلِهَةً؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ اسْتِعْظاماً لِما يَعْبُدُ مِنَ الأصنامِ دُونَ اللهِ؛ لأنَّ مِثْلَ هذا إنما يُقالُ على العَظِيمِ مِنَ الفِعْلِ. وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: قولُهُ: ﴿ءَازَرَ﴾ قِيلَ: هو اسْمُ عَيْبٍ عندَهُمْ كأنهُ قالَ: يا ضالُّ أتَتَّخِذُ أصناماً آلِهَةً؟ كقولِ الرجلِ لآخَرَ: يا ضالُّ. ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ [أنْ][4] كانَ اسْمَ أبيهِ أو اسْمَ صَنَمٍ.

وفي الآيةِ دَلالَةٌ أنَّ أباهُ كانَ مِنْ رُؤَساءِ قومِهِ بقولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وفيهِ دلالةٌ أنْ لا بأسَ لِلرَّجُلِ أنْ يَشْتُمَ أباهُ لِمكانِ رَبِّهِ؛ لأنَّ إبراهيمَ ﷺ سَمّاهُ ضالاً. وفيهِ دَلالَةٌ أنَّ الإيمانَ والتَّوحيدَ يَلْزَمُ أهْلَ الفَتْرَةِ لأنَّ إبراهيمَ ﷺ سَمّاهُمْ ضُلالاً، [وجَعَلَ ضلالَهُمْ][5] لا شَكَّ فيهِ، ولا شُبْهَةَ؛ وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حِينَ[6] عَبَدَ ما ذَكَرَ بقولِهِ[7]: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] هذا الضَّلالُ البَيِّنُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ذَكَرَ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ واللهُ أعلَمُ، على مَعْنى كما أريناكَ ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والآياتِ. كذلكَ كُنّا أرينا إبراهيمَ. و﴿نُرِىٓ﴾ بِمَعْنَى أرينا، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. وكذلكَ لا تُذْكَرُ إلّا على تَقَدُّمِ شَيءٍ. لكنَّ الوَجْهَ فيهِ ما ذَكَرْنا: كما أريناكَ مِنَ السمواتِ والأرضِ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ والبَراهِينِ كذلكَ كُنّا أرينا إبراهيمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: سُلْطانُ السّمواتِ والأرضِ، وقيلَ: الشمسُ والقمرُ والكواكبُ، وقيلَ: فُرِجَتْ لَهُ السّمواتُ السَّبْعُ حتى نَظَرَ إلى ما تَحْتَ العَرْشِ، وما فِيهِنَّ، وكذلكَ فُرِجَتْ لَهُ الأرضُونَ حتى رَأى ما فِيهِنَّ، وقِيلَ: ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خُبْءُ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، مِنَ الجَبابِرَةِ في سَرَبٍ، فَجَعَلَ اللهُ في أصابِعِهِ رِزْقاً، فإذا مَصَّ إصْبَعاً مِنْ أصابِعِهِ وَجَدَ مِنها رِزْقاً، فلمّا خَرَجَ أراهُ اللهُ الشَّمْسَ والقَمَرَ، فكانَ ذلكَ ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومَلَكُوتَ الأرضِ الجِبالَ والبِحارَ والأشجارَ. وقِيلَ: نَظَرَ إلى مُلْكِ اللهِ فيها حتى نَظَرَ إلى مَكانِهِ، ورَأى الجَنَّةَ، وفُتِحتْ لَهُ الأَرَضُونَ حتى نَظَرَ إلى أسْفَلِ الأرَضِينَ، فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧] قِيلَ[8]: أُرِيَ مكانَهُ في الجنَّةِ، وقيلَ: أجْرُهُ الثناءُ الحَسَنُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: مَلَكُوتُ السَّمواتِ والأرضِ مِنَ المُلْكِ، وكذلكَ قالَ أبو عُبَيدٍ، وهو كَجَبَرُوتٍ ورَحَمُوتٍ ورَهَبُوتٍ، فكذلكَ مَلَكُوتٌ. وأصْلُهُ ما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ والعجائبِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ الإيقانُ بالشَّيءِ هو العِلْمُ بالشَّيءِ حَقيقَةً بَعْدَ الاسْتِدْلالِ والنَّظَرِ فيهِ والتَّدَبُّرِ. ولِذلكَ لا يُوصَفُ اللهُ باليَقِينِ، ولا يَجوزُ لِلّهِ أنْ يُقالَ: مُوقِنٌ لِما ذَكَرْنا: هو العِلْمُ الذي يَعْقُبُ[9] الاسْتِدْلالَ وذلكَ مَنْهِيٌّ عنهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: يذكر. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٢٨٣. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث قال. (٨) في الأصل و م: قال. (٩) في الأصل و م: يعقبه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ وقيل في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي كما أرَيناكَ(١) مَلَكُوتَ ما ذَكَرَ، فقولُهُ: نُري بِمَعْنَى أرَينا(٢).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ لهُ وَجْهانِ:

أحدُهما: أنهُ كما أرَيناكَ ما أيقَنْتَ بِهِ أنَّ الرُّبُوبِيَّةَ لِلَّهِ، وأنه الواحدُ لا شريكَ لهُ مِنَ الآياتِ والأدِلَّةِ، أراهُ أيضاً ما ذَكَرَ حتى أيقَنَ. فهو، واللهُ أعْلَمُ، على التَّسْوِيَةِ بَينَ الأسبابِ الدالَّةِ(٣) على الوَحْدانِيَّةِ للهِ، والرُّبُوبِيَّةِ في المَعْنَى، وإنْ كانَتْ بأنبائِها(٤) مُخْتَلِفَةً، وعلى أنَّ طريقَ المَعْرِفَةِ الاِسْتِدْلالُ بِما أنْشأَ اللهُ مِنَ الدَّلالَةِ لا السَّمْعِ والحِسِّ، وإنْ كانَ في حُجَّةِ السَّمْعِ تأكيدٌ.

والثاني: أنْ يكونَ يُريهِ على ما أظْهَرَ مِنَ الحُجَجِ على قَومِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وأعطاهُ ما أراهُ، وأشْعَرَ قَلْبَهُ مِنَ الحُجَجِ التي ألْزَمَ قومَهُ بِما أنْطَقَ بها اللهُ ﷺ بِلِسانِهِ، يُلْزِمُ حُجَجَهُ خَلْقَهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المُلْكُ في الحَقيقَةِ مِنَ الوَجْهِ الذي يكونُ آيةً لِلإيقانِ ودليلاً للإحاطَةِ بالحَقِّ. ثم اخْتُلِفَ في وَجْهِ ذلكَ.

فَمِنهُمْ مَنْ قالَ: هو ما أُرِيَ بَصَرَهُ؛ أعني بَصَرَ الوَجْهِ نَحْوَ الذي ذَكَرَ مِنْ فَتْحِ السماءِ حتى أُرِيَ ما فيها مِنَ العَجائِبِ والآياتِ إلى العَرْشِ أو [حينَ مدَّ](٦) الأرضَ حتى رَأى ما فيها مِنْ أنواعِ الخَلْقِ إلى الثَّرَى أو حَيثُ بَلَغَ.

ومنهُمْ منْ قالَ: رَفْعُ السماءِ حتى كانَتِ الأرضُ بِمَنْ فيها رَأيَ العَينِ، وكانَ لَهُ ﷺ مِثْلُ هذا مِنَ الأمورِ نَحْوُ أمْرِ الناسِ بالهِجْرَةِ(٧) إلى حيثُ لا ضَرْعَ، ولا زَرْعَ، وما جُعِلَ رِزْقُهُ في أصابِعِهِ، وأمْرِ بُلُوغِ صوتِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] أنْ كانَ ما سُمِعَ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ هو ما أُرِيَ بَصَرُ قلبِهِ مِنْ وُجوهِ البِرِّ وأنواعِ الأدِلَّةِ عندَ التَّأمُّلِ في خَلْقِ اللهِ بالكُفْرِ مِنْ غَيرِهِ(٨) إنْ كانَ في الخَلْقِ تَغَيُّرٌ على الأحوالِ التي كانَتْ عليهِ. وهو أحَقُّ بأنْ(٩) يكونَ لهُ في الذي كانَ كِفايَةٌ عنْ حُدوثِ أحوالٍ تَدُلُّ [على أنها](١٠) حُجَجُ اللهِ يُسْتَدَلُّ [بها على قولِهِ](١١) مِنَ الوَجْهِ الذي جُعِلَ لِجميعِ الخَلْقِ لا مِنْ جِهَةِ خُصوصِ الآياتِ. فَثَبَتَ أنَّ ذلكَ كانَ لهُ بهذا الوجهِ.

ثم هو يُخَرَّجُ على وُجوهٍ: منها ما رَأى مِنْ تَسْخيرِ القمرِ والشَّمْسِ والنجومِ وقَطْعِها في كل يَوْمٍ ولَيلَةٍ أطرافَ السماءِ والأرضِ جميعاً ومَسِيرِها فوقَ الأرضِ إلى أنْ يَعُودَ كُلٌّ إلى مَطْلَعِهِ؛ يَسيرُ كُلُّ ذلكَ ما فوقَ الأرضِ إلى السماءِ.

ومنها(١٢) اسْتِواءُ أحوالِ ذلكَ على ما عليهِ حدٌّ في كلِّ عامٍ وشَهْرٍ لا يَزْدادُ، ولا يَنْقُصُ، ولا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتأخَّرُ، مع عظيمِ ما بها مِنَ المَنافِعِ لأنواعِ دَوابِّ الأرضِ والطيرِ جَميعاً ما يُوقِنُ كُلُّ مُتأمِّلٍ أنَّ مِثْلَ هذا لا يَعْمَلُ بالطِّباعِ إلّا أنْ يَكونَ لَهُ مُدَبِّرٌ حكيمٌ، جَعَلَهُ بذلكَ(١٣) الطَّبْعِ، وسَوّاهُ على ما شاءَ مِنَ الحَدِّ، وألّا يَسْبِقَ الأمْرَ على التَّدَبُّرِ والحِكْمَةِ إلّا أنْ يكونَ مُدَبِّرُ ذلكَ بِحَيثُ لا يَحْتاجُ إلى مُعينٍ، ولا يَجوزُ أنْ يكونَ لهُ منهُ مَنافِعُ.

ثم(١٤) هو بِذاتِهِ عليمٌ قديرٌ على ما في الأرضِ مِنْ تدبيرِ اللَّيلِ والنهارِ؛ يَتَعاقَبانِ أبداً، ويَسيرانِ؛ يَقْهَرانِ ما فيها مِنَ الجبابِرَةِ والفراعِنةِ حتى إنِ اجْتَهَدَ جَمْعُ أهلِ الأرضِ على زِيادةٍ أو نُقْصانٍ أو تَقْديمٍ أو تأخيرٍ لِما لَهُمْ مِنَ الحاجَةِ أو بما فيهِمْ مِنَ القُوَّةِ والقُدْرَةِ مَعَ مَعُونَةِ الجَمْعِ لَهُمْ في ذلكَ لَما تَهَيَّأ(١٥) لَهُمْ، ولا بَلَغَ تَوَهُّمُ أحدٍ مِنِ احْتِمالِ ذلكَ؛ حتى يَصيرَ

---

(١) في الأصل و م: إنبائك. (٢) من م، في الأصل: أريناه. (٣) في الأصل و م: الدلالة. (٤) في الأصل و م: لإنبائها. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل وم: حيث قدر. (٧) في الأصل و م: الهجرة. (٨) في الأصل و م: غير. (٩) في الأصل وم: من أن. (١٠) في الأصل وم: إذ هو. (١١) في الأصل وم: على قومه. (١٢) في الأصل وم: و، وهو الوجه الثاني. (١٣) في الأصل وم: ذلك. (١٤) هذا هو الوجه الثالث. (١٥) في الأصل وم: يتهيأ.

عندَ وجودِ كلٍّ كأنَّ الآخرَ لم يكنْ قطُّ، ثم عندَ العَودِ إليهِمْ كأنهُ لم يُفارِقْهُم قَطُّ مع ما لِجَميعِ أهلِ الأرضِ بهما مِنَ المنافعِ، وعليهِمْ منهما[١] أنواعُ مَضارَّ، ولَهُما سُلْطانٌ على أعمالِهِمْ[٢] عَلى ما فيهما مِنَ التَّسْخِيرِ والتَّذْلِيلِ الذي كُلٌّ مَقْهورٌ بالآخرِ، إذا جاءَ سُلْطانُهُ، وبَلَغَ حَدَّهُ، ولَيسَ في واحدٍ منهما امْتِناعٌ مِنْ قَهْرِ الآخرِ، وإن كانَ هو الظاهرَ القَوِيَّ جَرْياً جَميعاً على حدٍّ واحدٍ وسَنَنٍ / ١٥٢ ـ ب/ واحدةٍ، ولا على ما دَلَّ عليهِ الأولَى مع ما فيهما مِنْ أثرِ البَعْثِ أمْرٌ[٣] ظاهِرٌ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَجْهَلَهُ إلّا سَفيهٌ مُعانِدٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم النُّورُ والظُّلْمَةُ والظِّلُّ ونَحْوُ ذلكَ الذي يَنْبَسِطُ بساعةٍ على جَميعِ أطرافِ السَّماءِ والأرضِ؛ يَسْتُرُ واحدٌ كُلَّ شَيءٍ، ويُبْدِي آخَرُ عنْ كُلِّ شَيءٍ، ويُحيطُ الثالثُ بكلِّ شيءٍ. ثم تَعَلُّقُ مَنافعِ الأهْلِ بها على اخْتِلافِها بالسماءِ والأرضِ على تَباعُدِ ما بَيْنَهما وبالسَّهْلِ والجَبَلِ والبَحْرِ والبَرِّ على تَضادِّ معانيها.

وعلى ذلكَ جميعُ الأمورِ؛ فكانَ ﷺ بما أُرِيَ مِنَ المَعْنَى وغَيْرِهِ مِنَ المُوقِنِينَ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ، وَجَّهَ إليهِ نَفْسَهُ، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ، نَسَبَ إليهِ الألُوهِيَّةَ، مُحالٌ أنْ يكونَ مِنْهُ[٤]، أوْ لَهُ إمكانُ ذلكَ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآيات ٧٦ ـ ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تَكَلَّمُوا في تأويلِ الآيةِ على أوجُهٍ ثلاثةٍ:

فَمِنهُمْ مَنْ جَعَلَ الأمْرَ على ما عليهِ الظاهِرُ أنهُ عارِفٌ بربِّهِ حَقَّ المَعْرِفَةِ إلى أنْ عَرَفَ مِنَ الوجْهِ الذي بانَ لَهُ عندَ الفراغِ مِنْ آخِرِ ما نَسَبَ إليهِ الرُّبُوبِيَّةَ أنهُ لا يُعْرَفُ مِنْ جِهَةِ دَرْكِ الحَواسِّ وَوُقوعِها عليهِ، ولكنْ مِنْ جِهَةِ الآياتِ وآثارِ العَقْلِ، فقالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: ٧٩].

لكنَّ أهْلَ هذا القولِ اخْتَلَفُوا على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: ما رُوِيَ في التَّفْسِيرِ أنَّهُ رُبِّيَ في السَّرَبِ، ولم يَكُنْ نَظَرَ إلى شَيءٍ مِنْ خَلْقِ السَّماءِ، فَنَظَرَ مِنْ[٥] بابِ السَّرَبِ في أوَّلِ اللَّيلِ، فَرَأى الزُّهَرَةَ بِضَوئِها وتَلأْلُئِها، وكانَ في عِلْمِهِ أنَّهُ لَهُ رَبّاً، وأنهُ يُرَى، فَلَمْ يَرَ أضْوَأَ[٦] منها ولا أنْوَرَ، فقالَ: ﴿هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ ولَـهُ عِـلْـمٌ أنَّ الـرَّبَّ دائـمٌ، لا يَـزولُ، فـقـالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ بِـمَـعْـنـى: لَـيـسَ هـذا بِـرَبٍّ كقولِهِمْ[٧] ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨] أي لَيسَ لَنا، وقولِ عِيسَى حِينَ[٨] ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] بِمَعْنَى: ما قُلْتُ ذلكَ.

ولكنَّ أهْلَ التَّفْسِيرِ حَمَلُوا الأفولَ على غَيبوبَتِهِ بِنَفْسِهِ، وهو عندَنا على غَيبُوبَتِهِ بِسُلْطانِ[٩] القَمَرِ، وقَهْرِ سُلْطانِ القَمَرِ، لمّا طَلَعَ سُلْطانُ النَّجْمِ.

وعندَهُ أنَّ الرَّبَّ لا يُقْهَرُ، وأنَّ سُلْطانَهُ لا يَزولُ. وعلى ذلكَ أمْرُ القَمَرِ والشَّمْسِ بِظُلْمَةِ الليلِ. وفي ذلكَ أنهُ لو كانَ عندَهُ أنَّ الرَّبَّ لا يُقْهَرُ، وأنَّ سُلْطانَهُ لا يَزولُ، وأنهُ لا يُرَى، لأنْكَرَ مِنْ ذلكَ الوجْهِ أنْ يكونَ رَبَّهُ، بل أقَرَّ بِهِ، وأنْكَرَ الأُفولَ والزَّوالَ. وهذا يَنْقُضُ قولَ مَنْ يَصِفُهُ بالزَّوالِ والانْتِقالِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ.

ومِنهُمْ[١٠] مَنْ يَقُولُ: كانَ هذا مِنْهُ في وَقْتٍ، لم يَكُنْ جَرَى عليهِ القَلَمُ، سَمِعَ الخَلْقَ يَقُولُونَ[١١] في خَلْقِ السماءِ والأرضِ ونَحْوِ ذلكَ، ويَنْسِبُونَ ذلكَ إلى اللهِ. وعلى ذلكَ أمْرُ جميعِ أهلِ الشِّرْكِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١ و...] وقولِهِ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ إلى قولِهِ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩١] ثم رآهُمْ عَبَدُوا الأصنامَ، وسَمَّوها آلِهةً، فَتَأمَّلَ، فَوَجَدَها لا تَسْمَعُ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَنْفَعُ، ولا تَضُرُّ، فَعَلِمَ[١٢] أنَّ مِثْلَها لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يَخْلُقُ ما ذَكَرْتُ، وأنَّ الذي ذلكَ فِعْلُهُ لَعَلِيٌّ عظيمٌ، يَجِبُ طَلَبُ مَعْرِفَتِهِ مِنَ العُلُوِّ بما كانَ يَسْمَعُ نِسْبَةَ

---

(١) في الأصل وم: فيها. (٢) في الأصل وم: أعمارهم. (٣) في الأصل و م: أمرا. (٤) في الأصل و م: فيه. (٥) في الأصل و م: عن.
(٦) في الأصل و م: ضوء. (٧) في الأصل و م: بقوله. (٨) في الأصل و م: حيث. (٩) في الأصل و م: في سلطان. (١٠) هذا هو الوجه الثاني من وجوه أقوال أهل التأويل في هذه الآية. (١١) في الأصل و م: يقول. (١٢) في الأصل و م: علم.

الملائكةِ إلى السَّماءِ ونُزولَ الغَيثِ منها ومَجِيءَ النُّورِ والظُّلْمَةِ وكُلَّ أنواعِ البَرَكاتِ وغَيرَها منها. فَصَرَفَ تَدْبيرَ الطَّلَبِ الذي نَسَبَ إليهِ الخَلْقُ إليها، ثم أوّلَ ما أخَذَ في التّأمُّلِ والنَّظَرِ لم يَقَعْ بَصَرُهُ على أحْسَنَ وأبْهَى مِنَ الذي ذَكَرَ، فَظَنَّ ذلكَ.

ثم لمّا قُهِرَ، وقد كانَ عَلِمَ بأنَّ خالِقَ مَنْ ذَكَرَ لا يَجوزُ أنْ يُقْهَرَ، فَمِنْ ذلكَ عَلِمَ أنّهُ لَيسَ هو، وقالَ: [﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾][1] إلى أنْ قَهَرَ الليلَ ضَوءُ الشَّمسِ، أو صارَتْ بِحَيثُ لا يجري لهُ السُّلْطانُ، أو رَأى في الكُلِّ آثارَ التَّسْخِيرِ والتَّذْليلِ، ولم يَرَ فيها أعلامَ مَنْ لَهُ الأمْرُ والخَلْقُ، فَعَلِمَ أنَّ الرَّبَّ لا يُدْرَكُ مِنْ ذلكَ الوَجْهِ، ولا يُعْرَفُ مِنْ جِهَةِ الحَواسِّ، فَرَجَعَ إلى ما سَمِعَ مِنْ أنَّهُ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، فَوَجَّهَ نَفْسَهُ إليه بالعُبُودِيَّةِ، واعتَرَفَ لهُ بالرُّبُوبِيَّةِ بما في الخَلْقِ مِنْ آثارِ ذلكَ وفي القَولِ مِنْ تَسْمِيَةِ مَنْ لَهُ الخَلْقُ رَبّاً وإلهاً، فآمَنَ بِهِ. وذلكَ كانَ أوّلَ أحوالِ احْتِمالِهِ عِلْمَ الاسْتِدْلالِ وبُلُوغَهُ المَبْلَغَ الذي مَنْ بَلَغَهُ يَجْرِي عليهِ الخِطابُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ومِنْهُم[2] مَنْ قالَ: إنهُ كانَ بالغاً قد جَرَى عليهِ القَلَمُ، وقد كانَ رَأى ما ذَكَرَ غَيْرَ مَرَّةٍ، لكنَّ اللهَ لمّا أرادَ أنْ يَهْدِيَهُ أَلْهَمَهُ ذلكَ، وألْقَى في نَفْسِهِ، فانْتَبَهَ انْتِباهَ الإنسانِ بِشَيءٍ كانَ عنهُ غافِلاً مِنْ قَبْلُ، فَرَأى كوكباً أحْمَرَ يَطْلُعُ عندَ غروبِ الشَّمسِ، فَراعاهُ إلى أنْ أفَلَ، فأرادَ مِنَ اللهِ قُرْبَةً، وعَلِمَ أنَّ رَبَّهُ لا يَزولُ، ولا يَتَغَيَّرُ، فَفَزِعَ إليهِ، وقالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ وكذا ذَكَرَ في القَمَرِ والشَّمسِ إلى أنْ عَرَّفَهُ اللهُ، فَتَبَرّأَ[3] مِمّا كانُوا يُشْرِكُونَ، وتَوَجَّهَ[4] بالتَّوحيدِ والعبادَةِ إليهِ.

وإلى هذا التّأويلِ ذَهَبَ الحَسَنُ، وإلى الأوّلِ [مَا][5] رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه.

والثاني: قالَ بِهِ جماعةُ أهلِ الكلامِ، ونَحْنُ نَتَبَرَّأُ إلى أنْ نَجْعَلَهُ رجلاً بالغاً جَرَى عليهِ القَلَمُ، وهو كانَ عَنِ اللهِ بهذهِ الغَفْلَةِ حتى يَتَوَهَّمَهُ في مَعْنَى نَجْمٍ أو قَمَرٍ أو شَمْسٍ مَعَ ما يَرَى فيها الظُّهورَ بَعْدَ أنْ لم يَكُنْ والأُفولَ[6] بَعْدَ الوُجودِ ثُمَّ آثارَ التَّسْخِيرِ والعَجْزِ عنِ التَّدْبيرِ بما هو في جَهْدٍ وبَلاءٍ ومَنْ لَهُ يَعْمَلُ في راحةٍ وسُرورٍ. ثم [لا][7] يَرَى في شَيءٍ مِنَ العالَمِ أنَّ[8] لهُ مَعْنَى يَدُلُّ على رُجوعِ التَّدبيرِ، فَيَتَحَقَّقُ لهُ القولُ بذلكَ، واللهُ يَصِفُهُ بقولِهِ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]. وقيل: ﴿سَلِيمٍ﴾ مِنَ الشِّرْكِ، لم يَشُبْهُ شَيءٌ.

وقالَ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وما يَذْكُرُونَهُ إنما أتاهُ على نَفْسِهِ؛ إذْ هو في الغَفْلَةِ عنها والجَهْلِ بِمَنْ لهُ الآياتُ، وقد قالَ أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] ومعلومٌ أنَّ ذلكَ على مُعايَنَةٍ أو ذلكَ قد أُرِيَ كُلّاً منا.

ولكنْ على ما بَيَّنْتُ مِنَ الوَجْهَينِ، وفيهما حَقيقَةٌ، ولَيسَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ دلالةٌ لِلشَّكِّ في الابْتِداءِ والجَهْلِ في الحالِ التي يُحْتَمَلُ بِهِ ﷺ ولكنْ على أنهُ على ذلكَ الوَجْهِ يكونُ الإيقانُ بِمَنْ لا تَقَعُ عليهِ الحَواسُّ، ولا[9] تُوجِبُ عِلْمَهُ الضَّروراتُ، إنما هو الاسْتِدلالُ بالآثارِ أو تَلَقِّي الأخبارِ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ﴾ [الرعد: ٢] لا عَنْ وَضْعٍ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] لا أنْ كانُوا[10] مِنْ قَبْلُ في الظلماتِ، وقولِ يُوسفَ: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧] لا عَنْ كونٍ فيها. وهكذا أمْرُ الإيمانِ أنْ يكونَ العَبْدُ في كلِّ وَقْتٍ مُوقِناً باللهِ وأنْ لا إلهَ غَيْرُهُ، لا عَنْ شَكٍّ في ما تَقَدَّمَهُ مِنَ الوَقْتِ والجَهْلِ. فَمِثْلُهُ أمْرُ إبراهيمَ عليه السلام.

والوَجْهُ الثاني مِمّا تُكُلِّمَ في التأويلِ أنْ يكونَ إبراهيمُ، صلواتُ اللهِ عليهِ، كانَ مُؤْمِناً في ذلكَ الوَقْتِ عارفاً بِرَبِّهِ حَقَّ المَعْرِفَةِ، ولكنَّهُ كَلَّمَ قَومَهُ كلامَ مُسْتَدْرِجٍ بإظهارِ المُتابَعَةِ لَهُمْ على هَواهُمْ، فَيَكُونُونَ بِهِ أولَى وإليهِ أمْيَلَ. وذلكَ أبْلَغُ في الحِجاجِ وألْطَفُ في المَكيدَةِ، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ ما[11] أرادَ مِنْ غيرِ جِهَةِ النَّقْضِ والعِنادِ، فبدأ بِتَعْظِيمِ ما عَظَّمُوهُ؛ إذْ هُمْ قومٌ كانوا

---

(١) في الأصل وم: لمن قهر وذلك. (٢) هذا هو الوجه الثالث من وجوه أقوال أهل التأويل في هذه الآية. (٣) في الأصل و م: فيتبرأ. (٤) في الأصل و م: ووجه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: والأقوال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل و م: أو.
(٩) في الأصل وم: ولو. (١٠) في الأصل و م: قالوا. (١١) في الأصل و م: من.

يُعظِّمونَ النجومَ، وبالعِلْمِ بأَمْرِها أَخبَرُوا نَمْرُودَ بِولادَةِ مَنْ يَهْلِكُ على يَدِهِ هو، ويَزولُ مُلْكُهُ، وهذا كما ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [الصافات: ٨٨] في مَقايِيسِها وعِلْمِها نَظَرَ[1] إليها، ثم قالَ الذي ذَكَرَ لا مِنْ حَيثُ علمُ النُّجومِ، ولكنْ مِنْ حَيثُ عِلْمُهُ أنهُ يَموتُ، ومَنْ يَموتُ يَسْقَمُ، لكنْ أراهُمُ المُوافَقَةَ في العِلْمِ الذي لَهُمْ في ذلكَ البابِ دَعْوَى.

فكذلكَ ما نَحنُ فيهِ. وعلى ذلكَ أمْرُ البُدِّ الذي كانَ يَعْبُدُهُ[2] قومٌ، عَظَّمَتْهُ [الحَوارِيّونَ الذينَ][3] أرْسَلَ إليهِمْ حتى اطْمأَنُّوا، وصَدَرُوا عَنْ تَدْبيرِهِ، وبُلُوا بِعَذابٍ[4]، وكادَ يُحيطُ بِهِمْ، فَدَعاهُمْ إلى دُعاءِ البُدِّ لِيَكْشِفَ لَهُمْ، إذْ لِمِثْلِهِ يُعْبَدُ، حتى أَيِسُوا، فَدَعاهُمْ إلى اللهِ، فَكَشَفَ عنهُمْ، فآمَنُوا بِهِ. فَمِثْلُهُ الأوَّلُ.

وإلى هذا التَّأويلِ يَذْهَبُ القُتَبِيُّ، لكنهُ ذَكَرَ أنهُمْ كانُوا أصحابَ نُجومٍ وكَهانَةٍ. ومِنْ ذلك قولُهُ: لا يَعْبُدُ النَّجْمَ[5]، ولا يَراهُ رَبّاً، كيفَ أظْهَرَ المُوافَقَةَ بِتَسْمِيَةِ النَّجْمِ رَبّاً؟ ثم النَّقْضَ عليهِ/ ١٥٣ - أ/ بالأُفولِ؟ ولكنْ على ذلكَ لو كانَ فإنما كانَ في قومٍ يَعْبُدُونَ النُّجومَ والشَّمْسَ والقَمَرَ، فَأَلْزَمَهُمْ بالأُفولِ؛ إذْ فيهِ تَسْخيرٌ وغَلَبَةُ سُلْطانٍ.

وهذا الوَجْهُ يَجوزُ أنْ يَظْهَرَ على إضمارِ مَعْنًى، في نَفْسِهِ مُسْتَقيمٌ، كالمُكْرَهِ على عِبادَةِ صَليبٍ، يَقْصِدُ قَصْدَ عِبادَةِ اللهِ، والمُكْرَهِ على شَتْمِ محمدٍ ﷺ يَقْصِدُ قَصْدَ محمدٍ آخَرَ، يُصَوِّرُهُ في وَهْمِهِ ونَحْوُ ذلكَ. وهو على ما ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] على جَعْلِ أنْ كانُوا يَنطِقونَ شَرْطاً في نفسِهِ في قولِهِ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] واللهُ أعْلَمُ.

وقِيلَ في الاسْتِدْراجِ مِنْ غَيرِ هذا الوَجْهِ على التَّسْليمِ أنهُمْ أهلُ كَهانَةٍ[6] ونُجومٍ؛ وهو أنهُ لَمّا رَآهُمْ يَعْبُدُونَ الأصنامَ والأوثانَ دَعاهُمْ مِنْ طريقِ المُقابَلَةِ، إذْ هُمْ مالُوا إلى ذلكَ بما رَأَوا مِنْ حُسْنٍ في المُبْصَرِ بما قد زُيِّنَ بأنواعِ الزِّيَنِ[7] وحُلِّيَ بأنواعِ الحُلِيِّ، فأراهُمْ أنهُ يَعْبُدُ النَّجْمَ، وما ذَكَرَ[8]، وأنَّ الذي ذَكَرَ أحْسَنُ وأعْظَمُ نُوراً وضِياءً؛ إذْ هو بِجَوهَرِهِ ونَفْسِهِ كذلكَ، وما كانُوا يَعْبُدُونَ بما فَعَلُوا بِهِ، وجَعَلُوهُ[9] كذلكَ، لِيَكْرَهَ إليهِمْ عِبادَتَهُمُ الأصنامَ، ويَسْتَنْقِذَهُمْ عمّا اعْتادُوهُ بالمَعْنى الذي ذَكَرْتُ، ثم أَلْزَمَهُمْ فَسادَ ما مالُوا إليهِ، وقَبِلُوا منهُ قَبْلَ أنْ يَقِرَّ ذلكَ في قُلُوبِهِمْ، وتَطْمَئِنَّ إلى ذلكَ أنْفُسُهُمْ بما أظْهَرَ مِنْ فَسادِ أنْ يكونَ الذي بِذلكَ الوَصْفِ مِنَ التَّسْخيرِ أو مُلْكِهِ على شَرَفِ الزَّوالِ، أو يَصِيرَ بِحَيثُ يَقِرُّ في قُلوبِهِمْ عِبادَةُ مَنْ لا يَشْهَدُونَهُ وَقْتَ العِبادَةِ، فَيُلْزِمُهُمْ على ذلكَ عِبادَةَ المُسْتَحِقِّ لَها[10]، أو أنْ يَقولُ: إذا كانَتِ النُّجومُ وما ذَكَرَ مِنْ ضِيائِها ونُورِها وكَثْرَةِ مَنافِعِ الخَلْقِ بها لم يَصْلُحْ لَها الأُلوهِيَّةُ عندَ الجميعِ بالأفولِ والتَّسْخيرِ. فالذي كانُوا يَعْبُدُونَ على ما [سَخَّروهُ كانَ][11] تَحتَ البَشَرِ ذَليلاً[12]؛ لا يَسْمَعُ، ولا يُبْصِرُ، ولا يَنْفَعُ، أحَقُّ ألّا يكونَ لهُ الرُّبُوبِيَّةُ، وألّا يُوَجَّهَ إليهِ العُبُودَةُ، واللهُ أعْلَمُ. فهذا النوعُ مِنَ الاسْتِدْراجِ في ما لو ظَهَرَ لهم[13] لم يكونُوا يَتَّخِذونَ النجومَ أرباباً يَعْبُدُونَها، وكذلكَ الذي ذَكَرَهُ القُتَبِيُّ.

والتأويلُ الثالثُ للآيَةِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ الإنكارِ والاسْتِهْزاءِ. ويكونُ في ذلكَ مَعْنَى الاسْتِدْراجِ؛ إذْ هو الإلزامُ مِنْ حَيثُ لا يُشْعَرُ بِهِ أو نَقْضُ أسبابِ الشُّبَهِ دَرَجَةً فَدَرَجَةً في حُلُولِ الوَقْتِ وحُلُولِ المَقْصُودِ وتَعاطِي ذلكَ الابْتِداءِ بالكَشْفِ عنِ الأسبابِ.

ثم قِيلَ في هذا بأوجُهٍ:

أحَدُها: أنهُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ النُّجومَ وما ذَكَرَ، ويَدْعُونَ إلى ذلكَ الأولادَ والصِّبْيانَ، وإبراهيمُ مِنْهُمْ في ما كانُوا يَدْعُونَهُ إليهِ. فقالَ لمّا رأى النَّجْمَ: هذا الذي تَعْبُدُونَ رَبِّي، أي إلى عِبادَتِهِ تَدْعونَني، أي هذا رَبِّي الذي تَدْعونَني إلى عِبادَتِهِ. فلمّا رآهُ طالِعاً سابِحاً غائِباً ثَبَتَ عندَهُ أنهُ مسخَّرٌ، فقالَ: لا أُحِبُّ عِبادَتَهُ. لكنَّ ذا قد يكونُ في خاصِّ نَفْسِهِ مُتَفَكِّراً في الذي دَعوهُ

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (٢) في الأصل و م: يعبدهم. (٣) في الأصل وم: الحواري الذي. (٤) في الأصل و م: بعد. (٥) من م، في الأصل: النجوم. (٦) في الأصل وم: كفاية. (٧) من م، في الأصل الذي. (٨) في الأصل: ذكروا. (٩) في الأصل و م: وجعلوا. (١٠) من م، في الأصل: ما. (١١) في الأصل وم: سخرهم. (١٢) في الأصل وم: أذلاء. (١٣) في الأصل و م: أنهم.

إليهِ لِيَعْرِفَ وقْعَ قولِهِمْ مِنَ الوجهِ الذي يُقِرُّ ذلكَ في القُلوبِ إذا قابَلَهُمْ. وقد يكونُ في مَلإٍ مِنْهُمْ، يُظْهِرُ لهمْ قولَهُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦ و٧٧ و٧٨] على إضمارِ: تَدْعُونَني إليهِ، لِيُلْزِمَهُمْ بما بانَ لهُ فَسادُ الرُّبوبِيَّةِ، فيكونُ اسْتِدْراجاً أيضاً لأنهُ أَلْزَمَهُمْ بَعْدَ ظُهورِ الوِفاقِ مِنْهُ لَهُمْ، وقد يكونُ ذَكَرَ هذا الذي تَدْعُونَني [إليهِ][1] رُبِّيَ سِرّاً، ويَهْزَأُ بِهِمْ بإظهارِ المُوافَقَةِ؛ يُبَيِّنُ لهمْ ذلكَ بِما أَلْزَمَهُمْ أنَّ الاِبْتِداءَ لم يكُنْ على المُساعَدَةِ، إذْ ذلكَ المَعْنَى الذي بِهِ أَلْزَمَ كانَ ظاهِراً عِنْدَهُ في الاِبْتِداءِ وعندَهُمْ جَميعاً.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على ما يُقالُ: هذا فلانٌ الذي تُخْبِرونَني عنهُ، بِمَعْنَى أهذا هو؟ على إنكارِ أنهُ لَيسَ بالمَحَلِّ الذي أخبَرْتُموني عنهُ، أو على الاِسْتِفهامِ لِيُقَرِّرَهُ عنهُ، أو على الوَجْهَينِ كانَ، وقد هَزِئَ بِهِمْ، وظَهَرَ في المُتَعَقَّبِ أنَّ الأوَّلَ كانَ[2] على الهُزءِ بِهِمْ والإنكارِ أوِ الاِسْتِفهامِ؛ وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ [الرعد: ١٦] على أنهُمْ لم يَخْلُقوا كَخَلْقِهِ، يُوَضِّحُ قولَهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] في الأوَّلِ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾.

والثالثُ[3]: أنْ يكونَ هذا يُضْمَرُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي رَبُّ هذا رَبِّي إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، ثم رَجَعَ إليه عِندَهُمْ أنهُ لا تَليقُ الرُّبوبِيَّةُ بالذي ظَنُّوا أنهُ ساعَدَهُمْ عليهِ. ثم قد بَيَّنَّا الدَّليلَ على أنهُ لم يكُنْ كافراً في ذلكَ الوَقْتِ مَعَ ما قد ثَبَتَتْ عِصْمَةُ الرُّسُلِ عنِ الكبائرِ؛ فكيفَ يُبْلَونَ بالكُفرِ؟ واللهُ يقولُ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وكُلُّ مُتَمَكِّنٍ فيهِ الكُفْرُ شَريكُ أمثالِهِ، فلا وَجْهَ لِتَخْصِيصِ الأصْلِ.

ثم جُمْلَةُ ذلك أنَّ اللهَ، سُبْحانَهُ، لو أرادَ أنْ يُبَيِّنَ حَقيقَةَ الحالِ، أو كانَتْ بِنا إلى مَعْرِفَةِ حَقيقَةِ ذلكَ مِنَ المُرادِ والوَقْتِ الحاجَةُ[4] في أمْرِ الدينِ لَكانَ يُبَيِّنُ ذلكَ، أو يَرِدُ في ذلكَ [حديثٌ][5] عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لكنَّ العِلْمَ بِحَقيقَةِ ذلكَ، إذْ هو عِلْمُ الشَّهادةِ بِما لَيسَ لَنا وَعَلَينا [لِلْوصول إليهِ عَمَلُ تَحالُفٍ][6]، ولا نُكَلَّفُ الشهادَةَ بِوَقْتِ القَولِ. وما يُتَمَكَّنُ فيهِ، فَحَقُّهُ أنْ يُتَأَمَّلَ وَجْهُ الحِكْمَةِ في ذِكْرِ القِصَّةِ وما فيها مِنَ الحُجَّةِ في أمْرِ الدينِ

فهو، واللهُ أعْلَمُ، يَخْرُجُ على وجُوهٍ:

أحَدُها: على جَعْلِ ذلكَ حُجَّةً لِرِسالةِ رسولِهِ؛ إذْ هو مِنْ أنْباءِ الغَيْبِ، ونَبِيُّ اللهِ نَشأَ بِمَكَّةَ، ولم يكُنْ ثَمَّ مَنْ يَعْلَمُ ذلكَ، ولا فارَقَ قومَهُ [ولا][7] اخْتَلَفَ إلى مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الأنباءِ بِتَوارُثِهِمْ كُتُبَ الأنبياءِ، ولا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ مِمَّنْ يَخُطُّ بِيَمينِهِ[8]، ويَقِفُ على المكتوبِ. دلَّ أنهُ عَلِمَهُ باللهِ ﷺ مَعَ ما كانَ في القِصَّةِ [مِنْ][9] حُجَجِ التَّوحيدِ ودَفْعِ عبادَةِ الأصنامِ وتَسْفيهِ أهلِ ذلك، لم يَحْتَمِلْ أنْ يكونَ تَعْليمُ مِثْلِ ذلكَ مِنَ الدَّافِعينَ لذلكَ، المُدَّعِينَ على إبراهيمَ اليهوديةَ والنصرانيَّةَ.

[والثاني: أنَّ][10] كُتُبَهُمْ بِغَيرِ لِسانِهِ، وفي العِبادةِ بِلسانٍ [آخَرَ][11] يُوهِمُ الاِخْتلافَ والتَّغْييرَ، فلا يَحْتَمِلُ الاِحْتِجاجَ بِمِثْلِهِ ما يَحْتَمِلُ الإنكارَ والدَّفْعَ، وفيهِ اسْتِعطافُ قومِ رسولِ اللهِ ﷺ إذْ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ ﷺ بما يَدْعُوهُمْ إلى دينِ آبائِهِمْ، مَعَ ما كانُوا هُمْ أصحابَ تَقْليدٍ وحِفْظِ آثارِ الآباءِ، فألْزَمَهُمُ القولَ في آبائِهِمْ بما لا [يَدْفَعُ بِهِمُ القَولُ بِغَيرِ الذي قالُوا][12]؛ إذْ إبراهيمُ ﷺ عندَ جَميعِ المُشْرِكينَ إمامٌ، يُؤتَمُّ بِهِ، أحقُّ مِنْ كُلِّ أبٍ، معَ ما كانَ كُلُّ مولودٍ على دِينِهِ مَذْكُوراً مَحْفوظاً في الخَلْقِ، ومَنْ خالَفَهُمْ فهو مَمْحُوقُ الاسْمِ والذِّكْرِ جَميعاً. فكانَ في ذلكَ أعظَمُ الدليلِ أنَّ هؤلاءِ مِنَ الأنبياءِ أحَقُّ بالتَّقْليدِ مِنَ الذينَ اتَّبَعُوهُ. وعلى ذلكَ اتِّفاقُ أهْلِ الكتابِ على مُوالاةِ إبراهيمَ مِنْ غَيرِ أنْ تَهَيَّأَ لَهُمْ دَفْعُ ما أثْبَتَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَوحيدِهِ ولا ما قَرَّ عندَهُمْ مِنْ دينِهِ بِشَيءٍ يَجِدونَهُ خِلافاً لِذلكَ في كُتُبِهِمْ.

والثالثُ: أنَّ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، صَرَفَ مَعْرِفَةَ الرَّبِّ مِنْ جِهَةِ خَلْقِهِ، ودانَ بِدينِهِ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ في الآياتِ والبَحْثِ عنها دُونَ أن يُقَلِّدَ أباهُ أو قَوْمَهُ لِيَعْرِفَ سَبيلَ طَلَبِ الحَقِّ، ووَجَّهَ أتباعَهُ لِيَكونَ ذلكَ تذكِرَةً لِجَميعِ ذُرِّيَّتِهِ.

---

(١) في الأصل و م: فيه. (٢) من م، في الأصل: لكان. (٣) في الأصل وم: يجوز. (٤) في الأصل وم: والحاجة. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: بالوصول عمل تحالف. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل: بيمينا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وبعد فإن. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل و م: معرفتهم القول بغير الذي قالوا.

والرابع: أنهُ ذَكَرَ الخَبَرَ عنْ أحوالِهِ بِمَخْرَجٍ: ظاهِرُهُ يُوهِمُ المَكْروهَ؛ ولَهُ وجْهُ الصَّرْفِ إلى ما [لَيسَ فيهِ نِفارُ الطَّبْعِ مِنْهُ ولا تَأبٍّ][(١)] لِلْعَقْلِ لِيَمْتَحِنَ عِبادَهُ بالقولِ فيهِ والوَقْفِ في أمْرِهِ.

والخامسُ: لِيُعْلَمَ أنَّ المُحاجَّةَ في الدينِ قَدْرَ ما تَحْتَمِلُهُ العُقولُ لازِمَةٌ؛ إذْ بها أفْحَمَ إبراهيمُ قومَهُ، وأظْهَرَ دينَ ربِّهِ، فَيَبْطُلُ بذلكَ قولُ كَثيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ الذينَ يَكْرَهُونَ المُناظَرَةَ في الدينِ، ويَرَوْنَ في ذلكَ تقليدَ الأُستاذِينَ أو ظواهِرَ ما جاءَ بِهِ الآثارُ التي في اتِّباعِ أمثالِها تناقُضٌ عندَ /١٥٣ ـ ب/ العُقَلاءِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

والسادسُ: أنَّ المُناظَرَةَ تكونُ بوجهَيْنِ: بِطَلَبِ[(٢)] الدَّلالَةِ في إثباتِ القولِ وبإظهارِ الفَسادِ بما يُتَمَكَّنُ فيهِ مِنَ العَيبِ؛ إذْ هو رَدُّ ما ادَّعَوا مِنَ الرُّبوبيَّةِ في مَنْ ذَكَرُوا[(٣)] بما في ذلكَ مِنْ آثارِ التَّدبيرِ لِغَيرِهِ؛ ولذلكَ[(٤)] قالَ في الأصنامِ: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وقالَ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢] وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ [الشعراء: ٧٨]. فَمَرَّةً أبْطَلَ قولَهُمْ بالمَعْنَى الذي بِضِدِّهِ احتَجَّ، و[مَرَّةً بالمَعْنَى الذي فيهِ إثباتُ الحَقيقَةِ][(٥)].وجائزٌ في كُلِّ ذلكَ أنْ يَقولَ لَهُمْ: ما الدليلُ على ما تَدْعُونَ لِما تَذْكُرُونَ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ؟

والسابعُ: جوازُ التَّسْليمِ بإظهارِ المُوافَقَةِ، وإنْ كانَ المُسْلِمُ بِحَقيقَةِ ذلكَ مُنْكِراً، ولَهُ دافِعاً[(٦)]، إذا كانَ في المُساعَدَةِ بذلكَ في الظاهِرِ نَيْلُ الفُرْصَةِ والظَّفَرِ بالبُغْيَةِ؛ إذْ على ذلكَ خَرَّجَ مُناظَرَتَهُ قومَهُ، وعلى ذِكْرِ ما احتَجَّ بِهِ في قولِهِ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إذْ قالَ خَصْمُهُ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وعلى[(٧)] إقبالِهِ على حُجَّةٍ هي أوضَحُ مِنْ ذلكَ وأقْهَرُ لِلْعَقْلِ والزَمُ في الطَّبْعِ، فقالَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والثامنُ: أنْ يُعْلَمَ أنَّ اللهَ لم يُهْمِلِ القومَ في شيءٍ مِنَ الأزمنَةِ دونَ أنْ يَجْعَلَ[(٨)] لَهُمْ أدِلَّةً لِلْحَقِّ يَظْفَرُونَ بها لو تَأمَّلُوا، ولا ألْزَمَ خَلْقَهُ في زمانٍ مِنَ الأزمانِ بِشَيءٍ، لو بُحِثَ عنهُ، لا يُوقَفُ عليهِ، ولا يُتَهَيَّأُ لهُ. ولِذلكَ أظهَرَ الحُجَجَ، وأنارَ[(٩)] البَيِّناتِ لِيُعْلَمَ أنهُ جَعَلَ أوامِرَهُ كُلَّها تاليةَ الأدِلَّةِ والبَراهينَ لِيَقْطَعَ بها عُذْرَ مَنْ تأبَى نَفْسُهُ القِيامَ بِهِ.

والتاسعُ: أنْ يُعْلَمَ أنهُ لا أحَدَ يَقومُ بالحِجاجِ، ولا يَنْطِقُ بِحُسْنِ البَيانِ إلّا بِعَطِيَّةِ اللهِ وامْتِنانِهِ عليهِ بما يَنْطِقُ بِهِ لِسانُهُ، ويُوَفِّقُهُ لِلقيامِ بِهِ بقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثم العاشِرُ: أنْ يكونَ بِفَضْلِهِ تُنالُ الدَّرَجاتُ في أمْرِ دينِهِ، ويُرْتَقى إلى مَنازِلِ الفَضْلِ والشرفِ بِمَشيئَتِهِ كما قالَ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] وأنهُ متى شاءَ الرَّفْعَ كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وقد قالَ بَعْضُ أصحابِنا: الإمامَةُ في تَأويلِ الآيةِ، رَغْمَ أنهمْ أخَذُوهُ مِنْ شَرْحٍ، على أنَّ تَأويلَ النَّجْمِ المَأذونِ وتَأويلَ[(١٠)] القَمَرِ اللاحِقِ وتَأويلَ[(١١)] الشمسِ الإمامِ؛ بِمَعْنَى أنهُ قالَ [عَنِ المَأذونِ][(١٢)]: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ يَعنى بِهِ رَبَّ التَّرْبِيَةِ؛ رَبّاهُ بالعِلْمِ. وقولُهُ ﷺ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي فَنِيَ ما عِنْدَهُ، رَغِبَ عنهُ، وقالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ ثم ظَهَرَ باللاحِقِ ثم كذلكَ بالإمامِ.

ثم تَوَجَّهَ نَحْوَ التالي بالقَبولِ؛ إذِ التالي عندَهُمْ، هو الذي يَظُنُّ ما ذُكِرَ. فلمّا جاوَزَ دَرَجَةَ المَؤوم، وهو الإمامُ، صارَ إلى دَرَجَةِ الرسالةِ، وهو القائلُ عَنِ[(١٣)] التالي بالخَيالِ، والمُصَوِّرُ لِلشَّرائِعِ عندَهُمْ، فأُلْزِمُوا بهذا عِبادَةَ أرْبابٍ.

وإنَّ الارْتِفاعَ مِنْ دَرَجَةٍ إلى دَرَجَةٍ بأولئكَ، وذلكَ أمْرٌ مُتَناقِضٌ على المُتَأمِّلِ؛ لأنهُ لمّا فَنِيَ ما عِنْدَ المأذونِ صارَ إلى اللاحِقِ، واللاحِقُ[(١٤)] كانَ بِهِ مأذوناً، فلم يَكُنِ الثاني بما يَصيرُ إليهِ أحْمَدَ مِنَ الأوَّلِ؛ إذْ ما كانَ بِهِ صارَ مأذوناً، ولو كانَ ثَمَّ دَرَجَةٌ أُخرَى.

فأمّا أنْ يكونَ يَنالُ[(١٥)] تلكَ في الوَقْتِ الذي يُلْقِي المأذونُ ذلكَ إلى غَيرِهِ، أوْ لا؛ فإنْ كانَ لا يُنالُ فلا أسَفَ مِنَ المأذونِ حينَ[(١٦)] امْتَنَعَ عما يُلْقِيهِ[(١٧)] إلى الدَّرَجَةِ الثانيةِ، وبَلَّغَهُ[(١٨)] غيرَهُ، وإمّا يَنالُ مَعَهُ في دَرَجَةِ المَؤومِ.

---

(١) في الأصل: فيه نفار عنه الطبع ولا تأبي، في م: ليس فيه نفار منه للطبع ولا تأبي. (٢) في الأصل وم: لطلب. (٣) في الأصل وم: ذكر. (٤) في الأصل وم: وكذلك. (٥) في الأصل وم: في ثبات فيه. (٦) في الأصل وم: واقعاً. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: جعل. (٩) في الأصل وم: وأنار. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: للمأذون. (١٣) في الأصل وم: من. (١٤) في الأصل وم: والمأذون. (١٥) في الأصل و م: بيان. (١٦) في الأصل و م: حيث. (١٧) في الأصل و م: يقبله. (١٨) في الأصل و م: ويلغ.

فكيف قالَ: لا أحِبُّهُ، وهو إثْرُ الذي ذلكَ وَصْفُهُ؟ ثم كيفَ قالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ ذهابَ ما بِهِ آخِذٌ بِحَظِّهِ عنِ الآخِذِ مِنَ الآخَرِ؟ وكيفَ صارَ رَبُّهُ قَبْلَ أنْ يُرَبِّيَهُ؟ فلمّا ربّاهُ تبرّأَ مِنْ رُبُوبيّتِهِ، وآثَرَ ربّاً آخَرَ. فإذا عاقِبَةُ شُكْرِهِ سَعْيَ ربِّهِ في شأنِهِ كُفرانُهُ بِهِ.

وكذلكَ [أمرُهُ][1] دَرَجَةً فَدَرجَةً حتى يَكْفُرَ بالتالي. ثم بالعَقْلِ يَصيرُ إلى رَبِّ العالَمِينَ. وهو الرَّبُّ في الابْتِداءِ والانْتِهاءِ؛ لا رَبَّ سِواهُ ﷻ عنِ الشُّرَكاءِ؛ إذْ إليهِ حاصِلُ الأمْرِ ومَصِيرُ الخَلْقِ. ولو كانَ [كُلٌّ][2] مُرْتَقٍ حَدّاً يَرْتَقِيهِ[3] آخَرُ لكانَتْ تلكَ الحدودُ، ويكونُ[4] أبداً آخِرُها، فيكونُ الكُلُّ تَوالِياً[5] أو نُطْقاً، ويَبْطُلُ الأولاءِ والمَأذونونَ والأئِمَّةُ جميعاً. وقد كَرَّمَ اللهُ تعالى عَلِيّاً، كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ، عنْ هذا الخيالِ، وعَصَمَهُ عَنْ هذا الوَسْواسِ، والحمدُ للهِ.

الآية ٨٠ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ذَكَرَ مُحاجّةَ قومِهِ، ولم يُبَيِّنْ فيمَ حاجُّوهُ؟ لكنْ في الجَوابِ بَيانُ أنَّ المُحاجَّةَ في ما كانَتْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ ثم تَحْتَمِلُ المُحاجَّةُ ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ في تَوحِيدِ اللهِ ودينِهِ، وتَحْتَمِلُ في أمْرِ اللهِ وطاعَتِهِ.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ عَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][7] قالَ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ في آلهتِهِمْ، وخوَّفوهُ بها، وقالُوا: إنّا نَخافُ آلِهَتَنا، وأنْتَ تَشْتُمُها، ولا تَعْبُدُها، إنَّ تَخَبُّلَكَ وتَفَسُّدَكَ [ظاهِرانِ][8]، وذلكَ مُحْتَمَلٌ، وهو كقولِ قوم هُودٍ لِهُودٍ عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

ثم قالَ لَهُمْ إبراهيمُ: لِمَ تَخافُونَ أنْتُمْ منها؟ قالُوا كيفَ [لا][9] نَخافُ، ونَحْنُ نَعْبُدُها؟ قالَ: إنّكُمْ تُسَوُّونَ بَيْنَ الصَّغيرِ والكَبيرِ والذَّكَرِ والأنثى. أمَا تَخافُونَ الكَبيرَ إذْ سَمَّيْتُمُوهُ بالصَّغيرِ، وما تَخافُونَ الذَّكَرَ إذ سَمَّيْتُمُوهُ بالأنثى.

ويَحْتَمِلُ أنهُمْ خَوَّفُوهُ باللهِ بِتَرْكِ عِبادَةِ آلِهَتِهِمْ لِما كانُوا يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [فَخَوَّفُوا بها][10] إبراهيمَ بِتَرْكِ عِبادَتِهِمْ لِما كانَ عندَهُمْ أنَّ عِبادَتَهُمْ إيّاها تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفى، وتَرْكَ العِبادَةِ لها يُبْعِدُهُمْ. فقالَ: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ الدينَ والتَّوحيدَ، وهداني طاعَتَهُ والاتِّباعَ لأمْرِهِ. فقالَ كيفَ أخافُ ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجهَينِ]:

أحَدُهُما[11]: لا أخافُ إلّا إنْ عَصَيْتُ رَبِّي في شَيءٍ، فَعِنْدَ ذلكَ أخافُ. وأمّا إذا هداني رَبِّي فإني [لا][12] أخافُ بِتَرْكِي عِبادَتَهُمْ.

والثاني: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾ إلّا أنْ يَبْتَلِيَني رَبِّي بِشَيءٍ مِنَ المَعْصِيَةِ؛ فَعِنْدَ ذلكَ أكونُ في مَشيئتِهِ؛ إنْ شاءَ عَذَّبَني، وإنْ شاءَ لم يُعَذِّبْني.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ﴾ أي عِلْمُ ذلكَ كُلِّهِ عِنْدَهُ، عَصَيْتُ، أو أطَعْتُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ باللهِ مِنَ الأصنامِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ يَقولُ عُذْراً في كتابِهِ: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ﴾ أي أهْلُ أنا أمْ[13] أنتُمْ؟ ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنا أعْبُدُ إلهاً واحِداً، وأنتُمْ تَعْبُدونَ آلِهةً شَتّى.

وقيلَ: إنهُمْ كانُوا يُخَوِّفُونَهُ بِتَرْكِهِ عبادَةَ آلِهَتِهِمْ وعَدَمِ[14] إشراكِهِ إيّاها في عِبادَةِ اللهِ، فقالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ أنْتُمْ باللهِ مِنَ الآلِهَةِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ غيرَهُ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ أي حُجَّةً بأنَّ مَعَهُ شَريكاً. ثم قالَ: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ﴾ أنا أمْ[15] أنتُمْ؟ مَنْ عَبَدَ إلهاً واحداً [آمَنُ عِنْدَهُ أمْ][16] مَنْ عَبَدَ آلهةً شَتّى صِغاراً

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل و م: يرتقي. (٤) الواو ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: توالي. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) لا: ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فخوفوها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: و. (١٦) في الأصل وم: أن يأمن عنده.

وكِباراً ذكوراً وإناثاً. وقالَ(١): كيفَ أخافُ آلِهَتَكُمُ التي تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ بِتَركي عِبادَتَها، وهي لا تَمْلِكُ ضَرّاً، إنْ تَرَكْتُ ذلكَ، ولا نَفْعاً إنْ أنا فَعَلْتُ ذلكَ؟ ولا تَخافُونَ أنْتُمْ بِتَرْكِكُمْ عِبادَةَ إلهي، وهو يَمْلِكُ الضُّرَّ، إنْ تَرَكْتُمْ عِبادَتَهُ، والنَّفْعَ، إنْ عَبَدْتُمُوهُ. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ [مَنْ](٢) عَبَدَ إلهاً يَمْلِكُ الضُّرَّ والنَّفْعَ أمْ(٣) مَنْ عَبَدَ إلهاً لا يَمْلِكُ ذلكَ؟

الآية ٨٢ فَقِيلَ: رَدَّ عليهِ قومُهُ، فقالُوا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بربٍّ واحدٍ، يَمْلِكُ الضُّرَّ والنَّفْعَ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قِيلَ: لم يَخْلُطُوا تَصْديقَهُمْ وإيمانَهُمْ بِشِرْكٍ، ولم يَعْبُدُوا غَيْرَهُ دُونَهُ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ مِنَ الضَّلالَةِ والشِّرْكِ. قِيلَ: الظُّلْمُ ههنا الشِّرْكُ.

قِيلَ: رُوِيَ عنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ [أنهُ](٤) قالَ: لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذلكَ على المسلِمِينَ، فقالُوا: يا رسولَ [اللهِ](٥): فأيُّنا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قالَ: لَيسَ / ١٥٤ ـ أ/ ذلكَ، إنما هو الشِّرْكُ. أوَلَمْ تَسْمَعُوا ما قالَ لُقْمانُ لابنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟ [لقمان: ١٣].

وعن أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ [أنهُ](٦) قالَ لأصحابِهِ: ما تَقولونَ في هاتَينِ الآيتَينِ ..﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] ثم عَمِلُوا له، واسْتَقامُوا على أمْرِهِ، و﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي لم يُذْنِبُوا، فقالَ: ولقد حَمَلْتُمُونا على أمْرٍ شديدٍ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ بِشِرْكٍ، و﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ عليها، فلم يَعْدِلُوا عنها بِشِرْكٍ ولا غَيرِهِ.

فإنْ ثَبَتَتْ هذهِ الأخبارُ فهو ما ذَكَرَ فيها أنَّ الظُّلْمَ هو الشِّرْكُ. وإلّا احْتَمَلَ الظُّلْمُ ما دونَ الشِّرْكِ؛ أنَّ مَنْ لم يَظْلِمْ، ولم يُذْنِبْ، فهو في أمْنٍ مِنَ اللهِ، ومَنِ ارْتَكَبَ ذنباً أو ظُلْماً فَلَهُ الخَوفُ؛ وهو [في](٧) مشيئَةِ اللهِ؛ إنْ شاءَ عَذَّبَهُ، وإنْ شاءَ غَفَرَ لهُ، وعَفَا عنهُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الآية يَنْقُضُ قولَ مَنْ يَقولُ بأنَّ إبراهيمَ كانَ غيرَ مُؤْمِنٍ في ذلكَ الوقتِ وغيرَ(٨) عارفٍ بربِّهِ؛ لأنهُ أخبَرَ أنهُ آتاهُ حُجَجَهُ على قومِهِ. ولو كانَ هو على ما قالُوا لَكانَتِ الحُجَّةُ التي [آتاهُ إياها](٩) عليهِ. فلمّا أخبَرَ أنهُ [آتاهُ إيّاها](١٠) حُجَجَهُ على قومِهِ دلَّ أنهُ لَيسَ على ما قالُوا. لكنْ كانَ عارفاً بربِّهِ مُخْلِصاً لهُ على ما سَبَقَ ذِكْرُهُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ الحُجَّةَ التي أُخِذَ أنهُ آتاها ﴿إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ قولُهُ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى آخرِ ما ذكَرَ، فَيُقالُ: إنَّ هذهِ لَيسَتْ بِمُحاجَّةٍ إنما هو تَقريرُ التَّوحيدِ والدينِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾؟ والمُحاجَّةُ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وقولِهِ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وغَيرُها مِنَ الآياتِ التي فيها وَصْفُ توحيدِ الرَّبِّ ﷻ والوهيَّتِهِ وفسادُ آلهتِهِمْ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؟ [الصافات: ٩٥ و٩٦] وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾؟ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؟ [الشعراء: ٧٢ ـ ٨٠].

وفيهِ نَقْضُ قَولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ قالَ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ والإيتاءُ هو الإعطاءُ، والنجومُ والشَّمْسُ والقَمَرُ وما ذُكِرَ كانَتْ. دَلَّ أنَّ الذي آتى إبراهيمَ هو مُحاجَّتُهُ قومَهُ بِما ذَكَرْنا، واحْتِجاجُهُ عليهِمْ بذلكَ؛ دلَّ أنَّ لهُ في مُحاجَّةِ إبراهيمَ قومَهُ صُنْعاً حينَ(١١) أضافَ إلى نفسِهِ، وهو أنْ خَلَقَ مُحاجَّتَهُ قومَهُ، وباللهِ العصمةُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا

---

(١) في الأصل وم: أو أن يقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: أتاها. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.
(١١) في الأصل وم: حيث.

﴿ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ والذينَ كانوا يعبدونَ الأصنامَ، وهو ما بَيَّنَ سَفَهَهُمْ في عبادتِهِمُ الأصنامَ حينَ[1] قالَ [في غيرِ آيةِ، وردَّ على][2] نمرودَ قولَهُ[3]: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ إلى آخرِ الآيةِ [البقرة: ٢٥٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ فيهِ أيضاً دَلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهم يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ قد شاءَ لِكُلِّ أحدٍ أنْ يَبْلُغَ المَبْلَغَ الذي إذا بَلَغَ ذلكَ يَصْلُحُ لِلنُّبُوَّةِ والرسالةِ. لكنَّهُمْ شاؤُوا ألّا يَبْلُغُوا ذلكَ المَبْلَغَ؛ يَجْعَلُونَ المَشِيئَةَ في ذلكَ إلى أنفُسِهِمْ دونَ اللهِ. واللهُ أخبَرَ أنهُ يَرْفَعُ درجاتِ مَنْ يَشاءُ، وهُمْ يَقُولُونَ: لا يَقْدِرُ أنْ يَرْفَعَ، بَلْ هم يَمْلِكُونَ[4] أنْ يَرْفَعُوا دَرَجاتِ أنْفُسِهِمْ. فَدَلَّتِ الآيةُ على أنَّ مَنْ نالَ دَرَجَةً أو فَضِيلَةً إنما يَنالُ بفضلِ اللهِ ومَنِّهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾، تَحْتَمِلُ الدَّرَجاتُ [وُجوهاً: تَحْتَمِلُ النُّبُوَّةَ، وتَحْتَمِلُ الدَّرَجاتِ][5] في الآخِرَةِ أنْ تُرْفَعَ لَهُمْ، وتَحْتَمِلُ الذِّكْرَ والشَّرَفَ في الدنيا لِما يُذكَرُونَ في المَلإِ مِنَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي ﴿حَكِيمٌ﴾ في خَلْقِ الخَلائِقِ؛ خَلَقَ خَلْقاً يَدُلُّ على وَحْدانِيَّتِهِ، ويدُلُّ على أنهُ مُدَبَّرٌ لَيسَ بِمُبْطِلٍ في خَلْقِهِمْ، ثم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالِهِمْ، و﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَصالِحِ الخَلْقِ وبما يَصْلُحُ. والحَكيمُ هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطَأُ في التَّدبيرِ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ رَفْعِ الدَّرَجاتِ ما ذَكَرَ مِنْ هِبَةِ هؤلاءِ. وفيهِ دَليلٌ أنَّ ما يكونُ لهُ مِنَ الفَضْلِ في هِبَةِ أولادِهِ يكونُ ذلكَ في أولادِ أولادِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ والهِدايةُ هِدايَتانِ: هِدايَةُ إصابةِ الحَقِّ وهِدايَةُ العِلْمِ بالحَقِّ؛ وهي هدايَةُ البَيانِ، فهذِهِ الهِدايَةُ مِمّا يَشْتَرِكُ فيها المُسْلِمُ والكافِرُ جَميعاً. وأمّا هِدايَةُ إصابَةِ الحَقِّ فهيَ خاصَّةٌ بِالرُّسُلِ والأنبياءِ والمُسْلِمِينَ. والهِدايَةُ ههنا هي إصابَةُ الحَقِّ لا العِلْمُ بالحقِّ لأنَّهُمْ اشْتَرَكُوا جميعاً في العِلْمِ بالحَقِّ: [الكفارُ والمُسْلِمون][6].

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ قِيلَ: ذُرِّيَّةُ إبراهيمَ، وقيلَ: ذُرِّيَّةُ نوحٍ؛ كانُوا جميعاً مِنْ ذُرِّيَّةِ نوحٍ: إبراهيمَ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالذِّكْرِ والشَّرَفِ والثَّناءِ الحَسَنِ إلى يوم القِيامَةِ كما جَزَى هؤلاءِ الرُّسُلَ بالذِّكْرِ والشَّرفِ والثَّناءِ الحَسَنِ في مَلإِ الناسِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يُذكَرُوا في مَلإِ الملائكةِ كما ذُكِرُوا في مَلإِ الخَلْقِ في الأرضِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الآخِرَةِ بالثَّوابِ ورَفْعِ الدَّرَجاتِ والجَزاءِ الجَزيلِ. ذَكَرَ في فَريقٍ أنهُ كذلكَ ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الآية ٨٥ وذَكَرَ في فَريقٍ آخَرَ ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الآية ٨٦ وذَكَرَ في فَريقٍ آخَرَ: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا، واللهُ أعْلَمُ، لَيسَ على تَخْصِيصِ كُلِّ فريقٍ بما ذَكَرَ مِنَ الذِّكْرِ، ولكنْ على الجَمْعِ أنهُمْ مُحْسِنُونَ صالِحُونَ مُفَضَّلُونَ على العالَمِينَ.

ثم يَحْتَمِلُ التَّفْضِيلُ لَهُمْ بالنُّبُوَّةِ أنهُمْ فُضِّلُوا على العالَمِينَ بالنُّبُوَّةِ. ويَحْتَمِلُ أنهُمْ كانُوا مُتَفَضِّلِينَ على العالَمِينَ بالإحسانِ والصَّلاحِ، ولم يكُنْ لَهُمْ رسالَةٌ ولا نُبُوَّةٌ. ثم يَحْتَمِلُ أنهُ سَمّاهُمْ مُحْسِنِينَ بِاخْتِيارِهِمُ الحالَ التي كانُوا أهْلاً لِلرِّسالَةِ والنُّبُوَّةِ. فإنْ كانَ هذا فَهُمُ الرُّسُلُ خاصَّةً. ويَحْتَمِلُ [قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٨٤] مُحْسِنِينَ][8] باخْتِيارِهِمُ الهِدايَةَ وإصابَةَ الحَقِّ. فإنْ كانَ هذا فهو مِمّا يَشْتَرِكُ الأنبياءُ وأهْلُ الإسلامِ فيهِ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أمّا آباؤُهُمْ فَمَنْ[9] تَقَدَّمَهُمْ وذُرِّيّاتُهُمْ مَنْ تَأخَّرَهُمْ وإخوانُهُمُ الذينَ يُقارِنُونَهُمْ. وقيلَ: ذُرِّيّاتُهُمْ محمدٌ ﷺ وقيلَ: المُؤْمِنونَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: آي وعلى. (٣) في الأصل وم: حيث قال. (٤) من م، في الأصل: يقولون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: الكافر والمسلم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل وم: محسنين. (٩) في الأصل وم: من.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ بالنُّبوَّةِ والرسالةِ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فذلكَ لَهُمْ خاصَّةً. ويَحتَمِلُ ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ بالتَّوحيدِ ودينِ الإسلامِ؛ فذلكَ يَعُمُّ الأنبياءَ والمؤمنينَ[1] جميعاً لأنهُ اجْتَبَاهُمْ بذلكَ جميعاً. ويَحتَمِلُ ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ بما ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ الدَّرجاتِ والفَضائلِ، ويكونُ صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] وذلكَ أيضاً يَعُمُّ الرُّسُلَ والمؤمنينَ، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الآية دلالةٌ أنَّ مِنْ آبائِهِمْ وذُرِّيّاتِهِمْ مَنْ لم يَجْتَبِهِمْ بقولِهِ: ﴿وَمِنْ﴾ إذْ مِنْ هو حَرْفُ التَّبعيضِ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي ذلكَ الهُدَى الذي هَدَى هؤلاءِ، فَبِهُداهُمُ اهْتَدُوا.

وفي الآيةِ نَقْضُ قولِ المُعتزلةِ لأنهمْ يَقولُونَ: إنَّ اللهَ قد شاءَ أنْ يَهْدِيَ الخَلائِقَ كلَّهُمْ، لكنْ لم يَهْتَدُوا. وعلى قولِهِم: لم يكُنْ مِنَ اللهِ إلى الرُّسُلِ والأنبياءِ مِنَ الهِدايَةِ والفَضلِ إلّا كانَ ذلكَ إلى جَميعِ الكَفَرَةِ. فالآيةُ تكونُ مَسْلُوبَةَ الفائِدَةِ على قولِهِمْ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ، وهم يَقُولونَ: شاءَ أنْ يَهْدِيَ الكُلَّ، لكنْ لم يَهْتَدُوا. فإنْ كانَ كما ذَكَرُوا لم يكُنْ لِقَولِهِ تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فائِدَةٌ. دلَّ أنهُ مِنَ الخَلائِقِ مَنْ قد شاءَ ألّا يَهْدِيَهُمْ إذا عَلِمَ منهُمْ أنهمْ / ١٥٤ ـ ب/ لا يَهْتَدُونَ، ولا يَخْتارُونَ الهُدَى، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا نَبَأٌ عنِ الحُكْمِ فيهِمْ لو أشْرَكُوا. إلّا أنهُمْ لا يُشْرِكونَ لأنَّ اللهَ قد عَصَمَهُمْ، واختارَهُمْ لِرِسالَتِهِ، واختَصَّهُمْ لِنُبُوَّتِهِ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُشْرِكوا. لكنْ ذَكَرَ هذا لِيَعْلَمُوا أنَّ حُكْمَهُ واحدٌ في مَنْ أشْرَكَ في اللهِ غَيرَهُ: وَضيعاً كانَ، أو شريفاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الحَسَناتِ والخيراتِ التي كانَتْ قَبْلَ الإشراكِ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قِيلَ: الكُتُبُ التي أعطَى الرُّسُلَ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ قِيلَ: العِلْمُ والفِقْهُ والفَهْمُ، وقِيلَ: الأحكامُ التي أعطاهُمْ ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ هي أنباءُ الغَيْبِ. وقد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قِيلَ: ﴿بِهَا﴾ كِنايَةٌ عنْ أنباءِ الغيبِ والنُّبُوَّةِ التي ذَكَرَ، وقِيلَ: ﴿بِهَا﴾ كِنايَةٌ عنِ الكُتُبِ التي أنْزَلَها على الرُّسُلِ، وقِيلَ: هي كِنايَةٌ عنِ الآياتِ والحُجَجِ التي أعطَى رسولَ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أهلَ مَكّةَ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [يَعْني][2] أهْلَ المَدينةِ مِنَ الأنْصارِ والمُهاجِرينَ، وهو قَولُ ابْنِ عباسٍ. وقِيلَ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ يَعْني مَنْ عُدَّ مِنَ الرُّسُلِ والأنبياءِ. وقِيلَ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أهْلَ قرابَتِكَ[3] وأهْلَ صِلَتِكَ[4] ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ مِنْ غَيرِ أهْلِ قرابَتِكَ ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾. وقِيلَ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أهْلَ زَمانِكَ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ آبائِهِمْ وأجدادِهِمْ ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾. وقِيلَ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أهلَ الأرضِ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ يَعْني أهلَ السماءِ ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ، رَحِمَهُ اللهُ، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أُمَّتَكَ فَقَدْ وَكَّلَ اللهُ بها النَّبِيِّينَ والصالِحِينَ مِنَ الأُمَمِ الخالِيَةِ ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [وهو كما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ][5].

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ الذي[6] هَدَوا أُمَّتَهُمْ اهْدِ أنتَ أُمَّتَكَ. ويَحْتَمِلُ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ الذي[7] هَدَوا هُمُ اهْتَدِ أنتَ بأمْرِهِ ﷻ بالأمْرِ بالاقْتِداءِ بإخوانِهِ الذينَ مَضَوا مِنَ الرُّسُلِ. والهُدَى

(١) من م، في الأصل: وبالمؤمنين. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، في الأصل: قريتك. (٤) في الأصل وم: وصلتك. (٥) في الأصل وم: والله أعلم بذلك وهو كما ذكرنا. (٦) و(٧) في الأصل وم: الذين.

هو اسْمُ ما يُزانُ بِهِ، لَيسَ هو اسْمَ الأفعالِ، فلا[1] يُقالُ لِتارِكِ[2] الصلاةِ والزكاةِ والصيام ذلكَ[3]، إنما يُقالُ ذلكَ لِمَنْ دانَ بِضِدِّ الهُدَى. أَمَرَ رسُولَهُ أنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ بذلكَ. وذلكَ[4] يَدُلُّ على [أنَّ][5] الأنبياءَ والرسلَ كانُوا على دينٍ واحدٍ، وأنَّ الدينَ لا يَحتمِلُ النسخَ والتَّغْيِيرَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؟ [الشورى: ١٣] وذلكَ[6] يَدُلُّ على أنَّ الدينَ واحدٌ، لا يَحتمِلُ النَّسْخَ، وأمّا الشَّرائعُ فهي مُختلِفَةٌ لأنها تَحتَمِلُ النَّسْخَ، ويَحتَمِلُ الأَمْرُ بالِاقْتِداءِ بِهِمْ ما ذَكَرَ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي اقْتَدِ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُسلِ، ولا تأخُذْ على تَبْلِيغِ الرسالَةِ أجْراً كما لم يأخُذُوا هُمْ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ دليلُ نَقْضِ قولِ مَنْ يُجِيزُ أخذَ الأجرِ على تَعليمِ القرآنِ والعِلْمِ ورِوايَةِ الحديثِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ العِباداتِ[8]. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠] كأنهُ، واللهُ أعْلَمُ، يَجعَلُ لهمُ العُذْرَ في تَرْكِ الإجابةِ لهُ بما يَلْحَقُهُمْ مِنْ ثِقَلِ الأجرِ والغُرْمِ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ أيضاً دلالةُ نَقْضِ مَذْهَبِ القَرامِطَةِ لأنهُمْ يَفرِضُونَ[9] مَذْهَبَهُمْ على الناسِ، ويَأخُذُونَ مِنهُمُ المَواثِيقَ والجُعْلَ في ذلكَ. وإنما أَخَذَ المَواثِيقَ مِنَ الرُّسُلِ على تَبلِيغِ الرسالةِ إلى قَومِهِمْ، وأمَرَهُمْ[10] بِتأليفِ قُلوبِ الخَلْقِ. وفي أخذِ الجُعْلِ مِنْهُمْ نُفُورُ قُلوبِهِمْ وطِباعِهِمْ عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآنُ إلّا ذِكْرَى أي عِظَةٌ وزَجْرٌ لِلْعالَمِينَ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ سورةُ الأنعامِ في مُحاجَّةِ أهْلِ الشِّرْكِ إلّا آياتٍ نَزَلَتْ في محاجَّةِ أهْلِ الكتابِ:

إحْداها[11]: هـذِهِ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ الآية، وذُكِرَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ الآية [الزمر: ٦٧] ثم قالَ بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ: ما عَرَفُوا اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وقالَ غَيرُهُمْ: ما عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ عَظَمتِهِ؛ ذَكَرُوا أنَّ هؤلاءِ لم يُعَظِّمُوا اللهَ حَقَّ عَظَمتِهِ، ولا عَرَفوهُ حقَّ مَعْرفتِهِ. ومَنْ يَقْدِرُ أنْ يَعْرِفَ [اللهَ][12] حقَّ معرفتِهِ؟ أو مَنْ يَقْدِرُ أنْ يَعْبُدَ اللهَ حَقَّ عِبادَتِهِ؟

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ الملائكةَ يَقُولُونَ يومَ القِيامَةِ: يا رَبَّنا ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ مَعَ ما أَخْبَرَ عنهمْ أنهُمْ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقالَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] فَهُمْ مَعَ هذا كُلِّهِ يَقُولُونَ: ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ. ومَنْ يَقْدِرُ أنْ يَعْرِفَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، أو يُعَظِّمَهُ[13] حَقَّ عَظَمتِهِ؟ ولكنَّ تأويلَهُمْ، واللهُ أعلَمُ: أي ما عَرَفُوا اللهَ حقَّ المعرفةِ التي تُعْرَفُ بالِاسْتِدلالِ، ولا عَظَّمُوهُ حقَّ عَظَمتِهِ التي تَعْظُمُ بالِاسْتِدْلالِ. ألا لا أحَدَ[14] يَقْدِرُ أنْ يَعْرِفَ اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، ولا يُعَظِّمَهُ[15] حَقَّ عَظَمَتِهِ حَقِيقَةً!

وهو يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ولا اتَّقَوُا [اللهَ][16] حَقَّ تَقْوَاهُ مِمَّا كُلِّفُوا بِهِ، وأطاقُوهُ، ومِمّا جَرَى الأمْرُ بذلكَ. وإنما تَجري الكُلْفَةُ منهُ على قَدْرِ الطاقَةِ والوُسْعِ، ألا لا يَقْدِرُ أحَدٌ أنْ يُعَظِّمَ رَبَّهُ حَقَّ عَظَمتِهِ، ولا اتَّقاهُ[17] حَقَّ تَقْواهُ. ولكنْ ما ذَكَرْنا مِمّا جَرَتِ الكُلْفَةُ.

والثاني: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ولا [اتَّقَوُا اللهَ][18] حَقَّ تُقاتِهِ على القَدْرِ الذي يَعْمَلُونَ لأنفُسِهِمْ؛ أي لَوِ اجْتَهَدُوا في تَقْوَاهُ وتَعْظِيمِهِ[19] القَدْرَ الذي لو كانَ ذلكَ العَمَلُ لَهُمْ، فَيَجْتَهِدُونَ، ويَبْلُغُ جَهْدُهُمْ ذلكَ [لَكانوا مُتَّقِينَ][20].

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: التارك. (٣) في الأصل وم: هناك. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: أخبر وذلك. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: العباد. (٩) في الأصل وم: يعرضون. (١٠) في الأصل وم: وأمروا. (١١) في الأصل وم: أحدها. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يعظموه. (١٤) من م، في الأصل: حد. (١٥) في الأصل وم: عظمه. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: اتقى. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: عظمته. (٢٠) في الأصل وم: فقد اتقوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ لو كانَ هؤلاءِ في الحَقيقةِ أهْلَ الكتابِ ما أنكَرُوا الرُّسُلَ ولا الكُتُبَ لأنَّ أهلَ الكِتابِ يُؤمِنُونَ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وبِبَعضِ الكُتُبِ، وإنْ كانُوا يكفُرُونَ بِبَعْضٍ. لكنْ أنكَرُوا الرُّسُلَ لِما كانُوا أهْلَ نِفاقٍ. ويكونُ مِنَ اليَهودِ أهْلُ نِفاقٍ كما يكُونُ مِنْ أهْلِ الإسلامِ. كانُوا يُظْهِرُونَ المُوافَقَةَ لَهُمْ، ويُضمِرونَ الخِلافَ لَهُمْ والمُوالاةَ لأهْلِ الشِّرْكِ، ويُظاهِرُونَ عليهِمْ كما كانَ يَفعَلُ ذلكَ مُنافِقُو أهْلِ الإسلامِ؛ كانُوا يُظْهِرُونَ المُوافَقَةَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ويُضمِرُونَ الخِلافَ لهُ، ويُظاهِرُونَ المُشرِكِينَ عليهِ. فَأَطْلَعَ اللهُ رسولَهُ على نِفاقِهِمْ لِيَعْلَمَ قَومُهُمْ خِلافَهُمْ، وأنَّ ما كانَ مِنْ تَحْرِيفِ الأحكامِ وتَغْيِيرِها وكِتْمانِ بَعْثِ[1] محمدٍ [عليهِ أفضلُ الصلواتِ][2] وصِفَتِهِ إنما كانَ مِنْ هؤلاءِ.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنها نزلَتْ في شأنِ مالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وكانَ سَمِيناً، فَدَخَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ يوماً فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: هل تَجِدُ في التَّوراةِ أنَّ اللهَ يَبْغُضُ كُلَّ حبْرٍ سَمِينٍ، فقالَ: نعم، فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ فأَنْتَ حَبْرٌ سَمِينٌ يَبْغُضُكَ اللهُ، فَغَضِبَ، فقالَ: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ﴾ أنكَرَ الرسُلَ والكُتُبَ جميعاً، فَأَكْذَبَهُ بِهِ تعالى، وأظهَرَ نِفاقَهُ عندَ قومِهِ. فقالَ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ قيلَ ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ يَعْني صُحُفاً، ثم تكْتُبُونَهُ[3] في الصُّحُفِ، ثم تُنْكِرونَ أنهُ ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي فالذي كُنْتُمْ كَتَبْتُمُوهُ: أنْ لم يُنْزِلِ ﴿اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾/ ١٥٥ - أ/ [تَكْتُبُونَ ما تُظْهِرُونَ][4] في الصُّحُفِ ما لَيسَ فيهِ صِفَةُ رسولِ اللهِ[وبَعْثُهُ][5] ﷺ [وتُخفُونَ ما فيه صِفَتُهُ وبَعثُهُ[6]، وتُغَيِّرُونَ. وقيلَ: ﴿تُبْدُونَهَا﴾ أي تُظْهِرونَ قِراءتَها ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مِمّا فيهِ بَعْثُهُ[7] ﷺ][8]، وما[9] فيهِ مِنَ الأحكامِ التي لا تَطيبُ فيها أنْفُسُهُمْ مِنْ أمْرِ الرَّجْمِ والقِصاصِ وغَيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ سَمَّى ﷻ جميعَ كُتُبِهِ ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ وهو نورٌ مِنَ الظُّلُماتِ؛ أي يَرْفَعُ الشُّبُهاتِ، ويُجَلِّيها، وهُدًى مِنَ الضَّلالاتِ أي بَياناً ودليلاً مِنَ الحَيرَةِ والهَلاكِ، وباللهِ العِصْمَةُ والنَّجاةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ قالَ مُجاهِدٌ: الآيةُ في المُسْلِمِينَ؛ يقولُ: عُلِّمُوا ما لم يَعْلَمُوا ولا آباؤُهُمْ. وقالَ الحَسَنُ: الآيةُ في الكَفَرَةِ؛ أي ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ مِنْ تَحْريفِ أولئكَ الكُتّابِ وتَغْيِيرِهِمْ إيّاهُ. وقِيلَ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا﴾ في التَّوراةِ ﴿لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا﴾ يَعْلَمُهُ ﴿آبَاؤُكُمْ﴾.

ثم قالَ: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هو صِلَةُ قَولِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾؟ يا محمدُ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أنْزَلَهُ على مُوسَى. وقيلَ: صِلَةُ قولِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾؟ قُلْ: يا محمدُ ﴿اللَّهُ﴾ ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ قالَ: قُلْ يا محمدُ اللهُ عَلَّمَكُم. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﷻ سَخَّرَهُمْ حتى قالُوا ذلكَ، فكانَ ذلكَ حُجَّةً عليهِمْ.

[وقولُهُ][10] تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وَجْهَينِ:

أحَدُهُما][11]: ﴿ذَرْهُمْ﴾ ولا تُكافِئْهُمْ بِصَنِيعِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

والثاني: أنهُ قد أقامَ عليهِمُ الحُجَجَ، وظَهَرَتْ عندَهُمُ البَراهِينُ، لكنَّهُمْ كابَرُوا، وعانَدُوا، فأمَرَهُ أنْ يَذَرَهُمْ، ولا يُقيمَ عليهِمُ الآياتِ والحُجَجَ بَعْدَ ذلكَ. ولكنْ تدعُوهُمْ إلى التَّوحِيدِ، لا تَذَرْ دعاءَهُمْ إلى التَّوحِيدِ، ولكنْ [عليكَ أنْ][12] تَذَرَهُمْ، ولا تُقِيمَ عليهِمُ الحُجَجَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ أي في باطِلِهِمْ وتكذيبِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ قِيلَ: القرآنُ ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ سَمّاهُ مَرَّةً مُباركاً، ومَرَّةً هُدًى ورَحْمَةً، ومَرَّةً شِفاءً، ومَجِيداً، وكَريماً، وحَكيماً. ولَيسَ يُوصَفُ هو في الحَقيقةِ بِـ: نُورٍ ولا مُبارَكٍ ولا رَحْمَةٍ ولا هُدًى ولا

(١) في الأصل وم: نعت. (٢) في م: ﷺ. (٣) في الأصل وم: كتبتموه. (٤) في الأصل و م: يقولون يظهرون ما. (٥) في م: ونعته، ساقطة من الأصل. (٦) في م: ونعته. (٧) في م: نعته. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: أي ما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في م: وجهين يحتمل، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

شفاءٍ، ولا مَجِيدٍ ولا كَريمٍ ولا حَكيمٍ لأنه صِفَةٌ، ولا يكونُ لِلصِّفَةِ صِفَةٌ تُوصَفُ بها، ولو كانَ هو في الحَقيقةِ نُوراً ورَحْمَةً وهُدًى أو ما ذَكَرَ.

فلمّا ذَكَرَ أنهُ ﴿عَمًىۚ﴾ على بَعْضٍ[1]، وأخبَرَ أنهُ يَزِيدُهُمْ[2] بذلكَ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ، دلَّ أنهُ لَيسَ هو في الحَقيقَةِ كذلكَ، لأنهُ لو كانَ كذلكَ لَكانَ لِكُلِّ أحدٍ. لكنْ سَمَّاهُ بهذِهِ الأسماءِ؛ سَمَّاهُ نوراً لِما يَصِيرُ نُوراً لِلْمُسْتَرْشِدِينَ، ويُصيرُ شِفاءً ورَحْمَةً لِلْمُتَّقِينَ[3] لِيَشْفُوا الداءَ الذي يَحُلُّ في الدينِ، وسَمَّاهُ روحاً لِما يُحْيِي بِهِ الدينَ، وسَمَّاهُ حَكيماً لِمَا يَصيرُ مَنْ عَرَفَ بَواطِنَهُ، واتَّبَعَهُ، حَكيماً. وكذلكَ سَمَّاهُ مَجيداً كريماً لِما يَدْعُو الخَلْقَ إلى المَجدِ والكَرَمِ؛ فَمَنِ اتَّبَعَهُ تَخَلَّقَ بأخلاقٍ حَميدَةٍ، فَيَصِيرُ مَجيداً كَريماً. وسَمَّاهُ مُبارَكاً لِما بِهِ تُنالُ كُلُّ بَرَكَةٍ، والبَرَكَةُ اسْمٌ لِكُلِّ ما يُثْمِرُ، ويَنْمُو في الحادِثِ؛ فَمَنِ اتَّبَعَهُ نالَ بِهِ كُلَّ بِرٍّ وخَيرٍ وكُلَّ ثَمَرَةٍ، ونَما في الحادِثِ. هذا وجهُ الوَصْفِ بِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ الكُتُبِ لأنهُ كانَ يَدْعُو الخَلْقَ إلى ما كانَتْ تَدعُو سائِرُ الكُتُبِ التي أنْزَلَها [اللهُ][4] على الرسلِ مِنْ توحيدِ اللهِ والنَّهْيِ عنْ إشراكِ غَيرِهِ في الألُوهِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ، وتَدْعُو إلى كُلِّ عَدْلٍ وإحسانٍ، وتَنْهَى عنْ كُلِّ فاحِشَةٍ ومُنْكَرٍ. وكذلكَ سائِرُ الكُتُبِ دَعَتِ الخَلْقَ إلى دُعاءِ هذا؛ لم يُخالِفْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، بل كانَتْ مُوافِقَةً بَعْضُها البَعْضَ. لِذلكَ قالَ: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [واللهُ أعْلَمُ][5].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ قِيلَ[6]: أمُّ القُرى مَكَّةُ، وسُمِّيَتْ أمَّ القُرى لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: لأنها مُتَقَدِّمَةٌ، ومِنها دُحِيَتِ الأرضُ على ما ذَكَرَ أهْلُ التَّأويلِ.

والثاني: سُمِّيتْ أُمَّ القُرى لأنها مَقْصِدُ الخَلْقِ في الحَجِّ؛ وفيها تُقْضَى[7] المَناسِكُ، وإليها يَقْصِدُونَ، ويَؤُمُّونَ، وإليها يَتَوَجَّهونَ في الصَّلَواتِ. وهي مَقْصِدُ أهْلِ القُرى. وقولُهُ ﷺ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهلَ أمِّ القُرى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ فإنْ قيلَ: أخبَرَ أنَّ مَنْ آمَنَ بالبَعْثِ يُؤْمِنُ بهذا الكتابِ، وأهلُ الكتابِ يُؤْمِنُونَ بالبَعْثِ، ولا يؤمِنُونَ بِهِ، فَما مَعْناهُ؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ هذا وُجوهاً:

أحَدُها: أنْ يكونَ هذا مِنْ قومٍ مَخْصُوصِينَ؛ إذا آمَنُوا بالبَعْثِ آمَنُوا به كقولِهِ تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠] هذا مِنْ قَومٍ مَخْصوصِينَ، لأنهُ قد آمَنَ كثيرٌ مِنهُمْ بالإنذارِ. فعلى ذلك الأوّلُ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالعِلْمِ والحُجَجِ آمَنُوا بالقرآنِ لأنَّ القرآنَ جاءَ في تأْيِيدِ حُجَجِ البَعْثِ وتَأكِيدِهِ فلا يَجوزُ أنْ يُؤمِنُوا بما يُؤَيِّدُهُ القُرآنُ، ولا يُؤْمِنُوا بالقُرآنِ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ إخباراً عنْ أوائِلِهِمْ أنهُمْ كانُوا مُؤْمِنِينَ بالبَعْثِ بالآياتِ والحُجَجِ راغِبِينَ فيهِ. فلما جاءَ آمَنُوا بِهِ، وأمْكَنَ أنْ تكونَ الآيةُ في المؤمنينَ [لأنهُ][8] أخْبَرَ أنهُمْ آمَنُوا بالآخِرَةِ، وآمَنُوا بالقرآنِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟

ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَحِقُّ لَهُمْ أنْ يُؤمِنُوا بالقرآنِ لأنهُ بِهِ يُتَزَوَّدُ للآخِرَةِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الوُجوهِ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا في الظاهِرِ اسْتِفْهامٌ وسُؤالٌ لم يُذْكَرْ لهُ جَوابٌ. لكنَّ أهْلَ التَّأويلِ فَسَّرُوا، فَقالُوا: لا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهذا جوابٌ لهُ، هو تَفْسِيرُهُ. لكنْ تَرَكَ ذِكرَ الجوابِ لِمَعْرِفَةِ أهلِ الخِطابِ بِهِ، وقد يكونُ[9] الجوابُ لِمَعْرِفَةِ أهْلِهِ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أكثَرُهُمْ قد ظَلَمُوا، أو كُلُّهُمْ قد ظَلَمُوا. لكنْ كأنَّهُ قالَ: لا أحَدَ أفْحَشُ ظُلْماً مِمَّنِ افْتَرى على اللهِ لأنهُ يَتَقَلَّبُ في أنْعُمِ اللهِ في لَيلِهِ ونَهارِهِ وإحْسانِهِ فهو أفْحَشُ ظُلْماً، وأوحَشُ كَذِباً.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾ [فصلت: ٤٤]. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، في الأصل و م: يزداد. (٣) من م، في الأصل للمتبعين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقيل. (٧) من م، في الأصل تقتضى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يقول.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ في الآيةِ دَلالَةٌ أنَّ نافِيَ الرسالةِ عَمَّنْ لهُ الرسالةُ في الافْتِراءِ على اللهِ والكذبِ كَمُدَّعِي الرسالةَ لِنَفْسِهِ، ولَيْسَتْ لهُ الرسالةُ. سَواءٌ كلاهُما مُفْتَرٍ على اللهِ كَذِباً. وكذلكَ مَنِ ادَّعى أنهُ يُنْزِلُ مِثْلَ ما أنْزَلَ اللهُ، أو مَنِ ادَّعى أنَّهُ لم يُنْزِلِ اللهُ شيئاً، فهو في الافْتِراءِ على اللهِ كالذي ادَّعى أنهُ يُنْزِلُ مِثْلَ ما أنزَلَ اللهُ: النّافي والمُدَّعي في ذلكَ سَواءٌ شَرْعاً. فَعَلى ذلكَ يكونُ نافي[1] الشَّيءِ ومُثْبِتُهُ في إقامةِ الحُجَّةِ والدَّليلِ سَواءٌ، واللهُ أعْلَمُ.

وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نَزَلَ في مُسَيلَمَةَ الكَذّابِ، ونَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في عبدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ[2] بْنِ أبي سَرْحٍ. لكنْ لَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ هذا حاجَةٌ؛ هُمْ وغيرُهُمْ ومَنِ ادَّعى، وافْتَرَى على اللهِ كَذِباً، سَواءٌ في الوعيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ادَّعى بَعْضُهُمْ أنهُمْ يَقولُونَ مثلَ ما قالَ اللهُ إنكاراً مِنْهُمْ لهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: قولُهُ تعالى: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ سَكَراتُهُ وغَشَياتُهُ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ يَقولُ مَلَكُ الموتِ وأعوانُهُ الذينَ مَعَهُ مِنْ ملائكةِ العذابِ ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ يقولُ: ضارِبُو ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أنْفُسَهُمْ؛ يَقولُونَ لَها: اخْرُجي؛ يَعْني الأرواحَ؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ وهو عندَ الموتِ. وكذلكَ يَقولُ قَتادَةُ.

وقالَ الحَسَنُ: ذلكَ في النارِ في الآخِرَةِ: ضَرْبُ الوُجوهِ والأدْبارِ[4].

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كَثْرَةِ العَذابِ وشِدَّتِهِ؛ يُقالُ لِلشَّيءِ الكَثيرِ الغَمْرُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ / ١٥٥ ـ ب/ [إبراهيم: ١٧] أي أسبابُ الموتِ. ولو كانَ هناكَ مَوتٌ يَموتُ لِشِدَّةِ العذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ بِضَربِ الوجوهِ والأدبارِ ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ على حَقيقَةِ الخُروجِ منها كقولِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] والأوّلُ لَيسَ على حَقيقَةِ الخُروجِ، ولكنْ كما يُقالُ عندَ نُزولِ الشَّدائِدِ: أخْرِجِ نَفْسَكَ. وقالَ مُجاهِدٌ: هذا في القِتالِ بِضَرْبِ الملائكةِ وجوهَهُمْ وأدبارَهُمْ، يَعْني الأسْتاهَ. ولكنهُ يكونُ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ وقتادةَ، عندَ الموتِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: غَمَراتُ الموتِ: سَكَراتُهُ وشَدائِدُهُ، والغَمْرُ هو الماءُ الكَثيرُ، والغِمْرُ الحِقْدُ والغُمْرُ الذي لم يُجَرِّبِ الأمورَ، والغَمَرُ الدَّسَمُ، والغُمَرُ القَدَحُ الصَّغيرُ مِنَ الخَشَبِ، وغَمْرَةُ الحَرْبِ وَسْطُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ قيلَ: عذابُ الهُونِ لا رَأْفَةَ فيهِ، ولا رَحْمَةَ، أي الشَّدائِدُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بأنَّ مَعَهُ شريكاً وآلِهَةً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أنهُ لم يُنْزِلْ شيئاً، ولم يُوحِ إليهِ بِشَيءٍ، وإنما أوحَى إليهِ، وغَيْرَ ذلكَ مِنَ الافْتِراءِ الذي ذَكَرُوا، وباللهِ العِصْمةُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعْلَمُ، وُجوهاً:

[أحدُها:][5] أي أعَدْناكُمْ، وبَعَثْناكُمْ فُرادَى بِلا مُعينٍ ولا ناصرٍ ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا مُعينٍ ولا ناصِرٍ.

والثاني: أُعيدُكُمْ وأبْعَثُكُمْ فُرادَى بِلا أعوانٍ ولا شُفَعاءَ يَشْفَعُونَ لكُمْ، ويُعِينُ[6] بَعْضُكُمْ بَعْضاً، كما خَلَقْناكُمْ في الابْتِداءِ لم يَكُنْ لَكُمْ شُفَعاءُ ولا أعْوانٌ.

وقيلَ[7]: يَبْعَثُكُمْ، ويُعيدُكُمْ بِلا مالٍ ولا شَيءٍ مِنَ الدُّنْياوِيَّةِ كما خَلَقَكُمْ في الابْتِداءِ، ولم يَكُنْ لَكُمْ مالٌ ولا شَيءٌ من الدُّنْياوِيَّةِ.

---

(١) في الأصل و م: في. (٢) في الأصل و م: مسعود. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠ ومحمد: ٢٧]. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) الواو ساقطة من الأصل و م. (٧) هذا هو الوجه الثالث.

وجائزٌ[١] أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ لَيسَ مَعَكُمْ ما تفتخِرُونَ بِهِ مِنَ الخَدَمِ والأموالِ والقَراباتِ التي افْتَخرْتُمْ في الدنيا ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وجائزٌ[٢] أنْ [يكونَ][٣] قولُهُ ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مُنفصِلاً [عنْ][٤] قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ فيكونَ[٥] جوابَ سؤالٍ: أنْ كيفَ نُبعثُ[٦]؟ فقالَ: تُبْعَثونَ[٧] كما خَلَقْناكُمْ أوّلَ مرّةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ [وَجْهَينِ:

أحدُهُما:][٨] تَرَكْتُمْ ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ولا تَلْتَفِتُونَ إليهِ، ولا تَنْظُرُونَ، كالمَنْبوذِ وراءَ ظُهورِكُمْ. إنما نَظَرُكُمْ إلى أعمالِكُمُ التي قَدَّمْتُمُوها.

والثاني: لم تُقَدِّمُوا ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ولم تَنْتَفِعُوا منهُ، بل تَرَكْتُمُوهُ[٩] ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا تنتفِعُونَ[١٠]. إنما مَنْفَعَتُكُمْ ما قَدَّمْتُمُوهُ، وأنفقْتُمْ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ قِيلَ: أعطيناكُمْ، وقيلَ: رَزَقْناكُمْ، وقيلَ: مَكَّنّاكُمْ، وهو واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ إنهمْ كانُوا يَجْعَلُونَ لِلّهِ شُرَكاءَ في عبادَتِهِ وألُوهيَّتِهِ، ويقولُونَ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويقولُونَ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ لِلّهِ في عِبادَتِكُمْ، وزَعَمْتُمْ أنهمْ شُفعاؤُكُمْ عندَ اللهِ، بل شُغِلُوا هُمْ بأنفُسِهِمْ؛ يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ نَظَرِهِمْ مِنهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ والنَّصبِ جميعاً[١١]؛ فَمَنْ قَرأَ بالرَّفعِ يَقولُ: لقد تَقَطَّعَ تَواصُلُكُمْ، ومَنْ قَرأَ بالنَّصبِ يقولُ: لقد تَقَطَّعَ ما كانَ بَيْنَكُمْ مِنَ التَّواصُلِ وتَعاوُنِ بَعْضِكُمْ[١٢] بَعْضاً في هذِهِ الدنيا؛ إنهُمْ كانُوا يَتعارَفُونَ، ويَتَناصَرُونَ[١٣].

يُخْبِرُ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ يَنْقَطِعُ في الآخِرَةِ، ويَصيرُ بَعْضُهُمْ أعداءً لِبَعْضٍ، ويَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وكقولِهِ تعالى ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] وكقولِهِ تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم: ٨٢] يَصيرُ المَعْبُودُونَ أعداءً لِلْمَعْبودِينَ، وتَصيرُ الوُصْلَةُ والمَوَدَّةُ التي في ما بَيْنَهُمْ في هذِهِ الدنيا عَداوَةً، والرَّحِمُ والقَرابَةُ [التي كانَتْ بَيْنَهُمْ مُنْقَطِعَةً][١٤] حتى يَفِرَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي ذَهَبَ عنكُمْ، وبَطَلَ ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهُمْ شُفَعاؤُكُمْ عندَ اللهِ، وباللهِ العِصْمَةُ والنَّجاةُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ قِيلَ: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] أي خَلَقَكُمْ؛ يُخْبِرُ أنهُ ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ خصَّ الحَبَّ [والنَّوى][١٥] بالذِّكْرِ لِما مِنهُما خلَقَ جَميعَ ما في الدنيا مِنَ الأنزالِ والحُبوبِ كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] منهُ ما خَلَقَ ما في الدنيا مِنَ البَشَرِ، فأضافَ ذلكَ إليهِ. فَعَلى ذلكَ لِما خَلَقَ هذِهِ الأنزالَ كُلَّها مِنَ الحَبِّ والنَّوى، ومِنهُما[١٦] أخرَجَ، أضافَ إليهِ[١٧] ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) هذا هو الوجه الرابع. (٢) هذا هو الوجه الخامس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لكن. (٦) في الأصل وم: يبعثون. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تركتم. (١٠) في الأصل وم: تنتفعوا. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/٢٩٦. (١٢) في الأصل وم: بعضهم. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: بعضهم بعضاً. (١٤) في الأصل وم: الذي مات بينهم منقطعاً. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) من م، في الأصل: ومنها. (١٧) في الأصل وم: إليهما.

ويَحتَمِلُ لَيسَ بإخبارٍ عنِ ابتِداءِ إنْشاءٍ، ولكنْ إخبارٌ عنْ لُطفِهِ [وقُدرتِهِ][1]. والفَلَقُ هو الشَّقُّ. يُخبرُ أنهُ يَشقُّ النواةَ مع شدَّتِها وصلابَتِها، ويُخرِجُ منها نَبْتاً أخضرَ لَيِّناً ما لوِ اجْتَمَعَ كلُّ الخلائقِ على إنفاذِهِ وإخراجِ مِثْلِهِ من غيرِ أذىً يُصيبُ ذلكَ النَّبْتَ ما قَدرُوا عليهِ؛ يُخْبِرُ عنْ لُطفِهِ وقُدْرتِهِ. أي مَنْ قَدَرَ على هذا [فهو قادرٌ][2] على إعادةِ الخَلْقِ وبَعْثِهِمْ بَعْدَ إماتَتِهِمْ وإفنائِهِمْ، وإنْ لم يَبْقَ لَهُمْ أثرٌ، ما قَدَرَ على هذا؛ يُعَرِّفُهُمْ قُدْرَتَهُ أنها غيرُ مُقَدَّرَةٍ بِقُدرَةِ الخَلْقِ وبِقُوَّتِهِمْ، بل خارجَةٌ عن قُوَّتِهِمْ لأنَّ قُوَّتَهُ وقُدْرَتَهُ ذاتيَّةٌ أزَلِيَّةٌ بلا سَبَبٍ، وقُوَّتَهُمْ وقُدْرتَهُمْ بأسبابٍ. وكذلكَ ما يَشقُّ مِنَ الوَرَقِ الضَّعيفِ اللَّيِّنِ [مِنَ][3] الشَّجرِ والنَّخلِ مع شِدَّتِهِ وصَلابَتِهِ ما لَوِ اجتَمَعَ الخَلائقُ كُلُّهُمْ على شَقِّ ذلكَ الشَّجرِ بذلكَ الوَرَقِ مَعَ لِينِهِ ما قَدَرُوا عليهِ؛ يُعَرِّفُهُمْ لُطفَهُ وقُدْرَتَهُ أنهُ لا يُعجِزُهُ شَيءٌ.

وفيهِ أنَّ ذلكَ فِعْلُ واحدٍ لأنهُ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَكانَ إذا أرادَ هذا شَقَّهُ مَنَعَ الآخَرُ عن ذلكَ. وفيهِ أنهُ على تَدْبيرٍ خَرَجَ لا جُزافاً حِينَ[4] اتَّفَقَ ذلكَ في كُلِّ عامٍ على قَدْرٍ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ إنَّ الحبَّ والنَّوى التي ذَكَرَ مَيتٌ يُخرِجُ[5] منها النَّباتَ الأخضَرَ حيّاً، ثم يُميتُ ذلكَ، ويُخرِجُ منهُ حَبّاً ونَوًى[6]. وفيهِ دَلالَةُ البَعْثِ بَعْدَ الموتِ؛ يَقولُ: إنَّ الذي قَدَرَ على إخراجِ النَّباتِ الأخضرِ الحَيِّ منْ حَبَّةٍ مَيْتَةٍ ونَواةٍ مَيْتَةٍ، ولَيْسَ فيها مِنْ أثَرِ ذلكَ الحَيِّ شَيءٌ، لَقادرٌ أنْ يَبْعَثَهُمْ، ويُحْيِيَهُمْ بَعْدَ المَوتِ، وإنْ لم يَبْقَ مِنْ أثَرِ الحَياةِ شَيءٌ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي ذلِكُمُ الذي يَفْعَلُ ذلكَ؛ هو اللهُ تعالى، لا الأصنامُ التي تَعْبُدُونها، وأشرَكْتُمْ في عِبادتِكُمُ اللهَ[7] وألوهيَّتِهِ. أيُّ حُجَّةٍ تَصرِفُكُمْ عَمّا ذَكَرَ؟ أيُّ حُجَّةٍ لَكُمْ في صَرْفِ الأُلوهيَّةِ عنهُ إلى غيرِهِ وفي[8] صَرْفِ العِبادَةِ إلى الأصنامِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ قِيلَ: فأنّى تُصْرَفُونَ عَمّا ذُكِرَ مِنْ دَلالاتِ وَحْدانيَّتِهِ وألُوهِيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ. والإفْكُ هو الصَّرْفُ في اللُّغَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي[9] لِتَصْرِفَنا. وقيلَ: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُكَذِّبُونَ؛ أي ما الذي حَمَلَكُمْ على الكَذِبِ؟ والكَذِبُ والصَّرْفُ واحدٌ في الحَقيقَةِ، لأنَّ الكَذِبَ هو صَرْفُ قولِ الحَقِّ إلى الباطِلِ، وهما واحدٌ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ هو يَحْتَمِلُ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْتُهُما في قولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [يَحْتَمِلُ الإخبارَ][10] مِن ابْتداءِ خَلْقِهِ، ويَحْتَمِلُ الشَّقَّ أي يَشُقُّ النَّهارَ مِنَ اللَّيلِ واللَّيلَ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ ما تَلَفَ كلُّ واحدٍ منهُما، ولمْ[11] يَبْقَ لهُ أثَرٌ. ففيه دليلُ البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ المَوتِ؛ أي إنَّ الذي قَدَرَ على إنْشاءِ النَّهارِ مِنَ اللَّيلِ واللَّيلِ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ ما تَلَفَ، وذهبَ أثَرُهُ لَقادرٌ على إنشاءِ الخَلْقِ وبَعْثِهِمْ بَعْدَ المَوتِ وذَهابِ آثارِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ وراحَةً لِلْخلْقِ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبإ: ١١] لَهُمْ يَعيشُونَ فيهِ، وجَعَلَهُما آيَتَينِ مِنْ آياتِ رُبُوبيَّتِهِ وَوَحْدانيَّتِهِ مُسَخَّرَينِ يَغْلِبانِ الخلائقَ، ويَقْهَرانِهِمْ، ويَكونُونَ /١٥٦ - أ/ تَحتَ سُلْطانِهِما، ويَجْرِيانِ على سَنَنٍ واحِدٍ أنَّ لهما مُدَبِّراً خالِقاً عليهِما، ولو كانا يَجْرِيانِ بِطِباعِهِما لَكانَ يَخْتَلِفُ جَرَيانُهُما، [ولو لم يَتَّسِقْ عَدْلُ اتِّساقِهِما وجَرَيانِهِما][12] مَجْرًى واحِداً لَكانَ[13] لِغَيْرِ فيهِما تدبيرٌ[14]. وكذلكَ الشَّمْسُ والقَمَرُ جَعَلَهُما مُسَخَّرَينِ لِمَنافِعِ الخَلْقِ لِنُضْجِ الأنْزالِ ويَنْعِها ولِمَعْرِفَةِ عَدَدِ الأيّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ، ويَجْرِيانِ مَجْرًى واحِداً ومَسْلَكاً واحِداً غيرَ مُخْتَلِفٍ؛ دلَّ ذلكَ أنهما كانا بِمُدَبِّرٍ عَليمٍ حَكيمٍ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ دلالَةُ نَقْضِ المُعْتَزِلَةِ لأنَّ الإصباحَ هو فِعْلُ الخَلْقِ لأنهُ مَصْدَرُ أصْبَحَ، وكذلكَ السَّكَنُ هو فِعْلُ الخَلْقِ، ثم أضافَ ذلكَ كُلَّهُ إلى نَفْسِهِ، دلَّ انهُ خالِقُ أفعالِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لقادر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: فيخرج. (٦) في الأصل وم: والنواة. (٧) في الأصل وم: لله. (٨) في الأصل وم: ولا. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: خبر. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أن. (١٤) في الأصل وم: تدبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ أبو عُبَيدٍ: هو مِنَ الحِسَابِ، وهو حِسابٌ وحُسْبانٌ مِثْلُ شِهابٍ وشُهْبانٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقيلَ: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي جَرَياناً يَجْرِيانِ، ويَدُورانِ أبداً، لا يَسْتَرِيحانِ؛ دلَّ أنهما كانا [لَيسَا][(١)] بِغَيرِ مُسَخَّرِينِ لِلْخَلْقِ لأنهما لو كانا بِطِباعِهِما لكانا يَسْتَريحانِ، وقيلَ: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي ضِياءً كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلكَ الجَرَيانُ الذي ذَكَرَ، وتلكَ المنافعُ التي جُعِلَتْ فيهما ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ هو الذي يُعِزُّ كلَّ عَزيزٍ. وقالَ بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ المَنيعُ في سُلْطانِهِ المُنْتَقِمُ مِنْ أعدائِهِ ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بمصالحِ الخَلْقِ وبما كانَ، ويكونُ، وبِحَوائِجِهِمْ، وباللهِ التَّوفيقُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والمُرادُ منهُ الظُّلماتُ. وذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] وأرادَ بالظلماتِ الشدائدَ والأهوالَ التي تُصيبُهُمْ. ألا تَرى أنه قالَ ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؟ [الأنعام: ٦٣] عندَ الشَّدائِدِ والأهْوالِ كانُوا يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] على ما ذَكَرَهُمْ ههنا عَظيمَ سُلْطانِهِ وقُدْرَتِهِ لِما يَدْفَعُ عَنْهُمُ الشدائدَ والأهْوالَ التي تَنْزِلُ بِهِمْ. إنما[(٢)] الدافِعُ عَنْهُمْ ذلكَ لا هؤلاءِ الأصنامُ التي يَعْبُدُونَ دُونَ اللهِ، ويُشْرِكُونَها في عِبادَتِهِ.

ويَذْكُرُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ عَظِيمَ ما أنْعَمَ عليهِمْ بما جَعَلَ لَهُمْ في السماءِ نُجوماً لِيَهْتَدُوا بها لِلطُّرُقِ والمَسالِكِ في البِحارِ والبَراري عندَ اشْتِباهِها عليهِمْ.

وفيهِ دَليلُ وَحْدانِيَّةِ الرَّبِّ وتَدْبيرِهِ وحِكْمَتِهِ لأنهُ جَعَلَ في السَّماءِ أدِلَّةً يَهْتَدُونَ بها، ويَسْتَدِلُّونَ على مَعْرِفَةِ الطُّرُقِ مع بُعْدِ ما بَيْنَهُما مِنَ المَسافَةِ، وتَسْوِيَةِ أسْبابِ الأرضِ بأسبابِ السَّماءِ، وتَعَلُّقِ مَنافِعِ بَعْضِها بِبَعْضٍ لِيَعْلَمُوا أنهُ كانَ بِواحِدٍ مُدَبِّرٍ عَليمٍ حَكيمٍ؛ إذْ لو كانَ بِعَدَدٍ أو بِمَنْ لا تَدْبيرَ لهُ [ولا][(٣)] حِكْمَةَ لا يَحْتَمِلُ ذلكَ، ولم يَتَّسِقْ ما ذَكَرْنا. دلَّ انهُ بالواحِدِ العَليمِ الحَكيمِ مَعَ عِلْمِهِمْ أنَّ الأصنامَ التي يَعْبُدُونَها، ويُشْرِكُونَها[(٤)] في عِبادَتِهِ لا تَقْدِرُ[(٥)] على ذلكَ، لكنَّهُمْ يَعْبُدُونَها، ويُشْرِكُونَها في أُلوهِيَّتِهِ سَفَهاً منهُمْ وعِناداً، وباللهِ العِصمةُ والتوفيقُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي ذَكَرَ تذكيرَ نِعَمِهِ وإحسانِهِ إليهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ[(٦)] بذلكَ شُكْرَهُ وجَعَلَ السَّعْيَ لَهُ.

وجائزٌ أنْ يُسْتَدَلَّ بِهِ على تَذْكيرِ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ. وفيهِ تذكيرُ تَدْبيرِهِ وعِلْمِهِ وحُكْمِهِ على ما ذَكَرْنا مِنِ اتِّساقِ الأمورِ [والأحْوالِ على سَنَنٍ][(٧)] واحِدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ قِيلَ: صَرَفْنا الآياتِ أي صَرَفْنا كُلَّ آيَةٍ إلى مَوضِعِها الذي يكونُ لَهُمْ دليلاً عندَ الحاجةِ إليها. وقِيلَ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لِقَومٍ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ؛ فإذا انْتَفَعُوا بها صَارَتِ الآياتُ لَهُمْ لأنَّ مَنِ انْتَفَعَ بِشَيءٍ يَصيرُ ذلكَ لهُ. لِذلكَ ذَكَرَ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهُمْ[(٨)] إذا [لم يَنْتَفِعُوا بها][(٩)] لم تَصِرِ الآياتُ لَهُمْ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فيه دَلالَةُ أنهُ ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣] مِنْ غيرِ شَيءٍ؛ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ البَشَرَ كُلَّهُ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ. والخلائِقُ كُلُّهُمْ لوِ اجْتَمَعُوا ما [قَدَروا على ذلكَ][(١٠)]، ولم تَكُنِ الخَلائِقُ بأجْمَعِهِمْ في تلكَ النَّفْسِ الواحِدَةِ. دلَّ أنهُ قادِرٌ على الاِبْتِداءِ والإعادَةِ لا مِنْ شَيءٍ؛ إذْ لم يكُنْ لِتِلْكَ النَّفْسِ التي خَلَقَ الخَلائِقَ منها تَقْدِمَةُ شَيءٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بما. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وأشركوا. (٥) في الأصل: لا يقتدرون، في م: لا يقدرون. (٦) في الأصل وم: يستأدي. (٧) في الأصل وم: والحال على أمر. (٨) من م، في الأصل: أنهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: احتملت الأرض.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الآخِرَةِ بِعِلْمِهِ الذي خَتَمَ بِهِ؛ إنْ خَتَمَ بِعَمَلِ الخَيرِ يَبْقَ[١] أبداً في الخَيرِ، وإنْ خَتَمَ بِشَرٍّ يَبْقَ[٢] أبداً في الشَّرِّ. ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في أجلِهِ؛ يَنْتَقِلُ مِنْ وَقْتٍ إلى وَقْتٍ ومِنْ حالٍ إلى حالٍ. وقِيلَ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الدنيا، ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في كلِّ [وَقْتٍ. وكُلَّ حالٍ، هو][٣] مُسْتَقَرٌّ في حالِ القِيامِ حتى يَنْتَقِلَ إلى حالٍ أُخرى ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الآخِرَةِ بالجَزاءِ لأعمالِهِمُ التي عَمِلُوا ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الدنيا.

ويَحتَمِلُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ باللَّيالي ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الآخِرَةِ بالنَّهارِ، والأوَّلُ لِبَني آدَمَ خاصَّةً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقولُهُ تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ الفِقْهُ هو مَعرِفَةُ الشَّيءِ بِمَعْناهُ الدالِّ على نَظيرِهِ. والعِلْمُ ما يُعْرَفُ بِنَفْسِهِ. ولِهذا لا يُقالُ [عَنِ اللهِ][٤] فَقِيهٌ، ويُقالُ: عالِمٌ لأنهُ عالِمٌ بالأشياءِ بذاتِهِ لا باعْتِبارِها ونَظائِرِها ودَلائِلِها.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ عَظيمَ مِنَنِهِ بِما يُنْزِلُ مِنَ السماءِ مِنَ الماءِ، ويُخْرِجُ بهِ نَباتَ كُلِّ شَيءٍ، كما ذَكَّرَهُمْ مِنَ النِّعَمِ بِما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ والنُّجومِ ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي﴾ الظُّلُماتِ واشْتِباهِ الطريقِ، وما جَعَلَ اللَّيلَ لِلسُّكُونِ والرَّاحةِ والنَّهارَ لِلمعاشِ والتَّقَلُّبِ، وما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ والقَمَرِ، وجَعَلَ لَهُمْ فيهِما مِنَ المَنافِعِ مِنْ نُضْجِ الأنزالِ والزُّروعِ ويَنْعِها ومَعْرِفَةِ عَدَدِ السِّنِينَ والحِسابِ والآجالِ التي أنْعَمَها عليهِمْ لِئَلا يُوَجِّهُوا شُكْرَ هذهِ النِّعَمِ إلى غَيرِهِ، ولا يَتَّخِذوا آلِهَةً[٥] سِواهُ.

وقد ذَكَرْنا أنَّ سُورَةَ الأنعامِ نَزَلَ أكثَرُها في مُحاجَّةِ أهلِ الشِّرْكِ في إثباتِ الوحدانيَّةِ[٦] والألوهيَّةِ لِلّهِ وإثباتِ الرسالةِ والنُّبوَّةِ [لِمحمدٍ ﷺ][٧] وإثباتِ البَعْثِ بَعْدَ المَوتِ لأنهم كانوا يُنْكِرُونَ ذلك كلَّهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ما بالخَلْقِ حاجَةٌ إليهِ لِيُعْلَمَ أنَّ كُلَّ ما يَخرُجُ في الأرضِ أصْلُهُ مِنَ الماءِ، بِهِ يَنْبُتُ مِمّا يكونُ غِذاءَ البَشَرِ وغِذاءَ الحَيَوانِ كُلِّهِمْ والطُّيورِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] يُذَكِّرُهُمْ عَظيمَ ما جَعَلَ لَهُمْ في الماءِ مِنَ المَنافِعِ على ما أخْبَرَ أنهُ بِهِ يُخرِجُ نَباتَ كُلِّ شَيءٍ، وبِهِ حَياةُ كُلِّ شَيءٍ. ثم مِنَ الأوقاتِ ما لو نَزَلَ مِنَ السماءِ ما لم يَنْبُتْ. دلَّ أنهُ إنما يَنْبُتُ بِتَدْبيرِ غَيرٍ، لا بالماءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ قِيلَ بِهِ: يَخرُجُ أوَّلَ ما يَخرُجُ خَضِراً؛ يكونُ ابْتِداءُ كُلِّ نَبْتٍ أخْضَرَ، ثم يَتَحَوَّلُ إلى لونٍ [آخَرَ][٨] يُخْبِرُ عنْ لُطْفِهِ وصُنْعِهِ بِما يُخرِجُ مِنَ الحَبِّ مُتَراكِباً بَعْضُهُ على بَعْضٍ ما لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ كُلُّهُمْ لم يَقْدِرُوا على تَرْكِيبِ مِثْلِهِ لِيَعْلَمُوا أنَّ لِغَيرٍ في ذلكَ تَدْبيراً وصُنْعاً.

وفيهِ دَلالَةٌ أنهُ قد يُنْشِئُ الأشياءَ مِنْ لا شَيءٍ، ولا سَبَبٍ، وإنْ كانَ قد أنْشَأَ بَعْضَها بأسبابٍ نَحْوَ أنْ أخرَجَ مِنْ ذلكَ النَّباتِ الأخْضَرِ حُبوباً، ولم تَكُنِ الحُبوبُ في النَّباتِ لِيَعْلَمُوا أنهُ قادِرٌ على إنْشاءِ الأشياءِ لا مِنْ شَيءٍ ولا سَبَبٍ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الدَّهْرِيَّةِ في كَونِ الأشياءِ في شَيءٍ واحِدٍ، كما هي لا تَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عَشَرَةُ آلافِ نَواةٍ أو حَبَّةٍ في نَواةٍ واحدةٍ، أو تكونَ الشَّجَرَةُ مَعَ طولِها وغِلَظِها وعِظَمِها في نَواةٍ واحِدَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ أي يَخرُجُ مِنَ النَّخْلِ طَلْعُها بالماءِ. وفيهِ مِنْ عظيمِ لُطْفِهِ وتَدْبيرِهِ أنْ جَعَلَ النَّخِيلَ والأشجارَ يَتَسَرَّبُ /١٥٦ ـ ب/ بِعُرُوقِها الماءُ، ثم يَنْتَشِرُ في أصْلِها إلى أغصانِها، ثم يَخرُجُ منهُ، ويَظْهَرُ خَضِراً لِيُعْلَمَ عظيمُ تَدبيرِهِ ولُطْفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قِيلَ: القِنْوانُ العُذُوقُ، يكونُ فيها الثَّمَرُ والثِّمارُ، واحِدُها قِنْوٌ.

---

(١) في الأصل وم: يبقى. (٢) في الأصل وم: يبقى. (٣) في الأصل: وقت وكل وقت. في م: حال وكل وقت. (٤) في الأصل وم: لله.
(٥) في الأصل و م: إنها. (٦) أدرج بعدها في الأصل و م: له (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م.

وقولُهُ تعالى: ﴿دَانِيَةٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿دَانِيَةٌ﴾ بَعْضُها إلى بَعْضٍ مُجْتَمِعَةٌ غَيْرُ مُتَفَرِّقَةٍ على ما يكونُ مِنَ الأعنابِ والثَّمَرِ والحُبوبِ. فإنْ كانَ هذا فهو في الكُلِّ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿دَانِيَةٌ﴾ قَرِيبَةٌ مُلْتَزِقَةٌ بالأرضِ، يَنالُها[1] القائمُ والقاعِدُ جَميعاً. وعنِ ابْنِ عباسٍ: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قِصارُ النَّخْلِ اللّاصِقَةُ عُذُوقُها بالأرض.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي أخرَجَ الماءُ جَنّاتٍ وكُرومَها ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ قِيلَ: أخرَجَ بالماءِ أيضاً الزَّيْتونَ والرُّمّانَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي يُشْبِهُ وَرَقُ الزَّيْتونِ في النَّظَرِ وَرَقَ الرُّمّانِ ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ ثَمَرُهُما[2] في اللَّونِ والطَّعْمِ. ولكنْ هو على الكُلِّ على كُلِّ الثِّمارِ، ولا يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً؛ مِنْها ما يُشْبِهُ ساقُ هذا بِساقِ آخَرَ، والثِّمارُ والحبوبُ مُخْتَلِفَةٌ[3]، ومِنْها ما يُشْبِهُ في اللَّونِ، والطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ، ومِنْها ما يُشْبِهُ في الطَّعْمِ، واللَّونُ مُخْتَلِفٌ؛ لِيَعْلَمُوا أنَّ لِغَيْرٍ في ذلكَ تَدْبيراً وصُنْعاً لَطيفاً، لم يكنْ كذلكَ بالماءِ؛ لأنهُ لو كانَ كذلكَ بالماءِ لكانَ لا يَخْتَلِفُ كُلُّ هذا الاخْتِلافِ في اللَّونِ والطَّعْمِ والسّاقِ والوَرَقِ دلَّ أنهُ كانَ كذلكَ بِغَيرٍ: عَليمٍ مُدَبِّرٍ حَكيمٍ؛ أنْشَأهُ على ما أرادَ بِلُطْفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ الأمْرُ بالنَّظَرِ [وجهَينِ:

أحَدُهُما][4]: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ كيفَ[5] يُقَلِّبُها، ويُحَوِّلُها مِنْ حالٍ إلى حالٍ ومِنْ لَوْنٍ إلى لَوْنٍ؟

والثاني[6]: أنهُ يَخْرُجُ في ساعَةٍ لَطيفَةٍ ما لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ على تَقْديرِهِ ومَعْرِفَتِهِ أنْ كَمْ خَرَجَ؟ وأيُّ مِقْدارٍ خَرَجَ؟ لم يَقْدِروا عليهِ؛ لِيَعْلَمُوا أنه قادِرٌ على إحياءِ الخَلْقِ بِمَرَّةٍ واحدةٍ.

وفي إنزالِ المَطَرِ مِنَ السَّماءِ مَعَ بُعْدِها آيَةٌ عَجيبَةٌ وحِكْمَةٌ بالِغَةٌ؛ وهو أنْ يُنْزِلَهُ واحداً، لا يَخْتَلِطُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ مَعَ كَثْرَةِ المَطَرِ وازْدِحامِهِ وبُعْدِ السماءِ. ولَوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ على حِفْظِ مِثْلِهِ ما قَدَرُوا عليهِ. دَلَّ عليهِ أنهُ كانَ بِمُدَبِّرٍ عَليمٍ حَكيمٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنها تَصيرُ آياتٍ لِمَنْ صَدَّقَ بِها، وآمَنَ. وأمّا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ، ولم يَتَأمَّلْ فيها، لم يَفْهَمْ ما فيها مِنْ عَجيبِ آياتِهِ وعَظيمِ مِنَنِهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ وَجْهانِ آخَرانِ مِنَ الحِكْمَةِ:

[أحَدُهُما][7]: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أنهُ أوَّلَ ما يَخْرُجُ يَخْرُجُ على لَوْنٍ واحِدٍ وعلى قَدْرٍ واحِدٍ وعلى طَعْمٍ واحِدٍ، ثم تَخْتَلِفُ ألوانُها وطُعُومُها[8]، وتَتَفاوَتُ أقدارُها لِيَعْلَمُوا أنهُ كانَ بِتَدْبيرٍ واحِدٍ عَليمٍ حَكيمٍ قادِرٍ على خَلْقِ الأشياءِ بلا سَبَبٍ؛ لأنهُ لو كانَ كذلكَ بِسَبَبٍ، لا بِتَدْبيرٍ فيهِ، كانَ سَبَبُ هذا كُلِّهِ واحداً، فَيَجيءُ أنْ يَخْرُجَ كُلُّهُ على سَنَنٍ واحِدٍ. دلَّ أنهُ خالِقٌ بذاتِهِ لا بِسَبَبٍ[9].

والثاني[10]: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أنهُ جَعَلَ ما يَطيبُ منهُ لِلْبَشَرِ، وعَلَّمَهُمْ أسباباً يَتَّخِذُونَ بِها الطَّيِّباتِ مِنْ ذلكَ مِنْ نَحْوِ النُّضْجِ والطَّبْخِ وغَيْرِهِ، وجَعَلَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الحيوانِ كما هو خارِجٌ مِنَ الأرضِ لِيَعْلَمُوا أنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الحَيَوانِ والدَّوابِّ إنما جَعَلَهُمْ لِمَنافِعِ البَشَرِ مُسَخَّرِينَ لَهُمْ، وأنَّ البَشَرَ هُمُ المَقْصُودُونَ في خَلْقِ الأشياءِ كُلِّها، وباللهِ الحَوْلُ والقُوَّةُ، ولَهُ المِنَّةُ والفَضْلُ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ أي قالُوا: للهِ شُرَكاءُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] أي يَقُولُونَ: لِلَّهِ البَناتُ، أو وَصَفُوا اللهَ؛ دَليلُهُ ما ذَكَرَ في آخِرِهِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ دلَّ هذا أنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي وَصَفُوهُ[11] بالشُّرَكاءِ والوَلَدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]. وقيلَ: إنهُمْ لم يَعْبُدُوا الجِنَّ، ولا قَصَدُوا قَصْدَ عِبادَةِ الشيطانِ حِينَ[12] قالَ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

(١) في الأصل و م: يناله. (٢) في الأصل و م: ثمرتها. (٣) في الأصل و م: مختلف. (٤) في الأصل وم: وجوهاً أي. (٥) في الأصل: أي كيف، في م: أن كيف. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: طعمها. (٩) من م، في الأصل: سبب. (١٠) في الأصل و م: والثالث: أن. (١١) في الأصل و م: وصفوا. (١٢) في الأصل و م: حيث.

مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] لأنَّ جَميعَ أهْلِ الكُفرِ[1] على اختلافِ مَذاهِبِهِم يُبْغِضونَ الشيطانَ، ويَلْتَعِنُونَ[2] عليهِ. ولكنَّ مَعناهُ أنَّ الشيطانَ هو الذي دَعاهُمْ إلى عِبادَةِ الأصنامِ والأوثانِ؛ فإذا عَبَدُوا الأصنامَ بِدُعائِهِ فكأنَّهُمْ عَبَدُوهُ؛ إذْ بأمْرِهِ وبِدُعائِهِ يَعْبُدونَها، أو كمَا رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ الشمسَ إذا طَلَعَتْ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَي شيطانٍ، فإذا عَبَدُوها فَكَأنَّهُمْ عَبَدُوا الشيطانَ، مِثْلُ هذا يُحْتَمَلُ، واللهُ أعْلَمُ.

فإنْ قِيلَ: فإذا صارُوا كأنهُمْ عَبَدُوا الشيطانَ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الجِنِّ بِدُعائِهِمْ إلى ذلكَ وبِأمْرِهِمْ بذلكَ حتى نَسَبَ، وأضافَ العِبادَةَ إليهِمْ، كيفَ لا صارَ المُؤمِنُونَ كأنهُمْ عَبَدُوا الرُّسُلَ؟ كأنهُمْ إنما عَبَدُوا اللهَ بدعاءِ الرُّسُلِ وبأمْرِهِمْ؟ قِيلَ: لأنَّ الرُّسُلَ إنما دَعَوهُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ، وأمَرُوهُمْ بذلك. وأمّا أولئكَ فإنما دَعَوهُمْ إلى عِبادَةِ مَنْ ذَكَرَ مِنْ ذاتِ أنْفُسِهِمْ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ إخبارٌ لأوليائِهِ وتَذْكيرٌ لَهُمْ حُسْنَ صَنيعِهِ إلى أعدائِهِ مِنَ الإنعامِ عليهِمْ والإحسانِ إليهِمْ، وقُبْحَ صَنيعِ أولئكَ إليهِ مِنْ وَصْفِهِمْ إيّاهُ بالوَلَدِ والشُّرَكاءِ [لِيُعامِلُوهُمْ معاملةَ][3] الأعداءِ أو مُعامَلَةَ أمْثالِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما:][5] يَعْلَمُونَ أنهُ هو خَلَقَهُمْ، ثم يُشْرِكُونَ غَيرَهُ في أُلوهِيّتِهِ وعِبادَتِهِ، لا يُوَجِّهُونَ شُكْرَ نِعَمِهِ إليهِ[6].

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي خَلَقَ هذِهِ الأصنامَ التي يَعْبُدُونَها، [ويَعْلَمُونَ أنها][7] مَخلُوقَةٌ مُسَخَّرَةٌ مُذَلَّلَةٌ. فَمَعَ ما يَعْلَمُونَ[8] هذا يُشْرِكُونَ في أُلوهِيّتِهِ وعِبادَتِهِ. فكيفَ يكونُ المَخْلُوقُ المُسَخَّرُ شَريكاً لَهُ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هُمْ كانُوا فِرَقاً وأصْنافاً؛ مِنهُمْ مَنْ يَقُولُ بأنَّ عِيسَى ابْنُهُ، وهُمُ النَّصارَى، ومِنهُمْ مَنْ يَقُولُ بأنَّ عُزَيراً ابْنُهُ، وهُمُ اليهودُ[9]، وقالَ مُشْرِكُو العَرَبِ: الملائكةُ بَناتُ اللهِ، فَقالَ تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١ و٢٢]، وقالَ تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧] فإذا أنِفْتُمْ[10] أنْتُمْ مِنَ البَناتِ كيفَ نَسَبْتُمْ [البَناتِ][11] إليهِ؟

وفي[12] الآيةِ يُصَبِّرُ رسولَ اللهِ على أذاهُمْ؛ يقولُ: معَ كَثْرَةِ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ النِّعَمِ والمِنَنِ يُشْرِكُونَ في عبادَتِهِ غَيرَهُ، فأنتَ إذا لم يَكُنْ مِنكَ إليهِمْ شَيءٌ مِنْ ذلكَ أولَى أنْ تَصْبِرَ على أذاهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يَعْلَمُونَ هُمْ أنْ لَيسَ لَهُ وَلَدٌ ولا شَريكٌ. ولكنْ كانُوا يُكابِرُونَ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جَهْلٍ يَقُولُونَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ هو حَرْفُ تَعْظِيمٍ وتَنْزِيهٍ؛ جَعَلَهُ[13] في ما بَيْنَ الخَلْقِ، بِهِ يُعَظِّمُونَ، وبه يُنَزِّهُونَ، وبِهِ يَنْفُونَ كُلَّ عَيبٍ فيهِ. فَعَلَى ذلكَ ذِكْرُهُ[14] عندَ وَصْفِ الكَفَرَةِ [اللهَ][15] بالوَلَدِ والشَّريكِ والعُيوبِ تَنْزِيهاً [وتَبْرِيئاً مِنْ][16] كُلِّ عَيبٍ وَصَفُوهُ [بِهِ][17] وتَعالِياً عَنْ جَميعِ ما قالُوا فيهِ، وهو، واللهُ أعلَمُ، كما يَقُولُونَ: مَعاذَ اللهِ تَعْظِيماً وتَبْرِيئاً مِنْ[18] ذلكَ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ[19]: إنَّ صِفاتِ اللهِ لَيسَتْ إلّا وَصْفَ الواصِفِينَ. فَلَو لم يَكُنْ إلّا وَصْفَ الواصِفِينَ لا غَيرَ لكانَ لا مَعْنَى لِذَمِّ بَعْضِ الواصِفِينَ وحَمْدِ بَعْضِهِمْ. ثَبَتَ أنَّ في ذلكَ صِفَةً سِوَى وَصْفِ الواصِفِينَ.

---

(١) من م، في الأصل: الكفرة. (٢) في الأصل و م: يلعَنون. (٣) من م، في الأصل: ليعاملون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: معاملة الأعداء أو معاملة أمثالهم وخلقهم أي يعلمون أنه هو خلقهم ويشركون غيره في الوهيته وعبادته لا يوجهون شكر نعمه إليه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: يعملون. (٩) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. (١٠) من م، في الأصل: أنفقتم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.
(١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: جعل. (١٤) في الأصل وم: ذكر. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: وتبرئة عن. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: عن. (١٩) أدرج بعدها في الأصل وم: لقولهم.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ قولُهُ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أنشأهُما بِلا احْتِذاءٍ /١٥٧ ـ أ/ ولا امْتِثالٍ بغَيرٍ. هذا يَرُدُّ على القرامِطَةِ قَولَهُمْ؛ لأنهُمْ يَقُولُونَ: فهو مُبدِعٌ، ويَقُولُونَ: المُبْدَعُ الثاني هو أوَّلُ مَخلُوقٍ خُلِقَ منهُ جَميعُ العالَمِ. فلو كانَ أوَّلُ خَلْقٍ خُلِقَ مُبْدَعاً فهو مُبْدِعٌ. والإبداعُ هو إحداثُ شَيءٍ، لم يَسْبِقْ لهُ أصْلٌ ولا مِثالٌ. ولِهذا ما يُقالُ لِمَنْ أحْدَثَ في دِينِهِ شيئاً: مُبْتَدِعٌ لأنهُ أحْدَثَ فيهِ شيئاً لَمْ يَسْبِقْ لهُ أصلٌ ولا مِثالٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما أنَّ][1] مَنْ قَدَرَ على إبداعِ السّمواتِ والأرضِ لا عَنْ أصلٍ سَبَقَ ولا عَنْ مِثالٍ تَقَدَّمَ فأنّى تقَعُ لهُ الحاجَةُ إلى الوَلَدِ؟ والوَلَدُ في الشاهِدِ إنما يُتَّخَذُ لإحْدَى خِصالٍ ثَلاثٍ: إمّا لِلانْتِصارِ على الأعداءِ والانْتِقامِ مِنْهُمْ وإمّا لِوَحْشَةٍ تأخُذُهُمْ، وإمّا لِحاجَةٍ تَمَسُّهُمْ. فاللهُ، سُبْحانَهُ، يَتعالى عَنْ ذلكَ كلِّهِ، فأنّى يَتَّخِذُ وَلَداً؟

والثاني: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ أي تَعرِفُونَ أنَّ الوَلَدَ لا يكونُ في الشاهِدِ إلّا عَنْ صاحِبَةٍ، ولَيسَتْ لهُ صاحِبَةٌ، فأنّى يكونُ لهُ وَلَدٌ؟ كأنَّ الخِطابَ كانَ في قومٍ يَنْفُونَ عنهُ الصاحِبَةَ لِلشَّهَواتِ التي مُكِّنَتْ فيهِمْ؛ فالشَّهْوَةُ هيَ التي تَقْهَرُ المَرْءَ، وتَحْمِلُهُ على الحاجَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ﴾ فيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ. وعلى قَولِهِمْ: لم يَخْلُقْ جُزءاً مِنْ ألفِ جُزْءٍ مِنَ الأشياءِ؛ لأنهُمْ يَقولونَ: إنَّ اللهَ لم يَخْلُقْ أفعالَ العِبادِ ولا حَرَكاتِهِمْ ولا سَكَناتِهِمْ ولا قِيامَهُمْ ولا قُعُودَهُمْ ولا شَيئاً مِنْ ذلكَ.

ثم لا يَجوزُ أنْ تُصْرَفَ الآيةُ إلى الخُصوصِ، وهي[2] تَخرُجُ مَخرَجَ العُمومِ[3]، ولو جازَ أن يُصْرَفَ هذا إلى[4] شَيءٍ دُونَ شَيءٍ لَجازَ لِغَيرِهِمْ أنْ يَصْرِفُوا قولَهُ تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ إلى شَيءٍ دونَ شَيءٍ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦ والزمر: ٦٢] [هو رَدٌّ][5] على قَولِ المُعْتَزِلَةِ: هو خالِقُ بَعْضِ الأشياءِ، لَيسَ هو بخالِقِ الأشياءِ كُلِّها على ما أخبَرَ فلانٌ. [فلو][6] جازَ صَرْفُهُ إلى بَعْضِ الأشياءِ دُونَ بَعْضٍ لَجازَ أيضاً صَرْفُ قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام: ١٠٢ و...] إلى بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ [لأنهُ][7] حَفِظَ بَعْضَ الأشياءِ، ولم يَحْفَظِ الكُلَّ. فإنْ لم يَجُزْ هذا لأنهُ[8] خَرَجَ مَخرَجَ العُمومِ[9]، فَعَلَى ذلكَ لا يَجوزُ صَرْفُ الأوّلِ إلى بَعْضٍ دونَ [بَعْضٍ][10] لأنهُ عُمومٌ[11]. ولَئِنْ جازَ أنْ يُقالَ: إنَّ العَبْدَ هو خالِقُ ذلكَ جازَ أنْ يُقالَ: هو خالِقُ الكُلِّ والقادِرُ عليهِ؛ فهذا سَمْجٌ بَيِّنٌ، نَسْألُ اللهَ العِصْمَةَ عَنِ السَّرَفِ في القَولِ والزَّيغِ عَنِ الحَقِّ، فإنهُ لا حَولَ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ أي ابْتَدَعَ خَلْقَ السّمواتِ والأرضِ وما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ المِنَنِ والنِّعَمِ التي أنْعَمَها عليهِمْ مِنْ نَحْوِ ما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ النُّجومِ لِيَهْتَدُوا بها في الظُّلُماتِ وما ذَكَرَ أنهُ أنْشأهُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وما ذَكَرَ مِنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ وإخراجِ ما أخْرَجَ بهِ مِنَ النَّباتِ والثِّمارِ والحُبوبِ والأعنابِ وغَيرِ ذلكَ مِنْ عَجيبِ حِكْمَتِهِ؛ ذلكَ كُلُّهُ باللهِ الذي لا إلهَ إلّا هو مُنْشِئُ ذلكَ كلِّهِ ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي إليهِ وَجِّهُوا شُكْرَ نِعَمِهِ، ولا تُوَجِّهُوهُ[12] إلى غَيرِهِ.

قالَ[13] الكِسائيُّ: أي بَديعُ السّمواتِ وبادِعُ السَّمواتِ واحِدٌ كما يُقالُ: عالِمٌ وعليمٌ، وبَدَعَ، وابْتَدَعَ، بِمَعْنًى واحِدٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو مِثْلُ قَولِهِ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١].

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ قِيلَ: كَنّى بالأبْصارِ عنِ الخَلْقِ؛ كأنهُ قالَ: لا يُدْرِكُهُ الخَلْقُ، وهو يُدرِكُ الخَلْقَ، وإنما كَنّى بالأبْصارِ عنِ الخَلْقِ لِما بالأبْصارِ تُدرَكُ الأشياءُ، ويُحاطُ بها لِذلكَ كانَ مَعْنَى الكِنايَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: الامتداح. (٤) في الأصل وم: على. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) من م، في الأصل: أنه. (٩) في الأصل وم: الامتداح. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: امتدح. (١٢) في الأصل وم: توجهوا. (١٣) في الأصل وم: قاله.

وقِيلَ: هو على حَقِيقَةِ الإبصارِ لكنهُ بَصَرُ القَلْبِ لِما بِهِ تَقَعُ المَعارِفُ. فإنْ كانَ بَصَرَ الوجْهِ ففيهِ دليلُ إثباتِ الرُّؤيَةِ لأنهُ نَفَى عنهُ الإدراكَ. فلو لم يَكُنْ لِنَفْيِ الإدراكِ مَعْنًى، لأنهُ لا يُدْرِكُ ما لا يَرَى، دَلَّ[1] نَفْيُ الإدراكِ على أنَّ هناكَ رُؤيَةً. لكنهُ لا يُدرَكُ، ولا يُحاطُ بِهِ على ما ذَكَرَ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ إذْ مِنَ الأشياءِ الظاهِرَةِ ممّا يَقَعُ عليها البَصَرُ يكونُ لها سِرٌّ، وفيها خَفِيٌ، مِنْ نَحْوِ البَصَرِ والسَّمْعِ والأنفِ واليَدِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ ممّا لا تُدْرَكُ حَقِيقَةُ ماهِيَّتِها وكَيفِيَّتِها، ولا تَقْدِيرُها.

يُبْصَرُ بالبَصَرِ أشياءُ لا تُعْرَفُ حَقِيقَةُ كَيفِيَّةِ البَصَرِ ولا ماهِيَّتُهُ، وكذلكَ السَّمْعُ لا يُدْرَى أنهُ كيفَ؟ ولا بِمَ يُسْمَعُ؟ وكذلكَ هذا في كلِّ جارِحَةٍ وحاسَّةٍ تَجِدُ اليدُ[2] خُشونَةَ الشيءِ الذي تَمَسُّهُ ولِينَهُ، لا تَعْرِفُ بِمَ تَجِدُ ذلكَ، وتَعْرِفُهُ؟ وكذلكَ الكلامُ مِنَ اللسانِ والشَّمُّ مِنَ الأنفِ لا يُدْرَى ما هو؟ ولا كيفَ؟ وبِمَ يَجِدُ تلكَ الرائحةَ والنَّتْنَ؟

فإذا كانَتْ مَعارِفُ الخَلْقِ في الأشياءِ الظاهِرَةِ التي يَقَعُ عليها البَصَرُ لا تُدْرَكُ حَقِيقَةُ ماهِيَّتِها ولا تُعْرَفُ كَيفِيَّتُها، ولا يُحاطُ بها عِلْماً، فاللهُ[3] ﷻ الذي بِحِكْمَتِهِ وَضَعَ ذلكَ، وبِلُطْفِهِ رَكَّبَ، أبْعَدُ عنِ الإدراكِ وأحْرَى ألّا يُحاطَ بِهِ، ولا يُدْرَكَ.

وهذا يَرُدُّ على المُجَسِّمَةِ مَذْهَبَهُمْ لأنهُمْ يُصَوِّرُونَ رَبَّهُمْ في قلوبِهِمْ، ويُمَثِّلُونَهُ. فَعَلَى ذلكَ يَعْبُدُونَهُ؛ فَهُمْ مُشَبِّهَةٌ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ، تَبارَكَ، وتَعالى، عُرِفَ بالآياتِ والدلائِلِ لا بالمَحْسُوساتِ والمُشاهَداتِ. وكُلُّ شيءٍ سَبِيلُ مَعْرِفَتِهِ الآياتُ والدَّلائِلُ فهو غَيرُ مُحاطٍ بِهِ ولا مُدْرَكٍ، فهو على ما وَصَفَ نَفْسَهُ [بقولِهِ تعالى][4] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] [وقولِهِ تعالى][5]: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لأنَّ الإدراكَ والإحاطةَ [لا تُعْرَفُ][6] بالمَحْسوساتِ إنما[7] تُعْرَفُ بالآياتِ والدلائِلِ.

وعلى ذلكَ جاءَتْ دلائلُ الرُّسُلِ نَحْوَ ما قالَ مُوسَى حِينَ سألَهُ فرعونُ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ و٥٠] وما[8] قالَ: ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] [هاتانِ دلالتانِ][9] على أُلوهِيَّتِهِ وَوَحْدانِيَّتِهِ مِنْ جِهَةِ الآياتِ والدلائِلِ لا مِنْ غَيرِها[10]. وعلى ذلكَ دلَّ اللهُ الخَلْقَ على مَعْرِفَةِ وَحْدانِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ بقولِهِ[11] تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام: ٩٧] وقولِهِ[12] تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥] وقولِهِ[13] تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دَلَّهُمْ على ما يَعْرِفُونَ أُلوهِيَّتَهُ مِنْ جِهَةِ الآياتِ والدلائِلِ لا مِنْ جِهَةِ ما تَقَعُ الإحاطَةُ والإدراكُ، وباللهِ الهِدايَةُ والرَّشادُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قِيلَ ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ في أفعالِهِ ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بِخَلْقِهِ وبأعمالِهِمْ، وقِيلَ: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ البارُّ الرَّحِيمُ، وقِيلَ: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ هو العَلِيمُ بِخَفِيّاتِ الأشياءِ و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بِظَواهِرِ الأشياءِ. ثم هو ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ العَظِيمُ؛ والعَظِيمُ في الشاهِدِ غَيرُ اللَّطِيفِ، واللَّطِيفُ غَيرُ العَظِيمِ لأنَّ العَظِيمَ في الشاهِدِ هو الذي بِهِ كَثافَةٌ، واللَّطِيفُ ما يَلْطُفُ في نَفْسِهِ، ويَرِقُّ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُما مِمّا يُناقِضُ الآخَرَ؛ لِيُعْلَمَ أنهُ لَطِيفٌ عَظِيمٌ لا مِنَ الوُجوهِ التي تُعْرَفُ في الخَلْقِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وهو أوَّلٌ وآخِرٌ، وظاهِرٌ وباطِنٌ. وفي الخَلْقِ مَنْ كانَ أوَّلاً لم يَكُنْ آخِراً، ومَنْ كانَ ظاهِراً لم يَكُنْ باطِناً لِيُعْلَمَ أنهُ أوَّلٌ وآخِرٌ وظاهِرٌ وباطِنٌ لا مِنَ الوجهِ الذي يُعرَفُ، ويُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ، ولكنْ مِمّا[14] وصَفَ نَفْسَهُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما:][15] قِيلَ: بَيِّناتٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وقِيلَ: البصائِرُ الهُدَى [وهي][16] بَصائِرُ في قُلوبِهِمْ، ولَيسَتْ بِبَصائِرِ الرُّؤوسِ،

---

(١) في الأصل وم: فدل. (٢) في الأصل وم: اليوم. (٣) من م، في الأصل: والله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: إنما تقع. (٧) في الأصل وم: لا بما. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: دلاه. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال. (١٤) في الأصل وم: ما. (١٥) ساقطة من الأصل و م. (١٦) ساقطة من الأصل و م.

وهو قولُ عَبْدِ الرحمنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وقيلَ ﴿بَصَآئِرُ﴾ أي بَيانٌ، وهو واحدٌ، وقيلَ: ﴿بَصَآئِرُ﴾ شَواهِدُ؛ أي قد جاءَكُم مِنَ اللهِ شَواهِدُ تَدُلُّكُمْ على أُلوهيَّتِهِ؛ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] أي بَلِ الإنسانُ مِنْ نَفْسِهُ بَصيرةٌ أي شاهِدَةٌ، تَشهدُ كُلُّ جارحَةٍ منهُ على وَحْدانيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟ [النور: ٢٤] هذا، واللهُ أعْلَمُ، لأنهُمْ كانُوا يُقَلِّدُونَ آباءَهُمْ في عِبادَةِ الأوثانِ /١٥٧ - ب/ والأصنامِ، ويَقولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيقولُ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ مِنَ الآياتِ والرُّسُلِ ما لَوِ اتَّبَعْتُمُوهُمْ لَكانُوا لَكُمْ شُفَعاءَ عندَ اللهِ.

والثاني: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ما لو تَفكَّرُوا، وتَدَبَّرُوا، ونَظَرُوا فيها، لَعَرفُوا أنها بَصائِرُ مِنَ اللهِ؛ لأنَّ البَشَرَ أُنْشِئُوا بِحَيْثُ يَنْظُرونَ في العَجيبِ مِنَ الأشياءِ. فكانُوا على أمْرَيْنِ؛ مِنْهُمْ مَنْ نَظَرَ، وتفكَّرَ، وعَرَفَ أنها بَصائِرُ، لكنهُ عانَدَ، وكابَرَ، ولم يَعْمَلْ بها، ومِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ النَّظَرَ فيها، فَعَمِيَ عنها، ما لو تفكَّرُوا، ونَظَرُوا، لَتَبَيَّنَ لَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ﴾ أي أبْصَرَ الحَقَّ والهُدَى، وعَمِلَ بِهِ، فَلِنَفْسِهِ عَمِلَ، ومَنْ أبْصَرَ، وعَمِيَ عنها، أي تَرَكَ العَمَلَ، فَعَلَيها تَرَكَ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥] فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] أخْبَرَ أنَّ مَنْ هَلَكَ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ومَن حَيَّ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وههنا يَقولُ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ ذَكَرَ عَمِيَ عنها، فكيفَ وجهُ التَّوفيقِ بَيْنَهُما؟.

قِيلَ: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿عَمِىَ﴾ بَعْدَ [ما][1] تَبَيَّنَ لهُ، فَتَرَكَ العَمَلَ بها ﴿فَعَلَيْهَا﴾ لأنهُ أبْصَرَها، وعَرَفَ أنها مِنَ اللهِ، لكنَّهُ عانَدَها[2]، وكابَرَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فَلَيْسَ عَلَينا إلا التَّبْليغُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نَرُدُّها في الوُجُوهِ التي تَتَبَيَّنُ لِقَومٍ يَطْلُبُونَ البيانَ، أو نَقُولُ: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نَضَعُ كُلَّ آيَةٍ، ونَصْرِفُها إلى الوُجوهِ التي يكونُ بالخَلْقِ حاجةٌ إليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ فيهِ لُغاتٌ[3]: دَرَسْتَ، ودارَسْتَ، ودَرَسَتْ؛ ودَرَسْتَ قَرَأْتَ، ودارَسْتَ تَعَلَّمْتَ، وقيلَ: دارَسْتَ أهْلَ الكِتابِ: جادَلْتَهُمْ، ودَرَسَتْ بالجَزْمِ قِيلَ: تَقادَمَتْ. فهذا الاختِلافُ فيهِ لاختِلافِ قولٍ كانَ مِنَ الكَفَرَةِ لِرَسولِ اللهِ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَقولُ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] وهو تأويلُ: ﴿دَرَسْتَ﴾ فَعَلى اختِلافِ تأويلِهِمْ خَرَجَتِ القِراءَةُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ فهو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ لأنَّ [مِنْ][4] قولِهِ: أنهُ بَعَثَ الرُّسُلَ، وأنْزَلَ الكُتُبَ ليكونَ مِنَ الكافِرِ[5] قولُ كُفْرٍ ومِنَ المؤمِنِ قولُ إيمانٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ يَخْرُجُ، واللهُ أعْلَمُ، على التَّعْجيبِ، يُعَجِّبُ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ عن قُبْحِ صَنيعِ الكَفَرَةِ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وقد جاءَ بصائِرُ[6] مِنْ رَبِّهِمْ وبَيِّناتٌ وحُجَجٌ، ثم هُمْ بَعْدَ هذا كُلِّهِ يَسْتَقْبِلُونها بالرَّدِّ والتَّكْذيبِ وهو ما قُلْنا: إنَّ اللهَ ذَكَرَ نِعَمَهُ عليهِمْ بما أنْشَأَ لَهُمْ مِنَ الأنعامِ والجَنّاتِ والمَعْرُوشاتِ والزَّرْعِ والنَّخيلِ وما أخْبَرَ عنهُ، وقد عَلِموا ذلكَ كُلَّهُ ثم ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ﴾ بَعْدَ معرفتِهِمْ هذا[7] ﴿شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ولا بَيِّنَةٍ. فهو على التَّعْجيبِ أنهُمْ كيفَ جَعَلُوا لهُ شُرَكاءَ، وقد عَلِمُوا أنَّ الذي جَعَلَ هذا كُلَّهُ لَهُمْ، هو اللهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: عاند. (٣) انظر حجة القراءات (٢٦٤). ومعجم القراءات القرآنية (٢/٣٠٤). (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: الكافرين. (٦) من م، في الأصل: بصائرهم. (٧) من م، في الأصل: لرد.

فَعَلَى ذلكَ هذهِ الآيةُ أنهُمْ كيفَ قَذَفُوهُ بالدِّراسَةِ، وقد تَبَيَّنَ لَهُمْ صِدْقُهُ وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ بالآياتِ في الدلائِلِ وبما كانَ لا يَخُطُّ كتاباً، ولا شَهِدُوهُ يَختَلِفُ إلى مَنْ عِندَهُ عِلْمُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لِنُبَيِّنَهُ؛ يَعْني القرآنَ، وقيلَ: البَصائِرُ التي ذَكَرَ لقومٍ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ فإنْ قِيلَ: ما مَعْنى قولِهِ تعالى ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾؟ وإنما أُوحِيَ إليهِ مِنْ ربِّهِ، ويَكْفِي قولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾. قِيلَ[1] مَعْناهُ على الإضمارِ، واللهُ أعْلَمُ، كأنهُ قالَ لِلَّذي أوحَى إليهِ على يديهِ: قُلْ ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ ثم أمَرَ نَبِيَّهُ باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ، أي اعْمَلْ بِما أُوحِيَ.

ثم الأمْرُ بالعَمَلِ يَحتَمِلُ وجْهَينِ: يَحتَمِلُ الأمْرَ بالاعْتِقادِ بذلكَ، ويَحتَمِلُ [العَمَلَ نَفسَهُ][2] أي اعْمَلْ. ويُشْبهُ أنْ يكونَ الأمْرُ[3] بالاتِّباعِ اتِّباعَ ما أُوحِيَ إليهِ صِدقاً في الخَبَرِ وعَدْلاً في الحُكْمِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥] قيلَ: صِدقاً في الأخبارِ وعَدْلاً في الأحْكامِ. فَعَلَى ذلكَ أمْكَنَ أنْ يكونَ الأمْرُ بالاتِّباعِ اتِّباعَ ما أُوحِيَ إليهِ صِدقاً في الأخبارِ وعَدْلاً في الأحكامِ.

ثم على ما أمَرَ نَبِيَّهُ باتِّباعِ ما أُوحِيَ [إليهِ][4] مِنْ ربِّهِ أمَرَ أمَّتَهُ كذلكَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣] [ونَهاهُمْ عنِ اتِّباعِ][5] ما اتَّخَذُوا مِنْ دونِهِ أولياءَ. فَعَلَى ما نَهاهُمْ عَنِ اتِّخاذِ أولياءَ [مِنْ][6] دونِهِ قالَ في الآيةِ التي أمَرَ رسولَهُ باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ، فقالَ: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ واحدٌ، لأنهُ أمْرٌ باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ، ونَهْيٌ أنْ يَتَّبِعَ مِنْ دُونِهِ أولياءَ، لأنهُ أخبَرَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يَحتَمِلُ أمْرُهُ بالإعراضِ عنِ المُشرِكينَ وُجوهاً: يَحتَمِلُ ألّا تُكافِئَهُمْ على أذاهُم، ولكِنِ اصْبِرْ، ويَحتَمِلُ الإعراضُ عَنْهُمُ النَّهْيَ عَنْ قِتالِهِمْ كأنهُ نَهَى عَنْ قِتالِهِمْ في وقْتٍ، ويَحتَمِلُ[8] أنْ تكونَ الآيَةُ في قومٍ خاصٍّ، قالَ أعْرِضْ عَنْهُمْ فإنهُمْ لا يُؤمِنُونَ، ولا تُقِمْ عليهِمُ الآياتِ والحُجَجَ لِما عَلِمَ مِنْهُمْ انهُمْ[9] لا يُؤمِنُونَ.

ثم على ما أمَرَ نَبِيَّهُ بالإعراضِ عنهُمْ أمَرَ المؤمنِينَ أيضاً بالإعراضِ عنهُمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [القصص: ٥٥].

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ قالَتِ المُعْتَزِلَةُ: المَشِيئَةُ ههنا مَشِيئَةُ قَهْرٍ وَجَبْرٍ؛ أي لو شاءَ اللهُ لأعْجَزَهُمْ، ومَنَعَهُمْ عَنِ الشِّرْكِ على دَفْعِ الابْتِلاءِ والامْتِحانِ.

وأمّا عِنْدَنا فَالمَشِيئَةُ[10] مَشِيئَةُ اخْتِيارٍ وطَوعٍ[11] على قِيامِ الابْتِلاءِ والامْتِحانِ. وبَعْدُ فإنَّ مَشِيئَةَ الجَبْرِ هيَ خِلْقَةٌ، وقد كانُوا جَميعاً غَيرَ مُشْرِكينَ بالخِلْقَةِ، فلا مَعْنَى لِتَأوِيلِهِمْ الذي تَأوَّلُوا، ثم لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ مَشِيئَةَ قَهْرٍ وقَسْرٍ لأنهُ لا يكونُ في حالِ الجبْرِ والقَهْرِ إيمانٌ ولا كُفْرٌ، إنما يكونُ ذلكَ في حالِ الاخْتِيارِ والطَّوعِ؛ لأنَّ الجَبْرَ والقَهْرَ يَمْنَعُ مِنْ أنْ يكونَ لهُ فِعْلٌ حَقيقَةً، بل يَتَحَوَّلُ[12] الفِعْلُ منهُ، ويَسْقُطُ، ويَثْبُتُ لِلَّذي جَبَرَ، وقَهَرَ، وذلكَ[13] بَعيدٌ، فَدَلَّ انهُ ما ذَكَرْنا، وباللهِ الرَّشادُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ دلالَةُ أنَّ طريقَ الإسلامِ الإفْضالُ والإنعامُ، ولِلَّهِ أنْ يَخُصَّ بِهِ مَنْ كانَ أهْلاً لِلإفْضالِ والإنْعامِ باللطائِفِ التي عِنْدَهُ، ويَحْرِمَ ذلكَ، ولَهُ أنْ يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ أهلاً لِذلكَ إفضالاً منهُ، ولا يَجْعَلَ البَعْضَ عَدْلاً منهُ.

---

(١) في الأصل وم: ولكن. (٢) في الأصل وم: نفس العمل. (٣) في الأصل وم: بالأمر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: أمرهم باتباع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: لأنهم. (١٠) في الأصل وم: المشيئة. (١١) في الأصل وم: والطوع. (١٢) في الأصل وم: تحول. (١٣) في الأصل وم: فذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لم يُؤخَذْ عَلَيكَ حِفظُ أعمالِهِمْ، أو [لا][1] تُسألُ أنتَ عنْ صَنيعِهِمْ، إنما عَلَيكَ التَّبليغُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ[2] تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونَحْوُهُ. وقيلَ: الحَفيظُ والوَكيلُ واحدٌ. وقيلَ: الوَكيلُ هو الكَفيلُ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نَهانا عن سَبِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ السَّبَّ مَخافَةَ سَبِّ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ، وقد أمَرَنا بِقِتالِهِمْ، وإذا قاتَلْناهُمْ قاتَلُونا. وقيلَ: سَبُّ المُؤمِنِ بِغَيْرِ حَقٍّ مِنَ المَناكِيرِ. وكذلكَ أمَرَ رسولَ اللهِ ﷺ بِتَبليغِ الرسالةِ والتِّلاوةِ عليهِمْ، وإنْ كانُوا يَسْتَقبِلُونَهُ بالتَّكذيبِ.

وقيلَ[3]: السَّبُّ لأولئكَ [مُباحٌ][4] غَيْرُ مَفروضٍ، [والقِتالُ مَعَهُمْ فَرضٌ][5] وكذلكَ التَّبليغُ فَرضٌ، يُبَلِّغُ[6] إليهِمْ، وإنْ كانُوا يُنكِرُونَ ما يُبَلِّغُونَ[7]، وكذلكَ القِتالُ نُقاتِلُهُمْ، وإنْ كانَ في ذلكَ إهلاكُ أنفُسِنا.

وأصلُهُ أنَّ ما خَرَجَ الأمْرُ بِهِ مَخرَجَ[8] الإباحَةِ فإنهُ[9] يُنهَى عمّا يَتَوَلَّدُ منهُ، ويَحدُثُ، وما كانَ الأمْرُ بِهِ أمْرَ فَرضٍ ولُزومٍ، فلا[10] يُنهى عنِ المُتَوَلِّدِ منهُ والحادِثِ. ويَجوزُ /١٥٨ ـ أ/ أنْ يُستَدَلَّ بهذا على تأييدِ مَذهَبِ أبي حَنيفَةَ ﷺ في قولِهِ: مَنْ[11] قَطَعَ يَدَ آخَرَ بِقِصاصٍ، فماتَ في ذلكَ، أُخِذَ بالدِّيَةِ. وإذا قَطَعَ اليَدَ بِحَدٍّ، لَزِمَهُ، فماتَ، لم يُؤخَذْ بِهِ؛ لأنهُ أُبيحَ لهُ قَطْعُ يَدِهِ، والقِصاصُ لم يفرِضْ عليهِ [المَوتَ][12] وفي الحَدِّ يَلْزَمُ إقامَةَ الحَدِّ للهِ، فإذا كانَ قِيامُهُ بِفِعلٍ، أُبيحَ لهُ الفِعلُ، يُنهَى عمّا يَتَوَلَّدُ منهُ، ويُؤخَذُ بِهِ، وإذا كانَ قِيامُهُ بِفِعلٍ، فُرِضَ عليهِ، لم يُؤخَذْ بما تَوَلَّدَ منهُ.

وعلى هذا يَخرُجُ قولُهُ في الأمرِ بالخِتانِ، إذا تَوَلَّدَ مِنْ ذلكَ المَوْتُ، لأنهُ أمْرٌ بإقامَةِ السُّنَّةِ، وكذلكَ الأمْرُ بالحِجامَةِ، لأنهُ يَفرِضُ عليهِ الحِجامَةَ في حالٍ إذا خافَ عليهِ الهَلاكَ إذا لم يُحجَمْ[13].

وأمّا الأمْرُ بالدَّقِّ وغَيْرِهِ مِمّا يُشاكِلُهُ فأمرُ[14] إباحةٍ لا أمْرُ إلزامٍ؛ لذلكَ ضُمِنَ ما تَوَلَّدَ منهُ.

فَعَلَى ذلكَ السابُّ[15] الذي يَسُبُّ آلِهَتَهُمْ؛ إذا حَمَلَهُمْ ذلكَ على سَبِّ اللهِ ﷻ وسَبِّ رسولِهِ لا يُسَبُّونَ، وإنْ كانُوا مُستَحِقِّينَ لِذلكَ؛ لأنهُ قد يُنهَى الرجُلُ أنْ يُعَوِّدَ نَفسَهُ السَّبَّ. فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يُنهَوا عن سَبِّ آلِهَتِهِمْ مَخافَةَ الاعْتِيادِ؛ لِذلكَ نُهُوا عَنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ.

ثم ذُكِرَ في القِصَّةِ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانُوا يَسُبُّونَ آلِهَتَهُمْ، فَيَسُبُّونَ ﴿اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِسُوءٍ، فَقالُوا: لَتَنتَهِيَنَّ عَنْ ذلكَ أو لَنَهْجُوَنَّ ربَّكَ. عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: وذلكَ حِينَ قالَ لَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ٩٨] فقالُوا عندَ ذلكَ ما قالُوا، فَنَزَلَ [قولُهُ تعالى][16]: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآيةَ. ولكنْ لا نَدري كيفَ كانَتِ القصةُ، ولكنَّ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قالَ الكِسائيُّ وأبو عَوسَجَةَ ﴿عَدْوًا﴾ مِنَ الاعْتِداءِ، وهو مُجاوَزَةُ الحَدِّ. وقال أبو عَمْرٍو عَدُوًّا بالرَّفعِ[17]، وقالَ: إنما العَدُوُّ مِنْ عَدْوِ الرِّجلَينِ، وكذلكَ قالَ في يونسَ: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [الآية: ٩٠]. وقيلَ: فلمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا تَسُبُّوا رَبَّكُمْ» فأمْسَكُوا عن سَبِّ آلِهَتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: إنهُ صِلَةُ قولِهِ ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إنهم كانُوا يَعْبُدُونَ هذهِ الأصنامَ والأوثانَ، [رَجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ][18] عِبادَتُهُمْ إيّاها إلى اللهِ لأنهُمْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج قبلها في م: وقيل. (٧) في الأصل وم: يبلغهم. (٨) في الأصل: نخرج. (٩) من م، في الأصل: أنه. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) في الأصل وم: أن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يحتجم. (١٤) في الأصل وم: أمر. (١٥) في الأصل وم: السب. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) هي قراءة بعض المكيين، انظر مختصر في شواذ القرآن (٤٠) ومعجم القراءات القرآنية (٢/ ٣٠٧).
(١٨) في الأصل: أن تقرب، في م: رجاء أن تقرب.

كانُوا يَعْبُدُونَها، ويَتَّخِذُونَها آلِهَةً دونَ اللهِ، فإذا سَبُّوا معبودَهُمْ فكأنَّهُمْ سَبُّوا ﴿ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ إذِ العِبادةُ في الحَقِيقَةِ لِلّهِ، فَيَرجِعُ سَبُّهُمْ إيّاها إلى اللهِ. لِذلكَ كانَ مَعْنَى السَّبِّ. فقالَ: فَعَلَى ذلك رَجَعَ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ حتى امْتَنَعُوا عن سَبِّ اللهِ. فذلكَ الذي زَيَّنَ لَهُمْ عَمَلَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ أي زَيَّنّا عليهِمْ أعمالَهُمْ في ما أُمِرُوا بِهِ، وفُرِضَ، ووَجَبَ[1] عليهِمْ أنْ يَفْعَلُوا إلّا في ما يُفْرَضُ، ولا يَحِلُّ لَهُمْ أنْ يَفْعَلُوا. وكذلكَ يقولُ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ وغَيْرُهُ مِنَ المُعْتَزِلَةِ: إنهُ زَيَّنَ عليهِمْ عَمَلَهُمُ الذي فَرَضَ عليهِمْ أن يَعْمَلُوا، او يَأْتُوا بِهِ[2]. وأمّا ما لا يَنْبَغِي أنْ يكونَ[3] فلا كقولِهِ تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ الآية [الحجرات: ٧] ذكَرَ في الإيمانِ التَّزْيِينَ وفي الكُفرِ التَّكْرِيهَ. ويَقُولُونَ: إنهُ أضافَ التَّزْيِينَ إلى الشيطانِ بِقولِهِ: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٨ و...] وقولِهِ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٥].

فالشيطانُ يُزَيِّنُ لَهُمُ المعَاصِيَ والفُسُوقَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ اللهُ يُزَيِّنُ لَهُمْ ما يُزَيِّنُ الشيطانُ. فَدَلَّ أنهُ إنما يُزَيِّنُ لَهُمْ ما يُؤْمَرُونَ بِهِ، ويُفْرَضُ عليهِمْ، ولكنْ يُضافُ إليهِ التَّزْيِينُ ما أُضِيفَ إليهِ حرفُ الإضلالِ والإغواءِ.

وأمّا عندَنا فالتَّزْيِينُ على وَجْهَيْنِ:

[أحدُهُما:][4] تَبْيِينٌ مِنْ طريقِ الآياتِ والبراهِينِ، فذلكَ لا يَحْتَمِلُ فِعْلَ الكُفرِ والضَلالِ أنْ يكونَ مُزَيَّناً مِنْ جِهَةِ الآياتِ والحُجَجِ.

والثاني: تَزْيِينٌ في الطِّباعِ بالشَّهَواتِ والأماني، وفِعْلُ كُلِّ أحدٍ مُزَيَّنٌ بالشَّهْوَةِ والحاجَةِ التي مُكِّنَتْ فيهِ. ولا شَكَّ أنَّ كُلَّ كافِرٍ لو سُئِلَ عنْ فِعْلِهِ الكُفرَ والضلالَ، فيقولُ: هذا الذي زُيِّنَ لي، ولَيسَ إضافةُ فِعْلِ التَّزْيِينِ إلى اللهِ بأكْبَرَ وأبْعَدَ مِنْ إضافَةِ الإضلالِ والإغواءِ، وقد ذكَرْنا مَعْنَى إضافَةِ الإضلالِ والإغواءِ إليهِ في غَيْرِ مَوضِعٍ. فَعَلى ذلكَ التَّزْيِينُ. ويَقولُ أيضاً: إنَّ التَّزْيِينَ تَزْيِينُ وَعْدٍ وثوابٍ؛ فالكافِرُ مَتَى يُؤْمِنُ بالوَعْدِ في الآخِرَةِ والثوابِ فيها؟ وهو ليسَ يُؤْمِنُ فهذا بَعِيدٌ.

ولا يُحْتَمَلُ ما قالَ الكَيسانيُّ أيضاً لأنهُ لا كُلُّ الكَفَرَةِ كانُوا يَعْبُدُونَ الأصنامَ لِيُقَرِّبَهُمْ ذلكَ إلى اللهِ زُلْفَى، بل أكْثَرُهُمْ لا [يَعْرِفُونَ][5] أنَّ لَهُمْ خالقاً وربّاً.

وتُحْتَمَلُ إضافةُ التَّزْيِينِ إلى الشيطانِ على جِهَةِ التَّمَنِّي والتَّشَهِّي كقولِهِ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ [المجادلة: ١٤] وإضافَتُهُ إلى اللهِ على القُدْرَةِ عليها والسلطانِ، أو أنْ يَخْلُقَ أعمالَهُمْ مُزَيَّنَةً عندَهُمْ مُسَوَّلَةً، وإضافةُ فِعْلِ الضَّلالِ والغِوايَةِ إلى الشيطانِ على الدعاءِ إليهِ والتَّرْغِيبِ فيهِ وإضافَتُهُ إلى اللهِ على أنْ يَخْلُقَ فِعْلَ الضلالِ منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ﴾ قد ذَكَرْنا ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في جَزِيلِ الثوابِ أو في أليمِ عذابٍ، فهو على الوَعِيدِ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ قالُوا: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ باللهِ؛ فهذا يُخَرَّجُ على وُجُوهٍ:

أحدُها: أنَّ الحِنْثَ في اليَمِينِ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الاِسْتِخْفافِ والتَّهاوُنِ، وإنْ كانَ في اليَمِينِ التَّعْظِيمُ، وفي الحِنْثِ اسْتِخْفافٌ، وفي اليَمِينِ باللهِ جَهْدُ اليَمِينِ. ويَحْتَمِلُ وجهَيْنِ سِوَى هذا:

أحدُهما[6]: ما قِيلَ: إنَّ الكَفَرَةَ كانُوا لا يَحْلِفُونَ باللهِ إلّا عِنْدَ العَظِيمِ مِنَ الأمورِ، [وفي][7] الجَلِيلِ منها كانُوا يَحْلِفُونَ بدونِهِ، فَسُمِّيَ اليَمِينُ باللهِ جَهْدَ اليمينِ تَعْظِيماً لِلّهِ وتَبْجِيلاً.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنهُمْ كانُوا يَحْلِفُونَ بأشياءَ، ويُؤَكِّدُونَ اليَمينَ باللهِ، ويُشَدِّدُونَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

---

(١) في الأصل وم: ويجب. (٢) في الأصل وم: بها. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل و م: وذلك. (٧) ساقطة من الأصل و م.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ قيلَ: إنهمْ كانُوا يُقسِمُونَ ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ كانُوا يَسألُونَ رسولَ اللهِ ﷺ آياتٍ لَئِنْ جاءَتْهُمْ يؤمِنُوا[1] بها مِنْ نَحْوِ ما قالُوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠] وكقولِهِمْ: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ. فقالَ [﴿قُلْ﴾][2] يا محمدُ ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو الذي يُرْسِلُها، وأنا لا أمْلِكُ إرسالَها ولا إنزالَها كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٠] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ إنباءٌ منهُ أنهُ لا يَمْلِكُ إنزالَ ما كانُوا يَسألُونَهُ مِنَ الآياتِ.

ثم قالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ الأصَمُّ: إنهُ خاطبَ [المؤمنينَ][3] وما يُشْعِرُكُمْ أهْلَ القَسَمِ الذينَ[4] أقسَمُوا ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ فقالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي ما يُدريكُمْ [أنهمْ يؤمِنُونَ إذا جاءَتْهُمْ][5] آيةٌ، ثم اسْتأنَفَ، فقالَ إنَّها: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهكذا كانَ يَقرؤُهُ الحَسَنُ بالخَفْضِ[6] إنَّها: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على الاسْتِئنافِ والابْتِداءِ.

وقالَ غيرُهما[7] مِنْ أهلِ التَّأويلِ: الخطابُ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وذلكَ لأنهُمْ[8] لَمَّا قالُوا: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ظَنُّوا أنَّهُمْ لَمَّا أقسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِمْ أنهمْ يُؤمِنونَ إذا جاءَتْهُمْ آيةٌ؛ يَفعَلُونَ ذلكَ، ويُؤمِنُونَ على ما يَقُولُونَ، فقالَ لَهُمْ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على طَرْحِ ﴿لَا﴾ أي ما يَدريكُمْ أنها إذا جاءَتْ يُؤمِنُونَ.

ويُحْتَملُ فيه وَجهٌ آخَرُ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ فاعْلَموا ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على الوقْفِ في قولِهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ثم ابْتَدأَ، فقالَ: اعْلَمُوا ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كأنهُ أقْرَبُ.

ويَحْتَمِلُ [وَجْهَينِ آخَرَينِ:

أحدُهما: أنَّ أهْلَ الإسلام قالُوا:][9] إنهمْ إنْ[10] جاءَتْهُمْ آيةٌ لا يؤمِنوا[11]، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ خاطَبَ بِهِ هؤلاءِ: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والثاني: أنهُمْ وإنْ آمَنُوا بها إذا جاءَتْ فنُقَلِّبُ أفئِدَتَهُمْ /١٥٨ ـ ب/ مِنْ بَعْدُ. وعلى هذا التَّأويلِ أنَّ خَلْقَ تَقَلُّبِ أفئِدَتِهِمْ وأبْصارِهِمْ كَقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] أي خَلَقَ زَيْغَ قُلُوبِهِمْ، فكذلكَ الأوَّلُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي نُقَلِّبُ أفئدتَهُمْ وأبصارَهُمْ بالحُجَجِ والآياتِ، ونُرَدِّدُها، فلا يُؤمِنُونَ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وقالَ أهْلُ التَّأويلِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي نَحولُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الإيمانِ لو جاءَتْهُمْ تلكَ الآياتُ فلا يُؤمِنُونَ كما حُلْنا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الإيمانِ أوَّلَ مَرَّةٍ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ؛ وهو أنْ يُقَلِّبَ في أفْئِدَتِهِمْ وأبْصارِهِمْ آياتِ وَحْدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، فلا يؤمِنُونَ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ثم تَخْصِيصُ الأفئِدَةِ والأبصارِ دُونَ غيرِها[12] مِنَ الجَوارِحِ لأنَّ القَلْبَ والبَصَرَ لا يَقَعُ إلّا على ما يَشْهَدُ كُلٌّ على وَحْدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ هؤلاءِ، وإنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ فإنهُمْ لا يُؤْمِنُونَ [بها][13] كما لم يُؤمِنْ أوائِلُهُمْ مِنَ الأُمَمِ الخاليَةِ لَمّا سَألُوا الآياتِ قَبْلَهُمْ، فكذلكَ هؤلاءِ لا يؤمِنُونَ بها، وإنْ جاءَتْهُمُ الآيةُ بَعْدَ السُّؤالِ.

---

(١) في الأصل و م: يؤمنون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الذي. (٥) في الأصل و م: إنكم تؤمنون إذا جاءتكم. (٦) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: إنها بكسر الألف وقرأ الباقون ﴿أَنَّهَآ﴾ بالفتح، انظر حجة القراءات (٢٦٥) ومعجم القراءات القرآنية (٢/٣٠٨). (٧) في الأصل وم: غيرهم. (٨) من الأصل وم: أنهم. (٩) في الأصل: وجهاً آخر وهو أن كأنه أقرب فقالوا، في م: وجهاً آخر وهو أن أهل الإسلام. (١٠) في الأصل وم: وإن. (١١) في الأصل وم: غيرهم. (١٢) في الأصل وم: غيرهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ غَيْرُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قد جاءَتْهُمْ آياتٌ قَبْلَ هذا على غَيْرِ سُؤالٍ، فلم يُؤْمِنُوا بها، فكذلكَ، وإنْ جاءَتْهُمْ بالسُّؤالِ فلا يُؤْمِنُونَ.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ؛ وهو أنَّ مُشْرِكي العَرَبِ كانُوا يُقْسِمُونَ باللهِ أنهُ إنْ جاءَهُمْ نذيرٌ يُؤْمِنُوا[1] بِهِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] يعنونَ، واللهُ أعلمُ، اليهودَ والنَّصارى؛ أي لو جاءَهُمْ نذيرٌ ليَكونُنَّ[2] أهْدَى مِنَ اليهودِ والنَّصارى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] يُخْبِرُ أنهُمْ كما لم يُؤْمِنُوا بالنَّذيرِ عِنْدَ سُؤالِهِمُ النَّذيرَ في الابْتِداءِ، إذا جاءَهُمْ نَذيرٌ، فكذلكَ أيضاً لا يُؤْمِنُونَ عندَ سُؤالِهِمُ الآياتِ. وإنْ جاءَتْهُمْ آياتٌ، يُخْبِرُ نَبِيَّهُ أنهُمْ لَيْسُوا يَسألونَ الآياتِ سُؤالَ اسْتِرْشادٍ، ولكنْ يَسألونَ سُؤالَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ. وهذا التَّأويلُ كانَ أقْرَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إذا عَلِمَ انهُمْ لا يُؤْمِنُونَ تَرَكَهُمْ في ظُلُمتِ ضَلالَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، ويَتَحَيَّرونَ. والعَمَهُ الحَيرَةُ في اللغةِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قيلَ: الآيةُ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ثم قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية أخْبَرَ أنهُمْ وإنْ [نَزَّلَ][3] إليهِمُ الآياتِ بَعْدَ السُّؤالِ منهُمُ الآياتِ مِنْ إنزالِ الملائكةِ وتكْليمِ المَوتَى فإنهُمْ[4] لا يُؤْمِنُونَ؛ إذْ سُؤالُهُمُ الآياتِ سُؤالُ تَعَنُّتٍ واسْتِهْزاءٍ وعِنادٍ لا سُؤالُ اسْتِرْشادٍ لأنهُمْ قد جاءَتْهُمْ آياتٌ، لو لم يُعانِدُوا لآمَنُوا. ثم إذْ عَلِمَ منهُمْ أنهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وأنَّ ما يَسْألُونَ، إنما يَسْألونَ سُؤالَ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ، جَعَلَ فيهِمْ خِصالاً على الخِذْلانِ مِنْ قَساوَةِ القَلْبِ حتى أخْبَرَ أنَّ قُلُوبَهُمْ أقْسَى مِنَ الحِجارَةِ ومِنْ نَحْوِ البُغْضِ والجَهالَةِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الخِصالِ ما يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: ١٤] عَنْ تَعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ.

وفيهِ دليلٌ على أنَّ الآياتِ لا تَضْطَرُّ أهْلَها إلى[5] الإيمانِ لأنهُ قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا﴾ لأنهُ لو كانَتْ آيةٌ تَضْطَرُّهُمْ إلى الإيمانِ لَكانَتْ هذِهِ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] أنهُمْ لا يُؤْمِنونَ بالآيةِ. ولكنْ إذا شاءَ أنْ يُؤْمِنُوا لآمَنُوا، ولو كانَتِ الآياتُ تَضْطَرُّ أهْلَها إلى الإيمانِ بهِ لكانَ لا آيةَ أعْظَمَ مِنْ [مُعايَنَةِ][6] القِيامَةِ، ولا أبْيَنُ منها.

ثم أخْبَرَ عنهُمْ أنهُمْ لو ﴿رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقالَ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] قد كَذَّبُوا عندَ مُعايَنَتِهِمُ القِيامةَ والعذابَ. فبهذا يَدُلُّ على أنَّ الآيَةَ لا تَضْطَرُّ أهْلَها إلى[7] الخُضُوعِ بالدلائلِ التي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالَ الحَسَنُ: هذِهِ المَشيئَةُ مَشيئَةُ القُدْرَةِ؛ أي لو شاءَ اللهُ أنْ يُعْجِزَهُمْ حتى يُؤْمِنُوا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس: ٦٦ و٦٧] ونَحْوُهُ. فهذِهِ المَشيئَةُ مَشيئَةُ القُدْرَةِ. لكنّا نقولُ: إنهُ أخْبَرَ أنهُ لو شاءَ أنْ يَمْسَخَهُمْ لَمَسَخَهُمْ، وقالَ أيضاً: إنهُ لو شاءَ أنْ يَهْدِيَهُمْ لَهَداهُمْ، ولو شاءَ أنْ يَهْتَدُوا لاهْتَدَوا. وكذلكَ يقولُ المُعْتَزِلَةُ: إنَّ المَشيئَةَ ههنا مَشيئَةُ القَهْرِ والجَبْرِ، وقد ذَكَرْنا ألّا يكونَ في حالِ القَهْرِ والجَبْرِ إيمانٌ، فَيَصيرُ على قولِهِمْ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يُؤْمِنُوا، فآمَنُوا، فلا يكونُ إيماناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ وتأويلِهِ. [رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنهُ][8] قالَ: قُبُلاً مُقابَلَةً[9]

---

(١) في الأصل وم: يؤمنون. (٢) في الأصل وم: ليكونوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: إنهم. (٥) في الأصل وم: على. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: على. (٨) في الأصل وم: عن الحسن. (٩) في الأصل وم: عياناً، انظر حجة القراءات (٢٦٧) ومعجم القراءات القرآنية (٢/ ٣١١).

وعَنْ قَتادَةَ[١]: قِبَلاً عِياناً حتى يُعايِنُوا ذلكَ مُعايَنَةً ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يُؤْمِنُوا، فَيُؤْمِنُوا. وعَنْ مُجاهِدٍ ﴿قُبُلًا﴾ أي أفواجاً ﴿قُبُلًا﴾.

وفي حَرْفِ أبي عَمْرِو بْنِ العلاءِ: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ يقولُ: جَبيلاً فَجبيلاً، وفي حَرْفِ أُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ][٢]: ﴿قُبُلًا﴾ أي [جمعَ قَبيلٍ][٣]. وقالَ القُتَبِيُّ ﴿قُبُلًا﴾ أي جَماعَةً جَماعَةً و﴿قُبُلًا﴾ أي أصْنافاً.

ويُقالُ: القَبيلُ الكَفيلُ، كقولِهِ تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] أي ضَميناً كَفيلاً. قالَ الكِسائِيُّ: مَنْ قَرَأها ﴿قُبُلًا﴾ فقد يكونُ جَمْعَ القَبيلِ مِثْلَ الجَبيلِ والجُبُلِ، وقد يكونُ القُبُلُ أيضاً مِنْ مَعْنَى الإقْبالِ كقولِهِ تعالى: ﴿مِن قُبُلٍ﴾ وقولِهِ[٤]: ﴿مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٦ و٢٧] ومَنْ قَرَأها قِبَلاً أرادَ مُعايَنَةً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: كلُّ شيءٍ: قُبُلٌ[٥]، يُقالُ: أتانا الناسُ قُبُلاً أي كُلُّهُمْ وقُبُلاً مِنَ المُقابَلَةِ.

وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا: أنْ لو فَعَلْنا هذا كُلَّهُ مِنْ إنْزالِ الملائِكةِ إليهِمْ وتَكْليمِ المَوتَى إيّاهُمْ ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فأخبَرُوهُمْ بالذي يقولُ محمدٌ: إنهُ حَقٌّ ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ بهِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لَهُمُ الإيمانَ، فَيُؤْمِنُوا.

وفيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الدليلِ أنَّ الآياتِ لا تَضْطَرُّ أهْلَها إلى الإيمانِ بها ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يُؤْمِنُوا، فَحِينَئِذٍ يُؤْمِنُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي لكنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ قيلَ: كما جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبلُ عَدُوّاً كذلكَ يَجْعَلُ لكَ عَدُوّاً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ مِنْ حِكَمِ اللهِ أنْ يَبْعَثَ رُسُلاً، وأنَّ كلَّ مَنِ اتَّبَعَ رسولَهُ يكونُ وَلِيّاً لَهُ، ومَنْ عَصَى رَسُولَهُ يكونُ عَدُوّاً لَهُ. هذا حُكْمُ اللهِ في الكُلِّ.

وقالَ جَعْفَرُ بنُ حَرْبٍ والكَعْبِيُّ وغَيْرُهُما[٦] مِنَ المُعْتَزِلَةِ: إنَّ قولَهُ: ﴿جَعَلْنَا﴾ أي خَلَّينا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ما اخْتارُوا مِنَ الكُفْرِ والعَداوَةِ، يُقالُ: جَعَلَ فلاناً[٧] كذا، إذا كانَ مُسَلَّطاً على ذلكَ، وهو يَقْدِرُ أنْ يَمْنَعَهُ ذلكَ. ويَصِيرُ التَّأويلُ على قولِ المُعْتَزِلَةِ: أي لم نَجْعَلْ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً، ولكنْ هُمْ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ أعداءً لِكُلِّ نَبِيٍّ.

وقُلْنا نحنُ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهُما:][٨] خَلَقْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَداوَةَ كُلِّ عَدُوٍّ. والجَعْلُ مِنَ اللهِ الخَلْقُ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]. كُلُّ: جَعَلَ أُضِيفَ إلى اللهِ فهو خَلَقَ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ أي خَلَقْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَداوَةَ كُلِّ عَدُوٍّ. ولو كانَ الجَعْلُ[٩] على ما قالَ الحَسَنُ وما قالَ أولئكَ مِنَ التَّخْلِيَةِ لَكانَ يجوزُ أنْ يُضافَ فِعْلُ الكُفْرِ وفِعْلُ الضَّلالِ إلى اللهِ، وذلكَ بَعيدٌ.

والثاني: لم يُوَفِّقْ لَهُمْ فِعْلَ الوِلايَةِ لَمّا عَلِمَ مِنْهُمْ أنهُمْ يَخْتارُونَ فِعْلَ العَداوَةِ على فِعْلِ الوِلايَةِ.

وقولُهُ / ١٥٩ ـ أ/ تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: الشياطينُ كُلُّهُمْ تكونُ مِنَ الجِنِّ، ثم إنهُمْ يُوحُونَ إلى الإنْسِ، فيكونُونَ هُمُ الذينَ يَدْعُونَ الخَلْقَ إلى مَعْصِيَةِ اللهِ، فيكونُ مِنَ الجِنِّ وَحْياً إلى الإنْسِ، ومِنَ الإنْسِ إلى الخلْقِ قَولاً ودُعاءً.

وقالَ بَعْضُهُمْ: يكونُ مِنَ الجِنِّ شياطِينُ، تَدْعُو شياطِينُ الجِنِّ الجِنَّ إلى مَعْصِيَةِ اللهِ، فهو شيطانٌ، وكذلكَ كُبَراءُ الكَفَرَةِ ورُؤَساؤُهُمُ الذينَ كانُوا يَدْعُونَ أتباعَهُمْ وسَفَلَتَهُمْ إلى الكُفْرِ، والضُّلّالُ مِنْهُمْ شَياطِينُهُمْ. ألا تَرى أنهُ قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: كذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قبيلة. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: قُبلاً. (٦) في الأصل وم: وغيرهم. (٧) في الأصل وم: فلان. (٨) في الأصل و م: أي. (٩) في الأصل و م: الحكم.

﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وقولهُ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وقولهُ تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وغيرُهُ مِنَ الآياتِ؟.

إنَّ كُلَّ مَنْ دَعا غَيْرَهُ [إلى مَعْصِيَةِ اللهِ][(١)] والكُفرِ بِهِ، فهو شيطانٌ، والشيطانُ هو البَعيدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، شَطَنَ أي بَعُدَ. وقيلَ: إنَّ إبليسَ وَكَّلَ شياطِينَ الإنسِ [لِيُضِلُّوهُمْ، ويَدْعُوهُمْ][(٢)] إلى مَعْصِيَةِ اللهِ، وَوَكَّلَ[(٣)] شياطِينَ الجِنِّ لِيُضِلُّوهُمْ[(٤)]، وهو تأويلُ الأوَّلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي يُزَيِّنُ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ القَوالَ غُروراً؛ يَغُرُّونَ بِهِ.

قالَ القُتَبِيُّ، رَحِمَهُ اللهُ، ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ما زُيِّنَ منهُ، وحُسِّنَ، ومُوِّهَ، وقالَ: وأصْلُ الزُّخْرُفِ الذَّهَبُ، ويُقالُ: زَخْرَفَ الشَّيءَ حَسَّنَهُ. قالَ أبو عوسَجَةَ: الوَحْيُ أنْ يُوحِيَ[(٥)] بِعَينِهِ أو بِشَفَتِهِ، وهو[(٦)] إشارةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لَخَلَقَهُمْ خَلْقاً، لم يُرَكِّبْ [فيهِمْ][(٧)] الشَّهَواتِ والحاجاتِ حتى أطاعُوهُ، ولم يَعْصُوهُ كما خَلَقَ الملائكةَ، لم يُرَكِّبْ فيهِمُ الشَّهَواتِ والحاجاتِ والأمانيَّ، فَلَمْ يَعْصُوهُ.

وقالَتِ المُعْتَزِلَةُ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأعْجَزَهُمْ، وقَهَرَهُمْ حتى لا يَقْدِروا على مَعْصِيَةِ اللهِ والكُفرِ بهِ، فآمَنُوا، واهْتَدَوا، إنهُ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لَهَداهُمْ، فاهْتَدَوا، ولكنْ لمّا عَلِمَ منهم أنَّهُمْ يَخْتارُونَ الضَّلالَ على الهُدَى شاءَ ألّا يَهْدِيَهُمْ. وقد ذَكَرْنا قُبْحَ تأويلِهِمُ الآيةَ في غيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ هذا يَخْرُجُ على الوَعيدِ لَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] كذا؛ أي ذَرْهُمْ وما يَخْتارُونَ فإنكَ تَراهُمْ في العذابِ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ﴾ قيلَ: ولِتَميلَ قُلوبُ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى زُخْرُفِ القولِ الذي يُوافِقُ هَواهُمْ، وكُلُّ مَنْ ظَفِرَ بما يُوافِقُ هَواهُ فإنهُ يَرْضَى بِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس: ٧] لأنهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ، ولا يَرْجُونَ لقاءَهُ، وكانَ هَمُّهُمْ هذِهِ الدنيا، ورَضُوا بها ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾ أي إلى الكتابِ ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لَيسَ [مَيْلُهُمْ مَيْلَ قَبولٍ][(٨)] مِنْهُمْ، ولكنْ مَيْلُ طَلَبِ الطَّعْنِ فيهِ. وهكذا [كانَ مَيْلُ][(٩)] أولئكَ الكَفَرَةِ، وعادَتُهُمْ طَلَبَ الطَّعْنِ، والأوَّلُ أشْبَهُ.

ثم إنْ كانَ زُخْرُفُ القولِ الذي أوحَى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ مِنْ كُبَرائِهِمْ وعُظَمائِهِمْ فقد أشْرَكَ تعالى هؤلاءِ بأولئكَ[(١٠)] في الكَذِبِ الذي كانَ مِنْهُمْ؛ كانَ مِنَ الكُبَراءِ الدعاءُ إلى ذلكَ، ومِنَ الأتباعِ الرِّضا والإجابةُ، وكانَ منهُمُ التَّزْيِينُ والزَّخْرَفَةُ، ومِنَ الأتباعِ القَبولُ والرِّضا بهِ؛ فقدِ اشْتَرَكُوا[(١١)] جميعاً في ذلكَ الكَذِبِ بالقولِ[(١٢)] الغَرُورِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ يَعْني هؤلاءِ الأتباعَ ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ أي لِيَكْتَسِبَ[(١٣)] هؤلاءِ الأتباعُ مِنَ الكَذِبِ ما كانَ أولئكَ مُكْتَسِبِينَ[(١٤)] مِنَ الكَذِبِ.

وقيلَ: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ أولئكَ المَتْبُوعونَ مِنَ الكَذِبِ ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ يَعْني هؤلاءِ الأتباعُ مُقْتَرِفونَ مِنَ القولِ الغَرُورِ والزُّخْرُفِ.

ثم اخْتُلِفَ في الاقْتِرافِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: الاكْتِسابُ: اكْتِسابُ كُلِّ شَيءٍ، وقالَ قائِلُونَ: الاقْتِرافُ، هو موافَقَةُ الذَّنْبِ والإثْمِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: معصية. (٢) في الأصل وم: يضلونهم ويدعونهم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يضلونهم. (٥) في الأصل وم: يحيي. (٦) في الأصل وم: وهي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: ميل قبولهم، في م: ميل قبول. (٩) في الأصل وم: كانت. (١٠) الباء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: اشركوا. (١٢) في الأصل وم: كالقول. (١٣) في الأصل وم: ليكتسبوا. (١٤) في الأصل وم: مكتسبون.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾؟ كانَ أولئكَ الكَفَرةُ دَعَوا رسولَ اللهِ ﷺ إلى حَكَمٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ في مُنازَعَةٍ، وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ: إمّا في الرسالَةِ وإمّا في الكتابِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾؟ ثم بَيَّنَ، فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ كيفَ أبتغي حَكَماً غيرَ اللهِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ ما تَعْلَمُونَ أنهُ نَزَّلَ ما عَجِزَ الخَلائِقُ عن إتيانِ مِثْلِهِ؟

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿مُفَصَّلًا﴾ [قيلَ ﴿مُفَصَّلًا﴾][1] بالحُجَجِ والبَراهِينِ ما يَعرِفُ كُلُّ عاقلٍ، لم يُكابِرْ عَقْلَهُ، أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ.

وقيلَ: ﴿مُفَصَّلًا﴾ بالأمرِ والنَّهْيِ والتَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ، فيقولُ: أأَبْتَغِي[2] حَكَماً غيرَ ما أنْزَلَ اللهُ، وقد أَنْزَلَ كتاباً مُفَصَّلاً ومُبَيَّناً، فيهِ وَعْدٌ ووَعِيدٌ؟ وقيلَ: ﴿مُفَصَّلًا﴾ مُفَرَّقاً أي أنْزَلَهُ بالتَّفارِيقِ، لم يُنْزِلْهُ مَجْمُوعاً جُمْلَةً، ما يَقَعُ بِمَسامِعِ كُلِّ أحدٍ عِلْمُ ذلكَ وبيانُهُ. فأنّى يَقَعُ إلى الحاجَةِ إلى حُكْمِ غَيْرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي[3] أهلُ التوراةِ والإنجيلِ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وقيلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يَعْنِي مَنْ أعطى هذا ﴿ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ لَمّا عَجِزُوا عن إتيانِ مِثْلِهِ وتأليفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أنهُمْ قد غَيَّرُوا ما في كتابِهِمْ مِنَ الأحكامِ ومِنْ بَعْثِكَ[4] وصِفَتِكَ. ويَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ، مَعَ عِلْمِهِ أنَّ رسولَهُ لا يكونُ مِنَ المُمْتَرِينَ، لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنهُ إذا نَهَى رسولَهُ عن مِثْلِ هذا، فَغَيْرُهُ أحَقُّ أنْ يُخاطِبَ مَنْ طَلَبَ حُكْمَ غَيْرِهِ، ويقولُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قيلَ: ﴿صِدْقًا﴾ في الأنباءِ ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأحكامِ؛ تَمَّتْ أنباؤُهُ بالصِّدْقِ وأحكامُهُ بالعَدْلِ حتى يَعْرِفَ كُلُّ أحدٍ صِدْقَ أنبائِهِ وعَدْلَ أحكامِهِ. وقيلَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ بالحُجَجِ والبراهِينِ لِما يَعْرِفُ كُلُّ مَنْ تَأَمَّلَ فيها، ونَظَرَ صِدْقَها وعَدْلَها، أنها مِنَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ هذا تَفْسِيرُ التَّمامِ أنها تَمَّتْ تماماً[5]، لا يَرِدُ عليها النَّقْصُ ولا الجَوْرُ ولا الخُلْفُ، لَيْسَتْ[6] كَكَلِماتِ الخَلْقِ أنها تُبَدَّلُ، وتُنْقَضُ، وتُمْنَعُ، لِما يكونُ فيها مِنَ النُّقْصانِ والفَسادِ، فإنها تُبَدَّلُ، وتُنْقَضُ. ويَعْجِزُونَ عن وَفاءِ ما وَعَدُوا، ويُمْنَعُونَ عن ذلكَ. فاللهُ، تعالى، يَتَعالى عن أنْ يُبَدِّلَ كلماتِهِ، أو يَمْنَعَ عَنْ وفاءِ ما وَعَدَ، وأنْبَأَ، [أو يَجورَ][7] في حُكْمِهِ. ويَجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ لِقولِ أصحابِنا حِينَ[8] قالُوا: مَنْ قالَ لِامْرَأَتِهِ: أنتِ طالِقٌ، أتَمَّ الطلاقِ وأعْدَلَ الطلاقِ، فإنهُ يَقَعُ بما وافَقَ السُّنَّةَ، لَيسَ يَرْجِعُ ذلكَ إلى العَدْلِ[9]؛ لأنهُ أخْبَرَ أنْ تَمَّتْ كَلِمَتُهُ صِدْقاً وعَدْلاً، والمُوافِقُ لِلسُّنَّةِ هو الحَقُّ، وهو العَدْلُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا مُبَدِّلَ لِحُجَجِهِ وبَراهِينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ بِما ألْقَى الشيطانُ، وأوحَى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالِ هؤلاءِ وإجابَتِهِمْ إيّاهُمْ. وأهْلُ التَّأْوِيلِ يَصْرِفونَ إلى خاصٍّ مِنَ القَولِ: بَعْضُهُمْ يقولُونَ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ هو قولُهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣]. وقالَ آخَرُونَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دَعاهُ أهْلُ الكُفْرِ إلى عبادَةِ الأوثانِ.

ولكنْ هو يَرْجِعُ، واللهُ أعلَمُ، إلى كُلِّ نَبَإٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ وكُلِّ خَبَرٍ يُخْبَرُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أبتغي. (٣) في الأصل وم: إلى. (٤) في الأصل وم: نعتك. (٥) من م، في الأصل: تمام.
(٦) في الأصل وم: ليس، وأدرج قبلها في الأصل وم: أنها. (٧) في الأصل وم: إذ يجوز. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: العدد.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآيةُ دلالةٌ أنَّ أكثرَ أهلِ الأرضِ كانُوا ضُلّالاً وعُبّادَ الأوثانِ والأصنامِ لأنهُ قالَ: ﴿أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ لأنهُمْ إلى أهلِ الضَّلالِ كانُوا يَدْعُونَهُ. ثم الخِطابُ، وإنْ كانَ لِرَسولِ اللهِ في الظاهِرِ، فهو لِكُلِّ[1] مؤمنٍ؛ إذْ مَعْلُومٌ أنَّ رسولَهُ لا يُطِيعُهُمْ في ما يَدْعُونَهُ إلى عِبادةِ الأوثانِ. [وفيهِ أنَّ في الأرضِ مَنْ كانَ][2] يَعْبُدُ اللهَ، وكانَ على دينِ الأنبياءِ والرُّسُلِ.

وقولُهُ تعالى/ ١٥٩ ـ ب/: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذُكِرَ في القِصّةِ أنَّ أهلَ الكُفرِ دَعَوا رسولَ اللهِ ﷺ إلى عبادةِ الأوثانِ، [وأنهم][3] يقولُونَ: إنهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ في الحقيقةِ كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وكقولِهِمْ[4]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأنهُمْ[5] يَعْبُدُونَ الأوثانَ، ويَرْتَكِبُونَ الفواحِشَ، ويَقُولُونَ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فأخبَرَ رسولَهُ أنكَ لو أطَعْتَ هؤلاءِ إلى ما يَدْعُونَكَ مِنْ عِبادةِ هذهِ الأصنامِ [لأضَلّوكَ، فما هُمْ][6] إلا ظَنّاً يَظُنُّونَ كقولِهِ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ما هُمْ إلا يَكْذِبونَكَ على اللهِ في قولِهِمْ: إنَّ ذلكَ يُقَرِّبُهُمْ ﴿إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يَعلمُ مَنْ يَزِيغُ، ويَضِلُّ عَنْ سَبيلِهِ، ويَعْلَمُ مَنْ يَهتَدِي بهِ. وفي[7] قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ دَلالةٌ على أنهُ على عِلْمٍ منهُ بالضَّلالِ والتَّكذيبِ؛ بَعَثَ الرُّسُلَ إليهِمْ، وأرسَلَ الكُتُبَ لا عَنْ جَهْلٍ منهُ، لكنْ صارَ بَعْثُ مَنْ بَعَثَ مِنَ الرُّسُلِ والكُتُبِ إليهِمْ حِكْمَةً على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ منهُمْ؛ لأنهُ إنما يَبْعَثُ لِمَكانِ الرُّسُلِ إليهِمْ ولِحاجَتِهِمْ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ صَرَفَ أهلُ التَّأويلِ الآيَةَ إلى أهلِ الكُفرِ، وقالُوا: ما بالُكُمْ تَأكُلُونَ ذبائِحَكُمُ التي ذَبَحْتُمْ، ولا تأكلُونَ مما ذُكِرَ عليهِ اسْمُ[8] اللهِ، وزَكّاهُ؛ صَرَفُوا الخِطابَ بهِ إلى أهلِ الشِّرْكِ، والأشْبَهُ أنْ يُصْرَفَ الخِطابُ بهِ إلى أهلِ الإسلامِ لأنهُ ذَكَرَ في آخِرِهِ: ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾. ومِثْلُ هذا لا يُذْكَرُ في أهلِ الشِّرْكِ، إنما ذِكْرُ الخطابِ [إلى][9] أهلِ الإسلامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ.

فَعَلَى ذلكَ الأشْبَهُ أنْ يُصْرَفَ الخِطابُ بها إلى أهلِ الإسلامِ؛ كانَ قومٌ[10] مِنْ أهلِ الإسلامِ مَنَعُوا أنْفُسَهُمْ عَنِ التَّناوُلِ مِنْ هذهِ الذَّبائِحِ واللُّحومِ، فَنُهُوا عَنْ ذلكَ نَحْوَ ما رُوِيَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ نفراً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ هَمُّوا أنْ يُخْصِعُوا[11] أنْفُسَهُمْ، وألّا يُعْطوا أنْفُسَهُمْ شَهواتِها، وألّا يَتناوَلُوا[12] مِنَ الطَّيِّباتِ، فَنُهُوا عَنْ ذلكَ. وقِيلَ: فيهِمْ نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيهِمْ، أو لَمّا عَلِمَ أنَّ قوماً مِنَ المُتَقَشِّفَةِ والمُتَزَهِّدَةِ[13] يُحَرِّمُونَ ذلكَ على أنْفُسِهِمْ، فَنُهُوا عَنْ ذلكَ.

فإنْ كانَ [هذا][14] ما قالَ أهلُ التَّأويلِ فهوَ، واللهُ أعْلَمُ، كأنهُ قالَ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ بما تَعْلَمُونَ أنَّ الخَلْقَ والأمْرَ لَهُ، وقد أنْشأَ لَكُمْ مِنَ الآياتِ ما تَعلَمُونَ ذلكَ، فيكفَ تُحَرِّمُونَ ما[15] ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليهِ؟

---

(١) في الأصل وم: كل. (٢) في الأصل: في الأرض كان من، في م: في الأرض وفيه أن في الأرض كان من. (٣) ساقطة من الأصل وم.
(٤) في الأصل وم: ويقولون. (٥) في الأصل وم: كأنهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: في. (٨) في الأصل وم: تأكلوا ما ذبح. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قوماً. (١١) في الأصل وم: يخصوا. (١٢) في الأصل وم: يتناول. (١٣) في الأصل وم: والمتوصدة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: مما.

الآية ١١٩ ثم أمَرَ بِأكْلِ ما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ [عليهِ][١]، وعاتَبَ عنْ تَرْكِ ما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ [عليهِ][٢] بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ولم يُبَيِّنْ بِمَ؟ وبِأيِّ وجهٍ؟ بالذَّبْحِ أو بِغَيْرِهِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] ولم يُبَيِّنْ مِنْ أيِّ وجهٍ؟ لكنَّ الناسَ اتَّفَقُوا على صَرْفِ ذلكَ إلى الذَّبْحِ، فكانَ الذَّبْحُ مُضْمَراً فيهِ؛ كأنهُ قالَ: فَكُلُوا مِمَّا ذُبِحَ بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليهِ.

ثم لا يَخْلُو اتِّفاقُهُمْ بِمعْرِفَةِ ذلكَ؛ إمّا أنْ عَرَفُوا ذلكَ بالسَّماعِ مِنْ رسولِ اللهِ، وإمّا أن][٣] عَرَفُوا ذلكَ بِنَوازِلِ الأحكامِ، إذْ لَيسَ في الآيةِ بَيانُ ذلكَ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ دَلالَةُ نَقْضِ قولِ مَنْ يَقولُ بأنَّ مَنْ عَرَفَ نَوازِلَ الأحكامِ، أو كانَ عندَهُ دِرايةٌ، يَفْسُقُ لأنهُ لم يَذْكُرْ ههنا النَّوازِلَ ولا السَّماعَ. دَلَّ أنهُ لا يَفْسُقُ إنْ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ذُكِرَ لِمكانِ قولِ الوَثَنِيَّةِ لأنهُمْ يُحَرِّمُونَ الذبائِحَ، ويقولُونَ: لَيسَ مِنَ الحِكْمَةِ إيلامُ مَنْ لا ذَنْبَ لَهُ، أو ذُكِرَ لِمكانِ قولِ مَنْ يَقولُ: إنكُمْ أكَلْتُمْ ما تَذْبَحُونَ بأيديكُمْ، ولا تأكُلُونَ ما يُولِي اللهُ قَتْلَهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] أباحَ ﷺ مِنَ الأنعامِ ما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليهِ، وحَظَرَ ما لم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عليهِ، ونَهَى عَنْ أكْلِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وبقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...] جعَلَ المُهَلَّ لِغَيرِ اللهِ [بهِ][٤] مَيْتَةً حراماً، وجَعَلَ المَذْكورَ اسْمُ اللهِ عليهِ ذكياً حَلالاً، فَدَلَّ أنَّ التَّسْمِيَةَ شَرْطٌ في حِلِّ الذَّبِيحَةِ؛ لأنهُ لو لم يَكُنْ شَرْطاً في حِلِّ الذَّبِيحَةِ لَمْ يَكُنِ المُهَلُّ بهِ لِغَيْرِ اللهِ مَيْتَةً حَراماً، ولأنهُ سَمَّى ما لم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عليهِ فِسْقاً؛ والفِسْقُ هو الخُروجُ عَنْ أمْرِ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فَدَلَّ أنَّ التَّسْمِيَةَ شَرْطٌ فيها. ولهذا يَحِلُّ[٥] لنا ذَبائِحُ أهْلِ الكتابِ إذا سَمِعْناهُمْ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عليهِ، وإنْ كانُوا لا يَذْكُرُونَ في الحَقيقَةِ غَيْرَ اللهِ؛ لأنهُمْ لا يَعْرِفونَ اللهَ حَقيقَةً، ولكنْ إذا ذَكَرُوا اسْمَ اللهِ عليهِ يَحِلُّ لنا.

ولا يَحِلُّ [لنا][٦] ذبائِحُ أهلِ الشِّرْكِ؛ لأنَّ أهْلَ الشِّرْكِ لا يَرَونَ الذَّبائِحَ رَأساً؛ يَذْهَبُونَ مَذْهَبَ الزَّنادِقَةِ، والزَّنادِقَةُ لا يَرَونَ الذَّبائِحَ؛ يَقُولُونَ لنا: تَقُولُونَ: إنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ حكيمٌ، ولَيسَ مِنَ الحِكْمَةِ أوِ الرَّحْمَةِ أنْ يأمُرَ أحداً بِذَبْحِ آخَرَ، ويَقْتُلَهُ، فَيأكُلُونَ المَيْتَةَ، ولا يَرَونَ أكْلَ الذَّبِيحَةِ، ويَقُولُونَ: لَيسَ هذا أمْرَ مَنْ كانَ مَوصوفاً بالرَّحْمَةِ أو بالحِكْمَةِ.

لكنّا نَقُولُ: [إنّ ذلكَ في أمْرَينِ:

أحَدُهُما:][٧] أنَّ كَراهَةَ الذَّبْحِ والنُّفُورَ عنهُ نُفُورُ طَبْعٍ، [وكَراهَتَهُ كراهَةُ الطَّبْعِ لا كَراهَةُ العَقْلِ][٨]؛ [يَجوزُ أنْ يُباحَ [أمْرٌ][٩] لِما يُعْقِبُ نَفْعاً في المُتَعَقَّبِ نَحْوُ ما يُباحُ الافْتِصادُ والحِجامَةُ والتَّداوِي بأدويةٍ كَريهَةٍ لِنَفْعٍ يَعْقُبُ، ويُؤْمَلُ][١٠]، وإنْ كانَ الطَّبْعُ يَكْرَهُهُ، ويَنْفُرُ عنهُ][١١]، ولَيسَ هو مِمّا يُقَبِّحُهُ العَقْلُ. إنَّ ما لا يجوزُ أنْ يُباحَ فِعْلٌ، ويُؤْمَرَ بهِ، مِمّا يُقَبِّحُهُ العَقْلُ، [ويَكْرَهُهُ العَقْلُ][١٢].

وأمّا كراهةُ الطَّبْعِ ونُفورُهُ فإنهُ يجوزُ أنْ يُباحَ لِما ذَكَرْنا، ويَرْتَفِعُ ذلكَ بالعادَةِ. فَعَلَى ذلِكَ الذَّبْحُ[١٣]؛ كَراهَتُهُ [لَيستْ][١٤] كَراهةَ العَقْلِ ونُفُورَهُ.

والثاني: أنَّ هذِهِ الأشياءَ كُلَّها إنما [خُلِقَتْ لَنا، وسُخِّرتْ][١٥] لِمَنافِعِنا، لم تُخْلَقْ لأنفُسِها. فإذا كانَ ذلكَ[١٦] يَحِلُّ لنا ذَبْحُها والتَّناوُلُ مِنها بِأمْرِ الذي أنْشَأها، وسَخَّرَها[١٧] لنا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل: لم، وفي م: ما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: وكراهة طبع لا كراهة العقل مما يكرهه الطبع وينفر عنه، في م: وكراهته كراهة طبع يكرهه وينفر عنه. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: ويتأمل. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: الذبيحة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: خلق لنا، وسخر. (١٦) في الأصل و م: كذلك. (١٧) في الأصل وم: لنا وسخر.

وبَعْدُ فإنَّ مَذْهبَهُمْ أنَّ العالَمَ إنما كانَ بامْتِزاجِ النورِ والظُّلْمَةِ، والرُّوحُ مِنَ النُّورانِيِّ، والجِسْمُ مِنَ الظُّلمانيِّ. ففي الذَّبحِ اسْتِخراجُ الرُّوحِ وردُّهُ إلى أصْلِهِ؛ إذْ مِنْ قولِهِمْ: إنهُ يَرْجِعُ كُلٌّ إلى أصْلِهِ في العاقِبَةِ على ما كانَ في الأوَّلِ.

وأمّا جَوابُ[1] ما قالَهُ أهْلُ الشِّرْكِ: أكَلْتُمْ ما ذَبَحْتُمْ أنتُم، وتَرَكْتُمْ ذَبيحةَ اللهِ [ففي وجهَينِ][2]:

أحَدُهُما: ما قالَهُ أهْلُ التَّأويلِ: إنَّ الخَلْقَ لهُ، ولهُ الحُكْمُ عليهِمْ، فأحَلَّ لَهُمْ هذا، وحَرَّمَ عليهِمْ هذا.

والثاني: تَعَبَّدَنا بِذِكْرِ اسْمِهِ عليها، فصارَ اسْمُ اللهِ إقامَةَ عبادَةٍ تَعَبَّدَنا بها، وفي ما لم نَذْكُرْ لم تَكُنْ عِبادَةً. كذلكَ حَلَّ لنا ما كانَ في ذلكَ إقامَةُ عِبادَةٍ، ولم يَحِلَّ لنا ما لم يَكُنْ فيهِ[3] إقامَةُ عبادَةٍ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ هو في الظّاهِرِ أمْرٌ. لكنَّ الأمْرَ الذي يَرْجِعُ إلى شَهَواتِ النَّفْسِ ولَذّاتِها فإنهُ يَخرجُ على وجهَينِ؛ إمّا أن يَخْرُجَ على بَيانِ ما يَحِلُّ والنَّهْيِ عمّا[4] لا يَحِلُّ. فَهَهُنا خَرَجَ على ما يَحِلُّ، وتَحْريمِ ما لا يَحِلُّ؛ كأنهُ قالَ: كُلُوا مِمّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليهِ، ولا تأكُلوا مِمّا لم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما لَكُمْ ألّا تأكُلُوا كذا، وقد بَيَّنَ[5] لَكُمْ ما حَرَّمَ عليكُمْ مِنَ المَيْتَةِ والدَّمِ ولَحمِ الخِنْزيرِ إلّا ما اضْطُرِرْتُمْ إليهِ.

قالَ الحَسَنُ: لَهُ أن يَتَناوَلَ مِنَ المَيتَةِ حتّى يَشْبَعَ؛ لأنهُ أحَلَّ لهُ التَّناوُلَ. وعلى قولِنا: لا يَحِلُّ لهُ الشِّبَعُ؛ لأنهُ إنما أحَلَّ عندَ / ١٦٠ ـ أ/ الاضْطِرارِ لا الشِّبَعَ. ويَقولُ الحَسَنُ: لو تَرَكَ التَّناوُلَ منها حتى هَلَكَ لا شَيْءَ عليهِ؛ يقولُ: إنما أُحِلَّتْ لَهُ رُخْصَةً ورَحْمَةً، ولَيسَ على مَنْ لم يَعْمَلْ بالرُّخَصِ إثْمٌ.

ولكنْ عندَنا: أنها أُبيحَتْ في حالِ الاضْطِرارِ؛ فإذا تَرَكَ التَّناوُلَ منها حتى هَلَكَ صارَ مُلْقِياً نَفْسَهُ في التَّهْلُكَةِ، وقد حَرَّمَ اللهُ علينا أنْ نُهْلِكَ أنْفُسَنا، أو نُلْقِيَها في التَّهْلُكَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ولا فَرْقَ بَيْنَ تَرْكِ التَّناوُلِ مِنَ المَيْتَةِ، وقد أحَلَّ لنا التَّناوُلَ مِنْ غَيْرِها[6] مِنَ الأطعِمَةِ المُحَلَّلَةِ، أو [أنْ][7] نأتِيَ بأسبابِ إتلافِ النَّفْسِ، فَهُما سَواءٌ.

ويقولُ أيضاً: لهُ أنْ يَتَناوَلَ عِندَ الاضْطِرارِ مِنْ مالِ غَيرِهِ بلا بَدَلٍ. وإذا نَهى صاحِبُهُ عَنْ ذلكَ يَضْمَنُ بَدَلَ ذلكَ بالِغاً ما بَلَغَ، فهذا بَعيدٌ لا يَجوزُ أنْ يَتَناوَلُ مِن[8] مالِ غَيْرِهِ، ولا يَلْزَمُهُ البَدَلُ. وإذا نَهاهُ عن ذلكَ يَلْزَمُهُ البَدَلُ؛ لأنَّ مَنْ كانَ لَهُ حَقُّ التَّناوُلِ مِنْ مالٍ آخَرَ بِغَيْرِ بَدَلٍ، ثم إذا نُهِيَ، أو مُنِعَ، يَلْزَمُهُ البَدَلُ. دلَّ أنهُ لَيسَ لهُ التَّناوُلُ إلّا بِبَدَلٍ، وقد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دلَّ هذا على أنَّ الكُلَّ مِنْهُمْ لم يَكونُوا يُضِلُّونَ، ولكنَّ البَعْضَ هُمُ الأئِمَّةُ مِنْهُمْ والرُّؤساءُ؛ لأنَّ الأتباعَ مِنْهُمْ كانُوا لا يُضِلُّونَ الناسَ إنما [كان يُضِلُّهُمُ][9] الكُبَراءُ مِنْهُمْ والعُظَماءُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قِيلَ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ بِظاهِرِ الجَوارِحِ وباطِنِها؛ ظاهِرُ الجَوارِحِ مِنْ نَحْوِ اليَدِ والرِّجْلِ واللِّسانِ والعَينِ، وباطِنُ الجَوارِحِ القُلُوبُ والضَّمائِرُ. وقِيلَ: ذَرُوا الإثْمَ في مَلإٍ مِنَ الخَلْقِ وفي الخَلاءِ. وقِيلَ: ظاهِرُ الإثْمِ ما ذَكَرْنا، وباطِنُهُ الزِّنى.

قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانِيُّ: كأنهُ قالَ: وذَرُوا المآثِمَ كُلَّها، ما ظَهَرَ منها، وما بَطَنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ لا يُتْرَكُونَ وما عَمِلُوا، ولكِنْ يُجْزَوْنَ جَزاءَ ما

---

(١) في الأصل وم: الجواب. (٢) في الأصل وم: وجهان. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: على ما. (٥) في الأصل وم: يبين، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]. (٦) في الأصل و م: غيره. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل و م: عن. (٩) في الأصل و م: كانوا يضلون.

عَمِلُوا مِنَ الإثمِ، وهو وَعِيدٌ [لأنهمْ](١) يَكْسِبُونَ الإثمَ، ويُصِرُّونَ عليهِ، ولا يَتُوبونَ، ولا يَنْقَلِعُونَ عنهُ حتى [إذا](٢) ماتُوا على ذلكَ ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا﴾ ذُكِرَ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو المَيْتَةُ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه وقالَ بَعْضُهُمْ: هو ما ﴿أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...].

وقُلْنا نحنُ: هو ما ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ لأنَّ اللهَ قد صَرَّحَ بِتَحْريمِ المَيْتَةِ بقولِهِ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [المائدة: ٣] وصَرَّحَ بهِ بِتَحْريمِ ما ﴿أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ بقولِهِ: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...] تَصْريحاً(٣) في غَيْرِ هذا المَوضِعِ [إذْ](٤) رَجَعَ هذا الخِطابُ إلى تَحْريمِ ما ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وكذلكَ صَرَّحَ بِتَحْريمِ المَيْتَةِ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ بقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] كانَ لا يَجِدُ في ذلكَ الوقْتِ، ثم وَجَدَ ما ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مُحَرَّماً في حادِثِ الوَقْتِ. وكذلكَ وَجَدَ(٥) كُلَّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ وكُلَّ ذي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ مُحَرَّماً في حادِثِ الوقتِ. كانَ لا يَجِدُ في تلكَ(٦) الأوقاتِ مُحَرَّماً إلّا ما ذُكِرَ، ثم وجَدَ أشياءَ مُحَرَّمَةً مِن بَعْدُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ من أهلِ التَّأويلِ: وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حِينَ قالُوا: ما قَتَلْتُمْ، وذَبَحْتُمْ أنتُمْ، فتَأكُلُونَهُ، وما قَتَلَ رَبُّكُمْ فَتُحَرِّمُونَهُ، وأنتُمْ تُعَظِّمُونَ رَبَّكُمْ، وهو مِنْ زُخْرُفِ [القولِ](٧) الذي يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ وما ذَكَرُوا أنَّ ﴿الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾.

لكنّا نقولُ: [فيهِ وُجوهٌ:

أحدُها:](٨) أنّ ما ذُبِحَ، وقُتِلَ، ذَبيحُ اللهِ وقَتيلٌ بهِ أيضاً، فقد أذِنَ لنا بأكلِ بَعْضِ الذَّبيحِ، وحَرَّمَ أكْلَ بَعْضٍ. ولِلَّهِ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ؛ لَهُ أنْ يأذَنَ في أكْلِ بَعْضٍ وتَحْريمِ أكلِ بَعْضٍ على ما أذِنَ لنا في أكْلِ بَعْضِ ما خَلَقَ لنا مِنَ الأنعامِ، ولم يَأذَنْ في أكْلِ بَعْضٍ. فَعَلَى ذلك قد أذِنَ في أكْلِ بَعْضِ ما ذُبِحَ بِهِ، وقُتِلَ، ولم يأذَنْ في بعضٍ. وهو كُلُّهُ ذَبِيحٌ باللهِ وقَتيلٌ بِهِ، ولَهُ ذلكَ.

والثاني: أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُ لَهُ مُلْكُهُ، ولا يُقالُ لأحَدٍ في مُلْكِهِ: لِمَ فَعَلْتَ ذا؟ ولِمْ تَفْعَلْ ذا؟ إنما يُقالُ ذلكَ في غَيْرِ مُلْكِهِ كَشَريكٍ يَقولُ لِشَريكِهِ: لِمْ تُعْطِني حَقّي، ولِمْ تُوفِّرْ عليَّ نَصيبي، فأمّا أنْ يَقولَ: لي(٩) مُلْكٌ في مُلْكِهِ فَلا.

والثالثُ: ما ذَكَرْنا أنَّ(١٠) تَعَبُّدَنا بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليهِ عِبادَةٌ، لِذلكَ لم يَجُزْ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أخبَرَ أنَّ(١١) ما ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فِسْقٌ كما أخبَرَ أنَّ التَّناوُلَ مِنَ المَيْتَةِ ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...] فِسْقٌ، والفِسْقُ هو الخُرُوجُ عن أمْرِ اللهِ. والذي تَرَكَ ذِكْرَ اسْمِ اللهِ عليهِ خارِجٌ عن أمْرِ اللهِ تعالى كالمَيْتَةِ التي ذَكَرْنا.

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فكيفَ يجوزُ لَكُم أنْ تُطْلِقُوا أكْلَ الذَّبيحَةِ إذا تَرَكَ ذِكْرَ اسمِ اللهِ ناسِياً؟ لأنَّ الذبائحَ إنما هي مِنْ عَمَلِ القَصّابينَ والصِّبْيانِ؛ فَهُمْ لم يُعَوِّدوا أنْفُسَهُمْ ذِكْرَ اسْمِ اللهِ حتى يُؤاخَذُوا(١٢) بها على حِفْظِ ذلكَ.

وهذا أصْلُنا: أنَّ [مَنْ](١٣) لم يُعَوِّدْ نَفْسَهُ فِعْلاً يُعْذَرُ في تَرْكِهِ، وارْتِكابُهُ في حالِ السَّهْوِ والنِّسيانِ كالأكْلِ في شَهْرِ رَمَضانَ ناسِياً؛ لأنهُ عَوَّدَ نَفْسَهُ الأكلَ والشُّرْبَ، والصَّومُ هو الكَفُّ عَمّا اعْتادَ، فَعُذِرَ في التَّناوُلِ منهُ والعَوْدِ إلى العادَةِ على السَّهْوِ؛ لأنهُ يَشْتَدُّ على الناسِ حِفْظُ النَّفْسِ على خِلافِ العادَةِ، ولأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ولا خِلافَ في أنَّ مَنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تصريح. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: وجه.
(٦) في الأصل وم: ذلك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: في ذي. (١٠) في الأصل وم: أنه.
(١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: يؤاخذون. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

نَسِيَ أنْ يُسَمِّيَ اللهَ على ذَبيحَةٍ فَلَيسَ بِفاسِقٍ، وإنما يَفْسُقُ مَنْ تَرَكَها عامِداً. فَدَلَّ أنَّ الخِطابَ بالآيةِ رَجَعَ إلى الذَّبيحَةِ التي تُرِكَتِ التَّسْمِيَةُ عَمْداً.

فإنْ قِيلَ: لَيسَ يَجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ يُريدُ بِهِ أنَّ الذي يَأكُلُ مِنْها إذا لَمْ يُسَمِّ اللهَ عليها عامِداً أو ساهِياً فاسِقٌ، وإنْ كانَ هذا هو التَّأويلَ فالآيَةُ على الأكْلِ.

قِيلَ: الدليلُ على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ إشارةٌ إلى الذَّبيحِ الذي تُرِكَ ذِكْرُ اسْمِ اللهِ عليهِ عَمْداً دُونَ أنْ يكونَ ذلكَ إشارةً إلى أنَّ الأكْلَ مِنْ تلكَ الذَّبيحَةِ فِسْقٌ قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فكانَ الإهلالُ بالذَّبيحَةِ لِغَيرِ اللهِ فِسْقاً لِمَنْ فَعَلَهُ. فَواجِبٌ أن يكونَ تَرْكُ اسْمِ اللهِ على الذَّبيحَةِ فِسْقاً مِمَّنْ تَعَمَّدَهُ، وذلك يُوجِبُ أنْ يكونَ قولُ اللهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خاصّاً في المُتَعَمِّدِ لِقَوْلِهِ التَّسْمِيَةَ.

[فإنْ قِيلَ][(1)]: كيفَ لم يَجْعَلُوا تارِكَ التَّسْمِيَةِ ناسِياً كَتارِكِها عامِداً كما قُلْتُم في التَّكْبيرَةِ الأولَى في الصلاةِ: إنَّ عَمْدَهُ وسَهْوَهُ سَواءٌ. قِيلَ: مَنْ قالَ[(2)]: إنَّ الذَّبيحَةَ إذا تَعَمَّدَ صاحِبُها تَرْكَ التَّسْمِيَةِ عليها إنما حُرِّمَتْ بِنَصِّ القرآنِ؛ لأنهُ فِسْقٌ، فَقُلْنا: مَتَى زالَ الفِسْقُ عنِ الذابحِ زالَ التَّحْريمُ عنِ الذَّبيحَةِ؛ لأنَّ التَّحْريمَ إذا وَقَعَ لِعِلَّةٍ، فَزالَتِ العِلَّةُ، زالَ التَّحْريمُ. ولم نَقُلْ: إنَّ صلاةَ [تارِكِ التَّكْبيرَةِ الأُولَى فاسِدَةٌ][(3)]؛ لأنهُ فَسَقَ بِتَرْكِهِ[(4)] التَّكْبيرَةَ عامِداً، فَيَلْزَمُنا أنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ سَهْوِها وعَمْدِها، بل فَسَدَتْ صَلاتُهُ صَلَّى بِغَيْرِ تَكْبيرٍ. فالتارِكُ التَّكْبيرَ عامِداً أو ساهِياً تارِكٌ، فَهُما سَواءٌ.

وَرُوِيَ في الخَبَرِ ما يُؤَيِّدُ ما قُلْنا: رُوِيَ عَنْ راشِدِ بْنِ سَعْدٍ [أنهُ][(5)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ذَبيحَةُ المُسْلِمِ حَلالٌ، سَمَّى، أو لم يُسَمِّ، ما لَمْ يتعَمَّدْ» [البيهقي في الكبرى ٩/ ٢٤٠] وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ: في رجُلٍ، ذَبَحَ، ونَسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ [أنهُ][(6)]، قالَ: اسْمُ اللهِ في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ، فَلْيَأكُلْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ أهْلُ التَّأويلِ صَرَفُوا تأويلَ هذا إلى أنَّ زُخْرُفَ القَوْلِ الذي يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في الآيةِ الأُولَى هو مُجادَلَتُهُمْ في الذَّبيحَةِ حِينَ[(7)] قالُوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون/ ٨٢ و...] فأخْبَرَ أنهُمْ لو أطاعُوهُمْ إنَّهُمْ لَمُشْرِكُونَ؛ أي لو أطَعْتُمُوهُمْ في ما يُجادِلُونَكُمْ، ويُوحُونَ إليكُمْ[(8)] ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ/ ١٦٠ - ب/ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ يُشْبِهُ: أمَنْ[(9)] أُخرِجَ مِنْ ذلكَ، فأبْصَرَ، وسَمِعَ، وعَقَلَ، كَمَنْ تُرِكَ في تلكَ الظُّلُماتِ، ولم يُخْرَجْ منها؟ يقولُ، واللهُ أعْلَمُ، لا يَسْتَوِي مَنْ أُخرِجَ مِنْ ظُلُماتِ البَطْنِ بَعْدَ ما كانَ لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْقِلُ، ولا يَفْهَمُ، ثم أبْصَرَ، وسَمِعَ، وعَقَلَ، والذي تُرِكَ في تلكَ الظُّلُماتِ على الحالِ التي كانَ [كما][(10)] هو لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْقِلُ.

فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوِي المُؤمِنُ الذي يُبْصِرُ الحَقَّ، ويَسْمَعُ، ويَعْقِلُ كُلَّ خَبَرٍ، ويَعْلَمُهُ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ بِنورِهِ [يمشي][(11)] أصحابٌ يَدْعُونَ الناسَ إلى الهُدَى والخَيْرِ، والكافِرُ الذي لا يُبْصِرُ الحَقَّ[(12)]، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْقِلُ، ليس لهُ أصحابٌ يدعُونَه إلى الهُدَى والخيراتِ: أي ليس هذا كذلك الذي يُبْصِرُ، ويَسْمَعُ، ويَعْقِلُ، كالذي لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْقِلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المَثَلُ الذي ضَرَبَ اللهُ أنْ يكونَ المؤمِنُ والكافِرُ جَميعاً حَيَّيْنِ في الجَوْهَرِ. لكنَّ المؤمِنَ اكْتَسَبَ ما بِهِ يَحْيَى أبداً مِنَ العِلْمِ والقرآنِ والإيمانِ، والكافِرُ لم يَكْتَسِبْ مِنْ ذلكَ شيئاً؛ فهو كالمَيِّتِ الذي لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ الحَقَّ، ولا يَعْقِلُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قيل. (٣) في الأصل وم: التارك للتكبيرة الأولى فسوق صلاته. (٤) في الأصل وم: بتركها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: إليهم. (٩) في الأصل وم: بم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الخبر.

ويَحتَمِلُ هذا المَثَلُ وَجهاً آخرَ، وهو أنَّ المؤمِنَ يَكْتَسِبُ في الدنيا الخيراتِ والأعمالَ الصالِحَةَ، ويكونُ لَهُ نورٌ في الآخِرَةِ بالأعمالِ التي اكْتَسَبَ في الدنيا، ويَمْشِي بِنُورِ ذلكَ فيَ ما بَيْنَ الناسِ في الآخِرَةِ. وأمّا الكافِرُ فإنهُ لم يَكْتَسِبْ مِنْ ذلكَ شيئاً، فَيَبْقَى في الظُّلُماتِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديد: ١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ والمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: هُمْ جَعَلُوا لأنفُسِهِمْ نوراً يَمْشُونَ [بهِ][1] في الناسِ، وقد أخْبَرَ أنهُ هو الذي يَجعَلُ لَهُمْ ذلكَ [النورَ، فذلكَ][2] تَحْريفٌ مِنْهُمْ [في][3] ظاهِرِ القرآنِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] وهُمْ يَقُولُونَ: هو قَدَرَ على بَعْضِ الأشياءِ، وقالَ تعالى: ﴿هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٠٢ و...] وهُمْ يَقُولُونَ: هو خالِقُ بَعْضِ الأشياءِ، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٣٧] وهُمْ يَقُولُونَ: شاءَ ألّا يَفعَلُوا ما فَعَلُوا، ولكنْ فَعَلُوا غَيْرَ ما شاءَ اللهُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١١٢] وهُمْ يَقُولُونَ: شاءَ غَيْرَ الذي فَعَلُوا، وكذلكَ [قولُهُ تعالى][4]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ [الأنعام: ١١٢] وهُمْ يَقُولُونَ: لم يَجْعَلْ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً، وهم جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ لَهُمْ أعداءً، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٢٣] وهمْ يَقُولُونَ: جَعَلَ الأكابِرَ فيها لئلا يَمْكُرُوا فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: كما زَيَّنّا لِلْمُؤمِنِينَ عِبادةَ اللهِ كذلكَ زَيَّنّا لِلْكافِرِينَ عِبادةَ اللهِ، لكنَّهُمْ تعانَدُوا، وصَرَفُوا العِبادَةَ إلى غَيْرِ اللهِ، وهو تأْويلُ المُعْتَزِلَةِ.

وقالَ قائِلونَ: زَيَّنَ لَهُمْ أعمالَهُمْ التي يَعْمَلُونَها.

ثم اخْتُلِفَ في الذي زَيَّنَها؛ قالَ الحَسَنُ: زَيَّنَ[5] الشيطانُ أعمالَهُمْ، وقالَ غَيْرُهُ: زَيَّنَها الأكابِرُ على الأصاغِرِ، وقالَ[6] قائِلونَ: زَيَّنَها اللهُ، ولكنْ ما أُضِيفَ إلى الشيطانِ مِنَ التَّزْيِينِ والإضلالِ إنما يُضافُ إلى ما يَدْعُوهُمْ، ويَحُثُّهُمْ على ذلكَ. وما يُضافُ إلى اللهِ مِنَ التَّزْيِينِ والإضلالِ والإزاغَةِ وغَيْرِ ذلكَ، يُضافُ لِلْخَلْقِ؛ أي خَلَقَ مِنْهُمْ فِعْلَ الإضلالِ وفِعْلَ التَّزْيِينِ وفِعْلَ الزَّيْغِ؛ يضافُ إلى اللهِ خَلْقاً وإلى الشيطانِ والأكابِرِ دعاءً وَوَحْياً وإلقاءً. وعلى[7] هذا تَخْرُجُ جَمِيعُ الإضافاتِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ أي جَعَلَ في كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ أهْلِ الكُفْرِ أكابِرَ مُجْرِمِيها وعُظَمائِها كما جَعَلَ في قَرْيَتِكَ أكابِرَ مُجْرِمِيها. يُصَبِّرُ رسولَ اللهِ ﷺ على ذلكَ لِيَعْلَمَ أنهُ لَيسَ بِمَخْصُوصٍ هو بهذا دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ وقد ذَكَرْنا أقاوِيلَهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ قالَتِ المُعْتَزِلَةُ: لم يَجْعَلِ الأكابِرَ فيها لِيَمْكُرُوا فيها. ولكنْ لَمّا وَسَّعَ الدنيا، وبَسَطَها عليهِمْ مَكَرُوا فيها. وكذلكَ قالُوا في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لا يجوزُ أنْ يَخْلُقَهُم [لِجَهَنَّمَ][8]، ولكنْ لَمّا عَمِلُوا أعمالَ الكُفْرِ والضلالِ صارُوا لِجَهَنَّمَ.

وقالُوا: هو على الإضمارِ كأنَّهُ قالَ: وكذلكَ جَعَلْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ أكابِرَ مُجْرِمِيها لِئَلا يَمْكُرُوا، لكنَّهم مَكَرُوا فيها لِما ذَكَرْنا.

لكنَّ قولَهُ تعالى: ﴿جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ﴾ لِيَكُونَ أدْعَى وأظْهَرَ لِلْحُجَجِ؛ لأنهُ لو كانَ بَعَثَ الرُّسُلَ أكابِرَ لَكانَ الناسُ يَتْبَعُونَ الأكابِرَ، وإنْ لم يَأتُوا بالحُجَجِ، وغَيْرُهُمْ لا يَتْبَعُونَ إلّا بالحُجَجِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: زينها. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ومِنهُم مَن يَقطَعُ قولَهُ تعالى: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ عَنْ قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾؛ يقولُ: مَعناهُ ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أكابرَ ثم قالَ: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أي ما جَعَلَ ذلكَ لهُم لِيَمْكُروا.

ومنهُم مَن يقولُ: هو إخبارٌ [عمّا][1] إليهِ صارَ أمرُهُم كقولِهِ تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهُم لم يَلْتَقِطوهُ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ إنما التَقَطوهُ لِيكونَ لَهُمْ وَلِيّاً، لكنَّهُ لِما صارَ في العاقِبَةِ عَدُوّاً لهم؛ أخبَرَ عَمّا آلَ إليهِ أمرُهُ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أخبَرَ عَمّا إليهِ صارُوا، مِنَ المَكْرِ.

وعندَنا لا يَخلُو هذا. إمّا أنْ يُقالَ: إنهُ يَخلُقُهُمْ لِغَيرِ المَكْرِ والضلالِ، وهو يَعلَمُ ألّا يَكونُوا لِما يَخلُقُهُم، فذلكَ لَيسَ فِعلَ حَكيمٍ أنْ يَعمَلَ عَمَلاً يَعلَمُ أنهُ لا يكونُ؛ نَحْوُ مَنْ يَبْنِي بِناءً يَعلَمُ أنهُ لا يُسكَنُ، أو يَقصِدُ قَصْدَ مَوضِعٍ يَعلَمُ أنهُ لا يَصِلُ إليهِ؛ فهو بالقَصْدِ عابِثٌ، لَيسَ بحَكيمٍ. فَعَلى ذلكَ اللهُ، سُبحانَهُ، لا يَجوزُ أنْ يَخلُقَهُمْ لِلْهُدى والعِبادةِ لهُ مع عِلمِهِ أنهُمْ لا يَكونونَ لِما يَخلُقُهُمْ، وإمّا[2] أنْ يَخلُقَهُمْ لذلكَ، وهو لا يَعلَمُ أنهُمْ يَكُونُونَ كذلكَ، فهو جَهلٌ بالعَواقِبِ؛ فاللهُ يَتعالى عن ذلكَ، فَدَلَّ أنهُ خَلَقَهُمْ لِيَكونُوا على ما عَلِمَ أنَّهُمْ يَكُونُونَ، ويَختارُونَ ذلكَ، وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] كانَ عندَ اللهِ أنهُمْ يَلْتَقِطُونَهُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي ما يَشْعُرُونَ أنَّ عاقِبَةَ مَكْرِهِمْ تَرْجِعُ إليهِمْ، [وهو][3] واقِعٌ بِهِمْ. وأصلُهُ أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَهُمْ، وخَلَقَهُمْ، على ما عَلِمَ مِنهُمْ أنهُمْ يَختارُونَ، ويكونُ منهُمْ ذلكَ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ يُخبِرُ ﷺ [عَنْ][4] غايةِ سَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ وأنهُمْ عن عِلمٍ يُعانِدُونَ، ويَتَكَبَّرُونَ على رسولِ اللهِ ﷺ لأنهُمْ عَلِمُوا أنَّ ما يُنَزَّلُ على رسولِ اللهِ ﷺ آيةٌ، وأنهُ رسولٌ حِينَ[5] ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [وعَلِمُوا أنَّ الرسالَةَ لا تُجعَلُ إلّا في المُعَظَّمِ عندَ اللهِ والمُفَضَّلِ لَدَيهِ حِينَ[6] تَمَنَّوا أنهُمْ لا يؤمِنُونَ حتى يُؤْتَوا[7] مِنَ الآياتِ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ][8].

ولو لم يكنْ [ذلكَ ما تَمَنَّوا][9] إيتاءَ ما أُوتِيَ[10] الرُّسُلُ، [وقد][11] عَلِمُوا أنَّ هذا القرآنَ الذي أُنْزِلَ على محمدٍ ﷺ آيةٌ وحُجَّةٌ، وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ حِينَ[12] قالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وعَلِمُوا أيضاً أنَّ الرسالةَ لا تُجعَلُ إلّا في عُظَماءِ مِنَ البَشَرِ وكُبَرائِهِمْ حِينَ[13] قالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لَكِنَّهُمْ ظَنُّوا أنها إنما تُجعَلُ في[14] العُظَماءِ الذينَ هُمْ عندَ الخَلْقِ عُظَماءُ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فَتَناقَضَتْ أقاوِيلُهُمْ وحِجاجُهُمْ بما ذَكَرْنا مِنْ إقرارِهِمْ بالرُّسُلِ والآياتِ وتَفْضِيلِهِمْ [أنفُسَهُمْ][15] على غَيرِهِمْ مِنَ البَشَرِ.

ثم قولُهُ[16] تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ جملةُ جوابِ ما قالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى﴾ [الزخرف: ٣١] كذا؛ أنْ يُقالَ: إنكُمْ عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ عالِمٌ قادِرٌ فهو ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: جَعْلُ الرسالةِ في أوساطِ الناسِ أظهَرُ لِلْحُجَجِ وأبْيَنُ مِنْ جَعْلِها في أكابِرِ الناسِ وعُظَمائِهِمْ في الدُّنياوِيَّةِ /١٦١ ـ أ/ لأنَّ الناسَ مَجْبُولُونَ على اتّباعِ الأكابِرِ والأعاظِمِ؛ فلو جُعِلَتِ الرسالةُ فيهِمْ لَكانَتِ الحُجَجُ لا تَظْهَرُ لأنهُمْ جُبِلُوا على اتّباعِهِمْ. وأمّا أوساطُ الناسِ في الدُّنياوِيَّةِ إذا جُعِلَتْ فيهِمُ الرسالةُ لَظَهَرَتِ الحُجَجُ والبراهِينُ لأنهُمْ لم يُجْبَلُوا على اتّباعِ الأوساطِ مِنَ الناسِ، فكانَ اتّباعُهُمْ لِلْحُجَجِ والبراهِينِ.

وقالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي لا يَجعَلُ الرسالةَ في مَنْ يُضَيِّعُ، ولَيسَ بأهْلٍ لها ولا مَوضِعِها؛ لأنهُ لو جَعَلَ لكانَ في ذلكَ تَضْييعُ الرسالةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل: حيث. (٧) في الأصل: يؤتون. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: كذلك يتمنون. (١٠) في الأصل وم: أتوا. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) أدرج قبلها في الأصل: إلا. (١٥) ساقطة من الأصل و م. (١٦) في الأصل و م: قال.

وقولُه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أخبرَ أنَّ مَنْ تكبَّرَ على رسولِ اللهِ، وعانَدَهُ، يَكُونُ لَهُ عندَ اللهِ صَغارٌ ومَذَلَّةٌ وعذابٌ شديدٌ بِصَنيعِهِمُ الذي صَنَعُوا.

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قِيلَ: «سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن هذِهِ الآيةِ، فقالَ: نُورٌ يُقْذَفُ فيهِ، فقالُوا: وَهَلْ لِذلكَ عَلامَةٌ؟ قالَ: نعم؛ إذا دَخَلَ النُّورُ في القَلْبِ انْشَرَحَ، وانْفَسَحَ، قالُوا: يا رسولَ اللهِ وَهَلْ لِذلك مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بها؟ قالَ: نَعَمْ؛ الإنابَةُ إلى دارِ الخُلُودِ والتَّجافي عَنْ دارِ الغُرُورِ والاسْتِعدادُ لِلْمَوتِ قَبْلَ نُزُولِ الموتِ» [السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٥٤].

فَلَو ثَبَتَ هذا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ كانَ[1] انْشِراحُ الصَّدْرِ لِلْإسلامِ؛ فَقَلِيلاً ما يُوجَدُ على هذا الوَصْفِ إلّا أنْ يُرِيدَ بِهِ الاعْتِقادُ والتَّيَقُّنَ بما ذُكِرَ.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قال بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ: الإرادةُ صِفَةُ كُلِّ فاعِلٍ يَفْعَلُ على الاخْتِيارِ؛ كأنهُ قالَ: فَمَنْ يَهْدِ اللهُ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [ومَنْ يُضِلُّهُ ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾][2].

وقالَ فَريقٌ مِنَ المُعْتَزِلَةِ مِنْ نَحْوِ جَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ والكَعْبِيِّ، وهؤلاءِ تأويلُهُمْ[3] ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ أي مَنْ قَبِلَ هِدايَةَ اللهِ في الابْتِداءِ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ بَعْدَ ذلكَ بِخَيراتٍ ثواباً لِما قَبِلَ مِنَ الهِدايَةِ، ومَنْ تَرَكَ قَبولَ هِدايَةِ اللهِ في الابْتِداءِ عاقَبَهُ اللهُ بِضِيقِ صَدْرِهِ عُقُوبَةً لَهُ في تَرْكِ قَبُولِ الهِدايةِ، وإلّا قد أرادَ اللهُ أنْ يَهْدِيَ الخَلْقَ كُلَّهُمْ، ونْ يَشْرَحَ صُدُورَهُمْ[4] لِلْإسْلامِ، لكِنَّهُمْ لم يَهْتَدُوا. وقالَ فريقٌ مِنْهُمْ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ طَريقَ الجَنَّةِ في الآخِرَةِ جَعَلَ صَدْرَهُ في الدنيا ضَيِّقاً حَرَجاً.

فَيُقالُ لَهُمْ: كذلكَ هو كما تَقُولُونَ[5]: إنهُ أرادَ أنْ يُضِلَّهُمْ، ثم يُقالُ لَهُمْ: تَقُولُونَ: إنه أرادَ أنْ يَهْدِيَ الخَلْقَ كُلَّهُمْ، ويَشْرَحَ صُدُورَهُمْ[6] لِلإسلامِ، ثم تَقُولُونَ: إنهُ [أرادَ أنْ يُضِلَّهُمْ عنْ][7] طَريقِ الجَنَّةِ في الآخِرَةِ؛ فهذا على زَعْمِكُمْ جَوْرٌ؛ لأنهُ أرادَ في الدنيا أنْ يَهْدِيَهُمْ، ويُريدُ في الآخِرَةِ[8] أيضاً لَهُمْ أنْ يُضِلَّهُمْ عَنْ طَريقِ الجَنَّةِ، لأولئكَ بِعَيْنِهِمْ؛ فَذا جَوْرٌ على قولِكُمْ.

وظاهِرُ الآيةِ يَرُدُّ قولَهُمْ، ويَنْقُضُ مَذْهَبَهُمْ لأنهُ قالَ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ كذا. جَعَلَهُمْ على صِنْفَينِ: صِنفٍ[9] أرادَ لَهُمْ[10] أنْ يَهْدِيَهُمْ، وصِنفٍ[11] أرادَ أنْ يُضِلَّهُمْ؛ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الهُدَى، ويَقْبَلُهُ، أرادَ أنْ يَهْدِيَهُ، ويَشْرَحَ ﴿صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ ومَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ أرادَ أنْ يُضِلَّهُ، ويَجْعَلَ ﴿صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

ولا يجوزُ أنْ يُريدَ هو مِمَّنْ يَعْلَمُ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ وعَداوَتَهُ الوِلايَةَ منهُ لأنَّ ذلكَ مِنَ الضَّعْفِ [في][12] مَنْ أرادَ عَداوَتَهُ، وهو يُريدُ وِلايَتَهُ، أو يُريدُ منهُ غَيرَ الذي عَلِمَ كَوْنَهُ منهُ واخْتِيارَهُ[13]. والمُعْتَزِلَةُ يَقولونَ: قد أرادَ أنْ يَهْدِيَ الكُلَّ، لكنَّهُمْ أرادُوا ألّا يَهْتَدُوا، فلم يَهْتَدُوا؛ غَلَبَتْ إرادَتُهُمْ إرادَةَ اللهِ تعالى، فذلكَ وَحْشٌ مِنَ القَولِ سَمْجٌ، فَنَعُوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القَولِ والزَّيْغِ عنِ الحَقِّ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قِيلَ: الحَرَجُ ضِيقُ الضِّيقِ، وهو شِدَّةُ الضِّيقِ؛ وصَفَ قَلْبَ المُؤمِنِ بالسَّعَةِ والفَسْحِ، ووَصَفَ [قَلْبَ][14] الكافِرِ بالضِّيقِ والحَرَجِ، ولَيسَ قَلْبُ هذا في رأيِ العَينِ أوسَعَ مِنْ قَلْبِ الآخَرِ، لكنَّهُ، واللهُ أعْلَمُ،

---

(١) في الأصل وم: وكان هذا. (٢) من م، في الأصل: ضيقاً حرجاً. (٣) في الأصل وم: تأويله. (٤) في الأصل وم: صدرهم. (٥) في الأصل: يقول قد قلتم، في م: تقولون قد قلتم. (٦) في الأصل وم: صدرهم. (٧) في الأصل وم: أن يضل. (٨) في الأصل وم: الآخر. (٩) في الأصل وم: صنفاً. (١٠) في الأصل وم: منهم. (١١) في الأصل وم: وصنفاً. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: واختاره. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وَصفَ قَلْبَ المؤمِنِ بالسَّعَةِ لِما انْتَفَعَ بِقَلْبِهِ في الدنيا والآخِرَةِ، والكافِرُ لم يَنْتَفِعْ بِقَلْبِهِ، فَوَصَفَهُ بالضِّيقِ والحَرَجِ، وهو كما وَصَفَ الكافِرَ بالصَّمَمِ والبَكَمِ والخَرَسِ لِما لم يَنْتَفِعْ بهذِهِ الحَواسِّ، وكذلكَ سَمَّاهُ مَيْتاً لِما لم يَنْتَفِعْ بِحَياتِهِ. وسَمَّى المُؤمِنَ حَيًّا لِما انْتَفَعَ بِحَياتِهِ. فَعَلَى ذلكَ هذا؛ وصَفَ الكافِرَ بِضِيقِ الصَّدْرِ لِما [لم][1] يَنْتَفِعْ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قِيلَ: كالمُتَكَلِّفِ الصُّعُودَ إلى السماءِ، لا يَقْدِرُ عليهِ. وقيلَ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كأنما يَشُقُّ عليهِ الصُّعُودُ. ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: ما [تَصَعَّدَني شَيءٌ ما تَصَعَّدَني][2] الخُطْبَةُ، أي ما شَقَّ عليَّ شيءٌ ما شَقَّ عليَّ الخُطْبَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اخْتُلِفَ في الرِّجْسِ: قِيلَ: الرِّجْسُ الإثْمُ أي كما جَعَلَ قُلُوبَهُمْ ضَيِّقَةً حَرِجَةً بِكُفْرِهِمْ كذلكَ يَجْعَلُ في قُلُوبِهِمُ الإثْمَ، وقِيلَ: الرِّجْسُ اللَّعْنُ والغَضَبُ؛ أي جَعَلَ في قُلُوبِهِمُ اللَّعْنَ والغَضَبَ. دَليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١].

الآية ١٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لم يُشِرْ بهذا إلى شيءٍ. لكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَهَٰذَا﴾ الإسلامَ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ أنْ يَشْرَحَ صَدْرَ المؤمِنِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ الذي يُدْعَى إليهِ الخَلْقُ، وهو التَّوْحِيدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي بيَّنَّا، وأقَمْنا، دلائِلَ التَّوحيدِ وحُجَجَهُ، وقد ذَكَرْنا ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لِقَومٍ يَتَّعِظُونَ بالمَواعِظِ. ويَحْتَمِلُ لِقَومٍ يَقْبَلُونَ الدلائِلَ والحُجَجَ، ولا يُكابِرُونَ.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ السَّلامُ اسْمَ الجَنَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ﴾ [يونس: ٢٥] ويَحْتَمِلُ السَّلامُ اسْمَ[3] اللهِ؛ أي لَهُمْ دارُ اللهِ، وهو الجَنَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قِيلَ: وهو أَوْلَى بِهِمْ أي أَوْلَى بالمُؤمِنِينَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥] ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ حافِظُهُمْ وناصِرُهُمْ. وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ [الآية: ١٢٥] ويَصَّاعَدُ ويَصْعَدُ كُلُّهُ لُغاتٌ[4]، والمَعْنَى واحِدٌ.

والضَّيقُ: قالَ الكِسائيُّ: الضَّيقُ مِنَ الضِّيقِ في المَعاشِ؛ فأمَّا في الأمْرِ فإنهُ الضَّيِّقُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ ففيهِ[5] لُغتانِ[6]: حَرَجٌ وحَرِجٌ. قالَ القُتَبيُّ: الحَرَجُ الذي ضاقَ فلم يَجِدْ [بِهِ][7] مَنْفَذاً. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَرِجُ الضَّيِّقُ؛ يُقالُ فيهِ: حَرِجَ يَحْرَجُ، فهو حَرِجٌ.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ، أو يَحْشُرُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ هو على الإضْمارِ كأنهُ قالَ: [8] ويومَ يَحْشُرُهُمْ ﴿جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ والإنْسِ، ثم نَقولُ لِلْجِنِّ: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] [أي تَقُولُونَ][9]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، فكذلكَ هذا هو على الإضمارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ قالَ أهْلُ التَّأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ وهُمْ قَدِ اسْتَكْثَرُوا مِنَ الأتباعِ مِنَ الإنْسِ في عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ ومُخالَفَةِ أمْرِ اللهِ وتوحِيدِهِ، أوِ اسْتَكْثَرُوا[10] عُباداً مِنَ الإنْسِ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: تعاوَنَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ ومُخالَفَةِ أمْرِهِ: هؤلاءِ بالدعاءِ وأُولئكَ بالإجابَةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: تصعد في. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٤) انظر حجة القراءات ص (٢٧١) ومعجم القراءات القرآنية (٢/ ٣١٧ و٣١٨). (٥) في الأصل وم: فيه. (٦) انظر حجة القراءات ص (٢٧١) ومعجم القراءات (٢/ ٣١٧).
(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) على قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي، انظر معجم القراءات القرآنية (٢/ ٣١٨).
(٩) من م، في الأصل: أن تقولوا. (١٠) في الأصل وم: استكثرتم.

وقالَ قائِلونَ: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انْتَفَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ بأنواعِ المَنافِعِ، ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ الرجلَ مِنَ الإنْسِ إذا سافَرَ، فَأَدْرَكَهُ المَساءُ بأرْضِ القَفْرِ، خافَ، فَيَقُولُ: أعوذُ بِسَيِّدِ هذا الوادِي مِنْ سُفَهاءِ قَومِهِ، فَيأْمَنُ في ذلكَ بالتَّعَوُّذِ إلى سَيِّدِهِمْ. فَذلكَ اسْتِمْتاعُ الإنْسِ بالجِنِّ. [وذلكَ قولُهُ تعالى:][1] ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية [الجن: ٦].

وأمّا اسْتِمْتاعُ الجِنِّ بالإنْسِ فما يزدادُ لَهُمُ الذِّكْرُ والشَّرَفُ في قومِهِمْ؛ يَقُولُونَ: لقد سَوَّدَتْنا الإنْسُ. ويَحْتَمِلُ اسْتِمْتاعُ /١٦١ ـ ب/ الجِنِّ بالإنْسِ[2] ما ذُكِرَ، إنْ ثَبَتَ، أنهُ جَعَلَ طعامَهُمُ العِظامَ التي يَسْتَعْمِلُها الإنْسُ، ويكونُ ذلك غِذاءَهُمْ، وعَلَفَ دَوابِّهِمْ أرْواثُ دَوابِّ الإنْسِ. وقالَ الحَسَنُ: ما كانَ اسْتِمْتاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ إلّا أنَّ الجِنَّ أمَرَتِ الإنْسَ، فَعَمِلَتْ[3]، وذَكَرَ[4] جوابَ الإنْسِ لَهُمْ، ولم يَذْكُرْ جوابَ الجِنِّ لَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قِيلَ: المَوتُ، وقِيلَ: البَعْثُ يومَ القِيامَةِ؛ لأنهُمْ كانُوا يُنْكِرُونَ البَعْثَ، فَأَقَرُّوا عندَ ذلكَ بأنّا قد بَلَغْنا ﴿أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وكُنّا كَذَّبْناهُ. أقَرُّوا بِما كانُوا يُنْكِرُونَ. [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أي عِقابُكُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ الحَسَنُ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وقد شاءَ اللهُ أنْ يُخَلِّدَهُمْ في النارِ.

وقالَ غَيْرُهُ: الاسْتِثْناءُ مِنْ وَقْتِ البَعْثِ إلى وَقْتِ الخُلُودِ، وهو وَقْتُ الحِسابِ، وَوَقْتُ الحِسابِ هو وَقْتُ الثُّنْيا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ماداموا في الحِسابِ. وقِيلَ: الاسْتِثْناءُ لِلْمُؤْمِنِينَ الذينَ اتَّبَعُوهُمْ في فِعْلِ المَعاصِي والجُرْمِ، ولم يَتَّبِعُوهُمْ في الاعْتِقادِ. ففيهِ دَليلُ إدخالِ المؤمِنِينَ النارَ بالمَعاصِي، والعُقُوبَةَ لَهُمْ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِمْ، ودَليلُ إخراجِهِمْ، إنْ ثَبَتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ وُجوهاً ثلاثَةً: أحدُها: أنَّ خُلُودَ الآخِرَةِ أكْبَرُ مِنْ خُلُودِ الدنيا؛ لأنَّ خُلودَ الدنيا على الانْقِضاءِ، وخلودَ الآخِرَةِ لا على الانْقِضاءِ. الثاني: وَقْعُ الثُّنْيا قَبْلَ دُخولِهِمْ في النارِ. والثالثُ: لِمَنْ يَتْبَعُهُمْ في الكُفْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حَكيمٌ بِما حَكَمَ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بذلكَ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ الآيةُ تَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ؛ لأنَّ الوِلايَةَ مِنْهُمْ، ثم ذَكَرَ أنَّ المُؤمِنِينَ، بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وذَكَرَ أنَّ الكافِرِينَ؛ بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ بقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: لم يَكُنْ مِنَ الجِنِّ رُسُلٌ؛ إنما كانَ الرُّسُلُ مِنَ الإنْسِ، لكنَّهُ أضافَ إلى الفَرِيقَيْنِ جَميعاً كقولِهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يَخْرُجُ مِنْ أحَدِهِما، وكقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وإنما جَعَلَ في واحِدَةٍ مِنْهُنَّ، وكقولِ الناسِ: في سَبْعِ قبائلَ مَسْجِدٌ واحِدٌ، وإنما يكونُ في واحِدٍ منها[6]. وقد يُضافُ الشَّيءُ إلى جَماعَةٍ، والمُرادُ واحِدٌ. فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ إضافَةِ الرُّسُلِ إلى الإنْسِ والجِنِّ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ مِنَ الفَرِيقَيْنِ جَميعاً الرُّسُلُ؛ مِنَ الجِنِّيِّ جِنِّيٌّ، ومِنَ الإنْسِيِّ إنْسِيٌّ؛ لأنَّ الجِنَّ يَسْتَتِرُونَ مِنَ الإنْسِ، فإنما يُرسَلُ إلى الإنْسِ رُسُلاً يَظْهَرُونَ لَهُمْ. فَبَعَثَ إلى كُلِّ فَرِيقٍ الرسولَ مِنْ جَوْهَرِهِمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ الرُّسُلُ مِنَ الإنْسِ إلى الفَرِيقَيْنِ جَميعاً، وكانَ الجِنُّ نَذيراً كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩] ذَكَرَ النُّذُرَ مِنْهُمْ، ولم يَذْكُرِ الرُّسُلَ، ومَرْتَبَةُ النُّذُرِ دُونَ مَرْتَبَةِ الرُّسُلِ كَمَرْتَبَةِ الأنبياءِ مِنَ الرُّسُلِ.

---

(١) في الأصل وم: فذلك. (٢) من م، في الأصل: والإنس. (٣) في م: فعلمت. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل و م: منهما.

ولكنْ يَجُوزُ أنْ يَقوَى الرُّسُلُ، وإنْ كانَ مِنَ الإنسِ، على الإظهارِ لَهُمْ، ولَيسَ في مالا يَسْتَتِرُونَ عنهُمْ مَنْعُ بَعْثِ الرُّسُلِ إليهِمْ مِنَ الإنسِ.

وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ هذا حاجَةٌ؛ إنما[1] الحاجَةُ إلى مَعْرِفَةِ الآياتِ والحُجَجِ التي تَأتِي الرُّسُلَ وعَجزِ الخَلائِقِ جَميعاً عَنْ إتيانِ مِثْلِ هذا القرآنِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] فقدْ أعْجَزَ الجِنَّ والإنسَ عَنْ أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ، وإنْ كانَ الجِنُّ أقْوَى على أشياءَ مِنَ الإنسِ.

فَدَلَّ أنهُ آيَةٌ، ودَلَّ عَجْزُ الجِنِّ عَنْ ذلكَ، وإنْ كانُوا أقْوَى، على أنَّ غَيْرَهُمْ أعْجَزُ. ألا تَرى أنهُ أنْزَلَ هذا القرآنَ على لِسانِ العَرَبِ، ثم عَجِزُوا هُمْ عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ؟ فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عَنْ ذلكَ على أنَّ العَجَمَ لَهُ أعْجَزُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الرُّسُلُ، وإنْ كانُوا مِنَ الإنسِ، فإنَّ الجِنَّ يَسْتَمِعُونَ مِنَ الرُّسُلِ، فَتَلْزَمُهُمُ الحُجَّةُ والعَمَلُ بذلكَ والتَّبْلِيغُ إلى قَوْمِهِمْ[2] مِنْ غَيْرِ أنْ يَعْلَمَ الرُّسُلُ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يَحْتَمِلُ يَتْلُونَ عليكُمْ آياتي، ويَحْتَمِلُ ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يُبَيِّنُونَ لكُمْ آياتي آياتِ وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ وآياتِ البَعْثِ التي يُنْكِرُونَ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي لِقاءَ يومِكُمُ الذي تَلْقَوْنَ.

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ على أنَّ ذلكَ إنما يُقالُ لَهُمْ في الآخِرَةِ.

[وقولُهُ تعالى][3] ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ هذا مِنْهُمْ إقرارٌ لِما كانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْذيبِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] أي شَهِدْنا على أنْفُسِنا بأنّا كُنّا كَذَّبْنا الرُّسُلَ في الدنيا بما قالُوا، وأخْبَرُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إنَّ للدنيا مَعْنَيَيْنِ [ظاهِراً وباطِناً][4]؛ فيكونُ الظاهِرُ غُرُورَ مَنْ كانَ نَظَرُهُ[5] إليهِ يَغُرُّهُ، ولها باطِنٌ، ومَنْ نَظَرَ إلى الباطِنِ يَعِظُهُ. أمّا ظاهِرُها في تَزْيِينِها وزُخْرُفِها فالكافِرُ نَظَرَ إلى ظاهِرِها، فاغْتَرَّ بِها. وأمّا باطِنُها فهو انْتِقالُها مِنْ حالٍ إلى حالٍ وزَوالُها وفَناؤُها.

فَمَنْ نَظَرَ إلى ذلكَ الباطِنِ اتَّعَظَ بِهِ، [وعَلِمَ مَعْناهُ، وعَرَفَ أنهُ][6] لم يُخْلَقْ لِهذِهِ، ولكنْ لِعاقِبَةٍ[7] تُتَأَمَّلُ.

ثم إضافَةُ الغُرُورِ إليها أنَّ[8] يكونَ منها ما لو كانَ ذلكَ مِنْ [غَيْرِ][9] ذي عَقْلٍ وذِهْنٍ كانَ ذلكَ غُرُوراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ هذا اعْتِرافٌ بما كانَ منهُمْ.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] ونَحْوِهِما[10] مِنَ الآياتِ التي ذَكَرَ فيها العِتابَ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارَةً إلى الهَلاكِ الذي كانَ بالأُمَمِ الخالِيَةِ أنْ لم يَكُنْ يُهْلِكُ القُرَى بِظُلْمٍ، ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ، وإهلاكَ تَعْذيبٍ واسْتِئْصالٍ إلّا بَعْدَ تَقَدُّمِ الوَعِيدِ لَهُمْ في ذلكَ وسُؤالٍ[11]، كانَ منهُمْ بالعذابِ، ولا يُهْلِكُ أيضاً ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ عَنِ الظُّلْمِ والعِصْيانِ، لا أنهُ لا يَسَعُ، ولكنْ سُنَّتُهُ فيهِمْ ألّا يُهْلِكَ إلا بَعْدَ تَقَدُّمِ ما ذَكَرْنا لِئَلّا يَحْتَجُّوا ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وإنْ لم يكُنْ لَهُمُ الاحتِجاجُ بذلكَ، لِما مَكَّنَ لَهُمْ، ورَكَّبَ فيهِمْ ما بِهِ يَعْرِفُونَ أنهُ لم يَخْلُقْهُمْ لِيَتْرُكَهُمْ سُدىً، ولكنْ خَلَقَهُمْ لِعاقِبَةٍ. لكنْ سُنَّتُهُ قد خَلَتْ في الأُمَمِ الماضِيَةِ ألّا يُهْلِكَ قوماً إهلاكَ تَعْذيبٍ واسْتِئْصالٍ إلّا بَعْدَ ما سَبَقَ منهُ وَعِيدٌ وإنذارٌ والعِلْمُ لَهُمْ بالظُّلْمِ، وظُهُورُ العِنادِ منهُمْ والمُكابَرَةُ والسُّؤالُ بالعذابِ سُؤالَ تَعَنُّتٍ. وذلكَ منهُ فَضْلٌ ورَحْمَةٌ لأنه لا يَسَعُ ذلك.

(١) من م، في الأصل: إلى. (٢) من م، في الأصل: قواهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م: ظاهر وباطن. (٥) في م: نظر. (٦) في الأصل: ويعلم معناه وعرف أنها، في م: ويعلم معناها ويعرف أنها. (٧) من م، في الأصل: العاقبة. (٨) في الأصل و م: أي. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: ونحوها. (١١) في الأصل وم: وسؤالهم.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ اسْتَدَلَّ بَعْضُ الناسِ بِظاهِرِ هذِهِ الآيَةِ أنَّ الجِنَّ لَهُمْ ثَوابٌ بالطاعاتِ وعِقابٌ بالمَعاصِي؛ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمْ دَرَجاتٍ مِمَّا عَمِلُوا، وأنَّ ما تَقَدَّمَ ذِكْرَ الفَرِيقَيْنِ جَميعاً بِقولِهِ تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ١٢٨] [وقولِهِ تعالى][1]: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ذَكَرَ ما كانَ مِنَ الفَرِيقَيْنِ جَميعاً مِنَ المَعاصِي والجُرْمِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ راجعٌ إلى الفَرِيقَيْنِ جَميعاً ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ إنْ عَمِلُوا خَيْراً فَخَيْرٌ، وإنْ عَمِلُوا شَرّاً فَشَرٌّ. وبِهِ قالَ أبو يُوسُفَ ومحمدٌ، رَحِمَهُما اللهُ، واحْتَجَّا[2] لأبي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ إنما ذُكِرَ على إثْرِ آياتٍ كانَ الخِطابُ بها لِلْكَفَرَةِ دونَ المؤمِنِينَ. فَعَلَى قولِهِ تعالى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ يكونُ لَهُمْ هذا الوعيدُ خاصَّةً، ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي دَرَكاتٌ ومَراتِبُ مِنَ العذابِ والعِقابِ بِما عَمِلُوا مِنَ المَعاصِي والتَّكْذِيبِ لِلرُّسُلِ، ولأنَّ الثوابَ لُزُومُهُ لُزومُ فَضْلٍ ومِنَّةٍ، والعذابَ تَوْجِيهُ الحِكْمَةِ لأنَّ في الحِكْمَةِ أنْ يُعاقِبَ مَنْ عَصاهُ، وخالَفَ أمْرَهُ.

وأمّا الثَّوابُ فَوُجُوبُهُ الفَضْلُ لأنَّهُ كانَ مِنَ اللهِ إلى الخَلْقِ مِنَ النِّعَمِ والإحسانِ ما لو جَهَدُوا كُلَّ جَهْدِهِمْ ما قَدَرُوا/ ١٦٢ ـ أ/ على أنْ يُؤَدُّوا شُكْرَ واحِدٍ مِنْ ذلكَ، فتكونُ طاعَتُهُمْ شُكْراً لِما أنْعَمَ عليهِمْ. فإذا كانَ كذلكَ لا يكونُ لأعمالِهِمْ ثَوابٌ إلّا بالبَيانِ مِنَ اللهِ كما يُقالُ لِلْملائِكَةِ: إنَّ لَهُمْ ثواباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَيْنِ:

[أحَدُهُما][3]: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ عَنْ أعمالِهِمُ التي يَعْمَلُونَها في مَعْصِيَةِ اللهِ تعالى، ولن يُؤَخِّرُ تَعْذِيبَهُمْ رَحْمةً منهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢]

والثاني: عَنْ عِلْمٍ بأعمالِهِمْ وصَنِيعِهِمْ خَلَقَهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ. لكنْ خَلَقَهُمْ على عِلْمٍ بذلكَ لِما ضَرَرُ أعمالِهِمْ ومنافِعُها تَرْجِعُ إليهِمْ لا إليهِ.

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ هذا يَرُدُّ على الثَّنَوِيَّةِ مَذْهَبَهُمْ لأنهُمْ يَقولُونَ: إنهُ إنما خَلَقَ الخَلائِقَ لِمَنافِعِ نَفْسِهِ؛ لأنهُ لَيسَ بِحَكِيمٍ[4] مَنْ فَعَلَ فِعْلاً، لا يَقْصِدُ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ. فأخْبَرَ ﷻ أنهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ، [وأنَّ مَنْ][5] يَقْصِدُ قَصْدَ المَنْفَعَةِ بِفِعْلِهِ لِحاجَةٍ، تَقَعُ لَهُ، [ودَفْعِ ضَرَرٍ][6] يُصِيبُهُ؛ يَقْصِدُ بالفِعْلِ قَصْدَ قَضاءِ الحاجَةِ ودَفْعِ الضَّرَرِ[7] عَنْ نَفْسِهِ. فأمّا اللهُ ﷻ فهو[8] الغَنِيُّ بذاتِهِ، [وأمّا الخَلائِقُ فَهُمُ الفُقَراءُ إليهِ][9] لِمَنافِعِ أنْفُسِهِمْ، وهو غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ على ما أخْبَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ يَحْتَمِلُ [هو][10] غَنِيٌّ عن تَعْذِيبِ أولئكَ الكَفَرَةِ أي لا لِمَنْفَعَةٍ لهُ في تَعْذِيبِهِمْ يُعَذِّبُهُمْ أو لِحاجَةٍ لهُ، ولكنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ ذلكَ، أو أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] يَقولُ: لم يُرسِلْ إليكُمْ، ولا امْتَحَنَكُمْ بالذي امْتَحَنَكُمْ لِحاجَةِ نَفْسِهِ أو لِمَنْفَعَةٍ لَهُ؛ إذْ هو غَنِيٌّ بذاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحَدُها:][11] ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ فلا يَعْجَلُ عليهِمْ بالعُقُوبَةِ،

والثاني: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ ما خَلَقَ الخَلائِقَ، وجَعَلَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لِلانْتِفاعِ بهِمْ والاسْتِمْتاعِ، وإنما خَلَقَهُمْ لِمَنافِعِ أنْفُسِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: واحتجوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل لحكم. (٥) في الأصل وم: وإنما. (٦) في الأصل وم: وضرورة. (٧) في الأصل وم: الضرورة. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: إنما الخلائق. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وجهين يحتمل.

والثالثُ[١]: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ مَنْ قَبِلَ رَحْمَتَهُ، وصارَ أهْلاً لها، فأمّا مَنْ لم يَقْبَلْ رَحْمَتَهُ فإنهُ ذو انْتِقامٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ لأنهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ، لم يَخْلُقْكُمْ لِمنافعِ نَفْسِهِ أو لِحاجَتِهِ؛ إنْ شاءَ أذْهَبَكُمْ، واسْتَخْلَفَ غَيْرَكُمْ. ولو كانَ خَلْقُهُ الخَلْقَ لِمنافعِ نَفْسِهِ لَكانَ لا يَذْهَبُ بهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ يُخْبِرُ عَنْ غِناهُ عَنْهُمْ وعَنْ سُلْطانِهِ وقُدْرَتِهِ أنهُ يَقْدِرُ على إهلاكِكُمْ واسْتِئْصالِكُمْ وإنْشاءِ قومٍ آخرينَ. كانَ خَلَقَ الخَلائِقَ مِنْ جَواهِرَ مُخْتَلِفَةٍ، لا تَوالُدَ فيهِمْ، ثم جَعَلَ في الآخَرِ التَّوالُدَ والتَّناسُلَ، وإسْتِخلافَ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ بالتَّوالُدِ والتَّناسُلِ.

الآية ١٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ مِنَ الوَعْدِ والوَعيدِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ النَّصْرِ لِرَسولِهِ والمَعُونَةِ لهُ ﴿لَآتٍ﴾ وكائِنٌ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ قيلَ: بِفائِتِينَ ربَّكُمْ، وقيلَ: وما أنْتُمْ سابِقِينَ اللهَ بأعمالِكُمُ الخَبيثَةِ حتى لا يَجْزِيَكُمُ اللهُ.

وأصْلُهُ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا تُعْجِزونَ ربَّكُمْ عَنْ تعذيبِكُمْ وعُقوبَتِكُمْ.

الآية ١٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ قيلَ: على جَديلَتِكُمْ، وقيلَ: على منازِلِكُمْ وجِدَّتِكُمْ.

ولكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي ما أنْتُمْ عليهِ. ثم يَحْتَمِلُ هذا وُجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على ما أنْتُمْ عليهِ مِنْ أمْرِ الدِّينِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونوا هَمُّوا أنْ يَمْكُرُوا برسولِ اللهِ ﷺ فيَقولَ[٣]: امْكُرُوا بي إنّي ماكِرٌ بِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ويَحْتَمِلُ أنْ يكونوا يَطْلُبُونَ الدَّوائِرَ والهَلاكَ على رسولِ اللهِ ﷺ ويَكِيدُونَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] هذه الكلمةُ تُسْتَعْمَلُ في انْتِهاءِ المُكابَرَةِ نِهايَتِها ووُجودِ المُعانَدَةِ غايَتِها بَعْدَ الفَراغِ مِنَ الحُجَجِ والآياتِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ يَكُونُ لهُ العاقِبَةُ، ويَحْتَمِلُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالهلاكِ مَنْ كانَ مُحِقّاً[٤] بالوَعيدِ أو ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنِ المُحِقُّ مِنّا ممّا أُوعِدَ، وخُوِّفَ[٥].

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ يُخْبِرُ ﷻ عنْ سَفَهِهِمْ مِنْ وُجوهٍ:

أحَدُها: أنهُمْ كانوا يَجْعَلُونَ للهِ نَصيباً مِمّا كانَ للهِ ذلكَ في الحَقيقَةِ، مَعَ عِلْمِهِمْ أنَّ اللهَ هو الذي أنْشأَ لَهُمْ تلكَ الأشياءَ، وهو ذَرَأها، ثم يَجْعَلُونَ لِلّهِ في ذلكَ نَصيباً ولِلأصْنامِ نَصيباً بِسَفَهِهِمْ أنهُمْ إذا عَلِمُوا[٦] أنَّ اللهَ هو الذي ذَرَأَ لَهُمْ تلكَ الأشياءَ، وأنْشأها[٧] لَهُمْ، فإليهِ الاخْتِيارُ في جَعْلِ ذلكَ لا إليهِمْ، إذْ عَلِمُوا أنهُمْ إنما يَمْلِكُونَ هُمْ [ما][٨] يَجْعَلُ اللهُ لَهُمْ، وهو المالِكُ لَها[٩] حَقيقَةً.

والثاني: ما يُبَيِّنُ سَفَهَهُمْ أيضاً أنهُمْ يَجْعَلُونَ لِلّهِ في ذلكَ نَصيباً ولِلأصْنامِ نَصيباً مِنَ الثِّمارِ والحُرُوثِ وغيرِها، ثم إذا وَقَعَ شيءٌ[١٠] مِمّا جَعَلُوا للهِ وخالَطَ ما جَعَلُوهُ[١١] لِشُرَكائِهِمْ، تَرَكُوهُ، وإذا خالَطَ شَيْءٌ مِمّا جَعَلُوا لِشُرَكائِهِمْ، وَوَقَعَ في ما جَعَلُوهُ للهِ، أخَذُوهُ، ورَدُّوهُ على شُرَكائِهِمْ، وانْتَفَعُوا بِهِ، وتَرَكُوا الآخَرَ لِلأصنامِ إيثاراً لِلأصْنامِ عليهِ وإعظاماً لها. وإذا زَكا نَصيبُ الأصنامِ، ونَما، ولم يَزْكُ نَصيبُ اللهِ، ولم يَنْمُ، تَرَكُوا ذلكَ لِلأصنامِ، ويَقولُونَ: لو شاءَ اللهُ لأزْكَى نَصيبَهُ. وإذا زَكا الذي كانوا يَجْعَلُونَ لِلّهِ، [ولم يَزْكُ][١٢] نَصيبُ الأصنامِ، أخَذُوا نَصيبَ اللهِ، فَقَسَمُوهُ بَيْنَ المَساكِينِ وبَيْنَ الأصْنامِ نِصْفَيْنِ.

يُسَفِّهُهُمْ ﷻ بِصَنيعِهِمُ الذي يَصْنَعُونَ، ويُبَيِّنُ جَوْهَرَهُمْ[١٣] بإيثارِهِمُ الأصْنامَ وإعظامِهِمْ إيّاها والتَّفْضِيلِ في القِسْمَةِ

---

(١) في الأصل وم: يحتمل قوله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل و م: فيقال. (٤) من م، في الأصل: محققاً. (٥) أدرج بعدها في الأصل: في قوم. (٦) من م، في الأصل: عملوا. (٧) في الأصل وم: وأنشأ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: عليها. (١٠) أدرجت منصوبة بعد: لله. (١١) في الأصل وم: مما جزاء أو جعلوه. (١٣) في الأصل وم: ولا يزكو. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: عن.

والتَّجزِئةِ مَعَ عِلمِهِمْ أنَّ اللهَ هو الذي ذَرأ ذلكَ، وأنشأهُ لَهُمْ، وأنَّ الأصنامَ التي أشرَكوها في أموالِهِمْ وعِبادَتِهِمْ للهِ لا تَمْلِكُ[1] مِنْ ذلك شيئاً [وذلكَ][2] مِنهُمْ سَفَهٌ وجورٌ حِينَ أشرَكوا في أموالِهِمْ وعبادَتِهِمْ مَعَ اللهِ أحداً، لا يَستَحِقُّ بذلكَ شيئاً، وهو كما جَعَلوا لِلَّهِ البَناتِ، وهُمْ كانُوا يأنفونَ عنِ البَناتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ الآية [النحل: ٥٨] وكقولِهِ[3] تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وكقولِهِ[4] تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢] تأنفونَ أنتُمْ عنِ البناتِ، وتُضيفُونَها[5] إليهِ، فهو إذَنْ جورٌ وظُلْمٌ. فَعَلى ذلكَ تَفضيلُ الأصنامِ في القِسْمَةِ وإيثارُهُمْ إيّاها على اللهِ وإشراكُها[6] مَعَ اللهِ معَ عِلمِهِمْ أنهُ كانَ جميعُ ذلكَ [إشراكاً][7] باللهِ، وهو أنشأهُمْ[8]، جَورٌ وسَفَهٌ.

ثم أخبَرَ أنهُمْ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بِئسَ الحُكمُ حُكمُهُمْ.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي كما زَيَّنَ لَهُمْ جَعْلَ النَّصيبِ لِلأصنامِ والتَّجزِئَةَ لَها وصَرْفَ ما خَلَقَ اللهُ لَهُمْ عنهُ إلى الأصنامِ، كذلكَ زَيَّنَ لَهُمْ تَحريمَ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ السائبَةِ والوصِيلَةِ والحامي، كذلكَ زَيَّنَ لَهُمْ شُرَكاؤُهُمْ قَتْلَ أولادِهِمْ.

وأصْلُهُ أنَّ الشَّفَقَةَ التي جَعَلَ اللهُ في الخَلْقِ لأولادِهِمْ والرَّحْمَةَ التي جُبِلَتْ طبائعُهُمْ عليها تَمْنَعُهُمْ عَنْ قَتْلِهِمْ وخاصَّةً أولادَهُمُ الضُّعفاءَ والصِّغارَ. وكذلكَ الشَّهْوَةُ التي خَلَقَ فيهِمْ تَمنَعُهُمْ عنْ تحريمِ ما أحَلَّ اللهُ لهمْ. لكنَّ ذلكَ زَيَّنَ لَهُمْ شُرَكاؤُهُمْ، وحَسَّنُوا عليهِمْ تَحريمَ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ وقَتْلَ أولادِهِمْ. فما حَسَّنَ عليهِمُ الشُّرَكاءُ، وزيَّنَ لَهُمْ مِنْ تَحريمِ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ وقَتْلِ أولادِهِمْ، غَلَبَ على الشَّفَقَةِ التي جُبِلَتْ فيهِمْ والشَّهْوَةِ التي خَلَقَ، ومَكَّنَ فيهِمْ.

ثم اختُلِفَ في الشُّرَكاءِ: قالَ بَعْضُهُمْ: شُرَكاؤُهُمْ شياطِينُهُمْ التي تَدعوهُمْ[9] إلى ذلكَ، وقيلَ: شُرَكاؤُهُمْ كُبَراؤُهُمْ ورُؤَساؤُهُمُ الذينَ يَستَتْبِعُونَهُمْ.

ثم يَحتَمِلُ قَتْلَ الكُبَراءِ أولادَهُمْ تَكَبُّراً منهُمْ وتَجبُّراً لأنهُمْ كانُوا يأنفونَ عنْ أولادِهِمُ الإناثِ، وقَتْلَ الأتباعِ [أولادَهُمْ][10] مَخافَةَ العَيلَةِ والفَقرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ قِيلَ: لِيُهلِكُوهُمْ. إنهُمْ كانُوا يَقصِدونَ/ ١٦٢ ـ ب/ في التَّحسِينِ والتَّزيِينِ إرادَةَ[11] الإهلاكِ، وإنْ كانُوا يُرونَهُمْ في ذلكَ الشَّفَقَةَ. وكذلكَ كانُوا يَقصِدُونَ بالتَّزيِينِ تَلبِيسَ الدِّينِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يَحتَمِلُ وُجوهاً: قالَ بَعْضُهُمْ: لو شاءَ اللهُ لأهْلَكَهُمْ، فلم يَفعَلُوا ذلكَ. وقِيلَ: لأعْجَزَهُمْ، ومَنَعَهُمْ عنْ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] وقِيلَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لأراهُمْ قُبْحَ فِعْلِهِمْ حتى لم يَفعَلُوا.

وأصْلُهُ أنهُ إذا عَلِمَ مِنهُمْ أنهُمْ يَفعَلُونَ ما فَعَلُوا، ويَختارُونَ ما اختارُوا مِنَ التَّزيِينِ ولَبْسِ الدِّينِ عليهِمْ، شاءَ ما فَعَلُوا، واختارُوا، وقدْ ذكَرْنا ذلكَ في غيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذَرْهُمْ، ولا تُكافِئْهُمْ بافتِرائِهِمْ على اللهِ. ويَحتَمِلُ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فإنَّ اللهَ يُكافِئُهُمْ، ولا يَفُوتُونَ. ويَحتَمِلُ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فإنَّ ضَرَرَ ذلكَ الافتِراءِ عليهِمْ، ليسَ علَينا، ولا عليكَ، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

الآية ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ هذهِ الآيةُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] هذا الذي جَعَلُوا لِلشُّرَكاءِ هو الحِجْرُ الذي ذُكِرَ في هذهِ الآيَةِ؛ لأنهُمْ كانُوا يَنتَفِعُونَ بذلكَ، ويُحَرِّمُونَهُ، وهو حِجْرٌ.

---

(١) في الأصل وم: يملكون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وتضيفون.
(٦) في الأصل وم: وإشراكهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: أنشأ لهم. (٩) من م، في الأصل: تدعون. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) في الأصل و م: الإرادة.

وأصلُ الحِجْرِ المَنْعُ. وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][1] قالَ: الحِجْرُ ما حَرَّمُوا [على][2] أنفُسِهِمْ مِنْ أشياءَ مِنَ الوَصِيلَةِ والسَّائِبَةِ والحامِي، وتَحْرِيمُهُمْ ما حَرَّمُوا مِنْ أشياءَ؛ كانُوا يُحِلُّونَ أشياءَ، حَرَّمَها اللهُ، ويُحَرِّمُونَ أشياءَ أحَلَّها اللهُ في الجاهِلِيَّةِ مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ.

وفي حَرْفِ [أُبَيّ [بْنِ كَعْبٍ][3] وابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما][4] حَرَجَ على تأخِيرِ الجِيمِ وتَقْدِيمِ الراءِ. وعَنِ الحَسَنِ حُجْرٌ بِرَفْعِ الحَاءِ[5].

وأصلُ الحِجْرِ المَنْعُ، مَمْنُوعٌ مَحْجُورٌ؛ يُقالُ: حَجَرتُ عليهِ، أي مَنَعْتُهُ، والحِجْرُ أيضاً مَوضِعٌ بمكةَ، والاحْتِجارُ الاسْتِئثارُ، وهو أنْ يأخذَ الشَّيءَ، ولا يُعْطِيَ منهُ أحداً شيئاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ يعني ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن﴾ يَشاءُ اللهُ؛ لأنهُمْ كانُوا يُحَرِّمُونَ أشياءَ، ويأْتُونَ بِفواحِشَ، فيَقُولُونَ: إنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ كقولِهِ تعالى في الأعرافِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الآية: ٢٨].

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يَعْني الذينَ سَنُّوا لَهُمْ، أي ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ قد ذَكَرْتُ لكُمْ: أوَّلُ مَنْ بَدَّلَ دِينَ إسماعيلَ، وبَحَرَ البَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ أولئكَ الذينَ سَنُّوا ذلكَ، وحَرَّمُوا ذلكَ على نِسائِهِمْ على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ: «إنْ شِئْتُ قد ذكرتُ لَكُمْ أوَّلَ مَنْ بَدَّلَ دِينَ إسماعيلَ وبَحَرَ البَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ» [بنحوه البخاري ٣٥٢١] فَعَلَى ذلكَ أضافُوا المَشِيئَةَ إلى أولئكَ الذينَ سَنُّوا ذلكَ، وحَرَّمُوا على إناثِهِمْ، وأحَلُّوا لِلذُّكورِ[6].

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ هؤلاءِ الرجالُ؛ كانَتْ مُضافَةً إلى الرِّجالِ دُونَ النِّساءِ. وفي ذلكَ تَسْفِيهُ أحلامِهِمْ؛ لأنهُمْ يُنْكِرُونَ الرِّسالَةَ لِمكانِ ما يُحَرِّمُونَ مِنَ الطَّيِّباتِ، ثم يَبْتَغُونَ الذي حَرَّمَ عليهِمْ مِنَ الطَّيِّباتِ التي أحلَّها اللهُ لَهُمْ مِنَ البَحِيرَةِ والسَّائِبَةِ ونَحْوِهِما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هو ما ذَكَرَ مِنَ البَحِيرَةِ والسَّائبَةِ والوَصِيلَةِ والحامِي، وهو الحِجْرُ الذي ذَكَرَ في هذه الآيةِ؛ يَجْعَلُونَ تلكَ الأشياءَ لِشُركائِهِمْ، لا يَنْتَفِعُونَ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قِيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي لا يَنْتَفِعُونَ بها لِيَعْرِفُوا أنْعُمَ اللهِ، لِيَشْكُرُوا اللهَ عليها. وقِيلَ: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي لا يَذْبَحُون لِلأكْلِ، و﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾. ويَحْتَمِلُ ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وَقْتَ الرُّكُوبِ كما يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ عليها وقْتَ الرُّكوبِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ [الزخرف: ١٣] لأنهُمْ كانُوا لا يَرْكَبُونَها، ولكنْ يُسَيِّبُونَها. وقِيلَ: لا يَحُجُّونَ عليها. والأوَّلُ كأنهُ أقْرَبُ؛ كانُوا لا يَنْتَفِعُونَ بها لِيَعْرِفُوا أنْعُمَ اللهِ، ويَشْكُرُوا عليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ بأنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، وهو حَرَّمَ عليهِمْ، وهو أحَلَّ؛ فذلكَ هو الافْتِراءُ على اللهِ، أو بما أشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ في عِبادَةِ اللهِ وفي نِعَمِهِ.

الآية ١٣٩ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ قِيلَ: هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] يُحَرِّمُونَ على النِّساءِ، ويُحِلُّونَ لِلرِّجالِ؟ يَعْني إذا وَلَدَتْ[8] أحياءً كانَ يَنْتَفِعُ بذلكَ رجالُهُمْ دونَ نِسائِهِمْ، وإذا وَلَدَتْ[9] مَيْتاً اشْتَرَكَ[10] فِيهِ الإناثُ والذكورُ. يَذْكُرُ في هذا كُلِّهِ سَفَهَ أُولئكَ في صَنِيعِهِمْ، ويَذْكُرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾ إلى آخِرِهِ [الأنعام: ١٤١] نِعَمَهُ[11] التي أنْعَمَ عليهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في م: ابن عباس رضي الله عنه. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٢٢]. (٦) من م، في الأصل: الذكور لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ولدوا. (٩) في الأصل وم: ولدوا. (١٠) في الأصل وم: اشتركوا. (١١) في الأصل وم: ونعمه.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي افتراءَهُمْ على اللهِ وتحريمَهُمْ ما أحلَّ اللهُ لَهُمْ وتَحْليلَهُمْ ما حَرَّمَ عليهِمْ.

الآية ١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً﴾ أخبرَ أنهُمْ خَسِرُوا بِقَتْلِهِمُ الأولادَ وتَحْريمِهِمْ ما أحلَّ [اللهُ][1] لَهُمْ، ورزَقَهُمْ ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وباللهِ الهِدايَةُ والرَّشادُ.

الآية ١٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، مُقابلَ ما كانَ منهُمْ مِنْ تحريمِ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ، ورزَقَهُمْ مِنَ الحَرْثِ والزَّرْعِ والأنعامِ والانْتِفاعِ بها، فقالَ: ﴿أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ وبَساتِينَ؛ مَنْ تأمَّلَ فيها، وتَفكَّرَ، عَرَفَ أنَّ مُنْشِئَها مالِكُ حَكِيمٌ مُدَبِّرٌ؛ لأنهُ يُنْبِتُها. ويُخْرِجُها مِنَ الأرضِ، في لَحْظَةٍ ما لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ على تَقْديرِها أنْ كيفَ خَرَجَ؟ وكَمْ خَرَجَ؟ وأيُّ قَدْرٍ نَبَتَ؟ ما قَدَرُوا على ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]. ويُخْرِجُ مِنَ الوَرْدِ والثِّمارِ على مِيزانٍ واحدٍ ما لَو جَهَدُوا كُلَّ الجَهْدِ أنْ يَعْرِفُوا الفَضْلَ والتَّفاوُتَ بَيْنَ الأوراقِ والثِّمارِ ما قَدَرُوا، وما وَجَدُوا فيها تَفاوُتاً. ويُخْرِجُ أيضاً كُلَّ عامٍ مِنَ الثِّمارِ والأوراقِ ما يُشْبِهُ العامَ الأوَّلَ.

فَدَلَّ ذلكَ كُلُّهُ أنَّ مُنْشِئَها ومُحْدِثَها مالِكُ حَكِيمٌ؛ وَضَعَ كُلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، وأنَّ ما أنْشَأَ أنْشَأَ لِحِكْمَةٍ وتَدْبيرٍ لم يُنْشِئْها عَبَثاً؛ فَلَهُ الحُكْمُ والتَّدْبيرُ في الحِلِّ والحُرْمَةِ والقِسْمَةِ، لَيسَ لأحَدٍ دُونَهُ حُكْمٌ ولا تَدْبيرٌ في التَّحْريمِ والتَّحْليلِ: هذا حَلالٌ، وهذا حَرامٌ، وهذا لِهذا، [وهذا لِهذا][2]؛ إنما ذلكَ إلى مالِكِها فَخَرَجَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، يُقابِلُ ما كانَ منهُمْ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] [وقولِهِ تعالى][3]: ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقولِهِ تعالى ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨] وغَيْرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي كانَ فيها ذِكْرُ حُكْمِهِمْ[4] على اللهِ وإشراكُ أنْفُسِهِمْ في حُكْمِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ [قيلَ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾][5] مَبسوطاتٍ: ما تُنْبِتُ مُنْبَسِطاً على وَجْهِ الأرضِ [﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما يَقومُ بساقِهِ، لا يَنْبَسِطُ على الأرضِ، وقيلَ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما يُتَّخَذُ لَهُ العَرِيشُ مِنْ نَحْوِ العُرْجُونِ والقَرْعِ وغَيْرِهِ][6] ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما لا تَقَعُ الحاجَةُ إلى العَرِيشِ مِنْ نَحْوِ النَّخِيلِ والأشجارِ المُثْمِرَةِ، وهما واحِدٌ، وقِيلَ: على القَلْبِ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما تقومُ بِساقِها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما لا ساقَ لَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وتَعْريشُهُ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ مِنها ما يكونُ مُتشابِهاً في اللَّونِ مُخْتَلِفاً في الأكْلِ والطَّعْمِ، ومِنها ما يكونُ مُخْتَلِفاً في اللَّونِ والمَنْظَرِ مُتشابِهاً في الطَّعْمِ والأكْلِ لِيَعْلَمُوا أنَّ مُنْشِئَها واحِدٌ وأنهُ حَكِيمٌ؛ أنْشَأها على حِكْمَةٍ، وأنهُ مُدَبِّرٌ؛ أنْشَأها عَنْ تَدْبيرٍ؛ لم يُنْشِئْها عَبَثاً.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ[7] قولَهُ تعالى ﴿مُتَشَابِهًا﴾ في الذي ذَكَرَ، وهو الرُّمّانُ والزَّيْتونُ؛ لأنَّ وَرَقَهُما مُتَشابِهٌ، والثَّمَرَةَ مُخْتَلِفَةٌ، ومِنهُمْ مَنْ يَقولُ: [التَّشابُهُ][8] فيهِما وفي غَيْرِهِما، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ ولا تُحَرِّمُوا؛ خَرَجَ على مُقابَلَةِ ما كانَ منهُمْ مِنَ التَّحْريمِ؛ أي كُلُوا منها، ولا تُحَرِّمُوا لِيَضِيعَ، ويَفْسُدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ذَكَرَ ﷻ الإيتاءَ مِمّا يُحْصَدُ /١٦٣ ـ أ/ بَعْدَ ذِكْرِ النَّخِيلِ والزَّرْعِ والزَّيْتُونِ والرُّمّانِ حَبّاً وغَيْرَ حَبٍّ، وما يَقَعُ في الكَيلِ، وما لا يَقَعُ مُجْمَلاً عامّاً، ولم يُفَصِّلْ بَيْنَ قَليلِهِ وكَثيرِهِ، ففيهِ دلالَةُ وُجوبِ الصَّدَقَةِ والعُشْرِ في قَليلِ ما تُخْرِجُ الأرضُ وكَثيرِهِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى في سورةِ البَقَرةِ: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢٦٧].

وحديثُ مُعاذِ [بْنِ جَبَلٍ][9] ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «في كُلِّ ما أخْرَجَتِ الأرضُ العُشْرُ أو نِصْفُ العُشْرِ» [بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٦٧] وحَديثُ ابْنِ عُمَرَ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][10] قالَ: «في كُلِّ ما أخْرَجَتِ الأرضُ قَليلِهِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تحكمهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: وقيل. (٧) من م، في الأصل: أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وكَثِيرِهِ العُشْرُ» [بنحوه البخاري ١٤٨٣] وخَبَرُ مُعاذِ [بْنِ جَبَلٍ أنهُ](١) قالَ: «بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهْلِ اليَمَنِ، فأمَرَني أنْ آخُذَ مِنْ [كُلِّ](٢) حالِمٍ ديناراً أو عِدْلَهُ مَعافِرَ، وأمَرَني أنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ أربعينَ [بَقَرَةً](٣) مُسِنَّةً ومِنْ كُلِّ ثلاثينَ [بَقَرَةً تَبيعاً حَوْليّاً](٤) ومِنْ كُلِّ ما سَقَتِ السماءُ العُشْرَ. وما سُقِيَ بالدَّوالي(٥) نِصْفَ العُشْرِ» [أحمد ٥/ ٢٣٣] إلى هذا كُلِّهِ يَذْهَبُ أبو حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، ويُوجِبُ الصَّدَقَةَ في قَليلِ الخارجِ مِنَ الأرضِ وكَثِيرِهِ.

ثم اخْتَلَفَ أهْلُ التَّأويلِ في تَأويلِ الحَقِّ الذي ذَكَرَهُ اللهُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قالَ قومٌ: هي صَدَقَةٌ سِوى الزَّكاةِ، واحتَجُّوا بأنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، وأنَّ الزَّكاةَ فُرِضَتْ بالمَدينَةِ، وهي مَنْسُوخَةٌ بآيَةِ الزَّكاةِ. وقالَ قومٌ: هي الزَّكاةُ فإنْ نُسِخَ فإنما(٦) نُسِخَ قَدْرُها، لم يُنْسَخِ الحَقُّ رأساً؛ لأنهُمْ كانُوا يَتَصَدَّقُونَ بالأكلِ(٧)، فما نُسِخَ إنما نُسِخَ بآيَةِ الزَّكاةِ قَدْرُها.

ألَا تَرَى أنهُ قالَ تعالى في آخِرِهِ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؟ والإسرافُ في اللُّغَةِ هو المُجاوَزَةُ عَنِ الحَدِّ الذي حُدَّ لَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أي لا تَمْنَعُوا الأكلَ(٨)، ولكنْ كُلُوا مِنْ بَعْضِهِ، وآتُوا حَقَّهُ مِنْ بَعْضِهِ، وقيلَ: الإسرافُ ههنا هو الشِّرْكُ، كأنهُ [قالَ](٩): لا تُشْرِكُوا آلهَتَكُمْ في ما رَزَقَكُمُ اللهُ مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ، [فَتُحَرِّمُوا، ولا تَنْتَفِعُوا](١٠) بِهِ.

والإسرافُ هو الذي لا يُنْتَفَعُ بِهِ أحدٌ، وما كانُوا جَعَلُوا لِشُرَكائِهِمْ لا يَنْتَفِعُونَ بِهِ هُمْ، ولا انْتَفَعَ بِهِ أحَدٌ، يكونُ مُقابِلَ(١١) قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٣٨].

وأمَّا أبو يُوسُفَ ومحمدٌ، رَحِمَهُما اللهُ [فإنهما](١٢)، يَذْهَبانِ إلى ما رُوِيَ عَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ [أنهُ](١٣) قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا صَدَقَةَ في الزَّرْعِ ولا في الكَرْمِ ولا في النَّخْلِ إلّا ما بَلَغَ خَمْسَةَ أوسُقٍ، وذلكَ مِئَةُ فَرَقٍ» [البيهقي في الكبرى ٤/ ١٢٨].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، وعنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُهُ، وما رَوَى مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ [عَنْ أبيهِ](١٤) أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «لَيسَ في الخَضْراواتِ صَدَقَةٌ» [الطبراني في الأوسط ٥٩١٧] تُؤخَذُ إلّا في ما بَلَغَ كذا؛ وما(١٥) عليهِ في نَفْسِهِ صَدَقَةٌ يُؤَدِّيها هو.

ثم إنْ كانَ ذلكَ الحَقُّ الذي ذُكِرَ في الآيةِ الزكاةَ فإنَّ الآيَةَ تدلُّ، واللهُ أعْلَمُ، على أنَّ زكاةَ الحَبِّ والثِّمارِ إنما تَجِبُ في ما [يَبِسَ مِنَ الجَنَّاتِ](١٦) المَعْرُوشاتِ وغيرِ المَعْرُوشاتِ، فَدَخَلَ في ذلك، واللهُ أعْلَمُ، العِنَبُ وغَيْرُ العِنَبِ والثِّمارُ كُلُّها [وما](١٧) قالَ تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ فجميعُ ما تُخْرِجُ الأرضُ مِنْ كُلِّ الأصنافِ التي سَبَقَ ذِكْرُها.

وقالَ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فَجَعَلَ الحَقَّ الواجِبَ فيهِ يومَ يُحصَدُ، فَيَجوزُ أنْ يكونَ عَفا عَمّا قَبْلَ ذلكَ. فإنْ كانَ هذا هو التَّأويلَ، فهو، واللهُ أعْلَمُ، مَعْنَى ما رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ولو لم يكُنْ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ عَفْواً عن صَدَقَةِ ما يُؤكَلُ منهُ ما كانَ في ذلكَ فائدةٌ؛ لأنَّ الثَّمَرَةَ تُؤكَلُ، ولا تَصْلُحُ لِغَيْرِ ذلكَ إلّا لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرْنا؛ وهو أنهُمْ كانُوا يُحَرِّمُونَ، ولا يَنْتَفِعُونَ بها، فقالَ ﷺ ﴿كُلُوا۟﴾ وانتَفِعُوا بِهِ، ولا تُضَيِّعُوهُ.

وإذا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ عَفْواً عن صَدَقَةِ ما يُؤكَلُ منهُ ظَهَرَتْ فائِدَةُ الكَلامِ، وهو على هذا التَّأويلِ، واللهُ أعْلَمُ، ما رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «إذا خَرَصْتُمْ فَخُذُوهُ، ودَعُوا الثُّلُثَ فالرُّبُعَ» [النسائي ٥/ ٤٢].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تبيعاً. (٥) في الأصل وم: بالديالي.
(٦) في الأصل وم: إنما. (٧) في الأصل وم: بالكل. (٨) في الأصل وم: الكل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فتحرمون ولا تنتفعون. (١١) من م، في الأصل: تقابل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وأما. (١٦) في الأصل: يسبق الجنايات، في م: يبس الجنات. (١٧) في الأصل وم: و.

وعَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ، عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ](١) قالَ: «ليس في العَرايا صدقةٌ» [البيهقي في الكبرى ٤/ ١٢٥] وعنْ عُمَرَ بْنِ الخطاب ﷺ أنهُ كانَ يبعَثُ أبا خَيثَمةَ خارصاً للنَّخلِ، ويقولُ لهُ: إذا وجَدْتَ أهلَ بيتٍ في حائطِهِمْ فلا تَخرُصْ بِقدْرِ ما يأكلون. وعن مكحولٍ [أنهُ](٢) قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «خَفِّفُوا على الناسِ في الخَرْصِ فإنَّ في المالِ العَرِيَّةَ والوَصِيَّةَ» [بنحوه البخاري ٢١٨٨ و٢١٩٣ و٢٣٨٠].

فَدَلَّتْ هذه الأحاديثُ على أنهُ لا صَدَقَةَ في ما يُؤكَلُ مِنَ التَّمرِ رَطْباً، إذا لم يكُنْ في ما يأكُلونَ إسرافٌ، وقَدَّرَ النَّبيُّ ﷺ لِذلكَ الثُّلُثَ أوِ الرُّبُعَ. وذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، يُشبِهُ ما دَلَّتْ عليهِ الآيَةُ على تَأويلِ مَنْ جَعَلَ الحَقَّ زكاةً؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فاحتَمَلَ أنْ يكونَ أيضاً مَعنَى ذلكَ ولا تُسرِفُوا في الأَكْلِ، فَيُجحِفَ ذلكَ بأهْلِ الصَّدَقةِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ نَهْياً عنِ الإسرافِ في جَميعِ الأشياءِ على ما ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ.

وإذا صَحَّ أنْ لا صَدَقَةَ في ما يُؤكَلُ مِنَ الرُّطَبِ والعِنَبِ والثِّمارِ بهذهِ الأخبارِ، وأنَّ الصَّدَقَةَ إنما تَجِبُ في ما يَلْحَقُهُ الحَصادُ يابساً، يُمْكِنُ ادِّخارُهُ، فالواجِبُ ألّا يكونَ في شَيءٍ مِنَ الخُضَرِ التي(٣) تُؤكَلُ رَطْبةً صَدَقَةٌ، وألّا تكونَ الصَّدَقةُ واجِبَةً إلّا في ما يَبِسَ منها، ويُمْكِنُ أنْ يُدَّخَرَ. فأمّا البُقولُ والرِّطابُ والبِطِّيخُ والقِثّاءُ والتُّفّاحُ وأشباهُها فلا صَدَقَةَ فيها. هذا كُلُّهُ يَدُلُّ لأبي يُوسُفَ ومحمدٍ، رَحِمَهُما اللهُ، إلّا أنّا لا نَعْلَمُ مُخالِفاً في أنَّ ما يُباعُ مِنَ الرُّطَبِ صَدَقَةٌ، وإنْ كانَ يُؤكَلُ بِهَيئَتِهِ(٤)، فهذا يُفْسِدُ ما احتَجَجْنا(٥) بِهِ لأبي يُوسُفَ ومحمدٍ، رَحِمَهُما اللهُ، ومَنْ وافَقَهُما. وتأويلُ ما رُوِيَ أنْ لا صَدَقَةَ في الخَضْراواتِ، ولَيسَ في أقَلَّ مِنْ خَمْسَةِ أوسُقٍ صَدَقَةٌ تُؤخَذُ، وما(٦) عليهِ في نَفْسِهِ يُؤدِّيها(٧)، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ على أُولئكَ خاصَّةً في ذلكَ الوَقْتِ، أو يقولَ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ ولا تَصْرِفُوا إلى الأصنامِ التي تَصْرِفونَ إليها، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وأنشأَ أيضاً مِنَ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: الحَمولَةُ ما يُحمَلُ عليها؛ أنشأها لِلْحَمْلِ، والفَرْشُ الصِّغارُ منها التي لا تَحْتَمِلُ، وقيلَ: الحَمُولَةُ مِنْ نَحْوِ الإبِلِ والبَقَرِ والبِغالِ وغَيرِها مِنَ الحَيَوانِ، والفَرْشُ هو الغَنَمُ والمَعْزُ التي تُؤكَلُ، وأنشأها لِلَّحْمِ. ويَحْتَمِلُ الفَرْشُ ما يُؤخَذُ مِنَ الأنعامِ، ويُتَّخَذُ منهُ الفُرُشُ والبُسُطُ. وقالَ الحَسَنُ: الحَمولَةُ ما يُحْمَلُ عليها، وهو خاصٌّ، والفَرْشُ كُلُّ شَيءٍ مِنْ أنواعِ المالِ مِنَ الحَيَوانِ وغَيرِهِ. يُقالُ: أفْرَشَهُ اللهُ لَهُ؛ أي جَعَلَهُ. قال ابْنُ عباسٍ ﷺ: الحَمولَةُ الإبِلُ والخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ وكُلُّ شَيءٍ يُحْمَلُ عليهِ، وأمّا الفَرْشُ فالغَنَمُ. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ: الحَمولَةُ الإبِلُ والخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ وكُلُّ شَيءٍ يُحْمَلُ عليهِ، وأمّا الفَرْشُ فالغَنَمُ. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ](٨) قالَ: الحَمولَةُ الإبِلُ، والفَرْشُ البَقَرُ والغَنَمُ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَمُولَةُ مَراكِبُ النِّساءِ، والفَرْشُ ما يكونُ لِلنِّتاجِ. وقالَ القُتَبِيُّ: الحَمولَةُ كِبارُ الإبِلِ التي يُحْمَلُ عليها، والفَرْشُ صِغارُها التي لم تُدْرِكْ أنْ يُحْمَلَ عليها، وهي ما دُونَ الحِقاقِ، والحِقاقُ هي التي تَصْلُحُ أن تُرْكَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وَوَجِّهوا شُكْرَ ذلكَ إليهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ في تَحريمِ ما أحَلَّ اللهُ لَكُمْ، وجَعَلَ ذلكَ لَكُمْ رِزقاً، كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ/ ١٦٣ ـ ب/ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) في الأصل وم: كهيئة. (٥) في الأصل وم: احتجنا.
(٦) في الأصل وم: وأما. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٨) ساقطة من الأصل و م.

يقولُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١] وانتَفِعُوا بِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ في تَحْريمِ ذلكَ على أنفُسِكُمْ، واعْرِفُوا نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليكُمْ، وَوَجِّهُوا شُكْرَ نِعَمِهِ إليهِ، ولا تُوَجِّهُوها إلى غَيْرِهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قِيلَ: آثارُ الشيطانِ، وقِيلَ: أعمالُ الشيطانِ، وقِيلَ: دُعاءُ الشيطانِ وتَزيينُهُ، وكُلُّهُ واحِدٌ. وأصْلُهُ أنَّ كُلَّ مَنْ أجابَ آخَرَ [إلى][1] ما يَدْعُوا إليهِ، ويأتَمِرُ بأمرِهِ[2]، يُقالُ: اتَّبَعَ أثَرَهُ، وقد ذُكِرَ هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي إنهُ في ما يَدْعُوكُمْ، أي تَحْريمِ[3] ما أحَلَّ اللهُ لَكُمْ، ورزَقَكُمْ؛ يَقْصِدُ قَصْدَ إهْلاكِكُمْ وتَعْذيبِكُمْ لا قَصْدَ مَنْفَعَةٍ لَكُمْ في ذلكَ. وكُلُّ مَنْ قَصَدَ قَصْدَ إهلاكِ آخَرَ فهو عَدُوٌّ لَهُ. وهو يَخْرُجُ على ما ذَكَرْنا مِنْ تذكيرِ المِنَنِ والنِّعَمِ التي أنْعَمَها عليهِمْ. يقولُ: هو الذي جَعَلَ لَكُمْ ذلكَ، فلا تَصْرِفُوا شُكْرَهُ إلى غَيْرِهِ.

الآية ١٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ أي أنشأَ أيضاً ثمانِيَةَ أزواجٍ على ما ذَكَرَ ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] وأنشأَ مِنَ الأنعامِ أيضاً ﴿حَمُولَةً﴾ وأنشأَ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ مِمَّا أعَدَّ[4] لنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ هو تَفْسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ ويكونَ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ التي ذَكَرَ في الآيةِ بَيانَ الحَمُولَةِ والفَرْشِ التي ذَكَرَ في الآيةِ الأولى.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ في الآيةِ تَعْريفُ المُحاجَّةِ مَعَ الكَفَرَةِ وتَعْليمُها مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنهُمْ كانُوا يُحَرِّمُونَ أشياءَ على الإناثِ، ويُحَلِّلُونَها لِلذُّكورِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ وإنْ تَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فيها[5] شُرَكاءُ.

فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يُعَرِّفُنا المُحاجَّةَ مَعَهُمْ وطَلَبَ العِلَّةِ التي بها حَرَّمَ، فقالَ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فإنْ قالُوا: حَرَّمَ الذَّكَرَ يُجِبُ[6] أنَّ كُلَّ ذَكَرٍ مُحَرَّمٌ. ثم مِنَ الذُّكورِ ما يَحِلُّ، فَتَناقَضُوا في قولِهِمْ. وإنْ قالُوا: حَرَّمَ الأُنثى يُجِبُ[7] أنَّ كُلَّ أُنثى أيضاً تكونُ مُحَرَّمَةً. فإذا لم يُحَرِّمْ كُلَّ أُنثى ظَهَرَ[8] تَناقُضُهُمْ؛ لأنهُ لا يَجوزُ أنْ توجَبَ حُرْمَةُ شَيْءٍ أو حُكْمُهُ[9] لِمَعْنًى، ثم يُرْفَعُ ذلكَ الحُكْمُ، والمَعْنى مَوجودٌ؛ أي[10] حَرَّمَ ما ﴿ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فإنْ كانَ لِهذا [يَجِبُ فإنَّ][11] كُلَّ مُشْتَمِلٍ عليهِ أرحامُ الأُنثيَينِ مُحَرَّمٌ. فإذا لم يُحَرِّمْ ذلكَ دلَّ أنَّ التَّحْريمَ لم يَكُنْ لِهذا.

وفيهِ دلالَةُ أنَّ الحُكْمَ إذا وَجَبَ لِعِلَّةٍ فذلكَ الحُكْمُ واجِبٌ ما دامَتِ العِلَّةُ قائِمَةً مَوجودَةً، وفيهِ الأمْرُ بالمُقايَسَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي لَيسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ، يُعْلِمُونَ ذلكَ، ويُنَبِّئُونَهُ.

ذَكَرَ هُهنا ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مَقالَتِكُمْ: إنهُ حَرَّمَ.

الآية ١٤٤ وقالَ في الآيةِ التي تَلِيها ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي بِتَحْريمِها أي لَيسَ[12] لَكُمْ شُهَداءُ على تَحْريمِ ما تُحَرِّمُونَ لا مِنْ جِهَةِ كِتابٍ ولا رسولٍ ولا اسْتِدْلالٍ؛ لأنَّ العلومَ ثلاثَةٌ: عِلْمُ اسْتِدْلالٍ، وهو عِلْمُ العَقْلِ، وعِلْمُ المُشاهَدَةِ والعِيانِ، وهو عِلْمُ الحِسِّ، وعِلْمُ السَّمْعِ والخَبَرِ. فَيُخْبِرُ أنهُ لَيسَ لَهُمْ مِنْ هذِهِ العُلُومِ شَيْءٌ.

أمّا عِلْمُ الاسْتِدْلالِ فَلا عَقْلَ يَدُلُّ على تَحْريمِ ما حَرَّمْتُمْ، ولا [لَكُمْ][13] عِلْمُ مُشاهَدَةٍ؛ لأنكُمْ لم تُشاهِدُوا اللهَ حَرَّمَ

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: إليه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: عد. (٥) في الأصل وم: فيه. (٦) في الأصل وم: فيجب. (٧) في الأصل وم: فيجب. (٨) في الأصل وم: ظهرت. (٩) في الأصل وم: حلمه. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: فيجب أن. (١٢) في الأصل وم: ليست. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ذلكَ، ولا [لَهُمْ][1] عِلْمٌ مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ والخَبَرِ؛ لأنهُمْ لا يُؤمِنُونَ بالكُتُبِ، ولا صَدَّقُوا الرُّسُلَ، فَيَقُولُوا: أخبَرَنا الرُّسُلُ بِتَحْريمِ ذلكَ، أو وَجَدْنا في الكُتُبِ حُرْمَتَها، فَبُهِتُوا في ذلكَ، وضَجِرُوا.

وفي الآيةِ دلالَةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ونُبُوَّتِهِ ﷺ لأنهُمْ كانُوا لا يُحَرِّمُونَ هذِهِ الأشياءَ ظاهِراً في ما بَيْنَهُمْ، ورسولُ اللهِ ﷺ نَشَأَ بَيْنَ أظهُرِهِمْ مُنْذُ أنْ كانَ صَغِيراً إلى كِبَرِهِ، وعَرَفُوا أنهُ لم يَخْتَلِفْ إلى أحَدٍ، عَرَفَ ذلكَ، ثم أخبَرَهُ[2] اللهُ ﷻ ما حَرَّمُوا فَسادَ ما صَنَعُوا لِيَدُلَّهُمْ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ، وبِهِ عَلِمَ حِلَّ ما حَرَّمُوا وحُرْمَةَ ما أحَلُّوا لا بأحَدٍ مِنَ الخَلائِقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لأنهُ هو الذي أنْشَأهُمْ، وأنشَأَ لَهُمْ جميعَ ما يَحتاجُونَ إليهِ، ويَقْضُونَ حوائِجَهُمْ، وبهِ كانَتْ[3] جميعُ نِعَمِهِمُ التي يَتَنَعَّمُونَ، ويَتَقَلَّبُونَ فيها؛ فلا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فقالَ: حَرَّمَ كذا، ولم يَكُنْ حَرَّمَ، أو أمَرَ بكذا، ولم يكُنْ أمَرَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ [النساء: ٨٧] [وقالَ:][4] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾؟ [النساء: ١٢٢]. فكما لم يكُنْ أحدٌ أصْدَقَ منهُ حديثاً، فَعَلَى ذلكَ لا أحَدَ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بَعْدَ عِلْمِهِ أنهُ هو الفاعِلُ لذلكَ كُلِّهِ، وهو المُنْشِئُ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في الظاهِرِ اسْتِفهامٌ، ولكنْ في الحقيقةِ إيجابٌ؛ لأنه لا يَحْتَمِلُ الاسْتِعْظامَ؛ كأنهُ قالَ: لا أحَدَ أفحَشُ ظُلْماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ على الإيجابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأنهُ يَقْصِدُ بالافْتِراءِ على اللهِ قَصْدَ إضلالِ الناسِ وإغوائِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يَهْدِي وَقْتَ اخْتِيارِهِمُ الكُفْرَ والظُّلْمَ. وقيلَ: لا يَهْدِي القَوْمَ الذينَ في عِلْمِهِ أنهُمْ يَخْتَمِعُونَ بالكُفْرِ. ويَحْتَمِلُ: لا يَهْدِيهِمْ إذا كانُوا هُمْ عندَ اللهِ ظَلَمَةً كَفَرَةً، وإنْ كانُوا عندَ أنْفُسِهِمْ عُدُولاً على الحَقِّ.

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: أي لا أجِدُ مِمَّا تُحَرِّمُونَ أنْتُمْ في ما أُوحِيَ إليَّ، وأمّا مِمّا لا تُحَرِّمُونَ [فإنني أجِدُ][6].

والثاني: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ في وَقْتٍ، ثم وَجَدَهُ في وَقْتٍ آخَرَ. وأيُّهُما كانَ فَلَيْسَ فيهِ دليلُ حِلٍّ سِوَى ما ذَكَرَ في الآيةِ على ما يَقُولُهُ بِشْرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ مِثْلُ هذا الخِطابِ لا يكونُ إلّا في مَعْهُودِ سُؤالٍ. وإلّا مِثْلُ هذا الخطابِ لا يَسْتَقِيمُ على الابْتِداءِ. فإنْ كانَ في مَعهودٍ فهو يَخْرُجُ جوابَ ما كانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أشياءَ مِنَ الأنعامِ والحَرْثِ، وما ذَكَرَ في الآياتِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها، وما كانُوا يُحَرِّمُونَ مِنَ البَحِيرَةِ والوَصِيلَةِ والسّائِبَةِ والحامي.

فقالَ: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ مِمّا تُحَرِّمُونَ أنْتُمْ ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ جَوابَ سُؤالٍ في نازِلَةٍ، فقالَ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ في ما ذَكَرَ في الآيةِ، ولم يَجِدْهُ مُحَرَّماً في وَقْتٍ إلّا ما ذَكَرَ، ثم وَجَدَهُ في وقتٍ آخَرَ. ففي أيِّهما كانَ لم يكُنْ لِلْبَشَرِ عَلَيْنا في ذلكَ حُجَّةٌ حِينَ[7] قالَ: إنَّ الأشياءَ كُلَّها مُحَلَّلَةٌ مُطْلَقاً بهذهِ الآيةِ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا﴾ ما ذَكَرَ مِنَ المَيْتَةِ والدَّمِ ولَحْمِ الخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، فقالَ: لا تُحَرَّمُ مِنَ الحَيَوانِ إلّا ما ذَكَرَ.

ويَقُولُ: إنَّ النَّهْيَ الذي جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ هو[8] نَهْيٌ عَنْ كُلِّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ وعَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ. إنما هو خَبَرٌ خاصٌّ مِنْ أخبارِ الآحادِ، وخَبَرُ الواحِدِ لا يُعْمَلُ في نَسْخِ الكتابِ، وقد قالَ: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فإنه يجد. (٧) في الأصل و م: حيث. (٨) في الأصل و م: أنه.

وبَعْدُ فإنَّ ذلك الخَبَرَ مِنَ الأخبارِ المُتَواتِرَةِ؛ لأنهُ عَرَفَهُ الخاصُّ والعامُّ، وعَمِلُوا بِهِ، وظَهَرَ العَمَلُ بِهِ، حتى لا يَكادُ يُوجَدُ ذلكَ يُباعُ في أسواقِ المُسْلِمِينَ. دلَّ أنهُ مِنَ المُتَواتِرِ.

قالَ الشيخُ / ١٦٤ ـ أ/ ﷺ: وعندَنا أنَّ لَفظَةَ التَّحريمِ في الحيوانِ [لا تكونُ][1] إلّا في ما ذَكَرَ في الآيةِ مِنَ المَيْتَةِ والدَّمِ المَسْفُوحِ والخِنْزيرِ. ولكنْ يُقالُ: مَنهِيٌّ عنهُ، مَكرُوهٌ، ولا يُقالُ: مُحَرَّمٌ مُطْلَقاً، ولا يقالُ: لا يُؤكَلُ، ولا يُطْعَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ الآيةَ لو كانَتْ في غَيرِ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما لم يكُنْ فيها دليلُ حِلِّ ما عدا المذكورَ في الآيةِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿لَّآ أَجِدُ﴾ ولم يُوجَدْ في وقتٍ. ثم وَجَدَ في وقتٍ آخَرَ، هذا جائزٌ.

وفي قولِهِ: ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ دلالةُ أنَّ الجِلْدَ يُحَرَّمُ بِحَقِّ اللَّحْمِيَّةِ؛ لأنهُ أمْكَنَ أنْ يُشْوَى، فيُؤكَلَ، فَحُرْمَتُهُ حُرْمَةُ اللَّحْمِ. فإذا دُبِغَ خَرَجَ مِنْ أنْ يُؤكَلَ، فظَهَرَ عن قولِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ واللهُ أعلَمُ.

ثم في قوله تعالى: ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآية دلالةُ أنَّ الحُرْمَةَ التي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ حُرْمَةُ الأكْلِ والتَّناوُلِ مِنها؛ لأنهُ لم يُبَيِّنْ في تلك الآيةِ ما الذي حُرِّمَ مِنْها سِوَى ما ذَكَرَ حُرْمَتَهُ [التي][2] تُفَسِّرُها هذِهِ الآيَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الأكْلُ[3] دلَّ هذا أنَّ الحُرْمَةَ في تِلْكَ الآيَةِ الأكْلُ والتَّناوُلُ منها، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] ذَكَرَ الحِلَّ، ولم يَذْكُرِ الحِلَّ لِماذا؟ ثم جاءَ التَّفْسِيرُ في هذِهِ الآيةِ أنهُ لِلأكْلِ.

ثم المَيْتَةُ التي ذَكَرَ أنها مُحَرَّمَةٌ لَيسَتْ هي التي ماتَتْ حَتْفَ أنْفِها خاصَّةً. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾؟ [المائدة: ٣] كُلُّ هذا الذي ذَكَرَ لم يَمُتْ حَتْفَ أنفِهِ، ولكنْ بأسبابٍ[4]، لم يُؤْمَرْ بها، فصارَتْ مَيْتَةً. فدلَّ أنَّ كُلَّ مَذبوحٍ أو مَقْتُولٍ بِسَبَبٍ، لم يُؤْمَرْ بِهِ، هو[5] مَيْتَةٌ، لا يَحِلُّ التَّناوُلُ منها إلّا في حالِ الاِضْطِرارِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ دلالَةُ أنَّ المُحَرَّمَ مِنَ الدَّمِ هو المَسْفُوحُ، والدَّمُ الذي يكونُ في اللَّحْمِ، ويُخالِطُ اللَّحْمَ، لَيسَ بِحَرامٍ، والدَّمُ المَسْفُوحُ حرامٌ.

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: المَسْفُوحُ المَصْبُوبُ؛ تَقولُ: سَفَحْتُ صَبَبْتُ، وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مَّسْفُوحًا﴾ أي سائِلاً، وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ المَسْفُوحُ هو الذي يُهْراقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ ذَكَرَ اللَّحْمَ، وذَكَرَ حُرْمَةَ المَيْتَةِ، لِيُعْلَمَ أنَّ الخِنْزيرَ بِجَوهَرِهِ حرامٌ، والمَيْتَةَ، حُرْمَتُها لا بِجَوهَرِها، لكنْ بِما[6] اعْتَرَضَ. لِذلكَ قُلْنا: لا بأسَ بالاِنْتِفاعِ بِصُوفِ المَيْتَةِ وَوَبَرِها وعَظْمِها، ولا يجوزُ مِنَ الخِنْزيرِ شَيْءٌ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قِيلَ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [غَيرَ مُسْتَحِلٍّ لَهُ][7] في دينِهِ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي ولا مُتَعَدِّياً ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إليهِ، فأكَلَهُ. وقد ذَكَرْنا أقاويلَهُمْ والاِخْتِلافَ في تأويلِهِ في صَدْرِ الكتابِ ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأكْلِهِ الحرامَ في حالِ الاِضْطِرارِ ﴿رَّحِيمٌ﴾ حِينَ[8] رَخَّصَ الحَرامَ في مَوضِعِ الاِضْطِرارِ، وهذا أيضاً قد مَضَى ذِكْرُهُ[9].

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ قِيلَ: مِثْلُ النَّعامَةِ والبَعيرِ. وقِيلَ: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ مِثْلُ الدِّيكِ والبَطَّةِ والبَعِيرِ وكُلُّ مُنْفَرِجِ الأصابعِ والقوائمِ. وقِيلَ: حَرَّمْنا كُلَّ ذي حافِرٍ مِنْ نَحْوِ حمارِ الوَحْشِ والوَزِّ وغَيرِهِ. وقِيلَ: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ كُلَّ ذي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيرِ وكُلَّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ، ومِنَ الدَّوابِّ كُلَّ ذي ظُفُرٍ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إلا كذا. (٤) من م، في الأصل: بأسبابها. (٥) في الأصل و م: فهو. (٦) في الأصل و م: لما. (٧) في الأصل وم: يستحله. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، في الأصل: ذكر.

مُنشَقٌّ مِثْلَ الأرْنَبِ والبَعِيرِ وأشباهِهِما، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه. والأشْبَهُ أنْ يكونَ ما ذُكَرَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ قِيلَ: شُحومُ بُطونِهِما مِنَ[1] الثُّروبِ وشَحْمِ الكِلْيَتَيْنِ ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهي المَباعِرُ والمَصارِينُ أي الشَّحْمُ الذي عليها ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ قِيلَ الإلْيَةُ.

وقِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ هو اسْمُ[2] اللَّحْمِ، وقِيلَ[3] فيهِ أقاويلُ مُخْتَلِفَةٌ في هذا وفي الأوَّلِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ لكنْ لَيسَ لَنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ؛ لأنَّ تلكَ شَرِيعَةٌ، قد نُسِخَتْ، والعَمَلُ بالمَنْسُوخِ حَرامٌ. فإذا لم يَكُنْ عَلَيْنا العَمَلُ بذلكَ لَيسَ لَنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجَةٌ؛ كانَ ذا، أو ذا[4]، وإنّما عَلَيْنا أنْ نَعْرِفَ لِمَ كانَ ذلكَ التَّحْرِيمُ؟ وبِمَ كانَ تَحْرِيمُ هذِهِ الأشياءِ عَلَيهِمْ؟

فهو، واللهُ أعْلَمُ، ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

أخْبَرَ أنَّ ما حَرَّمَ[5] عليهِمْ مِنَ الطَّيِّباتِ [بِسَبَبَيْنِ:

أحدُهُما:][6] بِظُلْمِهِمْ لِلَّذينَ ظَلَمُوا؛ ولِذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أخْبَرَ أنَّ ذلكَ جَزاءُ بَغيِهِمُ الذي[7] بَغَوا.

والثاني: أنهمْ كانُوا يَدَّعُونَ، ويَقُولُونَ: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]؛ [يَقولُ: لو كُنْتُمْ صادِقِينَ في زَعمِكُمْ انكُمْ ﴿أَبْنَٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾][8] لَكانَ لا أحَدَ يُعاقِبُ وَلَدَهُ أو حَبيبَهُ بأدْنَى ظُلْمٍ، ولا يُحَرِّمُ عليهِ الطَّيِّباتِ. [فإذا كانَ اللهُ حَرَّمَ عليكُمُ الطَّيِّباتِ][9]، وجَزاكُمْ[10] بِتَحْرِيمِ أشياءَ عُقوبَةً لَكُمْ بِظُلْمِكُمْ وبَغْيِكُمْ ظَهَرَ أنكُمْ كَذَبْتُمْ في دَعاوِيكُمْ، وافْتَرَيْتُمْ بذلكَ على اللهِ.

وفيهِ دليلُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ونُبُوَّتِهِ ﷺ لأنهُمْ كانُوا يُحَرِّمونَ هذهِ الأشياءَ في ما بَيْنَهُمْ، ولا يَقُولُونَ: إنهمْ ظَلَمَةٌ، وإنَّ ما حَرَّمَ عليهِمْ بِظُلْمٍ كانَ مِنْهُمْ وبَغْيٍ.

ثم أخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ ما حُرِّمَ عليهِمْ مِنَ الطَّيِّباتِ إنما حُرِّمَ بِظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ دلَّ أنهُ إنما أخْبَرَ بذلكَ عنِ اللهِ، وبِهِ عَرَفَ ذلكَ، فَدَلَّ أنهُ آيَةٌ مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي ذلك التَّحريمُ عُقوبَةٌ لِبَغْيِهِمْ وظُلْمِهِمْ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ بالإنباءِ أنَّ ذلكَ كانَ بِظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في كُلِّ ما أخْبَرْنا، وأنْبأنا.

الآية ١٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ في ما تَدْعُوهُمْ إليهِ وتَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ التَّصْدِيقِ والتَّوحِيدِ لَهُ والرُّبوبِيَّةِ ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ إذا رَجَعْتُمْ عنِ التَّكذيبِ، وصَدَّقْتُمْ، وعَرَفْتُمْ أنهُ واحدٌ، لا شَرِيكَ لَهُ، يَغْفِرُ لَكُمْ ما كانَ مِنْكُمْ في حالِ الكُفْرِ، ويُكَفِّرُ عنكُمْ سَيِّئاتِكُمُ التي كانَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كأنهُ على التَّقديمِ والتَّأخِيرِ؛ يقولُ: فإنْ كَذَّبُوكَ يا محمدُ فَقُلْ لا يُرَدُّ بأسُهُ عنِ القومِ المُجْرِمِينَ. ثم يقولُ[11]: رَبُّكُمْ ذو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ؛ يَسَعُ في رَحْمَتِهِ العَفْوَ إذا تُبْتُمْ.

وقالَ غَيْرُهُ مِنْ أهْلِ التَّأويلِ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا مُحمدُ حِينَ أنْبَأتَهُمْ بِما حَرَّمَ اللهُ عليهِمْ بِظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ

---

(١) في الأصل وم: ومن. (٢) في م: سمن. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: أوفا. (٥) من م، في الأصل: أخبر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الذين. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وجزاهم. (١١) في الأصل وم: قال.

ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَةٍ﴾ لا يُهلِكُ [أحداً](١) وقتَ ارتِكابِهِ المَعصِيَةَ، ولا يُعَذِّبُهُ حالةَ ذلكَ، لكنَّهُ يؤخِّرُهُ(٢) ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ أي عذابُهُ إذا نَزَلَ بقومٍ مُجرِمينَ بجُرمِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ قيلَ: الآيةُ في مُشركي العَرَبِ؛ قالُوا ذلكَ حِينَ لَزِمَتْهُمُ المُناقَضَةُ، وانقَطَعَ حِجاجُهُمْ في تحريمِهِمْ ما حَرَّمُوا مِنَ الأشياءِ، وأضافُوا ذلكَ إلى اللهِ، وهو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٣ و١٤٤] فَلَمّا لَزِمَتْهُمُ المُناقَضَةُ، وانقَطَعَ حِجاجُهُمْ، فَزِعُوا عنهُ.

إلى هذا القولِ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾. فيَقولُ اللهُ لِنَبيِّهِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ رُسُلَهُمْ كما كَذَّبَكَ هؤلاءِ، وكانُوا يَقُولونَ لِرُسُلِهِمْ ما قالَ لكَ هؤلاءِ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

ثم اختُلِفَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ قالَ الحَسَنُ والأصَمُّ: إن المَشِيئَةَ ههنا الرِّضا؛ قالُوا: رَضِيَ اللهُ بِفِعْلِنا/ ١٦٤ ـ ب/ وصَنيعِنا حِينَ(٣) فعَلَ آباؤُنا مِثْلَ ما فَعَلْنا، فلم يَحُلِ اللهُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ذلكَ، ولا أَخَذَ على أيديهِمْ، ولا مَنَعَهُمْ عنْ ذلكَ، فلو لم يَرْضَ بذلكَ عنْهُمْ لَكانَ يَحُولُ ذلكَ عنهُمْ، ومَنَعَهُمْ عنهُ، وإنما اسْتَدَلُّوا بالرِّضا مِنَ اللهِ والإِذْنِ في ما كانُوا فيهِ يُخَوِّفُونَ آباءَهُمُ الهَلاكَ والعذابَ بِصَنيعِهِمُ الذي كانُوا صَنَعُوا، ثم رَأَوْهُمْ ماتُوا على ذلكَ، ولم يأتِهِمُ العذابُ، فاسْتَدَلُّوا بِتَأخِيرِ نُزُولِ العذابِ عليهِمْ على أنَّ اللهَ تعالى رَضِيَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وبِظاهِرِ هذِهِ الآيةِ لِلْمُعتزِلَةِ أدنى تَعَلُّقٍ؛ لأنهُمْ يقولُونَ: إنَّ اللهَ تعالى قد رَدَّ ذلكَ القولَ الذي قالُوا، وعاتَبَهُمْ على ذلكَ القولِ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ وأوعَدَهُمْ على ذلكَ وَعيداً شَديداً. فلو كانَ يجوزُ إضافةُ المَشِيئَةِ إلى اللهِ تعالى في ذلكَ على ما تُضِيفُونَ أنْتُمْ لم يَكُنْ يَرُدُّ ذلكَ عليهِمْ، ولا عاتَبَهُمْ على ذلكَ، ولا أوعَدَهُمْ وَعيداً في ذلكَ. دَلَّ أنهُ لا يجوزُ أنْ يُقالَ ذلكَ ولا إضافةُ المَشِيئَةِ إليهِ في ذلكَ.

فَنَقُولُ، وباللهِ التَّوفيقُ: إنَّ المَشِيئَةَ ههنا تَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ما قالَ الحَسَنُ والأصَمُّ مِنَ الرِّضا؛ قالُوا: إنَّ اللهَ تعالى رَضِيَ بذلكَ.

والثاني: الأمْرُ والدعاءُ إلى ذلكَ؛ يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، ودَعاهُمْ إلى ذلكَ.

والثالثُ: كانُوا يَقُولونَ ذلكَ على الاِسْتِهزاءِ والسُّخْرِيَّةِ لا على الحَقِيقَةِ.

وهكذا أمْرُ المَجُوسِ أنهُمْ إذا قِيلَ لهمْ هذا: لِمَ لا تُؤْمِنُونَ [ولا](٤) تُسْلِمونَ؟ يَقُولُونَ ما قالَ هؤلاءِ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لآمَنّا، و﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾. فهذا العتابُ الذي لَحِقَهُمْ والوَعِيدُ الذي أوعَدَهُمْ إنما كانَ لِما قالُوا اسْتِهزاءً منْهُمْ ولِما ادَّعَوا مِنَ الأمْرِ والادِّعاءِ(٥) على اللهِ، وافْتَرَوا عليهِ، والرِّضا أنهُ رَضِيَ بذلكَ.

على هذِهِ الوجوهِ الثلاثةِ تَخْرُجُ المَشِيئَةُ في هذا المَوضِعِ، واللهُ أعلَمُ، لا على ما قالَتْهُ المُعتزِلَةُ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؟ [مريم: ٦٦] هو كلمةُ حقٍّ. لكنْ قالَها اسْتِهزاءً وهُزُواً، فَلَحِقَهُ العِتابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي هلْ عِنْدَكُمْ مِنْ بَيانٍ وحُجَّةٍ مِنَ اللهِ دونَ أنْ يُمْهِلَكُمْ(٦) لِيُعَذِّبَكُمْ. أوَلَيسَ قد تَرَكَ مَنْ خالَفَكُمْ في ذلكَ؟ ثم لم يَدُلَّ تَرْكُهُ إياهُمْ على أنهُ رَضِيَ بذلكَ ، فقالَ اللهُ تعالى [: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما تَتَّبِعُونَ في ذلكَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾](٧) أي ما هُمْ إلّا يَخْرُصُونَ، ويُكَذِّبُونَ في ذلكَ؛ لَيسَتْ لَهُمْ حُجَّةٌ ولا بَيانٌ على ما يَدَّعُونَ مِنَ الأمْرِ والدُّعاءِ إلى ذلكَ والتَّرْكِ على ما هُمْ عليهِ على الرِّضا بِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يؤخر. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: والدعاء.

(٦) في الأصل وم: أمهلكم. (٧) في الأصل: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما تتبعون في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، في م: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما تتبعون في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أدرج في معجم القراءات القرآنية: قرأ النخعي: إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون، وهي قراءة شاذة، انظر المعجم المذكور [٢/ ٣٣٢].

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ التي إذا بَلَغَتْ كُلَّ شُبْهَةٍ أزالَتْها، وكلَّ غافلٍ نائمٍ نَبَّهَتْهُ، وأيقظَتْهُ. وقيلَ: الحُجَّةُ البالِغَةُ التامَّةُ القاهِرَةُ الظاهِرَةُ على كلِّ شَيءٍ الغالِبَةُ عليهِ، لم تَبْلُغْ شَيئاً إلّا قَهَرَتْهُ، وغَلَبَتْهُ.

وقالَ الحَسَنُ: الحُجَّةُ البالِغَةُ في الآخِرَةِ؛ ولا يُعَذِّبُ أحداً، ولا يُعاقِبُهُ إلّا لِحُجَّةٍ تَلْزَمُ، لا يُعاقِبُ بِهَوًى أوِ انْتِقامٍ أو شَهْوَةٍ على ما يُعاقَبُ في الشاهِدِ ولا غيرِهِ، ما مِنْ أحدٍ مِنَ الخَلائِقِ إلّا وللهِ عليهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ أمّا المَلَكُ المُقَرَّبُ فإنَّ اللهَ جَبَلَهُ على الطاعةِ، فلا يَعْصِيهِ، مَنّاً مِنَ اللهِ عليهِ وطَولاً وفَضْلاً، فهو مُقَصِّرٌ عن شكرِ نِعْمَةِ اللهِ عليه. وأمّا النَّبِيُّ المُرْسَلُ والعَبْدُ الصالحُ فَلِلَّهِ عليهما السَّبِيلُ والحُجَّةُ مِنْ غيرِ واحِدٍ.

ثم تَحْتَمِلُ الحُجَّةُ البالِغَةُ وجُوهاً:

أحدُها: هذا القرآنُ الذي أنْزَلَهُ على رسولِ اللهِ ﷺ آيةً مُعْجِزَةً وحُجَّةً بالِغَةً عَجِزَ[1] الخَلائِقُ عن إتيانِ مِثْلِهِ. فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عن إتيانِ مِثْلِهِ على أنهُ آيةٌ مِنْ آياتِ اللهِ وحُجَّةٌ مِنْ حُجَجِ اللهِ، أرْسَلَها على نَبِيِّهِ ﷺ.

والثاني: أنهُ جَعَلَ في كُلِّيَّةِ الخَلائِقِ والأشياءِ ما يَشْهَدُ أنَّ الخلائِقَ والأشياءَ كلَّها لها شهادةُ خَلْقِهِ، وتَدُلُّ كُلِّيَّةُ الأشياءِ على وَحْدانِيَّتِهِ، فهو حُجَّةٌ بالِغَةٌ.

والثالثُ: ألْسُنُ الرُّسُلِ وأنباؤُهُمْ إذْ[2] لم يُؤاخِذُوهُمْ بِكَذِبٍ قَطُّ في ما بَيْنَهُمْ، ولا جَرَى على لسانِهِمْ كَذِبٌ قَطُّ، ولا فُحْشٌ. عَصَمَهُمْ ﷺ عنْ ذلك، فدلَّ على أنهُمْ إنما خُصُّوا بذلكَ لِما أنَّ اللهَ جَعَلَهُمْ حُجَجاً وآياتٍ على وجهِ الأرضِ؛ حُجَّةٌ بالِغَةٌ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ في تَحْرِيمِ الأشياءِ وتَحْلِيلِها، لَيسَ لِهؤلاءِ الذينَ يُحَرِّمُونَ أشياءَ، لَهُمْ في تَحْرِيمِهِمْ حُجَّةٌ؛ إنما يُحَرِّمُونَ ذلكَ بِهَوى أنْفُسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: المَشِيئَةُ ههنا[3] مَشِيئَةُ القُدْرَةِ، وقالَ: لو شاءَ قَهَرَهُمْ، وأعْجَزَهُمْ حتى لم يَقْدِرُوا على مَعْصِيَةٍ قَطُّ على ما جَعَلَ الملائكةَ؛ جَبَلَهُمْ على الطاعةِ حتى لا يَقْدِرُوا على مَعْصِيَةٍ.

ثم هو[4] يُفَضِّلُ الملائكةَ على الرُّسُلِ والأنبياءِ والبَشَرِ جميعاً، ويقولُ: هُمْ مَجْبُورونَ على الطاعَةِ. فذلكَ تناقُضٌ في القولِ، لا يَجوزُ. مَنْ كانَ مَقْهُوراً مَجْبُوراً على الطاعَةِ يَفْضُلُ على مَنْ يَعْمَلُ بالاخْتِيارِ مَعَ تَمَكُّنِ الشَّهَواتِ فيهِ والحاجاتِ التي تَغْلِبُ صاحِبَها، وتَمْنَعُهُ عنِ العَمَلِ بالطاعةِ، ويقولُ: فَضَّلَهُمْ بالجَوهَرِ والأصْلِ، فلا يَجوزُ أنْ يكونَ لأحدٍ بالجَوهَرِ نَفْسِهِ فَضْلٌ على ذلكَ الجَوهَرِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَذْكُرْ فَضْلَ شَيءٍ بالجَوهَرِ إلّا مَقْروناً بالأعمالِ الصالِحَةِ الطَّيِّبَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وقولِهِ[5] تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ونَحْوَهُ، لم يُفَضِّلْ أحداً[6] بالجَوهَرِ على أحدٍ، ولكنْ إنما فَضَّلَهُ بالأعمالِ الصالِحَةِ. لِذلكَ قُلْنا: إنَّ قولَهُ[7] يَخْرُجُ على التَّناقُضِ.

وتأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [عندَنا ظاهرٌ: لو][8] شاءَ اللهُ لَهَداهُمْ جميعاً، ووَفَّقَهُمْ لِلطّاعةِ، وأرْشَدَهُمْ. لِذلكَ هو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣]. فإذا كانَ المَيلُ إلى الكُفرِ لِمكانِ ما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الفِضَّةِ والزِّينَةِ، وإذا كانَ [ذلكَ الإيمانُ][9] لِلْمؤمنينَ آمَنُوا، ثم لم يَجْعَلْ [لهمْ][10] كذلكَ، دلَّ على أنَّ قولَهُمْ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] هو الأمْرُ والرِّضا، أو ذَكَرُوا على الاسْتِهْزاءِ حِينَ قالَ تعالى ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: المَشِيئَةُ ههنا مَشِيئَةُ قَسْرٍ وقَهْرٍ، وقد ذَكَرْنا ألّا يكونَ في حالِ القَهْرِ إيمانٌ، وإنما يكونُ في حالِ

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: هنا. (٤) الضمير يعود على الحسن. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: وغيره. (٦) من م، في الأصل: أحد. (٧) الضمير يعود على الحسن أيضاً. (٨) من م، في الأصل: فلو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

الإختيارِ، والمَشيئةُ مَشيئةُ الإختيارِ، ولا تَحتَمِلُ مَشيئةَ الخِلقةِ؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ بشهادةِ الخِلقةِ [يُؤمِنُ][1]. فدلَّ أنَّ التأويلَ ما ذَكَرْنا.

الآية ١٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ الذي تُحرِّمُونَ أنْتُم مِنَ الوَصِيلَةِ والسائبَةِ والحامي، وما حرَّمُوا مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ أنَّ اللهَ حَرَّمَهُ ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾. كيفَ قالَ: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾؟ دعاهُمْ إلى أنْ يأتوا بالحُجَّةِ؛ فإذا أقامُوها[2] لا تَشهَدْ مَعَهُمْ.

ولكنَّ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنهُمْ يَعلَمُونَ أنَّ التَّحريمَ إلى اللهِ لَيسَ إلى أحَدٍ مِنَ الخَلائِقِ ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ بأنهُ حَرَّمَ ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فإنهُمْ شَهِدُوا بباطِلٍ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ أمَرَهُ أنْ يَسألَهُمْ شُهداءَ مِنْ أهلِ الكتابِ يَشهَدون لَهُمْ بأنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا؛ لأنَّ هؤلاءِ كانُوا أهْلَ شِرْكٍ، وعَبَدَةَ الأوثانِ يَسألُونَ أهْلَ الكتابِ، وأهْلَ الرُّسُلِ[3]، يَشهَدونَ لَهُمْ بذلكَ. ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي [فلايشهَدوا][4] لَهُمْ بذلكَ، فلا تَشهَدْ أنتَ أيضاً مَعَهُمْ على الإخبارِ أنهُمْ لا يَشهَدُونَ.

وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ الآية [الحشر: ١٢] أخبَرَ عنِ المُنافِقِينَ أنهُمْ قالُوا: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] ثم أخبَرَ عنهُمْ أنهُمْ ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الآية [الحشر: ١٢] لكنهُ أخبَرَ أنهُمْ / ١٦٥ ـ أ/ لا يُقاتِلُونَ رأساً، وإلّا ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الحشر: ١٢] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ لأنهُمْ لا يَشهَدُونَ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشبِهُ أنْ يُسألُوا حتى يأتُوا بآبائِهِمْ حتى يَشهَدُوا؛ لأنهُمْ كانُوا يَقُولُونَ: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وإنَّ اللهَ رَضِيَ بِصَنيعِ آبائِنا [حِينَ لم يُهلِكْهُمْ][5]، وتَرَكَهُمْ على ذلكَ، فَيُسألونَ أنْ يأتُوا بأُولئكَ حتى يكونُوا هُمُ الذينَ يَشهَدُونَ على ذلكَ، فلَنْ يَجِدوا إلى ذلكَ سَبيلاً أبداً. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] فلا يَجِدُونَ [سَبيلاً إلى ذلكَ][6] أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دلَّ أنَّما كانُوا يُحرِّمُونَ إنما يُحرِّمُونَ بِهواهُمْ لا بِحُجَّةٍ وبُرهانٍ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يَعْدِلُونَ الأصنامَ في العِبادَةِ والأُلوهِيَّةِ بربِّهِمْ.

الآية ١٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يقولُ[7] ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ أقرأْ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ وأُبيِّنْ لَكُمْ ما حَرَّمَ بحجَّةٍ وبُرهانٍ، وأنَّ ما حَرَّمْتُمْ أنْتُمْ حَرَّمْتُمْ بِهوَى أنفُسِكُمْ، لا حَرَّمْتُمْ بأمرٍ أو حُجَّةٍ وبُرهانٍ.

ثم بَيَّنَ الذي حَرَّمَ عليهِمْ، فقال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الشِّرْكُ حرامٌ بالعقلِ، ويَلزَمُ كُلَّ عَقلٍ التَّوحيدُ ومَعرِفَةُ الرَّبِّ لِما كانَ منهُ مِنْ تَركِيبِ الصُّوَرِ وتَقويمِها بأحسَنِ صُوَرٍ، يَرَونَ، فَيَعرِفُونَ[8] أنهُ لم يُصَوِّرْها أحَدٌ سِواهُ، ولا قَوَّمَها، ولا يَشرَكُهُ آخَرُ في ذلكَ، وما كانَ منهُ إليكُمْ مِنْ أنواعِ الإحسانِ والأيادِي، فكيفَ تُشرِكُونَ غيرَهُ في أُلوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ؟ فذلكَ حرامٌ بالعقلِ والسَّمْعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: على الوَقْفِ والقَطْعِ على قولِهِ ﴿رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ والابتداءِ مِنْ قولِهِ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ كأنهُ قالَ ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فقالُوا: أيش الذي حَرَّمَ علَينا؟ فقالَ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

والوجهُ الآخَرُ عل الوَصْلِ[9] بالأوَّلِ، ولكنْ على طَرْحِ: لا، فيكونُ كأنهُ قالَ: أتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عليكُمْ أنْ تُشرِكُوا بِهِ شيئاً، وحرفُ لا: قد [يُطرَحُ، ويُزادُ][10] في الكلامِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قاموها. (٣) في الأصل وم: رسل. (٤) في الأصل وم: لا يشهدون. (٥) في الأصل: حيث لم يهلكم، في م: حيث لم يهلكهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يقولون. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الأصل. (١٠) في الأصل وم: تطرح وتزاد.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي برّاً بهما. فإنْ قِيلَ: قالَ تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وههنا يَأمُرُ بالإحسانِ إليهما[1]، [ولم يَذكُرِ المُحَرَّمَ، قِيلَ: في الأمْرِ بالإحْسانِ إليهما][2] تَحريمُ تَرْكِ الإحسانِ. فكأنهُ قالَ: حَرَّمَ تَرْكَ الإحسانِ إلى الوالِدَينِ، وفَرَضَ عليكُمْ بِرَّهُما والإحسانَ إليهما.

ثم فيهِ أنكُمْ تَعْرِفونَ بالعَقْلِ أنَّ الإحْسانَ إلى الوالِدَينِ واجِبٌ والإساءةَ إليهما حَرامٌ عليكُمْ. ولم يكُنْ مِنهُمْ إليكُمْ مِنَ الإحْسانِ أكْثرُ مِمّا كانَ مِنَ اللهِ إليكُمْ، فكيفَ تَخْتارُونَ الإساءةَ إلى اللهِ والإشراكَ في عِبادَةِ غيرِهِ، ولا تَخْتارُونَ الإساءةَ إلى الوالِدَينِ، بل تَخْتارُونَ الإحْسانَ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ إنهُمْ كانُوا يَقْتُلُونَ أولادَهُمْ خَشْيَةَ الفَقْرِ والفاقَةِ، فهو مِمّا حَرَّمَ عليهِمْ. وهذا يَدُلُّ على أنَّ الحَظْرَ في حالٍ لا يُوجِبُ الإباحَةَ في حالٍ أُخرَى؛ لأنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] لَيسَ فيهِ إباحَةُ القَتْلِ إذا لم يكُنْ هنالكَ خَشْيَةُ الإملاقِ. ولكنْ ذَكَرَ هذا لأنهُمْ إنما كانُوا يَقْتُلُونَ في تلكَ الحالِ. ففي ذلكَ خَرَجَ النَّهْيُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي على ما نُخرِجُ لَكُمْ مِنَ الزَّرْعِ والثِّمارِ فَرِزْقُكُمْ مِنْ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ نَرْزُقُ أولادَكُمْ مِمّا نُخرِجُ مِنَ الأرضِ مِنَ الزَّرْعِ والثِّمارِ، فلا تَقْتُلُوهُمْ. فإذا لم تَقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ خَشْيَةَ الفَقْرِ والفاقَةِ كيفَ تَقْتُلُونَ أولادَكُمْ لذلكَ؟ فالذي يَرْزُقُكُمْ هو الذي يَرْزُقُ أولادَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ أي لا تُواقِعوها. ويَحْتَمِلُ لا تَدْنُوا منها، ولكنِ اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وبَيْنَ الفَواحِشِ والمُحَرَّماتِ حِجاباً مِنَ الحَلالِ. وهكذا الحَقُّ على المُسْلِمِ ألّا يَدْنُوَ مِنَ الحَرامِ، ويَجْعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ذلكَ حِجاباً وسِتْراً مِنَ الحَلالِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قِيلَ: الفَواحِشُ الزِّنَى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ المُخالَطَةُ باللسانِ والمُجالَسَةُ مَعَهُنَّ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ فِعْلُ الزِّنَى نَفْسُهُ؛ كانُوا يَجْتَمِعُونَ، ويُجالِسُونَهُنَّ، ولكنْ لا يُجامِعُونَهُنَّ بَيْنَ أيدِي الناسِ. ثم إذا خَلَوا بِهِنَّ زَنَوا بِهِنَّ.

وقِيلَ: كانُوا يَزْنُونَ بالحَرائِرِ سِرّاً وبالإماءِ[3] ظاهِراً، فَحَرَّمَ ذلكَ عليهِمْ.

وقِيلَ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ نِكاحُ الأمَّهاتِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزِّنَى، وكانَ نِكاحَ الأمَّهاتِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وسَعيدِ بنِ جُبَيرٍ رضي الله عنهما.

وقِيلَ: الفَواحِشُ المُحَرَّماتُ جُمْلَتُها؛ فما ظَهَرَ مِنها في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الخَلْقِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ اللهِ تعالى.

وقِيلَ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما يكونُ بالجَوارِحِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما يكونُ بالقَلْبِ.

وعنْ مجاهِدٍ [أنهُ][4] قالَ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الجَمْعُ بَيْنَ الأُخْتَينِ وتَزَوُّجُ الرجلِ امْرَأةَ أبيهِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ منها: الزِّنَى وما حَرَّمَ أيضاً.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما يَرَى غيرُهُ، ويُبْصِرُ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما يكونُ بالعَينِ والقَلْبِ على ما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «العَيْنانِ تَزْنِيانِ واليَدانِ تَزْنِيانِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ يكونُ زِناءَ العَينِ والقَلْبِ» [مسلم ٢١٥٧/ ٢١] لأنهُ لا يَعْلَمُهُ[5] غَيْرُ النّاظِرِ، واللهُ أعْلَمُ؛ يَصِيرُ كأنهُ ذَكَرَ التَّحريمَ في كُلِّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ؛ أي حَرَّمَ عليكُمُ [الشِّرْكَةَ، وحَرَّمَ عليكُمْ][6] تَرْكَ الإحسانِ إلى الوالِدَينِ، وحَرَّمَ قَتْلَ الأنْفُسِ إلّا بالحَقِّ؛ فَيَصِيرُ كأنهُ ذَكَرَ التَّحْريمَ في كُلٍّ مِنْ ذلكَ.

---

(١) في م: إليهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: أو بالإماء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعلم. (٦) ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إذا ارتَدَّ يُقتَلُ بِهِ، وفي القِصاصِ، وفي الزِّنى إذا كانَ مُحصَناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ ذلكَ، يَعْني المُحَرَّماتِ التي ذَكَرَ ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ اختُلِفَ فيه؛ قِيلَ: ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ فَرَضَ عليكُمْ، وقيلَ: ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ أمَرَكُمْ بِهِ، وقِيلَ: ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ بَيَّنَ لَكُمُ المُحَرَّمَ.وكُلُّهُ راجِعٌ إلى واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أنهُ لم يُحرِّمْ إلّا ما ذَكَرَ ههنا[1]، ولم يُحرِّمْ ما[2] حَرَّمْتُمْ أنتُمْ مِنَ الأنعامِ وغَيْرِها. يقولُ[3]: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لِكَي تَنْتَفِعوا بعُقولِكُمْ، أو يَقولُ: إنَّ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ لِتَعْقِلُوا؛ لأنَّ حَرْفَ: لَعَلَّ مِنَ اللهِ على الوُجوبِ. أو ﴿تَعْقِلُونَ﴾ عنِ اللهِ بما [خاطَبَكُمْ بِهِ، وأمَرَكُمْ][4].

الآية ١٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانِيُّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي لا تأكُلوا ﴿مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقالَ: ثم اختُلِفَ في الوَجْهِ الذي يَحْسُنُ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: هو أنْ يَعْمَلَ لَهُ، فَيأكُلَ مِنْ مالِهِ أجراً لِعَمَلِهِ. وقالَ آخَرونَ: يَأكُلُهُ قَرْضاً. وذلكَ مِمّا اختَلَفُوا فيه. وقال غَيْرُهُمْ: هو أنْ يَنْتَفِعَ بِدَوابِّهِ، ويَسْتَخْدِمَ جَوارِيَهُ، ونَحْوُ ذلكَ. وقالَ [غيرُهُمْ][5]: وذلكَ مِمّا لا يَحْتَمِلُ تأويلَ الآيَةِ.

وعِنْدَنا أنَّ الآيَةَ بِاحْتِمالِ هذا أولى لِما تَقَعُ لَهُمُ الضَّرُورَةُ في استِخدامِ مَمالِيكِهِ ورُكُوبِ دَوابِّهِ والانتِفاعِ بذلك لِما تَقَعُ لَهُمُ المُخالَطَةُ بأموالِ اليَتامى كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فإذا كانَ لَهُمُ المُخالَطَةُ لا يَسْلَمُونَ مِنَ[6] الانتِفاعِ بما ذَكَرْنا.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي إلّا بالوَجْهِ الذي جُعِلَ لَهُ. والوَجْهُ الذي جُعِلَ لَهُ هو أنْ يكونَ فَقِيراً، وهو مِمَّنْ تُفرَضُ نَفَقَتُهُ في مالِهِ، فَلَهُ أن يَقْرَبَ مالَهُ. وعِنْدَهُمْ أنَّ نَفَقَةَ المَحارِمِ تُفرَضُ [في][7] مالِ اليَتيمِ إذا كانوا فُقَراءَ. فَبانَ أنْ جَعَلَ لَهُ التَّناوُلَ في مالِهِ، وإنْ كانَ لا تُفرَضُ نَفَقَتُهُ في مالِهِ.

ثم الآيَةُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ عِنْدَنا:

أحَدُهُما: ألّا تَقْرَبُوا مالَ اليَتيمِ إلّا بالحِفْظِ والتَّعاهُدِ لَهُ؛ أمَرَ كافِلَ اليَتيمِ أنْ يَحْفَظَ مالَهُ ويَتَعاهَدَهُ،

والثاني: [أنْ][8] يَقْرَبَ مالَهُ بِطَلَبِ الزيادَةِ لَهُ والنَّماءِ.

ولِذلكَ قالَ أبو حَنِيفَةَ رحمه الله: إنهُ[9] يجوزُ لِكافِلِ اليَتيمِ إذا كانَ وَصِيّاً أنْ يَقْرَبَ مالَهُ بَيْعاً إذا كانَ ذلكَ خَيْراً لِلْيَتيمِ، إنْ وَقَعَ لَهُ الفَضْلُ، وطَلَبَ لَهُ الزِّيادَةَ والنَّماءَ ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

وقالَ أبو بَكْرٍ: قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يَبْلُغَ الوَقْتَ الذي يَتَوَلّى أمورَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ الآيَة [النساء: ٦].

وقالَ غَيْرُهُ مِنْ أهْلِ التَّأويلِ: الأشُدُّ ثَمانِي عَشْرَةَ سَنَةً. ويُشْبِهُ أن يكونَ الأشُدُّ هو/ ١٦٥ ـ ب/ الإدراكَ حتى يُدْرِكُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ في اليَتامى أيضاً؛

---

(١) في الأصل وم: ها. (٢) من م، في الأصل: وما. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: خاطبهم به وأمرهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل و م: عن. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بأنه.

أمَرَ أنْ يُوفُوا(١) لَهُمُ الكَيلَ والمِيزانَ، ونَهاهُمْ ألا يُوفُوا(٢) لَهُمْ على ما نَهاهُمْ عَنْ قُرْبانِ مالِهِمْ ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ في ذلك القَولِ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ مِنْكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ أي بِعَهْدِ اللهِ الذي عَهِدَ إليكُمْ في اليَتامَى أوفُوا بقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وقولِهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦] وغَيرِ ذلكَ أوفُوا بما عَهِدَ إليكُمْ منهمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ في اليَتامَى وفي غَيرِهِمْ، في كلِّ النَّاسِ؛ وهو لِوَجْهَينِ:

أحدُهُما: أنَّ في تَرْكِ الإيفاءِ اكْتِسابَ الضَّرَرِ على النَّاسِ ومَنْعَ حُقوقِهِمْ، فأمَرَ بإيفاءِ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثاني: لِلرِّبا لأنهُ يُلْزِمُ(٣) مِثْلَهُ كَيلاً في الذِّمَّةِ، فإذا لم يُوَفِّ(٤) حَقَّهُ، وأعطاهُ دونَهُ، صارَ ذلكَ الفَضْلُ لَهُ رِباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وَجْهَينِ:

أحدُهُما(٥): لا نُكَلِّفُ أحداً ما [في](٦) تكْليفِنا إيَّاهُ تَلَفُهُ [وإنْ كانَ يجوزُ لهُ تكْليفُ ما في التَّكْليفِ تَلَفُهُ](٧) كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ الآية [النساء: ٦٦] وعلى ما أمَرَ مِنْ بَني إسرائيلَ بِقَتْلِ أنْفُسِهِمْ.

والثاني: لا نُكَلِّفُ أحداً ما [في](٨) تكْليفِنا إيَّاهُ مَنْعُهُ نَحْوَ مَنْ يُؤْمَرُ بِشَيءٍ، لم يُجْعَلْ لهُ الوصولُ إلى ذلكَ أبداً. ويجوزُ أنْ يُؤْمَرَ بأمرٍ، وإنْ لم يكُنْ لَهُ سَبَبُ ذلكَ الأمرِ بَعْدَ أنْ يُجْعَلَ له(٩) الوصولُ إلى ذلكَ السَّبَبِ، نَحْوُ مَنْ يُؤْمَرُ بالصلاةِ، وإنْ لم يكُنْ مَعَهُ سَبَبُ ذلكَ، وهو الطهارةُ، ونَحْوُ مَنْ يُؤْمَرُ بالحَجِّ بقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ﴾ [آل عمران: ٩٧]. هذا يَدُلُّ على أنَّ مَنْ جُعِلَ في وُسْعِهِ الوُصولُ إلى شَيءٍ يَجوزُ أنْ يُكَلَّفَ ذلكَ(١٠)، ويَصيرُ بِاشْتِغالِهِ بِغَيرِهِ مُضَيِّعاً أمْرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ قالَ بعضُ أهْلِ التَّأويلِ: هذا في الشهادةِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الآية [النساء: ١٣٥]. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ كُلَّ قولٍ. والقَولُ أحَقُّ أنْ تُحفَظَ فيهِ العَدالةُ مِنَ الفِعْلِ، لأنهُ بها(١١) تَظْهَرُ الحِكْمَةُ مِنَ السَّفَهِ والحَقُّ مِنَ الباطِلِ، فهو أولَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ أي بِعَهْدِ اللهِ الذي عَهِدَ إليكُمْ في التَّحْليلِ والتَّحْريمِ والأمرِ والنَّهْيِ وغَيرِ ذلكَ. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ذَكَرَ ههنا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الآيةِ الأولَى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ وفي الآيةِ التاليةِ(١٢) ﴿تَتَّقُونَ﴾ إذا عَقَلُوا تَفَكَّرُوا، واتَّعَظُوا، وعَرَفُوا ما يَصْلُحُ، وما لا يَصْلُحُ، وقولُهُ تعالى: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَتَّعِظونَ بِما وَعَظَكُمْ بِهِ، وزَجَرَكُمْ عنهُ، أو: ﴿تَتَّقُونَ﴾ مَهالِكَكُمْ، وتَتَّقُونَ مَحارِمَكُمْ.

الآية ١٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذَكَرَ في هذِهِ الآياتِ مِنْ أمْرِهِ ونَهْيِهِ وتَحْليلِهِ وتحريمِهِ ﴿صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ على ما قالَهُ أهْلُ التَّأويلِ: إنها آياتٌ مُحْكَماتٌ لم يَنْسَخْهُنَّ شَيءٌ في جميعِ الكُتُبِ، وهُنَّ مُحْكَماتٌ(١٣) على بَني آدَمَ كُلِّهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الذي دعا إليهِ الرُّسُلُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ هو ﴿صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ لأنَّ الرُّسُلَ يَدْعُونَ إلى ما يَدْعُونَ بالحُجَجِ والبَراهِينِ.

(١) في الأصل وم: يعرفوا. (٢) في الأصل وم: يعرفوا. (٣) في الأصل وم: لزم. (٤) في الأصل وم: يعرف. (٥) في الأصل وم: يحتمل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: لهم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (١١) في الأصل وم: به. (١٢) في الأصل وم: الأخيرة. (١٣) في الأصل وم: محرمات.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ أصْلَ الدينِ وَوَحْدانيَّةَ اللهِ وإخلاصَ الأنفُسِ لَهُ على غَيْرِ إشراكٍ في عِبادَتِهِ وأُلوهيَّتِهِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ هو[1] الذي ذُكِرَ في القرآنِ أوّلاً[2] ذُكِرَ هذا، ولم يُشِرْ إلى شيءٍ بعَينِهِ. فَيَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أمَرَ ﷻ باتّباعِ ما ذَكَرَ مِنَ الصِّراطِ المُستَقيمِ، ونَهى عنِ اتّباعِ السُّبُلِ؛ لأنَّ غَيْرَهُ مِنَ الأديانِ المُخْتَلِفَةِ والأهواءِ المُتَشتِّتَةِ لا حُجَّةَ لها[3]، ولا بُرْهانَ، وما ذَكَرَ مِنَ الصِّراطِ المُستَقيمِ هو دينٌ بِحُجَّةٍ وبُرهانٍ لا كَغَيرِهِ[4] مِنَ الأديانِ، وإنْ كانَ يَدَّعِي كلٌّ مِنْ [أصحاب تلكَ الأديانِ][5] أنَّ الذي هو عليهِ دينُ اللهِ وسَبيلُهُ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المُحرَّماتِ والمَناهِيَ والمَعاصِيَ التي ذُكِرَ في هذِهِ، و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ السُّبُلَ والأديانَ المُخْتَلِفَةَ.

وأصْلُهُ أنَّ السَّبيلَ المُطْلَقَ سَبيلُ اللهِ، والدينَ المُطْلَقَ دينُ اللهِ والكِتابَ المُطْلَقَ كتابُ اللهِ.

الآية ١٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قال الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي أحْسَنَ صُحْبَتَهُ، تَمَّتْ نِعْمَةُ اللهِ وكَرامَتُهُ عليهِ في الآخِرَةِ. وقيلَ[6]: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ يَعْني على المُحسِنينَ والمُؤمِنينَ. وعلى [الذي أحْسَنَ بِمَعْنى لِلَّذي][7] آمنَ. ويجوزُ على في مَوضِعِ اللامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ. وقتادةُ قالَ: فَمَنْ أحْسَنَ في ما آتاهُ اللهُ تَمَّتْ عليهِ كَرامَةُ اللهِ في جَنَّتِهِ ورِضوانِهِ، ومَنْ لم يُحْسِنْ في ما آتاهُ اللهُ [ولا عُذْرَ لَهُ][8] نَزَعَ اللهُ ما في يَدِهِ، ثم أبْلاهُ[9].

وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي ثم آتيناكُمْ مِنَ الحُجَجِ والبَيانِ تَماماً مِنْ مُوسَى وكِتابِهِ؛ أي مُوسَى وكتابُهُ مُصَدِّقٌ ومُوافِقٌ لِما أعطاكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ الآية [هود: ١٧].

ويَحتَمِلُ [﴿تَمَامًا﴾ تمامَ ما ذَكَرْنا][10] بالنِّعْمَةِ والكَرامَةِ، ويَحتَمِلُ ﴿تَمَامًا﴾ بالحُجَّةِ والبَيانِ و﴿تَمَامًا﴾ بالحِكْمَةِ والعِلْمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي لِلَّذي أحْسَنَ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ ﴿تَمَامًا عَلَى﴾ الذينَ أحْسَنُوا ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي تِبْياناً لِكُلِّ شيءٍ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلالاتِ والشُّبُهاتِ ونِعْمَةً ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِنَ العذابِ والعِقابِ ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ولِيَكُونُوا ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ على التَّحْقيقِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][11] قالَ: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ يَقولُ: أتَمَّ لَهُ الكتابَ على أحْسَنِهِ على الذي بَلَغَ مِنْ رسالَتِهِ وتَفْصِيلِ كلِّ شيءٍ [أي][12] بيانِ كُلِّ شيءٍ ﴿وَهُدًى﴾ أي تِبْياناً مِنَ الضلالةِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي نِعْمَةً ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ يُؤمِنونَ أي لِيَكُونُوا بالبَعْثِ [يؤمِنونَ][13].

ومِنْهُمْ مَنْ يَقولُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ إنهُ، وإنْ أتَى بِحَرْفِ التَّرْتيبِ فإنهُ على الإخبارِ، كأنهُ قالَ: ثم قد كُنّا ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ مَعْناهُ: وقد آتيناهُ.

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يَعْني القرآنَ ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ قال أبو بَكْرٍ الكَيْسانيُّ: البَرَكَةُ هي التي مَنْ تَمَسَّكَ بها أوصَلَتْهُ إلى كُلِّ خَيْرٍ، وعَصَمَتْهُ مِنْ كلِّ شَرٍّ. وهو المُبارَكُ لِمَنْ أخَذَهُ، واتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بِهِ، فهو مُبارَكٌ لَهُ. سُمِّيَ هذا القرآنُ مُبارَكاً لِما يُبارِكُ فيهِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ؛ هو مُبارَكٌ لِمُتَّبِعِهِ والعامِلِ بِهِ، ومَنْ[14] لم يَتَّبِعْهُ فَلَيسَ هو بِمُبارِكٍ لَهُ، بل هو عليهِ

---

(١) في الأصل: و، في م: أو. (٢) في الأصل وم: ولا. (٣) في م: عليها. (٤) من م، في الأصل: كغير. (٥) في الأصل وم: تلك.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: بمعنى الذي أحسن وللذي. (٨) أدرجت في الأصل وم بعد: أبلى الله. (٩) في الأصل وم: أبلى الله. (١٠) في الأصل وم: تمام ما ذكرنا تماماً. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.
(١٤) في الأصل وم: وإلا من.

شِدَّةٌ ورِجْسٌ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ و١٢٥] فهوَ ما ذَكَرْنا مُباركٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وتَمَسَّكَ بِهِ.

وسُمّيَ مَجيداً وكَريماً لِمَنِ اتَّبَعَهُ يَصيرُ مَجيداً كَريماً، وكذلكَ سُمّيَ رُوحاً وحَياةً لِما يَحْيَى بِهِ مَنِ اتَّبَعَهُ.

وأصْلُ البَرَكةِ هو أنْ يُنْتَفَعَ بِشَيءٍ على غَيرِ تَبِعَةٍ، فهو البَرَكَةُ. وعلى ذلكَ يَخْرُجُ قولُ الناسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: بارَكَ اللهُ لَكَ في كذا؛ أي جَعَلَ لكَ فيهِ مَنافِعَ، لا تَبِعَةَ عليكَ. فَعلَى هذا يَجيءُ أنْ يكونَ القرآنُ مُبارِكاً بِكَسْرِ الرّاءِ. لكنْ قِيلَ: مُبارَكٌ لِانْتِفاعِ الناسِ بِهِ.

والبَرَكَةُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: اسْمٌ لِكُلِّ خَيرٍ يكونُ أبداً عل النَّماءِ والزِّيادةِ.

والثاني: اسْمٌ لِكُلِّ مَنْفَعَةٍ، لا تَبِعَةَ عليهِ، ولا مُؤْنَةَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي اتَّبِعُوا إشاراتِهِ، واتَّقُوا نواهِيَهُ ومَحارِمَهُ، تُرْحَموا[1].

الآية ١٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ قالَ أهْلُ التَّأويلِ/ ١٦٦ ـ أ/ ﴿أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ اليَهودِ والنَّصارى، ومَتى أُنْزِلَ الكتابُ على اليَهودِ والنَّصارى فإنما[2] أُنْزِلَ[3] على المُسْلِمِينَ. لكنَّ المَعْنى، واللهُ أعْلَمُ، إنما أُنْزِلَ الكِتابُ على طائِفَتَينِ؛ أي إنما ظَهَرَ نزولُ التَّوراةِ والإنْجيلِ عندَ الخَلْقِ بطائِفَتَينِ مِنْ قَبْلِنا، سُمّوا يَهوداً ونَصارَى، [يَهودَ التوراةِ ونَصارى الإنجيلِ][4] وإلّا لم يكُنْ وقْتَ نُزولِ التوراةِ يَهودٌ ونزولِ الإنجيلِ نَصارَى.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ لِئَلّا تقولُوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ ولم يُنْزَلْ علَينا.

ويجوزُ أنْ بِمَعْنى لَنْ؛ أي: لَنْ تقولُوا إنما أُنْزِلَ الكتابُ كقولِهِ تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣] أي لَنْ يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي قد كُنّا عن دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ. ويَجيءُ أنْ نكونَ عنْ دِراسَتِهِمْ لأنها دِراسَةُ الكُتُبِ. لكنْ أُضِيفَ إليهِمْ أي أولئكَ القومِ.

الآية ١٥٧ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ هو ما ذَكَرْنا: لِئَلّا تقُولُوا ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أنْزَلَ اللهُ ﷻ هذا القرآنَ قَطْعاً لِحِجاجِهِمْ ومَنْعاً لِعُذْرِهِمْ، وإنْ لم يكُنْ لَهُمُ الحِجاجُ والعُذْرُ. وعلى ذلكَ يَخْرجُ قولُهُ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] لا يكونُ لَهُمْ حُجّةٌ على اللهِ، وإنْ لم يُنَزِّلِ الرُّسُلَ والكُتُبَ.

ثم يَحْتَمِلُ عُذْرُ هؤلاءِ [واحْتِجاجُهُمْ وَجهَينِ:

أحدُهما][6]: إنما أُنْزِلَ الكتابُ بِلِسانِهِمْ، لم يُنْزَلْ بِلِسانِنا، ونَحْنُ لا نَعْرِفُ لِسانَهُمْ، وكُنّا ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾. ولو كانَ لهمُ العُذْرُ والاحْتِجاجُ[7] بهذا لَكانَ لِلْعَجَمِ الاحْتِجاجُ والعُذْرُ في تَرْكِ اتِّباعِ القُرآنِ لِما لم يُنْزَلْ بِلِسانِ العَجَمِ، ولم يَعْرِفُوا هُمْ لِسانَهُمْ؛ أعني لسانَ العربِ. ثم لم يكُنْ لِلْعَجَمِ الاحْتِجاجُ بذلكَ لِما جَعَلَ لَهُمْ سَبيلَ الوصولِ إلى مَعْرِفَتِهِ. فَعلَى ذلكَ لا عُذْرَ لِلْعَرَبِ في تَرْكِ اتِّباعِ ما في الكُتُبِ التي أُنْزِلَتْ بِغَيرِ لِسانِهِمْ لِما في وُسْعِهِمُ الوُصُولُ إلى مَعْرِفَتِها والتَّعَلُّمُ مِنْهُمْ والأخْذُ عنْهُمْ. وهذا يَدُلُّ على أنْ يَجوزَ التَّكْليفُ بأشياءَ لَيْسَتْ مَعَهُمْ أسْبابُها بَعْدَ أنْ جَعَلَ لَهُمْ سَبيلَ الوُصُولِ إلى تلكَ الأسبابِ.

---

(١) في الأصل وم: رحم. (٢) في الأصل و م: انما. (٣) في الأصل وم: التوراة والإنجيل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

والثاني: في احتجاجِهِمْ أنْ يَقولُوا: إنَّ اليهودَ والنَّصارَى قَدِ اختَلَفَتْ، وتفرَّقَتْ فِرَقاً، لا اجْتِماعَ بَيْنَها[1] أبداً. فكيف نَتْبَعُهُمْ في ذلكَ؟ فقالَ: إنَّ مذاهِبَهُمْ وكُتُبَهُمْ إنما تفرَّقَتْ بِهِمْ وبِقَوْلِهِمْ؛ فقد أنْزَلَ مِنَ الحُجَجِ والبَيانِ ما يُعْرَفُ ذلكَ الذي تَفرَّقَ بِهِمْ، فلا حُجَّةَ لَهُمْ في ذلكَ. وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وقد جاءَتْهُمْ آياتٌ، فلم يُؤْمِنُوا. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ المجوسَ لَيسُوا مِنْ أهْلِ الكتابِ لأنهُمْ لو كانُوا أهْلَ الكتابِ صارَ أهْلُ الكتابِ ثلاثَ طَوائِفَ؛ وقد أخْبَرَ انهُ ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ﴾ وذلكَ مُحالٌ. فإنْ قِيلَ: إنما هذا حِكايَةٌ عَنِ المُشْرِكينَ؛ ومَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ، إني أنْزَلْتُ عليكُمُ الكِتابَ لِئلَا تَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ فلم يَقولُوا ذلكَ. ولكنَّ اللهَ قَطَعَ بإنْزالِهِ الكتابَ حُجَّتَهُمُ التي عَلِمَ أنهُمْ كانُوا يَحْتَجُّونَ بها، لو لم يُنْزِلْهُ، وإنْ لم يَكُنْ لَهُمْ في ذلكَ حُجَّةٌ ولا عُذْرٌ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قِيلَ: القرآنُ، وقِيلَ: محمدٌ ﷺ ﴿وَهُدًى﴾ هُدًى مِنَ الضَّلالَةِ وكلِّ شُبْهَةٍ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي ذلك منهُ رَحْمَةٌ ونِعْمَةٌ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قِيلَ: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ حُجَجُ اللهِ، وقِيلَ: دينُ اللهِ. وقد ذَكَرْناها في غَيْرِ مَوْضِعٍ. وقد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ حَرْفُ اسْتِفْهامٍ في الظاهِرِ، ولكنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ على الإيجابِ؛ كأنهُ قالَ: لا أحَدَ أوْحَشُ ظُلْماً ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

الآية ١٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا﴾ كذا[2] قالَ أهْلُ التأويلِ: ما يَنْظُرُونَ، [وحَرْفُ هَلْ: هو حَرْفُ اسْتِفْهامٍ وتَعَجُّبٍ، لكنَّ أهْلَ التَّأويلِ قالُوا: ما يَنْظُرُونَ][3] حَمَلُوا على الجَوابِ؛ لأنهُ لم يَخْرُجْ لهُ جوابٌ. فَجَوابُهُ ما قالُوا: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحَدَ أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ، هو جَوابٌ؛ لأنَّ جَوابَهُ لم يَخْرُجْ. فَجَوابُهُ ما قالُوا: لا أحَدَ أظْلَمُ؛ لأنهُ سُؤالٌ واسْتِفْهامٌ، فَجَوابُهُ ما ذَكَرُوا. فَعَلَى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هو اسْتِفْهامٌ، ولم يَخْرُجْ لهُ الجَوابُ، فَجَوابُهُ: لا يَنْظُرونَ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ في المُعانِدِينَ مِنْهُمْ والمُتَمَرِّدِينَ الذينَ هِمَّتُهُمُ العِنادُ والتَّعَنُّتُ؛ خَرَجَ على إياسِ رسولِ اللهِ ﷺ حَريصاً على إيمانِهِمْ مُشْفِقاً على أنْفُسِهِمْ حتى كادَتْ نَفْسُهُ تَذْهَبُ حَسَراتٍ عليهِمْ حِرْصاً على إيمانِهِمْ وإشفاقاً على أنْفُسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦، والشعراء: ٣] ونَحْوَهُما[4].

فَأَيَسَهُ اللهُ تعالى مِنْ إيمانِ أولئكَ الكَفَرةِ لِئلَا يَطْمَعَ في إيمانِهِمْ وإسْلامِهِمْ بَعْدَ ذلكَ، ولا تَذْهَبَ نَفْسُهُ حَسَراتٍ عليهِمْ، ولِيَتَّخِذَهُمْ[5] أعداءً، ويُبْغِضَهُمْ، ويُخْرِجَ الشَّفَقَةَ التي في قَلْبِهِ لَهُمْ، ولِيَتَأَهَّبَ لِعَداوتِهِمْ، ويَتَبَرَّأَ منهُمْ كما فَعَلَ إبراهيمُ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وكما قالَ لِنُوحٍ ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] آيَسَهُ اللهُ مِنْ إيمانِ قَوْمِهِ إلّا مَنْ قد آمَنَ، ونَهاهُ أنْ يَحْزَنَ عَلَيهِمْ، وعلى فَوتِ إيمانِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا آيَسَ رسولَ اللهِ ﷺ مِنْ إيمانِهِمْ، ونَهاهُ أنْ يَحْزَنَ عليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إلّا لِلْوَقْتِ الذي ذَكَرَ أنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ في ذلكَ الوقْتِ، وهو[6] وَقْتُ نُزولِ الملائكةِ وإتيانِهِمْ بآياتِهِ[7]، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

ثم قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بِقَبْضِ الأرواحِ مَعَ اللَّعْنِ والسُّخْطِ. فَعِنْدَ ذلكَ يُؤْمِنُونَ باللهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يَوْمَ القِيامَةِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

---

(١) في الأصل وم: بينهم. (٢) من م، في الأصل: كذاباً. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج في الأصل قبلها: الذي. (٧) في الأصل وم: بآياتهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ على الأمرِ؛ كأنهُ قالَ: أوْ يَأْتِيَ أمرُ رَبِّكَ على ما ذُكِرَ في سورةِ النَّحلِ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٣٣]. ثم الأمرُ، فيهِ عذابُ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٥٨ و...] يَعْنِي عذابَنا. فَعَلَى ذلكَ في هذا أَمْرُ اللهِ عذابُ اللهِ.

والأصلُ في ما أُضِيفَ إلى اللهِ في مَوضِعِ الوَعِيدِ، لا يُرادُ بهِ الذاتُ، ولكنْ يُرادُ بِهِ نَقْمَتُهُ وعَذابُهُ وعُقُوبَتُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و٣٠]، لا يُريدُ بِهِ [ذاتَهُ][1]، ولكنْ يُريدُ نَقْمَتَهُ وعذابَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥] لا يُريدُ لِقاءَ ذاتِهِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و...] [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠ و...] وغيرُها مِنَ الآياتِ لا يُرادُ بِهِ ذاتُهُ، ولكنْ يُرادُ بِهِ عَذابُهُ ونَقْمَتُهُ. أو نَقولُ: إنَّ كلَّ شيءٍ، يُرادُ بِهِ تَعْظيمُهُ، يُضافُ إلى اللهِ تعالى، فَيُرادُ [بإضافةِ اليومِ إلى اللهِ تعالى][3] تَعْظِيمُ ذلكَ اليومِ أو تَعْظِيمُ عَذابِهِ ونَقْمَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ تَحْتَمِلُ بَعْضَ آياتِهِ ما قالَ ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] ونَحْوَها[4] مِنَ الآياتِ؛ يؤمِنُونَ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العَذابَ، ولا يَنْفَعُهُمُ الإيمانُ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ أهلُ التأويلِ: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها وخُرُوجَ الدَّجّالِ وخُرُوجَ الدّابَّةِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: «ثلاثٌ إذا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾» [مسلم ١٥٨].

وقالَ أبو هُرَيرةَ ﷺ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «بادِرُوا بالأعمالِ سِتاً: طُلوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها والدَّجّالَ والدُّخانَ ودابَّةَ الأرضِ وخُوَيْصَةَ أحدِكُمْ وأمرَ العامَّةِ» [مسلم ٢٩٤٧/١٢٩] وخُوَيْصَةُ/١٦٦ ـ ب/ أحدِكُمْ: الموتُ، وأمْرُ العامَّةِ: الساعةُ إذا قامَتْ.

وعنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: التَّوبةُ مَعْرُوضَةٌ حتى تَطْلُعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبِها. ثم قالَ: مَهْما يَأْتِ عليكُمْ عامٌ، فالآخَرُ شَرٌّ. ونَحْوُهُ مِنَ الأخبارِ. فإنْ ثَبَتَتْ فهيَ المُعْتَمَدَةُ.

وعنْ عائشةَ ﷺ [أنها][7] قالَتْ: إذا خَرَجَ أوَّلُ الآياتِ طُرِحَتِ الأقلامُ، وحُبِسَتِ الحَفَظَةُ[8] وشَهِدَتِ الأجسادُ على الأعمالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أخبَرَ أنَّ الإيمانَ، لا يَنْفَعُ في ذلكَ الوقْتِ [لِوُجوهٍ]:

أحَدُها: أنهُ[9] لَيسَ بإيمانِ اختيارٍ في الحَقيقةِ، إنما إيمانُ دَفْعِ العَذابِ والبَأْسِ عنْ أنْفُسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] أخبَرَ أنهُمْ لو رُدُّوا إلى الدنيا لَعادُوا إلى تكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وكُفْرِهِمْ باللهِ. فَدَلَّ أنَّ إيمانَهُمْ في ذلكَ الوقْتِ إيمانُ دَفْعِ العذابِ والبأسِ وإيمانُ خوفٍ، وهو كإيمانِ فِرْعَونَ حِينَ[10] ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] لم يَنْفَعْهُ إيمانُهُ في ذلكَ [الوَقْتِ][11] لأنهُ إيمانُ دَفْعِ الهَلاكِ عنْ نَفْسِهِ لا إيمانُ حَقيقةٍ باختيارٍ.

والثاني: أنهُ في ذلكَ الوَقْتِ وَقْتِ نُزُولِ العَذابِ لا يُقْدَرُ أنْ يُسْتَدَلَّ بالشاهِدِ على الغائِبِ لِيكونَ [قولُ المرءِ][12] قولاً عنْ مَعْرِفةٍ وعِلْمٍ، وإنما هو قولٌ يَقُولُهُ بِلِسانِهِ لا عَنْ مَعْرِفةٍ في قَلْبِهِ في ذلكَ الوَقْتِ لِما ذَكَرْنا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] لأنهُ إيمانُ دَفْعِ البَأْسِ والعَذابِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: به. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الخطبة. (٩) في الأصل وم: لأنه. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: قوله.

[والثالثُ أنهُ][1]: يُبالِغُ بِالاجتِهادِ حتى يكونَ إيمانُهُ إيماناً باجْتِهادٍ؛ لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

والرابعُ[2]: أنْ يكونَ في طُلوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها وخُروجِ الدَّجّالِ ودابَّةِ الأرضِ وما ذُكِرَ مِنَ البلاءِ والشِّدَّةِ والعَذابِ ما يَضْطَرُّهُمْ إلى الإيمانِ بِهِ، فيكونُ إيمانُهُمْ إيمانَ اضْطِرارٍ لا اخْتِيارٍ.

ويُشْبِهُ أنْ تكونَ [الأحاديثُ][3] التي رُوِيَتْ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ لا تُقْبَلُ التَّوبَةُ بَعْدَ طُلوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها وبَعْدَ خُروجِ الدَّجّالِ ودابَّةِ الأرضِ؛ أي لا يُثابُونَ على طاعاتِهِمْ، وإلّا فَمِنَ البَعيدِ أنْ يَدْعُوَ إلى الإيمانِ والطاعاتِ. ثم إذا أتَوا بها لم تُقْبَلْ مِنْهُمْ، لكنهُ يُحْتَمَلُ ما ذَكَرْنا ألّا يُثابوا[4] على ذلكَ، ويُعاقَبوا[5] بما كانَ مِنْهُمْ مِنَ الكُفْرِ وكُفْرانِ النِّعَمِ؛ لأنَّ جِهَةَ الثوابِ إفْضالٌ وإحْسانٌ، وفي الحِكْمَةِ شِرْكُ[6] الإفضالِ بالثوابِ في الطاعاتِ، إذا كانَ مِنَ اللهِ ﷻ مِنَ النِّعَمِ ما يكونُ ذلكَ شُكْراً لَهُ، والعقابُ على الكُفْرِ مِمّا تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ. لذلكَ كان ما ذَكَرْنا.

ولِهذا يَخْرُجُ قولُ أبي حَنيفَةَ ﷺ حينَ قالَ: لا ثَوابَ لِلْجِنِّ على طاعاتِهِمْ لأنَّ طَريقَ وُجوبِهِ الإفضالُ، ولم يُذْكَرْ [لهم][7] ذلكَ، ويُعاقَبونَ بما كانَ منهُمْ مِنَ الكُفْرانِ والأجرامِ ما ذَكَرْنا مِنَ المَعْنى الذي وَصَفْنا، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ عندَ مُعايَنَةِ العذابِ والبَأْسِ والآياتِ إذا ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي لا يَنْفَعُ ذا إلّا بذا؛ إذا عَمِلَتْ خيراً، ولم تَكُنْ آمَنَتْ، لا يَنْفَعُها[8] ذلكَ، [ولنْ يَنْفَعَها إيمانُها][9] عندَ معايَنَةِ العذابِ والآياتِ إذا لم تكنْ كَسَبَتْ قَبْلَ ذلكَ خيراً.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها إذا لم تَعْزِمْ ألّا تَرْتَدَّ، ولا تَرْجِعَ عنهُ أبداً. وقيلَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي لا يَنْفَعُ إيمانُها ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ﴾ تَصْديقِها التَّعْظيمَ للهِ والإجلالَ. فَعِنْدَ ذلك يَنْتَفِعُ صاحِبُهُ، لأنهُ لا كلُّ تَصْديقٍ يكونُ فيهِ التَّعْظيمُ للهِ والإجلالُ، إذا لم يَكُنْ فيهِ التَّعْظيمُ لَهُ. وقيلَ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي لم تكنْ عَمِلَتْ في تَصْديقِها خيراً قَبْلَ مُعايَنَةِ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ هو يَخْرُجُ على الوعيدِ؛ أي انْتَظِرُوا إحْدَى هذِهِ الثلاثِ التي ذَكَرْنا فإنّا مُنْتَظِرونَ. وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١] أي انْتَظِرُوا العذابَ فإنّا مُنْتَظِرونَ بِكُمْ ذلكَ.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾[10] عَنْ عائِشَةَ وأبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ أحدُهُما: فيكُمْ في الكَفَرَةِ، وقالَ الآخَرُ: في أهلِ الصلاةِ، وقيلَ: هُمُ الحَرُورِيَّةُ، وقيلَ: هُمُ اليَهودُ والنَّصارَى. ولكنْ لا نَدْري مَنْ هُمْ؟ ولَيسَ بِنا إلى مَعْرِفَةِ مَنْ كانَ حاجَةٌ.

ثم يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً: يَحْتَمِلُ ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ حقيقةً؛ لأنَّ [أصحابَ][11] جَميعِ الأديانِ عندَ أنْفُسِهِمْ انهُمْ يَدينُونَ دينَ اللهِ، لا أحَدَ يقولُ: إنهُ يَدينُ بِدينِ غَيْرِ [دينِ][12] اللهِ. ألا تَرَى أنهُمْ قالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالُوا[13]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؟ [يونس: ١٨] فَهُمْ وإنْ كانُوا عندَ أنْفُسِهِمْ أنهُمْ يَدِينونَ دينَ اللهِ فَهُمْ في الحَقيقَةِ فارَقُوا دينَهُمْ ولَيسُوا على دينِ اللهِ. ويَحْتَمِلُ فارَقُوا دينَهُمُ الذي أُمِرُوا بِهِ، ودَعا إليهِ الرُّسُلُ والأنبياءُ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، فارَقُوا ذلكَ الدينَ. ويَحْتَمِلُ: فارَقُوا دينَهُمْ، الذي دانُوا بِهِ في عَهْدِ الأنبياءِ والرُّسُلِ بِدينِ اللهِ، فَفارَقُوا ذلكَ الدينَ، واللهُ أعْلَمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦] كانُوا مؤمِنِينَ بِهِ ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي صارُوا فِرَقاً وأحْزاباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ صَرَفَ تَأْويلَهُ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ أي لَسْتَ أنْتَ في قِتالِهِمْ في شَيْءٍ؛ كأنهُ نَهاهُ عنْ قِتالِهِمْ في وَقْتٍ، ثم أذِنَ لهُ بَعْدَ ذلكَ حِينَ[14] نَسَخَتْهُ آيَةُ السَّيفِ، وهذا بعيدٌ. ويَحْتَمِلُ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يثابون. (٥) في الأصل وم: ويعاقبون. (٦) في الأصل وم: ترك. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: لا ينفعه. (٩) في الأصل و م: لم ينفعه ذلك. (١٠) في الأصل و م: فارقوا، وهي قراءة حمزة والكسائي، انظر حجة القراءات ص(٢٧٨). (١١) و(١٢) ساقطة من الأصل و م. (١٣) في الأصل و م: و. (١٤) في الأصل و م: حيث.

لَسْتَ مِنْ دينِهِمْ في شيءٍ؛ لأنَّ دينَهُمْ كانَ تَقْليداً لآبائِهِمْ، ودينَكَ دينٌ بالحُجَجِ والبراهينِ، فَلَسْتَ منهُمْ أي مِنْ دينِهِمْ في شَيءٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي لا تُسْأَلُ أنتَ عنْ دينِهِمْ، ولا تُحاسَبُ على ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]. أو يَخْرُجُ على إياسِ أولئكَ الكَفَرةِ مِنْ عَودِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى دينِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ الحُكْمَ[1] فيهِمْ إلى اللهِ، لَيسَ إليكَ، هو الذي يَحْكُمُ فيهِمْ، أو أنْ يكونَ ﴿أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في القِتالِ حتى يَأْذَنَ لكَ بالقِتالِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ هو وَعيدٌ.

الآية ١٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما][2]: لَيسَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ إيجابُ الجَزاءِ في السَّيِّئَةِ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ﴾ إيجابُ الجَزاءِ؛ لأنهُ قالَ: فَلَهُ كذا، فيهِ إيجابُ الجزاءِ. [وإنما إيجابُ الجَزاءِ][3] في السَّيِّئَةِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] وغيرِهِ مِنَ الآياتِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ إيجابَ الجَزاءِ والثَّوابِ في الحَسَناتِ والخَيراتِ إفضالٌ وإحسانٌ؛ لأنهُ قد سَبَقَ مِنَ اللهِ تعالى إلى كُلِّ أحَدٍ مِنَ النِّعَمِ ما يكونُ منهُ تلكَ الخَيراتُ جزاءً لما أنْعَمَ عليهِ وشُكْراً، ولا جَزاءَ للجازي إلّا مِنْ جِهَةِ الإفضالِ والإكرامِ.

وأما جَزاءُ السَّيِّئَةِ فمِمّا تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ لِما خَرَجَ الفِعْلُ منهُ مَخْرَجَ الكُفْرانِ لِما أنْعَمَ عليهِ، فَيَسْتَوجِبُ بالكُفْرانِ العقوبَةَ والجزاءَ على ذلكَ.

والثاني: أنهُ خرجَ الفِعْلُ منهُ في الخيراتِ والحَسَناتِ على مُوافَقَةِ خِلْقَتِهِ وصُورَتِهِ وتَقْويمِهِ[4] على ما خَلَقَها اللهُ وأنشأها، وبَناها، فلم يَخْرُجِ الفِعْلُ بِهِ على خِلافِ ما هو بُنِيَ عليهِ، فلم يَسْتَوجِبْ بِهِ الجزاءَ. وأما السَّيِّئاتُ فهيَ إخراجُها على خِلافِ خِلْقَتِها وتَقْويمِها وصَرْفِها إلى غَيرِ الوجهِ الذي كانَتْ خِلْقَتُها وتَقْويمُها، فاستَوجَبَ بذلكَ العُقوبَةَ والجزاءَ عليها لِقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ /١٦٧ ـ أ/[الذاريات: ٥٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ لَيسَ على التَّحديدِ حتى لا يُزادَ عليهِ، ولا يُنْقَصَ منهُ، إنما خَرَجَ، واللهُ أعْلَمُ، على التَّعظيمِ لِذلكَ والإجلالِ؛ لأنهُ أخْبَرَ في النَّفَقَةِ التي تُنْفَقُ في سَبيلِ اللهِ أنها تَزْدادُ، وتَنْمو، إلى سَبْعِ مِئَةٍ، ولا يَجوزُ أنْ يكونَ لهُ في الحَسَنَةِ التي جاءَ بها في التَّوحيدِ تَبْلُغُ إلى ما ذُكِرَ، وإذا جاءَ بِنَفْسِ ذلكَ [في][5] التَّوحيدِ لا تَبْلُغُ ذلكَ. أو تَقْصُرُ عَنْ ذلكَ. ولكنَّها، واللهُ أعْلَمُ، على التَّعْظيمِ لهُ أو على التَّمْثيلِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] ذَكَرَ هذا لِما لا شَيءَ عندَ الخَلْقِ أوسَعُ مِنْهُما وكقولِهِ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠] ومِثْلُهُ غَيرُهُ على التَّمْثيلِ خَرَجَ لِعَظيمِ ما قالُوا في اللهِ، لَيسَ أنها تَنْشَقُّ، أو تَتفطَّرُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ أنهُ يَخْرُجُ لِما ذَكَرْنا لا على التَّحْديدِ لهُ والوَقْتِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ كذا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا﴾ كذا. ذَكَرَ مَجيءَ الحَسَنةِ ومَجيءَ السَّيِّئَةِ، ولم يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ كذا، ومَنْ عَمِلَ بالسَّيِّئةِ [فَلَهُ كذا][6] لِيُعْلَمَ أنَّ النَّظَرَ إلى ما خَتَمَ بِهِ، وقُبِضَ عليهِ؛ فكأنهُ قالَ: مَنْ خَتَمَ بالحَسَنَةِ، وقُبِضَ عليها، فَلَهُ كذا؛ لأنهُ قد[7] يَعْمَلُ الحَسَنَةَ، ثم يُفْسِدُها، ويَنْقُضُها بارْتِكابِ ما [يَنْقُضُها، ويُفْسِدُها][8] مِنَ الشِّرْكِ وغَيرِهِ، وعلى ما رُوِيَ: «الأعمالُ بالخَواتيمِ» [البخاري ٦٤٩٣ و٦٦٠٧].

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ بَعْدَ التَّوحيدِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بَعْدَ التوحيدِ ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وقالَ بَعْضُ أهْلِ التأويلِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ يَعْني بالتَّوحيدِ ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ لكنهُ لَيسَ على التَّحْديدِ لِما ذَكَرْنا، ولكنْ على التَّعظيمِ والقَدْرِ عندَ اللهِ أو على التَّمْثيلِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وتقديمه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فيه. (٨) في الأصل وم: ينقضه ويفسده.

لكنَّ التَّخليدَ في النارِ مِثْلُ الشِّرْكِ؛ لأنَّ الشِّرْكَ أعظَمُ السَّيِّئاتِ. وفي الآيةِ دَلالَةٌ أنَّ المِثْلَ قد يكونُ مِنْ غيرِ نوعِهِ حين[1] أوجَبَ في الحَسَنَةِ مِنَ الثوابِ عَشْرَ أمْثالِها وفي السَّيِّئَةِ مِثْلَها. وَلَيسَ واحدٌ منها مِنْ نَوعِ الأصْلِ والعَمَلِ الذي يُثابُ عليهِ.

وقيلَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ في الآخِرَةِ بالتوحيدِ ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ في الأضعافِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ في الآخِرَةِ؛ يَعْني الشِّرْكَ ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ في العِظَمِ. فَجزاءُ الشِّرْكِ النارُ؛ لأنَّ الشِّرْكَ أعظَمُ الذنوبِ، والنارَ أعظَمُ العُقوبَةِ، وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ جميعاً؛ لا يُزادُ على المِثْلِ، ولا يُنْقَصُ مِمّا ذُكِرَ.

الآية ١٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانِيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿هَدَىٰنِي﴾ أي دَلّني ﴿رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لكنَّ هذا بعيدٌ؛ لأنهُ خَرَجَ مَخْرَجَ ذِكْرِ ما مَنَّ عليهِ بِلُطْفِهِ، ولَيسَ في الدَّلالَةِ والبَيانِ ذلكَ، إنما عليهِ البَيانُ. كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدُلُّ على الهُدى، ويُبَيِّنُ لَهُمْ طريقَهُ.

ثم أخبَرَ أنهُ لا يَدُلُّ مَنْ أحبَّ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦] دلَّ أنَّ ذلك إكرامٌ مِنَ اللهِ تعالى بالهدايَةِ والتَّوفيقِ لَهُ والعِصْمَةِ بِلُطْفِهِ لا بالدلالَةِ والبَيانِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ الآية [الحجرات: ١٧] فلو كانَ على الدَّلالَةِ والبَيانِ لَكانَ منهُ ذلكَ. ثم إنَّ المِنَّةَ عليهِمْ لِلّهِ تعالى لا لِرَسُولِهِ. دلَّ أنهُ لِما ذَكَرْنا مِنَ الهِدايَةِ نفسِها لا الدَّلالَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ قيلَ: قائماً مُستقيماً، لا عِوَجَ فيهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ ﴿قَيِّمٗا﴾ [الكهف: ١ و٢] والعِوَجُ هو الذي فيهِ الآفَةُ. فأخبَرَ أنْ لا آفَةَ فيهِ، ولا عِوَجَ.

وقولُهُ تعالى ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إنَّ أهْلَ الإيمانِ جميعاً يَدَّعُونَ أنَّ [الدِّينَ][2] الذي هُمْ عليهِ، هو دِينُ إبراهيمَ، فأخبَرَ أنَّ دِينَ إبراهيمَ هو الذي، عليهِ [رسولُ اللهِ ﷺ][3] لا هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ قِيلَ: مُسلِماً. والحَنَفُ هو المَيلُ، وهو الحَنيفُ أي مائلٌ إلى دينِ اللهِ. أخبَرَ أنهُ يَدْعُو إلى دينِ اللهِ تعالى وإلى الدينِ الذي كانَ عليهِ آباؤُهُ وأجدادُهُ؛ أعْني بِهِ [دينَ][4] الأنبياءِ والرُّسُلِ ﷺ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. بَرَّأهُ ﷺ مِنَ الشِّرْكِ. وقيلَ: كانَ حَنيفاً خالِصاً لِلّهِ مُخْلِصاً؛ لم يُشْرِكْ أحداً في رُبُوبِيَّتِهِ ولا في عِبادَتِهِ، على فِعْلِ أولئكَ الكَفَرَةِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وحَفْصَةَ ﴿قِيَمٗا﴾ فِطْرَتَكُمُ التي فُطِرْتُمْ عليها ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ ويُقرأُ قَيِّماً بالتَّشْديدِ، وقِيَماً بالتَّخْفيفِ[5].

ويَخرُجُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ على الشُّكْرِ لهُ والحَمْدِ على ما أنْعَمَ عليهِ، وأفضَلَ لَهُ مِنَ الإكرامِ لَهُ بالهِدايَةِ [إلى الطريقِ][6] المُستقيمِ، ويَحتَمِلُ[7] القائِمَ بالحَقِّ والبُرْهانِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ بالحُجَجِ والبراهِينِ، ودِينُ أولئكَ بِهَوَى أنْفُسِهِمْ. ولِذلكَ قالَ: ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ وقالَ[8]: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

الآية ١٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ [الأنعام: ١٦٤] خاطبَ اللهُ تعالى بهذِهِ الآياتِ رسولَهُ ﷺ والمُرادُ بِهِ الخَلْقُ كُلُّهُ. فَمَنْ بُلِيَ بِمِثْلِ ما كانَ بُلِيَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ السُّؤالِ والدُّعاءِ فَلَهُ أنْ يَقرأ؛ أي يَذْكُرَ ما في الآياتِ.

ولو كانَ المُرادُ بالخِطابِ بهذا رسولَ اللهِ ﷺ خاصَّةً لَكانَ لا يَقُولُ لهُ: [﴿قُلۡ﴾][9] ولكنْ يَقولُ لَهُ: افْعَلْ كذا، ولا تَفْعَلْ كذا. وعلى ذلكَ الخِطابُ في الشاهِدِ في خِطابِ بَعْضٍ بَعْضاً ألّا يَقُولُوا: قُلْ. فَدَلَّ أنهُ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل و م: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/٣٣٩]. (٦) في الأصل وم: بالطريق. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل و م: وقوله. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. ومَنِ[1] اسْتُوصِفَ صِفاتِ اللهِ فَعَلَيهِ أن يَصِفَ لَهُ ما في سورةِ الإخلاصِ. ورسولُ اللهِ ﷺ وغَيرُهُ مِنَ الخَلائِقِ سواءٌ في ذلكَ الخِطابِ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ الآية ذِكْرُ مِنَّتِهِ بِما هَداهُ والاسْتِيداءِ إلى شُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ الأمْرُ بإخلاصِ العِبادَةِ للهِ ﷻ وإسلامِ النَّفْسِ لَهُ في جميعِ أحوالِهِ: مَحْياهُ ومَماتِهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ فيهِ الدُّعاءُ إلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ ورُبُوبِيَّتِهِ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ دلالَةُ رَدِّ قولِ مَنْ يَسْتَثْنِي في إيمانِهِ؛ لأنهُ أمَرَهُ أنْ يقولَ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مِنْ غَيرِ أنْ أمَرَهُ بالثُّنيا. فَمَنِ اسْتَثْنَى فيهِ لا يَخْلُو اسْتِثْناؤُهُ مِنْ أحَدِ مَعْنَيَيْنِ: إمّا أنْ يكونَ لِشَكٍّ فيهِ وإمّا[2] لِكِتْمانِ ما أنْعَمَ عليهِ. فَعَلَى كُلِّ مَنْ أنْعَمَ اللهُ عليهِ أنْ يُظْهِرَ ذلكَ، وأنْ يَشْكُرَ لَهُ[3] على ما أمَرَ رسولَهُ ﷺ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَخْرُجُ على وجْهَينِ:

أحَدُهما: يَخْرُجُ على الأمْرِ بالدُّعاءِ لِنَفْسِهِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿قُلْ﴾ اجْعَلْ ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والثاني: على المُنابَزَةِ[4] مَعَ أولئكَ الكَفَرَةِ والفَجَرَةِ؛ يقولُ: أنا أجْعَلُ صَلاتي وعِبادَتي ومَحْيايَ ومَماتي للهِ، لا أجْعَلُ لِغَيرِهِ شِرْكاً كما جَعَلْتُمْ أنْتُمْ شُرَكاءَ[5] في عِبادَتِهِ وصلاتِهِ ونُسُكِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿صَلَاتِي﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلاةُ: المَفْرُوضَةُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلاةُ: الخُضوعُ والثَّناءُ؛ يَقولُ: إنَّ خُضوعي وثَنائي لِلّهِ. والصَّلاةُ، هي الثَّناءُ في اللُّغَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُسُكِي﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ: ﴿وَنُسُكِي﴾ ديني كقولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحج: ٣٤] أي ديناً. وقِيلَ: ﴿وَنُسُكِي﴾ وذَبيحتي لِلّهِ في الحَجِّ والعُمْرَةِ وغيرِهِما[6]. وقِيلَ: ﴿وَنُسُكِي﴾ وعِبادَتي. والنُّسُكُ اسْمُ كُلِّ عِبادَةٍ. وعلى ذلك يُسَمَّى[7] كُلُّ عابِدٍ ناسِكاً./ ١٦٧ ـ ب/

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أنا حَيٌّ ومَيِّتٌ للهِ، لا أُشْرِكُ أحداً في عِبادَتي [ونُسُكي. بل كُلّي للهِ، لا شريكَ لَهُ][8] في ذلكَ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على التَّقْديمِ والتَّأْخِيرِ؛ كأنهُ قالَ: إني أُمِرْتُ أنْ أجْعَلَ صَلاتي ونُسُكي للهِ، أو إني أُمِرْتُ أنْ أدْعُوَ، وأسْألَ اللهَ أنْ يَجْعَلَ صَلاتي ونُسُكي وعِبادَتي لَهُ، لا أُشْرِكُ غيرَهُ فيه.

الآية ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأنا أوَّلُ مَنْ خَضَعَ، وأسْلَمَ بالذي أُمِرْتُ: [أُمِرْتُ][9] أنْ أُبَلِّغَ؛ لأنهُ أُمِرَ بِتَبْليغِ ما أُنْزِلَ إليهِ، فيقولُ: أنا أوَّلُ مَنْ أسْلَمَ بالذي أُمِرْتُ بالتَّبليغِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لا على تَوقِيتِ الإسلامِ ولكنْ على سُرْعَةِ الإجابَةِ والطاعَةِ لهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] هو على الوَصْفِ بِغايَةِ العِظَمِ لَيسَ على أنَّ بَعْضَها[10] أكْبَرُ وأعْظَمُ، وبَعْضَها أصْغَرُ، ولكنْ كُلُّها أعْظَمُ وأكْبَرُ.

فَعَلَى ذلكَ هذا لَيسَ على وَقْتِ الإسلامِ ولكنْ لِسُرْعَةِ الإجابَةِ والطاعَةِ لَهُ، [والإسلامُ، واللهُ أعْلَمُ][11]، هو جَعْلُ النَّفسِ وكُلِّيَّةِ الأشياءِ لِلّهِ سالِمَةً. أي أنا أوَّلُ مَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ لِلّهِ سالِمَةً.

الآية ١٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾

---

(١) الواو ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، في الأصل: لا. (٤) في م: بالدال المنقوطة. (٥) من م، في الأصل: شركا. (٦) في الأصل وم: وغيره. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: قوله. (٨) في الأصل وم: ونفسي بل كله لله لا شريك له. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: بعظها. (١١) في الأصل وم: والله أعلم الإسلام.

وأنتم[1] تعلمونَ أنْ لا ربَّ سِواهُ، ويحتَمِلُ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ سِواهُ، وفي كُلِّ أحدٍ أثرُ رُبوبيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ قائمٌ ظاهرٌ، وفي ما تَدْعُونَنِي إليه أحَدُ آثارِ العُبُودِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ فيهِ. فكيفَ أتَّخِذُ ربًّا سِواهُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنْ سُوءٍ ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا يَتَحَمَّلُ ذلكَ غَيْرُهُ عنهُ في الآخِرَةِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي لا تَكْسِبُ كُلُّ نفسٍ، لو تُرِكَتْ وما تَختارُ إلّا عليها. لكنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ يَمْنَعُ [بَعْضَ ما][2] تختارُ على نَفْسِها كقولِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣] أخبَرَ أنها كاسِبَةُ السُّوءِ إلّا ما عَصَمَها ربِّي.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الإضمارِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ ولها. ومِثْلُهُ جائزٌ في القرآنِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وهو نَذيرٌ لِقومٍ، بَشيرٌ لِقومٍ آخَرينَ؛ نَذيرٌ في حالٍ، وبَشيرٌ في حالٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هو على الوَعيدِ.

ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ كانَ إذا كَبَّرَ لِلصَّلاةِ أتْبَعَ التَّكْبيرَ بِهذهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إلى آخِرِهِ.

وعنْ عليٍّ رضي الله عنه [أنهُ][3] قالَ «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا افْتَتَحَ الصَّلاةَ كَبَّرَ، ثم قالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾» [الأنعام: ١٦١ و١٦٢]. [أبو داوود ٢٧٩٥] وذُكِرَ أنهُ كانَ يَدْعُو دُعاءً طويلاً.

ورُوِيَ عن عائشةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنهما أنهما قالا: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا افْتَتَحَ الصَّلاةَ رَفَعَ يَدَيْهِ حِذاءَ مَنْكِبَيْهِ، ثم يقولُ: سُبْحانَكَ اللهمَّ، وبِحَمْدِكَ، وتَبارَكَ اسْمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غيرُكَ» [أبو داوود ٧٧٦].

فكانَ أبو حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، يَختارُ مِنْ ذلكَ هذا في الفرائضِ.

وكذا رُوِيَ عنْ عُمَرَ بْنِ الخطابِ رضي الله عنه أنهُ [إذا][4] قامَ إلى الصَّلاةِ كَبَّرَ[5]، ثم قالَ: سُبْحانَكَ اللهمَّ، وبِحَمْدِكَ، وتَبارَكَ اسْمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غيرُكَ.

وكانَ أبو يُوسُفَ يَسْتَحِبُّ أنْ يقولَ بهذهِ الكلماتِ. والكلماتُ التي رَواها عليُّ ابْنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه مِنْ غيرِ إيجابٍ لذلكَ ولا حَظْرٍ لِما سِواهُ.

وكانَ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، لا يَسْتَحِبُّ أنْ يَزيدَ في الفرائضِ على ما رُوِيَ عنْ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وما رَوَتْ عائشةُ رضي الله عنها عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وما رُوِيَ عنْ عُمَرَ وعبدِ اللهِ رضي الله عنهما. وأمّا في النَّوافِلِ فَلَهُ أنْ يَزيدَ ما شاءَ فيها مِنَ الثَّناءِ والدَّعَواتِ، فيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما رواهُ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه مِنْ فِعْلِ رسولِ اللهِ ﷺ كانَ ذلك في النَّوافِلِ.

الآية ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْني أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ لِيَحْذَرُوا تَكْذيبَهُ والخِلافَ لَهُ، ويَرْغَبُوا في تَصْديقِهِ والمُوافَقَةِ لهُ والطاعةِ ليكونَ لَهُمْ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ عِبْرَةٌ في التَّحْذيرِ والتَّرْغيبِ، ويكونَ لَهُمْ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ قُدْوَةٌ وعِبْرَةٌ لِيَعْرِفُوا صُحْبَةَ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ كيفَ يَجِبُ أنْ يَصْحَبُوهُ، ويُعامِلُوهُ مِنَ الإحسانِ إليهِ والتَّعْظيمِ لهُ والتَّصْديقِ، ويَجْتَنِبُوا الإساءَةَ إليهِ والتَّكْذيبَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْني البَشَرَ كُلَّهُمْ؛ جَعَلَ بَعْضَهُمْ خَلائِفَ بَعْضٍ في الوجودِ وفي الأحوالِ في الحياةِ والمَوتِ والغِنَى والفَقْرِ والصِّحَّةِ والسَّقَمِ وفي العِزِّ والذُّلِّ وفي كلِّ شيءٍ وفي الصِّغَرِ والكِبَرِ لِيكونَ لَهُمْ في ذلكَ عِبَراً ودليلاً على مَعْرِفَةِ مُنْشِئِهِمْ وخالِقِهِمْ؛ لأنهُ لو أنْشَأَهُمْ جميعاً مَعاً لم يَعْرِفُوا أحوالَ أنْفُسِهِمْ وتَغَيُّرَهُمْ مِنْ حالٍ

---

(١) في الأصل وم: وقد. (٢) في الأصل وم: بعضها وما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: فكبر.

[إلى حالٍ][(١)]. ولكنْ أنشأهُمْ واحداً بَعْدَ واحِدٍ وقَرْناً بَعْدَ قَرْنٍ لِيَعْرِفُوا أحوالَ أنْفُسِهِمْ وانْتِقالَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ لِيَعْرِفُوا أنَّ مُنْشِئَهُمْ واحدٌ، ولأنهُمْ لو كانُوا جَميعاً مَعاً لم يَعْرِفُوا مَبادِئَ أحوالِهِمْ مِنْ حالِ نُطْفَةٍ ثمَ منْ عَلَقَةٍ ثم مِنْ مُضْغَةٍ ثم مِنْ حالِ الصِّغَرِ إلى حالِ الكِبَرِ. وكذلكَ هذا في جَميعِ الأحوالِ مِنَ الغِنَى والفَقْرِ والصِّحَّةِ والسَّقَمِ. ولو [كانُوا كُلُّهُمْ][(٢)] على حالةٍ واحدةٍ لم يَعْرِفُوا ذلكَ. لكنْ جَعَلَ بَعْضَهُمْ خَلائِفَ بَعْضٍ لِيَدُلَّهُمْ على ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ إنهُمْ صاروُا خُلَفَ الجانِّ.

[وبَعْدُ][(٣)] فالأوَّلُ يكونُ في بَيانِ صُحْبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ، والثاني في بَيانِ وحدانيةِ الرَّبِّ ﷻ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا في الأحوالِ، ويَحْتَمِلُ في الخِلْقَةِ؛ جَعَلَ لِبَعْضٍ فضائِلَ ودَرَجاتٍ على بَعْضٍ، وجَعَلَ بَعْضاً فَوقَ بَعْضٍ بِدرَجاتٍ في الدنيا لِيَكْتَسِبُوا لأنْفُسِهِمْ في الآخِرَةِ الدَّرجاتِ والفَضائِلَ على ما رَغِبُوا في الدنيا في فضائِلِ الخِلْقَةِ ودَرَجاتِ بَعْضٍ فوقَ بَعْضٍ، ونَفَرُوا عَنِ الدُّونِ مِنْ ذلكَ، لِيُرَغِّبَهُمْ ذلكَ في اكْتِسابِ الدَّرَجاتِ في الآخِرَةِ، ويُنَفِّرَهُمْ عنِ اكْتِسابِ ما يَنْفُرُونَ عنهُ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مِنَ الأحوالِ المُخْتَلِفَةِ مِنَ الفَقْرِ والغِنَى والسَّقَمِ والصِّحَّةِ والصِّغَرِ والكِبَرِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأحوالِ. ويَحْتَمِلُ ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مِنَ النِّعَمِ أي لِيَبْلُوَكُمْ بالشُّكْرِ على ما آتاكُمْ مِنَ النِّعَمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو إخبارٌ عَنْ سُرْعَةِ إتيانِ العذابِ؛ لأنَّ كُلَّ آتٍ قريبٌ، كأنْ قد جاءَ، وكقولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] [وكقولِهِ تعالى][(٤)]: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] [وكقولِهِ تعالى][(٥)]: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ونَحْوُهُ أنهُ إذا كانَ أتى، لا مَحالَةَ، جَعَلَ كَأنْ قد جاءَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ إنباءٌ عنْ شِدَّةِ عذابِهِ لِمَنْ عَصاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قِيلَ: يَبْتَلِي المُوسِرَ في حالِ الغِنَى والصَّحِيحَ في حالِ صِحَّتِهِ،/ ١٦٨ ـ أ/ ويَبْتَلِي الفَقِيرَ في حالِ فَقْرِهِ والمَرِيضَ في حالِ مَرَضِهِ.

والابْتِلاءُ مِنَ اللهِ تعالى على وجهَينِ: إمّا أمْرٌ[(٦)] بالشُّكْرِ على ما أنْعَمَ [وإمّا صَبْرٌ][(٧)] على ما ابْتَلاهُ بالشدائِدِ. والابْتِلاءُ منهُ هو ما بَيَّنَ السَّبِيلَينِ جميعاً سَبِيلَ الحَقِّ وسَبِيلَ الباطِلِ، وبَيَّنَ أنَّ كُلَّ سَبِيلٍ إلى ماذا أفْضاهُ لو سلَكَهُ؛ لو سَلَكَ سَبِيلَ الحَقِّ أفْضاهُ إلى النِّعَمِ الباقِيَةِ والسُّرُورِ الدائِمِ، وإنْ سَلَكَ سَبِيلَ الباطِلِ أفْضاهُ إلى عذابٍ شديدٍ وحُزْنٍ دائمٍ. ثم خَيَّرَهُ بَيْنَ هذَينِ. فهو مَعْنَى الابْتِلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لِلْمُؤمِنِينَ. وقد ذَكَرْنا. [والحمدُ لِلّهِ ربِّ العالمينَ][(٨)].

(١) من م: ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: كان كله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: أمراً. (٧) في الأصل وم: أو صبراً. (٨) ساقطة من م.

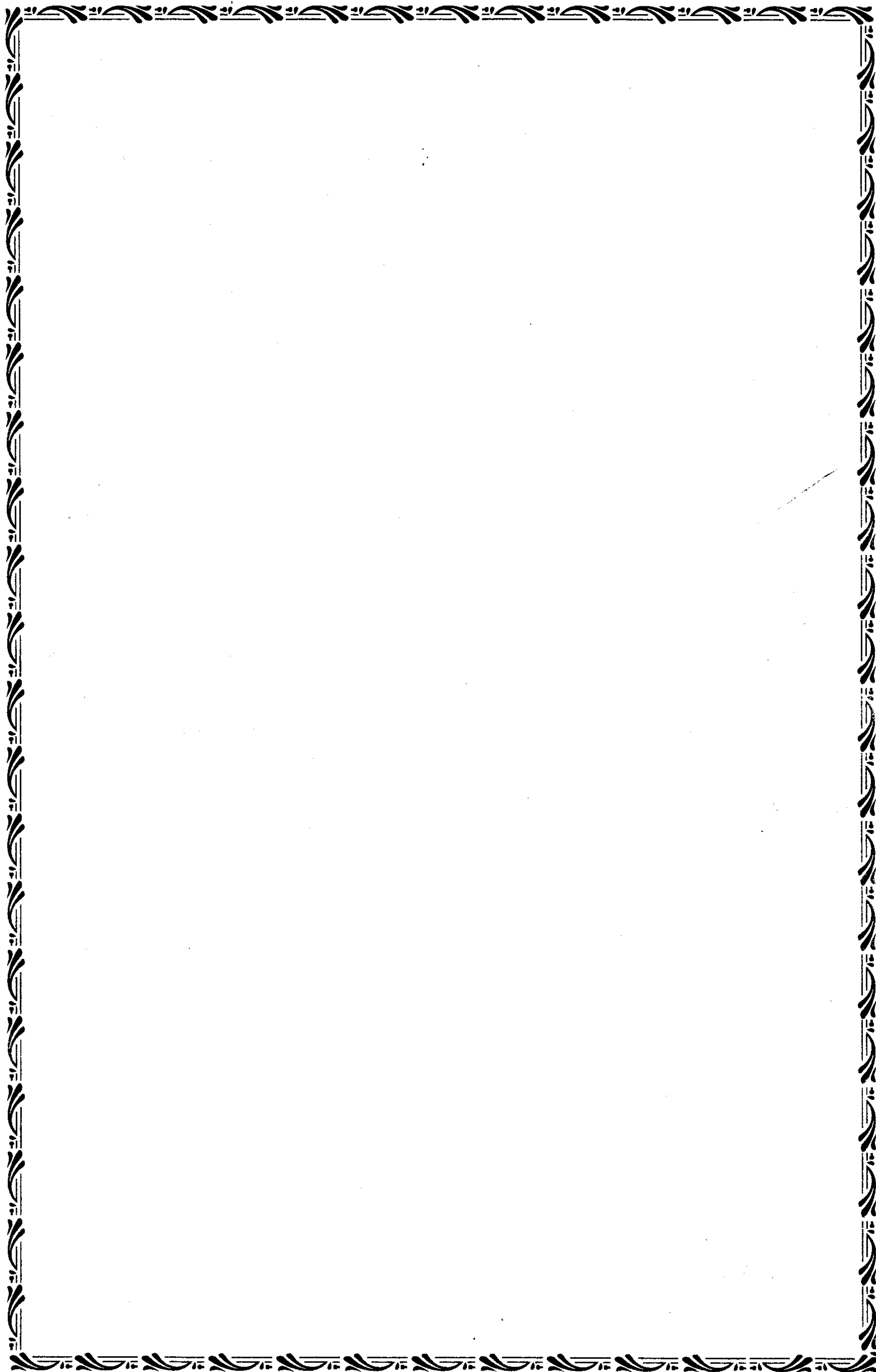

سورة الأعراف

[مئتان وست آيات: مكية][(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ العَليمِ بِخَلْقِهِ اللَّطِيفِ لِرُشْدِ عِبادِهِ، ضَرَبَ لَهُمُ الآياتِ والبَيانَ لِيَنْقُلَهُمْ بِحِكْمَتِهِ وتَدْبيرِهِ مِنَ الجَهالةِ إلى العِلْمِ ومِنَ الضَّلالَةِ إلى الهُدَى، وَوَصَّى به[رسولَهُ أن يَدْعُوَ عِبادَهُ إلى سَبيلِهِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، فَبَعَثَ محمداً][(٢)] ﷺ إلى الناسِ كافَّةً، وأنزَلَ[(٣)] إليهِ الكتابَ، تَلَا فيهِ ما في الكُتُبِ الأُولَى لِيُبَيِّنَ لأهْلِ الكتابِ والمُشْرِكِينَ أنَّ النَّبيَّ الأُميَّ العَرَبيَّ لم يَعْلَمْ [ما][(٤)] في الكُتُبِ الأعجميَّةِ إلّا مِنْ عندِ اللهِ ليكونَ ذلكَ أوضَحَ لَهُمْ في الحُجَّةِ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ، قَبْلَ الرسالةِ معروفاً عندَ الفريقَيْنِ أنهُ لم يَتْلُ كِتاباً، ولا خَطَّهُ بِيَمِينِهِ، ولا كانَ عندَهُمْ مِنْ شُعَرائِهِمْ ولا[مِنَ العارِفِينَ][(٥)] بأنسابِهِمْ وعِلْمِ أنبائِهِمْ، وذلكَ أبْلَغُ في البرهانِ، فأنْبَأهُ [اللهُ][(٦)] فيهِ عِلْمَ الغُيوبِ وفَرْضَ الفرائِضِ، وحَكَمَ فيهِ الأحكامَ، وأنزَلَ فيهِ الحُجَجَ بِتَآليفَ، يَعْجَزُ[(٧)] عنهُ مَنْ دُونَ اللهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ.

فأنِفَ قومُهُ، وأبَوا أنْ يَسْمَعُوهُ، واسْتَكْبَرُوا عليهِ، وقالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، و[قالوا][(٨)]: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فأتاهُمُ العَليمُ الخَبيرُ مِنْ قِبَلِ أنْفُسِهِمْ وكِبَرِهِمْ، فأنزَلَ في الكتابِ كلاماً افْتَتَحَ بِهِ السورةَ، لم يكُنْ مِنْ كلامِ قومِهِ. فلمّا سَمِعُوا ظَنُّوا أنهُ بَدِيعٌ ابْتَدَعَ محمدٌ كابْتِداعِهِمُ البَلاغاتِ والأوابِدَ، وأيْقَنُوا أنْ يكونَ محمدٌ يَقْدِرُ مِنْ ذلكَ على ما لا يَقْدِرُونَ، فَتَدَبَّرُوا الكتابَ لِيَعْلَمُوا صُدُورَهُ بما بَعْدَهُ مِنَ الكلامِ، فَسَمِعُوا كلاماً مَجيداً حَكيماً، وبناءً عظيماً وحُجَجاً نَيِّرَةً ومواعِظَ شافِيَةً، فَدَخَلَ أكْثَرُهُمْ في الإسلامِ، وقَعَدَ عَنْهُ رجلانِ: مُعانِدٌ مُتَعَمِّدٌ وجاهِلٌ مُقَلِّدٌ، لا يَنْظُرُ.

وفي ما أنْزَلَ مِمّا وصَفَ: [قولُهُ][(٩)] ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] وقولُهُ[(١٠)]: ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: ١]وقولُهُ[(١١)]: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] وقولُهُ[(١٢)]: ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: ١] وما أشْبَهَها.

الآيتان ١و٢ قالَ[(١٣)]: ﴿الٓمٓصٓ﴾ لِتَعْطِفَ بها على النَّظَرِ في ما بَعْدَها، ثم ابْتَدَأَ، فقالَ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يقولُ: كتابٌ مِنْ ربِّكَ ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ عبادَهُ ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ يقولُ: فلا يَضِيقَنَّ صَدْرُكَ عنِ الذي فَرَضَ اللهُ عليكَ فيهِ مِنَ البَلاغِ إلى قومِكَ وبما فَرَضَ عليكَ مِنَ البَراءةِ مِنْهُمْ ومِمّا يَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ.

فكانَ الرسولُ ﷺ، يَخافُ ما خافَتِ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ يدَيهِ؛ فقالَ مُوسَى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]وقد كان يَعْرِفُ قومَهُ بالتَّسَرُّعِ إلى القَتْلِ في ما لَيسَ مِثْلَ ما يأتِيهِمْ بهِ. فأمَّنَهُ اللهُ مِنْهُمْ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقالَ في آخِرِ هذهِ السورةِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الآية: ١٩٥] يَفْهَمُونَها عنِ اللهِ بأنها[(١٤)] مِنْ أعْظَمِ آياتِ اللهِ لرسولِهِ ﷺ أعْلَمَهُ أنهُمْ لا يَصِلُونَ إلى ما يَخافُ مِنْهُمْ.

وفي الأثَرِ أنَّ اللهَ تعالى لمّا أرْسَلَهُ إلى قومِهِ قالَ[(١٥)]: إي ربِّ إذا شَعَلُوا رأسي يَذْرُونَهُ[(١٦)] مِثْلَ خُبْزِه، فأمَّنَهُ اللهُ تعالى

---

(١) في م: قيل: إنها مكية. (٢) من م، في الأصل: رسول. (٣) من م، في الأصل: ولو أنزل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: المعروف. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يعجزه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: فقال. (١٤) في الأصل وم: فإنها. (١٥) في الأصل وم: فقال. (١٦) في الأصل وم: فيذرونه.

منْ ذلكَ، فقال: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ منَ البَلاغِ، ولا يَضِيقَنَّ صَدْرُكَ عَمّا فَرَضَ اللهُ عليكَ مِنَ العِبادَةِ والحُكْمِ الذي تُخالِفُ فيهِ قومَكَ.

ثم وَصَفَ الكتابَ، فقالَ: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقولُ: يَتَذَكَّرونَ ما[1] فيه، ويَتَدَبَّرونَهُ، فَيَعْلَمُونَ بِهِ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، ويَذكُرونَ بِهِ ما فَرَضَ عليهِمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ هذِهِ الحُروفُ المُقَطَّعَةُ خِطاباً، خاطَبَ اللهُ بها رُسُلَهُ، يَفْهَمُونَها، ولا يَفْهَمُها[2] غَيْرُهُمْ على ما يكونُ لِمُلوكِ الأرضِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خواصِّهِمْ [إشاراتٌ يَفْهَمُها خواصُّهُمْ][3] ولا يَفْهَمُها غَيْرُهُمْ. هذا مُتعارَفٌ في ما بَيْنَ الخَلْقِ أنْ يَكونَ لَهُمْ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خَواصِّهِمْ ما ذَكَرْنا. فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذِهِ الحروفُ المُقَطَّعَةُ خِطاباتٍ مِنَ اللهِ تعالى، خاطَبَ بِها رُسُلَهُ، وهُمْ خَواصُّهُ؛ يَفْهَمُونها، ولا يَفْهَمُها[4] غَيْرُهُمْ.

ثم وَجْهُ فَهْمِهِمْ لِوَجْهَينِ[5]: يُخْبِرُهُمْ، فيقولُ: إني[6] إذا أَنْزَلْتُ إليكُمْ كذا فَمُرادِي مِنْ ذلك كذا، أو كانَ البَيانُ والمُرادُ مِنْها مَقْرُوناً بِها وَقْتَ إِنْزالِها فَهِمُوا المُرادَ منها بِما أَفْهَمَهُ اللهُ، وأَراهُمْ ما لَمْ يَرَ ذلكَ غَيرُهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أَرَى رُسُلَهُ شيئاً لم يُرِ ذلك غَيرَهُمْ ولا أَطْلَعَهُمْ على ذلكَ؛ فَهُوَ[7] مِنَ المُتَشابِهِ [على غَيْرِهِمْ، وأمّا على الرُّسُلِ فَلَيسَ مِنَ المُتَشابِهِ][8].

وقالَ الفَرّاءُ: يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذِهِ الحُروفُ المُقَطَّعَةُ المُتَفَرِّقَةُ التي أَنْزَلَها اللهُ مِنْ: أ ب ت ث إلى آخِرِها، كأنَّهُ قالَ: إني جَمَعْتُ هذِهِ الحُروفَ المُتَفَرِّقَةَ، فَجَعَلْتُها كتاباً، فأَنزَلْتُها مِنْ نَحْوِ ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] و﴿الٓرٰ﴾ ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] و﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢] و ﴿الٓمٓرٰ﴾ [الرعد: ١] ونَحْوِهِ، واللهُ أعْلَمُ بِما أرادَ بِهِ. ذلك، وقد ذَكَرْنا هذا في صَدْرِ الكتابِ مِقْدارَ ما حَفِظْنا، وفَهِمْنا مِنْ أقاويلِ أهلِ العِلْمِ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قيلَ: الحَرَجُ هو الضِّيقُ في الصَّدْرِ. [ثم يَحْتَمِلُ ضِيقُ الصَّدْرِ وُجوهاً][9]: يَحْتَمِلُ ضِيقُ الصَّدْرِ ما يُحَمَّلُ عليهِ مِنَ الشَّدائِدِ والخَطَراتِ بِتَبْليغِهِ إلى الكَفَرَةِ الذينَ نَشَؤُوا على الكُفْرِ والشِّرْكِ، وخاصَّةَ الفراعِنَةِ والمُلوكِ الذينَ هَمُّهُمْ[10] القَتْلُ والإهلاكُ لِمَنِ اسْتَقْبَلَهُمْ بالخِلافِ، أو أنْ يُوَسْوِسَ في صُدورِهِمُ الشَّيطانُ أنهُ لَيسَ مِنْ عندِ اللهِ، أو أن يقولَ لَهُمْ[11]: إنهُ مِنْ أساطِيرِ الأوَّلِينَ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ على النَّهْيِ أي لا [يَكُنْ في صَدرِكَ][12] حرجٌ؛ أي لا يَضيقَنَّ صَدْرُكَ مِمّا حُمِّلَ عليكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي شَكٌّ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ. وقد ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ النَّهْيَ؛ لأنهُ بالنَّهْيِ ما تكونُ عِصْمَتُهُ.

ويَحْتَمِلُ لَيسَ على النَّهْيِ، ولكنْ على ألّا تَحْمِلَ على نَفْسِكَ ما فيهِ هَلاكُكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] لَيسَ على النَّهْيِ، ولكنْ على ألّا تَحْمِلَ على نَفْسِكَ ما فيهِ هَلاكُكَ. فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

ثم إنَّ اللهَ ﷻ: أَمَّنَهُ عمّا كانَ يَخافُ مِنْ هؤلاءِ بقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وأَمَّنَهُ مِنْ وَساوِسِ الشَّيطانِ على مارُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قِيلَ [لهُ][13]: «أَلَكَ شيطانٌ؟ فقالَ: كانَ ولكِنْ أُعِنْتُ عليهِ، فأَسْلَمَ» [بنحوه مسلم ٢٨١٥] أَمَّنَ ﷻ رَسولَهُ عَنْ ذلكَ كلِّهِ لِما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: بما. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: يفهمون. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: يكون. (٦) من م، في الأصل: إلى. (٧) في الأصل وم: فهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: وجوها يحتمل ضيق الصدر. (١٠) في الأصل: وم: همتهم. (١١) في الأصل وم: له. (١٢) في الأصل وم: يكون في درك. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ أنهُ أَمَرَهُ أنْ يُنْذِرَ بِهِ الكَفَرَةَ، ويُبَشِّرَ المؤمِنِينَ كقولِهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الكَفَرَةَ ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بُشْرَى على ما ذَكَرْنا. ويكونُ في الإنذارِ بُشْرَى؛ لأنهُ إذا أُنْذِرَ، فَقَبِلَ الإنذارَ، فهو بُشْرَى.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الكُلَّ[الموافِقَ](١) والمُخالِفَ جَميعاً كقولِهِ تعالى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذي يَنْتَفِعُ بِهِ المؤمِنونَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ الآيةَ. لا تَتَّبِعُوا أولياءَ في التَّحْليلِ والتَّحْريمِ وفي الأمْرِ والنَّهْيِ؛ لأنهُ لَيسَ إلى الخَلْقِ التَّحْليلُ والتَّحْريمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أمَرَ المُؤمِنِينَ أنْ يَتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليهِمْ منْ رَبِّهِمْ على[ما](٢) أمَرَ رسولَهُ أنْ يَتَّبِعَ ما أُنزِلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] لِيُعْلَمَ أنَّ ما أُنزِلَ إلى رسولِ اللهِ/ ١٦٨ ـ ب/ هو مُنْزَلٌ إلى المُؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في ما ذَكَرَ، وما يَحِلُّ، وما يَحْرُمُ، وما يُؤْمَرُ، [وما](٣) يُنْهى ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ قيلَ: أرباباً؛ أي ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في ما يُحِلُّونَ، ويُحَرِّمُونَ، ويأمُرونَ، ويَنْهَونَ؛ أي إنما عليهِمُ اتِّباعُ ما حَرَّمَ عليهِمْ واسْتِحْلالُ ما أَحَلَّ لهُمْ، و أمّا إنشاءُ التَّحليلِ والتَّحريمِ فَلَا.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ الأصنامُ والأوثانُ. ولكنْ لا يُحْتَمَلُ هٰهُنا. ولكنْ ما ذَكَرْنا أنهُمْ كانُوا يَتَّبِعونَ عُظماءَهُمْ في التَّحليلِ والتَّحريمِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وكانُوا لا يَتَّخِذُونَ أُولئكَ الأحبارَ أرباباً في الحَقيقَةِ، ولكنْ كانُوا يَتَّبِعُونَهُمْ في ما يُحِلُّونَ ويُحَرِّمُونَ، ويُصْدِرُونَ(٤) آراءَهُمْ، فَسُمُّوا بذلكَ بِشِدَّةِ اتِّباعِهِمْ أولياءَ في التَّحليلِ والتَّحريمِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قالَ أهْلُ التَّأويلِ: يَعْني بالقَليلِ المؤمِنِينَ. ولكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي لا يَتَذَكَّرُونَ رَأساً؛ لأنَّ الخِطابَ جَرَى فيهِ لِأولئكَ الكَفَرَةِ، وفيهِمْ نَزَلَتِ الآيَةُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ قالَ أهْلُ التَّأويلِ: كانَ يُخَوِّفُ أهْلَ مكةَ بِتكذيبِهِمُ الرسولَ بإهلاكِهِ الأُمَمَ الخاليَةَ بِتكذيبِهِمُ الرسولَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بِتكذيبِهِمِ الرُّسُلَ. فأنْتُمْ يا أهْلَ مَكَّةَ تَهلَكُونَ بِتكذيبِكُمُ(٥) الرسولَ. وإنْ كانُوا لا يَعْرِفونَ هُمْ إهلاكَ الأُمَمِ الماضِيَةِ أنهُ إنما أُهْلِكُوا بِتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ غَيْرَ أنهُمْ، وإنْ كانُوا لا يَعْرِفونَ هُمْ ذلكَ بأنْفُسِهِمْ لِما لَيسَ عندَهُمْ كتابٌ، لكنْ يَصِلُونَ إلى عِلْمِ ذلكَ بِمَنْ عِنْدَهُمُ الكُتُبُ، وهُمْ[أهلُ](٦) الكتابِ، فَتَلْزَمُهُمُ الحُجَّةُ كالعَجَمِ، وإنْ كانُوا لا يَعْرِفونَ الكتابَ الذي أُنزِلَ بِلِسانِ العَرَبِ فإنَّ الحُجَّةَ تَلْزَمُهُمْ بذلكَ لِما كانَ لَهُمْ سَبيلُ الوُصولِ إلى عِلْمِ ذلكَ بالعَرَبِ. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ، وإنْ لم يكُنْ عندَهُمْ عِلْمٌ بإهلاكِ هؤلاءِ تَلْزَمُهُمُ(٧) الحُجَّةُ بإعلامِ أهلِ الكتابِ إياهُمْ.

وفي الآيَةِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ، لأنهُ أخْبَرَ عن(٨) إهلاكِ الأممِ الخاليةِ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ، وهو لم يَنْظُرْ في كُتُبِهِمْ، ولا اختَلَفَ إليهِمْ لِيُعْلِمُوهُ عنْ ذلكَ، ثم أخْبَرَهُمْ بذلكَ. فَدَلَّ أنه إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ ﷻ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الكَيْسانِيُّ(٩): البأسُ هو كلُّ أمْرٍ مُعْضِلٍ شديدٍ مِنَ المَرَضِ والحَرَجِ وغَيرِهِ، ويقولُ: رُوِيَ[عن](١٠) عُمَرَ لَمّا طُعِنَ قِيلَ لهُ: لا بأسَ عليكَ، فقالَ: إنْ كانَ في القَتْلِ بأسٌ ففي(١١) ذلكَ.

وأمّا غَيْرُهُ مِنْ أهلِ التَّأويلِ فَقالُوا: البأسُ العذابُ، و بأسُنا عذابُنا.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: ويعبدون. (٥) في الأصل وم: بتكذيبهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فتلزمهم. (٨) في الأصل وم: على. (٩) من م، في الأصل: الكسائي. (١٠) ساقطة من من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: في.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ البَياتُ بالليلِ، والقَيلُولَةُ بالنهارِ[عند الظَّهيرةِ][(١)]، وهما وَقتا الغَفلَةِ أو وَقتا الأمنِ. أخبَرَ أنهُ إنما يأتيهِمْ عذابُهُ في حالِ الغَفلَةِ أو في حالِ الأمنِ لِئلا يكونُوا غافِلِينَ عن أمرِهِ، ولا يكونُوا آمِنِينَ عذابَهُ

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ﴾ أي ما كان دَعواهُمْ قَبلَ نُزولِ العذابِ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ نَحنُ على الحَقِّ، وإنَّ غَيرَهُمْ على الباطِلِ. فإذا جاءَهُم بأسُنا اعتَرَفُوا بِظُلْمِهِمْ بقولِهِمْ [(٢)] ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

وقالَ بَعضُهُمْ ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ حِينَ نُزولِ العذابِ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ يَذكُرُ في الآيةِ أنهُ يَسألُهُمْ جميعاً: الرُّسُلَ والمُرسَلَ إليهِمْ.[(٣)]. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولكنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٣٩] أي لا يُسأل عمّا فَعَلَ وعنْ نَفْسِ ما ارْتكَبَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤]. ما أذنَبتَ؟ وما فَعَلتَ؟ ولكنْ يُسألُ: لِماذا فَعَلتَ؟ يُسألُ عنِ الحُجَّةِ: لِمَ أذنَبتَ؟ ولِمَ فَعَلتَ ذا؟ أو يُسألُ في وَقتٍ، ولا يُسألُ في وَقتٍ.

وقالَ بَعضُهُمْ ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ غيرُهُ، وإنما يُسألُ صاحِبُهُ وفاعِلُهُ.

يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الآخِرَةَ على خِلافِ أمرِ الدنيا؛ لأنَّ في الدنيا قد يُؤاخَذُ غَيرٌ بِذَنبِ آخَرَ، ربما، ويُسألُ إحضارَ قَريبِهِ، وأمّا في الآخِرَةِ فإنهُ لا يُؤاخَذُ غَيرٌ بِذَنبِ آخَرَ، كذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا. أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ﴾ عمّا أظهَرَ، وأبدَى، ولكنْ يُسألُ عمّا أسَرَّ، وأخفَى؛ لأنَّ الملائكةَ قد يَكتُبونَ ما أبدَوهُ، وأظهَرُوهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨] فَيَقَعُ السُّؤالُ عمّا أسَرُّوا على التَّقريرِ، ولا يُسألُ بَعدَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التّأويلِ: يَسألُ الرُّسُلَ عن تَبليغِ الرِّسالَةِ إلى الأُمَمِ، ويَسألُ قومَهُمْ: هل بَلَّغَ الرُّسُلُ إليهِمُ الرِّسالَةَ؟ ويكونُ سؤالُهُ[(٤)] الرُّسُلَ سؤالَ شَهادةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الآية [١٤٣] [أنهم قد بَلَّغُوا][(٥)] الرِّسالَةَ.

وقالَ بَعضُهُمْ: يَسألُ الملائكةَ عنْ تَبليغِ الرِّسالةِ إلى الأنبياءِ، ويَسألُ الأنبياءَ ﷺ عن تَبليغِ الملائكةِ إليهِم. وأمكَنَ أنْ يكونَ السؤالُ[(٦)] لِلرُّسُلِ عمّا أُجيبُوا، وكانَ سُؤالُ الأُممِ عمّا أجابُوا الرُّسُلَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]. أو يكونَ سؤالُ القومِ سؤالَ تقريرٍ عندَهُمْ وإقرارٍ لِما كانُوا يُنكِرونَ التَّبليغَ إليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] هذا السُّؤالُ سُؤالُ تَقريرٍ وتَعييرٍ، لا غيرُ؛ لأنهُ كانَ يَعلَمُ أنهُ لم يَكُنْ قالَ لَهُمْ ذلكَ، لكنَّه يَسألُهُمْ سُؤالَ تَقريرٍ لِيُقِرُّوا بذلكَ لِئلّا يَقولُوا: هو قالَ لَهُمْ ذلكَ؛ لأنهُمْ قالُوا: عِيسَى هو الذي قالَ لهمْ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن عَمَلِهِمْ وصَنيعِهِمْ. ولكنْ يُسألُونَ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

يُشبِهُ أنْ يكونَ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ ذَكَرَ هذا لِما يَحتَمِلُ أنْ يُظَنَّ بِهِ الخَفاءُ عليهِ لِما ذَكَرَ مِنَ المَسألَةِ لَهُمْ والسُّؤالِ، وهو الاِستِخبارُ عمّا يُسِرُّ، ويُضمِرُ، لِيُظهِرَ ذلكَ.

هذا هو مَعنَى السُّؤالِ في الشاهِدِ والاِستِخبارِ. فأخبَرَ ﷻ، بقولِهِ تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ﴾ على أنَّ سُؤالَهُ لَيسَ بِسُؤالِ اسْتِخبارٍ واسْتِظهارٍ لَهُ، ولكنْ سُؤالُ تَوبيخٍ وتَقريرٍ أو سؤالُ شَهادَةٍ.

(١) من م، في الأصل: هذا الظهرة. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: سؤالهم. (٥) في الأصل وم: أنه قد بلغ. (٦) ساقطة من م.

وعلى هذا يُخرَّجُ الابتِلاءُ منهُ والامتِحانُ لِتقريرِ الأمرِ والنَّهْيِ لا لإظهارِ شيءٍ خَفِيَ عليهِ، وإنْ كانَ في الشاهِدِ يكونُ لذلكَ، أو أنْ يَصيرَ ما قد خَفِيَ عليهِمْ بادِياً ظاهراً عندَهُمْ، فَسُمِّيَ ذلكَ الأمْرُ منهُ والنَّهْيُ ابتِلاءً وامتِحاناً لِما [هو][1] عندَ الخَلْقِ ابتلاءٌ وامتِحانٌ، وإنْ كانَ عندَ اللهِ لا يَحتَمِلُ ذلك، فَسُمِّيَ بالذي في ما بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ﴾ كذا قالَ الحَسَنُ: يكونُ ميزانٌ[2] لهُ كِفَّتانِ، يُوزَنُ فيهِ الحَسَناتُ والسَّيِّئاتُ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ دَخَلَ الجنَّةَ، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ دَخَلَ النارَ. وقالَ غَيْرُهُ مِنْ أهلِ التَّأويلِ: يُريدُ بالمَوازينِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ نَفْسَها؛ فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَناتُهُ على سَيِّئاتِهِ دَخَلَ الجنَّةَ، ومَنْ رَجَحَتْ سَيِّئاتُهُ على حَسَناتِهِ دَخَلَ النارَ.

[إلى هذا][3] ذَهَبَ أكثَرُ أهلِ التأويلِ. ولا يَحتَمِلُ ما قالوا. أمّا قولُ الحَسَنِ: ميزانٌ لهُ كِفَّتانِ يُوزَنُ فيه الحَسَناتُ والسَّيِّئاتُ فلا[4] يَحتَمِلُ، لأنهُ قالَ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إذا[ثَقُلَتْ إحدى الكِفَّتينِ][5] خَفَّتِ الأُخرى، وإذا خَفَّتْ إحداهُما ثَقُلَتِ الأُخرَى. فَكُلُّ واحدٍ مِنْهُما مِمَّنْ[6] تَثقُلُ مَوازينُهُ، وتَخِفُّ، وقد أخبَرَ في الآيةِ أنَّ مَنْ ﴿خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾.

ولا يَحتَمِلُ أيضاً ما قالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التَّأويلِ: إنهُ أرادَ بالموازينِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، لأنَّ الآيةَ في المؤمِنينَ والكافِرينَ؛ فلا سَيِّئَةَ تَرجُحُ في المؤمِنِ معَ إيمانِهِ، ولا حَسَنَةَ تَرجُحُ في الكافِرِ مَعَ شِرْكِهِ إلّا أنْ يُقالَ: المؤمِنُ[7] تُوزَنُ حَسَناتُهُ، وتُقابَلُ بِسَيِّئاتِهِ دونَ إيمانِهِ. وكذلكَ/ ١٦٩ ـ أ/ الكافِرُ تُقابَلُ سَيِّئاتُهُ بِحَسَناتِهِ دونَ الشِّرْكِ؛[تَذهَبُ حَسَناتُ الكُفّارِ][8] التي كانَتْ لَهُمْ في الدنيا بما أنْعَمَ عليهِمْ في الدنيا. وأمّا المؤمِنُ فَيُتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِ، ويُتَقَبَّلُ عنهُ[9] أحسَنُ ما عَمِلَ لِقولِهِ[10] تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ الميزانِ هو الكتابَ الذي ذُكِرَ في [آياتٍ أُخَرَ كقَولِهِ][11] تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ٧ و٨ و١٠] وكما[12] قالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ و٢٥].

وقالَ بَعْضُهُمْ: الوَزْنُ العَدْلُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] لم يَقُلْ: ونَضَعُ المَوازينَ بالقِسْطِ، ولكنْ قالَ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ والقِسْطُ هو العَدْلُ، فهو إخبارٌ عنِ العَدْلِ أنهُ يَعْدِلُ بَيْنَهُمْ يومَئِذٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾أي الجزاءُ يومئذٍ الحَقُّ؛ يَجزي للطاعةِ الحَسَنَةَ والثوابَ وللسَّيِّئةِ [العقابَ والعذابَ][13]؛ فهو حَقٌّ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي الطاعةُ، حَقُّ كلِّ مُطيعٍ يومئذٍ، فهو حَقٌّ؛ ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الوزنُ الحُدودَ والتقديرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩] أي محدودٍ فَعَلى ذلك قولُهُ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أيِ الحَدُّ يومَئِذٍ الحَقُّ، لا يُزادُ على السَّيِّئاتِ، ولا يُنقَصُ مِنَ الحَسَناتِ التي عَمِلُوا في الدنيا، واللهُ أعلمُ بما أرادَ مِنَ الوَزْنِ.

ثم قالَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ أي غَبَنوا؛ وذلكَ أنهُ ما مِنْ أحدٍ مِنْ مُؤمِنٍ وكافرٍ إلّا ولَهُ في الجنَّةِ والنارِ مَنْزِلٌ وأهلٌ؛ فَيَرِثُ المؤمِنُ المَنْزِلَ الذي كانَ للكافِرِ في الجنَّةِ، ويَرِثُ الكافِرُ المَنْزِلَ الذي لِلْمؤمِنِ في النارِ، فهذا الخُسْرانُ الذي خَسِرُوا. لكنَّ هذا لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَجعَلُ للكافِرِ في الجنَّةِ مَنْزِلاً وأهلاً مَعَ عِلْمِهِ أنهُ لا يُؤمِنُ، ويُختَمُ على كُفْرِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل و م: ميزانا. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثقل إحدى الكفتان. (٦) في الأصل وم: فمن. (٧) في الأصل وم: إن. (٨) في الأصل وم: فذهب حسناتهم. (٩) في الأصل وم: عنهم. (١٠) في الأصل وم: كقوله. (١١) في الأصل وم: آية أخرى لقوله. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل: وم: عقاب وعذاب.

ويَحتَمِلُ الخُسْرانُ الذي ذَكَرَ هو أنهُمْ خَسِرُوا في الدنيا والآخِرَةِ لِما فاتَ عنهُمُ النِّعَمُ التي كانَتْ لهُمْ في الدنيا، ولم يَصِلُوا إلى نَعِيمِ الآخِرَةِ، فذلكَ هو الخُسْرانُ المُبِينُ في الدنيا والآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ قال الحسنُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حُجَجِنا ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ أي يَضَعُونَها في غَيرِ مَوضِعِها؛ وهو ما ذَكَرَ مِنْ ظُلْمِهِمُ الآياتِ؛ لأنَّ الظُّلْمَ وَضْعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضِعِهِ.

ثم المسألَةُ في مَنِ ارْتَكَبَ كلَّ ذنبٍ وكبيرَةٍ في حالِ كُفْرِهِ مِنَ الكبائِرِ مَغفوراً مَعفُوًّا عنهُ غَيْرَ مُؤاخَذٍ بها، ومَنِ ارْتَكَبَ ذلكَ في حالِ إيمانِهِ، وخُتِمَ على الإيمانِ، لم تَعْمَلِ الكبائِرُ[1] في تَكْفِيرِهِ، وكانَ مُؤاخذاً بها[2]، واللهُ أعْلَمُ، لِوجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ لَيسَ على الكافِرِ [أفعالُ الطاعاتِ نَفْسُها وعَينُها][3] إنما عليه قبولُ تلكَ [الطاعاتِ][4]. فإذا أسْلَمَ فقد قَبِلَها، ولم يكُنْ عليهِ في ذلكَ الوَقْتِ إلّا القَبولُ؛ لذلكَ لم يؤاخَذْ بما كانَ منهُ مِنَ الأفعالِ.

وأمّا المؤمِنُ فعليهِ [أفعالُ تلكَ الطاعاتِ نَفْسُها][5] وتلكَ الأعمالُ، وقد كانَ منهُ القبولُ والتفريطُ في تلكَ الأعمالِ.

والثاني: أنَّ الكافِرَ إذا أسْلَمَ بعدما ارْتَكَبَ مِنَ الكبائِرِ لم يُخرِجْ إيمانَهُ، ولا أدْخَلَ فيهِ نَقْصاً، فلا يُؤاخَذُ بما كانَ منهُ لمّا قَدِمَ على ربِّهِ بإيمانٍ كامِلٍ.

وأمّا المؤمِنُ إذا ارْتَكَبَ كبائرَ [فما أخرجَ الإيمانَ، ولكنْ][6] أدْخَلَ النُّقصانَ بِعَمَلِهِ الذي يُخالِفُ الإيمانَ، ولا يُوافِقُهُ لِذلكَ افْتَرَقا.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ على التَّمْثِيلِ، لَيسَ على تحقيقِ الثِّقَلِ[7] والخِفَّةِ، ولكنْ على الوَصْفِ بالعِظَمِ لِأعمالِ المؤمِنينَ وبالخِفَّةِ والتَّلاشِي لِأعمالِ الكافِرينَ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ ضَرَبَ لِأعمالِ المؤمِنِينَ المَثَلَ بالشَّيءِ الثابتِ والطَّيِّبِ، ووصفَ أعمالَهُمْ بالثَّباتِ والقَرارِ فيهِ، وضَرَبَ لِأعمالِ الكافِرِينَ المَثَلَ، وشَبَّهَها بالشَّيءِ التافِهِ، ووصَفَها بالبُطْلانِ والتَّلاشِي كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وَصَفَ أعمالَهُمْ بالطِّيبِ والثَّباتِ والقَرارِ، وَوَصَفَ أعمالَ الكافِرِينَ بالخُبْثِ والتَّلاشِي والبُطْلانِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ [إبراهيم: ٢٦] وكقولِهِ[8] تعالى في آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ [الأعراف: ٥٨]. وكقولِهِ[9] تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ وَصْفُ أعمالِ المؤمِنِينَ بالثباتِ والقرارِ وأعمالِ الكَفَرَةِ بالذَّهابِ والبطلانِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وَصْفٌ بالعِظَمِ والقَرارِ والثَّباتِ ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وَصْفٌ بالبُطلانِ والتَّلاشِي [حتى لا][10] يكونَ لَهُمْ مِنَ الخيراتِ شَيءٌ يَنْتَفِعونَ بهِ[11] في الآخِرَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانِيُّ ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾ أي مَلَّكْناكُمْ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ تَتَعَيَّشُونَ بها، يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ ومِنَّتَهُ بما مَلَّكَهُمْ في الأرضِ، وجَعَلَ لَهُمْ مطامِعَ لِيَشكروا لَهُ عليها. وقالَ الحَسَنُ: ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾ أي جَعَلْناكُمْ مُسْتَخلَفِينَ عَمَّنْ تَقَدَّمَكُمْ[12] بِمكانِهِمْ؛ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ، أيضاً نِعَمَهُ عليهِمْ بما جَعَلَهُمْ خُلَفاءَ الأوَّلِينَ، وجَعَلَ لَهُمْ معايشَ، ويُخَوِّفُهُمْ زَوالَ ذلكَ عَنهُمْ بما صارَ ذلكَ لَهُمْ بِزَوالِها عَنِ الأوَّلِين. [وقولُهُ تعالى: ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾][13] يُذَكِّرُهُمْ بما جَعَلَ لَهُمْ مَكانَ القَرارِ ومَوضِعَ الانْتِشارِ والتَّقَلُّبِ والتَّعَيُّشِ، والبَشَرُ لا بُدَّ لهُ مِنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: الإيمان. (٢) في الأصل وم: به. (٣) في الأصل وم: أنفس أفعال الطاعات وأعنيها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أنفس أفعال تلك الطاعات. (٦) في الأصل وم: فقد خرج الإيمان. (٧) في الأصل وم: الميزان. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: بها. (١١) في الأصل وم: ألا. (١٢) في الأصل وم: تقدمهم. (١٣) في الأصل وم: وأمكن أن.

وكُلُّهُ يرجِعُ إلى واحدٍ كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي جَعَلْنا الحَرَمَ مأمَناً لَكُمْ بِحَيثُ تأمَنُونَ فيهِ، وتتقلَّبُونَ، وتتعيَّشُونَ فيهِ ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ويُذكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ ومِنَنِهِ التي جعَلَها لَهُمْ.

هذا إذا كانَ الخِطابُ بِهِ أهلَ مكةَ. وإنْ كانَ الخِطابُ بِهِ الناسَ كافَّةً يُخرَّجُ(١) على تَذكيرِ النِّعَمِ لَهُمْ، حَيثُ جَعَلَ الأرضَ لَهُمْ بِحَيثُ يَقِرُّونَ فيها، ويتقلَّبُونَ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨]

أحَدُها: أنهُمْ كانوا يُقِرُّونَ أنهُ خالِقُهُمْ كقولِهِ تعالى(٢): ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١ و..] كانوا يُقِرُّونَ بأُلوهيَّتِهِ، ويَصْرِفونَ العِبادَةَ إلى غَيرِهِ. فلذلكَ قالَ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

والثاني: أي لا تَشكُرُونَهُ، ولا تَذكُرُونَهُ البتَّةَ. ويَحتَمِلُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي [المؤمِنونَ يَشكُرونَ، ولا يَشكُرُ](٣) أُولئكَ، والمؤمِنُونَ قليلٌ، وهُمْ أكثَرُ.

والثالثُ(٤): أي لَيسَ في وُسْعِهِمُ القِيامُ بِشُكرِ الجَميعِ، فذلكَ الشُّكرُ قَليلٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾](٥) أرادَ آدمَ خاصَّةً؛ لأنهُ قالَ: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أخبَرَ أنهُ أمرَ(٦) الملائكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ بَعْدَ الخَلْقِ. ولو كانَ المُرادُ نَحنُ لَكانَ بَعْدَ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ وقد كانَ السجودُ قبلَ ذلكَ.

وقالَ غَيرُهُ: المُرادُ(٧) منهُ البَشَرُ كُلُّهُ؛ لأنهُ قالَ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ ولو كانَ المُرادُ لآدمَ بقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ خاصَّةً لَكانَ لا يَذكُرُ آدمَ ثانياً. فَدَلَّ [أنهُ](٨) أرادَ ذُرِّيَّتَهُ.

وقالَ بَعضُهُمْ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ آدمَ ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في أرحامِكُمْ. ويَحتَمِلُ ما قالَ الحَسَنُ. ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ وهو أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي قَدَّرناكُمْ مِنْ ذلكَ الأصلِ، وهو نَفسُ آدَمَ؛ لأنَّ الخَلْقَ هو التَّقديرُ كما تَقولُ: أنا خَلَقْتُهُ؛ أي قَدَّرْتُهُ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي قَدَّرناكُمْ جَميعاً مِنْ ذلكَ الأصلِ والكِيانِ. ومنهُ صَوَّرْناكُمْ ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي وقد قُلْنا لِلملائِكَةِ ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقد يقولُ بَعضُ أهْلِ الكلامِ: إنَّ النُّطفَةَ هي إنسانٌ بِقُوَّةٍ، ثم تَصيرُ إنساناً بِفِعْلٍ. ويقولُ بَعضُهُمْ: هي كِيانُ الإنسانِ. فجائزٌ أنْ يكونَ أضافَ إلى ذلكَ الطِّينِ لِما هو كِيانٌ وأصلٌ لنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: إبليسُ لم يكُنْ مِنَ الملائكةِ/ ١٦٩ ـ ب/ وذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ، وصَفَ الملائكةَ جُملَةً بالطاعةِ والخُضوعِ بقولِهِ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقولِهِ(٩): ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وغيرِهما(١٠) مِنَ الآياتِ، ولم يكُنْ من إبْليسَ إلَّا كُلُّ شَرٍّ. وقالَ أيضاً: خُلِقَ الملائكةُ مِنْ نورٍ وإبليسُ من نارٍ، والنارُ لَيسَتْ مِنْ جَوهَرِ النورِ. دلَّ أنهُ لَيسَ مِنَ الملائكةِ.

وقالَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ مِثْلُ هذا يجوزُ أنْ يُقالَ: [في](١١) هذِهِ الدارِ أهْلُ البَصْرةِ إلا رَجُلاً(١٢) مِنْ أهلِ الكوفةِ. دلَّ الاِسْتِثْناءُ: على(١٣) أن يَدْخُلَ هنالكَ أهلُ الكوفةِ. فَعَلى ذلكَ يَدُلُّ اسْتِثناءُ إبليسَ على أنْ قالَ: هنالكَ أمْرٌ بالسُّجودِ لآدمَ لِغَيرِ الملائكةِ أيضاً. ولكنْ لَيسَ لنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ حاجةٌ أنهُ كانَ مِنَ الملائكةِ أو مِنْ غَيرِهِ، إنما علينا أنْ نَعْرِفَ أنهُ عَدُوٌّ لَنا. وقد ذَكَرْنا هذِهِ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] على ما ذُكِرَ في آيَةٍ أُخرَى، ولا زائدةٌ.

---

(١) في الأصل وم: فيخرج. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل: المؤمنين يشكرون ولا يشكر، في م: المؤمنينَ يشكرون ولا يشكروا.
(٤) في الأصل وم: والرابع. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) أدرج قبلها في الأصل: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.
(٩) في الأصل: وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: رجل. (١٣) في الأصل وم: إلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ بِمَ عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ أنَّ المَخلُوقَ مِنَ النارِ خَيْرٌ مِنَ المَخلُوقِ بالطينِ؟ إلّا أنْ يُقالَ بأنَّ النارَ جُعِلَتْ لِصالحِ الأغذِيَةِ. فَمِنْ هنا وَقَعَ لهُ ذلكَ أنها خيرٌ مِنَ الطِّينِ، فَيُقالُ: إنَّ النارَ، وإنْ جُعِلَتْ لإصلاحِ الأغذِيَةِ فالطينُ جُعِلَ لِوُجودِ الأغذِيَةِ. فالذي جُعِلَ لِوُجودِ الشَّيءِ هو أنْفَعُ وأكْبَرُ مِنَ الذي جُعِلَ لِصالِحِهِ، ولَعَلَّ الأغذيَةَ تَصْلُحُ لِلأكلِ بِغَيرِها بالشَّمْسِ وغَيرِها. وبَعْدُ فإنَّ الطينَ مِمّا يَقُومُ للنارِ، ويُطيقُها، ويُتْلِفُها، والنارَ لا تقومُ للطينِ، ولا تُتْلِفُهُ. فإذا كانَ كذلكَ فلا يجوزُ أنْ يَقَعَ مِنْ هذا الوجهِ أنها أفْضَلُ وأخيَرُ مِنَ الطينِ.

ثم اخْتُلِفَ في الجِهَةِ التي كَفَرَ عَدُوُّ اللهِ إبليسُ؛ قال بَعْضُهُمْ: إنَّ إبليسَ عَدُوَّ اللهِ لم يَرَ لِنَفْسِهِ طاعةً بأمْرِ السُّجودِ لِآدمَ. لذلكَ كَفَرَ. وقال آخَرونَ: إنما كَفَرَ عَدُوُّ اللهِ إبليسُ لِما لَمْ يَرَ الأمْرَ بالخُضوعِ والطاعَةِ مِنْ فَوقِهِ لِمَنْ هو دُونَهُ حِكْمَةً؛ فَكَفَرَ لِما لم يَرَ أنهُ وُضِعَ الأمْرُ بالسُّجودِ مَوضِعَهُ؛ رآه لَعَنَهُ اللهُ، واضعاً أمْرَهُ في غَيرِ مَوضِعِه. وقالَ غيرُهُمْ: كَفَرَ عَدُوُّ اللهِ بالإستِكْبارِ والتَّكَبُّرِ على آدَمَ لِمَعْنًى آخرَ. وقيلَ: أوَّلُ مَنْ أخطأَ في المِقياسِ، وزَلَّ فيهِ إبليسُ، لَعَنَهُ اللهُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ يَعْني مِنَ السماءِ؛ لأنهُ، لَعَنَهُ اللهُ، كانَ في السماءِ، فَأُمِرَ بالهبوطِ منها لِما جَعَلَ السماءَ مَعْدِناً ومَكاناً للخاضِعِينَ المُتواضِعِينَ، فأُمِرَ بالهبوطِ مِنْها إلى مكانٍ؛ جُعِلَ ذلكَ المكانُ مكانَ الخاضِعِينَ والمُتَكَبِّرينَ جَميعاً، وهي الأرضُ؛ إذِ الأرضُ مَعْدِنُ الفريقَيْنِ جَميعاً.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الأمْرُ بالهُبوطِ منها أمْرٌ بالخُرُوجِ مِنَ الأرضِ إلى جَزائرِ البُحورِ لأنَّ الأرضَ هي قَرارُ أهْلِها، وجَزائرَ البُحور لَيسَتْ مَكانَ قرارٍ لِأحدٍ لِيكونَ فيها على الخَوفِ أبداً. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾؟ [الأنبياء: ٣١] والبِحارُ ممّا لا تَميدُ بأهلِها. وأمْكَنَ أن يكونَ الأمْرُ بالهبوطِ منها أمْراً بالخُروجِ مِنَ الصورةِ التي كانَ فيها إلى صورةٍ أُخرَى لا تُعْرَفُ أبداً، ولا تُرَى، عُقُوبَةً لهُ لِتَرْكِهِ أمْرَ اللهِ وارتِكابِهِ نَهْيَهُ. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ في تلكَ الصورةِ وفي تلكَ الأرضِ حتى لا يَقَرَّ أبداً، ويكونَ على خوفٍ أبداً. ويَحتَمِلُ في السماءِ لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وَجْهُ صَغارِهِ أنهُ ما مِنْ أحدٍ ذَكَرَهُ إلّا وقد لَعَنَهُ، ودَعا عليهِ باللَّعْنِ، فذلكَ صَغارُهُ. وأمْكَنَ أنْ يكونَ صَغارُهُ لِما صَيَّرَهُ بحالٍ يَغيبُ عنِ الأبصارِ، ولا يَقَعُ عليهِ البَصَرُ، أو لِما طَرَدَهُ عن رَحْمَةِ اللهِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قال بَعْضُهُمْ: أنْظَرَهُ إلى النَّفْخَةِ الأولى لِئلا يَذُوقَ [المَوتَ](١)، فَتَتَّصِلَ حياةُ الدنيا بحياةِ الآخرةِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧ و٣٨].

الآية ١٥ وقال بَعْضُهُمْ: أنْظَرَهُ إلى يَومِ البَعْثِ ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ خَرَجَ ذلكَ جواباً لِسؤالِهِ، وما ذُكِرَ مِنَ الوَقْتِ المَعْلومِ في [الآيةِ الأُخرَى](٢) يَجيءُ أنْ يكونَ هو ذلكَ اليومَ.

وقالَ غَيْرُهُمْ(٣): أنْظَرَهُ، ولم يُبَيِّنْ لَهُ ذلكَ الوَقْتَ الذي أنْظَرَهُ إلى ذلكَ الوَقْتِ، حتى يكونَ أبداً على خَوفٍ وَوَجَلٍ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾؟ [الأنفال: ٤٨] لو كانَ الوَقْتُ [الذي](٤) أنْظَرَهُ مَعْلوماً عندَهُ لَكانَ لا يَخافُ الهَلاكَ بدونِ ذلكَ الوَقْتِ. دلَّ أنه كانَ غَيْرَ مَعْلُومٍ عندَهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بما لَعَنْتَني. والإغواءُ هو اللَّعْنُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] أي مِنَ المَلْعونينَ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ أي لَعَنْتَني.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: آية أخرى. ولعل المقصود قولُهُ الآنف الذكر [الحجر: ٣٨]. (٣) في الأصل وم: غيره.
(٤) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ[1]: أضافَ الإغواءَ إلى نَفْسِهِ لِما كانَ سَبَبُ ذلكَ منهُ، وهو الأمْرُ الذي أمَرَهُ بالسُّجودِ لآدمَ والخُضوعِ لَهُ. ويجوزُ أنْ يُضافَ مِثْلُ ذلكَ لِما كانَ منهُ السَّبَبُ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ [التوبة: ٤٩] سألَ منهُ الإذْنَ بالقُعُودِ، ولا تُكَلِّفْني بما لا أقومُ، فَتَفْتِنِّي بذلكَ. وقالَ: إنما أضافَ ذلكَ إليهِ لِما كانَ منهُ سَبَبُ ذلكَ الافْتِتانِ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

وقالَ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ: هذا قولُ إبليسَ: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ وقد كذَبَ عَدُوُّ اللهِ، لم يُغْوِهِ اللهُ، فَيُقالُ لَهُمْ: فإنْ كانَ إبليسُ عَدُوُّ اللهِ قد كَذَبَ في قولِهِ ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ فَيَقُولُونَ بأنَّ نوحاً، صلواتُ اللهِ عليه، قد كَذَبَ حينَ[2] قالَ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ [هود: ٣٤] أضافَ الإغواءَ إليهِ. دلَّ هذا على أنَّ إبليسَ لم يَكْذِبْ بإضافةِ الإغواءِ إلى اللهِ.

ولكنْ عندَنا أنهُ أضافَ الإغواءَ إلى نَفْسِهِ لِما خَلَقَ فيهِ فِعْلَ الغِوايةِ والضَّلالِ على ما ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ لَيسَ كما قالَ هؤلاءِ: إنهُ أُضِيفَ إليهِ لِمكانِ ما كانَ منهُ سَبَبُ ذلكَ، لأنهُ لو جازَ أنْ يُضافَ فِعْلُ الإغواءِ إليهِ لِسَبَبِ الإغواءِ لَجازَ أنْ يُضافَ إلى الرُّسُلِ والأنبياءِ؛ لأنهُ كانَ منهُمُ الأمْرُ لِقَومِهِمْ والدعاءُ إلى توحيدِ اللهِ، ثم كَذَبُوا في ذلكَ، فكانَ سَبَبُ إغواءِ أولئكَ هُمُ الرُّسُلَ. فذلكَ بَعيدٌ، وكذلكَ[لو كانَ][3] الإغواءُ لَكانَ كلُّ لاعِنٍ عليهِ هو[4] مُغْوِيَهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ أي خَذَلْتَني[5]، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ خَلَقَ فيهِ فِعْلَ الغِوايَةِ والضَّلالِ، وكذلكَ مِنْ كلِّ كافرٍ: خَذَلَهُ لَمّا عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الغِوايَةَ والضَّلالَ.

وقولُه تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾ لَيسَ على حَقيقَةِ القُعودِ، ولكنْ على المَنْعِ عنِ السُّلُوكِ في الطَّريقِ، أو على التَّلْبيسِ عليهِمُ الطريقَ المُسْتقيمَ والسَّتْرِ عليهِمْ؛ لأنَّ مَنْ قَعَدَ في الطريقِ مَنَعَ[6] الناسَ عنِ السلوكِ فيهِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ الآية. قالَ الحَسَنُ: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنْ قِبَلِ الآخِرةِ تكذيباً بالبَعْثِ والجنةِ والنارِ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ قالَ: مِنْ قِبَلِ دُنياهُمْ، يُزَيِّنُها لَهُمْ، ويُشَهِّيها إليهِمْ ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ قالَ: مِنْ قِبَلِ الحَسَناتِ يُبَطِّئُهُمْ عنها ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ قالَ: مِنْ قِبَلِ السَّيِّئاتِ؛ يأمُرُهُمْ بها، ويَحُثُّهُمْ عليها، ويُزَيِّنُها في أعْيُنِهِمْ.

وعَنْ مُجاهِدٍ ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [أنهُ][7] قالَ: مِنْ حَيثُ يُبْصِرُونَ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ مِنْ حَيثُ لا يُبْصِرُونَ. وقِيلَ: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنْ قِبَلِ آخِرَتِهِمْ فَلأُخْبِرَنَّهُمْ أنهُ لا جَنَّةَ ولا نارَ ولا بَعْثَ على ما ذَكَرَ الحَسَنُ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ مِنْ قِبَلِ دُنياهُمْ يأمُرُهُمْ بِجَمْعِ الأموالِ فيها لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ ذرارِيهِمْ وأُخَوِّفُ عليهِمُ الضَّيعَةَ، فلا يَصِلُونَ في أموالِهِمْ رَحِماً، ولا يُعْطُونَ لَها حَقًّا، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ مِنْ قِبَلِ دينِهِمْ، فَأُزَيِّنُ لِكُلِّ قومٍ ما كانوا يَعْبُدُونَ؛ فإنْ كانُوا على ضَلالَةٍ زَيَّنْتُها لَهُمْ، وإنْ كانُوا على هُدىً شَبَّهْتُهُ عليهِمْ حتى أُخْرِجَهُمْ منهُ ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّذّاتِ والشَّهواتِ، فَأُزَيِّنُها لَهُمْ.

هذا الذي ذَكَرَ أهْلُ التَّأويلِ يَحْتَمِلُ. ثم ذَكَرَ الأمامَ والخَلْفَ وعَنْ أيمانٍ وعَنْ شمائلَ، ولم يَذْكُرْ ما فَوقَ ولا تَحْتُ/ ١٧٠ ـ أ/ فَيَحْتَمِلُ أنْ يَدْخُلَ ما فوقَ وما تَحْتُ بِذِكْرِ الأمامِ واليَمينِ والشِّمالِ والخَلْفِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [سبأ: ٩]دَخَلَ ما فَوقَ بِذِكْرِ ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [فَعَلَى ذلكَ هذا يَدْخُلُ ما تَحْتُ][8] [وما فَوقُ بِذِكْرِ ما ذُكِرَ، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ ﴿لَأٓتِيَنَّهُم﴾ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ لم يَذْكُرْ هذا لِما أنهُ لا سلطانَ لَهُ على مَنْعِ أرزاقِ[9] الخَلْقِ والبَرَكاتِ لأنَّ أرزاقَ الخَلْقِ والبَرَكاتِ مِمّا تَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ مَنَ المَطَرِ، ويَخْرُجُ مِنَ الأرضِ النَّباتُ، فَلَيسَ لَهُ سُلْطانٌ على مَنْعِ إنزالِ المَطَرِ وإخراجِ النَّباتِ مِنَ

---

(١) في الأصل وم: الكسائي. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: لكان. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) من م، في الأصل: أخذلتني. (٦) من م، في الأصل: مع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: دخل تحت. وقد سقط الكلام بعد كلمة تحت من م: في الورقة التي لم تصور والتي فيها تتمة تفسير هذه الآية وتفسير الآيات التي تليها إلى الآية (٢٣) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ والتي أولها: وما فوق، وآخرها وقال بعض أهل العلم: إن. انظر الحاشية (٤) ص (٢١٨). (٩) في الأصل: الأرزاق.

الأرض، ولَهُ سُلطانٌ على غيرِ ذلكَ، أو لِما يَشغَلُهُمْ، ويُشَهِّيهِمْ ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ مِنَ اللَّذَّاتِ والشَّهواتِ لِما إذا رأى شَيئاً، أَعْجَبَهُ، أَتْبَعَ النَّظَرَ إليهِ، واحداً بَعْدَ واحدٍ مِنْ أمامٍ وَوَراءٍ ويَمينٍ وشِمالٍ، ولا كذلكَ مِنْ تَحتُ ولا مِنْ فوقُ.

أو أنْ يكونَ لِما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ إذا تَلا هَذِهِ الآيةَ قالَ: اللهُ مَنَعَهُ مِنْ أنْ يأتِيَهُمْ مِنْ فَوقِهِمْ. ولو كانَ ذلكَ لَما نَجا أحدٌ؛ فأعمالُهُمْ تَصعَدُ إلى اللهِ، ورَحْمَتُهُ تَنزِلُ عليهِمْ.

وقالَ قَتادةُ: أتاكَ اللَّعينُ مِنْ كُلِّ نَحوٍ يا ابنَ آدَمَ غَيرَ أنهُ لا يَستطيعُ أنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وبَيْنَ رحمةِ رَبِّكَ، إنما تأتيكَ الرَّحمَةُ مِنْ فَوقِكَ. والذي ذَكَرْنا أنهُ على التَّمثِيلِ أنهُ يأتِيهِ مِنْ كُلِّ جانبٍ أشبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: لَيسَ على إرادةِ بَيْنِ [أيدٍ][1] وخَلفٍ وأيمانٍ وشمائلَ، ولكنْ على إرادةِ الجِهاتِ كُلِّها. كأنهُ يَقولُ: لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

والثاني: ما ذَكَرَ الحَسَنُ وأهلُ التأويلِ: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآخِرَةُ[2] تكذيباً بها ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ الدنيا تَزْييناً بها عليهِمْ ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الحِسابُ ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ السَّيِّئاتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ هذا مِنْ عَدُوِّ اللهِ ظَنٌّ ظَنَّهُ لا قالَهُ حَقِيقَةً. لكنَّ اللهَ ﷻ، [قالَ][3] إنهُ أخبرَ أنهُ صَدَّقَ ظَنَّهُ بقولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠].

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ يَحتَمِلُ ﴿مِنۡهَا﴾ مِنَ السَّماءِ، ويَحتَمِلُ مِنَ الصُّورَةِ التي كانَ فيها ما قُلنا في قولِهِ: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وقِيلَ: الجنةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ قيلَ: ﴿مَذۡءُومٗا﴾ مَلُوماً أي [مَذْموماً مَلُوماً][4] عندَ الخَلقِ جميعاً ﴿مَّدۡحُورٗا﴾ قِيلَ: مَقْصِيًّا مُبْعَداً مِنْ كُلِّ خيرٍ. قال أبو عوسَجَةَ: [مَذءوماً واحداً][5] ومَدْحُوراً مُباعَداً مَطْرُوداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أخبرَ اللهُ ﷻ، أنه يَملأُ جَهنَّمَ مِنْ إبليسَ ومِمَّنْ تَبِعَهُ، وأطاعَهُ؛ لِأنَّهُمْ يَتْبَعُونَهُ في الكُفرِ والشِّرْكِ باللهِ.

تَعَلَّقَ الخوارجُ بِظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ [فقالُوا: كُلُّ][6] مُرْتَكِبِ مَعصيَةٍ تابعٌ لَهُ، لِذلكَ استَوجَبَ الخُلُودَ.

وقالَتِ المُعتَزِلَةُ: كُلُّ مُرْتَكِبِ كَبِيرَةٍ بَوَعيدِ هذِهِ الآيةِ؛ لأنهُ تابعٌ لَهُ.

وعندَنا: لَيسَ لَهُمْ في الآيةِ حُجَّةٌ في تَخلِيدِ مَنْ ذَكَرُوا في النارِ؛ لأنهُ إنما ذُكِرَتْ على إثْرِ نَقضِ الدِّينِ ورَدِّ التَّوحِيدِ. فكأنهُ قالَ: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ في نَقضِ الدِّينِ ورَدِّ التَّوحِيدِ ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ كانَ السُّكونُ في مَوضِعٍ مِنَ القَرارِ فيهِ والأمْنِ كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ﴾ [القصص: ٧٣] لِتَقِرُّوا فيه، وتأمَنُوا. فقولُهُ تعالى لِآدَمَ: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ اسكَنَهُما ﷻ لِيَقِرّا[7] فيها، ويَأمَنا[8] مِنْ كُلِّ [ما يُنغِّصُ عليهِما][9] تلكَ النِّعَمَ التي أنْعَمَ عليهِما[10] لأنَّ الخوفَ مِما يُنغِّصُ[11] النِّعَمَ، ويَذهَبُ بِلَذَّتِها.

فلمَّا أسكَنَهُما ﷻ الجَنَّةَ أمَّنَهُما عنْ ذلكَ كُلِّهِ.

ثم فيهِ أنَّ أوَّلَ المِحنَةِ والابْتِلاءِ مِنَ اللهِ تعالى لِعِبادِهِ إنما يكونُ بالإنعامِ والإفضالِ عليهِمْ ثم الجَزاءِ والعَدْلِ لِسُوءِ ما

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: الآخر. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مذموم ملوم. (٥) في الأصل: مذموم واحد.
(٦) من م، في الأصل: وكل من. (٧) في الأصل وم: ليقروا. (٨) في الأصل وم: ويأمنوا. (٩) في الأصل: ينقصهما. (١٠) في الأصل: عليها. (١١) في الأصل: ينقص.

ارتكبُوا؛ لأنهُ ﷺ امْتَحَنَ آدمَ أوّلاً بالإفضالِ والإنعام عليهِ حينَ[1] أسْجدَ ملائكتَهُ لَهُ، وأسكَنَهُ جَنّتَهُ، وَوَسّعَ[2] عليهِ نِعَمَهُ، ثم امْتَحَنَهُ بالشّدائِد وأنواع المَشَقّةِ وجزاءِ ما ارتكبا[3] مِنَ التّناوُلِ مِنَ الشّجَرةِ التي نَهاهُما[4] عنْ قُرْبِها. فهو ما ذَكَرْنا أنّ شَرْطَ امْتِحانِهِ عِبادَهُ في الابْتِداءِ يكونُ بالإفضالِ والإنعامِ ثم بالعَدْلِ والجَزاءِ لِسُوءِ صَنيعِهِمْ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؟ [الشورى: ٣٠] أخبَرَ أنّ ما يُصِيبُنا هو مِنْ كَسْبِ أيدينا، وهو جَزاءُ ما كَسَبْنا. وفيهِ وفي غَيرِها مِنَ القَصَصِ [الذي ذَكَرَ][5] دليلُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ ونُبُوّتِهِ؛ لأنهُ أخبَرَ عمّا كانَ مِنْ غَيرِ انِ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ مِمّنْ[6] يَعْرِفُ ذلكَ، ولا نَظَرَ في الكُتُبِ التي فيها دَلَّ أنهُ عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

ثم اخْتَلَفَ أهْلُ التّأويلِ في الجَنّةِ التي أسْكَنَ ﷺ آدَمَ فيها وزَوجَتَهُ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: هي الجَنّةُ التي يكونُ عَودُ أهلِ الإسلامِ إليها في الآخرةِ، ولَهُمْ وَعَدَ ﷺ تلكَ، وقالَ بَعْضُهُمْ: هي جَنّةٌ أنْشأها لِآدَمَ لِيَسْكُنَ فيها في السّماءِ، ولكنْ لا نَدْري ما تلكَ الجَنّةُ؟ ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ تلكَ الجَنّةِ حاجةٌ، إنما الحاجَةُ إلى ما ذَكَرَ مِنَ المِحَنِ.

اخْتَلفُوا أيضاً في الشّجَرةِ التي نَهَى آدَمَ عَنْ قُرْبِها: قالَ بَعْضُهُمْ: هي شَجَرَةُ الحِنْطَةِ، وقد ذَكَرْنا أقاويلَ أهلِ التأويلِ واخْتِلافَهُمْ في صَدْرِ الكتابِ[7] قَدْرَ ما حَفِظْناهُ.

وكذلكَ اخْتَلَفُوا في وَسْوَسَةِ الشيطانِ لِآدَمَ وحَوّاءَ: أنهُ كيفَ وَسْوسَ إليهما[8]؟ ومِنْ أينَ كانَ؟ وهذا أيضاً قد ذَكَرْناهُ في تلكَ القِصّةِ. والحَسَنُ يقولُ: إنما وَسْوَسَ إليهما مِنَ الدنيا لا [حِينَ كانا في][9] الجَنّةِ. وقال بَعْضُهُمْ: وَسْوَسَ إليهما: مِنْ رَأسِ الحَيّةِ ومِنْ فيها يُكَلِّمُهُما[10].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾لم يُرِدْ بِهِ الدُّنُوّ مِنْها، ولكنْ أرادَ الذّوقَ والأكْلَ مِنْها. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾؟ [الأعراف: ٢٢] دَلَّ أنّ النّهْيَ لم يَكُنْ لِلدُّنُوّ منها، ولكنْ لِلذّوقِ والأكْلِ منها.

وفيهِ أنّ الامْتِحانَ مِنَ اللهِ مَرّةً يكونُ بالحِلِّ ومَرّةً بالحُرمَةِ لأنهُ أذِنَ لَهُ التّناوُلَ ممّا فيها مِن أنواعِ النِّعَمِ.

وحَرّمَ عليهِ التّناوُلَ مِنْ واحِدَةٍ منها[11]، فذلكَ مِحْنَةٌ منهُ.

ثم النّهْيُ عَنِ التّناولِ مِنَ الشّيءِ يُخَرّجُ على وجوهٍ: أحَدُها: نَهْيٌ بِحَقِّ الحُرْمَةِ لِنَفْسِهِ، ونَهْيٌ بحَقِّ إيثارِ الغَيرِ عليهِ، ونَهْيٌ عنِ التّناوُلِ منهُ لِداءٍ فيهِ وآفَةٍ، ونَهْيٌ لِما يَخْرُجُ التّناوُلُ منهُ[12] بِحَقِّ الجَزاءِ، فلم يكُنْ بَعْدَ وقتِ الجَزاءِ لَهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ قولُهُ: ﴿مَا وُۥرِىَ﴾ أي سُتِرَ، وغُطّيَ، وقولُهُ[13]: ﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ عَوراتِهما[14]، والسّوأةُ العَورَةُ في اللغةِ.

وفيهِ أنهُ يَجِبُ أنْ نكونَ على حَذَرٍ مِنْ شَرِّ إبليسَ اللّعِينِ لئلا يَجِدَ فُرْصَةً علينا، فإنهُ أبْدَى على سَلْبِ نِعْمَةٍ أنعَمَها اللهُ على عِبادِهِ حينَ[15] احْتالَ كُلَّ حِيلَةٍ حتى أبْدَى لهما ما وُورِيَ، وسُتِرَ عَنْهُما، مِنَ العَورَةِ، وعَمِلَ في إخراجِهما مِنَ النّعَمِ واللّذّاتِ، وأوقَعَهُما في الشّدائدِ والمَشَقّةِ، وفيهِ أنهُ لَيسَ حالٌ عليهِ أشَدَّ مِنْ أنْ يَرَى[16] أحداً في النِّعَمِ والسّعَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ قد ذَكَرْنا مَعْنَى هذا أيضاً في صَدْرِ الكِتابِ[17].

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ في وَسْوَسَتِهِ إياهُما ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وهذا الذي يقولُ الحَسَنُ: يُومِئُ إلى [أنّ][18] آدَمَ قد عَلِمَ أنهُ الشيطانُ.

---

(١) في الأصل: حيث. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: ارتكبوا. (٤) في الأصل: نهاه. (٥) في الأصل: الذكر. (٦) في الأصل: من. (٧) في تفسير الآية (٣٥) من سورة البقرة. (٨) في الأصل: إليه. (٩) في الأصل: أن كانَ دخل. (١٠) في الأصل: بكلهما. (١١) في الأصل: منهما. (١٢) في الأصل: منهما. (١٣) في الأصل: و. (١٤) في الأصل: عورتهما. (١٥) في الأصل: حيث. (١٦) في الأصل: رأى. (١٧) في تفسير الآية (٣٥) من سورة البقرة. (١٨) ساقطة من الأصل.

وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: إنهُ قد وقَعَ عندَ آدَمَ أنَّ الشَّجرَةَ التي نَهاهُ ربُّهُ أنْ يَتناوَلَ منها هي المُفَضَّلَةُ على جَميعِ الشَّجَرِ، فلما وَسْوَسَ إليهِ الشيطانُ، وقالَ لَهُ ما ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾؟ [طه: ١٢٠] فَوافَقَ ظَنُّهُ قولَ اللَّعِينِ وما دَعاهُما إليه، ثم اشْتَغَلَ، فَنَسِيَ ذلكَ، فَتَناوَلَ على النِّسْيانِ على وجهَينِ: نِسْيانِ التَّرْكِ على العَمْدِ / ١٧٠ ـ ب/ ونِسْيانِ السَّهْوِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ آدَمُ تَرَكَ عَمْداً، فهو على نِسْيانِ السَّهْوِ.

إلى هذا يَذْهَبُ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ أو كلام نحوِهِ. وقَرَأَ بَعْضُهُمْ قولَهُ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾ مَلِكَينِ بِكَسْرِ اللامِ مِنَ المُلْكِ[1]، ذَهَبَ في ذلكَ إلى ما قالَ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وقراءةُ العامَّةِ الظاهِرةُ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ بِنَصْبِ اللامِ مِنَ الملائكةِ. وقد ذكَرْنا جِهَةَ رَغْبَةِ آدمَ في أنْ يَصِيرَ مَلِكاً حِينَ[2] تناوَلَ منها في صَدْرِ الكتابِ على قَدْرِ ما حَفِظْنا.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي أورَدَهُما؛ يُقالُ: دَلّاني فُلانٌ بِحَبْلِ غُرورٍ؛ أي إنهُ زَيَّنَ النُّصْحَ[3] حتى يَرْكَبَهُ. وأصْلُ التَّدْلِيَةِ مِنَ الدَّلْوِ، وهو مِنَ الدُّعاءِ؛ أي دَعاهُما بِغُرورٍ، [أي دَعا][4] إياهُما بِغُرورٍ؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [وفيهِ وَجهانِ:

أحدُهما: إنْ][5] قِيلَ: كيفَ خصَّ السَّوأةَ بالذِّكْرِ، ومِنَّتُهُ في كُلِّ البَدَنِ لا في السَّوأةِ خاصَّةً؟ وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] ذَكَرَ مِنَّتَهُ في ما أنْعَمَ علينا مِنْ سَتْرِ العَوْرَةِ وفي غَيرِهِ مِنَ البَدَنِ مِنْ دَفْعِ البَرْدِ والحَرِّ وغَيرِ ذلكَ.

قيلَ: لِأنَّ كَشْفَ العَورَةِ مُسْتَقْبَحٌ في الطَّبْعِ والعَقْلِ جميعاً. وأمّا كَشْفُ غَيرِها[6] مِنَ البَدَنِ فَلَيسَ هو مُسْتَقْبَحٌ في الطَّبْعِ ولا في العَقْلِ، وربَّما يُبْدِي المَرْءُ غَيرَها[7] مِنَ البَدَنِ سِوَى العَورَةِ عندَ الحاجَةِ، ويَسْتُرُ عندَ غيرِ الحاجَةِ. وأمّا العَورَةُ فإنهُ لا يُبْدِيها[8] إلّا في حالِ الضَّرورةِ؛ لِذلكَ كانَ ما ذَكَرُوا: أنْ يُقالَ: إنَّ المَفْروضَ[9] مِنَ السَّتْرِ هو قَدْرُ الضَّرُورةِ، والآخَرَ يَلِيهِ إمّا بِحقِّ التَّحَمُّلِ وإمّا بِحقِّ دَفْعِ البَرْدِ والحَرِّ والأذى؛ لِذلكَ تَخْصِيصُها[10] بالذِّكْرِ، والمِنَّةُ[11] والنِّعْمَةُ عَظِيمَةٌ في لِباسِ غَيرِها[12] مِنَ البَدَنِ.

فإنْ قِيلَ: إنَّ اللهَ كَنَّى عنِ الجِماعِ مَرَّةً باللَّمْسِ ومَرَّةً بالغِشْيانِ، وعَنِ الخَلاءِ بالغائِطِ، وهو المكانُ الذي تُقْضَى فيهِ الحَوائِجُ، وكذلكَ جَميعُ ما لا يُسْتَحْسَنُ ذِكْرُهُ مُصَرَّحاً فإنما ذَكَرَهُ بالكِنايَةِ، وههنا ذَكَرَ السَّوأةَ في العَورةِ، قيلَ: السَّوأةُ والعَورَةُ هما كِنايَةٌ [عَنِ الدُّبُرِ، لَمْ يَذْكُرْهُ مُصَرَّحاً، فَهُما][13] كِنايَةٌ.

والثاني: في ذِكْرِ تَخْصِيصِ السَّوأةِ؛ وذلكَ أنَّ قَصْدَ الشيطانِ إنما كانَ إلى إبداءِ عَوْرَتَيهِما[14] لا غَيرُ. ألا تَرَى أنَّ ذلكَ لم يُجْعَلْ لِغَيرِ البَشَرِ عَورَةٌ تُسْتَرُ؟ ولِذلكَ خَصَّ السَّتْرَ بالقَبْرِ، إذا ماتَ يُقْبَرُ لِأجلِ عورَتِهِ، ولا يُقْبَرُ غَيرُهُ مِنَ الدَّوابِّ إذا هَلَكَ، ولا يُسْتَرُ في حالِ حَياتِهِ، كانَ قَصْدُهُ إلى ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَطَفِقَا﴾ أي أخَذا؛ تقولُ: طَفِقْتُ أفْعَلُ كذلكَ، أي أخَذْتُ والخَصْفُ الخِياطَةُ في النَّعْلِ والخُفِّ، وهو مُسْتَعارٌ ههنا. وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي يَرْقَعانِ كَهَيئَةِ الثوبِ، وقيلَ: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يُغَطِّيانِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ إمّا حَياءُ أحدِهِما مِنَ الآخَرِ وإمّا[15] حَياءٌ مِنَ اللهِ تعالى، ولِهذا

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/٣٤٨]. (٢) في الأصل: حيث. (٣) في الأصل: الصبح. (٤) في الأصل: ودعاه. (٥) في الأصل: فإن.
(٦) في الأصل: غيره. (٧) في الأصل: غيره. (٨) في الأصل: يبدي. (٩) في الأصل: الفروض. (١٠) في الأصل: تخصيصه. (١١) في الأصل وم: وإلا المنة. (١٢) في الأصل: غيره. (١٣) في الأصل: لم يذكروا الدبر فهو. (١٤) في الأصل: عورتهما. (١٥) في الأصل وم: أو.

نقولُ: إنهُ يُكرَهُ لِلرَّجُلِ في الخَلْوَةِ أن يَكْشِفَ عَورَتَهُ، ويُبْدِيَها. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «فاللهُ أحَقُّ أنْ يُسْتَحْيَى منهُ» [بنحوه البخاري: ٢٧٨] وأمّا حَياءُ أحَدِهِما مِنَ الآخَرِ فَلَمّا[1] بَدَتْ لِكُلِّ واحدٍ منهما عَورَةُ صاحِبِهِ. ولِهذا كَرِهَ أبو حَنيفَةَ ﷺ أنْ يَنْظُرَ الرجلُ إلى فَرْجِ زَوجَتِهِ والمَرْأةُ إلى فَرْجِ زَوجِها، أو لِما وَقَعَ بَصَرُ كُلِّ واحدٍ مِنْهُما على فَرْجِهِ[2]، فذلكَ يُكرَهُ أيضاً أنْ يَنْظُرَ المَرْءُ إلى فَرْجِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] ولم يَقُلْ: لِيُبْدِيَهُما؟ فهذا يَدُلُّ على أنهُ لا يَنْبَغي أنْ يَنْظُرَ إلى فَرْجِ زَوجَتِهِ ولا الزَّوجَةُ إلى فَرْجِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ وَحْياً أَوحَى إليهما على يَدَي مَلَكٍ كقولِهِ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] أضافَ إلى نَفْسِهِ لِما يَنْفُخُ فيهِ بأمْرِهِ. فَعَلى ذلكَ هذا، وإلهاماً ألْهَمَهُما كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٨ و٣٩]. [وقولِهِ تعالى][3]: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ونَحْوِهِ، وإنما هو إلهامٌ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ حِينَ[4] أوقَعْناها في الشَّدائِدِ وكَدِّ العَيشِ. والظُّلْمُ هو وَضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ قالَ الحَسَنُ: هُنَّ الكلماتُ[5] التي تَلَقّاها آدمُ مِنْ رَبِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ قالَ آدمُ ما ذُكِرَ في الآيةِ، وكذلكَ قالَ نوحٌ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. وقالَ إبراهيمُ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١] وقالَ نوحٌ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] بَعْضُهُ خَرَجَ على الأمْرِ، وبَعْضُهُ على السُّؤالِ، وكُلُّهُ على الدعاءِ.

والسُّؤالُ لَيسَ على الأمْرِ، وإنْ خَرَجَ ظاهِرُهُ مَخْرَجَ الأمْرِ؛ لأنَّ الأمْرَ مِمَّنْ هو دُونَهُ لِمَنْ فَوقَهُ أمْرٌ؛ لو أنَّ مَلِكاً مِنَ المُلوكِ إذا أمَرَهُ بَعْضُ خَدَمِهِ أو رَعِيَّتِهِ شيئاً[6]، فهو لَيسَ بأمْرٍ، لَكِنَّهُ سُؤالٌ ودعاءٌ. فَعَلى ذلكَ دُعاءُ الأنبياءِ ﷺ رَبَّهُمْ.

فإنْ قِيلَ: إنَّ الرُّسُلَ سألوا رَبَّهُمُ المَغْفِرَةَ لِزَلّاتِهِمْ في المَلإ فلا يَخْلو: إمّا أنْ يُجابُوا[7] في ذلكَ، [وإمّا ألّا][8] يُجابُوا؛ فإنْ لم يُجابُوا في ما سألوا فهو عظيمٌ، وإنْ[9] أُجيبوا في ذلكَ [غَفَرَ لَهُمْ][10]، والمَغْفِرَةُ في اللغةِ السَّتْرُ. كيفَ ذُكِرَتْ زَلّاتُهُمْ في المَلإِ إلى يومِ القِيامةِ؟

قِيلَ: لِوُجوهٍ: أحَدُها: لَمّا ارْتَكَبُوا تلكَ الزَّلّاتِ عَظُمَ [الأمْرُ عليهِمْ][11] واشْتَغَلَتْ قُلوبُهُمْ بذلكَ لِعِظَمِ ما ارْتَكَبُوا عِندَهُمْ، لم يَخْطُرْ بِبالِهِمْ عندَ سُؤالِهِمُ المَغْفِرَةَ سَتْرُ ذلكَ على الناسِ وكِتمانُها عنهُمْ بَعْدَ أنْ أجابَ اللهُ بالتَّجاوُزِ عنهُمْ في ذلكَ.

أو أنْ يُقالَ: أرادَ بإفشاءِ ذلكَ وإظهارِهِ إيقاظَ غَيرِهِمْ وتَنْبيهاً في ذلكَ لِيَعْلَموا أنَّ الرُّسُلَ مَعَ جَليلِ قَدْرِهِمْ[12] وعَظيمِ مَنْزِلَتِهِمْ عندَ اللهِ لم يُحاسِبْهُمْ في العِتابِ والتَّوبيخِ بما ارْتَكَبُوا، فَمَنْ دُونَهُمْ أحَقُّ [بذلكَ، أو أنهُ][13] ذَكَرَ ذلكَ لِيَعْلَموا أنهُ لَيسَ بِغافِلٍ عَنْ ذلكَ، ولا يَخْفَى عليهِ شَيءٌ، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وقالَ[14] تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وقالَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وقالَ: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فأعْلَمَنا اللهُ ﷺ أنَّ آدَمَ نَسِيَ أمْرَ رَبِّهِ. فقالَ قومٌ مِنْ أهلِ العِلْمِ [لو][15] أكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ، وهو ناسٍ لَنَهَى اللهُ

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: بصره. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: حيث. (٥) في الأصل: كلمات. (٦) أدرج قبلها في الأصل: الأمير. (٧) في الأصل: أجيبوا. (٨) في الأصل: أو أن لم. (٩) في الأصل: فإن. (١٠) ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل: قدر. (١٣) في الأصل: ذلك أو أن. (١٤) في الأصل: وقوله. (١٥) ساقطة من الأصل.

إيَّاهُ عَنْ أكلِها، وكانَ أكلُهُ منها ظُلماً منهُ لِنَفسِهِ وعِصياناً لِرَبِّهِ، وإنْ فَعَلَ[1] ذلكَ ناسِياً، ثم إنَّ اللهَ تَفَضَّلَ على أُمَّةِ محمدٍ، فَرَفَعَ عنهُمُ [الخَطَأَ والنِّسيانَ][2] وما اسْتُكرِهُوا عليهِ[3].

وقالَ قومٌ: مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي تَرَكَ أمْرَ ربِّهِ مِنْ غَيرِ نِسيانٍ، وقالُوا: هذا كَقولِ اللهِ تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٧] ولا نَدري كيفَ كانَ ذلكَ؟

وقالَ بَعضُ أهلِ العِلْمِ: إنَّ[4] الخَطَأَ والنِّسيانَ في الأحكامِ مَوضوعٌ بهذا الحديثِ؛ فَيُقالُ: فَما تَقولونَ في قَتْلِ الخَطَإِ؟ هل فيهِ الدِّيَةُ والكَفّارَةُ؟ وما تقولُونَ في رجلٍ أفْسَدَ مَتاعَ رجلٍ، وأحْرَقَهُ، ناسياً أو مُخطِئاً؟ فإنْ قالُوا: ذلكَ لازمٌ عليهِ فكيفَ قُلْتُمْ: إنَّ الحديثَ الذي جاءَ في [وَضعِ][5] الأحكامِ، وأنْتُمْ تُوجِبُونَ الضَّمانَ؟ وقالَ بَعْضُهُمْ: وجهُ الحديثِ عندَنا أنَّ الأُمَمَ قَبْلَ أُمَّتِنا كانَتْ مأخُوذَةً بالخَطَإِ والنِّسيانِ في ما بَينَها وبَيْنَ رَبِّها، فَرَفَعَ اللهُ تعالى الحَرَجَ عَنْ هَذِهِ الأمَّةِ في ذلكَ تَفْضِيلاً منهُ عَلَينا مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ.

وأمّا الغراماتُ والضَّماناتُ في الأحكامِ التي بَيْنَ الناسِ فهيَ لازمةٌ عليهِمْ[6]؛ خَطَأً فَعَلُوا أو عَمْداً، واللهُ أعْلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ دلالةُ النَّقْضِ على المُعْتَزِلَةِ: إنهُمْ يقولونَ: الصَّغائِرُ مَغفُورَةٌ باجْتِنابِ الكَبائِرِ، ثم مِنْ قولِهِ: إنَّ الرسُلَ والأنبياءَ مَعْصُومونَ عنِ الكَبائِرِ، فَزَلَّةُ آدَمَ، لاشكَّ أنها صَغيرَةٌ لِما ذَكَرْنا، ثم قالَ تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ فإذا لم يكُنْ لَهُ إلّا أنْ يُعَذِّبَهُ، يَصِيرُ كأنهُ قالَ: إنْ جُرْتَ، وظَلَمْتَ، علينا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

وفائدةُ تَعْزيزِ آدَمَ أنْ يكونا مِنَ الملائكةِ؛ لأنَّ المَلَكَ [على][7] ما ذَكَرَ لا يَفْتُرُ عَنِ العبادَةِ[8]، ولا يَعْصِي[9] ربَّهُ، ولا يَحتاجُ إلى شَيءٍ مِنَ المُؤْنَةِ./ ١٧١ - أ/ ومَنْ قَرَأَ مَلِكَينِ[10] لأنَّ المَلِكَ يكونُ نافِذَ الأمْرِ والقَوْلِ في مَمْلَكَتِهِ وذلك مِمّا يُرْغَبُ فيه، أو أنْ يكونَ بذلكَ لِيَشْغَلَهُما عَنْ نَهْيِ رَبِّهِما حتى يَنْسَيا ذلكَ، فَيَتَناوَلا مِنْ تلكَ الشَّجَرَةِ على ما فَعَلا، وفي ما ذَكَرَ الخَلْقُ، ولأنهُ لَيسَ شَيءٌ[11] ألَذَّ ولا أشْهَى مِنَ الحياةِ.

والأشْبَهُ أنْ يُقالَ: إنهما[12] لم يَنْسَيا نَهْيَ اللهِ إيّاهُما عنِ التَّناوُلِ منها، ولكن نَسِيا[13] قولَهُ تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩] لِذلكَ تَناوَلا. ولو ذَكَرا قولَهُ تعالى ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ما تَناوَلا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][14] قالَ: آدمُ وحَوّاءُ وإبليسُ والحَيَّةُ، وقالَ الحَسَنُ: آدمُ وَوَسْوَسَةُ الشيطانِ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى [دَلَّ على][15] أنَّ الشَّيطانَ لم يكُنْ في السماءِ، إنما وَسْوَسَ لآدَمَ[16] وحَوّاءَ مِنْ بُعْدٍ. فالأمْرُ بالهُبوطِ لِوَسْوَسَتِهِ، ولذلكَ بَقِيَتْ في أولادِهِ إلى يومِ القيامَةِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: دلَّ قولُهُ تعالى ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ على أنَّ الهُبوطَ إنما كانَ مِنَ السماءِ، وكانُوا في السماءِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾ كانَ الأمْرُ بالهُبوطِ لم يكُنْ [لهم] معاً[17]؛ لأنَّ إبليسَ أُمِرَ بالهُبوطِ حِينَ أبَى السُّجودَ، وآدَمَ وحَوّاءَ [أُمِرا][18] حينَ تناوَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ. ثم جَمَعَهُمْ في الأمرِ بالهُبوطِ لِيُعْلَمَ أنْ لَيسَ في الجَمْعِ بالذِّكْرِ دلالةُ وجُوبِ الحُكْمِ والأمْرِ مَجْمُوعاً.

وقولُهُ تعالى ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لا يُفْهَمُ منهُ الهُبوطُ مِنَ الأعْلَى. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيَةٍ أُخْرَى ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]

---

(١) في الأصل: فعلى (٢) في الأصل: في الخطإ والعصيان. (٣) إشارة إلى قوله ﷺ «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» انظر سنن البيهقي في الكبرى [٧/ ٣٥٧]. (٤) عند هذه الكلمة نهاية الورقة الساقطة التي لم تصور من م والتي كان أولها تتمة تفسير الآية/ ١٧/ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ والتي أولها: وما فوق، وآخرها: وقال بعض أهل العلم: إن [انظر الحاشية (٨) ص (٢١٣). (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. (٩) إشارة إلى قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٤٨]. (١١) في الأصل وم: بشيء. (١٢) في الأصل وم: أنه. (١٣) في الأصل وم. نسبي (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: آدم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

أي انزلوا فيه؟ وقولُهُ تعالى: ﴿عَدُوٌّ﴾ إمّا بالكفرِ وإمّا بما يَسْعَى في هَلاكِنا. وكلُّ مَنْ يَسْعَى في هَلاكِنا فهو عَدُوٌّ لنا، ونَحْنُ أعداءٌ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قِيلَ: إلى مُنْتهَى آجالِكُمْ، وإبليسُ إلى النَّفْخَةِ الأولَى.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا ليسَ على التَّوقيتِ، ولكنْ على الدَّوامِ والقَرارِ فيها.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قِيلَ: في الأرضِ تَعِيشُونَ ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ عندَ انْقِضاءِ آجالِكُمْ ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ في القِيامَةِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ والحَسَنُ: أنْزَلْنا ماءَ القَراحِ مِنَ السَّماءِ لِيَتَّخذَ منهُ اللِّباسُ ما يُواري عَورَتَهُمْ، ويُتَّخذُ منهُ الطعامُ والأشياءُ التي بها قِوامُ أنْفُسِهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أنزَلَ الماءَ والأسبابَ التي بها يُتَّخذُ اللِّباسُ والأطعِمَةُ والأشرِبَةُ، والعِلْمَ في ذلكَ الماءِ [وأسبابَ العِلْمِ][1] بذلكَ. وإلّا ما عَرَفَ الخَلْقُ أنْ كيفَ يَتَّخِذُ ذلكَ لِباساً والأطعِمَةَ والأشرِبَةَ؟.

وفيهِ دليلُ إثباتِ الرسالةِ لأنهُمْ لم يَعْرِفُوا ذلكَ إلّا بِوَحْيٍ مِنَ السَّماءِ. أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ أي جَعَلَ لَكُمْ، وأنشأَ لَكُمْ ما تَتَّخِذونَ منهُ اللِّباسَ والطعامَ والشرابَ، لَيسَ على الإنزالِ، ولكنْ على أنْ جَعَلَ لَكُمْ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]. وقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ أي أنشأَ لَكُمْ ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] وهو أنْ خَلَقَ لنا ذلكَ.

وفيهِ دليلُ خَلْقِ أفعالِ الخَلْقِ فيه؛ لِأنهُ إنما صارَ لِباساً وطَعاماً؛ وما لا يُفْعَلُ مِنَ العِبادِ أنهُ أُنزِلَ مِنَ السماءِ هكذا.

ثم أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ لنا ذلكَ. دلَّ أنهُ خَلَقَ فِعْلَ الخَلْقِ فيه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: مالاً، وقالَ بَعْضُهُمْ مَعاشاً، وقالَ القُتَبِيُّ: الريشُ ما ظَهَرَ مِنَ اللِّباسِ، وريشُ الطائرِ وما سَتَرَ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بالرَّفعِ على الابْتِداءِ، أي لِباسُ التَّقْوَى خَيْرٌ، ومَنْ نَصَبَهُ أيضاً [فإنما][2] يَنْصُبُهُ على الجوابِ لِما تقدَّمَ، وإلّا الحَقُّ فيهِ الرَّفْعُ.

ثم اخْتَلَفَ فيهِ أهلُ التأويلِ: قالَ الحَسَنُ: لِباسُ التَّقْوَى الدِّينُ، وقالَ أبو بَكْرٍ الأَصَمُّ: القرآنُ، وقِيلَ: العَفافُ، وقِيلَ الحَياءُ، وقيلَ: الإيمانُ، فَكُلُّهُ واحِدٌ؛ أي كُلُّ ما ذَكَرَ مِنْ لِباسِ التَّقْوَى خَيْرٌ من اللِّباسِ الذي يُرْتَدَى[3]؛ لأنَّ الدِّينَ والإيمانَ والقرآنَ والحَياءَ يَزْجُرُهُ، ويَمْنَعُهُ عَنِ المَعاصِي، فهو خَيرٌ، لأنهُ لباسٌ في الدنيا والآخِرَةِ؛ لأنَّ المؤمِنَ التَّقِيَّ العَفِيفَ الحَيِيَّ، لا تَبْدُو [منهُ][4] عَورَةٌ، وإنْ كانَ عارِياً مِنَ الثِّيابِ، وإنَّ الفاجِرَ لا يَزالُ تَبدُو منهُ عَورَتُهُ، وإنْ كانَ كاسِياً مِنَ الثِّيابِ، ولا يَتَحفَّظُ في لِباسِهِ. فالتَّقْوَى خَيْرٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٩٧] هذا التأويلُ لِلْقِراءَةِ التي تُقرأُ بالرَّفْعِ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على الابْتِداءِ، وأمّا مَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ فهو رَدَّهُ إلى قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ ثم أنْزَلْنا عليكُمْ أيضاً ريشاً تَتَّقُونَ بهِ الحَرَّ والبَرْدَ والأذى، فيكونُ فيه ذِكْرُ لِباسٍ لِسائِرِ البَدَنِ، وفي الأوَّلِ ذِكْرُ لِباسِ العَوْرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي اتُّخِذَ منهُ اللِّباسُ والأطعِمَةُ والأشرِبَةُ مِنْ آياتِ الرسالةِ؛ لأنَّ كُلَّ ذلكَ إنما عُرِفَ بالرُّسُلِ بِوَحْيٍ؛ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ فيهِ دَليلَ إثباتِ الرسالةِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِنْ آياتِ وَحْدانِيَّةِ اللهِ ورُبُوبِيَّتِهِ لَمّا جَعَلَ منافِعَ السَّماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ مَعَ ما بُعْدَ ما بَيْنَهُما. دلَّ ذلكَ أنَّ مُنْشِئَهُما ومُدَبِّرَهُما واحِدٌ؛ لأنه لو كانَ تَدْبيرَ اثْنَينِ ما اتَّسَقَ تَدْبيرُهُما لِاتِّصالِ منافِعِ أحدِهِما بالآخَرِ.

---

(١) في الأصل وم: والأسباب والعلم. (٢) من م، ساقطة من الأصل، أنظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٥١]. (٣) في الأصل وم: ذكر. (٤) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لَعَلَّهُمْ [يُوَفَّقُونَ لِلتَّذَكُّرِ، وقولُهُ تعالى][1]: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧ و...] أي لَعَلَّهُمْ يُوَفَّقُونَ لِلتَّقْوى، ولَعَلَّهُمْ يُوَفَّقُونَ لِلشُّكْرِ؛ لأنهُ حرفُ شَكٍّ. هذا يَحْسُنُ أنْ يُقالَ، واللهُ أعْلَمُ. أو نقولُ: لكي يُلْزِمَهُمُ التَّذَكُّرَ والشُّكْرَ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: خاطَبَ بِهِ أهْلَ مكةَ في تكذيبِهِمْ رسولَ اللهِ ومُخالَفَتِهِمْ أمْرَهُ في ألّا يُخْرِجَكُمْ مِنَ الأمْنِ والسَّعَةِ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ﴾ دارِ الأمنِ والسَّعَةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي احْذَرُوا دعاةَهُ إلى ما يَدْعُوكُمْ إليهِ فإنهُ يَمْنَعُ عنكُمْ في الآخِرَةِ الكرامَةَ والثَّوابَ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ﴾ دارِ الكرامَةِ والمَنْزِلَةِ.

وقال أهْلُ التَّأويلِ: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي لا يُضِلَّنَّكُمُ الشيطانُ [ولا][2] يُغْوِيَنَّكُمْ كما فَعَلَ بأبَوَيْكُمْ[3]: أخْرَجَهُما مِنَ الجَنَّةِ، وقالَ آخَرُونَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بما تَهْوَى بِهِ أنْفُسُكُمْ، وتَميلُ[4] إلى شَهَواتِها وأمانِيها ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بما هَوَّنَهُ [نَفْساهُما وشَهَواتُهُما؛ يُحَذِّرُهُما][5] اتِّباعَ هَوَى النَّفْسِ وشَهَواتِها وأمانِيها؛ فإنَّ السَّبَبَ الذي بِهِ كانَ إخراجُهُما هو هَوَى النَّفْسِ وأمانِيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ وهذا في القرآنِ كَثيرٌ: يَفْعَلُ بِمَعْنَى فَعَلَ، ويَحْتَمِلُ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: أرادَ أنْ يَنْزِعَ ﴿عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ وقد ذَكَرَ أنَّ المَفْروضَ مِنَ السَّتْرِ هو سَتْرُ العَوْرَةِ، احْتِيجَ إليهِ، أو لم يُحْتَجْ. وأمّا غَيْرُهُ مِنَ السَّتْرِ فإنما هو لِدَفْعِ الأذَى مِنَ الحَرِّ والبَرْدِ. والمَفْتُونُ بالشَّيْءِ هو المَشْغوفُ بِهِ والمُولَعُ بِهِ؛ يقولُ: لا يَمْنَعَنَّكُمْ عنْ دخولِ الجنةِ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ هو كان قَصْدُهُ ما ذَكَرَ مِنْ نَزْعِ اللِّباسِ وإبداءِ العَوْرَةِ، وهو ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ قِيلَ: قَبِيلُهُ: جُنُودُهُ وأعوانُهُ. حَذَّرَنا [مِنْ][6] إبليسَ وأعوانِهِ بما يَرَونَنا، ولا نَراهُمْ. فإنْ قِيلَ: كيفَ كَلَّفَنا مُحارَبَتَهُ، وهو بحيثُ لا نَراهُ، وهو يَرانا، ومِثْلُهُ في غَيْرِهِ مِنَ الأعداءِ لا يُكَلِّفُنا مُحارَبَةَ مَنْ لا نَراهُ، ولا نَقْدِرُ [على][7] القِيامِ بِمُحارَبَتِهِ، ولَيْسَ في وُسْعِنا القِيامُ بِمُحارَبَةِ مَنْ لا نَراهُ؟

قِيلَ: إنهُ لم يُكَلِّفْنا مُحارَبَتَهُ إذْ لم يَجْعَلْ لهُ السلطانَ / ١٧١ ـ ب/ على أنْفُسِنا وإفسادِ مَطاعِمِنا ومَشارِبِنا ومَلابِسِنا. ولو جَعَلَ لَهُمْ لأهْلَكُوا أنْفُسَنا، وأفْسَدُوا غِذاءَنا. إنما جَعَلَ لهُ السلطانَ في الوَساوِسِ في ما يُوَسْوِسُ في صُدورِنا، وقد جَعَلَ لنا السَّبيلَ إلى مَعْرِفَةِ[8] وَساوِسِهِ بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠] وقولِهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠١] عَلِمْنا ما بِهِ نَدْفَعُ وَساوِسَهُ وهَمَزاتِهِ، وجَعَلَ لنا الوُصُولَ إلى دَفْعِ وَساوِسِهِ بِحُجَجٍ وأسبابٍ جَعَلَها[9] لنا.

فهذا يَدُلُّ على أنَّ اللهَ يَجُوزُ أنْ يُكَلِّفَنا بأشياءَ، لم يُعْطِنا أسبابَ تلكَ الأشياءِ بَعْدَ أن جَعَلَ في وُسْعِنا الوُصولَ إلى تلكَ الأسبابِ، وإنْ لم يَكُنْ وقْتُ التَّكليفِ بتلكَ الأسبابِ مِنْ نَحْوِ الأمْرِ بالصلاةِ، وإنْ لم نَكُنْ على الطهارَةِ؛ إذْ جَعَلَ في وُسْعِنا[10] الوُصولَ إلى الطهارَةِ، ونَحْوِ الأمْرِ بأداءِ الزكاةِ، وإنْ لم يَكُنْ وقْتُ الأمرِ مَنْ تُؤَدَّى إليهِ حاضراً، ونَحْوِ الأمْرِ بالحَجِّ وغَيْرِهِ مِنَ العِباداتِ، وإنْ كانَ لا يَصِلُ إلى أداءِ ما [فَرَضَ اللهُ][11] عليهِ إلّا بَعْدَ أوقاتٍ مَعَ احْتِمالِ الشَّدائِدِ.

وهذا يَرُدُّ أيضاً على قولِ مَنْ يَقولُ[12]: لا تَلْزَمَ الأوامِرُ والمَناهِي مَنْ جَهِلَها، ولا يُكَلَّفُ إلا بَعْدَ العِلْمِ بها، لأنهُ لا يَتَكَلَّفُ مَنْ لا يَلْزَمُهُ فَرْضٌ مِنْ فَرائِضِ [اللهِ][13] وعِبادَةٌ مِنْ عِباداتِهِ؛ لأنهُ لا يَكْسِبُ أسبابَ العِلْمِ لِئَلّا يَلْزَمَهُ[14] ذلكَ. فهذا بَعيدٌ مُحالٌ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: للتذكير و. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أبويكم. (٤) في الأصل وم: وأمالت. (٥) في الأصل وم: أنفسهما واشتهانها يحذرهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: معرفته. (٩) في الأصل وم: جعل. (١٠) من م، في الأصل: وسعها. (١١) في الأصل وم: افترض. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: يلزم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اختَلَفَ أهلُ الاعتِزالِ فيهِ؛ قالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: الجَعلُ مِنَ اللهِ على وجوهٍ:

أحَدُها: السَّبَبُ الذي أعْطَينا لهمْ [هو][1] السَّبَبُ الذي بِهِ صاروا أولياءَ لهُمْ كما يَقولُ الرجلُ لآخَرَ: جَعَلْتُ لكَ الدارَ والعَبيدَ والمالَ، ولم يَجْعَلْ لهُ ذلكَ، ولكنْ أعطاهُ ما بِهِ صارَ ذلكَ [لَهُ][2]، وهو إنما أعْطاهُ سَبَبَ ذلكَ، فأضافَ[3] الجَعْلَ إليهِ. فَعَلَى ذلكَ ما أضافَ الجَعْلَ إليهِ لِما أعطاهُ السَّبَبَ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: الجَعْلُ هو التَّخْلِيَةُ، خَلَّى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ذلكَ، فأضافَ ذلكَ إليهِ بالجَعْلِ كما يُقالُ لِلرَّجُلِ: جَعَلْتَ عبدَكَ قَتَّالاً ضَرَّاباً إذا خَلَّى بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يَفْعَلُهُ، وهو قادِرٌ على مَنْعِهِ[4]. فَعَلَى ذلكَ في ما أضافَ الجَعْلَ إلى نَفْسِهِ، هو أنْ خَلَّى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أُولئكَ يَعْمَلُونَ ما شاؤُوا.

وقالَ الحَسَنُ: مِنْ حِكَمِ اللهِ أنَّ مَنْ عَصَى يكونُ عَدُوّاً لَهُ، ومَنْ أطاعَ يكونُ وَلِيّاً لَهُ، ومَنْ أطاعَ الشيطانَ فهو وَلِيُّهُ، ومَنْ عصاهُ يكونُ عَدُوّاً لَهُ. فكذا حُكْمُ اللهِ تعالى في كُلِّ مَنْ أطاعَهُ، يكونُ وَلِيّاً لَهُ، ومَنْ عَصاهُ يكونُ عَدُوّاً لَهُ.

وقالَ غَيْرُهُمْ مِنَ المُعْتَزِلَةِ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي [أوجَدْناهُمْ لِذلكَ][5] أولياءَهُمْ.

ولكنْ لو جازَ إضافَةُ ذلكَ إلى اللهِ تعالى [لِما][6] ذَكَرَ هؤلاءِ لَجازَ إضافَةُ ذلكَ إلى الأنبياءِ، لأنهُ قد كانَ مِنهُمُ التَّخْلِيَةُ في ذلكَ والتَّسْمِيَةُ لَهُمْ بذلكَ والحُكْمُ على ما قالَ الحَسَنُ والوجودِ. فإنْ لم يَجُزْ إضافَةُ ذلكَ إليهِمْ دَلَّ أنهُ قد كانَ مِنَ اللهِ في ذلكَ صُنْعٌ، لم يكُنْ مِنَ الأنبياءِ، وهو أنْ خَلَقَ مِنهُمْ فِعْلَ الوِلايَةِ لَهُمْ لَمّا عَلِمَ منهُمْ أنهُمْ يَخْتارُونَ ولايَتَهُمْ، ويَتَوَلَّوْنَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] وباللهِ العِصْمَةُ والنَّجاةُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ كُلُّ مَعْصِيَةٍ فاحِشَةٌ، والفاحِشَةُ كُلُّ ما عَظُمَ فيهِ النَّهْيُ، فإذا ارْتَكَبُوا ذلكَ فهو فاحِشَةٌ.

وقالَ مُجاهِدٌ: فاحِشَتُهُمْ أنهُمْ كانُوا يَطوفُونَ بالبَيتِ عُراةً. وقالَ غَيْرُهُ مِن أهلِ التَّأويلِ: هو ما حَرَّمُوا مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ والنَّباتِ وغَيرهُ مِن نحوِ السائِبَةِ والحامي وغيرِهِما[7].

لكنَّ الفاحِشَةَ ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ ما عَظُمَ النَّهْيُ فيهِ والزَّجْرُ فهو فاحِشَةٌ، والفاحِشَةُ هو ما عَظُمَ فيهِ الأمْرُ. ويُعْرَفُ ذلكَ بوجْهينِ:

أحَدُهُما: يَعْظُمُ ذلكَ في العَقْلِ.

والثاني: بالسَّمْعِ يَزيدُ[8] فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما][9] ادَّعَوا في ذلكَ أمْرَ اللهِ ورضاهُ فيهِ، ويَقولُونَ: لو لم يَرْضَ بذلكَ، [ولو لم يأمُرْهُمْ][10] لَكانَ يُنَكِّلُهُمْ، ويَنْتَقِمُ منهُمْ؛ يَعْنُونَ آباءَهُمْ، فاسْتَدَلُّوا بِتَرْكِهِمْ وما فَعَلُوا أنَّ اللهَ قد كانَ رَضِيَ بذلك، وأمَرَهُمْ [أنْ يَفْعَلُوا][11] ذلكَ. فَدَلَّ تركُهُ إيّاهُمْ على ذلكَ على أنهُ قد أمَرَهُمْ بذلكَ، ورَضِيَ عنهُمْ كَمَنْ يُخالِفُ في الشاهِدِ مَلِكاً مِنَ الملوكِ في أمرِهِ ونَهْيِهِ، فإنهُ يُنَكِّلُهُ على ذلكَ، ويَنْتَقِمُ منهُ، إذا كانَ قادراً على ذلكَ. فإذا لم يَفْعَلْ ذلكَ بِهِ دَلَّ ذلكَ منهُ على الرِّضا بِهِ. فَعَلَى ذلكَ اللهُ لَمّا لم يَنْتَقِمْ منهُمْ، ولم يُنَكِّلْهُمْ، دلَّ ذلكَ على الرِّضا والأمرِ به.

والثاني: كأنهُمْ أخذوا ذلكَ مِنَ المُسْلِمِينَ لَمّا سَمِعُوا مِنَ المسلمينَ [ما][12] قالُوا: ما شاءَ اللهُ كانَ. ظَنُّوا أنَّ ما كانَ

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فيضاف. (٤) من م، في الأصل: منه. (٥) في الأصل وم: وجدناهم كذلك. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: غيره. (٨) في الأصل وم: يرد. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لم يأمر. (١١) في الأصل وم: إذا فعلوا. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

مِنْ آبائِهِمْ كانَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ ورِضاهُ؛ لم يَفصِلُوا بَينَ المَشِيئَةِ والأمْرِ. والمشيئَةُ والإرادةُ هي صِفَةُ فِعْلِ كُلِّ فاعِلٍ يَفْعَلُهُ على الاخْتِيارِ نَحْوُ أنْ يُقالَ: شاءَ فِعْلَ كذا، أو أرادَ أمْرَ كذا. ولا يَجُوزُ أنْ يُقالَ: أمَرَ نَفْسَهُ بكذا، أو نَهى نَفْسَهُ عنْ كذا.

وأمّا قولُهُمْ: [لم][1] يَنْكُلُ آباءَهُمْ، ولم يَنْتَقِمْ مِنْهُم بما فَعَلُوا، دلَّ أنهُ رَضِيَ بذلكَ، فَيُقالُ: إنَّ فيهِمْ مَنْ فَعَلَ على خِلافِ فِعلِهِمْ وغَيْرِ صَنيعِهِمْ ضِدَّ ما فَعَلَ أُولئِكَ، ثم لم يَفْعَلْ بِهِمْ ذلكَ، فَهَلْ دَلَّ على الرِّضا منهُ بذلكَ؟

فإنْ قُلْتُمْ: بَلَى فإذَنْ[2] رَضِيَ بَفِعْلَينِ مُتضادَّينِ. وإنْ قُلْتُمْ: لا، كيف ذلكَ في أُولئكَ على الرِّضا والأمْرِ؟ ولم يَدُلَّ في مَنْ فَعَلُوا بخلافِ فِعْلِهِمْ؟ فذا تَناقُضٌ. وقد ذَكَرْنا في ما تقَدَّمَ، واللهُ أعْلَمُ [قولَهُ تعالى][3] ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يا محمدُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ اللهَ أمَرَ بهذا، وحَرَّمَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ هو ما ذَكَرْنا: ما عَظُمَ النَّهْيُ فيهِ، أو كُلُّ ما يَشْتَدُّ فيهِ النَّهْيُ، أو يَغْلُظُ، أو يَكْثُرُ، هو الفَحْشاءُ. ألا تَرَى أنهُ يُقالُ لِكُلِّ شَيءٍ يَكْثُرُ فُحْشُهُ مِنْ نَحْوِ الكلامِ وغَيرِهِ: إنهُ إذا خَرَجَ عنْ حَدِّهِ، وجاوَزَ حَدَّهُ في القُبحِ، أو جاوَزَ الحَدَّ مِنَ الكَثْرَةِ؟ وهمْ أكْثَرُوا الافْتِراءَ على اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: بل ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أنهُ أمَرَ بذلكَ.

وقِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتَعْلَمُونَ أنكُمْ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأنهُمْ لم يكونوا يُؤْمِنونَ بالرُّسُلِ، ولا كانَ لَهُمْ كتابٌ، فكيفَ تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ أمَرَكُمْ بذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] لا يَجوزُ أنْ [يُقالَ]:[4] لا يَعْلَمُ اللهُ، ولكنْ على النَّفْيِ لذلكَ لَيسَ كما تَقُولُونَ، وتُنَبِّئونَ. ولكنَ يَعْلَمُ خِلافَ ذلكَ وضِدَّهُ، ويكونُ في نَفْيِ ذلكَ إثباتُ غَيْرِهِ. فَعَلى ذلكَ لا يَعْلَمُونَ أنهُمْ يَقولُونَ على اللهِ ما لا يَعْلَمُونَ.

وأسبابُ العِلْمِ هذا: إمّا الرُّسُلُ يُخْبِرُونَ عنِ اللهِ ذلكَ، وإمّا[5] الكتابُ يَجِدونَ فيهِ مَكتوباً، فَيَعْلَمونَ. فَتَسَعُ الشهادةُ بذلكَ، وهم قومٌ لا يُصَدِّقُونَ الرُّسُلَ، ولا يُؤْمِنونَ بِخَبَرِهِمْ، ولَيسَ [لَهُمْ][6] كتابٌ أيضاً يَقْرَؤُونَهُ. فما بَقِيَ إلّا وَحْيُ الشيطانِ إليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ والقِسْطُ هو العَدْلُ في كلِّ شَيءٍ في القَولِ والفِعْلِ وغيرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] وأصْلُ العَدْلِ هو مُحافظةُ الشَّيءِ على[7] الحَدِّ الذي جُعِلَ لَهُ، وَوَضْعِ مَوضِعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قِيلَ ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أي وَسَوُّوا وُجُوهَكُمْ نَحْوَ الكَعْبَةِ ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي مِنْ كلِّ مكانٍ تكونونَ فيهِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] أي اجْعَلُوا بُيوتَكُمْ نَحْوَ الكَعْبَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤ و١٥٠] وقِيلَ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي اجْعَلُوا عِبادتَكُمْ للهِ ولا تُشْرِكُوا فيها غيرَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩ وغافر: ٦٥]. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ الوَجْهُ / ١٧٢ ـ أ/ كِنايَةً وعِبارَةً عنِ الأنفسِ[8]، كأنهُ قالَ: أقِيمُوا أنْفُسَكُمْ للهِ، لا تُشْرِكُوا فيها، [ولا تَجْعَلُوا][9] لأحَدٍ [فيها][10] شِرْكاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٢] أي يَجْعَلْ نَفْسَهُ للهِ سالِماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يَحْتَمِلُ الدعاءَ نَفْسَهُ؛ أي ادْعُوهُ رَبّاً خالِقاً ورَحْماناً ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بالوَحْدانِيَّةِ والأُلوهِيَّةِ والرُّبوبِيَّةِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ أي اعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ العِبادَةَ [المُخْلِصَةَ][11] ولا تُشْرِكُوا غَيْرَهُ فيها. ويَحْتَمِلُ أي دِينُوا بِدِينِهِ الذي دَعاكُمْ إلى ذلكَ، وأمَرَكُمْ بِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل فإذا، في م: قادرا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عن. (٨) من م، في الأصل: الانس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قالَ قائلونَ: هو[1] صِلَةُ قولِهِ ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] كأنهُمْ سألُوا: كيفَ[2] يعودُونَ إذا بُعِثوا؟ فقالَ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ [كما][3] خلَقَكُمْ ﴿تَعُودُونَ﴾ مِثْلَهُ. ويَحتمِلُ أن يكونَ هو صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] تَعودُونَ كما كُنتُمْ[4] في البَداءَةِ؛ الكافرُ كافراً، والمؤمِنُ مؤمِناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ هو مِنَ الدَّوامِ[5] لَيسَ مِنَ الابْتِداءِ؛ لأنهُ لا يَجوزُ أنْ يُقالَ: الصَّبيُّ[6] كافرٌ أو مؤمِنٌ، وهو الدَّوامُ والمُقامُ فيهِ إلى وَقْتِ المَوتِ، وهو في البَداءةِ. وفي الآخِرةِ الإعادَةُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧] وقولُهُ تعالى: ﴿يَبْدَؤُا﴾ لَيسَ يُريدُ ابْتِداءَ نُشوئِهِ ولكنْ كونَهُ في الدنيا. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الآية: يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي كما كُنتُمْ في الدنيا تَعُودونَ في الآخِرَةِ. كذلكَ المؤمِنُ مؤمِنٌ والكافِرُ على كفرِهِ.

والثاني: كما أنشأكُمْ في الدنيا لا مِنْ شَيءٍ. فَعَلَى. ذلكَ يَبْعَثُكُمْ. لِذلكَ لا يُعجِزُهُ شَيءٌ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بِما هداهُمُ اللهُ بِفَضْلِهِ ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ بما اختاروا مِنْ فِعْلِ الضَّلالِ، فأضَلَّهُمُ اللهُ كقولِهِ تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وقولِهِ تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيهِ لُزومُ الحُجَةِ والدليلُ في حالِ الحِسابِ والظَّنُّ إذا كانَ بِحَسَبِ الإدراكِ والوُصولِ إليهِ؛ لأنهُ قالَ ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وفيهِ[7] أنهُمْ عندَ أنْفُسِهِمْ مُهْتَدونَ، ولم يَكونُوا، ثُمَّ عُوقِبُوا على ذلكَ.

دَلَّ أنَّ الدليلَ والحُجَّةَ قد تُلْزِمانِ[8]، وإنْ لم يُعْرَفْ بَعْدُ أنْ يكونَ سَبيلُ الوُصولِ إلى ذلكَ، وهذا يَرُدُّ قولَ مَنْ يقولُ بأنَّ فرائِضَ[9] اللهِ لا تَلْزَمُ إلّا بَعْدَ العِلْمِ بِها والمَعْرِفَةِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ الخِطابُ، وإنْ خُرِّجَ مُخرَجَ الأمرِ بِأخْذِ الزِّينَةِ واللِّباسِ فهو على النَّهْيِ عنْ نَزْعِها لأنَّ الناسَ[10] يَكُونُونَ آخِذِينَ الزِّينَةَ وساتِرِينَ عَوراتِهِمْ غيرَ بادِينَ بها. فإنْ كانَ كذلكَ فهو على النَّهْيِ عَنْ نَزْعِ لِباسِهِمْ وإبداءِ عَوراتِهِمْ، وهو ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ: أنَّ أهْلَ الشِّرْكِ كانُوا إذا طافُوا بالبَيْتِ نَزَعُوا ثِيابَهُمْ، ويقولونَ: لا نَطوفُ في ثيابِنا التي أذْنَبْنا فيها.

فإنْ كانَ التَّأويلُ [ما][11] قالَ ابْنُ عباسٍ وهؤلاءِ [ففيهِ إضمارٌ][12]، كأنهُ قالَ: خُذوا زِينَتَكُمْ عندَ هذا المَسْجِدِ كما تأخُذونَ عندَ كلِّ مَسْجِدٍ سَواءً. وإلّا خُرِّجَ تأويلُ الآيةِ على وُجوهٍ:

أحَدُها: يقولُ: صَلُّوا في كُلِّ مَسْجِدٍ، ذَكَرَ هذا لِمَنْ لا يَرَى الصلاةَ إلّا في مَسْجِدِهِ على ما رُوِيَ أنْ لا صلاةَ لِجارِ المَسْجِدِ إلّا في المَسْجِدِ.

والثاني: صَلُّوا بِكُلِّ مَسْجِدٍ وبِكُلِّ مكانٍ كقولِهِ ﷺ «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجداً وطَهُوراً» [البخاري ٣٣٥].

والثالث: يَجْعَلُ الزِّينَةَ العبادَةَ نَفْسَها بقولِهِ تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَهُ أهْلُ التَّأويلِ [كانَ أهلُ اليمنِ][13] يَسْتَعِيرونَ مِنْ أهلِ مكةَ ثياباً، يَطوفُونَ فيها، وإنْ لم يجدوا طافوا[14] عُراةً مُبْدِينَ عوراتِهِمْ، فَنَهاهُمُ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، وقالَ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي [لا][15] تَنْزِعُوا ثِيابَكُمْ عنْ عوراتِكُمْ. فهو على النَّهْيِ عَنْ نَزْعِ الثيابِ وإبداءِ العَورَةِ.

---

(١) في الأصل وم: هم. (٢) في الأصل وم: مم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كانوا. (٥) في الأصل وم: الدائمة. (٦) في الأصل وم: لصبي. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يلزم. (٩) من م، في الأصل: يقول. (١٠) من م، في الأصل: الإنسان. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فيكون فيه. (١٣) في الأصل وم: كانوا. (١٤) في م: بها طافوا فيها. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ يُخرَّجُ على النَّهي عمّا حرَّموا على أنفُسِهِمْ من أنواعِ المنافِعِ والنِّعَمِ التي أحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ تَحريمِ البَحيرةِ والسائبةِ والوَصِيلَةِ والحامي ومِنْ نَحْوِ ما حَرَّمُوا مِنَ الزَّرْعِ والطَّعامِ وكقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٨].

خُرِّجَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ على النَّهي عَمّا حرَّموا ممّا أحَلَّ لهمْ لا على الأمرِ بالأكْلِ والشُّرْبِ؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يأكُلُ، ويَشربُ، ولا يَدَعُ ذلكَ. فَدَلَّ أنهُ خُرِّجَ على النَّهيِ لِما حَرَّمُوا. كأنهُ قالَ: لا تُحرِّمُوا، ولكنْ كُلُوا، واشْرَبُوا، وانْتَفِعُوا بها.

فإنْ كانَ على ابْتِداءِ الأمرِ بأخذِ الزِّينةِ والتَّجمُّلِ عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ، والمَسْجِدُ هو مكانُ كُلِّ عبادةٍ ونُسُكٍ على ما يكونُ في غَيرِ ذلكَ مِنَ الأوقاتِ يَتَزَيَّنُونَ، ويَتَجَمَّلُونَ عندَ اجتِماعِ الناسِ. فَعَلَى ذلكَ يَكونونَ في مكانِ العِبادةِ والنُّسُكِ، أو أنْ يكونَ كما في المَسْجِدِ اجْتِماعُ الناسِ لِلْعِبادةِ[1]، فأُمِروا بِسَتْرِ عَوراتِهِمْ في ذلكَ. ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾ أي كُلُوا، واشْرَبُوا، واحْفَظُوا الحَدَّ في ذلكَ، ولا تَجاوَزُوا. وهو النَّهْيُ عنْ الكَثْرةِ. وما ذَكَرْنا أنهُ نَهاهُمْ عن التحريمِ[2] وتَرْكِ الانْتِفاعِ بِها. وفي تَحريمِ ما أحَلَّ اللهُ وتَرْكِ الانْتِفاعِ بها إسرافٌ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ لأنهُ لا يُحِبُّ الإسرافَ.

وقد ذَكَرنا أنَّ المَفروضَ مِنَ السَّتْرِ هو ما يُسْتَرُ بِهِ العَورةُ. وأمّا غَيرُهُ فإنما هو على دَفْعِ الأذى والتَّجمُّلِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقالَ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾؟ [الأعراف: ٢٦] مَنَّ علينا بما أنْزَلَ ممّا نَسْتُرُ بِهِ عوراتِنا، وإنْ كانَتْ لهُ المِنَّةُ في الكُلِّ. وذلكَ قَبيحٌ في الطَّبعِ أنْ يَنظُرَ أحدٌ إلى عَورةِ آخَرَ. وعلى ذلكَ جاءتِ الآثارُ في الأمرِ بِسَتْرِ العَورَةِ: رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «احْفَظْ عَورَتَكَ إلّا مِنْ زَوجَتِكَ أو ما مَلَكَتْ يَمينُكَ، فَقيلَ: يا رسولَ اللهِ فإنْ كانَ بَعْضُنا مِنْ بَعْضٍ؟ فقالَ: إنِ اسْتَطَعْتَ أنْ لا تُظْهِرَ عَورَتَكَ فافْعَلْ، فقيلَ فإذا كانَ أحَدُنا خالِياً؟ فقالَ: فاللهُ أحَقُّ أنْ يُسْتَحْيَى منه» [بنحوه البخاري: ٢٧٨] وعنهُ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: «لا يَنْظُرُ الرجلُ إلى عَورَةِ الرجلِ ولا المرأةُ إلى عَورَةِ المرأةِ» [ابن ماجه ٦٦١] ومِثْلُهُ كثيرٌ، وفي ما ذَكَرْنا كِفايَةٌ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ الأمرُ بالإقبارِ لِسَتْرِ العَورَةِ. ألا تَرى أنهُ قالَ تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ﴾ الآية [المائدة ٣١] لِئلا يَرى عَورَتَهُ؟ لأنهُ يكونُ جَفاءً.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: الزينةُ ههنا هو اللباسُ؛ لأنهُ ذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ اللباسَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والطَّيِّباتُ مِنَ الرِّزقِ ما حَرَّمُوا، وأحَلَّ اللهُ لهمْ مِنَ البَحيرةِ والسائبةِ والوَصِيلَةِ والحامي وغَيرِ ذلكَ ممّا كانُوا يُحَرِّمونَ الانْتِفاعَ بهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وقالَ الحَسَنُ: زِينَةُ اللهِ هو المَرْكَبُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] جَعَلَ اللهُ ما يُرْكَبُ زِينَةً لِلْخَلْقِ، وهُمْ كانُوا يُحَرِّمُونَ الرُّكوبَ والانْتِفاعَ بها، فقالَ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ وقالَ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ ألبانَها ولُحومَها.

وقالَ غَيرُهُ مِنْ أهْلِ التَّأويلِ ﴿زِينَةَ﴾ ههنا النَّباتُ وما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ ممّا هو رِزْقٌ لِلْبَشَرِ والدَّوابِّ جميعاً كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ الآية [الكهف: ٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ [يونس: ٢٤] أخرَجَ مِنَ الأرضِ زِينَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ: ﴿هِىَ﴾ يعني الطَّيِّباتِ ﴿خَالِصَةً﴾ لِلْمُؤمنينَ في الآخرةِ لا يُشارِكُهُمُ الكَفَرةُ فيها. فأمّا في الدنيا فقد شارَكُوهُمْ. فالتَّأويلُ الأوَّلُ يُخَرَّجُ على التَّقْديمِ

---

(١) في الأصل وم: العبادة. (٢) في الأصل وم: التحريك. (٣) ساقطة من الأصل وم.

والتأخيرِ كأنهُ قالَ: قُلْ هي للذينَ آمنوا خالصةً يومَ القيامةِ وفي الحياةِ الدنيا لَهُمْ جميعاً بقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لأنهُمْ لم يُحرِّمُوا الطَّيِّباتِ التي أحلَّ اللهُ لَهُمْ، بَلِ انتفَعُوا بها، وحرَّمَ أولئكَ، ولم ينتفِعُوا بها، فكانَتْ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لِما انتفَعُوا في الدنيا، وتزوَّدُوا بها لِلآخِرةِ، وكانَتْ ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ / ١٧٢ ـ ب/ وإنما كانَتْ[1] خالِصةً لَهُمْ يومَ القِيامةِ لِما لا يكونُ لِأهلِ الشِّركِ ذلكَ لِما لم يتزوَّدُوا لِلْمعادِ؛ قد كانَتْ لَهُمْ في الدنيا لو لم يُحرِّمُوها، وانتفَعُوا بها.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ دليلُ إباحةِ الزِّينةِ والتَّناوُلِ مِنَ الطَّيِّباتِ. وقد يَحتمِلُ أنْ يكونَ خُرِّجَ على النَّهيِ والإنكارِ على ما كانَ يَفعَلُهُ أهلُ الشِّركِ مِنْ نَحْوِ تحريمِ البَحِيرةِ والسائبةِ والوَصِيلةِ، فقالَ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾ ما حرَّمتُمْ إذا لم يُحرِّمْهُ اللهُ؟ ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؟[الأعراف: ٣٣] يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لم يُحرِّمْ ما حرَّمْتُموهُ مِنْ هذهِ الأشياءِ، ولكنْ حرَّمَ الفواحِشَ وما ذَكَرَ.

[وأمّا][2] جوابُهُمْ أنهمْ ماذا يقولُونَ؟ فهو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

إنْ قالُوا: حرَّمَ اللهُ: قِيلَ لهمْ: متى[3] حرَّمَ، وأنتُمْ قومٌ لا تُؤمِنونَ بالرسُلِ والكتبِ؟ وإنْ[4] قالُوا: حرَّمَ فلانٌ قِيلَ[5]: كيفَ صَدَّقْتُمْ فلاناً في تحريمِ ذلكَ، ولا تُصدِّقونَ الرُّسُلَ في ما يُخبِرُونَ عنِ اللهِ تعالى معَ ظهورِ صِدْقِهِمْ؟ يَذكُرُ سَفَهَهُمْ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ كأنهُ يقولُ: لَيسَ لِأحدٍ تحريمُ ما ذَكَرْنا إنما التَّحريمُ إلى اللهِ، وإنما حرَّمَ ما ذَكَرَ. وقد يَحتمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ نَزْعِهِمُ الثيابَ عندَ الطَّوافِ وطَوافِهِمْ[6] عُراةً على ما ذُكِرَ في القصةِ. وإلى هذا يذهَبُ ابْنُ عباسٍ والحَسَنُ وقَتادةُ وعامَّةُ أهلِ التأويلِ. وعلى ذلكَ يُخرَّجُ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: «ألا لا يَطوفَنَّ بهذا البيتِ عُريانٌ ولا مُحدِثٌ» [البخاري: ٣٦٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي نُبيِّنُ الآياتِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لِقومٍ يَنتفِعونَ بِعِلْمِهِمْ. أو نقولُ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي كذلكَ نُفصِّلُ حُكمَ آيةٍ مِنْ حُكمِ آيةٍ أُخرى؛ نُفصِّلُ هذا مِنْ هذا وهذا مِنْ هذا. وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ إنهُ إذا لم يُفهَمْ مِنْ زِينةِ اللهِ ما يُفهَمُ مِنْ زِينةِ الخَلْقِ ما يَتزيَّنُونَ بهِ، ويتجمَّلُونَ[7]، لا يَجبُ أنْ يُفهَمَ مِنِ اسْتِوائِهِ اسْتِواءُ الخَلْقِ ولا مِنْ مَجيئِهِ مَجيءُ الخَلْقِ لأنَّ اسْتِواءَ الخَلْقِ هو انتِقالٌ مِنْ [حالٍ إلى حالٍ][8]، ولا يجوزُ أنْ يُفهَمَ منهُ ذلكَ على ما لم يُفهَمْ مِنْ زِينةِ اللهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يُشبِهُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ مُقابِلَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] كما خَرَجَ آخِرُ الآيةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] مُقابِلَ الأوَّلِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ والنَّهيُ هناكَ نَهيُ تحريمٍ كالتَّنصيصِ على التَّحريمِ، وتكونُ الفَحشاءُ التي[9] ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ الفواحِشَ التي ذَكَرَ في تلكَ[10]، والمُنكَرُ الذي ذَكَرَ هنا هو الإثمُ الذي ذَكَرَ في ذلكَ، وذِكْرُ البَغيِ ههنا وهناكَ البَغيَ.

ثم الفحشاءُ هو الذي ظَهَرَ قُبحُهُ في العَقلِ والسَّمعِ، والمُنكَرُ هو الذي ظَهَرَ الإنكارُ فيهِ على مُرتَكِبِهِ، والإثمُ هو الذي يأثَمُ المَرءُ فيهِ، والبَغيُ هو مِنْ مَظالِمِ الناسِ؛ يَظلِمُ بَعضُهُمْ على بَعضٍ.

وقالَ بَعضُهُمْ: الفواحِشُ الكبائرُ، والإثمُ هو الصَّغائرُ، والبَغيُ هو ما أُخِذَ ما عُصِمَ مِنْ مالٍ أو نَفسٍ بِعَقدِ الإسلامِ

---

(١) في الأصل وم: كان (٢) في الأصل وم: ولم يذكر. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) في الأصل وم: فقيل. (٦) في الأصل وم: ويطوف. (٧) في الأصل وم: ويتجملوا. (٨) من م، في الأصل: حلال إلى حلال. (٩) في الأصل وم: الذي. (١٠) في الأصل وم: ذاك.

على ما رُوِيَ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ، أنهُ قال: «أمِرْتُ أنْ أقاتِلَ الناسَ حتى يَقولُوا: لا إلهَ إلّا اللهُ. فإذا قالُوها عَصَمُوا مِنّي أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ إلّا بِحَقِّها» [البخاري ٢٥] فَكُلُّ ما صارَ مَعْصوماً بالإسلامِ مِنْ مالٍ أو نَفْسٍ، فَأَخْذُ فذلكَ[1] بَغْيٌ وظُلْمٌ إلّا ما ذَكَرَ بِحَقِّها.

وأصلُ البَغْيِ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ. وقالَ أهلُ التَّأويلِ ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هو الزِّنى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ علانِيَةً ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ منها سِرّاً. لكنَّ الفواحِشَ ما ذَكَرْنا أنَّ ما قَبُحَ في العَقْلِ والسَّمْعِ، وفَحُشَ فيهما، فهيَ الفاحِشَةُ. وأصلُ المُنْكَرِ كلُّ ما [لا][2] يُعْرَفُ كقولِ إبراهيم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] والمُنْكَرُ ما أنْكَرَهُ العَقْلُ والسَّمْعُ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي وحَرَّمَ أيضاً أنْ تُشرِكُوا باللهِ. وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ لَيسَ على أنهُ يُنَزِّلُ [به][3] سُلْطاناً على الإشراكِ بحالٍ، ولكنْ على أنَّهُمْ يُشْرِكُونَ باللهِ مِنْ غَيرِ حُجَجٍ وسُلطانٍ؛ لأنَّ أهْلَ الإسلامِ هُمُ الذينَ يَدينُونَ بِدِينٍ ظَهَرَ بالحُجَجِ والآياتِ، وهُمْ يَدينُون بِدِينٍ، لا يَظْهَرُ بالحُجَجِ والآياتِ ولكنْ بِما هَوَتْ بِهِ أنفُسُهُمْ، واشْتَهَتْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [وجهَينِ:

أحَدُهُما][4] أي عُذْراً، لأنهُ يجوزُ أنْ يُعْذَرَ المرءُ بحالٍ في إجراءِ كلمةِ الكُفْرِ على لِسانِهِ عندَ الإكراهِ، ولا يَصيرُ بهِ كافراً، إذا كانَ قلبُهُ مُطمئِنّاً بالإسلامِ ومُنْشَرِحاً كقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ [أي، يُشْرِكُونَ][5] باللهِ مِنْ غَيرِ أنْ يَنْزِلَ بهِمْ حالُ عُذْرٍ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والثاني: أي تَعْلَمونَ أنهُمْ يَقُولُونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ أنهُ حَرَّمَ كذا، وأمَرَ بِكذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا على الجَهْلِ والأوَّلُ على العِلْمِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس: ١٨] أي أتُنَبِّئونَ[6] اللهَ [بِما لا يَعْلَمُ؛ أي أتُنَبِّئونَ[7] اللهَ][8] بما يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ ما تقولُونَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ هو بَعْثُ الرُّسُلِ إليهِمْ، فإذا أتاهُمُ الرَّسُولُ [كَذَّبُوهُ، وعانَدوهُ][9] فَعِنْدَ ذلكَ يُهْلَكُونَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩].

ويَحْتَمِلُ أنَّ لِكُلِّ أمَّةٍ أجَلاً، لا تَهْلَكُ قَبْلَ بلوغِ أجَلِها؛ لا تَسْتأخِرُ، ولا تَسْتَقْدِمُ. فهذا يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهمْ يقولُونَ: إنَّ مَنْ قُتِلَ إنما هَلَكَ قَبْلَ بلُوغِ أجَلِهِ، ويجعلُونَ القاتِلَ منهُ مُسْتَقدِماً لِأجَلِ ذلكَ المَقْتُولِ، واللهُ تعالى يَقولُ: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾] سَيأتيكُمْ[10] رُسُلٌ منكُمْ، أو سوف يأتيكُمْ[11] ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي هُدايَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وقولِهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

فَعَلى ذلكَ ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي هُدايَ ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وتَحْتَمِلُ الآياتُ الحُجَجَ والبَراهِينَ التي يُضْطَرُّ أهْلُها إلى قَبولِها إلّا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ اتَّقى الشِّرْكَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وآمَنَ باللهِ، وعَمِلَ صالحاً ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: أن تشركوا. (٦) الهمزة ساقطة من الأصل. (٧) الهمزة ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فكذبوه وعاندوا. (١٠) في الأصل وم: سيأتينكم. (١١) في الأصل وم: يأتينكم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ اتَّقى ما نَهى الرُّسُلُ، أو اتَّقى المَهالِكَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ في ما أَمَرَ بِهِ الرُّسُلُ، أو أَصْلَحَ أَمْرَهُ وعَمَلَهُ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في ذهابِ ما أَكْرَمَهُمْ بِهِ مَولاهُمْ ولا فَوتِهِ؛ لأنَّ خَوفَ الفَوتِ مِمّا يُنَغِّصُ النِّعَمَ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [مِنْ][1] تَبِعاتِهِ وآفاتِهِ، يُخْبِرُ أَنَّ نَعيمَ الآخِرَةِ على خِلافِ نَعيمِ الدنيا.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظاهِرُ تأويلِها قد ذَكَرْناهُ في غَيرِ مَوضِعٍ حِينَ[2] لم يَأْخُذوا على أحدٍ مِنْهُمْ [الصِّدْقَ][3].

وقولُهُ[4] تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ﴾ بِهِ على خَلْقِهِ مِنَنٌ كَثيرةٌ، ونِعَمُهُ عظيمةٌ حِينَ[5] بَعَثَ الرُّسُلَ مِنْ جِنسِ المُرسَلِ إليهِمْ:

أحَدُها: أنَّ كلَّ ذي جِنسٍ وجوهرٍ مُسْتَأنِسٌ بِجِنْسِهِ وجَوهَرِهِ، ويَسْتَوحِشُ بِغَيرِهِ، فَمَنَّ عليهِمْ حينَ[6] بَعَثَ الرُّسُلَ مِنْ جِنسِهِمْ وجَوهَرِهِمْ؛ يَسْتأنِسُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، ويألَفُ[7] بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فذلكَ آخَذُ لِلْقُلوبِ وأدْعَى إلى الاتِّباعِ والإجابَةِ.

والثانيةُ[8]: بَعْثُ الرُّسُلِ مِنْ قَومِهِمُ الذينَ نَشَؤوا بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، وعَرَفوا صِدْقَهُمْ وأمانَتَهُمْ لِيَعْلَموا أنهُمْ صادِقُونَ[9] في ما يَدْعُونَ مِنَ الرسالةِ حِينَ[10] لم يَظْهَرْ مِنْهُمُ الكذبُ والخِيانَةُ قَطُّ حتى لم يأخُذوا على أحدٍ مِنْهُمُ الكَذِبَ.

والثالثةُ[11]: أنَّ الرُّسُلَ لو كانُوا مِنْ غَيرِ جِنْسِهِمْ وغَيرِ جَوهَرِهِمْ لم يَعْرِفوا ما أُوتُوا مِنَ الآياتِ والبراهِينِ / ١٧٣ ـ أ/ أنها آياتٌ وحُجَجٌ لِما لا يَعْلَمونَ أنَّ وُسْعَهُمْ لا يَبلُغُ هذا، وطَوقَهُمْ لا يَصِلُ إلى ذلكَ. وإذا كانوا مِنْهُمْ يَعْرِفون ذلكَ، إذا أُوتُوا بِشَيءٍ خَرَجَ عنْ وُسْعِهِمْ، أنها آياتٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قالَ الحَسَنُ: بِدِينِنا[12] ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وتَحْتَمِلُ: آياتُنا حُجَجَنا؛ أي كَذَّبُوا بِحُجَجِنا فإذا كَذَّبُوا بِحُجَجِهِ كَفَرُوا بِهِ؛ لأنهُ ﷻ لا يُعْرَفُ مِنْ طَريقِ الحِسِّ والعِيانِ، ولكنْ إنما يُعْرَفُ مِنْ طَريقِ الحُجَجِ والآياتِ والدَّلائِلِ، فيكونُ الكُفْرُ بآياتِهِ وحُجَجِهِ كُفْراً بِهِ. ويُشْبِهُ أنْ تكونَ آياتُهُ آياتِ الرسالةِ وحُجَجَها.

وتَحْتَمِلُ آياتُهُ ههنا رُسُلَهُ أي كَذَّبُوا بِرُسُلِنا؛ سَمّى رُسُلَهُ آياتِهِ؛ لأنَّ [الرسلَ أنفسَهُمْ كانوا آياتٍ][13] لِلْخَلْقِ تَدُلُّهُمْ على وَحدانِيَّةِ اللهِ، ورسالَتَهُمْ مِنْ أعلامٍ جُعِلَتْ مِنْ أنْفُسِهِمْ مِنْ صِدقِهِمْ وأماناتِهِمْ ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي اسْتَكْبَرُوا[14] التَّدَبُّرَ فيها والنَّظَرَ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لأنهُمْ يَصْحَبُونَ النارَ والسَّبَبَ الذي يُوجِبُ لَهُمُ النارَ أبداً، فَسُمُّوا أصحابَ النارِ بذلكَ كما يُقالُ: صاحِبُ الدارِ وصاحِبُ الدّابَّةِ، لأنهُ يَصْحَبُها دائماً. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ سُمُّوا أصحابَ النارِ لِما هُمْ يَصْحَبُونَها دائماً، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إنما هو حرفُ اسْتِفْهامٍ وسُؤالٍ، لم يَخْرُجْ لَهُ جوابٌ. لكنَّ أهْلَ التأويلِ عَرَفُوا ذلكَ، فقالوا: لا أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مَعَ عِلْمِهِ أنهُ خالِقُهُ، وأنهُ مُتَقَلِّبٌ في نِعَمِهِ، وأحاطَتْ بِهِ أيادِيهِ وإحسانُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أفْحَشَ ظُلْماً، ولا أقْبَحَ ظُلْماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قِيلَ: الافتِراءُ هو اختِراعُ الكَذِبِ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ غَيرِ أنْ سَبَقَ لَهُ أحدٌ في ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] وإمّا قد يكونُ مِمّا أنْشَأَ هو، وما سَبَقَ لَهُ أحدٌ، فَسَمِعَ عنهُ.

ثم افْتِراؤُهُمْ على اللهِ أنواعٌ، يكونُ بِما قالُوا: إنَّ لهُ ولداً، وبِما قالوا بأنَّ لَهُ شَريكاً وصاحِبَةً، وبِما عَبَدُوا غَيرَ اللهِ، وقالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقالُوا[15]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ويكونُ بِما

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حتى. (٣) ساقطة في الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفي قوله. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وتأليف. (٨) في الأصل وم: والثاني. (٩) في الأصل وم: صادقين. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: والثالث. (١٢) في الأصل وم: ديننا. (١٣) في الأصل: أنفس الرسل كانت، في م: أنفس الرسل كانت آياتٍ. (١٤) في الأصل: استكبرت، في م: استكبر. (١٥) في الأصل وم: و.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ويكونُ بِما حَرَّمُوا مِنْ أشياءَ على أنْفُسِهِمْ، فأضافُوا ذلكَ إلى اللهِ ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الافْتِراءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ: مَنْ أطاعَ اللهَ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ، وأطاعَ رُسُلَهُ، فقد كُتِبَتْ لهُ الجَنَّةُ خالداً فيها أبداً؛ فذلكَ نَصيبُهُ وحَظُّهُ مِنَ الكِتابِ الذي كُتِبَ[1] لَهُ، ومَنْ عَصَى اللهَ، وخالَفَ رُسُلَهُ كُتِبَتْ[2] لَهُ النارُ، فهيَ[3] نَصِيبُهُ مِنَ الكِتابِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيْسانِيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي حَظُّهُمْ مِنَ الجزاءِ[4] والعِقابِ في الآخرَةِ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

ويَحْتَمِلُ وجهَيْنِ آخرَيْنِ غيرَ هذَيْنِ:

أحَدُهُما: ما حَرَّفُوا مِنَ الكُتُبِ، وغَيَّرُوهُ، ثم أضافُوا ذلكَ، ونَسَبُوهُ إلى اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨] فصارَ ما حَرَّفُوهُ[5]، وغَيَّرُوهُ سُنَّةً مِنْهُمْ، يَعْمَلُونَ بها إلى يَوْمِ القِيامةِ، فَيَنالُونَ هُمْ جزاءَ ذلكَ يومَ القِيامةِ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم﴾ مِمّا كَتَبَ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ والنِّعْمَةِ؛ يَسْتَوفُونَ ذلكَ المَكْتُوبَ لَهُمْ، ثم يَموتُونَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ على هذا التأويلِ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ، تَقْبِضُ أرواحَهُمْ، وهو ظاهِرٌ.

وعلى تأويلِ مَنْ حَمَلَ ذلكَ على الجَزاءِ في الآخِرَةِ فهو يَجْعَلُ المُتَوَفَّى في النارِ لِشِدَّةِ العذابِ، وإنْ كانُوا لا يَموتُونَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي تأتِيهِ أسبابُ المَوتِ.

وعلى تأويلِ مَنْ يَجْعَلُ قولَهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في الدنيا في اسْتِيفاءِ الرِّزْقِ وما كَتَبَ لَهُمْ، يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على الإثباتِ. وعلى تأويلِ مَنْ يَقولُ بأنَّ ذلكَ في الآخِرَةِ يَجِيءُ[6] أنْ يكونَ على الصِّلَةِ والإسقاطِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ لَهُمُ المَلائكةُ في النارِ على تأويلِ هؤلاءِ وعلى تأويلِ أولئكَ عندَ قَبْضِ أرواحِهِمْ أو بَعْدَ قَبْضِ أرواحِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [أينَ ما][7] تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ، وتَقولُونَ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وتَقولُونَ[8]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] والأكابِرُ التي ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾؟ [الأنعام: ١٢٣] ﴿أَيْنَ﴾ أولئكَ الذينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ وهَلَكُوا؟ أي بَطَلَتْ[9] عِبادتُنا التي عَبَدْناهُمْ. الا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ [السجدة: ١٠] أي هَلَكْنا، وبَطَلْنا ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

فإنْ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الكُبَراءَ منكُمْ والرُّؤَساءَ [يكُنْ قولُهُمْ][10] ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ وإنْ كانَتِ[11] الأصنامُ [يكُنْ قولُهُمْ][12]: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي بَطَلَ ما كُنّا نَطْمَعُ مِنْ عِبادتِنا إياهُمْ، وهو قولُهُمْ[13] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ يَحْتَمِلُ مع أُمَمٍ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، يُقالُ:

---

(١) في الأصل وم: كتبت. (٢) في الأصل وم: كتب. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) في الأصل وم: الخير. (٥) في الأصل وم: حرفواهم. (٦) في الأصل وم: فيجيء. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: وقولهم. (٩) في الأصل وم: بطل. (١٠) في الأصل وم: يكون قوله تعالى. (١١) في الأصل وم: كان. (١٢) في الأصل وم: يكون قوله تعالى. (١٣) في الأصل وم: قوله.

جاءَ فلانٌ في جُنْدِهِ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ المَتبوعِينَ والأتباعِ جميعاً معاً. والعَرَبُ تَضَعُ حُروفَ الخَفْضِ بَعْضَها في مَوضِعِ بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩ و٣٠] قِيلَ: مَعَ عِبادي.

ويَحْتَمِلُ ﴿فِيٓ﴾ في مَوضِعِهِ؛ كأنَّ المَتبُوعِينَ يدخُلُونَ[1] النارَ قَبْلَ الأتباعِ بهؤلاءِ ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ وفيهِ دليلٌ أنَّ الكُفَّارَ مِنَ الجِنِّ يُعَذَّبُونَ كما يُعَذَّبُ الكُفّارُ مِنَ الإنسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ لَعَنَ الأتباعُ المَتبوعِينَ لِما هُمْ دَعَوهُمْ إلى ذلكَ، وهُمْ صَرَفُوهُمْ[2] عَنْ دِينِ اللهِ كقولِهِمْ: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣] وكقولِهِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ [سبأ: ٣٣] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ. ولَعَنَ [المَتبوعونَ الأتباعَ][3] لِما يَزْدادُ لَهُمُ العذابُ بِكَثْرَةِ الأتباعِ وبِقَدْرِهِمْ؛ فَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ أهلَ الكُفْرِ، وإنِ اختَلَفُوا في مذاهِبِهِمْ فَهُمْ إخوةٌ وأخواتٌ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ كالمُؤمنينَ، بَعْضُهُمْ إخوةٌ وأخواتٌ لِبَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مِنَ التَّدارُكِ؛ أي حتى إذا تدارَكُوا، وتتابَعُوا فيها.

وقِيلَ: هو مِنَ الدَّرْكِ؛ لأنَّ لِلنارِ[4] دَرَكاتٍ، لا يَزالُ أهْلُ النارِ يَهْوُونَ فيها، لا قَرارَ لَهُمْ في ذلكَ؛ إذْ في القَرارِ بَعْضُ التَّسَلِّي والرَّاحةِ، فلا يَزالُونَ يَهْوُونَ فِيها دَرْكاً فَدَرْكاً. وقِيلَ: ولذلكَ سُمِّيَتْ[5] هاوِيةً.

وقِيلَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أيِ اجْتَمَعُوا فيها؛ فَعِنْدَ ذلكَ يَلُومُ[6] بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

فإنْ كانَ على التَّدارُكِ فهو كقولِهِ تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وإنْ كانَ على الاجْتِماعِ فهو لِلتَّضْيِيقِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ الآيةَ: [الفرقان: ١٣] ويَجْتَمِعُونَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ الذينَ في آخِرِ الزمانِ، وأُولاهُمُ الذينَ شَرَعُوا لَهُمْ ذلكَ الدِّينَ ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ الذينَ دَخَلوا النارَ أخِيراً، وهُمُ الأتباعُ ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ الذينَ دخَلُوا النارَ أوَّلاً، وهُمُ القادةُ والمَتبوعونَ ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْنِي القادةَ والسَّادةَ ﴿أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ / ١٧٣ ـ ب/ لَيسَ على القولِ: بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، ولكنْ على الدعاءِ عليهِمْ واللَّعْنِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لِكُلٍّ ضِعْفٌ مِنَ النارِ، [لا][7] تزالُ تَزْدادُ، وتَعْظُمُ، وتَكْبُرُ، فذلكَ الضِّعْفُ، وذلكَ لِلأتباعِ والمَتبوعِينَ[8] جميعاً. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي لِلْمَتْبوعِينَ والقادةِ ضِعْفٌ. وقالَ لَهُمْ مَلَكٌ أو خَزَنَةُ [جهنَّمَ][9] أو مَنْ كانَ، وليسَ[10] لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ بَعْدَ أنْ يُقالَ لَهُمْ: ذلكَ قولُهُ[11] تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ في الدنيا أنَّ لكُمْ ضِعْفاً منها. وقيلَ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ لِلْحالِ بأنَّ لِكُلٍّ ضِعْفاً مِنَ النارِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿أُولَىٰهُمْ﴾ ما ذَكَرْنا: الذينَ شَرَعُوا لَهُمْ ذلكَ الدِّينَ، وسَنُّوا لَهُمْ ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ الذينَ كانُوا في آخِرِ الزَّمانِ. ويَحْتَمِلُ ﴿أُولَىٰهُمْ﴾ الذينَ دَخَلُوا أوَّلاً ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ لِلَّذِينَ دخَلُوا النارَ أخيراً، وهُمُ الأتباعُ: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قِيلَ فيهِ بوجهَينِ: يَحْتَمِلُ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ في شَيءٍ؛ فقد

(١) من م، في الأصل: يدخل. (٢) في الأصل وم: صرفوا. (٣) من م، في الأصل: المتبوع. (٤) في الأصل وم: النار. (٥) في الأصل وم: سمي. (٦) في الأصل وم: يتلاوم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: والمتبوع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وقوله.

ضَلَلْتُمْ كما ضَلَلْنا، أي لم يكُنْ لنا عليكُمْ فَضْلُ سلطانٍ، ولا كانَ معنا حُجَجٌ وآياتٌ، قَهَرْناكُمْ عليهِ، إنما دَعَوناكُمْ إلى ذلكَ، فاسْتَجَبْتُمْ لنا، وقد كانَ بُعِثَ إليكُمُ الرُّسُلُ مَعَ حُجَجٍ وآياتٍ، فلم تُجيبوهُمْ.

وهو كَخُطْبَةِ إبليسَ حِينَ[1] قالَ: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢] فيقولُ هؤلاءِ القادةُ لِلأتباعِ مِثْلَ قولِ الشيطانِ لِجُمْلَتِهِمْ.

وقِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يَعْنِي تخفيفَ العذابِ، أي نحنُ وأنْتُمْ في العذابِ سَواءٌ؛ لا فَضْلَ لَكُمْ علينا مِنْ تَخفيفِ العذابِ في شيءٍ.

أحَدُ التَّأويلَينِ في قولِهِ كانَ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يَرْجِعُ إلى الآخِرَةِ، والآخَرُ إلى الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ والتَّكذيبِ لآياتِ اللهِ، وكذلكَ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢ و٩٥] وكذلكَ[2]: ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧ و...].

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ هذا قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي بأبوابِ السماءِ أبوابَ الجِنانِ، لأنَّ الجِنانَ تكونُ في السماءِ، فَسَمَّى أبوابَ السماءِ لِما الجِنانُ فيها. ألا تَرَى أنَّهُ قالَ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؟ [الذاريات: ٢٢] وما يُوعَدُ لنا هو الجنَّةُ.

ثم أخْبَرَ أنها في السماءِ؛ ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أيضاً؟

وقالَ آخرونَ: ﴿أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي[4] أبوابُ السماءِ؛ وذلكَ أنَّ أعمالَ المُؤْمِنينَ تُرْفَعُ إلى السماءِ، وتَصْعَدُ[5] إليها أرواحُهُمْ؛ وأعمالَ الكَفَرَةِ وأرواحَهُمْ تُرَدُّ إلى أسْفَلِ السافِلِينَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وقالَ في الكافِرِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥ و٦] فإذا كانَتْ أعمالُ المؤمنينَ وأرواحُهُمْ تُرْفَعُ إلى السماءِ، وتَصْعَدُ إليها أخْبَرَ أنهُ لا تُفْتَحُ لِلْكافِرِينَ[6] أبوابُ السماءِ ولا لِأعمالِهِمْ، ولكنْ تُرَدُّ إلى السِّجِّينِ.

وأمكَنَ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ، لَيسَ على تحقيقِ السماءِ، ولكنْ ذَكَرَ السماءَ لِما أنَّ السماءَ هيَ مَكانُ الطَّيِّباتِ مِنَ الأشياءِ وقَرارُها، لا مَكانُ الخَبائِثِ والأقذارِ، والأرضُ هي مكانُ ذلكَ، وأعمالُ الكَفَرَةِ خَبيثَةٌ، فَكَنَّى عن أعمالِهِمُ الخبيثَةِ بالأرضِ [التي][7] هي مَعْدِنُ الخَبائِثِ والأنجاسِ، وكَنَّى عنْ أعمالِ المؤمنينَ الطَّيِّبَةِ بالسماءِ، وهو كما ضَرَبَ مَثَلَ الإيمانِ بالشَّجَرَةِ[8] الطَّيِّبَةِ الثابِتَةِ ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وضَرَبَ مَثَلَ الكُفرِ[9] بالشَّجَرَةِ الخَبيثةِ المُجْتَثَّةِ ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٢٦] لَيسَ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] على تَحْقيقِ السماءِ، ولكنْ على الوَصْفِ بالطِّيبِ والقَبولِ، فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يَسْتَقيمُ مِثْلُهُ على الابْتِداءِ إلّا عَلَى نَوازِلَ تَسْبِقُ. خَرَجَ ذلكَ جَواباً لها نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ الآية [البقرة: ١١١] أو أنْ ذَكَرُوا أعمالَ أنْفُسِهِمْ أنهُمْ يَعْمَلُونَ كذا، فقالَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

فإنْ قِيلَ: كيفَ خَوَّفَهُمْ بِما ذَكَرَ مِنْ سَدِّ الأبوابِ عليهِمْ؟ وجَعَلَ لَهُمْ مِهاداً وغَواشِيَ، وهُمْ لا يُؤْمِنونَ بذلكَ كُلِّهِ، كيفَ خُوِّفُوا بِهِ؟ قِيلَ: المَرْءُ إذا خُوِّفَ بِشيءٍ، فإنهُ يَخافُ، ويهابُ[10] ذلكَ، وإنْ لم يَتَيَقَّنْ بذلكَ، ولا تَحَقَّقَ عندَهُ ما خُوِّفَ بِهِ حتى يَسْتَعِدَّ لِذلكَ، ويَتَهَيَّأَ، وإنْ كانَ على شَكٍّ مِنْ ذلكَ وظَنٍّ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في تفسير الآية (٣٦) من السورة. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الشجرة. (٩) في الأصل وم: الكفرة. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: له.

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ خُوِّفُوا بالنارِ وأنواعِ العذابِ، وإنْ كانُوا شاكِّينَ في ذلكَ غَيْرَ مُصدِّقِينَ لِما يجوزُ أنْ يَهابَهُمْ ذلكَ، أو أنْ يُخَوِّفَهُمْ بذلكَ المؤمنِونَ[1] كقولِهِ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أو أنْ يكونَ التَّخويفُ لِمَنْ آمَنَ مِنهُمْ بالبَعْثِ لأنَّ مِنهُمْ مَنْ قد آمَنَ بالبَعْثِ والجَزاءِ والثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: حتى تَلِجَ البَعِيرَةُ في خَرْقِ الإبرَةِ، وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ حتى يدخُلَ الجَمَلُ الذي تُشَدُّ بِهِ السفينَةُ في خَرْقِ الإبْرَةِ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: يَعْني خَرْقَ الإبْرَةِ أوِ المَسَلَّةِ، والجَمَلُ الجَبَلُ، والخِياطِ الإبْرَةُ أو المَسَلَّةُ. وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: لَيسَ بالجَمَلِ ذي[2] القَوائِمِ يَعْني القَلْسَ، وقالَ ابنُ مَسْعودٍ، هو الجَمَلُ ذو القَوائِمِ الأربعِ، واللهُ أعْلَمُ بِما أرادَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلكَ نَجزي كُلَّ مُجْرِمٍ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قِيلَ: الفُرُشُ ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ هي اللُّحُفُ أوِ الحَواشِي ما يَتَغَشَّاهُمْ فيها[3]؛ النارُ تُحِيطُ بهِمْ مِنْ تَحتُ ومِنْ فَوقُ وأمامٍ وخَلْفٍ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] أي لا يَتَّقي لِما يُحِيطُ بِهِمُ العذابُ، وهو[4] كقولِهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ الآية [الزمر: ١٦] أخْبَرَ أنَّ النارَ تُحِيطُ بِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيْسانِيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لَيسَ مِنْ جِنْسِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لكنهُ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف: ٣٥] [كأنهُ][5] يَقولُ في ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وأمّا عِنْدَنا فإنهُ يَستَقِيمُ أنْ يُجْعَلَ صِلَةَ ما تقَدَّمَ؛ أي لا نُكَلِّفُ نَفْساً مِنَ الأعمالِ الصالحاتِ إلّا وُسْعَها ودُونَ طاقَتِها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا﴾ ما تَسَعُ، ويَحْتَمِلُ [أنْ يكونَ][6] صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨] [كأنهُ][7] يقولُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا﴾ ما تَسَعُ، ويَحِلُّ، لا ما تَسَعُ، ولا يَحِلُّ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: الغِلُّ الحَسَدُ والعَداوَةُ، وقِيلَ: الغِلُّ والغِشُّ واحدٌ؛ وهو ما يُضْمِرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنَ العَداوَةِ والحِقْدِ، وقِيلَ: الغِلُّ الحِقْدُ.

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ في الدنيا يَنْزِعُ اللهُ ﷻ مِنْ قُلُوبِهِمُ الغِلَّ؛ يَعْني قُلُوبَ المؤمنينَ، ويَجْعَلُهُمْ إخواناً بالإيمانِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]؛ أخْبَرَ أنهُمْ كانُوا أعداءً، فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بالإيمانِ الذي أكْرَمَهُمْ بِهِ حتى صارُوا إخواناً بَعْدَ ما كانُوا أعداءً.

قالَ الحَسَنُ: لَيسَ في قُلُوبِ أهلِ الجَنَّةِ الغِلُّ والحَسَدُ، إذْ هُما يُهِمّانِ، ويُحْزِنانِ، إنما فيها الحُبُّ.

قالَ بَعْضُهُمْ: هذا في الآخِرةِ؛ يَنْزِعُ اللهُ تعالى مِنْ قُلُوبِهِمُ الغِلَّ الذي كانَ في ما بَيْنَهُمْ في الدنيا، ويَصِيرُونَ جميعاً إخواناً كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

ورُوِيَ عن عليٍّ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: لأرجُو أنْ أكونَ أنا وعُثْمانُ وطَلْحَةُ والزُّبَيرُ مِنَ الذينَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي

(١) في الأصل وم: المؤمنين. (٢) في الأصل وم: ذو. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) في الأصل وم: وهي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وعَنِ ابْنِ عبّاسٍ / ١٧٤ ـ أ/ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: نَزَلَتْ في عليٍّ[2] وأبي بَكْرٍ وعُثمانَ وطَلْحَةَ والزُّبيرِ وابْنِ مَسْعُودٍ وعَمّارٍ وسَلْمانَ وأبي ذَرٍّ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجْمَعينَ، سَيَنْزِعُ[3] في الآخِرَةِ ما كانَ في قُلُوبِهِمْ مِنْ غِشٍّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ في الدنيا مِنَ العَداوَةِ والقَتْلِ الذي كانَ بَعْدَ رسولِ اللهِ ﷺ، والأمْرِ الذي اخْتَلَفُوا فيهِ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ.

هذا، واللهُ [أعلَمُ][4]؛ لأنَّ الذي كانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الاخْتِلافِ والقِتالِ كانَ دُنْيَوِيّاً[5] لم يكُنْ بِحَقِّ[6] الدِّينِ؛ فذلكَ يرتفِعُ في الآخِرَةِ، ويَزولُ. وأمّا العَداوَةُ التي هي بَيْنَنا وبَيْنَ الكَفَرَةِ فَهِيَ لا تَزولُ أبداً في الدنيا والآخِرَةِ، لأنها عَداوَةُ الدِّينِ والمَذْهَبِ، ذلكَ لا يَرْتَفِعُ أبداً.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ على ابْتِداءِ النَّزْعِ لا على أنْ كانُوا فيهِ كقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إلى قولِهِ تعالى][7] ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ على ابْتِداءِ[8] المَنْعِ؛ أي لولا إخراجُهُ إيّاهُمْ مِنْ ذلكَ لَكانُوا[9] فيهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أي لم نَجْعَلْ في قلوبِهِمُ الغِلَّ رَأْساً، ولو تَرَكَهُمْ على ما هُمْ عليهِ لَكانَ فيهِمْ ذلكَ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ للهِ في فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً؛ لأنَّ الغِشَّ مِنْ فِعْلِ العِبادِ، يُذَمُّونَ على ذلكَ. ثم أخْبَرَ أنهُ نَزَعَ ذلكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، واسْتَأْدَى مِنْهُمُ الشُّكْرَ بذلكَ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ الآيةَ. وقد ذُمَّ مَنْ طَلَبَ الحَمْدَ على ما يَفْعَلُ، فَدَلَّ طَلَبُ الحَمْدِ مِنْهُمْ على أنَّ لَهُ فيهِ صُنْعاً، بذلكَ طَلَبَ منهُمُ الحَمْدَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِمَا عَلِمَ ﷻ مِنْ طِباعِ الخَلْقِ الرغبةَ في هذهِ الأنهارِ الجارِيَةِ في الدنيا في ما يَقَعُ عليها الأبصارُ، فَرَغَّبَهُمْ في الآخِرَةِ بما كانَتْ طِباعُهُمْ وأنْفُسُهُمْ تَميلُ إلى ذلكَ في الدنيا لِيَرْغَبُوا في ما أمَرَ، ويَنْتَهُوا عَمّا نَهَى. وكذلكَ جميعُ ما ذَكَرَ في القرآنِ مِنَ القُصورِ والخيامِ والجواري والغِلْمانِ والأكوابِ والأباريقِ وغيرِ ذلكَ مِمّا تَرْغَبُ طِباعُ الخَلْقِ في ذلكَ في الدنيا، وتَميلُ أنْفُسُهُمْ إلى ذلكَ. وَعَدَ لَهُمْ في الآخِرَةِ تَرْغيباً منهُ لَهُمْ في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ قالَ الحَسَنُ وغَيْرُهُ: هَدانا دَلَّنا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

وأمّا[10] عِندَنا [فهو لَيسَ][11] هِدايةَ الدلالةِ والبَيانِ [لِوجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ][12] الهِدايَةَ التي أكْرَمَهُمُ اللهُ بها بِفَضْلِهِ ولُطْفِهِ، هي[13] تَوفيقُهُ إيّاهُمْ على الهُدَى، إنهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الاعْتِناءِ والفَضْلِ. ولو كانَ دلالةً وبَياناً لَكانَ لا مَعْنَى لِتِلْكَ[14] المِنَّةِ والفَضْلِ؛ لأنَّ عليهِ الدلالةَ والبَيانَ.

والثاني: لو كانَ على الدلالةِ والبَيانِ لَكانَ ذلكَ على كُلِّ أحدٍ على الرُّسُلِ وغَيرِهِمْ؛ لأنَّ عليهِمُ البَيانَ والدلالةَ، فَدَلَّ أنهُ لَيسَ على الدلالةِ والبَيانِ ولكنْ [على][15] غيرِهِ.

والثالثُ: أنهُ لا أحَدَ عندَ نَفْسِهِ أنهُ يَزيغُ، ويَضِلُّ، وقتَ ما هَداهُ اللهُ، وَوَفَّقَهُ. وقد يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ في الدلالةِ والبَيانِ. دلَّ أنهُ لم يَحْتَمِلْ ما قالَ أولئكَ مِنَ الدلالةِ والبَيانِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقالَ بَعْضُ الناسِ: إنَّ المُعْتَزِلَةَ خالَفُوا اللهَ مِمّا أخْبَرُوا، وخالَفُوا الرُّسُلَ، عَمّا أخْبَرُوا عنِ اللهِ تعالى، وخالَفُوا أهْلَ الجنَّةِ والنارِ، وخالَفُوا إبليسَ.

أمّا مُخالَفَتُهُمُ اللهَ [فهي][16] قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ونَحْوُهُ، ومُخالَفَتُهُمُ الرُّسُلَ [هي][17] قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ الآيةَ [هود: ٣٤]، [ومُخالَفَتُهُمْ أهلَ النارِ بقولِهِ تعالى][18]: ﴿قَالُواْ لَوْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل: رضي الله تعالى عنه. (٣) في الأصل وم: فينزع. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: دنيوية. (٦) في الأصل وم: بحيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الابتداء. (٩) في الأصل وم: وإلا كانوا. (١٠) من م، في الأصل: وما. (١١) في الأصل وم: ليس هو. (١٢) في الأصل وم: ولكن (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) في الأصل وم: لذلك. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: وقول أهل النار.

هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] [ومُخالَفَتُهُمْ إبليسَ بقولِهِ تعالى](١): ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] هو أعْلَمُ باللهِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالدِّينِ الذي هو حَقٌّ، أو جاؤوا بالأعمالِ التي مَنْ عَمِلَ بها كانَ صَواباً ورُشْداً. وكُلُّ حَقٍّ هو صوابٌ ورُشْدٌ. ويَحْتَمِلُ: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصِّدْقِ ونَحْوِهِ.

[وقولُهُ تعالى](٢): ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لَهُ وجْهانِ:

أحدُهُما: بالحَقِّ الذي اسْتَحَقَّهُ على عبادِهِ،

والثاني: أنهمْ جاؤوا بالذي هو حَقٌّ في العُقولِ وصَوابٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ وقولُهُ: ﴿تِلْكُمُ﴾ إنما يَتَكَلَّمُ عنْ غائبٍ، وهُمْ فيها. لكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعْلَمُ، أنَّ تِلْكُمُ الجَنَّةَ التي كُنْتُمْ وُعِدْتُمْ في الدنيا، وأُخْبِرْتُمْ عنها، هذِهِ ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وإنما يُورَثُ ذلكَ بالإيمانِ. وسائِرُ الأعمالِ إنما تَصِحُّ بالإيمانِ؛ ذَكَرَ أنهُمْ أورِثُوا الجَنَّةَ بِما عَمِلُوا، وإنْ كانُوا يَنالونَها بِفَضْلِ اللهِ جَزاءً وشُكْراً بِقولِهِمُ الذي قالُوا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ وما وعَدَ المؤمنينَ ﷻ ما(٣) فيها مِنَ النَّعيمِ واللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وقولِهِ تعالى ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦ومحمد: ١٥].

هذا الذي وَعَدَ لِلمؤمِنِينَ، ووَعَدَ لِلكافِرينَ النارَ وما (٤) فيها مِنَ الشدائدِ وأنواعِ العذابِ، فأقَرُّوا أنهُمْ قد وَجَدُوا ما وَعَدَ لَهُمْ ربُّهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنَّ المُرادَ بالحَقِّ الذي ذَكَرَ الوعْدُ الذي وَعَدَهُمْ، وتَفْسِيرَ الحَقِّ الصِّدْقُ، وإنْ كانَ الموعودَ فتأويلُهُ: وَجَدْتُموهُ كائناً حاضِراً، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كذا.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وَجَبَتْ لَعْنَةُ اللهِ على الظالِمِينَ الذين وُعِدوا في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ المَلَكَ. ويَحْتَمِلُ غَيرَهُ. ولَيسَ يُعْرَفُ ذلكَ إلّا بالخَبرِ. ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ.

فإنْ قِيلَ: يذْكُرُ في الآيةِ نِداءَ أهْلِ الجَنَّةِ أهْلَ النارِ ونداءَ أهْلِ النارِ أهْلَ الجَنَّةِ، ونداءُ بَعْضِهِمْ لا يكونُ إلّا بِحَيثُ يكونُ بَعْضُهُمْ قَريباً مِنْ بَعْضٍ.

وقد جاءَ في الأخبارِ مِنْ وصْفِ الجَنَّةِ وَسَعَتِها ماروِيَ أنَّ أقَلَّ ما يكونُ لِواحِدٍ مِنَ الجَنَّةِ مِثْلُ عَرْضِ الدنيا، وما ذُكِرَ أنَّ الحُورَ العِينَ لو نَظَرَتْ نَظْرَةً إلى الدنيا لامْتَلأتِ الدنيا مِنْ ضَوئِها ونُورِها وكذلكَ مِنْ رِيحِها وعِطْرِها.

وقد جاءَ في وصْفِ النارِ أنَّ شَرارَةً منها [لَو](٦) وقعَتْ في الدنيا لأحْرَقَتْها(٧)، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

فإذا كانَ بَعْضُهُم [قَريباً](٨) مِنْ بَعْضٍ بِحَيثُ يَسمَعُ(٩) بَعْضُهُمْ نِداءَ بَعْضٍ ألا يَتَأذّى أهْلُ الجَنَّةِ بالنارِ؟ [ولا يَنْتَفِعُ أهلُ النارِ](١٠) بِنَعيمِ الجَنَّةِ؟ وكيفَ يُعْرَفُ ذلكَ؟ قِيلَ: واللهُ أعْلَمُ، [إنه ﷻ لَقادرٌ](١١) أنْ يَضَعَ(١٢) نِداءَ هؤلاءِ بِمَسامِعِ أولئكَ، ونِداءَ أُولئكَ بِمَسامِعِ هؤلاءِ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهُما، فَيَسْمَعَ كُلُّ فَريقٍ نِداءَ الفَريقِ الآخَرِ على غَيرِ هذِهِ البِنْيَةِ مَعَ ارْتِفاعِ الآفاتِ والحُجُبِ التي تَمْنَعُ ذلكَ. فإذا ارْتَفَعَ ذلكَ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعْلَمُ، أو يُقَرِّبَ الجَنَّةَ مِنَ النارِ والنارَ مِنَ الجَنَّةِ بِحَيثُ يَسمَعُ

---

(١) في الأصل وم: وقول إبليس. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: وما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: لأحرقته. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يسمعون. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وقادر. (١٢) في الأصل وم: يوضع.

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ما ذَكَرَ مِنَ السماءِ، أو يَجْعَلَ ذلكَ في مَسامِعِهِمْ بِما شاءَ وكيفَ شاءَ؟ كَتَسْبِيحِ الجِبالِ وخِطابِ النَّمْلِ وجَوابِهِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الصَّدُّ يكونُ مَنْعَ غَيْرِهِ[1]، ويكونُ مَنْعَ نَفْسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قِيلَ: دِينُ اللهِ. قالَ الحَسَنُ: سَبيلُ اللهِ دِينُ اللهِ الذي ارْتَضَى لِعِبادِهِ، وأَمَرَهُمْ بذلكَ، وإلى ذلكَ دعا[2] رُسُلَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يَبْغُونَ الدِّينَ الذي فيهِ عِوَجٌ، وهو دِينُ الشيطانِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فالعِوَجُ هو التَّفَرُّقُ الذي ذَكَرَ في تلك الآيةِ. وأَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ قولُهُ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي طَعْناً في دينِ اللهِ. وقد كانوا يَبْغُونَ طَعْناً في دينِ اللهِ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ يُشْبِهُ أَنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الحِجابِ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] فأَمْكَنَ أَنْ يكونَ الحِجابُ المَذْكُورُ بَيْنَهما هو السُّورَ الذي/ ١٧٤ ـ ب/ ذُكِرَ[3]، واللهُ أَعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ[4] قومٌ اسْتَوَتْ حَسَناتُهُمْ بِسَيِّئاتِهِمْ، لم يُبَشَّروا بالجَنَّةِ حتّى [إنهمْ][5] لا يَخافُونَ عقوبَتَهُ، ولا أيسوا حتى [إنهم][6] لا يَطْمَعُونَ ولا يَرْجُونَ دخولَهُمْ فيها. وقالَ آخَرُونَ: هُمْ أَهْلُ كَرامةِ اللهِ، أكرمَهُمُ اللهُ بذلكَ، يرفعُهُمُ اللهُ على ذلكَ السورِ لِيَنْظُروا إلى حُكْمِ [اللهِ][7] في الخَلْقِ وَعَدْلِهِ فيهِمْ، ويَنْظُرُونَ إلى إحسانِ اللهِ في مَنْ يُحْسِنُ إليهِ وَعَدْلِهِ في مَنْ يُعاقِبُهُمْ. وقِيلَ: هُمُ الأنبياءُ

والأَشْبَهُ أَنْ يكونوُا الأنبياءَ؛ يكونونَ على الأعرافِ، يَشْهَدونَ على الأُمَمِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقالَ قائلونَ: هُمُ الملائكةُ لكنَّ ملائكةَ اللهِ ما يُسَمَّونَ رجالاً[8]، ولم نَسْمَعْ بذلكَ، واللهُ أَعْلَمُ بذلكَ.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قِيلَ: سُمُّوا أصحابَ الأعرافِ، وهو سورٌ بَينَ الجَنَّةِ والنارِ؛ سُمِّيَ بذلكَ لِارْتِفاعِهِ، وكُلُّ مُرْتَفِعٍ عندَ العرَبِ عُرْفٌ[9]، وهو قولُ القُتَبِيِّ. وقالَ غَيْرُهُ: الأعرافُ هو عُرْفٌ كَعُرْفِ الدِّيكِ والفَرَسِ، وهو أيضاً مِنَ الِارْتِفاعِ.

وقالَ الحَسَنُ: هُمْ أصحابُ التَّعْرِيفِ؛ يُعَرِّفُونَ أهلَ النارِ وَعْدَ اللهِ فيهِمْ وحُكْمَهُ، وأَنَّ ما حَلَّ بِهِمْ مِنَ الشَّدائِدِ والعذابِ إنما حَلَّ بِهِمْ مِمّا كانَ منهُمْ في الدنيا مِنْ صَدِّهِمُ الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ واسْتِكْبارِهِمْ على الرُّسلِ؛ يُعَرِّفُونَهُمْ أَنَّ ما نَزَلَ بِهِمْ إنما نَزَلَ بِعَدْلٍ منهُ، ويُعَرِّفُونَ أهلَ الجنَّةِ فَضْلَ اللهِ وإحْسانَهُ إليهِمْ أَنَّ ما نالُواهُمْ إنما نالُوا بِفَضْلٍ وإحسانٍ، أو قومٌ نَصَبَهُمُ اللهُ لِمُحاجَّةِ أهلِ [النارِ][10] كقولِهِ تعالى: ﴿أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] فهذِهِ المُحاجَّةُ التي يُحاجُّونَ بها أهْلَ النارِ.

وقيلَ[11]: هُمْ قومٌ نُصِبُوا يُتَرْجِمونَ بينَ أَهْلِ الجنةِ وأهل النارِ، يُؤَدُّونَ كلامَ بَعْضِهِمْ إلى بَعْضٍ، ويُنْهُونَ مُخاطَباتِ بَعْضِهِمْ إلى بَعْضٍ. مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤] ونَحْوُهُ، واللهُ أَعْلَمُ مَنْ هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ قِيلَ: المُؤمِنُ يُعْرَفُ بِبَياضِ وَجْهِهِ، والكافِرُ بِسَوادِ وَجْهِهِ. ويَحْتَمِلُ ما قالَ الحَسَنُ: هو أَنْ يُعَرِّفُوا بالمَنازِلِ والأماكِنِ.

---

(١) في الأصل وم: غير. (٢) في الأصل وم: دعاهم. (٣) في الأصل وم: ذكروا. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: رجلا. (٩) في الأصل وم: أعراف. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: أو أن يقال.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يَعْني نادَى أصحابُ الأعرافِ ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لَيسَ أنْ يَقولُوا: سلامٌ عليكُمْ باللِّسانِ خاصَّةً، ولكنْ في كُلِّ كلامِ سَديدٍ وقولِ حَسَنٍ وصَوابٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢] أي سَديداً صَواباً، وكذلكَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] لَيسَ على أنْ يَقولُوا سلامٌ عليكُمْ، ولكنْ يَقولونَ لهمْ قولاً صَواباً مُحْكَماً. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هُمْ أصحابُ الأعرافِ، لم يَدْخُلوها، وهُمْ يَطْمَعونَ دخولَها. وقيلَ: هُمْ كُفَّارُ أهلِ النارِ يَطْمَعونَ أنْ يَنالُوا منها كقولِهِ تعالى: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] إلى هذا الوَقْتِ يَطْمَعُونَ دُخولَها والنَّيلَ منها. ثم أيِسُوا بهذا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ أهلُ الجَنَّةِ يَطْعَمونَ دخولَها قَبْلَ أنْ يدخُلَ أهلُ الجَنَّةِ [الجَنَّةَ][1] وقبلَ أنْ يَدْخلَ أهلُ النارِ النارَ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ قُلْنا [أبصارُ][2] أصحابِ النارِ. قِيلَ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ أبصارُ الأعرافِ إلى أهلِ النارِ ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ مِنْ شِدَّةِ ما يَرَونَ مِنَ العذابِ وما نَزَلَ بِهِمْ. وقيلَ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ أبصارُ أهلِ الجَنَّةِ ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وفي حَرْفِ أُبَيٍّ [بْنِ كَعْبٍ][3]: وإذا قُلِبَتْ أبْصارُهُمْ نَحْوَ ﴿أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ [إنا][4] عائِذونَ بكَ أنْ تَجْعَلَنا ربَّنا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إنْ كانَ ذلكَ الدعاءُ مِنَ الأنبياءِ أو مِنْ أهلِ كرامَةِ اللهِ الذينَ كانُوا على الأعرافِ فذلكَ منهُمْ شهادةٌ أنهُمْ ظَلَمَةٌ وكَفَرَةٌ، ومَعْنَى التَعَوُّذِ منهُمُ النارَ لأنهُمْ لم يَدْخُلُوا الجَنَّةَ بَعْدُ، فَيخافونَ لِقُصورٍ كان مِنْهُمْ في شُكْرِ المُنْعِمِ، أو بالطَّبْعِ يَتَعوَّذُونَ كما[5] يَتَعوَّذُ كُلُّ أحَدٍ إذا رَأى أحَداً في البَلاءِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: يُعْرَفُونَ بِسَوادِ الوُجُوهِ وزُرْقَةِ العُيونِ، ولكنْ أمْكَنَ أنْ يُعْرَفُوا بالأعلامِ التي كانَتْ لَهُمْ في الدنيا سِوَى سَوادِ الوُجُوهِ؛ لأنهُمْ يخاطِبُونَهُمْ بقولِهِ: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلو لم يَعْرِفُوهُمْ[6] بآثارٍ كانَتْ لَهُمْ في الدنيا لم يكونُوا يُعاتِبونَهُمْ بِجَمْعِ الأموالِ والاسْتِكْبارِ في الدنيا، ولا يُقالُ لِلْفُقَراءِ ذلكَ، إنما يُقالُ لِلأغنياءِ لأنهُمْ هُمُ الذينَ يَجْمَعُونَ الأموالَ، وهُمُ المُسْتَكْبِرُونَ على الخَلْقِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥]. ويُشْبِهُ أنْ يُخاطِبَ الكُلَّ فيهِمْ مَنْ قَدْ جَمَعَ، واسْتَكْبَرَ، وذلكَ جائزٌ. هذا على تأويلِ مَنْ يَجْعَلُ أصحابَ الأعرافِ الذينَ اسْتَوَتْ حَسَناتُهُمْ بِسَيِّئاتِهِمْ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ [يا][7] أهلَ النارِ أنَّ أصحابَ الأعرافِ لا يدخُلُون الجَنَّةَ، ولكنْ يدخُلُونَ النارَ مَعَكُمْ[8].

فيقولُ الملائكةُ لأهلِ النارِ ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ القَسَمُ الذي ذُكِرَ في الآيةِ كانَ منهُمْ في الدنيا؛ كانُوا[9] يُقْسِمُونَ ألّا يدخُلَ[10] هؤلاءِ الجَنَّةَ؛ يَعْنُونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ، كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] كانُوا [يَقولونَ:][11] إنَّ الذي هُمْ عليهِ لو كانَ خيراً لَنالُوا هُمْ ذلكَ إذْ نالُوا هُمْ كُلَّ خيرٍ في الدنيا، يَعْنُونَ أنْفُسَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ يَنالُونَ في الآخرةِ مِثْلَهُ، ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الكلامِ الذي يَقولونَ في الدنيا: يَقُولونَ[12] لَهُمْ في الآخرةِ: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وأمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قَبْلَ أنْ يَدْخُلُوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ قالَ الأصَمُّ: يكونُ الحُزْنُ في فَوتِ كُلِّ مَحْبوبٍ، والخَوفُ في نَيلِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لما. (٦) في الأصل وم: يعرفهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: معهم. (٩) في الأصل وم: قالوا. (١٠) في الأصل وم: أن يدخلون.
(١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: فيقولون.

كَلِّ مَكْروهٍ كقولِ يَعْقوبَ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] ذَكَرَ الحُزْنَ عندَ فوتِ مَحْبوبِهِ والخوفَ عندَ نيلِ المَكْروهِ.

ولكنْ عندَنا الحُزْنُ إنما يكونُ بِفَوتِ المَوجودِ مِنَ المَحْبوبِ، والخَوفُ بما سيُصيبُهُ مِنَ المَكْروهِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ قالَ الحَسَنُ: الماءُ مِمّا رَزَقَهُمُ اللهُ، ولكنْ مُكَرَّرٌ مُثَنًّى، وقالَ أبو بَكْرٍ: طلبُوا الماءَ لِيَدْفَعُوا عن أنفُسِهِمْ ما اشْتَدَّ بِهِمْ مِنَ الظَّمإِ والعَطَشِ. ثم تَقَعُ لَهُمُ الحاجَةُ إلى الطاعةِ، لأنَّ الرجُلَ إذا اشْتَدَّ بِهِ العَطَشُ والظَّمأُ لا يَتَهَيَّأُ لهُ الأكْلُ، ولكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ طَلَبُ بَعْضِهِمُ الماءَ وبَعْضِهِمُ الطعامَ الذي رزقَهُمُ اللهُ. وهذا جائزٌ، وإنْ لم يُذْكَرْ كقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] لم يَكُنْ هذا القولُ مِنَ الفريقَينِ، ولكنْ كانَ مِنَ اليَهودِ ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [أومِنَ النَّصارَى][1] ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قِيلَ: هذا مُقابِلُ قولِهِمْ في الدنيا لِلْمُؤْمِنينَ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] قالَ لهمُ المؤمنونَ في الآخِرةِ مُقابِلَ[2] ما قالُوا لهُمْ في الدنيا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وهذا واللهُ أعْلَمُ، لَيسَ على التَّحْريمِ، ولكنْ على المَنْعِ؛ لأنَّ الكَفَرَةَ لا يَنالُونَ بَعْدَ أنْ نالوا[3] ذلكَ حَراماً كانَ أو حَلالاً، ولكنْ على المَنْعِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] لَيسَ هو تَحريمَ حُرْمَةِ أكْلٍ، ولكنْ مَنْعٌ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ مُحَرَّماً على المؤمنِينَ: إطعامُ الكافرِينَ مِنْ ذلكَ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ قالَ الحَسَنُ: اتَّخذوا دينَهُمُ الذي[4] كُلِّفُوا/ ١٧٥ ـ أ/ بِهِ، وأُمِرُوا أنْ يأتُوا بِهِ، لَهْواً ولَعِباً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ اتَّخذُوا دينَهُمُ المَلاهِيَ التي كانُوا يَلْهُونَ، ويَلْعَبُونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي اتَّخذُوا دينَهُمُ الذي أتَوا بِهِ لَهْواً ولَعِباً؛ لأنهُمْ كانُوا يُنْكِرونَ البَعْثَ، وفي إنكارِهِمُ البَعْثَ إنكارُ الجزاءِ لِلْحسناتِ والسَّيِّئاتِ، وفي الحِكْمَةِ إيجابُ ذلكَ. فَمَنْ لمْ يَرَ ذلكَ فهو لاهٍ لاعِبٌ، واللَّهْوُ واللَّعِبُ هو الذي لا عاقِبَةَ لَهُ. وكُلُّ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً، لا عاقِبَةَ لَهُ، فهو [لاعبٌ ولاهٍ][5]. وكُلُّ مَنْ يَعْمَلُ [عَمَلاً][6] لعاقِبَةٍ فهو لَيسَ [بلاعبٍ ولا لاهٍ][7]. وهم كانُوا يَعْمَلُونَ لا لِعاقِبَةٍ، لذلكَ كانَ عَمَلُهُمْ لَهْواً وَلَعِباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ الحَياةَ الدنيا لا تَغُرُّنَّ أحداً، ولكنْ أُضِيفَ إليها[8] التَّغْريرُ لِما كانَ سَبَباً مِنْ أسبابِ الاغْتِرارِ بها، فأُضِيفَ إليها كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] أضافَ الفِرارَ إلى الدعاءِ، وقد يُضافُ الشَّيْءُ إلى سَبَبِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أي يُبْصَرُ به.

وقالَ بَعْضُهُمْ: أُضِيفَ ذلكَ إليها لِما كانَ منها مِنَ السَّبَبِ مِنَ الهَيْئَةِ ما لو كانَ ذلكَ مِنْ ذي العَقْلِ والتَّمْييزِ كانَ ذلكَ غُروراً مِنْ نَحْوِ التَّزْيينِ وغَيرِهِ.

وجائزٌ إضافَةُ التَّغْريرِ إليها على إرادةِ أهلِها؛ أي غَرَّهُمْ أهْلُها، وهُمُ القادَةُ والرُّؤساءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ لا يَجوزُ أنْ يُضافَ النِّسيانُ إلى اللهِ تعالى بِحالٍ. ولكنْ يَجوزُ أنْ يُقالَ: نَجْزيهِمْ جزاءَ نِسْيانِهِمْ، فَسَمَّى الثانيَ بِاسْمِ الأوَّلِ، وإنْ لم يَكُنِ الثاني نِسياناً نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والثانيةُ لَيسَتْ بِسَيِّئةٍ، ولكنْ جزاءُ السَّيِّئةِ لكنهُ سَمّاها بِاسْمِ السَّيِّئةِ لِما هي جَزاءٌ لها. فَعَلَى ذلكَ هذا، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] والثاني لَيسَ بِاعْتِداءٍ، ولكنهُ جزاءُ الاعتِداءِ، فَسَمّاهُ بِاسْمِ الاعْتِداءِ لِما هو جَزاءٌ. وعَلَى[9] ذلكَ سُمِّيَ الثاني نِسْياناً، لأنهُ جَزاءُ النِّسيانِ، وإنْ كانَ اللهُ لا يَجوزُ أنْ يَنْسَى، أو

(١) في الأصل وم: أو نصارى. (٢) من م، في الأصل: متقابل. (٣) من م، في الأصل: نالوا. (٤) من م، في الأصل: الذين. (٥) في الأصل وم: لعب ولهو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: بلعب ولا لهو. (٨) في الأصل وم: إليه. (٩) في الأصل وم: فعلى.

يَسْهُو عن شيءٍ، أو يَغْفَلَ، ولأنَّ في النِّسيانِ تَرْكاً، وكُلُّ مَنسِيٍّ مَتْرُوكٌ، فيَتْرُكُهُمْ في العَذابِ والهَوانِ كما تَركُوا هُمْ أمْرَ اللهِ ونَهْيَهُ في الدنيا.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ اللهَ لا يَنْسَى شيئاً، ولا يَسْهوهُ، ولكنَّ الكَفَرَةَ يكونُونَ على الكَرَامَةِ والرَّحْمَةِ والمَنْزِلَةِ كالشَّيءِ المَنسِيِّ، وعنِ العذابِ والهَوانِ لا، أو كلاماً[1] نَحْوَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ما ههنا صِلَةٌ، كأنهُ قالَ: وكانُوا بآياتِنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو على ما ذُكِرَ؛ أي ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ كما ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

الآية ٥٢

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بَيَّنّاهُ، والتَّفْصِيلَ لِلتَّبيينِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي فَرَّقْناهُ في إنزالِهِ؛ لَمْ نُنْزِلْهُ جُمْلَةً واحدةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي فَرَّقْناهُ في الإنزالِ على قَدْرِ النَّوازِلِ بِهِمْ لِيَعْلَمُوا حُكْمَ كُلِّ آيةٍ نَزَلَتْ بالنَّوازِلِ التي وَقَعَتْ بهِمْ، لا تَقَعُ لَهُمُ الحاجَةُ إلى مَعْرِفَةِ ما في كُلِّ آيةٍ نَزَلَتْ عليهِمْ على حِدَةٍ، بَلْ يَعْرِفُونَ ذلكَ في النوازِلِ، أو أنْزَلَهُ مُفَرَّقاً، أو أنْ تكونَ معرفةُ ما فيهِ مِنَ الأحكامِ، إذا كانَ مُنْزَلاً بالتَّفاريقِ، أهْوَنَ وأيْسَرَ على الطِّباعِ مِنْ مَعْرِفَةِ ما فيهِ إذا نَزَلَ جملةً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي بَيَّنّاهُ بالحُجَجِ والبَراهِينِ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أنَّ الخَلائِقَ لا تَقومُ بإتيانِ مِثْلِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ مِنْ عِنْدِهِ نَزَلَ، أو أنْزَلَهُ مُفَصَّلاً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنْهُ بِمَنْ يُصَدِّقُهُ ويَتَّبِعُهُ، وبِمَنْ يُكَذِّبُهُ، ولا يَتَّبِعُهُ، أو ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنْهُ بمصالِحِ الخَلْقِ؛ إنْ أنْزَلَهُ صَلَحَ لِلْخَلْقِ: أي ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنْهُ بمعامَلَةِ القومِ إيّاهُ؛ أنْزَلَهُ لأنَّ المَنْفَعَةَ في إنزالِهِ لِلْمُنْزَلِ عليهِمْ لا لِلْمُرْسِلِ، فَقَرَّرَ الرَّدَّ والمَنْفَعَةَ لهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: هو هُدىً لِلْكُلِّ لِلْمُؤْمِنِ والكافِرِ جميعاً، ورَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ خاصَّةً.

وأمّا عِنْدَنا فهوَ هُدىً لِلْمُؤْمِنينَ وعَمىً لِلْكافِرينَ على ما ذَكَرَ أنهُ[2] عَلَيهِمْ عَمًى: خَصَّ المُؤْمِنِينَ بالهُدَى لَهُمْ لِأنهُمْ هُمُ المَخْصوصونَ بالانْتِفاعِ بِهِ دُونَ أولئكَ، وعلى أولئكَ عَمًى ورِجْسٌ على ما ذَكَرَ، وصارَ لِلْمُؤْمِنِينَ حُجَّةً على أولئكَ، فقولُهُ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] هذا لِلْكافِرِينَ، وقولُهُ[3] تعالى لِلْمُؤْمِنينَ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

الآية ٥٣

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي ما يَنْظُرونَ إلّا وُقوعَ ما وَعَدَ لَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ نُزولِ بأسِ اللهِ بِهِمْ، أي لا يُؤْمِنونَ إلّا بَعْدَ وُقوعِ البأسِ بِهِمْ. لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ في ذلكَ الوَقْتِ ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾.

والتَّأويلُ هو ما يَنْتَهي إليهِ الأمْرُ، ويَؤُولُ، وما يَقَعُ بِهِمْ مِنَ البَأْسِ المَوعودِ لَهُمْ، وإيمانُهُمْ بما ذَكَرَ مِنْ قولِهِمْ: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يَعْني بالحَقِّ الواقِعِ بِهِمْ مِنْ بأسِ اللهِ الذي كانَتِ الرُّسُلُ تَعِدُ لَهُمْ؛ أي ما[4] وُعِدُوا مِنْ وقوعِ البأسِ بِهِمْ[5] كانَ حقّاً.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالتَّوحيدِ أي إنَّ الذي جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ التَّوحيدِ كانَ حَقّاً، أو إنَّ الذي أخْبَرَ الرُّسُلُ مِنْ هذا اليومِ كانَ حَقّاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ كأنهُمْ إذا حَلَّ بِهِمْ، وَوَقَعَ ما أوعَدَ لهمُ الرسولُ مِنَ البأسِ تَمَنَّوا عندَ ذلكَ الشُّفَعاءَ الذينَ كانُوا يَعْبُدونَهُمْ في الدنيا كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أو طَلَبُوا الشُّفَعاءَ كما كانُوا يَطْلُبُونَ في الدنيا شُفَعاءَ إذا بدا لَهُمْ أمْرٌ عظيمٌ، فَيَشْفَعُ بَعْضُهُمْ ببعضٍ[6] في هذِهِ الدنيا. فَعَلَى ما كانَ لَهُمْ في الدنيا تَمَنَّوا في

---

(١) في الأصل وم: كلام. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: بنا.
(٦) في الأصل وم: بعضا.

الآخرةِ ذلكَ. فإذا أيِسوا مِنْ ذلكَ، وأيقَنُوا أنْ لا شَفيعَ يَشْفَعُ لهمْ فعِنْدَ ذلكَ قالُوا: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ لا أنهُمْ قالُوا مَجْموعاً كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ إلى قولِهِ تعالى ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٧ و٢٨].

وقالَ بَعْضُهُمْ: لو رُدُّوا إلى الدنيا: ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وقالَ آخَرُونَ: لو رُدُّوا إلى المِحْنَةِ إلى الأمْرِ والنَّهْيِ لَعادوا[1] إلى العَمَلِ الذي كانُوا يَعْمَلُونَ.

ثم أخبَرَ أنهم ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بِعَمَلِهِمُ الذي عَمِلُوا وبِعِباداتِهِمْ غيرَ اللهِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي بَطَلَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويَقُولُونَ[2]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وغيرَ ذلكَ مِنَ الافتِراءِ. ذلكَ كُلُّهُ قد بَطَلَ عنهُمْ، فَبَقُوا حيارَى، وانْقَطَعَ رجاؤُهم وأمَلُهُمُ الذي طَمِعُوا.

وقيلَ:[3] ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وقيلَ: مِمّا وُعِدوا، وأطاعوا، وقيلَ: أُهْلِكُوا.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وذَكَرَ ما بَيْنَهما في مَواضِعَ، ولم يَذْكُرْ في مَواضِعَ؛ وذلكَ داخلٌ بذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩] الذي صَنَعَ ذلكَ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾.

ثم جَمَعَ[4] اليَوْمَينِ الأوَّلَينِ مَعَ هذا الذي ذَكَرَ ذا فيهِ، وقالَ: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] لِيُعْلِمَ أنَّ ذا خَلَقَ في يَوْمَينِ. ثم قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١ و١٢] فَتَصِيرُ سِتَّةَ الأيّامِ التي أبْهَمَها في غَيْرِ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم قد بَيَّنَ ﷻ، فَسادَ قولِ كُلِّ مَنْ عَبَدَ غيرَهُ، وعَجْزَ كُلِّ ذلكَ عَمّا لَهُ يُعْبَدُ، وجَهْلَهُ بِمَعْنَى العِبادةِ، وخُروجَهُ عنِ الاسْتِحْقاقِ بما فيهِ مِنْ آثارِ التَّدْبيرِ وعليهِ مِنْ دلالةِ التَّقْديرِ، واسْتِحقاقِ جَميعِ مَعاني الخِلْقَةِ، ودخولَهُ تَحْتَ الصَّنْعَةِ، وحاجَتَهُ إلى مَنِ احْتاجَ إليهِ كُلٌّ مِمّا هي التي تَبْعَثُ على العِبادَةِ، وتُوجِبُ إظهارَ الذِّلَّةِ والخُضوعِ لِمَنْ هو كذلكَ في الخِلْقَةِ والجَوهَرِ، فألْزَمَهُمُ الفَزَعُ إلى مَنْ يَدُلُّهُمْ إلى الرَّبِّ الحَقِّ، ويَدْعُوهُمْ إلى المَعْبودِ / ١٧٥ ـ ب/ المُتَعالي عنِ الأشباهِ والأضدادِ بما يُوجِبُ الشَّبَهَ والمُشاكَلَةَ.

وفي وُجوبِ ذلكَ دليلٌ جاعلٌ آخِذٌ لهُ شَكْلاً. وذلكَ آيةُ الصَّنْعَةِ ودلالةُ الحَدَثِ. وفي تَحْقيقِ الضِّدِّ خوفُ ذهابٍ وفَسادٍ، فَتَضْمَحِلُّ الألوهِيَّةُ، ويَسْتَوجِبُ حقَّ الدُّخولِ تَحْتَ التَّقْديرِ والقِيامِ على ما شاءَ مَنْ لهُ التَّدبيرُ، جَلَّ اللهُ، سُبْحانَهُ، عنْ تَوَهُّمِ ذلكَ، فأكْرَمَ مَنْ بَعَثَهُ الحاجةُ إلى مَعْرِفَتِهِ، ودَفَعَتْهُ الخِلْقَةُ إلى العِلْمِ بِمَنْ أنْعَمَ عليهِ، واخْتَصَّهُ مِنْ بَينِ كَثيرٍ مِنْ خَلْقِهِ بما رَكَّبَ فيهِ ما بِهِ يُدَبِّرُ أمْرَ غيرِهِ، وبِهِ يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعَمِ عليهِ لِمَنْ أكْرَمَهُ بِهِ لِيَشْكُرَ[5] لهُ في ما أولاهُ، ويَحْمَدَهُ على [ما][6] أعطاهُ، فَمَنَّ بإظهارِ ذلكَ على لِسانِ رسولِهِ الذي عَرَّفَ خَلْقَهُ بِما نَصَبَ مِنْ أدلَّةِ صِدْقِهِ، وأنارَ مِنْ حُجَجِ عِصْمَتِهِ عَنِ الكِذْبِ في ما يُنْبِئُ وإصابَتِهِ في ما يُخْبِرُ، فقالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ لا ربَّ لَكُمْ[7] سِواهُ ولا لِأحَدٍ من الخَلائِقِ.

هو اللهُ الذي لا إلهَ غَيْرُهُ لِيُوَجِّهُوا إليهِ العِبادَةَ في الحَقيقَةِ، ولِيُؤَدُّوا إليهِ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ، وإنْ كانَتْ نِعَمُهُ أعْظَمَ مِنْ أنْ يَجْزِيَها العِبادُ، وحَقُّهُ أجَلَّ مِنْ أنْ يَقومَ بِهِ العِبادُ، لولا أنَّ اللهَ، سُبْحانَهُ، لم يُرِدْ مِنَ البَيانِ على رُبوبِيَّتِهِ والدليلِ على ألوهِيَّتِهِ سِوَى ما أنْطَقَ بِهِ على لسانِ رسولِهِ [به][8] الإيضاحَ أنهُ لا يَنْطِقُ إلّا بالحَقِّ، ولا يَقولُ إلّا الصِّدْقَ لَكانَ ذلكَ بَياناً شافياً.

لكنهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ بَيَّنَ الأدلَّةَ التي تُحَقِّقُ ذلكَ، وتُعْلِمُ أنهُ كما أجابَهُ رسولُهُ إلّا أنْ يُعانِدَ الحَقَّ، ويُكابِرَ العَقْلَ فقالَ ﷻ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى آخِرِ [ما ذَكَرَ][9] دلالةَ خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنْ آثارِ التَّدْبيرِ وعَجِيبِ التَّقْديرِ الذي بِهِ قِوامُ كُلِّ مِمَّنْ يَحْتَمِلُ المَنافِعَ والمَضارَّ واتِّصالَ ما بَيْنَ السماءِ والأرضِ على تَباعُدِ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ في المَنافِعِ مَعَ جَمْعِ الأضدادِ التي مِنْ

(١) في الأصل وم: لصاروا. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) من م، في الأصل: رجع. (٥) من م، في الأصل: يشكر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: غيركم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: نا.

طَبْعِها التَّنافرُ في أصْلِ ما ذَكَرَ حتى صارَتْ كالأشكالِ بَعْدَ أنْ كانَتِ السمواتُ والأرضُ مُشْتَبِهَةً[١] لا تُشْعِرُ بما فيها مِنَ الحِكْمَةِ ولا بالذي فيهِ مِنْ أيِّ وَجْهٍ تُقْضَى الحاجةُ لِيَدُلَّ أنَّ مُدبِّرَ الكُلِّ واحدٌ؟ وأنهُ عَليمٌ حكيمٌ، وضَعَ كلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ، ودَلَّ كلَّ ذي عَقْلٍ على الوَجْهِ [الذي][٢] يَظْفَرُ بحاجَتِهِ، ويُقيمُ بهِ أوَدَهُ، ويَصِلُ إلى بُغْيَتِهِ، وسَخَّرَ الذي ذَكَرَ، فَصَيَّرَ كُلًّا مِنْ ذلكَ جارِياً ذاتِيّاً بِما لا يَنْتَفِعُ هو بِهِ، ولا مَضَرَّةَ عليهِ فيهِ، لِيَعْلَمَ أنهُ لِغَيْرِهِ قُدِّرَ، ولحاجَةِ غَيْرِهِ سُيِّرَ، وكذلكَ الذي جَبَلَ على القَرارِ، وأمْسَكَ عنِ الزَّوالِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ لهُ في حَقيقةِ أحدِ الوجهَينِ نَفْعٌ أو ضَرَرٌ لِيَعْلَمَ أنَّ تدبيرَ ذلكَ جَرَى لا لَهُ، ولكنْ لأهلِ المُمْتَحَنينَ الذينَ بِهِمْ يَظْهَرُ العِزُّ والشَّرَفُ، ويَنبُلُ الجودُ والكَرَمُ، ويَعْظُمُ المُلْكُ والسُّلْطانُ؛ إذْ عندَهُمْ تَمْييزُ الأحوالِ وتَفريقُ الأمورِ وتوجيهُ كُلٍّ إلى حَقِّهِ وإعطاءُ كُلِّ ذي فَضْلٍ فَضْلَهُ، فَيُعْلَمُ مَنْ هذا وَصْفُهُ أنهُ لم يُنْشِئْ عَبَثاً، ولا خَلَقَ باطلاً؛ إذْ بِهِ يَعْظُمُ قَدْرُ كُلِّ خَلْقٍ، ويُشَرِّفُ جَلالُهُ كُلَّ جَليلٍ. لم يَجُزْ إهمالُ[٣] مِثْلِهِ، فيكونَ خَلْقُ الجميعِ لِغَيرِ شيءٍ مَعَ ما في ذلكَ مِنْ فَنائِهِ وتَبَدُّدِهِ الذي في الحِكْمَةِ قَصْدُ مِثْلِهِ في العَقْلِ يُوجِبُ العَبَثَ.

ثَبَتَ أنهُ خَلَقَ لِلْمِحْنَةِ ولِدارِ البقاءِ. لكنْ جَعَلَ البقاءَ جَزاءً والفَناءَ مِحْنَةً لِيكونَ البَقاءُ هو المُنْتَهى، فَيَعْظُمُ القَصْدُ في الابْتداءِ؛ إذْ فاسِدٌ أنْ يَجْعَلَ المِحْنَةَ لِلْبَقاءِ، فَيَدُلَّ على حاجَةِ المُمْتَحِنِ مَعَ ما في ذلكَ زَوالُ الجَزاءِ؛ إذْ مُحالٌ تَقديمُهُ على مالَهُ الجَزاءُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم الأصْلُ أنَّ اللهَ، سُبْحانَهُ، جَعَلَ العَقْلَ جُزْءاً مِنَ عالَمِهِ، وجَعَلَهُ دليلاً لأهلِهِ في مَعْرِفَةِ المَساوِئِ والمحَاسِنِ وعَلَماً لِلتَّمييزِ بَينَ الحِكْمَةِ والسَّفَهِ وبَيْنَ الإتقانِ والعَبَثِ، وجَعَلَهُ بالذي يَعْرِفُ المَحْمُودَ مَنَ المَذْمُومِ والمَرْغوبَ فيهِ مِنَ المَزْجورِ عنهُ، فلم يَجُزْ أنْ يكونَ إنشاءُ كُلِّ العالَمِ على غَيرِ الحِكْمَةِ، لأنهُ سَفَهٌ. وهو بالذي هو جُزءٌ مِنَ العالِمِ يَعْلَمُ بِهِ الذميمَ مِنَ الحَميدِ. ثَبَتَ أنهُ أُنْشِئَ لِلْحِكْمَةِ.

وعلى ذلكَ تَقْديرُ كُلِّ عاقِلٍ على احْتِمالِ ما يَضُرُّهُ، ويَنْفَعُهُ، بِحَقِّ الجَزاءِ والمِحْنَةِ. فَثَبَتَ أنَّ ذلكَ لِلْمِحْنَةِ، وأنَّ المِحْنَةَ ثم الهَلاكَ بلا جَزاءٍ ولا نَفْعٍ لِلْمُمتَحَنِ عَبَثٌ أيضاً وسَفَهٌ، فَلَزِمَ بِهِ القولُ بالبَعْثِ وإثباتِ دارَينِ مَعَ ما كانَ لِكُلِّ شاهِدٍ دليلٌ غائبٌ، يُحْمَدُ عليهِ، أو يُذَمُّ، وكذا فِعْلُ كُلِّ ذي عَقْلٍ إنما هو لعاقِبَةٍ يُحْمَدُ عليهِ، أو [يَغْفُلُ عنهُ، فَيُلامُ][٤] عليهِ.

فَعَلَى ذلكَ أمْرُ تَدبيرِ هذِهِ الدارِ مِنْ أُخرَى، فلا يَجوزُ أنْ تُخَلَّى الجملةُ مِنَ الدلالةِ، ولا يَخْلُو كُلُّ جُزْءٍ منها أو جملةُ الأفعالِ مِنَ[٥] العَواقِبِ. والواحِدُ منها إذا خَرَجَ يَصيرُ عَبَثاً وسَفَهاً، فَثَبَتَ بالذي ذَكَرْتُ القولُ بالتَّوحيدِ وبالدارَينِ وبالرسالةِ؛ إذْ بها تُعْرَفُ العَواقِبُ بِما هي غائبةٌ، وحقائقُ كلِّ غائبٍ تُعْرَفُ بالإخبارِ عنها والدلالةِ عليها.

ثم لا دلالةَ على ماهِيَّةِ الجزاءِ ولا الشُّكْرِ والعِبادَةِ، إنما الدلالةُ مِنْ حَيثُ التَّدْبيرُ على العِلمِ بها جُمْلَةً لُزومِ القولِ بالرُّسُلِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

أحَدُهُما: خَلْقُ أصولِ الأشياءِ التي يكونُ غَيْرُها بِحَقِ التَّوَلُّدِ عنْ ذلكَ والانْقِلابِ.

والثاني:[٦] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على خَلْقِ كُلِّيَّةِ كُلِّ شَيءٍ مِمّا عليهِ تركيبُ هذا العالَمِ إلى أنْ يُبَدَّلَ بعالَمٍ آخَرَ، لا يَبيدُ، ولا يَفْنَى. فإنْ كانَ على الأوَّلِ فهو سِتَّةٌ مِنَ السَّبْعَةِ التي عليها[٧] مَدارُ المُدَدِ والأزمِنةِ؛ إذْ جَعَلَ، جَلَّ ثناؤُهُ، جَميعَ ما ذَكَرَ مِنَ الخَلائِقِ تَحْتَ الأزمِنَةِ والأوقاتِ، ويزولُ بِزَوالِ مَدارِها.

وكذلكَ عندَنا كُلُّ الحوادِثِ؛ إذْ[٨] كُلٌّ منها بَدْأً يَصيرُ ذلكَ وقْتَ ابْتِدائِهِ، وذلكَ يَنْقُضُ على الباطِنِيَّةِ قولَهُمْ: [إنَّ][٩] المُبْدَعَ الأوَّلَ لا يَقَعُ عنِ الزمانِ والمكانِ، وإنهُ لا يَبيدُ، ولا يَفْنَى. ولو كانَ كذلكَ لم يَكُنْ مُبْدَعاً، ولَكانَ[١٠] قديماً لا يَقَعُ

(١) في الأصل: متشبهة، في م: مشبهه (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: إمهال. (٤) في الأصل وم: يفعل عنه فيلزم. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: عليهما. (٨) في م: إذا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ولكن كان.

عليهِ الإبداعُ، فلمّا وَقَعَتْ ثَبَتَ لَهُ البَدْءُ، فيجبُ وصفُهُ بالوَقْتِ مِنْ حَيثُ الابْتِداءُ، وهو أيضاً مَعْلُولٌ[1] عندَهُ، وعِلَّتُهُ فيهِ، وهو الإبداعُ، مِمّا لو زالَتْ عِلَّتُهُ لَبادَ. وإذا ثَبَتَ أنهُ مَعْلولٌ ثَبَتَ أنَّ عِلَّتَهُ أوجَبَتْهُ، وأحدَثَتْهُ، بَعْدَ أنْ لم يكُنْ، فوَجَبَ لَهُ وَقْتٌ، بهِ كانَ، أو كانَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم على هذا كانَ إنشاءُ مَنْ ذَكَرَ في الأيامِ السِّتَّةِ، ولم يَذْكُرْ فيهِ مُمْتَحناً، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ وقتُ كَونِ المُمْتَحَنينَ اليومَ[2] السابعَ، وبِهِمْ تَمَّ ظُهورُ المُلْكِ [بقولِهِ تعالى][3]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو المُلْكُ؛ إذْ[4] لم يكُنْ قَبْلَ ذلكَ مَنْ لهُ التَّمييزُ.

ومعرفةُ المُلْكِ والسُّلْطانِ وقَدْرِ العِلْمِ بالمحامِدِ والمَعالي وأضدادِ ذلكَ إنما يكونُ بأولئكَ الذينَ رُكِّبَتْ فيهِمُ العُقولُ، وأُكرِموا بالتَّمييزِ [وبما لَهُمْ جعَلَ][5] العالَمَ، وهُمُ المَقصودُونَ مِنَ الإنشاءِ. لِذلكَ جعَلَ كُلَّ مَنْ سِواهُمْ مُسَخَّراً لِمنافِعِهِمْ داخِلَةً تَحتَ أفهامِهِمْ مِمّا تَحتَمِلُ أكثَرَ. ذلكَ تدبيرٌ لِيُعْلَمَ أنهُمْ قُصِدُوا لأنفُسِهِمْ أو لمعرفةِ ما عليهِمْ مِنْ شُكْرِ النِّعَمِ والعِبادَةِ. فكانَ بِهِمْ تمامُ ظُهورِ المُلْكِ وبُلوغِهِ النهايةَ، فأخبَرَ بالاسْتِواءِ؛ إذ هو وَصْفُ العُلُوِّ والرِّفْعَةِ وَوَصْفُ التَّمامِ في الرُّتْبَةِ والقَدْرِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤] وذلك في مَعْنَى الاسْتِواءِ على العَرْشِ مِنْ حَيثُ ظُهورُ المُلْكِ وبيانُ الحُجَّةِ والرُّبوبيَّةِ لِلمُسْتَدِلِّينَ والمُعْتَبِرينَ.

وإنْ كانَ التَّأويلُ هو الثانيَ [فإنهُ][6] يُخرَّجُ على وجهينِ:

أحَدُهما: [ما][7] قالَ بَعْضُ أهلِ التَّفْسِيرِ: إنَّ كُلَّ يومٍ مِنْ أيامِ الآخِرَةِ، وذلكَ ألفُ سَنَةٍ، لم يُبَيِّنْ لنا مِقْدارَ ذلكَ. فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْتَهى تَدْبيرِ هذا العالَمِ إلى ذلكَ سِتَّةَ أيامٍ: بِمَعْنَى سِتَّةِ آلافِ سَنَةٍ على القَدْرِ الذي قَدَّرَهُ اللهُ.

ثم يكونُ اليومُ السابعُ هو يومُ القيامَةِ، لا يَبِيدُ[8] أبداً، ولا يَنْقَضِي. فيهِ يتبَدَّلُ[9] العالَمُ، ويُقِرُّ كُلُّ مُمْتَحَنٍ لهُ بالمُلْكِ والجَلالِ، وإنْ كانَ كذلكَ في الأزلِ، ففي ذلكَ اتِّفاقُ القَولِ مِنْ طَريقِ الاختِيارِ والعِلْمِ بذلكَ مِنْ كلِّ جبّارٍ وغَيرِهِ. وعلى نَحْوِهِ[10] ما قِيلَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] وقيلَ:/١٧٦ ـ أ/ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وقيلَ: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] ونَحْوُ ذلكَ على أنَّ لهُ المُلْكَ أبداً.

وكذلكَ لم يكُنْ يَخفَى عليهِ شيءٌ؛ لكنَّ ذلكَ مِمّا يَعلَمُ كُلٌّ أنهُ كذلكَ. فبذلكَ تَمَّ ظُهورُ كُلِّ مَعْنًى مِنْ ذلكَ، وإنْ كانَتْ حقيقَتُهُ[11] موجودةً قبلَ ذلكَ. وعلى ذلكَ القولُ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ونَحْوُ ذلك أنهُ إذْ ذلكَ يظْهَرُ لِكُلِّ مَعْلُومُهُ، فأُضيفَ إليهِ بِحَرْفِ الابْتِداءِ، وهو عَنْ ذلكَ مُتَعالٍ. فَعَلَى ذلكَ ما بيَّنّا، وبذلكَ ظُهورُ تمامِ شرائطِ المُلْكِ والاعْتِرافِ مِنَ الكُلِّ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني: أنْ تكونَ تلكَ الأيامُ السِّتَّةُ على ما في عِلْمِ اللهِ تعالى، تقديرُها لا يَعْلَمُ سِواهُ إلّا مِنْ طريقِ الجُملَةِ التي أدّى؛ وقد بَيَّنَ يوماً ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ويوماً ﴿عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ [الحج: ٤٧] حدٌّ، لا يَعْلَمُ غيرُهُ.

ثم كانَ اليومُ السابعُ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] وتقَعُ العُقوبةُ، والمَثوبَةُ، وهو المَقصودُ مِنْ خَلْقِ العالَمِ الأوَّلِ، فيكونُ ما ذَكَرْتُ مِنْ إتمامِ الظُّهورِ، واللهُ الموفِّقُ.

وعلى هذا لو قيلَ: ﴿يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧] [وقيلَ:][12] ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] قِيلَ: لَيسَ أنَّ المُرادَ مِنَ العَرْشِ الأوَّلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا هو السريرَ المَعْروفَ مُنشأً مِنَ النورِ وممّا شاءَ لِيُكْرِمَ بِهِ أولياءَهُ يومَ القِيامَةِ.

والأوَّلُ هو المُلْكُ الذي ظَهَرَ تَمامُهُ وعُلُوُّهُ على ما بيَّنّا.

---

(١) من م، في الأصل: معلوم. (٢) في الأصل وم: يوم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: ومما لهم يجعل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل يبدأ. (٩) في الأصل وم: تبدل. (١٠) في الأصل وم: نحو. (١١) من م، في الأصل: حقيقة. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ثم لو كانَ العَرْشُ الذي قالَ ﷺ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] هو ما فَهِمَهُ أهلُ التَّشبيهِ مِنْ مكانٍ، لم يكُنْ، لَوَجبَ[1] أنْ يُفهَمَ مِنَ الإستِواءِ عليهِ الإستِقرارُ وأنْ يكونَ للهِ مكانٌ يوصَفُ بالكَونِ فيهِ، وعليهِ، لأنهُ ليسَ مِنْ كَونِ أحدٍ في مَكانٍ، وإنْ جَلَّ قدرُهُ، وعَظُمَ خَطَرُهُ، رِفعَةٌ ولا نباهَةٌ في ما يُتعارَفُ مِنْ أمرِ المُلوكِ والأجِلَّةِ، بل كُلٌّ مَنسوبٌ إلى مَكانٍ مِنْ جِهةِ التَّمكُّنِ فيهِ، والقَرارُ مَنسوبٌ إلى اسْتِعانَةٍ وحاجَةٍ منهُ إليهِ جَلَّ عنْ ذلكَ.

وعلى أنهُ إمّا يكونُ مثلَهُ أو أعْظَمَ منهُ؛ [فلو كانَ كذلكَ][2] لَكانَ لَهُ عَديلاً بالعظمَةِ أو دُونَهُ. ومِنَ السُّخفِ الجُلوسُ على مكانٍ، لا يطمئِنُّ بهِ، أو يَقصُرُ عنهُ؛ إذْ قد يجوزُ أنْ يُزادَ فيهِ، فيكونَ أعْظَمَ منهُ، جَلَّ اللهُ عَنْ هذا الوَصْفِ، وتَعالَى. بل كانَ، ولا مَكانَ؛ فهو على ما كانَ يَتعالى عنِ الإستِحالَةِ والتَّغيُّرِ؛ إذْ هو أثرُ الحَدَثِ وأمارَةُ الكَونِ بَعْدَ أنْ لم يَكُنْ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

ثم الأصلُ أنهُ لو كانَ فهو بإضافةِ اللهِ إلى العُلُوِّ عليهِ تَعْظيمٌ لهُ. وعلى ذلكَ في كلِّ[ما][3] يُضافُ إلى اللهِ أو [يُضافُ][4] اللهُ إليهِ مِنْ جهةِ الخُصوصِ، فهو على تَعظيمِ ذلكَ، لا على أنْ يُفهَمَ منهُ ما يُفهَمُ مِثْلُهُ مِنَ الخَلائقِ نَحْوُ القَولِ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] والقَولِ[5]: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] والقولِ[6]: ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] والقَولِ[7]: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧] ونَحْوُ ذلك.

فما بالُ المُشَبِّهةِ فَهِمَتْ مِنْ إضافَةِ الإستِواءِ على العَرْشِ المَعْنَى المَكْروهَ على احْتِمالِ الإستِواءِ مَعانيَ سِوَى الذي ذَكَرُوا؟ إذْ يُقالُ: اسْتَوَى تَمَّ، واسْتَوَى علَى، واسْتَوَى اسْتَقَرَّ، واسْتَوَى اسْتَوْلَى.

فإذا كانَ مَعْناهُ يَتَوَجَّهُ إلى هذهِ الوُجُوهِ لم يَحْتَمِلْ أنْ يكونَ أحدٌ بِقُدْرَةٍ[8] مِنْ ذلكَ آدَمَ ما يَتَوَجَّهُ إليهِ، ويَعْتَمِدُ عليهِ، لولا الجَهْلُ بهِ.

ثم الأصلُ أنَّ الإضافاتِ إلى الأشياءِ يَفْتَرِقُ المَقْصودُ بها، وإنْ كانَ في ظاهِرِ المَخْرَجِ واحداً باخْتِلافِ مَنْ إليهِ القَصْدُ بالإضافةِ والإضافةِ جَميعاً، يُقالُ: جاءَ الحَقُّ، وجاءَ فلانٌ، وبَيتُ فلانٍ، وبَيتُ اللهِ، وقالَ[9] في الملائكةِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] وقالَ في الفَسَقَةِ: ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٣٩] ونَحْوَ ذلكَ لا على الجَمْعِ في المَعْنَى. فالإسْتِواءُ الذي يَتَوَجَّهُ إلى وجوهٍ أحَقُّ بذلكَ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بوجوهٍ:

أحَدُها[10]: ما قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ [على][11] التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ ربَّكُمُ اللهُ الذي اسْتوىَ على العرشِ، ثم خَلَقَ ما ذَكَرَ، فيكونُ مَعْناهُ خَلَقَ كذا، وقد اسْتَوَى على العَرْشِ كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

وعلى هذا لَيسَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الشُّبهَةُ التي في الأوَّلِ كما لم تكُنْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] إذا صُرِفَ ﴿عَلَىٰ﴾ إلى عند، شُبْهَةٌ. فيكونُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ خَلَقَ العَرْشَ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] بِمَعْنَى ثم خَلَقَ السماءَ، أو قَصَدَ خَلْقَهُ، ونَحْوَ ذلكَ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي اسْتَوَى عليهِ أمْرُهُ وصُنْعُهُ، أي لم يَخْتَلِفْ عليهِ صنعُ العَرْشِ وأمْرُهُ، وإنْ جَلَّ أمْرُ غَيرِهِ وصُنْعُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] على اسْتِواءِ الأمْرِ في التَّدبيرِ والصُّنْعِ.

---

(١) في الأصل وم: ليجب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: يقدر. (٩) في الأصل وم: وقيل. (١٠) من م، في الأصل: أحدهما. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ الحُسَينُ: معناهُ اسْتَولَى على العَرْشِ كما يقالُ: اسْتَوَى فلانٌ على بغدادَ بِمَعْنَى اسْتَولَى. وقالَ قومٌ: معناهُ: اسْتَولَى عليهِ، وهو فَوقَ كُلِّ شَيءٍ في القُدْرَةِ والعَظَمَةِ تعظيماً لهُ على غيرِ اخْتِلافٍ عليهِ في التَّحقيقِ بَينَهُ وبَينَ غَيرِهِ كالذي ذُكِرَ بأنَّ الأمْرَ كُلَّهُ يومَ القِيامَةِ لهُ، والمَساجِدَ لَهُ على التَّفْصيلِ دُونَ تَخْصيصٍ لهُ في ذاتِهِ مِنْ حَيثُ ذلكَ. وقالَ قومٌ: إذْ كانَ العَرْشُ فوقَ كلِّ شيءٍ في تقديرِ العارفِ، فقالَ: هو عَلاهُ بِمَعْنَى لا يُوصَفُ في الخَلْقِ، ولكنْ [عَلا ما كانَ][1] ولا خَلْقَ.

ونَحْنُ نَقولُ، وباللهِ التَوفيقُ، قد ثَبَتَ مِنْ طريقِ التَّنزيلِ بأنهُ اسْتَوَى على العَرْشِ، وقد لَزِمَ القولُ بأنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في الأرضِ. وعلى ذلكَ اتِّفاقُ القولِ: ألا يُقَدَّرَ كلامُهُ بما عُرِفَ مِنْ كلامِ الخَلْقِ ولا فِعْلُهُ بهِ، وما يُوجِبُهُ، ولا عِلْمُهُ ولا ما قيلَ: هو ربُّ كذا أو مالكُ كذا، لا يُرادُ بِهِ المَفهومُ مِنَ الخَلْقِ. لكنَّ الوجْهَ الذي يَليقُ بِهِ وما يُوجِبُهُ حَقُّ الرُّبوبيَّةِ. فَمِثْلُهُ في الأوَّلِ، ثم يَلْزَمُ تَسْليمُ المُرادِ لِما عندَهُ؛ إذْ لم يُبَيِّنْهُ لنا، وقد ثَبَتَ ما يُفْهَمُ مِنْ غيرِهِ.

وبَعْدُ فإنَّ القولَ فيهِ بالمكانِ يَفْسُدُ بالذي بِهِ يُحْتَجُّ بوجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ قولَهُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إخبارٌ عنْ فِعْلِهِ الذي في التَّحْقيقِ يُضافُ إليه في خَلْقِ الخَلْقِ على اخْتِلافِ المَخْرَجِ في القَولِ نَحْوُ ذِكْرِ مَرَّةً: أبْدَعَ، ومرَّةً فَطَرَ، وجَعَلَ، وأنْزَلَ، وأثبتَ، وكتَبَ، وأعطى، وأنشأ، وغَيرُ ذلكَ مِنَ الألفاظِ؛ حَقيقَةُ ذلكَ أنهُ خَلَقَ إذ ذلكَ مَعْنَى فِعْلِهِ في الحَقيقَةِ. وعلى ذلكَ كَونٌ وفعلٌ وأمْرٌ في بَعْضِ المَواضِعِ.

ثم يَجِبُ تَوجيهُ كُلٍّ مِنْ ذلكَ إلى الوجهِ الذي يَليقُ فيهِ القَولُ بِـ: خَلَقَ، وكذا في: هَدَى، وأضَلَّ، وزَيَّنَ، وأتْقَنَ، وأحْكَمَ، ونَحْوِ ذلكَ. فكذلكَ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَجِبُ أنْ يُقابَلَ بذلكَ بـ: خَلَقَ؛ إذْ هو إضافَتُهُ إلى فِعلِهِ.

ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ثم خَلَقَ العَرْشَ، ورَفَعَهُ، وأعلاهُ، بَعْدَ أنْ كانَ العَرْشُ على الماءِ كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] ولَيسَ ﴿ثُمَّ﴾ يَنْتَقِلُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ إذْ لو كانَ كذلكَ لَكانَ يَصيرُ حَيثُ، ثم يَنْتَقِلُ مِنْ خَلْقٍ إلى خَلْقٍ في ما يَخْلُقُ، فيكونُ في الوَقْتِ الذي يَصيرُ إلى العَرْشِ صائراً إلى الثَّرَى، وفي الوَقْتِ الذي يَحْدُثُ خَلْقُ ما في الأرضِ وما في السمواتِ مُنْتَقِلاً مِنْ ذا إلى [ذا][2]. وذلكَ تَناقُضٌ فاسدٌ، وفي ذلكَ بُطلانُ مَعْنَى القولِ بالاِسْتِواءِ على العَرْشِ، بل يكونُ أبداً غَيرَ مُسْتَوٍ عليهِ حتى يَفْرَغَ مِنْ خَلْقِ جميعِ ما يكونُ أبداً، وذلكَ مُتناقِضٌ فاسدٌ. جَلَّ اللهُ عن هذا التَّوَهُّمِ، وباللهِ التوفيقُ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي إلى العَرْشِ في خَلْقِهِ ورَفْعِهِ وإتمامِهِ دليلَ احْتِمالِ ﴿عَلَى﴾ [إلى][3]. ذلكَ لأنهُ[4] مِنْ حروفِ الخَفْضِ، وقد يُوضَعُ مَوضِعَ بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢] بِمَعْنَى عنِ الناسِ، وقولِهِ تعالى: ﴿تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] بِمَعْنَى عندَ ربِّهِمْ مَعَ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩] [وقال][5]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] بِمَعْنَى إليهِ. وعلى ذلكَ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إلى العَرْشِ، وهو على الماءِ كما ذَكَرَ، فَرَفَعَهُ، وأتَمَّهُ، كما قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] فَخَلَقَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

والوجهُ الثاني: المذكورُ في الآيةِ مِنِ اسْمِ الرَّبِّ وخَلْقِ/ ١٧٦ ـ ب/ وتَسْخيرِ الذي وَصَفَ. ثم لم يَتَوَهَّمْ في شَيءٍ مِنْ ذلكَ المَعْنَى الذي يُضافُ إلى الخَلْقِ أنهُ ربُّ كذا، وسَخَّرَ كذا، أو صَنَعَ كذا، مُلْحِدٌ أو مُوَحِّدٌ. فكيفَ احْتَمَلَ قَلْبُ المُشَبِّهينَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] في[6] جَهْلِهِ بِهِ وتقديرِهِ بالذي عليهِ أو نفسِهِ؟ واللهُ الموفِّقُ.

والثالثُ: إنَّ الناسَ في خَلْقِ اللهِ مُخْتَلِفونَ[7]:

فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ الخَلْقَ نَفْسَهُ دونَ أن يكونَ اللهُ بذاتِهِ يَلْحَقُهُ وَصْفٌ سِوَى إضافَةِ الخَلْقِ إليهِ في أنْ كانَ بِهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إنما هو ما ذَكَرَ مِنْ غيرِ أنْ كانَ، سُبْحانَهُ، يَلْحَقُهُ وَصْفٌ لم يَكُنْ لهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لو. (٧) في الأصل وم: مختلفين.

ومنهُم مَنْ يَرَاهُ خالقاً بذاتِهِ لِيكونَ جَميعُ الخلائِقِ إلى الأبدِ بتكوينِهِ الذي يُعَبِّرُ عنهُ بقولِهِ: ﴿كُن﴾ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ. ثم كافٌ ونونٌ[1] على كَوْنِ كُلِّ شَيءٍ عليهِ بهِ مِنْ غَيرِ تَغْيِيرٍ عليهِ ولا زَوالٍ عَمّا كانَ عليهِ؛ إذْ لا شَيءَ غَيرُهُ. فَكُلُّ مَعْنًى لو حُقِّقَ أوجَبَ تَغَيُّراً أو زَوالاً أو قَراراً أو نَحْوَ ذلكَ، فَاللهُ يَجِلُّ عنهُ، ويَتَعالى إذْ ذلكَ عِلْمُ الحَدَثِ وأمارَةُ الغَيرِيَّةِ ولا قوةَ إلّا باللهِ.

والرابعُ: هو الذي يُرَى فِعْلُهُ على ما عليهِ فِعْلُ الخَلْقِ مِنَ التَّحَرُّكِ والزَّوالِ والسُّكونِ والقَرارِ إضافَتُهُ. مِنْ ذلكَ وَصْفُهُ [بالتَّحَرُّكِ مِنْ مَكانٍ][2] إلى مكانٍ وحالٍ دُونَ حالٍ مُحالٌ فاسِدٌ. لذلكَ بَطَلَ القولُ بالمكانِ في جَميعِ الأقاويلِ.

وأيَّدَ الذي ذَكَرْتُ ما خَتَمَ بهِ الآيةَ مِنْ قولِهِ: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَصَفَ ذاتَهُ بالرُّبوبِيَّةِ بالتَّعالي على[3] جَميعِ مَعاني المَرْبوبِينَ؛ إذْ مِنْ حَيثُ التَّشاكُلُ يُوجِبُ خُروجَهُ مِنْ أنْ يكونَ ربّاً والآخَرُ مَرْبوباً. فإذا ثَبَتَ أنَّ كُلَّ شيءٍ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مَرْبُوباً ثَبَتَتْ سُبْحانِيَّتُهُ مِنْ ذلكَ الوجهِ، واللهُ المَوَفِّقُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هو على وجهَينِ:

أحَدُهُما: إظهارُ ما بَيْنَهما على ما جَرَى الذِّكْرُ بهِ في غَيرِهِ.

والثاني: أنْ ذَكَرَ مِنْ وقْتِ ابْتِداءِ الكَونِ إلى الانْتِهاءِ لا على تَحْقِيقِ ذلكَ في كُلِّ وَقْتٍ كما يُقالُ: كانَ كذا [في شَهْرِ كذا][4] لا على إحاطةِ كُلِّيَّةِ أجزاءِ الشَّهْرِ بهِ.

فَمِثْلُهُ مَعْنَى سِتَّةِ أيامٍ، ومَعْنَى التَّوقِيتِ لَيسَ إلى حاجةٍ إلى ذلكَ، إذِ الوَقْتُ داخِلٌ في ما خَلَقَ. لكنْ على وُجوهٍ، وإنْ كانَ اللهُ، سُبْحانَهُ، قادراً على إنشاءِ ما ذَكَرَ بِدَفْعَةٍ:

أحدُها[5]: ما ذَكَرْتُ مِنْ مَعْنَى الأيامِ لِمَدارِ مُدَدِ الخَلْقِ، وأطْوَلُ ما عليهِ يُغْني الأعمالَ.

والثاني: على بَيانِ مُنْتَهَى العالَمِ.

والثالثُ: على إدخالِ كُلِّ ذلكَ مَعَ عُلُوِّ دَرَجاتِ كثيرٍ منها وجلالَةِ أقدارِها في الأعْيُنِ حتى لا أحَدَ يَنْظُرُ إليها إلّا بالتَّعْظِيمِ، وحتى بكثيرٍ منها قامَ تدبيرُ العالَمِ، وحتى عُبِدَ دونَ اللهِ تعظيماً، وإنْ كانَ في ذلكَ دلالَةُ خُروجِهِ عنِ الاسْتِحْقاقِ، فَصَيَّرَها اللهُ داخِلَةً تَحْتَ الأزمِنَةِ والمُدَدِ مَقْهورَةً بها حتى لو أُرِيدَ بكُلِّ جَهْدٍ وحِيَلٍ إخراجُ شيءٍ مِنْ ذلكَ أو تَخْليصُ الجبابِرَةِ مِنْ ذلكَ لَما تَهَيَّأَ لَهُمْ لِتُعْلَمَ ذِلَّةُ الخِلْقَةِ وأماراتُ الحَدَثِ وعلامَةُ الحاجَةِ.

ثم كانَتِ الأوقاتُ مُترادِفَةً[6] مُتَتابِعَةً؛ لو أُسْقِطَتْ عنها الأوَّلِيَّةُ لَبَطَلَ الكُلُّ، ولَما جاوزَ الحسابُ بالواحِدِ ولَما انْتَهَى إلى ما هو أبْعَدُ لِما مَضَى لِتُعْلَمَ بهِ أوَّلِيَّةُ كلِّ شَيءٍ مِنَ العالَمِ وحَدَثُهُ مَعَ ما جُعِلَتِ الأيامُ تدورُ على أمْرٍ واحِدٍ بها بِجَميعِ المُحتاجِينَ مِمَّنْ ذَكَرْتُ، فَثَبَتَ لذلكَ بأسماءٍ معروفَةٍ، أمْكَنَ قَصْدُ كُلٍّ منها على الإشارةِ إليهِ باسْمِهِ المَعْروفِ لِتُحْفَظَ فيهِ المَواعِيدُ، ويُعْلَمَ بِهِ ما يَجِبُ مِنَ الحقوقِ، ويَبْطُلَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصْلُ إذْ جُعِلَتْ هذهِ الدارُ دارَ المِحْنَةِ. والمِحْنَةُ إنما تكونُ بِمُخْتَلَفِ الأحوالِ جُعِلَتْ لأحوالٍ[7] مُخْتَلِفَةٍ نَحْوِ موتٍ وحياةٍ وصحةٍ وسُقْمٍ وغِنًى وفَقْرٍ، وفي جَميعِ الخَلْقِ على حالةٍ منها الجَهْلُ بأضدادِها. وفي ذلكَ الجَهْلُ باللَّذاتِ والآلامِ، فَيَجِبُ بذلكَ اخْتِلافُ الأحوالِ، وعلى ذلكَ جَرَى أمْرُ خَلْقِ الخَلائِقِ، [وعلى ذلك][8] أمْرُ الأرزاقِ وغَيرُ ذلكَ.

فَعَلَى ذلكَ أمْرُ خَلْقِ ما ذَكَرَ في أيامٍ مُخْتَلِفَةٍ، ثم يَجْمَعُ في البَعْثِ بِمَرَّةٍ وفي حالٍ مِنْ حالِ اللَّذاتِ والتَّعَبِ بِمَرَّةٍ مع ما كانَ اخْتِلافُ الأحوالِ أقْرَبَ إلى الدلالةِ وأوضَحَ لِلْحُجَّةِ. فلذلكَ جَعَلَ في هذهِ الدارِ إلزامَ الحُجَّةِ وإظهارَ المِحْنَةِ والكُلْفَةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والأصلُ أنَّ العقولَ أُنشِئَتْ مُتَناهِيَةً نَقْصٍ عنِ الإحاطَةِ بِكُلِّيَّةِ الأشياءِ، والأفهامَ مُتَناقِصَةٌ عن بلوغِ غايةِ الأمورِ، إذْ هُنَّ

---

(١) في الأصل وم: أو نون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: وجهان. (٦) من م، في الأصل: مرادفة. (٧) في الأصل وم: الأحوال. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

مِنْ أجزاءِ العالَمِ الذي هو بِكُلِّيَّتِهِ مُتناهٍ، وأسبابَ الإدراكِ التي يُدْرَكُ بها بأداءِ المَشاعِرِ التي تَعْجَزُ عَنْ كُنْهِ لِما يَقَعُ عليها مِنَ الظَّواهِرِ فَضْلاً عَمّا اسْتَتَرَ منها. وإذا كانَ وَصْفُ ما يُدْرَكُ بِهِ مَبْلَغُ الحِكْمَةِ، فهي قاصِرَةٌ عَنِ الإحاطَةِ بالحِكْمَةِ المَوضوعَةِ مِنَ البَشَرِ. فَمَنْ رامَ الإحاطَةَ بها أو بُلوغَ حِكْمَةِ الرّبوبيَّةِ مِنْ غَيرِ إشارةٍ منهُ، فهو يَظْلِمُ العَقْلَ، يَحْمِلُ عليهِ ما يَعْلَمُ عَجزَهُ عنهُ.

ومعلومٌ أنَّ المذكورَ مِنَ الأيامِ في خَلْقِ ما ذَكَرَ حِكْمَةٌ بالِغَةٌ، وإنْ قَصَّرَتِ العقولُ عنِ الإحاطةِ، إذِ الذي قَدَّرَها، هو الذي حَمِدَ الحِكْمَةَ، وأوجَبَ لأهلِ العَقْلِ ذَمَّ السَّفَهِ وأهلَهُ، فَأوجَبَ ذلكَ تَحْقيقَ الحِكْمَةِ لذلكَ، وإنْ لم يَبْلُغْها إلّا مِقْدارَ ما يُكْرَمُ بِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: [﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾][(١)] وسَخَّرَ ما ذَكَرَ، فكذلكَ سَخَّرَهُنَّ بالسَّيرِ في ما يرجِعُ إلى مَنافِعِ الخَلْقِ، وجَعَلَ فيهنَّ آيةً لولا العِيانُ لم يكُنْ يُصَدِّقُ بِهِ أحدٌ مِمَّنْ يَجْحَدُ البَعْثَ والرُّسُلَ ونَحْوَهُمْ؛ إذِ الخَبَرُ عَنْ سَيرِ جَوهرٍ واحدٍ في اليومِ الواحدِ مَسيرَةَ أكثَرَ مِنَ ألفِ سَنَةٍ، وتَوَلُّدِ جواهِرَ بِمَعُونَةِ مَنْ يَبْعُدُ عنهُ مِقْدارَ خَمْسِمِئَةِ عامٍ، وصِحَّةِ[(٢)] كلِّ شَيءٍ؛ وصلاحُهُ[(٣)] بِهِ أبْعَدُ عنِ احْتِمالِ القَبولِ عنْ إعادةٍ عندَ الفَناءِ، أو إرسالِ الرُّسُلِ بإعلامِ ما خَفِيَ مِنَ المَصالحِ والأمورِ إذ ذلكَ أمْرٌ مُتعالَمٌ في صُنْعِ الخَلْقِ مَعَ ما في ذلكَ في ما بِهِ تَقَلُّبُ الزَّمانِ مِنَ الليلِ والنهارِ.

ولكنَّ اللهَ، سُبحانَهُ، أظهَرَ لَهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ وعَظيمِ حِكْمَتِهِ بِما بَسَطَ لَهُمُ [الأرضَ][(٤)] بِغِلَظِها وسَعَتِها، ورفَعَ عليها السماءَ بغَيرِ عَمَدٍ تُرَى، فأقَرَّ كُلًّا مِنْ ذلكَ لِحاجَةِ أهلِها إلى قَرارِها، وسَيَّرَ فيها بالتَّسْخيرِ ما ذَكَرَ لِحاجَةِ الأهلِ في تَيسيرِ ذلكَ لِيُعْلَمَ [أنهُ لا يُعْجِزُهُ][(٥)] شَيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ أمْرٌ، ولا يَدْخُلُ في تدبيرِهِ عِوَجٌ ولا في خَلْقِهِ تفاوُتٌ، وأنَّ الذي أظهَرَ إذا قُوبِلَ بالذي وَعَدَ يُضاعِفُ عليهِ بِوُجوهٍ لهُ مَعَ ما كانَ الذي أظهَرَ، هو إبداعٌ على غَيرِ احْتِذاءٍ، وإنشاءُ الإعادةِ لا، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم مِنْ عَجيبِ قُدْرَتِهِ، سُبحانَهُ، في قولِهِ تعالى: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُظْهِرُ النورَ في ابْتِداءِ النهارِ مِنْ طَرَفِ السماءِ والظُّلْمَةَ في أوَّلِ الليلِ، ثم يَنْشُرُ ذلكَ، ويَبْسُطُهُ في جَميعِ أطرافِ السماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنْ جَميعِ الأقطارِ والجوانِبِ في قَدْرِ لَحْظَةِ بَصَرٍ وطَرْفَةِ العَينِ مِمّا لو أُريدَ تَقْديرُ ذلكَ بالهندسَةِ وبجميعِ ما في الخَلْقِ مِنَ المَقاديرِ لَما أُحيطَ بالذي انْبَسَطَ [مِنْ][(٦)] ذلكَ النورِ والظَّلامِ لِيُعْلِمَ أنَّ اللهَ على ما يَشاءُ قَديرٌ، وأنهُ لو أرادَ لَخَلَقَ جميعَ ما ذَكَرَ في أدَقِّ مُدَّةٍ وألطَفِ وَقْتٍ، وأنهُ القادِرُ على البَعْثِ وجميعِ ما جاءَتْ بالخَبَرِ عنهُ الرُّسُلُ.

على أنهُ بالذي ذَكَرْتُ يُلْبِسُ وُجوهَ كُلِّيَّةِ الأشياءِ السِّتْرَ، ويُجَلِّيها بِطَرْفِ عَينٍ بالتَّدْبيرِ والعِلْمِ الذي بِما يُوجِبُ ذلكَ مِمّا يَعْجِزُ عَنْ تَوَهُّمِ مِثْلِهِ جميعُ الحُكَماءِ فَضْلٌ عَنْ إدراكِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ عليمٌ، لا يَجْهَلُ، عزيزٌ، لا يُعْجِزُهُ شَيءٌ، حكيمٌ، لا يَتفاوَتُ صُنْعُهُ، ولا يَتَناقَضُ تَدْبيرُهُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقريباً مِنْ ذلكَ ما جَعَلَ في جَوهرِ الإنسانِ مِنَ البَصَرِ الذي يُبْصِرُ بأوَّلِ أحوالِ الفَتْحِ قَدْرَ خَمسِمِئَةِ سنَةٍ، والفِكْرِ[(٧)] الذي يَبْلُغُ بهِ مِنْ غَيرِ أنْ يَزولَ عنْ مكانِهِ مُنْتَهَى مَرجِعِ الخَلْقِ مِنَ الجَنَّةِ والنارِ[(٨)]، ويُبْصِرُ بِهِ المَعادَ والمَعاشَ، والعَقْلِ الذي يَعْرِفُ حَقائِقَ مَنْ غابَ عنهُ، وحَضَرَ، مِمّا لَهُ صورَةٌ وطِينَةٌ أو أحدُهُما، وما لَيسَ لهُ واحدٌ مِنَ الأمْرَينِ على قُصورِ الحَواسِّ عَنْ إدراكِ صورةِ شَيءٍ، لا طِينَةَ لَهُ لِيُعْلِمَ أنَّ الذي قَدَرَ على تَقْديرِ مِثْلِهِ في جَوهَرٍ واحِدٍ، وعَلِمَ كيفَ يَصْنَعُ؟ لِيُعْلِمَ ذلكَ العِلْمَ، قادِرٌ على كلِّ شيءٍ حكيمٌ عليمٌ /١٧٧ ـ أ/ وهذا مَعْنَى ما قِيلَ: إنَّ الإنسانَ هو العالَمُ الصَّغيرُ؛ بِمَعْنَى أنهُ يُوجَدُ فيهِ لِكُلِّ أمْرٍ مِنَ الأمورِ العالَمُ الكَبيرُ فيه مِثالاً ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنهُ أمْرُهُ كما يُقالُ: أتاهُ أمْرُ اللهِ؛ أيِ المَوتُ والعذابُ ونَحْوُ ذلكَ على إرادةِ ذلكَ نَزَلَ[(٩)] بِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وتصح. (٣) من م، في الأصل: وتصلاحه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: أن لا يعجز، في م: أن لا يعجزه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: الكفر. (٨) في الأصل: والنهار. (٩) في الأصل وم: ترك.

والثاني: أنْ يَطْلُعْنَ، ويَغرُبْنَ بأمرٍ بتوحيدِ اللهِ والإيمانِ فيهِ بما فيهِنَّ مِنْ عَجيبِ الحِكْمَةِ ورفيعِ التَّقْديرِ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الذي بهِ كَونُ الأشياءِ مِنْ قولِهِ: ﴿كُن﴾ فالقولُ الأوَّلُ هو قولُ مَنْ لا يَرى خَلْقَ الخالقِ[1] غيرَ الخَلْقِ. والثاني قولُ مَنْ يَرى ﴿كُن﴾ عِبارةً عن التَّكوينِ الذي بهِ الخَلْقُ أبَدَ الآبِدينَ مِنْ غَيْرِ أنْ كانَ ثَمَّ في الحقيقةِ كافٌ ونونٌ، لكنهُ جاءَ ما يُفْهَمُ بهِ المُرادُ مِنَ الكلامِ، يُرادُ في ذلكَ نَفْيُ الصُّعُوبَةِ عنهُ وتَيسيرُ الأمرِ عليهِ، ويكونُ في الحقيقةِ غَيْرَ الخَلْقِ؛ إذْ أخْبَرَ في الخَلْقِ أنهُ كانَ بهِ، وكُلُّ شَيءٍ يكونُ بِشَيءٍ في المُتعارَفِ مِنَ القَولِ يكونُ غَيْرَهُ، وكذلكَ غَيْرُهُ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فيهِ وجهانِ:

أحدُهُما: الإخبارُ عنْ تكوينِ الخَلْقِ الذي هو لهُ.

والثاني: [الإخبارُ][2] عنِ الأمرِ في خَلْقِهِ بِمَ شاءَ؟ ولا يُرَدُّ شَيءٌ مِنَ الوجهِ الذي أمَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يُذْهِبُ بِضَوءِ النهارِ ظُلْمَةَ الليلِ، وضوءَ النهارِ بِظُلْمَةِ الليلِ، إذا جاءَ هذا ذَهَبَ سُلْطانُ الآخرِ ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ وقيلَ: سريعاً، وهو أنَّ اللهَ ﷻ يُظهِرُ النورَ في ابْتِداءِ النَّهارِ في طَرَفٍ مِنْ أطرافِ السماءِ والظُّلْمَةَ في أوّلِ الليلِ، ثم يَنْشُرُ ذلكَ في جَميعِ أطرافِ السماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنْ جميعِ الأوقاتِ والجَوانِبِ في قَدْرِ لَحظَةِ بَصَرٍ وطَرْفَةِ عَينٍ ممّا لو أُريدَ تَقْديرُ ذلكَ بِجَميعِ ما في الخَلْقِ مِنَ المَقاديرِ ما[3] قَدَرُوا عليهِ لِيُعْلِمَ أنَّ اللهَ على ما يَشاءُ قديرٌ، وأنهُ لو أرادَ أنْ يَخْلُقَ جميعَ ما ذَكَرَ أنهُ خَلَقَ في سِتَّةِ أيامٍ لَقَدَرَ[4] أنْ يَخْلُقَ في طَرْفَةِ عَينٍ، لكنهُ خَلَقَ في سِتَّةِ أيامٍ لِحِكْمَةٍ[5] في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ لا يكونُ مِمّا ذَكَرَ طَلَبَ حَقيقَةٍ، لكنْ ذَكَرَ الطَّلَبَ لأنَّ ما كانَ مِنْ كُلِّ واحدٍ منهُما لِلآخرِ لو كانَ مِمَّنْ يكونُ لَهُ الطَّلَبُ كانَ طَلَباً وهَرَباً مِنْ غَلَبَةِ كُلِّ واحدٍ منهُما صاحِبَهُ؛ وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] أنها أُنْشِئَتْ على هَيئَةٍ وَجِهَةٍ، لو كانَ ذلكَ مِمَّنْ يكونُ منهُ التَّغريرُ كانَ غُروراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي بِتَكوينِهِ أي أنشأها، وكَوْنُها مُسَخَّراتٍ لَهُمْ. وقالَ[6] بَعْضُهُمْ: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ يَنْفَعْنَ البَشَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الأمْرُ ههنا هو التَّكوينُ، وقيلَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ والتَّدبيرُ في الخَلْقِ، وقيلَ: لَهُ الأمْرُ في الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعالى اللهُ عمّا فَهِمَتِ المُشَبِّهَةُ مِنْ[7] قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ أي اعْبُدُوا رَبَّكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] ذَكَرَ في الابْتِداءِ الدُّعاءَ، وفي آخِرِهِ العِبادَةَ، فكانَ الأمْرُ بالدُّعاءِ أمْراً بالعِبادَةِ. وقالَ بَعضُهُمْ: الدُّعاءُ ههنا هو الدُّعاءُ، وقد جاءَ أنَّ «الدُّعاءَ مُخُّ العِبادَةِ» [الترمذي: ٣٣٧١] [لأنَّ العِبادَةَ][8] قد تكونُ بالتَّقْليدِ، والدُّعاءُ لا يَحْتَمِلُ التَّقْليدَ، ولكنْ إنما يكونُ عندَ الحاجةِ لَمّا [يَرى المَرْءُ][9] في نَفْسِهِ مِنَ الحاجَةِ والعجزِ عنِ القيامِ بذلكَ؛ فَعِنْدَ ذلكَ يَفْزَعُ إلى رَبِّهِ، فهو مُخُّ العِبادَةِ منْ هذا الوَجْهِ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي وَحِّدُوا رَبَّكُمْ ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إخلاصاً، وقيلَ: ﴿تَضَرُّعًا﴾ ظاهِراً ﴿وَخُفْيَةً﴾ سِرّاً. وأصْلُهُ أنِ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ في كُلِّ وقْتٍ وكُلِّ ساعَةٍ، أوِ ادْعُوا خاضِعينَ مُخْلِصِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ قيلَ: المُجاوِزِينَ الحَدَّ بالإشراكِ باللهِ، وقيلَ: لا يُحِبُّ الاعْتِداءَ في الدُّعاءِ نَحْوَ أنْ يقولَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْني نَبِيّاً أو مَلَكاً أو أنزِلْني في الجَنَّةِ مُنْزَلَ كذا ومَوضِعَ كذا. ورُوِيَ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ [أنهُ][10]

---

(١) في الأصل وم: الخلق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: وما. (٤) في الأصل وم: قادر. (٥) من م، في الأصل: بحكمة. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: رأى. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

سَمِعَ ابْنَهُ يَقولُ: اللَّهُمَّ إني أسألُكَ الفِرْدَوسَ، وأسألُكَ كذا، فقالَ لهُ عبدُ اللهِ: سَلِ اللهَ الجَنَّةَ، وتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النارِ فإنِي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقولُ: «سيكونُ قومٌ يَعْتَدونَ في الدُّعاءِ»[1] [أبو داوود ١٤٨٠].

ويَحْتَمِلُ الاِعْتِداءُ في الدعاءِ أنْ[2] يَسْأَلَ رَبَّهُ ما لَيسَ هو بأهلٍ لهُ نَحْوَ أنْ يَسْأَلَ كرامةَ الأخيارِ والرُّسُلِ.

وأصْلُ الاِعْتِداءِ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ. وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][3] قالَ: في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ عَلَّمَكُمْ كيفَ تَدعُونَ ربَّكُمْ؟ وقالَ لِلْعَبْدِ الصالحِ حِينَ[4] رَضِيَ دُعاءَهُ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] وقالَ أنسٌ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عَمَلُ البِرِّ كُلِّهِ نِصْفُ العِبادَةِ والدعاءُ نِصْفُ العِبادةِ» [المطالب العالية ٣٣٢٩].

ومنهُمْ مَنْ صَرَفَ قولَهُ تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إلى الدعاءِ، وقالَ يُكْرَهُ لِلرَّجُلِ أنْ يَرْفَعَ صَوتَهُ في الدعاءِ. ويَرْوُونَ على ذلكَ حديثاً عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ سَمِعَ قوماً يَرْفَعُونَ أصواتَهُمْ في الدُّعاءِ، فقالَ: «أيها الناسُ لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائباً، ولكنْ كذا» [مسلم ٢٧٠٤/ ٤٤].

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بَعْدَ ما بَعَثَ الرُّسُلَ بإصلاحِها مِنَ الدعاءِ إلى عبادةِ اللهِ والطاعةِ، ويأمُرُونَ بالحلالِ، ويَنْهَونَ عنِ الحَرامِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بَعْدَ ما خَلَقَها طاهِرَةً عنْ جَميعِ أنواعِ المَعاصِي والفواحِشِ وسَفْكِ الدِّماءِ وغَيرِ ذلكَ. ويُقالُ: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بَعْدَ ما أعطاكُمْ أسباباً تَقْدِرُونَ على الإصلاحِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بإصلاحِ الأرضِ أهْلَها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] والقريةُ لا تُوصَفُ بالعُتُوِّ، ولكنْ أهْلُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَوْفًا﴾ لِما كانَ في العِبادةِ مِنَ التَّقْصِيرِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في التَّجاوُزِ والقَبولِ؛ لأنهُ لا أحَدَ يَقْدِرُ أنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ حَقَّ عبادَتِهِ، لا تقصيرَ في ذلكَ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أحدٌ إلّا بِرَحْمَتِهِ، قيلَ: ولا أنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ» [مسلم ٢٨١١/ ٧١ و٢٨١٨/٧٨] وعلى ذلكَ ما رُوِيَ أنَّ الملائكةَ يقولُونَ يومَ القِيامَةِ: ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ ويَجِبُ على كُلِّ مؤمنٍ أنْ يكونَ في كُلِّ فِعْلِ الخَيرِ خائفاً راجياً الخَوفَ لِلتَّقْصِيرِ والرجاءَ لِلْقَبولِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: خوفاً مِنْ عذابِهِ ونَقْمَتِهِ وطَمَعاً في جَنَّتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الجَنَّةَ ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ويَقولُونَ: أرادَ بالقَريبِ الوقوعَ فيها والنُّزُولَ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالرَّحْمَةِ صِفَتَهُ فيكونُ تأويلُهُ: إنَّ مَنْفَعَةَ رَحْمَةِ ﴿ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقالَ الحَسَنُ: إنَّ رحْمَةَ اللهِ، وهي الجَنَّةُ قريبٌ مِنَ الخائِفِينَ. وقالَ بَعْضُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي [إجابَةُ اللهِ قريبٌ مِمَّنْ][6] اسْتَجابَ دعاءَهُ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ مَنْفَعَةِ رَحْمةِ اللهِ ﴿قَرِيبٌ﴾ مِمَّنْ[7] ذَكَرَ. ثم ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى أنْفُسِهِمْ أي ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى خَلْقِهِ، أي ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى نِعَمِ اللهِ، أي أحْسَنُوا صُحْبَةَ نِعَمِهِ بالقِيامِ[8] لِشُكْرِها واجْتِنابِ الكُفْرانِ بها، أو يُرِيدُ المُوَحِّدِينَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ في هذا حكمَتَهُ وقُدْرَتَهُ ونِعْمَهُ لِيَحْتَجَّ بها عليهِمْ بالبَعْثِ. أمّا حِكْمَتُهُ [ففي ما][9] يُرْسِلُ الرياحَ والأمطارَ، ويَسوقُها إلى المكانِ الذي يُرِيدُ أنْ يُمْطِرَ فيهِ ما لم يَعْلَمُوا ذلكَ، [ولا شاهَدُوهُ، وما][10] عَرَفُوا أنْ كيفَ يُرسِلُ المَطَرَ مِنَ السماءِ؟ وكيفَ يُرسِلُ الريحَ، ويَسوقُ السَّحابَ؟ ففي ذلكَ تَذْكِيرُ حِكْمَتِهِ إيّاهُمْ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: والطهور. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: إجابة قريب إلى من، في م: إجابة الله قريب إلى من. (٧) في الأصل وم: إلى من. (٨) في الأصل وم: القيام. (٩) في الأصل وم: فيما. (١٠) في الأصل وم: وشاهدوه ما.

وأمّا نِعَمُهُ [فهي ما يَسوقُ مِنَ][1] السّحابِ بالرّيحِ إلى المكانِ الذي فيهِ حاجةٌ إلى المَطَرِ؛ وذلكَ مِنْ عَظِيمِ نِعَمِهِ لِيُعْلِمَ أنَّ ذلكَ كانَ بِرَحْمَتِهِ، لا أنهُمْ كانُوا مُسْتَوجِبِينَ لذلكَ.

وأمّا ما ذَكَّرَهُمْ مِنْ قُدرَتِهِ فهو[2] ما ذَكَرَ مِنْ إحياءِ الأرضِ بَعْدَ ما كانَتْ مَيْتَةً لِيُعْلِمَ أنَّ الذي قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ وإخراجِ النباتِ والثَّمرِ بَعْدَ ما كان مَيْتاً قادرٌ[3] على / ١٧٧ ـ ب/ إحياءِ الموتَى وبَعْثِهِمْ بَعْدَ مَوتِهِمْ على ما قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ بالنباتِ وإحياءِ النَّخلِ بالثِّمارِ بَعْدَ ما كانَ عَلِمَ كُلٌّ أنْ لا نباتَ فيها، ولا ثِمارَ فيهِ. فإذا خَرَجَ النباتُ منها والثِّمارُ مِنَ النَّخيلِ على ما خَرَجَ في العامِ الأوّلِ دَلَّ ذلكَ على وَحْدانِيَّتِهِ وقُدرَتِهِ على إحياءِ المَوتَى وبَعْثِهِمْ بَعْدَ ما ماتُوا، وصارُوا تُراباً على قَدْرِ ما ذَكَرْنا، واللهُ [أعلَمُ][4]

وفي قولِهِ تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ دلالةُ ألّا يُفْهَمَ مِنَ اليَدَينِ الجارحَتَينِ [ما][5] يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ كما لم يَفْهَمْ أحدٌ [مِنَ ذِكْرِ][6] اليَدِ في المَطَرِ الجارحةِ؛ لأنهُ لا جارحَةَ لهُ. فَعَلَى ذلكَ لا يَفْهَمُ مِنْ ذِكْرِ اليَدِ لَهُ الجارحَةَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ لم يُفْهَمْ مِنَ قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الجارحَتَينِ[7] لِلقرآنِ. فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ ممّا ذَكَرَ مِنْ يَدَيهِ الجارحَتَينِ[8]. ومَنْ فَهِمَ ذلكَ إنما يَفْهَمُ لِفسادِ اعْتِقادِهِ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الاسْتواءِ على العَرْشِ والاسْتِواءِ إلى السماءِ لا يُفْهَمُ مِنَ اسْتِواءِ الخَلْقِ؛ لأنهُ بَرِيءٌ عَنْ جَميعِ مَشابِهِ الخَلْقِ ومَعانِيهِمْ، وهو ما وَصَفَ حِينَ[9] قالَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ ونُشُراً [ونَشْراً][10] وبُشْرَى؛ والنَّشْرُ هو مِنَ جَمْعِ نُشورٍ [والنَّشْرُ هو][11] مِنَ الإحياءِ، ومِنَ[12] التَّفريقِ، وبُشْرَى بالباءِ مِنَ البِشارَةِ.

ثم قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿نَشْرًا﴾ اللهُ ﷻ هو الذي يُفَرِّقُ، ويَسوقُ ذلكَ السَّحابَ، وقِيلَ: الريحُ هو الذي يُرْسِلُ، ويَسوقُ ذلكَ السحابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ قِيلَ: ﴿أَقَلَّتْ﴾ حَمَلَتْ، وقِيلَ: وَقَتَحتِ الماءَ، وهو واحدٌ ﴿ثِقَالًا﴾ ممّا فيهِ مِنَ الماءِ ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ إلى بَلَدٍ مَيّتٍ ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي بالبَلَدِ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ما يُشاهِدونَ مِنَ الثَّمراتِ ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بَعْدَما ماتُوا، وذَهَبَ أثَرُهُمْ كما أخرَجَ النَّباتَ والثِّمارَ مِنَ الأرضِ والنَّخلِ مِنْ بَعْدِ ما ماتَ، وذَهَبَ أثَرُ ذلكَ النَّباتِ وتلكَ الثِّمارِ. فَعَلَى ذلكَ نُخْرِجُ المَوتَى بَعْدَ ما ذَهَبَ أثَرُهُمْ حتى لم يَبْقَ شَيءٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتَتَفَكَّرُونَ، وتَعْرِفونَ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ على الإحياءِ بَعْدَ المَوتِ، أو تَذَكَّرُونَ، وتَتَّعِظُونَ.

وبَعْدُ فإنَّ إعادَةَ الشَّيءِ في عُقولِ الخَلْقِ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِنَ ابْتِداءِ الإنشاءِ. ألا تَرَى أنَّ الدَّهْرِيَّةَ والثَّنَوِيَّةَ وهؤلاءِ قد أنكرُوا الإنشاءَ مِنْ لا شَيءٍ، ورأوا وجودَ الأشياءِ مَطْرُوحَها وإعادَتَها عنْ أصلٍ وكِيانٍ؟ وهو ما ذَكَرَ، وهو أهونُ عليهِ أي في عقُولِكُمْ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ ذَكَرَ المَثَلَ، ولم يذكرِ المضرُوبَ.

وأهلُ التّأويلِ قالُوا: ضَرَبَ المَثَلَ لِلمؤمِنِ والكافِرِ. ثم يَحْتَمِلُ ضَرْبُ المَثَلِ وجُوهاً:

أحدُها: أنهُ وَصَفَ الأرضَ التي يَخْرُجُ منها النباتُ بالطِّيبِ، وَوَصَفَ الأرضَ التي لا يَخْرُجُ منها النباتُ بالخُبْثِ.

فَعَلَى ذلكَ المؤمنُ لِما كانَ منهُ مِنَ الأعمالِ الطاعةِ[13] لِرَبِّهِ والائْتِمارُ لأمْرِهِ، موصوفٌ هو بالطِّيبِ، وجَعَلَهُ مِنْ جوهَرِ

---

(١) في الأصل وم: فهو ما يسوق. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لقادر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بذكر. (٧) في الأصل وم: الجارحة. (٨) في الأصل وم: الجارحة. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٧١]. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) في الأصل وم: ونشرا من. (١٣) في الأصل وم: من الطاعة.

الطَّيبِ، والكافرُ لِما يكونُ منهُ الأعمالُ الخبيثةُ، ولا يكونُ [لَهُ][1] مِنَ الأعمالِ الصالحةِ الطاعةُ[2] لِربِّهِ خبيثٌ، كما أنَّ الأرضَ التي يَخرُجُ منها النباتُ الذي يُنتفَعُ بِهِ موصوفةٌ بِطيبِ الأصْلِ والجوهَرِ، والتي لا يَخرُجُ منها النباتُ، ولا يُنتفَعُ بِهِ، مَوصوفةٌ بِخُبثِ الأصلِ.

وأمكَنَ مِنْ وجهٍ آخرَ؛ وهو أنَّ اللهَ ﷻ جعَلَ هذا القرآنَ مُباركاً شِفاءً لِلْخَلْقِ على ما وَصَفَهُ اللهُ تعالى في غَيرِ مَوضعٍ مِنَ الكتابِ، وَوَصَفَ الماءَ الذي يَنزِلُ مِنَ السماءِ بالبَرَكةِ والرَّحمَةِ. فإذا أنزَلَ ذلكَ الماءَ المُبارَكَ في الأرضِ الطَّيِّبةِ الجَوهَرِ خَرَجَ منها النباتُ والأنزالُ يُنتفَعُ بها. وإذا نَزَلَ في الأرضِ السَّبَخَةِ الخبيثةِ لم يَخرُجِ [النباتُ][3] لِخُبثِ أصْلِها.

فَعَلَى ذلكَ هذا القرآنُ هو مبارَكٌ شِفاءٌ؛ يَسمَعُهُ[4] المؤمنُ، فيَتَّبِعُهُ بِهِ، ويَعمَلُ بِهِ، والكافرُ يَسمَعُهُ، ولا يَتَّبِعُهُ، ولا يَعْمَلُ به. فصارَ مَثَلُ المؤمِنِ الذي يَسمَعُ هذا القرآنَ، ويَتَّبِعُهُ، ويَعمَلُ بِما فيهِ كَمَثَلِ الماءِ الذي يَدخُلُ في الأرضِ، فيَخرُجُ منهُ النباتُ لِطيبِ جَوْهَرِها وأصلِها. والكافرُ مِثْلُ الأرضِ التي لا يَخرُجُ منها النباتُ لِخُبثِ أصلِها وجَوهَرِها.

وأصلُهُ أنهُ ضَرَبَ مَثَلَ الذي هو مُستَحسَنٌ بالعَقلِ بالذي هو مُستَحسَنٌ بالطَّبعِ؛ لأنَّ ما حَسُنَ في الطَّبعِ فإنما مَعرِفَتُهُ حُسنَى، وما حَسُنَ في العَقلِ فإنما يُعرَفُ حُسنُهُ بالدلائلِ، وهو غائبٌ. فضَرَبَ مَثَلَ مَعرِفَةِ حُسنِهِ بالعَقلِ بالحُسنِ والمشاهَدةِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ النباتِ الذي يَخرُجُ مِنَ الأرضِ، وذلكَ يدلُّ على طِيبِ أصلِها وجَوهَرِها. [والذي لا يَخرُجُ][5] لِخُبثِ جَوْهَرِها وأصلِها. فعَلَى ذلكَ المؤمنُ والكافرُ.

ثم حُسنُ عَمَلِ هذا وَطيبُهُ وقُبحُ عَمَلِ الآخرِ وخُبثُهُ إنما يَظْهَرُ في الآخِرةِ؛ وذلكَ يُوجِبُ البَعْضَ أنهما استَوَيا في هذهِ الدنيا، فَدَلَّ أنَّ هناكَ داراً أخرى فيها يَظهَرُ الطَّيِّبُ مِنَ الخبيثِ؛ طابَ عَمَلُ المؤمِنِ وجميعُ ما يكونُ منهُ حُسناً لِطِيبِ أصلِهِ، وخَبُثَ عَمَلُ الكافِرِ، وقَبُحَ ما يكونُ منهُ لِخُبثِ أصلِهِ؛ كالأرضِ التي ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ يَحتَمِلُ بِعلمِهِ وتكوينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ قالَ الحسَنُ: خَبيثاً؛ أي لا يَخرُجُ إلّا خبيثاً، وقالَ أبو بكرٍ ﴿نَكِدًا﴾ أي لا مَنفَعَةَ فيهِ، وقيلَ: إلّا عَسيراً، وقيلَ: إلّا قليلاً، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي لِقومٍ يَنتفِعونَ بالآياتِ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ كما أرسَلْناكَ إلى قومِكَ، وَلَستَ أنتَ بأوَّلِ رسولٍ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]

وفيهِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ يَصِحُّ بالأنبياءِ والرُّسلِ [وإنْ لم تُعرَفْ أنسابُهُمْ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ الأنبياءَ والرُّسُلَ][6] بأساميهِمْ، ولم يَذْكُرْ أنسابَهُمْ. دلَّ ذلكَ أنَّ الإيمانَ يكونُ بِهِمْ، و إنْ لم تُعرَفْ أنسابُهُمْ، وكذلكَ يَصِحُّ الإيمانُ وإنْ لم تُعرَفْ أسماؤُهُمْ؛ لأنَّ[7] [مِنَ الأنبياءِ مَنْ لا يُعرَفُ اسمُهُ، فيَصِحُّ الإيمانُ بِجُملَةِ][8] الأنبياءِ، وإنْ لم تُعرَفْ أسماؤُهُمْ.

وفي ذلكَ دلالةُ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ عَنْ رسالةِ نوحٍ، فَدَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي وَحِّدوا اللهَ، سَمَّوْا التَّوحيدَ عِبادةً، لأنَّ العِبادةَ لا تكونُ، ولا تَصِحُّ إلّا بالتَّوحيدِ فيها للهِ خالصاً، سُمِّيَ بذلكَ مجازاً أنْ يكونَ عِبادةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي ما لَكُمْ مِنَ الإلهِ الحَقِّ الذي تَثبُتُ أُلوهيَّتُهُ ورُبوبيَّتُهُ بالدلائلِ مِنْ إلهٍ غيرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إني أعلَمُ أنهُ يَنزِلُ عليكم عذابُ يومٍ عظيمٍ إنْ كُنتُمْ على هذا. وقالَ بَعضُهُمْ: الخوفُ هو[9] خَوفُ إشفاقٍ، وذلكَ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ في الوَقتِ الذي كانَ يطمَعُ إيمانَ قومِهِ، ثم آيَسَهُ اللهُ عنْ إيمانِ قومِهِ بِقولِهِ تعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل (٢) في الأصل وم: ومن الطاعة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيسمع. (٥) في الأصل وم: والتي لا تخرج شيئا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وهو.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لِلْخلقِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ و٦] وهو عظيمٌ لِلْخلْقِ على ما وَصَفَ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ هم أشرافُ قومِهِ وسادَتُهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ الآية [الأحزاب: ٦٧] وكانوا همْ أضدادَ الأنبياءِ والرُّسُلِ لأنهُمْ كانُوا يَدْعونَ الناسَ إلى ما يُوحِي إليهِمُ الشَّياطِينُ، والرُّسُلُ كانُوا يدعُونَ إلى ما يوحي إليهِمُ اللهُ، ويُنَزِّلُ عليهِمْ. لذلكَ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأنهُمْ ظَنُّوا أنَّ ما أوحَى إليهِمُ الشيطانُ هو الحَقُّ، وأنَّ ما يَدْعو[1] إليهِ الرُّسُلُ هو ضَلالٌ وباطِلٌ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أي لَسْتُ أنا بِضالٍّ؛ لأنهُ إذا نَفَى الضلالَ عنهُ نَفَى أنْ يكونَ ضالّاً، وهو حَرْفُ رِفْقٍ ولِينٍ. وعلى ذلكَ أمْرُ الأنبياءِ والرُّسُلِ أنْ يُعامِلُوا قَوْمَهُمْ؛ لأنَّ ذلكَ أنْجَعُ في القُلوبِ، وإلى القَبولِ أقْرَبُ.

﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والعالَمُ هو جوهَرُ الكُلِّ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ/ ١٧٨ ـ أ/ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في خَطَإٍ مُبِينٍ. ثم يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحَدُهُما: نَسَبُوهُ إلى الخَطَإِ لمّا رَأَوهُ خالفَ الفراعِنَةَ والجَبابِرَةَ الذينَ هَمُّهُمُ القَتْلُ لِمَنْ خالفَهُمْ.

الثاني: نَسَبُوهُ إلى الخَطَإِ لأنهُ دينُ آبائِهِ وأجدادِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ التي أمَرَني بِتَبْليغِها إليكُمْ؛ قَبِلْتُمْ، أو رَدَدْتُمْ. ثم لأني أُبَلِّغُها على أيِّ حالٍ اسْتَقْبَلْتُموني، أو يقولُ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ رسالةَ ربي التي أرسلَها إليَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾][2] أي أدعوكُمْ، وآمُرُكُمْ إلى ما فيهِ صلاحُكُمْ، وأنهاكُمْ عَمّا فيهِ فَسادُكُمْ. والنصيحةُ هي الدعاءُ إلى ما فيهِ [الصلاحُ والنَّهْيُ عَمّا فيهِ][3] الفَسادُ. وتكونُ النصيحةُ لَهمْ ولِجميعِ المؤمنينَ.

رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: «ألا إنَّ الدينَ النَّصيحةُ، قيلَ: لِمَنْ يارسولَ اللهِ؟ قالَ: للهِ ولِرَسولِهِ» [البخاري: ٥٧] قالَ أبو القاسِمِ الحكيمُ، رحمةُ اللهِ عليهِ: النصيحةُ هي النهايةُ مِنْ صِدْقِ العِنايةِ.

ثم أخْبَرَ أنهُ يُبَلِّغُهُمْ ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ ولم يُبَيِّنْ في ماذا؟ في كتابٍ أنْزَلَهُ عليه، أو يوحي [إليهِ في غيرِ كتابٍ][5]، ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى التَّصديقِ لهُ في ما يُبَلِّغُ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قد أتاهُ مِنَ اللهِ العِلْمُ بأشياءَ ما لم يأتِ أولئكَ مِثْلُهُ، وهو كقولِ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، لأبيهِ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ [مريم: ٤٣] ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنَ العذابِ أنْ يَنْزِلَ بِكُمْ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنْتُمْ إذا دُمْتُمْ على ما أنْتُمْ عليهِ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي أتَعْجَبُونَ[6] بما جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنَ اللهِ على يَدَي ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ ما لا أقْدِرُ أنا، ولا تَقْدِرونَ أنْتُمْ على مِثْلِهِ؟ كانُوا يَعْجَبُونَ، ويُنكِرُونَ أنْ يكونَ رُسُلُ اللهِ مِنَ البَشَرِ بقولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] ونحوِ ذلكَ.

هكذا[7] كانوا يُنكِرُونَ رسالةَ البَشَرِ، وما يَنْبَغي لَهُمْ أنْ يُنكِرُوا ذلكَ لأنهُمْ قد كانُوا رَأَوا تَفْضيلَ بَعْضِ البَشَرِ على بَعْضٍ [وتَفْضِيلَهُمْ في][8] وضْعِ الرسالةِ فيهِمْ؛ أعني [تَفْضيلَهُمْ في الرسالةِ][9]؛ وذلكَ قد رَأَوا في ما بَيْنَهُمْ. ولِلَّهِ تَفْضيلُ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ؛ إذْ لَهُ الخَلْقُ، ولِكُلِّ ذي مُلْكٍ وسلطانٍ أنْ يَصْنَعَ في مُلْكِهِ ما شاءَ مِنْ تفضيلِ بَعْضٍ على بَعْضٍ وغيرِهِ.

---

(١) في الأصل وم: يدعون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: في غير كتاب يوحي إليه. (٦) في الأصل وم: تعجبون. (٧) في الأصل وم: هذا. (٨) في الأصل وم: وفي. (٩) في الأصل وم: في المرسل تفضيلهم.

أو يقولُ: قد عَجِبْتُمْ ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ﴾ يَدَيْ ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ ولو كانَ جاءَ الذِّكْرُ على مَنْ هو مِنْ غَيْرِ جَوهَرِكُمْ كانَ في ذلك لَبْسٌ واشْتِباهٌ عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ عذابَ اللهِ ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ مَعاصِيَهُ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إنِ اتَّقَيْتُمْ ما نَهَيْتُكُمْ عنهُ، أو كانَ في قومِهِ مَنْ يجوزُ أنْ يُرْحَمَ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يَعْنِي نُوحاً [كَذَّبوهُ حينَ][1] دعاهُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ تعالى وَوَحْدانِيَّتِهِ، ونَهاهُمْ عَنْ عِبادَةِ غَيرِ اللهِ، أو كَذَّبُوهُ في ما آتاهُمْ مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يَعْنِي نُوحاً ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

إذا كانَ إهلاكُ القومِ إهلاكَ تَعْذيبٍ وعُقوبَةٍ يَنْجي أولياءَهُ، ويُبْقيهِمْ إلى الآجالِ التي هي[2] قَدَرٌ لَهُمْ. ويكونُ ذلكَ نجاةً لَهُمْ مِنْ ذلكَ العذابِ الذي حَلَّ بالأعداءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي جعَلْناها[3] لإثباتِ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي أعطَينا [لإثباتِ وَحدانِيَّةِ][4] اللهِ وأُلوهِيَّتِهِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عَمُوا عَنِ الحَقِّ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي إلى عادٍ أرْسَلْنا هُوداً. ثم تَحْتَمِلُ الأُخُوَّةُ وُجوهاً أربَعَةً: أُخُوَّةُ الجَوهَرِ؛ وهو [أنْ يُقالَ: هذا أخوهُ][5] إذا كانَ مِنْ جَوهَرِهِ، ولا يُقالُ ذلكَ مِنْ غَيرِ جَوهَرِهِ، وأُخُوَّةُ المَوَدَّةِ والمَحَبَّةِ، وأُخُوَّةُ الدِّينِ [وأُخُوَّةُ النَّسَبِ][6].

ثم لم يكُنْ بَيْنَ هُودٍ وقومِهِ أُخُوَّةُ [الدينِ ولا أُخُوَّةُ المَوَدَّةِ، لكن تَحْتَمِلُ الأُخُوَّةُ أُخُوَّةَ][7] النَّسَبِ؛ لأنَّ البَشَرَ على بُعْدِ مِنْ آدَمَ، كُلُّهُمْ أولادُهُ. فإذا كانُوا كذلكَ فَهُمْ في ما بَيْنَهُمْ، بَعْضُهُمْ إخوةُ بَعْضٍ، وأُخُوَّةُ الجَوهَرِ على ما ذَكَرْنا؛ يقالُ: هذا أخو هذا إذا كانَ مِنْ جِنْسِهِ وجَوهَرِهِ، [فهذانِ الوَجْهانِ يُحْتَمَلانِ][8] والآخرانِ لا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي اعْبُدوا اللهَ الذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي لَيسَ لَكُمْ مِنْ مَعْبُودٍ سِواهُ، وهو المَعْبُودُ في الحَقيقَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عِبادَةَ غَيرِ اللهِ، أو ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللهَ في عِبادَتِكُمْ غَيْرَهُ وفي تكذيبِكُمْ هُوداً. أو يَقولُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَهُ ونَقْمَتَهُ عليكُمْ بِمُخالَفَتِكُمْ إيّاهُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ قد ذَكَرْنا قولَ المَلإِ مِنْ قَومِهِ، أي أشرافِ قومِهِ وسادَتِهِ ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ذَكَرَ ههنا ظَنَّهُمْ في تكذيبِهِمُ الرَّسُولَ، وفي[9] مَوضِعٍ آخَرَ قَطَعَهُمْ في التَّكذيبِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨].

فكانَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ابْتِداءِ ما دَعاهُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ وَوَحْدانِيَّتِهِ؛ كانُوا على ظَنٍّ فيهِ لِما كانَ عندَهُمْ صَدوقاً أميناً قَبْلَ دُعائِهِمْ إلى ما دَعاهُمْ. فلمّا أنْ أقامَ عليهِمْ آياتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، وأظْهَرَ عِنْدَهُمْ عَيْبَ ما عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ، وأبْطَلَهُ، وتَحَقَّقَ [ذلكَ عندَهُمْ، عندَ][10] ذلكَ قالُوا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨] لِيُعْلِمَ أنهُمْ عنْ عِنادٍ كَذَّبُوا[11] الرُّسُلَ.

الآية ٦٧ وقولُهُ[12] تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ إنَّ الرُّسُلَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، كانُوا أُمِرُوا أنْ يُعامِلُوا الخَلْقَ بأحْسَنِ مُعامَلَةٍ، وهو ما أمَرَ رسولَ اللهِ ﷺ، حينَ[13] قالَ تعالى لَهُ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: هو، ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: جعلناه. (٤) في الأصل وم: لوحدانية. (٥) في الأصل وم: يقال هذا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فهذين الوجهين. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في م: وكذبوا. (١٢) في الأصل وم: فقال. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وقال(١) تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ونحوُهُ. فعَلى ذلكَ الرُّسُلُ الذينَ كانُوا مِنْ قَبْلُ؛ كانُوا مأمُورينَ بذلكَ. لِذلكَ قالَ لهمْ هو، ولمّا بلّغُوهُ بالتّكذيبِ والتّسْفِيهِ، قالَ: لَيسَ بي ما تقولونَ، وتَنسِبونَني ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي أدْعُوكُمْ إلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ وعبادَتِهِ والتَّمسُّكِ بالدينِ الذي بِهِ نَجاتُكُمْ. وكُلُّ مَنْ دعا آخَرَ إلى ما بِهِ نَجاتُهُ فهو ناصِحٌ لَهُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي كُنتُ ناصِحاً لَكُمْ قَبلَ هذا أميناً(٢) فيكُمْ. فكيفَ تكذِّبونني، وتَنْسُبونَني إلى السَّفَهِ؟ وأنا أمينٌ على الرسالةِ والوَحْيِ الذي وَضَعَ اللهُ عِندي.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ خوّفتُموني، أولم تُخوّفوني، قَبِلْتُمْ عني، أو لم تقْبَلُوا، أو يقولُ: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ فكيفَ تَنسُبونَني إلى السَّفَهِ والافْتِراءِ على اللهِ؟

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ [وجُوهاً]:

أحدُها: أنهُ جعَلَكُمْ خُلَفاءَ](٣) قوم أهْلَكَهُمْ بِتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ، ولم يُهْلِكْكُمْ، فاحْذَرُوا أنتُمْ هَلاكَكُمْ بِتكذيبِكُمُ الرَّسُولَ كما أهْلَكَ أولئكَ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ. أو أنْ يُقالَ: ﴿جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ قومٍ صَدَّقُوا رسولاً مِنَ البَشَرِ، وهو نوحٌ، فكيفَ كَذّبتُموني في دَعْوَى الرسالةِ لأني بَشَرٌ، ودُعائي إلى عبادَةِ اللهِ وَوَحْدانِيَّتِهِ؟ هذا تَناقُضٌ.

والثاني: أنِ اذكُرُوا نوحاً، وهو كانَ رسولاً مِنَ البَشَرِ، فكيفَ تُنكِرونَ أنْ يكونَ الرَّسُولُ مِنَ البَشَرِ، وكانَ الرُّسُلُ جميعاً مِنَ البَشَرِ.

والثالثُ: أنِ اذْكُروا نِعْمَتَهُ التي أنْعَمَها عليكُمْ مِنَ السَّعَةِ في المالِ والقُوَّةِ في الأنْفُسِ وحُسْنِ الخِلْقَةِ والقامَةِ، وكانَ لِعادٍ ذلكَ كُلُّهُ كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ ﴿ٱلَّتِي﴾ الآية [الفجر: ٦ و٧ و٨] هذا في السَّعَةِ في المالِ. وأمّا القُوَّةُ في الأنْفُسِ والقامةِ [فهي](٤) ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠] وَصْفٌ لَهُمْ بالقُوَّةِ وطولِ القامَةِ. وعلى ذلكَ فَسّرَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾ يَعْني قُوّةً/ ١٧٨ ـ ب/ وقُدْرَةً. وقيلَ(٥): هو الطُّولُ والعِظَمُ في الجِسْمِ.

ذَكَرَ اللهُ في عادٍ(٦) أشياءَ ثلاثةً خصَّهُمْ بها مِنْ غَيرِهِمْ: أحَدُها: العِظَمُ في النَّفْسِ بِقولِهِ(٧) تعالى: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾ وفي القُوّةِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] [والثانيةُ](٨): السَّعَةُ في الأموالِ بقولِهِ تعالى: ﴿بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦ و٧] و[الثالثةُ](٩) فَضْلُ العِلْمِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الآلاءُ هي في دَفْعِ البَلايا، والنَّعْماءُ هي في سَوقِ النَّعْماءِ إليهِ. ولكنهما واحدٌ؛ لأنهُ ما مِنْ بَلاءٍ يَدْفَعُ عنهُ إلّا وفي ذلك سَوقُ نِعْمَةٍ أُخرَى إليهِ، ولأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ في سورةِ الرحمنِ الآلاءَ بِجميعِ ما ذَكَرَ إنما ذَكَرَ على سَوقِ النِّعَمِ إليهِ بقولِهِ(١٠) تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حينَ(١١) قالَ تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الآيات: ١ و٢ و٣ و٤] إلى [آخِرِ](١٢) ما ذَكَرَ مِنَ السورةِ، وهو ذِكْرٌ في سَوقِ النِّعَمِ لا في دَفْعِ البَلايا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ إنْ ذَكَرْتُمْ نِعَمَهُ، وشَكَرْتُمْ لَهُ عليها، ولم تَصْرِفُوا عِبادَتَكُمْ وشُكْرَكُمْ إلى غَيْرِهِ، أو يقولُ: لِكَي يَلْزَمَكُمُ الفَلاحُ، أو حتى تكونُوا مِنْ أهلِ الفَلاحِ.

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: أمين. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقال غيره. (٦) من م، في الأصل: عادة. (٧) في الأصل وم: كقوله. (٨) في الأصل وم: و (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: قوله. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ هذا يدلُّ على أنَّ رسالَتَهُ التي يُبَلِّغُها إليهِمْ في دعائِهِ إيَّاهُمْ إلى عبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وتركِهِمْ عِبادَةَ مَنْ دُونَهُ حِينَ[1] قالُوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ولا شكَّ أنهُ إنما جاءَهُمْ لِيَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وجاءَهُمْ لِيَذَرُوا ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُهُمْ.

ثم في فِعْلِهِمْ تناقُضٌ؛ لأنهُمْ كانُوا يُنْكِرونَ أنْ يكونَ مِنَ البَشَرِ [يأكُلُ ممّا يأكُلُونَ، ويَشْرَبُ][2] ممّا يَشْرَبُونَ؛ لم يَرْضَوا برسالةِ البَشَرِ، ورَضُوا بإلهِيَّةِ الأحجارِ والخَشَبِ، ثم يُقَلِّدُونَ آباءَهُمْ في عِبادَتِهِمْ غيرَ اللهِ، وفي آبائِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ، لا يَعْبُدُ غَيْرَهُ؛ وهُمُ الذينَ مَعَ نُوحٍ. فكيفَ لم يُقَلِّدُوا مَنْ نَجا منهُمْ، ولم يَعْبُدُوا غَيْرَ اللهِ دونَ أنْ يُقَلِّدُوا[3] الذينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ؟ فذلكَ تناقُضٌ حينَ[4] اتَّبَعوا [مَنْ][5] هَلَكَ منهُمْ بِتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وعِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ، ولم يَتَّبِعُوا مَنْ نَجا مِنْهُمْ.

يَذْكُرُ ﷻ سَفَهَهُمْ وتناقُضَهُمْ في القولِ في إنكارِهِمُ الرسولَ مِنَ البَشَرِ. ولكنَّ ذِكْرَ سَفَهِهِمْ وتناقُضِهِمْ بالتَّعْرِيضِ لا بالتَّصْرِيحِ. وكذلكَ عامَّةُ ما ذَكَرَ في كتابِهِ مِنْ سَفَهِهِمْ إنما ذَكَرَهُ[6] بالتَّعْرِيضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ إنهُ كانَ يَعِدُ العذابَ إنْ لم يُصدِّقُوهُ في ما يَدْعُوهُمْ إليهِ وتَرْكِ تَقْلِيدِهِمْ آباءَهُمْ في عِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الرِّجْسُ العذابُ؛ أي وَجَبَ عليكمُ العذابُ بتكذيبِكُمْ[7] هوداً أو تَقْلِيدِكُمْ آباءَكُمْ في عِبادَتِكُمْ غَيْرَ اللهِ ﴿وَغَضَبٌ﴾ وهو العذابُ أيضاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ الرِّجْسُ ههنا الخِذْلانُ وحِرْمانُ التَّوفيقِ والمَعونةِ؛ أي وَقَعَ عليكُمْ، وَوَجَبَ، الخِذْلانُ وحِرْمانُ التَّوفيقِ باخْتِيارِكُمْ ما اخْتَرْتُمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الرِّجْسُ هو الإثْمُ والخُبْثُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] وقولِهِ تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] وقولِهِ [ﷺ][8]: «اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ مِنَ الرِّجْسِ النَّجِسِ الخَبيثِ المُخْبِثِ مِنَ الشيطانِ الرَّجِيمِ» [ابن ماجة ٢٩٩]

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ ومجادَلَتُهُمْ ما قالُوا ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ ويَحْتَمِلُ ﴿فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ أي بأسماءِ ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ﴾ قِيلَ: مِنْ حُجَّةٍ، أي لم يُنَزِّلْ لهمْ حُجَّةً في عِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ، وقِيلَ: السلطانُ ههنا عُذْرٌ؛ أي لم يُنَزِّلْ لهمْ عُذْراً في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أي انْتَظِرُوا أَنْتُمْ وَعْدَ الشيطانِ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وَعْدَ الرحمنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ﴾ أي مِنْ حُجَّةٍ في تَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدُوها دونَ اللهِ لَمّا سَمَّوها آلهةً وشُفَعاءَ ونَحْوَهُ؛ كأنهُمْ إنما جادَلُوهُ في تَسْمِيَتِهِمْ آلهةً وشُفَعاءَ وأنْ لَيسَ لهُمْ حُجَّةٌ ولا عُذْرٌ في عِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ ولا في إشراكِهِمْ غَيْرَهُ في العِبادةِ والألوهيَّةِ ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾. وقالَ الحَسَنُ: انْتَظِرُوا أنتمْ مواعِدَ الشيطانِ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لمَواعِدِ اللهِ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾ يَعْنِي هُوداً ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ إنَّ حُكْمَ اللهِ أنهُ إذا أهلَكَ قوماً إهلاكَ تَعْذيبٍ اسْتَأْصَلَهُمْ، وأنْجى أولياءَهُ، ونَصَرَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى بِرَحْمَتِهِ التي هَدَاهُمْ ﷻ ولولا رَحْمَتُهُ ما اهْتَدَوا، لكنَّهُ أنجاهُمْ برحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قلدوا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: ذكر. (٧) من م، في الأصل: بتكذيبهم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وفيهِ أنَّ مَنْ نَجا برحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، وإنْ كانَ رسولاً، لا بِاسْتِيجابٍ منهُ النجاةَ، وهو ما رُوِيَ [ﷺ حينَ][1] قالَ: «لا يدخلُ الجنَّةَ أحدٌ إلّا بِرَحْمَةِ اللهِ، قِيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برحْمَتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/١٧ و... و٢٨١٨/٧٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي أصلَ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولم يُبيِّنْ لنا آياتِهِ التي أعطى هوداً. ولَيسَ لَنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ سِوىَ ما أخْبَرَ ما حَلَّ بِتَكْذيبِهِمُ الرسولَ؛ وذلكَ كانَ سُنَّةً وحِكْمَةً في الأمَمِ السالفَةِ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ تَحْتَمِلُ الأُخُوَّةُ وجوهاً أربعَةً: أخُوَّةُ النَّسَبِ وأُخُوَّةُ الجَوْهَرِ والشَّكْلِ على ما يُقالُ: هذا أخو هذا، إذا كانَ مِنْ جَوهَرِهِ[2] وشَكْلِهِ، وأُخُوَّةُ المَوَدَّةِ والخُلُقِ، وأُخُوَّةُ الدينِ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ[3] ذَكَرَ مِنْ أُخُوَّةِ صالحٍ [أنهُ][4] كانَ أخاهُمْ[5] في النَّسَبِ أو في الجَوهَرِ على ما ذَكَرَ في هودٍ، ولا يَحْتَمِلُ أن يكونَ في المَوَدَّةِ والدينِ. وأمّا أُخُوَّةُ النَّسَبِ فإنها[6] تَحْتَمِلُ لِما ذَكَرْنا أنَّ بَني آدمَ كلَّهُمْ إخوَةٌ، وإنْ [لَمْ][7] يُعَدُّوا؛ [هُمْ مِنْ أولادِهِ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الرسُلَ بأجْمَعِهِمْ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، إنما بُعِثوا لِيَدْعُوا الخَلْقَ إلى وَحْدانيَّةِ اللهِ والعِبادَةِ لهُ؛ إذْ لا مَعْبُودَ سِواهُ، يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ مِنَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قِيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما ذَكَرَ مِنَ الناقةِ التي جَعَلَها اللهُ تعالى آيَةً لرسالةِ صالحٍ، وهو [قولُهُ تعالى][9]: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ وقيلَ: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آياتٌ ظَهَرتْ لهُمْ على لسانِ صالحٍ، وجَرَتْ على يَدَيهِ، تدلُّ[10] على رسالةِ[11] صالحٍ ونُبُوَّتِهِ. لكنَّهُمْ كابَرُوا تلكَ الآياتِ في التكذيبِ، وعانَدُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ وَجْهُ تَخْصيصِ إضافةِ تلكَ الناقةِ إلى اللهِ يَحْتَمِلُ وجوهاً، وإن كانَتِ النُوقُ كُلُّها لِلهِ في الحَقيقَةِ:

أحدُها: لَمّا خُصَّتْ تلكَ بِتَذْكيرِ عبادَتِهِ تعالى إيّاهُمْ وَوَحْدانيَّتِهِ تَعْظيماً لها على ما خُصَّتِ المساجِدُ بالإضافَةِ إليهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] لَمّا جُعِلَتْ تلكَ البقاعُ لإقامةِ عبادَةِ اللهِ، خُصَّتْ بالإضافَةِ إليهِ لمّا جَعَلَها اللهُ آيَةً مِن آياتِهِ خارجَةً عَنْ غَيْرِها مِنَ النُّوقِ، مخالِفَةً بُنْيَتُها بُنْيَةَ غيرِها: إمّا [في][12] خِلْقَتِهِ، وإمّا في ابْتِداءِ إحْداثِها وإنْشائِها، أو في أيِّ شَيءٍ كانَ، فأضافَها إليهِ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم لا يَجِبُ أنْ يُتَكَلَّفَ المَعْنَى الذي لهُ جَعَلَ الناقَةَ آيَةً؛ لأنهُ، جَلَّ، وعَلا، لم يُبَيِّنْ لنا ذلكَ المَعْنَى، فلو تُكُلِّفَ ذِكْرُ ذلكَ فَلَعَلَّهُ يُخَرَّجُ على خِلافِ ما كانَ في الكُتُبِ الماضِيَةِ؛ فهذِهِ القِصَصُ وأخبارُ الأُمَمِ الماضِيَةِ إنما ذُكِرَتْ في القرآنِ لِتكونَ آيَةً لِرسالةِ محمدٍ ﷺ فلو ذُكِرَتْ على خِلافِ ما كانَ لهمْ في ذلكَ مَقالٌ.

ويَحْتَمِلُ مَعنَى الإضافَةِ إليهِ وَجْهاً آخَرَ؛ وهو أنهُ لم يَجْعَلْ مَنافِعَ هذهِ الناقَةِ لهُمْ، ولا جَعَلَ عليهِمْ مُؤْنَتَها، بل أخْبَرَ أنْ ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ جَعَلَ مُؤْنَتَها في ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ، ولَيسَتْ كسائرِ النُّوقِ التي جَعَلَ مُؤْنَتَها عليهِمْ ومنافِعَها لَهُمْ بإزاءِ ما جَعَلَ /١٧٩ ـ أ/ عليهِمْ مِنَ المُؤَنِ. فَمَعْنَى التَّخْصيصِ بالإضافَةِ إليهِ لِما لم يُشْرِكْ [في مُؤْنَتِها][13] أحداً ولا في منافِعِها، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ دلالةٌ أنَّ تلكَ الناقةَ كانَ غِذاؤُها مِثْلَ غِذاءِ سائِرِ النُّوقِ، وإنْ كانَتْ خارجَةً عَنْ طِباعِ سائِرِ النُّوقِ مِنْ جِهَةِ الآيَةِ لِيُعْلَمَ أنها، وإن كانَتْ آيَةً لِرسالَتِهِ ودلالةً لِلنُّبُوَّةِ فَتَشابُهُها لِسائِرِ النُّوقِ في هذِهِ

---

(١) في الأصل وم: حيث، (٢) من م، في الأصل: جوهر. (٣) في م: يكونها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أخوهم. (٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لأنهم من أولادهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١١) من م، في الأصل: رسالته. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيها.

الجهةِ، لا يُخرِجُها عن حُكمِ الآيةِ. فَعَلَى ذلكَ الرُّسُلُ، وإنْ كانوا ساوَوا غَيْرَهُمْ مِنَ الناسِ في المَطْعَمِ والغِذاءِ، لا يَمْنَعُ ذلكَ مِنْ أنْ يَكونُوا رُسُلاً، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ يَحتَمِلُ: لا تَتَعَرَّضُوا لها قَتْلاً ولا قَطْعاً ولا عقراً لِما لَيسَتْ هي لَكم[1] ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي مواضِعَ أُخَرَ [كقولِهِ تعالى][2]: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤] فهذا يدلُّ على أنهُ إنما أرادَ بالعذابِ الأليمِ عذابَ الدنيا لا عذابَ الآخِرَةِ؛ لأنهُ قد يأخُذُهُمْ عذابُ الآخِرَةِ بِكُفْرِهِمْ؛ فالوعيدُ بأخذِ العذابِ لَهُمْ في الدنيا، و اللهُ أعلمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في قصةِ هودٍ ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قِيلَ: أنزَلَكُمْ فيها ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ يُذَكِّرُهُمْ ﷺ ما أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ سَعَةِ المالِ وبَسْطِ الرِّزْقِ لَهُمْ وما خَصَّهُمْ مِنِ اتِّخاذِ البُيوتِ مِنَ الجِبالِ دونَ غَيرِهِمْ مِنَ الناسِ.

خَصَّ هؤلاءِ بِسَعَةِ الرِّزْقِ وبَسْطِ الأموالِ، وقومَ هودٍ بالقُوَّةِ والبَطْشِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقولِهِ[3] تعالى في آيةٍ أُخرَى ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وقولِهِ[4] تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]

كانَ خَصَّهُمْ بِفَضْلِ القُوَّةِ والبَطْشِ والطُّولِ مِنْ بَيْنِ غيرِهِمْ، وهؤلاءِ بِسَعَةِ الأرزاقِ لهُمْ وبَسْطِ الأموالِ ﴿فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ السَّعَةِ في الأموالِ والبَسْطِ وبِما ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ وبما أقدَرَكُمْ مِنِ اتِّخاذِ البُيوتِ مِنَ الجبالِ، لم يَقدِرْ على مِثْلِهِ أحدٌ؛ لأنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الخلائِقِ إنما يَنْتَفِعُونَ بالجبالِ على ما هِيَ عليها، وأمّا هُمْ فَقَدْ مَكَّنَ لَهُمْ على نَحْتِها واتِّخاذِها بُيوتاً ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي اذْكُروا نِعمتَهُ، ولا تُشرِكُوا في عبادَتِكُمْ غَيْرَهُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المَلأَ مِنْ قومِهِ هُمْ كُبَراؤُهُمْ وساداتُهُمُ استَكْبَرُوا عليهِ لَمّا رَأَوْهُ دونَ أنْفُسِهِمْ في أمْرِ الدنيا، فلم يَتَّبِعُوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ فيهِ دلالةُ أنَّ مِنَ المُسْتَضْعفِينَ مِنْ قَومِهِ مَنْ لم يكُنْ آمَنَ [في حِينِ][5] خَصَّ لِمَنْ آمَنَ منهُمْ. وفيهِ أنَّ أوَّلَ مَنِ اتَّبَعَ الرُّسُلَ هُمُ الضعفاءُ [كذلكَ كانَ الأتباعُ لِلرُّسُلِ جميعاً الضُّعفاءُ][6].

وقولُهُ[7] تعالى: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ قولُ هؤلاءِ الذينَ آمَنُوا بصالحٍ ﷺ وصَدَّقُوهُ برسالتِهِ [وهو يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما][8]: لَمْ يَخرُجْ في الظاهِرِ جوابَ ما سألُوا لأنهُمْ قالُوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ إنما سَألُوهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ برسالتِهِ، لم يَسْألُوهُمْ عنْ إيمانِهِمْ. فَهُمْ إنما أجابُوا عَنْ غَيرِ ما سَألُوا في الظاهِرِ.

لكنْ يجوزُ أنْ يُكَنَّى بالعِلْمِ [عنِ][9] الإيمانِ، فكأنهُمْ[10] قالُوا لَهُمْ: تؤمِنُونَ بِصالحٍ، وتُصَدِّقونَهُ؛ لأنَّ العِلْمَ بالشيءِ، فيهِ يَقَعُ بِلا صُنْعٍ، والأيمانُ لا يكونُ بِصُنْعٍ منهُمْ، فكأنهُمْ إنما سَألُوهُمْ عنِ الإيمانِ بهِ، لذلكَ قالُوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

والثاني: كأنهُمْ قالُوا: بل عَلِمْنا أنهُ مُرْسَلٌ مِنْ ربِّهِ، وإنا ﴿بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾

وفيهِ دلالةُ أنَّ مَنْ مُكِّنَ لهُ مِنَ العِلْمِ بأسبابٍ، جُعِلَتْ لهُ، يَصِلُ بها إلى العِلْمِ بهِ، لم يُعْذَرْ[11] بِجَهْلِهِ في ذلكَ بَعْدَ ما أُعطِيَ أسبابَ العِلْمِ حين[12] قالُوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي لا تَعلَمُونَ.

---

(١) في الأصل وم: لهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل: من حيث. (٦) من م: ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقولهم. (٨) ساقطة من الأصل وم (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: فكانها. (١١) في الأصل وم: يقدر. (١٢) في الأصل وم: حيث.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فيهِ دلالةٌ [أنَّ][1] الإيمانَ هو التَّصديقُ في اللغةِ.

والتكذيبُ هو ضِدُّ ما يكونُ بهِ التّصديقُ حينَ[2] أجابُوا بالتَّكذيبِ لإيمانِهِمْ بهِ لِقولِهِمْ ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] فهؤلاءِ لم يَعْرِفُوا جميعَ الطاعاتِ إيماناً، على ما عَرَفَ[3] بَعْضُ الناسِ، إنما عَرَفُوهُ تَصديقاً.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أضافَ ههنا العَقْرَ إليهِمْ جَميعاً. وفي مَواضِعَ[4] أُخَرَ أضافَ إلى الواحِدِ بِقولِهِ تعالى ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وفي سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ كذلكَ أضافَ إلى الواحِدِ [بقولِهِ تعالى][5]: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الآية: ١٢]

لكنْ في ما كانَ مُضافاً إليهِمْ جميعاً يَحْتَمِلُ أنْ يَتَوَلَّى واحِدٌ منهُمْ عَقْرَها بِمَشُورَتِهِمْ جميعاً ومَعُونَتِهِمْ وتَدْبيرِهِمْ وتَراضِيهِمْ على ذلكَ، فَأُضِيفَ على ذلكَ إليهِمْ لِذلكَ لِاجْتِماعِهِمْ على ذلك، وإلى الواحِدِ في ما تَوَلَّى جَرْحَها ومَنْعَها عنِ السَّيْرِ.

ففيهِ دلالةٌ لِمَذْهَبِ أصحابِنا: أنَّ قُطّاعَ[6] الطَّريقِ، إذا تَوَلَّى بَعْضُهُمُ القَتْلَ وأخذَ الأموالِ، ولم يَتَولَّ بَعْضُهُمْ، يُشارِكُونَ جميعاً: مَنْ تَوَلَّى مِنهمْ ومَنْ لم يَتَوَلَّ في حُكْمِ قُطّاعِ الطَّريقِ بَعْدَ أنْ يكونَ بَعْضُهُمْ عوناً لِبَعْضٍ. وكذلكَ إذا اجْتَمَعَ قومٌ على قَتْلِ واحِدٍ، فَتَوَلَّى بَعْضُهُمُ القَتْلَ، ولم يَتَولَّ بَعْضٌ، بَعْدَ أن كانُوا في عَونِ أولئكَ، فإنهُمْ يُقْتَلُونَ جميعاً.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ عُمَرَ ﷺ حينَ[7] قالَ: لو تَمالأَ عليهِ أهلُ صَنْعاءَ [لَقَتَلْتُهُمْ. وأهلُ صَنْعاءَ][8] إذا اجْتَمَعُوا لا سَبِيلَ لِلْكُلِّ أنْ يَتَوَلَّوا قَتْلَهُ. فدلَّ أنهُ على العَونِ والنَّصْرِ لِبَعْضِهِمْ بَعْضاً، فَيُشارِكُونَ جميعاً في القِصاصِ على ما شارَكَ أولئكَ جميعاً في العذابِ: مَنْ تَولَّ عَقْرَها ومَنْ لم يَتَولَّ بَعْدَ أنْ كانَ ذلكَ العَقْرُ بِمَعُونَتِهِمْ وبِتَراضِيهِمْ على ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ إنما أخذَهُمُ العذابُ لَمّا اسْتَعْجَلُوا منهُ العذابَ، وكَذَّبُوهُ في ما يُوعِدُهُمُ العذابَ، ويَعِدُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ العُتُوُّ هو النِّهايَةُ في التَّمَرُّدِ والخِلافِ لأمْرٍ على العِلْمِ مِنْهُمْ بالخِلافِ لا على الغَفْلَةِ والجَهْلِ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ قِيلَ: الزَّلْزَلَةُ، وقِيلَ: الصَّيحةُ. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [الذاريات: ٤٤] والقِصَّةُ في ذلكَ كِلِّهِ واحدَةٌ[9]. فَجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ [واحداً، وإنِ اخْتَلَفَتِ الألفاظُ][10]، وهو عِبارةٌ عنِ العذابِ، وجائزٌ أنْ تكونَ الصَّيحَةُ: لَمّا صِيحَ بِهِمْ صَعِقُوا جميعاً، فماتُوا، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ قِيلَ: مَيِّتِينَ ولازِقِينَ بالأرضِ؛ قد ماتُوا، وذهَبُوا. ويُقالُ: جَثَمَ الطائرُ إذا لَزِقَ في الأرضِ؛ يُقالُ: أجْثَمْتُهُ أي ألْزَقْتُهُ بالأرضِ، والمُجَثَّمَةُ: يُقالُ: طائرٌ يُشَدُّ جَناحاهُ ورِجْلاهُ، ثم يُوضَعُ بالأرض، ثم يُرمَى بالنَّبْلِ حتى يموتَ، يُقالُ: جَثَّمْتُ الطائرَ أي شَدَدْتُ رِجْلَيهِ وجَناحَيهِ، ويُقالُ: جَثَمَ يَجْثُمُ [جُثوماً][11] وجَثْماً إذا فَعَلَ ما ذَكَرْنا.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ أي أعْرَضَ عنهُمْ، وخَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ حينَ عَلِمَ أنَّ العذابَ سَيَنْزِلُ[12] بِهِمْ ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ والنَّصِيحَةُ ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ مَنْ دَلَّ آخَرَ على ما بِهِ نَجاتُهُ، وسَعَى على دَفْعِ البلاءِ والهلاكِ عنهُ. فهو ناصِحٌ لهُ. فَعَلَى ذلكَ صالِحٌ وغَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ، قد دَلُّوا قومَهُمْ على ما بِهِ نَجاتُهُمْ، وسَعَوا على دَفْعِ الهلاكِ عنهُمْ. لكنَّهُمْ لم يَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ منهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: عرفوا. (٤) في الأصل وم: موضع. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: قاطع. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: واحد. (١٠) في الأصل وم: واحد وأن اختلف ألفاظ. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ينزل.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ذَكَرَ في غَيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ دُعاءَهُمْ قومَهُمْ إلى عِبادةِ اللهِ وَوَحْدانيَّتِهِ على ما قال نُوحٌ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩ و..] وكذلكَ قالَ هودٌ وصالِحٌ وشُعَيبٌ وغَيْرُهُمْ مِنَ الأنبياءِ، ولم يَذْكُرْ في لوطٍ ذلكَ إلّا ههنا، ولا يُحْتَمَلُ أنْ لم يكُنْ منهُ الدعاءُ إلى ما كانَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ إلى توحيدِ اللهِ وعِبادَتِهِ قَبْلَ النَّهْيِ عنِ الفواحِشِ والتَّغْييرِ عليها، وهو ما ذُكِرَ في سورةٍ[1] أُخرى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦٠ و١٦١ و١٦٢ و١٦٣] كانَ مِنَ الأنبياءِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، دعاءُ قومِهِمْ إلى عِبادةِ اللهِ وَوَحْدانيَّتِهِ أوّلاً، ثم النَّهْيُ عمّا ارْتَكَبُوا مِنَ الفواحِشِ/ ١٧٩ ـ ب/ والمَعاصي والتَّعْييرِ عليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقولُهُ تعالى ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ منهُمْ ما كانَ مِنْ سائِرِ الأقوامِ تَقْليدُ الآباءِ في العِبادةِ لِغَيْرِ اللهِ كقولِهِمْ: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] وقولِهِمْ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] وقولِهِمْ[2] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وقولِهِمْ[3] ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] ونَحْوَ ما قالُوا.

فَعَلى ذلكَ مِنْ قومِ لُوطٍ لِلُوطٍ لَمّا دعاهُمْ إلى عِبادةِ اللهِ وَوَحْدانيَّتِهِ، فأجابَهُمْ بما أجابَ الأقوامُ لِأنبيائِهِمْ مِنَ التَّقْليدِ لآبائِهِمْ، فقالَ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تَعْمَلونَ أنتُمْ أعمالاً لا يَعْمَلُها آباؤُكُمْ، ولا تُقلِّدونَ آباءَكُمْ في تَرْكِها مِنْ نَحْوِ ما ذُكِرَ مِنْ إتيانِ الفاحِشَةِ فقالَ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يُعَيِّرُهُمْ، ويُسَفِّهُ أحلامَهُمْ في إتيانِ ما يأتونَ مِنَ الفاحِشَةِ التي لم يَسْبِقْهُمْ أحَدٌ[4] بها مِنَ العالَمينَ على عِلْمٍ منهُمْ أنَّ ذلكَ فاحِشَةٌ.

ألا تَرى [أنهُمْ][5] قالُوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؟ [الأعراف: ٨٢] ذَكَرَ هذا القولَ على ما يأتونَ مِنَ الفواحِشِ؛ يَأتونَ على عِلْمٍ منهُمْ أنها فَواحِشُ حينَ[6] قالُوا ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ لِما [هو][7] في العَقْلِ والشَّرْعِ [فاحِشٌ][8]؛ لأنَّ ما حَرَّمَ مِنَ المُحرَّماتِ على الخَلْقِ [وأحلَّ المُحَلَّلاتِ نِعْمَةً وفضلاً][9] منهُ لَهُمْ على ذلكَ. ثم جَعَلَ في ما أحَلَّ لَهُمْ مِنَ الأطعِمَةِ والأشْرِبَةِ والاستِمْتاعِ بالنساءِ والجَواري دَواماً[10] لهذا العالَمِ؛ لأنهُمْ لو تَرَكُوا التَّناوُلَ مِنْ ذلكَ لَهَلَكُوا، وانْقَطَعَ هذا العالَمُ لِما يَنْقَطِعُ نَسْلُهُمْ. ثم رَكَّبَ فيهِمُ الشَّهَواتِ والحاجاتِ التي تَبْعَثُهُمْ على التَّناوُلِ مِمّا أحَلَّ لَهُمْ لِيَدومَ هذا العالَمُ؛ لأنهُ أحَلَّ لَهُمُ الشَّهْوَةَ[11] خاصَّةً، ولكنْ لِما ذَكَرْنا. فأخبَرَ أنَّ ما يأتونَ هُمْ فاحِشَةٌ لِما لَيسَ إتيانُهُمْ إيّاها[12]؟ إلّا لِنَفْسِ قَضاءِ الشَّهْوَةِ؛ إذْ لَيسَ في ذلكَ دَوامُ العالَمِ وبَقاؤُهُ. فهو في العَقْلِ فاحِشٌ مُحَرَّمٌ، وإنْ لم يَرِدْ فيهِ النَّهْيُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ الإسرافُ هو الإكثارُ مِنَ الشَّيءِ والمُجاوَزَةُ عَنِ الحَدِّ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] القَتْرُ هو التَّضْييقُ، والإسرافُ هو الإكثارُ حينَ[13] قالَ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ فإذا كانَ الإسرافُ الإكثارَ مِنَ الشَّيءِ، فكانَ لُوطٌ سَمّاهُمْ مُسْرِفينَ لِما أكْثَرُوا مِنْ ذلكَ النَّوعِ مِنَ الفَواحِشِ، وجاوَزُوا الحَدَّ، واللهُ أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وجُوهاً ثلاثَةً:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا مِنْ إكثارِ الفِعْلِ.

والثاني: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ لِما ضَيَّعُوا ما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ حينَ[14] أعطى لهمُ الأزواجَ فَضْلاً مِنْهُ ونِعْمَةً حينَ[15] أخبَرَ

---

(١) في الأصل وم: آية. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: هم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: وأهل المحلات، في م: وأهل المحللات. (١٠) في الأصل وم: دوام. (١١) في الأصل وم: للشهوة. (١٢) في الأصل وم: اباهم. (١٣)و(١٤)و(١٥) في الأصل وم: حيث.

[بقولِهِ](١) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١] وبقولِهِ(٢) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٧٢] ونَحوِهِ ما جَعَلَ لهمْ مِنَ الأزواجِ، ثم هُمْ لم يَشكُرُوهُ على ما أنعَمَ عليهِمْ، بل ضَيَّعُوها، وجَعَلُوها في غَيْرِ ما جَعَلَ هو لَهُمْ. فذلكَ إسرافٌ منهُمْ.

والثالثُ: الإسرافُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جَعَلَ لهمْ، فَهُمْ قد جاوَزوهُ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قولُهُ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً]:

أحَدُها](٣): كذا كانَ مِنْ قومِهِ أجوبةٌ، لَيسَ على أنهُ لم يَكُنْ منهُمْ مِنْ أوَّلِ الأمْرِ إلى آخِرِهِ هذا، ولكنْ لم يكُنْ مِنْ جوابِ قومِهِ وقتَ ما نَهاهُمْ عمّا ارْتَكَبُوا مِنَ الفَواحِشِ، وعَيَّرَهُمْ عليها إلّا ما ذَكَرَ ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ لِما يَنهاهُمْ، ويُعَيِّرُهُمْ على ذلكَ.

والثاني:(٤) ما قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ مِنْ أدبارِ الرِّجالِ، وقيلَ: يَتَحَرَّجُونَ عن ذلكَ، ويَعيبُونَ عليهِمْ في ذلكَ.

والثالثُ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [إمّا](٥) لِبَعضِهِمْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ وإمّا لِلُوطٍ كانَ منهُمُ الأجوبةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ كذا وقولِهِ(٦) تعالى في آيةٍ أُخرَى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] هذا في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ لوطٍ، والأوَّلُ(٧) في ما بَيْنَهُمْ: قالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أخرِجُوهُمْ، وذلكَ(٨) لِاختِلافِ المَشاهِدِ والمَجالِسِ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الغابِرُ: الغائِبُ؛ يُقالُ: غُبِرَتْ أي غُيِّبَتْ أي كانَتْ مِنَ الغائِبِينَ عَنْ لوطٍ وأهلِهِ وقتَ العذابِ. وقيلَ: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي مِنَ الباقِينَ في العذابِ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: قُلِبَتْ قرياتُ لوطٍ، وجُعِلَ عالِيها سافِلَها على ما ذَكَرَ في الآيةِ: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢ والحجر: ٧٤] ثم أمْطَرَ على مَنْ غابَ منهُمُ الحجارةَ، وقالَ بَعْضُهُمْ: قُلِبَتِ القرياتُ، فأُمْطِرَتْ على أهْلِها كالمَطَرِ، وقالَ آخرونَ: قُلِبَتِ الأرضُ، وأُمْطِرَ ﴿عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢ والحجر ٧٤] لِتُسَوَّى(٩) الأرضُ، أو كلاماً(١٠) نَحوَ هذا.

ثم العذابُ في الأُمَمِ لم يأتِهِمْ في الدنيا بِنَفسِ الكُفرِ، ولكنْ لِما كانَ مِنْهُمْ مِنِ استِحلالِ أشياءَ [حُرِّمَتْ عليهِمْ مِنْ](١١) قَتْلِ الأنبياءِ وأذاهُمْ والمُكابَراتِ التي كانَتْ(١٢) منهُمْ بَعْدَ عِلْمِهِمْ أنهُمْ على باطلٍ وعِنادٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا الخِطابُ جائزٌ أنهُ لَيسَ لِرسولِ اللهِ خاصَّةً، ولكنْ لِكُلِّ أحدٍ أُمِرَ بالنَّظَرِ في ما حَلَّ بالأُمَمِ السالفَةِ بِتَكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وعِنادِهِمْ لِيكونُوا على حَذَرٍ مِنْ(١٣) صَنيعِهِمْ لِئَلّا يَحِلَّ بِهِمْ ما حَلَّ بأولئكَ، وجائزٌ أنْ يكونَ الخِطابُ لِرسولِهِ خاصَّةً. فإنْ كانَ لهُ كانَ(١٤) أمْرُهُ أنْ يَنْظُرَ في عاقِبةِ المُجْرِمِينَ [لئلا يرحَمَهُمْ](١٥) ولا يَدْعُو عليهِمْ بالهَلاكِ والعذابِ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ هو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ؛ أي أرسَلْنا شُعَيباً إلى مَدْيَنَ رسولاً. وقولُهُ تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ الأُخُوَّةَ أنها تكونُ لِوُجوهٍ: أُخُوَّةِ النَّسَبِ وأُخُوَّةِ الجوهَرِ وأُخُوَّةِ المَوَدَّةِ والخُلَّةِ وأُخُوَّةِ الدينِ. فلا تَحتَمِلُ أُخُوَّةُ الأنبياءِ أولئكَ إخوَةَ الدينِ والمَوَدَّةِ، لكنْ تَحتَمِلُ أُخُوَّةَ الجوهرِ والنَّسَبِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) من م، في الأصل: سوى. (١٠) في الأصل وم: كلام. (١١) في الأصل وم: حرم عليهم ومن. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) في الأصل وم: عن. (١٤) في الأصل وم: فكان. (١٥) في الأصل وم: ليرحمهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ قد ذَكَرْنا أيضاً أنَّ الرسلَ، إنما جاؤوا، وبُعِثُوا بالدعاءِ إلى تَوحيدِ اللهِ والعِبادةِ لهُ، وأنْ لا مَعْبودَ يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ سِوَاهُ.

وقولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كانَتْ نَفْسُ شُعَيبٍ بَيِّنَةً وحُجَّةً لِقومِهِ،لكنّا لا نَعْلَمُ ذلكَ، غيْرَ أنا نَعْلَمُ أنهُ كانَتْ مَعَهُ آياتٌ وبراهِينُ، لكنَّ اللهَ تعالى لم يُبَيِّنْ لنا ذلكَ.

ونَفْسُ محمدٍ، عليهِ أفضلُ الصَّلَواتِ وأكْمَلُ التَّحِيّاتِ، كانَتْ حُجَّةً وبَيِّنَةً بالأعلامِ[1] التي جَعَلَ لهُ في نَفْسِهِ: مِنْ ذلكَ الخَتْمُ الذي كانَ بَيْنَ كَتِفَيهِ، والنورُ الذي كانَ في وَجْهِ مَنْ كانَ في صُلْبِهِ وَقْتَ كَونِهِ فيهِ، والضَّوءُ الذي رُئِيَ أنهُ كانَ وقْتَ وِلادَتِهِ، والغَمامُ الذي أظَلَّهُ وقْتَ غَيْبَتِهِ عَنْ أهلِهِ، وحِفْظُهُ نَفْسَهُ عنْ جميعِ ما كانَ يَتَعاطاهُ قومُهُ مِنْ عِبادَتِهِمُ الأصنامَ وتعاطِيهِمُ الفَواحِشَ؛ فهو ﷺ كانَ بَريئاً مِنْ ذلكَ كُلِّهِ، وما لم يُؤخَذْ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ، وقد كانَ نَشأَ بَيْنَ أظْهُرِهِم، وغَيْرُ ذلكَ مِنَ الأعلامِ التي كانَتْ في نَفْسِهِ ظاهِرَةً لِقومِهِ. فلو لم يَكُنْ لهُ آياتٌ غَيرُها لَكانَتْ واحدةٌ منها كافيةً لِمَنْ لم يُكابِرْ، فكيفَ وقد كانَتْ لَهُ آياتٌ حِسِّيَّةٌ وعَقْلِيَّةٌ سِوَى ما ذَكَرْنا، تَقْهَرُ [غيرَ][2] المُنْصِفِينَ على قَبولِها؟

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي حُجَّةٌ في أنهُ رسولٌ أو على تَوحيدِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ وذَكَرَ في هودٍ في قِصَّتِهِ ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الآية: ٨٥] وليسَ في قولِهِ ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾أنهم كانُوا لا يُوفُونَ في سورةِ هودٍ ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الآية: ٨٥] ودلَّ قولُهُ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٥] أنَّ الأشياءَ مُلْكٌ لَهُمْ، وإنْ كانَتْ[3] في قَبْضِ أولئكَ وفي أيديهِمْ.

ثم يَحْتَمِلُ الأمْرُ بإيفاءِ الكيلِ[4] والميزانِ وجوهاً[5]:

أحَدُها: لِما كانُوا أُمَناءَ لِئلَا تذهَبَ عنهُمْ تلكَ الأمانَةُ التي كانَتْ لهُمْ في قومِهِ.

والثاني: لِئلا يَظْلِمُوا الناسَ في مَنْعِ حُقوقِهِمْ وأموالِهِمْ.

والثالثُ: لِلرِّبا؛ كانَ ما مَنَعُوا منهُمْ مِنَ [الكَيلِ والوَزْنِ][6] رِباً لهُمْ.

يَدُلُّ [على][7] ذلكَ قولُهُ: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ذِكْرُ العَدْلِ. فلو كانَتْ[8] تجوزُ / ١٨٠ ـ أ/ تلكَ الزيادةُ والنُّقصانُ، إذا طابَتْ أنْفُسُهُمْ بالزيادةِ والنُّقصانِ لَكانَ لا مَعْنَى لِذِكْرِ القِسْطِ فيهِ؛ لأنَّ مَنْ زادَ آخرَ على حَقِّهِ لم يُمْنَعْ عَنْ ذلكَ، ولم يُذَمَّ. دلَّ النَّهْيُ عنْ ذلكَ على أنهُ لِلْرِبا ما مُنِعُوا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ أي بَعْدَ أنْ جَعَلَها لَكُمْ صالِحَةً لِمعاشِكُمْ ومُقامِكُمْ فيها، وبَعْدَ ما أمَرَ، وبَيَّنَ لَكُمْ ما بِهِ صَلاحُكُمْ وصَلاحُ دِينِكُمْ، أو بَعْدَ ما أرْسَلَ مِنَ الرُّسُلِ ما بِهِمْ صلاحُ الأرضِ وأهْلِها ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي وَفاءُ الكَيلِ والمِيزانِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ النُّقصانِ لِما يَنْمو ذلكَ الباقي، ويَزْدادُ. فذلكَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ النُّقصانِ الذي تَمْنَعُونَ، فلا يَنْمو شيءٌ[9]. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٦].

ويَحْتَمِلُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي أمْنُكُمْ في الآخِرَةِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ نُقصانِ الكَيلِ والمِيزانِ في الدنيا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنَّ كُبَراءَ أهلِ الشِّرْكِ ورُؤَساءَهُمْ كانُوا يُقْعِدُونَ في الطُّرُقِ أُناساً يَصُدُّونَ الذينَ يَأتُونَ شُعَيباً لِلإيمانِ [ويَمْنَعُونَهُمْ][10] مِنَ الإيمانِ مِنَ الآفاقِ والنواحِي. ويكونُ مَعْنَى ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ على هذا التَّأويلِ: أي مَنْ أرادَ أنْ يُؤمِنَ.

(١) في الأصل وم: بأعلام. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) من م، في الأصل: الأمر. (٥) في الأصل وم: وجوه.
(٦) في الأصل وم: الكيلي والوزني. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) في الأصل وم: شيئا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ ليسَ على القُعودِ نَفْسِهِ، ولكنْ على المَنْعِ مِنْ إقامَةِ الشَّرائِعِ التي شَرَّعَ اللهُ لِشُعَيبٍ كقولِ إبليسَ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] لَيسَ هو على القُعودِ نَفْسِهِ ولكنْ على المَنْعِ؛ يَمْنَعُهُمْ عَنْ صِراطِهِ[1] المُستَقيم. فَعَلى قولِهِ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ كانُوا يَمْنَعُونَ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ عَنْ إقامَةِ الشَّرائِعِ والعِباداتِ التي دُعُوا إلى إقامَتِها، ويوعِدونَ على ذلكَ، ويُخَوِّفُونَهُمْ. فَعَلَى هذا التَّأويلِ يكونُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ على وجودِ الإيمانِ. وعلى التَّأويلِ الأَوَّلِ يكونُ مَنْ أرادَ أنْ يُؤمِنَ بِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ قيلَ: تَلْتَمِسُونَ لها أَهْلَ الزَّيغِ، وقيلَ: تَبْغُونَ هَلاكاً للإسلامِ وإبطالاً، وقيلَ: تبْغُونَ السَّبيلَ عِوَجاً عَنِ الحَقِّ، وكُلُّهُ واحَدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي كَثَّرَ لَكُمُ الأموالَ، وَوَسَّعَ عليكُمُ الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أَمَرَ بالنَّظَرِ في ما حَلَّ بالأُمَمِ الخاليةِ بإفسادِهِمْ في الأرضِ وتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ؛ لأنَّ مَنْ نَظَرَ في ذلكَ، وتَفَكَّرَ ما حَلَّ بِهِمْ، مَنَعَهُ ذلكَ عَنِ الفَسادِ في الأرضِ والتَّكذيبِ لِلرُّسُلِ؛ إنْ عَلِمَ أنَّ ما حَلَّ بِهِمْ [إنما حَلَّ لِما ذَكَرَ، واللهُ][2] أعْلَمُ. كأنهُ أَمَرَ بالنَّظَرِ في الأسبابِ التي [بها][3] صارَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ أهلَ فَسادٍ، ونَزَلَ بِهِمُ الهلاكُ، لِيَنْزَجِرُوا عن مِثْلِ صَنيعِهِمْ، وإلّا كانُوا عندَ أنفُسِهِمْ أهلَ صلاحٍ لا أهلَ فَسادٍ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: كانَ قومُ شُعَيبٍ قليلاً حِينَ أدرَكَ ذلكَ، وقومٌ آخرونَ مَعَهُ؛ يقولُ لَهُمْ ذلكَ شُعَيبٌ ﷺ: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا﴾ يا مَعْشَرَ المؤمنينَ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ يَقضي عليهِمْ بالهلاكِ، ولم يكُنْ شُعَيبٌ أُمِرَ بالقِتالِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ يَعْني المؤمنينَ ﴿ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ مِنَ العذابِ ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ يَعْني الكفارَ ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ بالعذابِ ﴿فَٱصْبِرُوا﴾ يا مَعْشَرَ الكفارِ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ في أَمْرِ العذابِ في الدنيا ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ويَحتَمِلُ غَيْرَ هذا؛ وذلكَ أنهُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ الأصنامَ، ويقُولُونَ[4] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويقولُونَ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] اللهُ أَمَرَهُمْ بذلكَ في أشياءَ يَفْعَلُونَ، ويَقولُ هؤلاءِ: إنَّ الذي نَحْنُ عليهِ هو الذي أَمَرَنا اللهُ بذلكَ. فيقولُ لَهُمْ: ﴿فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ بأنهُ بماذا أَمَرَ: بالذي عليهِ الكفارُ أم[5] الذي نَحْنُ عليهِ؟

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ أنَّ المَلأَ مِنْ قومِهِ: هم كُبَراؤُهُمْ ورُؤَساؤُهُمْ. وقولُهُ ﴿ٱسْتَكْبَرُوا﴾ أي اسْتَكبَرُوا عنِ الخُضوعِ والطاعَةِ لِمَنْ هو دُونَهُمْ عِنْدَهُمْ[6] لأنهُمْ كانُوا يُضَعِّفونَ شُعَيباً في ما بَيْنَهُمْ، ويَزْدَرونَهُ، بِقولِهِمْ[7]: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

ثم لم يَرَوُا الأَمْرَ بالخُضوعِ لِمَنْ هو دونَهُمْ في أمرِ الدنيا عَدْلاً، وهُمْ إنما أخَذُوا مِنْ إبليسَ اللَّعينِ [رأيَهُ، وقَلَّدوهُ حينَ][8] قالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢ وص: ٧٦] [حِينَ أُمِرَ][9] بالسجودِ لِآدَمَ، ولم يَرَ اللعينُ الأَمْرَ بالخُضوعِ لِآدمَ مِنَ اللهِ عَدْلاً. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ لم يَرَوُا الخُضوعَ لِمَنْ دونَهُمْ عندَهُمْ عَدْلاً، فاسْتَكبَرُوا عليهِ، فكَفَرُوا لِذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ أي لَنَقْتُلَنَّكَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ وقالَ غَيرُهُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ الإخراجَ نَفْسَهُ؛ أي لَنُخرِجَنَّكَ ومَنْ مَعَكَ مِنَ المؤمنِينَ مِنْ قَرْيَتِنا إنْ لم تَتَّبِعْ دِينَنا.

---

(١) من م، في الأصل: صراط. (٢) من م، في الأصل: لما ذكروا الله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: ويفعلون. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: عند. (٧) في الأصل وم: كقولهم. (٨) في الأصل وم: رأياه قلدوا حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

وقد كانَ منهُمْ للأنبياءِ المَعْنَيانِ[1] جميعاً: التَّوَعُّدُ بالقَتْلِ والإخراجُ جميعاً كما قالُوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١] وكقولِ قومِ لُوطٍ لِلُوطٍ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] وكقولِ قومِ نوحٍ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وما أخْبَرَ عنْ قولِ هؤلاءِ لِرسولِنا حينَ[2] قالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] قد كانَ مِنَ القومِ إلى الأنبياءِ والرُّسلِ ﷺ المَعْنَيانِ[3] جميعاً: التَّوَعُّدُ بالقَتْلِ والإخراجُ جميعاً.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ ذلكَ مِنْ قَومِ شُعَيبٍ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وكذلكَ كانُوا يقولونَ لِلرُّسُلِ جميعاً حِينَ[4] قالُوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣] هذهِ[5] كانتْ عادةُ جميعِ الكَفَرَةِ يُخَوِّفُونَ الرُّسُلَ بالإخراجِ مَرَّةً وبالقَتْلِ ثانياً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لِما عِنْدَهُمْ أنهُ كانَ على دينِهِمُ الذي هُمْ عليهِ لِما يَرَونَ منهُ عبادَتَهُ لِلّهِ في ما يَعْبُدُهُ[6] سِرّاً، فقالُوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ على ما كانَ عندَهُمْ أنهُ على ذلكَ.

وهو كما قالُوا لِصالحٍ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] كانَ عندَهُمْ أنهُ على دينِهِمْ قَبْلَ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُ[7] هؤلاءِ ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ مِنَ العَودِ إلى ما كانَ عندَهُمْ أنهُ على ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ على الابتِداءِ [ابتِداء][8] الدُّخولِ فيها والاختِيارِ كقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] على مَنْعِ الدخولِ فيها لا أنهُمْ كانُوا فيها، ثم أخْرَجَهُمْ، فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ يقولُ: أو لَنَعُودَنَّ في مِلَّتِكُمْ، وإنْ كُنّا كارِهِينَ: أي تأبَى عُقولُنا، وتكْرَهُ طِباعُنا الدخولَ[9] في مِلَّتِكُمْ، فكيفَ نعودُ فيها؟

الآية ٨٩ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ [يَحْتَمِلُ][11] وجوهاً ثلاثةً:

أحَدُها: أنَّ ذلكَ منهُ إخبارٌ عنْ قومِهِ لا عَنْ نَفْسِهِ؛ أي افْتَرَوا على اللهِ كَذِباً إنْ عادُوا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ أنْجاهُمُ اللهُ منها، وما يَجوزُ أنْ يَعُودُوا فيها. وأمّا هو فإنما أجابَهُمْ عنْ نَفْسِهِ ما ذَكَرَ في سورةِ هُودٍ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ [الآية: ٩٣] أجابَ هو قومَهُ كما أجابَ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ قَومَهُمْ حينَ أوعَدُوهُمْ[12] بالقَتْلِ والعُقوبةِ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وكما قالَ هُودٌ: ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ و٥٥] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الجَواباتِ التي كانَتْ مِنَ الأنبياءِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، لِأقوامِهِمْ.

والثاني[13]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ فيها كقولِهِ تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] رفَعَها ابْتِداءً مِنْ غَيْرِ أنْ كانَتْ مَوضوعةً وكقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] إخراجَ ابْتِداءٍ، لا أنْ كانُوا فيها، ثم أخْرَجَهُمْ.

والثالثُ[14]: يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ أجابَهُمْ على ما عِنْدَهُمْ أنهُ كانَ على دينِهِمْ، فأجابَ لَهُمْ على ما عِنْدَهُ[15] أنه على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي ما يَجوزُ لَنا أنْ نعودَ فيها.

وقولُ شُعيبٍ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾/ ١٨٠ ـ ب/ [تَعْريضٌ بِتَسْفِيهِ منهُ إياهُمْ أنكُمْ[16] قَدِ افْتَرَيْتُمْ على اللهِ كَذِباً][17]

---

(١) في الأصل وم: المعنيين. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: المعنيين. (٤) في الأصل وم: حيث (٥) في الأصل: وم: هذا.
(٦) في الأصل وم: بعده. (٧) في الأصل وم: قوله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ادرج قبلها في الأصل وم: عن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أوعدهم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: عندهم.
(١٦) في م: أنهم. (١٧) من م، ساقطة من الأصل.

لا تصريحٌ حِينَ[1] لم يَقُلْ: قدِ افْتَرَيْتِمْ أنتُمْ على اللهِ كذباً. ولكنْ[2] قال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ وذلكَ منهُ تَلَطُّفٌ بِهِمْ وتَرَفُّقٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ: قالَ الحَسَنُ: مِنْ حِكَمِ اللهِ ﷻ أنَّ مَنْ قَبِلَ دِينَهُ، وأطاعَ رسولَهُ كانَ[3] وَلِيًّا لهُ، وسَمَّاهُ[4] مؤمناً، ومَنْ رَدَّ دِينَهُ، وعَصَى رسولَهُ، يَتَّخِذُهُ عَدُوّاً لهُ، ويكُنْ كافراً.

وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يَتَعَبَّدَنا، ويَمْتَحِنَنا بِبَعضِ ما كانُوا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ، ويُشَرِّعُ لهمْ ممّا يَحِلُّ، ويَسَعُ، لم يُرِدْ بِهِ الدينَ الذي هُمْ عليهِ. لكنَّ هذا لا يَحْتَمِلُ لأنَّ سؤالَهُمْ كانَ العَودَ إلى مِلَّتِهِمْ، فَعَلَى ذلكَ خَرَّجَ الثُّنْيا.

وقالَ جَعْفَرُ[5] بْنُ حَرْبٍ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلّا أنْ يَأْمُرَنا اللهُ بِما يُؤَيِّسُهُمْ على ذلكَ على الإياسِ وقَطْعِ الرجاءِ، أي لا يشاءُ اللهُ البَتَّةَ ذلكَ كما يُقالُ: كانَ كذا أنْ صَعَدْتُ السماءَ وكقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وفَعَلْتُ كذا مِمّا يُعْلَمُ أنهُ لا يكونُ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

لكنَّ هذا كُلَّهُ بَعيدٌ مُحالٌ.

أمّا قولُ الحَسَنِ: إنَّ مِنْ حِكَمِ اللهِ أنهُ مَنْ رَدَّ دِينَهُ، وعَصَى رسولَهُ، فإنهُ[6] يكونُ مِنَ الكافرينَ، ومَنْ قَبِلَ دِينَهُ، وأطاعَ رسولَهُ، فيكونُ[7] مِنَ المؤمنينَ، فَلَيسَ فيهِ سِوَى أنهُ يقولُ: إنهُ يَعْلَمُ مَنْ كَفَرَ بِهِ، فلا مَعْنَى لِلاسْتِثْناءِ لو كانَ التأويلُ ما ذُكِرَ.

وأمّا قولُ أبي بكرٍ: إنهُ يَتَعَبَّدُهُمْ، ويمتَحِنُهُمْ بِما يَتَقَرَّبونَ بِهِ في دِينِهِمْ ومِلَّتِهِمْ [مِمّا][8] يجوزُ أنْ يأذَنَ في ذلك، فذلكَ لا يُحْتَمَلُ لأنهُ ذَكَرَ المِلَّةَ التي كانُوا هُمْ عليها، فإليهِ تَرْجِعُ الثُّنْيا، لا تجوزُ إلى غَيْرِهِ.

وأمّا قولُ مَنْ يقولُ بالإياسِ[9] وقَطْعِ الطَّمَعِ عنْ ذلكَ، فذلكَ أيضاً بعيدٌ؛ لأنَّ الإياسَ إنما يكونُ البَتَّةَ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ونَحْوِهِ.

وأمّا مِثْلُ هذا فإنهُمْ لا يَفْهَمُونَ منهُ الإياسَ وقَطْعَ الرجاءِ، بل كانُوا يأتُونَ بالفَواحِشِ، ويقولُونَ: اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ.

وأمّا عندَنا فإنهُ على حقيقةِ المَشيئةِ؛ وذلكَ أنَّ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يكفُرُ[10]، ويُؤْثِرُ ذلكَ على فِعْلِ الإيمانِ والطاعةِ يَشاءُ ذلكَ لهُ على ما عَلِمَ أنهُ يختارُ، ومَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ لا يَختارُ ذلكَ لا يَشاءُ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يَعْلَمَ منهُ غَيرَ الذي يكونُ، أو أنْ يشاءَ غَيْرَ الذي يكونُ، أو أنْ يَشاءَ غَيْرَ الذي عَلِمَ أنهُ منهُ لأنهُ جَهْلٌ، وعَجزٌ.

وأصْلُهُ أنَّ شُعيباً خافَ، إنْ سَبَقَ منهُ زَلَّةٌ أو تَقْصيرٌ منهُ، الاختيارَ لِذلكَ، فيشاءُ اللهُ بذلكَ الزَّيغَ والضَّلالَ. وكذلكَ جميعُ الأنبياءِ خافُوا ذلكَ كقولِ إبراهيمَ ﷺ حينَ[11] قالَ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠] وقولُ يُوسُفَ حينَ[12] قالَ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦] كانَ خَوفُ الأنبياءِ ﷺ أكثَرَ[13] مِنْ خَوفِ غَيرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ: أنهُ لا نَعْلَمُ إلى ماذا تَصِيرُ عاقبةُ أمْرِنا؟ عَلِمَ اللهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ قِيلَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعْتَمَدْنا في ما يُخَوِّفونَنا مِنَ الإخراجِ، وإليهِ نَلْجَأُ في سُلْطانِهِ ومُلْكِهِ، وبِهِ نَثِقُ في وَعْدِهِ بِما يَعِدُنا مِنَ النَّصْرِ والظَّفَرِ على الأعداءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ قِيلَ: قولُهُ: ﴿ٱفْتَحْ﴾ أي احْكُمْ بَيْننا وبَيْنَ قومِنا بالحَقِّ.

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][14] قالَ: ما كُنْتُ أعلَمُ ما مَعْنَى الفَتْحِ في الآيةِ حتى تَزَوَّجْتُ امْرَأةً مِنْ بَني كذا، فوقَعَتْ بَيْنَنا مُخاصَمَةٌ، فقالَتْ لي: تعالَ حتى أفاتِحَكَ إلى فلانٍ؟ فَعِنْدَ ذلكَ عَرَفْتُ أنَّ المفاتَحَةَ هي المُحاكَمَةُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: أن يكون. (٤) في الأصل وم: وسمى. (٥) في الأصل وم: أبو جعفر. (٦) و(٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: لا ياس. (١٠) في الأصل وم: الكفر. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: كان. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ قِيلَ: هو العذابُ الذي كانَ وَعَدَ لَهُمْ أنْ يُنْزِلَ عليهِم بتكذيبِهِمْ شُعَيباً وبأذاهُمْ إيّاهُ.

ثم لِلْمُعْتَزِلَةِ أدنى تَعَلُّقٍ [بقولِهِ تعالى][1]: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ يقولونَ: هو الدعاءُ والسُّؤالُ، وإنْ كانَ لا يَحْكُمُ إلّا بالحَقِّ. فَعَلَى ذلكَ يَقولونَ في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] نَحْوَهُ[2].

فكذلكَ يَقُولُونَ في قولِهِ: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

لكنْ عندَنا يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ على وُجوهٍ:

أحَدُها: يقولُ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ بِحُكْمِكَ، وهو الحَقُّ.

والثاني: يقولُ: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] في حادثِ الوَقْتِ كَما حَكَمْتَ في الوَقْتِ الماضي، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وهو النُّبُوَّةُ والهِدايَةُ.

والثالثُ: على اسْتِعْمالِ العذابِ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المَلأَ هُمْ كُبَراؤُهُمْ[4] وسادَتُهُمْ؛ يَقولُونَ لِلأتباعِ والسَّفَلَةِ ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: الجاهلونَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ وُجوهاً:

أحَدُها: أنَّ شُعَيباً كانَ يُحَذِّرُ قومَهُ بالتَّطفيفِ في الكَيلِ والوَزْنِ، ويأمُرُهُمْ بوَفاءِ حُقوقِ الناسِ بِقولِهِ تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥] ولا تكونُوا كذا وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] فيقولُ الكُبراءُ والرُّؤساءُ لِلسَّفَلَةِ ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾في دينِهِ وما يأمُرُكُمْ بِهِ مِنْ وَفاءِ الحَقِّ لِلناسِ فإنكُمْ ﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ لِلأرباحِ.

والثاني: أنهُ كانَ يُحَذِّرُهُمْ، ويَمْنَعُهُمْ عنْ عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، ويَدْعُوهُمْ إلى عبادَةِ اللهِ، ويُرَغِّبُهُمْ في ذلكَ، وهُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ تلكَ الأصنامَ لِتُقَرِّبَ عبادَتُهُمْ إياها إلى اللهِ زُلْفَى، وتكونَ لَهُمْ شُفَعاءَ في الآخِرَةِ[5] فقالُوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ في ما يَدْعُوكُمْ إليهِ، ويَنْهاكُمْ عنهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخاسِرينَ؛ لا شُفَعاءَ لكم في الآخِرَةِ.

والثالثُ: أنهُمْ كانُوا يُوعِدونَ شُعَيباً بالإخراجِ بقولِهِمْ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾ [الأعراف: ٨٨] فَقالُوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وهو[6] يُخْرَجُ، لا محالَةَ، فَتُخْرَجُونَ أنتُم، فَتَصِيرونَ[7] مِنَ الخاسِرينَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ قِيلَ: الصَّيحَةُ، وقِيلَ: الزَّلْزَلَةُ. قِيلَ: أصابَهُمْ حَرٌّ شديدٌ، فَرُفِعَتْ لهمْ سَحابَةٌ، فَخَرَجُوا إليها، يَطْلُبُونَ الرَّوحَ تَحْتَها، فَسالَ عليهِمُ العذابُ، ورَجَفَتْ بهمُ الأرضُ، فَهَلَكوا، وهو ما ذَكَرَ في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا قولَهُ ﴿جَاثِمِينَ﴾ في ما تَقَدَّمَ[8].

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ هو، واللهُ أعْلَمُ. مُقابِلُ قولِهِمْ ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ وجوابٌ لَهُمْ: يَقولُ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ لا الذينَ اتَّبَعُوهُ[9].

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ قِيلَ: كَأنْ لم يَعيشُوا فيها، ولم يَنْعَمُوا قَطُّ، وقِيلَ: كَأنْ لم يُقيموا فيها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كبراء. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (٦) في الأصل وم: وهي. (٧) في الأصل وم: فصرتم. (٨) كان ذلك في تفسير الآية [٧٨]. (٩) في الأصل وم: اتبعوا.

قالَ القُتَبيُّ: يُقالُ: غَنِينا بِمَكانِ كذا وكذا، أي أقَمْنا، ويُقالُ لِلمنازِلِ مَغانٍ؛ واحِدُها: مَغْنًى، ويُقالُ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَاۚ﴾ أي كأنْ لم يكونُوا فيها قَطُّ.

وهو، واللهُ أعْلَمُ، لِما كانُوا يَسْتَقِلُّونَ نِعَمَ اللهِ عليهِمْ، ويَسْتَحْقِرُونَها، حتى ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ﴾ [الكهف: ١٩ والمؤمنون: ١١٣] وقالَ[1] تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] ونَحْوَهُ. وكُلُّهُ إخبارٌ عنْ قَطْعِ آثارِهِمْ أنهُ لم يَبْقَ منهُمْ أحدٌ، يَحْزَنُ عليهِمْ، أو يبكي عليهِمْ، حتى قالَ شُعَيبٍ ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُ شُعَيبٍ حينَ[2] قالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ حينَ عَلِمَ أنهُمْ يَهْلِكُونَ، ويَنْزِلُ بِهِمُ العذابُ أي لا أحْزَنُ عليهِمْ لِما[3] ذَكَرَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ قالَ ذلكَ في الوقتِ الذي قالَ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ [الأعراف: ٨٦] يقولُ: كيف أحْزَنُ على قومٍ، وعَمَلُهُمْ ما ذَكَرَ؟

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ حينَ رآهُمْ هَلْكَى، فقالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي كيف أحْزَنُ على قومٍ، قد كَذَّبُوني، واختارُوا عَداوَتي، وصارُوا عليَّ أعداءً؟ فكيف أحْزَنُ عليهِمْ بالهَلاكِ، وهُمْ أعدائي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ﴾ قد ذَكَرْنا[4].

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في الآيةِ إضمارٌ، واللهُ أعلَمُ، مِنْ وجْهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فَكَذَّبُوهُ.

[والثاني: قولُهُ تعالى][5] ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾ قَبْلَ الهَلاكِ ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

ثم لم يأخُذِ اللهُ قوماً بالهَلاكِ قَبْلَ أنْ يَبْعَثَ إليهِمُ الرسولَ، وقَبْلَ أنْ يُغَيِّروا هُمْ[6] بِما أنْعَمَ عليهِمْ [ما][7] بأنْفُسِهِمْ/ ١٨١ ـ أ/ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقولِهِ[8] تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرعد: ١١] وقولِهِ[9] تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

أخبَرَ أنهُ لا يأخُذُهُمْ بالعذابِ والهَلاكِ إلّا بَعْدَ قَطْعِ العُذْرِ لهمْ مِنْ جميعِ الوُجوهِ، وإنْ كانَ لهُ الإهلاكُ قَبْلَ أنْ يَبْعَثَ إليهِمُ الرسولَ، لِما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ العُقولِ السليمَةِ ما[10] بها يُوصَلُ إلى فَهْمِ كلِّ ما جَعَلَ فيهِمْ مِنْ آثارِ [وآياتِ وَحدانِيَّتِهِ][11] وما جعَلَ لهمْ مِنَ السَّمْعِ ما بِهِ يُوصَلُ إلى سَمْعِ كلِّ ما غابَ والنُّطْقِ بِكُلِّ ما يُريدونَ ما لم يَجْعَلْ ذلكَ بِغَيرِهِمْ مِنَ البَهائِمِ، وما أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ تَصويرِ الصُّوَرِ ما لم يَتَمَنَّ أحدٌ تأوِيلَهُ منها إلى غيرِها مِنَ الصُّوَرِ.

لكنَّهُ لا يُهْلِكُهُمْ إلّا بَعْدَ بَعْثِ الرُّسُلِ إليهِمْ لِما أنَّ الخَلْقَ على مراتِبَ: منهُمْ مَنْ يَفْهَمُ بالعَقْلِ لا يَحْتاجُ إلى مَعُونَةِ[12] السَّمْعِ، وهُمُ الحُكَماءُ والعُلَماءُ الذينَ يُدْرِكونَ الأشياءَ بالبَديهَةِ، ومنهُمْ مَنْ لا يَدْرِكُ إلّا بِمَعُونَةِ السَّمْعِ وهُمْ كالصِّبْيانِ: إنهُمْ لا يُدْرِكونَ إلا بالسَّمْعِ وفَضْلِ التَّنْبِيهِ، ومنهُمْ مَنْ لا يُدْرِكُ بالعَقْلِ ذلكَ ولا بالسَّمْعِ حتى تُصيبَهُمُ الشدائِدُ والغِيَرُ في أنْفُسِهِمْ وفي ما أنْعَمَ عليهِمْ، وهُمْ كالبهائِمِ الذينَ لا عَقْلَ لَهُمْ، ولا سَمْعَ، ولكنْ يَعْرِفُونَ الشدائِدَ وما يُصيبُهُمْ مِنَ البَلايا.

فَعَلَى ذلكَ يَمْتَحِنُهُمْ ﷻ ويَبْتَلِيهِمْ بالشدائِدِ والبلايا أو لا. فإنْ رَجَعُوا عنْ ذلكَ، وعَرَفُوا نِعَمَهُ، وإلّا أهْلَكَهُمْ بَعْدَ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وقوله. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) كان ذلك في تفسير الآيتين ٧٨ و٧٩. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: مما. (١١) في الأصل وم: وحدانيته وآيات. (١٢) في الأصل وم: مونة.

فَعِندَ ذلكَ يَنتَهُونَ، ويَتذَكَّرُونَ. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] وقولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: ١٧٧] قد ذَكَرْنا في صَدْرِ الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي لِكي يكونَ عليهِمُ التَّضرُّعُ، أو لِكَي يَلْزَمَهُمُ التَّضرُّعُ والتَّذكُّرُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ وهو ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ: السَّعةُ والرَّخاءُ بَعْدَ الشِّدَّةِ والقَحطِ وما حلَّ بِهِمْ مِنَ البَلايا ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ قِيلَ: جَمَعُوا، وأكثَرُوا، أي كَشفَ عنهُمْ ذلكَ حتى كَثُرُوا. فَعِنْدَ ذلكَ أهْلَكَهُمْ بَغْتَةً؛ لأنَّ الهلاكَ في حالِ الشِّدَّةِ والبَلاءِ لا يكونُ أخذَ بَغْتَةٍ؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ حَلَّ بِهِ بَلاءٌ وشِدَّةٌ يَخافُ فيهِ الهلاكَ، فإذا أُهلِكَ في تلكَ الحالِ لم يكنْ أخْذُهُ بالهلاكِ بغْتَةً.

ألا تَرَى أنهُ سَمّى الموتَ الذي يموتُ المرءُ مِنْ غَيرِ مَرَضٍ حَلَّ بِهِ، مَوتَ فُجاءَةٍ؟ والذي يَمْرَضُ يَتقَدَّمُ المَوتُ لِأذانِ المَوتِ في الوجْهَينِ جَميعاً، لا يَعْلَمُ بِحُلُولِهِ. لكنَّهُ إذا لم يَتقَدَّمْ مَرضٌ فهو لا يُخافُ منهُ. فإذا كانَ بِهِ مَرَضٌ خافَ بِهِ، فلم يكنْ فُجاءَةً. فَعَلَى ذلكَ إذا أُخِذُوا في حالِ الشِّدَّةِ لم يكُنْ أخذاً بالبَغْتَةِ لِما يَخافُونَ فيهِ الهَلاكَ. وإذا كانُوا في سَعَةٍ ورَخاءٍ لا يَخافُونَ، فَيؤخَذُونَ في تلكَ الحالِ، فذلكَ أخذٌ بِبَغْتَةٍ.

وقولُهُ[1] تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ قِيلَ: كانَ أهْلَكَ بَعْضَهُمْ، وتَرَكَ بَعْضاً ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي كَثُرُوا مِنْ ذلكَ البَعْضِ. ولكنَّ الوَجْهَ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ البأساءِ والضَّرَّاءِ والشَّدائدِ والقَحطِ. ثم كَشَفَ ذلكَ عنهُمْ، فَكَثُرُوا، ثم أهْلَكَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ قالُوا: إنَّ آباءَنا قد كانَ يَنْزِلُ ذلكَ بِهِمْ، ويُصيبُهُمْ مَرَّةً شِدَّةٌ ومَرَّةً نِعْمَةٌ، فلم يكنْ ذلكَ بِعُقوبَةٍ لَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ ما يُصيبُنا مِنَ الشَّدائِدِ والبَلايا، لَيسَ ذلكَ بِعُقوبَةٍ لنا، ولكنْ دَورانُ الدَّهْرِ وتَصرُّفُهُ على الشِّدَّةِ والبَلاءِ مَرَّةً ومَرَّةً على الخِصْبِ والسَّعَةِ. ثم أخْبَرَ أنهُ أخَذَهُمْ بَغْتَةً بَعْدَ قولِهِمْ: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ قِيلَ ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ قَبْلَ أنْ يَهْلِكُوا بَعْدَ ما أصابَهُمْ مِنَ الشَّدائِدِ والبَلايا ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ الآية؛ أي لأُعطُوا كُلَّ خيرٍ، يُنالُ مِنَ السماءِ والأرضِ. البَرَكَةُ [كُلُّ ما يُنالُ مِنْ خيرٍ][2] على غَيرِ مُؤْنَةٍ، والبَرَكَةُ[3] كلُّ شَيءٍ يُنالُ بلا تَبِعَةٍ عليهِ ولا شِدَّةٍ. ذَكَرَ ههنا أنهُ يَفْتَحُ عليهِمْ بَركاتٍ مِنَ السماءِ والأرضِ، لو آمَنوا، ونَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ، أنهُ يَفْتَحُ عليهِمْ أبوابَ كُلِّ شَيءٍ، ولم يَذْكُرِ البَرَكَةَ. ففي ما لم يَذْكُرِ البَرَكَةَ يُنَغِّصُهُمْ ما فَتَحَ عليهِمْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، ويَسوؤُهُمْ. وفي ما ذَكَرَ فيهِ البَرَكَةَ بَعْدَ الإيمانِ لا يَلْحَقُهُمْ مِنْ ذلكَ تَبِعَةٌ، ولا غُرْمٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ الرُّسُلَ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ النِّعَمَ التي أنْعَمَها عليهِمْ أيِ الرُّسُلَ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ التكذيبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ خَرَجَ هذا في الظاهِرِ مَخرَجَ الاستِفهامِ، ولكنْ في الحَقيقةِ على الإيجابِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ﴾ الآية [النور: ٥٠] هذا في الظاهِرِ وإنْ خَرَجَ مَخرَجَ الشَّكِّ[4] والارْتِيابِ، فهو في الحَقيقةِ على الإيجابِ. كأنهُ قالَ: في قلوبِهِم مَرَضٌ، وارْتابُوا، وخافُوا ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النور: ٥٠] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ على الإيجابِ كأنهُ قالَ: قد أَمِنَ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ وأَمِنَ ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨].

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [وقولِهِ تعالى:][5] ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٨] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ: قالَ الحَسَنُ: هذِهِ الآياتُ في الأُمَمِ السالِفَةِ؛ أخْبَرَ عنْ أُمَمِهِمْ[6] بِنُزُولِ بأسِ اللهِ وعذابِهِ بِهِمْ لكنْ ذَكَرَ في هذِهِ الأُمَّةِ لِيكونُوا على حَذَرٍ مِنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل: كل ينال من كل خير، في م: ما ينال من كل خير. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: الثلث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أمتهم.

وقالَ الآخَرُونَ: هذِهِ الآياتُ في قُرَى هذِهِ الأمَّةِ(١) لا في الأمَمِ السالِفَةِ؛ يقولُ: أَمِنَ هؤلاءِ بأسَنا كما أَمِنَ أولئكَ عنهُ، فإنهُمْ إذا صَنَعُوا مِثْلَ صَنِيعِهِمْ يُنْزِلُ [بهِمْ](٢) في الآخِرَةِ مِنَ العذابِ مِثْلَ ما أَنْزَلَ بأولئكَ في الدنيا مِنَ العذابِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [وقولُهُ تعالى](٣) ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أخبرَ أنَّ العذابَ إنما نَزَلَ بِهِمْ في حالِ الأمنِ، وهو وقتُ النَّومِ واللَّعِبِ؛ لأنهُ هو وقتُ الغَفْلَةِ والسَّهْوِ، وآمَنُ ما يكونُ الإنسانِ إنما يكونُ في حالِ النَّومِ. وإنما نَزَلَ بِهِمْ في وقْتِ الغَفْلَةِ والسَّهْوِ؛ يُذَكِّرُ بهذا، واللهُ أعْلَمُ، أَهْلَ مَكَّةَ وغيرَهُمْ مِنَ الكَفَرَةِ بِتَكْذِيبِهِمْ رسولَ اللهِ لِئَلا يكونُوا آمِنِينَ عنْ بأسٍ أبداً في وَقْتٍ مِنَ الأوقاتِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ المَكْرُ في الشاهِدِ هو أنْ يُراقِبَ مِنْ عَدُوِّهِ حالَ غَفْلَةٍ لِيَنْتَقِمَ منهُ، ويَنْتَصِرَ(٤). فإذا كانَ ما ذَكَرْنا، سَمَّى ما يُنْزِلُ بِهِمْ مِنَ العَذابِ في حالِ الغَفْلَةِ مَكْراً(٥)، وعلى ذلكَ الامْتِحانُ في ما بَيْنَ الخَلْقِ هو اسْتِظْهارُ ما خَفِيَ على بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَيَأْمُرونَ بذلكَ، ويَنْهَونَ، فَسَمَّى اللهُ تعالى ذلكَ امْتِحاناً لِمَعْنَى الأمْرِ والنَّهْيِ، وإنْ كانَتِ الخَفِيّاتُ عنِ الخَلْقِ ظاهِرَةً باديَةً عندَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الآيةُ على المُعْتَزِلَةِ لأنهُمْ يَأْمَنُونَ(٦) مَكْرَ اللهِ في الصَّغائِرِ، [ويَقولُونَ: الصَّغائِرُ](٧) مَغْفورَةٌ، لَيسَ لهُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ عليها؛ [فَهُمْ آمِنونَ](٨) عنْ مَكْرِهِ، ويَيْأَسُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ. لِقولِهِمْ في الكبائِرِ لَيسَ(٩) لهُ أن يَعْفُوَ عَنْهُمْ. وقد أخبرَ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وهُمْ قد أَيِسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ في الكبائِرِ، وأَمِنُوا مَكْرَهُ في الصَّغائِرِ. فهاتانِ الآيتانِ على المُعْتَزِلَةِ.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هو(١٠) جزاءُ مَكْرِهِمْ؛ سَمَّى جَزاءَ المَكْرِ مَكْراً [كما](١١) سَمَّى جزاءَ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً وجَزاءَ الاعْتِداءِ اعْتِداءً، وإنْ لم يكُنِ الثاني اعْتِداءً ولا سَيِّئَةً، فَعَلى ذلك تَسْمِيَةُ جَزاءِ المَكْرِ مَكْراً، وإنْ لم يَكُنِ الثاني مَكْراً، واللهُ أعْلَمُ.

ألا تَرَى أنهُ لم يَجُزْ أنْ يُسَمَّى مَكّاراً، ولو كان على حَقِيقَةِ المَكْرِ يُسَمَّى بذلكَ؟ دلَّ أنهُ جزاءٌ. وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ مَكْرِهِ جَزاءَ مَكْرِهِمْ، [ولِذلكَ](١٢) سَمَّى الجَزاءَ بِاسْمِ المَكْرِ لأنهُ جَزاؤُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والثانيةُ لَيسَتْ بِسَيِّئَةٍ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ على تأويلِ مَنْ يَجْعَلُ الآيَةَ في الأُمَمِ السالِفَةِ؛ يَقُولُ: أو لَمْ يُوَفَّقُوا، ولم يُهْدَوا لِلصَّوابِ بِهَلاكِ أُمَّةٍ بَعْدَ أُمَّةٍ وقومٍ بَعْدَ قومٍ؟

وعلى تأويلِ [مَنْ يَجْعَلُ الآيَةَ](١٣) في هذِهِ الأُمَّةِ، يَقُولُ: أوَ لَم يَتَبَيَّنْ لهؤلاءِ / ١٨١ ـ ب/ الذينَ وَرِثُوا الأرضَ مِنْ بَعْدِ هَلاكِ أهلِها ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ بعذابٍ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصابَ أولئكَ العذابُ بذنوبِهِمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ [يَحْتَمِلُ وُجُوهاً:

أحَدُها](١٤): قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ على إسقاطِ الواوِ والألفِ؛ أي لم يهدِ للذينَ يرِثونَ الأرضَ(١٥) ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: لم يَهْدِ لَهُمْ، أي(١٦) لم يَتَفَكَّرُوا بما أهْلَكَ الأوَّلِينَ وما حَلَّ بِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ أنهُمْ إذا تَرَكُوا التَّفَكُّرَ والنَّظَرَ فيهِمْ وما نَزَلَ بهِمْ لم يَهْدِ لهمْ.

والثاني: قد هداهُمْ لكنْ نَفَى ذلكَ عنهُمْ لِما لم يَنْتَفِعُوا بهِ، وهو ما نَفَى عنهُمْ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ لِما لم يَنْتَفِعُوا بهِ.

---

(١) في الأصل وم: الآية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، في الأصل: وينتظر. (٥) في الأصل وم: مكروا.
(٦) في الأصل وم: يأمنوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فهو آمن. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل: و، في م: أو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل: ويقولون بالآية، في م: من يقول بأن الآية. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٣٨٤. (١٦) في الأصل وم: أو.

ويَحتَمِلُ على غَيرِ إسقاطِ أي[١] كأنهُ قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ أو لَمْ يَهْدِهِمُ الرَّسُولُ قُدرَةَ اللهِ في هلاكِ الأمَمِ الخاليةِ. فَعَلَى ذلكَ هو قادرٌ على إهلاكِ الذينَ ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ يَحتَمِلُ هذهِ الوجوهَ التي ذكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

أو يقولُ: أو لَمْ يَهْدِ لَهُمْ وراثةُ الأرضِ مِنْ بَعْدِ هَلاكِ أهلِها أنهُمْ بِمَ أُهلِكُوا؟ حتى يَرْتَدِعُوا، ويَمْتَنِعُوا عن مِثلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: قد هَداهُمْ، وبيَّنَ لهم أنَّ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ إنما هَلَكُوا بِما أصابُوا مِنْ ذُنوبِهِمْ مِنَ التكذيبِ والعِنادِ، لكنْ لم يَهْتَدُوا لِعنادِهِمْ.

والثاني: لم يَهْدِهِمْ لِما لم يَتَفَكَّرُوا فيها، ولم يَنْظُرُوا، على التِّلاوةِ [التي قُرِئَتْ بإسقاطِ أو][٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإنْ كانتْ في الأمَمِ السالِفَةِ فقولُهُ ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ أصَبْنا قوماً بَعْدَ قومٍ بِذُنوبِهِمْ، وإنْ كانتْ في المُتأخِّرينَ فقولُهُ: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ لا بِذُنوبِهِمْ على ما أصابَ أولئكَ ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

والطَّبْعُ يَحتَمِلُ الخَتْمَ، أي خَتَمَ على قُلوبِهِمْ، ويَحتَمِلُ الطَّبْعُ ظُلْمَةَ الكُفرِ؛ أي سَتَرَ قُلوبَهُمْ بِظُلمَةِ الكُفرِ، فيكونُ قولُهُ: كلُّ شيءٍ سَتَرَ شيئاً، وتَغَشَّاهُ، فهو طَبْعٌ.

[وقولُهُ تعالى][٣] ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: يَحتَمِلُ: لا يَسْمَعُونَ لِما يَنْتَفِعُونَ به. ويَحتَمِلُ: لا يَسمَعُونَ أي لا يَجيبُونَ كقولِهِ ﷺ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [البخاري: ٦٩٠] قِيلَ: أجابَ لِمَنْ حَمِدَهُ؛ أي دعاهُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ قولُهُ: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي قَصَصْنا عليكَ، مِمّا قَصَّ عليهِ مِنَ الأنباءِ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][٤]: يُخبِرِ رسولَهُ أنَّ القُرَى التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ قد سألُوا رُسُلَهُمُ الآياتِ، فجاؤُوا بها، ولم يُصَدِّقُوها. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ: أنكَ لو أتَيْتَ ما سألُوكَ مِنَ الآياتِ لم يؤمِنُوا بها، ولم يُصَدِّقوها؛ يُخبِرُهُ عن تَعَنُّتِهِمْ ومكابَرَتِهِمْ وعِنادِهِمْ.

والثاني: يَذْكُرُ أنَّ الآياتِ لَيسَ يَجِبُ أنْ يَأتُوا بها مِنَ الجِهَةِ التي يُريدونَ، إنما يَجِبُ أنْ يأتُوا بها، وهي[٥] حُجَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يَحتَمِلُ الأنباءَ التي أنبَأتِ الرُّسُلُ أقوامَهُمْ مِنْ نُزولِ العذابِ بِهِمْ بالتكذيبِ والكُفرِ بها، ويَحتَمِلُ البَيِّناتِ التي تَدُلُّ على صِدقِ الرُّسُلِ بما يَقُولُونَ، ويُخبِرُونَ بَعْدَ ما سَأَلُوهُمُ الآياتِ، لكنْ رَدُّوها رَدَّ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ بَعْدَ ما عَرَفُوا أنها حَقٌّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: أي ما][٦] كانُوا لِيؤمِنُوا لَمّا رَأَوا بأسَنا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ عند رُؤيَتِهِمْ بأسَ اللهِ كقولِهِ[٧] تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والثاني[٨]: يَحتَمِلُ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بِسُؤالِهِمُ الآياتِ إذا آتاهُمُ الآياتِ بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، لأنَّ تركَهُمُ الإيمانَ وتكذيبَهُمُ الرُّسُلَ ليسَ لِما لم تَكُنْ لَهُمُ الآياتُ، ولكنْ لِلعَنَتِ. فأخبَرَ أنهُم، وإنْ سألُوا الآياتِ، فإنهُم لا يؤمِنُونَ.

والثالثُ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بما يُخبِرُهُمُ الرَّسُولُ مِنْ إتيانِ العذابِ بِهِمْ بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ الأنبياءَ ﷺ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ يَحتَمِلُ العَهْدُ المذكورُ وجوهاً ثلاثةً:

---

(١) في الأصل وم: أو، وهو الوجه الثالث. (٢) في الأصل وم: قرئت بإسقاط، انظر الحاشية الـ (١٥) في الصفحة السابقة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: أي، في م: أي ما. (٧) في الأصل وم: كقولهم. (٨) الأصل وم: و.

أحدُها: عَهْدُ الخِلْقَةِ لِما في خِلْقَةِ كُلِّ أحدٍ الشهادةُ بالوَحدانيَّةِ لهُ والألوهيَّةِ، فَلَمْ يُوفُوا بِتِلكَ العُهُودِ، بل نَقَضُوها.

والثاني: العَهْدُ الذي أخَذَ اللهُ عليهِمْ على ألْسُنِ الرُّسُلِ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ الآية [المائدة: ١٢] فَلَمْ يُوفُوا بذلكَ.

والثالثُ: ما أعْطَوا هُمْ مِنَ أنْفُسِهِمْ مِنَ العَهْدِ كَقولِ فِرْعَونَ لِمُوسَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩] فَلَمْ يُوفُوا بما أعْطَوا هُمْ مِنَ العُهُودِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ وقد وجَدْنا أكْثَرَهُمْ فاسِقِينَ بِنَقْضِ العَهْدِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ﴾ بَعْدِ هَلاكِ قُرونٍ[١] كَثيرةٍ ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ حُجَجَنا، ثم يَحْتَمِلُ حُجَجَ وحدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ، ويَحْتَمِلُ آياتِ رِسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ، وعلى قولِ الحَسَنِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دينِنا، وعلى ذلكَ يَتَناوَلُ جميعَ الآياتِ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ إنَّ مُوسَى كانَ مَبْعُوثاً إليهِمْ جميعاً إلى فِرْعَونَ والمَلَإِ والأتباعِ[٢] جميعاً، لا إنهُ كانَ مَبْعُوثاً إلى فِرْعَونَ ومَلَئِهِ خاصَّةً دُونَ الأتباعِ. وكذلكَ ذَكَرَ في أمْكِنَةٍ[٣] أُخَرَ إلى فِرْعَونَ خاصَّةً، وهو بُعِثَ إليهِمْ جميعاً.

لكنْ يُخَرَّجُ تَخْصِيصُ ما ذُكِرَ لِهؤلاءِ[٤] القادةِ، واللهُ أعْلَمَ، لِما أنَّ الذي يُنازِعُ الأنبياءَ والرُّسُلَ هُمُ الكُبَراءُ والرُّؤساءُ دونَ الأتباعِ والسَّفَلَةِ. والأتباعُ هُمُ الذينَ يَصْدُرُونَ[٥] لآراءِ الكُبَراءِ، ويَتَّبِعُونَهُمْ في ما يَدْعُونَهُمْ إليهِ. وعلى ذلكَ سُمِّيَ[٦] الكُبَراءُ والرُّؤساءُ أضدادَ الرُّسُلِ، وإلّا كانَ مُوسَى مَبْعُوثاً إليهِمْ جميعاً الوَضيعِ مِنْهُمْ والرَّفيعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾ أي ظَلَمُوا الآياتِ والحُجَجَ التي أتى بها مُوسَى إلى فِرْعَونَ وقَومِهِ. سُمِّيَ [ذلكَ][٧] ظُلْماً لأنهُمْ سَمُّوا تلكَ الآياتِ سِحْراً بَعْدَ ما عَرَفُوا أنها مُنَزَّلَةٌ مِنَ اللهِ، فَوضَعُوها [في][٨] غيرِ مَوضِعِها. والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

وقالَ قائِلُونَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾ أي ظَلَمُوا نِعَمَ اللهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ حِينَ[٩] عَبَدُوا غَيْرَهُ، فَصَرَفُوا شُكْرَ تلكَ النِّعَمِ إلى غَيرِ الذي أنْعَمَها عليهِمْ؛ فذلكَ ظُلْمٌ: شَكَرُوا مَن لم يُنْعِمْ عليهِمْ، وصَرَفُوا [الشُّكْرَ][١٠] عَمَّنْ أنْعَمَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ ظَلَمُوا الأتباعَ بِتِلكَ الآياتِ حِينَ[١١] مَنَعُوهُمْ عَنِ اتِّباعِ الرَّسُولِ، واسْتَتْبَعُوهُمْ. أو يقولُ: ظَلَمُوا بها[١٢] أنْفُسَهُمْ حِينَ تَرَكُوا اتِّباعَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذا الخِطابُ في الظاهِرِ لِرَسول اللهِ ﷺ، فكانَ المُرادُ بالخِطابِ غَيْرَهُ؛ أمَرَ كُلّاً بالنَّظَرِ في عاقِبَةِ المُفْسِدِينَ لِما حَلَّ بِفَسادِهِمْ؛ لأنَّ مَنْ نَظَرَ في عاقِبَةِ ما حَلَّ بِمَعْصِيَةٍ أو فَسادٍ يَمْتَنِعُ عَنْ مِثْلِهِ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ الخِطابُ لِرسولِ اللهِ ﷺ، لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُما: لِما لَهُ بِما حَلَّ بِهِمْ بَعْضُ التَّسَلِّي لأذاهُمْ إيّاهُ؛ لأنَّ مَنْ تَوَهَّمَ حُلولَ الهلاكِ على عَدُوِّهِ في العاقِبَةِ صَبَرَ على أذاهُ، ويكونُ له بَعْضُ التَّسَلِّي في ذلكَ.

والثاني[١٣]: يُنَبِّهُهُمْ بِما يَحُلُّ بِهِمْ في العاقِبةِ لِيَمْتَنِعُوا عمّا يَرْتَكِبُونَ[١٤] مِنَ المعاصي، لأنَّ ذَلكَ أزْجَرُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ: إني رسولُ اللهِ، وذلكَ يُخَرَّجُ في الظاهِرِ مُخْرَجَ الإمْتِداحِ والتَّزكِيَةِ، وقد نَبَّهْنا عنْ ذلكَ؛ لأنَّهُ أخْبَرَ بِمَحَلِّ الذي تُوضَعُ الرسالَةُ فيهِ، وأنَّهُ أهْلٌ لها؟ قيلَ: لَيسَ فيهِ امْتِداحُ نَفْسِهِ ولا تَزْكِيَةٌ لهُ؛ لأنَّهُ إنما يَذْكُرُ مِنَّةَ اللهِ تعالى أنَّهُ جَعَلَهُ بِحَيثُ تُوضَعُ فيهِ الرسالةُ، وجَعَلَهُ أهْلاً لها.

---

(١) من م، في الأصل: القرون. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: مكان. (٤) في الأصل وم: هؤلاء. (٥) من م، في الأصل: يصدون. (٦) في الأصل وم: سمو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: لها. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: ارتكبوا.

والتَّزكِيةُ والاِمْتِداحُ إنما يَقَعُ في ما هو فِعْلُهُ حَقيقَةً لا فِعْلُ اللهِ، أو إنْ كانَ تَزْكِيَةً وامْتِداحاً فهو قد أُمِرَ بذلكَ، فجازَ بالأمرِ، أو أرادَ بذلك تَعريفَهُ لِما كانَ مِنْ عادَةِ الملوكِ أنهُمْ إذا بَعَثَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ رسولاً فإنهُمْ لا يَسْتَقبِلُونَ الرُّسُلَ بالمَكْرُوهِ والشَّرِّ، .بل يُعَظِّمُونَ الرُّسُلَ، ويُكرِمُونَهُم، وإنْ كانَ بَيْنَهُمْ مُعاداةٌ.

فذَكَرَ أنَّهُ ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِئَلا يُسْتَقْبَلَ بالمَكْرُوهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيلَ: العالَمُ هو جَوهَرُ الكُلِّ، وهو قَولُ الفلاسِفَةِ. وقالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي مَليكِ العالَمِينَ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قالَ أهلُ التَّأويلِ: إنَّ مُوسَى لَمّا قالَ لِفِرْعَونَ: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقالَ لَهُ: كَذَبْتَ، فعِندَ ذلكَ قالَ لهُ مُوسَى:/ ١٨٢ ـ أ/ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وأمْكَنَ أنْ يكونَ ذلكَ منهُ على غَيرِ تَكْذِيبِ القَولِ مِنْ فِرْعَونَ، ولكنَّهُ قالَ ذلكَ لِما أنَّهُ حَقيقٌ على كُلِّ أحَدٍ، أكْرَمَهُ اللهُ بالرسالةِ، واختارَهُ لها، ألّا يَقولَ على اللهِ إلّا الحَقَّ، أو أنْ يَقولَ: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن﴾ [ما][1] أكرَمَني بالرسالةِ ﴿لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ لا يَصِحُّ الاِبْتِداءُ بهذا إلّا بَعْدَ أنْ يَسْبِقَ مِنْ فِرْعَونَ كلامٌ، خَرَجَ هذا الكلامُ مِنْ مُوسَى جَواباً لِما كانَ مِنْهُ؛ وهو ما قالَ أهلُ التَّأويلِ: إنهُ[2] قالَ لهُ [لَمّا قالَ: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليكَ: كَذَبْتَ، لم يُرْسِلْكَ إلينا، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

فَعِنْدَ ذلكَ قالَ: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وهو[3] كما قالَ عِيسَى: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ لَمّا قالَ لهُ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] كانَ ذلكَ القولُ مِنْ عِيسَى لَمّا ادَّعَى قومُهُ على عِيسَى أنهُ قالَ لَهُمْ ذلكَ.

وكذلكَ قولُ الملائكةِ ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبإ: ٤١] بَعْدَ ما قالَ لَهُمْ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبإ: ٤٠] فعِندَ ذلكَ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ خَرَجَ ذلكَ القولُ مِنْهُمْ جوابَ ما تَقَدَّمَ.

فَعَلَى ذلكَ قَولُ مُوسَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ على تَقَدُّمِ قولٍ كانَ منهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

ومَنْ قَرَأ: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فتَأويلُهُ: [أنا حقيقٌ بألا][4] أقولَ على اللهِ إلّا الحَقَّ.

ومَنْ قرأ بتَشديد عليَّ[5] فتَأويلُهُ: حَقٌّ عليَّ بألا أقولَ على اللهِ إلّا الحَقَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يُبَيِّنُ وَحدانِيَّةَ اللهِ وأُلُوهِيَّتَهُ، ويَحتَمِلُ بِبَيِّنَةِ الرُّسُلِ لهُ ما يُبَيِّنُ أني ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] غَيْرَ كاذِبٍ عليهِ، ولا مُفْتَرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي لا تَستَعْبِدْهُمْ فإنهُمْ لَيسُوا بِعَبيدٍ. لم يُرِدْ إرسالَهُمْ مَعَهُ، ولكنْ طَلَبَ اسْتِنْقاذَهُمْ مِنَ العُبودَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دلَّ قولُ فرعَونَ ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ أنَّ مُوسَى أرادَ بقولِهِ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآيةَ، ودلَّ قولُهُ ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنهُ كانَ عَرَفَ أنهُ لَيسَ بإلهٍ، وعَرَفَ عُبودَةَ نفسِهِ حِينَ[6] طَلَبَ منهُ الآيةَ على صِدْقِ ما ادَّعَى مِنَ الرِّسالةِ. ولو كانَ عِندَهُ أنهُ إلهٌ لكانَ قالَ لِمُوسَى: أنا الإلهُ، فَمَتَى أرسَلْتُكَ؟ ولم يَطْلُبْ منهُ الآيةَ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: الثُّعبانُ الحَيَّةُ، قالَ: كُلُّ حَيَّةٍ تُسَمَّى ثُعباناً، أوِ الثَّعابِينُ جماعَةٌ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، [أنهُ][7] قالَ: الثُّعبانُ هيَ الحَيَّةُ الذَّكَرُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إن. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل: للحوق على، في م: لمحقوق على. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٨٥]. (٦) في الأصل وم: حين. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُعۡبَانٞ﴾ أي مُبِينٌ أنها حَيَّةٌ، وهو كما ذكَرْنا ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] لا يَشُكُّ أحدٌ أنها لَيسَتْ بِحَيَّةٍ. ويَحتَمِلُ ﴿ثُعۡبَانٞ﴾ أي مُبِينٌ أنَّ ذلكَ التَّغْيِيرَ والتَّحويلَ لا يكونُ إلّا منَ اللهِ.

الآية ١٠٨

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ذَكَرَ: نَزَعَ يَدَهُ، ولم يذكُرْ مِمّاذا؟ فهو ما ذَكَرَ في آيَةٍ أُخرَى ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [النمل: ١٢] أي مِن غَيرِ أذىً ولا آفَةٍ. وقالَ أهلُ التأويلِ: مِنْ غَيرِ بَرَصٍ.

ولكنْ عندَنا ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ مِنْ غَيرِ أنْ تُستَقبَحَ، أو تُستَقذَرَ؛ لأنَّ خُروجَ الشَّيءِ عنْ خِلقَتِهِ وجوهَرِهِ مِمّا يُستَقذَرُ. فأخبَرَ أنها لم تكنْ كذلكَ.

فإنْ قِيلَ لَنا: ما الحكمَةُ في إدخالِ يَدِهِ جَيْبَهُ على ما هيَ عليها وإخراجِهِ إيّاها بَيضاءَ مِنْ غَيرِ أنْ كانَتْ كذلكَ قَبلَ أنْ يُدخِلَها؟ وكذلكَ [ما الحكمَةُ في][1] صَيرُورَةِ العَصا حَيَّةً بَعْدَ ما طَرَحَها على الأرضِ دونَ أنْ تَصيرَ حَيَّةً، وهي في يَدِهِ؟

قيلَ: ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ إنما أراهُمْ آيَةً بَعْدَ ما أخرَجَ العَصا عن سُلْطانِهِ وتَدْبِيرِهِ لِيُعلِمَ أنها إنما صارَتْ لا بِتَدْبِيرِهِ وتَغْيِيرِهِ، ولكنْ باللهِ ﷻ، وكذلكَ اليَدُ صَيَّرَها آيَةً بَعْدَ ما غَيَّبَها عَنْ بَصَرِهِ، وتدبيرِهِ[2] لِيُعلِمَ أنها صارَتْ كذلكَ لا بِهِ، ولكنْ باللهِ ﷻ الآيَةُ هي التي تَخْرُجُ عنْ وُسْعِ الخَلْقِ وتدبيرِهِمْ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ [الشعراء: ٣٤] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ فِرْعَونُ قالَ لِلْمَلإِ: إنَّ هذا كذا، ثم قالَ المَلأُ لِقَومِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، تَلْبِيسَ ما أتى بِهِ مُوسَى مِنَ الآيَةِ على قومِهِ، وأرادَ بقولِهِ ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] إغراءَ قومِهِ عليهِ.

والسِّحْرُ عندَنا هو منْ آياتِ الرسالةِ. ولو كانَ ما أتى مُوسَى كانَ ذلكَ منْ آياتِ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ لأنهُ لا يُستَفادُ إلّا بِعِلْمٍ مِنَ السَّماءِ وخَبَرٍ منها، وكذلكَ هذِهِ الحِرَفُ والمَكاسِبُ التي تُكتَسَبُ في الخَلْقِ؛ لأنهُ لا يَعْلَمُ إلّا بالوَحْيِ مِنَ السماءِ، لكنهُ لَيسَ بآيَةٍ على الإشارةِ. ولو كانَ ما أتى بهِ سِحراً لَكانَ لهُ آيَةً؛ لأنهُ نَشَأ بَيْنَ أظهُرِهِمْ؛ لم يَرَوْهُ اختَلَفَ إلى ساحِرٍ قَطُّ، ولا[3] عُرِفَ أنهُ تَعَلَّمَ ذلكَ مِنْ أحدٍ. فَدَلَّ ذلكَ أنهُ مِنَ اللهِ[4]، لكنهُ أخرَجَ ذلكَ عمّا عَرَفُوا مِنَ السِّحْرِ لِما لا كُلُّ أحدٍ يَعْرِفُ أنهُ لم يَختَلِفْ في ذلكَ [إلى أحدٍ][5]، ولا تَعَلَّمَ مِنْ أحدٍ، فأخرَجَهُ عَنْ وُسْعِ السَّحَرَةِ وتدبيرِهِمْ لِيَعْرِفَ كُلُّ أحدٍ أنهُ [آيَةٌ مِنْ][6] آياتِ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ، لا السِّحْرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾ كانَ مُوسَى لا يُريدُ أنْ يَخرِجَهُمْ مِنْ أرضِهِمْ، ولكنْ، واللهُ[7] أعلَمُ، كأنهُ قالَ فِرْعَونُ لِقَومِهِ: لَو اتَّبَعْتُمْ مُوسَى، وأجَبْتُمُوهُ إلى ما يَدْعُوكُمْ إليهِ لأخرَجْتُكُمْ، لكنْ أضافَ ذلكَ إلى مُوسى لِما كانَ هو سَبَبَ إخراجِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

أو يَقولُ: يُرِيدُ أنْ يَذْهَبَ بِعَيشِكُمُ الطَّيِّبِ وراحَتِكُمْ وتَلَذُّذِكُمْ بأنواعِ التَّلَذُّذِ؛ لأنهُمْ كانُوا يَستَعْبِدُونَ بني إسرائيلَ، ويَستَخْدِمونَهُمْ، ويَستَرِيحُونَ بهِمْ، ويَنعَمُونَ. فيقولُ لِلْقِبطِ: يُريدُ أنْ يَذْهَبَ بذلك كلِّهِ عنكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُوسَى لم يَكُنْ يُريدُ أنْ يُخرِجَهُمْ[8] مِنْ أرضِهِمْ، ولكنْ يريدُ أنْ يُخرِجَهُمْ[9] مِنْ دِينِهِمُ الذي كانُوا عليهِ، ولكنهُ كان يُغْرِي قَومَهُ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ دلَّ هذا القولُ مِنْ فِرْعَونَ أنهُ كانَ يَعْرِفُ أنهُ لَيسَ بإلهٍ ولا ربٍّ، لأنهُ لو كانَ ما يقولُ ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] لَكانَ لا يَطْلُبُ مِنْ قومِهِ الأمْرَ والإشارةَ في ذلكَ. دلَّ ذلكَ أنهُ كانَ يَعْرِفُ عَجْزَهُ وضَعْفَهُ، لكنَّهُ يُكابِرُ، ويُلَبِّسُ على قومِهِ، ويُمَوِّهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: وتدبير. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الآية. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) و (٩) من م، في الأصل: يخرجوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ هذا الحَرْفُ حَرْفُ إغراءٍ وتحريشٍ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ هو حَرْفُ تقريبٍ حينَ[1] جَعَلَ إليهِمُ الأمْرَ والإشارَةَ، وجَعَلَهُمْ مِنْ أهلِ مَشُورَتِهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ هذا الحَرْفُ لا يُقالُ ابْتِداءً إلّا أنْ يكونَ هنالكَ تقدُّمُ شيءٍ؛ فكأنَّهُ هَمَّ بِقَتْلِهِ كقولِهِ ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] فقالُوا لَهُ: ﴿أَرْجِهْ﴾ أي[2] أخِّرْهُ، واحْبِسْهُ، ولا تَقْتُلْهُ، ليَتَبَيَّنَ سِحْرُهُ عندَ الخَلْقِ جميعاً. كانُوا يَمْنَعُونَ فِرْعَونَ عن قَتْلِهِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] لو لم يكُنْ منهُمْ مَنْعٌ عَنْ قَتْلِهِ لم يكُنْ لِيقولَ لَهُمْ ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ هارُونَ. يَقُولُ: احْبِسْهُ، أي أخِّرْهُ. ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] ومنهُ سُمِّيَتِ المُرْجِئَةُ.

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ ولا تقتُلْهُما ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أَرْسِلْ إلى المدائِنِ الشُّرَطَ، فَأْتُوهُ مِنَ المَدائِنِ حاشِرِينَ؛ أي يَحْشُرُونَ عليهِ[3] السَّحَرَةَ والناسَ. إلى هذا يَذْهَبُ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي [لا تَقْتُلْهُ][4] حتى ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي لِيَجْتَمِعَ كُلُّ أنواعِ السِّحْرِ لِتَبَيَّنَ سِحْرَهُ، وإلّا كانَ ساحِرٌ واحدٌ كافياً[5]، ولكنْ أرادُوا، واللهُ أعلَمُ، بقولِهِمْ[6] ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ لِيَجْتَمِعَ جَمِيعُ أنواعِ السِّحْرِ عِنْدَهُ، لِيَتَبَيَّنَ سِحْرَهُ.

الآيتان ١١٣ و١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ في المَنْزِلَةِ والقُدْرَةِ عندي.

هذا يَدُلُّ أنَّ هِمَّةَ الساحِرِ لَيسَتْ[7] إلّا الدنيا، لأنهُمْ طَلَبُوا مِنْ فِرْعَونَ الأجْرَ والقَدْرَ والمَنْزِلَةَ عِنْدَهُ، إنْ كانُوا هُمُ الغالِبِينَ. ولا يَجوزُ مَنْ هِمَّتُهُ الدنيا، وما ذُكِرَ، أنْ تكونَ لهُ الرسالةُ بِحالٍ. / ١٨٢ ـ ب/ وهِمَّةُ الأنبياءِ كانَتِ الدينَ وطَلَبَ الآخِرَةِ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ هذا لَيسَ على إلقاءِ هذا وتَرْكِ أُولئكَ الإلقاءَ؛ لأنهُ لو كانَ على إلقاءِ أحدِهِما لَكانَ لا يُتَبَيَّنُ السِّحْرُ مِنَ الآيةِ. لكنْ إلقاءُ الأوّلِ؛ كأنهُمْ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ أوّلاً، وإمّا[8] نحنُ المُلْقُونَ أوّلَ مَرّةٍ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

الآية ١١٦ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ كأنهُ أمَرَهُ رَبُّهُ أنْ يأمُرَ بذلكَ، فقالَ[10] موسَى ﴿أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ السِّحْرَ إنما يأخُذُ الأبصارَ على غيرِ حَقيقةٍ كانَتْ لَهُ؛ وهو كالسَّرابِ الذي يُرَى مِنْ بَعيدٍ كقولِهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الآية: [النور: ٣٩] فَعَلَى ذلكَ السِّحْرُ يأخُذُ الأبصارَ ظاهراً، فإذا هو في الحَقيقةِ باطِلٌ، لا شيءَ، وكالخَيالِ[11] في القُلُوبِ لا حَقيقةَ لَهُ. وكانَ قَصْدُهُمْ بالسِّحْرِ اسْتِرْهابَ الناسِ وتَخْوِيفَهُمْ بِهِ.

ألا تَرَى [أنهُ][12] ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾؟ [طه: ٦٧] وقد ذَكَرْنا أنَّ ما جاءَ بِهِ الرُّسُلُ لو كانَ سِحْراً في الحَقيقةِ لَكانَ ذلكَ حُجَّةً لَهُمْ في إثباتِ الرسالةِ؛ لأنَّ قَومَهُمْ لَمْ يَرَوهُمُ اخْتَلَفُوا إلى ساحِرٍ؛ فَيَدُلُّ ذلكَ [أنهُمْ إنما عَرَفُوا ذلكَ][13] باللهِ تعالى، وهو كالأنباءِ[14] التي أتى بها رسولُ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: إلى. (٣) في الأصل وم: عليك. (٤) من م، في الأصل: ليجتمع. (٥) في الأصل وم: كاف.
(٦) في الأصل وم: بقوله. (٧) في الأصل وم: ليس. (٨) في الأصل: و، في م: أو. (٩) في الأصل وم: وقول موسى. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وكالجبال. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: كالأنبياء.

أحدُهما: أخذَ سِحْرُهُمْ بَصَرَهُ كما أخَذَ أعْيُنَ الناسِ.

والثاني: خافَ أنَّ سِحْرَهُمْ يَمْنَعُ أُولئكَ عنْ رؤيَةِ حقيقَةِ ما جاءَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أخذوا[1] كقولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥] أي [مأخوذةٌ أعْيُنُنا][2].

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فيهِ أنَّ مُوسَى كانَ لا[3] يُلْقي عَصاهُ إلا بَعْدَ الأمْرِ بالإلقاءِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠] [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] ونَحْوُهُ. كانَ لا يَضْرِبُ العَصا، ولا يُلْقِي، إلّا بَعْدَ الأمْرِ بالإلْقاءِ والضَّرْبِ لِيُعْلِمَ أنَّ في ذلكَ امْتِحاناً لِمُوسَى في ما يَأْمُرُهُ[5] بالإلْقاءِ على الأرضِ، لِتَصِيرَ حَيَّةً، وفي ما يَأْمُرُهُ بالضَّرْبِ بِها الحَجَرَ والبَحْرَ.

وللهِ أنْ يَمْتَحِنَ عَبْدَهُ بما شاءَ مِنْ أنواعِ المِحَنِ، وإلا [ما][6] كانَ قادراً أنْ يَفْلُقَ البَحْرَ على غَيرِ الأمْرِ بالضَّرْبِ بالعَصا، وكذلكَ [أنْ يُفَجِّرَ الماءَ، ويَشُقَّ البَحْرَ][7] على غَيرِ ضَرْبٍ بالعَصا، وكذلكَ [أنْ][8] تَصيرَ تلكَ العَصا حَيَّةً، وهيَ في يَدِهِ. ولكنْ أمَرَهُ بذلكَ كُلِّهِ، واللهُ أعْلَمُ، امْتِحاناً منهُ إيّاهُ وابْتِلاءً، وهي دارُ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٍ؛ إذْ في زَمَنِ مُوسَى كانَ السِّحْرُ هو الظاهِرَ، وكانَ الناسُ وَقْتَئِذٍ يَعْمَلُونَ بالسِّحْرِ، فجاءَ مُوسَى مِنَ الآياتِ على رسالَتِهِ بِنَوعِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ بهِ ومِنْ جِنْسِ ذلكَ لِيَعْرِفُوا خُروجَهُ عنْ وُسْعِهِمْ وأنَّ ذلكَ لَيسَ كَسِحْرِهِمْ[9]، ولكنْ آيةٌ سَماوِيَّةٌ.

وكذلكَ ما جاءَ عِيسَى مِنَ الآياتِ جاءَ بَنوعِ ما كانَ يَعْمَلُهُ قومُهُ، وهو الطِّبُّ، فجاءَ بِنَوعِ الطِّبِّ لِيَعْلَمُوا[10] أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: تَلْقَفُ تَلْتَقِمُ، وتَلْتَقِمُ اشْتِقاقُهُ مِنَ اللَّقْمِ والابْتِلاعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ قِيلَ: ما يُكَذِّبونَ. قالَ الحَسَنُ: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ. وقِيلَ: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما جاؤُوا بهِ مِنَ الكذِبِ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ قِيلَ: أي ظَهَرَ الحَقُّ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بَطَلَ ما عَمِلوا مِنَ السِّحْرِ.

والثاني: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي [أَبْطَلَ أُولئكَ][11] السَّحَرَةُ العَمَلَ بالسِّحْرِ؛ إذْ[12] ظَهَرَ الحَقُّ لَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ [أي عندَ ذَلكَ غُلِبَ السَّحَرَةُ لأنهُمْ قالُوا لِفِرْعَونَ في الابْتِداءِ ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فَذَكَرَ ههنا أنهُمْ غُلِبُوا عندَ ظُهورِ الحَقِّ، لا أنهُمْ صارُوا غالبِينَ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾][13] لَيسَ غَلَبَةَ القَهْرِ والقَسْرِ، ولكنْ غَلَبَةٌ بالحُجَجِ والبَراهينِ؛ أي غُلِبُوا بالآياتِ والحُجَجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: رَجَعَ السَّحَرَةُ لَمّا غُلِبُوا صاغِرِينَ مُذَلَّلِينَ. لكن نَقولُ: رَجَعَ فِرْعَونُ وقومُهُ إلى مَنازِلِهِمْ مُذَلَّلِينَ، لا السَّحَرَةُ، لأنَّ السَّحَرَةَ قد آمَنُوا، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يوصَفُوا بالرُّجوعِ صاغِرِينَ مذلَّلِينَ، وقد رَجَعُوا مَعَ الإيمانِ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ﴾ أي أُمِرُوا بالسُّجودِ فَسَجَدُوا. وقالَ آخَرُونَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ﴾ أي لِسُرْعَةِ ما سَجَدُوا كأنهُمْ أُلْقُوا.

والآيةُ تَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ لأنهُمْ يُنْكِرُونَ أنْ[14] يكونَ للهِ تعالى في فِعْلِ العِبادِ صُنْعٌ، وهنا قد أُضِيفَ الفِعْلُ إلى غَيرِهِمْ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ دلَّ أنَّ للهِ[15] في فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً[16] وهو أنْ خَلَقَ فِعْلَ السُّجودِ منهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: حيروا. (٢) في الأصل وم: مأخوذ أعينكم. (٣) في الأصل وم: لما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يأمر.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يفجر الحجر ويشق. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: بسحرهم، في م: لسحرهم.
(١٠) من م، في الأصل: ليعملوا. (١١) في الأصل وم: تلك. (١٢) في الأصل وم: إذا. (١٣) من م. (١٤) من م، في الأصل: أي. (١٥) من م، في الأصل: الله. (١٦) في الأصل وم: صنع.

وقال جَعفَرُ بْنُ حَرْبٍ، يجوزُ أنْ يُضافَ الفِعْلُ إلى غيرٍ، وإنْ لم يكُنْ لذلكَ الغيرِ في ذلكَ الفِعْلِ صُنْعٌ، نَحْوَ ما يُقالُ في السَّفَرِ: إنَّ هؤلاءِ خَلَّفُوا أولئكَ، [وهُمْ لم يُخَلِّفُوا أولئكَ][1] في الحَقيقَةِ، ولا صُنْعَ لَهُمْ في التخلُّفِ، ثم أُضِيفَ إليهِمْ فِعْلُ التَّخليفِ. فَعَلى ذلكَ هذا يُقالُ: إنَّ لَهُمْ في ذلكَ تَخليفاً[2]؛ وهُمْ إنهُمْ إذا لم يَنْتَظِروهُمْ خَلَّفُوهُمْ، ولَهُمْ في ذلكَ صُنْعٌ، فأُضِيفَ الفِعْلُ إليهِمْ، أو أنْ يُقالَ: إنهمْ لا يَمْلِكُونَ إلقاءَ هؤلاءِ، فأمّا اللهُ ﷻ [فهو][3] قادرٌ أنْ يُلْقِيَهُمْ؛ أي بما يَخْلُقُ مِنْهُمْ فِعْلَ السُّجودِ، فأُضِيفَ الفِعْلُ إليهِ.

الآيتان ١٢١و١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنهُمْ لَمّا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ لَهُمْ فِرْعَونُ: إيّايَ تَعْنُونَ؟ فعِنْدَ ذلكَ قالُوا: لا، ولكنْ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ولكن لا نَدري هذا، ومُوسَى أوَّلَ ما جاءَ فِرْعَونَ، ودعاهُ إلى دينِهِ، قالَ لهُ: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] فلا يُحتَمَلُ أنْ يُشْكِلَ عليهِ قولُهُمْ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فَيَظُنَّ][4] أنهُمْ إياهُ عَنَوا بذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي أرسَلَ مُوسَى وهارُونَ رَسُولَيْنِ[5].

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ هو التَّصْديقُ، لا غَيْرُ؛ [لأنَّ السَّحَرَةَ لَمّا][6] ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ لَهُمْ: ﴿فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ وهُمْ لم يأتُوا بِسِوَى التَّصديقِ الفَرْدِ، لا غَيْرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أيْ شَيْءٍ صَنَعْتُمُوهُ في ما بَيْنَكُمْ وبَينَ مُوسَى؟ وهُو كما قالَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ هذا لِجَهْلِهِ بأشدِّ العُقوبَةِ والنَّكالِ، وإلّا لم يُوعِدْهُمْ بِقَطْعِ الأيدي والأرجُلِ مِنْ خِلافٍ، إذْ ذلكَ أيْسَرُ، وأقَلُّ في العقوبَةِ مِنَ القَطعِ مِنْ جانبٍ. والقَطْعُ مِنْ جانبٍ أشَدُّ وأنْكَلُ مِنَ القَطعِ مِنْ خِلافٍ، إذِ القَطْعُ مِنْ خِلافٍ لا يَمْنَعُ القيامَ بِبَعْضِ المنافِعِ، ولا يَعْمَلُ في إتلافِ النَّفْسِ؛ إذْ جَعَلَ ذلكَ حدّاً في بَعْضِ العقوباتِ، ولم يَجْعَلِ القَطْعَ مِنْ جانبٍ عُقوبةً بحالٍ دَلَّ أنهُ أشدُّ وأنْكَلُ، ويَعْمَلُ في إهلاكِ النفسِ، والقَطْعُ مِنْ خِلافٍ لا يَعْمَلُ.

دلَّ أنهُ لِجَهْلِهِ ما قالَ، أو أنهُ[7] اختارَ القَطْعَ مِنْ خلافٍ لِتكونَ مُؤْنَةُ الطَّلَبِ عليهِمْ لا عليهِ؛ لأنَّ المَقطوعَ مِنْ خِلافٍ قد يُمْكِنُ لهُ الصُّعودُ على الخَشَبَةِ، والثاني لا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وقولُهُ[8] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] هذانِ[9]، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجانِ[10] على وَجْهَينِ:

[أحدُهُما:][11]: على الإقرارِ منهُمْ بالبَعْثِ والإيمانِ بهِ.

والثاني: وعيدٌ منهُمْ لِفِرعَونَ حِينَ[12] أوعَدَهُمْ بِقَطْعِ الأيدي والأرجُلِ والصَّلْبِ وغيرِ ذلكَ مِنَ العقوباتِ، فقالُوا: ﴿إِنَّآ﴾ وأنتَ ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فَيَجزي، ويُعاقِبُ جزاءَ صَنِيعِكَ رَبُّنا.

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ قِيلَ: لِوجهَينِ: قِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي وما تَعِيبُ علينا، وتَطْعَنُ الإيمانَ بما كانَ منّا مِنَ الإيمانِ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهو ما جاءَهُمْ مِنَ الآياتِ. وقِيلَ: وما تعاقِبُنا، وما تَنْتَقِمُ ﴿مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وكانَ الحَقُّ علينا، وعليكَ أنْ تُؤمِنَ بها كما آمَنّا نَحْنُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تخليف. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: رسولا. (٦) في الأصل وم: لأنهم قالوا السحرة. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: هذا. (١٠) في الأصل وم: يخرج. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ قولُهُ تعالى: ﴿أَفْرِغْ﴾ قِيلَ: أَنْزِلْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وقِيلَ: أَتْمِمْ لنا صَبْراً. وقِيلَ أَصْبِبْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وهو كُلُّهُ واحدٌ.

ثم يَحْتَمِلُ سؤالُهُمُ الصَّبْرَ لِما لَعَلَّهُ إذا فَعَلَ بِهِمْ بِما أَوْعَدَ مِنَ العُقوباتِ لم يَقْدِروا على التَّصَبُّرِ، فَيَتْرُكُوا[1] الإيمانَ. لِذلكَ سألُوا رَبَّهُمُ الصَّبْرَ على ذلكَ لِيَثْبُتوا على الإيمانِ بِهِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ سألُوا رَبَّهُمْ أيضاً التَّوَفِّيَ على الإسلام. وهكذا كانَ دُعاءُ الأنبياءِ كما قالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ الآية: [يوسف: ١٠١] وكذلكَ كان أوصى / ١٨٣ ـ أ/ إبراهيمُ بَنِيهِ حِينَ[3] قالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وهكذا الواجِبُ على كُلِّ مُؤمِنٍ ومُسْلِمٍ أَنْ يَتَضَرَّعَ إلى اللهِ في كُلِّ وقْتٍ، ويَبْتَهِلَ إليهِ في كُلِّ ساعةٍ لِئلا يُسْلَبَ الإيمانَ لِكَسْبٍ يَكْتَسِبُهُ؛ إذِ الأنبياءُ والرُّسُلُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، مَعَ عِصْمَتِهِمْ كانُوا يَخافُونَ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنَّ العِصْمَةَ لا تُسْقِطُ الخَوفَ، ولا تُؤمِنُ مِنَ الزَّلّاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ دلالةٌ على أنهُمْ عَلِمُوا أنهُمْ إذا أَفْرَغَ عليهِمُ الصَّبْرَ صَبَرُوا؛ إذْ لو لم يَعْلَمُوا ذلكَ لم يكُنْ لِسُؤالِهِمُ الصَّبْرَ مَعْنىً.

فهذا على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنهُ [لا][4] يُفْرِغُ، ولا يُصَبِّرُ، وإنهُ قد أعطاهُمْ غايَةَ ما يَصْلُحُ في الدينِ، فَدَلَّ سُؤالُهُمْ ذلكَ على أنهُ لم يُعْطِهِمْ، وأنَّ عندَهُ مَزيداً[5] لو أعْطى لهم ذلكَ كانَ.

الآية ١٢٧ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: في إخراجِكُمْ مِنْ أرضِ مِصْرَ وإفسادِهِمُ[7] العَيْشَ عليكُمْ، أو ما ذُكِرَ مِنْ تَرْكِ عِبادَةِ فِرْعَونَ وخدمَتِهِ [بقولِهِمْ][8]: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ وقد قُرِئَ بِآلِهتكَ فَمَنْ قَرَأ ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ حَمَلَهُ على العِبادَةِ: أي ﴿وَيَذَرَكَ﴾ وعبادَتَكَ. ومَنْ قَرَأ بِآلِهتِكَ[9] وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ومُجاهِدٍ، وقالُوا: إنَّ فِرعَونَ قد كانَ جَعَلَ لِقَومِهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَها لِيَتَقَرَّبُوا بعبادَتِهِمْ تلكَ الأصنامَ إلى فِرْعَونَ على ما كانَ يَعْبُدُ أهْلُ الشِّرْكِ الأصنامَ دُونَ اللهِ، ويَقولونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ التي جَعَلْتَ لَهُمْ.

وقالَ آخَرُونَ: إنَّ فرعَونَ كانَ يَعْبُدُ الأصنامَ والأوثانَ على ما عَبَدَ غَيْرُهُ. وقالَ غَيْرُهُمْ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هو [يَعْبُدُ][10] الأصنامَ على ما ذَكَرْنا. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾؟ [النازعات: ٢٤] ثم ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾؟

وقالَ[11] بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يَعْني رجالَهُمْ ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ لأنهُ لا يَحْتَمِلُ قَتْلَ الأبناءِ ولم يكُنْ منهُمْ إليهِ صُنْعٌ؛ إنما كانَ ذلكَ مِنَ الرجالِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قد كانَ فِرْعَونُ يَقْتُلُ أبناءَ بَني إسرائيلَ في العامِ الذي قِيلَ لهُ: إنهُ يُولَدُ مولودٌ، يَذْهَبُ بِمُلْكِكَ، ويُغَيِّرُ دينَ الأرضِ، فلم يَزَلْ يَقْتُلُ[12] في ذلكَ العامِ الأبناءَ، ويَتْرُكُ البَناتِ، فذلكَ قولُهُ: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ قِيلَ: مُسَلَّطونَ عليهِمْ. فإنْ قِيلَ لَنا: ما الحِكْمَةُ في ذِكْرِ هذهِ القِصَصِ والأنباءِ السالِفَةِ في القرآنِ؟ قِيلَ: لِوُجوهٍ، واللهُ أعلَمُ:

[أحَدُها][13]: أنَّ فيها دليلَ إثباتِ رسالةِ محمد ﷺ ونُبُوَّتِهِ؛ لأنَّ هذهِ القِصَصَ والأنباءَ كانَتْ في كُتُبِهِمْ مُبَيَّنَةً، وقد عَلِمُوا أنَّ لِسانَهُ كانَ على غيرِ ما كانَتْ كُتُبُهُمْ، وعَرَفُوا أنهُ لم يَخْتَلِفْ إلى أحدٍ مِمَّنْ يَعْرِفُ ذلكَ لِيَتَعَلَّمَ منهُ، ولا سَمِعَ عن أحدٍ منهُمْ، ثم أنْبَأهُمْ على ما كانَتْ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ بِمَنْ يَعْلَمُ عِلْمَ الغَيْبِ.

---

(١) في الأصل وم: فيتركون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: مزيد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وإفسادكم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/٣٩٣]. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يقتلهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنَّ البَشَرَ جُبِلُوا على حُبِّ السَّماعِ إلى الأخبارِ والأحاديثِ، وحُبِّبَ ذلكَ [إلى][1] قُلوبِهِمْ حتى إنَّ واحداً منهُمْ يُوَلِّدُ أحاديثَ، ويُنْشِئُها مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ لِأنْ يَسْتَمِعُوا في ذلكَ إليهِ، ويَسْمَعُوا منهُ فَذَكَرَ لهمْ هذِهِ الأنباءَ والقِصَصَ لِيكونَ استِماعُهُمْ إليها وسَماعُهُمْ لها. وذلكَ أحْسَنُ وأوفَقُ؛ إذْ أخْبَرَ أنَّ ذلكَ أحْسَنُ القَصَصِ بقولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

والثالثُ: ذَكَرَ لهمْ هذا لِيَعْلَمُوا ما حَلَّ بهِمْ في العاقبةِ مِنَ الهَلاكِ والاسْتِئْصالِ وأنواعِ العذابِ بِفَسادِهِمْ وتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وما عاقبةُ المُفْسِدِ منهُمْ والمُصْلِحِ لِيكونَ ذلكَ زَجْراً لَهُمْ عنْ صَنِيعِ مِثْلِهِمْ.

والرابعُ: ذَكَرَ لِيَعْرِفُوا كيفَ كانَتْ مُعامَلَةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ أعداءَهُمْ ومُعامَلَةُ الأعداءِ الرُّسُلَ لِيُعامِلُوا أعداءَهُم مِثْلَ مُعامَلَتِهِمْ.

والخامسُ: أنهُمْ كانُوا يُنْكِرُونَ أنْ يكونَ مِنَ البَشَرِ رسولٌ[2]، فأخبَرَ أنَّ الرُّسُلَ الذينَ[3] كانُوا مِنْ قَبْلُ كانُوا كُلُّهُمْ مِنَ البَشَرِ.

والسادسُ: أنهُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ هذهِ الأصنامَ والأوثانَ، ويقولُونَ: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] [ويقولونَ][4]: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فأخبَرَ أنَّ في آبائِهِمُ السُّعَداءَ، وهُمُ الأنبياءُ، والأشقياءَ، فكيفَ اقْتَدَيْتُمْ أنْتُمْ بالأشقياءِ منهُمْ؟ وهَلّا اتَّبَعْتُمُ السُّعَداءَ[5] دونَ الأشقياءِ.

والسابعُ: فيها أنْ كيفَ الأمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ؟ عَرَّفَنا الأمْرَ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عنِ المُنْكَرِ، ومَنْ يأمُرُ بِهِ، ومَنْ يَنْهَى عنهُ، وأيضاً أنَّ فيهِ ذِكْرَ الصالِحِينَ منهُمْ، بَعْدَما ماتُوا، وانْقَرَضُوا كانُوا[6] بالذِّكْرِ كالأحياءِ.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟﴾ على أداءِ طاعَتِهِ ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ ربما تَتَقَرَّبُونَ بِهِ إلى اللهِ.ويكونُ لكُمْ[7] زُلْفَى لديهِ. أو أنْ يقولَ[8] لَهُمْ: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ لِلنَّصْرِ[9] لكُمْ والظَّفَرِ ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على أذاهُمْ والبَلاءِ.

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنْ يَخْرُجَ ذلكَ مِنْ مُوسَى مَخْرَجَ الوَعْدِ لَهُمْ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ على الأعداءِ وجَعْلِ الأرضِ لهمْ مِنْ بَعْدِ إهلاكِ العَدُوِّ. وهو كما ذَكَرْنا في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

ويَحْتَمِلُ أنْ يَخْرُجُ ذلكَ منهُ مَخْرَجَ التَّصْبِيرِ على الرِّضا بِقضاءِ اللهِ تعالى أنَّ الأرضَ لهُ، يُصَيِّرُها لِمَنْ يَشاءُ، فاصْبِرُوا أنْتُمْ على البَلايا، وارْضُوا بِقضائِهِ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [قالَ الحسنُ][12] أي الآخِرَةُ لِلْمُتَّقِينَ خاصَّةً، وأمّا الدنيا فإنها بالشَّرِكَةِ بَيْنَ أهلِ الكُفْرِ وأهْلِ الإسلامِ؛ يكونُ لِهؤلاءِ ما لأولئكَ. وأمّا الآخِرَةُ فَلَيْسَتْ لِلْكُفّارِ، إنما هي لِلْمُؤمِنِينَ خاصَّةً. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣] فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

وقال غَيرُهُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي عاقبةُ الأمْرِ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ لِلْمُتَّقِينَ على أعدائِهِمْ، وإن كانَ في الوَقْعَةِ[13] الأُولَى عليهِمْ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يَخْرُجُ هذا على وَجهَينِ.

أحَدُهُما: أنْ يُخْرَجَ مُخْرَجَ اسْتِبطاءِ النَّصْرِ والظَّفَرِ لهُمْ؛ كأنَّهُمُ اسْتَبْطَؤُوا النَّصْرَ وإهْلاكَ العَدُوِّ والظَّفَرَ عليهِمْ، فقالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل، في م: في. (٢) في الأصل وم: رسولا. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بالسعداء. (٦) في الأصل وم: فكانوا. (٧) في الأصل وم: لهم. (٨) في الأصل وم: يقولوا. (٩) في الأصل وم: بالنصر. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: الدفعة.

والثاني: أنْ يُخرَّجَ مُخرَجَ الاعْتِذارِ لِموسَى لَمّا خَطَرَ ببالِ مُوسَى أنهُمْ يقولونَ: إنَّ ما أصابَهُمْ مِنَ البَلايا والشَّدائِدِ إنما كانَ لِسَبَبِهِ ولمكانِهِ، فقالُوا ذلكَ لهُ اعْتِذاراً منهُمْ لهُ: أن قد أصابَنا ذلكَ نَحنُ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ لِئَلا يُوهَمَ أنهُمْ يقولُونَ ذلكَ، أو يَخْطُرَ ببالِهِمْ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونُوا قالُوا ذلكَ على التَّعْيِيرِ لهُ والتَّوبيخِ؛ يقولُونَ: لم يَزَلْ[1] يُصِيبُنا مِنَ الأذى لِسَبَبِكَ ولأجْلِكَ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ مِنَ الاستِخْدامِ ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ مِنْ أنواعِ الضَّرَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وال ﴿عَسَىٰ﴾ مِنَ اللهِ واجبٌ، فَوَعَدَ لَهُمْ إهلاكَ العَدُوِّ واسْتِخْلافَهُمْ في الأرضِ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التَّأوِيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوذِينَا﴾ في سبيلِكَ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالةِ، ويَعْنُونَ بالأذى قَتْلَ الأبناءِ واسْتِخدامَ النساءِ ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بالرسالةِ مِنَ الشَّدائدِ التي أصابَتْهُمْ مِنْ بَعْدُ؛ لكنَّ الأوَّلَ أقربُ وأشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا أيضاً وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَجْعَلَ لَكُمُ الأرضَ، ويُوَسِّعَ عليكمُ الرِّزْقَ؛ يِمْتَحِنُكُمْ في ذلكَ، ويَبْتَلِيكُمْ، لا أنهُ يَجْعَلُ لَكُمْ ذلكَ على غَيرِ امْتِحانٍ؛ تَعْمَلُونَ ما شِئْتُمْ في ذلكَ.

والثاني: يَمْتَحِنُكُمْ بالشَّدائِدِ والبَلايا لِيَنْظُرَ كيفَ تَصْبِرُونَ على ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ؛ وهو أنْ يقولَ لهمْ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ﴾ كيفَ تشكُرُونَ ربَّكُمْ في ما أنْعَمَ عليكُمْ؟ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ﴾ الواقعُ لكُمْ من الجزاءِ والثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ أمَرَهُمْ، واللهُ أعلَمُ. بِطَلَبِ المَعونَةِ مِنَ اللهِ تعالى على قَضاءِ جَميعِ حَوائِجِهِمْ دِيناً ودُنيا. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على طَلَبِ التوفيقِ لِما أمَرَ بِهِ والعِصْمَةِ عمّا حَذَّرَهُمْ عنهُ.

وكذلكَ الأمْرُ البَيِّنُ في الخَلْقِ مِنْ طَلَبِ التَّوفيقِ والمَعونَةِ مِنَ اللهِ والعِصْمَةِ / ١٨٣ ـ ب/ عنِ المَنْهِيِّ عنهُ جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ الأخيارِ، وباللهِ المَعونَةُ.

ثم لا يَصِحُّ ذلكَ على قولِ المُعتزِلَةِ لأنَّ الدُّعاءَ بالمَعُونَةِ على أداءِ ما كَلَّفَ، وقد أعْطَى؛ إذْ على قولِهِمْ: لا يجوزُ أنْ يكونَ المَرْءُ مُكَلَّفاً، قد بَقِيَ شَيءٌ مِمّا به أداءُ ما كُلِّفَ عندَ اللهِ، وطَلَبُ ما أعْطَى كِتْمانٌ لِلْعطِيَّةِ، وكِتْمانُ العطِيَّةِ كُفرانٌ، فَيَصيرُ كأنَّ اللهَ أمَرَ بكُفرانِ نِعَمِهِ وكِتْمانِها وطَلَبِها منه تعَنُّتاً، وظَنُّ مِثْلِهِ باللهِ كُفْرٌ. ثم لا يَخْلُو مِنْ أنْ يكونَ عندَ اللهِ ما يَطْلُبُ، فلم يُعْطِ التَّمامَ إذنْ، أو لَيسَ عندَهُ، فيكونُ طَلَبُهُ منهُ اسْتِهْزاءً بِهِ، إذْ مَنْ طَلَبَ إلى آخرَ ما يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ عندَهُ فهو هازِئٌ بِهِ في العُرْفِ معَ ما كانَ الذي يَطْلُبُ إمّا أنْ يكونَ للهِ ألّا يُعطِيَهُ معَ التَّكْليفِ، فَيَبْطُلَ قولُهُمْ: لا يجوزُ أنْ يُكَلِّفَ، وعندَهُ ما بِهِ الصَّلاحُ في الدينِ، فلا يُعْطِي، وإمّا[2] لَيسَ لهُ ألّا يُعطِيَ، فكأنهُ قالَ: اللهمَّ لا تَجُرْ، ولا تَظْلِمْ. ومَنْ هذا عِلْمُهُ بربِّهِ فالإسلامُ أولَى بِهِ، فهذا مع ما يَدْعُو اللهَ أحدٌ بالمعونةِ إلّا[3] يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ أنهُ لا يَزِلُّ عندَ المَعونَةِ، ولا يَزِيغُ عندَ العِصْمَةِ، ولَيسَ مثلُهُ يَمْلِكُ اللهُ عندَ المُعْتَزِلَةِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ عنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ قالَ: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾][4] بالجُوعِ، وقيلَ: بالقَحْطِ، [وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾][5] بالحوائجِ ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دُونَ ذلكَ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ بالجَدْبِ؛ يُقالُ: أصابَ الناسَ سَنَةٌ أي جَدْبٌ.

فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ أنهُ أخذَ آلَ فِرْعَونَ، وكانَ فيهِمْ بَنو إسرائيلَ، فما مَعْنَى التَّخْصِيصِ؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ لَهُمْ خاصَّةً

---

(١) من م، في الأصل: ينزل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: وإلا. (٤) في الأصل وم: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ قال. (٥) في الأصل وم: ومجاهد ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ قال.

دونَ بَني إسرائيلَ، وإنْ كانَ فيهِمْ، على ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ القِبْطَ كانُوا يَشْرَبُونَ الدَّمَ، وبَنو إسرائيلَ الماءَ، أو كانَ الجَدْبِ والنَّقْصِ مِنَ الثَّمَراتِ يَضُرُّ آلَ فِرْعَونَ، ولا يَضُرُّ بَني إسرائيلَ، لِما أنهُمْ كانُوا يَأْكُلُونَ لِشَهْوَةٍ، وبَنو إسرائيلَ لِلْحاجَةِ.

فَمَنْ يأكُلُ لِلْحاجَةِ كانَ أقَلَّ حاجَةً إلى الطعامِ مِمَّنْ[1] يأكُلُ لِلشَّهْوَةِ. فإذا لم يَجِدُوا ما يَأْكُلُونَ لِلشَّهْوَةِ كانَ لَهُمْ ما أضَرَّ بِهِمْ. ألا تَرَى أنهُ قِيلَ: يأكُلُ المؤمنُ في مِعًى واحِدٍ، والكافِرُ بِسَبْعَةِ أمْعاءٍ؟

أو خَرَجَ تَخْصِيصُ ذلكَ لَهُمْ لِما أنَّ في عَقْدِ بَني إسرائيلَ أنَّ اللهَ[2] أنْ يَمْتَحِنَهُمْ بِجَميعِ أنواعِ المِحَنِ مَرَّةً بالشِّدَّةِ ومَرَّةً بالسَّعَةِ، وفي[3] عَقْدِ القِبْطِ لا، فأُضِيفَ إليهِمْ ذلكَ لِما لم يَكُنْ في عَقْدِهِمْ ذلكَ، وإنْ كانُوا جميعاً في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يَتَّعِظُونَ و: لَعَلَّ مِنَ اللهِ واجِبٌ [أنْ يَتَّعِظُوا][4] لكنَّهُمْ عانَدُوا، وكابَرُوا، وإلّا قد لَزِمَهُمُ الاتِّعاظُ.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي الخِصْبُ والسَّعَةُ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي هذا ما كُنّا نَعْرِفُهُ أبداً، وما جَرَينا على اعْتِيادِهِ. أو أنْ يَقولُوا: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ بِفِرعَونَ وبِعِبادَتِنا لهُ.

[قولُهُ تعالى][6]: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قِيلَ: الضِّيقُ والقَحْطُ ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ﴾ ويَقُولُوا[7]: بِشُؤْمِهِ. وهذا كما قالَ العَرَبُ لِمحمدٍ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] كانُوا يُضِيفونَ ما يُصيبُهُمْ مِنَ الحَسَنَةِ إلى اللهِ؛ لأنهُمْ كانُوا يُقِرُّونَ باللهِ، والقِبْطُ لا يَقولُونَ ذلكَ، بل يَقولُونَ لِلناسِ مِنْ فِرْعَونَ، أو على الاعْتِيادِ، فقالَ ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

فَعَلَى ذلكَ قالَ هَهُنا ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ثم يَحْتَمِلُ هذا وُجوهاً: قِيلَ: جَزاءُ تَطَيُّرِهِمْ عندَ اللهِ في الآخِرَةِ؛ وقِيلَ: طائِرُهُمْ وشُؤْمُهُمْ الذي كانُوا تَطَيَّرُوا بِمُوسَى كانَ بِتَكْذيبِهِمْ موسى، أضافَ ذلكَ إلى ما عِندَهُ مِنَ الآياتِ؛ لأنهُمْ بِنُزولِ تلكَ الآياتِ تَجَدَّدَ تَطَيُّرُهُمْ وتَشاؤُمُهُمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فكذلكَ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ [الإسراء: ١٣] وهو كما ذَكَرْنا: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] لَمّا كَذَّبُوا تلكَ الآياتِ زادَ ما نَزَلَ مِنَ الآياتِ مِنْ بَعْدُ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ شُؤْمُهُمْ وطائِرُهُمُ الذي كانَ[8] بِتَكْذيبِهِمْ مُوسَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ مِنَ الطِّيَرَةِ، وهو مِنَ التَّشاؤُمِ، تَشاءَمْتُ بِفلانٍ؛ أي قُلْتُ: هو غَيرُ مُبارَكٍ[9] وتَطَيَّرْتُ بِفلانٍ أيضاً. مِثْلُهُ يُقالُ[10]: تَبَرَّكْتُ بِهِ إذا قُلْتُ: هو مبارَكٌ. ويُقالُ: تَطَيَّرْتُ، واطَّيَّرْتُ مِنْهُ وبِهِ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ أي شُؤْمُهُمْ ذاكَ الذي يَخافُونَ مِنْهُ؛ هو مِنْ عندِ ﴿ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأنهُ مِنْ عندِ اللهِ، كانَ بِتَكْذيبِهِمْ مُوسَى.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: تأويلُهُ: كلَّما تأتِينا آيَةً تريدُ أنْ تَسْحَرَنا ﴿بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقالَ ابنُ عباسٍ والحَسَنُ وهؤلاءِ: أي ما ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ الآية، وقولُهُ: مَهْ زيادةٌ، وهو قولُ القُتَبِيِّ. ومَعناهُ: أي ما تأتِنا مِنْ آيَةٍ.

وقالَ الخليلُ: هو في الأصلِ: ما ما إحداهُما زيادةٌ، فَطُرِحَتِ الألِفُ، وأُبْدِلَتْ مكانَها هاءٌ طَلَباً لِلتَّخْفيفِ.

وقالَ سِيبَوَيهِ النَّحْويُّ: قولُهُ تعالى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي مَهْ، كأنهُمْ قالُوا لَهُ: مَهْ؛ أيِ اسْكُتْ كما يَقولُ الرجلُ لِآخَرَ: مَهْ؛ أيِ اسْكُتْ، ما ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: فمن. (٢) في الأصل وم: الله. (٣) في الأصل وم: ومن. (٤) في الأصل وم: قد اتعظوا. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: وقالوا. (٧) في الأصل وم: وقالوا. (٨) في الأصل وم: كانوا. (٩) من م، في الأصل: عبادك. (١٠) في الأصل وم: ويقال. (١١) ساقطة من الأصل وم.

والسِّحْرُ هو التَّحْيِيرُ وأخذُ الأبصارِ، ولا حَقيقةَ [لَهُ][1] كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أي مُتَحَيِّراً، وقولِهِ تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ثم دَلَّ قولُهُمْ: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ ما قالُوا: إنَّ هذا ساحرٌ، وإنهُ سَحَرَ عَنْ عِلْمٍ بالآيةِ والنُّبُوَّةِ لَهُ، قالُوا ذلكَ لا عَنْ جَهْلٍ وغَفْلَةٍ حِينَ[2] قالُوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ذلكَ منهُمْ إياسٌ عنِ الإيمانِ بِهِ وقَبولِ الآياتِ، لأنهُمْ أخبَرُوا أنهُمْ لا يَقبَلُونَ الآياتِ، ولا يُصَدِّقُونَهُ في ذلكَ.

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ إلى آخرِ ما ذُكِرَ. قالَ أهلُ التأويلِ: قالُوا: ذلكَ أرسَلَ اللهُ بَعْدَ السِّنينَ ونَقْصِ الثَّمَراتِ الطوفانَ والآياتِ التي ذَكَرَ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا، وإنْ كانَ مُؤخَّراً في الذِّكْرِ، فهو مُقَدَّمٌ لِما قالَ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ إلى آخِرِهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يَتَّعِظُونَ.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في الطوفانِ: قالَ بَعْضُهُمْ: الطوفانُ الماءُ والمَطَرُ حتى خافُوا الهلاكَ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ. وعَنْ عائشةَ [أنها][3] قالَتْ: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عنِ الطوفانِ، فقالَ: الموتُ» [أبو داوود: ٣٨١٣].

فإنْ ثَبَتَ فهو هو. وقِيلَ: الطوفانُ هو أنواعُ العذابِ.

والجَرادُ هو المَعْروفُ، والقُمَّلُ هو بَناتُ الجَرادِ؛ يُقالُ: الدَّبَى، وقِيلَ: هو الجرادُ الصِّغارُ التي لا أجْنِحَةَ لها ﴿وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي مُفَرَّقاتٍ [واحدةً بَعْدَ واحدةٍ][4] لم يُرْسِلْ آيةً إلّا بَعْدَ ذَهابِ أُخرى [بل أرسَلَ][5] بَعْضَها على إثْرِ بَعْضٍ.

وقيلَ: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي بَيِّناتٍ واضِحاتٍ ما عَلِمَ كُلُّ أحدٍ [أنها لَيسَتْ مِنْ أحَدٍ، ولَيسَتْ][6] مِنْ عَمَلِ السِّحْرِ، ولكنْ آياتٌ سَماويَّةٌ؛ [فلو كانَتْ][7] سِحْراً لَتَكَلَّفُوا في دَفْعِهِ[8]، واشتَغَلُوا بالسِّحْرِ على ما اشتَغَلُوا بِسِحْرِ العَصا والحِبالِ.

فإذا لم يَتَكَلَّفُوا في ذلكَ لم يَشتَغِلُوا بِدَفْعِ ذلكَ، بل فَزِعُوا إلى مُوسَى لِيَكْشِفَ ذلكَ عنهُمْ، ووَعَدُوا لهُ الإيمانَ بِهِ وإرسالَ بَني إسرائيلَ مَعَهُ.

دَلَّ فَزَعُهُمْ إليهِ في كَشْفِ ذلكَ عنهُمْ على أنهُمْ قد عَرَفُوا [أنها لَيْسَتْ بِسِحْرٍ، ولكنَّها آياتٌ][9] أقَرُّوا بها أنّها لَيسَتْ بِسِحْرٍ، وأنها آياتٌ. إلّا أنهُمْ فَزِعُوا عندَ ذلكَ إلى مُوسَى.

الآية ١٣٤ فقالُوا[10]: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ووَعَدُوا لَهُ الإيمانَ بِهِ وبَعْثَ بَني إسرائيلَ مَعَهُ إنْ كَشَفَ عَنْهُمُ الرِّجْزَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ما عَهِدَ لكَ أنكَ متى دَعَوْتَهُ أجابَكَ، وقيلَ: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أنّا متى آمَنّا بكَ، وصَدَّقْناكَ، كَشَفَ عنّا الرِّجْزَ، فقالُوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ قِيلَ: الرِّجْزُ ألوانُ العذابِ الذي كانَ نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الطوفانِ والجَرادِ والقُمَّلِ والدَّمِ وما ذُكِرَ. ﴿لَئِن/ ١٨٤ ـ أ/ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ كلَّما حَلَّ بِهِمْ نوعٌ مِنَ العذابِ، فسألُوا أنْ يَكْشِفَ عنهُمْ، فقالُوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٥] نَكَثُوا ذلكَ، وعادُوا إلى ما كانُوا عليهِ مِنْ قَبْلُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: واحد بعد واحد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أنه ليس من أحد وليس. (٧) في الأصل وم: أن لو. (٨) في الأصل وم: وقعه. (٩) في الأصل وم: أنه ليس بسحر ولكنه آية. (١٠) في الأصل وم: فقال.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُمْ لِموسَى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ بَعْدَ ما حلَّ بهمْ أنواعُ العذابِ. عندَ ذلكَ قالُوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ فلمّا كَشفَ عنهمُ الرِّجزَ نَكثُوا عَهدَهُمْ، وهو قولُهُمْ: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وعادُوا إلى ما كانُوا. فعندَ ذلكَ كانَ ما ذَكَرَ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٦] وقولُهُ تعالى: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ بِما تَدَّعِي بأنكَ رسولٌ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أمْكَنَ أنْ يكونَ لَيسَ على نَفسِ الإرسالِ، ولكنْ على تَرْكِ الاستِعْبادِ؛ أي لا نَستَعْبِدُهُمْ بَعْدَ هذا؛ لأنهُمْ كانُوا يَستَعْبِدونَ بَني إسرائيلَ.

الآية ١٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ ولو أطاعوا، وأوفَوا بالعَهْدِ الذي عَهِدُوا، ولكنَّهُمْ لمّا نَكثُوا ذلكَ انْتَقَمَ منهُمْ.

وهذا الحَرْفُ يُؤَدِّي إلى مَذْهَبِ الاعتِزالِ؛ لأنهُمْ يقولُونَ: إنَّ مَنْ قُتِلَ، أو عُذِّبَ تَعذيبَ إهلاكٍ، إنما هَلَكَ قَبْلَ أجَلِهِ، وأجَلُهُ الموتُ. لكنْ هذا يَصْلُحُ مِمَّنْ يَجْهَلُ العَواقِبَ.

وأمّا اللهُ سُبحانَهُ يَتَعالَى عنْ ذلكَ أنْ يَجْعَلَ لهُ أجَلَينِ: أحَدُهُما: المَوتُ، والآخَرُ القَتْلُ. ولكنْ جَعَلَ مَنْ في عِلْمِهِ أنهُ يُقْتَلُ القَتْلَ، ومَنْ يَموتُ حَتْفَ أنْفِهِ الموتَ. وكذلكَ ما رُوِيَ في الخَبَرِ «إنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تَزيدُ في العُمُرِ» [ابن عساكر: ٥/ ٢١٠] أي مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَصِلُ رَحِمَهُ جَعَلَ عُمُرَهُ أزْيَدَ مِمَّنْ يَعلَمُ أنهُ لا يَصِلُ رَحِمَهُ، لا إنهُ يَجْعَلُ عَمْرَهُ إلى وقتٍ، ثم إذا وَصَلَ رَحِمَهُ زادَ لِما ذَكَرْنا أنَّ ذلكَ أمْرُ مَنْ يَجْهَلُ العَواقِبَ. وأمّا مَنْ يَعْلَمُ ما كانَ وما يكونُ أنهُ لو كانَ كيفَ يكونُ؟ فلا.

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ مِنَ الغَرَقِ ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ مِنَ الطوفانِ وأنواعِ العذابِ الذي كانَ حَلَّ بِهِمْ، ثم كانَ الإغراقُ مِنْ بَعْدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يَحْتَمِلُ الآياتِ التي جاءَ بها مُوسَى على وَحدانِيَّةِ اللهِ تعالى ورُبُوبِيَّتِهِ، وهي الحُجَجُ والآياتُ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها مِنَ الطوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ وما ذكَرَ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ دِينِنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ قيلَ: مُعرِضِينَ مُكَذِّبِينَ بها، لا أنهُمْ كانُوا على غَفْلَةٍ وسَهْوٍ عنها، لكنَّهُمْ أعْرَضُوا عنها مُكابِرِينَ مُعانِدِينَ كأنهُمْ غافِلُونَ[1] عنها. وجائزٌ أنْ يكونوا[2] غافِلِينَ عَمّا يَحِلُّ بِهِمْ بِتَكْذيبِهِمْ.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ هو ما سَبَقَ مِنَ الوَعْدِ بِوِراثَةِ الأرضِ فيها وإنزالِهِمْ فيها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. كانَ وَعَدَهُمُ الاستِخْلافَ والإنزالَ في أرضِ[3] عَدُوِّهِمْ. ثم أخبَرَ أنهُ أنزَلَهُمْ، وأورَثَهُمْ على ما وعَدَ لَهُمْ بقولِهِ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ باستِعْبادِهِمْ ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ قِيلَ فيهِ بوجوهٍ.

قِيلَ: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ مَمْلَكَةُ فِرْعَونَ مِصْرُ ونَواحيها ما يلي ناحيَةَ الشَّرقِ وناحيَةَ الغَرْبِ.

وقِيلَ: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ كانَ في بَني إسرائيلَ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ كقولِهِ تعالى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] قيلَ: عالَمي زمانِهِمْ مِنْ نَحْوِ ذي القَرنَينِ وداوُدَ وسُلَيمانَ.

وقِيلَ: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ أنْ تُصَلُّوا على أهلِ مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها كقولِهِ تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] قِيلَ: عالَمي زمانِهِمْ. ثم تَفضِيلُهُ إيّاهُمْ على البهائِمِ بالجَوهَرِ والخِلْقَةِ، وعلى الجِنِّ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ والمنافِعِ، وعلى جَوهَرِهِمْ مِنْ بَني آدمَ بالرسالةِ والحِكْمَةِ والمُلْكِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

(١) في الأصل وم: غافلين. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) من م، في الأصل: الأرض.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ قِيلَ: أرضُ الشامِ، وقِيلَ: أرضُ مصرَ ونواحِيها، وقيلَ: [سَمّاها مباركَةً][1] لأنها مكانُ الأنبياءِ ﷺ وقِيلَ: مباركَةٌ لِكثرَةِ أنزالِها وسَعَتِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ قِيلَ: هي الجَنَّةُ، أي تَمَّتْ لَهُمُ الجَنَّةُ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ وقِيلَ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بما كانَ وَعَدَلَهُمْ أنْ يُنْزِلَهُمْ فيها، ويَسْتخلِفَهُمْ، تَمَّ ذلكَ الوَعْدُ؛ وهو ما قالَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٥] ثم ما وَعَدَ لَهُمْ أنْ يَمُنَّ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ على أذى فرعَونَ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ على[2] أداءِ ما أوجَبَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ على الوَقْفِ على ﴿وَقَوۡمُهُۥ﴾ [فيكونُ قولُهُ تعالى][3] ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ مَعْطوفاً على قولِهِ تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ وهو مِنَ العَرْشِ الذي يَتَّخِذُهُ الملوكُ.

وقيلَ: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ أيضاً أي أهلَكْنا ما كانوا يَعْرِشُونَ.

قالَ القُتَبِيُّ: يَعْرِشُونَ أي يَبْنُونَ، والعَرْشُ البيوتُ[4]، والعُرُشُ السُّقُوفُ[5]. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ أي أهلَكْنا، وأفسَدْنا ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [يَعْرِشُونَ، ويَفْرُشُونَ][6]؛ يعني يَبْنُونَ مِنَ البيُوتِ والكُرومِ والأشجارِ.

وقيلَ: في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ يَعني بالاسْتِضْعافِ قَتْلَ الأبناءِ واسْتِحْياءَ النساءِ بأرضِ مِصْرَ. وَرَّثَهُمُ اللهُ ذلكَ. وقيلَ: في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهي[7] النِّعْمَةُ التي أنْعَمَ على بَني إسرائيلَ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ على البلاءِ حِينَ كُلِّفُوا مالا يُطيقُونَ مِنِ اسْتِعْبادِ فِرْعَونَ إياهُمْ. والكِلمَةُ التي ذَكَرَ ما ذُكِرَ في [سورةِ][8] القَصَصِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية: ٥].

الآية ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ دلَّ هذا على أنَّ للهِ في فِعْلِ العِبادِ [صُنْعاً وفِعْلاً حِينَ][9] أضافَ، ونَسَبَ المُجاوَزَةَ إلى نَفْسِهِ، وهُمُ الذينَ جاوَزُوا البَحْرَ. دلَّ [أنَّ لهُ][10] في فِعْلِهِمْ صُنْعاً[11]. وهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ [قولَهُمْ حينَ][12] أنكرُوا خَلْقَ أفعالِ العِبادِ، وباللهِ المَعونَةُ والعِصْمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ العُكوفُ هو المُقامُ والدَّوامُ. وقولُهُ تعالى: ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ أي وجَدُوهُمْ[13] عُكوفاً على عِبادَةِ الأصنامِ مُقِيمِينَ على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ سُؤالُهُمْ إلهاً يَعْبُدُونَهُ لا على الكُفْرِ بِرَبِّهِمْ والتَّكْذيبِ لِرَسولِهِ، ولكنْ لِما لَمْ يَروا أنْفُسَهُمْ أهلاً لِعِبادَةِ اللهِ والخِدْمَةِ لهُ لَمّا رَأوا في الشاهِدِ أنهُ لا يَخْدِمُ المُلوكَ إلا الخواصُّ لَهُمْ والمُقَرَّبُونَ إليهِمْ، ومَنْ بَعُدَ منهمْ يَخْدِمُ خَواصَّهُمْ.

فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ سَألُوا موسَى إلهاً يَعْبُدونَهُ لِما لَمْ يَروا أنْفُسَهُمْ أهلاً لِعِبادَةِ اللهِ والخِدْمَةِ لهُ لِتُقَرِّبَهُمْ عبادَةُ تلكَ الأصنامِ إلى اللهِ. ويَخْرُجُ ذلكَ مَخْرَجَ التَّعْظِيمِ لِلّهِ والتَّبْجيلِ لا على الكُفْرِ وصَرْفِ العِبادَةِ عنهُ إلى غَيرِهِ. وكذلكَ كانَ عادَةُ العَرَبِ أنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الأصنامَ لِتُقَرِّبَهُمْ عِبادَتُها إلى اللهِ زُلْفَى.

(١) في الأصل وم: سماه مباركاً. (٢) في الأصل وم: من. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بيوت. (٥) في الأصل وم: سقوف. (٦) في الأصل وم: يعرش ويفرش. (٧) من م، في الأصل: وهو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: صنع وفعل حيث. (١٠) من م، في الأصل: انه. (١١) في الأصل وم: صنع. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: وجدهم.

وكذلكَ ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ فِرعَونَ كانَ يَتَّخِذُ لِقومِهِ أصناماً يَعْبُدونها لِتُقَرِّبَهُمْ عِبادةُ تلكَ الأصنامِ إليهِ زُلْفى.

فَعَلى ذلكَ سُؤالُ هؤلاءِ لِمُوسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ واللهُ أعلَمُ. أو كانَ سُؤالُهُمْ ذلكَ لِما لَمْ يَرَوا في الشاهِدِ أحداً يَخدِمُ إلاّ لِحاجَةٍ تَقَعُ لهُ إلى ذلكَ، فرَأَوا أنَّ اللهَ يتعالى أنْ يُعْبَدَ، ويُخدَمَ لِلْحاجَةِ؟ ويَخْدِمُونَ القادَةَ والرُّسُلَ، ويَعْبُدونَهُمْ لِما رَأَوا [أنهُمْ][1] يَنالُونَ مِنَ النِّعَمِ وأنواعِ المنَافِعِ مِنَ الرُّؤساءِ والكُبَراءِ. لِذلكَ كانُوا يَخْدِمُونَهُمْ.

وأمّا أهلُ التَّوحِيدِ فإنهُمْ لا يَرَونَ العِبادَةَ لِغَيرِ اللهِ لأنهُ ما مِنْ أحدٍ، وإنْ بَعُدَتْ[2] مَنْزِلَتُهُ ومَحَلُّهُ، إلا وآثارُ نِعَمِ اللهِ عليه ظاهرةٌ، حتى عَرَفَ كُلُّ أحدٍ/ ١٨٤ ـ ب/ حتى لو بُذِلَ لَهُ جميعُ حُطامِ الدنيا، أو أُوعِدَ بِكُلِّ أنواعِ الوَعيدِ لِيَتْرُكَ الدينَ الذي هو عليهِ ما تَرَكَ البَتَّةَ.

وفي أمْرِ مُوسَى، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، خَصْلَتانِ:

إحداهُما: أنْ يُعْلِمَ أنْ كيفَ يُؤمَرُ بالمَعْروفِ ويُنْهى عنِ المُنْكَرِ؟ وكيفَ يُعامَلُ مُرْتَكِبُ الفِسْقِ والمُنْكَرِ[3] على ما عامَلَ مُوسَى قَوْمَهُ باللِّينِ والشَّفَقَةِ، وإنْ [كانُوا يَسْتَقْبِلُونَهُ][4] بالعَظِيمِ مِنَ الأمْرِ والمناكِيرِ.

والثانيةُ[5].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ سُؤالُهُمْ إلهاً يَعْبُدُونَهُ لِما أهْلُ الكُفرِ قالُوا لَهُمْ: إنَّ الرُّسُلَ هُمُ الذينَ أمَرُوهُمْ بِعبادةِ الأصنامِ كقولِهِ تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فعَلى ما قالوا: إنَّ الرُّسُلَ هُمُ الذين أمَرُوهُمْ بذلكَ سَألُوا مُوسى أن يَجْعَلَ لَهُمْ إلهاً كما لَهُمْ آلهةٌ.

الآية ١٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي إنَّ عِبادَتَهُمْ لهؤلاءِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي مُهْلِكُهُمْ ومُفْسِدُهُمْ ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي باطِلٌ ما يأمُلُونَ بِعبادَتِهِمْ هؤلاءِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: التَّبارُ الهَلاكُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: المُتَبَّرُ المُفْسِدُ؛ يُقالُ: تَبَّرْتُ الشَّيءَ أي أفْسَدْتُهُ، ويُقالُ: رَجُلٌ مُتَبَّرٌ أي مُفْسِدٌ.

الآية ١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بما هداكُمْ، ووَفَّقَكُمْ لِلْهِدايَةِ بما لم يُوَفِّقْ، ولم يَهْدِ أحداً مِنَ العالَمِينَ مِنْ عالَمِي زمانِكُمْ.

الآية ١٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ دونَهُ وقد فَضَّلَكُمْ بما اسْتَنْقَذَكُمْ مِنِ اسْتِخدامِ فِرعَونَ وقَهْرِهِ إياكُمْ وإخراجِكُمْ مِنْ يَدِهِ، وأعطاكُمْ رسولاً يُبَيِّنُ لكُمْ عبادَةَ إلهِكُمُ الحَقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾ يَقولُ: أما تَسْتَحْيُونَ رَبَّكُمْ أنْ تَسْألُوا إلهاً تَعْبُدُونَهُ دونَهُ، وقد فَضَّلَكُمْ بما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ، واللهُ أعلَمُ، وهو ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية: يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ عليهِمْ بما اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ فِرْعَونَ وآلِهِ وإهلاكِهِمْ[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ قِيلَ: يُعَذِّبونَكُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قَتْلَ الأبناءِ واسْتِحياءَ النساءِ. فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قِيلَ في ذلكَ: يَعْني في ما ﴿أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. ويُقالُ: البلاءُ بالمَدِّ هو النِّعْمَةُ، وبِغَيرِ المَدِّ مَقصوراً الشِّدَّةُ.

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ ذَكَرَ ههنا ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ثم ذَكَرَ التَّمامَ بالعَشْرِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بعد. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: يعامل. (٤) في الأصل وم: استقبلوه. (٥) ترك الناسخان في الأصل وم فراغا بعد هذه الكلمة، وأثبتا العبارة التالية: بياض في الأصل. (٦) في الأصل: وإلهكم، في م: وأهلكم.

وذَكَرَ في السورةِ التي [فيها][1] ذِكْرُ البَقَرةِ ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الآية: ٥١]. وهو واحدٌ. [فالميعادُ له أربعونَ][2] ليلَةً، لكنَّهُ يَحتمِلُ ذِكْرُ ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ وعَشراً وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ ثلاثِينَ لَيلَةً كانَ لِأمرٍ وعَشراً كانَ لِأمرٍ آخَرَ، فذَكَرَها[3] مُتفَرِّقَةً لِما كانَ لِأمرَينِ مُختلِفَينِ.

والثاني: أنهُ كانَ في وقتَينِ؛ كان هذا في وَقْتٍ، والآخَرُ في وَقْتٍ، والقِصَّةُ واحِدَةٌ، والمِيعادُ واحدٌ.

فذِكْرُ التَّمامِ ﴿بِعَشْرٍ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] أي ثلاثةُ ﴿أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ وسَبْعَةٌ ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وإنْ كانَ في وَقْتَينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ فإنْ قيلَ: ما مَعْنى قَولِ مُوسَى لأخيهِ هارونَ ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ وهو كانَ مَبْعُوثاً [رسولاً معهُ][4] إلى فِرْعَونَ مُشتَرِكاً في تَبليغِ الرسالةِ إلى فِرْعَونَ كقولِهِ: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٣٢] وقولِهِ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وقولِهِ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وقولِهِ: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤]. فإذا كانَ هو رسولاً كَمُوسَى في تَبليغِ الرسالةِ كيفَ احتاجَ إلى أن يقولَ مُوسَى ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ وهما شَرْعاً سَواءٌ في الرسالةِ؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ.

يَحتَمِلُ أنْ يكونا كما ذُكِرَ رسولَينِ. لكنْ مَنْ وَلَّى اثنَينِ أمْراً لم يكُنْ لواحِدٍ منهُما أنْ يَتفَرَّدَ بِهِ إلّا بأمرِ الآخَرِ. فَعَلَى ذلكَ هذا. كأنَّهُ قالَ: اخلُفْني في الحُكْمِ بَيْنَهُمْ، وأصْلِحْ ذاتَ بَيْنِهِمْ، ولا تَتَّبِعْ مَنْ دَعاكَ إلى سَبيلِ المُفسِدينَ. أو يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مُوسى كانَ هو الرسولَ، إذنْ، وكانَ إليهِ الحُكْمُ، وهارونَ كانَ دَخِيلاً في أمْرِهِ رِدْءاً على ما قالَ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: ٣٤] [كانَ موسى][5] هو المأمورَ بها أوّلاً والمَبْعوثَ إليهِمُ دونَهُ.

ألا تَرى أنهُ هو المُناجِي رَبَّهُ دونَ هارونَ [وكانَ هو المُعْطَى الألواحَ دُونَ هارونَ][6] كقولِهِ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهو الذي قالَ: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] وهو الذي نُودِيَ بالبَرَكَةِ دونَ هارُونَ، وغَيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ. فإذا كانَ كذلكَ استَخْلَفَهُ مُوسى في قومِهِ.

الآية ١٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي لِمِيعادِنا الذي وعَدْناهُ ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لا يجوزُ لنا أنْ نَصِفَ كَيفِيَّةَ الكلامِ وماهِيَّتَهُ سِوى أنهُ أنشأ كلاماً وصَوتاً أسْمَعَهُ مُوسَى كيفَ شاءَ بما شاءَ بكلامٍ مَخلوقٍ [وصوتٍ مَخلوقٍ][7] ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ الآيةَ. قالَ قائلونَ: إنَّ مُوسَى لم يَسألْ رَبَّهُ الرُّؤيَةَ لِنَفْسِهِ، ولكنْ سأَلَ لِقَومِهِ لِسُؤالِ القَومِ لهُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] لكنَّ هذا بَعيدٌ؛ لأنهُ لو كانَ سُؤالُهُ إيّاهُ لِسُؤالِ قَومِهِ لكانَ لا يقولُ: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ولكنْ يَقولُ أرِهِمْ يَنْظُروا[8] إليكَ. فَدَلَّ أنهُ لم يكُنْ لذلكَ.

وقالَ قائلونَ: لم يكُنْ سُؤالُ رَبِّهِ رؤيَةَ الرَّبِّ، ولكنْ سأَلَ ربَّهُ رُؤيَةَ الآياتِ والأعلامِ والأدِلَّةِ التي بها يُرَى. وذلكَ جائزٌ سُؤالُ الرؤيَةِ سُؤالَ رُؤيَةِ الآياتِ والأعلامِ. وذلكَ بَعيدٌ، لأنهُ قد أعطاهُ مِنَ الآياتِ مِنْ نَحْوِ العَصا التي كانَ ضَرَبَ[9] بها الحَجَرَ ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] وما كانَ مِنْ فَرْقِ البَحْرِ وإهلاكِ العَدُوِّ واليَدِ البَيضاءِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ. فإذا بَطَلَ ذلكَ دلَّ أنهُ سألَ حقيقَةَ الرُّؤيَةِ.

والقَولُ بها لازِمٌ عندَنا في الآخِرَةِ، وحقٌ مِنْ غَيرِ إدراكٍ ولا تَفْسِيرٍ. والدليلُ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولو كانَ لا يُرَى لم يكُنْ لِنَفْيِ الإدراكِ حِكْمَةٌ؛ إذ لا يُدْرَكُ غَيرُهُ بِغَيرِ الرُّؤيَةِ، فَوَضْعُ نَفْيِ الإدراكِ وغَيرِهِ مِنَ الخَلْقِ، لا يُدْرَكُ إلّا بالرُّؤيَةِ، لا مَعْنَى لَهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: كالميعاد له أربعين. (٣) في الأصل وم: فذكر. (٤) في الأصل وم: رسولان. (٥) في الأصل وم: وإلا موسى. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ينظرون. (٩) في الأصل وم: يضرب.

وأيضاً قولُ مُوسَى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ الآية: ولو [كانَتْ لا تَجوزُ][1] الرُّؤيَةُ لَكانَ منهُ جَهْلٌ بِرَبِّهِ، ومَنْ يَجْهَلُهُ لا يَحْتَمِلُ أن يكونَ مَوضِعاً لِرسالَتِهِ أميناً على وَحْيِهِ.

وبَعْدُ فإنهُ لم يَنْهَهُ، ولا آيَسَهُ، وبِدُونِ ذلكَ قد نَهَى نُوحاً، وعاتَبَ آدَمَ وغَيْرَهُ مِنَ الرسُلِ. وذلكَ لو كانَ لا يَجوزُ لَبَلَغَ الكُفْرَ.

ثم قالَ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ فإنْ قِيلَ: لَعَلَّهُ سأَلَ آيَةً لِيَعْلَمَ[2] بها. قِيلَ لا يَحْتَمِلُ ذا لِوُجُوهٍ:

أحَدُها: أنهُ قالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وقد أراهُ الآيَةَ.

والثاني[3]: أنَّ طَلَبَ الآياتِ[4] يُخَرَّجُ [مُخرَجَ][5] التَّعَنُّتِ، إذْ قد أراهُ الآياتِ على ما ذَكَرْنا؛ وذلكَ صَنيعُ الكَفَرَةِ أنهُمْ لا يَزالُونَ يَطْلُبُونَ الآياتِ، وإنْ كانَتِ الكِفايَةُ قد ثَبَتَتْ لَهُمْ، فَمِثْلُهُ ذلكَ أيضاً.

والثالِثُ[6]: أنهُ قالَ: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [والآيةُ التي يَسْتَقِرُّ][7] مَعَها الجبَلُ هي دُونَ التي لا يَسْتَقِرُّ مَعَهَا. ثَبَتَ أنهُ لم يُرِدْ بذلكَ الآيَةَ.

والرابِعُ[8]: مُحاجَّةُ إبراهيمَ ﷺ قومَهُ في النُّجُومِ، وما ذَكَرَ بالأُفولِ والغَيْبَةِ، ولم يُحاجُّهُمْ بألّا يُحِبَّ ربّاً، يُرَى، ولكنْ حاجَّهُمْ بألّا يُحِبَّ ربّاً، يَأفُلُ؛ إذْ هو دليلُ عَدَمِ الدَّوامِ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

والخامِسُ[9]: قولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢ و٢٣] ثم لا يَحْتَمِلُ ذلكَ الاِنتِظارَ لِوُجُوهٍ:

أحَدُها: أنَّ الآخِرَةَ[10] لَيسَتْ بِوَقْتِ الاِنتِظارِ، وإنَّما هي الدُّنيا، وهي دارُ الوُقوعِ [والوُجودِ إلى][11] وقْتِ الفَزَعِ وقَبْلَ أنْ يُعايِنُوا في أنْفُسِهِمْ مالَهُ حَقُّ الوُقوعِ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] وذلكَ وُقوعُ الثوابِ.

والثالِثُ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٣] و﴿إِلَىٰ﴾ حَرْفٌ يُسْتَعْمَلُ في النَّظَرِ إلى الشيءِ لا في الاِنتِظارِ.

والرابِعُ: أنَّ القولَ بِهِ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ البِشارَةِ لِعَظِيمِ ما نالُوهُ مِنَ النِّعَمِ. / ١٨٥ ـ أ/ والاِنتِظارُ لَيسَ منهُ مَعَ ما كانَ الصَّرْفُ عنْ حَقيقَةِ المَفْهُومِ قضاءً على اللهِ. فَيَلزَمُ القولُ بالنَّظَرِ إلى اللهِ كما قالَ على نَفْيِ جَميعِ مَعاني[12] الشُّبَهِ عَنِ اللهِ سُبْحانَهُ على ما أُضيفَ إليهِ مِنَ الكلامِ والفِعْلِ والقُدْرَةِ والإرادَةِ: إنهُ يَجِبُ الوَصْفُ بِهِ على نَفْيِ جَميعِ مَعاني الشُّبَهِ.

وكذلكَ القولُ بالشُّبَهِ. فَمَنْ زَعَمَ أنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ أنْ يُكْرِمَ أحداً بالرُّؤيَةِ فهو يَقْدِرُ في الرؤيَةِ التي فَهِمَها مِنَ الخَلْقِ.

وإذا كانَ القولُ بالرَّحمنِ ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وغَيْرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ، لا يجوزُ دَفْعُها بالعَرْضِ على المَفهومِ مِنَ الخَلْقِ، بل يَحَقُّقُ ذلكَ على نَفْيِ الشُّبَهِ فَمِثْلُهُ خَبَرُ الرُّؤيَةِ.

وأيضاً قولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] وجاءَ في غَيرِ خَبَرٍ: النَّظَرُ إلى اللهِ. وقد يَحْتَمِلُ غَيْرَ ذلكَ مِمّا جاءَ فيهِ التَّفْسيرُ. لكنَّهُ لولا أنَّ القولَ بالرُّؤيَةِ، كانَ أمراً ظاهِراً لم يَحْتَمِلْ صَرْفَ ظاهِرٍ، لم يَجِئْ فيها [إليها][13] ويدفَعُ بِهِ الخَبَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وأيضاً[14] ما جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، في غَيْرِ خَبَرٍ أنهُ قالَ: «سَتَرونَ ربَّكُمْ يومَ القيامَةِ [كما تَرَونَ القَمَرَ][15] ليلةَ البَدْرِ لا تُضامُونَ» [البخاري: ٦٥٧٣] وسُئِلَ: «هل رَأَيتَ ربَّكَ؟ فقالَ: بِقَلْبِي قَلْبي» [مشكاة المصابيح ٥٧٢٩] فلم يُنْكِرْ على السائِلِ السُّؤالَ، وقد عَلِمَ السائِلُ رُؤيَةَ القَلْبِ، إذْ هي عِلْمٌ قد عَلِمَهُ، وإنهُ لم يَسْأَلْ عنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: كان لا يجوز. (٢) من م، في الأصل: يعلم. (٣) في الأصل وم: وأيضاً. (٤) من م، في الأصل: الابان. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وأيضاً. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل م، وأيضاً. (٩) في الأصل وم: وأيضاً. (١٠) في الأصل وم: الآخر. (١١) في الأصل: والوجود إلا، في م: والجود إلا. (١٢) من م، في الأصل: المعاني. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: أيضاً. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقد حَذَّرَ اللهُ المؤمنينَ [السُّؤالَ][1] عنِ الأشياءِ التي[2] كُفُّوا عنها بقولِهِ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ﴾ [المائدة: ١٠١] فكيفَ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ السُّؤالُ عن مِثْلِهِ يَجيءُ؟ وذلكَ كُفْرٌ في الحقيقةِ عندَ قومٍ، ثم يَنهاهُمْ عنْ ذلكَ، ولا يُوَبِّخُهُمْ في ذلكَ، بل يَليقُ القولُ في ذلكَ، ويُرْوَى أنَّ ذلكَ لَيسَ بِبَديعٍ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وأيضاً إنَّ اللهَ وَعَدَ أنْ يَجزيَ أحسَنَ ما[3] عَمِلُوا بِهِ في الدنيا، ولا شَيءَ أحْسَنُ مِنَ التوحيدِ، وأرْفَعُ قَدْراً مِنَ الإيمانِ بِهِ؛ إذْ هو المُسْتَحْسَنُ[4] بالعقولِ، والثوابُ المَوعودُ مِنْ جوهَرِهِ[5] الجَنَّةُ، حُسْنُهُ حُسْنُ الطَّبْعِ؛ وذلكَ دونَ حُسْنِ العَقْلِ؛ إذ لا يجوزُ أنْ يكونَ شَيءٌ حَسَنٌ في العُقولِ، لا يَسْتَحسِنُهُ ذو عَقْلٍ.

وجائزٌ ما استَحسَنَهُ الطَّبْعُ طبْعاً لا يَتَلَذَّذُ بِهِ كَطَبْعِ المَلائكةِ، ومِثْلُهُ في العُقوبَةِ. لِذلك لَزِمَ القولُ بالرُّؤيَةِ لِتكونَ كَرامَةً تَبْليغٍ في الجَلالَةِ ما أُكرِمُوا بِهِ، وهو أنْ يَصيرَ لَهُمُ المَعْبودُ بالغَيبِ شُهوداً كما صارَ المَطْلُوبُ مِنَ الثوابِ حُضوراً. ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ولا يَحتَمِلُ العِلْمُ، لأنَّ كُلّاً يُجمِعُ على العِلْمِ باللهِ في الآخِرَةِ، العِلْمَ الذي لا يَعْتَريه الوَسْواسُ. وذلكَ عِلْمُ العِيانِ لا عِلْمُ الاِسْتِدلالِ. وكَثْرَةُ الآياتِ لا تُحقِّقُ عِلْمَ الحَقِّ الذي لا يَعْتَري ذلكَ. دَليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] وما ذُكِرَ مِن اسْتِعانَةِ الكَفَرَةِ بالتَّكذيبِ في الآخرةِ وإنكارُ الرُّسلِ وقولُهُمْ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وغيْرُ ذلكَ.

وبَعْدُ فإنَّهُ إذ لا يَجوزُ أنْ يَصيرَ عِلْمُ العِيانِ نَحْوَ عِلْمِ الاسْتِدلالِ لم يَجُزْ أنْ يَصيرَ عِلْمُ الاِسْتِدلالِ نَحْوَ علمِ العِيانِ، فَثَبَتَ أنَّ الرُّؤيَةَ تُوجِبُ ذلكَ. وبَعْدُ فإنَّهُ[6] في ذلكَ العِلْمِ يَسْتَوي المُؤمِنُ والكافِرُ. والبِشارَةُ بالرُّؤيَةِ خُصَّ بها المؤمنُ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ولا نَقولُ بالإدراكِ بِقولِهِ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فَقَدِ امْتُدِحَ بِنَفْيِ الإدراكِ لا بِنَفْيِ الرُّؤيَةِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] كانَ في ذلكَ إيجابُ العِلْمِ ونَفْيُ الإحاطةِ. فَمِثْلُهُ في الحَقِّ الإدراكُ، وباللهِ التوفيقُ.

وأيضاً إنّ الإدراكَ إنما هو الإحاطةُ بالمَحْدُودِ، واللهُ يَتَعالَى عَنْ وَصْفِ الحَدِّ؛ إذ هو نهايةٌ وتَقْصِيرٌ عمّا هو أعْلى منْهُ، على أنَّهُ واحِدِيُّ الذاتِ. والحَدُّ وَصْفُ المُتَّصِلِ الأجزاءِ حتى يَنْقَضِيَ مَعَ إحالَةِ القَوْلِ بالحَدِّ؛ إذا كانَ، ولا ما يُحَدُّ، أو بِهِ يُحَدُّ، فهو على ذلكَ لا يَتَغيَّرُ. على أنَّ لِكُلِّ شَيءٍ حَدّاً[7]، يُدْرَكُ سَبيلُهُ، نَحْوَ الطَّعْمِ واللَّونِ والذَّوقِ، والحَدُّ وغَيْرُ ذلكَ مِنْ حُدودِ خاصِّيَّةِ الأشياءِ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيءٍ مِنْ ذلكَ وَجْهاً يُدْرَكُ، ويُحاطُ بِهِ حتى العُقولِ والأعراضِ.

فأخْبَرَ اللهُ تعالى أنهُ لَيسَ بِذي حُدودٍ وجهاتٍ؛ هي طُرُقُ إدراكِهِ بالأسبابِ[8] الموضوعَةِ لِتلكَ الجهاتِ. وعلى ذلكَ القولُ بالرُّؤيَةِ والعِلْمِ جميعاً، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وبَعْدَ فإنَّ القولَ بالرُّؤيَةِ يَقَعُ على وُجوهٍ لا تُعلَمُ حَقيقَةُ كُلِّ وجهٍ مِنْ ذلكَ إلّا بالعِلْمِ بذلكَ الوجهِ حتّى إذا عُبِّرَ عنهُ بالرُّؤيَةِ صُرِفَ إلى ذلكَ، وما لا يُعْرَفُ لهُ الوَجْهُ بِدونِ ذِكْرِ الرُّؤيَةِ لَزِمَ الوَقْفُ في ماهِيَّتِها على تَحْقيقِها.

[أحَدُها: الإدراكُ][9]: هو مَعْنَى الوقوفِ على حُدودِ الشَّيءِ. ألا تَرَى أنَّ الظِّلَّ في التَّحْقيقِ يُرَى؟ لكنَّهُ لا يُدْرَكُ إلّا بالشَّمْسِ، وإلّا كانَ مَرْئِيّاً على ما يُرَى لَوَقْتِ نَسْخِ الشَّمْسِ، ولكنْ لا يُدرَكُ إلّا بما يَتَبَيَّنُ لهُ الحَدُّ.

وكذلكَ ضَوءُ النهارِ يُرَى؛ لكنَّ حَدَّهُ لا يُعْرَفُ بذاتِهِ، وكذلكَ الظُّلْمَةُ؛ لأنَّ طَرَفَها، لا يُرَى، فَيُدْرَكُ، ويُحاطُ بِهِ، وبالحُدودِ يُدْرَكُ الشَّيءُ، وإنْ كانَ يُرَى لا بِها. ولذلكَ ضُرِبَ المَثَلُ بالقَمَرِ؛ لأنهُ لا يُعْرَفُ حَدُّهُ ولا سَعَتُهُ لِيُعْرَفَ، ويُحاطَ بِهِ، ويُرَى بيقينٍ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قد. (٣) في الأصل وم: مما. (٤) من م، في الأصل: المحسن. (٥) من م، في الأصل: جوهر. (٦) من م، في الأصل: فإن. (٧) في الأصل وم: حد. (٨) في الأصل وم: بالأسنان. (٩) في الأصل وم: وأما الإدراك إنما.

والأصلُ فيهِ القولُ بذلكَ على قَدْرِ ما جاءَ بهِ، ونَفَى كُلَّ مَعْنىً مِنْ مَعانِي الخَلْقِ، ولا يُفَسِّرُ لِما لَمْ يَجِئْ، واللهُ الموفقُ.

ثم زعَمَ الكَعْبِيُّ أنَّ الغائبَ، إنْ لم يَخرُجْ عنِ الوُجوهِ التي بها يُعْلَمُ، فكذلكَ لا يُرَى إلّا بالوُجوهِ التي بها يُرَى مِنَ المُبايَنَةِ لِلْمَرْئِيِّ ولِما حَلَّ فيهِ المَرْئِيُّ بالمَسافَةِ والمُقابَلَةِ واتِّصالِ الهَواءِ والصِّغَرِ [وعَدَمِ الصِّغَرِ][1] والبُعْدِ. ولو جازَتِ الرُّؤْيَةُ بِخلافِ هذهِ لَجازَ العِلْمُ بهِ.

قالَ الشيخُ [رَحْمَةُ اللهِ عليهِ][2]: وهذا خَطَأٌ، لأنهُ قَدَّرَ رُؤْيَةَ جَوْهَرِهِ، [وقد عُلِمَ أنَّ غَيْرَ جوهَرِهِ][3] جَوهَرٌ يُرَى[4] مِنَ الوَجْهِ الذي لا يُقْدَرُ على الإحاطةِ بِجَوهَرِهِ فَضْلاً عن إدراكِهِ بَبَصَرِهِ، نَحْوُ المَلائكةِ والجِنِّ وغَيرِهِمْ مِمّا يَرَوْنَنا مِنْ حَيثُ لا نَراهُمْ، والجُثَةِ الصَّغِيرةِ نَحْوِ البَقِّ ونَحْوِ ذلكَ مِمّا يُرى لِما لو تَوَهَّمَ مِثْلَ ذلكَ البَصَرُ لَما احْتَمَلَ الإدراكَ.

ويَرَى المَلَكُ الذي يَكْتُبُ جَميعَ أفعالِنا، ويَسْمَعُ جَميعَ أقوالِنا على ما لو أرَدْنا تَقْديرَ ذلكَ بِما عليهِ جُبِلْنا لَلَزِمَ إنْكارُ ذلكَ كُلِّهِ، وذلكَ عظيمٌ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ نُطْقِ الجُلُودِ وغَيرِها مِمّا لَوِ امْتُحِنَ بِمثْلِها أمرُ الشاهِدِ لَوُجِدَ عظيماً.

وبَعْدُ فإنهُ في الشاهِدِ يَفصِلُ بَينَ البَصَرينِ في الرُّؤْيَةِ والتَّمْييزِ على قَدْرِ تفاوُتِهِما بِما اعْتَراها في الحُجُبِ مِمّا لو قابَلَ أحَدُهُما حالَ الآخَرِ على حالِهِ وَجَدَهُ مُسْتَنْكَراً. وإذا كانَ كذلكَ بَطَلَ التَّقْديرُ بالذي ذَكَرَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والثاني[5]: أنهُ في الشاهِدِ بِكُلِّ أسبابِ العِلْمِ لا يُعْلَمُ غَيْرُ العُضْوِ والجِسْمِ. ثم جائزٌ العِلْمُ بالغائبِ خارجاً مِنْهُ، فَمِثْلُهُ الرُّؤْيَةُ.

والثالثُ: ما ذَكَرْنا مِنْ رُؤْيَةِ الظِّلِّ والظُّلْمَةِ والنُّورِ مِنْ غَيْرِ شَيءٍ مِنْ تلكَ الوُجوهِ.

والرابعُ: أنهُ قد يجوزُ وجودُ تلكَ المعاني كُلِّها مَعَ عَدَمِ الرُّؤْيَةِ إمّا [بالحَجْبِ وإمّا][6] بالجوهَرِ، فَجازَ تَحْقِيقُ الرُّؤْيَةِ على نَفْيِ تلكَ المَعاني نَحْوَ ما أُجِيبَ القائلُ بالجِسْمِ عندَ مُعارَضَتِهِ بالفاعِلِ.

والعالَمُ، إذْ وُجِدَ، جِسْمٌ لا كذلكَ، فَيجوزُ وجودُ ذلكَ، ولا جِسْمٌ؛ فَمِثْلُهُ في الرُّؤْيَةِ. على أنَّ البُعْدَ الذي يَحجُبُنا عَنِ[7] الرُّؤْيَةِ يجوزُ أنْ يَبْلُغَهُ بَصَرُ غَيرِنا، فصارَ ارْتِفاعُ الرُّؤْيَةِ بالحِجابِ، فإذا ارْتَفَعَ جازَ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

وبَعْدُ فإنَّ الذي يقولُهُ تَقْديرٌ بِرُؤْيَةِ الأجسامِ، ولم يُمْتَحَنْ بَصَرُهُ بِغَيرِ الأجسامِ والأعراضِ أنْ كيفَ سَبيلُ الرُّؤيَةِ لَهُ؟

وبَعْدُ فإنَّ كُلَّ جِسْمٍ يُرَى، وإنْ كانَتِ الدِّقَّةُ والبُعْدُ يَحْجُبانِ، فيجوزُ ارْتِفاعُهُما عَنْ بَصَرِ غَيْرٍ، فَيَرَى مَلَكُ المَوتِ مَنْ بأطرافِ الأرضِ وَوَسْطِها لو اعْتُبِرَ ذلكَ بِبَصرِ البَشَرِ لَما احْتَمَلَ الإدراكَ. فَثَبَتَ أنَّ الذي قَدَرَ بِهِ لَيسَ هو سَبَبَ تعريفِ ما يُبْصِرُهُ، ولكنْ سَبَبُ تَعْريفِ ما يُحْجَبُ بِهِ البَصَرُ. فإذا ارْتَفَعَ رأى مَعَ ما كانَ المَنْفِيُّ رُؤْيَتُهُ لِذاتِهِ عَرَضَ.

فإنْ لَزِمَ إنْكارُ الرُّؤْيَةِ لِما لَيسَ بِجِسْمٍ أو لِما لا يُرَى إلّا بِما ذَكَرَ لِيَلْزَمَ الإقرارُ بِهِ؛ لأنَّ الذي لا يُرَى لِذاتِهِ، هو العَرَضُ، وإلا فَكُلُّ غَيرٍ يُرى، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وإنْ[8] عُورِضَ بأمرِ الدنيا، وبِحالِ العَرَضِ بذلكَ فلا[9] يُسْقِطُ المِحْنَةَ، ويَرْفَعُ الكُلْفَةَ. والدنيا هي لهما. ثم ذُكِرَ في أمرِ مُوسَى أنَّ ذلكَ على عِلْمِ الإحاطَةِ بالآياتِ، وقد بَيَّنّا فسادَ ذلكَ، وما ذلكَ بالذي يُسْأَلُ، وهو رسولٌ، بُعِثَ إلى ما بِهِ نجاةُ الخَلْقِ، وذلكَ لا يكونُ بِغَيرِ / ١٨٥ ـ ب/ المُمْتَحَنِ؛ إذْ هو تَبليغُ الرسالةِ والدعاءِ إلى العبادَةِ، وهي مِحْنَةٌ.

بل سأَلَ الرُّؤيَةَ لِيُجِلَّ قَدْرَهُ، ويَعْرِفَ[10] عظيمَ مَحَلِّهِ عندَ اللهِ، أو أنْ يكونَ اللهُ أمَرَهُ بِهِ لِيَعْلَمَ الخَلْقُ جوازَ ذلكَ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم اسْتُدِلَّ بأنهُ لم يُرَ مَنْ يَعْقِلُ، إنما أُرِيَ الجَبَلَ، والجَبَلُ لا يَعْقِلُ لِيَعْلَمَهُ، ولِيراهُ، فَيُقالُ لهُ: ولو كانَتِ الآيَةُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: رحمة الله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: يرون. (٥) في الأصل وم: وأيضاً. (٦) في الأصل: بحجب أو، في م: بالحجب أو. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: و. (٩) الفاء ساقطة من الاصل وم. (١٠) في الأصل وم: ليعرف.

[الجبلَ](١) فالجَبلُ لا يَراها، ولا يَعقِلُ. فإذا كانَ كذلكَ فالآيةُ إذن صارتِ(٢) انْدِكاكَ الجَبَلِ، لا أنْ أراهُ الآيةَ يَستَدِلُّ بها.وفي هذا آيةٌ؛ قد رأى مُوسَى الآيةَ، وهي انْدِكاكُ الجَبَلِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وجُملَتُهُ على الآيةِ، وقد رآها، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

فإنْ قِيلَ: ما مَعْنَى تَوبَتِهِ، لو كانَ سُؤالُهُ على الأمرِ؟ قِيلَ: على العادَةِ في الخَلْقِ لِما(٣) يُحدِثُهُ عندَ الأهوالِ بلا حُدوثِ ذنبٍ، أو لِما رَأى مِن جَلالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ، فَزِعَ إلى التوبَةِ وإحداثِ الإيمانِ بهِ، وإنْ لم يَكُنْ يُوجِبُ ذلكَ، وذلكَ مُتعارَفٌ في الخَلْقِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وكانَ عندَهُ جوازُ الرُّؤيَةِ في الشاهِدِ واحتِمالُ وُسْعِهِ ذلكَ بما وَعَدَ اللهُ في الآخِرَةِ، رَجَعَ عمّا كانَ عندَهُ، وآمَنَ بالذي قالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وإنْ كانَ في أصْلِ إيمانِهِ داخلاً على نَحْوِ إحداثِ المؤمنِينَ الإيمانَ بكُلِّ آيَةٍ تَنزِلُ وبكُلِّ فريضَةٍ تتجدَّدُ، وإنْ كانُوا في الجُمْلَةِ مُؤمِنينَ بالكُلِّ، واللهُ الموفقُ.

وقد بيَّنّا ما قالوُا في قولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، [القيامة: ٢٢و٢٣].

والأصلُ في الكلام أنهُ إذا كانَ على أمرٍ مَعْهودٍ، أو يُقرَنُ بهِ المَقْصُودُ إليهِ، صُرِفَ عنْ حَقيقَتِهِ، وإلّا، لا؛ وذلكَ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وقولِهِ(٤): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦].

وأصْلُهُ أنَّ مَنْ قالَ: رَأيتُ فلاناً، أو نَظَرْتُ إلى فلانٍ لم يَحْتَمِلْ غَيْرَ ذاتِهِ، وإذا قالَ: رأيتُهُ يقولُ: كذا، ويَفْعَلُ كذا، إنهُ لا يريدُ بهِ رُؤيَةَ ذاتِهِ فَمِثْلُهُ أمرُ قِصَّةِ مُوسَى وهذهِ الآيَةِ.

ورُوِيَ عنْ ضِرارِ بنِ عَمْرٍو أنهُ أتَى البَصْرَةَ، فقالَ: يا أهْلَ البَصْرَةِ إمّا أنْ كانَ مُوسَى مُشَبِّهاً وإمّا أنْ كانَ اللهُ يُرَى؛ لأنهُ لو كانَ الذي لا يُرَى، فسألَ ربَّهُ رؤيَتَهُ كانَ جاهلاً بهِ مُشَبِّهاً خَلْقَهُ بهِ، فَدَلَّ أنهُ يُرَى.

ثم الأصْلُ أنَّ مَنْ تأمَّلَ الذي ذَكَرَهُ الكَعْبِيُّ عَرَفَ أنهُ مُشَبِّهِيُّ المَذْهَبِ؛ لأنهُ لم يَذْكُرِ المَعْنَى الذي لهُ يَجِبُ أنْ تكونَ الرُّؤيَةُ بتلكَ الشرائطِ، إنما أخْبَرَ أنهُ كذلكَ وَجَدَ، وهو قولُ المُشَبِّهَةِ: إنهُ وَجَدَ كلَّ فاعلٍ في الشاهِدِ جسماً، وكذا كلُّ عالمٍ، فَيَجِبُ مِثْلُهُ في الغائبِ.

ثم ذَكَرَ مَعْنَى رُؤيَةِ الجِسْمِ، ولم يَذْكُرْ مَعْنَى رُؤيَةِ غيرِ الجِسْمِ، حتى يكونَ لهُ دليلاً. وبَعْدُ فإنهُ نَفَى بالدِّقَّةِ والبُعْدِ وهما زائلانِ عنِ اللهِ تعالى. ثم احْتَجَّ بامْتِداحِ اللهِ تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقد قالَ: لا يَجوزُ أنْ يَزولَ. فَمِثْلُهُ عليهِ في قولِهِ: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠ و..] فلا يَجوزُ أنْ يزولَ.

ثم قد وَصَفَ اللهُ بالرُّؤيَةِ على إسقاطِ ما ذَكَرَ، فَثَبَتَ أنَّ ذلكَ طريقٌ، لا يُؤدِّي عَنْ كُنْهِ ما بهِ الرُّؤيَةُ.

فإنْ قِيلَ: كيفَ يُرَى؟ قِيلَ: بلا كيفٍ؛ إذِ الكَيْفِيَّةُ تكونُ بالذي(٥) صَوَّرَهُ، بل يُرَى بلا وَصْفِ قيامٍ وقُعودٍ واتِّكاءٍ وتَعَلُّقٍ واتِّصالٍ وانْفِصالٍ ومُقابَلَةٍ ومُدابَرَةٍ وقَصيرٍ وطويلٍ ونورٍ وظُلْمَةٍ وساكِنٍ ومُتَحَرِّكٍ ومُماسٍّ ومُبايِنٍ وخارِجٍ وداخِلٍ، ولا مَعْنَىً يأخُذُهُ الوَهْمُ، أو يُقَدِّرُهُ العَقْلُ، لِتَعاليهِ عَنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ الآية. قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: تَجَلَّى بالآياتِ والأعلامِ التي بِها يُرَى، وكذلكَ قالَ في قولِهِ ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ إنهُ إنما سألَ ربَّهُ الآياتِ والأعلامَ التي تُرَى لا رُؤيَةَ الذاتِ. وقد بَيَّنّا بُعْدَهُ وإحالَتَهُ لِما قد أعطاهُ مِنَ الآياتِ والأعلامِ [ما](٦) لَهُ غُنْيَةٌ عن غيرِها، فلا(٧) يَحتاجُ إلى غيرِها.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ مُوسَى سألَ ربَّهُ الرُّؤيَةَ في غيرِ وَقْتِ الرُّؤيَةِ، وهو يُقِرُّ بالرُّؤيَةِ، لكنهُ يقولُ: سَألَها في الدنيا، وبِنْيَتُهُ هذا العالَمُ، لا تَحْتَمِلُ ذلكَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ أخْبَرَ أنَّ الجَبَلَ لا يَسْتَقِرُّ لهُ فكيفَ تَسْتَقِرُّ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: صار. (٣) في الأصل: وم: من. (٤) في الأصل وم: و. (٥) بالأصل وم: الذي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أنتَ؟ لكنَّهُ يُنْشِئُ بَيِّنَةً تَحتَمِلُ ذلكَ. وقال الحَسَنُ: لِذلكَ قالَ مُوسَى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنْ لَيسَ في الدنيا الرُّؤْيَةُ. إلى نَحْوِ هذا يَذْهبُ الحَسَنُ. وقد ذَكَرْنا نَحْنُ الوجهَ على قَدْرِ ما حَضَرَ لنا.

وقالَ أهلُ التَّأويلِ: قولُهُ تعالى: ﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾ أي ظَهَرَ. لكنْ لا يُفْهَمُ مِنْ ظهورِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ ظُهورِ الخَلْقِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وغيرِهما[١] مِنَ الآياتِ؛ [لأنهُ][٢] لا يُقَدَّرُ اسْتِواؤُه باسْتِواءِ الخَلْقِ، وكذلكَ مَجيئُهُ. فَعَلَى ذلكَ ظُهورُهُ، وباللهِ العِصْمَةُ.

ورُوِيَ أنَّ في التَّوراةِ أنهُ جاءَ مِنْ طُورِ سِيناءَ، وظَهَرَ مِنْ جَبَلِ ساعُورا، واطَّلَعَ من جَبَلِ فارانَ وتأويلُهُ: جاءَ وَحْيُهُ على مُوسى في طُورِ سيناءَ، وظَهَرَ على عِيسَى في جَبَلِ ساعُورا، وطَلَعَ على محمدٍ في جَبَلِ فارانَ.

ثم العَجَبُ أنْ كيفَ اجْتَرَأَ مُوسَى بالسُّؤالِ بِسُؤالِ مِثْلِهِ ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؟ لكنهُ يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها: على الأمْرِ بالسؤالِ عَنْ[٣] ذلكَ لِيُعْلِمَ أنهُ يُرَى، ويَعْتَقِدُوا ذلكَ، أو على الظَّنِّ مِنهُ لَمّا رَأَى أنهُ أعطاهُ أشياءَ، لا يكونُ مِثْلُها في الدنيا، إنما يكونُ في الآخِرَةِ، خُصَّ بها، مِنْ نَحْوِ انفِجارِ العُيونِ مِنَ الحَجَرِ مِنْ غَيرِ مُؤْنَةٍ تكونُ لَهُمْ في ذلكَ في[٤] حَفْرِ الأنهارِ وإصلاحِها وأنواعِ المُؤَنِ، ونَحْوِ ما أعطاهُمْ مِنَ اللباسِ الذي يَنْمُو، ويَزْدادُ على قَدْرِ قامَتِهِمْ وطُولِهِمْ، ومِنْ نَحْوِ ما أعطاهُمْ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى على غيرِ مُؤْنَةٍ ولا جَهْدٍ. وذلكَ كُلُّهُ وَصْفُ الجَنَّةِ.

فلمّا رَأى ذلكَ ظَنَّ أنَّ الرُّؤْيَةَ أيضاً، تكونُ في الدنيا على ما كانَتْ لهُ مِنْ أشياءَ، لم يَكُنْ مِثْلُها لِأحَدٍ في الدنيا. أو لَمّا رَأَى أنهُ سَمِعَ كلامَ رَبِّهِ، والْقَى [على][٥] مَسامِعِهِ كلامَهُ؛ لا مِنْ مكانٍ ولا مِنْ قريبٍ ولا بَعيدٍ ولا مِنْ أسْفَلَ ولا مِنْ أعْلَى ولا مِنْ فَوقٍ ولا مِنْ تَحتٍ. لكنَّهُ سَمِعَ بما شاءَ، وكيفَ شاءَ؟ بِلُطْفِهِ، فَعَلَى ظَنَّ أنهُ يجوزُ لَهُ أنْ يَسْألَ رَبَّهُ الرُّؤْيَةَ، فَيُرِيَهُ بما شاءَ، وكيفَ شاءَ؟ بِلُطْفِهِ كما ذَكَرْنا.

الآية ١٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ سَمَّى اللهُ ﷻ، مُوسى وسائرَ الأنبياءِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ وسَلامُهُ، بأسْماءِ الجَوهَرِ مُوسَى وعِيسَى ونوحٍ وإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسْحاقَ، وسَمَّى نَبِيَّنا محمداً ﷺ، نَبِيًّا رسولاً وذلكَ يَدُلُّ على تَفْضِيلِهِ، وكذلكَ سَمَّى سائرَ الأُمَمِ [illegible]

[illegible] على غيرِها مِنَ الأُمَمِ. [illegible] وقالَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] [illegible] يا بَني إسرائيلَ، ويا بني آدَمَ، وسَمَّى أُمَّةَ محمدٍ [illegible] وسمى نَبِيَّنا محمداً ﷺ، [illegible] قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ ونَحْوَهُ. فذلكَ يَدُلُّ على تَفْضِيلِ أُمَّةِ [illegible]؛ لأنَّ الله تعالى لم يُكَلِّمْ [illegible]

[illegible]

وهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ تعالى لا يُرْسِلُ رسولاً، وهو يَسْتَحِقُّ الرسالةَ، ولو كان طريقُهُ الإسْتِحْقاقَ لا [illegible]

[illegible] مُوسى [illegible] الأنبياء، [illegible]

[illegible]

أحَدُهُما: القَبولُ؛ أيِ اقْبَلْ ما أعْطَيْتُكَ كقولِهِ[٦] تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣].

والثاني[٧]: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي اعْمَلْ بأحْسَنِ العَمَلِ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [لِنِعَمِهِ التي][٨] أنْعَمَها عليكَ مِنَ التَّكْليمِ والرِّسالَةِ [وغَيرِهِما مِنَ النِّعَمِ][٩] واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) في الأصل وم: وغيره. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: على. (٤) في الأصل وم: من. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كقولهم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وغيرها من النعيم.

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ وجْهَين:

أحدُهُما: أنهُ إنما أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ كما تولّى كتابَتَها الملائكةُ البَرَرَةُ الكرامُ؛ أضافَ إلى نفسِهِ تَفْضِيلاً لَهُمْ وتعظيماً على ما ذَكَرَ في الكتابِ في غَيرِ مَوضِعٍ مِنْ نَحْوِ [قولِهِ تعالى][1]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] أخبَرَ أنَّ طاعةَ الرَّسُولِ لَهُ طاعةٌ، وغَيرَ ذلكَ، فكذلكَ هذانِ، واللهُ أعلمُ.

[والثاني أنهُ][2]: أضافَ /١٨٦ ـ أ/ ذلكَ إلى نَفْسِهِ لِما كانَ، ويكونُ إلى يَومِ القِيامَةِ إنما يكونُ بـ: ﴿كُن﴾ الذي كانَ مِنْهُ في الأوقاتِ التي أرادَ أنْ يكونَ. فَعَلَى ذلكَ [كتابَتُهُ ذلكَ في][3] الألواحِ كانَتْ[4] تَحْتَ ذلكَ الـ ﴿كُن﴾.

وإنْ كانَ أضافَ بَعْضَ تلكَ الأشياءِ إلى نَفْسِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقولِهِ[5] تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، [وقولِهِ تعالى][6]: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل: ٦٠] [وقولِهِ تعالى][7]: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، [وقولِهِ تعالى][8]: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [النحل: ٨٧ و..] ونَحْوَ ذلكَ. فذلكَ كُلُّهُ كانَ[9] تَحْتَ قولِهِ ﴿كُن﴾ فكانَ[10] على ما أرادَ أنْ يكونَ[11] في الأوقاتِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن أمْرِهِ ونَهْيِهِ وحِلِّهِ وحَرامِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّوْعِظَةً﴾ قالَ المَوعِظَةُ هي التي تَحْمِلُ القُلُوبَ على القَبولِ والجَوارِحَ على العَمَلِ. قال بَعْضُهُمْ: المَوعِظَةُ هي التي تَنْهى عمّا لا يَحِلُّ. قالَ أبو بَكْرٍ: المَوعِظَةُ هي التي تُلِينُ القُلوبَ القاسِيَةَ، وتُدْمِعُ العُيُونَ الجامِدَةَ، وتُصْلِحُ الأعمالَ الفاسِدَةَ.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: وعِنْدَنا المَوعِظَةُ: هي [التي][12] تُذَكِّرُ العواقِبَ، وتَحْمِلُ[13] على العَمَلِ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ قِيلَ: تَفْصِيلاً لِما أُمِرُوا بِهِ، ونُهُوا عَنْهُ. وقِيلَ: بَياناً لِكُلِّ ما يُحتاجُ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [يَحْتَمِلُ][14] أيضاً وجْهَينِ: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَخُذْهَا﴾ أي اقْبَلْها[15] على ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ويَحْتَمِلُ: اعْمَلْ بِما فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: بِجِدٍّ ومُواظَبَةٍ. ولكنَّ قولَهُ تعالى ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ القُوَّةُ المعْروفَةُ. وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: لا يكونُ أخذَ قوةٍ، وقد أخبَرَ أنَّ أخذَها بقوةٍ؛ لأنهُمْ يَقولُونَ: إنَّ القُوَّةَ تكونُ قبلَ الفِعْلِ، ثم يَقولُونَ: إنها لا تَبْقى وقتَينِ. فيكونُ في الحاصِلِ: لو كانَتْ قَبْلَ الفِعْلِ أخذاً بِغَيرِ قوةٍ. دلَّ أنها مع الفِعْلِ.

وتَقولُ المُعتَزِلَةُ: دَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ على أنَّ القُوَّةَ قد تَقَدَّمَتِ الأمْرَ بالأخذِ. لكنْ لا يكونُ ما ذَكَرُوا لأنهُ أمْرٌ بأخذٍ بقوةٍ، دلَّ أنها تُقارِنُ الفِعْلَ لا تَتَقَدَّمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَأْخُذُوا۟﴾ ما ذَكَرْنا مِنَ الوَجْهَينِ القَبُولَ أو العَمَلَ؛ أي مُرْهُمْ يَقْبَلُوا بأحْسَنِ القَبولِ. ويَحْتَمِلُ مُرْهُمْ يَعْمَلُوا بأحْسَنِ ما فيها مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والحَلالِ والحَرام. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بِما هو أحْكَمُ وأتْقَنُ أو بأحْسَنَ مِمّا عَمِلَ بِهِ الأوَّلُونَ؛ إذْ فيهِ أخبارُ الأوَّلِينَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: كتبته ذلك. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كذا و. (٨) في الأصل وم: كذا. (٩) في الأصل وم: كانت. (١٠) في الأصل وم: فكانت. (١١) في الأصل وم: تكون. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: وتحمله. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: اقبل.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ: قالَ ذلكَ لِبَني إسرائيلَ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يَعْني سُنَّةَ الفاسِقِينَ، وهو الهَلاكُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وسُنَّتُهُ في أهْلِ الفِسْقِ والكُفْرِ الهَلاكُ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ جَهَنَّمَ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ الخِطابُ لِلْفَسَقَةِ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ يا أهْلَ الفِسْقِ ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ الآية يُخَرَّجُ هذا وجهَين:

أحَدُهما: سأصْرِفُهُمْ عنْ قَبولِها وتَصْديقِها إذاً[1] لم يَسْتَقْبِلُوها بالتَّعْظيمِ لها. بل اسْتَهْزَؤوا بها، واسْتَخَفُّوا بها على عِلْمٍ منهُمْ أنها آياتٌ مِنَ اللهِ وحُجَّةٌ.

والثاني: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ وُجودِ الطَّعْنِ والقَدْحِ فيها والكَيدِ لها.

ثم إنَّ كُلَّ[2] واحدٍ مِنْ هذينِ الوَجْهَينِ يَتَوَجَّهُ على وجهَينِ:

[أحَدُهما: ما][3] قالَ الحَسَنُ: إنَّ لِلْكُفْرِ حداً[4] إذا بَلَغَ الكافرُ ذلكَ الحَدَّ يُطْبَعُ عليهِ، فلا يَقْبَلُ، ولا يُصَدِّقُ آياتِهِ بَعْدَ ذلكَ.

والثاني: أنهُمْ كانُوا يَتَعَنَّتُونَ في آياتِهِ، ويُكابِرونَ في رَدِّها مَعَ عِلْمِهِمْ أنها آياتٌ وحُجَجٌ مِنَ اللهِ تعالى. فإذا تَعانَتُوا صَرَفَهُمْ عَنْ قَبولِها وتَصْديقِها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] أي خَلَقَ منهُمْ فِعْلَ الزَّيغِ وفِعْلَ الِانْصِرافِ. وهكذا كُلُّ مَنْ يَخْتارُ عَداوَةَ اللهِ، فاللهُ لا يَخْتارُ لهُ وِلايَتَهُ، ولكنْ يَخْتارُ لهُ ما اخْتارَ هو.

وأمّا قولُهُ[5]: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ وجودِ الطَّعْنِ فيها والقَدْحِ؛ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][6]: أنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لِلرُّسُلِ والأنبياءِ أضداداً مِنْ كُبَراءِ الكَفَرَةِ وعُظَمائِهِمْ، وكانُوا يَطْعَنُونَ في الآياتِ، ويَقْدَحُونَ فيها. فأخْبَرَ أنهُ يَصْرِفُهُمْ عنْ وُجودِ الطَّعْنِ فيها والقَدْحِ والكَيدِ لها، أي لا يَجِدونَ فيها مَطْعَناً ولا قَدْحاً.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ الهَلاكَ والإبطالَ بلِ المُهْلِكِينَ[7]، والآياتُ هي الباقِيَةُ.

ثم اخْتُلِفَ في الآياتِ: قالَ الحَسَنُ: ﴿ءَايَٰتِيَ﴾ ديني؛ وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا أنهُمْ إذا بَلَغُوا ذلكَ الحَدَّ صَرَفَهُمْ عنها.

وقالَ غَيرُهُ: آياتُهُ حُجَجُهُ وبراهينُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ كانُوا يَتَكَبَّرُونَ على[8] الرُّسُلِ لِما لم يَرَوهُمْ أمثالاً لأنفُسِهِمْ وأشكالاً. وهكذا كُلُّ مَنْ يَتَكَبَّرُ على آخَرَ يَتَكَبَّرُ لِما [لم][9] يَرَهُ مَثَلاً لِنَفْسِهِ ولا شَكْلاً، أو يَتَكَبَّرُ لِما يَرَى نَفْسَهُ سَليمَةً مِنَ[10] العُيوبِ، ويَرَى في[11] غَيرِهِ عُيوباً، أو يَرَى لِنَفْسِهِ حُقوقاً عليهِ، فيَتَكَبَّرُ.

لهذا فالخَلْقُ كُلُّهُمْ أكفاءُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ؛ لأنهُمْ أمثالٌ وأشكالٌ، وفيهِمُ العُيوبُ والحاجاتُ، فلا يَسَعُ لِأحَدٍ الكِبْرُ على أحَدٍ، وإنما التَّكَبُّرُ لِلَّهِ تعالى، فَلَهُ يَليقُ لِما لا مِثْلَ لَهُ، ولا شَكْلَ، مُنَزَّهٌ عنِ العُيوبِ كلِّها والحاجاتِ. لذلكَ كانَ هو الموصوفَ بالكِبرياءِ والعَظَمَةِ.

وقولُهُ تعالى ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي لَيسُوا هُمْ بأهلِ الكِبْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ أمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَرَوْا۟﴾ أي وإنْ عَلِمُوا أنهُ آيةٌ فلا[12] يُؤْمِنُونَ بِهِ أبداً. هذا في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهُمْ لا يُؤْمِنونَ أبداً، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي وإنْ عَلِمُوا أنّ ذلكَ هو سَبِيلُ الغَيِّ والباطِلِ ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

---

(١) في الأصل وم: إذ. (٢) من م، في الأصل: لكل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حد. (٥) الضمير يعود إلى الحسن. (٦) في الأصل وم: وذلك. (٧) في الأصل وم: المهلكون. (٨) من م، في الأصل: هم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: عن. (١١) من م، في الأصل: عن. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يَحْتمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصَّرفَ الذي ذَكَرَ عنْ آياتِهِ لَمَا كَذَّبوا الآياتِ بَعْدِ عِلْمِهِمْ أنها آياتٌ مِنَ اللهِ ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ غَفْلَةَ الإعراضِ والعِنادِ لا غَفْلَةَ الجَهْلِ والسُّوءِ.

الآية ١٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي الذينَ كَذَّبُوا بالآياتِ والبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يَحْتمِلُ هذا وجهَين: يَحْتمِلُ أنهُمْ كانُوا مُؤمِنينَ مِنْ قَبْلُ، فَكَذَّبُوا الآياتِ، فَكَفَرُوا بها فَحَبِطَتِ الأعمالُ التي كانَتْ لَهُمْ في حالِ الإيمانِ، وبَطَلَتْ، ويَحْتمِلُ: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ المَعْرُوفَ الذي كانُوا يَفْعَلُونَ في حالِ الكُفرِ مِنْ نَحْوِ صِلَةِ الرَّحِمِ والصَّدَقاتِ وغَيرِهِ مِنَ المَعْرُوفِ، والخَيراتِ التي عَمِلُوا بها، حَبِطَتْ [أي حَبِطَ][1] ثوابُ ذلكَ كُلِّهِ إذا لم يَأتُوا بالإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ما ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الاسْتِهزاءِ بالآياتِ والاسْتِخفافِ.

الآية ١٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ وقولُهُ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ كيفيَّةُ وَصْفِ اتِّخاذِ العِجْلِ ما ذَكَرَ في سورةِ طه بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [الآية: ٨٨] الآيةُ وَصْفُ اللهِ ﷻ، قومَ مُوسَى بَعضَهُمْ بالهِدايَةِ والعَدالةِ واتِّباعِ الحَقِّ بقولِهِ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، و بعضَهُمْ وَصَفَهُمْ بالسَّفاهَةِ وقِلَّةِ الفَهْمِ والضَّعفِ في الدينِ بقولِهِمْ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

[وقولُهُ تعالى][2] ههنا ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ اتَّخَذُوا العِجْلَ إلهاً عَبَدُوهُ؛ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِما لم يَعْرِفُوا نِعَمَ اللهِ، ولم يَتَفَكَّرُوا في آياتِهِ وحُجَجِهِ، يَذْكُرُ هذا لنا لِنَنْظُرَ في آياتِهِ وحُجَجِهِ ولِلتَّفَكُّرِ في نِعَمِهِ، فَنُؤدِّيَ شُكْرَها، ونَتَدَبَّرَ في آياتِهِ وحُجَجِهِ لِنَتَّبِعَها، ولا نُضَيِّعَها على ما ضَيَّعَ قومُ مُوسَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي مِنْ بَعْدِ مُفارَقَةِ مُوسَى قومَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] وكانَتْ تِلْكَ الحُلِيُّ عارِيَةً عندَهُمْ مِنْ قوم فِرعَونَ. بقولِهِ: ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أضافَ إلى فِرْعَونَ، وأضافَ ههنا إلى قومِ موسَى بِقولِهِ: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ دلَّ أنَّ العارِيَةَ يَجوزُ أنْ تُنْسَبَ إلى المُسْتَعِيرِ.

وفيهِ[3] دلالَةٌ أنَّ مَنْ حَلَفَ ألاّ يَدْخُلَ دارَ فُلانٍ، فَدَخَلَ داراً، لَهُ عارِيَةٌ عِنْدَهُ، يَحْنَثُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: صُورَتُهُ كانَتْ صُورَةَ عِجْلٍ، ولم يَكُنْ عِجْلاً في خُوارِهِ، وقيلَ: الجَسَدُ، هو الذي لا تدبيرَ لهُ، ولا تَمْييزَ، ولا بَيانَ، لكنَّهُ ذَكَرَ فيهِ هذا لِما[4] يَحْتاجُ إلى هذا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ولكنَّهُ كأنهُ قالَ ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ أنهُمْ عَبَدُوا مَنْ لا تدبيرَ لَهُ، ولا كَلامَ، ولا سَبَبَ[5] يُعَبِّرُ بِهِ، أو دُعاءَ، واختارُوا إلهِيَّةَ مِنْ وَصْفِهِ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ قِيلَ: إنَّ السامِرِيَّ قد أخَذَ ﴿قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]، فَألْقَى تلكَ القَبْضَةَ في الحُلِيِّ [التي ألْقوها][6] في النارِ، فصارَ /١٨٦ ـ ب/ شِبْهَ عِجْلٍ لَهُ خُوارٌ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: صاغَ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً، فَنَفَخَ فيهِ مِنْ تلكَ القَبْضَةِ، فَخارَ خُواراً. وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ السامِرِيَّ كانَ هَيَّأَ ذلكَ العِجْلَ الذي اتَّخَذَهُ بِحالٍ حتى إذا مَسَّهُ خارَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ وَضَعَهُ[7] في مَهَبِّ الرِّيحِ، فيَدْخُلُ الرِّيحُ في دُبُرِهِ، ويَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، فَعِنْدَ ذلكَ يَخُورُ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقالوا. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ما لا. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: الذي. (٦) في الأصل وم: الذي ألقوه. (٧) في الأصل وم: وضع.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ذَكَرَ ﴿أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ وفي سورة طه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الآية: ٨٩] لَيسَ فيه أنهُ إنْ كانَ ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾أو ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يَجزْ[1] أنْ يُعْبَدَ لِيُعْلِمَ أنَّ ذِكْرَ حَظْرِ الحُكْمِ في حالٍ لا يُوجِبُ إباحَةَ ذلكَ في حالٍ أُخرَى.

وفيهِ أنَّ امْتِناعَ العِلَّةِ عَنِ اطِّرادِها يُوجِبُ نَقْضَها، وإنْ كانَ اطِّرادُها في الابْتِداءِ في مَعْلُولاتِها لم يَدُلَّ على صِحَّتِها.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [وقولِهِ تعالى][2]: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ذِكْرُ سَفَهِهِمْ لِعبادَتِهِمْ شَيئاً لا يَمْلِكُ ﴿لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً عَبَدُوهُ ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ في عِبادتِهِمُ العِجْلَ؛ لأنهُمْ وضَعُوا العِبادَةَ في غَيرِ مَوضِعِها.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ هذا حَرفٌ تَسْتَعْمِلُهُ العَرَبُ عندَ وقوعِ النَّدامَةِ وحُلُولِها. وتأويلُهُ: لَمّا رَأوا أنهُمْ قد ضَلُّوا: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي نَدِمُوا على ما كانَ منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ أي ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ ويُوَفِّقْنا الهِدايةَ والعِبادَةَ لَهُ[3] ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ لِما كانَ مِنّا مِنَ العِبادَةِ لِلْعِجْلِ والتَّفْريطِ في العِصْيانِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ابْتِداءَ سَبَبِ الرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية [هود: ٩٠] ويَحتَمِلُ التَّجاوُزَ لِما كانَ مِنْهُمْ والعَفْوَ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بَعْدَ قولِهِ تعالى: ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ دلالةُ أنَّ الكلامَ هو ما يُفْهَمُ به المُرادُ، لَيسَتِ الحروفُ نَفْسُها؛ لانهُ أخْبَرَ أنَّ لَهُ خُواراً[4]. ثم أخْبَرَ ﴿أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ دلَّ أنَّ الصوتَ، وإنْ كانَ ذا هِجاءٍ وحُروفٍ لَيسَ بِكلامٍ، وذلكَ يَدُلُّ لِأصحابِنا في مَسْألةِ مَنْ[5] حَلَفَ ألاّ يكَلِّمَ فُلاناً، ثم خاطَبَهُ بِشَيءٍ لا يُفْهَمُ مُرادُهُ فإنَّ[6] ذلكَ لَيسَ بِكلامٍ، ولا يَحْنَثُ.

الآية ١٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ الأسَفُ هو النِّهايةُ في الحُزْنِ والغَضَبِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] هو النِّهايةُ في الحُزْنِ. والأسَفُ في مَوضِعِ الغَضَبِ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغْضَبُونا. لكنَّ الغَضَبَ يكونُ على مَنْ دُونَهُ، والأسَفَ والحُزْنَ على مَنْ فَوقَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَضْبَانَ﴾ أي للهِ على قومِهِ لِعبادتِهِمُ العِجْلَ وتَرْكِهِمْ عِبادةَ اللهِ حُزْناً على قومِهِ لِما يَلْحَقُهُمْ بِعبادَتِهِمُ العِجْلَ مِنَ العُقوبَةِ. وهكذا الواجِبُ على مَنْ رأى المُنْكَرَ أنهُ يَغْضَبُ لِلّهِ على مُرْتَكِبِ ذلكَ المُنْكَرِ لِمُعايَنَةِ المُنْكَرِ، ويأسَفُ عليهِ لِما يَلْحَقُهُ مِنَ العُقوبَةِ والهَلاكِ رَحْمَةً منهُ لَهُ ورأفَةً، ويَلْزَمُ الشُّكْرَ لِرَبِّهِ لِما عَصَمَهُ عن مِثْلِهِ.

وكذلكَ وَصَفَ رسولَهُ ﷺ[7] بالأسَفِ والحُزْنِ لِتكذيبِهِمْ إياهُ حتى كادَتْ نَفْسُهُ تَهْلِكُ حُزْناً عليهِمْ حينَ قالَ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقالَ[8]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

ذَكَرَ هذِهِ القِصَّةَ لنا لِنَعْرِفَ أنْ كيفَ نُعامِلُ أهلَ المَناكيرِ وقْتَ ارْتِكابِهِمُ المُنْكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ بِئْسَما اخْتَرْتُمْ مِنْ عِبادَتِكُمُ العِجْلَ على عِبادَةِ اللهِ.

والثاني: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ باتِّباعِكُمُ السامِرِيَّ إلى ما دَعاكُمْ إليهِ بَعْدَ اتِّباعِكُمْ إيّايَ وأخِي رسولَ اللهِ وما أمَرَكُمْ بِهِ، ودَعاكُمْ إلى عِبادةِ اللهِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يجوز. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لك. (٤) في الأصل وم: خوار. (٥) في الأصل وم: إذا. (٦) في الأصل وم: إن. (٧) في م، ﷺ. (٨) في الأصل وم: وقوله.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: أعَجِلْتُمْ ميعادَ ربِّكُمْ؟ كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦] أي أعَجِلْتُمُ الوَعْدَ الحَسَنَ الذي وَعَدَ لَكُمْ ربُّكُمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقالَ آخَرُونَ: قولُهُ تعالى: ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ عذابَ ربِّكُمْ وغَضَبَهُ بِعِبادَتِكُمُ العِجْلَ واتِّخاذِكُمْ إلهاً. وقد سَمَّى اللهُ تعالى الأمْرَ في غيرِ موضِعٍ مِنَ القرآنِ عذاباً كقولِهِ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] ونَحْوِهِ: ﴿جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ قالَ أكثرُ أهلِ التأويلِ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي طَرَحَها على الأرضِ غَضَباً منهُ، فرَفَعَ منها كذا وكذا، وبَقِيَ كذا. لكنْ لا يَجوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ طَرْحُها، لا غَيْرُ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾؟ [النحل: ١٥] لَيسَ يُفْهَمُ منهُ الطَّرْحُ والإلقاءُ، لكنْ إنما فُهِمَ منهُ الوَضْعُ.

فعَلى ذلكَ قولُهُ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي وَضَعَها[1] لأنهُ أخَذَ رأسَهُ ولِحْيَتَهُ؛ أعني رأسَ أخيهِ هارونَ، ولا سَبيلَ لهُ إلى أنْ يأخُذَ رأسَهُ ولِحْيَتَهُ، والألواحُ في يَدِهِ، فوَضَعَها على الأرضِ، ثم أخَذَ رأسَهُ ولِحْيَتَهُ، وجَرَّهُ إليهِ.

وعَلى ما ذُكِرَ في سورةِ طه حِينَ[2]: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [الآية: ٩٤] دَلَّ هذا أنْ كانَ أخَذَ رأسَهُ ولِحْيَتَهُ جَميعاً لِشِدَّةِ غَضَبِهِ لِلّهِ على صَنيعِ قومِهِ.

وفي الآيةِ دلالةُ العَمَلِ بالاجْتِهادِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ موسى يأخُذُ رأسَهُ بالوَحْيِ والأمْرِ مِنَ اللهِ، ثم يقولَ لهُ هارونُ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾ ولا بكذا، ولا تَفْعَلْ كذا.

وفيهِ أيضاً أنَّ هارونَ لمّا قالَ لهُ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ﴾ إنما قالَ ذلكَ بالاجْتِهادِ حِينَ[3] قالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤] لأنهُ لو كانَ يقولُ لهُ بالوَحْيِ أو بالأمْرِ لم يكُنْ لِيَعْتَذِرَ إليهِ بقولِهِ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾ فيهِ دلالةُ أنهُ إنما أخَذَ شَعْرَ رأسِهِ؛ لأنهُ لو كانَ أخَذَ رأسَهُ لَكانَ لا يَحتاجُ إلى أنْ يَجُرَّهُ إليهِ. دَلَّ أنهُ كانَ أخَذَ بِشَعرِ رأسِهِ. وكذلكَ قولُهُ ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤]

وفيهِ دلالةٌ لِأصحابِنا أنَّ مَنْ مَسَحَ رأسَهُ، ثم أزالَ شَعْرَهُ، لم يَسْقُطْ عنهُ حُكْمُ المَسْحِ، وإذا مَسَحَ على لِحْيَتِهِ، ثم سَقَطَتْ[4]، زالَ عنهُ حُكْمُهُ، ولَزِمَ غَسْلُ ذَقْنِهِ، لِما سَمَّى الشَّعْرَ رأساً، وسَمَّى اللِّحْيَةَ لِحْيَةً؛ وسُقوطُها يُسْقِطُ حُكْمَ المَسْحِ، وسُقوطُ شَعْرِ الرأسِ لا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ خَرَجَ هذا صِلَةَ قولِ موسى لِهارونَ لَمّا [قالَ لهُ][5]: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢ و٩٣] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

الآية ١٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ قالَ بَعْضُهُمْ إنما خَصَّ أخاهُ بسؤالِ المَغْفِرَةِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنما قالَ ذلكَ جَواباً لما[6] قالَ هارونُ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ الآيةَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ تَخصيصُ السؤالِ لهُ بالمَغْفِرَةِ لَمّا سألَ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ هارونَ لهُ وزيراً بِقولِهِ: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٢] لَمّا سألَ ربَّهُ أنْ يُشْرِكَهُ في أمْرِهِ، ويَشُدَّ بهِ أزْرَهُ. فعَلى ذلكَ خَصَّهُ بسؤالِ المَغْفِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأنَّ كُلَّ مَنْ يَرْحَمُ [مَنْ دونَهُ فإنما][7] يَرْحَمُ بِرحْمتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: وضع. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: سقط. (٥) من م، في الأصل: قاله.
(٦) في الأصل وم: مما. (٧) في الأصل وم: دونه.

الآية ١٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي عَبَدُوا العِجْلَ ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ القَتْلُ والهلاكُ في الدنيا. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ ﴿غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ القَتْلُ والهلاكُ ﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ الجِزْيَةُ والسَّبْيُ والقَهْرُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ ذِكْرَ الذَّمِّ بِصَنِيعِهِمْ وثناءِ الخَيرِ على ما كانَ بِصَنِيعِ الخَيرِ والمَحْمَدَةِ في الدنيا وثَناءِ الخَيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهُما: أي قد نالَهُمْ ﴿غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ وما ذَكَرَ.

والثاني: أنْ يكونَ هذا مذكوراً في كُتُبِهِمْ: أنَّ مَنِ اتَّخَذَ العِجْلَ مَعْبوداً ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ فإنْ كانَ هذا خَبَراً عمّا في كُتُبِهِمْ فَسَينالُهُمْ على الوعدِ صحيحٌ، وإلّا على الخَبَرِ أي قد نالَهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ أي كذلكَ نَجزي كُلَّ مُفْتَرٍ على اللهِ تعالى.

الآية ١٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ﴾ قالَ أهلُ التَّأويلِ: قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يَعْني الذينَ عَبَدُوا العِجْلَ ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وهو في كلِّ مَنْ عَمِلَ السَّيِّئاتِ /١٨٧ ـ أ/ أيَّ سَيِّئَةٍ كانَتْ: إذا تابَ عنها، ونَدِمَ عليها، وطَلَبَ مِنَ اللهِ المَغْفِرَةَ، غَفَرَ لَهُ.

الآية ١٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ الذي غَضِبَ للهِ على قومِهِ بِعِبادَتِهِمُ العِجْلَ. ولا يَحْتَمِلُ ما قالَهُ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: إنَّ الغَضَبَ عُقوبَةٌ وشَتْمٌ؛ لأنَّ الغَضَبَ مَعْرُوفٌ، لا يَجوزُ أنْ يُتَأوَّلَ ما قالَ هو.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ يَعْني الألواحَ التي وضَعَها على الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: يَعْني في نُسْخَةِ الألواحِ لَمّا كانَتْ قد نُسِخَتْ مِنَ اللوحِ المَحفوظِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ أي الكُتُبُ التي انْتَسَخَها بَنو إسرائيلَ مِنْ تلكَ الألواحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ أي هُدىً مِنْ كُلِّ ضَلالَةٍ وبَيانٌ مِنْ كُلِّ عَمىً وشُبْهَةٍ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ مِنْ كُلِّ سَخْطَةٍ وغَضَبٍ ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ أي للذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، فَيَعْمَلُونَ.

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ أي لِتَمامِ المَوعِدَةِ التي وَعَدَ، وهو الأربعونَ الذي وَعَدَ. ولكنْ لا نَدْري ما ذلكَ الميقاتُ الذي ذَكَرَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ قالَ بَعْضُهُم: السَّبْعِينَ الذينَ اخْتارَهُمْ مُوسَى لِيَكُونُوا مَعَ هارونَ، فَعَبَدوا العِجْلَ في أفْنِيَتِهِمْ، فلم يُنْكِرُوا، ولم يَغيروا عليهما[2]، ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ وقالَ الحَسَنُ: إنهُمْ[3] جميعاً قد عَبَدُوا العِجْلَ إلّا هارونَ، فالرَّجْفَةُ التي أخَذَتْهُمْ إنما أخَذَتْهُمْ عُقوبَةً لِما عَبَدُوا العِجْلَ. ولَسْنا نَدْري مَنْ أولئكَ السَّبْعُونَ[4] الذين اختارَهُمْ مُوسَى؟

وأمْكَنَ أنْ يكونَ مُوسَى اخْتارَ السَّبْعِينَ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ، فيكونُوا شُهداءَ لهُ على إنزالِ التوراةِ عليه كلامَ رَبِّهِ.

وقيلَ: هُمُ الذين تركَهُمْ في أصْلِ الجَبَلِ، فلّما جاءَهُمْ مُوسَى بالتوراةِ قالُوا ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥] فَأخَذَتْهُمْ الصاعِقَةُ، وهَلَكُوا، لِقَولِهِمْ ذلكَ. وقد ذَكَرْنا أنّا لا نَدْرِي مَنْ كانُوا؟

وقِيلَ: اخْتارَهُمْ مُوسَى لِيَتُوبُوا إلى اللهِ مِمّا عَمِلَ قومُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: لو شِئْتَ أمَتَّهُمْ وإيّايَ بِقَتْلِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عليهم. (٣) في الأصل وم: إنه. (٤) في الأصل وم: السبعين.

القِبطيّ. وقالَ آخرُونَ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ على نَفْسِ الإهلاكِ ﴿وَإِيَّىَ﴾ على القُدرَة؛ أي تَقْدِرُ على إهلاكي، ولكنْ لا تُهلِكُنا لِما لم يَكُنْ ما نَستحِقُّه[1] ذلكَ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ إهلاكَ فِتْنَةٍ وإيّايَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لَكَ أنْ تُهلِكَنا ابتِداءَ إهلاكٍ [وتُهلِكَ السفهاءَ][2] بما فَعَلُوا.

والثاني: يقولُ: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾ وما تُهلِكُنا بقَومِنا[3] لأنَّ موسَى أتَى قومَهُ وأخبَرَهُمْ أنهُمْ أُهلِكُوا بِسَبَبِ كذا، لم يُصدِّقْهُ[4] قومُهُ بذلكَ، ولكنَّهُمْ يَتَّهِمُونَهُ، ويَقولُونَ: أنتَ قَتَلْتَهُمْ[5] على ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ خَرَجَ بهارونَ إلى بَعْضِ الجبالِ، فماتَ هارونُ هناكَ، فأخبَرَ قومَهُ بذلكَ، فَكَذَّبُوهُ، وقالُوا: أنتَ قَتَلْتَهُ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ههنا خافَ أنْ يَتَّهِمَهُ قومُهُ في أولئكَ، ولا يُصدِّقُوهُ في ما حَلَّ بِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً: يَحْتَمِلُ ما يُرادُ بِهِ التَّقريرُ، ويَحْتَمِلُ الإنكارَ والرَّدَّ، ويَحْتَمِلُ الإيجابَ.

أمّا الإنكارُ فيكونُ مَعناهُ ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي لا تَفْعَلْ، ولا تُهلِكْنا ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ ومثلُ هذا قد يُقالُ: يقولُ رجلٌ لِآخَرَ: أتَفْعَلُ أنتَ كذا على الإنكارِ؟ أي لا تَفْعَلْ، فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ، ويرادُ بِهِ الإيجابُ، كأنهُ قالَ: لَكَ ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أنْ يكونَ ذلكَ امْتِحاناً وابْتِلاءَ ابْتِداءٍ؛ أي تَفْعَلُهُ امْتِحاناً وابتلاءً لا تَعْذيباً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الاسْتِفهامِ، لكنْ لم يُخرِجْ لهُ الجوابَ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] ونَحْوَهُ ممّا لم يَخْرُجْ لهُ جوابٌ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ويجوزُ أنْ يكونَ إهلاكُهُ إيّاهُمْ مِحْنَةً بِتَفريطٍ كانَ مِنْ بَعْضِهِمْ يَراهُ مِنْ ذلكَ على ما كانَ مِنْ أهلِ المَركَزِ مِنَ العِصيانِ، وكانَ الفَشَلُ والهزيمةُ عليهِمْ مِحْنَةً منهُ إيّاهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢].

فَعَلَى ذلكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي تَنْهَى مَنْ فَعَلَ الاهْتِداءَ، لكنَّ حَرْفَ مَنْ إنما يُعَبَّرُ بِهِ[عَنِ][6] الأشخاصِ دُونَ الأفعالِ. فلو كانَ على ما ذَكَرَ هو لَقالَ: تُضِلُّ به ما[7] تشاءُ. فإنْ لم يَقُلْ ذا ثَبَتَ أنهُ لَيسَ على ما ذَكَرَ.

وتأويلُهُ عندَنا أنهُ يَخْلُقُ فِعْلَ الضَّلالِ مِمَّنْ يَعلَمُ أنهُ يَختارُ ذلكَ، ويَخْلُقُ فِعْلَ الهُدَى مِمَّنْ يَعلَمُ أنهُ يَختارُ ذلكَ [لِقولِهِ تعالى][8]: ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وأصْلُ ذلكَ أنَّ جَميعَ ما يُضافُ إلى اللهِ مِنْ طريقِ الأفعالِ على اخْتِلافِ الإضافَةِ باخْتِلافِ[9] وُجوهِها، حقيقَةُ ذلكَ مِنَ اللهِ؛ خَلْقَ ما أُضيفَ إليهِ مِنَ الوَجْهِ الذي يَحِقُّ وَصْفُهُ بأنهُ خالِقُهُ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَتَهْدِى﴾ و﴿تُضِلُّ﴾. ويَحْتَمِلُ: تُوَفِّقُ، وتَخْذُلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي أنتَ وَلِيٌّ بنا، ويَحْتَمِلُ: أنتَ وَلِيُّ هِدايَتِنا أو أنت وليُّ نِعْمَتِنا؛ ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [كقولِهِ تعالى][10] ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ و١١٨] لأنَّ كُلَّ أحَدٍ دونَهُ إنما يَرْحَمُهُ[11] ويَغْفِرُ [لَهُ][12] بِرَحْمَتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: يستحقه. (٢) في الأصل وم: والسفهاء. (٣) الباء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يصدقوا. (٥) من م، في الأصل: قتلهم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: من. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بالاختلاف. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: يرحم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يَحتَمِلُ الإيجابَ: أي أوجِبْ ﴿لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ حسَنَةً. وقالَ بَعضُهُم: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ أي وَفِّقْ لنا العَمَلَ الذي نَسْتَوجِبُ بِه الحَسَنَةَ في الدنيا والآخِرَةِ.

ويَحتَمِلُ ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ في الدنيا الحَسَناتِ، ولا تَكْتُبْ علينا السَّيِّئاتِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تُختَمُ بها الدنيا، وتَنْقَضِي بها. وإلّا ما مِنْ مُسْلِمٍ إلّا ولَهُ في الدنيا حَسَنَةٌ آتاها إيّاهُ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: ٢٠١] أنهُم إنما سألوا حَسَنةً أنْ يُختَمُوا[1] عليها، ويكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كذا. واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ قالَ بَعضُهُم: قولُهُ: ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي مِلْنا إليكَ، وقالَ غَيرُهُم: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي تُبنا إليكَ. وقيل: ولذلكَ سَمّى[2] اليهودُ أنْفُسَهُمْ يَهوداً؛ أي تائبِينَ إلى اللهِ. لكنْ لو كانَ كما ذُكِرَ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا﴾ [آل عمران: ٦٧] أي تائباً، وذلكَ بَعيدٌ، ولكنْ، إن كانُوا سُمُّوا، فهو، واللهُ أعْلَمُ، ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا﴾ أي لم يكُنْ على المَذهبِ الذي عليهِ اليهودُ ﴿وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ وكذلكَ لم يكُنْ على المذهبِ الذي ادَّعَتِ النَّصارى أنهُ كانَ عليهِ ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ قالَ الحَسَنُ: يَشاءُ أنْ يُصِيبَ عذابُهُ مَنْ كَفَرَ باللهِ، وكَذَّبَ رسولَهُ، وشاءَ مَنْ أطاعَ اللهَ، وصَدَّقَ رُسُلَهُ، أنْ يُصيبَ رَحْمَتُهُ.

ودلَّ قولُهُ تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ أنهُ لمّا شاءَ العَمَلَ والفِعْلَ الذي كانَ بهِ يُصيبُهُمْ؛ لأنَّ حَرْفَ مَنْ إنما يُعَبَّرُ بِهِ عنْ بني آدَمَ، ولا جائزٌ أنْ يَشاءَ لَهُمُ الإيمانَ، ثم يَشاءُ لَهُمْ أنْ يُصيبَهُمْ عذابُهُ. ولكنْ إنْ عَلِمَ منهُمْ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ، ويَختارُونَ فِعْلَ الضَّلالِ على فِعْلِ الهُدَى، شاءَ لَهُمْ ما اختارُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ ما مِنْ أحدٍ مِنْ مُسْلِمٍ وكافِرٍ إلا وعليهِ مِنْ آثارِ رَحْمَتِهِ في هذِهِ الدنيا؛ بها يَتَعَيَّشونَ، ويُؤاخونَ، ويُوادُّونَ، وفيها يَنْقَلِبُونَ. لكنَّها[3] لِلْمُؤمِنِينَ خاصَّةً في الآخِرَةِ، لا حَظَّ للكافِرِ فيها. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مَعْصِيَةَ اللهِ ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وكقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

جَعَلَ طَيِّباتِ الحياةِ الدنيا ونِعَمَها[4] مُشْتَرَكَةً بينَ المُسْلِمِ والكافِرِ خالِصَةً لِلَّذينَ آمَنُوا يومَ القيامَةِ، لا حَظَّ لِلْكافِرِ فيها. فَعَلَى ذلكَ رَحْمَتُهُ نالَتْ كُلَّ أحدٍ في هذِهِ الدُّنْيا، لكنّها لِلَّذينَ آمَنُوا، واتَّقَوُا الشِّرْكَ، خاصَّةً في الآخِرَةِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى، واللهُ أعْلَمُ، ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أنهُمْ إنما سَألُوا الرحمَةَ، فقالَ: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مَعاصِيَ اللهِ/ ١٨٧ ـ ب/ ومُخالَفَتَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤۡتُونَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المَعْرُوفَةَ، ويَحتَمِلُ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ كقولِهِ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ و١٠] ومَعْلُومٌ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ زكاةَ المالِ، ولكنْ زكاةَ النَّفْسِ بالتَّوحيدِ والتَّقْوَى، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ [النور: ٢١]، هو تلكَ الزَّكاةُ، لا الزَّكاةُ المَعْرُوفَةُ زكاةُ المالِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ على الزكاةِ المَعْرُوفَةِ فذلكَ في قومٍ، ثَقُلَ عليهِمْ، واشْتَدَّ إخراجُ الزَّكاةِ مِنْ أموالِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ [هُمۡ كَٰفِرُونَ]﴾[5] [فصلت: ٧].

(١) في الأصل وم: يختمون. (٢) في الأصل وم: سميت. (٣) من م، في الأصل: لكنا. (٤) في الأصل وم: ونعيمها. (٥) أدرج بدلها في الأصل وم: كذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ مَنْ آمَنَ بآياتِ اللهِ، وصَدَّقَها، فقد آمَنَ باللهِ وبِرَسولِهِ، ومَنْ كَذَّبَ [بآياتِهِ كَذَّبَ][1] باللهِ، وخالَفَ رُسُلَهُ؛ لأنَ طريقَ معرفةِ اللهِ ورُسُلِهِ إنما هو مِنْ طريقِ الآياتِ والحُجَجِ، لَيسَ مِنْ طريقِ المُشاهداتِ والمَحْسُوساتِ. لِذلكَ كانَ الإيمانُ بالآياتِ إيماناً باللهِ وبِرُسُلِهِ، وبالتَّكذيبِ بها كُفْرٌ باللهِ ورُسُلِهِ.

الآية ١٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ أي يَقتَفُونَ[2] أثَرَ الرّسولِ في كُلِّ سِيرَتِهِ، وفي كُلِّ أمْرِهِ ونَهْيِهِ، ويُطيعُونَهُ.

سَمّاهُ رَسُولاً ونَبيّاً بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾. والرَّسُولُ المَبْعُوثُ على تَبْليغِ الرسالةِ، والمَأمُورُ بها على كُلِّ حالٍ. والنَّبِيُّ كالمُنبِئِ لَهُمْ أشياءَ عندَ السؤالِ والاِسْتِخْبارِ. والرَّسُولُ هو المَأمُورُ بالتَّبْليغِ سَألُوهُ، أو لم يَسْألُوا، شاؤُوا، أو أبَوا، وكانَ لمحمدٍ ﷺ، كِلاهُما: الإنباءُ والتَّبليغِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى، وهو قولُهُ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨].

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي يَجِدُونَهُ مكتوباً في التوراةِ أنهُ رسولٌ نَبِيٌّ، وأنهُ أُمِّيٌّ.

[وقولُهُ][4] تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لئلا يَقولُوا إنكَ أخذْتَ هذا مِن الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ ومِنْ علومِها وحِكَمِها ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ لئلا يقولُوا: إنهُ مِنْ تأليفِكَ، ويَعْلَمُوا أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ بِهِ لا مِنْ ذاتِ نَفْسِه.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دلالَةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ، لأنَّ أُولئكَ لم يَأتُوا بالتوراةِ والإنجيلِ، فيقولُوا[5]: لا نَجِدُ ما تَذْكُرُ في التوراةِ والإنجيلِ.

دلَّ ذلكَ منهُمْ على أنهُمْ وجَدُوهُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي يَجِدُونَهُ مكتوباً عندَهُمْ في التَّوراةِ أنهُ يَأمُرُ بما أمَرَ اللهُ بِهِ، ويَنْهى عمّا نَهى اللهُ عنهُ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ما حَرَّمَ اللهُ عليهِمْ يَجِدُونَهُ في التَّوراةِ أنهُ لا يَأمُرُ بِشَيءٍ، ولا يَنْهى عَنْ شيءٍ، ولا يُحِلُّ شيئاً، ولا يُحَرِّمُ إلّا بأمْرٍ مِنَ اللهِ لَهُ. لكنَّهُمْ يُنْكِرونَهُ إنكارَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وغَيْرَهُ.

ويحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية أي يَأمُرُ بما هو مَعْروفٌ في العَقْلِ وشَهادَةِ الخِلْقَةِ [وهو التَّوحيدُ، وكذلكَ يَنْهاهُمْ عمّا هو في العَقْلِ وشهادةِ الخِلْقَةِ][6] مُنْكَرٌ، وهو الكُفْرُ وجَميعُ المَعاصِي ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي يُحِلُّ ما هو طَيِّبٌ في العَقْلِ والطَّبْعِ، ويُحَرِّمُ ما هو خَبيثٌ في العَقْلِ والطَّبْعِ جميعاً؛ لأنَّ مِنَ الأشياءِ ما هو مُسْتَخْبَثٌ في الطَّبْعِ. لم يُجْعَلْ غذاءَ البَشَرِ فيهِ وإنما جُعِلَ غِذاءَهُمْ في ما هو مُستَطابٌ في الطَّبْعِ، بَلَغَ غايَتَهُ في الطِّيبِ. ولا كذلكَ جُعِلَ غِذاءُ البهائمِ والأنعامِ. هذا يَحْتَمِلُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم المَعْرُوفُ والطَّيِّباتُ لو تُرِكَتِ العقولُ والطباعُ على ما هيَ عليهِ لكانَتْ لا حاجَةَ تَقَعُ إلى رسولٍ يُخْبِرُ أنَّ [هذا معروفٌ وأنَّ][7] هذا طَيِّبٌ أو خَبيثٌ أو مُنْكَرٌ. ولكنْ تَعْرِفُ العقولُ والطِّباعُ ذلكَ كُلَّهُ. لكنْ تُعْرِضُ العُقولُ عَنِ الشُّبَهِ، فَتَمْنَعُها عَنْ مَعْرِفةِ ذلكَ، فاحْتاجَتْ إلى رسولِ اللهِ يُخْبِرُ عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قِيلَ: ما غَلَّظُوا على أنفُسِهِمْ مِنَ الشدائدِ، وقيلَ ﴿إِصْرَهُمْ﴾ شِدَّةٌ مِنَ العِبادَةِ والعَمَلِ، وقِيلَ: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ عَهْدَهُمْ، وقِيلَ: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ الثِّقَلَ الذي كانَ بَنو إسرائيلَ أُلْزِمُوهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يقفون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيقولون. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقال القُتَبِيُّ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي ذنبَهُمُ الذي كانُوا يُذْنِبُونَ، أي عُقوبَةَ الذَّنْبِ الذي أذنَبُوا في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ اليهودَ قالُوا ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي مَحْبوسَةٌ[1] عَنْ عُقوبَتِنا، فقال ﷻ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤] أي غُلَّتْ أيديهِمْ إلى أعناقِهِمْ في النارِ.

فأخبَرَ أنَّ أُمَّةَ محمدٍ ﷺ لَمّا آمَنُوا بِهِ، وصَدَّقُوهُ، رَفَعَ تلكَ الأغلالَ التي كانَتْ عليهِمْ عن هذهِ الأمَّةِ بِطاعَتِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ.

وقيلَ: الأغلالُ الشدائدُ التي كانَتْ عليهِمْ مِنْ نَحْوِ ما لا يجوزُ لَهُمْ: العَفْوُ[2] عنِ الدمِ العَمْدِ وأَخْذُ[3] الدِّيَةِ وغَسْلُ[4] النجاساتِ إلّا القَطْعَ وغيرُ ذلكَ مِنَ الأشياءِ التي لم تَحِلَّ لَهُمْ، فأُحِلَّتْ لهذِهِ الأمَّةِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الإصْرُ والأغلالُ التي كانَتْ عليهِمْ مِنْ نحوِ ما حُرِّمَتْ مِنْ أشياءَ بِظُلْمٍ كانَ مِنْهُمْ وتَحْريمٍ نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] حُرِّمَتْ تلكَ الأشياءُ عليهِمْ عُقوبَةً لِبَغْيِهِمْ وظُلْمِهِمُ الذي كانَ منهُمْ.

أخبَرَ أنهُ وَضَعَ عَنْ هؤلاءِ ذلكَ، لم يُحَرِّمْ ذلكَ عليهِمْ.

وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ أنهُ أُمِّيٌّ، والأُمِّيُّ ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ثم أخبَرَ على ما كانَ في كُتُبِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ عَرَفَ ما في كُتُبِهِمْ، أو نَظَرَ فيها، وعَرَفَ لِسانَهُمْ. دَلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي صَدَّقُوا بمحمدٍ ﷺ، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ قيلَ: أعانُوهُ بأموالِهِمْ، ونَصَرُوهُ بأيديهِمْ بالسَّيفِ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ إنما هو كلامٌ مُثَنًّى، وهو إعانَةٌ، وقيلَ: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عَظَّمُوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ يَعْني القرآنَ؛ سمّاهُ نُوراً لِما يُنيرُ الأشياءَ عَنْ حقائِقِها بالعُقولِ؛ لأنَّ النورَ في الشاهِدِ هو الذي يَكْشِفُ عنِ الأشياءِ سواتِرَها. فَعلى ذلكَ القرآنُ، وهو نورٌ لِما يَرْفَعُ الشُّبَهَ عنِ القُلُوبِ، ويَكْشِفُ عنْ سَواتِرِها.

وقالَ بَعْضُهُمْ: سُمِّيَ نوراً لِما يُنيرُ الأشياءَ، ويُعْرَفُ بِهِ ما غابَ، وما شَهِدَ، فَيَصيرُ الغائبُ بِهِ لهُ كالشاهِدِ.

الآية ١٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فيه دلالةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، كانَ مَبْعوثاً إلى الناسِ كافَّةً، وكذلكَ رُوِيَ أنهُ ﷺ، قالَ: «بُعِثْتُ إلى الأحمَرِ والأسودِ وسائرُ الأنبياءِ بُعِثُوا إلى أقوامٍ خاصَّةٍ وإلى البُلْدانِ والقُرَى المَعْروفَةِ المَحْدُودَةِ» [أحمد ١/ ٢٥٠].

وفيهِ أنهُ لَمّا خاطَبَهُ [أمرُهُ][5] أنْ يقولَ للناسِ، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أنهُ لا سَبيلَ لهُ إلّا[6] أنْ يُخاطِبَ الناسَ والخَلْقَ جميعاً، فيقولَ: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ولكن إنما يكونُ بِبَعْثِ الرُّسُلِ إليهِمْ، فَيَنْزِلُ قولُ الرسولِ: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ مَنْزِلَةَ قولِهِ[7] نَفْسِهِ: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فانتَشَرَ[8] ذِكْرُهُ بتبليغِ الرُّسُلِ إليهِمْ؛ كأنهُ هو بَلَّغَ ذلكَ، وقالَ لهمْ: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أو أنَّ اللهَ ﷻ، سَخَّرَ الخَلْقَ حتى بَلَّغَ بَعْضُهُمْ بَعضاً رسالَتَهُ، وحتى فَشا خَبَرُهُ، وانْتَشَرَ ذِكْرُهُ في جميعِ آفاقِ الأرضِ شَرْقاً وغَرْباً. وذلكَ مِنْ عظيمِ آياتِ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ.

ثم بَيَّنَ أنهُ رسولٌ مِنَ اللهِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

---

(١) من م، في الأصل محسوسة. (٢) من م، في الأصل: العقول. (٣) في الأصل: ولا أخذ. (٤) في الأصل وم: وما لا يجوز غسل.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إلى. (٧) في الأصل وم: قول. (٨) من م، في الأصل: فانتشروا.

وذَكَرَ تَخصِيصَ السّماواتِ والأرضِ، وإنْ كانَ لهُ مُلكُ الكُلِّ، لِما هما النهايَةُ في مُلكِ البَشَرِ، أو ذَكَرَ هذا لِيَعلَمُوا أنّ [مَنْ][1] في السّماواتِ والأرضِ لهُ عَبِيدُهُ وإماؤهُ، أو ذَكَرَ هذا لِيَعلَمُوا / ١٨٨ ـ أ/ أنّ التّدبِيرَ فيهما جميعاً لِواحدٍ حيثُ اتّصَلَ منافِعُ السّماءِ بمنافعِ الأرضِ على بُعدِ ما بَيْنَهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ذَكَرَ هذا لأنّ العَرَبَ سَمَّتْ كلَّ مَعبودٍ إلهاً، وهُمْ كانُوا يَعبُدُونَ الأصنامَ ويُسَمُّونَها آلهةً، فَنَفَى الأُلوهِيّةَ عَمّنْ يَعبُدُونَهُمْ دونَهُ، وأثبَتَها لَهُ.

وأخبَرَ أنهُ هو المُستَحِقُّ لِاسْمِ الأُلوهِيّةِ والعِبادةِ، لا غيرَ؛ لأنهُ يُحْيِي، ويُمِيتُ، ومَنْ يَعبُدُونَ دونَهُ لا يَملِكُ الإحياءَ ولا الإماتَةَ. وذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، الحياةَ والموتَ؛ لأنهُ لَيسَ شَيءٌ ألَذَّ وأشهَى في الشاهِدِ مِنَ الحياةِ، ولا أمَرَّ ولا أشَدَّ مِنَ المَوتِ، لِيَرغَبُوا في ألَذِّ ما غابَ عنهُمْ، ويَنفِرُوا عنِ الأمَرِّ والأكرَهِ ممّا غابَ عنهُمْ، واللهُ أعلمُ، أو ذَكَرَ أنهُ يُحْيِي ويُمِيتُ لِيَدُلَّ أنهُ فِعلُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ كانَ ﷺ، هو السابقُ إلى كلِّ خيرٍ. فَعَلَى ذلكَ دَعا الخَلْقَ كقولِهِ ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] [وقولِهِ][2]: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] فَعَلَى ذلكَ إنما أمَرَ بالإيمانِ بَعْدَ ما آمَنَ هو.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي آمَنَ رسولُ اللهِ باللهِ وكلماتِهِ التي كانَتْ في الكتبِ الماضِيَةِ فَأخبَرَ بها في ما كُتُبِهِمْ لِيَعرِفُوا أنهُ إنما عَرَفَها باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ القرآنُ، وذُكِرَ في بَعْضِ القراءاتِ وكَلِمَتِهِ بلا ألِفٍ[3]، فَصُرِفَ التأويلُ إلى عِيسَى؛ كأنهُ قالَ: آمِنُوا باللهِ وبِمحمدٍ وبِعيسَى. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما أعطاهُ مِنَ الحلالِ والحرامِ والأمرِ والنّهيِ والحِكْمَةِ والأحكامِ التي أمَرَ بها، وشَرَعَها لنا، على ما ذُكِرَ في إبراهيمَ أنهُ ابْتَلاهُ ﴿بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قد ذَكَرْنا الاتّباعَ، فإذا اتَّبَعُوهُ اهْتَدَوا.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ قِيلَ: أُمّةٌ يَدْعُونَ إلى سَبيلِ اللهِ ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ في ما بَيْنَهُم، ولكنَّ الأوّلَ أقرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ الأُمّةُ التي أكرَمَ [مِنْ قومِ][4] مُوسَى؛ كانُوا[5] في زَمَنِهِمْ يَدْعُونَ الناسَ إلى الإيمانَ بِرسولِ اللهِ، أو أنْ تكونَ الأُمّةُ مِنْ قومِهِ في زَمَنِ رسولِ اللهِ ﷺ، بَقِيّةٌ مِنْ مُوسَى مُؤمِنِينَ بهِ يَدْعُونَ الناسَ إليهِ ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

الآية ١٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﵄، هو ماذَكَرَهُ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] أي جماعةً، وقِيلَ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي جعَلْناهُمْ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ فِرَقاً، وقالَ غيرُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي جاوَزْنا بِهِمُ البَحْرَ، وجَعَلْناهُمْ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الأسباطُ الأفخاذُ، والسِّبْطُ واحِدٌ، وقالَ القُتَبِيُّ: الأسباطُ القبائِلُ، واحِدُها سِبْطٌ.

وقِيلَ: الفَخِذُ دُونَ القَبِيلَةِ، وقِيلَ: إنّ أولادَ إسحاقَ تُسَمّى أسباطاً، وأولادَ إسماعيلَ قَبائلُ وأفخاذٌ، ولِذلكَ يُقالُ لِلعَرَبِ: قَبيلَةُ كذا [وفَخِذُ كذا][6]. ولَسْنا نَدْري كيفَ هو[7]؟ وقِيلَ: سِبْطُ الرَّجلِ وَلَدُ وَلَدِهِ على ما رُوِيَ أنّ الحَسَنَ والحُسَينَ سِبْطا رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرانية (٢/ ٤١١). (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: وهو.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ قِيلَ: ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أنهُمْ كانُوا في المفازَةِ لا في البُلْدانِ والقُرَى؛ لأنهُمْ لو كانُوا في القُرَى، والقُرَى لا تَخلُو مِنْ أنهارٍ، تَجرِي فيها، أو عُيُونِ الأرضِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ دلَّ أنهُمْ كانُوا في المَفازَةِ؟ لأنهُ هنالكَ تَقَعُ الحاجَةُ إلى الغَمامِ، وأمّا في القُرَى فَلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: انفَجرَتْ على ما ذَكَرَ في سورةٍ أُخرَى[1]. وقِيلَ: إنَّ هذِهِ الكَلِمَةَ بِلِسانِهِمْ لا بِلِسانِ العَرَبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: تعَبُّدُهُمْ ﷻ بِمَعْرِفَةِ كُلٍّ منهُمْ مَشْرَبَهُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: لا، ولكنْ لئلّا يَزْدَحِمُوا في ذلكَ، فَيَقَعَ[2] في أولادِهِمُ التَّقاتُلُ[3] والإفسادُ والتَّنازُعُ والاِختِلافُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ فيهِ أنَّ جَمِيعَ مُؤَنِهِمْ كانَتْ مِنَ السَّماءِ بِلا مُؤْنَةٍ ولا تَعَبٍ على أنفُسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ما ذَكَرَ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى[4] وغيرِهِ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي لا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ ظُلْمِ اللهِ، ولكنْ إذا تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ التي جَعَلَ لَهُمْ، وجاوَزُوها، فقد ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ، لِما رَجَعَ ضَرَرُ ذلكَ التَّعَدِّي إليهِمْ. وهذِهِ النِّعَمُ التي ذَكَرَ لهُمْ: جَلَّ، وعَلا، إنما جَعَلَها لَهُمْ في حالِ العُقوبَةِ والاِبْتِلاءِ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى والعُيونِ والغَمامِ.

ويَدُلُّ هذا على أنَّ عُقوباتِ الدنيا، قد يَشُوبُها لَذَّةٌ ونِعْمَةٌ، وكذلكَ لَذّاتُ الدنيا قد يُمازِجُها شدائدُ وهُمومٌ؛ فإنما تَخلُصُ، وتَصفُو هذِهِ النِّعَمُ في الآخِرَةِ، وكذلكَ العُقوبَةُ هنالكَ تَخلُصُ، وتفارِقُ اللَّذاتِ.

الآية ١٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ تعالى: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بَيْتَ المَقْدِسِ، وأمكَنَ أنْ تكونَ القريَةُ التي ذَكَرَ ههنا، هي[5] الأرضَ التي ذَكَرَ في سورةِ المائدةِ، وهي[6] قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ [الآية: ٢١] أمَرَهُمْ بالدُّخولِ فيها، ونَهاهُمْ عَنِ الاِرتِدادِ على[7] أدبارِهِمْ. فأمَرَهُمْ ههنا بالسُّكونِ فيها، وأباحَ لَهُمُ التَّناوُلَ منها مِمّا شاؤوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي ارْجِعُوا إلى السَّبَبِ الذي يَحُطُّ الأوزارَ، لا [قولِكُمْ: حُطَّ عَنّا][8] كذا؛ وهو ما قالَ هودٌ ﷺ ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [هود: ٥٢] أي إيتُوا بالسَّبَبِ الذي بِهِ يَغْفِرُ، وهو التَّوحِيدُ ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ الآيةَ: قد مَضَى ذِكْرُ هذا في السورةِ التي فيها ذِكْرُ البَقَرَةِ[9].

الآية ١٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ هذا أيضاً ذَكَرْنا فيها[10] سِوَى أنهُ ذَكَرَ ههنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وذَكَرَ في سورةِ البَقَرَةِ ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ والقِصَّةُ واحدةٌ لِيُعْلَمَ أنَّ اخْتِلافَ الألفاظِ لا يُوجِبُ اخْتِلافَ المَعانِي والأحكامِ ولا تَغْيِيرَها.

وذَكَرَ ههنا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ وهنالكَ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ والفِسْقُ هو الخُروجُ عنِ الأمْرِ، والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشَّيءِ [في][11] غَيرِ مَوضِعِه. وقد كانَ منهُمُ الأمرانِ جَميعاً: الخُروجُ عَنْ أمْرِ اللهِ، وَوَضْعُ الشَّيءِ أيضاً في غَيرِ موضِعِهِ.

أكْرَمَ اللهُ ﷻ هذِهِ الأمَّةَ كَراماتٍ مِنَ الطاعةِ لِرَسولِها والخُضوعِ لهُ والتَّعظِيمِ لهُ حتى لم يَخْطُرْ بِبالِ أحدِ الخلافُ لهُ بعدَ ما اتَّبَعَهُ، وآمنَ بِهِ، وأكْرَمَهُمْ أيضاً مِنَ الفَهْمِ والحِكْمَةِ والفِقْهِ حتى ذُكِرَ كأنهُمْ مِنَ الفِقْهِ أنبياءُ، وقومُ مُوسَى ﷺ وغيرُهُ مِنَ الأُمَمِ لم يَكونُوا مِثْلَ ذلكَ. ألا تَرَى أنَّ قومَ مُوسَى قد خالَفُوهُ في أشياءَ أمَرَهُمْ مُوسَى بها؟

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾ [البقرة: ٦٠] (٢) في الأصل وم: ليقع. (٣) من م، في الأصل: التقابل. (٤) وذلك في سورة البقرة الآية (٥٧) وسورة طه الآية (٨٠). (٥) في الأصل وم: وهي. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) في الأصل وم: عن. (٨) في الأصل: قولهم حط علينا، في م: قولهم حط عنا. (٩) كان ذلكَ في الآية (٥٨). (١٠) كان ذلك في الآية (٥٩). (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ: القَرْيَةُ ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ هي أيْلَةُ، وقالَ آخَرُونَ: أريحا. ولَسْنا نَدْري ما تلكَ القَرْيَةُ؟ ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ تلكَ القَرْيَةِ حاجَةٌ؛ إذ لا مَنْفَعَةَ لنا في مَعْرِفَتِها، ولو كانَتْ لنا حاجَةٌ إليها لَبَيَّنَ لَنا ﷻ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ﴾ كذا أمَرَهُ بالسُّؤالِ عنها. ثم كانَ هو المُبَيِّنَ لَهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ والسؤالُ هو الاسْتِخْبارُ، والإخبارُ إنما يَلْزَمُ المَسْؤولَ دُونَ المُسْتَخْبِرِ. لكنَّ الاسْتِخْبارَ يكونُ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُما: ابْتِداءُ إخبارٍ.

والثاني: طَلَبُ التَّصْديقِ.

فههنا لم يَحْتمِلِ ابْتِداءَ الخَبَرِ، وهو على طَلَبِ التَّصْديقِ، كأنهُ قالَ: ألم يكُنْ كذا؟ فيقولُونَ: بَلَى[١]؛ يُصَدِّقُونَهُ بما يقولُ لهمْ.

وقالَ قائلونَ: لم يأمُرْهُ بالسُّؤالِ حقيقةً، ولكنَّهُ على التَّمْثيلِ؛ كأنهُ قالَ: لو سَألْتَهُمْ يقولونَ لكَ كذا، كقولِهِ: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] لَيسَ على الأمْرِ أنِ اسألْهُمْ، ولكنْ لو سَألْتَهُمْ [عَنْ كَيفَ][٢] كانَ كذا لأجابُوكَ[٣] بكذا. فَعلىَ ذلكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ /١٨٨ ـ ب/ حِيتَانُهُمْ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][٤] قالَ: ابْتَدَعُوا السَّبْتَ، فَعَظَّمُوهُ، فابْتُلُوا فيهِ، فَحُرِّمَتْ عليهِمْ فيهِ الحِيتانُ يومَ السَّبْتِ، فكانتْ تأتِيهِمْ يومَ السَّبْتِ ﴿شُرَّعًا﴾ بِلا مُؤْنَةٍ وتكَلُّفٍ. ابْتُلُوا بِهِ، ولا تأتِيهِمْ في غيرِهِ مِثْلَهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾ التي قَد دَنَتْ مِنَ الشَّطِّ، والواحدُ شارِعٌ، وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي لا يدخلونَ في السَّبتِ كما يُقالُ: لا يَرْبِعُونَ، ولا يَخْمِسُونَ؛ أي لا يدخُلُونَ فيهِ. ويَسْبِتُونَ أي يدخُلُونَ فيهِ، وكذلكَ يَرْبِعُونَ، ويَخمِسُونَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿شُرَّعًا﴾ أي شوارِعَ ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ أي يَتَعَدَّونَ الحَقَّ. ويُقالُ: عَدَوْتُ على فلانٍ إذا ظَلَمْتُهُ.

وقالَ الكِسائيُّ: يُقْرأُ يُسْبِتونَ بالرَّفْعِ، ويُقْرأُ بالفَتْحِ. فَمَنْ قَرَأَها[يُسْبِتُونَ مِنْ أسْبَتَ القومُ يُسْبِتُونَ][٥] دخَلُوا في السَّبْتِ.

وقالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾ أي كثيرةً أي تَكْثُرُ لَهُمُ الحِيتانُ، وتَقِلُّ في غَيْرِ ذلكَ، وقالَ بَعْضُهُمْ: ابْتلاهُمُ اللهُ بِتَحريمِ السَّمَكِ في السَّبْتِ لِيَرى الخَلْقَ المُطيعَ منهُمْ مِنَ العاصي. وقالَ قائلونَ: ابْتلاهُمْ بذلكَ لِما كانُوا يَفْسُقُونَ في السِّرِّ ليكونَ فِسْقُهُمْ وتَعذِيبِهِمْ ظاهراً عندَ الخَلْقِ كما كانَ عندَ اللهِ لئلّا يقولُوا عندَ التَّعْذيبِ: إنهُمْ عُذِّبُوا بِلا ظُلْمٍ وتَعَدٍّ، واللهُ أعلَمُ. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وقالَ قائلُونَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ إنما أمَرَهُ أنْ يَسألَهُمْ: أمَا عَذَّبَهُمُ اللهُ بذنوبِهِمْ؟ ثم أخْبَرَ عنْ ذنوبِهِمْ، فقالَ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يَتَعَدَّونَ في السَّبْتِ، وفي قولِهِ تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾ أي مُشارَعاتٍ مِنْ غَمْرَةِ الماءِ أي خارجاتٍ.

الآية ١٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ذَكَرَ في الأوَّلِ أنهُمْ كانُوا [ثلاثةَ فِرَقٍ: فَريقاً][٦]: عَدَوا، وتَرَكُوا أمْرَ اللهِ، وتَرَكُوا ما نُهُوا عنهُ، وفَريقاً[٧]: نَهَوا أُولئكَ الذينَ اعْتَدَوا، وانْتَهَكُوا حُرَمَ اللهِ، وفَريقاً[٨]: قِيلَ: لم يَعْتَدُوا، ولم يَرْتَكِبُوا نَهْيَهُ، ولا نَهَوا أولئكَ الذينَ اعْتَدَوا، وهُمُ الذينَ قالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ الآيةَ.

---

(١) في الأصل وم: نعم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وأجابوك. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية (ج٢/ ٤١٤). (٦) في الأصل: ثلاث فرق، في م: ثلاث فرق فريق. (٧) و(٨) في الأصل وم: فريق.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: [أنهُ][(١)] قالَ: هُمْ كانُوا ثلاثَ فِرَقٍ؛ فِرقةٌ، وعَظَتْ، وفِرقةٌ مَوعوظةٌ، وفِرقةٌ ثالثةٌ، وهُمُ الذينَ قالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وهو ما ذَكَرْنا أنهُمْ ذَكَرَهُمْ في الابْتِداءِ: ثلاثَ فِرَقٍ. وذَكَرَ في آخِرِ[(٢)] الحالِ فِرْقَتَينِ: فِرْقةٌ هي التي هَلَكَتْ بالاعْتِداءِ: وفِرْقةٌ هي التي نَهَتْ، ونَجَتْ.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في الفِرقةِ الثالثةِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: كانُوا في الفِرقةِ التي هَلَكَتْ لِوَجهَينِ.

أحَدُهُما: لمّا لم يَنْهَوا أولئكَ الذينَ اعْتَدَوا، وكانَ فُرِضَ عليهِمُ النَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ والأمْرُ بالمَعْروفِ. فإذا لم يَنْهَوا أولئكَ هَلَكُوا، وأُشرِكُوا في العذابِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الآية: [المائدة: ٦٣].

والثاني: كانوا مَعَهُمْ لَمّا نُهُوا [مِنَ][(٣)] الناهِينَ، وقالوا[(٤)]: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾.

وقالَ قائِلونَ: كانُوا مِنَ النّاجِينَ. قالَ الحَسَنُ: لأنهُمْ كانُوا نَهَوا أولئكَ عنِ الاعْتِداءِ والظُّلْمِ الذي كانَ[(٥)] منهُمْ، وكانَ قولُهُمْ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ بَعْدَ ما نَهَوهُمْ، وَوَعَظُوهُمْ[(٦)]، فلم يَتَّعِظُوا، فإنما قالُوا لأولئكَ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ بَعْدَ مانُهُوا، وَوُعِظُوا؟ فقالُوا: كيفَ تَعِظونَ قوماً لا يَتَّعِظُونَ، ولا يَنْتَهُونَ؟ فإنما قالُوا ذلكَ بَعْدَ ما نُهُوا.

وقالَ قائلونَ: هذا القولُ منهُمْ نَهْيٌ لأنَهُمْ أتَوا بِوَعيدٍ شديدٍ بقولِهِمْ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فَنَفسُ هذا القولِ منهُمْ نَهْيٌ و زَجْرٌ عمّا ارْتَكَبُوا حِينَ[(٧)] أتَوا بالنهايةِ مِنَ الوَعيدِ، وهو الهلاكُ والعذابُ الشديدُ.

ولكنْ لَسْنا نَعْلَمُ أنهُمْ كانُوا في الهَلْكَى أو في الناجِينَ، ولَيسَ لنا إلى معرفةِ ذلك حاجةٌ. ولو كانَ لنا حاجةٌ إلى ذلكَ لَبَيَّنَ لنا ﷺ، ولم يَتْرُكْ[(٨)] ذلكَ، لا رأينا سِوى أنهُ بَيَّنَ مَنْ يُنَجِّي منهُمْ بالانْتِهاءِ[(٩)] عنِ الظُّلْمِ والعُدوانِ، وبَيَّنَ مَنْ أهلَكَ، وعَذَّبَ بالظُّلْمِ والعُدوانِ بقولِهِ تعالى: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ والنَّصبِ[(١٠)] أيضاً مَعْذِرَةً. فَمَنْ قَرَأَ بالرَّفعِ أضْمَرَ فيهِ: هذِهِ؛ كأنهُمْ قالُوا: هذهِ مَعْذِرَةٌ إلى رَبِّكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١] قِيلَ: هذِهِ سورةٌ أنْزَلْناها. ومَنْ قَرَأَ بالنَّصبِ قالَ: مَعْذِرَةً أي اعْتِذاراً منهُمْ إلى رِبِّهِمْ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عمّا نُهُوا.

الآية ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تَرَكُوا، وأعْرَضُوا عمّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾.

قالَ القُتَبيُّ: شَديدٍ، وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ، وقالَ غَيرُهُ: أي مُوجِعٍ، وهو واحدٌ. وقالَ الحَسَنُ ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ﴾ على الوقفِ، ثم قالَ: ﴿بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

الآية ١٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿عَتَوْا﴾ اسْتَكْبَرُوا؛ يُقالُ: عَتا يَعْتُو عُتُوّاً، وكانَ العُتُوُّ هو النهايةُ في البَأْسِ، فلذلكَ قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨ و٦٩] بأساً. لكنْ سُمِّيَ مَرَّةً قَساوةً ومَرَّةً اسْتِكْباراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: حُوِّلَتْ صُورَتُهُمْ وجَسَدُهُمْ [إلى][(١١)] صُورةِ القِرَدَةِ، وكانَتْ عُقولُهُمْ على حالِها عُقولَ البَشَرِ، لم تُحَوَّلْ، لِيَعْلَمُوا تعذيبَ اللهِ إياهُمْ وما أصابَهُمْ بِهَتْكِهِمْ حُرَمَ اللهِ

[وقالَ][(١٢)] قائلونَ: حَوَّلَ طِباعَهُمْ [إلى][(١٣)] طباعِ القِرَدَةِ، وأما الصُّورةُ والجَسَدُ [فَبَقِيا على حالِهِما][(١٤)]، ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الآخر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بقوله. (٥) في الأصل وم: كانوا.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: ينزل. (٩) في الأصل وم: بالنهي. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية (ج٢/٤١٥). (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: على حاله.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: هو منْ خَسَأ الكَلْبَ، صارَ قاصياً مُبْعَداً، يُقالُ: خَسَأْتُهُ. وقال أبو عوسجة: ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مُبْعَدينَ، وكذلكَ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي ابْعُدُوا فيها، وارجِعُوا فيها؛ يُقالُ: خَسَأْتُ فُلاناً، واخْسَأْتُهُ، أي باعَدْتُهُ، فَخَسَأَ، أي تباعَدَ. وقيلَ: الخاسِئُ الذليلُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ مِنَ القِصَّةِ وجْهانِ.

أحَدُهما: دليلُ إثباتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ لهُ حينَ[1] أخبَرَ ما كانَ منْ غيرِ نَظَرِهِ في كُتُبِهِمْ ولا اختِلافٍ إلى أحدٍ مِمَّنْ لهُ عِلْمٌ في ذلكَ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ باللهِ تعالى.

والثاني: إنباءٌ عَنْ عَواقِبِ الظَّلَمَةِ والفَسَقَةِ وما حَلَّ بِهِمْ بِظُلْمِهِمْ وانْتِهاكِهِمْ حُرَمَ اللهِ ليكونَ ذلكَ بِهِ زَجْرٌ لنا عن ارْتِكابِ مِثْلِهِ.

الآية ١٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ تَأَذَّنَ أي قالَ ربُّكَ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ هو مِنَ الأذانِ؛ أي أعْلَمَ ربُّكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ الآية قالَ[2] نزلَتْ هذِهِ الآيةُ بمكةَ في شأنِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، لأنَّ الكفارَ كانُوا يَمْنَعُونَ مَنْ أرادَ الإسلامَ اتِّباعَ محمدٍ ﷺ، فَوَعَدَهُمُ اللهُ ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ مَنْ يُقاتِلُهُمْ، ويأخُذُ منهُمُ الجِزْيَةَ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جزاءَ ما كانُوا يَمْنَعُونَ الناسَ عنِ اتِّباعِ محمدٍ ﷺ، والإجابَةِ لهُ في ما يَدْعُو إليهِ.

وقالَ قائلونَ: هو في بَني إسرائيلَ، وهو ما قالَ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٤-٨] أخبَرَ إنْ عادُوا عُدْنا. ولم يُبَيِّنْ إنْ عادُوا عُدْنا بِماذا؟

ثم بَيَّنَ في هذِهِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقالَ قائلونَ: هذا إنما كانَ في هؤلاءِ الذينَ سَبَقَ ذكرُهُمْ في قولِهِ: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: الآيةُ لا تُحْتَمَلُ في هؤلاءِ؛ لأنَّ مَنْ آمنَ مِنْهُمْ لم يَحْتَمِلْ ذلكَ، ومَنْ صارَ منهُمْ قُروداً لم تَحْتَمِلْ أيضاً بَعدَ ما صاروا قروداً

فهيَ[3] واللهُ أعْلَمُ على الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ يأخُذُهُمْ في حالِ أمْنِهِمْ، لَيسَ كما يأخُذُ مُلوكُ الأرضِ قَومَهُمْ بَعْدَ ما يَتَقَدَّمُ منهُمْ إليهِمْ تَخويفٌ، فَعِنْدَ ذلكَ يأخُذُهمْ بالعذابِ. أو يُقالُ ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي عَنْ سَريعٍ يأخُذُ عِقابَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَنْ كَفَرَ، وكَذَّبَ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ آمَنَ، وصَدَّقَ باللهِ ورسولِهِ/ ١٨٩ ـ أ/.

الآية ١٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ يَحْتَمِلُ فَرَّقْناهُمْ في وَقْتٍ بَعْدَ ما كانُوا مَجْمُوعِينَ. ثم يَحْتَمِلُ الجَمْعُ وجهَينِ: كانُوا مَجموعِينَ ثم تَفَرَّقُوا، فصارَ بَعْضُهُمْ كُفَّاراً، وبَعْضُهُمْ مؤمنينَ. أو كانُوا مَجموعينَ في المَكانِ والمَعاشِ والماءِ والكَلَإِ، ثم تَفَرَّقُوا، فصاروا مُتَفَرِّقِينَ في المكانِ والمَعاشِ وغيرِهِ، أو كانُوا في الدِّينِ واحداً، فَصارُوا[4] أصحابَ أهواءٍ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ وجماعةً بَعْدَ جَماعَةٍ: بَعْضُهُمْ خَلَفٌ[5] لِبَعْضٍ على ما ذَكَرَ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأنعام: ١٦٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فإنْ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في الدِّينِ والمَذْهَبِ، فَيَكونُ تأويلُهُ ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المُؤمِنُونَ ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الكُفّارُ، ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غَيرَ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٦] أي غَيرَ اللهِ.

وإنْ كانَ في المَعاشِ فَبَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ في المَعاشِ؛ وسَّعَ على بَعْضِ المَعاشَ، وشَدَّدَ على بَعْضٍ، وضَيَّقَ؛ فيكونُ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: قالت. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: خلفا.

بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ في المعَاشِ والرِّزْقِ، أو بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ في الدِّينِ؛ بَعْضُهُمْ على الصَّلاحِ، وبَعْضُهُمْ أصحابُ أهواءٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ابْتَلَى بَعْضَهُمْ في الخِصْبِ والسَّعَةِ، وبَعْضَهُم بالشِّدَّةِ والضِّيقِ لِيُذَكِّرَهُمُ المَوعودَ مِنَ الثوابِ في الحَسَناتِ، ويَزْجُرَهُمْ [عنِ][1] المَوعودِ مِنَ العِقابِ عنِ السَّيِّئاتِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَتوبُونَ، ويَرْجِعونَ عَنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: بَلَوناهُمْ بالنَّعيمِ والخِصْبِ والسَّعَةِ لِيَعْرِفُوا فَضْلَ اللهِ وإحسانَهُ، فَيَرْجِعُوا إليه بالشُّكْرِ والثناءِ. [وبَلَوناهُمْ بالسيئاتِ][2] أي بالبَلايا في أَنْفُسِهِمْ والمَصائبِ والضِّيقِ لِيَعْرِفُوا قُدْرَةَ اللهِ وسُلْطانَهُ، فيرجِعُوا[3] إليهِ بالتَّضَرُّعِ والفَزَعِ والدعاءِ والتوبةِ.

والثاني: مَعْناهُ أي بَلَوناهُمْ بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ لِيَتَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ أنَّ غَيرَهُمْ أمْلَكُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَيَرْجِعُوا إليهِ النَّفْسَ لِأَمْرِهِ وحُكْمِهِ.

والثالثُ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المُؤمِنَ منهُمْ والكافِرَ حتى إذا رَأَوُا الاسْتِواءَ في الدنيا، وفي الحِكْمَةِ التَّفْريقُ بَيْنَهُمْ، فَيَضْطَرُّ الجَميعُ إلى الإيمانِ بالبَعْثِ، إذ خُروجُهُمْ مِنَ الدنيا على سَواءٍ.

والرابعُ: أنهُ إنما جَعَلَ النَّعيمَ في الدنيا لِيَعْرِفُوا لَذَّةَ المَوعودِ في الآخِرَةِ، وكذلكَ الشِّدَّةَ، فابْتَلاهُمْ بالأمرَينِ جميعاً لِيَسْتَعِدُّوا لِلرُّجوعِ إلى المَوعودِ لَهُمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ قالَ قائلونَ: هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ والصالِحونَ هُمُ الذينَ آمَنُوا باللهِ، وحَفِظُوا حُدودَهُ وحَلالَهُ وحَرامَهُ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني الصالِحينَ ﴿خَلْفٌ﴾ مَنْ لم يَحْفَظُوا حُدودَهُ ومَحارِمَهُ.

وقالَ قائلونَ: هو صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الأنبياءِ والرُّسُلِ؛ كأنهُ أخبَرَ أنهُ خَلَفَ ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يَعْني خَلْفَ الرُّسُلِ والأنبياءِ، وَرِثُوا الكتابَ، وهو كما ذُكِرَ في سورةِ مريمَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [الآية: ٥٩] وإنما ذَكَرَ الأنبياءَ والرُّسُلَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وعَلِمُوا ما فيه ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ إنَّ أهْلَ الكتابِ كانُوا يأخُذونَ الدُّنْيا على أحَدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: منهُمْ مَنْ كانَ يأخُذُها مُسْتَحِلًّا لها كقولِهِ تعالى: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] ومنهُمْ مَنْ كانَ يأخُذُها بالتَّبْديلِ؛ أعني تَبْديلَ الكتابِ[كقولِهِ تعالى][4]: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية: [آل عمران: ٧٨] وقولِهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا﴾ [البقرة: ٧٩] ومنهُمْ مَنْ كانَ [تناوَلَ على ما][5] تناوَلَ أهْلُ الإسلامِ على قَدْرِ[6] الحاجَةِ. وهذا لا يَحْتَمِلُ الأخذَ إلّا أخذَ الاسْتِحلالِ أوِ التَّبْديلِ.

والأخذُ بالاسْتِحْلالِ ههنا أقْرَبُ؛ كانُوا ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ مُسْتَحِلِّينَ لهُ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ويَحْتَمِلُ[7] هذا [وجهَينِ:

أحدُهُما][8]: يَحْتَمِلُ ما قالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فَيَغْفِرُ لنا؛ كانُوا يَسْتَحِلُّونَ أموالَ الناسِ، ويأخُذونَها، ثم يَقولونَ ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لأنّا أبناءُ اللهِ وأحِبّاؤُهُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وبالسيئات. (٣) في الأصل وم: فيرجعون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: قدره. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجوهاً.

والثاني: يَحتَمِلُ أنهم قالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ مَعَ علمِهِمْ أنهُ لا يُغفَرُ لهُمْ لِما في كتابِهِمْ ألاّ يُغفَرَ لَهُمْ إذا تناوَلوا مُستَحِلِّين، أو أنهُمْ إذا عُوتِبُوا على ما فَعَلُوا قالُوا ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنهُمْ إذا استَحَلُّوا ذلكَ أضافُوا ذلكَ إلى اللهِ [بقولِهِمْ]: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فقالَ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي لا يُضِيفونَ إلى اللهِ ما استَحَلُّوا، أو أنْ يُقالَ: أخذَ بَعْضُهُمْ ألاّ يَقولوا ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ في ما يُوجِبونَ على اللهِ مِنْ مَغْفِرَةِ ذنوبِهِمُ التي لا يَزالونَ يَعودُونَ لها، ولا يَتوبونَ عنها.

وقالَ[1] بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قالَ: يأخُذونَهُ إنْ كانَ حَلالاً أو حَراماً ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ وقالَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ سُوءٌ ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بَعْدَ أنبيائِهِمْ، ورَّثَهُمُ اللهُ الكتابَ، وعَهِدَ إليهِمْ في سورةِ مريمَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [الآية: ٥٩] ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ وهو ما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبِيُّ: الخَلْفُ الرَّدِيءُ مِنَ الناسِ ومِنَ الكلامِ؛ يقالُ: هذا خَلْفٌ مِنَ القولِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي قَرَؤوا ما فيهِ، وعَلِمُوهُ ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي يَتَّقونَ الشِّرْكَ، أو يَتَّقونَ مُخالفَةَ اللهِ ومعاصِيَهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما في كتابِهِمْ أنَّ تَرْكَ مُخالفَةِ اللهِ خيرٌ في الآخِرَةِ.

الآية ١٧٠ ثم أخبَرَ عنِ المُؤمِنِينَ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ ما فيه مِنَ الحَلالِ والحَرامِ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

الآية ١٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ قِيلَ: دفَعْنا الجبَلَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤]. وقِيلَ: نَتَقَ: قَطَعَ. وقالَ بعضُهُمْ: حَرْفٌ أخَذَ مِنْ كُتُبِهِمْ، فلا نَدْري كيفَ كانَ؟ وقِيلَ: حَرَّكْنا، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ[2]: كلُّ شيءٍ قَلَعْتَهُ[3] مِنْ مَوضِعِهِ، فَرَمَيْتُ بِهِ. ذكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِيُبَصِّرَ رسولَ اللهِ ﷺ، على سَفَهِ قومِهِ؛ لأنَّ قومَ مُوسَى مَعَ كَثْرَةِ ما عايَنُوا مِنَ الآياتِ التي جَرَتْ على يَدَي مُوسَى، وعظيمِ ما كانَ لهُمْ مِنْ مُوسَى مِنَ النِّعَمِ مِنِ استِنْقاذِهِ إيّاهُمْ مِنِ استِرْقاقِ فِرعَونَ وإخراجِهِمْ[4]، وفَرْقِ البَحْرِ لَهُمْ، ومُجاوَزَتِهِ بِهِمْ، وتَفْجيرِ الأنهارِ مِنَ الحَجَرِ، وإنزالِ المَنِّ والسَّلْوَى.

فَجَميعُ ما كانَ لَهُمْ مِنْ مُوسَى ما ذَكَرْنا، لم يَقْبَلُوا التَّوراةَ، ولم يَقرَؤوا بِهِ إلّا بَعْدَ رَفْعِ الجَبَلِ والإرسالِ. فعِنْدَ ذلكَ قَبِلُوا. يَصَبِّرُ رسولَنا لئلا يَضْجَرَ على مُخالَفَةِ قَومِهِ إيّاهُ وكَثْرَةِ سَفَهِهِمْ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ رَفْعِ الجَبَلِ فوقَهُمْ وجهَينِ:

أحَدُهُما: لَمّا عايَنُوا ذلكَ آمَنُوا، وقَبِلُوا الكتابَ. لكنَّ ذلكَ منهُمْ إيمانُ دَفْعٍ؛ إذ ذلكَ قَهْرٌ، ولا يكونُ في حالِ القَهْرِ إيمانٌ.

والثاني: صَيَّرَ ذلكَ آيةً عظيمةً وحُجَّةً واضِحَةً مُعْجِزَةً، فَقَبِلُوها، وحَقَّقُوا الإيمانَ، ثم تَرَكُوا ذلك. يَدُلُّ على ذلكَ ما ذَكَرَ في [السورةِ الثانيةِ حينَ][5] قالَ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٤].

وقيلَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ﴾ بَعْدِ بني إسرائيلَ خَلْفُ السُّوءِ، وهُمُ اليَهودُ، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قِيلَ: التَّوراةُ عن آبائِهِمْ وأوائِلِهِم

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: عبيد. (٣) من م في الأصل: فعلته. (٤) في الأصل وم: وإخراجه. (٥) في الأصل وم: سورة الأولى حيث.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ قال: رِشْوةً ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وكانوا يرتَشون، ويقولون: يُغفرُ لنا؛ لأنهُمْ زعَموا أنهُمْ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ﴾ قِيلَ: رِشْوةٌ مِثلُهُ اخذُوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ قالوا: لقد اخذَ عليهِمْ في التوراةِ ألا يَستَحِلّوا مُحرّماً/ ١٨٩ ـ ب/ [و﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ في التوراةِ ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ استِحْلالَ المَحارِمِ وأكلَهُمُ الحرامَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قِيلَ: بالتوراةِ، ولا يُحرّفُونَهُ عن مَواضِعِهِ، ولا يَستَحِلّونَ مُحرّماً][1] ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: أي أيقَنوا أنه، إنْ لم يَقبَلوا، واقعٌ بهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ قد ذَكَرَ هذا في ما تَقَدَّمَ. قولُهُ تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: خُذُوا؛ أي اقبَلُوا ما فيهِ.

والثاني: اعمَلُوا بما فيهِ. وفيهِ دلالةُ كونِ [استِطاعةِ الفِعْلِ معَ الفِعْلِ][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قِيلَ: اعمَلُوا بما فِيهِ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ العُقوبةَ والمَعصيةَ.

الآية ١٧٢ تكَلَّمَ الناسُ في تأويلِ[3] قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ الآية:

فَمِنهُمْ مَنْ يقولُ: ذلكَ عندما خَلَقَ آدمَ أخرَجَ مَنْ يكونُ مِنْ ذُرّيّتِهِ مِثلَ الذَّرِّ، فَعَرَضَ عليهِمْ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ لكنِ اختَلَفُوا:

فَمِنهُمْ مَنْ يقولُ: جَعَلَ بالمَبلَغِ الذي يَجري على مِثلِهِ القَلَمُ، وهو قَولُ الحَسَنِ.

ومِنهُمْ مَنْ يَقولُ: عَرَضَ ذلكَ على الأرواحِ دُونَ الأجسادِ ودونَ[4] ذلكَ.

ومنهُمْ مَنْ يَقولُ بِلا عَرْضٍ: إنهُ خَلَقَ صِنفَينِ، فقالَ: «هؤلاءِ في الجَنّةِ، وهؤلاءِ للنارِ، ولا أُبالي» [الحاكم في المستدرك ١/ ٣١].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: عَرَضَ الكُلَّ على ما عليهِ أحوالُهُمْ وآجالُهُمْ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ كيفَ كانَتِ القِصّةُ؟ أو كيفَ يَرى أحوالَ الفَقرِ والغِنَى في الذَّرِّ؟ أو كيفَ [قالَ][5]: هؤلاءِ في كذا ولا أُبالي مَعَ إجماعِهِمْ على القولِ: بَلَى[6] لَمّا عَرَضَ عليهِمْ قولَهُ[7]: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ وقد رأينا في تلكَ الأخبارِ ما كانَ الكَفُّ عمّا لَهُ المُرادُ وبِخاصّةٍ حِفْظُ العَوامِّ وأهلِ الضَّعفِ عَنْ تَبليغِها الزَمَ وأعظَمَ في النَّفعِ وأبعَدَ عنِ الشُّبَهِ مِنْ روايَتِها وتَكلُّفِ الكَشفِ عنها. فَنَسألُ اللهَ العِصمَةَ عمّا بِهِ الهَلاكُ والتَّوفيقَ للنُّصحِ بما بِهِ نَجاةُ كُلِّ سامعٍ ودَفعُ كلِّ شُبهَةٍ وحَيرَةٍ، فإنهُ لا قُوّةَ إلّا باللهِ.

ومنهُمْ مَنْ ذَهَبَ في تأويلِ الآيةِ إلى المَعرُوفِ مِنْ ذُرّيّةِ آدمَ والأخذِ مِنَ الأصلابِ والإنشاءِ في الأرحامِ على ما كانَ، ويكونُ إلى يومِ القِيامَةِ على ما قالَ اللهُ ﷻ ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥ ـ٧] وقالَ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾الآية: [الحج: ٥] وقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقالَ تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] وغيرَ ذلكَ ممّا احتَجَّ مِنْ أوّلِ ما جرَى بِهِ تدبيرُ البَشَرِ إلى آخِرِ ما يَنتَهي بِهِ أمرُهُ ممّا يَعجَزُ عَنْ تقديرِهِ وُسْعُ الخَلقِ، ويَستَتِرُ عنْ عقولِهِمْ كَيفيّةُ بَدْءِ ذلك، وما عليهِ تَنَقُّلُهُ مِنْ حالٍ إلى [حالٍ][8] مِنْ كُلِّ طَرْفِ عَينٍ ولَحْظِ بَصَرٍ معَ ما فيهِ مِنْ عَجيبِ التَّدبيرِ وحُسْنِ التَّقويمِ الذي لو تَكَلَّفَ الخَلقُ تَصويرَ مِثلِهِ بِكُلِّ أنواعِ الحِيَلِ مِنَ الأصولِ الظاهِرَةِ بِحَيثُ يُبْصِرُهُ كُلُّ بَصَرٍ لَكانَ يَعجَزُ عنهُ. فكيفَ في الظُّلُماتِ الثلاثِ مع ما رُكِّبَ فيهِ مِنَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: الفعل، في م: الفعل مع الفعل. (٣) في الأصل وم: تأويله. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ببلى. (٧) في الأصل وم: في قوله. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

العَقْلِ والسَّمْعِ والبَصَرِ وما جَعَلَ في كُلٍّ ما أنشأَ فيهِ ومِنْهُ مِمَّا تَبلُغُ الأوهامُ فَضْلاً مِنَ الإحاطةِ في ذلكَ مِنَ الحِكْمَةِ؟ ولذلكَ قال اللهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وكانَ ذلِكَ هو العَهْدَ إلى جَميعِ الذُّرِّيَّةِ وإشهادَ أنْفُسِهِمْ عليهِم، يَتعالى مَنْ دَبَّرَهُمْ على ذلكَ، وأنْشأَهُمْ على ما فيهِمْ، عنْ أنْ يكونَ لهُ كذا، أو يَقْدِرَ أحدٌ قَدْرَهُ.

فهذا هو مَعْنَى إشهادِهِمْ على أنْفُسِهِمْ؛ أي جَعَلَهُمْ على أنفسِهِمْ شُهوداً أنْ يَعْلَمُوا أنَّ مُدَبِّرَهُمْ رَبُّهُمْ، لا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ، وأنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١] مَعَ ما في جَعْلِ ذلكَ ذُرِّيَّةً؛ يَعْرِفُ كُلٌّ بما يَرَى مِنْ عَجْزِ تدبيرِ وَلَدِهِ وجَهْلِهِ بأحوالِهِ في حالِ كونِهِ في رَحِمِ أبَوَيْهِ بيانٌ على أنهُ لا كانَ بآبائِهِ وأُمَّهاتِهِ عِلْمٌ. ولكنْ بربِّ العالَمينَ.

وذلكَ هو الذي يَمْنَعُهُمْ عنِ القولِ بالفضيلَةِ عنْ ذلكَ؛ إذْ قد عَلِمَهُ كُلٌّ منهُمْ، لا حالَ كونُهُمْ في الوقْتِ الذي لا يذكُرُهُ أحَدٌ.

والذي يُبيِّنُ أنَّ هذا التأويلَ أحقُّ من الأوَّلِ ما دَلَّ عليهِ سياقُ الآيَةِ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [فيهِ أقاويلُ:

أحَدُها][1]: مَنْ ذَكَرْتُ على الأخذِ [مِنْ ظَهْرِ][2] آدَمَ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ [وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾][3].

والثالثُ: قولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ وفي التَّأويلِ ألّا تقولُوا. فكيفَ يُحذِّرُ عنِ القولِ بذلكَ؟ وقد عَلِمَ أنهمْ كذلكَ لَيسَ أحدٌ منهُمْ يَذْكُرُ ذلكَ، ولا يَتَقرَّرُ[4] عندهُ ذلكَ لو نُبِّهَ بِكُلِّ أنواعِ التَّنْبيهِ.

والرابعُ: قولُهُ تعالى ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ ما في ذلكَ العَرْضِ ممّا يَمْنَعُ عنْ هذا القولِ، وأيضاً: إنهُ ذُكِرَ في بَعْضِ هذا القولِ أنّ[5] «وهؤلاءِ في النارِ ولا أُبالي» [الحاكم في المستدرك ١/ ٣١].

وفي القرآنِ الجَمْعُ بَيْنَهُمْ في القولِ[6]: ﴿بَلَىٰ﴾. وذلكَ عُدَّ توحيداً منهُمْ، مَعَ ما في القرآنِ [قولُهُ تعالى][7]: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ الآية [البقرة: ٢٨] [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الآية [غافر: ١١]. وفي بَيانِ ذلكَ إثباتُ الموتِ والحياةِ أكثرَ مِنَ العَدَدِ الذي جاءَ القرآنُ في الكُلِّ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ثم قد يَتَوجَّهُ التَّأويلُ الثاني ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ إلى أوجهٍ.

فأمّا ابْتِداءُ[9] الآيةِ فهو ذلكَ عندَ التَّحْقيقِ لأنهُ ذَكَرَ الأخذَ مِنْ بَني آدَمَ ثم مِنْ ظُهورِهِمْ. والأخذُ مِنْ بَني آدمَ ثم مِنْ ظُهورِهِمْ هو النُّطَفُ، وهو الماءُ الدافِقُ ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧] وأشهَدَهُمْ على أنْفُسِهِمْ، أعْلَمَهُمْ ما مِنْهُ إنشاؤُهُمْ وقَلْبُهُمْ مِنْ حالٍ إلى [حالٍ إلى][10] أنْ تَمَّتِ النَّسَمَةُ، وظَهَرَتِ البَشَرِيَّةُ، على ما أعْلَمَ، كُلٌّ في ذُرِّيَّتِهِ: خُروجُ بَدْوِهِ مِنْ تَدْبيرِ والدَيهِ وقيامُهُ على ما عليهِ مدارُهُ وقرارُهُ وتَدْبيرُ مَنْ لا يُعْجِزُهُ شَيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ أمْرٌ، لِيقولُوا: إنَّ الذي ذَكَرَ هذا هو رَبُّهُمُ الذي ربّاهُمْ على ذلكَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١].

فكانَ ذلكَ إعلاماً مِنَ اللهِ إيّاهُمْ على أنْفُسِهِمْ وشهادَةً منها بالخِلْقَةِ أنهُ رَبُّهُمْ؛ ربّاهُمْ، ومَلَّكَهُمْ على ما جَرى فيهِمْ مِنْ تدبيرِ اللهِ، جَلَّ ثناؤُهُ، ولِئَلّا يَقولُوا [11] غداً إنهُمْ [كانوا][12]: ﴿عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ إذْ عَرَفَ ذا كُلُّ ذي عَقْلٍ، وعَرَفَ أنهُ كانَ باللهِ ﷻ لا بِوالِدَيهِ، لِيَجْعَلُوا شِرْكَ الآباءِ والأمهاتِ لأنفسِهِمْ حُجَّةً مِنْ حيثُ كانوا منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أن يكونَ اللهُ أشْهَدَهُمْ على أنْفُسِهِمْ بما أراهُمْ مِنْ أحوالِ ذُرِّيَّتِهِمْ في الإنتِقالِ على أحوالٍ على [أنَّ][13] أنْفُسَهُمْ كذلكَ، دخَلَ كُلُّ مَنْ بِجَوهَرِهِمْ[14] في ذلكَ التدبيرِ لِيَعْلَمُوا أنَّ الذي ذَكَرَهُمْ على ذلكَ دَبَّرَ الكُلَّ، فَيَزولُ عنهُمْ شُبَهُ

---

(١) في الأصل وم: وأقاويل. (٢) من م، في الأصل: انطوى. (٣) في الأصل وم: وفي قولهم: منْ ظهر آدم. (٤) من م، في الأصل: يتفرد. (٥) في الأصل وم: بان. (٦) في الأصل وم: القول بـ. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وَ. (٩) هذا هو الوجه الأول. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، في الأصل: يقول. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: جوهرهم.

الكونِ بِغيرِ الرَّبِّ الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فَيَزولُ عنهُمْ بهِ عُذرُ الغَفلَةِ وعلاقَةُ الشُّبهَةِ بِكُفرِ الوالِدَينِ مِنْ حَيثُ حَقُّ التَّبعِيَّةِ، أو سَفَهُ التَّقليدِ بما يُعلَمُ خُروجُ[١] الجميعِ مِنَ التَّدبير ورُجوعُ التدبيرِ إلى غَيرٍ لِيكونَ مَوضِعَ الِاسْتِدْلالِ بِما أراهُمْ هو، ودعاهُمْ إليهِ، لا بِما أمَرَهُمْ بِهِ الآباءُ والأُمَّهاتُ.

ثم القولُ بـ ﴿بَلَىٰ﴾ يكونُ نُطقاً، ويكونُ خِلقَةً، ويكونُ جوابَ الفِطرَةِ بِحَقِّ التَّأمُّلِ. فالنُّطقُ أنهُ لا يُسأَلُ أحدٌ قَبلَ التَّلقينِ إلّا وهو يقولُ بالرَّبِّ والخالِقِ. وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] والخِلقَةُ بما كانَ مِنْ حاجَتِهِ إلى مُقيِّمٍ وإلى مُدَبِّرٍ على شِرْكَةِ كلٍّ في ذلكَ إقرارٌ لهُ بالرُّبوبِيَّةِ وذلكَ معْنى نَفْيِ التَّفاوُتِ عن خَلقِهِ وفِطرَتِهِ بما يُقلِّبُهُ عن أحوالٍ؛ لو تأمَّلَ الخلائِقُ إدراكَ كلِّ حالٍ منها وَوَجهَ التَّنقُّلِ وقَدرَ التَّغيُّرِ في كُلِّ حالٍ لما تَهيَّأَ لَهُم لِيُعلَمَ أنَّ في الفِطرَةِ شهادَةً بالتَّوحيدِ. وهذا مَعْنى ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «كُلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطرَةِ» [البخاري ١٣٨٥] أي على حالٍ لو تُرِكَتِ العُقولُ والفِكَرُ فيها لَشَهِدَتْ بالتَّوحيدِ.

وذلكَ قولُهُ: ﴿بَلَىٰ﴾ لا أنْ ثَمَّ قولُ لِسانٍ بل نُطقُ حالٍ كما قالَ الحكيمُ: كُلُّ صامِتٍ ناطِقٌ، لأنَّ صَمْتَهُ دليلُ تدبيرِ آخَرَ، فهو ناطِقٌ بالبَيانِ عنِ الواحِدِ العَزيزِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقد يَحتَمِلُ الإشهادُ أنْ جعَلَهُمْ[٢] شُهداءَ على أنفُسِهِمْ بالعُبودِيَّةِ للهِ، وأنهُ ربُّهُمْ والمالكُ عليهِمْ، والقولُ بـ ﴿بَلَىٰ﴾ بما يلزمُ بالتَّأمُّلِ. فكأنهُ قالَ، واللهُ أعلمُ: وفي الآيَةِ دلالَةُ إثباتِ خَلْقِ اللهِ فِعلَ الخَلْقِ، وقد أخبَرَ اللهُ أنهُ أخَذَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قِيلَ: على ماذا يُخَرَّجُ تأويلُ السَّلَفِ؟ قيلَ: لَعَلَّهُمْ وجَدُوا فيهِ خبَراً ظَنُّوا أنَّ الآيَةَ تُخَرَّجُ عليهِ، فأوَّلُوها على ذلكَ.

فإذا أُريدَ تَسْوِيَةُ ذلكَ بالآيَةِ لا بُدَّ مِنْ زِياداتٍ تُلحَقُ بها، ولا[٣] تُخرَجُ عنها[٤] / ١٩٠ ـ أ/.

مِنْ ذلكَ أنْ يقولَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أنْ تُجعَلَ ﴿مِنۢ﴾ صِلَةً؛ كأنهُ قالَ: وإذْ أخذَ ربُّكَ بَني[٥] آدمَ.

وقد تكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وبَنو آدمَ يُؤخَذونَ[٦] مِنْ ظَهرِ آدمَ كما يُؤخَذُ ابنُ كُلٍّ مِنْ ظُهورِهِمْ؛ أي أصْلُ ابنِ كُلٍّ مِنْ ظَهرِهِ. وذَكَرَ ظهورَهُمْ لِما كانَ منسوباً إليهِمْ، وإنْ كانَ، لو طُرِحَ حَرفُ الصِّلَةِ، تَزولُ الشُّبَهُ، فَحُفِظَ في ذِكرِ حَقِّ الوَصْلِ، وإنْ كانَ حَقُّهُ الإسقاطَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾ الآية [الطلاق: ٨] وغيرُ ذلكَ ممّا كَنّى عن أهلِ القَريَةِ بِاسْمِها.

وعلى ذلكَ أُجرِيَ ذِكرُ الفِعلِ، وإنْ لم يكُن لها في الحَقيقَةِ فِعلٌ. فَعَلى ذلكَ هذا، فَيَصيرُ في التَّحصيلِ كأنهُ قالَ: وإذْ أخَذَ ربُّكَ بَني آدَمَ مِنْ ظَهرِهِ، ثم يكونُ المأخوذُ الذي عُرِضَ عليهِ مَجعولاً على حَدٍّ، يَعْقِلُ الخِطابَ ومَعْنى قولِهِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابَ بالذي ذَكَرَ.

والخَبَرُ الذي فيهِ القِسْمَةُ إمّا أنْ كانَ لا في هذا، فَوُصِلَ بِهِ، [وإمّا أنْ][٧] كانَ في الآيَةِ ذِكرُ إجابَةِ أحدِ الفَريقَينِ، [وإمّا أنْ][٨] كانَ بَيْنَ الجَمْعِ اتِّفاقٌ في هذا الحَرْفِ واختِلافٌ في ما جاوَزَ هذا، فالقِسْمَةُ لِما عدا. وقد يوجَدُ في هذا القَدْرِ أيضاً اتّفاقٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾. على إضمارِ بَعْثِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكتابِ بالإخبارِ عن ذلكَ لِئَلّا يَدَّعُوا الغَفلَةَ بِما كانَتْ مِنْهُم. ذلكَ بما أُوقِظُوا، أو نُهُوا، أو بما لا يَحتَجُّونَ بما اعْتَرَضَهُمْ مِنَ الغَفْلَةِ؛ إذ قَطَعَ عُذرَهُمْ بِغَيرِ ذلكَ مِنَ الأدِلَّةِ والرُّسُلِ، واللهُ أعلَمُ، أو لا يقولونَ.

الآية ١٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي [قَبلَ][٩] بَعْثِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ لِقَطعِ هذا النَّوعِ مِنَ الشُّبَهِ على الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرتُ [كقولِهِ تعالى][١٠]: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [طه: ١٣٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ الآية [القصص: ٤٧] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) من م، في الأصل: خرج. (٢) من م، في الأصل: جعلتم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وألا تخرج. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: يؤخذ. (٧) و(٨) في الأصل وم: أو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

ويكونُ في التأويلِ الأولِ ظُهورُ أمْرِ الذُّرِّيَّةِ للأولادِ في الخُروجِ عَنْ تدبيرِ الآباءِ والأمهاتِ بِقَطْعِ الحِجابِ بهذينِ الحَرْفَينِ.

وفي الثاني نُزولُ الكُتُبِ وإرسالُ الرُّسُلِ معَ ما أمْكَنَ جَعْلُ هذا في التأويلَينِ[1] جميعاً، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ على وجهَينِ:

أحدُهما: على البَيانِ أي نُبَيِّنُ ما يَكْشِفُ الغُمَّةَ[2] ويُزيلُ الشُّبْهَةَ.

والثاني: أنْ نُفَرِّقَ، ونَضَعَ كُلَّ واحدةٍ منها في أحقِّ مَواضِعِها[3] وأولَى. ذلكَ لِقَطْعِ العُذْرِ ودَفْعِ العِلَلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي تأمَّلوا عَمّا هُمْ علَيهِ مِنَ الباطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ.

أحدُها: أنْ يكونَ ذلكَ الإهلاكُ، لَيسَ هو التَّعذيبَ، لكنَّهُ الإماتَةُ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] أي تُميتُنا إذا فَعَلَ السُّفهاءُ ما [فَعَلوا، ولا][4] تُبْقِيهِمْ لِما يُرْجى مِنَ التَّوبَةِ، أو تُحدِثُ منهُمْ مَنْ لم يَسْفَهْ.

والإضافَةُ[5] إلى الجُمْلَةِ بِوَجهَينِ:

[أحدُهما][6]: على إرادةِ مَنْ سَفِهَ منهُمْ.

والثاني: على الكُلِّ؛ إذِ المَوتُ حَقٌّ مكتوبٌ على جَميعِ البَشَرِ إلا على التَّعذيبِ على مَعْنَى لا تَفْعَلُ أنْتَ كذلكَ كما يقولُ الرجلُ: أنا أفْعَلُ هذا؟ أو أنْتَ تَفْعَلُ هذا على التَّبَرّي والتَّبرِئَةِ كقولِهِ[7] تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي تَفْعَلُها[8] ابْتِلاءً لا تَعْذيباً.

والثالثُ: أنْ يكونَ على الإيجابِ بِجَمْعِهِمْ في ذلكَ، وإنْ كانَ الذي اسْتَحَقَّ بَعْضُهُمْ في حقِّ المِحْنَةِ؛ إذ لهُ ذلكَ ابْتِداءً، وذلكَ نَحْوُ أمْرِ أحدٍ بما ابْتَلاهُمْ، وإنْ لم يكُنْ منهُمْ جميعاً المَعْصِيَةُ. وعلى ذلكَ أمْرُ جميعِ أنواعِ المَصائِبِ، يَجْمَعُ فيها بَيْنَ أهلِ الخَيرِ والشَّرِّ بِحَقِّ المِحْنَةِ لا العُقوبَةِ، وإنْ كانَ في بَعْضِهِمْ عُقوبَةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في هذا:

قالَ بَعْضُهُمْ: كانَ هذا نَبِيّاً ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ يَعْني مِنَ النُّبُوَّةِ، وكَفَرَ بها. لكنَّ هذا بَعيدٌ، مُحالٌ أنْ يَجْعَلَ اللهُ الرسالةَ في مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَكْفُرُ بهِ، أو يَخْتارَهُ لِوَحْيِهِ، وهو يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ بِأهْلٍ لها، لِقولِهِ[9] تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ بَلْعَمُ بْنُ باعورا أعطاهُ اللهُ تعالى آياتٍ، فَكَفَرَ بها، وانْسَلَخَ منها. وقِيلَ: عَصَى الاسْمَ المَخْزونَ، كانَ يُسْتَجابُ لَهُ بهِ جَميعُ ما يَسْألُ رَبَّهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ أُمَيَّةُ بْنُ أبي الصَّلْتِ على ما قالَ[10] عنهُ ﷺ «إنهُ آمَنَ بِشِعْرِهِ، وكَفَر بقَلْبِهِ» [كشف الخفاء للعجلوني ١٩].

وقالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ في مُنافِقي أهلِ الكتابِ؛ قد كانَ أعطاهُمُ اللهُ الآياتِ، فَكَفَروا بِها، وكَذَّبوها. ولكنْ لا نَدْري في مَنْ نَزَلَتْ؟ وهو في جَميعِ مُكَذِّبي الآياتِ، ولَيسَ يَجِبُ أنْ نَخُصَّ[11] واحداً، أو يُشارَ إلى أحدٍ نَزَلَ فيهِ.

ولكنْ نقولُ: إنها نَزَلَتْ في جَميعِ مُكَذِّبي الآياتِ.

---

(١) في الأصل وم: التأويل. (٢) في الأصل: وم: النعمة. (٣) في الأصل وم: مواضعه. (٤) في الأصل وم: فعل وإلا. (٥) هذا هو الوجه الثاني. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) في الأصل وم: تفعله. (٩) في الأصل وم: يقول. (١٠) في الأصل وم: قيل. (١١) في الأصل وم: ننص.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ خرَجَ منها، ونزَعَ منها، وقيلَ: ترَكَها، وكُلُّهُ واحدٌ. ثم يَحتَمِلُ ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي كانُوا قَبِلُوها مَرَّةً، ثم رَدُّوها مِنْ بَعْدِ القَبولِ. ويَحتَمِلُ أنْ يَقْبَلُوها ابتِداءً، فَخرجُوا منها، وكَذَّبُوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ اللهَ لا [يُتبِعُ الشيطانَ أحداً][1] ولا يُزيغُهُ إلّا بَعْدَ ما كانَ منهُ الإختيارُ لِلضلالِ والمَيلِ إليهِ [حِينَ قالَ][2]: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ إنما أتبَعَ الشيطانُ بَعْدَ ما كانَ منهُ الإنسِلاخُ والنَّزْعُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ قيلَ: كانَ في عِلْمِ اللهِ أنْ يكونَ في ذلكَ الوقتِ مِنَ الغاوِينَ، وقيلَ: كانَ مِنَ الغاوِينَ؛ أي صارَ مِنَ الغاوِينَ، إذِ[3] انسَلَخَ منها، وخرَجَ. والغاوِي: الضَّالُّ.

الآية ١٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ عَصَمْناهُ حتى لا يَنْسَلِخَ منها، ولا يُكَذِّبَ بها؛ أي لو شِئْنا لَوَفَّقْناهُ بها حتى يَعْمَلَ بها. أو أنْ يُقالَ: لو شِئْنا لَعَصَمْناهُ حتى لا يَختارَ ما اختارَ، لكنَّهُ إذْ عَلِمَ منهُ أنهُ يختارُ ذلكَ، ويَمِيلُ إليهِ شاءَ ألّا يَعْصِمَهُ، ولا يُوَفِّقَهُ.

فكيفَ ما كانَ فهو على المُعتَزِلَةِ؛ لأنهُ أخبَرَ لو شاءَ لَرَفَعَهُ بها، وكانَ لهُ مَشيئةُ الرَّفْعِ. ثم أخبَرَ أنهُ لم يرفَعْهُ[4]، ولو رَفَعَهُ بها كانَ أصْلَحَ لهُ في الدينِ. دلَّ أنهُ قد يَفْعَلُ بهِ ما لَيسَ هو بِأَصْلَحَ في الدينِ. وهُمْ يَقولونَ: المَشيئةُ ههنا مَشِيئةُ القَهْرِ والقَسْرِ لا مَشِيئةُ الإختيارِ. لكنْ ما ذَكَرْنا أنَّ الإيمانَ في حالِ الإِضطِرارِ والقَهْرِ لا يكونُ إيماناً. فلا مَعْنى لذلكَ، ولا يكونُ ذلكَ رفعاً، فَيَبْطُلُ قولُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما ذَكَرْنا: لَمّا عَلِمَ منهُ أنهُ يَخلُدُ إلى الأرضِ، ويَميلُ إليها لم يَعْصِمْهُ[5] ولم يرفَعْهُ. والإخلادُ إلى[6] الأرضِ: قالَ الحَسَنُ: سَكَنَ إلى الأرضِ. وكذلكَ قالَ الكِسائيُّ: الإخلادُ في كلامِهِمْ السُّكونُ إلى الشَّيءِ والرُّكونُ إليهِ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ: هو اللُّزومُ لِلشَّيءِ.

وفي[7] قولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ دلالةٌ أنَّ الإزاغةَ مِنَ اللهِ وتَرْكَ العِصْمَةِ كما يكونُ مِنَ العَبْدِ المَيْلُ والرُّكونُ[8] إلى مُخالفَتِهِ وتَرْكُ الإئتِمارِ لهُ واتِّباعُ الهَوَى.

قالَ قَتادَةُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ يقولُ: لو شِئْنا مِنْ إتيانِهِ الهُدَى فلم [يَكُنْ][9] لِلشَّيطانِ عليهِ سَبيلٌ، ولكنْ يَبْتَلِي مِنْ عِبادِهِ مَنْ يَشاءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ذِكْرُ الأرضِ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ كِنايةً عنِ الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ كِنايةً عنِ الذُّلِّ والهَوانِ؛ لأنَّ كلَّ خيرٍ وبَرَكَةٍ إنما يُطلَبُ مِنَ السماءِ، وهُمْ إذا اختارُوا ذلكَ اختارُوا الذُّلَّ والهَوانَ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآيةَ: قالَ: حالَ الشيطانُ بَيْنَهُ وبَيْنَ أنْ يَصْحَبَ الهُدَى بما مَنّاهُ، وزَيَّنَ لهُ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ قالَ: هذا مِثْلُ الكافرِ، أُمِيتَ فُؤادُهُ كما أُمِيتَ فُؤادُ الكلبِ [كقولِهِ تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الآية: ١٧٧] أي ساءَ مَثَلُ الأفعالِ التي ضرَبَ اللهُ مَثَلَها بالذي ذُكِرَ في القرآنِ][10] قالَ: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ صَدَقَ اللهُ، وبِئسَ المَثَلُ ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَتَدَبَّرُوا، فَتَفَكَّرُوا في أمثالِ اللهِ التي ضَرَبَ، واعقِلُوها. إلى هذا ذَهَبَ الحَسَنُ.

وقالَ غَيرُهُ: وَجْهُ ضَرْبِ مَثَلِ الذي كَذَّبَ بالآياتِ بالكَلْبِ، مِنْ عادَتِهِ أنْ يَذِلَّ، ويَخْضَعَ لِكُلِّ أحدٍ لِما يَطْمَعُ أنْ يَنالَ منهُ أدنَى شَيءٍ، ولا يُبالي ما يُصيبُهُ مِنَ الذُّلِّ والهَوانِ في ذلكَ بَعْدَ أنْ ينالَ منهُ شيئاً[11]. فَعَلَى ذلكَ الكافِرُ والمُكَذِّبُ بالآياتِ لا يُبالي ما يَلْحَقُهُ مِنَ الذُّلِّ / ١٩٠ ـ ب/ والهَوانِ بَعْدَ أنْ يُصِيبَ مِنَ الدنيا شيئاً.

---

(١) في الأصل وم: يتبعه الشيطان أحد. (٢) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (٣) في الأصل وم: إذا. (٤) في الأصل وم: يرفع. (٥) من م، في الأصل: يعصمه. (٦) في الأصل وم: في. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: بشيء.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ وَجهُ ضَرْبِ المَثَلِ بالكَلْبِ لِما أنَّ مِنْ عادةِ الكِلابِ إذا ظَفِرَتْ بالجِيَفِ تَنْكَبُّ عليها[1]، حتى إذا تُنادَى[2] وتُدعَى، لا تَكْتَرِثُ إليهِ، ولا تَلْتَفِتُ. فَعَلَى ذلكَ هذا الكافِرُ يَنْكَبُّ [على كُلِّ][3] جِيفَةٍ، ويَخْضَعُ، ولا يَلْتَفِتُ إلى ما نُودِيَ، ودُعِيَ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ أي يُخرِجُ لسانَهُ، ويَتَنَفَّسُ تَنَفُّساً ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، إذا أصابَهُ العَطَشُ والجوعُ لَهَثَ، وإذا لم يُصِبْهُ لَهَثَ أيضاً. فَعَلَى ذلكَ الكافِرُ يَميلُ إلى ذلكَ، ويَختارُ، أصابَهُ شِدَّةٌ، أولم تُصِبْهُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقالَ قتادةُ: هذا مَثَلُ الكافِرِ؟ مَيِّتُ الفُؤادِ كما أُميتَ فُؤادُ الكَلْبِ ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ضَرَبَ اللهُ ﷻ، مَثَلَ الكافِرِ مَرَّةً بالكَلْبِ ومَرَّةً بالمَيْتِ ومَرَّةً بالأعمَى ومَرَّةً بالتُرابِ ومَرَّةً بالأنعامِ ونَحْوَ هذا، وذلكَ لِما فيهِ مِنْ مَعاني ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾ كذا؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. أمَرَ رسولَهُ لِيَقُصَّ أنباءَ الأممِ السالفةِ على هؤلاءِ لِيكونَ زَجْراً وتَحْذيراً لِلْكُفارِ لِيَعْلَمُوا ما حَصَلَ بأولئكَ بِصَنيعِهِمْ لِيَحْذَرُوا مِنْ صَنيعِهِمْ، ويكونَ عِظَةً وتذْكيراً لِلمؤمنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الآية ١٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية قد[4] ذكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ أنَّ آياتِهِ، قِيلَ: دينُهُ، وقيلَ: حُجَّتُهُ وبَراهينُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ الأفعالُ التي ضَرَبَ اللهُ تعالى مَثَلَها بالذي في القرآنِ.

الآية ١٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ شَهِدَ اللهُ تعالى مَنْ هَداهُ فهو المُهْتَدِي؛ أي مَنْ هَداهُ اللهُ في الدنيا فهو المُهْتَدِي في الآخرةِ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ في الدنيا فهو الخاسِرُ في الآخِرَةِ. فلو كانتِ[5] الهدايةُ البَيانَ والأمْرَ والنَّهْيَ على ما ذَكَرَهُ قومٌ لَكانَ الكافرُ والمؤمنُ في ذلكَ سَواءً؛ إذْ كانَ البيانُ والأمْرُ والنَّهْيُ للكافِرِ على ما كانَ لِلمؤمِنِ، فلم يَهْتَدِ.

فَدَلَّ أنَّ في ذلكَ مِن اللهِ زيادَةَ مَعْنًى لِلمؤمِنِ، لم يَكُنْ ذلكَ منهُ إلى الكافِرِ، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ والمَعونةُ. ولو كانَ ذلكَ لِلْكافِرِ لاهْتَدَى [كما اهْتَدَى][6] المؤمِنُ. ولو كانَتْ[7] بَياناً لَكانَ ذلكَ البَيانُ مِنَ الرُّسُلِ وغيرِهِمْ[8] على قولِهِمْ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ اللهُ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أخبَرَ أنَّ مَنْ أضَلَّهُ فقد خَسِرَ. دلَّ أنهُ كانَ منهُ زيادةُ مَعْنًى، وهو الخِذْلانُ والتَّرْكُ، أو خَلْقُ فِعْلِ الضلالِ.

ولَيسَ على ما يقولُهُ المُعْتَزِلَةُ: إنهُ قد هداهُمْ جميعاً، لكنْ لم يَهتَدُوا، فَيُقالُ لَهُمْ: أنْتُمْ أعْلَمُ أمِ اللهُ تعالى كما قالَ تعالى لليهودِ: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ [البقرة: ١٤٠] فظاهِرُ الآيةِ على خِلافِ ما يَقولونَ، ويَذْهَبونَ.

الآية ١٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قالَتِ المُعْتَزِلَةُ: لم يَخْلُقْهُمُ اللهُ تعالى لِجَهَنَّمَ، ولكنْ خَلَقَهُمْ، وذَرَأَهُمْ، وأعطاهُمْ مِنَ القُوَّةِ ما يَكْسِبُونَ الجَنَّةَ، غَيرَ أنهُمْ عَمِلُوا أعمالاً اسْتَوجَبُوا بها النارَ، فصَاروا لِلنّارِ بما عَمِلُوا مِنَ الأعمالِ، لا أنْ خَلَقَهُمْ لِجَهَنَّمَ.

ثم اختَلَفُوا هُمْ في تأويلِ[9] قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ذَكَرَ بما إليهِ آلَتْ عاقِبَةُ أمْرِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] لم يَلْتَقِطُوهُ لِيكونَ لَهُمْ ما ذُكِرَ، ولكنْ إنما الْتَقَطُوهُ لِيكونَ لَهُمْ ما ذُكِرَ كقولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] لهذا الْتَقَطُوهُ، لكنَّهُ صارَ لَهُمْ ما ذُكِرَ. أخْبَرَ عمّا إليهِ آلَ أمْرُهُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، وكما يُقالُ: لِدُوا لِلْمَوتِ، وابْنُوا لِلْخرابِ، ولا أحَدَ يَلِدُ لِلْموتِ، ولا يَبْني لِلْخَرابِ، ولكنَّهُ إنباءٌ عمّا[10] تَؤُولُ إليهِ عاقِبَةُ أمْرِهِ مِنَ المَوتِ والخرابِ.

---

(١) في الأصل وم: لها. (٢) في الأصل وم: ينادى لها. (٣) في الأصل وم: لكل. (٤) في الأصل وم: وقد. (٥) في الأصل وم: كان.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كان. (٨) في الأصل وم: وغيره. (٩) في الأصل وم: تأويله. (١٠) في الأصل وم: ما.

إلى هذا يَذْهَبُ عامَّةُ المُعْتَزِلَةِ. وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: الآيةُ على التَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ؛ كأنهُ قالَ: ولقد ذَرَأْنا كثيراً مِنَ الجِنِّ والأنسِ لَهُمْ قلوبٌ لا يَفْقَهُونَ، ولَهُمْ أعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ، ولَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بها: أولئكَ لِجَهَنَّمَ وأولئكَ كالأنعام.

لكنَّ هذا بعيدٌ لأنهُ لو جازَ هذا في هذا لَجازَ مِثْلُهُ في جميعِ القرآنِ أنْ يَجْعَلَ أوَّلَ الآيةِ في آخِرِها وآخِرَها في أوَّلِها، فهذا محالٌ.

وأمّا قولُهُمْ: أنهُ إخبارٌ عمّا إليهِ آلَتْ عاقبةُ أمْرِهِمْ، واسْتِشْهادُهُمْ بِقولِهِ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ [القصص: ٨] كذا فهو يَصْلُحُ لِمَنْ[١] يَجْهَلُ عَواقِبَ الأمورِ، يَخْرُجُ ذلكَ منهُ على التَّنْبِيهِ والإيقاظِ لِما لم يَعْرِفُوا عاقِبَةَ ما صارَ إليهِ الأمْرُ.

فأمّا اللهُ، سُبْحانَهُ، عالِمُ السِّرِّ والعَلانِيَةِ وما كانَ، ويكونُ في الأوقاتِ التي يكونُ، فلا[٢] يَحْتَمِلُ ذلكَ؛ وقولُ الناسِ: لِدُوا لِلْموتِ، وابْنُوا لِلْخرابِ فهو إنما يَذْكُرُونَ هذا عندَ التَّنْبِيهِ والإيقاظِ لِجَهْلِهِمْ بِعواقِبِ الأمورِ، وإنْ كانُوا لا يَبْنُونَ ولا يَلِدُونَ لِلْموتِ والخرابِ، وما قَصَدُوا لهُ.

وأمّا التأويلُ عندَنا على ما ذَكَرَ في ظاهِرِ الآيَةِ أنهُ خَلَقَ لِجَهَنَّمَ كثيراً مِنَ الجِنِّ والإنْسِ [لأنهُ][٣] أعْلَمُ في الأزلِ أنهمْ يَخْتارُونَ فعلَ الكُفْرِ والأعمالَ الخبيثةَ التي يَسْتَوجِبونَ بها النارَ؛ خَلَقَهُمْ لجهنَّمَ لِما عَلِمَ منُهمْ ذلكَ في الأزلِ أنهُمْ يختارُونَ الأعمالَ الخبيثةَ، فَذَرَأَهُمْ على ما عَلِمَ[٤]، منهُمْ ما[٥] يختارونَ، ويكونُ منهمْ.

وكذلكَ خَلَقَ المؤمنينَ لِلْجنَّةِ لِما عَلِمَ في الأزلِ أنهُمْ يختارُونَ فِعْلَ الهُدى، ويَعْمَلُونَ أعمالاً طَيِّبَةً يَسْتَوجِبونَ بها الجَنَّةَ. خَلَقَهُمْ لِلْجنَّةِ لا أنْ خَلَقَهُمْ لِلْجنَّةِ مُرْسَلاً، أو خَلَقَهُمْ لِجَهَنَّمَ مُرْسَلاً، ولكنْ لما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] إنما خَلَقَ منهُمْ لِلْعبادةِ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَعْبُدُهُ، ويُطيعُهُ، وأمّا مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يكفُرُ بهِ، ويَعْصِيهِ فهو إنما خَلَقَهُ لِما عَلِمَ [أنَّ كُفْرَهُ][٦] يكونُ منهُ. فَمَنْ كان عَلِمَ منهُ في الأزلِ أنهُ يكونُ منهُ العِبادةُ خَلَقَهُ لِلْعبادةِ، ومَنْ كانَ عَلِمَ منهُ أنهُ يكونُ منهُ الكُفْرُ خَلَقَهُ لِذلكَ؛ لأنهُ لا يَجوزُ أنْ يَعْلَمَ منهُ المَعْصِيَةَ وفِعْلَ الكُفْرِ، فَيَخْلُقَهُ على خِلافِ ذلكَ. دَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

ويَحْتَمِلُ[٧] أنْ يُقالَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] الفريقَ الذي عَلِمَ منهُ العِبادَةَ لا الكُلَّ. دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ولم يَقُلْ: ذَرَأْنا الكُلَّ. فهذِهِ في فريقٍ، وهذِهِ في فريقٍ آخَرَ.

وهذا التأويلُ يَرْجِعُ إلى الخُصوصِ. ألا تَرَى أنَّ الصِّبْيانَ والمَجانِينَ لم يَدْخُلُوا فيه؟ أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي إلّا لِأُكَلِّفَهُمُ العِبادَةَ، وآمُرَهُمْ بها. فإنْ كانَ هذا فهيَ على الكُلِّ على الكافِرِ والمؤمِنِ جميعاً، واللهُ أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِتَشْهَدَ خِلْقَتُهُمْ على وحدانِيَّةِ اللهِ وصَرْفِ العبادَةِ إليهِ. وقد شَهِدَتْ خِلْقَةُ كُلِّ كافِرٍ ومُؤمِنٍ على وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الفِقْهُ هو مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ بِمعناهُ الدالِّ على نَظِيرِهِ، أو معرفةُ الشَّيْءِ بِمعناهُ الدالِّ على مُدَبِّرِهِ. فهؤلاءِ الكَفَرَةُ لم يَفْقَهُوا لِما لم يَنْظُرُوا إلى الأشياءِ لِمَعْناها وحَقائِقِها، إنما نَظَرُوا إلى الأشياءِ لِظواهِرِها. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ لِما نَظَرُوا إلى ظواهِرِها لم يَنْظُرُوا إلى مَعانِيها وحَقيقَتِها لِيَدُلَّهُمْ على تَدْبيرِ مُنْشِئِها وحِكْمَتِهِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ كما كانَتْ لِلأنعامِ قلوبٌ وأعْيُنٌ وآذانٌ، لكنْ لا يَفْقَهُونَ مَعْناها وحَقيقَتَها، وإنْ كانُوا يَسْمَعُونَ النداءَ، ويَنْظُرُونَ إلى ظَواهِرِ الأشياءِ. فَعَلَى ذلكَ الكفارُ، وإنْ كانُوا يَسْمَعُونَ، ويَنْظُرُونَ ما ذَكَرْنا بَعْدَ أنْ لم يَفْقَهُوا معانِيَها وتَدبيرَ مُدَبِّرِها. فهم كالأنعامِ.

---

(١) أدرج في الأصل قبلها: هذا. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: عمل. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) في الأصل وم: أنه خلقه. (٧) في الأصل وم: أو.

وأصلُهُ: أنهُمْ لم يَسْتَعْمِلُوا تلكَ الحواسَّ في ما جُعِلَتْ لَهُمْ لِمَعْرِفَةِ حَقائِقِ الأشياءِ وما أُدرِجَ فيها مِنَ المعاني والحِكْمَةِ، فَصارُوا في الحَقيقَةِ كَمَنْ لا حَواسَّ لَهُ، أو لم يَنْتَفِعوا بها انْتِفاعَ مَنْ لَهُمْ تلكَ، بل كانُوا كَمَنْ لَيسَ لهمْ تلكَ. لذلكَ نَفَى عنهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ/ ١٩١ ـ أ/ قائلونَ: نَفَى عنهُمْ هذِهِ الحَواسَّ لِما لم يَنْتَفِعُوا بها انْتِفاعَ مَنْ لَهُمْ تلكَ، بَل كانُوا كَمَنْ لَيسَ لهمْ تلكَ الحَواسُّ لِلْمَعْنَى الذي جُعِلَتْ تلكَ الحَواسُّ فَهمْ ﴿كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنَّ هؤلاءِ إذا ضَلُّوا الطريقَ، فَهُدُوا، وأُرْشِدُوا، لا يَهْتَدُونَ، ولا يَرجِعُونَ عنْ ذلكَ، والدَّوابُّ إذا ضَلُّوا الطريقَ، فَهُدُوا [اهْتَدَوا، وَوَعَوا][١]، ومالُوا إليهِ: فَهُمْ أضَلُّ مِنَ الأنعامِ لِما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنَّ بُنْيَةَ الأنعامِ لا تَحْتَمِلُ فَهمَ ذلكَ، وبُنْيَةَ هؤلاءِ تَحْتَمِلُ، إذ جَعَلَ لَهُمْ عُقولاً تُمَيِّزُ، وتَعْرِفُ حِكْمَةَ مُدَبِّرِها ومُنْشِئِها، لكنّهُمْ ضَيَّعُوها، ولَم يكُنْ مِنَ الأنعامِ تَضْييعٌ، لذلكَ كانَ أولئكَ أضَلَّ.

قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ لِما خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] فَمِنْ ثَمَّةَ لم تَفْقَهْ قُلُوبُهُمْ، ولم تُبْصِرْ أعْيُنُهُمْ، ولم تَسْمَعْ آذانُهُمْ. وقالَ: ثم ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً فقالَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ﴾ في الأكْلِ، لأنَّ هَمَّهُمْ[٢] لَيسَ إلاّ الأكلَ والشربَ كَهَمِّ[٣] الأنعامِ والبهائِمِ لَيسَ هَمُّهُمْ[٤] إلا الأكلَ والشربَ وقَضاءَ الشَّهْوَةِ؛ فهيَ تَسْمَعُ النداءَ، ولا تَعْقِلُ. فَعَلَى ذلكَ الكافِرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ﴾ في فَهمِ ما أُلقِيَ إليهِمْ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنهُمْ أُعلِمُوا سَبَبَ فَهمِ ذلكَ، والأنعامُ لا.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنَّ الأنعامَ تَعْرِفُ ربَّها، وتُوَحِّدُهُ، وتَذْكُرُهُ كقولِ[٥] اللهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الآيةَ [الإسراء: ٤٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] وهؤلاءِ لا يعرفونَهُ، ولا يُوَحِّدُونَه، فَهُمْ أضَلُّ.

ويَحْتَمِلُ[٦] أن يُقالَ: هُمْ أضَلُّ، ولا يَهْتَدُونَ، وإنْ هُدُوا، ودُعُوا، والأنعامُ تَهْتَدي. وهُمْ أضَلُّ لأنهُمْ يَضِلُّونَ، ويُضِلُّونَ غَيرَهُمْ، والأنعامُ لا. أوهُمْ أضَلُّ لأنهُمْ لا يُنْتَفَعُ بِهِمْ، والأنعامُ يُنْتَفَعُ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ﴾ عَنْ فَهمِ ما أُلقِيَ إليهِمْ، وأُمِرُوا بِهِ، وغافِلونَ عمّا أُوعِدُوا.

الآية ١٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنهُمْ قد ظَنُّوا أنَّ في إثباتِ عَدَدِ الأسماءِ إيجابَ إثباتِ عَدَدٍ مِنَ الذَّواتِ[٧]، فأخبَرَ أنْ لَيس في إثباتِ عَدَدِ الأسماءِ إثباتُ أعدادٍ مِنَ الذَّواتِ[٨]؛ إذ قد يُسَمَّى الشَّيءُ الواحِدُ بأسماءٍ مُخْتَلِفَةٍ. ثم لا يُوجِبُ ذلكَ إثباتَ عَدَدِ ذلكَ ولا تَجْزِئَتَهُ مِنْ نَحْوِ ما تُسَمَّى الحَرَكَةُ حَرَكَةً عَرَضاً شيئاً خَلْقاً مِنْ غَيرِ أنْ أوجَبَ ذلكَ إثباتَ عَدَدِ الحَرَكةِ أو تَجْزِئَتَهُ، وكذلكَ في جَميعِ الأشياءِ. فَعَلَى ذلكَ يُخْبِرُ أنهُ لَيسَ في إثباتِ عَدَدِ الأسماءِ إثباتُ عَدَدٍ مِنَ الذواتِ على ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ خَرَجَ هذا مُقابِلَ قولٍ كانَ مِنْهُمْ، وهو أنْ وصَفُوا اللهَ بِشَيءٍ، لا يَحْسُنُ أنْ يُوصَفَ بِهِ، وأضافُوا إليهِ أشياءَ لا تَصِحُّ أنْ تُضافَ مِنْ قولِهِمْ: يا خالِقَ الخَنازيرِ ويا خالِقَ الخبائِثِ ويا إلهَ القِرَدَةِ ونَحْوِهِ. فأخبَرَ انِ ادْعُوهُ بالأسماءِ الحُسنَى ممّا ثَبَتَ عندَ[٩] الخَلْقِ أنهُ مُسَمّى [بها بِما هداهُمْ][١٠]؛ يُقالُ: يا هادِ يا مُرْشِدُ ونَحْوُهُ، ويُقالُ: بِما[١١] أعطاهُمْ مِنَ النِّعَمِ: يا كريمُ يا جَوادُ يالطيفُ ونَحوُهُ، ويُقالُ: يا خالِقُ يا رزّاقُ يا اللهُ يا رَحمنُ يا رَحِيمُ لِما ظَهَرَ في أنْفُسِهِمْ مِنْ ألوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ، فقالَ: لا تَدْعُوا بكذا، ولكنِ ادْعُوا بالأسماءِ التي ثبتَ عندَ الخَلْقِ تَحْقِيقاً [أنهُ يُسَمَّى بها][١٢]، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) من م في الأصل: وعرفوا. (٢) في الأصل وم: همتهم. (٣) في الأصل: وم: كهمة. (٤) في الأصل وم: همتهم. (٥) في الأصل وم: لقول. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) و(٨) في الأصل وم: الذات. (٩) في الأصل وم: عنه. (١٠) في الأصل وم: به من نحو ما أعطاهم. (١١) في الأصل وم: ما. (١٢) في الأصل وم: وإنه يسمى به.

وقد رُوِيَ على هذا المَعْنى أنَّ رجلاً دعا في صلاتِهِ فقالَ: يا اللهُ ويا رحمنُ ويا رحيمُ، فقالَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكينَ: أليس بِزَعْمِ محمدٍ وأصْحابِهِ أنهُمْ يَعْبُدُونَ إلهاً واحداً؟ فما بالُ هذا يَدْعُو رَبَّيْنِ نَحْوَ ماسَمَّوها آلهةً وأرباباً؟ فقالَ: هذهِ الأسماءُ التي تَدْعُونَ بها الأصنامَ للهِ، فادْعُوهُ بها، ولا تَدْعُوا الأصنامَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ أي لا تُكافِئْهُمْ بِصَنيعِهِمْ، ولا تُجازِهِمْ بأذاهُمْ إيّاكَ، فإنَّ اللهَ هو المُكافِئُ لَهُمْ والمُجازي بِصَنيعِهِمْ. ألا تَرى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قيلَ: الإلحادُ هو الجورُ، والمَيلُ عنِ الحَقِّ والوَضْعُ في غَيرِ مَوضِعِهِ. وهُمْ سُمُّوا مُلْحِدينَ لِما سَمَّوا غَيرَهُ بأسمائِهِ أو لإشراكِ غَيرِهِ في أسمائِهِ، أو سُمُّوا بذلكَ لِما صَرَفُوا شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيرِهِ[١]، وعَبَدُوا دُونَهُ مَعَ عِلْمِهِمْ أنهُ لم يَكُنْ مِنْهُمْ إليهِمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ. إنما كانَ ذلكَ لَهُمْ مِنَ اللهِ.

قالَ ابْنُ عباسٍ: الإلحادُ المَيلُ في جَميعِ القرآنِ، وقيلَ: الإلحادُ: التَّكْذيبُ. قال القُتَبِيُّ: يُلْحِدُونَ يَجُورُونَ، [وعَنِ الحَقِّ يَعْدِلونَ][٢] وأصْلُهُ: الجَورُ والمَيلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قالَ: هذهِ بِشارَةٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ، بالنَّصْرِ لَهُ والظَّفَرِ على أعدائِهِ في الدنيا. وقالَ قائلونَ: هو حَرْفُ وعيدٍ أوعَدَهُمْ ﷻ بأذاهُمْ رسولَ اللهِ ﷺ.

الآية ١٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يَهْدُونَ الخَلْقَ بالحَقِّ الذي عندَهُمْ، وهو القرآنُ والكُتُبُ التي عِنْدَهُمْ، وأمْكَنَ أن يكونَ الحَقُّ هو رسولَ اللهِ ﷺ، [بهِ][٣] يَهْدونَ الناسَ، وبِهِ يَعْمَلُونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يَهْدُونَ الخَلْقَ إلى سَبيلِ اللهِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حَيثُ قالَ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. ويَحْتَمِلُ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ههنا [أنْ يكونَ][٤] هو اللهُ كقولِهِ تعالى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي الحَقِّ الذي يَهْدُونَ، ويَعْمَلُونَ[بهِ][٥] كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ الآية [هود: ٨٨].

الآية ١٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ قد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضِعٍ. وقولُهُ تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالَ قائلونَ: هذا صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧] الآية. وقالَ بَعْضُهُمْ: فيهِ الوَعْدُ لِرسولِ اللهِ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ على أعدائِهِ. والاسْتِدْراجُ هو الأخْذُ في حالِ الغَفْلَةِ[٦] مِنْ حَيثُ أمِنَ بَغْتَةً كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وقالَ قائلونَ: الاسْتِدْراجُ المَكْرُ، لكنَّ مَعْنى ما يُضافُ الاسْتِدْراجُ والمَكْرُ إلى الخَلْقِ غَيرُ المَعْنى الذي يُضافُ إلى اللهِ، [والجِهَةُ التي تُضافُ إلى اللهِ غَيرُ الجِهَةِ التي تُضافُ إلى الخَلْقِ][٧]، والكَيدُ[٨] الذي يُضافُ إلى الخَلْقِ مذمومٌ، والكَيدُ[٩] الذي يُضافُ إلى اللهِ مَحْمودٌ، وكذلكَ ما أُضيفَ إلى اللهِ مِنَ المَكْرِ والخِداعِ والاسْتِهْزاءِ ونَحوِهِ، وهو ما ذَكَرْنا على اخْتِلافِ الجِهاتِ.

والمَعْنى في الجِهَةِ التي تُضافُ إلى اللهِ غَيرُ الجِهَةِ التي تُضافُ إلى الخَلْقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يأخُذُهُمْ مِمّا يَسْتَوجِبُونَ، ويَسْتَحِقُّونَ بِحَقِّ الجَزاءِ والمُكافآتِ، فلا يَلْحَقُهُ في ذلكَ ذَمٌّ. وأمّا الخَلْقُ في ما بينَهُمْ يَمْكُرُونَ، ويَكيدُونَ لا على الاسْتِحْقاقِ والجَزاءِ.

وعَنِ الحَسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [أنهُ][١٠] قالَ: كلَّما جَدَّدُوا المَعْصِيَةَ جَدَّدَ اللهُ لَهُمْ نِعْمَةً

---

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عن الحق ويعدلون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: الفضلة. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: والجهة. (٩) في الأصل وم: والجهة. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

لِيَستَهزئوا، ويَأشَروا، ويَبْطَروا، ثم يُهلِكُهُمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: يُظهِرُ لَهُمُ النِّعَمَ، ويُنْسِيهِمُ الشُّكرَ. وجائزٌ أنْ يكونَ ممّا ذَكَرَ مِنَ الاستِدراجِ والمَكْرِ والكَيدِ عبارةٌ عنِ العذابِ، أي إنَّ أخذِي إياهُمْ وعذابي شديدٌ حين[1] قالَ: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] أي عُقوبَتي شديدةٌ.

الآية ١٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي كِيدُوهُ أنتمْ، وأُمهِلُهُمْ، وأكِيدُ لُهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ و١٦]. فَيُخرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] مُخرَجَ جزاءِ كيدِهِمْ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] أي جَزَيناهُمْ جزاءَ مَكرِهِمْ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي نَجْزيهِمْ جزاءَ استِدْراجٍ، وما [هو عندَهُمْ كيدٌ، كذلك نَفْعَلُ بهمْ ما][2] هو عندَهُمْ مَكرٌ وخِداعٌ، وإنْ لم يَكُنْ مِنَ اللهِ [مَكْرٌ وخِداعٌ][3] كقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي إعادةُ الشيءِ عندَكُمْ أهْوَنُ مِنَ الابْتِداءِ، وإنْ كانَتِ الإعادةُ والابْتِداءُ سَواءً على اللهِ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ وقولُهُ[4] ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢ و١٨٣] ونَحوُهما[5] أي نَفعَلُ بكُمْ ما هو استِدْراجٌ وكَيدٌ عندَكُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ على أنهُ لم يُنشِئْهُمْ، لِحاجةٍ لهُ إليهِمْ أو لِمَنْفَعَةٍ لهُ فيهِمْ، ولكنْ أنْشأَهُمْ لِحَوائجِ أنفُسِهِمْ ولِمنافِعَ تَرْجِعُ إليهِمْ حتى إنْ عَمِلوا نَفَعوا أنْفُسَهُمْ، وإنْ تَركوا ضَرُّوا أنْفُسَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَتِينٌ﴾ قِيلَ: شَديدٌ أي عُقوبَتي شديدةٌ، والمَتينُ المُحكَمُ القَويُّ/ ١٩١ ـ ب/.

الآية ١٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ إنَّ الكَفَرةَ كانُوا يَنْسُبونَ رسولَ اللهِ إلى الجُنونِ أحياناً. والذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ، واللهُ أعلمُ، أنهُمْ كانُوا[6] أهْلَ العِزِّ والشَّرَفِ في الدُّنياوِيَّةِ، وكانَ لا يُخالِفُهُمْ أحَدٌ، ولا يَسْتَقبِلُهُمْ بالمَكروهِ إلّا أحَدُ رَجلَيْنِ: ذو هَيبَةٍ وقُوَّةٍ، ولَهُ أعوانٌ وأنصارٌ، أو رجلٌ بِهِ جُنونٌ لأنهُمْ كانُوا يَقْتُلونَ مَنْ يُخالِفُهُمْ في شيءٍ مِنَ الأمْرِ. فلَمّا رأَوا رسولَ اللهِ خالَفَهُمْ، واسْتَقبَلَهُمْ بما يَكرَهُونَ، ولم يَرَوا مَعَهُ أنصاراً ولا أعواناً؛ [إنهُ لا يُخالِفُهُمْ][7] إلّا بِجُنونٍ فيهِ، فَنَسَبُوهُ إلى الجُنونِ لِذلكَ، واللهُ أعلمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ نِسبَتُهُمْ إياهُ إلى الجُنونِ لِما حَرَّمَ عليهِمْ عبادةَ الأصنامِ والأوثانِ التي كانُوا يَعْبُدونَها، وهُمْ قد رَأَوا العُقلاءَ منهُمْ قد عَبَدُوا الأصنامَ، ولم يُحَرِّموا ذلك. فلَمّا حَرَّمَ ذلكَ [عليهِمْ ظَنُّوا أنهُ إنما حَرَّمَ ذلكَ][8] لآفَةٍ. لِذلكَ حَمَلَهُمْ نِسْبَتَهُ إلى الجُنونِ، واللهُ أعلمُ.

ثم عاتَبَهُمْ بتَرْكِهِمُ التَّفَكُّرَ فيهِ بقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ لَيَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنهُ لَيسَ بِهِ جُنونٌ. وذلك يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهُما][9]: أنهُمْ لو تَفَكَّرُوا في رسولِ اللهِ بما أخْبَرَهُمْ مِنَ المَرْغوبِ والمَرْهوبِ والمَحْذورِ في كتابِهِمْ على غَيرِ لسانِهِمْ واختِلافٍ منهُ إلى أحدٍ منهُمْ ولا تَعَلُّمٍ لَعَلِموا[10] أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ و[أنَّ ما][11] أخْبَرَ إنما أخْبَرَ باللهِ.

والثاني[12]: أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي قد تفَكَّروا، وعَرفُوا أنْ لَيسَ بِهِ جُنونٌ، وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية: [الأعراف: ١٨٥] أي قد تَفَكَّروا في ذلكَ، وعَرَفُوا أنَّ مِثْلَ هذا لم يُخلَقْ عَبَثاً باطلاً كما يُقالُ: ألم تَفْعَلْ كذا؟ أي قد فَعَلْتَ. لكنَّهُمْ عانَدُوا، وكابَرُوا آياتِهِ وحُجَجَهُ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أي في أنْفُسِهِمْ وفي أولئكَ الذينَ عَبَدُوا [كثيراً][13] مِنَ الأصنامِ والأوثانِ[14] لِيَظهَرَ لَهُمْ أنهُمْ على باطِلٍ وسَفَهٍ، ولِيَتَبَيَّنَ لهمْ أنَّ الحَقَّ هو ما يَدْعُو إليهِ محمدٌ ﷺ لا ما كانُوا هُمْ عليهِ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة في الأصل. (٣) في الأصل وم: مكرا وخداعا. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: ونحوه. (٦) في الأصل وم: لأنهم. (٧) في الأصل وم: أنهم لا يخلفهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: وم: بالنسبة. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: وم: ليعلموا. (١٢) في الأصل و م: و (١٣) ساقطة من لأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أو الأوثان.

وفيه دلالةٌ أنّ الحقّ يَلْزَمُ، وإنْ كانَ لا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالتّفكُّرِ والتّدَبُّرِ، ما لَحِقَ هؤلاءِ مِنَ الوعيدِ الشديدِ والعِقابِ العَظيمِ لَمّا تَرَكُوا هُمُ التّفكُّرَ، وكانَ لَهُمْ سبيلُ الوصولِ إلى معرفةِ ذلكَ. وقولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ إنهُ لَيسَ بهِ جِنّةٌ، هو[1] جوابٌ مِنَ اللهِ. ويَحْتَمِلُ: لو تَفَكَّرُوا في صاحِبِهِمْ أنهُ لَيسَ بِهِ جِنّةٌ.

ثم أخبرَ أنهُ ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لَيسَ كما يَقولونَ: إنهُ مجنونٌ؛ إذْ مَعَهُ آياتٌ وبراهينُ، فهو ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

الآية ١٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية: يَحْتَمِلُ هذا على الابْتِداءِ، ويَحْتَمِلُ على الصلةِ بالأوّلِ، وهو أنهُمْ إذا تَفَكَّرُوا في مَلَكُوتِ السمواتِ والأرضِ عَرَفُوا أُلوهيّةَ اللهِ ورُبوبيّتَهُ لِما يَرَونَ مِنَ اتّصالِ مَنافعِ بَعْضٍ بِبَعْضٍ على بُعْدِ ما بَيْنَهما واتّساقِ التّدبيرِ في ذلكَ، فَعَرَفُوا أنّ ذلكَ كُلَّهُ[2] مُسَخَّرٌ لِمَنْ لهُ التّمييزُ، وأنّ المَقْصودَ في خَلْقِهِ أَهْلُ التّمييزِ.

فإذا عَرَفُوا ذلكَ عَرَفُوا أنهُمْ يَحتاجُونَ إلى مَنْ يُعَرِّفُهُمْ[3] ذلكَ، ويُعَلِّمُهُمْ ما يَحْتاجُونَ في ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ على ابْتِداءِ الأمرِ بالتّفكُّرِ ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ لِيَدُلَّهُمْ على وَحدانيّتِهِ ورُبوبيّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ كانَ هذا نَزَلَ[4] في مَنْ عَرَفَ صِدْقَهُ لكنّهُ عانَدَ في تَكْذيبِهِ، فقالَ: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ يُحَذِّرُهُمْ لِيَرْجِعُوا إلى تَصديقِهِ مَخافَةَ الخُروجِ مِنَ الدنيا على ما هُمْ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا يَتَوجَّهُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنكُمْ مِمَّنْ تَقْبَلُونَ الأخبارَ والحديثَ.

فإذا لم تَقْبَلُوا حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ وخَبَرَهُ، ولم تُصَدِّقُوهُ، فَبِأيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ تَقْبَلُونَ؟ وتُصَدِّقُونَ؟ ومَعَهُ حُجَجٌ وبراهينُ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ بَعْدَ القرآنِ، وهو كما وصَفَهُ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية: [فصلت: ٤٢] وقالَ ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] فإذا لم تَقْبَلُوا هذا، ولم تُصَدِّقُوهُ وهو بالوَصْفِ الذي ذَكَرَ، وأنْتُمْ مِمَّنْ تَقْبَلُونَ الحديثَ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ تَقْبَلُونَ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يُريدُ بهِ الآخِرَةَ؛ يقولُ: إذا اقْتَرَبَ أجَلُهُمْ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا حديثَ بَعْدَهُ يُؤمنونَ. والتّأويلُ الآخَرُ في الدنيا.

الآية ١٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ وفي مَوضِعٍ آخَرَ ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧] ولو كانتِ الهدايةُ الأمْرَ والبيانَ على ما قالَهُ قومٌ لكانَ ذلكَ مِنْ غَيْرِهِ[5] وكذلكَ لو كانَ الإضلالُ والإزاغةُ والنّهْيُ هو التّخليَةَ لكانَ ذلكَ يكونُ منْ غيرِهِ، وكُلُّ مَنْ أرادَ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ أَضَلَّهُ غَيرُهُ، وكُلُّ مَنْ أضَلَّهُ اللهُ هَداهُ غَيرُهُ. فذلكَ مُحالٌ مَعَ ما في كُلِّ ما أضافَ اللهُ الإضلالَ إلى الخَلْقِ ذَمَّهُ، وفي ما أضافَ الهِدايَةَ إليهِ مدَحَهُ. ثم أضافَهُما جَميعاً إلى نَفْسِهِ.

دلَّ أنّ هنالكَ زيادةَ مَعْنًى لَيسَ ذلكَ في الإضافَةِ إلى[6] الخَلْقِ، وهو ما ذَكَرَ في غَيرِ مَوضِعٍ: إمّا خَلْقُ فِعْلِ الضّلالِ مِنَ الكافِرِ وإمّا[7] خَلْقُ فِعْلِ الاهْتِداءِ والإيمانِ مِنَ المؤمِنِ، وكانَ منهُ التّوفيقُ والمَعونَةُ في الهُدَى والخِذْلانُ في الكُفْرِ.

وهذانِ الوَجْهانِ اللذانِ ذَكَرْناهُما لا يكونانِ مِنَ الخَلْقِ، إنما يكونانِ مِنَ اللهِ. لذلكَ كانَ مَعْنَى الإضافَةِ إليهِ.

وإنما يكونانِ مِنَ الخَلْقِ الدُّعاءَ وغَيرَهُ، لا ما قالَتْهُ المُعْتَزِلَةُ مِنَ البَيانِ والأمرِ والنَّهْيِ والتّخْلِيَةِ، إذْ يكونُ ذلكَ مِنَ الخَلْقِ. وباللهِ العِصمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ أي مَنْ أهانَهُ اللهُ بالضلالَةِ فلا أحَدَ يَمْلِكُ إكرامَهُ بالهُدَى.

---

(١) في الأصل وم: وهذا. (٢) من م، في الأصل: كل. (٣) من م، في الأصل: يعرفونهم. (٤) في الأصل: وم: ترك. (٥) في الأصل وم: غير. (٦) من م، في الأصل: التي. (٧) في الأصل وم: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ولا ضَرَرَ يَلْحَقُهُ في طُغيانِهِمْ. لِذلكَ تَرَكَهُمْ فيهِ. ودَلَّ ذلكَ على أنهُ لم يُنْشِئْهُمْ لِحاجَةِ نَفْسِهِ و لا لِدَفْعِ ضَرَرِ نَفْسِهِ، ولكنْ لِحاجَةِ أَنْفُسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] وهو حَرْفُ الوعيدِ.

الآية ١٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قيلَ ﴿أَيَّانَ﴾ متى قيامُها؟ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى ثُبوتُها؟ يُقالُ: رَسا في الأرضِ إذا ثَبَتَ، ورَسَا في الماءِ، ويُقالُ لِلْجِبالِ: رَواسِيَ لِثُبوتِها.

ثم اخْتُلِفَ في السؤالِ عَمَّ كانَ؟ قالَ بَعْضُهُمْ: كانَ السؤالُ عنِ الفَناءِ فَناءِ الخَلْقِ وهلاكِهِمْ، لأنهُ قالَ في آخِرِه ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ ونَحْوَهُ كقولِهِ[1] ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ الآية: [يس: ٤٩] وذلكَ يكونُ في الدنيا.

وقالَ قائلونَ: كانَ السؤالُ عنِ البَعْثِ وقيامِ الساعةِ إنكاراً منهُمْ إياها واستِعْجالاً للعذابِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] يَسْتَعْجِلُ الذينَ يُؤْمِنُونَ بها، وقولِهِمْ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا﴾ الآية: [المؤمنون: ٨٢] وغيرُ تلكَ الآياتِ يدلُّ على أنَّ السُّؤالَ كانَ عنِ الساعةِ.

ولَيسَ قولُهُ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أنهُ كانَ عنِ الفَناءِ، إذا[2] كانُوا يَعْنونَ الفَناءَ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ السُّؤالُ عنْ ذلكَ. ثم يَحْتَمِلُ بعدَ هذا وجهَينِ:

أحَدُهُما: إنْ كانَ السُّؤالُ عنِ الكَذِبِ لها فهو سُؤالُ اسْتِهْزاءٍ واسْتِعجالٍ لِما ذَكَرْنا.

والثاني[3]: إن كانَ عَنِ الصِّدْقِ فهو سُؤالُ اسْتِعْلامٍ وإشفاقٍ لِيتأَهَّبُوا لها، ويَسْتَعِدُّوا كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ﴾ [الشورى: ١٨] لِما سَمِعُوا مِنَ الآياتِ ما يُقَرِّبُ وُقُوعَها كقولِهِ تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] ونَحْوَهُ مِنَ الآياتِ وما سَمِعُوا مِنْ رسولِ اللهِ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتَينِ» [البخاري: ٦٥٠٤] وفي بَعْضِ الأخبارِ [أنهُ][4] قالَ: «كادتِ الساعةُ أنْ تَسْبِقَني» [الترمذي٢٢١٣] وغَيْرَ ذلكَ مِنَ الأخبارِ. حَمَلَهُمْ ذلكَ على السؤالِ عنها لِيَتأَهَّبُوا لها، ويَسْتَعِدُّوا.

ثم أَمَرَهُ أنْ يقولَ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يَكْشِفُها، ولا يُظْهِرُ وَقْتَها /١٩٢ ـ أ/ إلاّ هو لَيس هو كالأمورِ التي تَجْرِي على أيدي الخَلْقِ، ويكونُ لَهُمْ فيها تَدبيرٌ؛ أعني الملائكةَ الذينَ سُلِّطُوا على حِفْظِ المَطَرِ والنباتِ.

وأمّا الساعةُ فإنها تَقومُ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ لِأحدٍ مِنَ الخَلائقِ تدبيرٌ فيها أو عِلْمٌ، وهو ما وَصَفَها اللهُ ﷻ، ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] أخْبَرَ أنَّ أمْرَ الساعةِ خارجٌ عنْ تدبيرِ الخَلْقِ. بلْ تقومُ بِتَدبيرِ اللهِ مِنْ غيرِ أنْ يُجْرِيَها أحدٌ[5]، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قيلَ: ثَقُلَتْ على أهلِ السمواتِ والأرضِ، ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿ثَقُلَتْ﴾ أي خَفِيَتْ على أهلِ السمواتِ والأرضِ، فَذَكَرَ الثِّقَلَ لأنَّ كُلَّ مَنْ خَفِيَ عليهِ شيءٌ ثَقُلَ عليهِ، فَذَكَرَ أنها ثَقيلَةٌ عليهِم لِخَفائِها عليهِم. وقالَ قائلونَ: ثَقُلَ وُقُوعُها على أهلِ السمواتِ والأرضِ لِكَثْرَةِ أهوالِها وشِدَّةِ وُقوعِها.

وأَمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على نَفْسِ السمواتِ والأرضِ على ما ذَكَرَ في قولِهِ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] أي لو كانَتْ هي حيثُ تَعْرِفُ، وتُمَيِّزُ، وبُنْيَتُها بُنْيَةُ مَنْ يَعْرِفُ ثِقَلَ شَيءٍ لَثَقُلَتْ، وهو ما قُلْنا في قولِهِ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] والدنيا لا تَغُرُّ أحداً، أي ما كانَ منها، لو كانَتْ مِمَّنْ يكونُ منهُ التَّغْرِيرُ لَكانَ تَغْريراً. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ قائلونَ: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي مُكْرَمٌ مُشَرَّفٌ عِنْدَهُ ذو مَنْزِلَةٍ، فَيُعْلِمُكَ عنها، وكذلكَ قِيلَ [في قولِهِ][6]: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] قِيلَ: بارّاً رَحيماً.

---

(١) في الأصل وم: وكقوله. (٢) في الأصل وم: إذ. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقال قائلون: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ أي عالِمٌ بها. وقالَ قَتادَةُ: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ بِهِمْ كأنك يَجِبُ أنْ يَسألوكَ عنها، وقالَ غَيرُهُ: هو على التقديمِ والتأخيرِ: يسألونَكَ عنها كأنكَ استَحْفَيتَ السُّؤالَ عنها حتى عَلِمْتَها، ثم قالَ: ﴿قُلۡ﴾ مالي بها مِنْ عِلْمٍ ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنها كائنةٌ[1].

ويَحتَمِلُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنكَ لا تُعْلِمُ أنها متى تكون؟ أو لا يَعْلَمُونَ ما عليهِمْ ومالَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إذا جاءَتْ ثَقُلَتْ على أهلِ السمواتِ والأرضِ، وكَبُرَتْ عليهِمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ثَقُلَ ذِكْرُها على أهلِ السمواتِ والأرضِ، وقالَ قتادةُ: ثَقُلَ عِلْمُها على أهلِ السمواتِ والأرضِ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا؛ أي خَفِيَ عِلْمُها على أهلِ السمواتِ والأرضِ، وإذا خَفِيَ الشَّيءُ ثَقُلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ ما ذكرْنا من التأويلِ، واللهُ أعْلَمُ. وعلى قولِ بَعْضِهِمْ: الحَفِيُّ الخَبيرُ العالِمُ.

وقالُوا: هو المُشَرَّفُ المُكَرَّمُ البارُّ الذي لا يُستَخفَى عنهُ شَيءٌ، ولا يُلْبَسُ عليهِ.

الآية ١٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ قال بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ الهُدَى والضلالَةَ.

وقالَ قائلونَ منْ أهلِ التأويلِ: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ﴾ جَرَّ النَّفْعِ [إلى نَفْسي][2] ولا دَفْعَ الضَّرِّ عنها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إلا أنْ أقْدَرَني اللهُ على ذلكَ، فأمْلِكُ ذلكَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ قالَ[3] ذلكَ لئلا يَتَّخِذوهُ مَعْبوداً، ولا يَنْسِبوهُ إلى اللهِ بالذي لا تَليقُ النِّسْبَةُ بِهِ ما قالَتِ النَّصارَى: المَسيحُ ابنُ اللهِ، وقالَتِ اليهودُ: عُزيرٌ ابنُ اللهِ،[4] وقال مُشركو العَرَبِ: الملائكةُ بناتُ اللهِ لِعظيمِ ما وَقَعَ عندَهُمْ عَنْهُمْ مِنْ مَحَلِّ هؤلاءِ وقَدْرِهِمْ، فقالَ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ لئلا يَنْسِبوهُ إلى اللهِ مِنَ الوجهِ الذي نَسَبَ أولئكَ، أظْهَرَ مِنْ نَفْسِهِ العَجْزَ والعبادَةَ، وهو ما قالَ عيسَى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية: [مريم: ٣٠]

وقالَ ابنُ عباسٍ في قولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ وذلكَ أنَّ أهلَ مكةَ قالُوا: الا يُخبِرُكَ ربُّكَ يا محمدُ بالتجارةِ المُربِحَةِ؟ فَتَتَّجِرَ فيها، فَتَربَحَ، أوَ لا يُخبِرُكَ بِسَنَةِ القَحطِ والجُدوبَةِ؟ أو يُخبِرُكَ بِوَقْتِ السَّعَةِ والخِصبِ؟ فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ مِنْ جُدوبةِ الأرضِ والقَحطِ ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [يقولُ: لَتَهَيَّأْتُ لذلكَ ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ مِنَ الضُّرِّ والشِّدَّةِ. إلى هذا ذهبَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ.

وقالُوا في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ لو[5] كُنْتُ أعلَمُ الغيبَ متى أموتُ؟ لاستَكثَرْتُ مِنَ الخَيرِ][6] ومنَ العَمَلِ الصالحِ.

ولكنَّ الوجهَ فيهِ غيرُ ما ذَهَبُوا إليهِ، لأنهُ إنْ كانَ لا يَعْلَمُ متى يَموتُ؟ لا يَستَكثِرُ مِنَ الخيرِ ومنَ العَمَلِ الصالحِ. أو لو كانَ يَعلَمُ الغيبَ لاستَكثَرَ المالَ على ما قالَ بَعْضُهُمْ. وهذا بعيدٌ.

ولكنَّ التأويلَ، واللهُ أعْلَمُ، أنْ يَجْعَلَ قولَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أعلَمُ لكُمْ نفعاً ولا ضَرّاً ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ عندَ اللهِ؛ أي لو كُنْتُ أعلَمُ كلَّ ذلكَ لَصَدَّقْتُموني، وآمَنْتُم بي ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ عندَ اللهِ بإيمانِكُمْ باللهِ وتَصديقِكُمْ إيايَ، أو أنْ يَقولَ[7] ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ ولو كُنْتُ أمِلكُ لَكُمْ ذلك ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ لأنكُمْ إذا رأيتُموني أملِكُ لكُمْ دَفْعَ ما غابَ عنكُمْ ودَفْعَ ضَرِّ ما غابَ لآمَنْتُمْ بي، وصَدَّقْتُموني، فأنا بذلكَ استَوجَبْتُ عندَ اللهِ خيراً كثيراً؛ يَجْعَلُ قولُهُ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ جوابَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: كائن. (٢) من م، في الأصل: والنفسي. (٣) من م، في الأصل: وقال. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠]. (٥) أدرج قبلها في م: وقال بعضهم. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: يقال.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ أي[1] لا أعلَمُ الغيبَ إلّا قَدْرَ ما أُوحِيَ إليَّ ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾. وقالَ بعضُهُم: لا أعلَمُ الغيبَ قَبْلَ أنْ يُوحَى إليَّ، ولو كنتُ أعلمُ ذلكَ ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾. بذلكَ.

وحاصلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ ما ذَكَرْنا بتصديقِكُم إيّايَ وإيمانِكُم بي، أو ما ذَكَرْنا مِنَ السَّعَةِ والخِصْبِ في الدنيا لأهلِهِ ولأصحابِهِ، أو ما ذَكَرْنا أي لو كُنتُ أملكُ لَكُمْ نَفْعَ ما غابَ عنكُمْ ودَفْعَ ضَرَرِ ما غابَ أيضاً لآمَنْتُمْ بي، وصَدَّقتموني، فأنا بذلكَ اسْتَوجَبْتُ عندَ اللهِ خيراً كثيراً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي لو كُنتُ أعلَمُ مَنِ المُصَدِّقُ؟ ومَنِ المُكَذِّبُ؟ ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ لأنهُ لا يَشْتَغِلُ بِمَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَرُدُّ، ولايُجيبُ، وإنما يَشْتَغِلُ بِمَنْ يَعْلَمُ منهُ أنهُ يُجيبُ، ولا يُكَذِّبُ، فيَستكثِرُ أتباعَهُ والمُطيعينَ للهِ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾][2] قالَ بعضُهُم: هو صلةُ قولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [الأعراف: ١٨٤] كانُوا يقولونَ: إنَّ بهِ جنوناً[3]، فقالَ: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ مِنَ النِّسْبَةِ إلى الجنونِ [وقالَ بعضُهُم][4]: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ مِنكُم سُوءُ رَدٍّ وتكذيبٍ؛ لأنه لو عَلِمَ عليهِ الذي يُجيبُهُ، ويُصَدِّقُهُ، مِنَ الذي لا يُجيبُهُ، ولا يُصَدِّقُهُ، لم يَمَسَّهُ سُوءٌ منهُ: [سُوءُ][5] الرَّدِّ والأذى لأنهُ لا يَشْتَغِلُ بهِ بَعْدَ ما أقامَ عليهِ الحُجَّةَ مِنَ المُجيبِ [منهمْ ومِنَ الرّادِّ بقولِهِ][6] تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

الآية ١٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ الآيةَ. قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ آدمَ وحوّاءَ لَمّا هَبطا تَغَشّاها آدمُ، فَحَمَلَتْ، فأتاها إبليسُ، فقالَ: يا حوّاءُ: ما هذا الذي في بَطْنِكِ؟ قالَتْ: لا أدري، قالَ: لَعَلَّهُ بَهيمةٌ مِنْ هذهِ البهائمِ ناقةٌ أو شاةٌ أو بَقَرةٌ، قالَتْ: لا أدري، فأَعْرَضَ عنها ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ أتاها فقالَ: كيفَ تَجِدينَكِ؟ قالَتْ: إني لأخافُ[7] أنْ يكونَ الذي ذَكَرْتَ؛ ما أستطيعُ القيامَ إذا قَعَدْتُ إلّا بِجَهْدٍ، قالَ: أفرأيتِ إنْ دَعَوتِ اللهَ [أنْ][8] يجعَلَهُ إنساناً مِثْلَكِ ومِثْلَ آدمَ أتُسَمِّينَهُ[9] بي ؟ قالَتْ نعم. فانصرَفَ، وقالَتْ لِآدَمَ: لقد أتاني آتٍ، فَخَوَّفَني بكذا، وإني لأخافُ[10] مِمّا ذَكَرَ، فَدَعَوا اللهَ في ذلكَ.

فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ يقولُ: جَعَلْتَهُ إنساناً ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فكانَ هذا دُعاؤُهما قَبْلَ أنْ تَلِدَ. فلَمّا وَلَدَتْ أتاها إبليسُ، وقالَ: ألا تُسَمِّينَهُ بي كما وَعَدْتِني؟ قالَتْ: نعم، ما اسْمُكَ؟ قالَ: اسْمِي الحارثُ. فذلكَ قولُهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

على هذا حَمَلَ أهلُ التأويلِ الآيةَ،/ ١٩٢ ـ ب/ إلى آدمَ وحَوّاءَ صَرَفُوها، وذلكَ وَحْشٌ مِنَ القولِ قَبيحٌ في آدمَ وحَوّاءَ. ذلكَ، ولو ثَبَتَ ما قالُوا: إنهما سَمَّيا وَلَدَهُما باسْمِهِ، ونَسَباهُ[11] إليهِ، لم يكُنْ في ذلكَ إشراكٌ، إذْ لو كانَ في مِثْلِهِ إشراكٌ لَكانَ في ما أضافَ العَبيدُ والمماليكُ إلى الخالِقِ[12] إشراكٌ في ألوهيَّتِهِ.

ثم التأويلُ عندَنا على غَيرِ ما ذَهَبُوا إليهِ، واللهُ أعلَمُ، وهو أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ يَعْني مِنْ آدمَ ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ حَوّاءَ أنَّ خَلَقَ الذكورِ كلِّهِمْ مِنْ آدمَ وخَلَقَ الإناثِ كُلِّهِنَّ مِنْ حَوّاءَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [الروم: ٢١]؛ أخبرَ أنَّ الأزواجَ خَلَقَهُنَّ مِنْ نَفْسِ الأزواجِ، فلَما أضافَ الزَّوجاتِ إلى نَفْسِ الزَّوجِ، وأنَّهُنَّ مِنْ أنفُسِهِمْ خَلَقَهُنَّ؛ كانَ قولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ كُلُّ زوجةٍ وزوجٍ، إذا تَغَشّاها، وحَمَلَتْ. دعا آدمُ وحَوّاءُ: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إذْ جميعُ الأولادِ وأولادُهُمْ[13] يَدْعُونَ اللهَ في ذلكَ لِيكونَ صالحاً، فَمَنْ كانَ مُسْلِماً مِنْهُما كانَ بدعائِهِما.

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: جنون. (٤) في الأصل وم: ويقول. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: منكم ومن الرد وقوله. (٧) في الأصل وم: لا أخاف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: أتسميه. (١٠) في الأصل وم: لا أخاف. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الخلق. (١٣) في الأصل وم: أولادهما.

فَعَلَى هذا التَّأويلِ يَحْصَلُ دعاؤُهما لأولادِهما الذين يُولَدُونَ إلى يومِ القِيامَةِ؛ لأنهما أبٌ وأمٌّ، وقد يَدْعُو الوالدِنِ لأولادِهما بالصلاحِ والخَيرِ. على هذا يجوزُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ.

وأمّا ما قالَهُ أولئكَ فهو بَعيدٌ مُحالٌ، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ العَرَبَ كانُوا[1] إذا وُلِدَ لَهُمْ ذكورٌ يَنْسِبونَهُمْ[2] إلى الأصنامِ التي يَعْبُدونَها، ويُضِيفُونَهُمْ[3] إليها تَعْظيماً لها، يقولُونَ: ابنَ اللاتِ، وابنَ العُزّى، وابنَ المَناةِ، ونَحْوَ ذلكَ. وكانُوا يَقْتُلُونَ البناتِ، وكانُوا[4] إذا أصابَتْهُمُ الشِّدَّةُ يَفْزَعُونَ إلى اللهِ، ويَتَضرَّعونَ إليهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] [وقولِهِ تعالى][5]: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ﴾ الآية [الزمر: ٨] [وقولِهِ تعالى][6]: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ الآية [لقمان: ٣٢] فلمّا ذَهَبَ عنهُمْ ذلكَ، وانْجَلَى عادُوا إلى ما كانُوا كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ الآية [الزمر: ٨].

فإذا كانَ مِنْ عادةِ العَرَبِ ما ذَكَرْنا كانَ إذا حَمَلَتْ زوجةٌ منهُمْ، وثَقُلَ ما في بِطْنِها، جَعَلَا يَدْعُوانِ اللهَ ربَّهما ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا﴾ ذَكَراً، وسَلِمَتْ مِنَ الوِلادَةِ ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

الآية ١٩٠ [وقولُهُ تعالى][7] ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا﴾ يَعْني ذَكَراً ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ واللهُ أعلمُ بذلكَ.

وقالَ الحَسَنُ: الآيةُ في مُشرِكي العَرَبِ إلّا قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فإنَّ ذلكَ في آدَمَ وحَوّاءَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؟ [الأعراف: ١٩١] دلَّ ما ذَكَرْنا.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي[8] نَفْسُ آدمَ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خَلَقَ كُلَّ نَفْسٍ مِنْكُمْ مِنْ تلكَ النَّفْسِ، وجَعَلَ لِكُلِّ نَفْسٍ مِنْكُمْ زوجةً مِنْ تلكَ النفسِ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فَعَلَى هذا التَّأويلِ يَنْصَرِفُ آخِرُ الآيةِ إلى غيرِ آدَمَ وحَوّاءَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ استَمَرَّتْ بالحَمْلِ، وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إنَّ العَرَبَ كانَتْ تَعْبُدُ الأصنامَ تَقْليداً لآبائِهِمْ وسَلَفِهِمْ، فَيَذْكُرُ سَفَهَهُمْ أنَّ النَّفْسَ التي منها لم تُقَلِّدْ أحداً، ولم تُشْرِكْ أحداً. إنما اتَّبَعَتْ ما في العَقْلِ حُسْنُهُ أو ما في السَّمْعِ مِنَ الأمْرِ. فكيفَ اتَّبَعْتُمْ أنتُمُ النَّفْسَ التي خُلِقْتُمْ منها؟ وهي لم تَتَّبِعْ إلّا ما ذَكَرْنا دونَ ما اتَّبَعْتُمْ في الإشراكِ لهُ آباءَكُمْ.

ولو كانتِ القِصةُ في آدَمَ على ما يقولُ أهلُ التَّأويلِ [لكانَ][9] للعَرَبِ تَعَلُّقٌ واقْتِداءٌ، فيقولونَ: إنهُ إشراكٌ، ونَحْنُ نُشْرِكُ. فدلَّ أنهُ لَيسَ على ما قالُوا، ولكنْ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ دلالةُ أنْ لَيسَ لأحدٍ مِنَ البَشَرِ على آخَرَ [فضلٌ][10] مِنْ جِهَةِ الخِلْقَةِ والنِّسْبَةِ؛ إذْ كُلُّهُمْ إنما خُلِقُوا مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ، وهُمْ إخْوَةٌ وأخواتٌ. وإن كانَ لأحدٍ فَضْلٌ على آخَرَ فإنما يكونُ لأعمالٍ يَكْتَسِبُها وأخلاقٍ مَحمودةٍ ومحاسِنَ يَخْتارُها. وأمّا مِنْ جِهَةِ الخِلْقَةِ فلا فَضْلَ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الآية ١٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ أنهُمْ يُشرِكونَ في عِبادَتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ مَنْ يَعلمونَ أنهُ يَخْلُقُهُمْ، وإنما خَلَقَهُمُ اللهُ، سُبْحانَهُ، وهُمْ مَخلوقونَ. فَصَرْفُ العِبادَةِ إلى غَيرِ الذي خَلَقَهُمْ سَفَهٌ وجَورٌ.

الآية ١٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يُسَفِّهُهُمْ أيضاً، إنَّ في الشاهِدِ لا يَخْضَعُ أحدٌ

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: ينسبون. (٣) في الأصل وم: ويضيفون. (٤) في الأصل وم: وكان. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

لِأحَدٍ، ولا يَشْكُرُ لهُ إلّا مُجازاةً لِما سَبَقَ منهُ إليهِ مِنَ النِّعمةِ أو لِما يَأمُلُ في العاقِبَةِ مِنَ المَنْفَعَةِ، وأنتُمْ تَعْبُدُونَ هذِهِ الأصنامَ، ولم يَسْبِقْ منها إليكُمْ شيءٌ، ولا لَكُمْ رجاءٌ يَقَعُ في العاقِبَةِ، فكيفَ تَعْبُدونَ مَنْ[1] لا يَسْتَطيعُونَ لَكُمْ نَصْراً؟ [ولا][2] يَدْفَعُونَ عَنكُمُ الضُّرَّ ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي ولا مَنْ قَصَدَ قَصْدَهُمْ بالكَسْرِ والإتلافِ يَمْلِكونَ دَفْعَهُ عنْ أنْفُسِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

[أحَدُهُما][3]: يَحتَمِلُ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ يعني الأصنامَ ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ لِيهتَدُوا ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أي لا يُجيبوكُم، ولا يَهْتَدُوا[4].

والثاني: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ إلى مالَكُمْ إليهِ مِن حاجَةٍ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لا يَقْضُوا[5]، ولا يَمْلِكُوا[6] ذلكَ.

ويَحتَمِلُ[7] أنْ يكونَ الخِطابُ لِلْمُسلِمينَ؛ يقولُ: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي أهلَ مكةَ ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أي لا يُجيبُوكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ يُخاطِبُ بِهِ، أهلَ مكةَ، يقولُ: وإنْ تَدْعُوا الأصنامَ التي تَعْبُدونَها إلى الهُدى لا يَمْلِكُوا[8] إجابَتَكُمْ؛ يُسَفِّهُهُمْ في عبادَتِهِمْ مَنْ حالُهُ ما وَصَفَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ أم أنْ تكونَ الآيةُ في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ أبداً كقولِهِ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠] وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ يَعْنِي المُشرِكينَ ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾. فَعَلَى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾. وأمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ في الأصنامِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿تَدْعُونَ﴾ أي تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقد كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أصناماً وأوثاناً، ويَحتَمِلُ ﴿تَدْعُونَ﴾ أي تُسَمُّونَهُمْ مِنْ دونِ اللهِ آلِهَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في الخِلْقَةِ، والدلالَةُ على وَحدانيَّةِ اللهِ في التَّدبيرِ دُونَهُم لِما قالَ: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥] إلى آخرِ ما ذَكَرَ أي لَيسَ لَهُمْ ما ذَكَرْتُمْ في التَّدبيرِ والمَعونةِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الملائكةُ الذينَ عَبَدُوهُمْ ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فلا تُسَمُّوهُمْ آلِهَةً، أي لا تَعْبُدُوا عِباداً أمثالَكُمْ، ولكنِ اعْبُدُوا مَنْ لا مِثْلَ لَهُ، ولا نَظِيرَ لَهُ، أو إنْ كانَ قولُهُ ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الملائكةَ فقولُهُ تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ الآيةَ هو منهُ مَقطوعٌ مُنْصَرِفٌ إلى الأصنامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ذَكَرَ الدُّعاءَ والاسْتِجابةَ، ولم يُبَيِّنْ في ماذا [يَسْتَجِيبونَ لَهُمْ؟ ولا يَجِبُ][9] أنْ تُفَسَّرَ الاسْتِجابَةُ في الشَّفاعةِ أو في التَّقَرُّبِ[10] إلى اللهِ أو في غَيرِهِ إلّا أنْ يُعْلَمَ أنهُمْ كانُوا يَدْعُونَ بكذا، ويَطْلُبُونَ منهُمْ كذا.

الآية ١٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يُسَفِّهُ عقولَهُمْ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ التي لا أرجلَ لَهُمْ يمشونَ بها، يَهربُونَ مِمَّنْ يَقْصِدُهُمْ بالسُّوءِ، أو يَقْصِدُونَ بِهِمْ قَصْدَ مَنْ أرادَ الضُّرَّ بِهِمْ والسُّوءَ، وكذلكَ يَعْبُدُونَ ما لا أيدِيَ لَهُمْ يَبْطِشُونَ [بها][11] يدفَعُونَ عنْ أنْفُسِهِمْ مَنْ أرادَ [بِهِمُ][12] السوءَ، أو يأخذونَ مَنْ يَقْصِدُهُم.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ/١٩٣ ـ أ/ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ يُبْصِرُونَ مَنْ يَقْصِدُهُمْ بالسوءِ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ مَنْ يَشْتُمُهُمْ، ويَذْكُرُهُمْ بالسّوءِ؟ يُسَفِّهُهُمْ في عبادَتِهِمْ مَنْ لا يَمْلِكُ دَفْعَ مَنْ يَقْصِدُهُ بالسُّوءِ إمّا هَرَباً منهُ وإمّا قَصْداً منهُ إليهِ بالسُّوءِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يهتدون. (٥) في الأصل وم: يقضون.
(٦) في الأصل وم: يملكون. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يملكون. (٩) في الأصل وم: يستجيبونهم ولا يجيب.
(١٠) في الأصل وم: التقريب. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

فإذا كانوا لا يملكون ذلك كيف تعبدون؟ وهو كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] فإذا كانوا لا يملكون دفع ما يحلّ بهم كيف يملكون جرّ النفع إليكم أو دفع الضرّ عنكم؟

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ قال بعض أهل التأويل: خاطب كفّار مكة بقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين تزعمون أنهم آلهة دون الله. ويحتمل قوله تعالى ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي ادعوا من شاركوكم في عبادة من دونه ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾

ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الكفار الذين يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله.

قال ذلك لهم رسول الله بين ظهرانيهم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ ثم لم يقدر أحد الكيد به والضرر مع قوّتهم وعُدّتهم بالكثرة والأعوان وضعف رسوله وقلّة أعوانه.

دلّ عجزهم عن ذلك أنه كان آية في نفسه، وأنه بالله تعالى ينتصر، وبه قوي على أعدائه. وذلك من عظيم آياته لأنه قال ذلك لمن همّهم القتل والإهلاك لمن خالفهم في ما في هم فيه.

ثم لم يقدر أحد منهم الضرر به. دلّ أنه بالله حفظه. وكذلك سائر الأنبياء، صلوات الله عليهم، حين[1] كانوا بين ظهراني قومهم من نحو هود ونوح و هؤلاء ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] وقال نوح: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ الآية [هود: ٣٨]

الآية ١٩٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الآية ذكر هذا على إثر قوله ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ كما ذكر هود ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٤-٥٦] وكما قال نوح ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] فزعوا إلى الله ﷻ عند وعيد قومهم بالإهلاك، وعليه اعتمدوا، وبه وثقوا.

فعلى ذلك رسول الله [حين][2] قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي [هو][3] وليّي يحفظني، وهو يتولّى حفظ الصالحين، أي بتولّيه صلحوا، أو يتولّى، ويحفظ الصالحين [معاً. بل هو وليّ][4] من ذكرنا من الرسل وقومهم[5].

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ يحتمل حافظي وناصري، أو وليّ تدبيري ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ [أو وليّ أمري][6] أو أولى بي ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الذي عجزت الخلائق عن إتيان مثله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

الآية ١٩٧ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يذكر سفههم بعبادتهم من عجز عن دفع الضرر عن نفسه فضلاً أن يدفع ذلك منهم، أو يجرّوا إلى أنفسهم منفعة.

الآية ١٩٨ وأخبر عن جهلهم لأنهم يعبدون من لا يملك دفع ضرّ ولا جرّ نفع بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الآية: ١٩٨] الهدى. هذا يخرّج على وجهين:

أحدهما: يخاطب به المؤمنين بقوله[7] تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ [يعني][8] أهل مكة ﴿إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ أي [لا][9] يجيبوا ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي لا ينتفعون به، أو لشدّة تعنّتهم لا يبصرون.

[والثاني: يخاطب به الكافرين][10] وإن تدعوا الأصنام التي تعبدون ﴿إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ أي لا يجيبوا، ولا يملكوا[11] الإجابة.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مقابل قوله. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وجائز أن يكون يقول. (١١) في الأصل وم: يملكون.

ويَحتَمِلُ ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ حقيقةَ السَّمعِ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ على التَّمثيلِ؛ كأنهُمْ يَنظُرونَ إليكَ، وهم لا يُبصِرونَ حقيقةً.

الآية ١٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يَتوَجَّهُ وجهيَنِ:

أحدُهما: على حَقيقةِ الأخذِ.

والثاني: على العَمَلِ بالعَفْوِ.

فإنْ كانَ على الأخذِ فهوَ على وجهيَنِ:

[أحدُهما][1]: يَحتَمِلُ أنْ خُذِ الفَضلَ الذي لاحَقَّ فيهِ، وهو القليلُ مِنْ ذلكَ واليَسيرُ.

والثاني: أنْ خُذْ ما يَفضُلُ مِنْ أنفُسِهِمْ وحوائِجِهِمْ مِن غَيرِ مَسألةٍ؛ أي اقْبَلْ منهُمْ ما أعطوكَ، ولا تُلِحَّ في المسألةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ الآية [محمد: ٣٦ و٣٧] أخبَرَ أنهُ إنْ يَسألْهُمْ أموالَهُمْ حَمَلَهُمْ ذلكَ على البُخلِ.

وإنْ كانَ على العَمَلِ فهو على وُجوهٍ: أي اعْفُ عنِ الظَّلَمَةِ عنْ ظُلمِهِمْ، أعْرِضْ عنِ السُّفهاءِ، واحلُمْ مَعَهُمْ.

أمَرَ رسولَ اللهِ أنْ يُعامِلَ الخَلْقَ بأشياءَ ثلاثةٍ: أنْ يعفُوَ عنِ الظَّلَمَةِ عنْ ظُلمِهِمْ: لا تُكافِئْهُمْ بِظُلمِهِمْ، وأمَرَ أنْ يُعْرِضَ عنِ السُّفَهاءِ والجهّالِ، ويَحلُمَ مَعَهُمْ، وأمَرَ أنْ يُعامِلَ المُؤمِنينَ[2] باللِّينِ والرِّفقِ، ولذلكَ[3] وصفَهُ بالرحمَةِ بقولِهِ تعالى ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ [أنهُ][4] قالَ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ خُلُقٌ[5] حَسَنٌ؛ ما أنزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ إلا في أخلاقِ الناسِ[وعنْ قتادةَ: [أنهُ قالَ][6] ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾][7] خُلُقٌ[8] حَسَنٌ، أمَرَ اللهُ نَبيَّهُ، ودَعاهُ إليه. إلى هذا ذهبَ بَعضُ أهلِ التأويلِ، وإلى ذلكَ صَرْفُ تأويلِ الآيةِ.

وقالَ بَعضُهُمْ: هو أخذُ الفَضلِ مِنَ المالِ على ما ذَكَرْنا، فهو مَنسوخٌ بآيةِ الزكاةِ.

ورُوِيَ في حَرفِ ابنِ مَسعودٍ وأُبيٍّ[بنِ كعبٍ][9]: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وانهَ عَنِ المُنكَرِ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وفيهِ دلالةُ أنهُ أمْرٌ بالأمْرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ، والمَعروفُ هو اسمُ كُلِّ خيرٍ، وأمَرَهُ بأنْ يأخُذَ بالعَفوِ عنِ الظَّلَمَةِ على ما ذَكَرْنا. وكذلكَ رُوِيَ عنْ عائشةَ [أنها][10] قالتْ: «كانَ رجلٌ يَشتُمُ رسولَ اللهِ، ويُؤذيهِ، فَدَخَلَ على رسولِ اللهِ، فأوسَعَ لهُ، وأدناهُ، ورَحَّبَ بِهِ. قالَتْ: يا رسولَ اللهِ أليسَ هذا كانَ يَشتُمُكَ؟ قالَ: بَلى يا عائشةُ إنَّ مِنْ شِرارِ الناسِ الذينَ يُكرَمُونَ اتّقاءَ شَرِّهِمْ وألْسِنَتِهِمْ» [البخاري: ٦٠٣٢] إلى مثلِ هذا دعا رسولُ اللهِ ﷺ العَفوِ[11] والصَّفحِ عنِ الظَّلَمَةِ وتركِ المُكافآتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي أمُرِ الناسَ بالعُرْفِ، وهو ما تَشهَدُ خِلقَتُكَ، وتأمُرُكَ بهِ أشياءُ ثلاثةٌ: اثنانِ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ، والواحِدُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الناسِ.

أمّا الاثنانِ اللذانِ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ:

فأحدُهما[12]: يأمُرُ خِلقَتَهُ، وتَشهَدُ على وَحدانيّةِ اللهِ، وتَدُلُّ[13] على أُلوهيَّتِهِ.

والثاني: يَشهَدُ على نِعَمِ اللهِ إليهِ، فيدعُوهُ إلى الشُّكرِ لهُ في ما أنْعَمَ اللهُ عليهِ.

وأمّا الوجهُ الذي يدعُو خِلقَتَهُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الناسِ فهو[14] ما يُرَغِّبُ نَفسَهُ في كُلِّ[ما هو حَسَنٌ][15] ومَرغُوبٌ فيهِ، ويُنَفِّرُ نَفسَهُ عنْ كُلِّ أذىً وسُوءٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: المؤمنون. (٣) في الأصل وم: وكذلك. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٦) ساقطة من م. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالعفو. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: والدلالة. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: محاسن.

فأمَرَ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يُعامِلَ الخَلْقَ بما تَرْغَبُ نَفْسُهُ، وتَطْمَعُ[1] في [ما هو حَسَنٌ][2]، وتَنْفُرُ عنهُ، وتَكْرَهُهُ[3]، يَفْعَلُ إليهِمْ كُلَّ ما ترغَبُ نَفسُهُ فيهِ، وتَطْمَعُ، ويَمْتَنِعُ عنْ كلِّ أذىً وسُوءٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: النَّزْغَةُ هي أدنى أفعالِ المَعْصِيَةِ، وكذلكَ فَسَّرَهُ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه يقولُ إذا أذْنَبْتَ ذَنْباً ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي يَسْتَخِفَّنَّكَ. ويُقالُ: نَزَغَ شيئاً إذا أفْسَدَ. وقال أبو عَوْسَجَةَ: النَّزْغُ التَّحْريكُ لِلفسادِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي يُوَسْوِسُكَ الشيطانُ وَسْوسَةً ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ثم في الاسْتِعاذَةِ وجهانِ.

أحَدُهما: أمْرُهُ بالفَزَعِ إلى اللهِ عندَما يُوَسْوِسُهُ الشيطانُ.

[والثاني: الْتِجاؤُهُ][4] إليهِ لِما يَرَى[5] نَفْسَهُ عاجِزَةً عَنْ دَفْعِ ما يُوَسْوِسُ إليهِ ورَدِّ ما يكونُ هو الدافِعَ عنهُ ذلكَ، وهو الرادُّ.

وقالَ الخليلُ: أعوذُ باللهِ أي ألجأُ إلى اللهِ. وكذلكَ قولُهُ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣ و٧٩] مَعْناهُ: أعوذُ باللهِ. ومنْهُ الإعاذَةُ والتَّعَوُّذُ والتَّعْويذُ/ ١٩٣ ـ ب/ وقالَ غَيْرُهُ: أعوذُ باللهِ، أي أمْتَنِعُ باللهِ، أي أتَحَصَّنُ باللهِ. وقِيلَ: الِاسْتِعاذَةُ هي[7] الاسْتِغاثَةُ باللهِ تعالى لِدَفْعِ ما اعْتَرَضَ لهُ منَ الشيطانِ. وكُلُّهُ قريبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ.

ثم الحِكْمَةُ في ما جعَلَ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيرِ جِنْسِهِمْ مِنْ حَيثُ لا يَرَوْنَهُ، ويَراهُمْ، وجهانِ:

أحَدُهُما: لِيكونُوا أبداً على التَّيَقُّظِ والِانْتِباهِ غيرَ غافِلِينَ عنهُ.

والثاني: لِيكونُوا أبداً فَزِعِينَ إلى اللهِ تعالى مُتَضَرِّعِينَ إليهِ مُبْتَهِلِينَ لِيكونَ هو الحافِظَ لهمْ والدافِعَ عنهم شَرَّهُ وَوَسْواسَهُ.

وفي ما أمَرَ بالفَزَعِ إلى اللهِ والِاسْتِعاذَةِ بهِ عندَ نَزْغِ الشيطانِ نَقْضٌ على المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهمْ يقولونَ: قد أعطاهُمْ جميعَ ما يَدفعونَ بِهِ وَساوِسَهُ ونَزَغاتِهِ حتى لم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ[يُعيذُهُمْ بِهِ][8] فَعَلَى قولِهِمْ يُخَرَّجُ طَلَبُ الإعاذَةِ مُخْرَجَ كِتْمانِ النِّعْمَةِ أو مُخْرَجَ الهُزْءِ بِهِ لأنهُ يسألُهُ ما يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ ذلكَ عندَهُ.

الآية ٢٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وقيلَ طَيفٌ ﴿مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فَمَنْ قرَأ[9] طيفٌ قالَ: اللَّمَّةُ الخَطْرَةُ: الشَّيءُ يَغْشاكَ [ومَنْ قَرَأ ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ قالَ هو][10] مِنَ الطَّوافِ. وقيلَ الطَّيفُ ما يأتِيكَ مِنَ الشيطانِ، وقيلَ: الطائِفُ والطَّيفُ سَواءٌ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه: [أنهُ قالَ:][11] ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إذا أذْنَبُوا ذَنْباً ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ يقولُ: تَذَكَّروا ذنوبَهُمْ، فَتابُوا منها. وكذلكَ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ هو أدنى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ. وإنْ كانَ على هذا فهو يُخَرَّجُ على النَّهْيِ عنْ ذلكَ، وهو كالخِطاباتِ[12] التي خاطَبَ بها رسولَ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] [وقولِهِ تعالى][13]: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] [وقولِهِ تعالى][14]: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] وإنْ كانَ يَعْلَمُ أنهُ لا يَشُكُّ، ولا يَجْهَلُ، ولا يُشْرِكُ غيرَهُ في أمْرِهِ.

فَعَلَى ذلكَ هذا الخِطابُ الذي خاطَبَهُ بقولِهِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ وإن كانَ ما ذَكَرَ هو مِنْ أدنى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ فهو يُخَرَّجُ ذلكَ على تَعليمِهِ أُمَّتَهُ أنْ كيفَ يَفْعَلُونَ إذا اعْتَرَضَ لَهُمْ ذلكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وطمع. (٢) في الأصل وم: المحاسن. (٣) في الأصل وم: ونكره. (٤) في الأصل وم: والتجاء. (٥) في الأصل وم: رأى. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: يعيذه. (٩) أنظر معجم القراءات القرآنية ح٢/ ٤٣٢. (١٠) في الأصل وم: وقال: وأما الطائف فهو. (١١) في الأصل وم: قال: مدرجة قبل إذا أذنبوا. (١٢) في الأصل وم: كالمخاطبات. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ﴾ كذا يَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿ٱتَّقَوْا۟﴾ مَكايدَ الشيطانِ إذا أصابَهُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ تَذَكَّرُوا ذلكَ، فعَرَفُوا أنهُ مِنَ الشيطانِ ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي أبْصَرُوا أنهُ مِنَ الشَّيطانِ، أو أنْ يُقالَ: أي هُمْ مِنْ أهلِ البَصَرِ، يُبصِرُونَ [ما اتَّقَوهُ][1] أنهُ مِنَ الشيطانِ.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ المَعاصِيَ إذا أصابَهُمْ وَسْوَسَةٌ مِنَ الشيطانِ تَذَكَّرُوا ذلكَ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي اتَّقَوُا الشِّرْكَ. لكنْ لا كُلُّ مَنِ اتَّقى الشِّرْكَ يكونُ كما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ الآية يَحتمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: إذا مسَّهُمْ بِذلكَ تابوا عمّا كانَ مِنْهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥]

والثاني: تَذَكَّرُوا وُجوهَ حِيَلِ دَفْعِ وَساوِسِهِ.

والثالثُ: تَذَكَّرُوا: اسْتعاذُوا بِهِ حينَ أمَرَهُمْ بِالاسْتِعاذَةِ بِهِ عندَ النَّزْغَةِ.

الآية ٢٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ يَعْنِي إخوانَ الكُفّارِ والشياطِينِ ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ قالُوا: في الشِّرْكِ والمَعْصِيَةِ ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي لا يَنْتَهُونَ عنها، ولا [يُقْصِرُونَها كما أقْصَرَ][2] الذينَ اتَّقَوا عنها حينَ أبْصَرُوها.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ يَعْنِي أصحابَ الذينَ اتَّقَوا، وهمْ شياطِينُهُمْ مِنَ الإنسِ، يَدْعُونَهُمْ إلى دِينِهِمْ، ولكنَّهُمْ لا يُجيبونَهُمْ، ولا يُطيعُونَهُمْ، في ما يَدْعُونَ إليهِ، إذْ يجوزُ أنْ يكونَ لِكُلِّ مؤمِنٍ شيطانٌ مِنَ الأنسِ وشيطانٌ مِنَ الجِنِّ كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فقد دَعا أولئكَ شياطِينُ الجِنِّ، فتَذَكَّرُوا، فلم يُجيبُوهُمْ. ثم دَعاهُمْ شياطِينُ الإنسِ أيضاً، [فلم يُجيبوهُمْ][3] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ ظاهِرُ الآيةِ في سُؤالِ أهلِ الكُفرِ رسولَ اللهِ الآيةَ؛ إنهُمْ كانُوا إذا [أتاهُمْ بآيةٍ][4] اسْتَهْزَؤوا بها، وتَعَنَّتُوا. وإذا لم يأْتِهِمْ بها سَألُوهُ الآيةَ سُؤالَ المُسْتَهْزِئينَ المُتَعَنِّتِينَ[5]، وإذا لم يَأْتِهِمْ بها ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ لولا ابْتَدَعْتَها، وأحدَثْتَها، وأنشأْتَها، وهلّا أنبأْتَها مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ؟

فقالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي لا أفتَعِلُها، ولا أُنشِئُها مِنْ نَفْسي ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ سُؤالُ الآيةِ مِنَ المُؤمِنِينَ. فإنْ كانَ منهُمْ فهو سُؤالُ الاسْتِرْشادِ لِما يَزْدادُ لهُمْ بكلِّ آيةٍ تَنْزِلُ عليهِمْ يَقينٌ[6] وقُوَّةٌ في دينِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٤] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٥] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ الآية [محمد: ٢٠]. فإذا كانَ السُّؤالُ مِنَ المؤمِنِينَ فهو سُؤالُ الاسْتِرْشادِ[7] وطَلَبُ زيادةِ الهُدَى. وإنْ كانَ مِنَ الكُفّارِ فهو سُؤالُ الاسْتِهْزاءِ والتَّعَنُّتِ.

ثم أخْبَرَ أنهُ لا يَتَّبِعُ إلّا ما يُوحَى إليهِ. ثم أخْبَرَ أنهُ ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ قِيلَ: بَيانٌ أي هذا القرآن بَيانٌ مِنْ ربِّكُمْ يُبْصَرُ بِهِ مَنْ لم يُعانِدْ، ولم يُكابِرْ عَقْلَهُ كلَّ مالَهُ وما عليهِ. وإنهُ بَيانٌ[8] الحَقِّ والباطلِ، ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلالَةِ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ورَحْمَةٌ مِنَ العَذابِ.

الآية ٢٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ الآية أمَرَ اللهُ تعالى بِالاسْتِماعِ إلى هذا القُرآنِ والإنْصاتِ لهُ إذا قُرِئَ. وإنْ كانَ في العَقْلِ أنَّ مَنْ خاطَبَ آخَرَ بِمُخاطَباتٍ يَلْزَمُهُ الاسْتِماعُ إلى مَنْ يُخاطِبُهُ، ويُشافِهُهُ. فاللهُ

---

(١) في الأصل وم: عما اتقوا به. (٢) في الأصل وم: يبصرونها كما أبصر. (٣) في الأصل وم: فلا يُجيبونهم. (٤) في الأصل وم: أتى بهم آية. (٥) من م، في الأصل: معتنين. (٦) في الأصل وم: يقيناً. (٧) من م، في الأصل: الاشتراك. (٨) في الأصل وم: البيان من.

سُبْحانَهُ إذا خاطَبَ بِخِطابٍ[١] أوْلَى أنْ يُسْتَمَعَ لَهُ معَ ما ذُكِرَ في غَيرِ مَوضعٍ مِنَ القرآنِ آياتٍ ما يُوجِبُ في العَقْلِ الاسْتِماعَ إليهِ كقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ، ولا سَبيلَ أنْ يَعْرِفَ أنهُ بَصائِرُ وأنهُ هُدىً وما ذَكَرَ [إلا][٢] بالاسْتِماعِ إليهِ. والتَّفَكُّرِ فيهِ.

فَدَلَّ أنَّ الاِسْتِماعَ لازِمٌ في العَقْلِ لِمَنْ[٣] لَهُ أدنَى عَقْلٍ على ما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ. ولكنهُ [ذَكَرَ ههنا الاِسْتِماعَ إليهِ][٤] واللهُ أعلَمُ لوجْهَينِ:

أحدُهما: مَقابِلَ ما كانُوا يَقولُونَ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] أمَرَ ﷻ المؤمِنِينَ بِالاسْتِماعِ إليهِ مَكانَ قَولِهِمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وأمَرَ بالإنصاتِ إلى[٥] ما يقولونَ ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾.

والثاني: يَجوزُ أنْ يكونَ أمَرَ بالاسْتِماعِ إليهِ في الصلاةِ على ما قالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ: إنهُ في الصلاةِ. وقالَ بعضُهُمْ: في حالِ الخُطْبَةِ لِما يَسْبِقُ إلى أوهامِهِمْ أنهُ لَمّا اشْتَغَلُوا بِغَيرِها مِنَ العِباداتِ، ولَزِمَهُمْ أنواعُ القُرَبِ أنْ يُسْقِطَ عنهُمْ حَقَّ الاِسْتِماعِ، أمَرَ بِالاِسْتِماعِ إليهِ والإنصاتِ لهُ لِيَعْلَمُوا أنَّ حَقَّ الاِسْتِماعِ لازِمٌ في كُلِّ حالٍ.

ثم الاِسْتِماعُ إليهِ يكونُ لِتَفَهُّمِ ما أودَعَ فيهِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوَعيدِ وغيرِهِ، والإنصاتُ للتَّعْظِيمِ لهُ والتَّبجيلِ.

ثم الاِسْتِماعُ لهُ [لَمْ][٦] يَلْزَمْ لِنَفسِ التِّلاوَةِ، ولكنْ إنما يَلْزَمُ لِما أودَعَ فيهِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوَعيدِ وغيرِهِ لِيَفْهَمُوا ما فيهِ، ويَقْبَلُوا، ويَقومُوا بِوَفاءِ ذلكَ.

وأمّا سائرُ الأذكارِ فإنما صارَتْ عبادةً لِنَفْسِها. لذلكَ لم يَلْزَمِ الاِسْتِماعُ إلى سائرِ الأذكارِ، ولَزِمَ لِتِلاوَةِ القرآنِ كلامِ اللهِ وكتابِهِ. ومِنَ الجَفاءِ والاِسْتِخفافِ أنْ يَكْتُبَ إنسانٌ إلى أخيهِ كتاباً، لا يَنْظُرُ فيهِ، ولا يَسْتَمِعُ لهُ.

فَتَرْكُ الاِسْتِماعِ إلى كتابِ اللهِ أعْظَمُ في الجَفاءِ والاِسْتِخْفافِ ولأنَّ القرآنَ يُجْهَرُ، وسائرُ الأذكارِ لا تُجْهَرُ. فإنْ كانَتْ تُجْهَرُ، يُسْتَمَعُ[٧] إليها كما يُسْتَمَعُ إلى القرآنِ، واللهُ أعْلَمُ.

وذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الصلاةِ لأنَّ رسولَ اللهِ إذا قَرَأَ في صلاتِهِ كانُوا يقولونَ مِثْلَ ذلكَ، فَنَزَلَتِ الآيةُ بالنَّهْيِ عنْ ذلكَ والأمرِ بالاِسْتِماعِ إليهِ كما يُسْتَمَعُ إلى القرآنِ، واللهُ أعْلَمُ. / ١٩٤ ـ أ/ وذُكِرَ أنهُمْ كانُوا يرفَعُونَ أصواتَهُمْ في الصلاةِ حينَ يسمَعُونَ ذِكْرَ الجَنّةِ والنارِ. فَنَزَلَتِ الآيةُ. لِذلكَ لا نَدري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفيمَ كانَتْ؟ وقد يَحْتَمِلُ ما ذكرْنا آنفاً.

ثم إنْ كانَتِ الآيةُ في الصلاةِ ففيهِ دلالةُ النَّهْيِ عنِ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ لأنهُ أمَرَ بالاِسْتِماعِ إليهِ والإنصاتِ لهُ.

وعلى ذلكَ جاءتِ الأخبارُ. رُوِيَ عنْ أبي العاليةِ [أنهُ][٨] قالَ «كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا صَلَّى قَرَأَ أصحابُهُ أجمَعُونَ خَلْفَهُ. حتى [نَزَلَتِ الآيةُ][٩] ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ فَسَكَتُوا» [السيوطي في الدر المنثور: ٣/ ٦٣٥].

وعنْ عليِّ بْنِ أحْمَرَ «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَرَأَ في صلاةِ الفَجْرِ الواقِعَةَ، وقَرَأها رجلٌ خَلْفَهُ، فَلَمّا فَرَغَ مِنَ الصلاةِ قالَ: مَنِ الذي يُنازِعُني في هذهِ السورةِ؟ فقالَ رجلٌ: أنا يا رسولَ اللهِ. فأنزَلَ اللهُ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾»[بمعناه عن أبي هريرة: ابن ماجه: ٨٤٨]. وغيرُ ذلكَ مِنَ الأخبارِ.

وقالَ[١٠] قومٌ: إنَّ الإنصاتَ الذي أُمِرَ بِهِ المُؤتَمُّ مَعْناهُ: ألا يَجْهَرَ بقراءَتِهِ، ولَيسَ فيهِ نَهْيٌ أنْ يَقْرَأَ في نَفْسِهِ.

وزَعَمَ بَعْضُهُمْ أنَّ القارِئَ مُخْفِياً يُسَمَّى ناصتاً مُنْصِتاً. واسْتَدَلَّ بما رُوِيَ عنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ [أنهُ][١١] قالَ «[كانَ][١٢]

---

(١) من م، في الأصل: يخاطب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فأمر. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فيستمع. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

رسولُ اللهِ ﷺ، إذا كَبَّرَ سَكَتَ بَينَ التَّكبيرِ والقراءةِ. قلتُ: [بأبي أنتَ وأمي [أرأيتَ][1] سُكاتَكَ بينَ التَّكبيرِ والقراءةِ. أخبِرني ما تقولُ: قالَ: أقولُ: اللَّهُمَّ باعِدْ بيني وبَينَ خطاياي كما باعَدْتَ بَينَ المَغرِبِ والمَشرِقِ، وغيرَ ذلكَ مِنَ الدَّعَواتِ» [البخاري: ٧٤٤]. فقالَ هذا القائلُ: قد سَمَّى النَّبيُّ ﷺ القارئَ مُخفِياً ساكتاً. الصامتُ مِثلُ الساكتِ. فيجوزُ أن يُسمّى صامتاً، وهو أنْ يَقرأَ مُخفِياً كما يُسمّى ساكتاً.

قالَ العَمِّيُّ. غَلِطَ هذا القائلُ في تَشبيهِ الصامتِ بالساكتِ لأنَّ الأسماءَ لا تُقاسُ، وإنما يُطلَقُ في كلِّ واحدٍ منها ما أطلَقَتْهُ اللغةُ فيهِ.

ومِمّا يُبيِّنُ غَلَطَهُ أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا﴾ فلو كانَ القارئُ مُخفِياً يُسمّى صامتاً ناصتاً مُستَمِعاً. وإنما يكونُ مُستَمِعاً صامتاً إذ صَمَتَ فلم يَقرَأْ. فَمَنْ أطلَقَ لهُ أن يَقرأَ، والإمامُ يَقرأُ، فلم يَستَمِعْ، ولا أنصَتَ.

ومِمّا يَدُلُّ على غَلَطِهِ أيضاً أنَّ العُلَماءَ جَميعاً يَنهَونَ المُؤتَمَّ عنِ القراءةِ. وإنما يأمُرُ بالقراءةِ خَلفَ الإمامِ أنْ يَقرَأَ إذا سَكَتَ إمامُهُ، ويأمُرُ هَؤلاءِ الإمامَ أنْ يَقِفَ ساعةً إذا فَرَغَ مِنْ قراءَتِهِ حتى يَقرَأَ المؤتَمُّونَ. فلو كانُوا يَجعَلُونَ القارئَ في نَفسِهِ، والإمامُ يقرأُ جَهراً، صامِتاً ما أمَرُوهُ بتأخيرِ القراءةِ حتى يَفرُغَ إمامُهُ مِنَ القراءةِ. فهذا يُبيِّنُ غَلَطَ المُستَدِلِّ بحديثِ أبي هُرَيرَةَ في استِدلالِهِ.

ومِمّا يدلُّ على أنَّ المُؤتَمَّ مَنهِيٌّ عن أنْ يَقرَأَ، والإمامُ يَجهَرُ، ما رُوِيَ عنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه «أنَّ النَّبيَّ ﷺ صلّى بهمْ صلاةً، فَظُنَّ أنها الصُّبحُ، فلمّا سَلَّمَ أقبَلَ على الناسِ، قالَ: هل يَقرأُ أحدٌ منكُمْ؟ فقالَ رجلٌ: أنا، فقالَ النَّبيُّ: إني أقولُ: مالي أُنازَعُ القرآنَ؟» [الترمذي ٣١٢] قالَ أبو هُرَيرَةَ: فانتَهى الناسُ عنِ القراءةِ في ما يَجهَرُ فيه النبيُّ، فقالَ قومٌ: إنَّ أبا هريرَةَ قد نَهى[2] الناسَ عنِ القراءةِ خَلفَ النَّبيِّ في ما جَهَرَ فيه. فَيُقالُ: إنَّ أبا هُرَيرَةَ لم يَرْوِ ذلكَ عنِ النَّبيِّ ﷺ.

ثم مِمّا يَدُلُّ على أنَّ المؤتَمَّ لا يَقرأُ، جَهَرَ الإمامُ، أو خافَتَ، قولُ النَّبيِّ «مالي أُنازَعُ القرآنَ» وقد عَلِمْنا أنَّ المؤتَمَّ لم يَجهَرْ بقراءَتِهِ، فَيَتَأوَّلُ مُتَأوِّلٌ مُنازَعَتَهُ النَّبيَّ ﷺ على أنهُ شُغِلَ، فَلا وَجهَ لقولِهِ «مالي أُنازَعُ القرآنَ»؟ إلّا بِنَهيِهِ المُؤتَمَّ عن أنْ يَقرَأَ، جَهَرَ إمامُهُ، أو خافَتَ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ، ما يُبيِّنُ النَّهيَ عنِ القراءةِ خَلفَ الإمامِ في ما يَجهَرُ فيهِ، أو يُخافِتُ، ما رُوِيَ عنْ عِمرانَ [بْنِ حُصَينٍ][3] أنَّ النَّبيَّ ﷺ صَلّى بأصحابِهِ الظُّهرَ، فلَمّا قَضى صلاتَهُ قالَ: أيُّكُم قَرَأَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟ فقالَ بَعضُ الناسِ: أنا يا رسولَ اللهِ، فقالَ: قد عَرَفْتُ أنَّ بَعضَكُم خالَجَنيها» [الطبراني في الكبير ١٨/ ٢١١ ورقمه ٥٢٢] فَبَيَّنَ عِمرانُ بْنُ حُصَينٍ أنَّ الرجلَ خافَتَ بقراءَتِهِ، ودَلَّ أنَّ النَّهيَ الذي رَواهُ أبو هُرَيرَةَ لم يَكُنْ في حالِ جَهرِ الإمامِ دُونَ مُخافَتَتِهِ، وأنَّ المُؤتَمَّ مَنهِيٌّ عنِ القراءةِ خَلفَ الإمامِ في كُلِّ الصَّلواتِ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ بالنَّهيِ عنِ القِراءةِ خَلفَ الإمامِ أحاديثُ كثيرةٌ: ما رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ وعِمرانَ [بْنِ][4] حُصَينٍ عنهُ، وما رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ [بْنِ مسعودٍ][5]: «كُنّا نَقرَأُ خَلفَ النَّبيِّ ﷺ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ، خَلَطْتُمْ عليَّ القرآنَ» [ابن أبي شيبة ١/ ٣٧٦].

فإنْ قِيلَ: لَعَلَّهُمْ كانُوا يَجهَرُونَ بالقرآنِ، فَنَهى عنِ الجَهرِ. قيلَ لهُ: لم يُنقَلْ لنا في شَيءٍ مِنَ الأخبارِ أنَّ المُؤتَمِّينَ كانُوا يَقرَؤُونَ جَهراً. ولو كانُوا يَقرَؤُونَ جاهِرِينَ لأدّى ذلكَ إلينا كما أدّى أنهُمْ كانُوا يَقرَؤُونَ.

وفي ذلكَ وجهٌ آخَرُ أنهُ لم يكنِ النَّهيُ عنِ الجَهرِ خاصَّةً، ولكنْ للقراءةِ نَفسِها[6]، ما رُوِيَ عنْ أبي وائلٍ [أنهُ][7] قالَ: سألتُ عبدَ اللهِ بْنَ مَسعودٍ عنِ القراءةِ خَلفَ الإمامِ، فقالَ: أنصِتْ فإنَّ في الصلاةِ شُغلاً، وسَيَكفِيكَ ذلكَ الإمامُ.

---

(١) في الأصل وم: انتهى. (٢) في الأصل وم: انتهى. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: نفسه. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وعنْ عبدِ اللهِ بْنِ شَدّادٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ كانَ لهُ إمامٌ فَقِراءةُ الإمامِ لهُ قراءةٌ» [البيهقي في الكبرى ٢/ ١٦١] وعنْ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ أنَّ النَّبيَّ، [كانَ يُصَلِّيَ][(١)] ورجلٌ خَلْفَهُ [يَقرأ][(٢)] فَنهاهُ رجلٌ مِنْ أصحاب النَّبيِّ عنِ القراءةِ في الصلاةِ فَتَنازعا فيهِ، حتى ذُكِرَ لِلنَّبيِّ ﷺ فقالَ: «مَنْ صَلَّى خَلْفَ إمامٍ فَقِراءةُ الإمامِ لهُ قِراءةٌ» [الدار قطني ١٢٢١] وعنْ أبي مُوسَى عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «وإذا قَرَأَ الإمامُ فأنصِتُوا» [مسلم ٤٠٤/ ٦٣]

ورُوِيَ عنْ أبي هُرَيرَةَ [أنهُ][(٣)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «إنما جُعِلَ الإمامُ لِيُؤْتَمَّ بهِ، فإذا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وإذا قَرَأَ فأنْصِتُوا» [النسائي ٢/ ١٤١] وغَيرُ ذلكَ مِنَ الأحاديثِ.

وأكْثَرُ ما يَحْتَجُّ بهِ المُخافِتُ لِعُلمائنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قالَ: «لا صلاةَ لِمَنْ يَقرَأْ بإمامِ القرآنِ» [مسلم ٣٩٤/ ٢٦] يَرويهِ عُبادةُ بْنُ الصامِتِ.

قالَ سفيانُ: هذا عندَنا في منْ يُصَلِّي وحْدَهُ. فذلكَ مُحْتَمَلٌ، والأحاديثُ التي جاءَتْ مُفَسَّرَةً في النَّهْيِ عنِ القراءةِ خلْفَ الإمامِ.

فإنْ قالَ: [قائِلٌ][(٤)]: يَترُكُ المُؤْتَمُّ القراءَةَ في ما يَجْهَرُ فيهِ إمامُهُ بحديثِ أبي هُرَيرَةَ، ويَقرأُ في ما يُخافِتُ بِحديثِ عبادَةَ بْنِ الصامِتِ لِيَصِحَّ[(٥)] حديثُ أبي هُرَيرَةَ وحديثُ عبادَةَ[بْنِ الصامِتِ][(٦)] جميعاً، قِيلَ لهُ: فَهَلّا جَعَلْتَهُ في المُصَلِّي وحْدَهُ لِيَصِحَّ حديثُ عُبادَةَ [بْنِ الصامِتِ][(٧)] وحديثُ عِمْرانَ بْنِ حُصَينٍ لأنَّ حديثَ عِمْرانَ يَنْهى عنِ القرآنِ في ما خافَتَ [الأمامُ][(٨)]، وحديثَ أبي هُرَيرَةَ في ما يَجْهَرُ فيهِ. فإنْ جَعَلْتَ حديثَ أبي هُرَيْرَةَ خارجاً عنْ عمومِ حديثِ عُبادَةَ فذلكَ يُوجِبُ ألّا يَقْرَأَ المُؤتَمُّ في ما يَجْهَرُ فيهِ إمامُهُ [أو يُخافِتُ][(٩)]. ويُقالُ لهُ: هل رأيتَ فَرْضاً مِنْ فرائضِ الصلاةِ ساقطاً[(١٠)] عنِ المُؤتَمِّ في حالٍ، وواجباً[(١١)] عليهِ في حالٍ؟ فإنْ قالَ: لا قِيلَ: ففي إسقاطِكَ تلكَ القراءةَ عنهُ في حالِ الجَهْرِ ما أوجَبَ عليكَ أنْ تُسْقِطَها عنهُ في حالِ المُخافَتَةِ. وقد احْتَجَّ بَعْضُ أصحابِنا في ذلكَ بأنْ قالُوا: وجَدْنا الرجلَ إذا جاءَ إلى الإمامِ، وهو راكِعٌ، فَكَبَّرَ، ودَخَلَ في صلاتِهِ، ولم يَقرَأْ، فَكُلٌّ يُجْمِعُ أنَّ صلاتَهُ تُجْزِيهِ. فدلَّ ذلكَ أنَّ القراءَةَ غَيرُ فَرضٍ عليهِ.

فإنْ قالَ [قائلٌ][(١٢)]: إنما أُطلِقَ لهُ ذلكَ لِلضَّرُورَةِ، قيلَ: لو جاءَ إلى الإمامِ، وهو ساجدٌ، لم يُعْتَدَّ بتلكَ الركعةِ والضرورةُ قائمةٌ. فلو كانَتِ الضرورةُ تُزيلُ فَرْضاً لأزالت[(١٣)] الركوعَ عَمَّنْ لَحِقَ إمامَهُ، وهو / ١٩٤ - ب/ ساجدٌ، فهي لا تزيلُ فَرْضَ القراءةِ عَمَّنْ لَحِقَ إمامَهُ. ولكنْ لا تَلْزَمُهُ القراءةُ خَلْفَ الإمامِ. فلذلكَ أجْزَتْهُ[(١٤)] صلاتُهُ لا لِلضَّرُورةِ التي ذَكَرْتُ، واللهُ أعلمُ.

وقد رُوِيَ عنْ جماعةٍ مِنَ الصحابَةِ [رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ][(١٥)] أنهُمْ قالُوا: لا قراءَةَ على مَنْ خَلْفَ الإمامِ: منهُمْ عليٌّ وابْنُ مَسْعودٍ وجابرٌ وأبو سعيدٍ وابْنُ عُمَرَ وابْنُ عباسٍ وزَيدُ بنُ ثابتٍ ﷺ.

أمّا عَنْ عليٍّ ﷺ [فقد][(١٦)] قالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الإمامِ فقدْ أخطأَ الفِطْرَةَ وعَنْ عبدِ اللهِ [بْنِ مَسْعود أنهُ][(١٧)] قالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الإمامِ مُلِئَ فُوهُ تُراباً. وعنْ زَيدِ بْنِ ثابتٍ [أنهُ][(١٨)] قالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الإمامِ فلا صلاةَ لهُ. وعَنْ [أبي سعيدٍ أنهُ][(١٩)] قالَ: وَدِدْتُ أنَّ الذي يَقْرَأُ خَلْفَ الإمامِ في فَمِهِ جَمْرَةٌ. [وكانَ ابْنُ عُمَرَ][(٢٠)] إذا سُئِلَ: هل يَقرَأُ أحَدٌ خَلْفَ الإمامِ؟ قالَ: لا. فإذا صَلَّى أحَدُكُمْ وحْدَهُ فَلْيَقرَأْ. وكانَ ابْنُ عُمَرَ لا يَقرَأُ خَلْفَ الإمامِ. وعَنْ أبي سعيدٍ أنهُ سُئِلَ عنِ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ. فقالَ[(٢١)]: يَكْفيكَ ذلكَ الإمامُ. وعنِ ابْنِ عباسٍ أنَّ رجلاً سألَهُ: أقرأُ خَلْفَ الإمامِ؟ قالَ: لا. إلى مِثْلِ هذهِ الأحاديثِ ذهبَ أصحابُنا. وعلى ذلكَ دلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ الصحابةِ، وباللهِ التوفيقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ليصلح. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وخافت. (١٠) في الأصل وم: بمسقط. (١١) في الأصل وم: ويجب. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: وزالة. (١٤) في الأصل وم: أخرته. (١٥) ساقطة من م. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: سعد. (٢٠) في الأصل وم: وعن ابن عمر كان. (٢١) في الأصل وم: قال.

الآية ٢٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ اختلفَ أهلُ التّأويلِ في الذِّكْرِ الذي ذُكِرَ في الآيةِ. منهُمْ مَنْ صَرَفَ التّأويلَ إلى كُلِّ ذِكْرٍ، ومنهُمْ مَنْ صَرَفَ إلى التّلاوةِ. فإنْ كانَ ذِكْرُ الغُدُوِّ والآصالِ كنايةً عنِ الليلِ والنهارِ فهو ذِكْرُ أحوالِهِ؟ يَذْكُرُ اللهَ ﷻ، بِنِعَمِهِ وإحسانِهِ، ويَذْكُرُهُ[١] بِنِعَمِهِ وشُكْرِهِ، أو يَذْكُرُهُ[٢] بِقُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ، وذلكَ يَحْمِلُهُ[٣] على الخُضوعِ لهُ والتواضُعِ، أو يذْكُرُ أمْرَهُ ونَهْيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعيدَهُ.

وذلكَ يُوجِبُ الإقرارَ بالتّقصيرِ والخوفَ لِعُقوبَتِهِ والرَّغْبَةَ في وعْدِهِ. كأنهُ قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى﴾ كُلِّ حالٍ مِنَ الليلِ والنهارِ إمّا لِنِعَمِهِ وإحسانِهِ وإمّا لإقرارٍ بالتّقصيرِ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ وإمّا لِخَوفِ وعيدِهِ وإمّا لِرَغْبَةٍ بِوَعْدِهِ. فكأنهُ قالَ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ تضرُّعاً وتواضُعاً وخُفْيَةً مَعَ الخوفِ.

وإنْ كانَ تأويلُ الغُدُوِّ والآصالِ كِنايةً عنِ الغَداةِ والعَشِيِّ فهو كِنايةٌ عنِ التّلاوةِ، وهو ما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ التّلاوةِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]. وتأويلُهُ، واللهُ أعْلَمُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، في بَعْضِ صلاتِكَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في بَعْضِها، أو أنْ يُقالَ: لا تَجْهَرْ جَهْرَ العالي، ولا تُخافِتْ غايَةَ المُخافَتَةِ، ولكنْ بَيْنَ ذلكَ، أو أنْ يَقولَ: لا تَشْتَغِلْ بالجَهْرِ ولا بالمُخافَتَةِ، ولكِنْ اقْرَأْ لِما فيهِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ وقرأ بَعْضُهُمْ: وخُفْيَةً[٤] وهو مِنَ الإخفاءِ حَيثُ قالَ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ وأمّا ظاهِرُ القراءةِ فهو ﴿وَخِيفَةً﴾ وهو مِنَ الخوفِ.

وقالَ مُجاهِدٌ[٥]: رَخَّصَ اللهُ أنْ تَذْكُرَهُ: ﴿فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ وأنتَ خَلْفَ الإمامِ تَسْمَعُ قراءتَهُ.

[وقولُهُ تعالى][٦]: ﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: العَشِيّاتُ، الواحدُ: أصْلٌ وأصيلٌ.

[وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، لم يكُنْ مِنَ الغافِلينَ في حالٍ، ولكنْ [قالَ ذلكَ][٨] على النَّهْيِ لِأُمّتِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] [وقولِهِ تعالى][٩]: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ونَحْوَهُ نَهاهُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ لِما ذَكَرْنا نَهْياً لِغَيرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ قالَتِ المُشَبِّهَةُ: لو لم يكُنْ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ الملائكةِ قُرْبُ الذاتِ لَكانُوا هُمْ والبَشَرُ بِقولِهِ تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سَواءً، ولَكانَ لا مَعْنى لِتَخْصيصِ الملائكةِ بذلك.

ولكنَّ التأويلَ عندَنا في قولِهِ تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في الطاعةِ والخُضوعِ أو في الكَرامَةِ والمَنْزِلَةِ لَيسَ على قُرْبِ الذاتِ، ولكنْ على ما وَصَفَ ﷻ، [بقولِهِ][١٠] ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقولِهِ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و٢٠] وَصَفَهُمْ بالطاعةِ لهُ والخُضوعِ.

فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ لَيسَ على قُرْبِ الذاتِ، ولكنْ على ما ذُكِرَ مِنَ الطاعةِ والخُضوعِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾؟ [العلق: ١٩] لَيسَ على أنهُ في الأرضِ يَقْتَرِبُ منهُ إذا سَجَدَ.

وأصْلُ ما يُضافُ إلى اللهِ مِنْ جُزئيّةِ الأشياءِ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ تَعْظيمِ تلكَ الجُزئيّاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] خَصَّ المَساجدَ بالإضافةِ إليهِ، وإنْ كانتِ البِقاعُ كُلُّها لهُ تَعْظيماً لها. وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧]. بيتُ اللهِ، وإنْ كانتِ البيوتُ كُلُّها لهُ، ونَحْوُ ذلكَ ممّا أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ مِنْ جُزئيّاتِ الأشياءِ تعظيماً لذلكَ وإجلالاً.

---

(١) في الأصل وم: وذكره. (٢) في الأصل وم: يذكر. (٣) في الأصل وم: يحتمله. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٤٣٤. (٥) في الأصل وم: المجاهد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَى ذلكَ الأَوَّلُ أضافَهُمْ إلى نَفْسِهِ إمّا لِطاعةِ لَهُمْ إيّاهُ والخُضوعِ وإمّا لِكَرامَةٍ لَهُمْ والمنزلَةِ.

وإضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ تُخَرَّجُ مُخرَجَ تَعْظِيمِ الرَّبِّ: مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ومِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بِتَفْضِيلِ الملائكةِ على البَشَرِ بهذِهِ الآية. لكنْ نقولُ: إنَّ الأفضَلَ عندَ اللهِ الأطوَعُ لهُ والأخضعُ والأتقى والأقوَمُ لِأمْرِهِ ونَهْيِهِ على ما ذَكَرَ[1]: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] لا نُشيرُ إلى أنَّ هؤلاءِ أفْضَلُ مِنْ هؤلاءِ، وقد ذكَرْنا الوجْهَ في ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وتأويلُ الآيةِ، واللهُ أعْلَمُ، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية أي أنهُمْ، وإنْ لم يكُنْ لهُمْ حاجةٌ إلى المأكَلِ والمَشْرَبِ وأنواعِ الحاجاتِ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ وأنتُمْ معَ حاجَتِكُمْ إلى الأكْلِ والشُّرْبِ وأنواعِ الحوائجِ أحرَى وأولَى ألّا تَسْتَكْبِرُوا عنْ عِبادَتِهِ؛ لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يَعْبُدُ الملائكةَ، فَخُرِّجَ هذا جوابَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ التَّسْبيحُ هو وصفُ الرَّبِّ ﷻ، بالرِّفْعَةِ والعَظَمَةِ والجَلالِ والتَّعالي عنِ الأشباهِ[2] والأمثالِ وعمّا وَصَفَهُ المُلْحِدُونَ. والتَّسْبيحُ هو تَنْزِيهُ الرَّبِّ وَتَبْرِئَتُهُ مِنْ جَميعِ مَعاني الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ وهو الخُضوعُ في الغايَةِ. ولَيْسَ في الآيةِ وجوبُ السَّجْدَةِ لِمَنْ[3] تَلاها، أو سَمِعَها إنما فيها الإخبارُ عنِ الساجِدِينَ أنهُمْ يَسْجُدُونَ[4] غيرَ مُسْتَكْبِرينَ. وفي ذلكَ تَرغيبٌ في السُّجودِ. إلّا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، رُوِيَ أنهُ سَجَدَ، وسَجَدَ مَنْ مَعَهُ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][5] سَجدَ في ص. وفي بَعْضِ الأخبارِ عنِ ابْنِ عُمَرَ [أنهُ][6] قالَ: كان رسولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ القرآنَ في غَيرِ صلاةٍ، فَيَسْجُدُ، ونَسْجُدُ مَعَهُ.

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، [أنهُ قالَ][7]. كانَ رسولُ اللهِ ﷺ، قَرَأَ سورةَ النَّجْمِ، فَسَجَدَ فيها، ولم يَبْقَ معهُ أحدٌ إلّا سَجَدَ إلّا شَيخٌ كبيرٌ مِنْ قريشٍ، أخذ كَفّاً مِنْ جِصٍّ، فَرَفَعَ إلى جِبْهَتِهِ. فَلَقَدْ رأيتُهُ قُتِلَ كافراً.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه، أنهُ ذَكَرَ سجودَ القرآنِ، وعَدَّ، فقالَ: الأعراف والرعد والنحل وبَني إسرائيلَ ومريمَ والحج: سَجْدَةٌ واحدةٌ. والفرقان وطس وألم تنزيل وص وحم، وقال: ولَيْسَ في المُفَصَّلُ سُجودٌ.

وعنِ ابْنِ مسعودٍ [أنهُ][8] قالَ: في السورةِ يكونُ في آخِرِها السجدةُ نَحْوُ الأعرافِ والنَّجْمِ إنْ شِئْتُ فاسْجُدْ، ثم قُمْ، فاقْرَأْ، وإنْ شِئْتَ فارْكَعْ.

وعنِ ابْنِ مَسْعودٍ [أنهُ][9] كانَ يسجُدُ في الأعرافِ وفي بَنِي إسرائيلَ والنَّجْمِ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

واحْتَجَّ /١٩٥ ـ أ/ بَعْضُ مشايخنا أنَّ السجودَ على مَنْ تَلا آيَةَ السجدَةِ واجبٌ ما أجْمَعَ أهلُ العِلْمِ أنَّ على المُصَلِّي إذا تَلا الآيةَ، فيها السجدَةُ، أنْ يَسْجُدَ في صلاتِهِ. فلو كانَ السجودُ تَطَوُّعاً ما كانَ لأحدٍ أنْ يَزيدَ في صلاتِهِ ما لَيْسَ منها.

فدلَّ ذلكَ على أنَّ السجودَ واجبٌ في الصلاةِ، وإذا كانَ في الصلاةِ واجباً فهو على كُلِّ حالٍ واجبٌ.

ومِنَ الحُجَّةِ لنا أيضاً ما رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَرَأَ آياتٍ، فَسَجَدَ فيها، فكانَ السُّجودُ بها واجباً كما أنهُ لَمّا صَلَّى صلاةَ العيدِ كانَتْ واجِبَةً.

(١) في الأصل وم: ذكرنا. (٢) من م، في الأصل: الأشياء. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل: وم: سجدوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ اختُلِفَ فيه؛ قالَ بَعْضُهُمْ: الأنفالُ: هي المَغانِمُ التي يَغْنَمُها المُسْلِمُونَ مِنْ أهلِ الحَرْبِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: الأنفالُ هي الفُضُولُ عن حُقوقِ أصحابِ الغنائمِ.

فالسؤالُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

يَحْتَمِلُ أنهُمْ سألُوا عَنْ حِلِّها وحُرْمَتِها؛ لأنَّ الغنائِمَ كانَتْ لا تَحِلُّ في الابْتِداءِ. قِيلَ: إنهُمْ كانُوا يَغْنَمُونها، ويَجْمَعُونَها[1] في مَوضعٍ، فَتَجيءُ[2] نارٌ، فتَحْرِقُها. سألُوا عن حِلِّها وحُرْمَتِها، فقالَ: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي الحُكْمُ فيها للهِ يَجْعَلُها لِمَنْ يَشاءُ.

ويَحْتَمِلُ السؤالُ عنها عن قِسْمَتِها؛ وهو ما رُوِيَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ الناسَ كانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثلاثةَ أثلاثٍ: ثُلُثاً[3] في نَحْرِ العَدُوِّ وثُلُثاً[4] خَلْفَهُمْ رِدْءاً لَهُمْ وثُلُثاً[5] مَعَ رسولِ اللهِ يَحْرُسُونَهُ. فلمَّا فَتَحَ اللهُ عليهِمُ اختَلَفُوا في الغَنائِمِ، فقالَ الذينَ كانُوا في نَحْرِ العَدُوِّ: نَحْنُ أحَقُّ بالغَنائِمِ، نَحْنُ وُلِّينا القِتالَ. وقالَ الذينَ كانُوا رِدْءاً لَهُمْ: لَسْتُمْ بِأَوْلَى مِنَّا، وكُنَّا لَكُمْ رِدْءاً. وقالَ الذينَ أقامُوا مع رسولِ اللهِ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بها مِنَّا؛ كُنَّا نَحْنُ حَرَساً لِرسولِ اللهِ. فَتَنازَعُوا فيها إلى رسولِ اللهِ.

ونَزَلَ [قولُهُ تعالى][6] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وقالَ أبو أُمامَةَ الباهليُّ: سألْتُ عُبادةَ بْنَ الصامتِ عنِ الأنفالِ، قالَ: فينا نَزَلَتْ مَعْشَرَ أصحابِ بَدْرٍ حينَ اختَلَفْنا [في النَّفْلِ][7] وساءَتْ فيهِ أخلاقُنا، فانْتَزَعَهُ اللهُ مِنْ أيدينا، فَجَعَلَهُ إلى رسولِهِ، فَقَسَمَهُ على السَّواءِ[8]. ومجاهدٌ وعِكْرِمَةُ قالا: كانتِ الأنفالُ للهِ والرَّسولِ، فَنَسَخَها [قولُهُ تعالى][9]: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وكذلكَ رُوِيَ عن ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][10] قالَ: الأنفالُ المَغانِمُ؛ كانَتْ لِرسولِ اللهِ خالصةً لَيْسَ لأحدٍ فيها شَيْءٌ؛ ما أصابَ سَرايا المُسْلِمينَ مِنْ شَيْءٍ أتَوهُ بِهِ، فَمَنْ حَبَسَ منهُ إبرةً أو سِلْكاً فهو غُلُولٌ، فَسَأَلُوا رسولَ اللهِ أنْ يُعْطِيَهُمْ منها، فقالَ ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ لَيْسَ لَكُمْ فيها شَيْءٌ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تَكُونَ الأنفالُ هي فَضولُ المغانِمِ على [ما][11] قالَ بَعْضُهُمْ نَحْوَ ما رُوِيَ في الأخبارِ أنَّ منهُمْ مَنْ أخَذَ كُبَّةً، فقالَ: اجْعَلْها لي يا رسولَ اللهِ، وأخذَ الآخَرُ سَيفاً، وقالَ: اجْعَلْها لي، ونَحْوُ ذلكَ فكانُوا يَسْأَلُونَ رسولَ اللهِ ﷺ ذلكَ، فقالَ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سؤالُهُم عنِ التَّنْفيلِ أنْ يُنَفِّلَهُمُ الرسولُ بَعْدَ ما وَقَعَ في أيديهِمْ، أو بَعْدَ ما انْهَزَمَ الكُفّارُ، وأدْبَرَ العَدُوُّ. وإنما يجوزُ للإمامِ التَّنْفيلُ في حالِ إقبالِ الحربِ؛ وكذلكَ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ قالَ: النَّفْلُ ما لم يَلْتَقِ الزَّحْفانِ أوِ الصَّفانِ، فإذا الْتَقَيا فهو مَغْنَمٌ.

[رُوِيَ عنْ سَعْدِ بنِ أبي وقاصٍ أنهُ قالَ: نَزَلَتْ فِيَّ أربعُ آياتٍ... والثانيةُ: أني كنتُ أخذْتُ سيفاً أعْجَبَني، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ هَبْ لي هذا، فنزلَتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾...][12] [الدر المنثور ج٤/ ٤].

---

(١) في الأصل وم: ويجمعون. (٢) في الأصل وم: فجاءت. (٣) في الأصل وم: ثلث. (٤) في الأصل وم: ثلث. (٥) في الأصل وم: ثلث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: السؤال. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ورُوِي عن مصعب بن سعد قال: نزلت في أربع آيات.

ورُوِيَ عن مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ [عن أبيهِ سَعْدِ بنِ مالكٍ أنهُ قالَ: «أَصَبْتُ يومَ بدرٍ][1] سيفاً، فأتيتُ بهِ النَّبِيَّ ﷺ، فقُلْتُ: نَفِّلْنِيهِ، فقالَ: ضَعْهُ مِنْ حيثُ أخذْتَهُ، فنزَلَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. ثم قالَ سَعْدٌ: دَعاني رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: اذْهَبْ، فَخُذْ سَيْفَكَ» [الدر المنثور ج٤/ ٤].

فَدَلَّ حديثُ سَعْدٍ أنَّ النَّبِيَّ لم يُنَفِّلْ قَبْلَ الحربِ أحداً شَيْئاً منهُ ممَّا لا يَأخُذُهُ [في الحرب][2] لأنه لو كانَ نَفَّلَهُمْ لم يَمْنَعْ سَعْداً ﷺ السَّيْفَ الذي جاءَ به.

ويدلُّ على أنَّ النَّبِيَّ لم يَأْمُرْ في الغَنيمةِ بِشَيْءٍ حتى نَزَلَتْ آيةُ النَّفْلِ، فَرَدَّ اللهُ الأمْرَ في الغَنيمةِ إلى رسولِهِ، فأطْلَقَ لهُ رسُولُ اللهِ ﷺ لَمَّا رُدَّ [إليه][3] الأمْرُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ النَّبِيُّ [ﷺ][4] لم يُنَفِّلْ أحداً قَبْلَ الحَرْبِ شَيْئاً، ولكنَّهُ كانَ يُنَفِّلُ ممَّا يُؤتَى بهِ مَنْ يَشاءُ مِمَّنْ قَتَلَ بِغَيْرِ إيجابٍ مُتَقَدِّمٍ. يُبَيِّنُ ذلكَ قولُ سَعْدٍ: أَجُعِلَ كَمَنْ لا عَمَلَ له؟ وحديثُ عبادةَ؛ يُخْبِرُ أنَّ النَّبِيَّ نَفَّلَ ما يأخُذونَ مِنْ أهلِ الحَرْبِ قَبْلَ أنْ يأخُذُوهُ. وهذا مَوضِعُ الاخْتِلافِ بَيْنَ الحَديثَيْنِ.

والظاهِرُ مِنْ ذلك أنَّ الفِعْلَ قد كانَ وقَعَ في الغَنائِمِ؛ لأنَّ اللهَ قد سَمَّاها أنفالاً قَبْلَ أنْ يُحِلَّها. فلولا أنَّ النَّبِيَّ كانَ نَفَّلَهُمْ إياها قَبْلَ الحَرْبِ أو بَعْدَها لم يُسَمِّ اللهُ أنفالاً، واللهُ أعْلَمُ.

وفي حديثِ عُبادَةَ أنَّ قَوْلَهُ تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] ذَكَرَهُ بَعْدَ ذِكْرِ النَّفْلِ، وأنهُ حُكْمُ الناسخِ الثابتِ. وكذلكَ قولُ ابْنِ عباسٍ يَدُلُّ على ذلكَ، وقد أجْمَعَ أهلُ العِلْمِ على ما ذَكَرَهُ عُبادَةُ في آخرِ حديثِهِ، فقالُوا جميعاً: إنَّ الغَنيمَةَ يُخرَجُ خُمُسُها لِلأصنافِ الذينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ إلّا ما اخْتَلَفُوا فيهِ مِنْ سَهْمِ ذي القُرْبى، ثم تُقَسَّمُ أرْبَعةُ[5] الأخماسِ بَيْنَ أهلِ القِسْمَةِ. وجَعَلُوا للإمامِ أنْ يُنَفِّلَ السَّلَبَ وغَيْرَهُ، فيقولُ: مَنْ قَتَلَ قتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ؛ يُحَرِّضُ بذلك [على][6] المُقاتِلَةِ، ويُنَفِّلُ السَّرِيَّةَ، يُخرِجُ مِنَ العَسْكَرِ شيئاً بَعْدَ الخُمسِ.

ومِمَّا أجْمَعُوا عليه مِنْ قِسْمَةِ الغنيمةِ أخماساً نُزولُ القرآنِ؛ وقد رُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ [أنَّهُ][7] قالَ: «إنَّ الغَنيمةَ لم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلَنا، وقد أُحِلَّتْ لنا» [مسلم ١٧٤٧].

ورُوِيَ عنْ أبي هُرَيْرَةَ [أنهُ][8] قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ «لم تَحِلَّ الغَنائِمُ لِقومٍ سُودِ الرُّؤوسِ قَبْلَكُمْ، كانَتْ نارٌ تَنْزِلُ مِنَ السماءِ فتأكُلُها» [الترمذي ٣٠٨٥]. فلمَّا كانَ يومُ بدرٍ أسْرَعَ الناسُ في الغنائِمِ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٨و٦٩] ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ عَمَّنْ لهُ الأنفالُ، فقالَ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾

والثاني: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ على إسقاط ﴿عَنِ﴾ وقد كانُوا يسألُونَكَ الأنفالَ والمَغانِمَ.

والثالثُ: يَسْألُ كلٌّ عنِ النَّفْلِ[9] الذي جُعِلَ لهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أخْذِ الأموالِ، ولكنْ في الأنفالِ وفي غَيرِها ﴿فَٱتَّقُوا۟﴾ مَعْصِيةَ اللهِ ومُخالَفَتَهُ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمَرَ بإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ لِما ذُكِرَ مِنْ عظيمِ مِنَّتِهِ ونِعَمِهِ التي أنْعَمَ عليهِمْ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أخْبَرَ أنهُمْ كانُوا أعداءً، فألَّفَ بينَ قُلوبِهِمْ[10]. وذلكَ مِنْ عظيمِ نِعَمِهِ عليهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: يرى أنه يوم بدر أصبت. (٢) ساقطة في الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: صلى، ساقطة من م.
(٥) في الأصل وم: الأربع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: نفل له. (٩) في الأصل وم: نفل له.
(١٠) في الأصل وم: قلوبكم.

فأمَرَ ههنا بإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ ليكونُوا على النِّعْمةِ التي أنْعَمَها عليهِمْ مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطِيعُوا اللهَ في أمرِهِ ونَهْيِهِ، ورسولَهُ في آدابِهِ وسُنَّتِهِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أو أطيعُوا اللهَ في ما دَعاكُمْ إليه، ورغَّبَكُمْ فيه، ورسولَهُ في ما بَيَّنَ لكُمْ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني مُصَدِّقينَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ/ ١٩٥ ـ ب/ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

[أحَدُها][1]: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ ظَهَرَ صدقُهُمْ عندَكُمْ بما ذَكَرَ مِنَ الأفعالِ مِنْ وَجَلِ القَلْبِ والخَشْيَةِ والثباتِ واليَقِينِ على ما كانَ عليهِ، لَيْسَ كالمنافقينَ الذينَ كانُوا مُرْتابِينَ في إيمانِهِمْ كما وَصَفَهُمْ في آيَةٍ أُخْرَى [في قولِهِ][2]: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢] وكانُوا إذا أنْفَقُوا أنْفَقُوا كارِهِينَ، وكانُوا لا يذكُرُونَ اللهَ إلّا قليلاً مُراآةً للناسِ.

وأمّا المؤمنونَ فَهُمُ الذينَ يقومونَ بوفاءِ ذلكَ كُلِّهِ حَقيقةً، فيَظْهَرُ صِدْقُهُمْ بذلكَ، وهو ما وَصَفَهُمْ في آيَةٍ أُخْرَى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

والثاني[3]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الاعْتِقادِ خاصَّةً، لَيْسَ على نَفْسِ العَمَلِ؛ كأنهُ قالَ: إنما المؤمِنُونَ الذينَ اعْتَقَدُوا في إيمانِهِمْ ما ذَكَرَ مِنْ وَجَلِ القُلُوبِ والخَشْيَةِ عندَ ارْتِكابِ المَعْصِيةِ والتَّقْصِيرِ على القِيامِ بما عليهِ. وما يَرْتَكِبُ المُؤْمِنُ مِنَ المَعاصي إنما يَرتَكِبُ عنْ جَهالةٍ، ثم يَتوبُ عنْ قريبٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] يَرْتَكِبُ ذلكَ إمَّا لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ، وإمّا يَعْتَقِدُ التوبةَ مِنْ بَعْدِهِ، وإمّا يرجُو رحمةَ اللهِ مِنْ فَضْلِهِ في العَفْوِ عنْ ذلك.

فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ اعتَقَدُوا إيمانَهُمْ ما ذَكَرَ مِنَ الأفعالِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هو الاعتقادُ والقَبُولُ لهُ أنهُمْ إذا اعْتَقَدُوا ذلكَ، وقَبِلُوا يُخَلَّى سَبِيلُهُمْ. وإنْ لم يُقِيمُوا الصلاةَ وما ذَكَرَ فَعَلَى ذلكَ الأفعالُ [وهو كقولِهِ تعالى][4]: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ [التوبة: ٥] يَحْتَمِلُ ذلكَ.

والثالثُ[5]: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ فَعَلو هذا، وأتَوا بذلكَ كلِّهِ. لكنهمْ أجْمَعوا أنَّ مَنْ آمَنَ بقلبِهِ، وصَدَّقَ كانَ مؤمناً، وإنْ لم يأتِ بغيرِهِ مِنَ الأفعالِ [مِثْلُ مَنْ][6] يؤمِنُ، ثم يُخْتَرَمُ، ويموتُ مِنْ ساعتِهِ، ماتَ مؤمناً. فدلَّ أنهُ لم يُخَرِّجْ ذلكَ على الشرطِ لما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ.

أحَدُها: يُخْبِرُ أنَّ المؤمنينَ هُمْ[7] على وَصْفِ ما ذَكَرَ.

والثاني[8] يقولُ: إنَّ المؤمنينَ الذينَ يَنْبغي أنْ يكونوا ما ذَكَرَ.

والثالث[9] يقولُ: إنما المؤمنونَ المختارونَ ما ذَكَرَ جَعَلَ اللهُ تعالى ما ذَكَرَ [مِنْ][10] وَجَلِ القَلْبِ وغَيرِهِ عَلَماً بينَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ في الظاهرِ والباطنِ وبَيْنَ الذينَ أظْهَرُوا الإيمانَ، وأضمَرُوا الكُفْرَ والخِلافَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ في آيةٍ أخْرَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا﴾ [النور: ٦٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ءَايَٰتُهُ﴾ حُجَجُهُ وبَراهينُهُ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ذلك زادهُمْ[11] ثباتاً وقُوَّةً على ما كانُوا.

وأما المنافقونَ فإنَّ الآياتِ التي نَزَلَتْ كانَتْ [تَزيدُهُمْ][12] رِجْساً وبُعْداً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث قال. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الاصل وم: والرابع. (٦) في الأصل وم: نحوان. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الاصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: يزداد لهم. (١٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، في الأصل وم: تزداد لهم بها.

فإنَّ [المؤمنينَ يَزيدُهُمْ][١] ذلك ثباتاً وقُوَّةً. أو ذَكَرَ الزِّيادةَ لأنَّ[٢] للإيمانِ حُكْمَ التَّجدُّدِ والحُدوثِ في كُلِّ وقتٍ وساعةٍ. فإذا كانَ لَهُ حُكْمُ الحُدوثِ والتَّجدُّدِ فهو زيادةٌ على ما كانَ. فإنْ شِئْتَ سَمَّيْتَها ثَباتاً.

وقالَ أبو حَنيفةَ، رحمَهُ اللهُ: يزيدُ الإيمانُ بالتفسيرِ على الإيمانِ بالجملةِ. فإذا فسَّروا له[٣]، وقالُوا: فلانٌ رسولٌ نَبيٌّ ازدادَ بذلكَ لَهُ إيماناً، وإنْ كانَ قد آمَنَ بهِ بالجملةِ. وكذلكَ الإيمانُ بجميعِ الكُتُبِ والأمرِ، وإنْ كُنَّا نُؤمِنُ بالجُملَةِ أنَّ ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فإذا عَرَفَ ذلكَ الأمْرَ زادَ[٤] لَهُ إيماناً في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، لأنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وأنَّ ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فقد أتى بِعُقْدَةِ الإيمانِ. فإذا جاءَ بالتَّفْسيرِ واحداً بَعْدَ واحدٍ ازدادَ لهُ إيمانُهُ بالتَّفْسيرِ على إيمانِهِ بالجملةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي على ربِّهم يتَّكِلُونَ[٥]، ويَعْتَقِدُونَ في كُلِّ أُمورِهِمْ؛ لا يتَّكِلُونَ[٦] على غَيْرِهِ. إنما يَتَوكَّلُونَ على اللهِ. ولَيْسُوا[٧] كالمُنافِقِينَ هُمْ إنما يَتَوَكَّلُونَ على النِّعَمِ التي أُعْطُوا كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١] ونَحْوَ ذلكَ.

وأمَّا المؤمنُ فإنَّهُ في جميعِ أحوالِهِ يَتَوكَّلُ على اللهِ، ومنهُ يَخافُ، وإنْ كانَ يَصِلُ ذلكَ إليهِ، ويَجْري على يَدَيْ غَيْرِهِ. فهو في الحقيقةِ مِنَ اللهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ بِحَقِّ اللهِ الذي عليهِمْ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

[أحدُهُما][٨]: يَحْتَمِلُ أولئكَ الذينَ حَقَّقُوا إيمانَهُمْ.

والثاني: [يَحْتَمِلُ][٩] أولئكَ المؤمنينَ[١٠] الذينَ وَعَدَ لَهُمْ وَعْداً حَقًّا؛ وهو ما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الدَّرَجاتِ والمَغْفِرَةِ. حَقٌّ لَهُمْ ذلكَ الوَعْدُ، واللهُ أعْلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][١١]: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ قيلَ: فَضائلُ عندَ رَبِّهِمْ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي يَسْتُرُ عليهم ذنوبَهُمُ التي كانتْ لهم في الدنيا [ويُنْسِيهِمْ إيّاها][١٢]؛ لأنَّ ذِكْرَ ذلكَ يُنَغِّصُ عليهِمْ نِعَمَهُمُ التي أنْعَمَ عليهِمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قالَ[١٣] الحَسَنُ: ورزقٌ يُكْرَمُ بِهِ أهلُهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ لم يَخْرجْ لهذا الحرفِ جوابٌ في الظاهِرِ، لأنَّ جَوابَهُ أنْ يقولَ ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ يَفْعَلُ بكَ كذا.

ثم أهلُ التأويلِ اختَلَفُوا في جَوابِهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يقولُ تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ كما كَرِهُوا الخروجَ، وجادَلُوكَ في قِسْمَةِ الأنفالِ جادَلُوكَ في أمرِ الغَيبِ[١٤].

ومنهُم مَنْ يقولُ: جوابُهُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] يقولُ: كما أجَبْتُمُ اللهَ في الخروجِ للقتالِ على غَيْرِ تدبيرٍ مِنْكُمْ في ذلكَ ولا نَظَرٍ. فَعَلى ذلك يُجيبُكُمْ في النعاسِ ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ وإنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ والتَّطْهيرِ بِهِ وتَثْبيتِ الأقدامِ على غَيْرِ عِلْمٍ منكُمْ ولا تَدْبيرٍ.

ومنهم مَنْ يقولُ: [جوابُهُ في][١٥] قولِهِ تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ غَيرَ مُتَاهِّبينَ لِلقتالِ ولا مُسْتَعِدِّينَ له كذلك يَعِدُكُمُ النَّصْرَ والظَّفَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: المؤمنون يزيد لهم. (٢) من م، في الأصل: لا. (٣) في الأصل وم: لهم. (٤) في الأصل وم: ازداد. (٥) في الأصل وم: يتقون.
(٦) في الأصل وم: يكلون. (٧) في الأصل وم: وليس. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: المؤمنون.
(١١) ساقطة في الأصل وم. (١٢) في الأصل وم ينسبونها. (١٣) في الأصل وم: قيل. (١٤) في الأصل وم: الغير. (١٥) ساقطة في الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لِلّهِ عليهِمْ مِنَ الأمْرِ بالخروجِ والقِتالِ، ويَحْتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالوَعْدِ الذي وَعَدَ لَهُمُ النصرَ والظَّفَرَ، وقالَ بَعْضُ أهلِ التَّأْويلِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالقرآنِ. ولَئِنْ[1] كانَ فهو ما ذَكَرْنا بالأمرِ الذي يأمُرُ القرآنُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: يَحْتَمِلُ ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الظاهِرِ، وهُمُ المُنافِقُونَ كَرِهُوا الخُروجَ لِلْقِتالِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المؤمنونَ في الحَقيقَةِ كَرِهُوا الخُروجَ لِلْقِتالِ كَراهةَ الطَّبْعِ لا كَراهةَ الاخْتِيارِ لَمّا أُمِرُوا بالقِتالِ [غيرَ مُتأهِّبينَ لِلْقِتالِ][2] ولا مُسْتَعِدِّينَ، فَكَرِهَتْ أنْفُسُهُمْ ذلكَ كَراهةَ الطَّبْعِ لِما لم يكنْ مَعَهُمْ أسبابُ القتالِ لا لأنهُمْ[3] كَرِهُوا أمْرَ اللهِ كَراهةَ الاِخْتيارِ.

وفي هذه الآيةِ دلالةُ أنَّ الأمْرَ قد يكونُ في الشَّيْءِ، وإنْ لم يُعْلَمْ وقتُ الأمرِ في ما يُؤمَرُ. وفيه دليلُ جوازِ تأخُّرِ البَيانِ لأنهُمْ أُمِرُوا بالخُروجِ لِلْقِتالِ، ولم يَعْلَمُوا وقتَ الخروجِ على ماذا يُؤمَرُونَ؟

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾ قيلَ: في القِتالِ. وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فِي ٱلْحَقِّ﴾ الذي أُمِرْتَ بهِ أنْ تَسيرَ إلى القتالِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فِي ٱلْحَقِّ﴾ الوعدَ الذي وَعَدَ لَهُمْ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ لهمُ الوَعْدُ الذي وَعَدَ لهمُ اللهُ ﷺ بالنَّصْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ فإنْ كانتِ/ ١٩٦ ـ أ/ الآيةُ في المنافقينَ فهو ظاهرٌ، وهُمْ كذلكَ وُصِفُوا بالكَسَلِ في جميعِ الخَيراتِ والطاعاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وإنْ كانَتْ[4] في المؤمنينَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ فهو لِما كانُوا غيرَ مُسْتَعِدِّينَ لِلْقِتالِ ولا مُتأهِّبينَ لهُ كانُوا كارِهينَ لِذلكَ[5] كَراهةَ الطَّبْعِ لا كَراهَةَ الاِخْتيارِ.

وقالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أجابُوا ربَّهُمْ، وإن كانوا كارهينَ لِلْخروجِ مِنْ شِدةِ الخَوْفِ، وإنْ كانُوا مِنَ الخَوفِ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] فأجابَ اللهُ تعالى لَهُمْ بالنَّصرِ والظَّفَرِ، وأمَّنَهُمْ مِنْ ذلكَ الخَوْفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ عِيرَ قُرَيْشٍ حينَ أقْبَلَتْ مِنَ الشامِ خَرَجَ أصحابُ رسولِ اللهِ نَحوَهُمْ على ما يُخْرَجُ إلى العِيرِ غيرَ مُتأهِّبينَ [للحربِ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾][6] وخَرَجَتْ قُرَيشٌ مِنْ مكةَ تُغِيثُ عِيرَها، فهي الطائفةُ الأخرَى. وَعَدَ لَهُمْ أنَّ إحْدَى الطائِفتينِ لَهُمْ إمّا العِيرُ وإمّا العَسْكَرُ أنَّهُمْ يُنْصَرُونَ عليهِمْ ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ أي لَيْسَ فيها حَرْبٌ، ثم ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ العِيرُ، وهي أهْوَنُ شَوْكَةٍ وأعظَمُ غنيمةٍ كانُوا يَوَدُّونَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ لِما لم تكونُوا مُعِدِّينَ لِلْقِتالِ والحَرْبِ. وكانَ بِهِمْ ضَعْفٌ، وفي أولئكَ قُوَّةٌ وعِدَّةٌ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ[7] تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ، يُريدُ أنْ يُظْهِرَ الحَقَّ بآيَةٍ منهُ مِنْ غَيْرِ وجودِ الأسبابِ منهُمْ، وهو كما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] أخْبَرَ أنَّ في غَلَبَةِ أولئِكَ مَعَ ضَعْفِ أبدانِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وقُصورِ أسبابِ الحَرْبِ مِنَ السِّلاحِ والعُدَّةِ وغيرِ ذلكَ وقُوَّةِ أبدانِ أولئكَ وكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وعُدَّتِهِمْ وتأهُّبِهِمْ واسْتِعْدادِهِمْ لذلكَ آيةٌ عظيمةٌ.

---

(١) في الأصل وم: ولكن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: انهم. (٤) في الأصل وم: كان. (٥) في الأصل وم: كذلك. (٦) في الأصل وم: ﴿انها لكم﴾ ذكر في بعض قصة للحرب. (٧) في الأصل وم: وقال.

فأراد أنْ يُظهِرَ الحقَّ بالآيةِ لِيَعلَمَ كُلُّ منهُمْ أنهُ إنما كانَ ذلكَ باللهِ لا بِهِمْ. وهو ما قالَ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] أخبَرَ أنهُ كانَ باللهِ ذلكَ لا بِهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بِعِلْمِهِ وأمرِهِ. ويَحتَمِلُ ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بِحُجَجِهِ أي يُوجِبُ، ويُظْهِرُ بِحُجَجِهِ وبَراهِينِهِ. ويَحتَمِلُ ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ البِشاراتِ التي بَشَّرَ بها المؤمنينَ بالنَّصرِ والظَّفَرِ والعداوةِ التي كانتْ[1] منهُمْ. ويَحتَمِلُ ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ ملائكتَهُ الذينَ بَعَثَهُمْ مَدَداً لَهُمْ يومَ بَدْرٍ على ما ذُكِرَ، فأضافَهُمْ إليهِ تعظيماً لَهُمْ وإجلالاً على ما سَمَّى عيسى رُوحَ اللهِ وكَلِمَتَهُ[2] ومُوسى كليمَ اللهِ[3] تعظيماً لهمْ وإجلالاً. فَعَلَى ذلكَ [هذا][4]. واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ يَحتَمِلُ آثارَ الكافرِينَ؛ يُقتَلُونَ جميعاً، ويُستأصَلُونَ حتى لا يَبقَى لَهُمْ أثَرٌ. ويَحتَمِلُ يَقطَعُ ما أدبَرَهُمْ حتى لا يأتيَهُمْ مَدَدٌ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي لِيُظهِرَ الحَقَّ ويُوجِبَ. يُقالُ: حَقَّ كذا أي وَجَبَ. ويَحتَمِلُ لِيُظهِرَ حقَّ الحَقِّ، ويُظهِرَ بُطلانَ الباطِلِ، أو أنْ يُقالَ: قولُهُ تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ ما ذَكَرْنا: لِيُوجِبَ[6] الحَقَّ، ويُذهِبَ الباطِلَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] أي ذهبَ. فَعَلَى ذلك هذا؛ يَجيءُ الحَقُّ، ويَجبُ، ويَذهَبُ الباطِلُ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

فإنْ قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] كيف خافُوا كُلَّ هذا الخوفِ حتى وصَفَهُمْ بِشِدَّةِ الخوفِ كأنما يُساقُونَ إلى [الموتِ][7] وقد وَعَدَ لَهُمُ النَّصرَ والظَّفَرَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾؟ [الأنفال: ٧] كيف استَغاثُوا ربَّهُمْ في ذلكَ، وقد سَبَقَ منهُ لَهُمُ الوَعْدُ بالظَّفَرِ والنَّصرِ؟ [قِيلَ: يُمكِنُ أنْ][8] تُصرَفَ الآيةُ إلى المُنافِقِينَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

غيرَ أنهُ ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ لم يكنْ بِبَدْرٍ مُنافِقٌ، بل كانُوا كُلُّهُمْ مؤمنِينَ حتى افتَخَرَ بذلكَ مَنْ شَهِدَ بَدْراً، وإنْ كانَ في المؤمنِينَ فهو ما ذَكَرْنا لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وضَعْفِهِمْ وكَثْرَةِ أولئكَ وعُدَّتِهِمْ؛ كانُوا كما وَصَفَ، واللهُ أعلَمُ.

لكنَّ الآيةَ تَحتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: أمْكَنَ أنْ يكونَ الوَعْدُ لَهُمْ بالنَّصرِ بُيِّنَ لِرسولِهِ، ولم يُبَيَّنْ لَهُمْ.

[والثاني][9]: فألْقَى في قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ والخَوْفَ لِما لم يُبَيِّنْ لَهُمُ الوقتَ متى يكونُ ذلكَ؟ ألا تَرَى أنهُمْ أُمِرُوا بالخروجِ، ولا يَدْرُونَ إلى ماذا يُؤمَرُونَ؟

والثالثُ: يَجوزُ أيضاً أنْ بَيَّنَ لَهُمُ الوعْدَ بالنَّصرِ، وبَلَّغَهُمْ ذلكَ غيرَ أنهُمْ خافُوا ذلكَ، وكَرِهُوا خوفَ طَبْعٍ وكَراهةَ النَّفْسِ لا كَراهَةَ الاختيارِ. وجائزٌ الخوفُ في مِثْلِ هذا وكَراهةُ الطَّبْعِ، وإنْ كانُوا على يَقينٍ بالنَّصرِ والظَّفَرِ وتَحقيقِ ذلكَ لَهُمْ.

والرابعُ: يجوزُ أنْ يكونَ الوَعْدُ لَهُمْ بالنَّصرِ والظَّفَرِ بالتَّضرُّعِ إليه والاستِغاثَةِ بِهِ على ما يكونُ في الدَّعَواتِ يكونُ شقاوَةَ بَعْضٍ ودخولَهُ النارَ بمعاصٍ يَرْتَكِبُها، وسَعادةَ آخَرَ ودخولَهُ الجَنَّةَ بِخَيراتٍ يأتي بها، فيَصيرُ مِنْ أهْلِها.

والخامسُ: جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى لَهُمْ مِحْنَةً، يَمْتَحِنُهُمْ بها كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٥٥] يَحتَمِلُ مَعْنَى الآيةِ الوجوهَ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ الآيةَ [الأنفال: ٦] وقالَ بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٤] قالُوا: قولُهُ تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ

---

(١) في الأصل وم: كان (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يجب. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: وقد يمكن، في م: وقد يمكن أن. (٩) ساقطة من الأصل وم.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ألفانِ، وقولُهُ تعالى ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] فيكونُ ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ومنهُم مَن يقولُ: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ كانَ في أُحدٍ؛ إذْ ذَكَرَ على إثْرِ قصةِ أُحُدٍ. فإنْ كانَ ما ذَكَرُوا، فكانَ قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ إمَّا في إردافِ الكَفَرَةِ، وهو المُتَتابِعُ تابَعَ أهلَ بَدْرِ المُشرِكينَ، وهم مُنهَزِمُونَ، أو أنْ يكونَ الإردافُ الإمدادَ، فيكونُ ألفَيْنِ[1].

وقال بَعْضُ أهلِ التَّأْويلِ: إنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٦] هو رسُولُ اللهِ؛ وذلكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ [لمَّا][2] رأى كَثْرَةَ المُشرِكينَ ببَدْرٍ عَلِمَ أنهُ لا قُوَّةَ لَهُمْ إلَّا باللهِ، فَدَعَا ربَّهُ، وتَضَرَّعَ [ولكنَّ قولَهُمْ][3] عِندَنا، واللهُ أعلَمُ، قولُ[4] المؤمنينَ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾؟ [آل عمران: ١٢٤] بكذا، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. وليسَ إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى أنَّ فيهِ البِشارةَ لَهُمْ بالنَّصْرِ والطُّمَأنينةَ لِقُلوبِهِمْ وإنباءَ أنَّ حَقيقَةَ النَّصرِ إنما تكونُ باللهِ لا بأحَدٍ سِوَاهُ.

الآية ١٠ وذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يُذِلُّهُ شيءٌ، ولا يُعْجِزُهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ؛ لا يأمُرُ بشَيْءٍ، ولا يَنْهَى عنْ شَيْءٍ إلَّا وفيهِ حِكْمَةٌ.

وفائدةُ ما ذَكَرَ مِنْ بَعْثِ مَدَدِ ألفٍ وثلاثةِ آلافٍ وما ذَكَرَ لِطُمَأنينةِ قلوبِ أولئكَ المؤمنينَ وإلَّا فَمَلَكٌ[5] واحدٌ كافٍ لَهُمْ، وإنْ كَثُرُوا لأنهُ يراهُمْ، ولا يَرَونَهُ. وإهلاكُ مِثْلِهِ سَهْلٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ذَكَرَ النُّعاسَ بَعْدَ شِدَّةِ خوفِهِمْ، والنُّعاسُ لا يكونُ مِمَّنْ اشْتَدَّ بِهِ الخَوْفُ، ولا يَغْشاهُ إلَّا بَعْدَ الأمْنِ. فَذِكْرُ لُطْفِهِ ومِنَّتِهِ الأمْنَ بَعْدَ شِدَّةِ الخوفِ ذِكْرُ عظيمِ ما مَنَّ عليهِمْ مِنَ الأمْنِ لَمَّا ذَكَرَ مِنْ إلقاءِ النُّعاسِ عليهِمْ. والنُّعاسُ إنما يكونُ بَعْدَ الأمْنِ بَعْدَ ما كانَ مِنْ حالِهِمْ ما ذَكَرَ حينَ[6] قالَ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ المُشْرِكينَ سَبَقُوا، فأخَذُوا الماءَ، فَبَقِيَ المُسْلِمُونَ في رَمْلٍ، لا تَثْبُتُ أقدامُهُمْ، عِطاشاً[7]، فَوَسْوَسَ إليهِمُ الشيطانُ أنهُمْ لو كانُوا على حَقٍّ ما بُلُوا بِمِثْلِ ذلكَ في رَمْلٍ، لا تَثْبُتُ أقدامُهُمْ، وعَطَشٍ[8]. فأبْدَلَ اللهُ تعالى مكانَ الخَوفِ أمْناً يأمَنُونَ بِهِ، وأنْزَلَ عليهِمْ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ويَشْرَبُوا[9]/ ١٩٦ ـ ب/ ويَشُدَّ بِهِ الرَّمْلَ، فَتَثْبُتَ أقدامُهُمْ.

فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

قالَ أهلُ التَّأويلِ: وَسْوَسَةُ الشيطانِ التي وَسْوَسَ إليهِمْ. وقيلَ: الرِّجْزُ الإثْمُ، ثم أذْهَبَ[10] ذلكَ عنهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] أي[11] فِسقاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، على المُبالَغَةِ؛ أخْبَرَ أنهُ أنْزَلَ مِنَ السماءِ ما فَضَلَ عنْ حوائِجِهِمْ حتى وجَدُوا ما يُطَهِّروا أنْفُسَهُمْ وأبدانَهُمْ، وأذْهَبَ[12] عنهُمْ رِجْزَ الشيطانِ. ذَكَرَ السَّبَبَ الذي بِهِ يَذْهَبُ الرِّجْزُ؛ لأنَّ الرِّجْزَ هو العذابُ. فَذَكَرَ الرِّجْزَ، والمُرادُ منهُ سَبَبُ الرِّجْزِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي يَشُدُّها ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ يَحْتَمِلُ حقيقةَ تَثْبيتِ الأقدامِ، ويَحْتَمِلُ الثَّباتَ على ما هُمْ عليهِ. والرَّبْطُ هو الشَّدُّ لِشَيْءٍ. فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي يَشُدُّها حتى لا يُزالُ أحَدٌ عمَّا هو فيهِ، ولا يَزيغُ عنْ ذلكَ. وإنِ ابْتَلاهُ اللهُ تعالى بأنواعِ الشدائدِ والبَلايا.

---

(١) في الأصل وم: ألفان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: ذلك أن النبي ﷺ قولهم، في م: ذلك قولهم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أعني. (٥) في الأصل وم: ملك. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: عطشا. (٨) في الأصل وم: عطشى. (٩) في الأصل: ويشربون. (١٠) في الأصل وم: ذهب. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: وذهب.

ذَكَرَ في التَّوحيدِ والإيمانِ الرَّبْطَ والتَّثْبِيتَ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقولِهِ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١] وقولِهِ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤]. وذَكَرَ في الشِّرْكِ والكُفرِ الطَّبْعَ والخَتْمَ والقَفْلَ ونَحْوَهُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، عُقوبةٌ لَهُمْ لِما اختارُوا ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قِيلَ: وَسْوَسَةُ الشيطانِ، وهو ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ المسلمينَ أصابَهُمْ ضَعفٌ شديدٌ، وألقَى الشيطانُ في قُلوبِهِمُ القُنُوطَ، [يُوَسْوِسُ لَهُمْ][1]، ويقولُ لَهُمْ: تَزْعُمونَ أنكُمْ أولياءُ اللهِ، وفيكُمْ رسولُهُ وقد غَلَبَكُمُ المُشْرِكُونَ على الماءِ، وأنتُمْ تُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ، فأمطَرَ اللهُ عليهِمْ مطراً شديداً، فَشَرِبَ المُسْلِمُونَ، وتَطَهَّرُوا، وأذْهَبَ عنهُمْ رِجزَ الشيطانِ، ونَشَفَ الرَّمْلُ؛ حينَ أصابَهُ المَطرُ مَشَى الناسُ عليهِ والدوابُّ، فَسارُوا إلى القومِ، وأمَدَّ اللهُ ﷺ نبيَّهُ بألفٍ من الملائكةِ بقولِهِ: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

الآية ١٢ ثم قالَ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الوَحْيُ كانَ يُسَمَّى وَحياً لِسُرْعَةِ قَذْفِهِ في القلوبِ وَوُقوعِهِ فيها. ولِذلكَ سَمَّى، واللهُ أعْلَمُ، وَساوِسَ الشيطانِ وَحياً بقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي يَقْذِفُونَ في قُلوبِهِمْ، ويَدْعُونَ إلى أشياءَ مِنْ غَيرِ أن عَلِمُوا بذلكَ أنهُ مِمَّنْ جاءَ ذلكَ؟ وما سَبَبُ ذلكَ؟ لِسُرْعَةِ قَذْفِهِ وَوُقُوعِهِ في القُلوبِ. وكذلكَ سَمَّى الإلهامَ وَحياً لِسُرْعَةِ وقوعِهِ. قالَ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقيلَ: هو الإلهامُ؛ أي أَلْهَمَ النَّحلَ ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] وقال ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١] أخبرَ [أنْ ليسَ][2] لهُ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ وهو ما أَلْهَمَهُ سَمَّى وَحياً لِسُرْعَةِ وُقوعِهِ في القَلْبِ وقَذْفِهِ على غَيرِ عِلْمٍ منهُمْ أنهُ مِنْ أينَ كانَ؟ ومِمَّ كانَ؟

وفيه دِلالةٌ أنَّ غَيرَهُ هو الذي أخطَرَ ذلكَ في القلوبِ، وقَذَفَ فيها، لا أنهُ يُحْدِثُ بِنَفْسِهِ على غَيرِ إخطارِ أحدٍ ولا قذفِهِ. فإنْ كانَ ما قَذَفَ فيهِ خَيراً فهو مِنَ المَلَكِ، وإنْ كانَ شَرًّا فهو مِنْ قَذْفِ الشيطانِ وَوَسْوَسَتِهِ، ففيهِ دليلُ المَلَكِ والشيطانِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ قِيلَ: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في النَّصْرِ والمَعُونةِ ودَفْعِ العَدُوِّ عنكُمْ. أو يقولُ: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في التوفيقِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي أخبِرُوا[3] المؤمنينَ ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ لِما ذَكَرْنا مِنَ النَّصْرِ والمَعُونةِ والدَّفْعِ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أمَرَ ملائكتَهُ أن يُثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا بالنَّصْرِ والأمْنِ بَعْدَ ما كانُوا خائفِينَ [فَشِلاً جُبَناءَ][4]؛ لمَّا أجابُوا ربَّهُمْ مَعَ ضَعْفِ أبدانِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ أبدَلَهُمْ[5] اللهُ مَكانَ الخَوفِ لهمْ أمناً ومَكانَ الضَّعْفِ القُوَّةَ والنَّصْرَ ومَكانَ الذُّلِّ العِزَّ، وأبْدَلَ المُشْرِكِينَ مَكانَ الأمْنِ لهمْ خَوفاً ومكانَ العِزِّ الذُّلَّ ومَكانَ الكَثْرَةِ الضَّعْفَ والفَشَلَ. فذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، [مَعْنَى قولِهِ][6]: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ وقولِهِ ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وجائزٌ أنْ يكونَ نَفْسُ نُزولِ الملائكةِ تَثْبِيتَهُمْ؛ لأنهُمْ سَبَبُ تَثْبِيتِهِمْ، أو يُثَبِّتُهُمْ مِنْ غيرِ أنْ عَلِمَ المؤمنونَ بهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ إذا ظَفِرُوا بِهِمْ، وَوَقَعُوا في أيديهِمْ، فَعِنْدَ ذلكَ يُضْرَبُ فَوقَ الأعناقِ، وهو الفَصْلُ الذي يُبِينُ الرأسَ بالضَّرْبِ لِما نَهَى عنِ المَثْلَةِ. وفي الضَّرْبِ في غَيرِ ذلكَ مَثْلَةٌ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي اضرِبُوا الأعناقَ وما فَوقَ الأعناقِ ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أي اضرِبوا على ما تَهَيَّأ لكُمْ مِنَ الأطرافِ وغَيرِها. وأمَّا قولُهُ ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾][7] في الحربِ لأنهُ لا سَبيلَ في الحَرْبِ إلا[8] أنْ يُضْرَبَ ضَرْبٌ[9] لا يَكُونُ مَثْلَةً. فكأنهُ قالَ: فاضرِبُوا فوقَ الأعناقِ، إذا قَدَرْتُمْ عليهِمْ، وَوَقَعُوا في أيديكُمْ ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ كيفَ ما تَقْدِرُونَ وحَيْثُ ما تَقْدِرُونَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يوسوهم. (٢) في الأصل وم: الناس. (٣) في الأصل وم: أخبر. (٤) في الأصل وم: فشلين جبنين. (٥) في الأصل وم: فأبدلهم. (٦) في الأصل: قوله، ساقطة من م. (٧) من م، ساقطة في الأصل. (٨) في الأصل وم: إلى. (٩) في الأصل وم: ضرباً.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَعْني، واللهُ أعْلَمُ، ذلكَ الضَّرْبَ والقَتْلَ ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ﴾ أي حارَبُوا اللهَ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ والمُشاقَّةُ الخلافُ؛ خالَفُوا اللهَ ورسولَهُ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في الآخِرَة.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلكُمُ العقابُ والعذابُ ﴿فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بالخلافِ لِلَّهِ ورسولِهِ والمُحارَبَةِ معهُمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ كانَ أوّلَ الأمْرِ بالقِتالِ؛ وفرضُهُ كانَ بَذْلَ الأنفسِ لِلْهلاكِ؛ لأنهُ ذَكَرَ الزَّحفَ، والزَّحفُ هو الجماعةُ [يزحَفُونَ إلى][1] العَدُوِّ الذي لا يَجِدُ. ولَيْسَ لِلواحِدِ القيامُ للجماعةِ، فكانَ فَرْضُ القتالِ بَذْلَ[2] الأنفسِ لِلْقتلِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] ولَيسَ في وُسْعِ الواحِدِ القِيامُ لِعَشَرَةٍ، إذا أُحيطَ بِهِ.

ويجوزُ أنْ يُفرَضَ بَذْلُ الأنفُسِ لِلْقتالِ كقولِهِ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] أخبَرَ أنهُ لو أمَرَ بذلكَ امْتِحاناً منهُ لَهُمْ، فإنِ احتَمَلَ ما ذَكَرْنا، كانَ قولُهُ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] هو على التَّحقيقِ إذْ إلى ذلك يُساقُونَ.

ويَحْتَمِلُ وجْهاً آخَرَ، وهو أنَّ اللهَ ﷻ أمَرَ بذلكَ لِيكونَ آيةً، ويَعْرِفَ كُلُّ أحدٍ أنهُ قامَ باللهِ لا بِقُوَّةِ نَفْسِهِ؛ إذْ لَيسَ في وُسْعِ أحَدٍ القِيامُ لِعَشَرَةٍ أو لِجماعةٍ بقوَّتِهِ إذا أُحِيطَ بِهِ، فهو على الآيةِ، إنْ كانَ فيه ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ والمُتَحَرِّفُ لِلْقِتالِ هو المُنْتَقِلُ مِنْ مكانٍ إلى مَكانٍ لِلْحَرْبِ، والمُتَحَيِّزُ إلى فِئةٍ هو المُلْتَجِئُ إلى فِئةٍ على جِهَةِ العَوْدِ إليهِمْ والحَرْبِ؛ يُقالُ: تَحَوَّزْتُ، وتَحَيَّزْتُ بالواوِ والياءِ جميعاً، وهو نَحْوُ الحربِ. وفيه النَّهْيُ عنِ الانهزامِ والتَّوَلِّي عنِ العَدُوِّ إلّا ما ذَكَرَ مِنَ التَّحَرُّفِ لِلْقتالِ، والتَّحَيُّزِ إلى الفِئَةِ، على جِهَةِ العَوْدِ إليهِمْ.

ثم أخبَرَ أنَّ مَنْ وَلَّى دُبُرَهُ بِسِوَى ما ذَكَرَ ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قالَتِ المُعْتَزِلَةُ: دَلَّ ما أوعَدَ المُتَحَرِّفَ بِغَيْرِ قِتالٍ والمُتَحيِّزَ إلى غَيرِ الفِئةِ بقولِهِ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ مَنِ ارْتَكَبَ الكَبِيرَةَ يَخلُدُ في النارِ لأنه ذَكَرَ في أوّلِ الآيةِ المؤمنينَ،/ ١٩٧ ـ أ/ ولَهُمْ خَرَجَ الخطابُ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ ثم أوْعَدَ لَهُمُ الوَعِيدَ الشديدَ ما يُوعِدُ أهْلَ النارِ غَيرَ أهلِ الإيمانِ. دلَّ أنهُ يَخْرُجُ عنِ الإيمانِ بارْتِكابِ الكبيرةِ، ويَخلُدُ في النارِ. وقالُوا: لا يجوزُ صَرْفُ الآيةِ إلى أهلِ النِّفاقِ لِما ذُكِرَ في القصةِ أنهُ لم يكُنْ يومَ بَدْرٍ مُنافِقٌ.

لكنَّ هذا غَلَطٌ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] وإنما قالُوا ذلكَ يومَ بَدْرٍ كذلكَ ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ فإنْ كان المُسْتَثْنى مِنْ قولِهِ ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لم يَكُنْ فيهِ رُخصَةُ التَّوَلِّي، ولكنَّ فيهِ دَفْعَ الوَعِيدِ الذي ذَكَرَ. وإنْ كانَ المُسْتَثْنى مِنْ قولِهِ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ ففيهِ رُخصَةُ التَّوَلِّي إلى ما ذَكَرَ.

ثم الدلالةُ على أنهُ مُسْتَثْنى مِنْ هذا دُونَ الأوّلِ ما جاءَ مِنْ غَيرِ واحِدٍ مِنَ الصحابةِ تَوليَةُ الدُّبُرِ إلى ما ذَكَرَ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أنا فِئَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ». [أحمد ٢: ٩٩].

وبَعْدُ فإنهُ لم يكُنْ لأهلِ الإسلامِ فئةٌ يومَ بَدْرٍ، يَتَحَيَّزُونَ إليها، فَدَلَّ أنها في المنافِقِينَ وأهلِ الكُفْرِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم يُقالُ: يَجُوزُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الوَعيدِ لِمَعْنًى في التَّولِيَةِ عنِ الدينِ والإعراضِ لا لِنَفْسِ التَّولِيَةِ عنِ الدِّينِ؛ إذْ قد

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: البذل.

ذَكَرَ التَّوليةَ عنِ الدينِ في آيةٍ أُخرَى والعَفوَ عنْ ذلك، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٥٥].

فإنْ قِيلَ: لَعَلَّ التَّوبةَ مُضمَرَةٌ فيهِ؛ تابُوا، فَعَفا عنهُمْ، قِيلَ: إنْ جازَ أنْ يَجْعَلَ التَّوْبَةَ مُضْمَرَةً فيها جازَ أن يُضمِرَ في التَّوليَةِ عنِ الدِّينِ الرِّدَّةَ. فَلَيسَتْ تلكَ أولَى بإضمارِ التَّوبَةِ مِنْ هذِهِ بإضمارِ الرِّدَّةِ.

وفي الآيةِ مَعانٍ، تدلُّ على الإضمار إضمارِ ما يُوجِبُ الوعيدَ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ:

أحَدُها: ذِكْرُ التَّحيُّزِ إلى الفِئةِ، وإنْ لم يكُنْ لِلْمُسْلِمِ فِئةٌ يَتَحيَّزُ إليها. فإذا تَحيَّزَ إنما يَتَحيَّزُ لِيَصِيرَ إلى العَدُوِّ، فهو الرِّدَّةُ التي ذَكَرْنا.

والثاني: ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ لمَّا اصْطَفَّ القومُ رَفَعَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، فقالَ: «يا ربِّ إنْ تُهْلِكْ هذِهِ العِصابَةَ فَلَنْ تُعْبَدَ في الأرضِ أبداً» [مسلم ١٧٦٣] ومَنْ هَرَبَ أو وَلَّى الدُّبُرَ عَنْ مِثْلِ تلكَ الحالِ لم يُوَلِّ إلَّا لِقَصْدِ ألَّا يَعْبُدَ اللهَ فَقَدْ كَفَرَ.

والثالثُ: قد وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ والظَّفَرَ على العَدُوِّ، فَمَنْ وَلَّى الدُّبُرَ[1] لم يُوَلِّ إلَّا لِتَكْذِيبِ بالوَعْدِ الذي وَعَدَ لَهُمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ قِيلَ فيهِ بوجوهٍ: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي لم تكنْ جِراحاتُكُمُ التي أصابَتْهُمْ بِمُصِيبةِ المَقْتَلَ، ولا عامِلَةً في اسْتِخراجِ الروحِ، ولا كانتْ قاتِلةً، ولكنَّ اللهَ تعالى صَيَّرَها قاتلةً مُصِيبةَ المَقْتَلَ عاملةً في اسْتِخْراجِ الروحِ؛ لأنَّ مِنَ الجِراحاتِ ما إذا أصابَتْ لم تُصِبِ المَقْتَلَ ولا تَعْمَلُ في اسْتِخْراجِ الروحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الآية يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ العَبْدَ لا صُنْعَ لهُ في القَتْلِ واسْتِخْراجِ الروحِ منهُ، إنما ذلك فِعْلُ اللهِ، وإليهِ ذلكَ، وهو المالكُ لِذلكَ؛ لأنَّ الضَّرْبَةَ والجُرْحَ قد يكونُ، ولا مَوْتَ هنالكَ. وكذلكَ الرَّمْيُ؛ لَيسَ كُلُّ مَنْ أرسَلَ شَيئاً مِنْ يَدِهِ، وقد[2] رَمَى، إنما يَصِيرُ رَمْياً باللهِ، إنْ شاء، السَّهْمَ حتى يَصِلَ بِطَبْعِهِ المَبْلَغَ الذي يَبْلُغُ. فكأنهُ لا صُنْعَ لهُ في الرَّمْيِ. ألَا تَرَى أنهُ لا يَمْلِكُ رَدَّ السَّهْمِ إذا أرْسَلَهُ، ولو كانَ فَعَلَهُ مَلَكَ رَدَّهُ؟ ولهذا قالَ أبو حَنِيفَةَ، رحِمَهُ اللهُ، إنَّ الاِسْتِئجارَ على القَتْلِ باطلٌ.

والثاني: قَتَلُوا بمعونَةِ اللهِ ونَصْرِهِ كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ: إنك لم تَقْتُلْهُ، وإنما قَتَلَهُ فُلانٌ؛ أي بمَعُونَةِ فُلانٍ قَتَلْتَهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي أصابَ رَمْيُكَ المَقْصَدَ الذي قَصَدْتَ، ولكنَّ اللهَ بالغٌ ذلكَ المَقْصَدَ الذي قَصَدْتَ.

والثالثُ[3]: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي لم تطمَعُوا بِخُروجِكُمْ إليهمْ قَتْلَهُمْ؛ لأنهُمْ كانُوا بالمَحَلِّ الذي وَصَفَهُمْ مِنَ الضَّعْفِ وشِدَّةِ الخَوْفِ والذِّلَّةِ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦]. فإذا كانُوا بالمَحَلِّ الذي ذَكَرَ، فَيقولُ، واللهُ أعْلَمُ: لم تَطمَعُوا بِخُروجِكُمْ إليهِمْ وقَصْدِكُمْ إياهُمْ قَتْلَهُمْ لِما كانَ فيكُمْ مِنَ الضَّعْفِ وقُوَّةِ أولئكَ، ولكنَّ اللهَ أذَلَّهُمْ، وألْقَى في قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ والخَوْفَ حتى قَتَلْتُمُوهُمْ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ لا يَطْمَعُ الإنسانُ بِرَمْيِ كَفٍّ مِنْ ترابِ النَّكْبَةَ بأعدائِهِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيثُ بَلَغَ ذلكَ، وغَطَّى أبصارَهُمْ وأعْيُنَهُمْ بذلكَ الكَفِّ مِنَ الترابِ على ما ذُكِرَ في القِصَّةِ أنهُ رَمَى كَفَّاً مِنْ تُرابٍ، فَغَشَّى أبصارَ المُشْرِكينَ، فانْهَزَمُوا لذلكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ نِسْبةُ هذهِ الأفعالِ إلى نفسِهِ وإضافَتُها إليهِ كما نَسَبَ، وأضافَ كُلَّ خَيرٍ ومَعْرُوفٍ إلى نَفْسِهِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ الآية [الحجرات: ١٧] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾

(١) في الأصل وم: عن الدبر. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: والثاني.

[البقرة: ٢٧٢] وقولُهُ[1] تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وغَيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها إضافةُ الأفعالِ التي خَلَصَتْ إلى اللهِ، وَصَفَتْ. فَعَلَى ذلكَ نَسَبُ فِعْلِهِمْ إلى نفسِهِ لِخُلُوصِهِ وصَفائِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي نِعْمَةً عظيمةً حينَ[2] نَصَرَهُمْ على عَدُوِّهِمْ مع ضَعْفِ أبدانِهِمْ وعُدَّتِهِمْ، وهو ما ذَكَرَ في هَلاكِ فِرْعَوْنَ وقومِهِ أنهُ بلاءٌ مِنْ ربِّكُمْ عظيمٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِدُعائِكُمُ الذي دَعَوْتُمْ وتَضَرُّعِكُمُ الذي تَضَرَّعْتُمْ إليهِ، أو أنْ يقولَ: ﴿سَمِيعٌ﴾، أي مجيبٌ لِدُعائكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأقوالِكُمْ وأفعالِكُمْ ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩ والتغابن: ٤] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلكَ كانَ بِهِمْ مِنَ القَتْلِ والأَسْرِ والهزيمةِ لَمَّا أوهَنَ، وأضعَفَ كَيدَهُمْ، اللهُ تعالى.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صلةَ قولِهِ: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي ذلكَ الإنعامُ والإبلاءُ الذي[3] مِنَ اللهِ إليكُمْ لَمَّا أوهَنَ كيدَهُمْ. وذلكَ يكونُ في جملةِ المؤمنينَ؛ ما مِنْ مؤمنٍ إلّا ولَهُ مِنَ اللهِ إليهِ إبلاءٌ وإنعامٌ في كلِّ حالٍ، لا يُوهِنُهُ[4] كيدُ الكافِرِينَ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الاسْتِفْتاحُ يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً: يَحْتَمِلُ الاسْتِكْشافَ وطَلَبَ البيانِ، ويكونُ طَلَبَ الحُكْمِ والقضاءِ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ؛ يُقالُ: فَتَحَ بكذا أي حَكَمَ بِهِ، وقَضَى. فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ: على طَلَبِ بيانِ المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ وطَلَبِ بيانِ أحَقِّ الدِّينَينِ بالنَّصْرِ والحُكْمِ. فقد بَيَّنَ اللهُ لَهُمْ أحَقَّ الدِّينَينِ ما ذُكِرَ في القصةِ أنَّ أبا جهلٍ قالَ: اللهمَّ افْضِ بَينَنا وبَيْنَ محمدٍ، وقالَ: اللهمَّ أيُّنا كانَ أوصَلَ لِلرَّحِمِ وأرضى عنكَ فانصُرْهُ. فَفَعَلَ اللهُ ذلكَ، ونَصَرَ المؤمنينَ، وهَزَمَ المُشْرِكينَ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ.

وقيلَ: إنهُ دعا: اللهمَّ انْصُرْ أعَزَّ الجُندَيْنِ وأكْرَمَ الفِئَتَيْنِ وخَيرَ القَبِيلَتَينِ فكانَ ما ذَكَرْنا. فقد بَيَّنَ اللهُ ﷻ أحَقَّ الدينَيْنِ وأعَزَّ الجُنْدَيْنِ لَمّا هَزَمَ المُشْرِكينَ مع قُوَّتِهِمْ وعُدَّتِهِمْ وكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ بِفِئَةٍ ضَعِيفَةٍ ذليلةٍ قليلةِ العَدَدِ وضَعيفةِ الأبدانِ والأسبابِ.

دلَّ أنهُ قد بَيَّنَ لَهُمُ الأحَقَّ مِنْ غيرِهِ.

وقيلَ: إنهُمُ استَفْتَحُوا بالعذابِ، وكانَ استِفتاحُهُمْ ما ﴿قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فجاءَهُمُ العذابُ يومَ البَدْرِ، وأخبرَهُمْ يومَ أُحُدٍ ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ الآية. والإسْتِفْتاحُ هو ما ذَكَرْنا.

قالَ الحَسَنُ: الفَتْحُ القضاءُ. وكذلكَ قالَ قتادةُ؛ قالا[5]: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ القضاءُ في يوم بَدْرٍ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] وقالَ/ ١٩٧ ـ ب/ القُتَبِيُّ: قولُهُ تعالى ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ فَاسْأَلُوا الفَتْحَ، وهو النَّصْرُ ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عمَّا كُنْتُمْ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يُغْفَرْ لَكُمْ كقولِهِ ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وقيلَ: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عنْ قِتالِ محمدٍ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ أنْ يَنْتَهِيَ محمدٌ عنْ قِتالِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى قِتالِ محمدٍ نَعُدْ إليكُمْ مِنَ القَتْلِ والقِتالِ والأسْرِ والقَهْرِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ إلى البَيانِ والكَشْفِ إلى ما كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ البَيانِ مِنَ التَّكْذيبِ والكُفْرِ لمحمدٍ، نَعُدْ إلى الإنْتِقامِ والتَّعْذيبِ كقولِهِ ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

---

(١) في الأصل وم، وهو قوله. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: الذين. (٤) في الأصل وم: يهانه. (٥) في الأصل وم: قالوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنَّصرِ والمَعُونَةِ. فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ أنهُ لَنْ تُغْنيَ عنكُمْ فِئَتُكُمْ وكَثْرَتُكُمْ، وقد أغناهُمْ كثرَتُهُمْ وفِئَتُهُمْ يومَ أُحُدٍ حينَ[1] ذَكَرَ أنَّ الهَزيمةَ كانَتْ على المؤمنينَ، قِيلَ: هذا لِوَجْهَيْنِ.

أحدُهما: أنَّ عاقبةَ الأمرِ كانَتْ للمؤمنينَ، وإنْ كانَتْ[2] في الابْتِداءِ عليهِمْ فَلَنْ يُغْنِيَ عنهُمْ ذلكَ على ما ذَكَرَ، لأنهُ لو أغناهُمْ ذلكَ لَكانَ لَهُمُ الابْتِداءُ والعاقبةُ.

والثاني: أنهُ لم تَكُنِ النكبَةُ والهزيمةُ على المؤمنينَ إلّا لِعِصْيانٍ منهُمْ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢] فما أصابَ المؤمنينَ مِنَ النَّكَباتِ إنما كانَ بِسَبَبٍ كانَ منهُمْ لا بالعَدُوِّ. لِذلكَ كانَ الجوابُ ما ذَكَرَ[3]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في بيانِهِ وفي ما دَعا إليهِ. وقِيلَ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في فرائِضِهِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سُنَّتِهِ وآدابِهِ ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ آياتِهِ وحُجَجَهُ.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾][4] أي لا تَكُونُوا في الإيمانِ والتوحيدِ والآياتِ ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ بذلكَ ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يُجيبُونَ، ولا يَسْمَعُونَ، ولا يُؤمِنُونَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ الآياتِ والحُجَجَ ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعُونَ بِسماعِهِمْ، أو لا يَعْقِلُونَ كالدَّوابِّ وغيرِها.

وقال أبو بكرٍ الأصَمُّ: قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ اسْتِثْقالاً وبُغْضاً أي لا يَسْتَمِعُونَ إليهِ، لأنَّ مَنِ اسْتَثْقَلَ شيئاً، وأبْغَضَ لم يَسْتَمِعْ إليهِ كقولِهِ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، إنَّ الذي هو مِنْ شَرِّ الدوابِّ عندَ اللهِ هو [الأصَمُّ الأبكَمُ][5] لا يَنتَفِعُ بِسَمْعِهِ وبِلسانِهِ[6] ونُطْقِهِ، وهمْ[7] لم يَنْتَفِعُوا بِسَمْعِهِمْ لِما جُعِلَ لَهُ السمعُ ولم يَنْتَفِعُوا بِنُطْقِهِمْ لِما جُعِلَ لهُ النُّطْقُ، ولم يَنْتَفِعُوا بِعَقْلِهِمْ لِما جُعِلَ لهُ العَقْلُ؛ فَهُمْ شَرُّ الدَّوابِّ كقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وأشَرُّ، لأنَّ الدَّوابَّ والأنعامَ انْتَفَعَتْ بهذِهِ الحَواسِّ لَمّا جُعِلَتْ لها هذهِ الحَواسُّ عَرَفَتْ بهذِهِ الحواسِّ المَهالِكَ والمَضارَّ، فَتَوَقَّتْها[8]، وعَرَفَتِ اللّاذَّ والنافِعَ بها، فَرَغِبَتْ[9] فيها، فانْتَفَعَتِ[10] الدَّوابُّ بالحَواسِّ التي جُعِلَتْ[11] لها لِما جُعِلَتْ، ولم تُجْعَلْ لها هذهِ الحواسُّ إلّا لِلمِقدارِ الذي عَرَفَتْ، وفَهِمَتْ، وانْتَفَعَتْ.

وهؤلاءِ الكفَرَةُ لم يَنْتَفِعُوا بالحواسِّ التي جُعِلَتْ لَهُمْ لِما جُعِلَتْ [وإنما جُعِلَتْ لهمْ][12] لِيَعْرِفُوا المَنافِعَ لَهُمُ اللّاذَّ في العاقبةِ، فَيَعْمَلُوا لِذلكَ، ويَعْرِفُوا الضّارَّ لَهُمْ في العاقبةِ والمُهْلِكَ، فَيَتَوَقَّوهُ، فلم يَنْتَفِعُوا بِحَواسِّهِمْ لِما جعِلَتِ الحواسُّ، والدَّوابُّ انْتَفَعَتْ بها. لِذلكَ كانُوا أضَلَّ وأشَرَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ الذينَ اكْتَسَبُوا الصَّمَمَ الدائِمَ والعَمَى الدائِمَ، وذلكَ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقولِهِ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي تَرَكُوا اكْتِسابَ البَصَرِ الدائِمِ والسَّمْعِ الدائمِ والحَياةِ الدائمةِ.

والباقي سَمّاهُمْ صُمّاً وبُكماً وعُمْياً لم يَكْتَسِبُوا بَصَرَ القَلْبِ ونُطقَ القَلْبِ [وسَمْعَ القَلْبِ][13] فهذِهِ هي الحواسُّ التي تكونُ في الاكْتِسابِ، ولم يَكْتَسِبُوها، إنما لَهُمُ الحَواسُّ الظاهِرَةُ، أو يَقُولُ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ التي لم تَنْتَفِعْ[14] بالذي ذَكَرَ مِنَ الحواسِّ، وتَرَكَتِ[15] اسْتِعْمالَها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) في الأصل وم: ذكروا. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: الصم البكم. (٦) في الأصل: بلسانه، في م: والبكم الذي لا ينتفع بلسانه. (٧) في الأصل وم: لأنهم. (٨) في الأصل وم: فتوقت عنها. (٩) في الأصل وم: فترغب. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: ونفع. (١١) في الأصل وم: جعل. (١٢) في الأصل: وإنما جعلت لهم ذلك، في م: لهم ذلك. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: ينتفعوا. (١٥) في الأصل وم: وتركوا.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ قِيلَ: نَزَلَتِ الآيَةُ في المَرَدَةِ مِنَ الكَفَرَةِ. وقالَ ابنُ عباسٍ: هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَني [عَبْدِ][1] الدارِ، كانُوا يسألونَ رسولَ اللهِ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ، وقد أعطاهُمُ [اللهُ][2] آيَةً بَعْدَ آيَةٍ قَبْلَ ذلكَ، فَلَمْ[3] يَقْبَلُوها، فقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أنهُمْ يَقْبَلُونَ جوابَ المسائِلِ التي سَألُوا لأَوحَى إليهِمْ ولأَسْمَعَهُمْ، ولكنْ عَلِمَ أنه وإنْ أسْمَعَهُمْ جوابَ مسائِلِهِمْ لا يَقْبَلُونَ.

وقالَتِ المُعْتَزِلَةُ: دَلَّتِ الآيَةُ أنهُ قد كانَ أعطاهُمْ جميعَ ما كانَ عندَهُ، لكنَّهُمْ لم يَقْبَلُوا لأنهُ قالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ فَدَلَّ أنهُ لم يَكُنْ عندَهُ ما يُعْطِي، وإلّا لو كانَ ذلك عندَهُ ما يَقْبَلُونَ لأسْمَعَهُمْ.

لكنَّ هذا بَعيدٌ لأنهُ لم يَقُلْ: لو عَلِمَ اللهُ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ، ولكنْ قالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ فإنما نَفَى أنهُ[4] لَيسَ عندَ اللهِ خَيْرٌ. والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ لو عَلِمَ فيهِمْ خَيْراً يَعْلَمونَ بهِ لأَوحَى إليهِمْ، وأسْمَعَهُمْ، لكنهُ عَلِمَ أنهُمْ لا يَقْبَلُونَ بقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي مُكَذِّبُونَ جوابَ ما سَألُوا تَعَنُّتاً وتَمَرُّداً منهُمْ، وأخْبَرَ أنهُمْ يَسْألونَ سؤالَ تَعَنُّتٍ وتَمَرُّدٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هذِهِ الآيَةُ صلةُ قولِهِ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] يقولُ، واللهُ أعْلَمُ ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى ما يدعوكُمْ، وإنْ كانَتْ أنْفُسُكُمْ تَكْرَهُ الخُروجَ لِذلكَ لِقِلَّةِ عَدَدِكُمْ وضَعْفِ أبدانِكُمْ وكثْرَةِ عَدَدِ العَدُوِّ وقوتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ بالذِّكْرِ والشَّرَفِ والثناءِ الحسنِ في الدنيا والحياةِ في الآخرةِ اللذيذةِ الدائمةِ؛ أي[5] إنْ مُتُّمْ، وهَلَكْتُمْ في ما يَدْعُوكُمْ إليه، يكُنْ[6] لكُمْ في الآخِرَةِ حياةُ الأبَدِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيَةُ في جملةِ المؤمنينَ؛ أي ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ في أُمورِهِ ونواهِيهِ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ في ما يَدْعوكُمْ إليهِ؛ وإنما كانَ يَدْعُو إلى دارِ الآخِرةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] ودارُ الآخِرَةِ هي دارُ الحياةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] كأنهُ قالَ، واللهُ أعْلَمُ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ فإنهُ إنما دعاكُمْ إلى ما تَحْيَونَ فيها لَيسَ كالكافِرِ الذي ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤ والأعلى: ١٣] بِتَرْكِهِ الإجابَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أمْكَنَ أنْ يُخَرَّجَ هذا على الأوَّلِ؛ أي اعْلَمُوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يَجْعَلُ القَوِيَّ ضَعيفاً والعَزيزَ ذَليلاً والضعيفَ قَوِيًّا والذليلَ عَزيزاً والشُّجاعَ جَباناً والخائفَ أميناً والأمِينَ خائفاً. فأجِيبُوا الرسولَ بالخروجِ لِلْجِهادِ. وإنْ كُنْتُمْ تَخافُونَ لِضَعْفِكُمْ وقُوَّتِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ في جُمْلَةِ المؤمنينَ: أنَّ مَنِ اسْتَجابَ لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعاهُ يَجْعَلُ قَلْبَهُ هو الغالبَ على نفسِهِ والحائلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما تَدْعُو إليه [النفسُ، وإذا تَرَكَ الإجابَةَ يَجعَلُ نفسَهُ هي الحائلةَ بينَهُ وبينَ ما يدعو إليه][7]، والداعِيَةَ إلى ذلكَ ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. وقيلَ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعةِ في أمْرِ القِتالِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ إلى الحرب ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني بالحَرْبِ التي أعَزَّكُمُ اللهُ. يقولُ: أحياكُمُ اللهُ بَعْدَ الذُّلِّ، وقَوَّاكُمْ بَعْدَ الضَّعْفِ. وكانَ ذلكَ حياةً.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ: يَحُولُ بَيْنَ قَلْبِ المؤمنِ [وبَيْنَ الكُفْرِ][9] ويَحُولُ بَيْنَ الكافِرِ وبَيْنَ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحَدُهُما: يَسْتَعْجِلُ التوبَةَ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ بِهِ الموتُ، [كأنهُ][10] يقول: أجِيبُوا اللهَ والرَّسُولَ قَبْلَ أنْ يُحالَ بينَ المَرْءِ وبَيْنَ التوبَةِ بالموتِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لهم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ بالأعمال التي يَكتَسِبُها، يُنشِئُ بالفعلِ[1] الذي يَفعَلُهُ طَبْعَ قَلْبِهِ وخَتْمَهُ، ويُنشِئُ ظُلْمَةً تحولُ بَيْنَهُ وبينَ ما يَقْصِدُهُ، ويُدْعَى إليه، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَّا﴾ ههنا صِلةٌ زائدةٌ؛ كأنهُ قالَ:/ ١٩٨ ـ أ/ ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ تُصيبُ[2] ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي اتَّقُوا فِتْنَةَ الذين تُصِيبُ الظَّلَمَةَ مِنْكُم بِظُلْمِهِمْ، وهو العذابُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] فعلى ذلكَ قولُهُ ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ تُصيبُ[3] ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في الآخِرَةِ، وهو العذابُ. وذلكَ جائزٌ في الكلامِ، نَحْوُ ما قرأ بَعْضُهُمْ قولَهُ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] بكسرِ الألِفِ وطَرْحِ ﴿لَا﴾ [إنها إذا جاءتْ يؤمنون][4] أي إنَّها وإنْ جاءَتْ لا يؤمنُونَ.

وأمّا على إثباتِ ﴿لَّا﴾ فإنهُ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

قيلَ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي اتَّقُوا أنْ تكونوا فِتْنَةً للذين ظَلَمُوا كقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: ٥] [وقولِهِ تعالى][5]. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

وَوَجْهُ جَعْلِهِ إيّاهُمْ فتنةً للذينَ كَفَرُوا هو أنْ يَجْعَلَ العَدُوَّ غالباً عليهِمْ ناصِرِينَ، وهُمُ المَغْلُوبُونَ، فَيَظُنُّونَ أنهُمْ على حقٍّ، والمؤمنونَ على باطِلٍ، فذلكَ مَعْنَى دُعائِهِمْ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لئلا يقولُوا: لو كانُوا على حَقٍّ ما غُلِبُوا، ولا قُهِرُوا، ولا انْتَصَرُوا منهُمْ.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ﴾ نَهَى الأتباعَ منهُمْ ألّا يَسْعَوا[6] في ما بَيْنَ الظَّلَمَةِ بالفسادِ، ولا يُغْرِي بَعْضُهُمْ على بعضٍ، فَيقعُ في ما بَيْنَهُمُ الفسادُ، فيكونُ هؤلاءِ الأتباعُ فِتْنَةً للذينَ ظَلَمُوا بإغراءِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ. وذلكَ معروفٌ في ما بينَ الخَلْقِ في الظَّلَمَةِ، يُغري الأتباعُ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ، فذلكَ فتنةٌ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ هو أنَّ اللهَ تعالى يُغَيِّرُ الأحوالَ في الخَلْقِ مَرَّةً سَعَةً وخِصْباً ومَرَّةً قَحطاً وضِيقاً ومرَّةً غَلَبَةً لِلعَدُوِّ[7] على الأولياءِ، ونَحْوَهُ.

ويَدفَعُ العذابَ عن الظَّلَمَةِ بِمَنْ لم يَظْلِمْ ما لم يُشارِكُوا الظَّلَمَةَ. فإذا شارَكُوا أولئكَ يَحُلُّ بأولئكَ [العذابُ][8] بِظُلْمِهِمْ وأهلِ الصلاحِ والعَدْلِ بتَرْكِهِمُ الظَّلَمَةَ وأهلَ الفسادِ[9]، ولَهُمْ قُوَّةُ المَنْعِ لَهُمْ عنْ ذلكَ. فيقولُ: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ ولكنْ تُصِيبُهُمْ، وتُصِيبُكُمْ، فقالَ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ﴾ أخذَ الظَّلَمَةَ بالعذابِ لِمُشارَكَةِ أهلِ العدلِ أولئكَ، فيكونُونَ فِتْنَةً لَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أي[10] يَدْفَعُ عنِ الظَّلَمَةِ البلاءَ والعذابَ ما دامَ أهلُ العَدْلِ يأمُرُونَهُمْ بالمَعْرُوفِ ويُغَيِّرونَهُمُ[11] المُنْكَرَ، فإذا [تَرَكُوهُمْ، وهُمْ لا يُغَيِّرونَهُمْ][12] المُنْكَرَ، تَرَكَ بِهِمُ البلاءَ [فَيَعُمُّهُمُ البلاءُ][13] الظالِمَ وغَيْرَهُ.

والفِتْنَةُ على وجهَينِ؛ فِتْنَةُ الجَزاءِ جَزاءِ أعمالِهِمْ، وذلكَ يأخذُ أهلَهُ خاصةً، وفِتْنَةُ المِحْنَةِ وذلكَ يَعُمُّ الخَلْقَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ الآية، إنَّ أهلَ الإسلامِ في ابْتِداءِ الأمْرِ كانُوا قَليلي العَدَدِ مُسْتَضْعَفينَ عندَ الكَفَرَةِ حتى كانُوا يَخافُونَ أنْ يَسْلُبَ الكَفَرَةُ أزواجَهُمْ، وكانُوا لا يأمَنُونَ على أنْفُسِهِمْ بالمُقامِ في البُلْدانِ لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وضَعْفِهِمْ خَوفاً على أنْفُسِهِمْ وإشفاقاً، فَتَرَكُوا المُقامَ بالبُلْدانِ، وخَرَجُوا إلى الجِبالِ والغِيرانِ، فأقامُوا فيها، وأكَلُوا الحَشِيشَ والكَلأَ طَعامَ الأنعامِ خَوفاً على أبْدانِهِمْ وإشفاقاً على دِينِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: الفعل. (٢) و (٣) في الأصل وم: تصيبين. (٤) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/٣٠٨ وحجة القراءات ص ٢٦٥. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يسمعون. (٧) في الأصل وم: العدو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل: عن الظلم والفساد. (١٠) في الأصل وم: أو أن. (١١) في الأصل وم: ويغيرون عليهم. (١٢) في الأصل وم: تركوا ولا يغيرون عليهم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ثم إنَّ اللهَ ﷺ، آواهُمْ، وأنزَلَهُمْ في البُلْدانِ والأمصارِ، وأيَّدَهُمْ، ونَصَرَهُمْ على عَدُوِّهِمْ، ورزَقَهُمُ الطَّيِّباتِ طعامَ البَشَرِ بَعْدَ ما أكَلُوا الحَشِيشَ طعامَ البَهائِمِ[1] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِيُلْزِمَهُمُ الشُّكرَ على ذلكَ. ولا يجوزُ لَهُمْ ألاّ يشْكُرُوا بَعْدَ ما أصابُوا. ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ بِنا، لِنكونَ نَحْنُ مِنَ الإشفاقِ في الدِّينِ مِثْلَ أولئكَ حينَ هَرَبُوا منهُمْ، واتَّخَذُوا الجبالَ والغِيرانَ بُيوتاً والحَشِيشَ طعاماً، وتَرَكُوا أموالَهُمْ ونِعَمَهُمْ، ورَضُوا بذلكَ إشفاقاً على دينِهِمْ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: نَزَلَتِ الآيةُ في أهلِ بَدْرٍ، وكانوا قَليلي[2] العَدَدِ والعُدَّةِ ضَعِيفي[3] الأبدانِ، والعَدُوُّ كثيرُ العَدَدِ وقَوِيُّ الأبدانِ، فاشْتَدَّ عليهِمُ الخُروجُ لِذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٥] فكيفَ ما كانَ ففيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ أي إذْ كُنْتُمْ قليلاً. وفيهِ دلالةٌ لِقولِ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في مَنْ قالَ: هذا الشَّيْءُ لِفلانٍ، اشْتَرَيْتُهُ منهُ، صَدَقَ، ويَصيرُ كأنهُ قالَ: هذا الشَّيْءُ كانَ لِفلانٍ [اشْتَرَيْتُهُ][4] منهُ؛ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ أي إذْ كُنْتُمْ قليلاً، وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على هذا التأويلِ بالملائكةِ ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المَغانِمِ التي رَزَقَهُمْ، وأحلَّ لَهُمْ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷺ، هذهِ الأمَّةَ وَسَطاً عَدْلاً بقولِهِ: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فكأنهُ قالَ: يا أيها الذينَ آمَنُوا قد جَعَلَكُمُ اللهُ أُمَّةً عَدْلاً وَسَطاً، فلا تَخونُوا اللهَ فيهِ كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٣٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] وقالَ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] أخبَرَ أنهُ ألزَمَهُمُ الأمانةَ؛ أعني البَشَرَ دونَ ما ذَكَرَ مِنَ الخلائِقِ.

ثم منهُمْ مَنْ ضَيَّعَ تلكَ الأمانةَ مِنْ نَحْوِ المنافقينَ والمُشركينَ، وخانُوا فيها، فَلَحِقَهُمُ الوَعيدُ بالتَّضْييعِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٣] فكأنهُ قالَ: يا أيُّها الذينَ آمَنُوا قد قَبِلْتُمْ أمانةَ اللهِ فلا تُضَيِّعُوها، ولا تَخُونُوا فيها كما قالَ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] [وقالَ:][5] ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وغيرَها مِنَ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ الأماناتِ. نَهاهُمْ أنْ يَخُونُوا فيها، فيَكُونُوا[6] كأنهُمْ خانُوا أمانتَهُمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أنَّ أنْفُسَكُمْ وأموالَكُمْ للهِ، وهي عندَكُمْ أمانةٌ، اسْتَحْفَظَكُمْ فيها، فلا تَسْتَعْمِلُوها في غيرِ ما أذِنَ لَكُمْ؛ لأنَّ مَنِ اسْتَحْفَظَ أحداً في شيءٍ، ووضَعَ عندَهُ أمانةً، فاسْتَعْمَلَها في غيرِ ما أذِنَ لهُ، صارَ خائناً فيها مُضَيِّعاً[7] فَعَلى ذلكَ أنْفُسُكُمْ وأموالُكُمْ للهِ عندَكُمْ أمانةٌ، اسْتَحْفَظَكُمْ فيها، فإذا اسْتَعْمَلْتُموها[8] في غيرِ ما أذِنَ لَكُمْ فيها خُنْتُمُ اللهَ والرسولَ فيها، فَتَخُونونَ[9] أماناتِكُمُ التي لكُمْ عندَ اللهِ إذا ضَيَّعْتُمُ الأمانةَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ التي في ما بَيْنَكُمْ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ امْتَحَنَهُمْ في ما امْتَحَنَهُمْ لِمَنافِعِ أنفُسِهِمْ ولِحاجَتِهِمْ، فَيَصِيرُونَ في ما خانُوا في ما امْتَحَنَهُمْ كأنهُمْ[10] خانُوا أنفُسَهُمْ، وخانُوا أماناتِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الآية [فصلت: ٤٦].

ثم خيانةُ المُنافقينَ والمُشركينَ في الدينِ، وخيانةُ المؤمنينَ في أفعالِهِمْ، وَعَدَ لَهُمُ التوبةَ عنْ خِيانَتِهِمْ، وَوَعَدَ أولئكَ على ما خانُوا بقولِهِ تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

---

(١) من م، في الأصل: البشر. (٢) في الأصل وم: قليل. (٣) في الأصل وم: ضعيف. (٤) من م، ساقطة في الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيكونون. (٧) في الأصل وم: صامناً. (٨) في الأصل وم: استعملتم. (٩) في الأصل وم: فتخونوا. (١٠) في الأصل وم: كانوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ أنفُسَكُمْ وأموالَكُمْ لَيسَتْ لكُمْ، إنما هي للهِ عندَكُمْ أمانَةً، فلا تَخُونُوا فيها.

وعنِ ابنِ عباسٍ: [أنهُ][1] قالَ: الأمانةُ الأعمالُ التي ائتَمَنَ اللهُ عليها العِبادَ؛ يَعْني الفَريضَةَ. يقولُ: لا تَخُونُوا اللهَ، أي لا تنقُضُوا.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في نُزولِ الآيةِ: قالَ بَعْضُهُمْ: نزلَتْ في أبي لُبابةَ [بْنِ عبدِ المُنْذِرِ][2]؛ وذلكَ ما قيلَ في بَعْضِ القِصةِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ حاصَرَ يَهودَ قُرَيظَةَ، فَسَأَلُوا الصُّلْحَ على أنْ يَسيرُوا إلى إخوانِهِمْ إلى أذْرعاتٍ، فَأَبَى النَّبِيُّ إلّا أنْ يَنزِلُوا على الحُكْمِ، فأبوا، وقالُوا[3]: فأرسِلْ إلينا أبا لُبابَةَ، وكانَ مُناصِحَهُمْ، فَبَعَثَهُ النَّبِيُّ إليهِمْ. فلمَّا أتاهُمْ قالُوا: يا أبا لُبابةَ أَنَنْزِلُ على حُكْمِ محمدٍ، فأشارَ أبو لُبابةَ بِيَدِهِ؛ أي لا تَنْزِلُوا على الحُكْمِ، فأطاعُوهُ. وكانَ أبو لُبابةَ، مالُهُ وَوَلَدُهُ مَعَهُمْ/ ١٩٨ ـ ب/ ، فَخانَ المُسْلِمِينَ.

[وقيلَ: نَزَلَتِ][4] الآيةُ في شأنِ حاطبِ بْنِ [أبي][5] بَلْتَعَةَ، فَعَلَ ما فَعَلَ أبو لُبابةَ. وقيلَ: نزلَتْ في شأنِ قومٍ، بينهمْ وبينَ رسولِ اللهِ عَهْدُ الذينَ كانوا يعبدونَ الأصنامَ. لكنّا لا ندري في شأنِ مَنْ نزلَتْ؟ ولَيْسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى أنَّ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ النَّهْيِ في الخيانةِ في أمانةِ اللهِ تعالى والأمرِ بِحِفْظِها، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي لم يُعْطِهِمُ الأولادَ والأموالَ لَعِباً وباطلاً، أي ليكونَ[6] لَهُمُ الأموالُ والأولادُ، ولكنْ أعطاهُمْ مِحْنَةً وابْتِلاءً. وكذلكَ جميعُ [ما][7] أنشأَ في الدنيا مِنَ الأشياءِ إنما أنشأهُ[8] لنا فِتْنَةً ومِحْنَةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ[9] تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٨] وغيرُها[10] مِنَ الآياتِ يَدُلُّ أنَّ جميعَ ما أنشأَ فِتْنَةٌ ومِحْنَةٌ، يَمْتَحِنُ بهِ البَشَرَ بقولِهِ تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي مِحْنَةٌ وابْتِلاءٌ امْتَحَنَا بهِ في أنواعِ التأديبِ والتعليمِ والحِفْظِ والحقوقِ التي جَعَلَها عليهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [التحريم: ٦]. وأوجَبَ في الأموالِ حُقوقاً، امْتَحَنَا بأداءِ تلكَ الحقوقِ التي فيها. وكذلكَ في جميعِ ما أَمَرَ اللهُ بهِ الخلائقَ بأمورٍ، ونَهاهُمْ. إنما أَمَرَ ونَهَى لِمَنْفَعَةِ الخلائقِ ودَفْعِ الضَّرَرِ عنهُمْ لا لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ[11]؛ إذْ لَهُ مُلْكُ ما في السمواتِ والأرضِ، وهو العزيزُ بذلكَ بذاتِهِ، لا تَمَسُّهُ حاجةٌ، يَتَعالى عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لِمَنْ [لم][12] يَخُنِ اللهَ والرسولَ وَعَدَ لَهُمُ الأجرَ العظيمَ إذا قامُوا بوفاءِ ما امْتَحَنَهُمُ اللهُ، وابْتَلاهُمْ بهِ مِنَ الأولادِ حينَ[13] قالَ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ هذهِ الآيةَ صِلَةُ ما سَبَقَ مِنَ الأمْرِ بالجهادِ بِبَدْرٍ والخُرُوجِ إليهِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وأطَعْتُمُ اللهَ، وأجَبْتُمْ لهُ في ما دَعاكُمْ إليهِ، ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي يَجْعَلْ خُروجَكُمْ إليهِ وجهادَكُمْ آيةً عظيمةً، يُظْهِرُ به المُحِقَّ مِنَ المُبْطِلِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنفال: ٧] وقولِهِ[14] تعالى ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] أي يُظْهِرَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ.

وقد كانَ بِحَمْدِ اللهِ ذلكَ، وبانَ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، والمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ. وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي مَخْرَجاً في الدين مِنَ الشُّبُهاتِ. وقيلَ: مَخْرَجاً في الدنيا والآخِرَةِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿فُرْقَانًا﴾ أي بياناً لما ذَكَرْنا: جَعَلَ اللهُ تعالى التَّقْوى مُشْتَمِلاً على كُلِّ خيرٍ واصْلاً لكلِّ بِرٍّ، وصَيَّرَهُ مَخْرَجاً مِنْ[15] كُلِّ ضِيقٍ وشِدَّةٍ، وجَعَلَهُ سَبيلاً، ثم يُوصِلُ بهِ إلى كُلِّ لَذَّةٍ وسُرُورٍ، ويُنالُ بهِ كُلُّ خيرٍ وبَرَكةٍ على ما ذُكِرَ في غيرِ آيةٍ[16] مِنَ القرآنِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فنزلت. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل ليكونوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: أو غيره. (١١) في الأصل وم: أو ضررا أو حاجة يدفع به عن نفسه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: وقال. (١٥) في الأصل وم: لمن. (١٦) في الأصل وم: آي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ التي سبقَتْ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يَسْتُرُ عليكُمْ ذنوبَكُمْ، لا يُطْلِعُ أحداً عليها، وذلكَ مِنْ أعظَمِ النِّعَمِ. وأصلُ المَغْفِرَةِ السَّتْرُ. وقولُهُ تعالى ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي عندَ اللهِ فَضْلٌ؛ يُعْطِيكُمْ خيراً مِمّا تطمَعُونَ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ بأنَّ هذِهِ الآيةَ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦] كانُوا ضُعَفاءَ أذِلّاءَ، في ما بَيْنَ الكَفَرَةِ خائِفِينَ في ما بَيْنَهُمْ، فَهَمُّوا أنْ يَمْكُرُوا برسولِ اللهِ. والمَكْرُ بهِ ما ذَكَرَ مِنَ القَتْلِ والإثباتِ، وهو الحَبْسُ أو الإخراجُ. كأنَّهُمْ تَشاوَرُوا في ما بَيْنَهُمْ، واسْتَأْمَرُوا ما [يَفْعَلُونَ بِهِ][1].

فذُكِرَ في القصةِ أنَّ بَعْضَهُمْ أشارُوا إلى القَتْلِ، وبَعْضَهُمْ إلى الحَبْسِ، وبَعْضَهُمْ بالإخراجِ، فكانَتْ مُشاوَرَتُهُمْ وأمْرُهُمْ رَجَعَتْ إلى أحدِ هذِهِ الوجوهِ؛ إمّا القَتْلُ وإمّا الحَبْسُ [وإمّا الإخراجُ][2].

ثم أخرَجَ اللهُ رسولَهُ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ على الوَجْهِ الذي يكونُ مطيعاً للهِ مُتَعَبِّداً لهُ في ما كانَ خُروجُهُ بأمْرِهِ، فيكونُ خُروجُهُ على غيرِ الجهةِ التي أرادُوا هُمْ به. وسَمّى خُروجَهُ هِجْرَةً، لِيَعْلَمُوا أنه إنما [عَلِمَ][3] بكيدِهِمْ ومَكْرِهِمْ به باللهِ لِيكونَ آيةً مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ خُروجُهُ[4] مِنْ بَيْنِ أظهُرِهِمْ ومُفارَقَتُهُ إيّاهُمْ كما كانَ لهُ مِنَ الآياتِ وَقْتَ مُقامِهِ بينَ أظْهُرِهِمْ.

وهو كما كانَ لِعيسَى آياتٌ وقْتَ مُقامِهِ بَينَ أظهُرِهِمْ، وآيةٌ كانَتْ لهُ بالرَّفْعِ بَعْدَ مُفارَقَتِهِ قومَهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، ولو كانوا يَتوافَقُونَ[5] بما ذَكَرْنا مِنَ القَتْلِ أو الحَبْسِ دونَ الإخراجِ لم يكُنْ لِيُخْرِجَ رسولَهُ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ، وهُمْ قد هَمُّوا بإخراجِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ تَذْكيرُ ما أنْعَمَ على رسولِهِ وأصحابِهِ لأنهُ آواهُمْ إلى الأمْنِ بَعْدَ ما كانُوا خائِفِينَ فيهِمْ، وأنْزَلَهُمُ المدينةَ بَعْدَ ما كانُوا في الغِيرانِ في الجبالِ هارِبِينَ منهُمْ، ورزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ طعامَ البشرِ بعدما كانوا يتناولونَ مِنْ طعامِ البهائمِ والسِّباعِ، يذكُرُ نِعْمَهُ عليهم باستِنْقاذِهِ إياهمْ مِنْ بَينِ ظَهْرانيهِمْ والحَيْلُولَةِ بَيْنَهُ وبَينَ ما قَصَدُوا، وهَمُّوا بالمَكْرِ بهِ والهلاكِ.

[وفي قولِهِ تعالى][6]: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [وجوهٌ في الاحتِجاجِ][7] عليهِمْ.

أحدُها: ما ذَكَرْنا أنهُمْ تَشاوَرُوا في ما بَيْنَهُمْ بالمَكْرِ لهُ، ولم[8] يُطْلِعُوا أحداً، ثم عَلِمَ ذلكَ، فخَرَجَ[9]، لِيَعْلَمُوا أنَّ اللهَ هو الذي أطْلَعَهُ على ذلكَ.

والثاني: [كانوا يُخَوِّفُونَ][10] الهلاكَ بِمَكْرِهِمْ برسولِهِ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ أصابَهُ ما هَمُّوا بِهِ.

والثالثُ[11]: قد أصابَهُمْ مِنَ الهلاكِ الذي [كانوا يُخَوِّفُونَ بِهِ][12]، وحَلَّ بِهِمْ ما كانوا قَصَدُوا[13]. وذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ مَكْرِ اللهِ بِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أرادُوا بِمَكْرِهِمْ شَرًّا، وهو أنْ يُطْفِئُوا هذا النورَ لِيَذْهَبَ هذا الدينُ، وتُدْرَسَ آثارُهُ. وأرادَ اللهُ أنْ يَسْلَمَ منهُمْ نَفَرٌ لِيكونُوا أعواناً ونَصراً لهُ لِيَأْخُذُوا حظَّهُمْ بذلكَ، فهو خَيْرُ الماكِرِينَ.

وقيلَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي أرادُوا قَتْلَهُ ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أرادَ قَتْلَهُمْ، فَقَتَلَهُمْ بِبَدْرٍ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ أي أفضَلُ مَكْراً منهُمْ؛ غَلَبَ مَكْرُهُ مَكْرَهُمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ. قولُهُ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي يَجْزِيهِمْ جزاءَ مَكْرِهِمْ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ءَايَـٰتُنَا﴾ آياتِ القرآنِ التي كانَ يَتْلُو رسولُ اللهِ. وتَحتَمِلُ ﴿ءَايَـٰتُنَا﴾ حجَجَهُ وبراهِينَهُ التي تُوجِبُ التوحيدَ وتَصديقَ الرُّسُلِ.

(١) في الأصل وم: يفعل بهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: بعد خروجه. (٥) في الأصل وم: يتوافقوا. (٦) في الأصل وم: بقوله. (٧) في الأصل وم: فيه من الوجوه احتجاجا. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: كان يخوفهم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: كان يخوفهم. (١٣) في الأصل وم: به وقصدوه.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ قالُوا ذلكَ مُتَعَنِّتِينَ؛ إذ[1] كانَ يَقرَعُ أسماعَهُمْ قولُهُ تعالى: ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقولُهُ تعالى ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ الآية [البقرة: ٢٣] ثم لم يكُنْ يَطمَعُ أحدٌ منهُمْ أنْ يأتِيَ بِمِثْلِهِ لو تكَلَّفُوا ذلكَ. دلَّ أنَّ قولَهُمْ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ تَعنُّتٌ وعِنادٌ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كذلك كانَ يقولُ العربُ: إنهُ أساطيرُ الأوَّلِينَ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ الآية؛ يَذكُرُ نِهايَةَ سَفَهِهِمْ وغايَةَ جُرْأتِهِمْ على اللهِ وبُغْضَهُمُ الحقَّ مَعَ عِلْمِهِمْ أنَّ اللهَ هو الإلهُ، وأنهُ قادِرٌ على إنزالِ العذابِ، ولهُ السُّلطانُ على إمطارِ الحِجارةِ بقولِهِم ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلم يَنالُوا هلاكَ أنْفُسِهِمْ لِشِدَّةِ سَفَهِهِمْ وجُرأتِهِمْ على اللهِ وبُغْضِهِمُ الحقَّ.

[وذَكَرَ هذا][2] واللهُ أعْلَمُ، لِيَعْلَمَ الناسُ ما لَحِقَ رسولَ اللهِ بدعائِهِ هؤلاءِ السفهاءَ إلى دينِ اللهِ الذينَ لم يَنالُوا هلاكَ أنفُسِهِمْ لِشِدَّةِ بُغْضِهِمِ الحقَّ وجُرأتِهِم على اللهِ/ ١٩٩ ـ أ/، وتَحَمَّلَ[3] منهُمْ مِنَ العظيمِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أي في جملةِ المؤمنينَ أنهُ لا يُعَذِّبُ أحداً في الدنيا مادامَ هو فيهِمْ، ومادامَ [فيهِمْ مُؤْمِنٌ لِقولِهِ تعالى][4]: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يؤمِنُونَ، وهو[5] كما ذَكَرَ أنهُ أرسلَهُ رَحْمَةً بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ومِنْ رَحْمَتِهِ ألّا يُعَذِّبَ أحداً مِنْ أُمَّتِهِ في الدنيا، إنما يؤخِّرُ ذلكَ إلى يومِ التَّنادي بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢] كذا وقولِهِ: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ في أهلِ مكةَ خاصَّةً؛ إنهُ لا يُعَذِّبُهُمْ مادامَ فيهِمْ أحدٌ مِنَ المُسلِمينَ مِنْ نحوِ النساءِ والذَّراري كقولِهِ ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [الفتح: ٢٥] أي لا نُعَذِّبُهُمْ وأنتَ يا محمدُ فيهِمْ؛ أي بَينَ أظهُرِهِمْ حتى نُخرِجَكَ مِنْ بَيْنِهِمْ.

[وقيلَ][6] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يُصَلُّونَ، وقيلَ: يؤمِنونَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄ ولكنْ يُعَذِّبُهُمْ تعذيبَ القتالِ والجهادِ، ولا يُعَذِّبُهُمْ تَعذيبَ اسْتِئْصالٍ على ما أهْلَكَ[7] سائرَ الأُمَمِ.

ثم إنَّ المُعتزِلَةَ تعلَّقَتْ بظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي سَيُؤمِنونَ، أي لا يُعَذِّبُهُمْ مادامَ يَعْلَمُ أنَّ فِيهِمْ أحداً يُؤْمِنُ في آخرِ عُمُرِهِ، أو مِنْ قولِهِمْ: ألّا يجوزَ للهِ أنْ يُهلِكَ أحداً إذا كانَ في عِلْمِهِ أنهُ سَيُؤمِنُ في آخِرِ عُمُرِهِ لِقولِهِمْ في الأصلحِ: إنَّ اللهَ لا يَفعَلُ بِخَلْقِهِ إلّا ما هو أصلَحُ لهمْ في الدينِ. فَعَلَى ذلكَ تأوَّلُوا ظاهِرَ هذِهِ الآيةِ أنهُ لا يُعَذِّبُهُمْ، وهُمْ يَسْتغفِرُونَ؛ أي سَيُؤمِنونَ.

لكنْ لو كانَ كما قالُوا لَكانَ لا يجوزُ الجهادُ مَعَهُمْ أبداً، ويَسْقُطُ الأمرُ بالقتالِ؛ إذْ لَعَلَّ فيهِمْ مَنْ يُسْلِمُ، فإذَنْ أمْرُهُ بالجهادِ والقتالِ مَعَهُمْ دَلَّ أنَّ ذلكَ لَيسَ ما تَوَهَّمُوا، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وهُمْ يَدخُلونَ في الإسلامِ. وقيلَ: يُسْلِمُونَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بَقِيَّةُ مَنْ بَقِيَ في مكةَ مِنَ المُسْلِمينَ، فلمّا خَرَجُوا منها قالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٤].

ورُوِيَ عنْ أبي هُرَيْرَةَ ﵁ [أنهُ][8] قالَ: فيكُمْ أمانانِ، أحَدُهُما: رسولُ اللهِ ﷺ لِقَوْلِ اللهِ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

---

(١) في الأصل وم: إذا. (٢) في الأصل وم: وهذا ذكر. (٣) في الأصل وم: ويتحمل. (٤) في الأصل وم: مؤمن فيهم بقوله. (٥) في الأصل وم: وهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هلك. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ والآخرُ: الاستغفارُ لقولِ اللهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: فذهبَ أمانٌ، وهو رسولُ اللهِ، وبَقِيَ أمانٌ، وهو الاستغفارُ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ ﷺ [أنهُ][1] قال: إنَّ اللهَ جَعَلَ في هذِهِ الأُمَّةِ أمانَينِ، لايَزالونَ مَعْصومينَ[2] مِنْ قَوارِعِ العذابِ مادامَ بينَ أظْهُرِهِمْ؛ فأمانٌ قَبَضَهُ اللهُ إليهِ، وأمانٌ بَقِيَ فيهِمْ[3]، وهو الاستغفارُ الذي ذَكَرَ.

ورُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ: «كانَ ساجداً في آخِرِ سُجودِهِ في صلاةِ [آيةِ الكسوفِ][4]، فقالَ: أفْ أفْ، فقالَ: ربِّ ألَمْ تَعِدْني ألاّ تُعَذِّبَهُمْ، وأنا فيهِمْ؟ ربِّ ألَمْ تَعِدْني ألاّ تُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرونَ؟» [بنحوه أبو داوود ١١٩٤].

وعنْ بَعْضِهِمْ: أمانانِ أنْزَلَهُما اللهُ؛ أمّا أحدُهما فَمَضى، وهو نَبِيُّ اللهِ، وأمَّا الآخَرُ فأبقاهُ اللهُ تعالى بَينَ أظْهُرِكُمْ، وهو الاستِغْفارُ والتوبةُ.

وفي إثباتِ قولِ السفهاءِ ودُعائِهِمْ بإمطارِ الحجارةِ عليهِمْ وجَعْلِ ذلكَ [الاستِغْفارِ][5] كتاباً يُتْلَى في الصَّلواتِ أوجُهٌ ثلاثةٌ مِنَ الحكمةِ:

أحَدُها: تعريفُ لهذِهِ الأُمَّةِ المُعامَلَةَ مَعَ السُّفهاءِ عندَ ارْتِكابِ المَناكيرِ مِنَ الأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ إذا[6] تَمادَوا في غَيِّهِمْ، واسْتَقْبَلُوا بالمَكْرُوهِ والأذى، ألّا يُتْرَكَ الأمرُ لَهُمْ بالمعروفِ، ولا يُيْأَسَ مِنْ خَيرِهِمُ اقْتِداءً بالنَّبِيِّ أنهُ لم يَتْرُكْ دعاءَهُمْ وأمْرَهُمْ بالمعروفِ مَعَ شِدَّةِ سَفَهِهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ.

والثاني: لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنَّ حُجَّةَ اللهِ تُلْزِمُ العبادَ، وإنْ كانوا قد جَهِلُوهُ إذا كانَ لِتَضْييعٍ جاءَ مِنْ قِبَلِهِمْ في تَرْكِ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ؛ إذ لو عَلِمُوا حقيقةَ العِلْمِ أنهُ الحَقُّ لم يكونُوا لِيَدْعُوا على أنْفُسِهِمْ بالهلاكِ.

والثالثُ: يكونُ فيهِ بيانٌ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي ما لَهُمْ مِنْ عُذْرٍ في صَرْفِ العذابِ عنْ أنفُسِهِمْ؛ إذْ قَدْ كانَ منهُمْ مِنْ أنواعِ ما كانَ، لو كانَ واحدٌ مِنْ ذلكَ لكانُوا يَسْتَوجِبُونَ العذابَ، مِنْ تكذيبِهِمُ الرسولَ والآياتِ التي أرسَلَها إليهِمْ وصَدِّهِمُ الناسَ عنِ المَسْجِدِ الحرامِ، وهو مكانُ العبادةِ، وسُؤالِهِمْ بقولِهِمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] أي لَيسَ لَهُمْ عذرٌ في صَرْفِ العذابِ عن أنفُسِهِمْ، والاحتِجاجُ على اللهِ أنهُ لم يُرْسِلْ رسولاً بقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية [طه: ١٣٤] بل أرْسَلَ إليهِمُ الرسولَ فَكَذَّبُوهُ، وبَعَثَ إليهِمُ الآياتِ فَكَذَّبُوها، وصَدُّوا الناسَ عَنِ المَسْجِدِ الحرامِ.

فلا عُذْرَ لَهُمْ في وجهٍ مِنَ الوجوهِ أنْ يَصْرِفَ العذابَ. إلّا أنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ يَصْرِفُ العذابَ عنهُمْ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ واسْتِغْفارِ المؤمنينَ. وإلّا قد كانَ منهُمْ جميعُ أسبابِ العذابِ التي يَسْتَوْجِبُونَ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي عنِ الصلاةِ فيهِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صَدُّهُمُ[7] الناسَ عَنْ رسولِ اللهِ، لكنهُ ذَكَرَ المَسْجِدَ لِما كانَ رسولُ اللهِ فيهِ لئلاّ يَرَوا رسولَ اللهِ، فَيَتَّبِعُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي لم يكونُوا لِيَصْرِفوا العذابَ عنْ أنْفُسِهِمْ بالوِلايَةِ، وهو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ﴾ وهُمْ لَيسُوا بأوليائِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أنهُمْ كانُوا يَصُدُّونَ الناسَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ لِما ادَّعَوا أنَّهُمْ أولياؤُهُ، وأنَّهُمْ أولَى بالمَسْجِدِ الحَرامِ. ثم أخبَرَ أنهُمْ لَيسُوا أولياءَهُ، إنما أولياؤُهُ المُتَّقُونَ الذينَ اتَّقَوا لَمّا أتاهُمْ، وأولياؤُهُ المُوَحِّدونَ لا الذينَ أشْرَكُوا غَيرَهُ في عِبادَتِهِ وأُلُوهِيَّتِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معصومون. (٣) في الأصل وم: فيكم. (٤) في الأصل وم: الآيات. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أنهم إنما. (٧) في الأصل وم: صدوا.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ أحسَنُ حالِهِمُ التي هُمْ عليها هي حالَ الصلاةِ. فإذا كانَتْ[1] صلاتُهُمْ مُكاءً وتَصْدِيةً فكيفَ حالُهُمْ في غَيرِ الصلاةِ؟

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ وأصحابَهُ إذا صَلُّوا في المَسْجِدِ الحرامِ قامَتْ طائِفةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ وأصحابِهِ، فَيَصْفِرُونَ كما يَصْفِرُ المُكاءُ، وطائفةٌ تَقُومُ عَنْ يَسارِهِ، فَيُصَفِّقُونَ بأيديهِمْ لِيَخْلِطُوا على النَّبِيِّ وأصحابِهِ صلاتَهُمْ. فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ثم اخْتُلِفَ في المُكاءِ والتَّصْدِيَةِ. قالَ بَعْضُهُمْ: المُكاءُ هو مِثْلُ نَفْخِ البوقِ، والتَّصْدِيةُ هو طوافُهُمْ على الشِّمالِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: المُكاءُ الصَّفِيرُ؛ يقالُ: مَكَا يَمْكُو، وهو مِثْلُ ما قِيلَ للطائِرِ: مَكَا؛ لأنه يَمْكُو أي يَصْفِرُ؛ يَعْني يُصَوِّتُ. والتَّصْدِيَةُ هي[2] التَّصْفِيقُ؛ يقالُ: صَدَى إذا صَفَّقَ بِيَدَيْهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: المُكاءُ شِبْهُ الصَّفِيرِ، والتَّصْدِيةُ ضربٌ باليَدَيْنِ، وهو مِنَ الصَّدَى مِنَ الصوتِ. وقيلَ: المُكاءُ صَفِيرٌ كانَ أهلُ الجاهِلِيَّةِ يَلْعَبُونَ بِهِ، والتَّصْدِيَةُ الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ ودينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يومَ بَدْرٍ، وهو الهَزِيمةُ والقَتْلُ الذي كانَ عليهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ في الآخِرَةِ بكُفْرِكُمْ[3] في الدنيا.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية؛ يُذَكِّرُهُمْ، واللهُ أعْلَمُ، النِّعَمَ التي أنْعَمَها عليهِمْ:

أحَدُها[4]: ما أنْزَلَهُمْ في بُقْعَةٍ؛ خُصَّتْ تلكَ البُقْعَةُ، وفُضِّلَتْ على غَيرِها مِنَ البِقاعِ، وهي[5] مكانُ العبادَةِ.

[والثانيةُ: ما أعطاهُمْ مِنَ الأموالِ، فأنْفَقُوها في الصَّدِّ صَدِّ الإنسانِ عنْ مكانِ العِبادَةِ وإقامةِ العبادةِ فيه.

والثالثةُ: بَعْثُ الرسولِ منهُمْ فيهِمْ، فَكَذَّبُوهُ][6]

ثم اخْتُلِفَ في مَعْنَى/ ١٩٩ ـ ب/ الصَّدِّ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ كفارَ قريشٍ اسْتَأْجَرُوا لِقتالِ بَدْرٍ رجالاً مِنْ قبائِلِ العَرَبِ عَوناً لَهُمْ على قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ وأصحابِهِ. فتلكَ نَفَقَتُهُمُ التي أنْفَقُوا، فصارَ ذلكَ حَسْرَةً عليهِمْ لمَّا كانَتِ الهزيمةُ عليهِمْ.

رَوَى ابْنُ عباسٍ ﷺ، أنهُ سُئِلَ عنْ هذهِ الآيةِ، فقالَ: تلكَ قد خَلَتْ؛ إنَّ أُناساً في الجاهليَّةِ كانُوا يُعْطُونَ ناساً أموالَهُمْ، فَيُقاتِلُونَ نَبِيَّ اللهِ [فما سَلِمُوا][7] عليها، فَغُلِبوا[8]، فكانَتْ عليهِمْ [حَسْرَةً][9].

وعن سَعيدِ بْنِ جُبَيرٍ [أنهُ][10] قالَ: نزلَتْ في أبي سفيانَ بْنِ حَرْبٍ اسْتأْجَرَ يومَ أُحُدٍ مِنَ الأحابيشِ مِن كِنانَةَ، فقاتَلَهُمُ النَّبِيُّ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ [قولُهُ تعالى][11]: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يومَ القيامَةِ؛ أيِ النفقةُ التي أنْفَقُوها عليهِمْ حَسْرَةً في الآخِرَةِ لِما أنْفَقُوها لِصَدِّ الناسِ عنْ سَبِيلِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يُجْمَعُونَ إلى جَهَنَّمَ بِكُفْرِهِمْ باللهِ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى الخبيثَ مُخْتلطاً بالطِّيبِ في الدنيا في سَمْعِهِمْ وبَصَرِهِمْ ونُطْقِهِمْ وجَميعِ جوارِحِهِمْ ولِباسِهِمْ وطَعامِهِمْ وشَرابِهِمْ وجَميعِ منافِعِهِمْ مِنَ الغِنَى والفَقْرِ وأنواعِ المَنافِعِ. جَعَلَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ مُخْتَلِطِينَ[12] في الدنيا على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: بكفرهم. (٤) في الأصل وم: أحد. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: ثم صدوا الناس عن الدخول فيها والعبادة ومن ذلك بعث الرسول منهم فيهم فكذبوه وما أعطاهم من الأموار فأنفقوها في الصد صد الإنسان عن مكان العبادة وإقامة العبادة فيه. (٧) في الأصل وم: فاسلموا. (٨) في الأصل وم: فطلبوا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: مختلفين.

لكنهُ مَيَّزَ بينَ الطَّيِّبِ والخَبيثِ في الآخِرَةِ بأعلام؛ يُعْرَفُ بتلكَ الأعلامِ الخَبيثُ مِنَ الطَّيِّبِ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ في الطَّيِّبِ قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ و٢٣] وقولِهِ[1] تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس ٣٨ و٣٩]. وقالَ تعالى في الكَفَرَةِ[2]: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ و٤١] وقالَ: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وقالَ[3]: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقالَ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ الآية [طه: ١٢٤] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

مَيَّزَ اللهُ تعالى بَينَ الخَبيثِ والطَّيِّبِ بالأعلامِ[4] التي ذَكَرْنا في سَمْعِهِمْ وبَصَرِهِمْ وَوُجوهِهِمْ ولِباسِهِمْ ومَآكِلِهِمْ ومَشْرَبِهِمْ حتى يُعْرَفُوا جَميعاً بالأعلامِ.

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ التَّمْييزِ بَينَ الخَبيثِ والطَّيِّبِ بالمُباهَلَةِ التي جَرَتْ بَيْنَ أبي جَهْلٍ وبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ حينَ[5] قالَ أبو جَهْلٍ: انصُرْ أهْدانا سَبيلاً وأبَرَّنا قَسَماً وأوصَلَ رَحِماً. فَأُجيبَ، فَنَصَرَ رسولَهُ وأصحابَهُ، فَمَيَّزَ. ويَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ التَّمْييزِ في الآخِرَةِ قولَهُ[6] تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ يَجْعَلَهُمْ دَرَكاتٍ بَعْضُها أسْفَلَ مِنْ بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

والثاني[7]: يَحْتَمِلُ أن يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩ وص: ٣٨].

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ قيلَ: يَجْمَعُهُ جميعاً، بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ إخباراً عنِ الضِّيقِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣].

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي يَجْعَلَهُ رُكاماً، بَعْضَهُ[9] فوقَ بَعْضٍ، وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ؛ يُقالُ: رَكَمْتُ المَتاعَ إذا جَعَلْتُ بَعْضَهُ فوقَ بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ الجَهَنَّمُ هو المكانُ الذي يَجْمَعُ أهلَ النارِ لِلتَّعْذيبِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ذَكَرَ ﷻ غايَةَ كَرَمِهِ وجودِهِ بما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ المَغْفِرَةِ والتَّجاوُزِ عمَّا كانَ منهُمْ مِنَ الإشراكِ في ألوهِيَّتِهِ وصَرْفِ العِبادَةِ إلى غَيرِهِ وصَدِّ الناسِ عَنْ عِبادَتِهِ وطاعَتِهِ ونَصْبِ الحروبِ التي نَصَبُوا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ المُؤمِنينَ وغيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ الهَلاكِ.

فَمَعَ ما كانَ منهُمْ وَعَدَ لَهُمُ المَغْفِرَةَ بالإنْتِهاءِ مِنْ ذلكَ لِتُعْلَمَ غايَةُ كَرَمِهِ وَجودِهِ. والمَغْفِرَةُ تَحْتَمِلُ التَّجاوُزَ عَنْهُمْ ما كانَ مِنهُمْ؛ لا يُؤاخِذُهُمْ[10] بذلكَ، ويَحْتَمِلُ [أنْ يُسِرَّ][11] عليهِمْ معاصِيَهُمُ التي كانتْ[12] منهُمْ، فلا يَذْكُرُونَ ذلكَ؛ لأنهمْ لو ذَكَرُوا ذلكَ نَغَّصَ[13] عليهِمُ النِّعَمَ.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ أخْبَرَ أنهُمْ إنِ انْتَهَوا، وتابُوا، غَفَرَ لَهُمْ ما قد كانَ منهُمْ، وإنما كانُوا مُنْتَهِينَ بالإيمانِ [ولم يُجْعَلْ بَيْنَ الإيمانِ][14] والكُفْرِ مَنْزِلَةٌ ثالثةٌ، وهم يَجعلُونَ بَيْنَهما مَنْزِلَةً ثالثةً، ويقولونَ: إذا ارْتَكَبَ [المرءُ][15] كبيرةً خَرَجَ مِنَ الإيمانِ، ويُخَلَّدُ في النارِ أبداً، وإنْ[16] لم يَكُنْ داخلاً في الكُفْرِ.

وفيه دليلُ نَقْضِ قولِ مَنْ يقولُ بأنَّ على الكافِرِ فِعْلَ العِباداتِ مِنْ نَحوِ الصلاةِ والزكاةِ والصيامِ، لأنهُ ذَكَرَ الإنْتِهاءَ، والإنْتِهاءُ عمَّا كانَ مِنْ تَرْكِ العِباداتِ القيامُ بِقَضائِها، وإذا ما تَرَكُوا فَلِما لم يَجِبْ عليهِمْ أداءُ شَيْءٍ مِنْ ذلكَ. دلَّ أنْ لم يَكُنْ عليهِمْ في حالِ كُفْرِهِمْ فِعْلُ تلكَ العباداتِ، إنما عليهِمُ اعْتِقادُ تلكَ العباداتِ؛ إذْ لو كانَتْ عليهِمْ لَكانَ الإنْتِهاءُ عنها بِقَضاءِ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: الكافر. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: بأعلام. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل: كقوله. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بعضها. (١٠) من م، في الأصل يأخذهم. (١١) في الأصل: يسر، في م: يستر. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) في الأصل وم: ينغص. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: و.

ذلكَ كقولِهِ ﷺ «مَنْ نامَ عنْ صلاةٍ، أو نَسِيَها، فَعَلَيهِ أنْ يُصلِّيَها إذا اسْتَيقَظَ، وذلكَ كفارَتُهُ» [التمهيد ٣/ ٢٨٩] وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ليسَ على الفِعْلِ، ولكنْ في حَقِّ الاعْتِقادِ أنهُ لا سَبيلَ إلى القِيامِ بِفِعْلِ ما ذَكَرَ إلَّا بَعْدَ حَولٍ ووَقْتٍ طويلٍ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنْ ليسَ بَيْنَ الشِّرْكِ والإيمانِ مَنْزِلَةٌ ثالثةٌ على [ما][1] يَقولُهُ المُعْتَزِلَةُ في صاحِبِ الكبيرةِ؛ لأنهُ لو كانَ بينَ الكُفْرِ والإيمانِ مَنْزِلَةٌ لكانوا دخَلُوا في الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: وإنْ يعودوا إلى الكُفْرِ وقتالِ محمدٍ بَعْدَ أنِ انْتَهوا عنهُ فقد مَضَى كذا؛ يَعْني القتالَ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَعُودُواْ﴾ أي داموا فيهِ، لا أنْ كانُوا خَرَجُوا منهُ نحوَ قولِهِ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] كانُوا فيه لا أنْ كانُوا خرَجُوا منهُ، ثم دَخَلُوا في غَيْرِهِ.

ثم يَحْتَمِلُ وجهَينِ بَعْدَ هذا:

أحَدُهُما: أنَّ لِلْكُفْرِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ في كلِّ وقتٍ.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنَّ ذِكْرَ العَوْدِ فيهِ لِدَوامِهِمْ فيهِ، وإنْ لم يَخْرُجوا منهُ. وذلكَ جائزٌ في اللسانِ كقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ابْتِداءُ إخراجٍ مِنْ غَيرِ أنْ كانُوا فيهِ، وكقولِهِ تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢] ابْتِداءُ رَفْعٍ لا أنْ كانَتْ مَوضوعةً، فرَفَعَها مِنْ بَعْدُ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ: أي دامُوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهُما:][2] ما ذَكَرْنا مِنَ القِتالِ.

والثاني: ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الهلاكُ الذي كانَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [قيلَ: الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ؛ أي قاتِلوهُمْ حتى لا يكونَ الشِّرْكُ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾][3] ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي مِحْنَةُ القِتالِ كأنهُ قالَ: قاتِلُوهُمْ إلى الوَقْتِ الذي تَرْتَفِعُ [فيهِ][4] المِحْنَةُ، وهو يومُ القيامَةِ.

وفيه دلالةٌ لُزُومِ الجهادِ إلى يومِ الدينِ، والفِتْنَةُ هي المِحْنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحَدُهُما: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ هو الدينُ ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا نَصِيبَ لأحَدٍ فيهِ؛ وهو السَّبيلُ التي كانَتْ للشيطانِ؛ كأنهُ قالَ: وتكونُ الأديانُ التي يُدانُ بها دِيناً واحداً، وهو دينُ اللهِ الذي يُدْعَى الخَلْقُ إليهِ، وبذلكَ بَعْثُ الرُّسُلِ والكُتُبِ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني[5]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الحُكْمُ كُلُّهُ للهِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في حُكْمِ المَلِكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ قيلَ: ناصِرُكُمْ، وقيلَ: المَوْلَى المَليكُ ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نِعْمَ الناصِرُ والمُعِينُ ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وقيلَ ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولَى بِكُمْ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ / ٢٠٠ ـ أ/ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و.

التأويل: إنَّ الغنيمةَ هي التي أصابَ المُسلِمونَ مِنْ أموالِ المُشرِكينَ بالقِتالِ عَنْوةً، والفَيءُ ما يُعطونَ بأيديهِمْ صُلْحاً. والغَنيمةُ: يأخذُ الإمامُ الخُمُسَ منها، والباقي يُقسَمُ بَيْنَهُمْ، والفَيءُ يأخُذُهُ الإمامُ، فَيَضَعُهُ في مَصْلَحَةِ المُسْلِمينَ، ولَيسَ فيهِ الخُمُسُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الغنيمةُ والفَيءُ واحدٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ ذَكَرَ الخُمُسَ، ولم يَذْكُرْ أربعةَ[1] الأخماسِ أنها لِمَنْ؟ لكنَّها لِلْمُقاتِلَةِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] فكانَتِ الغَنيمةُ كلُّها لِمَنْ غَنِمَها بظاهِرِ هذِهِ الآيةِ إلّا ما اسْتَثْنَى اللهُ منها بالآيةِ الأولى، وهو الخُمُسُ. وهذا مِمَّا أجْمَعَ عليهِ أهْلُ العِلْمِ. وعلى ذلكَ تواتَرَتِ الأخبارُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعنْ صَحابَتِهِ مَوقوفَةً مِنْ بَعْدِهِ.

رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ «سُئِلَ عنِ المالِ؛ يَعْني الغَنيمةَ، فقالَ[2]: لي خُمُسُهُ، وأربَعَةُ أخماسِهِ لِهؤلاءِ» [البيهقي في شعب الإيمان ٤٣٢٩] يَعْني المُسْلِمينَ. ورُوِيَ أنهُ قَسَمَها بَيْنَ المُقاتِلَةِ؛ يَعْني أربعةَ[3] الأخماسَ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ أبا الدَّرْداءِ وعُبادَةَ بْنَ الصامِتِ والحارِثَ بْنَ مُعاوِيَةَ كانُوا جُلُوساً، فقالَ أبو الدَّرْداءِ: «أيُّكُمْ يَذْكُرُ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ حيثُ صَلَّى إلى بَعيرٍ مِنَ المَغْنَمِ، فلمَّا انْصَرَفَ، فَتَناوَلَ مِنْ وَبَرِ البَعيرِ، فقالَ: ما يَحِلُّ لي مِنْ غنائِمِكُمْ ما يَزِنُ هذِهِ إلّا الخُمُسُ، ثم هو مردودٌ فيكُمْ»؟ [النسائي ٧/ ١٣١].

وعنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ، [أنهُ][4] قالَ: كانَتِ الغَنائِمُ تُجَزَّأُ خَمْسَةَ أجزاءٍ، ثم يُسْهَمُ عليها، فلمَّا صارَ لِرسولِ اللهِ فهو لَهُ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: كانَتِ الغَنيمةُ تُقَسَّمُ على خَمْسَةِ أخماسٍ؛ أربعةٌ منها لِمَنْ قاتَلَ عليها، وغَيْرُ ذلكَ مِنَ الأخبارِ، وعلى ذلكَ اتّفاقُ الأُمَّةِ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: تُقْسَمُ على سِتَّةٍ: سَهْمٌ لِلَّهِ يُجْعَلُ في سِتْرِ الكَعْبَةِ، وسَهْمٌ لِرسولِهِ يَنْتَفِعُ بِهِ. ومنهُمْ مَنْ قالَ: يُقْسَمُ على خَمْسَةٍ: سَهْمٌ لِرَسُولِهِ وأربعةُ أخماسٍ لِمَنْ غَنِمَ. ومنهُمْ من يقولُ: تُقْسَمُ على أربَعَةٍ: سَهْمٌ لِرَسولِهِ وثلاثةُ أرباعٍ[6] لِمَنْ غَنِمَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ تَحْتَمِلُ إضافَةُ ذلكَ إلى نفسِهِ وجْهَيْنِ.

أحدُهُما: لِما جَعَلَ ذلكَ لإقامَةِ العِباداتِ وأنواعِ البِرِّ والخَيرِ والقُرَبِ التي هي للهِ، فأُضيفَتْ[7] إليهِ على ما أُضيفَتِ المساجِدُ إليهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] وإنْ كانَتِ البِقاعُ كُلُّها للهِ. وكذلكَ ما سَمَّى الكَعْبَةَ بَيتَ اللهِ وإنْ كانَتِ البُيُوتُ كُلُّها لِلَّهِ لِما جَعَلَها لإقامَةِ العباداتِ وأنواعِ القُرَبِ. فأُضيفَ إلى اللهِ ذلكَ. فَعَلَى ذلك تَحْتَمِلُ إضافَةُ ذلكَ السَّهْمِ إلى اللهِ لِما جَعَلَهُ لإقامَةِ العباداتِ والقُرَبِ وأنواعِ البِرِّ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني: أضافَ ذلك إلى نَفْسِهِ خُصوصيَّةً، ولِرَسولِ[8] اللهِ إذا كانَ ذلكَ لِرَسُولِهِ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ في جميعِ أحْوالِهِ وأُمُورِهِ للهِ خالِصاً، لم يَكُنْ لِنَفْسِهِ ولا لأحدٍ مِنَ الخَلْقِ. فَعَلَى ذلكَ جميعُ مالِهُ وما تَحْوِيهِ يَدُهُ لم يَكُنْ لهُ، إنما كانَ ذلك لِلَّهِ خالِصاً، يَصْرِفُ ذلكَ في أنواعِ القُرَبِ والبِرِّ في القرابَةِ واليَتامَى والمساكينِ وابْنِ السَّبيلِ الأحياءِ منهُمْ والأمواتِ جميعاً، والقريبِ منهُمْ والبَعيدِ جميعاً.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: «إنّا معاشِرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ. ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ»؟ [التمهيد ٧/ ١٧٥] هذا يدلُّ أنَّ ما يَتْرُكُ صَدقةٌ، لا يُورَثُ منهُ، ولو كانَ لَهُ لَتوارَثَ وَرَثَتُهُ ما يُورَثُ مِنْ غَيرِهِ. دلَّ أنَّ نَفْسَهُ ومالَهُ كانَ للهِ خالِصاً، وكذلك جميعُ أمورِهِ للهِ.

ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ كانَ يَجوعُ يوماً، ويَشْبَعُ يوماً، ويَجوعُ ثلاثاً، وكانَ يَرْبِطُ الحَجَرَ على بَطْنِهِ لِلْجوعِ؟

فإذا كانَتْ إضافَةُ ذلكَ الخُمُسِ إلى اللهِ لِخُصوصِيَّةٍ لَهُ وخُلُوصِ نَفْسِهِ ومالِهِ لهُ، وإنْ كانَتْ جَميعُ الخلائقِ وما تَحْويهِ أيدِيهِمْ للهِ حقيقةً، لكنَّ لهُمْ فيها الانْتِفاعَ وقضاءَ الحَوائِجِ والتَّدْبيرَ لأنواعِ التَّصرُّفِ في ذلك [ومُشارَكَتُهُ في غيرِ][9] ذلكَ، لم

---

(١) في الأصل وم: الأربعة. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: الأربعة. (٤) ساقطة في الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أرباعه. (٧) في الأصل وم: فأضيف. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: ومشاركة غير.

يَخْتَصّ[١] بالإضافةِ إليهِ، [وإنْ كانَ ذلكَ كلُّهُ لِلَّهِ حَقيقةً، ولِما][٢] كانَتْ نَفْسُ رسولِ اللهِ وما تَحويهِ يَدُهُ للهِ[٣] لا تدبيرَ لهُ في ذلكَ، [ولا شِرْكَ لأحدٍ فيه، خُصَّ بإضافةِ[٤] ذلكَ][٥] إليهِ [لأنَّ ذلكَ][٦] كلَّهُ لِلَّهِ حَقيقةً.

وهذا كما قالَ تعالى: واللهُ أعلَمُ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] وقالَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦] وقالَ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] خَصَّ بالذِّكْرِ مُلْكَ ذلكَ اليَوْمِ والبُروزَ لهُ لِما يَنْقَطِعُ يومئذٍ تدبيرُ جميعِ ملوكِ الأرضِ، ويَذْهَبُ سُلْطانُهُمْ عنهُمْ، ويَصْفُو البُرُوزُ لهُ، وإنْ كانَ المُلْكُ في الأحوالِ كلِّها والأوقاتِ جميعاً وكذلكَ البُرُوزُ له، والمَصِيرُ إليه، وإنْ كانَ ذلكَ راجعاً إليهِ في كلِّ الأحوالِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم ليسَ في ظاهِرِ الآيةِ دليلٌ أنَّ المُرادَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قَرابةُ رسولِ اللهِ ﷺ بل في ظاهِرِهِ دلالةُ أنهُ أرادَ بهِ قَرابةَ أهلِ السِّهامِ في ذلكَ لأنهُ خاطبَ بهِ الكُلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وظاهِرُهُ أنهُ أرادَ بهِ قُرْبَى مَنْ خاطَبَ، وكانَ الخِطابُ لَهُمْ جميعاً.

ألا تَرَى أنهُ لم يُفْهَمْ من قولِهِ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] قَرابةُ رسولِ اللهِ ﷺ ولكنْ قَرابةُ المُخاطَبِينَ؟ وكذلكَ لم يُرْجَعْ قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] إلى قَرابةِ رسولِ اللهِ بل إلى قَرابةِ المُخاطَبِينَ بهِ؟

فَعَلَى ذلكَ الظاهرُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلّا أنْ يُقالَ: أرادَ قَرابةَ رسولِ اللهِ بدلالةٍ أُخرَى سِوَى ظاهِرِ الآيةِ.

وهو ما رُوِيَ [أنهُ][٧] قَسَّمَ الخُمُسَ بَيْنَ بَني هاشم، وما رُوِيَ أنهُ قالَ: «مالي مِنْ هذا المالِ إلّا الخُمُسُ، والخُمُسُ مَرْدُودٌ فيكُمْ» [النسائي ٧/ ١٣٢] وما رُوِيَ أنَّ نَجْدَةَ [بْنَ عُوَيمِرٍ الحَرُورِيَّ][٨] كَتَبَ إلى ابْنِ عباسٍ يَسْألُهُ عَنْ سَهْمِ ذي القُرْبَى لِمَنْ هو؟ [فكَتَبَ إليهِ ابْنُ عباسٍ][٩]: هو لنا أهلَ البيتِ.

وقد كانَ عُمَرُ دعانا إلى أنْ نَنْكِحَ منهُ أيَّا مِنَّا، ونَقْضِي منه مُغْرَمَنا، فأبَيْنا إلّا أنْ يُسَلِّمَهُ إلينا، فأبَى ذلكَ علينا. فَدَلَّ فِعْلُ عُمَرَ هذا على أنَّ التأويلَ في الخُمُسِ كانَ عندَهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَصِلُ بهِ قَرابَتَهُ، ويَسُدُّ بالخُمُسِ حاجَتَهُمْ؛ إذْ كانَ جَعْلُ سُبُلِ الخُمُسِ ما ذَكَرْنا أنهُ لِلَّهِ بِمَعْنَى أنهُ يُصْرَفُ في وُجوهِ القُرَبِ إليهِ.

فلو كانَ الخُمُسُ حَقًّا بجميعِ القَرابةِ أعْطَى مِنْ ذلكَ غَنِيَّهُمْ وفَقِيرَهُمْ، وما يأخُذُهُ الأغنياءُ مِنَ الخُمُسِ فإنه لا يَجْرِي مَجْرَى الصَّدَقةِ، ولا يَجْرِي [مَجْرَى][١٠] القُرْبَةِ، فَبانَ بذلكَ أنهُ لا يُعْطَى منهُ أغنياؤُهُمْ، بل يُصْرَفُ[١١] إلى فُقَرائِهِمْ على قَدْرِ حاجَتِهِمْ؛ إذْ لم يَكُنْ لِفَقِيرِهِمْ[١٢] مَكاسِبُ سِواهُ يُوصَلُ[١٣] بها كما يكونُ لِغيرِهِ مِنَ الناسِ مِنَ المكاسِبِ وأنواعِ الحِرَفِ.

ومِمّا يَدُلُّ على أنَّ رسولَ اللهِ أعطى بَعْضَ القَرابةِ دُونَ بَعْضٍ ما رُوِيَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ [أنهُ][١٤] قالَ: لَمّا قَسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ سَهْمَ ذي القُرْبَى بَيْنَ بَني هاشِمٍ وبَني [عبدِ][١٥] المُطَّلِبِ أتَيْتُ أنا وعُثْمانُ، فَقُلْنا: يا رسولَ اللهِ هؤلاءِ بَنو هاشِمٍ، لا نُنْكِرُ فَضْلَهُمْ لِمكانِكَ الذي وَضَعَكَ اللهُ فِيهِمْ. أرأيْتَ بني [عبدِ][١٦] المُطَّلِبِ، أعطيتَهُمْ، ومَنَعْتَنا، وإنما نَحْنُ وهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ واحدةٍ؟ فقالَ: «إنهمْ لم[١٧] يُفارِقوني في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ؛ بَنُو هاشم وبَنو عبد المطَّلِبِ شيءٌ واحدٌ، وشَبَّكَ أصابِعَهُ» [أحمد ٤/ ٨١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ، بَيَّنَ أنَّ خُمُسَ الغنيمةِ يُصْرَفُ في وجوهِ البِرِّ والقُرَبِ إلى اللهِ.

ثم فَسَّرَ تلكَ الوجوهَ، فقالَ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فكانتْ تَسْمِيةُ هذهِ الأصنافِ،

---

(١) من م، في الأصل: يخص. (٢) من م، في الأصل: وإن. (٣) من م، في الأصل: الله. (٤) في م: بالإضافة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم، انظر تفسير الطبري ج ١٣/ ٥٥٥. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: له. (١٣) في الأصل وم: يصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: لا.

والله أعلَمُ، تعليماً لنا أنَّ الخُمُسَ يُصرَفُ في مَنْ ذَكَرَ مِنْ أهلِها/ ٢٠٠ ـ ب/ دونَ غيرِهِمْ. وليسَ إيجاباً منهُ لكلِّ صِنفٍ منها شيئاً مَعْلُوماً، ولكنْ بيانُ الأهلِ والمَوضِعِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية [التوبة: ٦٠].

حَمَلَ أصحابُنا ذلكَ على أنَّ الصدقةَ لا تجوزُ إلَّا لِمَنْ كانَ مِنْ أهلِ هذهِ الأصنافِ دونَ غيرِهِمْ، ولم يَحمِلُوا الأمْرَ على أنَّ لِكُلِّ صِنفٍ منهُمْ شيئاً مَعْلوماً مَحْدوداً، ولكنْ على بَيانِ أهلِها.

وعلى ذلكَ [ما][1] رُوِيَ عنْ جَماعةٍ مِنَ الصحابةِ ﷺ، منهُمْ عُمَرُ وعليٌّ وحُذَيْفَةُ وابنُ عَباسٍ وجماعةٌ مِنَ السَّلَفِ ما يَكْثُرُ عَدَدُهُمْ [أنهمْ][2] قالوا: إذا وَضَعْتَ الصَّدقةَ في صِنفٍ واحدٍ أجْزَاكَ. فلو كانَ لأهلِ كُلِّ صِنفٍ الثُّمُنُ منها كانَ المُعْطى بها صِنفاً واحداً مُخالفاً لِما أُمِرَ بِهِ.

فَعلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية مَعْناهُ، والله أعلَمُ: أنَّ الخُمُسَ الذي يُتَقَرَّبُ بِهِ مِنَ الغَنيمةِ إلى اللهِ لا يَستَحِقُّهُ إلَّا الرسولُ ومَنْ كانَ مِنَ الأصنافِ التي ذَكَرَه. فإلى أيِّهِمْ دَفَعَ ذلكَ الخُمُسَ أجزَأَهُ. وإذا كانَ التأويلُ ما وَصَفْنا لم يكُنْ لأحدٍ مِنْ هذِهِ الأصنافِ أنْ يَدَّعِيَ منهُ خُمُساً أو رُبعاً، ولكنْ يُعطى كلُّ مَنْ حَضَرَ منهُمْ بِقَدْرِ فاقَتِهِ وحاجَتِهِ وعلى قَدْرِ يَراهُ الإمامُ.

فإذا جاء فريقٌ آخرونَ أُعْطُوا ممَّا يُدفَعُ إلى الإمامِ مِنْ ذلكَ الخُمُسِ مِنَ المالِ كِفايَتَهُمْ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عُمَرَ أنَّ ابنَ عَباسٍ قال: كانَ عُمَرُ يُعْطِينا مِنَ الخُمُسِ نَحْواً ممَّا كانَ يَرَى أنهُ لنا، فَرَغِبْنا عنْ ذلكَ، وقُلْنا: حَقُّ ذي القُرْبى خُمُسُ الخُمُسِ، فقالَ عُمَرُ: إنما جَعَلَ اللهُ الخُمُسَ لأصنافٍ سَمَّاها. [فأسْعَدَ بِهِ][3] أكثرَهُمْ عَدَداً وأشَدَّهُمْ فاقةً، فأخذَ ذلكَ ناسٌ، وتَرَكَهُ ناسٌ.

وكذلكَ فَعَلَ عُمَرُ لمَّا وُلِّيَ الأمْرَ، [وهو][4] ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ؛ قالَ: عَرَضَ علينا عُمَرُ أنْ يُزَوِّجَ مِنَ الخُمُسِ أيِّمَنا، ونَقْضِيَ منهُ مَغْرَمَنا، فَأَبَيْنا عليهِ إلَّا أنْ يُسَلِّمَهُ إلينا، فأبى ذلكَ علينا. فَدَلَّ فِعلُ عُمَرَ على أنَّ القرابةَ يُعطَونَ مِنَ الخُمُسِ قَدْرَ حاجَتِهِمْ وما يَسُدُّ بِهِ فاقَتَهُمْ؛ إذْ لو كانَ الخُمُسُ حقًّا بجميعِ القرابةِ أُعْطِيَ مِنْ ذلكَ غَنِيُّهُمْ وفَقِيرُهُمْ لِقِسْمَةِ رسولِ اللهِ ﷺ فِيهِمْ كما قَسَّمَ أربعةَ الأخماسِ بَينَ المُقاتِلَةِ، بل أعطى منهُ بَعْضَ القَرابةِ، وحَرَمَ بَعضاً لِما ذَكَرْنا في جُبَيرِ بْنِ مُطْعِمٍ.

ومِمَّا يدلُّ أيضاً على أنَّ ذلكَ لأهلِ الحاجةِ منهُمْ دونَ الكُلِّ ما رُوِيَ أنَّ الفَضلَ ابْنَ عباسٍ [وربيعةَ بنَ عبدِ المطلبِ][5] دَخَلا على رسولِ اللهِ ﷺ وهو يومئذٍ عندَ زينَبَ بنتِ جَحْشٍ، فقال [أحدُهما][6]: يا رسولَ اللهِ أنتَ أبَرُّ الناسِ وأوصَلُ الناسِ، وقد[7] بَلَغْنا النِّكاحَ، فَجِئْناكَ لِتُؤَمِّرَنا على هذِهِ الصدقاتِ، فَنُؤَدِّيَ إليكَ ما يُؤَدِّي العُمَّالُ، ونُصِيبَ منها ما يُصِيبونَ، فَسَكَتَ طويلاً حتى أرَدْنا [أنْ نعلِمَهُ ثانياً، قالَ: وجَعَلَتْ][8] زينبُ تُلْمِحُ إلينا منْ وراءِ الحجابِ ألَّا[9] تُكَلِّماهُ، ثم قالَ «ألا إنَّ الصَّدَقَةَ لا تَنْبَغِي لآلِ محمدٍ؛ إنما هي أوساخُ الناسِ، ادْعُو لي مَحْمِيَّةَ، وكانَ على الخُمُسِ، ونَوْفَلَ بْنَ الحارِثِ بْنِ عبدِ المطلبِ، فجاءَاهُ، فقالَ لِمَحْمِيَّةَ: أنْكِحْ هذا الغلامَ [الفَضلَ ابْنَتَكَ][10] فأنْكَحَهُ، وقالَ لنوفَلَ: أنْكِحْ هذا الغُلامَ [يعني ربيعَةَ بْنَ عبدِ المطلبِ][11] ابْنَتَكَ، فأنْكَحَهُ، ثم قالَ لِمَحْمِيَّةَ: [أَصْدِقْ عنهما][12] مِنَ الخُمُسِ كذا وكذا» [مسلم ١٢، الزكاة ٥١ رقمه ١٠٧٢] ودلَّ هذا على أنَّ الحقَّ لهمْ فيهِ لأهلِ الحاجةِ منهُمْ.

ومما يَدُلُّ أيضاً على ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «ما لي منْ هذا المالِ إلَّا الخُمُسُ، وهو مردودٌ فيكُمْ» [النسائي ٧/ ١٣٢] لم يَخُصَّ القرابةَ بِشيءٍ منهُ؛ كانَ سَبيلُهُمْ سَبيلَ أمْرِ المُسْلِمينَ، يُعْطِي مَنْ يحتاجُ منهُمْ كِفايَتَهُ.

وعلى هذا ما[13] أمَرَ بِهِ الأئمَّةُ الراشدونَ[14]، ولم يُغَيِّرْهُ عليٌّ ﷺ لمّا وُلِّيَ الأمْرَ. وكانَ ذلكَ عندَنا ممَّا لا يَجوزُ مُخالَفَتُهُمْ عليهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أسعدهم بها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وفلان. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: ولو. (٨) في الأصل وم: ثانيا وم: ثانيا حتى. (٩) في الأصل وم: أنه. (١٠) في الأصل وم: ابنتك المفضل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أصدقهما. (١٣) في الأصل وم: مما. (١٤) في الأصل وم: الراشدين.

فإنْ قِيلَ: لو كانتْ قَرابةُ النَّبِيِّ ﷺ إنما يُعطونَ مِنَ الخُمُسِ على سَبيلِ الفَقْرِ والحاجةِ فهمْ على هذا يدخُلُونَ في عُمومِ المساكينِ في ما وَجْهُ ذِكْرِهِ إيَّاهُمْ إذا قِيلَ: إنَّ اللهَ، تباركَ، وتعالى، قالَ في الصَّدَقاتِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ثم رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][1] قال: «لا تَحِلُّ الصدقةُ لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ» [مسلم: ١٠٦٩] فلو لم يُسَمِّهِمُ[2] اللهُ في الخُمُسِ جازَ أنْ يقولَ قائلٌ: لا يُعْطَونَ مِنَ الخُمُسِ، وإنْ يكونُوا فُقراءَ، كما لا يجوزُ أنْ يُعطَوا مِنَ الصدقةِ، ولو كانوا فُقراءَ، فكانُوا سَبَبَ ذِكْرِ اللهِ إيَّاهُمْ في الخُمُسِ لذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم اخْتَلَفَ أهلُ العِلْمِ بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ، في سَهْمِ الرسولِ وسَهْمِ ذي القُرْبَى، فقالَتْ طائفةٌ: سَهْمُ الرسولِ لِلْخَليفةِ مِنْ بَعْدِهِ، وسَهْمُ ﴿وَلِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ لِقرابةِ الخَليفةِ. وقالَتْ طائفةٌ: سَهْمُ القُرْبَى لِقرابةِ الرسولِ، وقالَ الحَسَنُ: سَهْمُ القَرابةِ لِقَرابةِ الخُلفاءِ. وقالَ غيرُهُ[3]: القَرابةُ قَرابةُ رسولِ اللهِ.

وقد ذَكَرْنا أنهُ يَحْتَمِلُ أنهُ كانَ لهُ [أنْ][4] يَصِلَ بِهِ قرابتَهُ بِحَقِّ الصِّلَةِ، أو يُعْطِيَهُمْ بِحَقِّ القَرابةِ مادام حيًّا. ثم ثَبَتَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا نُورَثُ، وما تَرَكْنا صَدَقَةٌ» [التمهيد ٧/ ١٧٥] فإذا لم يُورَثْ عنهُ ما قد حازَهُ مِنْ سِهامِهِ فكيفَ يُورَثُ عنهُ ما غُنِمَ بَعْدَ وفاتِهِ؟

ولو كانَ سَهْمُهُ الذي لم يَلْحَقْهُ مَوروثاً عنهُ كانَ سَهْمُهُ الذي حازَهُ أحرَى ألّا يُورَثَ عنهُ. فإذا لم يُورَثِ الذي قد حازَهُ، مَلَكَهُ عنهُ الآخَرُ، واللهُ أعلَمُ.

وعنْ عائشةَ أنَّ فاطمةَ والعباسَ أَتَيَا أبا بَكْرٍ يَلْتَمِسانِ مِيراثَهُما مِنْ رسولِ اللهِ، وهما حينئذٍ يَطْلُبانِ أرضَهُ مِنْ فَدَكٍ وسَهْمَهُ مِنْ خَيبَرٍ، فقالَ لهم أبو بكرٍ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لا نُورَثُ، ما تركنا صَدَقةٌ» إنما يأكُلُ آلُ محمدٍ في هذا المالِ أي حقِّ الغنائِمِ. واللهِ لا أدَعُ أمراً رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَصْنَعُهُ إلّا أصنَعُهُ. وفي بعضِ الأخبارِ قالَ: «لا يَقْتَسِمُ وَرَثَتي ديناراً ولا درهماً، ما تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ عاملي ومُؤْنَةِ نسائي فهو صدقةٌ» [مسلم ١٧٦٠].

وعنْ عُمَرَ [أنهُ][5] قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُنفِقُ مِمَّا أفاءَ اللهُ عليهِ سُنَّةً، ويَجْعَلُ ما بَقِيَ مالَ اللهِ. ورُوِيَ أيضاً عنهُ [أنهُ][6] قالَ: كانَتْ أموالُ بَني النَّضِيرِ مِمَّا أفاءَ اللهُ على رسولِهِ، وكانَتْ لهُ خالصةً[7]. وكانَ يُنْفِقُ منها على أهلِهِ نَفَقَةَ سُنَّةٍ، وما بَقِيَ جَعَلَهُ في الكُراعِ والسلاحِ.

فهذهِ الأخبارُ تُبَيِّنُ أنهُ لم يُورَثْ سَهْمُ النَّبِيِّ بَعْدَ وفاتِهِ؛ فهيَ تدلُّ على أنْ لا نَقْدَ بَعْدَ موتِ النَّبِيِّ مِنْ خُمُسِ الغنائِمِ للخليفةِ شيءٌ[8]، وأنَّ ذلكَ كانَ خُصوصاً لرسولِ اللهِ ﷺ كالصَّفِيِّ الذي كانَ لهُ خاصةً دونَ غيرِهِ.

وكما لم يُوجِفْ عليهِ المُسْلِمُونَ بِخَيلٍ ولا رِكابٍ، فكانَ لهُ خاصّةً، فليسَ لأحدٍ لِغَيرِ النَّبِيِّ ﷺ خُصوصٌ مِنَ الخُمُسِ كما ليسَ لهُ خُصوصٌ مِنَ الصَّفِيِّ وغَيرِهِ.

وإذا كانَ الأمْرُ في سَهْمِ الرسولِ كما وصَفْنا، ولم يُنْقَصْ مِنَ الخُمُسِ هو للهِ بَعْدَ مَوتِ النَّبِيِّ، ويُخْرَجْ ذلكَ الخُمُسُ كلُّهُ مِنَ الغنيمةِ، فذلكَ يدلُّ على أنَّ الخُمُسَ ليسَ لأهلِ هذهِ السهامِ حقًّا مَقْسوماً، ولكنْ يُعْطَونَ منهُ بِقَدْرِ فاقَتِهِمْ. ويدلُّ ذلكَ أيضاً على أنهُ لا يَجِبُ لِكلِّ صِنْفٍ منْ هذهِ الأصنافِ سَهْمٌ معلومٌ؛ لأنا قد رَدَدْنا سَهْمَ النَّبِيِّ مِنَ الخُمُسِ على سائِرِ السهامِ.

فكما جازَ أنْ يُرَدَّ عليهِمْ سَهْمُ النَّبِيِّ، فكذلكَ يجوزُ أنْ يُجْعَلَ سَهْمُ اليَتامَى أو بَعْضُهُ لِلْمَساكِينِ إذا حَضَرُوا، وطلبُوا، ولم يَحْضَرِ اليَتامَى؛ لأنَّ المَعْنَى في الآيةِ، واللهُ أعْلَمُ، ألّا يُعْطَى إلّا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ هذهِ الأصنافِ. فقد وُضِعَ الحَقُّ في مُوضِعِهِ، ولم يُتَعَدَّ بِهِ إلى غَيرِهِ.

ثم الخِطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ لا يَحْتَمِلُ كُلًّا في نَفْسِهِ كالخطابِ بأداءِ الزكاةِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يسهم. (٣) من م، في الأصل: غير. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة في الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: خالصاً. (٨) في الأصل وم: شيئاً.

وغيرِها، بلِ الخِطابُ راجعٌ إلى الجماعةِ الذينَ غَنِمُوا. ألَا تَرَى أنَّ العَسْكرَ والسَّرايا إذا دَخَلُوا/ ٢٠١ ـ أ/ دارَ الحربِ، فَتَفرَّقُوا فيها، فَغَنِمَ واحدٌ منهُمْ، يَجبُ ضمُّ ذلكَ إلى جميعِ العَسْكرِ والسَّرايا، فَعِنْدَ ذلك يُخرَجُ الخُمُسُ منهُ؟ دلَّ أنَّ الخطابَ بذلكَ راجعٌ إلى جماعةٍ، وهيَ الجماعةُ التي لهمْ مَنَعَةٌ، يقُومونَ للعَدُوِّ، لا أنهُ خاطَبَ كلَّ أحدٍ في نَفْسِهِ، فهذا يدلُّ على أنَّ الواحدَ أوِ الاثنَيْنِ إذا دَخَلَ[1] دارَ الحربِ بغَيرِ إذنِ الإمامِ، فَغَنِمَ غنائِمَ، لا يُخَمَّسُ ولكنْ يُسَلِّمُ الكُلَّ.

وأما الغنيمةُ نَفْسُها لا يَحْتَمِلُ أنْ تُرْجَعَ إلى أحدٍ مَعْلومٍ أو مِقْدارٍ محدودٍ كالزكاةِ وسائرِ الحقوقِ؛ لأنَّ الغنيمةَ شيءٌ يُؤْخَذُ مِنَ الكَفَرَةِ، وإنما يُؤْخَذُ قَدْرَ ما يُظْفَرُ بهِ، ويُوجَدُ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَرْجِعَ الخطابُ بهِ إلى قَدْرٍ دونَ قدرٍ، بل القليلُ مِنْ ذلكَ والكثيرُ سَواءٌ، لا حَدَّ في ذلكَ، ولا مقدارَ، وليسَ كالزكاةِ وغَيرِها مِنَ الحقوقِ التي جَعَلَ فيها حَدًّا ومقداراً للوَجْهِ الذي ذَكَرْنَا. وأمَّا المُصيبونَ لها والآخِذونَ فَلَهُمْ في ذلكَ مقدارٌ، وهُمُ الذينَ لهمْ مَنَعَةٌ.

ثم تُذْكَرُ مَسْألَةٌ في قِيمةِ السِّهامِ بينَ الرَّجَّالةِ والفُرسانِ، وإنْ لم يكُنْ في الآيةِ ذِكْرُ ذلكَ. رُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ [أنهُ][2] قالَ: أعطَى رسولُ اللهِ ﷺ يومَ خَيْبَرِ الراجلَ سَهْماً والفارسَ ثلاثةَ أسْهُمٍ: سَهْماً له ولِفرسِهِ سَهْمَينِ. وعن ابنِ عباسٍ ﷺ، [أنهُ][3] قالَ: أسْهَمَ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ خَيبَرَ: للراجِلِ سَهْماً، وللفارِسِ ثلاثةَ أسْهُمٍ: سَهْماً لهُ وسَهْمَيْنِ لِلْفَرَسِ. ثم رُوِيَ أيضاً عنِ ابنِ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقْسِمُ للفارسِ سَهْمَيْنِ ولِلراجِلِ سَهْماً[4] وعنِ المقدادِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أسْهَمَ لهُ يومَ بَدْرٍ سَهْماً ولِفَرَسِهِ سهماً. وعنْ عليٍّ [أنهُ][5] قالَ: لِلفارِسِ سَهْمانِ. وعنِ المُنْذِرِ [أنه][6] قالَ: بَعَثَهُ عُمَرُ في جَيْشٍ إلى مصرَ، فأصابَ[7] غنائِمَ، فَقَسَمَ لِلفارِسِ سَهْمَيْنِ[8].

وفي قولُ بعضِهِمْ: أَسْهِمَ لِلفارسِ سَهْمانِ[9] اختلافٌ وتَضادٌّ، فَحَمَلُوا على التناسُخِ. وقد يجوزُ ألَّا يكونَ ذلكَ، وقد تكونُ زيادتُهُ التي زادَها[10] للفَرَسِ على سَهْمٍ، إنْ كانَ محفوظاً ثابتاً لِنَفْلٍ نَفَلَهُ لِلأفراسِ حينئذٍ ترغيباً منهُ لِلْمُقاتِلَةِ في اتِّخاذِها وتَحريضاً كما يجوزُ أنْ يقولَ الإمامُ: مَنْ قَتَلَ قتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ، ومَنْ جاءَ برأسٍ كذا فَلَهُ كذا؛ يُحَرِّضُ بذلكَ المُقاتِلَةَ على[11] القِتالِ. فَعَلَى ذلكَ زيادةُ سَهْمٍ لمكانِ الأفراسِ تَرغيباً منهُ وتحريضاً على اتِّخاذِها. فأمَّا إنْ كَثُرَتِ الأفراسُ فإنَّ سُهْمانَها لا تكونُ أكْثَرَ منْ سُهْمانِ أصحابِها؛ لأنَّ الفارسَ أكْثَرُ غِنًى مِنْ فَرَسِهِ، فإنْ لم يَزِدْ عليهِ لم يُنْقِصْ عمَّا يُسْهِمُ.

وكانَ أبو حنيفَةَ، رحمَهُ اللهُ، يُسْهِمُ للفارسِ سَهْمَيْنِ، وأبو يوسفَ يَرَى أنْ يُسْهِمَ لِلْفَرَسِ سهمَينِ ولصاحِبِهِ سَهْماً[12].

والحُجَّةُ في ذلكَ بقولِهِ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] فكانَتْ [نَخْلُ بَني][13] النَّضِيرِ خالصةً لِرَسولِ اللهِ، ولم يكُنْ لِمَنْ حَضَرَها مِنَ المُسْلِمينَ شيءٌ، إذْ لم يُوجِفُوا عليها بِخَيلٍ ولا رِكابٍ، وقد أتَوها مُشاةً. فلما مُنِعَ الرَّجَّالةُ مِنَ السُّهْمانِ لاسْتِغْنائِهِمْ في غُنْمِها[14] عنِ الخَيلِ جازَ أنْ تُزادَ الخيلُ في السُّهْمانِ على سُهْمانِ الرَّجالةِ إذا كانَ الرَّجَّالةُ[15] يُمْنَعُونَ السهامَ، وإنْ حَضَرُوا، إذا لم يَلْجَؤُوا إلى ركوبِ الخَيلِ.

لكنَّ الحُجَّةَ على هذا ما ذَكَرْنا أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ لم يُحارِبُوا بَني[16] النَّضِيرِ فُرساناً ولا رَجَّالَةً، ولو احتاجُوا إلى الحربِ لاحْتاجُوا إلى الخيلِ. فَمِنْ حَيثُ [لم][17] يُحارِبُوا عليها لم يَسْتَحِقُّوا منها شَيئاً. وإنما [ذَكَرَ لنا][18] اللهُ تعالى سُهولَةَ[19] أمرِها، وأنهُمْ لم يُحارِبُوا عليها خَيلاً ولا رِكاباً. وإذا لم يُحارَبْ على مَدينةٍ، فَغَنِمُوا مالاً[20]، فهو مَصروفٌ في مَصالِحِ المُسْلِمينَ، لا تُجْرَى فيهِ السِّهامُ. فكانَتْ [نَخْلُ بَني][21] النَّضِيرِ على ما ذُكِرَ خالِصةً لِلنَّبِيِّ يأخُذُ منها نَفَقَةَ نِسائِهِ، ويَصْرِفُ سائِرَها إلى مَصالِحِ المُسْلِمينَ.

ومِنَ الدليلِ على أنَّ [بَني][22] النَّضِيرِ لوِ احْتِيجَ فيها إلى حربٍ حارَبَهُمُ النَّبِيُّ وأصحابُهُ رَجَّالَةً جَرَتْ في غنائِمِهِمْ

---

(١) في الأصل وم: دخلوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: سهم. (٥) ساقطة في الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فأصابه. (٨) في الأصل وم: سهمان. (٩) في الأصل وم: سهمين. (١٠) في الأصل وم: زادته. (١١) في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: بسهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فتحها. (١٥) في الأصل وم: الرجال. (١٦) في الأصل وم: على. (١٧) ساقطة في الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: ذكرنا. (١٩) في الأصل وم: على سهولة. (٢٠) في الأصل وم: بمال. (٢١) ساقطة من الأصل وم. (٢٢) ساقطة من الأصل وم.

القِسْمَةُ؛ إنَّ قوماً مِنَ المُسْلِمينَ لو حارَبُوا اليَومَ على مدينةٍ مِنْ مدائِنِ الشِّرْكِ رَجَّالَةً قُسِمَ ما يُغْنَمُ منها كما يُقْسَمُ لو كانَ معهمْ فرسانٌ.

ومِنَ الدَّليلِ على ذلكَ أيضاً أنَّ الرَّجالَةَ إذا كانُوا معَ الفرسانِ في الحَرْبِ قُسِمَ كما يُقْسَمُ لِلفارِسِ خاصَّةً. فلو كانَتِ الغنيمةُ إنما تُقْسَمُ لِسَبَبِ الخَيْلِ على ما أُعْطِيَ الرَّجَّالةُ منها شيئاً؛ إذْ لا أفْراسَ لَهُمْ. وذلك يُفْسِدُ ما ذَكَرْنا لأبي يوسف.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ قالَ بعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣ والأنفال: ٣٩] ثم قالَ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٠] أي وإنْ تُولُّوهُمْ، وقد آمِنْتُمْ أنتمْ فاعْلَمُوا أنَّ اللهَ مولاكُمْ، ليسَ بِمَولًى لَهُمْ.

وقالَتْ طائفةٌ: قولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ ليسَ على الشرطِ على ألّا تكونَ غنيمةٌ إذا لم يكونوا مؤمِنِينَ، ولا يَجِبُ في العَدْلِ في القِسْمَةِ إذا كانُوا غَيرَ مؤمِنِينَ، ولكنْ على التَّنْبِيهِ والإيقاظِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ليسَ على أنهُ لا يَجِبُ أنْ يَذَرُوا إذا كانُوا مؤمِنِينَ، ولا يَجِبُ أنْ يُطِيعُوا إذا لم يكونُوا مؤمِنِينَ، ولكنْ على ما ذَكَرْنا، فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الملائكةَ الذينَ أرْسَلَهُمْ يومَ بَدْرٍ لِنُصْرَةِ المؤمِنينَ، وأنْزَلَ عليهِمُ المَطَرَ حتى شَدَّ الأرضَ بذلكَ، فاسْتَقَرَّتْ أقدامُهُمْ، وثَبَتَتْ بَعْدَ ما [لا][1] تَقِرُّ الأقدامُ فيها، ولا تَثْبُتُ، وشَرِبُوا منهُ، ورَوُوا، بعدَ ما أصابَهُمُ العَطَشُ؛ إذْ كانَ المُشْرِكُونَ أخذُوا الماءَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ. وقولُهُ ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يومَ فَرَّقَ بَينَ الحقِّ والباطِلِ؛ لأنهُ ﷺ، جَعَلَ يَوْمَ بَدْرٍ آيَةً حينَ[2] غَلَبَ المُؤمِنونَ المُشْرِكينَ مع قلةِ عَدَدِهِمْ وضَعْفِ أبدانِهِمْ وفَقْدِ الأسبابِ التي بها يُحارَبُ، ويُقاتَلُ، وكَثْرَةِ العَدُوِّ وقُوَّتِهِمْ وَوُجودِ أسبابِ الحَرْبِ والقتالِ لِيَعْلَمُوا أنهمْ غَلَبُوا أولئكَ، وهَزَمُوهُمْ، بِنَصْرِ اللهِ إيّاهُمْ. فكانَ آيَةَ فَرْقِ المُحِقِّ منهُمْ والمُبْطِلِ.

وقيلَ: هو يَومُ الفُرْقانِ ويَومُ الجَمْعِ، جَمْعِ النَّبِيِّ والمؤمِنينَ وجَميعِ المُشْرِكينَ، ويَومُ الافْتِراقِ افْتِراقِ المشركينَ مِنَ المؤمنينَ انهزامُهُمْ. وهو كما سَمَّى يَومَ القيامةِ يَومَ الجَمْعِ في حالٍ ويَومَ الافْتِراقِ في حالٍ أُخرَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: العُدْوَةُ القُصْوَى: شَفيرُ الوادي الأقْصَى والعُدْوةُ الدنيا شَفيرُ الوادي الأدنَى. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: العُدْوةُ الشَّفيرُ شَفيرُ الوادي.

وقالَ أبو عَوسَجةَ العُدْوةُ ناحِيةُ الوادي التي تَلِيهِمْ، وقالَ: إنما سُمِّيَتِ الدنيا، لأنها دنَتْ منها، والآخِرَةُ لأنها استأخَرَتْ. وقيلَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ: إذْ أنْتُمْ بالعُدْوَةِ العليا، وهُمْ بالعُدْوَةِ السُّفْلى. وقالَ أبو مُعاذٍ: العُدْوةُ والعَدْوَةُ لُغَتانِ، والرَّكْبُ والرُّكْبانُ والرُّكّابُ والراكِبونَ لُغَةٌ. وقالَ: في حَرْفِ حَفْصَةَ: إذْ أنْتُمْ بالعُدْوَةِ القُصْيَا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إذْ أنتمْ مَعْشَرَ المؤمنينَ بالعُدْوَةِ الدُّنْيا مِنْ دُونِ الوادي على الشَّطِّ ممّا يَلي المدينةَ ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ من الجانِبِ الآخَرِ ممّا يَلي مكةَ؛ يعني مُشْرِكي مكةَ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني أصحابَ العِيرِ على ساحِلِ البَحْرِ أو على الماءِ. وقالَ قتادةُ: جَمَعَ اللهُ المُشْركِينَ والمُسْلِمينَ بِبَدْرٍ على غَيرِ مِيعادٍ عندَ[4] شَفيرِ الوادي. كانَ المُسْلِمونَ/ ٢٠١ - ب/ بأعلاهُ، والمشركونَ بأسفَلِهِ: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أبو سفيانَ انْطَلَقَ بالعِيرِ في رَكْبٍ نَحْوَ البَحْرِ[5]. وقِيلَ: إذْ أنْتُمْ [بأدْنَى مِنَ][6] المدينةِ، وهم بأقْصَى مما يلي مكةَ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل: عز وجل، في م، وقوله عز وجل. (٤) في الأصل وم: هما. (٥) في الأصل وم: الحرب. (٦) في الأصل وم: باد في.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ إمَّا للخُروجِ نَفْسِهِ وإمَّا لِلْميعادِ نَفْسِهِ؛ أتَخْرُجونَ، أو لا تَخْرُجونَ؟ أو منكمْ مَنْ يُؤَخِّرُ الخُرُوجَ عنْ وقْتِ الميعادِ، ومنْكُمْ منْ لا يَخْرُجُ رأساً لِيَنْقَضِيَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ يَحْتَمِلُ[1] لِيُنْجِزَ اللهُ ما كانَ وَعَدَ مِنَ الظَّفَرِ والنَّصْرِ، أو لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كانَ في عِلْمِهِ مَفْعُولاً، لا أنَّ ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ كأنهُ قالَ: وَعَدَ اللهُ [أمراً، كانَ][2] مفعولاً أي مُنْجزاً.

ولا[3] يَحْتَمِلُ القضاءُ ابْتِداءَ إنشاءٍ وخَلْقٍ، ولكنْ لِيُنْشِئَ اللهُ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً، أو لِيَحْكُمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ: ليكفُرَ مَنْ كَفَرَ عن بَيِّنَةٍ وحُجَّةٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ على الحقِّ، وكانَ صادِقاً، ويؤمِنَ من آمنَ على مِثْلِ ذلكَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه، [أنهُ][4] قالَ: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ قالَ: لِيموتَ منْ ماتَ عن بَيِّنَةٍ ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ يقولُ: عنْ بَيانٍ وحُجَّةٍ. وهو، واللهُ أعلَمُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد كانَ أتاهُمْ بآياتٍ حِسِّيَّةٍ، فَسَمُّوهُ ساحراً، وأخبَرَهُمْ بأنباءٍ ماضيةٍ، كانتْ[5] في كُتُبِهِمْ، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] وقالُوا: إنهُ مُعَلَّمٌ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُخالِفُهُمْ في جميعِ صَنيعِهِمْ: منْ عبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ دونَ اللهِ، وكانَ يُخَوِّفُهُمْ، ويوعِدُهُمْ بأشياءَ، وكانَ لا يخافُهُمْ، وهم كانُوا رؤساءَ كُبراءَ، لا يُخالِفُهُمْ أحدٌ في أمْرِهِمْ ونَهْيِهِمْ إلَّا مَنْ كانَ بهِ جنونٌ.

فلمَّا رَأوا رسولَ اللهِ خالَفَهُمْ في جميعِ أمورِهِمْ نَسَبُوهُ إلى الجُنونِ، وقالُوا: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات ٣٩ و٥٢] ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] فأرادَ اللهُ أنْ يَجْعَلَ لهُ آيةً عظيمةً حتى لا يَقْدِرُوا [على نسبتِهِ][6] إلى شَيْءٍ مِمَّا كانُوا يَنْسِبُونَهُ مِنْ قَبْلُ، فَوَعَدَ لهمُ النصرَ والفتحَ يَومَ بدرٍ بَعْدَ ما عَلِمَ أولئكَ ضَعْفَ المؤمنينَ وقلةَ عَدَدِهِمْ لِتكونَ حياةُ مَنْ حيَّ بَعْدَ ذلكَ عنْ بَيِّنَةٍ، وموتُ منْ ماتَ على مِثْلِ ذلكَ، وإنْ كانَ لهُ مِنَ الآياتِ ما لو لم يُعانِدُوا، ولا كابَرُوا عقولَهُمْ لَكانَتْ واحدةٌ منها كافيةً.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في ذِكْرِ القصةِ منْ أوَّلِها إلى آخِرِها، وهم قد عَلِمُوا ذلكَ كُلَّهُ، وشاهَدُوا؟ قيلَ: يُذَكِّرُهُمُ اللهُ، واللهُ أعلَمُ، بالحالِ التي كانُوا هُمْ عليها والقوةِ والأسبابِ، لئلَّا[7] يَكِلُوا إلى الكَثْرَةِ، ولا يَعْتَمِدُوا على القوةِ، ولا يَضْعُفُوا، ولا يَجْبُنُوا، ولا يَخافُوا غيرَهُ، لِيَعْرِفُوا أنَّ ما أصابَهُمْ مِنَ الهزيمةِ والغَلَبَةِ أصابَهُمْ لِمَعْصِيَةٍ كانَتْ منهُمْ أو إعجاباً بالكَثْرَةِ واعْتِقاداً بالقُوَّةِ والأسبابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ المَنامُ نفسُهُ؛ كانَ اللهُ يُرِي رسولَهُ المشركينَ في مَنامِهِ قليلاً، فأخبَرَ [رسولُ][8] اللهِ بذلكَ أصحابَهُ بما رأى، فقالُوا: رُؤيا النَّبِيِّ حقٌّ [والقومُ قليلٌ][9] ليسَ كما بَلَغَنا أنهُمْ كثيرٌ. فلمَّا الْتَقَوا بِبَدْرٍ قَلَّلَ اللهُ المشركينَ في أعيُنِ المؤمنينَ تَصديقاً لِرُؤْيا رسولِ اللهِ.

وقال الحَسَنُ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي في عَيْنَيْكَ التي تنامُ بهما، وهو في اليَقَظَةِ؛ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ قالَ: رسولُ اللهِ ﷺ: «تنامُ عيني، ولا ينامُ قَلْبي» [البخاري ٣٥٦٩] وإنما أراهُ إيَّاهُمْ قليلاً في العينِ [التي بها ينامُ، وهما][10] عَينا الوجهِ.

---

(١) أدرج قبلها في م: لا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: التي.
(٦) في الأصل وم: بالنسبة. (٧) في الأصل وم: لكن بالله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: القوم قليل، في م: القوم قليلاً.
(١٠) في الأصل وم: الذي به ينام وهو.

وَيَدُلُّ على ذلكَ ما رُوِيَ عن ابنِ مَسْعودٍ[1] ﷺ، [أنهُ][2] قالَ: لقد قُلِّلُوا في أعيُنِنا يومَ بَدْرٍ حتى قُلْتُ لِصاحِبٍ لي: تَراهُمْ سَبْعِينَ؟ فقالَ: أراهُمْ مِئةً حتى أخَذْنا رجلاً منهم، فسألْناهُ، فقالَ: كُنّا ألفاً.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا الثانيَ أنهُ أراهُمْ ورسولَهُ[3] قليلاً في اليَقَظَةِ بالذي [يَراهُ النائمُ][4] فهو ظاهرٌ، فإنْ أراهُ إيّاهُمْ في المنامِ حَقِيقةً فلِقائِلٍ أنْ يقولَ: إنَّ رُؤيا الرسولِ وَحْيٌ، فكيفَ أراهُ إيّاهُمْ قليلاً، وهُمْ كثيرٌ، خِلافَ ما هُمْ في الحقيقةِ؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أراهُ بعضَهُمْ لا الكُلَّ، فهو حقيقةُ ما أراهُ إيّاهُمْ. فلذلكَ قِيلَ: واللهُ أعلَمُ، جائزٌ أنْ يكونَ أرَى أصحابَهُ إيّاهُمْ قليلاً، وإنْ أضافَ ذلكَ إلى رسولِ اللهِ.

دليلُهُ ما ذَكَرَ في آخِرِهِ حيثُ قالَ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ أنْ يُخاطِبَ بهِ رسولَهُ، والمرادُ غيرُهُ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] ومعلومٌ أنَّ نزولَ هذِهِ الآيةِ بعد وفاةِ والديهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي لَجَبُنْتُمْ، ولَتَنازَعْتُمْ في الأمرِ، أي [اخْتَلَفْتُمْ في أمرِ][5] القتالِ والحربِ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ قيلَ: ﴿سَلَّمَ﴾ أتَمَّ[6] للمسلمينَ أمرَهُمْ على عَدُوِّهِمْ، فَهَزَمَهُمْ، ونَصَرَهُمْ عليهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿سَلَّمَ﴾ أي أجابَ للمسلمينَ لمَّا اسْتَغاثُوا، واسْتَنْصَرُوهُ، بالنصرِ والظَّفَرِ لهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عَليمٌ بما في قلوبِ المؤمنِينَ مِنَ الجُبْنِ والفَشَلِ وأمرِ عَدُوِّهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الآيةَ لمَّا رأَوُا الملائكةَ لأنفُسِهِمْ أنصارًا وأعواناً؛ إذ كانَ قد وَعَدَ لَهُمُ النصرَ والإعانةَ بالملائكةِ وكانَ العَدُوُّ معَ الملائكةِ، فاسْتَقَلُّوا [العَدُوَّ][8] لأنَّ العَدُوَّ، وإنْ كانوا كثيراً، فهمْ قليلٌ مع الملائكةِ، فَرَأَوهُمْ قليلاً على ما كانوا. وقَلَّلَ هؤلاءِ في أعيُنِ أولئكَ؛ لأنهمْ كذلكَ[9] كانوا قليلاً، فَرَأَوهُمْ[10] على ما كانُوا، ولم يَرَوُا الملائكةَ. وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: قَلَّلَ هؤلاءِ في أعيُنِ هؤلاءِ، وهؤلاءِ في أعينِ هؤلاءِ إذِ التَقَوا لِيُغْرِيَ بَعْضَهُمْ على بعضٍ، ولِيُجَرِّئَ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ على القتالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ لِيُنْجِزَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ النَّصْرِ والظَّفَرِ للمؤمنِينَ والغَلَبَةِ والهزيمةِ على أولئكَ. وكذلكَ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] في بَدْرٍ فيهِ وَعَدَ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ﴾ أي لِيَخْلُقَ اللهُ، ويُنْشِئَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً، أو لِيَفْصِلَ بينَ الحَقِّ والباطِلِ ممَّا قد عَلِمَ أنه يكونُ كائناً.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ﴾ في عِلْمِهِ ﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً؛ يقولُ، فَيُوجِبُ أمراً، لابُدَّ [أنهُ][11] كائنٌ لِيُعِزَّ الإسلامَ وأهلَهُ بالنَّصرِ، ويُذِلَّ الشِّرْكَ وأهلَهُ بالقَتْلِ[12] والهزيمةِ، واللهُ أعلمُ. وهو قريبٌ مما ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى][13]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى اللهِ يَرْجِعُ تدبيرُ الأمورِ وتقديرُها[14]؛ إذْ لهُ التدبيرُ في ذلك في الدنيا والآخِرَةِ.

وذُكِرَ [في][15] بعضِ القصةِ أنَّ أبا جَهْلٍ لمَّا رَأى قِلَّةَ المُؤْمنِينَ بِبَدْرٍ قالَ: واللهِ لا يُعْبَدُ اللهُ بَعْدَ اليومِ، فأكْذَبَهُ اللهُ، وقَتَلَهُ، فقالَ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى الخَلْقِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: عباس. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: اخلفتم. (٦) في الأصل وم: وأتم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: لذلك. (١٠) في الأصل وم: فَرَأَوا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل، بالنصر. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وتقديره. (١٥) في الأصل وم: أمر.

وأمْرُ بدرٍ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ كانَ آيةً حتى عَرَفَ كُلُّ أحدٍ ذلكَ إلَّا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ عقلَهُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ قيلَ: الفِئةُ اسْمُ جَماعةٍ يُنحازُ إليها، وهو مِنَ الفَيْءِ والرجوعِ، يَفيئونَ إليها، ويَرْجِعُونَ. ذَكَرَ ههنا الفِئةَ، وذَكَرَ في الآيةِ التي تَقَدَّمَتْ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ مكانَ الفِئةِ، ونَهَى أولئكَ عنْ تَوليَةِ الأدبارِ بقولِهِ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] وقالَ ههنا: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لِيُعلَمَ أنَّ في النَّهْيِ عَنْ تَولِيَةِ الأدبارِ أمْراً[1] بالثباتِ/ ٢٠٢ ـ أ/ وفي[2] الأمْرِ بالثباتِ نَهياً[3] عنْ تولِيَةِ الأدبارِ [بقولِهِ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] وقالَ ههنا: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾][4] فيكونُ في النَّهْيِ عنِ الشيءِ أمْرٌ بِضِدِّهِ، والأمْرُ بالشيءِ نَهْيٌ عنْ ضِدِّهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الكَيسانِيُّ: قولُهُ ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أيِ اذْكُرُوا اللهَ في ما تَعَبَّدَكُمْ مِنْ طاعَتِهِ، ووَعَدَكُمْ مِنْ نَصْرِهِ، ولا تَنْظُرُوا إلى الكَثْرَةِ فَتَظْفَرُوا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ في ما لَكُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ وأموالِكُمْ لهُ، إنْ شاءَ أخذَها منكُمْ بوجهٍ تَتَقَرَّبُونَ بهِ إلى اللهِ، فاذْكُرُوا اللهَ على ذلكَ، وهو ما ذَكَرَ [في][5] قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآيةَ [التوبة: ١١١].

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في النِّعَمِ التي أنْعَمَها عليكُمْ. أو يقولُ: اذكُرُوا المُقامَ بينَ يَدَي ربِّ العالَمينَ، وذلكَ يمنَعُكُمْ[6] مِنَ المَعاصي والخِلافِ لأمْرِهِ وبُغْضِ ما يُرَغِّبُكُمْ عنْ طاعَتِهِ، فيكونُ على هذا التأويلِ الأمْرُ بِذِكْرِ الأحوالِ.

ويَحْتَمِلُ الأمْرَ بِذِكْرِ اللهِ باللسانِ، وذلكَ بَعْضُ ما يُسْتَعانُ بهِ في أمْرِ الحربِ ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالنَّصْرِ والظَّفَرِ، ﴿تُفْلِحُونَ﴾ أي تَظْفَرُونَ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أطِيعُوا اللهَ في ما يَأْمُرُكم بالجِهادِ والثباتِ مع العَدُوِّ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في ما يأمُرُكُمْ بالمُقامِ في المكانِ والثباتِ وتَرْكِ الاخْتِلافِ والتَّنازُعِ في الحَرْبِ، وذلكَ بَعْضُ ما يُسْتَعانُ بهِ في أمرِ الحَرْبِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ أي لا تُنازِعُوا رسولَ اللهِ ﷺ في ما يأمُرُكُمْ بهِ، وعمَّا يَنْهاكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦] لأنكُمْ إذا تنازَعْتُمْ اختَلَفْتُمْ، فإذا اختَلَفْتُمْ تفرَّقْتُمْ، فإذا تفرَّقْتُمْ فَشِلْتُمْ، وجَبُنْتُمْ، فلا تُنْصَرُونَ، ولا تَظْفَرُونَ على عدوِّكُمْ [بل يَظْفَرُ بكُمْ عدوُّكُمْ][7].

أو يُقالُ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ لأنكُمْ إذا تنازَعْتُمْ تباغَضْتُمْ، فَيَشْغَلُكُمُ التَباغضُ بأنْفُسِكُمْ، فيبقى الجهادُ مَعَ العَدُوِّ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَصْرُكُمْ وظَفَرُكُمْ، وقالَ بَعْضُهُمْ: يَذْهَبُ ريحُ دَولتِكُمْ، ويَحْتَمِلُ الريحَ التي بها تُنْصَرُونَ.

وعلى ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ» [البخاري ١٠٣٥] وهو ما [ذَكَرَ اللهُ تعالى][9] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ أي اصْبِرُوا لِلْجِهادِ لِقِتالِ عدوِّكُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنَّصْرِ لَهُمْ والظَّفَرِ.

وفي هذهِ الآيةِ تأديبٌ مِنَ اللهِ المؤمنينَ، وتَعْليمٌ منهُ في ما ذَكَرْنا؛ أي في أمْرِ الحَرْبِ وأسبابِ القتالِ والمُجاهَدَةِ مَعَ العَدُوِّ؛ لأنهُ أمَرَهُمْ بالثباتِ، وأمَرَهُمْ بِذِكْرِ اللهِ، ونَهاهُمْ عنِ التَّنازُعِ والاخْتِلافِ، وذلكَ بعضُ ما يُسْتعانُ بهِ في الانْتِصارِ على عَدُوِّهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: أمر. (٢) الواو ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: نهي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: بالذي. (٧) في الأصل: ظفر بكم عدوكم، في م: بل ظفر بكم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: وم: ذكرنا.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قولُهُ ﴿بَطَرًا﴾ أي كُفْراً بِنِعَمِ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل: ١١٢] فَعَلَى ذلكَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ كُفْراً بأنْعُمِ اللهِ، لأنهُمْ خَرَجُوا إلى قِتالِ محمدٍ، وهو منْ أعظَمِ نِعَمِ [اللهِ][1]، كُفْراناً وتكبُّراً؛ أي خَرَجُوا مُتَكَبِّرِينَ كافِرِينَ.

و[قولُهُ تعالى][2]: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ تحتمِلُ مُراآتُهُمْ وجهَين.

أحدُهُما: مُراآتُهُمْ في الدِينِ لأنهُمْ قالُوا: اللَّهُمَّ انصُرْ أهْدانا سَبيلاً وأوصَلَنا رَحِماً وأقرانا ضَيفاً، وعندَهُمْ[3] أنهمْ على حَقٍّ، وأنَّ المؤمِنينَ على باطلٍ.

والثاني[4]: مُراآتُهُمْ في أمرِ الدنيا لأنهُمْ كانُوا أهلَ ثروةٍ ومالٍ وأهلَ عُدَّةٍ وقُوَّةٍ؛ خَرَجُوا مُرائينَ الناسَ؛ لأنهُمْ[5] كانُوا أهلَ الشرفِ عندَهُمْ، فخرجُوا لِمُراآةِ الناسِ.

[وقولُهُ تعالى][6] ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يَصُدُّونَ الناسَ عنْ دينِ اللهِ. أخبَرَ ﷺ، عن خروجِ أولئكَ الكَفَرَةِ أنهُمْ خَرَجُوا لِما ذُكِرَ، فكانَ فيهِ أمْرٌ لِلمؤمِنينَ بالخروجِ على ضِدِّ ذلكَ، كأنهُ قالَ: اخْرُجُوا على ضِدِّ ما خَرَجُوا هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [فيهِ وجهانِ]:

أحدُهما[7]: عِلْمُهُ محيطٌ بهِمْ، لا يغيبُ عنهُ شيءٌ مِنْ مكائِدِهِمْ وحِيَلِهِمْ والمكرِ برسولِ اللهِ لِلدَّفعِ[8] عنهُ والنصرِ لهُ.

والثاني: محيطٌ بما يَعْمَلُونَ، يَجْزِيهِمْ، ويُكافِئُهُمْ، ولا يَفوتُ عنهُ شيءٌ على الوعيدِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ بالوَساوِسِ، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وإنما قالَ لَهُمْ هذا، ووَسْوَسَ لهمْ لَمَّا ألقِيَ إليهِمْ أنكُمْ حَرَمُ اللهِ وسُكَّانُ بيتِهِ وحُفَّاظُهُ. فيقولُ: يدفعُ عنكُمْ نكبةَ هؤلاءِ؛ يعني أصحابَ محمدٍ، كما دَفَعَ عنكُمْ في ما كانَ منْ قَبْلُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ قيلَ: مُجيرٌ لكُمْ مُغيثٌ. فعلَى هذا التأويلِ كانَ قولُهُ ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ كأنَهُ يُخبِرُ عنِ اللهِ أنهُ يُغيثُهُمْ كما أغاثَهُمْ مِنْ قَبْلُ في غيرِ مَرَّةٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ الشيطانَ تَمَثَّلَ في صورةِ رجلٍ، يُقالُ لهُ سُراقَةُ بْنُ مالكِ بْنِ جَعْشَمٍ، فأتاهُمْ، فقالَ: لا تَرجِعوا حتى تَسْتَأصِلُوهُمْ، فإنكمْ كثيرٌ، وعَدُوُّكُمْ قليلٌ، فَيَأمَنَ غيرُكُمْ، ونَحْوَ هذا منَ الكلامِ.

وقالَ صاحبُ التأويلِ الأوَّلِ: لا يَحْتَمِلُ هذا لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا جَبابِرَةً، وأهلَ قوةٍ وبَطْشٍ وبأسٍ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يَصْدُرُوا لآراءِ رجلٍ، هو دونَهُمْ، وهم بالوصفِ الذي ذَكَرْنا. وعلى هذا التأويلِ أنهُ تَمثَّلَ بهِ فلانٌ يكونُ قولُهُ ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ أبا جَهْلٍ وأصحابَهُ اعتَزَلُوا، واستَشاروا في ما بَيْنَهُمْ، فأتاهُمْ إبليسُ مُتَمَثِّلاً بِسُراقَةَ، فامْتَنَعُوا عنهُ، واستَأخَرُوا. فلما رأى ذلكَ منهمْ، فقالَ: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ وكانَ جاراً لهمْ. فتأويلُ هؤلاءِ أشبهُ بما ذُكِرَ في آخِرِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي رَجَعَ مستأخِراً مُقْبِلاً بوجهِهِ[9] إليهم ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقبَ. قيلَ: رأى جبريلَ معَ الملائكةِ يَنْزِلُونَ، فخافَ منهُمْ. ففيهِ دلالَةٌ أنهُ كانَ يخافُ الهلاكَ قبلَ اليومِ[10] المعلومِ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ المشركونَ ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. وعنِ الحسنِ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [أنهُ][11] قالَ: هُمْ قومٌ لم يَشْهَدُوا القِتالَ يومَ بَدْرٍ، فَسُمُّوا منافِقينَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وتحتمل. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: وقوله: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: في الدفع. (٩) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يوم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قوماً كانوا أسْلَمُوا بمكةَ، فأقاموا بها معَ المُشركينَ، ولم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ، فلمَّا خرجَ كُفَّارُ مكةَ إلى بدرٍ خرجَ هؤلاءِ مَعَهُمْ. فلمَّا عايَنُوا قلةَ المؤمنينَ وضَعْفَهُمْ شَكُّوا في دينِهِم، وارْتابُوا، فقالوا[1]: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يَعْنُونَ أصحابَ محمدٍ.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فَيَثِقْ بوَعدِهِ في النَّصرِ ببدرٍ [رَغْمَ قولِهِمْ][2] ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

قالوا[3]: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ لأنهُ لم يكُنْ معهمْ عُدَّةٌ ولا أسبابُ الحربِ مِنَ السلاحِ وغيرِهِ، فلم يكونوا يُقاتلونَ إلّا لقوةِ دِينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. إنْ[4] قِيلَ لنا: ما الحكمةُ في ذِكْرِ قولِ المنافِقِينَ في القرآنِ حتى نَتْلُوَهُ في الصلاةِ؟ قيلَ: ذِكْرُهُ[5] واللهُ أعلَمُ، لِنَعْرِفَ عظيمَ منزلةِ الدينِ وخَطيرَ قَدْرِهِ في قلوبِهِمْ؛ أعني قلوبَ المؤمنينَ، وذلكَ أنهُمْ بذلُوا أنْفُسَهُمْ لِلْهَلاكِ لِخروجِهِمْ لقتالِ عَدُوِّهِمْ مَعَ ضَعْفِهِمْ وكَثْرَةِ أعدائِهِمْ وقوتِهِمْ رجاءَ أنْ يَسْلَمَ لَهُمْ دينُهُمْ. يَذْكُرُ لنا لِنَعْرِفَ عظيمَ محلِّ الدِّينِ في قلوبِهِمْ ليكونَ مَحَلُّ الدينِ في قلوبِنا على مِثْلِ قَدْرِهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ لأنهمْ إنما قالوا ذلكَ سِرًّا في ما بَيْنَهُمْ، فأطْلَعَ اللهُ رسولَهُ على ذلكَ، لِيُعْلَمَ أنهُ عَرَفَ باللهِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ/ ٢٠٢ ـ ب/ المشركونَ. قالَ المنافقونَ والمشركونَ [عنِ المؤمنينَ][6] ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ وقالَ بَعْضُهُمْ: همْ قومٌ أسلَمُوا، وقد كانوا ضُعَفاءَ في الإسلامِ والدينِ، فلمَّا خرجوا إلى بدرٍ فَرأوا ضَعْفَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وقوةَ أولئكَ القومِ قالُوا عندَ ذلكَ: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. وقد ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ قوماً كانُوا أسلَمُوا بمكةَ، ثم أقامُوا مع المشركينَ، ولم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ، فلمَّا خَرَجَ كُفَّارُ مكةَ إلى قِتالِ بدرٍ خَرَجَ هؤلاءِ مَعَهُمْ. فلمَّا عايَنُوا قِلَّةَ المسلِمينَ شَكُّوا في دينِهِمْ، وارْتابُوا، فقالُوا مع المُنافِقِينَ: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يَعْنُونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مِنَ المؤمنينَ، فَيَثِقْ بِهِ في النصرِ [رَغْمَ قولِهِمْ][7] ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يَجِيءُ أنْ يكونُوا[8] هُمُ المنافقينَ[9] على ما فَسَّرَهُ في آيةٍ أُخرَى. فإنْ كانَ على ذلكَ فيَكونُ على إسقاطِ الواوِ؛ وكأنهُ يقالُ: يقولُ المنافقونَ الذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ المنافقينَ هُمُ الذينَ أضمَرُوا الكُفْرَ حقيقةً والذينَ لم يُضْمِرُوا الكُفْرَ، لكنهمُ ارتابُوا، وشَكُّوا، واعْتَرَضَهُمْ[10] شَكٌّ وارتيابٌ مِنْ بعدِ أنْ[11] رَأَوا تأَخُّرَ الموعودِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ.

أحدُهُما: قالُوا: غَرَّ المَوعُودُ الذي وَعَدَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الفُتوحِ لهمْ والنصرِ في الدنيا. يقولونَ: غَرَّ ذلكَ الموعودُ الذي كانوا بهِ مِنَ الفتوحِ والنصرِ الذي وَعَدَ لهمْ.

والثاني: يقولونَ: غَرَّ هؤلاءِ المَوعودُ الذي وُعِدُوا في الآخِرَةِ مِنَ النَّعِيمِ الدائمِ والحياةِ الدائمةِ.

فيكونُ أحدُ التأويلَينِ بالمَوعودِ في الآخِرَةِ، وهو بالإسلامِ يكونُ، والثاني بالمَوعودِ في الدنيا، وهو الفَتْحُ والنَّصْرُ الذي ذَكَرْناهُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: لقولهم. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: للمؤمنين. (٧) في الأصل وم: لقولهم. (٨) في الأصل وم: يكون. (٩) في الأصل وم: المنافقون. (١٠) في الأصل وم: واعترض. (١١) في الأصل وم: إذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ لَمَّا رأوا أنهمْ تَرَكُوا آباءَهُمْ وجميعَ شَهَواتِهِمْ، وبذَلُوا أنْفُسَهُمْ لِلقتالِ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ، لذلكَ قالُوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ لِما لم يكُنْ خُرُوجُهُمْ وبذلُهُمْ أنفسَهُمْ لذلك إلّا إشفاقاً وخَوفاً على دِينِهِمْ؛ وطَلَبُوا لَمَّا بذلُوا أنفُسَهُمْ حياةَ الأبَدِ في الآخِرَةِ، فقالوا ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أيِ اعْتَمَدَ على اللهِ في حربِ بدرٍ على ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ والنصرِ فيهِ.

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ العزيزُ في هذا المَوضعِ هو الغالِبُ ﴿حَكِيمٞ﴾ ممَّا أمَرَ بالقَتْلِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ قال بعضُهُمْ: الآيةُ مُقابِلَةٌ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧] يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يَقْبِضُ أرواحَ الذين كَفَرُوا؛ كيفَ يَقبِضونَ أرواحَهُمْ؟ وكيفَ ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾؟ كأنهُ قالَ: واللهُ أعْلَمُ، لو رأيتَ الحالَ التي يَقْبِضُ فيها [الملائكةُ][(١)] أرواحَهُمْ وما يَنْزِلُ [بِهِمْ][(٢)] لَرَأيتَ أنَّ ما عَمِلُوا مِنْ صَدِّ الناسِ عنْ سبيلِ اللهِ واسْتِكبارِهِمْ على المؤمِنينَ وخُروجِهِمْ لقتالِ أصحابِ رسولِ اللهِ أنَّ ما عَمِلُوا بأنفُسِهِمْ لا بالمؤمنين.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ فِعْلِ الملائكةِ يومَ بدرٍ؛ لأنَّ الآيةَ ذُكِرَتْ في قصةِ بدرٍ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في كُلِّ كافرٍ أنَّ الملائكةَ يَفْعَلُونَ بهِ ما ذُكِرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣] هذا في كلِّ كافرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ لَيسَ على إرادةِ حَقيقةِ الوجهِ والدُّبُرِ، ولكنْ على إرادةِ إيصالِ الألمِ إليهِمْ بكلِّ ضَرْبٍ وكُلِّ جِهَةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: ١٦] لَيسَ على إرادةِ التَّحتِ والفَوقِ ولكنْ على إرادةِ إحاطةِ العذابِ بِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ﴾ في إقبالِهِمْ [على][(٣)] المؤمنينَ ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ في حالِ إدبارِهِمْ وانْهِزامِهِمْ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ذَكَرَ تقديمَ اليدِ، وإنْ كانَ الكُفْرُ مِنْ عَمَلِ القَلْبِ، لِما باليدِ يُقَدَّمُ في العُرْفِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ في[(٤)] الآيةِ دلالةُ الرَّدِّ على المُجْبِرَةِ لأنهمْ لا يجعلُونَ للعبيدِ في أفعالِهِمْ صُنْعاً، يجعلونَ حقيقةَ الأفعالِ للهِ.

وذَكَرَ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فلو لم لهمْ صُنْعٌ لم يكُنْ لقولِهِ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ مَعْنًى، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فلو لم يكنْ لَهُمْ لَكانَ التَّعذيبُ ظُلْماً. دَلَّ أنَّ لَهُمْ فِعْلاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ في ما شَرَعَ مِنَ القتالِ والإهلاكِ والتعذيبِ في الآخِرَةِ؛ لأنهُ مَكَّنَ لهمْ ما يكسَبُونَ بهِ مِنَ النجاةِ والحياةِ الدائمةِ، فما لَحِقَهُمْ ممَّا ذُكِرَ إنما كانَ باكتسابِهِمْ واختيارِهِمْ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: صنيعُ هؤلاءِ أي صنيعُ أهلِ مكةَ بمحمدٍ كَصَنيعِ فِرْعَونَ وقومِهِ بموسى في التكذيبِ والكُفْرِ بآياتِهِ. وقالَ قائلونَ: صُنْعُ اللهِ بأهلِ مكةَ بالعقوبةِ كصنيعِهِ بِفِرْعَونَ وآلِهِ ومَنْ سَبَقَ مِنَ الأُمَمِ مِنَ الإهلاكِ والتعذيبِ. وقد فَعَلَ بأهلِ مكةَ يومَ بَدْرٍ بِسوءِ معامَلَتِهِمْ محمداً[(٥)] [وقولُهُ تعالى][(٦)]: ﴿كَدَأۡبِ﴾ قِيلَ: كصنيعِ، وقِيلَ: كَفِعْلِ، وقِيلَ: كأشباهِ، وقِيلَ كَعَمَلٍ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي لا يُضْعِفُهُ شيءٌ، يَمْنَعُهُ عمَّا يُريدُ.

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفي. (٥) في الأصل وم: موسى. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ العَذابُ والعِقابُ الذي ذَكَرَهُ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

قالَ قائلونَ: النعمةُ التي أَنْعَمَها عليهِمْ همُ الرسلُ الذينَ[1] بَعَثَهُمْ إليهِمْ والكُتُبُ التي أنْزلَها عليهِمْ ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ لتلكَ النِّعَمِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [مِنَ التكذيبِ][2] والرَّدِّ وتَرْكِ القبولِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [القصص: ٥٩].

وقالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي حتى يَصْرِفُوا شُكْرَ نِعْمَةٍ إلى غيرِ اللهِ، ويَعْبُدُوا[3] دونَهُ؛ أي يُغَيِّرُوا[4] ما بأنفسهم؛ يَعْبُدُونَ غيرَ اللهِ، ويَشْكُرُونَ غيرَ الذي أَنْعَمَ عليهِمْ. فعندَ ذلكَ يُغَيِّرُ[5] اللهُ ما بِهِمْ مِنَ النِّعْمَةِ. وكذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ: [تغييرًا][6] نِعمةٍ مِنَ النِّعَمِ أنْ يَتَوَلَّوا[7] عنْ شُكْرِها يُغَيِّرُها اللهُ عليهِمْ، ويأخُذُها منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: النعمةُ الدُّنياوِيَّةُ: لا تَتَغَيَّرُ تلكَ عليهِمْ إلا بتَغْييرٍ مِنْ قِبَلِهِمْ: إمَّا بتَرْكِ الشُّكْرِ[8] وإمَّا بِصَرْفِهِ إلى غيرِ الذي أنْعَمَها عليهِمْ، ولو غُيِّرَتْ عليهِمْ بِبَدَلٍ فَلَيسَ ذلكَ في الحقيقةِ تَغْييرًا[9].

[والثاني: تَحْتَمِلُ النعمةُ [النعمةَ][10] الدينيَّةَ؛ وهي[11] تكذيبُهُمُ الرسلَ وردُّهُمُ الكُتُبَ بَعْدَما أقْسَمُوا أنهم يكونونَ ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] واختيارُهُمُ الشِّرْكَ والكُفْرَ على الإسلامِ والتوحيدِ. فإذا اختارُوا تَغْييرَ[12] ذلكَ غَيَّرَ عليهِمْ][13].

[وقولُهُ تعالى][14]: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قِيلَ: أي ﴿سَمِيعٌ﴾ لِشُكْرِ مَنْ يَشْكُرُهُ، ويَحْمَدُهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ لِزيادةِ النِّعْمَةِ إذا شَكَرَ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي مُجيبٌ عليهِمْ بِمَصالِحِهِمْ./ ٢٠٣ ـ أ/ ويَحْتَمِلُ أنهُ ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما أَسَرُّوا مِنَ القَوْلِ، وجَهَرُوا بهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أضْمَرُوا مِنَ العَمَلِ والشُّرورِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ فإنْ قِيلَ: ما فائدةُ تخصيصِ ذِكْرِ آلِ فِرْعَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ؟ وما الحكمةُ في تكرارِ قولِهِ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ ذِكْرُ آلِ فِرْعَوْنَ لِما كانُوا أقْرَبَ إلى هؤلاءِ مِنْ غيرِهِمْ مِمَّنْ كانَ قَبْلَهُمْ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾؟ [المزمل: ١٥] وأنهُ[15] يَذْكُرُ أهلَ الكتابِ منهُمْ لِما كانوا يُنْكِرُونَ بَعْثَ الرسلِ مِنْ غيرِهِمْ، ويقولونَ: إنَّ محمداً أُمِّيٌّ بُعِثَ إلى الأُمِّيِّينَ مِثْلِهِ؟ فقالَ: إنَّ موسَى لم يَكُنْ مِنَ القِبْطِ، فَبُعِثَ رسولاً إليهِمْ. فَعَلَى ذلكَ محمدٌ كانَ أُمِّيًّا، فَبُعِثَ إلى الأُمِّيِّينَ وغيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وأما فائدةُ التَّكْرارِ، واللهُ أعلَمُ، فهو[16] أنهُ ذَكَرَ في الآيةِ الأُولَى الأخْذَ بالذنوبِ والتعذيبِ، ولم يُبَيِّنْ ما كانَ ذلكَ العذابُ، فَبَيَّنَ في الآيةِ الأُخْرَى أنَّ ذلكَ العذابَ هو الإهلاكُ والاسْتِئْصالُ حينَ[17] قالَ: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٢] في الآخِرَةِ بِكُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ في الدنيا، وذَكَرَ في إحْدَى[18] الآيتينِ العذابَ في الآخِرَةِ، وفي الآيةِ الأُخْرَى الإهلاكَ في الدنيا.

---

(١) في الأصل: التي. (٢) في الأصل وم: بالتكذيب. (٣) في الأصل وم: ويعبدون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٥) في الأصل وم: غير. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تولوا. (٨) في الأصل وم: الشرك. (٩) في الأصل وم: تغيير. (١٠) ساقطة في الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) في الأصل وم: التغيير. (١٣) أدرج هذا الوجه في الأصل وم: بعد العبارة: وأخذها منهم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وأن. (١٦) في الأصل وم: وهو. (١٧) في الأصل وم: حيث. (١٨) من م، في الأصل: أحد.

ولأنهُ ذَكَرَ في الآيةِ الأُولى الكُفرَ بآياتِ اللهِ، ولم يُبيِّنْ ذلك [وذكرَ][1] في الآيةِ الأُخرى التكذيبَ بآياتِهِ. فَبيَّنَ أنَّ[2] الكُفرَ بآياتِهِ هو تكذيبُها.

ثم التكذيبُ إنما يكونُ في الأخبارِ، وكذلكَ التصديقُ. وفيهِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ هو التصديقُ لأنهُ جَعَلَ مقابِلَهُ وضِدَّهُ التكذيبَ. وفيهِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ لَيسَ هو المَعْرِفَةَ لأنَّ مقابِلَهُ الجهلُ باللهِ، لَيسَ هو التكذيبَ، لكنْ بالمعرفةِ يكونُ التصديقُ، وبالجهْلِ يكونُ التكذيبُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ذَكَرَ ههنا أنَّ ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] هُمْ شَرُّ الدَّوابِّ حينَ[3] سَمِعُوا الآياتِ والحَقَّ، وعَقَلُوها، فلم يُؤمِنُوا بها؛ أي لم يَنْتَفِعُوا بما عَقَلُوا ممَّا وَقَعَ في مَسامِعِهِمْ وممَّا دَرَسُوا كَمَنْ لا سَمْعَ لهُ، ولا لِسانَ. نَفَى عنهُمْ ذلكَ لِما لم يَنْتَفِعُوا بما عَقَلُوا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في الآخِرَةِ؛ أي[4] يُبْعَثُونَ يومَ القيامَةِ عندَ اللهِ صُمًّا بُكماً لِما لم يَنْتَفِعُوا في الدنيا بهذِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ الآية [الإسراء: ٩٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي شَرُّ مِنَ ﴿ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أخبَرَ أنَّ الذينَ كَفَرُوا باللهِ، وكَذَّبُوا بآياتِهِ أضَلُّ مِنَ الأنعامِ. وقد ذَكَرْنا فائدةَ قولِهِ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ في مَوضِعِهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي شَرَّ مَنْ يَدُبُّ على وجهِ الأرضِ مِنَ المُمْتَحَنِينَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ثم يكونُونَ[5] بهذا الوَصْفِ إذا خُتِمُوا بالكُفرِ وتَرْكِ الإيمانِ.

ثم اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَ في بَني قُرَيظَةَ؛ عاهَدُوا رسولَ اللهِ، ثم أعانُوا مُشركي مكةَ على رسولِ اللهِ بالسلاحِ وغيرِهِمْ، فأقالَهُمْ رسولُ اللهِ، وكانُوا يقُولُونَ: نَسِينا، وأخطأنا، ثم عاهَدَهُمْ ثانيةً، فَنَقَضُوا العَهْدَ.

الآية ٥٦ فذلكَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ نَقْضَ العَهْدِ، أو ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَ قولُهُ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ في المَرَدَةِ والفراعِنَةِ مِنَ الكفارِ؛ كانوا عَقَلُوا ما سَمِعُوا، ودَرَسُوا، ولكنْ غَيَّرُوها، فلم يُؤمِنُوا بهِ.

على هذا حَمَلَ أهلُ التأويلِ تأويلَ الآيةِ، وإلى ما ذَكَرْنا صَرَفُوا[6]. وإلَّا صَرْفُ الآيةِ إلى أهلِ النِّفاقِ أولَى؛ لأنهُمْ هُمُ المَعْرُوفُونَ بِنَقْضِ العَهْدِ مَرَّةً[7] بَعْدَ مَرَّةٍ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ قِيلَ: تَأسِرَنَّهُمْ في الحربِ، وقِيلَ: تَلْقَيَنَّهُمْ في الحربِ، وقِيلَ: تَجِدَنَّهُمْ في الحربِ. ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ قِيلَ: نَكِّلْ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ؛ أيِ اصْنَعْ بِهِمْ ما يُنَكِّلُونَ مَنْ خَلْفَهُمْ، أي يَمْنَعُونَ، وقِيلَ: فَعِظْ بهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أي مَنْ سِواهُمْ.

الآيةُ نَزَلَتْ في قومٍ؛ عَلِمَ اللهُ أنهُمْ لا يُؤمنونَ، وكانَ مِنْ عادَتِهِمْ نَقْضُ العَهْدِ، فأمَرَ[8] ﷺ رسولَهُ أنْ يُنَكِّلَ بِهؤلاءِ[9] ليكونَ ذلكَ عِبْرَةً وزَجْراً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، إنْ لم يَكُنْ ذلكَ لهمْ زجراً، فيكونُ في تنكيلِ هؤلاءِ مَنْفَعَةً لِغيرِهِمْ إذا رَأَى غَيرُهُمْ أنهُ فَعَلَ بهؤلاءِ ما ذُكِرَ. يكونُ ذلكَ زَجراً لهمْ عنْ مِثْلِ صَنِيعِهِمْ.

ولهذا؛ ما قالَ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] مَنْ رَأَى أنهُ بهِ امْتَنَعَ عنْ قَتْلِ آخَرَ، فيكونُ في ذلكَ حياةُ الخَلْقِ، وكذلكَ ما جَعَلَ مِنَ القتالِ ونَصْبِ الحربِ في ما بَيْنَهُمْ رَحْمَةً؛ لأنَّ في الطباعِ النِّفارَ عنِ القَتْلِ. فإذا رأى أنهُ يُقْتَلُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج في الأصل قبلها: هم. (٥) من م، في الأصل: يكون. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: ومرة. (٨) في الأصل وم: فأمرهم. (٩) في الأصل وم: هؤلاء.

بِتَرْكِهِ الإسلامَ أجابَ إلى اللهِ إشفاقاً على نَفْسِهِ وخَوفاً على تَلَفِ مُهْجَتِهِ، فيكونُ في القتالِ رَحْمةٌ. وكذلكَ جميعُ ما جَعَلَ اللهُ في ما بَيْنَ الخَلْقِ مِنَ العقوباتِ في النَّقْضِ. وما دونَ النَّفسِ جَعَلَ زواجِرَ وموانِعَ عنِ المُعاوَدَةِ إلى مِثْلِهِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ عِظَةً وزَجْراً لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لكي يذكُرُوا[1] النَّكالَ فلا يَنْقُضُوا العَهْدَ. وكذلكَ كُلُّ مَرغوبٍ في الدنيا ومَرهوبٍ جَعَلَ دَواعِيَ وزواجِرَ لِمَوعودٍ في النارِ، وجَعَلَ كُلَّ لذيذٍ وشَهِيٍّ في الدنيا داعياً لِما وَعَدَ في الآخِرَةِ، وكُلَّ كَريهٍ وقَبيحٍ زاجِراً لهُ عنِ المَوعودِ في الآخِرَةِ في النارِ. على هذا بِناءُ أمْرِ الدنيا. والتَّشريدُ قالَ أبو عُبَيْدَةَ: معناهُ مِنَ التَّفْرِقَةِ؛ أي فَرِّقْ بِهِمْ.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي افْعَلْ بِهِمْ فِعْلاً مِنَ العُقوبَةِ والتَّنْكيلِ، يَتَفَرَّقُ بِهِ مَنْ وراءَهُمْ مِنَ الأعداءِ. وقالَ[2]: ويُقالُ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ سَمِّعْ بِهِمْ بلغةِ قُرَيشٍ، وقيلَ: [نَكِّلْ بِهِمْ أي اجْعَلْهُمْ][3] عِظَةً لِمَنْ وراءَهُمْ وهو ما ذَكَرْنا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّنْكيلُ: التَّخويفُ والرَّدُّ عَمَّا يُكْرَهُ، والنَّكالُ العذابُ. وقالَ غيرُهُ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي اخْلُفْهُمْ بِهِمْ بما صَنَعَ هؤلاءِ.

وقالَ أبوعُبَيْدٍ: التَّشريدُ في كلامِهِمْ التَّبديدُ والتَّفريقُ، وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

قالَ أبو عوسجَةَ: قولُهُ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي نَكِّلْ بِهِمْ حتّى يَخافَكَ مَنْ خَلْفَهُمْ، والشريدُ الطريدُ، والشريدُ أيضاً القليلُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي لا تَفْعَلْ بِهِمْ مِثْلَ ما فَعَلُوا مِنَ الخيانةِ [فتكونَ أنتَ وهمْ في الخيانةِ][4] سَواءً؛ لأنَّ عندَكُمْ أنكُمْ مُعاهِدونَ على عهدٍ بَعْدَ عهدٍ. ولكنِ انْبِذْ إليهِمْ، ثم ناصِبْ في ما بَيْنَهُمُ الحربَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو على حَقيقةِ الخَوفِ، يقولُ: إذا خِفْتَ منهُمُ النَّقْضَ أوِ الخِيانَةَ ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي ألْقِ إليهِمْ نَقْضَكَ لتكونَ أنتَ وهُمْ في العِلْمِ بالنَّقْضِ سَواءً.

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: قولُهُ: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أظْهِرْ لهمْ أنكَ عَدُوٌّ وأنكَ مُناصِبٌ حتى يَعْلَمُوا ذلكَ، فَتَصِيرُوا على ذلكَ سَواءً. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على أمْرٍ بَيِّنٍ.

قالَ أبوعُبَيدٍ: قالَ غيرُ واحدٍ مِنْ أهلِ العِلْمِ ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أعْلِمْهُمْ أنكَ تريدُ أنْ تُحارِبَهُمْ حتى يَصِيروا مِثْلَكَ في العلمِ، فذلكَ السَّواءُ.

قالَ الكِسائيُّ: السَّواءُ العَدْلُ، وقالَ: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي سِرْ إليهِمْ، وقد علِمُوا بكَ، وعلِمْتَ بهِمْ، وبَعْضُها[5] قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وحاصِلُ التأويلِ/٢٠٣ ـ ب/ هو [التأويلانِ اللذانِ][6] ذَكَرْتُهُما، واللهُ أعْلَمُ.

وأصلُ العَهْدِ ما ذَكَرَ ﷺ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤] أمَرَ ﷺ بإتمامِ العَهْدِ إلى المُدَّةِ إذا لم يَنْقُضُونا شيئاً، ولم يَخونُوا، ولم يُظاهِرُوا علينا أحداً منهُمْ. فإذا فَعَلُوا شَيئاً مِنْ ذلكَ فَلَنا أنْ نَنْقُضَ العَهْدَ الذي كانَ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ، إذا سَأَلُونا؛ لَيسَ للإمامِ أنْ يُعْطِيَ لهمُ العَهْدَ إذا لم يكُنْ في العَهْدِ مَنْفَعَةٌ لِلْمُسْلِمينَ مَنْفَعَةً ظاهرةً، وخَيْرٌ[7] لهمْ مراعاةُ ذلكَ العَهْدِ وحِفْظُهُ. فإذا خافَ منهُمْ فَلَهُ نَقْضُهُ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يذكرون. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: نكلهم أي جعلهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وبعضهم. (٦) في الأصل وم: التأويلين اللذين. (٧) في الأصل وم: وخيرا.

ثم إذا كانت[1] تلك الخيانةُ مِن جُمْلَتِهِمْ أو مِمَّنْ لهُ مَنْفَعَةٌ فَلَهُ أنْ يُناصِبَ مَعَهُمُ الحَرْبَ، وإنْ لم يَنْبِذُوا إليهِمْ. وإذا كانَ ذلكَ مِنْ بَعْضٍ على سَبيلِ التَّلَصُّصِ والسَّرِقةِ فَلَيسَ لهُ أنْ يُحارِبَهُمْ إلّا بَعْدَ النَّبْذِ إليهِمْ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لا تَحْسَبَنَّ الذينَ نَجَوا قد[2] تَخَلَّصُوا منكَ يا محمدُ مِنَ المشركينَ إني لأُظْفِرُكَ بِهِمْ في غَيرِهِ مِنَ الحروبِ والمَغازِي، وإنهمْ يقولونَ، ويُعْجِزونَ اللهَ عنْ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ويَفُوتونَ عنْ نَقْمَةِ اللهِ وعذابِهِ.

وقَرَأَ بَعضُهُمْ: بنَصْبِ[3] الألِفِ: أَنَّهُمْ يُعْجِزونَ فَمَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ طَرَحَ لا، وجَعَلَها صِلَةً، وقالَ: لا تَحْسَبَنَّ أنهمْ يُعْجِزونَ وأمّا قراءةُ العامَّةِ فهيَ بالخَفْضِ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وقيلَ: المُعْجِزُ السابقُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ قال بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ولا تَخْرُجُوا إلى الحروبِ والمَغازي[4] كما خَرَجْتُمْ إلى بَدْرٍ بلا سلاحٍ ولا قوةٍ لأنهُ أرادَ أنْ يَجْعَلَ حَرْبَ بَدْرٍ آيَةً لِيُمَيِّزَ بَيْنَ المُحِقِّ والمُبْطِلِ وبَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ. لِذلكَ أمرَكُمْ بالخروجِ إليهِ بلا سلاحٍ ولا عُدَّةٍ. وأمّا غيرُها مِنَ الحُروبِ والمَغازِي فلا تَخْرُجُوا إليها إلّا مُسْتَعِدِّينَ لها.

وبَعْدُ فإنهُمْ إنما تَرَكُوا الاسْتِعْدادَ طاعةً لربِّهِمْ، وفي الاشْتِغالِ بالاسْتِعْدادِ تَرْكٌ للطاعةِ لهُ. وأَمَرَ ﷻ بالإعدادِ[5] لهمْ ما استطاعوا مِنَ الأسبابِ لِما أنَّ ذلكَ أرْهَبُ للعَدُوِّ مِنْ تَرْكِ الاسْتِعْدادِ، وإنْ كانَ ﷻ قادراً أنْ يَنْصُرَهُمْ على عَدُوِّهِمْ بلا أسبابٍ[6] يَجْعَلُها لأنفُسِهِمْ، وهو كقولِهِ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣] فأمَرَ اللهُ بالأسبابِ في الحروبِ، وإنْ كانَ قادراً على نَصْرِ أوليائِهِ على عَدُوِّهِ بلا سَبَبٍ.

لكنهُ أمَرَ بالأسبابِ لِما أنَّ جميعَ أمورِ الدنيا جَعَلَها بالأسبابِ مِنْ نَحْوِ الموتِ والحياةِ وجميعِ الأشياءِ، وإنْ كانَ يَقْدِرُ على إبقاءِ الإنسانِ والخلائقِ جميعاً بلا غِذاءٍ؛ يَجْعَلُ لهمُ [الحياةَ][7] والموتَ بلا مَرَضٍ ولا سَبَبٍ، ولكنْ فَصَّلَ بما ذَكَرْنا.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: القوةُ: الرَّمْيُ. وعلى ذلكَ رَوَوا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ فقالَ: ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ» قالَ ذلكَ ثلاثاً [مسلم ١٩١٧].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ما تَقْوُونَ بِهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: القُوَّةُ السِّلاحُ، وقالَ غَيرُهُمْ[9]: الخيلُ. وأمْكَنَ أنْ تكونَ جميعَ الأسبابِ لِلْحَرْبِ[10].

وفيهِ دلالةٌ أنَّ القوةَ التي هي أسبابُ الفِعْلِ يجوزُ أنْ تَتَقَدَّمَ، ويكونُ قولُهُ ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] أرادَ اسْتِطاعةَ الفِعْلِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أمَرَ بِرِباطِ الخَيلِ والإعدادِ لِلْحَرْبِ رَهْبَةً لِلْعَدُوِّ ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ فيهِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: تُرْهِبُونَ بِرِباطِ الخيلِ المشركينَ. وقالوا[11] ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ اليهودَ والنَّصارَى، وهؤلاءِ الذينَ كانُوا في ما بَيْنَهُمْ، يُرْهِبُونَ[12] هؤلاءِ أيضاً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ الذينَ كانُوا بَيْنَهُمْ لا يَعْرِفُونَهُمْ كانُوا طلائعَ[13] لِلْمُشْرِكينَ وعُيوناً لَهُمْ، يُخْبِرُونَهُمْ عنْ حالِ المؤمنينَ، يُرْهِبُونَ[14] هؤلاءِ أيضاً.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: و. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ٢/٤٥٨ وحجة القراءات ص ٣١٢. (٤) في الأصل وم: من المغازي. (٥) في الأصل وم: بالاعتداد. (٦) في الأصل وم: سبب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: غيره. (١٠) في الأصل وم: الحرب. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) في الأصل وم: يرهب. (١٣) في الأصل وم: طلائعا. (١٤) في الأصل وم: يرهب.

وقالَ آخَرونَ: قولُهُ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ هُمُ الشياطينُ، ورَوَوا على ذلكَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «هُمُ الشياطينُ» وقالَ: «لَنْ يُخْبِلَ الشياطينُ إنساناً في دارِهِ فَرَسٌ عَتِيقٌ» [ابن حجر في المطالب العالية ٣٦٣٠].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ هُمُ الأعداءُ الذينَ يكونونَ مِنْ بَعْدُ إلى يومِ القيامةِ ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فإنْ كانَ ذلكَ فَفيهِ دَلالةُ بقاءِ الجهادِ إلى يومِ القيامةِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ هُمُ الشياطينُ ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فإنْ قِيلَ: أيُّ رُهْبَةٍ تَقَعُ للشياطينِ في ما ذَكَرَ مِنْ رِباطِ الخَيلِ والسلاحِ الذي ذَكَرَ؟ قيلَ: ألا يكونُ لأوليائِهِمْ رَهْبَةٌ في قَمْعِ أوليائِهِمْ، أو يكونُ لأوليائِهِمْ رَهْبَةٌ نَسَبَ ذلكَ إليهِمْ. وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سَمّى عَدُوَّ اللهِ [وعَدُوَّكُم عدُوًّا][1] للمؤمنينَ لِيَعْلَمَ مَنِ اعْتَقَدَ عَداوةَ اللهِ صارَ عَدُوًّا للمؤمنينَ، ومَنِ اعْتَقَدَ وِلايةَ اللهِ صارَ وَلِيًّا للمؤمنينَ، ومَنْ كانَ وَلِيًّا للمؤمنينَ كانَ[2] وليًّا للهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أخبَرَ أنَّ ما أنْفَقُوا في سَبيلِ اللهِ يُوَفّى إليهِمْ[3] ذلكَ. أمّا الخُلْفُ في الدنيا [فهو][4] لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبإ: ٣٩] وأمّا في الآخرةِ [فهو][5] الثوابُ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما][7]: في ما يأمُرُكُمْ بالجهادِ في سَبيلِ اللهِ واتّخاذِ العُدّةِ والإنفاقِ فيها؛ إذْ أنْفُسُكُمْ وأموالُكُمْ لِلّهِ؛ لهُ أنْ يأخُذَها مِنكُمْ.

والثاني: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في الثوابِ في الآخِرةِ؛ أيْ يُعْطِيكُمُ الثوابَ، أوِ الخُلْفَ في الدنيا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ قُرِئَ بالنَّصْبِ ﴿لِلسَّلْمِ﴾ وقُرِئَ بالخَفْضِ لِلسِّلْمِ وقالَ[8] أهلُ اللغةِ: مَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ ﴿لِلسَّلْمِ﴾ حَمَلَ على المُصالَحةِ والمُوادَعةِ، ومَنْ قَرَأَ بالخَفْضِ لِلسِّلْمِ جَعَلَ ذلكَ في الإسلامِ العَهْدَ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ٥٦].

يقولُ: لا يَمْنَعُكَ عنِ الصُّلْحِ مَعَهُمْ ما كانَ منهُمْ مِنَ النَّقْضِ ونَكْثِ العُهودِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تَخَفْ خِيانَتَهُمْ ونَقْضَهُمُ العَهْدَ فإنَّ اللهَ يُطْلِعُكَ، ويَكفيكَ على ذلكَ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: قولُهُ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ أي إذا خَضَعُوا، وتواضَعُوا، للإسلامِ فاقْبَلْ منهُمْ، واخْضَعْ لَهُمْ. كقولِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أمَرَهُ بِخَفْضِ الجَناحِ لَهُمْ، وكقولِ أبي بكرٍ؛ ذَكَرَ ههنا أنهُمْ إذا طَلَبُوا الصُّلْحَ منّا يَلْزَمُنا أنْ [نَقْبَلَ ذلكَ منهُمْ][9] وإذالم يَطْلُبُوا مِنّا ذلكَ لا يَحِلُّ لنا أنْ نَطْلُبَ منهُمُ الصُّلْحَ إلّا أنْ نُضْطَرَّ إلى ذلكَ. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى [حينَ قالَ][10] ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥] نَهانا أنْ نَدْعُوَهُمْ إلى الصُّلْحِ، ولنا قُوّةٌ وعُدّةٌ لِلقتالِ مَعَهُمْ. وأمّا إذا كانُوا طَلَبُوا مِنّا ذلكَ أوّلاً فَيُجابُونَ إلى ذلكَ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أي لا يَمْنَعُكَ ما[11] كانَ منهُمْ مِنْ نَقْضِ العَهْدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ يَحْتَمِلُ ذِكْرُهُ بالتأنيثِ؛ أي لِلْمُسالَمَةِ والمُصالَحةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ:

السِّلْمُ يأخُذُ مِنّا ما رَضِيتَ بِهِ ... والحَرْبُ تَكْفِيكَ مِنْ أنفاسِها جُرَعُ

فإنْ قِيلَ: ما المَعْنى في قولِ مَنْ قالَ بالإسلامِ بقولِهِ: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ وهو كانَ يَدْعُو إلى الإسلامِ، وهو/ ٢٠٤ ـ أ/ لا

---

(١) في الأصل: وعدوكم سمى عدو الله، في م: وعدوا. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٤٦٠ وحجة القراءات ص ٣١٢. (٩) في الأصل وم: نعطيهم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لما.

شكَّ أنهُ كانَ يَقْبَلُ منهُمُ الإسلامَ؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ بالقبولِ أمراً بِتَرْكِ المُؤاخذَةِ لِما[1] كانَ منهُمْ في حالِ نَقْضِ العَهْدِ لأنَّ مِنْ قولِنا: إنَّ ما أصابُوا في حالِ العَهْدِ مِنَ الجِراحاتِ والأخذِ يُتْبَعُونَ بها، ويُؤاخَذُونَ، إذا أسلَمُوا. وإذا نَقَضُوا العَهْدَ، ثم أصابُوا شيئاً مِنْ ذلكَ، ثم أسلَمُوا، لم يُؤاخَذُوا بذلكَ، فَيَحْتَمِلُ أنْ يقولَ لهمْ: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ ولا تؤاخِذْهُمْ بِما كانَ منهُمْ في حالِ نَقْضِ العَهْدِ.

وقالَ الحَسَنُ: هذا مَنْسُوخٌ؛ نَسَخَها قولُهُ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ [التوبة: ٢٩] وقالَ بَعْضُهُمْ: نَسَخَها قولُهُ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآيةَ [التوبة: ٣٦] وقالَ بَعْضُهُمْ: [نَسَخَها][2] قولُهُ: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾. [محمد: ٣٥].

والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنَّ الإمامَ إذا رَأى الصُّلْحَ والمُوادَعَةَ نَصْراً لِلْمُسْلِمينَ أجابَهُمْ إلى ذلكَ، وصالَحَهُمْ. وإذا طَلَبُوا منهُ الصُّلْحَ، وبالمُسْلِمينَ قُوَّةُ القتالِ والحَرْبِ مَعَهُمْ، لم يُجِبْهُمْ إلى ذلكَ. وما ذَكَرَ هؤلاءِ مِنْ نَسْخِهِ فذلكَ لا نعرِفُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ في الصُّلْحِ ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي أمكَنَكَ اللهُ منهُمْ كقولِهِ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال: ٧١].

وإنْ كانَ قولُهُ ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ في الإسلامِ فيكونُ قولُهُ: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي يُطْلِعُكَ اللهُ على ما في قلوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ؛ أي وإنْ خِفْتَ منهُمْ أنهُمْ يُظْهِرُونَ لكَ الإسلامَ في الظاهِرِ، ويكونونَ في السِّرِّ على ما كانُوا مِنْ قَبْلُ فلا يَمْنَعْكَ ذلكَ عَنْ قَبولِ الإسلامِ منهُمْ، فإنَّ اللهَ يُطْلِعُكَ [على][3] ذلكَ، ويَكْفيكَ ذلكَ[4]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالملائكةِ الذينَ أنْزَلَهُمْ مَعونةً للمؤمنينَ يومَ بَدْرٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمنينَ [الذينَ][5] كانوا مَعَهُ. فأخبَرَ أنهُ يُؤَيِّدُهُ بِنَصْرِهِ وبِنَصْرِ المؤمنينَ. وكانَ النَّصْرُ لَهُ باللهِ في الحقيقةِ.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] النَّصْرُ مِنَ اللهِ يكونُ مَرَّةً في الأسبابِ: بالمؤمنينَ وبِغَيْرِ ذلكَ مِنَ الأسبابِ، ومَرَّةً باللُّطْفِ منهُ بلا سَبَبٍ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بالدينِ الذي اجْتَمَعُوا عليهِ كقولِهِ: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] أخبَرَ أنهُمْ كانُوا أعداءً ماداموا في الكُفْرِ، فلمَّا أسلَمُوا صارُوا إخواناً.

ولكنْ عندَنا الإسلامُ يُوجِبُ التأليفَ والاجْتِماعَ بَيْنَهُمْ[6]، ولكنْ يجوزُ ألّا يُوجِدَ التأليفَ، وإنْ أوْجَدَ[7]، لِيُعْلَمَ أنَّ اللهَ هو الذي يؤلِّفُ بَيْنَهُمْ بِلُطْفِهِ وفَضْلِهِ بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾ وقد يجوزُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ تأليفِ القلوبِ، يكونُ مَرَّةً بالدينِ ومَرَّةً باللُّطْفِ مِنَ اللهِ. فإذا كانَ الخِلافُ والعَداوةُ بَيْنَهُمْ بِسَبَبِ الدينِ فإنهُ إذا وُجِدَ الوِفاقُ ارْتَفَعَ الخلافُ والعَداوةُ، وإذا كانَ لِلأطْماعِ فهو يَرْتَفِعُ باللُّطْفِ مِنَ اللهِ ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمْرِهِ وحُكْمِهِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ وحَسْبُكَ مَنِ ﴿ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كَفاكَ اللهُ في العَونِ والنَّصْرِ لكَ، وكَفاكَ للمؤمنينَ أيضاً في ما ذَكَرْنا. وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ نُصْرَةُ اللهِ، وحَسْبُكَ نَصْرُ المؤمنينَ؛ وهو على ما ذَكَرَ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] والأوَّلُ أشبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: على ذلك. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بينهما. (٧) في الأصل وم: وجد.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ التَّحْريضُ على القِتالِ يكونُ بوجهَيْنِ:

أحدُهما: أنْ يُعِدَّ لهمْ مِنَ المَنافِعِ في الدنيا، ويُطْمِعَ لهمْ ذلكَ مِنْ نَحْوِ ما جاءَ مِنَ التَّنْفيلِ أنَّ مَنْ فَعَلَ كذا فَلَهُ كذا، أو يُعِدَّ لهمُ المنافِعَ في الآخرةِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١١] وما ذَكَرَ مِنَ الثوابِ في الآخِرَةِ بالنَّفَقَةِ التي يُنْفِقونَها في سَبيلِ اللهِ قولُهُ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الصف: ١٠] في ما ذَكَرْنا فيهِ وَعْدُ المَنافِعِ لهمْ في الدنيا والآخِرَةِ وَوَعْدُ النَّصْرِ لهمْ.

والثاني: يكونُ التَّحْريضُ بِضَررٍ يَلْحَقُ أُولئكَ ونَكْبَةٍ تَصِلُ إليهِمْ كقولِهِ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ إلى قولِهِ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [التوبة: ١٣ و١٤ و١٥].

جَمَعَ اللهُ ﷻ في هذهِ الآيةِ جميعَ أنواعِ الخيرِ الذي يكونُ في القتالِ معَ العَدُوِّ ومِنْ وَعْدِ النصرِ للمؤمنينَ عليهِمْ وإدخالِ السرورِ في صدورِهِمْ ونَفْيِ الخوفِ عنهمْ وتعذيبِ أولئكَ بأيديهِمْ. وفيه إغراءٌ على العَدُوِّ بقولِهِ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فذلكَ كلُّهُ يُحَرِّضُ على القتالِ، ويُرَغِّبُهُمْ في الحَرْبِ معَ العَدُوِّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية اخْتُلِفَ في مَعْنى هذا. قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟﴾ كذا على الأمْرِ؛ كأنهُ قالَ: لِيَكُنْ منكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا كذا؛ أَمَرَ العَشَرَةَ القِيامَ لِمِئةٍ، وقالَ: دليلُهُ أنهُ على الأمْرِ قولُهُ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦] ولو لم يَكُنْ على الأمْرِ والعَزيمَةِ لم يكنْ لِذِكْرِ التخفيفِ مَعْنًى.

وقالَ آخَرُونَ: هو على الوَعْدِ[1] أنهمْ إذا صَبَرُوا، وثَبَتُوا لِعَدُوِّهِمْ، غَلَبُوا عَدُوَّهُمْ على ما أخْبَرَ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] لَيسَ على الأمْرِ لأنهُ قالَ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ أخْبَرَ أنهُمْ إذا صَبَرُوا غَلَبُوهُمْ، وهو كذلكَ. واللهُ أعلَمُ، إذْ ظاهِرُهُ وَعْدٌ وخَبَرٌ. والأشْبَهُ أنْ يكونَ على الأمْرِ، لَيسَ على الخَبَرِ على ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ما لَهُمْ، وما عليهِمْ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهما: إنْ][2] قيلَ: ما مَعْنى قولِهِ ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ وقد كانَ يَعْلَمُ أنَّ فيهمْ ضَعْفاً[3] وقْتَ ما أَمَرَ العَشَرَةَ القيامَ لِمِئةٍ والعِشرينَ لِمِئَتَيْنِ؟ قيلَ: أَمَرَ بذلكَ معَ عِلْمِهِ أنَّ فيهم ضَعْفاً، وإنْ كانَ في ذلكَ إهلاكُ أنْفُسِهِمْ، وذلكَ منهُ عَدْلٌ، إذْ لَهُ الأنْفُسُ، إنْ شاءَ أتْلَفَها بالموتِ، وإنْ شاءَ بالقَتْلِ بِقَتْلِ العَدُوِّ.

والتَّخْفيفُ منهُ رَحْمَةٌ وفَضْلٌ؛ أَمْرُ الواحدِ القيامَ لِعَشَرَةٍ على عِلْمٍ منهُ بالضَّعْفِ ابْتِداءَ امْتِحانٍ منهُ، ولهُ أنْ يَمْتَحِنَ عبادَهُ بما فيهِ وُسْعُهُمْ وبما لا وُسْعَ لهمْ فيهِ. وفي الحكمةِ ذلكَ، إذْ لَهُ الأنْفُسُ، لهُ أنْ يُتْلِفَها كيفَ شاءَ بما شاءَ؛ وهو ما ذَكَرَ قولَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٦] ولو لم يكُنْ لهُ في الحكمةِ ذلكَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكْتُبَ ذلكَ عليهِمْ.

والثاني: يَعْلَمُ فيهِمُ الضَّعْفَ، كائناً شاهِداً كما عَلِمَ أنهُ يكونُ؛ وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] أي يَعْلَمَ المجاهِدَ كما عَلِمَ أنهُ يجاهِدُ. فَعَلى ذلكَ هذا.

ثم ذِكْرُ العَشَرَةِ والعِشْرينَ يَحْتَمِلُ على التحديدِ، ويَحْتَمِلُ لا على التحديدِ. أَلَا تَرى أنهُ ذَكَرَ في الناسخِ عَدَداً غيرَ العَدَدِ الذي في المَنْسُوخِ؛ لأنَّ في المَنْسُوخِ ذِكْرَ العِشْرينَ لِمِئَتَيْنِ، وفي الناسخِ ذِكْرَ الألْفِ لا لِغَيرٍ بقولِهِ: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾؟

---

(١) في الأصل وم: الوعيد. (٢) في الأصل: فان. (٣) في الأصل وم: ضعف.

فإنْ كانَ لا على التحديدِ فَيَلْزَمُ لِواحِدِ القِيامُ لِاثْنَيْنِ، وفي الأوَّلِ الواحِدُ لِعَشَرَةٍ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ، [أنهُ][1] قالَ: إذا لَقِيَ الرجلُ رجلَيْنِ مِنَ الكفارِ، فاسْتَأْثَرَ، فلا فِداءَ لهُ علينا، فإذا لَقِيَ ثلاثةً فأكْثَرَ فعَلَيْنا فِداؤهُ، ولم يَجْعَلْ للواحدِ الفرارَ مِنِ اثْنَيْنِ حينَ[2] جَعَلَ عليهِ الفِداءَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، أنهُ قالَ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ/ ٢٠٤ ـ ب/ على التحديدِ، إذا كَمُلَ العَدَدُ لم يَسْمَحْ بالفرارِ، ويَلْزَمُهُمُ القيامُ لهمْ. وإذا كانوا دونَ ذلكَ لم يَلْزَمْ.

وكذلكَ قالَ الحَسَنُ: أَمَرَ أنْ يَصْبِرَ عشرونَ لِمِئَتَيْنِ، إنْ فَرُّوا منهُمْ لم يُعْذَرُوا، وأنْ يَصْبِرَ الألفُ لألفَيْنِ، إنْ فَرُّوا منهُمْ لم يُعْذَرُوا. قالَ: ثم أنْزَلَ اللهُ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فأمَرَ أنْ يَصْبِرَ مِئَةٌ لِمِئَتَيْنِ، وإنْ فَرُّوا منهُمْ لم يُعْذَرُوا، وأنْ يَصْبِرَ الألْفُ للألْفَيْنِ؛ إنْ فَرُّوا منهُمْ لم يُعْذَرُوا. فإنْ كانَ على التَّحْديدِ فهو ما يَقولُونَ: إنهُمْ لم يكونُوا مَنَعَةً، فإنهُ يَسَعُهُمْ ألاّ يُقاتِلُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الصَّبْرُ هو حَبْسُ النفسِ على ما أَمَرَ اللهُ، وكَفُّها عن جَميعِ شَهَواتِها ولَذَّاتِها. فإذا فَعَلَ ذلكَ غَلَبَ على العَدُوِّ، وقَهَرَهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الصَّبْرُ هو أنْ يُوَطِّنَ نفسَهُ في القِتالِ معَ العَدُوِّ، ويَحْبِسَها في ذلكَ. والشُّكْرُ قِيلَ: هو أنْ يَبْذُلَ نَفْسَهُ وما يَحْوِيهِ للهِ، لا يَجْعَلُ لِغَيْرِهِ، فيكونُ الشُّكْرُ والصَّبْرُ في الحاصِلِ سَواءً، وإنْ كانا في العبارةِ مُخْتَلِفَيْنِ لأنَّ الشُّكْرَ هو بَذْلُ النَّفْسِ وما حَوَتْهُ يَدُهُ للهِ، والصَّبْرُ هو الكَفُّ والاِحْتِباسُ على جَميعِ ما أَمَرَ اللهُ وأداءُ ما فَرَضَ عليهِ فإذا حَبَسَها عنْ غيرِهِ يكونُ باذلاً، ولهذا سَمَّى الصبرَ إيماناً بقولِهِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [هود: ١١] ذَكَرَ الصَّبْرَ ههنا مكانَ ما ذَكَرَ في غيرِهِ الإيمانَ بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الانشقاق: ٢٥ و . . .].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ في النَّصْرِ لهُمْ على عَدُوِّهِمْ والغَلَبَةِ عليهِمْ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيْسانِيُّ[3]: عاتَبَ اللهُ رسولَهُ وأصحابَهُ في أخْذِ الأسارَى بقولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبالَغَ في العِتابِ في أخْذِ الفِداءِ مِنَ الأسارَى بقولِهِ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ لَمَّا استشارَ أصحابَهُ في الأسارَى أشارَ أبو بَكْرٍ إلى أخْذِ الفِداءِ، وعُمَرُ إلى القَتْلِ، فقالَ: لو نَزَلَ مِنَ السماءِ عذابٌ ما نَجا إلا عُمَرُ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٨]. عاتَبَهُمْ بالأخْذِ أخْذِ الأسارَى وأشَدَّ العِتابَ في أخْذِ الفِداءِ، وأَمَرَ بالقَتْلِ وضَرْبِ الرِّقابِ بقولِهِ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] إنما أَمَرَ بِضَرْبِ الرِّقابِ وضَرْبِ البَنانِ.

وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على العِتابِ. إلى هذا يَذْهَبُ أبو بكرٍ الأصَمُّ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][4] قالَ: لم يكنِ الأنبياءُ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، في ما مَضَى يكونُ لَهُمْ أسارَى حتى يُثْخِنُوا في الأرضِ.

وعنْ سعيدِ بْنِ جُبَيْرٍ [أنهُ][5] قالَ: لا يُفادَى أسارَى المُشْرِكينَ، ولا يُمَنُّ عليهِمْ حتى يُثْخِنُوا بالقَتْلِ، ثم تَلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤] إلى هذا ذهبَ هؤلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ على وجهَيْنِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: الكيساني. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

أحَدُهُما: يقولُ: ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يأخذَ مِنَ الأسْرَى الفِداءَ ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي يَغْلِبَ؛ حتى إذا أخذَ الفِداءَ، وسَرَّحَهُمْ بَعْدَ ما غَلَبَ في الأرضِ، يكونُ رجوعُهُمْ إلى غَيرِ مَنَعَةٍ وشَوكَةٍ.

والثاني[1]: إذا لم يَغْلِبْ في الأرضِ؛ أي حتى يَصِيرَ الدينُ كُلُّهُ لِلَّهِ كقولِهِ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٩٣ والأنفال: ٣٩] هذا لِمَنْ كانَ قَبْلَهُ، فَرَخَّصَ لِرسولِهِ.

الآية ٦٨ وقيلَ: في قولِهِ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وُجوهٌ:

أحَدُها: ما قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: تأويلُهُ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ ألاّ يُعَذِّبَ المُخطِئينَ في عَمَلِهِمْ على خِلافِ أمْرِهِ، وإلّا ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ العذابُ ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ [مِنَ الأسارَى والفِداءِ منهُمْ][2] ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

والثاني[3]: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أنهُمْ يتوبونَ عمّا عَمِلُوا مِنَ الأخذِ وغَيرِهِ، وأنهُ يتوبُ عليهم، وإلّا ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ العذابُ.

[والثالثُ][4]: التأويلُ في هذا غَيرُ هذا: كانَ في قولِهِ: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ دلالةُ إباحةِ الأمرِ ورخصتِهِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ وهو[5] الإبانةُ مِنَ المَفْصِلِ الذي [بِهِ إبانَةُ][6] الرؤوسِ؛ وذلكَ قَلَّ ما يُمكِنُ في القِتالِ، ولا يُقْدَرُ [على][7] إبانَةِ الرؤوسِ في الحربِ. إنما يمكنُ ذلكَ بعد ما أُخِذُوا، ودُفِعُوا في أيديهِمْ.

وأمّا ما ذُكِرَ مِنْ ضَربِ البَنانِ فهو في الحربِ؛ لأنهُ في الحربِ إنما يَضْرِبُ في ما ظَفِرَ، وَوَجَدَ السبيلَ إلى ذلكَ، ففيهِ دلالةُ وتأويلُ قولِهِ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾ الآية يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مُلْحَقاً على ما سَبَقَ مِنْ قولِهِ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأنفال: ٥ و٦] أي ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا [ما سَبَقَ][8] مِنْ حُكمِ اللهِ أنْ يَجْعَلَ لَكُمُ الظَّفَرَ على إحدَى الطائفتينِ، وإلّا لَمَسَّكُمُ العذابُ بِمُجادَلَتِكُمْ رسولَ اللهِ ومُخالَفَتِكُمْ إيّاهُ في الخروجِ وإرادَتِكُمُ العِيرَ، أو أنْ يُقالَ: لولا [ما سَبَقَ][9] مِنْ حُكمِ اللهِ ألاّ يُعَذِّبَ أحداً، ولا يُؤاخِذَ لهُ في الخطإِ في العملِ بالاجتِهادِ، وإلّا لَمَسَّكُمْ كذا. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ أي عَلِمْتُمْ.

ثم قالتِ المعتزلةُ في قولِهِ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ لا يريدُ ما أرادَ العبادُ إذا أرادوا المَعاصِيَ لأنهُ أخْبَرَ أنهُمْ أرادوا عَرَضَ الدنيا، وهو يريدُ الآخِرَةَ. فَهُمْ أرادوا المَعْصِيَةَ، وهو يُريدُ حياةَ الآخِرَةِ وعَرَضَها.

وبعدُ فإنهُ قد أرادَ لَهُمُ الآخِرَةَ وحَياتَها، وهُمْ أرادوا العِيرَ وعَرَضَ الدنيا. وقد كانَ ما أرادَ اللهُ لَهُمْ لا ما أرادوا هُمْ؛ أي اختارَ لَهُمْ غَيرَ ما اختارُوا هُمْ.

وأصلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ أرادَ الآخِرَةَ لأهلِ البدرِ، فكانَ ما أرادَ، وأرادَ لأولئكَ الكَفَرَةِ النارَ، فكانَ ما أرادَ كقولِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] والأشبهُ أنْ تكونَ الإرادةُ ههنا المَوَدَّةَ والمَحَبَّةَ؛ أي تَوَدُّونَ، وتُحِبُّونَ عَرَضَ الدنيا، واللهُ يُريدُ الآخِرَةَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرَى حيثُ قالَ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] كانُوا يَوَدُّونَ أنَّ القِتالَ مَعَ غيرِ ذاتِ الشوكةِ حتى تكونَ لهمُ الغَنائِمُ.

والإرادةُ التي تُضافُ إلى اللهِ تُخَرَّجُ على وُجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: الرِّضا كقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] كانوا يَسْتَدِلُّونَ بِتَرْكِهِ إيّاهُمْ، وهم على [ظَنٍّ][10] أنَّ اللهَ قد رَضِيَ بِصَنِيعِهِمْ.

والثاني: الإرادةُ الأمْرُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

والثالث: الإرادةُ هي صفةُ فِعْلِ كُلِّ قائلٍ يَخْرُجُ فِعْلُهُ على غَيرِ سَهْوٍ وغَفْلَةٍ ولا طَبْعٍ بل يخرُجُ على الاختِيارِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م: في الأصل: وأسلحتهم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بيان به. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ استَشارَ في الأسارَى يومَ بدرٍ أصحابَهُ. فقالَ لأبي بكرٍ: «ما تقولونَ فيهِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ قومُكَ وأهلُكَ، فاستَبقِهِمْ. واستَبقاؤُهُمْ لعلَّ اللهَ يَتوبَ عليهِمْ. وقالَ عُمَرُ: يا رسولَ اللهِ كَذَّبوكَ، وأخرَجُوكَ. قَدِّمْهُمْ فاضرِبْ أعناقَهُمْ، وقالَ عبدُ اللهِ بْنُ رُواحةَ: يا رسولَ اللهِ: انظُرْ وادياً كثيرَ الحَطَبِ، فأدخِلْهُمْ فيهِ، وأضرِمْهُ عليهِمْ ناراً. فقالَ لهُ العباسُ: قَطَعْتَ رَحِمَكَ، فَسكَتَ رسولُ اللهِ ﷺ فلمْ يُجِبْهُمْ شيئاً، ثم قامَ، فدخَلَ، فقالَ ناسٌ: يقولُ بقولِ أبي بكرٍ، وقالَ ناسٌ: يقولُ بقولِ عُمَرَ، وقالَ [ناسٌ][(١)]: يقولُ بقولِ عبدِ اللهِ. ثم خرَجَ عليهِمْ رسولُ اللهِ فقالَ: إنَّ اللهَ لَيُلَيِّنُ قلوبَ رجالٍ فيهِ حتى تكونَ ألْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وإنَّ اللهَ لَيُشَدِّدُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أشَدَّ/ ٢٠٥ ـ أ/ مِنَ الحجارةِ، وإنَّ مَثَلَكَ يا أبا بكرٍ كَمَثَلِ عيسى حينَ[(٢)] قالَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وإنَّ مَثَلَكَ يا عُمَرُ كَمَثَلِ موسى حينَ[(٣)] قالَ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] وقالَ: يا عُمَرُ إنَّ مَثَلَكَ كَمَثَلِ نوحٍ حينَ[(٤)] قالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ولا [يَنفَكَّنَّ أحدٌ منهمْ][(٥)] إلَّا بفداءٍ أو ضَرْبةِ عُنُقٍ. قالَ عبدُ اللهِ: إلَّا سُهَيلَ بْنَ بَيضاءَ فإنِّي سَمِعْتُهُ يَذكُرُ الإسلامَ. فَسكَتَ رسولُ اللهِ، فما رَأيتُني في يومٍ أخوَفَ مني أنْ تَقَعَ عليَّ حِجارةٌ في ذلكَ اليومِ حتى قالَ رسولُ اللهِ: إلَّا سُهَيلَ بْنَ بَيضاءَ، فأنزَلَ اللهُ ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قَبْلَكُمْ، وأمَّا أنتُمْ فقد أُحِلَّتْ لَكُمُ الأسارى والغنيمةُ». [أحمد ١/ ٣٨٣ و٣٨٤].

ويدلُّ أيضاً ما رُوِيَ مِنَ الأخبارِ والآياتِ على أنهُ إذا أثْخَنَ في الأرضِ جازَ لهُ الأسْرُ لأنهُ لو لم يَجُزْ لهُ ذلكَ كما يَجوزُ قَبْلَ الإثخانِ في الأرضِ لَزالَتْ[(٦)] فائدةُ الخُصوصِ، وقد بَيَّنَ اللهُ ذلكَ بقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا﴾ [محمد: ٤].

ثم اختَلَفَ أهلُ العِلْمِ في فِداءِ الأسارَى بالمالِ. قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ، قالَ: ذلكَ يومَ بدرٍ، والمُسْلِمونَ قليلٌ، فلمَّا كَثُروا، واشتَدَّ سُلْطانُهُمْ، أنزَلَ اللهُ تعالى: في الأسارَى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] فَجَعَلَ النَّبيَّ والمؤمنينَ بالخِيارِ؛ إنْ شاؤوا فَدَوهُمْ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][(٧)] قالَ: يَصْنَعُ بهِ ما صَنَعَ رسولُ اللهِ بأسارَى [بدرٍ][(٨)]: يَمُنُّ عليهِ أو يُفادِي. وقالَ غيرُهما بِخلافِ ذلكَ.

وقالَ أصحابُنا: إنِ احتاجَ الإمامُ إلى مالٍ فاداهُمْ. وقد دَلَّ ما ذَكَرْنا مِنَ الآياتِ والأخبارِ على جوازِ الفِداءِ بَعْدَ الإثخانِ فيهِمْ. فإنْ لم يكنْ إلى المالِ مُحتاجاً فَلَهُ قَتْلُهُمْ؛ لأنَّ ذلكَ الكافي العَدُوَّ، وأشَدُّ [رَهْبَةً لَهُمْ][(٩)] مِنَ المؤمنينَ.

وقالَ[(١٠)]: فَلَهُ أنْ يَسْتَرِقَّهُمْ، فهو كما قالُوا: إذا كانَ الأسيرُ مِنْ أهلِ الكتابِ أو مِنَ العَجَمِ. فأمَّا عَرَبُ عَبَدَةِ الأوثانِ فلا يُسْتَرَقُّونَ لأنَّا لا نَعْلَمُ أحداً منهُمْ اسْتَرَقَّهُ النَّبيُّ لمَّا أسَرَهُ، ولم يَبْلُغْنا أنَّ أبا بكرٍ اسْتَرَقَّ واحداً مِنْ أهلِ الرِّدَّةِ، وكيفَ يجوزُ اسْتِرْقاقُهُمْ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾؟ [الفتح: ١٦].

وأمَّا الفِداءُ والقَتْلُ فقد ظَهَرَ مِنْ فِعْلِ رسولِ اللهِ في أسارَى بدرٍ؛ وفي ما رُوِيَ مِنَ الاستِشارةِ اسْتِشارةِ النَّبيِّ أصحابَهُ في الأسارَى دلالةُ العَمَلِ بالاجتِهادِ، وما رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][(١١)] قالَ لأبي بكرٍ وعُمَرَ: «يا أبا بكرٍ ويا عُمَرُ إنَّ ربِّي يُوحي [إليَّ][(١٢)] أنْ أشاوِرَكُما، ولولا أنكما تَختَلِفانِ ما عَصَيتُكُما، أو عَمِلْتُ بِخلافِ رأيِكُما».

فيهِ أنهُ لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يُخالِفَهُما، ورسولُ اللهِ يقولُ: «لولا أنكما تَختَلِفانِ ما عَصَيتُكُما أو ما عَمِلْتُ بِخلافِ رأيِكُما» ثم ما أخَذَ مِنَ الأسارَى مِنَ الفِداءِ لا يُدْرَى على أيِّ وَجْهٍ أخَذَ؛ على التَّرْكِ والرَّدِّ إلى أوطانِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ تَرَكَهُمْ بالجِزْيَةِ؛ إذْ مِنْ قولِهِمْ: ألَّا يجوزَ أخذُ الجِزْيَةِ منهُمْ والتَّرْكُ على ذلكَ، وفي الآيةِ دلالةُ ذلكَ، وهو قولُهُ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ وفي الخبرِ: لا يَجتَمِعُ دِينانِ في جزيرةِ العربِ إلَّا أنْ يُقالَ: إنِ المُفادُ إلَّا الذي[(١٣)] ذَكَرَ. كانَ هذا، وهذا كانَ يَعْمَلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: يسئلن أحد منكم. (٦) في الأصل وم: زالت. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: رهبتهم. (١٠) الضمير يعود على الحسن. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: التي.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ واحدٌ؛ كلُّ حلالٍ طَيِّبٌ، وكُلُّ حرامٍ خَبيثٌ. وإنما يَطيبُ إذَا حَلَّ، ويَخْبُثُ إذا حَرُمَ. ولكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [حلالاً][1] بالشَّرْعِ طَيِّباً في الطبعِ، وكذلكَ الحَرامُ هو حَرامٌ بالشَّرْعِ، وخَبيثٌ بالطَّبْعِ. إنما يُتَكَلَّمُ بالحِلِّ والحُرْمَةِ مِنْ جهةِ الشَّرْعِ والطَّيِّبِ والخَبيثِ بالطَّبْعِ. والطَّيِّبُ هو الذي يُتَلَذَّذُ بهِ، ولا تَبِعَةَ فيهِ؛ لأنَّ خَوفَ التَّبِعَةِ يُنَغِّصُ عليهِ، ويَذْهَبُ بِطيبِهِ ولَذَّتِهِ.

وجائزٌ ما ذُكِرَ مِنَ الطَّيِّبِ ههنا لِما أنَّ أهلَ الشِّرْكِ كانوا يأخذونَ الأموالَ، ويَجْمَعُونَها مِنْ وَجْهٍ لا يَحِلُّ وبأسبابٍ فاسِدةٍ، فَيَكْرَهُونَ التَّناوُلَ منها إذا غَنِمُوا لِتِلْكَ الأسبابِ الفاسِدَةِ، فَطَيَّبَ قلوبَهُمْ بقولِهِ ﴿طَيِّبًا﴾.

وفيهِ دليلُ جوازِ التَّقْليبِ[2] في البَيْعِ الفاسِدِ وطَيِّبِ التَّناوُلِ منهُ، وإنْ كانَ مُكْتَسَباً بأسبابٍ فاسدةٍ بَعْدَ أنْ يكونَ بإذْنٍ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا.

وفيهِ دلالةُ أنَّ أهلَ الكُفْرِ لا يُؤاخَذونَ بالأفعالِ التي كانَتْ في الكُفْرِ ولا بما تَرَكُوا مِنَ العباداتِ لِما لَيْسَتْ عليهِمْ، إنما يُؤاخَذونَ بالاعْتِقادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ما أمَرَكُمْ بِهِ، ونهاكُمْ عنهُ، فلا تَعْصُوهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِمَنْ تابَ، ورَجَعَ عمَّا فَعَلَ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾.

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في العباسِ بْنِ عبدِ المُطَّلِبِ وأصحابِهِ، وكذلكَ يقولُ ابْنُ عباسٍ: قالوا لِلنَّبِيِّ: آمَنّا بما جِئْتَ بهِ، ونَشْهَدُ أنكَ رسولُ اللهِ، فَنَزَلَ ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ اعتِقادَ الإيمانِ والتَّصْديقَ لَهُ ﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ أي إيماناً وتصديقاً، فَيُخْلِفْ عليكُمْ خيراً ممَّا أُصِيبَ منكمْ.

لكنَّها فيهِ وفي غَيْرِهِ: مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِ فهو في ذلكَ سَواءٌ؛ يكونُ مِنَ الموعودِ الذي ذَكَرَ ما يكونُ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ وهو الإيمانُ الذي عَلِمَ أنهُمُ اعْتَقَدُوا في قلوبِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ أي ما آتاكُمْ خيرٌ، وهو الإيمانُ مِمَّا أُخِذَ منكُمْ مِنَ المالِ الذي ذُكِرَ في القصةِ.

ويجوزُ: يَفْعَلُ مكانَ فَعَلَ كَقَولِهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأنفال: ٤٩ والأحزاب: ١٢] أي قالَ المُنافِقونَ، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ أي آتاكُمْ خيراً.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أيضاً أي يُثِبْكُم، ويُعْطِكُمْ أفْضَلَ ممَّا أُخِذَ منكُمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِما كانَ في الشِّرْكِ كقولِهِ: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢] للذنوبِ، ذو تَجاوُزٍ ﴿رَحِيمٌ﴾ يَرْحَمُهُمْ في الإسلامِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ مِنَ الفِداءِ او ممَّا[3] أُخِذَ منكُمْ[4] بمكةَ. أخْبَرَ أنهُ يؤتِيهِمْ[5] خيراً مِنْ ذلكَ في الدنيا مِنَ الأموالِ وغيرِها.

والإثخانُ: قالَ ابْنُ عباسٍ: القَتْلُ. قالَ أبو معاذٍ: يُثْخِنُونَ أي يُذَلِّلونَ[6]، المُثْخَنُ الذليلُ. قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يُثْخِنَ في أهلِ [الأرضِ][7]، يُكْثِرُ القَتْلَى والجراحاتِ. يُقالُ: أثْخَنْتُ في القومِ إذا كَثُرَتْ فيهِمُ القَتْلَ والجراحاتِ. ويقالُ: ضَرَبَهُ حتى أثْخَنَهُ أي ضَرَبَهُ حتى لا يَقْدِرُ على القِيامِ، وهو ما ذَكَرَ محمدٌ في بَعْضِ مسائِلِهِ: أنهُ إذا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: التغلب. (٣) في الأصل: لما، في م: ما. (٤) في الأصل وم: منهم. (٥) في الأصل وم: يؤتهم. (٦) في الأصل وم: يذللوا. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

رَمَى صيداً بِسَهْمٍ، فأصابَهُ، حتى أَثْخَنَهُ، ثم رَمَى آخرُ بِسَهْمٍ فأصابَهُ، فإنهُ لِلأَوَّلِ لِما أنهُ صَيَّرَهُ بالإثخانِ خارجاً مِنْ أنْ يكونَ صيداً، وهو الضَّرْبُ الذي وَصَفْناهُ. وثَخُنَ يَثْخُنُ ثَخانَةً، فهو ثَخينٌ، وثَخُنَ يَثْخُنُ ثُخُونَةً واحدٌ أي غَلُظَ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ ما سَبَقَ مِنَ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٥٦] وقولُهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ الآية [الأنفال: ٦٢] وغيرُ ذلكَ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨] ونَحْوُهُ. فقالَ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ في نَقْضِ العَهْدِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأماناتِ ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ في ما عاهَدُوا[1] أنْ يُوفُوا ذلكَ بقولِهِمْ[2]: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] كقولِهِ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] فقد آتاهُمُ اللهُ ذلكَ، فلم يَفُوا ما عاهَدُوا وغيرَ ذلكَ مِنَ العهودِ التي عاهدُوا[3] والأماناتِ التي ائْتُمِنُوا فيها، فخانُوا اللهَ في ذلكَ، أو ما عَهِدَ/ ٢٠٥ - ب/ فِيهِمْ في أَمْرِ محمدٍ وإظهارِ بَعْثِهِ[4] وَصِفَتِهِ في كتبِهِمْ فَكَتَموا ذلكَ، وحَرَّفُوهُ، وأظْهَروا خِلافَ بَعْثِهِ[5] وصِفَتِهِ فذلكَ منهُمْ خيانةٌ فيقولُ: إنهمْ قدْ ﴿خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ فإذا خانوكَ يُمَكِّنُكَ منهُمْ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ أي انْتَقَمَ منهُمْ جزاءَ خِيانَتِهِمْ. وقالَ: أمْكَنَكَ حتى انْتَقَمْتَ منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ لَيسَ على الإرادةِ، ولكنْ على وقوعِ فِعْلِ الخيانةِ؛ كأنهُ قالَ: وإنْ خانوكَ ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ لكنهُ ذَكَرَ الإرادةَ لِما هي صِفَةُ كُلِّ فاعلٍ مُختارٍ لِما لا تكونُ الأفعالُ إلّا بإرادةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِما يُسِرُّونَ، ويُضْمِرُونَ مِنَ الخِيانةِ ونَقْضِ العُهودِ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمْرِهِ وحُكْمِهِ حينَ[6] أمْكَنَكَ منهُمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي خانُوكَ بَعْدَ إسلامِهِمْ بالكُفْرِ ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ فقد كفروا باللهِ قَبلَ هذا؛ يقولُ: إنْ خانوكَ أمْكَنَكَ منهُمْ، فَقَتَلْتَهُمْ، وأسَرْتَهُمْ، كما فَعَلْتَ بِهِمْ بِبَدْرٍ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمرِهِ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي صَدَّقُوا آياتِ اللهِ وحُجَجِهِ، أو صَدَّقُوا رسولَهُ في جَميعِ ما جاءَ بِهِ. كأنهُ مُقابِلُ قولِهِ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٥٤] وقولِهِ[7] ذَكَرَ ههنا التصديقَ مكانَ التكذيبِ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى﴿وَهَاجَرُواْ﴾ في إظهارِ دينِ اللهِ ونَصْرِهِ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي بَذَلُوا ذلكَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ أي ضَمُّوا النَّبِيَّ ﴿وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

قالَ ابْنُ عباسٍ وعامَّةُ أهلِ التأويلِ: الوِلايةُ التي ذُكِرَتْ في الآيةِ في التَّوارُثِ؛ جَعَلَ المِيراثَ لِلْمُهاجِرينَ والأنصارِ دُونَ ذَوِي الأرحامِ الذينَ آمَنُوا، ولم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ. وكذلكَ قالُوا في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

ورُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ [أنهُ][8] قالَ: قالَ: رسولُ اللهِ ﷺ المهاجِرُونَ والأنصارُ بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ في الدنيا والآخِرَةِ، والطُّلَقاءُ مِنْ قُرَيشٍ والعُتَقاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ في الدنيا والآخِرَةِ.

وعنْ جَريرِ بْنِ عبدِ اللهِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][9] قالَ كذلكَ. وعنِ المَسْعوديِّ عنِ القاسِمِ [أنهُ][10] قالَ: آخَى رسولُ اللهِ ﷺ بَينَ أصحابِهِ، فآخَى بَينَ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ والزُّبَيرِ بْنِ العَوَّامِ، [فَجَعَلَهُمْ][11] إخوةً، يَتَوارَثُونَ بها؛ لأنهُمْ هاجَرُوا، وتركوا قراباتِهِمْ حتى أنزلَ اللهُ آيةَ المَوارِيثِ.

---

(١) في الأصل وم: عهدوا. (٢) في الأصل وم: قولهم. (٣) في الأصل وم: عهدوا. (٤) في الأصل وم: نعته. (٥) في الأصل وم: نعته.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل و م: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] [أنهُ](١) قالَ: كانَ المُهاجِرُونَ حينَ قَدِمُوا المدينةَ يرِثُونَ(٢) الأنصارَ دونَ أرحامِهِمْ(٣) بالأُخُوَّةِ التي آخَى النَّبيُّ بَيْنَهُمْ. فلمَّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ نَسَخَهُ ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] مِنَ النصرِ والنصيحةِ والرِّفادةِ، ويُوصِي لهُ، ولا ميراثَ.

وعنِ الحَسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥ والأحزاب: ٦] فكانَ المُسْلِمونَ يَتوارَثُونَ بالهجرةِ؛ فكانَ الأعرابيُّ لا يَرِثُهُ المهاجِرُ، ولا يَرِثُهُ الأعرابيُّ، فَحَرَّضَهُمْ بذلكَ على الهِجْرَةِ حتى كَثُرَ المسلمونَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية، فَوَرِثَ الأعرابيُّ المهاجرَ، وتوارَثُوا بالأرحامِ. إلى هذا يذهبُ عامَّةُ أهلِ التأويلِ.

وكانُوا يَرَونَ أنَّ الهجرةَ كانَتْ مُفْتَرَضَةً، فزالَ فَرْضُها بقولِ النَّبيِّ ﷺ «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ ولكنهُ جهادٌ ونيَّةٌ» [البخاري ٢٧٨٣] وعنْ عائشةَ ﵂، [أنها](٤) قالَتْ: انقطَعَتِ الهِجْرَةُ بَعْدَ الفتحِ ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ؛ فإنما كانتِ الهجرةُ إلى اللهِ ورسولِهِ، والمؤمنونَ يَفِرُّونَ بدينِهِمْ مِنْ أنْ يَفتِنُوا عنهُ. وقد أفْشَى اللهُ الإسلامَ.

هذا الذي ذهبَ [إليهِ](٥) هؤلاءِ في قولِهِ(٦): ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التَّوارُثِ مُحْتَمَلٌ.

ويَحْتَمِلُ غيرَ هذا؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ في تَمامِ الوَلايَةِ في التَّناصُرِ والتَّعاوُنِ والحقوقِ والديانةِ، فهمْ أولَى بِبَعْضٍ مِنَ الذينَ آمَنُوا، ولم يُهاجِرُوا؛ لأنهمْ آمَنُوا، وهاجَرُوا، أي تَرَكُوا مَنازِلَهُمْ وأهْلَهُمْ وقراباتِهِم وبَلَدَهُمُ الذي كانوا فيهِ مُقيمينَ إشفاقاً على دينِهِمْ واستِسْلاماً لَهُمْ ولأنفسِهِمْ، والأنصارُ آوَوهُمْ، وأنزَلُوهُمْ في منازِلِهِمْ، وبَذَلُوا أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ، وتَحَمَّلُوا جميعَ مُؤَنِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ سَبَقَ منهُمْ إليهِمْ شيءٌ، فصارُوا لهمْ أعواناً وأنصاراً، فصارَ بَعْضُهُمْ أولياءَ بَعْضٍ في تمامِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوَلايَةِ.

[وقولُهُ تعالى](٧): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ أي مِنْ تَمامِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوَلايةِ لَهُمْ: وَلايةِ الذينَ [هاجَرُوا، أي](٨) لَيسَ لهمْ وَلايَةُ التَّناصُرِ والتَّعاوُنِ والحقوقِ والمَنافِعِ التي تُكتَسَبُ بالدينِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهُ ﷻ أبْقَى لِلَّذينَ لم يُهاجِرُوا اسْمَ الإيمانِ، وكانَتِ الهجرةُ عليهِمْ مُفْتَرَضَةً، وفي تَرْكِهِمُ الهجرةَ مُرْتَكِبُونَ(٩) كبيرةً، لا يزولُ عَنْهُمْ(١٠) اسْمُ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] مِنْ غَيرِهِمْ لأنهُمْ آمَنُوا، وهاجَرُوا، ولَهُمْ قرابَةٌ سابقةٌ ورَحِمٌ مُتَقَدِّمٌ؛ كانُوا هُمْ أولَى مِنْ غَيرِهِمُ الذينَ(١١) لا قرابةَ بينَهُمْ، ولا رَحِمَ؛ إذا اجْتَمَعَ فيهِمُ الرَّحِمُ والمعونةُ والديانةُ والحقوقُ اجْتَمَعَ فيهِمْ(١٢) أشياءُ أربعةٌ، وفي أولئكَ ثلاثةٌ، فهمْ أولَى بهمْ منْ غيرِهِمْ. هذا على التأويلِ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ يعني الذينَ لم يُهاجِرُوا، ويَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما(١٣): إذا طَلَبُوا منكُمُ المَعونَةَ والنُّصْرَةَ على عَدُوِّهِمْ فعليكُمُ النَّصْرُ والمَعُونةُ لهُمْ، إذا لم يكنْ بينَكُمْ وبينَ أولئكَ ميثاقٌ.

والثاني: إذا علِمْتُمْ أنهمْ يَخْشَونَ على أنْفُسِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، ويَخافُونَهُ، فانْصُرُوهُمْ ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فلا تَنْصُرُوهُمْ؛ تأويلُهُ حتى تَنْبُذُوا إليهِمُ العَهْدَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يرث. (٣) في الأصل وم: رحمه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: قول. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: مرتكبين. (١٠) في الأصل وم: عنه. (١١) من م، في الأصل: الذي. (١٢) في الأصل وم: فيه. (١٣) في الأصل وم: يحتمل.

يقولُ: إنِ استَنصَرَكُمْ[١] يا مَعْشَرَ المُهاجِرينَ إخوانُكُمُ المؤمِنونَ الذينَ لم يُهاجِروا إليكُمْ، فأتاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنَ المشركينَ، فقاتَلُوهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ عنِ الإسلامِ فانْصُرُوهُمْ. ثم استَثْنى فقالَ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ يقولُ: إنِ استَنصَرَكُمُ الذينَ لم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ على أهلِ عَهْدِكُمْ فلا تَنصُرُوهُمْ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في المَعُونةِ والنُّصْرةِ ونَحوِهِما[٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ قُرِئَ[٣] بالخَفضِ: وِلايَتِهِمْ، وبالنَّصْبِ جميعاً وَلايَتِهِمْ أي بنصبِ الواوِ وخَفضِها. وكذلكَ التي في الكهفِ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ [الآية ٤٤] بالخَفضِ والنَّصبِ جميعاً[٤].

قالَ بَعْضُ أهلِ الأدبِ: الوَلايَةُ بِفَتحِ الواوِ النُّصْرَةُ والمَعُونَةُ، والوِلايةُ بِخَفضِ الواوِ السطانُ؛ أي السلطانُ لله.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الوِلايةُ بالخَفضِ المَعُونَةُ والنُّصْرَةُ؛ والوَلايَةُ السلطانُ. وقالَ آخَرونَ: هما سَواءٌ وهي[٥] النُّصْرَةُ والمَعُونَةُ: الوَلايةُ في الإمارةِ والسلطانِ، والوَلايَةُ في الدينِ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ/ ٢٠٦ - أ/ بَعْضٍ﴾ على قولِ ابْنِ عباسٍ وعامَّةِ أهلِ التأويلِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في التوراةِ على ما قالُوا في المهاجرينَ والأنصارِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في التَّناصُرِ والتَّعاوُنِ والدينِ والحقوقِ جميعاً على ما ذَكَرْنا في المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ قِيلَ فيهِ بِوُجُوهٍ:

أحَدُها: إنَّ إخوانَكُمُ الذينَ لم يُهاجِرُوا إذا استَنصَرُوكُمْ على عَدُوِّهِمْ، فلم تَنصُرُوهُمْ، تكونُ ﴿فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي إنْ لم تكونُوا بَعْضُكُمْ أعواناً وأنصاراً لِبَعْضٍ على ما كانَ أهلُ الكُفرِ بَعْضُهُمْ أنصاراً لِبَعْضٍ، غَلَبَكُمُ العَدُوُّ، وقَهَرَكُمْ، فيكونُ في ذلكَ فِتنةٌ وفسادٌ، ويكونُ كأنهُ قالَ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والثاني[٦]: قولُهُ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾ مُلْحَقٌ[٧] بقولِهِ ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] أي إنِ استَنصَرَكُمْ إخوانُكُمْ على قومٍ بينَكُمْ وبينَهُمْ مِيثاقٌ، فَنَصَرْتُمُوهُمْ تكنْ فِتنةٌ وفَسادٌ كبيرٌ.

والثالثُ[٨]: قولُهُ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ في ما أمَرَكُمْ بهِ مِنْ جَعْلِ التوارُثِ في ما بَيْنَ المؤمنينَ، وجَعَلْتُمُ الميراثَ والتَّوارُثَ في ما بَينَكُمْ وبينَ الكفارِ ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ لأنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ المَوارِيثَ، ثم ذَكَرَ في آخِرِ الآيةِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣] وما ذَكَرَ مِنْ تَرْكِ حُدودِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ وجَعْلِ الميراثِ وغَيرِ ما أمَرَ ﷻ ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ أي ضَمُّوا رسولَ اللهِ والمهاجِرينَ، ونَصَرُوهُمْ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي المُهاجِرُونَ والأنصارُ؛ الذينَ ضَمُّوا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لِما حَقَّقُوا إيمانَهُمْ باعمالِهِمْ لأنهُمْ هاجَرُوا، [وتَرَكُوا][٩] بلادَهُمْ وأهْلَهُمْ وأموالَهُمْ إشفاقاً على دِينِهِمْ واستِسْلاماً لهُ، وأجابوا رسولَ اللهِ، وأطاعُوهُ في ذلكَ.

وأُولئكَ الأنصارُ ضَمُّوهُمْ[١٠] إلى أنفسِهِمْ، وأنزَلُوهُمْ في مَنازِلِهِمْ، وبَذَلُوا أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ، ونَصَرُوهُمْ على عَدُوِّهِمْ، فقد حَقَّقُوا جميعاً إيمانَهُمْ بأعمالِهِمُ التي عَمِلُوا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي صدْقاً في السِّرِّ والعَلانِيَةِ، لَيسَ كإيمانِ المُنافِقِينَ يكونُ في العلانيةِ، ولا

---

(١) في الأصل: وم: استنصروا. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٤٦٥ وحجة القراءات/ ٣١٤. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٦٩. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٧) في الأصل وم: ملحقاً. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ضموا.

يكونُ في السِّرِّ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وقولِهِ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي وَعَدَ لَهُمْ وَعداً حَقًّا، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ويَحتَمِلُ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي أولئكَ المؤمنونَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي حَسَنٌ يُكْرِمُ أهْلَهُ بِهِ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ أي مَنْ آمَنَ بَعْدَ هؤلاءِ، وهاجَرُوا بَعْدَ مُهاجرةِ أولئكَ، فإنهُمْ يَلْحَقُونَ أوائِلَهُمْ في جَميعِ ما ذَكَرَ في قولِهِ[1]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢ و٧٤ و٧٥]. مِنْ قَبْلُ. يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِنَعْمَلَ نَحْنُ على ما عَمِلَ أولئكَ مِنَ الهِجْرَةِ والنُّصْرَةِ وبَذْلِ الأنفُسِ والأموالِ وغَيرِ ذلكَ لِلدِّينِ على ما بَذَلَ أُولئكَ، وأشفَقُوا على دينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ أُولي الأرحامِ بَعْضُهُمْ أولَى بِبَعْضٍ بالتَّرِكَةِ والتَّوارُثِ مِنْ جُمْلَةِ المؤمِنينَ. فإذا لم يَكُنْ أولُو الأرحامِ فجملةُ المؤمِنينَ أولَى.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ أصحابِنا: إنَّ أُولي الأرحامِ بالمِيراثِ أولَى مِنْ جُمْلَةِ المؤمِنينَ، مِنْ[2] بيتِ المالِ. فمادامَ واحدٌ مِنْ هؤلاءِ فهو أولَى بالمِيراثِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُمْ في العَقْلِ انهُ على ذوي الأرحامِ ماداموا هُمْ. فإذا لم يَكُنْ أحدٌ منهُمْ فهو على جُمْلَةِ المؤمِنينَ في بيتِ المالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بالعبادِ، وما يكونُ منهُمْ و ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما يَحْتاجونَ، وما لا يَحتاجونَ؛ وهو حرفُ وَعيدٍ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي بَعْضُهُمْ أولَى بِبَعْضٍ في حَقِّ التَّوارُثِ مِنَ المؤمنينَ الذينَ هاجَرُوا، فَنَسَخَتْ[3] هذِهِ الآيةُ حكمَ الميراثِ الذي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ لأنهُ كانَ جَعَلَ التَّوارُثَ بَيْنَهُمْ بِحَقِّ الإيمانِ والهجرةِ. ثم نَسَخَ ذلكَ، وجَعَلَ المِيراثَ بالرَّحِمِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وكذلكَ ما ذَكَرَ في سورةِ الأحزابِ حينَ[5] قالَ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الآية: ٦] فإذا لم يَبْقَ مِنَ الرَّحِمِ أحدٌ فَبَعْدَ ذلكَ يكونُ جُمْلَةُ المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حُكْمِ اللهِ، أو ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ لأنهُ ذُكِرَ في كتابِ اللهِ.

ثم لُزُومُ الهِجْرَةِ على الذينَ هاجَرُوا مَعَ رسولِ اللهِ وعلى الذينَ تأخَّرَتْ هِجْرَتُهُمْ سَواءٌ؛ قد سَوَّى بَيْنَهُمْ في اللُّزُومِ، وجَمَعَ بَينَ المُهاجِرينَ والأنصارِ في حَقِّ الشَّهادةِ لهم بالتَّصْديقِ والإيمانِ حينَ[6] قالَ: ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤] وجَمَعَ بَينَهُمْ في حَقِّ الوَلايةِ وما يُكْتَسَبُ بها مِنَ المَنافِعِ حينَ[7] قالَ: ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] وجَمَعَ بَيْنَهُمْ في الثوابِ والدَّرَجةِ حينَ[8] قالَ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤] وجَمَعَ بَيْنَهُمْ في هذهِ الخِصالِ، وإنْ قَدَّمَ ذِكْرَ المهاجِرينَ في غيرِ واحدةٍ[9] مِنَ الآياتِ لِما كانُوا مُسْتَوينَ في الأسبابِ التي اسْتَوجَبَتْ[10] ذلكَ؛ لأنَّ مِنَ المهاجِرينَ تَرْكَ الأوطانِ والمنازِلِ والخُرُوجَ منها والمُفارَقَةَ عن أهْلِيهِمْ وأموالِهِمْ، وكانَ مِنَ الأنصارِ مُقابلَ ذلكَ إنْزالُهُمْ في مَنازِلِهِمْ وأوطانِهِمْ وبَذْلُ أموالِهِمْ وقِيامُ أهليهِمْ في خدمَتِهِمْ، لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ واللهُ ﷻ أعْلَمُ.

(١) في الأصل وم: أولئك. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: فنسخ. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: واحد. (١٠) في الأصل وم: استوجبوا.

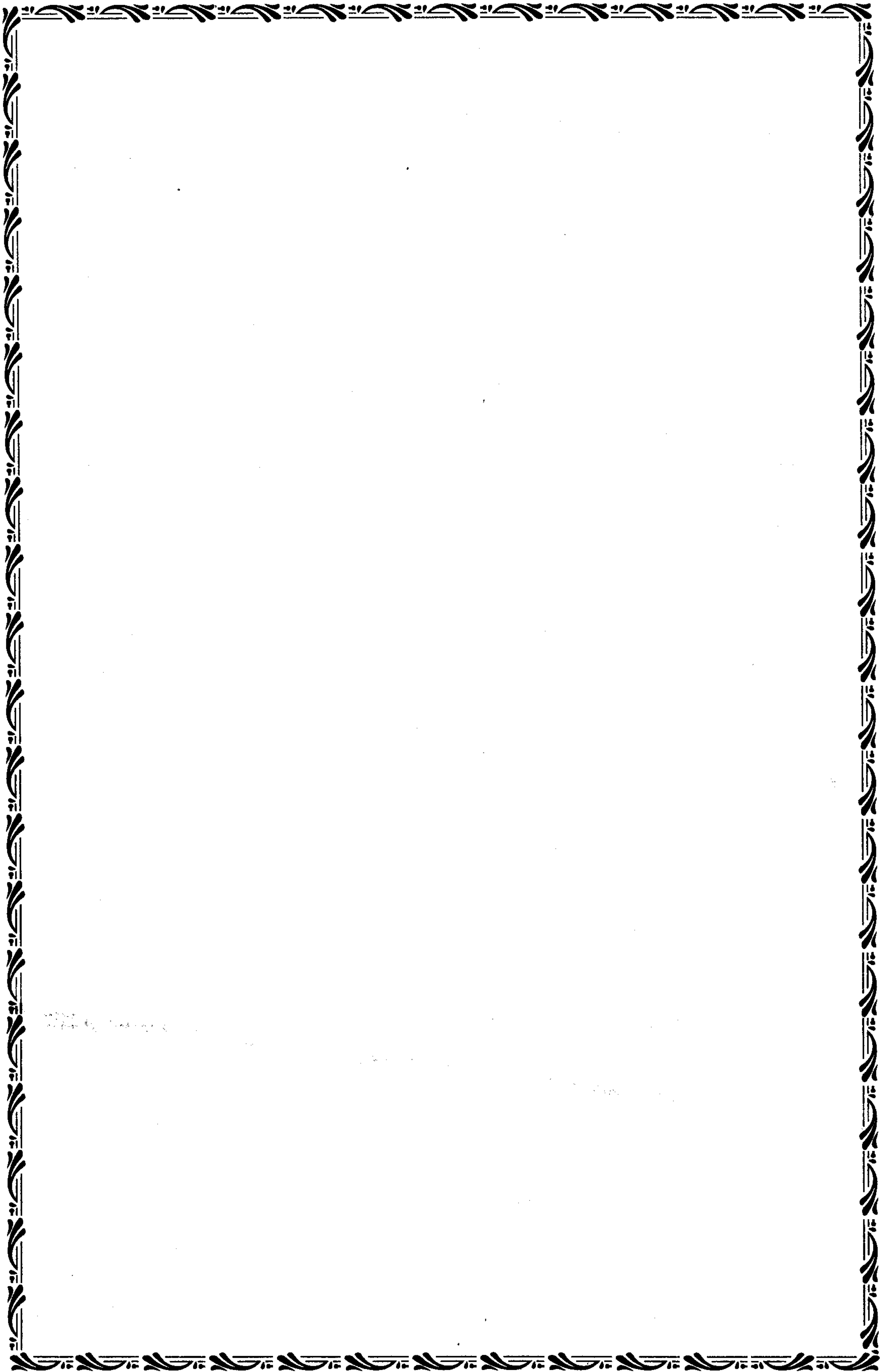

سورة التوبة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ذلكَ في قومٍ كانَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ عَهْدٌ على غَيرِ مُدَّةٍ مُبَيَّنَةٍ، فأمَرَ بِنَقْضِ العَهْدِ المُرْسَلِ، وجَعَلَهُ في أربَعَةِ(٢) الأشهرِ التي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو(٣) في قومٍ كانَ لهمْ عَهْدٌ دُونَ أربَعَةِ أشهُرٍ، فَأمَرَ بإتمامِ أربَعَةِ أشهُرٍ. دليلُهُ قولُهُ: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [براءة: ٤].

وقال أبو بَكرٍ الكَيسانيُّ: الآيةُ في قومٍ كانتْ عادَتُهُمْ نَقْضَ [العهدِ](٤) ونَكْثَهُ كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ٥٦] فأمَرَ أنْ يُعْطَى العَهْدُ أربَعَةَ الأشهرِ(٥) التي ذَكَرَ في الآيةِ، ثم الحربِ بعدَ ذلكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بَعَثَ رسولُ اللهِ عَلِيًّا إلى المَوسِمِ لِيَقْرَأَهُ على الناسِ، فَقَرأَ عليهِمْ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ مِنَ العَهْدِ غيرَ أربعةِ أشهُرٍ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ على ما ذَكَرْنا. حَمَلَ هؤلاءِ كُلُّهُمْ قولَهُ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ على النَّقْضِ.

وعندَنا يَحْتَمِلُ غيرَ هذا؛ وهو أنَّ قولَهُ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في إمضاءِ العَهْدِ ووفائِهِ. والبراءةُ هي الوفاءُ وإتمامُهُ، لَيسَ على النَّقْضِ لأنهُ قالَ: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ والبَراءةُ إليهِمْ هو الأمانُ والعَهْدُ إليهِمْ. ولو كانَ على النَّقْضِ لَقالَ: مِنَ الذينَ عاهَدْتُمْ مِنَ المشركينَ، فَدَلَّ أنهُ هو إتمامُ إعطاءِ العَهْدِ لَهُمْ وإمضاؤُه إليهِمْ.

ويؤيِّدُهُ ما قالَ بَعْضُ أهلِ الأدبِ: إنَّ البراءَةَ هي الأمانُ؛ يقالُ: كتبْتُ لهُ بَراءةً أي أماناً. هذا الذي ذَكَرْنا أشْبَهُ / ٢٠٦ ـ ب/ مِمّا قالُوا؛ أعني أهلَ التأويلِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي سِيروا، واذْهَبوا في الأرضِ أربَعَةَ أشهُرٍ أي مُدَّةَ العَهْدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي اعْلَموا [أيُها المشركونَ(٦)]، وإنْ أُعْطِيَ لكُمُ العَهْدَ في وقْتٍ فإنكُمْ ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أوليائِهِ(٧)، ولا فائِتِينَ عنهُ في تلكَ المدةِ.

[وقولُهُ تعالى](٨): ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الخِزْيُ هو العذابُ الفاضِحُ الذي يَفْضَحُهُمْ، ويَظْهَرُ عليهِمْ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ العذابُ و الإخزاءُ الذي ذَكَرَهُ في الآخِرَةِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قالَ القُتَبيُّ: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي إعلامٌ، ومنهُ أذانُ الصلاةِ، والإعلامُ(٩)؛ يُقالُ: آذَنْتُهُمْ إيذانا، وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ يكونُ في قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ دلالةُ ما قالَ أهلُ التأويلِ مِنَ النَّقْضِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ يكونُ فيهِ إمضاءُ العَهْدِ وإتمامُهُ إلى المدةِ التي ذَكَرَ، ويكونُ ما رُوِيَ مِنَ الخَبَرِ في القصةِ أنَّ نَبيَّ اللهِ ﷺ لمّا نزلَتْ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ بَعَثَ أبا بكرٍ على حجِّ الناسِ، يُقيمُ للمؤمنينَ حَجَّهُمْ، وبَعَثَ

---

(١) من م، في الأصل: براءة. (٢) في الأصل وم: الأربعة. (٣) في الأصل و م: هم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الاصل وم: أشهر. (٦) في الأصل و م: إن المؤمنين. (٧) من م، في الأصل: أولياء. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) الواو ساقطة من الأصل.

معهُ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ السورةَ، ثم أتْبَعَهُ عليَّ بْنَ أبي طالبٍ، فأدْرَكَهُ، فأخذَها منهُ، ورجَعَ أبو بكرٍ إلى النَّبِيِّ، فقالَ لِلنَّبِيِّ: بأبي أنتَ وأمي: نَزَلَ فيَّ شيءٌ؟ قالَ: لا، ولكنْ لا يُبَلِّغُ غيري أو رجلٌ مني، أما تَرْضَى يا أبا بكرٍ أنت صاحبي في الغارِ، وأنتَ أخي في الإسلامِ، وأنت تَرِدُ عنِ الحَوضِ يومَ القِيامةِ؟ قالَ: بَلَى يا رسولَ اللهِ [الترمذي: ٣٦٧٠].فَمَضَى أبو بكر على [حجِّ[1]] الناسِ، ومَضَى عليُّ بنُ أبي طالبٍ بالبراءةِ، فقامَ عليٌّ بالمَوسِمِ، فَقَرأَ على الناسِ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مِنَ العهدِ غَيرَ أربَعَةِ أشْهُرٍ، فإنهمْ يَسيحون فيها.

ثم قولُهُ: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هو يومُ النَّحْرِ لأنَّ فيهِ ذُكِرَ طوافُ البيتِ وحجُّ البيتِ وقالَ بعضُهُمْ: هو يومُ عَرَفَةَ لأنهُ هو الذي يوقفُ [فيهِ][2] بِعَرَفَةَ، وبهِ يَتِمُّ الحجُّ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ: «الحجُّ عَرَفَةُ ومَنْ أدركَ عَرَفَةَ بِلَيلٍ، وصَلَّى معنا بِجُمَعٍ فقد تَمَّ حجُّهُ، وقَضَى تَفَثَهُ، بإدراكِهِ يُتِمُّ الحجَّ، وبِفَوتِهِ يفوتُ» [النسائي ٥/ ٢٥٦] وعنِ الحَسَنِ أنهُ سُئِلَ، فقيلَ لهُ: ما الحجُّ الأكْبَرُ؟ فقالَ: سنةَ حَجَّ المُسْلِمونَ والمُشْرِكونَ جميعاً، اجْتَمَعُوا بمكةَ، وكانَ في [ذَلِكَ][3] اليومِ لليهودِ عيدٌ وللنصارى عيدٌ، لم يكُنْ قبلَهُ ولا بَعْدَهُ، فَسَمَّاهُ اللهُ الحجَّ الأكبَرَ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يُسَمِّيَ اللهُ لِعيدِ النَّصارَى واليهودِ يومَ الحجِّ الأكبَرِ، وهو يومُ نُزولِ السَّخْطَةِ[4] عليهِمْ واللَّعْنَةِ. ولكنْ جائزٌ أنْ يُسَمِّيَ بِذلكَ لِاجتِماعِ[5] الخَلائِقِ فيهِ مِنْ كلِّ نَوعٍ على ما سَمَّى يومَ الحشرِ يوماً كقولِهِ: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥و٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي تُبْتُمْ عما كُنْتُمْ عليهِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنهمْ يامنونَ مِنَ الرُّعْبِ الذي كانَ في قلوبِهِمْ. ويكونُ ذلكَ الخوفُ والرعبُ في قلوبِ المُشْرِكينَ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما ذَكَرْنا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي غيرُ فائتينَ عنْ نَقْمَةِ اللهِ وعذابِه. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ عن نَقْضِ العَهْدِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ والأوَّلُ ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ وأسْلَمْتُمْ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ [أقْرَبُ][6] ثم رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عن عليٍّ ﷺ أنهُ سُئِلَ: بأيِّ شَيءٍ بُعِثَ؟ قالَ: بأربعٍ: لا يدخُلُ الجنةَ إلّا نَفسٌ مؤمنةٌ، ومَنْ كانَ بينَهُ وبينَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ، فَعَهْدُهُ أربعةُ أشهرٍ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ، ولا يدخُلُ الحَرَمَ مُشرِكٌ بَعْدَ هذا[7]. وفي بَعْضِ الأخبارِ: ولا يَحُجُّ المشركُ بَعْدَ عامِهِ هذا وكذلكَ قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

ففيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ لأنهُ قالَ في مَلإٍ مِنَ الناسِ بالمَوسِمِ: لا يَحُجُّ مُشرِكٌ بعد هذا مع كَثْرَةِ أولئكَ وقُوَّتِهِمْ وقِلَّةِ المؤمنينَ وضَعْفِهِمْ. ثم لم يتجاسَرْ بَعْدَ ذلكَ النداءِ أحدٌ أن يقولَ: مكةُ للحجِّ وغيرِهِ. دلَّ أنَّ ذلكَ كلَّهُ كانَ باللهِ تعالى لا بِهِمْ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بالخَبَرِ الذي رُوِيَ «أنهُ بَعَثَ أبا بكرٍ الصديقَ على الحجِّ، وبَعَثَ مَعَهُ بـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ ثم أتْبَعَهُ عليًّا، فأدرَكَها، فأخَذَ منهُ، ورجَعَ أبو بكرٍ إلى النَّبِيِّ، فقالَ: هل نَزَلَ فيَّ شيءٌ؟ قالَ: لا، ولكنْ لا يُبَلِّغُ عني غَيري أو رجلٌ مني» [بنحوه الترمذي ٣٦٧٠] على أنَّ عَليًّا هو المُسْتَحِقُّ للخِلافةِ، وهو الأحَقُّ بها دونَ أبي بكرٍ حينَ[8] قالَ: «لا يُبَلِّغُ عني إلّا رجلٌ مني» لكنْ يَحْتَمِلُ أنهُ وَلَّى ذلكَ عليًا لِما كانَ مِنْ عادةِ العَرَبِ أنهُمْ إذا عاهَدُوا عهداً أنهُ لا يَنْقُضُ ذلكَ عليهِمْ إلّا مَنْ هو مِنْ قومِهِمْ، فَوَلَّى ذلكَ عليًّا لئلا يكونَ لهمُ الاحتِجاجُ عليهِ، فيقولونَ: لِمَ يَنْقُضُ علينا العَهْدَ؟ أو أنْ يُقالَ: عَليًّا وَلَّى علينا أمرَ الحربِ، وهو كانَ أبْصَرَ وأقْوَى بأمرِ الحَرْبِ مِنْ أبي بَكرٍ؛ وَوَلَّى أبا بكرٍ أمْرَ إقامةِ الحجِّ والمَناسِكِ، وكانَ أبو بَكْرٍ هو المُوَلَّى أمْرَ العِباداتِ، وعليٌّ [هو المُوَلَّى][9] أمرَ الحروبِ. فالحاجةُ إلى الخلافةِ لإقامةِ العباداتِ، أو أنْ يُقالَ:

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: السَبحة. (٥) في الأصل وم: الاجتماع. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) إشارة إلى قوله ﷺ: «ألا لا يحجن بعد العام مشرك» [البخاري: ٣٦٩]. (٨) في الأصل و م: حيث. (٩) ساقطة من الأصل و م.

[إنّ][1] أبا بكرٍ كانَ أميرَ الموسمِ، وعلياً كانَ مُناديَهُ؛ فالأميرُ في شاهدِنا أجلُّ قَدراً وأعظمُ مَنزلةً مِنَ المُنادِي، وأمْرَ علياً ذلكَ لِما أنَّ ذلكَ أنْ كانَ أقْبَلَ وأسْمَعَ مِنْ غَيرِهِ مِنَ الأميرِ نفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أمرَ بإتمامِ العهدِ للذينَ لم يَنْقُضُوا المُسْلِمينَ، ولا ظاهَرُوا عليهِمْ أحداً. وأمّا الذينَ كانَتْ عادَتُهُمْ نَقْضَ العَهْدِ ونَكْثَهُ فإنهُ لا يُتَمُّ لهمْ، ولكنْ يُنْقَضُ. وكذلكَ تأوَّلُوا قولَهُ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ النقضَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ صلةَ قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣] ويكونَ العذابُ الأليمُ، هو القتلُ والأسرُ؛ كأنهُ يقولُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتلِ والأسرِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لم يَخونوكُمْ شيئاً ما داموا في العَهْدِ ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي لم يُعاونوا، ولا أطْلَعوا أحداً مِنَ المشركينَ عليكُمْ ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ كقولِهِ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أمَرَ بالنَّبْذِ إليهِمْ عندَ خَوفِ الخِيانَةِ، وأمَرَ بالإتمامِ إذا لم يَخونُوا، ولم يُظاهِرُوا عليهِمْ أحداً.

ودلَّ قولُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ على أنَّ قولَهُ ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي غيرُ مُعْجِزِي أولياءِ اللهِ في عذابِ الدنيا لأنهُمْ جميعاً سَواءٌ في عذابِ الآخِرَةِ مشتركينَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُدَّةُ القومِ أربعةُ أشهرٍ بعدَ يومِ النَّحْرِ لِعَشْرٍ مَضَينَ مِنْ ربيعٍ الآخِرِ لِمَنْ كانَ لهُ عهدٌ، ومَنْ لا عَهْدَ لهُ إلى انْسِلاخِ المُحَرَّمِ خَمْسونَ ليلةً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالحُدَيْبِيَةِ فلم يَبْرَأِ اللهُ ورسولُهُ مِنْ عَهْدِهِمْ في الأشْهُرِ الأربعِ ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي لم يُعِينوا على قِتالِكُمْ أحداً مِنَ المُشركينَ، أي لم يَفْعَلُوا ذلكَ ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وهو أربَعَةُ الأشهُرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا المَعاصِيَ والشِّرْكَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأشْهُرُ الحُرُمُ هي أشهُرُ العَهْدِ والأمانِ. فإذا انْسَلَخَتْ تلكَ الأشهُرُ، ومضَتْ ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وقالَ بعضُهُم: الأشهُرُ الحُرُمُ هي الأشهُرُ التي خَلَقَها اللهُ، وجَعَلَها حَراماً، كقولِهِ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ/ ٢٠٧ ـ أ/ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ قالَ بعضُهُم حَيثُ وَجَدتُموهُمْ في الأماكِنِ كُلِّها؛ لأنَّ حيثُ إنما يُترجِمُ عَنْ مكانٍ؛ أمَرَ بِقَتْلِهِمْ في الأماكِنِ كُلِّها لأنهُ لم يَخُصَّ مكاناً دونَ مكانٍ. وقالَ آخرونَ: هو في الأماكِنِ كُلِّها إلّا مكانَ الحَرَمِ. دليلُهُ ما ذَكَرَ في السورةِ التي فيها ذِكْرُ البقرةِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وقولُهُ[2]: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الآية: ١٩١] أمَرَهُمْ بِقِتالِهِمْ في الأماكِنِ كُلِّها إلّا المَسْجِدَ الحَرامَ. وأمْكَنَ أنْ يكونَ أنهمْ يَقْتُلونَ [عدوَّهُمْ][3] إلّا أنْ يدخُلوا [المَسْجِدَ][4] الحرامَ، وقد نُهُوا عنِ الدخولِ فيهِ[5] والحَجِّ هنالكَ على ما رُوِيَ أنَّ علياً نادى بالمَوسِمِ: «ألا لا يَحُجَّنَّ بعدَ العامِ مُشْرِكٌ» [البخاري ٣٦٩]. فإذا دَخَلوا يُقْتَلونَ، ويكونُ دخولُهُمْ فيهِ بَعْدَ النَّهْيِ كابْتِداءِ مُقاتَلَتِهِمْ إيّانا. فإذا قاتَلونا عندَ [المسجِدِ الحرامِ قاتَلْناهُمْ] كقولِهِ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ قيلَ: سُرُوهُمْ، وقولُهُ: ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ قيلَ: واحبِسوهُمْ ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: فيها.

والمَرصَدُ الطريقُ؛ كأنهُ أمَرَ بقولِهِ: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بِقَتْلِهِمْ إذا قَدَرُوا عليهِمْ، وأمْكَنَ لَهُمْ ذلكَ، والأمْرُ [عندَ][1] الإمكانِ، والحَبْسُ إذا دَخَلُوا الحِصْنَ، وحِفْظُ المراصِدِ عندَ غيرِ الإمكانِ لئلا يَفِرُّوا. ويُقالُ: أرْصَدْتُ لهُ أي انْتَظَرْتُ حتى[2] أجِدَ فُرْصَتي. ويُقالُ: تَرَصَّدْتُهُ أي انْتَظَرْتُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي كُلَّ طريقٍ يَرْصُدُونَكُمْ. كأنهُ أمَرَ بذلكَ لِيَضيقَ عليهِمُ الأمْرُ، لِيَضْجَرُوا، ويَنْقادُوا. وفيهِ دليلُ النَّهْيِ عمّا يُحْمَلُ إلى دارِ الحربِ مِنْ أنواعِ الثيابِ والأمتعةِ وما يَنْتَفِعُونَ بهِ؛ لأنهُ أمَرَ بالحَصْرِ وحِفْظِ الطُّرُقِ والمَراصِدِ لِيَضيقَ عليهِمُ الأمرُ، فَيَشْتَدَّ، فَيَنْقادُوا، وفي ما يَحْمِلونَ توسيعٌ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي أقيمُوا عليهِمُ الحُجَجَ والبراهينَ ليضطَرُّوا إلى قَبولِ ذلكَ. فإذا أنْفَذُوا لكمْ، وإلّا فاقتُلُوهُمْ ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ فَوَجَبَ بظاهرِ الآيةِ أنْ نُقاتِلَ مَنْ آمَنَ، ولم يُقِمِ الصلاةَ، ولم يُؤْتِ الزكاةَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إنما رَفَعَ القَتْلَ عنهُمْ بالإيمانِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ. فإذا لم يأتُوا بذلكَ فالقَتْلُ واجبٌ عليهِمْ.

وكذلكَ [فَعَلَ أبو][3] بكرٍ الصِّدّيقُ لمّا ارْتَدَّتِ العَرَبُ، ومَنَعَتْهُمُ الزكاةُ؛ حارَبَهُمْ حتى أذعَنُوا بأدائِها إليهِ. رُوِيَ عن أنسٍ [أنهُ][4] قالَ: لمّا تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ ارْتَدَّتِ العَرَبُ كافّةً، فقالَ عُمَرُ: يا أبا بكرٍ تُريدُ أنْ تُقاتِلَ العَرَبَ كافّةً، فقالَ أبو بكرٍ: إنما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا شَهِدوا أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، وأقامُوا الصلاةَ، وآتَوُا الزكاةَ مُنِعُوا مِنْ دمائِهِمْ وأموالِهِمْ. واللهِ لو مَنَعوني عِقالاً ممّا كانُوا يعطونَ رسولَ اللهِ ﷺ قاتَلْتُهُمْ عليهِ. قالَ عُمَرُ: فلمّا رأيتُ أبا بكرٍ قد شَرَحَ عَرَفْتُ أنهُ الحَقُّ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ [أنهُمْ][5] قالُوا: نَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، ونُصَلّي، ولكنْ لا نُزَكّي، فَمَشى عُمَرُ والبَدْرِيّونَ إلى أبي بكرٍ، فقالُوا: دَعْهُمْ فإنهُمْ إذا استَقَرَّ الإسلامُ في قلوبِهِمْ، وثَبَتَ، أدَّوا. فقالَ: واللهِ لو مَنَعوني عِقالاً ممّا أخَذَ رسولُ اللهِ ﷺ قاتَلْتُهُمْ عليهِ. [وقالوا: قاتَلَ][6] رسولُ اللهِ على ثلاثٍ: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وإقامُ الصلاةِ وإيتاءُ الزكاةِ، وقالَ اللهُ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ واللهِ [لا][7] أسألُ فوقَهُنَّ، ولا أُقَصِّرُ دونَهُنَّ، فقالوا: إنا نُزَكّي ولكنْ لا نَرْفَعُها، فقالَ: واللهِ حتى آخُذَها كما أخَذَها رسولُ اللهِ ﷺ وأضَعَها مواضِعَها.

وقالَ آخرونَ: قولُهُ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في قبولِهِما[8] والاعتقادِ بهما دونَ فِعْلِهِما لِما لا يَحْتَمِلُ حَبْسَهُمْ ومَنْعَهُمْ إلى أنْ يحولَ الحولُ، فيأخُذُوا بأداءِ الزكاةِ. دَلَّ على أنهُ القَبولُ والإقرارُ بذلكَ، واستَدَلُّوا بما رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ، فإذا قالُوا ذلكَ عَصَمُوا مني كذا». وفي بَعْضِها: «حتى يقولُوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ، وأقامُوا الصلاةَ، وآتَوُا الزكاةَ، وإذا فَعَلُوا ذلكَ مَنَعُوا كذا» [مسلم: ٢١].

دلَّ ما ذَكَرْنا منَ الزياداتِ والنُّقصانِ أنَّ ذلكَ في قومٍ مُخْتَلِفِينَ وأنهُ على القَبولِ لِذلكَ والاعْتِقادِ، لا على الفِعْلِ بِنَفْسِهِ. فَمَنْ كانَ لا يُقِرُّ بشيءٍ مِنْ ذلكَ، فإذا قالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ، كانَ ذلكَ منهُ إيماناً في الظاهِرِ. ومَنْ كانَ يقولُ: لا إلهَ إلّا اللهُ، ولا يقولُ: محمدٌ رسولُ اللهِ؛ فإذا قالَ ذلكَ [كانَ ذلكَ][10] منهُ إيماناً. ومَنْ كانَ يُقِرُّ بهذينِ، ولا يُقِرُّ بالصلاةِ والزكاةِ، فإذا أقَرَّ بذلكَ كانَ ذلكَ منهُ إيماناً، فهو على الإقرارِ بهِ والاعْتِقادِ لا على الفِعْلِ.

ألا تَرى أنَّ لِلأئمّةِ أنْ يأخُذُوا منهُمُ الزكاةَ؛ شاؤوا، أو أبَوا؟ فلو كانَ الأداءُ مِنْ شَرْطِ الإيمانِ لَكانُوا غيرَ مؤمنينَ بأخذِ هؤلاءِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل و م: يحل. (٣) في الأصل: فعلى أبي. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل وم: قيل أو قاتل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: قبولها. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

واختلَفَ الصحابةُ والرواياتُ في الحجِّ الأكبَرِ؛ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ [أنهُ قالَ:](١) قالَ: النَّبيُّ ﷺ يومَ عَرَفَةَ: «هل تَدْرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ قالُوا نعم، اليومُ الحرامُ، يومُ الحَجِّ الأكبَرِ، قالَ: فإنَّ اللهَ قد حَرَّمَ دماءَكُمْ وأموالَكُمْ عليكُمْ إلى يومِ القيامةِ كَحُرْمَةِ يومِكُمْ هذا» [ابن ماجه ٣٠٥٧].

وعَنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ الحَجِّ الأكبَرِ، فقالَ: يومُ عرفَةَ. وعنهُ أنهُ وقفَ عليهِمْ يومَ عَرَفَةَ فقالَ: إنَّ هذا يومُ الحَجِّ الأكبَرِ، فلا يَصومَنَّهُ أحَدٌ. وعنِ ابنِ الزُّبيرِ [أنهُ كانَ](٢) يقولُ: يومُ عرفَةَ هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ.

وفي بعضِ الأخبارِ عنهُ ﷺ أنهُ خَطَبَ على ناقةٍ حمراءَ يومَ النَّحرِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «أتَدْرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ هذا يومُ النَّحرِ، وهذا يومُ الحَجِّ الأكبَرِ».

وفي بَعْضِ الأخبارِ عنِ ابنِ عُمَرَ [أنهُ](٣) قالَ: رأيتُ، أو قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ يومَ النَّحرِ عندَ المحرابِ في حَجَّةِ الوداعِ: «أيُّ يومٍ هذا؟ قالُوا: هذا يومُ النَّحرِ. قالَ(٤) فأيُّ بَلَدٍ هذا؟ قالُوا: هذا بَلَدٌ حَرامٌ، قالَ: فأيُّ شهرٍ هذا؟ قالُوا: هذا شَهْرٌ حرامٌ. قالَ: هذا يومُ الحَجِّ الأكبرِ؛ فدماؤُكُمْ وأموالُكُمْ وأعراضُكُمْ عليكُمْ حرامٌ كَحُرْمَةِ هذا البَلَدِ في هذا اليَومِ، ثم قالَ: هل بَلَّغْتُ؟» [مسلم ١٦٧٩/ ٣٠].

وعنِ الحارثِ [أنهُ](٥) قالَ: سألْتُ علياً عنِ الحَجِّ الأكبَرِ، فقالَ: يومُ النَّحرِ، وعنِ المُغيرَةِ بنِ شُعْبَةَ أنهُ خَطَبَ يومَ العيدِ، فقالَ: هذا يومُ النَّحرِ، ويومُ الأضحى، ويومُ الحجِّ الأكبَرِ، وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ](٦) قالَ: الحَجُّ الأكبَرُ يومُ النَّحرِ.

وفيهِ قولٌ ثالثٌ: ما رُوِيَ أنهُ كانَ في كتابِ رسولِ اللهِ ﷺ الذي كتبَهُ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ: والحَجُّ الأصْغَرُ العُمْرَةُ. وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ](٧) قالَ: العُمْرَةُ الحَجَّةُ الصُّغرَى، وسُئِلَ عبدُ اللهِ بْنُ شدادٍ عنِ الحَجِّ الأكبرِ، فقالَ: الحَجُّ الأكبَرُ يومُ النَّحرِ، والأصْغَرُ العُمْرَةُ.

فأمّا حديثُ عمرِو بْنِ حَزْمٍ فهو حكايَةٌ عَنْ كِتابٍ، وليسَ فيهِ بَيانٌ عن يومِ الحَجِّ الأكبَرِ إنما يُذْكَرُ فيهِ الحَجُّ الأصغَرُ. ولولا خَبَرُ عليٍّ وابْنِ عُمَرَ لجازَ أنْ يُقالَ: يومُ عرفَةَ هو يومُ الحَجِّ الأكبَرِ؛ لأنهُ يُقْضَى فيهِ فَرْضُ الحجِّ؛ وهو الوقوفُ. ومَنْ فاتَهُ ذلكَ فقدْ فاتَهُ الحَجُّ، وجازَ أنْ يُقالَ: هو يومُ النَّحرِ؛ لأنَّ فيهِ يُقْضَى طوافُ الزيارةِ؛ وهو فرضٌ يُقْتَضَى فيهِ أكثَرُ مناسِكِ الحجِّ، بل هو يومُ النَّحرِ أولَى أنْ يكونَ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ؛ لأنَّ الحاجَّ يَفْعَلُ في يومِ عَرَفَةَ فَرْضاً مِنْ فرائِضِ الحَجِّ، وهو الوقوفُ، و يُقْتَضَى في يومِ النَّحرِ فَرْضٌ(٨) آخَرُ مِنْ فَرائِضِهِ، وهو طوافُ الزيارةِ، ويُقْتَضَى مَعَ ذلكَ أكثَرُ مناسِكِ الحجِّ. فَقَدِ اسْتَوَى هذانِ اليومانِ في أنهُ يُقْتَضَى في كلٍّ/٢٠٧ ـ ب/ واحدٍ منهُما فَرْضٌ مِنْ فرائضِ الحجِّ، و زادَ يومُ النَّحرِ على يومِ عَرَفَةَ بِما يُفْعَلُ في يومِ النَّحرِ مِنْ مناسِكِ الحَجِّ، ولا يُفْعَلُ في يومِ عرفَةَ شيءٌ(٩) مِنَ النُّسُكِ إلّا الوُقوفُ بِعَرَفَةَ.

واحْتَجَّ بَعْضُ الناسِ بفريضةِ العُمْرَةِ بِما رَواهُ عَمْرُو بنُ حَزْمٍ أنَّ الحَجَّ الأصْغَرَ هو العُمْرَةُ، والحَجَّ الأكبَرَ هو الحَجُّ لِما(١٠) سُمِّيَتِ العُمْرَةُ حَجًّا، وقد ذَكَرْنا الوجْهَ في ذلكَ في ما تَقَدَّمَ.

وعَنْ عليٍّ وأبي هُرَيرَةَ وابْنِ أبي أوفَى ﷺ أنهُمْ قالُوا: الحَجَّةُ الكُبْرَى يومُ النَّحرِ، وعنْ عُمَرَ وابْنِ عباسٍ أنهما قالا: يومُ عَرَفَةَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وقد قالَ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ الآية [التوبة: ٥] فأمَرَ بالآيةِ الأولى عندَ الوجودِ، وفي هذهِ بالقتلِ والأسْرِ، وأمَرَ في الأولَى بتَبْليغِهِ مَأمَنَهُ، وفي(١١) هذهِ بأنْ يَقْعُدَ لهُ في كلِّ مَرْصَدٍ. وحالُ هذهِ في حالِ الأولَى في رأيِ العَينِ، ويَتَهَيَّأُ لهُ في كلِّ وقتٍ، يَظْفَرُ بهِ، أنْ يَسْتَجيرَ لِما ذَكَرَ. وفي كلِّ حالٍ، يَرْصُدُ لهُ أنْ يَحْتالَ لِيَرُدَّ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: قالوا. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: فرضاً. (٩) في الأصل و م: شيئاً. (١٠) في الأصل: بما، في م: إنما. (١١) الواو ساقطة من الأصل و م.

إلى مَأْمَنِهِ. وفي ذلكَ زوالُ القِيامِ بما في إحدَى الآيتَينِ في الظاهِرِ، فألْزَمَ ذلكَ طَلَبَ المَعْنَى المُوَفِّقِ بينَ الأمرَينِ مِنْ طريقِ التأمُّلِ بالأسبابِ التي هي تدلُّ على حقِّ المُعامَلَةِ بالآيتَينِ جميعاً.

فقالَ أصحابُنا: إنهُ إذا قَصَدَ نَحْوَ مأمَنِ أهلِ الإسلامِ غَيرَ مُظْهِرٍ إعلامَ الحربِ، ولا بما يَدُلُّ أنهُ على ذلكَ مَجيئُهُ، بل يَمْشي مَشْيَ مَنْ يَنْقَلِبُ لحاجَةٍ، ومَنْ يَتَعاهَدُ مَنْ يُنادي إليهِ بالاسْتِجارَةِ، فَيُجارُ، ولو كانَ مُقْبِلاً نَحْوَ مأمَنِنا كالطالِبِ لأحدٍ، عليهِ إعلامُ الحربِ، لكنَّهُ كالغافِلِ عنِ الذينَ يَرصُدُونَ لهُ والذينَ لهمْ مَنَعَةٌ، ولا قوةَ بهِ، فلا يُقْبَلُ قولُهُ. وذلكَ[1] على تَسْليمِ الأمرِ الغالِبِ مِنَ الأحوالِ؛ إذْ لا وَجْهَ لِعِلْمِ الحقيقَةِ في ذلكَ.

وعلى ذلكَ عامَّةُ الأمورِ بينَ أهلِ الدارَينِ، وما ذَكَرْتُ مِنَ الآيَةِ في لُزومِ ذلكَ الاعْتِبارِ؛ إذْ لا وَجْهَ لهُ؛ غَيرُهُ هو دليلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم دلَّ قولُهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ بعدَ العِلْمِ بأنهُ مِنْ مأمَنِهِ أمِنَ الآخَرُ؛ إذْ بِهِ خوفُهُ، فَثَبَتَ أنهُ قد يُؤذَنُ لهُ الخروجُ لِلاسْتِجارَةِ مِنْ مأمَنِهِ والدخولُ في مأمَنِ المُسْلِمينَ إلى أنْ يَبْلُغُوا مَسايِحَهُمْ، فَيَسْتَجيروا. فلذلكَ لا يُوجِبُ ذلكَ الوجودُ حقَّ الأسْرِ ولا القَتْلِ، ويَجِبُ رَدُّهُ لو لم يُجَزْ، ولا يَسَعُ تَعَرُّضُهُ لشيءٍ مِنْ ذلكَ ثَمَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ مِنْ غيرِ أنْ يُبَيِّنَ اسْتِجارَتَهُ لماذا؟ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تَرْكُ بيانِهِ لِما في الجوابِ ذلكَ بقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وذلكَ كقولِهِ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] إنَّ[2] في الجوابِ بَيانَ ما اسْتَفْتَوا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ لازماً أنْ ﴿يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بِمَعْنَى حُجَّتِهِ لأيِّ وَجْهٍ دَخَلَ بأمانٍ. وذلكَ قريبٌ؛ لِأنّا أُمِرْنا بالتَّضْييقِ عليهِمْ لِيُسْلِمُوا. فإذا أبَحْنا لهمُ الدخولَ لِلْحاجاتِ بِلا عَرَضٍ، يُذهِبُ مَنْفَعَةَ التَّضْييقِ فيكونُ المَقْصودُ بالعَهْدِ لِما يَرَوْنَ مِنْ آثارِ الإسلامِ وحُسنِ رِعايَةِ أهلِ الإسلامِ، وتَسْمَعونَ حُجَجَهُ وما بِهِ ظُهُورُ الحَقِّ فيهِ رَجاءَ أنْ يُجيبوا. فلذلكَ يُؤذَنونَ، وإن كانَ في ذلكَ قضاءُ حاجاتِهِمْ.

وقد رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ لم يكُنْ يُقاتِلُ حتى يدعُوَ إلى الإسلامِ. فما قد كانَ دَعاهُمْ غيرَ مَرَّةٍ، فذلكَ المَعْنَى عندَ الأمانِ أولَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فالأصلُ أنَّ حَقيقَةَ الكلامِ لا تُسْمَعُ بالكلامِ؛ إذِ الذي بِهِ يُؤدِّي حروفَ الكلامِ بِما يُقَلِّبُ الحروفَ، ويُؤلِّفُهُ، ولا صَوتَ لَهُ، يُسْمَعُ نَحْوُ اللِّسانِ والشَّفَةِ ونَحْوُ ذلكَ. وإنما يُسْمَعُ بِصَوتٍ يَهيجُ مِنْ حيثُ [الحُروفُ][3] الخارجةُ التي تَتَكَلَّمُ وقولُهُ، فَتَبْلُغُ، أو حروفُ كلامِهِ لِلمَسامِعِ. فالسَّمْعُ يَقَعُ على الصوتِ الذي بِهِ يُدرَكُ الكلامُ، ويُفْهَمُ، فصارَ سَمْعُ الكلامِ في الأصلِ مَجازاً لا حقيقةً. فَعَلَى ذلكَ ما قيلَ مِنْ سَماعِ كلامِ اللهِ.

ثم هو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنْ يَسْمَعَ المَعْنَى الذي جُعِلَ لهُ الكلامُ، وهو الأمرُ والنهيُ والتحريمُ والتحليلُ وغيرُ ذلكَ. وذلكَ ممّا يُنْسَبُ إلى اللهِ. فقيلَ بذلكَ: كلامُ اللهِ لِما إليهِ يُنْسَبُ الكلامُ بِهِ والنَّهْيُ وَ نَحْوُ ذلكَ.

والوجهُ الثاني: أنْ يكونَ ألَّفَهُ، ونَظَمَهُ، على ما أعْجَزَ خَلْقَهُ عنْ مِثْلِهِ، فَيُنْسَبُ إليهِ بما منهُ تأليفُهُ على ما هو عليهِ، وإنْ كانَ مَسْموعاً مِنْ غيرِهِ على ما نُسِبَتِ القَصائدُ إلى مُبْدِيها والكُتُبُ إلى مُؤَلِّفيها والأقاويلُ إلى الأوائلِ التي منهُمْ ظَهَرَتْ، وإنْ لم يَكُنِ الذي يقولُهُ في الحقيقَةِ قولَهُ أو كلامَهُ بما كانَ منهُ المَبْدَأُ الذي عليهِ يَتَكَلَّمُ. فَمِثْلُهُ مَعْنَى قولِهِ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

والثالثُ: أنْ يكونَ ذلكَ لِما لِكلامِهِ [يُعَبِّرُ، وبِهِ][4] يُوصَفُ أنَّ لهُ كلاماً[5]، وبِهِ يُرْجَعُ إلى ذلكَ، وإنْ كانَ اللهُ تعالى يَجِلُّ عنِ الوصفِ لِكلامِهِ بالحروفِ والهجاءِ والإيماضِ ونَحْوِ ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: و. (٢) في الأصل و م: أنه. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: يعبرون به. (٥) في الأصل و م: كلام.

فلمّا كانَ إليهِ المَرجِعُ، وإنْ كانَ حَدُّ ذلكَ غيرَ مُتوَهَّمٍ هنالكَ ولا مُتَصوَّرٍ، فنُسِبَ إليهِ كما قالَ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] وقالَ: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] مِنْ غيرِ تَوَهُّمِ كُلِّيَّةِ العالَمِ[1] في ذلكَ الترابِ أو النَّفْسِ الواحدةِ لِما إليهِ مَرجِعُ الكُلِّ، نُسِبَ إليهِ.

وعلى ذلكَ أمْرُ الكلامِ، وذلكَ على ما قيلَ مِنْ لِقاءِ اللهِ والمَرْجِعِ إلى اللهِ والمَصيرِ بما لا تَدْبيرَ لأحدٍ هنالكَ؛ ذَكَرَ المَصيرَ إليهِ، [لأنهُ لا بُدَّ][2] لذلكَ مِنْ صَيرورةٍ إليهِ في الحقيقةِ ورجوعٍ لم يكُنْ مِنْ قَبْلُ. فَمِثْلُهُ، لِما قيلَ، كلامُ اللهِ.

ثم اللهُ تعالى يُحيلُ عنِ التَّصْويرِ في الأوهامِ أو التقديرِ في العقولِ. فَعَلى ذلكَ صِفَتُهُ. بل ذلكَ أحقُّ وأولى؛ إذْ نَجِدُ صِفاتِ الخَلْقِ لا تُحَدُّ، ولا تُتَصَوَّرُ في الأوهامِ، ولا تُقَدِّرُها العقولُ إلّا مِنْ طريقِ القولِ بالحقيقةِ على [ماهي إخبارٌ][3] لَهُم. واللهُ تعالى المُتعالي عنِ التَّصَوُّرِ في الأذهانِ، وَوَصْفُهُ بالعِلْمِ والكلامِ ونَحْوِ ذلكَ أحَقُّ في إيصالِ ذلكَ، فَتَدَبَّرْ فيه.

وقالَ الثَّلْجِيُّ: يُقالُ: كلامُ اللهِ على المُوافَقَةِ لا على الحقيقةِ كما يُقالُ: ذا قولُ فلانٍ وكلامُ فلانٍ، ولَيسَ غيرُهُ كلامَ المُتكلِّمِ به. فالقائلُ الشاهدُ.

وقالَ أبو بكرٍ: فهذا يدلُّ على أنَّ كلامَ اللهِ يُسْمَعُ مِنْ وجوهٍ؛ فكأنهُ يَذْهَبُ إلى مِثْلِ ما يُقالُ: يُعْرَفُ اللهُ مِنْ وجوهٍ على تَحْقيقِ الوُجوهِ، فَمِثْلُهُ كلامُهُ، واللهُ [أعلمُ، مِنْ غيرِ تَوَهُّمِ المَعْنى الثاني يَفْتَرِقُ بهِ][4] عنِ اللهِ سبحانَهُ، كذلكَ سماعُ كلامِهِ.

وفي قولِهِ: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ دلالةُ أنهُ لم يَقْبَلْ ما أُسْمِعَ، وعُرِضَ عليهِ؛ إذْ لو قَبِلَ لَكانَ يكونُ مأمَنُهُ هذهِ الدارَ، لا تلكَ ولَكانَ يَحِقُّ عليهِ الخروجُ منها، لا العَوْدُ إليها.

ثم معلومٌ أنَّ كلامَ اللهِ، هو حُجَّتُهُ، وأنَّ الحُجَّةَ قد لَزِمَتْهُ لِوجهَينِ:

أحدُهُما: ما ظَهَرَ عَجزُ الخَلْقِ عنْ مِثْلِهِ، وانْتَشَرَ الخَبَرُ في الآفاقِ[5] على قطعِ طَمَعِ المُقابِلينَ لِرسولِ اللهِ ﷺ بالرَّدِّ الباذِلينَ مُهَجَهُمْ وما حَوَتْهُ أيديهِمْ في إطفاءِ نورِهِ، فكانَ ذلكَ حُجَّةً بيِّنَةً لَزِمَتْهُمْ.

والثاني: أنَّ جميعَ ما يُتْلَى منهُ لا يُؤْتَى عنْ آياتٍ إلّا وفيها ما يَشْهَدُ بالعقولِ على قُصورِ أفهامِ الخَلْقِ عنْ بلوغِ مِثْلِهِ مِنَ الحِكْمَةِ وعجيبِ ما فيهِ مِنَ الحُجَّةِ ممّا لو قُوبِلَ بما فيهِ مِنَ المَعْنى، وما يَحْدُثُ بهِ مِنَ الفائدةِ لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ مِنْ كلامِ مَنْ يَعْلَمُ الغَيبَ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. وإذا كانَ كذلكَ، صارَ هو بالرَّدِّ مُكابِراً، وحَقُّ مِثْلِهِ الزَّجْرُ والتأديبُ أنهُ لم يَفْعَلْ [ما][6] يَضْمَنُ أمانَةَ القَبولِ، ولا آلا[7] يعارِضُهُ بالرَّدِّ وذلكَ أعظَمُ ممّا فيهِ الحدودُ. فالحَدُّ أحقُّ آلا[8] يُقامَ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يَدَعَهُ، ولا يَمْنَعَهُ عنِ العَودِ إلى مَأمَنِهِ لِيَعْلَمَ أنَّ حُكْمَ تلكَ الدارِ لم يَزَلْ عنهُ، وأنهُ لا يُلْزَمُ الجِزْيَةَ /٢٠٨ ـ أ/ إلّا عَنْ طوعٍ أو دلالةٍ عليهِ.

والثاني: أنْ يكونَ عليهِ حِفْظُهُ إلى أنْ يُبْلِغَهُ مأمَنَهُ بدفعِ المُسلِمينَ منهُ. وفي ذلكَ لزومُ حَقِّ الأمانِ الجميعَ بإحازةٍ، وعلى ذلكَ كلُّ مُسْلِمٍ.

ثم سماعُ كلامِ اللهِ يُخَرَّجُ مِنَ القرآنِ، وفيهِ ما ذَكَرْتُ مِنَ الدلالةِ، وعلى سماعِ أوامرِ اللهِ ونَواهيهِ في حقِّ العَرْضِ عليه، وعلى سَماعِ حُجَجِ النُّبُوَّةِ وآياتِ الرسالةِ أوِ التَّوحيدِ مِنَ القرآنِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما لَهُمْ، وما[9] عليهِمْ. ويَحْتَمِلُ نَفْيَ العِلْمِ بما لم يَنْتَفِعُوا بما أُعْلِمُوا. ويَحْتَمِلُ ذلكَ [تَعْليماً][10] معَ رسولِ اللهِ مِنْ كَيفِيَّةِ مُعامَلَةِ الكَفَرَةِ؛ إذْ هم لم يكونُوا يَعْلَمونَ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: العام. (٢) في الأصل: لا أن، في م: لأن لذلك. (٣) من م، في الأصل: هن أعيار. (٤) في الأصل: أعلم، في م: من غير توهم المعنى الثاني يتفرق به. (٥) من م، في الأصل: الأوقات. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) من م، في الأصل: أن. (٨) من م، في الأصل: أن. (٩) من م، في الأصل: و. (١٠) في الأصل و م: تعليم.

الآية ٧ ثم قولُهُ ﷻ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، أنْ كيفَ يَستحِقُّونَ العَهْدَ؟ وكيفَ يُعطَى لهمُ العَهْدُ، وقد نَقَضُوا العُهودَ التي بَينَهُمْ وبَيْنَ ربِّهِمْ والعُهودَ التي بينَهُمْ وبينَ رسولِ اللهِ.

فأمّا العُهودُ التي بينَهُمْ وبَينَ ربِّهِمْ فهي[1] عَهْدُ الخِلْقَةِ؛ إذْ في خِلْقَةِ كُلِّ أحدٍ الشهادةُ على وَحْدانيَّةِ اللهِ والوهيَّتِهِ، والشهادةُ على الرسالةِ، وما عَهِدَ إليهِمْ في كتُبِهِمْ مِنْ إظهارِ صِفَةِ محمدٍ وبَعْثِهِ[2] لِلْخَلْقِ، فَنَقَضُوا ذلكَ كُلَّهُ، ونَقَضُوا العُهودَ التي بَيْنَهُمْ وبينَ رسولِ اللهِ، ولم يَحْفَظُوها.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ، كيفَ يَسْتَحِقُّون أنْ يُعطَى العَهْدُ لَهُمْ، وقد نَقَضُوا العَهْدَ الذي عَهِدَ اللهُ إليهِمْ والعُهودَ التي أعطاهُمْ رسولُ اللهِ، لا يَستحِقُّونَ ذلك. إلّا أنَّ اللهَ ﷻ بِفَضْلِهِ وإحسانِهِ أذِنَ أنْ تُعطَى لهُمُ العُهودُ، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أي أوفُوا لهُمُ العَهْدَ إذا وَفَوا لَكُمْ، وإنِ انْقَضَتِ المدةُ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ، إذا استَقامُوا لكُمْ في وفاءِ العَهْدِ ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ في وِقايةِ العَهْدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ اسْتَثْنَى الذين عاهَدوا عندَ المَسْجِدِ الحرام. يَحْتَمِلُ ألّا يُعْطَى العهدُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ كذا فإنهمْ إنْ أوفوا لكُمْ [فأوفوا لَهُمْ][3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إنَّ اللهَ يحبُّ مَنِ اتَّقَى الشِّرْكَ، واتَّقى مِنْ جَورٍ وظُلْمٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يقولُ: كيفَ تُعطونَ لهُم العَهْدَ؟ وكيفَ يَستحِقُّونَ العَهْدَ؟ ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؟

وقالَ بَعْضُهُمْ: كيف لا تُقاتِلونَهُمْ ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؟ قالَ: الإلُّ اللهُ، والذِّمَّةُ العَهْدُ. وقيلَ: إلالُّ القرابةُ، وقيلَ: الإلُّ العَهْدُ والذِّمَّةُ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حفصَةَ ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ عهداً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾.

وقالَ القُتَبِيُّ: الإلُّ العَهْدُ؛ قالَ: ويُقالُ: القرابَةُ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الإلُّ القرابَةُ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ: الإلُّ العَهْدُ، والذِّمَّةُ التَّذَمُّمُ. وقالَ ابْنُ عباسٍ: الإلُّ عندَ اللهِ بِمَنزِلَةِ جِبريلَ؛ يُفَسِّرُهُ عبدُ اللهِ لِما قيلَ: جبريلُ هو عبدُ اللهِ.

وقيلَ: الإلُّ الحُرَمُ؛ يقولُ: كيفَ يعطونَهُمُ العَهْدَ، وهمْ ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ القرابَةَ ولا العَهْدَ، ولا يَرْقُبوا[4] الحُرُمَ فيكُمْ؟ وقد كانُوا يَحْفَظُونَ في ما بَيْنَهُمُ القرابَةَ والرَّحِمَ حتى يُعاوِنَ بعضُهُمْ بَعْضاً، ويُناصِرَ، إذا وَقَعَ بَيْنَ قرابَتِهِمْ ورَحِمِهِمْ وبَيْنَ قومٍ آخرينَ مُباغَضَةٌ وعَداوَةٌ، وكانوا يرقُبونَ حُرَمَ اللهِ حتى لا يُقاتِلوا[5] في الأشهرِ الحُرُمِ وعندَ المَسْجِدِ الحرام، وكانوا يَحْفَظونَ العُهودَ في ما بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلُ، ولا يَرْقُبونَ فيكمْ، ولا يَحْفَظونَها. هذا، واللهُ أعلمُ تأويلُ قولِهِ: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ وقد كانوا يرقُبونَهُ مِنْ قَبْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأنهمْ يُوفُونَ العَهْدَ، ويَحْفَظونَهُ ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ إلّا النَّقْضَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ في نَقْضِ العَهْدِ. والفِسْقُ هو الخُروجُ عنْ أمرِ اللهِ كقولِهِ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تَحْتَمِلُ آياتُ اللهِ القرآنَ ومحمداً، وتَحْتَمِلُ آياتُهُ دينَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي صَدُّوا الناسَ عنْ متابَعَةِ النَّبيِّ، وقيلَ: صَدُّوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ الإسلامِ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بِئْسَ ما عَمِلُوا بِصَدِّهِمُ الناسَ عنْ دينِ الإسلامِ ومُتابَعَةِ محمدٍ ﷺ واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ هذا قد ذَكَرْنا ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ في نَقْضِ العَهْدِ. والاِعْتِداءُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لَهُمْ.

---

(١) في الأصل و م: هو. (٢) في الأصل و م: ونعته. (٣) في الأصل: فأوفوا، ساقطة من م. (٤) في الأصل و م: يرقبون. (٥) في الأصل و م: يقاتلون.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: أنظُرُوا إلى كَرَمِ رَبِّكُمْ وجودِهِ: قومٌ قَدِ افْتَرَوا على اللهِ كَذِباً، وكَذَّبُوا رسولَ اللهِ، وهَمُّوا بِقَتْلِهِ وإخراجِهِ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ، وطَعَنُوا في دينِهِمْ، وعَمِلُوا كُلَّ بَلِيَّةٍ مِنْ نَصْبِ الحُروبِ والقِتالِ في ما بينَهُمْ، ثم إنهُ وَعَدَ لهمْ بالتوبَةِ المَغْفِرَةَ والتَّجاوُزَ عمّا كانَ منهُمْ بقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وجَعَلَ في ما بَيْنَهُمُ الأُخُوَّةَ والمَوَدَّةَ بقولِهِ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وقولِهِ[1]: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] وقولِهِ: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وفيهِ: إنْ كانَ لهُ بمكانٍ آخرَ ذَنْبٌ أو جفاءٌ، فإذا رَجَعَ عنْ ذلكَ، وتابَ، لَزِمَهُ أنْ يُتجاوزَ عنهُ، وألّا يُذْكَرَ بَعْدَ ذلكَ ما كانَ منهُ [مِنَ][2] الذنبِ على ما جَعَلَ اللهُ في ما بَيْنَ هؤلاءِ الأُخُوَّةَ والمَوَدَّةَ إذا تابُوا، وقالَ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وقد كانَ منهُمْ ما كانَ، ومِنْ حَقِّ الأُخُوَّةِ ألّا يُذْكَرَ ما كانَ منهُمْ مِنَ المَساوِئِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ مِنَ الشِّرْكِ وما كانَ منهُمْ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وجهَيْنِ:

تَحْتَمِلُ الصلاةُ: المعروفةَ، والزكاةُ: المعروفةَ زكاةَ المالِ، وهو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ مِنَ الإقرارِ لهما والاعْتِقادِ والقَبولِ لذلكَ دونَ فِعْلِهِما، وهو في الكُبَراءِ والقادةِ الذينَ كانُوا يأنَفُونَ عنِ الخُضوعِ لأَحَدٍ، ولا يُؤَدُّونَ الزكاةَ، ولا يَتَصَدَّقُونَ لِما ظَنُّوا أنهُمْ يُخَلَّدُونَ في الدنيا إشفاقاً على أنْفُسِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ مِنَ الصلاةِ والزكاةِ الخُضوعَ والخُشوعَ لا الصلاةَ المَعروفَةَ، والمُرادُ مِنَ الزكاةِ زكاةَ النَّفْسِ وإصلاحَها. فإنْ كانَ هذا فهو لازمٌ في الأوقاتِ كُلِّها؛ ما مِنْ وقْتٍ إلّا ولَهُ على كُلِّ أحَدٍ الخُضوعُ والخُشوعُ لهُ، [وأنْ][3] يُزَكِّيَ نَفْسَهُ، ويُصْلِحَها، وهو كقولِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي نُبَيِّنُ الآياتِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ. ويَحْتَمِلُ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقومٍ إذا نَظَرُوا فيها، وتَدَبَّرُوا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لا لقومٍ لا يَعْلَمونَ

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَيْمَٰنَهُم﴾ العُهودَ نَفْسَها كقولِهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ ثَمَّ ذَكَرَ العهودَ، ثُمَّ قالَ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أيماناً يَحْلِفُونَ [بها][4] بَعْدَ إعطاءِ العَهْدِ توكيداً بألّا[5] يَنْقُضُوا العَهْدَ، إذا [عاهدوكُم، ونَقَضُ العَهْدِ نَكْثُهُ][6].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ في الدينِ ظاهرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وتَخصيصُ الأمْرِ بِمُقاتَلَةِ الأئمّةِ [بوجوهٍ:

أحَدُها[7]]: لِما أنَّ الأتباعَ أبداً يُقَلِّدونَ الأئِمّةَ ويَصْدُرُونَ عنْ آرائِهِمْ وتَدبيرِهِمْ. فإذا قاتَلُوهُمْ اتَّبَعَ الأتباعُ فَلَّهُمْ.

والثاني: لِنَفْيِ الشُّبَهِ أنْ لَيسَ الأئِمّةُ /٢٠٨ - ب/ منهُمْ كأصحابِ الصوامِعِ، وإنْ كانُوا هُمْ أئمّةً في العبادَةِ، فلا يَتْرُكُ مُقاتلَتَهُمْ كما يَتْرُكُ مُقاتَلَةَ أصحابِ الصَّوامِعِ قد عَزَلُوا[8] أنْفُسَهُمْ عنِ الناسِ عنْ جَميعِ المَنافِعِ، وحَبَسوها للعبادةِ، والأئِمّةُ لَيسُوا كذلكَ.

والثالثُ: خَصَّ الأئِمّةَ بالقتالِ لأنهُمْ إذا قَتَلُوهُمْ لم يَبْقَ لهمْ إمامٌ في الكُفْرِ، فيذهَبُ الكُفْرُ رأساً، وهو كقولِهِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لئلا. (٦) في الأصل وم: عاهدتم نقض العهد ونكثه. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: عرفوا.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ لا عَهْدَ لهمْ بَعْدَ نَقْضِهِمُ العَهْدَ؛ أي لاتُوفُوا لَهُمُ العَهْدَ الذي كانَ لهمْ إذا نَقَضُوا. ويَحتَمِلُ ﴿لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا يُعْطَى لهمُ العهدُ أبداً.

وفيهِ لُغَةٌ أُخرَى لا إيمانَ لهمْ بكسرِ[(٢)] الألِفِ؛ أي لا يؤمنونَ، أي لا يؤمنونَ أبداً. فإنْ كانَ كذلكَ [فذلكَ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنونَ أبداً][(٣)].

وفائدةُ قولِهِ[(٤)] ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ تُخرَجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ أهلَ العَهْدِ إذا نَقَضُوا العَهْدَ يُنْقَضُ ذلكَ، ويَتركونَ على النَّقْضِ، ويُقاتِلونَ بعدَ النقضِ.

[والثاني: لَيسُوا[(٥)]] كأهلِ الذِّمَّةِ إذا نَقَضُوا الذِّمَّةَ لا يَتْرُكونَ ذلكَ، ولكنْ يَرْتَدُّونَ[(٦)] إلى الذِّمَّةِ، ولا تُنْقَضُ الذِّمَّةُ بينَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ يقولُ: لا تَصديقَ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عن نَقْضِ العَهْدِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ أي كيفَ ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ وأيمانُهُمْ: ما ذَكَرْنا، وهو حرفُ الإغراءِ على مُقاتَلَةِ مَنِ اعتادَ[(٧)] نَقْضَ العُهودِ والتَّحريشَ عليهِمْ ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ القَتْلَ أي هَمُّوا بقَتْلِهِ. وفي القَتْلِ إخراجُهُ، وهَمُّوا بإخراجهِ مِنَ المدينةِ [ما][(٨)] ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ اليهودَ قالُوا لرسولِ اللهِ: إنْ كانَ لِلأنبياءِ[(٩)] والرسلِ بيتُ المقدسِ لا المدينةُ فانْتَقِلْ إليهِ.

وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ معلومٌ أنهمْ أسَرُّوا في أنْفُسِهِمْ وفي ما بينَهُمْ إخراجَهُ وقَتْلَهُ، لا أنهمْ أظْهَرُوا ذلكَ، ثم أخْبَرَهُمْ بذلكَ، دلَّ أنهُمْ إنما عَلِمُوا أنهُ عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في نَقْضِ العَهْدِ، أي هُمْ بَدَؤُوكُمْ بِنَقْضِ العَهْدِ. ويَحتَمِلُ: هُمْ بَدَؤُوكُمْ بالقِتالِ أوَّلَ مَرَّةٍ والإخراجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ أي لا تَخشَوهُمْ، واخشَوُا اللهَ، فإنهُمْ لا يَقْدِرونَ أنْ [يَصِلُوا إليكم بِنَكبَةٍ][(١٠)] إلّا بإقدارِ اللهِ إيّاهُمْ. فلا تَخشَوهُمْ، واخْشَوُا اللهَ. ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ﴾ قادرٌ؛ يَنْصُرُكُمْ، ويَقْهَرُ عَدُوَّكُمْ ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذْ هو قادرٌ على مَنْعِهِمْ عنكُمْ، ونصرِكُمْ عليهِمْ[(١١)].

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ الآية؛ عَلِمَ اللهُ ﷻ كراهَةَ[(١٢)] القَتْلِ وثِقَلَهُ على الخَلْقِ، فأمرَ المؤمِنينَ بِمُقاتَلَةِ الكفرَةِ، ووَعَدَ لهمُ النَّصرَ والتعذيبَ. والتعذيبُ بأيديهِمْ يَحتَمِلُ وجهَينِ: القَتْلَ والإهلاكَ، ويَحتَمِلُ الأسْرَ والسَّبْيَ. ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ أيضاً وجهَينِ: يَحتَمِلُ الهزيمةَ والإذلالَ [في الدنيا][(١٣)] ويَحتَمِلُ ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ في الآخرةِ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢] الخِزْيُ هو العذابُ الذي فيهِ الفضيحةُ والذِّلَّةُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ دَلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلةِ لِقولِهِمْ: لا[(١٤)] قُدْرَةَ للهِ على أفعالِ الخَلْقِ؛ وقد أخْبَرَ أنهُ يُعَذِّبُهُمْ بأيديهِمْ، ولو كانَ غَيرَ قادرٍ على أفعالِهِمْ كانَ يُعَذِّبُهُمْ بيدِهِ لا بأيديهِمْ، ويَنْصُرُكُمْ عليهِمْ.

وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ عليهِمْ والظَّفَرَ وخِزيَ الكَفَرَةِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] دلالةُ نَقْضِ قولِهِمْ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ يُصيبُهُمُ العذابُ مِنْ عندِهِ أو بأيدي المؤمِنينَ لِما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ٣/ ١٠ (٣)ساقطة من م. (٤) في الأصل و م: قولهم. (٥) في الأصل و م: يصل إليكم نكبة. (٦) في الأصل و م: يريدون. (٧) في الأصل و م: اعتقاد. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: الأنبياء. (١٠) في الأصل و م: يصل إليكم نكبة. (١١) في الأصل و م: عليه. (١٢) من وم، في الأصل: كرامة. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ان.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ قلوبُهُمْ تَوَجَّعَتْ، وتألَّمَتْ بكفرِهِمْ باللهِ وتكذيبِهِمُ الرسولَ، فوعَدَ لهمْ شِفاءَ صدورِهِمْ. وذلكَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنهمْ يُسْلِمون، فَيَصِيرونَ إخواناً، فَيُدْخِلُ فيهمُ السرورَ والفرحَ بإزاءِ ما حَزِنُوا وتألَّمُوا، وذلكَ شِفاءُ صُدورِهِمْ.

والثاني: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ بالقَتْلِ والهزيمةِ؛ يَقْتُلُونَ، ويَهْزِمونَ؛ ففي ذلكَ شِفاءُ صدورِهِمْ لِما تألَّمَتْ، وتَوَجَّعَتْ، بالتكذيبِ والكُفرِ باللهِ وآياتِهِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ أيضاً وجهَينِ: يُذْهِبُ الغيظَ الذي كانَ[1] في قلوبِهِمْ [ويُذْهِبُ الغَضَبَ][2] عليهمْ بالذي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي مَنْ شاءَ عَذَّبَ، ومَنْ شاءَ تابَ عليهِ.

وفي الآيةِ دلالةُ الرَّدِّ على المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: شاءَ اللهُ أنْ يتوبَ على جميعِ الكفرةِ، لكنهمْ لا يتوبونَ، فأخبرَ أنهُ يُعَذِّبُ، ويتوبُ على بَعْضٍ؛ فإنما شاءَ أنْ يُعَذِّبَ غيرَ الذي شاءَ أنْ يتوبَ [وشاءَ أنْ يتوبَ على][3] غيرِ الذي شاءَ أنْ يُعَذِّبَ.

[وقولُهُ تعالى][4] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كانَ، ويكونُ، أي على[5] عِلْمٍ بما كانَ منهُمْ، خَلَقَهُمْ لا عنْ جهلٍ؛ إذْ خَلَقَهُ إيّاهُمْ ليسَ لِمنافعِ نَفْسِهِ وحاجتِهِ، إنما خَلَقَهُمْ لحاجَتِهِمْ ومَنْفَعَتِهِمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ بِوَضْعِ كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ. ويَحْتَمِلُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما كانَ مِنْ هؤلاءِ مِنَ التكذيبِ لرسولِ اللهِ والكُفرِ بآياتِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ أي بما[6] جَعَلَ عليهِمْ مِنَ القَتْلِ والتَّعذيبِ و الخِزْيِ، كأنهُ وَضَعَ الشيءَ مَوضِعَهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [قولُهُ تعالى][7]: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] [وقولُهُ أيضاً[8]]: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ الآيةَ [البقرة: ٢١٤] وقولُهُ: ﴿الم﴾ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا﴾ الآيةَ [العنكبوت: ١و٢]هذهِ الآياتُ كلُّها في المنافقِينَ الذينَ أظهَرُوا الإيمانَ باللِّسانِ، وراؤُوا المؤمنِينَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ، وأخلصوا الإيمانَ والمُوافَقَةَ لهُ، فقالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ على ما أظهَرْتُمْ مِنَ الإيمانِ باللسانِ فلا تُبْتَلَوا[9] بالقِتالِ معَ الكَفَرَةِ؟ واللهُ أعلَمُ.

أمَرَ بهِ[10] لِمَعْنَيَينِ:

أحدُهُما: تَطهيراً للأرضِ مِنَ الكُفرِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والثاني: امْتِحاناً لِلْمُنافِقِينَ لِيَتَبَيَّنَ نِفاقُ مَنْ أظهَرَ الإيمانَ باللسانِ مُراآةً، وصِدْقُ مَنْ أظهَرَهُ حقيقةً، لِيُعْرَفَ المُحِقُّ المُخْلِصُ مِنَ المُنافِقِ المُرائي؛ لأنَّ القتالَ هو[11] أرفَعُ أعلامٍ يَظْهَرُ بها نِفاقُ المُنافِقِ لأنهمْ إنما كانُوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ طَمَعاً لهمْ بالدنيا لِتَسْلَمَ لهُمُ المَنافِعُ التي كانُوا يَنْتَفِعونَ بها.

ففي الأمرِ بالقِتالِ خَوفُ الهلاكِ فإذا خافوا الهَلاكَ على أنْفُسِهِمُ امْتَنَعُوا عنهُ كقولِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ الآيةَ [الأحزاب: ١٨] خوفاً و إشفاقاً على أنْفُسِهِمْ لِما ذَكَرْنا أنهمْ إنما كانُوا يُظْهِرونَ الإيمانَ باللسانِ لِيَسْلَمَ لهمْ ما طَمِعُوا[12] مِنَ المَنافِعِ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآيةَ [الحج: ١١].

---

(١) في الأصل و م: كانوا. (٢) في الأصل وم: غضبوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: عن، في م: من. (٦) في الأصل و م: ما. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: وأيضاً قوله. (٩) في الأصل و م: تبتلون. (١٠) الضمير يعود على القتال. (١١) أدرج بعدها في الأصل: من. (١٢) من م، في الأصل: طعموا.

هذا وصفُ المنافِقِ. وأمّا المؤمنُ المُحَقِّقُ للإيمانِ المُخلِصُ للإسلامِ فإنهُ يُسلِّمُ نَفْسَهُ للهِ في جميعِ أحوالِهِ، وإنْ كانَ فيهِ تَلَفُ نَفْسِهِ، لِما لم تكنْ عِبادَتُهُ اللهَ على حَرْفٍ وَوَجْهٍ كالمنافِقِ، ولكنْ على الوُجوهِ كلِّها والأحوالِ جميعاً. عبادتُهُ تكونُ للهِ، لا يَمْنَعُهُ خوفُ الهلاكِ عَنِ القِتالِ، بل نفسُهُ تَسْخُو لذلكَ، وتَرْضَى، ولا كذلكَ المنافقُ؛ وقد ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاستفهامِ مِنَ اللهِ يكونُ على الإيجابِ والإلزامِ.

ثم قولُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: أي قد حَسِبْتُمْ أنْ تُتْرَكُوا على ما أظْهَرْتُمْ مِنَ المُوافَقَةِ/ ٢٠٩ ـ أ/ والخِلافِ في السِّرِّ، ولا [تُبْتَلَوا، ولا تُمْتَحَنُوا بما][1] يَظْهَرُ عنكُمْ ممّا أضمَرْتُمْ، فلا تَحْسَبُوا ذلكَ.

والثاني: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي لا تَحْسَبُوا أنْ تُتْرَكُوا على ذلكَ، ولا تُمْتَحَنُوا بالجِهادِ والقِتالِ.

أحَدُ التأويلَيْنِ يُخَرَّجُ على النَّهيِ، والثاني على الإخبارِ عمّا حَسِبُوا وعمّا عندَهُمْ.

ثم قولُهُ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ أي لِيَعْلَمَ مَنْ قد عَلِمَ أنهُ يجاهدُ مجاهداً، ويَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً لا على حدوثِ علمِهِ بذلكَ؛ إذْ هو موصوفٌ بالعِلْمِ بكلِّ ما يكونُ على ما يكونُ، فيكونُ قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] مِنْ كذا [وقولُهُ][2]: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] مِنْ كذا: أي لِيَعْلَمَ مَنْ قد عَلِمَ أنهُ يجاهِدُ مجاهداً، ولِيَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً لأنهُ لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ اللهُ بالعِلْمِ بما ليسَ يكونُ أنهُ يَعْلَمُهُ كائناً كما لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ أنهُ يَعْلَمُ مِنَ الجالِسِ القِيامَ في حالِ جُلوسِهِ، ومِنَ المُتَحَرِّكِ السكونَ في حالِ حركتِهِ، ومِنَ المُتَكَلِّمِ السكوتَ في حالِ كلامِهِ، إنما يُوصَفُ بالعِلْمِ على الحالِ التي الخَلْقُ عليهِ، لا يُوصَفُ بالعِلْمِ في حالِ غيرِ الحالِ التي هو عليهِ، واللهُ الموفِّقُ.

ويَحْتَمِلُ هذا وجهاً آخَرَ: أنَّ في ما أضافَ العِلْمَ إلى نَفْسِهِ كانَ المُرادُ منهُ أولياءَهُ كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي إنْ تَنْصُروا أولياءَهُ[3] يَنْصُرْكُمْ، أو إنْ تَنْصُروا دِينَهُ يَنْصُرْكُمْ، أو إنْ تَنْصُروا رسولَهُ يَنْصُرْكُمْ. فعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ أي لِيَعْلَمَ أولياءَهُ[4] المُنافِقَ المُرائيَ والمؤمِنَ المُحَقِّقَ [الإيمانَ][5] المُخلِصَ، ولِيُبَيِّنَ لَهُمْ، وقولُهُ[6]: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي يُخادِعُونَ أولياءَهُ؛ إذِ اللهُ لا يُخادَعُ، ولا يُنْصَرُ؛ إذْ هو ناصِرُ كُلِّ أحدٍ، ولا يَخفَى عليهِ شيءٌ، عالمٌ بما يكونُ، أو أنْ يكونَ المرادُ مِنَ العلمِ الذي ذَكَرَ المَعْلومَ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ جارٍ، وفي القرآنِ كثيرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي لم يَجِدُوا مَلْجأً يَلْجَؤونَ إليهِ مِنْ دونِ ما ذَكَرَ. ولو وَجَدُوا ذلكَ لاتَّخَذُوا ذلكَ، ولكنْ لمّا لم يَجِدُوا لم يتَّخِذوا كقولِهِ: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ الآية [التوبة: ٥٦و٥٧] أخبَرَ أنهُمْ لو وَجَدوا مَلْجأً يَلْجَؤونَ إليهِ ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ٥٧] ولا يُظْهِرونَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيجَةً﴾ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: الوَليجةُ البِطانَةُ مِنْ غيرِ المُسلِمِينَ. وأصلُها مِنَ الوُلوجِ، وهو أنْ يَتَّخِذَ الرجلُ مِنَ المُسلِمِينَ دخيلاً مِنَ المُشرِكِينَ وخَليطاً ووِدًّا، وجَمْعُهُ الوَلائِجُ.

وقالَ البَعْضُ: الوَليجةُ: أصلُها مِنَ الدخولِ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] يقالُ أيضاً: فلانٌ [وَليجةُ فلانٍ][7]: أي خاصَّتُهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الوَليجةُ الخيانَةُ. وقالَ بَعْضُهُم: الوَليجةُ ما يُلْجَأُ [إليهِ][8]. وقالَ بَعْضُهُمْ: كلُّ شيءٍ أدخَلْتَهُ في شيءٍ، ليسَ منهُ، فهو وَليجةٌ. وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

---

(١) في الأصل و م: تبتلون وتمتحنون ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: أولياء. (٤) من م، في الأصل: أوليائه.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وكقوله. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل و م.

[وقولُهُ تعالى](1): ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هو [على](2) الوعيدِ خرَجَ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَتِ الآيةُ في العباسِ بْنِ عبدِ المُطَّلِبِ؛ حينَ(3) أُسِرَ يومَ بدرٍ، فأقْبَلَ ناسٌ مِنَ المُهاجِرينَ والأنصارِ، منهُمْ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ وغيرُهُ، فَعَيَّرُوهُ بالكُفرِ باللهِ والقِتالِ معَ النَّبِيِّ وقَطيعَةِ الرَّحِمِ، فقالَ: مالَكُمْ تذكُرُونَ مَساوِئَنا، وتَذَرُونَ مَحاسِنَنا؟ فقالُوا: أولَكُمْ مَحاسِنُ؟ قالَ: إي واللهِ: إنا لَنَعْمُرُ المسجِدَ الحرامَ، ونَحْجُبُ البيتَ، ونَسْقِي الحاجَّ، ونَفُكُّ العانِيَ. فأنزَلَ اللهُ ردّاً عليهِ. لكنْ في آخرِ الآيةِ دلالةٌ أنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في العباسِ على ما قالُوا لأنهُ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ والعباسُ قد أسْلَمَ مِنْ بَعْدُ، فلا يَحْتَمِلُ هذا الوعيدَ بعدَ الإسلامِ.

وقالَ غيرُهُمْ منْ أهلِ التأويلِ: وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي ما كانَ بالمُشركينَ عِمارةُ مَساجِدِ اللهِ، إنما كانَ بهِمْ خرابُ مساجِدِ اللهِ؛ إنَّ المساجِدَ إنما تَعْمُرُ بالذِّكْرِ فيها والصلاةِ و إقامةِ الخَيراتِ كقولِهِ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ الآية [النور: ٣٦]، وهُمْ لم يَعْمُرُوها لِذِكْرِ اسْمِ اللهِ فيها، إنما عَمَرُوها لِذِكْرِ الأصنامِ والأوثانِ. فكانَ بِهِمْ خَرابُ المَسْجِدِ لا العِمارَةُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ على ما عندَهُمْ؛ لأنَّ الذي مَنَعَهُمْ عنِ الإيمانِ باللهِ حُبُّهُمُ الدنيا ومَيْلُهُمْ إليها، فما يَنْبَغي لهمْ أنْ يَعْمُرُوها، يُنْفِقُونَ(4)، ويُضَيِّعونَ أموالَهُمْ فيها، ولايَنْتَفِعُون، مَنَعَهُمْ عنِ التوحيدِ والإيمانِ حُبُّهُمُ الدنيا وشَهَواتُهُمْ ومَيْلُهُمْ إليها. فَعَلَى ما عِندَهُمْ ما يَنْبَغي لهمْ أنْ يَعْمُرُوها.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي ما كانَ على المشركينَ أنْ يَعْمُرُوا مساجدَ اللهِ، لأنهُمْ لا يَنْتَفِعُونَ بها في الآخِرَةِ؛ لأنهمْ لا يؤمِنونَ بالآخِرَةِ.وإنما يُقْصَدُ بِعِمارةِ المساجِدِ والإنفاقِ عليها الثوابُ في الآخِرَةِ، وهم لا يؤمِنونَ بها، فَتَضيعُ نَفَقَتُهُمْ في ذلكَ؛ إذْ لا مَقاصِدَ لهمْ، ولا مَنْفَعَةَ. إنما ذلكَ على المسلِمينَ. ويجوزُ (لَهُ) بِمَعْنَى (عليه) كقولِهِ: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ الآية [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا: أي [ما](5) كانَ بِالمُشْرِكِ عِمارَةُ [مساجِدِ(6)] اللهِ إنما تكونُ عِمارَتُها بِمَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ [الآخِرِ](7) لا بِمَنْ أشْرَكَ باللهِ، وكَفَرَ بالآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾ أي على نَفْسِ محمدٍ ومَنْ آمَنَ مَعَهُ؛ سَمَّاهُمْ أنْفُسَهُمْ لأنهمْ مِنْ قرابَتِهِمْ وأرحامِهِمْ، وقد سَمَّى اللهُ المُتَصِلِينَ بِهِمْ بذلكَ كقولِهِ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [الآية: ١٢٨] وقولِهِ: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١] فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ ما ذكَرْنا أو ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾ عندَ الضروراتِ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ وعندَ الهَلاكِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤ و٨٥] وغيرَ ذلكَ مِنَ الأحوالِ التي كانُوا يُقِرّونَ بالكُفرِ يَرْجِعونَ عنه شَهِدوا عليهِمْ بالكُفرِ.

[وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ](8) ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ تَشْهَدُ بالكُفرِ عليهِمْ؛ لأنَّ خِلْقَتَهُمْ تَشْهَدُ على وحدانِيَّةِ اللهِ، وأنْفُسَهُمْ تَشْهَدُ على فِعْلِهِمْ بالكُفرِ، وهو ما قالَ تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ١٤] قيلَ: بلْ لِلإنسانُ مِنْ نفسِهِ بَصيرةٌ أي بَيانٌ منْ نَفْسِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ إلى آخرِ الآيةِ في قومٍ ماتُوا على الكُفرِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [يحتمِلُ](9) الوجوهَ التي ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧] إذْ لم يكنْ عليهِمْ؛ فذلكَ كلُّهُ على المسلِمِينَ، أي عليهِمْ عِمارةُ

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: إنه. (٤) في الأصل و م: وينفقوها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) ساقطة من الأصل و م.

المساجِدِ، وبهمْ تَعْمُرُ المَساجدُ، وهُمْ يَنبَغي أنْ يَعْمُرُوها [وقولُهُ تعالى](١) ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣]. أمَرَ أنْ يَخْشَوُا اللهَ ولا يَخْشَوا غيرَهُ. ثم ذَكَرَ ههنا ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

وقال بعضُهُمْ: الخَشْيَةُ العِبادَةُ؛ كأنهُ قالَ: ولم يَعْبُدْ إلّا اللهَ ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وال: عَسَى مِنَ اللهِ واجبٌ أي كانُوا مُهْتَدين.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ في الآيةِ إضمارُ فِعْلٍ أو فاعلٍ لكي تَصِحَّ المُقابَلَةُ؛ لأنهُ يُقابَلُ فِعلٌ بِفِعْلٍ أو فاعلٌ بفاعلٍ ولا فاعلٌ بِفِعْلٍ. فههنا ذَكَرَ السِّقايَةَ وعِمارة المَسْجِدِ مُقابِلَ ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾. فهو، واللهُ أعلَمُ، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كإيمانِ مَنْ ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾. أو يُقالُ: أجَعَلْتُمُ القائمَ بإصلاحِ سِقايَةِ الحاجِّ وعامِرَ المَسْجِدِ الحرامِ كَمَنْ آمنَ باللهِ لتكونَ مقابَلَةُ شَخْصٍ بِشَخْصٍ، أو فِعْلٍ بِفِعْلٍ.

ثم لا يَصِحُّ أنْ يُجْمَعَ بينَ الكافرِ والمؤمنِ، فيُقالُ: لا يَسْتَوِيانِ عندَ اللهِ/ ٢٠٩ ـ ب/ وإنْ كانَ الكافرُ قد أتى بالمَحاسِنِ، إلّا أنْ يُقالَ: ليسَ مَنْ فَعَلَ مَحاسِنَ في حالِ كُفْرِهِ، ثم آمَنَ مِن بَعْدِهِ كَمَنْ فَعَلَ محاسِنَ، وهو مؤمنٌ. هذا يجوزُ أنْ يُجْمَعَ، فَيُقالُ: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وأمّا الكافرُ الذي ماتَ على الكُفْرِ، وإنْ عَمِلَ خيراتٍ، والمؤمنُ الذي عَمِلَ الصالحاتِ، فماتَ على ذلكَ، فَيُجْمَعُ؟ فَيُقالُ: لا يَسْتَوِيانِ، فلا.

أو أنْ يُقالَ بالجهادِ الذي ذَكَرَ: لا يَسْتَوِي مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ والتَّلَفِ كَمَنْ سَقَى الحاجَّ، وعَمَرَ المَسْجِدَ الحَرامَ، ولم يَبْذُلْ نَفْسَهُ لذلكَ.

فأمّا أنْ يُقالَ: لا يَسْتَوِي الكافرُ والمؤمنُ فذلكَ غيرُ مَحَصَّلٍ؛ لأنهُ إنما يُقابَلُ الشيءُ بالشيءِ إذا قَرُبَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ. وأمّا عندَ البُعْدِ منهُ فلا يُقالُ، ولا يُقابَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ما داموا في ظُلْمِهِمْ، وما داموا اختاروا الظُّلْمَ لا يَهْدِيهِمْ وقتَ اختيارِهِمُ الظُّلْمَ. أو لقومٍ مَخصوصِينَ، وقد ذَكَرْنا معناهُ في غيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي صَدَّقُوا رسولَ اللهِ في جميعِ ما يُخْبِرُ عنِ اللهِ أنهُ صادقٌ، وفي جميعِ ما دَعاهُمْ(٢) إليهِ، وأمَرَهُمْ بهِ، ونَهاهُمْ عنهُ أنهُ مُحِقٌّ. وإلّا كانوا مُؤْمِنِينَ باللهِ لقولِهِمْ(٣): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] كانُوا مؤمنين باللهِ، لكنَّهُمْ يُكَذِّبونَ لِلرُّسلِ ولِرِسالاتِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى](٤): ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ أي فارَقُوا آباءَهُمْ وإخوانَهُمْ وعَشيرَتَهُمْ وأموالَهُمْ ومنازِلَهُمْ وبَلَدَهُمْ؛ هاجَرُوا، [وتركُوا](٥) جميعَ ما تُحِبُّهُ أنْفُسُهُمْ، وتَهْواهُ، وتَميلُ إليهِ القلوبُ، ما ذَكَرَ في الآيةِ التي تَلِي(٦) هذهِ الآيةَ(٧).

وفارَقُوا ذلكَ الكُلَّ إشفاقاً على دينِهِمْ لِيَسْلَمَ مالو أُعْطُوا قَبْلَ الإسلامِ الدنيا، وما فيها، إذْ أُوعِدُوا بكلِّ وَعيدٍ وخوفٍ، ما فارَقُوا آباءَهُمْ وإخوانَهُمْ وعشائِرَهُمْ وأولادَهُمُ الذينَ ذَكَرَ في الآيةِ.

ثم إذا أسلَمُوا فارَقُوهُمْ، وأجابُوا رسولَ اللهِ ﷺ في ذلكَ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ وطَلَباً لِرِضوانِهِ لِيُعْلَمَ عِظَمُ قَدْرِ الدِّينِ في

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: دعا. (٣) في الأصل و م: كقولهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: تتلو. (٧) الآية المقصودة / ٢٤.

قُلوبِهِمُ وخطيرُ مَنْزِلَتِهِ عِندَهُمْ، ولِيُعْلَمَ[١] أنَّ مِحَنَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أعظمُ وأشدُّ مِنْ مِحَنِنا؛ لأنَّ مِحَنَهُمْ كانَتْ على خِلافِ عادَتِهِمْ وخِلافِ ما طُبِعُوا؛ لأنَّ الإنسانَ مطبوعٌ على حبِّ ما ذَكَرْنا مَجْبُولٌ عليهِ، فَهُمْ معَ ذلكَ تَرَكُوا، وفارَقُوا ذلكَ، وتَحَمَّلُوا كَراهةَ ذلكَ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ رَبِّهِمْ.

وأمّا مِحَنُنا فإنها على [ما][٢] سَبَقَ مِنَ العادةِ، فهو أَهْوَنُ وأَيْسَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي بَذَلُوا لِلّهِ أَلَذَّ الأشياءِ وأحبَّها مِنَ[٣] الأموالِ والأنفُسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: مَنْ صَدَقَ بِتوحيدِ اللهِ، وهاجَرَ إلى المدينةِ، وجاهَدَ العَدُوَّ [بأموالِهِ ونَفْسِهِ][٤] ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الذي افْتَخَرَ بِعُمْرانِ البيتِ وسِقايَةِ الحاجِّ، وهُمْ كفارٌ. [ولذلكَ قالَ][٥]: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ولكنَّ الوجهَ في ذلكَ عندَنا ومَعْنَى المُقابَلَةِ أولئكَ [الذينَ][٦] ذَكَرَ أعظمُ درجةً عندَ اللهِ مِنَ الذينَ أَسْلَمُوا، ونَحْوُهُ[٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الفوزُ هو الظَّفَرُ في اللغةِ؛ أي أولئكَ هُمُ الفائزونَ[٨] بِنَعيمِ اللهِ وكرامَتِهِ، والناجونَ مِنْ عذابِ اللهِ ونَقْمَتِهِ.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى:][٩] ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي بالنَّصْرِ في الدنيا والظَّفَرِ لهمْ على عَدُوِّهِمْ كقولِهِ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] إلى آخرِ ما ذَكَرَ[١٠] إنما كانَ بِرَحْمتِهِ. ويَحْتَمِلُ الثوابَ لهمْ في الآخِرَةِ والكَرامَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي يُبَشِّرُهُمْ أيضاً: إنَّ ربَّكُمْ، يُمَنِّيكُمْ بِرضوانِهِ[١١] ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ أي يُبَشِّرُهُمْ بِجَناتٍ ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائمٌ، وكرامَةٌ.

الآية ٢٢ [وقولُهُ تعالى:][١٢]: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: ما سَمّى اللهُ عظيماً فهو عظيمٌ لا تُدْرَكُ عَظَمَتُهُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تَحْتَمِلُ الوَلايَةُ المُوافَقَةَ لهمْ في الحقيقةِ في الدينِ. ومَنْ تَوَلّاهُمْ في الحقيقةِ فهو منهُمْ، وهو ظالمٌ، لا شَكَّ. فإنْ كانَ هذا فهو ظالمٌ، لاشكَّ. فلم يكُنْ لقولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مَعْنًى.

وتَحْتَمِلُ الوَلايَةُ إظهارَ المُوافَقَةِ لهمْ في الظاهِرِ على غيرِ حقيقةٍ. لكنْ إظهارٌ على غيرِ حقيقةٍ يُباحُ في حالِ اضْطِرارٍ عندَ خَوفِ الهلاكِ وذهابِ الدينِ، فيجوزُ أنْ يكونَ قومٌ أَسَرُّوا الإيمانَ في أنْفُسِهِمْ، وكَتَمُوهُ، وأظْهَروا[١٣] المُوافَقَةَ لهمْ في الظاهِرِ إشفاقاً على دينِهِمْ وخوفاً على أنْفُسِهِمْ، فَيُباحُ لهمْ ذلكَ لِما ذَكَرْنا.

فلمّا جَعَلَ اللهُ الهجرَةَ، وجَعَلَ لِلمؤمنينَ مَأْوًى وأنصاراً يَلْجَؤونَ، ويَأْوُونَ إليهِمْ لم يُعْذَرُوا في إظهارِ الموافقةِ لهمْ، وإنْ كانوا في السِّرِّ لَيسُوا على دينِهِمْ، لِما ذَكَرْنا.

فهذا يدلُّ على أنَّ مَنْ أَجْرَى كلمةَ الكُفْرِ على لِسانِهِ مِنْ غيرِ اضطِرارٍ يَصيرُ كافراً على ما جَعَلَ هؤلاءِ أولياءَ الكَفَرَةِ حقيقةً ظَلَمَةً مِثْلَهُمْ، إذا تَوَلّاهُمْ في الظاهِرِ، وإنْ لم يكونُوا في الحقيقةِ كذلكَ. وهذا أشْبَهُ. وهو ما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآيةَ [النساء: ٩٧] لم يُعْذَرُوا في تركِهِمُ الهِجْرَةَ.

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ إذا أظْهَرُوا المُوافَقَةَ لهمْ بَعْدَ ما جَعَلَ لهمُ المَأْوَى والأنصارَ صارُوا هُمْ في الحقيقةِ. كذلكَ نَهانا عنْ

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بين. (٤) في الأصل وم: بأموالهم وأنفسهم. (٥) في الأصل وم: وكذلك قالوا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ويحقوا. (٨) في الأصل وم: الكافرون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: كلمة. (١١) في الأصل وم: راض. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ويظهرون.

موالاةِ الكَفَرَةِ جُملَةً بقولِهِ: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقولِهِ[1]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ﴾ [المائدة: ٥١] وقولِهِ[2]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

هذا النَّهيُ لنا في جملةِ الكافرينَ. ثم نَهانا عنِ اتّخاذِ اليهودِ والنَّصارى أولياءَ بقولِهِ[3] ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١] ثم نَهانا أنْ نُواليَ المُتَّصِلينَ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ وغيرِهِمْ مِنَ القراباتِ[4] لِما تَقعُ الشُّبَهُ في مُوالاةِ[5] المُختَصّينَ بِهِمْ، فَخَصَّ النَّهيَ فيهِ. وكذلكَ تخصيصِ اليهودِ والنَّصارى لِما بَيْنَنا وبينَهُمْ مُوافَقَةٌ في التوحيدِ والكُتُبِ، فَخَصَّ النَّهيَ في ذلكَ.

ثم الوَلايَةُ التي نَهانا عنها تُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: المَوَدَّةُ والمَحَبَّةُ؛ أي لا تَوَدُّوهُمْ، ولا تُحِبُّوهُمْ.

والثاني: ألّا نَتَّخِذَهُمْ مَوضِعَ سِرِّنا [وبطانَتِنا بِقَولِهِ][6]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٨].

والثالثُ: وَلايَةُ الطاعةِ لهمْ؛ أي لا تُطيعوهُمْ بقولِهِ[7]: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم﴾ الآية [آل عمران: ١٠٠] وقولِهِ: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

نَهانا أنْ نُحِبَّهُمْ، ونَوَدَّهُمْ، ونَهانا أيضاً أنْ نَتَّخِذَهُمْ مَوضِعَ سِرِّنا، ونُفْشِيَ إليهِمْ أسرارَنا، ونَهانا أنْ نُطيعَهُمْ في ما يَدْعوننا إليهِ، ويُسِرُّونَ، واللهُ أعلَمُ، لِلْخِلافِ الذي بَينَنا وبَيْنَهُمْ في الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي اختاروا الكُفرَ على الإيمانِ. والمَحَبَّةُ ههنا مَحَبَّةُ الاختيارِ والإيثارِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ هو مُقابِلُ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخِرِهِ [التوبة: ٢٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ وما ذُكِرَ؛ أي إنْ كانَتْ طاعةُ هؤلاءِ ورِضاهُمْ أحبَّ إليكُمْ مِنْ طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ ورِضاهُ وأحَبَّ مِنَ الجِهادِ في سَبيلِهِ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ هو حَرفُ وَعيدٍ؛ أي انْتَظِروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بِعَذابِهِ.

قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ في فَتْحِ مكةَ. ودَلَّ ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ على أنَّ المُرادَ مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ﴾ الآباءُ والأبناءُ جميعاً ﴿وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾ الإخوانُ وجميعُ المُتَّصِلينَ بِهِمْ. دليلُهُ ما ذُكِرَ في آخِرِهِ حيثُ قالَ: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ/ ٢١٠ ـ أ/ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ ذَكَرَ الأبناءَ والأزواجَ والعَشيرَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: اكْتَسَبْتُموها. وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي أموالٌ جَعَلوها حَلالاً وحَراماً، ويقولونَ: اللهُ أذِنَ لنا في ذلكَ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩] في ذلكَ؟ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ كانُوا يَخْشَونَ فَواتَها وذَهابَها لا الكَسادَ؛ إذْ في الهِجرَةِ تَرْكُها رَأساً.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي نَصَرَكُمْ في مَواضِعَ كثيرةٍ؛ كانَ فَزَعُكُمْ إلى اللهِ تعالى، ونَصَرَكُمْ يَومَ حُنينٍ أيضاً بَعْدَما هَزَمَكُمُ العَدُوُّ، بإعجابِكُمْ [بكثرتِكُمُ التي صَرَفَتْكُمْ عنِ][8] الفَزَعِ إلى اللهِ، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ يَعْني الكثرةَ؛ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ مِنَّتَهُ عليهِمْ وفضلَهُ: أنَّ النُّصْرَةَ والظَّفَرَ متى كانَ

---

(١) في الأصل و م: كقوله. (٢) في الأصل و م: وقال. (٣) في الأصل و م: كقوله. (٤) من م، في الأصل: القربات. (٥) من م، في الأصل: الموالاة. (٦) في الأصل: وبطانتها كقوله، في م: وبطانتنا كقوله. (٧) في الأصل و م: كقوله. (٨) في الأصل وم: الكثرة يصرفكم.

إنما كانَ باللهِ لا بِكَثْرَتِهِمْ وقُوَّتِهِمْ؛ لأنهُ لو كانَ [بالكثْرَةِ والقُوَّةِ، لم يكنْ لِلْمُسْلِمِينَ قوةٌ وكَثْرَةٌ ما كانَ يومَ حُنَيْنٍ، ثُمَّ كانتِ الهزيمةُ عليهِمْ في الابْتِداءِ لإعجابِهِمْ بالكَثْرَةِ واعْتِمادِهِمْ عليها، لِيُعْلَمَ أنَّ النُّصْرَةَ والظَّفَرَ إنما يكونُ باللهِ لا بالقوةِ والكثْرَةِ لئلا يَعْتَمِدُوا](1) على الكَثْرَةِ، ولا يَكِلُوا إليها.

فإنْ قيلَ: قد أمَرَنا بأخذِ العُدَّةِ والقُوَّةِ ما استطَعْنا بقولِهِ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٦٠] فإنما أمَرَنا بما يُعْجِبُنا، فما مَعْنَى النَّهْيِ عنِ الإعجابِ بالكَثْرَةِ والقُوَّةِ؟ وكذلكَ نَهانا عنِ التَّأسِّي بِما فاتَنا، ونَهانا أنْ نَفْرَحَ بما يُؤْتِينا، وقد كَلَّفَنا الشكرَ لِما آتانا والصَّبْرَ على ما فاتَ عنّا. فلو لم نَفْرَحْ بما آتانا لم يَكُنْ معناهُ الشكرَ ولا الصبرَ بما فاتَنا، فما مَعْناهُ؟

مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ نهانَا أنْ نَفْرَحَ بِما يُؤتِينا لِنَفْسِ الإيتاءِ، ونَتَأَسَّى لِنَفْسِ ما يُصِيبُنا، ويَفوتُنا، إنما علينا أنْ نَفْرَحَ بِفَضْلِ اللهِ وَمَنِّهِ الذي مَنَّ علينا، وخَصَّنا بهِ. وعلى ذلكَ نَشْكُرُهُ، وعلى ذلكَ الصبرُ بما يُصيبُنا، ويَفوتُنا، لِما جَعَلَ لنا لذلكَ ثواباً في الآخِرَةِ وأجراً عظيماً.

وكذلكَ الكَثْرَةُ أمَرَنا بها، فإذا أتانا ذلكَ يُعْجِبُنا فَضْلُ اللهِ ومِنَّتُهُ في ذلكَ الكَثْرَةِ لا الكَثْرَةُ لِنَفْسِها والقوةُ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: الإعجابُ بالكَثْرَةِ كانَ مِنْ بَعْضِهِمْ لا مِنَ الكُلِّ، فكيفَ هُزِمَ الكُلُّ؟ وكذلكَ العِصْيانُ يومَ حُنَيْنٍ إنما كانَ مِنْ بَعْضٍ، كيف عاقبَ الجميعَ؟ قيلَ: لأنَّ لهُ أنْ يُتْلِفَ الكُلَّ ابْتِداءً.

ألَا تَرَى في أمْرِ الواحدِ القِيامُ لِاثْنَيْنِ؟ ثم في الأمْرِ بالجهادِ أمْرٌ على غَيرِ وُسْعٍ؟ ولا كذلكَ في سائِرِ العباداتِ؟ لأنهُ أمْرُ الواحدِ القيامُ لِاثْنَيْنِ منهُمْ، وليسَ في وُسْعِ أحدِ القِيامُ لِاثْنَيْنِ؛ فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما أنَّ لهُ أنْ يُكَلِّفَ قَتْلَ أنْفُسِهِمْ وإتلافَها.

ألَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾؟ الآية [النساء: ٦٦] ولو لم يَجُزْ لهُ أنْ يَكْتُبَ قَتْلَ أنْفُسِهِمْ لم يكنْ لِيَذْكُرَهُ دلَّ أنَّ ذلكَ لهُ، وأنَّ لهُ أنْ يُميتَهُمْ، ويُهْلِكَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ أنْ يأمُرَ بقَتْلِ أنْفُسِهِمْ، فإذا كانَ لهُ ذلكَ؛ إذ في وُسْعِهِمْ قَتْلُ أنْفُسِهِمْ، فَعَلَى ذلكَ أنْ يُكَلِّفَ الواحدَ القِيامَ لِاثْنَيْنِ ولِعَدَدٍ، وإنْ كانَ في ذلكَ تَلَفُ أنْفُسِهِمْ.

وكذلكَ أمَرَنا بِمُجاهدةِ الشيطانِ عَدُوِّنا، وأخبَرَ أنهُ يَرانا، ولا نراهُمْ نحنُ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] والمُحاربةُ مع عَدُوٍّ، لا نراهُ، وهو يَرانا، أمْرٌ صَعْبٌ شديدٌ. لكنْ عَلَّمَنا أسبابَ ما نُحارِبُ معَهُ، ونُجاهِدُهُ، فَنَغْلِبُهُ، وقالَ في الشياطينِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾الآية [الأعراف: ٢٠١] عَلَّمَنا أسباباً نُقاتِلُ بها الشيطانَ، فَنَغْلِبُهُ، ونَقْهَرُهُ، وما ذكَرَ مَنْ ذَكَرَهُ لا يقومُ هو لِذلكَ(2).

وكذلكَ قالَ في العدوِّ الذي نَراهُ مِنَ البَشَرِ حيثُ قالَ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] وقالَ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] قد علَّمنا أسبابَ الجهادِ معهُ، وأعْلَمَنا الحِيَلَ التي تُجيزُ لِواحِدِ القيامَ لِاثْنَيْنِ فصاعداً، وإذا لم يكُنْ لهُ الوُسْعُ(3) بهِ بالقوةِ نَفْسِها، ثم الفَرْقَ بينَ الجهادِ وبينَ غَيرِهِ مِنَ العباداتِ لِما يَحْتَمِلُ أنْ جَعَلَ الجهادَ آيَةً من آياتِ الحقِّ والرسالةِ لِيَعْلَمَ الخَلائِقُ أنَّ النَّصرَ والظَّفَرَ كانَ باللهِ لا بِغَيرِهِ لِيَظْهَرَ الحقُّ مِنَ الباطِلِ والمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ هذا على التمثيلِ: يُقالُ عندَ شِدَّةِ الحُزْنِ والغَضَبِ وعندَ بُلوغِها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يُقالُ ذلكَ لِسَعَةِ الأرضِ في أوهامِ الخَلْقِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: السَّكِينةُ الملائكةُ، كقولِهِ: ﴿وَمَا

---

(1) ساقطة من م. (2) من م، في الأصل: لك. (3) في الأصل و م: الواسع.

جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾الآية [آل عمران: ١٢٦] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي نُصرَتَهُ، وقيلَ: وقارَهُ ورَحْمَتَهُ، وقِيلَ: طُمَأْنِينَتَهُ.

واصْلُهُ: سَكَنَتْ قلوبُهُمْ، واطْمَأَنَّتْ بعدَ شِدَّةِ الخوفِ والحُزْنِ بأيِّ وجهٍ ما تَسْكُنُ بالملائكةِ أو بِغيرِهِ، فأسْكَنَ قَلْبَ رسولِ اللهِ ﷺ لَمَّا اشْتَدَّتْ عليهِ: رُجوعُ أصحابِهِ ومُفارَقَتُهُمْ إيَّاهُ ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهُمُ الملائكةُ ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقِتالِ والهزيمةِ؛ وذلكَ جزاؤُهُمْ.

وفي قولِهِ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتزلَةِ؛ لأنهُ سمَّاهُمْ مؤمنينَ بعدَ ما كانَ منهُمْ [منَ][1] التَّوَلِّي. والتَّوَلِّي لم يُخرِجْهُمْ مِنَ الإيمانِ على ما قالَ.

الآيتان ٢٧ و٢٨ [وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾][2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: النَّهيُ عنْ دخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ نفسِهِ. وعندَنا أنَّ النَّهيَ عنْ دخولِ المَسْجِدِ الحرامِ نَهْيٌ عن دخولِ مكةَ نَفْسِهِ للحَجِّ وإقامةِ العباداتِ. دليلُهُ [في][3] وجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ ولو كانَ لدخولِ المَسْجِدِ لَكانَ ذلكَ العامُ أحقَّ في المَنْعِ مِن دخولِهِ في غيرِهِ.

والثاني: قولُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وخَوفُ العَيْلَةِ إنما يكونُ عنْ دخولِ[4] مكةَ؛ لأنهُ لو كانَ النَّهيُ عنْ دخولِ المَسْجِدِ نَفْسِهِ لكانَ لا خَوفَ عليهِمْ في ذلكَ؛ لأنهُمْ يَحْضُرونَ، ويَدْخُلونَ مكةَ للتجارةِ، فلا خَوفَ عليهِمْ في ذلكَ.

والثالثُ[5]: أنْ يُقالَ: إنهُ ذَكَرَ المسجدَ الحرامَ لِما أنَّهُمْ كانُوا يَقصِدونَ البيتَ والحجَّ به، فيكونُ النَّهيُ عنْ دخولِ المسجدِ نَهياً عنِ الحجِّ نفسِهِ: وهو ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ بَعَثَ علياً في الموسِمِ بأرْبَعٍ، وأمَرَهُ أن يُنادِيَ في الناسِ: «ألا يدخُلَ الجَنَّةَ إلَّا نَفْسٌ مؤمِنَةٌ، ومَنْ كانَ بينَهُ وبينَ رسولِ اللهِ عَهْدٌ، فأجَلُهُ إلى مُدَّتِهِ، فإنهُ ﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] ولا يَطوفَنَّ بالبيتِ عُريانٌ، ولا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشْرِكٌ»[6] [البخاري: ٣٦٩].

فالنَّهيُ الذي وَرَدَ عنْ دخولِ المَسْجِدِ إنما هو نَهْيٌ عنِ الحجِّ نَفْسِهِ؛ لأنَّ البيتَ هو الذي يُقصَدُ إليهِ فيهِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] وقالَ ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ الآية [البقرة: ١٥٨] وقالَ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾؟ [الحج: ٢٩] ذَكَرَ البيتَ، وهو المقصودُ بالحجِّ في الإسلامِ والكُفرِ جميعاً. فَعلى ذلكَ خَرَجَ النَّهيُ، لكنهُ ذَكَرَ المَسْجِدَ لِما أنَّ البيتَ فيهِ. فإذنْ كانَ ما ذَكَرْنا.

فإنْ شِئْتَ فاجْعَلْ آخِرَ الآيةِ تَفْسِيرَ أوَّلِها [وهو][7] قولُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ النَّهيَ لو كانَ لدخولِ المسجِدِ نَفْسِهِ دونَ غَيرِهِ مِنَ البُقْعَةِ لَكانَ ليسَ عليهِمْ خوفُ العَيلةِ؛ لأنهُمْ يدخلونَ مكةَ، ويتَّجِرونَ فيها، ولا يدخُلونَ المسجِدَ.

وإنْ شِئْتَ فاجْعَلْ أوَّلَ الآيةِ تَفْسِيرَ آخرِها، وهو قولُهُ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ/ ٢١٠ ـ ب/ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو ما ذَكَرْنا. فإذا كانَ ما ذَكَرْنا دلَّ أنَّ المشركَ لا يدخُلُ المسجدَ الحرامَ، [وخَبَرُ][8] عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ. [يدلُّ أيضاً][9] على ذلكَ. فأمَّا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الذِّمَّةِ، والعَبيدُ منهُمْ، فَلَيسُوا، واللهُ أعلَمُ، بِداخِلينَ في الآيةِ، إذا كانُوا مِمَّنْ لا يَحُجُّ.

فإنْ قيلَ: إنهُ[10] رُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ أنهُ نادَى: [ألا لا يدخُلُ الحَرَمَ مُشْرِكٌ، ولم يذكُرِ الحجَّ، قيلَ لَهُ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: دخوله. (٥) في الأصل و م: أو.
(٦) أدرج هذا الخبر في تفسير الآية الخامسة (ص١٠٩). (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: أيضاً يدل.
(١٠) في الأصل وم: ان.

رُوِيَ أنهُ قالَ: ناديْتُ ألّا يَحُجَّ بعدَ العامِ مُشْرِكٌ، فيكونُ قولُهُ: لا يدخلُ الحرمَ مُشْرِكٌ على الحجِّ على ما ذَكَرْنا. وقد رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ](١) قالَ: «لايَقْرَبُ المشركونَ المَسْجدَ الحرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا إلّا أنْ يكونَ عبداً أو أمَةً» يُحْتَمَلُ اسْتِثْناءُ العبدِ والأمَةِ لأنَّ العبدَ لا يدخُلُ للحجِّ ولإقامةِ العبادةِ إنما يدخُلُ لِخدمةِ المَوْلى إذا كانَ مسلماً. وفي بَعْضِ الأخبارِ «إلّا أحداً منْ أهلِ الذِّمَّةِ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٤] وفيهِ دلالةٌ لقولِ أبي حَنيفَةَ: إنْ لا بأسَ للكافِرِ أنْ يدخُلَ المَسْجِدَ. وقولِهِ(٢): أرَأَيتَ لو أرادَ أنْ يَسْمَعَ كلامَ اللهِ لِيُؤمِنَ، فَيُمْنَعَ عنْ ذلكَ، [ويَرومَ المُسْمِعُ](٣) إتيانَ ذلكَ المُشْرِكَ، لِيَسْمَعَ كلامَهُ، فيكونُ الأمرُ بإبلاغِ المأمَنِ لِذلكَ. وقد ذَكَرْنا أنْ ليسَ في ظاهِرِ الآيةِ دلالةُ النَّهْيِ عن دخولِ المَسْجِدِ بلِ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ المَسْجِدِ ما ذَكَرْنا مِنَ الحجِّ وإقامةِ العبادةِ لِغيرِ اللهِ.

ألا تَرى إلى قولِ اللهِ: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥] وأنَّ سَبيلَ مكةَ كلِّها هذا السبيلُ؟ وكذلكَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] والحَرَمُ كُلُّهُ مَنْحَرٌ إلّا أنَّ المَعْنَى في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، ما ذَكَرْنا ألّا يدخُلَ المُشرِكونَ حُجّاجاً.

ألا تَرى أنّا لا نَعْلَمُ أنَّ المُشركينَ لم يزالوا مُقيمِينَ في الحَرَمِ بعدَ النداءِ، ولم يَنْجَلُوا عنهُ؟ ومِمّا يَدُلُّ على ذلكَ أيضاً قولُ اللهِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] فإنْ كانَ يَعْني بهِ مَوضِعَ العَهْدِ فإنَّ ذلكَ العَهْدَ يومَ الحُدَيْبِيَةِ عِندَ الشَّجَرةِ فقد صارَ ذلكَ المَوضِعُ مِنَ المَسْجِدِ الحرامِ، وهو في المسافَةِ(٤) بعيدٌ منهُ الذينَ عُوهِدُوا، فإنهُمْ [كانوا يومَ نادى](٥) عليٌّ ﷺ فذلكَ خارجٌ مِنْ مكةَ، لأنَّ أهلَ [مكةَ](٦) قد كانُوا قَبْلَ ذلكَ حِينَ فَتَحَها النَّبِيُّ مُحاصِرِي المَسْجِدَ الحرامَ، هُمْ لا خارجَ مكةَ [بل](٧) في الحرمِ وما حَوْلَهُ وقولُهُ: «لايَقْرَبُ المَسْجِدَ الحرامَ مُشْرِكٌ» يُخَرَّجُ على وُجوهٍ: أحدُها: لا تَدْعُوهُمْ يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحرامَ، والثاني: قولوا لهمْ: لا تَقْرَبُوا المسجِدَ الحرامَ، والثالثُ: على اليَسارَةِ: أي إذا قُلْتُمْ لهمْ ذلكَ فلا تَقْرَبُوا بعدَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي أفعالُ المُشركينَ نَجَسٌ، والعِباداتُ التي يأتونَ فيها نَجَسٌ، وهو ما ذَكَرَ حينَ(٨) قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] صَيَّرَ عملَ الشيطانِ رِجساً. فَعَلى ذلكَ العباداتُ التي يُقيمونَها نَجِسَةٌ، فالنَّهْيُ عَنِ الحجِّ نَهْيٌ عن إقامةِ العباداتِ لِغَيرِ اللهِ لأنَّ تلكَ البُقْعَةَ نُزِّهَتْ عن إقامةِ العباداتِ لِغَيرِ اللهِ.

ثم اخْتُلِفَ في(٩) قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الذَّمِّ، ولا يُحْتَمَلُ أنْ يُذَمُّوا، ويُشْتَمُوا بِنجاسةِ الأحوالِ. دلَّ أنهُ إنما لَحِقَهُمْ ذلكَ الذَّمُّ بما اكْتَسَبُوا مِنَ الأفعالِ الذميمَةِ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] أخبَرَ أنَّ عَمَلَ الشيطانِ رِجْسٌ ونَجَسٌ. فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي نَجَسُ(١٠) الأفعالِ لأنَّ ذلكَ مِنْ كَسْبِهِمْ، فاسْتَوجَبُوا المَذَمَّةَ لِكَسْبِهِمْ. وأمّا الأحوالُ فلا صُنْعَ لهمْ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قيلَ: خافوا مِنَ العَيلَةِ لَمّا نُفِيَ المشركونَ مِنْ مكةَ لأنَّ معايِشَ أهلِ مكةَ إنما [كانَتْ مِنَ الآفاقِ، وبأهلِ الآفاقِ](١١) كانَ سَعْيُهُمْ وتجارَتُهُمْ. لكنَّ اللهَ وَعَدَ لَهُمُ السَّعَةَ والغِنى بقولِهِ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: دلَّ قولُهُ: ﴿إِن شَآءَ﴾ على أنهُ إنما وَعَدَ لَهُمُ الإغناءَ في بَعْضِ الأوقاتِ، وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِن شَآءَ﴾ كانَ مِنْ رسولِ اللهِ لأنهُ أمَرَ رسولَهُ [أنْ يقولوا](١٢) ﴿إِن شَآءَ﴾ وهو مأمورٌ أنْ يَسْتَثْنِيَ في جميعِ [ما](١٣) يَعِدُهُ كقولِهِ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣و٢٤].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: ويوم. (٤) في م: المساجد. (٥) في الأصل وم: كان يوم بدر نادى. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فيه. (١٠) في الأصل وم: نجسة. (١١) في الأصل: كان من الآفاق، في م: كان من الآفاق وبأهل الآفاق. (١٢) في الأصل: أنه يغنيهم، في م: أن يغنيهم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ بهؤلاءِ الذينَ نُفُوا عنهم[1] لأنهُ حَبَّبَ إليهِمُ التجارةَ والمكاسِبَ. وما يَنالونَ [مِنَ][2] الأرباحِ بها؛ يَحمِلُهُمْ ذلكَ على الإسلامِ فَيُسلِمونَ، فَيَدخُلونَ فيها، يَحمِلُهُمْ حُبُّ التجارةِ على الإسلامِ، فيكونُ لهمْ بهمْ غِنىً كما كانَ يحمِلُهُمْ حُبُّ التجارةِ والربحِ على[3] الهجرةِ بقولِهِ[4]: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ [التوبة: ٢٤] فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الجزيةُ التي ذكرَها في الآيةِ [التي تَلِي][5] هذهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بما أضمَرُوا مِنْ خوفِ العَيلَةِ، أو ﴿عَلِيمٌ﴾ بما لَهُمْ وعليهِمْ وبمَنْ يكونُ[6] لهمُ الغِنَى ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمرِهِ وحُكمِهِ.

[وفي قولِهِ تعالى][7]: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ معلومٌ أنهمْ أضمَرُوا ذلكَ في أنفُسِهِمْ، ثم أخبَرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بذلكَ. دلَّ أنهُ إنما عرَفَ ذلكَ باللهِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية ذكرَ أهلَ الكتابِ اليهودَ والنصارى، وأخبَرَ أنهمْ لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخرِ، وهُمْ في الظاهرِ يُقِرُّونَ بوحدانيَّةِ اللهِ واليومِ الآخرِ في المَعْنَى منهُ.

قيلَ: هُمْ، وإنْ آمنُوا في الظاهرِ باللهِ واليومِ الآخِرِ، فإنما يؤمنونَ بإلهٍ، لهُ ولدٌ، كما ذَكَرَهُ على إثرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَٰرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فالإيمانُ بإلهٍ، لَهُ ولدٌ، ليسَ بإيمانٍ باللهِ، فهمْ غيرُ مؤمنينَ.

وكذلكَ آمَنُوا بالبَعْثِ واليومِ الآخِرِ، ولكنْ لم يؤمِنُوا بالمَوعودِ في الآخرةِ. فالإيمانُ باليومِ الآخِرِ بغَيرِ الموعودِ فيهِ ليسَ بإيمانٍ بهِ. أو أنْ يُقالَ: إنهمْ، وإنْ أقرُّوا بما ذَكَرْنا، وآمَنُوا بهِ، فقدِ استَحَلُّوا أشياءَ، حرَّمَها اللهُ عليهِمْ، وحرَّمُوا أشياءَ، أحلَّها اللهُ لهمْ. ومَنْ آمنَ بالكتبِ كلِّها والرسُلِ، ولم يؤمِنْ بآيةٍ منها أو برسولٍ منهُمْ فهو غيرُ مؤمنٍ باللهِ واليومِ الآخِرِ ولا مُصَدِّقٍ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية فإنْ قالَ لنا مُلحِدٌ: إنكُمْ تُقاتِلُونَ الكفَرَةَ لِلْكُفرِ، ثم إذا أعْطَوكُمْ شيئاً مِنَ المالِ تَرَكْتُمْ مُقاتَلَتَهُمْ. فلو كانَ قِتالُكُمْ إياهُمْ لِذلكَ لِطَمَعٍ في الدنيا لَكُنْتُمْ لا تَتْرُكونَ [مقاتَلَتَهُمْ لِشيءٍ، يَبْذُلونَهُ لكُمْ][8] وكذلكَ لو كانتِ المُقاتَلةُ لِلْكُفرِ نَفْسِهِ لَكانَ النساءُ في ذلكَ والرجالُ سَواءً؛ إذْ هُمْ في الكفرِ شَرْعٌ[9] سواءٌ. وقالوا: لو كانتِ المُقاتَلةُ معهُمْ لِما ذكَرْنا، وهو حُكْمُهُ، والأمرُ بذلكَ حكيماً، لَكانَ الناسُ جميعاً في ذلكَ سَواءً، ولا يَتْرُكونَ أحداً بشيءٍ مِنْ ذلكَ، بل يُقاتِلونَ أبداً، ولا يَرْضَونَ منهُمْ غيرَهُ.

فيُقالُ لهمْ: إنّا لا نُقاتِلُ الكَفَرَةَ لِلْكُفرِ، ولكنّا نَدعُوهُمْ إلى الإسلامِ، فإنْ أجابُوا إلى ذلكَ، و إلّا قاتَلْناهُمْ لِيَضْطَرَّهُمُ القَتْلُ إلى الإسلامِ. لهذا ما نُقاتِلُهُمْ لا لِشيءٍ سِواهُ. فإذا كانَ في أخذِ الجزيةِ مَعْنَى ما نَدعُوهُمْ إلى الإسلامِ: فإذا قَبِلُوا ذلكَ تَرَكْناهُمْ على ذلكَ لَعَلَّهُمْ/ ٢١١ ـ أ/ يرغَبونَ في الإسلامِ إذا رَأَوا شرائعَنا وأحكامَنا، لا إنّا تركْناهُمْ رغبةً في ما نأخُذُ منهُمْ أو طَمَعاً في ذلكَ.

وأصْلُهُ المِحْنَةُ، إذِ الدارُ دارُ المِحنَةِ ليسَتْ بدارِ الجزاءِ، والمِحنَةُ تكونُ بِمُختَلَفِ الأشياءِ لابِما يُتلِفُها[10]؛ مَرَّةً يَمتَحِنُهُمْ بالقتلِ، ومَرَّةً بأخذِ الأموالِ، ومَرَّةً بالشدائدِ كقولِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ الآية[البقرة: ١٥٥] وقولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِالْحَسَنَٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونَحْوِ ذلكَ.

فإذا كانَ ذلكَ مِحنَةً لا جَزاءً أجازَ ذلكَ حُكْمُهُ. وأمّا قولُهُمْ بأنّا نُقاتِلُ الرجالَ، ولا نُقاتِلُ النساءَ، ونَسْتَرِقُّهُنَّ؛ لأنهنَّ

---

(١) في الأصل وم: عنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عن. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) في الأصل وم: تتلو. (٦) في الأصل وم: يكن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: لمقاتلهم لشيء يبذلونكم. (٩) في الأصل وم: شرعا. (١٠) في الأصل وم: تلفها.

أتباعٌ لِلّرجالِ في جميعِ الأحوالِ وخَدَمٌ لهمْ، فإذا أسْلَمُوا أسْلَمْنَ. هذا معروفٌ في ما بَيْنَهُمْ؛ إذْ هُنَّ في أيدي الرجالِ، يَفْعَلونَ بِهِنَّ ما شاؤوا.

وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا أنَّ القِتالَ مِحنةٌ، ليسَ هو جزاءَ الكُفْرِ؛ إذِ الدارُ دارُ المِحْنَةِ، فَلَهُ أنْ يَمْتَحِنَ بَعْضاً بالقَتْلِ وبَعْضاً بأخذِ المالِ [وبَعضاً][(١)] لا بِذا ولا ذاكَ. ولو كانَ جزاءً لَسَوَّى بينَهُمْ، وهو التَّخْليدُ في النارِ أبداً.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في أخذِ الجزيةِ مِنْ سائرِ الكَفَرَةِ، إذا كانُوا أهلَ الكتابِ أو المَجوسَ، وتَرْكِ الأخذِ مِنْ مُشْرِكي العَرَبِ؟ قيلَ لوجوهٍ:

أحَدُها: أنْ لَيسَ لِمُشْرِكي العَرَبِ دينٌ يَدينونَ بهِ، يُقاتلونَ عنْ ذلكَ الدينِ، ولا لهمْ أصلٌ يَعْتَمِدونَ، عليهِ، ويُحاجّونَ الناسَ بالحِجاجِ التي لهمْ.

فإذا كانَ كذلكَ أمْكَنَ إقامةُ الحُجَجِ على هؤلاءِ وإلزامُ البراهينِ، ولا كذلكَ مُشركو العَرَبِ؛ إذْ لا دينَ لهمْ يُنْسَبونَ إليهِ، ومذاهبَ يَدْعُونَ غيرَهُمْ إليها[(٢)] بالحِجاجِ. وأمْكَنَ في غيرِهِمْ. لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلمُ بذلكَ.

والثاني: أنهمْ تَمَنَّوا أنْ يكونَ لهمْ رسولٌ مِنْ جِنْسِهِمْ يَتْبَعونَهُ في ما يَدْعُوهُمْ إليهِ، ونَذيرٌ يُجيبونَهُ، حتى أقْسَموا على ذلكَ، وأكَّدوا القولَ في ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ الآيةَ[الأنعام:١٠٩]ولم يكنْ من غيرِهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ ما كانَ منهُمْ.

فإذا كانَ كذلكَ فهمْ يُقاتلونَ أبداً حتى يُوَفُّوا ما وُعِدوا كقولِهِ: ﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:١٦].

والثالثُ: لِفَضْلِ رسولِ اللهِ ﷺ إذ كانَ منهُمْ ومِنْ جِنْسِهِمْ، فلا يُتْرَكُ أحدٌ في تلكَ البُقْعَةِ على غيرِ دينِهِ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّ مُشْركي العربِ في حَدِّ القليلِ، أمْكَنَتِ المُقاتَلَةُ مَعَهُمْ و القيامُ لهمْ، فلا يَرْضى منهمْ إلّا الإسلامَ. وأمّا غيرُهُمْ مِنَ الكَفَرَةِ في بِقاعٍ مُخْتَلِفَةٍ، وهمْ كثيرٌ، إذا اجْتَمَعُوا لم يكنْ في وُسْعِ أهلِ الإسلامِ القِيامُ لهمْ والقِتالُ معهمْ، فَيَلْحَقُ المُسلِمينَ في ذلكَ ضَرَرٌ بَيِّنٌ. لِذلكَ كانَ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآيةَ.قد ذَكَرْنا أنهمْ، وإنْ كانوا يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ عندَ أنْفُسِهِمْ أنهمْ في الحقيقةِ غيرُ مؤمنِينَ بهِ؛ لأنَّ شَرْطَ إيمانِهِمُ الإيمانُ بالرسلِ جميعاً والكُتُبِ أجْمَعَ. فَهُمْ قد تَرَكُوا الإيمانَ ببعضِ الرسلِ. وببعضِ الكُتُبِ. ومَنْ كَفَرَ برسولٍ مِنَ الرسلِ أو بكتابٍ مِنَ الكُتُبِ أو بِحَرْفٍ منها كانَ كافراً باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ أنهمْ لا يُحَرِّمونَ تَحْريفَ الكُتُبِ وكتمانَ بَعْثِ[(٣)] رسولِ اللهِ، واللهُ حَرَّمَ ذلكَ عليهِمْ، أولا يُحَرِّمونَ عبادةَ الأوثانِ، واللهُ ورسولُهُ يُحَرِّمانِ[(٤)] ذلكَ، أو لا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُهُ مِنَ الخَمْرِ والخِنزيرِ وغيرِهِما، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلامُ، لأنهُ تُوجِبُهُ العقولُ كُلُّها، وتَشْهَدُ [بهِ[(٥)]] خِلْقَةُ الخلائقِ كلِّها، أو أنْ يقولَ: لا يَدينونَ دينَ الذي [لهُ الحَقُّ، إنما يدينونَ الدينَ الذي][(٦)] لا حَقَّ لهُ، وهو دينُ الشيطانِ، وهو ما يدعوهُمْ إلى عبادةِ الأصنامِ، فَيُجيبونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ[(٧)] قولُهُ: ﴿يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي يَقْبَلُوها لا على الإعطاءِ نفسِهِ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥ و١١] وهو على القَبولِ لها لا على الفِعْلِ نَفْسِهِ. ويَحْتَمِلُ نَفْسَ الإعطاءِ؛ وهو، واللهُ أعلَمُ، لمّا جُعِلَتِ الجزيةُ لِحَقْنِ الدماءِ؛ تُقَدَّمُ[(٨)] لِتُحْقَنَ بها الدماءُ[(٩)].

وقولُهُ تعالى: ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿عَن يَدٍ﴾ أي لا يُؤَخِّرُ قَبْضَها عنْ وقتِ قَبولِها، بل تُؤخَذُ يداً بِيَدٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل وم: إليه. (٣) في الأصل و م: نعت. (٤) في الأصل وم: يحرم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) في الأصل وم: فتقدم. (٩) من م، في الأصل: الدم.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي عنْ قَهْرٍ وغَلَبَةٍ. وقيلَ: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي عَنْ طَوعٍ وطِيبٍ. وقيلَ: عنْ [جماعَتِهِمْ، لكنّا لا نَدري ما يَعْنونَ بالجماعةِ][(1)].

وقولُهُ تعالى: ﴿صَٰغِرُونَ﴾ قيلَ: ذَليلونَ، وهو مِنَ الذُّلِّ؛ يُقالُ: صَغُرَ الرجلُ يَصْغُرُ صَغاراً، فهو صاغرٌ أي ذَلَّ، فهو ذليلٌ. وقيلَ: ﴿صَٰغِرُونَ﴾ أي مَذْمُومُونَ[(2)]. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][(3)] يمشونَ بها تَلْبِينَ.

وأصْلُهُ: الذِّلَّةُ التي ذَكَرَ اللهُ في قولِهِ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١١٢]فإذا قَبِلوا ذلكَ فقد أذهَبُوا الذُّلَّ والصَّغارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية. أمّا اليهودُ والنَّصارى، فلا خِلافَ بينَ أهلِ العِلْمِ في أنَّ مَنْ بذلَ منهُمُ الجزيَةَ أُخِذَتْ منهُ، [وأقرَّ بهِ][(4)] على دينِهِ.

وأمّا المجوسُ فإنهُ يُؤْخَذُ منهمُ الجزيةُ لِما رُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: ما أدري ما أصْنَعُ بالمجوسِ فإنهمْ لَيسوا بمسلمِينَ ولا مِنْ أهل الكتاب.

قالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عَوفٍ: اشْهَدُ أني سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «سُنُّوا بهمْ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ» [البيهقي في الكبرى٩١/١٨٩و١٩٠]. وفي بعضِ الرواياتِ. أشْهَدُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخذُ الجزيةَ مِنْ مجوسِ هُجَرَ.

وعنْ عليٍّ أنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ أخذا الجِزيَةَ مِنَ المَجوسِ، وقالَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ: أنا أعلَمُ الناسِ بهمْ كانُوا أهلَ كتابٍ يقرؤونَهُ، وأهلَ عِلْمٍ يدرسونَهُ، فَنُزِعَ ذلكَ منْ صدورِهِمْ. وعنْ أبي ذرٍّ عنْ أبي موسى [أنهُ][(5)] قالَ: لولا أني رأيتُ أصحابي أخذوا الجِزْيَةَ مِنَ المجوسِ ما أخَذْتُها.

وعنْ أبي عُبيدَةَ بْنِ الجَرّاحِ [أنهُ][(6)] قالَ: كتبَ النَّبيُّ ﷺ إلى المنذرِ أنهُ قالَ: «منِ اسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنا، وصلّى صلاتَنا، وأكلَ ذَبيحَتنا، فذلكَ المُسْلِمُ الذي لهُ ذِمَّةُ رسولِهِ. ومَنْ أحَبَّ ذلكَ مِنَ المجوسِ فهو آمِنٌ. ومَنْ أبى فَعَلَيهِ الجِزْيَةُ» [بنحوه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٢٠١١٣].

وعلى ذلكَ مَضَتِ الأَئِمَّةُ، ولم يُنْكِرْ أحدٌ مِنَ السَّلَفِ حتى قالَ قومٌ مِنَ المَجوسِ: إنما أُخِذَتْ منهُمُ الجزيَةُ لأنهمْ أهلُ كتابٍ ولكنَّ الجزيَةَ تُؤْخَذ منهُمُ اتّباعاً لرسولِ اللهِ: «سُنُّوا بهمْ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ غَيرَ ناكحي نساءَهُمْ ولا آكِلِي ذبائِحِهِمْ» [البيهقي في الكبرى ٩١/١٨٩و١٩٠] ورُوِيَ عنِ الصحابةِ وأئِمَّةِ الهُدَى.

ثم المسألةُ في تقديرِ الجزيَةِ. رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ بَعَثَ مُعاذاً إلى اليَمَنِ، فقال له: خُذْ مِنْ كلِّ حالمٍ ديناراً أو عِدْلَهُ مَعافِرَ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٩].

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ بَعَثَ عثمانَ بْنَ عَفّانَ حَنيفاً إلى السَّوادِ، وأمَرَ أنْ يَضَعَ على أهلِ السَّوادِ الخراجَ ثمانيةً وأربعين درهماً أو أربعةً وعشرينَ درهماً أو اثْنَي عشرَ درهماً أوِ اثْنَي عشرَ درهماً، وفي بعضِ الرواياتِ أنهُ ضَرَبَ على أهلِ الذهبِ أربعةَ دنانيرَ وعلى أهلِ الورقِ أربعينَ درهماً معَ ذلكَ أرزاقاً للمسلمِينَ وضيافَةَ ثلاثةِ أيامٍ.

وأصحابُنا يَجْعلونَهُمْ ثلاثَ طبقاتٍ: أغنياءَ وأوساطاً وفقراءَ؛ فيؤخَذُ مِنَ الغَنِيِّ المُوسِرِ ثمانيةٌ وأربعونَ درهماً ومِنَ الوَسَطِ أربعةٌ وعشرونَ ومِنَ الفقيرِ المُحارَفِ اثْنا عَشَرَ درهماً، وفي بعضِ الأخبارِ أربعونَ درهماً أو أربعةُ دنانيرَ وضيافةُ ثلاثةِ أيامٍ أو عشرونَ درهماً أو دينارٌ أو هو ما ذكَرْنا ثمانيةٌ وأربعونَ بِغَيرِ ضيافةٍ وغَيرِ مُؤْنَةٍ.

وما رُوِيَ مِنْ أربعينَ درهماً أو أربعةِ دنانيرَ مع الضيافةِ والرزقِ الذي ذُكِرَ في الخَبَرِ، وهذا مِنْ عُمَرَ بِحَضرةِ المهاجرينَ والأنصارِ، فلم يأتِ عنْ أحدِ النَّكِيرُ عليهِ ولا الرَّدُّ، فهو كالاتّفاقِ منهُمْ على ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: جماعهم. (٢) في الأصل وم: مذمون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: وأقرب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عُمرُ قَدّرَ ذلكَ التَّقديرَ رأياً منهُ لأنّ المُقَدَّراتِ/ ٢١١ ـ ب/ والمَعْدَّراتِ، سبيلُ معرفَتِها التوقيفُ والسَّمْعُ لا العقلُ، فهو كالمسموعِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وما رُوِيَ مِنْ حديثِ مُعاذٍ حينَ أمَرَهُ النّبيُّ ﷺ أنْ يأخذَ مِنْ أهلِ اليَمَنِ مِنْ كلِّ حالمٍ ديناراً فذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أمَرَ بذلكَ لِما كانوا أهلَ ضَعْفٍ وفقرٍ على ما رُوِيَ عنْ عُمَرَ في الضعفاءِ مِنْ أهلِ مصرَ والشامِ، وليسَ هو الحَدُّ الذي لا يُلْزِمُ أكثرَ مِنْ ذلكَ لِمَا ذَكَرْنا أنَّ عمرَ ألزَمَ المَياسِيرَ أكثرَ مِنْ دينارٍ، ولم يُنْكِرْ ذلكَ أحدٌ مِنَ الصحابةِ. فدلَّ فِعْلُهُمْ على ما وصَفْناهُ.

ثم المسألةُ في تمييزِ أصحابِ الطبقاتِ بَيْنَ الوَسَطِ والفَقيرِ: قالَ بعضُهُمْ: الفقيرُ مِمَّنْ يَحْتَرِفُ، ولَيسَ لهُ مالٌ، يَجِبُ في مِثْلِهِ الزّكاةُ على المسلمينَ، وهُمُ الفقراءُ المُحْتَرِفونَ، فَمَنْ كانَ[1] لهُ أقلُّ مِنْ مِئَتَي درهمٍ فهو مِنْ أهلِ هذهِ الطبقةِ.

والطبقةُ [الثانيةُ[2]] أنْ يَبْلُغَ مالُ الرجلِ مِئَتَي درهمٍ، فقالَ بعضُهُمْ إذا بَلَغَ مالُهُ أربعةَ آلافِ درهمٍ، وزادَ عليها، صارَ مِنْ أهلِ الطبقةِ الثالثةِ، واحتَجّوا بقولِ[3] أبي طالبٍ ﷺ وابنِ عُمَرَ حينَ[4] قالا: أربعةُ آلافِ درهمٍ فمادُونَها نَفَقَةٌ وما فوقَ ذلكَ كَنْزٌ. وقد يَجوزُ أنْ تُجْعَلَ الطبقةُ الثانيةُ مَنْ مَلَكَ مِئَتَي درهمٍ إلى عشرةِ آلافِ درهمٍ، وما زادَ على ذلكَ يُجْعَلُ مِنَ الطبقةِ الثالثةِ لحديثٍ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ يَرويهِ أبو هريرةَ؛ قالَ: «مَنْ تَرَكَ عشرةَ آلافِ درهمٍ جُعِلَتْ صفائحَ يُعَذَّبُ بها يومَ القيامةِ» [بنحوه مسلم ٩٨٧/ ٢٦].

ثم في قولِهِ: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجزيةَ إنما تُؤخَذُ مِمَّنْ يَجبُ أنْ يُقاتَلَ، إنْ لم يَبْذُلْها، والنساءُ والصبيانُ [لايُقاتَلونَ[5]]، ولايُقاتَلْنَ إنْ ظُهِرْبهمْ، فلا يَجبُ أنْ يُوضَعَ عليهمُ الجزيةُ بدليلِ الكتابِ؛ إذْ كانَ اللهُ إنما أمَرَ أنْ تُؤخَذَ الجزيةُ مِمَّنْ يُقاتَلُ.

وكذلك فَعَلَ عُمَرُ والأئمّةُ بَعْدَهُ؛ رُوِيَ أنَّ عُمَرَ ﷺ كتبَ إلى أميرِ الجيوشِ. لا تُقاتِلوا إلّا مَنْ قاتَلَكُمْ، ولا تَقْتُلُوا الصِّبْيانَ والنساءَ، ولاتَقْتُلُوا إلّا مَنْ جَرَتْ عليهِ المواسي. وكتبَ إلى عُمّالِهِ أنْ يَضرِبُوا الجزيَةَ، ولايَضربوها على النساءِ والصِّبْيانِ. وفي بعضِ الرواياتِ أنهُ كتبَ إلى أميرِ الأجنادِ ألّا تَضربوا[6] الجزيَةَ إلّا على مَنْ جَرَتْ عليهِ المواسي. قالَ: والجزيَةُ أربعونَ درهماً أو أربعةُ دنانيرَ.

وفي خَبَرِ مُعاذٍ دلالةٌ لذلكَ حينَ[7] قالَ: بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ إلى اليَمَنِ، وأمَرَني أنْ آخُذَ مِنْ كلِّ حالمٍ ديناراً أو عِدْلَهُ مَعافِرَ؛ بَيَّنَ مُعاذٌ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ أمَرَهُ أنْ يأخُذَ ذلكَ مِنَ الرجالِ دونَ الصِّبْيانِ ودونَ النساءِ.

فإنْ قيلَ: رُوِيَ عنْ مُعاذٍ [أنهُ[8]] قالَ: أمرَني رسولُ اللهِ أنْ آخذَ مِنْ كلِّ حالمٍ وحالمةٍ ديناراً. وفي بعضِ الرواياتِ عنهُ أنهُ قالَ «خُذْ[9] مِنْ كُلِّ حالمٍ ذكرٍ أو أنثى ديناراً» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٩] فإنْ كانَ هذا مُثْبَتاً محفوظاً فهو دليلٌ لِما يُؤخَذُ مِنْ نَصارَى بَني تَغْلِبَ، ويكونُ حُكْمُ نساءِ العربِ مِنْ أهلِ الكتابِ في ما يُؤخَذُ منهم خِلافَ نساءِ العجمِ منهمْ، أو أنْ يُقالَ: إنهُ غيرُ محفوظٍ لِما عَلِمَ الأئمّةُ[10] بخلافِهِ لأنَّ الوفاقَ قد جَرَى على أنْ لا جزيَةَ على النساءِ. ولو كانَ محفوظاً لَظَهَرَ العملُ بهِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: «خُذْ مِنْ كلِّ حالمٍ ديناراً» أي خُذْ منهما ديناراً كقولِهِ «لكلِّ سهوٍ سَجْدَتانِ» [أبو داوود ١٠٣٨] لا يَلْزَمُهُ أكثرُ مِنْ ذلكَ.

ثم تُذْكَرُ مِنْ ذلكَ مسألةٌ، ليسَ في الآيةِ ذكرُها؛ وهي أن الجِزيَةَ إذا ضُرِبَتْ، فَدَخَلَتْ سنةٌ أُخرَى قبلَ أنْ يُؤَدِّيَها أُخِذَتْ منهُ لِلسَّنَةِ الثانيةِ، ولم تُؤخَذْ لِلسَّنَةِ الماضِيَةِ، ليسَ كسائرِ الديونِ. فإنْ قِيلَ: أليسَ الخَراجُ يُطالَبُ بهِ مِنْ آخِرِه مِنْ سَنَةٍ إلى سَنَةٍ؟ قيلَ: لَيستِ الجزيَةُ مِثْلَ الخراجِ، يَجِبُ على المُسلِمِ في أرضِهِ؛ فهو كسائرِ الديونِ.

فإنْ قيلَ: إنَّ المجوسِيَّ[11] إذا أسْلَمَ بَعْدَ مُضِيِّ السنةِ طُولِبَ بالجزيَةِ للسنةِ الماضِيَةِ. قيلَ: رُوِيَ عنْ عُمَرَ أنهُ رَفَعَ الجزيَةَ بالإسلامِ، فقالَ: واللهِ إنَّ في الإسلامِ لَمَعاذاً؛ إنْ فَعَلَ تُرْفَعُ عنهُ الجزيةُ.

---

(١) في الأصل وم: كانت. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: من قول. (٤) في الأصل و م: حيث. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: تأخذوا. (٧) في الأصل: وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أن آخذ. (١٠) في الأصل وم: الأمة. (١١) في الأصل وم: المجوس.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «ليسَ على مُسْلِمٍ جزيَةٌ» [بنحوهِ الترمذي٦٣٣] فَمَنْ طالَبَهُ بالجزيَةِ بعدَ الإسلامِ فقد خالفَ الخبَرَ. فإنْ قالَ: إنما يزولُ عنِ المسلِمِ ما كانَ عليهِ مِنَ الجزيَةِ في حالِ كُفْرِهِ لأنهُ صارَ إلى حالٍ لا يجوزُ أنْ تُوضَعَ عليهِ ابْتِداءً، قِيلَ: إنَّ الذِّمِّيَّ إذا اجْتَمَعَ عليهِ جزيَةُ سَنَتَيْنِ، فصارَ إلى حالٍ لا يَجوزُ أنْ يُلْزَمَ في الابْتِداءِ في مِثْلِهَا أكْثَرَ مِنِ اثْنَي عشرَ درهماً لِفَقْرِهِ لم يَجُزْ أنْ يُلْزَمَ أكثَرَ منها لأنهُ جَعَلَ حُكْمَ مُسْتَدْبِرِ الجزيَةِ التي وجَبَتْ، فأسْلَمَ صاحِبُها، حُكْمَ الابْتِداءِ في توظيفِ الجزيَةِ عليهِ، فَوَجَبَ أنْ يَجْعَلَ حُكْمَ مَنْ أتَتْ عليهِ سَنتانِ حُكْمَ ابْتِدائِهِ.

وأصْلُهُ أنَّ الجزيَةَ إنما جُعِلَتْ لِحَقْنِ الدمِ فإذا مَضَتْ سنةٌ صارَ دمُهُ محقوناً في السنةِ الماضيَةِ، لذلكَ لم تُؤخَذْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الخ تَضَمَّنَتْ هذهِ الآيةُ أحكاماً: منها الأمْرُ بِقِتالِ مَنْ لم يؤمِنْ باللهِ واليومِ الآخِرِ، وهمْ لا يُقِرُّونَ بالأمرَينِ. لكنَّهُ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ.

أحدُها: أنهمْ مُشَبِّهَةٌ، ومِنْ تشبيهِهِمُ اللهَ بِخَلْقِهِ احْتَمَلَ قلوبُهُمُ القولَ بالولدِ؛ إذِ الذينَ شَهِدُوا مِنَ الخَلائِقِ على ذلكَ وجَدُوا بوَلَدِ بعضٍ مِنْ بَعْضٍ. وإذا كانَ كذلكَ [فهمْ غيرُ مؤمنينَ][(1)] في الحقيقةِ باللهِ الذي هو الحقُّ حتى يؤمِنُوا بهِ وأنهُ بهِ تكونُ الآخرةُ دونَ الذي ادَّعَوهُ.

والثاني: أنَّ الذي جُبِلَ عليهِ الخَلْقُ هو تعظيمُ رسُلِ الملوكِ وإجلالُهُمْ[(2)] حتى يُوجَدَ مِنْ بِرِّ الرسلِ بَيْنَ ملوكٍ قد ظَهَرَتْ بينَهُمُ العداوَةُ. فلما كذَّبُوا رسولَ اللهِ مع البراهينِ التي قد أعْجَزَتِ الخلائقَ وشهادةَ كتبِهِمْ، وتَظاهَرَ مَنْ عُرِفُوا أنهُمْ مُكَذِّبونَ بكتبِهِمْ وبرسُلِهِمْ على مَنْ صَدَّقَ بذلكَ، ثبتَ أنهمْ في الحقيقةِ مكذِّبونَ جميعَ الرسلِ والكتبِ، وإنْ أظْهَرُوا الوِفاقَ، وأنَّ ذلكَ لا يكونُ إلّا لِتكذيبِ منهمْ باللهِ؛ يكونُ بإيمانِهِمْ باللهِ [ولا][(3)] يكونُ بإيمانِهِمْ بالرسلِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في وفدِ عبدِ قيسٍ أنهُ قالَ «آمُرُ بأربعٍ: آمُرُكُمْ بالإيمانِ باللهِ، ثم قالَ: أتَدْرونَ ما الإيمانُ باللهِ؟ أنْ تَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني رسولُ اللهِ» [البخاري٥٣] فلذلكَ لم يكُنْ إيمانُهُمْ باللهِ إيماناً حتى يُؤْمِنُوا برسولِ اللهِ، وعلى هذا يُحارَبونَ.

والثالثُ: أنْ يكونَ نَفَى عنهُمُ الإيمانَ نَفْيَ[(4)] مَنْفَعَةِ الإيمانِ عنهُمْ إذا قَلَّ لِمَنْفَعَةٍ بهِ الإيمانُ برسلِهِ والقَبولُ عنهُمْ بالتعظيمِ. فإذا ظَهَرَتْ منهُ هذهِ المَنْفَعَةُ، وتركُوا القتالَ، ثم التركُ على قبولِ الجزيةِ جائزٌ، وإنْ كانَ الأمرُ قد تَقَدَّمَ بالقَتْلِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ دليلٌ [أنّا لأجلِ][(5)] ذلكَ المالِ نُقاتِلُ كما كتبَ على كلِّ نفسِ الموتَ، ثم قد يُتْرَكونَ على ما هُمْ عليهِ مِنِ اخْتِلافِ الأديانِ وتَفَرُّقِ الأهواءِ، وإنْ كانَ لا يدلُّ ذلكَ على الأمرِ بما هُمْ عليهِ والرِّضا بِكُفْرِهِمْ ولا على القتالِ لأخذِ تلكَ الأموالِ منهُمْ.

ثم الأصلُ أنَّ القِتالَ لم يُجْعَلْ ليكونَ عقوبةً لِلْكُفْرِ؛ إذْ نوعُ القتلِ؛ ومعناهُ قد يوجَدُ في الأخيارِ والأشرارِ جميعاً، وهو الموتُ. ثَبَتَ أنهُ لم يُجْعَلْ لذلكَ، ولكنْ لوجهَينِ:

[أحدُهُما][(6)]: أنْ يَضْطَرَّهُمْ على الإجابَةِ إلى مافيهِ نَجاتُهُمْ، وبهِ نَيْلُ كَرامَةِ الأبدِ، وكانَ ذلكَ بَعْدَ أنْ أَلْزَمناهُمْ كُلَّ أنواعِ الحُجَجِ، فلم تُقْنِعْهُمْ؛ قاتَلْناهُمْ بما كانَ الذي يَمْنَعُهُمْ عنِ النَّظَرِ في الحُجَجِ حبُّ اللَّذّاتِ، وأَلَذُّها الحياةُ، قاتَلْناهُمْ حتى يَيْأَسُوا مِنْ تلكَ اللَّذَّةِ المانعةِ عنِ النَّظَرِ في الحججِ والصّادَّةِ عنِ الإجابةِ، تَزولُ عنهُمْ.

وفي قَبولِ الجزيَةِ قيلَ: /٢١٢ - أ/ بَعْضُ الذُّلِّ والصَّغارِ الذي تَنْفُرُ عنهُ الطِّباعُ، ويَدعُو إلى مافيهِ الزَّوالُ، فَيَنْظُرونَ في الحُجَجِ، ويَقْبَلُونَ[(7)] ما دُعُوا إليهِ، فيكونُ بهِ نَجاتُهُمْ، وزيادةٌ لنا في الكَرامَةِ.

والثاني: أنَّ المِحَنَ كلَّها مُنْقَسِمَةٌ على الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ والخَيراتِ والشُّرورِ، ولذلكَ جُعِلَتْ بالموتِ والحياةِ، وعلى ذلكَ جميعُ أمورِ الدنيا هو التَّقَلُّبُ على مُخْتَلَفِ الأحوالِ. فَمِثْلُهُ الدعاءُ إلى الإسلامِ يكونُ مَرَّةً بِمُحاجَّةٍ إليهِ ومَرَّةً

---

(١) في الأصل وم: فهو غير مؤمن. (٢) في الأصل وم: وأجلتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: عنهم. (٥) في الأصل وم: أما الأجل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويقبلوا.

باللسانِ ومرَّةً بالتَّركِ، لا أنْ جُعِلَ شيءٌ مِنْ ذلكَ لِشيءٍ، ولكنْ بما عليهِ أمرُ المِحَنِ لِيُتَذَكَّرَ بهِ وجوهُ الذُّلِّ في قومٍ على [ما][1] في علمِ اللهِ مِنَ المصلحةِ وعلى ما عليهِ حقُّ الحِكْمَةِ.

ثم الفَرْقُ بَينَ مُشْرِكي العربِ وغيرِهِمْ يُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: أنهُمْ قد كانُوا ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] فجاءَهُمْ، فكذَّبوهُ.

والثاني[2]: ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] فجاءَتْهُمْ آياتٌ، فلم يؤمِنُوا، فاستَوجَبُوا القِتالَ إلى أنْ يَفُوا بالعَهْدِ الذي سَبَقَ والقَسَمِ الذي جَهَدوا بهِ، وليسَ لِغَيرِهِمْ هذا.

والثالثُ[3]: على قولِهِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١١٠]. فَبَيَّنَ الإياسَ عنْ إيمانِهِمْ إلى أنْ يشاءَ اللهُ. فهو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: الإياسُ منْ إيمانِهِمْ، وقَبولُ الجزيَةِ لِيُخالِطوا أهلَ شريعةِ اللهِ، فَيَسْمَعُوا منهُم الحُجَجَ، ويُعايِنُوا الأفعالَ المحمودَةَ في العقولِ والأخلاقَ الكريمةَ التي جاءَ بها الرسولُ، فيؤمِنُوا. وهؤلاءِ قد آيَسَ اللهُ عنْ إيمانِهِمْ، وأخْبَرَهُمْ أنهمْ يُؤيِسونَ أبداً. فلذلكَ لم يُعْطَ لهمْ عهدٌ وعلى ذلكَ ظَهَرَ نَقْضُهُمُ العقودَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهُ استَثْنى فيهِمْ ألّا يؤمِنُوا بالآياتِ إلّا أنْ يشاءَ اللهُ. فَلَعَلَّ اللهَ شاءَ أنْ يكونَ إيمانُهُمْ بالقِتالِ خاصَّةً، فَفَرَضَ فيهِمْ ذلكَ إلى أنْ يؤمِنُوا.

ووجهٌ آخَرُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو بُعِثَ فيهِمْ ومنهُمْ. فأوجَبَتْ لهمُ الفضيلةُ بهِ ألّا يُقْبَلَ منهُمْ غيرُ الإيمانِ كما فُضِّلَتِ البُقْعَةُ التي فيها بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ ومنها ألّا يُتْرَكَ فيها غيرُ المؤمِنِ تَفْضيلاً.

ووجهٌ آخَرُ أنهمْ قومٌ لَيسَ لَهُمْ أُسُسٌ ولا أئِمَّةٌ في الدينِ، إليهِمْ يَرجِعُونَ في التَّأسيسِ. ومعلومٌ أنْ لا قِوامَ في العقولِ لأمرِ الدينِ إلّا بالأئمَّةِ كالسياساتِ كُلِّها والأمورِ؛ فيها القِوامُ مِنَ المَلِكِ وغيرِهِ. بل إنما كانُوا جَرَوا على عادتِهِمْ، وقاتَلُوهُمْ عنِ القبائِلِ، فلا يرجِعونَ في الحقيقةِ إلّا إلى عادةٍ خارجةٍ عنِ التدبيرِ. وغيرُهُمْ يرجِعونَ إلى مذاهِبَ أُسِّسَتْ مِمّا أُسِّسَ أمرُ الدياناتِ؛ فقد تَعَلَّقُوا بِضَرْبٍ مِنْ ذلكَ؛ [فَتَرَكُوا][4] إذا خَضَعُوا لا دُفِعُوا، وإذا عَنَوا لهمْ بِحَقِّ التَّبَعِ، يُتْرَكُونَ رَجاءَ[5] أنْ يَتَأمَّلُوا؛ إذْ لكلِّ مذهبٍ نَظَرٌ، وليسَ لأولئكَ سِوَى[6] العادةِ وتقليدِ الآباءِ. ومَنْ ذلكَ وصفُهُ؛ لايَنْظُرُ، فَيُمْهَلُ لِلنَّظَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وأيضاً أنَّ لِسائرِ المذاهبِ أصولاً يَتَكَثَّرُ أهلُها، وفي الإقامةِ على القتالِ إلى الفَناءِ يَتَضَمَّنُ بعضٌ إلى بعضٍ فَيَتَناصَرونَ، فَيُخافُ على المسلِمينَ بما بهِ رَجاءُ التَّكَثُّرِ الفَناءُ. والعربُ [يَقِلُّ عَدَدُهُمْ][7] حتى لم يكونُوا يَقْدِرونَ على المُناوَأةِ إلّا بِمَعونَةِ أهلِ الكتابِ وغيرِهِمْ، فأمكَنَ أنْ يَضطَرُّوا بهِ إلى القَتْلِ معَ ما ليسَتْ لهمْ مذاهبُ معلومَةٌ؛ إذْ لا يُذْكَرُ في شيءٍ مِنَ الكتبِ لهمْ مذاهبُ، وقد ذُكِرَ بجميعِ الفِرَقِ[8]؛ فإنما أمْرُهُمْ على العادةِ، وقد تَنْزِلُ العاداتُ بما لا يَعْتَرِضُ فيها ما يَمْنَعُ الاستِمْرارَ عليها مِنَ القتالِ والحربِ، فَيَتْرُكونَها.

وأهلُ المذاهبِ عندَهُمْ أنهمْ لَزِمُوا بالحُجَجِ، ومثلُ ذلكَ لا يُتْرَكُ إلّا بالحُجَجِ، وذلكَ يكونُ بقبولِ الذِّمَّةِ والعهدِ. وأيضاً أنهُ يُمْكِنُ إلزامُ[9] كلِّ ذي مَذْهَبٍ بما يُوجَدُ في مَذْهَبِهِ ما يُثْبِتُ القولَ بالإسلامِ وبالعهدِ رجاءَ الوُصولِ[10] إليهِ، وليسَ لِمُشْركي العربِ ذلكَ لِما لم يُبَيِّنْ[11] مذهبُهُمْ على الحُجَجِ أو السنةِ، إنما هو تقليدٌ وعادةٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ثم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: سواء. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: الفريق. (٩) في الأصل وم: الزم. (١٠) من م، في الأصل: لا. (١١) في م: يبين.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وقولُهُ[١] تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١] أخبرَ أنَّ السمواتِ تكادُ تَتَفطّرَ، وتَنْشقُّ الأرضُ، وتَخِرُّ الجبالُ لِعظيمِ ما قالُوا في اللهِ سُبحانَهُ مِنَ البُهْتانِ والفِرْيَةِ عليهِ أنَّ لهُ وَلَداً. ثم بيَّنَ الذي ذَكَرَ ذلكَ، فقالَ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فذكَرَ الآيةَ، وأخبرَ، واللهُ أعلَمُ، أنهُمْ قالُوا في اللهِ ما قالُوا لِوُجوهٍ:

أحَدُها: دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنَّ هؤلاءِ المُتأخرينَ لم يقولوا هذا، ولكنْ إنما قالَ ذلكَ أوائِلُهُمْ، ولكنْ كَتَمُوا ذلكَ، فأخبَرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ أوائِلَهُمْ قالوا ذلكَ، وهُمْ كانُوا يكتُمونَ عنْ رسولِ اللهِ ذلكَ، لِيَعْلَمُوا أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ.

والثاني: يُخبِرُ رسولَهُ سَفَهَ أوائِلِهُمْ، ويُصَبِّرُهُ على سَفَهِ هؤلاءِ لِيَصْبِرَ على سَفَهِهِمْ وأذاهُمْ.

والثالثُ: يُخبِرُ أنهمْ مُشَبِّهَةٌ لأنهمْ نَسَبُوا المَخلوقَ إليهِ، وقالُوا: إنَّ فلاناً ابْنُهُ لِما رَأَوا منهُ أشياءَ. فلولا أنهمْ عَرَفُوا اللهَ بِمِثْلِ معرفَتِهِمُ المَخْلُوقَ، وإلّا ما قالوا ذلكَ، ولا اعْتَقَدُوا مِنَ التَّشْبِيهِ وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ذلكَ قولٌ قالوهُ بِلا حُجَّةٍ ولا برهانٍ، كانَتْ لهمْ في ذلكَ، أو قالُوا ذلكَ بأفواهِهِمْ على غَيرِ شُبَهٍ، اعْتَرَضَتْ لهمْ، فَحَمَلَتْهُمْ[٢] على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا أنْ قد كانَ قبلَ هؤلاء مَنْ قد قالَ مِثْلَ قولِ هؤلاءِ ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] لَيسَ أنْ يُحْيِيَ المَوتَى كلَّهُمْ إحياءً كما أحْيَى ذلكَ القَتيلَ بِضَرْبِ بَعْضٍ مِنَ البقرةِ، ولكنْ يُحْيِيهِمْ إحياءً، ذلكَ قولُهُ: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ في الكُفْرِ نفسِهِ.

ويَحْتَمِلُ: ضاهَى قولُ النَّصارَى قولَ اليهودِ. والمُضاهاةُ المُشابَهَةُ والإشباهُ. وقولُهُ: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أنْ يُشَبِّهَ النَّصارَى بقولِهِمْ [عنْ عِيسَى][٣] إنهُ ابْنُ اللهِ قولَ اليهودِ مِنْ قَبلُ ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فَمُضاهاةُ النَّصارَى في عِيسَى اليهودَ قَبْلَهُمْ في عُزَيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ هذهِ الكلمةُ كلمةُ اللّعْنِ، تُسْتَعْمَلُ عندَ مناكيرِ القولِ والفعلِ مِنْ غيرِ حُصولِ المَنْفَعَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ أينَ يُؤفكُونَ، ويَفْتَرُونَ على اللهِ على غَيرِ شُبْهَةٍ اعْتَرَضَتْ لهمْ؟

ويَحْتَمِلُ ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيفَ يُؤفكونَ بلا مَنْفَعَةٍ تَحْصَلُ لهمْ؟

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ قيلَ: الأحبارُ هُمُ العلماءُ، والرُّهْبانُ العُبّادُ، وقيلَ: الأحبارُ أصحابُ الصوامِعِ مِنَ اليهودِ والرُّهبانُ مِنَ النَّصارَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في السفهاءِ والأتباعِ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ في العلماءِ منهُمْ والرؤساءِ، فاتَّخَذَ الأتباعُ أولئكَ أرباباً يَتْبَعُونَهُمْ في جميعِ ما يَدْعُونَهُمْ إليهِ [ويأتَمِرونَ بِهِ][٤] فَعَلَى ذلكَ هذا.

ويَحْتَمِلُ ما رُوِيَ في الخَبَرِ، إنْ ثَبَتَ، أنهمْ لم يَعْبُدُوهُمْ، ولكنَّهُمْ أحَلُّوا لهمْ أشياءَ، حَرَّمَها [اللهُ][٥] عليهِمْ، فاسْتَحَلُّوها، أو حَرَّمُوا لهمْ أشياءَ، أحَلَّ اللهُ ذلكَ لهمْ، فَحَرَّمُوا ذلكَ. فقيلَ: اتَّخذوهُمْ أرباباً، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ هذا في الأحبارِ والرهبانِ على التَّمْثيلِ، أي اتَّخذوها[٦] في الطاعةِ لهمْ والاتِّباعِ لأمرِهِمْ؛ كأنهُمْ اتَّخذوهُمْ أرباباً لا على التَّحْقيقِ [وهو ما ذُكِرَ مِنْ عِبادَتِهِمُ الشيطانَ لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ، لكنْ صاروا بالطاعةِ للشيطانِ والاتِّباعِ لأمرِهِ كأنهُمْ

---

(١) في الأصل و م: وقال. (٢) في الأصل و م: تحملهم. (٣) في الأصل وم: لعيسى. (٤) في الأصل: ويأمرهم به، في م: ويأتمرونهم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: اتخذونها.

عَبَدوهُ، وأمّا في المسيحِ فهو على التحقيقِ][1] لأنهمْ قالوا: إنهُ إلهٌ، وقالُوا: ابْنُ إلهٍ. فهو يُخَرَّجُ في المسيحِ على التحقيقِ وفي الأحبارِ والرهبانِ على التمثيلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ يَحْتَمِلُ إلّا لِيُوحِّدُوا إلهاً واحداً الذي لا إله إلّا هو. ويَحْتَمِلُ أي ما أُمِرُوا أنْ يَعْبُدوا آلهةً [على ما][2] يَعْبُدُونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ ولكنْ أُمِرُوا أنْ يَعْبدوا إلهاً واحداً.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ/ ٢١٢ ـ ب/ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قيلَ: نورُ اللهِ ذِكْرُ اللهِ وتوحيدُهُ، وقيلَ: نورُ اللهِ القرآنُ، وقيلَ: نورُ اللهِ هو الإسلامُ. فإذا كانَ النورُ هو الذِّكْرُ والتَّوحيدُ فهو، واللهُ أعلَمُ، أنهُمْ لم يكونُوا يَعْرِفونَ ذِكْرَ اللهِ، ولا يَذْكُرُونَهُ، إنما كانوا يعرفونَ ذِكْرَ الأصنامِ، وإيّاها يذكُرُونَ[3]، وبِحَقِّ القَرابَةِ والرَّحِمِ يَتَناصَرونَ [في ما][4] بينَهُمْ. فلمّا أنْ بَعَثَ [اللهُ][5] رسولَهُ محمداً [وأمرَ][6] بِذِكْرِ اللهِ وتوحيدِهِ، وأمَرَ بالتَّناصُرِ بحَقِّ الدينِ أرادُوا أنْ يُطْفِئُوا ذلكَ النورَ. ومَنْ أرادَ بنورِ اللهِ القرآنَ أرادُوا إطفاءَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧] وقولِهِ[7]: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١١٠] وقولِهِ[8]: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] ونَحْوِهِ. أرادوا إطفاءَهُ بِنَحْوِ ما ذَكَروا[9]: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ [سبإ: ٤٣] وقولِهِمْ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ الآية [النحل: ١٠٣]. ومَنْ قالَ: نورُ اللهِ هو الدينُ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢] وقولِهِ[10] تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥] وفي[11] حرفِ أُبَيٍّ: مَثَلُ نورِ المؤمنِ، ومِثْلُهُ، أرادوا إطفاءَ هذا النورِ لِتَسْلَمَ لهمُ المنافعُ التي كانَتْ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: [يَحْتَمِلُ][12] ﴿يُرِيدُونَ أَن﴾ يَجْتَهِدونَ أنْ يُطْفِئُوهُ، فما يَقْدِرونَ على إطفائِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿يُرِيدُونَ أَن﴾ أي يَحْتالونَ أنْ يُطْفِئُوهُ بأسبابٍ يَتَكَلَّفُونَ، ويَحْتالونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بالحُجَجِ والبراهينِ أي بالنَّشْرِ والإظهارِ، وقد أتَمَّهُ كقولِهِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وقد كَرِهَ الكافرونَ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ هُدىً يَهْديهِمْ إلى ما بِهِ تكونُ جميعُ المحاسنِ والخيراتِ مَحاسِنَ وخيراتٍ؛ إنما تَقومُ بالإيمانِ، وبهِ يُنْتَفَعُ بها، بَعَثَهُ لذلكَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو القرآنُ، يَهديهِمْ، ويُبَيِّنُ لهمُ المحاسِنَ مِنَ المَساوِئِ والحسناتِ مِنَ السَّيِّئاتِ، وهو يَهديهِمْ إلى ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو دينُ الحقِّ أي الإيمانُ الذي يُصَيِّرُ المَحاسِنَ مَحاسِنَ والخيراتِ خيراتٍ، هو دينُ الحقِّ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي دينِ اللهِ كقولِهِ: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ رسولَهُ على أهلِ الدينِ كلِّهِمْ[13] بالحُجَجِ والآياتِ، وقد[14] أظْهَرَهُ بحَمْدِ اللهِ على الأديانِ كلِّها بالحُجَجِ والبراهينِ حتى لم يَتَعَرَّضْ أحَدٌ في شُبَهٍ، ذلكَ فَضْلاً [عنْ أنْ لم][15] يَتعرَّضْ في إبطالِهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ على أهلِ الدينِ كلِّهِمْ بالقَهْرِ و الغَلَبَةِ والإذلالِ، وقد[16] كانَ، حتى خَضَعُوا كُلُّهُمْ، وذَلُّوا، حتى لم يبقَ في جزيرةِ العربِ مُشْرِكٌ ولا كافِرٌ إلّا خَضَعَ لهُ، وصارَ أهلُ الكتابِ ذليلينَ صاغِرينَ في أيدي المسلمينَ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فهو بالحُجَجِ والبراهينِ كلِّها. وإنْ كانَ أرادَ بهِ الدينَ أنْ يُظْهِرَهُ على الأديانِ كلِّها فَبَعْدُ لم يكنْ، ويكونُ، إنْ شاءَ اللهُ، هو الظاهرَ على الأديانِ كلِّها يومَ القيامةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل م. (٣) في الأصل وم: يذكرونها. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: ذكرنا. (١٠) في الأصل وم: فقال. (١١) الواو ساقطة في الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: كله. (١٤) في الأصل وم: فقد. (١٥) في الأصل وم: أن. (١٦) من م، في الأصل: فهو.

وقولُهُ تعالى ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ولم يَقُلْ على الأديانِ كُلِّها فالدينُ يتأوَّلُ الأديانَ كلَّها كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الانفطار:٦] يدخلُ فيهِ كلُّ إنسانٍ. وجائزٌ أنْ يكونَ أدياناً مُخْتَلِفَةً. وهو[1] واحدٌ لأنَّ الكُفْرَ كلَّهُ مِلَّةٌ واحدةٌ [وهو دينُ][2] الشيطانِ، فسَمَّاهُ بذلكَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ قد ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لأنهمْ كانوا يأكلونَ أموالَهُمْ بما يُحَرِّفونَ كتابَ اللهِ، ويُبَدِّلُونَهُ، كقولِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦] وقولِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية [آل عمران:٧٨] فهمْ إنما حَرَّفُوا ذلكَ، وبدَّلوهُ، لِتَسْلَمَ لهمْ تلكَ الأموالُ؛ فذلكَ أكلٌ بباطلٍ لأنهمْ خافُوا ذَهابَ تلكَ المَنافِعِ والأموالِ إذا أسْلَمُوا.

فيجوزُ أنْ يكونَ إنما سَمَّاهُمْ أرباباً في الآيةِ الأولى لِما جَعَلُوا أموالَهُمْ أموالاً لأنفُسِهِمْ وأنفُسَهُمْ عَبيداً لهمْ، فهمْ كالأربابِ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما قالَ، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أخذُوا أموالَهُمْ لِصَدِّ الناسِ عن سَبيلِ اللهِ، وكَنَزوها، ولم يُنفِقُوها في سَبيلِ اللهِ، إنما أنْفَقُوها لِصَدِّ الناسِ عنْ سَبيلِهِ.

ومِنَ الناسِ مَنْ حَمَلَ الآيةَ في مَنْعِ الزكاةِ؛ رُوِيَ في الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعنْ بَعْضِ الصحابة، رضوانُ اللهِ عليهِمْ أجْمَعِينَ «أنَّ كلَّ مالٍ أُدِّيَتِ الزكاةُ عنهُ فهو ليسَ بكَنْزٍ، وإنْ كانَ[3] تحتَ سَبْعِ أرَضِينَ، وكلَّ مالٍ لم تُؤَدَّ زكاتُهُ[4] فهو كَنْزٌ، وإنْ كانَ على وجهِ الأرضِ» [أبو داوود١٥٦٤]ومنْ أصحابِنا مَنِ اسْتَدَلَّ بِلُزومِ ضَمِّ الفضةِ والذهبِ بَعْضِهِ إلى بعضٍ في الزكاةِفي هذهِ الآيةِ لأنهُ ذَكَرَ كَنْزَ الذهبِ والفضةِ جميعاً، والْحَقَ الوَعيدَ بِتَرْكِ الإنفاقِ مِنَ الفضةِ بقولِهِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلولا أنَّ الضَّمَّ واجبٌ، أو يكونُ المُؤَدَّى عنْ أحدِهِما مؤدًّى عنِ الآخرِ، وإلّا لم يكُنْ لذلكَ[5] مَعْنًى.

ثم في مُتعارَفِ الناسِ أنهمْ يُؤَدُّونَ مِنَ الفضةِ عنِ الذهبِ لأنَّ الذهبَ أعزُّ عندَهُمْ، والفضةَ دُونَهُ.

ثم إنْ كانتِ الآيةُ في الكَفَرَةِ فهو في القَبولِ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٧] وذلكَ على القولِ لا في الأداءِ نَفْسِهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ الآية جَعَلَ اللهُ تعذيبَ الكَفَرَةِ في الآخرةِ بالأسبابِ التي مَنَعَتْهُمْ[6] عنْ طاعةِ اللهِ، ودَعَتْهُمْ إلى مُخالَفَةِ أمرِهِ، ويَجْمَعُ بينَهما في النارِ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] وقولِهِ: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] ونحوَ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ ما كَنَزوا ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ يُعَذِّبُهُمْ بها لِما مَنَعَتْهُمْ تلكَ الأموالُ عنْ طاعتِهِ، ودعَتْهُمْ إلى صَدِّ الناسِ عنْ سَبيلِ اللهِ، يَجْعَلُ عذابَهُمْ في الآخرةِ بها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿جِبَاهُهُمْ﴾ كنايةً عنِ التقديمِ إلى الآخرةِ أي لم يُقَدِّموها، ولم يُنْفِقُوها في سَبيلِ اللهِ، وقولُهُ: ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ لِما أخذوها مِمَّا يَحِلُّ ومِمَّا لا يَحِلُّ منْ كُلِّ جهةٍ، وقولُهُ: ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ لِما أنْفَقُوها في الصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ ذِكْرُ هذا إحاطةَ العذابِ بهمْ مِنْ كُلِّ الجهاتِ كقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦] أي يُحيطُ العذابُ بهم. فَعَلَى ذلك هذا، واللهُ أعلَمُ، وكقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٢٤] أي يُحيطُ بهمْ حتى لا يَقْدِروا على رفعِهِ عنْ وجوهِهِمْ.

---

(١) من م، في الأصل: فهو. (٢) من م، في الأصل: لان الكفر. (٣) في الأصل وم: أدى. (٤) في الأصل وم: الزكاة. (٥) في الأصل وم: كذلك. (٦) في الأصل وم: منعهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية. رُوِيَ عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ لا يُؤدِّي حقَّها إلّا جُعِلَتْ لهُ يومَ القيامةِ صَفائحَ، ثم أُحْمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ، ثم يُكْوَى بها جَبينُهُ وجَبْهَتُهُ وظَهْرُهُ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]حتى يُقْضَى بينَ الناسِ فَيَرَى سَبيلَهُ إمّا إلى الجَنَّةِ وإمّا إلى النارِ» [مسلم٩٨٧/٢٦] وقال[1]: «ما مِنْ صاحبِ بَقَرٍ ولا غَنَمٍ لا يُؤدِّي حَقَّها إلّا أتى يومَ القيامةِ تَطَؤُهُ بأظلافِها وتَنْطَحُهُ بِقُرونِها» [بنحوه البخاري١٤٠٢] ثم ذكَرَ فيهِ ما ذُكِرَ في الأوّلِ، فقالوا[2]: يا رسولَ اللهِ فصاحِبُ الخيلِ؟ قالَ: «هي لِثلاثٍ: لِرَجُلٍ أجرٌ ولِرَجُلٍ سِتْرٌ ولِرَجُلٍ وِزرٌ؛ فأما منْ رَبَطَها عُدَّةً في سبيلِ اللهِ فإنهُ لو طَوَّلَ لها /٢١٣ ـ أ/ في مَرْجٍ خصيبٍ أو في روضةٍ خَصيبةٍ كَتَبَ اللهُ لهُ عَدَدَ ما أكَلَتْ حَسناتٍ وعَدَدَ أرْوَاثِها حَسناتٍ، ولوِ انْقَطَعَ طِوَلُها له ذلكَ، فاسْتَنَّتْ شَرَفاً أو شَرَفَينِ كتبَ اللهُ لهُ عددَ آثارِها حسناتٍ، ولو مَرَّتْ بِنَهرٍ ثَجّاجٍ[3]، يُريدُ السَّقْيَ بهِ، فَشَرِبَتْ منهُ كتَبَ اللهُ لهُ عَدَدَ ما شَرِبَتْ حَسَناتٍ. ومَنِ ارْتَبَطَها فَخراً وعِزّاً على المُسْلِمينَ كانَتْ لهُ بُوراً[4] يومَ القيامَةِ. ومَنِ ارْتَبَطَها تَغَنِّياً وتَعَفُّفاً، ثم لم يَنْسَ حقَّ اللهِ في رِقابِها وظُهورِها كانتْ لهُ سِتْراً مِنَ النارِ يومَ القيامةِ» [الطحاوي في شرح معاني الآثار ٥٣٣٧].

فإنْ ثَبَتَ هذا الخَبَرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ففيهِ دلالةٌ وجوبِ الزكاةِ في الخيلِ، وهو حُجَّةٌ لأبي حنيفةَ لأنهُ قالَ: «ثم لم يَنْسَ حقَّ اللهِ في رِقابِها وظُهورِها» والحقُّ الذي في رقابِها هو [الزكاةُ، والذي في ظُهورِها هو][5] الجهادُ عليها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ الشهورَ كانَتِ الْتَبَسَتْ عليهِمْ، واخْتَلَطَتْ لِكَثْرَةِ ما كانُوا يُؤخِّرونَها، ويُقَدِّمونَها، حتى لو لم يكونُوا يَعرفونَ الشُّهورَ بِعَيْنِها كلَّ شهرٍ على حِدَةٍ.

فَخَطَبَ رسولُ اللهِ ﷺ بمكةَ بالمَوْسِمِ، فقالَ: «ألا إنَّ الزمانَ قدِ اسْتدارَ كَهَيئةِ يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ. السنةُ اثنا عَشَرَ شهراً؛ منها أربعَةٌ حُرُمٌ: ثلاثةٌ مُتوالِياتٌ: ذو القِعْدَةِ وذو الحِجَّةِ والمُحَرَّمُ ورَجَبُ مُضَرَ الذي بَيْنَ جُمادى وشعبانَ ثم قالَ لهمْ: أيُّ بَلَدٍ هو؟ وأيُّ شَهْرٍ هو؟ وأيُّ يومٍ هو؟ قالوا: بَلَدٌ حرامٌ وشهرٌ حرامٌ ويومٌ حرامٌ. ألا بَلَّغْتُ؟قالوا: بَلَى، فقالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ» [البخاري ٤٦٦٢] وفي بعضِ الأخبارِ زيادةٌ؛ فقالَ: ألا و﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [التوبة: ٣٧].

وقالُوا: وذلكَ أنهُمْ كانُوا يجعلونَ صَفَرَ عاماً حَراماً وعاماً حَلالاً، فكانَ النَّسِيءُ مِنَ الشيطانِ. وَصَفَ رسولُ اللهِ ﷺ في هذهِ الأحاديثِ الأشْهُرَ، وبَيَّنَها، فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ النَّبِيَّ كانَ يُحَرِّمُ القِتالَ فيها على ماكانَ أهلُ الجاهليةِ يُحَرِّمونَهُ.

وزادَ ذلكَ بَياناً يَعيبُ أصحابَ النَّسِيءِ إذ[6] كانوا يَسْتَحِلُّونَ القِتالَ في المُحَرَّمِ ويُؤَخِّرُنَهُ إلى صَفَرَ، فَيُحَرِّمونَ صَفَرَ مكانَ المُحَرَّمِ، فَعابَ اللهُ عليهِمْ تحليلَ ما حَرَّمَ مِنَ الشَّهْرِ، وجَعَلَهُ زيادةً في الكُفْرِ وقالَ: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]أي عدةَ الأشهُرِ الأربعةِ التي حَرَّمَها اللهُ. وقالَ: ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنَّ اللهَ جَعَلَ عِدَّةَ الشهورِ اثْنَي عَشَرَ [شهراً][7] بالأهِلَّةِ على ما عَرَفَتْهُ العَرَبُ على ما وقَفُوا على معرفةِ ذلكَ، ولم يُوقَفْ غيرُهُمْ، وإنما يَعُدّونَ السنةَ بالأيامِ، والعربُ تَعْرِفُها بالأهِلَّةِ [على][8] ما خَلَقَها اللهُ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

قالَ بَعْضُهُمْ: في الأشهرِ كُلِّها لِما جَعَلَ هذهِ الأشهرَ شُهوداً عليهِمْ يَشْهَدونَ بما يَعْمَلُونَ فيها مِنَ المَعاصي والخَيراتِ، وبها تَنْقَضي آجالُهُمْ؛ يُخْبِرُ ألّا تَظْلِموا في هذهِ الأشهرِ التي تأتي بكُمْ بكُلِّ خَيرٍ وبكُلِّ نِعْمَةٍ، فإنها تَنْصَرِفُ بما يَعْمَلونَ فيها مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الاصل وم: عجاج لا. (٤) في الأصل وم: وزر. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في م: إذا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

وقالَ بَعْضُهُمْ : قولُهُ ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أي في الأربَعَةِ الحُرُمِ. خَصَّ الأربَعَةَ، وإنْ كانَ الظُّلْمُ في الأشهُرِ [كُلِّها لا يُحْمَدُ على ما][1] خَصَّ مكةَ بِتَرْكِ الظُّلْمِ حراماً في الأماكِنِ كلِّها كقولِهِ: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ الآية [الحج: ٢٥] أي لا تُقاتِلُوا فيها؛ إذْ كُلٌّ ظُلْمٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ قيلَ: ذلكَ الحسابُ حِسابُ الأشهرِ قَيِّمٌ أي صحيحٌ مستقيمٌ على ما خَلَقَهُ اللهُ. وقيلَ: الحسابُ، هو القضاءُ العَدْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ كتابُ اللهِ اللوحَ المحفوظَ على ما قِيلَ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حُكْمِ اللهِ ذلكَ.

وقولُه تعالى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ اللوحِ المحفوظِ: أنَّ ذلكَ عندَ اللهِ لم يُطْلِعْ عليهِ غَيْرَهُ. ويَحْتَمِلُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في علمِهِ على ما عَرَفَتْهُ العَرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿كَآفَّةٗۚ﴾ أي مجتمِعينَ[2] أي قاتِلُوهُمْ مُجْتَمِعينَ على ما يُقاتِلُونَكُمْ هُمْ مُجْتَمِعينَ. ويَحْتَمِلُ ﴿كَآفَّةٗۚ﴾ أي جَماعةً. ويَحْتَمِلُ ﴿كَآفَّةٗۚ﴾ إلى الأبَدِ إلى يومِ القيامةِ؛ أي قاتِلُوهُمْ إلى الوقتِ الذي يُقاتِلُونَكُمْ ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في النَّصْرِ والمَعونَةِ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية كأنَّ هذهِ الآيةَ والتي[3] قبلَها: [وهي][4] قولُهُ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ في مُشْرِكي العَرَبِ، وسائِرَ الآياتِ التي قبلَها، وهي[5] قولُهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وقولُهُ: ﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤] في أهلِ الكتابِ.

يُخْبِرُ أنَّ ملوكَ العربِ اتَّخذوا أنفُسَهُمْ أرباباً والأتباعَ عَبيداً مِنْ دونِ اللهِ حتى يَتْبَعوهُمْ[6] في جميعِ ما يُحِلُّونَهُ، ويُحَرِّمونَهُ كما أنَّ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخذوا أنفُسَ أولئكَ عبيداً. فكأنَّهُ قالَ للمؤمنينَ: إنَّ ملوكَ العربِ وأحبارَ اليهودِ ورهبانَ النَّصارَى اتَّخذوا أنفُسَهُمْ أرباباً والأتباعَ عبيداً، فأنتم يا مَعْشَرَ المؤمنينَ لا تتَّخِذُوا أنفُسَكُمْ أرباباً والأتباعَ عَبيداً.

الآية ٣٨ ألا تَرَى أنهُ قالَ في الآيةِ التي تلي[7] هذهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم﴾؟ قالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ في المُنافقينَ الذينَ تَخلَّفُوا عنْ رسولِ اللهِ في غَزْوَةِ تبوكَ كقولِهِ: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ الآية [التوبة: ١٠١] فَفِيهِمْ [مِنْ][8] ذِكْرِ ذلكَ الوعيدِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ في المؤمنينَ أمِرُوا أنْ يَنْفِرُوا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قِيلَ: اسْتَثْقَلْتُمُ النَّفَرَ في سَبيلِ [اللهِ][9] وأقَمْتُمْ. ويَحْتَمِلُ التَّثاقُلَ، وهو[10] أنْ يَرَوا مِنْ أنفُسِهِمُ الثِّقَلَ مِنْ غيرِ أنْ قامُوا كما يُقالُ: يَتَصامَمُ، ويَتَعامَى مِنْ غيرِ أنْ كانَ بِهِ الصَّمَمُ أوِ العَمَى، ولكنْ لِما يَرَى مِنْ نَفْسِهِ ذلكَ.

وقالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: قولُهُ: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ [أي تثاقَلْتُمْ][11] ورَكَنْتُمْ إلى المُقامِ، وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ [الأعراف: ٣٨] أي تدارَكُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي ما مَتَّعَكُمْ في الدنيا قليلٌ بِما وَعَدَ أنْ يُمَتِّعَكُمْ في الآخرةِ.

---

(١) في الأصل : كله لا يحمد عاما، في م: كله لا يحمد على ما. (٢) في الأصل وم: مجتمعون. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: يتبعونهم. (٧) في الأصل وم: تتلو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

أو أنْ يُقالُ: مَتاعُ الحياةِ الدنيا مِنْ أوّلِها إلى آخِرِ ما تنتهي أقلُّ[1] مِنْ مَتاعِ الآخِرَةِ و كَراماتِها لأنَّ كَراماتِ الدنيا على شَرَفِ الزوالِ وكَراماتِ الآخِرَةِ على الدوامِ أبداً

أو أنْ يقولُ: متاعُ الحياةِ الدنيا أقلُّ[2] مِنْ مَتاعِ الآخِرَةِ لأنَّ مَتاعَ الدنيا ومَنافِعَها تَشوبُهُ الآفاتُ والمَضَرّاتُ، ومَتاعَ الآخِرَةِ لا تَشوبُهُ الآفاتُ والمَضَرّاتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية عاتَبَ المؤمنينَ بالتَّثاقُلِ والإخلادِ[3] إلى الأرضِ ونَهاهُمْ عَنِ الرُّكونِ إلى الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي لمّا أحْدَثَ أولئكَ الملوكُ مِنْ تَحْليلِ ما حَرَّمَ اللهُ و تَحْريمِ ماأحلَّ اللهُ زيادةً في كُفْرِ أولئكَ أحْدَثُوا مِنْ وقْتِ إحداثِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يُهْلِكُ بِهِ الذينَ كَفَرُوا أي الذينَ أحْدَثُوا. أو يَحْتَمِلُ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ما أحْدَثَ أولئكَ الملوكُ إنما أحْدَثُوا لِيُضَلَّ بهِ الأتباعُ، يُحِلُّونَهُ.

فأمّا ما ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ كانُوا يَسْتَحِلّونَ المُحَرَّمَ عاماً، فَيُصيبونَ فيهِ الدماءَ والأموالَ، ويُحَرِّمُونَهُ عاماً فلا يَسْتَحِلّونَ فيهِ الدماءَ والأموالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟/ ٢١٣ - ب/ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قيلَ: لِيُوافِقُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ: كانَ عندَهُمْ أنَّ التحريمَ إنما كانَ بِعَدَدِ الأشهرِ لِلأشهُرِ، فَحَفِظُوا عددَ الأشهُرِ، ولم يَحْفَظُوا الوقتَ. وذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ أي زُيِّنَ تأخيرُ المُحَلَّلِ وتَقديمُ المُحَرَّمِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قيلَ: لا يَهديهِمْ وقتَ اختيارِهِمُ الكُفْرَ، أو لا يَهديهِمْ في الآخِرَةِ طريقَ الجنةِ لِكُفْرِهِمْ في الدنيا. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ في غيرِ مَوْضِعٍ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: النَّسيءُ التأخيرُ؛ يُقالُ: نَسَأْتُ الشهرَ أي أخَّرْتُهُ، ويُقالُ: أنسأَ اللهُ في أجَلِكَ أي أخَّرَ اللهُ، وقولُهُ: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ والمواطأةُ: أنْ يُدْخِلُوا شهراً مكانَ شهرٍ، وهو التَّتابُعُ؛ يُقالُ: تواطأَ القومُ على حديثِ كذا وكذا أي تَتابَعوا، وواطأتُ فلاناً أي تابَعْتُهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: النَّسيءُ التأخيرُ، وكانوا يُؤَخِّرونَ تحريمَ المُحَرَّمِ منها سَنَةً، ويُحَرِّمونَ غيرَهُ مكانَهُ لحاجَتِهِمْ إلى القتالِ فيهِ، ثم يَرُدُّونَهُ إلى التحريمِ في سَنَةٍ[4] أُخرى؛ كأنهمْ يَسْتَنُّونَ ذلكَ لِيُواطِئوا أي لِيُوافِقُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ بِقَولِ: إذا حَرَّمُوا مِنَ الشهورِ عَدَدَ الشهورِ المُحَرَّمَةِ لم يَنالُوا أنْ يُحِلُّوا الحرامَ، ويُحَرِّمُوا الحلالَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فإنْ كانتِ الآيةُ في المُنافقينَ فهو ظاهرٌ، وإنْ كانَتْ في المؤمنينَ فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يَحِلُّ بهِمْ. ولم يُبَيِّنْ ماذلكَ العذابُ؟

وقالَ بعضُهُمْ: شَدَّدَ اللهُ الوعيدَ في تركِهِمُ النَّفْرَ والخُروجَ في سَبيلِ اللهِ على ما شَدَّدَ بِبَدْرٍ في التَّوْلِيَةِ الدُّبُرَ بقولِهِ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ الآية [الأنفال: ١٦] غيرَ أنهُ شَدَّدَ يومَ [بَدْرٍ][5] لَمّا لم يكنْ ملجأً، وكانَ نِفارُهُمْ نِفارَ نِفاقٍ. وههنا شَدَّدَ لِغَيرِ ذلكَ لوجوهٍ:

أحَدُها: لِما في تَخَلُّفِ المؤمنينَ عنهُ مَوضِعُ العُذْرِ لِلْمُنافِقينَ بالتَّخَلُّفِ عنهُ أنهمْ [تَخَلَّفوا][6] للعذرِ، فَنَحْنُ نَتَخَلَّفُ أيضاً لِلْعُذْرِ، ولنا في ذلكَ عذرٌ.

والثاني: يكونُ للكفارِ مَوضِعُ الاحتِجاجِ عليهِمْ؛ يقولونَ: إنهمْ يُرَغِّبوننا في الآخرةِ، ويَحُثُّوننا في ذلكَ، ثم إنهمْ يَنْفِرونَ عنْ ذلكَ، ويَرغَبونَ عنهُ.

---

(١) في الأصل وم: قليل. (٢) في الأصل وم: قليل. (٣) في الأصل وم: بالخروج. (٤) في الأصل و م: صفة. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

والثالث: يكونُ في تَخلُّفِهِمُ الشوكَةُ على المسلِمِينَ؛ إذْ يَقِلُّونَ(١) إذا تَخلَّفُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [على ما استَبْدَلَكُمْ ياأهلَ مكةَ، فَيَنْصُروهُ(٢) وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾](٣) أي يُنْشِئْ قوماً غيرَكُم. لكنَّ تأويلَ الأوَّلِ أشبهُ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾؟ [التوبة: ٤٠]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ هو ما ذَكَرْنا أي لا تَضُرُّوا رسولَ اللهِ بالتَّخلُّفِ عنهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: لا تَضُرُّوا اللهَ شيئاً. والأوَّلُ أشبهُ لِما ذَكَرْنا.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ يقولُ: إنْ لم تَنْصُروا رسولَ اللهِ، فاللهُ يَنْصُرُهُ على [ما](٤) نَصَرَهُ في الوقتِ الذي كانَ في الغارِ لم يكنْ معهُ أحدٌ مِنَ البَشَرِ إلّا واحدٌ، فإنْ لم تَنْصُروهُ فاللهُ كافِيهِ في النَّصْرِ [على ما كفاهُ، ونَصَرَهُ](٥) في الحالِ التي لم يكنْ معهُ بَشَرٌ إلّا واحدٌ. فاليومَ، ألا يَنْصُرُهُ ومعهُ مِنَ الأنصارِ والأعوانِ مالا يُحصَى؟ وكانَ ما استَنْفَرَهُمْ رسولُ اللهِ، وأَمَرَهُمْ بالخروجِ إلى العَدُوِّ، ولم يَكُنْ يَستَنْفِرُهُمْ لِمكانِ نَفْسِهِ؛ إذْ يَعْلَمُ أنَّ اللهَ كافِيهِ في نَصْرِهِ، ولكنْ إنما يَستَنْفِرُهُمْ(٦)، ويأمُرُهُمْ لِمكانِ أنْفُسِهِمْ لِيَكْتَسِبُوا قُرْباً وثَواباً عندَ اللهِ و زُلْفَى.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقالَ: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾؟ [التوبة: ٣٩]أي إنْ لم تَنْفِروا، ولم تَنْصُروا رسولَ اللهِ، فلا تَضُرُّوه شيئاً، إذِ اللهُ كافيهِ في نَصْرِهِ. وإنما غايَتُهُمْ بِتَرْكِ النَّفْرِ والخروجِ لِيَرْكَنوا إلى الدنيا، وحُبُّهُمْ إياها هو الذي مَنَعَهُمْ عنِ اتِّباعِ محمدٍ، وهو الذي حَمَلَهُمْ على الكُفْرِ باللهِ والتَّكذيبِ لرسولِهِ وتَرْكِ الإجابةِ لهُ في ما يَدْعُوهُمْ إليهِ.

فيقولُ، واللهُ أعلمُ، للمؤمنينَ: لا تَرْكَنُوا إلى الدنيا، ولا ترضَوا بها عنِ الآخرةِ لِيَمْنَعَكُمْ ذلكَ عنِ النَّفْرِ والخروجِ إلى ما يأمُرُكُمْ رسولُ اللهِ ﷺ على ما مَنَعَ أولئكَ الكَفَرةَ على ما ذَكَرْنا.

وأصْلُهُ: أنهُ إنما استَنْصَرَهُمْ لا لِحاجةٍ لهُ إلى نَصْرِهِمْ؛ إذْ هو قادرٌ أنْ يَنْصُرَ رسولَهُ بما شاءَ، لكنْ طَلَبَ منهُمُ النَّصْرَ لهُ لِيَكْتَسِبُوا بذلكَ ثواباً لأنفُسِهِمْ وما ذَكَرَ في الأجَلِ. وكذلكَ ما طَلَبَ منهُمُ الشكرَ لهُ على نِعَمِهِ لِحاجةٍ لهُ في ذلكَ، ولكنْ لِيَسْتَديموا النعمةَ، ويَصِلُوا إلى الباقيةِ الدائمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واضْطَرُّوهُ إلى الخُروجِ حينَ هَمُّوا بِقَتْلِهِ حتى خَرَجَ مِنْ بينِ أظهُرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي لم يكُنْ معهُ مِنَ البَشَرِ إلّا واحدٌ لِيَعْلَموا أنَّ النَّصْرَ لم يكنْ بأحدٍ مِنَ البَشَرِ، إنما كانَ باللهِ تعالى؛ إذْ بالواحدِ لا تكونُ النُّصْرَةُ والحِفْظُ مِنَ الوفِي أو بِذِكْرِ فَضْلِ أبي بَكْرٍ، وكانَ هو ثانِيَهُ في كلِّ أمْرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ﴾ لم يكنْ حُزْنُ أبي بَكْرٍ على نَفْسِهِ، ولكنْ إشفاقاً على رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُصابَ. وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ لرسولِ اللهِ: يا رسولَ اللهِ إنكَ إنْ تُصَبْ يَذْهَبْ دينُ اللهِ، ولنْ يُعْبَدَ اللهُ على وجهِ الأرضِ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ أبا بَكْرٍ كانَ يَبْكي إشفاقاً على رسولِ اللهِ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ: ما يُبْكيكَ؟ فقالَ ما ذَكَرْنا، فقالَ لهُ: يا أبا بكرٍ: «ما ظَنُّكَ بِاثْنَينِ، ثالثُهُما اللهُ؟» [البخاري٤٦٦٣].

وقيلَ: إنهما [لمّا](٧) أتَيا بابَ الغارِ، سَبَقَ أبو بكرٍ، فدَخَلَ الغارَ، وكانَ الغارُ مَعروفاً بالهَوامِّ، فألْقَمَها أبو بكرٍ قَدَمَيهِ، فأطالَ ذلكَ، فقالَ: إنْ كانَ فيهِ شيءٌ بَدا [نادِني، أو كلاماً](٨) نحوَ هذا، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ](٩) تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ لَيسَ بِنَهْيٍ عنِ الحُزْنِ، ولكنْ على تَخْفيفِ الأمْرِ عليهِ، وتَيْسِيرِ الحالِ التي هو عليها.

---

(١) من م، في الأصل: يلقون. (٢) في الأصل: فينصرونه. (٣) ساقطة من م. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: يستنفر. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لي أو كلام. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ قيلَ: أنْزَلَ سَكينَتَهُ على أبي بكرٍ حينَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «ما ظَنُّكَ باثْنَينِ ثالثُهما اللهُ؟» حتى سَكَنَ قلبُ أبي بكرٍ مِنَ الحُزْنِ والخَوفِ على رسولِ اللهِ.

وقالَ بَعضُهُمْ: أنزَلَ السكينةَ [على رسولِ اللهِ؛ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أنهُ أنزلَ السكينةَ عليهِ][1] حتى رأى هو جنوداً لم يَرَوها هُمْ حينَ[2] قالَ: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

والثاني: [أنهُ][3] أنزلَ سَكينَتَهُ بالحُجَجِ والبراهينِ.

لكنهُ إنْ كانَ ما ذَكَرَ فهو قد أنزلَ السكينةَ عليهِ في البَدْءِ، ولأنهُ كانَ رسولَ اللهِ، لا يَخافُ سِوَى اللهِ، ويَعْلَمُ أنهُ يَنصُرُهُ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][4] قالَ: فأنْزَلَ سَكينَتَهُ على أبي بكرٍ لأنَّ النَّبِيَّ لم تَزَلِ السَّكِينَةُ معَهُ، وهو أشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ يَحْتَمِلُ في ذلكَ الوقتِ، ويَحْتَمِلُ في الغَزَواتِ التي نَصَرَهُ بالملائكةِ يومَ بَدْرٍ وغيرِهِ؛ يُخْبِرُ أنهُ قادرٌ أنْ يَنصُرَهُ لا بالسَّرِّ لِيَعْلَمُوا أنهُ إنما يأمُرُهُمْ بالنَّفْرِ لا لِنَصْرِ رسولِ اللهِ، ولكنْ لِيَكْتَسِبُوا بذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ الثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ أي مَكْرُ اللهِ بِهِمْ[5] ونُصْرَةُ رسولِهِ هي العُلْيا كقولِهِ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دينَهُمُ الذي يَدينُونَ به ومذهَبَهُمُ الذي يَنْتَحِلُونَهُ ﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ أي جَعَلَ تلكَ السُّفْلَى بالحُجَجِ، وجَعَلَ دينَ محمدٍ ﴿هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ بالحُجَجِ والبراهينِ على ذلكَ على ما كانَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ أي جَعَلَ أهلَ كلمةِ[6] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هُمُ السَّفَلَةُ[7] وأهلَ دينِ اللهِ هُمُ الأعلَونَ كقولِهِ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ اختُلِفَ فيهِ/ ٢١٤ ـ أ/ قيلَ: شباباً وشيوخاً، وقيلَ: مَرْضَى وأصِحَّاء، وقيلَ: مَشاغيلَ وغيرَ مَشاغيلَ، وقيلَ فُقَراء وأغنياء، وقيلَ: نُشَّاطاً وغيرَ نُشَّاطٍ.

وأصْلُهُ: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ مستخِفِّينَ ومُسْتَثْقِلِينَ؛ أيِ انفِروا خَفَّ عليكُمُ الخروجُ أو ثَقُلَ، وما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ الشَّيخوخَةِ والتَّسَفُّلِ والفقرِ والمَرَضِ لأنَّ ذلكَ بالذي يُثْقِلُ الخُروجَ والنَّصْرَ، وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا ﴿ٱنفِرُواْ﴾ خَفَّ عليكُمْ ذلكَ أو ثَقُلَ.

وقولُهُ تعالى ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ انْفِروا خَفَّ على النَّفْسِ أو ثَقُلَ، أو خَفَّ على الطبعِ، أو ثَقُلَ، أو خَفَّ على العقلِ أو ثَقُلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في الدنيا والآخرة. أي اعلَمُوا أنَّ ذلكَ خيرٌ لكُمْ مِنَ المُقامِ وتَرْكِ النفرِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ أي غَنيمةً قريبةً ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ أي هَيِّناً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ في غَزَواتِكَ[8] ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ يعني المَسِيرَ، وقيلَ: العَرَضُ: الدنيا ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ ليسَ فيه مَشَقَّةٌ.

وأصلُ قولِهِ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ أي مَنافِعَ حاضِرَةً ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ أي مَنافِعَ غائبةً، والعَرَضُ المنافِعُ. يقولُ: لو كانَتْ لهمْ مَنافِعُ حاضِرَةٌ أو مَنافِعُ غيرُ حاضِرَةٍ ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ في ما اسْتَتْبَعْتَهُمْ لأنَّ عادتَهُمُ اتِّباعُ المَنافِعِ؛ يعني المنافِقينَ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] أخبَرَ أنهمْ يعبُدونَ اللهَ على حَرْفٍ؛ وهو ما ذَكَرَ ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ فَمِنْ عادَتِهِمْ أنهمْ إنما يَتَّبِعُونَ المَنافِعَ، وإليها يَميلونَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) و(٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: الكلمة.
(٧) في الأصل وم: السفلى. (٨) في الأصل وم: غزاتك.

وأمّا المؤمنونَ فإنهم يَعبُدونَ اللهَ في كلِّ حالٍ: في حالِ السَّعةِ وفي حالِ الضّيقِ، ويَتّبِعونَ رسولَ اللهِ، ولا يُفارِقونَهُ، كانتْ لهمْ مَنافِعُ، أو لم تكنْ، أصابَتْهُمْ مَشقّةٌ، أو لا؛ هم لا يُفارِقونَ رسولَ اللهِ على كلِّ حالٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أي لو كانَ لنا ظَهرٌ وسِلاحٌ ﴿لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ ولو كانَ [مَعَنا][1] زادٌ وما نَشْتَري ما نحارِبُ بهِ ﴿لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾.

ثم أخبَرَ أنَّ لهمُ استِطاعةً على ذلكَ، وأنهُمْ كاذبونَ أنهُ لا استِطاعةَ لهمْ حينَ[2] قالَ: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقالتِ المعتزلةُ: دَلَّ قولُهُ: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أنَّ الاستِطاعةَ تَتقدَّمُ الفِعْلَ لأنهُ أخبَرَ أنهمْ كاذبونَ في ما يقولونَ: إنهُ لَيسَ مَعَنا ما نُنفِقُ، وما نَشْتَري بهِ السلاحَ. لكنّا نقولُ: إنَّ الاستطاعةَ على وجهَينِ: استِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ واستِطاعةُ الأفعالِ.

واستِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ يجوزُ أنْ تَتقدَّمَ، وهذهِ الاستِطاعةُ هي استِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ. ألا تَرى أنهُ قالَ ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾؟ [التوبة: ٤٦].

ومنْ قولِهِمْ أيضاً: أنَّ استِطاعةَ الأفعالِ لا تَبقى أوقاتاً. ثم إنَّ هذهِ أخبَرَ أنها كانتْ باقيةً أوقاتاً. دلَّ أنها استِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ قيلَ ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بأيمانِهِمُ الكاذبةِ أنهمْ لا يَستَطيعونَ. وقيلَ: ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بتَرْكِهِمُ الخُروجَ لأنهمْ يُقتَلُونَ إذا تَرَكُوا الخُروجَ كقولِهِ ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ الآية [الأحزاب: ٦١]. ويَحتمِلُ ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ في الآخرةِ بِنِفاقِهِمْ في الدنيا.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ بالتَّخلُّفِ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي يُطْلِعُكَ اللهُ على نِفاقِهِمْ، فيكونُ ذلكَ آيةً منْ آياتِ النُّبُوَّةِ[3]: إنْ لم تأذَنْ لهمْ بالتَّخلُّفِ، أو إنْ تأذَنْ[4] لهمْ يَتبيَّنْ لكَ نِفاقُهُمْ؛ لأنهمْ يَتخلَّفونَ، ويُفارِقونَكَ، وإنْ لم تأذَنْ لهمْ، والذينَ صَدَقُوا لا يُفارِقونَكَ؛ فيَتبيَّنُ هؤلاءِ منْ هؤلاءِ، ويظْهرُ كَذِبُ هؤلاءِ مِنْ صِدْقِ هؤلاءِ المؤمنينَ.

وفي قولِهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ﴾ دلالةٌ أنَّ النَّبيَّ إنما أذِنَ لهمْ بالتَّخلُّفِ بلا أمْرٍ. وفيهِ دلالةُ العَمَلِ بالاجْتِهادِ لأنهُ لو كانَ أذِنَ لهمْ بالتَّخلُّفِ بالأمْرِ لم تكنْ إجابَتُهُ على الإذنِ. دَلَّ أنهُ إنما أذِنَ لهمْ بالتَّخلُّفِ بالاجْتِهادِ لِما ظَنَّ أنهمْ إنما يَستأذِنونَهُ بالقُعودِ لِلْعُذْرِ.

فإنْ قِيلَ: كيفَ عاتَبَ رسولَهُ بِما أذِنَ لهمْ بالقُعودِ، وقد أخبرَ أنهُ إنما كانَ يَحكُمُ بما أراهُ اللهُ بقولِهِ: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥] قيلَ: يَحتمِلُ أنهُ إنما عاتَبَهُ على تَرْكِ [الأفضلِ لأنَّ تَرْكَ][5] الإذنِ لهمْ بالقعودِ أفْضلُ مِنَ الإذنِ؛ إذْ بهِ يَتبيَّنُ لهُ الصادقُ مِنَ الكاذبِ، ويكونُ فيهِ آيةٌ مِنْ آياتِ الرسالةِ. ويجوزُ أنْ يعاتَبَ على تركِ الأفضلِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ تعليماً مِنَ اللهِ أنْ كيفَ يُعامِلُ الناسُ بعضَهُمْ بَعْضاً؟ ليسَ على العِتابِ.

ومِنَ الناسِ مَنِ استَدَلَّ على تَفْضيلِ رسولِ اللهِ على غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، بهذهِ الآيةِ لأنهُ يَذْكُرُ العَفْوَ، وكذلكَ في جميعِ ما ذَكَرَ مِنَ العِتابِ لم يَذْكُرْ زلّتَهُ، وذَكَرَ في سائرِ الأنبياءِ الزَّلّاتِ.

الآيتان ٤٤ و٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ بالتَّخلُّفِ لِغَيرِ عُذْرٍ ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ بالقعودِ لِغَيرِ عُذْرٍ ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: الله. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ](1) قالَ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ نَسَخَتْها الآيةُ التي في سورةِ النورِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية ٦٢] لكنَّ هذا لا يُحتَمَلُ لأنهُ ذَكَرَ أنَّ سورةَ التوبةِ مِنْ آخِرِ ما نَزَلَتْ، أو أنهمْ إذا كانوا في أمرٍ جامعٍ لم يذهَبُوا إلّا بعدَ الاستئذانِ لأنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ لِلْمُؤْمِنينَ في الأمورِ الجامعةِ، وأمّا في الخَلَواتِ فَلا.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في غزوةِ تَبوكَ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: أُمِرُوا بالخروجِ والتأهُّبِ لِلْغَزْوِ؛ فَعَزَمُوا ألّا يَخْرُجوا، فَعُوتِبُوا على ذلكَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في جميعِ الغَزَواتِ؛ عَزَمُوا، واعْتَقَدوا ألّا يَخْرُجُوا، ولا يَتَأهَّبُوا لهُ قَطُّ، فقالوا: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] فَأكْذَبَهُمُ اللهُ تعالى[بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]](2) وأنهمْ أغنياءُ، لكنَّهُمْ عَزَمُوا ألّا يَخْرُجُوا، ولا يُعِدُّوا لهُ عُدَّةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي لم يَرْضَ اللهُ بخروجِهِمْ وانْبِعاثِهِمْ. ثم بَيَّنَ الوجهَ الذي لم يرضَ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] أي فساداً. لم يُرِدِ اللهُ خُروجَهُمْ لِما عَلِمَ منهُمْ أنهُ لا يزيدُ خُروجُهُمْ في الجهادِ إلّا ما ذَكَرَ مِنَ الخَبالِ والفَسادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ قيلَ: حَبَسَهُمْ؛ أي إذْ(3) عَلِمَ منهُمْ أنَّ خُروجَهُمْ وانبِعاثَهُمْ [لا يَزيدُهُمْ](4) إلّا فساداً حَبَسَهُمْ. ويَحتَمِلُ: أنْ خَلَقَ منهُمُ الفِعْلَ الذي كانَ مِنَ الكَسَلِ والتَّثاقُلِ.

وفيهِ دلالةُ خَلْقِ اللهِ فِعْلَ الشَّرِّ. ويكونُ في ذلكَ خيرٌ(5) لِغَيْرِهِ، وإنْ كانَ شَرّاً لهمْ. فَعَلى ذلكَ خَلْقُ فِعْلِ المَعْصِيَةِ مِنَ العاصي(6)، وهو شَرٌّ لهُ، ويكونُ ذلكَ خيراً لِغَيْرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾ لَمّا اسْتَأذَنُوا رسولَ اللهِ بالقعودِ أذِنَ لهمْ في ذلكَ على ما وَقَعَ عندَهُ أنَّ لهمْ عُذراً في ذلكَ. وإنْ كانَ مِنَ اللهِ ﷻ فهوَ على التَّهَدُّدِ والتَّوَعُّدِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ مِنَ الشيطانِ؛ وَسْوَسَ إليهِمْ أنِ اقْعُدُوا ترغيباً منهُ إياهمْ بالقعودِ والتَّخَلُّفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لو كانُوا خَرَجُوا فيكُمْ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾؟ [التوبة: ٤٦] دلَّ هذا أنهُمْ لم يَكونُوا خرجُوا. ولو كانُوا خَرَجُوا لم يكُنْ ثَبَّطَهُمْ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا والانْبِعاثُ هو الخروجُ، وكذلكَ في حرفِ ابنِ مسعودٍ: ولكنْ كَرِهَ اللهُ خروجَهُمْ، والتثبيطُ الحبسُ. وأصْلُ التَّثبيطِ التَّثقيلُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الانْبِعاثُ هو القيامُ، والخَبالُ: قيلَ: الفسادُ والشَّرُّ، وقيلَ: الغَيُّ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا﴾ كذا. تَحْتَمِلُ/ ٢١٤ ـ ب/ زيادةُ الخَبالِ وجوهاً: تَحتَمِلُ أنْ يكونوا عُيوناً لِلْعَدُوِّ، ويُخبِروهُمْ عنْ عَوراتِ المسلمينَ؛ أو كانُوا يَجبِئونَ أهلَ الإسلامِ بقولِهِمْ(7): ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] [ونحوَ ذلكَ](8).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ قيلَ: هو مِنْ إيضاعِ الإبلِ خِلالَكُمْ، يَتَخَلَّلُ في ما بينَكُمْ. وقيلَ: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ أي رَواحِلَهُمْ حتى يَدخُلوا بينَكُمْ حتى لا يُصيبَهُمُ(9) الأذى؛ وكانُوا(10) يَسْتَتِرونَ بالمسلمينَ لئلا يُصيبَهُمْ شيءٌ مِنَ البلاءِ والشدةِ.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) في الأصل وم: انهم كذبة. (3) في م: إذا، ساقطة من الأصل. (4) في الأصل وم: لم يزدهم. (5) في الأصل وم: خيراً. (6) في الأصل وم: المعاصي. (7) في الأصل وم: كقولهم. (8) في الأصل: ونحو، في م: ونحوه. (9) في الأصل وم: يصيبكم. (10) أدرج بعدها في الأصل وم: لا.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ﴾ مِنَ المَوضِعِ، وهو سُرْعَةُ السَّيرِ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: هو مِن الإيضاعِ يكونُ على الإبلِ. وهو عندي: مِنْ عَدْوِ الإبلِ؛ يُقالُ: أوضعْتُ البعيرَ، وركَّضتُ الفَرَسَ، وأجْرَيتُ الحمارَ، ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ بَيْنَكُمْ. وقيلَ: الخِلالُ: القِتالُ، وهو ما ذَكَرْنا أنهمْ يُدخِلُونَ فيهمُ النقصانَ والقِتالَ والفَشَلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ قيلَ يَبْغونَ منكمُ الفِتْنَةَ، وهو الشركُ الذي كانوا هم عليهِ. ويَحتَمِلُ ما ذكَرْنا مِنَ القَتْلِ وإدخالِ الفَشَلِ والجُبْنِ فيهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ هذا يَحتَمِلُ أنَّ هؤلاءِ المُنافِقِينَ يكونونَ سُمّاعاً وخُبراً وعُيوناً؛ يُخبِرونَهُمْ عنْ عَوراتِ المسلمينَ وضَعْفِهِمْ، ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَفِيكُمْ﴾ مِنَ المؤمنينَ ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ الآية: قيلَ: إنهُ كانَ في أصحابِ النَّبِيِّ أهلُ مَحَبَّةٍ لهمْ وطاعةٍ لِشَرَفِهِمْ فيهِمْ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ كانَ الرجلُ يَرى الجماعةَ مِنَ المسلِمِينَ، فَيَضرِبُ دابتَهُ حتى يدخُلَ بَيْنَهُمْ، ثم يقولُ: أبَلَغَكُمْ ما بَلَغَني أنَّ العدُو أمامَكُمْ غَوَّرُوا المِياهَ، وفَعَلُوا كذا، وهَيَّئُوا؟

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي فيكُمْ مِنَ المُنافِقينَ الذينَ قَعَدوا، ولم يَخْرُجُوا، يَسْمَعُونَ للمؤمنينَ الذينَ لم يَخرُجُوا أيضاً ما يَكْرَهونَ؛ يقولونَ: الدَّبْرَةُ على المؤمِنينَ، ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الهزيمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا عنْ جَهْلٍ أمْهَلَهُمْ على ما هُمْ عليهِ، ولكنْ أخَّرَهُمْ ليومٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَٰفِلًا﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٤٢].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ تَحتَمِلُ الفِتْنَةُ الوجهَينِ اللَّذينِ ذكرْتُهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي تَكَلَّفُوا، واجْتَهَدُوا لِيُطفِئوا هذا النورَ ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قيلَ: دينُ اللهِ الإسلامُ. ويَحتَمِلُ حُجَجَ اللهِ وأدِلَّتَهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢].

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ظَهراً لِبَطنٍ لِيَمْكُرُوا برسولِ اللهِ، ويَقتلُوهُ، كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٠].

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ دينِ اللهِ وحججِهِ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لِذلكَ كقولِهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] فَظَهَرَ دينُ الإسلامِ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لَهُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي﴾ فيه دلالةٌ أنهُ لا كلُّ المنافِقينَ قالوا إنما قالَ ذلكَ بعضُهُمْ، قالَ غيرَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [قيلَ فيهِ بوجهَيْنِ:

أحدُهما:][3] قيلَ: ولا تُؤثِمْني، وقيلَ: ولا تُخرِجْني، وقيلَ: ولا تُكفِرْني، وهو واحدٌ. يقولُ: مَنْ قالَ: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي لا تكنْ سببَ فِتْنَتي و مَعْصِيَتي، أي لا تأمُرْني بالخروجِ، ولكنِ ائذنْ لي بالقعودِ لأنكَ إنْ أمَرْتني بالخروجِ، ولم تأذَنْ بالقعودِ والتَّخلُّفِ، فَقَعَدْتُ، وتَخلَّفْتُ، وكنتُ عاصياً تاركاً لأمْرِكَ، فكنْتَ أنتَ سببَ عِصْياني وفِتْنَتي.

والثاني: قولُهُ: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي لا تأمُرني بالمَشَقَّةِ والشِّدَّةِ ولكنِ بالدَّعَةِ [لأنهم كانوا عُبّادَ ذوي السعةِ][4] والرَّخاءِ، حيثُ كانُوا مالُوا إليهِمْ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآيةَ [الحج: ١١] يقولُ: لا تكنْ سَبَبَ إثمي وانقِلابي.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنَّ رجلاً منهُمْ، يُقالُ له: الجَدُّ بْنُ قَيسٍ، قالَ[5]: إني إذا رأيتُ النساءَ لم أصْبِرْ حتى أفْتَتِنَ، ولكنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: هم كانوا عباد السعة، ساقطة من م.
(٥) أدرجت في الأصل وم: قيل: يقال.

أَعِنْك بمالٍ. ففيهِ نَزَلَ قولُهُ: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣] وهو قولُ ابْنِ عباسٍ؛ يقولُ: لا تأمُرْني بالخروجِ فإني مُولَعٌ بالنساءِ، لا أصْبِرُ إذا رأيتُهُنَّ. ولا نَدْري كيفَ كانتِ القصةُ؟ لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا آنفاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ أي ولا تَمْتَحِنِّي بالمِحْنةِ التي فيها الهلاكُ والمَشَقَّةُ، فقالَ: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي ألَا في المَشَقَّةِ والبلاءِ والهلاكِ سَقَطُوا. هذا يدلُّ أنَّ أهلَ النِّفاقِ، هُمْ كَفَرَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي ألَا في الشَّرِّ والإثمِ سَقَطُوا على تأويلِ مَنْ تأوَّلَ قولَهُ: ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ لا تُؤْثِمْني، ولا تُخرِجْني. وعلى تأويلِ مَنْ قالَ: ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ لا تَشُقَّ عليَّ، ولا تأمُرْني بالمَشَقَّةِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ؛ يقولُ: ألا في الشِّدَّةِ والضِّيقِ يَسْقُطونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي تُحيطُ بهِمْ حتى لا يَجِدوا[1] مَنْفَذاً ولا مَخْلَصاً، أو تُحيطُ بهِمْ مِنْ تحتُ ومِنْ فَوقُ وأمامٍ وخَلْفٍ ويمينٍ وشمالٍ، تُحيطُ بهِمْ حتى تُصيبَ كلَّ جارحةٍ منهُمْ كقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ الآية [الزمر: ١٦] أخبَرَ أنها تُحيطُ بهِمْ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ المنافقينَ هم كفارٌ لأنهُ ذَكَرَ في أوَّلِ الآيةِ صفةَ المنافقينَ، ثم أخبَرَ أنَّ ﴿جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ قيلَ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ أي الغَنيمةُ والظَّفَرُ والنَّصرُ على الأعداءِ يَسُؤْهُمْ ذلكَ ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ مُصيبةُ النكبةِ والهزيمةِ يَفْرحُوا بها، يقولُوا: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي أخَذْنا أمْرَنا بالوثيقةِ والاحْتياطِ حينَ[2] لم نَخْرُجْ مَعَهُمْ حتى لا يُصيبَنا ما أصابَهُمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي قد أظْهَرْنا المُوافَقَةَ لِلْمُؤمِنينَ في الظاهرِ، وكُنَّا مَعَ الكافرينَ في السِّرِّ، وَوَالَيناهُمْ[3] في الحقيقةِ. وهو ما ذُكِرَ مِنِ انْتِظارِهِمْ أحَدَ أمْرَينِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤١].

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾ أولئكَ الكَفَرَةُ ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ونُبُوَّتِهِ لأنهُ معلومٌ أنَّ ما يَسُوؤُهُمْ كانُوا يُضْمِرونَ، ويَسْتُرونَ عنهُمْ، ثم أخبَرَ عمّا أسَرُّوا، وأضْمَروا. دلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي قَضى اللهُ لنا؛ أي لنْ يُصيبَنا إلّا ما قَضى اللهُ لنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي ما جاءَ بهِ القرآنُ، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ مِنَ الكرامةِ والمَنْزِلةِ والنِّعَمِ الدائمةِ في الآخِرَةِ؛ أي لن يُصيبَنا إلّا ذلكَ. وإنْ كُنْتُمْ أنتمْ تَفْرَحونَ بذلكَ فذلكَ الذي ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي هو ربُّنا، ونحنُ عُبَيدُهُ، يكتُبُ لنا ما يَشاءُ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ؛ أي ما أكرَمَنا اللهُ بهِ[5]، أي ما أحَلَّ لنا، وأباحَ.

وأمّا القضاءُ فإنهُ كُلُّ ما يُقالُ في ما يكونُ لهمْ، وإنما يُقالُ في ما قَضى عليهِمْ. وأمّا الكتابُ لهمْ فهو[6] في ما [يُحَرِّمُ عليهِمْ][7] ويُحِلُّ لهمْ، ويُبيحُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ على الإخبارِ؛ أي على اللهِ يَتَوَكَّلُ المؤمنونَ، لا يَتوكَّلُونَ على غَيرِهِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على الأمْرِ؛ أي على اللهِ تَوَكَّلُوا أيُّها المؤمنونَ.

---

(١) في الأصل وم: يجدون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لنا. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ قال[1] ابنُ عباسٍ ﷺ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ يعني الشهادةَ والحياةَ والرزقَ الدائمَ والكرامةَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩].

ويَحتمِلُ ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ في الدنيا الغَنيمةَ والظَّفرَ؛ يقولُ: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إمّا الحياةَ الدائمةَ في الآخِرةِ والرزقَ الحَسَنَ والكرامةَ، وإمّا الغَنيمةَ والنصرَ في الدنيا: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ العذابُ في الآخِرةِ أنْ قُتِلتُمْ[2]، أو بأيدينا أي القتلِ[3] بأيدينا. ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ [بنا الشَّرَّ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾][4] العذابَ بكُمْ.

هُمْ/ ٢١٥ ـ أ/ كانوا لا يَتَربَّصُونَ بنا إلّا الدَّوائِرَ والهَلاكَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حيثُ قال: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة: ٩٨] هُمْ كانوا لا يَتَربَّصُونَ بنا الحُسنَى، ولكنْ ما ذكَرْنا مِنَ الدوائِرِ. لكنَّ ذلكَ، وإنْ كانَ عندَ أولئكَ المنافِقينَ هلاكٌ ودائرةٌ فهو للمؤمِنينَ الحُسنَى في الآخِرةِ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في الجهادِ، وإنَّ المنافِقينَ كانُوا يأمُرونَ بالجِهادِ والقِتالِ معَ الكَفَرةِ، على ما أمرَ أهلُ الإيمانِ بذلكَ.

ثم منهُمْ منْ كانَ يَخرُجُ للجهادِ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يُجهِّزُ غيرَهُ، ويَقعُدُ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يَخرُجُ كارهاً، ونَحوُهُ. فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي خوفاً ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: الآيةُ في الزكاةِ؛ إنَّ اللهَ ﷻ فَرَضَ الزكاةَ في أموالِ المؤمِنينَ. والمنافِقونَ قد أظهَروا الإيمانَ، وكانُوا يُنفِقونَ، ويُؤدّونَ الزكاةَ. لكنَّ منهُمْ مَنْ كانَ يُؤدّي طَوعاً، ومنهُمْ مَنْ يُؤدّي كَرْهاً، فقالَ: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لأنهُمْ كانُوا لا يَرَونَ قُرْبَةً، وكانوا يُنفِقونَ، وهمْ كارهونَ في الباطِنِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾؟ [الآية: ٥٤].

دلَّ أنهمْ كانوا يُنفِقونَ جميعاً، وهُمْ كارِهونَ لذلكَ في الباطِنِ[5]. ثم بَيَّنَ ما بِهِ لم يَتَقَبَّلْ نَفَقاتِهِمْ، وهو ما ذكَرَ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الآية ٥٤ وقالَ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ الآية. في الآية وجهانِ:

أحدُهُما: دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ أنهمْ ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ وهُمْ في الظاهِرِ كانوا يأتونَ الصلاةَ على ما كانَ يأتي المؤمِنونَ. ثم أخبَرَ أنهمْ يأتونَها كُسالَى. دلَّ [أنهُ][6] إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى. وكذلكَ أخبَرَ أنهمْ يُنفِقونَ، وهُمْ كارِهونَ لذلكَ، وكانوا يُنفِقونَ في الظاهِرِ مُراآةً لِمُوافَقَتِهِمْ. ثم أخبَرَ أنهمْ كانوا كارِهينَ لِذلكَ في السِّرِّ. دلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ تعالى.

والثاني: ألّا تقومَ قُرْبَةٌ، ولا تُقْبَلَ، إلّا على حقيقةِ الإيمانِ؛ هو شَرْطُ قيامِ هذه العباداتِ وقَبولِ القُرَبِ، لا أنَّ نَفْسَها إيمانٌ، لأنهُمْ يُظْهِرونَ الإيمانَ، ويُسِرّونَ الكُفْرَ. دلَّ أنهُ ما ذكَرْنا، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي إنكمْ كُنتُمْ فاسِقينَ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي صِرْتُمْ فاسِقينَ بما أنفَقْتُمْ، وأنْتُمْ كارِهونَ؛ إذْ هُمْ قد أظْهَروا الإيمانَ، ثم تَركوهُ، كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ٣] أخبَرَ أنهمْ آمَنوا، ثم كَفَروا، فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ وكَسْلَى، وكُسالَى فيهِ لُغاتٌ ثلاثٌ[7]، والمَعْنَى واحدٌ؛ وهو أنهمْ لا يأتونَ الصلاةَ إلّا مُسْتَثْقِلِينَ لأنهمْ كانوا لا يَرَونَها قُرْبَةً.

---

(١) في الأصل وم: عن. (٢) من م، في الأصل: قلتم. (٣) في م: القتيل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الباطل. (٦) من م، ساقطة في الأصل. (٧) في الأصل وم: ثلاثة.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: فلا تُعْجِبْكَ أموالُهُمْ ولا أولادُهُمْ في الحياةِ الدنيا إنما يريدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الآخِرَةِ وفي الحياةِ الدنيا. والتعذيبُ في الدنيا، هو ما فُرِضَ عليهِمْ بالجهادِ[1]، وأُمِروا بالخروجِ للقِتالِ، فكانَ يَشُقُّ ذلكَ عليهِمْ، ويَشْتَدُّ، فذلكَ التعذيبُ لهمْ. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] أوِ التعذيبُ في الدنيا، هو القتلُ؛ يُقْتَلُونَ إنْ لم يَخْرُجوا.

وفي الآيةِ دلالةُ الرَّدِّ على المُعْتَزِلةِ لأنهُمْ يقولونَ: لا يُعْطِي [اللهُ][2] أحداً شيئاً إلّا ما هو أصْلَحُ لهُ في الدينِ، ثم قالَ لرسولِهِ[3]: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ ولو كانَ لم يُعْطِهِمُ الأموالَ والأولادَ إلّا للخيراتِ والصلاحِ فذلكَ بعيدٌ. فدلَّ أنهُ قد يعطي خَلْقَهُ ما ليسَ بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآية [المؤمنون: ٥٥و٥٦] دلالةُ الرَّدِّ على قولهِمْ لأنهُ قالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم قالَ ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦] [أنَّ ما][4] يُمِدُّهُمْ بهِ لا للخيراتِ. دلَّ أنهُ قد يُعطي خَلْقَهُ ماليسَ هو بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ.

وفي قولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ دلالةُ الرَّدِّ عليهِمْ أيضاً لأنهُ أخْبَرَ أنهُ يعذبُهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ، ولا يُعَذِّبُهُمْ مَجاناً في ما لا فِعْلَ لهمْ في ذلكَ. دلَّ أنَّ [لهُ صُنعاً][5] في ذلكَ، وإنما يُعَذِّبُهُمْ بِفِعْلٍ اكْتَسَبُوهُ.

وفي قولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ دلالةٌ أنْ ليسَ كلُّ ما يُعْطِيهِمْ لِيَرْحَمَهُمْ بهِ، ولكنْ يُعطيهِمْ لِما عَلِمَ منهُمْ: فإنْ كانَ عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَسْتَعْمِلونَ ما أعطاهُمْ مِنَ الأموالِ وغَيرِها في ما فيهِ هلاكُهُمْ أعطاهمْ لذلكَ، ومَنْ عَلِمَ منهمْ أنهُ يَسْتَعْمِلُهُ لِنَجاتِهِ أعطاهُ لِيَرْحَمَهُ[6] بهِ. فإنما أعطى كُلّاً ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ[7]؛ لأنهُ لو أعطاهُمْ على غَيرِ ما عَلِمَ منهُمْ يكونُ[8] في إعطائِهِ مُخطِئاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قيلَ: تَخرُجُ، وتَهلِكُ خوفاً. قالَ أبو عوسَجَةَ: يُقالُ: خَرَجَتْ نَفْسُهُ مِنْ فَمِهِ، وقيلَ: تَذْهَبُ، وكذلكَ قالَ أبو عُبَيدٍ، تَزْهَقُ أي تَذْهَبُ[9].

وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ رسولِ اللهِ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ أنفُسَهُمْ تزهَقُ ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فكانَ ما ذَكَرَ. دَلَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ باللهِ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الباطِنِ في الدينِ لأنهُمْ كانوا منهُمْ في الظاهِرِ، وقالَ: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ في الباطِنِ في الدينِ ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي يخافونَ القتْلَ، فَيُظْهِرونَ الموافَقَةَ لهُمْ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ قيلَ: لو وَجَدوا حِرْزاً أو مَغاراتٍ؛ يعني الغِيرانَ في الجبالِ أو ﴿مُدَّخَلًا﴾ أي سِرْباً في الأرضِ في الجبالِ ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ أي رَجَعُوا إليهِ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يَسْعَونَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ المَلْجأُ: الحِرزُ في الجِبالِ، والمغاراتُ: الغيرانُ، والمُدَّخَلُ: السِّرْبُ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَغاراتُ مثلُ المَلْجإِ، وهو شيءٌ يَتَحَصَّنونَ فيهِ، ومُدَّخلاً هو مَوضِعٌ يدخلونَهُ أيضاً ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يُسْرِعونَ. يُقالُ: جَمَحَتِ الدابةُ، تَجْمَحُ جِماحاً، وهو جامِحٌ، وهو مِنَ الإسراعِ.

وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، وقالَ أبو مُعاذٍ: الجَموحُ الراكِبُ رأسَهُ وهَواهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ لو[10] يَجِدونَ ناساً يَدخُلونَ بينَهُمْ ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ دونَكُمْ.

---

(١) في الأصل و م: الجهاد. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: لرسول الله. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) في الأصل وم: لهم صنع. (٦) في الأصل وم: ليرحمهم. (٧) في الأصل وم: منهم. (٨) أدرج في الأصل وم قبلها: أنه. (٩) في الأصل وم: ذهب. (١٠) في الأصل وم: لا.

واصلُهُ: أنهمْ لو وَجدوا مأمناً يأمنونَ، ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ أي لَصارُوا إليهِ مُسْرِعِين، ولا يُظهِرونَ لكُمُ الإيمانَ، ولكنْ ليسَ لهمْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ يَعْني المنافقينَ ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ يَزورُكَ لِمَكانِ الصَّدَقاتِ طَمَعاً فيها [لِتُعْطِيَهُ مِنَ][1] الصدقاتِ، ويَلْمِزُكَ أي يزورُكَ لِيَسْألَكَ مِنَ الصَّدَقاتِ؛ أي إنما يَزورونَكَ لِمَكانِ الصَّدَقاتِ ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟﴾ وعظَّمُوكَ[2]، وإنْ لمْ تُعطِهِمْ ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ لأنَّ إتيانَهُمْ رسولَ اللهِ وزيارَتَهُمْ إياهُ لِمَكانِ الصَّدَقةِ. فإذا لم يُعْطَوا منها شيئاً سَخِطوا.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: قولُهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يطعَنُ عليكَ في الصدقاتِ أي في قِسْمةِ الصدقاتِ؛ رُوِيَ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ[أنهُ][3] قالَ: «بيْنا رسولُ اللهِ يَقْسِمُ قِسْماً جاءَ[4] رجلٌ يُقالُ لهُ ابنُ ذي الخُوَيصِرةِ التَّميميُّ، فقالَ: اعْدِلْ، فقالَ لهُ النَّبيُّ: وَيْلَكَ ومَنْ يَعْدِلُ إذا لم أعدِلْ أنا؟ فقالَ عُمَرُ: ائْذنْ لي يا رسولَ الله فأضربَ عُنُقَهُ، فقالَ لهُ النَّبيُّ: دَعْهُ، فإنَّ لهُ أصحاباً، يَحْقِرُ[5] أحدُكُمْ صلاتَهُ [مَعَ صلاتِهِمْ وصيامَهُ مَعَ صيامِهِمْ لِحُسْنِ صلاتِهِمْ وصِيامِهِمْ، فَيَحْقِرُ][6] صلاتَهُ عندَ صلاةِ أولئكَ، يَمْرُقونَ مِنَ الدينِ كما يَمْرُقُ السهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» [البخاري ٣٦١٠]. ذكَرَ[7] حديثاً طويلاً، وهو كأنهُ كانَ مِنَ الخوارجِ، وهو الذي قَتَلَهُ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾/ ٢١٥ ـ ب/ ما أتاهُمُ اللهُ مِنَ الرزقِ ورَسولُهُ مِنَ الصَّدقاتِ ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. [وقيلَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِنْ فَضْلِهِ][8] أي مِنْ دينِهِ ﴿وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كانَ خيراً لهمْ ممّا طَمِعُوا في هذِهِ الصَّدقاتِ، وطَعَنُوا رسولَ اللهِ في ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِنْ فَضْلِهِ ممّا رَزَقَ لهمْ ممّا فَعَلُوا. وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِنْ فَضْلِهِ أي مِنَ الصَّدَقاتِ التي كانَ أعطاهُمْ رسولُ اللهِ منها، وإلى اللهِ رَغِبوا لَكانَ خَيراً ممّا طَمِعُوا في تلكَ الصَّدَقاتِ، وطَعَنُوا رسولَ اللهِ، وسَخِطوا عليهِ.

ويُقرَأُ ﴿يَلْمِزُكَ﴾ ويُلْمِزُكَ برفعِ الميمِ[9]. قالَ أبو عوسَجَةَ: اللَّمْزُ الغِيبةُ؛ يُقالُ لهُ: لَمّازٌ، ولامِزٌ، وهَمّازٌ، وهامِزٌ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ يَعيبُكَ، ويَطْعَنُ عليكَ؛ يُقالُ: هَمَزْتُ فلاناً، ولَمَزْتُهُ، إذا اغْتَبْتُهُ، وعِبْتُهُ، وكذلكَ قولُ اللهِ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ في بَيانِ مَوضِعِ الصَّدَقةِ على ما تَقَدَّمَ مِنَ الذِّكْرِ بقولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟﴾ الآية ما ذُكِرَ أنَّ المُنافِقينَ كانُوا يأتونَ رسولَ اللهِ، ويسألونَهُ مِنَ الصَّدَقاتِ، فإنْ أعطاهُمْ رَضُوا منهُ، وإنْ لم يُعطِهِمْ طَعَنُوا فيهِ، وعابُوا عليهِ. فَبَيَّنَ أنَّ الصَّدَقاتِ ليستْ لهؤلاءِ ولكنْ لِلْفُقَراءِ مِنَ المسلِمينَ والمساكينِ مِنَ المسلِمِينَ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الأصنافِ المُكاتَبِينَ والغارِمينَ. أنها لهؤلاءِ مِنَ المسلِمِينَ لا لَهُمْ.

ويدلُّ على ذلكَ ما جاءَ مِنَ الأخبارِ: رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ وضَعَ صَدَقَتَيْنِ بأعيانِها، حُمِلَتْ إليهِ في صِنْفٍ واحدٍ، ما رُوِيَ أنهُ أعطَى الأقْرَعَ بْنَ حابسٍ مِئةً مِنَ الإبلِ[10] وأعطَى فلاناً كذا.

ورُوِيَ عنِ الصحابةِ أنهُمْ[11] وضَعُوا الصدقةَ في صِنْفٍ واحدٍ؛ رُوِيَ [عنْ][12] حُذَيفَةَ أنهُ قالَ: هؤلاءِ أهلُها، ففي أيِّ صِنْفٍ وضَعْتَها أجزاكَ، وعَنِ ابْنِ عباسٍ أنهُ قالَ كذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: لتعطيهم. (٢) في الأصل وم: ويعظمونك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل :له فجاء، في م:له فجاءه. (٥) في الأصل وم: يحتقر. (٦) في الأصل وم: إلى صلاته وصيامه إلى صيامه لحسن صلاته وصيامه فيحتقر. (٧) الضمير فيه يعود على أبي سعيد الخدري. (٨) ساقطة من م. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢٧. (١٠) انظر الحديث في البخاري ٣١٥٠. (١١) في الأصل و م: أنه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

وعنْ عُمَرَ أنهُ كانَ إذا جَمَعَ صدقاتِ المَواشي والبَقَرِ والغَنَمِ نَظَرَ ما كانَتْ[١] مُنْتِجَةً لِلَّبَنِ، فيُعْطِي الأهلَ على قَدْرِ ما يكفيهِمْ؛ فكانَ يُعْطِي العَشَرَةَ شاةً للبيتِ الواحدِ، ثم يقولُ: عَطِيَّةٌ تَكفي خيرٌ مِنْ عَطِيَّةٍ لا تكفي، أو كلاماً[٢] نَحْوَ هذا، وقد رُوِيَ عنهُ أنهُ سُئِلَ عنْ ذلكَ، فقالَ: واللهِ لأرُدَّنَّ عليهِمُ الصَّدَقَةَ حتى يَروحَ على أحدِهِمْ مِئةُ ناقةٍ أو مِئةُ بَعيرٍ.

وعنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ [أنهُ][٣] أُتِيَ بِصَدَقَةٍ عنْ ذلكَ، فَبَعَثَها إلى أهلِ بيتٍ واحدٍ.

هؤلاءِ نُجَباءُ الصحابةِ اسْتَجازوا وضْعَ الصدقةِ في صِنْفٍ واحدٍ. ولو كانَ حقُّ كلِّ صدقةٍ أنْ تُقْسَمَ بَيْنَ هؤلاءِ الأصنافِ الذينَ ذُكِرَ بالسَّوِيَّةِ على ما قالَ القومُ لِمكانِ [ما][٤] قالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ بَيْنَ الفقراء وبَيْنَ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ الأصنافِ كما يُقالُ: المِيراثُ لِقَرابَةِ فلانٍ، أي ليسَ للأجْنَبِيِّينَ في ذلكَ حقٌّ.

وإذا قيلَ: المِيراثُ بَيْنَ قرابةِ فلانٍ كانَ لكُلٍّ في ذلكَ حقٌّ لأنَّ حَرْفَ بَيْنَ يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ، وقولُهُ لَهُمْ يَقْتَضي أنهُ لاحقَّ فيهِ لِغَيْرِهِمْ. ألا تَرَى أنه يُقالُ: الخِلافةُ لِوَلَدِ العباسِ؛ يُرادُ أنهُ لاحظَّ فيها لِغَيْرِهِمْ؟ والسِّقايةُ لِبني هاشمٍ؟ ونَحْوُهُ، ليسَ يُرادُ ذلكَ أنْ لاحقَّ لِغَيْرِهِمْ فيها.

وبعدُ فإنهُ لو كانَ في الآيةِ: إنما الصَّدقاتُ بَيْنَ الفقراءِ. وبَيْنَ مَنْ ذُكِرَ مَعَهُمْ لَكانَ لا يجبُ قسمةُ كلِّ صَدَقَةٍ بَيْنَ هؤلاءِ الأصنافِ المذكورةِ في الآيةِ لأنهُ ليسَ لِلصَّدَقاتِ انْقِطاعٌ بل لها مَدَدٌ؛ إذا دُفِعَتْ صَدَقَةٌ واحدةٌ إلى صِنْفٍ واحدٍ، فإذا أُتِيَ بِصَدَقَةٍ أخرى دُفِعَتْ إلى صِنْفٍ آخرَ. هكذا يُعْمَلُ في الأصنافِ كُلِّها.

وبعدُ فإنهُ لم يُذْكَرْ عنْ أحدٍ مِنَ الأئمةِ أنهُ تَكَلَّفَ طَلَبَ هؤلاءِ الأصنافِ، فَقَسَمَها بَيْنَهُمْ، وكذلكَ لم يُذْكَرْ عنْ أحدٍ مِنْ أربابِ الأموالِ [أنهُ دَفَعَ][٥] صدقةً واحدةً بَيْنَ هؤلاءِ الذينَ ذُكِرَ، فَدَلَّ أنهُ خُرِّجَ على ما ذَكَرْنا لأنهُ لو كانَ على تَسْوِيَةِ كلِّ صَدَقَةٍ بينَهُمْ لم يَجُزْ ألّا يَقْسِموها كذلكَ، ويُضَيِّعوا[٦] حقَّ البَعْضِ منْ هؤلاءِ.

وبَعْدُ فإنهُ لو تَكَلَّفَ الإمامُ أنْ يَظْفَرَ بهؤلاءِ الثمانيةِ ما قَدَرَ على ذلكَ. دلَّ أنهُ لم يُخَرِّجِ الخِطابُ على ما تَوَهَّمَ خُصومُنا، ولأنَّ الحقَّ لو كانَ التَّسْوِيَةَ بينَهُمْ في كلِّ صَدَقَةٍ لكانَ إذا لم يَجِدْ في بلدةٍ مُكاتِبِينَ أو واحداً مِنْ هؤلاءِ الأصنافِ، فَيَجِبُ أنْ يُسْقِطَ مقدارَ حِصَّةِ مَنْ لم يَجِدْ مِنْ أربابِها، فذلكَ بعيدٌ، فقد جاءَ في الخَبَرِ أنهُ بَعَثَ مُعاذاً إلى اليمنِ، فقالَ لهُ: خُذْ مِنْ أغنيائِهِمْ، ورُدَّ في فُقَرائِهِمْ، ويُكْرَهُ إخراجَ صَدَقَةِ كلِّ بلدٍ إلى غَيْرِهِ مِنَ البلدانِ.

ثم تَحْتَمِلُ الآيةُ جميعَ الصَّدَقاتِ التي يُتَصَدَّقُ بها على الفقراءِ والمساكينِ مِنَ الفَيْءِ وغَيْرِهِ، فَبَيَّنَ [اللهُ تعالى][٧] أنَّ هؤلاءِ مَوضِعٌ لذلكَ كلِّهِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] وقولِهِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وتَحْتَمِلُ زكاةَ الأموالِ المفروضةِ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: إنَّ الرجلَ إذا أوصَى، فقالَ: ثُلُثُ مالي لِفلانٍ وفلانٍ أليسَ هو مَقْسومٌ بَيْنَهما[٨] بالسَّوِيَّةِ ما مَنَعَ أنَّ الأوَّلَ بِمِثْلِهِ؟ قيلَ: لا تُشْبِهُ الصَّدَقاتُ الوصايا.

وذلكَ أنَّ الوصيَّةَ إنما وقَعَتْ في مالٍ معلومٍ لا تَزيدُ فيه بَعْدَ مَوْتِ المَيِّتِ شيئاً، ولا يُتَوَهَّمُ لها مَدَدٌ. والصَّدَقاتُ يزيدُ بَعْضُها بَعْضاً، وإذا فَنِيَ مالٌ جاءَ مالٌ آخَرُ، وإذا مَضَتْ سَنَةٌ جاءَتْ سَنَةٌ أُخرَى بمالٍ جديدٍ. فإذا دَفَعَ الإمامُ صَدَقَةً بجميعِ ما عندَهُ إلى الفقراءِ، ثم حَضَرَهُ غارِمونَ تُحْمَلُ[٩] إليهِ صَدَقَةٌ أُخرَى، يَجْعَلُها فيهِمْ، فَيُصْلِحُ بذلكَ أحوالَ الجميعِ لِما لا انْقِطاعَ للأموالِ إلى يومِ القيامةِ.

وكيفَ تُقْسَمُ الصَّدَقَةُ على ثمانيةِ اسْهُمٍ؟ ولا خِلافَ في أنَّ للعامِلِينَ بِقَدْرِ عَمالَتِهِمْ [سَهْماً][١٠]، زادَ ذلكَ على الثُّمُنِ، أو نَقَصَ منهُ. فإذا [زادَ الثُّمُنُ في][١١] القِسْمَةِ في بَعْضِ الأصنافِ زادَ[١٢] في الجَميعِ، فأُعْطِيَ كلُّ صِنْفٍ منهُمْ قَدْرَ حاجتِهِ كما أُعْطِيَ العامِلونَ.

---

(١) في الأصل و م: كان. (٢) في الأصل و م: كلام. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أنهم دفعوا. (٦) في الأصل وم: ويضيعون. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: بينهم. (٩) في الأصل و م: فتحمل. (١٠) ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل زالت. (١٢) في الأصل و م: زالت.

وكيفَ يُصنَعُ بِسَهمِ المُؤلَّفةِ قُلوبُهُم، وقدِ ارْتَفَعَ ذلكَ، ونُسِخَ؟ وعلى ذلكَ جاءَ عنْ بَعْضِ الصحابةِ مِنْ نَحوِ أبي بكرٍ وعُمَرَ أنهم لم يُعْطوهُمْ[1] شيئاً. أليسَ يُرَدُّ ذلكَ على سائرِ السهامِ؟ فإذا جازَ أنْ يُزادَ على الثُّمُنِ في وقتٍ جازَ أنْ يُنْقَصَ[2] منهُ في وقتٍ.

وفي قولِهِ: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ﴾ دلالةٌ أنْ لا بأسَ لِلأئمَّةِ والقُضاةِ أخذُ الكفايةِ مِنْ بَيتِ المالِ، ولكلِّ عاملٍ للمُسلِمينَ حَدُّ كفايَتِهِ ورزقِهِ مِنْ ذلكَ إذا فَرَّغَ نَفْسَهُ لذلكَ، وكَفَّها عنْ غَيرِها مِنَ المنافِعِ والأعمالِ.

ثم اخْتُلِفَ في الفقراءِ والمساكينِ: قالَ بعضُهُمْ: الفُقراءُ هُمْ مِنَ المهاجرينَ كقولِهِ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [الحشر: ٨] والمساكينُ مِنَ الذينَ لم يُهاجِرُوا.

وقالَ بعضُهُمْ: الفقيرُ الذي بِهِ زَمانَةٌ، وهو محتاجٌ، وقالَ بعضُهُمْ: الفقراءُ هُمُ المُتَعَفِّفونَ الذينَ لا يَخْرُجونَ، ولا يَسْأَلونَ الناسَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] والمساكينُ هُمُ الذينَ يَسْألونَ. وكذلكَ قالَ الحَسَنُ.

وعنْ عُمَرَ [أنهُ][3] قالَ: ليسَ المسكينُ الذي لا مالَ لهُ، ولكنَّ المسكينَ الذي لايُصيبُ المَكْسَبَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][4] قالَ: فُقراءُ المسلِمينَ والمساكينُ الطَّوّافونَ، وهو قريبٌ ممّا قالَهُ الحَسَنُ.

وعنِ الأصَمِّ [أنهُ][5] قالَ: الفقيرُ الذي لا يَسْأَلُ، وهو ما ذَكَرْنا بَدْءاً، والمسكينُ الذي يسألُ إذا احْتاجَ، ويُمْسِكُ إذا اسْتَغْنَى.

ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ يَرْويهِ أبو هُريرةَ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: «ليسَ المسكينُ هذا الطَّوّافَ الذي يَطوفُ على الناسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ، قيلَ: فما المسكينُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: الذي لا يَجِدُ ما يُغْنيهِ، ولا يُفْطَنُ بِهِ، يُتَصَدَّقُ عليهِ، ولا يَقومُ، فَيَسْألُ الناسَ» [البخاري ١٤٧٩] فهذا لو حُمِلَ/ ٢١٦ ـ أ/ على ظاهِرِهِ لَدَفَعَ قولَ مَنْ قالَ: إنَّ المسكينَ هو الذي لا يَسْألُ الناسَ، ولكنْ يجوزُ أنْ يكونَ معناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الذي لا يَسْألُ، وإنْ كانَ عندَكُمْ مسكيناً، فإنَّ الذي لا يَسْألُ أشدُّ مَسْكَنَةً منهُ. ولا يَحْتَمِلُ غيرَ ذلكَ لأنَّ اللهَ قد سَمَّى الذين لا يَسْألونَ الناسَ فُقراءَ، ولا يجوزُ أنْ يُجْعَلَ الحديثُ مُخالفاً للآيةِ ما أمكَنَ أنْ يكونَ مُوافِقاً لها.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٥و١٦] فقولُهُ: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ قيلَ: هو الذي لا حائلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ التُّرابِ لِفَقْرِهِ. فَدَلَّ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ، على أنَّ المسكينَ هو الشديدُ الفَقرِ، والفقيرَ هو الذي لا يَمْلِكُ شيئاً، ولم يَبْلُغْ في الفَقرِ والضَّرورةِ حالَ المِسْكينِ، ويَدُلُّ على[7] ذلكَ قولُ عُمَرَ: ليسَ المسكينُ مَنْ لا مالَ لهُ، ولكنَّ المسكينَ مَنْ لا مَكْسَبَ لهُ؛ كأنهُ يقولُ: إنَّ الذي لا مالَ لهُ، ولهُ مَكْسَبٌ، هو فقيرٌ، والمسكينُ أشدُّ حالاً مِنَ الفَقيرِ، وليسَ لهُ مالٌ، ولا مَكْسَبٌ.

وإنْ حُمِلَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «ليسَ المِسْكينُ الذي يسألُ، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يُفْطَنُ بِهِ، ولا يَسْألُ» [على أنَّ الذي لا يُفْطَنُ به، هو أشَدُّ][8] مَسْكَنَةً مِنَ الآخرِ، وإنْ كانَ الآخرُ مِسْكيناً أيضاً، كانَ موافقاً لِلْمَعْنَى الذي ذَكَرْنا؛ لِأنّا قُلْنا: إنَّ المسكينَ هو الشديدُ الفَقرِ، وقد يكونُ فقيراً، وإنْ لم يَبْلُغْ بِهِ الضُّرُّ مَبْلَغَ ضُرِّ الأوَّلِ.

وقد يُخَرَّجُ قولُ مَنْ قالَ: إنَّ المسكينَ الذي يَخْرُجُ هذا المُخْرَجَ لأنَّ مِنْ شأنِ المُسلِمِ الفقيرِ أنهُ يَتَحَمَّلُ ما كانَتْ لَهُ حِيلَةٌ، ويَتَعَفَّفُ، ولا يَخْرُجُ، فَيَسْألُ، ولَهُ حِيَلٌ. فَخُروجُهُ يدلُّ على شدةِ ضيقِهِ وعلى الزيادةِ في سُوءِ حالِهِ. فكانَ القولانِ جميعاً يَرْجِعانِ إلى مَعْنىً واحِدٍ. وإذا كانَ الفقيرُ أحْسَنَ حالاً مِنَ المسكينِ لِما ذَكَرْنا فقد يجوزُ أنْ تُدْفَعَ الصَّدَقَةُ إلى مَنْ لَهُ مالٌ قليلٌ لأنهُ فقيرٌ، وإنْ لم يكنْ حالُهُ في فَقْرِهِ حالَ المسكينِ الذي لا يَمْلِكُ شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل و م: يعطهم. (٢) في الأصل و م: ينقصوا. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: ل. (٨) في الأصل: هو أشد، في م: على أن الذي لا يفطن به أشد.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ اختُلِف فيهِ: قالَ [بعضُهُمْ][(١)]: يُعطَى لهمْ [ثَمَنُ الوفاءِ][(٢)]، وقالَ بَعْضُهُمْ: يُعْطَى لهمْ قَدْرُ عمالَتِهِمْ، وقالَ بَعْضُهُمْ: يُعْطَى لهمْ قَدْرُ كِفايَتِهِمْ وعِيالِهِمْ.

أمّا قولُ [مَنْ قالَ][(٣)] يُعْطَى لهمُ الثُّمُنُ فلا[(٤)] مَعْنَى لهُ لِما لا يَجوزُ أنْ يَبْلُغَ الثُّمُنُ الوفاءَ، وعَمالَتُهُ لا تَبْلُغُ عُشْرَ عُشْرِ ذلكَ. ومَنْ قالَ: يُعْطَى لَهُمْ قَدْرُ كِفايَتِهِمْ وكِفايةِ عِيالِهِمْ فهو، واللهُ أعْلَمُ، إذا كانَ هو لا[(٥)] تَسْلَمُ نفسُهُ لِذلكَ، واسْتَعْمَلَهُ الإمامُ في جميعِ أمورِ المسلمينَ. فإذا كانَ كذلكَ يُعْطَى لهُ عندَ ذلكَ الكفايةُ له ولِعِيالِهِ. وأما إذا تولّى شيئاً مِن تلكَ العَمالَةِ في وقتٍ، فَيُعْطَى لهُ الكفايةُ، فلا.

والأشبَهُ عندَنا أنْ يُعْطَى لهمْ قَدْرُ عمالَتِهِمْ، وهكذا الإمامُ إذا اسْتَعْمَلَ أحداً في عملٍ من أعمالِ اليتيمِ فإنهُ يُعْطَى لهُ قَدْرَ أجرِ عَمَلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنه ﷺ كانَ يُعْطِي الرُّؤساءَ مِنَ المُنافِقِينَ مِنَ الصدقاتِ، يَتألَّفُ بهِ قلوبَهُمْ لِيُسْلِمُوا على ما رُوِيَ أنهُ كانَ يُعْطِي فُلاناً مِئَةً مِنَ الإبلِ وفلاناً كذا. ورُوِيَ أنهُ قَسَمَ ذَهَبَةً في أديمٍ مَقروظٍ بَعَثَها عليٌّ ﷺ مِنَ اليَمَنِ بَيْنَ الأقْرَعِ بْنِ حابسٍ وبَيْنَ فلانٍ وفلانٍ. والحديثُ في هذا كثيرٌ أنَّ النَّبِيَّ كانَ يَخُصُّ بهِ الرؤساءَ منهُمْ بالصَّدَقةِ، يَتألَّفُهُمْ، والإسلامُ في ضَعْفٍ، وأهلُهُ في قِلَّةٍ، وأولئكَ كثيرٌ ذَوُو[(٦)] قوةٍ وعُدَّةٍ.

فأمّا اليومَ فقد كَثُرَ أهلُ الإسلامِ، وعَزَّ الدينُ، وصارَ أولئكَ أذلّاءَ بِحَمْدِ اللهِ فقدِ ارتَفَعَ ذلكَ، وذَهَبَ، إذْ قَوِيَ المسلمونَ، وكَثُروا، فَيُقاتَلونَ حتى يُسْلِموا.

وعلى ذلكَ جاءَ الخَبَرُ عنْ أبي بكرٍ وعُمَرَ ﷺ ما دَلَّ على ما ذَكَرْنا؛ رُوِيَ أنَّ الأقْرَعَ بْنَ حابسٍ وعُيَيْنَةَ بْنَ [حِصْنٍ جاءا][(٧)] إلى أبي بكرٍ ﷺ فقالا[(٨)]: يا خليفَةَ اللهِ إنَّ عندنا أرضاً سَبِخَةً، ليسَ فيها كَلأٌ ولا مَنْفَعَةٌ، فإنْ رأيتَ أنْ تُقْطِعَناها [فأقْطَعَهما إيّاهما][(٩)] وكتَبَ لهما [بذلكَ][(١٠)] عليها كتاباً، وأشْهَدَ عُمَرَ ﷺ، وليسَ في القومِ[(١١)]، فانطَلَقا إلى عُمَرَ لِيُشْهِداهُ. فلما سَمِعَ عُمَرُ ما في الكتابِ تناوَلَهُ[(١٢)] مِنْ أيديهما، ثم نظرَ فيهِ، فَمَحاهُ، فَتَذَمَّرا، وقالا[(١٣)] لهُ مَقالةً سَيِّئَةً، وقالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَتألَّفُكما، والإسلامُ يومئذٍ قليلٌ، وإنَّ اللهَ تعالى قد أعزَّ الإسلامَ، فاذْهَبا، فاجْهَدا جَهْدَكُما، لا أرْعَى اللهُ عليكُما إنْ رُعِيتُما.

ونحنُ نذهبُ إلى هذا الحديثِ لأنَّ أبا بكرٍ لم يُنْكِرْ على عُمَرَ قولَهُ وفِعْلَهُ، فصارَ ذلكَ وِفاقاً منهُ لهُ، فَكَفَى بقولِهِما حُجَّةً لنا. ولنا في ذلكَ وجوهٌ مِنَ الحُجَجِ:

أحَدُها: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُعاهِدُ قوماً، وهو إلى مُداراتِهِمْ ومُعاهَدَتِهِمْ محتاجٌ لِما ذَكَرْنا مِن قلةِ أهلِ الإسلامِ وطَعْنِهِمْ. فلمّا أعزَّ اللهُ الإسلامَ، وأكْثَرَ أهلَهُ رَدَّ إلى أهلِ العُهودِ عُهودَهُمْ، ثم أمَرَ بِمُحارَبَتِهِمْ جميعاً.

والثاني: ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] فكانتِ الحالُ الثانيةُ التي فيها الإسلامُ [كثيرٌ][(١٤)]، وقَوِيَ أهلُهُ، وعَزُّوا، مُخالِفَةً للحالِ الأوَّلِ في هذهِ الأشياءِ، فكذلكَ أمرُ [المنافِقِينَ كانَ][(١٥)] جائزاً لِرُؤساءِ في الحالِ الأوَّلِ محظوراً في الحالِ الثانيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةُ جوازِ النسخِ بالاجْتِهادِ لِارْتِفاعِ المَعْنَى الذي بهِ كانَ لِيُعْلَمَ أنَّ النَّسْخَ قد يكونُ بوجودِهِ.

وفي خَبَرَ أبي بكرٍ وعُمَرَ ﷺ دلالةُ أنَّ إذنَ الإمامِ شرطٌ في إحياءِ الأرضِ المَواتِ، لا تُمَلَّكُ إلّا بالإذنِ لأنَّ ذانِكَ الرجلَيْنِ اللَّذَيْنِ أتَيا أبا بكرٍ، فقالا: الأرضُ، لا كَلأَ فيها، ولا ذلكَ، صورةُ أرضِ المَواتِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الثمن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: ذو. (٧) في الأصل وم: فلان جاؤوا. (٨) في الأصل وم: فقالوا. (٩) في الأصل وم: فأقطعنا إياها. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قوم. (١٢) في الأصل وم: فتناوله. (١٣) الواو ساقطة من الأصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: المنافقين، في م: المنافق.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ اختُلِفَ فيهِ [بوجوهٍ:

أحدُها][(١)]: قالَ بَعْضُهُمْ: معناهُ العِتْقُ، ويجوزُ أنْ يُعْتَقَ عنِ الزكاةِ، وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ المُكاتبونَ، يَسْتأدونَهُمْ في كتابتِهِمْ، وقالُوا: لا يُشْبِهُ الإعتاقُ ما يُدفَعُ إلى المُكاتِبِ، فَيُؤدّى، فَيُعْتَقُ؛ لأنَّ العِتْقَ ليسَ بتمليكٍ، وإنما هو إبطالُ مُلْكٍ، وما يُدفَعُ إلى المُكاتِبِ فهو تمليكٌ. فذلكَ مُخْتَلِفٌ. وإنما تكونُ الزكاةُ زكاةً إذا زالَتْ مِنْ مالكٍ إلى مالكٍ.

والثاني: أنَّ العِتْقَ يُوجِبُ الوَلاءَ لِلْمُعْتِقِ؛ فَحَقُّهُ فيهِ باقٍ، والذي يدفَعُ فيهِ الزكاةَ إلى مُكاتبِ لِغَيرِهِ، ولا يرجِعُ إليهِ بذلكَ حقٌّ، ولا يَجبُ فيه وَلاءٌ، فهما مُختَلفانِ.

والثالثُ: وهو أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ ولو أنَّ رجلاً، قَضَى مِنْ غارِمٍ دِيْنَهُ بِغَيرِ أمْرِهِ، لم يُجزِهُ مِنْ زكاةِ مالِهِ، وإنما تكونُ زكاةً إذا دَفَعَها إلى الغارِمِ. فَعِتْقُ المُزَكّي العبْدَ بمَنْزِلَةِ قضاءِ دَيْنِ الغارمِ لأنهُ لا يحتاجُ في واحدٍ منهما إلى قبولٍ مِنَ الغارِمِينَ والعبْدِ، وإعطاءُ المُكاتبِ في الزكاةِ كَدَفْعِهِ إياها إلى الغارمِ لأنهُ قد دَفَعَها إليه في كِلا الحالَينِ إلى مَنْ قَبِلَها منهُ مِنْ زكاةٍ، وقَبَضَها.

وفي ذلكَ وَجهٌ آخرُ؛ وذلكَ: أنْ أشتريَ عبداً مِنْ رجلٍ لِأُعْتِقَهُ، فقد صارَ ثمنُهُ دَيناً في ذِمّتي قَبْلَ أنْ أنْقُدَ المالَ. فإذا قَضَيتُهُ فإنما أقضيهِ عنْ ذِمَّتي دَيناً، قد لَزِمَني. ولا يجوزُ أنْ أقضِيَ عنْ دَيْني.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: همُ الغُزاةُ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعةِ اللهِ؛ إنَّ كلَّ مَنْ سَعَى في طاعةٍ وسَبيلِ الخيراتِ فإنهُ داخلٌ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيلَ: الضَيفُ، يَنْزِلُ بهِ، وقيلَ: هو المارُّ عليكَ، وإنْ كانَ غَنِيًّا، المُنْقَطِعُ عن مالِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ بياناً مِنَ اللهِ، وأعلاها أهلُ الصَّدَقاتِ منهُمْ مِنْ غيرِهِمْ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي واجباً مِنَ اللهِ وفرْضاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ أخبَرَ أنهمْ يُؤذُونَ النَّبيَّ، ولم يُبَيِّنْ بما كانُوا يُؤذُونَ؛ فَيَحْتَمِلُ: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ بتكذيبِهِمْ إياهُ وتركِهِمُ الإجابةَ لهُ والطاعةَ في ما يدعوهُمْ إليهِ، ويَحتَمِلُ يُؤذُونَهُ بكلماتٍ يُسْمِعونَهُ بِطَعْنٍ يَطْعَنونَهُ[(٢)]، ويَعيبونَ عليهِ.

[وقولُهُ تعالى][(٣)] ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ قيلَ: الأُذُنُ هو الذي يَقْبَلُ العذْرَ مِمَّنِ اعْتَذَرَ إليهِ، ويَسْمَعُ منهُ، سَواءٌ كانَ لهُ عُذرٌ أم[(٤)] لا عُذْرَ لهُ لِكَرَمِهِ وشرفِهِ وحُسْنِ خُلُقِهِ./ ٢١٦ ـ ب/ فظَنَّ أولئكَ لَمّا رَأوهُ أنهُ كانَ يُعامِلُهُمْ معامَلَةَ أهلِ الكَرَمِ والشَّرَفِ والمجدِ أنهُ إنما يُعامِلُهُمْ هذهِ المُعامَلَةَ لِسلامَةِ قلبِهِ وصِغَرِ هِمَّتِهِ وقُصورِ يدِهِ، وهُمْ كانوا أهلَ كِبْرٍ وأنَفَةٍ، قالُوا: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ نقولُ ما شئنا، ثم نَحْلِفُ، ونعتَذِرُ إليهِ، فَيُصَدِّقُنا، ويقْبَلُ عُذْرَنا.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي الذي يَقبَلُ العُذرَ، ويَسمَعُ ﴿خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ مِنَ الذي لا يَقبَلُ ولا يَسْمَعُ، فكيفَ تُؤذُونَهُ، وتَطعَنونَهُ، وتَعيبونَ، ولا تُصَدِّقُونَ، ولا تُؤمِنونَ بهِ؟ يُخبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الذي مَنْ قالَ لهُ شيئاً، أو حَدَّثَهُ حديثاً صَدَّقَهُ، واسْتَمَعَ منهُ، وكذلكَ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُصَدِّقُ كلَّ مَنْ قالَ لهُ شيئاً، أو حدَّثَهُ حديثاً، واستَمَعَ منهُ لِكَرمِهِ وشرفِهِ ومَجْدِهِ وحُسْنِ خُلُقِهِ لا[(٥)] لِما ظَنَّ أولئكَ.

وقيلَ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي لِيُسِرَّ في نفسِهِ، ويَكْتُمَ، ولا يُكافِئَ مَنْ آذاهُ، ولا يُجازِيَهُ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ[(٦)] بعضُهُمْ: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي يُصَدِّقُ باللهِ بما يُنْزِلُ عليهِ مِنْ آياتِهِ ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي يُصَدِّقُهُمْ في ما بَيْنَهُمْ مِنْ شهاداتِهِمْ وإيمانِهِمْ على حقوقِهِمْ وفُروجِهِمْ وأموالِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، في الأصل: يطعنون. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: أو. (٥) أدرجت في م بعد: لما. (٦) في الأصل و م: وقال.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يُصَدِّقُهُ بما يُخبِرُهُ مِنْ سِرِّ المُنافقينَ وما استَكتَموهُ منهُ مِنَ الكَيدِ لهُ والمَكْرِ بِهِ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما يُخبِرونَهُ مِنْ قِيلِ أولئكَ المُنافِقينَ مِنَ الطَّعْنِ فيهِ والعَيبِ عليهِ. والإيمانُ[1]: هو التَّصديقُ بجميعِ[2] ما فيهِ، والإيمانُ لهُ مِنْ خَبَرِهِ وحديثِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في ما يَشهدونَ في الآخِرَةِ لهُ بالتبليغِ إليهِمْ كقولِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أو يكونُ قولُهُ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يؤمنُ بالمؤمنينَ في ما بينَهُمْ بالأخُوَّةِ في الدينِ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كانَ ﷺ رَحْمَةً للمؤمنينَ لِما استَنقَذَهُمْ مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ ومِنَ الهَلاكِ إلى النجاةِ؛ يَشفَعُ لهمْ في الآخِرَةِ بإيمانِهِمْ في الدنيا.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخِرَةِ بقيَّةٌ مِنَ الآيةِ الأولى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ جَعَلَ اللهُ الغارمَ مَوضِعاً للصَّدَقَةِ، وهو الذي عليهِ الدَّينُ والغُرْمُ مِنْ أيِّ وجهٍ لَحِقَهُ على ذلكَ. رُوِيَ في الخَبَرِ عَنْ نَبِيِّ اللهِ [أنهُ][4] قالَ: «إنَّ المَسألَةَ لا تَحِلُّ [لِغَنِيٍّ إلّا لإحدَى ثلاثٍ][5]: فَقرٍ مُدْقِعٍ أو غُرْمٍ مُفظِعٍ أو لِذي دمٍ مُوجِعٍ» [بنحوه الترمذي٦٥٣] وفي بَعْضِ الأخبارِ «أنَّ الصدقَةَ لا [تَحِلُّ لِغنِيٍّ إلّا لِخَمسةٍ: لِعامِلٍ][6] عليها، أو رجلٍ اشتَراها أو غارمٍ أو غازٍ في سبيلِ اللهِ [أو مسكينٍ تُصُدِّقَ عليهِ منها، فأهْدَى منها لِغَنِيٍّ»][7] [بنحوه ابن ماجه١٨٤١].

ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ و الحُسَينِ وابْنِ عُمَرَ وابْنِ جَعفَرٍ أنَّ رجلاً سألَهُمْ شيئاً، فقالُوا: إنْ كانَتْ مسألتُكَ في إحدَى ثلاثٍ فقد وَجَبَ حقُّكَ: في فَقرٍ مُدقِعٍ أو غُرْمٍ مُفظِعٍ أو دمٍ مُوجِعٍ.

هذهِ الأخبارُ كلُّها تدلُّ على أنَّ الغارمَ موضِعٌ لِلصَّدَقَةِ؛ قَلَّ دَينُهُ، أو كَثُرَ. فإنْ قِيلَ في الخبرِ: أو غُرْمٍ مُفظِعٍ: قيلَ لا خِلافَ بَينَهُمْ في أنَّ مَنْ دَينُهُ غيرُ مُفظِعٍ فَلَهُ أنْ يأخُذَ بِقَدْرِ دَينِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ. فهذا يدلُّ أنَّ الذي رُوِيَ في الخَبَرِ إنما هو لِكَراهةِ المسألةِ لا على التحريمِ. وهكذا نقولُ: إنَّ المسألَةَ لا تَحِلُّ لهُ إذا كانَ غُرْمُهُ غيرَ مُفظِعٍ، ولكنْ يَحِلُّ وضْعُهُ فيه وأخذُهُ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ المُنقَطِعُ عنْ مالِهِ، جَعَلَهُ اللهُ مَوضِعاً للصَّدَقَةِ. فإنْ كانَ غَنِيًّا في مُقامِهِ للحاجةِ التي بَدَتْ لهُ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «لاتَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلّا لغازٍ في سَبيلِ اللهِ وابْنِ السَّبيلِ أو رجلٍ لهُ جارٌ مسكينٌ، تُصُدِّقَ عليه، فأهْدَى لهُ» [أبو داوود١٦٣٥].

وفي بعضِ الأخبارِ عنهُ ما ذكَرْنا [أنهُ][9] قالَ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلّا لِخَمْسةٍ» وفيهِ: «أو فقيرٍ تُصُدِّقَ عليهِ فأهداها لِلْغَنِيِّ» [أبو داوود١٦٦٥] وقد يكونُ الرجلُ غنياً بأنْ يكونَ لهُ دارٌ يَسكُنُها ومتاعٌ تهَيَّأَ[10]، وثيابٌ، عَزَمَ على الخروجِ في سَفَرِ غَزْوٍ، احتاجَ إلى[11] آلاتِ سَفَرِهِ وسلاحٍ يَستَعمِلُهُ في غَزْوِهِ ومركَبٍ يَغْزُو عليهِ وخادمٍ لِيَستَغْنِيَ بِخِدْمَتِهِ ما[12] لم يكنْ محتاجاً إليهِ في حالِ إقامَتِهِ، فيجوزُ أنْ يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ ما يَستَغْنِي بهِ في حوائِجِهِ التي يُحْدِثُها سَفَرُهُ[13].

فهو في مُقامِهِ غَنِيٌّ بما يَملِكُهُ لأنهُ غيرُ مُحتاجٍ حينئذٍ إلى ما وصَفْنا، وهو في حالِ سَفَرِهِ غيرُ غَنِيٍّ، فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ: «لا تَحِلُّ الصدقةُ لِغَنِيٍّ إلا لِغازٍ في سَبيلِ اللهِ» على مَنْ كانَ غنياً في حالِ مُقامِهِ، فَيُعْطَى بعضَ ما يَحتاجُ إليهِ لِسَفَرِهِ لِما أحْدَثَ لهُ السَّفَرُ مِنَ الحاجةِ.

ألَا تَرَى أنَّ الرجلَ قد يكونُ لهُ المَتاعُ لا يَحتاجُ إليهِ، والدابَّةُ لا يَرْكَبُها، فإذا صارَ ذلكَ مِئتَي درهمٍ لم يَجُزْ لهُ أنْ يأخُذَ مِنَ الزكاةِ، فإنْ عَرَضَ لهُ مَرَضٌ أو سَفَرٌ، فاحتاجَ إلى دابَّةٍ لِيَرْكَبَها فإنهُ[14] يَخرُجُ مِنَ الغِنَى بما حَدَثَ لهُ مِنَ الحاجةِ إلى الركوبِ، وكانَ لهُ أنْ يأخُذَ مِنَ الصَّدَقَةِ عندَنا لا يَستَغْنِي عما هو لهُ، وإنما الغَنِيُّ مَنِ استَغْنَى عمّا يَملِكُهُ؟

---

(١) في الأصل: والإيمان بآخر، في م: ولا إيمان بآخر. (٢) من م، في الأصل: جميع. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل: إلا بإحدى ثلاث من، في م: إلا إحدى ثلاث من. (٦) في الأصل وم: يحل إلا لخمس للعامل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: يتهياه. (١١) في الأصل و م: من. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: إلى. (١٣) في الأصل و م: لسفره. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل و م.

فكذلكَ الغارمُ على العُرْفِ قد تَحْدُثُ لهُ الحاجةُ إلى أكْثرَ ممّا يَمْلِكُ، ويَصيرُ[1] مِمَّنْ يجوزُ أنْ يُعانَ، وإنْ كانَ مُلْكُهُ الذي كانَ بِهِ غنيّاً قبلَ ذلكَ لم يَنْقُصْ. فهذا، واللهُ أعلَمُ، يُحْتَمَلُ.

وابْنُ السبيلِ أيضاً ما ذكَرْنا أيضاً مِنَ الخَبَرِ ألّا تَحِلَّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلّا لِابْنِ السَّبيلِ ومَنْ ذُكِرَ معَهُ.

وعلى ذلكَ اتّفاقُ الأئِمَّةِ[2]، وهو ما قيلَ: المُجتازُ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ. وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما في تأويلِ قولِهِ: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ هوَ المسافرُ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُ المُنْقَطِعُ عنْ مالِهِ، وإنْ كانَ غَنيّاً في مَقامِهِ، والفقيرُ الذي يجوزُ أنْ يُعْطى مِنَ الصَّدقَةِ بما رُوِيَ عنِ الحَسَنِ بْنِ عليٍّ رضي الله عنهما [أنهُ][3] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «للسائلِ حقٌّ، وإنْ جاءَ على فَرَسٍ» [أبو داوود: ١٦٦٥] وعن أبي هُرَيرةَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: «لا يَسْألُ عبدٌ أو أحدٌ مسألةً، ولهُ ما يُغْنِيهِ إلّا جاءَتْ يومَ القيامةِ خُدوشاً أو كُدوحاً في وجهِهِ، قالَ: يارسولَ اللهِ وماذا يُغْنِيهِ؟ أو ما أغناهُ؟ قالَ: «خَمسونَ درهماً أو حِسابُها مِنَ الذَّهَبِ» [عن ابن مسعود: أبو داوود ١٦٢٦].

وفي بعضِ الأخبارِ: «مَنْ سألَ، ولهُ أربعونَ درهماً، فقد ألْحَفَ» [النسائي٥/٩٨] وعن عليٍّ وعبدِ اللهِ [أنهما][5] قالا: لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِمَنْ لهُ خَمسونَ درهماً أو عِوَضُها مِنَ الذهبِ، وعنْ عُمَرَ كذلكَ. وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][6] قالَ: «سألَ رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: إنَّ لي أربعينَ[7] درهماً، مُسْتَكْثِرٌ أنا؟ قالَ نعم» [أبو داوود ١٦٣٤].

وفي بَعْضِ الأخبارِ عنْ أبي هريرةَ [أنهُ][8] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ولا لِذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ» وفي بعضِ الأخبارِ «لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ» [أبو داوود ١٦٣٣] وإنما يَحْتَمِلُ قولُهُ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ولا لِذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ» [تخريجَهُ على][9] الزَّجْرِ عنِ العَرْضِ على الصَّدَقَةِ والمسألةِ عليها.

ألا تَرى أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ «إنَّ الصَّدَقَةَ لا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ إلّا لِثلاثٍ» فذكَرَ أحدَها «أو فَقْرٍ مُدْقِعٍ» فذلكَ يُبيحُ لِذي المِرَّةِ السَّوِيِّ أنْ يَقْبَلَ؟

ألا تَرى أنَّ الرجلَينِ[10] اللَّذينِ سألا رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لهما: «إنْ شِئْتُما أعطيتُكما»؟ فلو كانَ حَراماً عليهما ما أعطاهما الحَرامَ، ولكنَّ ذلكَ على الزَّجْرِ عنِ المسألةِ.

ورُوِيَ عنْ سَلْمانَ أنهُ حَمَلَ إلى رسولِ اللهِ صدقَةً، فقالَ لأصحابِهِ: كُلُوا، ولم يأكُلْ، هو، ولا يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أنَّ أصحابَهُ كانُوا زَمْنَى، فهذا يُبَيِّنُ أنَّ النَّبِيَّ أرادَ الزَّجْرَ عنِ المسألةِ والتَّعَرُّضَ لها في حالِ الضرورةِ لا على التَّحْريمِ لها، وأنَّ مَنْ أخَذَها، ولهُ أقَلُّ مِنْ مِئَتَي درهمٍ، أو قيمتُها، فَلَهُ في ما يَمْلِكُ سَدادٌ مِنْ عَيشٍ، فذلكَ مَكْروهٌ.

ألا تَرى أنهُ رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ/ ٢١٧ - أ/ يأخذونَ الصَّدَقَةَ، ولأحَدِهِمْ مِنَ السلاحِ والكُراعِ والعَقارِ قيمةُ عشرةِ آلافِ درهمٍ، فهذا حَسَنٌ، والتَّعَفُّفُ عنها أحْسَنُ لِقولِ رسولِ اللهِ ﷺ «مَنِ اسْتَغْنى أغناهُ اللهُ، ومَنِ اسْتَعَفَّ أعَفَّهُ اللهُ» [النسائي٥/ ٩٨]. وقولِهِ: «لأنْ يأخذَ أحدُكُمْ حَبْلاً فَيَحْتَطِبَ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يَسْألَ الناسَ شيئاً: أعطوهُ، أو مَنَعوهُ» [البخاري١٤٧١]

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ بما حَلَفُوا عليهِ. ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أنَّ الأنصارَ مَشَتْ إليهِمْ؛ يعني إلى المنافقينَ، فقالوا: تُعَيِّرونَنا[11] وما نَزَلَ فيكمْ، حتى متى؟ فكانُوا يَحْلِفونَ للأنصارِ: واللهِ ما كانَ شيءٌ مِنْ ذلكَ، فأكذبَهُمُ اللهُ، فقالَ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ ماكانَ الذي بَلَغَكُمْ ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ بما حلَفُوا ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ﴾ منكُمْ يا مَعْشَرَ الأنصارِ ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ حينَ[12] اطَّلَعَ على ما حَلَفُوا، وهُمْ كَذَبَةٌ ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ يقولُ: ولكنْ لَيسُوا بمصدِّقينَ.

---

(١) في الأصل و م: وصار. (٢) في الأصل و م: الأمة. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل و م: أربعون. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: خرج عن. (١٠) في الأصل: الرجل، في م: الرجلان. (١١) في الأصل وم: عيرنا. (١٢) في الأصل و م: حيث.

والأشبهُ أنْ تكونَ الآيةُ نَزَلَتْ في مُعاتَبَةٍ جَرَتْ بينَ المؤمِنينَ والمُنافقينَ باستهزاءٍ كانَ منهُمْ برسولِ اللهِ أو طَعْنٍ فيهِ أوِ استِهزاءٍ بدينِ اللهِ، فاعْتَذَرُوا إليهِمْ، وحَلَفُوا على ذلكَ لِيَرْضَوا، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ حقيقَةً، ولكنْ لَيسُوا بمؤمنينَ.

وأمّا ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: أنَّ رجلاً مِنَ المُنافقينَ قالَ: واللهِ لَئِنْ كانَ ما يقولُ محمدٌ حقّاً فَلَنَحْنُ شرٌّ مِنَ الحُمُرِ، فَسمِعَها رجلٌ مِنَ المُسْلِمينَ، فأخْبَرَ بذلكَ رسولَ اللهِ، فَدَعاهُ، فقالَ: ما حَمَلَكَ على الذي قُلْتَ؟ فَحَلَفَ، والْتَعَنَ ما قالَهُ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

هذا لو كانَ ما ذُكِرَ لكانوا يَحْلِفونَ لرسولِ اللهِ، لا يَحْلِفونَ لهمْ. دلَّ أنَّ الآيةَ في غَيرِ ما ذُكِرَ.

ويُذْكَرُ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ الآيةَ نزلَتْ في ناسٍ مِنَ المُنافِقِينَ، تَخَلَّفُوا عنْ رسولِ اللهِ في غَزْوَةِ تَبوكَ، فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ لرسولِ اللهِ حينَ رجَعَ أنهمْ لا يَتَخَلَّفُونَ عنهُ أبداً. وكذلكَ قالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: لو[1] كانَ ما قالُوا لَكانُوا يَحْلِفُونَ لِرسولِ اللهِ، لِيُرضُوهُ[2] لا لِلمُؤمِنِينَ.

دلَّ أنَّ الأشْبَهَ ما ذَكَرْنا، وفيهِ وجوهٌ:

أحَدُها: أنَّ فيهِ دلالةَ تحقيقِ رسالتِهِ ﷺ لِيَعْلَمُوا أنهُ حقٌّ حينَ[3] اطَّلَعَ عليهِ بما أسَرُّوا في أنْفُسِهِمْ، وكَتَمُوا مِنَ المَكْرِ بهِ وأنواعِ السَّفَهِ.

والثاني: لِيَحْذَرُوا، ويَمْتَنِعُوا عنْ مثلِهِ والمُعاوَدَةِ إليهِ، لَمّا عَلِمُوا أنهُ يَطَّلِعُ على جميعِ ما يُسِرّونَ عنهُ، ويَكْتُمونَ.

والثالثُ: [أنَّ فيه][4] تنبيهاً للمؤمِنِينَ وتعليماً لهمْ منهُ بأنهُ إذا وقعَ لهمْ مثلُ ذلكَ لا يَشْتَغِلونَ بالحَلْفِ طَلَبَ[5] إرضاءِ بعضِهِمْ بعضاً، ولكنْ يَتوبونَ إلى اللهِ، ويَطلبونَ بهِ مَرْضاتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ذَكَرَ نَفْسَهُ ورسولَهُ، ثم أضافَ الرِّضا إلى رسولِهِ بقولِهِ: ﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ولم يَقُلْ: أحَقُّ أن يُرْضُوهُما. فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ إذا أرضَوا رسولَهُ ﷺ، كانَ في إرضائِهِمْ رسولَهُ إرضاءُ اللهِ؛ وهو ما ذَكَرَ أنهمْ دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ.

ثم أضافَ الحُكْمَ إلى رسولِهِ لأنهمْ إنما دُعُوا أنْ يَحْكُمَ الرسولُ بينَهُمْ بقولِهِ[6]: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ لأنَّ الخِلافَ والخِيانَةَ كانَ في حَقِّ اللهِ وفي حَقِّ رسولِهِ، لم يكنْ في حَقِّ المؤمنينَ. لِذلكَ قالَ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ مِنَ المؤمِنينَ.

ثم ذَكَرَ مُخادَعَةَ اللهِ ورسولِهِ، ثم اقْتَصَرَ على إرضاءِ رسولِهِ لأنهمْ لم يَقْصِدوا قَصْدَ مُخالَفَةِ رسولِهِ، أو أنْ يكونَ ذَكَرَ إرضاءَ أحَدِهِما لأنَّ في إرضاءِ رسولِهِ إرضاءَ الربِّ كقولِهِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الآيةِ دلالةُ أنهمْ عُلِمُوا أنهمْ مُعانِدونَ[7] في صَنيعِهِمْ، وعَلِمُوا أنَّ مَن عانَدَ، وكابَرَ بِغَيرِ حقٍّ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ يُعانِدِ اللهَ، وقيلَ: يُشاقِقِ اللهَ، ويُخالِفِ اللهَ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي قد عَلِموا ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ﴾ ما ذَكَرَ، لكنهُمْ عانَدوا بالخِلافِ[8] والمُحادَّةِ معَ علمِهِمْ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل و م: ولكن. (٢) في الأصل وم: ويرضونه. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) ساقطة في الأصل و م. (٥) من م، في الأصل و م: طلباً. (٦) في الأصل و م: وقوله. (٧) في الأصل و م: معاندين. (٨) الباء ساقطة من الأصل و م.

والثاني: أي عَلِمُوا ﴿أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ﴾ ما ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاسْتِفهامِ مِنَ اللهِ يُخرَجُ على الإيجابِ والإلزامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: يَحتَمِلُ الخِزيَ[1] الفَضيحةَ العظيمةَ في الدنيا، ويَحتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ في الآخرةِ[2] نارُ جهنَّمَ خِزيٌ عظيمٌ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ على[3] الحقِّ عليهِمْ أنْ يَحذَرُوا لِما اطَّلَعَهُمْ[4] اللهُ ورسولُهُ مِراراً [على ما][5] أسَرُّوا، وكَتَمُوا، ويَحتَمِلُ على الخَبَرِ أنهمْ كانُوا يَحذَرونَ ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لِكَثرَةِ ما اطَّلَعَ اللهُ ورسولُهُ مِنْ سَرائِرِهِمْ وسَفَهِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ فهو، واللهُ أعلَمُ، ليسَ على الأمرِ، ولكنْ على الوَعيدِ؛ يقولُ: استَهزِئوا فإنَّ اللهَ مُظْهِرٌ ومُبَيِّنٌ ما أسرَرْتُم، وكَتَمْتُمْ مِنَ العَيبِ والاسْتِهزاءِ برسولِهِ والطَّعنِ فيهِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ذَكَرَ السؤالَ، ولم يُبيِّنْ عَمَّ[6] يَسألُهُمْ. ولكنْ في الجوابِ بيانُ أنَّ السؤالَ إنما كانَ على الاسْتِهزاءِ حينَ[7] قالَ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ذَكَرَ أنَّ فقراءَ مِنَ المُنافِقينَ كانوا اختَفَوا في بعضِ الطريقِ لِيَمُرَّ رسولُ اللهِ، [وهو راجعٌ][8] مِنَ الغَزوِ، فَيَقتُلونَهُ، فأطلَعَ اللهُ نَبيَّهُ على إجماعِهِمْ في ذلكَ أنهُ لماذا؟ فقالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

وذَكَرَ بَعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ النَّبيَّ لمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبوكَ، بَينا هو يَسيرُ إذا[9] هو بِرَهْطٍ يَسيرونَ بَينَ يَدَيهِ، يَضحَكونَ، ويَستَهزِئونَ بِهِ[10]، فأطلَعَ اللهُ رسولَهُ أنهمْ يَستَهزِئونَ باللهِ وكتابِهِ ورسولِهِ، فقالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وقيلَ بغيرِ ذلكَ. وقيلَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي لو سألْتَهُمْ ما تقولونَ؟ يقولونَ[11] لكَ ممَّا يَخوضُ فيهِ الركبُ إذا ساروا، وليسَ لنا إلى معرفةِ كيفيةِ اسْتِهزائِهِمْ حاجةٌ ولا ماهيَّتِهِ سِوَى أنَّ في ما ذُكِرَ لنا مِنْ خَبَرِ المنافقينَ تَنبيهاً[12] للمؤمنينَ وتَحذيراً[13] لهمْ لِيَحذَرُوا إسرارَ ما لم يُظهِروا على ألسِنَتِهِمْ، لِيَعلَمُوا أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ما يُسِرُّونَ، ويُضمِرونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ قولُهُ: ﴿أَبِاللَّهِ﴾ تحتمِلُ الإضافةُ إلى نَفْسِهِ إضافةً إلى نفسِ المؤمنينَ لأنهُ لا أحدَ يَقصِدُ قَصْدَ الاسْتِهزاءِ باللهِ، ولكنهُمْ كانوا يَستَهزِئونَ بالأحكامِ، فأضافَ الاسْتِهزاءَ إلى الآياتِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١] هُمْ لم يَتَّخِذوا آياتِ اللهِ هُزُواً، ولكنْ هَزِئوا بالأحكامِ التي لها آياتٌ. أضافَ الهُزْءَ إلى آياتِهِ. ومَنِ استَخَفَّ بِحُكمٍ مِنَ الأحكامِ[14] التي لها آياتٌ كان [ذلكَ][15] اسْتِخفافاً بآياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي لا تَعتَذِروا فإنهُ لا يَقبَلُ اعتِذارَكُمْ لِما لا عُذْرَ لكُمْ في ما تَعتَذِرونَ بعدَ ما قُلْتُمْ: إنهُ أُذُنٌ لِما ظَهَرَ منكُمْ [مِنَ][16] الخِلافِ والكذبِ في ذلكَ كقولِهِ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] أخبَرَ أنهُ لا يُصدِّقُهُمْ في ما اعتَذَروا لمَا ظَهَرَ كَذِبُهُمْ، وتَبَيَّنَ خِلافُهُمْ.

وقولُهُ تعالى/ ٢١٧ ـ ب/ ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يَحتَمِلُ كَفَرْتُمْ في الباطنِ بَعْدَ ما أظْهَرْتُمْ باللسانِ، ويَحتَمِلُ ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ حقيقةً: قد كَفَروا بعد ما آمَنُوا.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: أي. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: اطلع. (٥) في الأصل و م: مما. (٦) في الأصل و م: مم. (٧) في الأصل و م: حيث. (٨) في الأصل و م: ويرجع. (٩) في م، إذ. (١٠) في الأصل: بك، ساقطة من م. (١١) في الأصل و م: فيقولون. (١٢) في الأصل وم: تنبيه. (١٣) في الأصل و م: وتحذير. (١٤) في الأصل وم: أحكام. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ قال بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ وذلكَ أنَّ المنافِقِينَ قد آمَنَ منهُمْ [مَنْ آمَنَ][1] بعدَ النِّفاقِ، وتابَ، فأخبَرَ أنهُ إنْ يَعفُ عنهُمْ يُعَذِّبِ الطائفةَ الذينَ لم يؤمِنُوا ولم يتوبوا.

وقيلَ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ لأنَّ المُنافِقِينَ [منهُمْ][2] مَنْ قد ماتَ على الكفرِ، فَوَعَدَ العَفْوَ عَمَّنْ ماتَ على الإيمانِ كقولِهِ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤] أخبَرَ أنهُ إنْ شاءَ تابَ عليهِمْ. فقولُهُ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ التي يتوبُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: على الإيجابِ أي يَفْعَلُونَ باللهِ ورسولِهِ ذلكَ.

والثاني[3]: على التَّوعيدِ والتَّوبيخِ: أباللهِ يَفْعَلُونَ هذا؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ذَكَرَ في أهلِ الإيمانِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ بقولِهِ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وذَكَرَ في الكافرينَ الوَلايةَ لبَعْضِهِمْ بِبَعضٍ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣] وقالَ في المنافِقِينَ: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

فهو، واللهُ أعلمُ، أنَّ لأهلِ الإيمانِ دِيناً[4] يَدينونَ بهِ، ويَتَناصَرونَ، ويَدْعُونَ الناسَ إليهِ، وأهلَ الكُفْرِ يَدينونَ أيضاً بدينٍ، يَتَناصَرونَ بهِ، ويُعاوِنُ[5] بعضُهُمْ بعضاً. فصارَ لكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقَيْنِ مُوالاةٌ في ما بينَهُمْ مُولاةَ الدينِ.

وأمَّا المُنافِقونَ فإنهم لا دينَ لهمْ، يدينونَ بهِ، ولا مذهبَ، يَنْتَحِلُونَهُ، ولا يُناصِرُ [بعضُهُمْ بَعْضاً، ولا يُعاوِنُ بعضُهُمْ بعضاً ولا يَجْري بينَهُمُ التَّناصُرُ][6] والتَّعاوُنُ. فإنَّما هُمْ عُبّادُ النِّعْمَةِ والسَّعَةِ؛ مالُوا حيثما مالَتِ النِّعْمَةُ والسَّعَةُ، فلا مُوالاةَ في ما بَيْنَهُمْ لِما ذَكَرْنا.

وفي قولِهِ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ دلالةٌ أنَّ مَنْ نافَقَ بالتقليدِ لآخَرَ [ومَنْ][7] نافَقَ لا بِتَقليدٍ سَواءٌ في اسْتِيجابِ الِاسْمِ والتَّعْذيبِ في ذلكَ والوعيدِ؛ لأنَّ النساءَ هُنَّ[8] أتباعٌ وأهلُ تَقْليدٍ لِلرِّجالِ. ثم سَوَّى بَيْنَهُمْ وبينَ النساءِ في الِاسْمِ والوَعيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ أي ما تُنْكِرُهُ العُقولُ، وهو الشِّرْكُ باللهِ والخِلافُ لهُ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي يَنْهَونَ عما تَعْرِفهُ العقولُ، وتَسْتَحْسِنُهُ، وهو التوحيدُ للهِ والإيمانُ بهِ. ويدخُلُ في ذلكَ كلُّ خيرٍ وحَسَنٍ، وفي المُنْكَرِ يدخُلُ الشِّرْكُ وكلُّ مَعْصِيَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قيلَ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عنِ الإنفاقِ في سَبيلِ الخَيرِ. لكن يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّمْثِيلِ لا على تحقيقِ قَبْضِ اليَدِ، ولكنْ على كَفِّ النَّفْسِ ومَنْعِها مِنَ الِاشْتِغالِ بالخيراتِ وخَوضِها فيها وفي جميعِ الطاعاتِ. ولكنهُ ذَكَرَ باليَدِ لِما بالأيدي يُعْمَلُ، وبها[9] تُكْتَسَبُ الخيراتُ والسَّيِّئاتُ كقولِهِ: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨١و١٨٢]. وذلكَ ممّا لم تُقَدِّمْهُ الأيدي، ولا كَسَبَتْ، لكنهُ ذَكَرَ القَلْبَ لِما ذَكَرْنا أنهُ باليدِ ما يُقَدَّمُ، وبها يُقْبَضُ في الشاهِدِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ قَبْضٍ كنايةً عنْ بُخْلِهِمْ وقِلَّةِ إنفاقِهِمْ في الجهادِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قيلَ [فيهِ بوجوهٍ:

أحدُها][10]: جَعَلُوا اللهَ ﷻ كالشَّيءِ المَنْسِيِّ، لا يَذْكُرونَهُ أبداً، فَنَسِيَهُمْ؛ أي جَعَلَهُمْ كالمَنْسِيِّينَ في الآخِرَةِ من رَحْمَةٍ لا ينالُونَها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل و م: دين. (٥) في الأصل و م: ويتعاون. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: من. (٩) أدرج قبلها في الأصل بها، في م: بها. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني(١): يَحتَمِلُ ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي نَسُوا نِعَمَ اللهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ، فلم يَشْكُرُوها، فَنَسِيَهُمْ على المُجازاةِ لِذلكَ، وإنْ لم يكُنْ نَسْياً كما سَمّى جزاءَ السَّيِّئةِ سَيِّئةً، وإنْ لم يكنِ الثاني سَيِّئةً. فَعَلَى ذلك ذَكَرَ النسيانَ على مُجازاةِ النِّسيانِ، وإنْ لم يَحتَمِلِ النِّسيانَ.

والثالثُ: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي بِسُؤالِ المَعونةِ والنُّصرَةِ وسُؤالِ التوفيقِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ اللهُ، أي لمْ يَنْصُرْهُمْ، ولم يُوَفِّقْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فإنْ قيلَ: اسْمُ النِّفاقِ أشَرُّ وأقْبَحُ مِنِ اسْمِ الفِسْقِ، فما مَعْنى ذِكْرِ الفِسْقِ لهمْ؟ فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ كانُوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ للمؤمنينَ باللسانِ، فأخْبَرَ أنهمْ ليسُوا على ما أظْهَرُوا، واللهُ أعْلَمُ، وأنْ يكونَ اسْمُ النِّفاقِ أشَرَّ وأقْبَحَ عندَ الناسِ مِنِ اسْمِ الفِسْقِ فعندَهُمْ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ اسْمُ الفِسْقِ أكْبَرَ في القُبْحِ، أو سَمّاهُمْ فاسِقينَ لِما أنَّ كلَّ أهلِ هذهِ الأديانِ يأنَفُونَ مِنَ النسبَةِ إلى الفِسْقِ والتَّسْمِيَةِ بهِ، أو أنْ يكونوا يَعْلَمونَ في أنْفُسِهِمْ أنهمْ أهلُ نِفاقٍ، ولا يَعْرِفونَ أنهمْ فَسَقَةٌ. وأصلُ الفِسْقِ هو الخُروجُ عنْ أمرِ اللهِ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وعَدَ لهمْ نارَ جهنَّمَ. كأنَّ جهنَّمَ، هي المكانُ الذي يُعَذَّبونَ فيهِ، والنارُ فيهِ بها يُعَذَّبونَ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ جزاءً لَصَنيعِهِمْ. يقولُ الرجلُ لآخَرَ: حسبُكَ كذا، أي كَفاكَ ذلكَ جزاءً لك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ قيلَ: اللَّعْنُ، هو الطَّرْدُ في اللغةِ؛ أي طَرَدَهُمْ عنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ لا يُفارِقُهُمْ البَتَّةَ.

الآية ٦٩

وقولُهُ تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ أي هؤلاءِ المنافقونَ(٢) والكَفَرَةُ ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ولم يُبَيِّنْ كأولئكَ في ماذا؟ ولكنْ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ وبَطْشاً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾.

وفي(٣) الشاهدِ إنما يُدفَعُ العذابُ أو العقوبةُ بهذا. وبِهِ يَتَناصَرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ثم لم يَقْدِروا على دفعِ ذلكَ.

هذا قد قيلَ. وقيلَ: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي صِرْتُمْ وما اخْتَرْتُمْ مِنَ الأعمالِ كما صارَ أُولئكَ في ما اختاروا مِنَ الأعمالِ وكلِّ أنواعِ الخِلافِ للهِ وتكذيبِ الرسلِ وتَعاطِي ما لا يَحِلُّ، فَصِرْتُمْ أنتُمْ كما صاروا هُمْ.

[وقولُهُ تعالى](٤): ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ كما اسْتَمْتَعَ الذينَ مِنْ قبلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ. قيلَ: انْتَفَعُوا بِخلاقِهِمْ؛ أي أكَلْتُمْ أنتُمْ الدنيا بدينِكُمْ كما أكَلَ أولئكَ الدنيا بدينِهِمْ.

وقيلَ: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بِنصيبِهِمْ مِنَ الدنيا، ولم يُقَدِّمُوا شيئاً للآخِرَةِ، والخَلاقُ النَّصيبُ كقولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] أي لا نَصيبَ لهمْ. وقالَ أبو هريرَةَ: الخَلاقُ الدينُ، وكذلكَ قالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بِدينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي خُضتُمْ أنتُمْ في الباطِلِ والتكذيبِ كالذي خاضَ أولئكَ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ.

قالَ أبو عبيدةَ: قولُه ﴿وَخُضْتُمْ﴾ أي لَعِبْتُمْ ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي لَعِبوا بالتكذيبِ.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلا ثَوابَ لها في الدنيا والآخِرَةِ لأنها كانَتْ في غيرِ إيمانٍ. فَثَوابُ الأعمالِ إنما يكونُ في الآخِرَةِ بالإيمانِ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خُسْراناً بَيِّناً. وبُطْلانُ أعمالِهِمْ في الدنيا لِما لا يَقْبَلُ واحدٌ مِنَ الفريقَيْنِ مِنَ المؤمنينَ والكفارِ صَنيعَهُمْ لأنهُمْ يُرونَ مِنْ أنْفُسِهِمُ المُوافَقَةَ لِكلِ واحدٍ منهُما، وما كانُوا معَ واحدٍ مِنَ الفريقَيْنِ كقولِهِ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل و م: المنافقين. (٣) الواو ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾ إلى آخِرِهِ. يَحْتَمِلُ هذا وجهَيْنِ:

أحدُهُما: قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾ أي قد أتاهُمْ خَبَرُ ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما حَلَّ بِهِمْ وما انْتَقَمَ اللهُ منهُمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وسَعْيِهِمْ في قَتْلِهِمْ وإهلاكِهِمْ، وهُمْ مِنْ جِنْسِ أنفُسِكُمْ وأشَدُّ قُوَّةً وبَطْشاً منكُمْ، وأنتُمْ تُقَلِّدونَهُمْ في ذلكَ. ثم حلَّ بهِمْ ما حلَّ بتكذيبِهِمْ والخِلافِ لهمْ. فأنتُمْ دونَهُمْ في كلِّ شيءٍ، وأقلُّ منهُمْ في القوةِ والبَطْشِ، أولَى بذلكَ أنْ يُصيبَكُمْ.

والثاني[1]: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما حلَّ بهمْ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ [البقرة: ٢٤٣و...] كذا، أي سَترى. فَعلى ذلكَ هذا يَحْتَمِلُ. وهو حَرْفُ وعيدٍ: يُحَذِّرُهُمْ ما حَلَّ بأولئكَ لِيَمْتَنِعُوا عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ.

وقولُهُ/ ٢١٨ ـ أ/ تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ في قرياتِ لوطٍ: مُؤْتَفِكاتٌ أي مُنْقَلِباتٌ.

قالَ القُتَبِيُّ: ائْتَفَكَتْ: انقَلَبَتْ، وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ هي مِنَ الإفكِ، وهو الصَّرْفُ [كقولِهِ تعالى][2]: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥و..] أي يُصْرَفونَ. وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ المُكَذِّباتِ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فكَذَّبوهُمْ، فَأُهْلِكوا، وهو مِنَ الانْقِلابِ. كأنهُ أشبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِتَعذيبِهِمْ إياهُمْ، وهُمْ غيرُ مُستَوجِبينَ لِذلكَ العذابِ ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حينَ[3] كَذَّبُوا رُسُلَهُ، ورَدُّوا ما [جاؤُوهُمْ بِهِ][4] مِنَ البَيِّناتِ والبَراهينِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ على الإيجابِ والإخبارِ أنَّ الدينَ الذي اعْتَقَدُوا، وتَمَسَّكُوا بِهِ، يُوجِبُ لهمُ الوِلايَةَ، ويَصيرُ بعضُهُمْ أولياءَ بعضٍ كقولِهِ ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣] وقولِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ونَحْوُهُ؛ فهيَ أُخُوَّةُ الدينِ وَوِلايَتُهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ على الأمرِ؛ أي اتَّخِذُوا بَعْضَهُمْ أولياءَ بَعْضٍ، ولا تَتَّخِذوا غيرَهُمْ أولياءَ كقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] وقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] نَهى المؤمنينَ أنْ يَتَّخِذوا أولياءَ مِنْ غيرِهِمْ. فكأنهُ أمرَ أنْ يَتَّخِذَ المؤمنونَ بَعْضُهُمْ بعضاً أولياءَ، ولا يَتَّخِذُوا مِنْ غيرِهِمْ.

ثم تَحْتَمِلُ الوَلايةُ وجهَيْنِ:

[أحدُهما][5]: وَلايةٌ روحانيَّةٌ، وهي وَلايةٌ في الدينِ، تُوجِبُ مُراعاةَ حقوقِ تَحديثٍ بالدينِ الذي جَمَعَهُمْ وحِفْظَها.

والثانيةُ: وَلايَةٌ نَفسانيَّةٌ، وهي الوَلايَةُ التي تكونُ في الأنفُسِ والأموالِ مِنْ نَحْوِ وَلايةِ النِّكاحِ والمِيراثِ وغيرِهِ؛ فهذهِ الوَلايَةُ هي الوَلايَةُ النَّفسانيَّةُ التي كانتْ بالرَّحِمِ والنَّسَبِ. فإذا اجْتَمَعُوا في دينٍ واحدٍ وجَبَتْ تلكَ الوَلايَةُ لهمْ، وهي الوَلايَةُ نَفْسُها.

والوَلايَةُ الروحانيَّةُ هي المَحَبَّةُ والمَوَدَّةُ، فيجبُ [مُراعاةُ الدينِ بها][6] وتعاهُدُهُ. وهذا كما تقولُ: حياةٌ روحانيَّةٌ وَحياةٌ جَسَدانيةٌ. والحياةُ الروحانيَّةُ، هي العِلْمُ والآدابُ، تَرَى أشياءَ، وتَعْرِفُها مِنْ بُعْدٍ. والحياةُ الجَسَدانيَّةُ، وهي الروحُ الذي بهِ يَحْيا الجَسَدُ، وبذهابِهِ يموتُ الجَسَدُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يَحْتَمِلُ المَعْروفَ الذي توجِبُهُ العقولُ، وهو التوحيدُ للهِ والإيمانُ بهِ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يَنْهَونَ عمّا تُنْكِرُهُ[7] العقولُ، وهو الشِّرْكُ باللهِ والتكذيبُ لهُ. وهذا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ، هو في ما بينَ الكَفَرَةِ، يأمُرُهُمُ المؤمنونَ بذلكَ، ويَدْعُونَهُمْ إلى ذلكَ، ويَنْهَوْنَهُمْ[8] عنْ ضِدِّ ذلكَ، وإنْ كانَ في مابَينَ المؤمنينَ،

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: جاؤوا بهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: مراعاته بالدين. (٧) في الأصل وم: تنكر به. (٨) في الأصل وم: وينهاهم.

فهو أمرُ شرعٍ، ؛ يأمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بما جاءَ بِهِ الشَّرْعُ، ويَنهاهُ عمّا لم يَجِئْ بِهِ الشرعُ، أو يأمُرُ بعضُهُم بَعْضاً بكُلِّ خيرٍ وبِرٍّ، ويَنْهى عن كُلِّ شرٍّ ومَعْصِيَةٍ.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كُلِّ أمرِهِ ونَهْيِهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وَعَدَ أنهُ يَرْحَمُهُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قيلَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ تُرَى آثارُ عِزِّهِ في كلِّ شيءٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ تُرَى آثارُ رَحمَتِهِ وتدبيرِهِ في كلِّ شيءٍ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

وقولُهُ تعالى ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رِضا اللهِ عنهُمْ أكبَرُ مِنْ كُلِّ ما أعطاهُمْ لأنَّ فيهِ حياةَ الروحِ، وَلَذَّتَهُ، وما أعطاهمْ مِنَ الجنَّةِ والمساكِنِ الطَّيِّبَةِ في حياةِ الجَسَدِ؛ لأنهُ لا تُؤثِّرُ زيادةً في الجَسَدِ.

وكذلكَ العِزُّ والحَمْدُ وذِكْرُهُ[(٢)] الحَسَنُ: فيهِ حياةُ الروحِ ولذَّتُهُ؛ إذ ليسَ فيه زيادةٌ في الجَسَدِ، إنما هو فَرَحٌ وسرورٌ، يدخُلُ فيهِ. وإذا أصابَهُ شيءٌ مِنَ الذُّلِّ، وسَمِعَ مكروهاً، حَزِنَ، واهْتَمَّ مِنْ غيرِ أنْ يَتألَّمَ جَسَدُهُ، أو يَجِدَ ألماً وشِدَّةً في نَفْسِهِ، وذلكَ لِما أصابَ روحَهُ، ولم[(٣)] يُصِبْ جَسَدَهُ.

وأصْلُهُ أنَّ العَمَلَ في الدنيا لِطَلَبِ مَرضاةِ اللهِ، ومَرضاتُهُ أكبَرُ مِنَ العَمَلِ، يُطْلَبُ ثوابُهُ، لأنَّ العَمَلَ لِطَلَبِ الثوابِ أمرٌ لَهُ. فالذي قامَ بأداءِ ما عليهِ أعظَمُ درجَةً وأكبَرُ فَضْلاً مِنَ الذي قامَ بِعَمَلٍ ما لَهُ [ثوابٌ][(٤)] لأنَّ كلَّ واحدٍ يَعْمَلُ ما لَهُ [ثوابٌ][(٥)] ولَهُ فيهِ نَفْعٌ. ولا كلُّ أحدٍ يَعْمَلُ لغيرِهِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنهُ فوزٌ ونَجاةٌ، لا خوفَ بَعْدَهُ، ولا هَوانَ، ولا ذُلَّ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ الأمرُ بالجهادِ الفريقَيْنِ جميعاً جِهاداً بالسيفِ. ويَحْتَمِلُ مُجاهَدَةً بالحُجَجِ والبَراهينِ الفريقَيْنِ جميعاً. ويَحْتَمِلُ[(٦)] أيضاً الأمرَ بالمُجاهدةِ الكُفّارَ؛ يُجاهِدُهُمْ بالسيفِ، ويُغْلِظُ القولَ، ويُشَدِّدُهُ على المُنافِقينَ، ويُقيمُ عليهِمُ الحُدودَ.

فإنْ كانَ على مُجاهدةِ الفريقَيْنِ جميعاً بالسيفِ فهو، واللهُ أعلَمُ في المنافِقينَ الذينَ انْفَصَلُوا عنِ المؤمِنينَ، وخرجوا مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ، وأظهَرُوا الخلافَ للمؤمِنينَ بَعْدَ ما أظهَرُوا المُوافَقَةَ لهمْ. فأمثالُ هؤلاءِ يُجاهَدونَ بالسيفِ، ويُقاتَلونَ بهِ. وهو كقولِهِ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ الآيةَ[الأحزاب: ٦٠ و ٦١] أخْبَرَ أنهمْ يُؤخَذونَ، ويُقَتَّلونَ أينما وُجِدوا. فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ في الأمرِ بالجهادِ في هؤلاءِ المنافقينَ[(٧)].

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنَّ المُنافِقينَ كانُوا يَطْعَنونَ في رسولِ اللهِ، ويَعيبونَ عليهِ، فأطْلَعَ اللهُ رسولَهُ على ذلكَ، وهُمْ قد عَلِمُوا أنَّ اللهَ أطْلَعَهُ على ما يَطْعَنونَ فيهِ، ويذكُرونَهُ بِسوءٍ، فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: جاهِدْهُمْ إذا طَعَنوا فيكَ، وذَكَروكَ بِسوءٍ بَعْدَ ذلكَ.

وإنْ كانَ الأمرُ على المُجاهَدَةِ بالحُجَجِ، فهو ﷺ قد كانَ حاجَّ الفريقَيْنِ جميعاً بالحُجَجِ، وخاصَّةً سورةُ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ إنما نزلَتْ في مُحاجَّةِ[(٨)] المُنافِقينَ [ويَحْتَمِلُ الأمرُ بالجهادِ في الكُفّارِ خاصّةً، وفي المنافِقينَ][(٩)] تغليظَ القولِ والتشديدَ وإقامةَ الحدودِ التي[(١٠)] ذَكَرْنا والتَّعزيرَ إذا ارْتَكَبُوا شيئاً ممّا يَجِبُ فيهِ الحَدُّ والتَّعزيرُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ لِما أقاموا بَيْنَ أظهُرِ المؤمِنينَ مُظْهِرِينَ لَهُمُ الموافَقَةَ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: الآيةُ نَزَلَتْ في شأنِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: المنافقون. (٨) في الأصل وم: المحاجة. (٩) من م ساقطة من الأصل (١٠) في الأصل وم: الذي.

رجلٍ مُنافِقٍ قالَ[1] يوماً [[2] واللهِ لَئِنْ كانَ ما يَقولُ محمدٌ حقّاً فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الحَميرِ. فَسَمِعَ[3] ذلكَ غلامٌ، وهو ربيبُ ذلكَ القائِلِ، فقالَ لهُ: تُبْ إلى اللهِ، وجاءَ هذا الغلامُ إلى النَّبِيِّ، فأخبرَهُ، فأرسَلَ إليهِ النَّبِيُّ، فأتاهُ، فَجَعَلَ يَحْلِفُ ما قالَ ذلكَ. فَنَزَلَتِ الآيةُ فيهِ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾.

لكنَّ غيرَ هذا لكأنهُ أشبهُ لأنَّ الآيةَ: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وقولَ الرجلِ: لَئِنْ كانَ ما يَقولُ محمدٌ حقّاً فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الحَميرِ، هذا القولُ ليسَ هو كلامَ ذمٍّ ذمَّ بهِ نفسَهُ. وبَعْدُ فإنَّ الآيةَ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ هو[4] قولُ جماعةٍ.

وقيلَ: [نزلَتِ الآيةُ][5] في شأنِ عبدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ؛ قالَ لأصحابِهِ: واللهِ ما مَثَلُنا [ومَثَلُ][6] محمدٍ إلّا كما قالَ القائِلُ: سَمِّنْ كلبَكَ يأكُلْكَ، وقالَ ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فأخبرَ النَّبِيُّ بذلكَ، فدعاهُ فسألَهُ، فَجَعَلَ يَحْلِفُ باللهِ ما قالَهُ.

لكنْ يُشبِهُ أن تكونَ الآيةُ صلةَ قولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [التوبة: ٦٥] كانوا يَسْتَهزِئونَ باللهِ وبآياتِهِ وبِرسولِهِ، والاِسْتِهزاءُ بذلكَ كُفْرٌ. وإنْ قالوا قَولَ كُفْرٍ، لم يُبَيِّنْ لنا ذلكَ فلا نُفَسِّرُهُ أنهمْ قالوا كذا لِما ليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ القولِ الذي قالوهُ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ كَفَرُوا بَعْدَ ما أسْلَمُوا إسلامَ حقيقةٍ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ[﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ بَعْدَ][7] ما أظهَروا الإسلامَ؛ أي رجَعُوا عمّا أظهَرُوا مِنَ الإسلامِ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ الإسلامَ والإيمانَ واحدٌ [لأنهُ][8] قالَ: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وقالَ /٢١٨ ـ ب/ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ثم قالَ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ [آل عمران: ٨٥/ ٩٠] فدلَّ أنَّ الإسلامَ والإيمانَ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيلَ هَمُّوا بقتلِ رسولِ اللهِ والمَكْرِ بهِ، فلم يَنالُوا ما هَمُّوا بِهِ. وفيهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ لَهُ، لأنهمْ أسَرُّوا ما هَمُّوا بهِ، ثم أُخبِرَ عنْ ذلكَ، وهو غيبٌ، دلَّ أنهُ باللهِ عَلِمَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الرجلَ الذي قالَ ذلكَ تابَ عنْ ذلكَ، فَقُبِلَ منهُ ذلكَ، وكانَ لهُ قَتْلٌ في الإسلامِ، فَوَداهُ رسولُ اللهِ ﷺ، فأعطاهُ دِيَتَهُ، فاسْتَغْنَى بذلك.

وقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُعْطي المُنافِقينَ مِنَ الغَنائِمِ والصَّدَقاتِ، يقولُ ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا﴾ ماأعطاهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الغَنيمةِ والصدقةِ.

وقولُهُ تعالى ﴿نَقَمُوا﴾ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: أبو مُعاذٍ وغَيرُهُ: نَقَمُوا أي طَعَنُوا، فيهِ لُغتانِ؛ نَقِمُوا بالخَفْضِ، ونَقَمُوا بالنَّصْبِ؛ يُقالُ: نَقِمَ يَنْقَمُ بِكسرِ القافِ فهو، واللهُ أعلَمُ، يقولُ: ما طَعَنوا رسولَ اللهِ ﷺ وما ذَكَرُوهُ بِسوءٍ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ لأنهمْ لو كانوا أهلَ فَقْرٍ وحاجةٍ ما[9] اجْتَرَؤُوا على الطَّعْنِ على رسولِ اللهِ، وما ذَكَروه بِسوءٍ، ولكنْ طَعَنُوا عليهِ لمّا أغناهُمُ اللهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ ما عامَلَهُمْ رسولُ اللهِ مُعامَلَةَ الكِرامِ، وبَسَطَ إليهِمْ حتى قالُوا: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] يَقْبَلُ العذرَ، فلذلكَ حَمَلَهُمْ على الطعْنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فيهِ أنَّ المنافِقينَ يَقْبَلُ منهُم التوبةَ ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ بعدَ ما أسْلَمُوا، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ أي داموا على الكُفْرِ والنِّفاقِ ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بما ذَكَرْنا: في الدنيا الأمرَ بالجِهادِ والقَتْلِ والخَوفِ. هذا التعذيبُ في الدنيا. والتعذيبُ في الآخِرَةِ ظاهرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. قد ذَكَرْنا هذا في مَوضِعٍ غيرِ هذا.

---

(١) من م، في الأصل: قالوا. (٢) من هنا يبدأ النقص من م وسينتهي ص ٤٣٥، انظر الحاشية الرابعة فيها. (٣) في الأصل: فسمعه. (٤) في الأصل: فهو. (٥) في الأصل: نزل (٦) ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: وما.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: نزلَتِ الآيةُ في ثَعْلَبَةَ بْنِ حاطِبٍ؛ سألَ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يَدْعُوَ اللهَ لِيَرْزُقَهُ مالاً، وقالَ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنها نَزَلَتْ في حاطبِ بْنِ أبي بَلْتَعَةَ؛ إنهُ كانَ لهُ أموالٌ في الشامِ، قالَ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾ تلكَ الأموالَ لأَصَّدَّقَنَّ، وأكُنْ مِنَ الصالحينَ. فقد آتاهُ اللهُ تلكَ الأموالَ، فَبَخِلَ، ومَنَعَ ما وَعَدَ.

ومنهمْ منْ قالَ: نزلَتْ في المُنافقينَ جُمْلَةً، ليسَتْ في شأنِ واحدٍ منصوصٍ مُشارٍ إليهِ، ولكنْ في المُنافقينَ جملةً. وهكذا كانَتْ عادتُهُمْ أنهمْ إذا وَعَدوا شيئاً أخلَفوا، ولم يُوفُوا الوعدَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أنهُ كانَ مُنافِقاً وقتَ ما وعدَ اللهَ لَئِنْ آتاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ. ويَحْتَمِلُ أنهُ لم يكنْ مُنافقاً في ذلكَ الوقتِ، لكنهُ صارَ بما بَخِلَ، وكذبَ، واعْتَقَدَ الخِلافَ، واسْتَحَلَّ الخُلْفَ لِما وعدَ [فصارَ][1] مُنافقاً.

فإنْ كانَ إنما صارَ مُنافقاً بما بَخِلَ، [واسْتَحَلَّهُ، وامْتَنَعَ، يكُنْ][2] قولُهُ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٧] أي صارَ في قلوبِهِمْ نِفاقٌ[3]. وإنْ كانَ مُنافِقاً في ذلكَ الوقتِ يكُنْ[4] قولُهُ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي أعقبَهُمُ الدوامَ على النفاقِ إلى يومِ القيامَةِ بِبُخلِهِمْ ومَنْعِهِمْ ما وعَدُوا. فيكونُ هذا كقولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية [التوبة: ٥٨].

وفي قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ إلى قولِهِ ﴿أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] دلالةُ أنَّ النُّذورَ تَلْزَمُ أهلَها، ويَجبُ الوفاءُ بها، ويُؤاخَذونَ بها إنْ تَرَكُوا الوفاءَ، ويَكْفُرونَ إنِ اسْتَحَلُّوا نَقْضَ ما عاهَدوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: مِنَ المؤمنينَ، فهو على تأويلِ مَنْ قالَ: إنهُ كانَ مُنافِقاً وقْتئذٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي مِنَ الشاكرينَ. وكذلكَ ذُكِرَ في الخَبَرِ أنَّ ثَعْلَبَةَ [بْنَ حاطبٍ الأنصاريَّ][5] لمّا سألَ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يسألَ اللهَ لهُ مالاً، قالَ[6] لهُ «قليلٌ تُؤدّي شُكْرَهُ خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تُؤدّي حقَّهُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ج١٠/ ١٨٩] أو كلاماً[7] مِنْ نَحْوِ هذا.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن وفاءِ ما وَعَدوا، أو ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عنْ طاعةِ اللهِ، أو ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عمّا وَعَدوا، وعاهَدوا أنْ يُوفوا.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أثابَهُمْ نِفاقاً بما بَخِلُوا إلى يومِ القيامةِ. وقالَ بعضُهُمْ: أعْقَبَهُمُ الدَّوامَ على النِّفاقِ بما أخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدوهُ وبما كانوا يُكَذِّبونَ. يَنْبَغي لِلْمُسْلِمِ أنْ يَجْتَنِبَ الكذبَ والخُلْفَ في الوعدِ فإنهُ سَبَبُ النِّفاقِ، أو نوعٌ مِنَ النِّفاقِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ: «اِجْتَنِبوا الكَذِبَ فإنهُ بابٌ مِنَ النِّفاقِ، وعليكُمْ بالصِّدْقِ فإنهُ بابٌ مِنَ الإيمانِ» [السيوطي في الدر المنثور٤/ ٢٤٨].

وفي بَعْضِها عنِ النَّبيِّ ﷺ: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ منافِقاً: مَنْ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ» [البخاري٣٤] وفي بَعْضِها: «وإذا اؤْتُمِنَ خانَ».

فإنْ قيلَ: إنَّ أولادَ يَعْقوبَ ائْتُمِنُوا، فخانُوا، وحَدَّثُوا، فَكَذَبُوا، بقولِهِمْ ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] ووَعَدُوا، فأخْلَفوا، فَنَرى أنهمْ نافَقُوا. قيلَ: ما رُوِيَ أنَّ مَنْ إذا حدَّثَ كَذَبَ في أمْرِ الدينِ، وأمّا الكَذِبُ في غيرِ أمرِ الدينِ فإنهُ لا يوجِبُ النِّفاقَ.

وفي الآيةِ دلالةُ ألّا يُنَصَّ بالسؤالِ في شيءٍ على غيرِ طَلَبِ الخِيَرَةِ في ذلكَ مِنَ اللهِ.

ألَا تَرى أنَّ ثَعْلَبَةَ [بْنَ حاطبٍ الأنصاريَّ][8] لمّا ألَحَّ على رسولِ اللهِ ﷺ في السؤالِ أنْ يَسْألَ ربَّهُ لِيَرْزُقَهُ مالاً فَعَلَ[9]، فأعْقَبَهُ اللهُ النِّفاقَ إلى يومِ القيامةِ؟ وأنَّ[10] أولادَ يعقوبَ، قد قَدَّمُوا التوبَةَ والإصلاحَ قبلَ صَنيعِهِمْ الذي صَنَعُوا على خَوفٍ منهُمْ بما فَعَلُوا، فلم يَصيروا مُنافِقينَ؟

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: واستحل له والمنع فيكون. (٣) في الأصل: نفاقاً. (٤) في الأصل: فيكون. (٥) ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل: فقال. (٧) في الأصل: كلام. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: ففعل. (١٠) في الأصل: ولأن.

وأصلُهُ أنَّ اعتِقادَ الكذبِ واستِحلالَ الخِلافِ لِما عَهِدوا الخُلْفَ في الوعْدِ هو الموجِبُ لِلنِّفاقِ. فإمّا نَزَلَ فِعْلُ الوفاءِ على غَيرِ استِحلالٍ منهُ فلا يُوجِبُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

[أحدُهُما][1]: أنْ قد عَلِموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ لكثْرَةِ ما يُطْلِعُ رسولَهُ على ما أسَرُّوا مِنَ الخِلافِ لهُ وذِكْرِهِمُ السوءَ في رسولِ اللهِ ﷺ.

والثاني: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أي ألَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ونَجواهُمْ، ويُطْلِعُ[2] رسولَهُ على سِرِّهِمْ ونجواهُمْ؟ فاتْرُكوا الطَّعْنَ في رسولِ اللهِ وذِكْرَ السوءِ فيهِ والخِلافَ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي غَلّابُ الغُيوبِ، أو ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بما يكونُ غائباً[3] عنِ الخَلْقِ؛ وعَلّامٌ[4] ليسَ شيءٌ، يغيبُ عنهُ ما غابَ عنِ الخَلْقِ ومالم يَغِبْ، عندَهُ بمحلٍّ واحدٍ، أو عَلّامٌ بما يكونُ أبداً في الأوقاتِ التي يكونُ.

وفيه دلالةٌ أنهُ لم يزلْ علّاماً لأنَّ عِلْمَ الغَيبِ هو ما عَلِمَ أنهُ يكونُ لا ما عَلِمَ، وهو كائنٌ. دلَّ أنهُ كانَ لم يَزَلْ عالماً لِما ذَكَرْنا.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية؛ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ إلى قولِهِ ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ [التوبة: ٧٦] إنَّ أهلَ النفاقِ كانوا أهلَ بُخْلٍ، لا يُنْفِقونَ إلّا مُراآةً وسُمْعَةً، فَظَنّوا بِمَنْ أنْفَقَ مِنَ المسلِمينَ، وتَصَدَّقَ / ٢١٩ ـ أ/ ظَنّاً بأنفُسِهِمْ، فقالُوا: إنهمْ أنفقُوا، وتَصَدَّقُوا مُراآةً وسُمْعَةً.

ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنَّ عبدَ الرحمنِ بْنَ عوفٍ أتى بِنِصْفِ مالِهِ في غَزْوَةِ تَبوكَ، يَتَقَرَّبُ بهِ إلى اللهِ، وقالَ: يانَبِيَّ اللهِ هذا نِصْفُ مالي أتيتُكَ بهِ، وتَرَكْتُ نِصْفَهُ لِعِيالي، فَدَعا لهُ نَبِيُّ اللهِ أنْ يُبارِكَ في ما أعْطى، وفي ما أمْسَكَ. فَلَمَزَهُ المنافِقونَ، وقالُوا: ما أعْطى إلّا رِياءً وسُمْعَةً. وجاءَ رجلٌ آخرُ مِنْ فُقَراءِ المسلِمينَ بصاعٍ مِنْ تَمْرٍ، فَنَشَرَهُ في تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فقالَ لهُ نَبِيُّ اللهِ خيراً، ودَعا لهُ، فقالَ المُنافِقونَ: إنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عنْ صاعٍ هذا. فذلكَ لَمْزُهُمْ.

فأنزَلَ اللهُ تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ يعني الذي جاءَ بِصاعٍ. قالَ القُتَبِيُّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي يَعيبونَ المُطَّوِّعينَ بالصدقةِ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي طاقَتَهُمْ، والجُهْدُ الطاقَةُ، وقالَ: والجَهْدُ المَشَقَّةُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الجُهْدُ إنفاقُ الرجلِ مِنَ الشَّيءِ القليلِ؛ يُقالُ: جَهَدَ الرجلُ إذا كانَ مِنَ الضَّعْفِ أوِ الفَقْرِ، ويُقالُ: جَهَدَ في العَمَلِ يَجْهَدُ جُهْداً، فهو إذا بَلَغَ في العَمَلِ. قالَ: أبو عُبَيدٍ: الجُهْدُ الطاقَةُ وكذلكَ قالَ أبو معاذٍ. وفي الآيةِ مَعْنَيانِ:

أحدُهُما: دلالةُ إثباتِ رسالةِ رسولِ اللهِ لأنهُ معلومٌ أنَّ ما كانَ منهُمْ[5] مِنَ اللَّمْزِ لم يكُنْ ظاهراً، ولكنْ كانَ سِرّاً.، ثم أخْبَرَهُمْ رسولُهُ بذلكَ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

والثاني: أنَّ الأمورَ التي في ما بَينَ الخَلْقِ تُحْمَلُ على ظواهِرِها، وإنْ كانَ في الباطِنِ على خِلافِ الظاهِرِ حينَ[6] عُوتِبوا هُمْ بما طَعَنوا فيهِمْ بالرِّياءِ والسُّمْعَةِ لِيَعْلَمُوا أنَّ الأمورَ التي ما بينَ الخَلْقِ تُحْمَلُ على ظواهِرِها، ولا يُنْظَرُ فيها إلى غَيرِ ظاهِرِها.

والحقيقةُ هو ما بطَنَ، وأسَرُّوا به، يَخْلُصُ العملُ للهِ. والسِّرُّ هو ما يُسِرُّ المرءُ في نَفْسِهِ، والنَّجوى اجْتِماعُ جماعةٍ على نَجْوَةٍ مِنَ الأرضِ أيِ المُرْتَفِعِ مِنَ المكانِ.

(١) ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: غائب. (٤) في الأصل: وإلا. (٥) في الأصل: منه. (٦) في الأصل: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ مِنَ اعْتَذَرَ إلى آخَرَ، فَيَقْبَلُ عُذْرَهُ على عِلْمٍ مِنَ المُعْتَذَرِ إليهِ أنهُ لا عُذْرَ لهُ في ما يَعْتَذِرُ إليهِ، وأنهُ كاذبٌ في ذلكَ، فَقَبولُ المُعْتَذَرِ إليهِ ما يُعْتَذَرُ مِنَ المُعْتَذِرِ سُخْرِيَةٌ مِنَ المُعْتَذَرِ إليهِ مِنَ[1] المُعْتَذِرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي يَجْزيهِمْ جزاءَ السُّخْرِيَةِ، فَسَمَّى جزاءَ [السُّخْرِيَةِ][2] بِاسْمِ السُّخْرِيَةِ، وإنْ لم يكنِ الجزاءُ سُخْرِيَةً كما سَمَّى جزاءَ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً، وإنْ لم تكنِ الثانيةُ سَيِّئَةً. وكذلكَ سَمَّى جزاءَ الاعْتِداءِ، وإنْ لم يَكُنِ الثاني اعْتِداءً. فَعلى ذلكَ سَمَّى جزاءَ السُّخْرِيَةِ سُخْرِيَةً، وإنْ لم تَكُنْ سُخْرِيَةً.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي سَخِرَ أولياءُ اللهِ منهُمْ، فأُضيفَ إليهِ. وكذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] [أي][3] أولياؤُهُ، وقولُهُ ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]فذلكَ اسْتِهْزاءٌ بهِمْ. وكذلكَ جائزٌ في اللغةِ: إضافةُ الشيءِ إلى آخَرَ، والمُرادُ[4] منهُ غيرُ المضافِ إليهِ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنهُ لمّا ماتَ عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أرادَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُصَلِّيَ عليهِ، فأخَذَ عُمَرُ بْنُ الخطابِ بثوبِهِ، فقالَ: ما أمَرَكَ اللهُ بهذا؛ قالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فقالَ «قد خَيَّرَني ربي، فقالَ: افْعَلْ، أو لا تَفْعَلْ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ٢٠٠].

وفي بَعْضِ الرواياتِ قالَ لهُ عُمَرُ: لا تَسْتَغْفِرْ فإنَّ اللهَ قد نَهاكَ عنْ هذا، فقالَ «يا عُمَرُ أفلا أسْتَغْفِرُ إحدَى وسَبْعينَ مَرَّةً»؟ [السيوطي في الدر المنثور: ٤/ ٢٥٢] أو كلاماً نَحْوَ هذا. فأنزَلَ اللهُ عندَ ذلكَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

لكنَّ هذا يَبْعُدُ؛ يَفْهَمُ رسولُ اللهِ ﷺ منَ الآيةِ التَّخْييرَ، وعُمَرُ يَمْنَعُهُ عنْ ذلكَ، ولا يجوزُ أنْ يُفْهَمَ التَّخْييرُ في ذلكَ، أو يُخَرَّجَ ذلكَ على التَّحذيرِ، أو تكونَ هذهِ مَنسوخَةً بالتي في المنافقينَ لأنهُ وعيدٌ، والوعيدُ لا يَحْتَمِلُ النَّسْخَ.

والوجهُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ: إنِ اسْتَغْفَرْتَ لهمْ فإنَّ اسْتِغْفارَكَ ليسَ بالذي يُرَى، فلا يُجابُ، لكنهُمْ قومٌ كَفَروا باللهِ ورسولِهِ، وقد تَعْلَمُ منْ حُكْمِي ألّا اغْفِرَ لِمَنْ[5] ماتَ على ذلكَ، [وذلكَ][6] يُخرَّجُ على الاعْتِذارِ لرسولِهِ في ذلكَ والنَّهْيِ لهُ عنِ الاسْتِغْفارِ لهمْ كقولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] وقد عَلِمَ شِرْكَ المُنافِقينَ وكُفْرَهُمْ باللهِ ورسولِهِ، فَنَهاهُ عنِ الاسْتِغْفارِ لهمْ؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ قَبْلَ أنْ يُطْلِعَ رسولَهُ على كُفْرِهِمْ. فَدَلَّ أنهُ بعدَ العِلْمِ بذلكَ نَهاهُ.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنَّ صاحِبَ الكبيرةِ لا يُغْفَرُ لهُ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ لا يَغْفِرُ لهمْ بما ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فدلَّ [أنهُ][7] إنْ لم يكُنْ كَفَرَ باللهِ ورسولِهِ فإنهُ يُغْفَرُ لهُ، وإنَّ لهُ الشفاعةَ، وصاحِبُ الكبيرةِ ليسَ بكافرٍ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

ثم طَلَبُ المَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ والشفاعةِ لِغَيرٍ يَجيءُ ألّا يكونَ إلا لِلْخَواصِّ مِنَ الخَلْقِ، وهُمُ الرسلُ والأنبياءُ، على ما يكونُ في الشاهِدِ لا تُرْفَعُ إلى ملوكِ الأرضِ الحاجةُ لِغَيرِهِمْ إلّا لِلْخَواصِّ[8] لهمْ، ولا يَشْفَعُونَ إلّا لأهلِ[9] الشرفِ عندَهمْ والمنزلةِ.

لكنَّ اللهَ تعالى أذِنَ لنا في [الاسْتِغْفارِ لِغَيرِنا][10] بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وقولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي سَواءٌ عندَهُمْ: أسْتَغْفَرْتَ لهمْ أم لم تَسْتَغْفِرْ لهمْ، ويكونُ طَلَبُ اسْتِغفارِهِمْ مِنْ

---

(١) في الأصل: إلى. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) الواو ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: من. (٦) ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: الخواص. (٩) في الأصل: أهل. (١٠) في الأصل: استغفار غيرنا.

رسولِ اللهِ اسْتِهزاءً منهُمْ لهُ بقولِهِ[1] ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١]. يُخَرَّجُ قولُهُمْ ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ مُخْرَجَ الإِسْتِهزاءِ على هذا التأويلِ.

ويَحْتَمِلُ ذِكْرُ السَّبْعِينَ لأنَّ السبعينَ هو النهايةُ والغايةُ في الإِسْتِغْفارِ على ما رُوِيَ أنهُ كانَ يَسْتَغْفِرُ في كلِّ يومٍ سَبْعِينَ مَرَّةً اسْتِغْفاراً. فأخْبَرَ أنكَ، وإنِ انتَهَيْتَ [إلى][2] النهايةِ فيهِ لا يُغْفَرُ لهمْ، ولا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وقتَ اخْتِيارِهِمُ الفِسْقَ، أو لا يَهديهِمْ طريقَ الجنةِ في الآخِرةِ لِفِسْقِهِمْ في الدنيا إذا ماتوا على ذلكَ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية جَمَعُوا؛ أعْني المُنافِقينَ جميعَ خِصالِ الشَّرِّ التي فَعَلُوا:

أحَدُها: ما ذَكَرَ مِنْ فَرَحِهِمْ بالتَّخَلُّفِ عنْ رسولِ اللهِ.

والثاني: كراهَتُهُمُ الجِهادَ مع رسولِ اللهِ وبُخْلُهُمْ بأموالِهِمْ.

والثالثُ: صَدُّهُمُ الناسَ عنِ الجهادِ والخروجِ في سَبيلِ اللهِ بقولِهِمْ: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ جَمَعَ اللهُ جميعَ خصالِ المنافِقينَ في هذهِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ ذَكَرَ المُخَلَّفينَ[3]، وهم كانوا مُتَخَلِّفينَ في الحقيقةِ، لكنهُ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ][4]:

[أحَدُهما: هُمْ][5] مُخَلَّفونَ؛ خَلَّفَهُمُ اللهُ لِما ذَكَرَ أنَّ خروجَهُمْ لا يزيدُهُمْ ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ وأنهُمْ يَبْغُونَ ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] خَلَّفَهُمُ اللهُ عنْ ذلكَ بقولِهِ[6] ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦] قيلَ: حَبَسَهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ [هُمْ][7] مُخَلَّفونَ؛ خَلَّفَهُمُ اللهُ [لِما عَلِمَ أنَّ خروجَهُمْ لا يزيدُهُمْ ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] وفساداً.

[والثاني: يَحْتَمِلُ هم][8] مُخَلَّفونَ؛ خَلَّفَهُمْ أصحابُ رسولِ اللهِ لأنهُمْ لو أرادوا أنْ يُخْرِجوهُمْ كَرْهاً لَقَدَرُوا على ذلكَ، فهُمْ كالمُخَلَّفِينَ مِنْ هذا الوجهِ لِما لو أرادوا إخراجَهُمْ أخرَجوهُمْ، وإنْ كانوا[9] مُتَخَلِّفينَ في الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي مُخَالَفَةَ رسولِ اللهِ. وقُرِئَ خَلْفَ رسولِ اللهِ[10] أي فَرِحوا بقعودِهِمْ بعدَ خروجِ رسولِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ القعودَ أي بقعودِهِمْ خَلْفَهُ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي مَوْضِعِ قُعودِهِمْ، وهو مَنازِلُهُمْ وأوطانُهُمْ، ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بُخْلَهُمْ وخِلافَهُمُ الذي في قلوبِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ /٢١٩ ـ ب/ هذا في الظاهِرِ يُخَرَّجُ على إظهارِ الشفقةِ للمؤمنينَ، ولكنْ [لم يكونوا][11] أرادوا ذلكَ، إنما أرادوا حَبْسَهُمْ عنِ الخروجِ في سبيلِ اللهِ. لكنَّ المؤمنينَ لا يَمْتَنِعونَ عنِ الخروجِ إلى الغَزْوِ، وكانوا يَحتالونَ في مَنْعِهِمُ المؤمنينَ عنِ الخروجِ في سَبيلِ اللهِ، ولو أطْلَقوا القَوْلَ في المَنْعِ، وصَرَّحوهُ، لَفَهِمَ المؤمنونَ[12] ذلكَ، ويَظْهَرُ نِفاقُهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ قالوا ذلكَ لأتباعِهِمْ لا للمؤمنينَ كقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ [آل عمران: ١٥٦].

---

(١) في الأصل: حيث. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: المخلفون. (٤) هنا ينتهي النقص من م الذي أشرنا إلى بدايته في بده تفسير الآية (٧٤) من السورة. . قال بعض أهل التأويل. . قال يوما [(٢) والله لئن . . ص٤٣١، انظر الحاشية الثانية فيها. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل و م: كقوله. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في م: ويحتمل، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: كان. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٤. (١١) من م، في الأصل: لايكن. (١٢) في الأصل وم: المؤمنين.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا يَفقَهونَ ما أنْزَلَ على رسولِ اللهِ لَعَلِمُوا أنَّ نارَ جهنَّمَ أشدُّ حرّاً منْ حَرِّ الدنيا، أو لو كانوا يَفْقَهونَ أنهمْ لم يُخلَقُوا في الدنيا للدنيا خاصةً، ولكنْ خلَقَهُمْ فيها لِيَمْتَحِنَهُمْ، لِيَعْلَمُوا أنَّ الموعودَ في الآخِرَةِ أشدُّ ممّا امْتُحِنُوا في الدنيا.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الضَّحِكُ كِنايةً عنِ الفَرَحِ والسرورِ، والبكاءُ كِنايةً عنِ الحُزْنِ؛ يقولُ: افرَحُوا، وسُرُّوا قليلاً، فَسَتَحْزَنونَ[1] في الآخِرَةِ طويلاً كثيراً. وأمكنَ أنْ يكونَ على حقيقةِ الضَّحِكِ لأنهمْ كانوا يضحكونَ، ويَسْتَهْزِئونَ بالمؤمنينَ في الدنيا؛ يقولُ: ضحكوا قليلاً لأنَّ الدنيا قليلةٌ، تَنْقَطِعُ، وسَيَبْكونَ[2] كثيراً في الآخِرَةِ لأنها لا تَنْقَطِعُ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ﴾ دلَّ قولُهُ ﴿رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أنْ ليسَ كلُّ مُتَخَلِّفٍ عنهُ في ذلكَ، هو[3] مُنافِقٌ، ولا كلُّ المنافِقينَ امْتَنَعُوا، وتَخَلَّفُوا عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لأنهُ أخبَرَ أنَّ خروجَهُمْ معَهُمْ لا يَزيدُهُمْ ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] وفساداً؛ فيقولُ: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي عُوقِبوا ﴿بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لِنِفاقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ أي لنْ آذَنَ لكُمْ أنْ ﴿تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ولَنْ آذنَ لكُمْ أنْ ﴿تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ ويَحْتَمِلُ ﴿لَّن تَخْرُجُوا﴾ أي وإنْ[4] أذِنْتُ لكمْ بالخروجِ فَلَنْ تَخْرُجوا أبداً ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قيلَ: مع المُتَخَلِّفينَ، وهمُ المنافقونَ [على[5]] ما ذُكِرَ. ويَحْتَمِلُ: انِ اقْعُدُوا معَ أصحابِ الأعذارِ. وقالَ بَعْضُهُمْ [اقْعُدوا][6] معَ النساءِ والزَّمْنَى، وهو واحدٌ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ يعني المنافِقينَ ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ وذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ لمّا ماتَ عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جاءَ[7] ابنُهُ إلى رسولِ اللهِ، فقالَ: يارسولَ اللهِ إنَّ أبي ماتَ، وأوصانا أنْ [نُكَفِّنَهُ بقميصِكَ][8] وأنْ تُصَلِّيَ عليهِ، فَخَلَعَ النَّبِيُّ قميصَهُ، فأعطاهُ، ومَشَى، فَصَلَّى، وقامَ على قَبْرِهِ. ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنهُ صلَّى عليهِ، وألبَسَهُ قميصَهُ. وقيلَ لَهُ: تُلْبِسُ عَدُوَّ اللهِ قميصَكَ، وقالَ: «إني لأرجو أنْ يُسْلِمَ بِقَميصي منْ بَني الخَزْرَجِ ألفٌ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ١٠/١٩٩] فَذُكِرَ أنهُ لمّا فَعَلَ ذلكَ أسْلَمَ ألفُ رجلٍ مِنَ المنافقينَ.

ورُوِيَ أنهُ لم يُصَلِّ عليهِ. فلا ندري كيف كانَ الأمرُ بَعْدَ أنْ جاءَ النهيُ عنِ الصلاةِ على المنافقينَ بقولِهِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ سَمّاهُمْ فَسَقَةً، واسْمُ الكَفَرَةِ أقْبَحُ وأذَمُّ، لكنَّهُمْ جَمَعُوا معَ الكُفْرِ أنواعَ الفِسْقِ لِيُعْلَمَ أنَّ اعْتِقادَهُمُ الكُفْرَ والمذهبَ الذي يذهبونَ إليهِ؛ إنما اعْتَقَدوا لِهَواهُمْ؛ إذِ الفِسْقُ ممّا يُحَرِّمُهُ كلُّ مذهبٍ ودينٍ، وكلٌّ يأنَفُ عنِ الفِسْقِ، ويَتَبَرَّأُ منهُ، ولا كذلكَ الكُفْرُ؛ لأنَّ كلَّ منْ آمنَ بشيءٍ كَفَرَ بِضِدِّهِ. وأصلُ الفِسْقِ هو الخروجُ عنِ الأمرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: إنهُ على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: ولا تُعْجِبْكَ أموالُهُمْ وأولادُهم في الدنيا إنما يريدُ اللهُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ في الآخرة. وفيهِ نَقْضُ قولِ المعتزلةِ في الأصْلَحِ، وقد ذَكَرْنا الوجهَ الذي يدلُّ على نَقْضِ قولِهِمْ في ما تَقَدَّمَ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ القتالَ، والحروفُ التي أُمِروا فيها ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١] التعذيبَ الذي ذُكِرَ لأنهُمْ يَصيرونَ مَقْتولِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ تذهبُ، وتَهْلِكُ ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

---

(١) في الأصل وم: وتحزنون. (٢) في الأصل وم: ويبكون. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل و م: فجاء. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ لا إنها تنزلُ سورةٌ بهذا الحرفِ، ولكنْ فيها ذِكْرُ ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠].وقولُهُ: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بقلوبِكُمْ[١] لأنهمْ قد أظهَرُوا الإيمانَ باللسانِ، وهُمْ لم يكونوا مؤمنِينَ باللهِ حقيقةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ قيلَ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ همْ أهلُ الغِنَى والسَّعَةِ، وقيلَ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ أهلُ الفضلِ والشَّرفِ الذينَ كانوا يَصْدُرُونَ لآرائِهِمْ، ويَنْظُرُونَ إلى تدبيرِهِمْ، وقد كانَ في أهلِ النفاقِ أهلُ السَّعَةِ والغِنَى وأهلُ النظرِ والتدبيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ استَأْذَنُوا القُعودَ عنِ الجهادِ، واللهُ أعلَمُ، لِما كانوا يُوالونَ أهلَ الكُفرِ سِرّاً، فكَرِهوا القِتالَ معَ الأولياءِ، أو كانوا يَتَخَلَّفونَ، ويَمْتَنِعونَ عنِ الخروجِ إلى القتالِ.

وأمّا أهلُ الإيمانِ فإنهمْ إنما يَعْمَلُونَ لِلعواقِبِ، وكذلكَ أهلُ الكُفْرِ إنما يُقاتلونَ أهلَ الإيمانِ[وأمّا المُنافِقونَ فإنهُمْ يَأمَلُونَ غنيمةً في العاقبَةِ][٢] لكنهمْ كانوا يَسْتَأذنونَ القعودَ، ويكونونَ مع القاعِدِينَ،[يَرَونَ][٣] من أنفُسِهِمْ أنَّ لهمُ العُذرَ في القعودِ.

ثم قولُهُ: ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ منَ الضُّعفاءِ والمَرضى والصِّبْيانِ حتى إذا أتاهُمُ العَدُوُّ مِنْ بَعْدِ ما خَرَجَ الرجالُ منهُمْ إلى قِتالِ العَدُوِّ، عنْ هؤلاءِ، أو يكونُ قولُهُمْ: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ من أهلِ العُذرِ؛ يَرونَ أنفُسَهُمْ أنهمْ أهلُ العُذرِ، ولم يكُنْ لهمْ عذرٌ في ذلكَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ الآيةَ[الأحزاب: ١٣] فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ هذا.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ قيلَ: معَ النساءِ، فهذا حرفُ تَعْييرٍ وتوبيخٍ؛ أي رَضُوا بأنْ يكونوا في مَشاهِدِ النساءِ دونَ مَشاهِدِ الرجالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إنَّ[٤] للإيمانِ نوراً تُبْصَرُ بهِ عواقبُ الأمورِ، ويُرْفَعُ الحِجابُ والسِّتْرُ مِنَ القلوبِ ومِنَ الأمورِ، فتَراها باديةً ظاهرةً. ولِلْكُفرِ ظُلْمَةٌ تَسْتُرُ الظاهِرَ مِنَ الأمورِ والباديَ منها، فتَسْتُرُ تلكَ الظُّلْمَةُ قلبَهُ، فذلكَ الطَّبْعُ، وقد ذَكَرْنا الوجهَ فيهِ في غَيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما يَلْحَقُهُمْ مِنَ التَّعْيِيرِ برضاهُمْ بالقعودِ معَ الخوالِفِ. والفِقْهُ هو مَعْرِفَةُ الشَّيءِ بمعناهُ الدالِّ على نظيرِهِ، مَنَعَتْ[٥] تلكَ الظُّلْمَةُ أنْ تُعْرَفَ الأشياءُ بمعانيها وبنظائرِها لِلحجابِ الذي ذَكَرْنا.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الرسولَ والذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ والتَّصديقَ ﴿جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي بذلوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ لِنَصْرِ دينِ اللهِ وإظهارِ سَبيلِهِ، ولم يَبْخَلُوا كما بَخِلَ أهلُ النِّفاقِ في بَذْلِ أموالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ في نَصْرِ دينِهِ بالمُجاهدةِ معَ أعدائِهِ، ولم يُحَقِّقُوا الإيمانَ والتَّصْديقَ.

ثم أخْبَرَ أنَّ للمؤمنِينَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ والتَّصْديقَ، وبذلُوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ، وجاهدوا بها في نَصْرِ دينِ اللهِ وإظهارِ سَبيلِهِ ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ . قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ الذِّكْرُ في الدنيا والثَّناءُ الحَسَنُ وسلوكُ الناسِ طريقَهُمْ، وفي الآخِرةِ/ ٢٢٠ ـ أ/ الثوابُ والجزاءُ . وقيلَ: ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ في الآخِرةِ لِما بَذَلُوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ في نَصْرِ دينِهِ والمُجاهَدَةِ مع عَدُوِّهِ. وقيلَ: ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ الحُورُ العِينُ كقولِهِ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]واللهُ أعلَمُ .﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المُفْلِحُ هو الذي يَظْفَرُ بحاجةٍ؛ وقد يُقالُ: أفْلَحَ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

---

(١) في الأصل وم: بقلوبهم. (٢) في الأصل وم: إما غنيمة في العاقبة يتأملون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من في الأصل: أي .
(٥) في الأصل وم: منع.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لِيُعْلَمَ أنَّ العِظَمَ ليسَ يَقَعُ في ما فيهِ الغِلَظُ والكثافةُ، ولكنْ القَدْرُ والمَنْزِلَةُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ هُمُ الذينَ يَسْتَأْذِنونَ القعودَ، ولا عُذْرَ لهمْ في ذلكَ. وقالَ الكلبيُّ: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ هُمُ الذينَ لهمْ عُذْرٌ، وبِهِمْ عِلَّةٌ. وبَعْضُهُمْ قالَ: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ هُمُ المُعْتَذِرونَ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قَرَأَ: المُعْذِرونَ[1] بالتَّخفيفِ، وقالَ: لَعَنَ اللهُ المُعَذِّرينَ؛ كأنهُ ذهبَ إلى أنَّ المُعْذِرَ هو الذي لهُ عُذْرٌ، والمُعَذِّرَ بالتشديدِ الذي لا عُذْرَ لهُ، لذلكَ لَعَنَ المُعَذِّرَ.

قالَ أبو مُعاذٍ: وأكثرُ كلامِ العربِ المُعْذِرُ هو الذي لهُ عُذْرٌ وهو قولُهُمْ: قد أعْذَرَ مَنْ أنْذَرَ.

وقالَ عوسَجَةَ: المُعَذِّرُ بالتشديدِ الذي لا يُناصِحُ، إنما يريدُ أنْ يُعْذَرَ، ويُقالُ: عَذَرْتُ في الأمرِ إذا لم أبالِغْ[2] فيهِ، وأعْذَرتُ في الأمرِ أي بالَغْتُ فيهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتَّشديدِ هُمُ الذينَ لا يَجِدُونَ، إنما يَعْرِضونَ ما لا يُريدونَ أنْ يَفْعَلوهُ، يُقالُ: عَذَرْتُ في الأمرِ إذا قَصَّرْتُ، وأعْذَرْتُ: جَدَدْتُ.

ثم قال بَعْضُ أهلِ التأويلِ: دَلَّ هذا على أنَّ أهلَ النِّفاقِ كانوا صِنفَينِ؛ صِنفٌ كانوا يَسْتَأْذِنونَ القُعودَ، وصِنفٌ لا يَسْتَأْذِنونَ، ولكنْ يَقْعُدونَ بقولِهِ: ﴿وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على أنَّ مِنِ أهلِ النِّفاقِ مَنْ قد آمَنَ، وتابَ، وأنَّ مَنْ تابَ يُقْبَلُ منهُ لأنهُ قالَ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يَقُلْ سَيُصيبُهُمْ عذابٌ أليمٌ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: المُعْذِرُونَ بالتخفيفِ: هُمُ المؤمنونَ الذينَ لهمُ العُذْرُ والتَّخلُّفُ؛ أتَوا رسولَ اللهِ لِيَنْظُرَ في أمْرِهِمُ الأوفَقِ: إنْ كانَ الخروجُ لهمْ أوفَقَ يَخْرُجوا[3]، وإنْ كانَ القُعودُ أوفَقَ يَقْعُدوا[4]. يدلُّ على ذلكَ الآيَةُ التي تَلي هذهِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ الآيةَ[التوبة: ٩١]

فإنْ قِيلَ: كيفَ احْتَمَلَ أنْ يكونَ آيَةً واحدةً في الفريقَينِ مُخْتَلِفَينِ: إذا قُرِئَ بالتخفيفِ فهي في الذينَ لهمْ عُذْرٌ، وإذا قُرِئَ بالتشديدِ كانَتْ في الذينَ لا عُذْرَ لهمْ؟ قيلَ: تَصيرُ على اخْتِلافِ القراءةِ كاثْنَتَينِ[5] في حالَتَينِ وَوَقْتَينِ مُخْتَلِفَينِ.

وإنْ كانَ تأويلُ المُعَذِّرِ بالتشديدِ فهو[6] الذي يَعْتَذِرُ، ولا عُذْرَ لهُ، والمُعْذِرُ بالتخفيفِ هو الذي لهُ [عذرٌ، وإنْ][7] كانَ تأويلُ إحدَى القراءتَينِ على ضِدِّ[8] الأُخرَى كانَ لهمْ عُذْرٌ في حالٍ، ولا عُذْرَ لهمْ في حالٍ أُخرَى. وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ القراءتانِ جَميعاً في وقتٍ واحدٍ، وتأويلُهما على الاخْتِلافِ الذي ذَكَرُوا، وهو كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] وقولِهِ[9] رَبُّنا بالرفعِ[10] باعَدَ ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾: أحدُهُما على الدعاءِ، والآخَرُ على الإيجابِ، هما آيتانِ، صارتا آيةً واحدةً لاِخْتِلافِ القراءةِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ لو لم يذكُرِ المَرْضَى ولا الذينَ لا يجدونَ ما يُنْفِقونَ لكانَ المفهومُ مِنْ قولِهِ ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ﴾ المريضَ والذي لا يَجِدُ ما يُنْفِق، وكذلكَ إذا ذَكَرَ المريضَ كانَ في ذِكْرِهِ ما يُفْهَمُ منهُ كُلُّ ضعيفٍ وكلُّ ما لا يَجِدُ ما يُنْفِقُ، وفي كلِّ حرفٍ مِنْ هذا الحروفِ ما يُفْهَمُ منهُ مَعْنَى الآخَرِ. فلما ذَكَرَ دلَّ أنَّ المُرادَ من ذِكْرِ الضُّعفاءِ الزَّمْنَى مِنْ نَحْوِ الأعْمَى والأعْرَجِ، فكانَ كقولِهِ ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] فتكونُ الآيتانِ واحدةً؛ أعْني مَعْناهُما واحدٌ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنيةج٣/ ٣٥. (٢) في الأصل وم: يبالغ. (٣) في الأصل وم: يخرجون. (٤) في الأصل وم: يقعدون. (٥) في م: كاثنين. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عذراً و. (٨) في الأصل وم: ضدي. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ٥/ ١٥٥.

وفيهِ دلالةٌ أنْ ليسَ في ذِكْرِ عددٍ مِنَ الأشياءِ خَطَرُ دخولِ غيرِ المذكورِ إذا كانَ في مَعْناهُ. ولهذا قالَ أصحابُنا: إنْ ليسَ في ما ذَكَرَ رسولُ اللهِ عَدَدٌ[1] في الرِّبا بقولِهِ «والحنطةُ بالحنطةِ والذهبُ بالذهبِ والفَضْلُ رِباً» [بنحوه مسلم١٥٨٧].

على أنهُ لا لِمَعْنىً وَرَدَ، ولا تَدخُلُ فيهِ ما لم يَذْكُرْ لِما ذَكَرْنا أنهُ لو ذَكَرَ الضُّعفاءَ لَذَكَرَ المريضَ والأعْمى والأعْرَجَ وجميعَ مَنْ ضَعُفَ عنِ الخروجِ مِنْ أنواعِ الأعذارِ.

ثم لم يَدُلَّ ما ذَكَرَ مِنَ العددِ وتخصيصِهِ على أنهُ لا لِمَعْنىً ذَكَرَ. فَعَلَى ذلكَ خَبَرُ الرِّبا.

ثم جَعَلَ العَمَى والعَرَجَ والمَرَضَ وعَدَمَ النَّفَقَةِ ونَحْوَهُ عُذْراً في تركِ الخروجِ، ولم يَجْعَلْ شدةَ الحرِّ وبُعْدَ المسافةِ ونَحْوَهُ عُذراً بقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾ [التوبة: ٨١].

وأصلُهُ، واللهُ أعْلَمُ [في وجْهَينِ:

أحدُهما:][2] أنَّ كلَّ ما لم يَعْمَلْ في المَنْعِ عنِ الخروجِ لِشَهوةٍ أو لِطَمَعٍ، يَرْجُو نَيْلَهُ مِنَ التجارةِ ونَحْوِها لم يكنْ ذلكَ عُذراً في تركِ الخروجِ؛ إذْ شِدَّةُ الحرِّ وبُعْدُ السَّفَرِ وخَوفُ العَدُوِّ ممّا لا يَمْنَعُهُمْ عنِ الخروجِ لِلتِّجارةِ، فلم يَصِرْ ذلكَ عُذراً لهمْ بالتَّخلُّفِ عنِ الخروجِ للْجهادِ. وأمّا حالُ المَرَضِ والزَّمانةِ وعَدَمُ النَّفَقَةِ يَمْنَعُ، ويُعْجِزُهُمْ عنِ الخُروجِ في كلِّ ما يَهْوَونَ، ويَشْتَهُونَ، صارَ ذلكَ عُذراً لهمْ بالتَّخلُّفِ عنِ الخروجِ للجهادِ.

والثاني: أنَّ كلَّ ما يُقْدَرُ على دفعِهِ بحالٍ لم يُجْعَلْ ذلكَ عُذراً في التَّخلُّفِ، وكلُّ ما لا سَبيلَ لهمْ إلى دفعِهِ فهو عُذْرٌ. والحَرُّ وبُعْدُ السَّفَرِ وخَوفُ العَدُوِّ يجوزُ أنْ يُدْفَعَ، فَيَصيرُ كأنْ ليسَ [عُذراً][3]. وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾ [التوبة: ٨١]. فإذا ذَكَرَ شِدَّةَ حَرِّ جَهَنَّمَ وبُعْدَ سَفَرِ الآخِرَةِ وأهوالَهُ هانَ عليهِ الخُروجُ، وسَهُلَ، فارْتَفَعَ ذلكَ. فلذلكَ صارَ أحدُهما عُذراً، والآخَرُ لا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ قيلَ: لم يَخْدَعُوا أحداً في دِينِهِ، ولم يَغُشُّوا في دُنْياهُ، وقيلَ: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أي أطاعُوا اللهَ ورسولَهُ في الحَضْرَةِ، ولم يَتْرُكُوا طاعَتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بتركِهِمُ الخروجَ وتَخلُّفِهِمْ عنِ الجهادِ مَعَ الأعذارِ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ[4]] قالَ: «لولا أنْ أشُقَّ على أمتي» أو قالَ: «على المؤمنينَ، وإلّا لَخَرَجْتُ في كلِّ سَرِيَّةٍ بَعَثْتُها لأنهمْ لا يجدونَ ما يُنفقونَ فَيَخْرُجوا[5]، ولا أجدُ ما أحْمِلُهُمْ عليهِ، فَيَشُقُّ عليهمْ مُفارقَتُهُمْ إيّانا، فلا حَرَجَ بِتَرْكِهِمُ الخروجَ إذا لم يَجِدوا ما يُنْفِقونَ ولا ما يُحْمَلُونَ[6] عليهِ» [بنحوه أحمد ٢/ ٢٤٥].

الآية ٩٣ ثم قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ يَجِدونَ ما يُنفِقونَ، فَيَتْرُكونَ الخروجَ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ يعني النساءَ ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا قد ذَكَرَ ههنا ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [وذَكَرَ في الآيةِ الأُولَى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]][7] والفِقْهُ هو معرفةُ الشّيءِ بغَيرِهِ، والعِلْمُ هو وقوعُ العِلْمِ لا بغَيرِهِ. ولذلكَ يُقالُ: اللهُ عالمٌ، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ فقيهٌ. فأخبَرَ ﷻ أنهمْ لا عَرَفوا الشيءَ بِغَيرِهِ ولا بِنَفْسِهِ عِناداً منهُمْ ومُكابَرَةً.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ فيهِ إنباءُ عمّا يقولُ لهمُ المُنافِقونَ إذا رَجَعوا إليهِمْ وتَعْليمٌ مِنَ اللهِ لرسولِهِ والمؤمنِينَ ما يَقولُ لهمْ وماذا يُجيبونَ لهمْ، فقالَ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لنْ نُصدِّقَكُمْ بما تَعْتَذِرُونَ أي بما تُظْهِرُونَ/ ٢٢٠ ـ ب/ لأنفُسِكُمْ مِنَ العُذْرِ. وقولُهُ: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ ليسَ على النَّهْيِ، ولكنْ على التوبيخِ.

---

(١) في الأصل وم: عدداً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيحرجون.
(٦) في الأصل وم: يحمل. (٧) ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أنكُمْ لا تصلُحونَ أبداً كما قالَ: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [التوبة: ٩٥] وقيلَ: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ حينَ قالَ لهمْ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ إلى قولِهِ ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] وقالُوا: وهذا الذي ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في ما تستأنِفونَ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي سَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ باطلاً، أو يقولُ: سَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ؛ أي يَجزيكُمْ جزاءَ عَمَلِكُمْ ورسولُهُ، والمؤمنونَ يَشهَدونَ عليكُمْ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قد ذَكَرْنا أنْ ليسَ شيءٌ يَغيبُ عنهُ، أو يكونُ شيءٌ عندَهُ أظهَرَ مِنْ شيءٍ، ولكنْ ما يَغيبُ عنِ الخَلْقِ وما لا يَغيبُ عندَهُ بِمحلٍّ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُخرَّجُ على الوعيدِ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي لِتتجاوَزوا عنهُمْ، ولا تُكافئوهُمْ، فيكونُ قولُهُ: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لِما سألوا مِنَ المُجاوَزَةِ عنهُمْ وتركِ المكافآتِ. ويَحتمِلُ قولُهُ ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي لا تُحاجُوهمْ، ولا تَشتَغِلوا بهمْ، فإنهمْ لا يَصلُحونَ أبداً، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتَقبَلُوا[1] منهُمْ ما يُظهِرونَ مِنَ العذرِ، ثم أخبَرَ أنكُمْ إنْ رَضيتُمْ منهُمْ، وقَبِلْتُمْ ما يَذكُرونَ مِنْ عذرِهِمْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾ عنهُمْ لِما يَعلَمُ أنهُ لا عُذرَ لهمْ في ما يُظهِرونَ لكُمْ مِنَ العُذرِ، واللهُ أعلَمُ، ليسَ على النَّهْيِ عنْ إرضاءِ أولئكَ لأنَّ إرضاءَ الخَلْقِ بَعضَهُمْ لِبَعضٍ إنما يكونُ بالحَلْفِ، وما يكونُ مِنَ الظاهِرِ، ولكنَّ النَّهْيَ عنْ تَرْكِ المُوافَقَةِ في الباطِنِ، وفيهِ يَتحقَّقُ رِضا اللهِ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [يَحتمِلُ وجوهاً:

أحدُها[2]:] أنَّ رسولَ اللهِ دعا كُفّارَ المدينةِ، فَأَيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ لِقولِهِ تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية. فلمّا أُيِسَ مِنْ إيمانِ هؤلاءِ أقبَلَ نَحوَ طائفةٍ مِنَ الأعرابِ الذينَ كانوا بقربِ المدينةِ وحوالَيها، [فأخبَرَهُ اللهُ][3] أنهمْ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أهلِ المدينةِ.

والثاني[4]: أنهُ أرادَ بالأعرابِ جملةَ أنهمْ: أيِ الكُفارَ منهُمْ وأهلَ النفاقِ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أهلِ الأمصارِ والمدنِ؛ كانوا يَسمَعونَ الآياتِ والحُجَجَ، ويخالِطونَ أهلَ رَحمَةٍ وأهلَ مَودَّةٍ. وأمّا الأعرابُ وأهلُ الباديةِ، كانوا لا يَسمَعونَ الآياتِ والحُجَجَ، ولا خالَطوا أهلَ رَحمَةٍ ورأفَةٍ، فهمْ[5] أقسى قلوباً وأضيَقُ صدوراً، وأهلُ المدنِ والأمصارِ ألْيَنُ قلوباً وأوسَعُ صدوراً؛ فَهُمْ أسرَعُ للإجابةِ، وأولئكَ أبعَدُ وأبطأُ إجابةً.

[والثالثُ[6]: أنهمْ وُصِفوا بِفَضلِ الجَهْلِ ما لم يوصَفْ بِهِ أهلُ المُدُنِ والأمصارِ][7] بذلكَ.

[رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ][8] عنْ نَبيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: «لا يُؤمِّنُكُمْ أعرابيٌّ» وفي بَعضِها: «لا يَؤُمَّنَّ أعرابيٌّ مهاجِرٌ» [البيهقي في الكبرى ٣/ ١٧١] وفي بَعضِ الأخبارِ: «مَنْ بَدا جَفا» [أحمد٢/ ٣٧١].

وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ لا يَدخُلونَ الأمصارَ لِيَتأدَّبوا، ويَتعَلَّموا[10] الآدابَ. فإذا كانوا كذلكَ فَهُمْ أجهَلُ. والإيمانُ هو التصديقُ، والتصديقُ إنما يكونُ بعدَ العِلْمِ لأنهُ ما لم يُعلَمْ لا يُصدَّقُ. فإذا كانوا بالجَهْلِ ما وصَفْنا كانوا أشَدَّ إنكاراً وتكذيباً مِنْ غيرِهِمْ، وهو ما ذُكِرَ.

---

(١) في الأصل و م: وتقبلون. (٢) في الأصل و م: وهو. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: ويحتمل. (٥) في الأصل وم: فهؤلاء.
(٦) في الأصل: والثاني. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل و م: ما روي. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ويتعلمون.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وَصَفَهُمْ بالجهلِ يكونُ التكذيبَ، وبالعِلْمِ التصديقَ، وهو ما ذَكَرْنا. وأجْدَرُ وأخْلَقُ وأحْرَى واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هُمْ أقلُّ عِلْماً بالسُّنَنِ، وقيلَ: بالفرائضِ. ويُقالُ: الحُدودُ ما بَيَّنَ مِنْ طاعةِ اللهِ ومَعْصِيَتِهِ.

وأصْلُهُ أنهمْ أهلُ جَهْلٍ بجميعِ الأوامرِ والمَناهي وجميعِ الآدابِ وما لا يَحِلُّ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ؛ خَلَقَهُمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ حينَ[(٢)] وَضَعَ الخلائقَ بِمَوضعٍ يدلُّ على وَحدانيَّتِهِ وألوهِيَّتِهِ لو تَدَبَّرُوا فيهن ونَظَرُوا.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي كانَ لا يُنْفِقُ حِسْبَةً. وقالَ بَعْضُهُمْ: يُنْفِقُ، ولا يَراهُ حقًّا، إنما يَراهُ غُرْماً يَلْحَقُهُ وغُرْماً يُغْرِمُهُ. وأصْلُهُ أنهمْ لو كانوا عِلِمُوا حقيقةَ أنهمْ وما حَوَتْهُ أيديهِمْ للهِ، ليسَ لهمْ، لم يَعُدُّوا ذلكَ غُرْماً غَرِموا، وتَبِعَةً لِحِقَتْهُمْ. ولكنْ لمّا لم يَرَوا لِلهِ تعالى في أموالِهِمْ حَقّاً، ولم يَعْلَموا أنَّ أموالَهُمْ لِلهِ حقيقةً، لا لَهُمْ، عَدُّوا ذلكَ غُرْماً وتَبِعَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ﴾ قيلَ: الدَّوائرُ هي انْقِلابُ الأمرِ، وهو مِنَ الدَّوَرانِ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ ما قالَ بَعْضُهُمْ[(٣)]: موتُ محمدٍ. وقيلَ: ﴿الدَّوَائِرَ﴾ دوائرُ الزمانِ وحَوادِثُها ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي عليهِمُ انْقِلابُ الأمرِ، وعليهِمْ ما يَتَرَبَّصونَ على المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧] ليسَ على حقيقةِ الإنزالِ مِنْ موضعٍ، ولكنْ على خَلْقِ ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الزمر: ٦] كذا [وكقولِهِ][(٤)]: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لِما قالُوا[(٥)] ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أسَرُّوا، وأضْمَرُوا.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ ذَكَرَ في الآيةِ أنَّ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لِيُعلِمَ أنَّ قولَهُ ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] كانَ في طائفةٍ مُشارٍ إليها لا كلِّ الأعرابِ لأنهُ ذَكَرَ ههنا أنَّ منهمْ مَنْ يُنْفِقُ ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ وذَكَرَ [في][(٦)] الآيةِ الأولى أنَّ منهُمْ ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة: ٩٨] أي لا يَراهُ حقّاً واجباً، ولكنْ غُرْماً يَلْحَقُهُ، ومنهُمْ مَنْ يَرَى ذلك حقًّا لِلهِ واجباً في اموالِهِمْ، فَيَجعَلُونَ ذلكَ قُرْبَةً لهمْ عندَ اللهِ، وأولئكَ يَرونَ غُرْماً لَحِقَهُمْ لا قُرْبَةً.

ثم في الآيةِ خَوفُ دخولِ المؤمنينَ [الذينَ لا يُؤَدُّونَ الزكاةَ، ولا يُنْفِقونَ][(٧)] في وَعيدِ هذهِ الآيةِ، وخوفُ لُحوقِ النِّفاقِ [بهمْ][(٨)] لأنهُ أخْبَرَ أنهمْ يَتَّخِذونَ ما يُنْفِقونَ مَغْرَماً؛ فَمَنْ تركَ أداءَ [الزكاةِ][(٩)] فإنَّما يتركُ لأنهُ لا يَرَى ذلكَ حَقّاً لأنهُ لو رأى ذلكَ حَقًّا واجباً لأدَّاهُ على ما أدّى غَيْرَهُ مِنَ الحقوقِ، أو لو كانَ مُوقناً بالبَعْثِ لأنْفَقَ، وجَعَلَ ذلكَ قُرْبَةً لهُ عندَ اللهِ لأنَّ المؤمِنَ إنما يُنْفِقُ، ويَعْمَلُ للعاقبةِ. فإذا تَرَكَ ذلكَ يُخافُ دخولُهُ في وَعيدِ الآيةِ ولُحوقِ اسْمِ النِّفاقِ به، وإنْ كنا لا نَشْهَدُ عليهِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: جَعَلوا ما أنْفَقوا قُرُباتٍ عند اللهِ بِصَلَواتِ الرسولِ لأنهمْ إذا أنْفَقوا كانَ الرسولُ يَدْعُو لهمْ بذلكَ، ويَسْتَغْفِرُ، فكانَ ذلكَ لهمْ قُرُباتٍ عندَ اللهِ باسْتِغفارِ الرسولِ ودعائِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: جَعَلُوا ما أنْفَقُوا وَصَلَواتِ الرسولِ قُرُباتٍ عندَ اللهِ، ويكونُ لهمْ ما أنْفَقُوا قُرْبَةً عندَ اللهِ وصَلَواتُ الرسولِ طُمَأنينَةً وبراءةً مِنَ النِّفاقِ لأنَّ الرسولَ كانَ لا يَدْعُو لأهلِ الكُفْرِ والنِّفاقِ. فإذا دعا لهؤلاءِ، وصلّى عليهِمْ كانَ ذلكَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: بعضكم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قال.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) أدرجت هذه العبارة في الأصل و م بعد كلمة الآية. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م.

طمأنينةً لِقُلوبِهِمْ وعِلْماً لهمْ لِلْبراءَةِ مِنَ النِّفاقِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي تَسْكُنُ قلوبُهُمْ بصلاةِ الرسولِ، وتَطْمَئِنُّ بأنهمْ ليسُوا مِنْ أهلِ النفاقِ وأنهمْ بُرآءُ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ ذَكَرَ هذا مُقابِلَ ما ذَكَرَ في الآيةِ الأولى، وهو قولُهُ: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨] أخبرَ هناكَ[1] / ٢٢١ - أ/ أنَّ ما يَتَربَّصونَ هُمْ بهمْ مِنَ الدوائرِ عليهِمْ ذلكَ. وههنا أخبَرَ أنَّ ما يُنْفِقُ المؤمنونَ، ويَطْلُبونَ بذلكَ قُرْبَةً عندَ اللهِ ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

ثم وَعَدَ لهمُ الجنةَ بقولِهِ: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي جَنَّتِهِ. سَمَّى جَنَّتَهُ رَحْمَةً لِما بِرَحْمَتِهِ يدخُلونَ لا استِيجاباً لهمْ منهُ بذلكَ بل رَحْمَةً منهُ وفَضلاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِما كانَ منهمْ مِنَ المَساوِئِ والشِّرْكِ إذا تابوا، وآمَنوا ﴿رَّحِيمٌ﴾ حينَ لم يُؤاخِذْهُمْ بذلكَ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا أنْ يكونَ مربوطاً معطوفاً على قولِهِ ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾ معَ السابقينَ الأوَّلينَ؛ أي أولئكَ الذينَ آمَنوا مِنْ بَعْدِ أولئكَ المُهاجرينَ والأنصارِ يُدْخِلُهُمْ في الجنةِ معَ السابقينَ الأوَّلينَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ [لا][2] على العطفِ على الأوَّلِ.

ثم اخْتُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في الإسلامِ والنُّصْرَةِ، وقالَ بعضُهُمْ: الأوَّلونَ في الهِجْرَةِ والنُّصْرَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ على تأويلِ مَنْ جَعَلَ السابقةَ في الإسلامِ، وعلى تأويلِ مَنْ جَعَلَ على الهجرةِ ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يَجْعَلُهُمْ فريقَينِ المهاجرينَ والأنصارَ، ولا يَجْعَلُ طبقةً ثالثةً. وأمّا قراءةُ[3] العامةِ مِنَ القُرّاءِ فهي على إثباتِ الواوِ وجعلِ طبقةٍ ثالثةٍ.

ثم منهمْ مَنْ قالَ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ هُمُ الذينَ بايَعوا بَيْعَةَ الرِّضوانِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الذينَ صَلَّوا القِبْلَتَينِ. وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ إلى الإسلامِ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الذينَ صَلَّوا القِبْلَتَينِ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ على دينِهِمْ إلى يومِ القيامةِ ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾.

ثم خصوصُ تسميةِ أهلِ المدينةِ أنصاراً، وإنْ كانُوا هُمْ والمهاجرونَ جميعاً نَصَروا رسولَ اللهِ ﷺ وكانوا أنصاراً لهمْ[4]، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ نَصَروا المهاجرينَ حينَ[5] آوَوهُمْ، وأنْزَلوهُمْ في منازِلِهِمْ وأوطانِهِمْ، وبَذَلوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ لهمْ، وإنْ كانُوا جميعاً في النَّصْرِ لِرسولِ اللهِ ﷺ شَرْعاً سَواءً.

ثم في الآيةِ دلالةُ الرَّدِّ على الرَّوافِضِ لأنهمْ يَجْعَلونَ أبا بكرٍ وعمرَ وهؤلاءِ ﷺ ظَلَمَةً لا على الحقِّ بِتَوَلِّيهِمْ أمرَ الإمامةِ والخلافةِ لأنهُ معلومٌ أنهمْ كانوا في ما ذَكَرَ ﷻ بقولِهِ: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ ثم أخبَرَ أنَّ اللهَ راضٍ عنهُمْ، وأنهمْ راضُونَ عنهُ. دلَّ أنهمْ كانوا على حقٍّ وصوابٍ مِنَ الأمرِ، وأنَّ مَنْ وصفَهُمْ بالظلْمِ والتَّعَدِّي هو الظالِمُ، والمُتَعَدِّي واضعُ الشيءِ [في][6] غيرِ موضِعِهِ.

وفيهِ جوازُ تقليدِ الصحابةِ والأتباعِ لهمْ والاقْتِداءِ بهمْ لأنهُ مَدَحَ ﷻ مَنِ اتَّبَعَ المُهاجِرينَ والأنصارَ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾.

ثم أخبَرَ عنْ جُمْلَتِهِمْ أنَّ اللهَ راضٍ عنهُمْ. دلَّ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ التقليدَ لهمْ لازمٌ، والاقْتِداءَ بهمْ واجبٌ، وإذا أخبَروا [بخبرٍ][7] أو حَدَّثُوا بِحَديثٍ يجبُ العملُ بهِ، ولا يَسَعُ تركُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أخبَرَ أنَّ مَنْ حولَهُمْ

---

(١) في الأصل وم: ههنا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/٣٨. (٤) في الأصل و م: له. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ﴾ أيضاً ﴿مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾. فقالَ بَعْضُهُمْ: المَرْدُ في الشيءِ هو النهايةُ في الشرِّ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي ثَبَتُوا عليهِ، وقامُوا[1] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَرَدُواْ﴾ أي عَتَوا ﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ وبالَغوا فيهِ.

أخبر أنهمْ لِشِدَّةِ مكرِهِمْ وخِداعِهِمْ وعُتُوِّهِمْ ﴿لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ﴾ لأنَّ مِنَ المُنافِقينَ مَنْ كانَ يَعْرِفُهُمُ الرسولُ في لَحْنِ القولِ، ومنهُمْ منْ كانَ يَعْرِفُهُمْ في صَلاتِهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، ومنهُمْ مَنْ كانَ يُعْرَفُ نِفاقُهُ في تَخَلُّفِهِ عنْ رسولِ اللهِ؛ يعني عنِ الغَزْوِ. فأخبَرَ ﷻ أنَّ هؤلاءِ لِشِدَّةِ عُتُوِّهِمْ ومَكْرِهِمْ وفَضْلِ خِداعِهِمْ لا تَعْرِفُ نِفاقَهُمْ، نحنُ نَعْرِفُ نِفاقَهُمْ.

ثم أخْبَرَ أنهُ يُعَذِّبُهُمْ مَرَّتينِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: القَتْلُ والسَّبْيُ، وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][2] قالَ: عذابٌ في الدنيا وعذابٌ في القَبْرِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: يُعَذِّبُهُمْ بالجوعِ مَرَّتَينِ. وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: قولُهُ ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ القَتْلُ والسَّبْيُ قبلَ الموتِ، والعذابُ الآخَرُ يُعَذَّبونَ في القبرِ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ تعذيبُهُ إياهُمْ مَرَّتينِ [حينَ أُمِروا بالإنفاق][3] على المؤمِنِينَ، وبينَهُمْ وبينَ المؤمِنِينَ عداوةٌ، وأُمِرُوا أيضاً بالقتالِ مع الكفارِ، وهُمْ أولياؤهُمْ. هذا أحدُ العذابَينِ لأنهمْ أُمِروا بالإنفاقِ على أعدائِهِمْ، وأُمِروا أيضاً أنْ يُقاتِلوا أولياءَهُمْ. والعذابُ الثاني: القَتْلُ في القتالِ.

فإنْ قِيلَ: لم يُذْكَرْ أنَّ مُنافقاً قُتِلَ قيلَ: لم يُذْكَرْ لِعِلَّةِ أنهمْ كانوا لا يَعْرِفونَهُمْ لِقولِهِ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْۖ﴾ إذا لم يُعْرَفوا [فكيف يُقْتَلونَ][4] كما يُقْتَلُ غيرُهُمْ مِنَ المؤمِنِينَ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ عندَ الموتِ: ضربُ الملائكةِ الوجوهَ والأدبارَ كقولِهِ: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] وفي القبرِ مُنْكَرٌ ونكيرٌ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في الآخِرَةِ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ قال عامَّةُ أهلِ التأويلِ: الآيةُ نزلَتْ في أبي لُبابَةَ وأصحابِهِ [لأنهمْ تَخَلَّفُوا][5] عنْ غزوةِ تبوكَ عنْ رسولِ اللهِ، فَنَدِموا على ذلكَ، واعْتَرَفوا، ورَجَعوا عنْ ذلكَ، وتابوا، فَقَبِلَ اللهُ توبَتَهُمْ، وَوَعَدَ لهمُ المَغْفِرَةَ بقولِهِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ لما رَجَعَ رسولُ اللهِ عَنْ غَزْوَتِهِ تلكَ جاءَ هؤلاءِ الذينَ تَخَلَّفوا عنهُ بأموالِهِمْ إلى رسولِ اللهِ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ هذه أموالُنا التي خَلَّفَتْنا عنكَ، فَخُذْها، فقالَ: لم أُؤْمَرْ بذلكَ، فَنَزَلَ [قولُهُ تعالى][6]: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ﴾ وهذا الوعدُ لكلِّ مُسْلِمٍ ارْتَكَبَ ذنباً لم يُخْرِجْهُ مِنَ الإيمانِ، ثم نَدِمَ على ذلكَ، وتابَ، وتَرَجّى[7]، واللهُ أعلمُ، أن يكونَ في عَدِّ هذِهِ الآيةِ لأنهُ ذَكَرَ المؤمِنِينَ، وما هُمْ عليهِ، وذَكَرَ المنافِقِينَ وما هُمْ عليهِ، ثم ذَكَرَ الذين خَلَطُوا أعمالَهُمُ الصالحةَ بأعمالِهِمُ السَّيِّئَةِ، ثم نَدِمُوا على ما فَعَلُوا، وتابُوا. وعَدَ اللهُ لهمْ قَبولَ التوبةِ والمَغْفِرَةِ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ اخْتُلِفَ في هذِهِ الصَّدَقَةِ التي أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ بأخذِها مِنْ أموالِهِمْ: قالَ بَعْضُهُمْ: هي صدقَةٌ فَريضةٌ. ثم اخْتُلِفَ فيها: أيُّ[8] فَريضةٍ هي؟ فقالَ بَعْضُهُمْ: فَريضةُ زكاةِ الأموالِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: هي فَريضةُ كَفّارةِ المَآثِمِ؛ وذلكَ أنَّ أولئكَ الذينَ تَخَلَّفوا عَنْ رسولِ اللهِ عَنْ غَزْوَةِ تبوكَ نَدِمُوا على تَخَلُّفِهِمْ، فلما رَجَعَ رسولُ اللهِ ﷺ جاؤوا بأموالِهِمْ، فقالوا لهُ: تَصَدَّقْ بأموالِنا عنّا فإنَّ أموالَنا هي التي خَلَّفَتْنا عنكَ، فأمَرَ اللهُ رسولَهُ أنْ يأخُذَ منهمْ ذلكَ، ويَتَصَدَّقَ بها كَفّارةً لِما ارْتَكَبوا.

---

(١) من م، في الأصل: وداموا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث أخذوا بالاتفاق. (٤) في الأصل وم: فيقتلون. (٥) في الأصل وم: تخلفون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أية.

ومنْ قالَ: هي فريضةُ زكاةِ المالِ لِما رُويَ عنْ أبي أُمامةَ [الباهِليِّ أنهُ][1] قالَ «إنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ حاطبٍ [الأنصاريَّ][2] أتى رسولَ اللهِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقني مالاً، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ وَيْحَكَ يا ثَعْلَبَةُ قليلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تُطيقُهُ، ثم جاءَهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقني مالاً، قالَ: وَيْحَكَ يا ثَعْلَبَةُ أما تَرْضى أنْ تكونَ مثلَ رسولِ اللهِ، لو سَألْتُ اللهَ أنْ يُسِيلَ الجبالَ عليَّ ذهباً لَسالَتْ، ثم أتاهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقني مالاً، فواللهِ لَئِنْ آتانيَ اللهُ مالاً لأُوتيَنَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فَدَعا لهُ، فقالَ: اللهمَّ ارزُقْ ثَعْلَبَةَ ثلاثَ مراتٍ». وذُكِرَ أنهُ اتَّخَذَ غنماً، فَنَمَتْ كنا يَنْمو الدودُ حتى ضاقَتْ عليهِ أزِقَّةُ المدينةِ، فَتَنَحّى بها، وكانَ يُصَلّي الصَّلَواتِ كلَّها معَ رسولِ اللهِ، ويَخرُجُ إليها، ثم ضاقَتْ عليهِ مَراعي المدينةِ، فَتَنَحّى بها / ٢٢١ ـ ب/ فكانَ يُصَلّي الظُّهرَ والعَصْرَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ ثم يَتْبَعُها، ثم تَنَحّى بها، فكانَ يُصَلّي الجمعةَ معَ رسولِ اللهِ، ثم بَلَغَ أمْرُهُ إلى أنْ يَتْرُكَ الجمعةَ والجماعاتِ، فَتَنَحّى بها يَتَلَقّى[3] الرُّكبانَ، فَيَسْألُهُمْ عنِ الخبرِ عمّا أُنزِلَ على رسولِ اللهِ ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ الآية، فَبَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ على الصَّدَقةِ رجلَينِ، فكتبَ لهما فرائضَ، وأمَرَهما أنْ يَسْعَيا في الناسِ، ويأخذا صدقاتِهِمْ، وأنْ يَمُرّا بِثَعْلَبَةَ ورجلٍ مِنْ بني سُلَيمٍ، فَيَأْخُذا صدقاتِهِما، فَخَرَجا يُصَدِّقانِ الناسَ، فَمَرّا بالسُّلَيميِّ، فأقْرَآهُ كتابَ رسولِ اللهِ، فأطاعَ بالصدقةِ، ومَرّا بِثَعْلَبَةَ، فأقْرَآهُ كتابَ رسولِ اللهِ، فقالَ: واللهِ ما أدري؟ ما هذِهِ إلّا جِزْيَةٌ أو أُختُ الجِزْيَةِ. فإذا فَرَغْتُما فَمُرّا بي، فلما فَرَغا مِنَ الناسِ مَرّا بِهِ، فقالَ لهما مِثْلَ مَقالَتِهِ الأُولى، وقالَ: انْطَلِقا، فإني سَأَلْقى رسولَ اللهِ ﷺ فأنزَلَ اللهُ: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ﴾ إلى قولِهِ ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾» [التوبة: ٧٥ـ٧٧] [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٨٩] إلى هذا ذَهَبَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أنها نَزَلَتْ في شأنِ ثَعْلَبَةَ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ ما ذَكَرْنا أنها نزلَتْ في شأنِ أهلِ تبوكَ الذينَ[4] تَخَلَّفوا عنْ رسولِ اللهِ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: الصدقةُ التي أمَرَ اللهُ رسولَهُ[5] أنْ يَأْخُذَها مِنْ أموالِهِمْ هي صدقةُ تَطَوُّعٍ وتَبَرُّعٍ وهي ما ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَحُثُّ الناسَ على الإنفاقِ في غَزْوَةِ تبوكَ، فجاءَ عبدُ الرحمنِ بْنُ عَوفٍ بكذا، [وفلانٌ بكذا][6]، فأخَذَها منهُمْ، وفيهِمْ[7] نَزَلَ قولُهُ ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٩].

ومنهُمْ مَنْ قالَ: هو في كلِّ صدقةٍ تَطَوُّعٍ، قَلَّتِ الصَّدَقَةُ، أو كَثُرَتْ؛ أمَرَ رسولَهُ أنْ يأخُذَ مِنْ أموالِهِمْ ما رَأى، لا يأخُذُ الكُلَّ لأنَّ أخذَ الكلِّ يُحوِجُهُمْ، ويَشْغَلُهُمْ عنْ جميعِ الطاعاتِ والعِباداتِ. ولكنْ أمَرَ أنْ يأخُذَ قَدْراً منْها [ومِنْ][8] طائفةٍ مِقْدارَ ما يُكَفِّرُ ما ارْتَكَبوا مِنَ المآثِمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ إنْ كانَتْ صدقةَ الزكاةِ فهيَ تُطَهِّرُ آثامَهُمُ التي لَحِقَتْهُمْ بذلكَ ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ قيلَ: وتُصْلِحُهُمْ، وهو ظاهرٌ، وإنْ كانَتْ صَدَقَةَ تَطَوُّعٍ فهي مِمّا يُطَهِّرُ أيضاً، ويُزَكِّيهِمْ لِما يَنْفي عنهُمُ البُخلَ، ويُؤَدّي إلى الجودِ والكرمِ. ألا تَرى أنهُ مَدَحَ مَنْ أعطى، وذَمَّ مَنْ بَخِلَ، ومَنَعَ بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾ الآيةَ [الليل: ٥] ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ الآيةَ؟ [الليل: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أتى أحدٌ بصدقةٍ دعا لهُ، واسْتَغْفَرَ. وكانَ لايَسْتَغْفِرُ لأهلِ النِّفاقِ. وكانَتْ قلوبُهُمْ تَسْكُنُ، وتَطْمَئِنُّ باسْتِغْفارِ النَّبيِّ لمّا عَلِموا بذلكَ أنهمْ ليسُوا مِنْ أهلِ النِّفاقِ. وهذا يُحْتَمَلُ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنَّ اللهَ أمَرَ رسولَهُ أنْ يَسْتَغفِرَ لهمْ، ويُصَلِّيَ عليهِمْ. ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُ بذلكَ، فلا يَفْعَلُ، أو يَفْعَلُ[9]، فلا يُجيبُهُ، فكانَتْ قلوبُهُمْ تَسْكُنُ وتَطْمَئِنُّ، باسْتِغفارِ النَّبيِّ لهُمْ[10] لِما قُبِلَتْ توبَتُهُمْ، وكُفِّرَتْ سَيِّئاتُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قد ذَكَرْنا هذا غيرَ مرَّةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل و م: ويتلقى. (٤) من م، في الأصل: الذي. (٥) من م، في الأصل: ورسوله. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل و م: وفيه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: فعل. (١٠) في الأصل وم: إياهم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وفي قولِهِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ دلالةٌ أنَّ الصدقةَ إذا وقَعَتْ في يدِ المُتَوَلّي والعاملِ عليها سَقَطَتْ عن أربابِها، وإنْ لم تقَعْ في أيدي الفقراءِ، ولم تصِلْ إليهمْ لأنَّ النَّبيَّ كانَ لا يُحِلُّ لَهُ[1] صَدَقَةً [ثم أخبَرَ][2] أنهُ إذا أخَذَها منهُمْ كانتْ طهارةً لهمْ وتزكيَةً عنْ أربابِها.

وفيهِ استِدْلالٌ لِمحمدِ بْنِ الحَسَنِ في الوقفِ أنَّ الواقِفَ إذا وقَفَ، وأخرجَهُ مِنْ يدِهِ، وجَعَلَهُ في يَدَي[3] آخَرَ مَنْ لا حَقَّ لهُ في ذلكَ كانَ جائزاً، وكانَ[4] وقفاً صحيحاً.

ومِنَ الناسِ مَنِ استَدَلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ للإمامِ أنْ يُطالِبَ بزكاةِ الأموالِ. وكذلكَ مَضَتِ السُّنَّةُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ في بعثِ المُصَدِّقينَ إلى أحياءِ العربِ والبُلْدانِ والآفاقِ لأخذِ صَدَقَاتِ الأنعامِ والمواشي في مواضِعِها. وعلى ذلكَ فَعَلَ الأئمةُ مِنْ بعدِهِ أبو بكرٍ وعُمَرُ والأئِمَّةُ الراشدونَ. وظَهَرَ العَمَلُ بذلكَ مِنْ بَعْدِهِمْ إلى هذا الوقتِ حتى قالَ أبو بكرٍ لمّا امْتَنَعَتِ العَرَبُ مِنْ إعطائِهِ الزكاةَ: واللهِ لو منَعوني عِقالاً كانوا يُؤَدُّونَها إلى رسولِ اللهِ حارَبْتُهُمْ عليها. فذلكَ يُؤَيِّدُ ما ذَكَرْنا مِنْ مُطالَبَةِ أصحابِ الأنعامِ والمواشي بزكاةِ أنعامِهِمْ ومواشيهِمْ.

وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى وُجوبَ ذلكَ بياناً شافياً بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ فَجَعَلَ للعامِلِينَ عليها حَقاً. فلو لم يكنْ على الإمامِ أنْ يُطالِبَ بصدقاتِ[5] الأنعامِ في أماكِنِها، وكانَ أداءُ ذلكَ إلى أربابِ الأموالِ ما كانَ لِذِكْرِ العامِلِينَ[6] وجهٌ. ولم يَبْلُغْنا أنَّ النَّبِيَّ بَعَثَ في مطالبةِ المسلِمينَ بزكاةِ الورِقِ وأموالِ التجارةِ، ولكنَّ الناسَ كانوا يُعْطُونَ ذلكَ، أو مَنْ حَمَلَهُ منهُمْ إلى الأئِمَّةِ يَقْبَلونَ ما يُحمَلُ إليهِمْ منهُ، ولا يَسْألونَ أحداً عنْ مَبْلَغِ مُلْكِهِ، ولا يُطالبونَهُ بهِ إلّا ما كانَ مِنْ تَوْجيهِ عُمَرَ العَشّارَ في الأطرافِ.

وكانَ ذلكَ منهُ عندَنا، واللهُ أعْلَمُ، لِلتَّخفيفِ عَمَّنْ بَعُدَهُ عنْ دارِهِ، وشَقَّ عليهِ، أنْ يَحْمِلَ صدَقَتَهُ إلى إمامِهِ. فَجَعَلَ في كلِّ طَرَفٍ مِنَ الأطرافِ عَشّاراً لِتُجّارِ أهلِ الحَرْبِ والذِّمَّةِ، وأمَرَ أنْ يأخُذَ[7] مِنْ تُجّارِ المسلِمِينَ ما يَدْفَعونَهُ إليهِ. وكانَ ذلكَ مِنْ عُمَرَ تخفيفاً على المسلِمِينَ [لا أنَّ][8] على الإمامِ مطالَبَةَ أربابِ الأموالِ أموالِ العَيْنِ وأموالِ التجارةِ بأداءِ الزكاةِ سِوَى المواشي والأنعامِ فإنَّ مطالَبَةَ ذلكَ إلى الأئمةِ إلّا أنْ يأتيَ أحدٌ منهُمُ الإمامَ بِشيءٍ مِنْ ذلكَ فَيَقْبَلَهُ منهُ، ولا يَتَعَدّى ما جَرَتْ بِهِ السُّنَّةُ إلى غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أي قد عَلِمُوا أنَّ اللهَ يَقْبَلُ توبَةَ مَنْ تابَ، ويَحْتَمِلُ على الأمرِ؛ أي اعْلَمُوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ويَحْتَمِلُ[9] قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ مِمَّنْ تابَ ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؟ قيلَ: يَقْبَلُ.

وتُشْبِهُ إضافةُ الأخذِ إلى نَفْسِهِ إضافَتَهُ إلى رسولِهِ بقولِهِ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ هو صِفَةُ العافي، وهو اسْمٌ لِلتَّأديبِ.

والتَّوّابُ عندَنا هو المُوَفِّقُ للتوبةِ. ثم الكافرُ إذا أسْلَمَ، وتابَ، لم يُلْزَمْ معَ التوبةِ [كفّارةٌ أُخرى سِوَى التوبَةِ][10] وإنْ كانَ ارْتَكَبَ مساوِئَ وفواحِشَ سِوَى الشِّرْكِ والكُفْرِ. والمُسلِمُ إذا ارْتَكَبَ مساوِئَ لِزِمَتْهُ التوبَةُ والكفّارَةُ جميعاً؛ وذلكَ لأنَّ المُسْلِمَ لمّا أسْلَمَ اعْتَقَدَ حِفْظَ ما لَزِمَهُ مِنَ الشرائِعِ؛ فإذا ارْتَكَبَ ما ذَكَرَ خرَجَ [عنْ][11] شرائِعِهِ، وأدخَلَ نُقْصاناً في ما اعْتَقَدَ حِفْظَهُ؛ فإذا تركَ حِفْظَهُ أدْخَلَ[12] فيهِ النُّقصانَ الذي أدْخَلَ فيه.

وأمّا الكافرُ فليسَ عليهِ شيءٌ مِنَ الشرائِعِ؛ إنما عليهِ أنْ يتوبَ عنِ الشِّرْكِ، ويأتيَ بالإيمانِ؛ لذلكَ افْتَرَقا.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ في الذينَ

---

(١) من م، في الأصل: لهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أيدي. (٤) من م، في الأصل: أو يكون. (٥) الباء ساقطة من الأصل و م. (٦) من م، في الأصل: العالمين. (٧) في الأصل و م: يأخذوا. (٨) في م: لأن. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: فادخل.

تَخلَّفوا[1] عنْ تَبوكَ، ثم نَدِموا، وتابُوا عن ذلكَ، فتابَ اللهُ عليهِمْ؛ يقولُ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إنْ عُدتُمْ إلى ما عنهُ تُبتُمْ، وهو التَّخلُّفُ، يُطْلِعِ اللهُ رسولَهُ والمؤمنِينَ على ذلكَ ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في المنافِقينَ؛ يقولُ: اعْمَلُوا في ما تُنافِقونَ[2] فإنَّ اللهَ يُطْلِعُ رسولَهُ والمؤمِنِينَ على نِفاقِكُمْ، فَتَفتَضِحونَ حينَ[3] يَطَّلِعونَ على سرائِرِكُمْ/ ٢٢٢ ـ أ/ وسَتُرَدُّونَ إلى [ما أعَدَّ لكُمْ عالِمُ][4] الغَيبِ والشهادةِ؛ أي تُرَدُّونَ إلى ما أعَدَّ لكمْ عالِمُ الغَيبِ والشهادةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يَجْزيكُمْ جزاءَ ما كُنتُمْ تَعمَلُونَ.

يُخرَّجُ ذلكَ على الوَعيدِ. وذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ شَهِدَ جَنازةً، والمؤمنونَ أيضاً شَهِدوها، فأثْنى عليها، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ وَجَبَتْ، فقيلَ: يا رسولَ اللهِ ما وَجَبَتْ؟. قالَ: الملائكةُ شُهَداءُ اللهِ في السماءِ، وأنتمْ شُهَداءُ اللهِ في الأرضِ، فإذا شَهِدتُمْ وَجَبَتْ، ثم قرأَ قولَهُ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنْ ثَبَتَ هذا ففيهِ دلالةُ جوازِ الإجماعِ لأنهُ قالَ: الملائكةُ شُهَداءُ اللهِ في [السماءِ، وأنتمْ شُهَداءُ اللهِ في][5] الأرضِ، فإذا شَهِدتُمْ وَجَبَتْ. فإذا [شَهِدَ المؤمنونَ][6] على شَرٍّ فهو شَرٌّ، وإذا شَهِدُوا على خَيرٍ فهو خيرٌ. فَعَلَى ذلكَ إذا شَهِدوا على حُكْمٍ يَلْزَمُ العَمَلُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ليسَ على الأمرِ أنْ يقولَ لهمْ جميعاً: اعْمَلُوا كذا، ولكنْ أنَّ[7] كلَّ مَنْ يُلَقَّنُهُ هذهِ الآيةَ يَتفكَّرُ فيها، ويَتَدبَّرُ، فلا يُقْدِمُ على عملٍ لا يَستَحسِنُهُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ والمؤمنونَ بِحَضرَةٍ[8]، فإذا خلا بهِ لا يَعْمَلُهُ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] ليسَ على الأمرِ بالسَّيرِ في الأرضِ، ولكنْ على الأمرِ بالتَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ في ما نَزَلَ بهمْ بالتكذيبِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ليسَ على الأمرِ أنْ يقولَ لهم ذلكَ، ولكنْ [على أنْ][9] يَتفكَّرَ كُلٌّ فيهِ أنهُ واحدٌ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] كانوا مَوقوفينَ مَحْبوسِينَ، لا يَدْرُونَ ما يَحكُمُ اللهُ فيهمْ أيُعَذِّبُهُمْ أم[10] يَتوبُ عليهِمْ؟ فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ وقالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾ وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ قالَ: هُمُ الثلاثةُ الذينَ تَخلَّفوا.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مَحْبوسونَ؛ يُقالُ: أرْجَيْتُهُ أي حَبَسْتُهُ. وقالَ القُتَبيُّ: ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مُرْجَونَ على أمرِهِ؛ كأنَّ هذهِ الآيةَ نزلَتْ في الذينَ تَخلَّفُوا عنهُ لِلرُّكونِ إلى الدنيا، ورَغْبَةً فيها؛ وهُمُ المؤمِنونَ، والآيةُ التي كانَتْ قبلَ هذهِ الآيةِ في المُنافِقينَ الذينَ تَخلَّفوا لِلرُّكونِ في الدنيا وكُفْراً ونِفاقاً.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ ﭬ أنَّ المُنافِقينَ اتَّخذوا مَسْجِداً، فلما فَرَغوا منهُ جاؤوا إلى نَبيِّ اللهِ، وهو يَتَجهَّزُ لِغَزْوَةِ تبوكَ، فقالُوا: يا رسولَ اللهِ بَنَينا مَسْجِداً لِذي العِلَّةِ والحاجةِ واللَّيلَةِ المَطِيرَةِ، وإنا نُحِبُّ يا رسولَ اللهِ أنْ تأتِيَنا، فَتُصَلِّيَ فيهِ، قالَ رسولُ اللهِ: أنا على سَفَرٍ وحالِ شُغْلٍ، ولو قَدِمْنا مِنْ سَفَرِنا أتَيناكُمْ، فَصَلَّينا لكُمْ فيهِ، إنْ شاءَ اللهُ، فأنْزَلَ اللهُ على رسولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ الآيةَ أخْبَرَ فيهِ أنهمْ لم يَقْصِدوا بِبِناءِ مَسْجِدِهِمْ ذلكَ ما ذَكَرُوا أنَّا بَنَيناهُ لِذي العِلَّةِ والحاجةِ واللَّيلَةِ المَطِيرَةِ والإشفاقِ على الدينِ وحِفْظِ الصلاةِ بالجماعةِ، ولكنْ يَقْصِدونَ بهِ ضَرّاً وكُفْراً وتفريقاً بَيْنَ المؤمِنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ بَيْنَ المؤمنينَ؛ يكونُ قولُهُ: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تفسيراً لقولِهِ ﴿ضِرَارًا﴾ يَقصِدونَ

---

(١) في الأصل وم: تخلفون. (٢) في الأصل وم: تستأنفون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: ما أعد لكم، في م: عالم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: شهدوا. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: بحضرته. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو.

بِبناءِ المَسْجِدِ ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾ [التوبة: ١١٠] أنْ يُفرِّقوا بَيْنَ المؤمِنينَ وبَيْنَ رسولِ اللهِ ﷺ حتى إذا جاءَهُمُ العَدُوُّ وَجدَهُمْ مُتَفرِّقينَ، فيكونُ أيْسَرَ وأهونَ عليهِمْ في الكَسْرِ عليهِمْ والظَّفرِ بِهِمْ مِنْ أنْ كانوا مَجموعينَ.

رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لَنْ يُغْلَبَ اثنا عَشَر ألفاً كَلِمَتُهُمْ واحدةٌ» [أبو داوود٢٦١١]. [وقالَ تعالى][(١)]: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] جَعَلَ الاِجتِماعَ في الدنيا نِعْمَةً، ونهاهُمْ عنِ التَّفرُّقِ، وهُمْ كانوا يَقْصِدونَ بذلكَ أنْ يُفرِّقوا بَيْنَ ضَعَفَةٍ مِنَ المؤمِنينَ وبَيْنَ رسولِ اللهِ، فَيُلْبِسوا[(٢)] عليهِمُ الدينَ لأنهُمْ كانوا أهلَ لِسانٍ وجَدَلٍ، وذلكَ كُلُّهُ كُفرٌ على ما ذَكَرَ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ لأنهُ معلومٌ أنهمْ أسَرُّوا، وأضمَرُوا في ما بَيْنَهُمْ مِنَ الضِّرارِ والكُفرِ والتَّفريقِ بَيْنَ المؤمِنينَ، فأطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ على ما أسَرُّوا لِيُعْلِمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي بَنَوا ذلكَ المَسْجِدَ إرصاداً لِمَنْ حاربَ اللهَ ورسولَهُ.

قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: هو أبو عامرٍ [الراهبُ][(٣)]؛ [ذُكِرَ أنَّ أبا عامرٍ][(٤)] حاربَ رسولَ اللهِ ﷺ ثم فَرَّ منهُ، فقالَ للمنافِقينَ[(٥)]: ابْنُوا مَسْجِداً، واسْتَعِدُّوا، فإني ذاهبٌ إلى قَيصَرَ بالشام، فآتِ بِجُندٍ، فَنُخْرِجُ محمداً وأصحابَهُ مِنَ المدينةِ، فذهبَ إلى قَيصَرَ بالشام، فَبَنوا مَسْجِداً إرصاداً لِمَنْ حاربَ اللهَ ورسولَهُ؛ يعني أبا عامرٍ[(٦)].

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿ضِرَارًا﴾ أي مُضارَّةً ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي تَرَقُّباً بالعَداوةِ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ضِرَارًا﴾ مُضارَّةً ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي وقوفاً وانتِظاراً الفرصةَ لِمَنْ حاربَ اللهَ على المؤمِنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي حَلَفوا ما أرَدْنا باتِّخاذِ المَسْجِدِ ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والخَيرَ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الدلالةِ على إثباتِ الرسالةِ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ قيلَ: لا تُصَلِّ فيهِ لأنهمْ سألُوهُ أنْ يُصَلِّيَ فيهِ، وقيلَ: ﴿لَا تَقُمْ﴾ أي لا تأتِهِ، ولا تدخُلْ، وهو واحدٌ.

[وقولُهُ تعالى[(٧)]: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مَسْجِدُ قُباءَ، وقالَ بَعْضُهُمْ: هو مَسْجِدُ رسولِ اللهِ. ورُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ [أنهُ][(٨)] قالَ: اخْتُصِمَ، أو قالَ: اخْتَصَمْنا [في][(٩)] المَسْجِدِ الذي أُسِّسَ على التَّقْوَى، فقالَ النبيُّ ﷺ «هو مَسْجِدي هذا» [الترمذي٣٠٩٩] «هو مسجدُكُمْ هذا» [مسلم١٣٩٨/ ٥١٤] وعنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ [أنهُ][(١٠)] قالَ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عنِ المَسْجِدِ الذي أُسِّسَ على التَّقْوَى، فقالَ: «هو مَسْجِدي هذا». وظاهِرُ ما ذَكَرَ أنْ يكونَ مَسْجِدَ قُباءَ لأنهُ ذُكِرَ لَمّا نَزَلَ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ قالَ لأهلِ قُباءَ: «إنَّ اللهَ قد أحْسَنَ عليكُمُ الثناءَ، فماذا تَصْنَعونَ؟ قالوا: إنا نَغْسِلُ عنا أثَرَ الغائِطِ أو البَولِ» [أحمد٣/ ٤٢٢] وفي بعضِ الأخبارِ «قالوا: يا رسولَ اللهِ إنا نَجِدُ مكتوباً علينا في التوراةِ الاِسْتِنْجاءُ بالماءِ فلا نَدَعُهُ، فقالَ: لا تَدَعُوهُ» [السيوطي في الدر المنثور٤/ ٢٩٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ يَحتَمِلُ أي فيهِ رجالٌ يُؤْثِرونَ التَّطَهُّرَ بالإيمانِ والتوحيدِ والصلاةِ فيهِ، وفي كل مَسْجِدٍ هذا فيهِ فهو مُؤَسَّسٌ على التَّقْوَى أي تَقْوَى الشِّرْكِ والخِلافِ لأمرِ اللهِ ومَناهيهِ، أو يقولُ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ﴾ أي يُؤْثِرونَ التَّطَهُّرَ بالتَّقْوَى والأعمالِ الصالحةِ على غَيرِها مِنَ الأعمالِ التي تُنَجِّسُهُمْ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ التَّطَهُّرِ مِنَ الأقذارِ والأنجاسِ؛ كأنهُ قالَ: فيهِ رجالٌ يُؤْثِرونَ الإبلاغَ في التَّطَهُّرِ مِنَ الأقذارِ والأنجاسِ التي تُصيبُهُمْ.

---

(١) في الأصل و م: وقوله. (٢) في الأصل م: فيلبسون. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: للمنافق. (٦) في الأصل و م: عمر. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي على الطاعةِ لِلّهِ والإخلاصِ لهُ ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ لهُ وطَلَبِ مَرْضاتِهِ ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي بَنَى لِلاختِلافِ والتَّفريقِ بَيْنَ المؤمنينَ والكُفرِ باللهِ.

هذا المَثَلُ مُقابَلَةُ[1] مَكانٍ بِمَكانٍ؛ يقولُ: مَنْ بَنَى بِناءً[2] على قرارٍ مِنَ الأرضِ ممّا يُقَرُّ بِهِ، ويُنْتَفَعُ بِهِ خَيْرٌ مِمَّنْ بَنَى بِناءً على المكانِ الذي لا يُقَرُّ بِهِ، ويُؤَدّي إلى الهَلاكِ، ولا يُنْتَفَعُ بِهِ. والأوَّلُ مُقابَلَةُ[3] فِعْلٍ بِفِعْلٍ؛ وهو قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا/ ٢٢٢ - ب/ بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧] كالذي بَنَى لِضِدِّ ذلكَ؛ أي لَيسا بِسَواءٍ. ثم قولُهُ[4]: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] هذا مُقابَلَةُ فِعْلٍ بِفِعْلٍ؛ يقولُ: الذينَ بَنَوا المَسْجِدَ على الطاعةِ للهِ والإخلاصِ لهُ وطَلَبِ مرضاتِهِ والاجتِماعِ فيهِ خَيْرٌ أمْ مَنْ بَنَى لِلْكُفرِ باللهِ والتَّفريقِ بَيْنَ المؤمنينَ والضِّرارِ[5] بهِمْ؟ هذا مُقابَلَةُ فِعْلٍ بِفِعْلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ هذا مُقابَلَةُ[6] مَكانٍ بِمَكانٍ كما[7] ذَكَرْنا. والأُسُّ والأَسَسُ والتأسيسُ والأساسُ واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ قالَ: شَفاهُ فَمُهُ، والجَمْعُ شِفاهٌ، وجُرُفٌ أرضٌ يَسيلُ فيها السَّيلُ حتى يَحْفِرَها، والجِرَفَةُ جَمْعٌ، والهارِي الهَشُّ الذي لَيسَ يَصْلُبُ، ويُقالُ: انهارَ يَنْهارُ أي انْهَدَمَ يَنْهَدِمُ، ويُقالُ: رجلٌ هارٍ؛ أي ضعيفٌ، وأرضٌ هَشَّةٌ أي رَخْوَةٌ سَريعَةُ الانهدامِ، والهَشُّ الرَّخْوُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي جُرُفٍ هائِرٍ، والجُرُفُ ما يَنْجَرِفُ بالسُّيولِ [مِنَ][8] الأودِيَةِ، والهائِرُ الساقِطُ، ومنهُ يُقالُ: تَهَوَّرَ البناءُ إذا سَقَطَ، وانْهارَ.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الشَّفا هو الشَّفيرُ، والجُرُفُ ما تَجَرَّفَ بالسُّيولِ[9] مِنَ الأودِيَةِ، وهارٍ يُريدُ هائِرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قالَ بَعْضُهُم: خَسَفَ اللهُ مَسْجِدَهُمْ في نارِ جَهَنَّمَ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: فَخَرَّ مِنْ قَواعِدِهِ في نارِ جَهَنَّمَ، وقالَ: حُرِقَتْ فيهِ بُقْعَةٌ، فَرُئِيَ منها دُخانٌ، سَطَعَ، وقالَ: [فَهَوَى بِناؤُهُمْ][10] الذي بَنَوا في نارٍ. ولاندْري كيفَ هو؟ وما مَعْناهُ؟

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾][11] أي حَسْرَةً وندامَةً. وقالَ بَعْضُهُمْ: رِيبَةً أي شَكًّا ورَيباً.

ومَنْ قالَ: حَسْرَةً وندامَةً فهو على وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنهمْ تابوا، ونَدِمُوا على ما صَنَعوا، ويَحْتَمِلُ: حَسْرَةً وندامَةً لِما افْتَضَحُوا بِما صَنَعوا وبِما[12] أرادوا بقولِهِ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

ومَنْ قالَ: [﴿رِيبَةً﴾ أي][13] شَكًّا ونِفاقاً ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى المماتِ [أرادَ أنهم][14] على الشَّكِّ والنِّفاقِ [إلى][15] الموتِ، وهو كقولِهِ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ [التوبة: ٧٧]. وأصلُ الرِّيبَةِ التُّهَمَةُ؛ يُقالُ: فلانٌ مُريبٌ إذا كانت بِهِ تُهَمَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا أيضاً على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على التَّمثيلِ: أنَّ الخَوفَ والحُزْنَ إذا بَلَغَ غايَتَهُ يُقالُ: فلانٌ مُنْقَطِعُ القَلْبِ.

[والثاني: على الوَعيدِ كقولِهِ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾][16].

---

(١) في الأصل وم: مقابل. (٢) من م، في الأصل: فلان. (٣) في الأصل وم: مقابل. (٤) في الأصل وم: مقابل. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) في الأصل وم: وضوا. في الأصل وم: مقابل. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: من السيول. (١٠) في الأصل و م: يهوي ببنائهم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) أدرج قبلها في الأصل: ويحتمل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أي هم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل وم، انظر ما ذكر المؤلف في تفسير الآيات: ٧٥و ٧٦و ٧٧ من السورة.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ أي اسْتامَ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ خبرٌ، ولكنْ يَحتَمِلُ الاستِيامَ، أيِ اسْتامَ أنْ يَبْذُلوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ لِيَجعَلَ لَهُمُ اللهُ الجَنَّةَ. ثم بَيَّنَ، فَقالَ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ خَبَراً عنْ قومٍ باعوا أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [النساء: ٧٤] فإذا صاروا بائِعينَ أنْفُسَهُمْ كانَ اللهُ مُشتَرِيَها منهم.

ثم بَيَّنَ أنْ كيفَ يُبَاعُ؟ وكيفَ يُشْرَى؟ فقالَ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي يَقْتُلونَ العَدُوَّ، ويُقْتَلونَ أي يَقْتُلُهُمُ العَدُوُّ. وقد قُرِئَ الأوَّلُ بالرفعِ فَيُقْتَلونَ والثاني بِنَصْبِ الياءِ [ويَقْتُلونَ][1]؛ فهو ليسَ على الجَمْعِ: أنْ يُقْتَلوا، ويَقْتُلوا، ولكنْ أنْ يَقْتُلوا العَدُوَّ، أو يَقْتُلَهُمُ العَدُوُّ. وأيُّهما كانَ، أو يقاتلونَ، وإنْ لم يُقْتَلوا كقولِهِ: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] وقولِهِ[2] ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الصف: ١٠ و١١] سَمَّى الإيمانَ باللهِ والمُجاهَدَةَ في سَبيلِ اللهِ تجارةً.

ثم قالَ: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ بِحَقِّ الوَعْدِ لهمْ فَضْلاً منهُ لا بِحَقِّ البَذْلِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ ذَكَرَ شِرَى أنفُسِهِمْ وأموالِهِمْ منهُمْ؛ وأنْفُسُهُمْ في الحقيقةِ لِلّهِ؛ [لهُ][3] أنْ يأخُذَ منهُمْ أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ، وأنْ يُتْلِفَهُمْ بأيِّ وجهٍ ما شاءَ، لكنَّهُ عامَلَ عِبادَهُ معامَلَةَ مَنْ لا مُلْكَ لَهُ في ذلكَ، ولا حَقَّ، كَرَماً منهُ وَجُوداً.

ووَعَدَ لَهُمْ على ذلكَ أجراً وبَدَلاً. وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ القَرْضِ لهُ، ووَعَدَ لَهُمْ على ذلكَ الأجرَ مُضاعفاً، وكذلكَ ما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الثوابِ في ما يَعْمَلونَ لأنفُسِهِمْ كالعامِلِينَ لهُ حينَ[4] قال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤] وقالَ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] ونَحوَهُ؛ وإنْ كانوا في الحقيقةِ عامِلينَ لِأَنفُسِهِمْ بقولِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧].

ذَكَرَ ما ذَكَرَ فَضْلاً منهُ وإكراماً؛ إذْ هي لهُ حَقٌّ في الحقيقةِ، وهو كما قالَ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] فإنما يَطْلُبُ منهُمْ بَذْلَ أنفُسِهِمْ وأموالِهِمْ.

أو ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ، شِرَى مالِهِ في الحقيقةِ لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنْ كيفَ يعامِلُ الناسُ بَعْضُهُمْ [بَعْضاً][5]، وكذلكَ قالَ اللهُ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] عامَلَهُمْ مُعامَلَةَ مَنْ لا حَقَّ لهُ في أموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ لِيُعامِلَ[6] الناسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في أموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ كَمَنْ لا حَقَّ لهُ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي وَعْداً واجباً ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي وَعَدَ ذلكَ في التوراةِ والإنْجيلِ والقرآنِ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: عَهْداً عليهِ حقاً في التوراةِ والإنْجيلِ والقرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ هذهِ الآيةُ تَنْقُضُ قولَ مَنْ يَقولُ بأنَّ الإنْجيلَ على التَّخفيفِ والتَّيسيرِ، والتوراةَ بالشدائدِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤] وذلكَ مذكورٌ في حُكْمِ الإنْجيلِ، إلا أنْ يُقالَ بأنَّ قولَهُ: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ أي كانَ هذا مذكوراً لهذهِ الأمَّةِ، وما ذُكِرَ.

ثم قالَ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ هذا على أنَّ قولَهُ ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآيةَ إنما هو عَهْدٌ إليهِمْ حينَ[7] قالَ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحَدَ أوفَى وأصْدَقُ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ إنْ[8] وَفَيْتُمْ أنتُمْ بِعَهْدِهِ الذي عَهِدَ إليكُمْ[9]، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٤٦. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) اللام ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) في الأصل وم: عليكم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الاستِبْشارُ الذي ذَكَرَ وقتَ الموتِ أنْ يقولَ لهمُ الملائكةُ ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ في الحياةِ. هذا يدلُّ أنَّ البَيْعَ يكونُ بَيعاً بالبَدَلِ، وإنْ لم يُتَلَفَّظْ بِلَفظَةِ البَيْعِ، وقد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ الأحكامَ لم تتعلَّقْ بالألفاظِ و الأسامي، إنما عُلِّقَتْ بِمَعانٍ فيها؛ فإذا وُجِدَتِ المَعاني حُكِمَ بها [الذي](١) ذَكَرَ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ إلى آخِرِهِ، قالَ بَعْضُهُمْ: على الصِّلَةِ بالأوَّلِ في ما ذَكَرَ مِنَ الشِّرَى والوَعْدِ لهمُ الجنَّةَ إذا كانوا على الوصفِ الذي ذَكَرَ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ [بْنِ كَعْبٍ](٢) ﷺ أنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمنينَ التائبينَ العابدينَ الحامدينَ(٣) على الصِّلَةِ بالأوَّلِ بالكَسْرِ إلى قولِهِ ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قَرَآها: والقائمينَ على حدودِ اللهِ ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

ومنهم مَنْ قالَ: على الابْتِداءِ بالرَّفْعِ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ إلى آخِرِه. ويُشْبِهُ أن يكونَ الشِّراءُ الذي ذَكَرَ في أوَّلِ(٤) الآيَةِ، وما وَعَدَ لَهُمْ بِبَذْلِ أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ في الجهادِ يكونُ ذلكَ أيضاً في غَيرِهِ مِنَ الطاعاتِ والخَيراتِ مِنْ بَذْلِ النَّفْسِ للهِ في ما ذُكِرَ مِنَ العِبادةِ لهُ والجِهادِ. وما ذُكِرَ في الآيَةِ فهو بائعٌ نَفْسَهُ منهُ كقولِهِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ يَحتَمِلُ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ أو مِنْ جَميعِ المَعاصِي/ ٢٢٣ - أ/ ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ يَحتَمِلُ المُوَحِّدينَ(٥)، ويَحتَمِلُ ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ جميعَ أنواعِ العبادةِ. و﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ قيلَ: الشاكرونَ، وقيلَ: المُثْنونَ على اللهِ.

فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ مِنَ العبادةِ [يَكُنِ ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ المُثْنِينَ](٦) على اللهِ لأنَّ العِباداتِ كلَّها شُكْرٌ. وإنْ كانَ قولُهُ ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ المُوَحِّدينَ [يَكُنْ قولُهُ ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ الشاكِرينَ](٧) النِّعَمَ التي أنْعَمَها اللهُ عليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى](٨): ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ قيلَ: الصائمونَ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ السائحينَ، فقالَ: همُ الصائمونَ، وقالَ: «وسِياحَةُ أمتي الصِّيامُ» [القرطبي في تفسيره: ٤/ ١٨٩].

وقالَ القُتَبِيُّ: وأصلُ السائحِ: الذاهبُ في الأرضِ، ومنهُ يُقالُ: سائحٌ إذا جَرَى، وذَهَبَ، والسائحُ في الأرضِ مُمْتَنِعٌ مِنَ الشَّهواتِ، فَشَبَّهَ الصائمَ(٩) بهِ لإمساكِهِ في صومِهِ عنِ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ وجميعِ اللذاتِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: همُ الذينَ يمضُونَ على وجوهِهِمْ في الأرضِ، لَيسَتْ [لهمْ](١٠) منازلُ؛ يُقالُ: ساحَ يَسيحُ سَيحا وسِياحَةً.

[وقولُهُ تعالى](١١): ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ قيلَ: المُصَلُّونَ، وقيلَ: الخاضِعونَ للهِ، والخاشِعونَ لهُ، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ.

[وقوله تعالى](١٢) ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يَحتَمِلُ التوحيدَ؛ أي آمِرونَ بتوحيدِ اللهِ، ويَحتَمِلُ ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ لهمْ بالخَيراتِ كُلِّها ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الشِّرْكِ، ويَحتَمِلُ كلَّ مَعْصِيَةٍ.

[وقولُهُ تعالى](١٣): ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لِفرائضِ اللهِ التي فَرَضَها على عبادِهِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: لِسُنَنِ اللهِ، وهُمْ(١٤) حافظونَ جميعَ أحكامِ اللهِ، لا يُجاوِزونَ ما حَدَّ لهمْ، ولا يُفَرِّطونَ فيها.

[وقولُهُ تعالى](١٥): ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحتَمِلُ البِشارَةَ لهؤلاءِ الذينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ، ويَحتَمِلُ على الابْتِداءِ؛ أي بَشِّرْ جميعَ المؤمنينَ ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧] واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٤٧. (٤) من م، في الأصل: الأول. (٥) في الأصل وم: الموحدون. (٦) في الأصل وم: فيكون المثنون. (٧) في الأصل وم: يكون قوله الشاكرون. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الصيام. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: ولكن. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ دلَّتْ الآيَةُ بِما نَهانا أنْ نَسْتَغْفِرَ لِمَنْ عَلِمْنا أنهُ مِنْ أهلِ النارِ لِما أنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ لهُ لِما عَلِمَ أنهُ لا يؤمِنُ. فَعَلَى ما عَلِمْنا أنهُ لا يَغْفِرُ لهُ لم نَسْتَغْفِرْ لهُ، ولم[1] يَجُزْ لنا أنْ نقولَ: [لهُ][2] إنهُ أرادَ الإيمانَ لِمَنْ يَعْلَمُ أنهُ لا يؤمِنُ أبداً كما لم يَجِبْ أنْ نَستَغْفِرَ[3] لِمَنْ وَجَبَتْ لهُ النارُ.

فهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ قد أرادَ لكلِّ كافرٍ الإيمانَ، لكنهُ لم يؤمِنْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَدِ اسْتَغْفَرَ لأحدِ والِدَيهِ، وذُكِرَ أنهُ دخلَ على أبي طالبٍ عمِّهِ، فَدَعاهُ إلى شهادةِ أنْ لا إله إلّا اللهُ، فأبَى، ثم اسْتَغْفَرَ لهُ، وقالَ: لأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ مالم أُنْهَ عنهُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ الآية.

قالَ الحَسَنُ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ لا يَعْلَمُ أنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ للكافرِ؛ إذ في العَقْلِ والحِكْمَةِ ألّا يَغْفِرَ لهُ والتعذيبُ لهُ أبداً.

وعندَنا في الحِكْمَةِ تعذيبُ الكافرِ أبداً وألّا يُغْفَرَ [لهُ][4] لِوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ في ذلكَ تَسْوِيَةً بينَ العَدُوِّ وَوَلِيِّهِ؛ فهو ليسَ بِحِكْمَةٍ[5]؛ إذْ في الحِكْمَةِ التَّمْييزُ بَيْنَهما.

والثاني: أنهُ إذا عبدَ غَيرَ اللهِ معهُ إنما يَعْبُدُ غَيْرَهُ لِجَهْلِهِ، وتلكَ الجَهالةُ لا تَرْتَفِعُ أبداً؛ لأنهُ إذا غُفِرَ لهُ، فَيَقَعُ عندَهُ أنهُ إنما جُزِيَ [بما جُزِيَ][6] وغُفِرَ لعبادةِ غَيرِ اللهِ.

والثالثُ: أنهُ لو غُفِرَ للكافِرِ لَذَهَبَتْ حِكْمَةُ الأفعالِ؛ لأنَّ الأفعالَ إنما يُؤْمَرُ بها لِعَواقِبَ تُتَأَمَّلُ: إمّا حَمْداً وإمّا ذَمّاً. فإذا غُفِرَ لهُ حُمِدَ بأفعالٍ كانَ الحَقُّ لهُ الذَّمَّ بها. ففي [ذلكَ][7] خُروجُها عنِ الحكمةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ يَسْتَغْفِرُ لِلْمُنافِقِينَ قَبْلَ أنْ يَتَبَيَّنَ لهُ أنهمْ مُنافِقونَ. فلما تَبَيَّنَ لهُ نِفاقُهُمْ كَفَّ عنِ [اسْتِغْفارِهِ لهُمْ][8]. فأمّا أنْ يَسْتَغْفِرَ للكافِرِ على عِلْمٍ منهُ أنهُ كافرٌ فلا يُحْتَمَلُ على ما يقولُهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ اسْتَغْفَرَ لِعَمِّهِ ولأحدِ والدَيهِ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: وَعْدُهُ إيّاهُ الإسلامُ، فكانَ اسْتِغْفارُهُ لأبيهِ على وَعْدِ الإسلامِ، فإنما كانَ اسْتِغْفارُهُ بَعْدَ إسلامِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ [إبراهيم: ٤٠و٤١] فإنما طَلَبَ لهُ المَغْفِرَةَ في ذلكَ اليومِ، وقد كانَ وَعَدَ لهُ الإسلامَ، لذلكَ كانَ اسْتَغْفَرَ لهُ. ألا تَرَى أنهُ تبرَّأَ منهُ إذْ[9] تَبَيَّنَ لهُ أنهُ مِنْ أهلِ النارِ [بقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]][10].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ طَلَبَ السَّبَبِ الذي بهِ منهُ يَسْتَوجِبُ المَغْفِرَةَ، وهو التوحيدُ، وهو كقولِ هودٍ لِقومِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] وكقولِ نوحٍ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] ليسَ يأمُرُهُمْ أنْ يقولوا: نَسْتَغْفِرُ اللهَ، ولكنْ يأمُرُهُمْ بالإسلامِ لِيَغْفِرَ لَهُمْ، ويكونوا مِنْ أهلِ المَغْفِرَةِ. فَعَلَى ذلكَ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] أي أعْطِهِ السَّبَبَ الذي بهِ يَسْتَوجِبُ المَغْفِرَةَ؛ وهو التوحيدُ. كانَ سُؤالُهُ سُؤالَ التوحيدِ؛ إذْ لا يَحِلُّ طَلَبُ المَغْفِرَةِ للكافِرِ، وفي الحِكْمَةِ لا يَجوزُ أنْ يُغْفَرَ لهُ.

فإنْ قيلَ: فإنْ كانَ على ما ذَكَرْتُمْ فكيفَ[11] اسْتَثْنَى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ بَعْدَ ما أخْبَرَ لنا أنَّ في إبراهيمَ

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: يغفر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل و م: بحكيم. (٦) في الأصل: به بما جزي. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل و م: استغفارهم. (٩) في الأصل و م: إذا. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) الفاء ساقطة من الأصل و م.

قُدْوَةً بقولِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾؟ [الممتحنة: ٤] قيلَ: يَحْتَمِلُ الاستِثْناءُ: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أي حتى نَعْلَمَ المَعْنَى مِنِ استِغْفارِهِ لأنَّا لا نَعْرِفُ مُرادَ إبراهيمَ مِنِ استِغْفارِهِ لأبيهِ. وكذلكَ استِغْفارُ الأنبياءِ ﷺ لقومِهِمْ والمُتَّصِلينَ بهِمْ، فاستَثْنَى ذلكَ إلى أنْ نَعْلَمَ مُرادَهُمْ مِنِ استِغْفارِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قيلَ: الأوّاهُ الدَّعّاءُ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ الأوّاهِ، وقالَ: الدَّعّاءُ الخاشِعُ المتَضَرِّعُ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: الأوّاهُ المُؤْمِنُ، وقيلَ: الأوّاهُ الفَقيهُ المُوقِنُ، وقيلَ: المَسيحُ، وقيلَ: الأوّاهُ المُتأوِّهُ حُزناً وخوفاً.

و ﴿حَلِيمٌ﴾ قيلَ: الحَكيمُ ضِدُّ السَّفيهِ، وقيلَ: العَليمُ والحَليمُ هو الذي لا يَغْضَبُ، ولا يَسْفَهُ عندَ سَفَهِ السَّفيهِ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ اختلفَ أهلُ التأويلِ: قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في استِغْفارِ المؤمنينَ للمُشْرِكينَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ في نَسْخِ الأحكامِ والشرائعِ التي تَحْتَمِلُ النَّسْخَ.

فإنْ كانَ في [الاستِغْفارِ للمُشْرِكينَ][2] فإنهُ لَيسَ هناكَ نَسْخٌ؛ لأنهُ لم يَسْبِقْ لهمُ الأمرُ بالاستِغْفارِ ولا الإباحةُ لهمْ في ذلكَ؛ فإنهُ قالَ: ما كانَ اللهُ لِيَجْعَلَ قوماً ضُلّالاً بالاستِغْفارِ بَعْدَ إذْ جَعَلَهُمْ مُهْتَدِينَ حتى يَعْلَمُوا بالنَّهْيِ عنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وهو يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنِ استِغْفارِهِمْ لِلْمُنافِقينَ قَبْلَ أنْ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ؛ يقولُ: لا يَجْعَلُهُمْ ضُلّالاً بذلكَ ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

وإنْ كانَ في نَسْخِ الأحكامِ فكأنهُ، واللهُ أعلَمُ، قالَ: ما كانَ اللهُ لِيَجْعَلَ قوماً ضُلّالاً جُهّالاً بِفِعْلِهِمُ الذي فَعَلُوا بالأمرِ ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يَعْلَمُوا بالذي يَلْزَمُهُمُ الانتِهاءُ عنهُ، وهو النَّسْخُ.

هذا في الأحكامِ التي تَحْتَمِلُ النَّسْخَ وأمّا الأحكامُ التي لا تَحْتَمِلُ النسخَ فلا. وأصلُهُ: إنَّ كلَّ ما كانَ في العَقْلِ امْتِناعُ نَسْخِهِ فإنهُ لا يَرِدُ فيهِ النَّسْخُ، وكُلُّ ما كانَ في العَقْلِ لا امْتِناعَ على نَسْخِهِ فإنهُ يجوزُ أنْ يَرِدَ فيهِ النَّسْخُ.

ثم المسألةُ في ما عَمِلوا بالمَنْسوخِ قَبْلَ العِلْمِ بهِ بالنَّسْخِ: ما حالُ العَمَلِ الذي عَمِلُوا بِهِ؟ يَخرُجونَ، ويأثَمونَ في عَمَلِهِمْ بذلكَ في حالِ نَسْخِهِ، ويُثابونَ، ويُؤْجَرونَ على ذلكَ. فإنْ كانَ الفِعْلُ فِعْلَ طاعةٍ وقُرْبَةٍ فإنهُ يُثابُ في قَصْدِهِ وفِعْلِهِ/ ٢٢٣ ـ ب/، ولا يَخْرُجُ منهُ.

ولكنْ إنْ[3] كانَ الفِعْلُ ليسَ بِفِعْلِ قُرْبَةٍ وطاعةٍ، ولكنْ فِعْلُ حِلٍّ وحُرْمَةٍ فإنهُ في فِعْلِهِ قَبْلَ بُلوغِ العِلْمِ بِنَسْخِهِ لا يَخْرُجُ في فِعْلِهِ نَحْوُ ما رُوِيَ أنهمْ كانُوا يَشْرَبونَ الخَمْرَ، ثم أتاهُمْ آتٍ فقالَ: ألا إنَّ الخَمْرَ قد حُرِّمَتْ، فَصَبُّوها، وكَفُّوا عنها. فَهُمْ في شُرْبِهِمْ بَعْدَ التحريمِ قَبْلَ بُلوغِ الخَبَرِ إليهِمْ لا يَخْرُجونَ.

وأمّا الفِعْلُ الذي هو فِعْلُ قُرْبَةٍ وطاعةٍ فإنَّ لَهُمُ القُرْبَةَ في فِعْلِهِمْ، وهو الصلاةُ، ونَحْوُهُ ما رُوِيَ أنَّ نَفَراً كانُوا يُصَلُّونَ إلى بيتِ المَقْدِسِ، فَمَرَّ عليهِمْ مارٌّ، فقالَ: ألا إنَّ القِبْلَةَ قد حُوِّلَتْ، وهُمْ في الركوعِ، إلى الكعبةِ، فَتَحَوَّلُوا نَحْوَها، فأخْبَرُوا عنْ ذلكَ رسولَ اللهِ، فلم يَأْمُرْهُمْ بالإعادةِ لأنَّ الفِعْلَ فِعْلُ قُرْبَةٍ وطاعةٍ. فالطاعةُ والقُرْبَةُ موجودةٌ في فِعْلِهِمْ لأنَّ الأفعالَ التي فُرِضَتْ لم تُفْرَضْ لِنَفْسِ الأفعالِ، إنما فُرِضَتْ لِلطاعةِ والقُرْبَةِ للهِ فيها. فإنهُ يُؤْجَرُ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما فيهِ مَصالِحُ الخَلْقِ وما ليسَ فيهِ. كانَ هذا، واللهُ أعلَمُ، خَرَجَ لإنكارِ مَنْ أنكَرَ النَّسْخَ في الشرائعِ. يقولُ: إنَّ اللهَ يَعْلَمُ بما فيهِ مَصالِحُ الخَلْقِ، وأنْتُمْ لا تَعْلَمونَ. وفي الناسخِ مَصالِحُ لهمْ، وأنْتُمْ لا تَعْلَمونَ.

الآية ١١٦ ويُؤَيِّدُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي كما لَهُ أنْ يُميتَ بَعْدَ الحياةِ، ويُحْيِيَ بَعْدَ الموتِ فَلَهُ أنْ يَتَعَبَّدَهُمْ في حالِ عبادةٍ وفي حالِ عبادةٍ أُخرَى.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: استغفار المشركين. (٣) في الأصل و م: فان.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية؛ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: تابَ اللهُ عليهِمْ لِزَلّاتٍ سَبَقَتْ منهُمْ ولِهَفَواتٍ تَقَدَّمَتْ مِن غيرِ أنْ كانَ منهُمْ زَلّاتٌ؛ في هذا يَعْني في غَزْوَةِ تَبوكَ، وهَفَواتٍ.

أمّا التوبةُ على النَّبيِّ بقولِهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [التوبة: ٤٣] وعلى[١] المُهاجِرينَ والأنصارِ بِما[٢] كانَ منهُمْ يومَ أُحُد ويومَ[٣] حُنَينٍ بقولِهِ[٤]: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقالَ بَعْضُهُمْ: تابَ عليهِمْ لِهَفَواتٍ كانَتْ منهُمْ في غَزْوَةِ تَبوكَ؛ هَمُّوا أنْ يَنْصَرِفوا في وَقْتٍ غَيرِ وَقْتِ الانْصِرافِ.

ويُشْبِهُ أنْ تكونَ التوبةُ التي ذَكَرَ على وجهَينِ سِوَى ما ذَكَروا:

[أحدُهُما: هو][٥]: أنهُ تاب عليهِمْ؛ أي جَدَّدَ عليهِمُ التوبةَ لِلْهَفَواتِ التي تَقَدَّمَتْ أوِ للثباتِ عليها مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُمْ في الحدوثِ شيءٌ. ولكنْ يكونُ لذلكَ حُكْمُ التجديدِ والثباتِ عليها، فيكونُ كَسُؤالِ الهُدَى، وهُمْ على الهُدَى كقولِهِ ﷺ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] أي يا أيها الذينَ آمَنوا في ما مَضَى مِنَ الوَقْتِ [آمِنوا][٦] أوِ اثْبُتوا في ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي جَدَّدَ عليهِمُ التوبةَ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُمْ هفوةٌ، أو ثَبَّتَهُمْ على التوبةِ التي كانتْ منهُمْ.

والثاني: أنهُ ذَكَرَ التوبةَ؛ وذلكَ أنهمْ حينَ[٧] صَبَرُوا على ما أصابَهُمْ مِنَ الشدائدِ والجَهْدِ كشَفَ اللهُ عنهُمْ أشياءَ كانَتْ مَسْتورةً عنهمْ[٨]، وجَلَا لَهُمْ أغطيَةً كانَتْ لا تَنْجَلِي لَهُمْ مِنْ قَبْلُ.

لكنِ انْجَلَى ذلكَ لهمْ، وانْكَشَفَ لِصَبْرِهِمْ على الشدائدِ التي أصابَتْهُمْ [كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾][٩] [البقرة: ١٥٦] لمّا صَبَرُوا على ما أصابَهُمْ مِنَ المَصائبِ [ازدادوا هُمْ][١٠] تَفْويضاً [وتَسْليماً للأمرِ][١١] والمَرْجِعِ إليهِ، وكقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التغابن: ١١] زادَ[١٢] لَهُمْ بِما صَبَرُوا هُدىً، وتَجَلَّى لَهُمْ أشياءُ، لم تكنْ مِنْ قَبْلُ.

فَعَلَى ذلكَ تَحْتَمِلُ التوبةُ التي ذَكَرَ أنهمْ لمّا صَبَرُوا على ما أصابَهُمْ مِنَ الشِّدَّةِ والجَهْدِ تَجَلَّى لهمْ أشياءُ كانَتْ مُغَطّاةً، واللهُ أعلَمُ؛ فإنهُ ذكَرَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ولم يَذْكُرْ أنها زاغَتْ، وذَكَرَ قلوبَ فريقٍ منهُمْ، ولم يَذْكُرْ قلوبَ الكُلِّ كما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ ذِكْرُ التوبةِ على النَّبيِّ الإشراكَ[١٣] لهُ معَ المؤمنينَ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ لهُ ذنبٌ؛ لأنهُ أخبَرَ أنَّ ذنبَهُ مَغفورٌ بقولِهِ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فهو كما أشْرَكَهُ في الاستِغْفارِ كقولِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] أمرُهُ بالاستِغْفارِ لِذَنْبِهِ على الإشراكِ لهُ مع اسْتِغْفارِ المؤمنِينَ؛ إذْ أخْبَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ.

والتوبةُ مِنَ اللهِ تعالى تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: التوفيقُ؛ وفَّقَهُمْ لِلتَّوبَةِ، وأكرَمَهُمْ بها، كقولِهِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨] أي وفَّقَهُمْ لِلتَّوبَةِ، فَتابُوا.

والثاني: التوبةُ منهُ قَبولُها منهُمْ؛ أي يَقْبَلُ مِنْهُمُ التوبةَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

والثالثُ: تابَ عليهِمْ؛ أي تَجاوَزَ عنهُمْ، وعفَا، وصَفَحَ عنهُمْ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) الباء ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: عندهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: ازدادهم، في م: ازداد لهم. (١١) في الأصل وم: وتسليم الأمر. (١٢) في الأصل و م: ازداد لهم. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: على.

على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ تُخَرَّجُ إضافةُ التوبةِ إلى اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ قيلَ: في عُسْرَةِ النَّفَقَةِ، وعُسْرَةِ الظَّهرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنهُ قد أصابَهُمْ مِنَ الجَهْدِ والشِّدَّةِ، حتَّى إنَّ الرجُلَينِ ليَقْسِمانِ التَّمْرةَ بَيْنَهما، وكانَتِ التَّمْرةُ يَتداوَلُونَ بَيْنَهُمْ، يَمُصُّها هذا، ثم يَشْرَبُ عليها الماءَ، ثم يَمُصُّها هذا. ذُكِرَ نَحْوُ هذا، ولكنْ لا نَدرِي كيفَ كانَ الأمْرُ؟ سِوَى أنهُ أخبَرَ أنَّ قلوبَهُمْ كادَتْ تَزيغُ مِنَ الجَهْدِ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ عنِ التوبةِ نَحْوُ قولِهِ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ كانوا يَبْتَهِلُونَ ويَدْعُونَ اللهَ، حتى تابَ اللهُ عليهِمْ، فَتابُوا.

وقالَ قائلونَ: ﴿خُلِّفُوا﴾ عنْ رسولِ اللهِ لمّا تَقَدَّمَهُمُ القومُ، فهمُ المُخَلَّفُونَ بِتَقَدُّمِ أولئكَ، وقالَ قائِلونَ: ﴿خُلِّفُوا﴾ خَلَّفَهُمُ اللهُ؛ أي خَلَفَهُمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ همُ الذينَ تَخَلَّفُوا[1]، فَلَحِقوا رسولَ اللهِ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [يحتملُ هذا على التحقيقِ][2] ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّمثيلِ. ولِلتَّحْقيقِ وجهانِ:

أحَدُهما: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أنهُمْ شَدُّوا أنْفُسَهُمْ بالسَّواري والأُسْطُواناتِ، وأتَوا بأموالِهِمُ التي مَنَعَتْهُمْ عنِ الخُروجِ معَ رسولِ اللهِ، وتَصَدَّقُوا بالأرضِينَ التي مَنَعَتْهُمْ عنِ الخُروجِ، وضاقتْ عليهِمُ الأرضُ بَعْدَ ما كانَتْ عليهِمْ مُتَّسِعَةً؛ يَتَّسِعونَ فيها؛ لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ واحداً مِنْ هؤلاءِ ممّا حَبَسَتْهُ أرضُهُ عنِ الخروجِ، فَتَصَدَّقَ بها على الفقراءِ، وكانَ لهُ التَّوَسُّعُ بتلكَ الأرضِ، ثم ضاقَتْ عليهِ.

والثاني: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لمّا حَبَسوا أنْفُسَهُمْ عنْ أراضِيهِمْ، وتَركوا شَهَواتِهِمْ وأمانِيَّهُمْ وما يَتَلَذَّذونَ بهِ. فذلكَ ضِيقُ الأرضِ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ لمّا شَدُّوا أنْفُسَهُمْ بالأُسْطُواناتِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّمثيلِ؛ وذلكَ أنَّ الخوفَ إذا اشْتَدَّ على الإنسانِ، وبَلَغَ غايتَهُ، حتى يَمْنَعَهُ مِنَ القرارِ في الأرضِ والتَّلَذُّذِ فيها، يُقالُ: ضاقَتْ عليهِ الأرضُ بسَعَتِها، وضاقَتْ عليهِمْ أنْفُسُهُمْ لِما ذُكِرَ: كانَ الناسُ لا يُكَلِّمونَهُمْ، ولا يُخالِطونَهُمْ، ولا يُبايِعونَهُمْ، ولا يُكَلِّمُهُمْ أهالِيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ظَنّوا أنْ لا نَجاةَ مِنْ عقوبةِ اللهِ إلّا عَفْوُهُ؛ أي أيْقَنوا أنْ لا مَخْلَصَ لهمْ ولا احْتِرازَ لهمْ مِنْ عِقابِهِ. وقيلَ: ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ﴾ مِنْ عذابِ اللهِ إلّا إلى رَحْمَتِهِ. وقيلَ: ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ﴾ مِنْ رسولِ اللهِ إلّا إلى اللهِ؛ لأنهُ ذُكِرَ أنهمْ سألوا رسولَ اللهِ/ ٢٢٤ ـ أ/ التَّجاوُزَ عنْ ذلكَ، فلمْ يُجِبْهُمْ، فأيقَنوا عندَ ذلكَ أنَّ الفَزَعَ والمَلْجَأَ إلى اللهِ، لا إلى أحدٍ دُونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفَّقَهُمُ التوبةَ، فتابُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي يقْبَلُ التوبَةَ، أي قابِلُها.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في ظاهرِ الآيةِ أنَّ قوماً عُرِفوا بالصِّدْقِ، فأُمِروا بالكَونِ مَعَهُمْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ أمْرَ هؤلاءِ [الذينَ][3] تَخَلَّفُوا عنْ رسولِ اللهِ بالكونِ معَ المُهاجِرينَ والأنصارِ الذينَ كانوا معَ رسولِ اللهِ.

وفيهِ دَلالةٌ على أنَّ الإجماعَ حُجَّةٌ؛ لأنهُ أمَرَ بالكونِ معَ الصادِقينَ في دينِ اللهِ. فلو لم يُلْزِمْهُمْ قَبولَ قولِهِمْ لم يكنْ لِلأمْرِ بالكونِ مَعَهُمْ وَجْهٌ. وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وهو ظاهِرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

---

(١) في الأصل و م: تخلفهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل و م.

أحدُها: احفَظُوا اللهَ في حقِّهِ، ولا تُضيِّعوهُ، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في وفاءِ ذلكَ وحِفْظِهِ.

والثاني[1]: اتَّقُوا ما في تَرْكِ ما امْتَحَنَكُمْ بِهِ مِنَ الخروجِ والجهادِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ وغَيرِ ذلكَ مِنَ المِحَنِ.

والثالثُ[2] يقولُ: اتَّقُوا مخالَفَةَ اللهِ ورسولِهِ في ما يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وكونوا معَ المُوافِقِينَ لأمْرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما سَبَقَ منهُمْ مِنَ المُبايَعَةِ والعُهودِ التي جَرَتْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿مَا كَانَ﴾ أي لم يكُنْ ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ بَعْدَ ما قَبِلوا النَّصْرَ لهُ والمَعونَةَ، وبايَعُوهُ على ذلكَ. هذا مُحْتَمَلٌ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ وهو أنْ يكونَ صِلَةَ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [ما جعَلَ كلٌّ][3] ما يُصيبُهُمْ في أنفُسِهِمْ مِنَ العَناءِ والشِّدَّةِ وفي أموالِهِمْ مِنَ النُّقْصانِ وما يُنْفِقُونَ من النَّفَقَةِ قليلةً كانتْ أو كثيرةً، أو يُصيبونَ مِنَ العَدُوِّ ومِنَ القَتْلِ والغَنيمةِ إلّا كَتَبَ لَهُمْ بذلكَ العَمَلَ الصالحَ؛ أي ما كانَ يَنْبَغي لهُمْ أنْ يَتَخلَّفُوا عنهُ، وقد كُتِبَ لهمْ بكلِّ ما يصيبُهمْ منَ الشِّدَّةِ والعناءِ وما يُصيبونَ منَ الخيرِ العَمَلُ الصالحُ والأجْرُ لَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ. أو يقولَ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إذا اختلَفوا مِنْ رسولِ اللهِ أنْ يَختلِفوا عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي ولا يَرْغَبوا بالتَّخَلُّفِ عنْ نَفْسِهِ. يُقالُ: جاءَ فلانٌ بِنَفْسِهِ، ورأيتُ أنا بِعَيني، ونَحْوُهُ؛ أي جاءَ هو، ورَأى هو. فَعلَى ذلكَ هذا ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ أي ما كانَ يَنْبَغي لهمْ أنْ يَرْغَبوا عنْ رسولِ اللهِ. ويَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي لِأَنْفُسِهِمْ عنْ نَفْسِهِ. وذلكَ جائزٌ [على][4] ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ قيلَ: عَطَشٌ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ [قيلَ: هو][5] العَناءُ والمَشَقَّةُ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي مَجاعَةٌ ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ولا يَقِفُونَ مَوقِفاً، وقالَ بَعْضُهُمْ: هو مِنَ الوَطْءِ، الشيءُ الذي يُوطَأُ ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ قيلَ: [قَتْلاً فيهِمْ][6] وإغارةً عليهِمْ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي يُكْتَبُ مالَهُمْ وما عليهِمْ: العَمَلُ الصالحُ مكانَ مَنْ تَخلَّفَ منهُمْ مَخافَةَ أنْ يُصيبَهُ ما ذَكَرَ مِنَ العناءِ والشِّدَّةِ؛ يقولُ: كُتِبَ لَهُمْ بِكُلِّ ما يُصيبُهُمْ العَمَلُ الصالحُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ يَجْزيهِمْ بِكُلِّ ما يُصيبُهُمْ مِنَ الشِّدَّةِ والعَناءِ في أنْفُسِهِمْ وفي أموالِهِمْ مِنَ النُّقْصانِ، وما يُنْفِقونَ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يَجْزيهِمْ لِصالحِ أعمالِهِمْ وأحْسَنِها، ولا يَجْزيهِمْ لِسَيِّئاتِهِمْ؛ وهو كقولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] أخبَرَ أنهُ يَتَقَبَّلُ منهُمْ أحْسَنَ ما عَمِلُوا، ويُكَفِّرُ عنهُمْ سَيِّئاتِهِمْ.فَعلَى ذلكَ الأوَّلُ؛ يُخبِرُ أنهُ يَجْزيهِمْ أحْسَنَ ما عَمِلُوا في الغَزْوِ، ويَتَجاوزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ.

فَعلَى ذلكَ الأوَّلُ؛ يُخبِرُ أنهُ يَجْزيهِمْ أحْسَنَ ما عَمِلُوا في الغَزْوِ، ويَتَجاوزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ الآيةَ اختَلَفَ أهلُ التأويلِ: قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ نَبِيَّ اللهِ كانَ إذا خَرَجَ لِلْغَزْوِ خَرَجوا جميعاً، فَتَبْقَى المدينةُ خاليَةً مِنَ الرجالِ، فَنَهَى اللهُ عنْ ذلكَ، وقالَ: ما يَنْبَغي للمؤمنينَ أنْ يَنْفِروا كافَّةً معَ رسولِ اللهِ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا بَعَثَ سَرِيَّةً خَرَجوا جميعاً، فَبَقِيَ هو وحْدَهُ،لم يَبْقَ مَعَهُ أحدٌ مِمَّنْ يَشْهَدُ التَّنْزيلَ لِيُخبِرَ[7] أولئكَ [حينَ يَحْضُرونَ][8].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: وقد جعل بكل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: فيهم، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: منهم. (٧) في الأصل وم:ليخبروا. (٨) في الأصل وم: حضروا.

وقالَ آخرونَ: الآيةُ في الوفودِ؛ وذلكَ أنَّ الوفودَ إذا قَدِمُوا مِنَ الآفاقِ المدينةَ قَدِمُوا مَعَ النساءِ والذَّراريِّ جميعاً، فَأُمِرُوا أنْ يَنْفِرَ[1] الرجالُ منهُمْ دونَ النساءِ والذَّراريِّ، ومِنْ كُلِّ قومٍ نَفَرٌ ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ نَهَى الكلَّ أنْ يَنفِرُوا، وأمَرَ في الآيةِ الأُخرَى بِنَفْرِ الكُلِّ بقولِهِ: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ؛

أحدُهُما: أمَرَ بالنَّفْرِ الجميعَ عندَ قِلَّةِ المؤمِنينَ لِيكونَ لهمُ الكِفايَةُ مع العَدُوِّ.

والثاني: أمَرَ بِنَفْرِ الكُلِّ عندَ النَّفيرِ.

فتكونُ إحدى الآيتَينِ في حالةِ النَّفيرِ، والأُخرَى في[2] غيرِ حالِ النَّفيرِ وما ذَكَرْنا في وقتِ القِلَّةِ والكَثْرَةِ.

فَمَنْ يقولُ: الآيةُ في الذينَ كانوا يَخرجونَ جميعاً مَعَ رسولِ اللهِ إذا خَرَجَ؛ كأنهُ نَهَى عنِ الخروجِ جُمْلَةً مَعَ رسولِ اللهِ خوفاً على أهالِيهِمْ وذرارِيهِمْ، لَعَلَّ العَدُوَّ سَباهُمْ، وأخَذَ أموالَهُمْ. يقولُ اللهُ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي هَلَّا نَفَرَتْ[3] طائفةٌ منهُمْ، فَيُخبِروا الكفارَ المُقيمِينَ بما أنْزَلَ اللهُ على رسولِهِ مِنَ النَّصْرِ والمَعرفةِ والهزيمةِ على الكفارِ الذينَ قاتَلوا رسولَ اللهِ، فيكونُ ذلكَ سَبَبَ دعائِهِمْ إلى السلامِ. وإلى هذا يذهبُ الحَسَنُ والأصَمُّ.

ويقولونَ: إن هذهِ الآيةَ نَسَختِ الآيةَ التي [قبلَها، وهي][4] قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ يقولُ الحَسَنُ: إنَّ عليهِمْ أنْ يَخرُجوا مع رسولِ اللهِ ﷺ إذا خَرَجَ، فيقولُ: هذا مَنسوخٌ بالآيةِ التي تَليها ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية.

ومَنْ يقولُ بأنَّ الآيةَ في الوفودِ الذينَ كانوا يأتونَ رسولَ اللهِ المدينةَ بالنساءِ والذَّراري فالنَّهْيُ لذلكَ لِما كانوا يُضَيِّقونَ على أهلِ المدينةِ أوطانَهُمْ، ويُغْلُونَ أسعارَهُمْ ونَحْوِهِ؛ يقولُ: الآيةُ في الذينَ خَرَجوا، أو نَفَروا مَعَ السَّرايا؛ نَهاهُمْ عنْ خُروجِ الكُلِّ لِما لَعَلَّهُ إذا نَزَّلَ على رسولِهِ شيئاً، فلم يكنْ معَهُ أحدٌ يُبلِّغُهُ إليه[5]، ثم يُبَلِّغُ إلى مَنْ هو غابَ عنهُ، ضاعَ ذلكَ، فيقولُ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي لِيُعَلِّمُوا قومَهُمْ ما نَزَلَ على رسولِ اللهِ ولِيُبَلِّغوا ذلكَ إلى مَنْ غابَ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ قيلَ: مِنْ كُلِّ عُصْبَةٍ ومِنْ كُلِّ قَبيلةٍ ومِنْ كُلِّ حَيٍّ.

ففي الآيةِ دلالةُ سُقوطِ فَرْضِ السَّفَرِ لِتَعَلُّمِ العِلْمِ والتَّفَقُّهِ في الدينِ عنِ الكُلِّ إذا قامَ بَعْضٌ بذلكَ/ ٢٢٤ ـ ب/ يَخْرُجونَ، ويَتَعَلَّمونَ ثم يُعَلِّمونَ قومَهُمْ لأنهُ قالَ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الآية.

وفيهِ أيضاً دلالةُ سُقوطِ فرضِ الجهادِ عنِ الجماعةِ إذا قامَ بَعْضُهُمْ عنْ بَعْضٍ. وفيهِ دلالةُ لزومِ العَمَلِ بِخَبَرِ الآحادِ، وإنِ احتَمَلَ الغَلَطَ؛ لأنَّ ما ذَكَرَ مِنَ الطائفةِ يَحتَمِلُ أنْ يَجتَمِعُوا على ذلكَ كَذِباً أو غَلَطاً، ثم ألزَمَ قومَهُمْ قبولَ خَبَرٍ، وإنِ احتَمَلَ الغَلَطَ والكَذِبَ بقولِهِ: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ والآيةُ تُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أنَّ أهلَ بَلْدَةٍ وأهلَ قَبيلةٍ يَختارونَ مَنْ يَصلُحُ لِلتَّفَقُّهِ في الدينِ والتَّعَلُّمِ، فَيَنْفِرُ، حتى إذا تَفَقَّهَ، وتَعَلَّمَ، ورَجَعَ إلى [قومِهِ، عَلَّمَهُمْ][6]

والثاني: [أنْ][7] يأمُرَ مَنْ يَصلُحُ لِلتَّفَقُّهِ بالتَّخَلُّفِ عنِ الجهادِ إذا كانَ بِهِمْ غُنْيَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا[8] عندَ رسولِ اللهِ، فَيُنْذِروا[9] قومَهُمْ إذا رَجَعُوا [إليهِمْ مِنْ غَزْوِهِمْ][10].

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ قولُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] كانَ الأمرُ بالقِتالِ بالأدْنى، ثم جاء الأمرُ بِقتالِ الكُفّارِ عامَّةً.

(١) من م، في الأصل: ينفروا. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أنها. (٣) في الأصل وم: نفر. (٤) في الأصل وم: قبله وهو. (٥) في الأصل وم: إليهم. (٦) في الأصل وم: قومهم فيعلمهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ليتفقه. (٩) في الأصل وم: فينذر. (١٠) في الأصل وم: إليه من غزائهم.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا غزَا ربما كانَ تجاوزَ كُفّاراً، وتركَهُمْ وَراءهُ، وقاتَلَ[1] غيرَهُمْ لِيكونَ ذلكَ آيَةً لِنُبُوَّتِهِ، ولِيُعْلَمَ أنهُ لا يبالي بِمَنْ يُقاتِلُ، ولا يَخافُ مَنْ تَرَكَهُمْ وراءَهُ. ثم أمَرَ اللهُ المؤمِنينَ أنْ يُقاتِلوا الأقْرَبَ فالأقْرَبَ منهُمْ والأدنَى، وألّا يَتْرُكوا العَدُوَّ وراءَهُمْ.

إلى هذا ذهبَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ. وأمْكَنَ أنْ يكونَ هذا تَعْليماً[2] مِنَ اللهِ المؤمنينَ أمْرَ الحَرْبِ وأسبابَهُ كما عَلَّمَهُمْ جميعَ ما يَقَعُ لهمْ مِنَ الحاجةِ إلى أسبابِ الحَرْبِ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ: مِنْ ذلكَ قولُهُ[3] تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] وقولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ الآية [الأنفال: ١٥] وقولُهُ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٦٠] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ، أو يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أمَرَ بِقِتالِ الأقْرَبِ منهُمْ كسائرِ العِباداتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا أنهُ يُخَرَّجُ على أمْرِ القتالِ منهُ لِلمُؤمِنينَ.

والثاني: إنباءٌ عَنْ دوامِ الجِهادِ والقِتالِ معَ الأعداءِ أبداً [لأنهمْ كلما فَتَحُوا ناحِيةً، وقاتَلوا[4]] قوماً صارَ الذينَ بَقُوا وراءَ هؤلاءِ الذينَ يَلونَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ قيلَ: شِدَّةً عليهِمْ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ][5]: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي شِدَّةً. ويُقرأُ غُلْظَةً بِرَفْعِ الغَينِ[6]، ويُقرأُ ﴿غِلْظَةً﴾ بكسرِها؛ وهما لُغتانِ [ومَعانيهما واحِدَةٌ][7] ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي مَنِ اتَّقَى الخِلافَ لهُ [وَعَدَ][8] بالنَّصْرِ لهمْ على عَدُوِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ[9]:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا أنَّ الخِلافَ لهُ في ما عَلَّمَهُمْ مِنْ أمْرِ الحَرْبِ يكونُ مَعَهُمْ بالنَّصْرِ.

والثاني: مَعَهُمْ في التوفيقِ والهدايةِ.

والثالثُ: في الجزاءِ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما]: قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ يعني: يَقولُ المنافِقونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إذا خَلَوا عنِ المؤمِنينَ ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ اسْتِهزاءً منهُمْ بها وسُخْرِيَةً، فأجابَ اللهُ تعالى.

الآية ١٢٥ فقالَ: [﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شَكٌّ ونِفاقٌ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي تكذيباً وكُفْراً إلى تكذيبِهِمُ الذي كانَ منهُمْ؛ لأنَّ أهلَ النِّفاقِ][10] والكُفْرِ لَيسُوا هُمْ بأهلِ إنصافٍ؛ يَقْبَلونَ الحُجَّةَ والدلالَةَ إذا قامَتْ عليهِمْ، إنما هَمُّهُمُ العِنادُ والتكذيبُ ورَدُّ الحُجَجِ والدلائِلِ [فكلما زادَ لَهُمُ][11] الحُجَجُ والبراهينُ [ازْدادوا هُمْ][12] عِناداً في التكذيبِ والرَّدِّ.

وأمّا أهلُ الإيمانِ فإنَّ هَمَّهُمْ قَبولُ الحُجَجِ والإنصافُ؛ فكلما ازْدادَ[13] لَهُمُ الحُجَجُ والبراهينُ [ازْدادوا هُمْ][14] إيماناً وتَصْديقاً على ما كانَ لَهُمْ. ثم قولُهُ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ زادَتْهُمْ ثَباتاً ودَواماً على ماكانُوا مِنْ قَبْلُ بما قَدَّمَتْ[15] لهمْ مِنَ الحُجَجِ والبراهينِ.

---

(١) في الأصل وم: ويقاتل. (٢) في الأصل و م: تعليم. (٣) في الأصل و م: وقوله. (٤) في الأصل و م: لأنه كلما فتح ناحية و. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) انظر معجم القراءات ج٣/ ٥٢. (٧) في الأصل و م: ومعانيها واحد. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل وم: وجوه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل: فلما زادوا، في م: فكلما زادوا. (١٢) في الأصل وم: ازداد. (١٣) في الأصل و م: ازداد لهم. (١٤) في الأصل و م: ازداد لهم. (١٥) في الأصل و م: قامت.

وكذلكَ ازْدادَ لأهلِ النِّفاقِ والكُفرِ بها الثباتُ على العِنادِ في تكذيبِ الحُجَجِ والآياتِ.

والثاني: زادَتْهُمْ[1] إيماناً بالتَّفسيرِ على إيمانِهِمْ بالجملةِ، وإنْ كانوا مُصَدِّقينَ لذلكَ كلِّهِ جُمْلَةً. فإذا نَزَلَتْ لهُمْ نوازِلُ وفرائضُ ازْدادَ لهمُ التصديقُ والثباتُ.

وأصْلُهُ أنهُ لوما[2] كانَ منهُمْ مِنَ الإيمانِ والتَّصْديقِ لَكانَ هذا منهُمُ ابْتِداءَ وإحداثَ تَصْديقٍ. وكذلكَ لو لم يكنْ من أهلِ النفاقِ ما سَبَقَ مِنَ العِنادِ لَكانَ ذلكَ منهُمْ إحداثَ تكذيبٍ وعِنادٍ. فإذا كانَ منهُمْ ما ذَكَرْنا كانَ ذلكَ زيادةً على ما كانَ لِما ذَكَرْنا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: يَزدادُ لأهلِ الإيمانِ خَيراتٌ ولأهلِ النِّفاقِ شَرٌّ. ولكنْ هو واحدٌ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ...﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: زادَتْ للمؤمِنينَ إيماناً على الذي كانَ لهمْ مِنَ الإيمانِ والتصديقِ.

والثاني: زادَتْ[3] لَهُمْ حُجَّةً وبُرهاناً لِما كانَ.

وكذلكَ يُزْدادُ لأهلِ النِّفاقِ ضِدُّ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قيلَ: يَفرَحونَ بنُزولِها.

ثم إضافةُ الزِّيادةِ إلى السُّورةِ بقولِهِ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لوجْهَينِ:

أحدُهما: أُضِيفَ إليها الزِّيادةُ على ما أُضِيفَ الغُرورُ إلى الدنيا؛ وهو ما[4] ذَكَرْنا أنهُ يبدو منها لهمُ التَّزْيينُ ما لو كانَ مِنْ دونِ الأفعالِ والتَّغريرِ كانَ ذلكَ غُروراً.

والثاني: أضافَ التَّغريرَ إليها لِما بها اغْتِرارُ أهلِها، وكذلكَ إضافةُ الزيادةِ إلى السورةِ لما بها ازْدادَ لهمُ التكذيبُ والكُفرُ، وازْدادَ لأهلِ الإيمانِ بها [التصديقُ، فأُضيفَتِ[5] الزيادةُ إليها.

وقالَ بَعْضُهُمْ ما ذَكَرْنا أنها حُجَّةٌ ودلالةٌ، فبالحُجَّةِ يزدادُ لأهلِ الإيمانِ التصديقُ[6]][7] إذْ هُمْ قدِ اعْتَقَدوا قَبولَ الحُجَجِ والدلائلِ.

وأمّا أهلُ النِّفاقِ والكُفرِ فإنهمْ أهلُ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ، إذْ قدِ اعْتَقَدوا العِنادَ وردَّ الحُجَجِ، فكلما ازْدادَ لهمُ [الحُجَجُ ازْدادوا][8] عِناداً وكُفْراً.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: إنما أُضيفتِ الزيادةُ إليها لأنها كانت سَبَبَ الزيادةِ. وقد تُضافُ الأشياءُ إلى أسبابِها كما تُضافُ إلى حقيقةِ الأفعالِ. ولكنْ يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ السورةُ التي نزلَتْ سَبَباً لزيادةِ الكُفرِ، لكنَّ الوجهَ فيه ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قيلَ: يُبْتَلَونَ بالجهادِ والغَزوِ، فيَتخلَّفونَ عنهُ، فَيَظْهَرُ بذلكَ نِفاقُهُمْ وكُفرُهُمْ، وقيلَ: يُبْتَلَونَ بالشدةِ والجوعِ، فَيَظْهَرُ أيضاً بذلك نِفاقُهُمْ كقولِهِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ وقيلَ: ﴿يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ ذلكَ[9] أنهمْ كانوا إذا خَلَوا تكَلَّموا بالكُفرِ في ما بَيْنَهُمْ، ثم إذا أتَوا النَّبيَّ أخبَرَهُمْ بما تكَلَّموا بهِ في الخَلْوَةِ، فَيَفْتَضِحونَ.

بذلكَ افْتِتانُهُ إيّاهُمْ وابتلاؤُهُ لهمْ؛ كانَ يَظْهَرُ بما ذَكَرَ نِفاقُهُمْ مَرَّةً في الجهادِ في سبيلِ اللهِ ومَرَّةً بالشِّدَّةِ والخوفِ ومَرَّةً بما يُطْلِعُ اللهُ نَبِيَّهُ [على ما][10] يُضمِرونَ، ويَتكَلَّمونَ بهِ.

---

(١) في الأصل و م: ازداد لهم. (٢) من م، في الأصل: لولا. (٣) في الأصل وم: زاد. (٤) في الأصل وم: لما. (٥) في م: فأضيف. (٦) في م: بها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل و م: وذلك. (١٠) في الأصل و م: فما.

وتَحتَمِلُ هذهِ الآيةُ الوجوهَ الثلاثَةَ: الجهادَ مَعَهُ والابتِلاءَ بالشدائِدِ والإفزاعِ. وتَحتَمِلُ إظهارَ الأسرارِ التي أَسَرُّوا في أنفُسِهِمْ والافتِضاحَ بما أخفَوا. فإنْ[1] كانَ هذا فذلكَ ممّا يكْثُرُ منهُمْ؛ أعني كتمانَ النِّفاقِ وإسرارَ الخِلافِ لهمْ، [وإنْ كانَ][2] ذِكْرُ المرَّةِ والمرَّتَينِ يرجعُ [إلى][3] الافتِضاحِ والإظهارِ فذلكَ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ في العامِ مرَّةً أو مرَّتَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عنْ نِفاقِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما[4] ابتُلوا مِنَ الافتِضاحِ وظهورِ النِّفاقِ منهُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾/ ٢٢٥ ـ أ/ أي كانَ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثم يقولونَ ما ذُكِرَ ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ إذا كانتِ السورةُ التي نزلَتْ حُجَّةً في إظهارِ الدينِ والإيمانِ يَسْمَعونَ، ويقولونَ ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ وإذا نزلَتْ في إظهارِ نِفاقِهِمْ وافتِضاحِهِمْ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ ولا يَسْمَعونَ منهُ السورةَ إشفاقاً لئلا يَظْهَرَ نِفاقُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ يَحتَمِلُ خَلَقَ اللهُ منهُمُ انصِرافَهُمْ، فأضافَ[5] إليهِ الصَّرْفَ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عُقوبةً؛ أي عاقَبَهُمُ اللهُ بِصَرْفِ قلوبِهِمْ بِاعْتِقادِهِمُ العِنادَ ورَدِّهِمُ الحُجَجَ، وتَرْكِهِمُ القَبولَ.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِنَ البَشَرِ، وهو امْتِنانٌ منهُ عليهِمْ حينَ[6] بَعَثَ الرسولَ مِنَ البَشَرِ، ولهُ أنْ يَبْعَثَ مِنْ غيرِ البَشَرِ، لكنهُ بَعَثَ مِنَ البَشَرِ لِيَعْرِفوا الآياتِ التي يأتي بها مِنَ التَّمْويهاتِ لأنهمْ يَعْرِفونَ مَبْلَغَ وُسْعِ البَشَرِ في الأشياءِ في التعليمِ عَرَفوا أنها آياتٌ لا تَمْويهاتٌ معَ ما[7] أنْ يَتَآلَفَ كلُّ جِنْسٍ بِجِنْسِهِ، ويَنْفِرَ مِنْ غيرِ جِنْسِهِ. هذا ظاهرٌ في الخلائِقِ أنَّ كُلَّ ذي جِنْسٍ يَألَفُ جِنْسَهُ[8]، ولا يألَفُ غيرَ[9] جِنْسِهِ، فَبَعَثَ الرسولَ مِنَ البَشَرِ ومِنْ جِنْسِهِمْ لِيَتَآلَفوا بِهِ، ويَقْبَلوا منهُ ما يأتيهِمْ بِهِ، ويُجيبوهُ[10] إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي مِنَ المكانِ الذي أنْتُمْ فيهِ، وهو الحَرَمُ. وقالَ آخَرونَ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي مِنْ أنسابِكُمْ، هو أيضاً موضِعُ الامْتِنانِ عليهِمْ حينَ[11] بعثَهُ مِنْ أنسابِهِمْ؛ يَعْرِفونَ نَسَبَهُ ومَوْلِدَهُ ومَنْشَأَهُ[12] مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ سَليماً مِنْ جَميعِ الآفاتِ بَريئاً مِنْ جَميعِ المَطاعِنِ والعُيوبِ لأنَّ المَرْءَ إذا كانَ مَوْلِدُهُ ومَنْشَؤُهُ في قَبيلَةٍ أو في مكانٍ لا يُعْرَفُ لهُ النسبُ ربما يَتَمَكَّنُ فيهِ الطعنُ والعَيْبُ، ويَقَعُ التَّناكُرُ في نَسَبِهِ لِجَهْلِهِمْ بِنَسَبِهِ ومَوْلِدِهِ ومَنْشَئِهِ[13] على السَّلامةِ والصِّحَّةِ والبراءةِ مِنَ العُيوبِ.

فَبَعَثَ رسولَهُ محمداً ﷺ لئلا يَتَمَكَّنَ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ المطاعِنِ، ولا يُعْرَفُ شَيءٌ مِنَ العُيوبِ والآفاتِ التي ذَكَرْنا فيهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِنَ العَرَبِ أُمِّيًّا كما هُمْ، لا يَكْتُبُ، ولا يَخُطُّهُ بِيَمينِهِ على ما وَصَفَهُ في كتابِهِ ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧] وقالَ: ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وذلكَ أنَّ العربَ كانتْ تَتَمَنَّى أنْ يُبْعَثَ رسولٌ مِنْهُمْ بقولِهِمْ[14] ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] ذَكَرَ مَجيءَ الرسولِ مِنْ أنفُسِهِمْ لِيَكونَ أبْعَدَ عنِ المطاعِنِ التي طَعَنوا فيهِ والآفاتِ التي ذَكَروا فيهِ والبراءةِ مِنَ العُيوبِ التي قَرَفوا بها[15] مِنْ نَحْوِ السِّحْرِ والكَهانَةِ والجُنونِ والافْتِراءِ على اللهِ، وأقْرَبَ إلى المَعْرِفَةِ بأنهُ رسولٌ لأنهُ لمّا يأتيهِمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ يَعْرِفونَ أنها سَماوِيَّةٌ لِما عَرَفوا أنهُ لم يَتَعَلَّمِ السِّحْرَ، ولا أخذوا عليهِ كَذِباً[16] قَطُّ، ولا جُنَّ قَطُّ بما كانَ نَشَأَ في ما بَينَ أظْهُرِهِمْ.

---

(١) في الأصل و م: لكن. (٢) في الأصل و م: لكن. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل وم: بما. (٥) في الأصل وم: فأضيف. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: بجنسه. (٩) في الأصل وم: بغير. (١٠) في الأصل وم: ويجيبهم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: نشأته. (١٣) في الأصل وم: به. (١٤) في الأصل وم: بقوله. (١٥) في الأصل وم: بكذب. (١٦) في الأصل وم: بكذب.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ قيلَ: شديدٌ عليهِ ما أعْنَتَكُمْ؛ أي ما ضَيَّقَ عليكُمْ، وقالَ القُتَبِيُّ: العَنَتُ الضِّيقُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: العَنَتُ الإِثْمُ؛ أي شَديدٌ عليهِ ما أثِمْتُمْ، وقالَ أبو عوسَجَةَ: هو إلى الإِثْمِ أقْرَبُ، وهو يَحْتَمِلُ كلَّ إثْمٍ: الكُفْرَ وغيرَهُ. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ قالَ بَعْضُهُمْ على مَنْ لم يُسْلِمْ أنْ يُسْلِمَ، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ بالهُدَى والرُّشْدِ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ رَحْمَةَ الدينِ والإسلامِ لا رَحْمَةَ الطَّبْعِ.

قالَ الشيخُ أبو منصورٍ الماتُريديُّ[1]، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ سَمَّاهُ بِفِعْلِهِ العَمَلَ الحَسَنَ وبِرأفتِهِ ورَحْمَتِهِ بذلكَ؛ أيِ اسْتَحَقَّ ذلكَ الاِسْمَ بِفِعْلِهِ. وإنما سَمَّاهُ بذلكَ لأنَّ عَمَلَهُ كانَ لِلَّهِ لم يكُنْ عَمَلُهُ لِنَفْسِهِ شيئاً، وكذلكَ مالُهُ واكْتِسابُهُ بِهِ؛ فلذلكَ لم يكُنْ مالُهُ ميراثاً بَيْنَ وَرَثَتِهِ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعْرَضوا [عنْ][2] إجابَتِكَ ودُعائكَ إيّاهُمْ إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي يكفيني اللهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عنكَ، ورَدُّوا إجابَتَكَ والطاعةَ لكَ والاِنْقِيادَ، وهَمُّوا أنْ[3] يكيدوكَ، ويَمكُروا بكَ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي على [ما][4] وَعَدَني مِنَ النَّصْرِ والظَّفَرِ، تَوَكَّلْتُ أيِ اتَّكَلْتُ على وَعْدِهِ، وَوَكَّلْتُ أمْري إلى اللهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عنْ نُصْرَتِكَ ومَعونَتِكَ على الأعداءِ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ في النَّصْرِ والمَعونَةِ على الأعداءِ، ويَكْفيني عليهِمْ. هذا في هذا[5] المَوضعِ أقربُ لأنهُ ذَكَرَ على إثْرِ ذِكْرِ المنافِقينَ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الإعراضِ عنِ التوحيدِ والإجابةِ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قيلَ[6]: هو ربُّ المُلْكِ العظيمِ؛ أي كلُّ مَلِكٍ عندَ مُلْكِهِ صغيرٌ، لَيسَ بِمَلِكٍ. فإنْ كانَ العَرْشُ هو السَّريرَ على ما قالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ، واللهُ أعْلَمُ، [فالسَّريرُ هوَ][7] الذي يُكْرَمُ بِهِ الأخيارُ مِنَ الخَلائقِ والأبرارِ منهُمْ، وقد ذَكَرْنا [مافيهِ الكِفايةُ][8] في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعْلَمُ.

(١) في الأصل: ماتريدي، ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: أي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) من م، في الأصل: أي كل. (٧) في الأصل و م: السرير. (٨) من م، في الأصل: فيه.

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ قد ذكَرْنا الوجهَ في الحُروفِ المُقَطعاتِ في صَدْرِ الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ هو اللهُ؛ كأنهُ قالَ: الكتابُ آياتُ اللهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ هو صفةُ القرآنِ. والكتابُ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما[1]: أنهُ: سَمّاهُ حكيماً فَعيلاً بِمَعْنَى أنهُ مُحكَمٌ. وجائزٌ تَسميةُ المَفعولِ باسم الفَعيلِ نَحْوُ قَتيلٍ بِمَعْنَى مَقْتولٍ وجَريحٍ بِمَعْنَى مَجْروحٍ ونَحْوُ ذلكَ: فيهِ الحَلالُ والحَرامُ والأمْرُ والنَّهْيُ، أو مُحْكَمٌ مُتْقَنٌ مُبَرَّءٌ[2] مِنَ الباطِلِ والكَذِبِ والاِخْتِلافِ. وهو ما وَصَفَهُ تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ الآية [فصلت: ٤٢].

والثاني: [أنهُ سَمّاهُ][3] حكيماً لِما أنَّ مَنْ تأمَّلَ فيهِ، ونَظَرَ، وفَهِمَ ما أُودِعَ فيهِ، وأدْرَجَ، صارَ حكيماً، وهو ما وَصَفَهُ تعالى، وسَمّاهُ مَجيداً[4]: أي مَنْ تأمَّلَهُ، ونَظَرَ فيهِ، صارَ مَجيداً شريفاً. والحكيمُ هو المُصيبُ في الحقيقَةِ إنْ كانَ صِفَةَ القرآنِ أو صِفَةَ اللهِ[5]؛ فهو حكيمٌ واضعٌ كلَّ شَيْءٍ مَوضِعَهُ. فإنْ كانَ صِفَةَ القرآنِ فهو كذلكَ أيضاً واضِعٌ كلَّ شَيْءٍ مَوضِعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَايَٰتُ﴾ يَحْتَمِلُ آياتِ الكتابِ المَعروفِ، ويَحْتَمِلُ الحُجَجَ والبراهينَ أي حُجَجَ الكتابِ المَعروفِ، ويَحْتَمِلُ الحُجَجَ والبراهينَ أي حُجَجَ الكتابِ وبَراهينَهُ أو أعلامَهُ، وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ الآياتِ في غَيْرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يَحْتَمِلُ/ ٢٢٥ - ب/ وجهَيْنِ؛ يَحْتَمِلُ أي قد عَجِبوا ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ ويَحْتَمِلُ أيَعْجَبونَ ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ على الاِسْتِئْنافِ.

كانوا يَعْجَبونَ مِنْ ثلاثٍ: مِنْ إنزالِ القرآنِ على رَجُلٍ منْهُمْ بِعَجْزِ الخَلائقِ عنْ إتيانِ مِثْلِهِ، ويَعْجَبونَ مِنَ الوَحْيِ إلى رَجُلٍ منهُمْ، ومِنْ[6] إرسالِهِ رسولاً مِنْ بَينِ الكُلِّ أو مِنَ البَشَرِ كقولِهِ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤] وكقولِهِ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص: ٨]. وكانوا يَعْجَبونَ مِنَ البَعْثِ كقولِهِمْ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ الآية [الصافات: ١٦].

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي مِنَ البَشَرِ؛ أي لا يَعْجَبونَ أنْ أوحَينا إلى رَجُلٍ مِنَ البَشَرِ؛ فإنَّ الإيحاءَ إلى مَنْ هو مِنَ البَشَرِ أبْلَغُ في الحِجاجِ وأقْطَعُ لِلْعُذْرِ وأقْرَبُ إلى الرأفَةِ والرحمَةِ؛ لأنَّ البَشَرَ يَعْرِفونَ خروجَ ما هو خارجٌ عنْ طَوقِ البَشَرِ وَوُسْعِهِمْ، ولا يَعْرِفونَ ذلكَ مِنْ غَيرِ جَوهَرِهِمْ وغَيرِ جِنْسِهِمْ، ويَألَفُ كلُّ جِنْسٍ جِنْسَهُ[7]. وكُلُّ جَوهرٍ جَوهَرَهُ[8]، ولا يَألَفُ غَيرَ جوهَرِهِ ولا غَيرَ جِنْسِهِ. فإذا كانَ ما وَصَفْنا كانَ بَعْثُ الرسولِ مِنْ جِنْسِ المَبْعوثِ [إليهِمْ][9] وجَوهَرِهِمْ أبْلَغَ في الحِجاجِ وأقْطَعَ لِلْعُذْرِ وأقْرَبَ إلى الرأفَةِ والرحمَةِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي مِنَ الأُمِّيِّينَ؛ أي لا يَعْجَبوا ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي أُمِّيٍّ فإنَّ ذلكَ أبْلَغُ في التَّعريفِ والحِجاجِ لأنهُ بُعِثَ أُمِّياً، لم يَعْرِفوهُ بدراسةِ الكتبِ المُتَقَدِّمَةِ أو تِلاوَةِ شَيْءٍ منها، ولا عَرَفوهُ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ منهُمْ بِتَعَلُّمِ[10] كُتُبِهِمْ، ولا عُرِفَ أنهُ كَتَبَ شَيئاً، أو خَطَّ خَطّاً قَطُّ.

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) في الأصل وم: مبرم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى قوله تعالى ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ [البروج: ٢١] وقولِهِ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل و م: و. (٧) في الأصل و م: بجنسه. (٨) في الأصل و م: بجوهره. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل وم: في تعليم.

ثم أخبَرَ عمّا [في](١) كُتُبِهِمْ على مُوافَقَةِ ما فيها، وكانَتْ كُتُبُهُمْ بِغَيرِ لسانِهِ. دَلَّ [هذا](٢) أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى. فذلكَ أبْلَغُ في إثباتِ الرسالةِ والحِجاجِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الإنذارُ يكونُ في كلِّ مَكْروهٍ مَرْهوبٍ، والبِشارَةُ في كلِّ مَحْبوبٍ مَرْغوبٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يَعْني الكُفّارَ بالنارِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

اختَلَفوا في قولِهِ: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ عندَ ربِّهِمْ. وقيلَ: إنَّ لَهُمُ الأعمالَ الصالِحَةَ، يُقْدِمونَ عليها. وقيلَ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ محمدٌ ﷺ يَشْفَعُ لهمْ عندَ ربِّهِمْ. وقيلَ: إنَّ لَهُمُ الأعمالَ الصالِحَةَ، قَدَّموها بَينَ أيديهِمْ. [وقيلَ](٣) ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي سَلَفَ خَيرٍ أو سَلَفَ وَعْدٍ، وَعَدَ لَهُمْ بذلكَ، وكُلٌّ(٤) أصلُهُ مِنَ القَدَمِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: يُقالُ في الكلامِ: لِفُلانٍ عندي قَدَمُ صِدْقٍ ويَدُ صِدْقٍ؛ أي نَعْمَةٌ قد أسْلَفَها إليَّ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يَعْني عَمَلاً صالحاً قَدَّموهُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﵄ [أنهُ](٥) قالَ: ما سَبَقَ لهمْ مِنَ السَّعادَةِ في الذِّكْرِ الأوَّلِ؛ فَمَنْ(٦) قالَ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هو الشفاعةُ؛ فالقَدَمُ كِنايَةٌ عنِ الشفاعةِ أي واقِعَةٌ، ومَنْ قالَ: وَعَدَ ثوابَ أعمالِهِم؛ فقد(٧) تَقَدَّمَ لَهُمْ وَعْدُ حقٍّ وصِدْقٍ.

ويَحْتَمِلُ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثَبَتَتْ قَدَمُهُمْ، لا تَزِلُّ على ما وَصَفَ مِنْ ثُبوتِ قَدَمِ المؤمِنينَ وقَرارِها(٨)، وتَزِلُّ قَدَمُ الكافرينَ كقولِهِ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ ومَنْ قَرَأَ لَسِحْرٌ(٩) عَنَى هذا القرآنَ، ومَنْ قَرَأَ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ بالألِفِ عَنَى بهِ النَّبيَّ.

ثم السِّحْرُ هو الذي يَتَراءَى في الظاهِرِ أنهُ حقٌّ، وهو في الحقيقةِ باطِلٌ، ثم هو يأخُذُ الأبصارَ، ويأخُذُ العقولَ. فأمّا الذي يأخُذُ الأبصارَ فهو(١٠) ما يَتَراءَى الشَّيءُ على غَيرِ ما هو في الحقيقةِ، والذي يأخُذُ العُقولَ هو أنْ يَذْهَبَ بعَقْلِهِ، فَيَصيرَ مَجْنوناً كقولِ(١١) فِرْعَونَ لِموسَى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أي مجنوناً. لكنَّ هؤلاءِ لم يُريدوا بقولِهِ: ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ السِّحْرَ الذي يأخُذُ [العُقولَ، ولكنْ أرادوا السِّحْرَ الذي يأخُذُ](١٢) الأبصارَ. يَقولونَ(١٣): إنهُ وإنْ كانَ أخَذَ الأبصارَ في الظاهِرِ فهو لا شَيءَ في الحقيقةِ، ولكنْ في قولِهِمْ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ دليلُ أنهمْ عَجِزوا عنْ رَدِّهِ، وعَرَفوا أنهُ حقٌّ، ولكنهُمْ أرادوا التَّمْويهَ على الناسِ كقولِ فِرْعَونَ لِسَحَرَتِهِ حينَ(١٤) آمَنوا بِرَبِّ موسى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] أرادَ أنْ يُمَوِّهَ على الناسِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إنَّ القومَ [كانوا](١٥) يَعْبدونَ الأصنامَ والأوثانَ، ويَتَّخِذونَ الأحبارَ والرُّهبانَ أرباباً مِنْ دونِ اللهِ، يقولُ [لَهُمْ](١٦): إنَّ رَبَّكُمُ الذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ والأُلوهِيَّةَ هو الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، لا الذي تَعْبُدونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ في صَدْرِ الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ هو(١٧) أيضاً على الأوَّلِ: إنَّ الذي يَسْتَحِقُّ صَرْفَ العِبادَةِ إليهِ وتوجيهِ(١٨) الشُّكْرِ إليهِ هو الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ في مَصالِحِ الخَلْقِ في جَرِّ المَنافِعِ إليهِمْ ودَفْعِ المَضارِّ عنهُمْ لا الذينَ لا يَمْلِكونَ المَنافِعَ إلى أنْفُسِهِمْ أو دَفْعَ المَضارِّ عنهُمْ فَضْلاً ألّا(١٩) يَمْلِكوا [أجراً ما](٢٠) إلى مَنْ يَعْبُدُهُمْ أو دَفْعَ المَضارِّ عنهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وكان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل و م: والقرار. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/٥٨. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: يقول. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل. (١٧) في الأصل وم: وهو. (١٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: إن. (٢٠) في م، في الأصل: أجرها.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يَقْضِيهِ، والتَّدبيرُ والقضاءُ واحدٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: يُدَبِّرُ يُقَدِّرُ، وهو ما ذَكَرْنا: التَّدبيرُ والتَّقديرُ سَواءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ الشَّفيعُ هو ذو المَنْزِلَةِ والقَدْرِ عندَ الذي يَشْفَعُ إليهِ، لا أحَدَ في الشاهِدِ يَشْفَعُ لآخَرَ إلّا بَعْدَ أنْ يكونَ الشَّفيعُ عندَ الذي يَشْفَعُ إليهِ ذا مَنْزِلَةٍ وقَدْرٍ. فإذا كانَ كذلكَ فَمَعَ ذلكَ أيضاً لا يَشْفَعُ إلّا مِنْ بَعْدِ ما أَذِنَ لهُ بالشَّفاعَةِ لِمَنْ جاءَ بالتوحيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ يقولُ: ذلكُمُ الذي يستحقُّ العِبادةَ هو رَبُّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ السمواتِ والأرضَ، ودَبَّرَ أمورَكُمْ ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ ولا تَعْبُدوا الذي لا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنْ ذلكَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنهُ هو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادةِ، وهو المُسْتوجِبُ لِلشُّكْرِ لا الذينَ تعبُدونَ أنتمْ، أو يقولُ[1] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ الذي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ السمواتِ والأرضَ هو ربُّكُمْ، وهو مدبِّرُ أمورَ الخَلائِقِ في مصالِحِهِمْ في دنياهُمْ ودينِهِمْ لا الذينَ[2] تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ إليهِ مَرجِعُ الخَلائِقِ كُلِّهِمْ في جميعِ الأوقاتِ، لكنهُ خصَّ ذلكَ اليومَ بالمَرْجِعِ إليهِ لِما أنَّ الخلائقَ كلَّهُمْ يَعْلَمونَ يَوْمَئِذٍ أنهمْ راجِعونَ إليهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] هُمْ بارِزونَ لَهُ في الدنيا والآخِرَةِ، لكنهُمْ يومئذٍ يَعرفونَ، ويُقِرُّونَ بالبُروزِ لهُ. وكذلكَ [قولُهُ][3]: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] المُلْكُ للهِ في الدنيا والآخرةِ وفي الأوقاتِ جميعاً، لكنهُ خَصَّ ذلكَ اليومَ[4] لِما لا يُنازَعُ في الملكِ في ذلكَ اليومِ، وفي الدنيا مَنْ قد نازَعَ في مُلْكِهِ.

هذا، واللهُ أعلَمُ، وَجهُ التَّخصيصِ لِذلكَ اليومِ بالمُلْكِ، وإنْ كانَ المُلْكُ لهُ في الدارَيْنِ جميعاً. فَعَلى ذلكَ المَرْجِعُ، أو سَمَّى البَعْثَ رجوعاً إليهِ لِما المَقْصودُ مِنْ إنشائِهِ البَعْثُ، فَسَمّاهُ بذلكَ لِما ذَكَرْنا؛ لأنهُ لو لم يكنِ المَقْصودُ مِنْ إنشائِهِ [إيّاهُمْ سِوَى الإنْشاءِ][5] والإفناءِ كانَ خَلْقُهُ عَبَثاً باطلاً كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ البَعْثَ الذي ذَكَرَ ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ويَحْتَمِلُ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مِنَ الثوابِ والعِقابِ في الآخِرَةِ الثوابَ لِلْمُحْسِنِ منهُمْ والعِقابَ لِلْمُسيءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي عَرَفْتُمْ أنهُ هو الذي بَرَأَكُمْ والخَلْقَ جميعاً، وكذلكَ هو يُعيدُكُمْ بَعْدَ إفنائِكُمْ؛ إذْ بَدْءُ الشَّيءِ على غَيرِ مِثالٍ أشَدُّ عِنْدَكُمْ مِنْ إعادَتِهِ على مِثالٍ كقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ/ ٢٢٦ - أ/ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي إعادَةُ الشَّيءِ أهْوَنُ عِنْدَهُ[6] مِنْ بَدْئِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ قيلَ بالعَدْلِ، لكنَّ ما يَجْزيهِمْ إنما يَجْزيهِمْ إفضالاً وإحساناً اسْتيجاباً واسْتِحْقاقاً.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ وُجوهاً:

أحَدُها: أنهُ يَجْزي المُحْسِنَ جَزاءَ الإحسانِ والمُسيءَ جَزاءَ الإساءَةِ، ويَفْصِلُ بَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ في الآخِرَةِ في الجزاءِ، ويَجْعَلُ لِلْوَلِيِّ علامَةً وأثراً يُعْرَفُ بها مِنَ العَدُوِّ؛ إذْ لم يَفْصِلْ في الدنيا بَينَ الأولياءِ والأعداءِ في الرِّزْقِ وما يُساقُ إليهِمْ مِنَ النَّعيمِ، ولم يَجْعَلْ علامَةً، يُعْرَفُ بها الوَلِيُّ مِنَ العَدُوِّ، وجَعَلَ في الآخِرَةِ ذلكَ حتى يُعْرَفَ هذا مِنْ هذا. فهذا العَدْلُ الذي ذَكَرْنا يُشْبِهُ أنْ يكونَ هو ذلكَ.

والثاني[7]: يَحْتَمِلُ القِسْطُ الوَزْنَ؛ أي يَجْزيهِمْ بالوَزْنِ على تَعْديلِ النَّوعِ بالنَّوعِ لا على القَدْرِ؛ أي يَجْزي بالحَسَنَةِ قَدْراً لا يزيدُ على ذلكَ، ولكنْ يَجْزي لِلْخَيرِ خَيراً ولِلْحَسَنَةِ حَسَنَةً ولِلسَّيِّئَةِ سَيِّئَةً.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: الذي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل: الذي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: عندكم. (٧) في الأصل وم: و.

والثالث[١]: يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالعَدْلِ؛ أي يَجزي الذينَ عَمِلوا بالعَدْلِ، لم يَجوروا فيهِ، ولا جاوَزُوا الحَدَّ الذي حُدَّ لَهُمْ، ولكنْ عَمِلوا بالعَدْلِ فيهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على تَقْديمِ العَدْلِ؛ أي يَجزي الذينَ عَمِلُوا بالعَدْلِ؛ أي لا يُعَذِّبُهُمْ في النارِ إذا آمَنُوا. ثم الذينَ[٢] عَمِلُوا الصالحاتِ يُوَفِّيهِمْ أُجورَهُمْ، ويَزيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، واللهُ أعْلَمُ بالصوابِ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي يَجزيهِمْ في الآخِرَةِ بِما أقْسَطوا في الدنيا، وعَدَلُوا؛ ويكونُ القِسْطُ على هذا التأويلِ نَعْتاً لهمْ، وإنْ كانَ ما ذَكَرَ مِنَ القِسْطِ راجعاً إلى اللهِ وَوَصْفاً لهُ فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: يَجزي فَريقاً مِنَ المؤمنينَ بالعَدْلِ؛ يَجْزيهِمْ[٣] لإحسانِهِمْ جَزاءَهُمُ الإحسانَ، ويُكَفِّرُ عنْ سَيِّئاتِهِمْ، وهو كقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ الآية [الأحقاف: ١٦] وقولِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ﴾ الآية [النساء: ٤٨و..]

والثاني: يَجزيهِمْ بالفَضْلِ؛ إذِ العَدْلُ هو وَضْعُ الشَّيْءِ مَوضِعَهُ؛ أي يَضَعُ الفَضْلَ في أهلِهِ، لا يَضَعُهُ في غَيرِ أهلِهِ، وَوَضْعُ الفَضْلِ في أهلِ الإيمانِ عَدْلٌ؛ إذْ هُمْ أهلٌ لهُ، واللهُ أعلَمُ. وهو كقولِهِ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

والثالثُ: العَدْلُ الذي هو مُقابلُ الإحسانِ، وهو الفَضْلُ لا العَدْلُ الذي هو ضِدُّ الجَورِ كقولِهِ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية؛ لا يَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في العَدْلِ الذي هو ضِدُّ الجَورِ، في مِثْلِ هذا يَستَطيعونَ أنْ يَعْدِلوا بينَهُنَّ[٤]. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالعَدْلِ الذي هو مُقابلُ الإحسانِ، وهو[٥] الفَضْلُ؛ إذْ لِلْفَضْلِ دَرَجاتٌ. وأصْلُهُ: أنَّ جزاءَ الآخِرَةِ كلَّهِ إفضالٌ وإحسانٌ وإنعامٌ لا اسْتِحْقاقاً واسْتيجاباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قيلَ: الحَميمُ الشَّرابُ الذي انْتَهَى حَرُّهُ غايَتَهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ ذَكَرَ في الشَّمْسِ الضِّياءَ والقَمَرِ النورَ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ الليلَ مُظلِمٌ، يَظْهَرُ نورُ القَمَرِ فيهِ، ويَغْلِبُ على ظُلْمَةِ الليلِ، ويَقْهَرُها. وأمّا النهارُ فهو مُبْصِرٌ على ما ذَكَرَهُ ﷻ ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]. جَعَلَ فيهِ النورَ، فلو جَعَلَ في الشَّمْسِ النورَ خاصَّةً لَكانَ [لا][٦] يَظْهَرُ نورُ الشَّمْسِ خاصَّةً، ولا غَلَبَ نُورُها على نُورِ النهارِ، فكانَتْ تَذْهَبُ المَنافِعُ التي جَعَلَ فيها، وجَعَلَ ﷻ بِلُطْفِهِ فيها ضِياءً، لِيَظْهَرَ نُورُها على نورِ النهارِ، ويَغْلِبَهُ، ويَقْهَرَهُ، لِتَظْهَرَ المنافِعُ التي جَعَلَ فيها لِلْخَلْقِ، وهو ما ذَكَرَ أنهُ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥].

وأخْبَرَ أنهُ لو شاءَ لَجَعَلَهُ ساكناً [ولو كانَ ساكناً][٧] مُمْتَدّاً على ما جَعَلَ بقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] لَكانَ لا يَعْرِفُ الظِّلَّ. ثم أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ الشمسَ دليلاً عليهِ لِيُعْرَفَ بها الظِّلُّ المَمْدودُ [فَنَسَخَتِ الشمسُ ذلكَ المَمدودَ][٨] وشَيئاً بَعْدَ شَيءٍ، فصارتِ الشمسُ يُعرَفُ بها الظِّلُّ، وبها يَظْهَرُ ذلكَ الضِّياءُ الذي في الشمسِ كانَ بهِ يُعْرَفُ نورُها مِنْ نورِ [النهارِ][٩] وبهِ يُوصَلُ إلى مَنافِعِ الشمسِ. ولو كانَ نوراً لَكانَ لا يُعْرَفُ ولا يَظْهَرُ؛ إذْ لا يَغْلِبُ أحَدُهُما صاحِبَهُ، واللهُ أعْلَمُ، ولا تُعْرَفُ آيَةُ الشمسِ أنها[١٠] آيَةُ النهارِ.

ثم جَعَلَ آيَةَ الشمسِ غالبَةً على جَميعِ الآياتِ؛ لا تُبْصَرُ النّجومُ بالنهارِ أصلاً، والقَمَرَ، وإنْ كانَ يُبْصَرُ، ويُرَى بحالٍ فإنَّ نورَ الشمسِ قد يَغْلِبُهُ، ويَقْهَرُهُ، حتى لا يَظْهَرَ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ التقديرُ الذي ذَكَرَ لهما جميعاً، ويُعْرَفَ الحِسابُ وعَدَدُ السنينَ بهما جميعاً، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: وقَدَّرَهُما مَنازِلَ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: للذين. (٣) في الأصل وم: يجزي. (٤) في الأصل وم: بينهم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: في، ساقطة من م.

وجائزٌ أنْ يكونَ [جَعَلَ][(١)] الشمسَ بالذي تُعْرَفُ بها أوقاتُ الصلاةِ والأزمِنَةُ مِنَ الشتاءِ والصيفِ، لا يُعْرَفُ ذلكَ بالقَمَرِ، وجَعَلَ في القَمَرِ مَعْرِفَةَ الشهورِ والسِّنينَ، وفي الشمسِ مَعْرِفةَ أوقاتِ الصلاةِ والأزمِنَةِ، لا تُعْرَفُ الشهورُ والسِّنونَ [بها][(٢)] إلا بَعْدَ جَهْدٍ، وبالقَمَرِ لا تُعْرَفُ أوقاتُ الصلاةِ والأزمنةِ.

جَعَلَ اللهُ في الشمسِ مَنْفَعَتَينِ: مَنْفَعَةُ التَّقَلُّبِ ومَعْرِفَةَ الأزمنةِ، ومَنْفَعَةُ نُضجِ الأشياءِ ويَنْعِها، وفي القَمَرِ مَنْفَعَتَينِ أيضاً: إحداهُما[(٣)] مَعْرِفَةُ حِسابِ الأيامِ والشهورِ والسِّنينَ والثانيةُ[(٤)] مَنْفَعَةُ نُضجِ الأنزالِ والأشياءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ لَيسَ أنْ يُعرَفَ هذا بهما، ولا يُعرَفُ غيرُهُ، بل يُعْرَفُ ما ذُكِرَ وأشياءُ كثيرةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ الكَيسانيُّ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلّا وقد جَعَلَ فيهِ دلالةَ مَعْرِفَتِهِ. وقالَ قائلونَ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلّا وقد جَعَلَ فيهِ الشهادَةَ لهُ على الخَلْقِ، وهي شهادَةُ الوَحْدانيَّةِ والأُلوهيَّةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا﴾ بالأمرِ الكائنِ لا مَحالَةَ، وهو البَعْثُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحكمةِ، لم يَخْلُقْ ذلكَ عَبَثاً باطلاً، وهو كقولِهِ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] ولكنْ بِحِكْمَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قيلَ: يُبَيِّنُ، أو يَصْرِفُها لِقومٍ يَنْتَفِعونَ بِعِلْمِهِمْ. إنما ذَكَرَ الآياتِ في ما ذَكَرَ الآياتِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤أو..] و﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣ و..] و﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨] الآياتِ التي يَنْتَفِعونَ بها، ويَعْقِلونَ الشَّيءَ؛ إنما يَعْقِلُونَ، يكونَ لِلَّذي يَنْتَفِعُ بِهِ لا لِلَّذي لا يَنْتَفِعُ به.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ آيَةَ البَعْثِ ودلالةَ تَدْبيرِ صانِعِهِما.

أمّا دلالةُ البَعْثِ [فهي][(٥)] أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما إذا جاءَ ذَهَبَ الآخَرُ، وفَنِيَ، حتى لا يَبْقَى لهُ الأثَرُ، ثم يَتَجَدَّدانِ، ويَحْدُثانِ، على ذلكَ أمْرُهُما، ويُتْلِفُ كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ حتى لا يَبْقَى لهُ الأثَرُ. فَمَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرْنا قَدَرَ على بَعْثِهِمْ وإنْشائِهِمْ بَعْدَ المَوتِ بَعْدَ ما صاروا تُراباً.

وأمّا دلالةُ التَّدبيرِ فَهِيَ[(٦)] جَرَيانُهما وسَيْرُهُما على سَنَنٍ واحدٍ وتقديرٍ واحدٍ مِنْ غَيرِ تَغْييرٍ يَقَعُ فيهما أو تَفاوُتٍ أو نُقصانٍ يَقَعُ فيهما أو زيادةٍ، وإنْ كانَ أحَدُهُما يدخُلُ في الآخَرِ.

دَلَّ ما ذَكَرْنا أنهما إنما يَجْرِيانِ، ويَخْتَلِفانِ على سَنَنٍ واحدٍ وجَرَيانٍ واحدٍ، وفيهما[(٧)] تدبيرٌ غَيرُ ذاتِيٍّ وعِلْمٌ أزَليٌّ وأنهُ واحدٌ، إذْ لو كانَ التدبيرُ [فيهما لِعَدَدٍ][(٨)]؛ لكانا يَخْتَلِفانِ، ولا يَجْرِيانِ على قَدْرٍ واحدٍ مِنْ غَيْرِ تَفاوُتٍ. [وما فيهما مِنْ تَغْييرٍ][(٩)] أو نُقْصانٍ أو زيادةٍ دَلَّ أنه [تَقْديرُ][(١٠)] واحدٍ، وباللهِ التوفيقُ.

وفي ذلكَ دلالةُ وَحْدانِيَّةِ مُنْشِئِهِما وخالِقِهِما لأنهُ أنْشأهُما، وبَيَّنَهُما، وجَعَلَ مَنافِعَ أحَدِهِما مُتَّصِلَةً بِمنافِعِ الآخَرِ على بُعْدِ ما بَيْنَهُما. دلَّ أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ؛ إذ لو كانَ فِعْلَ/ ٢٢٦ ـ ب/ عَدَدٍ مَنَعَ كُلٌّ فِعْلَهُ عنِ الوصولِ بالآخَرِ على ما هو فِعْلُ ملوكِ الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَةَ اللهِ، ويَتَّقونَ جميعَ الشرورِ والمَساوِئِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قالَ قائلونَ: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ مِنَ الرجالِ؛ أي لا يَرْجُونَ

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أحدهما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: هو. (٧) في الأصل وم: أن فيهما. (٨) في الأصل وم: فيها العدد. (٩) في الأصل وم: أن فيهما تدبير. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

ما وَعَدَ الخَلْقَ مِنَ الثوابِ، ولا يَرْغَبونَ في ما يُرْجَى، ويُطْمَعُ مِنَ الرَّغائبِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يَخافُونَ لِقاءَنا، وما مِنْ خوفٍ إلّا وفيهِ رَجاءٌ، وما مِنْ رَجاءٍ إلّا وفيهِ خَوفٌ؛ لأنَّ الخوفَ الذي لا رَجاءَ فيهِ، هو إياسٌ، والرَّجاءَ الذي لا خَوفَ فيهِ أمْنٌ. لكنَّ الغالِبَ في الحَسَناتِ والخَيراتِ الرَّجاءُ، وفيهِ خَوفٌ، والغالِبَ في السَّيِّئاتِ والشُّرورِ الخَوفُ، وفيهِ أدْنَى الرَّجاءِ، وهو ما ذَكَرْنا في الشُّكْرِ والصَّبْرِ أنهما واحدٌ؛ لأنَّ الصَّبْرَ هو كَفُّ النَّفْسِ عنِ الشَّهَواتِ واللَّهَواتِ، والشُّكْرَ هو اسْتِعْمالُها في الخَيراتِ. فإذا كَفَّها عنِ الشَّهَواتِ اسْتَعْمَلَها في الخَيراتِ.

لِذلكَ قُلْنا: إنهما في الحقيقةِ واحدٌ؛ لأنَّ الشُّكْرَ هو القَبولُ، وكذلكَ الصَّبْرُ أيضاً. غَيرَ أنَّ الشُّكْرَ في قَبولِ النِّعَمِ والصَّبْرَ في قَبولِ البَلايا والمصائبِ، واللهُ أعْلَمُ، يَصيرُ كأنهُ قالَ: إنَّ الذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أيِ اختاروا المُقامَ في ما عَمِلُوا بها، كأنهمْ مُقيمونَ فيها أبداً. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

الآية ٨ ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنْ رَدِّهِمُ الآياتِ وكُفْرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: سُرُّوا بها، وآثَروا مَحاسِنَ الدنيا على ثوابِ الآخِرَةِ.

والثاني: رِضاهُمْ بالدنيا والطمأنينةُ فيها، مَنَعاهُمْ[1] عنِ التَّفَكُّرِ والنَّظَرِ في أمْرِ الآخِرَةِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها][2]: يَحْتَمِلُ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ في الدنيا طريقَ الجنةِ في الآخِرَةِ، وهو مَعْنى ما ذُكِرَ في القِصَّةِ: أنَّ المؤمِنَ إذا خَرَجَ مِنَ القَبْرِ يُصَوَّرُ لهُ عَمَلُهُ في صورةٍ حَسَنَةٍ.

والثاني: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ فَيَصيرونَ مُهْتَدينَ[3] بهِدايَتِهِ إياهُمْ.

والثالثُ[4]: يُشْبِهُ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يَدْعُوهُمْ إلى الخَيراتِ في الدنيا بإيمانِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

فهذا على المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يَمْتَنِعونَ عنْ تَسْمِيَةِ صاحِبِ الكَبيرةِ مؤمِناً، ومَعَهُ إيمانٌ، فَيَلْزَمُهُمْ أنْ يَمْتَنِعوا عمّا وُعِدَ لهُ، وإنْ كانَ مَعَهُ إيمانٌ، فإنْ ذُكِرَ لهُ الوَعْدُ مع هذا لَزِمَهُمْ أنْ يُسَمُّوهُ مؤمِناً لِما مَعَهُ مِنَ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ﴾ يقولُ أهلُ التأويلِ: مِنْ تَحْتِ أهلِ الجنةِ، وقد ذَكَرْنا هذا.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال قائلونَ: قولُهُ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ دَعْوى الإيمانِ أي يَدْعُونَ في الآخِرَةِ [دَعْوى الإيمانِ إلى التوحيدِ للهِ والتنزيهِ][5] لهُ كما دَعَوا[6] في الدنيا [إلى][7] وحدانِيَّةِ اللهِ، ونَزَّهُوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ﴾ هو حَرفُ تَنْزيهٍ وتَبْرِئَةِ الربِّ عنِ الأشباهِ[8] وجميعِ الآفاتِ التي وصَفَتْهُ المُشَبِّهَةُ المُلْحِدَةُ. فهذا يدلُّ أنَّ ما خُرِّجَ مُخْرَجَ الدَّعْوَى فإنهُ لا يَخْتَلِفُ باخْتِلافِ الدُّورِ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هو مِنَ الدعاءِ لا مِنَ الدَّعْوَى؛ يقولونَ: إنهمْ إذا اشْتَهَوا طعاماً أو شراباً، وتَمَنَّوا شيئاً، ادَّعَوا[9] بقولِ: ﴿سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ﴾ فَيُؤْتَونَ ما تَمَنَّوا، واشْتَهَوا. ولكنْ ذُكِرَ ألّا تَنْقَطِعَ اللَّذّاتُ في الجنةِ، ولو كانَ ما يقولونَ لكانَ فيهِ انْقِطاعُ اللَّذّاتِ والشَّهَواتِ إلّا أنْ يُقالَ إنهمْ يُلْهَمونَ شَهَواتٍ وأمانِيَّ، فَيَشْتَهُونَ: قالَ[10] اللهُ ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] [وقالَ][11]: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠و٢١] ولا نَعْلَمُ ما أرادَ بهِ.

---

(١) في الأصل و م: منعهم. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل وم: مهتدون. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل: التوحيد لله والتنزيل، في م: والتوحيد لله والتنزيه. (٦) في الأصل و م: ادعوا. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: الأشياء. (٩) في الأصل و م: فيدعون. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: يُخْبِرُ أنهُ لَيسَ على أهلِ الجنةِ مِنَ العِباداتِ شَيءٌ سِوَى التوحيدِ.

والثاني: يقولونَ ذلكَ لِعَظِيمِ ما رَأَوا مِنَ النَّعِيمِ وعَجِيبِ ما عايَنوا.

والثالثُ: شُكْراً لِما أعطاهُمْ مِنْ ألوانِ النَّعيمِ والأطْعِمَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الملائكةَ يأتونَ مِنَ ألوانِ النَّعِيمِ بما اشْتَهَوا، ويُسَلِّمونَ عليهِمْ، ويَرُدُّونَ السَّلامَ على الملائكةِ. فذلكَ قولُهُ ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ فإذا طَعِموا، وفَرَغُوا، قالوا عندَ ذلكَ: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو قولُ ابْنِ عباسٍ وغيرِهِ مِنْ أهلِ التأويلِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ الكلامَ[1] الذي لا عَيبَ فيهِ، ولا مَطْعَنَ؛ أي كلامُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ مُنزَّهٌ مَنْفِيٌّ عنْ جَميعِ العُيوبِ والمَطاعِنِ كقولِهِ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ الآية [مريم: ٦٢] وقولِهِ: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يقولونَ على إثْرِ فَراغِهِمْ مِنَ الطعامِ والشرابِ ذلكَ. وقالَ الحَسَنُ: إنَّ اللهَ رَضِيَ مِنْ عِبادِهِ بالشُّكْرِ لِما أنْعَمَ عليهِمْ في الدنيا والآخِرَةِ بـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دَعْواهُمْ في الآخِرَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما كانَ دَعْواهُمْ في الدنيا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ كأنَّ الآيةَ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ إذا اسْتَعْجَلُوهُ كما يُعَجِّلُ لهمُ الخيرَ إذا اسْتَعْجَلوهُ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأنهُ ليسَ يَذْكُرُ في ظاهِرِ الآيةِ اسْتِعجالَهُمُ الشَّرَّ، إنما يَذْكُرُ [تَعْجِيلَهُ الخيرَ ولكنَّ][2] فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الإضمارِ إضمارَ الاسْتِعجالِ، وهو ماذَكَرْنا في غيرِ آيةٍ[3] مِنَ القرآنِ اسْتِعجالَهُمُ العذابَ كقولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقولِهِ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ الآية [هود: ٨٢] ونَحْوَ[4] ذلكَ.

كانوا يَسْتَعْجِلونَ العذابَ اسْتِعجالَ تَضَرُّعٍ، فيقولُ: لو عَجَّلَ لهمُ العذابَ إذا اسْتَعْجَلُوهُ كما يُعَجِّلُ لهمُ الخيرَ إذا اسْتَعْجَلُوهُ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يقولُ: لَهَلكُوا، أو فَنُوا. هذا التأويلُ في أهلِ الكُفْرِ خاصةً عندَ اسْتِعْجالِهِمُ العذابَ اسْتِعْجالَ تَضَرُّعٍ وسؤالٍ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا في جُملَةِ الخَلْقِ على غَيرِ تَصْرِيحِ سُؤالٍ، ولكنْ عندَ ارْتِكابِهِمُ الشَّرَّ يقولُ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ باكْتِسابِهِمُ الشَّرَّ وبارْتِكابِهِمْ إياهُ وقْتَ اكْتِسابِهِمْ [كما يُعَجِّلُ لهمُ الخيرَ وقتَ اكتسابِهِمُ الخيرَ][5] ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لَهُمْ جزاءَ شَرِّهِمْ وقتَ اكْتِسابِهِمُ الشَّرَّ كما يُعَجِّلُ لَهُمْ جَزاءَ خَيرِهِمْ؛ لكانَ ما يَسْتَوجِبونَ بارْتِكابِهِمُ الشَّرَّ وقتَ فِعْلِهِمْ إياهُ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لكنهُ لم يَجْعَلْ لهمْ ذلكَ، وأخَّرَهُ إلى المُدَّةِ التي جَعَلَ لآجالِهِمْ.

ويُمْكِنُ وَجهٌ آخَرُ، وهو ما يَدْعُو بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ باللَّعْنِ والخِزْيِ؛ يقولُ الرجلُ عندَ شِدَّةِ الغَضَبِ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فلاناً، اللَّهُمَّ اخْزِهِ ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الدَّعَواتِ. يقولُ: لو عَجَّلَ لهمْ هذا كما يُعَجِّلُ لهمْ عندَ دعاءِ بعضِهِمْ لِبَعْضٍ بالرَّحْمَةِ والسَّعَةِ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يكونُ هذا على وُجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: اسْتِعْجالُ سُؤالٍ وتَضَرُّعٍ [وهو][6] الذي ذَكَرْنا.

والثاني: بأفعالِهِمْ وارْتِكابِهِمُ الشَّرَّ [وقتَ][7] ارْتِكابِهِمْ.

---

(١) في الأصل و م: والكلام. (٢) في الأصل: تعجيل ولكن، في م: تعجيله ولكن ما. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) في الأصل: ونحوه.
(٥) ساقطة من م. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من م.

والثالثُ: في الأسبابِ التي بها يرتكِبونَ، ويفعَلُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يَحتَمِلُ: لا يُقدِّمُ، ولا يُؤخِّرُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤و..]

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ مِنْ حِكْمَتِهِ ألّا يُعاقِبَ أحداً مِنَ الكَفَرَةِ في الكُفرِ بِصُنْعِهِ الذي صَنَعَ، وقد يُعَجِّلُ لَهُمْ جزاءَ خيراتِهِمْ في الدنيا لِما ساقَ إليهِمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ. ولكنْ مِنْ حِكْمَتِهِ أنْ يُؤخِّرَ عُقوبَتَهُمْ إلى يومِ القِيامَةِ. فذلكَ تأويلُهُ[1]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى/ ٢٢٧ ـ أ/: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ الإنسانُ فالمُرادُ منهُ الكافِرُ. مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦] وقولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقولُهُ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١و٢] ونَحْوُهُ.

لكنَّ هذا لا نَعْلَمُ أنهُ أرادَ بهِ الكافِرَ. فَلَئِنْ كانَ ما ذَكَرُوا فإنَّ أهلَ الإيمانِ يَدخُلونَ في هذا الخِطابِ إذا كانَ منهُمْ ما يكونُ مِنَ الكَفَرَةِ؛ لأنَّ مِنْ أهلِ الإيمانِ مَنْ يُقبِلُ على الدعاءِ والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ عندَ مَسِّ الحاجَةِ والشِّدَّةِ. فإذا انْجَلَى ذلكَ، وانْكَشَفَ عنهُ، تَرَكَ ذلكَ الدعاءَ الذي كانَ دَعا وذلكَ التَّضَرُّعَ الذي كانَ يَتَضَرَّعُ إليهِ، فَدَخَلَ في ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ ليسَ على إرادةِ حقيقَةِ الجَنْبِ والقُعودِ والقِيامِ، ولكنْ على الدعاءِ في كلِّ حالٍ؛ أي يدعُوهُ [الكَفَرَةُ][2] لمّا عَرَفُوا أنَّ الذينَ[3] كانوا يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ لا يَمْلِكونَ دَفْعَ ما حَلَّ بِهِمْ مِنَ الشَّدائِدِ والمَضارِّ أقْبَلوا على اللهِ بالتَّضَرُّعِ والدعاءِ إليهِ في كَشْفِ ذلكَ عنهُمْ.

ثم أخبَرَ عنْ سَفَهِهِمْ وشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ وعَودِهِمْ إلى الخِلالِ التي كانوا [عليها][4] مِنْ قَبْلُ، فقالَ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ قد نَسِينَا في الرَّخاءِ كأنْ لم يَعْرِفْنا. وإنَّ التَّعَدِّيَ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ هو[5] وَضْعُ الأموالِ والأنفُسِ في [المَواضِعِ التي][6] لا يَنْتَفِعونَ في عِبادَةِ الأصنامِ وغيرِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ فإنْ قيلَ: قد أهلَكَ مَنْ ظَلَمَ ومَنْ لم يَظْلِمْ، فما يُعلَمُ مَنْ أهلَكَ مِنَ الظَّلَمَةِ أنهُ إنما أهلكَهُمْ لِظُلْمِهِمْ، أو أهلَكَ لِصَلاحِ مَنْ لم يَظْلِمْ، قيلَ لهُ: أهلَكَ الظَّلَمَةَ إهلاكَ اسْتِئْصالٍ وعُقوبةٍ، وأهلَكَ مَنْ لم يَظْلِمْ لا إهلاكَ عُقوبةٍ واستِئْصالٍ، إنما هو إهلاكٌ بآجالِهِمُ التي جَعَلَ لهمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [أنهُ][7] إنما أهلكَ أولئكَ بِسُؤالِهِمُ الذي سَألوا سُؤالَ تَعَنُّتٍ رُسُلَهُمُ الآياتِ. فإذا جاؤوا بِتِلكَ الآياتِ كَذَّبوها، فأُهْلِكوا عندَ ذلكَ.

فأنتُمْ يا أهلَ مكَّةَ إذا سألتُمْ رسولَكُمُ الآيةَ، ثم كَذَّبْتُموها[8]، لَعَذَّبَكُمْ كما عَذَّبَ أولئكَ، إذْ مِنْ حِكَمِهِ الإهلاكُ على إثْرِ السؤالِ؛ كأنهُ يَنْهَى أهلَ مكةَ عنْ سؤالِ الآياتِ لأنَّ[9] على إثْرِهِ الإهلاكَ إذا لم يَقْبَلُوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ تَحتَمِلُ البَيِّناتُ التي تُبَيِّنُ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى، وقد ذَكَرْناها في غيرِ مَوضِعٍ ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ يُخبِرُ رسولَهُ أنهمْ، وإنْ سالوكَ الآياتِ، فإذا جِئتَ بها فإنهمْ لا يُؤمِنونَ؛ يعني أهلَ مكةَ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كلَّ مُجْرِمٍ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿خَلَائِفَ﴾ أي جَعَلَ أنْفُسَكُمْ خَلْفَ أنفُسِ أولئكَ الذينَ لم يُهْلِكْهُمْ. يُخْرَجُ هذا مُخْرَجَ تَذكيرِ النِّعْمَةِ والإمْتِنانِ والرَّحْمَةِ؛ يُذَكِّرُهُمْ أنهُ لو شاءَ أهلكَ الكُلَّ، فلا يكونُ هؤلاءِ خَلْفَ أولئكَ. ولكنْ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ أبْقاكُمْ.

---

(١) من م، في الأصل: تأويل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهو.
(٦) في الأصل و م: الموضع الذي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كذبوها. (٩) في الأصل وم: فان.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [أولئكَ في المِحْنَةِ والعبادَةِ؛ أي جَعَلَ عليكُمْ مِنَ المِحْنَةِ والعِبادَةِ كما كانَ على آبائكُمْ مِنَ المِحْنَةِ والعِبادَةِ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾][1] الذينَ لم يَظلِموا، فكيفَ لا تَتَّبِعونَهُمْ؟

لأنَّ الذينَ ظَلَموا قد أهْلَكَهُمْ، فأنتمْ خلائِفُ أولئكَ الذينَ لم يَظلِموا، أو يُكَذِّبوا الرسُلَ، فكيفَ لا تَتَّبِعونَهُمْ؟ كأنَّهُمْ ادَّعَوا أنَّ آباءَهُمْ كانوا على ما هُمْ عليه، وأنَّهُمْ على مذاهِبِ آبائِهِمْ.

يقولُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي لَسْتُ أنا بأوَّلِ رسولٍ أُرسِلْتُ إليكُمْ، بل لم يَزَلِ اللهُ يرسِلُ رسولاً في الأُمَمِ، فكانَ فيهِ لهمْ أتباعٌ يَتْبَعونَ رُسُلَهُمْ إلى ما يَدْعُوهُمْ إليهِ، ويُجيبونَهُمْ، فاتَّبِعوني أنتُمْ يا أهلَ مكةَ في ما دُعِيتُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾لم يَزَلِ اللهُ عالِماً بما كانَ، ويكونَ منهُمْ مِنَ المَعْصِيَةِ والطاعةِ، ولكنْ لِيَعْلَمَهُمْ عُصاةً ومُطيعينَ؛ لأنَّ المعصِيَةَ إنما تكونُ بَعْدَ ما يكونُ النَّهْيُ، والطاعةُ إنما تكونُ بالأمرِ، فَيَبْتَليكُمْ، وَيَعْلَمُكُمْ عُصاةً كما عَلِمَ أنهُ يكونُ منكُمُ الطاعةُ. وقد ذَكَرْنا أمثالَ هذا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ البَيِّناتُ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ، والبَيِّناتُ هي التي تُبَيِّنُ أنها آياتٌ نَزَلَتْ مِنْ عندِ اللهِ، لم يَخْتَرِعْها أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ.

وقد ذَكَرْنا قولَهُ أيضاً: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وقولَهُ تعالى: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ الا تَرَى أنهُ [لمّا][2] قالَ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾؟ إنما[3] أجابَهُمْ في التبديلِ. دلَّ أنَّ السؤالَ كانَ سؤالَ تَبْديلٍ، ولكنْ كانوا يَسألونَ سؤالَ اسْتِهزاءٍ وتكذيبٍ.

ثم اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في التبديلِ الذي سألوا: قالَ بعضُهُمْ: سألوا أنْ يُبَدِّلَ، ويَجْعَلَ مكانَ آيةِ العذابِ آيةَ الرحْمَةِ، لو بَدَّلَ أحكامَهُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي بَدِّلْ أحكامَهُ، واتْرُكْ رَسْمَهُ.

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهمْ سألوا أنْ يَتْلُوَ مكانَ آيةِ العذابِ آيةَ الرحمةِ ومكانَ ما فيهِ سَبُّ آلهتِهِمْ مَدْحَها، ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ونَحْنُ لا نَعْلَمُ ما أرادَ بالتبديلِ تبديلِ الأحكامِ وتبديلِ الرسمِ والنُّظْمِ إنما نَعْلَمُ ذلكَ بالسماعِ.

ثم أخْبَرَ أنهُ لا يقولُ، ولا يَتَّبِعُ إلا ما يُوحِي اللهُ، ويؤمِنُ بهِ بقولِهِ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنْ تركْتُ تَبْليغَ ما أُمِرْتُ بالتبليغِ إليكُمْ. وهذا كلُّ مَنْ عَرَفَ ربَّهُ خافَهُ إنْ عصاهُ، وخالَفَ[4] أمرَهُ ونَهْيَهُ، ومَنْ لم يَعْرِفْ ربَّهُ لم يَخَفْهُ إنْ عصاهُ، وخالَفَ [أمْرَهُ ونَهْيَهُ][5]

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ سؤالُهُمْ سؤالَ تَعَنُّتٍ واسْتِهزاءٍ لأنهُ مَنْفَعَةٌ لهمْ لواتى بغَيرِهِ، وبَدَّلَهُ سِوى ما في هذا. ولو جازَ لهمْ هذا السؤالُ لجازَ ذلكَ في كلِّ ما أتى واحداً بَعْدَ واحِدٍ، فذلكَ ممّا [لا][6] يَنْقَطِعُ أبداً، ولا غايةَ، ولا نهايَةَ [لهُ، و هو سؤالُ][7] تَعَنُّتٍ واسْتِهْزاءٍ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ هو صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ حينَ[8] قالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾قد ذَكَرْنا أنَّ هذا [يحتملُ وجهَينِ][9]:

يَحْتَمِلُ أنهمْ سألوهُ أن يُبَدِّلَ أحكامَهُ على تَرْكِ رَسْمِهِ ونَظْمِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي ارفَعْ رَسْمَهُ ونَظْمَهُ وأحكامَهُ، كأنهمُ ادَّعَوا على رسولِ اللهِ اخْتِراعَ هذا القرآنِ مِنْ نَفْسِهِ واخْتِلاقَهُ مِنْ عندِهِ، فقالَ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، لو شاءَ اللهُ ألا يُظْهِرَ دينَهُ فيكم ما[10] ألزَمَهُ حُجَّةً، ولا بَعَثَني إليكُمْ رسولاً ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولا أعلَمَكُمْ بهِ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ان. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فسؤال. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ولا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعلَمَكُمْ ما فيهِ مِنَ الأحكامِ، أي يقولُ ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لم يُوحِ إليَّ، ولا أمَرَني بتبليغِ ما أُوحَى إليَّ إليكُمْ ولا بالدعاءِ إلى ما أمَرَني أنْ أدعُوَكُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ فلو لم يَشأْ أنْ [أتْلُوَهُ ما تَلَوتُهُ][1]. دلَّ أنَّ ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يَشَإِ اللهُ لم يكُنْ. وذلكَ يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ: شاءَ اللهُ أنْ يؤمِنَ الخلائقُ كلُّهُمْ، فلم[2] يؤمنوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ فلم أدَّعِ ما أدَّعي الحالَ، ولا تَلَوتُ ما أتْلُو ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أني لم أخترِعْ هذا مِنْ نفسي، ولكنْ أوحِيَ إليَّ؛ إذْ لو كانَ اختِراعاً مِنّي لَكانَ ذلكَ مِنّي في ما مَضَى مِنَ الوقتِ، وكُنْتُ لابثاً فيكم. فإذا لم يكُنْ ذلكَ مني ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾/ ٢٢٧ ـ ب/ أني لم أختَرِعْ مِنْ نفسي.

يَحتَمِلُ هذا الكلامُ وجوهاً:

أحَدُها: أنهمْ لمّا ادّعَوا عليهِ الاختِراعَ مِنْ عندِهِ قالَ: إني قد ﴿لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي قَبْلَ أنْ يُوحَى هذا إليَّ؛ فلم تَرَوني خَطَطْتُ بيَمِني، ولا اختَلَفْتُ إلى أحدٍ في التَّعَلُّمِ والدراسةِ، فكيفَ أختَرِعُ مِنْ عندي، والتأليفُ لا يَلْتَئِمُ، ولا يَتِمُّ إلا بأسبابٍ مُتَقَدِّمَةٍ؟

والثاني: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ سِنينَ لم تَعرِفوني، و لا رَأيتُموني كَذَبْتُ قطُّ، فكيفَ أفتَري على اللهِ، وأختَرِعُ القرآنَ مِنْ عندِ نَفْسي؟ ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ؟[يونس: ١٧].

والثالثُ: يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ فلم أسمَعْ أحداً ادَّعَى البَعْثَ، ولا أقامَ حُجّةً عليهِ، وأنا قدِ ادَّعَيتُ البَعْثَ، وأقَمْتُ على ذلكَ حُجّةً ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [بَعْدَ][3] هذا أني لم أختَرِعْ مِنْ عندِ نَفْسي؟

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ يُشبِهُ أنْ [يكونَ][4] هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ أي كيفَ تَطلُبونَ مِنّي إتيانَ غيرِهِ وتبديلَ أحكامِهِ، وأنتمْ[5] تَعرِفونَ قُبْحَ الكَذِبِ وفُحْشَهُ؟ فكيفَ تَسْألونَني الافتِراءَ على اللهِ وتكذيبَ آياتِهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ صِلَةَ ما ادَّعَوا عليهِ[6] أنهُ افتِراءٌ مِنْ عندِ نفسِهِ؛ يقولُ: إنكُمْ لم تأخذوني بكَذِبٍ قطُّ ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ فكيفَ تَنسِبونَني إلى الكَذِبِ على اللهِ، وقد عَرَفْتُمْ قُبْحَ الكَذِبِ على اللهِ وفُحْشَهُ. ويَحتَمِلُ[أنْ يكونَ][7] على الابْتِداءِ.

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استِفهامٌ، وجوابُهُ[8] ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: لا أحَدَ أبيَنُ ظُلْماً وأفحَشُ ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لأنَّ تفسيرَهُ ما قالوهُ، وقد ذَكَرْنا هذا في غيرِ مَوضِعٍ. ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ الافتِراءُ على اللهِ تكذيبٌ بآياتِهِ، وتكذيبُ آياتِهِ افتِراءٌ على اللهِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهُما][9]: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ لو تَرَكوا عبادَتَهُ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ إنْ عَبَدوهُ.

والثاني: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ ما يَملِكونَ الضَّرَرَ بِهِمْ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ أي ولا يَملِكونَ جَرَّ النَّفعِ إليهِمْ.

يُسَفِّهُهُمْ في عبادَتِهِمْ مَنْ لا يَملِكُ دَفْعَ الضُّرِّ عنهمْ[10]، ولا يَملِكُ جَرَّ النَّفعِ [إليهِمْ][11] وتَركِهِمْ عبادةَ مَنْ بهِ يكونُ جميعُ مَنافِعِهِمْ وغِذائِهِمْ، ومنهُ يكونُ كلُّ خَوفٍ وضُرٍّ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يتلوه ما تلاه. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقد. (٦) في الأصل وم: إليه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فجوابه. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: بهم مدرجة قبل دفع. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ هذا القولُ منهُمْ تقليداً[1] لآبائهِمْ كقولِهِمْ: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ظَنُّوا أنَّ آباءَهُمْ لِما [لم يَتْرُكوا][2] ما هم عليهِ لم يُعَذَّبوا، وأنهُمْ على الحَقِّ، وأنَّ اللهَ قد رَضِيَ بذلكَ، أو قالوا ذلكَ لِما [لم][3] يَرَوا أنْفُسَهُمْ أهلاً لِعبادةِ اللهِ والقِيامِ بِخدمتِهِ، وقد يكونُ مِثْلُ هذا في ملوكِ الأرضِ؛ إذْ كُلُّ أحدٍ لا [يَرى][4] نَفْسَهُ، يَصْلُحُ لِخِدْمَةِ المَلِكِ، فَيَخْدُمُ مَنْ دونَهُ المُتَّصِلِينَ بهِ رَجاءَ أنْ يكونَ مَنْ خَدَمَهُ شَفيعاً لهُ عندَ المَلِكِ.

فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ ظَنُّوا[5] أنَّ عِبادَتَهُمْ هؤلاءِ تُقَرِّبُهُمْ ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويكونونَ[6]، لهُمْ شُفعاء ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عندَ اللهِ واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما][7]: يقولُ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي تُعَلِّمونَ أنهُ عالِمٌ؛ أي أتُعَلِّمونَ مَنْ يعلَمونَ أنه يَعْلَمُ ما ذَكَرَ، وأنتمْ لا تَعْلَمونَ ذلكَ، وقد تَعْلَمونَ أنهُ لو كانَ كذلكَ لكانَ هو أعْلَمَ بِهِ منكُمْ.

والثاني: أنْ تقولوا ما لا يُعْلَمُ أنهُ ليسَ كما تقولونَ كقولِ الناسِ: ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لا يَشاءُ لا يكونُ؛ أي وما يَشاءُ ألّا يكونَ لا يكونُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ كلمةٌ جُعِلَتْ لإجلالِ اللهِ عمّا لا يَحْتَمِلُهُ غَيرُهُ[8] مِنَ الأشكالِ والأضدادِ ومِنَ العُيوبِ والآفاتِ، وهو في هذا المَوضِعِ يَتَوَجَّهُ إلى وجهَينِ:

أحَدُهما: إذا كانوا يَعْبُدونَ ما ذَكَرَ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيقولُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أنْ يَجْعَلَ لأمثالِ أولئكَ شَفاعةً عندَهُ؛ إذِ الشَّفيعُ أنهُ يكونُ مَنْ لهُ مَنْزِلَةٌ وقَدْرٌ عندَ مَنْ يَشْفَعُ لهُ، والمَنْزِلَةُ تكونُ لِلْعَبْدِ بِما يَتْبَعُهُ. [أمّا][9] هم فَيقومونَ بتوفيرِ ما يَحْتَمِلُ وُسْعُهُمْ مِنَ العبادةِ. فأمّا مَنْ لا يَحْتَمِلُ التَّعَبُّدَ فهو بَعيدٌ عما ذُكِرَ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أنْ يَجْعَلَ الشفاعةَ لِمَنْ ذَكَرَ دونَ الأنبياءِ والرسُلِ، وهمْ قد أُخبِرُوا أنها لا تَمْلِكُ ضَرراً ولا نَفْعاً، وفي الشفاعةِ ذلكَ.

والثاني: أنْ يكونَ عمّا أشْرَكوا في العِبادةِ، فَسُبْحانَهُ عَنْ أنْ يكونَ معهُ مَعْبودٌ، أو يأذَنَ لأحَدٍ بِعبادةِ غيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي أهلُ مكةَ؛ كانوا كُلُّهُمْ أهلَ شِرْكٍ عُبّادَ الأوثانِ والأصنامِ، لم يكنْ فيهمُ اليهوديَّةُ ولا النصرانيَّةُ ولا شيءٌ مِنَ اختِلافِ المذاهبِ. فلمّا بُعِثَ محمدٌ ﷺ اختَلَفوا: فمنهمْ مَنْ آمَنَ بهِ، وصَدَّقَهُ، وأخلَصَ دينَهُ للهِ، ومنهمْ مَنْ عانَدَ، وكابَرَ في تكذيبِهِ بَعْدَ أنْ عَرَفَ أنهُ رسولُ اللهِ، ومنهمْ مَنْ شَكَّ فيهِ، ومنهمْ مَن لم يَنْظُرْ في أمرِهِ قَطُّ، ولا تَفَكَّرَ فيهِ، فَصاروا أربعَ فِرَقٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالفِطْرَةِ؛ أي كانوا جميعاً على الفِطْرَةِ، وفي فِطْرَةِ كلٍّ الشهادةُ على وحدانيةِ اللهِ تعالى وألوهيَّتِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] وقولِهِ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ الشهادةُ للهِ بالوَحدانيَّةِ لهُ والألوهيَّةِ.

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ فمنهُمْ مَنْ كانَ على تلكَ الفِطْرَةِ، ومنهمْ مَنْ كَذَّبَ، واختارَ الكُفْرَ، وهو ما رُوِيَ: «كُلُّ مولودٍ يولَدُ على الفِطْرَةِ إلّا أنَّ أبَوَيهِ يُهَوِّدانِهِ، ويُنَصِّرانِهِ» [البخاري١٣٨٥] أخبَرَ أنهمْ على الفِطْرَةِ لو تُرِكوا على ذلكَ، [لكنَّ][10] أبَوَيهِ يَمْنَعانِهِ عنِ الكونِ عليها.

وقيلَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي كانَ الخلائقُ جُمْلَةَ أُمَمٍ كقولِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] كأنهُ يُعاتِبُ هذهِ الأمَّةَ؛ يَقولُ: إنَّ الأمَمَ مع اختِلافِ جواهِرِها وأجناسِها كانوا

---

(١) من م، في الأصل: تقليد. (٢) في الأصل و م: تركوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: طعموا، في م: طمعوا. (٦) في الأصل وم: ويكونوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الهاء ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

خاضِعينَ للهِ مُخلِصِينَ لهُ، فأنتُمْ أيُّها الناسُ أُمَّةٌ مِنْ تِلْكَ الأممِ، فكيفَ اختَلَفْتُمْ، وأشرَكْتُمْ غيرَهُ في الوهيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ مع ما رَكَّبَ فيكمْ مِنَ العَقلِ[1] والتَّمييزِ بَيْنَ ما هو حِكْمَةٌ، وما هو سَفَهٌ، وفضَّلَكُمْ على غيرِها مِنَ الأممِ في خَلْقِ ما خَلَقَ في السمواتِ وفي[2] الأرضِ لكُمْ، وسَخَّرَ لكُمْ ذلكَ كُلَّهُ ما لم يَفعَلْ ذلكَ بِغَيرِها مِنَ الأُمَمِ؟

ومنهُمْ مَنْ قالَ مِنْ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ زَمَنَ نوحٍ، ومَنْ دخلَ معهُ في السفينةِ كانوا على دينٍ واحدٍ، فاختَلَفوا بَعْدَ ما خَرَجوا، ومنهُمْ مَنْ قالَ [كانوا زَمَنَ][3] آدمَ، فاختَلَفَ أولادُهُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: [كانوا زَمَنَ][4] إبراهيمَ. لكنا نَشْهَدُ كيفَ كانَ الأمرُ، فلا نَعْلَمُ إلّا بِخَبَرٍ مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهما][5]: قيلَ: لولا أنَّ مِنْ حِكَمِهِ ألّا يُعَذِّبَ هذه الأمَّةَ عندَ تكذيبِهِمُ الآياتِ [إذا سألوها][6] ولكنْ أخَّرَ تعذيبَ هذه الأمَّةِ إلى يومِ القيامةِ.

والثاني: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ ألّا يَستأصِلَ هذِهِ الأُمَّةَ عندَ تكذيبِ الرسلِ والعِنادِ لهمْ.

أحَدُ التأويلَينِ في تركِ استِئصالِهِمْ، والآخَرُ في تأخيرِ العذابِ إلى وقتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بِبَيانٍ يَضطَرُّهُمْ إلى القَبولِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ جوابُهُ، واللهُ أعلَمُ، ما ذَكَرَ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ ألّا يُعَذِّبَ هذهِ الأمَّةَ بتكذيبِ الآياتِ عندَ السؤالِ./ ٢٢٨ ـ أ/

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي إنكم تَعْلَمونَ أنَّ عِلْمَ الغيبِ للهِ، وقد أنْزَلَ مِنَ الآياتِ ما يُبَيِّنُ، ويَدُلُّ على رسالتي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ قيلَ: انْتَظِروا هَلاكي إنِّي مُنْتَظِرٌ هَلاكَكُمْ؛ لأنهمْ كانوا يُوعِدونَهُ الهلاكَ. وقيلَ: انْتَظِروا مَواعيدَ الشيطانِ إنِّي مُنْتَظِرٌ مواعيدَ[7] اللهِ، وهو حرفُ وَعيدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ ﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ يعني أهلَ مكةَ إذا أصابَهُمْ سَعَةٌ وفَرَحٌ ونَجاةٌ مِمّا يَخافونَ عادُوا إلى ما كانوا مِنَ التكذيبِ وعِبادةِ الأصنامِ. ولكنَّ أهلَ مكةَ وغيرَهُمْ كانوا[8] إذا أيِسوا ممّا يَعبُدونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ فَزِعوا إلى اللهِ، يُخْلِصونَ[9] لهُ الدينَ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ الآية [يونس: ١٢] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ الآية [الروم: ٣٣] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ ممّا يَكْثُرُ عددُها، كانتْ عادَتُهُمُ الفَزَعَ إلى اللهِ عندَ إصابَتِهِمُ الشدائدَ والبلايا لِعِلْمِهِمْ أنَّ الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونَها لا تَدْفَعُ عنهمْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ المَكْرُ في الآياتِ تكذيبُها وردُّها. فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ ههنا [في محمدٍ كما كانَ][10] مِنْ أوَّلِ أمْرِهِ إلى آخِرِهِ آيةً، فَمَكَروا بِهِ لـمّا هَمّوا بِقَتْلِهِ غيرَ مَرَّةٍ بقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠]

ويَحتَمِلُ سائرَ الآياتِ والحُجَجِ؛ مَكَروا فيها، أي كذَّبوها، وردُّوها ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ المكرُ الأخذُ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ هو بِهِ. يقولُ: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ﴾ أخذاً، يأخذُكُمْ[11]، وأنتمْ لا تَعْلَمونَ بهِ، ولا تقْدِرونَ أنْ تأخذوا رسولَ اللهِ، وتَمْكُروا بهِ إلّا وهو يَعْلَمُ بذلكَ، وهو أسرَعُ أخذاً منكُمْ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فَهُمُ الحَفَظَةُ.

---

(١) في الأصل وم: القول. (٢) في الأصل وم: وما في. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: عند السؤال. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٨) في الأصل و م: أنهم. (٩) في الأصل و م: ويخلصون. (١٠) في الأصل و م: محمداً كما هو. (١١) من م: في الأصل: يأخذهم.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أسرَعُ [جزاءً ومَكراً](١) منكُمْ وأسرَعُ أخذاً مِنْ حيثُ لا تعْلَمونَ أنتمْ. وقالَ بعضُ أهلِ اللغةِ: المَكْرُ بالآياتِ هو الرَّدُّ والجُحودُ لها، وقالَ بَعْضُهُمْ: اسْتِهْزاءٌ بها، فهو واحدٌ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي هو الذي سَخَّرَ لكُمْ ما به(٢) تَسيرونَ في البرِّ والبحرِ، وهو الدَّوابُّ والسُّفُنُ التي تُقْطَعُ بها البَراري والبحارُ، وهو كقولِهِ ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

وقيلَ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [أي سَخَّرَ لكُمُ البَرَّ والبَحْرَ، وهما](٣) مكانُ الخَوفِ والهلاكِ؛ أي حَفِظَكُمْ [فيهما حتى تقضُوا](٤) فيهما حوائجَكُمْ، وليسَ في وُسْعِ الخَلْقِ حِفظُ البَراري والبِحارِ عمّا فيهما مِنَ الأهوالِ، فتَوَلّى اللهُ تعالى بِفَضْلِهِ حِفْظَ السائرينَ [فيهما حتى يَقْضُوا](٥) فيهما حوائِجَهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [مِنْ](٦) أنواعِ المَنافعِ.

فلولا أنَّ اللهَ سَخَّرَ لهمْ ذلكَ، وحَفِظَهُمْ فيهِ، وإلّا لم يكنْ في وُسْعِهِمْ(٧) القيامُ بذلكَ وحِفْظُ أنفُسِهِمْ فيهِ مِنَ الأهوالِ التي فيهِ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ ومِنَنَهُ التي أنْعَمَها لِيُوَجِّهوا شُكْرَ نِعَمِهِ إليهِ.

ثم قولُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يَحْتَمِلُ: يَخْلُقُ، ويُنْشِئُ سَيْرَكُمْ في البَرِّ والبَحْرِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ﴾ الآيةَ [سبأ: ١٨] والتقديرُ هو التخليقُ، والمُقَدَّرُ المَخْلُوقُ.

ففيهِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ الخَلْقِ لأنَّ السَّيْرَ هو فِعْلُ الخَلْقِ، أضافَهُ إلى نَفْسِهِ، دلَّ أنهُ مُنْشِئُ فعلِهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

ويُشْبِهُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ لم يُرِدْ بهِ البَرَّ والبَحْرَ نَفْسَيهِما(٨)، ولكنهُ أرادَ تذكيرَ نِعَمِهِ عليهِمْ في كلِّ حالٍ وكلِّ وقتٍ لِيَشْكُروا لهُ في كلِّ حالٍ، وهو كقولِهِ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] لم يردْ بهِ البَرَّ والبَحْرَ نَفْسَيهِما(٩)، ولكنْ أرادَ المكانَ الذي فيهِ المِياهُ والمكانَ الذي لا مِياهَ فيهِ، أي ظَهَرَ الفسادُ في الأماكِنِ كلِّها. فعَلى ذلكَ الأوّلُ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ التي أنعَمَها عليهِمْ في الأماكِنِ كُلِّها والأحوالِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي تجري بِهِمُ السفُنُ بريحٍ طَيِّبَةٍ؛ يُخبِرُ أنَّ السُّفُنَ لَيسَتْ تَجْري في البحارِ بِجَرَيانِ الماءِ لأنها ماءَها راكِدٌ في الظاهِرِ، لكنَّ الريحَ هي التي تُجْريها، وتُسَيِّرُها، وكذلكَ الأمواجُ التي تكونُ فيها لَيسَتْ لِشِدَّةِ جَرَيانِ الماءِ، ولكنَّ الريحَ هي التي تَهيجُ [الأمواجَ، وتزعجُها لا نَفْسَ الماءِ ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ قيلَ: ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ وسُرُّوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾](١٠) أخبَرَ أنَّ الريحَ [مِنها ما](١١) هي طَيِّبَةٌ تجري(١٢) بها السفُنُ، ومنها ما هي عاصِفَةٌ قاصِفَةٌ، تكَسِرُ، وتُغْرِقُ السفُنَ، وتُهْلِكُ أهلَها، لِيُعْلِمَ أنَّ الأشياءَ تَصْلُحُ مَرَّةً، وتَفْسُدُ أُخرَى لا لأنفسِها، ولكنْ لِحِفْظِ الحدودِ فيها، وكذلكَ الماءُ مَرَّةً يَصْلُحُ، ومَرَّةً يَفْسُدُ؛ وذلك إذا حُفِظَ في الحَدِّ صَلَحَ(١٣)، وإنْ لم يُحْفَظْ فَسَدَ(١٤)، وإلّا لا يَحْتَمِلُ الشيءُ الواحدُ لِنَفْسِهِ [أنْ](١٥) يَصْلُحَ مَرَّةً، ويَفْسُدَ تارةً ولكنْ لِحِفْظِ الحدودِ فيهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ قيلَ: أيقنوا أنهمْ مُهْلَكونَ، ولكنَّ الإيقانَ بالشَّيءِ الذي يُصيبُ بهِ في حادثِ الأوقاتِ إنما يكونُ بالخَبَرِ لأنهُ لا ندري لَعَلَّ اللهَ يَصْرِفُ ذلكَ عنهُمْ، فلا يَقَعُ الإيقانُ، ولكنْ جَعَلَ غالبَ الظَّنِّ فيهِ في كثيرٍ مِنَ الأشياءِ كالإيقانِ بهِ.

---

(١) في الأصل و م: الجزاء والمكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل: وهو، في م: أي سخر لكم البر والبحر وهو. (٤) في الأصل وم: فيها حتى قضيتم. (٥) في الأصل وم: قضوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وسعه. (٨) في الأصل وم: نفسه. (٩) في الأصل وم: أنفسهما. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: إما. (١٢) أدرج قبلها في الأصل م: هي. (١٣) في الأصل وم: أصلح. (١٤) في الأصل وم: أفسده. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

ألَا تَرَى أنَّ اللهَ أباحَ المَيتَةَ في حالِ الضَّرورةِ لِغالِبِ الظَّنِّ؛ إذْ قد يَجوزُ ألّا يُهلِكَ بذلكَ؟

وكذا ما أُبيحَ لِلْمُكْرَهِ بالقتلِ أنْ يُجْرِيَ كلمةَ الكُفرِ على لسانِهِ لِغالبِ الظَّنِّ؟ وإلّا ليسَ يَعْلَمُ بالإحاطَةِ أنهُ يَقْتُلُهُ لا محالةَ. لكنْ جَعَلَ لِغالبِ الظَّنِّ في بعضِ المَواضِعِ حُكْمَ اليَقينِ والإحاطةِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُمْ: أيْقَنوا أنهمْ أُحيطَ بهِمْ لِغالبِ الظَّنِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إنهمْ لمّا أيِسوا مِنَ الأصنامِ التي عَبَدوها في دَفْعِ ما حَلَّ بهمْ عنهمْ فَزِعوا إلى اللهِ، وأخلَصوا الدعاءَ لهُ، وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

الآية ٢٣ ثم أخبَرَ عنْ سَفَهِهِمْ بَعَودِهِمْ إلى ما كانوا [عليهِ][1] مِنْ قَبلُ: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهكذا كانَتْ عادَتُهُمْ؛ كانوا يَفْزَعونَ إلى اللهِ عندَ خَوفِ الهلاكِ والإياسِ[2] مِنْ آلهتِهِمُ التي عَبَدوها، ويُخلِصونَ الدعاءَ. فإذا كَشَفَ ذلكَ الكَرْبَ عنهمْ، ودَفَعَ، عادوا إلى ما كانوا [عليهِ][3] مِنْ قَبلُ. والبَغْيُ في الأرضِ هو الفَسادُ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ أي [بَغْيُ][4] بَعْضِكُمْ على بَعْضٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ أي حاصلُ بَغْيِكُمْ يَرْجِعُ على أنفُسِكُمْ. والبَغْيُ هو الظلمُ.

فإنْ كانَ التأويلُ في قولِهِ ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ حاصلَ[5] بَغْيِكُمْ يَرْجِعُ إلى أنفُسِكُمْ في العاقبةِ فيكونُ الوَعيدُ لهمْ في ذلكَ بعينِهِ. وإنْ كانَ التأويلُ [بَغْيَ][6] بَعضِكُمْ على بعضٍ فيكونُ الوَعيدُ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا قد ذَكَرْنا، وهو حَرْفُ وَعيدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ الآيةَ: في ضَرْبِ مَثَلِ الحياةِ الدنيا بالزَّرْعِ الذي ذَكَرَ بوجوهٍ: قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في سُرْعَةِ فَنائِها وانقِطاعِها وَوَجْهِ زوالِها مَثَلُ ذلكَ الزَّرْعِ الذي ذَكَرَ في سُرْعَةِ هَلاكِهِ وانقِطاعِهِ وزَوالِهِ عنْ صاحبِهِ أو أن يُقالُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في ما يُسِرُّ، ويَهيجُ، مَثَلُ صاحبِ/ ٢٢٨ ـ ب/ الزرعِ الذي ذَكَرَ في ما سُرَّ بهِ، وابتَهَجَ، ثم كانَ ما ذَكَرَ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مَثَلُ الحياةِ الدنيا في ما يُنْفِقونَ فيها مَثَلُ صاحبِ الزرعِ الذي ذَكَرَ، يُنْفِقُ عليهِ لِما يَأمُلُ مِنَ المنافعِ، ويَطْمَعُ منهُ، ثم كانَ. ولو عَلِمَ في الابتِداءِ أنَّ أمْرَ [زرعِهِ يؤولُ][7]، ويَصيرُ إلى ما صارَ لَكانَ لا يُنْفِقُ. فَعَلَى ذلكَ صاحبُ الحياةِ الدنيا لو عَلِمَ أنَّ عاقبةَ أمْرِ نَفَقَتِهِ تَصيرُ حَسْرَةً عليهِ ونَدامةً ما أنْفَقَ كما أنَّ صاحبَ الزرعِ الذي ذَكَرَ لو عَلِمَ أنَّ عاقِبَتَهُ كما كانَ ما أنْفَقَ عليهِ، أو [لو][8] عَلِمَ أنهُ لا يَنْتَفِعُ بهِ ما أنْفَقَ تلكَ النَّفَقَةَ؛ أي لو عَلِمَ أنَّ سُرورَهُ وابتِهاجَهُ بهِ لا يَبْقَى، ولا يَدومُ إلى آخِرَتِهِ[9] ما تَكَلَّفَ ذلكَ، أو لو عَلِمَ أنها تزولُ عنهُ، وتَنْقَطِعُ في تلكَ السرعةِ ما أنْفَقَ ذلكَ وما تَكَلَّفَ: ويَحْتَمِلُ ضَرْبُ مَثَلِ الحياةِ الدنيا بما ذَكَرَ مِنَ النباتِ وجهَينِ:

أحَدُهُما: [أنهُ يُعَبِّرُ][10] عنْ سُرعةِ زوالِها وانقِطاعِها بالنباتِ[11].

[والثاني: أنها][12] تَتَغَيَّرُ في أدنى مُدَّةٍ وَوَقْتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ وحَسُنَتْ، فأنْبَتَتْ مِنْ ألوانِ النباتِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿زُخْرُفَهَا﴾ زينَتَها مِنَ النَّبْتِ، و ﴿حَصِيدًا﴾ أي مَحْصوداً كما يَحْصُدُ الحَصادُ الزَّرْعَ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي لم تَعِشْ، والمَغاني هي[13] المَواضِعُ التي يعيشُ فيها الناسُ. قالَ: وواحدُ المَغاني المَغْنَى.

وقالَ القُتَبِيُّ: وأصلُ الزُّخرُفِ الذَّهَبُ، يُقالُ لِلنَّقْشِ والذَّهَبِ، وكلُّ شَيءٍ زُيِّنَ زُخرُفٌ. وقالَ: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ والمَغاني المَنازِلُ، واحِدُها مَغْنًى.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والأيس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها من الأصل وم: أي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: زرعه يول، في م: زرع يومل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: آخره. (١٠) في الأصل وم: ان يغير. (١١) في الأصل: كالبنات. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: هو.

وقالَ بعضُهُم: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي لم تَنْعَم، وقيلَ: لم تَعْمَرْ[1]، وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الغِنَى؛ أي لم تكنْ غَنِيًا بالأمسِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي ظَنَّ أهلُ الدنيا في ما يُنْفِقونَ أنهمْ قادِرونَ على تلكَ النَّفَقَةِ كما [ظَنَّ][2] صاحِبُ الزرعِ أنهُ قادرٌ على ذلكَ الزرعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ قيلَ: عذابُنا: سَمَّاهُ[3] أمراً لأنهُ بأمرِهِ [أتاها، وقيلَ][4]: إنهُ لم يأتِهِ عن غَفْلَةٍ وسَهْوٍ، ولكنْ عن عِلْمٍ وأمرِ عِظَةٍ لهمْ وتنبيهاً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟ كأنَّ الآياتِ في هذا المَوضِعِ المَواعِظُ أي في ما ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ مَثَلِ الحياةِ الدنيا بالنباتِ والزرعِ الذي ذَكَرَ عِظَةٌ وتنبيهٌ لِمَنْ تَفَكَّرَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: الجنةُ هي[5] السَّلامُ، اللهُ أضافَها إلى نَفْسِهِ كقولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فأضافَ الجنةَ إلى السَّلامِ، إنْ كانَتْ دارُ السَّلامِ هي الجنةَ؛ فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ المساجِدَ هي أمْكِنَةٌ تُقامُ فيها القُرَبُ، والجنةُ هي مكانُ اللَّذَّةِ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ، أضافَها[6] إلى السَّلامِ لِما يَسْلَمُ أهلُها مِنْ جميعِ الآفاتِ. والمساجِدُ خُصَّتْ بالإضافةِ إلى اللهِ لأنها أمكنَةٌ تُقامُ فيها القُرَبُ.

وقالَ بعضُهُمْ: دارُ السَّلامِ الإسلامُ. ثم يَحْتَمِلُ كلُّ واحدٍ مِنَ التأويلَينِ [وُجوهاً]:

أحَدُهما[7]: بما سَمَّى الإسلامَ دارَ السَّلامِ [سَمَّى الجنةَ][8] دارَ السَّلامِ لأنهُ يَأْمَنُ، ويَسْلَمُ كلُّ مَنْ دخَلَ فيهِ [أمِنَ][9] مِنْ جميعِ الأهوالِ والآفاتِ التي تكونُ.

والثاني: [بما][10] سَمَّى الإسلامَ دارَ السَّلامِ أضافَهُ[11] إلى نفسِهِ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية [الزمر: ٢٢] أخبَرَ أنهُ ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] فَعَلَى ذلكَ إضافةُ الإسلامِ لأنَّ كلَّ مَنْ دَخَلَ الجنةَ سَلِمَ، وأمِنَ مِنَ الأهوالِ كلِّها والآفاتِ جميعاً.

والثالثُ[12]: دارُ الجنةِ والسَّلامِ [للهِ؛ أضافَها][13] إليهِ لأنها دارُ أوليائِهِ، وقد تُضافُ إلى اللهِ على إرادةِ أوليائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ أبي قِلابَةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «قيلَ لي لِتَنَمْ عَينُكَ ولْيَعْقِلْ قَلْبُكَ، ولْتَسْمَعْ أُذُنُكَ، فنامَتْ عيني، وعَقَلَ قلبي، وسَمِعَتْ أُذُني، ثم قيلَ لي: سَيِّدٌ بَنَى داراً، وجَعَلَ مائدةً، وأرسَلَ داعياً، فَمَنْ أجابَ الداعِيَ دَخَلَ الدارَ، وأكَلَ مِنَ المائدةِ، ورَضِيَ عنهُ السَّيِّدُ، ومَنْ لم يُجِبْ لم يدخُلِ الدارَ، ولم يأكُلْ مِنَ المائدةِ، ولم يَرْضَ عنهُ السَّيِّدُ» [الدارمي ١١] فاللهُ السَّيِّدُ، والدارُ الإسلامُ، والمائدةُ الجنةُ، والداعي محمدٌ ﷺ.

إنْ ثَبَتَ هذا الخبرُ ففيهِ أنَّ الدارَ الإسلامُ على ماقالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ في خَبَرٍ آخَرَ عنْ جابِرِ بْنِ عبد اللهِ: قالَ «خَرَجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ يوماً، فقالَ: رأيتُ في المنامِ كأنَّ جبريلَ عندَ رأسي وميكائيلَ عندَ رجلَيَّ، قالَ أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: اضْرِبْ لهُ مثلاً، فقالَ: اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ، واعْقِلْ عَقَلَ قلبُكَ؛ إنما مَثَلُكَ ومَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ داراً، ثم بَنَى فيها بُنْياناً، فأتَمَّهُ، ثم جَعَلَ فيها مائدةً، ثم بَعَثَ رسولاً يَدْعُو الناسَ إلى طعامِهِ، فمنهُمْ مَنْ أجابَ الرسولَ، ومنهُمْ مَنْ تَرَكَهُ. فاللهُ المَلِكُ، والدارُ الإسلامُ، والبيتُ الجنةُ، وأنتَ يا محمدُ الرسولُ مَنْ أجابَكَ دَخَلَ الإسلامَ، ومَنْ دَخَلَ الإسلامَ دَخَلَ الجنةَ، ومَنْ دَخَلَ الجنةَ أكلَ ما فيها» [الترمذي: ٢٨٦٠] يدلُّ أيضاً إنْ ثَبَتَ أنَّ الدارَ التي ذَكَرَ في الآيةِ هو الإسلامُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: تعم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: سمى. (٤) في الأصل وم: أتاه و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: فأضافها. (٧) في الأصل وم: وجهين. (٨) في الأصل وم: والجنة كذلك سمى الإسلام. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: والثاني. (١٣) في الأصل وم: الله أضاف.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الآية ذَكَرَ الإِسْتِثْناء في الهدايةِ، ولم يَذْكُرْ في الدعاءِ لِيُعْلِمَ أنْ لا كلَّ مَنْ يَدْعو إلى دارِ السَّلامِ يَهديهِ، وإنما يَهْدي[1] مَنْ يَعْلَمُ منهُ أنهُ يختارُ الهُدَى. وذلكَ على القَدَرِيَّةِ.

ثم الهُدى على وُجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: الدعاءُ كقولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] والثاني: هو البَيانُ كقولِهِ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: ٥٢] يَعْني القرآنَ. والثالثُ: التوفيقُ والعِصْمةُ؛ إذا وُفِّقَ اهْتَدَى، والهُدَى ههنا التوفيقُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ في الدنيا لهمُ الحُسْنَى في الآخِرَةِ جَزاءُ ذلكَ الإحسانِ، وهي الجنةُ، سَمَّى الجنةَ الحُسْنَى لأنها جَزاءُ الإحسانِ كما سَمَّى النارَ السُّوأى كقولِهِ: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: ١٠] لأنها جَزاءُ السُّوءِ كقولِهِ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قيلَ: المحبةُ في قلوبِ العِبادِ، يُحِبُّهُ كلُّ مُحْسِنٍ، وهَيبَةٌ لهُ في قلوبِ الناسِ؛ يَهابُهُ كلُّ أحدٍ على غَيرِ سلطانٍ لهُ.

وقالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي مِثْلُ تلكَ الحَسَنةِ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي مِثْلُ تلكَ الحَسَنةِ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ التضعيفُ حتى تكونَ عَشراً، أو سَبْعَ مِئَةٍ، وما شاءَ اللهُ. يدلُ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧].

وقالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الرُّؤْيَةُ: رُؤْيَةُ الرَّبِّ والنَّظَرُ كقولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢و٢٣]

وقالَ قائلون: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قَبُولُ حَسَناتِهِ مَعَ ما فيها مِنَ الخَلْطِ بالسَّيِّئاتِ يَقْبَلُ حَسَناتِهِ بِفَضْلِهِ، وإنْ كانَتْ تَشوبُها السَّيِّئاتُ، ورِضاهُ منهُ؛ وذلكَ طريقةُ الفَضْلِ والإحسانِ، إذْ قد سُبِقَ مِنَ النِّعَمِ ما لا يَقْدِرُ القِيامَ على وفاءِ نِعْمَةٍ منها طُولَ عُمْرِهِ.

وعنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: الزيادةُ غرفةٌ مِنْ لؤلؤةٍ واحِدَةٍ، لها أربعةُ أبوابٍ. فلا نَدري ما الزيادةُ التي ذَكَرَها ﷻ في الآيةِ إلّا بالخَبَرِ عنِ اللهِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ما تَقْدِرُ العقولُ، وتُدْرِكُها، وتَصَوَّرُها. وأمّا الزيادةُ فهيَ التي لا تَقْدِرُها العقولُ، ولا تُدْرِكُها، ولا تَصَوَّرُها الأوهامُ كقولِهِ ﷺ «ما لا عَينٌ، رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [مسلم٢٨٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ قيلَ: لا يَغْشَى وجوهَهُمُ النارُ والوَهَجُ على ما وَصَفَ وُجوهَ أهلِ النارِ، وهو قولُهُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠و٤١].

ولكنْ على ما وَصَفَ وُجوهَ أهلِ الجنةِ بقولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ/ ٢٢٩ ـ أ/ مُّسْفِرَةٌ﴾ ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨و٣٩] وتلكَ، واللهُ أعلَمُ آثارُ إحسانِهِمُ التي أحْسَنوا في الدنيا، ولِما لم يَرَوُا النِّعَمَ التي كانَتْ لَهُمْ مِنْ سِواهُ، ولم يَصْرِفوا شُكْرَها إلى غَيرِهِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

والغَبَرَةُ والقَتَرَةُ التي ذَكَرَ لأهلِ النارِ هي آثارُ السَّيِّئاتِ التي عَمِلوها في الدنيا مِنْ عِبادَتِهِمْ دونَ اللهِ وصَرْفِهِمْ شُكْرَ النِّعَمِ إلى غيرِهِ؛ نَحْوُ ذلكَ مِنْ صَنيعِهِمُ الذي صَنَعوا في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ جزاءُ سَيِّئَةٍ مِمّا تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ أنْ يُجْزَى بِمِثْلِها. وأمّا جزاءُ الإحسانِ والخَيرِ فطريقُ[4] وجوبِهِ [الإفضالُ والإحسانُ، ليسَ طريقُ وُجوبِهِ][5] الحكمةَ؛ إذْ سَبَقَ مِنَ اللهِ إلى كلِّ أحدٍ مِنَ النِّعَمِ ما ليسَ في وُسْعِهِ القِيامُ بِمُكافأةِ واحدةٍ منها عُمْرَهُ، وإنْ طالَ، واجْتَهَدَ كلَّ جَهْدِهِ فَضْلاً أنْ يَسْتَوجِبَ قِبَلَهُ جزاءَ ما كانَ منهُ مِنَ الخيراتِ.

---

(١) في الأصل و م: يهديه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) الفاء ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من م.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ هو ما ذَكَرَ مِنْ آثارِ السَّيِّئاتِ التي عَمِلوها[1] في الدنيا ذُلّاً وهَواناً لهمْ ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ وذلكَ أنهمْ، واللهُ أعلَمُ، كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ يكونوا لهمْ شُفَعاءَ، فأخبَرَ أنْ ليسَ لهمْ مِنْ عذابِ [اللهِ][2] مانعٌ يَمْنَعُ ذلكَ عنهُمْ كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٨]

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قيلَ: أُلْبِسَتْ، وأُغْطِيَتْ، قِطَعاً مُثَقَّلاً[3] ومُخَفَّفاً قِطْعاً؛ قيلَ: القِطَعُ بالتثقيلِ هو جَمْعُ القِطْعَةِ، والقِطْعُ بالتخفيفِ جُزْءٌ مِنَ الليلِ. يُقالُ: سِرْنا بِقِطْعٍ مِنَ الليلِ أي بِجُزْءٍ مِنَ الليلِ، وقولُهُ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] أي بِجُزْءٍ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم شبَّهَ وجوهَهُمْ بِظُلْمَةِ الليلِ، ولم يُشَبِّهْ بسوادِ الوُجوهِ على ما يكونُ مِنْ سَوادِ الوُجوهِ في الدنيا، فذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ سوادَ الوجوهِ على ما يكونُ في الدنيا لا يَبْلُغُ مِنَ القُبْحِ غايَتَهُ؛ إذْ قد يَرْغَبُ مَنْ كانَ جِنْسُهُ ونوعُهُ في ذلكَ، ويَحْسُنُ ذلكَ عندَهُ. فإذا كانَتِ الرغبةُ قد تَقَعُ لِبَعْضِهِمْ في بَعْضٍ لم يَبْلُغْ في القُبْحِ غايَتَهُ. وأمّا ظلمةُ الليلِ فإنَّ الطباعَ تَنْفِرُ عنها، ولا تَقَعُ الرغبةُ بحالٍ. لذلكَ شَبَّهَ وجوهَ أهلِ النارِ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يَعني العابدَ [والمَعبودِينَ الذينَ][5] عَبَدوا دونَهُ. ولكنْ يَحْشُرُ الخَلائِقَ جميعاً ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾. وقولُهُ ﷻ ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ هذا الحَرْفُ هو حَرْفُ وعيدٍ. يُقالُ: مكانَكَ أنتَ كذلكَ، وإنْ كانَ هذا الحَرْفُ يَجوزُ أنْ يُسْتَعْمَلَ في الكراماتِ وبِرِّ بَعْضِهِمْ. ولكنْ إنما يُعرَفُ ذا بالمُقَدِّماتِ. فما تَقَدَّمَ ههنا يدلُّ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ الكرامةَ، ولكنْ أرادَ به الوَعيدَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ قيلَ: فَرَّقْنا بَينَهُمْ أي بَينَ العابدِ والمعبودِ. ثم يَحْتَمِلُ التَّفْريقُ بَينَهُمْ وُجوهاً:

أحَدُها: فَرَّقْنا بَينَهُمْ في الحِسابِ مِمّا عَمِلَ ومِمّا صَحِبَ.

والثاني: يَحْتَمِلُ فَرَّقْنا بَينَهُمْ لمّا طَمِعوا بعبادتِهِمْ إياها الشفاعةَ أنْ يكونوا لهمْ شُفَعاءَ عندَ اللهِ، فَفَرَّقَ بَينَهُمْ في الشفاعةِ.

والثالثُ[6]: يَحْتَمِلُ فَرَّقْنا بَينَهُمْ في ما ضَلَّ عنهمْ ما كانوا يَفْتَرونَ، فصارَ ما عَبَدُوا تراباً، وهُمْ في النارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ [يحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما:][7] سَمّاهُمْ شُرَكاءَ، وإنْ لم يكونوا شُرَكاءَ في الحقيقةِ لِما عندَهُمْ أنهمْ شُرَكاءُ كما سَمّى الأصنامَ آلهةً لِما عندَهُمْ أنهُمْ آلِهَةٌ.

والثاني: ﴿شُرَكَآؤُهُم﴾ لِما أشرَكوها في العبادةِ، فهمْ شركاؤُهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ يُنطِقُ اللهُ ﷻ هذهِ الأصنامَ يومَ القيامةِ، وإنْ لم يكُنْ في خَلْقِها النُّطْقُ في الدنيا كقولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآية [النور: ٢٤] أنطَقَهُمْ لِيَشْهَدوا عليهِمْ ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

ويَحْتَمِلُ[9] الملائكةَ أنْ يكونوا عليهِمْ شهداءَ[10] لأنَّ فيهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الملائكةَ؛ أنْكَروا أنْ يكونوا يَعْبُدونَهُمْ لأنَّ العِبادةَ لآخَرَ إنما تكونُ عبادةً إذا كانَ مِنَ المعبودِ أمرٌ بها.

وكانَتْ عبادتُهُمُ الأصنامَ عبادةً للشيطانِ لأنهُ هو الآمِرُ لهمْ بالعبادةِ للأصنامِ كقولِهِ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ، لكنّهُ لمّا كانَ الآمرَ لهمْ بالعبادةِ للأصنامِ صارَ كأنهُمْ عَبَدوهُ، وإنْ لم يَقْصِدوهُ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الإنكارِ مِنَ الأصنامِ.

---

(١) في الأصل و م: علموها. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) يقصد محركاً، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٧١. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل: المعبود الذي، في م: والمعبود الذين. (٦) في الأصل و م: و. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الذين أنكروا.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي كَفَى اللهُ القاضيَ والحاكمَ بينَنا وبينَكُمْ، إنا لم نأمُرْكُمْ بعبادَتِنا، وهو العالمُ بأنّا ﴿كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٍ﴾ قيلَ: عندَ ذلكَ، وقيلَ: يومَئذٍ؛ أي يومَ القيامَةِ. وقولُهُ يَبْلُو بالياءِ، و ﴿تَتۡلُواْ﴾ بالتاءِ[1]؛ وقيلَ: تَقرأُ في الصُّحُفِ ما كُتِبَ مِنْ أعمالِهِمْ، ﴿تَبۡلُواْ﴾ بالتاءِ مِنَ الابتِلاءِ؛ يُقالُ: بَلَوتُهُ، وابتَلَيتُهُ واحدٌ، وخَبَرْتُهُ، واختَبَرْتُهُ أيضاً. وقيلَ: تَبْلُو تَجِدُ، وتَعْلَمُ كلُّ نَفسٍ ما قَدَّمَتْ مِنَ الأعمالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ قيلَ: مَلِكُهُمُ الحقُّ لأنَّ غيرَهُ مِنَ الآلهةِ التي عَبَدوها قد بَطَلَ عنهُمْ، وضلَّ في الآخِرَةِ. ويَحتَمِلُ ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي حَقَّ ما تَجِدُ كلُّ نفسٍ ما قَدَّمَتْ مِنْ أعمالِها، أو حَقَّ أنْ تَقرأَ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ مِنَ العِبادةِ للأصنامِ وقولِ الكفرِ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ الوجهَينِ:

أحَدُهُما[3]: رُدُّوا إلى ما أعَدَّ لهمْ مَولاهُمُ الحقُّ.

والثاني: رُدُّوا إلى أمْرِ مولاهُمُ الحقِّ لا إلى أمْرِ الأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ الآية يُحاجُهُمْ، يَعْنِي أهلَ مكَّةَ في التوحيدِ لأنها مَكِّيَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية أي مَنْ يدبِّرُ [الرِّزْقَ في السماءِ، ومَنْ يُدبِّرُ الرِّزْقَ][4] في الأرضِ؟ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[5]: مَنْ نَزَّلَ لكَمُ الرزقَ مِنَ السماءِ، ومَنْ يَسْتَخرِجُ لكُمُ الرزقَ [مِنَ الأرضِ][6]؟

والثاني: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مَنْ يُدَبِّرُ الرزقَ في السماءِ، ومَنْ يُدَبِّرُ الرزقَ في الأرضِ؟ لا أحَدَ يَمْلِكُ اسْتِنْزالَ الرزقِ مِنَ السماءِ واسْتِخْراجَ الرزقِ مِنَ الأرضِ. وكذلكَ لا أحدَ يَمْلِكُ تدبيرَهُ في السماءِ والأرضِ سِواهُ، ولا أحَدَ يَمْلِكُ إنشاءَ السَّمْعِ والبَصَرِ، ولا[7] أحَدَ يَمْلِكُ إخراجَ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ولا تَدبيرَ الأمرِ؛ يعرفونَ حقيقةَ ماهِيَّةِ السَّمْعِ والبَصَرِ، ولا [يَعرفونَ كَيْفِيَّتَها][8]، فكيفَ يَمْلِكونَ إنشاءَ السمعِ والبَصَرِ ونَصْبَهُما؟ ولا يَمْلِكُ أحدٌ سِواهُ إصلاحَ ما ذَكَرَ إذا فَسَدَ ذلكَ. فأقَرُّوا أنهُ لا يَمْلِكُ أحدٌ سِوَى اللهِ ذلكَ، وهو قولُهُمْ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بوائِقَهُ ونَقْمَتَهُ.

أو يقولُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادَةَ غيرِهِ دونَهُ وإشراكَ غيرِهِ في ألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ؟ أو يقولُ[9]: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ صَرْفَ شكرِهِ إلى غيرِهِ، وقد أقرَرْتُمْ أنهُ المُنْعِمُ عليكُمْ هذِهِ [النِّعَمَ][10] لا مَنْ تَعبُدونَ دونَهُ؟ أو يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إذا عَرَفْتُمْ ما ذَكَرَ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَتَهُ وعِصْيانَهُ؟

فإذا أقَرُّوا أنَّ الذي يَمْلِكُ تدبيرَ ما بَيْنَ السماءِ والأرضِ، وهو الذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ والقيامَ بِشُكْرِهِ، فإذا ضَيَّعوا ذلكَ جَمَعَهُمْ عليهِ اسْمُ الضلالِ، فذلكَ قولُهُ: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ أي ذلكُمُ الذي ذُكِرَ ربُّكُمْ بالحُجَجِ والبراهينِ ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الذي][11] هو حقٌّ بالحُجَجِ والبراهينِ ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ لأنَّ ما لا حُجَجَ لهُ، ولا بُرهانَ، فهو الضلالُ.

وقولُهُ تعالى ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ عنْ عبادتِهِ إلى عبادةِ غيرِهِ؟ أو ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ عن شُكرِ المُنْعِمِ إلى شُكرِ غيرِ المُنْعِمِ، أو يقولُ: فأنّى تَعْدِلونَ مَنْ لا يَمْلِكُ ما ذَكَرَ بِمَنْ يَمْلِكُ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٧٢. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أعني. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يكتنفيهما. (٩) في الأصل وم: يقولون. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حقَّتْ وجَبتْ، وقيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ ختموا بالفِسْقِ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يَنتَفِعونَ بإيمانِهِمْ بَعْدَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ؛ يَحتَمِلُ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حُجَجَ /٢٢٩ ـ ب/ ربِّكَ، ويَحتَمِلُ[1] براهينَهُ على الذينَ فَسَقُوا.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ البَعثُ بَعْدَ الموتِ؛ أي لا أحدَ مِنْ شُرَكائِكُمُ الذينَ تَعْبُدونَ يَمْلِكُ بَدْءَ الخَلْقِ ولا بَعْثَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لا يَحتَمِلُ البَعثَ لأنهمْ كانوا لا يُقِرّونَ بالبَعْثِ، فلا يَحْتَمِلُ الاحتِجاجُ عليهِمْ بذلكَ.

ولكنَّ قولَهُ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ما سِوَى البَشَرِ لأنهمْ كانوا إنما يُنْكِرونَ إعادةَ البَشَرِ. فأمّا إعادةُ غَيرِهِ مِنَ الأشياءِ [فلا يُنْكِرُونَها][2] نَحْوُ إعادةِ الليلِ والنهارِ وإعادةِ الأنزالِ والنباتِ ونَحْوُ الأشياءِ التي يُشاهِدونَها؛ أي ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ مِثْلَهُ: الليلَ ليلاً مِثْلَهُ والنهارَ نهاراً مِثْلَهُ؛ وكذلكَ الخَلائِقُ تَفْنَى، ثم [يُعيدُها مِثلَها][3] فإذا ثَبَتَ في غيرِ البَشَرِ ثَبَتَ في البشَرِ.

ويَحْتَمِلُ الأمْرَينِ جميعاً عندَنا البَعْثَ وأشياءَ مثلَهُ لأنهُ تعليمٌ منهُ لهمْ. ألَا تَرَى أنهُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ قيلَ: تُكَذِّبونَ بتوحيدِ اللهِ، وقد عَرَفْتُمْ أنهُ هو بَدَأَ الخَلْقَ، ثم يُعيدُهُ، لا أحَدَ يَمْلِكُ ذلكَ.

ألَا تَرَى أنهُ احْتَجَّ عليهِمْ بما[4] يُلْزِمُهُمْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ؟ [البقرة: ٢٨]

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يَدْعو إلى الحَقِّ. فإذا كانَ هؤلاءِ الأصنامُ التي تَعْبُدونَها لا يَمْلِكونَ الدعاءَ إلى شيءٍ، ولا يَمْلِكونَ الضَّرَّ والنَّفْعَ، ومِنَ الخلائقِ مَنْ لا يَمْلِكُ النَّفْعَ والضُّرَّ، ويَمْلِكُ الدعاءَ إلى خيرٍ أو إلى نَفْعٍ، فهؤلاءِ دونَ الخلائقِ جميعاً؛ إذْ لا يَمْلِكونَ نَفْعاً ولا ضَرّاً، فكيفَ يَمْلِكونَ [الدعاءَ إلى شيءٍ][5]؟ يُبَيِّنُ ﷻ سَفَهَهُمْ بعبادَتِهِمْ هؤلاءِ الأصنامَ لِيُعْلِمَهُمْ أنهمْ لا يملِكونَ نَفْعاً ولا ضَرّاً.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي يُبَيِّنُ، ويُقيمُ الدلائلَ والبراهينَ على اسْتِحقاقِ العبادةِ لهمْ؟ فإذا لم يَمْلِكوا الدعاءَ إلى العبادةِ لهمْ فكيفَ يَمْلِكونَ نَصْبَ الدلائلِ والحججِ على اسْتِحقاقِ العبادةِ؟

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أخبَرَ أنَّ اللهَ هو الذي يَهْدي لِلْحَقِّ. ثم يَحْتَمِلُ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْنا: هو يَمْلِكُ الدعاءَ إلى الحقِّ، ويُقيمُ[7] الدلائلَ والحُجَجَ على ما دعا[8] إليهِ، وهو يَسْتَحِقُّ العبادةَ لهُ والربوبيَّةَ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ الذي يُبَيِّنُ البراهينَ والحُجَجَ ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾؟ أي لا يُبَيِّنُ، ولا يَدْعو ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ فإنْ قيلَ: ما مَعْنَى الاسْتِثْناءِ، وهو[10]، وإنْ هُدِيَ لا يَهْتَدِ[11]؟ قيلَ: يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صلةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] يُنْطِقُهُمُ اللهُ ﷻ يومَ القيامةِ، فَيَشْهَدونَ عليهِمْ أنهُمْ لم يأمُروهُمْ بالعبادةِ لهمْ، ولا دَعوهُمْ لإشراكِهِمْ في العبادةِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لِما أنْ يَجْعَلَهُمُ اللهُ بحيثُ يَهْتَدونَ إذا هُدُوا، ويُجيبونَ إذا دُعُوا ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ بالجَوْرِ وصَرْفِ العبادةِ والشكرِ إلى مَنْ لا يَمْلِكُ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لا يَحْتَمِلُ الصَّنَمُ والوثَنُ الاهْتِداءَ، وإنْ هُدِيَ، ولكنَّ المُرادَ منهُ الإنسانُ. وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ إلّا أنْ يُحْمَلَ الصَّنَمُ، ويُوضَعَ. فأمّا أنْ يَهْتَدِيَ هو بنفسِهِ فلا. لكنْ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا إذا صَيَّرَهُ بحيثُ يَتَكَلَّمُ ومِنْ جِنْسِ ما يَنْطِقُ، وأَذِنَ لهُ في النُّطْقِ، احْتَمَلَ الإجابَةَ والاهْتِداءَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل و م: و. (٢) في الأصل وم: ينكرونه. (٣) في الأصل وم: يعيد مثله. (٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الضر والنفع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويقيموا. (٨) في الأصل وم: دعاه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وهي. (١١) في الأصل و م: يهتدي.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا في الأئمَّةِ والرُّؤساءِ منهُمْ حينَ[1] عَبَدوا الأصنامَ والأوثانَ، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ القولِ؛ يقولُ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في عبادَتِهِمْ بأنهُمْ يكونونَ لهمْ شُفعاءَ عندَ اللهِ ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ظَنّوهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هذا في الأتباعِ والعَوامِّ، ليسَ في الأئِمَّةِ؛ وذلكَ[2] أنَّ الأئِمَّةَ قد عَرَفوا البراهينَ والحججَ التي قامَتْ عليهِمْ والآياتِ التي جاءَ بها رسولُ اللهِ ﷺ لكن ما قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠و...] ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] وقالوا[3]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الكلامِ؛ أرادوا أنْ يُلْبِسوا على العَوامِّ، ويُشَبِّهوا عليهِمْ، فاتَّبَعَ العوامُّ[4] الأئمَّةَ في ما قالوا وأنهُ كذا، وصَدَّقوهُمْ. يقولُ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ظَنّوا.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ يَعْني أهلَ مَكَّةَ أهلَ الأوائلِ والأسلافِ في عبادَةِ الأصنامِ والأوثانِ ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ لأنهُمْ عَبَدوا الأصنامَ [وهُمْ][5] يقولونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ الآية [الزخرف: ٢٢و٢٣] وآباؤنا كذلكَ يَفْعلونَ.

ثم أخبرَ أنَّ ﴿ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي الظَّنُّ لا يُدْرَكُ بهِ الحقُّ باليَقينِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هو حَرْفُ وَعيدٍ لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فيقولُ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كقولِهِ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يونس: ١٥].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ كفارَ قريشٍ قالوا: إنَّ محمداً افْتَرى هذا القرآنَ مِنْ عندِ نَفْسِهِ، وتَقَوَّلَهُ مِنْ نَفْسِهِ، فقالَ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنْ يُضافَ إلى غيرِهِ، أو يُخْتَلَقَ ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يُصَدِّقُ هذا القرآنُ الكتبَ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ. ولو كانَ محمدٌ هو الذي افْتَراهُ، واخْتَلَقَهُ مِنْ عندِ نَفْسِهِ، لَكانَ خَرَجَ هو وسائرُ الكتبِ المتقدمَةِ مُخْتَلِفَةً؛ إذْ لم يَعْرِفْ محمدٌ سائِرَ الكتبِ المُتَقَدِّمَةِ؛ إذْ كانَتْ بِغَيرِ لسانِهِ، ولم يكُنْ لهُ اختلافٌ إلى مَنْ يَعْرِفُها لِيَتَعَلَّمَ. ثم خَرَجَ هو، أعني القرآنَ، مُصَدِّقاً ومُوافِقاً للكتُبِ. دلَّ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ كقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ما كانَ هذا القرآنُ بالذي يَحْتَمِلُ الافتراءَ مِنْ دونِ اللهِ][6] لِخروجِهِ عنْ طَوقِ البَشَرِ وَوُسْعِهِمْ؛ فذلكَ بالذي يُحيلُ كونَهُ مُفْتَرىً بِجَوهَرِهِ.

والثاني: لِما أُودِعَ فيهِ الحكمةَ والصدقَ يدلُّ على كونِهِ مِنْ عندِ اللهِ؛ إذْ كلامُ غَيرِهِ يَحْتَمِلُ السَّفَهَ والكذبَ، ويَحْتَمِلُ الاخْتِلاقَ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيلَ: فيهِ بَيانُ الكُتُبِ التي نَزَلَتْ قَبْلَهُ وتَمامُها[8]. إنَّ هذا، وإنْ كانَ في اللفظِ مُخْتَلِفاً فهو في الحكمةِ والصدقِ مُبَيِّنٌ مُوافِقٌ للأوَّلِ. وقيلَ: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي تَفْصيلَ ما كُتِبَ لهمُ، وما عليهِمْ. أو أنْ يُقالُ: إلى اللهِ تَفْصيلُ الكتابِ ليسَ إلى غَيرِهِ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنهُ مِنْ عندِ ربِّ العالمينَ، أو يُقالُ: مُفَصَّلٌ في اللوحِ المحفوظِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ يقولُ: إنْ كانَ محمدٌ افْتَراهُ مِنْ عندِ نفسِهِ فَأْتوا أنتُمْ بِمِثْلِهِ؛ إذْ لسانُهُ ولسانُكُمْ واحدٌ، فأنتُمْ قد عُرِفْتُمْ بالفِرْيَةِ والكَذِبِ، ومحمدٌ لم يُعْرَفْ بهِ قطُّ، ولا أُخِذَ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ، فأنتُمْ أولَى أنْ تأتوا بسورةٍ مِثْلِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) الواو ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: و. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: إلى. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يقول. (٨) في الأصل وم: وتمامه.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ادعُوا آلهتَكُمُ التي تَعبُدونَها لِيُعينوكُمْ على إتيانِ مِثْلِهِ، وقالَ بعضُهُمْ: ادعُوا مَنِ استَطَعْتُمْ أي مَنْ لِسانُهُ مِثْلُ لِسانِكُمْ لِيُعينوكُمْ على ذلكَ، أو يقولُ: استَعينوا بدراسةِ الكُتُبِ لِتُعينَكُمْ[(٢)] على مثلِهِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ محمداً افتَراهُ مِنْ نفسِهِ. فَدَلَّ تركُ اشتِغالِهِمْ بذلكَ على أنهُمْ قد عَرَفوا أنهُ ليسَ بِمُفْتَرًى وأنهُ سماويٌّ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما لم يَحفَظوا نَظْمَهُ ولا لَفْظَهُ، ولا نَظَروا فيهِ، ولا تَدَبَّروا لِيَعلَموا ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ بالبديهةِ. والشيءُ/ ٢٣٠ ـ أ/ إنما يُعرَفُ كَذِبُهُ وصِدْقُهُ بالنظرِ فيهِ والتفكُّرِ والتَّدَبُّرِ لا بالبديهةِ.

فذلكَ، واللهُ أعلَمُ، تأويلُ قولِهِ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ كَذَّبوا على عِلْمٍ منهُمْ أنهمْ كَذَبةٌ في مايقولونَ، ويَنْقُلونَ انهُ مُفترًى ليسَ بِمُنْزَلٍ ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي ولمّا يَأتِهِمُ العلمُ بتأويلِهِ أي بتأويلِ القرآنِ.

ومعناهُ، واللهُ أعلَمُ، انهمْ كَذَّبوهُ مِنْ غيرِ أنْ حَفِظوا نَظْمَهُ، ووَعَوا لَفْظَهُ، ولا أتاهُمُ العلمُ بعاقِبَتِهِ وآخِرِهِ.

قيلَ: التأويلُ هو رَدُّ كلِّ شيءٍ إلى أوَّلِيَّةِ الأمرِ. وقالتِ الحكماءُ: التأويلُ آخِرُ كلِّ فِعْلٍ: هو قَصْدٌ في أوَّلِهِ، وقَصْدُ كلِّ شيءٍ في أوَّلِهِ هو آخِرٌ في فعلِهِ أو نَحوِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ما[(٣)] وَعَدَ اللهُ أنْ يكونَ قَبْلَ أنْ يكونَ، وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: تأويلُ القرآنِ بما يكونُ منهُ في الدنيا وبما يكونُ منهُ يومَ القيامةِ، وهو العذابُ الذي وَعَدَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَأْوِيلُهُۥ﴾ ثوابُهُ، وقيلَ: عاقبتُهُ. وقالَ الواقِدِيُّ: لم يأتِهِمْ عاقبةُ بَيانِ ما وَعَدَ اللهُ في القرآنِ في الآخِرةِ مِنَ الوعيدِ.

وأصلُ التأويلِ هو النظرُ إلى ما تَؤولُ عاقبةُ الأمرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما][(٤)]: أي كذلكَ كَذَّبَ الأممُ السالِفةُ رسلَهُمْ كما كَذَّبَ كفارُ مكَّةَ رسولَهُمْ؛ أي لَسْتَ أنت بأوَّلِ مُكَذَّبٍ، بل كُذِّبَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِنْ إخوانِكَ لِيكونَ لهُ التَّسَلّي عمّا هو فيهِ مِنْ تكذيبِهِمْ إياهُ وردِّهِمْ عليهِ أنهُ يَنْزِلُ بهمْ ما نَزَلَ بأولئكَ، إنْ هُمْ أقاموا على ما هم عليهِ.

والثاني: أنْ يكونَ الخطابُ، وإنْ كانَ خارجاً لِرسولِ اللهِ ﷺ فهو راجعٌ إلى قومِهِ، يأمُرُ بالنظرِ في ما نَزَلَ بالأممِ السالفةِ، وأنْ يَتأمَّلوا أحوالَهُمْ لِيكونَ ذلكَ سَبَباً لِزَجرِهِمْ عمّا هُمْ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالتكذيبِ؛ أي كيفَ يُعاقَبونَ، ويُعَذَّبونَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ قيلَ: أهلُ مكةَ مَنْ يؤمنُ بهذا القرآنِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وهُمْ كذلكَ كانَ[(٥)] منهُمْ مَنْ قد آمَنَ بهِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي مَنْ لم يؤمِنْ بهِ. ويَحتَمِلُ على الوعيدِ في ما يُستَقبَلُ؛ أي منهُمْ مِنْ أهلِ [مكةَ][(٦)] مَنْ يؤمِنُ بهذا القرآنِ ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، وهُمْ كذلكَ كانَ[(٧)] منهُمْ مَنْ قد آمَنَ بهِ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يؤمِنْ بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: وهي في اليهودِ ليسوا[(٨)] مِنْ أهلِ مكةَ، وظاهِرُهُ أنْ تكونَ في كفارِ [مكةَ][(٩)]. وعلى ذلكَ قولُ عامَّةِ أهلِ التأويلِ؛ كأنْ يُخَرَّجَ على البِشارةِ أنَّ منهُمْ مَنْ يؤمِنُ بهِ لئلا يَقْطَعَ، ويَمْنَعَ دعاءَهُمْ، وأخبَرَ أنَّ منهُمْ مَنْ لا يؤمِنُ بهِ يُؤْيِسُهُ حتى لا يَشْتَدَّ حزنُهُ على كُفرِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا: أي منهُمْ مَنْ قد يُولَدُ مِنْ بَعْدُ، ويُؤمِنُ[(١٠)]، ومنهمْ مَنْ يُولَدُ، فلا يؤمِنُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليعينوكم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كانوا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: كانوا. (٨) في الأصل وم: ليست. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ومن يؤمن.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ معناهُ أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ مِنَ الفَسادِ؛ خَلَقَهُمْ، وأنشأَهُمْ ليسَ[1] عنْ غفلةٍ وجَهْلٍ بالفسادِ، ولكنْ عنْ عِلْمٍ بذلكَ لِما لا يَضُرُّهُ فَسادُ مُفْسِدٍ، ولا يَنْفَعُهُ صلاحُ مصلِحٍ، إنما عليهِمْ ضَرَرُ فسادِهِمْ، ولَهُمْ مَنْفَعَةُ صلاحِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الوعيدِ أي عالمٌ بِفسادِهِمْ، فَيَجْزيَهُمْ جَزاءَ الفسادِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي إنْ كَذَّبْتُ في ما أخبرْتُكُمْ أنهُ جاءَ مِنْ عندِ اللهِ فلي عَمَلي في ما أبْلُغِكُمْ أي فِعْلَيَ وِزْرُ عَمَلي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي فَعَلَيكُمْ جُرْمُ ما رَدَدْتُمْ عليَّ في ما بَلَّغْتُكُمْ عنِ اللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] أي عليَّ جُرْمُ ما افْتَرَيتُ إنِ افْتَرَيتُ، وعليكُمْ جُرْمُ ما رَدَدْتُمْ عليَّ في ما بلَّغْتُكُمْ عَنِ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أي لي ديني ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي ولكمْ دينُكُمْ؛ أنتمْ بَريئونَ ممّا أعمَلُ، وأنا بريءٌ ممّا تعملونَ.

تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أي أنا لا أُآخَذُ بما دِنْتُمْ أنتمْ، ولا أنتمْ مُؤاخَذونَ بما دِنْتُ أنا، وعملتُ[2]، وهو كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآية [النور: ٥٤] وكقولِهِ[3] ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩] وكقولِهِ ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ الآية [سبأ: ٢٥].

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أخبَرَ أنَّ منهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إليهِ؛ يعني إلى رسولِ اللهِ تعالى وإلى ما يَتْلو مِنَ القرآنِ، لكنهُ يُخْبِرُ أنهُ لا كلُّ مُسْتَمِعٍ إلى شَيءٍ يَنْتَفِعُ بما يَسْتَمِعُ، أو يَعْقِلُ ما يَسْتَمِعُ، ويَفْهَمُ. إنما يُنْتَفَعُ بالاسْتِماعِ إليهِ، ويُعْقَلُ قَدْرُ المقصودِ والحاجةِ إليهِ.

ومنهُمْ مَنْ كانوا يَسْتَمِعونَ لِمَعانٍ: مَرَّةً يَسْتَمِعونَ بِقَبولِ القولِ لهمْ والمَنْزِلَةِ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يَسْتَمِعُ إليهِ لِيُسْمِعَ غَيْرَهُ كقولِهِ: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١] ومنهُمْ مَنْ كانَ يَسْمَعُهُ، ويُطيعُهُ في ذلكَ، فإذا خَرَجَ مِنْ عندِهِ غَيَّرَهُ، وبَدَّلَهُ، كقولِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ [النساء: ٨١] ومنهُمْ مَنْ كانَ يَسْتَمِعُ إليهِ اسْتِهْزاءً منهُ وطَلَبَ الطَّعْنِ فيهِ والعَيبِ؛ كانوا مُخْتَلِفينَ في الاسْتِماعِ.

ثم نَفَى عنهمُ السَّمْعَ والعَقْلَ والبَصَرَ لِوَجهَينِ:

أحَدُهُما: ما ذَكَرْنا أنهمْ لِما لم يَنْتَفِعوا بأسماعِهِمْ وعقولِهِمْ وأبصارِهِمْ، وبهذِهِ[4] الحواسِّ انْتِفاعٌ، كَمَنْ[5] ليسَتْ لهُ. هذهِ الحواسُّ إنما جُعِلَتْ لِيُنْتَفَعَ بها لا لِتُتْرَكَ سُدىً، لا يُنْتَفَعُ بها.

والثاني: كانَ العقلُ والسمعُ والبَصَرُ، وهذهِ يكونُ منها مُكْتَسَبٌ[6] ومنها ما يكونُ غريزَةً. فهمْ تركوا اكْتِسابَ ذلكَ.

يَحْتَمِلُ نَفْيُ هذهِ الحواسِّ لِهذينِ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذكَرْتُهما، واللهُ أعلَمُ.

ثم نَفَى عَمَّنْ لا يَسْتَمِعُ العقلَ حينَ[7] قالَ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ ونَفَى عنهُمُ الاهْتِداءَ والإبصارَ بِتَرْكِ النظرِ.

الآية ٤٣ فقالَ: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ البَصَرَ يُوصِلُ إلى اهْتِداءِ الطرقِ والسلوكِ فيها.

ألا تَرَى أنَّ البهائِمَ قد تُبْصِرُ الطرقَ، وتَسْلُكُ بها، وتَتَّقي بها المَهالكَ، ولا تَعْقِلُ لِما ليسَ لها سَمْعُ العقلِ، فلا تَعْقِلُ لِما يُسْمِعُ القَلْبُ؛ [إذْ بالعقلِ][8] وبظاهِرِ البَصَرِ تُبْصِرُ الأشياءَ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يُخْبِرُ أنَّ ما حَلَّ بأولئكَ مِنْ عذابِ اسْتِئصالٍ وعقوبَةٍ إنما حلَّ بظُلْمِهِمْ [لا][9] مِنَ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وليس. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في م: وهذه. (٥) الكاف ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مكتسباً. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: بعقل. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ قالَ [بَعْضُهُمْ][(١)] في قبورِهِمْ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ إذا خَرجوا مِنْ قبورِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ في الدنيا.

وأصلُهُ: كأنهمُ اسْتَقَلُّوا طُولَ مُقامِهِمْ في الدنيا وما أُنعِموا فيها لِما عايَنوا مِنْ أهوالِ ذلكَ اليوْمِ وشدائِدِهِ؛ واسْتَقَلُّوا لَبْثَهُمْ في الدنيا ومُقامَهُمْ لِطُولِ مُقامِهِمْ في الآخِرَةِ والعذابِ.

وفيهِ وجهٌ ثانٍ، وهو أنْ يُذْكَرَ مِنْ شدةِ سَفَهِهِمْ وغايةِ جَهْلِهِمْ أنَّ ما بَعْدَهُمْ مِنَ الحشرِ والعذابِ الأبدِ كأنهمْ لا يلبثونَ فيها إلا ساعةً مِنْ نهارٍ حتى لا ينالوا[(٢)] ما يَلْحَقُهُمْ مِنْ ذلكَ وما يَسْتوجِبونَ عليهِ مِنَ العذابِ باكْتِسابِهِمْ تلكَ الأسبابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يَعْرِفُ بعضُهُمْ بَعْضاً على قَدْرِ ما يَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ثم يُفرِّقُ بينَهُمْ كقولِهِ: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] أي فَرَّقْنا بينَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي خَسِروا بِما وُعِدوا في الآخِرَةِ مِنَ النِّعَمِ الدائمةِ بِتَرْكِ اكْتِسابِهِمْ إيّاها إذْ قد أُعْطوا ما يكتَسِبونَ بهِ نِعَمَ الآخِرَةِ، فاكْتَسَبوا ما بهِ خَسِروا ذلكَ. فهو كقولِهِ: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] على اكتِسابِ ما بهِ يَسْتَوجِبونَ النارَ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ/ ٢٣٠ ـ ب/ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ حَرْفُ إمّا حَرْفُ شَكٍّ، وكذلكَ حَرْفُ أو. ولكنْ يكونُ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، على حَذْفِ ما وإضمارِ حَرْفِ إنْ؛ كأنْ يقولَ: إنْ أريناكَ [فإنما نُريكَ][(٣)] بَعْضَ ما نَعِدُهُمْ لا كلَّ ما نَعِدُهُمْ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ولا نُريكَ شيئاً، أو أنْ يكونَ [معنى قولِهِ تعالى: إنا نُريكَ بَعْضَ][(٤)] ما نَعِدُهُمْ أي لقد نُريكَ بَعْضَ ما نَعِدُهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨]

فَعَلَى هذا التأويلِ يُريهِ بَعْضَ ما يَعِدُهُمْ، ولا يُريهِ كلَّ ما وَعَدَهُمْ. وعلى التأويلِ الأوّلِ إنْ أراهُ فإنما[(٥)] يُريهِ بَعْضَ ذلكَ، أو لا[(٦)] يُريهِ شيئاً.

فإنْ قيلَ: حَرْفُ إمّا شَكٌّ وكذلكَ حَرْفُ أو، كيفَ تستقيمُ إضافتُهُ إلى اللهِ، وهو عالِمٌ بما كانَ، ويكونُ، وإنما تستقيمُ إضافتُهُ إلى اللهِ، وهو عالِمٌ بما كانَ، ويكونُ، وإنما تستقيمُ إضافتُهُ إلى مَنْ يجهَلُ العواقبَ؟ قيلَ: جميعُ حروفِ الشَّكِّ الذي أُضيفَ إلى اللهِ هو على اليَقينِ والوُجوبِ نَحْوُ حَرْفِ عسى ولعلَّ ونَحْوُ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ حَرْفُ إمّا و أو، أي[(٧)] هو لم يَزَلْ عالِماً بِما كانَ، ويكونُ في أوقاتِهِ.

وأمّا حَرْفُ الإسْتِفْهامِ والشَّكِّ فَيُخَرَّجُ على مُخْرَجِ الإيجابِ والإلزامِ على ما ذَكَرْنا في حَرْفِ التَّشْبيهِ، أو يكونُ رسولُ اللهِ وَعَدَ أنْ يُريَهُمْ شَيئاً، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يقولُ[(٨)]: ليسَ إليكَ ما وَعَدْتَهُمْ، إنما ذلكَ إلينا كقولِهِ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

وقولُهُ تعالى ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ ثم اللهُ شهيدٌ لكَ يومَ القيامةِ على ما فَعَلُوا مِنَ التكذيبِ بالآياتِ وردِّها، وهو كقولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية [الأنعام: ١٩] ويَحْتَمِلُ أنهُ عالِمٌ بما يَفْعَلُ، لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ، وهو وعيدٌ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، [وقولِهِ][(٩)]: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي لِكلِّ أمّةٍ في ما خَلا رسولُ اللهِ بُعِثَ إليهِمْ؛ لَسْتُ أنا أوّلَ رسولٍ بُعِثَ إليكُمْ كقولِهِ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]

[وقولُهُ تعالى][(١٠)]: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي يُقْضى بينهمْ بالقِسْطِ يَحْتَمِلُ هذا وجهَين:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ينالون. (٣) في الأصل وم: إنما نرينك. (٤) في الأصل وم: قوله: إن نرينك بعد. (٥) في الأصل وم: إنما. (٦) في الأصل وم: ولا. (٧) في الأصل وم: و. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: شيئاً. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عليه.

يَحتمِلُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي يُقضى بينَ الرسلِ وبينَ الأمم بالعَدْلِ بما كانَ مِنَ الرسلِ مِن تَبليغِ الرسالةِ إليهمْ والدعاءِ إلى دينِ اللهِ ومِنَ الأممِ منَ التكذيبِ لِلرُّسلِ والرَّدِّ للآياتِ؛ قُضِيَ بينَهُمْ بالعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُزادُ على ما كانَ، ولا يُنقَصُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي يُهلَكُ المُكذِّبونَ منهُمْ، ويُنجى مَنْ صَدَّقَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [يونس: ١٠٣]. ويجوزُ أنْ يُقْضَى بَيْنَ المُعْرِضِينَ وبَيْنَ المُجيبينَ و المُطِيعينَ يَومَ القِيامةِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وذلكَ أنهمْ لمّا أوعدَهُمُ العذابَ قالَ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ منَ العذابِ فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تُوعِدُنا يا محمدُ إنْ كُنتَ صادقاً بأنَّ العذابَ نازلٌ بنا في الدنيا، وهو على التأويلِ الثاني الذي ذَكَرْنا: لقد نُريكَ بَعضَ ما وَعَدْتُهُمْ.

الآية ٤٩

فقالَ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا أملِكُ جَرَّ مَنْفَعَةٍ إليها. يقولُ: لا أقدِرُ على أنْ أُوقِعَ عنْ نفسي سُوءاً حينَ يَنْزِلُ بي، ولا أمْلِكُ أنْ أسوقَ إليها خيراً البَتَّةَ. فإذا لم أملكْ هذا كيفَ أمْلِكُ إنزالَ العذابِ عليكُمْ؟ إنما ذلكَ إلى اللهِ، هو المالكُ له[1] والقادرُ على ذلكَ، لا يملِكُ أحدٌ ذلكَ سِواهُ، وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي إذا جاءَ أجَلُهُمْ لا يَقدِرونَ على تقديمِهِ: ليسَ على أنهمْ لا يُبْطِلونَ تأخيرَهُ ولا تَقديمَهُ، فَيَسألونَ ذلكَ، ولكنْ لا يُؤخَّرُ إذا جاءَ، ولا يُقَدَّمُ قَبلَ أجَلِهِ.

وفيهِ دلالةُ ألّا يُهلَكَ أحدٌ قَبلَ أجلِهِ؛ وهو رَدٌّ على المعتزلةِ حينَ[2] قالوا: مَنْ قَتَلَ آخرَ فإنما قَتَلَهُ قبلَ أجَلِهِ، واللهُ يقولُ: ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وهمْ يقولونَ: يَسْتَقْدِمونَ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلمُ: أيُّ[3] مَنْفَعَةٍ لكُمْ إنْ أتاكُمْ عذابُهُ؟ لا مَنْفَعَةَ لكُمْ في ذلكَ، بل فيهِ ضَرَرٌ لكُم. فاسْتِعْجالُ ما لا مَنْفَعَةَ فيهِ سَفَهٌ وجَهْلٌ، يُسَفِّهُهُمْ في سُؤالِهِمُ العذابَ، ويُخبِرُ في قولِهِ: ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أنَّ عذابَ اللهِ إذا نَزَلَ، وجاءَ وقتُهُ، لا يملِكُ أحدٌ تَقديمَهُ ولا تأخيرَهُ، ولا يُحتَمَلُ اسْتِقدامُهُ ولا اسْتِئخارُهُ بالقَدْرِ والمَنْزِلَةِ كما لا يُحتَمَلُ ذلكَ في الدنيا التقديمُ والتأخيرُ بالشفاعةِ والفِداءِ.

ويذكُرُ عَجْزَهُ في إنزالِ العذابِ عليهِمْ في قولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ﴾ قيلَ: أي العذابُ إذا نزلَ بكُمْ آمَنْتُمْ بهِ الآنَ. يُخبِرُ عنهُ أنهمْ إذا نَزَلَ بهمُ العذابُ يؤمنونَ.

ثم يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي باللهِ وبرسولِهِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤] ثم أخبَرَ أنَّ إيمانَهُمْ لا يَنفَعُهُمْ عندَ معايَنَتِهِمُ العذابَ، وهو كقولِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] وقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ويَحتمِلُ قولُهُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أي بالعذابِ لأنهمْ يُكذِّبونَ رسولَ اللهِ في ما يدعوهُمْ بالعذابِ، وهمْ يَستَعجِلونَ بهِ اسْتِهزاءً وتكذيباً. فإذا نَزَلَ بهمْ آمَنوا، أي صَدَّقوا بذلكَ العذابِ؛ يقولُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ اسْتِهزاءً وتكذيباً أنهُ غَيرُ نازلٍ بكمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قيلَ: أشرَكوا في ألوهيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وعبادَتِهِ غيرَهُ ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ لأنهمْ يُخلَّدونَ فيهِ؛ يُقالُ ذلكَ بَعْدَ ما أُدخِلوا النارَ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي لا تُجزَونَ إلّا بما كَسَبْتُمْ في الدنيا.

---

(١) في الأصل وم: عليه. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: اية.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي يَستخبرونَكَ ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ يَحتمِلُ هذا وجوهاً:

يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ العذابَ الذي كانَ يوعِدُهُمْ أنهُ يَنزِلُ بهِمْ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، ثم قالَ: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي قُلْ نعمْ وربّي إنهُ لَحقٌّ أنهُ نازلٌ بكُمْ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بِفائِتِين عنهُ ولا سابِقينَ لهُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ما يَدعوهُمْ إليهِ مِنَ التوحيدِ كقولِهِمْ لإبراهيمَ: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ الآية [الأنبياء: ٥٥و٥٦] فعَلَى ذلكَ قولُهُمْ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ثم أخبرَ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ بقولِهِ ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ غائبِينَ فائِتِين عنهُ.

ويَحتمِلُ الآياتِ أو محمداً أو القرآنَ ﴿أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ قُلْ نعمْ إنهُ لَحقٌّ كقولِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] أخبرَ أنَّ ما يأمُرُهُمْ بهِ، ويَدعوهُمْ [إليهِ][1] ليسَ هو هُزُواً ولا لَعِباً، ولكنْ حقٌّ أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى. فعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ هذا الحرفُ يَحتمِلُ أنْ يكونَ مِنَ الشاكِّينَ منهُمْ في ذلكَ؛ طَلَبوا منهُ أنهُ [أحقٌّ ذلكَ أم][2] لا؟ ومِنَ المُعانِدينَ بهِ كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] كانوا فِرَقاً ثلاثةً: فِرْقَةٌ قد آمَنوا بهِ، وفِرْقَةٌ قد شَكُّوا فيهِ، وفِرْقَةٌ قد كذَّبوهُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ/ ٢٣١ ـ أ/ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ يُخبِرُ عنهُمْ أنهمْ يَفدونَ، ويَبذُلونَ جميعَ ما في الأرضِ، لو قَدَروا عليهِ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ لِشِدَّةِ العذابِ، ولو كانَ الذي مَنَعَهُمْ عنِ الإيمانِ هو حُبُّهُمُ الدنيا، وبُخْلُهُمْ عليها وما فيها بقولِهِ: ﴿وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس: ٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾ الندامةُ لا تكونُ إلّا سِراراً بالقَلْبِ؛ فكأنَهُ قالَ: حقَّقوا الندامةَ في قُلوبِهِمْ على[3] ما كانَ منهُمْ مِنَ التكذيبِ بالآياتِ والعِنادِ في رَدِّها.

وقالَ بعْضُهُمْ: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أظهَروا الندامةَ، وهو ما يُستعمَلُ في الإظهارِ والإخفاءِ كقولِهِ: شَعْبٌ جَمْعٌ وشَعْبٌ فَرْقٌ ونَحْوُهُ. وبَعْدُ فإنهُ إذا أسَرَّ في نَفْسِهِ لابُدَّ مِنْ أنْ يَضَعَ ذلكَ في آخَرَ، ويُخبِرُهُ بذلكَ. فذلكَ منهُ إظهارٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [ما تُوجِبُهُ الحكمةُ؛ لأنَّ الحِكْمَةَ توجِبُ تَعْذيبَ كلِّ كافرٍ نِعْمَةً وكلِّ قائلٍ في اللهِ ما لا يَليقُ بهِ، أو أنْ يكونَ تفسيرُ قولِهِ: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ ما ذَكَرَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ويَحتمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾][4] ما ذَكَرَ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] والقِسْطُ هو العَدْلُ، وهمْ يومئذٍ عَرَفوا أنهُ كانَ يَقضي بالعَدْلِ في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إنَّ ما في السمواتِ والأرضِ [للهِ][5] كلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ ومُلْكُهُ لا لِمَنْ تعبدونَ دونَهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ. فَمِنْ عِنْدِ مَنْ يَمْلِكُ الدنيا والآخِرَةَ اطلُبوا ذلكَ منهُ لا[6] مِنْ عِنْدِ مَنْ لا يَمْلِكُ. يُبَيِّنُ سَفَهَهُمْ في طَلَبِهِمُ الدنيا مِنْ عندِ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يملكُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في كلِّ وَعْدٍ وَوَعيدٍ إنهُ كائنٌ لا مَحالَةَ عذاباً أو رَحْمَةً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَنتفِعونَ بِعِلْمِهِمْ. فَنَفَى عنهُمُ العِلْمَ، وإنْ عَلِموا، لِما لم يَنتفِعوا بهِ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لم يَكْتَسِبوا سَبَبَ العِلْمِ، وهو التأويلُ والنَّظَرُ في آياتِهِ وحُجَجِهِ، ويَحتمِلُ نَفْيَ العلمِ عنهُمْ لِما [لم][7] يُعْطَوا أسبابَ العِلْمِ، فلم يَعْلَموا. فإنْ كانَ على هذا فيكونونَ مَعْذورينَ، وإنْ كانَ على الوجهَينِ الأوَّلَينِ فلا عُذْرَ لهمْ في ذلكَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل و م: حق ذلك أو. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: لأن. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وفي قولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دلالةُ إثباتِ البَعْثِ مِنْ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: في ما يَذْكُرُ مِنْ قُدْرَتِهِ مِنْ [خلْقِ][1] السمواتِ والأرضِ وما بينَهما بِغِلَظَتِهِما وكَثافَتِهِما وشِدَّتِهِما وعِظَمِ خِلْقَتِهِما. وأنَّ تلكَ القُدْرةَ خارجةٌ عَنْ وُسْعِ البَشَرِ وتَوَهُّمِهِ. فَمَنْ قَدَرَ على ذلكَ فهو قادرٌ على إحياءِ الخَلْقِ بعدَ فنائِهِمْ.

والثاني: يُخْبِرُ عَنْ حكمَتِهِ مِنْ تعليقِ مَنافِعِ الأرضِ بالسماءِ على بُعْدِ ما بينَهُما والإفضالِ على الخَلْقِ بأنواعِ النِّعَمِ التي تَكْبُرُ [على][2] الإحصاءِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ منها قد وُضِعَ مَواضِعَها.

فلا يَحْتَمِلُ مَنْ هذا وَصْفُهُ في الحِكْمَةِ [أنْ][3] يَخلُقَ الشيءَ عَبَثاً باطلاً، ولو كانَ[4] للفناءِ، لا حياةَ بَعْدَهُ، كانَ يكونُ خارجاً عنِ الحكمةِ، فَظَهَرَ أنَّهُ خَلَقَهُمْ لأمرٍ أرادَ بِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تَعْلَمونَ أنهُ هو أحْيا الأحياءَ، ويُميتُ الأمواتَ أيضاً [بقولِهِ:][5] ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] فإذا عَرَفْتُمْ أنهُ يُميتُ الأحياءَ، وهو يُحْيِي الأمواتَ، لا غيرُهُ[6]، فاعْلَموا أنهُ هو يَبْعَثُكُمْ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَلْزَمَهُمُ الحُجَّةَ دلالةً بالكائنِ، ثم أخبَرَ عمّا يكونُ بالحُجَّةِ التي ذَكَرَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو هذا القرآنُ. قالَ بعضُهُمْ: المَوْعِظةُ النهيُ كقولِهِ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] قيلَ: نهاكُمْ أنْ تعودوا لِمِثْلِهِ. وقالَ آخرونَ: المَوعِظةُ هي التي تَدعو إلى كلِّ مَرْغوبٍ، وتَزْجُرُ عَنْ كلِّ مرهوبٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: العِظَةُ هي التي تُلينُ كلَّ قَلْبٍ قاسٍ، وتَجْلي كلَّ قاتِمٍ[7] مظلِمٍ. وفي القرآنِ جميعُ ما ذُكِرَ؛ فيهِ النَّهْيُ، وفيهِ الدعاءُ إلى كلِّ مرغوبٍ والزَّجْرُ عَنْ كلِّ مَرهوبٍ، وهو يُلينُ القلوبَ القاسِيَةَ [ويُدْمِعُ العُيونَ اليابِسَةَ][8] ويَجْلي الصدورَ المُظْلِمَةَ [إذا تأمَّلُوا فيهِ، ونَظَروا، وتفَكَّروا[9] تفكيرَ المُسْتَرْشِدِ وطالبِ الحقِّ. وقيلَ: الموعِظَةُ هي التي [تُلينُ][10] القلوبَ القاسيةَ وتُدْمِعُ العيونَ اليابِسَةَ، وتَجْلي الصدورَ المُظْلِمَةَ][11].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّ لِلدِّينِ آفاتٍ وأدواءً تَضُرُّ بِهِ، وتُتْلِفُهُ كما لهذهِ الأبدانِ آفاتٌ وأمراضٌ، تَعْمَلُ في إتلافِها وإهلاكِها. ثم جُعِلَتْ لآفاتِ الأبدانِ وأمراضِها أدويةٌ، تُشْفَى بها الأبدانُ المَؤوفةُ المريضةُ. فَعَلى ذلكَ جُعِلَ هذا القرآنُ لهذا الدينِ دواءً يُداوَى بهِ، فيذهَبُ بآفاتِ الدينِ وأمراضِهِ كما تَعْمَلُ الأدويةُ في دَفْعِ آفاتِ الأبدانِ وأمراضِها. لِذلكَ سَمّاهُ مَوعِظَةً وشِفاءً لِما في الصدورِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ قيلَ هُدىً مِنَ الضلالةِ ورَحْمَةٌ مِنْ عذابِهِ. أو يقولُ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ ﴿وَهُدًى﴾ أي يَدْعو إلى كلِّ خيرٍ، ويَهْدي إليهِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لِمَنْ تَبِعَهُ هو ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وتَمَسَّكَ بهِ، وعَمىً وضَلالٌ لِمَنْ خالَفَهُ، وتَرَكَ اتباعَهُ، وهو ما ذُكِرَ ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وقالَ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] أي زادَتِ المُؤمِنينَ إيماناً إلى إيمانِهِمْ، وقالَ[12]: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ أي زادَتِ الكافِرينَ رِجْساً ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فضلُ اللهِ ورَحْمَتُهُ القرآنُ، وقالَ قائلونَ: فَضلُ القرآنِ ورَحْمَتُهُ الإيمانُ، وفيهِ أنهُ بإنزالِ القرآنِ مُفَضِّلٌ؛ إذْ لهُ ألّا يُنْزِلَهُ، وفيهِ أنَّ أهلَ الفَتْرَةِ يُؤاخَذونَ في حالِ فَتْرَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي في حُكْمِ ما[13] ذَكَرَ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِنَ الدنيا. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ إنما خاطبَ المؤمنينَ؛ يقولُ للمؤمنينَ ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الإسلامُ ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ يعني القرآنَ ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ يعني فبذلكَ الفَضْلِ والرحمةِ، ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ يعني المؤمنينَ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني ممّا يَجْمَعُ الكفارُ مِنَ الأموالِ مِنَ الذهبِ والفضةِ وغيرِهِما[14].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كانوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قاس. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: و. (١٠) ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: بما. (١٤) في الأصل وم: وغيره.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ يَحتمِلُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أضافَ إنزالَهُ إلى السماءِ، وإنْ كانَتِ الأرزاقُ إنما تَخرُجُ مِنَ الأرضِ لِما كانَتْ أسبابُها مُتَعلِّقَةً بالسماءِ [بها][1] يكونُ نُضجُ الأنزالِ وينْعُ الأعنابِ[2] وإصلاحُ الأشياءِ كلِّها؛ يَعني أسبابَ الأرزاقِ مِنْ نَحوِ المطرِ الذي بهِ تُنْبِتُ الأرضُ النَّباتَ، وبهِ تَخرُجُ جميعُ أنواعِ الخَرْجِ[3] ممّا يكونُ فيهِ غِذاءُ البَشَرِ والدَّوابِّ، ومِنْ نَحْوِ الشمسِ التي[4] بها تَنضَجُ الأنزالُ، وبها تَيْنَعُ الأعنابُ وجميعُ الفواكِهِ، ونَحْوِهِ.

أضافَ ذلكَ إلى السماءِ لِما ذَكَرْنا، وكذلكَ قولُهُ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي أسبابُ ذلكَ في السماءِ، لا أنَّ عَينَ ذلكَ في السماءِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي ما خَلَقَ اللهُ، وكذلكَ جميعُ ما يُضافُ إلى اللهِ إنما يُضافُ إليهِ بِحَقِّ الخَلْقِ؛ أي خَلَقَهُ مُنْزَلاً كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] ونَحْوُ ذلكَ أي خَلَقَ لكُمْ مِنَ الأنعامِ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ قالَ[5] بعضُهُمْ: ما حَرَّموا مِنَ البَحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ وما ذُكِرَ في سورةِ الأنعامِ والمائدةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ما حَرَّموا لِلآلهةِ التي كانوا عَبَدوها أي جَعلوها للأصنامِ، وهو ما ذُكِرَ في الأنعامِ، وهو قولُهُ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦] نحوُ ما ذَكَرْنا في الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أي ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في تَحريمِ ما حَرَّمْتُمْ وتَحليلِ ما حَلَّلْتُمْ ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وذلكَ أنَّ هذهِ السورةَ نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ مكَّةَ، وهُمْ لم يكونوا/ ٢٣١ ـ ب/ مؤمنينَ بالرسلِ والكُتُبِ. وإنما يُوصَلُ إلى مَعْرِفَةِ المُحَرَّمِ والمُحَلَّلِ بالرسلِ والكُتُبِ والخَبَرِ عنِ اللهِ، وهُمْ لم يكونوا مؤمنينَ بواحدٍ ممّا ذَكَرْنا، فكيفَ جَعَلْتُمْ منهُ حراماً وحلالاً، وأنتمْ لا تُؤمِنونَ بما[6] بهِ يُعْرَفُ الحلالُ والحرامُ؟ فكيفَ حَرَّمْتُمْ ما أحَلَّ لكُمْ أو أحْلَلْتُمْ ما حَرَّمَ عليكُمْ؟ يُخبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ وعِنادِهِمْ وافْتِرائِهِمْ على اللهِ. فإذا اجْتَرَؤوا أنْ يَفتَروا على اللهِ [فَهُمْ على][7] غَيرِهِ أجْرَأُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ أُوعِدوا بِيومِ القِيامةِ، وهُمْ كانوا لا يؤمنونَ بالبعثِ؟ قيلَ: قد ألْزَمَهُمُ الحُجَّةَ؛ [إذ][8] يكونُ البعثُ بما أظْهَرَ مِنْ كَذِبِهِمْ وافْتِرائِهِمْ على اللهِ في التحريمِ والتحليلِ، فذلكَ يُظْهِرُ كذِبَهُمْ بِتَكذيبِهِمُ البَعْثَ.

وبَعْدُ فإنهُ قد يُوعَدُ المرءُ بما لا يَتَيَقَّنُ بهِ، ويُخَوَّفُ منهُ[9]، ويُحَذَّرُ، وإنْ لم يُحِطْ عِلْمُهُ بهِ، فكذلكَ هذا.

وبَعْدُ فإنهُ قد جَعَلَ في عقولِهِمْ ما يُلْزِمُهُمُ الإيمانَ بالبعثِ والجَزاءِ للأعمالِ؛ إذْ ليسَ مِنَ الحِكْمَةِ خَلْقُ الخَلْقِ لِلْفَناءِ خاصَّةً.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ يقولَ: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ لو خَرَجَ الأمرُ حقّاً، وكانَ صِدْقاً على ما أخْبَرَ رسولُ اللهِ، وقالَ: عنِ البَعْثِ والجَزاءِ لِما اكْتَسَبوا؟

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هو ذو فَضلٍ على الناسِ مِنْ جِهَةِ ما ساقَ إلى الكلِّ مِنَ الرزقِ كافِرِهِمْ ومُؤْمِنِهِمْ وأنواعِ النِّعَمِ، وما أخَّرَ عنهُمُ العذابَ إلى وقتٍ، أو لِما بَعَثَ إليهِمُ الرسلَ والكُتُبَ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهُمْ إلى اللهِ سابِقَةُ صُنْعٍ، يَسْتَوجِبونَ بهِ ذلكَ. ومنهُ ذلكَ خُصوصُ فَضْلٍ على المؤمنينَ، ليسَ ذلكَ على الكافرينَ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لِفَضْلِهِ وما أنْعَمَ عليهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الأعشاب. (٣) في الأصل وم: الخارج. (٤) في الأصل وم: الذي. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) في الأصل وم: فعلى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: عليه.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿فِي شَأْنٍ﴾: في أمرِكَ وحالاتِكَ ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ تُبَلِّغُهُمُ الرسالةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي في عبادةٍ ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ تُبَلِّغُهُمْ بِهِ الرسالةَ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ يُخاطِبُ نَبِيَّهُ تنبيهاً منهُ وإيقاظاً. والمُرادُ منهُ هو وغيرُهُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أعمالَكُمْ[١] جميعاً؟ في ذلكَ يُخبِرُ أنكُمْ في كلِّ أمرٍ يكونُ بينَكُمْ وبينَ ربِّكُمْ، وفي كلِّ أمرٍ بينكُمْ وبينَ الناسِ فاللهُ لَكُمْ وعليكُمْ شهوداً، وكلُّ عملٍ تعملونَ لكُمْ وعليكُمْ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ يُنبِّهُهُمْ، ويوقِظُهُمْ ليكونوا على حَذَرٍ أبداً مُنْتَبِهينَ. وقيلَ: تُكْثِرونَ ﴿فِيهِ﴾ وكُلُّهُ واحدٌ.

ثم يَحْتَمِلُ ﴿فِيهِ﴾ في الحقِّ، ويَحْتَمِلُ في الدينِ، ويَحْتَمِلُ في القرآنِ، ويَحْتَمِلُ في رسولِ اللهِ. يقولُ: أنا شاهِدٌ في ما تَخوضونَ وفي ما تقولونَ في رسولِ اللهِ أو في دينِهِ أو في ما يَتْلُو عليكُمْ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يَعْزُبُ عنْ ربِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ [في الأرضِ][٢] ولا في السماءِ في لا أمرَ فيهِ ولا نَهيَ ولا كُلْفَةَ. فالذي فيهِ السؤالُ والأمرُ والنَّهيُ والكُلْفَةُ أحرَى وأولَى ألاّ[٣] يَغيبَ عنهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هو تَحذيرٌ وتَخويفٌ بِتَمْثيلٍ، لا وعيدٌ بتقريرٍ وتَصريحٍ؛ لأنَّ الوَعيدَ على وجهَينِ: أحَدُهُما على التَّمْثيلِ[٤] والآخَرُ على التقريرِ في عينِهِ والتَّصريحِ[٥].

وقولُهُ تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قيلَ: ما قلَّ[٦]، وما كَثُرَ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي إلّا في اللوحِ المحفوظِ ﴿مُّبِينٍ﴾ ويَحْتَمِلُ: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ في قولِهِ ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تَنْتَشِرونَ فيهِ، وتأويلُهُ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ﴾ تَنْتَشِرونَ فيهِ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قالتِ المُعْتَزِلَةُ: دَلَّتِ الآيةُ على أنَّ أصحابَ الكبائرِ ليسُوا بمؤمِنينَ لأنهمْ لو كانوا مؤمِنينَ لَكانوا أولياءَ اللهِ، وكانوا[٧] لا خَوفٌ عليهِمْ، ولا حُزْنٌ. فإذا كانَ فلا[٨] شَكَّ أنَّ على أصحابِ الكبائرِ [خوفاً وحزناً][٩] في وقتٍ دونَ وقتٍ وليسَ في الآيةِ أنْ ليسَ على أولياءِ اللهِ خوفٌ ولا حُزنٌ مِنْ أوَّلِ الأمرِ إلى آخِرِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما يكونُ لأهلِ الدنيا في الدنيا مِنَ الخوفِ والحُزنِ. إنما خوفُهُمْ وحُزنُهُمْ لِعاقِبَتِهِمْ.

ويُشْبِهُ أنْ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الجنةِ. وهكذا يكونُ إذا دَخَلُوا الجنةَ يأمنونَ مِنْ جميعِ ما يُنَغِّصُهُمْ[١٠].

الآية ٦٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾][١١] قالَ بعضُهُمْ: أولياءُ اللهِ همْ أهلُ التوحيدِ، لكنَّ تلكَ البِشارةَ وذلكَ الوَعْدَ لأهلِ[١٢] التوحيدِ في الاعْتِقادِ والوفاءِ جميعاً لا لأهلِ الاعتِقادِ خاصَّةً.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الرُّؤيا الصالحةُ. وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الأخبارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنْ هذهِ الآيةِ، فَفَسَّرَها[١٣] بالرؤيا الصالحةِ. فإنْ ثَبَتَ فهو الحَقُّ. وقالَ[١٤] بعضُهُمْ: لا تَحْتَمِلُ الرُّؤيا الصالحةَ لأنهُ نَسَقَ البُشْرَى في الآخِرةِ على البُشْرَى في الحياةِ الدنيا، ولا شَكَّ أنهُ لا يكونُ في الآخرةِ الرؤيا الصالحةُ. ولكنْ إنْ ثَبَتَ ما ذَكَرْنا في الخَبَرِ فهو ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: عملهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: لا. (٤) في الأصل وم: التمثال. (٥) في الأصل وم: وتصريح. (٦) من م، في الأصل: قال. (٧) في الأصل وم: لكان. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: خوف وحزن. (١٠) في الأصل وم: ينفعهم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: كأهل. (١٣) في الأصل وم: ففسر. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

ويُشبهُ أنْ تكونَ البِشارةُ التي ذَكَرَ هَهُنا نَحوَ قولِهِ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية [الزمر: ١٧و١٨] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].وقولِهِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٣] وأمثالَ ذلكَ.

وقالَ بعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُبَشِّرُهُم الملائكةُ عندَ الموتِ، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجنةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِنْ وَعْدِهِ ووَعيدِهِ. وذلكَ ممّا لا تَبْديلَ، ولا تَحويلَ. ويَحتَمِلُ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآنَ؛ لا تبديلَ لِما فيهِ مِنَ الوَعْدِ والوَعيدِ وغَيرِهِ. ويَحتَمِلُ: لا تَبْديلَ لِما مَضى مِنْ سُنَنِهِ في الأوّلينَ والآخِرينَ مِنَ الهلاكِ والاسْتِئصالِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ والآياتِ كقولِهِ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وقولِهِ: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تَبْديلَ لِبُشْرَى الذينَ ذَكَرَ هؤلاءِ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ. ويَحتَمِلُ لا تَبْديلَ لِحُجَجِ اللهِ وبَراهينِهِ، أو لا تَبْديلَ لِوَعْدِ اللهِ وَوَعيدِهِ ونَحْوَهُ[1]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ﴿ذَٰلِكَ﴾ البُشْرَى، هو الفوزُ العظيمُ، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدينُ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إذْ لا خَوفَ بَعْدَهُ. وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: لا خَوفٌ عليهِمْ مِنَ النارِ، ولا هُمْ يَحزنونَ أنْ يَخرجوا مِنَ الجنةِ أبداً. [وهذا][2] الوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ ما قالوا في اللهِ ما[3] لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ؛ يقولُ: لا يَحْزُنْكَ ذلكَ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الذي قالوا في القرآنِ: إنهُ سِحْرٌ، وإنهُ مُفْترىً، أو [الذي][4] قالوا في رسولِ اللهِ: إنهُ ساحرٌ، وإنهُ يَفْتري على اللهِ كَذِباً.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ مَكْرَهُمُ الذي مَكَروا بهِ وكيدَهُمُ الذي كادوهُ. ويُؤيِّدُ ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي إنَّ العِزَّةَ في المَكْرِ والكيدِ للهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]؛ أي مَكْرُهُ يَنْقُضُ مَكْرَهُمْ، ويَمْنَعُهُ، وكيدُهُ يَفْسَخُ كَيدَهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يَنْقُضُ جميعَ ما يَمْكُرونَ/ ٢٣٢ ـ أ/ بكَ، ويكيدونَ لكَ. والعِزَّةُ القُوَّةُ. يقولُ: إنَّ القُوَّةَ لِلّهِ؛ يَنْصُرُكَ على أعدائكَ، ويَدفَعُ عنكَ كيدَهُمْ ومَكْرَهُمُ الذي هَمّوا بكَ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لِقولِهِمُ الذي قالوا. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالِحِهِمْ، أو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ المجيبُ للدعاءِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يكونُ منهُمْ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تَعْلَمونَ أنَّ للهِ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ: كلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤهُ، فكيفَ قُلْتُمْ: إنَّ فلاناً ولدُهُ؟ وإنَّ لهُ شريكاً؟ ولا أحدَ منكُمْ يَتَّخِذُ مِنْ عَبيدِهِ وإمائِهِ ولداً ولا شريكاً كقولِهِ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨] فَعَلَى ذلكَ هذا. وكيفَ يَحتَمِلُ أنْ يَتَّخِذَ ولداً، ولهُ مُلْكُ ما في السمواتِ والأرضِ؟ وإنما يُتَّخَذُ في الشاهدِ الولدُ لإحدَى خِصالٍ ثلاثٍ: إمّا لِلاسْتِنْصارِ على غيرِهِ، وإمّا لحاجةٍ تَمَسُّهُ، وإمّا لِوَحْشَةٍ أصابَتْهُ.

فهو غَنِيٌّ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ؛ لا حاجةَ تَمَسُّهُ، فكيفَ نَسَبْتُمُ الولدَ إليهِ والشريكَ؟ وما قالوا فيه ممّا لا يَليقُ بهِ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ. ويُخْبِرُ[5] عن غِناهُ عمّا يأمُرُهُمْ، ويَنهاهُمْ، ويَتَعَبَّدُهُمْ؛ أي ليسَ يأمُرُ، ويَنْهَى، ويَتَعَبَّدُ بأنواعِ العباداتِ، ويَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ لِحاجةٍ لهُ أو لِمَنْفَعَةٍ لهُ في ذلكَ، ولكنْ لِمَنْفَعَةٍ لهمْ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي ما يَتَّبِعونَ في ما يَدعونَ مِنْ دونِ اللهِ مِنَ الشركاءِ

---

(١) من م، في الأصل: ونحو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل و م: يخبره.

بالحُجَجِ والبراهينِ أو الكتابِ بِيَقينٍ أو رسولٍ، إنما يَتَّبِعونَ بالظَّنِّ والحَذَرِ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ إي ما هُمْ إلّا يكذِبونَ في ما يَتَّبِعونَ بدعائِهِمْ دونَ اللهِ لأنهُمْ كانوا أهلَ شِرْكٍ لم يكونوا أهلَ كتابٍ ولا آمَنوا برسولٍ، فهمْ قد عَرَفوا أنهمْ مُفْتَرونَ كاذِبونَ في اتِّباعِهِمْ دونَ اللهِ؛ إذْ سبيلُ مَعرفةِ ذلكَ الكتابُ أو الرسولُ، ولم يكنْ لهمْ واحدٌ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبْصَرُ فيهِ، وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [القصص: ٧٣] يَعْني في النهارِ، فهو في مَوضِعِ الامْتنانِ وتذكيرِ النِّعَمِ؛ يَسْتَأدي بذلكَ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِ.

وفيهِ أنَّ الليلَ والنهارَ يَجرِيانِ على التدبيرِ والتقديرِ لأنهما لو كانا يَجْرِيانِ على غَيرِ تدبيرٍ ولا تقديرٍ لَكانا لا يَجْرِيانِ على تقديرٍ واحدٍ [ولا سَنَنٍ واحدٍ][١] ولكانَ يدخُلُ فيهما الزيادةُ والنقصانُ، ولا يَجْرِيانِ على تقديرٍ واحدٍ، وإنْ كانَ يدخُلُ بعضُهُ في بعضٍ. فدلَّ جرَيانُهما على تقديرٍ واحدٍ أنهما يجريانِ على تدبيرٍ آخَرَ فيهما، إذْ لو كانَ على غَيرِ تدبيرٍ [لكانا][٢] يَجْرِيانِ على انحرافٍ على الزيادةِ والنُّقْصانِ على القِلَّةِ والكَثْرةِ.

وفيهِ أيضاً أنَّ مُدَبِّرَهما واحدٌ لأنهُ لو كانَ مدبِّرَهما عَدَداً لكانَ إذا غَلَبَ أحدُهُما الآخَرَ دامَتْ غَلَبَتُهُ، ولا يَصيرُ الغالبُ مغلوباً والمغلوبُ غالباً. فإذا صارَ ذلكَ ما ذَكَرْنا دلَّ أنَّ مُدبِّرَهما واحدٌ لا عَدَدٌ.

وفيه دلالةُ البعثِ بَعْدَ الموتِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما إذا جاءَ أتْلَفَ صاحِبَهُ تَلَفاً حتى لا يَبْقَى لهُ أثرٌ، ولا شَيءٌ منهُ، ثم يكونُ مِثْلَهُ حتى يَخْتَلِفَ الذاهبُ مِنَ[٣] الحادثِ لا الأوَّلُ مِنَ الثاني. فَدَلَّ أنَّ الذي قَدَرَ على إنشاءِ ليلٍ قد ذَهَبَ أثرُهُ[٤] وأصْلُهُ قادرٌ على البعثِ، ومَنْ قدرَ على إحداثِ نهارٍ، قد[٥] فَنِيَ، وهَلَكَ قادرٌ على إحداثِ ما ذَكَرْنا مِنَ الموتِ.

وفيهِ أنَّ الشيءَ إذا كانَ وُجوبُهُ بِشَرْطَينِ[٦] لم يَجِبْ إذا عَدِمَ أحدُهُما لأنهُ قالَ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وإنما يُبْصَرُ بنورِ البَصَرِ ونورِ النهارِ جَميعاً لأنهُ إذا فاتَ أحدُ النُّورَينِ لم يُبْصَرْ شَيءٌ مِنَ النورِ نورِ البَصَرِ أو[٧] نورِ النهارِ. دلَّ أنَّ الحُكْمَ إذا وَجَبَ بِشَرطَينِ لا يُوجِبُ إلّا باجتماعِهِما جميعاً: الليلُ يَسْتُرُ وُجوهَ الأشياءِ لأنهُ لا يُرَى نفسُهُ، والنهارُ يَكْشِفُ وجوهَ الأشياءِ، وفي الليلِ تُسْتَرُ وجوهُ الأشياءِ دلالةٌ أنَّ الحكمَ إذا كانَ وجوبُهُ بشرطَينِ يجوزُ صُنْعُهُ بِعِلَّةٍ واحدةٍ لأنهُ يَسْتُرُ نورَ النهارِ ونورَ البَصَرِ جميعاً.

وفي قولِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وجوهٌ مِنَ الدلالةِ:

أحدُها: ما ذَكَرْنا مِنْ تَذكيرِ النِّعَمِ؛ يدعوهُمْ بهِ إلى شُكْرِهِ، ويَنْهاهُمْ عنِ الكُفْرانِ.

والثاني[٨]: فيهِ تذكيرُ القُدْرةِ لهُ حينَ[٩] أنشأَ هذا، وأحْدَثَهُ، وأتْلَفَ الآخَرَ. فَمَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

والثالثُ[١٠]: فيهِ دليلُ السلطانِ حينَ[١١] يأخُذُهُمْ، ويُسَيِّرُ عليهمُ الأشياءَ شاؤوا، أو أبَوا. وكذلكَ النهارُ يأتيهِمْ حتى يَكْشِفَ وجوهَ الأشياءِ، ويَجْلِيَ، شاؤوا، أو أبَوا.

والرابعُ[١٢]: فيهِ دليلُ التدبيرِ والعِلْمِ لِما ذَكَرْنا مِنِ اتِّساقِ جَرَيانِهِما على سَنَنٍ واحدٍ ومَجْرىً واحدٍ.

والخامسُ[١٣]: فيهِ دلالةُ وحدانيَّةِ مُنْشِئِهِما؛ بَيَّنَ ههنا في ما جَعَلَ الليلَ حينَ[١٤] قالَ: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ الليلَ للسكونِ والراحةِ. فدلَّ ذِكْرُ السكونِ في الليلِ على أنهُ جَعَلَ النهارَ لِلسَّعْيِ وطَلَبِ العيشِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في النهارِ ﴿مُبْصِرًا﴾؟ أي يُبصِرون فيهِ ما يعيشونَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧٣].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: و. (٤) ساقطة من م. (٥) في م: وقد. (٦) في الأصل وم: بشيئين. (٧) من م، في الأصل: أي. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ولم يَقُلْ: يُبْصِرونَ. فظاهِرُ ما سَبَقَ مِنَ الذِّكْرِ يَجِبُ أنْ يُقالَ: لِقَومٍ يُبْصِرونَ لأنهُ قالَ: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾. لكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أي يَعْقِلونَ كقولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أي يُجيبونَ كقولِهِ [ﷺ][1] «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [البخاري ٦٩٠] أي أجابَ اللهُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أرادوا بِقولِهِمْ ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ حقيقَةَ الولدِ كقولِهِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل: ٥٧] وقولِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١٨] كذا [وقولِهِ][2]: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] كذا، فَنَزَّهَ ﷻ نَفْسَهُ عمّا يقولونَ بقولِهِ: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ إنهُ لم يَلِدْ أحداً، ولا وُلِدَ هو منْ أحدٍ. ولهذا قالَ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] إذْ في الشاهدِ لا يَخْلُو إمّا أنْ يكونَ وُلِدَ مِنْ آخَرَ أو والداً[3]، والخَلْقُ كُلُّهُ لا يَخْلُو مِنْ هذا، فأخْبَرَ أنهُ لم يَلِدْ هو أحداً، ولا وُلِدَ مِنْ أحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعْلَمُ، أنَّ في الشاهِدِ مَنِ اتَّخَذَ ولداً إنما يَتَّخِذُ لأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا لحاجةٍ تَمَسُّهُ، أو لِشَهْوَةٍ تَغْلِبُهُ، أو لِما يَسْتَنْصِرُ بهِ على آخَرَ مِمّا يَخافُهُ. فإذا كانَ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ومُلْكُ ما فيهما: كُلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤهُ فلا حاجةَ تَقَعُ لهُ إلى الوَلَدِ؛ إذْ هو الغَنِيُّ، ولهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ.

ومَنْ هذا وصفُهُ فلا يحتاجُ إلى الوَلَدِ، ولأنهُ لا أحَدَ في الشاهدِ يَحْتَمِلُ طبعُهُ اتِّخاذَ الوَلَدِ مِنْ عَبيدِهِ وإمائِهِ، فإذا كانَ لِلّهِ، سُبْحانَهُ، الخلائقُ: كلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤهُ، كيف احْتَمَلَ اتِّخاذَ الوَلَدِ منهمْ لو جازَ؟ وقد بيَّنّا إحالَةَ[4] ذلكَ وفَسادَهُ، ولأنَّ الوَلَدَ يكونُ مِنْ شَكْلِ الوالِدِ ومِنْ جِنْسِهِ كالشريكِ يكونُ مِنْ شَكْلِ الشريكِ ومِنْ جِنْسِهِ، فكانَ نَفْيُ الشريكِ نَفْيَ الوَلَدِ لأنَّ مَعْناهما واحدٌ، وكلُّ ذي شَكْلٍ، لهُ ضِدٌّ أو شَكْلٌ، فإنهُ لا رُبوبيَّةَ لهُ ولا أُلوهيَّةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُمْ: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ لم يُريدوا حقيقةَ الوَلَدِ، ولكنْ أرادوا مَنْزِلَةَ الوَلَدِ وكَرامَتَهُ، فهو أيضاً مَنْفِيٌّ عنهُ لأنَّ مَنْ لا يَحْتَمِلُ الحَقيقَةَ؛ أعني حَقيقَةَ الوَلَدِ، امْتَنَعَ عَنْ مَنْزِلَتِهِ وكَرامَتِهِ لأنَّ الحَقيقَةَ انْتَفَتْ لِعَيبٍ يدخُلُ فيهِ. فإذا ثَبَتَتْ لهُ مَنْزِلَةُ تلكَ الحَقيقَةِ والكرامةِ [دَخَلَتْ فيهِ عِنْدَئِذٍ][5] الحقيقَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ قيلَ: ما عندكُمْ مِنْ حُجَّةٍ على ما تقولونَ: إنَّ لهُ وَلَداً لأنهمْ كانوا أهلَ تَقْليدٍ لآبائِهِمْ وأسلافِهِمْ، وكانوا لا يؤمِنونَ بالرُّسُلِ والكُتُبِ والحُجَجِ. وإنما كانَ يُسْتَفادُ ذلكَ مِنْ جهةِ الرسالةِ والكتبِ، وهُمْ كانوا يُنْكِرونَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾/ ٢٣٢ ـ ب/ أي تَقولونَ على اللهِ: اتَّخَذَ الوَلَدَ ما تَعْلَمونَ أنهُ لم يَتَّخِذْ.

الآية ٦٩ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهمْ عَلِموا أنهُ لم يَتَّخِذْ ولداً، لكنْ مَنْ قالوا ذلكَ افْتِراءً على اللهِ ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ في الآخِرَةِ لِما طَمِعوا في الدنيا بِعبادَتِهِمْ دونَ اللهِ الأصنامَ بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ[7]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يَظْفَرونَ بما طَمِعوا في الآخِرَةِ.

الآية ٧٠ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ذلكَ لهمْ مَتاعٌ في الدنيا، ليسَ لهمْ مَتاعٌ في الآخِرَةِ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: والد. (٤) في الأصل وم: إحالته. (٥) في الأصل وم: دخل فيه عيبٌ. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما:][1] يخاطِبُ رسولَهُ بذلكَ، لم يُخاطِبْهُمْ: إلينا مَرْجِعُكُمْ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لَمّا اشتَدَّ على رسولِ اللهِ ما افتَرَوا بِهِ على اللهِ يقولُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فَنَجْزيهِمْ جزاءَ فِرْيَتِهِمْ.

والثاني: يقولُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ لا ما طَمِعوا مِنَ الشفاعَةِ عندَنا والزُّلْفى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خَبَرَهُ وحديثَهُ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: إنْ كانَ كَبُرَ عليكُمْ طُولُ مَقامي ومُكْثي فيكُمْ ودُعائي إياكُمْ إلى عِبادةِ اللهِ وإطاعَتِكُمْ[2] لهُ وتَذكيري إياكُمْ بآياتِهِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ بِعَذابِهِ بِتَرْكِكُم إجابَتي ودُعائي.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ بما أدْعو[3] مِنَ الرسالةِ ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بِحُجَجِ اللهِ على ما أدْعو[4] مِنَ الرسالةِ.

وقولُهُ[5] تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ فيه وجوهٌ:

أحدُها: اتْلُ مُنابَزَةَ نوحٍ قومَهُ وما أرادوا بِهِ مِنَ الكيدِ والمَكْرِ بِهِ،

والثاني: اذْكُرْ عَواقِبَ قومِ نوحٍ وما حلَّ بهِمْ مِنْ سُوءِ مُعامَلَتِهِمْ رسولَهُمْ.

والثالثُ: اذْكُرْ لهمْ عَواقِبَ[6] مُتَّبِعي قومِهِ ومُخالِفيهِ[7].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي اجْتَمِعوا أنتمْ وشركاؤُكُمْ، ثم كِيدوني ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي اجْعَلوا ما تُريدونَ مِنَ الكيدِ والمَكْرِ فيَّ ظاهراً غيرَ مُلْتَبِسٍ ولا مُشْتَبِهٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ أي أعِدُّوا أمْرَكُمْ، وادْعوا شُرَكاءَكُمْ. وكذلكَ رُوِيَ في حرفِ أُبَيٍّ [بْنِ كَعْبٍ][8] ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ وادْعوا شُرَكاءَكُمْ ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي اقْضوا ما أنتمْ قاضونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا يَكْبُرْ عليكُمْ أمْرُكُمْ. وقالَ الكِسائيُّ: هو مِنَ التغطيةِ واللُّبْسِ؛ أي لا تُغَطُّوهُ، ولا تُلْبِسوهُ، اجْعَلوا كلمتَكُمْ ظاهرةً واحدةً.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنه][9] قالَ: لا يكنْ أمْرُكُمُ اغْتِماماً عليكُمْ، أي فَرِّجوا عنْ أنفسِكُمْ كقولِهِ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية [الحج: ١٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي اعْمَلوا بي ما تريدونَ، ولا تُنْظِروني، وهو كقولِهِ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] وقالَ الكسائيُّ: هو الإنهاءُ والإبلاغُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [الإسراء: ٤] [وقولِهِ:][10] ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ [الحجر: ٦٦] [أي أنهينا إليهِ][11] وأبلَغْنا إليهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: إنْ شِئْتَ جعلْتَها ظُلْمَةً فلا يُبصِرونَ أمرَهُمْ؛ يَعْني غُمَّةً، وإنْ شِئْتَ جعلْتَها شَكًّا، واشْتِقاقُ الغُمَّةِ مِنْ غَمَّ يَغُمُّ غَمًّا أي غَطَّى يُغَطِّي، تقولُ: غَمَمْتُ رأسَهُ أي غَطَّيْتُهُ ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ أي افْعَلوا بي ما أرَدْتُمْ.

وفي قولِ نوحٍ لقومِهِ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ وقولِ هودٍ: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] وقولِ رسولِ اللهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] دلالةُ إثباتِ رسالتِهِمْ لأنهمْ قالوا ذلكَ لقومِهِمْ، وهُمْ بينَ أظْهُرِهِمْ، ولم يكُنْ معهُمْ أنصارٌ ولا أعوانٌ. دلَّ أنهمْ إنما قالوا ذلكَ اعْتِماداً على اللهِ واتِّكالاً [على معونَتِهِ][12] ونُصْرَتِهِ إياهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ أي فافْرَغوا إليَّ، أنْ يُقالَ: قَضى فَرَغَ، وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإطاعته. (٣) في الأصل وم: ادعى. (٤) في الأصل وم: ادعيت. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٧) في الأصل وم: ومخالفة. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: بمعونته.

[وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ:][1] ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ [الذاريات: ٢٦] وقولِهِ[2]: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] ونَحْوُهُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ التَّوَلِّي اسْمٌ لأمرَيْنِ: اسْمٌ للإعراضِ والإدبارِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥] واسْمٌ للإقبالِ والقَبولِ أيضاً كقولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية [المائدة: ٥٦] ونَحْوُهُ.

فَهَهُنا يَحْتَمِلُ [الأمرَيْنِ جميعاً:

أحدُهما][3]: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أقْبَلْتُمْ، وقَبِلْتُمْ ما أعْرِضُهُ عليكُمْ، وادعوكُمْ إليهِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

والثاني[4]: إنْ كانَ في الإعراضِ فكأنهُ يقولُ: كيفَ أعْرَضْتُمْ عنْ قبولِهِ، ولم أسألْكُمْ على ذلكَ أجراً، فيكونَ لكُمْ عذرٌ في الإعراضِ والرَّدِّ كقولِهِ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ الآية؟ [الطور: ٤٠] أي لم أسألْكُمْ [أجراً][5] على ما أعرِضُهُ عليكُمْ، وادعوكُمْ إليهِ حتى يَثْقُلَ عليكُمْ ذلكَ الغُرْمُ عنِ الإجابَةِ.

ففي هذهِ الآيةِ وغَيرِها دلالةُ مَنْعِ أخذِ الأجرِ على تَعليمِ القرآنِ والعِلْمِ لأنهُ لو جازَ أخْذُ الأجرةِ على ذلكَ لكانَ لهمْ عُذرٌ[6] ألّا يَبْذُلوا ذلكَ، ولا يَتَعَلَّموا شَيئاً مِنْ ذلكَ، وفي ذلكَ هَدْمُ شرائعِ اللهِ وإسقاطُها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي مُسْلِماً نفسي إلى اللهِ سالماً لا أجْعَلُ لأحدٍ سِواهُ فيها حَقًّا ولا حَظًّا، وأُمِرْتُ أنْ أكونَ مِنَ المُخْلِصينَ لِلّهِ والخاضِعينَ لهُ. يَحْتَمِلُ ذلكَ كُلَّهُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يَعْني نوحاً، كَذَّبَهُ قومُهُ في ما ادَّعى مِنَ الرسالةِ أو ما آتاهُمْ مِنَ الآياتِ أو ما أوعَدَهُمْ مِنَ العذابِ بِتَكذيبِهِمْ إيّاهُ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ يَعني نوحاً ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي مَنْ رَكِبَ مَعَهُ الفُلْكَ مِنَ المؤمنينَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي خَلَفَ قومٍ أُهْلِكوا، واسْتُؤْصِلوا بالتكذيبِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تَحْتَمِلُ الآياتُ الحُجَجَ والبراهينَ التي أقامَها على[8] ما ادّعوا على الرسالةِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العذابَ الذي أوعَدَهُمْ بِتكذيبِهِمْ إيّاهُ في ما وعَدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ كانَ إنذارَ الفريقَيْنِ جميعاً المؤمنَ والكافِرَ[9] كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] فإذا كانَ ما ذَكَرْنا فيكونُ تأويلُهُ: فانْظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ مَنْ أجابَ ومَنْ لم يُجِبْ؟ عاقبةُ مَنْ أجابَ الثوابُ وعاقبةُ مَنْ لم يُجِبِ العذابُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذينَ لم يَقْبَلُوا الإنذارَ، ولم يُجيبوا؛ أي انْظُرْ كيفَ كانَتْ عاقِبَتُهُمْ بالهلاكِ والاسْتِئصالِ، ويكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] أي إنما يَقْبَلُ الإنذارَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، أي إنما يَنْتَفِعُ بالإنذارِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ. وأمّا مَنْ لم يَتَّبِعِ الذِّكْرَ فلم[10] يَنْتَفِعْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾ أي مِنْ بَعْدِ نوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي بَعَثْنا إلى كلِّ قومٍ رسولاً [أي إنهُ بَعَثَ الرسُلَ إلى أقوامِهِمْ واحداً][11] على إثْرِ واحدٍ ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تَحْتَمِلُ البَيِّناتُ الحُجَجَ والبراهينَ التي أقاموها على ما ادَّعَوا على[12] الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، وتَحْتَمِلُ البَيِّناتُ بيانَ ما عليهِمْ أنْ يَأْتُوا ويَتَّقُوا، وتَحْتَمِلُ البَيِّناتُ [ما أخْبَروا، وأنْبَؤوا قومَهُمْ][13] بالعذابِ أنهُ نازلٌ بهِمْ في الدنيا.

---

(١) في الأصل وم: وبعضهم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أمرين جميعاً أي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عذراً. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: من. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: جميعاً. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: إلا أنه بعث الرسول إلى قومهم ولكن واحداً، في م: إلا أنه بعث الرسل قومهم ولكن واحد. (١٢) في الأصل وم: من. (١٣) في الأصل: بما أخبروا وأبناؤهم معهم، في م: بما أخبروهم وأنبأوا قومهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما كانَ كُفّارُ مكّةَ لِيُؤْمِنُوا ولِيُصَدِّقوا بالبَيِّناتِ كما لم يُصَدِّقْ بها[1] أوائِلُهُمْ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ بَعْثُ الرسُلِ. ففيهِ دلالةٌ أنَّ أهلَ الفَتْرَةِ يُؤاخَذونَ بالتكذيبِ في حالِ الفَتْرَةِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ إتيانَ البَيِّناتِ؛ أي ما كانوا يؤمنونَ بَعْدَ ما جاؤوهُمْ[2] بالبَيِّناتِ بما كَذَّبوا بِهِ مِنْ قَبْلِ مجيءِ البَيِّناتِ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي هكذا نَطْبَعُ على قُلوبِ أهلِ مكّةَ كما طَبَعْنا على قلوبِ أوائِلِهِمْ؛ عَلِمَ أنهُمْ لا يَقْبَلونَ الآياتِ، ولا يؤمِنونَ بها. والاعتداءُ هو الظلمُ معَ العِنادِ والمُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا/ ٢٣٣ ـ أ/ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ هو يُخرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بالبَيِّناتِ إذا جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ على السؤالِ. وهكذا عادتُهُمْ أنهمْ لا يؤمنونَ بالآياتِ إذا أتَتْهُمْ[4] على السؤالِ.

والثاني: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾ على عِلْمٍ منهُمْ أنها آياتٌ وأنهُ رسولٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أي مِنْ بَعْدِ ما ذَكَرْنا مِنَ الرسُلِ ﴿مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ بَعَثَهما إلى المَلإِ وغَيرِ المَلإِ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يَحتَمِلُ الوجوهَ التي ذَكَرْنا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ هذا يدلُّ أنهُمْ قد عَرَفوا أنَّ ما جاءَهُمْ الرسولُ مِنَ الآياتِ أنها آياتٌ، لكنهُمْ عانَدوا، وكابَروا، ولم يَخضَعوا في قَبولِها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أيِ الحُجَجُ والآياتُ ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا﴾ يَعنونَ الحُجَجَ والبراهينَ التي [جاءَهُمْ بها][5] موسى ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يُسَمّونَ الحُجَجَ والبراهينَ سِحراً لِما أنَّ السِّحْرَ عندَهُمْ باطلٌ، لذلكَ قالوا [عنِ الحُجَجِ][6]: إنها سِحْرٌ، وذلكَ تَمويهٌ منهُمْ، يُمَوِّهونَ على الناسِ لئلا يَظْهَرَ الحقُّ عندَهُمْ، فيَتّبِعوهُ[7].

وقالَ بعضُهُمْ: الحقُّ هو الإسلامُ والدينُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يَعْنونَ الحُجَجَ والآياتِ التي [جاءَهُمْ بها للدينِ لأنهُ جاءَ بالدينِ][8] وجاءَهُمْ أيضاً بِحُجَجِ الدينِ وآياتِهِ، قالوا [عنْ حُجَجِ][9] الدينِ والإسلامِ: [إنها سِحْرٌ][10]. ففي التأويلَينِ جميعاً سَمَّوُا الحُجَجَ سِحراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي بأمْرِنا، وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] أي الإسلامُ هو الدينُ الذي أمَرَ اللهُ بهِ لا أنهُ يُفْهَمُ لِلْعِنْدِ مَكانٌ، [يَنْتَقِلُ مِنْ مَكانٍ][11] إلى مَكانٍ. ولكنْ مَعْنى العِنْدِ مَعْنى الأمْرِ. وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يَعْني الملائكةَ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] أي إنَّ الذينَ بأمرِ ربِّكَ يَعْبُدونَهُ، ولا يَستَكْبِرونَ عن عبادتِهِ لِما أنهُ لم يُفْهَمْ مِنْ مَجيءِ الحقِّ مِنْ عندِهِ مَكانٌ. فَعَلى ذلكَ لا يجوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] المَكانُ [أو قُرْبُ][12] المكانِ منهُ. ولكنَّ التأويلَ ما ذَكَرْنا أنَّ المَفْهومَ مِنَ عندِ اللهِ أمْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ والحقُّ ما ذَكَرْنا ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ الإفلاحُ هو الظَّفَرُ بالحاجَةِ. يقولُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أي لا يَظْفَرونَ بالحاجةِ، ولا يَغْلِبونَ[13] لأنَّ السِّحْرَ باطلٌ، ولا يَغْلِبُ الباطلُ، بلِ الحَقُّ هو الغالبُ، والسِّحْرُ هو المَغْلوبُ على ما غَلَبَ الحقُّ الذي جاءَ بِهِ موسى السِّحْرَ الذي جاءَ [بِهِ][14]

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) في الأصل وم: جاؤوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أتاهم. (٥) في الأصل وم: جاء بهم.
(٦) في الأصل وم: للحجج. (٧) في الأصل وم: فيتبعونه. (٨) في م: جاء بها للدين. (٩) في الأصل وم: لحجج. (١٠) في الأصل وم: سحراً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: أقرب. (١٣) في الأصل وم: يغلب. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

سَحَرَةُ فِرْعَونَ. أو يقولُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في الآخِرَةِ بِسِحْرِهِمْ في الدنيا، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ بِسِحْرِهِمْ في حالِ سِحْرِهِمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١و..] وقولِهِ[1] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧و...] أي لا يُفْلِحونَ بِظُلْمِهِمْ في حالِ ظُلْمِهِمْ. وأمّا إذا تَرَكوا الظلْمَ فقد أفْلَحوا. فَعَلى ذلكَ السَّحَرَةُ إذا تَرَكوا السِّحْرَ فقد أفْلَحوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ قيلَ: لِتَصْرِفَنا، وتَصُدَّنا. قالَ القُتَبِيُّ: لَفَتُّ فلاناً عنْ كذا إذا صَرَفْتُهُ، والالْتِفاتُ منهُ، وهو الانْصِرافُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ لِتَرُدَّنا، وتَصْرِفَنا على ما قالَ القُتَبِيُّ: يُقالُ: لَفَتَهُ تَلْفِتُهُ لَفْتاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ منْ عِبادةِ الأصنامِ والأوثانِ. ويَحْتَمِلُ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ مِنْ عِبادةِ فِرْعَونَ والطاعةِ لهُ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: الكِبْرياءُ المُلْكُ والسلطانُ والشَّرَفُ، أيِ المُلْكُ الذي كانَ لِفِرْعَونَ والسلطانُ يكونُ لكما باتّباعِ الناسِ لكما لأنَّ كلَّ مَتْبوعٍ مُطاعٌ مُعَظَّمٌ مُشَرَّفٌ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الألوهِيَّةُ التي [كانَ يَدَّعيها][2] فِرْعَونُ لِنَفْسِهِ لكما لأنَّ عندَهُمْ أنَّ كُلَّ مَنْ أُطيعَ، واتُّبِعَ، فقد عُبِدَ، ونُصِّبَ إلهاً ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بِمُصَدِّقينَ في ما تَدْعُوانِنا[3] مِنَ الرسالةِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ هذا مِنْ فِرْعَونَ يَنْقُضُ ما ادَّعى مِنَ الألوهِيَّةِ لِما[4] أظهَرَ الحاجةَ إلى غيرِهِ[5]، ولا يجوزُ أنْ يكونَ المُحتاجُ إلهاً.

الآيتان ٨٠ و٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي سَيُبْطِلُ عَمَلَ السِّحْرِ الذي قَصَدوا بهِ؛ أي يَجْعَلُهُ[6] مَغْلوباً كقولِهِ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧] ولا يظْفَرونَ بالحاجةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا، أي لا يَجْعَلُهُمْ بأعمالِهِمُ الفاسِدَةِ صالحينَ، أو لا يَجْعَلُ أعمالَهُمُ الفاسِدَةَ صالِحَةً. وقالَ بعضُهُمْ ﴿لَا يُصْلِحُ﴾ أي لا يَرْضى بِعَمَلِ المُفْسِدينَ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذَكَرَ أنهُ[7] يُحِقُّ الحقَّ، والحَقُّ حقٌّ، وإنْ لم يَحِقَّ الحَقُّ، وذَكَرَ ذلكَ في الباطِلِ لِيُبْطِلَ الباطلَ، والباطلُ باطلٌ، وإنْ لم يَبْطُلْ، ولكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] [أي لِيَجعلَ الحقَّ][8] في الابْتِداءِ حقّاً، ويَجْعَلَ الباطِلَ في الابْتِداءِ باطلاً، فيكونُ باطلاً بإبطالِهِ الباطِلَ[9].

وبِتَحقيقِهِ الحقَّ يكونُ حقّاً، ويُقالُ[10]: هَداهُ، فاهْتَدى، وأضَلَّهُ، فَضَلَّ؛ أي بِهِدايَتِهِ اهْتَدى، وبإضلالِهِ ضَلَّ. فَعَلى ذلكَ بإبطالِهِ الباطِلَ بَطَلَ، وبِتَحقيقِهِ الحَقَّ حَقَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ[11] ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما وَعَدَ موسى قومَهُ مِنَ العذابِ وما وَعَدَ مِنَ النعمةِ لهمْ كقولِهِ: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ مِنْ قومِ موسى لِما قيلَ: إنَّ موسى كانَ مِنْ أولادِ إسرائيلَ، فَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ. مِنْ هذا الوجهِ يُقالُ: أهلُ بَيْتِ فلانٍ، وإنْ لم يكنِ البيتُ لهُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ مِنْ قومِ فِرْعَونَ، فهو نُسِبَ إليهِ لِما ذَكَرْنا.

وقالَ أهلُ التأويلِ: أرادَ بالذُّرِّيَّةِ القليلَ منهُمْ؛ أي ما آمَنَ منهُمْ إلّا القليلُ، ولكنْ لا ندري ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ مَنْ آمَنَ ﴿مِّن

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: كانت يدعي. (٣) في الأصل: تدعون، في م: تدعوننا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: غير. (٦) في الأصل وم: يجعلوه. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: يكون باطلاً. (١٠) في الأصل وم: وهو يقال. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: يحتمل وجوهاً.

قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي آمنوا، وإنْ خافوا مِنْ فِرْعَونَ وملئِهِمْ. ويَحْتَمِلُ ما تَرَكَ مِنْ قومِهِ الإيمانَ بموسى مَنْ تَرَكَ إلّا على خوفٍ مِنْ فِرْعَونَ ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي يَقْتُلَهُمْ، ويُعَذِّبَهُمْ.

ففيهِ دلالةٌ أنَّ الخوفَ لا يُعْذِرُ المَرْءَ في تركِ الإيمانِ حقيقةً، وإنْ كانَ يُعْذِرُ في تَرْكِ إظهارِهِ لأنَّ التَّصْديقَ يكونُ بالقَلْبِ، ولا أحَدَ مِنَ الخلائِقِ يَطَّلِعُ على ذلكَ. لِذلكَ لم يُعْذَرْ في تَرْكِ إيمانِهِ[1] لأنهُ يَقْدِرُ على إسرارِهِ. ألَا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾؟ [غافر: ٢٨] كانَ مؤمناً في ما بَينَهُ [وبَينَ][2] ربِّهِ، ولكنْ[3] لم يظهِرْ [إيمانَهُ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما قالَ ﷻ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي قَهَرَ، وغَلَبَ على أهلِ الأرضِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ في الحَقيقةِ لأنهُ بَدَأ بالإيمانِ بقولِهِ [﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ وختَمَ بالإسلامِ بقولِهِ][5] ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ دلَّ أنهما واحدٌ.

فالإيمانُ[6] اعْتِقادٌ وتَرْكُ[7] تَضْييعِ كلِّ حقٍّ، والإسلامُ اعْتِقادُ كلِّ حقٍّ وتَرْكُ تَضْييعِهِ، واللهُ أعلَمُ. والإسلامُ هو جَعْلُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ في ما فيها مِنَ الشهادةِ لِلهِ بالرُّبوبيَّةِ لهُ والألوهيَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما[8]: أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لمّا خافوا مَواعيدَ فِرْعَونَ وعُقوباتِهِ كقولِهِ لِلسَّحَرَةِ لمّا آمنوا ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ الآيةِ [الأعراف: ١٢٤] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ في دَفْعِ ذلكَ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية ٨٥]

[والثاني: ما قالَ][9] ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ لما[10] قيلَ: / ٢٣٣ ـ ب/ يَقْتُلُهُمْ[11]، ويُعَذِّبُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾][12] هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي لا تَجْعَلْ لهمْ علينا الظَّفَرَ والنَّصْرَ فَيَظُنوا[13] أنهمْ على هُدىً وعلى حقٍّ[14]، ونحنُ على ضَلالٍ وباطِلٍ.

والثاني: لا تَجْعَلْنا تحتَ أيدي الظَّلَمَةِ فَيُعَذِّبونا، فيكونَ ذلكَ فتنةً لنا ومِحْنَةً على ما فَعَلَ فِرْعَونُ بالسَّحَرَةِ لمّا آمنوا.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [أي ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهما][15] واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ الآيةَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي اتَّخِذا لِقومِكُما مَساجِدَ تُصَلّونَ فيها ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ﴾ أي اجْعَلوا في بيوتِكُمُ التي [اتَّخَذْتُموها مساجِدَ ﴿قِبْلَةً﴾ فيكونُ قولُهُ][16]: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [الأمرَ باتّخاذِ المساجِدِ، ويكونُ في قولِهِ ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ الأمرُ باتّخاذِ القِبْلَةِ في المساجِدِ التي أمَرَ بِبِنائها.

والثاني: [يَحْتَمِلُ][17] قولُهُ: [﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾][18] أي اتَّخِذا لِقومِكُما بِمِصْرَ مَساجِدَ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: إتيانه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وإن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: هو. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يحتمل. (٩) في الأصل: يحتمل ما قالوا. (١٠) في الأصل وم: ما. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: إن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيظنون. (١٤) في الأصل وم: خوف. (١٥) في الأصل وم: فيه قوله ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. (١٦) في الأصل وم: اتخذتم المساجد قبلة. (١٧) ساقطة من الأصل. (١٨) ساقطة من م.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعَلوا بيوتَكُم التي بَنَيْتُم لأنفُسِكُمْ قِبْلَةً تتوجَّهونَ إليها. ويكونُ فيهِ دلالةُ أنَّ نَصْبَ الجماعةِ واتِّخاذَ المَساجِدِ والقِبْلَةِ مُتوارثةٌ لَيسَتْ بِبَديعةٍ لنا وفي شَريعَتنا خاصَّةً، ويُؤيِّدُ ما ذَكَرْنا أنَّ فيهِ الأمرَ باتِّخاذِ المساجِدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دلَّ الأمرُ بإقامةِ الصلاةِ على أنَّ الأمرَ بِتَبوئَةِ البيوتِ أمرٌ باتِّخاذِ المساجِدِ، والآيةُ التي ذَكَرَ فيها اتِّخاذَ المَساجِدِ تُخرَّجُ مُخرَجَ الإباحةِ لنا، وهو قولُهُ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦] هو في الظاهرِ إباحةٌ، وقيلَ[1]: هو أمرٌ في الحقيقةِ، وإنْ كانَ في الظاهرِ إباحةً. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾الآيةَ؟ [النور: ٣٦] ولا شَكَّ أنَّ ذِكْرَ اسْمِهِ والتسبيحَ لهُ أمرٌ فيهِ، دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا أهلُ التأويلِ فإنهُمْ قالوا: إنهمْ كانوا يَخافونَ فِرعَونَ ومَلأَهُ، فأُمِروا أنْ يَجْعَلوا في بيوتِهِمْ مَساجِدَ مُسْتَقْبِلَةَ الكعبةَ، يُصَلّونَ فيها سِرّاً خَوفاً مِنْ فِرعَونَ، هذا يَحتَمِلُ إذا كانَ قَبْلَ هَلاكِ فِرعَونَ وقَبْلَ أنْ يَسْتَولوا على مصرَ. وإذا كانَ بَعْدَ هلاكِهِ وبَعْدَ ما اسْتَولَوا، ومَلَكُوا، على مَصْرَ وأهلِهِ فالأمرُ فيهِ ما ذَكَرْنا أمرٌ باتِّخاذِ المساجِدِ ونَصْبِ الجماعاتِ فيهِ وإقامةِ الصلاةِ فيها.

وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: وجِّهوا بيوتَكُمْ ومَساجِدَكُمْ نَحوَ القِبْلَةِ. لكنَّ هذا بَعيدٌ لأنهُ لا يكونُ بيتاً إلّا وتكونُ جهةٌ مِنْ جِهاتِهِ إلى القِبْلَةِ، فلا مَعْنىً لهُ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

ويَحتَمِلُ الأمرُ بِتَبوئَةِ البيوتِ لِقومِهما بِمِصْرَ وجَعْلِ البيوتِ قِبْلَةً وجهَينِ:

أحدُهما: الأمرُ بالإنفِصالِ مِنْ فِرعَونَ وقومِهِ حتى إذا أرادوا الخروجَ مِنْ عندِهِمْ قَدَروا على ذلكَ، ولا يكونُ المرورُ عليهِمْ. وكانَ ذلكَ الإنفِصالُ؛ إنما كانَ مِنْ جهةِ القِبْلَةِ.

والثاني: ما ذَكَرَ [أنهم][2] أرادوا أنْ يَعْتَزِلوهُمْ حتى يَتَهَيَّأَ لهمُ الصلاةُ فيها، وكانت[3] لا تَتَهَيَّأُ لهمْ في بيوتِ فِرعَونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحتَمِلُ البِشارةَ في الآخرةِ [بالجنةِ][4] وأنواعِ النِّعَمِ، ويَحتَمِلُ أنْ يُبَشِّرَهُمْ بالملكِ في الدنيا والظَّفَرِ على فِرعَونَ وأنواعِ النِّعَمِ بعدَ ما أصابَتْهُمُ[5] الشدائدُ مِنْ فِرعَونَ كقولِهِ: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ تُهَيِّئا مِنَ التَّهيئةِ؛ أي هَيِّئا لهمْ مَوضِعاً كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣] أي هَيَّأنا لهمْ مُهَيَّأً صِدْقٍ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿زِينَةً﴾ مِنْ أنواعِ ما آتاهُمْ مِنَ الأنزالِ والنباتِ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] ونَحوَهُ. ويَحتَمِلُ الزينةَ التي كانوا يَتَزَيَّنونَ بها مِنَ المراكبِ والمَلْبَسِ وما يَتَحَلَّونَ بِها مِنْ أنواعِ الحُلِيِّ وأموالٍ كثيرةٍ سِوى ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ قالتِ المُعتَزِلةُ: تأويلُ قولِهِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي آتاهُمْ لئلا يُضِلّوا الناسَ عنْ سَبيلِهِ، ولكنْ أضَلّوهُمْ، وقالوا: هذا كما يُقالُ: لم يَكُ هذا كذا [لِتَفعَلَ كذا][6]، ولكنْ فَعَلْتَ، ونَحوُهُ مِنَ الكلامِ.

ولكنْ عندَنا هو ما ذَكَرْنا: هي[7] الأموالُ، وما ذَكَرَ: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ لأنه إذا عَلِمَ أنهمْ يُضِلّونَ الناسَ عنْ سبيلِهِ ما آتاهُمْ لِيُضِلّوا، وهو كما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقولِهِ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآيةَ [المؤمنون: ٥٦] وأمثالُهُ كذا[8]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قيل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وكان. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أصابوا.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: هم. (٨) في الأصل وم: فكذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما[1]: أي ﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ واجْعَلْ في قلوبِهِمْ قَساوةً وغِلْظَةً، تنفِرُ الأتباعَ ومَنْ يُقَلِّدُ مِنَ اتباعِهِمْ[2] فيكونَ ذلكَ أهونَ علينا في اسْتِنْقاذِ الأتباعِ وأدْعَى لهمْ إلى الإيمانِ؛ أعني بالأتباعِ[3] مَنْ يُقَلِّدُهُمْ، ويكونُ ذلكَ سبباً لإبعادِهِمْ عنْ أتباعِهِمْ وتقليدِهِمْ إياهُمْ، هذا وجهٌ.

والثاني: قولُهُ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجْعَلْ ذلكَ آيةً تَضْطَرُّهُمْ إلى الإيمانِ، فإنهمْ لم يُؤمِنوا بالآياتِ التي أرسلَها عليهِمْ مِنَ الطوفانِ والجَرادِ وما ذَكَرَ مِنَ البلايا. فيكونُ قولُهُ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هذا مِنْ طَمْسِ الأموالِ وقَساوةِ القلوبِ وشِدَّتِها، واللهُ أعلَمُ.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ واطْبَعْها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهو الغَرَقُ، عند ذلكَ يؤمنونَ. أمّا بهذِهِ الآياتِ فلا يَحْتَمِلُ إذا كانَ ﷺ أخبَرَ أنهمْ لا يؤمِنونَ، فَيَسَعُ لهُ هذا الدعاءُ. وأمّا ما قَبْلَ أنْ يُخبِرَهُ بذلكَ فلا يَسَعُ لهُ أنْ يَدْعُوَ بهذا، وهو إنما أرسلَهُ عليهِمْ لِيَدْعُوَهُمْ إلى الإيمانِ.

والطَّمْسُ: قالَ أبو عوسَجَةَ: هو الذهابُ بها، أي اذْهَبْ بها. قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أهْلِكْها، وهو مِنْ قولِكَ: طَمَسَ الطريقُ؛ إذا عَفا، ودَرَسَ. وقالَ غيرُهُ: الطَّمْسُ هو المَسْخُ، وهو[4] كقولِهِ ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] أي مَسَخْناهُمْ، وقالَ بعضُهُمْ: الطَّمْسُ هو التَّغْيِيرُ عَنْ جَوهَرِها. دعا موسى بهذا الدعاءِ بالأمرِ [وهو][5] آيِسٌ مِنْ إيمانِهِمْ، وهو كقولِ نوحٍ: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ الآيةَ [نوح: ٢٦و٢٧] عندَ الإياسِ منهُمْ. فَعَلَى ذلكَ موسى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى كانَ يَدْعو، وهارونُ يُؤَمِّنُ على دعائِهِ، فقالَ اللهُ ﷻ ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ سَمَّى كلامَهُما[6] دعاءً. ولهذا قالَ محمدُ بْنُ الحَسَنِ، رحِمَهُ اللهُ، في بعضِ كتبِهِ: إنَّ الإمامَ يدعو في القنوتِ في الوِتْرِ، والقَومُ يُؤَمِّنونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على الرسالةِ وما أمَرْتُكُما بهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهو كقولِهِ لمحمدٍ ﷺ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] ونحوَهُ. وإنْ كانَ العِلْمُ مُحيطاً أنَّ الأنبياءَ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، لا يَتَّبِعونَ سبيلَ أولئكَ، ولا يَتَّبِعونَ أهواءَهُمْ لِما عَصَمَهُمْ ﷻ ولكنْ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِيُعْلِمَ أنَّ العِصْمَةَ لا تُزيلُ النَّهْيَ والأمرَ، بل تَزيدُ حَظْراً ونَهْياً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ هذا ظاهرٌ. وفي قولِهِ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العبادِ لأنهُ أضافَ إلى نَفْسِهِ؛ جاوَزَ بِهِمْ، وبَنو إسرائيلَ هُمُ الذينَ تَجاوَزوا. دلَّ ذلكَ أنهُ خالقُ فِعْلِهِمْ.

وأما قولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي حتى إذا غَرِقَ لأنهُ ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنَّ فِرعَونَ لمّا ساحَلَ البَحْرَ، فرأى البحرَ مُنْفَرِجاً، قالَ[7]: إنما انْفَرَجَ/ ٢٣٤ ـ أ/ البحرُ لي، فلمّا دَخَلَ غَرِقَ، فَعِنْدَ ذلكَ قالَ غريقاً ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ثم إيمانُهُ لم يُقْبَلْ في ذلك الوقتِ لِوجهَينِ:

أحَدُهما: لِما يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ إيمانُهُ عندَ رُؤيَةِ البَأسِ وخَوفِ الهلاكِ، فهو إيمانُ دفعِ البَأسِ لا إيمانُ حقيقةٍ، وهو على ما أخْبَرَ عنْ إيمانِ الكَفَرَةِ في الآخِرَةِ لمّا عايَنوا العذابَ كقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وكقولِهِ ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩و١٠٠] وكقولِهِمْ ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وكقولِهِمْ:

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وتقليدهم. (٣) الباء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كلهما. (٧) في الأصل وم: فقال.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] وأمثالُهُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] فما عايَنوا هُمْ مِنَ العذابِ أكبرُ وأشدُّ ممّا عايَنَ فرعَونُ.

ثم أخبَرَ أنهُمْ ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ إلى ما كانوا يَعْمَلونَ، لكنهُمْ قالوا ذلكَ قولَ دفعٍ. فَعَلى ذلكَ إيمانُ فِرْعَونَ إيمانُ دفعِ البَأسِ عنْ نَفْسِهِ لا إيمانُ حقيقةٍ واختيارٍ.

والثاني: إنَّ الإيمانَ والإسلامَ هو تسليمُ النَّفسِ إلى اللهِ، فإذا آمَنَ في وقتٍ خَرَجَتْ نَفْسُهُ مِنْ يدِهِ لم يَصِرْ مُسْلِماً نفسَهُ إلى اللهِ؛ إذْ نفسُهُ ليسَتْ في يدِهِ، ولذلكَ لم يُقْبَلِ الإيمانُ في ذلكَ الوقتِ وقتِ الإشرافِ على الهلاكِ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنَّ الإيمانَ باللهِ لا يكونُ بالإسْتِدْلالِ بالشاهدِ على الغائبِ في ذلكَ الوقتِ؛ إذْ لا يكونُ ذلكَ إلّا بالنَّظَرِ والتَّفكُّرِ، وفي ذلكَ الوقتِ لا يمكنُ النَّظَرُ والتَّفكُّرُ. لِذلكَ لم يكنْ إيمانَ حقيقةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩١ و٩٢ [وقولُهُ تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾][1] وقولُهُ[2] تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قيلَ [فيهِ بوجوهٍ:

أحدُها][3]: قولُهُ: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ مِنَ النَّجْوَةِ، أي نُلْقيكَ على النَّجْوَةِ، وهو مكانُ الإرْتِفاعِ والإشرافِ لِيراهُ كلُّ أحدٍ أنهُ هَلَكَ لِيُظْهِرَ لهمْ أنهُ لم يكنْ إلهاً على ما ادَّعى، وأنَّ[4] سائرَ أبدانِ قومِهِ لم تُلْقَ على النَّجْوَةِ، ولكنْ بَقِيَتْ في البَحْرِ.

والثاني: قولُهُ[5]: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أي نُخْرِجُكَ مِنَ البحرِ، لا نَتْرُكُكَ فيهِ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

والثالثُ: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ ولا نُتْبِعُ بدَنَكَ روحَكَ لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ لمّا [غَرِقوا هَوَوا][6] إلى النارِ كقولِهِ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ إنهُ أخبَرَ [أنهُ][7] لم يَهْوِ جَسَدُهُ بروحِهِ إلى النارِ، ولكنْ أُخرِجَ بَدَنُهُ[8]، وهَوَتْ روحُهُ إلى النارِ مَعَ سائرِ قومِهِ، واللهُ أعلَمُ، لِيُرى جَسَدُهُ، ويَظْهَرَ كَذِبُهُ، ولا يُشْتَبَهَ أمْرُهُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ ليكونَ هلاكُكَ آيةً، فلا يَدَّعِيَ أحدٌ الرُّبوبيَّةَ والألوهيَّةَ مثلَ ما ادَّعى هو، أو يقولُ: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي مَنْ شاهدَكَ كذلكَ غريقاً مُلْقًى كانَ آيةً لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: يعني أهلَ مكةَ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ عنْ هلاكِ فِرعَونَ، وقومُهُ لِما قالوا ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبإ: ٤٣] يقولُ: همْ غافلونَ عمّا أصابَ أُولئِكَ؛ إذْ مثلُ هذا لا يُفْتَرى، أعني هذِهِ القصصَ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي كثيراً منهُمْ كانوا غافلينَ عمّا أصابَهُمْ. والغَفْلَةُ تكونُ على وجهَينِ:

أحدُهما: غَفْلَةُ إعراضٍ وعِنادٍ بَعْدَ العِلْمِ ومعرفةِ أنَّ ذلكَ حقٌّ.

والثاني: [غَفْلَةُ تَرْكِ][9] النظرِ والتَّفكُّرِ، فكلا الوجهَينِ مذمومٌ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: بَوَّأْنا: أنزلْنا بَني إسرائيلَ مَنْزِلَ صِدْقٍ. وقالَ بعضُهُمْ: بَوَّأْنا: هَيَّأْنا لِبني إسرائيلَ ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ مُهَيَّأً صِدْقٍ حَسَناً كقولِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٢١] أي تُهَيِّئُ لِلمؤمنينَ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي مَكَّنّاهُمْ تمكينَ صِدْقٍ، وهو كقولِهِ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [القصص: ٥و٦] يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ التَّبوئَةِ التَّمَكُّنَ الذي ذَكَرَ في هذِهِ الآيةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: و أما قوله. (٣) في الأصل وم: بوجوه. (٤) في الأصل وم: وأما. (٥) في الأصل وم: قيل. (٦) في الأصل: هووا غرقوا، في م: هم واغرقوا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بدونه. (٩) في الأصل وم: يغفل بترك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنْزِلَ صِدْقٍ أي كريمٍ، وقالَ: مَنْزِلَ صِدْقٍ: أي حُسْنٍ، ويَحْتَمِلُ وجهَينِ آخرينِ.

أحدُهما: أنهُ وَعَدَ لهمْ أنْ يُمكِّنَ لهمْ في الأرضِ، فأنجزَ ذلكَ الوعدَ، فهو مُبَوَّأُ صِدْقٍ أي مُمَكَّنُ[1] صِدْقٍ حينَ[2] أنجزَ ذلكَ الوعدَ، وصَدَّقَ الوعدُ ما ذَكَرَ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧]

والثاني: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي مُبَوَّأَ أهلِ صِدْقٍ لأنَّ الشامَ كانَ لم يَزَلْ مَنْزِلَ أهلِ صِدْقٍ، وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الآية [الإسراء: ٨٠] أي أخرِجني مُخْرَجَ أهلِ صِدْقٍ، وادخِلْني مُدْخَلَ أهلِ صدقٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يعني المَنَّ والسَّلْوى، ولكنَّ الطَّيِّباتِ هي التي طابَتْ بها الأنفُسُ ممّا حلَّ بالشَّرْعِ ممّا لا تَبِعَةَ على أربابها ممّا لم يُعْصَ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي فما اختلَفوا في الدينِ إلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ أنهُ حقٌّ، وقيلَ: فما اختَلفوا في محمدٍ في أنهُ رسولُ اللهِ إلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ أنهُ رسولُ اللهِ، وقيلَ: فما اختَلفوا في القرآنِ والآياتِ التي أنزَلَها على رسولِهِ إلّا منْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ أنهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في موسى أنهُ رسولُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الآيةُ ظاهرةٌ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْتُ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: الجزاءُ والثوابُ، والثاني: في تَبْيِينِ المُحِقِّ والمُبْطِلِ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخطابُ بِهِ والمُرادُ بهِ رسولُ اللهِ: إنْ كُنْتَ في شَكٍّ ممّا أخبَرْتَهُمْ، وأنبأتَهُم. فَمَنْ قالَ: الخِطابُ لرسولِ اللهِ والمُرادُ بهِ غَيرُهُ، فهو[4] ما ظَهَرَ في الناسِ [أنهُ يُخاطِبُ][5] مَنْ هو أعظمُ مَنْزِلَةً عندَهُمْ وقدْراً، ويُرِيدُ[6] بِهِ غَيرَهُ، وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ يَشُكُّ في ما أُنْزِلَ إليهِ قَطُّ، أو يَرْتابُ، كقولِهِ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣] ومعلومٌ أنهُ في وقتِ ما خاطبَ بهِ لم يكُنْ أبواهُ حَيَّينِ[7]. دلَّ أنهُ أرادَ بهِ غَيرَهُ.

فَعَلى ذلكَ الأوّلُ. ومَنْ قالَ: الخِطابُ والمُرادُ بهِ مَنْ حَضَرَ رسولَ اللهِ يَقولُ: إنَّ الوفودَ مِنَ الكَفَرَةِ كانوا يَتَقَدَّمونَ مِنْ رسولِ اللهِ، فيَسألونَهُ شيئاً، فيخاطبُ الذي[8] يَتَقَدَّمُ، وكانَ يَحْضُرُهُ الوفدُ والجماعةُ، يقولُ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ على هذا التأويلِ هو مُنْزَلٌ إليهِ؛ إذْ كلُّ مُنْزَلٍ على رسولِ اللهِ [هو مُنْزَلٌ][9] عليهِ وإليهِ وإلى كلِّ أحدٍ لِقولِهِ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] أمَرَ باتِّباعِ ما أُنْزِلَ إليهِمْ. دلَّ أنَّ كلَّ مُنْزَلٍ على رسولِ اللهِ مُنْزَلٌ[10] عليهِمْ.

ومَنْ قالَ: الخطابُ لرسولِ اللهِ، والمرادُ بهِ غَيرُهُ لِما[11] لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ يَشُكُّ في شَيءٍ ممّا أُنْزِلَ إليهِ، ولكنهُ يريدُ بِهِ التقريرَ عندَهُ[12] لِقولِ الكفارِ: الذي يُلْقِي على محمدٍ شيطانٌ، فيريدُ بِهِ التقريرَ عندَهُ، أو يُخاطبُ بهِ كلَّ شاكٍّ كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] هو يخاطبُ إنساناً، ولكنَّ المُرادَ منهُ كلُّ إنسانٍ/ ٢٣٤ ـ ب/ مَغرورٍ وكلُّ كافرٍ، وذلكَ جائزٌ في القرآنِ، كثيرٌ أنْ يُخاطِبَ كُلّاً في نَفْسِهِ.

---

(١) في الأصل وم: تمكين. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ذكر. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: أنهم مخاطبون. (٦) في الأصل وم: ويريدون. (٧) في الأصل وم: أحياء. (٨) في الأصل وم: الذين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: نزل. (١١) في الأصل: ما، في م: مما. (١٢) من م، في الأصل: عنه.

ومَنْ قالَ: خاطبَ بهِ رسولَهُ، وأرادَهُ أيضاً، وهو كانَ في الابْتِداءِ على غيرِ يقينٍ أنهُ يُوحَى إليهِ أو لا كقولِهِ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] فقالَ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الأنباء التي أخبَرْتَهُمْ، وأنبأتَهُمْ، وادَّعيتَ أنها أُوحِيَتْ إليكَ [يُخبِروكَ أنها على ما أخبَرْتَهُمْ][1].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾قالَ بعضُهُمْ: فاسأَلْ أهلَ الكتابِ منهمْ [يخبِروكَ أنهُ][2] مكتوبٌ عندَهُمْ كقولِهِ: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ قيلَ: الحقُّ: القرآنُ، جاءَ مِنْ ربِّكَ، وقيلَ: جاءَ البيانُ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكِّينَ.

الآية ٩٥ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ يريدُ بالخِطابِ غيرَهُ، وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ مِنَ الشاكِّينَ أو يكونَ مِنَ الذينَ يُكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ أو يكونَ مِنَ الخاسِرينَ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قولُهُ: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قولُهُ ﷻ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩و...] هذا يكونُ في الخَتْمِ: مَنْ يَخْتِمُ بهِ؛ يعني بالكُفرِ، فقد حقَّتْ [عليهِ][4] كلمةُ ربكَ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أو ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٧] وكلمةُ ربِّكَ ما ذَكَرَ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي عِلْمُ ربِّكَ بأحوالِهِمْ، أي مَنْ كانَ عَلِمَهُ أنهُ لا يؤمِنُ وقتَ اختيارِهِ الكُفرَ كقولِهِ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وقتَ اختيارِهِ الكُفرَ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقتَ اختيارِهِ الظلمَ ونحوُ ذلكَ.

فالتأويلُ الأوَّلُ: يرجِعُ إلى الخَتْمِ بهِ، والثاني: إلى وقتِ مَنْ يَثْبُتُ عليهِ عِلْمُ ربِّهِ أنهُ لا يؤمِنُ في ذلكَ الوقتِ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾قيلَ: في الدنيا إيمانُ دفعِ العذابِ، ويَحْتَمِلُ: في الآخِرَةِ[5]، وقد ذكَرْنا هذا.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ الآيةَ؛ أي لم تكُنِ القُرَى آمنتْ عندَ مُعايَنَةِ البأسِ [ولم يَكُنْ][6] إيمانُها نفعَها، إلّا إيمانَ قومِ يونُسَ فإنهمْ آمنوا إيمانَ حقيقةٍ، وعَلِمَ اللهُ صدقَهُمْ في[7] إيمانِهِمْ، فَنَفَعَهُمْ إيمانُهُمْ. هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ سائِرَ القُرَى كانَ إيمانُها عندَ إقبالِ العذابِ إليهِمْ ووقوعِهِ عليهِمْ، فلم يَنْفَعْهُمْ إيمانُهُمْ إلا قومَ يونُسَ فإنَّ إيمانَهُمْ إنما كانَ [بتخويفِ العذابِ، فنَفَعَهُمْ][8].

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قومُ يونُسَ كانَ نزولُ العذابِ بهِمْ على التخييرِ والتمكينِ: إنْ قَبِلوا الإيمانَ، وآمنوا، دَفَعَ العذابَ عنهُمْ، وإنْ لم يَقْبَلوا أُنْزِلَ بهِمْ.

والثالث: كانَ[9] إيمانُ سائرِ القُرى بَعْدَ [ما][10] عايَنوا مُقامَهُمْ في النارِ، فكانَ[11] إيمانُهُمْ إيمانَ اضطرارٍ، وقومُ يونُسَ آمنوا قبلَ أنْ يُعايِنوا ذلكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ بَعْدَ وقوعِ العذابِ والبأسِ ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنهمْ آمَنوا

---

(١) في الأصل وم: ليخبروكم على ما أخبرتم. (٢) في الأصل وم: يخبرونك لأنه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الدنيا. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل وم: من. (٨) في الأصل وم: لتخويف العذاب فينفعهم. (٩) أدرج قبلها في م: إنما. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فيكون.

[قبلَ أنْ يُعايِنوا][١] العذابَ قَبْلَ أنْ يَقَعَ بِهِمْ، وإيمانُ فِرْعَونَ وقومِهِ إنما كانَ بَعْدَ ما عَرَفوا وبَعْدَ ما خَرَجَتْ أنفُسُهُمْ مِنْ أيديهِمْ، فلم يُقْبَلْ. وإيمانُ قوم يونُسَ كانَ [قَبْلَ][٢] أنْ يَقَعَ العذابُ بهِمْ، وأنفُسُهُمْ في أيديهِمْ بَعْدُ، فَقُبِلَ، وهو ما ذَكَرَ ﷻ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ الآيةَ[الأعراف: ١٧١] آمَنوا عندَما عايَنوا قَبْلَ أنْ يَقَعَ بِهِمُ [العذابُ][٣] وسائرُ الأممِ الخاليةِ كانَ منهُمُ الإيمانُ بعدَ وقوعِ العذابِ بهِمْ مِنْ نَحْوِ عادٍ وثَمودَ وأمثالِهِ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا آنفاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قولُهُ ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ الوعدَ بحلولِ العذابِ بهِمْ، وعذابُ الخِزْيِ هو العذابُ الفاضِحُ، وإلا الخزيُ هو العذابُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ قالتِ المُعتزِلةُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَشيئةَ الاختيارِ، لكنهمْ لم يؤمِنوا، واسْتَدَلّوا على ذلكَ بقولِهِ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

فَيُقالُ لهمْ: إنَّ مَشيئةَ الاختيارِ هي الظاهرةُ عندكُمْ، ومَشيئةَ الجَبْرِ والقَهْرِ غايتُهُ. فإذا وُجِدَ منهُ مَشيئةُ الاختيارِ، فلم يؤمنوا، ولم تَنْفُذْ مشيئتُهُ فيهِمْ، كيفَ يُصَدَّقُ هو في الإخبارِ عنِ المَشيئةِ التي هي غايتُهُ أنها لو كانَتْ لآمَنوا؟ هذا فاسدٌ على قولِهِمْ.

وبَعْدُ فإنَّ المَشيئةَ لو كانَتْ مشيئةَ القَهْرِ لكانوا مؤمِنينَ بِتِلكَ المَشيئةِ وفي خَلْقِهِ لأنَّ كلَّ كافرٍ مؤمنٌ بِخِلْقَتِهِ لأنَّ خِلْقَةَ كلِّ أحدٍ تَشْهَدُ على وحدانيَّةِ اللهِ. فإذَنْ كانوا مؤمِنينَ بالخِلْقَةِ.

ثم إنهُ لو شاءَ لآمَنوا؛ دلَّ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ مشيئةَ الاختيارِ.

وتأويلُهُ عندَنا هو أنَّ عندَ اللهِ تعالى لُطفاً، لو أعطاهُمْ كلَّهُمْ لآمَنوا جميعاً، لكنهُ إنْ عَلِمَ منهُمْ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ شاءَ ألّا يُؤْمِنوا.

ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يَتحقَّقَ الإيمانُ بالجَبْرِ والقَهْرِ لأنهُ عملُ القَلْبِ، والجَبْرُ والإكراهُ لا يَعْمَلُ على القَلْبِ؛ فهو إنْ يَتَكلَّمْ بكلامِ الإيمانِ فلا يكونُ مؤمناً حتى يؤمِنَ بالقلبِ. فيكونُ التأويلُ على قولِهِمْ: ولو شاءَ ربكَ فلا يؤمنونَ. فهذا مُتناقِضٌ فاسدٌ.

وبَعْدُ فإنَّ الإيمانَ لا يكونُ في حالِ الإكراهِ والإجبارِ لأنَّ الإكراهَ يُزيلُ الفِعْلَ عنِ المُكْرَهِ كأنْ لا فِعْلَ لهُ في الحكمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾. فإنْ قيلَ: أليسَ قالَ اللهُ ﷻ ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] حتى يُسْلِموا، وذلكَ إكراهٌ، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ الناسَ حتى يَقولوا لا إلهَ إلا اللهُ» [البخاري: ٢٥] فذلكَ إكراهٌ، فكيفَ يُجْمَعُ بينَ آيتَينِ؟ قيلَ: لوجهَينِ:

أحدُهما: ما ذُكِرَ أنَّ هذهِ السورةَ مكيَّةٌ، وقولُهُ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ مَدنيَّةٌ، فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تُكْرِهْهُمْ، ثم أمَرَ بالمدينةِ بالقتالِ والحربِ والإكراهِ عليهِ.

والثاني: يجوزُ أنْ يَجْمَعَ بينَ الآيتينِ، وهو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي تُقاتِلونَهُمْ حتى يقولوا قولَ إسلامٍ، ويَتَكلَّموا بكلامِ الإيمانِ؛ دليلُهُ ما رُوِيَ «حتى يقولوا لا إلهَ إلا اللهُ»

والقولُ بقولِ: لا إلهَ إلا اللهُ على غيرِ حقيقةِ ذلكَ في القلبِ ليسَ بإيمانٍ. وفي هذهِ الآيةِ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وبالإكراهِ لا يكونونَ مؤمنينَ حقيقةً لأنهُ عملُ القلبِ، والإكراهُ ممّا لا يَعْمَلُ عليهِ، واللهُ أعلمُ.

وتأويلُ[٤] قولِهِ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾؟ أي لا تَمْلِكُ أنْ تُكْرِهَهُمْ، وكانَ رسولُ اللهِ لشدةِ حِرْصِهِ ورغبتِهِ[٥] في إيمانِهِمْ كادَ أنْ يُكْرِهَهُمْ على الإيمانِ إشفاقاً عليهِمْ كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

---

(١) في الأصل وم: إذا عاينوا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تأويله. (٥) في الأصل وم: ورغبة.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: بِمَشيئةِ اللهِ، وقيلَ: بِعِلْمِ [اللهِ][1] وبإرادتِهِ، وهو ما ذَكَرْنا: / ٢٣٥ - أ/ لا تؤمنُ نفسٌ إلا بمشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ في ذلكَ. ولا يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ سِوَى المشيئةِ والإرادةِ لأنهُ كمْ مِنْ مأمورٍ بالإيمانِ لم يؤمنْ؟ فلم يَحْتَمِلِ الأمرَ. ولا يَحْتَمِلُ الإباحةَ؛ لا يُباحُ تَرْكُ الإيمانِ في حالٍ.

[وأصلُهُ ما ذَكَرْنا لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﷻ يَعْلَمُ مِنْ خَلْقِهِ اختِيارَهُ عداوتَهُ والخلافَ لهُ، ويَسْأَلُهُمْ[2] الولايَةَ؛ يُخرِجُ ذلكَ مُخرَجَ العَجْزِ لأنَّ في الشاهدِ اختِيارَ[3] عَداوةِ أحدٍ، والآخرُ يختارُ ولايَتَهُ؛ إنهُ إنما يَختارُ لِضَعْفِهِ وعَجْزِهِ فيهِ، واللهُ أعلمُ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قيلَ [ويَجعلُ][5] الإثمَ على الذينَ لا يَعْقِلونَ، وقيلَ: ويَجْعَلُ العذابَ على الذينَ لا يَعْقِلونَ؛ أي لا يَسْتَعْمِلونَ عقولَهُمْ حتى يَعْقِلوا[6]، أو على الذينَ لا يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ عندَ نزولِ العذابِ ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ إذا رأتْ بأسَنا فكانتْ مثلَ قومِ يونُسَ، فإنهمْ آمَنوا حينَ رَأَوُا[7] العذابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: وما كانَ لِنَفْسٍ في علمِ اللهِ أنها لا تُؤمِنُ، فَتُؤمِنُ؛ أي لا تؤمنُ نَفْسٌ في عِلْمِ اللهِ أنها لا تُؤمِنُ، إنما يؤمِنُ [مَنْ][8] في عِلْمِ اللهِ أنهُ يُؤمِنُ. وأمّا مَنْ في عِلْمِ اللهِ أنهُ لا يؤمِنُ فلا يؤمِنُ. وقيلَ: وما كانَ لنفسٍ؛ أي لا تؤمنُ نفسٌ إلا بِمَشيئةِ اللهِ؛ أي إذا آمنَتْ إنما تُؤمِنُ بِمَشيئةِ اللهِ؛ ما تَفْعَلُ إنما تَفْعَلُ بِمَشيئةِ اللهِ. كقولِهِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ. بإذنِ اللهِ؛ أي بأمْرِ اللهِ، فمَعناهُ: إذا آمنَتْ إنما تؤمنُ بأمرِهِ، لا تؤمِنُ بِغَيرِ أمرِهِ. فالأوّلُ أقربُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي يَجْعَلُ جَزاءَ الرِّجسِ، أي يَجْعَلُ جَزاءَ الكُفْرِ على الذينَ لا يَعْقِلُونَ، أي الذينَ لا يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أي انْظُروا إلى آثارِ نِعَمِهِ وإحسانِهِ التي في السمواتِ والأرضِ [تَشْكُروهُ[9]]؛ يقولُ: انْظُروا إلى رُبوبيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ في السمواتِ والأرضِ][10] فَتُوَحِّدُوهُ، وتُؤمِنوا بهِ،أو يقولُ: انْظُروا إلى آثارِ سُلْطانِهِ وقدرَاتِهِ، فتخافوا نَقْمَتَهُ وعِقابَهُ، أوِ انْظُروا إلى أجناسِ الخَلْقِ واتّساقِهِ على تقديرٍ واحدٍ لِيَدُلَّكُمْ على وَحدانيَّتِهِ، ونَحْوُ ذلكَ [ما][11] شيءٌ في السمواتِ والأرضِ يَقَعُ عليهِ البَصَرُ إلا وفيهِ دلالةُ الرُّبوبيَّةِ حتى طَرْفَةُ العينِ ولَحْظَةُ البَصَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها][12]: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ﴾ هَمُّهُمُ المُكابَرَةُ والمُعانَدَةُ، إنما تُغني الآياتُ مَنْ هَمُّهُ القَبولُ والانْقِيادُ. وأمّا مَنْ هَمُّهُ المُكابَرَةُ والعِنادُ فلا تُغني، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

والثاني[13]: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ [في الآخِرةِ][14] ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في الدنيا، إنما تَنْفَعُ، وتُغني لقومٍ يؤمنونَ، وأمّا مَنْ لا يؤمِنُ فلا تغني.

والثالثُ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ يَحْتَمِلُ[15] الرسُلَ، ويَحْتَمِلُ المَواعيدَ[16] التي أُوعِدوا، والأحوالَ التي تَغَيَّرَتْ على أوائلِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج في الأصل وم قبلها: من. (٤) أدرجت هذه العبارة في الصفحة التالية أيضاً بعد: حين رأوا العذاب فحذفناها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يعقلون. (٧) في الأصل وم: يروا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل: لكن. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ويحتمل. (١٤) في الأصل: و الآخرة. (١٥) أدرج قبلها في الأصل: ثم النذر. (١٦) في الأصل: وم: الوعيد.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ يوماً مِنَ الهلاكِ ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي إلا مثلَ [ما انتَظَرَ][١] الذينَ مِنْ قبلِهِمْ برسلِهِمْ مِنَ الهلاكِ. فهو يُخَرَّجُ على التوبيخِ لِانتِظارِهِمْ هلاكَ الرسُلِ وذهابَ أمرِهِمْ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخرَ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ مِنْ نزولِ العذابِ بهمْ إلا مثلَ ما انتظَرَ أولئك مِنْ نزولِ العذابِ بهمْ؟ إلى هذا يذهبُ بعضُ أهلِ التأويلِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ مِنْ تأخيرِهِمُ الإيمانَ إلى وقتِ نزولِ العذابِ بهمْ. فهذا يُخَرَّجُ على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ؛ أي لا يُؤمنونَ إلى ذلكَ الوقتِ الذي لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ فيهِ، والوجهُ الأوّلُ على التَّوبيخِ والتَّعْيِيرِ. وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ذلكَ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قولُهُ: ﴿نُنَجِّى﴾ أي أنجَيْنا الرسلَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنهُ لم يكنْ بعدَهُ رسولٌ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ [أنهُ وَعَدَ][٢] أنْ يُنَجِّيَ الرسلَ والذينَ آمَنوا ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أنْ نُنجزَ ما وَعَدنا أنْ نُنجِيَ الرسلَ، واللهُ أعلَمُ][٣].

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [قولُهُ ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أدينُ بهِ، أو ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾][٤] الذي أدعوكُمْ إليهِ ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إذا شَكَكْتُمْ في ديني الذي أدعوكُمْ إليهِ كُنْتُمْ شاكّينَ في دينِكُمُ الذي أنتمْ عليهِ. [فَتَرْكُهُمْ ديني الذي أنا عليهِ بالشّكِّ ودعاؤُهُمْ إلى دينِهِمْ][٥] بالشّكِّ [يُظهِرُ][٦] سَفَهَهُمْ بِتَرْكِهِمْ إجابَتَهُ بالشّكِّ][٧] ودعائِهِمْ إياهُ بالشّكِّ [لأنَّ الشّكَّ][٨] يُوجِبُ الوقفَ في الأشياءِ، ولا يُوجِبُ الدعاءَ إليهِ وبُطلانَ غيرِهِ[٩].

هذا، واللهُ أعلَمُ، مُحتَمَلٌ، وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ أيضاً: أحدُهما على الإضمارِ، والآخرُ على المُنابَذَةِ.

والإضمارُ ما ذَكَرْنا ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أدينُ بهِ [وأدعوكُمْ إليهِ، فأنا لا أشُكُّ فيهِ. هذا وجهُ الإضمارِ.

وَوَجْهُ المُنابَذَةِ يقولُ: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ ممّا أعبدُ، وأدينُ بهِ][١٠] فلا تعبدونَ ذلكَ، ولا تَدينونَ بهِ، فأنا لا أعبدُ ما تَعْبُدونَ، ولا أدينُ بما تدينونَ، وهو كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ والتَّوَفّي هو النهايةُ والغايةُ في الإضرارِ، وما تَعْبدونَ مِنَ الأصنامِ دونَهُ لا يَمْلِكونَ [المَنفَعَةَ][١١] ولا الإضرارَ لكُمْ إنْ لم تَعْبُدوها، يُظهِرُ[١٢] سَفَهَهُمْ، ويُلْزِمُهُمُ الحجةَ؛ [وهي أنَّ][١٣] الذي يَتَوَفّاكُمْ هو المُستَحِقُّ لِلعِبادةِ، لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنَ المُرسَلينَ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣] وقولُهُ[١٤] ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١و...] فَعلَى ذلكَ هذا. ويَحْتَمِلُ الإيمانَ نَفْسَهُ على ما نَهى أنْ يكونَ مِنَ المُشرِكينَ والشاكّينَ. فَعَلَى ذلكَ أُمِرَ أنْ يكونَ مِنَ المؤمنينَ المُخْلِصينَ لهُ المُسلِمينَ أنفُسَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي أُمِرْتُ أنْ أُقيمَ نفسي لِلّهِ خالِصةً سالِمَةً لا أُشرِكُ فيها غيرَهُ ولا أجْعَلُ لِسِواهُ فيها نَصيباً، أو يَقولُ[١٥]: إني أمِرْتُ أنْ أُقيمَ نَفْسي على ما عليها شهادةُ خَلْقِها؛ إذْ خِلْقَةُ كلِّ نَفسٍ تَشْهَدُ على وَحدانِيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ، أو يقولُ: ﴿أَقِمْ﴾ وَجْهَ أمْرِكَ لِما تَدينُ بهِ، وتُقيمُ عليهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: ايالم نظروا ، في م: ما نظروا. (٢) في م: وعده. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م: فتركتم ديني الذي أنتم عليه، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل : يذكر. (٧) ساقطة من م. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: لا الشك. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يذكر. (١٣) في م: أن، ساقطة من الأصل. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إنْ أطعْتَهُ، ولا يضرُّكَ إنْ تَرَكْتَ إجابَتَهُ وطاعَتَهُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ لا تَعْبُدْ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَملِكُ جَرَّ المَنْفَعَةِ، ويَحْتَمِلُ الدعاءَ نَفْسَهُ؛ أي لا تُسَمِّ مِنْ دونِ اللهِ إلهاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ذَكَرَ ههنا الظلمَ إنْ فَعَلَ ما ذَكَرَ، والمُرادُ منهُ الشِّرْكُ. وذَكَرَ في قصةِ آدمَ وحوّاءَ ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥و...] وقد قَرِبا، ولم يكونا مُشْرِكَيْنِ إنما كانا عاصِيَيْنِ[١] لِيُعْلِمَ أنْ ليسَ في المُوافَقَةِ في الأسماءِ مُوافَقَةٌ في الحقائِقِ والمعاني، إنما تكونُ المُوافَقَةُ في الحقائِقِ في موافَقَةِ/ ٢٣٥ ـ ب/ الأسبابِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ[٢]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ فيهِ نَهْيُ الرَّجاءِ والطَّمَعِ إلى مَنْ دونَهُ إذْ[٣] أخبَرَ أنهُ لا يوجَدُ ذلكَ مِنْ عندِ غيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ أخبَرَ أنهُ [إنْ][٤] أرادَ خيراً وفضلاً فلا رادَّ لذلكَ الفَضْلِ والخَيرِ. والإيمانُ مِنْ أعظمِ الخَيراتِ وأفضَلِها. فإذا أرادَ [اللهُ بِهِ][٥] الإنسانَ كانَ، لا يملكُ أحدٌ دفعَ ما أرادَ ولا رَدَّهُ. دلَّ أنهُ إذا أرادَ الإيمانَ لأحدٍ كانَ مؤمناً.

فهو يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ[٦]: إنهُ أرادَ الإيمانَ لِلْخَلقِ كلِّهِمْ لكنهمْ لم يؤمِنوا؛ إذْ أخْبَرَ أنهُ [إذا][٧] أرادَ بهِ خيراً ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ وهم يقولونَ: بل يَمْلِكُ العبدُ ردَّ ما أرادَ لهُ ودفْعَهُ.

وباللهِ العصمةُ. وفيهِ أنْ ليسَ على اللهِ فِعْلُ ذلكَ[٨]؛ أعني فِعْلَ الخيراتِ لأنهُ سمّاهُ فَضلاً، والفَضلُ هو فِعْلُ ما ليسَ عليهِ، وهو المفهومُ في الناسِ أنَّ ما عليهِمْ مِنَ الفِعْلِ لا يُسَمُّونَهُ فَضلاً، إنما يُسَمُّونَ الفَضلَ ما ليسَ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ يُصيبُ بهِ مَنْ يَشاءُ مِنَ الفَضلِ والخيرِ أو الشَّرِّ.

وفيه تخصيصُ بعضٍ على بعضٍ حينَ[٩] قالَ: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ قيلَ: الحقُّ محمدٌ ﷺ وقيلَ: الحقُّ القرآنُ الذي أُنزِلَ عليهِ.

وأمكَنَ أنْ يكونَ الحقُّ هو الدينَ الذي كانَ[١٠] يدعوهُمْ رسولُ اللهِ إليهِ لأنهُ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ [الآية: ١٠٤] فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ الحقُّ هو الدينَ [حينَ][١١] شَكُّوا فيهِ؛ أي قد جاءَكُمْ ما يُزيلُ عنكُمْ ذلكَ الشَّكَّ، إنْ لم تكابِروا، لمّا أقامَ عليهِمُ الحُجَجَ والبَراهينَ.

ويَحْتَمِلُ الحقُّ محمداً ﷺ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ [مِنْ أوَّلِ نُشوئِهِ إلى آخِرِ عُمُرِهِ][١٢] ويَحْتَمِلُ الحقُّ [القرآنَ][١٣] على ما ذَكَرَهُ بعضُهُمْ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢] سمّاهُ بأسماءٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ سمّاهُ حقّاً، وسمّاهُ نوراً وشِفاءً ورحمةً وهُدىً ونَحْوَهُ. وفيهِ كلُّ ما ذَكَرَ؛ مَنْ تأمَّلَهُ، وتفكَّرَ فيهِ، تَمَسَّكَ[١٤] بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ أي مَنِ اهْتَدَى فإنما مَنْفَعَةُ اهْتِدائِهِ لهُ في الدنيا والآخِرَةِ، ومَنْ ضَلَّ فإنما يرجعُ ضَرَرُ ضَلالتِهِ إليهِ ضلالةً عليهِ؛ أي يأمُرُ، ويَنْهى، لا[١٥] لِمَنْفَعَةٍ تَحْصُلُ لهُ أو لِحاجَةِ نَفْسِهِ، إنما يأمُرُ، ويَنْهى لِمَنْفَعَةِ الخَلْقِ ولِحاجَتِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: عصاة. (٢) في الأصل وم: ذكروا. (٣) في الأصل وم: إذا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث قالوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: لهذا، في م: لهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: كانوا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: في أول نشوئه إلى آخره. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وتمسك. (١٥) من م، في الأصل: ليس يأمر وينهي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي بِمُسَلَّطٍ. قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هو منسوخٌ؛ نَسَخَتْهُ آيةُ القتالِ. لكنَّهُ لا يَحْتَمِلُ، وإنْ كانَ مأموراً بالقتالِ فهو ليسَ بوكيلٍ ولا مُسَلَّطٍ على حِفْظِ أعمالِهِمْ. إنما عليهِ التبليغُ كقولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [آل عمران: ٢٠] وكقولِهِ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤] وكقولِهِ: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية: [الأنعام: ٥٢]

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ يَحْتَمِلُ القرآنَ وغيرَهُ مِنَ الوَحْيِ غيرَ القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي اصْبِرْ على أذاهُمْ لأنهمْ كانوا يُؤذونَهُ، ويقولونَ فيه مالا يَليقُ بِهِ.يقولُ: اصْبِرْ على أذاهُمْ، ولا تَعْجَلْ عليهِمْ بالعقوبةِ حتى يحكُمَ اللهُ عليهم بالعقوبةِ وقتَ عقوبَتِهِ ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ واصْبِرْ على تكذيبِهِمْ إياكَ حتى يحكُمُ اللهُ بَيْنَكَ وبَينَ مُكَذِّبيكَ ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ واصْبِرْ على تبليغِ الرسالةِ والقيامِ كما أُمِرْتَ بِهِ، واللهُ الموفقُ.

السورة التي ذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ قالَ الحَسَنُ ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالأَمرِ والنَّهْيِ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالوَعْدِ والوعيدِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ حتى لا يأتيها الباطلُ مِنْ بينِ يَدَيها ولا مِنْ خَلْفِها، ولا يَملِكُ أحدٌ التبديلَ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بَيَّنَتْ ما يُؤتَى، وما يُتَّقى، أو بَيَّنَتْ ما لَهُمْ، وما عليهِمْ، وما لِلَّهِ عليهِمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فلَمْ تُنْسَخْ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالحَلالِ والحرامِ.

وقيلَ: ﴿فُصِّلَتۡ﴾ أي فُرِّقَتْ في الإنزالِ؛ أُنزِلَ شيءٌ بَعْدَ شيءٍ على قَدْرِ النوازِلِ والأسبابِ؛ فلم يُنْزِلْ جملةً لأنهُ لو أنزلَ جُملَةً لاحتاجوا أنْ يعرفوا لِكُلٍّ سَبَبَهُ وشأنَهُ وخُصوصَهُ وعُمومَهُ.

فإذا أُنزِلَ مُتَفَرِّقاً في أوقاتٍ مُختَلِفةٍ على النوازِلِ والأسبابِ عَرَفوا ذلكَ على غيرِ إعلامٍ ولا بَيانٍ. والتفصيلُ اسمُ التفريقِ واسمُ التبيينِ. وذلكَ يَحْتَمِلُ المَعْنَيَيْنِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي أُحكِمَتْ حتى [لا][1] يَرِدَ عليها النَّقْضُ والانتِقاصُ، أو ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ حتى لا يملكُ أحدٌ التبديلَ والتَّغْييرَ، أو ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ عن أنْ يَقَعَ فيها الاختِلافُ.

وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالفرائضِ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالثوابِ والعقابِ.

ثم الآياتُ تَحتَمِلُ وجوهاً: أحدُها: العِبَرُ، والثاني: الحُجَجُ، والثالثُ: العلاماتُ[2]. ثم الآيةُ كلُّ كلمةٍ في القرآنِ تَمَّتْ، فهي عِبْرَةٌ أو حُجَّةٌ أو علامةٌ لا تَخْلُو مِنْ أحَدِ هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ مِنْ عِندِ حَكيمٍ خَبيرٍ جاءَتْ هذهِ الآياتُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي مِنَ اللهِ يُنْذِرُ مَنْ يُنْذِرُ، ومِنْ عندِهِ يُبَشِّرُ مَنِ اتَّبَعَ، ويُنْذِرُ مَنْ خالَفَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ في شهادةِ خِلْقَتِكُمْ هو المُستَحِقُّ لِلْعبادةِ. ويَحتَمِلُ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ أي ألا تُوَحِّدوا إلا الذي في شهادةِ خِلْقَتِكُمْ وَحدانِيَّتُهُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ إنْ كانَتِ الآيةُ في الكفارِ فيكونُ قولُهُ ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي أسلِموا ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي ارجِعوا إليهِ عنْ كلِّ معصيةٍ وكلِّ مأثمٍ تأتُمونَهُ[3]. وإنْ كانَ في المسلِمينَ فهو ظاهرٌ، ويكونُ قولُهُ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ وقولُهُ[4]: ﴿تُوبُوٓاْ﴾ واحداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي يُمَتِّعْكُمْ في الدنيا مَتاعاً، تَستَحْسِنونَ في الآخِرَةِ ذلكَ التَّمَتُّعَ. وأمّا الكفارُ فإنهم لا يَستَحسِنونَ في الآخِرَةِ ما مُتِّعُوا في الدنيا لأنَّ تَمَتُّعَهُمْ في الدنيا [للدنيا، والمؤمِنُ ما يَتَمَتَّعُ بهِ في الدنيا إنما يَتَمَتَّعُ بهِ][5] لأمرِ الآخِرَةِ والتَّزَوُّدِ لها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ﴾ في الدنيا جزاءَ فَضلِهِ في الآخِرَةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: العلامة. (٣) في الأصل وم: تأتونها. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتمِلُ ﴿وَيُؤْتِ﴾ بِمَعْنَى أتى، أي ما أتى كلُّ ذي فَضلٍ في الدنيا إنما أتاهُ بِفَضلِهِ. ويَحتمِلُ[١] قولُهُ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ أي ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في دينِهِ في الدنيا ﴿فَضْلَهُۥ﴾ في الآخِرَةِ، أو يقولُ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ ﴿فَضْلَهُۥ﴾ لأنَّ أهلَ الفَضلِ في الدنيا هم أهلُ الفضلِ في الآخرةِ.

[وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ ولم يُسلِموا ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ الآيةُ ظاهرةٌ. وقالَ في مواضِعَ[٣] أُخَرَ: ﴿عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩ والشعراء: ١٣٥ والأحقاف: ٢١] هذا لِما يَكْبُرُ على الخَلْقِ، ويَعْظُمُ ذلكَ اليومُ.

قالَ بعضُ أهلِ الفِقهِ في قولِهِ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ دلالةُ تأخيرِ البيانِ لأنهُ قالَ: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ وحَرْفُ ثم/ ٢٣٦ ـ أ/ مِنْ حروفِ الترتيبِ، فيهِ[٤] جوازُ تأخيرِ البيانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي إلى ما وَعَدَ لكُمْ مَرْجِعُكُمْ مِنْ وَعْدٍ وَوَعيدٍ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو على كلِّ ما وَعَدَ وأوعَدَ قديرٌ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ عن عبدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ [أنهُ قالَ][٥]: كانَ أحدُهُمْ إذا مرَّ بالنَّبيِّ تَغَشَّى بثوبِهِ، وحَنَى صَدْرَهُ، وقالَ قتادةُ: كانوا يُحْنونَ صدورَهُمْ لِكَيلا يَسْمَعوا كتابَ اللهِ وذِكْرَهُ.

قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ في رجلٍ يُقالُ لهُ: الأخنَسُ بنُ شُرَيقٍ الثَّقَفِيُّ؛ كانَ يُجالِسُ النَّبيَّ، ويُظهِرُ لهُ أمراً حَسَناً، وكانَ حَسَنَ المَنْظَرِ حَسَنَ الحديثِ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يُعجِبُهُ حديثُهُ، [ويُقرِّبُهُ في][٦] مجلِسِهِ، وكانَ يُضمِرُ خِلافَ ما يُظهِرُهُ، فأنزلَ اللهُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يقولُ: يَكْتُمونَ مافي صدورِهِمْ، ويَسْتُرونَ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ.

واصلُ ثَنْيَةِ الصدرِ هو أنْ يُضَمَّ أحدُ طَرَفَيِ الصدرِ إلى الآخرِ لِيكونَ ما أُضمِرَ أسَرَّ وأخفى. ويُشْبِهُ ما ذَكَرَ مِنْ ثَنْيِ الصدورِ أنْ يكونَ كِنايةً عنْ ضيقِ الصُّدورِ كقولِهِ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] أو كِنايةً[٧] عنِ الكِبْرِ كقولِهِ: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الحج: ٩].

وكأنَّ أصلَهُ الميلُ إلى غيرِهِ، وهو ما قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي يَميلونَ إلى غيرِهِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنَ اللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِنْهُ﴾ أي مِنْ رسولِ اللهِ. لكنْ إنْ كانتِ الآيةُ في المُنافقينَ على ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ فهوَ الاسْتِسرارُ والاستِتارُ مِنْ رسولِ اللهِ لأنهمْ كانوا يُظهِرونَ المُوافَقَةَ، ويُضمِرونَ لهُ العداوةَ، وإنْ كانتِ الآيةُ في المُشركينَ فهوَ الاسْتِسرارُ والاسْتِتارُ مِنَ اللهِ لأنهمْ لا يُبالونَ الخلافَ لرسولِ اللهِ وإظهارَ العداوةِ، وعندَهُمْ أنَّ اللهَ لا يَطَّلِعُ [على][٨] ما يُسِرّونَ، ويُضمِرونَ في قلوبِهِم، فأخبَرَ أنهُ يَعْلَمُ ما أسَرُّوا، وما أعلَنوا.

وفيهِ[٩] دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهمْ كانوا يُسِرّونَ ذلكَ، ويُضمِرونَ، فأخبَرَهُمْ بذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يَسْتَتِرونَ بها. قالَ الحَسَنُ: ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ في ظلمةِ الليلِ وفي أجوافِ بيوتِهِمْ يَعْلَمُ في تلكَ الساعةِ ما يُسِرّونَ، وما يُعْلِنونَ.

وأصلُهُ أنهمْ يَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو الذي أنشأَ هذهِ الصدورَ والقلوبَ، والثيابَ هُمُ الذينَ نَسَجوها، واكْتَسبوها، ثم لا يملكونَ الاسْتِتارَ بما كَسَبوا هُمْ، فَلأنْ لا يَمْلِكوا[١٠] الاسْتِتارَ بما تَوَلّى هو إنشاءَهُ أحَقُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: ﴿أَلَآ﴾ إنما هو تأكيدُ الكلامِ، وهو قولُ أبي عُبَيدةَ وغَيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ عليمٌ [بما في][١١] الصدورِ لكنهُ يُشبِهُ أنْ [يكونَ][١٢] قولُهُ: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كنايةً[١٣] عنْ صدورٍ لها تدبيرٌ وتَمييزٌ، [وهي صدورُ][١٤] البَشَرِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: موضع. (٤) في الأصل وم: ففيه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويقرأ به. (٧) في الأصل وم: عبارة. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ففيه. (١٠) في الأصل وم: يملكون. (١١) في الأصل وم: بذات. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: عبارة. (١٤) في الأصل وم: وهو.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: عَنَى بالدابّةِ المُمْتَحَنَ بها، وهي[1] البَشَرُ. وأمّا غيرُهُ مِنَ الدّوابِّ فقدْ سَخَّرَهُ[2] لِلْمُمْتَحَنِ بهِ. وقالَ قائلونَ: أرادَ كلَّ دابّةٍ تَدُبُّ على وجهِ الأرضِ مِنَ المُمْتَحَنِ بهِ وغيرِهِ. وتَمامُهُ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جَعَلَ قِوامَها وحياتَها بالرزقِ ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ إنشاءُ ذلكَ الرزقِ لَها. ثم مِنَ الرزقِ ما جَعَلَهُ بِسَبَبٍ، ومنهُ ما جَعَلَهُ بِغَيرِ سَبَبٍ.

وقولُهُ تعالى ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ اختُلِفَ [فيهِ][3] أيضاً: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي على اللهِ إنشاءُ رِزقِها، وخَلْقُهُ لها الذي بهِ قِوامُها وحَياتُها، وهو كقولِهِ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي يُنْشِئُ، ويَخْلُقُ رزقَنا بِسَبَبٍ مِنَ السماءِ مِنَ المطرِ وغيرِهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي على اللهِ إنشاءُ رِزقِها وخَلْقُهُ لها. وقيلَ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي على اللهِ أنْ يَبْلُغَ إليها رزقُها، وما قَدَّرَ لها، وما بِهِ مَعاشُها.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما جاءَها مِنَ الرزقِ إنما جاءَ مِنَ اللهِ، لم يأتِها مِنْ غيرِهِ، و ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بِمَعْنى مِنَ اللهِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين: ٢] وهو قولُ مجاهدٍ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي على اللهِ وفاءُ ما وَعَدَ، وقد كانَ وَعَدَ أنْ يَرْزُقَها، فَعَلَيهِ وفاءُ وَعْدِهِ وإنجازُهُ. ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنهُ لمّا خَلَقَها لِيُبْقِيَها[4] إلى وقتٍ عليهِ إبلاغُ ما بهِ تعيشُ إلى ذلكَ الوقتِ والأجَلِ الذي خَلَقَها [لهُ][5] لِيُبْقِيَها إلى ذلكَ [الوقتِ][6]. وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ بالليلِ ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ بالنهارِ في مَعاشِها، وقالَ بَعْضُهُمْ: المُسْتَقَرُّ: الرَّحِمُ، والمُسْتَودَعُ: الصُّلْبُ، وقالَ بعضُهُمْ: المُسْتَقَرُّ الصُّلْبُ، والمُسْتَودَعُ الرَّحِمُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: المُسْتَقَرُّ المُنْقَلَبُ في الدنيا، والمُسْتَودَعُ مَثْواها في الآخِرَةِ، كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا وتَحَرُّكَكُمْ في معاشِكُمْ ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩] أي قرارَكُمْ ومُقامَكُمْ في الآخِرَةِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الدنيا ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في القَبْرِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا [إخباراً][7] عنِ العِلْمِ بها في كل حالٍ [في حالٍ][8] سُكونِها وفي حالِ حَرَكَتِها لأنها لا تَخْلُو؛ إمّا أنْ تكونَ ساكنةً تارةً أو مُتَحَرِّكَةً [تارةً أُخرى][9] أي يَعْلَمُ عنها كلَّ أحوالِها[10].

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ الآية [الآية: ٥] يُخْبِرُ أنهُ إذا لم يَخْفَ عليهِ كَونُ كلِّ دابّةٍ في الأرضِ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: ٨] وما استُودِعَ في الأصلابِ، كيفَ يَخْفَى عليهِ أعمالُكُمُ التي عليها العقابُ، ولكُمْ بها الثوابُ، وفيها الأمرُ والنَّهْيُ؟ واللهُ أعلَمُ، و ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي مُبَيَّنٍ في كتابِهِ؛ قيلَ: في اللَّوحِ المَحفُوظِ، ويَحْتَمِلُ القرآنَ وغيرَهُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما بَيْنَهُما ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] وقالَ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] وقالَ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] يجوزُ أنْ يكونَ جَعَلَ للأرضِ[11] يومَينِ يوماً لِوُجودِها ويوماً لِعَدَمِها، وكذلكَ السماءُ جَعَلَ يوماً لِوُجودِها ويوماً لِعَدَمِها كقولِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٨] وكقولِهِ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] [وكقولِهِ][12]: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] وكذلكَ ما بَيْنَهما؛ جَعَلَ يوماً لِوُجودِهِ ويوماً لِعَدَمِهِ، فيكونُ اليومُ[13] السابعُ يومَ البعثِ؛ يكونُ لِكُلٍّ مِنْ [تلكَ يَومانِ: يومٌ لِوُجودِها ويومٌ][14] لِعَدَمِها. وقد ذَكَرْنا شيئاً في ذلكَ مِمّا احْتَمَلَ وُسْعُنا في سورةِ الأعرافِ[15].

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: سخرها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أنه يبقيها. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حالها.
(١١) في الأصل وم: الأرض. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يوم. (١٤) في الأصل وم: ذلك يومين يوماً لوجودها ويوما.
(١٥) المقصود الآية (٤٥).

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ السماء والأرضَ دَخَلَتا تحتَ الأوقاتِ بقولِهِ: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إذِ الأيامُ عندَ الناسِ إنما هي مُضِيُّ الأوقاتِ. فإنْ دَخَلَتا[1] تَحتَ الأوقاتِ فَلَيستا بِأَزَلِيَّتَينِ [لا][2] على ما يقولُ بعضُ المُلْحِدَةِ: إنهما [أزَلِيَّتانِ كانتا][3] كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اليومُ السابعُ هو اليومَ الذي [خَلَقَ][4] المُمْتَحَنَ فيهِ، وهو المقصودُ في خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنَ الأشياءِ؛ أعني البَشَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ إنْ كانَ العَرْشُ اسْمَ المُلْكِ والسلطانِ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ فَتَأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، كانَ أَظْهَرَ مُلْكَهُ عنِ الماءِ [و ﴿عَلَى﴾][5] بِمَعْنَى عَنْ، وذلك جائزٌ في اللغةِ، لأنهُ بالماءِ ظهورُ كلِّ شيءٍ وبَدْؤُهُ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وإنْ كانَ العَرْشُ اسْمَ السريرِ والكرسِيِّ على ما قالهُ بَعْضُ الناسِ فهو عَرْشُ المُلْكِ وسَريرُهُ؛ خَلَقَهُ لِيُكْرِمَ بِهِ أولياءَهُ، لِيَمْتَحِنَ ملائِكَتَهُ بِحَمْلِهِ والخِدْمَةِ لهُ على ما يكونُ لملوكِ الأرضِ سُرُرٌ[6] يَسْتَخْدِمونَ خدمَهُمْ في ذلكَ.

وهو خَلْقٌ مِنْ خَلائِقِهِ أضافهُ إليهِ كما تُضافُ الأشياءُ إليهِ مَرَّةً بالإجمالِ جُمْلَةً، ومَرَّةً[7] بالإشارةِ/ ٢٣٦ ـ ب/ والإفرادِ. ولكنَّ ما أُضيفَ إليهِ بالإشارةِ فهو على تَعْظيمِ ذلكَ الشيءِ، وما أُضيفَ إليهِ الأشياءُ بالإجمالِ والإرسالِ فهو على ذِكْرِ عَظَمَتِهِ وكبريائِهِ كقولِهِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] ونَحْوُهُ، فيهِ ذِكْرُ سلطانِهِ وعَظَمَتِهِ وقولُهُ: ﴿بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] [وقولُهُ][8]: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] ونحوُهُ[9] يُخَرَّجُ على تَعْظيمِ البيتِ والمساجِدِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما فيهما لِلْمُمْتَحَنِ، لم يَخْلُقْ هذهِ الأشياءَ لأنفُسِها إنما خَلَقَها لِلْمُمْتَحَنِ فيها كقولِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣] لأنَّ خَلْقَها لأنفسِها عَبَثٌ، [لا أنها][10] مخلوقةٌ لِلْفناءِ خاصةً. فكلُّ مَخْلُوقٍ للفناءِ خاصةً فهو عَبَثٌ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قولُهُ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ هذا القولُ نفسُهُ ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ ليسَ [ما][11] يقولونَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ولكنْ إذا أخْبَرَهُمْ أنهمْ مَبْعوثونَ مِنْ بَعْدِ الموتِ، وأقامَ الحُجَجَ والبراهينَ على البعثِ، حينَئِذٍ قالوا [عَنْ حُجَجِ][12] البعثِ وبراهينِهِ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ يَذْكُرَ سَفَهَهُمْ أنهمُ اعْتادوا نِسْبَةَ كلِّ شيءٍ إلى السِّحْرِ حتى الأشياءِ التي لا تَحْتَمِلُ السِّحْرَ، وهي[13] الأخبارُ لأنَّ السِّحْرَ في تَقْليبِ الأشياءِ، وأمّا في ما يُخْبِرُ عنْ شيءٍ يكونُ فلا.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ قيلَ: إلى وقتٍ مَعْلوم، هو البَعْثُ كرامةً، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ وقتٌ بهِ تَنْقَضي آجالُ الأممِ جميعاً ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي كانوا يقولونَ: ما يَحْبِسُ عنا العذابَ الذي يَعِدُنا، لم تَزَلْ عادَتُهُمُ اسْتِعْجالَ العذابِ، اسْتِهْزاءً بهِ[14].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ذلكَ إذا جاءَ لا يَمْلِكُ أحدٌ صَرْفَهُ عنهُمْ كقولِهِ: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام٥١] وقولِهِ: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ قيلَ: نَزَلَ بهمْ، وقيلَ: يَحِقُّ عليهمْ[15] ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاءَ اسْتِهْزائِهِمْ بالرسولِ والكتابِ.

---

(١) في الأصل وم: دخلت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أزليتين كانا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: سرير. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: لأنها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الحجج. (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) و (١٥) في الأصل وم: بهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي لا يُصْرَفُ عنهُمْ بشفاعةِ مَنْ طَمِعوا بشفاعتِهِ كقولِهِ[1]: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] ونَحْوُ ذلكَ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رجاءَ أن تَشْفَعَ لهمْ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ قيلَ: سَعَةً في المالِ ونِعْمَةً ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ إياسُهُ ذهابُ ذلكَ المالِ عنهُ ونزْعُهُ منه، [وعَدَمِ عودٍ][2] ذلكَ إليهِ يُقْنِطُه[3].

والإياسُ قد يكونُ كُفراً كقولِهِ: ﴿إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ في حالِ ذهابِ النِّعْمَةِ، و ﴿كَفُورٌ﴾ في حالِ النِّعْمَةِ والسَّعَةِ؛ ﴿كَفُورٌ﴾ لمّا رَأى نَزْعَ ذلكَ المالِ والسَّعَةِ منهُ جَوراً وظُلْماً فهو كَفورٌ.

وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][4] قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ يعني الكافرَ ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ يقولُ: نعمةُ العافيةِ وسَعَةُ المالِ وما يُسَرُّ بهِ ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ يعني [قَنوطاً آيساً][5] مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

الآية ١٠ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ الفَرَحُ هو الرِّضا كقولِهِ: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٢٦] أي رَضُوا بها. وقيلَ: الفَرَحُ البَطَرُ؛ يَبْطَرُ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] والفَرَحُ قد يَبْلُغُ كُفْراً، ويكونُ الفَرَحُ سُروراً، ولا يكونُ كُفراً.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿فَخُورٌ﴾ يَفْتَخِرُ على الفقراءِ بالمالِ الذي أُعْطِيَ، أو يَفْتَخِرُ على الأنبياءِ والرُّسُلِ بالتكذيبِ. وكذلكَ كانَتْ عادةُ رُؤسائِهِمْ أنهمْ كانوا ذَوي مالٍ وسَعَةٍ، فلا يَرَوْنَ الرسالةَ تكونُ في مَنْ دونَهُمْ في المالِ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وكقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبإ: ٣٥] ونحوُهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَيَئُوسٌ﴾ في حالِ الشدةِ ﴿كَفُورٌ﴾ للهِ في [حالِ النِّعْمَةِ][8] والرَّخاءِ.

وأصلُهُ أنهمْ[9] كانوا لا يَنْظُرونَ في [حالِ][10] النِّعَمِ والرَّخاءِ إلى مَنْ أَنْعَمَ عليهِمْ إنما [كانوا][11] يَنْظُرونَ إلى أعيُنِ النِّعَمِ وأنْفُسِها. لِذلكَ حَمَلَهُمْ على الإياسِ والقُنوطِ، وإعطاؤُهُمْ إياها على الكُفْرانِ والفَرَحِ والفَخْرِ. ولو نَظَروا في تلكَ النِّعَمِ إلى المُنْعِمِ لم يَقَعْ لهمُ الإياسُ[12] عندَ النَّزْعِ ولا الكُفْرانُ والفَرَحُ عندَ النَّيلِ، بل يَصْبِرونَ عندَ النَّزْعِ مِنْ أيديهِمْ، ويَشْكُرونَ لِلْمُنْعِمِ عليهِمْ في حالِ النَّيلِ.

الآية ١١ ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال بَعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي آمَنوا على ما ذَكَرَ في غيرِ واحدةٍ[13] مِنَ الآياتِ [كقولِهِ][14]: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] وكقولِهِ[15]: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٢و٣] يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عنِ المَعاصي، فلم يَرْتَكِبوها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي الطاعاتِ، والإيمانُ نَفْسُهُ هو اعْتِقادُ الانْتِهاءِ عنِ المَعاصي كلِّها واتِّقاءُ[16] جميعِ ما يُدْخِلُ نقصاً [في الطاعاتِ][17] وإتيانُ الطاعاتِ جميعاً.

وهكذا يَعْتَقِدُ كلُّ مؤمنٍ أنْ يَتَّقِيَ، ويَنْتَهِيَ [عنْ][18] كلِّ مَعْصِيَةٍ، ويأتيَ بكلِّ طاعةٍ، ويَعْمَلَ بها. هذا اعْتِقادُ كُلِّ مؤمنٍ، وحقيقَتُهُ وفاءُ[19] ذلكَ كلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِما ارتَكَبوا مِنَ الصِّغارِ مِنَ الذُّنوبِ، وانْتَهَوا عنِ الكبائرِ منها ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما أَتَوا، وعَمِلوا مِنَ الكبائرِ مِنَ الطاعاتِ.

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: عن العود. (٣) في الأصل وم: ويقنطه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قنوط آيس واقنطه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: نعمه. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: وذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: إياس. (١٣) في الأصل وم: واحد. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: والاتقاء عن. (١٧) في الأصل وم: فيها. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: الوفاء.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ السَّترَ في الدنيا؛ سَترَ عليهِمْ تلكَ الذنوبَ في الدنيا، فلم يُطْلِعْ عليها الخَلْقَ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أظْهَرَ منهُمْ ما كانَ مِنَ الطاعاتِ والخيراتِ حتى نَظَرَ الناسُ إليهِمْ بِعَينِ تَعظيم[١] بما ظَهَرَ منهُمْ مِنَ الخيراتِ، [وأخفَى عليهِمْ ما][٢] ارْتكَبُوا مِنَ المَعاصي. وهذا التأويلُ يكونُ في الدنيا، والأوَّلُ في الآخرةِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ حَرْفُ لَعَلَّ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما: يَحْتَمِلُ][٣] النَّهيَ؛ أي لا تَتْرُكْ بعضَ ما يُوحَى إليكَ، وإنْ كانَ معلوماً أنهُ لا يَتْرُكُ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤][وقولِهِ:][٤] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]وأمثالِهِما[٥]. نَهاهُ، وإنْ كانَ معلوماً أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَفْعَلُ ذلكَ، وإنما احْتَمَلَ النَّهيَ كما يَقولُ[٦] الرجلُ لآخرَ: لَعَلَّكَ تُريدُ أنْ تَفْعَلَ كذا، فيكونُ[٧] نَهاهُ عنْ ذلكَ.

والثاني: يُقالُ عندَ القربِ مِنَ الفِعْلِ والدُّنُوِّ منهُ كقولِهِ: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] يُقالُ: حَرْفُ كادَ عندَ المَيلِ إليهِ والقُرْبِ منهُ طَمَعاً منهُ في إيمانِهِمْ.ذلكَ في ما يَحِلُّ لهُ التَّرْكُ، وذلكَ ما قيلَ مِنْ نَحْوِ سَبِّ آلِهَتِهِمْ وذِكْرِ العَيبِ فيها، ويَحِلُّ لهُ تَرْكُ سَبِّ آلِهَتِهِمْ وشَتْمِها.

وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]على هذينِ الوجهَينِ:

[أحدُهما][٨]: على المَنْعِ: ألّا يَحْمِلَ على نفسِهِ إشفاقاً على أنفُسِهِمْ ألّا يؤمِنوا لِما يُوجِبُ تَلَفَهُ.

والثاني: على التخفيفِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية[النحل: ١٢٧]. [وقولِهِ][٩]: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧] هو على التخفيفِ ليسَ على النَّهْيِ.

وفي قولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ الآية وجهٌ آخَرُ، وهو نَهْيٌ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ البِشارةِ مِمّا كانَ يَخافُ مِنْ ضيقِ صَدْرِهِ واشْتِغالِ قلبِهِ عندَ سُوءِ معامَلَتِهِمْ إياهُ [في وجهَينِ:

أحدُهما: ما يَقَعُ][١٠] لهُ فيهِ في إبلاغِ ما أمرَ تبليغَهُ[البِشارةَ][١١]، فأمَّنَهُ اللهُ عَنْ ذلكَ، وعَصَمَهُ.

والوجهُ الثاني: في النَّهْيِ عنْ ذلكَ هو ما يَقَعُ لهُ فيهِ الرجاءُ؛ وذلكَ أنَّ الأخيارَ إذا ابْتُلُوا بالأشرارِ، وقد يُؤذَنُ لهُ في حالٍ مِنَ الأحوالِ بتأخيرِ التَّبليغِ،/ ٢٣٧ ـ أ/ فأياسَهُ عَنْ ذلكَ، وكَلَّفَهُ بتبليغِ ما أمَرَ لهُ في جميعِ أحوالِهِ.

[وقولُهُ تعالى:][١٢] ﴿بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ وعَيبِها وما تدعو إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ يضيقُ صدرُهُ بما يَقولونَ لهُ اسْتِهزاءً. وكذلكَ الحقُّ أنَّ كلَّ مَنِ اسْتَهزَأَ بِهِ يُضَيِّقُ[١٣] صَدْرَهُ، أو يَضيقُ صَدْرُهُ لِما لا يَقْدِرُ على إتيانِ ما طَلَبوا منهُ مِنَ المُلْكِ وإنزالِ المَلَكِ وقد وَعَدوا أنْ يؤمِنوا إنْ فَعَلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ لأنَّ لِلْكَنْزِ والمَلَكِ مَحَلّاً[١٤] في قلوبِ أولئكَ وقَدْراً[١٥]، فقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [فيُعَظِّموهُ، ويُصَدِّقوا ما يُوحَى إليهِ][١٦] ويَدْعُو. وكذلكَ المَلَكُ له مَحَلٌّ عظيمٌ عندَهُمْ؛ إذا كانَ معهُ عظَّموهُ، وصَدَّقوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ على إثرِ قولِهِمْ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ أي ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ليسَ عليكَ إتيانُ ما سألوا، إنما ذلكَ تَحَكُّمٌ منهُمْ على اللهِ وأماني، فعليكَ إبلاغُ ما أنْزَلَ إليكَ كقولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حفيظٌ لكلِّ ما يقولونَ فيكَ، ويَتَفَوَّهونَ بهِ، أو هو الوكيلُ أو الحفيظُ لا أنتَ كقولِهِ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]وقولِهِ: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧] ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: عظيم. (٢) في الأصل وم: وخفي عليهم بما. (٣) في الأصل وم: يحتمل على. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: يقال. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فيقع. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ادرج في الأصل وم قبلها: أن. (١٤) في الأصل وم: محل. (١٥) في الأصل وم: وقدر. (١٦) في الأصل وم: فيعظمونه فيصدق ما يوحى.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي قالوا: إنهُ افتراهُ، أي محمدٌ افترى هذا القرآنَ مِن عندِ نَفْسِهِ ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ إنْ [كُنْتُ افْتَرَيْتُهُ][1] على ما تقولونَ ﴿فَأْتُوا﴾ أنتمْ ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ لأنكُمْ أقدرُ على الافتِراءِ مِنْ محمدٍ لأنكُمْ قد عوَّدْتُمْ أنفُسَكُمُ الكَذِبَ والافتِراءَ، ومحمدٌ لم تأخذوهُ بِكَذِبٍ قطُّ، ولا ظَهَرَ منهُ افتِراءٌ. فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ الافتِراءَ والكَذِبَ أقدرُ عليهِ مِمَّنْ لم يَعْرِفْ [ذلكَ][2] قطُّ. ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا﴾ أيضاً شُهَداءَكُمْ مِنَ الجنِّ والإنسِ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُعِينوكُمْ[3] على إتيانِ مِثْلِهِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهُ افتراهُ مِن عندِهِ.

او يقولُ ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ أي إنَّ محمداً قد جاءَ بِسُوَرٍ فيها[4] أنباءُ ما أسْرَرْتُمْ، وأخفيتُمْ ما لا سبيلَ إلى معرفةِ ذلكَ والاطِّلاعِ عليهِ إلّا مِنْ جِهَةِ الوَحْيِ مِنَ السماءِ وإطلاعِ اللهِ إياهُ ﴿فَأْتُوا﴾ أنتمْ ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ فيها أنباءُ ما أضْمَرَ هو، وأسَرَّ، واطَّلَعْتُمْ[5] أنتمْ على سرائرِهِ [كما][6] اطَّلَعَ هو على سَرائِرِكُمْ. ﴿وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ مَنْ تعبدونَ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِنَ آلهةٍ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهُ افتراهُ.

أو يقولُ: إنَّ لِسانَكُمْ مِثْلُ لسانِ محمدٍ، فإنْ قَدَرَ هو على الافتِراءِ افتِراءِ مثلِهِ مِنْ عندِهِ، وتَقْدِرونَ أنتمْ على الافتِراءِ مثلِهِ، فأْتوا بِهِ، وادْعُوا أيضاً مَنْ لِسانُهُ مِثْلُ لِسانِكُمْ حتى يُعِينوكُمْ على ذلكَ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهُ افتراهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ وقولُهُ[7] تعالى في موضعٍ آخَرَ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] قالَ بعضُهُمْ [قولُهُ][8]: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ نَزَلَ قبلَ [قولِهِ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ ولم يَقْدِروا على مِثْلِهِ][9]؛ دُعُوا أوّلاً أنْ يأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ، فلما عَجزوا عنْ ذلكَ عندَ ذلكَ قالَ[10] لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [إنْ قيلَ: كيفَ ذُكِرَ ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾][11]؟ قيلَ: مَعناهُ: إنْ كانَ هذا ممّا يَحْتَمِلُ الافتِراءَ على ما تَزْعُمونَ فأْتُوا بِمِثْلِهِ أنتمْ لأنكمْ أقدرُ على الافتِراءِ مِنْ محمدٍ، فإنْ لم تَقْدِروا[لم يَقْدِرْ][12] أحدٌ على ذلكَ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما:][13] فإنْ لم تَقْدِروا أنتمْ، ولم يُجِيبوكُمْ أولئكَ على الإعانةِ على البَيانِ مِثْلِهِ ﴿فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ وبأمرِهِ أتاهُ، ومنْ عندِهِ نَزَلَ، لَيسَ بِمُفْترىً على ما تَزْعُمونَ ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أُلوهِيَّةَ لِمَنْ تَعبدونَ دونَهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ.

والثاني: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ يا أصحابَ رسولِ اللهِ، ولم يَقْدِروا على مثلِهِ ﴿فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ ومِنْ عندِهِ نَزَلَ على التنبيهِ والتذكيرِ لهمْ. وإنْ كانوا عَلِموا أنهُ مِنْ عندِهِ نَزَلَ كقولِهِ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] على التنبيهِ والتذكيرِ لَيسَ على أنهُ يُعْلَمُ. فَعَلى ذلكَ الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ خاضِعونَ لهُ مُخْلِصونَ. وعلى التأويلِ الأوّلِ على حقيقةِ الإسلامِ والإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآيةَ[اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ][14] في أهلِ الإيمانِ الذينَ[15] عَمِلوا الصالحاتِ مُراآةً لِلخَلْقِ، يقولُ ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [مِنَ الذِّكْرِ فيها][16] والشَّرَفِ، وما طَلَبوا بأعمالِهِمْ في الدنيا مِنَ المباحاتِ [وغيرِها آتاهُمُ][17] اللهُ في الدنيا جزاءً لتلكَ الأعمالِ التي عَمِلوها، وأبْطَلَ ما كانوا يَعْمَلونَ لأنهمْ عَمِلوا لِغَيرِ اللهِ، فلا يُجْزَوْنَ في الآخِرةِ بأعمالِهِمْ تلكَ. وإلى هذا يذهبُ ابنُ عباسٍ.

---

(١) في الأصل وم: كان افتراه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يعينونكم (٤) في الأصل وم: فيه. (٥) في الأصل وم: وتطلعون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ولم يقدروا على مثله، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾. (١٠) في الأصل وم: قبل. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أي (١٤) من م: ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: الذي. (١٦) من م، ساقطة من الأصل. (١٧) في الأصل وم: وغيره اتاه.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ «أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ سُئِلَ: مابالُ العبدِ المَعروفِ بالخيرِ يُشَدَّدُ عليهِ عندَ الموتِ، والرجلِ المعروفِ بالشَّرِّ يُهَوَّنُ عليهِ الموتُ؟ فقالَ: المؤمنُ تكونُ لهُ ذنوبٌ، فيُجازَى بها عندَ موتِهِ، فيَفْضِي إلى اللهِ في الآخِرَةِ، ولا ذَنْبَ عليهِ، والكافرُ يكونُ لهُ الحسناتُ، فيجازَى عندَ الموتِ؛ يُخَفَّفُ عنهُ كُرَبُ الموتِ، ثم يَفْضِي إلى الآخرةِ، ولَيسَتْ لهُ حَسَنَةٌ» [بنحوه السيوطي في الدر المنثور ج٤/٤٠٨ و٤٠٩] أو كلامٌ نَحْوَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في أهلِ الكُفرِ؛ يَعْمَلونَ أعمالاً في الظاهرِ صالحةً نَحْوَ التَّصَدُّقِ على الفقراءِ وعماراتِ الطُّرُقِ واتِّخاذِ القَناطِرِ والرِّباطاتِ[١]، هي في الظاهرِ صالحةٌ، يقولُ: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ نوفِّ لَهم جزاءَ أعمالِهِمُ التي عَمِلوها في الدنيا: لا نُنْقِصُ منها شيئاً، فهو ما وَسَّعَ عليهِمُ الدنيا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ أي نَرُدُّ[٢] إليهِمْ أعمالَهُمُ التي عَمِلوها، فلا نَقْبَلُها[٣]، ويكونُ إيفاءُ أعمالِهِمُ الرَّدَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي لا يُنْقَصونَ ما قُدِّرَ لهمْ مِنَ الرزقِ إلى انْقِضاءِ مُدَّتِهِمْ وآجالِهِمْ بِشِرْكِهِمْ باللهِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [لأنَّ مَن][٤] إذا راأى فيها لم يُخلِصْها للهِ، وضَيَّعَ أمرَهُ، وكلُّ مَنْ ضَيَّعَ أمرَ اللهِ وفَريضَتَهُ يَستَوجِبِ التعذيبَ عليهِ، ولهُ العَفْوُ، ولَيسَ في الآيةِ أنهُ لا مَحالةَ يُعَذِّبُهُمْ بعملهِمُ المُراءاةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٤]فيه دلالةُ نَقْضِ قولِ الجَهْمِيَّةِ والمُعْتَزِلَةِ بِنَفْيِهِمُ العِلْمَ عنِ اللهِ. وفي الآيةِ إثباتُ العِلْمِ لهُ بقولِهِ: ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قولُهُ: ﴿أَفَمَن﴾ حرفٌ يَقْتَضِي الجوابَ لهُ، [وهو لم][٥] يُخرَّجْ في الظاهرِ لأنَّ جوابَهُ أنْ يقولَ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كَمَنْ ليسَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧] وكقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩] لا يَعْلَمُ. فَعَلَى ذلكَ جوابُ قولِهِ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ كَمَنْ لا يكونُ على بَيِّنَةٍ منْ ربِّهِ.

لكنَّ الجوابَ عندَنا يكونُ على وجوهٍ: مَرَّةً يكونُ بالتَّصريحِ، وهو ما ذَكَرْنا، ومَرَّةً بالإشارةِ، ومَرَّةً بالكِنايَةِ على غيرِ تَصْريحٍ.

ثم منهمْ مَنْ يَجْعَلُ جوابَهُ ما تَقَدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية أي لا يكونُ كذلكَ .ومنهمْ مَنْ يَجْعَلُ جوابَهُ في ما تأخَّرَ، وهو قولُهُ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كَمَنْ يَكْفُرُ بهِ مِنَ الاحزابِ؛ أي لا يكونُ كذلكَ. وقالوا: يجوزُ تقديمُ الجوابِ وتأخيرُهُ كقولِهِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] لم يُخرَّجْ لهذا جوابٌ بالتصريحِ .

ثم اختَلَفوا في جوابِهِ في ما تأخَّرَ في قولِهِ:/ ٢٣٧ ـ ب/ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:٩] وصفَ الذينَ يَعْلَمونَ، فكأنهُ يقولُ: أفَمَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لا يَعْلَمُ.

ومنهمْ مَنْ يَجْعلُ جوابَهُ في قولِهِ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:٨] يقولُ: أمَنْ[٦] جَعَلَ للهِ أنداداً، وأضَلَّ عنْ سَبيلِهِ، وصارَ مِنْ أصحابِ النارِ كَمَنْ هو قانتٌ؟ أي لَيسا بِسواءٍ.

وقالَ مقاتلٌ: ليسَ الذي على بَيانٍ مِنْ ربِّهِ كالذي مَوعِدُهُ النارُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل : الربات. (٢) من م، في الأصل: يرد. (٣) في الأصل وم: يقبلوها. (٤) في الأصل وم: لأنه. (٥) في م: لم، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: من.

وجائزٌ أنْ يكونَ على طرحِ الألفِ: فَمَنْ ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ الآية؛ يقولُ: فَمَنْ كانَ على بَيانٍ مِنْ ربِّهِ أولئكَ يؤمنونَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ على دينٍ مِنْ ربِّهِ، أي مَنْ كانَ على دينٍ مِنَ[1] اللهِ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يَتْلو لِما هو عليهِ مِنَ الدينِ شاهدٌ منهُ كَمَنْ كانَ على دينِ الشيطانِ، ولا شاهِدَ لهُ عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على بُرْهانٍ مِنْ ربِّهِ وحُجَجٍ ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ على ذلكَ كَمَنْ لا على برهانٍ مِنْ ربِّهِ ولا حُجَجٍ وشاهِدٍ لهُ على ذلكَ؟

ثم قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ جبريلُ أو مَلَكٌ غَيرُهُ، يَتْلو عليهِ القرآنَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ هو القرآنُ ونَحوُهُ.

ثم قولُهُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ أصحابَ عيسى الذينَ آمَنوا بهِ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أصحابُ التوراةِ الذينَ آمَنوا بهِ ﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي هؤلاءِ الذينَ آمَنوا بهؤلاءِ هُمُ الذينَ يؤمنونَ بمحمدٍ عليهِ [أفضلُ الصلاة والسلام][2] وبما جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

قيلَ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ مِنْ قَبْلِ القرآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ جاءَ بهِ جبريلُ إلى موسى كما جاءَ بهذا القرآنِ ﴿إِمَامًا﴾ يُقْتَدَى بهِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِنَ العذابِ لهمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوراةُ ﴿إِمَامًا﴾ فيها أنباءُ هذا القرآنِ وأنباءُ محمدٍ أنهُ رسولُ اللهِ كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقولِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وأمثالِهما[3].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾][4]: كانَ كتابُ موسى، وهو التوراةُ، إماماً يُقْتَدَى بهِ، وكانَ رَحمةً أولئكَ [الذينَ][5] يؤمنونَ بهِ. قالَ: أصحابُ محمدٍ ﷺ الذينَ آمَنوا بهِ مِنْ أهلِ الكتابِ وغيرِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي مُؤمِنو[6] أهلَ التوراةِ؛ يؤمنونَ بالقرآنِ، ويَقْتَدونَ بهِ كما آمَنوا بالتوراةِ، واقْتَدَوا بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآنِ ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الأحزابُ: الفِرَقُ والأصنافُ.

يَحْتَمِلُ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآنِ مِنَ الفِرَقِ، ويَحْتَمِلُ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بمحمدٍ، ويَحْتَمِلُ الدينَ الذي هو عليهِ، ويَدعوهُمْ إليهِ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ إنْ ماتَ على ذلكَ. وأمّا إذا أسْلَمَ، وماتَ على الإسلامِ، فلا تكونُ النارُ مَوعِدَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يَحْتَمِلُ الوجوهَ[7] الثلاثةَ التي[8] ذكَرْنا مِنَ الدينِ والقرآنِ والنبيِّ [ويَحْتَمِلُ الخِطابَ نفسَهُ، ويَحْتَمِلُ][9] غيرَهُ لِما ذكَرْنا في قولِهِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧و...] [وقولِهِ][10]: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤و...] [وقولِهِ][11]: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] وأمثالِها[12]. فكذلكَ هذا. وقد ذكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تُزيلُ النَّهْيَ والأمرَ، بل تزيدُهما، لأنَّ بالعِصْمَةِ تَظْهَرُ موافَقَةُ الأمرِ و مخالَفَةُ النَّهْيِ والمَحْظورِ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل: الصلاة والسلام، في م: أفضل الصلاة. (٣) في الأصل وم: وأمثاله. (٤) في الأصل: وعن ابن عباس ﷺ قال إماماً ورحمةً، ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مؤمني. (٧) ادرج قبل هذه الكلمة في الأصل وم: في قوله. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: يحتمل هو نفسه ويحتمل الخطاب. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وأمثاله.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يَحتَمِلُ الدينَ الذي [هو][١] عليهِ، ويدعوهُمْ إليهِ، ويحتملُ هو نفسُهُ الحقَّ مِنْ ربِّهِ[٢] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هو ما ذَكَرْنا أنْ لا أحَدَ أظْلَمُ على نفسِهِ مِمَّنْ أخَذَ نفسَهُ مِنْ مَعْبودِهِ، وشَغَلَها في عِبادةِ مَنْ لا يَمْلِكُ نفعاً إنْ عَبَدَهُ، ولا ضَرًّا إنْ تَرَكَ عِبادَتَهُ. أو يقولُ: لا أحَدَ أظْلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنْ ألْقى نَفْسَهُ الطاهرةَ في عذابِ اللهِ ونَقْمَتِهِ أبداً بافْترائِهِ على اللهِ، وباللهِ العصمةُ والقوةُ. وفي التأويلِ: لا أحَدَ أظلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنِ افْترى على اللهِ كَذِباً مَعْنًى[٣]: لا أحَدَ أفحشُ ظلماً مِمَّنِ افْترى على اللهِ كَذِباً بَعْدَ معرفَتِهِ أنَّ جميعَ مالَهُ مِنَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئكَ الذينَ تُعْرَضُ أعمالُهُمْ على أنفُسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ؛ فإنْ وافَقَتْ أعمالُهُمْ ما في شهادةِ خِلْقَتِهِمْ أُدْخِلوا الجنَّةَ، وإنْ خالَفَتْ أعمالُهُمْ شهادةَ خِلْقَتِهِمْ أُدْخِلوا النارَ.

تُعْرَضُ على أنفسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ لأنَّ اللهَ ﷻ عالِمٌ بما كانَ منهُمْ مِنَ الأعمالِ والأقوالِ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي عندَ ربِّهِمْ كقولِهِ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٧ و٣٠] أي عندَ ربِّهِمْ؛ وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا: يُعْرَضونَ على ربِّهِمْ لأنفسِهِمْ لأنهمْ إنما يُؤْمَرونَ، ويُنْهَونَ، ويُمْتَحَنونَ لأنفسِهِمْ ولِمَنْفَعَةِ أنفسِهِمْ؛ فيكونُ عَرْضُهُمْ لهمْ: أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أولئكَ يُعْرَضونَ على [ما][٤] وَعَدَهُمْ ربُّهُمْ؛ في الدنيا، أو يقولُ: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ﴾ لأنفسِهِمْ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ غَيرِ غيبةٍ كانَتْ[٥] منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: الأشهادُ الرسُلُ والأنبياءُ، وقالَ بعضُهُمْ: الأشهادُ الملائكةُ، وقالَ بعضُهُمْ: الأشهادُ المؤمنونَ.

فمَنْ قالَ: همُ الأنبياءُ والمؤمنونَ فهو كقولِهِ[٦]: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وكقولِهِ ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ومَنْ قالَ: همُ الملائكةُ [فهو][٧] كقولِهِ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وكقولِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠و١١] ونحوُهُ. ومعناهُ، واللهُ أعلَمُ: تُعْرَضُ أعمالُهُمْ وأقوالُهُمْ على أنْفُسِهِمْ؛ فإنْ أقرّوا بها بُعِثوا إلى النارِ، وإنْ أنْكَروها[٨] يَشْهَدُ عليهِمْ ما ذَكَرْنا[٩] مِنَ الشهداءِ، فإنْ أنكروا ذلكَ فعندَ ذلكَ تَشْهَدُ عليهِمْ جوارِحُهُمْ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآية[النور: ٢٤]

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الملائكةُ نادَوا في مَلَإِ الخَلْقِ قَبْلَ أنْ يَدْخُلوا النارَ: هؤلاءِ الذينَ كَذَبوا على ربِّهِمْ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا[١٠] في شهادةِ الذينَ كانوا مُوكَّلينَ بكتابةِ أعمالِهِمْ وأقوالِهِمْ، يُخْبِرونَ ممّا كَتَبوا[١١] في الكتبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ اللعنةُ: قالَ بعضُهُمْ: هي الطرْدُ عنْ جميعِ المَنافِعِ، والإبعادُ عنْ رحمةِ اللهِ في الدنيا وفي الآخِرَةِ عنْ ثوابِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: اللعنةُ: هي العذابُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَصُدُّونَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: [يَحْتَمِلُ أنْ يُعْرِضوا][١٢] هُمْ بأنفسِهِمْ عنْ دينِ اللهِ، ويَحْتَمِلُ صَرْفَ الناسِ عنْ دينِ اللهِ. لكنهُ يَتَبَيَّنُ ذلكَ بالمصدرِ أنهُ أرادَ ذا أو ذا؛ يُقالُ في الإعراضِ بنفسِهِ: صَدَّ يَصُدُّ صُدُوداً كقولِهِ ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، ويُقالُ في صَرْفِ غيرِهِ: صَدَّ يَصُدُّ صَدّاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بَغَى[١٣] على دينِ اللهِ بالجَورِ، وقالَ بعضُهُمْ: يَبْغونَ مِنَ النساءِ: المَيلَ عنْ دينِ اللهِ إلى دينِهِمْ، فذلكَ هو بَغْيٌ. العِوَجِ كلُّ سَبيلٍ غَيرُ سَبيلِ [اللهِ][١٤] فهو عِوَجٌ وبَغْيٌ؛ كأنهُ قالَ: يَبْغونَ سَبِيلاً غَيرَ سَبيلِ اللهِ ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ في الدنيا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: ربك. (٣) في الأصل وم: وفي المعنى. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: كانَ. (٦) من م، في الأصل: لقوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنكروا. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: ذكر. (١١) من م، في الأصل: يكتبوا. (١٢) في الأصل: إذا عرضوا، في م: أن عرضوا. (١٣) في الأصل وم: بغاة. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يحتمِلُ وجهَين

أحدُهما](1): أولئكَ لم يكونوا مُعجِزي اللهِ في الدنيا مِنْ أنْ يُعذِّبَهُمْ ،ويَنتقِمَ منهُمْ، إن شاءَ.

والثاني: أولئكَ لم يكونوا سابِقي اللهِ في الآخِرَةِ في دفعِ العذابِ عن أنفُسِهِمْ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في الأئمَّةِ منهُمْ والجبابِرَةِ؛ يُخبِرُ أنهمْ غيرُ مُعجِزي اللهِ في ما يريدُ منهمْ مِنَ التعذيبِ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ هم حَسِبوا أنَّ أولئكَ الذينَ عَبَدوا دونَ اللهِ يَكونونَ لهمْ أولياءَ لأنهمْ/٢٣٨ ـ أ/ يَقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ويقولونَ(2): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كانوا يَطْمَعونَ في شفاعةِ الأصنامِ التي يَعْبُدونَها، والذينَ اتَّبَعوهُمْ يكونونَ لهمْ أولياءَ، فأخبَرَ أنْ ليسَ لهمْ أولياءُ على [ما](3) ظَنّوا، وحَسِبوا، بل يَكونونَ لهمْ أعداءً كقولِهِ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ الآية[الأحقاف: ٦] وأمثالُهُ كثيرٌ كقولِهِ(4): ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وكقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] أي لم يكنْ لهمْ ما طَمِعوا، وكقولِهِ(5): ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]صاروا لهمْ أعداءً على ما ذَكَرَ.

ويَحتمِلُ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ما لا يَنفَعُهُمْ وَلايةُ مَنِ اتَّخذوا أولياءَ كقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] ونَحوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يَدُلُّ على أنَّ قولَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٩] في الأئِمَّةِ الذينَ صَرَفوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: لِما ضَلّوهُمْ بأنفُسِهِمْ، والآخَرُ لِما صَرَفوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ قالَ المعتزلةُ: فيهِ وجهانِ(6):

أحدُهُما: أنهمْ كانوا يَسْمَعونَ، ويُبْصِرونَ، لكنهُمْ قالوا: لا يَستَطيعونَ السمعَ، ولا يُبْصِرونَ استِثْقالاً منهمْ لذلكَ، وهو كما يقولُ [القائلُ](7): ماأستطيعُ أنْ أنظُرَ إلى فلانٍ، ولا أسمعَ كلامَهُ، و هو ناظرٌ إليهِ، سامعٌ كلامَهُ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ؛ كانوا يَسْمَعونَ، ويُبْصِرونَ، لكنهُمْ كانوا يَستَثْقِلونَ السَّمْعَ والنَّظَرَ إليهِمْ[فَنَفى عنهُمْ](8) ذلكَ.

والثاني: كانوا لا يَستَطيعونَ السمعَ؛أي كانوا كأنهمْ لا يَستطيعونَ السَّمْعَ، ولا النَّظَرَ، وهو ما أخبَرَ ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨ و ١٧١] كانوا يَتصامُّونَ [ويَتعامَونَ عنِ](9) الحَقِّ.

وأمّا عندنا فالجوابُ(10) للتأويلِ: الأوّلِ: أنهمْ لايَستَطيعونَ السمعَ وما كانوا يُبْصِرونَ. السماعُ سَمْعُ الرحمةِ، والنظرُ إليهِ بِعَينِ الرحمةِ والقَبولِ. فَهُمْ مِنْ ذلكَ الوجهِ كانوا لا يَستَطيعونَ.

والثاني: يَحتَمِلُ سَمْعَ القلبِ وبَصَرَ القلبِ، وهُمْ كانوا لا يَستَطيعونَ السَّمْعَ سَمْعَ القَلْبِ وبَصَرَ القَلْبِ كقولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وهذهِ الإستِطاعةُ عندَنا هي استِطاعةُ الفِعْلِ لا استِطاعةُ الأحوالِ؛ إذ جوارِحُهُمْ كانَتْ سَليمةً صَحيحةً. فدلَّ أنها الإستِطاعةُ التي يكونُ بها الفِعْلُ لِما ذَكَرْنا.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بِما كانوا يَستَطيعونَ السَّمْعَ. ثم سُئِلَ الحَسَنُ عنْ ذلكَ، فقالَ: هو قولُ اللهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] إذا سَمِعوا الوَحْيَ تَقَنَّعوا في ثيابِهِمْ، فلم يَستَطيعوا احْتِمالَ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: أي (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وكقوله. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) في الأصل وم: وجهين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فنفاهم. (٩) في م: ويتعامون، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: الجواب.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وما كانوا يَسْتَطيعونَ السمعَ بالواوِ. وأمّا في حَرْفِ ابنِ مسعودٍ فظاهِرٌ[1] تأويلِهِ: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ بِما كانوا يَسْتَطيعونَ السمعَ، فلم يَسْمَعوا عِناداً وإبطالاً.

وأصْلُهُ: ما كانوا يَسْتَطيعونَ السمعَ المُكْتَسَبَ والبَصَرَ المُكْتَسَبَ عندَنا. وما ذُكِرَ مِنَ السمعِ والبَصَرِ هو السمعُ المُكْتَسَبُ والبَصَرُ المُكْتَسَبُ لأنَّ سَمْعَ الآخِرَةِ وحياتَها مُكْتَسبانِ[2]، وحياةَ الدنيا والسمعَ والبَصَرَ [فيها][3] مخلوقةٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ؛ أمّا في الدنيا فَعِبادَتُهُمْ[4] غَيرَ مَعْبودِهِمُ الذي كانَ منهُ جميعُ النِّعَمِ والمَنافِعِ، وما لَحِقَهُمْ بذلكَ مِنَ الذُّلِّ والصَّغارِ.

وأمّا في الآخِرَةِ فالعذابُ والهوانُ الدائمُ بَدَلاً عنِ النَّعيمِ الدائمِ ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ أي بَطَلَ عنهُمْ ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [مِنْ قولِهِمْ][5]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] [وقولِهِمْ][6]: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ الآية [الزمر: ٣] وأمثالِهِما[7].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿لَا جَرَمَ﴾ واجبٌ مِنَ الكلامِ؛ أي الحَقُّ ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي نَعَمْ ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾

وقالَ الفَرّاءُ: قولُهُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي لا بُدَّ، ولكنَّ الناسَ أكْثَروا استِعمالَهُ، فصارَ في مُتعارَفِهِمْ حَقًّا، ولا بُدَّ [أنَّ][8] في الحقيقةِ حَقًّا؛ لأنهُ إذا كانَ لا بُدَّ فهو حَقٌّ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللهِ وبجميعِ ما أُنْزِلَ على رسولِهِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولَزِموا ذلكَ حتى صاروا إلى اللهِ أولئكَ أصحابُ الجنةِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] أي مَنْ تابَ مِنَ الشِّرْكِ، وآمَنَ باللهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي ثم لَزِمَ ذلكَ حتى صارَ إلى هكذا. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ لَزِموا ذلكَ كلَّهُ حتى صاروا إلى اللهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ سُنَنَ الدينِ: أولئكَ كذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الإخباتُ التَّخَشُّعُ والتواضُعُ أي تَخَشَّعوا، وتواضَعوا فَرَقاً مِنْ رَبِّهِمْ، وقالَ بعضُهُمْ: أخْبَتوا أيِ اطْمَأَنّوا على ذلكَ، أولئكَ كذا.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ: أخْبَتوا][9]: خافوا مِنْ رَبِّهِمْ. وقالَ القُتَبِيُّ: أخْبَتوا أي تَواضَعوا لِرَبِّهِمْ، وقالَ: الإخباتُ التواضُعُ والوَقارُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الإخباتُ التوبَةُ، والمُخْبِتُ التائبُ. وقالَ غَيرُهُمْ: الإخباتُ هو التواضُعُ والخُشوعُ فمعناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي تَواضَعوا، وخَشَعوا بالإجابةِ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ رَبُّهُمْ، ونَدَبَهُمْ إليهِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ أي الصِّنْفَينِ[10] اللَّذينَ سَبَقَ وَصْفُهُما، وهو قولُهُ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الآية: ١٥] فهو وَصْفُ الكافِرِ. والفريقُ الآخَرُ قولُهُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ [الآية: ١٧] وفيهِ وَصْفُ المؤمِنِ.

أو يكونُ وَصْفُ الكافِرِ ما ذُكِرَ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الآيات: ١٨ ـ ٢١] هو وَصْفُ أحدِ الفريقَينِ، وهُمُ الكُفّارُ.

والفريقُ الآخَرُ ما ذُكِرَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [الآية: ٢٣].

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: مكتسبة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وأمثاله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أخبتوا قال. (١٠) من م، في الأصل: صنفين.

هذا، واللهُ أعلَمُ، [وَصفُ][١] الفريقَينِ اللَّذَينِ ضَرَبَ مَثَلَهُما بالأعْمَى والبَصيرِ والسَّميعِ [وَ الأَصَمِّ][٢]. ثم وجَّهَ ضَرْبَ مَثَلِ الكافِرِ بالأعمى والأصَمِّ، والمؤمِنِ بالبَصيرِ والسَّميعِ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الكافِرَ أعمَى القَلْبِ وأصَمُّ السمعِ؛ لم يُبْصِرْ ما غابَ عنهُ مِنَ الموعودِ، ولا يَسْمَعُ ما غابَ عنهُ مِنَ الموعودِ، وإنما أبْصَرَ ظواهِرَ الأمرِ، وكذلكَ إنما سَمِعَ ظواهِرَ مِنَ الأمورِ وبادِيَها، لم يَنْظُرْ إلى الغائِبِ [مِنَ المَوعودِ، ولا يَسْمَعُ ذلكَ، وهو لم يُخلَقْ لِمَعْرِفَةِ ذلكَ الظاهِرِ خاصةً، وإنما خُلِقَ لِما وُعِدَ[٣] في الغائبِ.

والمؤمِنُ أبْصَرَ ذلكَ الغائبَ][٤] وسَمِعَ ما غابَ مِنَ المَوعودِ، فيقولُ: كما يَسْتَوِي[٥] عندَكُمْ في الظاهِرِ البَصيرُ والأعْمَى والسميعُ والأصَمُّ، لم يُسَوَّ[٦] مَنْ كانَ عَمِيَّ القلب بِمَنْ[٧] كانَ بَصيرَ القَلْبِ بذلكَ، ولم يُسَوَّ[٨] أيضاً مَنْ بِهِ صَمَمُ القَلْبِ بِمَنْ كانَ سَميعاً بذلكَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنهما لم يَسْتَوِيا[٩].

أو يقولُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تَتَعِظونَ بما نَزَلَ مِنَ القرآنِ [وتَنْتَهونَ عما تُنْهَونَ][١٠]؟ والله أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وجوهٌ مِنَ الأسئِلَةِ:

أحَدُها: أنْ يُقالَ: كيفَ احْتَجَّ عليهِمْ، [وهُمْ على][١١] ما ذَكَرَ أنهمْ عُمْيَانٌ وصُمٌّ أو كالعُمْيانِ والصُّمِّ، ولا يُكَلَّفُ الأعْمَى الإبصارَ والنَّظَرَ ولا الأصَمُّ السماعَ؟

والثاني: [كيفَ][١٢] يقولونَ إنا بُصَراءُ وسُمَعاءُ، لَيسَ بنا صَمَمٌ ولا عَمىً، بل أنتمُ العُمْيانُ والصُّمُّ؟/ ٢٣٨ ـ ب/

والثالثُ: كيف ذَكَرَ المَثَلَ لهمْ، وهُمْ لا يَتَفَكَّرونَ، ولا يَنْظُرونَ في المَثَلِ، ولا يَلْتَفِتونَ إليه؟

أمّا جوابُ الأوَّلِ بأنهُ احْتَجَّ عليهِمْ لأنهمْ تَركوا اكْتِسابَ بَصَرِ الآخِرَةِ[١٣] وسَماعَ سَمْعِ الآخِرَةِ، فَنَفَى عنهُمُ السمعَ والبَصَرَ والحياةَ [فهو][١٤] لأنهُ يُبْصِرُ المَخْلوقَ، فَيَكْتَسِبُ بَصَراً في الدينِ وسَمْعاً في أمرِ الدينِ وحياةِ الدينِ، [فَيَصيرُ بذلكَ][١٥] مُكْتَسِباً الحياةَ الدائمةَ والبَصَرَ الدائمَ والسَّمْعَ الدائِمَ، فيكونونَ في الآخِرَةِ بُصَراء سُمَعاءَ أحياءً كقولِهِ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. نَفَى منهُمْ هذهِ الحواسَّ لأنهمْ لم يَنْتَفِعوا بها لأنَّ هذِهِ الحواسَّ إنما أُنْشِئَتْ لهمْ، وخُلِقَتْ، لِيَنْتَفِعوا بها، وهو المَقصودُ بإنشائِها. فإذا تَركوا الانْتِفاعَ بها [صارَتْ][١٦] كأنها لَيسَتْ لهمْ.

وأمّا جوابُ [الثاني، وهو][١٧] ما قالوا: إنا بُصَراءُ وسُمَعاءُ، وأنتمُ العُمْيانُ والصُّمُّ، [ففيهِ وجهانِ:

أحدُهُما: يُقالُ][١٨] لهمْ: إنَّ أهلَ الإسلامِ إذا سَمِعُوا ذلكَ فَقَدِ[١٩] اشْتَغلوا بالتَّفَكُّرِ في ما قَرَعَ أسماعَهُمْ مِنَ الآياتِ والنَّظَرِ فيها، وأنتمْ [لا، بل تَعامَيْتُمْ عنها، وتصامَمْتُمْ. ودلَّ][٢٠] تفكيرُهُمْ ونَظَرُهُمْ فيها على أنهمْ بُصَراءُ وسُمَعاءُ وأحياءٌ، وأنتمْ يا أهلَ الكُفرِ العُمْيانُ والصُّمُّ والأمواتُ.

والثاني: أنَّ هذهِ الآياتِ إنما نزلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ مكَّةَ، وهُمْ قد عَلِموا أنَّ آباءَهُمْ لو يكونوا حُكَماءَ ولا [عُلَماءَ، ولم][٢١] يكونوا ما ذَكَرَ بُصَراءَ ولا أحياءَ ولا سُمَعاءَ، فصاروا صُمًّا عُمياناً أمواتاً.

ولأنَّ أحَدَ الفريقَينِ، لا مَحالةَ ما ذَكَرَ، نحنُ أو هُمْ، ثم قدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا، وفي العقلِ والحكمَةِ التفريقُ بَينَهما، دلَّ[٢٢] أنهمْ بما ذَكَرَ أولَى.

وأمّا جوابُ ذِكرِ المَثَلِ لَهُمْ على عِلمٍ منهُمْ أنهمْ لا يَقْبَلونَ المَثَلَ، ولا يَنْظُرونَ [فيهِ، فهو لأنهُ][٢٣] ذُكِرَ لأهلِ الإسلامِ ولأنَّ ذِكرَ المَثَلِ أنهمْ رُبَّما يَبْعَثُهُمْ على النَّظَرِ فيهِ والتَّفَكُّرِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: وعدوا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يسبق. (٦) في الأصل وم: يستو. (٧) في الأصل وم: بما. (٨) في الأصل وم: يستو. (٩) في الأصل وم: يستويان. (١٠) في الأصل وم: وتنهون عما تنتهون. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: الآخر. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: مكتسب، في م: فيصير بذلك مكتسب. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: فيقال. (١٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل: الإبل تعاموا عنها وتصاموا فدل، في م: لابل تعاموا عنها وتصاموا فذل. (٢١) في الأصل وم: عالماً فلم. (٢٢) في الأصل وم: فدل. (٢٣) في الأصل وم: بأنه.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أخبَرَ أنهُ أرسَلَهُ إلى قومِهِ، ولم يُفْهَمْ منهُ الإرسالُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ولم يكنْ مَجيئُهُ مِنْ مكانٍ. فهذا يَدُلُّ أنهُ لا يُفْهَمُ مِنْ ذِكْرِ المَجيءِ الانتِقالُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وكذلكَ الإرسالُ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي نذيرٌ لِمَنْ عَصَى بالنارِ، وعقابُهُ بَيِّنُ الإنذارِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا تَجْعَلوا عِبادَتَكُمْ إلّا لِمَعْبودٍ، هو مَعْبودٌ بِشهادةِ خِلْقَتِكُمْ [التي][1] تَشْهَدُ على أنهُ هو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادةِ لا مَنْ تَعبدونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تعالى أي وَحِّدوا اللهَ، ولا تَصْرِفوا الأُلوهِيَّةَ إلى غيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أضافَ الألَمَ إلى اليومِ، واليومُ لَيسَ بمؤلمٍ، لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، [أضافَهُ إليهِ لِما فيهِ ما يُؤلِمُ كقولِهِ:][2] ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] والليلُ لا يَسْكُنُ، ولا يُوصَفُ [بالسُّكونِ][3] لكنهُ يُسْكَنُ فيهِ، وكذلكَ قولُهُ[4]: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] والنهارُ لا يُبْصِرُ، لكنهُ يُبْصَرُ فيهِ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ لِما فيهِ يكونُ العذابُ الأليمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي الخوفُ في غيرِهِ لا يكونُ في الحقيقةِ خوفاً، وكذلكَ الرجاءُ في غيرِهِ لا يكونُ في الحقيقةِ رَجاءً، وفي نفسِهِ يكونُ في الحقيقةِ خوفاً ورَجاءً لِما يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ في نفسِهِ إنْ [حَلَّ بهِ ذلكَ لا بِغَيرِهِ، ولا][5] يَلْحَقُهُ نَفْعٌ، فيكونُ الخوفُ في نفسِهِ حقيقةَ خَوفٍ، والرجاءُ حقيقةَ رَجاءٍ.

وأمّا في غَيرِهِ [فلا][6] لِما لا يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ، وإنْ حَلَّ ذلكَ [بغيرِهِ فلا][7] يَنالُ مِنَ النَّفْعِ في الرجاءِ إنْ نالَ ذلكَ الغَيرُ.

لكنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: على العِلْمِ أي إني أعلَمُ أنهُ يَنزِلُ بكُمُ العذابُ نَحْوُ قولِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥] أي عَلِمْتُمْ وقولِهِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أي فإنْ عَلِمْتُمْ أنْ يُضَيِّعا حدودَ اللهِ.

والثاني: يَخافُ عليكُمْ إشفاقاً منهُ لأنَّ الخَلْقَ جُبِلوا على أنْ يَتَألَّمَ [بعضٌ][8] بما يَحِلُّ بِغَيرٍ حتى لا يكونَ في وُسْعِ بَعْضٍ أنْ يَرَوا ذلكَ في غَيرِهِمْ[9].

على هذينِ الوجهَينِ يُخَرَّجُ الخوفُ على الغَيرِ[10]. وفي الخوفِ رَجاءٌ، وفي الرجاءِ خَوفٌ لأنَّ الخوفَ إذا لم يكنْ فيهِ رجاءٌ فهو إياسٌ، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] والرجاءُ إذا لم يكُنْ فيهِ خَوفٌ فهو أمْنٌ، وقالَ [اللهُ ﷻ][11]: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ قيلَ: أشرافُ قومِهِ وأئِمَّتُهُمْ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وكذلكَ قالَ عامَّةُ القومِ لِرُسُلِهِمُ الذينَ بُعِثوا إليهِمْ ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] كانَ هذا احتِجاجَهُمْ في رَدِّ الرسالةِ، يَحْتَجُّونَ على الرسُلِ، فَيَقولونَ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الرسُلَ في الشاهدِ إنما يَجيئونَ مِنْ عندِ المُرْسِلِ، وأنتُمْ نشَأْتُمْ مِنْ بينِ أظهُرِنا، لم تأتونا مِنْ أحَدٍ في الظاهرِ، والرسولُ هو الذي يأتي مِنْ عندِ غَيرٍ، ويكونُ لِلرُّسُلِ خُصوصيَّةٌ عندَ المُرسِلِ، ولا نَرَى لكَ خُصوصيَّةً لا في الخِلْقَةِ ولا في القُدْرَةِ والمالِ وغيرِهِ. فكيفَ بُعِثْتُمْ إلينا رُسُلاً دونَ أنْ نُبْعَثَ نَحْنُ إليكُمْ رُسُلاً، إذْ أنتُمْ ونحنُ في الخِلْقَةِ سَواءٌ، وفي الأمورِ الظاهرةِ سَواءٌ؟ أو نَحْوُهُ[12] مِنَ الكلامِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أضاف إليه لما فيه يؤلم وكقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: جعل به ذلك لغيره، و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لغيره لا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: غيره. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: نحو.

واحتَجُّوا على رُسُلِهِمْ في ردِّ الرسالةِ، وكذلكَ كانَتْ[1] عادةُ الكَفَرةِ؛ كانوا يقولونَ: إذا لَزِمَتْهُمُ الحجَّةُ، وأُقيمَتْ[2] عليهِمْ، نَسَبوها إلى السِّحْرِ، ونَسَبوا الرسُلَ أنهمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ.

فجوابُ هذا كُلِّهِ ما ذَكَر: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] وما قالَ لهمْ نوحٌ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود: ٢٨].

بِمِثْلِ هذا يُحتَجُّ عليهِمْ، ويُقالُ أيضاً: إنكُمْ لا تُنكِرونَ فَضْلَ اللهِ وتخصيصَ بعضٍ على بعضٍ بِفَضْلِ الدينِ والرسالةِ؟

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ احتَجُّوا أيضاً في ردِّ الرسالةِ؛ يقولونَ: إنَّ الأراذِلَ هُمْ أتباعٌ لكلِّ مَنْ دَعاهُمْ، وأهلُ طاعةٍ لكلِّ مَتبوعٍ، فَليسَ في اتِّباعِ الأراذِلِ إياكَ والضُّعَفاءِ دلالةُ ثُبوتِ رسالَتِكَ؛ إذْ هُمْ يَتَّبِعونَ بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ، وهمْ فُروعٌ وأتباعٌ لِغَيرٍ، ولَم يَتَّبِعْكَ أحدٌ مِنَ الأصولِ.

لكنْ يُقالُ: إنَّ هؤلاءِ الأراذِلَ لَمّا اتَّبعوا الرسُلَ، ولَم يَتَّبِعوا الأئِمَّةَ والرؤساءَ الذينَ مَعهمُ الأموالُ والدنيا، ولم يكُنْ في أيدي الرسُلِ ثَمَّ ذلكَ، ثم تركوا اتِّباعَ أولئكَ، وفي أيديهِمْ ما يَدعُوهُمْ إليه، واتَّبعوا الرسُلَ دلَّ أنهُمْ اتَّبعوا الرسُلَ [بالحُجَجِ والبراهينِ][3] التي أقاموها عليهِمْ أو نَحْوِها[4].

والأراذِلُ قيلَ: همُ السَّفَلَةُ والضُّعَفاءُ، وقالَ القُتَبيُّ: أراذِلُنا شِرارُنا.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ظاهِرَ الرأيِ، مِنْ قولِكَ: بدا لي ما كانَ خَفِيًّا، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ مِنْ قولِكَ: بدا لي ما كانَ خَفِيًّا، وقالَ بعضُهُمْ: خفيفَ الرَّأْيِ، لا يَعْرِفونَ حَقائِقَ الأمورِ، وإنما يَعْرِفونَ ظَواهِرَها كأنهمْ يَقولونَ: إنما اتَّبَعَكَ مَنْ كانَ خَفيفَ الرأيِ وبادِيَهُ، لم يَتَّبِعْكَ[6] مَنْ يَعرِفُ حَقائِقَ الأمورِ والأصولِ.

وقد قُرِئَ ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالهَمْزِ[7]، وقد قُرِئَ بِغَيرِ هَمْزٍ. ومَنْ قَرَأَ بالهَمْزِ فهوَ مِنَ الابتِداءِ أي في أوَّلِ الرأيِ وابتِدائِهِ، لا يَنْظُرُ في عواقِبِ الأمورِ. ومَنْ قَرَأَ بِغَيرِ هِمْزٍ فهو مِنَ الظهورِ أي ظاهِرِ الرأيِ[8] على تَفَكُّرٍ ونظرٍ فيه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ الآية؛ يَحْتَمِلُ هذا أيَّ فَضْلٍ[9] في الخِلْقَةِ أو في مِلكٍ أو مالٍ ولا في شَيءٍ. ولكنَّ جوابَ هذا ما سَبَق.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هكذا كانَتْ عادةُ الكَفَرَةِ يَرُدّونَ دلالاتِ الرسُلِ والحُجَجِ بالظَّنِّ، لم يَرُدُّوا بحقيقَةٍ ظَهَرَتْ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي على بَيانٍ مِنْ ربّي أو على حُجَّةٍ وبرهانٍ في ما آتاني مِنْ رَحْمَتِهِ. والرَّحْمَةُ تَحتَمِلُ النُّبُوَّةَ لأنهمْ كانوا يُنكِرونَ/ ٢٣٩ - أ/ رسالَتَهُ لِما أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، فكيفَ خُصَّ هو بها دونَهُمْ، وهو مِثْلُهُمْ؟

فيقولُ: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي النُّبُوَّةَ. وآتاني أيضاً على ذلكَ بَيِّنَةً وحُجَّةً. وتَحْتَمِلُ الرَّحْمَةُ الدينَ الذي كانَ يدعوهُمْ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ؛ [فَمَنْ قَرَأَ بالتخفيفِ فهو يعني][10] أي لُبِسَتْ أوِ الْتَبَسَتْ عليكُمْ حينَ[11] أعْرَضْتُمْ عنهُ؛ ومَنْ قَرَأَ بالتَّشديدِ ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ يُرْجِعُ إلى الأتباعِ والسَّفَلَةِ أي عُمِّيَتْ عليهِمْ: القادةِ والرُّؤَساءِ[12] ولُبِسَتْ، وعُمِيَتْ بالتخفيفِ أيِ الْتَبَسَ، وعُمِّيَ، على القادةِ والرُّؤَساءِ.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: وأقيم. (٣) في الأصل وم: بالحجة والبرهان. (٤) في الأصل وم: نحوه. (٥) ساقطة من الأصل: وم. (٦) في الأصل وم: يتبعوك. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/١٠٦. (٨) في الأصل وم: بالرأي. (٩) في الأصل وم: فضلاً. (١٠) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/١٠٧. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: منهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنوجبُها عليكُمْ؟ وهي التي ذَكَرَ أنهُ آتاهُ[1] البيِّنَةَ التي ذَكَرَ أيضاً والدينَ الذي كانَ يَدعوهُمْ إليهِ، أي لا نوجِبُها عليكُمْ، ولا نُلْزِمُها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي لا نُلْزِمُها لكمْ بلا حُجَّةٍ شِئتُمْ، أو أبَيْتُمْ، ولكنْ بِحُجَّةٍ. وفيهِ أنَّ الدينَ لا يُقْبَلُ بالإكراهِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما:][2] على تبليغِ الرسالةِ إليكُمْ أو على إقامةِ الحُجَّةِ على ما [أُبَلِّغُكُمْ مِنَ][3] الرسالةِ أو على الدينِ الذي أدعوكُمْ[4] إليهِ؛ أي لا أسألُكُمْ على ذلكَ أجراً. فلماذا تُعْرِضونَ عمّا أدعوكُمْ إليهِ، وأُقيمُهُ عليكُمْ ليكونَ لكُمُ الاحتِجاجُ أوِ الاعتِذارُ؟ وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] أي لا نَسألُكُمْ[5] أجراً على ما نُبَلِّغُهُ إليكُمْ، وندعوكُمْ إليهِ، فَيَمْنَعُكُمْ ثِقَلُ ذلكَ الغُرْمِ إجابَتَكُمْ إياهُ.

فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ؛ ذَكَرَ هذا لأنَّ ما يَلْحَقُ الإنسانَ مِنَ الضَّرَرِ إنما يَمْنَعُهُ عنِ الإذعانِ لِلْحَقِّ[6] والإقبالِ إليهِ والقِيامِ بِوَفائِهِ، أو يَمْنَعُ ذلكَ بما لا يَتَبَيَّنُ لهُ الحقُّ لئلا يكونَ لهمُ الاحتِجاجُ والاعتِذارُ عندَ اللهِ، وإنْ لم يكُنْ لهمْ حُجَّةٌ كقولِهِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ليسَ على انهُ إذا سألَهُمْ على ذلكَ أجراً يكونُ لهمْ عُذرٌ في رَدِّ ذلكَ وتَرْكِ الإجابةِ؛ إذْ لِلّهِ أنْ يُكَلِّفَهُمُ الإجابةَ والطاعةَ لهُ.

والثاني بقولِهِ: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على ما أدعوكُمْ إليهِ، وأُبَلِّغُهُ إليكُمْ مالاً معَ حاجَتي وقِلَّةِ مالي، فَيَقَعَ عندَكُمْ أني أدعوكُمْ إليهِ رغبةً في ما في أيديكُمْ مِنَ الأموالِ أو لِمَنْفَعَةِ نفسي، بل إنما أدعوكُمْ إليه لمنفعةِ أنفُسِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما أجْري إلّا على اللهِ في ذلكَ ليسَ عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فيهِ دلالةٌ: كأنهمْ كانوا سألوا رسولَهُمْ انْ يَتَّخِذَ لهمْ مَجْلِساً على حِدَةٍ، ويُفْرِدَ لهمْ ذلكَ دونَ الأراذِلِ والضُّعفاءِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢].

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي ما أنا بالذي لا أقبلُ الإيمانَ مِنَ الأراذِلِ والضعفاءِ مِثْلَكُمْ[7]: لِقولِهِمُ الذي[8] قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] لأنهمْ يقولونَ: اتَّبَعَكَ الأراذلُ ظاهراً، وأمّا في الباطِنِ فَلَيسوا على ذلكَ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١] يَعْني ما في قلوبِ السَّفَلَةِ، فيقولُ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ظاهراً: اللهُ أعلَمُ بما في قلوبِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ.

أحَدُهما: أي مُلاقوا ربِّهِمْ، فَيَشْكونَ مني إليهِ في رَدِّ إيمانِهِمْ، ويُخاصِمونَني في ذلكَ، ويُطالِبونَني] في طَرْدي إياهمْ.

والثاني: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ ظاهراً كانَ إيمانُهُمْ أو باطناً؛ أي في أيِّ حالٍ همْ مُلاقو ربِّهِمْ، فَيَجْزيهِمْ بِما هُمْ عليهِ كقولِهِ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ ما أدعوكُمْ إليهِ، أو ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في قولِكُمْ: إنهمْ آمَنوا، واتَّبَعوا في ظاهِرِ الحالِ، وأمّا في السِّرِّ فلا، أو ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مايَلْحَقُني في طردِكُمْ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي مَنْ يَمْنَعُني مِنْ عذابِ اللهِ إنْ أنا طَرَدْتُهُمْ على ما تَدْعونَني إليهِ، أو مَنْ يَمْنَعُني مِنْ عذابِ اللهِ إنْ لم أقْبَلْ منهمُ الإيمانَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا يَسْمَحُ[9] لي بما[10] تَدعونَني إليهِ مِنْ طَرْدِ هؤلاءِ أو رَدِّ إيمانِهِمْ، أو ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فَتؤْمِنوا[11].

---

(١) في الأصل وم: اتاها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ادعي من. (٤) في الأصل وم: يدعوكم. (٥) في الأصل وم: تسالهم. (٦) في الأصل وم: بالحق. (٧) في الأصل وم: عندكم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يسمع. (١٠) في الأصل وم: ما. (١١) في الأصل وم: فتؤمنون.

وما رُوِيَ في حرفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أَنُلْزِمُكُموها شَطْرَ أنفُسِنا؛ فمَعْناهُ: أَنُلْزِمُكُموها نَحْوَ أنفسِنا، وأنتمْ قومٌ مُعانِدونَ. وفي حرفِ ابْنِ عباسٍ: أَنُلْزِمُكموها مِنْ شَطْرِ أنفُسِنا؛ أي مِنْ تِلقاءِ أنفُسِنا؛ أي لا نَقْدِرُ أنْ نُلْزِمَكُمْ ذلكَ مِنْ تِلقاءِ أنفُسِنا، وأنتمْ كارِهونَ لِذلكَ.

الآية ٣١ وقولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ.

أحَدُها: يقولُ: ليسَ عندي خزائنُ اللهِ والسَّعَةُ، فأبذُلَ لكُمْ لِتُؤمِنوا رَغْبَةً في المالِ والسَّعَةِ.

والثاني: يقولُ: ليسَ عندي سَعَةٌ، فيَقَعَ عندَكُمْ أني أدعوكُم إلى ما أدعوكُم إليهِ افْتِعالاً لا رَغْبَةً في المالِ على مايَفْعَلُ المُفْتَعِلونَ لِلرَّغْبَةِ في المالِ، ولكنْ لِتَعْلَموا أني مُكَلَّفٌ في ذلكَ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ أسئِلَةٍ كانَتْ منهُمْ[1].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ هذا القولُ منهُ لهمْ يَحْتَمِلُ الوجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنه قالَ ذلكَ على إثْرِ أمورٍ، [والثاني: أنه قالَ ذلكَ على إثْرِ][2] أسئلةٍ كانَتْ منهُمْ مِنْ نَحْوِ قولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [الآية: ١٢] وقولِهِمْ لِرسولِ اللهِ ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ [الإسراء: ٩٠و٩١]. وقولِهِمْ: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] وأمثالِ ما كانَ منهُمْ، فيقولُ لهمْ: ليسَ عندي، وبِيَدي، إنما ذلكَ عندَ اللهِ وبِيَدِهِ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونُوا[4] سَألوهُ أنْ يُخبِرَهُمْ عنْ أمورٍ تَسْتَقْبِلُهُمْ قبلَ أنْ تَسْتَقْبِلَهُمْ، إن [كانَتْ شَرًّا يُعِدُّوا][5] لهُ في دفعِهِ، وإنْ كانَتْ مَنافِعَ يَسْتَقْبِلوها[6]، وَيَتَأَهَّبوا لها. فيَقولُ لهمْ: ذا غَيْبٌ، فأنا لا أعْلَمُ الغيبَ، إنما العِلْمُ في ذلكَ إلى اللهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أعْلَمُ أخبارَ السماءِ والأمورَ التي فيها ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠ وفصلت: ٦].

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][8] قالَ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي مَفاتيحُ اللهِ في الرزقِ. فهذا كأنهمْ سَألوهُ السَّعَةَ لِيَتَّبِعوهُ[9]، فيقولُ: ليسَ عندي ذلكَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ لهمُ الرسولُ هذا لِدَفْعِ الشُّبَهِ عنهُمْ؛ وذلكَ أنَّ مِنَ الكفارِ مَنِ اتَّخَذَ الرسولَ إلهاً، فعَبَدوهُ بَعْدَما عايَنوا أنهُ مِنَ البَشَرِ، ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنهُ ابْنُ اللهِ، ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنهُ مَلَكٌ، وكانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ، [وكانَ يُخبِرُهُمْ][10] عنْ أشياءَ غابَتْ عنهُمْ، وظَنُّوا أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ لأنهُ إلهٌ، فيقولُ لهم ذلكَ لِيَدْفَعَ عنهُمْ تلكَ الشُّبَهَ، ويَتَبَرَّأَ مِنْ ذلكَ.

ولذلكَ قالَ عيسى: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣٠و٣١] هو ﷺ كانَ يَعْلَمُ في نَفْسِهِ أنهُ عبدُ اللهِ، ولكنْ يقولُ لئلا يَنْسِبوهُ إلى الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ على ما نَسَبوا إليهِ، فأقَرَّ بالعُبوديَّةِ لهُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي مَفاتيحُ اللهِ بأنهُ يَهْدي السَّفَلَةَ دونَكُمْ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي لا أقولُ: إنَّ عندي غيبَ ذلكَ. إنَّ اللهَ يَهْديهِمْ، وهُمْ مؤمنونَ في السِّرِّ. وذلكَ كقولِهِ: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] وقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِنَ الصِّدْقِ ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي إنما أنا بَشَرٌ كقولِهِمْ[11]: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ [الآية: ٢٧] إلى آخِرِ الآيةِ.

ثم قالَ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ قيلَ: الذينَ حقَرْتُموهُمْ، يعني السَّفَلَةَ والأتباعَ.

---

(١) ذلك في تفسير الآية/ ٢٤. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يكون. (٥) في الأصل وم: كان شراً فيعدوا. (٦) في الأصل وم: فيستقبلوا لها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فيتبعونه. (١٠) في الأصل وم: وكانوا يخبرونهم. (١١) في الأصل وم: لقولهم.

وقالَ ابنُ عباسٍ: الذينَ لم تأخُذْهُمْ ﴿أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ يَعْني إيماناً ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ / ٢٣٩ - ب/ مِنَ الصدقِ ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهمْ إنْ لم أقبَلْ منهمُ الإيمانَ، أو طَرَدْتُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ قالوا ذلكَ لأنهُ قد كانَ طالَ عُمُرُهُ، وهو بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، ويَدْعوهُمْ إلى الإيمانِ، فأكْثَرَ حِجاجَهُ ومُجادَلَتَهُ إياهُمْ، فقالوا: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وكانَ يَعِدُهُمُ العذابَ إنْ لم يُجيبوهُ كقولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الآية: ٢٦] وما كانَ وَعَدَ لهمْ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ إنْ لم يُجيبوهُ، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِنَ العذابِ.

الآية ٣٣ فقالَ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ليسَ لي إتيانُ ذلكَ، إنما ذلكَ إلى اللهِ؛ إنْ شاءَ عَجَّلَ، وإنْ شاءَ أخَّرَ إلى ما بَعْدَ الموتِ؛ وهو كقولِ رسولِ اللهِ لقومِهِ: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا تُعْجِزونَ اللهَ عَنْ تَعْذيبِكُمْ، فتَفوتونَ عنهُ. وقيلَ: وما أنتُمْ بِسابقي اللهِ بأعمالِكُمُ الخبيثةِ حتى [لا][1] يَجزيَكُمْ بها، وهو واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، لا يَنْفَعُكُمْ دُعائي إلى ما بهِ نَجاتُكُمْ ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحي لكُمْ إنْ كانَ اللهُ [يُريدُ][2] أنْ يُعَذِّبَكُمْ في نارِ جَهَنَّمَ. ويكونُ[3] الغيُّ العذابَ كقولِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي عذابَ جَهَنَّمَ ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

وأمّا عندَنا فهو على ما أخْبَرَ: إنْ كانَ اللهُ يُريدُ إغواءَ قومٍ أبداً فهمْ في الغِوايَةِ. وأصلُهُ أنَّ اللهَ [إنْ][4] أرادَ غِوايَةَ مَنْ في عِلْمِهِ أنهُ يَختارُ الغِوايَةَ والضلالَ اختارَ عَداوَتِهِ. ولا يَجوزُ أنْ يُريدَ هو هدايَةَ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَختارُ عَداوَتَهُ لأنَّ ذلكَ يكونُ مِنَ الضَّعْفِ أنْ يَختارَ المَرْءُ وَلايَةَ مَنْ يَختارُ عداوَتَهُ. فَدَلَّ أنهُ لم يُرِدِ الهِدايَةَ لِمَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الغِوايَةِ والضلالِ.

ثم إضافةُ الإغواءِ والإزاغةِ والإضلالِ إلى اللهِ تُخرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنهُ يُنْشِئُ ذلكَ الفِعْلَ منهُمْ غَيّاً وزَيْغاً وضَلالاً لأنَّ فِعْلَهُمْ فِعْلُ غِوايَةٍ وزَيغٍ.

والثاني: أنهُ خَذَلَهُمْ، ولم يُوَفِّقْهُمْ، ولم يُرْشِدْهُمْ، ولم يَعْصِمْهُمْ، ولا سَدَّدَهُمْ. فَمِنْ ذلكَ الوجهِ ليسَ فِعْلُهُ فِعْلَ الذَّمِّ عليهِ حتى يَتَحَرَّجُ بالإضافةِ إلى الخَلْقِ ومِنَ الإضافةِ إلى الخَلْقِ يكونُ على الذمِّ لأنَّ فِعْلَهُمْ نَفْسَهُ فِعْلُ الغِوايَةِ والضلالِ، فاستَوجَبوا الذَّمَّ عليهِ بذلكَ.

والإغواءُ مِنَ الخَلْقِ هو الدعاءُ إلى ذلكَ أوِ الأمْرُ بِهِ، فهو مذمومٌ، يُذَمُّونَ على ذلكَ، وليسَ على [اللهِ][5] ذلكَ، وليسَ مِنَ اللهِ منْ هذا الوجهِ. ولكنْ على الوجهَيْنِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ دلالةُ تَعليقِ الشَّرطِ على الشَّرطِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي بل يقولونَ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مِنْ عندِ نَفْسِهِ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: قال قومُ نوحٍ [عنْ نوحٍ][6] ﷺ إنهُ افترى على اللهِ أنهُ رسولٌ إليهِمْ مِنَ اللهِ على ما سَبَقَ مِنْ دعائِهِ قومَهُ إلى دينِ اللهِ، فقالوا: إنهُ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: هو قولُ قومِ محمدٍ ﷺ قالوا: افْتَرى محمدٌ هذا القرآنَ مِنْ نَفْسِهِ، ليسَ هو مِنَ اللهِ على ما يَزْعُمُ؛ وهو ما قالَ في صَدْرِ السورةِ، وهو قولُهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [الآية: ١٣].

فَعلَى ذلكَ هذا هو قولُهُمْ [عَنْ رسولِ][7] اللهِ ﷺ إنهُ افْتَرَى هذا القرآنَ الذي يقولُ: هو مِنَ اللهِ، مِنْ نَفْسِهِ، فقالَ: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ﴾ جُرْمُ افْتِرائي وجزاؤُهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لنوح. (٧) في الأصل وم: لرسول.

[وقولُهُ تعالى](١): ﴿وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أي لا تُؤاخِذوني أنتمْ بِجُرْمِ أفْتري إنِ افْتَرَيْتُهُ، وأنا لا أُآخَذُ بإجرامِكُمْ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤] وكقولِهِ: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٥٢] فَعَلَى ذلكَ إجرامي.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ هذا القَولُ لهمْ لمّا أَيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: ١٥] لمّا أَيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ، وانْقَطَعَ طَمَعُهُ ورَجاؤُهُ عنْ إسلامِهِمْ قالَ لهمْ ذلكَ: أنْ لا مُحاجَّةَ بَيننا وبَينَكُمْ بَعْدَ هذا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ نوحاً ﷺ لم يَدْعُ على قومِهِ بالهلاكِ مادامَ يَرْجو، ويَطْمَعُ مِنْ قومِهِ الإيمانَ، فإذا أَيِسَ، وانقَطَعَ رَجاؤُهُ فحينَئذٍ دَعا عليهِمْ بالهلاكِ بقولِهِ(٢): ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ الآية [نوح: ٢٦ و٢٧] وعَرَفَ الإياسَ مِنْ إيمانِهِمْ بقولِهِ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ الآية، وكذلكَ سائرُ الأنبياءِ والرُّسُلِ لم يُؤْذَنْ لهمْ بالدعاءِ على قومِهِمْ بالهلاكِ والخروجِ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ ماداموا يَرْجونَ، ويَطْمَعونَ منهمُ الإيمانَ والإجابَةَ لهمْ، إذا أَيِسوا، وانقطَعَ رجاؤُهُم وطَمَعُهُمْ عَنْ ذلكَ. فعندَ ذلكَ أَذِنَ لهمْ بالدعاءِ عليهِمْ بالهلاكِ والخروجِ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ.

وفي قولِهِ: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ دلالةُ أنَّ لِلإيمانِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ والإبْتِداءِ في كلِّ وقتٍ وكلِّ حالٍ لأنهُ أخبَرَ أنَّ الذي قد آمَنَ قد يُؤْمِنُ في حادثِ الوقتِ. وعلى ذلكَ تُخرَّجُ الزياداتُ التي ذُكِرَتْ في الإيمانِ [كقولِهِ](٣): ﴿فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [التوبة: ١٢٤] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ قيلَ: لاتَحْزَنْ بِما كانوا يَفْعَلونَ. فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: لا تَحْزَنْ بكفرِهِمْ باللهِ وتكذيبِهِمْ إياكَ، ليسَ على النَّهْيِ عنِ الحزنِ في ذلكَ، ولكنْ على دَفْعِ الحُزْنِ عنهُ والتَّسَلّي بهِ لأنَّ الأنبياءَ ﷺ كانوا يَحْزَنونَ بِكُفْرِ قومِهِمْ باللهِ وجَعْلِهِمْ أنفُسَهُمْ أعداءً لهُ كقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦ والشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] وأمثالُهُ.

كانَ الأنبياءُ ﷺ أشَدَّ الناسِ حُزْناً بِكُفْرِ قومِهِمْ باللهِ وتكذيبِهِمْ آياتِهِ وأشَدَّهُمْ رغبَةً في إيمانِهِمْ. وكانَ حُزْنُهُمْ لم يكُنْ على هلاكِهِمْ. ألَا تَرَى أنَّ نوحاً دَعا عليهِمْ بالهلاكِ، وكذلكَ سائرُ الأنبياءِ ﷺ [كانَ حُزْنُهُمْ](٤) لِمَكانِ كُفرِهِمْ باللهِ وتكذيبِهِمْ آياتِهِ لا لِمَكانِ هَلاكِهِمْ إشفاقاً على أنْفُسِهِمْ؟

والثاني: قولُهُ: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنهمْ كانوا هَمّوا قَتْلَهُ والمَكْرَ بِهِ، فقالَ: لا تَحْزَنْ بما كانوا يَسْعَونَ في هلاكِكَ، فإني كافيهِمْ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ هو مِنَ الحزنِ؛ يُقالُ: يَبْتَئِسُ ابْتِئاساً؛ وقالَ(٥) الكسائيُّ: أيضاً ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي لا تَحْزَنْ؛ هو مِنَ البأسِ، يُقالُ: لا تَبْتَئِسْ بهذا الأمرِ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بأمْرِنا ﴿وَوَحۡيِنَا﴾. وقالَ بعضُهُمْ: بِمَنْظَرِنا ومَرْأًى مِنّا.

ولكنَّهُ(٦) عندَنا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي بِحِفْظِنا ورِعايَتِنا؛ يُقالُ: عَينُ اللهِ عليكَ، أي حِفْظُهُ عليكَ. ثم لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ [العَينُ نَفْسُها على ما يُفْهِمُ](٧) مِنْ قولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٢ و الأنفال: ٥١] ولكنْ ذَكَرَ الأيدي لِما في الشاهِدِ أنَّ ما يُقَدَّمُ باليَدِ، ويُكْتَسَبُ باليَدِ. فَعَلى ذلكَ ذَكَرَ العَينَ لِما بالعَينِ يُحْفَظُ في الشاهِدِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إن حزنهم كان. (٥) سقطت الواو من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ولكن. (٧) في الأصل وم: نفس العين على ما لا يفهم.

والثاني: قولُهُ: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بإعلامِنا أيّدكَ لأنهُ لولا تعليمُ اللهِ إياهُ اتّخاذَ السفينةِ ونَجرَها لم يكنْ لِيَعرِفَ أنْ كيفَ يَتّخِذُ؟ وكيفَ يَنْجُرُ، إنما عَرَفَ ذلكَ بتَعليمِ اللهِ إياهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهما][1]: يَحتمِلُ أي لا تَشفَعْ إليّ في نَجاةِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ في حُكْمِ اللهِ.

والثاني: لا تُخاطِبْني في هدايةِ الذينَ هُمْ في حُكْمِ اللهِ أنهمْ يَموتونَ ظَلَمَةً؛ أي لا تَسْألْني إيمانَ مَنْ في عِلْمِ اللهِ أنهُ لا يؤمِنُ.

وفيهِ نَهْيٌ [عنِ][2] السؤالِ عمّا في عِلْمِ اللهِ أنهُ لا يكونُ لأنهُ/ ٢٤٠ ـ أ/ إذا أخبَرَ أنهُ لا يكونُ، أو لا يَفعَلُ، فإذا سألَهُ كانَ يَسألُهُ أنْ يُكَذِّبَ خَبرَ أنهُ لا يكونُ.

وفيهِ أنَّ مَنْ أرادَ اللهُ إيمانَهُ[3] آمَنَ، ومَنْ لم يُرِدْ إيمانَهُ لا يُؤمِنُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ المَلأُ هُمُ الأشرافُ والرُّؤساءُ مِنْ قومِهِ ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ هُمُ الذينَ سَخِروا منهُ.

قالَ بعضُهُمْ: سُخْرِيّتُهُمْ منهُ أنْ قالوا: صارَ نَجّاراً بعدَ ما ادّعى لنفسِهِ الرسالةَ. وقالَ بعضُهُمْ: سُخرِيّتُهُمْ منهُ لمّا رَأَوهُ يَتّخِذُ الفُلْكَ، ولم يكُنْ هنالكَ بَحْرٌ، ولا وادٍ، ولا مياهٌ جاريةٌ، إنما هي آبارٌ لهمْ، فقالوا: يَتّخِذُ[4] السفينةَ لِيُسَيِّرَها في البراري والمَغاوِرِ، ونَحْوَهُ منَ الكلامِ. وقالَ: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾.

وقالَ [بَعضُهُمْ][5]: سُخْرِيّتُهُ منهُمْ أنه إذا رَكِبوا الفُلْكَ، ورَأوهمْ يَغْرَقونَ، قالوا: كُنتُمْ على حقٍّ وعلى هُدىً، ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

لكنَّ هذا لا يُعْلَمُ، ولا حاجةَ لنا إلى معرفةِ سُخْرِيّتِهِمْ أنْ كيفَ كانتْ؟ سِوَى أنَّ فيهِ سُخْرِيّةً منهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ أي نَجزيهِمْ جزاءَ سُخْرِيّتِهِمْ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هو وعيدٌ؛ أي سوفَ تَعْلَمونَ أنَّ حاصِلَ سُخْرِيّتِكُمْ رَجَعَ إليكُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٩] أي سوفَ تَعْلَمونَ إذا نَجَونا نَحْنُ، وغَرِقْتُمْ أنتمْ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي عذابٌ يَفْضَحُهُ، ويُهْلِكُهُ، وهو الغَرَقُ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي عذابٌ يَدومُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هو عذابُ الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وأمّا قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ سفينةَ نوحٍ كانَ طولُها كذا، وعَرضُها كذا، فليسَ لنا بذلكَ عِلْمٌ، ولا حاجةَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ. فإنْ صَحَّ ذلكَ فهو ما قالوا، وقولُهُمْ: كانَ لها ثلاثةُ أبوابٍ وثلاثةُ أطباقٍ. فذلكَ أيضاً لا نَعْرِفُهُ، ولا قوّةَ إلّا باللهِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قولُهُ: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي جاءَ وقتُ أمرِنا بالعذابِ الذي استَعْجَلوهُ كقولِهِمْ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] وكذلكَ كانتْ عادةُ الأُمَمِ السالِفَةِ استِعجالَ العذابِ مِنْ رُسُلِهِمْ.

سَمّى العذابَ أمْرَ اللهِ لِما لا صُنْعَ لأحدٍ فيهِ، وكذلكَ المَرَضُ سَمّاهُ أمْرَ اللهِ لِما لا صُنْعَ لأحدٍ مِنَ الخلائقِ فيهِ، وسَمّى الصلاةَ أمْرَ اللهِ لِما بِأمْرِهِ يُصَلّى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يُقالُ إذا فارَ الماءُ إذا خَرَجَ يَفورُ فوراً أي غَلَى كما تغلي القِدْرُ، وتَصْديقُهُ [قولُهُ][6]: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ ﴿تَكَادُ﴾ [الملك: ٧و٨] قالوا: فارَ أي خَرَجَ، وظَهَرَ.

والتَّنّورُ اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعضُهُمْ: التَّنّورُ هو وَجْهُ الأرضِ؛ قالُوا: إذا رأيتَ الماءَ قد خَرَجَ، ونَبَعَ، وظَهَرَ على وَجْهِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إيمان أحد. (٤) في الأصل وم: يتخذوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

الأرضِ، فَارْكَبْ، وقالَ بَعْضُهُمْ: التَّنُّورُ هو التَّنُّورُ الخابِزَةُ التي يُخْبَزُ فيها؛ قالوا: إذا رأيتَ الماءَ نَبَعَ مِنْ تَنورِكَ فَارْكَبْ؛ قالوا: كانَ الماءُ يَنْزِلُ مِنَ السماءِ، ويَنْبُعُ مِنَ الأرضِ كقولِهِ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١و١٢] لكنْ جَعَلَ علامةَ وقتِ ركوبِهِ السفينةَ هو خروجُ الماءِ مِنَ الأرضِ، ونبعُهُ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ويَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنْ كنا قُلْنا لهُ إذا فارَ التَّنُّورُ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ويَحْتَمِلُ أنْ قُلْنا لهُ وقتَ فورِ الماءِ مِنَ التَّنُّورِ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الزَّوجُ هو اسمُ فَرْدٍ لِذي شَفْعٍ، ليسَ هو اسْمَ الشَّفْعِ حتى يُقالَ عندَ الاجْتِماعِ ذلكَ، ولكنْ ما ذَكَرْنا أنهُ اسْمٌ لِذي شَفْعٍ؛ كأنَّ الإناثَ صِنْفٌ وزوجٌ، والذكورَ صِنْفٌ وزوجٌ، فيكونُ الذَّكَرُ والأُنثى زَوجَينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي مِنْ ذَكَرٍ وأنثى. ثم يَحْتَمِلُ زَوجَينِ مِنْ ذَوي الأرواحِ التي يكونُ لهمُ النَّسْلُ لئلا يَنْقَطِعَ نَسْلُهُمْ، ويَحْتَمِلُ ذَوي الأرواحِ وغيرَها[١]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أرادَ أهْلَهُ والذينَ آمَنوا مَعَهُ؛ يقولُ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ واحْمِلْ أهلَكَ أيضاً ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي إلّا مَنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ لا يؤمِنُ، وإلّا مَنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَهْلِكُ.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أرادَ أهلَهُ خاصَّةً، ثم اسْتَثْنى مَنْ سَبَقَ عليهِ القولُ، وهما[٢] ابنُهُ وزوجَتُهُ، وهما مِنْ أهلِهِ. ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ مَنْ آمَنَ مَعَهُ؛ وهو قولُهُ: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي احْمِلْ أهلَكَ الذينَ آمَنوا مَعَكَ ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ مِنْ أهْلِكَ وغيرِهِ[٣] إنهُ في الهالكينَ؟ أو يقولُ: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ إنهُ لا يؤمِنُ؛ فهذا يَدُلُّ أنَّ في أهلِهِ مَنْ كانَ ظالماً كافراً حينَ[٤] اسْتَثْنى مِنْ أهْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، تذكيراً لِرسولِ اللهِ ﷺ مِنَّتَهُ ونِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِ؛ لأنَّ نوحاً عليه السلام مَعَ طُولِ مُكْثِهِ بَينَ أظْهُرِ قومِهِ وكَثْرَةِ دُعائِهِ قومَهُ إلى دينِ اللهِ ومَواعِظِهِ لم يؤمِنْ إلّا القليلُ منهُمْ. ورسولُ اللهِ ﷺ مَعَ قِلَّةِ مُكْثِهِ وقِصَرِ عُمُرِهِ آمَنَ مِنْ قومِهِ الكثيرُ؛ يُعَرِّفُهُ نِعَمَهُ عليهِ.

وفيهِ دلالةُ ردِّ قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ المَواعِظَ إنما تَنْفَعُ المَوعوظَ على قَدْرِ اسْتِعمالِ الواعِظِ، وليسَ هكذا، ولكنْ على قَدْرِ قَبولِ المَوعوظِ إياها وقَدْرِ الإقبالِ إليها؛ لأنَّ نوحاً عليه السلام كانَ أشَدَّ الناسِ اسْتِعمالاً لِلْمواعِظِ وأكْثَرَهُمْ، ثم لم يؤمِنْ مِنْ قومِهِ إلا القليلُ. دلَّ أنهُ ليسَ لِما فَهِموا، ولكنْ لِما ذَكَرْنا.

وأمّا ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنهُ حَمَلَ في السفينةِ حَبّاتِ العِنَبِ، فأخَذَهُ إبليسُ، فلم يُعْطِهِ، إلّا أنْ يُعْطِيَ[٦] لهُ الشَّرِكَةَ، فذلكَ شيءٌ، لا عِلْمَ لنا بهِ. فإنْ ثَبَتَ ذلكَ فيكونُ فيه دلالةٌ أنْ ليسَ لهُ في سائِرِ الأنْبِذَةِ والأشرِبَةِ نَصيبٌ، إنما يكونُ لهُ في مايَخْرُجُ مِنَ العِنَبِ وتَقديرِ الثُّلُثِ والثُّلُثَينِ، إنما يكونُ في عَصيرِ العِنَبِ خاصَّةً، ليسَ في غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أنهُ قالَ لهمْ نوحٌ ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ وقولوا[٧]: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وهو كقولِ الناسِ: بِسْمِ اللهِ مِنْ أوَّلِهِ على مايُقالُ، ويُذْكَرُ اسْمُ اللهِ في افْتِتاحِ كلِّ أمْرٍ وكلِّ عملٍ مِنْ ركوبٍ ونزولٍ وغيرِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي باللهِ مَجراها ومُرْساها، أي بِهِ تَجْري، وبِهِ تَرْسُو، وإنهُ ليسَ كسائِرِ السُّفُنِ التي بأهلِها تَجْري، وبهمْ تَقِفُ، وهُمُ الذينَ يَتَوَلَّونَ، ويَتَكَلَّفونَ إجراءَها وَوُقوفَها. وأمّا سفينةُ نوحٍ كانَتْ جَرْيَتُها باللهِ، وبهِ رُسُوُّها، لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو ظاهِرٌ [أنَّ مَنْ][٨] آمَنَ بِهِ، وصَدَّقَ رسولَهُ، يُنْجِهِ[٩] مِنَ الغَرَقِ والهَلاكِ.

---

(١) في الأصل: غيره، في م: وغيره. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) من م، في الأصل: غيره. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أعطى. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لمن. (٩) في الأصل وم: ينجيه.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هذا يَدُلُّ على ماذَكَرْنا أنها كانَتْ باللهِ تَجْري، وبهِ تَرْسُو، حينَ[1] لم يَخافوا الغَرَقَ [مَعَ][2] ما كانَ مِنَ الأمواجِ.

وأمّا سائرُ السُّفُنِ فإنَّ أهلَها خافوا مِنْ أمواجِها لِما كانوا هُمُ الذينَ يَتَوَلَّوْنَ، ويَتَكَلَّفونَ إجراءَها وَوُقوفَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هذا يَدُلُّ على أنها كانَتْ آيةً لأنَّ الأمواجَ تَمْنَعُ مِنْ جَرَيانِ السفينةِ وسَيْرِها. فإذا أخبَرَ أنها لم تُمْنَعْ هذهِ مِنْ جَرَيانِها دَلَّ أنهُ أرادَ أنْ تَصيرَ آيةً لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي بِمَعْزِلٍ مِنْ نوحٍ، أو كانَ بِمَعْزِلٍ مِنَ السفينةِ، أو ما كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فَتَغْرَقَ[3]، أو ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لِنِعَمِ اللهِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي سأنضمُّ/ ٢٤٠ ـ ب/ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ ظَنَّ مسكينٌ أنَّ هذا الماءَ كغيرِهِ مِنَ المياهِ التي يُسْلَمُ منها[4] بالالْتِجاءِ إلى الجبالِ. فأخبرَهُ[5] ﷺ أنهُ ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مِنْ عذابِ اللهِ.

سَمَّى عذابَهُ أمرَ اللهِ لِما ذَكَرْنا [أنَّ][6] أمرَ اللهِ أمرُ تكوينٍ لأنهُ هو النهايةُ في الاِحْتِجاجِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ الآية [النحل: ٤٠] وهو كما يُسَمَّى البَعْثُ لقاءَ اللهِ لأنهُ هو النهايةُ في الاحْتِجاجِ على مَنْ يُنْكِرُ البَعْثَ. فَعَلى ذلك سَمَّى عذابَهُ أمرَ اللهِ، وهو أمرُ تكوينٍ لأنهُ هو النهايةُ في الاِحتِجاجِ على مَنْ يُنْكِرُ العَذابَ.

وقولُهُ تعالى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ اللهُ بهدايتِهِ إياهُ؛ إلّا مَنْ سَبَقَتْ لهُ الرحمةُ مِنَ اللهِ بالهدايةِ لهُ والنجاةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ بَيْنَ [نوحٍ وبَيْنَ ابنِهِ][7]. ويَحْتَمِلُ بَيْنَهُ وبَيْنَ السفينةِ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ يَحْتَمِلُ صارَ مِنَ المُغْرَقينَ. ويَحْتَمِلُ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَغْرَقُ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ قولَهُ في إبليسَ: إنهُ ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] أنهُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنهُ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَكْفُرُ.

والثاني[8]: صارَ مِنَ الكافرينَ كما ذَكَرَ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ ولم يكنْ مِنَ المُغْرَقينَ في الأزلِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ قالَ بعضُهُمْ: عادَ كلُّ ماءٍ إلى مِنْ حَيْثُ خَرَجَ: ما أُرسِلَ مِنَ السماءِ عادَ إليها، وما خَرَجَ مِنَ الأرضِ غاضَ في الأرضِ، وغارَ فيها. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ أمْسَكَتِ السماءُ عنْ إرسالِهِ، وأمْسَكَتِ الأرضُ عنْ نَبْعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ ليسَ على القولِ لهمْ، ولكنَّ اللهَ أمْسَكَهُما عن إرسالِهِ ونَبْعِهِ. ويَحْتَمِلُ على القولِ منهُمْ لهمْ باللطفِ وجَعْلِ فيهمْ ما يَفْهَمُ هذا ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي غارَ الماءُ في الأرضِ ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بِهَلاكِ قومِ نوحٍ. ويَحْتَمِلُ على التكوينِ على ما ذَكَرَ ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي اسْتَقَرَّتْ على الجُودِيِّ، وهو جَبَلٌ ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكاً. ويَحْتَمِلُ ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِنْ رحمةِ اللهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي مَوقِفُها[9]، وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يَمْنَعُني مِنَ الماءِ، وقولُهُ[10]: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: لا مَعْصومَ اليومَ مِنْ عذابِ اللهِ كقولِهِ: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي مدفوقٍ.

وأصْلُهُ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لا شيءَ يَمْنَعُ اليومَ مِنْ نُزولِ عذابِ اللهِ عليهِمْ، ولا دافِعَ لهمْ منهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لتغرق. (٤) في الأصل وم: إليها. (٥) في الأصل وم: فأخبر.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ابنه وبين نوح. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: تقف. (١٠) في الأصل وم: و.

الآيتان ٤٥ و٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية، فقالَ ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

هذا، واللهُ أعْلَمُ كانَ عندَ نوحٍ أنَّ ابنَهُ كانَ على دينِهِ لِما لَعَلَّهُ كانَ يُظْهِرُ الموافَقَةَ لهُ، وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ويَسْأَلَهُ نَجاتَهُ، وقد سَبَقَ منهُ النَّهْيُ في سؤالِ مِثْلِهِ [حينَ قالَ:][1] ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يَعْلَمُ أنهُ على غيرِ دينِهِ، ثم يَسْأَلَ لهُ النجاةَ بَعْدَ مانهاهُ عنِ المُخاطَبَةِ في الذينَ ظَلَموا، فقالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ في الباطنِ والسِّرِّ، وإلّا خُرِّجَ هذا القولُ مُخْرَجَ تكذيبِ رسولِهِ.

لكنَّ الوجْهَ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ كانَ في الظاهِرِ عندَهُ أنهُ على دينِهِ لِما كانَ يُظْهِرُ لهُ المُوافَقَةَ، وكانَ لا يَعْرِفُ مايُضْمِرُهُ، فَسَأَلَهُ على الظاهِرِ الذي عندَهُ أنهُ على دينِهِ لِما كانَ يُظْهِرُ لهُ الموافَقَةَ، وكانَ لا يَعْرِفُ مايُضْمِرُهُ، فَسَأَلَهُ على الظاهِرِ الذي عندَهُ.

وكذلكَ أهلُ النفاقِ كانوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ لِرسولِ[2] اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، ويُضْمِرونَ [الخِلافَ لهُمْ][3]، وكانوا لا يَعْرِفونَ نِفاقَهُمْ إلّا بَعْدَ إطْلاعِ اللهِ إياهُ.

فَعَلَى ذلكَ نوحٌ كانَ [لا][4] يَعْرِفُ ما يُضْمِرُ؛ لذلكَ خَرَجَ سؤالُهُ، فقالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذينَ[5] وَعَدَ النجاةَ لهمْ، أو ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأنهُ لم يُؤْمِنْ بي، ولم يُصَدِّقْكَ في ما أخْبَرْتَ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يقرأُ: عَمِلَ غيرَ صالحٍ بِغَيرِ تَنْوينٍ[6].

وعَنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قرأَ [﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ بالتَّنْوينِ. فَمَنْ قَرَأَ بالنصبِ عَمِلَ][7] غيرَ صالحٍ أي إنَّ ابْنَكَ عَمِلَ غيرَ صالحٍ. ومَنْ قَرَأَ: عَمَلٌ فَمَعْناهُ[8]، واللهُ أعلَمُ، أنَّ سؤالَكَ عَمَلٌ غَيْرُ صالحٍ بالتنوينِ. وكُلٌّ [مِنَ][9] القراءتَينِ يَجوزُ أنْ يُصرَفَ إلى ابْنِهِ أي أنهُ عَمِلَ غيرَ صالحٍ، وهو عَمَلُ الكُفْرِ، وعَمَلٌ غَيْرُ صالحٍ أيِ الذي كانوا عليهِ عَمَلٌ غَيْرُ صالحٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ثم قولُهُ[10]: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ هذا في الظاهِرِ يُخَرَّجُ على التكذيبِ لهُ. لكنَّ الوجهَ فيهِ أنهُ مِنْ أهلِكَ على ما عندَكَ، وليسَ مِنْ أهلِكَ في ما بَشَّرْتُكَ مِنْ نَجاةِ أهلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

[أحدُهما][11]: وإنَّ وَعْدَكَ بإغراقِ الظَّلَمَةِ حقٌّ.

والثاني][12]: وإنَّ وَعْدَكَ بِنَجاةِ المؤمنينَ حقٌّ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يَحْتَمِلُ هذا نَهياً عَنْ سُؤالٍ مِمّا لم يُؤْذَنْ لهُ مِنْ بَعْدُ، لأنَّ الأنبياءَ ﷺ كانوا لا يَسْألونَ شيئاً إلّا بَعْدَ الإذْنِ لهمْ في السؤالِ، وإنْ كانَ يَسَعُ لهمُ السؤالُ، أو أنْ يكونَ عِتاباً لِما سَبَقَ، والأنبياءُ ﷺ كانوا يُعاتَبونَ في أشياءَ تَحُلُّ بهِمْ. ذلكَ نَحْوُ قولِهِ لرسولِ اللهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [التوبة: ٤٣] وقد كانَ منهُ الأمرُ بالقعودِ والنَّهْيُ عنِ الخروجِ بقولِهِ: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] ونحوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ هو كما نَهَى رسولَ اللهِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] وأمثالُهُ، وإنْ كانَ معلوماً أنهُ لا يكونُ مِنَ الجاهلينَ، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ النَّهْيَ عنِ الشَّيءِ، بلِ النَّهْيُ يُظْهِرُ العِصْمَةَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم العبارة التالية: وكان لا يعرف ما يضمره فسأله على الظاهر الذي عنده وكذلك أهل النفاق يظهرون. (٣) في الأصل: الخلافة له، في م: الخلاف له. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الذي. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ١١٤. (٧) من م، في الأصل: بالنصب على. (٨) في الأصل وم: يكون معناه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إني أعوذُ بكَ أنْ أعودَ إلى سُؤالٍ، لا أعلَمُ بالإذْنِ في السؤالِ. هذا يُحتَمَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إنْ لم تغفِرْ لي بالعِصْمَةِ مِنَ العَوْدِ إلى مِثْلِهِ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِما لا يَسْتوجِبونَ الغُفْرانَ والرحْمَةَ إلّا بِرَحْمَةِ اللهِ وفضلِهِ على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ أنهُ قالَ: «لنْ تُدْخِلَ الجَنَّةُ إلّا برحمةِ اللهِ، قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برحمتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/٧١و...٢٨١٨/٧٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ هو طَلَبُ المَغْفِرَةِ بالكِنايَةِ، وهو أبْلَغُ وأكْبَرُ [مِنْ قولِهِ](١): اللهمَّ اغْفِرْ لي؛ كأنَّ في قولِهِ ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ قَطْعَ المَغْفِرَةِ عَنْ(٢) غيرِه، وإخباراً(٣) ألّا يَمْلِكَ أحدٌ ذلكَ، وليسَ في قولِهِ ﴿أَغْفِرْ لِي﴾ [الأعراف: ١٥١و..] قَطْعُ كونِ ذلكَ عنْ غيرِهِ. لذلكَ كانَ ذلكَ أبلَغَ منْ هذا. وكذلكَ سؤالُ آدمَ وحَوّاءَ المَغْفِرَةَ حينَ(٤) قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآيةَ [الأعراف: ٢٣] هو سؤالٌ بالكِنايةِ، فهو أبْلَغُ في السؤالِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ قالَ بعضُهُم: أي انزِلْ مِنَ الجُودِيِّ إلى مكانِ قرارِ الأرضِ. وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿ٱهْبِطْ﴾ أي انزِلْ، وأقِمْ على المُقامِ، وامْكُثْ في المكانِ، ليسَ على الهبوطِ مِنْ مكانٍ مُرْتَفِعٍ إلى مكانٍ مُنْحَدِرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ السلامَةُ [هي أنْ يَسْلَمَ مِنَ](٥) الشُّرُورِ والآفاتِ، والبَرَكَةُ هي نَيلُ كلِّ خيرٍ وبِرٍّ على غيرِ تَبِعَةٍ. ثم هما في التَّحصيلِ واحدٌ؛ لأنهُ إذا سَلِمَ [المَرْءُ مِنَ](٦) كلِّ شرٍّ وآفةٍ نالَ كلَّ خيرٍ وبِرٍّ، وإذا نالَ كلَّ خيرٍ سَلِمَ منَ(٧) كلِّ شرٍّ. هما في الحقيقةِ واحدٌ، لكنهما في العبارةِ [مُخْتَلِفانِ، وهما](٨) كالبِرِّ والتَّقْوى مِنَ العَبْدِ: البِرُّ هو كَسْبُ كلِّ خيرٍ، والتَّقْوى هو اتِّقاءُ كلِّ شرٍّ ومَعْصِيَةٍ؛ هما في العبارةِ مُخْتَلِفانِ، وفي الحقيقةِ واحدٌ؛ لأنهُ إذا اتَّقى كلَّ شرٍّ عَمِلَ كُلَّ خيرٍ وبِرٍّ، وإذا كسِبَ كلَّ خيرٍ وبِرٍّ اتَّقى كلَّ مَعْصِيَةٍ وشرٍّ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ الشُّكْرُ والصَّبْرُ؛ [فالصَّبْرُ](٩) هو كفُّ النَّفْسِ عنْ كلِّ مأثمٍ، /٢٤١ ـ أ/ والشكرُ هو اسْتِعْمالُ النفسِ في كُلِّ طاعةٍ. هما أيضاً في العبارةِ مُخْتَلِفانِ، وفي الحقيقةِ واحدٌ لأنهُ إذا كَفَّ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ مأثمٍ واسْتَعْمَلَها في الطاعةِ كَفَّها عَنْ كُلِّ مأثمٍ ومعصِيَةٍ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ الإسلامُ والإيمانُ: الإسلامُ [هو تَسْليمُ](١٠) النَّفْسِ للهِ خالِصَةً سالِمَةً، لا تُجْعَلُ لِغيرِهِ فيها حَقّاً، والإيمانُ هو أن يُصَدِّقَ اللهَ بالربوبِيَّةِ في نَفْسِهِ وفي كلِّ شيءٍ، وهما في الحقيقةِ واحدٌ، وفي العبارةِ مُخْتَلِفانِ؛ لأنهُ إذا جعلَ نَفْسَهُ وكلَّ شيءٍ سالماً للهِ أقَرَّ بالربوبِيَّةِ في نَفْسِهِ وفي كلِّ شيءٍ، وإذا صَدَّقَهُ، وأقَرَّ لهُ بالربوبِيَّةِ في نفسِهِ، [وجعَلَ نَفْسَهُ وكلَّ شيءٍ للهِ فَقَدْ آمَنَ](١١). هذهِ الأشياءُ في العِبارةِ مُخْتَلِفَةٌ وفي التَّحْصيلِ واحدٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [يحتمِلُ وجهينِ:

أحدُهمَا](١٢): جائزٌ أنْ يكونَ جوابَ قولِهِ ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ أمَّنَهُ مِمّا(١٣) خافَ، وطَلَبَ منهُ المَغْفِرَةَ والرحمةَ.

والثاني: السلامُ(١٤) منهُ هو الثناءُ الحَسَنُ كقولِهِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جوابَ قولِهِ: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩] والبركةُ هو اسمُ كُلِّ خيرٍ لا انْقِطاعَ لهُ، أوِ اسْمُ كلِّ شيءٍ لا تَبِعَةَ لهُ عليهِ فيه.

---

(١) في الأصل وم: عن قولهم. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: وأخبار. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: هو أن يسلم عن. (٦) في الأصل وم: عن. (٧) في الأصل وم: عن. (٨) في الأصل وم: مختلف، وهو. (٩) في م: الصبر، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: هو التسليم، في م: تسليم. (١١) في الأصل وم: وكل شيء جعلها لله وكل شيء له. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: عما. (١٤) في الأصل وم: السلامة.

ثم قولُهُ: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ على قولِ بعضِ أهلِ التأويلِ: ذلكَ السلامُ[١] لِما سَلِموا مِنَ الغَرَقِ، والبركاتُ ما نالوا في الدنيا مِنَ الخيراتِ والمَنافعِ.

وعلى قولِ بَعْضِهِمْ: السلامُ والبركاتُ جميعاً في الآخِرةِ.

ثم جعَلَ ﷻ المؤمنَ والكافرَ مُشترِكَينِ في مَنافعِ الدنيا وبركاتِها، وجَعَلَ مَنافعَ الآخِرةِ وبركاتِها لِلمؤمنينَ خاصةً بقولِهِ: ﴿ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨ وهود: ٤٩ والقصص: ٨٣] وبقولِهِ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ[٢] هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢] أشْرَكَ المؤمِنَ والكافِرَ في زينةِ الدنيا، ثم جعَلَها للمؤمنينَ خالصةً يومَ القيامةِ.

فذلكَ قولُهُ: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أخْبَرَ أنهُ يُمتِّعُهُمْ، ثم يُصيبُهُمْ عذابٌ أليمٌ، ويُمتِّعُ المؤمنَ أيضاً في هذهِ الدنيا بأنواعِ المنافعِ.

ثم أخْبَرَ أنَّ ﴿ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ثم جعَلَ العاقبةَ بإزاءِ ما جعَلَ لهمْ عذاباً أليماً؛ أعني الكَفَرَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ ولم يكُنْ معَ نوحٍ أُمَمٌ يومئذٍ، إنما كانَ[٣] مَعَهُ نَفَرٌ، ولكنهُ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، الأمَمَ التي كانوا مِنْ بَعْدِهِ. كأنهُ قالَ: وعلى أمَمٍ يكونونَ مِنْ بَعْدِكَ.

فهذا يدلُّ أنَّ دينَ الأنبياءِ والرسُلِ ﷺ [دينٌ واحدٌ][٤] وإنِ اختلَفَ شرائعُهُمْ لأنَّ تلكَ الأمَمَ لم يكونوا بأنفسِهِمْ معَ نوحٍ، ولا كانوا معهُ في العِباداتِ التي كانَ فيها نوحٌ. دلَّ أنهمْ كانوا جميعاً على دينِهِ، وهو واحدٌ، وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ دعاؤهُ ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ الآية [نوح: ٢٨] دعاءٌ بالمَغفرةِ لهُ ولكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، يكونُ مِنْ بَعْدِهِ، وكذلكَ يَلْحَقُ كلَّ[٥] كافرٍ دعاؤهُ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ [نوح: ٢٨].

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿تِلۡكَ﴾ أي قصةُ نوحٍ ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ غابَتْ عنكَ، لم تَشْهَدْها، ولم تَعْلَمْها ﴿أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾.

إنْ كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ قصةُ نوحٍ خاصَّةً وأنباؤهُ كانَ يَجيءُ أنْ يقولَ: هذهِ مِنْ أنباءِ الغيبِ، نُوحيها إليكَ، لكنهُ كأنهُ على الإضمارِ؛ أي هذِهِ الأنباءُ تلكَ الأنباءُ التي ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ. وإنْ كانَ المُرادُ هذِهِ وغيرُها مِنَ الأنباءِ [كانَ][٦] يصيرُ كأنهُ قالَ: هذِهِ مِنْ تلكَ الأنباءِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ القِصَصَ كلَّها قصةَ نوحٍ وغيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ غابَتْ عنكَ، لم تَشهَدْها، ولا تعلَمُها ﴿أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ خصَّ قومَهُ لأنَّ غيرَهُ مِنَ الأقوامِ قد كانوا عَرَفوا تلكَ الأنباءَ، فَيُخبِرونَهُمْ، فَيَعْرِفونَ بهِ صِدْقَ رسولِ اللهِ ﷺ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَهُمْ على ما أخْبَرَ أولئكَ الذينَ عَرَفوا تلكَ الأنباءَ بِكَسْبِهِمْ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ؛ إذْ تلكَ الأنباءُ كانَتْ بغيرِ لسانٍ، ولم يُعرَفْ أنهُ اختلَفَ لأحدٍ منهُمْ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ على تكذيبِهِمْ إياكَ وعلى أذاهُمْ، أوِ اصْبِرْ على ما أُمِرْتَ، ونُهيتَ، أو اصْبِرْ على [ما][٧] صَبَرَ إخوانُكَ مِنْ قَبْلُ كقولِهِ ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ونحوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا الشِّرْكَ، والذينَ[٨] اتَّقَوُا الشِّرْكَ والمَعاصيَ كُلَّها. والأشْبَهُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ اتِّقاءَ الشِّرْكِ لأنهُ ذَكَرَ بإزاءِ قولِهِ: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فهو في العَقْدِ أشْبَهُ.

---

(١) في الأصل وم: الاسلام. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم قال. (٣) في الأصل وم: كانوا. (٤) في الأصل وم: عما. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: وأمكن الذين.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ مِنَ السفينةِ ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ فَسَلَّمَهُ اللهُ ومَنْ مَعَهُ مِنَ الغَرَقِ ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ يَعْني بالبَرَكَةِ أنهمْ توالَدوا، وكَثُروا، بَعْدَما خَرَجوا مِنَ السفينَةِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][1] في قولِهِ: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ مِمَّنْ سَبَقَ لهُ في عِلْمِ اللهِ البَرَكاتُ والسعادَةُ مِنَ النَّبِيِّينَ وغَيرِهِمْ.

الآية ٥٠ **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الآية: ٢٥] فيقولُ: وقد أرسَلْنا هوداً إلى عادٍ أخاهُمْ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَخَاهُمْ﴾ الأُخُوَّةَ؛ تكونُ على وجوهٍ:

أحدُها: أُخُوَّةُ جِنْسٍ؛ يُقالُ: هذا أخو هذا [نَحْوُ مِصراعَيِ البابِ؛ يُقالُ لأحَدِهِما: هذا أخو هذا][2] وَنَحْوُ أحَدِ زَوجَيِ الخُفِّ وأمثالُهُ.

والثانيةُ[3]: أُخُوَّةٌ في النسبِ.

والثالثةُ[4]: أُخُوَّةٌ في الدينِ كقولِهِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩] فهو [إنْ][5] لم يكنْ أخاً لهمْ في الدينِ فهو يَحْتَمِلُ أنهُ أخوهُمْ في الجِنْسِ وفي النَّسَبِ لأنَّ الناسَ كلَّهُمْ يُنْسَبونَ إلى آدمَ، فَيُقالُ: بَنو آدمَ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ. فَعَلى ذلكَ يكونُ بعضُهُمْ لِبعضٍ إخوَةً مَعَ بُعدِ النَّسَبِ الذي بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ يُعْبَدُ؛ أيِ الذينَ تَعْبُدونَ ليسوا بآلهةٍ، لا يَسْتَحِقُّونَ العِبادَةَ. إنما الإلهُ الذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ لكُمُ الأشياءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي ما أنتُمْ إلا مُفْتَرونَ. لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هو[6] قد قالَ لهمْ هذا في أوَّلِ ما دَعاهُمْ إلى التوحيدِ وفي أوَّلِ ما رَدُّوا إجابَتَهُ، وكذَّبوهُ، [لأنَّ الأنبياءَ][7] أُمِروا بِلينِ القولِ لهمْ وتَذْكيرِ النعمَةِ عليهِمْ كقولِهِ لِموسَى وهارونَ حينَ[8] بَعَثَهُما إلى فِرْعَونَ بقولِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ الآية [طه: ٤٤] ولكنْ كأنهُ قالَ لهمْ ذلكَ لِما سَبَقَ منهُ إليهِمْ دعاءٌ غَيرَ مَرَّةٍ، وأقامَ عليهِمُ الحُجَّةَ والبراهينَ، فَرَدُّوها. فعندَ ذلكَ قالَ لهمْ هذا حينَ[9] ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [الآية: ٥٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ في تَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدوها؛ يقولُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ في ذلكَ. ويَحْتَمِلُ أنْ سَمَّاهُمْ مُفْتَرِينَ[10] في ما قالوا: اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ: أنتُمُ افْتَرَيْتُمْ في ما ادَّعَيْتُمُ الأمرَ بذلكَ،[11] أو مُفْتَرونَ في إنكارِكُمُ[12] البَعْثَ والرسالَةَ.

الآية ٥١ **وقولُهُ تعالى:** ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ هذا قد ذُكِرَ في غَيرِ مَوضِعٍ؛ يقولُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ، إني لا أسألُكُمْ على ما أدعوكُمْ إليه أجراً يَمْنَعُكُمْ ثِقَلُ ذلكَ الأجرِ وغُرْمُهُ عنِ الإجابَةِ. فما الذي يَمْنَعُكُمْ عنِ الإجابةِ لي، ولا يَحْمِلُكُمْ[13] على الرَّدِّ؟ بل أدعوكُمْ [إلى ما أدعوكُمْ][14] إليهِ ما ترغبونَ فيه، فكيفَ يَمْنَعُكُمْ عنِ الإجابةِ والنظرِ في ما أدعوكُمْ إليهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أني رسولُ اللهِ إليكُمْ بآياتٍ وحُجَجٍ، جِئْتُ بها؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنها آياتٌ وحُجَجٌ /٢٤١ ـ ب/ ونَحْوُها؟[15]

أو يقولُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ اللهَ واحدٌ، وأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقُ كلِّ شيءٍ ومُنْشِئُهُ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: لأحدهما. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: لأنهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: مفترون.
(١١) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] (١٢) في الأصل وم: إنكارهم. (١٣) في الأصل وم: ويحملكم. (١٤) في الأصل: على ما أدعوكم، ساقطة من م. (١٥) في الأصل وم: ونحوه.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [وقولُهُ][1] ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ واحداً، ويَحْتَمِلُ على التقديمِ والتأخيرِ: توبوا إليهِ، ثم اسْتَغْفِروا ما كانَ منكُمْ مِنَ المَساوئِ: أي أقْبِلوا إلى طاعةِ اللهِ، وانْدَموا على أفعالِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ مَعْلومٌ أنَّ هوداً لم يُرِدْ بقولِهِ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أنْ يَقولوا: نَسْتَغْفِرُ اللهَ، ولكنْ أمَرَهُمْ أنْ يَطْلُبوا السَّبَبَ الذي يُوجِبُ لهمُ المَغْفِرَةَ، ويُحِقُّ، وهو التوحيدُ. كأنهُ قالَ: وَحِّدوا ربَّكُمْ، وآمِنوا بهِ، ثم توبوا إليهِ، أو يقولُ: اطْلُبوا المَغْفِرَةَ بالإنْتِهاءِ عنِ الكُفرِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ كانَ قد انْقَطَعَ عنهمُ المطرُ، وانْقَطَعَ نَسْلُهُمْ، فأخبرَ أنكم إنْ تُبْتُمْ إلى اللهِ، واسْتَغْفَرْتُمْ ربَّكُمْ ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ الآية حتى تَتَناسَلُوا، وتَتَوالَدُوا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي يَزِدْكُمْ قُوَّةً [في][2] أفعالِكُمْ إلى قُوَّةِ أبدانِكُمْ لأنهمْ كانوا أهْلَ قُوَّةٍ وأهلَ بَطْشٍ بقولِهِمْ: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ويَحْتَمِلُ على الإبْتِداءِ: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ:

فقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عَمّا أدعوكُمْ إليهِ، فتكونوا ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ المجرمُ: قالَ أبو بكرٍ: هو الوَثّابُ في الإثمِ، وقيلَ: هو المُكْتَسِبُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ على ما تَدعُونا إليهِ أو على ما تَدَّعِي مِنَ الرسالةِ؛ فعندَ ذلكَ قالَ لهمْ هودٌ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ [الآية: ٥٠] [وقالوا][3]: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي ما نحنُ بِتارِكي عبادةِ آلهتِنا ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ أي بِقولِكَ. كانَ لا يَدْعوهُمْ هودٌ إلى تَرْكِ عبادةِ آلهتِهِمْ بِقولِهِ خاصَّةً، ولكنْ قد دعاهُمْ، وأقامَ على فسادِ [تلكَ العبادةِ][4] الحُجَجَ والبراهينَ. لكنهُمْ قالوا مُتَعَنِّتينَ مُكابِرينَ ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ في ما تَدْعونا إليهِ، وتَنْهانا أنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤنا.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ قيلَ: هو كانَ يَسُبُّ آلهتَهُمْ، ويَذْكُرُهُمْ بالعَيبِ، فَيقولونَ: إنهُ يَعْتَريكَ مِنْ [ذِكْرِ بَعْضِ آلِهَتِنا سوءٌ، أو تُصيبُكَ][5] بِجُنونٍ أو خَبَلٍ، فلا نُحِبُّ أنْ يُصيبَكَ منها [شيءٌ][6]، فاجْتَنِبْها سالماً. فذلكَ يُخَرَّجُ منهمْ مُخْرَجَ الإمْتِنانِ؛ أي إنما نَنْهاكَ عنْ سَبِّ آلِهَتِنا وذِكْرِ العَيبِ فيها إشْفاقاً عليكَ لئلا يُصيبَكَ شيءٌ منها.

وقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه قالوا: شَتَمْتَ آلهتَنا، فَخَبَلَتْكَ، وأصابَتْكَ بالجُنونِ؛ فَتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أنكَ إنما تَدْعونا إليهِ، وتَدَّعي ما تَدَّعي لِما أصابَتْكَ آلِهَتُنا بسوءٍ، واعْتَرَتْكَ بِجُنونٍ؛ كانوا يُخَوِّفونَهُ أنْ تُصيبَهُ[7] آلهتُهُمْ بِسوءٍ بِتَرْكِ عبادتِها على ما كانوا يَرْجونَ، ويَطْمَعونَ بعبادَتِهِمْ إياها وشفاعتِها [8] لهمْ.

[وقولُهُ تعالى][9] ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ بهِ، وتَعْبُدونَهُ مِنَ الآلهةِ.

الآية ٥٥ واشْهَدوا أنتمْ أيضاً بأني بريءٌ مِنْ ذلكَ [وقولُهُ تعالى][10] ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أنتمْ وآلهتُكُمْ في ما تَدْعونَني مِنَ الهلاكِ والسوءِ ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تُمْهِلوني في ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أنتمْ وآلهتُكُمْ جميعاً [يقولُ][11]: اعْمَلوا أنتمْ وآلهتُكُمْ جميعاً التي تَزْعُمونَ أنها

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ذلك. (٥) في الأصل وم: بعض آلهتنا بسوء أو يصيبوك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تصيب. (٨) في الأصل وم: شفاعتهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

خبَلْتني واخبَتْني ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تُمْهِلوني. وهذا مِنْ أشدِّ آياتِ النُّبوَّةِ لأنهُ يقولُ [لهمْ، وهو بَيْنَ أظْهُرِهِمْ وَحِيداً، فلولا أنهُ يقولُ][1] ذلكَ لهمْ بِقُوَّةٍ مِنَ اللهِ والاعْتِمادِ لهُ عليهِ والانْتِصارِ بهِ، وإلا ما اجْتَرَأَ أحدٌ أنْ يقولَ مِثْلَ هذا بَيْنَ أعدائِهِ.

عُلِمَ أنهُ قالَ ذلكَ باللهِ تعالى، وكذلكَ قولُ رسولِ اللهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ﴾ الآية[الأعراف: ١٩٥] وقولُ نوحٍ ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] وقولُ شُعيبٍ ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الآية: ٩٣] وأمثالُهُ قالوا ذلكَ بَيْنَ أظْهُرِ الأعداءِ، ولم يكُنْ معهمْ أنصارٌ ولا أعوانٌ. دلَّ أنهمْ قالوا ذلكَ باللهِ، وذلكَ مِنْ آياتِ النُّبوَّةِ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فَوَّضْتُ أمْري إليهِ، أو [وَكَّلْتُهُ جميعَ أعمالي][2]، أو وَثِقْتُ بهِ، واعْتَمَدْتُ عليهِ في ما تُوعِدُونَني مِنَ الهَلاكِ، أو تَوَكَّلْتُ عليهِ في دفعِ ما أوعَدْتُموني ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي كيفَ تُوعِدونني بآلهتِكُمُ التي تَعْبُدونَ؟ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨١].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ يُمِيتُها متى شاءَ. وقولُهُ: ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي في مُلْكِهِ وسلطانِهِ، يُقالُ: فلانٌ آخِذٌ بِحُلْقومِ فلانٍ، وفلانٌ بِقَبْضَةِ فلانٍ، ليسَ أنهُ في قَبْضَتِهِ بِنَفْسِهِ، وآخِذٌ بِحُلْقومِ فلانٍ، ولكنْ يُرادُ أنهُ في سلْطانِهِ وفي مُلْكِهِ وفي قَبْضَتِهِ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على الذي أمَرَني ربي، ودعاني إليهِ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إنَّ الذي أمَرَني ربي، ودعاني إليهِ، هو صراطٌ مستقيمٌ كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الاعْتِراءُ هو الأخْذُ؛ يُقالُ: اعْتَرَتْهُ الحُمَّى، أي أخَذَتْهُ، وقالَ القُتَبيُّ: الاعْتِراءُ الإصابةُ؛ يقولُ: ﴿إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ إلا أصابَكَ، يُقالُ: اعْتَرَيتُ أصَبْتُ، وهو ماذَكَرْنا.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ على الإضمارِ؛ أي فإنْ تَوَلَّوا عن إجابتِكَ وطاعتِكَ[فَقُلْ: قد أبْلَغْتُكُمْ][3] رسالاتِ ربي لأنَّ قولَهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ إنما هو خَبَرٌ، وقولُهُ: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ خِطابٌ. وأمكَنَ أنْ يكونا جَميعاً على الخِطابِ؛ يقولُ: فإنْ تَوَلَّيتُمْ عن إجابتي في ما أدعوكُمْ إليهِ ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ وليسَ عليَّ إلا تبليغُ الرسالةِ إليكُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤] وكقولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]يقولُ: إنما عليَّ إبلاغُ الرسالةِ إليكُمْ، ليسَ عليَّ جُرْمُ تَوَلِّيكُمْ عن إجابتي كقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خَلَفَكُمْ لأنهمْ كانوا يقولونَ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] يقولُ، واللهُ أعلم: إنَّ قُوَّةَ أبدانِكُمْ وبَطْشَكُمْ، لا يُعْجِزُ اللهَ عنْ إهلاكِكُمْ. وفيهِ أنَّ عاداً ليسوا هُمُ النهايةَ في العالمِ، بل يكونُ بَعْدَهُمْ قومٌ غيرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [يحتملُ وجوهاً:

أحَدُها][4]: لا تَضُرُّونَهُ بِتَوليتِكُمْ عن إجابتي ورَدِّكُمْ رسالةَ اللهِ إليكُمْ؛ ليسَ كملوكِ الأرضِ إذا تَوَلّى عنهُمْ خَدَمُهُمْ وحَشَمُهُمْ ضَرَّهُمْ ذلكَ.

والثاني: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾ كما يَضُرُّ ملوكُ الأرضِ بالقتالِ والحربِ بَعضَهُم بعضاً.

والثالثُ: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ لأنهُ لا مَنْفَعَةَ لهُ[5] في ما يَدْعوكُمْ حتى يَضُرَّهُ ذلكَ؛ إذْ لَيسَ يَدْعوكُمْ إلى ما يَدْعو لحاجةِ نَفْسِهِ ولا لِمَنْفَعَةٍ [لهُ][6]، إنما يأمُرُكُمْ، ويَدْعوكُمْ لحاجةِ أنفسِكُمْ والمَنْفَعَةِ لكُمْ.

والرابعُ[7]: أنْ يكونَ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ جوابَ قولِهِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ الآية [هود: ٥٥].

[وقولُهُ تعالى][8] ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ لا يَخْفى عليهِ شيءٌ، وإنْ لَطُفَ، فكيفَ يَخْفى عليهِ أعمالُكُمْ وأحوالُكُمْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: في جميع عملي إليه. (٣) في الأصل: فقال: قد أبلغتك، في م: فقل قد أبلغتك. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

مع ظُهورِها وبَذْوِها؟ أو يقولُ: إنّ ربي على كلِّ شيءٍ حفيظٌ، فَيَجْزي عليهِ؛ أي لا يذهبُ عنهُ شيءٌ، أي لا يَفوتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾ قولُهُ: ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أمرُ تَكوينٍ لا أمرٌ يَقْتَضِي الساعةَ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فَعَلى ذلكَ هذا هو أمرُ تَكوينٍ، وقد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ هذا يدلُّ أنَّ مَنْ نجا فإنما نجا برحمةٍ منهُ، لا بِعِلْمِهِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ «لا يَدْخُلُ أحدٌ الجنةَ إلا برحمةِ اللهِ، قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ / ٢٤٢ ـ أ/اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برحمتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/ ٧١ و. . و٢٨١٨/٧٨] لا على ما يقولُ المعتزلةُ: إنَّ مَنْ نجا فإنما ينجو بِعِلْمِهِ لا بِرَحْمَتِهِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [وجهَين]:

أحَدُهما[1]: الرحمةُ ههنا [هودٌ أي رَحِمَهُمْ بِهِ حينَ بَعَثَهُ][2] إليهِمْ رسولاً، فَنَجا مَنِ اتَّبَعَهُ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ أنَّ أهلَ الفَتْرَةِ مُعاقَبونَ في حالٍ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ مَنْ نجا فإنما نَجا بهودٍ، فَدَلَّ أنهمْ مُعاقَبونَ قَبْلَ بَعْثِ الرسلِ إليهِمْ.

والثاني[3]: قولُهُ ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ أي بتوفيقٍ مِنّا إيّاهُمْ نَجا مِنْ نَجا منهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَجَّيناهُ مِنَ العذابِ الذي أهلَكَ هؤلاءِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الوعدِ أي يُنَجِّيهِمْ في الآخرةِ ﴿مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ﴾ أي وتلكَ أهلُ قريةِ عادٍ ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ والكُفرُ[5] بالآياتِ كُفرٌ بجميعِ الرُّسُلِ، والكُفرُ بواحدٍ مِنَ الرُّسُلِ كُفرٌ بالرسُلِ جميعاً، وباللهِ التوفيقُ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الرُّسُلِ، يَدْعو إلى الإيمانِ باللهِ وبجميعِ الرُّسُلِ. فالإيمانُ بواحدٍ منهُمْ إيمانٌ باللهِ وبجميعِ الرُّسُلِ والآياتِ، والكُفْرُ بواحدةٍ[6] منها كُفرٌ باللهِ وبجميعِ الرُّسُلِ.

وإنما كانَ الكُفْرُ بالآياتِ كُفراً باللهِ لأنَّ اللهَ إنما يُعْرَفُ مِنْ جِهَةِ الآياتِ، والكفرَ بالآياتِ كُفرٌ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ قيلَ: أخْبَرَ أنهمُ اتَّبَعوا أمْرَ الجَبابِرَةِ، وأطاعوهُمْ، وتركوا اتِّباعَ الرُّسُلِ، وطاعَتَهُمْ. قيل: [الجَبّارُ][7] هو المُتَجَبِّرُ الذي يَتَجَبَّرُ على الرُّسُلِ، ويَتَكَبَّرُ عليهِمْ؛ لأنَّ الرؤساءَ منهُمْ كانوا يَتَجَبَّرونَ على الرُّسُلِ، ويَتَكَبَّرونَ. والأتباعُ اتَّبَعوا الرُّؤَساءَ في عمَلِهِمْ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الجَبّارُ هو المُتَجَبِّرُ، والعَنيدُ هو المُعانِدُ المُخالِفُ، وقالَ القُتَبِيُّ: العَنودُ والعَنيدُ والمُعانِدُ المعارِضُ لكَ بالخِلافِ عليكَ، وقالَ أبو عُبيدةَ: العَنيدُ والمُعانِدُ هو الجَبّارُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اللَّعْنُ هو العذابُ؛ أي أُتْبِعوا في الدنيا وفي الآخِرَةِ [العذابَ][8] كقولِهِ ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] أي عَذابُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ أي أُلْحِقوا. وقيلَ: إنَّ اللعنَ هو الطردُ، طُرِدوا مِنْ رحمةِ اللهِ حتى لا ينالوها[9] لا في الدنيا ولا في الآخِرَةِ ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ أي ألا بُعْداً مِنْ رحمةِ اللهِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ هو ما ذَكَرْنا؛ أي أرسَلْنا إلى ثمودَ أخاهُمْ صالحاً، وقولُهُ: ﴿أَخَاهُمۡ﴾ قد ذَكَرْنا أيضاً أنَّ الأُخُوَّةَ تَتَّجِهُ إلى وجوهٍ ثلاثةٍ: أُخُوَّةٌ في الدينِ وأُخُوَّةُ الجِنْسِ وأُخُوَّةٌ في النسبِ.

---

(١) في الأصل وم: وجوها. (٢) في الأصل وم: هوداً أي رحمهم به حيث بعث. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: والثالث.
(٥) في الأصل وم: بالكفر. (٦) في الأصل وم: بواحد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ينالونها.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إنَّ الرُّسلَ جميعاً، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، أوَّلَ ما دَعَوا قومَهُمْ إنما دَعَوا إلى توحيدِ اللهِ، وجَعْلِ العِبادةِ لهُ لأنَّ غيرَها[1] مِنَ العِباداتِ إنما تقومُ بالتوحيدِ، وكانَ أوَّلُ ما دَعَوا قومَهُمْ إليهِ لم يَزَلْ عادةَ الرُّسُلِ، وعَلَّموهُمُ[2] الدعاءَ إلى توحيدِ اللهِ والعبادةَ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يقولُ: هو خَلَقَكُمْ مِنْ آدمَ، وخَلَقَ آدمَ مِنَ الأرضِ. لكنهُ أضافَ خَلْقَ الخلائقِ إليها كما أضافَ في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩] أخبَرَ أنهُ خَلَقَنا مِنْ نفسِهِ أي آدمَ، وإنْ لم تكنْ أنفُسنا فيهِ.

فعَلَى ذلكَ إضافَتُهُ إيانا بالخَلْقِ مِنَ الأرضِ، وإنْ لم يَخْلُقْ أنفُسَنا منها؛ أي خَلَقَ أصْلَنا، وأنشأَهُ مِنَ الأرضِ، فأضافَ إنشاءَنا إلى ما أنشأَ أصْلَنا.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي جَعَلَ نَشْأَ الخلائقِ كلِّهِمْ ونماءَهُمْ وحَياتَهُمْ ومَعاشَهُمْ بالخارجِ مِنَ الأرضِ؛ إذْ بهِ نَشأتُهُمْ و نَماؤُهُمْ وحياتُهُمْ وقِوامُهُمْ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أسكَنَكُمْ فيها، وقالَ بعضُهُمْ: استَخْلَفَكُمْ فيها، وقالَ غيرُهُمْ[3]: قولُهُ ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جَعَلَكُمْ عُمّارَ الأرضِ؛ تَعْمُرونها [لِمعادِكُمْ ومعاشِكُمْ][4] جَعَلَ عَمارةَ هذهِ الأرضِ إلى الخَلْقِ؛ هُمُ الذينَ يَقومونَ بِعِمارَتِها وبِنائِها وأنواعِ الانتفاعِ بها، ويَرْجِعُ كُلُّهُ إلى واحِدٍ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جَعَلَ عُمُرَكُمْ طويلاً

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ هذا قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في قصةِ نوحٍ: أي كونوا بحالٍ، يَغْفِرُ لكم هو كقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] كأنهُ قالَ: فإنِ انْتَهوا عنِ الكُفْرِ يُغْفَرْ لهمْ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ لِحِفْظِ الخَلائقِ، أو قريبٌ لِمَنْ أنْعَمَ عليهِمْ وأمثالِهِمْ[6]، أو قريبٌ إلى كلِّ مَنْ يَفْزَعُ إليهِ، مُجيبٌ لِدُعاءِ كلِّ داعٍ، استَجابَ لهُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى﴾ الآية [البقرة: ١٨٦] وكقولِهِ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾ الآية [البقرة: ٤٠].

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُمْ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ كُنتَ تَرحَمُ الضُّعفاءَ، وتَعودُ المَرْضى، ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ، فالساعةَ صِرْتَ على خِلافِ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ كُنّا نَرجو أنْ تَرْجِعَ إلى دينِنا قَبْلَ هذا الذي تَدْعونا إليهِ، فالساعةَ صِرْتَ، تَشْتُمُ آلِهَتَنا، وتَذْكُرُها بِعَيبٍ ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي ما كُنّا نَعْرِفُ أنَّ آباءَنا عندَكَ سُفَهاءَ مِنْ قَبْلِ هذا، فالساعةَ تُسَفِّهُ أحلامَهُمْ في عِبادَتِهِمُ الأصنامَ ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أو كانوا يذكرونَ هذا لهُ احتِجاجاً لهمْ عليهِ في ما دَعاهُمْ إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِهِمْ إياهُ، فقالُوا: إنّا على يَقينٍ أنَّ آباءَنا قد عَبَدوا هذهِ الأصنامَ ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي يُريبُنا أمْرُكَ ودُعاؤُكَ لنا إلى هذا الدينِ.

قد قيلَ هذا، ولكنّا لا نَعْلَمُ ما كانوا يَرْجُونَ فيهِ، وما المَعْنى الذي قالوا لهُ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ سِوى أنا نَعْلَمُ أنهُ كانَ مَرْجُوّاً فيهِمْ في العقلِ والدينِ والعِلْمِ والبَصيرةِ ونَحْوِهِ؟ فكانَ مَرْجُوّاً فيهِمْ بالأشياءِ التي ذَكَرْنا.

هذا [ما][7] نَعْلَمُ، ولا نَعْلَمُ ما عَنَى أولئكَ بقولِهِمْ ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ﴾ [يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][8] أي كُنتُ على حُجّةٍ وبُرْهانٍ وبَيانٍ مِنْ رَبّي في ما أدعوكُمْ إلى توحيدِ اللهِ وصَرْفِ العِبادةِ إليهِ

(١) في الأصل وم: غيره. (٢) في الأصل وم: وعلمهم. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل وم: لمعادهم ومعاشهم. (٥) في الأصل وم: لكم. (٦) في الأصل وم: وأمثاله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: قولُهُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ أي آتاني هُدىً ونُبُوَّةً مِنْ عندِهِ ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي مَنْ يَمنَعُني مِنْ عذابِ اللهِ ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ ورَجعْتُ إلى دينِكُمْ؟ أي لا أحَدَ يَنصُرُني لو أجَبْتُكُمْ إلى ما دَعوتُموني إليهِ؛ أي لا أحدَ يَنصُرُني دونَ اللهِ لو أجَبْتُكُمْ، وأطَعْتُكُمْ في ما دَعوتُموني إليهِ.

ثم الذي دَعوهُ إليهِ يَحتَمِلُ تَرْكَ تبليغِ الرسالةِ إليهِمْ أو دَعْوتَهُ إلى عِبادةِ الأصنامِ التي عَبَدوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: فما تزيدونني بِمُجادَلَتِكُمْ إيّايَ في ما تُجادِلونَني إلّا خُسْراناً. وقالَ بعضُهُمْ: فما تزيدونني بِمَعْصِيَتِكُمْ إيّايَ إلا خُسْراناً لأنفُسِكُمْ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ أي[1] غيرَ نُقصانٍ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ هو مِنَ الخُسْرانِ؛ خَسَّرْتُهُ أي ألْزَمْتُهُ الخُسْرانَ.

الآية ٦٤ وقولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ قالَ لهمْ هذا حينَ سألوا منهُ الآيةَ، فقالَ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ أي لكُمُ الآيةُ[2] التي سَألْتُموها مِنَ الرسالةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافَها[3] إليهِ لِخُصوصِيَّةٍ كانَتْ فيها، /٢٤٢ ـ ب/ نحنُ لا نعرِفُها[4]. لَيسَتْ تلكَ الخُصوصِيَّةُ في غَيرِها مِنَ النوقِ لمّا جَعَلَها آيةً لِرِسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ خارجةً عمّا عايَنوا مِنَ النوقِ، وشاهَدوها. وهكذا كانَتْ آياتُ الرُّسُلِ؛ كانَتْ خارجةً عَنْ وُسْعِ البَشَرِ. وطَوقِهِمْ لِيُعْلَمَ أنها سَماويَّةٌ.

ثم لا نَعرِفُ [لها خُصوصيَّةً سِوى][5] عِظَمِ جِسْمِها وغِلَظِ بَدَنِها حينَ[6] قَسَمَ الشُّرْبَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَها حتى جَعَلَ يوماً لها ويوماً لهمْ بقولِهِ: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ولم يَقْسِمْ مَراعِيَها بَيْنَها وبَيْنَهُمْ بقولِهِ ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾

وأمّا ما قالَهُ بَعْضُ الناسِ أنها خَرَجَتْ مِنْ صَخْرةٍ كذا وأنها كانَتْ تَحْلِبُ كلَّ يوم كذا، وأشياءُ أُخرى ذَكَروها، فإنا لا نَعرِف ذلكَ، ولا نَقْطَعُ القولَ فيهِ: إنهُ كانَ كذلكَ سِوَى أنا نَعرِفُ أنَّ لها خصوصيَّةً[7]، لَيسَتْ تلكَ الخُصوصيَّةُ لِغَيرِها مِنَ النوقِ. ولو كانَتْ لنا حاجةٌ[8] إلى تلكَ الخُصوصيَّةِ لَبَيَّنَها لنا.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا أنهُ إذا أُضيفَتْ[9] جُزئِيَّةُ الأشياءِ إلى اللهِ فهيَ[10] على تَعْظيمِ تلكَ الجُزئياتِ المُضافَةِ إليهِ، وإذا [أُضيفَتْ كُلِّيَّةُ الأشياءِ إليهِ][11] فهي على إرادةِ التعظيمِ للهِ والتَّبْجيلِ لهُ نَحْوُ قولِهِ: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١٠٧و..][12].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ نهاهُمْ [أنْ يَمَسُّوها][13] بِسُوءٍ، ولم يُبَيِّنْ ما ذلكَ السوءُ، فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ [شيئاً عَرَفوهُ، ونَهاهُمْ عنهُ][14].

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي لا تَعْقِروها ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ كانَ[15] ذلكَ على إثْرِ عَقْرِهِمُ الناقةَ بثلاثةِ أيامٍ حينَ[16] قالَ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [الآية: ٦٥] وما ذُكِرَ أيضاً أنَّ وُجوهَهُمُ اصْفَرَّتْ في اليومِ الأوّلِ، ثم احْمَرَّتْ في اليومِ الثاني، ثم اسْوَدَّتْ في اليومِ الثالثِ، ثم نَزَلَ بِهِمُ العذابُ في اليومِ الرابعِ، فذلكَ أيضاً مما لا نَعْرِفُهُ.

وقولُهُ تعالى ﴿عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ قيلَ: سَريعاً؛ لا تُمْهَلُوا حتى تُعَذَّبوا.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ﴾ مِنَ اللهِ ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ لَيسَ فيهِ كَذِبٌ. وكانَ عذابُهُمْ إنما نَزَلَ على إثْرِ

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: آية. (٣) في الأصل وم: أضاف. (٤) في الأصل وم: نعرف ذلك. (٥) في الأصل وم: أنه خصوصية كانت لها. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: كانت. (٨) أدرجت في الأصل وم بعد: الخصوصية. (٩) في الأصل وم: أضيف. (١٠) في الأصل وم: فهو. (١١) في الأصل وم: أضيف إلى كلية الأشياء. (١٢) أدرج بعد هذا القول في الأصل وم: وله كل شيء ونحوه. (١٣) في الأصل وم: يمسوا. (١٤) في الأصل وم: شيء عرفوا هم ونهاهم عن ذلك. (١٥) أدرج قبلها في الأصل وم: لما. (١٦) في الأصل وم: حيث.

السؤالِ الآيةَ؛ سألوا ذلكَ، فلما أنْ جاءَهُمْ بها كَذَّبوها، فنَزَلَ بهمُ العذابُ، وهكذا السُّنَّةُ في الأُمَمِ السالِفَةِ أنهُمْ إذا سألوا الآيةَ، فجاءتْهُمْ، فلم يُؤْمِنوا بها، نَزَلَ بِهِمُ العذابُ، وهو قولُهُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ الآية [الإسراء: ٥٩] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي جاءَ ما أَمَرَ بِهِ كما يُقالُ: جاءَ وَعْدُ ربِّنا، أي جاءَ مَوعودُ ربِّنا لأنَّ وَعْدَهُ وأَمْرَهُ لا يَجيءُ، ولكنْ جاءَ ما أَمَرَ بِهِ وما وَعَدَ بِهِ، وهو العذابُ. أو يقولُ: جاءَ أي أتى وَقْتُ وُقوعِ ما أَمَرَ بِهِ، وَوَعَدَ، وهو العذابُ الذي وَعَدَ، وأَمَرَ بِهِ، واللهُ أعلَمُ، ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ بِنِعْمَةٍ مِنّا أو بِفَضْلٍ مِنّا. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ قيلَ: الخِزْيُ العذابُ الذي يَفْضَحُهُمْ، وقيلَ: كلُّ عذابٍ فهو خِزْيٌ؛ أي نَجّاهُمْ مِنْ خِزْيِ ذلكَ اليومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ قيلَ: ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ هو الذي يُذِلُّ مَنْ دونَهُ، وقيلَ: ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ المُنْتَقِمُ المُنْتَصِرُ[1] لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِ، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ هو المَنيعُ في ملكِهِ وسُلْطانِهِ الذي لا يُعْجِزُهُ [شيءٌ][2].

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيلَ: عذابُهُمْ كانَ صَيْحَةً؛ صاحَ بِهِمْ جبريلُ، وقيلَ: الصَّيْحَةُ الصاعقةُ؛ وكلُّ عذابٍ فهوَ صَيْحَةٌ. لكنْ لا ندري كيفَ كانَ؟ أو أنْ يكونَ عذابُهُمْ قَدْرَ صَيْحَةٍ لِسُرْعَةِ وقوعِهِ بهِمْ، أو ما يُسَمّي ذلكَ العذابَ صَيْحَةً [بما رَأَوا][3] ما يَصيحونَ في ما بينَهُمْ، أو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ قالَ ههنا ﴿دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ وقالَ في سورةِ الأعرافِ ﴿دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الآيتين: ٧٨و٩١والعنكبوت: ٣٧] والقصةُ واحدةٌ. قالَ بَعْضُهُمْ: دارُهُمْ قَرارُهُمْ، ودِيارُهُمْ منازِلُهُمْ. ولكنْ هو واحدٌ، أصْبَحوا جاثِمينَ في دارِهِمْ ومنازِلِهِمْ، سَواءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ قيلَ: جامِدينَ مَوتى. وأصْلُ قولِهِ: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي مُنْكَبِّينَ على وجوهِهِمْ؛ يُقالُ: جَثَمَ الطائرُ إذا انْكَبَّ على وجهِهِ مَخافَةَ الصيدِ. وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ قيلَ: كأنْ لم يَعيشوا فيها، وقيلَ: كأنْ لم يَعْمُروا فيها. وأصْلُهُ: أنهمْ صاروا كأنْ لم يكونوا فيها لِما لا يُذْكَرونَ بَعْدَ هلاكِهِمْ، فصاروا مِنْ [حِينِ كانوا][4] لم يَكونوا.

وأمّا الأخيارُ والأبرارُ فإنهمْ وإنْ ماتَتْ أبدانُهُمْ، وصارَتْ كأنْ لم تكُنْ، ففي الذِّكْرِ كأنهمْ أحياءٌ حِينَ[5] تُذْكَرُ بعدَ موتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ قيلَ: كَفَروا نعمةَ ربِّهِمْ، أو كَفَروا بآياتِ ربِّهِمْ. فذلكَ كلُّهُ كُفْرٌ باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ مِنْ رحمةِ اللهِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ اختَلَفوا في هذهِ البِشارَةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: جاؤوهُمْ بِبِشارةِ إسحاقَ وحافِدِهِ[6]، وهو قولُهُ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [الآية: ٧١]، وقالَ بعضُهُمْ: جاؤوا بِبِشارةِ إهلاكِ قومِ لوطٍ وإنجاءِ لوطٍ وأهلِهِ؛ قيلَ: لأنَّ لوطاً كانَ ابْنَ أخي إبراهيمَ، وكانَ لوطٌ، فَزِعَ إلى اللهِ بِسُوءِ عَمَلِ قومِهِ وصُنْعِهِمْ، ودَعا بالنجاةِ منهُمْ، وهو قولُهُ: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ الآية [الشعراء: ١٦٨] حتى ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ سارةَ قالَتْ لإبراهيمَ: ضُمَّ ابْنَ أخيكَ إلى نَفْسِكَ فإنَّ قومَهُ يُعَذِّبونَهُ، كأنها عَرَفَتْ أنهُ لا يَتْرُكُهُمْ على ما هُمْ عليهِ بِسُوءِ عَمَلِهِمْ.

---

(١) من م، في الأصل: المنتظر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لما رأوه. (٤) في الأصل وم: حيث كان. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وحافد.

قالوا بالبِشارَتَينِ جميعاً بِبشارةِ الولدِ والحافِدِ وبشارةِ هَلاكِ قومِ لوطٍ ونجاةِ لوطٍ وأهلِهِ. إلى هذا يَذْهَبُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ هذا يدلُّ أنَّ السلامَ هو سُنَّةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ والملائكةِ في الدنيا والآخِرَةِ، لم تُخَصَّ هذهِ الأُمَّةُ، بل كانَتْ[1] سُنَّةَ الرُّسُلِ الماضيةِ والأُمَمِ السالِفَةِ. هو تَحِيَّةُ أهلِ الجَنَّةِ كقولِهِ[2]: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] ونَحْوُهُ. هذا يدلُّ ماذَكَرْنا.

ثم انْتِصابُ قولِهِ: ﴿سَلَٰمًا﴾ وارْتِفاعُ الثاني لأنَّ الأوَّلَ انْتَصَبَ لوقوعِ القولِ كقولِكَ: قالَ: قولاً، [وارْتَفَعَ الثاني][3] حكايةً لقولِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ وقولُهُ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ أي مالَبِثَ عندَهُمْ حتى اشْتَغَلَ بِتَقْديمِ شيءٍ إليهِمْ، وإلّا قد يكونُ في ذبحِ العِجْلِ وشَيِّهِ لَبْثٌ إلّا أنْ يكونَ العِجْلُ مَشْوِيّاً. فإنْ لم يكنْ مَشْوِيّاً فتأويلُهُ ما ذَكَرْنا أنْ لم يَلْبَثْ عندَهُمْ في المُؤانَسَةِ والحديثِ مَعَهُمْ على ما يُفْعَلُ مَعَ الأضيافِ حتى جاءَ بِما ذَكَرَ.

وفيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأدبِ، وفيهِ دلالةٌ في مَنْ نَزَلَ بِهِ ضَيفٌ ألّا يَشْتَغِلَ بالسؤالِ عن أحوالِ ضَيفِهِ: مِنْ أينَ؟ وإلى أينَ؟ وما حاجَتُهُمْ؟ ولكنْ يَشْتَغِلُ بِقِراهُمْ وإزاحةِ حاجتِهِمْ؛ لأنَّ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ تعالى عليهِ، إنما اشْتَغَلَ بِقِراهُمْ، لم يَشْتَغِلْ بالسؤالِ عنْ أحوالِهِمْ، ولكنِ اشْتَغَلَ بما ذَكَرَ: ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ وهذا هو الأدبُ لِلضَّيفِ[4]. ألا تَرَى أنهُ لو كانَ سألَ عنْ أحوالِهِمْ، فَعَرَفَ أنهمْ مِنَ الملائكةِ لكانَ لا يَشْتَغِلُ بما ذَكَرَ إذا عَرَفَ أنهمْ مِنَ الملائكةِ، لا يَتَناوَلونَ شَيئاً مِنَ الطعامِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿بِعِجْلٍ/ ٢٤٣ - أ/ حَنِيذٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحَنيذُ السمينُ، وهو ما ذُكِرَ في مَوضعٍ آخرَ ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. وقالَ بعضُهُمْ: الحَنيذُ المَشْوِيُّ الذي حُنِذَ في الأرضِ؛ حُنِذَ فَحُمِيَ: شُوِيَ بالحَجَرِ المَحْمِيِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحَنيذُ هو المَشْوِيُّ الذي يَسيلُ منهُ الماءُ. وقالَ ابنُ عباسٍ: هو نَضيجٌ، الحَنيذُ النَّضيجُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَكِرَهُمْ أي أنْكَرَهُمْ، واسْتَنْكَرَهُمْ واحدٌ، وهو مِنَ الإنكارِ؛ أي لم يَعْرِفْهُمْ، ظَنَّ أنهمْ لُصوصٌ لأنَّ اللُّصوصَ مِنْ عادَتِهِمْ أنهمْ كانو إذا أرادوا السَّرِقَةَ مِنْ قومٍ لم يَتَناوَلُوا مِنْ طعامِهِمْ، ولم يأكُلوا شَيئاً عندَهُمْ.

وقيلَ: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنهمْ مِنَ البَشَرِ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: خافَ لمّا ظَنَّ أنهمْ سُرّاقٌ ولُصوصٌ حِينَ[5] لم يَتَناوَلُوا شَيئاً ممّا قَدَّمَ إليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خِيفَةً﴾ أي وَحْشَةً، أي أضْمَرَ وَحْشَةً حِينَ[6] لم يَتَناوَلُوا [شَيئاً ممّا][7] قَرَّبَ إليهِمْ، فحينئذٍ عَلِمَ أنهمْ لَيسوا مِنَ البشرِ لأنَّ منزلَ إبراهيمَ كانَ يَنْأَى عنِ البلدِ، ولا[8] يَنْزِلُهُ أحدٌ مِنَ البَشَرِ إلّا وقد احتاجَ إلى الطعامِ. فلما لم يَتَناوَلوا عَلِمَ أنهمْ ليسوا مِنَ البَشَرِ، فما جاؤوا إلّا لأمْرٍ عظيمٍ لِتَعْذيبِ قومٍ وَهلاكِهِمْ، فخافَ لِذلكَ.

فَقالوا ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ...﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٨..و٣١] يَذْكُرُ ههنا أنَّ قولَهُمْ: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ على إثْرِ سؤالٍ، وفي ما نَحْنُ فيهِ، لا كذلكَ.

فالمَعْنَى فيهِ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ ذلكَ كانَ على إثْرِ سؤالِ إبراهيمَ بقولِهِ: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لكنهُ جَمَعَ ذلكَ في ما نحنُ فيهِ بالحِكايةِ عنْ قولِهِمْ، وإنْ كانَ مَفْصولاً عنهُ، وخَرَجَتِ الحِكايةُ في مَوضعٍ آخَرَ على ما كانَ في الحقيقةِ. وذلكَ مُسْتَقيمٌ في كلامِ العربِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: كان. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل وم: والثاني. (٤) في الأصل وم: بالضيف. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في م: شيئاً. (٨) في الأصل وم: ولم.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿قَآئِمَةٞ﴾ على رُؤوسِ الأضيافِ لأنها كانَتْ عَجوزاً، ولا بَأْسَ لِعَجوزٍ ذلكَ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؟ الآية [النور: ٦٠]

وقالَ بعضُهُمْ ﴿قَآئِمَةٞ﴾ مِنْ وراءِ البابِ. لكنْ لَسْنا ندري أيَّ ذلكَ كانَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ضَحِكَتْ تَعَجُّباً مِنْ خَوفِ إبراهيمَ أنهمْ لُصوصٌ، وهمْ كانوا ثلاثةً أو أربعةً دونَ عَشَرَةٍ، وكانَ خَدَمُ إبراهيمَ ﷺ يَبْلُغُ عَدَدُهُمْ ثلاثمئةٍ على ماذُكِرَ في القصةِ: ضحِكَتْ تَعَجُّباً أنهُ كيفَ يَخافُ مِنْ نَفَرٍ، عَدَدُهُمْ دونَ عَشَرَةٍ، وعندَهُ مِنَ الخَدَمِ ما يَبْلُغُ عَدَدُهُمْ ما ذَكَرْنا؟

وقالَ بعضُهُمْ: ضَحِكَتْ مِمّا بَشَّروها بالولدِ، وقد بَلَغَتْ سِنُّها ما بَلَغَتْ مِنَ الكِبَرِ، وهو كذلكَ، وقالَتْ: أَحَقٌّ أنْ ألِدَ وقد كَبِرْتُ في السنِّ كذا؟

وقالَ بعضُهُمْ: ضَحِكَتْ أي حاضَتْ مِنْ قولِهِمْ: ضَحِكَتِ الأرنبُ إذا حاضَتْ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ وعِكْرِمَةَ. وقالَ الفَرّاءُ: ضَحِكَتْ: حاضَتْ غَيرُ مَسْموعٍ ولا مَعْروفٍ.

فَعَلَى تأويلِ مَنْ قالَ: إنها ضَحِكَتْ تَعَجُّباً مِمّا بُشِّرَتْ بالولدِ فهو على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: فَبَشَّرْناها بإسحاقَ ومِنْ وراءِ إسحاقَ يعقوبَ، فَضَحِكَتْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ضَحِكَتْ سُروراً بالأَمْنِ منهُمْ، وهو قولُهُ تعالى ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ فَضَحِكَتْ. وقالَ بعضُهُمْ؛ ضَحِكَتْ: ظاهرُ هذا أنها بُشِّرَتْ بإسحاقَ ومِنْ وراءِ أولادِ إسحاقَ بأولادِ[1] يعقوبَ، ولكنْ لم يكنْ يَعْقوبُ وُلِدَ مِنْ إبراهيمَ، إنما وُلِدَ مِنْ إسحاقَ، وهو حافِدُ إبراهيمَ، ابنُ إسحاقَ.

فتأويلُهُ: مِنْ وراءِ إسحاقَ حافدٌ، فإنما البِشارَةُ بالوَلَدِ وبالحافِدِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٧٢] وقالَ في هذهِ السورةِ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩].

فإنْ كانَ على ما قالوا أنها كانَتْ قائمةً وراءَ البابِ فيكُونُ إقبالُها خُروجَها إلى القَومِ. وإنْ كانَ قِيامُها على رُؤوسِهِمْ فيَكُونُ مَعْنَى الإقبالِ في ضَرْبِ وجهِها وصَكِّها، لكنَّ ذلكَ [لَيسَ][2] مِنَ القُدومِ، لكنَّهُ على الإقبالِ بفِعْلِ ما أخرَعَها مِنْ صَكِّ وجهِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ هي لم تَتَعَجَّبْ [مِنْ][3] قدرةِ اللهِ أنهُ قادرٌ على أنْ يَهَبَ الوَلَدَ في كُلِّ وقتٍ، ولكنَّها تَعَجَّبَتْ لِما رأتِ العادةَ في النساءِ والرجالِ أنهمْ إذا بَلَغوا المَبْلَغَ الذي [كانا هما عليهِ][4] لم يَلِدوا. فتَعَجُّبُها أنها لم تَلِدْ في الحالِ التي هما عليها أو يُرَدّا[5] إلى حالِ الشبابِ. فعِنْدَ ذلكَ يُولَدُ لهما[6]، وكِلاهُما عَجيبٌ بِحيثُ الخروجُ على خِلافِ العادةِ لا بِحيثُ قُدْرَةُ الربِّ، وهو كما ذَكَرْنا مِنْ قولِ زكريّا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ [آل عمران: ٤٠] وفي مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٨] قولُهُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ في الحالِ التي أنا عليها أو يُرَدُّ إليَّ شَبابي. فَعَلَى ذلكَ قولُها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أتَعْجَبينَ مِنْ قدرةِ اللهِ [على][7] هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾ لأنهُ مَعلومٌ أنهمْ لم يقولوا سَلاماً حَسْبُ، لم يَزيدوا على هذا، بل زادوا. فكأنهمْ قالوا: سلامٌ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ وبَركاتُهُ، أو قالوا: سلامُ اللهِ ورَحْمَتُهُ

(١) في الأصل وم: بولاد. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كانوا هم. (٥) في الأصل وم: تردان.
(٦) في الأصل وم: هما. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وبَرَكاتُهُ عليكُمْ أهلَ البيتِ بالنصبِ، [كأنهم قالوا:][١] يا أهلَ البيتِ كقولِهِ ﷺ حينَ[٢] قالَ: «تركْتُ فيكُمُ الثَّقلَينِ كتابَ اللهِ وعِتْرَتي أهلَ بيتي» [الترمذي٣٧٨٦] أي يا أهلَ بيتي.

[وقولُهُ تعالى][٣]: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿حَمِيدٌ﴾ الذي يَقْبَلُ اليسيرَ مِنَ المعروفِ، ويُعْطي الجَزيلَ كالشَّكورِ. والمجيدُ مِنَ المَجْدِ والشَّرَفِ. وقيلَ: الحَميدُ المَحْمودُ، والمَجيدُ الماجِدُ، وهو الكريمُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ هو الفَرَقُ والفَزَعُ الذي دَخَلَ فيهِ بِمَجيءِ الملائكةِ ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الوَلَدِ والحافِدِ وفي نجاةِ لوطٍ وأهلِهِ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩] وقولُهُ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: مُجادَلَتُهُ إياهُمْ في قومِ لوطٍ ما ذُكِرَ في القصةِ أنهُ قالَ لهمْ: أرَأيتُمْ إنْ كانَ فيهِمْ مِنَ المؤمنينَ كذا أتُعَذِّبونَهُمْ؟ قالوا: لا، ونَحْوُهُ مِنَ الكلامِ.

فإنْ ثَبَتَ هذا، وإلّا لا نَعْلَمُ مُجادَلَتَهُ إياهُمْ في دَفْعِ العذابِ عنهُمْ أو تأخيرِهِ؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

ويَحْتَمِلُ مجادَلَتُهُ إيّاهُمْ في استِبْقاءِ قومِ لوطٍ شَفَقَةً عليهِمْ ورَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يُؤمِنونَ، ويَقْبَلُونَ ما يُدعَونَ إليهِ لئلا يَنْزِلَ بهِمْ عذابُ[٤] ما أوعِدُوا؛ يَتَشَفَّعُ إليهِمْ، لِيَسألوا ربَّهُمْ أنْ يُبْقِيَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ قيلَ: الحليمُ هو الذي لا يُكافِئُ مَنْ ظَلَمَهُ، ولا يُجازيهِ بهِ، أو يَحْلُمُ عَنْ سَفَهِ كلِّ سَفيهٍ.

والأوّاهُ[٥] المُوقِنُ بِلُغَةِ الحَبَشِ، وقيلَ: الأوّاهُ المُتأوِّهُ، وهو الدَّعّاءُ وكثيرُ الدُّعاءِ. وقيلَ: الأوّاهُ: المُتَّقي الذي لا يَفْتُرُ لسانُهُ عنْ ذِكْرِهِ. وقيلَ: الأوّاهُ الحزينُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ. جَمَعَ في هذهِ الأحْرُفِ الثلاثةِ: جميعَ أنواعِ الخَيرِ والطاعةِ ما كانَ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ حِينَ[٦] ذَكَرَ أنهُ حليمٌ وأنهُ أوّاهٌ وأنهُ مُنيبٌ.

والمُنيبُ: قيلَ: المُخْلِصُ للهِ، وقيلَ: هو المُقْبِلُ إلى اللهِ بِقَلْبِهِ وبَدَنِهِ، وقد ذَكَرْنا هذا في سورةِ التوبةِ[٧].

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ يَعْني عنِ المُجادَلَةِ التي كانَ يُجادِلُهُمْ ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي جاءَ ما أمَرَ بهِ ربُّكَ، وجاءَ مَوعودُ [ربِّكَ][٨] ﴿وَإِنَّهُمْ/ ٢٤٣ ـ ب/ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾، أي غيرُ مَدْفوعٍ، لا يَحْتَمِلُ الرَّدَّ بالشَّفاعةِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ عنِ المُجادَلةِ التي ذَكَرَ ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالانْصِرافِ والرجوعِ عنكَ. ويَحْتَمِلُ ﴿جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ مِنْ إنزالِ العذابِ بهِمْ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ قولُهُ: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ قيلَ: أي ساءَ مَجيئُهُمْ ومَكانُهُمْ وكُرْهُهُمْ لِصَنيعِ قومِهِ بالغُرَباءِ مَخافَةَ أنْ يَفْضَحوهُمْ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي لم يَدْرِ كيفَ يَصْنَعُ بهِمْ؟ وكيفَ يَحتالُ لِيَدْفَعَ عنْ ضَيفِهِ سوءَ قومِهِ؟

والذَّرعُ هو المَقْدِرَةُ والقُوَّةُ؛ أي ضاقَتْ[٩] مَقْدِرَتُهُ وقُوَّتُهُ ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قيلَ: فَظيعٌ شديدٌ لأنهُ يومٌ يَهْتِكُ الأستارَ، ويَفْضَحُ الرجالَ. وفيهِ دليلُ جَوازِ الاجتِهادِ لأنهُ قالَ: ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ فَبَعْدُ لم تَظْهَرْ لهُ شدتُهُ، لكنهُ قالَ: اجتِهاداً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ بِسُوءِ صَنيعِ قومِهِ بأضيافِهِ. الحرفانِ جميعاً ينصرفانِ[١٠] إلى لوطٍ لِمَكانِ قومِهِ ولِمَكانِ[١١] أضيافِهِ؛ أو يكونُ أحَدُ الحَرْفَينِ لِمَكانِ ضَيفِهِ والآخرُ لِمكانِ قومِهِ[١٢] وما يَنْزِلُ بقومِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: كأنه قال. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: العذاب. (٥) في الأصل وم: وأواه. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في تفسير الآية (١١٤) منها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ضاق. (١٠) في الأصل وم: ينصرف. (١١) في الأصل وم: ولمكان. (١٢) في الأصل وم: ضيفه.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُسْرِعونَ إليهِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي يُهَرْوِلونَ إليهِ، وهو سَيْرٌ بَيْنَ السَّعْيِ وبَيْنَ المَشْيِ، بَيْنَ بَيْنَيْنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي يُرَوَّعونَ إليه؛ مِنَ الرَّوعِ أي فَزِعينَ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما: يَحْتَمِلُ][1] مِنْ قَبْلِ أنْ يُبْعَثَ لوطٌ رسولاً إليهِمْ كانوا يَعْمَلونَ السَّيِّئاتِ.

والثاني[2]: يَحْتَمِلُ مِنْ قَبْلِ نُزولِ الأضيافِ بِلوطٍ كانوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ. والسَّيِّئاتُ تَحْتَمِلُ الشِّرْكَ وغَيْرَهُ مِنَ الفَواحِشِ التي يَرْتَكِبونَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بَناتِ قومِهِ لأنَّ الرُّسُلَ هُمْ كالآباءِ لأولادِ قومِهِمْ؛ يُنْسَبونَ إليهِمْ. ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾؟ [الأحزاب: ٦] وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه وهو أبٌ لهُمْ ممّا أزواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ، والنَّبِيُّ أبٌ[3] لهمْ. فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُ لوطٍ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ أرادَ بَناتِ قومِهِ، فَنَسَبَهُنَّ إلى نَفْسِهِ لِما ذَكَرْنا أنهُ كالأبِ لهمْ.

ثم يَحْتَمِلُ مَعْنَى جَعْلِ النَّبِيِّ أولادَ[4] قومِهِ كالأبِ وأزواجِهِ كالأُمَّهاتِ[5] وجهَينِ:

أحَدُهُما: نُسِبُوا إليهِ لِلشَّفَقَةِ؛ هو أشْفَقُ بِهِمْ مِنَ الأبِ والأُمِّ.

والثاني[6]: لِحَقِّ التربيةِ وتعليمِ الدينِ كالأبِ لهُمْ، فهو أولَى بهِمْ مِنْ أنْفُسِهِمْ لِهذينِ الوجْهَينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بَناتِ نَفْسِهِ. ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ منهُ تَعْريضاً[7] لهمْ لِلنِّكاحِ بقولِهِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ نِكاحاً إنْ كُنْتُمْ مائِلينَ للإيمانِ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: هو تَعْريضٌ منهُ لِما هو زِنىً عندَهُمْ، لا أنهُ عَرَّضَ ذلكَ عندَ نَفْسِهِ.

وهذا كما يقولونَ: إنَّ مَنْ أُكْرِهَ أنْ يَشْتُمَ محمداً ﷺ فلا بأسَ بأنْ يَشْتُمَ، ويَقْصِدَ بِشَتْمِهِ محمداً آخَرَ، يَحِلُّ لهُ شَتْمُهُ، وإنْ كانَ عندَ المُكْرِهِ أنهُ يَشْتُمُ رسولَ اللهِ بعدَ أنْ أخْطَرَ الشاتِمُ في قَلْبِهِ غَيْرَهُ.

وكذلكَ إنْ أُكْرِهَ على أنْ يَشْتُمَ الإلهَ، يَقْصِدُ[8] بالشَّتْمِ شَتْمَ آلهتِهِمْ، وإنْ كانَ عندَهُمْ أنهُ إنما يَشْتُمُ إلهَهُ الذي يَعْبُدُهُ.

فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُ لوطٍ: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ تَعْريضَ زِنىً عندَهُمْ، وإنْ كانَ عندَهُ أنهُ ليسَ لِذلكَ يَقْصِدُ.

وقالَ قائلونَ: قالَ هذا لِيُرِيَهُمْ قُبْحَ الفِعْلِ الذي كانوا يَقْصِدونَ بأضيافِهِ لأنَّ الزِّنَى كانَ عندَهُمْ مُحَرَّماً[9]، فَعَرَضَ عليهِمْ بَناتِهِ لِيَعْرِفوا قُبْحَ ذلكَ الفِعْلِ حينَ[10] احْتَمَلَ قَلْبُهُ في بناتِهِ ولم يَحْتَمِلْهُ[11] في أضيافِهِ لِيَمْتَنِعوا عنْ ذلكَ.

أو يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ، وإنْ كانَ كلاهُما لا يَحِلّانِ، لكنَّ أحَدَهُما أيْسَرُ وأهْوَنُ، ويَجوزُ الجمعُ بَيْنَ شَرَّيْنِ، فيقالُ: هذا أطْهَرُ وأحَلُّ مِنْ هذا، وهذا أيْسَرُ مِنْ هذا وأهْوَنُ، وإنْ كانَ كلاهُما شَرَّيْنِ. فالزِّنى، وإن كانَ حَراماً فذلكَ ممّا يَحِلُّ، وأدبارُ الرجالِ لا تَحِلُّ بحالٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ كانوا يَخْطُبونَ بَناتِهِ، وكانَ أبَى أنْ يُزَوِّجَهُنَّ منهُمْ لِما لم يكونوا أكفاءَ[12] لَهُنَّ، ثم عَرَضَ عليهِمْ [ذلكَ][13] في ذلكَ الوقتِ لِيَعْلَموا قُبْحَ ذلكَ الفِعْلِ الذي قَصَدوا بأضيافِهِ، أو كلاماً[14] نَحْوَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ [الحجر: ٦٨] لِيُعْلِمَ أنَّ الإخزاءَ هو الفَضيحةُ. هذا يدلُّ أنَّ الخِزْيَ هو الذي يَفْضَحُ مَنْ نَزَلَ بِهِ.

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أباً. (٤) في الأصل وم: لأولاد. (٥) في الأصل وم: كالأم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: تعريض. (٨) في الأصل وم: فيقصد. (٩) في الأصل وم: محرم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: يحتمل. (١٢) في الأصل وم: كفوا. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: كلام.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ قال بعضُهُمْ: هَمَّ أنْ يُزَوِّجَ بَعْضَ بناتِهِ مَنْ يَصْدُرُ لِرأيِهِ، فَيَمْنَعَهُمْ عنهُ؛ كأنهُ يقولُ: أليسَ منكُمْ مَنْ يَرْشُدُ؟ ويَصْدُرُ لِرأيِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي ليسَ منكُمْ رَجُلٌ يَقْبَلُ الموعِظَةَ؟ ويُرْشِدُكُمْ؛ ويَعِظُكُمْ؟ أو يقولُ: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ على النَّفْيِ، فَيَمْنَعَهُمْ عَمّا يُريدونَ، ويَقْصِدونَ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ على التأويلَينِ اللَّذينِ ذَكَرْنا هما: الأولُ حقٌّ[1] النكاحِ والثاني[2] حقُّ الاستِمْتاعِ. وفي بعضِ التأويلاتِ: ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ مِنْ حاجةٍ لهُ. وبذلكَ يقولُ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي مِنْ حاجةٍ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يَعْنونَ الأضيافَ.

الآية ٨٠ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي قُوَّةً في نفسي ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قيلَ: عَشيرتُهُ، والرُّكْنُ الشديدُ عندَ العربِ العَشيرةُ؛ يقولُ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ في نفسِي وعَشيرَتي[4] يُعينونني لَقاتَلْتُكُمْ. فيهِ دلالةٌ أنَّ مَنْ رأى [مِنْ][5] آخَرَ فاحشةً فَلَهُ أنْ يُقاتِلَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: إنكَ تَعْلَمُ أنْ لَيسَ لنا في بَناتِكَ مَنْ حَقٍّ كما ليسَ لنا في أضيافِكَ حقٌّ، فكيفَ [تَمْنَعُنا عنهُمْ][6] وتَعرِضُ علينا بَناتِكَ؟ فهنَّ في ما لَيسَ لنا فيهنَّ حَقٌّ كأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ قيلَ: قالوا ذلكَ لِلوطٍ: ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ لمّا طُمِسَتْ أعيُنُهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧] وقالَ قائلونَ: قالوا ذلكَ لِلوطٍ حينَ طُمِسَتْ أعيُنُهُمْ: إنَّ ضَيفَكَ سَحَروا أبصارَنا، فَسَتَعْلَمُ غداً ما تَلْقَى أنتَ وأهلُكَ، فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ بِسوءٍ غداً بأنهمْ يَهْلِكونَ.

ودلَّ قولُهُ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ على أنهُمْ قد هَمُّوا لِلوطٍ، وأوعَدوهُ، حتى قالَ ما قالَ. ألا تَرى أنَّ الملائكةَ قالوا لهُ: إنهمْ ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ ؟ فهذا ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قيلَ: قِطَعٌ مِنَ الليلِ آخِرُهُ، وهو وقْتُ السَّحَرِ، وقيلَ: هو ثُلُثُ الليلِ أو رُبُعُهُ مِنْ آخِرِهِ، وهو واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قيلَ: لا يَتَخَلَّفْ أحدٌ منكُمْ إلا امْرَأتَكَ، فإنها تَتَخَلَّفُ، ويُصيبُها ما أصابَ أولئكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مِنَ الالْتِفاتِ والنَّظَرِ؛ قيلَ: لا يَتْرُكْ أحدٌ مُتابَعَتَكَ إلّا امرأتَكَ، فإنها لا تَتْبَعُكَ، فيصيبُها ما أصابَ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ يَحْتَمِلُ النَّهْيَ عنِ الالْتِفاتِ؛ كأنهُ يقولُ: لا يَلْتَفِتْ أحدٌ.

ويَحْتَمِلُ الخَبَرَ: كأنهُ يقولُ: لا يَلْتَفِتُ منكُمْ أحدٌ إلّا مَنْ ذَكَرَ/ ٢٤٤ ـ أ/ ؛ وهيَ[8] زوجتُهُ، فذلكَ علامةٌ لِخِلافِها لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [فقالَ لوطٌ][9]: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ كأنَّ لوطاً اسْتَبْطأَ الصُّبْحَ لِعَذابِهِمْ، فقالَ[10]: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هذا مِنْ لوطٍ لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ، وهو بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، ويَعْلَمُ أنَّ قُراهُ سَتُقْلَبُ أعلاها أسْفَلَها وأسْفَلُها أعلاها. ولكنْ قالَ، واللهُ أعلَمُ، بَعْدَما أخْرَجوهُ وأهلَهُ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ. فَعِنْدَ ذلكَ قالَ ما قالَ، واسْتَبْطأَ وقْتَ نُزولِ العذابِ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ يَحْتَمِلُ جاءَ الأمرُ بالمُرادِ بأمْرِنا، أو أمْرُهُ هو جَعْلُهُ عاليَها سافِلَها.

---

(١) في الأصل وم: الحق. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: عشيرة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: تمنعها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) و(١٠) في الأصل وم: فقالوا.

ثم قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أدخَلَ جبريلُ جَناحَهُ تَحتَ قُرَياتِ لوطٍ، فرَفَعَها إلى السماءِ، ثم قَلَبَها، فجَعَلَ ما هو أعلاها أسفَلَها، فهَوَتْ إلى الأرضِ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] قيلَ: أهْوَاها جبريلُ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ. وأمْكَنَ أنْ تكونَ إذْ أهْلَكَهُمْ جعَلَهُمْ تَحتَ الأرضِ، فذلكَ جَعْلُ أعلاها أسْفَلَها.

لكنَّ أهلَ التأويلِ حَمَلوا على ما ذَكَرْنا، وأجْمَعوا على ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: قُلِبَتِ القُرَى، وجُعِلَ أعلاها أسْفَلَها على ما ذَكَرْنا، وأُرْسِلَتِ الحجارةُ على مَنْ كانَ غائباً عنها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أمْطَرَ الحِجارةَ عليها، ثم قَلَبَها جبريلُ. وقالَ بعضُهُمْ: أمْطَرَ عليها الحِجارةَ بَعْدَ ما قَلَبَها جِبْريلُ، فسَوّاها، وكلُّ واحدٍ منهُمْ كانَ غائباً عنْ بلدِهِ [جاءَهُ حَجَرٌ مكتوبٌ عليهِ][(١)] اسْمُهُ، فقَتَلَهُ حيثُ كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السِّجِّيلُ هو اسْمُ المكانِ الذي منهُ رَفَعَ الحَجَرَ الذي أمْطَرَهُ[(٢)]. وقالَ بعضُهُمْ: هو طينٌ مَطْبوخٌ كالآجُرِّ. وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][(٣)] قالَ: [سَنْكٌ وجَلٌ][(٤)] ﴿مَّنضُودٍ﴾ نُضِدَ الحجرُ بالطِّينِ وأُلْصِقَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ.

الآية ٨٣ [وقولُهُ تعالى][(٥)]: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعَلَّمَةً مُخطَّطَةً بالسَّوادِ والحمرةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي مَكتوباً عليها اسْمُ صاحِبِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما هي مِنْ ظَلَمَةِ قومِ لوطٍ بِبَعيدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ما هي مِنْ ظالِمي أهلِ مكةَ وحَوالَيهِمْ بِبَعيدٍ؛ أي عذابُ اللهِ لَيسَ بِبَعيدٍ؛ يُعَذِّبُهُمْ إنْ شاءَ اللهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي تلكَ القُرَى والأمكنةُ التي أهلَكَ أهلَها ليسَتْ بِبَعيدةٍ مِنْ مُشْرِكي أهلِ مكةَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧].

وفيهِ تذكيرٌ منهُ على هذهِ الأمةِ حينَ[(٦)] لم يَجْعَلْ عذابَهُمْ عذابَ اسْتِئصالٍ بحيثُ لا يَمْلِكونَ العَوْدَ عنهُ[(٧)] والرجوعَ، ولكنْ جَعَلَ عذابَهُمُ الجهادَ حتى لو أرادوا الرجوعَ عنهُ ما مَلَكوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي إلى مَدْيَنَ أرسَلْنا ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ هذا قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ: أنَّ كلَّ نَبيٍّ أوَّلَ ما دعا قومَهُ إنما دعا إلى توحيدِ اللهِ وجعلِ العبادةِ لهُ.

وفي قولِهِ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وما ذَكَرَ في غَيرِهِ مِنَ الأُخُوَّةِ دلالةٌ على أنَّ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلُ كانوا مِنَ البَشَرِ مِنْ جِنْسِ قومِهِمْ لا مِنَ الملائكةِ حينَ[(٨)] قالَ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ومعلومٌ أنهمْ لم يكونوا إخوةً لهمْ في الدينِ.

وفيهِ أنَّ الأُخُوَّةَ لا تُوجِبُ فَضيلَةَ المُؤاخي لهُ؛ لأنَّ الرسُلَ إخوةُ أولئكَ الأقوامِ، وهمْ كَفَرَةٌ. وذلكَ يَرُدُّ قولَ الرَّوافِضِ في تفضيلِ عليٍّ على أبي بكرٍ بالمُؤاخاةِ التي كانَتْ بَيْنَ رسولِ اللهِ وبَيْنَ عليٍّ. والخُلَّةُ توجِبُ الفضيلَةَ. وقد جاءَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «لو اتَّخَذْتُ سِوَى ربِّي خليلاً لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلاً» [بنحوه مسلم ٥٣٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ذَكَرَ أنهمْ يُنْقِصونَ المِكيالَ والميزانَ، ولا يُوفونَ الناسَ حقوقَهُمْ، فَنهاهُمْ عنْ ذلكَ، فهو، واللهُ أعلَمُ، لوجهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنهمْ إنما نُهوا عنْ ذلكَ بِحقِّ الرِّبا لأنَّ النقصانَ إذا كانَ بِرضاً مِنْ صاحِبِهِ يَجوزُ، فَدَلَّ أنهُ إنما نَهاهُمْ بِحَقِّ الرِّبا، وفيهما يجري الرِّبا.

والثاني: فيهِ أنَّ هبةَ المُشتَري للبائعِ وتَقَلُّبَهُ قبلَ قَبْضِهِ على قيامِ البيعِ في ما بَيْنَهما غَيرُ جائزٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: جاءت عجلاً مكتوب عليها. (٢) في الأصل وم: أمطرنا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) هذه عبارة فارسية، معناها: حجر وطين، انظر تفسير الطبري ج١٥/ ٤٣٤. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: عنهم. (٨) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ قيلَ: في سَعَةٍ مِنَ المالِ، وقيلَ: في رُخصٍ منَ السَّعَةِ. وإنما يَحمِلُ المَرءَ على النقصانِ والظلمِ على آخَرَ عِزَّةُ الشيءِ وضيقُ الحالِ، فكيفَ تُنقِصونَ أنتُمْ في حالِ السَّعَةِ ورُخصِ السَّعَةِ؟ أو يقولُ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ في غيرِ هذا، فلا تَظلِموا الناسَ في هذا، وتَمنَعوا حقوقَهُم.

[وقولُهُ تعالى][1] ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ أي يوم يُحيطُ بهمُ العذابُ. إنْ كانَتِ الإحاطَةُ مُضافةً إلى اليومِ فهو مُحيطٌ بالكُلِّ، وإنْ كانَتِ الإحاطَةُ مُضافةً إلى العذابِ فهو مُحيطٌ بالكَفَرَةِ خاصةً.

وهو، واللهُ أعلَمُ، أنهُ ما مِنْ جارحةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ إلّا وقد يُصيبُها العذابُ، ويُحيطُ بها، ليسَ كعذابِ الدنيا، يأخُذُ جُزءاً دونَ جُزءٍ، بل يُحيطُ بهِ.

والنَّهيُ[2] بِتخصيصِ النقصانِ [في][3] الكيلِ والميزانِ لا يدلُّ على أنه لم يكنْ فيهِ مِنَ المآثمِ والأجرامِ سِوَى ذلكَ، لكنهُ خَصَّ هذا لِما كانَ الظاهِرُ فيهمْ نُقصانَ الكيلِ والوزنِ، فَذَكَرَ ذلكَ، وهو ما خَصَّ قومَ لوطٍ بقولِهِ: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥] [وقولِهِ][4] ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ الآية [العنكبوت: ٢٨].

ذَكَرَ هذا، وخَصَّهُمْ على أنهمْ لم يكونوا يأتونَ مِنَ الفواحشِ غيرَها، لكنْ خَصَّ هذا لأنَّ الظاهرَ فيهِمْ هذا. فَعَلَى ذلكَ نُقصانُ الكيلِ والميزانِ في قومِ شُعيبٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ خَصَّ المِكيالَ والميزانَ لِما كانوا يُطَفِّفونَ المِكيالَ، ويُنقِصونَ الميزانَ، رغبةً فيهما، وفيهما يجري الرِّبا لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ فيهِ دلالةُ أنَّ المُشتَرِيَ يَملِكُ المَبيعَ قبلَ أنْ يَقبِضَ لأنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أضافَ إلى الناسِ أشياءَهُمْ. فلو كانَ لا يملِكُ لم تكُنْ أشياءَ الناسِ، إنما كانَتْ أشياءَهُ[5]، فإنما نَقَصَ مالَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ وهو ما ذَكَرَ في مَوضعٍ آخَرَ ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦و٨٥].

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما أبقَى اللهُ لكُمْ مِنْ ثوابِهِ في الآخِرَةِ خيرٌ لكُمْ إنْ آمَنتُمْ بهِ، وأطَعتُموهُ، ممّا تَجمعونَ مِنَ الأموالِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي ما جَعَلَ لكمْ ممّا يُحِلُّ خيرٌ لكُمْ ممّا يُحرِّمُ عليكُمْ مِنْ نُقصانِ الكيلِ والوزنِ إنْ كُنتُمْ مؤمنينَ بالحَلالِ أو بالآخِرَةِ. وقالَ بَعضُهُمْ: طاعةُ اللهِ، وهي[6] ما يأمُرُكُم بهِ، ويَدعوكُمْ إليهِ خيرٌ لكُمْ مِمّا تَفعَلونَ.

وقالَ الحَسَنُ: رِزقُ اللهِ خيرٌ لكُمْ مِنْ بَخسِكُمُ الناسَ حقوقَهُمْ. لكنَّ هذا يرجعُ إلى ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ يَحتَمِلُ [وجهَين:

أحدُهما][7]: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي لَسْتُ أشهَدُ بَياعاتِكُمْ وأشرِيَتِكُمْ حتى أعلَمَ بِبَخسِكُمُ الناسَ المِكيالَ والميزانَ. لكنْ إنما أعرِفُ ذلكَ باللهِ. وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ.

والثاني: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي بِمُسَلَّطٍ عليكُمْ؛ إنما أُبَلِّغُ إليكُمْ كقولِهِ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة: ٩٩]

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ أقِراءتُكَ تأمُرُكَ هذا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أشياءهم. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ ابنُ عباسٍ: قالوا ذلكَ لهُ لأنَّ شُعَيباً كانَ يُكثِرُ الصلاةَ، كأنهُ يُخرَّجُ على الإضمارِ؛ يقولونَ: أصلاتُكَ تأمُرُكَ بأنْ تأمُرَنا بتَرْكِ عبادةِ ما عَبَدَ آباؤنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ [يَحتَمِلُ: صلاتُكَ وصَلَواتُكَ][1]: أنْ يكونَ لهُ صلاةٌ معروفةٌ، يَفْعَلُها /٢٤٤ـ ب/، فيَقولونَ: أصلاتُكَ التي تَفعَلُها تأمُرُكَ أنْ نَترُكَ كذا؟ أو صلاةٌ واحدةٌ تُكثِرُها؟ فقالوا ذلكَ. فَتخصيصُ الصلاةِ مِنْ بَينِ غيرِها مِنَ الطاعاتِ لِما لَعلّها كانَتْ مِنْ أظْهَرِ طاعاتِهِ عندَهُمْ، فقالوا لهُ هذا.

ثم يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: كأنهمْ قالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أو أنْ نَفعَلَ كذا على التَّسْفيهِ لهُ [أوِ التَّجهيلِ][2] كَمَنْ يُوبِّخُ آخرَ، ويُسفِّهُهُ، ويقولُ: أعِلْمُكَ يأمُرُكَ بذلكَ؟ وإيمانُكَ يأمُرُكَ. هذا كقولِهِ ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٩٣] ونَحْوُهُ مِنَ الكلامِ يُخرَّجُ على التَّسْفيهِ لهُ أوِ التَّجهيلِ.

والثاني: يُقالُ ذلكَ على الإنكارِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: إيمانُكَ يأمُرُكَ بذلكَ، أو عِلْمُكَ يأمُرُكَ بهذا؛ أي لا يأمُرُكَ بذلكَ، يَحْتَمِلُ قولُ هؤلاءِ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ أي لا يأمُرُكَ بذلكَ هذا إذا كانَتِ الصلاةُ التي ذَكَروها مَرْضِيَّةً عندَهُمْ. فإنْ لم تكنْ مَرْضِيَّةً فالتأويلُ هو الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآيةَ: حُبِّبَ إليهِمْ تقليدُ آبائِهِمْ في عبادةِ الأصنامِ، واتِّباعُهُمْ إيّاهمْ[3]، والأموالُ التي كانَتْ لهمْ، فَمَنَعَهُمْ هذا[4] عنِ النَّظَرِ في الحُجَجِ والآياتِ لِما حُبِّبَ إليهِمْ ذلكَ. وهكذا جميعُ الكَفَرَةِ إنما مَنَعَهُمْ عنِ النَّظَرِ في آياتِ اللهِ والتأمُّلِ في حُجَجِهِ أحَدُ هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا: حُبُّ الذاتِ[5] ودوامُ الرئاساتِ والمَيلُ إلى الشَّهَواتِ. ظَنُّوا أنهمْ لوِ اتَّبَعوا رُسُلَ اللهِ، وأجابوهُمْ إلى ما دَعَوهُمْ إليهِ لَذَهَبَ عنهُمْ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ يَحتَمِلُ قضاءَ جميعِ الشَّهَواتِ، ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ نُقصانِ المِكْيالِ والميزانِ [ما يقولونَ: أموالُنا][6] ليسَ لأحدٍ فيها حقٌّ، نَفْعَلُ فيها ما نَشاءُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ [الألفُ صِلَةٌ][7] و﴿أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قالَ [بعضُ][8] أهلِ التأويلِ: قالوا ذلكَ لهُ اسْتِهزاءً بهِ وسُخْرِيَّةً؛ كَنَوا بالحليمِ عَنِ السفيهِ وبالرشيدِ عَنِ الضالِّ؛ أي أنتَ السَّفيهُ حينَ[9] سَفَّهْتَ آباءَنا في عبادَتِهِمُ الأصنامَ، الضالُّ حينَ[10] تَرَكْتَ مِلَّتَهُمْ ومذهَبَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: على النَّفْيِ والإنكارِ: أي ما أنتَ الحَليمُ الرشيدُ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ على حقيقةِ الوصفِ لهُ بالحِلْمِ والرُّشْدِ لأنهمْ لم يأخذوا عليهِ كَذِباً قَطُّ، ولا رَأَوهُ على خِلافٍ ولا على سَفاهةٍ قطُّ، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي كُنْتَ هكذا، فكيفَ تَرَكْتَ ذلكَ؟ وهو ما قالَ قومُ صالحٍ لصالحٍ حينَ[11] قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ [الآية: ٦٢].

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي على عِلْمٍ وبيانٍ وحُجَجٍ وبُرْهانٍ مِنْ ربّي: أي تَعْلَمونَ أني كُنتُ على بَيانٍ مِنْ ربّي وحُجَجٍ ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يَحتَمِلُ هذا منهُ ما كانَ ما قالَ [ذلكَ النَّبيُّ صالحٌ][12] ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [الآية: ٢٨] أي قالَ: هو رَزَقَني رِزْقاً حَسَناً: الدينَ والهُدى والنُّبُوَّةَ على ما ذَكَرْنا. وأمْكَنَ أنْ يكونَ الرزقُ الحَسَنُ هو الأموالَ الحلالَ الطَّيِّبَةَ التي لا تَبِعَةَ عليهِ [فيها][13]، فقالَ ذلكَ، وما رَزَقَ أولئكَ عليهِمْ تَبِعَةٌ في ذلكَ لأنهمُ اكْتَسَبوها مِنْ وجهٍ لا يَحِلُّ.

---

(١) في الأصل وم: وقوله: صلاتك وصلواتك يحتمل. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: أباءهم. (٤) في الأصل وم: هذان. (٥) في الأصل وم: اللذات. (٦) في الأصل: يقولون اموالنا لما، في م: يقولون أموالنا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في م: بعضهم مِنْ. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: أولئك الأنبياء. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

[وقولُهُ تعالى](١): ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: قالَ لهمْ ذلكَ بإزاءِ ما قالوا في ما ذَكَرَ في الأعرافِ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الآية: ٨٨] يقولُ: أدعوكُمْ إلى الإيمانِ، وأنهاكُمْ عنِ الكُفرِ بهِ، ثم أرتكِبُ ما أنهاكُمْ عنهُ، وأتْرُكُ ما أدعوكُمْ إليهِ.

وقالَ قتادةُ: لم أكُنْ أنهاكُمْ عنْ أمرٍ، وأركبَهُ، وهو واحدٌ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ وفيهِ دلالةُ أنَّ الاستِطاعةَ تكونُ معَ الفِعلِ، لا تخلو؛ إمّا أنْ يكونَ أرادَ استِطاعةَ الإرادةِ أوِ استِطاعةَ الفِعْلِ، فكيفَ ما كانَ، فقد أخبَرَ أنهُ يُريدُ لهمْ منَ الصلاحِ ما استَطاعَ، ففيهِ ما ذَكَرَ.

وهو ينْقُضُ على المُعتزِلَةِ مذهَبَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: الاستِطاعةُ تتقدَّمُ على الفِعْلِ، وهي لا تَبْقَى وَقتَينِ، فَيَصيرُ قولُهُمْ إرادةَ الصلاحِ لهمْ بما عُدِمَ مِنَ الاستِطاعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: التوفيقُ هو صفةُ كلِّ مُطيعٍ، والخِذْلانُ هو صفةُ كلِّ عاصٍ. وقالَ بعضُهُمْ: التوفيقُ هو ما يُوافِقُ قولُهُ فِعْلَهُ في الطاعةِ، والخِذلانُ هو ما يُفَرِّقُ بينَ قولِهِ وفِعْلِهِ في المَعْصِيَةِ.

وقالَ الحُسَينُ النَّجّارُ: التوفيقُ هو قُدْرَةُ كلِّ خَيرٍ وطاعةٍ، والخِذلانُ هو قُدْرَةُ كلِّ شرٍّ ومَعْصِيَةٍ.

وعندَنا: التوفيقُ هو أنْ يُوَفِّقَ بينَ عَمَلِ الخيرِ والاستِطاعةِ، والخِذْلانُ هو أنْ يُفَرِّقَ بينَ عملِ الخيرِ والاستطاعةِ، أو أنْ يقولُ: هو أنْ يُوَفِّقَ بينَ عَمَلِ الشَّرِّ والاستِطاعةِ، وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليهِ اعْتَمَدْتُ في جميعِ أمري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجِعُ، أو يقولُ: إليهِ أُقْبِلُ بالطاعةِ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ بالغَرَقِ ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ بالريحِ الصَّرْصَرِ ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ بالصَّيْحَةِ على ما ذَكَرَ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يَحْمِلَنَّكُمْ ﴿شِقَاقِىٓ﴾ قيلَ: خِلافي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾ أولئكَ. وقيلَ: لا يُكْسِبَنَّكُمْ عَداوَتي.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿شِقَاقِىٓ﴾ ضِراري. لكنْ يَرْجِعُ إلى مَعْنىً واحدٍ لأنهُ إذا ثَبَتَتِ العَداوةُ ثَبَتَتِ المُخالَفَةُ والبُغْضُ والضَّرَرُ، فَكُلُّ ما ذُكِرَ فهو واحدٌ. وأصْلُ الجُرْمِ الإثْمُ والكَسْبُ.

ثم يُخَرَّجُ إنذارُهُ إيّاهُمْ بِمَنْ هَلَكَ مِنَ الأمَمِ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ قومَ شُعَيبٍ قومٌ لايؤمِنونَ بالبَعْثِ وبالقيامَةِ، فأنْذَرَهُمْ بِمَنْ هَلَكَ مِنَ الأممِ السالِفَةِ؛ لأنهُ لو كانَ [لا](٢) يُنْذِرُهُمْ بالبَعْثِ لَكانَ لا يَنْجَعُ فيهِمْ أنهمْ لا يؤمنونَ بهِ.

والثاني: أنْذَرَهُمْ بأولئكَ لأنهمْ كانوا يُقَلِّدونَ آباءَهُمْ في عِبادةِ الأوثانِ، ويَتَّبِعونَهُمْ، فيقولُ: إنكُمْ تُقَلِّدونَ آباءَكُمْ، وتَتَّبِعونَهُمْ في عبادةِ الأوثانِ، فاتَّبِعوهُمْ أيضاً بما بَلَغَ(٣) إليكمْ مِنْ هلاكِ أولئكَ بعبادَتِهِمُ الأوثانَ وتكذيبِهِمُ الرسلَ. فإذا قَلَّدْتُموهُمْ في ذلكَ فهلّا تُقَلِّدونَهُمْ، وتَتَّبِعونَهُمْ في ما أصابَهُمْ. أو يقولُ: إنكُمْ تُقَلِّدونَ آباءَكُمُ الذينَ عَبَدوا الأوثانَ، وقد هَلَكوا، فلا تُقَلِّدونَ مَنْ لم يَعْبُدْها(٤) منهُمْ، ونَجا، وقد عَرَفْتُمْ أنَّ مَنْ هَلَكَ [منهمْ بِمَ هلَكَ؟](٥) ومَنْ نَجا منهم(٦) بِمَ نَجا؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي [إنْ](٧) نَسِيتُمْ مَنْ مَضَى منهُمْ فلا تَنْسَوا(٨) ما نَزَلَ بقومِ لوطٍ، وليسُوا هم ببعيدٍ منكُمْ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي اطْلُبوا السبَبَ الذي يَصْنَعُ لكُمُ المغفِرَةَ مِنْ ربِّكُمْ، وهو التوحيدُ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي ارجِعوا إليهِ، ولا تَعودوا إلى ما كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بلغوا. (٤) في الأصل وم: يعبد. (٥) في م: منكم بم هلك، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: معكم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: تنسون.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ أي ارجعوا إليهِ رُجوعاً حتى لا تَعودوا إلى مِثْلِ صَنيعِكُمْ أبداً ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ يَرْحَمُ مَنْ تابَ إليهِ[١] ﴿وَدُودٞ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما:][٢] أي حَقٌّ أنْ تَوَدُّوا منهُ كُلَّ شيءٍ وكُلَّ إحسانٍ. والناسُ جُبِلوا على حبِّ مَنْ أحْسَنَ إليهِمْ.

والثاني: ﴿وَدُودٞ﴾ لِمَنْ توسَّلَ إليهِ، وتَقَرَّبَ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ قولُهُ: ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ يَحْتَمِلُ ما نَفْهَمُ، وما نَعْقِلُ ﴿كَثِيرٗا﴾ مِمّا تقولُ لأنَّ كلامَكَ كلامُ مجانينَ، وهذهِ هي عادةُ القومِ؛ كانوا ينسِبونَ الرُّسُلَ إلى الجُنونِ. ويَحْتَمِلُ ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ ما نَقبَلُ ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ فإنْ كانَ على الفَهْمِ فهو كقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وهُمْ كانوا فَريقَيْنِ:

[فريقٌ][٣] كانوا يَقولونَ: قُلوبُنا أوعِيَةُ العِلْمِ كقولِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة: ٨٨] فإنْ كانَ ما تقولُ حقًّا نَفْهَمْ، ونَعْقِلْ كما نَعْقِلُ غيرَهُ، وفريقٌ/ ٢٤٥ ـ أ/ قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥] كانوا يَعْقِلونَ أنهمْ لا يَفْهَمونَ، ولا يَفْقَهونَ، لأنَّ قلوبَهُمْ في أكِنَّةٍ، وفي آذانِهِمْ وَقْراً.

والفريقُ الأوَّلُ يقولونَ: إنَّ قلوبَنا أوعيةٌ لِلْعِلْمِ. فلو كانَ [قولُكَ][٤] حقاً لَعَقَلْنا[٥] كما عَقَلْنا غيرَهُ، فهؤلاءِ يَصْرِفونَ العَيْبَ إلى الرسولِ وأولئكَ إلى أنفُسِهِمْ. فَعَلى ذلكَ قَوْمُ شُعَيبٍ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَيْنِ

أحَدُهما: أي إنكَ لَسْتَ مِنْ كُبَرائنا وأجِلَّتِنا، إنما أنتَ مِنْ أوساطِنا. وعلى ذلكَ الأنبياءُ إنما بُعِثوا مِنْ أوساطِ الناسِ لا مِنْ كُبَرائِهِمْ في أمرِ الدنيا. فالقَوِيُّ والعزيزُ عندَ أولئكَ القومِ مَنْ عندَهُ الدنيا والمالُ. وأمّا مَنْ لم يكُنْ عندَهُ المالُ فهو عندَهُمْ ضعيفٌ ذليلٌ، لأنهمْ لا يَعْرِفونَ الدينَ، ولا يؤمِنونَ بالآخِرَةِ. لِذلكَ قالوا ما قالوا.

والثاني: لَسْتَ أنتَ بِذي قوةٍ وبَطْشٍ في نَفْسِكَ، وقد ذُكِرَ أنهُ كانَ ضَعيفاً في بَصَرِهِ ونَفْسِهِ. يَحْتَمِلُ وصفُهُمْ [إياهُ][٦] بالضعيفِ لِهذينِ الوجهَيْنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ أي قَبيلَتُكَ وقيلَ: عَشيرَتُكَ ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ الرَّجْمُ يَحْتَمِلُ القَتْلَ، ويَحْتَمِلُ اللعْنَ والشَّتْمَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ وجهَيْنِ

أحَدُهما: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ أي لولا حُرْمَةُ رهطِكَ لَرَجَمْناكَ كأنهمْ كانوا يُحَرِّمونَ [رجمَهُ][٧] لِموافَقَةِ رَهْطِهِ إيّاهُمْ في العِبادةِ؛ أعني عِبادةَ الأوثانِ، وعلى ما هُمْ عليهِ.

والثاني: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ خَوفاً منهُمْ لِما ذُكِرَ أنهُ كانَ كثيرَ العشيرَةِ والقبيلةِ، كانوا يَخافونَ عشيرَتَهُ، فلم يُؤذوهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ أي ما أنتَ [مِنْ][٨] أجِلَّتِنا وكُبَرائِنا، إنما أنتَ مِنْ أوساطِنا، [لَسْتَ][٩] علينا بِعَزيزٍ، لأنَّ العزيزَ عندَهُمْ مَنْ كانَ عندَهُ المالُ والدنيا، لا يَعْرِفونَ العِزَّ بِغَيْرِ ذلكَ، ولم يكنْ عندَ شُعَيبٍ الدنيا، لِذلكَ نَسَبوهُ إلى ما ذَكَروا[١٠]، أو أنتَ ذليلٌ عندَنا، لَسْتَ بعزيزٍ. فيكونُ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: والله يرحمه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لنعقل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ذكر.

[أحدُهما:](١) يَحتَمِلُ: يا قومِ أرَهْطي أعظَمُ حقاً عليكُمْ مِنَ اللهِ وأكثَرُ حُرْمَةً حتى تَرَكْتُمْ ما أوعَدْتُموني مِنَ النَّقْمَةِ لِحقِّهِمْ وحُرْمَتِهِمْ؟

والثاني: قولُهُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم﴾ أي أرَهْطي أشَدُّ خَوفاً عليكُمْ وأكثَرُ نِكايَةً مِنَ اللهِ؛ لأنّا قُلْنا في قولِهِ: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ إنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ؛ أحدُهما: الاحْتِرامُ لِرَهْطِهِ لِموافَقَتِهِمْ إيّاهُمْ في جَميعِ ما هُمْ عليهِ والمساعدةِ لهمْ. والثاني: على الخوفِ والنِّكايَةِ لِقُوَّتِهِمْ وكَثْرَتِهِمْ وفَضلِ بَطْشِهِمْ تَرَكُوا ما أوعَدوا لهُ خوفاً مِنْ رَهْطِهِ.

فقالَ: خوفُكُمْ مِنْ رَهْطي أشَدُّ وأكثَرُ عليكُمْ مِنَ الخَوفِ مِنَ اللهِ، وقد بَلَغَكُمْ مِنْ نِكايَةِ اللهِ ونَقْمَتِهِ ما(٢) حَلَّ بالأُمَمِ الماضِيَةِ، أو حُرْمَةُ رَهْطي عندَكُمْ وحَقُّهُمْ أعظَمُ مِنْ حَقِّ اللهِ وحُرْمَتِهِ، وأنتمْ(٣) تَعلَمونَ إحسانَهُ إليكُمْ وإنعامَهُ عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي حَمَلْتُموهُ على ظَهْرِكُمْ. وحَمْلُهُمْ إيّاهُ على ظُهُورِهِمْ إسْخاطُهُمْ إيّاهُ. قالَ: تقولُ العربُ: حَمَلَ النّاسَ على ظَهْرِهِ، أي أسْخَطَهُمْ على نَفْسِهِ. ولكنْ لا ندري أيُقالُ هذا، أم لا؟ فإنْ قيلَ: هذا فهو مُحْتَمَلٌ ما قالَ، وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

وقالَ غَيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي نَبَذْتُمُ اللهَ وراءَ ظَهْرِكُمْ أي نَبَذْتُمْ حَقَّ اللهِ وكتابَهُ الذي أنْزَلَ إليكُمْ وراءَ ظَهْرِكُمْ؛ لا تُعْلِمونَ بهِ، ولا تَكْتَرِثونَ إليهِ؛ هو كالمَنْبوذِ وراءَ ظَهْرِكُمْ.

هذا على التَّمْثيلِ، أي جَعَلوا أمرَ اللهِ ودينَهُ الذي دُعُوا إليهِ كالمَنْبوذِ وراءَ ظُهُورِهِمْ، لا يَنْظُرونَ إليهِ، ولا يَكْتَرِثونَ. وما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] وقولِهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] على التمثيلِ؛ أي الذي أنتمْ عليهِ في القُبْحِ كالانْقِلابِ على الأعقابِ.

[وقولُهُ تعالى](٤): ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ أيضاً: أي إنَّ ربي بما تَعْمَلونَ مِنَ الأعمالِ الخبيثَةِ مُحيطٌ، فَيَجْزيكُمْ بها، أو يقولُ: إنَّ ربّي بما تَعْمَلونَ مِنَ الكَيدِ برسولِ اللهِ والمَكْرِ بهِ محيطٌ، فَيَنْصُرُهُ عليكُمْ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ كونوا على دينِكُمُ الذي أنتمْ عليهِ، وأنا أكونُ على ديني كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] لأنَّ قومَ شُعَيبٍ قالوا لِشُعَيبٍ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] فقالَ لهمْ عندَ ذلكَ. وهذا إنما يُقالُ عندَ [الإياسِ مِنْ](٥) إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] وأمثالُهُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي اعْمَلوا في كَيدي والمَكْرِ في هلاكي ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ ذلكَ بكُمْ. وهو كما قالَ غَيرُهُ مِنَ الرُّسُلِ: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [الآية: ٥٥] وقولِهِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في العاقِبَةِ وعيدَ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أو ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في العاقبةِ مَنْ يأتي مِنّا عذابٌ يُخزيهِ، نحنُ أم(٦) أنتمْ؟ مَنْ هو كاذبٌ؟ وتَعْلَمونَ في العاقِبَةِ مَنِ الكاذبُ مِنّا، نحنُ أم(٧) أنتمْ؟ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ يَدَّعي على الفريقِ الآخَرِ الكَذِبَ والافْتِراءَ على اللهِ، فيقولُ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في العاقبةِ مَنِ الكاذبُ مِنّا والمُفْتَري على اللهِ؟ والصادقُ عليهِ ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ارْتَقِبوا هلاكي، وأنا أرتَقِبُ هلاكَكُمْ، أوِ ارْتَقِبوا لِمَنِ العاقبةُ منا، لنا أم(٨) لكمْ، ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ هذا، قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيلَ: الصَّيحَةُ صَيحَةُ جبريلَ؛ أي هَلَكوا بِصَيحَتِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: الصَّيحَةُ اسْمُ كلِّ عذابٍ، وكذلكَ الرَّجفَةُ. سَمّى العذابَ بأسماءٍ مختلفَةٍ، مَرَّةً صاعقَةً، ومَرَّةً صَيحَةً، ومَرَّةً رَجفَةً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: في ما. (٣) في الأصل وم: وقد. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الأيس عن.
(٦) و(٧) و(٨) في الأصل وم: أو.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هذا أيضاً قد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ في الهلاكِ ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ كما أُهْلِكَتْ ثَمودُ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما هَلَكَ بالصَّيْحَةِ. فَمِنْ ثَمَّ اختصَّ ذِكْرَ ثَمودَ مِنْ بَيْنِ الأمَمِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ قالَ][١] لم يُعَذَّبْ بعذابٍ واحدٍ إلّا قومُ شُعيبٍ وصالحٍ. فأمّا قومُ صالحٍ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وقومُ شُعيبٍ مِنْ فَوقِهِمْ، قالَ: فَنَشَأَتْ لهمْ سحابَةٌ، فيها عذابُهُمْ، فلم يَعْلَموا، كَهَيْئَةِ الظُّلَّةِ، فيها رِيحٌ. فلما رَأَوها أتَوها يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَها مِنْ حَرِّ الشمسِ، فسالَ عليهِمُ العذابُ مِنْ فوقِهِمْ.

فذلكَ قولُهُ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ مِنْ رحمةِ اللهِ ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ مِنْ رَحْمَتِهِ. ويَحْتَمِلُ الهلاكَ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ واحداً[٢] على التكرارِ. فإنْ كانَتِ الآياتُ هي[٣] الأوامِرَ والمَناهيَ وما يُؤتى وما يُتَّقى. فقولُهُ: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هي الحُجَجُ والبراهينُ على ذلكَ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المَلأَ هو اسْمُ الجماعةِ واسْمُ الأجلَّةِ والأشرافِ. وهو كانَ مَبْعوثاً إلى الأشرافِ مِنْ قومِهِ وإلى الجماعةِ جميعاً؛ خَصَّ بَعْثَهُ إلى فِرْعَونَ ومَلَئِهِ، وإن كانَ مَبْعوثاً إلى الكُلِّ/ ٢٤٥ ـ ب/ لِما العُرْفُ في المُلوكِ أنهمْ إنما يُخاطبونَ الكُبراءَ منهُمْ والأشرافَ، وإنْ كانَ المقصودُ مِنَ الخِطابِ الكُلَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو ما ذُكِرَ في حم المؤمن حينَ[٤] قالَ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [الآية: ٢٩] فأطاعوا فِرْعَونَ في قولِهِ.

يقولُ اللهُ: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي بِهُدىً. أو يقولُ: ما الأمرُ الذي عليهِ فِرْعَونُ بِرَشيدٍ، بل هو ضلالٌ.

ولكنْ عندَنا أنهمْ أطاعوا فِرْعَونَ في جميعِ أمْرِهِ ونَهْيِهِ في عبادةِ الأصنامِ وغيرِهِ، وهو ما ذَكَرْنا ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي لَيسَ بِهُدىً، بل كانَ أمرُهُ [ضلالاً؛ إذ][٥] كانَ هو ضالاً مُضِلاً.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي صارَ قُدّامَهُمْ، وقالَ بَعضُهُمْ: يَقودُ قومَهُ إلى النارِ حتى يُورِدَهُمْ إلى النارِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي يكونُ إماماً لهمْ في الآخِرَةِ، يَتَّبِعونَ أَثَرَهُ كما كانَ إمامَهُمْ في الدنيا، فاتَّبَعُوهُ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وكقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] أخبَرَ أنهمْ يكونونَ أئِمَّةً لهمْ في الآخِرَةِ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي دعاهُمْ في الدنيا، وأمَرَهُمْ بأمورٍ، تورِدُهُمُ النارَ، تلكَ الأعمالَ؛ ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] أي ما أصْبَرَهُمْ على عَمَلِ أهلِ النارِ. قالَ بعضُهُمْ: يَتَّبِعونَهُ حتى يدخِلَهُمُ النارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بِئْسَ المَدْخَلُ المَدْخولُ، والوُرودُ هو الدخولُ، والمَورودُ المَدْخولُ. سَمّى الجزاءَ بِاسْمِ سَبَبِهِ.

قالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما: جَميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ الوُرودِ فهو دخولٌ منهُمْ كقولِهِ: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقولِهِ: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] [وقولِهِ:][٦] ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] فقالَ، واللهُ [أعلَمُ:][٧] لَيَرِدَنَّها كلُّ بَرٍّ وفاجِرٍ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: واحد. (٣) من م، في الأصل: فهي. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل: ضلال حيث، في م: ضلالاً حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تحتَمِلُ اللعنةُ في الدنيا العذابَ الذي نَزَلَ بهمْ، وتحتَمِلُ لَعْنَ الخلائِقِ أيضاً مَنْ رآهُمْ يَلْعَنُهُمْ، ومَنْ ذَكَرَهُمْ، وفي الآخِرَةِ يَحتَمِلُ الوجهَينِ جميعاً؛ يَحتَمِلُ يُعَذَّبونَ في الآخِرَةِ أيضاً كما عُذِّبوا في الدنيا، ويَحتَمِلُ لَعْنَ الخلائِقِ أيضاً: مَنْ رآهُمْ، [يَلْعَنُهُمْ][1].

واللَّعْنُ هو الطَّرْدُ في اللغةِ؛ طُرِدوا مِنْ رحمةِ اللهِ، ولم يُرْحَموا في عذابِ الدنيا، ولا يُرْحَمونَ في عذابِ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ [ﷺ أنهُ قال:][2] ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ يقولُ: لعنةُ الدنيا والآخِرَةِ. قالَ قَتادةُ: ترادَفَتْ عليهِمْ لَعْنَتانِ مِنَ اللهِ لَعْنَةُ الدنيا ولَعْنَةُ الآخِرَةِ، ولكنْ [على][3] زعْمِهِمْ بحَيثُ أنْ يُقالَ: الرِّدْفُ مِنَ الترادُفِ، وقالَ بعضُهُمْ: الرِّدْفُ العَونُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ. وقالَ القُتَبِيُّ: الرِّفْدُ العَطِيَّةُ والمَرفودُ المُعْطَى؛ يقالُ: رَفَدْتُهُ إذا أعطيتُهُ، وأعَنْتُهُ، كما يُقالُ: بئسَ العطاءُ المُعْطَى. ولذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: بئسَ ما أُعْطُوا، وأُعِينُوا، وبئسَ المُعْطَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ ذلكَ ما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ القُرَى والقرونِ[4] في هذهِ السورةِ مِنْ أنباءِ نَقُصُّهُ عليكَ لِتُعْلِمَ بها رسالَتَكَ، ولِتكونَ آيةَ لِنُبُوَّتِكَ لأنكَ لم تُشاهِدْها، ولا اختَلَفْتَ[5] لأحدٍ منهمْ، فتَعَلَّمْتَ منهمْ، ولا كانَتِ الكتبُ بلسانِكَ، فيقولونَ: نظَرْتَ فيها، فأخذْتَ ذلكَ منها، ثم أنبَأْتَ على ما كانَ، وقصَصْتَ عليهِمْ لِتُعْلِمَ أنكَ إنما عَرَفْتَ باللهِ، فتكونَ آيةً لرسالَتِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ههنا قائمٌ تَرَى [مكانَهُ، وتَنْظُرُ إليهِ، ومنهُ][6] حَصيدٌ لا تَرَى لهُ أثراً ولا مكاناً. وقالَ بعضُهُمْ: قائمٌ أي خاويةٌ على عُروشِها، وحصيدٌ مُسْتَأْصَلَةٌ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][7] قالَ: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ وما حَصَدَ اللهُ أكثَرُ؛ أي ما أهلكَ اللهُ مِنَ القُرَى أكثَرُ.

وأصلُهُ عندَنا: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ نَحْوُ قُرَى عادٍ وثَمودَ ومَدْيَنَ؛ أهْلَكَ أهلَها، وبَقِيَتِ القُرى لأهلِ الإسلامِ؛ لأنهُ يقولُ في قُرَى عادٍ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٥]. ومنها حصيدٌ ما أهْلَكَ أهلَها والقُرَى جميعاً نَحْوُ قومِ نوحٍ أُهلِكُوا بِبُنيانِهِمْ ونَحْوُ قرياتِ قومِ لُوطٍ أُهلِكَتْ بأهلِها أيضاً حتى لم يَبْقَ لا الأهلُ ولا البُنْيانُ. فذلكَ، واللهُ أعلَمُ تأويلُ قولِهِ: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ هَلَكَ أهلُها، وبَقِيَ البُنْيانُ ﴿وَحَصِيدٌ﴾ هو ما أُهْلِكَ البُنْيانُ بأهلِهِ حتى لم يَبْقَ لهُ[8] أثرٌ.

وفيهِ وجوهٌ ثلاثةٌ:

أحدُها: [أنهُ][9] آيةُ الرسالةِ.

[والثاني: أنهُ][10] عِبْرَةٌ لأهلِ التَّقْوَى، وهو ما ذُكِرَ في آخِرِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

[والثالث: أنهُ زَجْرٌ][11] لأهلِ الشِّرْكِ والكُفرِ لأنهمْ يَذْكُرونَ ما نَزَلَ بأولئكَ، فَيَنْزَجِرونَ عنْ صنعِهِمْ فيهِ. هذهِ الوجوهُ التي ذَكَرَها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قولُهُ[12] ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ فيهِ وجهانِ:

أحدُهُما[13]: لم يَظْلِمْهُمْ لأنهمْ وبُنيانُهُمْ مُلْكُ اللهِ تعالى، وكلُّ ذي مُلْكٍ لهُ أنْ يُهْلِكَ مُلْكَهُ، ولا يُوصَفُ بالظُّلمِ مَنْ أتلَفَ مُلْكَهُ. وهمْ ظَلَموا أنفسَهُمْ [وهي][14] ليسَتْ لهمْ في الحقيقةِ، وكذلكَ بُنْيانُهُمْ، ومَنْ أتلَفَ مُلْكَ غيرِهِ فهو ظالِمٌ.

والثاني: أنَّ الظلمَ وَضْعُ الشيءِ [في][15] غيرِ موضِعِهِ. يقولُ: وما ظَلَمْناهُمْ بالعذابِ؛ إذْ يَسْتَوجبونَ ذلكَ بما ارْتَكَبوا،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) المقصود قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [الآية: ١١٦]. (٥) في الأصل وم: اختلف. (٦) في الأصل وم: مكانها وتنظر إليها ومنها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: وزجراً. (١٢) في الأصل وم: وقوله. (١٣) في الأصل وم: أي. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

فلم نَضَعِ العذابَ في غَيرِ موضِعِهِ، بل هُمُ الذينَ وَضَعُوا أنفُسَهُمْ في غَيرِ مَوضِعِها حينَ[1] صَرَفوها إلى غَيرِ مالِكِها، وَعَبَدوا غَيرَهُ، فهو ظُلْمٌ. هذا التأويلُ في أنفسِهِمْ. وأمّا البُنْيانُ فهو أنهُ إذا جعلَهُ لهمْ، فإذا هَلَكوا هُمْ أُهلِكَ ما جُعِلَ لهمْ، إنما أبْقى لهمْ ما داموا. فأمّا إذا بادوا هُمْ فلا مَعْنَى لإبقاءِ البُنْيانِ.

وما ذُكِرَ مِنْ ظُلْمِهِمْ أنفُسَهُمْ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ظَلَموا أنفُسَهُمْ بِعِبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ.

والثاني: ظَلَموا أنفسَهُمْ بِصَرْفِهِمُ الناسَ وصَدِّهِمْ عنْ سبيلِ اللهِ عنْ عبادةِ اللهِ وتوحيدِهِ إلى عبادةِ غَيرِ اللهِ.

والثالثُ: ظَلَموا أنفُسَهُمْ بسؤالِهِمُ العذابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ في هذا وجهانِ:

أحدُهُما: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى﴾ عَبَدوها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابُ ربِّكَ كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٣] يُخبِرُ أنَّ عبادَتَهُمُ الأصنامَ لا تَنْفَعُهُمُ المَنْفَعَةَ التي طَمِعوا.

والثاني: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ أنفسُ آلهتِهِمْ في دفعِ العذابِ عنهُمْ في أحْوَجِ حالٍ إليها لِعَجْزِهِمْ في أنفسِهِمْ وضَعْفِهِمْ كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فإذا لم يَمْلِكوا ذلكَ في وقتِ الحاجةِ إليهِمْ فكيفَ يَمْلِكونَ في غيرِهِ مِنَ الحالِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يَحْتَمِلُ ما زادَتْ[2] عبادَتُهُمْ إيّاها غيرَ تَتبيبٍ، أو ما زادَتْ[3] آلهتُهُمُ التي عَبدوها غيرَ تَتْبيبٍ. والتَّتبيبُ: قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هو التَّخسيرُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غيرَ فَسادٍ، والتَّتبيبُ الفَسادُ. وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] أي فَسادٍ وقالَ غيرُهُ: إلّا في خَسارٍ. وقالَ غيرَ تَخْسِيرٍ، وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي خَسِرَتْ. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غيرَ تَدْميرٍ وأهلاكٍ، وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] وكذلكَ قالوا في [قولِ الناسِ][4] تَبًّا لَكَ. وقالَ بعضُهُمْ: غَيرَ شَرٍّ، والتَّتبيبُ الشَّرُّ، والتَّبُّ الشَّرُّ والخُسرانُ، وهما واحدٌ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي هكذا يأخُذُ/ ٢٤٦ ـ أ/ كُفّارَ هذهِ الأُمّةِ كما أخَذَ أولئكَ؛ أي كما عَذَّبْنا الأُمَمَ الخاليةَ، وهي ظالمةٌ مُشرِكَةٌ كافرةٌ، كذلكَ عذابُ[5] هذهِ الأُمّةِ، لَيسَ[6] فيهِ رحمةٌ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ إنَّ أخذَهُ بالعذابِ أليمٌ شديدٌ. الأخذُ نَفْسُهُ يوصَفُ بالشِّدَّةِ، ولكنْ لا يُوصَفُ بالألمِ، والعذابُ يُوصَفُ بالألمِ والشِّدَّةِ. دلَّ أنَّ الأخذَ أخذٌ بعذابٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هو ما ذَكَرْنا؛ فيهِ عِبْرَةٌ لأهلِ التَّقْوى ولِمَنْ خافَ عذابَ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ خصَّ الناسَ بالذِّكرِ، وإنْ كانَ الجَمْعُ لهمْ ولِغَيرِهِمْ؛ لأنَّ الآيةَ التي ذَكَرَ تكونُ لهمْ آيةً أو لِما هُمُ المَقصودُونَ بالجمعِ وبذلكَ اليومِ، واللهُ أعلَمُ.

قيلَ: يُجْمَعُ فيهِ الأوَّلونَ والآخرونَ ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: يَشْهَدُهُ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ لِلعَرْضِ والحِسابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي ما نُؤَخِّرُهُمُ العذابَ منْ هذهِ ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ وذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، جوابَ ما استَعْجَلوهُ بقولِهِمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: زاد. (٣) في الأصل وم: زاد. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل: العذاب، في م: نعذب. (٦) في الأصل وم: و.

ونحوِهِ. فقالَ: وما نؤخِّرُ العذابَ عنهُمْ إلّا لأجلٍ مَعْدودٍ، إلّا لِوَقْتٍ مَوقوفٍ، أي لأجلٍ معدودٍ عندَ اللهِ. ولو كانَ ما ذَكَرَ ابنُ عباسٍ أنهُ سَبْعَةُ آلافٍ، فيكونُ مَعْدوداً عندَ الناسِ، ويكونُ وقتُ القيامةِ مَعْلوماً على قولِهِ، وقد أخبرَ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي لا تَكَلَّمُ نفسٌ بالشفاعةِ لأحدٍ إلّا بإذنِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] لا تكلَّمُ نفسٌ لأهوالِ ذلكَ اليومِ ولِفَزَعِهِ كقولِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] وكقولِهِ[1]: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [عم: ٣٨]، أو ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ مِنَ الأجلَّةِ والعظماءِ لأحدٍ مِن دونِهِمْ بالشَّفاعةِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فمنهُمْ شَقِيٌّ بأعمالِهِ[2] الخبيثةِ التي إذا اختارَها، وعَمِلَها، أدخَلَتْهُ النارَ، ومنهُمْ سَعيدٌ بما أُكرِمَ مِنَ الطاعةِ والخَيراتِ التي إذا اختارَها، وعمِلَها، أدخَلَتْهُ الجنةَ. وكلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُ، فَيُدْخِلُهُ الجنةَ، فهو سعيدٌ. وكلُّ عملٍ يَعْمَلُ، فَيُدْخِلُهُ النارَ، فهو شَقِيٌّ بِهِ.

رُوِيَ في ذلكَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [أنهُ قالَ][3]: سألتُ النَّبيَّ ﷺ فقُلْتُ يا نَبيَّ اللهِ فَعَلامَ[4] نَعْمَلُ؟ على شَيءٍ قد فُرِغَ منهُ أو شيءٍ لم يُفرَغْ منهُ؟ قالَ: بل على شَيءٍ قد فُرِغَ منهُ، وجَرَتْ بِهِ الأقلامُ يا عُمَرُ، ولكنْ كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لهُ» [مسلم ٢٦٤٩] فإنْ ثَبَتَ فهو يدلُّ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ لِما ذَكَرَ[5] ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الزفيرُ هو كَزَفيرِ الحِمارِ في الصَّدْرِ، وهو أوَّلُ ما يَنْهَقُ، وأمّا الشَّهيقُ فهو كَشَهيقِ الحمارِ في الحَلْقِ، فهو آخِرُ ما يَفْرَغُ مِنْ نَهيقِهِ، فهو شَهيقٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: الزفيرُ هو مالا يُفْهَمُ منهُ شَيءٌ، إنما هو كالأنينِ والجَزَعِ مِنْ شَيءٍ يُصيبُهُ، لا يُتَبَيَّنُ منهُ، كقولِهِ: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] والشهيقُ هو ما يَرْتَفِعُ منهُ الصوتُ، يُسَمَّى شَهيقاً.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الزَّفيرِ والشَّهيقِ أنهمْ يَصيرونَ بعدَ كَثْرَةِ دعائِهِمْ ونِدائِهِمْ حتى يكونَ منهُمُ الزفيرُ والشَّهيقُ لا يُفْهَمُ كَصَوتِ الدوابِّ إذا أصابَها ألَمٌ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][6] قالَ: ما دامتِ السمواتُ والأرضُ تُبَدَّلُ وتُبَدَّلُ، كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الفرقان: ٢٥] [وقولِهِ][7]: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ونَحْوُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ إنما [هو][8] صِلَةُ الكلامِ؛ كأنهُ قالَ: خالدينَ فيها إلّا ما شاءَ ذلكَ. وقد يُتَكَلَّمُ بِمِثْلِ هذا على الصِّلَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يدومُ لهمُ العذابُ أبداً ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ [لأهلِ الدنيا ما داموا فيها لأنهما إنما يَفْنَيانِ بَعْدَ فناءِ أهلِهِما، وبَعْدَ إحياءِ الأهلِ والبعثِ، فأخبرَ أنَّ العذابَ يَدومُ لهمْ كما تدومُ لأهلِ الدنيا السماءُ والأرضُ][9] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي ما دامَتْ سَماءُ الجنّةِ وأرضُ الجنّةِ وسَماءُ النارِ وأرضُ النارِ لكنْ ذَكَرَ هذا لِئلّا يَتَوَهَّمَ أهلُ الجنةِ والنارِ قَبْلَ هلاكِ سَمائِها وأرضِها على ما يُتَوَهَّمُ هلاكُ أهلِ الدنيا قبلَ هلاكِ سمائها وأرضِها.

وقالَ بعضُهُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي ما دامَتِ الأرضُ أرضاً والسماءُ سَماءً يَتَكلّمونَ على ما بَعُدَ مِنْ أوهامِهِمْ فَناؤُها أو على الصِّلةِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: لا أُكَلِّمُكَ ما دامَ الليلُ والنهارُ، أي أبداً.

هذا تأويلُ قولِهِ: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بأعمال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فعلى من. (٥) في الأصل وم: ذكرنا. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) ساقطة من م.

وأمّا قولُهُ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [فقد](١) قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ناساً مِنْ أهلِ التوحيدِ يُعَذَّبونَ في النارِ على قَدْرِ ذنوبِهِمْ وخَطاياهُمْ، ثم يُخْرَجونَ منها.

وقد رُوِيَ في ذلكَ، رُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُريرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنه](٢) قالَ: «الإسْتِثْناءُ في الآيَتينِ كِلْتَيهما لأهلِ الجنةِ» [البيهقي في البعث والنشور٦٠٤] يعني الذينَ يُخْرَجونَ مِنَ النارِ مِنْ أهلِ التوحيدِ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يقولُ: لم يَشْقَوا شَقاءَ مَنْ يَخْلُدُ في النارِ قالَ في الذينَ سَعِدوا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هم أولئكَ الذينَ لم يَنالوا مِنَ السعادةِ ما نالَ أهلُ الجنةِ الذينَ لم يدخُلوا النارَ.

وفي بعضِها عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «أمّا مَنْ يُريدُ اللهُ إخراجَهُ مِنَ النار فإنهمْ يُماتونَ إماتَةً» وقالَ في خَبَرٍ آخَرَ: «أمّا مَنْ يُرِدِ اللهُ لَهُ الخلودَ فلا يُخْرَجُ منها» [بنحوه عن ابن عباسٍ: البيهقي في البعث والنشور٦٠٦] وأمثالُ هذا مِنَ الأخبارِ. فإنْ ثَبَتَ هذا فهو المُعْتَمَدُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي قد شاءَ لأهلِ النارِ الأبَدَ والخُلودَ، وشاءَ لِأهلِ الجَنَّةِ ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] أي غَيرَ مُنْقَطِعٍ. ويُؤَيِّدُ هذا التأويلَ ما ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ](٣) ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في الآيتَينِ، وفي الأولى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وفي الأُخرى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبَيِّ[بْنِ كَعْبٍ](٤) أنهما لم يَذْكُرا(٥) الثُّنْيا في أهلِ الجَنَّةِ.

وأصْلُ هذا ما ذَكَرَ أبو عُبَيدٍ؛ قالَ: الإسْتِثْناءُ الذي هو في أهلِ السعادةِ فهو المُشْكِلُ لأنهُ يُقالُ: كيفَ يَسْتَثْني، وقد وَعَدَهُمْ خُلودَ الأبَدِ في الجنَّةِ. وقالَ في ذلكَ أقوالاً لا أدري إلى مَنْ [يُسْنِدُها؟ إلا أنَّ لها مَخارِجَ](٦) في كلامِ العربِ وشواهدَ في الآثارِ.

وإنما يَتَكلَّمُ الناسُ في هذا على مَعاني العربيةِ، واللهُ أعلَمُ، بما أرادَ.

قالَ: فأحَدُ هذهِ الوجوهِ في الإسْتِثناءِفي ما يُقالُ: كالرجلِ يُوجِبُ على نَفْسِهِ الشيءَ، ثم يقولُ: إنْ شاءَ اللهُ، وعَزْمُهُ ضميرُهُ معَ اسْتِثْنائِهِ أنهُ فاعِلُهُ، لا يُريدُ غَيرَهُ

وممّا(٧) يُقَوّي هذا المذهبَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ [الفتح: ٢٧] فاسْتَثْنى، وقد عَلِمَ أنهمْ داخِلوهُ البَتَّةَ.

ومنهُ مارُوِيَ في حديثِ مكةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ حينَ قالَ: «ولا تَحِلُّ لُقَطَتُها إلا لِمُنْشِدٍ» [البخاري ١٨٣٣] وقالَ بعضُهُمْ: اسْتَثْنى المُنْشِدَ/ ٢٤٦ ـ ب/، وهي لا تَحِلُّ لهُ كما لا تَحِلُّ لِغَيرِهِ.

والوجهُ الثاني: بأنْ يكونَ إلا في معْنَى سِوَى؛ فإنَّ العَرَبَ تَفْعَلُ ذلك، تقولُ: عليكَ ألفُ درهم مِنْ قَبْلِ كذا وكذا إلا الألفَ التي قَبْلَ ذلكَ، أي سِوَى الألفِ التي قَبْلَ ذلكَ. فيكونُ المَعْنى على هذا أنهُ وَعَدَهُمْ خُلودَ الأبَدِ سِوَى ما أعَدَّ لهمْ مِنَ الزيادةِ في الكَرامةِ والمَنْزِلَةِ التي لم يَذْكُرْها لهمْ.

وممّا يُقَوّي هذا التأويلَ مارُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ [انه](٨) قالَ: قالَ اللهُ تعالى: «اعْدَدْتُ لِعِبادي الصالِحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ ولا أُذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، بَلْهَ الذي ما أُطْلِعْتُمْ عليهِ. ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» الآيةَ[السجدة:١٧] [مسلم: ٢٨٢٤]. ألا تَرَى أنَّ ههنا مِنَ الزيادةِ مالم يُطْلِعْهُمْ عليهِ؟

والوجهُ الثالثُ: أنْ يكونَ الإسْتِثْناءُ مِنْ خُلودِهِمْ في الجنةِ احْتِباسَهُمْ عنها ما بَيْنَ البَعْثِ والحِسابِ.وقد قيلَ ما ذَكَرْنا أنهُ ما بَيْنَ المَوتِ والبَعْثِ، وهو البَرْزَخُ الذي ذَكَرَ إلى أنْ يَصيروا إلى الجنةِ، ثم هو خُلودُ الأبَدِ؛ يقولُ: فلم

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يذكر (٦) في الأصل: يسند إلا لها مخارجا، في م: يسند إلا أن لها مخارجا. (٧) في الأصل وم: وهما. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَغيبوا عنِ الجنةِ إلا بِقَدْرِ إقامَتِهِمْ في الحِسابِ. وممّا يُقَوِّي هذا المذهبَ ما قيلَ في قولِهِ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] قيلَ: ما بَيْنَ الموتِ والبَعْثِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فقدِ اخْتَلَفَ القُرّاءُ في قراءَتِها؛ قَرَأَها الكِسائيُّ وحمزةُ بضمِّ السينِ: سُعِدُوا، وأمّا أبو عَمْرٍو وأهلُ المدينةِ وغيرُهُمْ مِنَ القُرّاءِ[فقد][1] قَرَؤوا بفتحِ السينِ[2]: سَعِدُوا على قياسِ شَقُوا. قالَ أبو عوسَجَةَ: لا أعرِفُ: سُعِدُوا بضمِّ السينِ، وإنما هو بفتحِ السينِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غيرَ مَقطوعٍ كقولِهِ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨] أي قُطاعاً. وقد ذَكَرْنا قولَهُمْ في الزفيرِ والشهيقِ على قَدْرِ حِفْظِنا لهُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: لا تكنْ يامحمدُ في شَكٍّ بأنَّ هؤلاءِ قد بَلَغُوا في عبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ الحَدَّ الذي بَلَغَ آباؤُهُمْ في عبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ، فأُهْلِكوا: إذْ بَلَغُوا ذلكَ الحَدَّ. فهؤلاءِ أيضاً قد بَلَغُوا ذلكَ المَبْلَغَ أي مَبْلَغَ الهلاكِ، لكنَّ اللهَ برحمتِهِ وفَضْلِهِ أخَّرَ عنهُمْ [العذابَ][3] إلى وقتٍ.

أو يُقالُ: إنَّ هؤلاءِ قد بَلَغُوا في العبادَةِ لِغَيرِ اللهِ بَعْدَ نزولِ القرآنِ والحُجَّةِ المَبْلَغَ الذي بَلَغَ آباؤُهُمْ قبلَ نزُولِ الحُجَّةِ والبرهانِ في عِبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ.

أو كانَ [قولُهُ][4] في قومٍ قد أظْهَرُوا المُوافَقَةَ لهمْ، وكانوا يَعْبُدُونَ الأصنامَ في السِّرِّ على ما كانَ يعبُدُ آباؤُهُمْ، فقالَ: هؤلاءِ، وإنْ أظْهَرُوا المُوافَقَةَ لكَ فقد بَلَغُوا بِصَنيعِهِمْ في السِّرِّ مَبْلَغَ آبائِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: إخبارٌ عنْ قومٍ خاصٍّ أنهُ لا يُؤْمِنُ أحدٌ منهُمْ لِيَجْعَلَ شُغْلَهُمْ بِغَيرِهِمْ.

والثاني: إخبارٌ ألّا يُؤْمِنَ جميعُ قومِكَ كما لم يُؤْمِنْ قومُ موسى بأجمَعِهِمْ. بلْ قد آمَنَ منهمْ فريقٌ، ولم يُؤْمِنْ فريقٌ، فَعَلى ذلكَ يكونُ قومُكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ في الدنيا مِنَ الأرزاقِ، وما قَدَّرَ لهمْ مِنَ النِّعَمِ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ ولا يُنْقِصُ ما قَدَّرَ لهمْ؛ أي لا يَهْلِكونَ حتى يُوَفِّيَ لهمْ.

وقالَ قائلونَ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ بأعمالِهِمْ غَيرَ مَنقوصٍ؛ أي لا يُنْقَصونَ مِنْ أعمالِهِمْ شيئاً، ولا يُزادونَ عليهِ[5]؛ إنْ كانَ حَسَناً فَحَسَنٌ، وإنْ كانَ شَرًّا فَشَرٌّ؛ هو على الجزاءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ يقولُ: إنّا نُوَفّي لهمْ حظَّهُمْ مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾. عنهمْ ذلكَ العذابَ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ إنْ كانَ التأويلُ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ على الإياسِ مِنْ قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنُونَ، فيكونُ تأويلُهُ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الآيةَ[هود: ١٥]

وإنْ كانَ الثانيَ فهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود١١١]

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراةَ ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أيِ اخْتُلِفَ في الكتابِ. والاخْتِلافُ فيهِ يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: في الإيمانِ بهِ والكُفْرِ؛ منهُمْ منْ آمَنَ بِهِ، ومنهُمْ مَنْ كَفَرَ.

والثاني: اخْتَلَفوا فيهِ في الزِّيادةِ والنُّقصانِ والتَّبديلِ والتَّحويلِ والتَّحريفِ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنيةج٣/ ١٣٥. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم.

﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية[آل عمران: ٧٨] وكقولِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] وكقولِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] وأمثالُهُ مِنَ الآياتِ.

والوجهُ الثالثُ: مِنَ الاِخْتِلافِ: اخْتِلافُهُمْ[1] في تأويلِهِ وفي معناهُ بَعْدَ ما آمَنوا بِهِ، وقَبِلوهُ. فالاِخْتِلافُ في التأويلِ مِمّا احْتَمَلَ كتابُنا. وأمّا التَّبْديلُ والتَّحْريفُ والزيادةُ والنُّقصانُ فإنهُ لا يَحْتَمِلُ لِما ضَمِنَ اللهُ حِفْظَ هذا الكتابِ بقولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقولِهِ[2]: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الآية [فصلت: ٤٢] وجعلِهِ مُنْتَشِراً على ألسنِ الناسِ وقلوبِهِمْ، حتى مَنْ زادَ، أو نَقَصَ، أو بَدَّلَ، أو حَرَّفَ شيئاً، أو قَدَّمَ، أو أخَّرَ، عُرِفَ ذلكَ.

فهو، واللهُ أعلمُ، لا يَحْتَمِلُ هذا: نَسْخَها، ولا شرائِعُهُ تَبْديلَها وأمّا الكُتُبُ السالفةُ فإنما جَعَلَ حِفْظَها إليهِمْ بقولِهِ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما احْتَمَلَ شرائِعَها وأحكامَها بنَسْخِها و تَبْديلِها، لذلكَ كانَ الأمرُ ما ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ذَكَرَ هذا لرسولِ اللهِ، يُصَبِّرُهُ على ما اخْتَلَفَ قومُهُ في الكتابِ الذي نَزَلَ عليهِ؛ يقولُ: وقد اخْتُلِفَ في ما أُنزِلَ على مَنْ كانَ قبلَكَ كما اخْتُلِفَ في ما أُنزِلَ عليكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بالهلاكِ هلاكِ اسْتِئْصالٍ واسْتيعابٍ.

وكلمتُهُ التي سَبَقَتْ تَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحدُها[3]: ما كانَ مِنْ حكمِهِ أنْ يَخْتُمَ الرسالةَ بمحمدٍ، وأنْ يَجْعَلَهُ خاتمَ النَّبِيِّينَ، وأُمَّتُهُ آخِرَ الأُمَمِ؛ بهِمْ تقومُ الساعةُ؛ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ كلمتُهُ التي ذَكَرَ هذا الذي ذَكَرْنا.

والثاني[4]: أنْ كانَ مِنْ حكمِهِ أنهمْ إذا اخْتَلفوا في الكتابِ والدينِ، وصاروا بِحَيثُ لا يَهْتَدونَ إلى شَيءٍ، ولا يَجدونَ سَبيلاً إلى الدينِ أنْ يَبْعَثَ رسولاً، يُبَيِّنُ لهمُ الدينَ، ويَدْعوهمْ إلى الهُدَى؛ لولا هذا الحُكْمُ سَبَقَ، وإلا لَقَضى بَيْنَهُمْ بالهلاكِ.

والثالثُ: لولا ما سَبَقَ منهُ أنْ يُؤَخِّرَ العذابَ عنْ هذهِ الأُمَّةِ إلى وقتٍ، وإلا لَقَضى بَيْنَهُمْ بالهلاكِ

والرابعُ[5]: تَحْتَمِلُ الكلمةُ التي ذَكَرَ أنها سَبَقَتْ في قومِ موسى، وهو أنهُ لا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الغَرَقِ إهلاكَ اسْتِئْصالٍ، والتوراةُ إنما أُنزِلَتْ مِنْ بَعْدِ[الغَرَقِ][6]، وقد آمَنَ مِنْ ﴿قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية[الأعراف: ١٥٩] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ في الدينِ ﴿مُرِيبٍ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ مِنَ العذابِ ﴿مُرِيبٍ﴾ وقد ذَكَرْنا الفَرْقَ بينَ الشَّكِّ والرَّيبِ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ في الآخِرَةِ؛ إنْ كانَ شَرّاً فَشَرٌّ، وإنْ كانَ حَسَناً فَحَسَنٌ. ومَنْ قرأ لَمّا بالتشديدِ فإنهُ[7] يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: إلّا.

والثاني: لمّا أي لَمِمّا اجْتَمَعَ فيها ميماتٌ؛ طُرِحَتِ الواحدةُ، وأُدْغِمَتْ إحداهما في الأخرَى.

وقولُهُ تعالى: /٢٤٧ ـ أ/ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هو وعيدٌ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ وقالَ في موضعٍ آخرَ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ الاِسْتِقامةُ هو التوحيدُ، أي اسْتَقِمْ عليهِ حتى تأتِيَ بهِ ربَّكَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] على ذلكَ حتى أتَوا على اللهِ بهِ.

(١) في الأصل وم: اختلفوا. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وتحتمل وجها آخر وهو. (٥) في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و، انظر معجم القراءات القرآنيةج٣/١٣٦ وحجة القراءات ص ٣٥١.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ بما تَضمَّنَ قولُهُ: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ لأنَّ قولَهُ: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إقرارٌ منهُ لهُ بالرُّبوبيَّةِ، فَيَجعَلُ [المَرءُ][1] في نَفْسِهِ وجَميعِ أمورِهِ الرُّبوبيَّةَ لِلّهِ والألوهيَّةَ لهُ، ويأتي ما يَجِبُ أنْ يُؤتَى، ويَنْتَهِي عمّا[2] يَجِبُ ما يُنتهَى، ويَتَّبِعُ جميعَ أوامِرِهِ ونَواهِيَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ لِرسولِ اللهِ [الذي][3] يَحْتَمِلُ على تبليغِ الرسالةِ إليهِمْ. وقولُهُ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ يُخرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: استَقِمْ على ما ﴿أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أيضاً لِيَستَقيموا على ما أُمِروا.

والثاني: يقولُ: امْضِ إلى ما أُمِرْتَ؛ حَرْفُ كما يُخرَّجُ على هذينِ الوجهَيْنِ [اللَّذينِ][4] ذَكَرْنا؛ على ما أُمِرْتَ، وإلى ما أُمِرْتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ادْعوهمْ على أنْ يَستَقيموا على ما أُمِرُوا، ودُعُوا[5] بِلِسانِهِمْ ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: الطُّغيانُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا وعيدٌ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قالَ الحَسَنُ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ قالَ الحَسَنُ: بَيْنَهما دينُ اللهِ؛ بَيْنَ الرُّكونِ إلى الظَّلَمَةِ والطُّغيانِ في النعمةِ.

الآيةُ، وإنْ كانَتْ في أهلِ الشِّرْكِ، فهي فيهِمْ، وفي غَيرِهِمْ مِنَ الظَّلَمَةِ؛ إنَّ كلَّ مَنْ رَكَنَ إلى الظَّلَمَةِ، يُطيعُهُمْ، أو يَوَدُّهُمْ، فهو يُخَوَّفُ[6] أنْ يكونَ في وعيدِ هذهِ الآيةِ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ في دفعِ العذابِ عنكُمْ[7] أو إحداثِ نَفْعٍ لكُمْ[8] ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا ناصِرَ لكمْ[9] دونَهُ، ولا مانِعَ، واللهُ أعلَمُ.

وتأويلُ قولِهِ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في ظُلْمِهِمْ وفي ما يدعونَكُمْ إليهِ ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآيةَ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في رسولِ اللهِ حينَ دعاهُ أهلُ الشركِ، ولا تَلْحَقوا بهمْ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ظاهِرُ هذا أن يكونَ [في ما][10] ذَكَرَ صَلَواتٌ ثلاثٌ: صلاةُ الفَجرِ في الطَّرَفِ الأوَّلِ، وصلاةُ العَصْرِ في الطَّرَفِ الأخيرِ، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صلاةُ المَغرِبِ، لأنهُ ذَكَرَ زُلَفاً مِنَ اللَّيلِ، والزُّلَفُ القُرَبُ، لأنَّ الزُّلْفَةَ، هي القُرْبَةُ والوَسيلةُ، ويكونُ[11] قولُهُ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي قريباً مِنْ طَرَفِ النهارِ [وقريباً مِنْ طَرَفِ][12] الليلِ، وهو المَغرِبُ.

ويكونُ ذِكْرُ سائِرِ الصلواتِ في قولِهِ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] ذَكَرَ دُلوكَ الشمسِ إلى غَسَقِ الليلِ، ذَكَرَ دُلوكَ الشمسِ، وهو زوالُ الشمسِ، وغَسَقَ الليلِ، [وهو][13] العِشاءُ، أو في قولِهِ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ و١٨].

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاةُ العَصْرِ و ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاةُ الفَجرِ ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاةُ العِشاءِ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاةُ الظُّهرِ. ولَيسَ لِصلاةِ المَغرِبِ ذِكْرٌ في الآيةِ، لكنها ذُكِرَتْ في قولِهِ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتٌ مِنَ الليلِ. إلّا أنَّ بَعْضَ أهلِ التأويلِ صَرَفوها إلى الصَّلَواتِ الخَمسِ، وقالوا: قولُهُ: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ صلاةُ الصُّبحِ والظُّهرِ[14] والعَصْرِ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صلاةُ المَغرِبِ والعِشاءِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وادوا. (٦) في الأصل وم: يخاف. (٧) في الأصل وم: عنهم. (٨) في الأصل م م: لهم. (٩) في الأصل وم: لهم. (١٠) من م، في الأصل: فيها. (١١) في الأصل وم: ليكون. (١٢) في الأصل وم: من. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

وقالَ الحَسَنُ: هما زُلفتانِ مِنَ الليلِ صلاةُ المَغْرِبِ والعِشاءِ. على ذلكَ جاءتِ الآثارُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الحَسَناتُ هي الصَّلَواتُ الخَمْسُ. «ورُوِيَ أنَّ رجلاً أصابَ مِنِ امْرأةٍ كلَّ شيءٍ إلّا الجماعَ، فَنَدِمَ على ذلكَ، فأتى رسولَ اللهِ، فسألَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ: ما أدري ما أرُدُّ عليكَ حتى يأتيَ فيكَ شيءٌ مِنَ اللهِ. قالَ فبينَما هما[1] كذلكَ إذْ حَضَرَتِ الصلاةُ، فلما فَرَغَ مِنْ صلاتِهِ نَزَلَ عليهِ جبريلُ، فقالَ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غدوةً وعَشِيَّةً: صلاةَ الغداةِ والظُّهرِ والعَصْرِ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صلاةَ المَغربِ والعِشاءِ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني الصَّلَواتِ الخَمْسَ ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قالَ: توبةً للتائبِ، فَقَرأ رسولُ اللهِ ﷺ، فقالَ عمرُ: يا رسولَ اللهِ. أخاصٌّ لهُ، أم عامٌّ؟ قالَ: لا بلْ عامٌّ للناسِ كُلِّهِمْ» [ابن حبان: ١٧٣٠] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو الأصلُ في ذلكَ.

وعنْ عثمانَ في بَعْضِ الأخبارِ أنهُ سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «الصَّلواتُ الخمسُ الحَسَناتُ ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقالوا: فما الباقياتُ الصالحاتُ يا عثمانُ؟ فقالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ وسُبْحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلّا باللهِ العَليِّ العظيمِ» [أحمد١/ ٧١].

وعَنْ أبي هُرَيرَةَ [أنهُ][2] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «الصلواتُ كَفّارَةٌ للخطايا، واقْرَؤوا إنْ شِئْتُمْ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾» [بنحوه عن أنس: أبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٥٠]

وعنِ ابْنِ عباسٍ [في قولِهِ][3] ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [أنهُ][4] قالَ: الصلواتُ الخَمْسُ. وعنْ جابرٍ [أنهُ][5] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الصلواتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهرٍ جارٍ على بابِ أحدِكُمْ يَغْتَسِلُ منهُ كلَّ يومٍ خَمْسَ مراتٍ» [مسلم ٦٦٨] والأخبارُ في هذا كثيرةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: فيهِ ذِكْرُ أربعِ صلواتٍ؛ يقولُ: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الفَجْرُ والعَصْرُ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ المَغْرِبُ والعِشاءُ. وقد جاءتِ الآثارُ في أنَّ الحَسَناتِ هُنَّ[6] خَمْسُ صَلَواتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فِعْلُ الصلواتِ نَفْسِها، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الأخبارِ إنْ ثَبَتَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: نَفْسُ الصلاةِ لاتُكَفِّرُ، ولكنْ تُذَكِّرُ ما ارْتَكَبَ مِنَ الذنوبِ، فَيَنْدَمُ عليها، فذلكَ يُكَفِّرُ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥]؛ أخبرَ أنَّ الصلاةَ تَنْهَى، ولا تَنْهَى إلّا بَعْدَ أن تُذَكِّرَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي ما دامَ فيها. ويحتملُ قولُهُ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الصَّلَواتِ وغيرَها مِنَ الحَسَناتِ، وفيهِ[7] إخبارٌ أنَّ مِنَ الحَسَناتِ [ما][8] تُكَفِّرُ شيئاً مِنَ السَّيِّئاتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ ذلكَ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ[9] ذِكرىٰ: عِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ظاهِرُ ما ذَكَرَ مِنَ الكلامِ أنْ يقولَ: فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ الصابِرينَ لأنهُ ذَكَرَ الصَّبْرَ بقولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾.

لكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ الصَّبْرَ مِنَ الشُّرورِ كُلِّها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل يَجْزيهِمْ جزاءَ حَسَناتِهِمْ. أو يقولُ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على أداءِ ما كُلِّفْتَ مِنَ الطاعاتِ أو تبليغِ ما كُلِّفْتَ [مِنَ][10] التبليغِ إليهِمْ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على أذاهمْ، ولا تُكافِئْهُمْ، [فقد أحْسَنْتَ إليهِمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ويَصِلُهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: هم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: من. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ذكرها. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

قالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتٍ منَ الليلِ، وقالَ: الزُّلَفُ القُرْبَةُ، والزُّلْفَةُ القُرْبَةُ كقولِهِ تعالى](1): ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: ٢٥و٤٠] أي القُربى(2).

وقالَ أبو عُبَيدةَ: الزُّلَفُ [مُفرَدُها](3) زُلْفَةٌ، وهي الساعةُ، وهي المَنزِلَةُ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ظاهِرُ هذا يُخَرَّجُ على المُعاتَبَةِ والتَّنبيهِ/ ٢٤٧ ـ ب/ والتَّذْكيرِ لأنهُ يقولُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي لِمَ لا يكونُ(4) كذا؟ فَلَيسَ ثَمَّ مِن أولئكَ مَنْ يُعاتَبُ أو يُنَبَّهُ. لكنها تُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي فَهَلّا كانوا ذوي بَقِيَّةٍ ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَعناهُ، واللهُ أعلمُ، هَلّا كَثُرَ أهلُ الإسلامِ فيهِمْ حتى يَقدِروا على النَّهيِ عَنِ الفسادِ في الأرضِ؛ لأنهمْ إذا كانوا قليلاً لم يَقدِروا على النَّهيِ عنِ الفسادِ، نَحوَ لوطٍ وأهلِهِ، كانوا عَدَداً قليلاً، كيفَ كانَ يَقدِرُ على النَّهيِ عَنِ الفسادِ أو المَنعِ عنْ ذلكَ؟ وكَنوحٍ أيضاً كانَ معهُ [نَفَرٌ قليلٌ](5) عَدَدُهُمْ، لم يَقدِرْ على مَنعِ قومِهِ عَنِ الفَسادِ، ونَحوُهُ.

فإذا كانَ فكانَهُ، واللهُ أعلَمُ، يقولُ: هلّا كَثُرَ أهلُ الإسلامِ ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟

والثاني: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي قد كانَ منهمْ أولو بَقِيَّةٍ، لكنهُمْ لم يَنْهَوا عنِ الفسادِ في الأرضِ، فأُهلِكوا جميعاً ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وذلكَ القليلُ قد نَهَوا عَنِ الفَسادِ في الأرضِ؛ فيجوزُ بَينَ أولئكَ حاصلُ هذا [القليلِ](6) يُخَرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما:

[أحَدُهما](7): لم يكنْ منهمْ ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ.

والثاني: كانَ فيهِمْ أُولو بَقِيَّةٍ، لكنهُمْ لم يَنْهَوهُمْ عنِ الفَسادِ في الأرضِ إلّا قليلاً منهُمْ فإنهمْ قد نَهَوهُمْ عن ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ هو يُخَرَّجُ [على وجهَينِ:

أحَدُهما](8): يَحتَمِلُ ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ الأتباعُ والسَّفَلَةُ الذينَ ظَلَموا مَنْ أُترِفوا فيهِ مِنَ الأموالِ؛ أي [وَسَّعوا عليهِمْ](9)، وأعطَوهُمُ الأموالَ، وهُمُ الأجِلَّةُ والأئِمَّةُ منهُمْ؛ أي آثَروا اتِّباعَ الأئمَّةِ والأجِلَّةِ الذينَ أُترِفوا فيهِ على اتِّباعِ الرسُلِ والأنبياءِ.

والثاني: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهمُ الأجِلَّةُ والأئِمَّةُ ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي أعطَوا مِنَ الأموالِ، آثَروا الدنيا وما فيها على اتِّباعِ الرسُلِ والأنبياءِ.

على أحدِ التأويلَينِ يَرْجِعُ إلى السَّفَلَةِ والأتباعِ، وهو الأوَّلُ. والثاني إلى الأجِلَّةِ والأئِمَّةِ، وهم آثَروا اتِّباعَ الدنيا على اتِّباعِ الرسلِ، ثم تَبِعَهُمُ الأتباعُ والسَّفَلَةُ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي ما كانَ ربُّكَ لِيُهلِكَ القُرى إهلاكَ اسْتِئصالٍ وانْتِقامٍ، وأهلُها كُلُّهُمْ مُصْلِحونَ. إنما نُهلِكُ القرى إذا كانَ أهلُها كلُّهُمْ مُفسِدينَ، أو عامَّةُ أهلِها مُفسِدينَ.

هذا يدلُّ أنَّ الحُكْمَ في الدارِ إنما يكونُ بِغَلَبَةِ أهلِها، إنْ كانَ أكثرُ أهلِها أهلَ الإسلامِ، فالحُكمُ حُكمُ الإسلامِ وإنْ كانَ عامَّةُ أهلِها أهلَ الحربِ والكُفرِ، فالحُكمُ(10) حُكمُهُمْ، ولا يُسَمّى أهلُها كُلُّهُمْ بالكفرِ والفَسادِ إذا كانَ أكثَرُ أهلِها مصلِحينَ.

ألا تَرى أنهُ قالَ في قومِ لوطٍ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟ [العنكبوت: ٣٤] سَمّى أهلَ قريةٍ، وإنْ كانَ فيها لوطٌ، وأهلُهُ مُصْلِحونَ، لم يَعُدْ لوطٌ وأهلُهُ مِنَ أهلِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي لا يكونُ في إهلاكِهِمْ ظالماً. ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: القربة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يكونوا. (٥) في الأصل وم: يقل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في م: وجهين، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وسع إليهم. (١٠) في الأصل وم: والحكم.

أحدُهما: أنَّ الخَلْقَ لهُ، فهو بإهلاكِهِ لم يكُنْ ظالماً لأنهُ أهْلَكَ مالَهُ. والثاني: أنهُ إنما يُهْلِكُهُمْ بِظُلْمٍ كان منهُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قالتِ المُعْتَزِلةُ: هذهِ المَشيئةُ مَشيئةُ القَهْرِ والقَسْرِ، وذلكَ ممّا يَدْفَعُ المِحْنَةَ، وتَزولُ لَدَيهِ المَثوبَةُ والعقوبَةُ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وأمّا عندَنا فلو شاءَ لَجَعَلَهُمْ أمّةً واحدةً مَشيئةً لا تزولُ مَعَها المِحْنَةُ. والذي يدلُّ عليهِ خِصالٌ:

أحدُها: أنَّ اللهَ قد عَرَّفَنا الإيمانَ والدينَ الذي يَقَعُ بهِ الاجْتِماعُ، أو فيهِ الاخْتِلافُ بِما ركَّبَ فينا مِنَ العقولِ التي بها تُعرَفُ حَقائِقُ الأشياءِ ومُجازاتُها ومَحاسِنُ الأمورِ وقُبْحُها بمعونَةِ السَّمْعِ أو بالتأمُّلِ في ما يَحْسُنُ بالأمْرَينِ جميعاً، أنهُ[1] لا يكونُ إلّا بالاخْتِيارِ، ولا يُوصِلُ إلى السببِ الذي بهِ يُدانُ إلّا بالاسْتِدْلالِ أو التَّعْليمِ؛ إذْ هو طاعةٌ وتَصْديقٌ، وذلكَ يكونُ مِمَّنْ لا يُحْسِنُ، وطريقُهُ الاجْتِهادُ وكُلُّ ذي أضدادِ القَسْرِ.

فَمُحالٌ أنْ يعودَ الكونُ، لو شاءَ، على وجهٍ قد عَرَّفَنا أنهُ لا يكونُ سَمْعاً وعقلاً. فيكونُ في الحقيقةِ كأنهُ قالَ لو شاءَ أنْ يكونَ لا يكونُ. على أنَّ ذا مَنْ يُقْبَلُ عنهُ هذهِ الدَّعْوَى على قولِهِمْ، وهو منذُ كانَ الخَلْقُ بَيْنَ أنْ كانَ في ما شاءَ إثباتَهُ مِنْ أفعالِ الخَلْقِ، فلم يكُنْ، ولم يَشَأْ، فكانَ عندَهُمْ. فهو كَمَنْ ظَهَرَ عَجْزُهُ بجميعِ أدِلَّةِ العَجْزِ، ثم يَدَّعي أنَّ لهُ القدرةَ؛ بها يَقْهَرُ ما يَشاءُ. فذلكَ كَمَنْ لا يقومُ لِلانْتِصابِ والنُّهوضِ، فَيَدَّعي أنهُ يَقْدِرُ على الصُّمودِ، أو مَنْ لا يَمْلِكُ إمساكَ مِثْلِ ذَرَّةٍ، أنهُ مُمْسِكُ السمواتِ والأرضَ.

على أنهُ لو كانَ كذلكَ لَيَجيءُ أنْ يكونَ يَقْدِرُ على فِعْلِ الكُفرِ والسَّفَهِ والكَذِبِ؛ إذْ مَنْ يَقْدِرُ على فِعْلِ شيءٍ، لا يَقْدِرُ على فِعْلِ ضِدِّهِ عِنْدَهُمْ، ليسَ ذلكَ بِقُدْرَةٍ.

ثم لو كانَ ذلكَ كلُّهُ بلاءً غيرَ تَصْييرٍ لهُ فِعْلاً، لَكانَ يكونُ في الحقيقةِ سَفيهاً كَذوباً. ومَنْ كانَ ذلكَ وصفُهُ فهو ربٌّ، ولا حكيمٌ. ومَنْ رُبوبِيَّتُهُ تَحْتَ قُدْرةِ غيرِهِ، أو حكمتُهُ تَحْتَمِلُ المُضادّاتِ فهو مسؤولٌ عمّا يَفْعَلُ مُطالَبٌ بالحُجَّةِ. فأنّى يكونُ لِمَنْ ذلكَ وصفُهُ رُبوبِيَّةٌ؟ جَلَّ عنْ ذلكَ.

والثاني: أنَّ الذي يكونُ بالقَسْرِ والقَهْرِ يكون أمْرَ الخليقةِ لا أمْرَ فِعْلِ العبدِ؛ وذلكَ في الحقيقةِ للهِ، لا لِلْبَشَرِ، وما هو لهُ مِنْ جِهَةِ الخِلْقَةِ موجودٌ لأنَّ نَفْسَ كلِّ أحدٍ، بالخِلْقَةِ مؤمِنٌ. وقد شاءَ اللهُ تلكَ المَشيئةَ. فالقولُ بـ: لو شاءَ، لا مَعْنَى لهُ، بل قد شاءَ، وكانَ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

والثالثُ: أنهُ وَعَدَ أنْ لو شاءَ أنْ يَجْعَلَ كذا، وهو، لو فَعَلَ لكانَ يَجْعَلُ مَنْ قد آمَنَ منهُمْ في الحقيقةِ مؤمناً في المَجازِ كافراً في الحقيقةِ؛ لأنهمْ بهذا يَصيرونَ أمّةً واحدةً؛ إذْ صارَ كثيرٌ منهمْ مؤمنينَ بالاخْتِيارِ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَجْعَلَهُمْ على غيرِ ذلكَ، فيكونَ مَحْموداً عَدْلاً، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم الأصلُ أنَّ اللهَ تعالى قد جَعَلَ أدِلَّةَ كلِّ موعودٍ في الحُسْنِ ظاهراً، وكلَّ مَقْدورٍ عليهِ بالوعدِ، والدَّعْوَى لهُ ممّا جَبَلَ عليهِ أمْراً بَيِّناً. وهذا النوعُ مِنَ المَشيئةِ عندَهُمْ والدَّعْوَى بما جَعَلَ جميعَ [ذلكَ][2] مانعاً لأنْ يكونَ كائناً، فَيَصيرُ بالذي بهِ ادَّعَى لِنَفْسِهِ مِنَ القُدْرَةِ مُكَذِّباً بما جَعَلَ لِمَنْعِ مِثْلِهِ الأدِلَّةَ. ومَنْ ذلكَ وصفُهُ فهو غيرُ حكيمٍ. جَلَّ اللهُ عنْ هذا.

على أنَّ المُتأمِّلَ بما اخْتَبَرَ يَجِدُ حَقيقَتَهُ دونَ أنْ يحتاجَ إلى دليلٍ يُوَضِّحُ قُدْرَتَهُ على ما ادَّعَى على بَقاءِ المِحْنَةِ سَبيلاً سَهْلاً بِحَمْدِ اللهِ لا يَحتاجُ إلى ما ذَكَروا مِنَ المُكابَرَةِ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣]. ومَعْلومٌ أنهمْ لو كَفَروا جميعاً بِما ذَكَرَ لَكانوا مُخْتارِينَ، وإلى ماجاؤوا بِهِ غيرَ مُضطَرِّينَ، وإذا اسْتَقامَ

---

(١) من م، في الأصل: به. (٢) ساقطة من الأصل وم.

كونُهُمْ على دينِ الكُفرِ بذلكَ لا يَحْتَمِلُ إلّا [أنْ][1] يوجبَ ذلك بعثاً على الإيمانِ لو كانوا مُختارينَ، لذلكَ يَسْتَقيمُ كونُهُمْ على دينِ الإيمانِ مُختارينَ، أو لو جَعَلَ ذلكَ لِلمؤمنينَ، لَقَدَرَ[2] على قولِهِمْ أنْ يَجْعَلَهُمْ كُفّاراً بالمِحْنَةِ لا يَقْدِرُ على أنْ يَجْعَلَهُمْ مؤمنينَ بها؛ لأنَّ ذلكَ وَصْفُ العَجْزِ عندَهُمْ، وإنْ كانَ لا يكونُ كذلكَ/٢٤٨ ـ أ/ عندَنا؛ لأنهُ يَسْتَقيمُ القولُ بالإقدارِ على إحداثِ غَيرِهِ.

ومحالٌ القولُ على جَعْلِ غَيرِهِ قائماً أو على إخراجِ غَيرِهِ إليهِ، لا يَحْتَمِلُ الوَصْفَ بالقُدْرَةِ على إغناءِ غَيرِهِ عنهُ، وعليهِمْ أوضَحُ، إذْ أجازُوا لهُ القُدْرَةَ على كلِّ حَرَكةٍ لِلْعَبْدِ وسُكونٍ بالاِضْطِرارِ، ولم يُجَوِّزوا في ذلكَ الاِخْتِيارَ اللّهُمَّ إلّا أنْ يقولوا: لا يَجوزُ أنْ يكونَ لِلْعَبْدِ غَيرُ كامِلِ القُدْرَةِ، وهي القُدْرَةُ على مُضاداتِ الأشياءِ، واللهُ يُجَوِّزُ الوَصْفَ له بالقدرةِ الناقصةِ فيكونُ قريباً مما جعلوا للعبدِ قدرةً[3] على ما يَجْهَلُ، ويَجْعَلُهُ كاذباً[4] في ما يُخْبِرُ على بَقاءِ الرُّبوبيَّةِ لهُ، واللهُ لا يَقْدِرُ على مِثْلِهِ في العَبْدِ على بَقاءِ العُبودَةِ لهُ بالمِحْنَةِ، أو بما قَدَرُوا لعبدٍ على إهْلاكِ مَنْ وَعَدَ اللهُ فيهِ الإبقاءَ، ويُؤيِّدُ ذلكَ وذلكَ فضلُهُ وَوَعْدٌ لهُ معَ ذلكَ أنْ يُعْطِيَهُ كذا. فَيَأتي مُعانِدٌ، فَيَقْتُلُ، ويَمْنَعُ الرَّبَّ على إنجازِ وَعْدِهِ. وعَنْ سلطانِ بقائِهِ. جَلَّ الرَّبُّ عن هذا.

وذلكَ في قولِهِمْ في ما يَضْرِبُ اللهُ لِنَبِيٍّ أو صِدِّيقٍ أجلاً، يَرَى بهِ مَصْلَحَةَ عبادِهِ، يَقْدِرُ الكافرُ على قَتْلِهِ قَبْلَ مَجيءِ ذلكَ الأجلِ وإبطالِ ما وَعَدَ والإبقاءِ بما هو صَنيعُهُ مِنْ إبقاءِ الحياةِ فيهِ، ولا يَقْدِرُ اللهُ على إنجازِ ما وَعَدَ على ما أرادَ. والعبدُ يُحالُهُ إلّا أنْ يُعْجِزَهُ، أو يُميتَهُ، أو يَجْعَلَهُ زَمِناً، واللهُ والمُسْتَعانُ.

ثم الأصلُ أنَّ كلَّ مُريدٍ بِفِعْلِهِ في ما فِعْلُهُ أمْرٌ إلا [أنْ][5] يكونَ ذلكَ، وهو لم يكُنْ فَعَلَهُ إلا لِذلكَ، يُوجِبُ أحَدَ أمْرينِ في الحِكْمَةِ: إمّا جَهْلاً بالعواقِبِ وإمّا[6] خَطَأً بالفِعْلِ، كَمَنْ يَفْعَلُ فِعْلاً يَحْزَنُ عليهِ، يَلْحقُهُ بهِ مَكْروهٌ؛ فهو لا يَفْعَلُهُ لهُ؛ يُظْهِرُ فاعلَهُ أنهُ عن جَهْلٍ فَعَلَ، وعنِ الخَطَإِ يُخَرِّجُ فِعْلَهُ.

وعلى ذلكَ مَعْنَى التحذيرِ في الخَلْقِ والتنبيهِ بقولِهِمْ: لِدوا لِلْمَوتِ، وابْنوا للخرابِ، و: سَرَقَ لِتُقْطَعَ، [يَدُهُ][7] وبارَزَ لِيُقْتَلَ، مِن حَيثُ كانَ الثاني مُتَّصِلاً بالأوَّلِ، يُنَبِّهُ عنِ الغَفْلَةِ، على إرادةِ التحذيرِ أنهُ إليهِ يَؤولُ أمْرُ فِعْلِهِ.

على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ الآيةَ[القصص: ٨] أو أنْ يُقالُ ذلكَ على أنهُ كذلكَ في فِعْلِهِ عندَ اللهِ، وإنْ جَهِلَهُ هو، أو يُوجِبُ السَّفَهَ في الفِعْلِ والعَبَثَ، إذْ هو يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ ما يَعْلَمُ أنهُ لا يكونُ، أو يريدُ ما يَتَيَقَّنُ أنهُ لا يَبْلُغُ. وإذْ كانَ كذلكَ فأعطاهُ اللهُ تعالى القُدْرَةَ لِيُؤمِنَ، أو خَلَقَهُ لِيَعْبُدَ، وأرادَ أنهُ يَفْعَلُ ذلكَ، واختارَ ذلكَ الفِعْلَ، لِذلكَ يُوجِبُ ذَينِكَ الوجهَينِ، جَلَّ اللهُ عنهُما، وتعالى.

وقد ثَبَتَ أنَّ اللهَ عالمٌ بالعواقِبِ مُتعالٍ عنِ العَبَثِ، ثَبَتَ أنهُ خَلَقَ، وأعْطَى ما أعْطَى لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ، وقد عَلِمَ أنهُ ما يكونُ. وعلى هذا التقديرِ يُخَرَّجُ الأمْرُ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩] وقولِهِ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الآيةَ [التوبة: ٥٥ و ٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أنهُ خَلَقَهُمْ للدينِ؛ عَلِمَ أنهمْ يَصيرونَ إليهِ مِنِ اختلافٍ أو اتِّفاقٍ أو عَداوَةٍ أو وَلايَةٍ لا يُريدُ غَيرَ الذي عَلِمَ، ولا يَعْلَمُ غَيرَ الذي يكونُ مِمَّنْ يَعْلَمُ ما يكونُ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

الآية ١١٩ وقالتِ المُعتزِلَةِ: قولُهُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ فقالَ بَعْضُ مُتَكلِّمي أصحابِنا: إنَّ الرحمةَ تُذَكَّرُ بالتأليفِ، وهو إنما ذُكِّرَ بالتذكيرِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [ولم يَقُلْ: ولِتِلْكَ خَلَقَهُمْ][9] دَلَّ أنهُ ليسَ على ما يقولونَ.

قالَ قائلونَ: لِلاختِلافِ خَلَقَهُمْ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾. وقالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]أي خَلَقَهُمْ لئلا يُهلِكَ ﴿ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيقدرون. (٣) في الأصل وم: قدراً. (٤) من م، في الأصل: كادكا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

وعندنا ما ذكرْنا؛ أي خلَقَهُمْ لِلذي عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُمْ، وأنهمْ يَصيرونَ إليهِ مِنَ الاختلافِ أوِ الاتّفاقِ، والعَداوَةِ أو[1] الوَلايَةِ، لا يَخلُقُهُمْ لِغَيرِ الذي عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُمْ، ولا يُريدُ أيضاً غيرَ ما عَلِمَ أنهمْ يَصيرونَ إليهِ، ولا يَعْلَمُ غيرَ ما يكونُ منهُمْ، واللهُ المُوفِّقُ.

وتأويلُ المُعْتَزِلَةِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أنها مَشيئةُ القَسْرِ والقَهْرِ، فذلكَ بعيدٌ لأنهُ لا يكونُ في حالِ القَهْرِ والاضْطِرارِ إيمانٌ لأنَّ مَنْ أُكْرِهَ، واضْطُرَّ على الإيمانِ حتى آمَنَ، فإنهُ لا يكونُ؛ إنما يكونُ الإيمانُ إيماناً في حالِ الاختيارِ؛ إذا آمَنَ يختارُ مُمْتَحَناً فيهِ. فعندَ ذلكَ يكونُ إيمانُهُ إيماناً. دلَّ أنَّ تأويلَهُمْ فاسدٌ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، كلُّ الذي نَقُصُّ عليكَ، أو قَصَصْنا عليكَ مِنْ أنباءِ الرُّسُلِ [نَبأً][2] بعدَ نَبإٍ ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لِما يَحْتَمِلُ أنَّ نَفسَهُ كانتْ تُنازِعُهُ، وتُناقِشُهُ بأنَّ الذي أنْزَلَ، أو يأتي بهِ مَلَكٌ، أو كانَ ذلكَ مِنْ إيحاءِ[3] الشيطانِ وإلقائِهِ عليهِ وَساوِسَهُ، فَقَصَّ عليهِ مِنْ أنباءِ الرسلِ وأخبارِهِمْ ليكونَ لهُ آيةً بَيِّنَةً[بَيْنَهُ][4] وبَيْنَ ربِّهِ، لِيَعْلَمَ أنَّ ما أُنْزِلَ عليهِ إنما هو مَلَكٌ مِنَ اللهِ لِيَدْفَعَ بهِ نَوازِعَ نَفْسِهِ و خَطَراتِهِ؛ إذْ لا سَبيلَ للشيطانِ إلى معرفةِ تلكَ الأنباءِ، ولا في وُسْعِهِ إلقاؤُها عليهِ، فيكونُ لهُ بها طُمَأنينَةُ قَلْبِهِ، وهو كَقولِ إبراهيمَ حينَ[5] قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠] كانتْ نَفْسُ إبراهيمَ تُنازِعُهُ في كيْفِيَّةِ إحياءِ المَوتَى، فَسأَلَ ربَّهُ لِيُرِيَهُ ذلكَ لِيَطْمَئِنَّ بذلكَ قَلْبُهُ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ أنهُ يُحْيِي المَوتَى، وأنهُ قادرٌ على ذلكَ.

والثاني: قَصَّ عليهِ أنباءَ الرُّسُلِ واحداً بَعْدَ واحدٍ لِيُثَبِّتَ بهِ فؤادَهُ لِيَعْلَمَ كَيفيَّةَ مُعامَلَتِهِمْ، وماذا لَقُوا مِنْ قومِهِمْ وكيف صَبَروا على أذاهُمْ لِيَصْبِرَ هو على ما صَبَرَ أولئكَ، ولِيُعامِلَ هو قومَهُ بِمِثْلِ معامَلَتِهِمْ؟

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ نَبأً بَعْدَ نَبإٍ لِيَنْظُرَ، ويَتَفَكَّرَ [في][6] كلِّ نَبإٍ وخَبَرٍ، ويَعْرِفَ ما فيهِ، فيكونُ ذلكَ أثْبَتَ في قَلْبِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] بإنزالِ الآياتِ[7] واحدةً بَعْدَ واحدةٍ وسورةً بَعْدَ سُورةٍ. وذلكَ أثْبَتُ في فؤادِهِ مِنْ إنزالِهِ جُمْلَةً لأنهُ يَزْدَحِمُ في مسامِعِهِ وفؤادِهِ. وإذا كانَ بالتَّفاريقِ نَظَرٌ وتَفَكُّرٌ فهو أثْبَتُ في قلبِهِ وفؤادِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي في هذهِ الأنباءِ التي قَصَّها عليكَ؛ جاءَكَ فيها ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وهو ماذكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي في هذهِ الدنيا ﴿ٱلْحَقُّ﴾ يعني الآياتِ والحُجَجَ والبَراهينَ لِرسالتِهِ ودينِهِ ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي جاءَكَ ما تَعِظُ بهِ قَومَكَ وتُذَكِّرُ بهِ المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خَصَّ المؤمنينَ بذلكَ لِما تكونُ مَنْفَعَةُ الموعظةِ والذِّكْرَى[8] للمؤمنينَ، وإلّا فهو موعظةٌ وذِكْرَى لِلْكُلِّ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانةُ المَنْزِلَةُ والقُدْرَةُ. يقولُ: اعْمَلوا أنتمْ على مكانَتِكُمْ ومَنْزِلَتِكُمْ التي عندَ أتباعِكُمْ؛ كأنهُ يُخاطِبُ بهِ الأشرافَ منهُمْ والرُّؤساءَ ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على المكانَةِ والمَنْزِلَةِ لنا عندَ اللهِ، فَنَنْظُرَ أيُّنا أرجَحُ نَحْنُ أمْ[9] أنتُمْ؟ وأيُّنا أخسَرُ نَحنُ أمْ[10] أنتُمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الجاه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الآية. (٨) من م، في الأصل: وذكرى. (٩) و(١٠) في الأصل وم: أو.

أحدُهما: على التوبيخ/٢٤٨ ـ ب/ والتخويفِ عندَما بَلَغَ في الحِجاجِ، فلم يَنْجَعْ فيهِمْ، فقالَ ذلكَ[1] كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ونَحْوَهُ.

والثاني: على الإعجازِ لِما أرادوا بهِ مِنَ المَكْرِ والكَيْدِ بقولِهِ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾ اعْمَلوا ما تُريدونَ، وأنا أعْمَلُ.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أنتُمْ بِنا ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكمْ ذلكَ. أو يقولُ هذا لِما كانوا يُوعِدونَهُ، ويُخوِّفونَهُ، مِنْ أنواعِ الوعيدِ، فيقولُ: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بِنا ذلكَ ما تُخوِّفونَ بِنا ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكُمْ ما نُخَوِّفُكُمْ نحنُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وللهِ غَيْبُ نُزولِ العذابِ وغَيْبُ ما في الأرضِ كأنهُ خَرَّجَ جوابَ ما سَألوهُ مِنَ العذابِ كقولِهِ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] وكقولِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨و٠٠] وكقولِهِ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] قالَ[2]: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي عِلْمُ ذلكَ عندَ اللهِ؛ وهو[3] كقولِهِ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨] وأمثالِهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ جوابَ ما تَحَكَّموا على اللهِ مِنْ إنزالِ القرآنِ وجَعْلِ الرسالةِ في غَيرِهِ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وكقولِهِ[4]: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] فقالَ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] وقالَ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا إلى الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ بما أرادَ.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ إليهِ يَرْجِعُ أمْرُ الخَلْقِ كلُّهُ وتدبيرُهُمْ ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي اعْبُدْهُ في خاصِّ نَفْسِكَ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ في تبليغِ الرسالةِ إليهِمْ؛ أي لا يَمْنَعْكَ كيدُهُمْ ومكرُهُمْ بكَ عنْ تبليغِ الرسالةِ، ولا تَخافَنَّ منهُمْ، فإنَّ اللهَ يَحْفَظُكَ مِنْ كيدِهِمْ ومكرِهِمْ بكَ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا ما يُؤَيِّدُ ما ذَكَرْنا؛ أي ما ربُّكَ بغافلٍ عمّا يُريدونَ بكَ مِنْ كيدِهِمْ ومكرِهِمْ، بل يَعْلَمُ ذلكَ، ويَنْصُرُكَ، ويَنْتَصِرُ منهُمْ. وهو كقولِهِ لِموسى وهارونَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٤و٤٥و٤٦] أي أسْمَعُ قولَهُ وجوابَهُ إيّاكما، وأرَى ما يَفْعَلُ؛ أي أنْصُرُكما، فلا تَخافا. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: عند. (٢) في الأصل وم: فقال. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

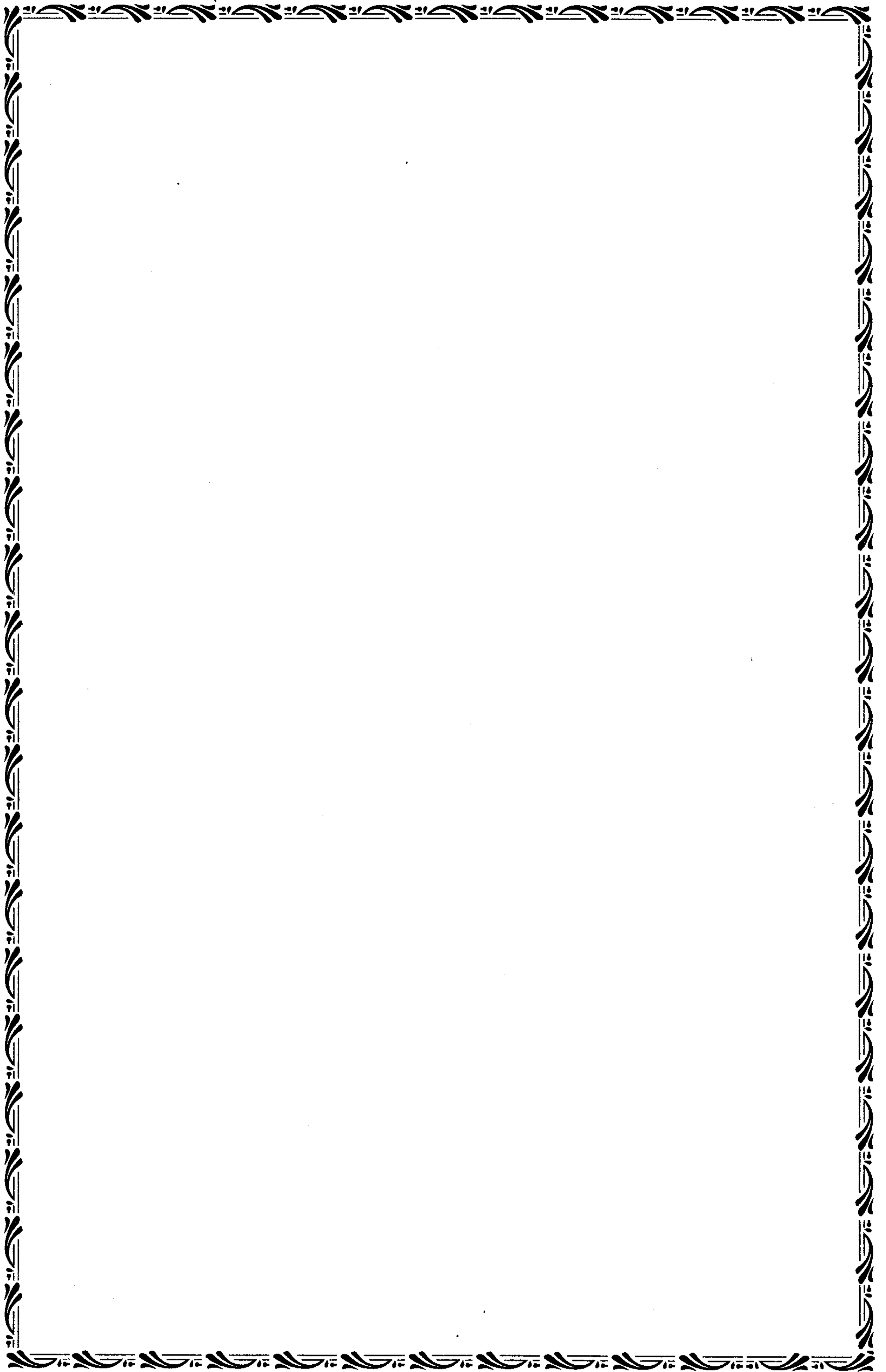

السورة التي ذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ[1] تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ ذَكَرَ ﴿تِلۡكَ﴾ وهي كلمةُ إشارةٍ إلى شيءٍ، سَبَقَ ذِكْرُهُ، ولم يَتَقَدَّمْ فيهِ ذِكْرُ شَيءٍ يُشارُ إليهِ، وذِكْرُ آياتٍ أيضاً، ولَيسَ هناكَ ذِكْرُ آياتٍ أو شيءٍ يكونُ آيةً في الظاهِرِ. لكنْ يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تِلۡكَ﴾ بِمَعْنى هذهِ آياتٌ. ويجوزُ اسْتِعمالُ تلكَ مَكانَ هذهِ على ما يجوزُ ذِكْرُ ذلكَ مَكانَ هذا كقولِهِ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١ و٢] أي هذا الكتابُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى ما في السماءِ أيِ الذي في السماءِ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أو يقولَ: ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى ما في الكُتُبِ[2] المُتقدِّمةِ، أي تلكَ آياتُ [الكُتُبِ المُبَيِّنَةِ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ][3] ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أنها آياتُ الرسالةِ، أو تُبَيِّنُ أنها مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا أيضاً يُشْبِهُ أنْ يُخَرَّجَ على وجهَينِ:

أحدُهما: إشارةٌ إلى الحروفِ المُقَطَّعَةِ المُعْجَمَةِ؛ فقالَ: إذا جُمِعَتْ كانَتْ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

[والثاني][4]: أنْ يكونَ اللهُ أرادَ أمراً لا نَعْلَمُ ما أرادَ، فنقولَ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي ذلكَ الذي أرادَ هو آياتُ الكتابِ، واللهُ أعْلَمُ بما أرادَ بِه.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ أي لِيُبَيِّنَ فيهِ الحلالَ والحرامَ وما يُؤْتَى وما يُتَّقَى كقولِهِ: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩]. وقالَ بعضُهُمْ: لِيُبَيِّنَ بركَتَهُ وهُداهُ ورُشدَهُ، أو لِيُبَيِّنَ فيهِ الحقَّ مِنَ الباطِلِ والعَدْلَ مِنَ[5] الجَورِ.

والكتابُ هو اسْمُ ما يُكْتَبُ؛ سَمَّاهُ قرآناً لِما يُقْرأُ، وكتاباً لِما عنْ كتابٍ أُخِذَ، ورُفِعَ، والقرآنُ لِما قُرِئَ عليهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ قولُهُ: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ بالهاءِ[6] كنايةً عنِ الكتابِ الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أنْزَلَهُ بِلسانِ العَرَبِ، ولا نَدْري بأيِّ لسانٍ كانَ في اللوحِ المحفوظِ؟ غيرَ أنهُ أخْبَرَ أنهُ أنزَلَهُ بِلسانِ العَرَبِ. وهكذا كلُّ كتابٍ أنْزَلَ إنما أنْزَلَ بِلسانِ المُنْزَلِ عليهِمْ، لم يُنْزِلْهُ[7] بِغَيرِ لسانِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ مالكُمْ، وما عليكُمْ، وما تأتونَ، وما تَتَّقونَ، أو تَعْقِلونَ أنَّ هذهِ الأنباءَ التي يُخْبِرُكُمْ بها محمدٌ ﷺ مِنَ اللهِ تعالى لأنها كانَتْ في كُتُبِهِمْ بِغَيرِ لسانِهِ، فأخْبَرَ على ما كانَتْ في كُتُبِهِمْ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

أو ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ بأنَّ فيهِ شَرَفَكُمْ لأنكُمْ تَصيرونَ مَتبوعينَ لِما يحتاجُ الناسُ إلى مَعْرِفةِ ما فيهِ، ولا يُوصَلُ لذلكَ[8] إلّا بِكُمْ، فتكونونَ متبوعينَ، والناسُ أتباعٌ لكمْ، وهو كقولِهِ: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ [الأنبياء: ١٠] قالَ أهلُ التأويلِ: أي فيهِ شَرَفُكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ أحْسَنَ البَيانِ ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ أي نُخبِرُكَ أحْسَنَ ما في كُتُبِهِمْ مِنَ القِصَصِ وأحْسَنَ ما في كُتُبِهِمْ مِنَ الأنباءِ والأحاديثِ.

---

(١) من م، في الأصل: وقوله. (٢) في الأصل وم: الكتاب. (٣) في الأصل وم: الكتاب المبين يحتمل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: بها. (٧) في الأصل وم: ينزل. (٨) في الأصل وم: ذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أصدَقَهُ، وكذلكَ قولُهُ[1] ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزمر: ٢٣] وأحسَنُ الحديثِ أصدَقُهُ؛ هو أحسَنُ القَصصِ، أي أصدقُهُ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عنْ [هؤلاءِ الأنبياءِ][3] وعنْ قَصَصِهِمْ. فهذا يدُلُّ أنَّ الإيمانَ إيمانٌ[4] بجملةِ الأنبياءِ والرسلِ، وإنْ لم تُعرَفْ أنفُسُ الأنبياءِ وأنفُسُ الرسلِ وأساميهِمْ لأنهُ أخبَرَ أنهُ كانَ غافلاً عنْ أنبائِهِمْ وعنْ قَصَصِهِمْ، ولا شَكَّ أنهُ كانَ مؤمناً باللهِ مُخلِصاً، وباللهِ العصمةُ.

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ كلامُ الرحمنِ، وقالَ مجاهدٌ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزمر: ٢٣] كلامُ ربِّ العالمينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يكونَ الذي سألوا عنهُ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ قصةِ يوسفَ وصَيرورةِ بني إسرائيلَ بمصرَ، وقد كانوا مِنْ قَبْلُ بالشامِ، فقالَ: تلكَ الأنباءُ والقِصَصُ يَجعَلُها آياتِ هذهِ السورةِ التي هي مِنَ الكتابِ المُبينِ.

والثاني[5]: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ حُجَجُ وبَراهينُ رسالةِ[6] محمدٍ ﷺ إذْ هيَ منْ أنباءِ الغيبِ عنهُمْ، يَعْلَمُ الأنباءَ عنها باللهِ ﷻ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ/ ٢٤٩ ـ أ/ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ قولُهُ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ إنَّ إخوَةَ يوسفَ كانوا علماءَ وعُيونَ الأرضِ نُجوماً يُقتَدَى بهِمْ، ويُهْتَدَى[7]، إذْ بالنجومِ يُقتَدَى في الأرضِ، وبها تُهْتَدَى[8] الطرقُ والمسالكُ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وخُرِّجَ على أبويهِ، أنهُ كانَ بهما جميعُ مَنافِعِ الخَلْقِ، إذْ بهما صلاحُ جميعِ الأغذيةِ في الأرضِ، ونُضْجُ جميعِ الفواكِهِ، والأنزالُ، وجميعُ المَنافِعِ التي [بالناسِ حاجَةٌ إليها][9].

ودَلَّ قولُهُ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ أنَّ الرُّؤيا تُخرَّجُ على عَينِ ما رأى، وتُخرَّجُ على غَيرِهِ بالمَعْنَى الذي يَتَّصِلُ بهِ؛ لأنهُ رَأى الكواكبَ والشمسَ والقَمَرَ، فَخُرِّجَ على إخوتِهِ وأبويهِ، وكانَ[10] المُرادُ بالكواكبِ [والشمسِ والقمرِ غيرَ الكواكبِ والشمسِ][11] والقمرِ، وذلك بالمَعْنَى. وذَكَرَ السجودَ، وخُرِّجَ على عَينِ السجودِ وحقيقتِهِ، وكذا ما رَأى إبراهيمُ في المنامِ ذبْحَ ولدِهِ، خُرِّجَ الذبْحُ على حقيقةِ [الذبحِ وهو][12] ذبْحُ الكبشِ، وَ رأى ابنَهُ، وكانَ المُرادُ منهُ الكبشَ.

فهذا أصلٌ لنا؛ أنَّ الخطابَ يُخرَّجُ، والمُرادُ منهُ على عَينِ ذلكَ الخطابِ، لا غيرُهُ، وقد يُخرَّجُ لِمَعْنىً فيهِ. فإذا اتَّصَلَ ذلكَ المَعْنَى [بغَيرِهِ وَجَبَ][13] ذلكَ الحكمُ، وفيهِ جوازُ الاجْتِهادِ وطلبُ المَعْنَى في المُخاطَباتِ، وذلكَ ما ظَهَرَ في الناسِ مِنْ تعبيرِ الرؤيا على الاجْتِهادِ يدلُّ على جَوازِ العَمَلِ بالاجتِهادِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ يوسفَ لما قَصَّ رؤياهُ على أبيهِ بينَ يَدَي إخوَتِهِ قالَ لهُ: هذهِ رؤيا النهارِ، ولَيسَتْ[14] بشيءٍ، وقالَ ليوسفَ في السِّرِّ: إذا رأيتَ رؤيا بعدَ هذا فلا تَقُصَّها على إخوتكَ، لكنَّ هذا كذبٌ؛ فلا يجوزُ أنْ يُكَذِّبَ رسولُ اللهِ يعقوبُ؛ يقولُ لهُ: رؤيا النهارِ ليسَتْ[15] بشيءٍ، ثم يُعَبِّرُ لهُ في السِّرِّ، ولا يُتَوَهَّمُ [في شيءٍ مِنْ نَبِيٍّ مِنْ أنبياءِ][16] اللهِ الكذبُ، وهو كذبٌ، فإنْ كانَ فهو بالأمرِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، دلَّ قولُهُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ على أنَّ ما رَأى يوسفُ مِنْ سجودِ الكواكبِ وسُجودِ الشمسِ والقَمَرِ أنهُ إنما كانَ رَأى ذلكَ في المَنامِ.

---

(١) في الأصل وم: قول. (٢) ادرج بعدها في الأصل وم: وأحسن الحديث أصدقه. (٣) في الأصل وم: هذه الأنباء. (٤) أدرجت في الأصل وم بعد: والرسل. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: الرسالة. (٧) و(٨) في الأصل وم: يهتدون. (٩) في الأصل وم: ما بالناس حاجة إلى ذلك. (١٠) الواو ساقطه من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: غير الشمس. (١٢) في الأصل وم: هو. (١٣) في الأصل وم: بغير وجبت. (١٤) في الأصل وم: ليس. (١٥) في الأصل وم: ليس. (١٦) في الأصل وم: على نبي.

ويَدُلُّ ما ذُكِرَ في آخرِهِ أيضاً على ذلكَ، وهو قولُهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [الآية: ١٠٠]

ودلَّ قولُهُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أنَّ يعقوبَ إنما عَرَفَ ذلكَ بالوَحْيِ حينَ[1] قَطَعَ القولَ في قولِهِ: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ ولم يَسْتَثْنِ في ذلكَ، وقد فَعَلوا بِهِ ما قالَ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ إخوتَهُ قد كانوا يَعْرِفونَ تَعْبيرَ الرُّؤيا، وكانوا عُلماءَ حُكماءَ حينَ[2] قالَ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ لأنهمْ لو كانوا لا يَعْرِفونَ تأويلَها، ولا عَلِموا تَعبيرَها، لم يكنْ لِيَنْهاهُ عن أنْ يَقُصَّ على إخوَتِهِ؛ لأنهُ، لو قَصَّها، أو لم يَقُصَّها، إذا لم يَعْلَموا، سَواءٌ.

وفيه دلالةُ أنَّ الأخَ يُتَّهَمُ[3] في أخيهِ، ويكونُ مِنَ الأخِ الخيانةُ إلى أخيهِ، والأبَ والأمَّ لا يُتَّهمانِ في الابْنِ، والوَلَدَ لا يُتَّهَمُ في والِدَيهِ، ولا يكونُ مِنْ بعضٍ إلى بعضٍ خِيانةٌ في الغالبِ؛ لأنَّ يعقوبَ نَهَى وَلَدَهُ يوسفَ أنْ يَقُصَّها على إخوَتِهِ، وأخبَرَ أنهمْ إذا عَلِموا بذلكَ كادوهُ، وحسَدوهُ، ولم يَنْهَهُ بِمِثْلِهِ في أمِّهِ. ودلَّ أنَّ الأخَ؛ لا يُتَّهَمُ في [شهادَتِهِ لِأخيهِ، ويُتَّهَمُ الأبُ والأمُّ][4] في شهادتِهِما لِوَلَدِهما، وكذلكَ الولَدُ في [شهادتِهِ لوالِدَيهِ][5].

ولهذا قالَ أصحابُنا: إنَّ شهادَةَ الوالِدِ لولَدِهِ لا تُقْبَلُ، وكذلكَ شهادةُ الوَلَدِ لِوالِدَيهِ، وشهادةُ الأخِ لأخيهِ تُقْبَلُ، لِما يَنْتَفِعُ الولَدُ بمالِ والِدَيهِ، والوالِدُ بمالِ وَلَدِهِ، ولا يَنْتَفِعُ الأخُ بمالِ أخيهِ. وكلُّ مَنِ انْتَفَعَ بمالِ آخَرَ اتُّهِمَ في شهادتِهِ، أو لم تُقْبَلْ شهادَتُهُ. وكلُّ مَنْ لم يَنْتَفِعْ به قُبِلَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهِرُ العداوةِ. وقالَ موسى حينَ قَتَلَ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] بَدْوُ كلِّ شَرٍّ يكونُ مِنَ الشيطانِ، يَقْذِفُ في القلوبِ، ويَخْطِرُ في الصدورِ، ثم تكونُ العزيمةُ على ذلكَ، والفِعْلُ مِنَ العبدِ، وهو ما قالَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠١] والطيفُ [والطائفُ][6] القَذْفُ والوَسْوَسَةُ. فإذا ذَكَرَ اللهَ ذهبَ. وقيلَ: الكَيدُ والمَكْرُ سَواءٌ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الكَيدُ هو الاحْتيالُ والاغْتيالُ، وقيلَ: الكَيدُ هو أنْ يُطلَبَ إيصالُ شَرٍّ بِهِ على غيرِ عِلْمٍ منهُ، وكذلكَ المَكْرُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أي كما اجْتَبَى رَبُّكَ أبَوَيكَ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ واصْطفاهما[7] بأنواعِ الخيراتِ، وأتَمَّ نعمَتَهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوبَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي كما اجْتَباكَ ربُّكَ بالرُّؤيا التي أراكَ يَفْعَلُ ذلكَ بك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قيلَ: تَعْبيرُ الرُّؤيا، وقالَ بعضُهُمْ: عَلَّمَهُ تأويلَ الصُّحُفِ التي كانَتْ لإبراهيمَ وَ غيرِهِ، وعلَّمَهُ تأويلَ الصُّحُفِ والأحاديثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ حينَ أراهُ ذَبْحَ ابْنِهِ، فَجَعَلَ مكانَهُ كَبْشاً. فَعَلَى ذلكَ ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ ويَسْجُدُ لكَ إخوَتُكَ وأبَواكَ[8].

ثم مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذا أنَّ الذبيحَ كانَ إسْحاقَ لأنهُ ذَكَرَ إتمامَ نِعْمَتِهِ على إبراهيمَ وإسحاقَ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ على أنهُ قد اجْتَباهُمْ بالنُّبُوَّةِ مِنْ بَعْدُ؛ أعني أولادَ يعقوبَ؛ لأنَّ وَلَدَهُ مِنْ آلِهِ. وقد أخبَرَ أنْ يَجْتَبِيَهُمْ، ويُتِمَّ نعمَتَهُ عليهِمْ كما فَعَلَ بأبَوَيهِمْ إبراهيمَ وإسحاقَ. وكذلكَ رَوَى الحَسَنُ أنهُ قالَ في إخوَةِ يوسفَ: نُبِّئوا بَعْدَ ما صَنَعوا بيوسفَ ما صَنَعوا.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج قبلها في الأصل: لا. (٤) في م: شهادة أخيه، ويتهم الأب والأم، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: والديه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: واصطفاهم. (٨) في الأصل وم: وأبويك.

وقالَ بَعْضُهُمْ: تأويلُ الأحاديثِ العلمُ والكلامُ؛ قالَ: وكانَ يوسفُ أعْبَرَ الناسِ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الآية: ٢٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ بما صَنَعَ بِهِ إخوتُهُ، وعليمٌ بما ذَكَرَ مِنَ التمامِ ﴿حَكِيمٞ﴾ بِوَضْعِ[1] كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ الآيةُ آيةٌ للسائلِ إذا كانَ السائلُ يَسْتَرْشِدُ، وكذلكَ القرآنُ كلُّهُ، هو حُجَّةٌ وآيةٌ لِلْمُسْتَرْشِدِ. وأمَّا المُتَعَنِّدُ[2] فهو آيةٌ عليهِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ السائلينَ الذينَ سألوا على ما ذُكِرَ في بعضِ القصةِ لأنَّ اليهودَ سألوا النبيَّ عنْ أمرِ يوسفَ ونَبَئِهِ، فأخبَرَهُمْ بالحقِّ في ذلكَ على ما كانَ؛ فهو آيةٌ لهمْ، إنْ ثَبَتَ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ السائلينَ الذينَ يَسْألونَ مِنْ بَعْدُ إلى آخِرِ الدهرِ عنْ نَبَإِ يوسفَ؛ كلُّ مَنْ سال عنْ خَبَرِهِ ونَبَئِهِ، فهو آيةٌ لهُ، إنْ ثَبَتَ ذلكَ.

ثم جَعْلُهُ[3] آياتٍ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُهما: أنهُ جَعَلَ قصةَ يوسفَ ونَبَأَهُ سورةً، وتلكَ السورةُ هي آياتُ الكتابِ على ما ذَكَرَ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الآية: ١] جَعَلَ قصةَ يوسفَ ونَبَأَهُ آياتٍ.

[والثاني: أنهُ جَعَلَهُ][4] آيةً أي حُجَّةً لِنُبُوَّةِ رسولِهِ ورسالتِهِ؛ لأنَّ قِصَّتَهُ وَنَبَأَهُ كانَ في كتُبِهِمْ. بِغَيرِ لسانِهِ مِنْ غيرِ ترجمةِ أحَدٍ منهُمْ ولا تَعْليمِ / ٢٤٩ ـ ب/ ثم أخبَرَهُمْ على ما كانَ في كتبِهِمْ مِنْ غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ. دَلَّ [أنهُ][5] إنما عَلِمَهُ باللهِ تعالى ما أخَذَهُ مِنْ كتبِهِمْ، وهو ما ذُكِرَ في القصةِ أنَّ اليهودَ سَمِعوا النبيَّ يَقْرَأُ سورةَ يوسفَ، فقالوا[6]: يا محمدُ مَنْ عَلَّمَكَ؟ قالَ: اللهُ عَلَّمَنيها، فَعَجِبوا مِنْ قراءَتِهِ إياها على ما كانَتْ في كتُبِهِمْ، دلَّ أنهُ إنما عَرَفَها باللهِ.

والثالثُ[7]: أنهُ يكونُ آيةً لِمَنْ سالَ عنْ حُجَّةِ رسالتِهِ، أو هي آيةٌ لِمَنْ يسألُ عنها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ الآيةُ دلالةٌ أنْ لا بأسَ للرجلِ أنْ يَخُصَّ بَعضَ وَلَدِهِ بالعطفِ عليهِ والمَيلِ إليهِ، إذا كانَ فيهِ مَعْنىً، ليسَ ذلكَ في غَيرِهِ. ولهذا قالَ أصحابُنا: إنهُ لا بأسَ للرجلِ أنْ يَخُصَّ بعضَ وَلَدِهِ بالهِبَةِ لهُ أوِ الصَّدَقةِ عليهِ، إذا لم يَقْصِدْ بها الجَورَ على غَيرِهِمْ مِنَ الأولادِ.

ثم يَحْتَمِلُ تَخصيصُ يعقوبَ يوسفَ وأخاهُ بالحبِّ لهما وُجوهاً:

أحَدُها: لما رَأى فيهما مِنَ الضَّعْفِ في [نَفْسَيهِما والعَجْزِ في بَدَنَيهِما ازدادَتْ][8] شَفَقَتُهُ لهما، وعطفُهُ عليهما لذلكَ، وهذا مِمّا يكونُ في ما بَينَ الخَلْقِ، وكانَ ذلكَ منهُ لهما لِصِغَرِهِما، وهذا أيضاً معروفٌ في الناسِ: أنَّ الصِّغارَ مِنَ الأولادِ يكونونَ[9] عندَهُمْ أحَبَّ، وقلوبُهُمْ إليهِمْ [أمْيَلَ، وعليهِمْ أعطَفَ][10] ولهمْ أرحَمَ مِنَ الكبارِ[11].

والثاني[12]: خَصَّهُما بذلكَ لِفَضْلِ خُصوصيَّةٍ كانَتْ لهما مِنْ جهةِ الدينِ أو العلمِ أو غَيرِهما[13]؛ أمَرَهُ اللهُ بذلكَ لِذلكَ مِنْ دونِ غَيرِهِما.

والثالثُ[14]: لِما يُشيرُ يعقوبُ بِنُبُوَّةِ يوسفَ، فكانَ يُفَضِّلُهُ على سائِرِ أولادِهِ، ويُؤْثِرُهُ عليهِمْ لذلكَ. وإنما ﴿قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ بآثارٍ تَظْهَرُ عندَهُمْ، وإلّا حقيقةُ المَحَبَّةِ لا تُعْرَفُ.

---

(١) في الأصل وم: وصنع. (٢) في م: المتعنت. (٣) ادرج قبلها في الأصل: وجه. (٤) في الأصل وم: ويحتمل أيضا أنه جعل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: فقال. (٧)في الأصل وم: ثم يحتمل. (٨) في الأصل وم: لأنفسهم والعجز في أبدانهما فازدادت. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل: وعليه، في م: أميل وعليه. (١١) في الأصل وم: الكبائر. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: غيره. (١٤) في الأصل وم: أو.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ قيلَ: العُصْبَةُ الجماعةُ، وقالَ أصحابُنا: إنَّ التِّسْعَةَ مَعَ الإمامِ مَنَعَةٌ يَسْتوجِبونَ ما يَسْتوجِبُ السَّرِيَّةُ إذا دَخَلَتْ دارَ الحربِ، فَغَنِمَتْ غنائِمَ، يُخَمَّسُ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لم يَعْنُوا ضلالَ الدينِ؛ إنما قالوا ذلكَ، واللهُ أعلمُ، إنا جماعةٌ، نَقْدِرُ على دفعِ مَنْ يَرومُ الضَّرَرَ بِهِ، ويَقْصِدُ قَصْدَ الشرِّ بنفسِهِ ومالِهِ، ونحنُ أُولو قُوَّةٍ؛ بِنا يَقومُ مَعاشُهُ وأسبابُهُ، فكيفَ يُؤْثِرُ هؤلاءِ علينا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] لم يُرِدْ بهِ ضلالَ الدينِ، ولكنْ وجهاً آخَرَ.

وقالوا: لمّا كانَتْ [لهُ][١] مَنافِعُ مِنْ أنفسِهِمْ، لم تكنْ تلكَ المنافعُ مِنْ يوسفَ وأخيهِ. وأبداً إنما يُؤْثِرُ المرءُ حُبَّ مَنْ لهُ مَنافِعُ مِنْ قِبَلِهِ لا حُبَّ مِنْ لا مَنْفَعَةَ لهُ منهُ، فهو فيه في ضلالٍ مُبينٍ حينَ[٢] يُؤْثِرُ مَنْ لا مَنْفَعَةَ لهُ منهُ على مَنْ كانَتْ لهُ منهُ مَنافِعُ وأمثالِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ[٣] تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا عَزَمُوا على قَتْلِهِ، ولكنْ على المُشاوَرَةِ في ما بينَهُمْ؛ نَفْعَلُ ذا أو ذا، كقولِهِ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ليسَ على واحدٍ، ولكنْ على المَشورَةِ في ما بَيْنَهُمْ. يَدُلُّ على ذلك قولُهُ: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أنهُمْ أرادوا أنْ يَخْلُوَ وَجْهُ أبيهِمْ لهمْ لا قَتْلَهُ، إنما أرادوا غَيْبَتَهُ عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي يُقْبِلْ عليكُمْ أبوكُمْ بوجهِهِ، وقالَ بعضُهُمْ: أي يَفْرَغْ لكمْ مِنَ الشُّغْلِ بيوسُفَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿صَٰلِحِينَ﴾ أي تائبينَ. وقالَ بعضُهُمْ: تكونوا صالِحينَ عندَ أبيكُمْ مِنْ بَعْدُ. وقالَ بعضُهُمْ: يَصْلُحْ أمْرُكُمْ وحالُكُمْ مِنْ[٤] أبيكُمْ بَعْدَ ذهابِ يوسفَ.

وجائزٌ أنْ يكونوا قوماً صالحينَ في الآخرةِ وقالَ [بعضُهُمْ:][٥] إنهمْ تابوا قبلَ أنْ يَزِلُّوا، فَيَعْصُوا[٦].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ الْجُبِّ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: يَعْني قَعْرَ البئرِ، والغَيابَةُ: ما يُغَيِّبُهُ، ويُواريهِ، والجُبُّ البئرُ، والجِبابُ جَمْعٌ.

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الغَيابَةُ: كلُّ شيءٍ غَيَّبَ عنكَ شيئاً فهو غَيابَةٌ.

وقولُهُ تعالى ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي يَرْفَعْهُ بعضُ السَّيَّارَةِ، ولذلك يُقالُ [عنِ الطائرِ][٧] يَلْتَقِطُ الحبَّ، ويَلْتَقِطُ أي يرفَعُ ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أنْ تُغَيِّبوهُ عنهُ.

وأمّا قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قالَهُ فُلانٌ أو فلانٌ فذلكَ ممّا لا نَعْرِفُهُ، وليس لنا إلى مَعرفةِ ذلكَ حاجَةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: السَّيَّارَةُ أصلُها مِنَ السَّيرِ، هو مثلُ المُسافِرَةِ[٨]، وهي القافلةُ؛ يَعْني العيرَ. وقيلَ: الجُبُّ الرَّكِيَّةُ التي لم تُطْوَ بالحجارةِ، فإذا طُوِيَتْ فَلَيسَتْ[٩] بِجُبٍّ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [دلَّ قولُهُمْ[١٠] ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾][١١] على أنهمْ طَلَبوا إخراجَهُ مِنْ أبيهِمْ غيرَ مَرَّةٍ؛ لأنَّ هذا الكلامَ لا يُتَكَلَّمُ بِهِ مُبْتَدأً غيرَ مُسابَقةِ شيءٍ مِنْ أمثالِهِ، فَدَلَّ أنهمْ قد استَأذَنوهُ في إخراجِهِ غيرَ مَرَّةٍ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ الناصِحُ هو الدالُّ على كلِّ خيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ كانَ يعقوبُ خافَ على نَفْسِهِ، أعني يوسفَ، الضَّيعَةَ بِتَرْكِهِمْ حِفْظَهُ، فأمَّنوهُ على ذلكَ بقولِهِمْ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وخافَ عليهِ الضَّياعَ مِنْ جهةِ الجوعِ بِتَرْكِهِمْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقالوا. (٤) في الأصل وم: منه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويعصوا. (٧) في الأصل وم: للطائر. (٨) في الأصل وم: المسافر. (٩) في الأصل وم: فليس. (١٠) في م: قوله. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

حِفظَهُ أوقاتَ الأكلِ، فأمَّنوهُ على ذلكَ بقولِهِمْ ﴿يَرْتَعْ﴾ أي يأكُلْ، وخافَ قلبُهُ أنْ يُكلِّفوهُ أمراً يَشُقُّ عليهِ، ويَشتَدُّ، فأمَّنوهُ[1] أيضاً على ذلكَ بقولِهِمْ: ﴿وَيَلْعَبْ﴾ لأنهُ لَيسَ في اللَّعِبِ مَشقَّةٌ ولا شِدَّةٌ. فخافَ عليهِ الضَّياعَ بالوجوهِ التي ذَكَرَ، فأمَّنوهُ[2] على تلكَ الوجوهِ كلِّها حتى اسْتَنْقَذوهُ مِنْ يَدَيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَرْتَعْ﴾ يأكُلْ ﴿وَيَلْعَبْ﴾ يَلْهُ][3] كأنهُ خرجَ جواباً [لقولِهِ][4] ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣] قالوا لهُ: لا تحزَنْ عليهِ فإنهُ يرتَعُ، ويلعَبُ، على التقديمِ والتأخيرِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَرْتَعْ﴾ يَنْبَسِطْ[5] ﴿وَيَلْعَبْ﴾ يَتَلَهَّ وقُرِئَ بالنونِ[6] ﴿نَرْتَعْ ونَلْعَبْ﴾. قالَ القُتَبِيُّ: نَرْتَعْ أي نأكُلْ؛ يُقالُ: رَتَعَتِ الإبلُ إذا رَعَتْ، وارْتَعْتُها إذا تَرَكْتُها تَرْعَى. ويُقرأُ: نَرْتَعِ بكسرِ العَينِ والمُرادُ منهُ أنْ نَتَحارَسَ، ويَرْعَى بَعْضُنا بعضاً، أي نَحْفَظُهُ، ومنهُ يُقالُ: رعاكَ اللهُ أي حَفِظَكَ اللهُ، وقالوا: ﴿وَيَلْعَبْ﴾ في ما يَحِلُّ، ويَسَعُ، مِنْ نَحْوِ الاسْتِباقِ وغيرِهِ، وهو ما ذَكَروا ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ [الآية: ١٧] واللَّعِبُ في مِثْلِ هذا يَحِلُّ.

وقد رُوِيَ أيضاً في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «لا يَحِلُّ اللَّعِبُ إلا في ثلاثٍ: مُعالَجةِ الرجلِ فَرَسَهُ او قوسَهُ وملاعبةِ الرجلِ امْرأتَهُ» [بنحوه الترمذي ١٦٣٧] أخبَرَ أنهُ لا يَحِلُّ إلّا ثلاثٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قال: إني لَيَحْزُنُني عندَ الواقعِ بهِ والغائبِ عنهُ مِنَ النِّعْمةِ التي أنعمها عليهِ لأنهُ كانَ نعمةً عظيمةً لهُ. فإنَّ النَّظَرَ إليهِ وذِكْرَ الحُزْنِ على ما فاتَ عنهُ، وذِكْرَ الخوفِ لما خافَ وقوعَهُ في وقتٍ يأتي، وما سيَقَعُ. فهذا تفسيرُ قولِهِ: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] لأنهُ موجودٌ للحالِ غيرُ فائتٍ، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يخافونَ فوتَهُ لأنَّ خوفَ فوتِ النعمةِ يُنغِّصُ على صاحِبِهِ النعمةَ، فأمَّنَهُمْ على ذلكَ. وهو ما ذَكَرْنا أنَّ الحزنَ يكونُ بالواقعِ للحالِ، والخوفَ على ما سيَقَعُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانَ يَعقوبُ/ ٢٥٠ - أ/ ﷺ رأى في المَنامِ أنَّ يوسفَ أخَذَهُ الذئبُ، فلذلكَ[7] قالَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ لأنَّ رؤيا الأنبياءِ، أكثرُها صِدْقٌ وحقٌّ، فلا يُحْتَمَلُ أنهُ رأى ذلكَ، ثم يقولُ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ او يَدَعُهُ يَذْهَبُ معهمْ. لكنهُ خافَ عليهِ أكْلَ الذئبِ على ما يُخافُ على الصِّبيانِ في المَفاوِزِ والبَراري؛ إذِ الخوفُ على الصِّبيانِ في المَفاوِزِ والبَراري، والضَّياعُ يكونُ بالذئبِ أكثَرَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ لأنهُ جائزٌ أنْ يَفترِسَهُ سَبُعٌ مِنَ السِّباعِ عندَ مُعاقَصَةِ إخوتِهِ واشْتِغالِهِمْ بما ذَكَرَ مِنَ الاسْتِباقِ، لا يَحْتَمِلُ الضَّياعُ مِنَ الناسِ يأخُذُهُ واحدٌ مِنْ بَيْنِ نَفَرٍ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ كِنايةٌ عنْ بَنيهِ؛ أي أخافُ أنْ تُهْلِكوهُ، وتُضَيِّعوهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أولو قُوَّةٍ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وتأويلُهُ، واللهُ أعلمُ ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعةٌ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي كانّا نحنُ سَلَّمْناهُ إلى الذئبِ، وعَرَّضْناهُ للضَّياعِ. هذا، واللهُ أعلمُ، مَعْنَى الخُسْرانِ الذي ذَكَروا، وإلّا لم يَلْحَقْهُمُ الخُسْرانُ إذا أكَلَهُ الذئبُ؛ لأنهُ إذا كانَ بهِمْ قوةُ المَنْعِ، فلم يَمْنَعوهُ، فكأنهُمْ ضَيَّعوهُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وَحْيَ نُبُوَّةٍ أو وَحْيَ بِشارَةِ النجاةِ مِنْ ذلكَ الجُبِّ أو بِشارَةَ المُلْكِ لهُ والعِزِّ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هو قولُ يوسفَ حينَ[8] قالَ لهمْ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ

(١) من م، في الأصل: فامنوا. (٢) من م، في الأصل: فامنوا. (٣) في الأصل: يله، ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: ينشط. (٦) معجم القراءات القرآنية ج٣/ ١٥٢. (٧) في الأصل وم: فمن ثم. (٨) في الأصل وم: حيث.

﴿وَأَخِيهِ﴾ الآية [الآية: ٨٩] ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ [يوسف: الآية] هذا الذي نَبَّأَهُمْ يوسفُ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بذلكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى يعقوبَ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ هو ما قالَ لهمْ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ الآية [الآية: ٨٧] أَمَرَهُمْ أنْ يطلُبُوهُ، ويَتَحَسَّسوا مِنْ أمرِهِ؛ كأنَهُ عَلِمَ أنهُ حَيٌّ كقولِهِ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنهُ حَيٌّ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾؟ [الآية: ٩٤] ولهذا قالَ حينَ أُلْقِيَ الثوبُ على وجهِهِ، وارْتَدَّ بَصيراً: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الآية: ٨٦] وذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾. إنْ كانَتِ الآيةُ في يعقوبَ، وإنْ كانَتْ في يوسفَ فهو ما ذَكَرْناهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ في الآيةِ دلائلُ:

أحدُها: أنَّ مَنِ ارْتَكَبَ صَغيرةً فإنهُ يُخافُ عليهِ التعذيبُ، ولا يَصيرُ كافراً.

[**والثاني**: أنَّ][1] مَنِ ارْتَكَبَ كَبيرةً لم يَخْرُجْ مِنَ الإيمانِ؛ لأنَّ إخوةَ يوسفَ هَمّوا بِقَتْلِ يوسفَ أو طَرْحِهِ في الجُبِّ أوِ التَّغْييبِ عن وجهِ أبيهِ وإخلائِهِ عنهُ.

وذلكَ لا يَخْلو منهُمْ: إمّا أنْ يكونَ صَغيرةً وإمّا[2] كَبيرةً.

فإنْ كانَتْ صغيرةً فقدِ اسْتَغْفَروا عليها بقولِهِمْ[3]: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ الآية [الآية: ٩٧] دلَّ أنهمْ إنما اسْتَغْفَروا لَمّا خافوا العذابَ عليها.

وإنْ كانَتْ كبيرةً فلم يَخْرُجوا مِنَ الإيمانِ لأنهمْ[4] صاروا أنبياءَ مِنْ بَعْدُ، وصاروا قوماً صالحينَ حينَ[5] قالوا: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٩].

[**والثالثُ**][6]: دلَّ ما ذَكَرْنا على نَقْضِ المُعْتَزِلةِ في صاحبِ الصغيرَةِ: أنْ لا تعذيبَ عليهِ، وفي[7] صاحبِ الكبيرةِ: أنهُ خَرَجَ مِنَ الإيمانِ، ونَقْضِ قولِ الخوارجِ في قولِهِمْ: إنهُ إذا ارْتَكَبَ كبيرةً أو صغيرةً صارَ بهِ كافراً أو مُشْركاً.

والرابعُ[8]: فيهِ نَقْضُ قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ مَنْ كَذَبَ، أو وَعَدَ، فأخلَفَ، وائْتُمِنَ، فخانَ، يَصيرُ[9] منافقاً؛ لأنَّ إخوَةَ يوسفَ ائْتُمِنوا، فخانوا، وَوَعَدوا، فأخلَفوا، وحَدَّثوا، فكذبوا، فلم يَصيروا مُنافِقينَ؛ لأنهمْ قالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ [الآية: ١٧] ولم يأكُلْهُ، وهو كَذِبٌ، وائْتُمِنوا، فخانوا، حينَ أَلْقَوهُ في الجُبِّ، وَوَعَدوا أنهمْ يحفظونَهُ، ولم يَحْفظوهُ.

فإنْ قيلَ: رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ «ثلاثٌ مِنْ علاماتِ النفاقِ: مَنْ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا ائْتُمِنَ خانَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ» [مسلم ٥٩] فكيفَ يُوَفَّقُ بينَ الآيةِ والخبرِ؛ إذْ هو لا يَحْتَمِلُ النسخَ، لأنهُ خبرٌ، والخَبَرُ لا يَحْتَمِلُ النسخَ؟

قيلَ: يُشْبِهُ أنْ يكونَ في قومٍ خاصٍّ مِنَ الكَفَرَةِ ائْتُمِنوا بما أودَعَ اللهُ في التوراةِ مِنْ بَعْثِ محمدٍ، فَغَيَّروهُ، وَوَعَدوا أنْ يُبَيِّنوهُ، فأخْلَفوا، وكَتَموهُ، وحَدَّثوا أنهمْ بَيَّنوهُ، فَكَذَبوا. فَيَصيرُ مُنافقاً بما ذَكَرَ إذا كانَ ذلكَ في أمرِ الدينِ، وأمّا في غيرِهِ فإنهُ لا يَصيرُ منافقاً، ولا تكونُ تلكَ مِنْ أعلامِ المنافقِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ هذا القولُ منهمْ لهُ في الظاهرِ عظيمٌ لأنهمْ قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ في هذا وما كُنّا صادقينَ عندكَ مِنْ قبلُ في غيرِ هذا.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أي تَتَّهِمُنا، ولا تُصَدِّقُنا؛ لأنهُ اتَّهَمَهُمْ حينَ[10] ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [الآية: ١٣] فاعْتَرَضَتْ لهُ التُّهَمَةُ، وليسَ في الاتِّهامِ تكذيبٌ. إنما هو في الوقفِ؛ لأنَّ منِ ائْتَمَنَ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: بقوله. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: يصير. (١٠) في الأصل وم: حيث.

آخرَ في شيءٍ، ثم اتَّهَمَهُ فيهِ، لا يكنْ[١] في اتّهامِهِ إياهُ تكذيبٌ. فعَلَى ذلكَ قولُهُمْ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي تتَّهِمُنا لِما سبَقَتْ مِنّا[٢] التُّهمَةُ ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

على هَذينِ الوجهَينِ يُخرَّجُ تأويلُ الآيةِ، وإلّا لم يَجُزْ أنْ يكونَ نَبِيٌّ مِنَ الأنبياءِ يُكَذِّبُ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ صادقٌ في خَبَرِهِ وقولِهِ.

فإنْ قيلَ قولِهِ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [الآية: ١٣] كيفَ كذلكَ؟ وقد قالَ لهُ يعقوبُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الآية: ٦] فكيفَ خافَ أكلَ الذئبِ والضِّباعِ؟ وذلكَ لا يُحتَمَلُ أنْ يقولَهُ[٣] لهُ إلّا بعِلْمٍ مِنَ اللهِ والوَحْيِ إليهِ. قيلَ: يُحتَمَلُ [ذلكَ بوجهَينِ:

أحدُهما][٤]: أنْ يكونَ ما ذَكَرَ على شَرْطِ الخوفِ أنهُ يَخافُ ممّا ذَكَرَ، فيكونَ لهُ ما قالَ مِنَ الاِجْتِباءِ وتعليمِ الأحاديثِ وإتمامِ النِّعْمَةِ عليهِ.

[والثاني: أن يكونَ][٥] خافَ ذلكَ على ما خافوا جميعاً ما هُمْ عليهِ مِنَ الدينِ، وإنِ اعْتَصَموا عمّا خافوا جميعاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ومَعْلومٌ أنَّ إبراهيمَ لا يَعْبُدُ الأصنامَ، وقالَ يوسفُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ١٠١] ومِثالُهُ: هو ما ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ: أنَّ العِصْمَةَ لا تُزيلُ الخوفَ، ولا تُؤمِّنُ مِن[٦] ارتكابِ مُضادّاتِهِ، بل تَزيدُ الخوفَ على[٧] الأخيارِ والأبرارِ؛ كأنَّ خَوفَهُمْ وإشفاقَهُمْ على دينِهِمْ أكثرُ مِنْ غيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَشْتَدُّ إلى الصيد. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ هذا مِنَ السباقِ أي يَعْدونَ حتى يَنْظُروا إليهِمْ؛ يَستَبِقُ أي يَتَقَدَّمُ مِنْ صاحبِهِ، ويَغْلِبُهُ في العَدْوِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ أي نَنْتَضِلُ: يُسابِقُ بَعْضُنا بعضاً في الرَّمْيِ. يُقالُ: سابَقْتُهُ، فَسَبَقْتُهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الدمُ لا يكونُ كَذِباً، لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ﴾ قد كَذَبوا فيهِ أنهُ دَمُ يوسفَ، وأنَّ الذئبَ أكَلَهُ، ولم يكُنْ. وقالَ الفَرّاءُ: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ بِدَمٍ مكذوبٍ؛ والعربُ قد تَستَعْمِلُ المَصْدَرَ في مَوضِعِ المَفْعولِ.

ثم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ والتَّسْويلُ هو التَّزيينُ / ٢٥٠ ـ ب/ في اللغةِ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي زيَّنَتْ لكُمْ أنفسُكُمْ، ودَعَتْكُمْ إلى أمرٍ تَفْصِلونَ، وتُفَرِّقونَ بَيني وبَينَ ابني. لكنا [لا][٨] نعلَمُ ما ذلكَ الأمرُ الذي زَيَّنَتْ أنفُسُهُمْ لهمْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ قولَهُ: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [الآية: ٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهُما:][٩] ﴿فَصَبْرٌ﴾ لا جَزَعَ فيهِ ﴿جَمِيلٌ﴾ نَرْضى بما ابْتُلينا بهِ؛ لأنَّ الصَّبْرَ هو كَفُّ النفسِ عنِ الجَزَعِ بذلِكَ.

والثاني[١٠]: ﴿جَمِيلٌ﴾ لا مكافآتِ فيهِ لأنهمْ بما فَعَلوا بيوسفَ كانوا مُسْتَوجِبينَ للمُكافآتِ، فقالَ: ﴿فَصَبْرٌ﴾ كَفُّ النفسِ عنِ الجَزَعِ بذلكَ، وقالَ[١١]: ﴿جَمِيلٌ﴾ لا مُكافأةَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي وباللهِ أستَعينُ على الصبرِ بما تَصِفونَ، أو يقولُ: بهِ أستَعينُ على ما تقولونَ مِنَ الكَذِبِ حينَ تَزْعُمونَ أنَّ الذئبَ أكلَهُ ونَحْوَهُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ السَّيّارةُ هي جَماعةُ السائرينَ كالمسافِرَةِ[١٢] ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ الواردُ هو

---

(١) في الأصل وم: يكون. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: عن. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: كالمسافر.

طالبُ الماءِ ومُستَقيهِ ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي أرسلَ دَلْوَهُ في البئرِ [فلما](١) وجدَهُ ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ هو اسمُ ذلكَ الرجلِ الذي كانَ معَ المُدْلي الدلْوَ، فقالَ لهُ: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ كما يُقالُ: يا فلانُ هذا غلامٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ البِشارَةِ؛ كأنهُ قالَ: أبْشِرْ بهذا الغلامِ.

وفي بعضِ القراءاتِ(٢): ﴿يا بُشْرايَ﴾ على الإضافةِ(٣) إلى نفسِهِ؛ فكأنهُ بَشَّرَ نفسَهُ، أي البُشْرَى لي بهذا الغلامِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ كِنايةَ كلامٍ كانَ هنالكَ، لم يُبَيِّنْ لنا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ، كقولِهِ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١] أُخبِرَ أنهُ أقْسَمَ، لكنْ لم يُبَيِّنْ لنا ما ذلكَ القَسَمُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ قال بعضُهُمْ: الإسرارُ هو اسْمُ الإخفاءِ والإظهارِ جميعاً كقولِهِ ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [سبإ: ٣٣] أي أظهَروا الندامَةَ. فإنْ كانَ ما ذَكَرَ أنهُ اسْمٌ لهما جميعاً فكأنهُ قالَ: أظْهَروهُ(٤) بضاعة. فإنْ كانَ على حقيقةِ الإخفاءِ والإسرارِ(٥) فهو على الإضمارِ كأنهُ قالَ: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ على ما كانَ، وأظهَروا ﴿بِضَٰعَةً﴾ لئلا يطلُبَ أصحابُهُمْ في ذلكَ شِرْكَةً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عليمٌ بما عَمِلَ إخوَةُ يوسفَ بيوسفَ، أو عليمٌ بما عَمِلَ السَّيّارةُ مِنَ الإسرارِ والإظهارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي باعوهُ ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: البَخسُ هو النُّقصانُ أي باعوهُ بِثَمَنٍ لا يُباعُ مِثْلُهُ [بِمِثْلِهِ](٦). وقالَ بعضُهُمْ: البَخسُ الظُّلْمُ؛ باعوهُ(٧) ظُلْماً، وأخذوا ثَمَنَهُ ظُلْماً لأنهُمْ باعوهُ حَراماً، وبَيْعُ الحَرامِ حَرامٌ، وأخذوا ثَمَنَهُ حَراماً، لأنَّ ثَمَنَ الحَرامِ حَرامٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ﴾ مُبَهْرَجَةٍ وزَيفٍ ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [حينَ باعوهُ](٨) بِثَمَنِ الدُّونِ والنُّقصانِ بما لا يُباعُ مِثْلُهُ بِمِثْلِ ذلكَ الثمنِ خَشْيَةَ أنْ يَجيئَهُمْ طالبٌ لِما علموا أنَّ مثلَ هذا، لو كانَ مَمْلوكا لا يُتْرَكُ هكذا، لا يُطْلَبُ، فباعوهُ بأدنى ثَمَنٍ يكونُ لهُمْ، لا كما يبيعُ الرجلُ ملكَهُ على رَغبةٍ منهُ خَشْيَةَ الطَّلَبِ والاسْتِنقاذِ مِنْ أيديهِمْ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ إنَّ إخوَةَ يوسفَ هُمُ الذينَ باعوهُ مِنَ السيارةِ ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي لم يَعْرِفوا مَنْزِلَتَهُ ومكانَهُ، والأوَّلُ أشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي كانوا في شِرائِهِ مِنَ الزاهِدينَ، أي خافوا مِنَ الثمنِ أن كانَ مَسْروقاً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي مُقامَهُ ومَنْزِلَتَهُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ إنْ صَدَقَ التُّجارُ(٩) أنهُ بِضاعةٌ عندَهُمْ ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ إنْ ظَهَرَ أنهُ مَسْروقٌ وأنهُ حُرٌّ لِما وَقَعَ عندَهُمْ أنَّ البِضاعةَ لا تُباعُ بِمِثْلِ ذلكَ الثمنِ باعوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ تأويلُهُ: كما مَكَّنّا ليوسفَ عندَ العزيزِ وامْرَأتِهِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٢٢] نُمَكِّنُكَ عندَ أهلِ [الأرضِ](١٠). ولكنْ ذَكَرَ ﴿مَكَّنَّا﴾ على الخَبَرِ لأنهُ كانَ مُمَكَّناً في هذا اليومِ عندَ العزيزِ والمَلِكِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ(١١) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي وكذلكَ جَعَلْنا ليوسفَ مكاناً عندَ الناسِ وفي قلوبِهِمْ مكانَ ما خَذَلَهُ إخوتُهُ، ولم يَعْرِفوا مكانَهُ ومَنْزِلَتَهُ بَعْدَ ما كانَ شِبْهَ المَمْلوكِ عندَ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ هذا قد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي لا مَرَدَّ لِقَضائِهِ إذا قَضَى أمراً كانَ لِقولِهِ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: القراءة. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/١٥٧. (٤) في الأصل وم: أظهروا. (٥) من م، في الأصل: والإظهار. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: باعوا. (٨) في الأصل وم: حيث باعو. (٩) من م، في الأصل: التجارة. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: قولنا.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ بِيعَ بِعشرينَ درهماً أو بِعِشرِينَ ونَيِّفٍ؛ ذلكَ ممّا لا يُعْلَمُ إلا بِخَبَرٍ سِوَى أنَّ فيهِ أنهُ بِيعَ بِثَمَنِ الدُّونِ والنُّقصانِ بقولِهِ: ﴿بَخْسٍ﴾ والبَخْسُ هو النُّقصانُ. يُقالُ: بَخَسْتُهُ أي نَقَصْتُهُ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥ و...] وهو ما قالَ: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤] وقيلَ: البَخْسُ الظُّلْمُ والحَرامُ، وقد ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ الأشُدُّ هو اشْتِدادُ كلِّ شيءٍ ونهايَتُهُ[1] في الكمالِ. ويَحتمِلُ ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ انتِهاءَ بلوغِهِ وانتِهاءَ شبابِهِ أوِ انتِهاءَ عقلِهِ في التمامِ؛ لا يَخلو مِن هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: ثمانيَ عَشْرَةَ سنةً إلى أربعينَ سنةً لأنهُ بهِ يَتِمُّ، ويَكْمُلُ كلُّ نوعٍ منْ ذلكَ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قولُهُ ﴿حُكْمًا﴾ في[2] الناسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ في الحُكْمِ. ويَحتمِلُ قولُهُ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي أعطيناهُ[3] النُّبُوَّةَ ﴿وَعِلْمًا﴾ عِلْمَ الأحاديثِ وتأويلَها على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ إذا أعطاهُ الحُكْمَ أعطاهُ العِلْمَ، وإذا أعطاهُ العِلْمَ أعطاهُ الحُكْمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يَحتمِلُ الإحسانَ في الأعمالِ أي [مَنْ][4] عَمِلَ أعمالاً حَسَنَةً صالِحَةً، ويَحتمِلُ الإحسانَ إلى الناسِ [وإلى النفسِ أي مَنْ][5] أحْسَنَ إليهِمْ، أو أحْسَنَ إلى نَفْسِهِ؛ لا يَخلو مِنَ الأوْجُهِ[6] الثلاثةِ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كذلكَ نَجزي مَنْ أحْسَنَ صُحْبَةَ نِعَمِ اللهِ وإحسانِهِ، وقامَ بِشُكْرِ ذلكَ. كذلكَ أي مِثْلُ الذي جَزاءُ يوسفَ لا يُريدُ أنْ تَجْزيَ غَيْرَهُ عينَ ما جَزَى يوسفَ، ولكنْ يَجزيهِ جزاءَ الإحسانِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿فِى بَيْتِهَا﴾ أنَّ البَيتَ قد يجوزُ أنْ يُضافَ إلى المرأةِ، وإنْ كانَ البَيتُ في الحقيقةِ لِزَوجِها، على ما أضافَ اللهُ بَيتَ زوجِها إليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ المُراوَدَةُ قيلَ: هي الدَّعْوَةُ والطَّلْبَةُ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ أي دَعَتْهُ إلى نَفْسِها[7]. وقالَ أهلُ التأويلِ: راوَدَتْهُ، أي أرادَتْهُ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

قيلَ: إنَّ هذهِ الكلمةَ أُخِذَتْ مِنَ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ، لَيسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ، ونحنُ لا نعرفُ ما أرادَتْ بها. لكنَّ أهلَ التأويلِ: قالَ بعضُهُمْ: تَهَيَّأْتُ لكَ. وفي بعضِ القراءاتِ: هِئْتُ[8] لكَ بالهمزِ؛ ومَعْناهُ ما ذُكِرَ؛ أي تَهَيَّأْتُ لكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ها أنا لكَ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذُ باللهِ، وألْجأُ إليهِ ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿رَبِّىٓ﴾ سَيِّدي الذي اشْتَراني[10] ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي أكْرَمَ مُقامي ومَكاني. دليلُهُ قولُهُ لِزَوجَتِهِ: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [الآية: ٢١] هذا يَدُلُّ أنَّ قولَهُ ﴿أَكْرِمِى/ ٢٥١ ـ أ/ مَثْوَىٰهُ﴾ أي أحْسِني مَثْواهُ.

ولكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ أرادَ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ ربَّهُ الذي خَلَقَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بِظُلْمِهِمْ وقتَ ظُلْمِهِمْ. والمَثْوَى: المَوضِعُ الذي يُثْوَى فيهِ، والثَّواءُ: المُقامُ، والثاوي: المُقيمُ، و﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: أعوذُ باللهِ، وألْجأُ إليهِ، وأتَحَصَّنُ بهِ، و﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إذا خَتَموا بالظُّلْمِ. وأمّا إذا انْقَلَعوا عنهُ فقد أفْلَحوا.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أمّا ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنها أسْلَمَتْ لهُ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي حَلَّ سَراويلَهُ، وأمثالُ هذا، مِنَ الخُرافاتِ فهذا كلُّهُ ممّا لا يَحِلُّ أنْ يُقالَ في شَيءٍ مِنْ ذلكَ.

(١) في الأصل وم: ونهاية. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: أعطينا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) في الأصل وم: أوجه. (٧) في الأصل وم: نفسه. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/١٥٩. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: اشتراه.

والدلالةُ على فسادِ ذلكَ [في](١) وجوهٍ:

أحَدُها: قولُهُ: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [الآية: ٢٦] ولو كانَ منهُ الإرادةُ والمُراوَدَةُ لم يكنْ لِيَقولَ ذلك عنها(٢)، ويُبَرِّئَ نَفْسَهُ مِنْ ذلكَ.

والثاني: قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [الآية: ٢٤] ولو كانَ شيءٌ ممّا ذَكَروا مِنْ حَلِّ السَّراويلِ والجُلوسِ بينَ رِجْلَيها لم يكنِ السوءُ مَصْروفاً عنهُ.

والثالثُ: قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية: ٥٢] ولو كانَ منهُ ما ذَكَروا لقد خانَهُ.

والرابعُ: [قولُ النِّسْوَةِ](٣): ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وقولُها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [الآية: ٥١].

هذا كلُّهُ يدلُّ أنَّ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ فاسدٌ، لا يَحِلُّ أنْ يُتَكلَّمَ فيهَ بشيءٍ منْ ذلكَ. وليسَ في ظاهرِ الآيةِ شَيءٌ ممّا قالوا مِنْ قليلٍ ولا كثيرٍ؛ إذْ ليسَ فيهِ سِوَى أنْ ﴿هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾.

ثم تَحْتَمِلُ الآيةُ وجوهاً عندَنا:

أحَدُها: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ هَمَّ: عَزَمَ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ: خَطَرَ، ولا صُنْعَ للعَبْدِ في ما يَخْطِرُ بالقلْبِ، ولا مُؤاخَذَةَ عليهِ، [وهو قولُ الحَسَنِ.

والثاني: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ هَمَّ الإرادةِ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ دَفْعٍ. لكنهُ يدخُلُ عليهِ](٤) قولُهُ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لو كانَ هَمُّهُ بها هَمَّ دفْعٍ لم يكنْ لقولِهِ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ مَعْنىً، لكنهُ يُشْبِهُ أنْ يكونَ: هَمَّ بها [هَمَّ بِقَتْلِها](٥) فإذا كانَ هَمَّ بِقَتْلِها، فَرَأى بُرْهانَ ربِّهِ، تَرَكَها(٦) لِما لا يَحِلُّ قَتْلُها.

[والثالثُ: كادَ](٧) يَهُمُّ بها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ على الشرطِ؛ كادَ(٨) يَهُمُّ بها لولا ما رَأى مِنْ بُرْهانِ ربِّهِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] لولا [أنْ](٩) كانَ مِنْ تَثْبيتِنا إياكَ. وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُ إبراهيمَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] أي لو كانَ هو الذي يَنْطِقُ لَفَعَلَ هو.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: رَأى يَعقوبَ عاضًا على شَفَتَيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: مُثِّلَ لهُ يَعقوبُ، وصُوِّرَ لهُ، فَرَآهُ(١٠) عاضاً على إصْبَعِهِ. وقالَ بعضُهُم. وقالَ بعضُهُمْ: رَأى آيةً مِنْ كتابِ اللهِ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ الآيةَ [الإسراء: ٣٢]. هذا كلُّهُ لا يُدْرَى.

وأصْلُ البُرْهانِ الحُجَّةُ، أي لولا ما رَأى مِنْ حُجَّةِ اللهِ، وإلّا كانَ يَهُمُّ بها، ولكنْ لا ندري ما تلكَ الحجَّةُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

والبُرْهانُ هو الحُجَّةُ والآيةُ: لولا أنْ رَأى حُجَّةَ ربِّهِ وبرهانَ ربِّهِ وآياتِهِ أوِ الرسالةَ. وتُشْبِهُ الحُجَّةُ النُّبُوَّةَ(١١).

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ اسْتَبَقَتْ هي لِتُغْلِقَ البابَ، واسْتَبَقَ هو لِيَخْرُجَ، ويَفِرَّ. لكنَّ قولَهُ: لِتُغْلِقَ البابَ لا يُحْتَمَلُ لأنَّ الأبوابَ كانَتْ مُغَلَّقَةً بقولِهِ: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ولكنِ اسْتَبَقَتْ هي لِتَحْبِسَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي وَجَدا سَيِّدَها، هذا يَدُلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [الآية: ٢٣] أي لم يُرِدْ بهِ العزيزَ الذي اشْتَراهُ، ولكنْ [أرادَ](١٢) العزيزَ الذي خَلَقَهُ لأنهُ قالَ: سَيِّدَها، ولم يَقُلْ سَيِّدَهُما.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لها. (٣) في الأصل وم: قولها. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: أو هم قتلها، في م: أي هم قتلها. (٦) في الأصل وم: فتركها. (٧) في الأصل وم: والثاني: كان. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فرأى. (١١) في الأصل وم: أي النبوة. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ الإرادة تكونُ معَ الفِعْلِ لأنها كانَتْ لا تَعْلَمُ إرادةَ ضَميرِهِ، فإذَنْ أَخبرَتْ عمّا عرَفَتْ مِنَ الميلِ وإظهارِ الفِعْلِ. وكذلكَ قولُ إخوَةِ يوسفَ ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [الآية: ٨] وكانوا هُمْ لا يَعْرِفونَ ما في ضَميرِهِ مِنَ الحبِّ سِوَى ما ظَهَرَ لهمْ منهُ مِنَ المَيلِ إليهِ وإبداءِ الشَّفَقَةِ لهُ. فهذا يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا مِنْ كونِ الإرادةِ معَ الفِعْلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي دَعَتْني، والمُراوَدَةُ قد ذَكَرْنا أنها هي الدَّعْوَةُ كقولِهِ: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [الآية: ٦١] أي [سَنَدْعُوهُ، ونَطْلُبُ منهُ][١].

فإنْ قيلَ: كيفَ هَتَكَ سِتْرَها بقولِهِ: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾؟ قيلَ: لَيسَ فيهِ هَتْكُ السِّتْرِ عليها، بل فيهِ نَفْيُ العَيبِ والطَّعْنِ عنْ نَفْسِهِ. فالواجبُ على المَرْءِ أنْ يَنْفِيَ العَيبَ، وما يَشِينُهُ عنْ نَفْسِهِ على ما فَعَلَ يوسفُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن﴾ كذا، وإنْ كانَ كذا فهو كذا. قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ ذلكَ الشاهدُ هو ابنُ عمٍّ لها، رجلٌ حليمٌ، يقالُ: كذا. وقالَ بعضُهُمْ: شَقُّ القميصِ مِنْ دُبُرٍ هو الشاهدُ وأمثالُهُ. لكنَّ هذا لا يُعْلَمُ مَنْ كانَ ذلكَ الشاهدُ. وقيلَ: صَبِيٌّ في المَهْدِ. ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هذا لأنَّ القميصَ إذا كانَ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فهو إنما [يَنْقَدُّ مِنْ دَفْعِهِ][٢] عنْ نَفْسِها، وإذا كانَ القميصُ مَقدوداً مِنْ دُبُرٍ فهو إنما يَنْقَدُّ[٣] مِنْ جَرِّها إيّاهُ إلى نفسِها لا مِنْ دفعِها إيّاهُ عنْ نَفْسِها. هذا هو الظاهرُ في العُرْفِ. لذلكَ قالَ الشاهدُ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ فهو مِنْ كذا ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ الآية استَدَلَّ على أنهُ إنما تَمَزَّقَ مِنْ جَرِّها إيّاهُ [إلى نَفْسِها لا مِنْ دَفْعِها إيّاهُ عنْ نَفْسِها][٥].

ففيهِ دلالةُ جوازِ العملِ بالاجْتِهادِ لأنَّ القميصَ في الغالبِ لا يَتَمَزَّقُ مِنْ دُبُرٍ إلّا عنْ [جَرٍّ مِنْ وراءٍ][٦]، ولا مِنْ قُبُلٍ إلا عنْ دَفْعٍ مِنْ قُدّامٍ. لذلكَ دلَّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، وإنْ كانَ يجوزُ أنْ يكونَ في الحقيقةِ على غيرِ ذلكَ، لكنْ نَظَرَ إلى الغالبِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ [الآية: ٢٥] أي شَقَّتْ ومَزَّقَتْ، ومَقدودٌ أي مَشْقوقٌ ﴿مِن دُبُرٍ﴾ أي مِنْ خَلْفٍ، و﴿مِن قُبُلٍ﴾ أي مِنْ قُدّامٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ القُبُلِ مِنْ قُبُلِ المَرأةِ. وقولُهُ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ولم يَقُلْ سَيِّدَهُما. فهذا يدلُّ على ما ذَكَرْنا أي عندَ البابِ، وهو ظاهرٌ، أي وجَدَ سَيِّدَها عندَ البابِ.

وفي قولِهِ: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ فهو كذا [وقولِهِ][٧] [﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ فهو مِنْ كذا][٨] دلائلُ يُسْتَدَلُّ بها [في مَسائِلَ][٩] لأصحابِنا.

مِنْ ذلكَ قولُهُمْ: في حانوتٍ فيه لُؤلُؤٌ وإهابٌ، تَنازعَ فيهِ دَبّاغٌ ولُؤلُئِيٌّ، فإنهُ يُقْضَى باليَدِ لِكُلِّ واحدٍ منهما في ذلكَ: لِلُّؤلُئِيِّ باللُّؤلُؤِ ولِلدَّبّاغِ بالإهابِ، باليَدِ يُسْتَدَلُّ بغالِبِ الأمرِ، وظاهِرُ اليَدِ الغالبَةُ، وإنْ كانَ يجوزُ في الحقيقةِ على خِلافِ الظاهِرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ كَيدُها أنها لمّا راوَدَتْهُ[١٠] عنْ نَفْسِهِ، وأَمِنَتْهُ على إظهارِ ذلكَ وعَدَمِ[١١] إفشائِهِ عليهِ، أفْشَتْ[١٢] عليهِ ذلكَ. حينَ[١٣] أبى إجابَتَها، فقالَتْ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ/ ٢٥١ ـ ب/ سُوٓءًا﴾ [الآية: ٢٥] ذلكَ القولُ منها مِنْ كَيدِهِنَّ.

(١) في الأصل وم: سندعومنه ونطلب. (٢) في الأصل وم: يتقدم من دفعها. (٣) في الأصل وم: يتقدم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لا من دفعها عن نفسه. (٦) في الأصل: دفع من وراءه، في م: دفع من وراء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: المسائل. (١٠) في الأصل وم: راودتها. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: فأفشت. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وأصْلُ الكَيْدِ والمَكْرِ هو الأخذُ على الأمْنِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلائلُ لِقولِ أصحابِنا في المَتاعِ، يَختَلِفُ فيه الزوجان؛ فإنْ كانَ مِنْ مَتاعِ الرجالِ فهو في يَدِ الرجلِ، وإنْ كانَ [مِنْ مَتاعِ النساءِ][1] فهو في يَدِ المرأةِ، وهو[2] قولُ أبي يوسفَ ومحمدٍ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي عنْ قولِهِ: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [الآية: ٢٦] ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ عَنْ جميعِ ما كانَ بَينَهما؛ أيِ اسْتُرْ عليها، ولا تَهتِكْ عليها سِتْرَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ قالَ لِيوسفَ ذلكَ القائلُ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ وقالَ للمرأةِ: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ لِما ظَهَرَ عندَهُ أنها التي راوَدَتْهُ، ودَعَتْهُ إلى[3] نَفْسِها.

ثم اختُلِفَ في تأويلِ هذا القولِ: قالَ بعضُهُمْ: هو زوجُها، قالَ لِيوسفَ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ ولا تَهتِكْ عليها سِتْرَها، لكنهُمْ قالوا: إنهُ كانَ قليلَ الغَيْرةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ القائلُ هو رجلٌ آخرُ، هو ابْنُ عمٍّ لها، وهذا أشبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ هذا لها لأنهمْ، وإنْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ فإنما[4] يَعْبُدونها لِتُقَرِّبَهُمْ[5] إلى اللهِ زُلْفَى حينَ[6] قالَ لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: قالَ[7]: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ إلى زوجِكِ لأنكِ[8] خُنْتِهِ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا يدلُّ أنَّ القائلَ ذلكَ[9] رجلٌ آخَرُ لا زوجُها. وإنْ كانَ التأويلُ هو الأوَّلَ فإنهُ يَحتَمِلُ كِلَيهما، أيُّهما كانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ اسْتَكْتَمَتْ سِرَّها عندَ نِسْوَةٍ في المدينةِ، فأفْشَينَ سِرَّها عندَ أهلِ المدينةِ لِيَبْلُغَ ذلكَ الخَبَرُ المَلِكَ، أو إنْ لم تكنْ أعْلَمَتْ ذلكَ النّسْوَةَ فلا بدَّ مِنْ أنْ يَعْلَمَ ذلكَ بَعْضُ خَدَمِها، فالخادمُ أعْلَمَتْ سِرَّها، وأفْشَتْ عندَ نِسْوَةٍ في المدينةِ، فَقُلْنَ عندَ ذلكَ: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أي تَدْعو عبدَها إلى نفسِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشَّغافُ هو حِجابُ القَلْبِ وغِلافُهُ ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي بَلَغَ حُبُّها إياهُ الشَّغافَ، والمَشْغوفُ: قيلَ: المَجْنونُ حباً، وهو من العِشْقِ.

قالَ الحَسَنُ: الشَّعِفُ أنْ يكونَ قد بَطَنَ قَلْبَها[10] حُبُّهُ، والشَّغِفُ أنْ يكونَ مَشْغوفاً بِهِ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دَخَلَ الحبُّ في شَغافِ القَلْبِ، وهو غِطاؤُهُ، وقالَ: مَنْ قَرَأها: شَعَفَها[11] حُبّاً، أي ذهبَ بِعَقْلِها، أي عَشِقَتْهُ[12].

لكنَّ هذا قولُ أولئكَ النّسْوَةِ. فلا نَدري ما أرَدْنَ بذلكَ. إنما ذلكَ خَبَرٌ، أو خَبَرٌ عن قولٍ: قُلْنَ هُنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حينَ[13] خانَتْ زوجَها، أو ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في حَيرَةٍ مِنْ حُبِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي بقولِهِنَّ. المَكْرُ هو الأخذُ في حالِ الأمْنِ، وهو الخيانةُ في ما ائْتُمِنَ، واسْتُكْتِمَ. فهذهِ كأنها اسْتَكْتَمَتْ سِرَّها وحبَّها لِيوسفَ عنِ الناسِ، وأفْشَتْ ذلكَ النّسْوَةُ في المدينةِ على أنْ يَسْتَكْتِمْنَ عنِ الناسِ، فأفْشَينَ عليها ذلكَ، فذلكَ المَكْرُ الذي سَمِعَتْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: متاع الناس. (٢) في الأصل وم: في. (٣) في الأصل وم: في. (٤) من م: في الأصل: كأنما. (٥) في الأصل وم: ليقربوهم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: قوله. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لذلك. (١٠) في الأصل وم: لها. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ١٦٤. (١٢) في الأصل وم: عشقها. (١٣) في الأصل وم: حيث.

إلى هذا ذهبَ بعضُ أهلِ التأويلِ، وأمكنَ أنْ تكونَ المرأةُ لم تُفشِ سِرَّها إليهنَّ، لكنَّ بعضَ خَدَمِها التي[1] اطَّلَعتْ على ذلكَ هي التي أفشَتْ إليهنَّ، فلمّا سَمِعَتْ ذلكَ منهنَّ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ إمّا تَنويشاً ودُعاءً لِلضِّيافةِ وإمّا استِزادةً يَزِدْنَها.

وأمّا قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ النِّسْوَةَ كانَتِ امرأةَ الخبازِ والساقي، ولا [نَدري مِمَّنْ][2] فذلكَ لا نَعْلَمُهُ، وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ قالَ الحَسَنُ: مُتَّكَأً: طعاماً وشراباً وتُكَأَةً. وقالَ بعضُهُمْ: الأُتْرُجُ والتُّرُنجُ، وقالَ بعضُهُمْ: مُتَّكَأً: وسائدَ وما يُتَّكأُ عليهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: مِتْكاءً ممدوداً، يعني هَيْأَتْ لِلْمجلسِ ما يُتَّكأُ عليهِ. ومَنْ قَرأَ مِتْكئً[3] [مقصوراً فهو][4] الأُتْرُجُ، وطعامٌ على ما قالَ الحَسَنُ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: قالَ: ويُقالُ: الزماوردُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ أي أعطتْ كلَّ واحدةٍ منهن سِكّيناً، ظاهرُ ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ ههنا كلامٌ: أنْ كيفَ أطاعَ يوسفُ بالخروجِ على النساءِ بقولِها إليهِ[5]: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؟ فذلكَ ممّا لا يَحِلُّ. لكنهُ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أنهُ إنما يُكْرَهُ الدخولُ عليهنَّ والخَلْوَةُ بِهِنَّ. وأمّا الخروجُ عليهنَّ فهو لَيسَ بِمَكْروهٍ؛ إذْ فيهِ الخروجُ [مِنْ عِنْدِهِن][6] لأنَّهُ إذا خَرَجَ عليهنَّ كانَ يَقْدِرُ أنْ يَخْرُجَ [مِنْ عِنْدِهِنَّ][7]. فكأنهُ لمّا[8] أذِنَتْ لهُ بالخروجِ عليهنَّ خَرَجَ رغْبَةً أنْ يَخْرُجَ مِنْ عندِهِنَّ إذْ لم يَقْدِرْ أنْ يَخْرُجَ مِنَ البيتِ عليهِنَّ بغيرِ إذنٍ منها.

[والثاني: الأمرُ][9] بالخروجِ عليهِنَّ أفادَ لهُ إذْناً بالخروجِ مِنَ البَيْتِ إذْ لا سَبيلَ لهُ إلى الخروجِ منهُ بلا إذنٍ لهُ منها، فَخَرَجَ عليهِنَّ ثَمَّةَ مِنْ عندِهِنَّ إلى غَيرِهِ مِنَ المكانِ، وذلكَ ممّا لا يُكْرَهُ إذا كانَ لا سَبيلَ إلى سِواهُ.

[والثالثُ: يُشْبِهُ][10] أنْ يكونَ منها الأمرُ بالخروجِ حَسَباً إذا خَرَجَ، ولم تَقُلْ عليهِنَّ، ولم تُعْلِمْ يوسفَ أنها تأمُرُهُ بالخروجِ على النساءِ فَخَرَجَ. لكنَّ اللهَ ﷻ أخبَرَ عنْ مَقْصُودِها، وكانَ مَقْصُودُها مِنَ الأمرِ بالخروجِ خُروجاً عليهِنَّ، فأخبَرَ عنْ مَقْصُودِها بقولِهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ومثلُ هذا قد يكونُ في الكلامِ.

[والرابعُ: جائزٌ][11] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي عَنْهُنَّ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: على مَكانَ عنْ كقولِهِ ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين: ٢] أي عنِ الناسِ، وأمثالُهُ كثيرٌ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ مُشْتَرِيَ يوسفَ [كانَ يَمْنَعُ يوسفَ][12] عنْ أنْ يَخْرُجَ إلى البَلَدِ والسوقِ ومنْ أنْ يُخالِطَهُ الناسُ إمّا إشفاقاً على نَفْسِهِ، أو لئلا تُفْتَنَ بِهِ النساءُ، أو لئلا يَطَّلِعَ على نَفْسِ يعقوبَ لِما وقَعَ عندَهُ أنهُ مَسْروقٌ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ أنَّ على المَرْءِ أن يَحْفظَ ولَدَهُ، أو عبدَهُ إشفاقاً عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي أكْبَرْنَهُ، وأعظَمْنَهُ مِنْ حُسْنِهِ أنْ يكونَ مِثْلُ هذا بَشَراً.

ألا تَرى أنهنَّ قُلْنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ و﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؟ قيلَ: حَزَزْنَ[13] حَزًّا بالسكينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾قالَ أهلُ التأويلِ: أي معاذَ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ كلمةُ تَنْزِيهٍ مِنَ القُبْحِ.

وَدَلَّ هذا القولُ منهنَّ أنهنَّ كُنَّ يُؤْمِنَّ باللهِ حينَ[14] قُلْنَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

[ودَلَّ قولُهُنَّ][15]: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [أنَّ المَلَكَ كانَ، وإنْ لم يَرَوْهُ، حَسَناً][16] عندَهُمْ، ويَنْسِبونَ[17] كلَّ حَسَنٍ إلى الملائكةِ، والشيطانُ، لَعَنَهُ اللهُ، قبيحٌ، فَنَسَبوا كلَّ قبيحٍ إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: الذي. (٢) في الأصل وم: أدري من ماذا. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ١٦٥. (٤) في الأصل وم: مقصور هو. (٥) في الأصل وم: إياه. (٦) و(٧) في الأصل وم: منهن. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: أما الخروج. (٩) في الأصل وم: فالأمر. (١٠) في الأصل وم: يشبه. (١١) في الأصل وم: وجائز. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: حزا. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: قوله. (١٦) في الأصل وم: كان الملك وإن لم يرونه حسن. (١٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

وقولُه[١] تعالى: ﴿بَشَرًا﴾ قرأ بعضهم بِشرى[٢] بالتنوين أي ما هذا بِمُشْتَرى.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ بقولِهِنَّ: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أي إنكنَّ لُمْتُنَّني فيه/ ٢٥٢ ـ أ/ [أني راوَدْتُهُ][٣] عن نَفْسِهِ، وأنتنَّ قَطَّعْتُنَّ أيديَكُنَّ إذ رأيتُنَّهُ[٤]، وأنكَرْتُنَّ أن يكونَ هذا بَشَراً، فذلكَ أعظَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي دَعوتُهُ إلى نفسي ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ قيلَ: امْتَنَعَ كقولِهِ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] أي لا مانِعَ.

ويُشْبِهُ قولُهُ: ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ باللهِ أو بدِينِهِ ونُبُوَّتِهِ أو بعَقْلِهِ. هذا يَدُلُّ على أنهُ لم يكُنْ منهُ ما قالَ أهلُ التأويلِ مِنْ حَلِّ السراويلِ ونَحْوِهِ حينَ[٥] قالَتْ ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ قالَتْ ذلكَ امرأةُ العزيزِ ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُها ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ في السجنِ، أو ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ﴾ المُذَلِّينَ ﴿الصَّاغِرِينَ﴾ [والصاغِرُ][٦] هو الذليلُ لأنهُ قالَ ﴿لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [الآية: ٢١] فكانَ مُكَرَّماً عندَها مُعَظَّماً.

فلمّا [أبى ما راوَدَتْهُ قالَتْ][٧] ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي مِنَ الذليلينَ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فيهِ دلالةُ أنهُ قد كانَ منهنَّ مِنَ المُراوَدَةِ والدعاءِ ما كانَ مِن امْرأةِ العزيزِ مِنَ المُراوَدَةِ والدعاءِ إلى نفسِها حينَ[٨] ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

ألا تَرى أنهُ قالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾؟ [الآية: ٥١] وكذلكَ قالتِ امرأةُ العزيزِ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [الآية: ٣٢] أي كُنْتُنَّ لُمْتُنَّني فيهِ أني راوَدْتُهُ عنْ نفسِهِ، وأنتُنَّ قد راوَدْتُنَّهُ عنْ نفسِهِ، وقولُ يوسفَ: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي ذلكَ الذلُّ والصَّغارُ أحبُّ إليَّ أي آثَرُ عندي وأخيَرُ ممّا يَدعونني إليه؟ وإنْ كانَ ما يَدْعُونَهُ إليهِ تهواهُ نفسُهُ، وتَميلُ إليه، وتحبُّهُ. فأخبرَ أنَّ السِّجنَ أحبُّ إليهِ أي آثَرُ وأخيَرُ في الدينِ؛ إذِ النَّفْسُ تَكْرَهُ السِّجنَ، وتَنْفُرُ عنهُ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾؟ فهذا يدلُّ على أنَّ ما ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ إنما أرادَ بهِ مَحبَّةَ الاختيارِ والإيثارِ في الدينِ لا مَحبَّةَ النفسِ واختيارَها. بل كانتِ النفسُ تُحِبُّ، وتَهْوَى ما يَدْعُونهُ إليهِ. دليلُهُ قولُهُ: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وليسَ الدعاءُ في قولِهِ: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ كما يقولُ بعضُ الناسِ: إنهُ إنما وَقَعَ في السجنِ لأنهُ سألَ ربَّهُ السِّجنَ، فاستَجابَ[٩] لهُ في ذلكَ، ولكنَّ الدعاءَ في قولِهِ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ وهو كقولِ آدمَ وحواءَ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٣].

ليسَ الدعاءُ في قولِهِما[١٠]: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [لأنهُ إخبارٌ عمّا كانَ منهُم، إنما الدعاءُ في قولِهِ: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وكذلكَ قولُ نوحٍ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وفي][١١] قولِهِ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ دلالةُ أنَّ عندَ اللهِ لطفاً[١٢]، لم يكُنْ أعْطَى يوسفَ ذلكَ؛ إذْ لو كانَ أعطاهُ لكانَ كَيْدُهُنَّ وشَرُّهُنَّ مَصروفاً [عنهُ حينَ][١٣] قالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ولو كانَ أعْطَى ذلكَ لم يكنْ لِسُؤالِهِ ذلكَ مَعْنىً.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ١٦٨. (٣) من م، في الأصل: أراوده. (٤) في الأصل وم: رايتن. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أتى ما راودته فقالت. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فاستجيب. (١٠) في الأصل وم: قوله. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لطف. (١٣) في الأصل وم: عند حيث.

فهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ حينَ[1] قالوا: إنَّ اللهَ قد أعطى كُلّاً قُدْرَةَ كلِّ طاعةٍ وقُوّةَ كلِّ خيرٍ والدَّفْعَ عنْ كلِّ شرٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي لا أحدَ يَمْلِكُ صَرْفَ كَيدِهِنَّ عني إنْ[2] لم تَصْرِفْهُ أنتَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ [هود: ٤٧] وهو أبْلَغُ في الدعاءِ مِنْ قولِهِ: اللهمَّ اغْفِرْ لي وارْحَمْني.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أمِلْ إليهنَّ، وقالَ بعضُهُمْ: قال: لو لم تَصرِفْ عني كَيدَهنَّ لَتابعْتُهُنَّ؛ ويقالُ: الصَّبْوُ هو الخروجُ مِنَ الأمرِ؛ يقالُ: كلُّ منْ خرَجَ مِنْ دينِهِ فقد صَبَأ، وبهذا كانَ المشركونَ يُسَمّونَ النبيَّ ﷺ صابِئاً، أي خَرَجَ ممّا نَحنُ عليهِ. وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: الأصَبُّ هو الأمرُ المُعْجِبُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي يكُنْ فِعْلي فِعْلَ الجُهّالِ لا فِعْلَ العُلَماءِ والحُكَماءِ إنْ لم تَصْرِفْ عني كيدَهُنَّ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أي أجابَ لهُ ربُّهُ، فَصَرَفَ عنهُ كيدَهُنَّ.

هذا يدلُّ على أنَّ الدعاءَ كانَ في قولِهِ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ليسَ في قولِهِ: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ إنما هو خَبَرٌ أخبَرَهُ حين[3] أخبَرَ أنهُ أجابَ لهُ ربُّهُ، فَصَرَفَ كيدَهُنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميعُ لكلِّ قولٍ وكلامٍ، خَفِيًّا كانَ على الخَلْقِ أو ظاهراً. العليمُ بهِ لا يَخْفى عليهِ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ دلالةُ أنهنَّ كنَّ يَدعونَهُ إلى ذلكَ مِنْ وجهٍ، كانَ يَخْفَى[4] عليهِ، ولم يَشْعُرْ بهِ، فالتَجأ إلى اللهِ في صرفِ ذلكَ عنهُ.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنها قالَتْ لِزَوجِها: ما زالَ يوسفُ يُراوِدُني عنْ نفسي، فأبَيْتُ عليهِ، فَصَدَّقَها، فَحَبَسَهُ في السجنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هو قَدُّ القميصِ مِنْ دُبُرِهِ وخَمْشُ الوجهِ [وغيرُ ذلكَ][6].

ولكنهُ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآياتُ التي رَأوها، هي آياتُ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: حَبَسوهُ لِيَنْفُوا عنِ المرأةِ ما رُمِيَتْ بهِ، ولِيَنقَطِعَ ذلكَ عنِ الناسِ، ويموتَ ذلكَ الخَبَرُ، ويذهبَ فيهِ أنهم حَبَسوهُ بَعْدَ ما رَأوا آياتِ عصمَتِهِ وبراءَتِهِ عمّا اتَّهَموهُ وأنهمْ ظَلَمَةٌ في حَبْسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ الفَتيانِ: قيلَ: عبدانِ[7] لِلْمَلِكِ، غَضِبَ عليهِما المَلِكُ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرضٌ، يُدْعَى العِنَبُ بها خمراً، أو سُمِّيَ خَمراً باسْمِ سَبَبِهِ أو باسْمِ أصْلِهِ. وجائزٌ في اللُّغَةِ تَسْمِيَةُ الشَّيءِ باسْمِ سَبَبِهِ أو باسْمِ أصْلِهِ.

[وقولُهُ تعالى:][8] ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ كانَ أحَدُهُما خَبّازاً للملكِ، والآخَرُ ساقِيَهُ ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إحسانُهُ في السِّجنِ لِما كانوا رَأوهُ يُداوي المَرْضَى، ويُعَزّي حزينَهُمْ، ويَجتَهِدُ في نفسِهِ في العِبادةِ لربِّهِ. هذا يُحتَمَلُ، [أو][9] لَعَلَّهُ كانَ يَبَرُّ أهلَ السِّجنِ، ويَصِلُهُمْ، ويَجتَهِدُ في العِبادةِ للهِ في الصلاةِ لهُ والصومِ وأنواعِ العِبادةِ التي تكونُ في ما بَيْنَهُ وبينَ ربِّهِ، فَسَمَّياهُ[10] مُحْسِناً لذلكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ [ما][11] قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لِما آتاهُ ربُّهُ سِيماءَ الخَيرِ وآثارَهُ، أو يَدْعُوهُمْ إلى توحيدِ اللهِ والعبادةِ لهُ [وخَلْعِ أنْفُسِهِمْ][12] عن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ والانْتِزاعِ مِنْ ذلكَ، فَسَمَّوهُ[13] مُحْسِناً لِذلكَ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لِما رَأوهُ أحْسَنَ إلى أهلِ السجنِ، ويَحْتَمِلُ الإحسانُ ههنا العِلْمَ: إنا نَراكَ مِنَ العالِمينَ، وهو قولُ الفَرّاءِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم: وغيره. (٧) في الأصل وم: عبدين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فسماه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وخلقهم. (١٣) في الأصل وم: فسمياه.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ سَمَّى التَّعبيرَ تأويلاً؛ لأنَّ التأويلَ هو الإخبارُ عنِ العواقبِ. لِذلكَ سَمَّياهُ[1] تأويلاً، ثم خَرَّجَ تأويلَ الذي كانَ يَعْصِرُ الخَمْرَ على العَودِ إلى ما كانَ في أمْرِهِ مِنَ السَّقْيِ للملكِ، وهو كانَ ساقِيَهُ على ما ذَكَرنا. فلما رأى أنهُ دامَ على أمرِهِ أوّلَ بالعَودِ إلى أمْرِهِ الذي كانَ فيهِ.

والآخَرُ كانَ خَبّازاً على ما ذُكِرَ، وهو إنما كانَ يَخْبِزُ للناسِ. فلمّا رأى أنهُ حَمَلَ الخُبْزَ على رأسِهِ، وأنهُ تأكُلُ الطيرُ منهُ، عَلِمَ أنهُ يُخرَجُ مِنَ الأمرِ الذي كانَ فيهِ. وخُروجُهُ يكونُ بِهلاكِهِ؛ لأنهُ كانَ / ٢٥٢ ـ ب/ مِنْ قَبْلُ يَخْبِزُ للناسِ، فصارَ يَخْبِزُ لِغيرِهِمْ. فاسْتَدَلَّ بذلكَ على خُروجِهِ مِنْ أمرِهِ وعَمَلِهِ. لكنهُ أخبَرَ أنهُ يُصْلَبُ لأنهُ كانَ قائماً مُنْتَصِباً، فأوّلَ على ما كانَ أمْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كانَ يقولُ لهمْ ذلكَ لِيُعَرِّفَهُمْ أنَّ عندَهُ عِلْمَ ما لا يَحتاجُ إليهِ. فَعِلْمُ ما يَحتاجُ إليهِ أحرَى أنْ يَعْلَمَ ذلكَ. وهذا، واللهُ أعلَمُ، منهُ احتِيالٌ لِيَنْزِعَهُمْ عمّا همْ فيهِ مِنْ عبادةِ الأوثانِ عبادَتِهِمْ غيرَ اللهِ، ويُرَغِّبَهُمْ في توحيدِ اللهِ وصَرْفِ العِبادةِ إليهِ.

ولهذا قالَ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ هذا باللطفِ ما أضافَ إليهِ أنهُ علَّمَهُ، وإلّا باختِلافِ الملائكةِ إليهِ، وذلكَ لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالى للرسلِ، عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، اي لا يأتيكُما طعامٌ، رَأيتُما آثارَ ذلكَ في المَنامِ، إلّا نَبَّأتُكُما بِتأويلِ ذلكَ [قبلَ أنْ يأتيَ ذلكَ][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أخبَرَ أنهُ تَرَكَ ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وقولُهُ: ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ليسَ أنهُ كانَ [فيها، ثم تَرَكَها، ولكنْ تَرَكَها ابْتِداءً ما لو لم يَكُنْ تَرَكَها][3] كانَ آخِذاً بِغيرِها.

وهو كقولِهِ: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] ليسَ أنها كانَتْ مَوضُوعةً، فَرَفَعها، ولكنْ رَفَعَها أوّلَ ما خَلَقَها، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] ليسَ أنها [كانَتْ مَرفوعةً، ثم وضَعَها، اي أنشأها][4] مَرفوعةً ومَوضوعةً، وكقولِهِ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ليسَ أنهمْ كانوا فيها، فأخرَجَهُمْ، ولكنْ عَصَمَهُمْ حتى لم يدخُلوا فيها. فَعَلى ذلكَ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قالَ في الآيةِ الأولى: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وأخبَرَ أنهمْ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [الآية: ٣٧] باللهِ واليومِ الآخِرِ [وفيهِ أنَّ مَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ واليومِ الآخِرِ][5] فهو كافرٌ.

فهذا يَنْقُضُ على المُعتَزِلَةِ [قولَهُمْ حينَ][6] جَعَلوا بَينَ الكُفرِ والإيمانِ رُتْبَةً ثالثةً، ويوسفُ يُخبِرُ أنَّ مَنْ لمْ يؤمِنْ باللهِ [واليومِ الآخِرِ][7] فهو كافرٌ. وهُمْ يقولونَ: صاحِبُ الكبيرةِ غيرُ مؤمنٍ باللهِ، وهو ليسَ بكافرٍ.

ثم أخبَرَ أنهُ تَرَكَ مِلَّةَ أولئكَ الذينَ لا يؤمنونَ باللهِ، واتَّبَعَ مِلَّةَ آبائِهِ إبراهيمَ ومَنْ ذَكَرَ. ثم أخبَرَ عنْ مِلَّةِ آبائِهِ، وهي[8] ما ذَكَرَ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ عَرَّفَهُمْ مِلَّةَ آبائِهِ ودينَهُمْ، وهو تَرْكُ الإشراكِ باللهِ، وجَعْلُ الألوهيَّةِ لهُ، وصَرْفُ العبادةِ إليهِ.

وفيهِ أنَّ المِلَّةَ ليسَتْ إلّا مِلَّتَينِ: مِلَّةَ كُفرٍ ومِلَّةَ [إسلام][9] وأخبَرَ أنَّ مَنْ لم يكُنْ في مِلَّةِ الإسلام كانَ في مِلَّةِ الكُفرِ، ثم خَصَّ بالذِّكرِ هؤلاءِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ لأنَّ هؤلاءِ كانوا مُكَرَّمِينَ عندَ الناسِ كافَّةً، كلُّ أهلِ الدينِ يَدَّعونَ أنهمْ على دينِ أولئكَ، فأخبَرَ أنهمْ على دينِ الإسلامِ.

---

(١) في الأصل وم: سموا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: فيه ثم تركه، في م: فيه ثم تركه ولكن ابتداء ما لو لم يكن تركه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) في م: الإسلام، ساقطة من الأصل.

والحَنيفُ المُخْلِصُ ليسَ ما تزعُمونَ [أنهُ غيرُ مُسْلِمٍ][1] ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وفي قولِهِ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ دلالةٌ أنَّ الكُفرَ كُلَّهُ مِلَّةٌ واحدةٌ حِينَ[2] أخبرَ أنهُ تَرَكَ ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ على اخْتِلافِ مذاهِبِهِم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ذلكَ الدينُ والمِلَّةُ التي أنا عليها وآبائي ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأنهُ ﷻ فَطَرَ الناسَ على فِطرَةٍ، يَعْرِفونَ وَحْدانيَّةَ اللهِ ورُبوبيَّتَهُ بِعُقولٍ، رَكَّبَ فيهِمْ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فَضلَ اللهِ وما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ العقولِ. أو ذلكَ الدينُ والهدايةُ الذي أعطاهُمْ مِنْ فَضلِ اللهِ، لكنَّ الناسَ يَتْرُكونَ ذلكَ [الدينَ][3] وتلكَ الهدايةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما: لمّا سُئِلَ يوسفُ][4] عنْ تاويلِ الرُّؤيا دعاهُمْ إلى تَوحيدِ اللهِ، ودلَّهُمْ عليهِ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ وقالَ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي عِبادةُ ربٍّ واحدٍ وإرضاؤُهُ خيرٌ أم عِبادةُ عَدَدٍ وإرضاءُ نَفَرٍ؛ لأنهُ إذا عَبَدَ بعضاً، واجْتَهَدَ في إرضائِهِمْ أَسْخَطَ الباقينَ. فلا سَبيلَ إلى الوصولِ إلى مَقْصودِهِ والظَّفَرِ بِحاجَتِهِ إذاً[5] لم يَقْدِرْ على إرضائِهِمْ جميعاً، وإنْ اجْتَهَدَ، وأمّا الواحدُ فإنهُ يَقْدِرُ على إرضائِهِ إذا[6] لا يزالُ في عبادَتِهِ وإرضائِهِ، فَيَصِلُ إلى حاجتِهِ والظَّفَرِ بِمَقْصودِهِ.

والثاني: يُخْبِرُ أنَّ الواحدَ القَهّارَ يَقْهَرُ غَيرَهُ مِنَ الأربابِ ومَنْ تَعْبُدونَ. فَعِبادةُ الواحدِ القَهّارِ خَيرٌ مِنْ عِبادةِ عَدَدٍ مَقْهورينَ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ آلهةً ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ ولا يَسْتَحِقُّونَ العِبادةَ ولا التَّسْمِيَةَ بالألوهِيَّةِ. إنما المُسْتَحِقُّ لذلكَ الذي خَلَقَكُمْ وخَلَقَ السمواتِ والأرضَ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما أنْزَلَ اللهُ على ما عَبَدْتُمْ[7]، وسَمَّيتُمْ أنتمْ وآباؤُكُمْ آلهةً. مِنْ حُجَّةٍ [وبرهانٍ.

وقولُهُ تعالى:][8] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحُكْمُ في الألوهيَّةِ والربوبيَّةِ والعبادةِ إلّا للهِ.

أو يقولُ: ما الحُكْمُ في الخَلْقِ إلّا للهِ كقولِهِ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي لهُ الخَلْقُ، ولهُ الأمرُ في الخَلْقِ. وأمَرَ ألّا تَعْبُدوا إلا إيّاهُ. حُكْمُهُ هذا أمرٌ ألّا تَعْبُدوا إلّا إيّاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي عبادةُ اللهِ وتوحيدُهُ هو الدينُ القَيِّمُ؛ لأنهُ دينٌ قامَ عليهِ الحُجَّةُ والبُرْهانُ. وأمّا سائرُ الأديانِ فَلَيسَتْ بِقَيِّمَةٍ؛ إذْ لا حُجَّةَ قامَتْ عليها، ولا بُرْهانَ. والقَيِّمُ هو القائمُ الذي قامَ بِحُجَّةٍ وبُرْهانٍ. وقالَ أهلُ التأويلِ: القَيِّمُ المُسْتَقيمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِما [لم][9] يَتَفَكَّروا فيهِ، ولم يَنْظُروا، فلم يَعْلَموا. ولو نَظَروا فيهِ، وتَفَكَّروا لَعَلِموا. وهذا يَدُلُّ أنَّ العُقوبَةَ تَلْزَمُ، وإنْ جَهِلَ، إنْ أمْكَنَ لهُ العِلْمُ بهِ، فلا عُذْرَ لهُ في الجَهْلِ إذا[10] أمْكَنَ لهُ العِلْمَ.

[ويَحْتَمِلُ][11]: عَلِموا، لكنَّهُمْ لم يَنْتَفِعوا بِعِلْمِهِمْ، فَنَفَى عنهُمُ العِلْمَ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ أوَّلَ رُؤْيا الساقي، وعَبَّرَها على العَودِ إلى ما كانَ مِنْ قبلُ لِما رَأى أنهُ كانَ عَمِلَ على ما كانَ يَعْمَلُ منْ قَبْلُ.

---

(١) في الأصل وم: أنهم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يوسف لما سئل. (٥) في الأصل وم: إذ. (٦) في الأصل وم: إذ. (٧) في الأصل وم: عبدتموهم. (٨) في الأصل وم: ولا برهان. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إذ. (١١) في الأصل وم: أو.

وعَبَّرَ رؤيا الخبازِ بالهلاكِ لِما رأى أنهُ حَمَلَ الخُبْزَ على رأسِهِ(١). والخُبْزُ إذا خَبَزَ الخبازُ لا يَحْمِلُهُ على رأسِهِ. فَرَأَى أنهُ قدِ انْتَهَى أمْرُهُ أنْ عَمِلَ على خِلافِ ما كان يَعْمَلُ مِنْ قَبْلُ ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فَعَبَّرَ أنهُ يُصْلَبُ ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ لِما رَأَى أنهُ حَمَلَ الخُبْزَ على رأسِهِ، لِما كانَ يَخْبُزُ مِنْ قَبْلُ للعبادِ. فلما رَأَى أنهُ خَبَزَ لِغَيْرِهِمْ(٢) عَبَّرَ أنهُ يُصْلَبُ(٣) ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ لمّا عَبَّرَ لهما رُؤْياهما قالَ الذي عَبَّرَ لهُ الصَّلْبَ والقَتْلَ: لم أرَ شيئاً، إنما كُنّا نَلْعَبُ، فقالَ لهما يوسفُ: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي فَرَغَ، وانْتَهَى. لكنَّ هذا لا يُعْلَمُ، أقالا ذلكَ أم لم يَقولا سِوَى أنَّ فيهِ أنهُ عَبَّرَ رُؤْياهما؟ وكانَ ما عَبَّرَ لهما. وقد عَلِمَ ذلكَ بِتَعْليمٍ مِنَ اللهِ إيّاهُ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [الآية: ٣٧].

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: [إن كانَ الظانُّ](٤) الذي صَدَّقَ، هو ذلك الرجلَ، كانَ(٥) الظَّنُّ في مَوضِعِ الظَّنِّ/ ٢٥٣ ـ أ/ وإنْ كانَ الظانُّ هو يوسفَ فهو عِلْمٌ ويقينٌ؛ أي عَلِمَ وأيقَنَ ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ لأنهُ لا يَحْتَمِلُ على حقيقةِ الظَّنِّ مِنْ يوسفَ. أي وقالَ للذي، ناجٍ منهما، ظَنَّ أنهُ يذكُرُهُ عندَ ربِّهِ، وهو على التقديمِ والتأخيرِ: قولُهُ تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ يوسفَ لما فَرَغَ إلى غَيرِ اللهِ، وطلبَ إخراجَهُ مِنَ السجنِ مِنَ الملكِ أنساهُ اللهُ ذِكْرَهُ(٦)، وأفْتَرَهُ فيهِ عقوبةً لهُ حينَ رَجا غَيرَ ربِّهِ. لكنَّ هذا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يوسفُ يَفْرَغُ إلى غَيرِ اللهِ، ويدفَعُ قلبَهُ عنِ اللهِ، ويَشْغَلُهُ بِمَنْ دونَهُ.

لكنَّهُ رَأى، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ سَبَبَ نَجاتِهِ على يَدَيهِ، وأنهُ بَقِيَ فيهِ مَنْسِيّاً لِما عَلِمَ أنهُ لم يكنْ منهُ سَبَبٌ يُلْزِمُهُمُ الحبسَ سِوَى الاعتِذارِ إلى الناسِ والاعْتِلالِ لهمْ على نَفْيِ ما اقْتَرَفَتْ زوجَتُهُ، أو لينقَطِعَ ذلكَ الخَبَرُ عنْ ألسُنِ الناسِ، ويَبْعُدَ عنْ أوهامِهِمْ، فَرَأى أنهُ إذا ذَكَرَهُ لَعَلَّهُ أخرَجَهُ مِنْ ذلكَ لمّا رأى أنهُ جَعَلَ سَبَبَ نَجاتِهِ على يَدَيهِ لأنهُ رَأى ذلكَ منهُ، [وفَرَغَ قلبُهُ إلى](٧) اللهِ.

وهكذا جَعَلَ اللهُ تعالى أمورَ الدنيا كلَّها، وعلى ذلكَ تَعَبَّدَ عبادَهُ باستِعْمالِ الأسبابِ مَعَ اعتِقادِ القَلْبِ القَدَرَ مِنَ اللهِ نَحْوَ ما جَعَلَ الأنزالَ والزراعةَ بأسبابٍ يَكْتَسِبونَها ونَحْوَ الأسلحةِ التي اتَّخَذوها(٨) للحربِ والقِتالِ بها ممّا يكْثُرُ عَدَدُ ذلكَ.

وإنما يُحارِبونَ باللهِ، وبهِ يُقاتِلونَ، ومِنْ عندِهِ يُنْصَرونَ. وقد أمَرَ بذلكَ(٩) كلِّهِ وبتلكَ الأسبابِ، فقالَ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وليسَ كلُّ مَنْ فَعَلَ هذا كانَ فَرَغَ إلى غَيرِ اللهِ، أو رأى النَّصْرَ والنجاةَ مِنْ ذلكَ الشيءِ والسَّبَبِ، بل رأى ذلكَ كلَّهُ مِنَ اللهِ ومِنْ عندِهِ. فَعَلَى ذلكَ يوسفُ. لا يَجوزُ أنْ يُتَوَهَّمَ أنهُ فَرَغَ إلى مَخلوقٍ مِثْلِهِ، ورَأى نَجاتَهُ مِنْ عندِ ذلكَ، ولكنْ للوجهِ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لَعَلّي حُبِسْتُ بلا عِلْمٍ منهُ وبِغَيرِ أمْرِهِ، لأنَّ تلكَ المرأةَ هي التي أوعَدَتْ لهُ السجنَ، فَوَقَعَ عندَهُ أنها التي احتالَتْ في حَبْسِهِ، فقال لِذلكَ ما قالَ.

والثاني: يقولُ: اذْكُرْني بالذي رَأيتَ مني، وسَمِعْتَ، لأنهُ دعاهما في السجنِ إلى التوحيدِ حينَ(١٠) قالَ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الآية: ٣٩].

---

(١) في الأصل وم: الرأس. (٢) في الأصل وم: لغيره. (٣) في الأصل وم: يهلك. (٤) في الأصل وم: ظن. (٥) في الأصل وم: فكان.
(٦) في الأصل وم: وفيه. (٧) في الأصل وم: ورفع قلبه عن. (٨) في الأصل وم: اتخذت. (٩) في الأصل وم: ذلك. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أنسَى الشيطانُ يوسفَ دُعاءَ ربِّهِ الذي أنشأَهُ، وخلَقَهُ، فلم يَدْعُ ربَّهُ الذي هو في الحقيقةِ ربٌّ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [أنسَى الشيطانُ][1] الذي قالَ لهُ يوسفُ ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ ذِكْرَ ربِّهِ، وهذا أشبهُ. والأوّلُ بعيدٌ لأنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بَعْدَ حينٍ ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [الآية: ٤٥] دلَّ هذا أنهُ إنما أنسَى الشيطانُ ذلكَ[2] الرجلَ، فلم يَذْكُرْهُ عندَهُ حيناً.

وقالَ بعضُهُمْ: لم يُنْسِهِ الشيطانُ، ولكنْ تَرَكَهُ عَمْداً، فلم يَذْكُرْهُ عندَهُ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ما تقدَّمَ مِنَ المَقالِ، فَيَزدادُ غضباً عليهِ، فَتَرَكَهُ عَمْداً إلى أنْ جاءَ وَقْتُهُ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ بَدْءَ كلِّ شرٍّ يكونُ مِنَ الشيطانِ.وأضافَ الإنسانُ إلى الشيطانِ، وكذلكَ قالَ موسى ﷺ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ بَدْءَ كلِّ شرٍّ يكونُ مِنَ الشيطانِ، لأنهُ يُخْطِرُ ببالِهِ، ويَقْذِفُ في قلبِهِ، ويُوَسْوِسُهُ، ثم يكونُ مِنَ العبدِ العزيمةُ على ذلكَ والفعلُ.

وفائدةُ النسيانِ، واللهُ أعلَمُ، هي أنَّ اللهَ تعالى أرادَ أنْ يُظْهِرَ آيةَ رسالَتِهِ وحُجَّةَ نُبُوَّتِهِ بكونِهِ[3] في السجنِ، ويُظْهِرَ براءَتَهُ في شأنِ تلكَ المرأةِ بشهادةِ أولئكَ النِّسْوانِ، وذلكَ علمُ الأحاديثِ التي ذَكَرَ والرُّؤيا التي عَبَّرَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: خَمْسَ سِنينَ، وقالَ بعضُهُمْ: سَبْعَ سِنينَ، ونَحْوَ ذلكَ. ولكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ، وليسَ لنا الى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى أنَّ فيهِ أنهُ لَبِثَ فيهِ حيناً.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: قولُهُ: صاحِبا[4] السجنِ بالألِفِ. فلمّا لم يَقُلْ هذا دلَّ أنهُ أضافَ الى نفسِهِ؛ كأنهُ قالَ: يا صاحِبَيَّ في السجنِ، لأنهما كانا مَعَهُ في السجنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ قيلَ: فَرَغَ، وقيلَ: انتَهى الأمرُ الذي فيه تَستَفتِيانِ، وأُنهِيَ [الأمرُ][5] كقولِهِ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [الإسراء: ٤] وقولِهِ[6]: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ كأنهُ بَلَّغَ إليهما وحياً إليهِ وأمراً[7] بِهِ؛ أي هو كائنٌ مِنْ غيرِ رجوعٍ يكونُ[8] منهما على ما يقولُهُ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ ذَكَرَ أنهُ رأى [وليسَ فيهِ ذِكْرُ أنهُ رأى][9] في المنامِ. ولكنْ ذَكَرَ في آخِرِهِ[10] الرُّؤيا. دلَّ أنهُ رأى في المَنامِ بقولِهِ: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ وفيهِ أنَّ مِنَ الرُّؤيا ما هو حَقٌّ[11]، ولها حقيقةٌ، ومنها [ما هو][12] باطلٌ، لا حقيقةَ لها؛ لأنهُ قالَ: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الآية: ٤٤].

فكانتِ الرُّؤيا، هي حقٌّ، ولَها حقيقةٌ بتأويلِ عواقِبِها. وقولُهُ[13]: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ لا حقيقةَ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ أمّا البَقَراتُ فهي[14] السُّنونَ، والسِّمانُ هي المُخْصِباتُ الواسِعاتُ ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ العِجافُ هنَّ المُجْدِباتُ ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ السُّنْبُلاتُ سُنبلاتٌ، و﴿خُضْرٍ﴾ عِبارةٌ عمّا يُحصَدُ ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ عبارةٌ عمّا لا يُحْصَدُ.

وفيهِ[15] دلالةٌ أنَّ مِنَ الرُّؤيا ما تكونُ مُصَرَّحاً [بها مُشاراً][16] إليها، تُعْرَفُ بالبَديهةِ، ومنها ما تكونُ [عبارةً مُبْهَمَةً غيرَ مُفَسَّرَةٍ][17] لا تُعْلَمُ إلّا بالنَّظَرِ فيها والتَّفَكُّرِ والتَّأمُّلِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ و﴿سَبْعَ﴾ هو سَبْعٌ، لا غيرَ، و﴿بَقَرَٰتٍ﴾ هُنَّ كنايةٌ عنِ السِنينِ، و﴿سِمَانٍ﴾ كنايةٌ عنِ الخَصْبِ والسَّعَةِ ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ على حقيقةِ الأكلِ. وكذلكَ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ السَّبْعُ هو سَبْعٌ، لا غيرَ، و﴿عِجَافٌ﴾ كنايةٌ عنِ الشِّدَّةِ والجَدْبِ ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ هُنَّ عَينُ السنبلاتِ، و﴿خُضْرٍ﴾ هُنَّ كنايةٌ عمّا يُحْصَدُ، و﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ كنايةٌ عمّا لا يكونُ فيهِ ما يُحْصَدُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٣) في م: يكون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: يا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وأمر. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، في الأصل: آخر. (١١) من م، في الأصل: أحق. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل: مشار، في م: مشارا. (١٧) في الأصل وم: كناية مبهما غير مفسر.

ففيهِ أنَّ مِنَ الخِطابِ ما يكونُ مُصرَّحاً [بِهِ](١) مُبيَّناً مُشاراً إليهِ، يُفهَمُ المُرادُ منهُ بالبَديهةِ وَقتَ قَرعِ الخطابِ السَّمْعَ، ومنهُ ما يكونُ مُبهَماً غَيرَ مُفسَّرٍ. فهو على وجهَينِ:

[أحدُهما](٢): ما يُفهَمُ بالنَّظرِ والتَّفكُّرِ.

[والثاني: لا يُفهَمُ بالبَديهةِ ولا بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ فيه والتَّفكُّرِ](٣) إلّا بِبَيانٍ، يُقرَنُ بهِ سِوى ذلكَ.

على هذا تُخرَّجُ المُخاطباتُ في ما بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ الخَلقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ خاطبَ الأشرافَ مِنْ قومِهِ والعلماءَ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ على ما ذَكَرْنا في ما تَقدَّمَ أنَّ المَلأَ هو اسمٌ للأشرافِ منهمْ والرُّؤساءِ. وهكذا العادةُ في الملوكِ أنهمْ إنما يُخاطِبونَ أعقَلَهُمْ وأعظَمَهُمْ مَنزِلةً عندَهُمْ وأكرَمَ [مثوىً لهمْ](٤).

ودلَّ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ أنهُ إنما رَأى ذلكَ في المَنامِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ الآيةَ كأنهُ نهاهُمْ أنْ يَتكلَّفوا التَّعبيرَ لِلرُّؤيا التي رآها، إذا لم يكُنْ لهمْ بها عِلْمٌ، وكذلكَ الواجبُ على كلِّ مَنْ سُئِلَ(٥) عنْ شيءٍ، لا يَعلَمُ، ألّا يَشتغِلَ بهِ، ولا يَتكلَّفَ عِلْمَهُ، إذا لم يكُنْ لهُ بهِ عِلْمٌ، حينَ(٦) قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا / ٢٥٣ ـ ب/ تَعۡبُرُونَ﴾.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أباطيلُ أحلامٍ كاذبةٌ(٧)، وقالَ بعضُهُمْ: أخلاطُ أحلامٍ كاذبةٌ(٨)، مِثْلُ أضغاثِ النباتِ تُجمَعُ، فيكونُ فيها ضُروبٌ مُختلِفةٌ، وهو كما قيلَ في قولِهِ: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ [ص: ٤٤] أي جماعةً مِنْ أغصانِ الشَّجرِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍ﴾ الضِّغثُ والأضغاثُ ما لا يكونُ لهُ تأويلٌ، ويُقالُ لِنوعٍ مِنَ الكلَإِ(٩): ضِغثٌ، وهو الحَلْفاءُ شِبْهُ البَرْدِيِّ وغيرِهِ. وقيلَ: إنَّ الضِّغثَ والأحلامَ، هما اسمانِ لشيءٍ، لا معنى لهُ، ولا تأويلَ، وهما واحدٌ، وأصلُ الأحلامِ يُخرَّجُ(١٠) مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: العقولُ؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾ [الطور: ٣٢] أي عقولُهُمْ ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢].

والثاني: مِنَ الاحتِلامِ، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الحُلُمِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ الآيةَ [النور: ٥٩] فَيُشبِهُ أنْ يكونَ يُخرَّجُ على هذا؛ لأنَّ الصَّبيَّ ما لم يَعقِلْ لا يَلعَبُ بهِ الشيطانُ، ولا يَحتَلِمُ؛ كأنَّ الاحتِلامَ هو مِنْ لَعِبِ الشيطانِ بهِ، فَسَمَّى الرُّؤيا الباطِلَةَ الكاذبةَ أحلاماً؛ لأنها مِنْ لَعِبِ الشيطانِ بهِ كما سَمَّى احتِلامَ الصَّبيِّ حُلُماً؛ لأنهُ إذا بَلَغَ العقلَ لَعِبَ بهِ الشيطانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ لِما لا تأويلَ لها كقولِهِ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا شَفيعَ لهمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ لها تأويلٌ، ولكن نَحنُ لا نَعلَمُهُ(١١)، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ مِنَ الهلاكِ، وهو الساقي الذي ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي تَذكَّرَ بَعدَ أُمَّةٍ. [قالَ بعضُهُمْ: الأُمَّةُ](١٢) ههنا الحينُ؛ أي ذَكَرَ بَعدَ حينٍ وَوَقتٍ كقولِهِ: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ [هود: ٨] قيلَ حِينٍ وَوَقتٍ مَعدودٍ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الناسِ، ويُقرَأُ: بَعدَ أَمَهٍ وأَمْهٍ(١٣).

قالَ أبو عوسَجَةَ: الأَمَهُ النِّسيانُ والسَّهوُ؛ أي تَذكَّرَ بَعدَ نِسيانٍ وسَهوٍ كقولِهِ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مثواهم. (٥) في الأصل وم: سال.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) و(٨) في الأصل وم: الكاذبة. (٩) في الأصل وم: الكلام. (١٠) في الأصل وم: كان يخرجه. (١١) في الأصل وم: نعلمها. (١٢) في م: قال الأمة، ساقطة من الأصل. (١٣) انظر غريب القرآن للسجستاني ص ١٢٣ ومعجم القراءات القرآنية ٣/ ١٧٣.

[الآية: ٤٢]، يُقالُ في[1] الكلام: أَمِهَ يَأمَهُ أَمَهاً، فهو أَمِهٌ، وأَمِهَ أي نَسِيَ، والأُمَّةُ مِنَ الأُمَمِ والقُرونِ التي مَضَتْ، والإِمَّةُ النِّعْمَةُ، والإِمَمُ جَمْعٌ، والإِمَّةُ أيضاً الدينُ والسُّنَّةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ إِمَّةٍ [وأُمَّةٍ][2] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ و٢٣] أي على دينٍ، ويُقالُ: الأُمَّةُ القامةُ أيضاً؛ يُقالُ: فلانٌ حَسَنُ الأُمَّةِ أي حَسَنُ القامةِ، ويقالُ: الأَمَمُ القُرْبُ.

فهو يَحتَمِلُ ههنا الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما؛ أي ذَكَرَ بَعْدَ [أُمَّةٍ بالضمّ][3] حينٍ وَوَقْتٍ، أو بعدَ نِسْيانٍ: مَنْ قَرَأَهُ بالنَّصْبِ [أَمَهٍ][4] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ معناهُ: أنا أُنَبِّئُكُمْ بِبَيانِ تأويلِهِ، لا لأنهُ كانَ يُنَبِّئُهُمْ هو بِنَفْسِهِ.

ألَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ ﴿يُوسُفُ﴾؟

الآية ٤٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿يُوسُفُ﴾][5] فيهِ إضمارٌ كأنهُ قالَ: فارسِلُونِ إلى يوسفَ. وليسَ في تلاوةِ الآيةِ أنهُ أُرسِلَ إليهِ، ولا إتيانُهُ إليهِ، ولكنْ فيهِ دليلُ [أنهُ][6] أُرسِلَ إليهِ، فأتاهُ، فلمّا أتاهُ قالَ لهُ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ قيلَ: الصِّدِّيقُ هو كَثِيرُ الصِّدْقِ كما يُقالُ: شِرِّيبٌ وفِسِّيقٌ وسِكِّيرٌ إذا كَثُرَ ذلكَ منهُ.

والصِّدِّيقُ الذي لم يُؤخَذْ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ، أو سَمّاهُ صِدِّيقاً لِما عَرَفَ أنهُ رسولُ اللهِ، وهو ما قالَ في إبراهيمَ [وإدريسَ][7]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١ و٥٦].

أو يقولُ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [الآية: ٤٥] أي أنا أتعلَّمُ منهُ، فأُنَبِّئُكُمْ بتأويلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ فأفتاها لهُ، وعَبَّرَها عليهِ، وهو ما ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ الآيةَ[8] [الآية: ٤٧] وقولُهُ: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [الآية: ٤٨] هذا تعبيرُ رُؤيا المَلِكِ الذي سألَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها[9]: يَعْلَمونَ أنَّ هذهِ الرؤيا حقٌّ، ولَها حقيقةٌ، ليسَ كما قالَ أولئكَ: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الآية: ٤٤].

والثاني: يَعْلَمونَ فضلَكَ على غَيرِكَ[10] مِنَ الناسِ.

[والثالثُ: يَعْلَمونَ أنكَ][11] تَصْلُحُ لِحاجَتِهِمْ التي في حالِ يَقَظَتِهِمْ، فَيَرْفَعونَها إليكَ، كما صَلَحْتَ لِما كانَ لهمْ في حالِ نومِهِمْ.

الآية ٤٧ [وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾][12] عَلَّمَهُمُ الزراعةَ وجَمْعَ الطاعاتِ والادِّخارَ؛ أنْ كيفَ تُدَّخَرُ حتى تَبْقَى إلى ذلكَ الوقتِ؟ فقالَ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿دَأَبًا﴾ أي دائماً، أي تُداوِمونَ الزراعةَ فيها. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿دَأَبًا﴾ مِنَ الدَّوبِ، وهو[13] الجِدُّ والتَّعَبُ. وقالَ القُتَبِيُّ ﴿دَأَبًا﴾ أي جِدّاً في الزراعةِ ومُتابَعَةً. وكُلُّهُ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لا تُنَقُّوهُ[14] لأنَّ ذلكَ أبْقَى لهُ منهُ إذا نُقِّيَ[15]، ومُيِّزَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فتُنَقُّونَهُ إنْ شِئْتُمْ أي قَدْرَ ما تأكلونَ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ قيلَ: مُجدِباتٌ مِنَ الشِّدَّةِ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ أي ما ادَّخَرْتُمْ ﴿لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: تَدَّخِرونَ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: أحْصَنْتُهُ: أي ادَّخَرْتُهُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: منه. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٠٧ و١٠٨. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إلى آخر ما ذكر. (٩) في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: غيرهم. (١١) في الأصل: أو يعلمون فضلك، في م: أو يعلمون أنك. (١٢) في الأصل وم: ثم. (١٣) في الأصل وم: من. (١٤) في الأصل وم: لا تبقوه. (١٥) في الأصل وم: بقي.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الغَيثِ، وهو المطرُ؛ أي يُمْطَرونَ. وقيلَ يُغاثونَ بالمطرِ مِنَ الإغاثةِ والغَوثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو منْ عَصْرِ الأعنابِ والدُّهْنِ والزَّيتِ وغيرِهِ؛ إنما هو إخبارٌ عنِ الخِصْبِ والسَّعَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ أي يَنْجُونَ؛ يقولُ: مِنَ العَصَرِ؛ يعني المَلْجَأ؛ أي يَلْجَؤونَ إلى الغيثِ، والعَصَرَةُ المَنْجاةُ، وهو قولُ أبي عُبَيْدَةَ.

وأمّا قولُ غيرِهِ مِنْ أهلِ الأدبِ والتأويلِ فهو مِنَ العَصْرِ، ويعني عَصْرَ العِنبِ وغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ يعني يوسف.

[وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ قولَ يوسفَ][1] للرجلِ: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ إنما طَلَبَ بذلكَ براءةَ نفسِهِ في ما اتُّهِمَ بهِ، ليسَ كما قالَهُ أهلُ التأويلِ؛ لأنهُ لو كانَ غيرَ ذلكَ [لكانَ][2] لا يَرُدُّ الرسولَ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهما: أهُنَّ على كَيدِهِنَّ بَعْدُ أمْ رجَعْنَ على ذلكَ؟

والثاني: ليَعْلَمَ المَلِكُ براءتَهُ مِمّا قُرِفَ بهِ، واتُّهِمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أنهنَّ كِذْنَ.

الآية ٥١ ثم قالَ لهنَّ المَلِكُ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ المَلِكَ قد عَلِمَ أنهنَّ راوَدْنَ يوسفَ عن نفسِهِ؛ لأنهُ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ﴾ ولم يَقُلْ لهنَّ: أراوَدْتُنَّ أم لا؟ ولكنهُ قَطَعَ القولَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ بَدَأَ بهِنَّ حتى أقْرَرْنَ أنهُ كانَ بريئاً ممّا قُرِفَ بهِ، واتُّهِمَ. ثم أقَرَّتِ امْرَأةُ المَلِكِ بعدَ ذلكَ لمّا أقَرَّ النِّسْوَةُ، فقالَتْ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قيلَ: الآنَ تَبيَّنَ الحقُّ، وتَحقَّقَ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولِهِ ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [الآية: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنُكُنَّ وأمْرُكُنَّ. والخَطْبُ الشأنُ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: الزِّنى. ولكنَّ قولَهُ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ هو الذي ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [الآية: ٢٥] هو ذلكَ السُّوءُ [الذي][3] قالَتْ: إنهُ أرادَ بهِ بها. قُلْنَ: ما عَلِمنا منهُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ تَبيَّنَ الحَقُّ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ دلالةٌ أنْ لم يكُنْ منهُ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ مِنْ حلِّ السراويلِ وغيرِهِ؛ لأنهُ لو كانَ منهُ ذلكَ لَكُنَّ قد عَلِمْنَ منهُ السُّوءَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾. قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرَّدُّ الذي كانَ منهُ، وتركُ الإجابةِ لرسولِ المَلِكِ[4] حِينَ[5] قالَ: ﴿ٱئْتُونِي / ٢٥٤ ـ أ/ بِهِۦ﴾ [الآية: ٥٠] ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ في أهلِهِ إذا غابَ عني [كانَ][6] ردّاً لِقولِها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [الآية: ٢٥] وتصديقاً لقولِهِ حينَ[7] قالَ: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [الآية: ٢٦].

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ يعني الزوجَ ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ لكنَّ هذا بعيدٌ لأنه[8] قد عَلِمَ يوسفُ أنَّ اللهَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: الله. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: أنه.

قد عَلِمَ أنهُ لم يَخُنْهُ بالغيبِ. وقولُ أهلِ التأويلِ لمّا قالَ يوسفُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قالَ لهُ المَلِكُ: ولا حينَ هَمَمْتَ ما هَمَمْتَ؟ فقالَ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الآية: ٥٣] هذا ممّا لا نَعْلَمُهُ، وقد ذكَرْنا التأويلَ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ ما يَحِلُّ ويَسَعُ أنْ يُتكلَّمَ بهِ وفسادَ تأويلِ أهلِ التأويلِ مِنَ الوُجوهِ التي ذكَرْنا.

الآية ٥٣ ومَعْنى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ أي عَصَمَ ربّي، واللهُ أعلَمُ أنهُ إنما[1] قالَ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ لِما عَصَمَني اللهُ عنْ ذلكَ، ولو لم يكُنْ عَصَمني لكُنْتُ خُنْتُهُ[2]: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ أي ما عَصَمَ ربّي؛ لأنَّ النَّفْسِ جُبِلَتْ، وطُبِعَتْ على المَيلِ إلى الشهواتِ واللذاتِ والهَوى فيها والرَّغْبَةِ والتَّوَقّي عنِ المكروهاتِ والشدائدِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ﴾ ﴿ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ و٤١] [وقال][3]: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ و٣٨ و٣٩] فأثبتَ[4] للنفسِ الهَوى وإيثارَ الحياةِ الدنيا وشَهَواتِها؟

هذا يدلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [الآية: ٣٣] هو مَحَبَّةُ الاختيارِ والإيثارِ في الدينِ لا ما تَختارُ النفسُ، وتُؤْثِرُ؛ أبداً تَختارُ، وتُؤْثِرُ ما هو ألَذُّ وأشْهَى، وتَنْفُرُ عنِ الشدائدِ والمَكروهاتِ، على هذا طُبِعَتْ، وجُبِلَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أي لا يَجْعَلُ فِعْلَ الكَيدِ والخِيانَةِ هُدىً ورُشْداً، إنما يَجْعَلُ فِعْلَ الكيدِ والخيانةِ ضَلالاً وغِوايَةً.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أصْدُرُ لِرأيِهِ، وأُطيعُ أمْرَهُ. في هذا يَقَعُ استِخلاصُهُ إيّاهُ، ولذلكَ قالَ: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ الآية [الآية: ٢١ و٥٦] لا أنْ يَجْعَلَهُ لِحاجَةِ نفسِهِ خالصاً دونَ الناسِ، لا يُشْرِكُ غيرَهُ. وفيهِ[5] دلالةُ ما ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: إنكَ اليومَ لَدينا مُطاعٌ أمينٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ ولم يَذْكُرْ فيهِ أنهُ أُتِيَ بهِ، ولكنْ قالَ: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ فهذا يدلُّ أنهُ قد أُتِيَ بهِ، وإنْ لم يَذْكُرْ أنهُ أُتِيَ بهِ حينَ[6] قالَ: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ قيلَ: المَكينُ الوجيهُ، وقيلَ: المَكينُ الأمينُ المَرْضِيُّ عندَنا والأمينُ على ما اسْتأْمَنّاكَ.

الآية ٥٥ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ سألَ هذا لمّا عَلِمَ أنهُ ليسَ في وُسْعِهِمُ القِيامُ بإصلاحِ ذلكَ الطعامِ، وعَلِمَ أنهُ لو وُلِّيَ غيرُهُ الخزائنَ لم يَعرِفْ إنزالَ الناسِ منازلَهُمْ في تَقْديمِ مَنْ يَجِبُ تقديمُهُ، والقِيامَ بِحاجَةِ الأحَقِّ مِنْ غيرِهِ، وعَلِمَ أنهُ إليهِ يَرْجِعُ، وتَقَعُ حَوائجُ أكْثَرِ الناسِ [في][7] منازِلِهِمْ، وبهِ قِوامُ أبدانِهِمْ، فَسَألَهُ لِيَقومَ بذلكَ كلِّهِ، وعلى يديهِ يَجْري

وكذلكَ قالَ: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿حَفِيظٌ﴾ بِما وُلِّيتُ ﴿عَلِيمٞ﴾ بأمْرِهِ. وقيلَ ﴿حَفِيظٌ﴾ لِما في الأرضِ [مِنْ][8] غَلَّةٍ ﴿عَلِيمٞ﴾ بها.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ ﴿حَفِيظٌ﴾ لِما تَحْتَ يَدَيَّ ﴿عَلِيمٞ﴾ بالناسِ. وقيلَ: ﴿حَفِيظٌ﴾ بَصيرٌ بتقديرِهِ ﴿عَلِيمٞ﴾ بساعاتِ الجوعِ حينَ يَقَعُ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لِما اسْتُحْفِظْتُ ﴿عَلِيمٞ﴾ بِحَوائجِ الناسِ، أو ﴿عَلِيمٞ﴾ بِتَقْديمِ الأحَقِّ.

الآية ٥٦ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما بَرَّأْنا يوسُفَ مِمّا قُرِفَ بهِ، وأظْهَرْنا براءَتَهُ منهُ مَكَّنّا لهُ

في الأرضِ حتى احْتاجَ أهلُ نواحي مصرَ وأهلُ الآفاقِ إليهِ. أو أنْ يُقالَ: كما حَفِظْناهُ، وأنْجَيناهُ مِمّا قَصَدَ بهِ إخوتُهُ مِنَ الهلاكِ، مَكَّنّا لهُ[9] في الأرضِ.

---

(١) في الأصل وم: لما. (٢) في الأصل وم: أخونه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تمكن.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جوابُهُ كما مَكّنّا ليوسفَ بعدَ ما [أخرجْناهُ مَنّنّا][(١)] عليهِ، بالإبراءِ والضَّمِّ، كذلكَ نُمكّنُكَ في الأرضِ، وتُؤوي بعدَما أخرَجَكَ، ومَنَّ [عليكَ، أبوَيكَ][(٢)].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي يَنْزِلُ منها حيثُ يَشاءُ، أو يَسْكُنُ منها حيثُ يَشاءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ سَعَةَ الدنيا ونَعيمَها كقولِهِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] ويَحتمِلُ ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ أمْرَ الدينِ مِنَ النُّبوّةِ والعِصمَةِ.

وهو على المعتزلةِ؛ لأنهمْ يقولونَ: ليسَ [للهِ][(٣)] أنْ يَختصَّ أحداً برحمتِهِ، ولا يُصيبَ مِنْ رحمتِهِ إنساناً دونَ إنسانٍ.

وعلى قولِهِمْ: لم يكنْ منَ اللهِ إلى [رسولِهِ][(٤)] مِنَ الرحمةِ إلّا وكانَ لإبليسَ مِثْلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي [لا][(٥)] نُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ صُحْبَةَ اللهِ في الدنيا؛ أي نَجْزيهِ جَزاءَ إحسانِهِ، أو يقولُ: ولا نُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ صُحْبَةَ نِعَمِ اللهِ، وتَقَبَّلَها[(٦)] بالشُّكرِ لهُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ثوابُ الآخرةِ وأجرُها خَيرٌ لهمْ مِنْ ثوابِ الدنيا وأجرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صَدَّقُوا ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ، أو ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صَدَّقُوا ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ المعاصيَ والفواحِشَ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لمّا أرادَ اللهُ أنْ يُبَلِّغَ أمرَ يوسفَ في ما أرادَ أنْ يُبلِّغَ جَعَلَهُمْ بحيثُ لا يعرِفونَهُ. لذلكَ قالَ: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي لا يَعْرِفونَهُ كقولِهِ: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] أي غَيرُ مَعْروفينَ عندَ إبراهيمَ؛ والمُنْكَرُ هو الذي لا يُعْرَفُ في الشرعِ ولا في العَقْلِ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي أعطَى لهمُ الطعامَ الذي طَلَبوا منهُ.

قال أبو عوسَجَةَ: الجَهازُ المَتاعُ، والجَهازُ أيضاً مَتاعُ المرأةِ التي تُجَهَّزُ بهِ، ولا يُقالُ: جِهازٌ بِخَفْضِ الجيمِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ يوسفَ عليه السلام قالَ لهمْ حينَ دَخَلُوا عليهِ: أنتُمْ عيونٌ، بَعَثَكُمْ مَلِكُكُمْ تَنْظُرونَ إلى أهلِ مِصْرَ، ثم تأتونَهُ بالخُبْرِ، وتأتونَنا بكذا، ذلكَ مما لا نَعْلَمُهُ أنهُ قد كانَ؛ أقالَ[(٧)] لهمْ ذلكَ أم لا؟ وغَيرَ ذلكَ مِنَ الكلماتِ التي قالوا: إنهُ قالَ لهمْ كذا، وقالوا همْ لهُ: [كُنّا كذا][(٨)] رجلاً، فَهَلَكَ مِنّا كذا، ولَنا أبٌ كذا. مِثْلُ هذا لا يكونُ [إلّا][(٩)] كلامَ بعضِ العَوامِّ الغَوغاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ مِثْلُ هذا لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولَهُ يوسفُ ابْتِداءً على غَيرِ سَبَبٍ أو كلامٍ، كانَ هنالكَ، لكنهُ لم يَذْكُرِ الذي كانَ، ونحنُ لا نَعْرِفُ ما الذي كانَ هنالكَ في ما بَيْنَهُمْ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [الآية: ٦٠].

أمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ قالوا: قالَ لهمْ: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ؛ لأنهُ لمّا قالَ: إنكمْ جِئْتُمْ عيوناً لِمَلِكِكُمْ، فأمرَ بحَبسِهِمْ، فقالوا: نَحْنُ بَنو يعقوبَ النَّبيِّ، وكُنّا اثْنَي عَشَرَ رجلاً، فَهَلَكَ منا رجلٌ في الغَنَمِ، وَوَجَدْنا على قميصِهِ دماً، فأتينا أبانا، فَقُلْنا كذا. وقد خَلَّفْنا عندَ أبينا أخاً لهُ مِنْ أُمِّهِ الذي هَلَكَ. فعندَ ذلكَ قالَ لهمْ: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

لكن هذا الذي ذَكَرُوا[(١٠)] لا يكونُ سَبَباً لقولِهِ، ولا جَواباً. وقد ذَكَرْنا / ٢٥٤ ـ ب/ أنهُ لا يَصِحُّ هذا الكلامُ مُبْتَدأً. لكنا نَعْلَمُ بالتَّعَقُّلِ أنهُ كانَ هنالكَ سَبَبٌ ومَعْنىً، أمَرَ يوسفَ أنْ يقولَ لهمْ ذلكَ. وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ [قالَ][(١١)] لهمْ يوسفُ: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [الآية: ٦٠] وهو كانَ يَعْلَمُ أنَّ أباهُ يَعْقوبَ يَحتاجُ إلى طعامٍ، ويَعْرِفُ حاجَتَهُمْ في ذلكَ. هذا لا يَسَعُ إلّا بِسَبَبٍ، كانَ ثَمَّ، فأمَرَ يوسفَ بذلكَ.

(١) في الأصل وم: أحوج من. (٢) في الأصل وم: عليه أبواك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقلبها. (٧) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كذا وكذا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في م: ذكر. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ في ما يُستقبَلُ؛ [إلا أنْ][1] تأتوني، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ وجهَينِ:

أحدُهُما: قالَ ذلكَ لهمْ: إنهُ يُوفي لهمُ الكيلَ؛ لأنَّ أهلَ ذلكَ المكانِ كانوا، يُنْقِصونَ، ويُخْسِرونَ الكَيلَ في الضيقِ، فقالَ هو: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ ولا أبْخَسُ.

والثاني: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ على غَيرِ المُحاجَّةِ، وكانَ يَجعَلُ لِغَيرِهِمُ الطعامَ على المُحاجَّةِ لِضيقِ الطعامِ، ﴿أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ على قَدْرِ الحاجةِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ في الإحسانِ إليكُمْ والتوسيعِ عليكُمْ؛ لأنَّ أهلَ ذلكَ المكانِ لا يُحْسِنونَ إلى النازلينَ بهِمْ، ولا يُوَسِّعونَ عليهِمْ لِضيقِ الطعامِ.

وكأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ مُؤخَّرٌ عنْ قولِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ كأنهُ ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ هذا الكلامُ في الظاهرِ، ليسَ هو جوابَ قولِ يوسفَ، [وليسَ قولُهُمْ][3] ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ جواباً؛ فلا يَحتَمِلُ حينَ[4] ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ جوابُهُ[5] أنْ يَقولوا لَهُ: نأتي بهِ، أو لا نأتي. فأمّا أنْ يُجعَلَ قولُهُمْ: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ جواباً لهُ فلا يُحتَمَلُ مَعَ ما [في قولِهِمْ][6]: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [مِنِ اضطِرابِ أنهمْ][7] يَملِكونَ أو لا يَملِكونَ، قولَهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ على القَطْعِ.

لكنْ يُشْبِهُ أنْ يَخرُجَ على وجهَينِ:

أحدُهما: على الإضمارِ: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ فإنْ أذِنَ لهُ ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلكَ.

[والثاني][8]: على التقديمِ والتأخيرِ؛ يكونُ جوابُ؟ قولِهِ: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم﴾ في قولِهِمْ: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ثم قالوا ما بَينَهُمْ: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾.

على هذينِ الوجهَينِ يُشْبِهُ أنْ يُخرَّجَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: المُراوَدَةُ المُمارَسَةُ، وهي شِبْهُ المُخادَعةِ، وهي المُعالَجَةُ. وقيلَ: ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ أي سَنَجِدُ، وسَنَطْلُبُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ ولِفِتْيَتِهِ[9]. الفِتْيَةُ: الخَدَمُ، والفِتْيانُ: المَماليكُ [﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ قيلَ][10]: اجعَلوا دراهِمَهُمْ في أوعِيَتِهِمْ. في الآيةِ دلالةُ أنَّ الهِبَةَ، قد تَصِحُّ، وإنْ لم يُصَرَّحْ بها، إذا وقَعَتْ[11] في يَدَيِ الموهوبِ، لهُ، وقَبْضُهُ بيانٌ[12]، وإنْ لم يُعْلَمْ هو بذلكَ وقتَ ما جُعِلَ لَهُ. لأنَّ يوسفَ جَعَلَ بضاعَتَهُمْ في رِحالِهِمْ هِبَةً لهمْ منهُ، وهمْ لم يَعْلَموا بذلكَ، [وقتَ ما جَعَلَ يوسفُ ذلكَ ملكاً لهمْ][13].

ولهذا قالَ أصحابُنا: إنَّ مَنْ وَضَعَ [مالَهُ في طريقٍ][14] مِنْ طُرُقِ المُسْلِمينَ لِيكونَ ذلكَ مُلْكاً لِمَنْ رفَعَهُ، كان ما فَعَلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: أي لا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وجوابه.
(٦) في الأصل وم: أن في قلوبهم. (٧) في الأصل وم: اضطرب. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ١٧٨.
(١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وقع. (١٢) ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: وهو وقت ما جعل ذلك لهم ملكاً ليوسف.
(١٤) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُهما: يرجِعونَ مَخافَةَ أنْ يُعْرَفوا بالسرقةِ.

والثاني: ما قالهُ أهلُ التأويلِ: لِما تَخوَّفَ يوسفُ الّا[1] يكونَ عندَ أبيهِ مِنَ الوَرَقِ ما يَرْجِعونَ بِهِ مرّةً أُخرى، فجَعَلَ دراهِمَهُمْ في أوعِيَتِهِمْ لكي يَرْجِعوا إليهِ[2]، فلا يَحْبِسُهُمْ عنهُ[3] عدمُ الدراهمِ لأنهمْ كانوا أهلَ ما يُشْبِهُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ في ما يُسْتَقْبَلُ، ويُسْتَأنَفُ، لِقولِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [الآية: ٦٠] ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ بالنونِ أقربُ لأنهمْ قالوا: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ يُشْبِهُ: يَكْتَلْ هو إنْ أرسَلْتَهُ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يقولوا هذا مِنْ غَيرِ سَبَبٍ، كانَ هنالكَ [أكثَرُ][5] مِنْ خوفٍ خافَ عليهِ أبوهمْ مِنْ ناحِيَتِهِمْ، وتُهَمَةٍ ممّا اتَّهَمَهُمْ، لأنهُ كانَ أخاهمْ[6] مِنْ أبيهِمْ، خافَ عليهِ أنْ يُضَيِّعوهُ، أو إنِ اسْتَقْبَلَهُ أمرٌ [لا يُعينوهُ][7] أو أمرٌ كانَ لم يَذْكُروهُ[8]. ولَسْنا نَدري ما ذلكَ المَعْنى؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٦٤ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وفي حرفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ هل تَحْفَظونَهُ إلّا كما حَفِظْتُمْ أخاهُ يوسفَ مِنْ قَبْلُ. في هذا دلالةُ أنَّ مَنْ ظَهَرَتْ منهُ تُهَمَةٌ أو خِيانةٌ في أمرٍ يجوزُ أنْ يُتَّهَمَ في ما لم يَظْهَرْ [منهُ شيءٌ حينَ][10] اتَّهَمَهُمْ يعقوبُ في بنيامينَ بخيانةٍ كانَتْ منهُمْ في يوسفَ، وإنْ لم يَظْهَرْ لهُ منهُمْ في أخيهِ شيءٌ، وهو حُجّةٌ لأصحابِنا أنَّ مَنْ ظَهَرَ فِسقُهُ في شيءٍ أو كَذِبُهُ في شيءٍ صارَ مَجْروحَ الشهادةِ في غَيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي إنْ أُرسِلْهُ فإنما أعتَمِدُ على حِفظِ اللهِ، وإليهِ أَكِلُ حفظَهُ[11]، لستُ أعتمدُ على حِفظِكُمْ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي بكلِّ مَكْروبٍ ومَلْهوفٍ أرحَمُ مِنْ كلِّ راحمٍ. لأنَّ كلَّ مَنْ يرحمُ إنما يَرْحَمُ[12] برحمةٍ نالَها منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا قد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ سِوَى الثمنِ؛ فقد رُدَّ إلينا دراهِمُنا. أو يكونُ قولُهُ: ﴿مَا نَبْغِى﴾ وراءَ هذا أكبرَ شيءٍ، إنما نَبْغي ثمنَ بَعيرٍ واحدٍ، و﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ لأنهُ قد رُدَّتْ بِضاعَتُنا، وهي ثمنُ عَشَرَةِ أبْعِرٍ.

[وقولُهُ تعالى][13]: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [إنهمْ ذَكَروا][14] أنَّ يوسفَ كانَ لا يُعطي كلَّ رجلٍ إلّا حِمْلَ بَعيرٍ واحدٍ، ولا يُعطي أكثَرَ مِنْ ذلكَ، فقالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بهِ ومِنْ أجلِهِ.

[وقولُهُ تعالى][15]: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي سريعٌ، لا حَبْسَ فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي يَسيرٌ علينا الكَيلُ، ولا يُحْبَسُ علينا الطعامُ، ولا يَثْقُلُ عليهِ ذلكَ لِقولِهِ[16]: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ﴾؟ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ [الآية: ٥٩ و٦٠] وقد حُبِسْنا عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ فيهِ وجهٌ آخَرُ أقربُ ممّا قالوا: وهو أنَّ قولَهُ: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي طلبُ ثمنِ كيلِ بَعيرٍ واحدٍ يَسيرٌ، وتَكَلُّفُهُ سهلٌ، وهو ثمنُ كَيلِ بَعيرِ بنيامينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي حتى تُؤتوني بِمَواثيقَ مِنَ اللهِ وبِعهودٍ منهُ.

[وفي قولِهِ تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾][17] دلالةٌ أنهُ وإنْ قالَ[18]: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الآية: ٦٤] واعْتَمَدَ في الحِفظِ [على اللهِ، ورأى الحِفظَ][19] منهُ، لم يُرْسِلْهُ معهمْ إلّا بالمَواثيقِ والعُهودِ مِنَ اللهِ. وهذا أمرٌ ظاهرٌ بَينَ

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: إلينا. (٣) في الأصل وم: عنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أخوهم. (٧) في الأصل وم: يعينونه. (٨) في الأصل وم: يذكر. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: شيء. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: برحمه. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أنه ذكر. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: بقوله. (١٧) في الأصل وم: ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ فيه. (١٨) في الأصل وم: كان. (١٩) من م، ساقطة من الأصل.

الناسِ، وإنْ كانَ اعْتِمادُهُمْ على اللهِ، وإليهِ يَكِلُونَ جميعَ[1] أمورِهِم في الأموالِ والأنفسِ، ومنهُ يَرَونَ الحِفْظَ، فإنهُ يأخذُ بعضُهُمْ مِنْ بعضِ المَواثيقَ والعهودَ. فَعَلَى ذلكَ يَعقوبُ؛ إنهُ أخبَرَ أنَّ اعْتِمادَهُ وَتوكُّلَهُ[2] في حِفْظِ وَلَدِهِ على اللهِ، لم يُرْسِلْهُ مَعَهُمْ إلّا بَعْدَ ما أخَذَ منهُمُ العهودَ والمواثيقَ [بقولِهِ][3]: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ أي إلّا أنْ يَجْمَعَكُمْ أمرٌ، ويَعُمَّكُمْ، ويُحيطَ بكُمُ الهلاكُ / ٢٥٥ ـ أ/ جميعاً، فعِنْدَ ذلكَ تكونونَ مَعْذورينَ. وأمّا أنْ يُخَصَّ بِهِ أمرٌ فلا؛ أي[4] إلّا يَجيءُ أمرٌ عظيمٌ، يَمْنَعُكُمْ عنْ رَدِّهِ [إليّ][5] كأنهُ خافَ عليهِ مِنَ المَلِكِ [حينَ طلبَ منهمْ][6] أنْ يأتوهُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ﴾ يعقوبُ ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي اللهُ على المواثيقِ والعهودِ التي أخذْتُها منكُمْ شهيدٌ. أو يقولُ: اللهُ لهُ حَفيظٌ كما قالَ: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ﴾ [الآية: ٦٤] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: إنَّ يَعْقوبَ خافَ عليهِمُ العَينَ، لأنهمْ كانوا ذَوي صُورةٍ وجَمالٍ وبَهاءٍ، فَخَشِيَ عليهِمُ العينَ، لذلكَ أمَرَهُمْ أنْ يَدخلوا مُتفرِّقينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: خَشِيَ عليهمُ البَياتَ والهَلاكَ؛ لأنهمْ كانوا أهلَ قوةٍ ومَنَعَةٍ، فيخافُهُمْ أهلُ البَلَدِ، ويَفْرُقونَ منهمْ [خوفَ][7] السَّرِقَةِ، فأمَرَهُمْ بالتَّفَرُّقِ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ. فإذا كانوا مُتفرِّقينَ فلا يهلِكُ[8] الكلُّ، وإنما يَهْلِكُ بعضٌ، ويَنْجو بعضٌ، أو لا يُدْرَى، ما أرادَ بهذا.

وقالَ بعضُهُمْ: عَلِمَ يَعقوبُ أنهمْ لا يَهْلِكونَ لِما رَأى يوسفُ مِنَ الرُّؤْيا أنْ يَسْجُدَ لهُ إخوتُهُ، ولكنْ خافَ عليهِمْ أنْ يَصيبَهُمُ النكبةُ، لذلكَ أمَرَهُمْ أنْ يدخُلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ أو سِكَكٍ متفرِّقةٍ أو مِنْ طُرُقٍ مُتَفرِّقةٍ، أو ما قالوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ﴾ أي لا أدفعُ عنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شيءٍ إنْ أصابَكُمْ نكبةٌ أو عَينٌ.

فإنْ قِيلَ: لو كانَ أمْرُهُ إياهمْ بالتفريقِ لِخَوفِ العَينِ أو لِخَوفِ أهلِ البَلَدِ منهمُ السَّرِقَةَ والإغارةَ كيفَ لم يأمُرْهُمْ بذلكَ في المرةِ الأولَى؟ لم يَخْشَ ذلكَ لِما قد يَقَعُ [في][9] الاجتِماعِ ما ذَكَرَ ابنُ عباسٍ ﷺ أنهُ يَخافُهُمْ أهلُ البَلَدِ إذا رَأَوهُمْ مجتَمِعينَ أنهمْ لصوصٌ، وأنهمْ كذا.

[قيلَ: إنْ يكنْ][10] في المرةِ الأولَى لم يَخْشَ ذلكَ لِما قد يَقَعُ الاجتِماعُ في أمثالِ ذلكَ مِنَ الرُّفقاءِ والصحابةِ فلا يكونُ في ذلكَ الخوفُ الذي ذَكَرُوا، وإذا عادوا في المرةِ الثانيةِ قد يَحتمِلُ ذلكَ الخوفَ مِنَ العينِ وغيرُهُ إذا عَلِمَ أهلُ البلدانِ ذلكَ العَدَدَ تحتَ أبٍ واحدٍ. أو أمَرَهُمْ بالتَّفرُّقِ [في الأبوابِ لِمِحْنَةٍ][11]، امْتُحِنَ بذلكَ، وأُمِرَ بهِ، أو لِمَعْنًى غابَ عنا. لا نَحتاجُ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ﴾ أي لا أدفعُ عنكُمْ بِما أحتالُ ما قَدَّرَ اللهُ، وقَضاهُ، أنْ يُصيبَكُمْ؛ [إنهُ][12] يُصيبُكُمْ، لا مَحالةَ، ويَنزِلُ بكُمْ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي ما الحُكْمُ في ذلكَ ﴿إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ ما في حُكْمِهِ وقَضائِهِ أنْ يُصيبَكُمْ، يُصيبُكُمْ[13]، لا مَحالةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ هذا أصلُ كلِّ أمرٍ يَخافُ المرءُ: أنْ يأخُذَ بالحَذَرِ، ويَتَوَكَّلَ مَعَ ذلكَ على اللهِ على ما أمرَ يَعقوبُ ﷺ بَنيهِ بالحَذَرِ في ذلكَ. ثم التَّوَكُّلُ[14] على اللهِ. والحَذَرُ هو العادةُ في الخَلْقِ، والتَّوَكُّلُ تفويضُ الأمرِ إلى اللهِ، والاعتِمادُ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ مِنْ أبوابٍ مُتفرِّقةٍ ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي ما كانَ يدفعُ عنهُمْ ما حَكَمَ اللهُ عليهِمْ أنْ يُصيبَهُمْ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٢) في الأصل وم: وكلامه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والثاني. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث طلب منكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يهلكون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ولكن أن يكون. (١١) في الأصل وم: الأبواب بمحنة. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيصيبكم. (١٤) في الأصل وم: توكل.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ الحاجةُ في النفسِ أحدُ شيئَيْنِ: إمّا الرغبةُ وإمّا الرهبةُ كقولِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ [الحشر: ٩] فعلى ذلكَ حاجةُ يعقوبَ، لا تَخْلُو إمّا أنْ كانَتْ رغبةً منهُ في تفرُّقِهِمْ وإمّا[1] رهبةً في اجْتِماعِهِمْ قضى تلكَ الحاجةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ يُشبهُ أنْ يكونَ هذا صلةَ ما قالَ يعقوبُ لِبَنيهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي وإنهُ لَذو علمٍ لِما أمَرَهمُ بالدخولِ على التَّفرُّقِ ونَهاهُمْ[2] عنِ الاجْتِماعِ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما[3] أرادَ بقولِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ:][4]: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ مِنَ السككِ المُتَفَرِّقَةِ ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مِنْ قضاءِ اللهِ شيئاً ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ يقولُ: أدّاها، فتَكَلَّمَ بها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ يقول: حافظا لِما علَّمْناهُ.

وقيلَ: حافظاً لهُ عالماً بهِ. وقيلَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ أي [عَمِلَ بجميعِ][5] ما عَلِمَ، وانْتَفَعَ بهِ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لم ينْتَفِعوا بما عَلِموا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ بقصةِ يوسفَ منْ أوَّلِها إلى آخِرِها لِما أخْبَرْناهُ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ أي ما أصابَ مِنَ الحزنِ بذهابِ يوسفَ وأخيهِ وما أصابَهُ مِنَ الشدةِ والنكبةِ لم يُؤَثِّرْ ذلكَ في عِلْمِهِ الذي علَّمْناهُ، وإنَّ أثَرَ ذلكَ في نفسِهِ وبدَنِهِ، أي عِلْمُهُ بما علَّمْناهُ بَعْدَ ما أصابَهُ كهو ما كانَ قَبْلَ ذلكَ، لم يَعْمَلْ فيهِ، ولم يُؤَثِّرْ.

وعنِ الحَسَنِ في ما ظَنَّ[6] في قولِ يَعقوبَ لِبَنيهِ ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [أنهُ][7] قالَ: أما واللهِ ما كانَتْ بهِ طِيَرَةٌ، تَطَيَّرَ بها، ولكنْ قد عَلِمَ، أو ظَنَّ، أنَّ يوسفَ سَيلْقَى أخاهُ، فيقولُ: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ [الآية: ٦٩].

وأكثرُ أهلِ التأويلِ قالوا: قولُهُ: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي خِيفَةَ العَينِ على بَنيهِ لِجمالِهِمْ وحُسْنِ صُوَرِهِمْ أو لِما يكونُ لِواحدٍ كذا وكذا مِنَ البَنينَ، فَيَقْصِدونَ قَصْدَهُمْ [بالكنايةِ فيهِمْ على ما][8] ذَكَرْنا، أو ما أرادَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنهمْ لمّا دخلوا البلَدَ الذي فيهِ دعا يوسفُ أخاهُ، وضَمَّهُ إليهِ. ويَحْتَمِلُ أنهمْ [لمّا][9] دخلوا جميعاً على يوسفَ، فضمَّ أخاهُ إلى نفسِهِ، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ، لم يقلْ لهُ أنا أخوكَ بالنسبةِ، ولكنهُ قالَ: أنا أخوكَ، مكانُ أخيكَ الهالكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ يقولُ: لا تَحْزَنْ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ: لا تَبْتَئِسْ بما كانَ عَمِلَ إخوتُكَ؛ كأنهُ لمّا دعاهُ، فضمَّهُ إلى نفسِهِ، شكا إليهِ عنْ إخوتِهِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. ويَحْتَمِلُ: فلا تَبْتَئِسْ بما سَيَعْمَلُ[10] بكَ هؤلاءِ، أي خدَمُهُ وعُمّالُهُ؛ كأنهُ أخبَرَهُ بما كانَ يريدُ أنْ يكيدَ بهمْ مِنْ جَعْلِ الصاعِ في رحلِهِ، فقالَ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بكَ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَجعَلَ أخاهُ مُتَّهَماً، يَعْتَرِفُ بهِ مِنْ غيرِ أنْ يَظْهَرَ منهُ شيءٌ، وقد أخْبَرَهُ أنهُ أخوهُ، واللهُ أعلَمُ. دلَّ أنهُ يُريدُ أنْ يُعْلِمَهُ بما يريدُ أنْ يكيدَ بهمْ ليكونَ هو على علمٍ مِنْ ذلكَ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيلَ: هي الإناءُ الذي كانَ يَشْرَبُ فيهِ الملكُ. وقيلَ: هو الصاعُ الذي كانَ يُكالُ بهِ الطعامُ. ولكن لا نَعْلَمُ ما كانَ ذلكَ سِوى أنا نَعْلَمُ أنها كانَتْ ذاتَ قيمةٍ وثمنٍ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: والنهي. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: محل بجمع، في م: محل بجميع. (٦) في الأصل وم: أظن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: بالكناية عليهم لما، في م: بالكناية عليهم لما. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعمل.

ألا ترى أنَّ ذلكَ الرسولَ قالَ: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [الآية: ٧٢] فلو لا أنها كانَتْ ذاتَ قيمةٍ وثمنٍ لم يُعْطِ لمنْ جاءَ بها[1] حِمْلَ بَعيرٍ، وكانَتْ[2] قيمةُ الطعامِ عِندَهُم في ذلكَ الوقتِ ما كانَتْ[3].

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى مُنادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يوسفُ يأمُرُ رسولَهُ أنْ يقولَ لهمْ ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ وقد عَلِمَ أنهمْ ليسوا بِسارقينَ. ولكنْ قالَ لهمْ ذلكَ المنادي، فأدّاهُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ مِنْ نفسِهِ، وهو مِنْ بَعضِ مَنْ يَتولّى كيلَ الطعامِ للناسِ[5]، وأمثالُهُ لا يُبالونَ الكَذِبَ.

أو قالَ لهمْ ذلكَ قومٌ، كانوا بِحضرَتِهِمْ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، أو يكونُ على الاسْتِفهامِ والتقريرِ. فإنْ كانَ هذا فهو يُحْتَمَلُ مِنْ يوسفَ، وأمّا مِنْ غَيرِهِ فلا؛ لأنهُ كَذِبٌ.

وضَمُّ يوسفَ أخاهُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ لِمكانِ سؤالِهِ إياهُمْ أنْ يأتوا بهِ، أو لِمكانِ فَضْلِهِ ومَنْزِلتِهِ لِيَعْلَموا[6] أنَّ ما كانَ ليوسفَ وأخيهِ عندَ أبيهِمْ مِنْ فَضْلٍ / ٢٥٥ ـ ب/ المحبّةِ والمَنْزِلةِ مِنَ اللهِ إذْ جَعَلَ ذلك لهما عندَ الملكِ وغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧١ و٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي إناءَ الملكِ؛ سَمّاهُ مَرّةً صاعاً ومَرّةً سِقايَةً، فيجوزُ أن يُسْتَعْمَلَ في الأمرَينِ جميعاً، في الاسْتِسقاءِ والكيلِ جميعاً. قالوا لِمناديهِ: ماذا تفْقِدونَ؟

قالَ أبو عوسَجَةَ: أي أضْلَلْتُمْ؛ يُقالُ: افتَقَدْتُكَ، وتَفَقَّدْتُكَ، أي تَعَهَّدْتُكَ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ هو منَ البؤسِ، والسِقايةُ المِكيالُ، وقيلَ: مَشْرَبةُ المَلِكِ، وصُوَاعُ المَلِكِ وصاعُهُ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ قيلَ: ضَمينٌ لذلكَ الطعامِ وكفيلٌ بهِ. والزعيمُ كأنهُ أيضاً اسمٌ لرئيسٍ مِنَ القومِ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها:][7] أنهمْ قالوا: ذلكَ لأنكُمْ رَدَدْتُمْ إلينا الدراهمَ، وجعَلْتُمْ في أوعِيَتِنا، ثم رَدَدْنا مَخافةَ أنْ نُقْرَفَ بالسرقةِ والفسادِ. فكيفَ تَقْرِفوننا بهذا؟

والثاني: أنكُمْ تَعْلَمونَ أنا أبناءُ النبيِّ، والرسولُ والأنبياءُ لا يكونُ منهمُ السَّرِقةُ والفسادُ في الأرضِ، ومِثْلُ هذا لم يَظْهَرْ في أهلِ بَيْتِنا قطُّ، ولا قُرِفْنا بهِ، فكيفَ قَرَفْتُمونا بهذا؟

والثالثُ: أنكُمْ تَرَوْنَنا صَوّامينَ قَوّامينَ. ومَنْ هذا فِعْلُهُ فإنهُ لا يُتَّهَمُ بالسَّرِقةِ.

والرابعُ[8]: أنْ يكونَ قولُهُ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لمّا رَأَوهمْ دَخلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقةٍ. ولو كانوا سُرّاقاً لَدَخَلُوا مجموعينَ، لأنَّ عادةَ السُّرّاقِ الاجتِماعُ لا التَّفَرُّقُ.

الآية ٧٤ [وقولُهُ تعالى:][9] ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي إنْ كانَ فيكمْ مَنْ يكذِبُ، ويَظْهَرُ ذلكَ منهُ فما جَزاؤُهُ؟

الآية ٧٥ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي يصيرُ رقيقاً مَمْلوكاً بها لهُ، ويَحْتَمِلُ[10] يَصيرُ محبوساً بها عندَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ظاهرُ هذا الكلامِ أنْ يكونَ يوسفُ هو الذي فَتَّشَ أوعيَتَهُمْ، وطَلَبَ ذلكَ فيها حينَ[11] نُسِبَ ذلكَ إليهِ بقولِهِ: ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لكنهُ نُسِبَ إليهِ [لأنهُ][12] بأمرِهِ؛ إذِ الملوكُ لا يأتونَ ذلكَ بأنفسِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) في الأصل وم: الطعام وكان. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: على الناس. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ثم. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: لما.

وفيه أنهُ قد فَصَلَ بينَهُمْ وبَينَ بنيامينَ؛ سَمَّى هذا أخاهُ، ولم يُسَمِّ أُولئكَ بقولِهِ ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحَدُهما: أنهُ قد ذَكَرَ هذا أنهُ أخوهُ حينَ[1] قالَ لهُ: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ [الآية: ٦٩]، ولم يذكُرْ أولئكَ، فَسَمَّى هذا أخاً لهُ، ونَسَبَهُ إليهِ بالأُخُوَّةِ لِما كانَ ذَكَرَ لهُ، ولم يُسَمِّ أولئكَ لِما لم يذكُرْ لهمْ أنهُ أخوهُم.

والثاني: أنهُ لم يكنْ لهذا؛ أعني بنيامينَ [في حقِّ][2] يوسفَ سُوءُ صنيعٍ، ولا شريكٍ، بل هو على الأُخُوَّةِ والصداقةِ التي كانَتْ بَيْنَه وبَيْنَهُ. وأمّا أولئكَ؛ أعني غَيرَهُ مِنَ الإخوَةِ، فقد كانَ منهمْ إليهِ ما كانَ مِنْ سُوءِ صَنيعِهِمْ وقُبْحِ فِعالِهِمْ، فَخَرَّجَ ذلكَ مُخْرَجَ التَّبَرِّي مِنَ الأُخُوَّةِ بِسُوءِ ما كانَ إليهِ.

وهو كقولِهِ تعالى لنوحٍ عليه السلام حينَ قالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٥ و٤٦] نَفى أنْ يكونَ مِنْ أهلِهِ بِسُوءِ عملِهِ، وفِعْلُهُ غيرُ صالحٍ.

فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ دلَّ هذا أنهُ قد كانَ منهُ أيضاً التفتيشُ والطلبُ في وعاءِ أخيهِ على ما كانَ في أوعِيَتِهِمْ، لا يَسْتخرِجُها على غيرِ تَفْتيشٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[3]: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي عَلَّمْنا يوسفَ مِنْ أوَّلِ الأمرِ إلى آخرِهِ ما يَكيدُ، ويَحتالُ في إمساكِ أخيهِ عندَهُ ومَنْعِهِ عنهم [لِئَلّا يَخْلُوَ][4] لهمْ وجهُ أبيهِمْ جَزاءَ ما طَلَبوا هُمْ أنْ يَخْلُوَ لهمْ وجهُ أبيهِمْ بِتَغْيِيبِ يوسفَ عن أبيهِ لأنَّ أباهُمْ قالَ: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [الآية: ٦٦] فلما بَلَغَهُ ذلكَ الخَبَرُ تَوَلّى عنهمْ، وهو قولُهُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الآية [الآية: ٨٤].

هذا واللهُ أعلَمُ، جَزاءُ كيدِهِمُ الذي كادوا بيوسُفَ لِيَخْلُوَ لهمْ وجهُ أبيهِمْ، لِيَتَوَلّى عنهمْ أبوهُمْ. هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ.

والثاني: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي عَلَّمْناهُ أنْ كيفَ يُفَتِّشُ أوعيَتَهُمْ لئلّا يَشْعُروا عن علمِ اسْتَخْرَجَها مِنْ وعاءِ أخيهِ لا عَنْ جَهْلٍ وظَنٍّ؟ عَلَّمْناهُ[5] البِدايَةَ في التفتيشِ بأوعِيَتِهِمْ لئلّا يَقَعَ عندَهُمْ أنهُ عن عِلْمٍ ويَقينٍ يأخُذُهُ.

يُشْبِهُ، واللهُ أعلمُ، أنْ يُخَرَّجَ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ على هذينِ الوجهَينِ، أو ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ بالكيدِ بهِمْ جزاءَ ما عَمِلوا بِحَقِّهِ لمّا اهْتَمُّوا بإمساكِ أخيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي في حُكْمِ المَلِكِ؛ ذُكِرَ أنَّ حُكْمَ إخوةِ يوسفَ وقضاةَهُمْ فيهِمْ أنَّ مَنْ سَرَقَ يكنْ[6] عبداً بِسَرِقَتِهِ لِلْمَسروقِ، ويُسْتَعْبَدُ[7] بِسَرِقَتِهِ. ومِنْ حُكْمِ المَلِكِ أنْ يُغَرَّمَ[8] السارقُ ضِعْفَي ما سَرَقَ، ويُضْرَبَ، ويُؤَدَّبَ، ثم يُخَلّى عنهُ. ولا نَعْلَمُ ما حُكْمُ المَلِكِ في السَّرِقَةِ سِوَى أنهُ أخبَرَ أنْ ليسَ لهُ أخذُ أخيهِ في دِينِ المَلِكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يَجْعَلَ ذلكَ الحُكْمَ حُكْمَ المَلِكِ، أو يَجْعَلَ لهُ حَقَّ الأخذِ وحَبْسِهِ، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ في حُكْمِهِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ على ما كانَ الأنبياءُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، وسلامُهُ، يَذْكُرونَ الثُّنْيا على حقيقةِ المشيئةِ، أو يقولُ: إلّا أنْ يكونَ في عِلْمِ اللهِ مني زَلَّةٌ، فأَسْتَوجِبَ عندَ ذلكَ الكونَ في دينِ[9] المَلِكَ، فَيَشاءُ ما عَلِمَ مني.

وكذلكَ قولُ إبراهيمَ حينَ[10] قالَ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠] أي لا أخافُ ما تُشرِكونَ بهِ إلا أنْ يكونَ مني ما أَسْتَوجِبُ ذلكَ بِزَلَّةٍ، فَيَشاءُ اللهُ ذلكَ مني.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لمكان. (٣) في الأصل وم: يحتمل. (٤) في الأصل وم: لأن يخلو. (٥) في الأصل وم: لعلمه. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) من م، في الأصل: ويستبعد. (٨) في الأصل وم: يفرق. (٩) من م، في الأصل: ذلك. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ الدرجاتُ هُنَّ الفضائلُ؛ نرفعُ بعضَهُمْ فوقَ بعضٍ بالنُّبُوَّةِ والعِلْمِ وفي كلِّ شيءٍ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ما مِنْ عالمٍ، وإنْ لَطُفَ عِلْمُهُ، وكَثُرَ إلّا وقد يكونُ فوقَهُ مَنْ هو ألطفُ عِلماً منهُ وأكثرُ وأعلمُ في شيءٍ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هو اللهُ تعالى فوقَ كلِّ ذي عِلمٍ؛ يُعَلِّمُهُمُ العِلْمَ، واللهُ أعلمُ.

ومَنْ يقولُ: إنهُ عالمٌ، [وهو لا يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ][(1)] يَحتجُّ بظاهرِ هذهِ الآيةِ حينَ[(2)] قالَ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أثبتَ لِغَيرِهِ العلمَ، ولم يَذكُرْهُ[(3)] لِنفسِهِ؛ كأنهُ[(4)] قالَ: [إنهُ ذو عِلمٍ. ولو قالَ إنهُ][(5)] عليمٌ أثبتَ العِلْمَ [لنفسِهِ لأنهُ][(6)] إذا قالَ: وفوقَ كلِّ العلماءِ عليمٌ يكونُ كذلكَ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانَتْ سَرِقَتُهُ أنهُ كانَ صنمٌ مِنْ ذهبٍ لِجَدِّهِ أبي أمِّهِ، يَعْبُدُهُ، فَسَرَقَ ذلكَ لئلا يَعْبُدَهُ دونَ اللهِ، ولكنا لا نَعْلَمُ ذلكَ، ونعلَمُ أنهمْ كَذَبوا في قولِهِمْ: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وأرادوا أنْ يَتبرَّؤوا منهُ، ويَنفُوا ذلكَ [عنْ][(7)] أنفسِهِمْ لِيُعْلَمَ أنهُ ليسَ منهمْ.

[وقولُهُ تعالى][(8)]: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ قيلَ إنَّ يوسفَ أسَرَّ [هذهِ الكلمةَ][(9)] في نَفْسِهِ، ولم يُظهِرْها لهمْ، أو أسرَّ[(10)] ما اتَّهَموهُ بالسَّرِقَةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ [قولُهُمْ][(11)]: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ خاطَبوا بهِ أخاهُ بنيامينَ دونَ يوسفَ /٢٥٦ - أ/ ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يقولونَ في ما بَينَهُمْ

وقد ذُكِرَ في بعضِ الحروفِ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ﴾ سُرِّقَ ﴿أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ بالتشديدِ[(12)]. فإنْ ثَبَتَ فالتأويلُ هو لقولِهِمْ:

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي أنتمْ أشرُّ صُنعاً بيوسفَ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ مِنَ الكذبِ أنهُ ﴿سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أرادوا، واللهُ أعلمُ، أنْ يُرِقُّوا قلبَهُ بهذا ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ لِما يكونُ قلبُ الشيخِ لِولدِهِ الصغيرِ أَمْيَلَ، ويكونُ عندَهُ آثرَ وأكثرَ منزلةً ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لِما أحسَنَ إليهمْ في الكيلِ والإنزالِ في المَنزِلِ والضِّيافةِ والقِرى؛ قد رأوهُ، وعَلِموهُ مُحسِناً.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ قيلَ: هذا قولُ يوسفَ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذُ باللهِ أنْ نأخُذَ، ونَحبِسَ، بالسَّرِقةِ ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾.

[فإنْ قيلَ: كيفَ تَعَوَّذَ على تَرْكِ أخذِهِ وأخذِ غيرِهِ مكانَهُ، ولم يكنْ وَجَبَ لهُ حقُّ الأخذِ، إذْ لم تكُنْ سَرِقَةٌ، وإنما يُتَعَوَّذُ على تَرْكِ ما لا يَسَعُ تَرْكُهُ؟ قيلَ: إنهُ لم يَتَعَوَّذْ على تَرْكِ أخذِ أخيهِ، إنما تَعَوَّذَ على غَيرِ ما وَجَدَ المَتاعَ عندَهُ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ عندَكُمْ لو أخَذْنا غيرَ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عندَهُ. إذْ في حُكمِهِمْ أخْذُ مَنْ سَرَقَ بالسَّرِقةِ][(13)] والحَبْسُ بها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ قيلَ: أيِسوا مِنْ أنْ يَرُدَّ إليهِمْ أخوهُمْ ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ قيلَ: خَلَوا مِنَ الناسِ، وخَلَصوا منهمْ، يَتَناجَونَ في ما بَيْنَهُمْ في أمرِ أخيهِمْ أو في الانصرافِ إلى أبيهِمْ أو في المُقامِ فيهِ.

[وقولُهُ تعالى][(14)]: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿كَبِيرُهُمْ﴾ في العقلِ، ليسَ في السِّنِّ، وهو فلانٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هو يهوذا، وقالَ بعضُهُمْ: هو شَمعونُ، ولكنْ لا نَعْلَمُ مَنْ كانَ قائلُ هذا لهمْ؟

---

(١) في الأصل وم: لا يعلم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: يذكر. (٤) في الأصل وم: بل. (٥) في الأصل وم: عليم لكنه إذا قال. (٦) في الأصل وم: ولأنه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م: هذا القول. (١٠) في الأصل وم: أسروا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/١٨٦. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

ولا نَحتاجُ إلى معرفةِ ذلكَ سِوَى أنَّ فيهِ: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ إمّا أنْ كانَ كبيرَهُمْ في العقلِ وإمّا[1] كبيرَهُمْ في السِّنِّ ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ الم تَعْلَموا؟ أو لم تَرَوا؟ حرفانِ يُستَعْمَلانِ في أحدِ أمرَينِ: في الأمرِ: أنِ اعْلَموا كذا، أو في مَوضِعِ التنبيهِ والتقريرِ. وههنا كأنهُ قالَ ذلكَ على التقريرِ والتنبيهِ؛ أي قد عَلِمْتُمْ ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾.

هذا يدلُّ أنَّ التأويلَ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ هو[2] أنْ يَعُمَّكُمْ أمرٌ، ويَجْمَعَكُمْ، فتَهلِكوا[3] فيهِ جميعاً وليسَ كما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إلا أنْ يَجيءَ ما يَمْنَعُكُمْ عن ردِّهِ؛ إلا أنْ تُغْلَبوا، فتَعْجَزوا عن رَدِّهِ لأنهُ قد جاءَ ما يَمْنَعُهُمْ عن رَدِّهِ.

ثم أبَى أكبَرُهُمُ الرجوعَ إلى أبيهِ. دلَّ أنَّ التأويلَ هو هذا.

ومَنْ يقولُ: إنَّ التأويلَ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أنْ يَجيءَ ما يَمْنَعُكُمْ عنِ الرَّدِّ اسْتَدَلَّ بقولِهِ: ﴿ٱرْجِعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ [الآية: ٨١] فلو كانَ على ما يَعُمُّهُمْ لم يكنْ لِيَأمُرَهُمْ بالرجوعِ إلى أبيهِمْ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرَ.

وأمّا أهلُ التأويلِ الأوَّلِ [فهمْ][4] يقولونَ: إنَّ قولَهُ: ﴿ٱرْجِعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ ليسَ على الأمرِ، ولكنْ [على الخَبرِ][5] إذا رجَعْتُمْ ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ليسَ على الأمرِ، ولكنْ [على الخَبرِ][6] لو سألْتَ أهلَ القريةِ وأهلَ العِيرِ لأخبَروكَ أنهُ كما قُلْنا.

فعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿ٱرْجِعُوٓا﴾ ليسَ على الأمرِ ولكنْ [على الخَبَرِ][7] لو رَجَعْتُمْ إليهِ فقولوا كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾ أي مِنْ قبلُ ما ضَيَّعْتُمْ أمرَ أبيكُمْ في يوسفَ، أو ضَيَّعْتُمْ [أمرَ][8] اللهِ ووَعْدَهُ ﴿فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ.

يَحْتَمِلُ ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالرجوعِ إليهِ إذا ظَهَرَ عندَهُ عُذْرُنا وصِدْقُنا في أمرِ ابنِهِ.

ويَحْتَمِلُ[9]: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالمنازَعةِ في القِتالِ معَ المَلِكِ حتى أستَنْقِذَ أخي، وأستَخْلِصَهُ منهُ ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ في الرجوعِ[10] أو في القِتالِ مَعَهُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ﴾: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بإظهارِ عُذرِنا وصِدْقِنا عندَ أبينا ﴿وَهُوَ خَيْرُ﴾ في إظهارِ العُذْرِ لأنهُ [إذا حَكَمَ بإظهارِ العذرِ][11] ظَهَرَ ذلكَ في الخَلْقِ جميعاً.

وكذلكَ حُكْمُ غيرِهِ لأنَّ مَنْ حَكَمَ بِحُكْمٍ يجوزُ، فإنما يَحْكُمُ بِحُكْمٍ، هو حكمُ اللهِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الآيتان: ٦٤ و٩٢] لأنَّ مَنْ رَحِمَ [أحداً][12] مِنَ الخَلْقِ فإنما يرحَمُ برحمتِهِ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ على الأمرِ على ما هو في الظاهرِ، ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا؛ أي لو رَجَعْتُمْ إليهِ ﴿فَقُولُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا منهُ تَعريضاً في التخطئةِ على ما كانَ يُؤثِرُهُ على غيرِهِ مِنَ الأولادِ، أيِ الذي كُنْتَ تُؤثِرُهُ علينا بالمَحبَّةِ ومَيلِ القلبِ إليهِ قد سَرَقَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ لَيسَ على التَّعريضِ، ولكنْ على الإخبارِ على ما ظَهَرَ عندَهُمْ مِنْ ظاهرِ الأمرِ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ بما أُخرِجَ المَتاعُ مِنْ وعائِهِ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ هذا على التأويلِ الذي قيلَ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي يَعُمَّكُمْ، ويَجْمَعَكُمْ؛ أي ما كُنّا نَعْلَمُ وقتَ إعطاءِ العهدِ[13] والميثاقِ أنهُ يَسْرِقُ، وإلّا لم نُعْطِكَ العَهْدَ على ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ وقتَ ما أُخرِجَ المَتاعُ مِنْ وعائِهِ، واتُّهِمَ أنهُ سَرَقَ، أهو[14] لم يَسْرِقْ؟ أم[15] هو وَضَعَ الصاعَ في رَحْلِهِ؟ أو غيرُهُ وَضَعَ؟ أي ما كُنّا نَعْلَمُ في الابتداءِ أنَّ الأمرَ يَرْجِعُ إلى هذا. وإلّا لم نُخرِجْهُ معنا.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: هؤلاء. (٣) في الأصل وم: فتهلكون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: أيضاً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: الوقت. (١٣) في الأصل وم: الوقت. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: أو.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي [لو][١] سألتَ أهلَ القريةِ وأهلَ العيرِ لأخبَروكَ أنهُ على ما نقولُ ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ على ذلكَ على ما ظَهَرَ لنا مِنِ استِخراجِ الإناءِ منْ وعائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ لهمْ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وجَعَلَ ما أخبَروهُ مِنْ تَسْويلِ أنفسِهِمْ وتزيينِها [وهُمْ لم يُخالِفوهُ][٢] في ما أمَرَهُمْ في أمْرِ بنيامينَ، ولا تَرَكوا شيئاً ممّا أمَرَهُمْ بهِ؟

وليسَ هذا كالأوّلِ الذي قالَ لهمْ في أمْرِ يوسفَ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [الآية: ١٨] لأنهُ قد كانَ منهُمْ خِلافٌ لِما أمَرَهُمْ بهِ، والسَّعْيُ إلى إهلاكِهِ، فكانَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْويلِ أنفسِهِمْ وتزيينِها في مَوضِعِ التسويلِ والتزيينِ. وأمّا ههنا فلم يأتِ منهُمْ إليهِ خِلافٌ ولا تَرْكٌ لأمرِهِ.

فكيفَ قالَ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؟ قيلَ[٣] يُشْبِهُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لأنهمْ لمّا اتُّهِموا جميعاً بالسَّرِقَةِ، فقيلَ: ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [الآية: ٧٠] ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ [الآية: ٧٣] قطعوا فيهِ القولَ: إنهمْ لم يكونوا سارِقينَ، وهو كانَ فيهِمْ.

فكيفَ قَطَعْتُمْ فيهِ القولَ بالسَّرِقةِ ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾؟ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ مِنَ البُغْضِ والعداوةِ مِنَ الإيثارِ لهُ وليوسفَ [عليكُمْ والمَيلِ إليهِما دونَكُمْ حينَ][٤] ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [الآية: ٨] واللهُ أعلَمُ. فَسَوَّلَتْ لكُمْ أنفسُكُمْ بِبُغْضِكُمْ وعداوَتِكُمْ حتى تَرَكْتُمُ الفَحْصَ عنْ حالِهِ وأمْرِهِ [إذْ لا][٥] كُلُّ مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ شيءٌ يكونُ هو واضِعَ ذلكَ الشيءِ، بل قد يَضَعُهُ[٦] غيرُهُ فيهِ على غيرِ عِلْمٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: قالَ: ﴿يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنهمْ صاروا جماعةً: يوسفُ، وبنيامينُ أخوهُ، ويهوذا، وشمعونُ، قد تَخَلَّفا بسببِ حَبْسِ يوسفَ أخاهُ، أو يوسفُ وأخوهُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ جبريلَ أتى يَعْقوبَ على أحْسَنِ صورةٍ، فسألَهُ عنْ يوسفَ: أفي الأحياءِ [هوَ أم في الأمواتِ][٧]؟ فقالَ: بل هو في الأحياءِ، فقالَ عند ذلكَ: ﴿عَسَى/ ٢٥٦ ـ ب/ ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أو عَلِمَ يعقوبُ أنَّ يوسفَ في الأحياءِ، وأنهُ غيرُ هالكٍ، لِما رَأى يوسفَ مِنَ الرؤيا مِنْ سُجودِ الكواكبِ والشمسِ والقمرِ لهُ عَلِمَ أنهُ في الأحياءِ، وأنهُ لا يهلِكُ إلّا بَعْدَ خروجِ رؤياهُ، وغيرَ ذلكِ مِنَ الدلائلِ.

لكنهُ كانَ لا يَعْلَمُ أينَ هو، فقالَ ذلكَ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعْرَضَ عنهمْ، وعاتَبَهُمْ، حينَ أخبَروهُ أنَّ ابنَهُ سَرَقَ ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيلَ: يا حُزْنا على يوسفَ، وقيلَ: يا جَزَعا [على يوسفَ][٨].

وقالَ القُتَبيُّ: الأسفُ أشَدُّ الحَسْرَةِ، وأصلُهُ أنَّ الأسفَ أنهُ النهايةُ في الحُزْنِ إذا بَلَغَ غايَتَهُ ونهايَتَهُ؛ يُقالُ: أسِفَ، وهو النهايةُ في الغضبِ أيضاً كقولِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضَبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ [لا][٩] على إظهارِ القولِ باللسانِ، ولكنْ إخبارٌ عمّا في ضميرِهِ، وذلكَ جائزٌ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] أخبَرَ عمّا في قلوبِهِمْ لأنْ قالوا ذلكَ باللسانِ. ويَحْتَمِلُ القولَ بهِ على غيرِ قَصْدٍ منهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ولم يخالفوا هم. (٣) في الأصل وم: لكن. (٤) في الأصل وم: عليهم والميل إليها دونهم حيث. (٥) في الأصل وم: إلا. (٦) في الأصل وم: يضع. (٧) في الأصل: أم الأموات، في م: أم في الأموات. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الكَظْمُ[1] هو كفُّ النفسِ عنِ الجَزَعِ، وترديدُ الحُزْنِ في الجَوفِ على غَيرِ إظهارٍ في أفعالِهِ[2]. والجَزَعُ هو ما ظَهَرَ في أفعالِهِ، والذي يَهيجُ الغَضَبَ؛ إلّا أنَّ الحُزْنَ يكونُ على مَنْ فَوقَهُ، والغَضَبَ [على][3] مَنْ تَحتَ يدِهِ، وسَبَبُ هَيَجانِها واحدٌ، أو أنْ يكونَ الكظيمُ هو الذي يَسْتُرُ، ويُغَطّي [في القَلْبِ ما][4] حَلَّ بهِ. والهَمُّ هو ما يَبْعَثُ على القَصْدِ مِنْ [مُباشرةِ سَبَبِ دفعِهِ، وهو مأخوذٌ مِنَ][5] الهَمِّ بهِ. والحُزْنُ هو ما يُؤثِّرُ التغييرَ في الخِلْقَةِ، ولا يَظْهَرُ في الأفعالِ. والجَزَعُ يَظْهَرُ في الأفعالِ، ولا يُغَيِّرُ الخِلْقَةَ عَنْ حالِها. لِذلكَ [عَمِلَ الحُزْنُ][6] في ضَعْفِ نَفْسِ يعقوبَ، وعَمِلَ في [إهلاكِ بعضِهِ حينَ][7] ذَهَبَتْ عيناهُ، وابْيَضَّتْ مِنَ الحُزْنِ. والكظيمُ ما ذَكَرْنا؛ هو الذي يُرَدِّدُ الحُزْنَ في جَوفِهِ، ولا يُظْهِرُهُ[8]، ويَكُفُّهُ عنِ الجَزَعِ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ يمينُهُمْ مكانَ: واللهِ، أو باللهِ. وكذلكَ قالَ إبراهيمُ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تَزالُ تذكرُ يوسفَ، ولا تَنْسى ذكرَهُ، حتى تَسْلُوَ منْ حزنِكَ[9] كأنهمْ دَعَوهُ الى السُّلُوِّ مِنْ حزنِهِ، لأنهُ بالذكرِ يَتَجَدَّدُ الحزنُ، ويَحدُثُ، فقالوا لهُ: لا تزالُ ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ قيلَ: دَنِفاً، وقيلَ: ﴿حَرَضًا﴾ هَرِماً.

وأصلُ الحَرَضِ الضَّعفُ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ كذلكَ صارَ يَعقوبُ: ضَعُفَ بَدَنُهُ مِنَ الحُزْنِ، وصارَ بعضُ بَدَنِهِ مِنَ الهالكينَ حينَ[10] ابْيَضَّتْ عيناهُ، وذهبتْ[11] مِنَ الحُزْنِ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: الحَرَضُ الدَّنَفُ والبَثُّ أشَدُّ الحزنِ؛ لأنَّ صاحِبَهُ لا يَصْبِرُ عليهِ حتى يَبُثَّهُ أي يَشْكوهُ. وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ بَثَّ لمْ يَصْبِرْ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٨/ ٤٨] أي شَكا. وما ذُكِرَ مِنَ الشكايةِ الى اللهِ ليسَ على إظهارِ ذلكَ باللسانِ ولكنْ [على][12] إمساكٍ في القَلْبِ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ أي حاجتي ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ البَثُّ والحُزْنُ واحداً، ذَكَرَهُ[13] على التكرارِ. وقالَ بعضُهُمْ: الحَرَضُ الذي ذهبَ عقلُهُ مِنَ الكِبَرِ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ فتموتَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ مِنْ تَحقيقِ رؤيا يوسفَ أنهُ كائنٌ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم، وأنا سَنَسْجُدُ [لهُ][14].

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه قولُهُ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنهُ حيٌّ، لم يَمُتْ، وهو ما ذَكَرَ أنهُ كانَ يَعْلَمُ مِنَ اللهِ مالا يَعْلَمونَ همْ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أنْتَفِعُ بِعِلْمٍ ما لا تَنْتَفِعونَ أنتمْ.

وأصْلُهُ: أنَّ إخوةَ يوسفَ لو عَلِموا أنَّ أمرَ يوسفَ يَبْلُغُ ما يَبْلُغُ مِنَ المُلْكِ والعِزِّ ما قَصَدوا قَصْدَ تَغْييبِهِ عن والدِهِ، ولا سَعَوا فيهِ في ما سَعَوا مِنْ إفسادِ أمرِهِ. لكنهُمْ لم يَعْلَموا، واللهُ أعلَمُ، أو عَلِمَ مِنَ اللهِ شيئاً، لم يُبَيِّنْ ما لا يَعْلَمونَ هُمْ كقولِ إبراهيمَ[15].

وما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ يَعقوبَ قالَ كذا مِنَ النِّياحِ على يوسفَ والجزعِ عليهِ، لا يَحْتَمِلُ ذلكَ؛ لأنهُ قالَ حينَ أخْبَروهُ بذلكَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. وما ذَكَروا هُمْ منهُ، ليسَ هو بِصَبْرٍ، فَضْلاً أنْ يكونَ جميلاً.

---

(١) في الأصل وم: الكظيم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: غير. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: القلب إذا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الهلاك بعضه حيث. (٨) في الأصل وم: يظهر. (٩) حزنه. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: ذهب. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ذكر. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) لعلهُ يشير إلى الآيات (٥٤) و(٥٦) و(٥٧) من سورة الأنبياء.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ اطْلُبوهُ، واسْتَخْبِروا عنهُ وعنْ أخيهِ. لكنَّ غيرَ هذا كأنهُ أقربُ، وهو مِنْ وقوعِ الحِسِّ عليهِ؛ كأنهُ قالَ: اذهبوا، فانْظُروا إليهِ وإلى أخيهِ؛ لأنهُمْ إنْ لم يكونوا يَعْلَمونَ أنَّ يوسفَ أينَ هو؟ فلَقَدْ كانوا يَعْلَمونَ مِنْ حالِ أخيهِ بنيامينَ أنهُ أينَ هو؟

فلو كانَ على الطَّلَبِ والبَحْثِ والاسْتِخْبارِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنِ احْتُمِلَ في يوسفَ فذلكَ لا يُحْتَمَلُ في أخيهِ؛ إذْ هُمْ كانوا يَعْلَمونَ مكانَهُ، وأينَ هو؟ وإذْ كانوا لا يَعْلَمونَ مكانَ يوسفَ، ولا أينَ هو؟ وهو إنما أمَرَهُمْ أن يَتَحَسَّسوا عنهما جميعاً. فدلَّ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ مِنْ وقوعِ الحِسِّ والبَصَرِ عليهما لا مِنَ البَحْثِ والطَّلَبِ، واللهُ أعلَمُ.

فكأنهُ عَلِمَ بالوحيِ أنهُ هنالكَ، وأخاهُ[1] مَعَهُ. لكنهُ لم يُخْبِرْ بَنيهِ أنهُ هنالكَ لِما عَلِمَ أنهمْ يَتَكاسَلُونَ، ويَتَثاقَلونَ عنِ الذهابِ إليهِ، وإنما أمَرَهُمْ[2] بذلكَ أمْرَ تعريضٍ لا أمْرَ تَصْريحٍ.

ويَحْتَمِلُ[3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ على الإضمارِ، أي تَحَسَّسوا أمْرَ[4] يوسفَ، واسألوا منهُ ردَّ أخيهِ لِما عَلِمَ أنَّ أخاهُ يكونُ معهُ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنما قالَ لهمْ هذا، وعَلِمَ أنهُ في الأحياءِ لأنهُ رَأى مَلَكَ المَوتِ، فقالَ لهُ: هل قَبَضْتَ رُوحَ يوسفَ ممّا قَبَضْتَ مِنَ الأرواحِ؟ قالَ: لا.

وقالَ بعضُهُمْ: رَأى في المَنامِ مَلَكَ الموتِ، فقالَ لهُ ما ذَكَرْنا، فعندَ ذلكَ قالَ هذا القولَ.

لكنا نقولُ: إنهُ كانَ عالماً [أنهُ][5] في الأحياءِ، ليسَ بِهالكٍ، لِما رَأى [يوسفُ][6] مِنَ الرُّؤيا وغَيرِها[7]، فَعَلِمَ أنهُ لا يَهْلِكُ إلّا بَعْدَ خُروجِ رؤياهُ على الصِّدْقِ والحقِّ. لكنهُ لم يكُنْ يَعْلَمُ أنهُ أينَ هو منْ قَبْلُ، ثم عَلِمَ مِنْ بَعْدُ بالوَحْيِ عنْ مكانِهِ وحالِهِ؟ فأمَرَ بَنيهِ أنْ يَأتوهُ، فَيَنْظُروا إليهِ وإلى أخيهِ.

واصلُ هذا أنَّ ما حلَّ بِيعقوبَ مِنْ فوتِ يوسفَ وغَيْبَتِهِ عنهُ مِحْنَةٌ، امْتَحَنَهُ ربُّهُ، وبَلِيَّةٌ، ابتلاهُ بها؛ [مِمّا يَبْتَلي الأخيارَ][8].

ألا تَرَى أنَّ يوسفَ لو أرادَ أنْ يُعْلِمَ أباهُ يعقوبَ عنْ مكانِهِ وحالِهِ لَقَدَرَ عليهِ؛ لأنهُ كانَ يَعْلَمُ بمكانِ أبيهِ؟ وأنَّ يَعقوبَ لا يَعْلَمُ بمكانِ يوسفَ، فلم يَعْلَمْهُ[9] إلّا بعدَ الأمرِ بالإعلامِ، واللهُ أعلَمُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ قيلَ مِنْ رحمةِ اللهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أخبَرَ أنهُ لا يَيْأسُ مِنْ رَحمةِ اللهِ إلّا القومُ الكافرونَ؛ مَنْ آمَنَ يَعْلَمُ أنهُ مُتَقَلِّبٌ في رحمةِ اللهِ ونِعْمَتِهِ. وأمّا الكافرُ فإنهُ لا يَعْرِفُ رحمةَ اللهِ ولا تَقَلُّبَهُ في رحمتِهِ، فَيَيْأسُ مِنْ رحمتِهِ.

نَهاهُم عنِ الإياسِ لِما كانَ عندَهُمْ أنهُ هالكٌ حينَ[10] ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [الآية: ٩٥] لمّا قالَ لهمْ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ وأخوهُ كانَ مَحْبوساً بالسَّرِقَةِ. والمَحْبوسُ لا يُرَدُّ في حكمِهِمْ.

أو يقولُ: نَهاهُمْ، وإنْ لم يكونوا آيِسينَ، ثم يقولُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

خَبَرٌ عنِ اللهِ؛ أخبَرَ أنهُ ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وكذلكَ ما بَشَّرَ إبراهيمَ بالوَلَدِ حينَ[11] / ٢٥٧ - أ/ ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥] نَهاهُ عنِ القنوطِ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ إبراهيمُ قانطاً مِنْ[12] ذلكَ، لكنهُ نَهاهُ، ثم أخْبَرَ، فقالَ: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

والآيةُ تَرُدُّ على المعتزلةِ قولَهُمْ لِقولِهِمْ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ خالدٌ[13] مُخَلَّدٌ في النارِ، وإنهُ ليسَ بكافرٍ، وهو آيِسٌ على

---

(١) في الأصل وم: وأخوه. (٢) من م، في الأصل: أخبرهم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: من. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وغيره. (٨) في الأصل وم: يبتلي بذلك حسرة عليهما. (٩) في الأصل وم: يفعله. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: عن. (١٣) في الأصل وم: خالدا.

قولِهِمْ مِنْ روحِ اللهِ[١]، وقد أخبرَ أنهُ ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢].

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي على يوسفَ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ سَمَّوهُ عزيزاً لِما لَعَلَّهُمْ يُسَمُّونَ كلَّ مَلِكٍ عزيزاً، أو سَمَّوهُ عزيزاً لِما كانَ عندَ الملكِ[٣] عزيزاً بقولِهِ: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [الآية: ٢١] أو[٤] لِما كانَ للناسِ إليهِ حاجةٌ بالطعامِ الذي في يدِهِ، وهو كانَ غنياً عمّا في أيديهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُمْ: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أصابَنا الشدةُ والبَلاءُ والجوعُ ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ قيلَ: دراهِمُ نَفايَةٌ مُبَهْرَجٌ، لا تَنْفُقُ في الطعامِ، كاسِدَةٌ، لأنهُ كانَ في عِزَّةٍ، وتَنْفُقُ في غَيرِهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي قليلةٍ، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: أي قليلةٍ. وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما هي الوَرَقُ الرديئةُ، لا تَنْفُقُ حتى تُوضَعَ. وقالَ أبو عُبَيدةَ: الإزجاءُ في كلامِ العربِ الدَّفْعُ والسَّوقُ، وهو كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] أي يَسوقُ، ويَدْفَعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: جاؤوا بسمنٍ وصوفٍ، وقيلَ جاؤوا بِصَنَوبَرٍ وحبٍّ[٥] الخضراءِ، أو أمثالِ هذا. ويشبهُ أنْ يكونَ [قولُهُمْ][٦]: ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ كما يُقالُ: تُزْجى يوماً بِيَومٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أوفِ لنا الكيلَ بِسِعْرِ الجِيادِ، وتأخذُ النُّفايَةَ، وتَكيلُ لنا الطعامَ بِسعرِ الجِيادِ. ولكنَّ قولَهُ: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي سَلِّمْ لنا الكيلَ تامًّا لأنَّ الإيفاءَ هو التسليمُ على الوَفاءِ كقولِهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

[وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بِفَضلِ ما بينَ الثمنَينِ في الوزنِ، وقيلَ: ما بينَ الكَيلَينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي رُدَّ لنا شيئاً، يكونُ ذلكَ صدقةً لنا منكَ. لكنْ يُشْبِهُ على ما قالوا، وطلبوا منهُ، الصَّدَقةُ حَطُّ الثمنِ، لأنَّ الصدقةَ لا تَحِلُّ للأنبياءِ، ويجوزُ الحَطُّ لأولادِهِمْ[٨]، ويجوزُ حطُّ مَنْ لا تجوزُ صَدَقَتُهُ نحوُ العبدِ المأذونِ لهُ في التجارةِ؛ يجوزُ حطُّهُ، ولا تجوزُ صدقتُهُ. وكذلكَ نَبِيُّ اللهِ كانَ يجوزُ الشراءُ لهُ[٩] بدونِ ثمنِهِ، ولا تَحِلُّ لهُ الصدقةُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ بذهابِ بَصَرِ أبيهِمْ، مَسَّهُمْ بذلكَ وأهلَهُمُ الضُّرُّ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي رُدَّ علينا بنيامينَ لعلَّ اللهَ يَرُدُّ بَصَرَهُ عليهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [قالَ أهلُ التأويلِ: إنْ كانوا على دينِ الإسلامِ، فكأنهمْ ظَنُّوا أنهُ ليسَ على دينِ الإسلامِ][١٠] ولو أنهمْ ظَنُّوا أنهُ[١١] مسلمٌ لَقالوا: إنَّ اللهَ يَجْزيكَ بالصدقةِ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هو ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى ذكرِهِ. وأمّا ما فَعَلوا بأخيهِ [فقد][١٢] قالَ أهلُ التأويلِ: هو ما قالوا: إنهُ سَرَقَ، لكنهمْ لم يقولوا إلّا قَدْرَ ما ظَهَرَ عندَهُمْ، فلم يَلْحَقْهُمْ بذلكَ القولِ فَضْلُ تَعْيِيرٍ. لكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونوا آذَوهُ بأنواعِ الأذى، ولا شكَّ أنهمْ كانوا يُبْغِضونَ يوسفَ وأخاهُ حينَ[١٣] ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [الآية: ٨]. وقولُهُ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قد كانوا عَلِموا هُمْ ما فَعَلوا بيوسفَ، لكنهُ كأنهُ قالَ: هل تذكُرونَ ما فَعَلْتُمْ بيوسفَ أو أنتمْ جاهلونَ ذلكَ ناسونَ[١٤]؟

يقولُ لهمْ: اذْكُروا ما فَعَلْتُمْ بيوسُفَ، وتوبوا إلى اللهِ عنْ ذلكَ، ولا تكونوا جاهلينَ عنْ ذلكَ. أو يقولُ لهمْ: هل رَجَعْتُمْ، وتُبْتُمْ عنْ ذلكَ، أمْ[١٥] أنتمْ بَعْدُ فيهِ.

---

(١) أدرجت بعدها العبارة التالية: وهم يقولون إن صاحب الكبيرة آيس من روح الله. (٢) أدرجت بعدها العبارة التالية: وهم يقولون إن صاحب الكبيرة آيس من روح الله وهو ليس بكافر في الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ذلك. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وحبة. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) أدرجت في م قبل: الشراء. (١٠) من م، في الأصل: إن كانوا على دين الإسلام. (١١) من م، في الأصل أنهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: يائسون. (١٥) في الأصل وم: أو.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي مُذْنِبون. ولكنْ [عندَنا][1] ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ قَدْرَ يوسفَ ومَنْزِلَتَهُ، لأنهمْ لو عَلِمُوا ما قَدْرُ يوسفَ عندَ اللهِ؟ وما مَنْزِلَتُهُ؟ ما ﴿قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [الآية: ٨] وما خَطَّؤوا أباهُمْ في حُبِّهِ إياهُ حينَ[2] قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ٨] وما فَعَلُوا [بهِ ما فَعَلُوا][3] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ كأنهمْ عَرَفوا أنهُ يوسفُ، بقولِ يوسفَ لهمْ: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [الآية: ٨٩] أو عَرَفوا بقولِ أبيهِمْ حينَ[5] قالَ: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [الآية: ٨٧] [أو][6] لمّا ذَكَرَ أخاهُ، ورَأَوهُ مَعَهُ، عَرَفوا أنهُ يوسفُ. لذلكَ قالوا [ذلكَ][7] واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ يحتَمِلُ ﴿مَن يَتَّقِ﴾ معاصيَهُ ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على بَلاياهُ، أو [مَنْ][9] اتَّقى مَناهيَهُ، وصَبَرَ على أداءِ ما أَمَرَ بهِ، أو مَنِ اتَّقى، وصَبَرَ، فقد أحسَنَ، أو يقولُ: إنهُ مَنْ يَتَّقِ الجَفَا، ويَصْبِرْ على البلاءِ، فقد أحسنَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي رُدَّ أخانا علينا، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قَسَمٌ قدِ اعْتادوهُ في فَحْوَى كلامِهِمْ على غيرِ إرادةِ يمينٍ بذلك. هكذا عادةُ العربِ، وإلا كانَ يعلَمُ يوسفُ أنَّ اللهَ قد آثَرَهُ عليهِمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ القسمُ ههنا على تأكيدِ معرفتِهِمْ فَضْلَهُ ومَنْزِلَتَهُ؛ أي لم تَزَلْ [كما][10] كُنْتَ مُؤْثَراً مُفَضَّلاً علينا.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي وقد كنا خاطئينَ في ما كانَ مِنّا إليكَ مِنَ الصنيعِ.

[ويَحْتَمِلُ][12] أنْ يكونَ قولُهُمْ[13] ﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ في ما ﴿قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [الآية: ٨] أي لِما كانَ يُؤْثِرُهُما عليهِمْ قالوا[14]: كُنْتَ مُؤْثَراً [علينا][15] على ما كانَ أبونا يُؤْثِرُكَ علينا، وقد كنّا خاطئينَ.

الآية ٩٢ فقالَ يوسفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ أي لا تَعْيِيرَ عليكُمْ بعدَ هذا اليومِ بِما صَنَعْتُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا تَنْغيصَ عليكُمْ.

وقيلَ: أصلُ التثريبِ الإفسادُ؛ يقالُ: ثَرَّبَ علينا الأمرَ أفْسَدَهُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: التثريبُ الملامةُ؛ يقولُ: لا لومَ عليكُمْ في صَنيعِكُمْ. وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا أُعَيِّرُكُمْ بعدَ هذا اليومِ أبداً، ولا أعيدُهُ[16] عليكُمْ.

وهو يَحْتَمِلُ هذينِ الوجهَينِ:

أحدُهما: لا تَعْييرَ عليكُمْ، ولا مَلامةَ؛ أي ليسَ في العَقْلِ تَعْييرٌ، ولا مَلامةٌ إذْ أتيتُمْ، وأقرَرْتُمْ بالخَطَإِ.

وهكذا كلُّ مَنْ أذنَبَ ذنباً، أوِ ارْتكَبَ كبيرةً، ثم انْتَزَعَ عنها، وتابَ منها، لا يُعَيَّرُ هو عليهِ، ولا يُلامُ. وكذلكَ قيلَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١] ذُكِرَ أنهمْ كانوا يُعَيِّرونَ أهلَ الكفرِ في كُفْرِهِمْ، ويُنابِزونَهُمْ، ثم أسْلَموا، فَنُهُوا أنْ يُنابِزوهُمْ، ويَصْنَعوا بهمْ مثلَ صنيعِهِمْ بهمْ في كفرِهِمْ. ولو وَجَبَ التَّعْييرُ والمَلامةُ بعدَ الانْتِزاعِ عنهُ والتوبةِ، أو جازَ[17] ذلكَ لَكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ مُعَيَّرينَ ملامينَ لأنهمْ كانوا أهلَ الكُفرِ في الابْتِداءِ. فهذا مِمّا لا يَحِلُّ في العقلِ.

والثاني قولُهُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ لا أُعَيِّرُكُمْ على ما قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ أي لا ذِكْرَ ما كانَ منكُمْ إلينا. أمَّنَهُمْ عن أنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: قوله. (١٤) في الأصل وم: فقالوا. (١٥) ساقطة من الأصل وم.
(١٦) في الأصل وم: أعيره. (١٧) في الأصل وم: يجوز.

يذكُرَ شيئاً مِمّا كانَ منهمْ إليهِ. ولذلكَ قالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [الآية: ١٠٠] ذَكَرَ /٢٥٧ـ ب/ أنَّ الشيطانَ هو الذي فَعَلَ ما كانَ بَينَهُ وبَينَ إخوتِهِ. وكذلكَ فَعَلَ حينَ[١] قالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أضاف ذلكَ إلى الشيطانِ، ولم يُضِفْ إلى إخوتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ قَطَعَ فيهِ القولَ بالمغفرةِ حينَ أقَرُّوا بالخطايا، وتابوا عمّا فَعَلوا. وهكذا كلُّ مَنْ تابَ عنْ ذنبٍ ارْتَكَبَهُ، ونَزَعَ عنهُ، أنْ يُقْطَعَ القولُ فيهِ بالمغفرةِ والرحمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ يُخَرَّجُ على الدعاءِ لهمْ وعلى الإخبارِ بالوحيِ أنهُ يَغْفِرُ لهمْ، أو قد غَفَرَ لهمْ، أو يقولُ: اسْتَغفِروا اللهَ [مِنَ][٢] الذي كانَ بَينَ اللهِ وبينَكُمْ يَغْفِرْ لكمْ ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنَّ كلَّ مَنْ يرحَمُ مِنَ الخلائقِ إنما يرحَمُ برحمةٍ منهُ إليهِ. فهو أرحمُ الراحمينَ بما قُلنا على ما قُلنا في قولِهِ: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] لأنَّ مَنْ يحكُمُ مِنَ الخلائقِ عليكُمْ إنما يحكُمُ بِحُكمٍ نالَهُ منهُ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ دلَّ هذا مِنْ يوسفَ حينَ[٣] قَطَعَ فيهِ القولَ: إنهُ يَصيرُ بصيراً أنهُ [بأمرِهِ][٤] ﷺ قالَ هذا لا عَنْ رأيٍ منهُ واجْتهادٍ إذْ قَطَعَ القولَ فيهِ: إنهُ إذا أُلقِيَ على وجهِهِ يَصيرُ بَصيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَصِيرٗا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحدُهما: [يَصيرُ][٥] ﴿بَصِيرٗا﴾ على ما ذَكَرْنا.

والثاني: يأتيني ﴿بَصِيرٗا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، حينَ[٦] أمَرَهُمْ أنْ يأتوا بأهلِهِمْ أجمَعَ أنْ يَبَرَّهُمْ، ويُكْرِمَهُمْ، حينَ تابوا عمّا فَعَلوا بهِ، وأقَرُّوا بالخَطَإِ في أمرِهِ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ قيلَ: خَرَجَتْ، وفَصَلَتْ، وانفَصَلَتْ واحدٌ ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: كانَ بَينَهما ثمانونَ[٧] فَرْسَخاً، تُعْبَرُ بَينَ مِصْرَ وبَينَ كنعانَ مكانِ يعقوبَ. وقيلَ: مَسيرةُ أيامٍ [قَدْرَ ما][٨] بينَ الكوفةِ والبصرةِ. ولا حاجةَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ: أنْ كمْ كانَ بَينَهُما سِوى أنّا نعلَمُ أنهُ كانَ بَينَهما مَسيرةُ أيامٍ.

ثم وَجَدَ يعقوبُ ريحَ يوسفَ مِنْ ذلكَ المكانِ، ولم يَجِدْ غَيرُهُ مِمَّنْ كانَ معهُ، فذلكَ آيةٌ مِنْ آياتِ اللهِ، حينَ[٩] وَجَدَ ريحَهُ مِنْ مكانٍ بعيدٍ، لم يَجِدْ ذلكَ غَيرُهُ. وذلكَ مِنْ آياتِ[١٠] البِشارةِ والسرورِ الذي يدخلُ فيهِ بقدومِهِ.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ذلكَ القميصُ هو مِنْ كُسْوَةِ الجنةِ، كانَ اللهُ كَساهُ إبراهيمُ إسحاقَ، وكَساهُ إسحاقُ يعقوبَ، وكساهُ [يعقوبُ][١١] يوسفَ. كذلكَ وَجَدَ ريحَهُ لأنهُ كانَ مِنْ ثيابِ الجنةِ. فهو، وإنْ ثبتَ ما قالوا، [أنهُ آيةٌ][١٢]، ولم يَجِدْ غَيرُهُ، وكانَ أيضاً هو لا يَجِدُ ذلكَ الريحَ قبلَ فُصولِ العِيرِ، وكانَ [ذلكَ القميصُ][١٣] معَ يوسفَ. احْتَمَلَ ما قالوا، أوِ احْتَمَلَ أنْ يكونَ قميصاً [مِنْ قُمُصِهِ][١٤] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قيلَ: تُخَرِّفونِ، وقيلَ: تُهَرِّمونِ، وقيلَ: تُكَذِّبونِ، وقيلَ: تُضْعِفونِ، وقيلَ: تُعَجِّزونِ، وقيلَ: تُجَهِّلونِ، وقيلَ: تُسَفِّهونِ، وقيلَ: تُحَمِّقونِ، وقيلَ: لولا أنْ تقولوا: ذهبَ عقلُكَ.

والمُفَنَّدُ معروفٌ عندَ الناسِ، هو الذي يَبْلُغُ في الكِبَرِ غايَتَهُ كقولِهِ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡلَآ﴾ إذا كانَ على الابتداءِ فهو على النَّهْيِ، أي لا تُفَنِّدونِ، وإذا كانَ على الخَبَرِ فهو على النَّفْيِ كقولِهِ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨] أي لم يَنْفَعْ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ثمانين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: أثار.
(١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: فذلك. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ هو ما ذكَرْنا أنهُ يمينٌ اعْتادوهُ في كلامِهِمْ على غَيرِ إرادةِ القسمِ بهِ ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ قيلَ: في حبِّ يوسفَ وذِكْرِهِ القديم. كانَ عندَهُمْ بأنهُ هالكٌ، لذلكَ[1] أنكَروا عليهِ، وخطَّؤوهُ في ما يَجِدُ مِنْ ريحِهِ، وعندَهُ أنهُ في الأحياءِ[2]. لذلكَ كانَ ما ذكَروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي رَجَعَ بصيراً على ما قالَ أهلُ التأويلِ: البشيرُ كانَ يهوذا، وقيلَ: البريدُ، ولا نَدري مَنْ كانَ. وليسَ بنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى أنَّ المدفوعَ إليهِ الثوبُ، كانَ واحداً، وإنْ قالَ في الابْتِداءِ: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ [الآية: ٩٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ذلكَ أنَّ يعقوبَ قالَ لهمْ قبلَ ذلكَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٨٦] أنتمْ مِنْ تصديقِ رؤيا يوسفَ، وأنهُ حيٌّ، وكانَ يعلَمُ هو منَ اللهِ أشياءَ [لا يعلمونَها][3].

الآيتان ٩٧ و٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوبُ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ طلبوا منْ أبيهِمُ الاسْتِغْفارَ، فأخَّرَ لهمْ[4] ذلكَ إلى وقتٍ[5]، وطلبوا مِنْ يوسفَ العفوَ، وأقرّوا لهُ بالخطإِ والذنبِ، فَعَفا[6] عنهم وقتَ سُؤالِهِمُ العفوَ.

فَمِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنما أخَّرَ يعقوبُ الاسْتِغفارَ، وعفا عنهمْ يوسفُ، لأنَّ قلبَ الشابِّ يكونُ ألْيَنَ وأرَقَّ مِنْ قَلْبِ الشيخِ، لذلكَ كانَ ما كانَ. لكنَّ هذا ليسَ بشيءٍ، إنما يكونُ هذا في عوامَّ مِنَ الناسِ.

أمّا الأنبياءُ، كلما مَضى وقتٌ فتزدادُ قلوبُهُمْ ليناً ورقَّةً وخُشوعاً.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: إنما كانَ كذلكَ لأنَّ وَجْدَ يعقوبَ كانَ أكثَرَ مِنْ وَجْدِ يوسفَ، لذلكَ كانَ أجابَهُمْ يوسفُ وقتَ سؤالِهِمُ العفوَ، وأخَّرَهُ[7] يعقوبُ إلى وقتٍ.

قالَ الشيخ أبو منصورٍ، رحمَهُ اللهُ: والوَجْهُ فيهِ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ إنما سألوا يعقوبَ، وطلبوا منهُ الاسْتِغْفارَ مِنْ ربِّهِمْ لِيكونَ لهمْ شفيعاً، فأخَّرَ ذلكَ إلى وقتِ الاسْتِغْفارِ والشفاعةِ؛ إذْ ليسَتْ[8] كلُّ الأوقاتِ تكونُ وقتاً لِلاسْتِغْفارِ. وطلبوا مِنْ يوسفَ العفوَ منهُ، فَعَفا وقتَ طلبِهِمْ منهُ العفوَ.

لهذا الوَجْهِ يَحْتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ معناهُ، واللهُ أعلَمُ، وأنْ يكونَ يعقوبُ أخَّرَ الاسْتِغفارَ لأنَّ الذنبَ في ذلكَ كانَ بَينَهُمْ وبَينَ ربِّهِمْ، وأخَّرَ [الاسْتِغفارَ][9] إلى أنْ يَجيءَ الإذنُ مِنْ ربِّهِ. وأمّا الذنبُ في يوسف [فهو][10] في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ يوسفَ، فَعَفا عنهمْ مِنْ ساعتِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إنِ اسْتَغْفَرْتُمْ أنتمْ، أو ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ إذا جاءَ وَقْتُهُ. فهو ما قالَ ابنُ عباسٍ ﵄ إنهُ أخَّرَهُ [إلى][11] وقتِ الاسْتِغفارِ إلى السَّحَرِ، أو أنْ يكونَ أخَّرَهُ إلى أنْ يُقَدِّمَ شيئاً بينَ يَدَيِ الاسْتِغفارِ والشفاعةِ ليكونَ أسرعَ إجابةً.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ظاهرُ هذا أنَّ يوسفَ كانَ تَلَقّاهُمْ خارجاً مِنَ المِصْرِ، فقالَ لهمْ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ثم لمّا دَخَلوا المِصْرَ آوَى إلى نفسِهِ أبوَيهِ، وضَمَّهُما إليهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قالَ لهمْ هذا القولَ وقتَ ما قالَ لهمْ: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الآية: ٩٣]. ثم[12] جاؤوا همْ،

---

(١) في الأصل وم: لذكر. (٢) في الأصل وم: الأخبار. (٣) في الأصل وم: ما لا يعلمون هم. (٤) في الأصل وم: هم. (٥) من م، في الأصل: الوقت. (٦) من م، في الأصل: ضعفا. (٧) في الأصل وم: وأخر. (٨) في الأصل وم: ليس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرج في الأصل وم قبلها قوله تعالى: و﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

ودَخلوا مِصْرَ، ضَمَّ إليهِ أبَوَيهِ، وأمْرُهُ[١] إياهُمْ أنْ يدخُلوا مِصْرَ آمِنِينَ لأنَّ المِصْرَ كانَ أهلُهُ أهلَ كُفْرٍ، فكأنهُمْ خافوا المَلِكَ الذي كانَ فيهِ، فَذَكَرَ لهمُ الأمنَ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ، وذِكْرُ الثُّنْيا فيهِ لأنهُ وَعْدٌ منهُ وَعَدَ لهمْ، والأنبياءُ ﷺ كانوا [لا][٢] يَعدونَ شيئاً إلّا ويَستثنونَ في آخِرِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ و٢٤] وإنما ذَكَرَ الثُّنْيا في الأمْنِ، لم يذكُرْهُ[٣] في الدخولِ، لأنَّ الدخولَ منهُ أمْرٌ، وما ذَكَرَ مِنَ الأمْنِ، فهو وَعْدٌ، فهو ما ذَكَرْنا أنهُ يُستَثْنى في الوَعْدِ، ولا يُستَثْنى في الأمرِ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ / ٢٥٨ ـ أ/ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ هو ما ذَكَرَ مِنْ رَفْعِهِ إياهما على العرشِ، وخَصَّ بالذكرِ[٤] أبويهِ بالرفعِ على العرشِ.

فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رَفَعَ أبوَيهِ وإخوتَهُ[٥] جميعاً لأنهُ لو لم يرفَعْهُمْ، وقد كانَ قد عَفا عنهُمْ لمّا أقَرّوا بالخَطَإِ، وقالَ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الآية: ٩٢] لكانَ يقعُ عندَهمْ أنهُ قد بقيَ شيءٌ ممّا كانَ منهُمْ إليهِ. لكنهُ خَصَّ أبوَيهِ بالذكرِ منهُمْ، ومَجَّدَهُما، على ما يُخَصُّ الأشرافُ والأعاظمُ نَحْوَ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [هود: ٩٦ و٩٧] ونَحْوَهُ.

ودلَّ رفعُ أبَويهِ على العرشِ على أنَّ اتِّخاذَ العرشِ والجلوسِ عليهِ لا بأسَ بهِ؛ إذ لو كانَ لا يَحِلُّ، ولا يُباحُ ذلكَ لكانَ يوسفُ لا يَتَّخِذُهُ، ولا كانَ يعقوبُ يَجْلِسُ عليهِ. دلَّ ذلكَ منهُما أنَّ ذلكَ مباحٌ، لا بأسَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: كانَتْ تَحِيَّتُهُمْ يومئذٍ في ما بينهُمُ السجودَ [يَسْجُدُ][٦] بَعضُهُمْ لبعضٍ مَكانَ ما يُسَلِّمُ بعضُنا على بعضٍ. وأمّا اليومَ فهو غيرُ مُباحٍ، وإنما التحيَّةُ في السلامِ. لكنَّ السجودَ لِدونِ اللهِ ليسَ يُكْرَهُ لِنَفْسِ السجودِ، وإنما يُكْرَهُ، ويُنْهَى عمّا في السجودِ، وهو العبادةُ.

والتَّسَفُّلُ لا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَجْعَلَ العبادةَ والتَّسَفُّلَ لهُ دونَ اللهِ. وأمّا نفسُ السجودِ فإنهُ كالقيامِ والقعودِ وغيرِهِ مِنَ الأحوالِ يكونُ فيها المرادُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي خَرّوا لهُ خاضِعينَ لهُ ذليلِينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي خَرّوا لهُ سُجَّداً شُكراً لهُ لِما جَمَعَ بينهُمْ، ورفَعَ ما كانَ بينهُمْ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي حَقَّقَ تلكَ الرؤيا التي رأيتُها مِنْ قَبْلُ، وجَعَلَها صِدْقاً. رأى يوسفُ رؤياهُ [فَتَحقَّقَتْ][٧] بعدَ حينٍ ووقْتٍ وزمانٍ طويلٍ.

فهذا يدلُّ أنَّ الخِطابَ إذا قَرَعَ السمعَ يجوزُ أنْ يأتيَ بَيانُهُ[٨] مِنْ بعدِ حينٍ وزمانٍ، ويجوزُ أن يكونَ مقروناً بهِ. وليسَ في تأخُرِ بيانِ الخطابِ تَلْبيسٌ ولا تَشبيهٌ على ما قالَ بعضُ الناسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يَقُلْ: سُجِنْتُ، وحُبِسْتُ، وأمثالَهُ ممّا كانَ ابتلاهُ اللهُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ قيلَ: مِنَ الباديةِ لأنهمْ كانوا أهلَ باديةٍ أصحابَ المواشي.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَزَغَ أي فَرَّقَ؛ بَعْدَ ما فَرَّقَ بَيني وبَينَ إخوتي. وكانَ النزغُ هو الإفسادَ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ؛ أي بَعْدَ ما أفْسَدَ الشيطانُ بَيني وبَينَ إخوتي. وأضافَ ذلكَ إلى الشيطانِ لِما كانَ قالَ لهمْ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الآية: ٩٢] حينَ أقَرّوا لهُ بالفَضْلِ والخَطَإِ في فِعْلِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لطيفٌ هو اسمٌ لِشَيئَينِ:

[أحدُهما:][٩] اسمُ البِرِّ والعطفِ. يُقالُ: فلانٌ لطيفٌ أي بارٌّ عاطفٌ.

---

(١) في الأصل وم: وأمرهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يذكر. (٤) في الأصل وم: يذكر. (٥) في الأصل وم: والإخوة.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بنانه. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الثاني: يُقالُ: لطيفٌ أي عالمٌ بما يلطُفُ مِنَ الأشياءِ، ويَصْغُرُ كما يَعْلَمُ بما يعظُمُ، ويَجْسُمُ، أو يقالُ: لطيفٌ أي يَعلَمُ المستورَ مِنَ الأمورِ الخفيَّةِ على الخَلْقِ كما يَعْلَمُ الظاهِرَةَ منها والبادية، لا يَخْفى عليهِ شيءٌ، ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

يقالُ: إنهُ عظيمٌ ولطيفٌ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ يُفْهَمُ من عِظَمِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ عِظَمِ الخَلْقِ؛ إذ لا يجوزُ في [أحدٍ مِنَ][1] الخَلْقِ أنْ يكونَ عظيماً لطيفاً، ويجوزَ في اللهِ لِيُعْلَمَ أنَّ ما يُفْهَمُ مِنْ هذا غيرُ ما يُفْهَمُ مِنَ الآخرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بما كانَ، ويكونُ، وما ظَهَرَ، وما بَطَنَ، وما يُسَرُّ، وما يُعْلَنُ، وبكلِّ شيءٍ عليمٌ: بعواقبِ الأمورِ وبدايتِها ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ حَكَمَ بِعِلْمٍ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ، لم يحكُمْ بِجَهْلٍ ولا غَفْلَةٍ ولا سَفَهٍ على ما يحكُمُ الخَلْقُ. تعالى اللهُ عنْ ذلكَ عُلُوّاً كبيراً.

ثلاثُ آياتٍ في سورةِ يوسفَ على المعتزلَةِ: قولُهُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [الآية: ٣٣] أخبرَ أنهُ لو لم يَصْرِفْ عنهُ[2] كيدَهُنَّ مالَ إليهِنَّ، وهمْ يقولونَ: قد صَرَفَ عنْ كلِّ أحدٍ السوءَ والكيدَ، لكنْ لم يَصْرِفْ عنهُ.

كذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [الآية: ٥٣] أخبَرَ [أنهُ][3] إذا رَحِمَهُ امْتَنَعَ عنِ السوءِ والأمرِ بِهِ، وهمْ يقولونَ: إنهُ، وإنْ رَحِمَهُ[4]، لا يَمْتَنِعُ عنِ السوءِ ولا الأمرِ بهِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [الآية: ٥٦] وهم يقولونَ: ليسَ لهُ أنْ يُصيبَ أحداً دونَ أحدٍ مِنْ رحمتِهِ، ولا أنْ يَخُصَّ أحداً بذلكَ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ذَكَرَ ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ لأنهُ لم يُؤْتِهِ كلَّ المُلْكِ، إذْ كانَ فوقَهُ مَلِكٌ أكبرُ منهُ. لكنْ لا لهذا ذَكَرَ ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ إذْ معلومٌ أنهُ لم يُؤْتِ لأحدٍ كلَّ مُلْكِ الدنيا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ويكونُ في وقتٍ واحدٍ ملوكٌ.

وقالَ مُقاتلٌ: مِنْ صلةٌ؛ كأنهُ قالَ: ربِّ قد آتيتني الملكَ[5].

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ قَدَّمَ [على دعائِهِ وسؤالِهِ][6] ربَّهُ ما سألَ إحسانَهُ إليهِ ومحامِدَهُ وصَنائِعَهُ ليكونَ ذلكَ لهُ وسيلةً إلى ربِّهِ في الإجابةِ.

وفي ذلكَ دلالةُ نقضِ قولِ المعتزلةِ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: يقولونَ: إنَّ كُلَّ أحدٍ، شفيعُهُ عملُهُ، فيوسفُ لم يذكُرْ ما كانَ منهُ أني فعلْتُ كذا، فافعلْ بي كذا، ولكنْ ذَكَرَ نِعَمَ اللهِ وإحسانَهُ إليهِ.

والثاني: مِنْ قولِهِمْ: إنهُ لا يؤتي أحداً مُلْكاً ولا نُبُوَّةً إلّا بعدَ الاستِحْقاقِ، ومِنْ قولِهِمْ: إنَّ كلَّ أحدٍ هو المتعلِّمُ، لا[7] أنَّ اللهَ يُعَلِّمُ أحداً. وقد أضافَ يوسفُ التعليمَ إلى اللهِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وهمْ يقولونَ: لم يُعَلِّمْهُ، ولكنْ هو تَعَلَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: تعبيرُ الرؤيا، ولكنَّ الأحاديثَ، هي الأنباءُ، والتأويلُ هو علمُ العاقبةِ، وعلمُ ما يَؤولُ إليهِ الأمرُ؛ كأنهُ قالَ: عَلَّمْتَني مُسْتَقَرَّ الأنباءِ ونهايتَها كقولِهِ تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عني. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: رحم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: دعاءه سؤاله. (٧) من م، في الأصل: إلا. (٨) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كأنهُ على النداءِ والدعاءِ ذَكَرَ؛ يا فاطرَ السمواتِ والأرضِ، لذلكَ انْتَصَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: أنتَ وَلِيُّ نعمتي في الدنيا والآخِرَةِ كما يُقالُ: فلانٌ وَلِيُّ نِعمةِ فلانٍ. ويَحْتَمِلُ: أنتَ أولَى بي في الدنيا والآخرة، أو أنتَ ربي وسَيِّدي في الدنيا والآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تَمَنَّى ﷺ التَّوَفِّيَ على الإسلامِ والإخلاصَ للهِ[1] والإلحاقَ بالصالِحينَ. فهو، واللهُ تعالى أعلَمُ بذلكَ، أنَّ اللهَ قد آتاهُ النهايةَ في الشرفِ والمجدِ في الدنيا دِيناً ودُنيا لأنَّ نهايةَ الشرفِ في الدينِ، هي النُّبُوَّةُ والرسالةُ، ونهايةَ الشرفِ في الدنيا المُلْكُ، فأحَبَّ لهُ أنْ يكونَ لهُ في الآخرةِ مِثْلُهُ، فقالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ سؤالُهُ أنْ يُلحِقَهُ بالصالِحينَ بكلِّ صالحٍ، ويَحْتَمِلُ أنهُ سألَهُ أنْ يُلْحِقَهُ بالصالِحينَ بآبائِهِ وأجدادِهِ وبجميعِ الأنبياءِ والرسلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هو يَنْقُضُ على المعتزلةِ أيضاً لأنَّ مِنْ[2] قولِهِمْ: أنهُ أعْطَى كلَّ أحدٍ، ليسَ لهُ ألَّا يَتوفّاهُ مسلماً؛ فيكونُ في دعائِهِ عابثاً على قولِهِمْ: لا يملِكُ أنْ يَتَوَفّاهُ مسلماً لأنَّ مِنْ قولهِمْ: أنهُ أعْطَى كلَّ أحدٍ ما بهِ يكونُ مؤمناً حتى لم يُبقِ عندَهُ شيئاً، ومَنْ سألَ /٢٥٨ ـ ب/ آخرَ شيئاً، يَعْلَمُ أنهُ ليسَ عندَهُ، فهو يَهْزَأُ بهِ، أو يكونُ كاتماً[3] النعمةَ، وفي كِتمانِ النعمةِ كُفرانُها.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الآية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي خَبَرُ يوسفَ وإخوتِهِ، وقَصَصُهُمُ التي قَصَصْنا عليكَ، وأخبَرْناكَ، مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ لم تَشْهَدْها أنتَ، ولم تَحْضُرْها لقولِهِ: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩] لِيُعْلَمَ أنكَ إنما عَلِمْتَ، وعَرَفْتَها، باللهِ وحْياً، لِيَدُلَّهُمْ على رسالتِكَ ونُبُوَّتِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بأبيهِمْ وأخيهِمْ. أمّا مَكْرُهُمْ بأبيهِمْ [فهو حينَ][4] ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [الآية: ١١] أخبروهُ أنهمْ لهُ ناصِحونَ، فخانوهُ، ومَكْرُهُمْ بأخيهِمْ حينَ[5] قالوا ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الآية: ١٢] ضَمِنوا لهُ الحِفْظَ، فلم [يَحْفَظوهُ، بل مَكَروا بهما][6] جميعاً. والمَكْرُ هو الاِحْتِيالُ في اللغةِ والأخذُ على جِهَةِ الأمنِ، [وقد فَعَلوهُ][7] بأبيهِمْ يعقوبَ وأخيهِمْ يوسفَ عليهما السلام.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي ما أكْثَرُ الناسِ بمؤمنينَ، ولو حَرَصْتَ يا محمدُ أنْ يكونوا مؤمنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] كانَ النبيُّ ﷺ بَلَغَ مِنْ شَفَقَتِهِ ورحْمَتِهِ على الخَلْقِ ورغْبَتِهِ في إيمانِهِمْ حتى كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ في ذلكَ [حتى قالَ لهُ][8] ﷻ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦، والشعراء: ٣] وقالَ[9]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] [وقالَ:][10] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧].

كانَ حِرْصُهُ على إيمانِهِمْ بَلَغَ ما ذُكِرَ حتى خَفَّفَ ذلكَ عليهِ بهذهِ الآيةِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يعني أهلَ مكةَ ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهمْ كذلكَ كانوا؛ كانَ أكْثَرُهُمْ غيرَ مؤمنينَ، وأهلُ مكةَ وغيرُهُمْ سَواءٌ، كلُّهُمْ كذلكَ كانوا.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على ما تُبَلِّغُ إليهِمْ، وتدعوهُمْ الى طاعةِ اللهِ وجَعْلِ العبادةِ لهُ وتوجيهِ الشكرِ إليهِ، لا تَسْألُهُمْ على ذلكَ أجراً. فما الذي يَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابةِ لكَ والاِئْتِمارِ بأمرِكَ؟

---

(١) في الأصل وم: بالله. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: كتمان. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: يحفظوا مكروا بها. (٧) في الأصل وم: قد فعلوا هم، في م: وقد فعلوا هم. (٨) في الأصل وم: حيث قال. (٩) في الأصل وم: وقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

هذا يدلُّ أنهُ لا يجوزُ أخذُ الأجرِ على الطاعاتِ والعباداتِ [حينَ نَهاهُ، وأمَرَهُ أنْ](1) لا يَسألَهُمْ على ما يُبَلِّغُهُمْ(2) أجراً، وهو لم يَتَوَلَّ تبليغَ جميعِ ما أُمِرَهُ(3) بتبليغِهِ بنفسِهِ إلى الخَلْقِ كافةً بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية [سبإ: ٢٨] ولكنَّهُ [تَوَلَّى التبليغَ إلى البعضِ، وَوَلَّى البعضَ غيرَهُ بقولِهِ ﷺ](4): «ألا فَلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ» [البخاري: ١٠٥].

[فإنهُ إذاً](5) لم يُجِزْ لهُ أخذَ الأجرِ في ما يُبَلِّغُ هو فالذي كانَ مأموراً أنْ يُبَلِّغَ عنهُ أيضاً لا [يُجيزُ لهُ](6) أنْ يأخذَ الأجرَ [على](7) ما يُبَلِّغُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وجهانِ:

أحدُهما: أنهُ ليسَ يَسألُهُمْ على الذي يُبَلِّغُهُ، ويَدْعُوهُمْ [إليهِ](8) أجراً، حتى يَمْنَعَ بَذْلَ ذلكَ وثِقَلَهُ عنِ الإجابةِ.

والثاني: إخبارٌ أنْ ليسَ لهُ أنْ يأخذَ، وأنْ يَجْمَعَ مِنَ الدنيا شيئاً كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية [الحجر: ٨٨].

ومعلومٌ أنهُ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا﴾ لا يَحِلُّ، فيكونُ النهيُ [عَنْ أخذِ غيرِ](9) المباحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هذا القرآنُ الذي تُبَلِّغُهُمْ ليسَ إلا ذِكْرَى للعالَمينَ، وهو عِظَةٌ للعالَمينَ، أو هو نفسُهُ عِظَةٌ وذِكْرٌ للعالَمينَ؛ أعني النبيَّ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي شَرَفٌ وذِكْرَى لِمَنِ اتَّبَعَهُ، [وقام بهِ](10)، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وقولِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] أي مَنْفَعَةً لِمَنِ اتَّبَعَهُ، فَعَلَى ذلكَ هذا.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ الآية؛ أي كَمْ من آيةٍ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال بعضُ أهلِ التأويلِ: الآياتُ التي في السماءِ: الشمسُ والقمرُ والنجومُ والسحابُ وأمثالُها(11)، والآياتُ التي في الأرضِ: مِنْ نَحْوِ الجبالِ والأنهارِ والبحارِ والمَدايِنِ ونَحْوِها. لكنَّ السماءَ نفسَها آيةٌ، والأرضَ نفسَها وما يَخرُجُ منها آيةٌ مِنَ النباتِ ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي هم عنها مُعْرِضونَ عمّا جُعِلَتْ هُنَّ آياتٍ لأنها إنما جُعِلَتْ آياتٍ لِوَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ. فهمْ عمّا جُعِلَتْ هُنَّ مِنْ آياتٍ مُعْرِضونَ، وباللهِ الهدايةُ والعِصْمةُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي كَمْ مِنْ دليلٍ وعلامةٍ على وَحْدانيَّةِ اللهِ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: آياتُ السماءِ ما ذَكَرْنا مِنْ نَحْوِ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ، وآياتُ الأرضِ مِثْلُ(12) آياتِ الأممِ التي أُهلِكوا مِنْ قَبْلُ مِنْ نَحْوِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وغيرِهِمْ مِمَّنْ قد أُهلِكوا ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويَرَونها، ولا يَتَّعِظونَ بهِمْ.

والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهمْ مُعْرِضونَ عمّا جُعِلَتْ تلكَ آياتٍ، وإنما جُعِلَتْ آياتٍ لِوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وأُلوهيَّتِهِ، أو مُعْرِضونَ عنِ التَّفَكُّرِ فيها والنَّظَرِ إعراضَ مُعانَدَةٍ ومُكابَرَةٍ.

ثم يَحْتَمِلُ الإعراضُ وجهَينِ:

أحدُهما: أعْرَضوا أي لم يَنْظُروا فيها، ولم يَتَفَكَّروا، لِيَدُلَّهُمْ على وَحْدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ، وهو إعراضٌ عنها.

والثاني: نَظَروا، وعَرَفوا أنها آياتٌ لِوَحْدانيَّتِهِ، لكنهُمْ أعرَضوا مُكابِرينَ مُعانِدينَ: ليسَ في السموات ولا في الأرضِ شيءٌ، وإنْ لَطُفَ، إلّا وفيهِ دلالةٌ على وَحْدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

---

(1) في الأصل وم: حيث نهى وأخبر أنه. (2) في الأصل وم: يبلغ إليهم. (3) في الأصل وم: أمر. (4) في الأصل وم: ولى بعضه غيره كقوله تعالى. (5) في الأصل وم: فإذا. (6) في الأصل وم: يجوز. (7) ساقطة من الأصل وم. (8) ساقطة من الأصل وم. (9) في الأصل وم: من أخذ. (10) في الأصل وم: وما قام. (11) في الأصل وم: وأمثاله. (12) في الأصل وم: فمثل.

أحدُهما: [إشراكٌ][١] في الاعتِقادِ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ بأنهُ الإلهُ، وهمْ مُشرِكونَ الأصنامَ والأوثانَ في التَّسْمِيَةِ، حينَ[٢] سَمَّوها آلِهةً كقولِهِ تعالى ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ إلّا اللهِ ﴿كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

والثاني: إشراكٌ في الفِعلِ أي ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ ﷻ إلّا وهمْ عَبَدوا غيرَهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، أو يكونُ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ تعالى بلسانِهِمْ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بقلوبِهِمْ، أو يقولُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ في النعمةِ أنها مِنَ اللهِ ﷻ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في الشكرِ لهُ تعالى.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كيفَ أمِنوا أنْ يأتِيَهُمْ عذابُ اللهِ ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وقد سَمِعوا بإتيانِ العذابِ بمَنْ قبلَهُمْ وهلاكِهِمْ، وقد جاءَ ما يُخَوِّفُهُمْ إتيانَ الساعةِ، وخافوا [بها؟ ولو][٣] لم يَعْلَموا بها حقيقةً لَما تَركوا العِلْمَ بها تَرْكَ[٤] مُعانَدةٍ ومكابرةٍ لا تَرْكَ مَنْ[٥] لم يُبَيَّنْ لهمْ. ومَنْ لم يأتِ لهُ التخويفُ والإعلامُ؟

[وقولُهُ تعالى][٦]: ﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ، رَحِمَهُ اللهُ: أي مُجَلِّلَةٌ تَغْشاهُمْ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] وهو ما يأتيهِمْ مِنَ العذابِ، أي عذابٌ مِنْ عذابِ اللهِ ﷻ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] يَجِبُ أنْ يكونَ أهلُ الإسلامِ مُعْتَبِرينَ بقولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ وكذلكَ بقولِهِ: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وإنْ كانتِ الآياتُ نَزَلَتا فيهِمْ لأنهمْ يَمُرّونَ بما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ، ولا يَعْتَبِرونَ بما ذُكِرَ، ليكونوا[٧] آمنينَ/ ٢٥٩ - أ/ مِنْ غاشِيَةٍ مِنْ عذابِ اللهِ، سبحانَهُ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قيلَ: السبيلُ يُؤَنَّثُ، ويُذَكَّرُ، وتَحْتَمِلُ هذهِ الطاعةَ أو العِبادةَ للهِ تعالى. يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ التي أنا عليها، ويَحْتَمِلُ ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ التي أدعوكُمْ ﴿إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ البصيرةُ العِلْمُ والبَيانُ والحُجَّةُ النَّيِّرَةُ، أي هذِهِ سَبيلي التي أنا أدعوكُمْ إليها، إنما أدعوكُمْ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على عِلْمٍ وبَيانٍ وحُجَّةٍ قاطعةٍ وبُرهانٍ نَيِّرٍ ليسَ كسائِرِ الأديانِ التي يُدْعَى إليها على الهَوَى والشهوةِ بغيرِ حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أيضاً فإنما يدعونَكُمْ[٨] أيضاً على حُجَّةٍ وبُرْهانٍ؛ إذْ مَنْ يُجيبُني فإنما يُجيبُ على بَصيرةٍ وبيانٍ وحُجَّةٍ.

[وقولُهُ تعالى][٩]: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قيلَ: هذِهِ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهاً لِما قالوا أو تَبْرِئَةً عمّا قالوا في اللهِ بما لا يَليقُ بهِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في الوهيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ غيرَهُ، أو في عبادتِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ ذَكَرَ رجالاً، واللهُ أعلَمُ؛ أي لم نَبْعَثْ رسولاً مِنْ قَبْلُ إلا بَشَراً، لم نبعَثْ مَلَكاً ولا جِنّاً، فكيفَ أنكَرْتُمْ رسالةَ محمدٍ [بِعِلَّةِ][١٠] أنهُ بَشَرٌ؟

ولم يَرَوا رسولاً مِنْ قَبْلُ [ولم يَسْمَعوا إلّا مِنَ][١١] البَشَرِ لِقولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وكقولِهِ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

هذا، واللهُ أعلَمُ، ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مِثْلَكَ بَشَراً لا مَلَكاً ولا جِنّاً، أو ذَكَرَ رجالاً لأنهُ لم يَبْعَثِ امرأةً رسولاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي إنما أرسَلَ جُمْلَةً مِنْ أهلِ الأمصارِ والمُدُنِ، لم يَبْعَثْهُمْ[١٢] مِنْ أهلِ البوادي وأهلِ البراري [وإنما أرادَ بالقُرَى][١٣] الأمصارَ والبنيانَ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢] قيلَ: هي مكةُ. وجميعُ[١٤] ما ذَكَرَ في القرآنِ مِنَ القريةِ والقُرَى

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: عنها وأن. (٤) في الأصل وم: نزل. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وكذلك يكونون. (٨) في الأصل وم: يدعوكم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: ولا سمعوا إلا به. (١٢) في الأصل وم: يبعثوا. (١٣) في الأصل: ولقرى، في م: إنما يريد. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

يريدُ بهِ الأمصارَ والمُدُنَ. وإنما بَعَثَ الرسلَ والأنبياءَ مِنَ الأمصارِ، ولم يَبْعَثْهُمْ مِنَ البَوادي ومِنْ أهلِ البراري لِوَجهَين، واللهُ أعلَمُ:

أحَدُهما: لأنَّ لأهلِ الأمصارِ والمُدُنِ اختِلاطاً بأصنافِ الناسِ وامْتِزاجاً بأنواعِ الخَلْقِ، ويكُونُ لهمْ تَجارِبُ بالخَلْقِ. فهمْ أعقَلُ وأحلَمُ وأبْصَرُ مِنْ أهلِ الباديةِ والبَرِّيَّةِ؛ إذِ اختِلاطُهُمْ وامْتِزاجُهُمْ إنما يكونُ [بالماشيةِ وأنواعِ البهائِمِ][1]، لِذلكَ بُعِثوا مِنَ الأمصارِ دونَ الباديةِ.

وبَعْدُ فإنَّ الرسُلَ يكونُ لهمْ أسبابٌ وأعلامٌ تَتَقَدَّمُ عنْ وقتِ الرسالةِ، ويُحتاجُ[2] إلى أنْ يَظْهَرَ ذلكَ لِلْخَلْقِ لِيكونَ ذلكَ أسْرَعَ إلى الإجابةِ لهمْ وأدْعَى وأنْفَذَ إلى القَبولِ. فإذا كانوا مِنْ أهلِ البوادي لا يَظْهَرُ ذلكَ في الخَلْقِ.

والثاني: لأنهُ[3] يرادُ مِنَ الرسالةِ إظهارُها في الخَلْقِ في الآفاقِ والأطرافِ، والأمصارُ والمُدُنُ هي الأمكنةُ التي يَنْتابُ الناسُ إليها في التجارةِ[4] وأنواعِ الحوائجِ مِنَ الآفاقِ والأطرافِ، فيظهَرُ ذلكَ فيها، وفي أهلِ الآفاقِ والبوادي والبَراري ليسَ يدخُلُها، ولا يَنْتابُ إليها إلّا الشاذَّةُ مِنَ الناسِ، ولا تُقْضى فيها الحوائجُ، فلا تَظْهَرُ في الخَلْقِ الرسالةُ وما يُرادُ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي لم يَنْظُروا، ولم يَتَفَكَّروا في مَنْ هَلَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الأُمَمِ بتكذيبِهِمُ الرسُلَ أنْ كيفَ كانَ عاقِبَتُهُمْ بالتكذيبِ في الدنيا لِيَمْتَنِعوا عنْ تكذيبِ رسولِهِمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي قد ساروا، ونَظَروا كيفَ كانَ عاقبةُ المُكَذِّبينَ، لكنهمْ عانَدوا، ولم يَعْتَبِروا.

والثاني: أي سيروا في الأرضِ، وانْظُروا، ولكنْ ليسَ على نَفْسِ السيرِ في الأرضِ، ولكنْ على السؤالِ عمّا نَزَلَ بأولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشِّرْكَ أو خِلافَ اللهِ ورسولِهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ ذلكَ أفضَلُ وأخيَرُ مِمَّنْ لم يَتَّقِ ذلكَ[5]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ وكُذِّبوا كلاهُما لُغَتانِ[6].

قالَ بعضُهُمْ: أيِسَ الرسُلُ مِنْ إيمانِ قومِهِمْ وعنْ تصديقِهِمُ الرسلَ. ثم يَحْتَمِلُ اسْتِيآسُهُمْ مِنْ إيمانِهِمْ لِكثرةِ ما رَأَوا مِنِ اعْتِنادِهِمُ الآياتِ وتفريطِهِمْ بِرَدِّها[7]، أيِسُوا مِنْ إيمانِهِمْ، وكانَ إياسُهُمْ بالخَبَرِ عنِ اللهِ أنهمْ لا يؤمنونَ كقولِهِ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ الآية [هود: ٣٦] وأمثالِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قالَ بعضُهُمْ: وظَنَّ[8] الرسُلُ أنَّ أتباعَهُمْ قد كَذَّبوهمْ لِكثرةِ ما أصابَهُمْ مِنَ الشدائدِ، وطالَ عليهِمُ البلاءُ، واسْتَأخَرَ النصرُ، فَوَقَعَ عندَ الرسلِ أنَّ أتباعَهُمْ قد كَذَّبُوهُمْ لِكثرةِ ما أصابَهُمْ، وإنْ كانَ مِنَ الأعداءِ، فقدِ اسْتَيْقَنَ الرسُلُ أنهمْ قد كَذَّبُوهُمْ.

ورُوِيَ عنْ عُرْوَةَ بنِ الزبيرِ أنهُ سألَ عائشةَ؛ قالَ: قُلْتُ[9] أرأيتِ قولَ اللهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؟ قالَ: فقالَتْ[10]: بل كَذَّبَهُمْ قومُهُمْ، قالَ: فَقُلْتُ[11] أرأيتِ قولَ اللهِ: ﴿حَتَّىٰ﴾ واللهِ لقدِ اسْتَيقَنوا أنَّ قومَهُمْ قد كَذَّبوا، وما هو بالظَّنِّ. فقالَتْ: يا عُرْوَةُ لقدِ اسْتَيقَنوا بذلكَ. قالَ: فَقُلْتُ[12]: فَلَعَلَّهُمْ ظَنوا أنهُمْ قَدْ كُذِبوا، قالَتْ[13] معاذَ اللهِ، لم تكنِ الرسُلُ لِتَظُنَّ ذلكَ بربِّها [قُلْتُ: فما][14] هذهِ الآيةُ؟ قالَتْ: هُمْ أتباعُ الرسلِ الذينَ آمَنوا بربِّهِمْ،

---

(١) في الأصل: الماشية وأنواع، في م: بالماشية في أنواع. (٢) في الأصل وم: يحتاج. (٣) في الأصل وم: أنه. (٤) في الأصل وم: التجارب. (٥) في الأصل وم: بذلك. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ١٩٧. (٧) من م، في الأصل: وردوها. (٨) من م، في الأصل: وظنوا. (٩) في م: فقلت. (١٠) في الأصل وم: فقال. (١١) في الأصل وم: قلت. (١٢) في الأصل وم: قلت. (١٣) في الأصل وم: قال. (١٤) في الأصل وم: وما.

وصَدَّقوهُمْ، وطالَ عليهِمُ البلاءُ، واستأخرَ عنهُمُ النصرُ، حتى إذا استيأسَتِ الرسلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قومِهِمْ، وظَنّوا أنَّ أتباعَهُمْ قدْ كَذَّبُوهُمْ، جاءَهُمْ نَصْرُ اللهِ عندَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ مِنْ إيمانِ قومِهِمْ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ وظَنَّ قومُهُمْ أنَّ الرسُلَ قد كُذِبوا في ما وَعَدوا مِنَ العذابِ أنهُ نازلٌ لمّا أبْطأَ عليهِمُ العذابُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ﴾ أي ظَنَّ قومُهُمْ أنَّ رسُلَهُمْ قد كَذَّبوهُمْ خَبَرَ السماءِ ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾.

فإنْ كانَتِ[1] الآيةُ في أتباعِ الرسُلِ على ما ذَكَرَ بعضُهُمْ فهو كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤] وإنْ كانَتْ في غيرِهِمْ مِنَ المُكَذِّبينَ فقد جاءَ الرسلَ نَصْرُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ مِنَ المؤمنينَ. فهو في ظاهِرِهِ خَبَرٌ على المستَقْبَلِ أنهُ يُنَجّي مَنْ يَشاءُ مِنْ هؤلاءِ المؤمنينَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على الخَبَرِ في أُولئكَ. فإنْ كانَ على هذا [فإنهُ يَجيءُ][2] أنْ يكونَ نَجّينا مَنْ نَشاءُ منهُمْ، [وأهْلَكْنا مَنْ نشاءُ منهُمْ][3] لكنْ يجوزُ هذا في اللغةِ، أو يكونُ في الآخِرَةِ؛ نُنَجّي مَنْ نَشاءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي لا يُرَدُّ عذابُنا إذا نَزَلَ عنِ المجرِمِينَ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿فِي قَصَصِهِمۡ﴾ قصةَ يوسفَ وإخوتِهِ ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ويَحْتَمِلُ قَصَصَ الرسُلِ والأُمَمِ السالفةِ جَميعاً ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ والاعْتِبارُ إنما يكونُ لِأولي الألبابِ الذينَ يَنْتَفِعونَ بِلُبِّهِمْ وعَقْلِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ: أي ما حديثُ محمدٍ ﷺ وما أخْبَرَ مِنَ القَصَصِ وأخبارِ الرسلِ والأُمَمِ السالفةِ بالذي افْتَرَى، بل إنما أخْبَرَ ما كانَ في الكُتُبِ السالفةِ على غَيْرِ تَعَلُّمٍ منهُ ولا دراسةٍ. ويَحْتَمِلُ ما كانَ هذا القرآنُ بالذي يُقْدَرُ /٢٥٩ ـ ب/ أنْ يُفْتَرَى

[وقولُهُ تعالى]:[4] ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي [هذا القرآنُ][5] الذي نزلَ على رسولِ اللهِ [تَصْديقُ][6] الكتُبِ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي تفصيلَ ما للناسِ حاجةٌ إليهِ[7] ﴿وَهُدٗى﴾ مِنَ الضلالةِ لِمَنِ اهْتَدَى ﴿وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

وفي ما ذَكَرَ مِنْ قصةِ يوسفَ وإخوَتِهِ على رسولِ اللهِ دلالةُ التصبيرِ [لهُ][8] على أذَى قُرَيْشٍ؛ يقولُ: إنَّ إخوةَ يوسفَ مع مُوافَقَتِهِمْ إياهُ في الدينِ والنَّسَبِ والمُوالاةِ عَمِلوا بيوسفَ ما عَمِلوا مِنَ الكيدِ والمَكْرِ به. فقومُكَ مع مُخالَفَتِهِمْ إياكَ في الدينِ أحْرَى أنْ تَصْبِرَ على أذاهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: فيجيء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: تصديق.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: إليهم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

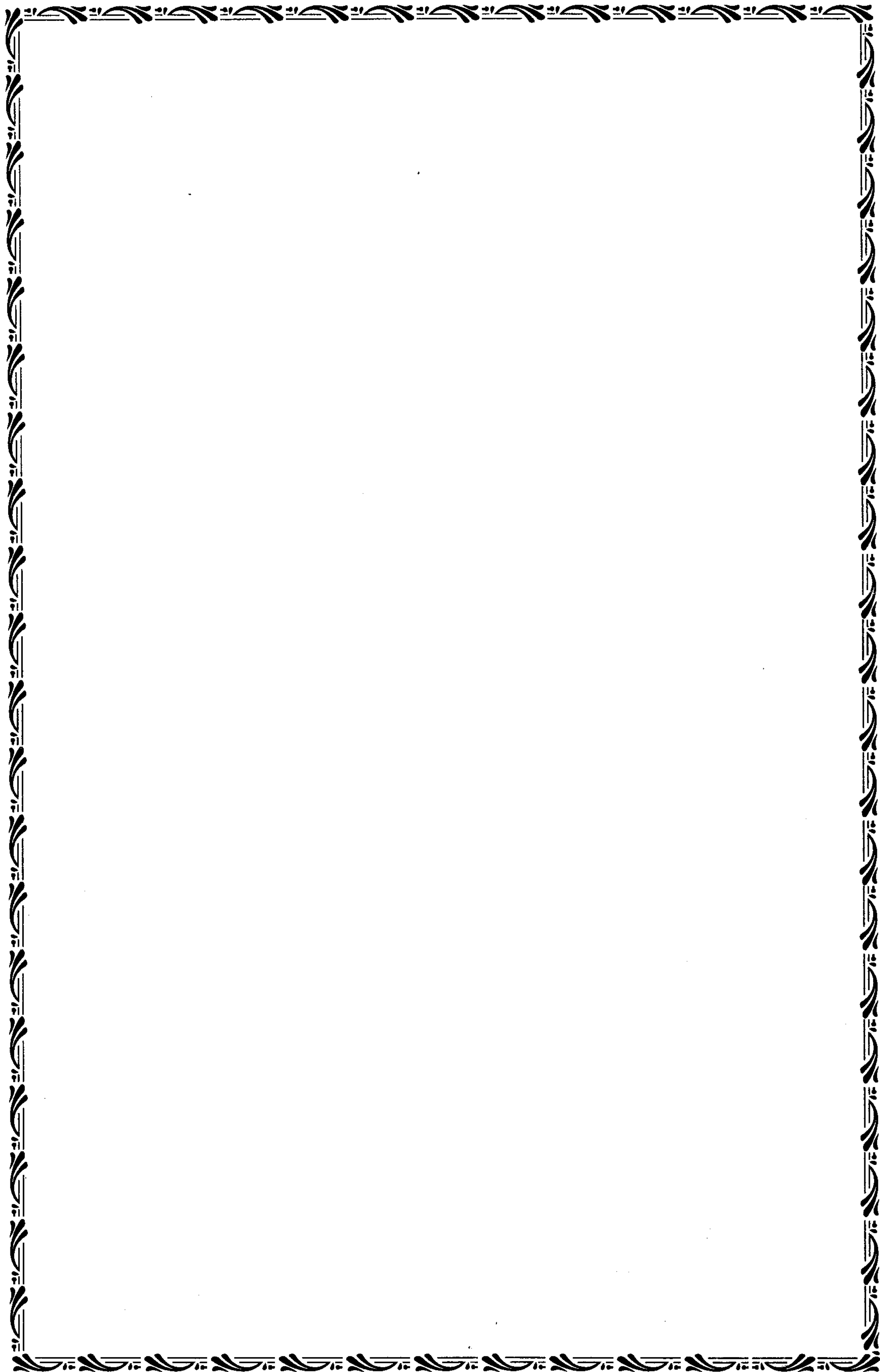

سورة الرعد

ذكر أنها مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهُما:][١] يَحتمِلُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿الٓمٓرۚ﴾ كِنايةً عنِ الأحرفِ المُقطَّعةِ المُعجَمةِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ تفسيرَ ﴿الٓمٓرۚ﴾ هذا هو الظاهرُ أنْ يقالَ في كلِّ الحروفِ المُعجَمةِ والمُقطَّعةِ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ بَعدِها على إثرِها كانَ تفسيراً لها.

والثاني: يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿الٓمٓرۚ﴾ كنايةً عنِ الحججِ والبراهينِ وسائرِ الكتبِ جَعَلْناها آياتِ القرآنِ وحُجَجَهُ وقد ذَكَرْنا القولَ في الحروفِ المُقطَّعةِ في ما تقدَّمَ.

[ثم][٢] اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ التوراةُ والإنجيلُ وسائرُ الكتبِ المتقدمةِ، وقولُهُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ هو القرآنُ الذي أُنزِلَ على محمدٍ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ هو القرآنُ. لكنهُ أَخبرَ أنهُ مُنْزَلٌ مِنْ ربِّكَ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ يَحتمِلُ هو الحقُّ، أي مُنْزَلٌ مِنَ اللهِ، ليسَ كما قالَ أولئكَ: إنه ليسَ مِنَ اللهِ، إنما يقولُهُ محمدٌ مِنْ تِلقاءِ نفسِهِ. ويَحتمِلُ الحَقُّ أي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢] واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنهُ مِنَ اللهِ، أو أكثرَ الناسِ لا يُؤمِنونَ انهُ آياتُ اللهِ وحُجَجُهُ واللهُ أعلمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قولُهُ: ﴿رَفَعَ﴾ أي أنشأها مرفوعةً، لا أنها كانتْ موضوعةً، فَرَفَعها، ولكنْ جَعَلَها في الابتِداءِ مرفوعةً، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] [وقولُهُ][٣] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣] [وقولُهُ][٤] ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢] ونَحْوُ ذلكَ، أي أنشأها مرفوعةً محدودةً، لا أنها كانتْ مرفوعةً، فَوَضَعَها، أو كانتْ مُنْقبِضَةً، فَبَسَطَها، ولكنْ أنشأها.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي بِعَمَدٍ، لكنْ لا تَرَوْنَها، أي تَرَوْنَها بِغيرِ عَمَدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هي بِغَيرِ عَمَدٍ على ما أَخبَرَ، ولكنَّ اللطفَ والأعجوبَةَ في ما يُمْسِكُها بِعَمَدٍ لا تُرَى كاللطفِ والأعجوبةِ في ما يُمْسِكُها بغيرِ عَمَدٍ، لأنَّ في الشاهدِ لم يُعْرَفْ، ولا قُدِرَ على رفعِ سَقْفٍ، فيهِ سَعَةٌ وبُعْدٌ بِغيرِ عَمَدٍ، لا تُرَى، لكنْ ما يُرْفَعُ، إنما يُرفَعُ بِعَمَدٍ تُرَى. فاللطفُ في هذا كاللطفِ في الآخَرِ.

وفيهِ دلالةُ قُدرَتِهِ على البَعْثِ لأنهُ ذَكَرَ هذا، ثم قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [إنَّ][٥] مَنْ قَدَرَ على رفعِ السماءِ مَعَ سَعَتِها وبُعْدِها بلا عَمَدٍ لَقادرٌ على إعادةِ الخلقِ وبَعثِهِمْ وإحيائِهِمْ بَعْدَ الموتِ. بل رفعُ السماءِ مَعَ سَعَتِها وبُعْدِها بلا عَمَدٍ أكبَرُ مِنْ إعادةِ الشيءِ بَعْدَ فَنائِهِ، إذْ في الشاهدِ مَنْ قَدْ يَقْدِرُ على إعادةِ أشياءَ بَعْدَ فَنائِها، ولا يَقْدِرُ على رفعِ سَقْفٍ ذي سَعَةٍ وبُعْدٍ بغَيرِ عَمَدٍ. مِنْ ذا الوجهِ يُمْكِنُ[٦] أنْ يُحْتَجَّ، واللهُ أعلمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أمكن.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ لمّا لمْ يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [وقولِهِ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾][(١)] المكانُ، وإنْ كانَ في الشاهدِ يُفْهَمُ عنهُ المكانُ إذا أُضيفَ إلى المخلوقِ، لم يَجُزْ أنْ يُفْهَمَ [منهُ استواءُ الخالقِ][(٢)].

وبَعْدُ فإنَّ في الشاهدِ إذا قيلَ: فلانٌ استولَى أمْرَ بلدةِ كذا، فاستوَى أمْرُهُ، لم يُفْهَمْ، منهُ نَفاذُ الأمرِ والسلطانِ والمَشيئةِ. فَعَلى ذلكَ لمْ يَجُزْ أنْ يُفْهَم مِنَ اللهِ إذا أُضيفَ إليهِ [الاستِواءُ][(٣)] المكانُ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ أنهُ أخبَرَ أنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فهو في كلِّ شيءٍ وكلِّ وجهٍ لا يُشْبِهُ الخَلْقَ، إذِ الخلْقُ في الشاهدِ، ليسَ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً مِنْ جميعِ الجهاتِ، إنما يُشْبِهُ بعضُهُمْ بعضاً بجهةٍ. ثم صاروا جميعاً أشكالاً وأشباهاً بتلكَ الجهةِ التي [وَقَعَ بها التشابُهُ][(٤)] فإذَنِ اللهُ ﷻ لمّا أخبرَ أنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] دلَّ أنهُ إنما نَفَى عنهُ الجهاتِ التي يَقَعُ بها التشابُهُ والمَثَلُ، فهو يخالفُ الخَلْقَ مِنْ جميعِ الوجوهِ. وهذهِ مسألةٌ مذكورةٌ في ما تَقدَّم.

[ثم][(٥)] اختُلِفَ في العرشِ، قالَ بعضُهُمْ: العرشُ، هو المُمْتَحَنونَ [مِنَ الخَلْقِ][(٦)] بهِمُ اسْتَوَى تدبيرُ إنشاءِ غَيرِهِمْ مِنَ العالَمِ، لأنهمْ هُمُ المقصودونَ في إنشاءِ ذلكَ كلِّهِ.

وقالَ بعضُهم: العَرْشُ البعثُ، بهِ اسْتَوى، وتَمَّ، إنشاءُ الخلائقِ ما لولا البَعْثُ يكونُ إنشاؤُهُم عَبَثاً باطلاً كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جَعَلَ عدمَ الرجوعِ إليهِ وإنشاءَهُ الخَلْقَ عَبَثاً.

وقالَ بعضُهُمْ: العرشُ، هو المُلْكُ؛ وبهِ تَمَّ ما ذُكِرَ. وقيلَ: هو سريرُ المُلْكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ على ما في العقلِ أنهُ عنْ تدبيرِ مُدَبِّرٍ خَرَجَ، وعنْ علمٍ وحكمةٍ وُضِعَ ليسَ على الجُزافِ بلا تدبيرٍ ولا عِلْمٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يَحْتَمِلُ: يُبَيِّنُ الحُجَجَ والبراهينَ، ويَحْتَمِلُ ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي آياتِ القرآنِ أنزلَها بالتفاريقِ، لامَجْمُوعةً ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ والتدبيرِ ورَفْعِ السماءِ بلا عَمَدٍ دَلالةُ البعثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤] [وقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨و...] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ [غافر: ١٦]][(٧)] وأمثالِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ وقولُهُ[(٨)] في آيةٍ أخرَى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] وقولُهُ[(٩)] في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠] وكُلُّهُ واحد، وقولُهُ[(١٠)]: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][(١١)] ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي بَسَطَها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ ذَكَرَ أنها بُسِطَتْ على الماءِ، فكادَتْ[(١٢)] تُكْفَؤُ بأهلِها، وتضطَرِبُ كما تُكْفَؤُ السفينةُ، فأرساها بالجبالِ الثِّقالِ، فاستقَرَّتْ، وثَبَتَتْ. وذُكِرَ أنها مُدَّتْ، وبُسِطَتْ على الهواءِ، ثم أثْبَتَها بما ذَكَرَ مِنَ الجبالِ. ولكنْ لو، كانَ، أنها ما ذَكَرَ لكانَ يَجيءُ ألّا يكونَ بالجبالِ ثَباتُها واستِقرارُها؛ لأنَّ الأرضَ والجبالَ مِنْ طَبْعِها التَّسَفُّلُ والانْحِدارُ في الماءِ والهواءِ. فكلما زِيدَ مِنْ ذلكَ النوعِ كانَ[(١٣)] التَّسَفُّلُ والانحِدارُ أكثرَ وأزيَدَ، فلا يكونُ[(١٤)] بها الثباتُ والاستِقرارُ، بل إنما يكونُ الثباتُ والاستِقرارُ بشيءٍ، مِنْ طَبْعِهِ العُلُوُّ والارْتِفاعُ، فيَمْنَعُ/ ٢٦٠ ـ أ/ ذلكَ الشيءُ، الذي طَبْعُهُ العُلُوُّ، عنِ التَّسَفُّلِ والانحِدارِ إلّا أنْ يُقالَ: إنها كانتْ لا تَتَسَفَّلُ، ولا تَتَسَرَّبُ، ولكنْ تَضْطَرِبُ،

---

(١) في الأصل وم: مدبر. (٢) في الأصل وم: من استوائه الخلق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقعت بينهم تشابه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ومصيرهم وبروزهم. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فكانت. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: في. (١٤) في الأصل وم: فيكون.

وتميدُ بأهلِها على ما ذَكَرَهُ ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] فإن كانَ على هذا فبالجبالِ[١] ثباتُها واستِقرارُها ومَنْعُها عنِ الاضطرابِ والمَيَلانِ، وذَكَرَ[٢] هذا لِيُعْلَمَ لطفُهُ وقدرتُهُ حينَ[٣] أمسَكَها بِشيءٍ، مِنْ طبعِهِ [العُلُوُّ عنِ][٤] التَّسَفُّلِ والانحِدارِ، وهي في نفسِها كذلكَ، لِتُعْلَمَ قُدْرَةُ اللهِ ولطفُهُ في كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أنشأها مَمْدودةً [لا أنها][٥] كانَتْ مجموعةً في مكانٍ، فَبَسَطها على ما ذَكَرَ مِنْ رفعِ السماءِ ونَحْوِهِ.

[وقولُهُ تعالى][٦]: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ الأشياءَ أكثَرَها بأسبابٍ تعليماً منهُ الخَلْقَ ليكونَ ذلكَ عليهِمْ أهْوَنَ، وإنْ كانَ جَعْلُ الأشياءِ عليهِ بأسبابٍ [وبغيرِ أسبابٍ][٧] سَواءً؛ إذْ هو قادرٌ بذاتِهِ. يذكُرُ هذا إمّا بحقِّ النِّعَمِ التي أنعَمَها عليهِمْ مِنْ مَدِّ الأرضِ أو بَسْطِها وإثباتِها بالرواسي التي ذَكَرَ، وجَعلِ الأنهارِ فيها لِيَصلوا إلى الانتِفاعِ بها لِيَسْتَأدِيَ بذلك شُكْرَهُ، وإمّا[٨] بحقِّ الإخبارِ عنْ قدرتِهِ وسلطانِهِ لأنهُ جعلَ الأرضَ بحيثُ لا يدخُلُ فيها شيءٌ، فأخبَرَ أنهُ أدخلَ فيها الجبالَ معَ كثافتِها وعظَمِيّها لِتُعْرَفَ قدرتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي جَعَلَ فيها أنهاراً؛ أخبَرَ أنهُ[٩] مدَّ الأرضَ، وبَسَطَها، وجَعَلَها مُسْتَقِرَّةً ثابتةً لِيَقِرُّوا هُمْ عليها، ثم أخبَرَ أنهُ جَعَلَ فيها أنهاراً لِيَنْتَفِعوا بها مِنْ جميعِ أنواعِ المنافعِ، ثم أخبَرَ أنهُ جَعَلَ فيها ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي لَوْنَينِ. وقالَ بعضُهُمْ: ذَوَي طَعْمَينِ [لَكنْ][١٠] يكونُ فيها ألوانٌ، أكثرُ مِنِ اثْنَينِ: أحْمَرَ وأبْيَضَ وأسْوَدَ وأصْفَرَ ونَحْوُها. وكذلكَ الطعمُ، يكونُ [حامِضاً وحُلْواً ومُرّاً ومَزّاً][١١] إلاّ أنْ يُقالَ ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الطَّيِّبَ والخبيثُ [فلا يكونُ لهما][١٢] ثالثٌ. وأمّا اللونُ فإنَّهُ يكونُ [ذا ألوانٍ وذا][١٣] طُعومٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الذكرُ والأُنثى، فهذا يَصِحُّ إذا أرادَ بِهِ الشجَرَ؛ فمنهُ ما يُثْمِرُ، ومنهُ ما لا يُثْمِرُ. فالذي يُثْمِرُ هو أُنثى. والذي لا يُثْمِرُ هو ذَكَرٌ. وأمّا على غَيرِ هذا فهو لا يَصِحُّ.

وأصلُ الزوجَينِ: هو اسمُ أشكالٍ وأمثالٍ، واسمُ أضدادٍ، ففيهِ دليلُ نَفْيِ ذلكَ كلِّهِ عنِ اللهِ.

وأصلُ الزوجِ: هو منْ لهُ المقابلُ مِنَ الأشكالِ والأضدادِ؛ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ الخَلْقَ كلَّهُ ذا أشكالٍ وأضدادٍ مِنْ نَحْوِ الليلِ والنهارِ والذكرِ والأُنثى؛ فهو في حقِّ المنافعِ كشيءٍ واحدٍ، وفي حقِّ أنفسِهِمْ كالأشياءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يُذهِبُ ظُلمَةَ الليلِ بضَوءِ النهارِ وضوءَ النهارِ بظُلمَةِ الليلِ، أو يُلبِسُ أحَدَهُما الآخَرَ، أو يُغَطّي الليلُ ما هو [بادٍ ظاهرٌ للخَلْقِ بالنَّهارِ، ويكشِفُ النهارُ][١٤] ما هو مَسْتورٌ خَفِيٌّ على الخَلْقِ [بالليلِ][١٥] واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ما ذَكَرَ دلالةُ البعثِ والإحياءِ ودلالةُ التدبيرِ والعلمِ والحكمَةِ ودلالةُ الوحدانيَّةِ لِقَومٍ يَتَفكَّرون في آياتِهِ وحُجَجِهِ لا لقومٍ يُعانِدونَ آياتِهِ، ويُكابِرونَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ذَكَرَ أنَّ الآياتِ تكونُ آياتٍ لهمْ بالتَّفَكُّرِ والنظرِ، واللهُ أعلمُ، لا أنها[١٦] تَصيرُ آياتٍ مَجّانةً[١٧] بالبَديهةِ، أو يقولُ: إنَّ منفعَةَ الآياتِ تكونُ لِمَنْ تَفَكَّرَ فيها لا لِمَنْ تَرَكَ التَّفَكُّرَ والنَّظَرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أنَّ التجاوُرَ إنما يُذْكَرُ، ويَثْبُتُ، إذا كانتِ الأرضُ أرضاً واحدةً فإنهُ لا يُقالُ فيها الشَّرِكَةُ[١٨]، فهذا يُبْطِلُ قولَ مَنْ يقولُ: إنَّ التجاوُرَ إنما

---

(١) في الأصل وم: بالجبال. (٢) في الأصل وم: أو ذكر. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: لأنها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو يذكر. (٩) في الأصل وم: أنها. (١٠) من م، ساقطة في الأصل. (١١) في الأصل وم: حامض وحلو ومر ومز. (١٢) في الأصل: قد يكون، في م: فلا يكون. (١٣) في الأصل وم: ذو ألوان وذو. (١٤) في الأصل وم: باديا ظاهراً للخلق وبالنهار. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: ان. (١٧) في الأصل وم: مجاناً. (١٨) في الأصل وم: التجاور.

يُذْكَرُ في ما فيهِ الشِّرْكةُ، فتجبُ الشفعةُ في ما فيهِ الشركةُ، وأمّا في غَيرِهِ فلا تَجِبُ. وأمّا عندَنا فهو[1] ما ذَكَرَ ﷺ أنهُ إنما أثبتَ التجاوُرَ في الأرضِ التي صارَتْ قِطَعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ القِطَعُ المُتجاوِراتُ هي الأرضونَ الضواحي التي تَصلُحُ لِلزَّرعِ ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ التي تَنبُتُ وَحدَها. وقيلَ: ﴿صِنْوَانٌ﴾ هي النخلةُ، تَخرُجُ، فإذا خَرَجَتِ انْشَعَبَتْ بعدَ خُروجِ الأصلِ، فهو الصُّنوانُ، ولهذا قيلَ: عَمُّ الرجلِ صِنْوُ أبيهِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ أي يُسْقى ما ذُكِرَ مِنَ الزرعِ والنخلِ والجناتِ بماءٍ واحدٍ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ يُذَكِّرُ هذا، واللهُ أعلمُ أنَّ جواهِرَ الأرضِ كلَّها واحدةٌ، وهي قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ[3] بعضُها ببعضٍ، ثم هي مختلفةٌ في حقِّ الثمارِ والفواكِهِ. وكذلكَ الأشجارُ والنخيلُ كلُّها مِنْ جوهَرٍ مِنْ جِنْسٍ واحدٍ، والأرضُ في جوهَرِها [واحدةٌ][4] وتُسقى كلُّها بماءٍ واحدٍ، ثم تَخرُجُ [الثمارُ مُختَلِفَةً][5] في ألوانِها وطُعومِها وطيبِها وخُبثِها ومناظِرِها لِيُعلَمَ أنها لم تكنْ بِنَفسِها ولا بالأسبابِ التي جَعَلَها، ولكن بِلُطفِ واحدٍ مُدَبِّرٍ عليمٍ حكيمٍ لأنها[6] لو كانت بأنفُسِها وطِباعِها وبالأسبابِ لكانتْ كلُّها واحدةً مُتَّفِقَةً في طِيبِها وخُبثِها وألوانِها وطُعومِها. فلمّا لم يكنْ ما ذكرْنا على لونٍ واحدٍ ولا طَعْمٍ واحدٍ ولا منظرٍ واحدٍ دلَّ أنهُ كان بتدبيرِ مُدَبِّرٍ واحدٍ عليمٍ لطيفٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ قيلَ في الحَمْلِ: بَعْضُها أكثرُ حَمْلاً مِنْ بَعْضٍ، وبَعْضُها يَحْمِلُ، وبعضُها لا. ولكنْ ما ذَكَرْنا في الطَّيِّبِ والخَبيثِ والطَّعْمِ واللونِ والمَنْظَرِ مُفَضَّلٌ بعضُهُ على بَعْضٍ. وأصلُهُ أنَّ الأرضَ واحدةٌ [قِطَعُها][7] مُتجاوِرَةٌ مُتصِلَةٌ بَعْضُها بِبَعْضٍ، والماءُ واحدٌ أيضاً. ثم خَرَجَتِ الثِّمارُ والفواكهُ والزروعُ مُختَلِفَةً مُتفَرِّقَةً لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ ليسَ هو عَمَلَ الأرضِ ولا عَمَلَ الماءِ ولا عملَ الأسبابِ والطِّباعِ، ولكنْ باللطفِ مِنَ اللهِ لأنهُ لو كانَ بالماءِ أو بالأرضِ أو بالأسبابِ أوِ الطِّباعِ لكانَتْ مُتَّفِقَةً مُستَوِيَةً.

[وقولُهُ تعالى:][8] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ لِما ذَكَرْنا مِنْ وَحدانيَّتِهِ وتدبيرِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لِقَومٍ هِمَّتُهُمُ العَقْلُ والفَهْمُ والنَّظَرُ والتَّفَكُّرُ في الآياتِ، لا لِقَومٍ هِمَّتُهُمُ العِنادُ والمُكابَرَةُ، أو لِقومٍ يَنْتَفِعونَ بِعَقْلِهِمْ وعَمَلِهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ: هذا مَثَلٌ ضُرِبَ لِقلوبِ بَني آدمَ: كانَتِ الأرضُ في الأصلِ طِينَةً[9] واحدةً، فَسَطَحَها الرحمنُ، ثم بَطَحَها، فصارتِ الأرضُ قِطَعاً مُتَجاوِراتٍ، فَيُنْزِلُ عليها الماءَ مِنَ السماءِ؛ فَتُخرِجُ هذهِ زهرتَها وثَمَرَتَها وشَجَرَها، وتُخرِجُ نباتَها، وتُحْيي مَواتَها، وتُخرِجُ هذهِ سَبْخَها ومِلْحَها، وكِلْتاهما تُسقى بماءٍ واحدٍ؛ فلو كانَ الماءُ مالحاً قيلَ: اسْتَسْبَخَتْ هذهِ مِنْ قِبَلِ الماءِ.

كذلكَ الناسُ، خُلِقوا مِنْ آدمَ ﷺ [فَيُنْزِلُ عليهِمْ مِنَ السماءِ ذُكْرَةً][10] واحدةً، فَتَرِقُّ قُلوبٌ[11]، فَتَخشَعُ، وتَخضَعُ، وتَقسو قلوبٌ[12]، فتَسْهو، وتَلْهو، وتَجْفو. / ٢٦٠ ـ ب/ أو كلامٌ نَحْوُه.

ثم قالَ الحَسَنُ: واللهِ ما جالسَ القرآنَ أحدٌ إلاّ قامَ مِنْ عندِهِ بزيادةٍ أو نقصانٍ، ثم تلا قولَهُ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنْ تَعْجَبْ يا محمدُ مِنْ تكذيبِهِمْ إياكَ في الرسالةِ فَعَجَبٌ قولُهُم حينَ[13] قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمدُ ممّا أوحينا إليكَ مِنَ القرآنِ كقولِهِ في الصافاتِ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ [الآية: ١٢] ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فاعْجَبْ أيضاً قولَهُمْ؛ يقولُ: لكنَّ قولَهُمْ أعجبُ حينَ قالوا ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تكذيباً للبعثِ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: متجاوره. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: مختلفاً. (٦) في الأصل وم: لا أنها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: طيبة. (١٠) في الأصل وم: من السماء تذكرة. (١١) في الأصل وم: قلوبا. (١٢) في الأصل وم: قلوباً. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وأصلُهُ، والله أعلمُ، يقولُ: إنْ عَجِبْتَ مِنْ[1] قولِهِمْ في تكذيبِهِمْ إياكَ في الرسالةِ، ولم تكنْ رسولاً مِنْ قَبْلُ، فقولُهُمْ وإنكارُهُمْ قدرةَ اللهِ على البعثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ أعْجَبُ، إذْ قد رَأوا، وشاهَدوا مِنْ قدرةِ اللهِ وآياتِهِ بَعْدَ الهلاكِ أعْجَبَ مِنْ تكذيبِهِمْ ما لو تفَكَّروا، وتأمّلوا، ولم يُعانِدوا، وعَرَفوا أنهُ قادرٌ على ذلكَ كلِّهِ.

فَوَصَفَهُمُ اللهُ تعالى بالعَجْزِ وأنهُ لا يَقْدِرُ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الهَلاكِ أعْجَبُ مِنْ تَكْذيبِهِمْ إياكَ في الرسالةِ. ولم يَكُنْ سَبَقَ منكَ إليهِمْ ما يُوجِبُ رسالتَكَ وتصديقَكَ، وقد سَبَقَ مِنَ اللهِ إليهِمْ ما يُعَرِّفُهُمْ قدرتَهُ على ذلكَ أو على أكْثَرَ منهُ.

وأصلُهُ، واللهُ أعلَمُ: وإنْ تَعْجَبْ لإنكارِهِمْ وتكذيبِهِمْ إياكَ، ولم يَكُنْ منكَ إليهِمْ حقيقةُ الهدايةِ والنعمِ والآياتِ والحُجَجِ، وإنما كانَ منكَ البيانُ والدعاءُ، فأعْجَبُ قولُهُمْ في إنكارِهِمْ قدرةَ اللهِ على البعثِ، وقولُهُمْ في اللهِ ما قالوا فيهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ حقيقةَ ذلكَ كلِّهِ باللهِ إليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونوا لمّا كَفَروا بالبَعْثِ كانَ كُفْرُهُمْ بالبَعْثِ كُفْراً باللهِ لأنهُمْ عَرَفوهُ عاجزاً حينَ[2] قالوا: لا يَقْدِرُ على بَعْثِ الخَلْقِ. ومَنْ عَرَفَ ربَّهُ عاجزاً فهو لم يَعْرِفِ الربَّ [حقيقةً والإلهَ حقيقةً][3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: صارَ للكَفَرةِ في أعناقِهِمْ أغلالٌ حينَ][4] أنكروا الرسالةَ في البشَرِ، ثم جعلوا الأصنامَ والأوثانَ معبودَهُمْ، يَعْكِفونَ لها، ويَخْضَعونَ، هي الأغلالُ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ الآية [الحاقة: ٣] ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الاسْتِفْعالُ يكونُ على وجهينِ:

[أحدُهما: الفعلُ نَفْسُهُ.

والثاني: طَلَبُ الفعلِ][5] كقولِهِ تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قيلَ: أُجِبْ لكمْ، وقولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦] أي فَلْيُجيبوا لي وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾.

فإنْ كانَ على طَلَبِ الفِعْلِ فهو ما سألوا رسولَ اللهِ العذابَ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقولُهُمْ: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فَبَدَؤوا بسؤالِهِمُ [العذابَ قَبْلَ سؤالِهِمْ][6] تأخيرَهُ وإمهالَهُ، وتأخيرُ العذابِ عنهمْ[7] مِنَ الحسنةِ، فاسْتَعْجَلوا بهذا قَبْلَ هذا.

وإنْ كانَ الفعلَ نفسَهُ فقولُهُ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي عَجَّلوكَ يا محمدُ ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ إليكَ قَبْلَ أنْ تكونَ منهمْ إليكَ حسنةٌ حينَ[8] كَذَّبوكَ في الرسالةِ، وآذَوكَ في نفسِكَ، ولم يكُنْ منهُمْ إليكَ إحسانٌ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلمُ بذلكَ. وقيلَ: ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ العذابَ على ما ذَكَرْنا ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي قبلَ العفوِ. وسؤالُهُمُ السَّيِّئَةَ والعذابَ بِجَهْلٍ[9] منهمْ أنهُ رسولُ اللهِ وأنه صادقٌ في ما يُخْبِرُ، ويوعِدُ مِنَ العذابِ. كانوا لا يسألونَ [العذابَ][10] لأنهمْ يَعْلَمونَ أنَّ اللهَ يَقْدِرُ على أنْ يُنْزِلَ عليهِمُ العذابَ، لكنْ سَألوا ذلكَ بجهلِهِمْ بأنهُ رسولُ اللهِ سؤالَ اسْتِهْزاءٍ وسُخْرِيَةٍ. وإنْ كانَ على هذا سؤالُهُمْ كانَ فيهِ دلالةٌ أنَّ العقوبةَ والعذابَ قد يلزَمُ مَنْ جَهِلَ الأمْرَ، إذْ كانَ سَبيلُ العِلْمِ بهِ بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: العقوباتُ أي قد كانَ في الأُمَمِ الخاليةِ العقوباتُ بسؤالِهِمُ العذابَ والمعانَدَةِ في الآياتِ إذا جاءتْ. كأنَهُ، واللهُ أعلَمُ، يُصَبِّرُ رسولَهُ على سَفَهِ قومِهِ[11] بسؤالِهِمُ العذابَ والآياتِ ثم المُعانَدَةِ فيها؛ يقولُ: كانَ في الأُمَمِ الماضيةِ سؤالُ العذابِ والآياتِ ثم المُعانَدَةُ مِنْ بَعْدِ نزولِها، فَلَزِمَتْ[12] لهمُ العقوباتُ. فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل: الحقيقة، في م: الحقيقة والأله الحقيقة. (٤) في الأصل وم: أغلالا حيث. (٥) في الأصل وم: يكون طلب الفعل نفسه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عندهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يجعل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قومهم. (١٢) في الأصل وم: فنزلت.

وقالَ بعضُهُم ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ الأمثالُ والأشباهُ، وكذلكَ ذُكِرَ في حرْفِ حَفْصَةَ: (وقد خلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الأمثالُ) ما لوِ اعْتَبَروا بها كانَ مَثَلاً لهمْ. ولكن لا يَعْتَبِرونَ، فَيمْنَعُهُمْ عنْ أمثالِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي ذو سَتْرٍ على ظُلْمِهِمْ وتأخيرِ العذابِ إلى وقتٍ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقولِهِ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للكفارِ لِمَنْ لم يَتُبْ، وماتَ على الظُّلْمِ والشِّرْكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ للكفارِ؛ وعلى التأويلِ الأوّلِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقبَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ كقولِهِ[1] في موضعٍ آخرَ: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وقولِهِ في آيةٍ أُخرى ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرِ ما ذَكَرَ.

فَيَحْتَمِلُ سؤالُهُمُ الآيةَ كما سألَ[2] الأوّلونَ [عَينَ تلكَ الآياتِ التي أتَتْ بها الرسلُ الأوّلونَ][3]؟ وليسَ عليهِ أن يأتيَ [عَينَ تلكَ الآياتِ][4] إنما عليه أنْ يأتيَ بآيةٍ تَخرُجُ عن عُرْفِهِمْ وطِباعِهِمْ، والرسلُ جميعاً لم يأتوا بآيةٍ واحدةٍ إنما جاؤوا بآياتٍ مختلفاتٍ؛ كُلٌّ جاءَ بآيةٍ سِوى ما جاءَ بها الآخرُ، فقالَ لهُ: ليسَ عليكَ هذا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾.

[ويَحتمِلُ سؤالُهُمْ][5] آياتِ سؤالَ الاعْتِنادِ، لَدَيها هلاكُهُمْ، على ما فَعَلَ الأوّلونَ، فقالَ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ قد كفى[6] هذِهِ الأمةَ إحضارُ آياتٍ وإنزالُها، لَدَيها هلاكُهُمْ، وإنْ كانوا هُمْ في سؤالِهِمُ الآياتِ مُعانِدِينَ لأنهمْ قد جاءَ هُمْ مِنَ الآياتِ على إثباتِ رسالتِهِ وإظهارِها[7] ما كَفَتْهُمْ، لكنهُمْ يُعانِدونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ لا تَمْلِكُ إتيانَ الآياتِ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] كقولِهِ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الآية [الأنعام: ٥٨] أو يقولُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ ليسَ إليكَ إنشاءُ الآياتِ واختراعُها ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي داعٍ يَدْعو إلى توحيدِ اللهِ ودينِهِ كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يَحْتَمِلُ، لكلِّ وقتٍ هادٍ.

ثم اختلفوا [في][8] أنهُ مَنْ ذلكَ الداعي؟ قالَ بعضُهُمْ: اللهُ، وقالَ بعضُهُمْ: نَبيٌّ مِنَ الأنبياءِ، وقالَ بعضُهُمْ: داعٍ، دليلٌ سِوى النبيِّ، وقالتِ الباطِنيةُ: هو / ٢٦١ ـ أ/ إمامٌ يكونُ مَعصوماً مثلَ النبيِّ لئلا يزيغَ عنِ الحقِّ.

ولكنْ عندَنا مَعْصوماً [كانَ أو لم يكُنْ][9] فإنَّ في القرآنِ ما يَمْنَعُ عنِ الزيغِ، ويَعْرِفُ ذلكَ منهُ إذا زاغَ، وضَلَّ عنِ الحقِّ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي داعٍ، وهوكما قالَ ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ قيلَ: يَعْلَمُ أنها حَمَلَتْ أُنثى أو ذَكَراً، مُسْتوياً أوغيرَ مُسْتوٍ مَؤوفاً؛ يُخْبِرُ ﷻ عن علمِهِ وقدرتِهِ أنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

فإنْ قيلَ: هذا دَعْوى، ما الذي يُعْلِمُنا أنهُ يَعْلَمُ ذلكَ؟ قيلَ: اتّساقُ تدبيرِهِ ولُطْفِهِ يَدُلُّ على عِلْمِ ذلكَ فيهِ حينَ[10] رَبّاهُ فيهِ، وأنْشأهُ مُسْتوياً غيرَ مَؤوفٍ سليماً مِنَ الآفاتِ، ونَماءُ الحوائجِ كلِّها على الاستِواءِ؛ لا يكونُ بَعْضُها أنْقصَ مِنْ بَعْضٍ، وبَعْضُها أتَمَّ [مِنْ بَعْضٍ][11] نَحْوُ العَينَينِ، تَراهُما مُسْتَوِيَتَينِ، لا زيادةَ في إحداهما دونَ الأخرى، بل تَنْمُوانِ على الاستِواءِ، وكذلكَ [اليدانِ والرجلانِ والأذُنانِ وأمثالُها][12].

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: أرسل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: بعض تلك الآية. (٥) في الأصل وم: أو سألوا. (٦) في الأصل وم: عفى. (٧) من م، في الأصل: وإظهار. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: اليدين والرجلين والأذنين وأمثاله.

فدلَّ ذلكَ على العِلْمِ لهُ بهِ والتدبيرِ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي يَعْلَمُ ما تَنْقُصُ[1] وما تَزْدادُ. قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ ما تَنْقُصُ عن تِسْعَةِ[2] الأشهرِ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على تِسْعَةِ[3] الأشهرِ؛ فكانَ الحَسَنُ يقولُ: غيضوضةُ الرَّحِمِ أنْ تضعَ لِسِتَّةِ أشهرٍ أو ثمانيةٍ، وأمّا الزيادةُ فما زادَ على تِسْعَةِ أشهرٍ.

وفي حرفِ أُبَيٍّ [بنِ كعبٍ][4]: (اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كلُّ أنثى وما تضعُ). ولكنْ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي ما لا تَحْمِلُ شيئاً، وهي التي تكونُ عَقيماً لا تَلِدُ، والغيضوضةُ تكونُ [في][5] ذهابِ الشيءِ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤] أي ذَهَبَ. ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي ما تَحْمِلُ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ فَتَلِدُ بِدونِ الوقتِ الذي تَلِدُ النساءُ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ في زيادةِ عَدَدِ الأولادِ ونُقصانِهِمْ ما تَحْمِلُ واحداً أو أكثرَ مِنْ واحدٍ.

والثاني[6]: يكونُ في زيادةِ قَدْرِ الولدِ ونُقصانِهِ؛ لأنَّ مِنَ الولَدِ ما يُصيبُهُ في البَطْنِ آفةٌ، فلا يَزالُ يَزدادُ، أو لَهُ[7] نقصانٌ في البَطْنِ، ومنهُ ما ينمو، ويزدادُ، وأمثالُهُ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى][8] ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ مُقَدَّرٌ بالتقديرِ، ليسَ على الجُزافِ على ما يكونُ عندَ الخَلْقِ، ولكنهُ بتقديرٍ وتدبيرٍ.

الآية ٩ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ، ولكنْ هو عالمٌ بالذي يغيبُ عنِ الخَلْقِ، ويَشْهَدُهُ الخَلْقُ؛ أي ما يغيبُ عنهُمْ، وما يَشْهَدونَهُ، عندَهُ بِمَحَلٍّ واحدٍ في العِلْمِ بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غابَ بنفسِهِ، وما شَهِدَ بنفسِهِ، هو مالم يوجَدْ يَعْلَمُ[10] أنهُ يوجَدُ أو لا يوجَدُ، وإذا وُجِدَ كيفَ يوجَدُ؟ وفي أي وقتٍ يوجَدُ؟ وما وُجِدَ[11]، وشَهِدَ بعِلْمِهِ، يَعْلَمُهُ شاهداً موجوداً؛ على هذينِ الوجهَينِ يجوزُ أنْ تُخَرَّجَ الآيةُ، واللهُ أعلمُ.

ويَعْلَمُ ما غابَ عنهُمْ ممّا شَهِدوا مِنْ نَحْوِ قوةِ الطعامِ والقوةِ التي في الماءِ وماهيةِ البَصَرِ والسمعِ والعَقْلِ والروحِ وكيفيَّتِها. وهذا كلُّهُ ممّا غابَ عنِ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ المُتَعالي عنْ جَميعِ ما يَحْتَمِلُهُ الخَلْقُ. يُقالُ: هذا عظيمُ القومِ وكبيرُهُمْ، وهذا واحِدُ زمانِهِ، لا يَعْنونَ [بهِ عِظَمَ][12] النفسِ وكِبَرَهُ أو تَوَحُّدَهُ مِنْ حيثُ نَفاذُ الأمرِ لهُ والمشيئةُ فيهمْ والعزُّ والسلطانُ وذِلَّةُ[13] الخلقِ والخضوعُ لهُ.

فعلى ذلكَ لا يُفْهَمُ في ما وُصِفَ بهِ ما يُفْهَمُ مِنَ الخلقِ مِنْ عِظَمِ الجِسْمِ وكِبَرِ النفسِ، وعلى ذلكَ ما وُصِفَ هو بأسماءٍ لا يَحْتَمِلُ ذلكَ في الخَلْقِ؛ يُقالُ: أوّلٌ وآخِرٌ وظاهِرٌ وباطنٌ وعظيمٌ ولطيفٌ لِيُعْلَمَ أنهُ ليسَ يُفْهَمُ ممّا أُضيفَ إليهِ، وَوُصِفَ هو بِهِ ما يُفْهَمُ ممّا يُضافُ إلى الخَلْقِ، إذْ مَنْ قيلَ [عنهُ][14] في الشاهِدِ: إنهُ عظيمٌ، لم يُقَلْ: إنهُ لطيفٌ، ومَنْ قيلَ: إنهُ أولٌ، لم يُقَلْ: إنهُ[15] آخِرٌ، وكذلكَ الظاهِرُ والباطنُ إذا وُصِفَ بأحدِهِما انْتَفَى عنهُ الآخَرُ، وكذلكَ ممّا وُصِفَ بهِ الغائبُ، وأُضيفَ إليهِ، لِيُعْلَمَ أنهُ لا يُفْهَمُ ممّا يُوصَفُ هو بهِ، ويُضافُ إليهِ، ما يُفْهَمُ ممّا وُصِفَ بهِ الخَلْقُ وأُضيفَ إليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسِهِ في حالِ انفرادِهِ ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لِغَيرِهِ[16] ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ في ظُلْمَةِ الليلِ ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ قيلَ: ظاهرٌ بالنهارِ.

---

(١) في الأصل وم: تغيض. (٢) و(٣) في الأصل وم: التسعة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: وله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بعد. (١١) في الأصل وم: جد. (١٢) في الأصل وم: عظيم. (١٣) في الأصل وم: وله. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: به. (١٦) في الأصل وم: بغيره.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ يكونُ في السِّرْبِ، وهو الغارُ، بالنهارِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ [أي ساكنٌ، بالليلِ][1] مَقرُّهُ ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي مُتصرِّفٌ مُتقلِّبٌ بالنهارِ في حوائجِهِ، [وقالَ بعضُهُمْ][2] هذا صلةُ ما تَقدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وقولُهُ[3] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾. يقولُ: أيضاً يَعْلَمُ ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ. وَمَنْ﴾ كانَ مُستخْفِيا بالليلِ أو سارباً بالنهارِ أي يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ، لا يَخفَى عليهِ شيءٌ مِمَّنْ[4] عَمِلَ سرّاً مِنَ الخَلْقِ، أوعَمِلَ ظاهراً[5] منهمْ. يذكُرُ هذا، واللهُ أعلمُ، لِيكونوا على حَذَرٍ مِنَ المَعاصي، لأنَّ [مَنْ][6] عَلِمَ أنَّ عليهِ رقيباً حفيظاً فيكونُ أحْذَرَ وأخْوَفَ مِمَّنْ يَعْلَمُ أنْ ليسَ عليهِ ذلكَ.

وقالَ مقاتلٌ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ عندَ اللهِ ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ وسواءٌ منكُمْ مَنْ ﴿هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي مُسْتَخْفٍ بالمعصيةِ في ظُلْمَةِ الليلِ، أو هو مُنْتَشِرٌ بتلكَ المعصيةِ في ظلمةِ الليلِ، أو هو مُنْتَشِرٌ بتلكَ المعصيةِ بالنهارِ، مُعْلِنٌ بها فَعِلْمُ ذلكَ كلِّهِ عندَ اللهِ سَواءٌ؛ يُذَكِّرُهُمْ[7] أمرَينِ:

أحَدُهُما: يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةَ التي أنعَمَها عليهِمْ مِنْ أوّلِ حالِهِمْ إلى آخِرِ ما يَنْتَهونَ إليهِ لِيَسْتادِيَ بذلكَ شكرَهُ لِيَسْتديمَ بذلكَ تلكَ النعمَ أبداً ما كانوا.

والثاني: يُذَكِّرُهُمْ علمَهُ بجميعِ أحوالِهِمْ وأفعالِهِمْ ليكونوا أبداً على حَذَرٍ مِنْ مَعاصيهِ والخِلافِ لهُ.

أمّا عِلْمُهُ فهو[8] ما ذَكَرَ ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قولِهِ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ الآية [الآيات: ٨ و٩ و١٠] وأمّا نِعْمَهُ [فهي][9] ماذكرَ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١١].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ قال بعضُهُمْ: همُ الأمراءُ والشُّرَطُ الذينَ يَحفظونَهُ في ظَواهرَ مِنْ أمرِهِ؛ يُخبرُ أنهُ محفوظٌ عليه الخفِيّاتُ من أمرِهِ حينَ[10] قالَ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ الآية؛ حينَ أخبرَ أنهُ يُعلَمُ ذلكَ، ومحفوظٌ عليهِ [الخفِيّاتُ و][11] الظواهرُ مِنْ أمرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الملائكةُ الذينَ يَحفظونَهُ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخبرِ عنِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ [أنهُ][12] قالَ: «يجتمعونَ فيكمْ عندَ صلاةِ الصبحِ وعندَ صلاةِ العصرِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/١١٦] [وقولُهُ تعالى][13] ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ مثلُ قولِهِ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]. قالَ: الحسناتُ مِنْ بَينِ يديهِ والسَّيِّئاتُ مِنْ خَلْفِهِ، الذي عنْ يمينِهِ.

وَقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ يَحتَمِلُ أي للهِ مُعَقّباتٌ يَحْفظُونَهُ، ويَحتَمِلُ مِنْ كلِّ ذَكَرٍ وأنثى، يكونُ مِثْلَهُ قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الآية: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يَحْفَظُونَ نفسَهُ مِنَ البلايا والنكباتِ التي تَنزلُ على بني آدمَ. فإنْ كانَ في حِفْظِ نفسِهِ فقولُهُ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مِنْ عذابِ اللهِ وبَلاياهُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٤٠] وهو عذابُنا.

وَيَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾ يَحْفَظُونَ أعمالَهُ بأمرِ اللهِ. ثم يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الشرورَ والسَّيِّئاتِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ما قَدَّمَ مِنَ الأعمالِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ مَا بَقِيَ، وأخَّرَ كقولِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] ويَحْتَمِلُ ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ما مَضَى مِنَ الوقتِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ما بَقِيَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى:/ ٢٦١ ـ ب/ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يُشْبِهُ أنْ تكونَ هذهِ النعمةُ نِعْمَةَ الدينِ مِنْ رسولِ اللهِ أو القرآنِ أو مَا كَانَ في أمْرِ الدِّينِ، لايُغيرُ ذَلِكَ عَلَيهِمْ إلاّ بِتَغْيِيرٍ يَكونُ مِنْهُمْ كَقَولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] وَكَقَولِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: وما ذكر أنه. (٤) في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: بظاهر. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: تذكيرهم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيثُ. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وَيَحتَمِلُ أنْ يَكونَ ذلِكَ في النعمَةِ الدُّنيَاوِيَّةِ مِنَ الصِّحَّةِ والسَّلامَةِ وَالمالِ، لايُغيِّرُ ذلِكَ عَلَيهِمْ إلّا بِتَغْييرِ ذَلِكَ مِنْ أنفُسِهِمْ.

فَإنْ قِيلَ: إنَّ الأنبياءَ قَدْ كَانوا بُلُوا بِشَدائدَ وَبَلايا، وَلا يَحتَمِلُ أنْ يَكونَ ذَلِكَ منهُمْ في التَّغْييرِ، قِيلَ: أُبْدِلَتْ لَهُمْ مَكانَ تِلكَ النِعمَةِ خيرٌ مِنهَا، فَلَيسَ ذَلِكَ بِتَغييرٍ، ولكن لمَّا ذَكرْنا أنَّهُ أُبْدِلَتْ لَهُمْ مَكانَ النِعمةِ نِعمةٌ هِيَ خيْرٌ مِنهَا ثُمَّ [مَا][1] كَانَ مِنَ النِّعمِ والأفضَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ [التي][2] لهَا حَقُّ التَجَدُّدِ والحُدوثِ يَكونُ التَّغْييرُ عَلَيهِم حَالَةَ اختِيارِهِمْ وتَغْييرِهِمْ عَلى أنْفُسِهِمْ.

وَأمَّا الأفعَالُ الَّتي لَهَا حَقُّ البَقَاءِ فَيَكونُ التَّغْييرُ مِنَ اللهِ مِن بَعدُ، وَهي[3] مِنْ نَحوِ السَّلامَةِ والصِّحَّةِ والسَّعَة [والتي لها][4] حَقُّ التَّجَدُّدِ والحُدوثِ الطاعاتُ والمَعاصي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ الآيَةُ تَرُدُّ على المعتزِلَة قولَهُمْ، لأنَّهُم يَقُولونَ: إنَّهُ لا يُريدُ إلَّا مَا هُوَ أصْلَحُ لَهُم في الدِينِ، وَقَدْ أخبَرَ أنَّهُ إذا أرادَ بِهِم سُوءاً فلا مَرَدَّ لَه. دَلَّ هَذا أنَّهُ قَدْ يُريدُ بِهِمُ السُّوءَ إذا غَيَّرُوا هُم مَا أنعمَ اللهُ عَلَيهِمْ، أرادَ أنْ يُغيِّرَ عليهِمْ [وَ تَرُدُّ أيضاً][5] على المعتزلَةِ قولَهُمْ لِأنَّهُمْ يَقُولُونَ: يملِكُ الخَلقُ دَفعَ سوءٍ أرَادَهُ اللهُ بِهِمْ، وإذا أرَادَ الخَيرَ يملِكُونَ رَدَّ ذَلك، واللهُ يَقُول: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] ويقولُ[6]: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي ليسَ [لهمْ مِنْ][7] دفعِ العَذابِ الَّذي أرادَ بِهِم وليٌّ، يدفَعُ عَنهُمْ، أو نصيرٌ يَنْصُرُهُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفٗا وَطَمَعٗا﴾ أي مَخوفاً ومَطْمُوعاً، أو تَخافُونَ، وَتَطمَعُونَ.

وَقَالَ أهلُ التَّأويلِ: خَوفاً للمُسافِرِ وطَمَعاً للمُقيْمِ. وقِيلَ: خَوفاً لِأهْلِ البُنْيَانِ وطَمَعاً لِأهلِ الأنزالِ.

وعِندَنا [يَطمعُونَ، ويَخافُونَ في وَقتٍ وَاحِدٍ][8]، يَطمَعُونَ نَفعَهُ في وَقتِ المنفعَةِ، وَيخافُونَ ضَرَرَهُ في غَيرِ وَقتِ النفعِ، أو يَطمعونَ نَفعَهُ، وَيخافُونَ ضَرَرَهُ، أو يَطمعُونَ مَضيَّهُ، وَيخافونَ نُزُولَهُ والضَّررَ بِهِ في غيرِ وَقتِ النَّفعِ ونحوِهِ ويَحتَمِلُ وَجهاً آخرَ قولُهُ[9]: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفٗا وَطَمَعٗا﴾ أي يُريكُمْ خَوفاً مَوعُوداً وطَمَعاً مَوعُوداً لأن البرقَ نُورٌ ونَارٌ، ويَطمَعُ النُّورُ الموعُودُ في الجَنةِ، وَالنَّارُ تُخوِّفُ النَّارَ الموعُودةَ في الآخِرةِ [لأنَّ][10] فيهَا نَاراً. ألا تَرَى أنَّهُ إذا اشتَدَّ خِيفَ على [مَنْ][11] أصابَهُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ يُقالُ: نَشأتِ السَّماءُ إذا ارتَفَعَ الغَيمُ فيهَا، ويُسمَّى الغَيْمُ نَشأً، وقولُهُ: أنشأَ: أي أخذَ فيهِ، ويُقال: أنشأَ اللهُ الخلقَ: أي خَلَقَهُمْ، نَشأَ: ارتفَعَ، وأَنشأَ: رَفَعَ، وَهُوَمِنْ هَذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ [وقولُهُ تعالى][12]: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ اختُلِفَ في الرَّعد وَالبرقِ: قالَ بعضُهُمْ: هُوَ اسْمُ مَلَكٍ مِنَ الملائِكَةِ مُوكَلٌ بِالسحَابِ، صوتُهُ تَسبيحُهُ.

رُوِيَ عَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][13] قالَ «أقبلتْ يهودُ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبِرْنا عنِ الرَّعدِ، ما هو؟ قالَ: مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ مُوكَّلٌ بالسحابِ، معهُ مَخاريقُ مِنْ نارٍ، يَسوقُ بها السحابَ حيثُ شاءَ اللهُ، فقالوا: فما هذا الصوتُ الذي نَسْمَعُ؟ قالَ: زَجْرةُ السحابِ، إذا زَجَرَهُ، حتى يَنْتَهِيَ إلى حيثُ أمَرَ، قالوا: صَدَقْتَ» [أحمد: ١/ ٢٧٤] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو هو.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: والذي. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: يطمعون ويخافون قوم واحد، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م،ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ البرقِ والرعدِ، قالَ: الرَّعْدُ المَلَكُ، والبَرْقُ ضَرْبَةُ السحابِ بِمخراقٍ مِنْ حديدٍ. وقيلَ: الرَّعْدُ مَلَكٌ على ما ذَكَرْنَا، يَزْجُرُ السحابَ بالتسبيحِ، ويَسوقُهُ. فإذا شَذَّتْ سَحابةٌ ضَمَّها. و إذا اشْتَدَّ غضبُهُ أصْدَرَ[١] مِنْ فيهِ النَّارَ، فهيَ الصواعِقُ، وقيلَ: هو الريحُ، تَسوقُ السحابَ، [فإذا تراكَمَتِ السُّحبُ][٢] فلم تَجِدْ مَنْفَذاً، صَوَّتَتْ، فذلكَ صوتُهَا.

وَقالَ بَعْضُ الفلاسفةِ: الرعدُ اصْطِكاكُ الأجرامِ، فَيَحْدُثُ [بهذا صوتٌ كالحَجَرِ][٣] يَصُكُّ الحَجَرَ، وقالَ بعضُهُمْ مِنَ الفلاسفةِ: إنما هي ريحٌ تَخْتَنِقُ تحتَ السحابِ، فَتَصْدَعُهُ، فذلكَ الصوتُ منهُ. وأيَّ شيءٍ كانَ الرَّعدُ: المَلَكَ أو الريحَ، أو ما كانَ، فالتسبيحُ يُحْتَمَلُ مِنْ كلِّ شيءٍ على ما أَخْبَرَهُ اللهُ تَعالى: التسبيحُ مِنْ كلِّ شيءٍ حينَ[٤] قالَ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فَيَحْتَمِلُ تَسبيحُ الخِلْقَةِ [ما][٥] جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ شيءٍ حَمْدَ صانِعِهِ وبَراءَةَ مُنْشِئِهِ مِنْ كلِّ ما وَصَفَهُ المُلْحِدُونَ ودلالةَ ألوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ.

وَ يَحْتَمِلُ التسبيحُ [ما][٦] جَعَلَ في سِرِّيَّةِ كلِّ شيءٍ تَسْبِيحَهُ وتَنْزِيهَهُ مالا يَفْهَمُهُ الخَلْقُ.

وعنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ [أنهُ][٧] قالَ: «الرعدُ مَلَكٌ، وهذا تَسْبِيحُهُ، والبرقُ سوطُهُ الذي يُزْجي بِهِ السحابَ» [السيوطي في الدر المنثور٤/ ٦٢٢] قِيلَ: أمثالُ ذلكَ كثيرٌ، واللهُ أعلمُ بذلك، وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكِ حاجةٌ سِوَى أنَّهُ هولٌ هائلٌ، يَهولُ الخَلْقَ، ويُذَكِّرُهُمْ سلطانَهُ وعَظَمَتَهُ، ولولا أنَّهُمُ اعْتادوا ذلكَ، وإلاَّ لم تَقُمْ أنفسُهُمْ لسماعِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي يُذَكِّرُهُمْ سلطانَهُ وعظمتَهُ، فيكونُ ذلكَ تَسْبيحَهُ وما ذَكَروا مِنْ سلطانِهِ وعظمتِهِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي تُسَبِّحُ الملائكةُ مِنْ خوفِهِ، [والرَّعدُ يُسَبِّحُ][٨]، ويُذَكِّرُ الخَلْقَ عَظَمَةَ اللهِ وسلطانَهُ [فَيَدُلَّ على][٩] الثناءِ عليهِ.

وَالملائكةُ يُسَبِّحونَهُ في ما بينَهُمْ وبينَ رَبِّهِمْ [مِنْ خِيفَتِهِ، أي مِنْ خَوفِهِ][١٠] ولَم يُذْكَرْ فيهمُ التسبيحُ بحمدِهِ، وذُكِرَ في الرعدِ[١١].

ثُمَّ الخوفُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: خَوفٌ مِنْ عقوبتِهِ لأنَّهُ قد جاءَ فيهِمُ الوعيدُ إذا زَلُّوا كقولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

والثاني: خَوفُ رهبَةٍ وهيبَةٍ، لا خَوفُ عقوبةٍ، لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَهُمْ بِالطَاعَةِ والِاسْتِسلامِ كَقَولِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقولِهِ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياءِ: ١٩] ونحوَ ذلكَ.

ثُمَّ خوفُ الهيبَةِ لا يَزولُ في الآخرةِ ، وخوفُ العقوبةِ يَزولُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ قيلَ: الصَّعْقَةُ الصيحةُ التي فيها مَوتُ البَعْضِ وذهابُ[١٢] عَقْلِ البعضِ كقولِهِ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] وقيلَ: هي اسْمُ العذابِ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ [ما][١٣] ذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ أنَّ رجلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسألَهُ عَنْ شيءٍ مِنْ أمرِ الرَّبِّ، فَجاءَتْ صاعِقَةٌ، فأحْرَقَتْهُ، ونَزَلَ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في توحيدِ اللهِ لأنَّ أهلَ الكفرِ كُلَّهُمْ كانَتْ مجادَلَتُهُمْ في توحيدِ اللهِ وأُلُوهِيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: شديدُ الِانْتِقامِ والعقوبةِ. وقيلَ: شديدُ القوةِ، وقيلَ: شديدُ الأخذِ.

---

(١) في الأصل وم: صار. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: هذا الصوت. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الرعد ويسبح. (٩) في الأصل وم: فدل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾أي من خوفه. (١٢) في الأصل وم: ويذهب. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ القُتَبِيُّ: المِحالُ مِنَ الكَيدِ والمَكرِ. وأصلُ المِحالِ: الحيلةُ [لكنْ سَمَّى باسْمِ الأوَّلِ لأنَّهُ جَزاءُ الحيلةِ](١) فَيكونُ كَتَسْمِيَةِ جزاءِ السيئةِ سَيِّئَةً، وجزاءِ الاعْتِداءِ اعْتِداءً. والمكرُ ما ذَكَرْنا أنَّهُ الأخذُ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرُونَ بِهِ. وقالَ أبُو عَوْسَجَةَ: المِحَالُ عِنْدِي [مِنَ المَكْرِ](٢).

وقالَ أبُو عوسَجَةَ: ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الحَفَظَةُ الذينَ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] يَحْفَظُونَهُ بأمْرِ اللهِ، ويُقالُ: عَقَبَةٌ أي حَفَظَةٌ، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرّعد: ٤١] / ٢٦٢ ـ أ/ فمعناهُ(٣) لا رادَّ لِحُكْمِهِ، قالَ: ويقالُ [في](٤) غَيرِ هذا: عَقَبَ فُلانٌ فُلاناً، أي ذَهَبَ هو، وجاءَ هذا، ويُقالُ: عَقَبْتُ أي رَجَعْتُ، ومأخَذُهُما مِنَ العَقِبِ ويُقالُ: رَجَعَ على عَقِبَيْهِ أي مِنْ حيثُ جاءَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائِكَةٌ يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بعضاً في الليلِ والنهارِ، إذا مَضى فَريقٌ خَلَفَ بَعْدَهُ فريقٌ آخَرُ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي بِأَمْرِ اللهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي وَلِيٍّ، مِثْلُ: قَادِرٌ، وقَديرٌ، وحَافِظٌ، وحَفيظٌ، وذَلِكَ جَائِزٌ في اللُّغَةِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ.

[أحدُهُما](٥): أي لَهُ عِبادةُ الحَقِّ، وليسَ لِمَنْ دونَهُ عِبادَةُ الحقِّ، أي هو المُسْتَحِقُّ للعبادَةِ، ليسَ مَنْ(٦) يُعْبَدُ دونَهُ بالذي يستَحِقُّ العِبادَةَ، وعِبادَةُ الحقِّ لَهُ، ليسَتْ(٧) لِمَنْ دونَهُ.

والثاني: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي لَهُ إجابَةُ دَعْوَةِ الحقِّ، ليسَ يَمْلِكُ مَنْ دونَهُ إجابةَ مَنْ دَعا بالحَقِّ.

فَعَلَى التَّأويلِ الأوَّلِ الدعوةُ العِبادَةُ، وعلى الثاني الدعوةُ الإجابَةُ. أي له إجابةُ دعوةِ مَنْ دعا بالحقِّ، واللهُ أعلَمُ.

هو يَمْلِكُ إجابَةَ دعوةِ [الحقِّ](٨). فأمّا مَنْ عَبَدَ [إلهاً](٩) دونَهُ، ودعا دونَهُ فلا(١٠) يَمْلِكُ ذلكَ.

يَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي والذينَ(١١) يدعونَ مِنْ دونِهِ لا يَمْلكونَ الإجابةَ، أو لا يَمْلِكونَ ما يَأْمُلُونَ مِنْ عبادتِهِمُ الأصنامَ، فَيَكونُ مَثَلُ ما ذَكَرَ ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ وَجهُ ضَرْبِ مَثَلِ مَنْ يَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ بباسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماءِ هوَ، واللهُ أعلَمُ، ليسَ مَنْ يَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ إلا كباسطِ كَفَّيهِ إلى الماءِ، فَيَدعو الماءَ، فَلا (١٢) يُجيبُهُ الماءُ. فَعَلَى ذلكَ مَنْ يَدعُ الأصنامَ لا تَمْلِكُ(١٣) إجابَتَهُ، واللهُ أعلَمُ، أو أنْ يكونَ وَجهُ ضَرْبِ هذا المَثَلِ أنَّ مَنْ عَبَدَ دونَ اللهِ، أو دعا مَنْ دونَهُ، ليسَ إلاّ كباسِطِ كَفَّيهِ إلى الماءِ، وهو على بُعْدٍ مِنَ الماءِ، فكما لا يَصِلُ هُوَ إلى الماءِ لا يَصِلُ مَنْ عَبَدَ دُونَ اللهِ إلى ما يَأمُلُ، ويَطْمَعُ، أو يَحْتَمِلُ مِنْ وَجهٍ آخَرَ، وهو أن الماءَ يُغْتَرفُ إذا قُبِضَ الكَفُّ، ولا سَبيلَ إلى الاغْتِرافِ إذا بُسِطَتْ. فَعَلَى ذلكَ مَنْ عَبَدَ دونَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي دُعاؤُهُمْ وعِبادتُهُمْ لا يُعقِبُ لَهُمْ إلّا الخَسارَ في الآخِرَةِ، حاصِلُهُ يُضِلُّ ذلكَ كُلَّهُ عنهُمْ، لا يَصِلُونَ إلى ما يَأْمُلونَ بالدعاءِ والعِبادةِ كقولِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤و...].

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَسْجُدُ﴾ على حقيقةِ السجودِ، يَسْجُدُ لهُ المؤمِنُ والكافِرُ جميعاً. أمّا المؤمِنُ فإنَّهُ يَسْجُدُ لهُ بالاختيارِ والطوعِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ السجودِ وجوهاً:

أحَدُها: حقيقةُ السجودِ، فإنْ كانَ هذا فهو في المُمْتَحَنينَ خاصةً.

والثاني: سُجُودُ الخِلْقَةِ، فإنْ كانَ على هذا فهو في جميعِ الخلائِقِ؛ جَعَلَ اللهُ في خِلْقَةِ كلِّ شيءٍ دلالةَ وحدانِيَّتِهِ وآيةَ ألوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يحتمل.
(٦) في الأصل وم: ممن. (٧) في الأصل وم: ليس. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) في الأصل وم: والذي. (١٢) في الأصل وم: فكما لا. (١٣) في الأصل وم: يملكون.

وَالثالثُ: سُجودُ الأحوالِ؛ فهو في المؤمنِ والكافرِ جميعاً. أمّا المؤمنُ فهو يَسْجُدُ لَهُ في كلِّ حالٍ. وأمّا الكافرُ فإنَّهُ يَسجُدُ لَه، وَيخضعُ في حَالِ الشِّدَّةِ والضِّيقِ، ولا يسجُدُ لَهُ في حالِ السَّعةِ والرَّخاءِ.

وَيُشبِهُ أنْ يكونَ [في][1] الكافِرُ، يكونُ سجودُهُ للهِ اختياراً وطَوعاً حينَ[2] قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[3]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] إنَّهُمْ، وإن عَبَدُوا الأصنامَ، يَرون السجودَ والعبادةَ للهِ. لكنَّهُ لَمْ يُقْبَلْ ذلكَ منهُمْ لإشراكِهِمْ غيرَهُ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي تَسْجُدُ ظِلالُهُمْ بالغُدُوِّ والآصالِ؛ يَنْتَقِلُ ظِلُّ كُلِّ أحدٍ بانْتِقالِ نَفْسِهِ؛ يَنْتَقِلُ حيثُ تَنْتَقِلُ نفسُهُ، فَذَكَرَ الغُدُوَّ والآصالَ لأنَّهُ[4] بالغُدُوِّ والعَشِيِّ يَظْهَرُ الظِّلُّ.

وَيَحْتَمِلُ السجودُ أنَّهُ ﴿يَسْجُدُ﴾ أي يَخْضَعُ ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فإنْ كانَ على الخُضُوعِ فهُوَ في الخلائِقِ كُلِّهِمْ: في البشرِ وغَيْرِ البَشرِ، وذي الرُّوحِ وغيرِ ذي الرُّوحِ ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي ظِلالُهُمْ تَخْضَعُ لَهُ أيضاً بِالغُدُوِّ والآصَالِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكون المُرادُ مِنَ السجودِ سُجودَ[5] الخِلْقَةِ، فَتَسْجُدَ لهُ خِلْقَةُ كلِّ أحدٍ. فإنْ قيلَ: ما مَعْنَى الغُدُوِّ والآصال؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ أبداً دائماً ليسَ على [مُرادِ وقتٍ][6]، ولكنْ على الأوقاتِ كلِّها.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمَرَهُ أنْ يسألَهُمْ: مَنْ ربُّ السماواتِ والأرضِ؟ ثُمَّ أمَرَهُ أنْ يُجيبَ هو لَهُمْ، فَيَقولَ: ﴿ٱللَّهُ﴾ وهو في الظاهرِ دعوى: أكْثَرُ ما في هذهِ الآيَةِ دعوى، وبعضُهُ حِجاجٌ، وهو قولُهُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا﴾ وقولُهُ: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ لأنَّهُمْ يُقِرُّونَ بهذا: لا يخلُقون كَخلقِهِ، ولا يملِكونَ دَفْعَ الضَّرِّ ولا جرَّ النَّفعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿قُلِ﴾ إنما أمَرَهُ أنْ يَسألَهُمْ: مَنْ ربُّ السماواتِ والأرضِ؟ ولم يَقُلْ: مَنْ رَبُّكُمْ؟ فإنما أمَرَهُ أنْ يسألَهُمْ مالا يتجاسَرُونَ أنْ يقولوا: الأصنامُ التي يَعْبُدونَها هيَ أربابُ السماواتِ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يُقِرُّوا [أنّ][7] اللهَ ربُّ السماواتِ والأرضِ [فإذا أقرّوا][8] بهذا أنهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ فقد دَخَلَ ما في السماواتِ والأرضِ في رُبوبيَّتِهِ، أو السماواتُ والأرضُ إنما خَلَقَهُمَا لأهلِهِمَا، فإذا كانَ ربُّ السماواتِ والأرضِ كان ربَّ ما فيهما.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمَرَهُ أنْ يَسألَهُمْ وأنْ[9] يَسْبِقَهُمْ بالإجابةِ لأنَّهُ هو السابقُ بكلِّ خَيرٍ، وهمْ يُجيبونَ لهُ أنَّهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ. دليلُهُ حَرْفُ أبيٍّ [بْنِ كعبٍ وعبدِ اللهِ بنِ][10] مسعودٍ وحفصةَ حينَ[11] قرؤوا: (مَنْ ربُّ السماواتِ والأرضِ قالوا: اللهُ)يدلُّ أنَّهُ أمَرَهُ أنْ يسبِقَهُمْ بالإجابةِ كما كانَ هو السابقَ بكلِّ خَيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، إذا أقرَرْتُمْ أنَّ ربَّ السماواتِ والأرضِ، هو اللهُ، وهو الإلهُ، فكيفَ اتَّخذْتُمْ مِنْ دونِهِ هذهِ الأصنامَ آلهةً أرباباً، وعَبَدْتُموها؟ أو كيفَ جَعَلْتُمْ مَنْ ليسَ هو ربَّ السماواتِ والأرضِ أولَى مِمَّنْ[12] أقرَرْتُمْ بالعبادةِ لهُ أنَّهُ ربُّهما؟ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي[13] لا يملِكُونَ نفعاً لأنفسِهِمْ ولا دَفْعَ الضَّرَرِ عنها، فكيفَ يَمْلِكُونَ نَفْعَ غَيرِهِمْ أو دَفْعَ ضَرٍّ عنْ غَيْرِهِمْ؟ فَعَرَّفَهُمْ أنَّهُم[14] لا يَمْلِكُونَ ذلكَ، وأنَّ اللهَ، هو المالكُ؟ فكيفَ تركْتُمْ عبادةَ مَنْ يَمْلِكُ ذلكَ، وعَبَدْتُمْ مَنْ لا يَملِكُ؟ فَيُخَرَّجُ تأويلُهُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: يقولُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فكيفَ اتَّخذْتُمْ دونَ اللهِ آلهةً؟

والثاني: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ مع وُجودِ الحاجةِ، فكيفَ تَعْبُدونَ على رَجاءِ النَّفعِ لكُمْ بِقولِكُمْ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؟ [يونس: ١٨]؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) في الأصل وم: مراد وقت. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل وم: وابن.
(١١) في الأصل وم: من. (١٢) في الأصل وم: من. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) في الأصل وم: أنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي تَعْلَمُونَ أنَّ الأصنامَ التي تَعْبُدُونَها عُميٌ[1]، لا تُبْصِرُ شيئاً، واللهُ هو البصيرُ، فكيفَ تَرَكتُمْ عِبادَةَ مَنْ يُبْصِرُ، وعبَدْتُم مَنْ لا يُبْصِرُ؟ هل يَسْتَوِي ذلكَ؟ أي لا يَسْتَوِي، أو يقولُ لهُمْ: إنَّكم بِعِبادَتِكُمُ الأصنامَ طَمِعْتُمْ بشَفَاعَتِهِمْ عندَ اللهِ، وهمْ عُميٌ، وأنتُمْ بُصَراءُ، فهل رأيتُمْ أعمَى يَقودُ بصيراً في الشاهِدِ؟ أرأيتُم[2] مَنْ لا يُبْصِرُ يكونُ / ٢٦٢ ـ ب/ دليلاً لِبَصيرٍ؟ فكيفَ طَمِعْتُمْ مِنَ الأصنامِ بذلكِ؟

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الأعمَى الكافرُ، والبَصيرُ المُؤْمِنُ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الظُّلماتُ الكُفرُ، والنُّورُ الإيمانُ.

وَوَجْهُ قولِهِم حينَ[3] شَبَّهوا الكُفرَ بالظُّلْمَةِ والإيمانَ بالنُّورِ لأنَّ الظُّلْمَةَ تَحْجُبُ، وتَسْتُرُ كُلَّ شيءٍ، والنُّورَ يرفَعُ ذلكَ الحجابَ وذلكَ السَّتْرَ. فالإيمانُ لهُ دلائلُ وحُجَجٌ، تَرفَعُ تلكَ الحُجُبَ والسُّتُرَ، فَيُنَوِّرُ بِهِ كُلَّ شيءٍ، والكُفرُ، ليسَ لهُ حُجَجٌ ودلائلُ، تَرْفَعُ ذلكَ، فهو ظُلْمَةٌ، لم يُضِئْ لهُ شيئاً، والإيمانُ نورٌ حِينَ[4] أضاءَ بهِ، ونَوَّرَ كلَّ شيءٍ بالدلائلِ والحُجَجِ التي ذَكَرْنا. فصارَ الكافرُ كالأعمى، لايُبْصِرُ شيئاً، لأنَّهُ في الظلمةِ، والمؤمِنُ كالبصيرِ لأنَّ[5] مَعَهُ الدلائلَ والحُجَجَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي بل جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ في العبادةِ بَعْدَما عَلِموا أنَّهُمْ لا يَمْلِكون نَفعاً، إنْ عَبَدوها، ولا ضَرّاً، إنْ تَرَكوا العبادَةَ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي خَلَقَ هؤلاءِ الأصنامَ التي عَبَدوها، وأشْرَكوها في أُلوهِيَّتِهِ، كَخَلْقِ اللهِ، فَتَشابَهَ عليهِمْ [خَلْقُهُ][6] مِنْ خَلْقِ الأصنامِ، أي عَرَفوا أنها لم تَخْلُقْ شيئاً كما خَلَقَ اللهُ، فكيفَ أشْرَكُوا هذهِ الأصنامَ في عبادةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ؟ وهمْ كانوا[7] قد أقَرُّوا أنَّ اللهَ هو خالقُ كلِّ شيءٍ.

وهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ حينَ[8] قالوا: إنَّ اللهَ لم يَخْلُقْ أفعالَ الخَلْقِ، ولا يَقْدِرُ على خَلْقِها. فإذا كانَ اللهُ لم يَخْلُقْها، فهمْ خَلَقوها على زعمِهِمْ، فيكونُ مَوضِعُ تَشابُهِ الخَلْقِ عليهِمْ على قولِهِمْ، فَيَدُلُّ على بُطلانِ قولِهِمْ وفسادِ مذهَبِهِمْ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في السماواتِ والأرضِ ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي كلُّ شيءٍ تحتَ قُدْرَتِهِ وقَهْرِهِ وسُلْطانِهِ، والأصنامُ التي تَعْبُدونَها مَقهورَةٌ مَغْلوبَةٌ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنَ الأمثالِ إلى قولِهِ ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لليَقينِ والشَّكِّ، فاحتَمَلَتْ منهُ القلوبُ على قَدْرِ يَقينِها وشَكِّها.

فأمّا الشَّكُّ فلا يَنْفَعُ منهُ عَمَلٌ، وأمّا اليقينُ فَيَنْفَعُ اللهُ بهِ أهلَهُ؛ وهو قولُهُ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ وهو الشَّكُّ ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو اليَقينُ.

وكما يُجْعَلُ الحَلْيُ في النارِ، فَيُؤخَذُ خالِصُهُ، ويُتْرَكُ[9] خَبيثُهُ في النارِ، كذلكَ يَقْبَلُ اللهُ اليَقينَ، ويَتْرُكُ الشَّكَّ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ.

وقالَ قَتادةُ: قولُهُ ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الصَّغيرُ بِصِغَرِهِ، والكَبيرُ بِكِبَرِهِ. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يَقولُ: عالِياً ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ[10] عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ والجُفاءُ ما يَتَعَلَّقُ بالشَّجَرِ مِنَ الزَّبَدِ ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فَضَرَبَ المَثَلَ لِلحَقِّ والباطِلِ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما اضمَحَلَّ هذا الزَّبَدُ الذي ظَهَرَ على فوقِ الماءِ، فصارَ جُفاءً، لا يُنْتَفَعُ بِهِ، ولا تُرجَى بَرَكَتُهُ،

---

(١) في الأصل وم: أنها أعمى. (٢) همزة الإستفهام ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: والمؤمن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كأنهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وينزل. (١٠) في الأصل وم: توقدون، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢١٤.

كَذلكَ يَضمَحِلُّ الباطِلُ عَن أهلِهِ كما اضمَحَلَّ هذا الزَّبَدُ، وكما مَكَثَ هذا الماءُ في الأرضِ، وقَرَّ قرارُها، فَأَمْرَعَتْ، ورُجِيَتْ بَرَكَتُهُ كذلكَ، وأخرَجَتْ لَهُ نَباتَها، كذلكَ يَبْقَى الحَقُّ لأهلِهِ كما يبقَى هذا الماءُ في الأرضِ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ يقولُ: يَبْقَى هذا الذَّهَبُ والفِضَّةُ حينَ أُدخِلَ في النارِ، وذَهَبَ خُبثُهُ، كذلكَ يَبْقَى الحقُّ لأهلِهِ ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ يَعني هذا الحديدَ والصُّفْرَ الذي يُنْتَفَعُ بِهِ، وفيهِ مَنافِعُ.

يقولُ: كما بَقِيَ خالِصُ هذا الحديدِ وهذا الصُّفرِ حين أُدخِلَ النارَ، وذَهَبَ خُبثُهُ، كذلكَ يَبْقَى الحقُّ لأهلِهِ كما بَقِيَ خالِصُهما.

وقالَ الكَلْبِيُّ: قولُهُ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو القرآنُ، فاحتَمَلَهُ القلوبُ بأهوائِها: ذو[2] اليقينِ على قَدْرِ يَقينِهِ، وذو الشَّكِّ[3] على قَدْرِ شَكِّهِ. فاحتَمَلَتِ الأهواءُ باطلاً كثيراً وجُفاءً. فالماءُ هو الحقُّ، والأوديةُ هي القلوبُ، والسَّيلُ الأهواءُ، والزَّبَدُ الباطلُ، والحقُّ المَتاعُ والحِلْيَةُ.

قـالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فـالـزَّبَـدُ، هـو[4] خُبثُ الحديدِ، وخُبثُ المَتاعِ هو الباطلُ؛ مَنْ أصابَ مِنْ هذا لم يَنْتَفِعْ بِهِ، فكذلكَ الباطلُ يومَ القيامةِ لا يُنْتَفَعُ بباطلِهِ. وأمّا الحِلْيَةُ والماءُ والمَتاعُ، فهو الحقُّ، مَنْ أصابَ شيئاً مِنهُ انتَفَعَ بِهِ، وكذلكَ صاحِبُ الحقِّ يومَ القيامةِ يَنْتَفِعُ بالحقِّ. أمّا الحِلْيَةُ فالذهبُ والفضةُ، وأمّا المَتاعُ فالصُّفرُ[5] والحديدُ والرصاصُ والنحاسُ ونَحوُهُ، ليسَ شيءٌ مِنْ هذا يُنْتَفَعُ بِهِ حتى يَدْخُلَ النارَ، فَيُمَيَّزُ صَفوُهُ مِنْ خُبثِهِ.

وقالَ الحُسَينُ بنُ واقِدٍ: وهو قولُ مقاتلٍ: ضَرَبَ اللهُ [مَثَلَ][6] الكُفرِ والإيمانِ ومَثَلَ الحقِّ والباطِلِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ سالَ الوادي الكبيرُ على قَدْرِ كِبَرِهِ، والصَّغيرُ على صِغَرِهِ[7] ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي عالياً.

ثمّ قالَ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ [مِنَ][8] الذهبِ والفضةِ. ثمّ قالَ: ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ [مِنَ][9] الشَّبَهِ والحديدِ والصُّفرِ والرصاصِ ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي للسيلِ زَبَدٌ، لا يُنْتَفَعُ بِهِ، والماءُ يُنْتَفَعُ بِهِ، ولِلْحَلْيِ والمَتاعِ أيضاً زَبَدٌ مِثْلُ زَبَدِ السيلِ، إذا أُدخِلَ النارَ، وهو خُبثُهُ، لا يُنْتَفَعُ بِهِ، والحَلْيُ والمَتاعُ ما خَلَصَ منهُما يُنْتَفَعُ بِهِ.

فَمَثَلُ الأوديةِ مَثَلُ القلوبِ، ومَثَلُ السيلِ مَثَلُ الأهواءِ، ومَثَلُ الماءِ والحَلْيِ والمَتاعِ الذي لا يُنْتَفَعُ بِهِ مَثَلُ الباطلِ. فكما يُنْتَفَعُ بالماءِ وما خَلَصَ مِنَ الحَلْيِ والمَتاعِ الذي يَنْتَفِعُ بِهِ أهلُهُ[10] في الدنيا، فكذلكَ الحقُّ يَنفَعُ أهلَهُ في الآخِرةِ. وكما لا يَنفَعُ الزَّبَدُ وخُبثُ الحَلْيِ وخُبثُ المَتاعِ أهلَهُ في الدنيا، فكذلكَ الباطلُ لا يَنفَعُ أهلَهُ في الآخرةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي هكذا ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي يُبَيِّنُ اللهُ ما ذَكَرَ مِنْ مَثَلِ الحقِّ والباطلِ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ قالَ: يعني يابساً، فلا يُنْتَفَعُ بهِ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ مِنَ الماءِ ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فَيَسقُونَ، ويَزرَعونَ عليهِ، ويَنْتَفِعونَ بهِ.

فهذهِ ثلاثةُ أمثالٍ ضَرَبَها في مَثَلٍ واحدٍ. يقولُ: هكذا يُبَيِّنُ اللهُ الأمثالَ والأشباهَ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ أي أجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ﴾ في الدنيا بالإيمانِ والتوحيدِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لهمْ، وهي الجنّةُ في الآخرة.

فَضَرَبَ اللهُ مَثَلَ الإيمانِ والحقِّ، ووَصَفَهُما بالثباتِ والقرارِ والطِّيبِ بالأرضِ الطَّيِّبَةِ مَرَّةً [والشجرةِ الطَّيِّبَةِ][11] ثانياً.

وضَرَبَ مَثَلَ الكُفرِ والباطلِ بالأرضِ الخبيثةِ والشجرةِ الخبيثةِ، ووَصَفَهُما بالخُبثِ والذهابِ، فقالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا/ ٢٦٣ ـ أ/ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ [إبراهيم: ٢٤ و٢٥] وقالَ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [ابراهيم: ٢٦].

وقالَ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: دون. (٣) في الأصل وم: شك. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: فالصفرة.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: صغرها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أصله.
(١١) في الأصل وم: وشجرة طيبة.

وضَرَبَ مَثَلَ المؤمنِ مَرَّةً بالبصيرِ والسَّميعِ [ثانياً][1]، ومَثَلَ الكافرِ بالأعْمَى والأصَمِّ [فقالَ][2] ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]

وضَرَبَ مَثَلَ الكُفْرِ مَرَّةً بالظلماتِ ومَرَّةً بالرمادِ والموتِ، ومَثَلَ الإيمانِ بالنورِ والضياءِ والحياةِ ونَحْوِهُ.

فهذِهِ الأمثالُ [التي ضربَهَا][3] اللهُ ﷻ تُخرَّجُ كُلُّها مُخرَجَ الدعوَى في الظاهرِ؛ إذ ليسَ فيها بَيانُ الحقِّ منها وبَيانُ المُحِقِّ مِنْ غَيْرِ المُحِقِّ سِوَى أنَّ فيها: هل يَستوي ذا معَ ذا؟ لايَسْتَوي على ما ذَكَرَ، وهل يَسْتَوي الطَّيِّبُ والخبيثُ، أوِ البصيرُ [والأعمَى، أوِ السميعُ والأصمُّ][4] أو الميِّتُ والحيُّ ،أوِ الظلماتُ والنورُ وأمثالُها[5]؟ وكلُّ أهلِ الأديانِ، وإنِ اختَلَفَتْ مذاهِبُهُمْ [6]؛ يقولُ: كلٌّ [الذي][7] أنا عليهِ هو الحقُّ، والباطلُ هو الذي عليهِ غَيري، وينفي كلٌّ عن نفسِهِ العمَى[8] والصَّمَمَ وكونَهُ في ظُلْمَةٍ، ويَدَّعي كونَهُ في النورِ، ونَحْوَهُ.

فليسَ في نَفْسِ الأمثالِ التي ضُرِبَتْ بَيانُ الحقِّ مِنَ الباطلِ والمُحِقِّ مِنْ غيرِهِ. فذلكَ يُعْرَفُ بِغَيرِها بالدلائلِ والحُجَجِ والبراهينِ، وهو ما ذُكِرَ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: ٤٣ والحشر: ٢١].

فبالدلائلِ والحُجَجِ والبراهينِ يُعْرَفُ الحقُّ مِنَ الباطلِ، والمُحِقُّ مِنْ غيرِ المُحِقِّ. فَللإيمانِ والحقِّ دلائلُ وحُجَجٌ، يَعرِفُ ذَوُو العقولِ بالعقولِ حُسْنَهُ وطيبَهُ وما يَعْقُبُ مِنْ ثُمُرِهِ[9]، ويُبَيِّنُ قُبْحَ الكُفْرِ والباطلِ لِذَوي العقولِ بالعقولِ، واسْتِخْباءَهُمُ الباطلَ، ومايَعْقُبُ لأهلِهِ مِنَ الخُبْثِ والقُبحِ والشَّرِّ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي عالياً على الماءِ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي حَلْيٍ ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ آنيةٍ؛ يَعْني مِنْ فِلِزِّ الأرضِ وجَواهِرِها مِثْلِ الرصاصِ والحديدِ ونَحْوِهما[10] والذهبِ والفضةِ حينَ[11] يَعلوها إذا أُذيبَتْ مِثْلُ زَبَدِ الماءِ، والجُفاءُ ما رَمَى بِهِ الوادي إلى جَنباتِهِ، يُقالُ: أجْفَأَتِ القِدْرُ بِزَبَدِها، إذا ألْقَتْ زَبَدَها عنها.

وقالَ أبوعوسَجَةَ: ﴿رَّابِيًا﴾ أي مُرْتَفِعاً فوقَ ظهرِ الماءِ، ويُقالُ: أزْبَدَ الماءُ، إذا صارَ لهُ زَبَدٌ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ هو مِنَ الحَلْيِ مِنَ الذهبِ والفضةِ ممَّا يُتَحلَّى بِهِ ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي باطلاً لا يُنْتَفَعُ بِهِ. وأمَّا الجَفاءُ فهو إظهارُ التهاوُنِ وقلةُ الاكْتِراثِ لهُ والاِسْتِخفافُ. وقالَ: الجُفاءُ هو الغُثاءُ، ويقالُ: قدِ انْجَفَى الوادي، إذا علاهُ ذلكَ، ثم جرَى بِهِ الماءُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: والغُثاءُ عندي ما حَمَلَهُ السيلُ مِنَ العيدانِ والبَعْرِ وما يُشْبِهُ ذلكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٥]أي يَبِساً.

قالَ أبو عُبَيْدَةَ: الجُفاءُ[12] الجَمْدُ، ويذهبُ إلى أنَّ الزَّبَدَ يَجْمُدُ، ويَجْتَمِعُ على الماءِ، ثمَّ يَذْهَبُ بمائِها.

وقالَ الفرَّاءُ: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي يذهبُ سريعاً كما جاءَ.

وقالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: ويُشْبِهُ أنْ يكونَ المَثَلُ الذي ضَرَبَ بالماءِ، هو للدينِ، وهو أنَّ الدينَ الحقَّ الذي أنْزِلَ مِنَ السماءِ واحدٌ، لكنَّ الناسَ اتَّخذوا أدياناً مُتفَرِّقَةً ومَذاهِبَ مُخْتَلِفَةً كقولِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالدينُ الذي أمَرَ لسلوكِهِ واتِّباعِهِ واحدٌ، وهو كالماءِ الذي أُنْزِلَ مِنَ السماءِ واحدٌ صافٍ، وهو الأصْلُ، فَحَدَثَ منهُ أشياءُ لا يُعْبَأُ [بها، ولا][13] يُكْتَرَثُ؛ فَعَلَى ذلكَ السبيلُ [الحقُّ][14] واحدٌ، أوأنْ يكونَ وجهُ ضَرْبِ مَثَلِهِ بالماءِ؛ وهو أنَّ الماءَ إذا أُنْزِلَ مِنَ السماءِ أُنْزِلَ طَيِّباً عَذْباً، لكنِ اخْتَلَفَتْ ألوانُهُ وطعومُهُ باخْتِلافِ جَواهِرِ الأرضِ، بعضُهُ خَرَجَ مالحاً أُجاجاً، وبعضُهُ مُرًّا، لا يُنْتَفَعُ بِهِ، وبعضُهُ عَذْبٌ، وذلك على اخْتِلافِ، جَواهِرِ الأرضِ، وإلاَّ كانَ المُنَزَّلُ مِن السماء كُلُّهُ عَذْبٌ طَيِّبٌ، فالذي يُنْتَفَعُ بِهِ واحدٌ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ضرب. (٤) في الأصل وم: والسميع الأصم والأعمى. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: مذاهبه هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الأعمى. (٩) في الأصل وم: ثمرته. (١٠) في الأصل وم: ونحوه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: الجود. (١٣) في الأصل: به، في م: به ولا. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَى ذلكَ الدينُ الذي يُنْتَفَعُ بهِ واحدٌ، والبواقي لا يُنْتَفَعُ بها كالمياهِ المُرَّةِ والمالحةِ، أو يكونُ غيرَ هذا، ونحنُ لا نَعرِفُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي أجابوا ربَّهُمْ في مادعاهُمْ إليهِ .وإنما دعاهُمْ إلى السببِ الذي يوجبُ لهمْ دارَ السلامِ، وهي الجنةُ، بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] دعاهُمْ إلى دارِ السلامِ، ومَكَّنَ لهمْ مِنَ الإجابةِ لهُ والرَّدِّ .فَمَنْ أجابَهُ في مادعاهُ كانَ لهُ دارُ السلامِ والحُسْنَى الذي ذَكَرَ.

ومَنْ ردَّ دعاءَهُ كانَ لهُ النارُ ودارُ الهَوانِ. فأيُّهما اختارَ [فَلَهُ][1] الموعودُ الذي وُعِدَ؛ إنِ اختارَ إجابَتَهُ [إلى][2] ما دعاهُ فَلَهُ النعيمُ الدائمُ الذي وُعِدَ ودارُ[3] السلامِ، وإنِ اختارَ الرَّدَّ وتَرْكَ الإجابةِ فَلَهُ ما وُعِدَ مِنَ العذابِ الدائمِ والهَوانِ.

والأمثالُ التي ذَكَرَ أنها ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي[4] هكذا للمؤمنينَ، لأنهمْ همُ المُنْتَفِعُونَ بها.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ القرآنِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧] وأمّا على أهلِ الكُفرِ فهو عَمىً وضَلالٌ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وأمّا قلوبُ الكَفَرةِ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وقولُهُ[5] ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وأمثالُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي ضِعْفُهُ معهُ ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ يذكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ: أنَّ الذي[6] كانَ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابةِ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ رَغْبَتُهُم في الدنيا ومَيْلُهُمْ إليها، يَتَمَنَّونَ لِمَا يَحُلُّ فيهِمْ مِنَ العذابِ والشدائدِ أنْ يكونَ لهمْ ما في الأرضِ جميعاً؛ أنْ يَفْتَدوا بهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي[8] يُحاسَبونَ حِساباً يَسُوؤُهُم، لأنَّ حَسَناتِهِمُ التي عَمِلوها، وطَمِعوا بالإنْتِفاعِ بها لم تَنْفَعْهُمْ، بل صارَتْ كالسرابِ الذي ذَكَرَ ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] ولم يَتَجاوَزْ عنْ سَيِّئاتِهِمْ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الذي يأوُونَ إليهِ، هو ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ لِما يَسوؤُهُمْ ذلكَ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ أي أمَنْ[9] يَعْلَمُ الحقَّ حقاً كَمَنْ هو يَعْمَى عنهُ، ولا [يَعلَمُهُ حَقّاً؟ أوأمَنْ][10] يَعْلَمُ الحقَّ أنهُ حقٌّ كمَنْ يَعْلَمُهُ باطلاً؟ لَيس بِسَواءٍ كقولِهِ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنما يَتذكَّرُ بالتذكيرِ أُولو الألبابِ وذَوُو العقولِ الذينَ يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ والبابِهِمْ[11].

الآية ٢٠ ثم بَيَّنَ مَنْ هُمْ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ [عَهْدُ اللهِ][12] عَهْدَ خَلْقِهِ ﴿يُوفُونَ﴾ مافي خَلْقِهِمْ؛ إذْ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ دلالةُ وحدانيَّتِهِ وشهادةُ ألوهيَّتِهِ، فَوَفَوا ذلكَ العَهْدَ.

ويَحْتَمِلُ عَهْدُ اللهِ ما جَرَى على ألْسُنِ الرسلِ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [آل عمران: ٨١] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠] العَهْدُ والمِيثاقُ واحدٌ، وسَمَّى العَهْدَ مِيثاقاً لأنهُ يُوثِقُ المَرْءَ، ويَمْنَعُهُ عنِ الإشْتِغالِ بِغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الصِّلاتُ التي أمَرَ اللهُ بها أنْ[13] تُوصَلَ على جهاتٍ ومَراتِبَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: الذين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: أو. (٩) همزة الإستفهام ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعلم أو من. (١١) في الأصل وم: ولبهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: أي.

أمّا بَيْنَهُ وبَيْنَ المؤمنينَ [فألّا يُحِبَّ لهمْ][1] إلا ما يُحِبُّ، ولا يَصْحَبُهُمْ إلّا بما يُحِبُّ هو أنْ يُصْحَبَ.

وأمّا في ما بَيْنَهُ/ ٢٦٣ ـ ب/ وبَيْنَ مَحارِمِه فأنْ[2] يُؤَدّيَ، ويَحْفَظَ الحقوقَ التي جَعَلَ اللهُ لبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ، ولا يُضَيِّعَها.

وأمّا في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الرسلِ فهو أنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أنْ يوصِلَ الإيمانَ بالنَّبِيِّينَ جميعاً والكتبِ كلِّها. [هذهِ، واللهُ أعلمُ، الصِّلاتُ][3] التي أمَرَ اللهُ أنْ يوصَلَ بها ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إمّا في التَّقْصيرِ في ما أمَرَ أنْ يوصَلَ وإمّا بالتَّفْريطِ في ذلكَ وتَرْكِ الصِّلَةِ ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي شِدَّةَ الحسابِ حينَ لم تَنْفَعْهُمْ حَسناتُهُمْ، ولا يَتَجاوَزُ عَنْ شيءٍ مِنْ سيِّئاتِهِمْ، فذلكَ يَسُوؤُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ قد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ الصَّبْرَ هو كَفُّ النفسِ وحَبْسُها عمّا تَهْواهُ على ما تَكْرَهُ، ويَثْقُلُ عليها.

ثم يَحْتَمِلُ كَفُّها وحَبْسَها عنِ الجَزَعِ وعلى أداءِ ما افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ، وأمَرَهُمْ بها، أو كَفّوا أنفُسَهُمْ، وحَبَسوها عنِ المعاصي. فيكونُ الصبرُ على الوجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْنا، اللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ، ويَحْتَمِلُ ابْتِغاءَ وَجْهٍ، يكونُ لهمْ عندَ اللهِ وهو المَنْزِلَةُ[والرفعةُ، ولذلكَ سَمّى الرفيعَ من المَنْزِلةِ وَجيهاً كقولِهِ:][4] ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي ذا[5] مَنْزِلةٍ ورِفْعَةٍ في الدنيا والآخِرَةِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] أي ثَمَّ الجِهَةُ التي أمَرَ اللهُ أنْ يُتَوَجَّهَ إليها. فَعَلى ذلكَ هذا ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي ابْتِغاءَ المَنْزِلَةِ والرفعةِ التي عندَ ربِّهِمْ وابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ ومرضاتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي داوَموا على إقامَتِها، ليسَ أنهمْ أقاموها[6] مَرَّةً، ثم تَرَكوها، ولكنْ داوَموا على إقامتِها. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣ و..] أي داوِموا على إقامَتِها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي جَعَلوها قائمةً أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يَحْتَمِلُ كلَّ نَفَقَةٍ: الصدقةَ والزكاةَ وما يُنْفِقُ [المَرْءُ][7] على عيالِهِ ووَلَدِهِ سِرًّا وعَلانِيَةً، أي يُنْفِقُ في كلِّ وقتٍ سرًّا مِنَ الناسِ وعَلانِيَةً منهمْ، أي يُنْفِقُ على جَهْلٍ مِنَ الناسِ وعلى عِلْمٍ منهمْ؛ يُنْفِقونَ على كلِّ حالٍ، لا يَمْنَعُهُمْ عِلْمُ الناسِ بذلكَ عنِ الإنفاقِ بَعْدَ أنْ يكونَ ابْتِغاءَ وَجْهِ ربِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يَدْفَعونَ بالحسنةِ السيِّئةَ. ثم يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي يدفعونَ بالإحسانِ إليهِمُ العداوةَ التي كانَتْ بينَهُمْ كقولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ الآية [فصلت: ٣٤].

والثاني: ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ الإساءةَ التي كانَتْ لهمْ بالخَيرِ إليهمْ بالمعروفِ، ولا يُكافِئونَ السَّيِّءَ بالسَّيِّءِ والشَّرَّ بالشَّرِّ، ولكنْ يدفَعُونَهُ بالخيرِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي إذا سَفِهَ عليهِمْ حَلِمُوا، والسَّفَهُ سَيِّئَةٌ والحِلْمُ حسنةٌ.

[وقولُهُ تعالى]:[8] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما][9]: عُقْبَى أولئكَ الذينَ صَبَروا على ما ذُكِرَ مِنْ وفاءِ العَهْدِ والصِّلَةِ التي أُمِروا بها أنْ يَصلوا والصَّبْرِ على أداءِ

---

(١) في الأصل وم: ألا يحبهم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: هذا والله أعلم الصلة. (٤) في الأصل: وجيهاً كقوله، في م: ولذلك سمى الرفيع وذو منزلة وجيها. (٥) في الأصل وم: ذو. (٦) في الأصل وم: أقاموا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

ما أَمَرَ بهِ، وافْتَرَضَ عليهِمْ[1] والانتِهاءِ عمّا نَهى عنهُ: الدارُ الذي دعاهُمْ إليها بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

والثاني: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي عُقْبى حَسَناتِهِمْ دارُ الجنةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ الجنةُ. أو عاقِبَتُهُمْ دارُ الجنةِ.

الآية ٢٣ ثم نَعَتَ تلكَ الدارَ، فقالَ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿عَدْنٍ﴾ هو بُطْنانُ الجَنّةِ، وهو وَسَطُها. وقالَ بعضُهُم: ﴿عَدْنٍ﴾ هو الإقامةُ، أي جَنّاتٌ يُقيمونَ فيها، يُقالُ: عَدَنَ أي أقامَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ خصَّ بالذكرِ الآباءَ والأزواجَ والذُّرِّيَّةَ؟ وهمْ قد دخلُوا في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢٠] وفي قولِهِ: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الآيتين: ٢١ و٢٢] فما مَعْنى تَخْصيصِهِمْ بالذكرِ؟ [قيلَ][2] هذا يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهما][3]: أنهمْ أسْلَموا، فاختُرِموا أي ماتوا لمّا أسْلَموا، ولم يكُنْ لهمْ ممّا ذُكِرَ مِنَ الخيراتِ والحسناتِ. فأخْبَرَ أنّ هؤلاءِ يَدْخُلونَها، ويَلْحَقونَ بأولئكَ.

والثاني: لم يَبْلغُوا الدرجَةَ التي بَلَغَ أولئكَ، فأخبَرَ ﷻ أنهُ يُبَلِّغُهُمْ درجةَ أولئكَ، ويُلْحِقُهُمْ بهمْ[4] كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الطور: ٢١] يضمُّ بعضَهُمْ إلى بعضٍ في الآخرةِ كما كانوا في الدنيا يَضُمُّ كُلَّ ذي قرينٍ في الدنيا قرينَهُ إليهِ في الآخرةِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ، وهو ما قالَ لنوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦] دلَّ هذا أنَّ صلاحَ والدِهِ أو قَريبِهِ لا يُجْدي لهُ نَفْعاً في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحدُهما][5]: أنْ يكونَ لِمُقامِهِمْ ومَنازِلِهِمْ أبوابٌ، فيدخُلُ عليهِمْ مِنْ كلِّ بابٍ مَلَكٌ.

والثاني[6]: أنْ يكونَ يأتي كلُّ مَلَكٍ بالتُّحْفَةِ التي أتى بها الآخَرُ على اختِلافِ خَيراتِهِمْ وقَدْرِ أعمالِهِمْ مِنْ كلِّ بابٍ أي مِنْ كلِّ نوعٍ مِنَ التُّحَفِ. وفيهِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ الملائكةَ يكونونَ خَدَمَ أهلِ الجنةِ، وفي ذلكَ تَفْضيلٌ عليهِمْ.

[والثاني: أنْ يكونوا][7] على حَقِّ المُصاحبَةِ لَمّا أحَبُّوا همْ أهلَ الخَيرِ مِنَ البَشَرِ في الدنيا، فَجَعَلَ اللهُ بينَهُمُ الرُّفْقَةَ والصُّحبَةَ في الآخرةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ كقولِهِ ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ العَهْدُ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ، وكذلكَ النقضُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كلُّ حَرْفٍ مِنْ هذهِ الحُروفِ يَقْتَضِي مَعْنى الحرفِ الآخَرِ: إذا نَقَضوا العَهْدَ والميثاقَ فقد قَطَعوا ما أمَرَ اللهُ بهِ أنْ يُوصَلَ، وسَعَوا في الأرضِ بالفَسادِ، وإذا قَطَعوا ما أَمَرَ اللهُ بهِ أنْ يُوصَلَ نَقَضوا العَهْدَ، وسَعَوا في الأرضِ بالفسادِ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ نَقْضَ العَهْدِ يكونُ بالاعْتِقادِ وذلكَ يكونُ منهُمْ وبَيْنَ نسائِهِمْ، وكذلكَ قطعُ ما أمَرَ بهِ أمْرَ صِلَةِ الإيمانِ بالنَّبيِّينَ والكتبِ جميعاً.

فإنْ كانَ صِلَةَ الأرحامِ فهو فعلٌ، والسَّعْيُ في الأرضِ فِعْلٌ أيضاً مِنْ زِنىً أو سَرِقَةٍ أو قَطْعِ الطريقِ وغيرِ ذلكَ مِنَ المعاصي.

---

(١) في الأصل وم: وجوها أحدها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجوها أحدها. (٤) في الأصل وم: به. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (٧) في الأصل وم: أو أن يكون.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ما ذكَرْنا مِنْ وَصْلِ الإيمانِ ببعضِ الرسلِ[وبكلِّ الرسلِ وبجميعِ][1] الكتبِ، ويَحْتَمِلُ صِلَةَ الأرحامِ التي فرضَ عليهِمْ[صِلَتَها، فَقَطَعوها][2] وأمْرَهُمْ أنْ يَصِلوا أعمالَهُمْ بما اعْتَقَدُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ اللعنةُ هي الطردُ في اللغةِ والإبعادُ؛ كأنهمْ طُرِدوا، وأُبعدوا عنْ رحمةِ اللهِ في الآخِرَةِ، أو طُردوا، وأُبعِدوا مِنْ هِدايَةِ اللهِ وإرشادِهِ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ قد ذَكَرْنا أنهمْ دُعُوا إلى دارٍ، وحُذِّروا عنْ دارٍ؛ دُعُوا إلى دارِ الإسلامِ، فإنْ أجابوا فلهمُ الحُسْنَى على ما ذَكَرَ، وحُذِّروا / ٢٦٤ ـ أ/ عَنْ دارِ الهَوانِ، فلم يَحْذَروا[3] دارَ السوءِ والهَوانِ، وسَمّاها[4] سُوءَ الدارِ لِما يَسوءُ مُقامُهُمْ فيها، أو ذَكَرَ لأهلِ النارِ سُوءَ الدارِ مُقابلَ ما ذَكَرَ لأهلِ الجنةِ حُسْنَ المآبِ وحُسْنَ الثوابِ والحُسْنَى.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُرَغِّبُهُمْ في ما عندَهُ، ويُؤْيِسُهُمْ عمّا في أيدي الخَلْقِ، ويَقْطَعُ رجاءَهُمْ عنْ ذلكَ، لأنَّ الذي كانَ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ، ويَحْمِلُهُمْ على تكذيبِ الرسلِ وتَرْكِ الإجابةِ، هذهِ الأموالُ التي كانَتْ في أيدي أولئكَ، وبها رَأَوا دَوامَ الرئاسةِ والعِزِّ والشَّرَفِ لهمْ في هذهِ الدنيا، فقالَ: هو الباسطُ لذلكَ، القاتِرُ [على][5] أولئكَ، هو يُوَسِّعُ على مَنْ يَشاءُ، ويُقَتِّرُ على مَنْ يَشاءُ، ليسَ ذلكَ إلى الخَلْقِ.

وذَكَرَ أنَّهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ أوليائِهِ وأعدائِهِ، ويُقَتِّرُ على مَنْ يَشاءُ مِنْ أعدائِهِ وأوليائِهِ، لِيَعْلَموا أنَّ التَّوسيعَ في الدنيا أوِ البَسْطَ لا يَدُلُّ على الوَلايةِ، ولا التَّقْتيرُ والتَّضْييقُ [يدلُّ][6] على العَداوَةِ، ليسَ كما يكونُ في الشاهدِ يُوَسِّعُ على الأولياءِ، ويَبْسُطُ، ويُضَيِّقُ على الأعداءِ، لأنَّ التَّوسيعَ في الدنيا والتَّضْييقَ بِحَقِّ المِحْنَةِ في الآخِرَةِ بِحَقِّ الجَزاءِ، ويُسَوِّي في المِحْنَةِ الوَلِيَّ والعَدُوَّ، ويَجْمَعُ بَيْنَهُما في المِحْنَةِ، ويُفَرِّقُ بَيْنَهُما في الجَزاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٥] ويَفْرَحونَ بالحياةِ الدنيا.

ثم الفَرَحُ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي رَضُوا بها كقولِهِ: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: ٧] أو ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ سُروراً بها.

فإنْ قيلَ: إنَّ المؤمنَ قد يُسَرُّ بالحياةِ الدنيا، قيلَ: يُسَرُّ، ولكنْ لا يُلْهيهِ[7] سُرورُهُ بها، ولا يَغْفُلُ عنِ الآخرةِ.

وأمّا الكافرُ فإنَّهُ[8] لِشِدَّةِ سُرورِهِ بها وفرحِهِ عليها يَلهو عنِ الآخِرَةِ وعنْ جَميعِ الطاعاتِ. وهكذا يُعْرَفُ الناسَ أنهُ إذا اشْتَدَّ بالمرءِ السرورُ بالشيءِ فإنهُ يَلْهو عنْ غيرِهِ، ويَغْفُلُ عنهُ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي أَشِروا، وبَطِروا كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] والفَرِحُ هو[9] الأشِرُ أوِ البَطِرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أي ما الحياةُ الدنيا مَعَ طولِ تَمَتُّعِهِمْ بِها [بِمُقابلةِ تَمَتُّعٍ][10] الآخرةِ إلا كَمَتاعِ ساعةٍ أو كَمَتاعٍ بشيءٍ يسيرٍ، وهو كقولِهِ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وكقولِهِ: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [يونس: ٤٥] يَظُنّونَ مَعَ طولِ ما مُتِّعوا في هذهِ الدنيا عندَ مَتاعِ الآخِرَةِ كأنهمْ ما مُتِّعوا بها إلّا ساعةً.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ وهو ما ذَكَرَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] عندَ مَتاعِ الآخِرَةِ [لأنَّ مَتاعَ الآخِرَةِ][11] ونَعيمَها دائمٌ مُتَّصِلٌ غيرُ مُنْقَطِعٍ، لا يَشوبُهُ آفةٌ ولا حُزْنٌ ولا خَوفٌ، ومتاعَ الدنيا مُنْقَطِعٌ غيرُ مُتَّصِلٌ مَشوبٌ بالآفاتِ والأحزانِ، لذلكَ[كانَ][12] قليلاً عندَ مَتاعِ الآخِرَةِ ونَعيمِها.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي إلّا لَهْوٌ وباطلٌ، لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: مالكل وجميع. (٢) في الأصل وم: صلتهم قطعوا ذلك. (٣) في الأصل وم: يحذر. (٤) في الأصل وم: أو سماها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يلهي. (٨) في الأصل وم: فإنها. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل: يتمتع، في م: تمتع. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يَحتَمِلُ سؤالُهُمُ الآيةَ نفسَ الآياتِ التي أتَتْ بِها الرسلُ مِنْ قَبْلُ قومَهُمْ، أو سالوا آياتٍ سَمَّوها كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا [مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ وكقولِهِ][1] ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣] إلى آخرِ ما ذَكَرَ من الآياتِ سَالوها منهُ، أو سالوهُ آياتٍ تَضطَرُّهُمْ، وتَقْهَرُهُمْ على الإيمانِ كقولِهِ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وفيهِ دلالةٌ أنهُ لو شاء لأنزَلَ عليهِمْ آياتٍ لآمنوا كُلُّهُم بِها، واهْتَدوا [وأنَّ][2] عندَهُ أشياء لو أعطاهُمْ لكانَ ذلكَ سَبَبَ اهتدائِهِمْ وتَوحيدِهِمْ، وكذلكَ لو أعطى أشياءَ لكانَ ذلكَ سببَ كُفرِهِمْ جميعاً كقولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآية[الزخرف: ٣٣] لكنهُ لا يُنزِّلُ الآيةَ على شَهَواتِهِمْ وأمانيهِمْ، ولكنْ يُنزِّلُ أشياءَ تكونُ عندَ التأمُّلِ[3] والنظرِ حُجَّةً. فَمَنْ تَأمَّلَ فيها، وتفكَّرَ، اهْتَدى[4]، وآمَنَ بالاختيارِ، ومَنْ أعْرَضَ عنها، ولم يَتفكَّرْ، ضَلَّ، وزاغَ، بالاختيارِ.

ويَحتَمِلُ[5] قولُهُ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي إنْ نَشأْ إيمانَهُمْ واهتِداءَهُمْ نُنَزِّلْ عليهِمْ آيةً. وذلكَ تأويلُ قولِهِ على إثْرِ سُؤالِهِمُ الآيةَ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي يُنزِّلُ مِنَ الآياتِ ما يَهتَدي بها المنيبُ إليها والمُقْبِلُ، ويُضِلُّ[6] المُعْرِضَ عنها والصادرَ بالاختيارِ ويكونُ اهْتِداؤُهُمْ باختيارِهِمْ وضَلالُهُمْ باختيارِهِمْ لا [باضطرارِهِمْ وقَهرِهِمْ][7].

الآية ٢٨ ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؟ وهو القرآنُ الذي أنْزَلَهُ على رسولِهِ، وهو وصفُ المُقْبِلِ المُنيبِ إلى ذكرِ اللهِ؛ تَسْكُنُ، وتَطمَئِنُّ قلوبُهُمْ بالتأمُّلِ والتَّفكُّرِ فيهِ[8].

وأصلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ شاءَ هدايةَ[9] مَنْ عَلِمَ أنهُ يَختارُ الاهْتِداءَ والإيمانَ، وشاءَ ضلالَ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَختارُ فِعْلَ الضلالِ والزَّيغِ؛ يَشاءُ لِكلٍّ لِما عَلِمَ أنهُ يَختارُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وتسكُنُ إليهِ. وقالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ: هو في الحَلْفِ في الخُصوماتِ؛ ألا في الحَلْفِ باللهِ تَطمَئِنُّ، وتَسكُنُ قلوبُ الذينَ آمَنوا، لا تَطمَئِنُّ بالحَلْفِ بغيرِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ألاَ بالقرآنِ وبِما في القرآنِ مِنَ الثوابِ تَسْكُنُ، وتَطمَئِنُّ قلوبُ الذينَ آمَنوا.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أن[10] تفرَحَ، وتَستَبْشِرَ قُلوبُ الذينَ آمَنوا بِذِكْرِ اللهِ، ألاَ بِذِكْرِ اللهِ تَستَبْشِرُ، وتَفرَحُ قلوبُ الذينَ آمَنوا؛ لأنهُ ذَكَرَ في الكَفَرةِ الفَرَحَ بالحياةِ الدنيا، وهو قولُهُ: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية: ٢٦] واطمَأنُّوا بها، وذَكَرَ في المؤمنينَ الاستِبْشارَ والفَرَحَ بِذِكْرِ اللهِ، وفي أُولئكَ ذَكَرَ أنَّ قلوبَهُمْ تَشمَئِزُّ بِذِكْرِ الرحمنِ، وتَستَبْشِرُ بِذِكْرِ مَنْ دونَهُ، وهو قولُهُ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] أخبَرَ ﷻ أنَّ قلوبَ المؤمِنينَ تَستَبْشِرُ، وتَفرَحُ بِذِكْرِ اللهِ، وقلوبَ أولئكَ تَشمَئِزُّ [بِذِكْرِ اللهِ][11] وتَستَبْشِرُ بِذِكْرِ[مَنْ][12] دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لَهُمْ، وذِكْرُ اللهِ لهمُ التوفيقُ والتسديدُ والعصمةُ [ونحوُ ذلكَ][13].

والثاني: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وذِكرُهُمُ اللهَ[ذِكْرُ][14] إحسانِهِ وعظمتِهِ وجلالِهِ[ونحوُ ذلكَ][15].

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ قيلَ: هو اسْمُ الجنةِ بِلسانِ الحبشةِ،

---

(١) في الأصل وم: الآية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: التأويل. (٤) في الأصل وم: لاهتدى. (٥) الواو ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: ويضر. (٧) في م: بالإضطرار والقهر. (٨) في الأصل وم: فيها. (٩) في الأصل وم: اهتدى. (١٠) في الأصل وم: أي.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ونحوه. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: ونحوه.

وقيلَ: بالهِنْدِيَّةِ، وقيلَ [اسْمُ شجرةٍ][1] في الجنةِ؛ أصلُها في دارِ رسولِ اللهِ ﷺ وأغصانُها في دارٍ آمِنَةٍ، فإنْ كانَ هذا، وهو اسْمُ شجرةٍ، فذلكَ لا يَسْتَقيمُ إلّا بِقِدَمِهِ، كانَ أهلُ الكتابِ ادَّعَوْها لأنفسِهِمْ، فأخبَرَ أنها للذين / ٢٦٤ ـ ب/ آمَنوا، لا لهمْ، كقولِهِمْ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] ثم قالَ ﷻ ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢].

ادَّعَوُا الجنةَ لأنفسِهِمْ، فأخبَرَ أنَّها ليسَتْ لهمْ، ولكنْ للذي أَسْلَمَ، وأخْلَصَ وجهَهُ للهِ. فَعَلَى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ يكونوا ادَّعَوا طُوبى لأنفسِهِمْ، فأخبَرَ أنَّها ليسَتْ لهمْ، ولكنْ للذينَ آمَنوا.

وإنْ كانَ في مُشرِكي العربِ، فهمْ يُنْكِرُونَ البعثَ والجنةَ والنارَ، فَيُشْبِهُ أنْ يكونوا قالوا: إنْ كانَ بَعْثٌ على ما يقولونَ، وجنةُ طُوبَى، فهي لنا كقولِهِ: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طُوبَىٰ﴾ كلمةٌ مَدَحَ اللهُ بها ثوابَهُمْ، وغَبَطَهُمْ بِها. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طُوبَىٰ﴾ كرامةٌ أعدَّها[2] اللهُ لأوليائِهِ، وهي مذكورةٌ في الكتبِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي كما أرسَلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي كلُّ رسولٍ كانَ أُرسِلَ قَبْلَكَ، كانَ أُمِرَ أنْ يقولَ ما ذُكِرَ، كذلكَ أرسَلْناكَ إلى قومِكَ رسولاً، وإنْ كانوا يكفُرونَ بالرحمنِ، فَقُلْ أنتَ ما قالَ أولئكَ الرسلُ ﴿رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية.

لم تَخْلُ أمةٌ عنْ رسولٍ كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صلةَ قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠] يقولُ: أرسَلْناكَ لِتَتْلُوَا أنباءَ الرسلِ والأممِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكَ عليهِمْ لتكونَ آيةً لرسالتِكَ، لِيَعْلَموا أنكَ إنما عَلِمْتَ تلكَ الأنباءَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، هُمْ يَكْفُرونَ بالرحمنِ، وفي كلٍّ مِنَ الخلائقِ آيةُ توحيدِ اللهِ والوهيَّتِهِ، ولا في كلِّ الخلائقِ آيةٌ لرسالتِكَ، وهُمْ معَ هذا كلِّهِ يكْفُرونَ بالرحمنِ. فَعَلَى ذلكَ يكفرونَ بآياتِ رسالتِكَ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧] وكانوا أهلَ التَّعَنُّتِ[4] مِنَ الكِبْرِ فقالَ: لو جِئْتَهُمْ بقرآنٍ ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الآية: ٣١].

يقولُ: لو جئتَ بذلكَ كلِّهِ كانَ أمْرُهُمْ بالتكذيبِ والعنادِ. وهو كقولِهِ: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] وقولِهِ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الحجر: ١٤] يُخبِرُ ﷻ عن عِنادِهِمْ أنهمْ لا يؤمنونَ بالآيةِ، وإنْ عَظُمَتْ، إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١] أي الأمْرُ للهِ مَنْ شاءَ أنْ يُؤمِنَ يؤمِنُ، ومَنْ شاءَ ألّا يؤمِنَ فلا يؤمِنُ البَتَّةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي يكفُرونَ باسْمِ الرحمنِ لأنهمْ قالوا: إنَّ محمداً كانَ يَدْعونا إلى عبادةِ اللهِ وتوحيدِهِ، فالساعةَ يَدْعونا إلى عبادةِ الرحمنِ وألوهيَّتِهِ، فذلكَ عبادةُ اثْنَينِ، فقالَ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي دعائي إلى عبادةِ الرحمنِ والوهيَّتِهِ، هو دعاني إلى عبادةِ اللهِ، هو واحدٌ، ليسَ بِاثْنَينِ ولا عَدَدٍ، كقولِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي عَدَدُ الأسماءِ لا يُوجِبُ عَدَدَ [الذواتِ، بل][5] يكونُ لشيءٍ واحدٍ في الشاهِدِ [لهُ][6] أسماءٌ مختلفةٌ. فاختِلافُ الأسماءِ لا يوجِبُ اختِلافَ الذاتِ، فَعَلَى ذلكَ في اللهِ.

---

(١) من م، في الأصل: شجر. (٢) في الأصل وم: أعداء. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: التعهد. (٥) في الأصل وم: الذات أو. (٦) ساقطة من الأصل و م.

وقالَ بعضُهُم: الرحمنُ اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ في الكُتُبِ الأوَّلِ، قالوا: كَتَبَها رسولُ اللهِ، أبَوا أنْ يُقِرّوا بهِ، ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] إنا لا نَعْرِفُهُ، فنَزَلَ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ. قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: تأويلُهُ: لو أنَّ قُرْآناً ما غَيْرَ قرآنِكَ سُيِّرَتْ بهِ الجبالُ مِنْ أماكِنِها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لفعَلْنا[1] بِقُرْآنِكَ أيضاً ذلكَ. ولكنْ لم نَفْعَلْ بكتابٍ مِنَ الكتبِ التي أَنْزَلْتُها على الرسلِ الذينَ مِنْ قبلكَ، ولكنْ شيءٌ أعْطَيْتُهُ أنبيائي ورسُلي ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

يقولُ: بل جميعُ ذلكَ الأمرِ كانَ مِنَ اللهِ، وليسَ مِنْ قِبَلِ القرآنِ، أي لو فَعَلَ بالقرآنِ ذلكَ كانَ جميعُ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ إنْ شاءَ فَعَلَ ما سألْتُمْ، وإنْ شاءَ لم يَفْعَل. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ غيرُ هذا أقرَبَ أنْ يكونَ صِلَةَ ما تقدَّمَ مِنْ سؤالِهِمُ الآياتِ، وهو قولُهُ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧] فيقولُ: لو أنَّ قرآنَكَ الذي تقرأُ عليهِمْ ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لما آمنوا بكَ، ولَما صَدَّقوكَ على رسالتِكَ على ما لا يؤمِنونَ بالرحمنِ، وكُلٌّ مِنَ الخلائِقِ لهُ آيةٌ لِوَحدانيَّتِهِ، يُخْبِرُ عنْ شدةِ تَعَنُّتِهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ في تكذيبِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ أنَّ سؤالَهُمُ الآيةَ سؤالُ تَعَنُّتٍ وتَمَرُّدٍ، ليسَ سؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي لو أنَّ قرآناً ما عَمِلَ ما ذُكِرَ لكانَ هذا القرآنُ تعظيماً لهذا القرآنِ، والتأويلُ الذي ذَكَرْنا قَبْلَ هذا كأنهُ أقربُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قالَ بعضُهُمْ هو صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مِنْ إيمانِ مَنْ كانَ على ما وَصَفَ اللهُ؟

وتَمامُ هذا: كانَ المؤمنينَ سَألوا لهمُ الآياتِ لِيُؤمِنوا كما[2] سألواهُمْ آياتٍ مِنْ رسولِ اللهِ، فيقولُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مِنْ إيمانِ هؤلاءِ، وهو كما قالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] كانَ المؤمنينَ سألوا لهمُ الآياتِ لِيُؤمِنوا، فقالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] أي يؤمِنونَ على طَرْحِ ﴿لَا﴾ على هذا التأويلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أفلَمْ يَتَبَيَّنْ للذينَ آمنوا أنَّهُمْ لا يُؤْمِنونَ لِكَثْرَةِ ما رَأوا منهمْ مِنَ العنادِ والمكابَرةِ؟ فَسَّروا الإياسَ بالعِلْمِ والأيْسِ[3] لأنَّ الإياسَ إذا غَلَبَ يَعْمَلُ عَمَلَ العِلْمِ كالخوفِ، والظَّنُّ [ونحوُ ذلكَ][4] جَعَلوهُ يقيناً وعِلْماً لِلغَلَبَةِ لأنهُ إذا غَلَبَ يَعْمَلُ عَمَلَ اليقينِ والعِلْمِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ أي أفلَمْ يَعْلَمِ ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أنَّ اللهَ يَفْعَلُ لو شاءَ.

قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ خطأٌ مِنَ الكاتِبِ إنما هو أفَلَمْ يَتَبَيَّنْ للذينَ ﴿ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ فَمَعْناهُ: أي قد يَتَبَيَّنُ للذينَ آمَنوا.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ﴾ أي أفلَمْ يَعْلَمِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي قد عَلِمَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ إيمانَ الناسِ واهْتِداءَهُمْ ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ لآمنوا، واهْتَدَوا.

وقالَ صاحبُ [هذا[5]] التأويلِ: جائزٌ[6] في اللغةِ: يَيْأسُ يَعْلَمُ، وذَكَر أنها لُغَةُ نَخَعٍ وغَيرِها، واللهُ أعلَمُ.

وقال بعضهم: قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مقطوعٌ مِنْ قولِهِ ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ الآية [وقولُهُ:

---

(١) في الأصل وم: لفعلناه. (٢) في الأصل وم: لما. (٣) الأيس: القهر. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: إن.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذا][1] موصولٌ بما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧] ثم قالوا [جواباً لِما قالوا][2].

كأنهُ قالَ: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولكنْ ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الآية: ٢٧] أي [مَنْ][3] عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ، ويُؤْثِرُهُ، يَشأُ ذلكَ لهُ، ومَنْ[4] عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الهُدَى يَشأ / ٢٦٥ ـ أ/ [ذلكَ[5]]لهُ. ويكونُ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مقطوعاً[6]، لا جوابَ لهُ.

كأنهُ قالَ: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مِنْ إيمانِهِمْ لكثرةِ ما رَأوا منهمْ مِنَ العِنادِ والتَّعَنُّتِ بَعْدَ رُؤيَتِهِمُ الآياتِ والحُجَجَ؛ كأنَّ أهلَ الإيمانِ والإسلامِ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ الآياتِ التي سألوا هُمْ رغبةً في إسلامِهِمْ وإشفاقاً عليهِمْ، فيقولُ، واللهُ أعلمُ، ألَمْ يَأنِ للذينَ آمَنوا الإياسُ مِنْ إيمانِهِمْ؛ أي قد آنَ[7] للذينَ آمنوا أنْ يَيْأسوا مِنْ إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

فَعَلَى ذلكَ هذا؛ يقولُ: قد آنَ[8] للذينَ آمَنوا أنْ يَيْأسوا مِنْ إيمانِهِمْ، ولو شاءَ اللهُ لَهَدَى الناسَ جميعاً، كقولِهِ: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام١١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذينَ حارَبوا رسولَ اللهِ ﷺ ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ هي اسْمُ ما يَقْرَعُ القلوبَ، ويَكْسِرُها،

ثم قَرْعُهُمْ يكونُ بعذابٍ [وقَتْلٍ وغَيرِهِ][9] مِنَ الهزيمةِ [وسَبْيِ ذَرارِيهِمْ، وغُنْمِ][10] المُسلِمينَ أموالَهُمْ ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: أو تكونُ القارعةُ بجيرانِهِمُ الذينَ قَرُبَ منكُمْ دارُهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: لا تَزالُ سَرِيَّةٌ مِنْ سَرايا رسولِ اللهِ ﷺ تَحُلُّ ببعضِهِمْ، أو يَنزِلُ هو قريباً منهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يكونُ بوجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يُظْفِرَهُ بهِمْ جميعاً، وأنْ يُورِثَ المؤمنينَ أرضَهُمْ وديارَهُمْ وأموالَهُمْ.

والثاني: يكونُ وَعْدُ اللهِ فَتْحَ مكةَ كقولِهِ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ الآية [الفتح ١٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ما وَعَدَ رسولَهُ مِنَ الفَتْحِ والنَّصْرِ وغيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ مُحتَمِلٌ ما ذُكِرَ مِنْ إصابةِ القارعةِ الجوعَ والشدائدَ التي أصابَتْهُمْ، ويَحتَمِلُ القتالَ والحروبَ التي [كانت بَينَهُ][11] وبينَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ نُزولُ السرايا يَقْرُبُ مِنْ دارِهِمْ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ فَتْحَ مكةَ؛ أي تَحُلُّ قريباً مِنْ دارِهِمْ حتى يأتيَ ما وَعَدَ اللهُ مِنْ فَتْحِ مكةَ عليكَ، أو يكونُ وعدُ اللهِ هو البعثَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يقولُ: ولقد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ قومُهُمْ كما اسْتَهْزَأ بِكَ قومُكَ؛ يُعَزِّي نَبِيَّهُ لِيَصْبِرَ على تكذيبِهِمْ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ، سألَهُمْ قومُهُمُ الآياتِ والعذابَ بالْهزْءِ، ثم بَيَّنَ بهذا أنَّ ما سألوهُ مِنَ الآيةِ أرادوا الهُزْءَ، وهو صلةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقولُ: أمهَلْتُهُمْ في كُفرِهِمْ وهُزْئِهِمْ. هذا يدلُّ أنَّ تأخيرَ العذابِ عنهُمْ لا يُؤَمِّنُهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: وهذا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مقطوع. (٧) و(٨) في الأصل وم: أنى. (٩) في الأصل وم: وقيل غيره، في م: وقيل غيره. (١٠) في الأصل وم: ويسبى ذراريهم ويغنم. (١١) في الأصل وم: كان بينهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ وهُمْ آمنونَ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها يقولُ: أمْلَيْتُ لهُمْ][١] جزاءَ ما كانوا يَهْزَؤُونَ منهُ.

[والثاني: ما][٢] قالَ بعضُهُمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فكيفَ عِقابُ اللهِ؟ أي شديدٌ عِقابُهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨] وقيلَ: كيفَ رأيتَ عذابي لهمْ؟ أي أليسَ[٣] وَجدوهُ شديداً؟

والثالثُ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي أليسَ[٤] ما أوْعَدَهُمُ الرُّسُلُ مِنَ العذابِ كانَ حقّاً صِدْقاً.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: يقولُ: مَنِ الذي ﴿هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾؟ اللهُ أم شُركاؤكُمْ؟ فالقائمُ هو المُدَبِّرُ الحافظُ لِكلِّ ما فيهِ الخَلْقُ.

ويُشْبِهُ أنْ يَكونَ تأويلُهُ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ أي حافظٌ وعالمٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أو بالرزقِ لهمْ والدَّفعِ عنهمْ كَمَنْ هو أعْمى عنْ ذلكَ مِنْ ذلكَ؟ ليسا بِسَواءٍ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ الآيةَ[الآية: ١٩] أو يقولَ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كَمَنْ هو غيرُهُ قائمٌ عليهِ؟ لَيسا بِسَواءٍ.

وقالَ مُقاتلٌ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ [على][٥] رِزقِهِمْ وطعامِهِمْ، ثم قالَ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي وضَعُوا للهِ شُرَكاءَ، وعَبَدوها، واللهُ أحقُّ أنْ يُعْبَدَ مِنْ غيرِهِ. يقولُ اللهُ ﷻ: أنا القائمُ على كلِّ نفسٍ أرْزُقُهُمْ، وأُطْعِمُهُمْ، أفأكونُ أنا وشُركائي الذينَ لا يَعقِلونَ ذلكَ سَواءً؟ والوَجْهُ فيه ما وَصَفْنا: أفَمَنْ هذا؟ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي يَرْزُقُ، ويُبْصِرُ، ويَعْلَمُ[٦] ما تَعْمَلُ، ويَكْتُبُ،[ويَحْفَظُ][٧] من أنواعِ البلايا ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الآية: ١٩] جاهلٌ عاجزٌ عنْ ذلكَ كلِّهِ، أي ليسَ هذا كذلكَ، ويُسَفِّهُهُمْ في إشراكِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدوها في الألوهيَّةِ والعبادَةِ، وهي بالوصفِ الذي ذَكَرَ ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ عاجزٌ عنْ ذلكَ، أي لَيسا بِسَواءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في ما قَدَّرَ لها، وقَوّاها، أو في الجَزاءِ؛ يَجزي على ما تَكْسِبُ. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ في العبادةِ وفي تَسميَتِهِمْ آلهةً، لا يَعْلَمونَ ما كُسِبَ لها، ولا يَمْلِكونَ جَزاءَ ما كَسَبوا لها أيضاً.

يُبَيِّنُ سَفَهَهُم في جَعْلِهِمْ هذهِ الأصنامَ والأوثانَ شُركاءَ اللهِ في العبادةِ وتَسْميَتِهِمْ آلهةً معَ علمِهِمْ أنهمْ لا يَقْدِرونَ، ولا يَمْلِكونُ شيئاً منْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بذلكَ الاسْمِ، ولو سَمَّوهُمْ بِكَذِبٍ وباطلٍ وزُورٍ.

وعندَنا قولُهُ: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي إنْ[٨] سَمَّيْتُمُوها آلهةً، واتَّخَذْتُموها [مَعْبوداتٍ فَسَمُّوها][٩] أيضاً بأسماءِ سَمَّيْتُمُوها[١٠] اللهَ مِنْ نَحْوِ الخالقِ والرازقِ والرحمنِ والرحيمِ [ونحوِ ذلكَ، يقولُ][١١] واللهُ أعلَمُ: إنْ[١٢] سَمَّيْتُمْ هذهِ الأصنامَ آلهةً[ومَعْبوداتٍ فسَمُّوها][١٣] أيضاً خالقاً ورازقاً ورحمانَ ورحيماً، [وأنتمْ تَعْلَمونَ][١٤] أنها ليستْ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ [ويَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][١٥] أي أم تُنَبِّئونَ اللهَ، وهو عالمٌ بما في السماواتِ وما في الأرضِ، وعالمٌ بكلِّ شيءٍ، أنهُ[١٦] لا يَعْلَمُ في

---

(١) في الأصل وم: يقول أمللت بهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ليس. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويعمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لو. (٩) في الأصل وم: معبودا فسموهم. (١٠) في الأصل: سميتم. (١١) في الأصل وم: ونحوه. (١٢) في الأصل وم: لو. (١٣) في الأصل وم: ومعبودا سموهم. (١٤) في الأصل وم: وهم يعلمون. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: وهو.

الأرضِ ما[1] تقولونَ مِنَ الآلهةِ وما تصفونَهُ بالشركاءِ؟ وكذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أم تُنَبِّئونَهُ بما ليسَ في الأرضِ شيءٌ مما تقولونَ، وتصفونَهُ بالشركاءِ[2]؟ أي يقولُ: أتُنَبِّئونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ في السمواتِ والأرضِ، وهو عالمٌ بِكلِّ شيءٍ، وأنهُ[3] لا يَعْلَمُ ما تقولونَ، وتُسَمُّونَهُ مِنَ الشركاءِ [وغيرَ ذلكَ][4].

والثاني: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ليسَ في الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي بل بباطلٍ مِنَ القولِ وزُورٍ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بضعيفٍ[5] مِنَ القولِ أو خفيفٍ. يُسَمُّونَ الشيءَ الذي لا حقيقةَ لهُ، ولا ثُبوتَ[6]، ظاهراً بادياً كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] أي ضعيفَ الرأيِ خفيفَهُ، لا حقيقةَ لهُ، ولا قرارَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ في الخَلْقِ والأسلافِ، أي لم يُظْهِرْ ما يقولونَ، ويُضيفونَ: إشراكَ هذهِ الأصنامِ وتَسْمِيَتَها آلهةً ومعبوداتٍ[7]، فيكونُ ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ في موضعِ حَقيقةٍ ويقينٍ على هذا التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿مَكْرُهُمْ﴾ قولُهُمُ الذي قالوهُ مِنَ الكَذِبِ والزُّورِ: إنها آلهةٌ، وإنها شركاءُ اللهِ.

لكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَكْرُهُمْ﴾ مَكْرَهُمْ[8] برسولِ اللهِ ﷺ حينَ[9] احتالوا حِيَلاً / ٢٦٥ ـ ب/ لِيَقْتُلُوهُ لِئلا يَظْهَرَ هذا الدينُ في الأرضِ، ويُطْفِئوا[10] هذا النورَ لِيَدومَ عِزُّهُمْ وشَرَفُهُمْ في هذهِ الدنيا، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] والمَكْرُ هو الاحتيالُ والأخذُ مِنْ حيثُ الأمنُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ صَدُّوا بما[11] بما عُلِمَ مِنْ مَكْرِهِمْ واختيارِهِمْ ما اختاروا. والسبيلُ المطلَقُ سبيلُ اللهِ، وإلا كانَتْ جميعُ الأديانِ والمذاهبِ تُسَمَّى سُبُلاً كقولِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ مَنْ أضلَّهُ اللهُ فلا يَمْلِكُ أحدٌ هِدايَتَهُ، [ومَنْ][12] هداهُ فلا يَمْلِكُ أحدٌ إضلالَهُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ العذابُ لهمْ في الحياةِ الدنيا، يَحْتَمِلُ القَتْلَ والقِتالَ والخوفَ والجوعَ وأنواعَ البَلايا كقولِهِ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي أشدُّ ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي مالَهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ واقٍ يَقِيهِمْ مِنْ عذابِهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَصفَ الجنةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ، أو صِفَةَ الجنةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ، ويَحْتَمِلُ الجنةَ ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كَشَبَهِ النارِ التي وُعِدَ الكافرونَ، أي لَيسا بشَبيهَينِ ولا مَثيلَينِ، لا تكونُ هذهِ مثلَ هذِهِ، ولا شَبيهَتَها[13] كقولِهِ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: الذي وَصْفُهُ كذا مِنَ النِّعَمِ الدائمةِ كالذي يكونُ عذابُهُ وَوَصْفُهُ كذا؟ أي لايكونُ، فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أي ثِمارُها دائمةٌ، لاتَزولُ، ولاتَنْقَطِعُ، ليسَ كَثِمارِ الدنيا، إلا وهي تَزولُ، وتَنْقَطِعُ في وقتٍ. فأخْبَرَ أن ثِمارَ الآخِرَةِ، وما فيها مِنَ النِّعَمِ، دائمةٌ باقيةٌ غيرُ زائلةٍ ولا مُنْقَطِعَةٌ وكذلكَ عذابُها دائمٌ، لا يزولُ ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضاً.

---

(١) في م: مما. (٢) في الأصل وم: شيء. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: وغيره. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٦) في الأصل وم: ثابت. (٧) في الأصل وم: معبودا. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: ويطفئون. (١١) في الأصل وم: لما. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: شبيهها.

أخبَرَ أنَّ ظِلَّ الجنةِ لايَزولُ، ولايَنقَطِعُ، لا يكونُ فيها شمسٌ، يزولُ ظِلُّها بزوالِها، وَصَفَ جميعَ ما فيها بالدوامِ والمَنفَعَةِ؛ الظِّلُّ شيءٌ، لا أذى فيه، وفيهِ مَنافِعُ، والشمسُ فيها أذىً ومَنافِعُ، وكذلكَ جميعُ ما يكونُ مِنَ الأشياءِ في الدنيا، يكونُ [فيها مَنافِعُ ومَضارُّ، وإنها][1] تَزولُ، وتَنْقَطِعُ. فأخبَرَ أنَّ ظِلَّ الآخِرَةِ، وما فيها مِنَ النِّعَمِ دائمةٌ باقيةٌ غَيْرُ زائلةٍ ولامنقطعةٍ، ولامَضَرَّةَ فيها، ليسَ كنعيمِ الدنيا وظِلِّها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ ظاهِرٌ[2] هذا أنْ تكونَ [عُقْبى][3] الذين اتَّقَوُا الشِّرْكَ لأنهُ ذَكَرَ ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ أي جَزاءُ وعُقْبى ما ذَكَرْنا، أي تلكَ الجنةُ جَزاءُ الذينَ اتَّقَوُا الشِّرْكَ، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ أي جَزاؤُهُمُ[4] النارُ، أو عُقْبى [هؤلاءِ الذينَ][5] اتَّقَوُا [الشِّرْكَ][6] الجنةُ، وعُقْبى أولئكَ النارُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي عاقبةُ أعمالِهِمْ وحَسَناتِهِمُ الجنةُ، وعاقبةُ أعمالِ الذينَ كَفَروا بتوحيدِ اللهِ النارُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الآية: ٣٠] فأخبَرَ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ بِذِكْرِ الرحمنِ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أصحابُ محمدٍ فَرِحوا بما أُنزِلَ إلى رسولِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أهلُ التوراةِ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَذكُرُ ههنا أنَّهمْ يَفرَحونَ بما أُنزِلَ إليكَ، ويَذكُرُ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقالَ بعضُهُمْ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١] فَمَنْ تَلا منهُمُ الكتابَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، ولم يُبَدِّلْهُ، ولم يُغَيِّرْهُ، فهو يؤمِنُ بهِ، ويَفرَحُ بما أُنزِلَ على محمدٍ، ومَنْ غَيَّرَهُ، وبَدَّلَهُ، فهو لم يَفرَحْ بما أُنزِلَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: والذينَ آتينا مَنافِعَ الكتابِ أولئكَ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] لأنَّ أكثَرَهُمْ يَفرَحونَ بما أنزلَ على محمدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ يَحتَمِلُ أهلَ الكتابِ؛ كانوا يُنكِرونَ بعضَ ما أُنزِلَ إليهِ، لا يُنكِرونَ كُلَّ ما أُنزِلَ إليهِ، وإنما كانوا يُنكِرُونَ بَعْثَهُ[7] وصِفَتَهُ لأنهمْ كَتَموا بَعْثَهُ[8] وصِفَتَهُ التي في كتبِهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ مُشركي العَرَبِ، وهُمْ أيضاً أنْكَروا بَعْضَ ما أُنزِلَ إليهِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الآية: ٣٠] وقولُهُ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] ونَحوُهُ، لم يُنكِروا كلَّهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ كانَ هذا [الذي][9] قالَ على إثْرِ قولٍ كانَ منهُمْ؛ كأنهمْ دَعَوْهُ إلى أنْ يُشارِكَهُمْ في عبادةِ الأصنامِ، أودَعَوْهُ أنْ يكونَ على ما كانَ آباؤُهُمْ، فقالَ: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ [أنهُ قالَ ذلكَ في][10] نفسِهِ ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ يقولُ: إلى توحيدِ اللهِ أدعو غيري، ثم أخالِفُ، وأعبدُ غيرَهُ ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي إليهِ المَرجِعُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ أي كما عَلَّمْناكَ آداباً، وأعطيناكَ النُّبُوَّةُ، كذلكَ أنزَلْناهُ عليكَ ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ قيلَ: حِكْمَةُ عَرَبِيَّةٌ، وكانتِ العَرَبُ تَفْهَمُ[11] الحِكْمَةَ، أو أنزَلْنا ما فيهِ حِكَمٌ.

---

(١) في الأصل وم: من الأشياء فيها منافع ومضار إنها. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أي جزاء الكافرين النار. (٣) ساقطة من الأصل وم.
(٤) في الأصل وم: جزاء، في م: جزاؤه. (٥) في الأصل وم: هذه للذين. (٦) ساقطة من الأصل م. (٧) في الأصل وم: نعته. (٨) في الأصل وم: نعته. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال ذلك من. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: لا.

وتفسيرُ قولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا﴾ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ و﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الآية: ١ و٢] سَمّى القرآنَ حُكماً لأنهُ لِلْحُكمِ [أنزلَهُ اللهُ][1].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ هذا يدلُّ أنهمْ كانوا يَدْعونَ إلى أنْ يُشارِكَهُمْ في بَعْضِ ما هم فيهِ ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يَنْصُرُكَ، ويَمْنَعُكَ مِنْ عذابِ اللهِ ﴿وَلَا وَاقٖ﴾ يَقيكَ[2] العذابَ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَ هذا؛ وذلكَ أنَّ اليهودَ عَيَّروا رسولَ اللهِ، وطَعَنوهُ[3] في كَثْرَةِ النساءِ والأولادِ، وقالوا: لو كانَ نبيًّا على ما يَزْعُمُ لكانَ لا يَتَمَتَّعُ بالنساءِ، ولا يَطْلُبُ الأولادَ، كما يَفْعَلُهُ غيرُهُ، وما كانتِ النُّبُوَّةُ تَشغَلُهُ عنْ ذلكَ، فأنزلَ اللهُ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ الآية: أي الاِسْتِمتاعُ بالنساءِ، واسْتِكْثارُهُ[4] منهنَّ لمْ يمنعْهُ[5] عنِ الاِختِصاصِ بالنبوّةِ والرسالةِ على ما لم يَمْنَعْ غيرَهُ مِنَ الرسُلِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي لا يَملِكونَ إنزالَ الآياتِ مِنْ أنفسِهِم. إنما يَتَوَلّى اللهُ إنزالَها إنْ[6] شاءَ ذلكَ، وهو قولُ عيسى حينَ[7] قالَ: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ الآية [آل عمران: ٤٩] أخبرَ أنَّ ما يأتي منَ الآياتِ إنما يَأتيها بإذنِ اللهِ وبأمرِهِ لا مِنْ نفسِهِ.

ويَحتَمِلُ[8] أنْ يكونَ جوابَ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ وجوابَ غيرِ ذلكَ أيضاً، وهو طَعْنُهُمُ الرسولَ بالأكلِ والشربِ والمَشيِ في الأسواقِ، وسؤالُهُمُ الآياتِ التي سألُوهُمْ، وجوابُ/ ٢٦٦ ـ أ/ إنكارِهِمُ الرسلَ مِنَ البَشَرِ.

يقولُ: لستَ أنتَ بأوَّلِ رسولٍ، طُعِنْتَ بما طَعَنَكَ بهِ قومُكَ، ولكنْ ما كانَ قَبْلَكَ رسولُ طَعَنَهُمْ[9] قومُهُمْ بما طَعَنَكَ[10] بهِ قومُكَ، وسألوهُمْ مِنَ الآياتِ ما سألَكَ[11] بهِ قومُكَ، فلم يكنْ ذلكَ لهمْ عُذراً في ردِّ ما رَدُّوا وتَرْكِ ما تَرَكوا، بل نَزَلَ بهمُ العذابُ، فَعَلَى ذلكَ قومُكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ قائلونَ: لِكلِّ كتابٍ أجلٌ، وهي الكتبُ التي أُنزِلَتْ على الرسلِ، يُعْمَلُ بها إلى وقتٍ ثم تُنْسَخُ، أو يُتْرَكُ العملُ بها.

وقالَ قائلونَ: هو ما قالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ أي لِكلِّ ذي أجلٍ أجَلُهُ إلى وقْتِ انْقِضائِهِ، ليسَ يُرادُ بهِ الكتابةُ باليَدِ، ولكنِ الإثباتُ كقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي أثْبَتَ، ليسَ أنْ كُتِبَ هنالكَ باليدِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ أي إثباتٌ إلى وَقْتٍ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ لِكلِّ كتابٍ أجلٌ، أي لِكلِّ ما كُتِبَ لهُ الأجَلُ، وجُعِلَ لهُ الوقتُ مِنَ العذابِ، يَنْزِلُ بالمُعانِدينَ[12]، والنصرُ لِلرُّسُلِ، فإنهُ لا يكونُ قَبْلَ ذلكَ الوقتِ، ولا يَتَأَخَّرُ أيضاً عنْ ذلكَ الوقتِ، وهو كقولِهِ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ﴾ الآية [الأعراف: ٣٤].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ قالَ[13] قائلونَ: قولُهُ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ المَحْوُ ههنا إنْ شاءَ في الاِبْتِداءِ يَمْحو، ليسَ على أنْ كانَ مُثْبتاً، فَمَحاهُ[14]، ولكنْ أنْشأهُ هكذا يَمحو، وهو كقولِهِ: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ١٢] ليسَ أنهُ كانَ مُثْبتاً كذا، ثم مَحاهُ[15] ولكنْ أنْشأهُ في الاِبْتِداءِ[16] يَمْحو، وكقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] ليسَ أنها كانتْ موضوعةً، ثم رَفَعَها، ولكنْ أنْشأها مُرْتَفِعةً كما هي: فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ الأعمالَ التي كانَتْ مَعْفُوَّةً في الأصلِ مِنْ أعمالِ الصِّبيانِ والأعمالَ التي لا جزاءَ عليها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يقي. (٣) في الأصل وم: وطعنوا. (٤) في الأصل وم: واستكثارهم. (٥) في الأصل وم: يمنع. (٦) من م، في الأصل: إذا. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: طعن. (١٠) في الأصل وم: طعن. (١١) في الأصل وم: سأل. (١٢) في الأصل وم: من المعاندين. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (١٤) في الأصل وم: فمحا. (١٥) في الأصل وم: محا. (١٦) في الأصل وم: الآية.

وقالَ قائلونَ: على إحداثِ مَحْوٍ بعدَ إثباتٍ، ثم يَحْتَمِلُ [ذلكَ وجوهاً]:

أحَدُها: يَمْحُو اللهُ](١) ما يَنْسَخُ مِنَ الأحكامِ: فهو على مَحْوِ الحُكْمِ بهِ والعملِ، ليسَ على مَحْوِ نَفْسِهِ، ويُثْبِتُ: وهو ما لا يَنْسَخُ، ولا يَتْرُكُ العملَ بهِ والحُكْمَ.

والثاني(٢): مَحْوُ الأحوالِ، وهو ما يَنْقُلُ، ويُحَوِّلُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ: مِنْ حالِ النُّطْفَةِ إلى حالِ العَلَقَةِ، ومِنْ حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المُضْغَةِ؛ يُحَوِّلُهُ، ويَنْقُلُهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخرَى، فذلكَ هو المَحْوُ.

والثالثُ(٣): هو ما يَخْتِمُ بهِ العُمُرَ [مِنَ](٤) السعادةِ أو الشقاوةِ: إذا كانَ كافراً، ثم أسْلَمَ في آخِرِ عُمُرِهِ، مُحِيَتِ الأعمالُ التي كانَتْ لهُ في حالِ كُفْرِهِ، فَأُبدِلَتْ حَسَناتٍ، وإذا كانَ مُسْلِماً، ثم خَتَمَ [عُمُرَهُ](٥) بالكُفْرِ مُحِيَتْ أعمالُهُ التي كانَتْ لهُ مِنَ الصالحاتِ، فلم يَنْتَفِعْ(٦) بها.

أو أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ المَحْوِ والإثباتِ هو ما يَكْتُبُ الحَفَظَةُ مِنَ الأعمالِ، يُمْحَى عنها ما لا جَزاءَ لها ولا ثوابَ، ويُبْقَى ما لهُ الجَزاءُ والثوابُ، ويُتْرَكُ مكتوباً كما هو.

أو أنْ يكونَ لِلْخَلْقِ مَقاصِدُ في أفعالِهِمْ، والحَفَظَةُ لا يَطَّلِعونَ على مَقاصِدِهِمْ، فَيَكتبونَ هُمْ ما هو في الحقيقةِ حَسَنَةٌ بِقَصْدِهِ سَيِّئَةٌ على ظاهِرِ ما عَمِلَ، أو حسنةٌ في الظاهرِ، هو في الحقيقةِ سَيِّئَةٌ، فَيَغْفِرُ ذلك، فَيَجْعَلُ ما هو في الحقيقةِ شَرٌّ، وفي الظاهرِ خَيْرٌ، شَرًّا بالقَصْدِ، وما هو في الحقيقةِ خَيْرٌ، وفي الظاهرِ شَرٌّ، خَيْراً، ويكونُ في كتابةِ الحَفَظَةِ، لكنهُ مِنْ وجهٍ آخَرَ، وهو أنَّ الحَفَظَةَ يكتبونَ الأعمالَ، ثم يُعارَضُ ذلكَ بما في اللوحِ المحفوظِ، فَيُمْحَى مِنْ كتابةِ الحَفَظَةِ مِنَ الزِّيادةِ، ويُثْبَتُ فيها ما كانَ مِنَ النُّقصانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي يُعارَضُ بهِ كتبُ الملائكةِ، ويَحْتَمِلُ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي تُسْتَنْسَخُ منهُ الكتبُ التي أُنزِلَتْ على الأنبياءِ والرسلِ، وهو اللوحُ المحفوظُ.

وفيه دلالةٌ أنَّ اخْتِلافَ الألسنِ، لا يُوجِبُ تَغْييرَ المَعْنَى، لأنهُ لا يُدْرَى أنَّ تلكَ الكتبَ في اللوحِ المحفوظِ بأيِّ لسانٍ هي؟ ثم أُنْزِلَ منهُ كلُّ كتابٍ على لسانِ الرسولِ الذي نَزَلَ عليهِ، وكذلكَ الملائكةُ الذينَ يكتبونَ أعمالَ بني آدمَ، ولا يُحْتَمَلُ أنْ يكتبُوا بلسانِ الخَلْقِ، لأنهُ يظْهَرُ، لو كانوا يكْتُبونَ بلسانِ هؤلاءِ. فَدَلَّ أنهمْ إنما يكتبونَ بِلِسانِ أنفسِهِمْ. فهذا كلهُ يدلُّ أنَّ اخْتِلافَ اللسانِ لا يُوجِبُ اخْتِلافَ المَعْنَى، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ كأنه ﷺ طَمِعَ، أو سَأَلَهُ أنْ يُرِيَهُ جميعَ ما وَعَد لهُ مِنْ إنزالِ العذاب عليهِمْ وأنواعِ ما وَعَدَ، فقالَ: إنْ شِئْنا ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ﴾ ما وَعَدْنا، وإنْ شِئْنا ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ولم نُرِكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ، أي ليسَ إليكَ هذا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وهو كقولِهِ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

[وقولُهُ تعالى](٧): ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ فَيُخَرَّجُ مُخْرَجَ العِتابِ والتوبيخِ، ليسَ مُخْرَجَ الوَعْدِ والعِدَةِ؛ إذْ قولُهُ: ذا أو ذا بِحَرْفِ شَكٍّ، فهو يُخَرَّجُ على الوَعْدِ أو على النَّهْيِ عنْ سؤالٍ كانَ مِنْ رسولِ اللهِ، فإنْ كانَ على النَّهْيِ، فكأنَّهُ نَهاهُ أنْ يَسْأَلَ إنزالَ العذابِ عليهِمْ [فهو](٨) يقولُ: إنْ شِئْنا أنْزَلْنا، وإنْ شِئْنا لم نُنْزِلْ.

وإنْ كانَ على الوَعْدِ [فهو](٩) يقولُ: نُرِيكَ بعضَ ما وَعَدْنا، ولا نُرِيكَ كُلَّهُ، وإلّا فظاهِرُهُ(١٠) حَرْفُ شَكٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ يَحْتَمِلُ ما وَعَدَ وجزاءَهُ، ويَحْتَمِلُ الحسابَ المعروفَ الذي يحاسِبُهُمْ يومَ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وجوهاً. (٢) في الأصل وم: ويحتمل المحو. (٣) في الأصل وم: ويحتمل المحو أيضاً. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ينتفعوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.
(١٠) في الأصل وم: ظاهره.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قد ذكَرْنا في ما تقَدَّمَ أنهُ إنما هو حَرْفُ تَعْجيبٍ وتَنْبيهٍ، فهو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: على الخَبَرِ؛ أي قد رَأَوا أنّا فَعَلْنا ما ذَكَرْنا[1].

والثاني: على الأمرِ، أي رُوا أنّا فَعَلْنا ما ذَكَرْنا[2]، وهو ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩]. أي قد ساروا في الأرضِ، أي سِيروا.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو ما جَعَلَ مِنْ أرضِ الكفرةِ للمُسلِمينَ بالفَتْحِ لهمْ والنَّصْرِ على أولئكَ والإخراجِ مِنْ سلطانِ أولئكَ الكَفَرةِ وأيديهِمْ وإدخالِها في أيدي المُسلِمينَ. فذلكَ النُّقْصانُ، واللهُ أعلَمُ: لمّا وَعَدَ [اللهُ][4] لرسولِهِ أنْ يُرِيَهُ بَعْضَ ما وَعَدَ لهمْ قالَ[5] الكَفَرَةُ عندَ ذلكَ: أينَ ما وَعَدَ [اللهُ][6] أنْ يُرِيَكَ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ألَمْ يَرَوا أنهُ جَعَلَ بَعْضَ ما كانَ لهمْ مِنَ الأرضِينَ لِلْمُسْلِمينَ. فإذا قَدَرَ على جَعْلِ البَعْضِ الذي كانَ لهمْ لهؤلاءِ [فإنهُ][7] لقادرٌ أنْ يَجْعَلَ الكُلَّ لهمْ، أفَلا يَعْتَبِرونَ؟ هذا، واللهُ أعلَمُ، ما أرادَ بما ذَكَرَ مِنَ النُّقصانِ.

وقالَ قائلونَ: نُقصانُ الأرضِ، مَوتُ [فُقَهائِها وعُلَمائها وفَناؤُهُمْ][8] ووجهُ هذا هو[9] أنَّ الفُقَهاءَ والعُلَماءَ هُمْ عُمّارُ الأرضِ، وأهلُها[10]، وبهِمْ صلاحُ الأرضِ، فَوَصَفَ الأرضَ بالنُّقصانِ بذهابِ أهلِها، وهو كما وَصَفَ الأرضَ بالفسادِ، وهو قولُهُ: ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقولُهُ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] فالأرضُ لا تَفْسُدُ بِنَفْسِها، ولكنْ وُصِفَتْ بالفَسادِ لِفَسادِ أهلِها.

فَعَلى ذلكَ لا تَنْقُصُ هي بِنَفْسِها، ولكنْ وُصِفَتْ بالنُّقْصانِ لِذهابِ أهلِها وعُمّارِها: فُقَهائِها وعُلَمائِها.

ثم يَحْتَمِلُ ذهابَ العلماءِ المُتَقَدِّمِينَ الذين تَقَدَّموا رسولَ اللهِ في الأُمَمِ السالفةِ، وهُمْ علماءُ أهلِ الكتابِ. فنقولُ: ألا يَعْتَبِرونَ بأولئكَ الذينَ قُبِضوا، وتَفانَوا، مِنْ علمائِهِمْ؟ فلا بُدَّ مِنْ رسولٍ يُعَلِّمُهُمُ الآدابَ والعلومَ، ويُجَدِّدُ لهمْ ما دَرَسَ مِنَ الرسومِ، وذَهَبَ مِنَ الآثارِ.

فكيفَ أنْكَروا رسالَتَهُ؟ وفي بعثِ الرسولِ حُدوثُ العلماءِ، وذلكَ وقتُ حُدوثِ العلماءِ وزمانُهُ.

فإنْ كانَ أرادَ العلماءَ المتأخرينَ وفُقَهاءَهُمْ [يُخَرَّجْ ذلكَ مُخْرَجَ][11] التَّعْزِيَةِ لهُ؛ أي تصيرُ الأرضُ بحالٍ، يُوصَفُ بالنُّقْصانِ بذهابِ العلماءِ/ ٢٦٦ ـ ب/ والفقهاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ قيلَ: لا رادَّ لِحُكْمِهِ، وحُكْمُهُ يَحْتَمِلُ العذابَ الذي حَكَمَ على الكَفَرَةِ. يقولُ: لا رادَّ للعذابِ الذي حَكَمَ عليهِمْ، وهو كقولِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أيِ احْكُمْ بالعذابِ الذي حَكَمْتَ عليهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي لا يَتَعَقَّبُ أحدٌ حُكْمَهُ، ولا يُعَقِّبُ أحدٌ سلطانَهُ، كما يكونُ في حُكْمِ الخَلائِقِ، يَتَعَقَّبُ بَعْضٌ عنْ بَعْضٍ، وكما ذَكَرَ في الحَفَظَةِ ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الرعد: ١١] يَتَعَقَّبُ بَعْضٌ عنْ بَعْضٍ في الحِفْظِ وفي ما سُلِّطوا، واللهُ أعلَمُ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هذا قد ذكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مَكَرَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِرُسُلِهِمْ، كَمَكْرِ هؤلاءِ بكَ، يُصَبِّرُ رسولَهُ على أذاهُمْ بهِ، ثم يَحْتَمِلُ المَكْرُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: مَكَروا بنفسِهِ: هَمّوا قَتْلَهُ وإهلاكَهُ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فقال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: فقهاؤها وفناها، في م: فقهائها وعلمائها. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: وأهلهم. (١١) في الأصل: فيخرج، في م: فيخرج ذلك مخرج.

والثاني: مَكَروا بدينِهِ الذي دعاهُمْ إليهِ، وأرادَ إظهارَهُ، فَهَمُّوا[١] هُمْ إطفاءَ ذلكَ وإبطالَهُ، وكذلكَ ﴿مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ برسُلِهِمْ يُخَرَّجُ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ وهذا أيضاً يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: فَلِلّهِ جزاءُ المَكْرِ جميعاً؛ يَجْزي كُلًّا بِمَكْرِهِ.

والثاني: أي للهِ حقيقةُ المَكْرِ؛ يأخُذُهُمْ جميعاً بالحَقِّ مِنْ حَيثُ لا يَشْعُرونَ.

وأمّا هُمْ فإنما يأخذونَ[٢] ما يأخذونَ لا بالحَقِّ، ولكنْ بالباطلِ، ولا يَقْدِرونَ على الأخذِ مِنْ حَيثُ لا يُشعِرونَ إلّا قليلاً مِنْ ذلكَ. فحقيقةُ المَكْرِ الذي هو مَكْرٌ بالحقِّ في الحقيقة للهِ، لا لَهُمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ أي للهِ تدبيرُ المَكْرِ جميعاً، إنْ شاءَ أمضاهُ وإنْ شاءَ مَنَعَهُ، إليهِ ذلكَ، لا إليهِم، أو للهِ حقيقةُ المَكْرِ يَغْلِبُ مَكْرُهُ مَكْرَ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ عُقْبى الدارِ مَعروفاً عندَهُمْ، وهي الجنةُ، فيكونُ صِلَةَ قولِهِمْ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١] فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: سَيَعْلَمونَ هُمْ ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أهي لهمْ، أم هي للمؤمنينَ؟ أو أنْ يكونَ جوابَ ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦] لمّا رَأَوا أنفسَهُمْ[٣] مُفَضَّلينَ في أمرِ الدنيا، وَوُسِّعَ عليهمُ الدنيا، ظَنُّوا أنَّ لهمْ في الآخِرَةِ كذلكَ، فقال ذلكَ جواباً لهمْ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي قالوا ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ أي لم[٤] يَبْعَثْكَ اللهُ رسولاً، وهمْ كانوا يقولونَ كذلكَ لهُ، أمَرَهُ[٥] أنْ يقولَ لهمْ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أني نَبِيٌّ، ورسولُ[٦] اللهِ إليكُمْ بالآياتِ التي آتي بها.

أو كانَ قالَ لهمْ هذا لمّا بالغَ في الحِجاجِ والبراهينِ في إثباتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، فلم يَقْبَلُوا ذلكَ، فأَيِسَ مِنْ تصديقِهِمْ. فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي يَعْلَمُ مَنْ كانَ عندَهُ عِلْمُ الكتابِ؛ يعني التوارة [والإنجيل][٧] فَيَشْهَدُ أيضاً أني رسولٌ، ونبيٌّ[٨]، أي يَعْلَمُ مَنْ كانَ عِندَهُ عِلْمُ الكتابِ أني على حقٍّ، وأني رسولُ اللهِ، وهو كقولِهِ: [﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]][٩] وقولِهِ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧].

ومَنْ قَرَأَ بالخَفْضِ: ومِنْ عِندِهِ: ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي مِنْ عِندِ اللهِ جاءَ عِلْمُ هذا الكتابِ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢] وكذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ كانَ يَقْرَأُ ومِنْ عِندِهِ ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بالخَفْضِ.

وأمّا القُرّاءُ جميعاً فإنهم يختارونَ بالنصبِ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

قال أبو عُبَيدٍ: ومِنْ عِندِهِ بِخَفْضِ الميمِ والدالِ، ورَفْعِ العينِ [عُلِمَ الكتابُ][١٠]، قالَ: لا أدري عَمَّنْ هو.

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ أنهُ قالَ: فيَّ نَزَلَ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا يُؤيِّدُ أنْ يُثْبِتَ قولَ أهلِ التأويلِ حينَ[١١] قالوا: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ وأصحابُهُ [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][١٢].

تم بعون الله

المجلد الثاني

ويليه الثالث وأوله سورة إبراهيم

---

(١) في الأصل وم: هموا. (٢) في الأصل وم: يأخذوه. (٣) في الأصل وم: هم. (٤) في الأصل وم: لن. (٥) في الأصل وم: فأمره. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ [الروم: ١٣]. (١٠) ساقطة من الأصل و م انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٢٢. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من م.

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي

(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الثالث

مؤسسة الرسالة ناشرون

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
محمد رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon
Email: resalah@resalah.com
Web site: http://www.resalah.com

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

اللهمّ

اجْعَلْنِي ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومنْ يَقْرَؤُهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة إبراهيم

قيل: مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ ﴿الٓر﴾ كِنايةٌ عنْ حروفٍ مُقطَّعةٍ، جعَلَها بالحِكْمَةِ كتاباً ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ بَعْدَما لم تكنْ تَدْري، ما الكتابُ؟ وهوَ كما قالَ ﷻ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] وقولِهِ جلَّ جلالُهُ: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ وما يُضافُ الإخراجُ إلى اللهِ فإنهُ يكونُ بإعطاءِ الأسبابِ وحقيقةِ ما تكونُ بهِ الأفعالُ، وهي القدرةُ. وما يُضافُ الإخراجُ إلى الرسلِ فإنهُ لا يكونُ إلّا بإعطاءِ الأسبابِ لأنهُ لا يَمْلِكُ أحدٌ سواهُ إعطاءَ ما بهِ يكونُ الفِعْلُ.

ثم الأسبابُ تكونُ بوجهَينِ:

أحدُهما: الدعاءُ إلى ذلكَ.

والثاني: ما أُتِيَ بهِ[(٢)] مِنَ البَيانِ والحُجّةِ على ذلكَ، فهو الأسبابُ التي يَمْلِكُ الرسُلُ إتيانَها. وأمّا ما بهِ حقيقةُ الفعلِ فإنهُ لا يَمْلِكُهُ[(٣)] إلّا اللهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما][(٤)]: مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ؛ سَمّى الكُفرَ ظُلُماتٍ، وهما[(٥)] واحدٌ، لأنهُ يَسْتُرُ جميعَ مَنافِذِ الجَوارحِ مِنَ البَصَرِ والسمعِ واللسانِ؛ يُبْصِرُ مالا يَصْلُحُ، ويُسْمِعُ مالا يَصْلُحُ، وكذلكَ جميعُ الجوارحِ.

والإيمانُ يَرْفَعُ، ويكشِفُ جَميعَ الحُجُبِ والسُّتورِ، ويُضيءُ[(٦)] لهُ كلَّ مستورٍ.

والثاني[(٧)]: مِنَ الشُّبُهاتِ إلى النورِ إلى الإيمانِ والهُدَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الإخراجُ[(٨)] المضافُ إلى اللهِ هو[(٩)] الهدايةُ، يُخَرَّجُ على وجوهٍ أربعةٍ:

أحَدُها: يأمُرُهُمْ، ويدعوهُمْ إلى ما ذَكَرَ.

والثاني: يَكْشِفُ، ويُبَيِّنُ.

والثالثُ: يُرَغِّبُ، ويُرَهِّبُ، حتى يَرْغَبوا في المرغوبِ، ويَحْذَروا المرهوبَ[(١٠)].

والرابعُ: يُحَقِّقُ[(١١)] ما تكونُ بهِ الهدايةُ، وذلكَ لا يكونُ إلّا باللهِ، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ.

وأمّا الوجوهُ الثلاثةُ الأُوَلُ فإنها تكونُ برسولِ اللهِ ﷺ: يَأْمُرُ، ويَدعو، ويُرَغِّبُ، ويُرَهِّبُ، ويُبَيِّنُ، ويَكْشِفُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بهم. (٣) في الأصل وم: يملك. (٤) في الأصل وم: قيل. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) من م، في الأصل وم: ومضيء. (٧) في الأصل وم: والثاني: قوله ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي. (٨) من م، في الأصل: لإخراج. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) من م، في الأصل: المرغوب. (١١) من م، في الأصل: تحقيق.

وقولُهُ تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها:][1] كأنهُ قالَ: كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لِتَأْمُرَ الناسَ بالخروجِ مِمّا ذُكِرَ إلى ما ذُكِرَ.

والثاني: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ﴾ بِهِ الناسَ ممّا ذُكِرَ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ قيلَ: بأمْرِ ربِّهِمْ. وقالَ قائلونَ: بِعِلْمِ ربِّهِمْ؛ أي أنْزَلَ هذهِ الحروفَ المُقَطَّعَةَ بِعِلْمِهِ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ بتوفيقِ ربِّهِمْ. والإذْنُ[2] منَ اللهِ يَحْتَمِلُ أحَدَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا: الأمْرَ، والعلمَ، والتوفيقَ.

وقولُهُ / ٢٦٧ - أ/ تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ هو اللهُ. أي يدعوهُمْ إلى طريقِ اللهِ الذي مَنْ سَلَكَهُ نَجا ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ سَمّاهُ[3] عَزيزاً لأنَّ كلَّ عزيزٍ، بهِ يَعِزُّ، ويُقالُ: عَزيزٌ لأنهُ عزيزٌ بذاتِهِ، ليسَ بِغَيرِهِ كالخلائقِ، أوِ العزيزُ، هو الذي لا يُطْلَبُ. والحَميدُ، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الذمُّ في فِعلِهِ كالحكيمِ الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطَأُ في تدبيرِهِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: العَزيزُ المَنيعُ، والحَميدُ، هو الذي يقْبَلُ اليَسيرَ مِنَ العِبادِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مَنْ قَرَأَ بالخَفْضِ ﴿ٱللَّهِ﴾ صَيَّرَهُ موصولاً بالأوَّلِ، وجَعَلَهُ كلاماً واحداً، وأتْبَعَ الخَفْضَ بالخَفْضِ.

ومَنْ قَرَأَ بالرفعِ[4] اللهُ جَعَلَهُ مقطوعاً عنِ الأوَّلِ على حقِّ الابْتِداءِ، فقالَ: اللهُ ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ذَكَرَ قولَهُ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِيُعْلِمَ أنهُ إنما[5] يأمُرُ الخَلْقَ، ويدعوهُمْ إلى دينِهِ، ويَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، لا يَفْعَلُ ذلكَ لِمَنافِعِ نفسِهِ أو لِحاجَتِهِ في ذلكَ بل لِحاجَةِ المُمْتَحَنينَ ومَنافِعِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ قالَ قائلونَ: الوَيْلُ الشِّدَّةُ، وقيلَ: الوَيْلُ هو اسْمُ وادٍ في جهنَّمَ، وقالَ [أبو بكْرٍ][6] الأصمُّ: الوَيْلُ هو نِداءُ كلِّ مَكْروبٍ ومَلْهوفٍ مِنْ شِدَّةِ البلاءِ، وقولُ الحَسَنِ كذلكَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وَصْفُ أولئكَ الذينَ ذَكَرَ أنَّ فيهِمُ الوَيْلَ؛ مَنْ هُمْ؟ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي آثَروا، واختاروا الحياةَ الدنيا على الآخِرَةِ، أي رَضُوا بها، واطْمَأَنّوا بها، كقولِهِ: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: ٧] اختارُوا الحياةَ الدنيا للدنيا، لم يَختاروا للآخِرَةِ، فالدنيا أُنْشِئَتْ لا للدنيا، ولكنْ إنما أُنْشِئَتْ للآخِرَةِ. فَمَنِ اختارَها لها، لا يَسْلُكُ بها إلى الآخِرَةِ، ضَلَّ، وزاغَ عنِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهو ما ذَكَرْنا ﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حتى يَلْهُوا عنِ الآخِرَةِ، ويَسْهُوا فيها، ويَغْفُلُوا. وأَهْلُ[7] الإسلامِ ربّما يَسْتَحِبّونَ الحياةَ الدنيا على الآخِرَةِ، وهو ما ذَكَرْنا أنهمْ يَختارونَ ذلكَ للآخِرَةِ، وأولئكَ للدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وجهَينِ:

أحدُهما: أعْرَضوا بأنفسِهِمْ.

والثاني: صَرَفوا الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ الذي مَنْ سَلَكَهُ نَجا.

لكنْ إنما يَتَبَيَّنُ، ويَظْهَرُ ذلكَ بالمَصْدَرِ: صَدَّ يَصُدُّ صَدًّا؛ صَرَفَ غَيرَهُ، وصَدَّ يَصُدُّ صُدوداً: أعْرَضَ هو بنفسِهِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي طَعْناً وعَيباً فيهِ. دلَّ هذا على أنَّ الآيةَ في الرُّؤَساءِ منهمْ والقادَةِ الذينَ كانوا يَصُدّونَ الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ، ويَبْغونَ[9] في دينِ اللهِ الطَّعْنَ والعَيبَ، فمَا وَجَدوا إلى ذلكَ سبيلاً قطُّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: الأذان. (٣) في الأصل وم: سمى. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٢٢٤. (٥) في الأصل بما، في م: قادر بما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وإلا أهل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويبغونها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ الضَّلالُ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ الضَّلالُ[الهلاكَ][1] أي هَلِكوا هلاكاً، لا نَجاةَ فيهِ قطُّ، ويَحْتَمِلُ الحَيْرَةَ والتِّيهَ؛ أي تَحَيَّروا فيهِ، وتاهوا، حتى لا يَهْتَدوا[2]. ويَحْتَمِلُ الضَّلالُ البُطلانَ، أي في بُطْلانٍ بَعيدٍ حتى لا يَصْلُحوا أبداً. وهو في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يَهْتَدونَ أبداً، ويَخْتُمونَ على الضَّلالِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ لو كانَ غَيرُهُ مِنَ الكتبِ أُرسِلَ[3] بِغَيرِ لِسانِ الأممِ لكانَ هذا الكتابُ يَجبُ أنْ يكونَ مَبعوثاً بِلِسانِ قومِهِ لأنهُ جَعَلَ هذا الكتابَ حُجَّةً وآيَةً لِرسالتِهِ لأنهمْ يَعْجَزونَ عن إتيانِ مِثْلِهِ، هو كانَ بِلِسانِهِمْ لِيَعْلَموا أنهُ [جاءَ مِنَ اللهِ][4] إذْ لو كانَ مِنِ اختِراعِ الرسولِ ﷺ لَقَدَروا على اختِراعِ مِثْلِهِ لأنَّ لِسانَهُمْ مِثْلُ لِسانِهِ، فإذا عَجِزوا عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ دَلَّ أنهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِنْ عِنْدِ الخَلْقِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ وجوهاً:

[أحدُها: ما[5]] قالَ قائلونَ: هذا بعدَ ما اختَلَفَ الألسنُ أرسلَ هذا، وفيهِ أنباءُ أوائِلِهِمُ الذينَ كانَ لِسانُهُمْ غَيرَ لِسانِ هؤلاءِ، وأخبارُهُمْ[6]، لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ تلكَ الأنباءَ والأخبارَ[7] التي كانَتْ بِغَيرِ لِسانِهِمْ باللهِ.

[والثاني: ما][8] قالَ بعضُهُمْ: أُرسِلَ بِلِسانِ قومِهِ لئلا يكونَ لهمْ مَقالٌ كقولِهِمْ[9]: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ [فصلت: ٤٤].

والثالثُ: أنهُ إذا كانَ بِلِسانِهِمْ يكونُ آلَفَ وأقرَبَ إلى القَبولِ مِنْ إذا كانَ بِغَيرِهِ؛ إذْ كلُّ ذي نَوعٍ وجِنْسٍ يكونُ بِجِنسِهِ ونَوعِهِ آلَفَ مِنْ غَيرِ نَوعِهِ وجَوهَرِهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ [الأنعام: ٩] إذْ ليسَ في وُسْعِ البَشَرِ رُؤيَةُ المَلَكِ والنَّظرِ إليهِ على ما هو عليهِ.

فَعَلَى ذلكَ كلُّ ذي لِسانٍ يكونُ بِلِسانِهِ أفهَمَ وأقرَبَ لِلقَبولِ وآلَفَ مِنْ غيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ قالَ قائلونَ: ليكونَ أبيَنَ لهمْ وأفهَمَ، وقالَ قائلونَ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ فيَفْهَمونَ قولَ رسولِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ أي[10] يُضِلُّ اللهُ مَنْ آثَرَ سَبَبَ الضلالِ، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ مَنْ آثَرَ سَبَبَ الذي بهِ يُهْتَدَى [يَهْدِهِ إليهِ][11]. وقالَ قائلونَ: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ هذا حُكْمُ اللهِ أنْ يُضِلَّ المُكَذِّبينَ، ويَهْدِيَ المُصَدِّقينَ.

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً: أنهُ يُضِلُّ مَنْ آثَرَ سَبَبَ الضلالِ ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ هذا حُكْمُ اللهِ أنْ يُضِلَّ المُكَذِّبينَ، ويَهْدِيَ المُصَدِّقينَ، أي مَنْ آثَرَ سَبَبَ الاهتِداءِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لأنَّ جميعَ الخلائقِ مُفْتَقِرونَ إليهِ، أذِلّاءُ، بهِ يَعِزُّ مَنْ عَزَّ، أو أنْ يكونَ العزيزُ هو الذي لا يُغْلَبُ.

والحكيمُ: هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطَأُ في الحُكْمِ والتدبيرِ، أوِ الحكيمُ في بَعْثِ الرسلِ، وفي جميعِ فِعْلِهِ، ولم يُؤخَذْ عليهِ في فِعْلِهِ خَطَأٌ قَطُّ، مُصيبٌ في وَضعِ كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ تَحْتَمِلُ آياتُهُ حُجَجَهُ وبراهينَهُ التي أرسلَ بها على وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ، وتَحْتَمِلُ آياتُهُ التي بَعَثَها إلى موسى لِيُقيمَها على رسالتِهِ؛ إنْ شِئتَ قُلْتَ: آياتُهُ حُجَجُهُ، وإنْ شِئتَ سَمَّيْتَها أعلاماً. والآياتُ والأعلامُ والحُجَجُ، كلُّهُ واحدٌ، فتكونُ أعلامَ وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ أو أعلامَ رسالتِهِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بِدينِنا، أي أرسَلْنا موسى بِدينِنا لِيَدْعُوَهُمْ إليهِ ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وعلى ذلكَ بَعْثُ جميعِ الرسلِ والأنبياءِ؛ بُعِثوا لِيُخْرِجوا قومَهُمْ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ، وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضِعٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يهتدون. (٣) في الأصل وم: أرسلت. (٤) من م، في الأصل: لمن الله جاء. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: واختارهم. (٧) في الأصل وم: والأخبار. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل: قوله، في م: لقوله. (١٠) من م: في الأصل: أن. (١١) في الأصل وم: يهدي ذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ التذكيرُ هو العِظَةُ؛ أي عِظْهُمْ بأيّامِ اللهِ. قالَ قائلونَ: أيّامُ اللهِ نِعَمُهُ. وقالَ[١] قَتادةُ: أمَرَهُ أنْ يُذَكِّرَهُمْ بِنِعَمِ اللهِ التي أنعَمَها عليهِمْ [أي قُلْ: إنّ[٢]] للهِ عليكُمْ أيّاماً مِنَ النِّعَمِ كأيّامِ القومِ؛ كَمْ مِنْ خيرٍ قد أعطاهُ اللهُ لَكُمْ! وكَمْ مِنْ سُوءٍ قد صَرَفَهُ اللهُ عنكُمْ! وكَمْ مِنْ غَمٍّ قد فَرَّجَهُ اللهُ عنكُمْ! فاللهمَّ ربَّنا لكَ الحمدُ.

وقالَ قائلونَ: أيّامُ اللهِ وَقائِعُهُ، أي ذَكِّرْهُمْ بِوَقائِعِ اللهِ في الأُمَمِ السالفةِ كيفَ أهلَكَهُمْ لَمّا كَذَّبوا الرسلَ. هذا يُحتَمَلُ: [في ذَكِّرْهُمْ][٣] بنعمِ اللهِ التي كانَتْ على المُصَدِّقينَ بِتَصديقِهِمْ، وهو ما أنجى المُصَدِّقينَ مِنَ التعذيبِ والإهلاكِ إهلاكَ تعذيبٍ، أو ذَكِّرِ المُكَذِّبينَ منهمْ بالوقائعِ التي كانَتْ على أولئكَ بالتكذيبِ، وهو الإهلاكُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ الأيّامَ المَعروفةَ نَفْسَها: أمَرَهُ أنْ يُذَكِّرَهُمْ بها لأنَّ الأيّامَ تأتي بأرزاقِهِمْ، وتَمْضي بأعمالِهِمْ وأعمارِهِمْ، إنْ كانَ خَيراً فخيرٌ، وإنْ كانَ شراً فشرٌّ، وتَفْنَى أعمارُهُمْ وآجالُهُمْ، وفي ما يأتي بأرزاقِهِمْ نِعَمٌ مِنَ اللهِ عليهِمْ، وفي ذَهابِ أعمارِهِمْ وآجالِهِمْ إظهارُ سُلْطانِ اللهِ وقُدْرَتِهِ، فأمَرَهُ أنْ يُذَكِّرَهُمْ/ ٢٦٧ ـ ب/ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ أمرَ موسى أنْ يُذَكِّرَ بني إسرائيلَ ما كانَ عليهِمْ مِنْ فِرْعَونَ مِنْ أنواعِ التعذيبِ ثم الإنجاءِ مِنْ بَعْدُ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ذَكِّرْهُمُ الأيامَ الماضيةَ وما تَلاها[٤]، وهذا أشبَهُ، وأقرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الصَّبْرَ، هو كَفُّ النفسِ عَنْ مَعاصي اللهِ ﷻ وعَنْ جَميعِ مَناهيهِ، والشُّكْرَ، هو الرَّغْبَةُ في طاعتِهِ. أخبَرَ أنَّ في ما ذَكَرَ آياتٍ لِمَنْ كَفَّ هو نفسَهُ[٥] عن المعاصي ورَغِبَ في طاعتِهِ، لا لِمَنْ تَطاوَلَ على الرسلِ، وتكَبَّرَ عليهِمْ، وتَرَكَ إجابَتَهُمْ، ولم يَرْغَبْ في ما دُعِيَ[٦] إليهِ، ليسَ لِأمثالِ هؤلاءِ عِبْرَةٌ وآيةٌ، [لكنْ][٧] لِمَنْ ذَكَرْنا.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ الصَّبّارُ والشَّكورُ كِنايَةً عنِ المُؤمِنِ لأنَّ كُلَّ مُؤمِنٍ آمَنَ باللهِ، وَوَحَّدَهُ، اعتَقَدَ الكَفَّ عن جميعِ [مَعاصيهِ][٨] والرغبةَ في كلِّ طاعتِهِ، وإنْ كانَ يَقَعُ أحياناً في مَعْصِيَتِهِ. فكأنَّهُ قالَ جَلَّ جلالُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ للمؤمنينَ على ما ذَكَرَ في غَيرِهِ مِنَ الآياتِ؛ مِنْ ذلكَ قولُهُ جلَّ جَلالُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧ والعنكبوت: ٤٧] وقولُهُ[٩]: ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] وقولُهُ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦ و...] [ونَحْوُ ذلكَ][١٠] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا على الإضمارِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى أي ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ الآيةَ [المائدة: ٢٠] واذكُروا أيضاً ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قيلَ: يُعَذِّبونكُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقالَ قائلونَ: يُكَلِّفونكُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ السَّومُ الإذاقةُ والعَرْضُ؛ يُقالُ: سامَني كذا، أي أذاقَني، وعَرَضَني، ويُقالُ: سُمْتُ الدابَّةَ على الحَوضِ، أي عَرَضْتُها ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ هذا أيضاً قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في سورةِ البقرةِ والأعرافِ[١١]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: وإذْ قالَ ربُّكُمْ، وقيلَ: وإذْ أعلَمَ ربُّكُمْ، وأخبَرَ. والعربُ ربما قالَتْ: أفْعَلْتُ في مَعْنى تَفَعَّلْتُ، فهذا مِنْ ذلكَ، ومِثْلُهُ في الكلامِ: أوعَدَني، وتَوَعَّدَني، وهو قولُ الفَرّاءِ، وحقيقَتُهُ، وَعَدَ ربُّكُمْ، أو كَفَلَ ربُّكُمْ.

[وقولُهُ تعالى][١٢]: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لم يقلْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَةَ كذا، ولا بَيَّنَ أيَّ نِعْمَةٍ [ولا][١٣] النعمَ كلَّها، أو نعمةً دونَ نِعْمَةٍ، ولا قالَ: شَكَرْتُمْ على ذا.

وقالَ: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لم يَذْكُرِ الزيادةَ في ماذا؟ ومِنْ أيِّ شيءٍ هي؟ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ بالتوحيدِ،

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فإن. (٣) في الأصل وم: بذكرهم. (٤) في الأصل وم: يتلوها. (٥) أدرج قبلها في الأصل: في. (٦) في الأصل وم: دعواهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: ونحوه. (١١) [البقرة: ٤٩ والأعراف: ١٤١]. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

أي وَحّدتُمُ اللهَ في الدنيا في ما خَلَقَكُمْ خَلقاً، وركّبَ فيكُمْ ما تَتَلَذّذونَ [بهِ][1] وتتنعّمونَ في الدنيا، وفي ما قَوّمَكُمْ ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤] ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ النِّعَمَ الدائمةَ في الآخِرَةِ. فَيَصيرُ على هذا التأويلِ كأنهُ قالَ: لئنْ أتيتُمْ شاكِرينَ في الآخِرَةِ لأزيدَنَّكُمُ النِّعَمَ الدائمةَ.

وإلى هذا يذهبُ ابنُ عباسٍ ﷺ أو قريبٍ منهُ. ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ أي ولَئِنْ كَفَرْتُمْ، ولم تُوَحِّدوهُ، وأشرَكْتُمْ غَيرَهُ فيهِ، وصَرَفْتُمْ شُكرَ تلكَ النِّعَمِ إلى غَيرِهِ ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ كلُّ نِعْمَةٍ، يَشكُرُها، يَزيدُ لهُ مِنْ نوعِها في الدنيا، ويُديمُ[2] ذلكَ لهُ.

وفي قولِهِ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ لُطفٌ وفَضلٌ لأنَّ الشُّكرَ هو المُجازاةُ والمُكافاةُ لِما سَبَقَ. واللهُ تعالى لا يُكافَأُ في ما أنعَمَ فَلأنهمْ[3] يَستزيدونَ لأنفُسِهِمُ الزيادةَ بالشُّكرِ الذي ذَكَرَ فهو ليسَ يُشكَرُ في الحقيقةِ. لكنْ هذا، منهُ لُطفٌ، ذَكَرَهُ وهو كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ الآيةَ [المزمل: ٢٠] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ الآيةَ [التوبة: ١١١] فهذهِ الأنفُسُ والأموالُ في الحقيقةِ للهِ، لَيسَتْ لهمْ، فهمْ في ما يَقرِضونَ لأنفسِهِمْ، وكذلكَ في الشّرى؛ يَشتَرونَ لأنفسِهِمِ مِنْ مَولاهُمْ، لكنهُ ذَكَرَ شِراهُ لُطفاً منهُ وفَضلاً.

فَعَلَى ذلكَ في ما ذَكَرَ مِنَ الشُّكرِ لهُ، يَطلبونَ الزيادةَ لأنفُسِهِمْ، لُطفاً منهُ، وإنْ كانَ الشُّكرُ في الظاهِرِ، مَوضوعُهُ المُكافاةُ لِما سَبَقَ. فهو في ما بَينَ الرَّبِّ والعِبادِ ليسَ بِمُكافاةٍ، ولكنْ سَبَبُ الزيادةِ. ولكنْ [سَمّاهُ شُكراً][4] لطفاً منهُ وفَضلاً على ما ذَكَرَ التّصَدُّقَ[5] قَرضاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ الا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غَنيٌّ [بذاتِهِ، ليسَ يأمُرُ ما يأمُرُ لِحاجَةِ نَفسِهِ أو][6] لمنفعةٍ لهُ، ولكنْ ما امتَحَنَكُمْ إنما امتَحَنَكُمْ لِحاجَةِ أنفُسِكُمْ ولِمَنفَعَةِ أبدانِكُمْ؟

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [أي غَنِيٌّ][7] عنْ عِبادةِ خَلقِهِ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُ ليسَ يأمُرُهُمْ في ما يأمُرُ لِمَنفَعَةِ نفسِهِ أو لِحاجَةِ نَفْسِهِ، ولكنْ لِمَنافِعَ، تَحصُلُ لِلْخَلْقِ ولِحوائِجَ، تَبدو لهمْ.

وكذلكَ النَّهيُ عمّا يَنهَى، ليسَ ينهَى لِخوفِ مَضَرَّةٍ، تَلحَقُهُ، ولكنْ لِلضَّرَرِ، يَلحَقُهُمْ، ولآفَةٍ، تَتَوَجَّهُ إليهِمْ.

يُخبِرُ ﷻ عَنْ غِناهُ عمّا يأمُرُ خَلقَهُ في طاعَتِهِ وعِبادَتِهِ وتَوجيهِ الشُّكرِ إليهِ. والحميدُ هو الذي لا يَلحَقُهُ الذَّمُّ في فِعلِهِ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنهمْ، وإنْ كَفَروا، وكانَ عَلِمَ منهُمْ أنهمْ يكفُرونَ، فَعِلْمُهُ بذلكَ لا يَجعَلُهُ في إنشائِهِمْ مذموماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ الآيةَ. يُشبِهُ أنْ يكونَ الخِطابُ لأهلِ الإيمانِ منهُمْ والرسلِ؛ خاطَبَهُمْ ﷻ تَصْبيراً وتَنْبيهاً على تكذيبِ الكَفَرَةِ إياهُمْ واستِهزائِهِمْ بهِمْ، فقالَ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي قد أتاكُمْ خَبرُ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، ما فيهِ مَزجَرٌ لكُمْ عنْ مِثْلِ مُعامَلَتِهِمُ الرسولَ، وهو ما ذَكَرَهُ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤] أنَّ[8] ما نزلَ بهمْ بتكذيبِهِمُ الرسُلَ والاستِهزاءِ بأتباعِهِمْ.

يذكُرُ هذا لهمْ لِيُهَوِّنَ ذلكَ عليهِمْ، ولِيُخَفِّفَهُ[9]، لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ لهُ شُركاءَ في ما بُلِيَ بهِ، وامتُحِنَ، كانَ ذلكَ عليهِ أهْوَنَ وأخفَّ مِنْ أنْ يكونَ هو المخصوصَ فيهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الخِطابُ لأهلِ الكُفرِ منهُمْ؛ يقولُ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي قد أتاكُمْ خَبَرُ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [أنَّ ما][10] نزلَ بهمْ بِتكذيبِهِمُ الرسُلَ واستِهزائِهِمْ بأتباعِهِمْ، فَيَنْزِلُ بكُمْ ما نَزَلَ بهمْ، لأنَّ الذي أنْزَلَ ذلكَ عليهِمْ حيٌّ قادرٌ على إنزالِ مِثْلِهِ. فَيَخرُجُ ذلكَ مُخرَجَ التَّوبيخِ والتَّعْييرِ والوَعيدِ لِيَحذَرُوا مِنْ صَنيعِهِمْ[11]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويدوم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: سمى شكر، في م: سمى شكراً. (٥) في الأصل وم: التصديق. (٦) في الأصل: لا. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) في الأصل وم: وليخفف. (١٠) في الأصل: أنه ما، في م: أنه ماذا. (١١) في الأصل وم: صنيع أولئك.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ تَكَلُّفَ معرفةِ الأنسابِ وحِفْظَها شُغْلٌ وتَكَلُّفٌ، لأنهُ أخبَرَ أنَّ فيهِمْ مَنْ لا [يَعْلَمُ ذلكَ](١) ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ورُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ [ﷺ](٢) كانَ يُنْسَبُ إلى مُضَرَ، ولا يُنْسَبُ إلى أكثَرَ مِنْ ذلكَ.

قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ ﷺ: قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ يُكَذِّبُ مَنِ ادَّعَى معرفَةَ الأنسابِ المُتَقَدِّمَةِ لأنهُ قالَ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد أخبَرَ أيضاً أنهُ لم يَقُصَّ عليهِ خَبَرَ الكُلِّ بقولِهِ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] فمِنَ البَعيدِ أنْ يَتَكَلَّفَ تَعَرُّفَ ما لم يَقُصَّ على رسولِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيلَ: البَيِّناتُ بَيِّناتٌ على وَحدانِيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ، وتَحْتَمِلُ الحُجَجَ التي أتى(٣) بها الرسلُ على إثباتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ: البَيِّناتُ: ما يَتَّقونَ، وما يأتونَ، وما يَحِلُّ[لهمْ، وما يَحرُمُ عليهِمْ](٤).

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على التمثيلِ والكنايةِ عنِ التكذيبِ وتَرْكِ الإجابَةِ، لأنَّ رَدَّ الأيدي في أفواهِهِمْ يَمْنَعُهُمْ عنِ التصديقِ/٢٦٨ - أ/ كقولِهِ: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ الآيةَ[الرعد: ١٤]إذا تَرَكَ إجابَتَهُ، وقولِهِ: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وأمثالِهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على تَحْقيقِ جَعْلِ الأيدي في أفواهِهِمْ. ثم يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ في أفواهِ الرسُلِ: يقولونَ: إنكُمْ كَذَبَةٌ.

[والثاني: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾](٥) في أفواهِ أنفُسِهِمْ: يُصَوِّتونَ، ويَسْتَهْزِئونَ بهمْ وأتباعِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٥] وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ في مَوضِعِهِ، فَعَلَى ذلكَ [هذا](٦) واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ الآيةَ، وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ التوحيدَ، لأنهمْ أُرسِلُوا بالدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ والعبادةِ لهُ. يدلُّ على ذلكَ قولُهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وقولُ الرسُلِ: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ١٠].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ مِنْ إثباتِ الرسالةِ وإقامةِ الحجَّةِ عليها ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ مِنَ التصديقِ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ.

[وقولُهُ](٧) هذا يدلُّ أنهمْ كانوا على شَكٍّ ممَّا يَعْبُدونَ مِنَ الأوثانِ والأصنامِ، لأنهُ لو كانَ لهمْ بَيانٌ في ذلكَ وحُجَّةٌ ودعاءٌ إليهِ لكانوا لا يقولونَ: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ولكنْ كانوا يَقْطَعونَ فيهِ القولَ، فَدَلَّ أنهمْ كانوا على شَكٍّ ورَيبٍ في عِبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ التي عَبَدوها.

ثم الشَّكُّ والريبُ: قالَ بعضُهُمْ: هما سَواءٌ، وقالَ بعضُهُمْ: الشَّكُّ، هو الشَّكُّ المَعْروفُ، والرَّيبُ، هو النهايةُ في الشَّكِّ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي عَضُوا على أصابِعِهِمْ غَيْظاً على ما دُعُوا[إليهِ](٨). وقالَ بعضُهُمْ: رَدُّوا عليهِمْ قولَهُمْ، وكَذَّبوهُمْ، وهو ما ذَكَرْنا بَدْءاً، وقالَ [بعضُهُمْ](٩) رَدُّوا عليهِمْ [بأيدِيهِمْ وأفواهِهِمْ](١٠).

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أتوا. (٤) في الأصل وم: عليهم وما يحرم. (٥) في الأصل وم: ويحتمل رد الأيدي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بأفواههم.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي في ألوهيَّةِ اللهِ شَكٌّ؟ أفي عبادةِ اللهِ شَكٌّ؟ أي ليسَ في ألوهيَّتِهِ ولا في عِبادَتِهِ شَكٌّ.

تُقِرّونَ[1] أنتمْ أنهُ إلهٌ، وأنهُ مَعْبودٌ، وكذلكَ أقرَّ آباؤُكُمْ أنهُ إلهٌ، وأنهُ معبودٌ، فَليسَ في ألوهيَّتِهِ ولا في عِبادَتِهِ شَكٌّ، إنما كانَ الشَّكُّ في عِبادَةِ مَنْ تَعْبُدونَ دونَهُ مِنَ الأوثانِ والأصنامِ وألوهيَّتِها، لأنَّ آباءَكُمْ أقرُّوا بألوهيَّةِ اللهِ وأنهُ معبودٌ حينَ[2] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأقرُّوا أنهُ خالقُ السمواتِ الأرضِ، فاطِرُ جميعِ ما فيهما بقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وأنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها لم تَخْلُقْ شيئاً، فَلَيسَ في اللهِ شَكٌّ عندَكُمْ، إنما الشَّكُّ في ما تَعْبُدونَ دونَهُ لا[3] في وَحْدانيةِ اللهِ.

أو يقولُ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ إنهُ لم يَزَلْ مَعْبوداً، أي ليسَ في اللهِ شَكٌّ أنهُ لم يَزَلْ مَعْبوداً، إنما الشَّكُّ في الأصنامِ التي قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأمّا في اللهِ فلا شَكَّ أنهُ لم يَزَلْ مَعْبوداً.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يشبهُ أنْ يكونَ على الإضمارِ، أي ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ وأنتُمْ[5] تقرونَ أنهُ خالِقُهُما. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الاحتجاجِ أي ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ وهو فاطرُ السمواتِ والأرضِ، أي تَعْلَمونَ أنهُ فاطرُ السمواتِ والأرضِ، وتُقِرُّونَ أنهُ خالقُهُما.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

[أحدُها][6]: ليغفرَ لكُمْ ذنوبَكُمُ التي كانَتْ لكمْ في حالِ الفَتْرَةِ إذا أسْلَمْتُمْ. وفيهِ[7] دلالةٌ، واللهُ أعلَمُ: أنَّ المآثِمَ التي كانَتْ لهمْ في وقتِ الفَتْرَةِ مأخوذَةً عليهِمْ [قد وَعَدَ لهمْ مَغْفِرَتَها][8] إذا أسْلَموا.

والثاني: وَعَدَ المَغْفِرَةَ والتجاوُزَ لِما كانَ منهمْ مِنَ الافتراءِ على اللهِ والقولِ فيهِ بما لا يَليقُ بهِ إذا أسلموا، وتابوا عَنْ ذلكَ، أي إنكُمْ، وإنِ افْتَرَيْتُمْ على اللهِ، وقُلْتُمْ فيهِ ما قُلْتُمْ، وكَذَّبْتُمْ رسلَهُ[إذا أسْلَمْتُمْ، وتُبْتُمْ، وصَدَّقْتُمْ رسلَهُ][9] غفرَ لكُمْ ذلكَ كلَّهُ. وفيه ذكْرُ لطفِهِ وحُسْنِ معامَلَتِهِ خَلْقَهُ.

والثالثُ[10]: جوابُ ما قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧].

والرابعُ[11]: إذا أسْلَمْتُمْ، وتُبْتُمْ، لا تُتَخطَّفونَ، ولكنْ تبلُغونَ إلى آجالِكُمُ المُسَمَّاةِ.

[وقولُهُ تعالى][12]: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تتعلقُ المعتزلةُ بِظاهِرِ هذِهِ الآيةِ[وتقولُ][13]: إنَّ لكلِّ إنسانٍ أجلَينِ: أجَلٌ في حالٍ إذا فَعَلَ فِعْلَ كذا [وأجَلٌ في حالٍ إذا فَعَلَ فِعْلَ كذا][14].

لكنَّ جَعْلَ الأجَلَينِ إنما يكونُ بِجَهْلٍ في العَواقِبِ [بِجَهْلِ][15] مَنْ يَجْهَلُ العَواقِبَ.

واللهُ[16] ﷻ هو عالمٌ بما كانَ، ويكونُ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَجْعَلَ لِخَلْقِهِ[17] أجلَينِ، وهو عالمٌ بما يكونُ. فإنما جَعَلَ أجَلَهُ الذي عَلِمَ انهُ يكونُ منهُ في الوقتِ الذي جَعَلَ أجَلَهُ بالذي [جَعَلَ][18] واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ في قولِهِمْ تناقُضٌ مِنْ وجوهٍ[19]:

أحَدُهُما: أنهمْ تَرَكوا طاعةَ رسُلِهِمْ واتِّباعَهُمْ لأنهمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ حينَ[20] قالوا: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فذلكَ تَناقُضٌ في القولِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقد.
(٦) في الأصل: يحتمل، ساقطة من م. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ثم وعد لهم المغفرة. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ويحتمل أيضاً قوله ﴿يَدْعُوكُمْ... مُّسَمًّى﴾. (١١) في الأصل وم: ويحتمل أيضاً قوله ﴿يَدْعُوكُمْ... مُّسَمًّى﴾.
(١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: فأما.
(١٧) في الأصل وم: له. (١٨) من م، ساقطة من الأصل. (١٩) في الأصل وم: وجهين. (٢٠) في الأصل وم: حيث.

والثاني: أنهمْ لم يَرَوُا الرسلَ مَتبوعينَ [لأنهمْ](١) بشرٌ.

[والثالثُ: أنهمْ لا يخلونَ](٢) أنفسَهُمْ مِنْ أنْ يكونوا مَتبوعينَ، اسْتَتْبَعوا غَيرَهُمْ مِنْ دونهمْ، أو كانوا أتباعاً لِغيرِهِمْ حينَ(٣) قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فذلكَ تناقُضٌ في القولِ.

[وقولُهُ تعالى](٤): ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ سَألوا الحجةَ على ما دُعُوا إليهِ مِنْ ألوهيَّةِ اللهِ وربوبيَّتِهِ أو على ما دُعُوا مِنَ الرسالةِ مِنَ اللهِ وفي كلِّ شيءٍ، وَقَعَ عليهِ(٥) بَصَرُهُمْ دلالةُ وحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ. لكنهمْ سَألوا ذلكَ سؤالَ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ. وكذلكَ قد سَألُوا(٦) الحجَجَ على ما دُعُوا(٧) مِنَ الرسالةِ، لكنهمْ تَعانَدوا، وكابَروا في ردِّ ذلكَ، فسألوا سؤالَ آيةٍ وحُجَّةٍ، تَضطَرُّهُمْ، وتَقْهَرُهُمْ على ذلكَ.

أو يكونُ عندَ إتيانِها هلاكُهُمْ، فأجابَهُمُ الرسُلُ، فقالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١] أي ما كانَ لنا أنْ نأتيَكُمْ بآيةٍ، يكونُ بها هلاكُكُمْ، إنما ذلكَ إلى اللهِ، إنْ شاءَ لمْ يفعَلْ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي ما نَحنُ إلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، رَدُّ قولِ الباطِنيَّةِ، لأنهمْ يُنكِرونَ كونَ الرسالةِ في جَوهَرِ البَشَريَّةِ، ويَقولونَ: إنما تكونُ الرسالةُ في جوهرِ الروحانيَّةِ. فهمْ ـ صلواتُ اللهِ عليهمْ ـ إنما أجابوا قومَهُمْ حينَ(٨) قالوا لهمْ: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. بقولِهِمْ(٩): ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لم يذكروا شيئاً سِوَى البَشَريَّةِ. فَدَلَّ أنَّ قولَ الباطِنيَّةِ باطلٌ حينَ(١٠) قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

[وقولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾](١١) فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ، لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يَخْتَصُّ أحداً بالرسالةِ إلّا مَنْ كانَ منهُ ما يَسْتَحِقُّ بهِ الرسالةَ. وهُمْ ـ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ـ لم يَذْكروا سِوَى مِنَّةِ اللهِ عليهِمْ. دلَّ أنهُ يَمُنُّ عليهِمْ، ويَخْتَصُّهُمْ لا بِشيءٍ مِنَ الاسْتِحقاقِ يكونُ منهمْ مِنَ الأعمالِ، ولكنْ بالمِنَّةِ والفَضلِ منهُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا: الإذْنُ الإباحةُ، هو مُقابِلُ الحَجْرِ، لكنَّ الإذنَ المذكورَ في القرآنِ ليسَ كلُّهُ على وجهٍ واحدٍ، ولكنْ يَتَّجِهُ في كلِّ موضِعٍ، ويُحمَلُ(١٢) على ما يليقُ بهِ كقولِهِ(١٣) تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي بنصرِ اللهِ، لأنَّ الهزيمَةَ هيَ مَوضِعُ النَّصْرِ، يُحْمَلُ عليهِ، وقولِهِ(١٤) تعالى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أي بـ: إنْ شاءَ اللهُ.

فَعَلى ذلكَ الإذْنُ هَهُنا حيثُ قالَ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بـ: إنْ شاءَ اللهُ السلطانُ، وإجراؤُهُ على أيدينا.

ويُحْمَلُ(١٥) الإذنُ المذكورُ في القرآنِ على ما يَصْلُحُ، ويَليقُ بما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ/ ٢٦٨ ـ ب/ ويَحْتمِلُ الإذنُ هَهُنا الأمْرَ أي بأمرِ اللهِ نأتي، أي [إنْ](١٦) أمَرَنا اللهُ بذلكَ نأتِ(١٧) بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا على إثْرِ وَعيدٍ وأذىً كانَ منهمْ إليهِمْ، فقالوا: على اللهِ يَتَّكِلُ، ويَعْتَمِدُ، المؤمنونَ في دفعِ وعيدِكُمْ وأذاكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم (٢) في الأصل وم: ثم لا يخلوهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم. (٦) في الأصل وم: أقاموا. (٧) في الأصل وم: ادعوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وقولهم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ويحتمل. (١٣) في الأصل وم: قال الله. (١٤) في الأصل وم: وقال. (١٥) في الأصل وم: ويحتمل. (١٦) من م، ساقطة من الأصل. (١٧) في الأصل وم: نأتي.

أحدُهما: على الأمرِ، أي على اللهِ توكَّلوا أيُّها المؤمنونَ في جميعِ ما يوعِدُكُمْ أهلُ الكفرِ وفي جميعِ أمورِكُمْ.

والثاني[1]: على الإخبارِ عنْ صنيعِ المؤمنينَ أنهمْ إنما يَتوكَّلونَ على اللهِ، وبهِ يَعْتَمِدونَ في جميعِ أمورِهِمْ، ومنهُ يَرَونَ كلَّ خيرٍ وبِرٍّ، لا بالأسبابِ التي لهمْ يَرَوْنَ[2] منها.

وأمّا أهلُ الكُفرِ فإنما يَتوكَّلونَ، ويَعْتَمِدونَ بالأسبابِ، ومنها يَرَوْنَ كلَّ سَعَةٍ وخيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ كأنَّ هذا يُخرَّجُ على إثْرِ جوابٍ كانَ منهمْ: لمّا قالَ الرسلُ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فأجابوهمْ بحَرْفٍ، فعندَ ذلكَ قالَ الرسلُ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لكنهُ لم يَذْكُرْ ما كانَ منهمْ، ولكنْ ذَكَرَ جوابَ الرسلِ لهمْ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾. قالَ بعضُهُمْ: وقد بيَّنَ لنا سُلوكَ سُبُلِنا.

وعندَنا قولُهُ: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي وَفَّقَ لنا السلوكَ في السُّبُلِ التي علينا أنْ نَسْلُكَها، وأكْرَمَ لنا ذلكَ؛ أي ما لنا ألّا نَتَوكَّلُ عليهِ في النَّصرِ والظَّفَرِ عليكُمْ، وقد وفَّقَنا[وأكْرَمَ لنا][3]السلوكَ في السُّبُلِ التي علينا سُلوكُها، وذلكَ أعْسَرُ مِنَ القِيامِ للأعداءِ والظفَرِ[4] بهمْ، وقد أكْرَمَنا بما[5] هو أعْسَرُ وأعْظَمُ. فإنْ يَنْصُرْنا [فهو][6] أولَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا قَبْلَ أنْ يُؤمَروا بالقيامِ لهمْ والانْتِصارِ منهمْ؛ أُمِروا بالصَّبْرِ على أذاهمْ، فقالوا: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أنهمْ قالوا ذلكَ لمّا كانَ أهلُ الكُفرِ في كثْرةٍ، وكانَ أهلُ الإسلامِ وأتباعُ الرسلِ في قِلَّةٍ، يَسْتَقِلّونَ أهلَ الإسلامِ، ويُعاتِبونَ على ذلكَ، فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بالنصرِ على أعدائِنا والغَلَبَةِ عليهمْ، وقد أكْرَمَنا بما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كأنهُ يُخرَّجُ على الأمرِ؛ أي على اللهِ فَتَوكَّلوا، ولا تَتَوكَّلوا على غَيرِهِ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على الخَبَرِ؛ أي لا يَتَوكَّلُ المؤمنُ إلّا على اللهِ، لا يَتوكَّلُ على غَيرِهِ كقولِ الرسولِ ﷺ حينَ[7] قالَ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ الآية [هود: ٥٦] وهو قولُ هودٍ، وقولِ المؤمنينَ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] ونَحْوُهُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ الإخراجُ يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحَدُها: على حقيقةِ الإخراجِ مِنَ البَلَدِ إلى غَيرِهِ مِنَ البلدانِ والأرضِينَ.

والثاني[8]: الإخراجُ الحَبْسُ ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ أي لَنَحْبِسَنَّكُمْ عنِ الانْتِفاعِ بالبلدِ وبأهلِهِ وبما فيهِ.

والثالثُ[9]: الإخراجُ القَتْلُ، أي نَقْتُلُكُمْ.

وقد كانَ أهلُ الكُفرِ يُوعِدونَ، ويُخوِّفونَ الرسلَ وأتباعَهُمْ بهذهِ الثلاثةِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ونَحْوُهُ.

ثم في وعيدِهِمُ الذي أوعدوا الرسلَ [وجوهٌ ثلاثةٌ حينَ][10] تجاسروا إقبالَ الرسلِ بِمِثْلِ هذا الوعيدِ، ومعَ الرسلِ آياتٌ وحُجَجٌ:

أحدُها: أنهمْ رَأَوا أنفسَهُمْ مُسَلَّطينَ على أولئكَ قاهِرينَ عليهمْ، وكانوا أهلَ كِبْرٍ وتَجَبُّرٍ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] دلَّ هذا أنهمْ كانوا رَأَوا أنفسَهُمْ كما ذَكَرْنا أهلَ تَسَلُّطٍ وتَجَبُّرٍ.

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) أدرج في الأصل وم قبلها: ولا. (٣) في الأصل وم: وأكرمنا. (٤) في الأصل وم: والنصر. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: ويحتمل. (٩) في الأصل وم: ويحتمل. (١٠) في الأصل وم: وجوها ثلاثة حيث.

والثاني: قالوا ذلكَ لهمْ لمّا لم يكنْ عندَهمْ ما يدفَعونَ حُجَجَ الرسلِ وبراهينَهُمْ، فَهَمُّوا بِقَتْلِهِمْ وإخراجِهِمْ بعَجْزِهِمْ عنْ دفعِ ما أَلْزَمَهُمُ الرسلُ. وهكذا الأمرُ المُتعارَفُ بينَ الخَلْقِ: أنَّ الخصمَ لا يَقْصِدُ إهلاكَ خَصْمِهِ ما دامَ لهُ الوُصولُ إلى الحِجاجِ. فإذا عَجِزَ عنْ ذلكَ فَعِنْدَ ذلكَ يَهُمُّ بِقَتْلِهِ، ويَقْصِدُ إهلاكَهُ.

والثالث: جوابُ الرسلِ إياهمْ عندَ القولِ السَّيِّئِ بالقولِ الذي ليسَ فوقَهُ أحْسَنُ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ المِلَّةُ الدينُ كقولِهِ ﷺ: «لا يَتَوارَثُ أهلُ المِلَّتَينِ» [الترمذي: ٢١٠٨] وقولِهِ تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥و...] أي دينَ إبراهيمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ليسَ أنهمْ كانوا فيها فتَرَكوها، ولكنْ على ابْتِداءِ الدخولِ فيها على ما ذَكَرْنا.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وَعَدَ لهمُ النصرَ والظَّفَرَ عليهِمْ والتمكينَ في أرضِهِمْ معَ قِلَّةِ عَدَدِ أتباعِ الرسلِ وضَعْفِ أبدانِهِمْ ومعَ كثرةِ الأعداءِ وقوةِ أبدانِهِمْ لِيَعْلَموا أنهمْ إنما قالوا ذلكَ بوَحْيٍ مِنَ اللهِ وَوَعْدِهِ إياهمْ لا مِنْ حيثُ أنفُسُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

فكانَ على ما أخبَروا، فكانَ [ذلكَ][1] من آياتِ رسالتِهِمْ.

وما يَنْبَغي لهمْ أنْ يَطْلُبوا مِنَ الرسلِ الآياتِ والحُجَجَ على ما ادَّعَوا لأنهمْ لم يَدْعوهُمْ إلى طاعةِ أنفسِهِمْ أو عِبادَتِهِمْ، وإنما دَعَوهُمْ إلى وحدانيّةِ اللهِ تعالى وألوهيَّتِهِ وجَعْلِ الطاعاتِ والعبادةِ لهُ دونَ ما عَبَدوها مِنَ الأصنامِ.

وذلكَ في شهادةِ خِلْقَتِهِمْ وشهادةِ كلِّ خَلْقِهِ، وإنْ لَطُفَ، وصَغُرَ، فلم يَحْتَجوا بأنْ[2] يقيموا البراهينَ والحُجَجَ على ما ادَّعوا هُمْ، لكنهمْ كانوا قوماً مُعانِدينَ مُكابِرينَ، لا يَقْبَلونَ قولَهُمْ، ولا يُصَدِّقونَهُمْ تَعَنُّتاً وتَكَبُّراً، لم يَنْظُروا في خَلْقِ اللهِ لِيَذْكُروا آثارَ وحدانيّتِهِ والوهيَّتِهِ، فَكُلِّفوا إقامةَ الحُجَجِ والآياتِ لئلا يكونَ لهمُ الاحتجاجُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً [ثلاثةً][3] لأنهُ قد سَبَقَهُ[4] خصالٌ ثلاثٌ: ما يَحْتَمِلُ رجوعَ هذا الحرفِ إلى كلِّ واحدٍ مِنْ ذلكَ:

أحدُها: [سَبَقَ][5] قولُهُ: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المَنَّ والفضلَ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

والثاني[6]: سبقَ أيضاً قولُهُ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] أي ذلكَ الهُدَى والسُّبُلُ التي هدانا إليها، أي ذلكَ الهُدَى والهدايةُ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

والثالث[7]: سبقَ أيضاً [قولُهُ][8]: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣] أي ذلكَ النصرُ والظَّفَرُ بهمْ والتمكينُ في الأرضِ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

ثم قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ في الدنيا والآخِرةِ، وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أي خافَ سُلْطاني ونَقْمَتي وعذابي في الدنيا بِما نزلَ بِمُكَذِّبي رسلِهِ وأنبيائِهِ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعذابي في الآخرةِ حينَ[9] وَعَدَ أنهُ يَحِلُّ بهمْ بالتكذيبِ وتَرْكِ الإجابةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ في الآخِرةِ، وهو كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] يخافُ ذلكَ المَقامَ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وخافَ ما وَعَدَ مِنَ العذابِ في النارِ.

ثم قولُهُ: ﴿مَقَامِي﴾ حينَ[10] أضافَ إليهِ ليسَ في الاشْتِباهِ بأقلَّ مِنْ قولِهِ: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤و....]

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إلى أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: سبق. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وأقلَّ مِن قولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠] وأمثالِهِ. فكيفَ اشْتَبَهَ هذا على التشبيهِ، ولم يَشْتَبِهْ قولُهُ: ﴿مَقَامِى﴾ حينَ[1] سألوا في ذلكَ، ولم يَسألوا في هذا؟ وهذا: إنْ[2] لم يكنْ أكثرَ مِنَ الاشْتِباهِ، فليسَ بأقلَّ.

والأصلُ في هذا وأمثالِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨و...] وقولِهِ[3]: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: ٤] [وقولِهِ][4]: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦] [وقولِهِ][5]: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]: ذَكَرَ هذا، وإنْ كانَ الخلائِقُ جميعاً، يكونُ مَصيرُهُمْ ومَرْجِعُهُمْ إليهِ، لأنه - جلَّ، وعَلا - لم يَخْلُقْهُمْ لِلْمُقامِ في الدنيا والدوامِ فيها، وإنما خَلَقَهُمْ للزَّوالِ عنها والفَناءِ والمُقامِ في الآخِرَةِ والدوامِ فيها، لكنْ خَلَقَهُمْ في هذهِ الدنيا لِيَمْتَحِنَهُمْ، ويُبْتَلَونَ فيها/ ٢٦٩ - أ/ ثم يَصيرونَ إلى دارِ المُقامِ.

فالآخِرَةُ هي المَقصودُ في خَلْقِهِمْ في الدنيا، لا الدنيا. فإذا كانَ كذلكَ أضافَ المَصيرَ إلى نفسِهِ لِما هو المَقصودُ في خلقِهِمْ، وإنْ كانوا في الدنيا والآخِرَةِ صائرينَ إليهِ غيرَ غائبينَ عنهُ طَرْفَةَ عينٍ، ولا فائِتينَ عنهُ، وباللهِ النجاةُ.

ذَكَرَ اللهُ ﷻ أنباءَ الرسلِ الماضيَةِ وأتباعِهِمْ، وأنباءَ أعدائِهِمْ، وما عامَلَ بعضُهُمْ بعضاً، وما نَزَلَ بالأعداءِ بِما عاملوا رسلَهُمْ مِنَ العذابِ، والاسْتِئصالَ وأنواعَ البلايا، وما أكْرَمَ رسلَهُ وأتباعَهُمْ وأولياءَهُمْ مِنَ النَّصْرِ على أعدائِهِمْ والظَّفَرِ بهِمْ والتَّمْكينِ في الأرضِ.

وجَعَلَ ذلكَ كلَّهُ كتاباً بالحكمةِ يُتْلَى لِيُعْلِمَ[كيفَ يُعامِلُ][6] الأعداءَ والأولياءَ لِيُرَغِّبَ في ما اسْتَوجَبَ الأولياءُ مِنَ الكراماتِ، وليُحَذِّرَ[7] عن مِثْلِ صَنيعِ الأعداءِ، ولِيُعْلِمَ[8] كيفَ عامَلَ رسُلَهُ وأولياءَهُ وكيفَ عامَلَ الرسلُ [ربَّهُمْ][9].

أضافَ الرسلُ جميعَ ما يأتوا مِنَ الخيراتِ والكراماتِ إلى اللهِ كأنْ لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ حينَ[10] قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

ذَكَرَ[اللهُ تعالى قولَهُمْ][11] ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لِيُعْلِمَ أنَّ الخيرَ ليسَ يكونُ بالجوهرِ، ولكنْ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ تعالى وبرحمتِهِ.

وقالوا[12]: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢] وأمثالَهُ، وأضافوا ذلكَ إليهِ كأنهمْ لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ.

وذَكَرَ اللهُ ﷻ ما أكْرَمَ أولياءَهُ ورسلَهُ مِنَ النَّصْرِ والتَّمْكينِ والإنزالِ في الدِّيارِ كأنهمُ اسْتَوجَبوا ذلكَ بِفِعْلٍ[13] كانَ منهمْ، وهو قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ النَّصْرُ والتمكينُ وما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ[في قولِهِ][14]: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾: ذَكَرَ أنهمُ اسْتَوجَبُوا ذلكَ لا أنْ كانَ [ذلكَ][15] مِنَ اللهِ بِحَقٍّ إفضالٍ وامْتِنانٍ [ولكنْ][16] لِيَعْلَموا مُعاملةَ اللهِ رسلَهُ وأولياءَهُ ومُعاملةَ الرسلِ والأولياءِ سَيِّدَهُمْ ومَولاهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: الِاسْتِنْصارُ؛ اسْتَنْصَروا اللهَ على أعدائِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩] أي يَسْتَنْصِرونَ.

والثاني: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي تحاكَموا إلى اللهِ في النَّصْرِ لِلأحَقِّ منهمْ والأقربِ إلى الحَقِّ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] وهو التَّحاكُمُ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ هو ما ذَكَرْنا: تَحاكَمُوا إلى اللهِ، فَنَصَرَ أولياءَهُ، وأهْلَكَ أعداءَهُ على ما

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: أي. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل مقابل في م: يعامل. (٧) في الأصل وم: وليحذروا. (٨) في الأصل وم: وليعلموا أن. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: قوله. (١٢) في الأصل وم: وقولُهُ تعالى (١٣) من م، في الأصل: بفطر. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

ذُكِرَ أنَّ أبا جَهْلٍ قالَ: اللهمَّ دينُكَ القديمُ، وأياديكَ الحسنةُ، أيُّنا كانَ أحبَّ إليكَ وأقربَ مِنَ الحقِّ فانصُرْهُ، فنَصَرَ المؤمنينَ، وأهلكَ الأعداءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي مُتَجَبِّرٍ على رسلِهِ وأوليائِهِ. والعَنيدُ قيلَ: المُعْرِضُ المُجانِبُ عنِ الحقِّ والطاعةِ. وقالَ بعضُهُمْ: الجبّارُ القاتِلُ على الغَضبِ، وهو ما ذَكَرْنا.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي مِنْ وراءِ عذابِ الدنيا لهمْ عذابُ جهنَّمَ. وقولُهُ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ الوَراءُ قد يُسْتَعْمَلُ في أمامٍ وخَلْفٍ، أي مِنْ أمامِ ما حلَّ بهمْ جَهَنَّمُ. ويَحْتَمِلُ: وراءَ ما أصابَهُمْ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي يُسْقى في جَهَنَّمَ صَديدٌ مَكانَ ما يُسْقَوْنَ في الدنيا، وهو الذي يَسيلُ مِنَ القُروحِ.

جَعَلَ اللهُ للكافرينَ في الآخِرَةِ مَكانَ ما كانَ لهمْ في الدنيا لِباساً وشَراباً وطَعاماً ما كانَتْ تَكْرَهُهُ أنفسُهُمْ.

جَعَلَ مكانَ ما يُسْقَوْنَ في الدنيا مِنَ الماءِ في النارِ الصَّديدَ والغِسْلينَ الحَميمَ، ومَكانَ الطعامِ في الدنيا في النارِ الزَّقومَ والضَّريعَ، ومَكانَ اللباسِ القَطِرانَ ونَحْوَهُ، ومَكانَ القَرينِ والصديقِ في الدنيا يَجْعَلُ قرينَهُ الشيطانَ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

كانَ[١] ذلكَ كلُّهُ يمنعُهُمْ عنْ دينِ اللهِ، ويَصُدُّهُمْ عنْ ذِكْرِهِ، وكانَ[٢] جزاؤُهُمْ مِنْ نوعِ ما كانَ يَمْنَعُهُمْ في الدنيا عَنْ طاعتِهِ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: إنّ الصَّديدَ[الذي يُسْقَوْنَ هو أنَّ النارَ تَجْرَحُهُمْ، وتُقَرِّحُهُمْ، فَيَسيلُ مِنْ ذلكَ الصَّديدُ][٣] فَيُسْقَوْنَ مِنْ ذلكَ. فقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ يَجْعَلُ شرابَهُمْ، فيهِ[٤] صديدٌ [لا][٥] كَشرابِ أهلِ الجنَّةِ وطَعامُهُمْ منْ غَيرِ أصلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ[٦] ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ في ظَنِّهِمْ ماءٌ، وهو في الحقيقةِ والظاهرِ صَديدٌ، لكنْ يَشْرَبونَ رَجاءَ أنْ يَدْفَعَ عَطَشَهُمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: التَّجَرُّعُ ما يَشْرَبُهُ [المَرْءُ][٧] مُكْرَهاً عليهِ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يُقالُ: أسَغْتُهُ، أي أدخلتُهُ[٨] في الحَلْقِ، يُقالُ: أسَغْتُهُ، فَساغَ في حَلْقِهِ إذا دَخَلَ دخولاً سهلاً، لا يُؤْذيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قالَ قائلونَ: يأتيهمُ الغَمُّ والهَمُّ مِنْ كلِّ مَكانٍ. وكذلكَ المُتَعارَفُ في الخَلْقِ إذا اشْتَدَّ بهمُ الغَمُّ والهَمُّ والشِّدَّةُ يُقالُ: كأنكَ ميتٌ، أو تَموتُ غَمّاً.

وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابُ المَوتِ ما لو كانَ مِنْ قَضائِهِ المَوتُ فيها لَماتوا لِشِدَّةِ ما يَحُلُّ بهمْ، ولكنْ قضاءُهُ[ألّا يموتوا][٩] فيها ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ موتَ حقيقةٍ، يَسْتَريحُ مِنَ العذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: منْ كلِّ ناحيةٍ مِنْ فوقُ ومِنْ تَحْتُ ومن خَلْفُ ومِنْ قُدّامُ كقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقولِهِ[١٠]: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] أخبرَ أنَّ النارَ تأتيهِمْ، وتأخُذُهُمْ مِنْ كلِّ جانبٍ ومِنْ كلِّ جِهَةٍ.

ويَحْتَمِلُ ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي مِنْ كلِّ سَبَبٍ مِنْ تلكَ الأسبابِ التي تأتيهِمْ ما لو كانَ[مِنْ قضائِهِ][١١] الموتُ لَماتوا بكلِّ سَبَبٍ مِنْ تلكَ الأسبابِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ليسَ مِنْ مَوضعٍ مِنْ جَسَدِهِ ومِنْ سائِرِ جَوارِحِهِ إلّا الموتُ يأتيهِ منها مِنْ شِدَّةِ ما يَحُلُّ فيهِمْ حتى يَجِدوا طَعْمَ المَوتِ وكَرْبَهُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: ليكون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: أدخلت. (٩) في الأصل وم: أي لا يموتون. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: قضاء.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي مِنْ وراءِ ذلكَ العذابِ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لا يَنْقَطِعُ، ولا يَفْتُرُ. وَصَفَهُ بالغِلَظِ والشِّدَّةِ لِدَوامِهِ والإياسِ عنِ انْقِطاعِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، على التقديمِ، أي مَثَلُ أعمالِ الذينَ كَفَروا بربِّهِمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الريحُ.

ثم تَحتَمِلُ ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الأعمالَ التي كانَتْ لهمْ في حالِ إيمانِهِمْ، ثم كَفَروا بما أحدَثوا مِنَ الكُفرِ، أبْطَلَ ذلكَ الأعمالَ الصالحةَ في الإيمانِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥] أو تكونُ مَحاسِنُهُمُ التي كانَتْ لهمْ في حالِ الكُفرِ، طَمِعُوا أنْ يَنْتَفِعوا بتلكَ المَحاسِنِ في الآخِرَةِ، فما انْتَفَعوا بها، فصارَتْ كالرَّمادِ الذي تَذْرُوهُ الريحُ الشديدةُ، لم يَنْتَفِعْ صاحبُ ذلكَ الرَّمادِ بِهِ بَعْدَ ما عَمِلَتْ [بِهِ الريحُ ما عَمِلَتْ][1].

فَعَلَى ذلكَ الأعمالُ الصالحةُ التي عَمِلوها في حالِ كُفرِهِمْ أو أعمالُهُمُ الصالحةُ التي كانَتْ لهمْ في حالِ الإيمانِ، ثم أحدَثوا الكُفرَ، لا يَنْتَفِعونَ بها. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] فَيُشبِهُ أنْ يكونَ هذا في أعمالِهِمُ السَّيِّئَةِ في أنْفُسِها، فَرَأَوها حَسَنَةً كقولِهِ: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤] فَرَآهُ حَسَناً، فَيُشْبِهُ ما كانَ في نَفْسِهِ حَسَناً بالسَّرابِ، لأنهُ لا شيءَ هنالكَ، إنما يَرَى خَيالاً.

فَعَلَى ذلكَ أعمالُهُمُ السَّيِّئَةُ في أنْفُسِها، رَأَوها حَسَنَةً صالحةً، وما كانَ، وما يُشَبِّهُ بالرَّمادِ فهي الأعمالُ الصالحةُ في أنْفُسِها، لكنَّ الكُفرَ أبْطَلَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ اليومُ لا يكونُ عاصفاً، ولكنْ على الإضمارِ، كأنهُ قالَ في يوم فيهِ ريحٌ عاصفٌ كقولِهِ:/ ٢٦٩ ـ ب/ ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ [يونس: ٦٧] النهارُ لا يُبْصِرُ، ولكنْ يُبْصَرُ فيهِ، أو يُبْصَرُ بهِ. قيلَ: هو القاصفُ الكاسرُ الذي يَكْسِرُ الأشياءَ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ والعاصِفُ والقاصفُ حرفانِ يُؤَدِّيانِ جميعاً مَعْنىً واحداً..

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ﴾ كالرَّمادِ الذي ذَكَرْنا أنَّ صاحبَهُ، لا يَقْدِرُ بِهِ [على شيءٍ بَعْدَما][2] عملتْ بهِ الريحُ، وذَرَتْهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكُفرَ ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ لا نَجاةَ فيهِ أبداً، أو ذلكَ الذي أتَوابِهِ بَعيدٌ عنِ الحقِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ ألَمْ تَرَ: حَرْفُ تَنْبيهٍ عنْ عَجيبٍ، بَلَغَهُ، وعَلِمَ بهِ، غَفَلَ عنهُ. أو نقولُ: حَرْفُ تَنْبيهٍ عنْ عَجيبٍ، لم يَبْلُغْهُ بَعْدُ، ولم يَعْلَمْ بهِ، على هذينِ[3] الوجهينِ يُشْبِهُ أنْ يكونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ[4] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي لِلْحَقِّ. وتأويلُ قولِهِمْ، واللهُ أعلَمُ، لِلْحَقِّ أي للكافرينَ، لا مَحالَةَ، وهي الآخِرَةِ، لأنَّ خَلْقَ العالَمِ الأوَّلِ للعالَمِ الثاني: ، والمَقصودُ في خَلْقِ هذا العالَمِ هو العالَمُ الثاني: ، فكانَ حقُّهُما للثاني، لا للأوَّلِ دونَ الثاني: ، يَحصُلُ خَلْقُهُما لِلْفَناءِ، وذلكَ خارجٌ عنِ الحِكْمَةِ، وهو ما قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقالَ قائلونَ: ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ لِلْحَقِّ الذي وَجَبَ لهُ عليهِمْ بالامْتِحانِ والابْتِلاءِ، خَلَقَهُما للشهادةِ لهُ على المُمْتَحَنِ. أو نقولُ: خَلَقَهُما ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي بالحكمةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بعد. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل: خالق، وهي قراءة حمزة والكسائي و. انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٢٣٣.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ إنْ كانَ الخِطابُ بهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: قد رَأيتَ، وعَلِمْتَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ وإنْ كانَ الخطابُ بهِ لِغَيرِهِ مِنْ أولئكَ يَقُلِ[1]: اعْلَموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ لم يَخلُقْهُما عَبَثاً باطلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: هذهِ المُخاطَبَةُ، يُخاطِبُ بها أهلَ مكةَ، يَذْكُرُ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ على بَعْثِهِمْ بَعْدَ المَوتِ والهلاكِ، يَقْدِرُ على إذهابِكُمْ وإهلاكِكُمْ، ويَقْدِرُ أيضاً أنْ يَأتِيَ بِغَيرِكُمْ. فَعَلَى ذلكَ يَقْدِرُ على بَعْثِكُمْ بَعْدَ مَماتِكُمْ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي عليهِ هَيِّنٌ يَسيرٌ. ولكنْ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ذهابُكُمْ وفناؤُكُمْ ليسَ بِشديدٍ عليهِ، ولا شاقٍّ؛ ليسَ كملوكِ الأرضِ إذا [ذَهَبَ شيءٌ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ][2] يشتدُّ ذلكَ عليهِمْ.

فأمّا اللهُ ﷻ فلا يزيدُ الخَلْقُ في سُلْطانِهِ ولا في مُلْكِهِ، ولا يُنْقِصُ فَناؤُهُمْ وذهابُهُمْ منهُ شيئاً كقولِهِ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أي أشِدّاءُ[3] عليهِمْ، وهو ما وَصَفَهُمْ ﷻ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ذَكَرَ مَكانَ الشِّدَّةِ العِزَّةَ ومَكانَ الذِّلَّةِ ههنا الرَّحْمَةَ.

ويكونُ[4] قولُهُ: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ما بَعْثُكُمْ وإحياؤُكُمْ بَعْدَ المَماتِ على اللهِ بِشاقٍّ ولا شديدٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قالَ مُقاتلٌ: خرَجوا إلى اللهِ مِنْ قبورِهِمْ جميعاً. وقالَ: ﴿جَمِيعًا﴾ لأنهُ لا يُغادِرُ أحداً إلّا بَعَثَهُ[5]. ويحتملُ وجوهاً أُخَرَ سِوَى ذلكَ.

وهي[6]: أنَّ قولَهُ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي لأمرِ اللهِ، أي لِوَعْدِهِ الذي وَعَدَ أنهمْ يُبْعَثونَ.

أو يُريدُ الحُكْمَ: اللهُ يَحْكُمُ في بَعْثِهِمْ.

[أو][7]: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي ظهروا بِهِ، وَوُجِدوا، فيكونونَ مَوجودينَ ظاهِرينَ بَعْدَ أنْ كانوا فائتِينَ ذاهبينَ غائبِينَ؛ أي عندَهُمْ في الدنيا أنهمْ[فائتونَ غائبونَ][8] عنِ اللهِ، فيومئذٍ يَعْلَمونَ أنهُ كانَ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أفعالِهِمْ وأحوالِهِمْ، وهو ما ذَكَرْنا بقولِهِ: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] [وأمثالِهِمْ: أي لِيَعْلَمَهُمْ][9] مجاهدينَ صابِرينَ كما عَلِمَهُمْ غَيرَ مُجاهِدينَ وغَيرَ صابرينَ وقولِهِ[10]: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣و...] أي[11] يَعْلَمُهُمْ شهوداً كما عَلِمَهُمْ غَيباً.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يَكونونَ لهُ موجودينَ ظاهرينَ، واللهُ أعلَمُ.

وإضافةُ البُروزِ إليهِ في الآخِرَةِ، وإنْ كانَ بُروزُهُمْ لهُ في الدارَينِ جميعاً، وكذلكَ المَصيرُ إليهِ، والمَرْجِعُ إليهِ، والمآبُ، ونَحْوُهُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما لا يُنازِعُهُ أحدٌ في البُروزِ في ذلكَ اليومِ، وقد يُنازَعُ في الدنيا.

أو خَصَّ ذلكَ البُروزَ بالإضافةِ لِما هو المَقصودُ مِنْ إنشائِهِ إيّاهُمْ وخَلْقِهِمْ، ليسَ المَقصودُ في خَلْقِهِمْ وإنشائِهِمُ الأوَّلَ، ولكنَّ الآخَرَ. فَخَصَّ ذلكَ بالإضافةِ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يومئذٍ يَعْلَمونَ أنهُ كانَ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، لأنهمْ[12] لم يكونوا يَعْلَمونَ قبلَ[13] ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ قالَ

(١) في الأصل وم: يقول. (٢) في الأصل وم: شيء من مملكتكم. (٣) في الأصل وم: شديد. (٤) في الأصل وم: أو أن يكون. (٥) في الأصل وم: بعث. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فائتين غائبين. (٩) في الأصل: وأمثاله أن يعلمهم، في م: وأمثاله أي يعلمهم. (١٠) في الأصل وم: وكقوله. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: وكأنهم. (١٣) في الأصل وم: وقبل.

قائلونَ: قولُهُ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي دافِعونَ عنّا مِنْ عَذابِ اللهِ إذْ كُنّا لَكُمْ أتباعاً، وكُنْتُمْ مَتْبوعينَ، فادْفَعوا عنّا ذلكَ. لكنَّ هذا بَعيدٌ أنْ يَطْلُبوا منهمْ دَفْعَ العَذابِ عنهمْ، وقد رَأَوهُمْ في العَذابِ. فَلَو قَدَروا على دفْعِ [العذابِ][1] عنهمْ لَدَفَعوا أوّلاً عنْ أنفسِهِمْ إلّا أنْ يكونَ فيهِمْ حَيرَةٌ وعَمىً كما كانَ في الدنيا؛ فَلِلْحَيرَةِ ما قالوا كقولِهِ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢].

والأشْبَهُ أنهمْ يَطْلُبونَ [منهُمْ دَفْعَ بَعْضِ العذابِ][2] عنهمْ [وتَحَمُّلَ بَعْضِ العذابِ][3] لأنَّ مَؤُنَةَ الاتباعِ في العُرْفِ يَتَحَمَّلُها المَتْبوعُ، فَيَطْلُبونَ منهمْ دَفْعَ شيءٍ وتَحَمُّلَ بَعْضِ ما حَلَّ بهِمْ، وهو ما ذَكَرَ في الآيَةِ الأُخرَى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] طَلَبوا منهُمْ تَحَمُّلَ بَعْضِ ما حَلَّ بهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ العلمِ: إنَّ الكَفَرَةَ جميعاً أتباعَهُمْ ومَتبوعيهِمْ أعلَمُ بهدايةِ اللهِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ قالوا: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ عَلِموا أنَّ اللهَ ﷻ لو هَداهُمْ لاهْتَدَوا، وأنهُ[4] يملكُ هِدايَتَهُمْ، والمُعْتَزِلَةُ يقولونَ: قد هَدَى اللهُ جميعَ الكَفَرَةِ وجَميعَ الخَلائِقِ، فلم يَهْتَدُوا، وإنهُ لو أرادَ أنْ يَهْدِيَ أحداً لم يَمْلِكْ. والكَفَرَةُ حينَ[5] قالوا: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ رأوا، وعَلِموا أنَّ اللهَ لو هَداهُمْ لاهْتَدَوا، لأنهمْ لو لم يَهْتَدُوا بِهدايَتِهِ إذا هَداهُمْ لم يَعْتَذِروا إلى أتباعِهِمْ ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾.

وقالَ إبليسُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] أضافَ الإغواءَ إليهِ، وَهُمْ[6] يقولونَ: لا يُغْوِي اللهُ أحداً. فإبليسُ أعْلَمُ بهذا مِنَ المُعْتَزِلَةِ، وقولُهُمْ[7]: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي لو رزَقَنا اللهُ الهُدَى، وأكرَمَنا بهِ ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكنْ لم يَرْزُقْنا ذلكَ، ولم يُكْرِمْنا[بهِ][8].

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: تأويلُ قولِهِمْ: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ لو كانَ الذي كُنّا عليهِ هُدىً لَهَدَيناكُمْ.

فهذا صَرْفُ هذهِ الآيةِ عنْ وَجْهِها بلا دليلٍ؛ فلو جازَ لهُ[9] هذا جازَ لِغَيرِهِ صَرْفُ جميعِ الآياتِ عنْ ظاهِرِها بلا دليلٍ مَعَ ما أنَّ الاتباعَ قد عَلِموا أنَّ الذي كانوا عليهِ لم يَكُنْ هُدىً، فلا مَعْنىً لهذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنهمْ قالوا في ما بَينَهُمْ: تعالَوا حتى نَجْزَعَ، لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنا، فَجَزِعوا حيناً، فلم يُرْحَموا، ثم قالوا: تعالَوا حتى نَصْبِرَ، لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنا، فلم يُرْحَموا، فعندَ ذلكَ قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

لكنْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولوا ذلكَ بعدَ الاِمْتِحانِ والاِخْتِبارِ، لكنْ كأنهمْ قالوا ذلكَ بالذي سَمِعُوا، وهو قولُهُ: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] [أي لمّا سَمِعُوا ذلكَ][10] قالوا: ﴿سَوَآءٌ/ ٢٧٠ ـ أ/ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي مُنْجٍ ومُخَلِّصٍ.

لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ في أوّلِ أحوالِهِمْ وأُمورِهِمْ، ولكنْ يُحْتَمَلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنهمْ يقولونَ ذلكَ عندَ الإياسِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أُدخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ؛ يقومُ إبليسُ خطيباً في النارِ، ويَخْطُبُ[11]، كما ذَكَرَ.

وقالَ قائلونَ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي مُيِّزَ، وبُيِّنَ أهلُ الجنةِ مِنْ أهلِ النارِ قَبْلَ أنْ يُدْخَلَ أهلُ النارِ النارَ، وأهلُ الجنةِ الجنةَ، قامَ [إبليسُ][12] خطيباً؛ فخطبَ لأتباعِهِ كما ذَكَرَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ويحتمل بعض. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) الضمير يعود إلى المعتزلة. (٧) الضمير يعود إلى الكفرة. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: لغير. (١٠) في الأصل وم: ولما سمعوا ذلك عند ذلك. (١١) في الأصل وم: وخطب. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي لمّا فُرِغَ مِنَ الحسابِ ومِنْ أمْرِهِمْ. عندَ ذلكَ يَخْطُبُ [إبليسُ كما][1] ذَكَرَ، وهو كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] أي لمّا فُرِغَ مِنَ الحسابِ[2]. فعلى ذلكَ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي لمّا[3] نزلَ بهِمُ العذابُ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ هو أنَّ اللهَ كانَ قد وَعَدَ أنْ يقومَ إبليسُ خطيباً لهمْ، فَقَضى الأمْرَ، أي أنْجزَ ما وَعَدَ أنهُ يَخْطُبُ.

أو أنْ يكونَ لأهلِ الكُفْرِ لَجاجاتٌ ومُنازعاتٌ في ما بينَهُمْ يومَ القيامةِ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وكقولِهِ: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآية[المجادلة: ١٨] يَكْذِبون في الآخِرَةِ، ويكونُ لهمْ لَجاجَةٌ على ما كانَ منهُمْ في الدنيا، ويَحْتجّونَ، ويَقولونَ: إنَّ إبليسَ هو كانَ غَلَبَنا، وقَهَرَنا، لأنهُ كانَ يرانا، ونحنُ لم نكُنْ نَراهُ؛ فالمَغْلوبُ المَقْهورُ غَيرُ مأخوذٍ بما كانَ منهُ في حُكْمِكَ.

تَحْتجّونَ بِمِثْلِ هذه الخُرافاتِ واللَّجاجاتِ، وتقولونَ: هو الذي أضَلَّنا، فيقومُ عندَ ذلكَ إبليسُ خَطيباً بينَهُمْ، فيقولُ[4]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حتى أقْهرَكُمْ، وأغْلِبَكُمْ، إلا الدعاءُ ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ طائعينَ غيرَ مَقْهورينَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ وَعْدُهُ ما وَعَدَ على ألْسُنِ الرُّسُلِ أنَّ البَعْثَ والجنةَ والنارَ والحِسابَ والعذابَ كائنٌ، لا مَحالَةَ، أو جميعُ ما وَعَدَ مِنْ مَواعيدِهِ، فذلكَ كُلُّهُ حقٌّ، أي كائنٌ، لا مَحالَةَ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ يَحتمِلُ ما ذَكَرَ حيثُ قالَ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] وأمثالُهُ مِنْ عِداتِهِ، كانَتْ كلُّها أمانيَّ وغُروراً وكَذِباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ يَحْتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أي ما كانَ لي عليكُمْ مِنْ مُلْكٍ وقَهْرٍ وغَلَبَةٍ، أقْهرُكُمْ، وأغْلِبُ عليكُمْ، إلا الدعاءُ، فاستَجَبْتُمْ طوعاً.

والثاني[6]: يحتملُ قولُهُ: ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ مِنْ حُجّةٍ وبُرهانٍ؛ أي لم يكُنْ لي حُجَّةٌ وبُرْهانٌ على ما دَعَوتُكُمْ إليهِ، إنما كانَ لي دُعاءٌ وَوَساوِسُ، وكانَ للرُّسُلِ حُجَجٌ وبراهينُ، فَتَركْتُمْ إجابَتَهُمْ ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بلا حُجّةٍ وبُرْهانٍ؛ أي لم أقْهرْكُمْ، ولم أغْلِبْ عليكُمْ.

لكنَّ هذا لا يَصْلُحُ لأنهُ لو كانَ لهُ عليهِمْ سُلْطانُ القَهْرِ والغَلَبَةِ كانوا مَعْذورينَ غيرَ مُعَذَّبينَ، لأنَّ المَقْهورَ المَغْلوبَ مُضْطَرٌّ، والمُضْطَرُّ مَعذورٌ، ولكنَّ لِلسُّلْطانِ حُجَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ ليسَ مُرادُهُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ أنْ[7] يلامَ، ولكنَّ مُرادَهُ أنِ ارْجعُوا إلى لائِمَةِ أنفسِكُمْ، واشْتَغِلُوا بها، فإنَّ ذلكَ كانَ منكُمْ، لم يكُنْ منّا إلّا الدعاءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ قيلَ: ما أنا بِناصِرِكُمْ، وما أنْتُمْ بِناصِرِيَّ. وقيلَ: ما أنا بِمُغيثِكُمْ، وما أنْتُمْ بِمُغيثِيَّ. وقيلَ: ما أنا بِمانِعِكُمْ، وما أنْتُمْ بِمانِعِي ما نَزَلَ فيَّ. هذا كلُّهُ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي ما أنا بِمالكِ إغاثَتِكمْ وإنقاذِكُمْ، وما أنتُمْ بمالِكِي إغاثتي، وإلّا لو كانَ لهمْ مُلْكُ ذلكَ لَفَعَلُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي كَفَرتُ بما أشْرَكْتُموني في عبادةِ اللهِ وطاعتِهِ، أي[8] كنتُ بذلكَ كافراً، ويَحْتَمِلُ: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ﴾ أي تَبَرّأْتُ اليومَ بما أشْرَكْتُموني معَ اللهِ في الطاعةِ والعِبادَةِ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: السماع. (٢) من م، في الأصل: ولولا. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: ألا. (٨) من م، في الأصل: أن.

مِنْ قِبَلِ أحدِ التأويلَين يَرْجِعُ إلى أنهُ يَتَبَرَّأُ في ذلكَ اليومِ وقتَ ما قامَ خطيباً، [ومِنَ الثاني: إلى أنهُ تبرَّأ][1] مِنْ ذلكَ في الدنيا وقتَ أشْرَكوهُ [لقولِهِ تعالى][2] ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي آذَنَ لهمْ بالدخولِ في الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الإذْنُ ههنا كأنهُ الرحمةُ، أي خالِدِينَ فيها برحمةِ ربِّهِمْ ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يَحْتَمِلُ السلامُ الثناءَ، أي يُثْنونَ على ربِّهِمْ كقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ الآية [فاطر: ٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: [يَسَلِّمُ بعضُهُمْ][3] على بعضٍ، ويُحَيِّي بعضُهُمْ بَعْضاً بالسلامِ.

[وقالَ بعضُهُمْ: السلامُ:][4] هو اسمُ كلِّ خيرٍ ويُمْنٍ وبَرَكَةٍ كما قالَ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ كلمةَ ﴿أَلَمْ﴾ حَرْفُ تَنْبيهٍ عن عَجيبٍ، كانَ بَلَغَهُ، فَغَفَلَ عنهُ، أو تنبيهٌ عنْ عَجيبٍ، كانَ [لم يَبْلُغْهُ][5]. وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: هي كلمةٌ يُفْتَتَحُ بها العربُ عندَ الحاجةِ؛ يقولُ الرجلُ لآخرَ: أَلَمْ تَرَ ما فَعَلَ فلانٌ، ونَحْوُهُ. هذا يَحْتَمِلُ في غَيْرِهِ مِنَ المَواضِعِ، وأمّا في هذا فإنهُ غيرُ مُحْتَمَلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ قيلَ: بَيَّنَ اللهُ مَثَلاً، وأظْهَرَ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هو القرآنُ، و ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] هي الكُتُبُ التي أحدَثَها الناسُ؛ شَبَّهَ القرآنَ بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، وهي النَّخْلَةُ على ما ذُكِرَ، إنْ ثَبَتَ، أو كلُّ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، وشَبَّهَ الكُتُبَ التي أحدَثَها الناسُ بالشَّجَرَةِ الخبيثةِ، وهي التي لا تُثْمِرُ، وقالَ: إنما شَبَّهَ القرآنَ بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ لأنَّ الشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةَ هي باقيةٌ إلى آخِرِ الدَّهْرِ، يَنْتَفِعُ بها الناسُ بِجَميعِ أنواعِ المَنافِعِ، لا يَقْطَعونَها، فهي تدومُ، وتَبْقى دَهْراً. فَعَلَى ذلكَ القرآنُ، يَنْتَفِعُ بِهِ[6] الناسُ، وهو دائمٌ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لها قَرارٌ. فَعَلَى ذلكَ القرآنُ، هو ثابتٌ بالحُجَجِ والبَراهينِ، والكُتُبُ التي أحْدَثَها هؤلاءِ، هي باطِلَةٌ فاسِدَةٌ، لا حُجَّةَ مَعها، ولا بُرْهانَ، كالشَّجَرَةِ الخبيثةِ التي هي غَيْرُ مُثْمِرَةٍ، لا بَقاءَ لها، ولا قَرارَ، ولا ثَباتَ.

الآية ٢٥ وقالَ بعضُهُمْ: الكلمةُ الطَّيِّبَةُ هي الإيمانُ والتوحيدُ؛ شَبَّهَها بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، وهي التي تُثْمِرُ، وتَنمو، وتزكو، هي على ما وَصَفَها ﷻ في قولِهِ: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] فَعَلَى [ذلكَ][7] الإيمانُ والتوحيدُ، لا يَزالُ يُثْمِرُ لأهلِهِ الخيراتِ والأعمالَ الصالحةَ كالشَّجَرَةِ التي وَصَفَها أنها ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ وكلَّ وقتٍ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ بالحُجَجِ والبَراهينِ ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في كلِّ وقتٍ يرتَفِعُ، ويَصْعَدُ به العملُ [الصالحُ][8] إلى السماءِ.

والكلمةُ الخَبيثَةُ هي الكُفْرُ، لأنهُ لا مَنْفَعَةَ لأهلِها فيها؛ إذْ لا عاقبةَ لهُ، ولا حُجَّةَ مَعَها، ولا بُرْهانَ، إنما شيءٌ، أخَذوهُ عنْ شَهْوَةٍ وأمانيَّ، فكانَ كالشَّجَرَةِ الخبيثةِ التي لا ثَمَرَ لها، ولا مَنْفَعَةَ لأحدٍ فيها، فهي لا تَبْقى، ولا تدومُ.

الآية ٢٦ فذلكَ قولُهُ: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ضَرْبُ المَثَلِ بِغَيرِ هذا المَعْنى، وهو أنهُ ذَكَرَ جَواهِرَ طَيِّبَةً وجواهِرَ خَبيثَةً مِمّا تَقَعُ عليها الحواسُّ، ويَقَعُ عليها البَصَرُ، ليكونَ كلُّ جوهرٍ مِنْ هذهِ الجواهِرِ التي تَقَعُ عليها الحواسُّ/ ٢٧٠ ـ ب/ ويَقَعُ عليها البَصَرُ مِنْ خَبيثٍ وطَيِّبٍ دليلاً وشاهداً لِما غابَ عنهمْ، ولا يَقَعُ عليهِ الحِسُّ، تُدْرَكُ بالعقولِ التي رُكِّبَتْ فيهمْ لِيُرَغِّبَ الطَّيِّبُ مِمّا يَقَعُ عليهِ الحِسُّ والبَصَرُ على الموعودِ الغائبِ، ويُحَذِّرَ الخَبيثُ المَحْسوسُ عمّا غابَ، وأُوعِدَ.

---

(١) في الأصل وم: والثاني: أني كنت تبرأت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ هذهِ الآلامُ والأمراضُ والشدائدُ التي جَعَلَ في هذهِ الدنيا لِتَزْجُرَهُمْ عنِ الأفعالِ التي بها يَسْتَوجِبونَ مِثْلَها في الآخِرةِ. وكذلكَ النِّعَمُ التي في الدنيا واللذاتُ جَعَلَها لِتَدُلَّهُمْ على النِّعَمِ الدائمةِ.

على هذا يَجوزُ أنْ يُخَرَّجَ، لا أنهُ أرادَ بالشَّجَرةِ الطَّيِّبَةِ الشَّجَرةَ نفسَها أو بالشَّجَرةِ[الخبيثةِ الشَّجَرةَ][1] نفسَها، ولكنْ ما وَصَفْنا، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ قائلونَ: ضَرَبَ اللهُ [مَثَلَ الشَّجَرةِ الطَّيِّبَةِ مَثَلاً للمؤمنِ][2] هو في الأرضِ، وعَمَلُهُ يَصْعَدُ في السماءِ كلَّ يومٍ. فكما تُؤتي الشَّجَرةُ أُكُلَها كلَّ حينٍ كذلكَ المؤمنُ يَعْمَلُ للهِ في ساعاتِ الليلِ والنهارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ قالَ قائلونَ: كلَّ عامٍ لأنها تُثْمِرُ في كلِّ عامٍ مَرَّةً. وقالَ قائلونَ:[كلَّ][3] سِتَّةِ أشهرٍ مِنْ وَقْتِ طُلوعِها إلى وَقْتِ إدراكِها. وقالَ قائلونَ: كلَّ عشيَّةٍ وغَدْوَةٍ كقولِهِ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧] وقالَ قائلونَ:[كلَّ][4] شهرَينِ وأمثالَها[5].

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا أنهُ ليسَ في وَقْتٍ دونَ وَقْتٍ، ولكنَّهُ الأوقاتُ كلُّها: في كلِّ وَقْتٍ وكلِّ ساعةٍ.

فإنْ قالَ لنا مُلْحِدِيٌّ: إنَّ الكلمةَ التي ضَرَبَ اللهُ مَثَلَها بالشَّجَرةِ الطَّيِّبَةِ كَلِمَتُنا، ونحنُ المُرادُ بذلكَ، والكلمةَ الخَبيثَةَ التي ضَرَبَ اللهُ مثلَها بالشَّجَرةِ الخبيثةِ، هي كَلِمَتُكُمْ، وأنتمُ المُرادُ بها، لا نحنُ، قيلَ: قد سَبَقَ لهذا المَثَلِ أمثالٌ ودلائلُ:

أحدُها[6]: أنَّ الكلمةَ الطَّيِّبَةَ، هي التي لها عاقبةٌ وآخِرَةٌ، وكلَّ أمرٍ، لهُ العاقِبةُ[7] والنظرُ في آخِرِهِ، هو[8] الحقُّ، والذي أنتمْ عليهِ، لا عاقِبةَ لهُ، ولا آخِرَةَ، وفي[9] الحكمةِ أنَّ كلَّ أمرٍ، لا عاقبةَ لهُ، هو[10] باطلٌ، والكُفْرُ، لا عاقِبةَ [لهُ][11].

والثاني: أنَّ الإيمانَ والتوحيدَ، لهُ الحُجَجُ والدلائلُ، والكُفْرَ ممّا لا حجَّةَ لهُ، ولا دلائلَ، إنما هو مأخوذٌ بالأمانيِّ والشَّهْوَةِ مِنْ تَسْويلِ الشيطانِ وتَزْيينِهِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

والثالثُ[12]: تَحتمِلُ الكلمةُ الطَّيِّبَةُ أيضاً أنْ يكونَ الوَحْيُ الذي أوحَى اللهُ إلى رسولِهِ، والكلمةُ الخَبيثةُ ما أوحَى الشيطانُ إليهِمْ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الآية [الأنعام:١٢١] فَوَحْيُ اللهِ، هو ثابتٌ دائمٌ، يَنْتَفِعُ بهِ أهلُهُ في الدنيا والعاقبةِ، وَوَحْيُ الشيطانِ هو باطلٌ مُضمَحِلٌّ، لا عاقبةَ لهُ، ولا يَنْتَفِعُ [بهِ][13] أهلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اسْتُؤصِلَتْ، وقيلَ: انْتُزِعَتْ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: اقْتُلِعَتْ مِنْ أصْلِها؛ يُقالُ: جَثَثْتُ الشَّجَرةَ، أجُثُّها جَثّاً، إذا قَلَعْتُها مِنْ أصلِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: هو ما ذَكَرْنا. وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: شَبَّهَ كلمةَ الشِّرْكِ بِحَنْظَلَةٍ، قُطِعَتْ، فلا أصْلَ لَها في الأرضِ، ولا فَرْعَ لَها في السماءِ، أي لا يَصْعَدُ لَهُ عَمَلٌ ولا حَمْدٌ، وشَبَّهَ كلمةَ الإيمانِ في نَفْعِها وفَضْلِها وثَباتِها وقَرارِها في الأرضِ بما ذَكَرَ مِنَ الشجرةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ بهذا المَثَلِ في خَلْقِ الإيمانِ والكُفْرِ، فقالَ: لأنهُ ضَرَبَ مَثَلَهُ بما هو خَلْقٌ، وهو الشجرةُ، فَعَلى ذلكَ الإيمانُ.

ولكنْ عندَنا: لا بهذا يَجِبُ أنْ أسْتَدِلَّ[14] في خَلْقِهِ، ولكنْ لأُثْبِتَ أنَّ شَبَهَهُما واحدٌ؛ لأنهُ لو كانَ شَبَهُهُما مُخْتَلِفاً لَكانَ لا يَضْرِبُ مَثَلَ هذا بهذا ولا هذا بهذا. فإذا ضَرَبَ دَلَّ أنَّ شَبَهَهُما واحدٌ. فإذا ثَبَتَ ذلكَ دلَّ ما وَصَفْنا.

ومِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذا: أنهُ يزدادُ، ويَنْقُصُ حينَ[15] شَبَّهَهُ بالشجرةِ، وهي تزدادُ، وتَنْقُصُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: مثلاً للمؤمنين، في م: مثل الشجرة الطيبة مثلاً للمؤمنين. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: على. (٧) في الأصل وم: عاقبة. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فهو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: يستدل. (١٥) في الأصل وم: حيث.

ونحنُ نقولُ: ليسَ فيهِ دلالةُ ما ذَكَرُوا، لأنَّ الشجرةَ في نَفْسِها، ليسَتْ بذي حَدٍّ، والإيمانُ ذو حَدٍّ، فما يزدادُ هو [في][1] حقِّ التَّزْيينِ والتَّحْسينِ، وأما الإيمانُ نفسُهُ فإنهُ لا يزدادُ كالشجرةِ، إذا أورقَتْ[2]، وخرجتْ ثمارُها، تُوصَفُ بالزينةِ والحُسْنِ، فأمّا نفسُ الشجرةِ فلا توصَفُ بالزيادةِ، فَعَلَى ذلكَ الإيمانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يَحتمِلُ يُبيِّنُ اللهُ الأمثالَ التي يَقَعُ عليها الحسُّ، ويَقَعُ عليها البَصَرُ، والأشياءَ الظاهرةَ، لِتَدُلَّهُمْ على ما اسْتَتَرَ، وغابَ عنهمْ؛ يُدْرِكونَ بالعقولِ ما اسْتَتَرَ، وخَفِيَ، بالظاهِرِ والمحسوسِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لَعَلَّهُمْ يَتَّعِظونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الكلمةُ الطَّيِّبَةُ تَحتمِلُ التوحيدَ، وفُرُوعُها، هي الخوفُ والخُشوعُ والخضوعُ والرغبةُ، وأُكُلُها، هي[3] الأعمالُ الصالحةُ، والخَيراتُ، تكونُ منهُ. [والكلمةُ الخَبيثةُ، هي الشِّرْكُ، وفُرُوعُها ما يكونُ مِنَ][4] الشركِ مِنَ الفَسادِ والتَّمَرُّدِ والعِنادِ، وأُكُلُها هي[5] الأعمالُ التي تكونُ مِنَ الشِّرْكِ.

أو أنْ تكونَ الكلمةُ الطَّيِّبَةُ هي الإيمانَ وفُرُوعُها هي الشرائعَ والأحكامَ التي تُعْمَلُ، وأُكُلُها، هي[6] ما يُثابُ عليهِ في الدنيا والآخِرَةِ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ذَكَرَ[الإيمانَ][7] مرةً بالتَّثبيتِ ومَرَّةً بِذِكْرِ الزيادةِ كقولِهِ[8] ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] ومَرَّةً بِذِكْرِ الابْتِداءِ والتجديدِ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وقولِهِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فالتجديدُ والابْتِداءُ في حادثِ الوقتِ لأنَّ الأفعالَ، تَنْقُصُ، وتَذْهَبُ، ولا تَبْقَى. وأمّا الزيادةُ [فهي][9] على ما كانَ، وكلُّهُ واحدٌ في الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أضافَ الإضلالَ مَرَّةً إلى نفسِهِ، ومَرَّةً إلى الشيطانِ، ولا شَكَّ أنَّ ما أُضيفَ إلى الشيطانِ إنما أُضيفَ على الذَّمِّ. فإذا كانَ ما ذَكَرَ فتكونُ الجهةُ التي أضيفَتْ إلى اللهِ غيرَ الجهةِ التي أضيفَتْ إلى الشيطانِ. فالجهةُ[10] التي أضيفتْ إلى اللهِ، هي أنَّ خَلْقَ فِعْلِ الضّلالِ مِنَ الكافرِ، وما أُضيفَ إلى الشيطانِ، هو على التزيينِ والتَّسْويلِ لِتَصِحَّ الإضافتانِ.

ولو كانَ على التسمِيَةِ على ما يقولُ المُعْتَزِلَةُ: [إنه سَمّاهُ][11] ضالًا لكانَ كلُّ مَنْ سَمَّى آخَرَ ضالًا كافراً، جازَ أنْ يُسَمَّى مُضِلًا، فإذا لم يُسَمَّ بِتَسْمِيَتِهِ ضالًا أو كافراً مُضِلًا دلَّ أنهُ إنما سَمَّى اللهُ نفسَهُ مُضِلًا لِتَحْقيقِ الفِعْلِ فيهِ، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ فِعْلَ الضَّلالِ منهُ. والمُعْتَزِلَةُ يقولونَ: إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ جميعاً، لكنهُمْ لم يَهْتَدوا، وضَلُّوا، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ اللهُ أضَلَّهُمْ. فهذا صَرْفُ ظاهرِ الآيةِ إلى غَيرِهِ بِلا دليلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: لا يَقْدِرُ أنْ يَفْعَلَ ما يَشاءُ لأنهمْ يقولونَ: إنهُ شاءَ إيمانَ جميعِ البَشَرِ، لكنهُمْ لم يؤمِنوا، وكذلكَ قالَ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧ و . . .] وهُمْ يقولونَ: أرادَ إيمانَهُمْ [لكنهمْ لم يَفْعَلوا][12] ما أرادَ، ولا يَمْلِكُ، وقد أخبَرَ أنهُ أرادَ [بقولِهِ][13]: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هناكَ وقولِهِ ههنا ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾][14] وهمْ يقولونَ: لم يَمْلِكْ [أنْ يفْعَلوا ما شاءَ، و][15] أرادَ، بلِ العِبادُ يَفْعَلونَ ما شاؤوا[16] غيرَ ما شاءَ هو. فتأويلُهُمْ خِلافُ ظاهرِ القرآنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] على تأويلِ مَنْ يقولُ: إنَّ الكلمةَ/ ٢٧١ ـ أ/ الطَّيِّبَةَ هي الإيمانُ[17]، ويكونُ القولُ الثابتُ هو القرآنَ. .

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تورقت. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقولُهُ. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: أن سماها، في م: أن سماه. (١٢) في الأصل وم: لكنه لم يفعل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: ولما يشاء. (١٥) في الأصل: أن يفعل ما شاؤوا، في م: ما شاء و. (١٦) في الأصل وم: شاء. (١٧) في الأصل وم: القرآن.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حينَ[1] تَلقَّوهُ بالإجابةِ والقَبولِ والعملِ بهِ ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ أي بالآخِرَةِ والبَعْثِ يُقِرُّونَ بهِ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ حينَ[2] تَركوا الإجابةَ، وتلقَّوهُ بالرَّدِّ والمُكابَرَةِ والعِنادِ.

ومَنْ يقولُ: الكلمةُ الطَّيِّبَةُ التوحيدُ، فيكونُ[3] القولُ الثابتُ هو الإيمانَ، يُثَبِّتُهُمْ في الحياةِ الدنيا باختيارِهِمْ. وفي الآخِرَةِ: قيلَ: في قبورِهِمْ يُثَبِّتُهُمْ لإجابةِ مُنْكَرٍ ونكيرٍ، ويُمَكِّنُ لهمْ ذلكَ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ الذينَ تَركوا الإجابةَ لهُ في الحياةِ الدنيا وفي القبورِ حينَ[4] تَركوا الإجابةَ في الدنيا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو ما ذَكَرَ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] يُثَبِّتُ مَنْ أجابَ اللهَ إلى ما دعا في الدنيا، وفي الآخِرَةِ يَهْديهِ الطريقَ الذي بهِ يُوصَلُ إلى دارِ السلامِ [والكافرُ حينَ تَرَكَ إجابتَهُ إلى ما دعاهُ، يُضِلُّهُ في الآخِرَةِ طريقَ دارِ السلامِ][5] بتركِ إجابَتِهِ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ في هدايةِ مَنِ اختارَ الإجابةَ والاهْتِداءَ[وفي إضلالِ][6] مَنِ اختارَ تَرْكَ الإجابةِ والغَوايةَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ اختُلِفَ في نُزولِهِ: قالَ بعضُهُمْ: هذهِ السورةُ كلُّها نزلَتْ بمكةَ إلّا هذهِ الآيةَ، فإنها نزلَتْ بالمدينةِ، قالَ بعضُهُمْ: نزلَتْ بمكةَ كلُّها.

الآية ٢٩ فَمَنْ [يقولُ:][7] نزلتْ بالمدينةِ يقولُ: قولُهُ ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ ﴿جَهَنَّمَ﴾ [إبراهيم: ٢٨و٢٩] هو بَدْرٌ، أي حَمَلوهُمْ إلى بَدْرٍ حتى قُتِلوا، لأنهُ لم يكنْ بمكةَ بَدْرٌ، إنما كانَ بالمدينةِ. ومَنْ يقولُ: نَزَلَتْ بمكةَ يقولُ: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ هي جَهَنَّمُ على ما فَسَّرَهُ ظاهرُ الكتابِ، وهو الأشبهُ بظاهرِ الآيةِ، لأنهُ بَيَّنَ تلكَ الدارَ، فقالَ: ﴿جَهَنَّمَ﴾ [إبراهيم: ٢٩].

وفي الآيةِ دلالةُ أنَّ الآيةَ في عُظمائِهِمْ وكُبَرائِهِمْ حينَ[8] قالَ: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ الآيةَ.

ثم اختُلِفَ في النعمةِ التي ذَكَرَ أنهمْ بَدَّلوها كُفراً[فهي تَحتَمِلُ وجهَينِ][9]:

أحدُهُما: أنَّ اللهَ ﷻ قد أنْعَمَ عليهِمْ في هذهِ الدنيا؛ وَوَسَّعَها عليهِمْ، فَحَرَّموا تلكَ النِّعَمَ على أنفسِهِمْ، فَجَعَلوها للأصنامِ التي عَبَدُوها، وسَيَّبُوها، ولم يَنْتَفِعُوا بها مِنْ نَحْوِ البحيرةِ التي ذَكَرُوا والسائبةِ والوصيلةِ والحامي. وما جَعَلُوا للأصنامِ هو ما ذَكَرَ: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] فذلكَ تبديلُ النعمةِ كُفراً حينَ[10] حَرَّموا ما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ كُفراً، وأحَلَّ لهمْ.

والثاني: تلكَ النعمةُ محمدٌ أوِ القرآنُ أوِ الإسلامُ[وهي نِعْمَةٌ كَذَّبوها][11] أو أنْ يكونوا بَدَّلوا الشكرَ الذي عليهِمْ بما أنعمَ عليهِمْ كُفراً، جَعَلُوها سَبَباً لِلْكُفْرِ، فلم يَشْكُرُوهُ بما أنْعَمَ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ حقيقةُ تَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: بَدَّلوا، وصَرَفُوا ما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ، وهو محمدٌ ﷺ عن أنفسِهِمْ حتى أُخِذَ منهُمْ، بَدَّلُوا بهِ كُفراً.

والثاني: بَدَّلُوا بهِ كُفراً، بَعْدَما سَأَلوا ربَّهُمْ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] فلم يَشْكُرُوا ما أنْعَمَ عليهِمْ، وبَدَّلُوا الشُّكرَ كُفراً.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: والإضلال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فهو يحتمل وجوهاً. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: وهو نعمة كذبوهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي أنزلُوا. دَلَّ هذا أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الرُّؤساءِ مِنَ الكَفَرَةِ والأئِمَّةِ منهُمْ حينَ[1] أخبرَ أنهمْ أحَلُّوا قومَهُمْ دارَ البَوارِ. ذَكَرَ: أحَلُّوا قومَهُمْ على الماضي لأنهُ قد وَجَدَ منهُمُ الجِنايَةَ بالإحلالِ في دارِ البَوارِ، وذَكَرَ في دخولِهِمْ جَهَنَّمَ على الائتِنافِ بقولِهِ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لِما لم يوجَدْ بَعْدُ، سَيوجَدُ.

ويجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بهذا لأصحابِنا لِمَسْأَلَةٍ، وهو أنَّ العبدَ إذا حَفَرَ بئراً، ثم أُعْتِقَ، فوقَعَ في البِئْرِ إنسانٌ، يُنْظَرُ في قيمةِ العَبْدِ يومَ حَفَرَ، لأنَّ الحَفْرَ منهُ جنايةٌ، وإلى الواقِعِ فيهِ يومَ الوقوعِ لا يومَ الحَفْرِ، لأنهُ لم يوجَدْ بَعْدَ يومِ الحَفْرِ جِنايةٌ.

او أنْ يُقالَ: احَلّوا أرواحَهُمْ دارَ البَوارِ: فتَدْخُلُ أجسادُهُمْ يومئذٍ، لم تدخُلْ [أرواحُهُمْ][2] بَعْدُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ثم فَسَّرَ أنهمْ لِمَ أحَلُّوا[3] قومَهُمْ دارَ البَوارِ، فقالَ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أعدالاً وأمثالاً ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ في العبادةِ، يَعْبدُونها[4] كما يُعْبَدُ اللهُ [أو][5] في التسميةِ، يُسَمُّونَها آلهةً كما يُسَمَّى اللهُ[جَعَلُوا للهِ][6] أنداداً. في هذينِ الوجهَينِ يذكُرُ سَفَهَهُمْ حينَ[7] جعلوا ما لا يَسْمَعُ، ولا يُبْصِرُ، ولا يَنْفَعُ، ولا يَدْفَعُ، ولا يَضُرُّ، أمثالاً وأعدالاً ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ على عِلْمٍ منهمْ أنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَهُمْ، وَرَزَقَهُمْ، ويُنْعِمُ عليهِمْ، وهو الذي يدفَعُ عنهمْ كلَّ بلاءٍ وشِدَّةٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ هو تفسيرَ ما ذَكَرَ مِنْ تَبْديلِ النعمةِ كُفْراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ بهذهِ النِّعَمِ التي ذَكَرَ أنهمْ بَدَّلوها كُفْراً ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ هذا في قومٍ، ماتوا على الكُفْرِ، أو[8] يقولُ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ في الدنيا، أي تَمَتَّعوا بالكُفْرِ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ هذا في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنونَ أبداً. وفيهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ.

وقالَ أبو عرسَجَةَ: البَوارُ الهلاكُ والفَناءُ؛ يُقالُ: بارَ الرجلُ يَبورُ بَوراً، فهو بايرٌ، وقومٌ بُورٌ، أي هالِكونَ، ويُقالُ: بارَتِ السوقُ، وبارَتِ السِّلْعَةُ إذا كَسَدَتْ، ويُقالُ: بارَتِ المرأةُ تَبورُ بَوراً، فهيَ بائرةٌ إذا كَبِرَتْ.

وفي حديثِ النَّبِيِّ ﷺ «نعوذُ باللهِ مِنْ بَوارِ الأيِّمِ» [عزاه زغلول في موسوعته إلى مسند الربيع بن حبيب ٢/ ٣٠] قيلَ: يعني مِنْ كَسادِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ إقامةَ الإيمانِ بها كقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هو إقامةُ الإيمانِ بها؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ الحبسَ إلى أنْ يُقيموا إقامةَ الفِعْلِ والوفاءِ؛ إذْ في ذلكَ حبسُهُمْ أبداً. ويَحْتَمِلُ إقامةَ الوفاءِ بها والفعلِ لأنهُ إنما خاطبَ المؤمِنينَ على إقامتِها، وقد سَبَقَ منهم ما ذَكَرْنا مِنَ الإيمانِ بها.

قيلَ: هذا جائزٌ [إذْ][9] يأمرُهُمْ بإقامةِ الإيمانِ بها في حادثِ الوَقْتِ؛ إذْ للإيمانِ حُكْمُ التَّجَدُّدِ في كلِّ وَقْتٍ، وهو كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] أي آمِنوا بِحادثِ[10] الوقتِ.

فَعَلَى ذلكَ، هذا مُحْتَمَلُ الأمْرِ بإقامتِها إقامةَ الإيمانِ بها. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ إقامةِ الصلاةِ في الآيةِ والإنفاقِ[إقامةِ الصلاةِ وأداءِ الزكاةِ][11] والإدامةَ لهما واللزومَ بهما. ويَحْتَمِلُ القَبولَ والوفاءَ بهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ قالَ الحَسَنُ: الأمْرُ بالإنفاقِ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ الزكاةُ المفروضةُ.

الا تَرَى أنهُ ذَكَرَ الوعيدَ في الآخِرَةِ، وقالَ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: أمنوا. (٤) في الأصل وم: يعبدون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: جعلوه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: بالله. (١١) في الأصل وم: هي الصلاة المفروضة.

ولا يَحْتَمِلُ الوعيدَ في صَدَقاتِ التطوعِ، وهو ما ذَكَرَ أيضاً في آيةٍ أخرى ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠] ولا يَحْتَمِلُ طَلَبَ الرجوعِ والتأخيرِ إلى أجلٍ في النوافلِ. دلَّ أنهُ أرادَ بِهِ الزكَواتِ المَفروضاتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا﴾ هي التَّطَوُّعُ ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ الفريضةُ، لأنَّ الفريضةَ لابُدَّ مِنْ أنْ تَظْهَرَ، وتُعْلَنَ، وليسَ في أدائِها رياءٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي يومٌ لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يَبيعَ نفسَهُ مِنْ ربِّهِ [وفي الدنيا يَقدِرُ أنْ يَبيعَ نفسَهُ مِنْ ربهِ][1] كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ لا يَقْدِرُ أحَدٌ بَيْعَ نفسِهِ مِنْ رَبِّهِ[فيهِ][2]. ويَحتمِلُ ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي لا يَنْفَعُهُ بَيْعُ نفسِهِ منهُ في ذلكَ اليومِ، وإنْ باعَ كقولِهِ تعالى:/ ٢٧١ - ب/ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤و٨٥] فَعلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ هو مَصْدَرُ خالَلْتُ، وهو مِنَ الخِلَّةِ والصداقةِ. ثم هو يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أي لا تَنْفَعُهُمُ الخِلَّةُ التي كانَتْ بينَهُمْ في الدنيا، لأنَّ كلَّ خِلَّةٍ كانَتْ في الدنيا مِمّا ليسَتْ للهِ فهي تَصيرُ عداوةً في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ الآية [الزخرف: ٦٧] أخبَرَ أنَّ الأخلّاءَ الذينَ كانوا يُخالُّونَ في الدنيا للدنيا فهمُ الأعداءُ إلّا الخِلَّةُ التي كانَتْ للهِ فهي تَنْفَعُ أهلَها، وهو ما ذَكَرَ ﷺ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وأمثالُهُ؛ يُخْبِرُ أنَّ الخِلَّةَ التي كانَتْ بينَهُمْ في الدنيا، لا للهِ، فهي تصيرُ عداوةً في الآخِرَةِ حتى يَتَبَرَّأَ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

والثاني: أي يكونُ لهمْ شُفَعاءُ وأخِلّاءُ، ولكنْ لا يَشْفَعونَ كقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] أو يَشفَعونَ[3] لهمْ، لكنْ لا تُقْبَلُ [شفاعَتُهُمْ][4] كقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

الآيتان ٣٢ و٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دلالةٌ أنَّ تدبيرَ اللهِ[مُتَّسِقٌ مُحيطٌ][5] بجميعِ ما في السمواتِ والأرضِ، وعلمَهُ مُحيطٌ بجميعِ الخلائقِ حينَ[6] ذكَرَ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يعني البَشَرَ. جعَلَ مَنافعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بمنافعِ الأرضِ مَعَ بُعْدِ ما بينَهما.

دلَّ أنهُ عَنْ تدبيرٍ فَعَلَ هذا وعِلْمٍ، وأنهُ تدبيرُ واحدٍ عليمٍ قديرٍ.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ السمواتِ والأرضِ مَعَ شِدَّةِ السماءِ وصلابتِها وغِلَظِ الأرضِ وكثافَتِها، وتَسْخيرِ البحرِ مَعَ أهوالِهِ وأمواجِهِ[وتَسْخيرِ الأنهارِ الجاريةِ][7] وتسخيرِ الشمسِ والقَمَرِ والليلِ والنهارِ لهذا البَشَرِ في ذلكَ كلِّهِ وجهانِ:

أحَدُهما: يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِمْ مِنَ المَنافعِ التي جَعَلَ لهمْ في تَسْخيرِ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ لهمْ على جَهْلِ هذهِ الأشياءِ أنهنَّ مُسَخَّراتٌ لِغَيرِهم لِيَسْتَأدِيَ بذلكَ شُكْرَها.

والثاني: يَذْكُرُ سُلْطانَهُ وقُدْرَتَهُ حينَ[8] سَخَّرَ هذهِ الأشياءَ مَعَ شِدَّتِها وصلابَتِها وغِلَظِها وأهوالِها. ومَنْ قَدَرَ على تَسْخيرِ ما ذَكَرَ [فهو][9] قادرٌ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الأشياءِ التي ذَكَرَ[أمْرَينِ:

أحَدُهما][10]: أنهُ أنشأ هذهِ الأشياءَ مُسَخَّرَةً مُذَلَّلَةً لنا.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يشفع. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: محيط متسق. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: [أنهُ][1] سَخَّرَ لنا، أي عَلَّمنا مِنَ الأسبابِ والحِيَلِ التي تَتَهَيَّأُ لنا الإنْتِفاعَ بها والتَّسخيرَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ فيهِ لُغتانِ وتأويلانِ:

[أحدُهما: ما][2] قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن﴾ كُلٍّ[3] على التنوينِ ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ على الجَحْدِ، أي أتاكُمْ مِنْ غَيرِ أنْ سَألتُمُ الأشياءَ التي ذَكَرَ أنهُ سَخَّرَها لنا، أي آتاكُمْ مِنْ غَيرِ سؤالٍ ولا طِلْبَةٍ.

والثاني: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وما لم تَسألوهُ، لأنهُ أعطانا أشياءَ قَبْلَ أنْ نَعْلَمَ أنهُ يجبُ أنْ نَسألَ حينَ[4] خَلَقَ هذهِ الأشياءَ التي ذَكَرَ مِنْ قَبْلِ أنْ يَخْلُقَنا.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قالَ: ما لم تَسألوهُ، وهو ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: إنا نَسألُ أشياءَ لم نُعْطَها، فما مَعْنَى الآيةِ؟ قيلَ بوجوهٍ:

أحدُها: ذِكْرُ حرفِ التبعيضِ، وهو ما قالَ: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

والثاني: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ عِلْمَ ما سألْتُموهُ قَبْلَ أنْ تَسألوا وجِهَةَ عِلْمِ الإنْتِفاعِ بهِ.

والثالثُ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يَحِقُّ السؤالُ، ويَليقُ بهِ.

على هذهِ الوجوهِ تُخَرَّجُ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ أي لا تَشكُروها، أي لا تَقْدِروا شُكْرَها.

وقالَ بعضُهُمْ: أي لا تَقْدِروا إحصاءَها وعَدَدَها. وهكذا أنَّ أقلَّ الناسِ نِعْمَةً، لو تَكَلَّفَ إحصاءَ ما أعطاهُ اللهُ ﷻ ما قَدَرَ عليهِ مِنْ حُسْنِ الجَوهرِ والصورةِ واسْتِقامةِ التركيبِ والبُنْيَةِ وسلامةِ الجوارحِ وغَيرِ ذلكَ ممّا لا سَبيلَ لهُ في[5] ذِكْرِها وإحصائِها إلّا بَعْدَ طولِ التَّفَكُّرِ والنظرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تُحيطوا بِكُنْهِها ونهايَتِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿لَظَلُومٌ﴾ أي ظَلَمَ نفسَهُ حينَ[6] صَرَفَها إلى غيرِ الجِهَةِ التي جُعِلَتْ، وأُمِرَ[بالصَّرْفِ إليها][7] وأدْخَلَها في المهالكِ، وألقاها في التَّهْلُكَةِ. ﴿كَفَّارٌ﴾ لِنِعَمِهِ حينَ[8] صَرَفَ شُكْرَها إلى الغيرِ الذي[جَعَلَهُ إلهاً][9] واللهُ أعلَمُ.

واسْتَدَلَّ بعضُ المعتزلةِ بقولِهِ: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١] إنَّ صاحبَ الكبيرةِ يُخَلَّدُ في النارِ، لأنهُ أوْعَدَ بتركِ الصلاةِ والزكاةِ التخليدَ أبداً، وتركُ الصلاةِ والزكاةِ مِنْ غَيرِ عُذْرٍ مِنَ الكبائرِ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرَ.

فنقولُ نحنُ، وباللهِ التوفيقُ: إنَّ الآيةَ تَحْتَمِلُ الأمرَ بإقامةِ الصلاةِ وما ذَكَرَ مِنَ الزكاةِ والصدقةِ إقامةَ الإيمانِ بها على ما ذَكَرْنا مِنْ تأويلِ بَعْضِ المُتَأوِّلينَ. فإنْ كانَ على هذا على إقامةِ الإيمانِ بها، فَمَنْ تَرَكَ ذلكَ فهو يُخَلَّدُ أبداً، لا شَكَّ فيهِ، أو أنْ يكونَ مَنِ اسْتَحَلَّ تَرْكَها، فهو بالإسْتِحلالِ يَكْفُرُ، فهو يُخَلَّدُ، ومَنْ[10] يَتْرُكُها لِعُذْرٍ فهو لا يُخَلَّدُ على اتِّفاقِ القولِ. فإذا كانَ ما ذَكَرْنا مُحْتَمَلاً دلَّ أن الآيةَ مَخصوصَةٌ.

ثم معرفةُ تخليدِ صاحبِ الكبيرةِ إنما هي بالدلائلِ سِوَى هذا؛ إذْ ليسَ في ظاهرِ الآيةِ دلالةُ التخليدِ لِما ذَكَرْنا مِنِ احْتِمالِ الخصوصِ. دلَّ أنهُ إنما يُطْلَبُ الدليلُ مِنْ وجهٍ آخَرَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/٢٣٨. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إلى ما. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: جعلها له. (١٠) في الأصل وم: أو.

قالَ القتبيُّ: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ خِلالٌ: مَصْدرُ خالَلْتَ فلاناً خِلالاً ومُخالَّةً، والإسْمُ الخِلَّةُ والمَخلَّةُ، وهي الصداقةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ قالَ مِنَ المُخالَّةِ، يعني المَوَدَّةَ ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ قالَ: يَجريانِ أبداً، وهو مِنَ الدَّوبِ أي مِنَ التَّعَبِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي مَأمناً، سَمّى آمِناً لِما يأمَنُ الخَلْقُ فيهِ كما سَمّى النهارَ مُبصِراً[(١)] والنهارُ، لا يُبْصِرُ، ولكنْ يُبْصَرُ فيهِ، ومثلُهُ كثيرٌ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [ما][(٢)] قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما طَلَبَ إبراهيمُ أنْ يَجْعَلَهُ آمِناً على أهلِهِ ووَلَدِهِ خاصَّةً لا على الناسِ كافَّةً[لئلا تُسفَكَ][(٣)] فيهِ الدماءُ، وتُهتَكَ[(٤)] فيهِ الحُرَمُ. دلَّ أنهُ جَعَلَهُ آمِناً على أهلِهِ ووَلَدِهِ خاصَّةً.

ولكنْ لو كانَ ما ذَكَرُوا مُحتَملاً ما يُصنَعُ بقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ الآيةَ [العنكبوت:٦٧] وقولِهِ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥] وغيرِها[(٥)] مِنَ الآياتِ؟ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ تلكَ البُقعَةَ مَأمناً لِلخَلْقِ، يأمَنونَ فيها. ثم يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: جَعَلَهُ آمِناً بِحَقِّ الإبتِلاءِ والإمتِحانِ، ألْزَمَ الخَلْقَ حِفْظَ تلكَ البقعَةِ عنْ سَفْكِ الدماءِ فيها وهَتْكِ الحُرَمِ وغيرِها مِنَ المَعاصي، وإنْ كانوا ضَيَّعوا ذلكَ، وعَمِلوا فيها ما لا يَصْلُحُ كالمساجِدِ التي بُنِيَتْ لِلْعبادةِ وإقامةِ الخَيراتِ، ألْزَمَ [على][(٦)] أهلِها وعلى جميعِ الخَلائقِ حِفظَها عنْ إدخالِ مالا يَصْلُحُ، ولا يَحِلُّ. ثم إنَّ الناسَ قد ضَيَّعوا ذلكَ، وعَمِلوا فيها ما لا يَليقُ بها، ولا يَصْلُحُ. فَعَلَى ذلكَ الحَرَمُ الذي أخبَرَ أنهُ جَعَلَهُ مَأمناً.

[والثاني: جَعَلَهُ مَأمناً][(٧)] بالخِلْقَةِ مِنْ ذا الوجهِ، [ولا][(٨)] يجوزُ أنْ يُقالَ: كيفَ سُفِكَ فيهِ الدماءُ؟ وهُتِكَ فيهِ الحُرَمُ؟ وهو بالخِلْقَةِ جَعَلَهُ مَأمناً. قيلَ: يجوزُ هذا بِحَقِّ العقوبَةِ، وإنْ كانَ آمِناً. الا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآيةَ[النساء:١٦٠] الطَّيِّباتُ بالخِلْقَةِ حلالٌ، لكنهُ [حَرَّمَ][(٩)] عليهِمْ ذلكَ بالظُّلْمِ الذي كانَ منهُمْ بِحَقِّ العقوبةِ والانتِقامِ. فَعَلَى ذلكَ الحَرَمُ، جَعَلَهُ مَأمناً بالخِلْقَةِ.

ثم قيلَ: فيهِ عقوبةٌ لِما كانَ منهُمْ مِنَ المَعاصي/ ٢٧٢ ـ أ/ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ الآيةَ. فإنْ قيلَ: كيفَ دَعا، وطَلَبَ منهُ العِصْمَةَ، وقد عَصَمَهُ بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ، واختارَهما عنْ ذلكَ كلِّهِ؟ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما سأَلَ عِصْمَةَ وَلَدِهِ وذُرِّيَّتِهِ لِما عَلِمَ أنَّ ذُرِّيَّتَهُ قد يَختَلِفونَ في دينِ اللهِ وتوحيدِهِ، وإنهُ[(١٠)] ذكَرَ نَفْسَهُ لِما المَعروفُ أنَّ مَنْ دَعا لآخَرَ بَدَأَ بنفسِهِ.

قالتِ المعتزلةُ: [دَعْوَةُ إبراهيمَ رَبَّهُ][(١١)]، وطلبُ العصمةِ ممّا ذَكَرَ يَدُلُّ أنهُ قد يجوزُ أنْ يُدْعَى بِدَعْواتِ عِبادَةٍ، وإنْ كانَ قد أعطاهُ ذلكَ، أو يَعْلَمُ أنهُ مَغفورٌ[لَهُ][(١٢)]. قيلَ: دَعْوَةُ إبراهيمَ وغَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﷺ يجوزُ أنْ تكونَ عِصمَتُهُمْ [بأنْ كانَتْ مقرونةً بما طلبوا][(١٣)] منهُ، وسَألوهُ، وتَضَرَّعوا إليهِ، إذْ معلومٌ أنهمْ لم يَسْتَفيدوا تلكَ العصمةَ بإهمالِهِمْ أنفسَهُمْ وتركِهِمْ إياها سُدىً، بل إنما وَجَبَ لهمْ ذلكَ بما أجْهَدوا أنفسَهُمْ في طاعةِ اللهِ.

ثم الآيةُ على المُعتَزِلَةِ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ إبراهيمَ طَلَبَ منهُ العصمةَ عنْ عِبادةِ الأصنامِ، وهو [على][(١٤)] علم أنهُ يَعْتَصِمُ إذا عَصَمَهُ عنْ ذلكَ، ويَهْتَدي إذا هداهُ. وهُمْ يقولونَ: اللهُ يَعْصِمُ، ولا يَعْتَصِمُ العبدُ، ويَهْدي، ولا يَهْتَدي العَبدُ، ويقولونَ: إذا أعطى أحداً[(١٥)] ذلكَ خَرَجَ ذلكَ مِنْ يَدِهِ، أو[(١٦)] لا يملكُ إعطاءَ ذلكَ.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧و..]. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إذ قد سفك. (٤) في الأصل وم: وسفك. (٥) في الأصل وم: وغيره. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وما. (١١) في الأصل وم: دعا إبراهيم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: كانت مقرونة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أخذ. (١٦) في الأصل وم: و.

فَعَلَى قولِهِمْ تَخْرُجُ دعواتُ الرسلِ على الهُزْءِ أو على الكِتْمانِ؛ لأنَّ مَنْ سَأَلَ مِنْ آخَرَ شيئاً، يَعْلَمُ أنهُ ليسَ ذلكَ عندَهُ، فهو هُزْءٌ، أو سَأَلَ، وهو يَعْلَمُ أنهُ قد أعطاهُ ذلكَ، فهو كتمانٌ.

والثاني(١): كانَ خوفُ الأنبياءِ والرسلِ والكُبَراءِ مِنَ الخَلْقِ أشدَّ وأكثَرَ على دينِهِمْ والزَّيْغِ عمّا هُمْ عليهِ لمَا خافوا أنْ يكونوا عندَ اللهِ على غَيرِ ما هو عندَ أنفُسِهِمْ. كانوا أبداً وَجِلِينَ خائِفِينَ على سَلْبِ ما هُمْ عليهِ.

وهكذا الواجبُ أنْ يكونَ الخوفُ على مَنْ نِعَمُهُ أكثَرُ، فَخَوفُهُ أشدُّ.

فقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ أي باعِدْني، وجَنِّبْني أيضاً. وقالَ القُتَبِيُّ: أي جنِّبْني وإيّاهُمْ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ نَسَبَ الإضلالَ إلى الأصنامِ، وإنْ لم يكُنْ لها صُنْعٌ في الإضلالِ لأنهمْ بها ضَلُّوا، وكانَتِ الأصنامُ سَبَبَ إضلالِهِمْ. وقد تُنْسَبُ الأشياءُ إلى الأسبابِ، وإنْ لم يكُنْ للأسبابِ صُنْعٌ فيها نَحْوَ ما ذكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] والسورةُ لا تزيدُهُمْ رِجساً، لكنْ يُنْسَبُ الرِّجْسُ إليها لِما كانَتْ هي سَبَبَ زيادةِ رِجْسِهِمْ، وهو أنها لمّا نزلَتِ[ازدادوا هِمْ بها](٢) تكذيباً وكفراً بها، فنسبَ ذلكَ إليها.

فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ والثاني: تُنْسَبُ الأحوالُ التي كانَتْ بها ما لو كانَتْ تلكَ بِذَواتِ الأرواحِ لَكانَتْ تُضِلُّ، وتُغْوي، مَنْ يكونُ منهُ الإضلالُ لأنها تُزَيِّنُ، وتُحَلَّى بالأشياءِ، نَحْوَ ما نُسِبَ الغُرورُ إلى الدنيا[وإنْ كانَتِ الدنيا](٣) لا تَغُرُّ؛ لأنها تكونُ بحالٍ، لو كانَتْ تلكَ الأحوالُ مِنْ ذي الروحِ لكانَ[ذلكَ تغريراً، فَعَلَى](٤) ذلكَ نسبةُ الإضلالِ إلى الأصنامِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي مُوافِقي في الدينِ أو في الوِلايَةِ. وحاصِلُهُ، واللهُ أعلَمُ: معي في الدينِ وفي أمْرِ الدينِ. وكذلكَ [قولُهُ ﷺ]: «مَنْ غَشَّ فليسَ مِنّا» [كشف الأستار عن زوائد البزار ١٢٥٦] أي ليسَ بِمُوافِقٍ لنا، أو ليسَ مَعَنا، أو ليسَ في مِلَّتِنا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي مِن مِلَّتي.

وحاصِلُهُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ وأجابَني في ما دَعَوتُهُ إليهِ، وأمَرْتُهُ بهِ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي مِمّا أنا عليهِ. وكذلكَ قولُهُ ﷺ: «مَنْ غَشَّ فليسَ مِنّا» أي ليسَ ممّا نحنُ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يُشْبِهُ قولُهُ: ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ ليسَ عصيانَ شِرْكٍ، ولكنْ عصيانُ ما دونَ الشِّرْكِ ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ساتِرٌ عليهِ الكُفْرَ إلى وقتٍ معلومٍ؛ إذِ الغُفْرانُ هو السَّتْرُ، فَتَسْتُرُ عليهِ إلى أجلٍ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

أو يقولُ: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي تُمَكِّنُ لهُ مِنَ التوبةِ والإسلامِ، فَيُسْلِمُ، ويَتوبُ، فَيَغْفِرُ لهُ ما كانَ منهُ مِنَ العِصْيانِ، وتَتَرَحَّمُ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ في ما دَعَوتُهُ إليهِ، وأمَرْتُهُ بِهِ ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تُمَكِّنُ لهُ مِنَ التوبةِ والرجوعِ عمّا كانَ منهُ، فَتَغْفِرُ لهُ، وتَرْحَمُهُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ هذا أوَّلَ ما قَدِمَ تلكَ البُقْعَةَ، لأنهُ قالَ ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ولا بَيْتَ هنالكَ. دلَّ أنهُ إنما دعا بهذِهِ الدعواتِ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ وما ذَكَرَ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ بَعْدَما رَفَعَ البيتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ دلَّ أنهُ إنما أسكَنَ بَعْضَ ذُرِّيَّتِهِ، ولم يُسْكِنْ ذُرِّيَّتَهُ كلَّها حينَ(٥) قالَ: ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ امْتَحَنَهُ اللهُ بِمِحَنٍ ثلاثٍ، لم يَمْتَحِنْ بِمِثْلِها أحداً مِنَ الأنبياءِ:

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل: يزداد لهم. في م: يزداد لهم بها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) في الأصل وم: حيث.

أحدُها: امْتَحَنَهُ بإسكانِ وَلَدِهِ ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وغيرِ ذي ماءٍ ممّا لا يَحْتَمِلُ قَلْبُ بَشرٍ تَرْكَهُ في مِثْلِ ذلكَ المكانِ[1]. دلَّ أنهُ إنما فَعَلَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ تعالى.

والثانيةُ: امْتَحَنَهُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ حتى إذا أشْرَفَ على الهَلاكِ فَداهُ اللهُ بِكَبْشٍ[2].

والثالثةُ[3]: امتحنهُ بإلقائِهِ في النارِ، فَأُلْقِيَ حتى إذا أشْرَفَ على الهلاكِ جَعَلَها اللهُ تعالى عليهِ ﴿بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] ففي ذلكَ كلِّهِ دلالةُ رسالتِهِ. وكانَ لهُ هِجْرَتانِ:

إحداهما: إلى مكةَ حيثُ أسْكَنَ فيها وَلَدَهُ. والهجرةُ الثانيةُ إلى بيتِ المقدسِ، وهي[4] ما ذَكَرَ: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ الآية [الأنبياء: ٧١].

ثم قولُهُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ هو دعاءٌ بِتَعْريضٍ لا بِتَصْريحٍ. والدعاءُ بالتَّعْريضِ، والسؤالُ بالكنايةِ أبْلَغُ وأكْثَرُ مِنَ السؤالِ بالتَّصْريحِ، وهو كدعاءِ آدمَ وحَوّاءَ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآيةَ[الأعراف: ٢٣] فهذا أبْلَغُ في السؤالِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦و. . .] لأنَّ مِثْلَ هذا قد سُئِلَ مَنْ دونَهُ، ولا يكونُ فيهِ ما ذُكِرَ فيهِ مِنَ الخُسْرانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ كلمةُ ﴿مِن﴾ صِلَةً، أي أسكَنْتُ ذُرِّيَّتي، وتَحْتَمِلُ على التَّبْعيضِ، أي أسكَنْتُ بَعْضَ ذُرِّيَّتي على ما ذُكِرَ في بَعْضِ التأويلاتِ ﴿إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ وجهَيْنِ:

أحدُهما: حَرَّمَهُ أنْ يُسْتَحَلَّ فيهِ ما لا يَحِلُّ، ولا يَصْلُحُ. لكنهُ خَصَّ تلكَ البُقْعَةَ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ ذلكَ، لا يَحِلُّ في غَيرِها مِنَ البِقاعِ لِفَضْلِ الحُرْمَةِ التي جَعَلَها اللهُ لها كما خَصَّ المساجدَ بأشياءَ لِفَضْلِها على غَيرِها مِنَ الأمكنةِ والبقاعِ.

والثاني: قولُهُ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي المَمْنوعِ، يُقالُ: حَرَّمَ أي مَنَعَ كقولِهِ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] ليسَ ذلكَ على التحريمِ ألّا تَحِلَّ لهُ المراضِعُ، ولكنْ على المنعِ، أي مَنَعْنا عنهُ لِنَرُدَّهُ إلى أمِّهِ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي المَمْنوعِ عنِ الخَلْقِ حتى لم يَقْدِرْ أحدٌ مِنَ الفَراعِنَةِ والملوكِ الغَلَبَةَ[عليهِ وإدخالَهُ][5] في منافعِ أنفسِهِمْ، بل[هو مَمْنوعٌ][6] عنهمْ على ما كانَ.

وفيهِ أنَّ الوحدانيَّةَ لهُ، والألوهيَّةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: فيهِ تقديمٌ[وتأخيرٌ بقولِهِ][7]: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ثم تَحْتَمِلُ الصلاةُ الصلاةَ المعروفةَ، وتَحْتَمِلُ الصلاةُ الدعاءَ والأذكارَ وغَيرَها مِنَ الدَّعَواتِ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاةَ نَفْسَها وغيرَها مِنَ الطاعاتِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يَحْتَمِلُ سؤالُهُ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ أفْئِدَةَ ﴿ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ وجهَيْنِ:

أحدُهما: لمّا أسْكَنَ ذُرِّيَّتَهُ في مكانٍ، لا ماءَ فيهِ، ولا نباتَ، ولا زَرْعَ، وفي مِثْلِ هذا المكانِ يُسْتَوْحَشُ المُقامُ فيهِ، سَألَ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ لِيأتوا/ ٢٧٢-ب/ ذلكَ المكانَ، فَتَذْهَبَ عنهُمْ تلكَ الوَحْشَةُ، فَيَسْتأنِسوا[8] بهِمْ.

والثاني[9]: سألهُ أنْ يَجْعَلَ الناسَ تَهْوي إليهِمْ لِيَتَعَيَّشوا بما يُنْقَلُ إليهِمْ مِنَ الزادِ والأطْعِمَةِ، إذْ أسْكَنَهُمْ في مكانٍ، لا زَرْعَ فيهِ، ولا يَتَعَيَّشونَ فيهِ بهِ. وقد جَعَلَ اللهُ تعالى بُنْيَةَ هذا البَشَرِ، إذْ لا قِوامَ لهمْ إلّا بالأغذيةِ والأطْعِمَةِ، فَسألَ ربَّهُ لِيَتَعَيَّشوا بما يُحْمَلُ إليهِمْ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: مثله. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: عليها وإدخالها. (٦) في الأصل وم: هي ممنوعة. (٧) في الأصل وم: بقول. (٨) في الأصل وم: فيستأنس. (٩) في الأصل وم: أو.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ لِلْحجِّ، وقالوا: لو قالَ: فاجْعَلْ أفْئِدَةَ الناسِ تَهْوي إليهِمْ، ولم يَقُلْ: ﴿مِّنَ﴾ حَجَّهُ الخَلْقُ جميعاً الكافرُ والمؤمنُ، لكنْ لا يَحْتَمِلُ عندنا أنْ يكونَ سؤالُهُ لِلْخَلْقِ جميعاً، أو يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] لِلْخلائقِ جميعاً لِلْكافِرِ والمؤمنِ، بلْ يَرْجِعُ ذلكَ إلى الخصوصِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ تلكَ الثَّمراتِ، ويَحْتَمِلُ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ بما جَعَلَ لهمْ مِنَ التَّعَيُّشِ بما يُحْمَلُ إليهِمْ مِنَ الأغذيَةِ والأطعمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ليسَ على تَخْصيصِ الثَّمراتِ، ولكنْ سألَ الثَّمراتِ وما بهِ غِذاؤُهُمْ وقِوامُهُمْ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مثلُ هذا الدعاءِ منهُ مُبْتَدَأً، بل كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، عَنْ نازلَةٍ دعاهُ؛ إذْ يَعْلَمُ، صلواتُ اللهِ عليهِ، أنهُ كانَ يَعْلَمُ ما يُخْفونَ وما يُعْلِنونَ، لكنْ لم يُبَيِّنْ، ما تلكَ النازلةُ؟

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: قالَ هذا: أي ﴿تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي﴾ مِنَ الحُزْنِ والوَجْدِ على إسماعيلَ وأُمِّهِ حينَ تركَهُما بوادٍ، لا ماءَ فيهِ، ولا زَرْعَ. ويقولونَ: ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ هو قولُهُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٣٧] لكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كانَ هذا جواباً عنِ اللهِ وإخباراً منهُ إياهُ أنهُ لا يَخْفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، ولا يَخْفى عليهِ ما، لا أمْرَ فيهِ، ولا نَهْيَ، ولا جزاءَ، فكيفَ يَخْفى عليهِ الأعمالُ التي عليها الجزاءُ والأمْرُ؟

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنهُ وَهَبَ لَهُ الوَلَدَ، وهو ابنُ كذا، وامْرَأتُهُ ابْنَةُ كذا، لكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ سِوى ما ذَكَرَ أنهُ وَهَبَ لهُ الوَلَدَ على الكِبَرِ في وَقْتِ الإياسِ عنِ الوَلَدِ حينَ[1] بُشِّرَ بالوَلَدِ، فقالَ: ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ [الحجر: ٥٤] وحينَ[2] قالتِ امْرَأتُهُ لمّا بُشِّرَتْ بالوَلَدِ: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: ٧٢] نَعْلَمُ أنهُ وَهَبَ لهُ الوَلَدَ، وهما كانا كَبيرَينِ في وَقْتِ الإياسِ عنِ الوَلَدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ يكونُ حَمْدُهُ على الأمْرَينِ جميعاً. على الهِبَةِ وعلى الوِلادَةِ في حالِ الكِبَرِ، وهو حالُ الإياسِ، إذْ كلُّ واحدٍ ممّا يوجبُ الحمدَ عليهِ والثناءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ قيلَ: لَمُجيبُ الدعاءِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ قد سَبَقَ مِنَ اللهِ الأمْرُ بإقامتِهِ الصلاةَ، وهو المُقيمُ لها. فَدَلَّ الدعاءُ منهُ والسؤالُ على أنْ يَجْعَلَهُ مُقيمَ الصلاةِ أنَّ عندَ اللهِ لُطْفاً[3] سوى الأمرِ، لم يُعْطِهِ [إيّاهُ][4] فسألَهُ ذلكَ، هو التوفيقُ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ لقولِهِمْ: إنهُ أعْطى كلَّ شيءٍ حتى لم يَبْقَ عندَهُ ما يُعْطيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَقَبَّلْ دعائي في إقامةِ الصلاةِ لنفسِهِ وذُرِّيَّتِهِ. لكنْ لا يَجِبُ أنْ يَخُصَّ دعاءً مِنَ الدَّعواتِ التي سألَ ربَّهُ بدَعَواتٍ كثيرةٍ نَحْوَ ما قالَ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقولِهِ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧] [وما][5] قالَ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وغيرِ ذلكَ مِنَ الدَّعواتِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ طَلَبَ مِن ربِّهِ المَغْفِرَةَ لِوالِدَيهِ. قالَ الحَسَنُ: إنَّ أُمَّهُ، كانَتْ مُسْلِمَةً، وأمّا أبوهُ، فكانَ كافراً لأنهُ قالَ: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] خَصَّ والِدَهُ بالضَّلالِ. دلَّ أنَّ أُمَّهُ، كانَتْ مُسْلِمَةً، لكنا [لا][6] نعلمُ، ما حالُ الأمِّ؟ أنها[7] كانتْ مُسْلِمَةً أو كافِرَةً. وأمّا أبوهُ فهو، لا شَكَّ أنهُ، كانَ كافراً.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وحيث. (٣) في الأصل وم: لطف. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: أمم، في م: أن.

ثم [لا](1) يَحتمِلُ دُعاؤُهُ لِوالدَيه، وهما كافرانِ، وإنْ كانَتْ أُمّهُ كافِرَةً، إلّا على إضمارِ الإسلام، أي اغفِرْ لهما، إنْ أسلَما، أو أنْ يكونَ سُؤالُ المَغفِرَةِ لهما سُؤالَ الإسلام نَفسِهِ، أو أنْ يكونَ، طَلَبَ منهُ السَّترَ عليهما في الدنيا وألّا يَفضَحَهُما، ولا يُخزِيَهُما. لكنهُ سألَ المَغفِرَةَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

ولا يَحتمِلُ طَلَبُ السَّترِ إلّا أنْ يَفصِلَ بينَ قولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وبينَ قولِهِ: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويَبتدِئَ(2) للمؤمنينَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقدَّمَ.

ودعاءُ(3) إبراهيمَ وسؤالُهُ المَغفِرَةَ لِوالِدَيهِ، يكونُ سَبَبَ سؤالِ السببِ الذي يَستحِقّانِ بهِ المَغفِرَةَ مِن ربِّهِما، ويكونانِ أهلاً لها، وهو التوحيدُ ومَعرِفَةُ(4) المَولى، وهو ما ذَكَرْنا في أمرِ نوحٍ وقومِهِ الاستِغفارَ لهُ(5)، وكذلكَ قولُ هودٍ حينَ(6) قالَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الآية[هود: ٥٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ بالعَدلِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: أقِمْ حِسابي، أي اعدِلْ فيهِ. وإقامةُ الحِسابِ العَدْلُ فيهِ على ما توجِبُ الحكمَةُ، لا يُزادُ، ولا يُنقَصُ كقولِهِ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يومَ يُحاسَبونَ، وقِيامُ(7) الحسابِ، هو المحاسبةُ، نفسُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ كانَتْ لهُ حاجاتٌ، أخفاها، وطَلَبَ(8) قضاءَها، فقالَ: تَعلَمُ حاجاتي[إنْ](9) أخفَيتُها، أو إنْ أعلَنتُها، فاقضِها لي.

أو أنْ يكونَ قومُهُ، طَعَنُوهُ(10) في شيءٍ، فقالَ ذلكَ على التَّبرّي مِن ذلكَ: إنهُ يَعلَمُ ما نُخفي وما نُعلِنُ، ولم يَعلَمْ ذلكَ الذينَ يَطعَنونَ فيَّ، واللهُ أعلَمُ، كقولِ عيسى ﷺ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة: ١١٦].

أو أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لأنَّ أهلَ الأديانِ جميعاً كانوا يُوالونَ إبراهيمَ، ويَدَّعونَ أنهُ على دينِهِمْ، وكذلكَ قالَ ﷺ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا﴾ الآية[آل عمران: ٦٧] بَرّأهُ اللهُ تعالى ممّا ادَّعى كلُّ فريقٍ.

ثم منهُمْ مَنْ كانَ مِن هذهِ الفِرَقِ يَدَّعونَ الإسرارَ عنِ اللهِ والإخفاءَ عنهُ، فقالَ هذا لِيَعلَمَ الناسُ توحيدَهُ أنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ؛ أُخفِيَ، أو أُعلِنَ، لِيَعرِفوا توحيدَهُ أنهُ ليسَ شيءٌ يَخفَى عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُخاطَبَةُ بهذا لرسولِ اللهِ ﷺ خاصَّةً على عِلْمٍ منهُ أنَّ رسولَ اللهِ، كانَ يَظُنُّ أنَّ اللهَ يَغفَلُ عمّا يَعمَلُ الظالمونَ، لكنهُ خاطَبَ بهِ كما خاطَبَ بهِ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣و...] وقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥] وأمثالِها(11)؛ نهاهُ معَ العِلْمِ أنهُ لا يَفعَلُ ذلكَ.

وأصلُهُ في هذا: أنَّ العصمةَ، لا تَرفَعُ المِحنَةَ، وليسَتِ المِحنَةُ إلّا الأمرَ والنَّهيَ؛ إذْ لو رَفَعَتِ العِصمَةُ المِحنَةَ والأمرَ والنَّهيَ لَذَهَبَتْ فائدةُ العِصمَةِ، ولا حاجةَ تَقَعُ إليها. فَدَلَّ أنَّ العِصمَةَ تزيدُ في المِحنَةِ، ومعَ المِحنَةِ يُحتاجُ إليها، ويُنتَفَعُ بها.

ويَحتمِلُ الخِطابُ بالآيةِ غَيرَهُ: كلُّ ظانٍّ، يَظُنُّ باللهِ الغَفلَةَ عن ظُلْمِ الظالِمِ، وهو كما خاطَبَهُ(12) بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] إنما خاطَبَ بهِ كلَّ غارٍّ بربِّهِ الكريمِ لا كلَّ إنسانٍ.

فَعَلى ذلكَ خاطَبَ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كلَّ ظانٍّ باللهِ الغَفلَةَ عن ظُلْمِ الظالِمِ.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) الواو ساقطة من الأصل وم. (3) في الأصل وم: ودعى. (4) من م، في الأصل: ومغفرة. (5) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. (6) في الأصل وم: حيث. (7) الواو ساقطة من الأصل وم. (8) الواو ساقطة من الأصل وم. (9) ساقطة من الأصل وم. (10) في الأصل وم: طعنوا. (11) في الأصل وم: وأمثاله. (12) في الأصل وم: خاطب.

ثم إنَّ الذي حَمَلَهُمْ على الظَّنِّ باللهِ الغَفْلَةَ عنْ ظُلْمِ الظالمِ حِلْمُهُ[1] وتأخيرُهُ العذابَ عنهمْ عنْ وَقْتِ ظُلْمِهِمْ وتَرْكُ أخذِهِمْ بذلكَ.

فَمِنهُمْ مَنِ ادَّعَى الغَفْلَةَ عنْ ذلكَ لِما رَأوا مِنْ عادةِ ملوكِ الأرضِ: أنَّ مَنْ ظَلَمَ أحداً منهُمْ انْتَقَمَ منهُ/ ٢٧٣ ـ أ/ في أعْجَلِ وَقْتٍ، يَقْدِرُ على الانْتِقامِ منهُ، فَحَمَلَ تأخيرَ اللهِ العذابَ عنهُمْ والانْتِقامَ منهُمْ على القولِ بالغَفْلَةِ. ومنهُمْ مَنِ ادَّعَى الرِّضا بِما اختاروا هُمْ مِنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ باللهِ، وادَّعَوا الأمرَ بذلكَ لِما لم يأخُذْهُمْ، ولم يَسْتَأصِلْهُمْ بصَنِيعِهِمْ، فاسْتَدَلّوا بذلكَ رِضاهُ بِفِعْلِهِمْ[2] وأمرَهُ إياهُمْ بذلكَ. فأخبرَ رسولَهُ أنَّ تأخيرَهُ العذابَ عنهُمْ وإمهالَهُ إياهُمْ، ليسَ عنْ غَفْلَةٍ عنهُمْ[3]، ولا عنْ سَهْوٍ ورضاً[4] وأمرٍ. ولكنْ ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ ثم وَصَفَ ذلكَ اليومَ بِشدَّةِ هَولِهِ وفَزَعِهِ فقالَ: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

الآية ٤٢ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا كُلُّهُ يَرْجِعُ إلى الطَّرْفِ والبَصَرِ؛ يقولونَ: شاخِصةٌ أبصارُهُمْ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ناظِرينَ إليهِ إلى الداعي ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لِهَولِ ذلكَ اليومِ، هذا كُلُّهُ، يَصْرِفونَهُ[5] إلى الأبصارِ دونَ الأنْفُسِ[6] لأنَّ الإهطاعَ والإقناعَ، هو النظرُ، والشُّخوصَ الإبصارُ.

ومنهُمْ مَنْ صَرَفَ قولَهُ ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقولَهُ[7]: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ إلى البصرِ، وصَرَفَ قولَهُ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ إلى الأنفسِ، وهو ما ذَكَرَ في موضعٍ آخَرَ: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] أي مُسْرِعينَ إليهِ الإجابةَ رجاءَ التَّخَلُّصِ والنَّجاةِ عمّا حَلَّ بهِمْ بِتَرْكِ الإجابةِ. والإهطاعُ: قيلَ: هو النَّظَرُ الدائمُ، والإقناعُ هو الرَّفْعُ رَفْعُ الرأسِ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مُديمي النظرِ ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافِعيها. وعلى تأويلِ بعضِهِمْ: مُسْرِعينَ على ما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافِعيها، مُلْتَزِقَةً إلى أعناقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يُخرَّجُ هذا على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: يقولُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقتَ خَلْقِهِ الخَلْقَ وإنشائِهِمْ عمّا يكونُ[8] منهُمْ مِنَ الظُّلْمِ، أي لا عَنْ غَفْلَةٍ وسَهْوٍ عن ظُلمِ الظالِمينَ أنشأهُمْ، وخَلَقَهُمْ، ولكنْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ أنشأهُمْ، وخَلَقَهُمْ، لكنْ أنشأهُمْ على عِلْمٍ منهُ ذلكَ عنِ الحِكْمَةِ.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنَّ تأخيرَهُ العذابَ عنهُمْ، ليسَ لِغَفْلَةٍ منهُ بذلكَ، ولكنْ لِما أخذِهِمْ بالعذابِ وَقْتَ صَنيعِهِمْ زوالُ المِحْنَةِ، لأنهُ يَصيرُ العذابُ والثوابُ مُشاهَدةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خاليةٌ لِهَولِ ذلكَ اليومِ، أي خاليةٌ عنِ التدبيرِ، لأنَّ في الشاهدِ أنَّ مَنْ بُلِيَ بِبَلايا وشدائدَ يَتَدَبَّرُ، ويَتَفَكَّرُ في دفعِ ذلكَ. فيُخبِرُ أنَّ أفئدتَهُمْ هَواءٌ يومئذٍ أي خاليةٌ عنِ التدبيرِ؛ إذْ أفئدتُهُمْ، لا تكونُ معَهُمْ لِشِدَّةِ أهوالِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي لا شيءَ فيها، ما يَنْتَفِعونَ بها. والهواءُ هو كلُّ شيءٍ يُوصَفُ بالخَلاءِ[9] من كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قولَهُمُ الذي يقولونَ يومئذٍ ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ويَحْتَمِلُ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي يَحُلُّ بهِمْ، ثم أخبَرَ عمّا يقولونَ إذا حَلَّ بهِمُ العذابُ ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: إلى الدنيا، والدنيا، أجلُها قريبٌ. لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ، لأنَّ الدنيا أُولَى، والآخِرَةَ آخِرَةٌ. فلو جازَ هذا لِتكونَ الآخِرَةُ أُولَى، فذلكَ بعيدٌ، لكنْ طَلَبوا، واللهُ أعلَمُ، الرَّدَّ إلى حالِ الأمنِ لِيُجيبوا داعيَهُ، إذْ لم تَنْفَعْهُمْ إجابَتُهُمْ في

---

(١) من م، في الأصل: حلمه. (٢) في الأصل وم: بفعله. (٣) في الأصل: عنه، ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: والرضاء. (٥) في الأصل وم: يصرفون. (٦) في الأصل وم: النفس. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: يكونوا. (٩) في الأصل وم: بالخلاص.

حالِ الخَوفِ [والهَولِ][١]. وما حَلَّ بهِمْ إنما حَلَّ بِتَرْكِهِمُ[الإجابَةَ][٢] في حالِ الأمنِ، فَطَلَبوا الرَّدَّ إلى حالِ الأمنِ لِيُجيبوا داعِيَهُ لِتَنفَعَهُمْ إجابَتُهُمْ حينَ[٣] قالوا: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ لم يُبَيِّنْ بما أقسموا في هذهِ الآيةِ، وهو ما بَيَّنَ في آيةٍ أخرى ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ مِنَ الدنيا؛ أي كُنتُمْ تقولونَ: أنْ ليسَ إلا الدنيا، لا زَوالَ لَنا عنها أحياءً ومَوتى كقولِهِمْ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ الآيةَ[المؤمنون: ٣٧] على ما ذَكَرَ مِنْ قَسَمِهِمْ أنهمْ لا يُبْعَثونَ.

وقالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ جوابٌ لِسؤالِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ على الاسْتِئنافِ. قالَ: ما لَكُمْ عمّا أنتُمْ فيهِ مِنَ العذابِ إلى ما تَسألونَ مِنَ الملاذِ والتأخيرِ، أي مالَكُمْ إلى ذلكَ سَبيلٌ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي تُنْزَعُ قلوبُهُمْ حتى صارَتْ في حَناجِرِهِمْ، فلا تَخرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ، ولا تعودُ إلى أماكِنِها لِشِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ وفَزَعِهِمْ منهُ[٤]، وهو على التمثيلِ والكِنايَةِ كقولِهِ[٥]: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ١٠] لشدةِ خَوفِهِمْ، وهو على التمثيلِ.

ولا يَحْتَمِلُ بُلوغُ القلوبِ الحَناجِرَ في الدنيا حقيقةً؛ إذْ لو بَلَغَتْ ذلكَ لَخَرَجَتْ، فَماتوا، إذِ الدنيا يُحتَمَلُ المَوْتُ فيها، فَدَلَّ أنَّ ذلكَ على التمثيلِ لِشِدَّةِ خَوفِهِمْ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيبِهِمُ الرسلَ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ كانوا يطلبونَ مِنْ ربِّهِمُ الرَّدَّ إلى حالِ الأمنِ لِيُجيبوا [داعِيَهُ][٦] بقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ واللهُ أعلَمُ، فقالَ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ، أي سَكَنْتُمْ في الدنيا في مِثْلِ مَنازِلِهِمْ ومساكِنِهِمْ، فَرَأيتُمْ ما نَزَلَ بأولئكَ الذينَ صَنَعوا مِثْلَ صنيعِكُمْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ مِنَ التعذيبِ والاسْتِئصالِ، ثم لم يَتَّعِظوا بما حَلَّ بهِمْ.

فَعَلى ذلكَ إذا رُدِدْتُمْ إلى حالِ الأمنِ لا تَتَّعِظونَ بما حَلَّ بكُمْ في هذهِ الحالِ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] في ما يَقولونَ: إنهمْ يُجيبونَ دَعْوَتَهُ. هذا، واللهُ أعلَمُ، تأويلُهُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي عَمِلْتُمْ أعمالَهُمْ، وتَبَيَّنَ لكمْ كيفَ فَعَلْنا بهمْ مِنَ الاسْتِئصالِ بالتكذيبِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ، فلم تَتَّعِظوا بذلكَ، فلا تَتَّعِظونَ بهذا أيضاً إذا رُدِدْتُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دَلالَةُ لُزومِ النظرِ والاسْتِدلالِ ولُزومِ القياسِ، ودلالةُ لُزومِ العقوبَةِ، وإنْ كانوا لم يَعْلَموا بِهِ بَعْدَ أنْ مُكِّنوا مِنَ العِلْمِ بِهِ.

أمّا دلالَةُ النَّظَرِ والاسْتِدلالِ فهي[٧] قولُهُ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فَهَلّا نَظَرْتُمْ ما حَلَّ بِهِمْ مِنْ تكذيبِهِمُ الرسلَ، واتَّعَظْتُمْ بِهِ.

ودلالةُ القياسِ هو ما خَوَّفَهُمْ أنْ يَنْزِلَ بهِمْ ما نَزَلَ بأولئكَ، لأنهمُ اشْتَرَكوا في المَعْنى الذي نَزَلَ بأولئكَ؛ ما نَزَلَ هو بتكذيبِهِمُ الرسلَ وسوءِ معامَلَتِهِمْ إيّاهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي قد بَيَّنّا لَكُمُ الأمثالَ والأشباهَ ما يُعَرِّفُكُمْ لو تَأَمَّلْتُمْ أنَّ أولئكَ، لكُمْ أشباهٌ وأمثالٌ، وصَنيعُهُمْ لِصَنيعِكُمْ أشباهٌ وأمثالٌ، فَيَنْزِلُ بكُمْ ما نَزَلَ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: عليه. (٥) في الأصل وم: كقولهم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هو.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ مَكَروا: احتالوا على إهلاكِ الرسلِ وقَتْلِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية[الأنفال: ٣٠] وكَيدُهُمُ الذي ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ[1] مِنَ القرآنِ بِرُسُلِ اللهِ حتى قالَ الرسلُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥].

ومَكَروا أيضاً بِدينِ اللهِ الذي أتَتْ بِهِ الرسُلُ؛ مَكَروا، واحتالوا/ ٢٧٣ ـ ب/ على إطفاءِ ذلكَ النورِ، فَأبَى اللهُ ذلكَ عليهِمْ، وأظْهَرَ دينَهُ، وأبْقَى نورَهُ إلى يومِ القيامةِ كقولِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢].

كانَ مَكْرُهُمْ وحِيَلُهُمْ يَرْجِعُ في أحدِ التأويلَينِ إلى نفسِ الرسلِ حينَ هَمُّوا، وقَصَدوا[2] إهلاكَهُمْ، وفي[3] الثاني: يرجعُ إلى إطفاءِ الدينِ الذي أتَى [بِهِ الرسُلُ][4] والنورِ الذي دَعَوا إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي عندَ اللهِ العِلْمُ بِمَكْرِهِمْ، مَحفوظٌ ذلكَ عندَهُ، لا يَفوتُ، ولا يذهَبُ عنهُ شيءٌ، فَيَجْزيهِمْ بذلكَ في الآخِرَةِ. أو ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي عندَ اللهِ الأسبابُ التي بها مَكَروا، مِنْ عندِ اللهِ اسْتَفادوا، وهو النعيمُ الذي أعطاهُمْ، والأموالُ التي مَلَّكَهُمْ، والعقولُ التي رَكَّبَ فيهِمْ بما قَدَروا على المَكْرِ والاحْتِيالِ عندَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ اخْتُلِفَ في تلاوَتِهِ وقراءَتِهِ وتأويلِهِ.

قَرَأ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بالذالِ [وإذْ][5]، وهو حرفُ عُمَرَ وابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وابْنِ عباسٍ ﷺ وقَرَأ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾بالنونِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَإِن كَانَ﴾ وقالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: ﴿وَإِن﴾ بِمَعْنَى ما، أي ما كانَ مَكْرُهُمْ لِتزولَ منهُ الجبالُ، قالَ: كانَ مَكْرُهُمْ أوْهَنَ وأضْعَفَ مِنْ أنْ تَزولَ منهُ الجبالُ، [وقالَ: إنْ][6] بِمَعْنَى ما كثيرٌ في القرآنِ كقولِهِ: ﴿لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وكقولِهِ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١] أي ما نحنُ إلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

وقد تُسْتَعْمَلُ إنْ في مَوضِعِ: قد كقولِهِ: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] أي قد كانَ وَعْدُ ربِّنا لَمَفعولاً.

فَمَنْ حَمَلَهُ على: ما فَقَدِ اسْتَهانَ بِمَكْرِهِمْ، واسْتَخَفَّ بِهِ، فقالَ: إنَّ مَكْرَهُمْ أوْهَنُ وأضعَفُ مِنْ أنْ تَزولَ منهُ الجبالُ، والجبالَ أوْهَنُ وأسْرَعُ زَوالاً مِنْ رسالةِ الرسلِ ودينِ اللهِ، بل رسالةُ الرسلِ ودينُ اللهِ [أثْبَتُ مِنَ الجبالِ لأنَّ دينَ اللهِ][7] ورُسُلَهُ، مَعَهُما حُجَجُ اللهِ وبراهينُهُ. فإذا لم يَعْمَلْ مَكْرُهُمْ في إزالةِ الجبالِ لا يَعْمَلُ في إزالةِ دينِ اللهِ ورسالةِ الرسلِ، ومَعَهُما الحُجَجُ والبراهينُ.

ومَنْ قالَ: وإنْ كانَ قد كانَ حَمَلَهُ على [اسْتِعْظامِ مَكْرِهِمْ][8] وعلى ذلكَ مَنْ قَرَأ كادَ بالدالِ على [اسْتِعْظامِ مَكْرِهِمْ][9] كقولِهِ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١] مِنْ عظيمِ ما قالوا كادتِ السمواتُ تَنْشَقُّ. فَعَلَى ذلكَ مَكْرُهُمْ جميعاً [في][10] الوجهينِ: أنْ يُسْتَهانَ مَرَّةً، ويُسْتَعْظَمَ أخرى إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ كَلِمَتَهُمْ مِنْ حَيثُ الشِّرْكُ والكُفْرُ عظيمةٌ، ومِنْ حيثُ احْتِيالُهُمْ ومَكْرُهُمْ في إزالةِ ذلكَ النورِ وإطفائِهِ ضعيفٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ الخِطابُ بِهِ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا؛ أي لا تَحْسَبَنَّ أنَّ ما تأخَّرَ مِنْ نُزولِ ما وَعَدَ أنَّهُ يُخْلِفُ وَعْدَهُ الذي وَعَدَ رُسُلَهُ كما لَمْ[11] يكنْ تأخيرُ العذابِ عنهُمْ مِنْ وَقْتِ ظُلْمِهِمْ عن غَفْلَةٍ وسَهْوٍ، ولكنْ كانَ وَعْدُهُ إلى ذلكَ الوقتِ.

وخُلْفُ الوَعْدِ في الشاهدِ مِنَ الخَلْقِ إنما يكونُ لِوَجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: آي. (٢) في الأصل وم: ويعدوا. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، في الأصل: بالرسل. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٤٢. (٦) في الأصل وم: قال كان مكرهم وإن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الاستعظام بمكرهم. (٩) في الأصل وم: الاستعظام بمكرهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لئن.

أحدُهما: لِما لا يَملِكُ إنجازَ ما وَعَدَ.

والثاني: لِما يَضُرُّهُ الإنجازُ. فاللهُ يَتعالى عنْ ذلكَ كلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُعجِزُهُ شيءٌ، وقيلَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ قاهرٌ، يَقهَرُ، ويُذِلُّ. فالخلائقُ كلُّهُمْ أذلّاءُ دونَهُ. وقولُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ قاهرٌ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِمْ، أي غالبُ الأعداءِ، وقاهِرُهُمْ وناصرُ الأولياءِ.

وأمّا ما قالَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ إنهُ نَزَلَ في شأنِ نمرودَ، وإنهُ اتَّخذَ تابوتاً، وَرَبَطَ نُسوراً على قوائِمِهِ، وما ذَكَرُوا إلى آخِرِهِ، فلا عِلْمَ لنا إلى ذلكَ، وأظُنُّهُ أنهُ كُلُّهُ خَيالٌ، فَلا نَقولُ إلّا القَدْرَ الذي ذُكِرَ في الآيةِ.

وقولُهُ[1]: لَتزولُ بنصبِ اللامِ الأولَى وبِرَفعِ الأخيرةِ على مَعْنَى التوكيدِ، و ﴿لِتَزُولَ﴾ بكَسْرِ اللامِ [الأولَى][2] ونصبِ الأخيرةِ على الجَحْدِ[3]، أي ما كانتِ الجبالُ لِتزولَ مِنْ مَكْرِهِمْ، وهوَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قالَ الحسنُ: تَفنَى هذهِ الأرضُ، ثم تُعادُ مِنْ ساعَتِهِ مُسْتَوِيَةً، لا شَجَرَ فيها، ولا جَبَلَ، ولا إكامَ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦و١٠٧].

وقالَ بعضُهُمْ: تُبَدَّلُ هذهِ الأرضُ أرضاً غيرَ هذهِ بيضاءَ نَقِيَّةً، لم يُسْفَكْ عليها دمٌ، ولم يُعْمَلْ عليها بالمَعاصي، وكذلكَ السمواتُ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: لا تُبَدَّلُ عينُها، ولكنْ تَتغَيَّرُ صِفَتُها وزينَتُها كما يقولُ الرجلُ لآخرَ: تَبَدَّلْتَ يا فلانُ، لا يُريدُ تَبدُّلَ أصلِهِ وعَينِهِ، ولكنْ تَغَيُّرُ الأخلاقِ والدينِ. فَعَلَى ما ذُكِرَ مِنْ تَبديلِ الأرضِ والسمواتِ. والأشْبَهُ أنْ يكونَ على اختلافِ الأحوالِ لأنهُ ذُكِرَ في آيٍ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] وقالَ: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣][وقالَ][4]: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الفرقان: ٢٥] وقالَ[5]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وقالَ[6]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١][وقالَ][7]: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨][وقالَ][8]: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧] وقالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥] وقالَ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ذَكَرَ مَرَّةً: تُمَدُّ الأرضُ، وذَكَرَ مَرَّةً أنها تُخْبِرُ، وتُحدِّثُ عمّا عُمِلَ عليها، وذَكَرَ في السماءِ[التَّبَدُّلَ][9] بالتَّشقُّقِ والانْفِطارِ وفي الجبالِ بالسَّيرِ والمرورِ مَرَّةً ومَرَّةً بالرفعِ، ومَرَّةً أخْبَرَ أنهُ جَعَلَهُ ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وأمثالَهُ.

فَيُشبِهُ أنْ يكونَ هذا كُلُّهُ على اختلافِ الأحوالِ والأوقاتِ؛ إذْ يومُ القيامةِ يومٌ، فيكُونُ كلُّ ما ذُكِرَ على ما قالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦] قالَ في آيٍ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧و...] وقالَ: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقالَ[10]: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] فهو، واللهُ أعلَمُ، ذلكَ على اختلافِ الأحوالِ والأوقاتِ. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

[وقولُهُ تعالى:][11] ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: تَبديلُ أهلِها على ما يَذْكُرُ الأرضَ والقريةَ، والمُرادُ منها الأهلُ كقولِهِ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] وقولِهِ: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ الآيةَ[النحل: ١١٢] ونَحوُهُ كثيرٌ.

والثاني: تَبديلُ نَفْسِ الأرضِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٤٢. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقولُهُ. (١١) ساقطة من الأصل وم.

ثم يَحتَمِلُ كلُّ واحدٍ مِنَ الوَجْهَينِ وَجْهَينِ:

أحدُهُما[1]: تبديلُ أهلِها، هو أنْ يكونوا مُستَسْلِمينَ خاضِعينَ لهُ في ذلكَ، ولم يكونوا في الدنيا، [كذلكَ][2].

والثاني: تَبديلُ أهلِها، هو أنْ يكونَ الأولياءُ في النِّعَمِ الدائمةِ واللَّذَّةِ الباقيةِ، والأعداءُ في عَذابٍ وألَمٍ وشِدَّةٍ، وكانوا في هذهِ الدنيا جميعاً مُشترِكينَ، الأولياءُ والأعداءُ، في اللَّذاتِ والآلامِ.

فإنْ كانَ تَبديلُ نَفْسِ الأرضِ، فهو يُخَرَّجُ على وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: تَغْييرُ زينَتِها وصِفَتِها.

والثاني: تَبديلُ عينِها وجوهَرِها، وهو ما ذُكِرَ أنَّ أرضَ الجنةِ تكونُ مِنْ مِسْكٍ وزَعْفرانٍ ونَحْوِ ما رُوِيَ في الخَبَرِ، واللهُ أعلَمُ.

كأنَّ قولَهُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ صلةُ قولِهِ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ الآيةِ، فقالوا: متى يكونُ ذلكَ؟ فقالَ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ يُخَرَّجُ جواباً لِسؤالٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قد ذَكَرْنا تَخصيصَ بُروزِهِمْ للهِ يومَ القيامةِ، أنهُ، واللهُ أعلَمُ، أنشأَ هذا العالَمَ الأوَّلَ لِلعالَمِ الثاني. [فالعالَمُ الثاني:][3] هو المقصودُ في إنْشائِهِمْ.

وقالَ قائلونَ: تَخصيصُ بُروزِهِمْ لَهُ يومئذٍ، لأنهمْ يَخْرُجونَ مِنْ قبورِهِمْ للحسابِ لا لِغَيرِهِ. فهو/ ٢٧٤ ـ أ/ يُحاسِبُهُمْ.

فأضافَ البُروزَ إليهِ لِما لا يَخْرُجونَ إلّا لَهُ. وأمّا في الدنيا فإنما يَخْرُجونَ لِحوائِجِ أنْفُسِهِمْ، لذلكَ خرجَ التخصيصُ لهُ، والإضافةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ[وجوهاً ثلاثةً]:

أحَدُها[4]: برزوا لهُ مُستَسْلِمينَ خاضِعينَ قائلينَ طائعينَ، ولم يكونوا في الدنيا كذلكَ.

والثاني: يَبْرُزُونَ لهُ لِما وُعِدوا، وأُوعِدوا، فهمْ بارزونَ لِما دُعُوا إليهِ، ورَغِبوا فيه.

والثالثُ: يَبْرُزُونَ لهُ لِما لا يَمْلِكونَ إخفاءَ أنْفُسِهِمْ وسَتْرَها، بل ظاهرونَ[5] لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الذي لا شَريكَ لهُ، و ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ يَقْهَرُ الخلائِقَ كُلَّهُمْ، ويَغْلِبُ[6] الجبابرةَ والفراعنةَ.

أو يَبْرُزُونَ لهُ لِيَجْزِيَهُمْ على ما ذَكَرَ اللهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: ٥١] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٤٩ و٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ ذَكَرَ ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾[7] قيلَ: القِطرُ، هو النحاسُ، والآني: الذي انْتَهى حَرُّهُ كقولِهِ: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] وقيلَ: الصُّفرُ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي مِنْ نُحاسٍ آنٍ لهمْ أنْ يُعَذَّبوا. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ القَطْرانِ المعروفِ الذي يُطْلَى بهِ الإبلُ، ذَكَرَ هذا لأنهُ أشدُّ إحراقاً واشْتِعالاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ جَعَلَ اللهُ عذابَ الكُفرِ في الآخِرةِ بالأسبابِ والأشياءِ التي كانوا يَفْتَخِرونَ بها في الدنيا مِنَ اللباسِ والشرابِ والأصحابِ [وغيرِها، وهي كانَتْ][8] سببَ مَنْعِهِمْ عنْ إجابةِ الرسلِ في ما دَعَوهُمْ إليهِ. فَجَعَلَ تعذيبَهُمْ في الآخِرةِ بذلكَ النوعِ مِنَ النارِ، فقالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ يُقْرَنُ، ويُقَيَّدُ[9] بعضُهُمْ بِبَعْضٍ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ الآيةَ[الزخرف: ٣٦] لأنهُ كانَ يَتْبَعُهُ، ويأتَمِرُ بأمْرِهِ، وكقولِهِ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآيةَ[الصافات: ٢٢] وكذلكَ الرُّؤساءُ منهمْ والمَتْبوعونَ.

---

(١) في الأصل وم: إما. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) في الأصل وم: ظاهرين. (٦) في الأصل وم: ويغلبهم. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٢٤٤. (٨) في الأصل وم: وغيره وهو كان. (٩) في الأصل وم: ويقبض.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ لِما كانوا يَفتَخِرونَ في الدنيا بلباسِهِمْ، وكذلكَ كلُّ نوعٍ يَفتَخِرونَ بِهِ في الدنيا، ويَمنَعُهُمْ عنِ الإجابَةِ إجابَةِ الرسلِ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقدَّمَ.

والأصفادُ: قيلَ: الأغلالُ، أي قد قُرِنَ بعضُهُ إلى بَعْضٍ في الأغلالِ. واحِدُها: صَفَدٌ، وهو قولُ القُتَبِيِّ، وكذلكَ قولُ أبي عَوسَجَةَ في الأصفادِ، إلّا أنهُ قالَ: واحِدُها: صَفادٌ، والصَّفَدُ العَطِيَّةُ [والوَثاقُ][1]. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قُمُصُهُمْ، واحِدُها: سِرْبالٌ ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ القَطِرُ ما ذكَرْنا النحاسُ، والآني الذي قدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ وأبي عَوسَجَةَ.

ذَكَرَ هذهِ المَواعيدَ والشدائدَ وأنواعَ ما يُعَذَّبونَ [بهِ][2] في الآخرةِ، ونَعيمَها على ألْسُنِ مَنْ قدْ ظَهَرَ صِدقُهُمْ بالآياتِ والحُجَجِ لِيَحذَروا ما أُوعِدوا، ويَرْغَبوا في ما رُغِّبوا لِئَلا يكونَ لهمُ الاحتِجاجُ يومئذٍ كقولِهِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقولِهِ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الآيةَ[الأنفال: ٤٢] ونَحوَهُ والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ لأنَّ أيديَهُمْ مغلولَةٌ إلى أعناقِهِمْ، فلا يَقدِرونَ أنْ يَتَّقوا النارَ بأيديهِمْ. ذَكَرَ هذا لأنَّ في الشاهدِ مَنْ أصابَ وجهَهُ أذىً يَتَّقِي مِنْه بيدِهِ، فَيُخبِرُ أنهمْ إنما يَتَّقونَ ذلكَ بوجوهِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ قد[4] ذَكَرْنا: يَبرُزونَ للهِ لِيَجزيَهُمْ منْ خيرٍ وشرٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: كانَ قد جاءَ حسابُهُ.

والثاني: ذَكَرَ هذا لأنَّ الحِسابَ إنما يُبْطِئُ، لا يَتَذَكَّرُ مَنْ لهُ الحسابُ، لِمَنْ يُحاسِبُهُ في الشاهدِ في ما يُحاسِبُهُ، فَيطولُ الحسابُ أو الاشْتِغالُ بشيءٍ عنهُ أوِ الجهلُ بالحسابِ.

فأمّا اللهُ ﷻ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، ولا يَشغَلُهُ شيءٌ عن شيءٍ، كلُّهُ مَحفوظٌ عندَهُ، فهو سريعُ الحسابِ، واللهُ أعلَمُ.

أو نقولُ: إنما يطولُ الحِسابُ في الشاهدِ، ويَمتَدُّ، لِما يَحتاجُ إلى التَّفكُّرِ والتَّذكُّرِ في ذلكَ. فاللهُ، سبحانَهُ، مُتعالٍ عنِ التَّفكُّرِ والنَّظرِ. بل كلُّ شيءٍ مَحفوظٌ عندَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ﴾ هذا بلاغُ القرآنِ، وهو[6] بلاغٌ للناسِ على ما ذُكِرَ في صَدْرِ السورةِ: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ الآيةَ[الآية: ١] هو بَلاغٌ على ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي بالقرآنِ أيضاً على ما ذُكِرَ ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ ما ذَكَرَ مِنَ المواعيدِ، وهو قولُهُ: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩] إلى آخرِ ما ذَكَرَ؛ أي هذا الذي ذَكَرَ في البلاغِ، يَبْلُغُهُمْ، لا مَحالَةَ ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ بما ذَكَرَ ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شَريكَ لهُ بالآياتِ التي أقامَها على وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذَوُو العقولِ. واللهُ أعلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لما. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

سورة الحجر

ذكر أنها مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ أنهُ يَحتمِلُ أنَّ الحروفَ المُقطَّعةَ كِنايةٌ عنْ كتابِهِ أو آياتِهِ: أنهُ جَمَعَها على ما توجِبُهُ الحكمةُ، فَجَعَلَها كتاباً أو آياتِ كتابٍ يُتْلَى، أو يكونُ كِنايةً عنِ الأنباءِ والأخبارِ عنِ الأُمَمِ السالفةِ التي لم يَشْهَدْها رسولُ اللهِ ﷺ

تلكَ الأنباءُ والأخبارُ التي جَعَلْناها كتاباً أو آياتٍ لِيَعْلَموا أنَّ هذا الكتابَ إنما أُنزِلَ منَ السماءِ، وأنهُ إنما عُلِمَ بالوَحْيِ مِنَ اللهِ. وقد ذكَرْنا هذا في غيرِ موضعٍ ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ قالَ: بَيَّنَ فيهِ ما يُؤتَى، وما يُتَّقَى، أو ﴿مُبِينٍ﴾ يُبَيِّنُ بينَ الحقِّ والباطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنما يَوَدُّونَ الإسلامَ والتوحيدَ بَعْدَ ما عُذِّبَ بالنارِ قومٌ مِنْ أهلِ التوحيدِ بذنوبِهِمْ، ثم أُخرِجوا منها بالشفاعةِ أو بالرحمةِ. فعندَ ذلكَ يَتَمَنَّى أهلُ الشِّرْكِ، ويَوَدُّونَ الإسلامَ والتوحيدَ ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لكنَّ هذا بعيدٌ؛ إذ لا يَتَمنَّونَ إلّا [وهُمْ][1] في النارِ، بَعْدَ ما أُخرِجَ أولئكَ، وقد أُصيبوا[2] بالشدائدِ والبلايا مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتُوا النارَ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ الآية [المؤمنون: ٩٩ و١٠٠] أخبَرَ أنهُ يَتَمَنَّى عندَ حلولِ الموتِ الإسلامَ حين[3] طَلَبَ الرجوعَ إلى الدنيا. دلَّ أنهم يَوَدُّونَ الإسلامَ قَبْلَ الوَقْتِ الذي ذَكَرَ، أو يَتَمَنَّونَ الإسلامَ إذا حوسِبوا، أو إذا بُعِثَ أهلُ الجنةِ، وبُعِثوا هم إلى النارِ، يَتَمَنَّونَ الإسلامَ قَبْلَ ذلكَ، في مَواضِعَ.

وربمّا يَتَمَنَّى الآحادُ مِنَ الكَفَرةِ، ويَوَدُّونَ لو كانُوا مُسْلِمينَ في أحوالٍ وأوقاتٍ، يَظْهَرُ لهمُ الحقُّ، لكنَّ الذي يَمْنَعُهُمْ عنِ الإسلامِ فَوتُ شيءٍ مِنَ الدنيا وذهابُ شيءٍ طَمِعوا فيهِ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قَسَمٌ لِما ذَكَرَ ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ يقولُ: أُقسِمُ / ٢٧٤ ـ ب/ بالحروفِ المُقطَّعةِ أنهم يَوَدُّونَ الإسلامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ هذا ليسَ على الأمْرِ، ولكنْ على التوعيدِ والتهديدِ وإبلاغٍ في الوعيدِ وتأكيدٍ كقولِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] وهو على التَّوعيدِ لأنهُ[4] قالَ: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا﴾ وعيدٌ لِقولِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ﴿ذَرْهُمْ﴾ ولا تُكافِئْهُمْ بصنيعِهِمْ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ المُحِقَّ والمُبْطِلَ، وأنَّ المُحِقَّ والمُبْطِلَ مَنْ؟ أنتَ أو هُمْ، أو سوفَ يَعلمونَ نُصْحَكَ إياهُمْ وشَفَقَتَكَ لهمْ، أنكَ نَصَحْتَ لهمْ، وأشْفَقْتَ، لا أنكَ خُنْتَهُمْ، أو يَعْلَمونَ بما سَخِروا بكُمْ، وهَزِئوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ الأملُ الطمعُ. اختُلِفَ فيهِ[بوجوهٍ:

أحَدُها][5]: أي مَنَعَهُمْ طَمَعُهُمْ أنهمْ وآباؤهُمْ قد أصابوا الحقَّ، ذلكَ مَنَعَهُمْ عنِ الإجابَةِ والنظرِ في الآياتِ والحُجَجِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أصيب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: تَقْديرُهُمْ بامْتِدادِ حياتِهِمْ لِتَبْقَى لهمُ الرئاسةُ والشَّرَفُ، ذلكَ الذي كانَ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابَةِ والنظرِ في الآياتِ والحُجَجِ.

والثالثُ: يَطْمعونَ هلاكَ النَّبِيِّ ﷺ ويَتَمَنَّونَ ذلكَ، وانْقِطاعَ مُلْكِهِ وأمْرِهِ والعَودَ إليهِمْ، فذلكَ الذي كانَ مَنَعَهُمْ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: ﴿ذَرْهُمْ﴾ يَخوضوا، ويَلْعَبوا، ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ الآيةُ في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ. أُيِسَ رسولُهُ مِنْ إيمانِهِمْ، وهو كقولِهِ ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: وما أهْلَكْنا أهْلَ قَرْيَةٍ إهلاكَ تعذيبٍ إلّا وقد أرْسَلْنا إليهِمْ رُسُلاً بِكتابٍ مَعْلومٍ، يَتْلُونَ ذلكَ الكتابَ المَعْلومَ عليهِمْ. فإذا كَذَّبوهُمْ، وأيِسُوا مِنْ إيمانِهِمْ، فعِنْدَ ذلكَ يُهْلَكُونَ إهلاكَ تَعْذيبٍ، وهو ما قالَ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص: ٥٩] فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

وقال بعضُهُمْ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ يقولُ: كتابٌ، فيهِ أجلٌ مَعْلومٌ مُوَقَّتٌ[١]. على هذا التأويلِ كأنهُ قد خَرَجَ جواباً لِقَولٍ كانَ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ عنِ اسْتِعْجالِهِمُ الإهلاكَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي ما تَسْبِقُ أمّةٌ أجلَها الذي جُعِلَ لها بالهلاكِ، وما تَسْتأخِرُ عنهُ، وهو ما قالَ: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

فهذا يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ حينَ[٢] قالوا: إنَّ اللهَ [جَعَلَ لِكلِّ أحدٍ مِنْ خَلْقِهِ أجلاً، ثم يجيءُ أحدٌ إلى][٣] آخَرَ، فَيَقْتُلُهُ قَبلَ الأجلِ الذي جَعَلَهُ اللهُ لَهُ. واللهُ قالَ[٤]: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقالَ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] يُخْبِرُ أنهُ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لولا ما جَعَلَ مِنْ أجلٍ مُسَمًّى، قد وَعَدَ، جَلَّ، وعَلا، أنهُ يَفي بما وَعَدَ مِنَ البلوغِ إلى الأجلِ الذي سَمَّى.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا يَمْلِكُ إنجازَ ما وَعَدَ، لأنهُ [يجيءُ إنسانٌ، فَيَقْتُلُ آخَرَ][٥] فَيَمْنَعُ اللهَ عَنْ وَفاءِ ما وَعَدَ، فذلكَ عَجْزٌ و خُلْفٌ في الوَعْدِ. فَنَعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ والزَّيغِ عنِ الحَقِّ[٦].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ يعني القرآنَ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى﴾ تَدَّعي أنهُ ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ في ما تَدَّعي مِنْ نُزولِ الذِّكْرِ؛ هو على الإضمارِ الذي قالَ الحَسَنُ، وإلّا [فهو][٧] في الظاهرِ متناقضٌ؛ لأنهمْ كانوا لا يُقِرُّونَ بنزولِ الذِّكْرِ عليهِ، لأنهمْ لو أقَرُّوا بنزولِ الذِّكْرِ عليهِ لكانَ قولُهُمْ مُتناقضاً فاسداً ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ سَمَّوهُ مَجْنوناً. والذي حَمَلَهُمْ على تَسْمِيَتِهِمْ إياهُ مَجنوناً وجوهٌ:

أحَدُها: أنهمْ لمّا رَأوهُ أنهُ قد أظْهَرَ الخِلافَ لِذَوي العُقولِ منهمْ والأفهامِ والدعاةِ إلى غَيرِ ما همْ [فيهِ][٨] فَرَأوا أنهُ ليسَ مُخالِفاً[٩] أهلَ العقولِ والفَهْمِ إلّا بجنونٍ فيهِ، سَمَّوهُ[١٠] مَجْنوناً.

والثاني: رَأوهُ أظْهَرَ الخِلافَ لِلفراعِنَةِ والجَبابِرةِ الذين كانَتْ عادَتُهُمُ القَتْلَ وإهلاكَ[١١] مَنْ أظْهَرَ الخِلافَ لهمْ في أمْرٍ مِنْ أمورِهِمُ الدنياوِيَّةِ، فكيفَ مَنْ أظْهَرَ الخِلافَ لهمْ في الدينِ؟ فَظَنّوا أنهُ ليسَ يُخالِفُهُمْ، ولا يُخاطِرُ بِنَفْسِهِ ورُوحِهِ إلّا لِجنونٍ فيهِ.

والثالثُ: قالوا ذلكَ لمّا رَأوهُ، كانَ يَتَغَيَّرُ لونُهُ عندَ نُزولِ الوَحْيِ عليهِ، فَظَنُّوا أنَّ ذلكَ لِآفةٍ فيهِ.

---

(١) من م، في الأصل: من وقت. (٢) من الأصل من م: حيث. (٣) في الأصل وم: يجعل لخلقه آجالا ثم يجيء. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) في الأصل: لا يجيء إنسان فيقتله، في م: يجيء إنسان فيقتله. (٦) في الأصل وم: الخلق. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: مخالف. (١٠) في الأصل وم: فسموه. (١١) في الأصل وم: والهلاك.

ومَن تأمَّلَ حقيقةَ ذلكَ عَلِمَ أنَّ مَن[1] قَرَفَهُ بالجُنونِ بِهِ، هو المَجنونُ، لا هو [وأنهُ ﷺ][2] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾الآية [الأعراف: ١٨٤] وقالَ: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] أخبَرَ أنهم لو تفكَّروا عَرَفوا أنهُ ليسَ بِهِ جِنَّةٌ، ولكنْ عنْ مُعانَدَةٍ ومُكابَرَةٍ يقولونَ وجَهْلٍ.

وسَمَّوهُ ساحراً؛ فذلكَ تناقُضٌ في القولِ؛ لأنهُ لا يُسَمَّى ساحراً إلّا لِفَضْلِ بَصَرٍ وعِلْمٍ. فذلكَ تناقضٌ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، يقولونَ لهُ، إنكَ تَزعُمُ أنَّ الملائكةَ يأتونَكَ بالوَحيِ، فَهَلا أظهَرتَ لنا إذا أتوكَ، فَنَنظُرَ إليهِمْ أملائكةٌ هُمْ على ما تَزعُمُ، أم شياطينُ؟.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ فَيَشهَدونَ أنكَ رسولُ اللهِ، وأنكَ أُرسِلْتَ على ما تَدَّعي مِنَ الرسالَةِ.

الآية ٨ فقالَ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلّا بالموتِ ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ في وُسْعِ البَشَرِ رؤيَةُ الملائكةِ على صورتِهِمْ، فقالَ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلّا بالموتِ. لو رأَوا لَماتوا لِما لَمْ يَجْعَلْ في وُسْعِهِمْ رُؤيَةَ الملائكةِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ الآية [الأنعام: ٨] أخبَرَ أنهُ لو أُنزِلَ عليهِمُ المَلَكُ لَماتوا؛ إذْ ليسَ في وُسْعِهِمْ رُؤيَةُ المَلَكِ على صورَتِهِ.

ثم أخبَرَ أيضاً أنهُ لو جَعَلَهُ مَلَكاً لَجَعَلَهُ رجلاً، ويكونُ في ذلكَ ليسَ على أولئكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالحُجَجِ والآياتِ والبراهينِ على الرسلِ و على مَنْ هو أهْلٌ لذلكَ، ليسَ على كلِّ أحدٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالعذابِ الذي يكونُ فيهِ هلاكُهُمْ. وهكذا إنَّ الملائكةَ لا تُنَزَّلُ إلا بالعذابِ الذي فيهِ هلاكُهُمْ، أو بالحُجَجِ والبراهينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ حتى ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وفي ما وَكَّلَ الحِفْظَ إلى نفسِهِ لم يَقدِرْ أحدٌ مِنَ الطاغينَ مَعَ كَثرَتِهِمْ مُنذُ نَزَلَ وَضعَ[3] الطَّعنِ فيهِ، وذلكَ يدلُّ أنهُ سَماوِيٌّ، وأنهُ مَحفوظٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي محمداً، عليهِ أفضَلُ الصَّلَواتِ، أي نَحفَظُهُ بالذِّكْرِ الذي أُنزِلَ عليهِ كقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وكقولِهِ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ الآية [سبأ: ٥٠] أخبَرَ أنهُ إنما يَهتَدي بما يُوحي إليهِ ربُّهُ. فَعَلى ذلكَ يَحفَظُهُ بالقرآنِ الذي أُنزِلَ عليهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الذِّكرُ النُّبُوَّةَ، أي إنّا نحنُ نَزَّلْنا النُّبُوَّةَ، وإنا لهُ، أي لرسولِهِ لَحافِظونَ بالنُّبُوَّةِ والرسالَةِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ قيلَ: في مُلْكِ الأوَّلينَ، وقيلَ: في فِرَقِ الأوَّلينَ، وقيلَ: في جَماعاتِ [الأوَّلينَ][4]، وهو واحدٌ.

الآية ١١ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ على استِهزاءِ قومِهِ إيّاهُ وأذاهُمْ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لَستَ أنتَ المخصوصَ بهذا، ولكنْ لكَ شُرَكاءُ وأصحابٌ في ذلكَ، ولِيَخِفَّ ذلكَ عليهِ، ويَهونَ، لأنَّ العُرْفَ في الخَلْقِ أنَّ مَنْ كانَ لهُ شُرَكاءُ وأصحابٌ في شِدَّةٍ / ٢٧٥ ـ أ/ أصابَتْهُ أو بلاءٍ، يُصيبُهُ، كانَ ذلكَ أيْسَرَ عليهِ وأهْوَنَ مِنْ أنْ يكونَ مَخصوصاً بِهِ مِنْ بَينِ سائرِ الخلائقِ، واللهُ أعلَمُ.

وكانَ[6] هذهِ الآيةُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦]. فكأنهُ لما سَمِعَ هذا اشتَدَّ عليهِ، وضاقَ صَدْرُهُ بذلكَ. فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠] إلى آخرِهِ يُصَبِّرُهُ على أذاهُم وهُزْئِهِمْ بِهِ

---

(١) من م، في الأصل: في. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: موضع. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

فإنما يَشتدُّ عليهِ ذلكَ على قَدْرِ شَفَقَتِهِ ونَصيحتِهِ لهمْ، وكانَ بَلَّغَ نَصيحتَهُ وشَفَقَتَهُ لهمْ ما ذَكَرَ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقالَ[1]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] كادتْ نفسُهُ تَهلِكُ.

أو ذَكَر هذا لهُ لِما أنَّ هؤلاءِ؛ أعني قومَهُ، إنما استَهزَؤوا بهِ تقليداً لآبائِهِمْ واقتِداءً بِهِمْ وتَلَقُّناً منهمْ، لا أنهمْ أنشَؤوا ذلكَ مِنْ أنفسِهِمْ، وأولئكَ؛ أعني الأوائلَ، إنما استَهزَؤوا برسُلِهِمْ لا تقليداً لأحدٍ، ولكنْ إنشاءً مِنْ ذاتِ أنفسِهِمْ. فَمَنِ استَهزَأَ بآخَرَ، فَشَتَمَهُ، تقليداً واقتِداءً وتَلَقُّناً كانَ ذلكَ أيسَرَ عليهِ وأخفَّ مِنْ فِعْلِ [مَنْ فَعَلَهُ][2] مِنْ ذاتِهِ، لأنهُ إنما يُلَقَّنُ المجانينُ والصبيانُ ومَنْ بهِ آفةٌ بِمِثْلِ ذلكَ.

فهمُ الذينَ يَعمَلونَ بالتَّلَقينِ، وأمّا العُقلاءُ والسالِمونَ مِنَ الآفاتِ فلا. فذلكَ أهْوَنُ عليهِ مِنِ استِهزاءِ أولئكَ برسلِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: كذلكَ نَسْلُكُ التكذيبَ في الاستِهزاءِ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

الآية ١٣ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يقولُ: مِنْ حِكَمِ اللهِ أنْ يَسْلُكَ التكذيبَ في قَلبِ مَنِ اختارَ التكذيبَ[4]، ومِنْ حِكَمِهِ أنْ يَسْلُكَ التصديقَ في قَلْبِ مَنْ صَدَّقَهُ، واختارَهُ، كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وكقولِهِ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَجعَلُ الكُفرَ والتكذيبَ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بِكُفرِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ٢٥] وقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] ونَحْوَهُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الحُجَجَ والآياتِ لِيكونَ تكذيبُهُمْ وردُّهُمُ الآياتِ والحُجَجَ وتكذيبُهُمْ تكذيبَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ [لأنهمْ][5] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مِثْلَ الذي سَلَكْناهُ في قلوبِ المؤمنينَ مِنْ قَبولِ الآياتِ والحُجَجِ والتصديقِ لها، لمّا عَلِمَ أنهمْ يَختارونَ ذلكَ ﴿نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مِنْ تكذيبِ الآياتِ والحُجَجِ وردِّها، لمّا عَلِمَ منهمُ الرَّدَّ والتكذيبَ لها. هذا مُحتَمَلٌ، ويُحتَمَلُ غيرُ هذا ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالتكذيبِ والرَّدِّ والمُعانَدَةِ والمُكابَرَةِ بَعْدَ قِيامِ الحُجَجِ والآياتِ. ويَحتَمِلُ ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالهلاكِ والاستِئصالِ عندَ مُكابَرَةِ حُجَجِ اللهِ ومعانَدَتِهِمْ إياها.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي نَجعَلُهُ على ما ذَكَرْنا الكُفرَ بالعذابِ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي لا يُصَدِّقونَ بالعذابِ ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالتكذيبِ لرسلِهِمْ بالعذابِ. فهؤلاءِ يَستَنّونَ بِسُنَّتِهِمْ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي نُدخِلُهُ؛ يقالُ: السالكُ الداخلُ، والسُّلوكُ الدُّخولُ، وسَلَكْتُ أدخلْتُ. وتصديقُ [قولِهِ][6] قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] وقولُهُ[7]: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢] أي أدخِلْ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يُخبِرُ، جَلَّ، وعلا، عن سَفَهِهِمْ وعِنادِهِمْ في سؤالِهِمِ الآياتِ وطَلَبِ نزولِ الملائكةِ. يقولونَ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيقولُ[8]: إنَّ سؤالَهُمُ الآياتِ، وما سألوا مُتَعَنِّتِينَ مُكابِرينَ ليسَوا هُمْ بِمُستَرشِدينَ، لكنَّ أهلَ الإسلامِ، لا يَعرِفونَ تَعَنُّتَهُمْ بالذِّكرِ[9] ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ [لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ][10] وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: به. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وكذبه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: يقول. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: حيث قال. (١٠) في الأصل وم: الآية ثم قال.

وذلكَ أنَّ المؤمنين كانوا يَشفَعونَ لهمْ بسؤالِهِمُ الآياتِ [بقولِهِمْ][1] لعلَّهُمْ يؤمنونَ، فأخبرَ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

فَعلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يُخبِرُ أنهمْ بسؤالِهمْ نزولَ الملائكةِ [مُعاندونَ مُكابرونَ][2] لَيسُوا بِمُسْتَرْشِدِينَ.

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ يعني على الملائكةِ باباً حتى رَأوا، أو عايَنوا الملائكةَ ينزلونَ مِنَ السماءِ، ويَصْعَدونَ، فلا يؤمنونَ [ويقولونَ:

الآية ١٥ قولَهُ تعالى][3]: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ قيلَ: حُيِّرَتْ، وسُدَّتْ ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي سُحِرَتْ أعيُننا، فلا نَرَى ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي لهمْ ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كقولِهِ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ﴾ حتى ﴿يَعْرُجُونَ﴾ ويُعايِنونَ نُزولَ الآياتِ، ويُشاهِدونَ كُلَّ شيءٍ ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ يقولونَ ذلكَ لشدةِ تَعَنُّتِهِمْ وسَفَهِهِمْ لِشِدَّةِ مُعايَنَةِ ذلكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قيلَ: نُجوماً، وتَحْتَمِلُ البروجُ المَنازِلَ التي يَنْزِلُ فيها الشمسُ والقَمَرُ والنجومُ؛ جَعَلَ لكلِّ واحدٍ مِنْ ذلكَ مَنْزِلاً يَنْزِلُ في كلِّ ليلةٍ في مَنْزِلٍ على حِدَةٍ. ويَحتِملُ ما ذَكَرَ مِنَ البروجِ: هي مطالِعُ مِنَ الشمسِ والقَمَرِ والنجومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ يعني السماءَ. وفي قولِهِ: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ مَنْ يَنْهى عنِ النظرِ إلى السماءِ مِنَ القُرّاءِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ زيَّنَها لِلنّاظرينَ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يُزَيِّنَها، ثم يَنهَى عنِ النظرِ إليها دلَّ أنهُ لا بأسَ لِلنّاظِرينَ.

وقالَ في آيةٍ أخرَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ الآية [الأنعام: ٩٧] وقالَ في مَوضعٍ آخرَ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] وجَعَلَ اللهُ في الشمسِ والقمرِ والنجومِ مَنافِعَ يَهْتَدونَ بها الطُّرُقَ في ظُلُماتِ الليلِ، وجَعَلَها مَصابيحَ في الظُّلُماتِ[4].

وأخبَرَ أنهُ زَيَّنَها للناظِرينَ، لأنَّ ما يقْبُحُ في العَينِ مِنَ المَنْظَرِ، لا يَتَفكَّرُ الناظرُ فيهِ، ولا يَنْظُرُ إليهِ، فَزَيَّنَها[5] لهم لِيَحمِلَهُمْ ذلكَ على التَّفكُّرِ فيهِ والنَّظَرِ إليها لِيَعْلَموا أنهُ تدبيرُ واحدٍ حينَ[6] جَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ مَعَ بُعْدِ ما بينَهُما، وجَعَلَ أشياءَ هي في الظاهِرِ أشباهاً، وهي في الحقيقةِ كالأضدادِ لها، ومنها ما هي في الظاهرِ أضدادٌ، وهي كالأشكالِ نَحْوُ النّورِ والظُّلْمَةِ، هي في الظاهرِ أضدادٌ، صارَتْ كالأشكالِ؛ إذْ[7] تُضيءُ النجومُ في ظُلُماتِ الليلِ حتى يَنْتَفِعُ بذلكَ أهلُ الأرضِ، هي في الظاهرِ أضدادٌ، فصارَتْ بما يَظْهَرُ مِنْ مَنافِعِها كالأشكالِ، وجَعَلَ لا يُنْتَفَعُ بضوءِ النجومِ مع نورِ القَمَرِ، ولا يُنْتَفَعُ بنورِ القَمَرِ مع ضَوءِ الشمسِ، وهُنَّ أشكالٌ بِما يَذهَبُ كلُّ واحدٍ منهما بِسُلْطانِ الآخَرِ، لِيُعْلَمَ أنهُ تدبيرُ واحدٍ حين[8] صارَتِ الأضدادُ[9] كالأشكالِ والأشكالُ كالأضدادِ في حقِّ المنفعةِ.

الآيتان ١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ يعني السماءَ ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾][10] ذَكَرَ أنَّ الشياطينَ[11] كانوا يَصْعَدونَ السماءَ، فَيَسْتَمِعونَ مِنْ أخبارِ السماءِ مِنَ الملائكةِ ممّا يكونُ في الأرضِ مِنْ غَيثٍ وغَيرِهِ. ثم زادوا فيها ما شاؤوا، فَيُلْقُونَ إلى الكَهَنَةِ، فَيُخبِرُ الكَهَنَةُ الناسَ، فيقولونَ: ألمْ نُخبِرْكُمْ بالمطرِ في يومِ كذا وكذا، وكانَ حقًّا، ثم مُنِعُوا عَنْ صُعودِهِمْ [إلى السماءِ، وحَفِظَها منهُمْ][12] فَجَعَلوا / ٢٧٥ ـ ب/ يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معاندين مكابرين. (٣) في الأصل وم: قالوا. (٤) في الأصل وم: ظلمات. (٥) في الأصل وم: فزينا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من م. (٩) ساقطة من م. (١٠) ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل وم: الشيطان. (١٢) في الأصل وم: أعني السماء وحفظوا عنهم.

فَسلَّطَ اللهُ الشُّهبَ عليهِم حتى [يُقذَفوا بها، وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ وقولُهُ تعالى][1]: و﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿دُحُورًا﴾ [الصافات: ٨ و٩] وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

ويَحتمِلُ: ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أي أهلَها ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ لِما ذكَرْنا مِنْ ذِكْرِ أشياءَ مِنَ القَرْيَةِ والمِصْرِ والعِيرِ وغيرِهِ، والمُرادُ منهُ أهلُهُ. فعَلَى ذلكَ هذا، إلّا أنَّ أهلَ السماءِ بأجْمَعِهِمْ أهْلُ وَلايةِ اللهِ، وأهْلُ طاعتِهِ.

وأمّا أهْلُ الأرضِ ففيهِمْ مِنَ الغاوينَ الضالينَ، فهمْ أولياءُ أهْلِ الشيطانِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ الآية [النحل: ١٠٠].

ويَحتمِلُ حِفْظَ السماءِ نفسِها بالملائكةِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ الآية [الصافات: ٨] ويَحتمِلُ بالشُّهُبِ التي في غيرِ آيةٍ[2] من القرآنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرجيمُ اللعينُ، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ: مِنْ كلِّ شيطانٍ لَعينٍ. واللَّعينُ في اللغةِ، هو المَطْرودُ، المُبْعَدُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿دُحُورًا﴾ [الصافات: ٩].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] يعني الجبالَ. فظاهرُ هذا أنَّ الأرضَ كأنها مضطربةٌ، وتتكفّئُ بأهلِها، فأثْبَتَها بالجبالِ، والأرضُ، طَبْعُها التَّسفُّلُ والانْحِدارُ، فكيفَ كانَ ثباتُها بشيءٍ، طبعُهُ التَّسفُّلُ والتَّسرُّبُ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ طَبْعَها، كانَ الاضطرابَ والانْكِفاءَ، فأثْبَتَها بالجبالِ عنِ الاضطرابِ والانْكِفاءِ؟ أو أنْ يُقالَ: مِنْ طَبْعِها ما ذكَرْنا: التَّسفُّلُ والانْحِدارُ، إلّا أنَّ اللهَ بلُطفِهِ أثْبَتَ ما هو طَبْعُهُ التَّسفُّلُ كذلكَ. ليُعْلَمَ لُطْفُ اللهِ وقدرتُهُ، وقد ذكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِيهَا﴾ يعني في الجبالِ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي ما يوزَنُ مِنْ نَحْوِ الذَّهبِ والفِضّةِ والحديدِ والرَّصاصِ ونَحْوِهِ ممّا يُسْتَخرَجُ منها. وهذا كأنهُ ليسَ بصحيحٍ، لأنهُ لا يُقالُ في الذَّهبِ والفِضّةِ والحَديدِ: إنهُ أُنبِتَ في الأرضِ كما يُقالُ ذلكَ للنباتِ وما يَنْبُتُ فيها، وإنما يُقالُ للذَّهبِ والفِضّةِ والحديدِ: جَعَلْنا فيها، أو خَلَقْنا فيها.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ يعني في الأرضِ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مِنْ كلِّ ألوانِ [النباتِ][3] مَوزونٍ أي مَعلومٍ مُقَدَّرٍ بِقَدَرٍ كقولِهِ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] ويَحتمِلُ ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ وما يصيرُ مَوزوناً في الآخِرَةِ مِنَ الزروعِ وغيرِها والحبوبِ أو ما ذكَرْنا: أي، واللهُ أعلَمُ، ليسَ على الجُزافِ على ما يكونُ مِنْ فِعْلِ جاهلٍ على غيرِ تدبيرٍ ولا تقديرٍ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ ما لوِ اجْتمَعَ الخلائقُ لم يَعرِفوا قَدْرَ ما يَزدادُ، ويَنْمو مِنَ النباتِ في لَحْظَةٍ واحدةٍ وطَرْفَةِ عَينٍ في أوّلِ ما يَخْرُجُ، ويَبْدو مِنَ الأرضِ، وذلكَ مَوزونٌ عندَهُ مَعلومٌ قَدْرُهُ ليُعْلَمَ لُطْفُهُ [وقُدْرَتُهُ وتدبيرُهُ وعِلْمُهُ وأنهُ تدبيرٌ][4] واحدٍ حينَ[5] لم يَختلِفْ ذلكَ، ولم يَتفاوَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ [الحجر: ١٤] أي [صاروا، وقولُهُ][6]: ﴿يَعْرُجُونَ﴾ يرتَفِعونَ، ويَصْعَدونَ، وقالَ غيرُهُ: ﴿يَعْرُجُونَ﴾ أي مالوا كقولِهِ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ [الشعراء: ٤] وقالَ: قولُهُ: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر: ١٥] أي حُيِّرَتْ، يقالُ: سُكِّرَ بَصَرُهُ إذا تَحيَّرَ، وقالَ: يُقالُ أيضاً: تَحيَّرَتْ، يقالُ: سَكَّرَ اللهُ بَصَرَهُ، أي حَيَّرَهُ، وسَكَرَتِ الريحُ، تَسْكُرُ سُكوراً إذا سَكَنَتْ، ويُقالُ: ليلٌ ساكِرٌ أي ساكِنٌ، وسَكَرْتُ الماءَ، أسْكُرُهُ سَكْراً، أي حَبَسْتُهُ، والسَّكْرُ السَّدُّ والسُّكورُ جَمْعٌ، والسُّكْرُ مَصْدَرُ سَكِرَ يَسْكَرُ سُكْراً، فهو سَكْرانُ، وقومٌ سَكْرَى وسُكارَى، والسَّكْرَةُ الغَمْرَةُ، والغَمْرَةُ الشِّدَّةُ. وقالَ ﷺ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] أي شِدَّتُهُ وعُسْرَتُهُ[7].

---

(١) في الأصل وم: يقذفون وهو قوله. (٢) في الأصل وم: آي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: وتدبيره. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل: طاروا يومهم، في م: صاروا يومهم. (٧) ساقطة من م.

وقالَ القُتَبِيُّ: سُكِرَتْ غُشِيَتْ، ومنهُ يُقالُ: سَكَرَ النهرَ إذا سَدَّهُ، فالسُّكْرُ اسْمُ ما سُكِرَتْ، وسُكْرُ الشرابِ مِنهُ، إنما هو الغِطاءُ على العَقْلِ والعَيْنِ.

وقالَ الحَسَنُ: سُكِرَتْ بالتخفيفِ[1] سُحِرَتْ، وقولُهُ تعالى: ﴿بُرُوجًا﴾ [الحجر: ١٦] قالَ: اثْنَي عَشَرَ بُرْجاً، وأصلُ البُرجِ[2] الحِصْنُ والقَصْرُ؛ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٧، ١٨] يقولُ: حَفِظْناها مِنْ أنْ يَصِلَ إليها شيطانٌ، أو يَعْلَمَ مِنْ أمْرِها شيئاً إلا استراقاً ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي كوكبٌ مُضيءٌ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ يُقالُ: اسْتَرَقْتُ السمعَ، أي تَقَفَّيْتُ[3] قوماً حتى سَمِعْتُ حديثَهُمْ، وهُمْ لا يَعْلمونَ. وهكذا لو عَلِمَ الملائكةُ أنَّ الشياطينَ يَسْتَرِقونَ السمعَ، ويَخْطَفُونَ، لَمَنَعوا مِنْ ذلكَ، وامْتَنَعوا عنِ التَّكَلُّمِ بهِ حتى لا يَسْتَمِعوا كلامَهُمْ وحديثَهُمْ. وشِهابٌ: كوكبٌ. وقيلَ: الشِّهابُ خَشَبَةٌ، في طَرَفِها نارٌ، والشُّهْبانُ جَماعةٌ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ لِرسولِ اللهِ، كانَ لهُ [خاصًا، لم يكُنْ لِغيرِهِ][4] واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي في الأرضِ والجبالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي جَعَلْنا لكُمْ في الأرضِ مَعايِشَ: ما تَعيشونَ بهِ، ولِمَنْ حولَكُمْ أيضاً جَعَلَ فيها مَعايِشَ، لا تَرْزُقونَهُ أنتمْ، إنما ذلكَ على اللهِ، هو يَرْزُقُهُمْ وإيّاكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ الوَحْشُ والطَّيرُ. وأمّا الأنعامُ فإنهُ قد أشْرَكَهُمُ البَشَرَ في المعَايِشِ. وكانَ غيرُ هذا أقْرَبَ وأوْفَقَ، وهو أنَّ أهلَ مكَّةَ، كانوا[5] يَمُنّونَ على رسولِ اللهِ ﷺ، ويقولونَ: نحنُ رَبَّيناهُ، وغَذَّيناهُ، وأنْفَقنا عليهِ، ورزَقْناهُ، ثمّ فَعَلَ بنا كذا. فَخَرَجَ هذا جواباً لهمْ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ أي محمداً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلمُ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ يُخْزَنُ في الخَلْقِ ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي إلّا عندَنا تلكَ الخزائنُ، أي ما تَخْزُنونَ مِنَ الأشياءِ فذلكَ[6] عندَنا، وفي خزائِنِنا.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ على هذا ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ وما نعطيهِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي وإنْ كانَ عندَكمْ مَخزوناً محبوساً [فإنَّ ذَلكَ كلَّهُ مِنَ][8] خزائِنِهِ، أعطَى مَنْ شاءَ، وحَرَمَ مَنْ شاءَ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ الخزائنَ، وهي الأمكنةُ الخَفِيَّةُ التي تُخْزَنُ فيها الأموالُ، وبَواطِنُ مِنَ الأرضِ. نقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ كانَ في بَواطِنِ الأرضِ وأمكنةٍ خَفِيَّةٍ ﴿إِلَّا عِندَنَا﴾ تدبيرُ ذلكَ وعِلْمُهُ؛ يُخبِرُ أنَّ تَدْبيرَهُ وعِلْمَهُ في الخَفِيَّةِ مِنَ الأمكنَةِ[9] كَهُوَ في الظاهِرِ؛ لا يَخرُجُ شيءٌ عَنْ تدبيرِهِ. بلْ كلُّ ذلكَ في تدبيرِهِ وعلمِهِ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي الماءُ الذي بهِ جَعَلَ حياةَ كلِّ شيءٍ، ولا يَخرُجُ شيءٌ عنْ مَنافِعِهِ فهو خِزانةُ[10] الأشياءِ كلِّها، وقِوامُ كلِّ شيءٍ، وقالَ: ألا تَرَى أنّهُ قالَ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وذَكَرَ الأنزالَ، وهو الذي يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ظاهراً؟.

هذا الذي قالَهُ مُحتَمَلٌ. لكنْ تَمامُهُ أنْ يُقالَ: إنَّ الماءَ خَزائِنُهُ والخَزائِنُ، هي [المَواضِعُ التي][11] تُخزَنُ فيهِ.

وفي الماءِ قُوَّةٌ ومَعْنًى، يكونُ فيه حياةُ الخَلْقِ ومَنافِعُهُمْ في ما جَعَلَ فيهِ لا في نفسِ الماءِ.

الا تَرَى أنهُ يُصيبُ عُروقَ الشَّجَرِ، فَتَظْهَرُ مَنافِعُهُ في غُصونِها في أعلاها؟ فَثَبَتَ أنَّ فيهِ قُوَّةً سِرِّيَّةً ومَعْنًى، تكونُ المَنافِعُ بها لا بِنَفْسِ الماءِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثمَّ ما ذَكَرَ مِنَ الخَزائنِ والرياحِ والماءِ والمَطَرِ وغيرِ ذلكَ مِنَ النِّعَمِ يَذْكُرُ على الاحتِجاجِ عليهِمْ، لأنهُ إنما أنْشأَ هذهِ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/٢٥٢. (٢) في الأصل وم: البروج. (٣) في الأصل وم: تقفلت. (٤) في الأصل وم: خاصة لم يكن.
(٥) في الأصل وم: كانهم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: فإنه ذلك كل، في م: فإن ذلك كله.
(٩) من م، في الأصل: الأرض. (١٠) في الأصل: خزانته. (١١) في الأصل وم: الموضع الذي.

الأشياءِ، وخلَقَها لهؤلاءِ لا أنهُ أنشأها لِنفسِها. فإذا كانَ أنشأها لهمْ، فلا يَحتَمِلُ أنْ يترُكَهمْ، لا يأمُرُهمْ، ولا ينهاهُمْ، ولا يَمتَحِنُهمْ، ولا يَجعَلُ لهمْ عاقبَةً، يُثابونَ، ويُعاقبونَ. ولذلكَ قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ على التأويلِ الأوّلِ ما ذكَرْنا، أي ما نُعطيهِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وإنْ خزَنَهُ، وحَبَسَهُ/ ٢٧٦ ـ أ/ ويَحتَمِلُ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ بِقَدَرٍ سابقٍ مَعلومٍ ذلكَ، أي إنْ كانَ على هذا فإنهُ يدلُّ على أنَّ [ما][1] يكونُ، ويَحدُثُ، إنما يكونُ بِقَدَرٍ سابقٍ، لا يكونُ غيرَ ما سَبَقَ تقديرُهُ، أو ﴿بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ محدودٍ، أي ليسَ يُنَزَّلُ جُزافاً، ولكنْ مَعلوماً مَحدوداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَوَاقِحَ﴾ حَوامِلَ، وقالَ بعضُهُمْ: هذا لا يَصِحُّ [لأنهُ][2] لو كانَ على هذا لكانَ مَلاقِحَ ومُلْقِحاتٍ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿لَوَاقِحَ﴾ تُلقِحُ الشجرَ، أي تُنبِتُ ورَقَها، وهي مُلقَحَةٌ، وقالَ: يُقالُ: ناقةٌ لاقحٌ، أي حاملٌ، قد حَمَلَتْ، ونوقٌ لَواقِحُ، ويُقالُ: حَرْبٌ لاقِحٌ [أي شديدةٌ][3] وسَحابٌ لاقِحٌ، [وهو][4] الذي فيه ماءٌ أي مَطَرٌ، وريحٌ لاقِحٌ، أي مُلقِحٌ، تُلقِحُ الشجَرَ، أي تُنبِتُ ورَقَهُ وحَمْلَهُ. ويُقالُ: ألْقَحَ الرجلُ إذا لَقِحَتْ إبِلُهُ، أي حَمَلَتْ، ورجلٌ مُلقِحٌ، واللَّقوحُ الناقةُ التي مَعَها وَلَدٌ صغيرٌ، والجَمْعُ لِقاحٌ، وجَمْعُ الجَمْعِ لَقائِحُ، واللُّقَّحُ اللَّواقِحُ، وهي الحوامِلُ مِنَ الإبلِ.

قالَ القُتَيبِيُّ: قالَ أبو عُبَيدَةَ ﴿لَوَاقِحَ﴾ إنما هي ملاقِحُ جمعُ مُلْقِحَةٍ، ويُريدُ أنها تُلقِحُ الشجَرَ، وتُلقِحُ السحابَ، كأنها تُنتِجُهُ، واللَّواقِحُ المُنتِجَةُ الثمارَ مِنَ الأشجارِ والسحابِ وغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا على التأويلِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ وعلى تأويلِ الحَسَنِ هو ما ذُكِرَ مِنَ الماءِ والمَطَرِ ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي ليسَتْ خزائِنُهُ[5] في أيديكُمْ ولا بِيَدِ أحدٍ، ولكنْ بِيَدِ اللهِ ﷻ، وعلى تأويلِ الآخرِ ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ بِمُدَبِّرينَ ما خُزِنَ في الأرضِ، ودُفِنَ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الباقونَ، يَفنى الخَلْقُ كُلُّهُ، فَيَبْقَى هو.

ولذلكَ سُمّيَ مَنْ خلَفَ الميتَ وارثاً، لأنهُ يموتُ، ويبقَى الوارثُ، وهو باقٍ. وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ مِنَ المُكَذِّبينَ منكُمْ ما حَلَّ بهمْ بالتكذيبِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ مِنَ المُكَذِّبينَ منكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ مَنْ كانَ منهُمْ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ مَنْ يكونُ منهُمْ، ويُولَدُ.

الآية ٢٥ ولذلكَ قالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ مَنْ مَضى، ومَنْ بَقِيَ، [ومَنْ][6] لم يكُنْ بَعْدُ إلى يومِ القيامةِ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الخيرِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ في الشرِّ، وقالَ بعضُهُمْ: [﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الصَّفِّ الأوّلِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ في الصَّفِّ الأخيرِ][7] لكنهُ بعيدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ.

أحدُهما:][8] هو الذي يَضَعُ الأشياءَ مَواضِعَها.

والثاني: هو الذي يَجعَلُ للأشياءِ مَوضِعَها.

فالأوّلُ: قد يَعْرِفُ الخَلْقُ الأشياءَ مَواضِعَها، وأمّا الثاني: فلا يكونُ ذلكَ إلّا باللهِ. وقولُهُ: ﴿عَلِيمٌ﴾ عليمٌ بِمصالحِ الخَلْقِ، ومالَهُمْ، وما عليهِمْ، أو عليمٌ بِوَضْعِ الأشياءِ مَواضِعَها.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: خزائن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: في الوصف والآخر. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] وقالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] وقالَ في [آيةٍ][1] أُخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقالَ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

ذَكَرَ مَرَّةً الحَمأَ المسنونَ؛ وقيلَ: هو الطينُ الأسودُ المُتَغَيِّرُ، وذَكَرَ مَرَّةً الترابَ، ومَرَّةً الطينَ اللازِبَ، وهو الملتَزِقُ، ومَرَّةً مِنْ سُلالَةِ الطينِ. فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ على الأحوالِ واخْتِلافِ الأوقاتِ: كانَ في الحالِ[2] الأوَّلِ تراباً، وفي حالٍ طيناً لازِباً وفي حالٍ حَمأً مَسْنوناً، وهو الذي اسْوَدَّ، وتَغَيَّرَ لِطولِ مُكْثِهِ، وصَلْصالاً وفَخاراً[3]. فَقَبْلَ أنْ يكونَ خَلْقاً مركباً: الجوارِحُ فيهِ والعظامُ، كانَ على[4] هذهِ الأحوالِ الثلاثةِ على [ما][5] أخْبَرَ مِنْ تَغَيُّرِ أحوالِ أولادِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥، ...] ذَكَرَ أحوالاً ثلاثةً قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ [فيهِ][7] لَحْماً وعَظْماً في حالٍ، كانَ نُطْفَةً [ثم صارَ عَلَقَةً][8] ثم صارَ مُضْغَةً.

فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ في آدمَ مِنْ ترابٍ وطينٍ وحَمَإٍ ونَحْوِهِ، إنْ كانَ على اخْتِلافِ الأحوالِ على ما ذَكَرْنا.

أو أن يكونَ على التشبيهِ والتمثيلِ بالطينِ الذي ذَكَرَ، وهو أنَّ الطينَ الذي يكونُ كالصلصالِ والفَخّارِ واللازِبِ ونَحْوِهِ، هو الطينُ الطَّيِّبُ الذي يكونُ منهُ البنيانُ والأواني والقُدورُ وجميعُ أنواعِ المَنافِعِ.

وأما الطينُ الذي يَخْبُثُ فإنهُ لا يُتَّخَذُ منهُ شيءٌ ممّا ذَكَرْنا، ولا يُتَّخَذُ، ولا يَتَهَيَّأُ اتِّخاذُ شيءٍ مِنْ ذلكَ. فَيُشْبِهُ خَلْقَ آدمَ بالطينِ الذي يَجْتَمِعُ فيهِ جميعُ أنواعِ المَنافِعِ. فَعَلى ذلكَ جَمَعَ في آدمَ جميعَ أنواعِ المَنافِعِ والخَيرِ كالطِّينِ الطَّيِّبِ.

ثم فيه دلالةُ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ وذِكْرُ نِعَمِهِ حينَ[9] أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرابٍ وطينٍ وما ذَكَرَ، وليسَ في الترابِ ولا في الطينِ مِنْ أَثَرِ البَشَرِيَّةِ شيءٌ، وكذلكَ ليسَ في النطفةِ التي خَلَقَ البَشَرَ منها أثَرُ البَشَرِيَّةِ شيءٌ لِيُعْلَمَ أنهُ قادِرٌ على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ شيءٍ ومِنْ لا شيءٍ؛ إذْ ليسَ في ما ذَكَرَ مِنَ الطينِ والترابِ الذي خَلَقَ منهُ أبا البَشَرِ مِنْ أثَرِ البَشَرِيَّةِ [فيه شيءٌ، ولا في النطفةِ التي خَلَقَ منها أولادَهُ مِنْ أثَرِ البَشَرِيَّةِ][10] والإنسانِيَّةِ مِنَ اللحمِ والعَظْمِ والشَّعْرِ وغيرِهِ، وما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ العَقْلِ والعِلْمِ والتدبيرِ والجوارِحِ وغيرِ ذلكَ، شيءٌ، لِتُعْلَمَ قدرَتُهُ وسُلْطانُهُ على خَلْقِ الأشياءِ لا مِنْ شيءٍ، ولِيَعْرِفوا نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِمْ حينَ[11] أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ آدمَ مِنْ طينٍ لازِبٍ وصَلْصالٍ وما ذَكَرَ؛ وذلكَ وَصْفُ الطينِ الطَّيِّبِ لأنَّ ما خَبُثَ مِنَ الطينِ، لا يَبْلُغُ المَبْلَغَ الذي وَصَفَ، ولا يَصيرُ إلى تلكَ الحالِ، وإنْ طالَ مُكْثُهُ لأنهُ لا يُنْتَفَعُ بِهِ لا مِنِ اتِّخاذِ البنيانِ والأواني والقدورِ، ولا يُنْبِتُ الزروعَ أيضاً، فَيَحْتَمِلُ على التمثيلِ الذي ذَكَرْنا لا على التَّحْقيقِ[12] أو على التحقيقِ على الأحوالِ المُخْتَلِفَةِ. فَدَلَّ أنهُ إنما خَلَقَهُ مِنْ طينٍ، طابَ أصْلُهُ.

فَعَلى ذلكَ تَحْتَمِلُ النطفةُ التي يَخْلُقُ منها البَشَرَ، [أنْ][13] تكونَ طاهرةً، وهي لا تُصيبُ شيئاً [مِنَ النجاساتِ والرطوباتِ في البَدَنِ][14] وهي على غَيرِ الوصفِ، تُخَرَّجُ، لأنهُ قالَ: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] وقالَ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

والصَّلْصالُ: قالَ بعضُهُمْ: هو الترابُ اليابسُ، والحَمأُ الطينُ الأسودُ، والمَسْنونُ المُنْتِنُ المُتَغَيِّرُ. وقالَ بعضُهُمْ: الصَّلْصالُ هو الذي إذا ضَرَبْتَهُ يُصَوِّتُ، ومنهُ يُقالُ: صَلْصَلَةُ اللِّجامِ، والفَرَسِ إذا كانَ يُصَلْصِلُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه.

وقالَ القُتَبِيُّ: الصَّلْصالُ الطينُ اليابسُ الذي لا يصيبُهُ النارُ، فإذا نَقَرْتَهُ صَوَّتَ، فإذا مَسَّتْهُ النارُ فهو فَخّارٌ.

والمَسنونُ المُتَغَيِّرُ الرائحةِ، والمَسْنونُ أيضاً المَصْبوبُ، وسَنَنْتُ الشيءَ إذا صَبَبْتُهُ صَبًّا سَهْلاً، وسَنَّ الماءَ على وَجْهِكَ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حال. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. (٤) في الأصل وم: عليه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: التخصيص. (١٣) و(١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقال أبو عوسجة: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الحمأ التراب الأسود، يكون في أسفل البئر، ومن هذا سُمّيَ الحمأ، لأنه يَحمأ أن يُرعى، ويقال: حمأت الحرب والشمس والتنور يحمأ إذا اشتدّ حرُّه، و﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي مخلوق.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال بعضُهُم: الجانُّ هو إبليسُ، وقال بعضُهُم: الجانُّ هو أبو البشر، وإبليسُ هو أبو الشياطين، سُمّوا شياطين لتمرّدِهم في فعلِهم، والجانُّ[1] مُقتَبَسٌ مِن فعلِهم.

ألا ترى أنه ذكر مِنَ الإنسِ والجنّ شياطين؟ وهو قولُهُ: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وذلك لِتمرّدِهِم، والجانُّ مُقتدَرٌ عن الجنّ، واللهُ أعلمُ بذلك.

والسَّمومُ: قال بعضُهُم: السَّمومُ لَهَبُ النارِ، كأنه ليس[2] له دخانٌ، وهو المارجُ ﴿مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] والمارجُ هو المُنقطعُ منها. وقال بعضُهُم: /٢٧٦ ـ ب/ مِن جنسِ النارِ، كأنه أراد لَهَبَها، وقال: نارُ السَّمومِ الحارّةُ التي تقتلُ.

فإن كان السَّمومُ والمارجُ ما ذَكَرَ بعضُهُم أنه لَهَبُ النارِ، فمِن طَبعِهِ الارتفاعُ والعُلُوُّ. فعلى ذلك ما خلقَ منه، طَبعُهُ الارتفاعُ والعُلُوُّ، وهو الجانُّ الذي ذَكَرَ. والطينُ، طَبعُهُ التَّسفُّلُ والانحدارُ إلى الأرضِ، فعلى ذلك ما خلقَ منه، طَبعُهُ الهُوِيُّ إلى الأرضِ والميلُ إليها.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَالْجَانَّ﴾ قال أبو عوسجة: الجنُّ واحدُ الجانّ، والجانُّ جمعٌ، سُمّيَ ذلك لاستجانِهِ، وقال غيرُهُ: الجنُّ الجماعةُ، والجانُّ الواحدُ.

الآيتان ٢٨ و ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي أتممتُهُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وقال في آية أخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] لم يُشبِّهْ هذا على الناسِ، ولم يَفهموا مِن قولِهِ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [وقولِهِ][4]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] ما فَهِموا مِن نفخِ الخلقِ.

فما بالُهُم فَهِموا مِن قولِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤، ...] وقولِهِ[5] ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ونحوِهِ استواءَ الخلقِ. بل [فَهِموا نفخةَ منه][6] فَهمَ نفخِ الخلقِ أكثرَ مِن استوائِهِ لأنه أمكنَ صرفُ الاستواءِ إلى وجوهٍ، ولا يُمكنُ صرفُ النفخِ منه. لكنّه اشتبهَ عليهم لأنهم اقتدروا فعلَ اللهِ بفعلِ الخلقِ، ولا يجبُ أن يَقتدروا بالخلقِ على ما لم يَقتدروا في قولِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧، ...] و﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣، ...] و﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] و﴿خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] وأمثالِها[7]. وقد أخبرَ أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أو تلقينٌ مِنَ الشيطانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رُّوحِي﴾ و﴿رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] أي الروحُ الذي به حياةُ الخلقِ، أي خلقَ الذي يكونُ به حياةُ الخلقِ على ما ذَكَرنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ يَحتملُ أن يكونَ قولُهُ ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا﴾ ممّا ذَكَرَ خبراً[8] أنه سيَفعلُ، وأمراً[9] لهم بالسجودِ [فيكونُ الأمرُ بالسجودِ][10] بعدَ ما خلقَهُ إياهُ. فهذا يدلُّ أنه قد يجوزُ تقدُّمُ الأمرِ عن وقتِ الفعلِ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٣٠ و ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ظاهرُ الأمرِ بالسجودِ والاستثناءِ الذي ذَكَرَ أنّ إبليسَ مِنَ الملائكةِ لأنّ [الأمرَ بالسجودِ كان فيهم، ومنهم وَقَعَ][11] الثُّنيا، وقد ذَكرنا اختلافَهُم وأقاويلَهُم في ما تقدَّمَ مقدارَ ما حَفِظناهُ[12].

[ثم الأصلُ أنّ][13] كلُّ ما خُرِّجَ مُخرَجَ الاستثناءِ يجبُ أن يُسقَطَ اسمُ ما أُجمِلَ نحوُ قولِ الرجلِ لآخرَ: لكَ عليّ

---

(١) من م، في الأصل: ذلك. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في م: فهم نفخة من، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وأمثاله. (٨) في الأصل وم: خبر. (٩) في الأصل وم: أمر. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فيهم كان الأمر بالسجود، ومنهم وقع. (١٢) في تفسير الآية ٤٥ من سورة البقرة. (١٣) في الأصل وم: قال والأصل بأن.

عَشَرَةٌ، إلا درهماً، يُسقِطُ الاستثناءُ ما أُجمِلَ مِنَ الاسمِ حتى صارَ تِسعَةً. وكذلكَ إذا قالَ: [لكَ عليَّ][1] ألفٌ إلا خمسينَ، وإذا لم يُسقِطْ ذلكَ الاسمُ فلا بُدَّ أنْ يكونَ الكلُّ فيهِ مُضمَراً نَحْوَ قولِ الرجلِ: رأيتُ علماءَ بلدةِ كذا إلا فلاناً؛ يجبُ أنْ يُضمَرَ فيهِ حرفُ الكُلِّ حتى يَقَعَ على كُلِّ نَحْوَ أنْ يقولَ: رأيتُ كُلَّ علماءِ بلدةِ كذا إلّا فلاناً، فَعَلى ذلكَ تخصيصُ العمومِ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] قالَ: الصَّلْصالُ هو الطينُ الحُرُّ الذي يَتَصَلْصَلُ مِنْ صلابتِهِ ويُبوسَتِهِ، والحَمأُ الطينُ المَسْنونُ، قالَ: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ خِلْقَتُهُ، فهو سُنَّةٌ لِلخلقِ بَعْدَه، مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أنْ يُخلَقوا على خِلقَتِهِ، وكقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يقولُ: اسْتَلَّها مِنْ بَيْنَ ظَهرانَي الطينِ لا كلَّ طينٍ خَلَقَهُ، وكذلكَ قالَ في تناسُلِ ذُرِّيَّتِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ليسَ مِنْ كلِّ ما خَلَقَهُ، ولكنِ اسْتَلَّها مِنْ بَيْنِ ظَهرانَي الماءِ.

وقالَ ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ إبليسُ هو أبو الجِنِّ ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي مِنْ قَبْلِ آدمَ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] يقولُ: السَّمومُ هو اسمٌ مِنْ أسماءِ جَهَنَّمَ، ولها[2] أسماءٌ كثيرةٌ. أخبَرَ أنهُ خَلَقَهُ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي جَهَنَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٣١ و٣٢ و٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وقالَ لهُ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ. ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ذَكَرَ مِثْلَ هذا على اختِلافِ الألفاظِ. ومعلومٌ أنَّ هذهِ المُخاطباتِ مَعَهُ، لم تكُنْ مَعَهُ مِراراً، ولكنْ بِمَرَّةٍ واحدةٍ.

قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ذَكَرَ اللهُ تعالى قصةَ إبليسَ وقِصصَ[3] الأنبياءِ جميعاً في مَواضِعَ، لأنها كذلكَ كانَتْ في كُتُبِهِمْ، فَذَكَرَها على ما في كُتُبِهِمْ لِيَعْلَموا أنَّ نبيَّ اللهِ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ لِيَدُلَّهُمْ على صِدْقِهِ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ اختِلافَ الألفاظِ وتَغْييرَها لا يوجِبُ اختِلافَ الحُكْمِ، ولا[4] يُغَيِّرُ المَعْنَى. فهذا يدلُّ أنَّ الخَبَرَ إذا أدّى مَعْناهُ على اختِلافِ لَفْظِهِ فإنهُ يَجوزُ. وكذلكَ إذا قُرِئَ بِغَيرِ لسانِ الذي أُنْزِلَ فإنهُ يجوزُ إذا أتى بِمَعناهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ قولُهُ: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: اخرُجْ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ. وقالَ بعضُهُمْ: اخرُجْ مِنَ الأرضِ إلى جَزائرِ البحرِ. وقالَ بعضُهُمْ: اخرُجْ مِنَ الجنةِ، وأمثالِها[5]. أوِ اخرُجْ مِنْ صورةِ الملائكةِ إلى صورةِ الأبالِسَةِ.

وجائزٌ أنْ يُقالَ: اخرُجْ مِنْ كذا إلى مكانِ كذا على غَيرِ حقيقةِ الخروجِ. ولَسْنا نَدْري كيفَ كانَ ذلكَ[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿رَجِيمٌ﴾ قيلَ: الرجيمُ المَلْعونُ، وقيلَ: الرجيمُ ما يُرْجَمُ بالكواكبِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ اللعنةُ هو الطَّرْدُ في اللغةِ والخِذْلانُ؛ طُرِدَ عَنْ رَحمةِ اللهِ إلى يومِ الدينِ حتى لا يهتَدِيَ إلى دينِ اللهِ وهداهُ. ثم يومُ الدينِ لهُ العذابُ الدائمُ واللعنةُ القائمةُ[7].

الآيات ٣٦ و٣٧ و٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ لُعِنَ اللعينُ، وطُرِدَ عَنْ رحمَتِهِ إلى يومِ الدينِ؛ أي لا تُدرِكُهُ الهدايةُ، لأنَّ الهدايةَ في الدنيا إنما تُدرِكُهُ برحمتِهِ. والرحمةُ في الآخِرَةِ هي العَفْوُ عما لَزِمَهُ، ووَجَبَ عليهِ.

مسألةٌ، تكلَّموا فيها: ما الحِكْمَةُ في خَلْقِ اللهِ تعالى إبليسَ مَعَ عِلْمِهِ ما يكونُ منهُ مِنْ إفسادِ خَلْقِهِ والدعاءِ إلى المَعاصي وإنظارِهِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وقد عَلِمَ أنهُ إنما يُنظِرُهُ لِيُفسِدَ عبادَهُ؟ فَمَعَ ما عَلِمَ ما يكونُ منهُ، فما الحِكْمَةُ في خَلْقِهِ؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وله. (٣) في الأصل وم: وقصة. (٤) في الأصل وم: بعد ألا. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: كذلك. (٧) في الأصل وم: القائم.

قالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ إبليسَ وأهلَ المَعاصي معَ عِلْمِهِ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَخْلُقْ لِمنافِعِ نفسِهِ ولا لِحاجَةِ نَفْسِهِ، وأنَّ معاصِيَهُمْ[1] لا تَضُرُّهُ، ولا تُدْخِلُ نُقْصاناً في مُلْكِهِ. فَخَلَقَهُ مع عِلْمِهِ لِما يكون منهُ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَخْلُقِ الخَلْقَ لِمنافِعِ نفسِهِ ولا لِحاجتِهِ ولكنْ لِمنافِعِ أنفسِهِمْ ولحاجاتِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ الأعداءَ والأولياءَ نَظَراً لِلأولياءِ، لِيَعْلَمَ أولياؤُهُ الاختِصاصَ الذي اختَصَّهُمْ بِهِ، ولو كانوا جميعاً أولياءَهُ لم يَعْرِفوا فَضيلَةَ اللهِ واختِصاصَهُ إياهُم. وهكذا النِّعَمُ وإحسانُ اللهِ لا يُعْرَفُ بِنَفْسِ النِّعَمِ ونَفْسِ الإحسانِ، وإنما تُعْرَفُ بالبلايا والشدائدِ التي تَحُلُّ. فَعَلَى ذلكَ الأولياءُ؛ لولم يكنِ الأعداءُ لم يَعْرِفوا اختِصاصَ اللهِ لهمْ وفضائِلَهُ التي أكْرَمَهُمْ بها.

وقالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ الأعداءَ نَظَراً لِلأولياءِ على ما ذَكَرْنا، لكنْ مِن وجهٍ آخَرَ: وأصْلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ جائزٌ أنْ يُنْشِئَ أشياءَ، فيها حِكْمَةٌ وسِرِّيَّةٌ، لا يَبْلُغُها عِلْمُ الخَلْقِ، ولا تُدْرِكُها حِكْمَةُ البَشَرِ على ما جَعَلَ النِّعَمَ الظاهرةَ، فيها حِكْمَةٌ مَعْنًى، لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الخَلْقِ ولا حِكْمَةُ[2] البَشَرِ. وكذلكَ البلايا والشدائدُ، فيها حِكْمَةٌ، لا يَبْلُغُها عِلْمُ الخَلْقِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنهُ خَلَقَ إبليسَ والعُصاةَ والغُواةَ لِحِكْمَةٍ، جَعَلَ في ذلكَ حِكْمَةً، لا يَبْلُغُها عِلْمُ الخَلْقِ، ولا تُدْرِكُها حِكْمَةُ البَشَرِ على ما ذَكَرْنا مِنَ النِّعَمِ الظاهرةِ والشدائدِ الظاهرةِ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ الخَلْقَ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ، يَعْصونَ، ويُعادونَ، لكنْ [مَكَّنَ لهمْ][3] مِنَ الاختِيارِ والإيثارِ ما بِهِ نَجاتُهُمْ وهَلاكُهُمْ إذا اختاروا / ٢٧٧ ـ أ/ ذلكَ. فإذا اختاروا ما بِهِ نجاتُهُمْ نَجَوا، وإذا اختاروا ما بِهِ هلاكُهُمْ هَلِكوا، فيكونُ هلاكُهُمْ باختِيارِهِمْ ونَجاتُهُمْ باختِيارِهِمْ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ أنهُ أنْشَأَهُمْ في هذهِ الدنيا لِيَمْتَحِنَهُمْ فيها، وفي خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنْ إبليسَ وغيرِهِ مِنَ الأعداءِ لِيُتِمَّ لهمُ المِحْنَةَ. وفي تَرْكِ خَلْقِ ذلكَ ذهابُ المِحْنَةِ، وهي دارُ الامتِحانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إلى النفخةِ الأولى. وقيلَ: إلى النفخةِ الثانيةِ، ونَحْوُهُ. لكنا لا نَعْلَمُ ذلكَ. وكأنهُ تعالى أنْظَرَهُ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ولم يُبَيِّنْ لهُ ذلكَ الوَقْتَ، ولم يُطْلِعْهُ عليهِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٤٨] أخْبَرَ أنهُ يَرَى ما لا يَرونَ هُمْ، وأنهُ يَخافُ اللهَ. ولو كانَ بَيَّنَ لهُ الوَقْتَ المَعْلومَ لَكانَ لا يَخافُ هلاكَهُ قَبْلَ ذلكَ الوَقْتِ.

فهذا يدلُّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ؟

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي لَعَنْتَني، وهذا منهُ احتِيالٌ وفِرارٌ عن مذهبِ الاعتِزالِ وما يُلْزِمُهُمْ في قولِهِ: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ يُلْزِم في قولِهِ: لَعَنْتَني، لأنَّ اللَّعْنَ هو الطَّرْدُ، فإذا طَرَدَهُ عَنْ رحمتِهِ فقد خَذَلَهُ في الطَّرْدِ. والإغواءُ والإضلالُ سَواءٌ؛ فَيَلْزَمُ في اللَّعْنِ ما يُلْزِمُهُمْ في الإغواءِ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: الإغواءُ واللَّعْنُ مِنَ اللهِ شَتْمٌ. لكنَّ هذا بعيدٌ؛ لا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ الشَّتْمُ [ولا يُقالُ][5] إنهُ يَشْتُمُ؛ لأنَّ الشاتِمَ والسابَّ لآخَرَ في الشاهدِ بِما يَشْتُمُهُ مَذمومٌ عندَ الخَلْقِ. فلا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ ما بِهِ يُذَمُّ.

وأصْلُهُ أنَّ قولَهُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ يَحْتَمِلُ أنهُ خَلَقَ فِعْلَ الغِوايَةِ منهُ، أو أغْواهُ لَمّا عَلِمَ أنهُ يَختارُ الغِوايَةَ والضلالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ في الغِوايَةِ بِما أُغْويهِمْ. وقد ذَكَرْنا هذا وأمثالَهُ في ما تَقَدَّمَ.

فإنْ قيلَ: قولُهُ: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قولُ إبليسَ وهو كاذبٌ بالإضافةِ إليهِ، قيلَ: [لو كانَ][6] في ما أضافَ إليهِ الإغواءَ كاذباً

---

(١) في الأصل وم: معاصيه. (٢) في م: حكم. (٣) في الأصل: كن، في، م: كن لهم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

لَكَذَّبَهُ، ورَدَّ عليهِ قولَهُ [كما كَذَّبَهُ، وَرَدَّ عليهِ][1]: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن [نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ]﴾[2] [الأعراف: ١٢، ص ٧٦] حينَ[3] ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] فلما لم يَرُدَّ عليهِ، ولم يُكَذِّبْهُ في ما أضافَ إليهِ حَرْفَ الإغواءِ. دلَّ أنَّ [إضافةَ الإغواءِ والإضلالِ إليهِ][4] حقيقةٌ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ إنما ذلكَ منهُ ذِكْرُ فَضْلِهِ وإحسانِهِ حينَ[5] أخبَرَ أنهُ خَلَقَهُ ممّا هو أفضلُ وأعظَمُ ممّا خَلَقَ آدمَ، فَيُخرَجُ ذلكَ مُخرَجَ الشُّكْرِ.

وأما قولُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ ليسَ على ذلكَ فلا يُحْتَمَلُ ألّا يُكَذِّبَهُ، ولا يَرُدَّ عليهِ قولَهُ إذا كانَ كاذباً فيهِ، لأنهُ فعلُ شرٍّ أضافَهُ إليهِ، إذا لم يكنْ منهُ الإغواءُ، لذلكَ اختلَفا؛ أي لو كانَ قولُ إبليسَ لعَنَهُ اللهُ كَذِباً فما تَصنعونَ بقولِ نوحٍ ﷺ حينَ[6] قالَ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] [وقولِ موسى حينَ قالَ:][7] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؟ [الصف: ٥].

الآية ٤٠ ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ منهُ عَزْمٌ على ما ذَكَرَ دونَ أنْ يَتفَوَّهَ بذلكَ. فأخبَرَهُ ﷻ عمّا كانَ عَزَمَ مِنَ الإغواءِ وغَيرِهِ بالقولِ، وذلكَ جائزٌ، يُخبِرُ عنِ العَزْمِ والقَصْدِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الدهر: ٩] لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا القولُ الذي أخبَرَ عنهمْ قولاً منهُمْ، لأنهُ لا أحدَ مِنَ المُتَصَدِّقينَ يقولُ بِمِثْلِ ذلكَ عندَ التَّصَدُّقِ، لكنهُ إخبارٌ عما قَصَدوا، وعَزَموا، بالتَّصَدُّقِ. فَعَلَى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا مِنَ اللهِ إخباراً عمّا عَزَمَ إبليسُ، وقَصَدَ، على غَيرِ التَّفَوُّهِ بهِ والقولِ، وهو ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩، والنور ٢٩] أخبَرَ أنهمْ كَتَموا فيهِ، وأضمَروا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّفَوُّهِ بما ذَكَرَ لمّا قالَ لهُ ﷻ، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] لمّا شَهِدَ اللهُ عليهِ باللَّعْنِ إلى يومِ الدينِ أيِسَ لَعَنَهُ اللهُ عنِ الهُدى، فقالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ لَعَنْتَني، وشَهِدتَ عليَّ بذلكَ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [المُخْلَصُ][8] بنصبِ اللامِ هو الذي أخلَصَهُ اللهُ، وحَفِظَهُ، وعَصَمَهُ، واختَصَّهُ بذلكَ، والمُخلَصونَ[9]: لا يُقالُ إلّا بعدَ أنْ يكونَ للهِ فيهمْ صُنْعٌ، ولَهُمُ اختِصاصٌ وفضائلُ، اختَصَّهُمُ [اللهُ بذلكَ برحمتِهِ][10] وفَضْلِهِ.

[والمُخلِصُ[11] بخفضِ اللامِ هو الذي أخلَصَ لهُ الاعتِقادَ والعملَ والدعاءَ][12].

والمُعتَزِلةُ يقولونَ: لا يَسْتَوجِبُ أحدٌ الاختِصاصَ والفضيلةَ إلّا بِفِعْلٍ يكونُ منهُ، لا يَسْتَوجِبُ باللهِ. يقولونَ: اللهُ لا يُغوي أحداً إلّا إبليسَ ولا واحداً مِنْ أتباعِهِ. فإبليسُ أعرَفُ باللهِ مِنَ المُعتَزِلةِ [حينَ رَأى][13] أنَّ اللهَ لا يُغوي أحداً، ولا يَختَصُّ أحداً إلّا بِصُنْعٍ يكونُ منهُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿عَلَىَّ﴾ بِمَعْنى إليَّ أي إلى صِراطٍ مستقيمٍ؛ يقولُ: هو بيدي، ليسَ بَيَدِ أحدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الحقُّ يَرْجِعُ إلى اللهِ، وعليهِ طريقُهُ، لا يَعْوَجُّ على شيءٍ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي عليَّ بيانُهُ، وهو مُستَقيمٌ كقولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] أي بيانُ قَصْدِ السبيلِ. وقالَ بعضُهُمْ: لمّا قالَ إبليسُ ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقولُ: عليَّ مَمَرُّ مَنْ أغوَيتَهُ، وتابِعُكَ كقولِكَ[14] لآخَرَ إذا أوعَدْتَهُ: إنَّ طريقَكَ عليَّ؛ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي ليسَ لكَ عليهمْ حُجَّةٌ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فإنهمْ يَتَّبِعونَكَ بلا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: كذا، وخلقته في كذا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الإضافة إليه الإغواء والإضلال. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وقال موسى. (٨) في م، والمخلص، مدرجة بعد الدعاء، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: والمخلص. (١٠) في الأصل وم: بذلك رحمة الله. (١١) في م: المخلص. (١٢) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٥٤. (١٣) في الأصل وم: حيث رأوا. (١٤) في الأصل وم: كقوله.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ تقهرُهُم، وتضطرُّهُم على ذلكَ ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فإنهم يتّبعونكَ على غيرِ قَهْرٍ واضطرارٍ، أي مَن كانَ في عِلمِ اللهِ أنْ يتّبِعَكَ، ويَختارَ الغِوايَةَ، وإنْ لم يكُنْ إغواؤكَ إيّاه، فإنَّ لكَ عليهِ سلطاناً.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لَمَوعِدُ إبليسَ وأتباعِهِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ تَحتمِلُ الأبوابَ المعروفةَ، وتَحتمِلُ الأبوابُ المَواردَ والجهاتِ التي تكونُ لَها.

ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؟ فهذا يدلُّ أنَّ المُرادَ بالأبوابِ المَواردُ والدَّركاتُ لا نفسُ الأبوابِ؛ إذْ ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ إنما يكونُ للدَّركاتِ، لا يكونُ للأبوابِ نفسِها.

قالَ الحسَنُ والأصمُّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ يَعْني بالأبوابِ الطَّبقاتِ والدَّركاتِ ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ لليهودِ بابٌ، وللصابئينَ[1] بابٌ، ولِلْمَجوسِ بابٌ، ولِلَّذينَ أشركوا بابٌ، ولِلمنافِقينَ بابٌ، ولأهلِ الكبائرِ بابٌ. وذكَرا[2] أيضاً باباً لِفَريقٍ أدخلا[3] أهلَ الكبائرِ [فيهِ والنَّصارى][4] والدَّهريَّةَ.

وعندَنا أنَّ ظاهِرَ الآيةِ في الكافِرينَ؛ لأنهُ قالَ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ والغاوُونَ هُمُ الكافِرونَ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ فإذا كانَ كذلكَ فَسبْعةُ[5] الأبوابِ التي ذَكَرَ كُلُّها لأهلِ الكُفرِ، لا يَدْخُلُ أهلُ الكبائرِ فيها.

ويُحتمَلُ بابٌ لِلْمُتَجاهِلَةِ، وهُمُ الذينَ يُنكِرونَ العالَمَ الشاهدَ والغائبَ، ولا يُقِرُّونَ بشيءٍ، وبابٌ لِلدَّهرِيَّةِ، وهُمُ الذينَ يُنْكِرونَ الصانِعَ، وبابٌ لِلثَّنَوِيَّةِ، وهُمُ الذينَ يقولونَ بالاثنينِ، وبابٌ للذينَ أشرَكوا، وهُمْ يقولونَ بالواحِدِ، لكنهمْ يُشرِكونَ فيهِ غيرَهُ، يَعْبُدونَ الأصنامَ والأوثانَ، وبابٌ لِلْيَهودِ، وبابٌ لِلنَّصارى، وبابٌ لِلْمُنافِقينَ. فتلكَ سبعةُ أبوابٍ. وليسَ لأهلِ الكبائرِ مُسَمًّى مَعْلومٌ، إنما ذلكَ كلُّهُ لأهلِ الكُفرِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ إنْ كانَ أهلُ الكبائرِ في قولِهِ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ فيكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا الكبائرَ، وإنْ كانَ أصحابُ/ ٢٧٧ ـ ب/ الكبائرِ لم يَدْخلُوا في قولِهِ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ فيكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتَّقَوُا الشِّرْكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي بَساتينَ. والبَساتينُ هي التي الْتَفَّتْ بالأشجارِ والنخيلِ، والعُيونُ قد تكونُ جاريةً في الدنيا، وقد تكونُ غيرَ جاريةٍ. فأخبَرَ في آيةٍ أُخرى أنَّ عُيونَ الآخِرةِ تكونُ جاريةً بقولِهِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَعُيُونٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ العُيونَ لِيُعْلَمَ أنَّ مِياهَ الجنةِ ليسَتْ تكونُ مِنَ الثلوجِ والأنهارِ العظامِ على ما تكونُ في الدنيا، ولكنْ تَنبُعُ فيها.

وقالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ العُيونَ لأنهُ يَنْبُعُ في بُستانِ كلِّ أحدٍ عَينٌ على حِدَةٍ، لا تأتي بُستانَهُ[7] مِنْ مُلْكِ آخرَ ومِنْ بُستانِ آخرَ على ما يكونُ في الدنيا، ولكنْ تَنبُعُ في جَنَّةِ كلِّ أحدٍ عَينٌ على حِدَةٍ على ما أرادَ اللهُ، ليسَ أنها تتَّصِلُ بالأرضِ كما ذَكَرَ في قصةِ بَني إسرائيلَ: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أنَّ [شاء][8] اللهُ في ذلكَ الحَجَرِ ماءً، يَخرُجُ لهمْ على غيرِ اتِّصالِهِ بالأرضِ، ولكنْ بِلُطْفِهِ يُنْشِئُ فيهِ ماءً، فَعَلى ذلكَ في الجِنانِ التي وَعَدَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِما تَختلِفُ رغائبُ الناسِ في الدنيا: منهُمْ مَنْ يَرْغَبُ في العَينِ[9]، ويَتَلَذَّذُ بالنظرِ إليها، ومنهم مَنْ يَرْغَبُ في النَّهرِ الجاري، فَذَكَرَ مَرَّةً العُيونَ ومَرَّةً الأنهارَ كقولِهِ: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥ و. . .]

(١) في م: وللنصارى. (٢) في الأصل وم: وذكر. (٣) في الأصل وم: أدخلو. (٤) في الأصل: فيها والنصارى، في م: فيها والصابئين. (٥) في الأصل وم: فالسبعة. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: بستان. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الدين.

على ما ذَكَرَ مَرَّةً الخيامَ والقِبابَ [ومرَّةً][1] الغُرَفَ وأنواعَ الفُرُشِ والبُسُطِ والكيزانَ والأكوابَ والجواريَ والغِلْمانَ وغيرَ ذلكَ على ما يَرْغَبُ الناسُ في الدنيا: منهمْ مَنْ يَرغبُ في نوعٍ [لا يرغبُ في نوعٍ][2] آخَرَ، فَذَكَرَ فيها كلَّ [ما][3] يَرْغبونَ في الدنيا لِيَبْعَثَهُمْ ذلكَ على العَمَلِ الذي بهِ يُوصَلُ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي اجْعَلوا دخولَكُمْ فيها بِسَلامٍ على ما أمَرَهُمْ في الدنيا أنْ يَجْعَلوا الدخولَ في المنازلِ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً﴾ الآيةَ [النور: ٦١] وعلى ما أخبَرَ أنَّ الملائكةَ يُسلِّمونَ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] وكقولِهِ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الحجر: ٥١ و٥٢].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ أي ادخلُوها بِسلامٍ، لا يُصيبُكُمْ مَكروهٌ ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا يُنَغِّصُكُمْ خَوفٌ ولا حُزنٌ على ما أخبَرَ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ و. .].

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ في الآخرةِ. قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] أي نَزَعْنا ما في صدورِهِمْ مِنَ الغِلِّ[4] الذي كانَ في الدنيا بالكفرِ[5] فصاروا ﴿إِخْوَٰنًا﴾ بالإسلامِ الذي هداهُمُ اللهُ إليهِ، فكانوا إخواناً.

ثم قيلَ لهمْ: ادْخُلُوا الجنةَ بلا غِلٍّ، وهو ما قالَ: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] قد نَزَعَ مِنْ قلوبِهِمُ الغِلَّ في الدنيا، فصاروا إخواناً، فَدَخَلوا الجنةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ في الآخِرةِ، إذا دَخَلوا الجنةَ، وتقابَلوا، واتَّكَؤوا على سُرُرٍ، فعندَ ذلكَ يَنْزِعُ الغِلَّ مِنْ قُلوبِهِمْ، والمظالمَ التي كانَتْ بينَهُمْ. فإنْ كانَ هذا فهو بَيْنَ أهلِ الإسلامِ.

وعلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: مَنْ جَفا آخَرَ في الدنيا أنْ يَنْسَى اللهُ ذلكَ منهُ[6] في الجنةِ، لأنَّ ذِكْرَ الجَفاءِ يُنَغِّصُ النِّعَمَ التي فيها. وكذلكَ ما يكونُ بينَ الرجلِ وَوَلَدِهِ مِنَ الجفاءِ والعقوقِ، يجوزُ أنْ يَنْسَى [اللهُ ذلك منهما][7]. وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ قالَ: إني لأرجو أنْ أكونَ أنا وطَلْحَةُ والزبيرُ.

وقولُهُ[8] تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَجْعَلُ اللهُ منازِلَهُمْ بعضاً مُقابلَ بَعْضٍ، فَيَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بعضٍ، ويزورُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وقالَ بعضُهُمْ: بأمرِ اللهِ السُّرُرُ التي هُمْ عليها جُلوسٌ ليكونَ بَعْضُها مُقابِلَ بَعْضٍ؛ إذا اشْتَهَى بعْضُهُمْ زيارةَ بَعْضٍ، ولا يكونونَ مُدْبِرينَ ولا مُعْرِضينَ بل مُقْبلينَ. يُخْبِرُ عنِ اجْتِماعِهِمْ في الآخِرَةِ في الشرابِ وأنواعِ المَطاعِمِ على ما يَسْتَحْسِنُ في الدنيا الإخوانُ بينَهُمُ الاجْتِماعَ على الشرابِ والطعامِ والتَّلَذُّذِ والنظرِ، بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ.

فَعَلَى ذلكَ أخْبَرَ أنَّ لهمْ في الآخِرَةِ اجْتِماعاً في الشرابِ والنظرِ وأنواعِ التَّلَذُّذِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي عَناءٌ ومَشَقَّةٌ. أخْبَرَ أنهُ لا عناءَ يَمَسُّهُمْ كما يكونُ في الدنيا، لأنَّ في الدنيا مَنْ أطالَ المُقامَ في مَوضعٍ يَمَلُّ مِنْ ذلكَ، ويَسْأمُ، وكذلكَ إذا أكْثَرَ مِنْ نَوعٍ مِنَ الطعامِ أو الشرابِ والفاكهةِ يَمَلُّ مِنْ ذلكَ، ويَسْأَمُ، ويُؤذيهِ، ولا يُوافِقُهُ. فأخْبَرَ أنَّ أهلَ الجنةِ لا يَمَلُّونَ، ولا يُؤذيهِمْ طَعامُهُمْ وإنْ أكْثَروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أخْبَرَ أنهمْ لا يُخْرَجونَ منها، ولا هُمْ يَطْلُبونَ الخروجَ منها كقولِهِ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] لأنَّ خَوفَ زوالِ النعمةِ يُنَغِّصُ على صاحِبِها تلكَ النعمةَ وطَعْمَها، فأخْبَرَ أنهمْ فيها أبداً، وتلكَ النِّعْمةُ لهمْ دائمةٌ غيرُ زائلةٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: غل. (٥) من م، في الأصل: في الكفر.
(٦) في الأصل وم: منهم. (٧) في الأصل وم: ذلك عليهم. (٨) في الأصل وم: وقال الله.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ أي أخبِرْهُمْ ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لِمَنِ استَغفَرَني، وتابَ عمّا ارْتَكَبَ مِنْ مَعاصيهِ.

الآية ٥٠ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لِمَنْ عصاني، ولم يَسْتَغفِرْ، ولم يَتُبْ إليَّ[2].

ويَحتَمِلُ غيرَ هذا، وهو أنْ يقولَ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لِئلا يَيْأسوا مِنْ رَحْمَتي، ولا يَقْنَطوا مِنّي، ولكنْ يَرْجونَ رَحْمَتَهُ وعفوَهُ، ويَخافونَ عذابَهُ ونَقمتَهُ، ونَبِّئْهُمْ أيضاً: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لِئلا يكونوا[3] آمِنينَ أبداً. فيكونُ فيهِ أمرٌ بأنْ يُبَشِّرَ وأنْ يُنذِرَ، كأنهُ قالَ: بَشِّرْ أوليائي ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لأوليائي ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لأعدائي.

وفي قولِهِ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ بِشارةٌ[4] ونَذارةٌ. أمّا البِشارةُ فهي[5] قولُهُ: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأمّا النَّذارةُ فهي[6] قولُهُ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أيْ نَبِّئْ قومَكَ عَنْ ضَيفِ إبراهيم، أي نَبِّئْهُمْ بِتَمامِ ما فيهِ مِنَ الزَّجرِ والمَوعِظَةِ، لأنَّ في ذلكَ إخبارَ ما نَزَلَ بالمُكَذِّبينَ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ، وهو الإهلاكُ ونَجاةُ مَنْ صَدَّقَ الرسلَ.

ففيهِ تَمامُ ما يَزْجُرُهُمْ، ويَعِظُهُمْ مِنَ الترهيبِ والترغيبِ.

فإنَّ فيهِمْ آيةً لِرِسالتِكَ ونُبوّتِكَ لأنهُ يُخبِرُهُمْ على ما في كُتُبِهِمْ، لم يَشْهَدْها هو، فَيَدُلُّهُمْ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ، أو يُنَبِّهُهُمْ، فإنَّ ذلكَ ما يَزْجُرُهُمْ عنْ مِثْلِ صنيعِهِمْ.

وفيهِ ذِكْرُ نِعَمِ اللهِ لأنهمْ جاؤوا بالبِشارةِ بِشارةِ الوَلَدِ، وجاؤوا بإهلاكِ قومٍ مُجْرمينَ. فذلكَ بالذي يَزْجُرُهُمْ عَنْ مِثْلِهِ، والبِشارةُ تُرَغِّبُهُمْ في مِثْلِ صَنيعِ إبراهيمَ، فتُنَبِّهُهُمْ، فإنَّ[7] فيهِ ما ذَكَرْنا.

ودَلَّ[8] قولُهُ: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أنَّ الضَّيفَ اسْمُ كلِّ نازلٍ على آخَرَ، طَعِمَ عندَهُ، أو لمْ يَطْعَمْ، وكانَ نزولُهُ للطعامِ أوْ لا.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي سَلَّموا على إبراهيمَ، فَرَدَّ إبراهيمُ السلامَ عليهِمْ.

وقالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: السلامُ: جَعَلَهُ اللهُ أماناً بَينَ الخَلْقِ وعَطفاً في ما بَينَهُمْ وسَبَباً لإخراجِ الضغائِنِ مِنْ قلوبِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: جَعَلَ اللهُ السلامَ تَحيَّةَ كلِّ داخلٍ على آخَرَ؛ وهو ما ذَكَرْناهُ. وقالَ بعضُهُمْ: السلامُ هو اسْمُ كلِّ خيرٍ وبِرٍّ وبَرَكَةٍ كقولِهِ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفونَ. قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما خافَ لأنهُ ظَنَّ أنهمْ لصوصٌ وأهلُ رِيبَةٍ. لكنَّ هذا [لا][9] يُحتَمَلُ أنْ يَخافَ منهمْ، ويَظُنَّ انهمْ لصوصٌ وأهلُ رِيبَةٍ، وقد سَلَّموا عليهِ وقتَ ما دَخَلوا عليهِ، واللصوصُ وأهلُ الرِّيبَةِ إذا دَخَلوا بَيتَ آخَرَ، لا يُسَلِّمونَ عليهِ، لكنهُ إنما خافَهُمْ إذ[10] رَأى أيديَهُمْ لا تَصِلُ إليهِ كما قالَ: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] عندَ ذلكَ خافَهُمْ. فلما رأى ذلكَ / ٢٧٨ ـ أ/ ظَنَّ إبراهيمُ أنهمْ ملائكةٌ إنما جاؤوا لأمرٍ عظيمٍ حينَ[11] لم يَتَناوَلوا مِمّا قَرَّبَ إليهِمْ، وبَينَ إبراهيمَ وبَيْنَ المكانِ الذي يُرْتَحَلُ منهُ مكانٌ تَقَعُ لهمُ الحاجةُ إلى الطعامِ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تَخَفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ كقولِهِ[12] في آيةٍ أُخرى ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] والحِلمُ هو الذي يَنفي عنْ صاحبِهِ كلَّ أخلاقٍ دَنِيَّةٍ، والعِلْمُ هو الذي يدعو صاحِبَهُ إلى كلِّ خُلُقٍ رفيعٍ لِيُعْلَمَ أنهُ اجْتَمَعَ فيهِ جميعُ الخِصالِ الرفيعةِ، ونَفَى عنهُ كلَّ خُلُقٍ دَنيٍّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إليه. (٣) في الأصل وم: يكون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: فيه. (٥) في الأصل وم: فهو.
(٦) في الأصل وم: فهو. (٧) من م، في الأصل: وقال. (٨) الواو ساقطة من م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إذا.
(١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: وقال.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي ابَشَّرْتُموني انْ يولَدَ لي، وأنا على الحالِ التي أنا عليها؟ أوَ يُرَدُّ إليَّ شَبابي وشَبابُ امْرَأتي ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ على الحالِ التي أنا عليها وامْرَأتي؟ أوَ يُرَدُّ الشبابُ إلينا.

وإلّا لا يَحتَمِلُ أنْ يَخفَى عليهِ قدرةُ اللهِ [على][1] هِبَةِ الوَلَدِ في حالِ الكِبَرِ، لكنهُ لم يَرَ الوَلَدَ[2] يُولَدُ في تلكَ الحالِ، فاستَخبَرَهُمْ أنهُ يولَدُ في تلكَ الحالِ، أو يُرَدُّ إلى حالةٍ أخرى حالِ الشبابِ. واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما هو كائنٌ، لا محالَةَ، والواجبُ على كلِّ مَنْ أُنعِمَ عليهِ أنْ يَشتَغِلَ بالشكرِ لِلنِّعَمِ، لا يَستَكشِفَ عنِ الوجوهِ التي أُنعِمَ والأحوالِ التي يكونُ عليها.

ثم في البِشارةِ بالوَلَدِ بِشارَتانِ: إحداهما[3]: بِشارةٌ بالغلامِ، والثانيةُ[4]: بالبَقاءِ والبلوغِ إلى وَقْتِ العِلْمِ حينَ[5] قالوا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] ففي قولِهِ: ﴿وَكَهْلًا﴾ دلالةٌ وبِشارةٌ أنهُ يَبقَى إلى أنْ يَصيرَ كَهْلاً، وألا الكَهْلُ يَضْعُفُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الأنبياءَ قد نُهُوا عن أشياءَ، قد عُصِموا عنها ما لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ منهمْ ما نُهُوا عنهُ نَحوَ قولِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧و. .] [وقولِهِ][6]: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤و. .] [وقولِهِ: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾][7] [يونس: ١٠٦] [وقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ][8] ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] وأمثالُهُ. وذلكَ ممّا لا يُتَوَهَّمُ كونُهُ منهمْ. وذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ العصمةَ لا تَرْفَعُ المِحنَةَ، لأنها لو رُفِعَتْ لَذَهَبَتْ فائدةُ العِصمَةِ لأنهُ إنما يُحتاجُ إليها عندَ المِحْنَةِ. فأمّا إذا لم تكنْ مِحْنَةٌ فلا حاجةَ[9] إليها.

فَعَلَى ذلكَ إبراهيمُ لم يكنْ قَنِطَ مِنْ رحمةِ ربِّهِ، إذ[10] لا يَهَبُ لهُ الوَلَدَ في كِبَرِهِ، ولكنْ ما ذَكَرْنا.

الآية ٥٦ ثم بَيَّنَ أنهُ لا ﴿يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أخبَرَ أنَّ القُنوطَ مِنْ رحمةِ اللهِ، هو ضَلالٌ، والإياسَ مِنْ رحمتِهِ كفرٌ.

والمعتزلةُ يَقْنَطونَ مِنْ رحمةِ ربِّهِمْ لِقولِهِمْ في أصحابِ الكبائرِ ما يقولونَ [فَعِندَهُمْ تضيقُ رحمتُهُ حتى لا تَسَعَ فيها الكبائرُ][11].

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قيلَ: فما خَبَرُكُمْ وما قصتُكُمْ؟ وما شأنُكُم؟ والخطبُ الشأنُ؛ أي على أيِّ أمرٍ وشأنٍ أرسِلْتُمْ؟

الآية ٥٨ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ لم يُحتَمَلْ أنْ يكونَ أوَّلَ ما أخبَروا إبراهيمَ، وقالوهُ، هذا، ولكنْ كانَ فيهِ ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١] وقالوا[12]: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤] فقالَ إبراهيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

يَذْكُرُ ههنا على الاختصارِ. فذلكَ يدلُّ أنَّ الخَبَرَ إذا أدّى مَعْناهُ يجوزُ، وإنْ لم يُؤتَ بِلَفْظِهِ على ما كانَ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ كأنَّ الثُّنيا ههنا تكونُ عنِ الأشخاصِ وأنفُسِ أهلِ القريةِ [لا][13] عن قولِهِ ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ لأنَّ آلَ لوطٍ لم يكونوا مُجرِمينَ، فلا يُحتَمَلُ الاستِثْناءُ مِنْ ذلكَ. أو لا يكونُ على حقيقةِ الثُّنيا، وإنْ كانَ في الخَبَرِ استِثناءٌ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أخبَرَ أنهمْ يُهلِكونَ قومَهُ، ثم استَثنى آلَهُ منهمْ، ثم امْرأتَهُ مِنْ آلِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الوالد. (٣) في الأصل وم: أحدهما. (٤) في الأصل وم: والثاني. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تقع. (١٠) في م: أنه. (١١) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم: والمعتزلة. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ففيهِ دلالةٌ أنَّ الثُّنيا ليسَ برجوعٍ؛ لأنهُ لو كانَ [رجوعاً لكانَ][1] يوجِبُ الكذبَ في الخَبَرِ. ولكنْ في الثُّنيا بيانُ تَحصيلِ المُرادِ مِمّا أُجمِلَ في اللفظِ.

وفيهِ دلالةٌ أيضاً أنهُ يجوزُ أنْ يُستَثنى مِنَ الاِستِثناءِ، لأنهُ استَثنى امرأتَهُ مِن آلِهِ بقولِهِ: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ فَجعلَتِ[2] المرأةُ مِن قومِهِ حينَ[3] استثناها مِن آلِهِ.

وفيهِ أنهُ قد يجوزُ أنْ يُستَثنى مِنْ خِلافِ نَوعِهِ، لأنهُ استَثنى آلَ لوطٍ مِنْ قومِهِ، والمُجرِمُ ليسَ مِنْ نوعِ الصالحِ، ثم استَثنى امرأتَهُ مِن آلِهِ، وهي ليسَتْ منهم.

وفيهِ أيضاً أنَّ آلَ الرجلِ يكونُ أتباعَهُ حينَ[4] استَثنى آلَهُ منهمْ، يُدخِلُ فيهِ مَنْ تَبِعَهُ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: آلَ فرعونَ، وإنما هُمْ أتباعُهُ، وآلَ موسى وآلَ هارونَ وآل عِمرانَ: كُلٌّ يرجِعُ إلى أتباعِهِمْ؟ فَيَدخُلُ في قولِهِمْ: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كُلُّ مَنْ تَبِعَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا﴾ أي أخبَرْنا. لكنَّ هذا منهُ احتِيالٌ على تَقوِيَةِ مَذهَبِ الاِعتِزالِ: إنهمْ يُنكِرونَ أنْ تكونَ أفعالُ العبيدِ مُقَدَّرَةً للهِ مَخلوقةً، ففي ذلكَ دلالةٌ أنَّ أفعالَهُمْ مخلوقةٌ للهِ مُقَدَّرَةٌ لهُ. وأصلُهُ: أي قَدَّرْنا بقاءَها مِنَ الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقينَ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: الغابرونَ الباقونَ، والغابرونَ الماضونَ أيضاً؛ يُقالُ: غَبَرَ يَغبُرُ غَبْراً إذا بَقِيَ، وإذا مَضى أيضاً.

الآيتان ٦١ و٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي إنكمْ مُنكَرونَ، لا تُعرَفونَ بأهلِ هذهِ البَلدَةِ. وإنما قالَ لهمْ هذا لأنَّ قومَهُ[5] إنما يَعمَلونَ ما يَعمَلونَ بالغُرَباءِ، لا يَعمَلونَ بأهلِ البَلَدِ.

ألا تَرى أنهمْ قالوا لهُ: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أنْ تُضيفَ أحداً منهمْ؟ واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ هذا ليسَ بِجوابٍ لما سَبَقَ مِن قومِهِ مِن قولِهِ: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولكنْ قالوا ذلكَ لهُ، واللهُ أعلمُ بَعْدَ ما كانَ بَينَ لوطٍ وبَينَ قومِهِ مُجادلاتٌ ومُخاصماتٌ: مِنْ ذلكَ قولُهُ[6]: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٨ و٦٩] وغيرُ ذلكَ مِنَ المُخاصماتِ. وقد كانَ لوطٌ يَعِدُهُمُ العذابَ بِصَنيعِهِمُ الذي كانوا يَصنَعونَ. ولذلكَ قالوا لهُ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. فَعِندَ ذلكَ قالوا: ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: بما كانوا فيهِ يَشُكّونَ بما كانَ يَعِدُهُمْ مِنَ العذابِ. وقال بعضُهُمْ: ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يُجادِلونَ، ويُنازِعونَ. أو يقولُ: ﴿بَلْ جِئْنَاكَ﴾ بجزاءِ ما ﴿كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

ثم امتِراؤُهُمْ يَحتَمِلُ مُجادَلَتَهُمْ إياهُ وما كانوا عليهِ مِنَ الرِّيبَةِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بِنَجاتِكَ ونَجاةِ أهلِكَ وإهلاكِ قومِكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالعذابِ الذي كُنتَ تَعِدُهُمْ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بما نَقولُ[7] يَحتَمِلُ هذا إنْ لم يكُنْ هذا منهُمْ قولاً، قالوهُ، لأنَّ لوطاً يَعلَمُ أنهمْ صادقونَ بما يقولونَ حينَ[8] عَلِمَ أنهمْ ملائكةُ اللهِ. لكنْ أخبَرَ عنهُمْ على ما كانوا عليهِ على غيرِ قولٍ كانَ منهمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي بِبَعضٍ مِنَ الليلِ. وقال بعضُهُمْ: بِسَحَرٍ على ما قالَ: ﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وهو بَعضٌ، سَحَراً[9] كانَ، أو غيرُهُ ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي سِرْ مِنْ ورائِهِمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فحصلت. (٣) و(٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: قوم. (٦) من م، في الأصل: وقول. (٧) في الأصل وم: تقولون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: سحر.

وهكذا الواجبُ على كلِّ مَولَى أمرِ جيشٍ أنْ يَتْبعَ أثرَهُمْ، أو يَأمُرَ مَنْ يَتْبعُ أثرَهُمْ لِيُلْحِقَ بهِمْ مَنْ تَخلَّفَ منهُمْ، ويَحمِلَ المُنْقَطِعَ منهُمْ، وليكونَ ذلكَ أحفَظَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إلا امرَأتَكَ فإنها تَتخلَّفُ عنهمْ، فَيُصيبُها ما أصابَ/ ٢٧٨ ـ ب/ أولئكَ.

هذا يدلُّ أنْ ليسَ في تقديمِ الكلامِ وتأخيرِهِ مَنْعٌ، ولا في تَغْييرِ اللسانِ ولَفْظِهِ بَعْدَ أنْ يُؤدِّيَ المَعْنَى خَطَرٌ، لأنَّ قصةَ لوطٍ وغَيرِها مِنَ القِصَصِ ذُكِرَتْ، وكُرِّرَتْ على الزِّيادةِ والنُّقصانِ وعلى اختِلافِ الألفاظِ واللسانِ. فَدَلَّ أنَّ اختِلافَ ذلكَ لا يُوجِبُ تَغْييراً في المَعْنَى، ولا بأسَ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يَنْظُرْ أحدٌ وراءَهُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما لَعَلَّهُمْ إذ نَظَروا وراءَهُمْ، فَرَأوا ما حَلَّ بهِمْ مِنْ تَقليبِ الأرضِ وإرسالِها عليهِمْ، لا تَحْتَمِلُ بنيَتُهُمْ وقُلوبُهُمْ، فَيَهْلِكونَ، أو يُصْعَقونَ.

ألا تَرَى أنَّ موسى مَعَ قُوَّتِهِ لم يَحْتَمِلِ انْدِكاكَ الجَبَلِ؟ ولكنْ صُعِقَ، فصارَ مَدْهوشاً في ذلكَ الوَقْتِ، فهؤلاءِ أضعَفُ، وما حَلَّ بقومِهِمْ أشَدُّ، فَبُنْيَتُهُمْ أحرَى ألا تَحْتَمِلَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ قولُهُ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ قيلَ: وأوحَينا إليهِ كقولِهِ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي وأوحَينا إليهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي أنْهَينا إليهِ، وأعْلَمْناهُ، وهو قولُ الكسائيِّ والقُتَبيِّ.

وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ما ذَكَرَ: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ هذا الذي أوْحَى إليهِ، وأعلَمَهُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي وأوحَينا إلى محمدٍ ﷺ أنَّ ذلكَ الأمرِ الذي بَلَغَكَ مَقطوعٌ مُصْبِحينَ. ويَحْتَمِلُ الوَحْيُ إلى لوطٍ على البِشارةِ ﴿أَنَّ دَابِرَ﴾ قومِهِ ﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي مَقْطوعٌ نَسْلُهُمْ؛ فيهِ إخبارٌ عنْ قَطْعِ نَسْلِهِمْ. وفي الخَبَرِ عنْ قَطْعِ نَسْلِهِمْ إخبارٌ عنْ هلاكِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أصلُ هؤلاءِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ أي مُسْتأصَلونَ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ ليسَ يُريدُ بهِ حينَ أصْبَحوا، أي حينَ بَدْءِ طُلوعِ الفَجْرِ، ولكنْ أرادَ طُلوعَ الشمسِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] وإشراقُ الشمسِ هو ارْتِفاعُها وبَسْطُها في الأرضِ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

والصَّيحةُ تَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهما][1]: ذِكْرُ الصيحةِ لِسُرْعَةِ هلاكِهِمْ، أو قَدْرِ صَيْحَتِهِمْ.

والثاني: أهْلِكوا بالصيحةِ، أي[2] صاحَ أولئكَ لمّا أُهْلِكوا. والصيحةُ اسْمُ كلِّ عذابٍ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ يُسرُّونَ بنزولِ أضيافِهِ، أو يُبَشِّرُ بعضُهُمْ بعضاً لِما رأوا بهِمْ مِنْ حُسْنِ الهَيْئَةِ والمَنْظَرِ ورِقَّةِ[3] اللِّباسِ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: [يَحْتَمِلُ][4] ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ في ضَيفي فإنهمْ إنما نَزَلوا بنا على أمْنٍ مِنّا ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ عندَهُمْ، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخْرَى ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود: ٧٨].

ويَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ في الخَلْقِ، يقولوا[5]: إنَّ في أهلِ بَيتِ لوطٍ يُفْعَلُ بالأضيافِ كذا، وإنما عُرِفَ أهلُ بيتي عندَ الخَلْقِ بالصلاحِ، وإلا ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ في الخَلْقِ، واتَّقوا اللهَ في صَنيعِكُمْ بالرجالِ ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ عندَ الخَلْقِ [هود: ٧٨] قيلَ: هو الهَوانُ؟

الآية ٦٩ ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أنْ يكونَ الإخزاءُ، هو الفضيحةُ. دليلُهُ ما ذَكَرَ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) في الأصل وم: وجوها أحدها. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: ورفعة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقولون.

ضَيۡفِى فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ فيكونُ هذا تفسيرَ ذلكَ. ويَحتمِلُ الهَوانَ. وكذلكَ قيلَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [النحل: ٢٧] أي الهَوانَ اليومَ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا يدلُّ على أنهُ قد كانَ سَبَقَ النَّهيُ عنْ إنزالِ الأضيافِ. لِذلكَ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: يُخرَجُ قولُهُمْ: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُخرَجَ الاعتِذارِ لهُ لأنهمْ كانوا يُعظِّمونَ الرسلَ إليهِمْ سِوَى الخلافِ في الدينِ، والدعاءِ إلى دينِ اللهِ. فهمْ وإنْ كذَّبوا الحُجَجَ التي أتتْ بها[1] الرسُلُ فقد كانوا يُعظِّمونَهُمْ.

ألا تَرَى أنه قالَ لِرسولِنا ﷺ ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٣٣]، والأولُ أشبَهُ، واللهُ أعلَمُ؟

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ وفي مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ وقد ذَكَرْنا ذلكَ في السورةِ التي فيها ذِكْرُ هودٍ [الآية: ٧٨]. قالَ بعضُهُمْ: إنما عَرَضَ عليهِمْ نِساءَ قومِهِ[2] لأنهُ كالأبِ لهمْ على ما ذَكَرَ أنَّ نساءَ رسولِ اللهِ ﷺ [﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾][3] [الأحزاب: ٦] وقالَ بعضُهُمْ: في البناتِ إخبارٌ منهُ لهمْ بنهايةِ فُحْشِ صنيعِهِمْ، لأنهُ يجوزُ وُرودُ الشَّرْعِ على بَناتِهِ لهمْ، ولا يجوزُ حِلُّ ذلكَ بحالٍ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ قالَ الحَسَنُ: يُقسِمُ اللهُ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وليسَ لأحدٍ أنْ يُقسِمَ إلّا باللهِ، وإنما أقسَمَ بحياةِ محمدٍ ﷺ [وقالَ بَعْضُهُمْ: أقسَمَ بحياةِ محمدٍ ﷺ][4] ولم يُقسِمْ بحياةِ غَيرِهِ وبِغَيرِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ كلمةٌ تَستَعمِلُها العربُ في أقسامِهِمْ على غَيرِ إرادةِ القَسَمِ بحياةِ أحدٍ. ومنهمْ مَنْ قالَ: إنما ذلكَ على التَّعريضِ.

واصْلُهُ أنَّ اللهَ قد أقسَمَ بالشَّمسِ والقَمَرِ والليلِ والنهارِ، وأقسَمَ بالجبالِ والسماءِ وغَيرِها مِنَ الأشياءِ التي تَعْظُمُ عندَ الخلقِ. فرسولُ[5] اللهِ ﷺ قد أخبرَهُ أنهُ أرسلَهُ رَحمَةً لِلخَلْقِ وهُدىً[وذلكَ][6] أولَى أنْ يُعظِّمَهُ[7] بالقَسَمِ بهِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ [الأنبياء: ١٠٧] فَمَنْ كانَ رَحمَةً للعالَمِ كُلِّهِ أولَى أنْ يُعظَّمَ مِنْ غَيرِهِ؛ إذْ مَنافِعُهُ أعَمُّ وأكثَرُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ القَسَمُ ليسَ بحياةِ الرسولِ، ولكنْ بِدينِهِ، وهو قولُ الضَّحاكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السَّكْرَةُ الشِّدَّةُ التي تَحُلُّ بهمْ عندَ الموتِ؛ شَبَّهَهُمْ بِحَيرَتِهِمُ التي فيهمْ بِسَكْرَةِ الموتِ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يَتَرَدَّدونَ. وقالَ بعضُهُمْ: في ضَلالَتِهِمْ وكُفرِهِمْ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يَتَحَيَّرونَ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ اختِلافَهُمْ في الصَّيحَةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: الصَّيحَةُ، هي العذابُ نفسُهُ؛ أي أخَذَهُمُ العذابُ، وقالَ بعضُهُمْ: سَمَّى صَيحَةً لِسُرْعَةِ نزولِهِ بهمْ وأخذِهِ إيّاهُمْ وقولُهُ تعالى: ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أشرَقَتِ الشمسُ إذا ارتَفَعَتْ، وأنارَتْ، وشَرَقَتْ إذا بَزَغَتْ، وهو قولُ الكِيسانيِّ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ أي إذا أشرَقوا، إذا طَلَعَتِ الشمسُ عليهِمْ، وقد ذَكَرْنا هذا.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قد ذَكَرْنا في السورةِ التي فيها ذِكْرُ هودٍ [الآية: ٨٢].

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ لِلمتفَرِّسينَ مِنَ الفَراسَةِ.

ورُوِيَ في ذلكَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ يَرْويهِ أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ؛ قالَ: «اتَّقوا فِراسَةَ المُؤمِنِ فإنهُ يَنْظُرُ بنورِ اللهِ» [الترمذي: ٣١٢٧] قالَ: ثم قرأَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾. فإنْ ثَبَتَ الخَبَرُ، وثَبَتَتْ تِلاوَةُ هذهِ الآيةِ على إثْرِ ما ذَكَرَ فهو هو.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ المُعْتَبِرينَ، وقيلَ: المُتَفَكِّرينَ، وقيلَ: الناظرينَ. ذَكَروا أنهُ آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرينَ.

---

(١) في الأصل وم: بهم. (٢) في الأصل وم: قومهم. (٣) في الأصل وم: أمهاتي. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: كرسول. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يعظم.

ولكنْ لم يُبّنوا مِنْ أيِّ وجهٍ يكونُ آيةً لِمَنْ ذَكَرَ. فَيَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: آيةٌ ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ المُعْتَبِرِينَ لِرسالَتِهِ، لأنهُ ذَكَرَ قصةَ إبراهيمَ ولوطٍ على ما كانتا[1]، وهو لم يَشْهَدْهما[2].

فذلكَ يدلُّ على صِدْقِهِ وآيةِ رِسالَتِه.

والثاني: آيةٌ لِصِدْقِ خَبَرِ إبراهيمَ وصِدْقِ لوطٍ، لأنهمْ كانوا يُخْبِرونَ قومَهُمْ أنَّ العذابَ يَنْزِلُ بهمْ وغَيرَ ذلكَ مِنَ الوعيدِ، فَيَدلُّ ذلكَ على صِدْقِ خَبَرِ الأنبياءِ، عليهِمُ السلامُ، في كلِّ ما يُخْبِرونَ.

والثالثُ: في هلاكِ مَنْ أهلكَ منهُمْ ونَجاةِ مَنْ أنْجى منهُمْ آيةٌ لِمَنْ ذَكَرَ [أنَّ][3] مَنْ هَلَكَ منهُمْ هَلَكَ بالتكذيبِ، ومَنْ نجا منهُمْ نَجا بالتصديقِ، فيكونُ لهمْ آيةً.

والرابعُ: قد بَقِيَ مِنْ آثارِ مَنْ هَلَكَ منهُمْ / ٢٧٩ ـ أ/ آيةٌ، فيكونُ هَلاكُهُمْ [آيةً لِمَنْ][4] ذَكَرَ.

وأصْلُ هذا أنَّ اللهَ ذَكَرَ أنَّ ﴿فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أيِ المؤمنينَ المُتَّقِينَ، والاِعْتِبارُ والتَّفَكُّرُ للمؤمنينَ، لأنهمْ هُمُ المُنْتَفِعونَ. والمُتَوَسِّمُ[5] هو الذي يُعْلِمُ[6] بِعَلامةٍ، وكذلكَ المُتَفَرِّسُ هو الذي يَعْلَمُ[7] بعلامةٍ في غَيرِهِ؛ يَنْظُرُ في غَيرِهِ بأنَّ هلاكَهُ بِمَ كانَ؟ فَيَنْزَجِرُ عنْ صَنيعِهِ، ويَتَّعِظُ بِهِ، وهو كالمُتَفَقِّهِ الذي يَعْلَمُ[8] بالمَعْنَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي طريقٍ دائمٍ، مُعَلَّمٍ.

الآية ٧٧ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ الآيةَ تكونَ للمؤمنِ، واللهُ اعلَمُ.

ذَكَرَ في الآيةِ الأولى الآياتِ لأنهُ [ذَكَرَ][10] أنباءَ إبراهيمَ وقصتَهُ وقصةَ قومِ لوطٍ؛ ففي ذلكَ آياتٌ لِمَنْ ذَكَرَ.

وذَكَرَ في هذهِ الآيةِ ﴿لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهُ ذَكَرَ شيئاً واحداً، وهو السَّبيلُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أي وقد ﴿كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ والأيكةُ: ذُكِرَ أنها الغَيضةُ مِنَ الشجرِ، وهي ذاتُ آجامٍ وشَجَرٍ. كانوا فيها، فَبُعِثَ إليهِمْ شُعَيبٌ، وهو في الغَيضةِ.

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ شُعيباً بُعِثَ إلى قومَينِ: إلى أهلِ غَيضةٍ مَرَّةً، وإلى أهلِ مَدْيَنَ مَرَّةً على ما ذَكَرَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ و١٧٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ سَمّى اللهُ تعالى الكَفَرَةَ بأسماءٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ سمّاهُمْ مَرَّةً ظالِمينَ، ومَرَّةً فاسِقينَ، ومَرَّةً[11] مُشْرِكينَ.

واسْمُ الظُّلْمِ قد يَقَعُ في ما دونَ الكُفْرِ والشِّرْكِ. وكذلكَ اسْمُ الفِسْقِ يَقَعُ في ما دونَ الكُفرِ والشركِ.

ثم الكُفْرُ لم يَقْبُحْ لِاسْمِ الكُفْرِ، وكذلكَ الإيمانُ لم يَحْسُنْ لِاسْمِ الإيمانِ؛ إذ ما مِنْ مؤمنٍ إلّا وهو يَكْفُرُ بأشياءَ، ويُؤمِنُ بأشياءَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] المؤمنُ يَكْفُرُ بالطاغوتِ بالأصنامِ، كانَ أهلُ الكُفْرِ عَبَدوها، وكذلكَ الكافرُ يؤمِنُ بأشياءَ، و يَكْفُرُ بأشياءَ؛ يؤمِنُ بالأصنامِ، ويَكْفُرُ باللهِ.

فَثَبَتَ أنَّ الكُفْرَ لِاسْمِ الكُفْرِ ليسَ بِقَبيحٍ، وكذلكَ الإيمانُ لِاسْمِ الإيمانِ ليسَ بِحَسَنٍ، ولكنْ إنما حَسُنَ لأنهُ إيمانٌ باللهِ، والكُفْرُ إنما قَبُحَ لأنهُ كُفْرٌ باللهِ.

وأما الظُّلْمُ فهو لِاسْمِ الظُّلْمِ قبيحٌ، وكذلكَ الفِسْقُ لِاسْمِ الفِسْقِ قبيحٌ، فَسَمّاهُمْ بأسماءٍ، هي بِاسْمِها قَبيحةٌ[12].

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: يشهدها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٦) في الأصل وم: يعمل. (٧) في الأصل وم: يعمل. (٨) في الأصل وم: يعمل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: و. (١٢) في الأصل وم: قبيح.

لكنَّ الإيمانَ المُطلَقَ، وهو الإيمانُ باللهِ، والكُفرَ المُطلَقَ، هو الكُفرُ باللهِ، وإنْ كانَ يُسمّى بدونِ اللهِ كُفراً وإيماناً كما قُلنا: الكتابُ المُطلَقُ كتابُ اللهِ، والدينُ المُطلَقُ دينُ اللهِ، وإنْ كانَ اسْمُ الكتابِ والدينِ يَقَعُ على ما دونَهُ.

الآية ۷۹ وقولُهُ تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ذَكَرَ الانتِقامَ منهُمْ، ولم يَذكُرْ ههنا لِمَ[1] كانَ الانتِقامُ؟ وقالَ في آيةٍ أُخرى. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ۷۸] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ۸۳] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ۱۸۹].

فَيَحتَمِلُ أنْ تكونَ الرَّجْفَةُ لِقومٍ، والصَّيحةُ لِقومٍ، ويومُ الظُّلَّةِ لِقومٍ منهُمْ، وإنْ كانَ واحداً[2]، فَسمّاها بأسماءٍ مُختَلِفةٍ، وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ العذابِ حاجةٌ سِوى ما عُرِفَ انهمْ إنما أُهلِكوا، أو عُذِّبوا بالتكذيبِ ليكونَ ذلكَ آيةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، لِيَحذَروا مِثْلَ صَنيعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ لِلرُّسُلِ كما انْتَقَمْنا مِنْ قومِ لوطٍ لِلُوطٍ بِسُوءِ صَنيعِهِمْ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إيّاهُ.

فَعَلَى ذلكَ نَنْتَقِمُ مِنْ أهلِ مكةَ لمحمدٍ ﷺ، بِسُوءِ صنيعِهِمْ [وسُوءِ][3] مُعامَلَتِهِمْ إيّاهُ.

وقد كانَ ما نَزَلَ بأصحابِ الأيكةِ كِفايةُ مَزْجَرٍ لهمْ وعِظَةٍ، لا يَحتاجُ إلى ما ذُكِرَ ما نَزَلَ بقومِ لوطٍ.

وقولُهُ تعال: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يعني قومَ لوطٍ وقومَ شُعَيبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي طريقٍ مُستَبينٍ، أي بَيِّنٌ هَلاكُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ واحدٌ، أي بَيِّنٌ واضِحَةٌ[5] آثارُهُمْ؛ مَنْ سَلَكَ ذلكَ الطريقَ، أو دَخَلَ قُراهُمْ ومَكانَهُمْ، لَاستَبانَ لهُ آثارُ هلاكِهِمْ، وما حَلَّ بِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي طريقٍ، يُؤَمُّ، ويُقصَدُ، بَيِّنٍ، واضحٍ.

الآية ۸۰ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أصحابُ الحِجرِ قومُ صالحٍ وثمودَ. وقالوا: الحِجْرُ: هو اسْمُ وادٍ، وقيلَ: هو اسْمُ القريَةِ على شَطِّ الوادي، نُسِبوا إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يَعني بالمُرسَلينَ صالحاً وحدَهُ، لكنْ ذَكَرَ المُرسَلينَ لأنَّ صالحاً يدعوهُمْ إلى ما كانَ دَعا سائرُ الرسلِ. فإذا كَذَّبوهُ فَكأنَّهُمْ[6] قد كَذَّبوا الرُّسُلَ جميعاً؛ إذْ كلُّ رسولٍ كانَ يَدْعو إلى الإيمانِ بالرسلِ جميعاً، فإذا كُذِّبَ واحدٌ منهمْ فقد كُذِّبَ الكُلُّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ۸۱ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تَحتَمِلُ الآياتُ آياتِ وحدانِيَّةِ اللهِ وحُجَجَهُ. وتَحتَمِلُ جميعَ الآياتِ: آياتِ الوحدانيَّةِ وحُجَجَها[7] وآياتِ رسالَتِهِمْ [وقولُهُ][8] ﴿مُعْرِضِينَ﴾ أي لم يَقبَلوها، فقد أعرَضوا عنها، وأعرَضوا عنها، أي كذَّبوها.

الآية ۸۲ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ عمّا وَعَدَهُمْ صالحٌ مِنْ عذابِ اللهِ حينَ[9] قالوا: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ۷۷] كانوا آمنينَ عن ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: كانوا آمِنينَ عَنْ أنْ يَقَعَ عليهِمْ ما نَحَتوا لِحَذاقَتِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ۱٤۹] على تأويلِ بعضِهِمْ حاذِقينَ.

الآية ۸۳ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ يَحتَمِلُ أخذَتْهُمْ ظاهِرَةُ النهارِ[10].

الآية ۸٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي ما كانوا يَنحِتونَ لا يُغنيهِمْ

---

(۱) من م، في الأصل: ثم. (۲) في الأصل وم: واحد. (۳) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: واضح. (٦) في الأصل وم: فكان. (۷) في الأصل وم: وحججه. (۸) ساقطة من الأصل وم. (۹) في الأصل وم: حيث. (۱۰) في الأصل وم: بالنهار.

مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ شيءٍ. ويَحْتَمِلُ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا﴾ عَمِلوا مِنْ عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ [حين][1] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[2]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أي لم يُغْنِهِمْ ما عَبَدوا مِنْ عذابِ اللهِ، أو يقولُ: ما أغنى عنهُمْ ما نَعِموا[3]، وأُنعِموا في هذهِ الدنيا في دَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ كقولِهِ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٦] وإنْ أُعطوا ما ذُكِرَ مِنَ السمعِ والبَصَرِ والأفئدةِ إذ لم يَنْظُروا، ولم يَتَفَكَّروا في آياتِ اللهِ، وجَحَدوها[4].

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الحقُّ الذي جَعَلَ تَسْمِيَتَهُ على أهلِها، والحقُّ الذي لِيَغْضِ على بعضٍ. والحقُّ هو اسْمُ كلِّ محمودٍ مُخْتارٍ مِنَ القولِ والفِعْلِ، والباطلُ اسْمُ كلِّ مذمومٍ مِنَ القولِ والفِعْلِ. قالَ بعضُهُمْ: تأويلُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا﴾ شهوداً للهِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على أهلِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لم يَخْلُقْهما لِغَيرِ شيءٍ، ولكنْ خَلَقَهُما لِلْمِحْنَةِ؛ يَمْتَحِنُهُمْ بالعبادةِ فيها. وإلى هذا ذهبَ الحَسَنُ.

وقيلَ: خَلَقَهما وما بَيْنَهما لأمرٍ كائنٍ أي لِعاقبةٍ للثوابِ أو الجزاءِ، لم يَخْلُقْهُمْ لِلْفَناءِ خاصةً، ولكنْ للعاقبةِ؛ لأنَّ خَلْقَ الشيءِ خاصةً عَبَثٌ، وهو ما قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أخبرَ أنَّ خَلْقَهُمْ لا لِلرُّجوعِ إليهِ ولا للعاقبةِ عَبَثٌ. وقد [ذَكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ][5].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ على الاِحتجاجِ على أولئكَ لإنكارِهِمُ الساعةَ لِوَجْهَينِ:

أحدُهما: ما ذَكَرْنا أنهُ، لو لم تكنِ الساعةُ، حَصَلَ خَلْقُهما وما بَيْنَهما للفَناءِ خاصةً [وخَلْقُ الشيءِ][6] لِلْفَناءِ خاصةً عَبَثٌ باطلٌ كَبِناءِ البناءِ لِلنَّقْضِ خاصةً لا لعاقبةٍ، تُقْصَدُ، عَبَثٌ.

والثاني: أنهُ يكونُ في ذلكَ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الأعداءِ والأولياءِ. وفي الحكمةِ التفريقُ بينهما، وقالَ: ﴿وَمَا/ ٢٧٩ ـ ب/ خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [ص: ٢٧] لم يكنْ ظَنُّهُمْ أنهُ خَلَقَهما باطلاً، ولكنْ لمّا أنكروا البَعْثَ صارَ في ظَنِّهِمْ خَلْقُهُما باطلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي أعْرِضْ عنهمْ، ولا تُكافِئْهُمْ بما آذَوكَ بِألسِنَتِهِمْ وفِعْلِهِمْ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فأنا[7] كافيهِمْ عنكَ على أذاهُمْ إياكَ وصَنيعِهِمْ يومئذٍ. الصفحُ الجميلُ: هو ما لا نَقْضَ فيهِ، ولا مِنَّةَ في العُرْفِ؛ أي اصْفَحِ الصَّفْحَ ما توصَفُ فيهِ بِتمامِ الأخلاقِ، وما لا نَقْضَ فيهِ ولا مِنَّةَ.

[ويَحْتَمِلُ الصَّفْحُ الجميلُ أنْ تَصْفَحَ][8] صَفْحاً، لا مِنَّةَ فيهِ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فَتُجْزَى أنتَ على صَفْحِكَ الجميلِ، وهُمْ على أذاكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ خَلَقَهُمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ مِنَ المَعْصِيَةِ والخِلافِ، لا خَلَقَهُمْ عنْ غَفْلَةٍ وجَهْلٍ بذلكَ، لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَخْلُقِ الخَلْقَ لِحاجةِ نفسِهِ ولا لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ، ولكنْ خَلَقَهُمْ لِيَمْتَحِنَهُمْ بما أمَرَهُمْ بهِ ونَهاهُمْ ولِما يرجِعُ إلى مَنافِعِهِمْ وحوائِجِهِمْ.

والثاني: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لِخَلْقِهِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِمَصالِحِهِمْ: بأنَّ الصفحَ الجميلَ لهمْ أصْلَحُ في دينِهِمْ مِنَ المكافآتِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) في الأصل وم: منعوا. (٤) من م، في الأصل: وجحدوا. (٥) في الأصل: ذكرناها، في م: ذكرنا في ما تقدم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ماذا. (٨) في الأصل: يحتمل الصفح الجميل هو أن يصفح في م: يحتمل الصفح الجميل هو أن يصفح ولا يمن عليهم، كان أمره أن يصفح.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ هو القرآنُ [كُلُّهِ لِقولِهِ][١]: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣] وقيلَ: سُمّيَ مَثانِيَ لِتَرْديدِ الأمثالِ فيهِ والعِبَرِ والأنباءِ فإنْ كانَ على هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي سَبْعاً مِنَ القرآنِ العظيم.

ثم يَحْتَمِلُ السَّبْعَ الطِّوالَ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كأنهُ قالَ: آتيناكَ سَبْعاً مِنَ القرآنِ العظيمِ، ويَحْتَمِلُ ﴿سَبْعًا﴾ يعني فاتحةَ الكتابِ مِنَ القرآنِ، أي آتيناكَ فاتحةَ الكتابِ مِنَ القرآنِ.

وقالَ قومٌ: يقولونَ: سَبْعُ المَثاني فاتحةَ الكتابِ. ويَرْوُونَ على ذلكَ حديثاً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ[٢] رُوِيَ عنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[أنهُ][٣] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «الحمدُ للهِ أمُّ القرآنِ وأمُّ الكتابِ والسَّبْعُ المَثاني». [الترمذي: ٣١٢٤].

وعَنْ أُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ][٤] رضي الله عنه [أنهُ][٥] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أنْزَلَ اللهُ في التوراةِ والإنجيلِ مثلَ أمِّ القرآنِ، وهي السَّبْعُ المَثاني» [«وهي مَقْسومَةٌ بيني وبَينَ عبدي، ولِعَبْدي ما سَأَلَ»][٦] [مسلم ٣٩٥].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: [٧] مَثاني القرآنِ كلمةٌ تذهبُ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ الآيةِ، وبما يُرْوَى عنْ أبي هُرَيرَةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ما أُنزِلَ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزبورِ والقرآنِ مِثْلُها» يعني أمَّ القرآنِ «وإنها لَسَبْعٌ مِنَ المَثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُعْطِيتُ».

ذَكَرَ: «وإنها لَسَبْعٌ مِنَ المَثاني» فإنْ كانَ سَبْعُ المَثاني فاتحةَ الكتابِ يَصِرْ [٨] كأنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ وهي المَثاني. وإنْ كانَ سَبْعاً مِنَ المثاني [هُنَّ الطِّوالُ يكنْ][٩] هكذا: أي ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ [وهنَّ الطِّوالُ مِنَ القرآنِ][١٠].

ورَوِيَ أيضاً عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][١١] قالَ «آتاني السَّبْعَ الطِّوالَ مكانَ التوراةِ والمَثاني مكانَ الإنجيلِ، وفَضَّلَني ربي بالمُفَصَّلِ» [أحمد ٤/١٠٧].

ثم إنْ ثَبَتَ ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ سَبْعَ المَثاني فاتحةُ الكتابِ وإلّا الكَفُّ والإمساكُ أولَى؛ لأنهُ لا حاجةَ بنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ، وليس يكونُ تَسْمِيَتُنا إياها سِوَى الشهادةِ. وما خَرَجَ مَخْرَجَ الشهادةِ مِنْ غَيرِ حصولِ النَّفْعِ لنا فالكَفُّ عنهُ والإمساكُ أولَى. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هنَّ المُفَصَّلُ.

ومَنْ قالَ: المَثاني فاتحةُ الكتابِ قالَ: لأنها تُثَنَّى في كلِّ رَكْعَةٍ، وما جُعِلَ فيها[مُكَرَّراً مُعاداً][١٢] لأنَّ كلَّ حَرْفٍ يُؤَدِّي مَعْنَى حَرْفٍ آخَرَ، فَسُمِّيَ مَثانِيَ.

ومَنْ قالَ: المَثاني هو القرآنُ قالَ لِما ذَكَرْنا، لأنَّ أمثالَهُ وأنباءَهُ وعِبَرَهُ مُعادةٌ مُرَدَّدةٌ.

ومَنْ قالَ: المثاني السَّبْعُ الطِّوالُ قالَ: لأنها تُثَنَّى فيها حُدودُ القرآنِ وفرائِضُهُ وعامَّةُ أحكامِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ سَمّاهُ عَظيماً وسَمّاهُ مَجيداً وحكيماً، [وهي أسماءُ][١٣] الفاعِلينَ، ولا عَمَلَ للقرآنِ[١٤]، ولا فِعْلَ في الحقيقةِ، لكنهُ يُخَرَّجُ، واللهُ أعلَمُ على وجوهٍ:

يَحْتَمِلُ سَمّاهُ عظيماً مَجيداً لَمّا عَظَّمَهُ، وشَرَّفَهُ، ومَجَّدَهُ، فهو عظيمٌ مجيدٌ حكيمٌ، أي مُحْكَمٌ. والفَعيلُ بِمَعْنَى المَفْعولِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. أو سَمّاهُ بذلكَ لأنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وعَمِلَ بِهِ، يَصِرْ[١٥] عظيماً مَجيداً. أو سَمّاهُ عَظيماً مَجيداً حكيماً، أي جاءَ مِنْ عندِ عظيمٍ مجيدٍ حكيمٍ. وأصلُ الحكيمِ المُصيبُ الواضِعُ كلَّ شيءٍ مَوْضِعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: كل قوله، في م: كله كقوله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) هذا جزء من الحديث القدسي الذي أورده المؤلف أبو منصور في حديثه عن التسمية في فاتحة الكتاب. (٧) في الأصل وم: المثاني. (٨) في الأصل وم: يصير. (٩) في الأصل وم: هو الطوال يكون. (١٠) في الأصل وم: وهو القران. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: مكررة معادة. (١٣) في الأصل وم: وهو اسم. (١٤) في الأصل وم: له. (١٥) في الأصل وم: يصير.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ يَحتمِلُ المرادُ بقولِهِ: ﴿عَيْنَيْكَ﴾ نَفْسَ العينِ. ثم يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: نَهى رسولَهُ أنْ يَنظُرَ إلى ما مَتَّعَ أولئكَ مِثْلَ نَظَرِهِمْ، لأنهمْ ظَنُّوا أنهمْ إنما مُتِّعوا هذهِ الأموالَ في الدنيا لِخَطَرِهِمْ وقَدْرِهِمْ عندَ اللهِ، وعلى ذلكَ [قالَ مَنْ قالَ][1]: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقالَ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ الآية [فصلت: ٥٠] ونَحوَهُ. ظَنُّوا أنهمْ إنما مُتِّعوا في هذهِ الدنيا لِخَطَرِهِمْ وقَدْرِهِمْ عندَ اللهِ، لذلكَ قالوا ما قالوا، فَنَهاهُ أنْ يَنظُرَ إلى ذلكَ بِعينِ الذينَ نَظَروا هُمْ إليهِ، ولكنْ بالاِعْتِبارِ.

والثاني: نَهاهُ أنْ يَنظُرَ إلى ذلكَ نَظَرَ الإسْتِكبارِ والتَّجَبُّرِ على المؤمِنِينَ والاِسْتِهزاءِ بهمْ على ما نَظَروا هُمْ، لأنهمْ بما مُتِّعوا مِنْ أنواعِ المالِ اسْتَكبَروا على الناسِ، واسْتَهْزَؤوا بهمْ؛ إذِ البَصَرُ قد يَقَعُ مِنْ غيرِ تَكَلُّفٍ، فَيَصيرُ كأنهُ نهاهُ عنِ الرَّغْبَةِ والاِختيارِ في ما مُتِّعوا فيهِ، لأنَّ ما مُتِّعوا بهِ هو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥ و٨٥] وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا﴾ مُتِّعوا فإنهمْ إنما مُتِّعوا لِما ذَكَرَ.

ويَحتمِلُ النَّهْيُ عن مَدِّ العَينِ لا العَينَ نَفْسَها[2]، ولكنْ نَفْسَهُ. كأنهُ [قالَ][3]: لا تُمَنِّيَنَّ نفسَكَ في ما مُتِّعواهُمْ، فلا تُرَغِّبَنَّهُما في ذلكَ؛ فإنهُ ليسَ يُوَسِّعُ ذلكَ عليهِمْ لِخَطَرِهِمْ وقَدْرِهِمْ، ولكنْ لِيُعْلِمَ أنْ ليسَ لذلكَ خَطَرٌ عندَ اللهِ وقَدْرٌ حينَ[4] أعطى مَنِ افْتَرَى على اللهِ، وجَحَدَ نِعَمهُ وفَضْلَهُ.

وفي الآيةِ تفضيلُ الفَقْرِ على الغِنَى لأنهُ نَهى رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يَمُدَّ عَينَيهِ إلى ما مُتِّعوا. مَعْلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إذا مَدَّ [عَينَيهِ][5] إلى ذلكَ، ليسَ يَمُدُّ للدنيا، ولا لِشَهَواتِهِ، ولكنْ لِيَسْتَعينَ بهِ في أمرِ جِهادِ عَدُوِّهِ، ويُعينَ بهِ أصحابَهُ في سَبيلِ الخيراتِ، ثم نَهاهُ مَعَ ذلكَ عنهُ.

دلَّ أنَّ الأخيرَ والأفضلَ ما اختارَهُ مِنَ الفَقْرِ وقُصورِ ذاتِ يَدِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافاً مِنَ الأموالِ وألواناً مِنَ النِّعَمِ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أيِ الأغنياءَ منهُمْ وأشباهاً.

فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هو أصنافُ الأموالِ فهو على التقديمِ والتأخيرِ. كأنهُ قالَ: لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيكَ إلى ما مَتَّعْنا منهمْ أزواجاً؛ هو أصنافُ الناسِ، فهو على النَّظْمِ الذي جَرَى بهِ التَّنْزيلُ؛ أي لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيكَ إلى ما مَتَّعْنا بهِ قوماً منهمْ.

وفي قولِهِ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يُعْطي أحداً شيئاً إلّا هو أصْلَحُ لهُ في الدينِ. ولو كانَ ما مَتَّعَ هؤلاءِ أصْلَحَ لهمْ في الدينِ لم يَنْهَ رسولَهُ عن مَدِّ عَيْنَيهِ إليهِ. دلَّ أنهُ قد يُعطي ما ليسَ بأصْلَحَ في الدينِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

أخبَرَ أنهُ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ وهمْ يقولونَ: نملي لهمْ لِيَزدادوا خيراً. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٠] هذهِ الآياتُ كُلُّها تَنقُضُ عليهِمْ قولَهُمْ، وقد ذَكَرْنا هذا في غيرِ مَوضعٍ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يَحتمِلُ / ٢٨٠ ـ أ/ النَّهْيَ نَفْسَهُ، ونَهاهُ أنْ يَحزَنَ عليهِمْ إشفاقاً عليهِمْ، بل أمَرَهُ أنْ يُغلِظَ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] يَحتمِلُ النَّهْيُ نفسَهُ.

---

(١) في الأصل وم: قالوا. (٢) في الأصل وم: نفسه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وعلى هذا المخرج قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ارفق بهم، وتليّن عليهم، واشدُدْ على أولئك، واغلُظ عليهم، وهو ما وصفَهُم [بقوله][1] ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] [وقوله][2] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أخبر أنهم أهلُ شدّةٍ على الكفّار وأهلُ غِلظةٍ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأهلُ ذلّةٍ على المؤمنين وأهلُ شدّةٍ عليهم، أي على الكفار. فعلى ذلك هذا.

ويحتمِلُ أنْ ليسَ على النهي، ولكن على التخفيفِ والتسلّي ورفعِ الحُزنِ عن نفسِهِ لأنه كان يحزَنُ لكُفرِهِم باللهِ وتركِهِمُ الإيمانَ حتى كادَتْ نفسُهُ تتلَفُ لذلكَ كقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦ والشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وأمثالُهُ.

ويحتمِلُ أيضاً وجهاً آخرَ، وهو أنهُ كان يحزَنُ عليهِم، ويَضيقُ صدرُهُ لِما مكَروا بِهِ، وكايَدوهُ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧ والنمل: ٧٠] فإني أكافيهِم، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ يحتمِلُ ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ على معاصيهِ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ على طاعاتِهِ، أو ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ على العِصيانِ مِن عذابِ اللهِ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ لأمورِهِ ونواهيهِ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٩٠ و٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قال الحسنُ: الكتبُ كلُّها قرآنٌ؛ يعني كتبَ اللهِ اقتسَموها، وجعَلوها عِضينَ، أي فرّقوها بالتحريفِ والتبديلِ؛ فما وافقَهُمْ أخذوهُ، وما لم يوافقْهُمْ غيّروهُ، وبدّلوهُ، كقولِهِ: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١] ونحوُهُ، فذلكَ اقتِسامُهُم، وتعضيتُهُم على قولِهِ، وكقولِهِ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] وقولِهِ: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣] ونحوُهُ.

وقال بعضُهُم: اقتِسامُهُم: هو[3] أنّ نفراً مِن قريشٍ كانوا اقتَسَموا عِقابَ مكةَ ليصُدّوا الناسَ عن رسولِ اللهِ: فتقولُ طائفةٌ منهم إذا سُئلوا عنهُ: هو كاهنٌ، وطائفةٌ أخرى هو شاعرٌ ساحرٌ مجنونٌ، ونحوُهُ.

وعِضَتُهُم[4] قولُهُم: هو سِحرٌ، شعرُ كهانةٍ، أساطيرُ الأولينَ ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤] وأمثالُ ما قالوا: فذلكَ اقتِسامُهُم وعِضَتُهُم.

وقالَ بعضُهُم: هو على التقديمِ، أي آتيناكَ المثانيَ والقرآنَ العظيمَ، أنزلْناهُ عليكَ كما أنزلْنا التوراةَ والإنجيلَ على اليهودِ والنصارى؛ فهمُ المقتسِمونَ كتابَ اللهِ، فآمنوا ببعضٍ، وكفَروا ببعضٍ.

وقالَ أبو عوسجةَ: يُقالُ: عضّيتُ الجزورَ، أي قسّمتُها عضواً. وقالَ غيرُهُ: هو مِنَ العِضَةِ، وهو السحرُ بلسانِ قريشٍ. يقالُ للساحرِ: عاضةٌ.

وقالَ القُتَبيُّ: المُقتسِمونَ: قومٌ تحالَفوا على عِضَةِ النبيِّ ﷺ وأنْ يُذيعوا بكلِّ طريقٍ، ويُخبِروا بِهِ النُزّاعَ إليهِمْ. وقولُهُ[5] ﴿عِضِينَ﴾ أي فرّقوهُ، وعضَوهُ. وقيلَ: فرّقوا القولَ فيهِ. وهو ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٩٢ و٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قولُهُ: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ قسَمٌ، أقسمَ اللهُ تعالى: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال بعضُهُم: الخلائقَ كلَّها كقولِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أخبرَ أنهُ يسألُهُم جميعاً: الرسلَ عن تبليغِ الرسالةِ والذينَ أُرسلَ إليهِم عنِ الإجابةِ لهم.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هؤلاءِ الذينَ سبقَ[6] ذِكرُهُم: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ والذينَ استهزَؤوا برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ. يسألُهُم عن حُجَجِ ما فعَلوا والمعنى الذي حمَلَهُم على سوءِ معاملةِ رسولِهِ وكتابِهِ: لأيِّ شيءٍ نسَبْتُم رسولي وكتابي إلى السحرِ والكذبِ والكهانةِ والافتراءِ على اللهِ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: و﴿عِضِينَ﴾. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) في الأصل وم: سبقوا.

لا يُسألونَ: ما فَعلْتُمْ؟ وأيَّ شيءٍ عَمِلْتُمْ؟ لأنَّ ذلكَ يكونُ مكتوباً في كُتُبِهِمْ، يَقرؤونَه[1] كقولِهِ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وهو وعيدٌ شديدٌ في نهايةِ الوَعيدِ والشِّدَّةِ لأنهُ وعيدٌ مَقرونٌ بالقَسَمِ، وكلُّ وعيدٍ، قُرِنَ بالقَسَمِ فهو غايةُ الشِّدَّةِ، إذْ لو جاءَنا هذا الوعيدُ مِنْ ملكٍ مِنْ ملوكِ البَشرِ يجبُ[2] أنْ يُخافَ، فكيفَ مِنْ ربِّنا؟

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ كقولِهِ[3]: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] فهو في كلِّ ما أمَرَ بِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٱصْدَعْ﴾ أي امْضِ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ مِنْ تَبليغِ الرسالةِ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي اعْرِضْ عنْ مكافأتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. امْضِ على ما تُؤمَرُ مِنْ تَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ، ولاتَخَفْهُمْ، ولا تَهَبْهُمْ، ولا يَمْنَعْكَ شيءٌ عنْ تَبليغِ الرسالةِ: الخوفُ ولا القرابةُ ولا شيءٌ مِنْ ذلكَ. ولكنِ امْضِ على ما تُؤمَرُ، وهو كما قالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] وقالَ: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] أي لا يَمْنَعْكُمْ عنِ القولِ بالحقِّ والعَدْلِ بُغْضُكُمْ إياهمْ ولا قرابَتُكُمْ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي امْضِ على ما أُمِرْتَ مِنْ تبليغِ الرسالةِ، ولا يَمْنَعْكَ عنْ ذلكَ الخوفُ والوعيدُ والقرابةُ التي بَينكَ وبَينهمْ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي أظْهِرْ. صَدَعَ: أَظْهَرَ ذلكَ. وأصْلُهُ: الفَرْقُ والفَتْحُ، يريدُ اصْدَعِ الباطلَ بِحَقِّكَ حتى يأتِيَكَ المُوقَنُ بهِ، وهو الموتُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿فَٱصْدَعْ﴾ أي امضِ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ على ما تُؤمَرُ، وصَدَعْتُ أي مَضَيتُ، وذلكَ مِنَ المُضِيِّ. وأصلُ هذا كُلِّهِ الشَّقُّ، ويُقالُ: تَصَدَّعوا، أي تَفَرَّقوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي أَعْرِضْ عنْ مُكافأتِهِمْ، فأنا أكافِئُهُمْ عنكَ على ما آذَوكَ. وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو مَنسوخٌ بآيَةِ السيفِ لكنْ على الوَجْهِ[4] الذي ذَكَرْنا ليسَ بِمَنسوخٍ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إنْ كانَ أرادَ بهِ القتالَ والدعاءَ إلى التوحيدِ فهو في وقتٍ[دونَ وَقْتٍ أو][5] في قومٍ خاصٍّ؛ عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يُجيبونَهُ، ولا يؤمنونَ بهِ، وإياسَ[6] رسولِهِ [مِنْ][7] إيمانِهِمْ، فقالَ: أعْرِضْ [عنْ][8] هؤلاءِ، ولا تَشْتَغِلْ بهِمْ، ولا تَدْعُهُمْ، فإنهمْ لا يؤمنونَ، ولكنِ ادْعُ قوماً آخرينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الكَفَرَةَ جميعاً، فَمَنَعْناهُمْ عنْ أنْ يَصِلُوا إليكَ على ما قَصَدوا إليكَ مِنْ إهلاكِكَ وغَيرِهِ،كقولِهِﷺ[9] «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الذينَ كانوا على الطُّرُقِ والمَراصِدِ لِيَصُدّوا الناسَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ على ما ذُكِرَ في القصةِ؛ العَدَدُ الذي ذُكِرَ سَبْعَةٌ أو خَمْسَةٌ، كفاهُ اللهُ بأنْ أهْلَكَهُمْ بما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الذينَ اسْتَهْزَؤوا بهِ أُهلِكوا جميعاً بعقوباتٍ مُخْتَلِفَةٍ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ليسَ على الجَعْلِ لأنهمْ لو جَعَلُوا لكانَ، لأنَّ كلَّ مَجعولٍ كائنٌ موجودٌ. ولكنَّ قولَهُ ﴿يَجْعَلُونَ﴾ أي يَزْعُمونَ أن ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إمّا في التَّسميةِ وإمّا[10] في العِبادَةِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] هُمْ لا يَقْدِرونَ على أنْ يَجْعَلُوهُ ﴿عِضِينَ﴾ ولكنْ زَعَموا أنهُ كذا، لأنَّ اللهَ وَكَلَ حِفْظَهُ إلى نَفْسِهِ بقولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقولِهِ[11]: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾

---

(١) في الأصل وم: ويقرؤون. (٢) من م، في الأصل: بحيث. (٣) في الأصل: أي، في م: أي استقم كما تؤمر. (٤) من م، في الأصل: وجه. (٥) من م: في الأصل: أي. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: وقال.

[فصلت: ٤٢] أخبَرَ انهُ يَحفَظُهُ حتى لا يأتيَهُ الباطلُ مِنْ بَينِ يَديهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ. ولو قَدَروا على جَعْلِهِ ﴿عِضِينَ﴾ لكان قد أتَى الباطلُ مِن بَين يَديهِ ومِنْ خَلْفِهِ. دلَّ على القولِ الذي قالوا، وهو على المجازِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] وقولُهُ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فهو كُلُّهُ على المَجازِ على ما عندَهُمْ: إمّا بِحَقِّ التَّسْمِيَةِ لها أنها آلهةٌ، وإمّا بِصَرْفِ العبادةِ إليها. ظاهرُ هذا أنَّ المُسْتَهْزئينَ ذَكَرَهُمْ انهُ كفاهُ عنهمْ؛ هُمُ الكفَرَةُ جميعاً.

لكنْ يَحْتَمِلُ في الذينَ ذَكَرَهُمْ أهْلُ/ ٢٨٠ ـ ب/ التأويلِ [الذينَ][1] كانوا على مَراصدِ مكةَ؛ أضافَ ذلكَ إليهِمْ، ونَسَبَهُ[2]، لأنهمْ هُمُ الذينَ أمَروا غَيرَهُمْ أنْ يَجْعلوا دونَهُ إلهاً، فكأنهمْ فَعَلوا ذلكَ، وهُمْ قالوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فَعَلوا بِهِ ما فَعَلوا مِمَّنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، فيكونُ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ على إضمارِ [كانوا، أيِ الذينَ][3] كانوا يَجْعَلونَ مع اللهِ إلهاً آخَرَ، و إنْ كانَ في الذينَ يكونونَ مِنْ بَعْدُ، فهو على ظاهرِ ما ذَكَرَ: يَجْعَلونَ على المُسْتقْبَلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ، أي سَوفَ يَعْلَمونَ ما عَمِلوا مِنَ الاقْتِسامِ والعِضَةِ والاسْتِهْزاءِ برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ إذا نَزَلَ العذابُ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وما قالوا مِنَ الاقْتِسامِ والعِضَةِ والاسْتِهْزاءِ بهِ وأنواعِ الأذى الذي كانَ منهُمْ لِرسولِ اللهِ ﷺ أي نَعْلَمُ ذلكَ، وهو محفوظٌ عندَنا، نَجْزيهِمْ على ذلكَ، فلا يَضيقَنَّ صَدْرُكَ [بذلكَ. وهو على وجهَينِ:

أحدُهما: على][4] التصبيرِ على الأذى والتَّسَلّي عنْ ذلكَ وتَرْكِ المكافآتِ لهمْ، واللهُ أعلَمُ. وكانَ يَضيق صَدْرُهُ مَرَّةً لِتركِهِمُ الإجابَةَ لهُ ومَرَّةً لِلأذى باللسانِ.

والثاني: [على][5] عِلْمٍ مِنّا بما يكونُ منهمْ ومِنْ ضِيقِ صَدْرِكَ بذلكَ. لكنْ أنْشَأناهُمْ، ومَكّناهُمْ[6] على عِلْمٍ مِنّا بذلكَ امْتِحاناً مِنّا إيّاكَ بذلكَ وإياهُمْ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي صَلِّ بأمرِ ربِّكَ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي مِنَ المُصَلّينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ هو أمْرٌ. فإذا فَعَلَ ذلكَ كانَ بأمرِ ربِّهِ، فَلا مَعْنَى لِذِكْرِ الموتِ مِنْ بَعْدِ قولِهِ[7]: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إنْ كانَ الحَمْدُ لهُ، وهو الأمْرُ على ما قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي نَزِّهِ اللهَ عَنْ جميعِ ما قالتِ المُلْحِدَةُ فيهِ؛ إذ التسبيحُ، هو التَّنزيهُ في اللغةِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي بِثَناءِ ربِّكَ، أي نَزِّهْ [رَبَّكَ][9] مِنْ ذلكَ كُلِّهِ بِثَناءٍ، تُثْنيهِ عليهِ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾. أي مِنَ الخاضِعينَ؛ إذِ السجودُ هو الخُضوعُ. أو يكونُ أمْرُهُ إياهُ بالتسبيحِ على التَّسَلّي وتَوسيعِ صَدْرِهِ بالذي يكونُ منهمْ، أي ﴿فَسَبِّحْ﴾ ربَّكَ مكانَ ذلكَ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ يَحْتَمِلُ التوحيدَ، أي وَحِّدْ ربَّكَ. وكذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: كُلُّ عِبادَةٍ ذُكِرَتْ في القرآنِ، فهي[10] توحيدٌ؛ يأمُرُهُ باعْتِقادِ الإخلاصِ لهُ في كلِّ أمْرٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ونسب. (٣) في الأصل: كان أي الذي، في م: كان أي الذين. (٤) في الأصل وم: لذلك فهو، في م: لذلك فهو على. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ومكنا. (٧) في الأصل وم: بقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصح وم: فهو.

ويَحتَمِلُ العِبادةَ نَفْسَها؛ يأمُرُهُ بالعِبادَةِ لهُ شُكراً على ما رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ «أنهُ صلّى حتى تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ، فقيلَ لهُ: ألَمْ يَغْفِرِ اللهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ، فقالَ: بَلَى، أفلا أكونُ عَبداً شَكُوراً»؟ [البخاري ١١٣٠]

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي ما تَيَقَّنْتَ بهِ، وهو الموْقَنُ بهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥] أي منْ يَكفُرْ بالمُؤْمَنِ بهِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، لأنَّ الإيمانَ لا يُكْفَرُ بهِ. فَعَلَى ذلكَ اليَقينُ لا يأتيهِ [ولكنْ يأتي][1] الموقَنُ بهِ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، أي بأمْرِ اللهِ، وهو المأمورُ بهِ، لأنَّ الصلاةَ لا تكونُ أمْراً للهِ ولكنْ بأمْرِ اللهِ، وكذلكَ ما يَجيءُ منْ هذا النَّحْوِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فيهِمْ، وهو ما وَعَدَ مِنَ العذابِ فيهِمْ؛ أي يَتَيَقَّنونَ بذلكَ[2] واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ.

(١) في م، ولكن يأتيه، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: بعض أهل التأويل: سورة النحل كلها مكية الثلاث آيات لأنها نزلت في المدينة.

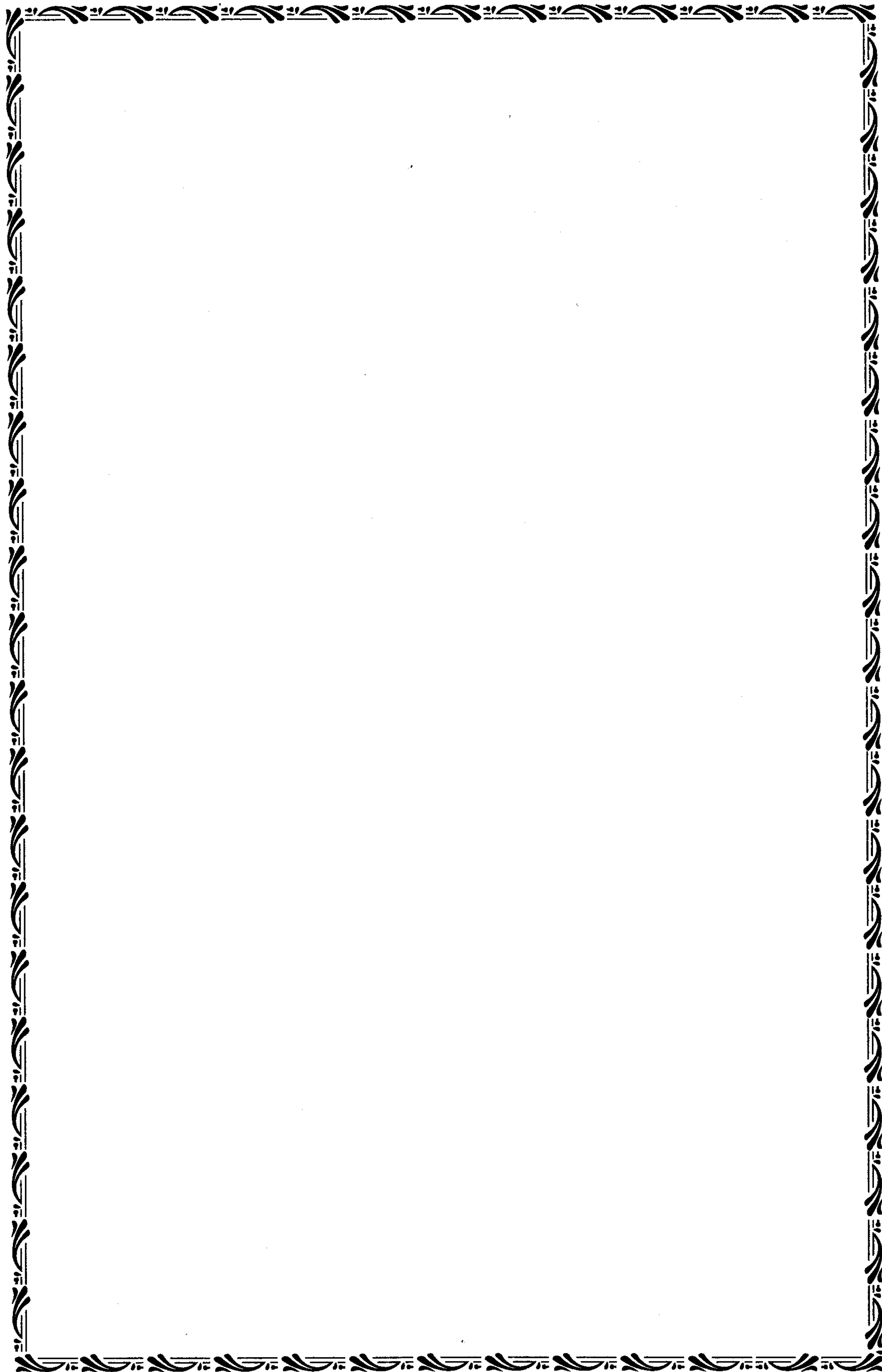

سورة النحل

كلها مكية إلا ثلاث لأنها نزلت بالمدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ وجوهٌ[1]:

أحدُها: أنْ يُعْرَفَ قولُهُ: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [وإرادتُهُ، وما][2] الذي استَعْجَلوهُ، وأنَّ ما استَعْجلوهُ الساعةُ والقيامةُ بقولِهِ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الآية [الشورى: ٨] ونَحْوِهِ مِنَ الآياتِ.

والثاني[3]: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ رسولَهُ الذي كانَ يَسْتَنْصِرُ بِهِ أهلُ الكتابِ على المُشْرِكينَ كقولِهِ: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [البقرة: ٨٩] وكانَ يَتَمنَّى مُشْرِكو العَرَبِ أنْ يكونَ لهمْ رسولٌ كسائرِ الكَفَرَةِ كقولِهِ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الآية [فاطر: ٤٢] فلا تَسْتَعْجِلوا ذهابَ ما كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ بمحمدٍ ﷺ أو شيءٍ آخرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنهُ لم يُرِدْ بقولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وُقوعَهُ، ولكنْ قربَهُ، أي قُرْبَ آثارِ أمرِ اللهِ كما يُقالُ: أتاكَ الخيرُ، وأتاكَ أمْرُ كذا على إرادةِ القُرْبِ لا على الوُقوعِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي ظَهَرَتْ أعلامُ اللهِ وآثارُهُ، وليسَ على إتيانِ أمْرِهِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ كقولِهِ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ وآثارُهُ هو رسولُ اللهِ ﷺ لأنهُ كانَ بهِ يَخْتُمُ النُّبُوَّةَ. فهو كانَ إعلامَ الساعةِ على ما رُوِيَ عنهُ ﷺ قالَ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتينِ» [البخاري ٦٥٠٣]. أشارَ إلى إصْبَعَيهِ[4] لِقُرْبِهما منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ سُبْحانَ هي[5] كلمةُ إجلالِ اللهِ يُجْريها على ألْسُنِ أوليائِهِ على [تَبْرِئَتِهِ مِمّا][6] قالتِ المُلْحِدةُ فيهِ وتَعاليهِ عَنْ جَميعِ ما نَسَبُوا إليهِ مِنَ الوَلَدِ والصّاحِبَةِ والشَّريكِ وغَيرِهِ مِنَ الأشباهِ والأضدادِ ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ عنْ ذلكَ. سُبْحانَ اللهِ، حَرْفٌ يُذْكَرُ على إثْرِ شيءٍ مُسْتَبْعَدٍ أو مُسْتَعْجَبٍ أو مُسْتَعْظَمٍ جواباً لِذلكَ، وهو ما ذَكَرَهُ على إثْرِ وَصْفٍ وقولٍ[7]، لا يليقُ باللهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ ونَحْوِهِ، فقالَ: سُبْحانَ اللهِ على التنزيهِ مِمّا[8] وَصَفُوهُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي بالوَحْيِ الذي أنْزَلَهُ على [رُسُلِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِٱلرُّوحِ﴾][9] الرحمةَ. وهو الذي بهِ نَجاةُ كلِّ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ، وهداهُ لِدينِهِ، وهو ما ذُكِرَ حينَ[10] قالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقيلَ: الرسالةُ والنُّبُوَّةُ وما ذُكِرَ روحاً لأنهُ بهِ حياةُ الدينِ كما سُمِّيَ الذي بهِ حياةُ الأبدانِ روحاً[11].

وقال الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أي بالحياةِ مِنْ أمْرِهِ، وهو ما ذَكَرْنا مِنْ حياةِ الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي على مَنْ يَشاءُ أنْ يَخْتَصَّ مِنْ عِبادِهِ، ويَخْتارَهُ، وهو مشيئةُ الاخْتِيارِ، وإنْ كانَ غَيرُهُ يَصْلُحُ لذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وجهان. (٢) في الأصل: وأراد وما، في م: واراد ما. (٣) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٤) في الأصل وم: إصبعين. (٥) في الأصل وم: هو. (٦) في الأصل وم: تبرئة ما. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) من م، في الأصل: فما. (٩) في الأصل: رسوله والرحمة والروح، في م: رسله والرحمة والروح. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: أرواحا.

وفيهِ دلالةُ اختِصاصِ/ ٢٨١ ـ أ/ اللهِ بعضَهُمْ على بَعْضٍ، وإنْ كانَ غَيرُهُ يَصْلُحُ لذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ على هذا أجابَ الرسلُ والأنبياءُ ﷺ جميعاً بالإنذارِ والدعاءِ إلى وَحْدانيَّةِ اللهِ وتوجيهِ العِبادةِ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ هو صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾. ولا يُوصَلُ بما تأخَّرَ.

ثم يُخَرَّجُ على الإضمارِ، أي ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾ وقولوا: إنهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في غَيرِ مَوضعٍ أنهُ لم يَخلُقْهما وما فيهما عَبَثاً. إنما خَلَقَهُمْ لأمْرٍ كائنٍ أو لِلْمِحْنَةِ والجزاءِ ونَحْوِهِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ نِعَمَهُ عليهِمْ وقُدرَتَهُ وسُلْطانَهُ وعِلْمَهُ، لأنهُ لوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ كُلُّهُمْ على أنْ يُدرِكُوا المَعْنَى الذي بهِ تَصيرُ النُّطْفَةُ نَسَمَةً وإنساناً ما قَدَرُوا عليهِ حينَ[1] خَلَقَ النُّطْفَةَ إنساناً على أحسَنِ تقويمٍ وأحسنِ صورةٍ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الدَّهْرِيَّةِ حينَ[2] أنكَرُوا خَلْقَ الشَّيءِ مِنْ لا شيءٍ لأنهمْ لم يُدْرِكُوا المَعْنَى الذي خَلَقَ الإنسانَ مَن نُطْفَةٍ، فَيَلْزَمُهُمْ أنْ يُقِرُّوا بِخَلْقِ الشيءِ مِنْ لا شَيءٍ، وإنْ لم يُشاهِدُوا ذلكَ، ولم يُدْرِكوا.

وفيهِ دلالةُ البَعْثِ لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إنْشاءِ الإنسانِ مِنَ النُّطْفَةِ، وليسَ فيها مِنْ آثارِ الإنسانِ شيءٌ، يَقْدِرُ على البَعْثِ وإنْشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شَيءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخَصِيمُ هو الذي يُجادِلُ بالباطِلِ ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهِرَةٌ مُجادَلَتُهُ بالباطِلِ ومخاصَمَتُهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الخَصيمُ هو الجَدِلُ الذي يُجادِلُ في ما كانَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الخَصيمُ هو المُخاصِمُ والمُخاصَمُ، كلاهُما خَصِيمٌ. ويقالُ: فلانٌ خَصْمي مبينٌ ظاهِرَةٌ خُصُومَتُهُ. والخَصيمُ هو الفَعيلُ، والفَعيلُ قدْ يُستَعْمَلُ في موضِعِ الفاعِلِ والمفعولِ جميعاً. فكأنهُ قالَ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي مُنقَطِعٌ عنِ الخُصومَةِ، بَيِّنٌ انقِطاعُهُ، وهو ما ذَكَرَ مِنْ خُصومَتِهِ في آيةٍ أُخرَى وانقِطاعِ حجتِهِ حينَ[3] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ و٧٨] فهذا احْتِجاجٌ عليهِ. فإذا انْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ، بُهِتَ الذي أنْكَرَ قدرتَهُ على البَعْثِ لأنهُ[4] لم يَتَهَيَّأْ لهُ جوابُ ما احْتُجَّ عليهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ على الظاهِرِ أنَّ خَلْقَ هذهِ الأشياءِ لَنا ﴿فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ كقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقولِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ أي هو خَلَقَها، ثم أخبَرَ [أنها][5] ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ بِذِكْرِ أنواعِ المَنافِعِ والنِّعَمِ التي أنعمَ علينا مُفَسَّرَةً مُبَيَّنَةً واحدةً بَعْدَ واحدةٍ في هذهِ السورةِ وفي غيرِها مِنَ السوَرِ. إنما ذَكَرَها مُجْمَلَةً غيرَ مُشارٍ[6] إلى كلِّ واحدةٍ منها على ما أشارَ إليها[7] في هذهِ السورةِ لِيقوموا بشُكْرِهِ[8]، ولِيَعْلَموا قدرَتَهُ على خَلْقِ هذهِ الأشياءِ لا مِنَ الأشياءِ.

ثم قولُهُ: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الدِّفْءُ نَسْلُ كلِّ دابَّةٍ، وقالَ بعضُهُمْ: ما يُنْتَجُ منهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الدِّفْءُ: ما اسْتَدْفَأْتَ بهِ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ تفسيرُ الدِّفْءِ والمَنافِعِ التي ذَكَرَ[9] ما فَسَّرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ الآية

---

(١) و(٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مشارة. (٧) في الأصل وم؛ ما. (٨) في الأصل وم: بشكرها. (٩) في الأصل: فكروا.

[النحل: ٨٠] جَعَلَ اللهُ ﷻ الأنعامَ وما ذَكَرَ وقايةَ جميعِ أنواعِ الأذى مِنَ السّماويّ وغيرِهِ مِمّا يَهيجُ مِنَ الأنفُسِ مِنَ الحَرّ والبَرْدِ والجوعِ وغيرِ ذلكَ مِمّا يَكثُرُ [عَدَدُها، ويطولُ أمَدُها][1] وذِكْرُها.

وجعَلَ فيها مَنافِعَ كثيرةً مِنَ الرُّكوبِ والشُّرْبِ والأكْلِ كما قالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ [غافر: ٨٠] وقالَ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ٢١] [وقالَ][2]: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٣٣].

الآية ٦ وأخبَرَ أيضاً أنَّ فيها جَمالاً وزينةً بقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ فإنْ قالَ قائلٌ: أيُّ جَمالٍ يكونُ لنا فيها؟ [قيلَ:][3]: الإراحةُ وحينَ السَّرْحِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وذلكَ أنهُ أعْجَبُ ما يكونُ إذا راحَتْ عِظاماً ضُروعُها طِوالاً أسْنِمَتُها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ إذا سَرَحَتْ لِرَعْيِها. أو أنْ يكونَ الجَمالُ عندَ الإراحةِ والسَّرحِ شُرْبَ ألبانِها، وقِرَى الضيفِ في ألبانِها في الرَّواحِ والمساءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وذلك أنهمْ كانوا يُسَرُّونَ عندَ الإراحةِ والتسريحِ، وذلكَ السرورُ يَظْهَرُ في وجوهِهِمْ، فإذا ظَهَرَ زادَهُمْ[4] جَمالاً وحُسْناً. وهكذا المَعْرُوفُ في الناسِ أنهمْ إذا سُرُّوا يَظْهَرُ ذلكَ السرورُ في وجوهِهِمْ، فَيَزدادونَ[5] بذلكَ جمالاً، وإذا حَزِنوا، وأصابَهُمْ غَمٌّ، يُؤَثِّرُ ذلكَ الغَمُّ نُقصاناً في خُلُقِهِمْ فَيَزدادونَ[6] قُبحاً وتَشويهاً.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ إذا أراحوا، أو سَرَّحوها، رأى الناسُ أنَّ أربابَها أهْلُ غِنًى وأهْلُ ثَرْوَةٍ، وأنهمْ لا يَحتاجونَ إلى غَيرِهِمْ، وأنْ يكونَ لِغَيرِ إليهِمْ حاجةٌ، فيكونُ لهمْ بذلكَ ذِكْرٌ عندَ الناسِ وشَرَفٌ، وذلكَ جمالُهُمْ وشَرَفُهُمْ، فيها ظاهرٌ لأنَّ ما يُبْسَطُ ويُفْرَشُ، إنما يُتَّخَذُ منها ومِنْ أصوافِها، وكذلكَ ما يُلْبَسُ إنما يكونُ منها، وإنَّما يُبْسَطُ، ويُفْرَشُ، ويُلْبَسُ، لِلتَّجَمُّلِ والبَهاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ ذَكَرَ أيضاً ما جَعَلَ فيها للناسِ مِنَ النِّعَمِ ما تَحْمِلُ مِنَ الأثقالِ مِنْ مَكانٍ ومِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ما لم يكُنْ أنشأهُنَّ، أعْني الأنعامَ التي أخْبَرَ أنها تَحْمِلُ أثقالَنا [ولا نَصِلُ][7] إلى ذلك بدونِهِ إلاّ بِجَهْدٍ وشِدَّةٍ.

وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ جَعَلَ في هذِهِ الأنفُسِ حوائجَ وقِواماً بأنْ لا قِوامَ لَها إلاّ بذلكَ. فَلَعَلَّهُ لا يَظْهَرُ بما بِهِ قِوامُ النفسِ إلاّ في بَلَدٍ آخَرَ ومَكانٍ آخَرَ، فلو تَحَمَّلَ ذلكَ بنفسِهِ لكانَ في ذلكَ تَلَفُ نَفْسِهِ وذهابُ ما بِهِ قِوامُهُ. فذَكَرَ أنهُ خَلَقَ لنا ما يُحْمَلُ بِهِ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ [في ما][8] بِهِ قِوامُ أنفُسِنا وحاجاتِنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مِنْ رحمتِهِ ورأفتِهِ ما جَعَلَ لكُمْ مِنَ المَنافِعِ في الأنعامِ وما ذَكَرَ، أو ذَكَرَ لِتَتَرَحَّموا على هذِهِ الأنعامِ التي خَلَقَها لكمْ[9] في الإنفاقِ عليها والإحسانِ إليها، وذَكَرَ فيهِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] وذلكَ لا يُوصَلُ إلى أكْلِهِ إلاّ بالذَّبحِ. فما[10] يُؤكَلُ ليسَ بخارجٍ مِنَ الرَّحْمَةِ والرأفَةِ.

وذلكَ يَنْقُضُ على الثَّنَويَّةِ قولَهُمْ؛ أنكَرُوا ذَبْحَ هذِهِ الأشياءِ، ويقولونَ: إنهمْ يَتألَّمونَ بالضَّرْبِ والذبْحِ والقَتْلِ كما تَتألَّمونَ أنتم، فَمَنْ قَصَدَ قَصْدَ أحَدِكُمْ بالقَتْلِ فهو سَفيهٌ عندَكُمْ غَيرُ حكيمٍ ولا رَحيمٍ، بلْ موصوفٌ بالقَساوَةِ والسَّفَهِ، فاللهُ، سُبْحانَهُ، موصوفٌ بالحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ والرَّأفَةِ، لا يَجوزُ أنْ يأمُرَ بالذبحِ والقَتْلِ لهذِهِ الأشياءِ، إنَّ في ذلكَ ما يُزيلُ الرَّحْمَةَ والحِكْمَةَ.

فَيُجابُ لهمْ [بوجهَينِ:

أحَدُهُما][11]: أنَّ اللهَ خَلَقَ هذا البَشَرَ في هذِهِ الدنيا لِلْمِحْنَةِ ولعاقِبَةٍ قَصَدَها: إمّا ثواباً وإمّا عِقاباً، وأخبَرَ أنهُ خَلَقَ هذِهِ

---

(١) في الأصل وم: مدها ويطول مدها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ازداد لهم. (٥) و(٦) في الأصل وم: فيزداد لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: مما. (٩) في الأصل وم: لهم. (١٠) في الأصل: فيما. (١١) في الأصل وم: بوجوه أحدها.

الأشياءَ لنا، وجَعَلَ لنا فيها منافعَ، تُؤمَّلُ، وتُقْصَدُ. وقد تَجِدُ في الشاهدِ مَنْ هو موصوفٌ بالرَّحمَةِ والرَّأفَةِ على نفسِهِ؛ يُجَرِّحُ نَفْسَهُ الجراحاتِ، ويُحَمِّلُ عليها الشدائدَ والمَكْرُوهاتِ لِمَنافِعَ، يَقْصِدُها[1] وخيرٍ يأمُلُهُ[2] في العاقِبَةِ، ثم لم يوصَفْ بالسَّفَهِ ولا بالخُروجِ/ ٢٨١ ـ ب/ عنِ الحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ مِنَ الحِجامَةِ والإفْتِصادِ وشُرْبِ الأدويةِ الكريهةِ الشديدةِ ما لو لم يَأمُلْ ما قَصَدَ مِنَ النَّفْعِ والعافيَةِ في العاقِبَةِ ما تَحَمَّلَ تلكَ المَكْرُوهاتِ والشدائدَ. فَدَلَّ ما وَصَفْنا أنَّ تَحَمُّلَ الأذى والألمِ والمَكروهِ غيرُ خارجٍ عَنِ الحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ، ولا الفِعْلُ بما فَعَلَ سَفَهٌ إذا كانَ لِمَنافِعَ تُقْصَدُ في العاقِبَةِ وعافيَةٍ تُؤمَلُ. فَيَبْطُلُ قولُ الثَّنَوِيَّةِ: إنَّ ذلكَ مِمَّا يُزيلُ الرَّحْمَةَ.

والثاني[3]: أنَّ هذهِ الأنعامَ والبهائمَ لم تُخْلَقْ لِلْمِحْنَةِ ولِلْجزاءِ في العاقِبَةِ، ولكنْ خُلِقَتْ لِمَنافِعِ البَشَرِ؛ فَلَهُمُ الانْتِفاعُ بها مَرَّةً بِلُحومِها ومَرَّةً بِحَمْلِ أثقالِهِمْ[4] والانْتِفاعِ بِظُهورِها معَ ما ذَكَرْنا أنَّ تَحَمُّلَ المَكْرُوهاتِ وأنواعِ الشدائدِ والألمِ، لا يُخرِجُ الفِعْلَ عنِ الحِكْمَةِ، ولا يُزيلُ الرَّحْمَةَ والرَّأفَةَ إذا قُصِدَ بِهِ النَّفْعُ في العاقِبَةِ، وطُمِعَ فيهِ الخيرُ. وهذا يَدُلُّ أنهُ أُبيحَ لنا الانْتِفاعُ والذَّبْحُ على غيرِ جَعْلِ حَقيقَتِها لنا حينَ[5] لم يُبِحْ لنا إتلافَها، إذ لوكانَتْ أصولُ الأشياءِ لنا لكانَ لا يَمْنَعُ عَنِ الإتلافِ. فَدَلَّ أنهُ أُبيحَ لنا الانْتِفاعُ بها على غَيرِ جَعْلِ الحقيقةِ والأصولِ لنا. فَيَبْطُلُ قولُ مَنْ يقولُ: إنَّ الأشياءَ في الأصلِ على الحِلِّ والإباحةِ حتى يقومَ ما يُحْظَرُ.

قالَ أبوعُبَيدٍ: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ يُقالُ فيهِ[6]: أرَحْتُ الإبلَ أُريحُها إراحَةً، والإراحةُ عندَ العَرَبِ أنْ يَصُدَّ الرِّعاءُ مواشِيَهمْ[7] بالليلِ إلى مأواها. ولهذا سُمِّيَ ذلكَ الموضعُ المَراحُ. وقولُهُ: ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ هو إخراجُها إلى المَرْعى؛ يُقالُ: سَرَحْتُها أسْرَحُها سَرْحاً وسُروحاً. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ. والدِّفْءُ ما ذَكَرْنا أنهُ مِنَ الإسْتِدْفاءِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ قولُهُ: ﴿وَزِينَةً﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ الماشِيَ هو دونَ الراكِبِ، والمَشْيُ يُورِثُ نقصاناً في الوَزْنِ[8]، والركوبُ لا، وذلكَ زينةٌ على ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦].

والثاني: أنَّ الراكِبَ إذا نَظَرَ إلى الماشي سُرَّ بركوبِهِ، فالسرورُ يَظْهَرُ في وَجْهِهِ وذلكَ يزيدُ في حُسْنِهِ وجَمالِهِ. وأصْلُهُ ما ذَكَرَ ﷻ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ الآية [وقال:][9] ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ بَيَّنَ أنهُ لماذا خَلَقَ الأنعامَ، وما جَعَلَ فيها؟ وهو ما ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ فيها الدِّفْءَ والمَنافِعَ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وبَيَّنَ أنهُ لماذا خَلَقَ الخيلَ؟ وهو ما ذَكَرَ ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

وسُئِلَ ابْنُ عباسٍ ﷺ عنْ لُحومِ الخَيلِ، فَقَرَأ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ ولم يَقُلْ لِتَأكُلوها، فَكَرِهَ أكْلَها لذلكَ.

وتمامُ هذا [في وجهَينِ:

أحَدُهُما][10]: أنَّ اللهَ ذَكَرَ الأنعامَ، وما ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ والانْتِفاعِ بها، وبالَغَ في ذِكْرِها لأنهُ قالَ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وقالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ [النحل: ١٠] وقالَ: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١١] وقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

ذَكَرَ جميعَ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ أنواعِ المَنافِعِ ذِكْراً شافياً غيرَ مَكْفِيٍّ. فَدَلَّ ما ذَكَرَ في الخَيلِ مِنَ الركوبِ وكذلكَ في البِغالِ والحميرِ على أنهُ ليسَ فيها مَنْفَعَةٌ أُخرى سِوى ما ذَكَرَ، وهو الركوبُ؛ إذا خَرَجَ الذِّكْرُ لها على المُبالَغَةِ والإسْتِقْصاءِ ليسَ على الإكْتِفاءِ. ولو كانَ هناكَ مَنْفَعَةٌ أُخرى لَذَكَرَ ما ذَكَرَ في غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: تقصد. (٢) في الأصل وم: يتأمل. (٣) في الأصل وم: على. (٤) في الأصل وم: أثقالها. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: منه. (٧) في الأصل وم: مواشيها. (٨) في الأصل وم: الوجه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: مِنَ الأشياءِ أشياءُ يُعرَفُ خُبثُها بِنِفارِ الطِّباعِ، والصِّبيانُ أوَّلَ ما يَبلُغونَ(١) يَرغَبونَ في رُكوبِها، لا أحدَ يَرغَبُ في أكلِها إلّا مَن غَيَّرَ طَبعَهُ عمّا كانَ مَجبولاً بِهِ، فهو يَرغَبُ في أكلِها(٢). وأمّا مَن تُرِكَ وَطَبعَهُ يَستَخبِثُها(٣)، ويَنفُرُ طَبعُهُ عن أكلِها(٤)، واللهُ أعلَمُ.

ورُوِيَ عن جابرٍ [أنهُ](٥) قالَ: لمّا كانَ يومُ خَيبَرَ أصابَ الناسَ مجاعةٌ، وأخذوا الحُمُرَ الأهليَّةَ، فَذَبَحوها، فَحَرَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ لُحومَ الحُمُرِ الإنسيَّةِ ولحومَ الخَيلِ والبِغالِ وكلَّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ وكلَّ ذي مِخلَبٍ مِنَ الطيرِ، وحَرَّمَ الخُلسَةَ والنُّهبَةَ.

ورُوِيَ عن جابرٍ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ خِلافُ ذلكَ. قالَ: أطعَمَنا رسولُ اللهِ لُحومَ الخَيلِ، ونَهانا عن لُحومِ الحُمُرِ [البخاري ٥٥٢٠].

وعَن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ [أنها](٦) قالَتْ: نَحَرنا فَرَساً في عَهدِ رسولِ اللهِ ﷺ فأكَلناهُ [البخاري ٥٥١٩].

وفي بَعضِ الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهى عن لُحومِ الحُمُرِ، وأذِنَ لنا في لُحومِ الخَيلِ. قُلنا: قد يَجوزُ أن يَكونوا أكَلوهُ في الحالِ التي كانَ يُؤكَلُ فيها الحُمُرُ؛ لأنَّ النَّبيَّ إنما نَهى عن أكلِ لحومِ الخيلِ صَريحاً(٧) فَقَدْ يَجوزُ أن يَكونُوا أكَلُوا لَحمَ الفَرَسِ في حالِ الإباحةِ، إذْ لم يَذكُروا الوقتَ.

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ](٨) قالَ: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يأكلونَ لُحومَ الخَيلِ في مَغازيهِم، وكانَ الحَسَنُ لا يَرى فيها بَأساً على كلِّ حالٍ. وقولُ الحَسَنِ: إنهمْ كانوا يأكلونَ لُحومَ الخَيلِ في مَغازيهِمْ يَدُلُّ على أنهُمْ كانوا يأكلونَ في حالِ الضرورةِ.

رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «الخَيلُ لِثلاثةٍ: فهي لِرَجُلٍ كذا أو لِرَجُلٍ آخَرَ كذا وعلى رَجُلٍ وِزرٌ» [البخاري ٢٨٦٠] يُبيِّنُ أنها لا تَصلُحُ لِغَيرِ ذلكَ. ولو صَلَحَتْ للأكلِ لَقالَ: الخَيلُ لأربعةٍ ولَقالَ: ولِرَجُلٍ طعامٌ.

وكما يُبيِّنُ ما ذَكَرنا أنَّ البَغلَ حَرامٌ، وهو مِنَ الفَرَسةِ، فلو كانَتْ أمُّهُ حَلالاً كانَ هو أيضاً حَلالاً. ولأنَّ حُكمَ الوَلَدِ حُكمُ أمِّهِ، لأنهُ منها، وهو كَبَعضِها. فَمَن حَرَّمَ البَغلَ لَزِمَهُ أن يُحَرِّمَ لحمَ الفَرَسةِ في حُكمِ النظرِ والمَقاييسِ.

أفَلا تَرى أنهُ جُعِلَ حُكمَ الوَلَدِ حُكمَ أمِّهِ، ولم يَعتَبِرْ بالفَحلِ؟ فلما كانَ لحمُ البَغلِ حراماً وَجَبَ أن يكونَ لَحمُ الفَرَسةِ كذلكَ.

إلّا أنَّ أبا حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، كانَ لا يُطلِقُ تَحريمَ أكلِها لِما فيها مِنَ الشُّبهَةِ [لِاختِلافِ الأحاديثِ](٩) المَروِيَّةِ عن رسولِ اللهِ. لكنهُ ذَكَرَ الكَراهةَ لِلشُّبهَةِ التي فيها.

وكانَ أبو يوسفَ، رَحِمَهُ اللهُ، يُبيحُ أكلَها.

وقد يَجوزُ أن يُحتَجَّ لأبي يوسفَ في الفَرقِ بَينَ المولودِ مِنَ الفَرَسةِ وبَينَ وَلَدِ الحِمارةِ الوَحشيَّةِ، إذا نُزِيَ، عليها حمارٌ أهليٌّ، بأنَّ وَلَدَ الحِمارِ لم يَتَغيَّرْ عن جِنسِ أمِّهِ، فَحُكمُهُ حُكمُها. والبَغلُ ليسَ مِن جِنسِ أمِّهِ، هو مِن جِنسٍ ثالثٍ. فذلكَ لم يَكُنْ سَبيلُها بِسَبيلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أخبَرَ أنهُ يَخلُقُ ما لا نَعلَمُ، فَلَيسَ لنا أن نَتَكلَّفَ في عِلمِ ذلكَ، أو يَخلُقَ مِنَ النِّعَمِ في ما خَلَقَ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتُم أنها نِعَمٌ، أو قالَ: يقولُ قومٌ: إنهُ ليسَ للهِ أن يَخلُقَ شيئاً لا يُطلِعُ المُمتَحَنَ عليهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ اختُلِفَ فيهِ. قالَ بعضُهُمْ: أي على اللهِ بيانُ قَصدِ السَّبيلِ وهُدًى يُبيِّنُ الهُدى مِنَ الضلالةِ، ويُبيِّنُ [السَّبيلَ مِنَ السُّبُلِ](١٠) التي تَفَرَّقَتْ عن سَبيلِهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩].

---

(١) في الأصل وم: بلغوا. (٢) في الأصل وم: أكله. (٣) في الأصل وم: يستخبث. (٤) في الأصل وم: أكله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: صحيحاً. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: والاختلاف والأحاديث. (١٠) في الأصل وم: من السبيل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي عليهِ بَيانُ ما يَجورُ منها: قَصْدُ السبيلِ، يُعْدَلُ، ويُجارُ. أو يقالُ: وباللهِ يوصَلُ إلى قَصْدِ السبيلِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي وباللهِ يُوصَلُ بِقَصْدِ السبيلِ، وهي السُّبلُ التي ذَكَرْنا. ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ كقولِهِ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقالَ بعضُهُمْ: طريقُ الحقِّ والعَدْلِ للهِ، وقد يُسْتَعْمَلُ حَرْفٌ على مكانَ [اللامِ كقولِهِ تعالى][1]: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] وقولِهِ[2] تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ/ ٢٨٢ ـ أ/ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ وهي السُّبُلُ المُتَفَرِّقَةُ عن سبيلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: لو شاءَ أكْرَمَ الخَلْقَ كُلَّهُ باللطفِ الذي أكْرَمَ أولياءَهُ، فاهْتَدوا بهِ، فيَهْتَدونَ.

والثاني: لو شاءَ أعطاهُمْ جميعاً الحالَ التي يكونُ بها الاهْتِداءُ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ لِما لا يَحْتَمِلُ أنهُ إذا كانَ ذلكَ معَ الكفارِ لَكَفَروا جميعاً، وإذا كانَتْ تلكَ الحالُ لِلْمُسلِمينَ لا يُسْلِمُونَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ موصولٌ بقولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية: ٣] وقولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الآية: ٤] وقولِهِ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ [الآية: ٥] [وقولِهِ][3]: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ [الآية: ٨] يقول: الذي خَلَقَ لكُمْ ما ذَكَرَ [مِنَ][4] الأشياءِ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لنا [ثم][5] أخبَرَ ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ جميعَ ما يُشْرَبُ مِنَ الأشربةِ؛ إذ منهُ تكونُ الأشرِبَةُ وجميعُ الأشياءِ. ويَحْتَمِلُ ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ الماءَ خاصَّةً ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ الشَّجرُ معروفٌ؛ هو الذي يَعْلو، ويَرْتفعُ على الأرضِ، لا يُسَمَّى الحَشيشَ، وما يَنْبَسِطُ على وَجْهِ الأرضِ [يُسَمَّى حَشيشاً][6]. فظاهرُ هذا أنْ يَرْجِعَ إلى ذلكَ المعروفِ إلّا أنهُ ذَكَرَ شَجراً ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي تَزْرَعُونَ.

دلَّ هذا أنهُ إنما أرادَ بالشجَرِ المُنْبَسِطَ على وجهِ الأرضِ والمرتفِعَ عليها.

وقالَ القُتَبِيُّ: السائِمَةُ الرَّاعِيَةُ، وكذلكَ قالَ أبو عَوْسَجَةَ. وقالَ أبو عُبَيدةَ: أَسَمْتُ سائمتي أي رَعَيْتُها، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] أي الراعيةِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي يُنْبِتُ لكُمْ بالماءِ الذي ذَكَرَ أنهُ أنْزَلَهُ[7] مِنَ السماءِ الزَّرْعَ والزيتونَ وجميعَ ما ذَكَرَ اللهُ بِلُطْفِهِ [إذْ هو][8] لِقاحُ كلِّ الأشياءِ المُختلِفَةِ [والمُتَّفِقَةِ][9] ليسَ كَغَيرِهِ مِنَ الدوابِّ حينَ[10] لم يَجْعَلِ اللِّقاحَ بِشيءٍ مِنْ جِنسٍ آخَرَ، إنما جَعَلَ لِقاحَ كلِّ نوعٍ مِنْ نوعِهِ، وجَعَلَ في الماءِ بِلُطْفِهِ سِرِّيَّةً تُوافِقُ جميعَ الأشياءِ المختلفةِ، لوِ اجْتَمَعَ الخلائقُ على إدراكِ ذلكَ، وإنِ اجْتَهَدُوا، لم يَقْدِرُوا عليهِ؛ يَعْرِفُونَ الماءَ ظاهراً، ولكنْ لا يُدْرِكُونَ ما فيهِ مِنَ اللطفِ والسِّرِّيَّةِ الذي بهِ تكونُ حياةُ كلِّ أحدٍ[11] وموافَقَتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ذَكَرَ أنَّ فيهِ آيةً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ولم يذكُرْ أنهُ لِماذا؟ لكنهُ ذَكَرَ أنهُ آيةٌ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بالتَّفكُّرِ يُعْرَفُ أنهُ آيةٌ لماذا؟ أوهذا يدلُّ على الأشياءِ التي غابَتْ عنّا ظواهِرُها؛ بالتَّفكُّرِ والنَّظرِ تُدْرَكُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ﴾ وما ذَكَرَ، وَوَجْهُ تَسْخِيرِ هذهِ الأشياءِ

---

(١) في الأصل وم: له. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: شجراً. (٧) في الأصل وم: أنزل. (٨) في الأصل وم: الماء. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث.
(١١) أدرج قبلها في الأصل: حياة.

لنا، وهو أنَّ اللهَ خَلَقَ هذهِ الأشياءَ، وجَعَلَ فيها مَنافِعَ لِلْخَلْقِ، تَصِلُ تلكَ المنافِعُ إلى الخَلْقِ، شِئْنَ أمْ أبَيْنَ، أجَبْنَ، أمْ كَرِهْنَ.

جَعَلَ في النهارِ مَعاشاً لِلْخَلْقِ وتَقَلُّباً فيه يتَعَيَّشُونَ، ويتَقَلَّبُونَ، وجَعَلَ الليلَ راحةً لهمْ وسَكَناً، يَنْتَفِعُونَ بهما شاءا، أمْ أبَيَا، وكذلكَ ما جَعَلَ في الشمسِ والقمرِ والنجومِ مِنَ المَنافِعِ في إنضاجِ الفواكِهِ والثمراتِ وإدراكِ الزروعِ وبلوغِها ومعرفةِ الحِسابِ والسِّنينَ والأشهرِ ومَعْرِفَةِ الطُّرُقِ والسلوكِ بها وغَيرِ ذلكَ مِنَ المَنافِعِ ما ليسَ في وُسْعِ الخَلْقِ إدراكُهُ؛ يَنْتَفِعُ الخَلائِقُ بما جَعَلَ فيها مِنَ المنافِعِ، شاءَتْ هذهِ الأشياءُ، أمْ أبَتْ. فذلكَ وَجْهُ تَسْخيرِها لنا.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ هذهِ الأشياءِ لنا ماجَعَلَ في وُسْعِنا اسْتِعْمالَ هذهِ الأشياءِ والانْتِفاعَ بها والحِيَلَ التي بها نَقْدِرُ على اسْتِعْمالِها في حَوائِجِنا.

ويَحْتَمِلُ تَسْخيرُها لنا ما نَنْتَفِعُ بهنَّ؛ شِئْنَ، أمْ أبَيْنَ بالطِّباعِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أي بأمرِهِ تَنْفَعُ الخلائقَ، ويَحْتَمِلُ ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي كونُها في الأصلِ هكذا بأنْ تنفعَ الخَلْقَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قالَ في الآيةِ الأُولَى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ التَّفَكُّرَ سَبيلاً لِلْعُقُولِ إلى إدراكِ الغَيْبَةِ بالحواسِّ الظاهِرَةِ؛ إذْ لا سَبيلَ للعَقْلِ إلى إدراكِ ما غابَ عنهُ إلّا بالحواسِّ الظاهِرَةِ[1]، فَجَعَلَ الحواسَّ الظاهرةَ سَبيلاً للعقولِ إلى إدراكِ المُغَيَّبِ عنها.

ذَكَرَ ﷻ في الآيةِ الأُولَى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وذَكَرَ في الآيةِ الثالثةِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣] وفي الرابعةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الآية: ١٤] فهو، واللهُ أعلمُ كَرَّرَهُ على مَراتِبَ، لأنهُ بالتَّفَكُّرِ فيها يَعْقِلُ، ويَعْلَمُ، ثم بعدَ العِلْمِ والعَقْلِ والفَهْمِ يَتَذَكَّرُ. وإذا تَذَكَّرَ عند ذلكَ شَكَرَ نِعَمَهُ.

ثم قولُهُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقولُهُ[2] ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ما ذَكَرَ فيهما[3] دلالةُ واحدانِيَّةِ اللهِ تعالى ودلالةُ تدبيرِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ ودلالةُ بَعْثِ الخَلائِقِ ودلالةُ قُدْرتِهِ وسُلْطانِهِ؛ لأنَّ الليلَ والنهارَ يَأْتِيانِ الجبابِرَةَ والفراعِنَةَ، ويَذْهبانِ بِعُمُرِهِمْ، ويُفْنيانِهِ، شاؤُوا، أم أبَوا. فذلكَ آيةُ سُلْطانِهِ وقدرَتِهِ لِيُعْلَمَ أنَّ لهُ السلطانَ والقدرةَ [لا][4] لَهُمْ.

وفيهما دلالةُ البَعْثِ لأنهُ إذا أتى هذا ذَهَبَ الآخَرُ، حتى لا يَبْقَى لهُ أثَرٌ. ثم يُنْشِئُ مِثْلَهُ بَعْدَ أنْ لم يَبْقَ مِنَ الأوَلِ شيءٌ ولا أثَرٌ. فالذي قَدَرَ على إنشاءِ النهارِ أو الليلِ بَعْدَ ما ذَهَبَ أثَرُهُ، وتَلاشى، قادِرٌ على إنشاءِ الخَلْقِ بَعْدَ ما يَذْهَبُ[5] أثَرُهُمْ.

وكذلكَ الشمسُ والقمرُ والنجومُ وما ذَكَرَ؛ لَمَّا اتَّسَقَ هذا كُلُّهُ على سَنَنٍ واحدٍ وتَقْديرٍ واحدٍ على غَيرِ تَفاوُتٍ فيها ولا تَفاضُلٍ وعلى غَيرِ تقديمٍ ولا تأخيرٍ، جَرَى كلُّهُ على [سَنَنٍ][6] واحدٍ وتَقْديرٍ واحدٍ وميزانٍ واحدٍ مِنْ غَيرِ تفاوُتٍ ولا[7] اخْتِلافٍ. دلَّ أنهُ على تدبيرٍ واحدٍ خَرَجَ ذلكَ لا على الجُزافِ، وأنَّ مُدَبِّرَ ذلكَ كُلِّهِ واحدٌ؛ إذْ لو كانَ تدبيرُ عددٍ لَخَرَجَ مُخْتَلِفاً مُتَفاوِتاً. فَدَلَّ أنهُ تدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ، وأنهُ على تدبيرٍ غَيرِ خَرِجَ، وجَرَى كذلكَ لا بِنَفْسِهِ، وأنهُ على حِكْمَةٍ وعِلْمٍ جَرَى كذلكَ. فيدلُّ على لزومِ الرسالةِ والعِبادةِ لهُ، واللهُ أعلَمُ بتأويلِ قولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أي مُخْتَلِفاً أصنافُهُ وجواهِرُهُ. يُخبِرُ ﷻ عَنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ ونِعَمِهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ. أمّا سُلْطانُهُ وقدرتُهُ فما خَلَقَ في الأرضِ، وأنبَتَ فيها بالماءِ، لم يرجِعْ إلى جَوهَرِ الأرضِ وجِنْسِها، ولا إلى جوهرِ الماءِ وجِنْسِهِ، وهما كالوالِدَيْنِ: الماءُ كالأبِ والأرضُ كالأُمِّ، فلم يَرْجِعْ ما خَرَجَ منهُما [إلى جِنْسِهما ولا إلى جوهَرِهما][8] كما كانَ في سائِرِ الأشياءِ؛ رَجَعَ التوالُدُ منها إلى جِنْسِ الوالِدَيْنِ وجوهَرِهما، بل رَجَعَ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: لا يدركه العقل. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ذهب. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م، الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: من جنسهما ولا من جوهر، في م: من جنسهما ولا من جوهرهما.

التوالُدُ والمَنْشأُ مِنَ الأرضِ والماءِ إلى جِنْسِ البِذْرِ وجَوهَرِهِ لِتُعْلَمَ قدرتُهُ وسلطانُهُ على[1] إنشاءِ الأشياءِ بأسبابٍ وبِغَيرِ أسبابٍ ومِنْ شَيءٍ ومِنْ لا شَيءٍ.

ويَذْكُرُ نِعَمَهُ حينَ[2] أخبَرَ أنهُ خَلَقَ في الأرضِ مِنَ الأصنافِ المُخْتَلِفَةِ والجواهِرِ المُتَفَرِّقَةِ لِيَنْتَفِعُوا بها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ مِنْ جِنْسٍ واحدٍ مِنْ شَيءٍ واحدٍ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ وفي آيةٍ أُخرَى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١] وفي آيةٍ أُخرَى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥ و..] [وفي آيةٍ أُخرَى][3] ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؟ [الحجر: ٧٥] وفي آيةٍ أُخرَى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] فَيَحْتَمِلُ/ ٢٨٢ ـ ب/ أنْ يكونَ كلُّهُ كِنايةً عَنِ المؤمنينَ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ في ذلكَ لآيةً للمؤمنينَ؛ إذْ يَجْمَعُ الإيمانُ جَميعَ ما ذَكَرَ مِنَ التَّفَكُّرِ والتَّذَكُّرِ والعَقْلِ والاِعْتِبارِ والصَّبْرِ والشُّكْرِ وغَيرِهِ.

ويَحتَمِلُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ و﴿يَعْقِلُونَ﴾ و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لِقَومٍ هِمَّتُهُمُ الفِكْرُ والنَّظَرُ في الآياتِ، ولِقَومٍ هِمَّتُهُمُ التَّفَهُّمُ والاِعْتِبارُ فيها، لا لِقَومٍ هِمَّتُهُمُ العِنادُ والمكابَرَةُ والإعراضُ عنِ النَّظَرِ في الآياتِ والفِكْرِ فيها. وفي ذِكْرِ الآيَةِ لِلْمُتَفَكِّرِينَ والعاقِلِينَ والمُتَذَكِّرِينَ لِما مَنْفَعَةُ الآيَةِ تكونُ لهؤلاءِ. وإنْ كانتِ الآياتُ لهمْ ولِغَيرِهِمْ فَمَنْفَعَتُها لِمَنْ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وتَسْخِيرُهُ إياهُ لنا هو ما بَذَلَ لِلْخَلْقِ ما فيهِ مِنْ أنواعِ الأموالِ التي خَلَقَ اللهُ فيهِ مِنَ الحُلَى والجَوهَرِ واللُّؤْلُؤِ، وبَذَلَ ما فيهِ مِنَ الدوابِّ والسمكِ وغَيرِهِ. فلولا تَسْخِيرُ اللهِ إياهُ لِلْخَلْقِ وتَعْلِيمِهِ إيَّاهُمُ الحِيَلَ التي بها يُوصَلُ إلى ما فيهِ مِنَ الأموالِ النَّفِيسَةِ، وإلاّ ما قَدَروا على اسْتِخْراجِ ما فيهِ والوصولِ إليهِ لِشِدَّةِ أهوالِهِ وإفزاعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يَحْتَمِلُ السمكَ خاصَّةً، ويَحْتَمِلُ السمكَ وما فيهِ مِنَ الدوابِّ، مِنْ نَوْعٍ ما لو كانَ بَرِّيًّا أُكِلَ مِنْ نَحوِ الجواميسِ وغَيرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ تَحْتَمِلُ الحِلْيَةُ اللُّؤْلُؤَ والمَرْجانَ الذي ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى حينَ[4] قالَ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿حِلْيَةً﴾ أي ما يُتَّخَذُ منهُ حِلْيَةٌ. وهذا جائزٌ أنْ يُسَمَّى الشَّيءُ باسْمِ ما يُتَّخَذُ منهُ، وباسْمِ ما يَصِيرُ بهِ في المُتَعَقَّبِ، أو يُسَمَّى حِلْيَةً لأنهُ زينةٌ. ولا شَكَّ أنَّ اللُّؤْلُؤَ والمَرجانَ هما زينةٌ وجَمالٌ، وفي الخيلِ والبِغالِ كذلكَ. فالزينةُ في اللُّؤْلُؤِ والمَرْجانِ أكثَرُ، والجَمالُ فيهِ أظْهَرُ.

أخبَرَ أنهُ جَعَلَ لنا الوُصولَ إلى الثاني: قَعْرَ البَحْرِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ اللُّؤْلُؤِ وأنواعِ الحُلَى، وما في بَطْنِ البَحْرِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ اللَّحْمِ الطَّرِيِّ، وما هو على وَجْهِ الماءِ، وهو السُّفُنُ التي ذَكَرَ.

ووَجْهُ تَسْخيرِهِ [إيَّاهُ لنا][5] الحِيَلُ والأسبابُ التي عَلَّمنا حتى نَصِلَ إلى ما فيهِ. فكأنهُ قالَ: سَخَّرْتُ لَكُمُ البَحْرَ مِنْ أسْفَلِهِ إلى أعلاهُ. وفي ذلكَ دلالاتٌ:

أحَدُها: إباحةُ التجارةِ بركوبِ الأخطارِ لأنَّ الغائِصَ[6] في البحرِ يُخاطِرُ[7] بنفسِهِ وروحِهِ. وكذلكَ راكبُ السُّفُنِ. فلولا أنهُ مُباحٌ لهُ طَلَبُ ذلكَ، وإلاّ ما ذَكَرَ هذا في مِنَّتِهِ؛ إذْ هو يُخَرَّجُ مُخرَجَ ذِكْرِ الاِمْتِنانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ قالَ الحَسَنُ والأصَمُّ: المَواخِرُ السُّفُنُ المَشْحوناتُ[8] الوافِرَةُ أحمالُها وأثقالُها؛ يَذْكُرُ مِنَّتَهُ التي مَنَّ بها عليهِمْ حينَ[9] جَعَلَ لهمُ السُّفُنَ والفُلْكَ، تُحْمَلُ بها الأحمالُ الثِّقالُ العظامُ في البحارِ، ما سَبِيلُها التَّسَفُّلُ والاِنحِدارُ في البَحْرِ، فأمْسَكَها فيهِ بالسُّفُنِ العِظامِ الثقيلةِ.

---

(١) في الأصل وم: إلى. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إيانا. (٦) من م، في الأصل: الغايطي. (٧) في الأصل وم: يخطر. (٨) في الأصل وم: المحشوات. (٩) في الأصل وم: حيث.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي جارِيةً مُقْبِلَةً مُدْبِرَةً بِريحٍ واحدةٍ في البَحْرِ، لأنَّ ماءَ البَحْرِ راكِدٌ، فأجْرَى السُّفُنَ فيهِ بالرياحِ حيثُ أرادوا، وقَصَدُوا؛ إذِ الأشياءُ قد تَجْرِي على مَجْرَى الماءِ إذاكانَ لهُ جَرْيَةٌ، وأمّا إذاكانَ راكداً ساكناً فلا سَبيلَ إلى ذلكَ. فَيُذَكِّرُ عظيمَ مِنَّتِهِ وقدرتِهِ على إجراءِ السُّفُنِ في الماءِ الراكدِ بالريحِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي جَوارِيَ، تَشُقُّ الماءَ شَقًّا، وتَخرُقُهُ؛ يُقالُ: مَخَرَتِ السفينةُ، ومنهُ مَخْرُ الأرضِ، إنما هو شَقُّ الماءِ لها، وهو قولُ القُتَبِيِّ. فكذلكَ قالَ أبو عُبَيدةَ: إنهُ مِنْ شَقِّ السُّفُنِ الماءَ. وقال أبو عَوسَجَةَ: المَواخِرُ المُسْتَقْبِلَةُ؛ يُقالُ: اسْتَمْخَرَ الإنسانُ الريحَ إذا اسْتَقْبَلَها. وقالَ أبو عُبَيدةَ: ﴿مَوَاخِرَ﴾ مِنَ الاِسْتِدْبارِ؛ يُقالُ: إذا أرادَ أحَدُكُمْ البَوْلَ فَلْيَسْتَخْمِرِ الريحَ، أي يَسْتَدْبِرَها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يَحْتَمِلُ بالتجارةِ التي جَعَلَ فيها حيثُ جَعَلَ فيها قَطْعَ البحارِ إلى بلادٍ نائيةٍ بَعيدةٍ بالسُّفُنِ لِيَبْتَغُوا ما بِهِ قِوامُ أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ؛ إذْ جَعَلَ بُنْيَتَهُمْ بُنْيَةً لا تقومُ إلاّ بالأغذيةِ، ولَعَلَّهُمْ لا يَظْفَرُونَ بما بِهِ قِوامُ أبدانِهِمْ وبُنْيَتِهِمْ في بلادِهِمْ، فَيَحتاجونَ إلى البلادِ النائيةِ البعيدةِ عنهُمْ، فَمَنَّ عليهِمْ بذلكَ. كما مَنَّ بِقَطْعِ المَفاوِزِ والبَوادِي بالدوابِّ بقولِهِ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

أو قالَ: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بما يُسْتَخرَجُ منه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ جميعَ ما ذَكَرَ منْ ألوانِ النِّعَمِ والمَنافِعِ منْ أوَّلِ السورةِ إلى آخرِها يَسْتَأدِي به شُكْرَهُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ دَلالةُ إباحةِ التجارةِ وطَلَبِ الفَضْلِ بركوبِ الأخطارِ واحتِمالِ الشدائِدِ حينَ[1] أخبرَ أنهُ سَخَّرَ البَحْرَ حتى أمْكَنَهُمْ ركوبُهُ بالحِيَلِ والأسبابِ التي عَلَّمَها لهمْ، لأنَّ الغَوّاصَ يُخاطِرُ[2] بروحِهِ ونفسِهِ، وكذلكَ راكِبُ السفينةِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي ألقى في الأرضِ رواسِيَ لِئَلاّ تَميدَ بكُمْ، لأنها بُسِطَتْ على الماءِ، فكانَتْ تُكْفَأُ بأهلِها كما تُكْفَأُ السفينةُ في الماءِ، فأثْبَتَها بالجبالِ لِتَقِرَّ بأهلِها.

لكنْ لو كانَ على ما ذَكَرُوا أنها بُسِطَتْ على الماءِ لكانَتْ لا تُكْفَأُ، ولا تَضْطَرِبُ، ولكنّها تَسَرَّبُ في الماءِ، وتنهارُ فيهِ، لأنَّ مِنْ طَبْعِها التَّسَفُّلُ والتَّسَرُّبُ في الماءِ، إلاّ أنْ يُقالَ: [إنَّ اللهَ][3] ﷻ جعلَ بِلُطْفِهِ طَبْعَها طَبْعَ ما يَضْطَرِبُ، ويُكْفَأُ. فَعِنْدَ ذلكَ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرُوا، واللهُ أعلَمُ.

ولو قالوا: إنها بُسِطَتْ على الريحِ لَكانَ يَحْتَمِلُ ما قالوا، ويكونُ أشبهَ بقولِهِمْ، ألا تَرَى أنَّ السِّراجَ في الآبارِ والسُّرُوبِ، لا يُضيءُ، بل يُطْفَأُ، كُلّما أُسْرِجَ؛ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ انْطِفاؤُهُ بِريحٍ، يكونُ في الأرضِ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: بُسِطَتْ على ظَهْرِ الثورِ، فكانَتْ تَضْطَرِبُ بِتَحرُّكِهِ، فأرساها بما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ يُخَرَّجُ ذِكْرُ ذلكَ منهُ مُخْرَجَ[4] الامْتِنانِ؛ ذَكَرَ النِّعْمَةَ لأنَّ لهُ أنْ يَتْرُكَ الأرضَ على ما خَلَقَها، ولا يُثْبِتَها بالجبالِ لِتَميدَ بأهلِها، ويُمِيلَها[5] فلا يَقْدِروا على القَرارِ عليها والاِنْتِفاعِ بها. لكنهُ بِفَضْلِهِ ومَنِّهِ أثْبَتَها بالجبالِ لِيَقَرُّوا عليها، ويَقْدِروا على الاِنْتِفاعِ بها.

وكذلكَ لهُ ألاّ يَجْعَلَ لهمْ فيها أنهاراً جاريةً، فتكونُ مياهُهُمْ[6] مِنْ آبارِها. وكذلكَ لهُ أنْ يُحْوِجَهُمْ بأنواعِ الحوائجِ، ثم لا يُبَيِّنَ لهمُ الطُّرُقَ والسُّبُلَ التي تُفْضِي إلى البلدانِ والأمكنةِ التي فيها تُقْضَى حوائِجُهُمْ. وكذلكَ بِفَضْلِهِ جَعَلَ لهمْ في الأرضِ أنهاراً جاريةً، وأثبتَ الأرضَ بالرَّواسي لِيَقَرُّوا عليها. وذلك كُلُّهُ بِمَنِّهِ وفَضْلِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يخطر. (٣) في الأصل: الله، في م: إنه. (٤) في الأصل وم: ذكر. (٥) من م، في الأصل تمليها. (٦) من م، في الأصل: مياهه.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الطُّرقَ والسُّبُلَ التي [تُفضِي بكُمْ][١] إلى الحوائجِ. ويَحتَمِلُ ﴿تَهْتَدُونَ﴾ الهُدَى المعروفَ بما[٢] ذَكَرَ مِنْ نِعَمِهِ ومِنَنِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هذا أيضاً يُخرَّجُ مُخرَجَ ذِكْرِ المِنَنِ والنِّعَمِ عليهِمْ، لأنهُ لو ما جَعَلَ اللهُ أعلاماً في البحارِ والبراري، يَعْرِفونَ بها السُّلوكَ فيها، لم[٣] يَقدِرْ أحَدٌ مَعْرِفَةَ الطُّرُقِ في البَحارِ والبَراري. ثم تَحتَمِلُ الأعلامُ مَرَّةً بِطَعْمِ الماءِ والجبالِ التي جَعَلَ فيها وبالرِّياحِ، ومَرَّةً تكونُ بالنجمِ؛ يَعْرِفُونَ بِطَعْمِ الماءِ أنَّ هذا الطريقَ يُفضِي إلى مَوضِعِ كذا، وكذلكَ يَعْرِفُونَ بالجبالِ وبالرياحِ/ ٢٨٣ ـ أ/ يَعْرِفُونَ السُّبُلَ إلى حَوائِجِهِمْ ومَقْصودِهِمْ، وكذلكَ بالنجمِ يَعْرِفُونَ الطُّرُقَ. فالأعلامُ مُخْتَلِفَةٌ، بها يَهْتَدُونَ الطُّرُقَ والسُّبُلَ.

ويَحتَمِلُ ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بما ذَكَرَ مِنَ الأعلامِ ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾ والنجمُ سَبَبُ اهْتِدائِهِمْ إلى توحيدِ اللهِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهما: على الاحتِجاجِ عليهِمْ، أي لا تَجْعَلُوا مَنْ لا يَخْلُقُ، ولا يَنْفَعُ، ولا يُنْعِمُ، كَمَنْ هو خالقُ الأشياءِ كلِّها مُنْعِمُ النِّعَمِ عليكُمْ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ[٤] صَرْفَ العِبادةِ والشكرِ إلى غيرِ خالِقِكُمْ وغيرِ مُنْعِمِكُمْ جَوْرٌ[٥] وظُلْمٌ.

والثاني: يُخرَّجُ مُخرَجَ تَسفيهِ أحلامِهِمْ أنهمْ يَعْبُدونَ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ ليسَ بخالِقٍ، ويَتْرُكُونَ عِبادةَ [مَنْ][٦] يَعْلَمُون أنهُ خالقُ الأشياءِ كلِّها ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ أنفُسَ نِعَمِهِ التي أنعَمَها عليكُمْ وأعْيُنَها لا تَقْدِرُوا على عَدِّها لِكَثْرَتِها.

والثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ وإنْ تَكَلَّفْتُمْ، واجْتَهَدْتُمْ كلَّ جَهْدِكُمْ أنْ تَقُومُوا لِشُكْرِ ما أنْعَمَ اللهُ عليكُمْ ما قَدَرْتُمْ على القِيامِ لِشُكْرِ واحدةٍ منها فَضْلاً أنْ تقوموا لِلْكُلِّ.

والثالثُ: يُخرَّجُ على العِتابِ والتوبيخِ، أي كيفَ فَرَغْتُمْ لِعِبادةِ مَنْ لا يَخْلُقُ، ولا يُنْعِمُ [وانصَرَفْتُمْ][٧] عن عبادةِ مَنْ خَلَقَ، وأنْعَمَ؟ وكُنْتُمْ لا تَقْدِرُونَ[٨] على إحصاءِ ما أنْعَمَ عليكُمْ فَضْلاً أنْ تَقُومُوا لِشُكْرِهِ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تَعْرِفُوا كلَّ النِّعَمِ، لأنَّ مِنَ النِّعَمِ ما لا يَعْرِفُهُ الخَلْقُ كقولِهِ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فإذا لم يَعْلَموها[٩] لم يَقْدِرُوا إحصاءَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: إنكُمْ وإنِ افْتَرَيْتُمْ على اللهِ، وعانَدْتُمْ حُجَجَهُ وآياتِهِ، وكَذَّبْتُمْ رُسُلَهُ، فإذا اسْتَغْفَرْتُمْ، وتُبْتُمْ عمّا كانَ ذلكَ منكُمْ، يَغفِرُ لكمْ ذلكَ كُلَّهُ كقولِهِ ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والثاني: ﴿لَغَفُورٌ﴾ أي يستُرُ عليكُمْ ما كانَ منكُمْ ما لو ظَهَرَ ذلكَ لافْتَضَحْتُمْ، لكنهُ برحمتِهِ سَتَرَ ذلكَ عليكم. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالسَّتْرِ عليكُمْ.

أو ذَكَرَ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على إثْرِ ذِكْرِ النِّعَمِ وأنواعِ المَنافِعِ ليكونوا على ما ذَكَرَ مِمّا سَخَّرَ لنا أَذَلَّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وَجهَينِ:

أحَدُهُما: ذَكَرَ هذا لِيكونُوا أيْقَظَ وأحْذَرَ، لأنَّ في الشاهِدِ مَنْ يَعْلَمُ أنَّ عليهِ رقيباً حافظاً بما يَفْعَلُ، كانَ هو أرقَبَ وأحْفَظَ لأعمالِهِ، ويكونُ أحْذَرَ مِمَّنْ يَعْلَمُ أنهُ ليسَ عليهِ حافظٌ ولا رَقيبٌ.

---

(١) في الأصل وم: تقضيهم. (٢) من م، في الأصل: عما. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: وإلا. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٥) من م، في الأصل: همر. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: تقدروا. (٩) في الأصل وم: يعلموا.

والثاني: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ مِنَ المَكْرِ برسولِ اللهِ والكَيدِ لهُ مِنَ القَتْلِ والإخراجِ وغيرِ ذلكَ كلِّهِ منكُمْ ما أسرَرْتُمْ، وأعلَنْتُم. وهو يُخَرَّجُ على نهايةِ الوَعيدِ والتَّعْيِيرِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يَحْتَمِلُ يُسَمُّونَ][1] آلهةً، وربما كانوا يدعونَهُمْ عندَ الحاجةِ. ويَحْتَمِلُ يَدْعُونَ يَعْبُدُونَ، أيِ الذينَ يَعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ فهذا يَرْجِعُ إلى الأوَّلِ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: ١٧].

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ المُرادُ بقولِهِ: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ الذينَ عَبدوا الأصنامَ والأوثانَ وجميعُ مَنْ كَفَرُوا باللهِ، هُمْ ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ لأنَّ اللهَ تعالى، سَمَّى الكافرَ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ مَيْتاً، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ أيضاً ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي [لا][2] يَشْعُرونَ مَتى[3] يُبْعَثُونَ؟ أي لو شَعَرُوا [في][4] هذهِ الدنيا ما شَعَرُوا في الآخرةِ، لم يَعْمَلوا ما عَمِلُوا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ الأصنامُ التي عَبدوها هي ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ لأنها لا تَتَكَلَّمُ، ولا تَسْمَعُ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَنْفَعُ، ولا تَضُرُّ، كالأمواتِ[5] ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ أي ليسَ فيها أرواحٌ، يُنْتَفَعُ بها كالبهائمِ والأنعامِ. ويكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ راجعاً إلى الذينَ عَبَدُوا الأصنامَ، لأنها لا تَشْعُرُ أيّانَ يُبْعَثُونَ، وهُمْ يَعْلَمونَ أنها لا تَشْعُرُ ذلكَ. لكنهُمْ يَشعُرونَ حينَ يُبْعَثُونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ تُبْعَثُ الآلهةُ، والذينَ عَبدوها جميعاً كقولِهِ: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [يونس: ٢٨] وقولِهِ: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢ و٢٣].

وقالَ بعضُهُمْ: يَحْشُرُ أولئكَ الذينَ يَعْبُدُونَ الأصنامَ، وما يَشْعُرونَ هُمْ أيانَ يُبْعَثُونَ، أي حينَ يُبعَثونَ. [ولو شَعَروا][6] ذلكَ في الدنيا ما فَعَلُوا.

وإنْ كانَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ راجعاً إلى الملائكةِ والملوكِ الذينَ عُبِدوا دونَ اللهِ يَكُنْ[7] تأويلُ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي لا يَشْعُرونَ وقتَ يُبْعَثُونَ. وإنْ كانَ راجعاً إلى الأصنامِ فقولُهُ: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي يَشْعُرونَ أنهمْ يُبْعَثُونَ. ولا[8] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أنْ يقالَ ذلكَ في الأصنامِ؛ لأنَّ أولئكَ يَعْلَمونَ أنهمْ لا يَخْلُقُونَ، وإنما يقالُ في[9] الأصنامِ: لا تَسْمَعُ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَنْفَعُ. فدلَّ أنَّ ذلكَ راجعٌ إلى الملائكةِ والذينَ عَبَدُوهُمْ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ما يُبَيِّنُ إبطالَ ما كانوا يَعْبُدُونَ، وما لا يَليقُ بأمثالِها العبادةُ لها، ونَصْبَهُمْ آلهةً. ثم ذَكَرَ ما يُبَيِّنُ جَعْلَ الألوهيَّةِ والربوبيَّةِ أنهُ لواحدٍ وأنهُ هو المُسْتَحِقُّ لذلكَ دونَ العَدَدِ الذي عَبَدُوهُ[10]، فقالَ: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ لا العَدَدُ الذي عَبَدَ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ للإيمانِ بالآخرةِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ، أو ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ لِما جاءَ بهِ الرسولُ ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ على ما جاءَ بهِ مِنَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ على رسولِ اللهِ، لم يَرَوْهُ أهلاً [لِخُضوعِ أمثالِهِمْ][11] لِمِثْلِهِ، أو ﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [على ما دَعَتْهُمْ][12] الرسلُ، لأنَّ الرسلَ جميعاً دَعَوُا الخَلْقَ إلى وحدانيَّةِ اللهِ وجَعْلِ العِبادةِ لهُ.

---

(١) في الأصل: أي يسمونها، في م: يدعون أي يسمون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حين. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: كالميت. (٦) في الأصل: وما يشعروا، في م: وما شعروا. (٧) في الأصل وم: يكون. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم.
(٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (١٠) في الأصل وم: عبدوها. (١١) في الأصل وم: الخضوع لأمثالهم. (١٢) في الأصل: إلى ما ادعتهم، في م: إلى ما دعتهم.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ مِنَ المَكرِ برسولِ اللهِ والكيدِ لهُ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِنَ المُظاهَرَةِ عليهِ، أو﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن أعمالِهِمُ الخبيثَةِ التي أسرُّوها ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما أعلَنوها. يُخبِرُ أنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ مِن أعمالِهِمْ أسَرُّوا، أو أعلَنوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قالَ الأصَمُّ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةٌ تَستَعمِلُها العربُ في إيجابِ تَحقيقٍ أو نَفيِ تَحقيقٍ كقولِهِمْ: حقًّا، ولَعَمْري، و: وايْمُ اللهِ، ونَحوِهِ. وقالَ الحَسَنُ: هي كلمةُ وَعيدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا، و: بَلَى، ولابُدَّ، وكلُّهُ في الحاصِلِ يَرجِعُ إلى واحدٍ، وهو وَعيدٌ لأنَّ قولَهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وعيدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ لأنهُ لا يُحِبُّ الاستِكبارَ، ولا يَليقُ لأحدٍ مِنَ الخلائقِ أن يَتَكبَّرَ على غيرِهِ مِنَ الخَلقِ؛ لأنَّ الخَلْقَ كلَّهُمْ أشكالٌ وأمثالٌ، ولا يجوزُ لكلِّ ذي مَثَلٍ أو شَكلٍ أنْ يَتَكبَّرَ على شَكلِهِ، ولأنَّ تَكبُّرَ بعضٍ على بَعضٍ كَذِبٌ وزُورٌ؛ إذْ جَعلَ [الخَلْقَ][1] كلَّهُمْ أمثالاً وأشكالاً. لذلكَ كانَ زُوراً وكَذِباً، وقد حَرَّمَ اللهُ تعالى الكَذِبَ، والزُّورَ؛ وجَعَلَهُ قَبيحاً في العُقولِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قالَ الأتباعُ لِلرُّؤَساءِ ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ قالَ الرُّؤَساءُ أنزَلَ: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جوابَ/ ٢٨٣ ـ ب/ سُؤالِهِمْ: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ مُفرَداً لأنهمْ كانوا يُقِرُّونَ اللهَ بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ[2]: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فلا يَحتَمِلُ أنْ يكونوا إذا سُئِلوا ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يقولونَ[3]: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلّا أنْ يكونَ في السؤالِ زيادةُ قولٍ، أو في الجوابِ إضمارٌ، فيكونُ، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ قالَ: وإذا قيلَ لهم: ماذا يَزعُمُ هذا أنهُ أنزَلَ عليهِ ربُّكُمْ ﴿قَالُوٓا۟﴾ عند ذلكَ: يقولُ: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي قالوا: يا أيها الذي تَزعُمُ أنهُ نُزِّلَ عليهِ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا[4]: لم يُنزِلِ اللهُ شيئاً، إنَّ ما يقولُ ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ومثلُ هذا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: أحاديثُ الأوَّلِينَ، والواحدُ أُسطورٌ، وهي الأحاديثُ المُختَلِفَةُ كقولِهِ: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾ [ص: ٧] أي لا أصلَ لَهُ، وأصلُهُ الكَذِبُ. وهكذا عادةُ الكَفَرَةِ يقولونَ للأنبياءِ: أساطيرُ الأوَّلِينَ. وكانوا يَنسبونَ ما يُقرأُ عليهِمْ إلى السِّحرِ، ولو كانَ في الحقيقةِ سِحْراً أو أحاديثَ الأوَّلين كانَ دليلاً لَهُ.

أو قالوا ذلك على الاستِهزاءِ، وذلكَ جائزٌ أنْ يُخرَّجَ قولُهُمْ[5] ذلكَ على الاستِهزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ يَحمِلونَ أوزارَهُمْ كاملةً؛ يعني الذينَ قالوا لِلرُّسُلِ ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ومِنْ أوزارِ الذينَ يُقَلِّدونَ رُسُلَهُمْ وَوَفدَهُمُ الذينَ بُعِثُوا للسؤالِ[6] عن رسولِ اللهِ، فَحَمَلُوا أوزارَهُمْ أنفسَهُمْ وأوزارَ الذين يُقلِّدونَ الرسلَ، ويَقتَدونَ بهمْ بِغَيرِ عِلْمٍ، لأنهمْ لم يَعْلَمُوا أنَّ أولئكَ يَقتَدونَ بالرسلِ، فَيَضِلُّونَ.

وهُمْ، وإنْ لم يَعلَموا، فذلكَ عليهِمْ، لأنهم هُمُ الذينَ سَنُّوا ذلكَ. وهو كما رُوِيَ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يومِ القِيامةِ» [مسلم ١٠١٧].

والثاني[7]: يَحتَمِلُ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ﴾ طَمِعُوا الإسلامَ، إذا أسلَموا سَقَطَتْ تلكَ الأوزارُ عنهمْ، وقولُهُ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ هُمْ[8] لم يَفعَلُوا ما فَعَلُوا ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ ولكنَّ مَعناهُ، واللهُ أعلَمُ، أي لِيَصيروا [حامِلِي أوزارِ][9] الذينَ أضَلُّوهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: فيقولون. (٤) في الأصل وم: فقالوا. (٥) من م، في الأصل: كقولهم.
(٦) في الأصل وم: عن السؤال. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: حاطين لأوزارهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بِسَفَهٍ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ساءَ ما يَحْمِلُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لم يَعْلَموا أنْ تصيرَ أوزارُهُمْ عليهِمْ، أو لم يَعْلَموا ما يَلْحَقُ بِهِمْ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [كانتْ ولم تَزَلْ][1] عادةُ الكَفَرَةِ بالمَكْرِ برسلِ اللهِ والكَيدِ لهمْ، وكذلكَ مَكْرُ كفارِ مكّةَ برسولِ اللهِ. يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ لِرسولِهِ لِيَصْبِرَ على أذاهُمْ كما صَبَرَ أولئكَ على مَكْرِ قومِهِمْ وتَرْكِ مكافأتِهِمْ إياهُمْ كقولِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ثم مَكْرُهُمُ الذي كانَ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: في ما جاءَتْ بِهِ الرسلُ كانوا يَتَكَلَّفُونَ تَلْبيسَ ما جاءَتْ بِهِ الرسلُ على قومِهِمْ.

والثاني: يَرْجِعُ مَكْرُهُمْ إلى أنْفُسِ الرسلِ مِنَ الهَمِّ بِقَتْلِهِمْ وإخراجِهِمْ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ ونَحْوِهِ.

فَخَوَّفَ بذلكَ أهْلَ مكةَ بصنيعِهِمْ لرسولِ اللهِ أنْ يَنْزِلَ بهمْ كما نَزَلَ بأولئكَ الذين مَكَروا بِرُسُلِهِمْ لئلاّ يُعامِلُوهُ بِمِثْلِ معامَلَةِ أولئكَ رسلَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ قالَ الحَسَنُ: هذا على التمثيلِ بالبِناءِ الذي بُنِيَ على غَيرِ أساسٍ؛ يَنْهَدِمُ، ولا يُعْلَمُ مِنْ أيِّ سَبَبٍ انْهَدَمَ. فَعَلَى ذلكَ مَكْرُهُمْ يَبْطُلُ، ويَتَلاشَى كالبِناءِ الذي بُنِيَ على غَيرِ أساسٍ، ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على التمثيلِ مِنْ غَيرِ هذا الوجهِ؛ وهو أنهمْ قد مَكَروا، وأحْكَموا مَكْرَهُمْ بهِمْ، فَيَتَحَصَّنُونَ بذلكَ كالبناءِ الذي يُتَحَصَّنُ بِهِ، فأبْطَلَ اللهُ مَكْرَهُمْ، كقولِهِ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ الآية [النمل: ٥٠]. وقولِهِ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ الآية.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنْ إبطالِ مَكْرِهِمُ الذي بِهِ كانوا يَتَحَصَّنُونَ كوقوعِ السقفِ الذي بِهِ يُتَحَصَّنُ مِنْ أنواعِ الأذَى والشرورِ.

ويَحْتَمِلُ على التحقيقِ، وهو ما نَزَلَ بقومِ لوطٍ مِنَ الخَسْفِ وتَقْليبِ البنيانِ وإمطارِ [الحَجَرِ عليهِمْ][2]. وأمّا ما ذَكَرَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ مِنَ الصَّرْحِ الذي بَنَى نمرودُ وبُنيانِهِ ووقوعِهِ عليهِمْ فإنّا لا نَعْلَمُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كذلكَ كانَ يأتي العذابُ الظَّلَمَةَ الكَذَبَةَ مِنْ حَيثُ لا عِلْمَ لهمْ بذلكَ كقولِهِ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ الآيَة [الأعراف: ٩٥].

وقولُه تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ هو مِنَ الإتيانِ. ومَعْلُومٌ أنهُ لا يُفْهَمُ مِنْ إتيانِهِ الانْتِقالُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ولكنْ إتيانُ عذابِهِ؛ أضيفَ إليه الإتيانُ لِما بأمْرِهِ يأتيهِمْ ومنهُ. فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠] الإتيانُ والانْتِقالُ ومَجيئُهُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ. وقد ذَكَرْنا هذا وأمثالَهُ في غَيرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [أخبَرَ أنهُ يومَ القيامةِ يُخْزيهِمْ][3] بَعْدَ ما عَذَّبَهُمْ في الدنيا بقولِهِ ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يُعَذِّبُهُمْ. وكانَ الإخزاءُ، هو الإذلالُ والإهانةُ والفَضْحُ، يَذُلُّهُمْ، ويُهينُهُمْ، ويَفْضَحُهُمْ في الآخرةِ مَكانَ ما كانَ منهمْ مِنَ الاِسْتِكْبارِ والتَّجَبُّرِ على النَّبِيِّ وأصحابِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] أي لا يَذُلُّهُمْ، ولا يُهينُهُمْ، لِتَواضُعِهِ للمؤمنينَ وخَفْضِ جناحِهِ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي كُنْتُمْ تُعادونَ أوليائي فيهِمْ، أو تُعادونَني فيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ لَسْنَ لهُ بِشُرَكاءَ، ولكنْ أضافَ إلى نفسِهِ ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ على ما زَعَمْتُمْ في الدنيا [أنهمْ شركائي][4]. وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] أي إلى ما في زَعْمِهِمْ وتَسْمِيَتِهِمْ إيّاها آلِهَةً.

---

(١) في الأصل وم: لم تزل كانت. (٢) في الأصل: البحر عليها، في م: الحجر عليها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أنها شركاؤه.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ﴾ أي كُنْتُمْ تُخالِفونَ فيهِمْ، وتُعادونَ؛ أي تُخالِفونَ المؤمنينَ في [عبادتِكُمْ إيَّاها، وتقولونَ][1]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وتقولونَ[2]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] ونحوَهُ. كانوا يُخالِفونَ المؤمنينَ، وكانوا يُشاقُّونَ في ذلكَ. إلّا أنَّهُ أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لأنهمْ أولياؤُهُ وأنصارُ دينِ اللهِ. وأضافَ إليهِ المُخالَفَةَ لأنهمْ خالَفُوا أمْرَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الملائكةُ الكرامُ الكاتبونَ، همْ وغيرُهُمْ مِنَ المؤمنينَ مُحْتَمَلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي الذُّلَّ والهوانَ والافْتِضاحَ وكُلَّ سوءٍ على الكافرينَ. هكذا يُقابَلُ كلُّ مُعانِدٍ ومُكابِرٍ في حُجَجِ اللهِ وبَراهينِهِ مكانَ اسْتِكْبارِهِمْ وتَجَبُّرِهِمْ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِنْ بينِ يَدَيِ اللهِ يومَ الحسابِ إلى النارِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقْتَ قَبْضِ أرواحِهِمِ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ بالشِّرْكِ والكُفْرِ باللهِ على تأويلِ الحَسَنِ، يكونُ قولُهُ: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ في الدنيا.

ويجوزُ أنْ يوصَفوا بالظُّلْمِ في الآخِرَةِ أيضاً بِكَذِبِهِمْ فيها في قولِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وأمثالِهِ مِنَ الكَذِبِ حينَ[3] يُنْكِرونَ الإشراكَ في أُلوهِيَّةِ اللهِ وعبادَتِهِ. كانَ هذا الإنكارُ والكَذِبُ منهمْ في أوَّلِ حالِهِمْ ظَنًّا منهمْ أنَّ ذلكَ يَنْفَعُهُمْ. فإذا لم يَنْفَعْهُمْ إنكارُهُمْ طَلَبوا الرَّدَّ إلى الدنيا أو إلى حالِ الأمْنِ لِيَعْمَلوا غيرَ الذي عَمِلُوا كقولِهِمْ: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فإذا لم يُرَدُّوا، وأيِسُوا عَنْ ذلكَ، فَعِنْدَ ذلكَ/ ٢٨٤ - أ/ أنْطَقَ اللهُ جوارِحَهُمْ حتى تَشْهَدَ عليهِمْ بما كانَ منهمْ. فَعِنْدَ ذلكَ يُقِرُّونَ، ويَعْتَرِفُونَ بذنوبِهِمْ كقولِهِ: ﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُسْلِمونَ، ويَسْتَسْلِمونَ لأمْرِ اللهِ. ولكنْ لو كانَ ما ذَكَرُوا لم يكونوا يُنْكِرُونَ عَمَلَ السوءِ كقولِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ﴾. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ هو الإِسْتِخْزاءُ[4] والخُضوعُ والتَّضَرُّعُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ عندَ الموتِ؛ يُؤْمِنونَ عندَ مُعايَنَةِ ذلكَ، أو سَلَّموا عليهِمْ في الآخِرَةِ على ما رَأَوا في الدنيا المؤمِنينَ يُسَلِّمُ بعضُهُمْ على بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ﴾ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. فأكْذَبَهُمُ اللهُ في قولِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ﴾ فقالَ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا وعيدٌ؛ يُخْبِرُ ألّا يَجوزَ كَذِبُهُمْ في الآخِرَةِ، ولا يُحْتَمَلُ، كما جازَ في الدنيا، ولم يَظْهَرْ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بِئْسَ مُقامَ المُتَكَبِّرينَ الذينَ تَكَبَّرُوا على ما جاءَ بِهِ الرسلُ مِنَ اللهِ وما أنْزَلَ اللهُ عليهِمْ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هذا قولُ المؤمنينَ مُقابِلَ قولِ المُشْرِكينَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿خَيْرًاۗ﴾:

قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾ أي قولُهُمُ الذي قالوا: إنهُ أرسلَ بِحَقٍّ، وإنهُ خيرٌ[5]. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾ حكايَةٌ عما أنْزَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ خيراً[6]، أي أنْزَلَ عليهِ ربُّنا خيراً، وإذا سألوا الكَفَرَةَ قالوا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: عبادتهم إياها لأنهم يقولون. (٢) في الأصل: وقولهم، في م: وهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: الاستخدام. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: كذا. (٦) في الأصل وم: وخيراً.

وجائزٌ أن يكونَ أتباعُ المؤمنينَ سألوا كُبَراءَهُمْ: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ مُقابِلَ ما كانَ مِنْ كُبراءِ الكَفَرةِ لأتباعِهِمْ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ مِنَ النَّصْرِ لهمْ والظَّفَرِ على عَدُوِّهِمْ ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ لهمْ ممَّا كانَ أعطاهُمْ في الدنيا، أي الجَنَّةُ خيرٌ وأفضلُ للمؤمنينَ ممَّا أُوتوا في الدنيا ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

قالَ هذا لِلْمُؤمنينَ مَكانَ ما قالَ لِلْكافِرينَ ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ ثم نَعَتَ الدارَ التي وَعَدَ لِلْمُتَّقينَ.

الآية ٣١ فقالَ: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ مِنَ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ.

فإنْ قيلَ: أرأيتَ لو شاؤوا أنْ يكونَ لهمْ دَرَجاتُ الأنبياءِ ومَنازِلُ الأبرارِ والصِّدِّيقينَ أيكونُ لهمْ ما شاؤوا؟ قيلَ: لا يَشاؤُونَ هذا؛ لأنَّ مِثْلَ هذا إنما يكونُ في الدنيا إمَّا حَسَداً وإمَّا تَمَنِّياً، فلا يكونُ في الجنةِ حَسَدٌ؛ لأنَّ الحَسَدَ هو أنْ يَرى لأحَدٍ شيئاً، ليسَ لهُ، فَيَحْسُدَهُ، أو يَتَمَنَّى مثلَهُ. فأهلُ الجَنَّةِ يَجِدونَ جميعَ ما يَتَمَنَّوْنَ، ويَخْطُرُ بِبالِهِمْ، فلا مَعْنَى لِسُؤالِهِمْ ربَّهُمْ ما لِغَيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ على تأويلِ الحَسَنِ: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهم طَيِّبونَ مِنْ بَينِ يَدَيِ اللهِ يومَ الحسابِ ﴿يَقُولُونَ﴾ لهمْ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾. وقد ذُكِرَ أنَّ السلامَ هو تَحِيَّةٌ، جَعَلَها اللهُ بَينَ الخَلْقِ في الدنيا والآخِرَةِ. وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بِقَبْضِهِمُ الأرواحَ في الدنيا؛ يَقْبِضونَ أرواحَهُمْ، وهُمْ طَيِّبونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طَيِّبِينَ﴾ أحياءً وأمواتاً، وهُمُ المؤمنونَ الذينَ طابَتْ أعمالُهُمْ في الدنيا. ويَحْتَمِلُ السلامُ وجهَينِ:

أحَدُهما: تُحَيِّيهِمُ الملائكةُ بالسلامِ في الجنةِ كما يُحَيِّي أهْلُ الإيمانِ في الدنيا بعضُهُمْ بعضاً.

والثاني: السلامُ يكونُ منهمْ أمْنٌ مِنْ جميعِ الآفاتِ والمَكْروهاتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٣٣ و٣٤و٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ . . . فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾][1] هذا الحَرْفُ يُخَرَّجُ على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ إلاّ وَقْتَ قَبْضِ أرواحِهِمْ أو وَقْتَ نُزُولِ العذابِ عليهِمْ. أي لا يؤمِنونَ إلاّ في هذينِ الوَقْتَينِ، ولا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ في هذينِ الوَقْتَينِ، لأنَّ إيمانَهُمْ إيمانُ اضْطِرارٍ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وكقولِهِ ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٥٩] يؤمنونَ عندَ مُعايَنَتِهِمْ بَأسَ اللهِ، لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ في ذلكَ الوَقْتِ.

يُخبِرُ أنهمْ يَنْظُرونَ ذلكَ الوَقْتَ، ويُؤيِسُ[2] رسولَهُ مِنْ إيمانِهِمْ لِما عَلِمَ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ، لِيَرْفَعَ عنهُ مُؤْنَةَ الدعاءِ إلى الإيمانِ والقِتالِ معهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ يَحْتَمِلُ العذابَ في الدنيا، ويَحْتَمِلُ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: كذلكَ فَعَلَ المُعانِدونَ والمُكابِرونَ والذينَ مِنْ قَبْلُ بِرُسُلِهِمْ مِنَ التكذيبِ لهمْ والعِنادِ وتَرْكِهِمُ الإيمانَ إلى الوقتِ الذي ذَكَرَ كما فَعَلَ قومُكَ مِنَ التكذيبِ لكَ، يا محمدُ، والعِنادِ.

والثاني[3]: يَحْتَمِلُ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي هكذا أَنْزَلَ العذابَ بِمَنْ كانَ قَبْلَ قومِكَ بِتَكذيبِهِمُ الرسلَ والعِنادِ معهمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما عذَّبَهُمْ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حينَ[١] وَضَعُوا أنفُسَهُمْ في غَيرِ مَوضِعِها الذي [وَضَعَهُ اللهُ، وحينَ][٢] صَرَفُوها عَنْ عبادةِ مَنْ نَفَعَهُمْ، وأنْعَمَ عليهِمْ، واسْتَحَقَّ ذلكَ عليهِمْ، إلى مَنْ لا يَمْلِكُ نَفْعاً ولا ضَرًّا، ولا يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ بحالٍ.

فهمْ ظَلَمُوا أنفسَهُمْ حينَ[٣] صَرَفوها مِنَ الحِكْمَةِ إلى غَيرِ الحِكْمَةِ، لا لِلَّهِ. وإنَّ[٤] اللهَ وضَعَها حيثُ توجِبُ الحكمةُ ذلكَ.

والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ، والحِكْمَةُ هي وَضْعُ الشيءِ في مَوضِعِهِ. فهمْ وَضَعُوا أنفسَهُمْ في غَيرِ مَوضِعِها. فأمّا اللهُ ﷻ فقد وَضَعَها في المَواضِعِ التي توجِبُ الحِكْمَةُ وَضْعَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ كأنهُ قالَ: ما يَنْظُرُونَ للإيمانِ بَعْدَ الحُجَجِ السَّمْعِيَّاتِ وبَعْدَ الحُجَجِ العَقْلِيَّاتِ والحُجَجِ الحِسِّيَّاتِ إلّا نُزُولَ الملائكةِ بالعذابِ مِنَ اللهِ تعالى عليهِمْ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أقامَ عليهِمُ الحُجَجَ السَّمْعِيَّاتِ والعَقْلِيَّاتِ والحِسِّيَّاتِ، فلم يؤمِنوا بهِ، ولم يُصَدِّقوهُ[٥]. فيقولُ: إنهمْ ما يَنْظُرونَ إلّا الحُجَجَ التي تَقْهَرُهُمْ، وتَضْطَرُّهُمْ. فعندَ ذلكَ يؤمنونَ. وهو ما ذَكَرَ مِنْ نُزولِ العذابِ بهِمْ. أو يقولُ: ما يَنْظُرونَ بإيمانِهِمْ إلّا الوَقْتَ الذي لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ، وهو الوَقْتُ الذي تَخْرُجُ أنْفُسُهُمْ مِنْ أيديهِمْ. فأخْبَرَ أنَّ إيمانَهُمْ لا يَنْفَعُهُمْ في ذلكَ [الوَقْتِ][٦]: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ وقالَ ههنا: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وهلْ هو حَرْفُ اسْتِفْهامٍ في الظاهِرِ، لكنَّ المُرادَ منهُ [ما][٧] ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: لِما قد كانَ مِنَ اللهِ مِنَ البيانِ: أنْ ليسَ على الرسلِ إلّا البلاغُ المُبينُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٣٣] أي ما يَنْظُرونَ إلّا أنْ تأتِيَهُمْ.

وكذلكَ/ ٢٨٤ ـ ب/ قولُهُ: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤] أمْ: هو حَرْفُ شَكٍّ، ومُرادُهُ للإنسانِ ما تَمَنَّى، وأمثالُهُ لِما سَبَقَ مِنَ اللهِ ما يُبَيِّنُ لهم أنْ ليسَ للإنسانِ ما قد ذَكَرَ قولَهُ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ في سورةِ الأنعامِ [الآية: ١٤٨].

ويَحْتَمِلُ قولُهُمْ هذا وجوهاً:

أحدُها: قالوا ذلكَ على الِاسْتِهْزاءِ كقولِهِ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

والثاني: قولُهُمْ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] أي لو أمَرَ اللهُ أنْ نَعْبُدَهُ، ولا نَعْبُدَ غيرَهُ، لَفَعَلْنا كقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٨].

والثالثُ: قالوا: لو لم[٨] يَرْضَ اللهُ مِنّا ذلكَ [ما تَرَكَنا فَعَلْنا][٩] ذلكَ، وكانَ[١٠] أهْلَكَنا.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ يُخبِرُ رسولَهُ أنكَ لَسْتَ بأوَّلِ مَبْعوثٍ إلى أمَّتِكَ، ولكنْ قد بَعَثَ إلى كلِّ أمَّةٍ رسولاً، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] يُصَبِّرُهُ على ما يُصيبُهُ منهمْ مِنَ المَكْروهِ والأذى، أي لَسْتَ أنتَ بأوَّلِ مَنْ يُصيبُهُ ذلكَ، بل كانَ رُسُلٌ[١١] قَبْلَكَ أصابَهُمْ مِنْ أمَمِهِمْ ما يُصيبُكَ مِنْ أمتِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هو على الإضمارِ، كأنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ وقُلْنا لهمْ: قولوا: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ على ذلكَ كانَ بَعْثُ الرسلِ جميعاً إلى قومِهِمْ بالدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ وجَعْلِ العِبادَةِ لهُ والنَّهْيِ عنْ عِبادَةِ الأوثانِ دونَهُ كقولِهِ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] ويكونُ قولُهُ: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كقولِهِ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ واحداً[١٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وضعها الله وحيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) الوا ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يصدقوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ولكن، وذلك إشارة إلى قوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩] والإغراق الإهلاك. (١١) في الأصل: لك؛ في م: ذلك. (١٢) في الأصل وم: واحد.

والطاغوتُ: قالَ بعضُهُمْ: كلُّ مَنْ عُبِدَ دونَ اللهِ فهو طاغوتٌ. وقالَ الحَسَنُ: الطاغوتُ هو الشيطانُ؛ أُضيفَتِ[1] العِبادةُ إليهِ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: ٤٤] لأنَّ مَنْ يَعْبُدُ دونَهُ يَعْبُدُ بأمْرِهِ، فأضيفَتْ[2] لذلكَ إليهِ، وقد ذَكَرنا هذا أيضاً في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ هذا يدلُّ أنهُ لم يُرِدْ بالهُدَى البَيانَ على ما قالَ بَعْضُ الناسِ إنْ قد سَبَقَ منهُ البَيانُ لكلِّ أحدٍ، وما ذَكَرَ أيضاً: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾.

وهذا يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ حينَ[3] قالوا: الهُدَى والبَيانُ مِنَ اللهِ، لكنَّ الهُدَى منهُ في هذا المَوضِعِ، ليسَ هو البَيانَ، هو ما يُكْرِمُ بِهِ عَبْدَهُ، ويُوَفِّقُهُ لَدَيهِ. وقولُهُ: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لِاخْتِيارِهِ الهُدَى ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أي [لَزِمَتْهُ الضلالةُ لِاخْتيارِهِ إيَّاها][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿فَسِيرُواْ﴾ ليسَ على الأمْرِ، ولكنْ كأنهُ قالَ: لو سِرْتُمْ في الأرضِ لَرَأيتُمْ ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالتكذيبِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَسِيرُواْ﴾ كأنهُ على الحِجاجِ عليهِمْ: إنْ سِرْتُمْ[5] في الأرضِ فإنكُمْ تَرَوْنَ آثارَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ. ويُشْبِهُ أن يكونَ ليسَ على السَّيْرِ نَفْسِهِ، ولكنْ على التأويلِ والنَّظَرِ في آثارِ أولئكَ وأمورِهِمْ أنهُ بِمَ نَزَلَ بهِمْ ما نَزَلَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: كانَ يُحِبُّ، ويَحْرِصُ على هُدَى قراباتِهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ أي لا يَهْديهِمْ بِضلالِهِمْ وَقْتَ ضَلالِهِمْ، أي لا يَهْدي وَقْتَ اخْتيارِهِمُ الضلالَ، ولا يَهْدي مَنْ عَلِمَ أنهُ يَخْتارُ الضلالَ، أو لا يُنْجي مَنْ يُهْلِكُ مِنَ الضلالِ.

وفيهِ لُغاتٌ ثلاثٌ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ أي لا يَهْدي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ، فليسَ لأحدٍ [أنْ][6] يَهْدِيَهُ، ولا يَهْدي مَنْ يُضِلُّ، أي لا يَهْتَدي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ في الدنيا لِاخْتيارِهِ الضلالَ، وهو كقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧ و...] [وكقولِهِ][7]: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨ و...] وَقْتَ اخْتيارِهِمُ الكُفْرَ والظُّلْمَ، أو لا يَهْدي مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يختارُ الضلالَ والظلْمَ، ولا يَهْدي مَنْ يَلْزَمُ الضلالَ وَقْتَ لُزومِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ظاهرٌ تأويلُهُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ فإنْ قيلَ لنا: ما الحِكْمَةُ والفائدةُ في ذِكْرِ قَسَمِهِمُ الذي في القرآنِ وجَعْلِ ذلكَ آيةً تُتْلَى، وذلكَ القَسَمُ الذي أقْسَمُوا كانَ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وأصحابِهِ، وهُمْ عَلِموا ذلكَ، [ليسَ كالأنباءِ][8] والقِصَصِ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ؛ إذ كانَ ذلكَ شيئاً[9] غابَ عنهُ لم يَشْهَدْهُ، فأخبَرَهُمْ على ما كانَ نَفْي ذلكَ إثباتُ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ؛ فالحِكْمَةُ والفائدةُ في القرآنِ، وجَعْلُها آياتٍ تُتْلَى لِيُعْلَمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وأمَّا القَسَمُ الذي أقْسَموا ليسَ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ إثباتِ الرسالةِ، وهُمْ قد عَلِمُوا ذلكَ، فما الفائدةُ في ذِكْرِهِ؟

قيلَ: يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَهُ لنا ﷻ لِنَعْلَمَ نَحْنُ عظيمَ سَفَهِ أولئكَ وقِلَّةِ عقولِهِمْ وحِلْمَ الرسولِ واحتمالَ ما احْتَمَلَ منهمْ مِنَ الأذى والمَكْرُوهِ لِنَتَعَلَّمَ نحنُ أنْ كيفَ نُعامِلُ السفهاءَ وأهلَ الفَسادِ والعُصاةَ مِنَ الناسِ على ما عامَلَ رُسُلُ اللهِ أقوامَهُمْ مَعَ عظيمِ سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ عقولِهِمْ[10]، فهذا دليلُ[11] فائدةِ ذِكْرِ قَسَمِهِمْ في القرآنِ.

قد تَكَلَّفَ أولئكَ الكَفَرَةُ الكُبَراءُ منهمْ في تَلْبيسِ الآياتِ والحُجَجِ التي أتَتْ بها الرسُلُ مَرَّةً بالقَسَمِ الذي ذَكَرَ حينَ[12] ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا﴾ يُبْعَثُونَ، ومَرَّةً بالنسبةِ إلى السِّحْرِ، ومَرَّةً بالافْتِراءِ، ومَرَّةً بالنسبةِ إلى الجنونِ، وفي الأنباءِ بأنهُ إنما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ منهم[13]. يُريدونَ بذلكَ التَّلْبيسَ على الأتباعِ.

---

(١) في الأصل وم: أضيف. (٢) في الأصل وم: فأضيف. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: لزمت الضلالة واختياره إياه، في م: لزمت لزومه الضلالة واختياره اياه. (٥) في الأصل وم: سيروا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: كالأنبياء. (٩) في الأصل وم: شيء. (١٠) في الأصل وم: عقلهم. (١١) في الأصل وم: ذلك. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: منا.

ثم البَعْثُ واجبٌ بالعَقْلِ والحِكْمَةِ وأخبارِ الرسلِ؛ إذْ ليسَ خَبَرٌ أصْدَقَ مِنْ أخبارِ الرسلِ وآثارِهِمْ، وهُمْ مِمَّنْ يَقْبَلُونَ الأخبارَ، فأخبارُ الرسلِ أولَى بالقَبولِ والتصديقِ مِنْ غَيرِهِمْ[1] لأنَّ معهمْ آياتِ صِدْقِهِمْ ودلالاتِ تحقيقِهِمْ.

وأمّا العَقْلُ فهو أنْ يكونَ هذا العالَمُ وإنشاؤُهُ لِلْفناءِ خاصّةً خارجاً[2] عنِ الحِكْمَةِ؛ إذْ كُلُّ عَمَلٍ، لا يكونُ لهُ عاقبةٌ، عَبَثٌ، وهو كما قالَ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أخبَرَ أنهُ إذا لم يكنْ رجوعٌ إليهِ يكونُ خَلْقُهُ إياهُمْ عَبَثاً.

وأمّا الحِكْمَةُ فهيَ أنَّ الانتِقامَ لأوليائِهِ مِنَ الظَّلَمَةِ واجِبٌ بِظُلْمِهِمْ، والإحسانَ لأهْلِ الإحسانِ. فلو لم يكُنِ البَعْثُ[3] والحياةُ بَعْدَ الموتِ لِيَنْتَقِمَ مِنَ الظالِمِ لِظُلْمِهِ، ويَجْزِيَ المُحْسِنَ لإحسانِهِ لَذَهَبَتْ فائدةُ الترغيبِ على الطاعةِ والإحسانِ ووعيدِ الظالمِ بالانتِقامِ.

فالبَعْثُ واجِبٌ لِلْوُجوهِ التي ذَكَرْنا، وكذلكَ[4] التفريقُ بَينَ الأولياءِ والأعداءِ، وقد جَمَعَهُمْ في هذهِ الدنيا، وفي الحِكْمَةِ التفريقُ بينَهما تعظيماً وإجلالاً، إنما كانوا يُقْسِمونَ بالأصنامِ والأوثانِ التي عَبَدوها. فإذا حَلَفوا باللهِ [لا يَحْلِفونَ][5] إلاّ لِما يَعْظُمُ مِنَ الأمْرِ. فذلكَ جَهْدُ أيمانِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ قولُهُ: ﴿بَلَىٰ﴾ ردٌّ على قولِهِمْ: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ فقالَ: ﴿بَلَىٰ﴾ يَبْعَثُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿وَعْدًا﴾ أي وَعْداً بهِ يَبْعَثُهُمْ، فَحَقٌّ عليهِ أنْ يُنْجِزَ ما وَعَدَ، و﴿حَقًّا﴾ عليهِ أنْ يَعِدَ البَعْثَ والإنجازَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ نَفَى عنهُمُ العِلْمَ لِما لمْ يَنْتَفِعوا بِعِلْمِهِمْ؛ فهو كما نَفَى عنهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ وغَيرَهُما مِنَ الحواسِّ لِما لَمْ يَنْتَفِعُوا بها انْتِفاعَ ما لذلكَ كانَ خَلَقَها، فَنَفَى ذلكَ عنهمْ.

والثاني: نَفَى عنهمْ ذلكَ على حقيقةِ النَّفْيِ، لأنهُمْ لمْ يَنْظُروا، ولمْ يَتأمّلوا في الآياتِ والأسبابِ التي بها جَعَلَ لهمُ الوُصولَ إلى العِلْمِ، فلم يَعْلَموا. ثم لمْ يَعْذُرْهُمْ/ ٢٨٥ - أ/ بِجَهْلِهِمْ ذلكَ لِما جَعَلَ لهمْ سَبيلَ الوُصولِ إلى عِلْمِ ذلكَ بالنَّظَرِ والتأمُّلِ في الآياتِ والحُجَجِ. لكنهمْ شَغَلُوا أنفسَهُمْ في غيرِها، ولمْ يَنْظُروا في الأسبابِ التي جَعَلَها سَبيلَ الوُصولِ إليهِ.

فهذا يدلُّ أنَّ مَنْ جَهِلَ أمْرَ اللهِ ونَهْيَهُ يَكُنْ[6] مُؤاخَذاً بهِ بَعْدَ أنْ جَعَلَ لهُ الوصولَ إليهِ بالدلائلِ والإشاراتِ، فلا تَخْرُجُ مُؤاخَذَتُهُ إيّاهُ وعُقوبَتُهُ بِتَرْكِ أمرِهِ عنِ الحِكْمَةِ.

وأمّا في الشاهِدِ مَنْ أمَرَ عَبْدَهُ[7] شيئاً، ولم يُعْلِمْهُ ما أمَرَهُ، ثم عاقَبَهُ بذلكَ فهو خارجٌ عنِ الحِكْمَةِ؛ إذْ لا سَبيلَ إلى الوُصولِ [إلى ما][8] أمَرَ بهِ إلاّ بالتَّصْريحِ، ولم يَكُنْ منهُ تصريحُ إعلامٍ، لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

الآية ٣٩ ألا تَرَى أنهُ أوعَدَ لهمُ الوعيدَ الشديدَ في الآخِرَةِ بقولِهِ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾؟ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي لِيَعْلَمَ [أتباعُ الذين كفروا][9] أنَّ الرؤساءَ [كانوا كاذبينَ، وإلاّ كانَ الرؤساءُ][10] كاذبينَ عندَ أنفسِهِمْ، أو أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لَمّا ادَّعَى أولئكَ الكَفَرَةُ أنَّ الآخِرَةَ لهمْ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ الآيةَ [فصلت: ٥٠] فقالَ جواباً لهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ لادِّعائِهِمُ الآخِرَةَ لأنفسِهِمْ.

ثم قولُهُ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما اخْتَلَفوا في البَعْثِ؛ منهُمْ مَنْ صَدَّقَهُ، ومنهُمْ مَنْ كَذَّبَ بقولِهِ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ ذلكَ، ويَحْتَمِلُ [قولُهُ: ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾][11] أي في الدِّينِ والمذهبِ لأنهُمُ اخْتَلَفوا في الدينِ

(١) في الأصل وم: غيره. (٢) في الأصل وم: خارج. (٣) في الأصل وم: بعث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) في الأصل وم: وعيده. (٨) في الأصل وم: بما. (٩) في الأصل وم: اتباعهم. (١٠) من الأصل: كانوا كاذبين وإلا كان الرؤساء منهم، في م: منهم كانوا. (١١) من م، في الأصل: فيه.

والمذهبِ، وكلُّ مَنِ ادَّعَى ديناً ومذهباً حتى دعا غَيرَهُ إلى دينِهِ ومَذْهبِهِ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ المُحِقَّ منهُمْ مِنْ غَيرِهِ والصادقَ منهمْ مِنَ الكاذِبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ يَحتَمِلُ كُفرَهُمْ بالبعثِ وإنكارَهمْ وكُفرَهُمْ برسولِ اللهِ أو وَحْدانيَّةِ اللهِ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في إنكارِهِمْ ما أنكروا ليُبيِّنَ لهمْ ذلكَ في الآخِرَةِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما:][1] يُخبِرُ عَنْ سُرْعَةِ نَفاذِ أمرِهِ وسُهولَةِ الأمْرِ عليهِ أنهُ يكونُ أسرَعُ مِنْ لَحْظَةِ بَصَرٍ أو لَمْحَةِ عينٍ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ خَلْقَ الشيءِ، ليسَ هو ذلكَ الشيءَ، لأنهُ عَبَّرَ بِـ﴿كُن﴾ عنْ تكوينِهِ و﴿فَيَكُونُ﴾ عنِ الكونِ، وكذا كنَّى عنهُ بالشيءِ لِقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ فَكَنَّى عنهُ بوقوعِ القَولِ عليهِ والتكوينِ. ثَبَتَ أنَّ التكوينَ غَيرُ المُكَوَّنِ.

ثم لا يَخلو مِنْ أنْ يكونَ التكوينُ [بتكوينٍ][2] آخَرَ إلى ما لا نهايةَ لهُ، أو لا بِتكوينٍ. وقد بَيَّنَّا فَسادَهُما جميعاً، وهُما وَجْها الحديثِ. ثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى بهِ موصوفٌ في الأزلِ، وباللهِ التوفيقُ.

والثاني: مَنْ فِعلُهُ كَسْبٌ سُمِّيَ كاسباً، ومَنْ فِعلُهُ [مُختَصٌّ][3] باسْمِ سُمِّيَ بهِ. فلو كانَ فَعَلَى اللهِ كُلِّيَّةُ الخَلْقِ يُسمَّى بهِ، فَيُسمَّى مَيِّتاً مُتَحَرِّكاً ساكناً طَيِّباً صَغيراً كبيراً ونَحْوَ ذلكَ. فإذا كانَ يَتَعالى عنْ هذا، وقد سَمَّى [نفسَهُ][4] فاعلاً مُميتاً مُحيِياً مُحَرِّكاً مُسْكِناً جامعاً مُفَرِّقاً ثَبَتَ أنَّ فِعلَهُ هو غَيرُ مَفْعولِهِ وأنهُ بذاتِهِ يَفْعَلُ الأشياءَ لا بِغَيرِهِ. وفي ذلكَ لُزومُ الوَصْفِ لهُ بهِ في الأزلِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ كانَ ظُلْمُهُمْ إياهُمْ على وجوهٍ:

منهمْ مَنْ ظُلِمَ بالإخراجِ مِنَ الديارِ والطَّرْدِ مِنَ البلدِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ الآية [الممتحنة: ٩].

ومنهمْ مَنْ ظُلِمَ بالمَنْعِ عنْ إظهارِ الإسلامِ والعَمَلِ لهُ وأنواعِ ما أُوذُوا، وظُلِموا بإظهارِهِمُ الإسلامَ وإجابَتِهِمْ رسولَ اللهِ واتِّباعِهِمْ إيَّاهُ.

ثم وَعَدَ لهمْ في الدنيا حَسَنَةً، فقالَ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ قيلَ: لَنُعْطِيَنَّهُمْ، وقيلَ: لَنَرْزُقَنَّهُمْ، وهو واحدٌ ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ تَحتَمِلُ الحَسَنَةُ في الدنيا العِزَّ بَعْدَ الذُّلِّ والسَّعَةَ بَعْدَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ والغَلَبَةَ والنَّصْرَ لهمْ بَعْدَ ما كانوا مَقْهورِينَ مَغْلوبِينَ في أيدي الأعداءِ، والذِّكْرَ والشَّرَفَ بَعْدَ الهوانِ. هذهِ الحسنةُ التي بَوَّأَهُمْ في الدنيا.

والمُهاجَرَةُ المُقاطَعَةُ؛ كأنهُ قالَ: والذينَ قاطَعوا أرحامَهُمْ وأقارِبَهُمْ ومكاسِبَهُمْ وديارَهُمْ، فأبْدَلَ اللهُ لهمْ مكانَ الأرحامِ والأقاربِ أخِلَّاءَ وإخواناً ومكانَ أموالِهِمْ أموالاً أُخرَى وكذلكَ الدُّورَ وكلَّ شيءٍ تركوا هنالكَ، فأبدَلَهُمْ مكانَ ذلكَ كلِّهِ.

وأمَّا قولُهُ: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا عنْ حَسَدٍ كانَ مِنَ الكَفَرَةِ للمهاجِرينَ لمَّا أنْزَلَهُمْ في المدينةِ، وبَوَّأَهُمْ فيها، وأعَزَّهُمْ، ورَفَعَ ذِكْرَهُمْ وأمْرَهُمْ، ونَصَرَهُمْ. حَسَدَهُمْ أهلُ الكُفرِ بذلكَ، فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لهُمْ أكبَرُ وأعظَمُ.

ويَحتَمِلُ أيضاً قولُهُ: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هؤلاءِ المهاجِرينَ، فَيَخِفُّ عليهِمُ احتِمالُ ما أُوذُوا، وظُلِموا، ويَهونُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قالَ الحَسَنُ: على ربِّهِمْ؛ يَثِقونَ في إنجازِ ما وَعَدَ لهمْ في الآخِرةِ أنهُ يُنجِزُ ذلكَ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿صَبَرُوا﴾ على أمْرِهِ، أو﴿صَبَرُوا﴾ على الهِجْرَةِ وانْقِطاعِ ما ذَهَبَ عنهمْ وفراقِ ما كانَ لهمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، يكونُ على إثرِ أمرٍ كانَ مِنَ الكَفَرَةِ نَحْوُ ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنهمْ ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] ونحوَهُ مِنْ كلامِهِمْ. فقالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي إلاّ بَشَراً، أي لم نُرسِلْ مِنْ غيرِ البَشَرِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ كِنايةً عنِ البَشَرِ أو يكونُ[1] قولُهُ: ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي لم يَبْعَثْ مِنَ النساءِ رسولاً، إنما بَعَثَ الرسلَ مِنَ الرجالِ إلى الرجالِ والنساءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ على الأمرِ بالسُّؤالِ، ولكنْ لو سألتُمْ أهلَ الذِّكرِ لأخبروكُمْ أنهُ لم يَبْعَثِ الرسولَ مِنْ قَبْلُ إلاّ مِنَ البَشَرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على الأمرِ بالسُّؤالِ؛ أيِ اسألُوا أهلَ الذِّكرِ، فَقَلِّدُوهُمْ؛ أي إنْ كانَ لا بُدَّ لكُمْ مِنَ التَّقليدِ فاسألوا أهلَ الذِّكرِ، فَقَلِّدوهُمْ، ولا تُقَلِّدوا آباءَهُمْ ومَنْ لا يَعْرِفُ الكتابَ، ولكنْ قَلِّدوا أهلَ الذِّكرِ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ فَقَلِّدوهمْ ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بالبَيِّناتِ والحُجَجِ لأنهمْ كانوا أهلَ تقليدٍ، لم يكونوا أهلَ نَظَرٍ وتَفَكُّرٍ في الحُجَجِ والبَيِّناتِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ البَيِّناتِ والزُّبُرَ التي[2] أتَتْ بها الرسلُ لِتُخْبِرَكُمْ أنَّ الرسلَ إنما بُعِثُوا مِنَ البَشَرِ بالبَيِّناتِ والكُتُبِ، فيكونُ على التقديمِ الذي ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: وما أرسَلْنا مِنْ قبلِكَ إلا رجالاً نوحي إليهِمْ بالبَيِّناتِ والزُّبُرِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي أهلَ الشَّرَفِ مِنْ أهلِ الكتابِ لِيُبَيِّنوا لكمُ البَيِّناتِ والزُّبُرَ لأنهمْ يأنفونَ الكِتْمانَ والكذبَ، وإنْ كانَ أهلُ الذِّكرِ جميعَ أهلِ الكتابِ، فالسُّؤالُ عنِ الرسلِ أنهمْ كانوا مِنَ البَشَرِ والرجالِ لأنهمْ يَعْلَمونَ ذلكَ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ قيلَ: أُنزِلَ إليكَ القرآنُ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ مِنْ أنباءِ الغَيبِ وما غابَ عنهمْ وما لِلّهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ، وتُبَيِّنَ لهمْ جميعَ ما يُؤتونَ، وما يَتَّقونَ، وما يَحِلُّ، وما يَحْرُمُ ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ﴾ ما حَرَّفوا مِنْ كُتُبِهِمْ، وبَدَّلوهُ، وغَيَّروهُ، فيكونُ فيهِ آيةٌ لرسالتِكَ، أو يكونُ الذي أُنزِلَ إليهِ كالمُنْزَلِ إليهِمْ حينَ[3] ذَكَرَ أنهُ يُبَيِّنُ لهمْ ما أُنزِلَ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قولُهُ ﴿أَفَأَمِنَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ حَرْفُ استِفهامٍ؛ إلاّ أنهُ مِنَ اللهِ غيرُ مُحْتَمَلٍ ذلكَ، وهو على إيجابِ ذلكَ.

ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الخَبَرِ أنهمْ قد أمِنوا مَكْرَهُ. والثاني: على النَّهْيِ؛ أي لا تَأْمَنوا/ ٢٨٥ ـ ب/ كقولِهِ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ على هذا الذي ذَكَرْنا أنهُ إخبارٌ عن أمنِهِمْ مَكْرَ اللهِ، وعلى النَّهْيِ ألاّ يأمنوا. ثم أخبَرَ أنهُ ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الكافرونَ لأنهمْ كَذَّبوا الرسلَ في ما أوعَدَ لَهُمْ مِنَ العذابِ، فأمِنوا لذلكَ، أو [لِما لم يَعْرِفوا][4] اللهَ ولم يَعْرِفوا حقوقَهُ ونِعْمَتَهُ ونَقْمَتَهُ، فأمِنوا لِذلكَ.

وأمَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ، ومَنْ عَرَفَ حَقَّهُ، وعَرَفَ نَقْمَتَهُ، فإنهُ لا يأمَنُ مَكْرَهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَكْرُهُمُ السَّيِّئاتِ هو ما مَكَروا برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، قالوا: أصابَهُمْ ذلكَ أساءَهُمْ، وما ظاهَروا عليهِمْ عَدُوَّهُمْ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ان. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: والرسل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: لا يعرفون، في م: لما يعرفوا.

وقالَ بعضُهُمْ: مَكْرُهُمُ السَّيِّئاتِ هو أعمالُهُمُ التي عَمِلوها، وكلُّ ذلكَ قد كانَ منهمْ؛ كانوا مَكَروا برسولِ اللهِ وأصحابِهِ، وكانوا ظاهَروا عليهِمْ عدُوَّهُمْ، وقد عَمِلُوا أعمالَهُمُ الخبيثَةَ السَّيِّئَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أمِنوا حينَ ﴿مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في الحالِ التي لا يكونُ لهمْ أمْنٌ، ولا[1] خوفٌ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ قيلَ: في أسفارِهِمْ وفي تِجاراتِهِمْ، لأنَّ الناسَ إنما يُسافرونَ، ويَتَخَيَّرُونَ في البلدانِ في حالِ أمْنِهِمْ.

الآية ٤٧ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ قال بعضُهُمْ: على تَفْزيعٍ، وقالَ [بعضُهم][3] على تَنْقيصٍ مِنَ الأموالِ وغَيرِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أنْ يأخذَ قَرْيَةً فَقَرْيَةً وبَلْدَةً فَبَلْدَةً حتى يأتيَ قريباً منهمْ، ثم يأخُذَهُمْ؛ كلَّما أخَذَ قَرْيَةً كانَ لهمْ مِنْ ذلكَ خَوفٌ؛ فذلك أخْذٌ بِتَخَوُّفٍ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ الآية [الرعد: ٣١] وَعَدَ اللهُ حلولاً قريباً مِنْ دارِهِمْ، كانَ يُخَوِّفُهُمْ حتى نَزَلَ بساحَتِهِمْ؛ فذلكَ أخْذٌ بالتَّخَوُّفِ يُخْبِرُ أنَّ عذابَهُ لا يُؤْمَنُ حُلُولُهُ، وأخْذَهُ إياهُمْ في كلِّ حالٍ: في الحالِ التي ليسَ لهمْ أمْنٌ ولا خَوفٌ، أي لم يُغَلَّبْ هذا [على هذا][4]، وفي الحالِ التي يكونونَ آمِنينَ في تَقَلُّبِهِمْ وحَوائِجِهِمْ وفي الحالِ التي يكونونَ مُتَخَوِّفينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حينَ[5] لم يَسْتَأْصِلْكُمْ، ولم يأخُذْكُمْ بما كانَ منكُمْ مِنَ الافتراءِ على اللهِ والتكذيبِ لِرُسُلِهِ والمُكابَرَةِ والمُعانَدَةِ لآياتِهِ وحُجَجِهِ وقَتْتِهِ، ولكنْ أمْهَلَكُمْ، وأخَّرَ ذلكَ عنكُمْ أو ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إذا[6] تُبْتُمْ، ورَجَعْتُمْ عمَّا كانَ منكُمْ، يَرْحَمُكُمُ اللهُ، ويَغْفِرُ لكُمْ ذلكَ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ قالَ ذلكَ لِقَومٍ قد تَقَرَّرَ عندَهُمْ، وثَبَتَ، أنَّ كلَّ شيءٍ يَسْجُدُ للهِ، ويَخْضَعُ لهُ. فقالَ ذلكَ لهمْ على العِتابِ: إنكمْ قد عَلِمْتُمْ أنَّ كُلَّ شيءٍ لم يُرَكَّبْ فيهِ العَقْلُ، ولم يُجْعَلْ فيهِ الفَهْمُ والسَّمْعُ، يَخْضَعُ لهُ، ويُسَبِّحُ لهُ، وأنتُمْ لا تَخْضَعونَ لهُ مع ما رَكَّبَ فيكُمُ العقولَ، وجَعَلَ فيكُمُ الأفهامَ وغَيرَها.

والثاني: على الأمْرِ؛ أي اعْلَموا أنَّ كلَّ شيءٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْجُدُ للهِ، ويَخْضَعُ، وقد أقامَ لهمْ مِنَ الحُجَجِ على ذلكَ ما لو تأمَّلوا، وتفكَّروا لَعَلِموا أنَّ كلَّ ذلكَ يَخْضَعُ، ويُسَبِّحُ.

وإلّا ظاهرُ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾ أنْ يقولوا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أنْ كانَ الخِطابُ لأهْلِ مكةَ على ما ذَكَرَهُ أهْلُ التأويلِ؟ لكنْ يُخَرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ اللذينِ ذَكَرَهما.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ قولَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ الآية لَمّا اسْتَوحَشَ أهْلُ الإسلامِ مِمّا[7] عَبَدَ أولئكَ الكَفَرَةُ الأصنامَ، وعَظُمَ ما قالوا في اللهِ، فقالَ لذلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ﴾ كذا.

وقولُهُ[8] تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُريدُ بالظِّلالِ شَخْصَ ذلكَ الشيءِ، والظِّلالُ كِنايةٌ عَنِ الشخصِ؛ كما يقالُ: رأيتُ ظِلَّ فلانٍ أي شَخْصَهُ، وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بالظِّلِّ الظِّلَّ نَفْسَهُ. لكنَّ خُضوعَهُ وسُجودَهُ يكونُ لِلشَّمْسِ والقَمَرِ. وعلى تأويلِ مَنْ يَجْعَلُ الظِّلَّ كنايةً عنِ الشخصِ يَجْعَلُ كلَّ نَفْسٍ تَتَفَيَّأُ خُضوعاً وسُجوداً.

ثم مَعْنى سُجودِ[9] هذهِ الأشياءِ المَواتِ، وخضوعُهُنَّ مِنْ قولِهِ: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا﴾. ومِنْ نَحْوِ

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) أدرج قبلها في الأصل: حيث. (٧) من م، في الأصل: فما. (٨) الواو ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: سجوده.

قولِهِ: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] وقولِهِ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَالطَّيْرَ﴾ [سبإ: ١٠] وقولِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقولِهِ: ﴿تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] وأمثالِهِ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنْ يَجْعَلَ اللهُ ﷻ بِلُطْفِهِ في سِيرَةِ هذهِ الأشياءِ مَعْنَى تَعلُّمِ السُّجودِ لِلّهِ والخُضوعِ لهُ؛ وهو ما ذَكَرَ في الريحِ التي ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] أخْبَرَ أنها تجري بأمْرِهِ، دلَّ أنها تَعلَمُ أمْرَ اللهِ وقولَهُ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠ و٢١] أخبَرَ أنها تَشْهَدُ، وتَنطِقُ، ولو أنها [لا][(١)] تفهَمُ، ولا[(٢)] تَعلَمُ الخِطابَ ما[(٣)] خوطِبَتْ، وإنْ كانَتْ مَواتاً. فَعلى ذلكَ تَسْبيحُها وخُضوعُها جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ يَجعَلَ في سِيرةِ هذهِ الأشياءِ ما تَعرِفُ السُّجودَ والتَّسْبِيحَ، وتَفهَمُهُ.

والثاني: يكونُ سُجودُ هذهِ الأشياءِ وتَسْبيحُها بالتَّسْخيرِ؛ جَعَلَها مُسَخَّراتٍ لذلكَ، وإنْ لَمْ تَعْلَمْ هي ذلكَ، ولم تَعْرِفْ، لكنْ جَعَلَها بالخِلْقَةِ كذلكَ.

والثالثُ: أنهُ جَعَلَ خِلْقَةَ هذهِ الأشياءِ دالَّةً شاهِدَةً على وَحْدانِيَّةِ اللهِ وأُلُوهِيَّتِهِ؛ فهنَّ مُسَبِّحاتٌ للهِ وساجِداتٌ وخاشِعاتٌ لهُ بالخِلْقَةِ التي جَعَلَها دالَّةً وشاهِدَةً على وَحْدانِيَّةِ اللهِ وأُلُوهِيَّتِهِ.

هذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنَى سُجودِهِنَّ وخُضوعِهِنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ قيلَ: صاغِرونَ، ذَليلونَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ: يَسْجُدُ لهُ أعْلَى الخَلائِقِ وأعْلَمُهُمْ، وهُمُ الملائكةُ، ويَسْجُدُ أشَدُّ الخَلْقِ وأصْلَبُهُ، وهو الجبالُ والسمواتُ والأرضُ، ويَسْجُدُ لهُ أيضاً، ويَخْضَعُ أشْقَى[(٤)] الخَلْقِ وأجْهَلُهُ، وهو الدوابُّ وغيرُها. وأنتُمْ أبَيْتُمُ السُّجودَ لهُ والخُضوعَ، واسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ عِبادَتِهِ. فهؤلاءِ الذينَ ذَكَرَهُمْ يَسْجُدونَ [لِغَيرِ اللهِ][(٥)] يُخْبِرُ عن سَفَهِ أولئكَ في إبائِهِمُ السُّجودَ لهُ والخُضوعَ واسْتِكْبارِهِمْ عليهِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: خَوفُ الملائكةِ والرُّسُلِ خَوفُ هَيبَةِ اللهِ وجَلالِهِ، لا خَوفُ نُزولِ شَيْءٍ مِنْ نَقْمَتِهِ عليهِمْ، وخَوفُ غَيرِهِمْ[(٦)] مِنَ البَشَرِ خَوفُ نُزولِ شَيْءٍ، يَضُرُّ بهِمْ. وكذلكَ رَجاؤُهُمْ وطَمَعُهُمْ رَجاءُ نَفْعٍ، يَصِلُ إليهِمْ، ورَجاءُ[(٧)] الملائكةِ والرُّسُلِ وطَمَعُهُمْ رَجاءُ رِضا اللهِ عنهُمْ لا رَجاءُ نَفْعٍ، يَصِلُ إليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ خَوفَ العُقوبَةِ والانْتِقامِ، لأنهُمْ مُمْتَحَنونَ؛ وكُلُّ مُمْتَحَنٍ يَخافُ عذابَ اللهِ ونَقْمَتَهُ. ألا تَرَى أنهُ كيفَ أوعَدَهُمُ الوعيدَ الشديدَ، وقالَ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقالَ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] خافَ عبادَةَ غيرِ اللهِ؟ ومَنْ خافَ ذلكَ يَخَفْ[(٨)] وَعيدَهُ وعَذابَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ الفَوقُ والتَّحتُ الأسْفَلُ ونَحْوُهُ في الأمكنةِ، والمَجْلِسُ ليسَ فيهِ فَضْلُ عِزٍّ وشَرَفٍ ومَرْتَبَةٍ لِما يجوزُ أنْ يكونَ الذي كانَ فوقَ هذا في المكانِ المَجْلِسَ تَحْتَهُ وأسْفَلَ منهُ، فلا يزدادُ لِهذا بما صاروا فوقَهُ/ ٢٨٦ ـ أ/ عِزّاً وشَرَفاً ومَرْتَبَةً، ولا لِهذا بما كانَ تَحْتَهُ ذُلٌّ وهَوانٌ[(٩)]، لأنهُ لا يُفْهَمُ ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ فوقُ المكانِ ولا تَحْتُهُ، لأنَّ مَنْ صَعِدَ الجِبالَ والأمْكِنَةَ المُرْتَفِعَةَ، لا يُوصَفُ بالعُلُوِّ والعَظَمَةِ.

وإذا قيلَ: فلانٌ أميرٌ [على العِراقِ][(١٠)] أو على خُراسانَ، كانَ في ذلكَ تعظيمٌ، لأنهُ ذُكِرَ بالقُدْرَةِ والسلطانِ ونَفاذِ أمْرِهِ ومَشِيئَتِهِ وقُدْرَتِهِ وسلطانِهِ فيهِمْ أوِ اطِّلاعِهِ على جميعِ ما يُسِرُّونَ، ويُضمِرونَ، ويُعْلِنُونَ، ويُظْهِرونَ، وعِلْمِهِ بِجميعِ[(١١)] أفعالِهِمْ. على هذا يَجوزُ أنْ يُتَناوَلَ الفَوقُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) أدرج قبلها في الأصل: وانا، وأدرج قبلها في م: والا. (٤) في الأصل وم: أسفه. (٥) ساقطة في الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غيره. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يخاف. (٩) في الأصل وم: وهو ذل هذا. (١٠) من م، في الأصل: عراق. (١١) في الأصل وم: على جميع.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وصَفَهُمُ اللهُ ﷻ بِفَضلِ طاعتِهِمْ لهُ وخُضوعِهِمْ إيَّاهُ، وهو ما قالَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و٢٠] وهو ما قالَ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ومثلُهُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ لا نَعْلَمُ الخطابَ بهذا أنهُ لِمَنْ كانَ الخِطابُ بهذا: ألأهْلِ مكةَ؟ فهمْ قدِ اتَّخذوا آلهةً بقولِهِمْ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ﴾ الآية [ص: ٥] إلّا أنْ يُخاطِبَ الثَّنويَّةَ والزنادقَةَ، فإنهمْ يَقولونَ باثْنَيْنِ، ويُشِيرُ أنْ يكونَ أهلُ مكةَ، وإنِ اتَّخذوا آلهةً فإنهمْ في الحقيقةِ عُبَّادُ إلهينِ لأنهمْ إنما كانوا يَعْبُدونَ تلكَ الأصنامَ بأمْرِ الشيطانِ وطاعتِهِمْ إياهُ، فَنَسَبَ العبادةَ لِما بأمْرِهِ يَعْبُدونَ هذهِ الأصنامَ؛ أضافَ العبادةَ إليهِ.

أو أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ اثْنَينِ إنما هو على الزيادةِ على الواحِدِ؛ كأنهُ قالَ: لا تَتَّخِذوا، أو لا تَعْبُدوا أكثرَ مِنْ إلهٍ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ لا تخافوا[1] الأصنامَ التي تَعْبُدونَها، فإنكُمْ إنْ تَرَكْتُمْ عبادَتَها لا تَضُرُّكُمْ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ولهُ يَخضَعُ ما في السمواتِ والأرضِ؛ كُلُّهُمْ عبيدُهُ وإماؤُهُ. فكيفَ أشْرَكْتُمْ عبيدَهُ في ألوهيَّةِ اللهِ تعالى وربوبيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: دائماً، لأنَّ غيرَهُ مِنَ الأديانِ كلَّها يَبْطُلُ، ويَضِلُّ، ويَبْقى دينُهُ في الدارَيْنِ جميعاً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ﴾ أي مُخْلِصاً مِنَ الوَصَبِ والتَّعَبِ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي ولَهُ دينٌ، لا يُوصَلُ إليهِ إلّا بِتَعَبٍ وجَهْدٍ، فاجْتَهِدوا، واتْعَبُوا، لِتُخْلِصوا لهُ الدينَ. هذا مَعْنى قولِهِ [﴿وَاصِبًا ۚ﴾ أي][2] مُخْلِصاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي مُخالَفَةَ غيرِ اللهِ تَتَّقونَ، أي [خافوا مُخالَفَةَ اللهِ، ولا تَخافوا][3] مخالَفَةَ غيرِهِ. أو يقولُ: ولا تَخافوا غيرَ اللهِ، ولا تَتَّقُوا سِواهُ، ولكنِ اتَّقُوا اللهَ، واتَّقُوا نَقْمَتَهُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي تَتَضَرَّعونَ. يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ[4] عقلِهِمْ؛ إنهمْ يَعْلَمونَ أنهُ لهُ ما في السمواتِ والأرضِ وأنَّ كلَّ ذلكَ مُلْكُهُ، وأنَّ مالَهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ منهُ، وأنَّ ما يَحُلُّ بهمْ مِنَ البلاءِ والشِّدَّةِ، هو الكاشِفُ لهمْ والدافعُ عنهمْ.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾][5] ثم يكفرونَ، ويَصْرِفونَ شُكْرَها منهُ إلى غيرِهِ في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ، ويُؤْمِنونَ بهِ في حالِ الشِّدَّةِ والبلاءِ، فيقولُ: أنا المُنْعِمُ عليكُمْ تلكَ النِّعَمَ، وأنا المالكُ الكَشْفَ[6] عنكُمْ لا الأصنامُ التي عَبَدْتُموها. وفكيفَ كَفَرْتُمْ في الرَّخاءِ والسَّعَةِ، وآمَنْتُمْ في وقْتِ الضيقِ والبلاءِ.

كانوا يُخلِصونَ لهُ الدينَ [في][7] وقتٍ، ويُشْرِكونَ غيرَهُ في وقتٍ، فيقولُ: أديموا إليَّ الدينَ بقولِهِ: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ﴾ [النحل: ٥٢] ولا تَتْرُكوا الإيمانَ في وَقْتٍ وتُؤمِنوا بي في وَقْتٍ وكذلكَ كانَتْ عبادَتُهُمْ؛ كانوا يَكْفُرونَ بربِّهِمْ في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ، ويُؤْمِنونَ بهِ في حالِ البلاءِ والشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ فَرَضَ الجِهادَ على المُسْلِمِينَ والقِتالَ مَعَهُمْ لهذا المَعْنى لأنَّ مِنْ عادَتِهِمُ الإيمانَ في وَقْتِ البلاءِ والشِّدَّةِ والخوفِ. فَفَرَضَ عليهِمُ القِتالَ معهمْ لِيَضطَرُّوا إلى الإيمانِ، فَيُؤْمِنوا، ويُديموا الإيمانَ.

ومُنْذُ فَرَضَ القِتالَ مَعَهُمْ كَثُرَ الإسلامُ، فَدَخَلوا فيهِ فَوجاً فَوجاً، وإنْ [كانوا قَبْلَ ذلكَ يَدْخلونَ][8] فيهِ واحداً واحداً.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ قالَ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النحل: ٥٣] فإنما أخْبَرَ عمَّا عَرَفوا، وتَقَرَّرَ عندَهُمْ أنَّ كلَّ ذلكَ مِنْ عندِ اللهِ لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: تخافون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لا تخافوا ولكن اتقوا. (٤) من م، في الأصل: غفلة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عن الكشف. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كان قبل ذلك يدخل.

الآية ٥٥ وقولهُ تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَين:

أحدُهُما: أنْ يَجعَلوا ما آتاهُمُ اللهُ، وأنْعَم عليهِمْ، سَبَبَ كُفرِهِمْ باللهِ.

والثاني: يَكْفُرونَ بِنِعَمِ اللهِ تعالى بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ وصَرْفِهِمُ الشكرَ عنهُ.

ويُشبِهُ أن يكونَ إخبارُهُ عن سَفَهِهِمْ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ؛ وهو أنهمْ لم يَرَوا في البَشَرِ أحداً، يُطاعُ، ويَخضَعُ [إليه][1] إلاّ أحدَ رجلَينِ: دافعُ بَلاءٍ عنهُ أو جارُّ نَفعاً[2] إليهِ. فالأصنامُ التي عبدوها ليسَ منها دَفْعُ بلاءٍ ولا جَرُّ مَنْفَعَةٍ. فلماذا يَعْبُدونَها؟ وقالَ أبو بَكْرٍ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي بالقرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وَعيدٌ مِنَ اللهِ. ثم يقولُ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يُنْزِلُ بكمْ بِكُفرانِ[3] نِعَمِهِ وصَرْفِ الشكرِ عنهُ أنهُ مُهلِكُكُمْ ومُنْزِلٌ بكُمْ عذابَهُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي تَتَضرَّعونَ، مَوعِظَةٌ للمؤمنينَ أيضاً لأنهمْ يَجْعَلونَ تَضرُّعَهُمْ[4] إلى اللهِ إذا أصابَهُمُ الضُّرُّ والبَلاءُ، وإذا انْكَشَفَ ذلكَ عنهمْ تَرَكوا ذلكَ التَّضرُّعَ، أي تَعْلَمونَ أنَّ ما ﴿بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ فكيفَ تَصْرِفونَ شكرَها إلى غيرِهِ في حالٍ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي يقولونَ: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِنَ الأنعامِ والحَرْثِ وغيرِهِ الذي جَعَلَ اللهُ لهمْ، ولا يَعْلَمونَ لهمْ نصيباً في ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] حَرَّمُوا على أنفُسِهِمْ ما جَعَلَ اللهُ لهمْ، وجَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ وهو الشيطانُ؛ أي ما يَجْعلونَ للأوثانِ فذلكَ للشيطانِ في الحقيقةِ؛ هو الذي أَمَرَهُمْ بذلكَ، وهو الذي دعاهُمْ إلى ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبادةِ الشيطانِ، لكنهمْ إذا عَبَدوا الأوثانَ كأنهمْ[5] قد عَبَدوا الشيطانَ لأنهُ هو أمَرَهُمْ بذلكَ، وهو دَعاهُمْ إلى ذلكَ. فَعَلى ذلكَ ما يَجْعَلونَ للأوثانِ ذلكَ للشيطانِ لِما ذَكَرْنا، لكنْ لا يَعْلَمونَ أنَّ ذلكَ، لهُ نَصيبٌ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ أي يَعْلَمونَ أنْ ليسَ لها نصيبٌ في ذلكَ، ولكنْ يَجعَلونَ ذلك لها على عِلْمٍ منهمْ، أي لا نَصيبَ للأوثانِ في ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أي أتنبِئُونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ أنهُ ليسَ ونَحوَهُ، أي يَعْلَمُ غيرَ الذي تُنبِئُونَ، وقد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ على القَولِ أي ويَقولونَ، وإلاّ لا يَمْلِكونَ جَعْلَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿تَفْتَرُونَ﴾ تَسمِيَتَهُمُ الأصنامَ آلهةً.

ويَحتَمِلُ افْتِراؤُهُمْ على اللهِ ما قالوا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] زَعَموا أنهُ فِعْلُ آبائِهِمْ، وفِعْلُهُمْ[6] كانَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ ورِضاهُ حينَ[7] تَرَكَهُمْ على ذلكَ. فذلكَ افْتِراؤُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ يَحتَمِلُ السؤالُ الجزاءَ؛ أي تاللهِ لَتُجْزَوُنَّ ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ويَحتَمِلُ السؤالُ [سؤالَ][8] حُجَّةٍ [أي يُسألونَ][9] على ما ادَّعَوا على اللهِ مِنَ الأمْرِ الحُجَّةَ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَٰتِ﴾ أي يقولونَ: للهِ البناتُ؛ يُخْبِرُ عن شِدَّةِ سَفَهِهِمْ/ ٢٨٦ ـ ب/ حينَ[10] يأنفونَ، ويَستَحْيُونَ مِنَ البناتِ، ثم يَنْسِبونَ ذلكَ إلى اللهِ، ويُضيفونَها إليهِ. يُصَبِّرُ رسولَهُ على أذى الكَفَرَةِ حينَ[11] قالوا فيهِ ما قالوا: إنهُ ساحِرٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، ونَحْوَهُ، على عِلْمٍ منهمْ ويَقينٍ أنهُ ربُّهُمْ وخالِقُهُمْ. فَمَنْ أنكَرَ رسالَتَهُ أولى بالصَّبْرِ على قولِهِ والحِلْمِ منْهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: نفع. (٣) في الأصل وم: من كفران. (٤) في الأصل وم: يتضرعون. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: وفعلوهم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: ليسألون. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حيث.

[وقولُهُ تعالى][(1)]: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ كلمة تنزيهٍ عمَّا قالوا فيهِ، وحَرْفُ تعجيبٍ حينَ[(2)] نَسَبُوا إلى اللهِ ما يَكْرَهونَ لأنفسِهِمْ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُ العَرَبِ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ، و: سَوَّدَ اللهُ وَجْهَكَ، ليسَ على إرادةِ السوادِ والقُبْحِ، ولكنْ على إرادةِ ما يَكْرَهُونَ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي مُتَغَيِّراً مِنَ الغَمِّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي حَزِينٌ، وهكذا العُرْفُ في الناسِ أنهُ إذا اشْتَدَّ بهمُ الحُزْنُ والغَمُّ يَظْهَرُ ذلكَ في وجوهِهِم قُبْحاً وسَواداً.

الآية ٥٩ [وقولُهُ تعالى][(3)]: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يَذْكُرُ فيهِ كيفَ يَصْنَعُ بِهِ؟ أيُمْسِكُهُ على هَوانٍ، يَضُرُّ بِهِ، ويُسِيءُ صُحْبَتَهُ ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ وهو حَيٌّ، فيقولُ: إنَّ ربِّي اختارَ البَناتِ، فأبْعَثُ بها إلى ربِّي، فإنهُ أحَقُّ بها. وهي[(4)] المَوْؤودةُ التي قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] وإنما كانوا يَصْنَعونَ ذلكَ خَشْيَةَ إملاقٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في جَعْلِهِمْ لِلَّهِ ما كَرِهوا لأنفُسِهِمْ أو في قولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] أو في قولِهِمْ: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] ونَحْوِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي جَزاءُ السَّوءِ، وهو النارُ.

وقالَ الحَسَنُ ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي صِفَةُ السَّوءِ التي وَصَفوا بها رَبَّهُمْ أنهُ اختارَ البَناتِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الصِّفَةُ الأعْلَى التي ليسَ لَها شَبَهٌ، فإنَّ تلكَ الصِّفَةَ، هي صِفَتُهُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ لهمْ: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ بما سَمَّاهُمْ مَرَّةً مَوتى ومَرَّةً فَسَقَةً ومَرَّةً هُمْ في الظلماتِ وأمثالَهُ. [وَصَفَهُمْ بِتِلْكَ الأوصافِ][(5)] بما أنْكَروا الآخِرَةَ؛ وذلكَ ممَّا توجِبُ الحِكْمَةُ والعَقْلُ والشَّريعةُ، فَلَهُمْ ذلكَ الوصفُ والمَثَلُ السَّوءُ بما أنْكَروا ما توجِبُهُ الحِكْمَةُ والعَقْلُ والشَّريعةُ.

ويَحْتَمِلُ مَثَلُ السَّوءِ النَّعْتَ والصِّفَةَ. فإنْ كانَ هو، هو على الشَّبَهِ، فهو في الدنيا لِما شَبَّهَهُمْ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ بالشجرةِ الخبيثةِ وبالرَّمادِ والزَّبَدِ والترابِ ونَحْوِهِ. وإنْ كانَ على النَّعْتِ والصفةِ فهو في الآخرةِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي لأولياءِ اللهِ المَثَلُ الأعلَى، وهُمُ المؤمنونَ لِما أنَّ اللهَ وَصَفَ المؤمنينَ بالحياةِ والنورِ والعَدْلِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأسماءِ الحَسَنَةِ، وذلكَ للهِ في الحقيقةِ. لكنَّهُ بِفَضْلِهِ ومَنِّهِ وَصَفَهُمْ، وسَمَّاهُمْ بذلكَ، فأُضيفَ إلى اللهِ لِما بِفَضْلِهِ اسْتَوجَبوا لا باسْتِحْقاقِ أنفسِهِمْ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أُضيفَ ذلكَ إليهِ، بِفَضْلِهِ يَسْتَوجِبونَ تلكَ الأسماءَ التي سَمَّاهُمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي لأولياءِ اللهِ المَثَلُ الأعلَى؛ كأنهُ قالَ: لِلذينَ يؤمنونَ بالآخِرَةِ المَثَلُ الأعلَى مُقابِلَ ما ذَكَرَ حينَ[(6)] قالَ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قالَ الحَسَنُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بالغَلَبَةِ منهُ في الأشياءِ كلِّها على أمْرِهِ[(7)]، وكلُّ شيءٍ دونَهُ ذليلٌ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بالعَدْلِ منهُ في كلِّ قضاءٍ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ. وقولُهُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في هذا الموضعِ كأنهُ قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بنفسِهِ لا بِخَلْقِهِ وأوليائِهِ كما يكونُ لِملوكِ الأرضِ؛ يكونُ عِزُّهُمْ بِخَدَمِهِمْ وحَشَمِهِمْ، فإذا ذهبوا، أو عَصَوهُ، يَصيرُ مَقهوراً مَغلوباً. فأمَّا اللهُ

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) في الأصل وم: حيث. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) أدرج قبلها في الأصل وم: وهو. (5) في الأصل وم: لهم ذلك الوصف. (6) في الأصل وم: حيث. (7) أدرج قبلها في الأصل وم: ما.

ﷻ فهو[١] عزيزٌ بذاتِهِ. و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي إنشاؤهُ العُصاةَ منهمْ على علمٍ منهُ بذلكَ، لم يَخرُجْ ذلكَ على غيرِ الحِكْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ دَلَّ قولُهُ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ أنَّ لهُ أنْ يَستَأْصِلَهُمْ، ويُهلِكَهُمْ بما كانَ منهمْ، لكنهُ بفضلِهِ تَرَكَهُمْ إلى المُدَّةِ التي لهمْ، لأنهُ لو لم يكُنْ لهُ ذلكَ لم يكُنْ لِلْوَعيدِ الذي أوعَدَ مَعْنًى.

وقالَ أبو زَيْدٍ البَلْخِيُّ: إنَّ اللهَ بما أوعَدَ مِنَ الوَعيدِ ليسَ يُوعِدُ لِمَضَرَّةٍ نفسِهِ ولا لِنَفْعٍ يَصِلُ إليهِ، ولكنْ يُوعِدُ بما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ. فَدَلَّ أنَّ الوعيدَ لازمٌ واجبٌ، ونحنُ نقولُ: [يُوعِدُ][٢] بما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ، وقد أمْهَلَهُمْ بَعْدَ الوَعيدِ. فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يُخرِجَهُمْ مِنَ النارِ بَعْدَ ما أدخلَهُمُ النارَ بما ارْتَكَبُوا مِنَ الكبائِرِ.

ثم في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ الآيةَ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: ليسَ للهِ أنْ يُهلِكَ قوماً، قدعَلِمَ منهمُ الإيمانَ في وَقْتٍ، أو يكونُ في أصلابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ؛ إذْ قد كانَ مِمَّنْ أوعَدَ ذلكَ الوعيدَ مِنْ بعضِهِمْ الإيمانُ، أو في أصلابِهِمْ مَنْ قد آمَنَ، فَدَلَّ الوعيدُ لهمْ أنهُ قد يُهلِكُ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُؤمِنُ في آخِرِ عُمُرِهِ؛ إذْ لا يُوعِدُ إلّا بمالَهُ أنْ يَفْعَلَ، لكنهُ بِفَضْلِهِ أخَّرَهُ إلى وَقْتٍ دلالةً أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ بما ليسَ ذلكَ باصْلَحَ لهمْ في الدينِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿بِظُلۡمِهِم﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا لِلْكَفَرَةِ خاصةً، وقالَ بعضُهُمْ: لهمْ وللمؤمنينَ ولكلِّ[٣] مُرْتَكِبِ زَلَّةٍ؛ إذْ ما مِنْ أحدٍ ارْتَكَبَ زلَّةً إلّا وقدِ اسْتَوجَبَ العقوبَةَ [والمُؤاخَذَةَ بها][٤] لكنه بِفَضْلِهِ عَفا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بالدابَّةِ الدابَّةَ التي خَلَقَها لهمْ، إذا أهْلَكَ الناسَ فقد أهْلَكَ الدوابَّ؛ إذْ خَلَقَهُ إياها لهمْ. وقالَ بعضُهُمْ قولُهُ ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ أي على ظَهْرِ الأرضِ من دابَّةٍ لأنَّ الدوابَّ إنما تعيشُ بالذي يعيشُ الناسُ، فإذا هَلَكُوا هُمْ هَلَكَتِ الدوابُّ أيضاً، لِما ذَهَبَ سَبَبُ عيشِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بالدابَّةِ البشرَ، أي ما تَرَكَهُمْ بِظُلْمِهِمْ، ولكنْ يُهلِكُهُمْ، وسَمّاهُمْ دابَّةً [لأنهُ ذَكَرَهُمْ][٥] في مَوضِعِ الظُّلْمِ. وإنْ كانَ سَمّاهُمْ في غَيرِ مَوضِعٍ بالأسماءِ الحَسَنَةِ فقدْ[٦] سَمّاهُمْ في مَوضِعٍ آخَرَ دابَّةً حينَ[٧] قالَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦] ولا شَكَّ أنَّ ا لبَشَرَ دَخَلُوا في هذِهِ التسميَةِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ دخولُهُمْ في الأُخرَى؛ فإنْ كانَ المُرادُ ما ذُكِرَ مِنَ الدابَّةِ البَشَرَ والأنبياءَ والرُّسُلَ، فإنما يكونُ هَلاكُهُمْ بِقَطْعِ نَسْلِهِمْ لأنَّ الأنبياءَ، أكثَرُهُمْ وُلِدوا مِنَ الآباءِ الظَّلَمَةِ، فإذا أُهلِكَ آباؤُهُمْ لم يُولَدِ الرسلُ والأنبياءُ، فيكونُ هَلاكُهُمْ لا بِظُلْمِ هؤلاءِ، ولكنْ بِقَطْعِ النسلِ، وإنْ كانَ المُرادُ بتلكَ الدابَّةِ الدوابَّ نفسَها، فَلِأنَّ الدوابَّ إنما أُنْشِئَتْ للبَشَرِ ولِمنافِعِهِمْ، فإذا أُهْلِكَتِ [الدابَّةُ: البَشَرُ][٨] أُهلِكَ المُنْشَأُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ دلالةُ [نَقْضِ][٩] قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: يَجْعَلُ اللهُ لِلْخَلْقِ أجلاً، ثم يَجيءُ كافرٌ، فَيَقْتُلُهُ دونَ بلوغِ الأجَلِ الذي جَعَلَهُ اللهُ حينَ[١٠] أخبَرَ أنهمْ ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ﴾ بعدَ الأجَلِ المَضروبِ لهمْ ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ قَبْلَ ذلكَ. وهُمْ يقولونَ: بل يَسْتَقْدِمُهُ كافرٌ، فَيَقْتُلُهُ، فذلكَ سَرَفٌ في القولِ.

وهذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: لا يَتأخَّرُ الأجَلُ الذي جَعَلَ لهمْ ساعةً، ولا يَتَقَدَّمُ عنْ ذلكَ.

والثاني: لا يُجابُ في التأخيرِ ولا في التقديمِ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بذلك والمؤاخذة به. (٥) في الأصل وم: لأنه إذا ذكر. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الاصل وم: الدواب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ كانوا يَجْعَلونَ للهِ أشياءَ، يَكْرَهونَها[1] لأنفُسِهِمْ مِنْ نَحْوِ البَناتِ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] ويَكْرَهونَ لأنفُسِهِمُ البناتِ، ويَجْعلونَ ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الأنعام: ١٠٠ والرعد: ٣٣] مِنْ عَبيدِهِ، وهُمْ كانوا يَكْرَهونَ لأنفسِهِمُ الشركاءَ مِنْ عَبيدِهِمْ.

وأمثالُهُ/ ٢٨٧ ـ أ/ كقولِهِ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨] يُخبِرُ ﷻ عَنْ سَفَهِهِمْ وسَرَفِهِمْ في [ما][2] يُخبِرُ عنْ حِلْمِهِ حينَ[3] لم يَسْتَأْصِلْهُمْ، ولم يُهْلِكْهُمْ، بِما قالوا في اللهِ مِنْ عظيمِ القولِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ لِيُعْلَمَ أنهُ يُمْهِلُهُمْ [لا][4] لِغَفْلَةٍ ولا سَهْوٍ، ولكنْ بِحِلْمٍ، لأنَّ حِلْمَ[5] الخَلْقِ في ذاتِ اللهِ، ولا يَعْجَلُ بالعقوبَةِ؛ إذْ لو أرادَ إهلاكَهُمْ لأهْلَكَهُمْ ساعةَ قالوا ذلكَ، ولا يُمْهِلُهُمْ يَعيشونَ، لكنْ أخَّرَ لذلكَ اليومِ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي يَجْعَلونَ لِأولياءِ اللهِ ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفُسِهِمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ لهمُ الحُسْنَى في الآخِرَةِ، وهي الجنةُ، وإنَّ للمؤمنينَ النارَ بقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: يقولونَ: إنَّا [على][6] دينِ اللهِ، وعلى الحَقِّ بعبادَتِنا، ويقولونَ: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يَعْنونَ البنينَ، لأنهمْ كانوا يُضيفونَ البناتِ إلى اللهِ، ويَنْسِبونَ البَنينَ إلى أنفسِهِمْ، فذلكَ الحُسْنَى الذي ذَكَروا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنةَ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

ثم كذَّبَهُمْ في قولِهِمْ، فقالَ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ليسَ لهمُ الحُسْنَى على ما زَعَموا، ولكنِ النارُ. وقد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ في ما تَقَدَّمَ[7].

كانَ أهلُ الكفرِ فِرَقاً: منهمْ مَنِ ادَّعى الاشْتِراكَ في نِعَمِ الآخِرَةِ كما كانَ [لَهُمْ][8] اشْتِراكٌ في نِعَمِ الدنيا كقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

ومنهمْ مَنِ ادَّعى الآخِرَةَ لأنفسِهِمْ كما كانَتْ لهمُ الدنيا. فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ همُ الذينَ ادَّعَوا الحُسْنَى، وهي الجَنَّةُ، لأنفسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ هو مِنَ الفَرْطِ، وهو السَّبْقُ والتَّقَدُّمُ، كأنَّ الآيةَ في الرؤساءِ؛ أخْبَرَ أنهمْ سابِقو أتباعِهِمْ إلى النارِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٩] الأُولى همُ المَتْبوعونَ، وأُخراهُمُ الأتباعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: مُعَجَّلونَ إليها بَينَ يَدَي أتباعِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي مُتْرَكونَ مَنْسِيُّونَ في النارِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ مُبْعَدونَ عَنْ رحمةِ اللهِ.

لكنَّ هذينِ ليسَا بِتَأويلِ الآيةِ، إذْ كُلُّ مَنْ في النارِ، فهو مَنْسِيٌّ، مَتروكٌ فيها، مُبْعَدٌ عَنْ رَحمةِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مُدْخَلونَ فيها. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا القَسَمُ منهُ ابْتِداءً. لكنْ كانَهُ عَنْ إنكارٍ كانَ منهمْ للرسالةِ، فعندَ ذلكَ أقسَمَ بِقولِهِ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وأكَّدَ بما أنكروا الرسالةَ بالقسمِ الذي ذكَرَ، فقالَ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾. يا محمدُ.

وقولُهُ[9]: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناكَ إلى [أُمَّتِكَ][10] ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كما زَيَّنَ لأُمَّتِكَ. ﴿فَهُوَ﴾ كانَ ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ يومئذٍ كما هو وَلِيٌّ لأُمَّتِكَ اليومَ. يُصَبِّرُهُ.

---

(١) في الأصل وم: يكرهون ذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يحلم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) كان ذلك في تأويل قوله تعالى﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقولُ: ليسَ هؤلاءِ بأوَّلِ مَنْ زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ، ولكنْ كانَ في الأمَمِ الماضيةِ مَنْ زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ، فَيُكَذِّبونَ رسلَهُمْ. فَلَسْتَ أنتَ بِأَوَّلِ مُكَذَّبٍ، بل كانَ لكَ شُركاءُ في التكذيبِ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الدنيا لأنَّ الدنيا هي دارُ الوَلايةِ بينَهُمْ كقولِهِ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١ و. . .] وقولِهِ: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأمَّا في الآخِرةِ فيصيرونَ أعداءً كقولِهِ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] وقولِهِ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ الآيةِ [ق: ٢٧] ونحوُهُ.

ولا يُحتمَلُ أنْ يكونوا أولياءَ في الآخِرةِ؛ ثُمَّ يَلْعَنُ بعضُهُمْ بَعْضاً، ويَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ؛ فذلكَ علامةُ العداوةِ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الآخِرةِ، أي أولى بهِمْ، فَيُقْرَنُ[1] بهِمْ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي صاحِبُهُمْ كقولِهِ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢] وكقولِهِ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ الكتبَ التي كانَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ، لأنهمُ اختلَفوا في كُتُبِهِمْ؛ فمنهُمْ مَنْ بَدَّلَ، ومنهُمْ مَنْ غَيَّرَ، وحَرَّفَ. فيقولُ، واللهُ أعلمُ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في كتبِهِمْ لأنَّ هذا الكتابَ، أنزلَهُ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يديهِ مِنَ الكتبِ[2]. يُبَيِّنُ هذا الكتابُ ما اختلَفوا في كُتُبِهِمْ[3] الحقَّ مِنَ الباطِلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في الرسلِ والأديانِ وفي[4] المُنْزَلِ عليهِ؛ اختلَفوا في ذلكَ كلِّهِ، فَبَيَّنَ[5] لهمُ الحقَّ مِنَ الباطِلِ في جميعِ ما اختلَفوا فيهِ بالكتابِ الذي أُنْزِلَ عليهِ؛ إذْ فيهِ أنباءُ الأممِ الماضيةِ، وهو لم[6] يَشْهَدْها، ولم يَخْتَلِفْ إلى مَنْ يُخْبِرُهُ عنها، ثم أنبأَهُمْ على ما كانتْ، فَدَلَّ أنهُ إنما عَرَفَ [ذلكَ باللهِ، ومنهُ نَزَلَ ذلكَ][7].

وفيهِ دلالةُ أنَّ الحوادِثَ التي عَلِمَ اللهُ أنهمْ يُبْتَلَوْنَ بها إلى يومِ القيامةِ أنهُ جَعَلَ لهمْ سَبيلَ الوُصولِ إلى بيانِها في الكتابِ إمَّا بيانَ كِنايةٍ وإمَّا بيانَ تَصْريحٍ حينَ[8] قالَ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيةَ حينَ[9] لم يَدَعْهُمْ في الاختِلافِ وعلى غيرِ بيانٍ. فَعَلَى ذلكَ حينَ عَلِمَ أنهمْ يُبْتَلَوْنَ بالحوادِثِ التي ليسَ لها منصوصٌ في الكتابِ، ولا يُحتمَلُ ألّا يُبَيِّنَ لهمْ ذلكَ، ويَدَعَهُمْ حيارَى. لكنَّ البَيانَ على وجهَينِ: بيانُ تصريحٍ يُعقَلُ بَديهةً بالعقلِ، وبيانُ كِنايةٍ يُدْرَكُ بالنَّظَرِ والتَّأَمُّلِ والاستِدلالِ.

وأصلُهُ في قولِهِ: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي إلا لِتُبَيِّنَ لهمُ الحقَّ في ما اختلَفوا فيهِ لأنهمُ اختلَفوا في الحقِّ في ذلكَ، لأنَّ كلَّ فريقٍ منهمُ ادَّعى أنهُ هو المُحِقُّ، وأنَّ الذي هو عليهِ الحقُّ، وأنَّ غيرَهُ على باطلٍ.

فأخبرَ أنهُ أنزَلَ الكتابَ عليهِ لِيُبَيِّنَ لهمُ الحقَّ في ما اختلَفوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى رسولَهُ وكتابَهُ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهمْ آمنوا بهما، وصدَّقوا بهما، وقَبِلوهُما، فصارَ ذلكَ لهمْ هُدًى ورَحْمةً ونوراً. وأمَّا مَنْ كَذَّبَهُما، ولم يَقْبَلْهُما فهو عذابٌ عليهِمْ وعَمًى، وهو كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ الآيةَ [التوبة: ١٢٤ و١٢٥] وهو ما ذَكَرَ، وهو عليهِمْ عَمًى.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يذكُرُ ﷻ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ حينَ[10] أخبرَ أنهُ يُنْزِلُ مِنَ السماءِ ماءً، فَيُحْيي بهِ الأرضَ، وهي ميتةٌ، ويُخْرِجُ منها نَباتاً وزروعاً وأشجاراً. فَمَنْ قَدَرَ على هذا [فهو قادرٌ][11] على إحياءِ الأرضِ بَعْدَ مَوتِها؛ إنهُ لا فَرْقَ بَيْنَ الإحياءَينِ: الأنفُسِ [والنباتِ][12]. فَمَنْ قَدَرَ على أحدِهِما قَدَرَ على الآخَرِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في ما ذَكَرَ ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ المواعِظَ.

---

(١) في الأصل وم: فيقرون. (٢) في الأصل وم: الكتاب. (٣) في الأصل وم: كتابهم. (٤) الواو ساقطة في الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يبين. (٦) في الأصل وم: له. (٧) في الأصل ذلك، في م: بالله ومنه نزل ذلك. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لقادر. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُم: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الآياتِ والحُجَجَ. وأمَّا مَنْ لم يَسْمَعْ فلا يكونُ لهُ آيةٌ.

وأصْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يَنْتَفِعونَ بِسماعِهِمْ، و﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧] أي يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ.

وأصْلُهُ أنَّ هذا كلَّهُ، يصيرُ آيةً للمؤمنينَ على ما ذَكَرَ كلِّهُ، لأنهمْ همُ العاقِلونَ عنِ اللهِ: ما أمَرَهُمْ بهِ، ونهاهُمْ عنهُ، وهُمْ يَسْمَعونَ آياتِهِ ومَواعِظَهُ. وكلُّهُ كِنايةٌ عنِ المؤمنينَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ والعِبْرَةُ الآيةُ، أي أنشأَ لَكُمْ أنعاماً [فيها الآيةُ، وهو][1] صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي أنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً، وأنشأَ الأنعامَ، لكُمْ فيهِ الآيةُ؛ أنشأَ، جَلَّ، وعَلا، في الأنعامِ لَبَناً غِذاءً لأولادِها[2] في الوقتِ الذي لا تَحْتَمِلُ الغِذاءَ بالعَلَفِ، وجَعَلَ لأربابِها الانتِفاعَ بذلكَ اللبنِ [وفي الأشياءِ][3] التي لا يُؤْكَلُ لحمُها لم يَجْعَلْ لأربابِها الانتِفاعَ بما يَفْضُلُ مِنَ اللبنِ، لم يَجْعَلْ لها فَضْلَ لَبَنٍ/ ٢٨٧ ـ ب/.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ ذَكَرَهُ بالتذكيرِ. فظاهِرُهُ أنْ يُذْكَرَ بالتأنيثِ، لأنهُ إنما يريدُ بهِ الأمهاتِ التي يَدُرُّ منها اللَّبَنُ، أو جماعةٌ مِنَ الذُّكْرانِ منها. فكيفَ ما كانَ فهو يُذْكَرُ بالتأنيثِ، لكنَّ بعضَهُمْ يقولونَ: ذَكَرَ باسْمِ التذكيرِ على إرادةِ الأصلِ الذي بهِ كانَ اللبنُ، وهو الفَحْلُ.

وهذا يَدُلُّ إلى أبي حنيفةَ وأصحابِهِ، رَحِمَهُمُ اللهُ، لِقَوْلِهِمْ في لَبَنِ الفَحْلِ: إنهُ يُحَرِّمُ.

وقالَ بَعضُهُمْ: ذَكَرَ باسْمِ التذكيرِ على إرادةِ الجِنْسِ والجَوهَرِ مِنْ بَينِ الأجناسِ والجواهِرِ دونَ العَدَدِ والجَماعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ معْنَى استِخراجِ اللبنِ مِنْ بَينِ فَرْثٍ ودَمٍ؛ وذلكَ أنَّ العَلَفَ إذا وَقَعَ في الكَرْشِ، فَيَجْعَلُ الفَرْثَ أسْفَلَهُ، والدَّمَ أعلاهُ، واللَّبَنَ بينَ ذلكَ، ثم يُسَلَّطُ الكبدُ عليهِمْ، فَيُجْلِي الدمَ في العروقِ، واللَّبَنَ في الضَّرْعِ، ويَبْقَى الفَرْثُ في الكَرْشِ كما هو.

وقالَ بَعْضُ الفلاسِفَةِ: إنَّ العَلَفَ إذا وَقَعَ فيهِ يَصيرُ منهُ فَرْثاً، ثم يَصيرُ منهُ دماً، ثم يَصيرُ لَبَناً خالصاً، فهو كالنُّطْفَةِ التي وَقَعَتْ في الرَّحِمِ تَصِيرُ عَلَقَةً، ثم تَصيرُ مُضْغَةً مَأكولةً. فَعَلَى ذلكَ اللبنُ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ بعضُ الفلاسفةِ: إنَّ العَلَفَ، يَصيرُ فَرْثاً ثم دماً لَبَناً، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَجْرَى اللَّبَنِ بَينَ ما ذَكَرَ مِنَ الفَرْثِ والدَّمِ. فأيُّ الوَجْهَينِ كانَ، فيهِ اللُّطْفُ الذي ذَكَرْنا. وَوَجْهُ ذِكْرِ هذا، واللهُ أعْلَمُ، على الامْتِنانِ.

الآية ٦٧ وكذلكَ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ أنهُ بِلُطْفِهِ أخرَجَ اللَّبَنَ الصافيَ أصفَى الأشياءِ وألْطَفَها[4] مِنْ خُبْثِ الأشياءِ وأكْدَرِها[5] في رأيِ العَينِ.

فَمَنْ قَدَرَ على حِفْظِ هذهِ الأشياءِ ممَّا ذَكَرَ بلا حِجابٍ، يُدْرَكُ، أو حاجِزٍ، يُعْرَفُ، [فهو قادرٌ][6] على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شَيءٍ؛ لأنَّ الخلائقَ، لوِ اجْتَمَعوا على أنْ يُدْرِكوا[7] السببَ الذي بهِ كانَ حِفْظُ هذا مِنْ هذا أوِ امْتِناعُهُ عنِ الخَلْقِ بالخُبْثِ ما أدْرَكوا ذلكَ.

وكذلكَ ما يَخْرُجُ مِنَ النخيلِ والكُرومِ الثمراتُ الطَّيِّبَةُ والأعنابُ الحُلْوَةُ مِنْ غَيرِ أنْ يُرَى أثَرُ ذلكَ فيها، ومِنْ غَيرِ أنْ يُدْرِكوا السببَ الذي كانَ بهِ الأعنابُ والثمراتُ. دَلَّ أنهُ قادرٌ على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شَيءٍ، إذْ هي خَشَبَةٌ يابسةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: السَّكَرُ ما يَحْرُمُ منهُ، والرزقُ ما يُؤكَلُ تَمراً وزبيباً ونَحْوَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: السَّكَرُ خَمْرُ الأعاجِمِ، والرزقُ الحَسَنُ ما يُنَبِّذونَ، ويُخَلِّلونَ، ويأكلونَ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ أنهُ حَرَّمَ السَّكَرَ، ولم يُفَسِّرِ الآيةَ. وفي الأخبارِ أنهُ بَعَثَ مُعاذاً إلى اليَمَنِ، وأمَرَهُ أنْ يَنْهاهُمْ عَنْ نَبيذِ السَّكَرِ.

---

(١) في الأصل وم: فيه الآية هو. (٢) في الأصل وم: الأولاد. (٣) في الأصل وم: في الأشياء. (٤) في الأصل وم: وألطفه. (٥) في الأصل وم: واكدره. (٦) في الأصل وم: لقادر. (٧) من م، في الأصل: يدرك.

وعنْ عبدِ اللهِ [أنهُ][1] قالَ «إنَّ أولادَكُمْ على الفِطرَةِ فلا تَسْقُوهُمُ السَّكَرَ، فإنَّ اللهَ تعالى لم يَجْعَلْ في حرامٍ شِفاءً» [بنحوه البيهقي في الكبرى ١٠/ ٥] وليسَ بَينَ فُقهاءِ الأمصارِ في تحريمِ السَّكَرِ وفَضيخِ البُسْرِ ونَقيعِ الزَّبيبِ إذا أسْكَرَ كثيرُها، ولم يُطْبَخْ، اختِلافُ أنها حرامٌ. وقد ذَكَرْنا هذا في سورةِ البقرةِ[2].

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [في ما][4] ذَكَرَ ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقالَ القُتَبِيُّ: الفَرْثُ ما في الكُرْشِ، لأنَّ اللَّبَنَ كانَ طعاماً، فَخَلَصَ مِنْ ذلكَ الطعامِ دَمٌ، وبَقِيَ منهُ فَرْثٌ في الكُرْشِ، وخَلَصَ مِنَ الدَّمِ لَبَناً سائغاً أي سَهْلاً في الشُّرْبِ، لا يَشْجَى بِهِ شارِبُهُ، ولا يَغَصُّ، وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: أسَغْتُهُ، أي أدْخَلْتُهُ في حَلْقي حَمْلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ أي تَتَّخِذونَ منهُ ما يَحْرُمُ أكْلُهُ ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ ما يَحِلُّ[5] منهُ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ الآية [يونس: ٥٩] أو يُخَرَّجُ على تذكيرِ النِّعَمِ في الوقتِ الذي كانَ السَّكَرُ حَلالاً، أي ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ ما تَشْرَبُونَ ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ سِوَى الشرابِ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. قالَ بعضُهُمْ: أوحَى أي[6] قَذَفَ في قلوبِها أنِ افْعَلي ما ذَكَرَ. والوَحْيُ هو القَذْفُ، سُمِّيَ بذلكَ لِسُرْعَةِ وقوعِهِ ونَفاذِهِ في القُلوبِ مِنْ غَيرِ أنْ يَشْعُرَ المُلْقَى فيهِ والمَقْذوفُ في قَلْبِهِ أنَّ أحَداً فَعَلَ ذلكَ، والقاهُ فيهِ؛ وهو ما مَكَّنَ اللهُ للشيطانِ مِنَ الوَسْوَسَةِ في القُلوبِ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ المُوَسْوَسُ إليهِ والمَقْذوفُ في قَلْبِهِ أنَّ أحداً دَعاهُ إلى ذلكَ، أو زَيَّنَهُ إليهِ[7]، وكذلكَ ما يُلْهِمُ الملائكةُ بني آدمَ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَموا[8] أنَّ أحداً دَعاهُمْ[9] إلى ذلكَ، أو ألقاهُ في قلوبِهِمْ.

فهذا كُلُّهُ يَرُدُّ على مَنْ يُنْكِرُ الشيطانَ والملائكةَ، وهُمْ طائفةٌ مِنَ المُلْحِدَةِ؛ يقولونَ: إنَّ الشَّهواتِ والأمانِيَّ التي جُعِلَتْ في أنفسِهِمْ هي التي تَحُثُّهُمْ[10]، وتُهَيِّجُهُمْ على ذلكَ لا الشيطانُ. فيُقالُ لهمْ: إنَّ الإنسانَ قد ينالُهُ أشياءُ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهُ تَفَكُّرٌ في ذلكَ أو أمانِيُّ أو سابِقُ تدبيرٍ، فذلكَ يَدُلُّ أنَّ غَيراً ألقَى ذلكَ في قلبِهِ، وقَذَفَهُ[11] لا عملَ الأمانِيِّ والشَّهَواتِ، وهذا أيضاً يدلُّ على لُطْفِ اللهِ في البَشَرِ أنهُ يوفِّقُهُمْ على الطاعاتِ، ويَحُثُّهُمْ عليها مِنْ غَيرِ أنْ [يَعْلَموا أنَّ لِغَيرٍ][12] في ذلكَ صُنْعاً. وكذلكَ الخِذْلانُ في المعاصي وأنواعِ الأجرامِ التي يَكْتَسِبونَها.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي النَّحْلِ وغيرِها مِنَ البهائِمِ وجهَينِ:

أحَدُهما: يَحْتَمِلُ أنهُ أنْشأ هذهِ البهائمَ على طَبائِعَ تَعْرِفُ بالطبعِ مَصالِحَها ومَهالِكَها ومَعاشَها وما بهِ قِوامُ أبدانِها وأنفُسِها وما بهِ فَسادُها وصَلاحُها مِنْ غَيرِ أنْ تَعْلَمَ أنَّ أحداً يَدْعوها[13] إلى ذلكَ أو يشيرُ إليها أو يأمُرُ، ويَنْهَى. لكنها[14] بالطبعِ تَعْرِفُ ذلكَ، وتَعْلَمُ [أشياءَ تَعْلَمُها][15] بالطبائِعِ مِنْ غَيرِ أنْ تَعْلَمَ أنَّ أحداً عَلَّمَها[16] ذلكَ مِنْ نَحْوِ الوَزِّ يَسْبَحُ في الماءِ بالطبعِ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ [أنهُ يَسْبَحُ][17]. وكذلكَ الطيرُ الذي يَطيرُ في الهواءِ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ بالطيرانِ. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ فَهْمُ هذهِ البهائِمِ وعِرْفانُها ما ذَكَرْنا مِنَ المَصالحِ والمَهالِكِ مِنْ غَيرِ أنْ تَعْلَمَ أنها تَعْرِفُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ خَلَقَ[18] هذهِ الأشياءَ بالذي تَفِقُ[19] على المُخاطباتِ والأمرِ والنَّهْيِ، وتَعْرِفُ[20] ذلكَ ما لا يَعْرِفُ مِثْلَهُ البَشَرُ.

ألَا تَرَى أنَّ البَشَرَ لا يَعْرِفُ المَهالِكَ والمَصالِحَ إلّا بالتَّعَلُّمِ؟ والبهائِمُ، وإنْ صَغُرَ [حَجْمُها، تَعْرِفُ ذلكَ][21] حتى تَتَوَقَّى المَهالِكَ، وتَرْغَبَ[22] في المَصالِحِ؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) وذلك في تفسير الآية: ٢١٩. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لما. (٥) من م، في الأصل: يحمل. (٦) من م، في الأصل: أو. (٧) في الأصل وم: ذلك. (٨) في الأصل وم: علموا. (٩) في الأصل وم: دعاه. (١٠) في الأصل وم: تبعثهم. (١١) في الأصل وم: وقذف. (١٢) في الأصل وم: علموا أن بغير. (١٣) في الأصل وم: يدعوهم. (١٤) في الأصل وم: لكنه. (١٥) في الأصل وم: من نحو أشياء يعلمن أشياء. (١٦) في الأصل وم: علمن. (١٧) في الأصل وم: تسبيح. (١٨) في الأصل وم: خلقه. (١٩) في الأصل وم: يقفون. (٢٠) في الأصل وم: ويعرفون. (٢١) في الأصل وم: ذلك تعرف. (٢٢) في الأصل وم: وترغيب.

وممّا يدلُّ أنَّ هذهِ الأشياءَ ممَّا تَفهَمُ الأمرَ والنَّهيَ والمخاطباتِ قولُهُ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠ و٢١].

ألَا تَرى أنهمْ فهِموا الخِطابَ حينَ[1] رَدُّوا عليهِمُ الجوابَ بقولِهِ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾؟ فذلكَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، الوحيُ والقَذْفُ لكلِّ البهائِمِ لا النَّحْلِ خاصّةً لِمَا ذَكَرْنا مِنْ مَعْرِفَتِها المَهالِكَ والمَصالِحَ وما بِهِ مَعاشُها وغِذاؤُها [وما بِهِ][2] فَسادُها وهَلاكُها حتى تَعْرِفَ[3] ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ تَعْلَمَ.

والبَشَرُ لا يَعْرِفُ إلّا بالتَّعَلُّمِ، فهو، واللهُ أعلَمُ، لِوَجهَينِ:

أحَدُهما: لِلْمِحْنَةِ: إنَّ البَشَرَ امْتُحِنوا بالتَّعْليمِ، فذلكَ امْتِحانٌ لهمْ. والبهائمُ لا مِحْنَةَ عليهِمْ، فَعَرَفوا ذلكَ على غيرِ تَعَلُّمٍ.

والثاني:[4] : كانَ لِلْبَشَرِ فَضْلُ بَعْضٍ على بَعْضٍ في العِلْمِ بالتَّعَلُّمِ؛ إذِ البهائمُ يَسْتوي صغيرُها وكبيرُها في مَعْرِفَةِ ذلكَ. وفي بني آدمَ [التَّفاضُلُ والتَّفاوُتُ][5] بالتَّعَلُّمِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: فإذا كانَ البهائمُ كلُّها مُشْتَرِكَةً في ذلكَ الإلهامِ والوَحْيِ فما مَعْنَى تَخْصيصِ النَّحْلِ في الذِّكْرِ مِنْ غيرِها مِنَ البهائِمِ؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ تَخْصيصُ النَّحْلِ بالذِّكْرِ، واللهُ أعلَمُ/ ٢٨٨ ـ أ/ لِما أنَّ هذهِ الأشياءَ غيرُ النَّحْلِ، لا تُعْطي تلكَ المَنافِعَ التي جُعِلَتْ فيها، ولا تَبْذُلُ لِلْبَشَرِ إلّا بالرياضةِ. والنَّحْلُ تُعْطي ذلكَ لهمْ، وتَبْذُلُ مِنْ غيرِ تَعَلُّمٍ ولا رياضةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وقولُهُ: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [ونَحْوُهما، ظاهِرُهُ أمْرٌ][6] لكنَّ حقيقَتَهُ تَمْكينٌ وتَسهيلٌ نَحْوُ قولِهِ: ﴿سِيرُوا۟ فِى﴾ كذا في الظاهرِ أمْرٌ، وفي[7] الحقيقةِ تمكينٌ وتَيسيرٌ.

ثم في هذهِ الآيةِ وفي قولِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ وفي ما سَبَقَ مِنَ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦] وفي قولِهِ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] دلالةُ قُدْرَتِهِ على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شيءٍ ودلالةُ علمِهِ وتدبيرِهِ، لأنهُ أخْرَجَ مِنْ هذهِ الجواهِرِ المُخْتَلِفَةِ أشياءَ مِنْ غيرِ جوهَرِها وجِنْسِها ما لم يَكُنْ شيءٌ ممَّا أكلَ منها هذهِ البهائمُ مِنَ الجواهِرِ التي أخْرَجَ منها، مِنْ نَحْوِ العَسَلِ الذي أخْرَجَ مِنَ الفواكِهِ التي أكَلَتْ واللَّبَنِ مِنَ العَلَفِ الذي أكَلَ والعصيرِ والسُّكَرِ والأعنابِ مِنَ الكرومِ، إذ ليسَ شيءٌ خَرَجَ منها مِنْ جِنْسِ ما أكِلَ ولا مِنْ جوهَرِ ما سُقِيَ.

دلَّ [أنها بِغَيرِ عِلْمٍ قادرةٌ][8] على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شَيءٍ ولا سببٍ.

وفيه دلالةُ عِلْمِهِ وتَدْبيرِهِ وحكمَتِهِ لأنَّ إنشاءَ ذلكَ اللبنِ في البطنِ على غَيرِ جَوهرِ ما تَناوَلَتْ ومِنْ خِلافِ لونِهِ في تلكَ الظلماتِ، دلَّ أنَّ عِلْمَهُ غيرُ مُقَدَّرٍ بِعِلْمِ الخَلْقِ وأنَّ حِكْمَتَهُ غيرُ مُقَدَّرَةٍ بِحِكْمَةِ الخَلْقِ، وكذلكَ قدرتُهُ غيرُ مُقَدَّرَةٍ بِقُدْرَةِ الخَلْقِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ قيلَ: طُرُقَ ربِّكِ ﴿ذُلُلًا﴾ وقيلَ: مُطيعةً، وقيلَ: مِنَ الذُّلِّ أي الرِّفْقِ واللِّينِ كقولِهِ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقولِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ الآية [الحجر: ٨٨] [مِنَ الذُّلِّ][9] ومِنَ الرِّفْقِ واللينِ. وهذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ذَلَّلَتْ سُبُلَ رَبِّها [والثاني:][10] سَهُلَ السلوكُ فيها حتى تَسْلُكَ كيفَ شاءَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ قيلَ: ممَّا يَبْنونَ، ويُتَّخَذُ مِنَ العَرْشِ، وهو الذي يُتَّخَذُ مِنَ الخَشَبِ. وقولُهُ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: مما. (٣) في الأصل وم: يعرفن. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: يتفاضل ويتفاوت. (٦) في الأصل وم: ونحوه ظاهرة. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنه بغير علم قادر. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: و.

تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ قال الحَسَنُ: الشَّهْدُ والعَسَلُ. وقالَ[١] بعضُهُمْ: مُخْتَلِفٌ في الطَّعْمِ، وقيلَ: في الألوانِ: الأبيضِ والأحمرِ والأصفرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ مِنْ كلِّ داءٍ حتى القروحِ وكلِّ شيءٍ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ مِنْ داءٍ دونَ داءٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني في القرآنِ فيهِ شِفاءٌ لِلْقُلوبِ للدينِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [للأجسادِ][٢]. وإنْ أرادَ هذا فهو ظاهرٌ، لاشكَّ أنَّ فيهِ ذلكَ الشِّفاءَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ للدينِ. فإنْ كانَ هذا يَكُنْ ذلكَ مِنْ جهةِ النظرِ فيهِ، يُدْرَكُ، ويُوصَلُ إلى ذلكَ الشفاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ نوعِ ما تأكُلُ النحلُ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ جميعِ الثمراتِ التي تكونُ في الجبالِ. عنْ عبدِ اللهِ [أنَّه][٣] قالَ: القرآنُ والعَسَلُ هما الشِّفاءُ، إنَّ القرآنَ شِفاءُ الدينِ، والعَسَلَ شِفاءُ الأبدانِ.

وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ اللغةِ: إنَّ الوَحْيَ في كلامِ العَرَبِ على وجوهٍ: منها وَحْيُ النُّبُوَّةِ؛ فهو إرسالُ اللهِ الملائكةَ إلى أنبيائِهِ ورُسُلِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] ومنها وَحْيُ الإشارةِ كقولِهِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] ومنها وَحْيُ الإلهامِ، وهو قولُهُ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقولُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وقولُهُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] ونَحْوُهُ، ومنها وَحْيُ الإسرارِ كقولِهِ: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ أصلَ[٤] الوَحْيِ عندَنا، هو أنْ يُلْقِيَ الإنسانُ إلى صاحِبِهِ شيئاً لِلاسْتِتارِ والإخفاءِ، وقد يكونُ ذلكَ بالإيماءِ والخَطِّ. وأصلُ الوَحْيِ ما ذَكَرْنا أنهُ سُمِّيَ بهِ لِسُرْعَةِ وقوعِهِ وقَذْفِهِ في القَلْبِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ: تأويلُ الوحْيِ أنْ يُعْلِمَ الذي يُوحِي إليهِ، ويُرْشِدَهُ. وذلكَ لِوَجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنَّ اللهَ أرْشَدَ كلَّ دابَّةٍ سِوَى الإنسانِ إلى مَصْلَحَتِها والهَرَبِ عنْ مَهْلَكِها ومَتْلَفِها بما فَطَرَها اللهُ عليهِ كما أرْشَدَ الإنسانَ إلى ما يُصْلِحُهُ في دينِهِ ودنياهُ بالتعليمِ. فَمَثَّلَ اللهُ تعالى تَعْليمَهُ لِكلِّ دابَّةٍ ما فيهِ مَصْلَحَتُها ومَفْسَدَتُها بما دَبَّرها عليهِ كما عَلَّمَ الإنسانَ بالقولِ والبَيانِ، فقالَ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] أي أرْشَدَها، ودَلَّها بِفِطْرَتِها ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ بيوتاً فيها ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني واتَّخِذي ممَّا يبني الإنسانُ لِمَسْكَنِهِ[٥]، وقالَ: العَريشُ الحيطانُ التي لا سَماءَ لها، بِفِطْرَتِها تَتَّخِذُ خلاياها، وكلُّ[٦] ذلكَ لِمَنافِعِ الخَلْقِ.

[والثاني][٧]: ثم قال: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والثمراتُ مُخْتَلِفَةُ الطَّعْمِ والمَنْظَرِ والمَشَمِّ ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ وهو ما سَبَّلَ اللهُ لها مِنَ الرزقِ والمأوَى ﴿ذُلُلًا﴾ قالَ: يَقولُ[٨]: ذَلَّلَ لكِ كلَّ شيءٍ [قَدَّرَهُ لرزقِكِ ومَسْلَكِكِ، وذَلَّلَكِ في طَلَبِ ما سَبَّلَ لكِ لبني آدمَ، وجَعَلَهُ[٩] سَبباً لِمنافِعِهِمْ، وصَغَّرَ قَدْرَكِ لِيُرِيَهُمْ بذلكَ قدرتَهُ وسُلْطانَهُ على ما شاءَ لِيَعْلَموا أنَّ خالِقَهُمْ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ][١٠] وأنهُ القديرُ على ما يَعِدُهُمْ مِنَ البَعْثِ والثوابِ والعِقابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يقولُ: الجِنْسُ واحدٌ، ثم هو ضُروبٌ كالألوانِ: التمرِ والعِنَبِ وسائرِ الثمارِ في مذاقِهِ ومَشامِّهِ ومَنْظَرِهِ، وكلُّهُ عَسَلٌ ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ لِمنافِعِهِمْ ومَلاذِّهِمْ، [وفيهِ ما][١١] أدّاهُ مِنْ قدرتِهِ على ما يَشاءُ؛ مِنْ ذلكَ فيه شِفاءٌ في الدينِ والعِلْمِ، يَعْلَمونَ بما يُشاهِدونَ مِنْ تدبيرِ اللهِ وقدرتِهِ على ما بَيَّنّا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ يقولُ: لَعِبْرَةً ودليلاً وبُرْهاناً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ما يُشاهِدونَ مِنْ تدبيرِ اللهِ وتقديرِهِ وقدرتِهِ على ما يَشاءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ في قولِهِ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ [النحل: ٦٧] يقولُ: ولَكُمْ عِبْرَةٌ ودليلٌ أنَّ النَّخْلَ أجْذاعُ[١٢] خَشَبٍ، لا

---

(١) في الأصل وم: يحتمل قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فيكون. (٤) من م، في الأصل: وصل. (٥) في الأصل وم: لمسكنهم. (٦) في الأصل وم: وفي كل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٩) في الأصل: وجعلها. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: وفيما. (١٢) في م: أجذع.

طَعْمَ فيها [والكرومَ أيضاً، وما فيهما][1] مِنْ سَعَفٍ وَوَرَقٍ، لا عَسَلَ فيها، ولا عِنَبَ. فأخرَجَ اللهُ عنهما ثَمَراتٍ مُختَلِفاتٍ، فيها[2] عَسَلٌ، وفيها[3] تَمْرٌ وزبيبٌ، وتَتَّخِذونَ منهُ ما تَلَذَّذونَ مِنَ الشرابِ.

وقالَ هذا قبلَ تحريمِ الخَمْرِ. والسَّكَرُ كلُّ ما أسْكَرَهُمْ، وتَتَّخِذونَ منهُ أيضاً رِزْقاً حَسَناً أي طَيِّباً، وهو ما تأكلونَ منها سِوَى ما تَشْرَبونَ، وتَكْسَبونَ بها أموالاً كثيرةً، مَنَّ اللهُ بِهِ عليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: السَّكَرُ: كلُّ شيءٍ حَرَّمَهُ اللهُ مِنْ ثِمارِها مِنَ الشرابِ: الخمرُ مِنَ العِنَبِ، والسَّكَرُ مِنَ التَّمْرِ. والرزقُ الحَسَنُ ما أحَلَّ مِنْ ثِمَرِها: الزبيبُ والتَّمْرُ والنبيذُ، وقالَ: السَّكَرُ ما أسْكَرَ، والرزقُ الحَسَنُ أشباهُهُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ودَليلاً وبَياناً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَيَتَنَبَّهونَ[4]، فَيَعْلَمونَ أنَّ الذي لم يَعْجِزْ عَمَّا خَلَقَ لهمْ مِنَ الثمارِ مِنْ خَشَبٍ يابسٍ يَقْدِرُ أنْ يُحْيِيَ المَوْتَى، ويَخْلُقَ ما يَشاءُ وما عَرَفَهُ الخَلْقَ أنهُ يكونُ مِنَ النُّطفَةِ الوَلَدُ ومِنَ الماءِ والأشجارِ الفواكِهُ ومِنَ العَلَفِ اللبنُ وغَيرُ ذلكَ مِنَ الحوادثِ التي تَحْدُثُ مِنَ الأشياءِ، وتلكَ أسبابُها ما لم يُدْرَكْ كونُ تلكَ الأشياءِ فيها [ولا يُرى، ولا][5] يُعْرَفُ ذلكَ إلّا بِتعليمِ مَنْ هو عالمٌ بذاتِهِ، لأنَّ عِلْمَ ذلكَ لو [ما][6] كانَ بِتَعْليمٍ، لو اجْتَهَدوا كلَّ اجتِهادٍ[7]، لم يُدرِكوا حدوثَ تلكَ الأشياءِ مِمَّا ذَكَرْنا ولا كَونَها منها.

دَلَّ أنَّ الذي عَلَّمَهُمْ، هو عالمٌ بذاتِهِ. فإذا ثَبَتَ كونُهُ عالماً[8] بذاتِهِ، وإنْ كانوا لم يُشاهدوا إلّا عالماً بِغَيرٍ. فَعَلَى ذلكَ هو قادرٌ على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شيءٍ، وإنْ كانوا لم يُعايِنوا في الشاهِدِ شيئاً إلّا مِنْ شيءٍ.

وفيهِ أنَّ ما يَحْدُثُ، ويكونُ مِنَ اللَّبَنِ بالعَلَفِ الذي يُؤكَلُ، أو الطعامِ الذي يُتَناوَلُ، أو الفواكِهِ والثمارِ التي تَخْرُجُ، ليسَ تكونُ بِنَفْسِ الماءِ أو بِنَفْسِ الطعامِ والعَلَفِ، ولكنْ باللُّطفِ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنهُ قد يَسْقي ذلكَ الماءُ الشجرَ والنخلَ في حالٍ ثُمَّ لا يكونُ فيه الثَّمَرُ، وكذلكَ الدوابُّ تُعْلَفُ في حالٍ لا يكونُ ذلكَ منهُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ/ ٢٨٨ ـ ب/ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فإنْ قيلَ لنا: مِنَّةٌ لهُ علينا في ذِكرِ خَلْقِنا ثم تَوَفِّيهِ إيَّانا ورَدِّنا[9] إلى الحالِ التي هي[10] حالُ الجهلِ حتى [لا][11] تَعْلَمَ شيئاً. قيلَ: ذِكْرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ[12] وجوهاً:

أحَدُها: يُذَكِّرُهُمْ أنهُ هو الذي ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ثم هو يَمْلِكُ رَدَّكُمْ إلى الحالِ التي لا تَعْلَمونَ شيئاً، وفي مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ تَتَقَلَّبُونَ. فكيفَ عَبَدْتُمُ الأصنامَ والأوثانَ التي لا تَمْلِكُ[13] شيئاً مِنْ ذلكَ، وأشْرَكْتُموها في ألوهِيَّتِهِ وعبادَتِهِ؟

والثاني[14]: يَذْكُرُ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَكُنِ المَقصودُ بِخَلْقِهِمُ الفَناءَ، لكنْ لأمرٍ آخَرَ، قَصَدَ بِخَلْقِهِمْ، هو[15] ما ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ وتَسْخيرِ ما ذَكَرَ لهمْ مِنَ الأغذيةِ والنِّعَمِ التي أنْشَأَ لهمْ والأشياءِ التي سَخَّرَها لهمْ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: قولُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وكُنْتُمْ نُطَفاً أمواتاً، فأحياكُمْ ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أطفالاً وشيوخاً ﴿وَمِنكُم مَّن﴾ يُعَمَّرُ ﴿إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يقولُ: يَرُدُّهُ بَعْدَ قُوَّةٍ وعِلْمٍ وتدبيرِ الأمورِ إلى الخَرَفِ والجَهْلِ بَعْدَ العِلْمِ لِيَتَبَيَّنَ لِخَلْقِهِ أنَّ العُمْرَ والرزقَ ليسَ بهما رُبِّيَ، وقَوِيَ، لأنهما ثابتانِ، ثم يُبْلَى، ويَفْنَى بهما، ويَرْجِعُ إلى الجَهْلِ، ولكنْ بِلُطْفٍ مِنَ اللهِ وتدبيرٍ منهُ لا بالأغذيةِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بما دَبَّرَ في خَلْقِهِ مِمَّا يُدْرِكونَ بِهِ قدرَةَ خالِقِهِمْ وتَصْريفَهُ الأمورَ بما يكونونَ بِهِ حُكَماءَ وعُلَماءَ. إنَّ الذي دَبَّرَها حكيمٌ ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما شاءَ.

والحكمةُ في ما ذَكَرَ مِنْ تفريقِ الآجالِ [لأمْرَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم. فيه. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) في الأصل وم: ما ينبهون. (٥) في الأصل: ولا يدرى لا، في م: ولا يرى لا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: جهد هو. (٨) في الأصل وم: بعالم. (٩) في الأصل وم: ورده لنا. (١٠) في الأصل وم: وهي. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: هذا. (١٣) في الأصل وم: تملكون. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: وهو.

أحدُهما:](١) ليكونوا أبداً خائفِينَ راجِينَ، لأنهُ لو كانَتْ آجالُهُمْ واحدةً [لأمِنوا، وتَعاطَوْا](٢) المعاصيَ على أمْنٍ لِما يَعْلَمونَ وقْتَ نزولِ المَوتِ بهِمْ.

والثاني: لِيَعْلَموا أنَّ التدبيرَ في أنفسِهِمْ، ومُلْكَهُمْ لِغَيرِهِمْ لا لهمْ، لأنَّ للهِ التدبيرَ والأمْرَ، لو كانَ إليهِمْ لكانَ كلٌّ منهمْ يختارُ مِنَ الحالِ ما هو أقْوَى وآكَدُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: يَذْكُرُ هذا مُقابِلَ ما أشْرَكوا خَلْقَهُ وعبادَهُ في ألوهيَّتِهِ وعبادَتِهِ. يقولُ: ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ والأموالِ حتى بَلَغوا السَّادَةَ والمَوالِيَ، فلا تَرْضَونَ(٣) أنْ يكونَ عبيدُكُمْ ومماليكُكُمْ شُرَكاءَ في مُلْكِكُمْ وأموالِكُمْ فكيفَ تَرْضَونَ للهِ أنْ يكونَ عَبيدُهُ ومَماليكُهُ شُرَكاءَ؟ إلى هذا يَذْهَبُ أهْلُ التأويلِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ أغْنَى بَعْضَكُمْ، وأفْقَرَ بَعْضاً، وجَعَلَ منكُمْ أحراراً [ومنكُمْ](٤) عبيداً ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ بالغِنَى والمُلْكِ(٥) ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ مِنْ عبيدِهِمْ. فهمْ فيهِ سَواءٌ: أنْ يَسْتَوِيَ المَولَى وعَبْدُهُ في ما مَلَكَتْ يمينُهُ.

يقولُ: فليسَ أحدٌ منكُمْ يَرْضَى أنْ يكونَ عبدُهُ بِمَنْزِلَتِهِ في ما يَمْلِكُ سَواءً. فإذا رأيتُمْ أنْتُمْ ذلكَ نَقْصاً بكُمْ، لو فَعَلْتُمْ، فكيفَ زَعَمْتُمْ أنَّ اللهَ أشْرَكَ بَينَهُ وبَينَ أحجارٍ حتى أشْرَكْتُمْ وما مَلَّكَكُمُ اللهُ بَينَهُ وبَينَ الأوثانِ في العبادةِ وفي ما آتاكُمْ مِنْ رزقٍ، فَقُلْتُمْ: ﴿هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؟ [الأنعام: ١٣٦].

[وقولُهُ تعالى](٦): ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقولُ: أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ بأنفسِهِمْ وأرزاقِهِمْ وأموالِهِمْ وأولادِهِمْ، فأشْرَكوا غَيرَ اللهِ فيها، وجَحَدوا نِعْمَةَ اللهِ عليهِمْ؛ بها عَصَوا، وبها كَفَروا. ثم ألْزَمَهُمُ النَّظَرَ في الفَضْلِ الذي ذَكَرَ أنهُ فَضَّلَ بعضَهُمْ على بَعْضٍ إلى عَينِ الفَضْلِ الذي كانَ مِنَ اللهِ لا إلى الأسبابِ التي اكْتَسَبوها لِيَعْلَموا أنهمْ لم يَنالوا تلكَ الفضائِلَ باسْتِحقاقٍ منهمْ، ولكنْ إنما نالوا(٧) بِفَضْلٍ منهُ ورحْمَةٍ. فيكونُ ذلكَ دليلاً في ما أنْكَروا مِنْ أفضالِ اللهِ واخْتِصاصِهِ بعضَهُمْ على بَعْضٍ في الرِّزْقِ والسَّعَةِ والمُلْكِ والحُرِّيَّةِ والسُّلْطانِ، وإنْ كانوا جميعاً [مِنْ جنسٍ واحدٍ](٨).

فإذا لم تُنْكِروا هذا النوعَ مِنَ الفَضْلِ والاخْتِصاصِ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ فيكفَ أنْكَرتُمْ ذلكَ الفَضْلَ والإخْتِصاصَ بالرسالةِ مِنْ فَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ؟

فلذلكَ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]. أخْبَرَ بِرَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ يَنالُ ما يَنالُ مِنَ الرسالةِ وغَيرِها لا بالاِسْتِحْقاقِ والاسْتيجابِ [الذي](٩) كانَ منهمْ، أو يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ بأنهُمْ يأنفونَ أنْ يُشْرِكوا عَبيدَهُمْ ومَماليكَهُمْ في مُلْكِهِمْ وأموالِهِمْ، ولهمْ منهمْ منافِعُ مِنَ الخِدْمَةِ والإعانَةِ في الأمورِ، فما بالُهُمْ يُشْرِكون أحجاراً وخَشَباً، لا مَنْفَعَةَ لأحدٍ منهما في ألوهيَّةِ اللهِ ورُبوبِيَّتِهِ وفي عبادَتِهِ؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؟

وعلى تأويلِ النُّبُوَّةِ أفَبِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ يجْحَدونَ أنهُ لا يُفَضِّلُ بَعْضاً على بعضٍ بالرسالةِ، أو يَجْحَدونَ ما آتاهُمُ اللهُ مِنَ النِّعَمِ، فَيَصْرِفُونَ نِعَمَهُ إلى غَيرِهِ، وهي الأصنامُ التي عَبَدوها، فقالوا: ﴿وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] أو يَصْرِفونَ شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيرِهِ، وهي الأوثانُ التي عَبَدوها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: الحَفَدَةُ الخَدَمُ والمَماليكُ، فهو على التقديمِ على تأويلِ هؤلاءِ. يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ وخَدَماً مِنَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يامنون، ويتعاطون. (٢) في الأصل وم: ترضونه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والتمليك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قالوا. (٨) في الأصل وم: في الجنس. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنسِكُمْ، لأنهُ ذَكَرَ في ما تقدَّمَ: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الآية [النحل ٧١] يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ وفضلَهُ الذي ذَكَرَ أنهُ ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ من جنسِكُمْ ﴿أَزْوَاجًا﴾ وخَدَماً تَحتَ أيديهِمْ؛ يَسْتَمْتِعونَ بالأزواجِ، ويَسْتَخْدِمونَ الخَدَمَ والمماليكَ، وهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ وجَوهَرِهِمْ؛ يُذَكِّرُهُمْ فَضْلَهُ ومِنّتَهُ عليهِمْ.

أو يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ الآية [النحل: ٥٨] كانوا يأنفونَ منهنَّ، وقد جَعَلَ لكُمْ مِنَ البناتِ أزواجاً تَستَمْتِعونَ بِهِنَّ حتى لا تَصْبِروا عنهنَّ، وكذلكَ جَعَلَ لكُمْ مِنَ البناتِ البَنينَ الذينَ تَرْغَبُ أنفُسُكُمْ فيهِمْ، ما لولا البناتُ لم تَكُنْ لكمُ الأزواجُ اللاتي[1] تَستَمْتِعونَ بهنَّ، ولم يكُنْ لكمُ البنونُ الذينَ تَرْغَبونَ فيهِمْ والأنصارُ والأعوانُ والخَدَمُ الذينَ تَرْغَبونَ فيهِمْ.

يُبَيِّنُ، ويَذْكُرُ تناقُضَهُمْ في الأَنَفَةِ منهنَّ، يأنفونَ منهُنَّ، ومِنَ البناتِ يكونُ ما يَرْغَبونَ فيهِ[2]. فهذا يَدُلُّ أنَّ النساءَ يَصِرْنَ كالمُلْكِ للأزواجِ، ويَصِرْنَ تَحتَ أيديهِمْ في حَقِّ مُلْكِ الاستِمْتاعِ كالمَماليكِ في حقِّ مُلْكِ الرِّقابِ.

ثم جَعَلَ ﷻ التناسُلَ في الخَلْقِ على التفاريقِ وتَقَلُّبَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ يَتَقَلَّبُهُمْ أبداً كذلكَ لِيكونَ أذْكَرَ لِتَدْبيرِهِ وأنْظَرَ في آياتِهِ ودلالاتِهِ. ولو شاءَ لأنشأَ الخَلْقَ كلَّهُ بِمَرَّةٍ واحدةٍ، وأفناهُمْ بِدَفْعَةٍ واحدةٍ. وكذلكَ ما جَعَلَ لهمُ الأرزاقَ وأنواعَ النَّباتِ، لو شاءَ لأخرَجَ لهمْ ذلكَ كلَّهُ بِمَرَّةٍ واحدةٍ في وقتٍ واحدٍ، لكنهُ أنْشأَ لهمْ بالتفاريقِ لِيَذْكُرَ لهمُ النَّظَرَ في آياتِهِ وتَدْبيرَهُ لِيَكونَ ذلكَ أدْعَى إلى المَرْغوبِ وأحْذَرَ لِلْمَرْهوبِ وكذلكَ ما رُدِّدَ مِنَ الأنباءِ والقِصَصِ والمَواعيدِ وذِكْرِ الجنةِ والنارِ في القرآنِ في غَيرِ مَوضعٍ لِيَبْعَثَهُمْ، ويَحُثَّهُمْ على النَّظَرِ في آياتِهِ وتَدْبيرِهِ، ويُرَغِّبَهُمْ في كلِّ وقتٍ في المَرْغوبِ، ويُحَذِّرَهُمْ عن المَحْذورِ والمَرْهوبِ.

ثم قولُهُ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وقولُهُ[3] في آيةٍ أُخرَى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [التحريم: ٦] وقولُهُ[4]: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ونَحْوُهُ ذِكْرُ الأنفُسِ في كلِّهِ.

ثم لم يَفْهَمْ أهلُ الخِطابِ مِنْ هذا كلِّهِ/ ٢٨٩ ـ أ/ مَعْنًى واحداً وشيئاً واحداً، وإنْ كانَ في حَقِّ اللسانِ واللغةِ واحداً، وإنْ كانَ في كلٍّ غَيرُ ما فَهِموا في آخَرَ. فهذا يدلُّ أنهُ لا تُفْهَمُ الحِكْمَةُ والمَعْنَى في الخطابِ بِحَقِّ ظاهِرِ اللسانِ واللغةِ، ولكنْ بدليلِ الحِكْمَةِ المَجْعولةِ في الخطابِ. ومَنِ اعْتَقَدَ في الخِطابِ الظاهِرِ حَسَمَ بابَ طَلَبِ الحِكْمَةِ فيهِ والمَعْنَى، لأنهُ يَجعَلُ المُرادَ منهُ الظاهِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ هو ما ذَكَرْنا ﴿وَحَفَدَةً﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: الحَفَدَةُ: الأختانِ. ورُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: الحَفَدَةُ: وَلَدُ الوَلَدِ. وقالَ ابنُ مَسْعودٍ ﷺ: الحَفَدَةُ: الأختانِ. ورُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: الحَفَدَةُ الأصهارُ [والأصهارُ][5] والأختانِ عندَهُ واحدٌ. وقيلَ: الحَفَدَةُ الأعوانُ والأنصارُ. يَذْكُرُ لهمُ[6] التناقُضَ في ما يأنفونَ مِنَ البَناتِ، أنْ كيفَ يأنفونَ منهنَّ، ومنهنَّ يكونُ لهمُ[7] الأعوانُ والأنصارُ والأختانِ في أمْرِ الدنيا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَفَدَةُ بَنو البَنينَ، وقالَ أيضاً: الحَفَدَةُ الأعوانُ، والحافِدُ المُجْتَهِدُ في العِبادةِ وفي العَمَلِ؛ يقولُ: حَفَدَ يَحْفِدُ أي خَدَمَ واجْتَهَدَ. وقولُهُ: وإليكَ نَسْعَى، ونَحْفِدُ أي نَجْتَهِدُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الحَفَدَةُ الخَدَمُ والأعوانُ؛ يقالُ: هُمْ بُنونَ وخَدَمٌ، وقالَ: أَصْلُ الحَفَدَةِ مُدارَكَةُ الخَطْوِ، والإسراعُ في المَشْيِ، وإنما يَفْعَلُ ذلكَ الخَدَمُ، فقيلَ: هُمْ[8] حَفَدَةٌ [واحدُهُ حافِدٌ][9]، وقالَ: ومنهُ يُقالُ في دعاءِ الوِتْرِ: وإليكَ نَسْعَى، ونَحْفِدُ.

---

(١) في الأصل وم: التي. (٢) في الأصل وم: فيهن. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: هم. (٧) في الأصل وم: لكم. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) في الأصل وم: واحدها حافدة.

وقالَ أبو عُبيدَةَ: وأصْلُ الحَفْدِ العَمَلُ، وقالَ: ومنهُ الحَرْفُ في القُنوتِ: نَحْفِدُ، أي نَعْمَلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الطَّيِّباتُ الحَلالاتُ، وقالَ بعضُهُمْ: الطَّيِّباتُ أي كلُّ ما طابَ، ولانَ، ولَطُفَ. ورَزَقَ غيرَكُمْ مِنَ الدوابِّ والبهائِمِ كلَّ ما حَسُنَ. وحينَ[1] يَذْكُرُ لهمْ مِنَّتَهُ عليهِمْ ونِعْمَهُ عليهِمْ يَسْتأدي بذلكَ شُكْرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أبِالشَّيطانِ يُصَدِّقونَ، ويُجيبونَهُ إلى ما دَعاهُمْ مِنَ الأنَفَةِ مِنَ البناتِ ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي هذهِ البناتُ لكُمْ نِعْمَةٌ: فكيفَ تَكْفُرونَها؟ فقالَ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أبِالشَّيطانِ إلى ما دعاكُمْ ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي بمحمدٍ ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بالإسلامِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يقولُ: تُقِرُّونَ بأنكمْ عَبيدُ الأحجارِ، تَذِلُّونَ لها، وتَعْبُدونَها ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يقولُ: وبما أنْعَمَ اللهُ عَليكُمْ في أنفسِكُمْ وما خَوَّلَكُمْ وَرَزَقَكُمْ تَكْفُرونَ بِهِ، وكانَ الشكرُ أولَى بكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

فائدة: ذَكَرَ هذا لنا، واللهُ أعلَمُ، لئلاّ نَتْبَعَ بعضَ المخلوقينَ بأهوائِنا[2]، ولا نَكِلَ أمورَنا[3] إلى مَنْ نَعلَمُ أنهُ لا يَمْلِكُ ضَرًّا، فَنَعْبُدَهُ. يذكُرُ سَفَهَهُمْ مِنْ عبادَتِهِمْ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يَمْلِكُ شيئاً مِنَ النَّفْعِ والضَّرِّ والرزقِ [لئلا][4] نَعْمَلَ نحنُ مِثْلَ صَنيعِهِمْ بِمَنْ دونَ اللهِ مِنَ المَخلوقينَ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ قالَ الحَسَنُ: هو على التقديمِ، أي يَعْبدونَ مِنْ دونِ اللهِ شيئاً لا يَمْلِكُ لهمْ ما ذَكَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: يَعْبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لهمْ رزقاً مِنَ السمواتِ والأرضِ، ولا يَسْتطيعونَ شيئاً. وقالَ بعضُهُمْ: يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لهمْ رزقاً مِنَ السمواتِ والأرضِ ولا شيئاً.

الآية ٧٤ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي لا تَتَّخِذوا لِلّهِ أمثالاً مِنَ الخَلْقِ وأشباهاً في الوهيَّتِهِ وعبادَتِهِ، أو لا تقولوا للهِ: إنَّ لهُ أشباهاً وأمثالاً، أو يقولُ: فلا تَجْعَلوا للهِ أمثالاً، أو يقولُ: فلا تَجْعَلوا للهِ أمثالاً في العبادةِ وأشباهاً في تَسْمِيَتِها آلهةً على عِلْمٍ منكُمْ أنَّ[6] ما يكونُ لكُمْ إنما يكونُ باللهِ لا بالأصنامِ التي تَجْعَلونَها أمثالاً للهِ في العبادةِ والألوهيَّةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ [قولُهُ][7]: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي فلا تَضْرِبوا لأولياءِ اللهِ الأمثالَ، فإنهُ قد بَيَّنَ مَحَلَّ أوليائِهِمْ ومكانَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنْ لا مَثَلَ لهُ مِنَ الخَلْقِ ولا شِبْهَ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلكَ. أو إنَّ اللهَ يَعْلَمُ بمصالِحِكُمْ، وأنتمْ لا تَعْلَمونَ ما بِهِ صلاحُكُمْ وهلاكُكُمْ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ ضَرَبَ المثلَ بهذا مِنْ[8] وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنَّ مَنْ لا يَقْدِرُ، لا يَمْلِكُ أنْ يُنْفِقَ في الشاهدِ عندَكُمْ ليسَ كَمَنْ يَمْلِكُ، ويَقْدِرُ أنْ يُنْفِقَ، فهو كقولِهِ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦] وكقولِهِ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤] أي ليسَ يَسْتوي البَصيرُ والأعمى، والأصَمُّ والسميعُ. فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوي مَنْ يَمْلِكُ الإنفاقَ والإنعامَ على الخَلْقِ، وهو المَعْبودُ الحَقُّ، ومَنْ[9] لا يَمْلِكُ ذلكَ، وهو المَعْبودُ الباطِلُ.

والثاني: ضَرَبَ مَثَلَ المؤمنِ والكافرِ: إنَّ الكافرَ لا يُنْفِقُ ما أُنعِمَ عليهِ مِنَ المالِ في طاعةِ اللهِ [ولا في خيراتِهِ][10] والمؤمنُ يُنْفِقُ ما أُنعِمَ عليهِ، وأُعْطِيَ في طاعةِ اللهِ وخيراتِهِ. فَليسا بِسواءٍ: مَنْ أنْفَقَ في طاعةِ اللهِ كَمَنْ لا يُنْفِقُ شيئاً:

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: بأهوائها. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: بـ. (٩) في الأصل وم: كمن. (١٠) ساقطة من م.

أحَدُهما: يكونُ ضَرَبَ مَثَلَ الإلهِ الحَقِّ والمَعْبودِ الحقِّ بالمعبودِ الباطلِ.

والثاني: [يكونُ ضَرَبَ][(١)] مَثَلَ المؤمنِ بالكافرِ.

ثم في الآيةِ وجوهٌ مِنَ الدلائلِ.

أحَدُها: أنَّ القدرةَ لا تُفارِقُ الفِعْلَ حينَ[(٢)] قالَ: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ثم قالَ ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ جعَلَ مُقابِلَ الفِعْلِ القدرةَ. فلو كانتْ تُفارِقُ الفِعْلَ لكانَ ذَكَرَ مُقابِلَ القُدْرَةِ مِثْلَها [أو][(٣)] مُقابلَ الفِعْلِ فِعْلاً مثلَهُ. فلمَّا ذَكَرَ مُقابلَ القُدْرَةِ الفِعْلَ [دلَّ][(٤)] أنها لا تُفارِقُ الفِعْلَ.

والثاني[(٥)]: أنَّ العبدَ لا يَمْلِكُ حقيقةَ المُلْكِ حينَ[(٦)] ذَكَرَ ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وإنْ قَدَرَ ما يَمْلِكُ، إنما يَمْلِكُ بإذنِ مَنْ لهُ المُلْكُ. وكذلكَ الخلائقُ كُلُّهُمْ، لا يَمْلِكونَ حقيقةَ الإملاكِ، إنما حقيقةُ المُلْكِ في الأشياءِ للهِ، وإنْ قَدَرَ ما يَمْلِكونَ إنما يَمْلِكونَ بالإذنِ على قَدْرِ ما أُذِنَ لهمْ.

والثالثُ[(٧)]: أنَّ العبدَ لا يَمْلِكُ الإنفاقَ والتَّصدُّقَ حينَ[(٨)] قال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ثم قالَ في مَنْ يَمْلِكُ: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ﴾ دلَّ أنهُ لا يَمْلِكُ العَبْدُ الإنفاقَ والهِبَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ مَثَلاً ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ الحَمْدَ للهِ على إثْرِ ما ذَكَرَ أنهُ[(٩)] عَرَّفَ رسولَهُ النِّعَمَ وأنواعَ المَنافِعِ، ثم عَرَّفَهُ على إثْرِ ذلكَ الحَمْدَ. وقالَ بعضُهُمْ: الحَمْدُ ثناءٌ؛ أخبَرَ أنَّ أكثَرَهُمْ، لا يَعْلَمونَ [حَمْدَ اللهِ وثناءَهُ][(١٠)].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي مِنْ أوليائِنا أو مِنْ أولياءِ دينِنا، وذلكَ جائزٌ سائغٌ في اللغةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ نفيَ العِلْمِ عنهُمْ لِما لم يَنْتَفِعوا بِما عَلِموا، أو على حقيقةِ النَّفيِ لِما لم يَنْظُروا في الآياتِ والحُجَجِ، ولم يَتَأمَّلوا فيها، فلم يَعْلَموا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ. قالوا: هذا المَثَلُ كالأوَّلِ يَحْتَمِلُ الوجْهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرناهُما في الأوَّلِ.

أحَدُهما: المؤمنُ والكافرُ: شَبَّهَ الكافرَ بالمَمْلوكِ الأبكَمِ الذي﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ لا يأتي المَولَى بِخَيرٍ، ولا يَنْتَفِعُ بِهِ.

وشَبَّهَ المؤمنَ بالذي يأتي المَولَى بكلِّ خَيرٍ ونَفْعٍ؛ يقولُ: هلِ اسْتَوَى هذا معَ هذا عندَكُمْ؟ لا يَسْتَوِي.

فعلى ذلكَ لا يَسْتَوِي الكافرُ الذي لا يَعْمَلُ شيئاً مِنْ طاعةٍ، ولا يأتي بِخَيرٍ، والمُؤمِنُ الذي يَعْمَلُ كُلَّ طاعةِ اللهِ، ويأتي/ ٢٨٩ ـ ب/ بكلِّ خيرٍ، ويأمُرُ بكلِّ عدلٍ[(١١)].

والثاني: ضَرَبَ مَثَلَ الإلهِ المعبودِ الحَقِّ بالمعبودِ الباطِلِ بقولِهِ[(١٢)]: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ مَنْ أتاكُمْ بكلِّ نعمةٍ وكلِّ خيرٍ، ويأمرُ بكلِّ عَدْلٍ، ومَنْ[(١٣)] هو ﴿أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ولا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ، ولا يُجيبُ، وهو عِيالٌ على مَنْ يَعْبُدُهُ، ويَخْدِمُهُ. هَلْ يَسْتَوي هذا مَعَ ذلكَ؟ لا يَسْتَوِيانِ مَثَلاً البَتَّةَ.

غيرَ أنَّ المَثَلَ ههنا ضَرَبَ بالذي لا يَنْطِقُ بالحقِّ، ولا يأمُرُ بالعدلِ الذي يأمُرُ بالعدلِ. ذَكَرَ مُقابلَ الأبكمِ الذي لا يأمُرُ بالعدلِ.

وفي الأوَّلِ ضَرَبَ المثلَ الذي لا يَمْلِكُ الإنفاقَ بالذي يَمْلِكُ الإنفاقَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وفيه.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وفيه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لانه. (١٠) من م، في الأصل: حمد الله وثناء. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: ممن هو أبكم. (١٢) في الأصل وم: يقول. (١٣) في الأصل وم: ممن.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي هو على الحقّ المُستقيم، وهو المعبودُ بالحقّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الكَلُّ العِيالُ، وكذلكَ قالَ غَيرُهُ مِنْ أهلِ الأدبِ. وقالَ بعضُهُمْ: الكَلُّ الفَقِيرُ، وهو واحدٌ. والأبكَمُ الأخرَسُ، وهو الذي لا يَنْطِقُ البَتّةَ. وقالوا: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بالتوحيدِ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها][1]: ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ السؤالِ عَنِ الساعةِ وعَنْ وقتِها كقولِهِ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ﴾ لِوَقْتِ قِيامِها ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾ لا يَعْلَمُهُ غَيرُهُ.

والثاني: ولله علمُ ما غَيَّبَ أهلُ السمواتِ وأهلُ الأرضِ، أي ما غَيَّبَ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، فذلكَ ليسَ بِمُغَيَّبٍ عنِ اللهِ، بل ما غابَ عنِ الخَلْقِ وما ظَهَرَ لهمْ، فذلكَ لله كُلُّهُ ظاهرٌ بِمَحَلٍّ واحدٍ، وهو كقولِهِ: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩].

والثالثُ: قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي لهُ عِلْمُ ما في سِرِّيَّةِ هذهِ الأشياءِ الظاهرةِ ما لا سَبيلَ لِلْخَلْقِ إلى عِلْمِ ذلكَ، وإنْ كانوا هذهِ الأجسامَ والأشياءَ الظاهرةَ، وتَقَعُ حواسُّهُمْ عليها، لا يَعْلَمونَ ما سِرِّيَّتُها؟ مِنْ نَحْوِ الماءِ الذي بهِ حياةُ كلِّ شَيءٍ ونَحْوِ النُّطْفَةِ التي يُخلَقُ منها الإنسانُ، لا يَعْلَمونَ المَعْنى الذي بهِ يَصيرُ إنساناً. ومِنْ نَحْوِ السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ، يَعْلَمونَ، ويَرَونَ[2] ظواهرَ الحواسِّ، ولكنْ لا يُدْرِكونَ المَعْنى الذي بهِ يُسْمَعُ، وبهِ يُبْصَرُ، وبهِ يُعْقَلُ، ويُفْهَمُ.

[والرابعُ][3] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: [ولله عِلْمُ][4] ما غابَ عنِ الخَلْقِ ما في هذهِ الأشياءِ الظاهرةِ والأجسامِ المَرْئِيَّةِ، أوْ يقولُ: ولله مُلْكُ ما غابَ عنْ أهْلِ السمواتِ والأرضِ، ومُلْكُ ما لمْ يَغِبْ عنهُمْ، وظَهَرَ، فيكونُ كقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩] كأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ولله العِلْمُ الذي غُيِّبَ عنْ أهْلِ السمواتِ وأهْلِ الأرضِ، وهي الساعةُ، لم يُطْلِعْ عليها غَيرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أهْوَنُ على اللهِ وأيْسَرُ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ؛ إذْ ليسَ شَيءٌ أيْسَرَ وأهْوَنُ على الإنسانِ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ لأنهُ يَلْمَحُ بِبَصَرِهِ، فَيُبْصِرُ بهِ بِلَحْظَةٍ ما بَيْنَ الأرضِ والسماءِ، وهو مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ عامٍ.

يقولُ: مَنْ قَدَرَ أنْ يُنْشِئَ في خَلْقٍ مِنْ خَلائِقِهِ ما يُبْصِرُهُ بِلَمْحَةِ البَصَرِ مَسِيرَةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ [فهو قادرٌ][5] على إعادةِ الخَلْقِ وبَعْثِهِمْ بَعْدَ الفَناءِ، بل هو أقرَبُ؛ أي إعادتُهُ إياهُمْ أسْرَعُ وأقْرَبُ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ. إلى هذا يَذهَبُ الحَسَنُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي ما وَقْتُ قيامِ الساعةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَرِ ليسَ بَيْنَ وَقْتِ قِيامِها وبَيْنَ كونِها ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ لِما ليسَ شيءٌ عندَ الناسِ أسْرَعَ وأهْوَنَ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ لِما ذَكَرْنا أنهُ يُلْمَحُ، ولا يُشْعَرُ بهِ لِسُرْعَتِهِ ولِخِفَّتِهِ عليهِ. فَذَكَرَ هذا على التمثيلِ ليسَ على إرادةِ حقيقةِ الوقتِ بِقَدْرِ لِمَحِ البَصَرِ، ولكنْ على المُبالَغَةِ في السُّرْعَةِ، وذَكَرَ أقْصى ما يَقَعُ في الأوهامِ، ويُتَصَوَّرُ، مِنْ نَحْوِ ما قالَ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ و٨] وقالَ: ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] [وقال][6]: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧١] [وما قالَ:][7] ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٤] وأمثالُهُ كلُّهُ يُذْكَرُ على التمثيلِ، ليسَ على التحقيقِ؛ أي ما يَعْمَلْ مِنْ قليلٍ أو كثيرٍ يَرَهُ شَرًّا كانَ أو خيراً. وكذلكَ لا يُظْلَمونَ فتيلاً ونقيراً، أي لا يُظْلَمونَ شيئاً. وكذا ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ أي لا يَمْلِكونَ شيئاً، لأنَّ القِطْميرَ لا يُمْلَكُ. فإنما يُذْكَرُ لهذا وأمثالِهِ على التمثيلِ الذي ذَكَرْنا.

أو يكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ أي ليسَ ما بَيْنَ الساعةِ وبَيْنَكُمْ ممّا مَضى مِنَ الوَقْتِ إلاّ قَدْرَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويريدون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: لقادر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

البَصَرِ؛ أي لم يَبْقَ مِنْ وقتِ قيامِها مِمَّا مَضى إلّا ما ذَكَرَ مِنْ لَمحِ البَصَرِ أو أقْرَبَ مِمّا ذَكَرَ على الإسْتِقْصارِ لِما[1] بَقِيَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ على البَعْثِ والإعادةِ، على كلِّ شيءٍ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وظاهرُ الآيةِ يَنقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ لإنكارِهِمْ خَلْقَ أفعالِ العِبادِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وعلى قولِهِمْ هو غَيرُ قادرٍ على ألفِ ألفِ شيءٍ.

الآية ٧٨

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما[2]: يَذكُرُ بهذا قدرَتَهُ وسُلْطانَهُ على ما سَبَقَ مِنْ سُرْعَةِ القِيامَةِ والعِلْمِ بها والحِكْمَةِ التي جَعَلَ في البَعْثِ، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ خَلَقَ الوَلَدَ في ظُلماتٍ ثَلاثٍ، وجَعَلَ غِذاءَهُ بِغِذاءِ الأُمَّهاتِ وبِقِواهُنَّ ثم تَقَلُّبَهُ في تلكَ الظلماتِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ ما لَوِاجْتَهَدَ الخلائقُ أنْ يَعْلَموا اغْتِذاءَهُ بِغِذاءِ الأُمَّهاتِ وتَقَلُّبَهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ ومِنْ جَوهَرٍ إلى جوهرٍ لَما قَدَروا على ذلكَ.

فَيَدُلُّ هذا على أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا، وعَلِمَ هذا في تلكَ الظلماتِ قَدَرَ على البَعْثِ وإعادةِ الخَلْقِ بَعْدَ الفناءِ، وعَلِمَ ما غابَ عنِ الخَلْقِ. ويُذَكِّرُنا نِعَمَهُ ومِنَّتَهُ علينا في بلوغِنا إلى الأحوالِ التي صِرْنا إليها بَعدَ ما كنَّا ما ذَكَرَ.

والثاني: يُذَكِّرُنا [أنّا كُنّا][3] بالحالِ التي ذَكَرَ لِنَعْلَمَ أنهُ صَيَّرَنا في البطونِ بِلا اسْتِعانَةٍ بأحدٍ منا ولا عَونٍ منهُ إلى أحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ فَمَنْ قَدَرَ على جَعْلِ السَّمْعِ حتى تُسْمَعَ الأصواتُ، ويُمَيَّزَ بَينَها، وَجَعْلِ[4] البَصَرِ والتَّمييزِ بينَ ألوانِ الأجسامِ والفؤادِ لِيُفْهَمَ، ويُعْقَلَ مالَهُ، وما عليهِ، ما لا يُدْرِكُ[5] مِنّةً ما بِهِ يَسْمَعونَ، ويُبْصِرونَ، ويَعْقِلونَ، وما بِهِ يُمَيِّزونَ بَينَ ما ذَكَرْنا. فَمَنْ قَدَرَ على [هذا كلِّهِ قَدَرَ على][6] إنشاءِ الخَلْقِ بَعْدَ الفَناءِ والإعادةِ بعدَ الموتِ.

ثم ذَكَرَ على إثْرِ قولِهِ ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ السَّمْعَ والبَصَرَ والأفئِدَةَ. فذلكَ يَدُلُّ على أنَّ هذهِ الأشياءَ مِنْ أسبابِ العِلْمِ بالأشياءِ، وبها يُوصَلُ إلى العِلْمِ بالأشياءِ. فَمَنْ أُعطِيَ أسبابَ العِلْمِ بالشيءِ فكأنَ قد أُعطِيَ لهُ العِلْمُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ هو حَرْفُ شَكٍّ في الظاهرِ؛ ذَكَرَهُ[7]، واللهُ أعلمُ، لأنه، لا كُلُّ الناسِ يَشْكُرونَ نِعَمَهُ، أو لكي يُلزِمَهُمُ الشكرَ.

الآية ٧٩

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ أي مَنْ قَدَرَ على إمساكِ الطيرِ، وهي أجسامٌ كَغَيرِها مِنَ الأجسامِ في الهواءِ بلا إعانَةٍ بالأسْفَلِ ولا تَعَلُّقٍ بِشَيءٍ مِنَ الأعلَى [فهو قادرٌ][8] على إنشاءِ الخَلْقِ وإعادَتِهِمْ بَعْدَ الفناءِ.

أو يقولُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى﴾ اللُّطفِ الذي جَعَلَ في الطَّيرِ والحِكْمَةِ التي أنشَأَ فيها حتى قَدَرَتْ على الإسْتِمْساكِ في الهواءِ والطَّيَرانِ في الجَوِّ ما لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائقُ جميعاً أنْ يُدْرِكوا[9] ذلكَ اللطفَ أوتلكَ الحِكْمَةَ ما قدروا على إدراكِهِ.

وفي ذلكَ نَقْضُ قولِ المَعْتَزِلَةِ، لأنَّ الطَّيَرانَ فِعْلُ الطَّيرِ. ثم إضافةُ[10] / ٢٩٠ ـ أ/ ذلكَ إلى اللهِ حينَ[11] قالَ: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ دَلَّ ذلكَ أنَّ للهِ في ذلكَ صُنْعاً وفِعْلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ جميعُ ما ذَكَرَ يكونُ آيةً لِمَنْ آمَنَ، لأنهُ هو المُنْتَفِعُ[12].

---

(١) في الأصل وم: مما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أنكم كنتم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يدركون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لقادر. (٩) في الأصل وم: يدركوه. (١٠) في الأصل وم: أضاف. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: المشفع.

قالَ أبو عَوسَجةَ: لَمْحُ البَصَرِ سُرعَةُ النَّظَرِ، وجَوُّ السماءِ هواؤُها، ويُقالُ: بَطْنُ السماءِ، ويُقالُ: جَوفُ السماءِ، ويُقالُ: الجَوُّ ما اطْمَأَنَّ مِنَ الأرضِ، والأولُ أشْبَهُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ظاهِرُ هذا أنهُ قد جَعَلَ لَنا مِنَ البيوتِ أيضاً ما ليسَ بِسَكَنٍ، لأنهُ قالَ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ [النور: ٢٩] وهو كالمساجِدِ والرِّباطاتِ وغَيرِها.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِيَعْرِفوا عَظِيمَ مِنَنِهِ ونِعَمِهِ حينَ[1] جَعَلَ الأرضَ بِمَحَلٍّ، يَقِرُّونَ عليها، ويُمَكِّنُ لهمُ المُقامَ بها بالرواسي التي ذَكَرَ أنهُ أثْبَتَها[2] فيها بَعْدَ ما كادَتْ تَميدُ بهِمْ، ولا [يَقِرُّونَ عليها][3].

أخْبَرَ أنهُ [جَعَلَ][4] فيها رواسِيَ، أو أنْ يكونَ ﴿مِّنۢ﴾ حَرْفَ صِلَةٍ، أي جَعَلَ لكمْ بيوتاً تَسْكُنونَ فيها.

ثم قولُهُ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي سَخَّرَ الأرضَ حتّى قَدَرْتُمْ على اتِّخاذِ المَساكِنِ فيها، تَسْكُنونَ فيها.

والثاني:[5] : جَعَلَ لكُمْ بيوتاً أي عَلَّمَكُمْ[6] ما تَبْنونَ فيها مِنَ البُيوتِ، ما لولا تَعْليمُهُ إياكُمْ ما تَقْدِرُونَ على بناءِ البيوتِ فيها، يَذْكُرُ مِنَّتَهُ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآياتِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ ونَحْوِهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ، لأنه ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ بيوتاً سَكَناً، والسَّكَنُ فِعْلُ العِبادِ. دَلَّ أنَّ لِلَّهِ في فِعْلِهِمْ صُنْعاً.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أي مِنْ صوفِها، لكنهُ أضافَها إلى الجلودِ لِما مِنَ الجلودِ يُخرَجُ [الصوفُ][8]، ومنها يُجَزُّ، ويُؤْخَذُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ وهو صوفُ الغَنَمِ ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ وهو صوفُ الإبلِ ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ ما يُخرَجُ مِنَ المَعْزِ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ قيلَ: لِيومِ سَفَرِكُمْ وسَيرِكُمْ ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ولِيومِ إقامَتِكُمْ.

قالَ [بَعْضُ أهلِ التأويلِ][10]: في المِصْرِ، وقالَ بعضُهُمْ: في السَّفَرِ حينَ النُّزولِ.

والجَعْلُ في هذا يَحْتَمِلُ الوَجْهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾

أحَدُهُما: على التَّخْيِيرِ لهمْ.

والثاني: على التعليمِ. ذَكَرَ ﷺ في البيوتِ المُتَّخَذَةِ مِنَ المَدَرِ السُّكْنى حينَ[11] قالَ: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، ولم يَذْكُرْ في البيوتِ المُتَّخَذَةِ مِنَ الجُلودِ والأوبارِ والأشعارِ. فكأنهُ تَرَكَ ذِكْرَهُ في هذا لِذِكْرِهِ في الأوَّلِ ذِكْرَ تَصْريحٍ، وذَكَرَ في الثاني: ذِكْرَ دلالةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَثَٰثًا﴾ قيلَ: الأثاثُ والرِّياشُ واحدٌ، وهو المالُ، وقيلَ: ما يُتَّخَذُ مِنَ الثيابِ والأمتعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى وقتِ يَبْلَى ذلكَ الأثاثُ، أو ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وَقْتِ فَنائِهِمْ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ لا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ظِلَٰلًا﴾ البيوتَ التي ذَكَرَ، وهي تَظَلُّهُمْ، ويَحْتَمِلُ الأشجارَ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ وهي الغيرانُ والبُيوتُ التي تُتَّخَذُ في الجِبالِ لِتَقِيهِمْ عنِ الحَرِّ والبَرْدِ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ قيلَ: القُمُصُ والدروعُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: أثبت. (٣) في الأصل وم: تقربها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) أدرج بعدها في م: تسكنون فيها ثم قوله ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل بعض، في م: بعضهم. (١١) في الأصل وم: حيث.

ثم ذَكَرَ أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ البيوتِ والأكنانِ والسرابيلِ ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وتَقِيكُمْ أيضاً بأسَ العَدُوِّ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ذَكَرَ أنها تقي مِنَ الحَرِّ والبَرْدِ جميعاً. فكانَ في ذِكْرِ أحدِهِما ذِكْرُ الآخرِ ذِكْرَ كِفايَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ لِيُلْزِمَهُمُ الإسلامَ أو حُجَّتَهُ. ثم تَحْتَمِلُ النِّعْمَةُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ويَحْتَمِلُ الرسولَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ جميعُ ما ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ والآياتِ في هذهِ السورةِ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها إنما ذَكَرَهُ[1] لهذا الحَرْفِ، وهو قولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ وما ذَكَرَ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤ و٧٨] وذَكَرَ[2] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥] تَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الأحْرُفُ كُلُّها واحداً. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ مَعْنًى غيرَ الآخرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عنِ الإجابةِ لكَ وعمَّا تَدعوهُمْ إليهِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليسَ عليكَ [إجابَتُهُمْ، إنما عليكَ][3] التبليغُ إليهِمْ والبَيانُ لهُمْ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ تَحْتَمِلُ النِّعْمَةُ ههنا محمداً ﷺ كانوا ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦ والأنعام: ٢٠] وما ذَكَرَ ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويَحْتَمِلُ ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ يَعْرِفونَ نِعْمَةَ اللهِ وما ذَكَرَ عَرَفوها أنها مِنَ اللهِ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ وصرفِهِمْ شُكْرَها إلى غَيرِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] مَعَ ما يَعْرِفونَ أنَّ اللهَ هو خالِقُهُمْ، وأنَّ ما لهمْ كُلَّهُ مِنْ عندِ اللهِ، يَعْبُدونَ الأصنامَ، فتكونُ عبادتُهُمْ دونَ اللهِ كُفْرانَ نِعْمَةِ اللهِ.

وقال أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ يومَ سَيرِكُمْ، ظَعَنَ يَظْعَنُ سارَ، والسرابيلُ: القُمُصُ، يقولُ: ﴿تَقِيكُمُ﴾ أي تَسْتُرُكُمْ.

وقال القُتَبِيُّ: ﴿ظِلَٰلًا﴾ أي ظِلالَ الشَّجَرِ والجبالِ، وقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، في قَومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ يؤمنونَ بِما ذَكَرَ لهمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ والأفضالِ، لِيُعْلَمَ أنَّ الإسلامَ مِنْ أعظَمِ نِعَمِ اللهِ، لا يَنالُهُ أحَدٌ إلاّ بِنِعْمَتِهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: سُمِّيَتْ سورةُ النحلِ سورةَ النِّعَمِ لِما فيها مِنْ ذِكْرِ النِّعَمِ وأنواعِ مَنافِعِ الخَلْقِ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: شَهيدُها أنْ يَشْهَدَ عليهِمْ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنْ شهادَةِ جَوارِحِهِمْ عليهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآية [النور: ٢٤] وقولُهُ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ الآية [فصلت: ٢٠] وقولُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ الشهادةِ عليهِمْ عندَ إنكارِهِمْ أعمالَهُمُ التي عَمِلوها.

وقالَ بعضُهُمْ: شهيدُها رسولُها الذي بُعِثَ إليهِمْ، يَشْهَدُ عليهِمْ أنهُ قد بَلَّغَ إليهِمْ رسالاتِ ربِّهِمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] والنذيرُ، هو الرسولُ المَبْعوثُ إليهِمْ، وهو ما ذَكَرَ أيضاً: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ١٤١] وكقولِهِ[4]: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩].

أخبَرَ أنه يَجيءُ بمحمدٍ ﷺ شَهيداً على أولئكَ، وأنَّ[5] الرسلَ قد بَلَّغوا الرسالةَ إليهِمْ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم.

أُرسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وقولُهُ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ الآية [المائدة: ١٠٩] وقولُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [فصلت: ٤٧] يسألُ الرسلَ عَنْ تبليغِ الرسالةِ إلى قومِهِمْ، ويسألُ قومَهُمْ عمَّا أجابوا الرُّسُلَ. إلى هذا يَذْهَبُ بعضُ أهلِ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

وجميعُ(١) ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنْ مَجيئِهِ وإنبائِهِ ونَحْوِهِ جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ البَعْثَ. تفسيرُ ذلكَ كلِّهِ قولُهُ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ كذا. مِنْ ذلكَ قولُهُ(٢): ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢] [وقولُهُ](٣): ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقولُهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] فهو البَعْثُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قالَ الحَسَنُ: لا يُؤْذَنُ لهمْ بالاعْتِذارِ، لأنهُ لا عُذْرَ لهمْ، وهو ما قالَ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ و٣٦] لأنهُ، لا عُذْرَ لهمْ، واعْتِذارُهُمْ لا يَنْفَعُ لهمْ شيئاً؛ إذِ اعْتِذارُهُمْ مِنْ نَحْوِ قولِهِمْ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] ونَحْوِ هذا ممَّا لا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ، فلا يُؤْذَنُ لهمْ لِذلكَ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قالَ الحَسَنُ: ولا هُمْ يُقالونَ. وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]. أي مِنَ المُقالِينَ، لا يُقالونَ عمَّا كانَ منهُمْ. وقالَ/ ٢٩٠ ـ ب/ بعضُهُمْ: لا يُؤْذَنُ، ولا يُمَكَّنُ لهمْ مِنَ التوبةِ والرجوعِ عمَّا كانوا، لأنَّ ذلكَ الوقتَ ليسَ، هو وَقْتُ التوبةِ والرجوعِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤] وقولِهِ(٤): ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر: ٨٥] ونَحْوَهُ.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ العِتابُ في الخَلْقِ، هو تَذْكيرُ ما كانَ مِنَ الفَرْطِ لِيَرْجِعَ عمَّا كانَ منهُ، وذلكَ في الآخِرةِ، لا يُحْتَمَلُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لا يُؤْذَنُ لهمْ بالكلامِ كقولِهِ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أو لا يُؤْذَنُ لِلشُّفَعاءِ أنْ يَشْفَعوا للذينَ كَفَروا، ويُؤْذَنُ لِلشُّفعاءِ أنْ يَشْفَعوا للمؤمنينَ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي وقَعوا فيهِ. دليلُهُ ما ذَكَرَ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ [في وجهَينِ: أحَدُهما:](٦) دلَّ هذا [أنهُ](٧) لم يُرِدْ بهِ رُؤْيَةَ العذابِ، ولكنَّ الوقوعَ فيهِ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ لأنهُ يَدومُ، ولا تخفيفَ ممَّا يَدومُ مِنَ العذابِ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يُمْهَلُونَ مِنَ العذابِ.

والثاني: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ بما(٨) اسْتَخَفُّوا، واسْتَحَقُّوا، واسْتَوْجَبُوا. أو [ما](٩) ذَكَرْنا أنهُ لا يكون لعذابِهِمُ انْقِطاعٌ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي قُرَناءَهُمْ وأولياءَهُمْ مِنَ الشياطِينِ كقولِهِ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وكقولِهِ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ الآية [فصلت: ٢٥] وكقولِهِ(١٠) ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وكقولِهِ(١١): ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ الآية [الأنعام: ٢٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ أولياءَهُمُ [الذينَ](١٢) كانوا لهمْ في الدنيا، فهمْ شُرَكاؤُهُمُ الذينَ(١٣) ذَكَرَ، وقولُهُمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ على هذا التأويلِ؛ كنا نَدْعوكَ وإياهُمْ ﴿مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي يقولون لهمْ ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ(١٤): ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ الأصنامُ التي عَبَدوها ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي يُكَذِّبونَهُمْ. وهو ما ذَكَرَ: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] يُكَذِّبونَهُمْ في ما قالوا، ويُخْبِرونَ أنهمْ كانوا غافِلِينَ عَنْ عِبادَتِهِمْ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عما. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وقوله.
(١١) في الأصل وم: وقوله. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: الذي. (١٤) في الأصل وم: قولهم.

وقالَ بعضُهُمْ: [قولُهُ][1]: ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ الملائكةُ الذينَ عَبَدوهُمْ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[2] ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠ و٤١].

أخبَروا أنهمْ إنما عَبَدوا الجِنَّ بأمْرِهم، ولم يَعْبُدوهُمْ. أو يكونُ شُرَكاؤُهُمْ رؤساءَهُمُ الذينَ انقادَ الأتباعُ لهمْ، ويَحْتَمِلُ الأصنامَ وما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا؛ يقولونَ لهمْ: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي يُكَذِّبونَهُمْ في ما يَزْعُمونَ، ويَدَّعونَ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ أي يَخْضَعونَ كلُّهُمْ للهِ يومئذٍ، ويُخْلِصُونَ لهُ الدينَ، ويُسَلِّمونَ لهُ الأمْرَ والألوهِيَّةَ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي بَطَلَ عنهُمْ ما طَمِعُوا بعبادتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ التي عَبَدوها مِنَ الشَّفاعةِ وغَيرِها كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] بَطَلَ عنهُمْ ما طَمِعوا، ورَجَوا مِنْ عبادةِ أولئكَ مِنَ الشفاعةِ لهمْ والقُرْبةِ إلى اللهِ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هؤلاءِ كانوا رؤساءَ الكَفَرَةِ وقادَتَهُمْ، ضَلُّوا همْ بأنفُسِهِمْ، وأضَلُّوا أتباعَهُمْ، فَلَهُمُ العذابُ الدائمُ بكُفْرِهِمْ بأنفُسِهِمْ، وزيادةُ العذابِ بإضلالِ غَيرِهِمْ. وهو كقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وكقولِهِ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٣] أخبَرَ أنهمْ يَحْمِلُونَ أوزارَهُمْ وأثقالَهُمْ وأوزارَ الذينَ أضَلُّوهُمْ، ومَنَعوهُمْ عنِ الإسلامِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ بما أضَلُّوا أتباعَهُمْ، وسَعَوا في الأرضِ بالإفسادِ، وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ عذابَهُمْ كلما أرادَ أنْ يَفْتُرَ، ونَضِجَتِ[3] الجلودُ، زِيدَتْ لهمْ بتَبْديلِ الجلودِ [النارُ، وكلما][4] أرادتْ أنْ تَخْمُدَ [النارُ][5] زيدَ لهم سَعيرُها[6] كقولِهِ: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقولِهِ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] فذلكَ هو الزيادةُ في العذابِ.

ويَحْتَمِلُ غيرَ هذا، وهو أنَّ عذابَ الكُفْرِ دائمٌ أبداً، فَيَزْدادُ لهمْ عذاباً بما كانَ لهمْ في الكُفْرِ سِوَى الكُفْرِ أعمالٌ ومَساوِئُ، كما يُعْفَى، ويُتَجاوَزُ عنِ المؤمنينَ بما كانَ منهمْ مِنَ المَساوِئِ كقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٦] مُقابِلَ ما كانَ يُعْفَى عنِ المؤمنينَ المساوِئُ يُزادُ[7] لأهلِ الكُفْرِ على عذابِ الكُفْرِ لِمَساوِئِهِمْ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: زِدْناهُمْ عذاباً ضِعْفاً بما كانوا يُفْسِدونَ.

وأصْلُهُ أنَّ جزاءَ الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ والعذابِ على المضاعفةِ لأنهُ دائمٌ، لا انْقِطاعَ لهُ، ما ذَكَرْنا مِنَ الزيادةِ والفَوقِ وغَيرِهِ على المُضاعفةِ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي مِنَ البَشَرِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ شهادةِ الجَوارِحِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو ما ذَكَرْنا: يَشْهَدُ الرسولُ عليهِمْ بالتبليغِ، ويَشْهَدُ لِمَنْ أجابَهُ، وأطاعَهُ، وعلى [مَنْ رَدَّهُ، وكَذَّبَهُ][8] بالرَّدِّ والتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ما ذَكَرَ في هذهِ السورةِ، لأنهُ ذَكَرَ فيها جميعَ أصنافِ النِّعَمِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ﴾ وهذه قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٦٥. (٣) في الأصل وم: ينضج. (٤) في الأصل وم: نارها كلما. (٥) ساقطة من الأصل وم (٦) في الأصل وم: سعيرا. (٧) في الأصل وم: زيد. (٨) في الأصل وم: كذبه.

وجواهِرَها ووجوبَ الأسبابِ التي بها يُوصَلُ إليها، وذَكَرَ فيها ما سَخَّرَ لهمْ مِنْ أنواعِ الجواهِرِ، وفيها[١] ذَكَرَ ما وَعَدَ، وأوعَدَ، وأمَرَ، ونَهى، وذَكَرَ ما حَلَّ بالأعداءِ وما ظَفِرَ أولياؤُهُ [بِهِ، وفيها][٢] ذَكَرَ سُلْطانَهُ، وذَكَرَ سَفَهَ الكَفَرَةِ وعِنادَهُمْ، وذَكَرَ ما يُؤتى، ويُتَّقى. فذلكَ تِبيانُ كلِّ شيءٍ.

أو أنْ يكونَ في الكتابِ تِبْيانُ كلِّ شيءٍ؛ إذْ في القرآنِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوَعيدِ وأخبارِ الأممِ الماضيةِ وأمثالِهِمْ وجميعِ ما يُؤتى، ويُتَّقى؛ ففيهِ تِبْيانُ كُلٍّ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا.

أو أنْ يكونَ أنْزَلَ عليهِ الكتابَ [تِبْياناً][٣] لكلِّ ما دعا بهِ الرسلُ، وجاءَتْ بهِ الرسلُ والكتبُ جميعاً؛ [إذْ][٤] في هذا الكتابِ جميعُ ما أتى بهِ الرسلُ والكتبُ مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوعيدِ كقولِهِ: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] ثم اخْتُلِفَ في ذلكَ البَيانِ. قالَ بعضُهُمْ: تَحْتَمِلُ الآيةُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: الخصوصُ على الأصولِ دونَ الفروعِ كَذِكْرِ الكَمالِ [للدينِ، لأنَّ ذلكَ وَصْفُ الدينِ، وقد يَقَعُ لهُ الكمالُ][٥] بالكتابِ والسُّنَّةِ، وهذا لِلْكتابِ. فلم يَجُزِ التقصيرُ عنِ الإشْتِمالِ عمّا لَزِمَتِ الحاجةُ في أمرِ الديانةِ، لذلكَ[٦] ذَكَرَ أنَّ الكتابَ تِبيانٌ لكلِّ ما وقَعَتْ إليهِ حاجةٌ في أصولِ الدينِ مِنَ الإيمانِ وأنواعِ العباداتِ والأحكامِ مَعَ الحدودِ والحقوقِ ومكارِمِ الاخلاقِ وانْتِظامِ[٧] صِلَةِ الرَّحِمِ وعِشْرَةِ الإخوانِ وصُحْبَةِ الجيرانِ ونَحْوِ ذلكَ.

فَتَشْتَمِلُ هذهِ الجملةُ على أصولِ الدينِ، وما وراءَها يكونُ مَوكولاً إلى بَيانِ الرسولِ لِيَبْقى الكتابُ بما شَرَطَ لهُ تِلاوةً ودَلالةً[٨].

والوجهُ الثاني: أنْ يكونَ تِبْياناً لكلِّ شيءٍ مُنْتَظِماً لِما فيهِ [مِنْ][٩] جُمَلِهِ ومُبْهَمِهِ ومُشْكِلِهِ ولِبيانِ الرسولِ جُمَلِهِ وتَفْسيرِ مُبْهَمِهِ وإيضاحِهِ ودَلالتِهِ على مُشْكِلِهِ؛ إذِ[١٠] السُّنَنُ كلُّها بيانٌ لِلْكتابِ لِارْتِباطِ بَعْضٍ بِبَعْضٍ.

ثم قد تَحْتَمِلُ الآياتُ التي فيها ذِكْرُ البَيانِ والتفصيلِ وجوهاً غَيرَ الوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُما:

أحدُهما: أنهُ تِبْيانُ كلِّ شيءٍ، ظَهَرَ فيهِ التنازُعُ بَيْنَ أهلِ الأديانِ، والْزَمَتْهُمُ الضرورةُ فيهِ إلى البَيانِ، فَجَعَلَ اللهُ الكتابَ تِبْياناً، الْزَمَهُمْ بالتَّدَبُّرِ والعِلْمِ بأنهُ مِنْ عندِ اللهِ بِخُروجِهِ عمّا عليهِ وُسْعُ القومِ عنْ نوعِ ما ذَكَرَ فيهِ مِنَ الحُجَجِ والأدِلَّةِ وبما أعْجَزَهُمْ/ ٢٩١ ـ أ/ عنِ الطَّمَعِ في تأليفِ مِثْلِهِ ونَظْمِهِ لِيَعْرِفُوا أنَّ اللهَ قد أعانَهُمْ في ما مَسَّتْهُمُ[١١] الحاجةُ، والْجَأتْهُمُ الضرورةُ إلى [مَنْ][١٢] يُطْلِعُهُمْ على الحَقِّ في ما لو أُهْمِلُوا عَنْ ذلكَ لَتَوَلَّدَ منهُ العَداوَةُ والعِنادُ، فأنْعَمَ اللهُ عليهِمْ بهِ، وبَيَّنَ فيهِ جميعَ ما بهمْ إليهِ مِنَ الحاجةِ لِدوامِ الأُخُوَّةِ.

والثاني: أنْ يكونَ فيهِ تِبْيانُ كلِّ شيءٍ بالطَّلَبِ مِنْ عِنْدِهِ. وبالبَحْثِ فيهِ الظَّفَرُ بهِ بِكُلِّ ما يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الحاجاتِ إلى الأبدِ، فيكونُ هو أصْلَ ذلكَ. لكنْ باخْتِلافِ[١٣] الأسبابِ، يوصَلُ إلى حقيقةِ[١٤] العِلْمِ بهِ. وذلكَ نَحْوُ ما جَعَلَ الماءَ حياةً لِكلِّ شيءٍ، وَوَصَفَ أنَّ في السماءِ رِزْقَ جميعِ الخَلْقِ، فإنهُ أنْزَلَ مِنَ السماءِ اللباسَ والرِّياشَ. وأخْبَرَ أنهُ خَلَقَنا مِنْ تُرابٍ، ثم أخْبَرَ أنهُ خَلَقَنا جميعاً مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ على رجوعِ كلِّ ما ذَكَرْنا باختلافِ الأسبابِ والتَّوَلُّدِ إليهِ، واللهُ أعلَمُ. وذلكَ كما قالَ أهلُ الكلامِ في جَعْلِ المَحْسوساتِ أدلَّةً لكلِّ غائبٍ؛ جَعَلَها اللهُ أدلَّةً تُوصِلُ إليهِ بالتَّأمُّلِ والنَّظَرِ، فيكونُ المَحْسُوسُ مُبَيِّناً مِنْ ذلكَ دالاً على اخْتِلافِ الدرجاتِ في هذا البيانِ مَعَ ما قد جَعَلَهُ اللهُ كذلكَ. حتى إنَّ في الفلاسِفَةِ مَنْ تَكَلَّفَ اسْتِخْراجَ كُلِّيَّةِ أمورِ العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ وما على ذلكَ مَدارُ ما عليهِ مِنَ المَحْسُوسِ. فَمِثْلُهُ أمْرُ القرآنِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والثالثُ: أنْ يكونَ فيه بَيانٌ على الرَّمْزِ والإشارةِ مَرَّةً، وعلى الكَشْفِ ثانياً. فَما كانَ منهُ على الرَّمْزِ، فهو مطلوبٌ في

---

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) في الأصل وم: بهم وفيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل، ولعل المؤلف يشير إلى قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٨]. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: تنتظم. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: الوجه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقال و. (١١) من م، في الأصل: مسته. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: باختلافهم. (١٤) من م، في الأصل: الحقيقة.

المَعاني وطريقِ الرسولِ إلى ما في تلكَ المَعاني مِنَ الأمورِ مُخْتَلِفَةً. منها ما يَقَعُ بِمَعونةِ الوَحْيِ مِنْ غَيرِ الكتابِ على اخْتِلافِ وُجوهِ الوَحْيِ مِنْ إرسالٍ على لسانِ مَلَكٍ أو رُؤيا أو إلهامٍ.

والتَّأَمُّلُ في ذلكَ والاسْتِدْلالُ بما قد أوضَحَهُ بَعْدَ توفيقِ اللهِ لِلْحَقِّ في ذلكَ وعِصْمَتِهِ عنِ الزَّيْغِ أو على ما شاءَ مِنْ ترتيبِ الحُكَماءِ في حَقِّ التفاهُمِ لِغَوامِضِ الأمورِ أو غَيرِ ذلكَ ممّا يريدُ اللهُ أنْ يُطْلِعَ عليهِ نَبِيَّهُ.

فإنَّ لُطفَ ربِّ العالَمينَ بما عامَلَ بهِ الأخيارَ يَجِلُّ عنِ احْتِمالِ العِبارةِ أو تصويرِهِ في الأوهامِ نَحْوُ كتابَةِ الحَفَظَةِ وقَبْضِ مَلَكِ الموتِ أرواحَ الخَلْقِ في وَقْتٍ واحدٍ في أطرافِ الأرضِ، ونَحْوُ ذلكَ كلِّهِ حَدُّ اللطفِ الذي يَعْجِزُ البَشَرُ عنِ الإحاطةِ [بهِ][1].

فَعَلى ذلكَ أمْرُ تِبيانِ كلِّ شيءٍ مع ما يَحْتَمِلُ الرجوعَ بتأويلِ الآيةِ إلى أغْلَبِ الأمورِ أو أَعَمِّها كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وغَيرِهِ. ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

والأصلُ عندَنا أنْ ليسَ لِلْبيانِ عَدَدٌ، يَجِبُ حِفْظُ العَدَدِ على ما ذَكَرَهُ قَومٌ أنهُ على خَمْسَةِ أوجهٍ. إنما هو أمْرانِ:

أحَدُهُما: ما يُبَيِّنُ هو.

والثاني: ما يُبَيِّنُ غَيرُهُ. لكنَّ الوُجوهَ[2] التي بها يَقَعُ ما غابَ عنِ الحواسِّ بالبيانِ: أصْلُها[3] الواقِعُ تَحْتَ الحواسِّ، إذِ البَيِّنُ الذي مَنْ جَحَدَ حُرِمَ أوَّلَ درجاتِ البَيانِ [ومُنِعَ عنْ فَهمِ المَجْحودِ][4] وكَفَى كُلًّا مؤُنَةَ خُصومَتِهِ، ثم غَيْرُهُ ممّا يَصيرُ بالتأمُّلِ على الوجوهِ التي جُعِلَتْ للوصولِ إليهِ، وإنْ بَعُدَ، أو قَرُبَ بدليلِهِ كالمَحْسوسِ؛ إذِ التأمُّلُ في الأسبابِ هو سببُ الوُصولِ إلى ما غابَ كاسْتِعمالِ الحواسِّ في ما يَشْهَدُ. فَمَنْ أرادَ القَطْعَ على حَدٍّ أو شيءٍ احْتاجَ[5] إلى دليلٍ فيهِ.

وأصلُ البَيانِ حقيقةً هو الظهورُ، وأسبابُ إظهارِ الأشياءِ مُتفاوِتَةٌ. وعلى ذلكَ مَقاديرُها مِنَ الظهورِ، وجُمْلَتُهُ ارْتِفاعُ التواتُرِ عنِ القلوبِ، وتَجَلِّي حقائقِ الأمورِ لها على قَدْرِ العقولِ في الإدراكِ، وما يَتَجَلَّى لِلْقلوبِ على مقدارِ ما يَحْتَمِلُ مِنَ الظهورِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ يَجِبُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وقولُهُ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ كلُّهُ واحدٌ: الرَّحْمَةُ والهُدى والبيانُ، وبِرَحْمَتِهِ وبِهُداهُ يَتَبَيَّنُ لهمْ، ويَتَّضِحُ. لكنهمْ قالوا: البيانُ للناسِ كافَّةً؛ يَتَبَيَّنُ، ويَتَّضِحُ إلّا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ، والهُدَى والرَّحْمَةُ للمؤمنينَ خاصَّةً على ما ذَكَرَ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ذلكَ لِلْمُسْلِمينَ خاصَّةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ. قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ في ما بينَ الناسِ، أي يأمُرُ بالحُكْمِ في ما بَيْنَهُمْ بالعَدْلِ والإحسانِ، وما كَلَّفَهُمْ بالطاعةِ لهُ. أو يكونُ الأمْرُ بالإحسانِ إلى أنفُسِهِمْ أو إلى الناسِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمْرُ بالعَدْلِ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ، والإحسانُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ؛ أي يُعامِلُ ربَّهُ بالعَدْلِ، لأنَّ العَدْلَ هو وَضْعُ الشيءِ مَوضِعَهُ، وهو لا يَقْدِرُ على المجاوَزَةِ عنِ العَدْلِ حتى يكونَ في حَدِّ الإحسانِ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ، ويَقْدِرُ أنْ يَصْنَعَ إلى خَلْقِهِ أكثَرَ ممّا يَصْنَعونَ هم إليهِ، فيكونُ مُحْسِناً إليهِمْ، وأمّا إلى اللهِ فلا يكونُ مُحْسِناً.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إعطاءِ ذي القُرْبَى الصَّدَقَةَ مِنْ غيرِ الزكاةِ المفروضةِ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ هي المَعاصي، أي نَهَى عنِ المَعاصي كلِّها.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي بالحَقِّ الذي لهُ عليهِمْ ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ هو ما تَعَبَّدَهُمْ مِنَ العباداتِ والطاعاتِ جعَلَ سَبَبَ عَطْفِ بعضِهِمْ على بعضٍ ﴿وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صِلَةُ القَرابَةِ والأرحامِ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الوجه. (٣) في الأصل وم: أصله. (٤) في الأصل وم: عن فهم الجحود عنه أن الجحود.
(٥) في الأصل وم: يحتاج. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ ابنُ عباسٍ ومُقاتِلٌ وقَتادةُ وغيرُهُمْ: قولُهُ: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتوحيدِ ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ أي أداءِ الفرائضِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وقَتادَةَ، وقالَ مُقاتلٌ: قولُهُ: ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ هو في ما بَيْنَهُمْ؛ يُحْسِنُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صِلَةُ الأرحامِ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي الزِّنى ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي السُّكرِ ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ مَظالِمُ الناسِ.

وقالَ بعضُهُمْ: المُنْكَرُ ما لا يُعْرَفُ في الشرائِعِ والسُّنَنِ. ويُقالُ: المُنْكَرُ ما أوعَدَ اللهُ عليهِ النارَ، والبَغْيُ الإسْتِطالةُ والظلْمُ.

ثم تَجِبُ [معرفةُ][1] حقيقةِ العَدْلِ ما [هو؟ هو][2] واللهُ أعلَمُ، وَضْعُ كلِّ شيءٍ موضِعَهُ، ويَدْخُلُ فيهِ كلُّ شيءٍ: التوحيدُ وغَيْرُهُ؛ تُجْعَلُ الرُّبوبيَّةُ والألوهيَّةُ للهِ، لا يُشْرَكُ[3] فيها غيرُهُ، ولا تُصْرَفُ[4] إلى غيرِهِ، ولا تُضافُ[5]. بل تُنْسَبُ الربوبيَّةُ والألوهيَّةُ إلى اللهِ والعُبودةُ إلى العبادِ، ولا تُضافُ العبودةُ إلى اللهِ، ولا الرُّبوبيَّةُ والألوهيَّةُ إلى العبادِ. فذلكَ العَدْلُ وَوَضْعُ كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ: الربوبيَّةُ في مَوضِعِها، والعُبودةُ في مَوضِعِها. هذا، واللهُ أعلَمُ، معنى العَدْلِ.

وأمَّا الإحسانُ فهو ما قالَ النَّبِيُّ ﷺ «إنَّ جبريلَ سَأَلَهُ عنِ الإحسانِ حينَ سألَهُ عنِ الإيمانِ والإسلامِ، فقالَ: ما الإحسانُ؟ فقالَ: أنْ تَعْمَلَ للهِ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنهُ يَراكَ، و مَنْ يَعْمَلْ لآخَرَ بحيثُ يَراهُ، ويَنْظُرُ إليهِ [يَكُنْ أبداً طالباً][6] رِضاهُ في ذلكَ العملِ وإخلاصَهُ لهُ وطالباً[7] مَرضاتَهُ فيهِ». [البخاري ٥٠].

فهو يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً؛ أعني الإحسانَ:

أحَدُها: ما ذَكَرَ أنهُ يَعْمَلُ للهِ[8] كأنهُ يَراهُ، وذلكَ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ.

والثاني: في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ، وهو أنْ يُحِبَّ لهمْ كما[9] يُحِبُّ لنفسِهِ في ما أُذِنَ لهُ في ذلكَ.

أو نَقولُ على الإطلاقِ: يُحِبُّ لهمْ كما يُحِبُّ لنفسِهِ فإنْ عورِضَ بالقتالِ والحروبِ التي بَيْنَنا وبينَ أهلِ الحربِ، وذلكَ بالذي لا نُحِبُّ لأنفُسِنا، ونُحِبُّ لهمْ، قيلَ: في ذلكَ طَلَبُ نَجاتِهِمْ، وتخليصُهُمْ مِنَ الهلاكِ والعذابِ الدائمِ الأبَدِيِّ. وذلكَ ممَّا نُحِبُّ لأنفُسِنا، ونُحِبُّ لهمْ، قيلَ: في ذلكَ طَلَبُ نَجاتِهِمْ، وتخليصُهُمْ مِنَ الهلاكِ والعذابِ الدائمِ الأبَدِيِّ. وذلكَ ممَّا نُحِبُّهُ نَحْنُ لأنفُسِنا: أنْ يَسْعَى أحدٌ في نجاةِ أحَدِنا مِنَ المَهْلَكَةِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وليسَ في الظاهِرِ رَحْمَةٌ، لكنْ في الحقيقةِ رَحْمَةٌ حينَ[10] يَحْمِلُهُمُ القتالُ على الإسلامِ، إذا كانَ قَبْلَ نَصْبِ القِتالِ والحروبِ مَعَهُمْ لم يُسْلِمْ إلاّ قليلٌ منهمْ؟ فلمَّا نُصِبَتِ الحُروبُ مَعَهُمْ والقتالُ دَخَلُوا في الإسلامِ أفواجاً أفواجاً. فصارَ ذلكَ في الحقيقةِ رَحْمَةً، وإنْ كانَ في رَأْيِ العَيْنِ في الظاهِرِ ليسَ بِرَحْمَةٍ.

وكذلكَ هذهِ/ ٢٩١ ـ ب/ المصائبُ والبلايا التي يَحِلُّ بالخَلْقِ، هي في الحقيقةِ نِعْمَةٌ ورَحْمَةٌ. ولذلكَ عَدَّها، وسَمَّاها بعضُ الناسِ لِما تُعْقِبُ مِنَ الثوابِ والنِّعْمَةِ والصَّبرِ عليها، ورَأَى ذلكَ منهُ حَقًّا وعَدْلاً، ورَأَى حالَ الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ منهُ، فهو يُطَيِّبُ نفسَهُ في جميعِ الأحوالِ، تَنْصَرِفُ بهِ مِنَ الشِّدَّةِ والضِّيقِ. فإذا رَأَى نِعْمَةً ما تَعَقَّبَ عَنِ الخَيرِ والنَّفْعِ في العاقِبَةِ. فَمِنْ هذهِ الجِهَةِ يجوزُ أنْ يُقالَ: ذلكَ نِعْمَةٌ ورَحْمَةٌ.

وأمّا في ظاهِرِ الحالِ فلا، وذلكَ أنَّ كلَّ بلاءٍ يَنْزِلُ بأحدٍ، فَصَبَرَ عليهِ، كانَ في ذلكَ خِصالٌ أربعٌ:

إحداها: تكفيرُ ما كانَ ارْتَكَبَ مِنَ المعاصي. **والثانيةُ**[11]: مَعْرِفَةُ العبودةِ ومُلْكِ غيرِهِ عليهِ. **والثالثةُ**[12]: ما يَعْقِبُ مِنَ الثوابِ والنِّعَمِ [الدائمةِ. والرابعةُ:][13] معرفةُ النِّعَمِ: مِنَ الشِّدَّةِ يَعْرِفُ النِّعَمَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: شريك. (٤) في الأصل وم: يصرفها. (٥) في الأصل وم: يضيف.
(٦) في الأصل وم: يكون أبدا طالب. (٧) في الأصل وم: وطلب. (٨) في الأصل وم: له. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: حيث.
(١١) في الأصل وم: الثاني. (١٢) في الأصل وم: والثالث. (١٣) في الأصل وم: الدائم والرابع.

والثالثُ[١]: الإحسانُ إلى نفسِهِ، فهو[٢] أنْ يَحْفَظَها عمَّا فيهِ هلاكُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ الفحشاءُ [هي مِمَّا يُنْكَرُ، ويَفْحُشُ مِنَ الشَّرِّ، والمُنْكَرُ][٣] هو الشيءُ الغريبُ [الذي][٤] لا يُعْرَفُ. ألا تَرَى إلى قولِ إبراهيمَ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؟ [الحجر: ٦٢] سَمَّاهُمْ مُنْكَرِينَ لِما لا يَعْرِفُهُمْ. فالمُنْكَرُ ما يَفْعَلُ مما[٥] مما هو مَعروفٌ بالخَيرِ والصلاحِ [بِسَبَبِ الزلاتِ، فيكونُ ذلكَ منهُ][٦] غريباً؛ إذْ لم [يُعْرَفْ بذلكَ. فذلكَ منهُ غريبٌ][٧].

والفحشاءُ ما تكونُ مِنْ أهلِ الفَسادِ والشرورِ، وذلكَ مِمَّا يُنْكَرُ، ويَفْحُشُ ذلكَ منهمْ، والبَغْيُ هو الظُّلْمُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا كلُّهُ المُنْكَرَ والفَحْشاءَ والبَغْيَ، وكلُّهُ واحدٌ: الفَحْشاءُ هي المُنْكَرُ، والفَحشاءُ هي البَغْيُ، والمُنْكَرُ هو الفَحْشاءُ والبَغْيُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي يَنْهاكُمْ عمَّا ذَكَرَ كلِّهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتَنْتَهونَ عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: والمَوعِظَةُ، هي التي تُلَيِّنُ القلوبَ القاسِيَةَ، وتَصرِفُها إلى طاعةِ اللهِ. وقد ذَكَرْنا.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يَحْتَمِلُ [أَمْرَهُ بِوَفاءِ][٨] العهودِ التي يُعْطِي بعضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ أَمَرَهُمْ بِوَفاءِ ذلكَ، ونَهاهُمْ عنْ نَقْضِها، وأَلْزَمَهُمْ وفاءَ عَهْدِ اللهِ، وإنْ لم يُعاهِدوا في ذلكَ. لكنَّهُ ذَكَرَ وفاءَ العَهْدِ إذا عاهَدوا، ونَهَى عنِ النَّقْضِ، لأنَّ تَرْكَ وفاءِ ما عاهدوا ونَقْضَ ما أعْطَوا على ذلكَ شَرْطاً أَقْبَحُ وأوحَشُ مِمَّا لم يُعاهِدوا. وهو كقولِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

تَرْكُ الوفاءِ ونَقْضُهُ بَعْدَ قولِهِمْ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أوحَشُ وأفْحَشُ مِنْ نَقْضِهِ، إذا لم يَكُنْ لهمْ عَهْدٌ سابقٌ وشَرْطٌ مُتَقَدِّمٌ. وهذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنَى أَمْرِهِ بِوَفاءِ العَهْدِ إذا عاهَدوا، وإنْ كانَ وَفاءُ العَهْدِ لازماً لهمْ، وإنْ لم يُعاهِدوا.

إنَّ جَعْلَ اللهِ البَشَرَ بحيثُ يَقْبَلُونَ الحِكْمَةَ والمِحْنَةَ، وجَعْلَ بُنْيَتِهِمْ وخِلْقَتِهِمْ بحيثُ يَقْدِرُونَ على القِيامِ بذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الآية] [الأحزاب: ٧٢] أي إني خَلَقْتُهُمْ وبُنْيَتَهُمْ، أي لم يَجْعَلْ خِلْقَةَ هذهِ الأشياءِ وبُنْيَتَها تَحْتَمِلُ ذلكَ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي خِلْقَتُهُ وبُنْيَتُهُ تَحْتَمِلُ ذلكَ والقيامَ به[٩].

وَيَحْتَمِلُ أنْ تكونَ العهودُ التي أَمَرَ بِوَفائِها إذا عاهَدوا على الأيمانِ التي يُقْسِمونَ بها حينَ[١٠] قالَ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ذَكَرَ الأيمانَ، ونَهَى عَنْ نَقْضِها. ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النَّهْيُ عنِ النَّقْضِ في الأيمانِ التي يَأْثَمُ بها المَرْءُ إذا حَلَفَ لأنهُ نَهَى عنْ نَقْضِها، ولو كانَ يَأْثَمُ بِعَقْدِها لكانَ لا يَنْهَى عنْ نَقْضِها، لأنَّ الأيمانَ التي يَأْثَمُ بها المَرْءُ إذا حَلَفَ يَنقُضُها، أو لا يُؤْمَرُ بوفائِها وحِفْظِها.

ثم ذَكَرَ فيه ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولم يُبِحْ نَقْضَ اليمينِ [وإنْ][١١] لم يُؤَكِّدْها إذا لم يَكُنْ في الوفاءِ بها إثْمٌ. لكنَّهُ ذَكَرَ التوكيدَ لأنَّ النَّقْضَ بَعْدَ ذلكَ أقْبَحُ وأفْحَشُ مِنَ النَّقْضِ على غَيرِ التوكيدِ على ما ذَكَرَ مِنَ القُبْحِ والفُحْشِ في بعضِ العهودِ بعدَ ما عاهَدوا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ هو حَلْفُهُمْ باللهِ لأنَّ مُشْرِكي العَرَبِ كانوا لا يُقْسِمونَ باللهِ لِما يَعْظُمُ مِنَ الأمرِ، ويَجِلُّ. وذلكَ آخِرُ أقسامِهِمْ. وكذلكَ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩ والنحل: ٣٨] هو قَسَمُهُمْ باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ قيلَ: كانوا يَحْلِفونَ في ما بَيْنَهُمْ على جَعْلِ اللهِ كفيلاً عليهِمْ. وقيلَ: الكفيلُ هو الشهيدُ الحافظُ. وهكذا يُؤْخَذُ الكفيلُ في ما يُؤْخَذُ لِيَحْفَظَ المالُ والنفسُ.

---

(١) في الأصل وم: وأما. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: هو ما يكبر يفحش من الشيء هو المنكر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم. من. (٦) في الأصل وم: من الزلات فيكون ذلك منهم. (٧) في الأصل وم: يعرفوا بذلك فذلك منهم. (٨) في الأصل وم: أمرها بوفائها العهد. (٩) في الأصل وم: بها. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من م، في الأصل: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِنَ الوفاءِ بما عاهَدوا أوِ النَّقْضِ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ الآيةِ [قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ][1] نَزَلَتْ في مُخالفةِ أهلِ الكُفرِ بعضِهِمْ بعضاً؛ وهو أنْ يَرِثَ بعضُهُمْ بعضاً، ويَنصُرَ، ويُعينَ بعضُهُمْ بعضاً [ويَحلِفوا على ذلكَ ويُقسِموا][2] فإنْ هَلَكوا في ذلكَ أي في نَصْرِ بعضِهِمْ بعضاً، ثم إذا رَأَوُا الكَثْرَةَ والغَلَبَةَ مَعَ غيرِ الذينَ حالَفوا، نقَضوا ذلكَ، ورَجَعوا إلى الذينَ مَعَهُمُ الكَثْرَةُ والغَلَبَةُ، فَنُهُوا عن ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في الذينَ يكونونَ بَعْدَ رسولِ اللهِ وأصحابِهِ لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ [منهُمْ][3] خوارِجُ وأهلُ اختلافٍ في الدينِ، فربما كانَتِ الكَثْرَةُ والغَلَبَةُ لهمْ على أهلِ العَدْلِ. فَنَهَى مَنْ عاهدَ أهلَ العَدْلِ، وبايَعَهُمْ أنْ يَترُكَ، لِكَثْرَتِهِمْ وغَلَبَتِهِمْ، الكونَ مَعَ أهلِ العَدْلِ وإعانَتَهُمْ ونَقْضَ ما عاهَدوا. ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ﴾ وقولُهُ[4] هذا يَدُلُّ أنهُ في أهلِ الإسلامِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في أهلِ النفاقِ: إنهمْ كانوا يُقسِمونَ ﴿بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥٦] كانوا يَرَونَ مِنْ أنْفُسِهِمُ الموافَقَةَ لهمْ والنَّصْرَ والعَوْنَ لهمْ على أعدائِهِمْ، ويَحلِفونَ على ذلكَ. ثم إذا رَأَوُا الكَثْرَةَ مَعَ الكَفَرَةِ والغَلَبَةَ وقِلَّةَ المؤمنينَ تَحوَّلوا إلى أولئكَ، ونَقَضوا أيمانَهُمْ، وكانوا مَعَهُمْ، كقولِهِ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤١].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي لا تكونوا في نَقْضِ العُهودِ والمَواثيقِ كالمرأةِ التي تَنْقُضُ ﴿غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ غيرَ هذا: يقولُ: ولا تَظُنُّوا في اللهِ أنهُ يكونُ في إنشاءِ الخَلْقِ كالمرأةِ التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ فلو لم يَكُنْ بَعْثٌ لكانَ يكونُ في إنشاءِ الخَلْقِ كالمرأةِ ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ وقد عَرَفْتُمْ قُبْحَ ذلكَ. فَعَلى ذلكَ إنشاءُ الخَلْقِ إذا لم يكنْ بَعْثٌ يكونُ في القُبْحِ ما ذُكِرَ.

ثم ضَرَبَ اللهُ مَثَلَ مَنْ أعطى العَهْدَ والمَواثيقَ، وَوَكَّدَ الأيمانَ في ذلكَ، ثم نَقَضَ ذلكَ، بامْرَأةٍ تَغزِلُ، تَنْقُضُ ذلكَ الغَزْلَ ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما لم تَنْتَفِعْ هذهِ المَرْأةُ بِغَزْلِها إذا نَقَضَتْهُ[5] مِنْ إبرامِها إياهُ، كذلكَ لا يُنْتَفَعُ، ولا يوثَقُ بِمَنْ أعطى العَهْدَ، ثم نَقَضَ. يقولُ: فلا هي تَرَكَتِ الغَزْلَ تَنْتَفِعُ بِهِ، ولا هي تركَتِ القطنَ والكتانَ كما هو، فكذلكَ الذي يُعْطي العهدَ، ثم يَنْقُضُهُ؛ فلا هو حينَ أعطاهُ وَفَى بِهِ، ولا هو تَرَكَ [العَهْدَ][6] فلم يُعْطِهِ، ونَحْوَه.

ثم اختُلِفَ في تلكَ المرأةِ: قالَ بعضُهُمْ: هي امرأةٌ مِنْ قُرَيشٍ حمقاءُ بمكةَ، كانَتْ إذا غَزَلَتْ نَقَضَتْهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا على التمثيلِ: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أي لو سَمِعْتُمْ بامرأةٍ نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ إبرامِهِ لَقُلْتُمْ: ما أحْمَقَ هذهِ! فَعَلى ذلكَ مَنْ أعطى العَهْدَ والميثاقَ/ ٢٩٢ - أ/ ثم نَقَضَ، فهو كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: الداخلُ الذي لا يَصِحُّ، ولا يَسْتَقيمُ، يُقالُ: هذا مَدْخولٌ أي غيرُ صحيحٍ. وقالَ غيرُهُ: ﴿دَخَلًا﴾ أي خَديعةً ومَكْراً، يَخْدَعُ بعضُكُمْ بعضاً، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ أيضاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي خِيانَةً وَوَغولاً ﴿بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي فريقٌ ﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ فريقٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿أَنكَاثًا﴾ هي جَمْعُ نِكْثٍ، والنِّكْثُ مِنَ الحَبْلِ خُيوطٌ، تُنْكَثُ، ثم تُطْرَقُ، وتَصيرُ صوفاً، ثم مِنْ بَعْدِ ذلكَ تُفْتَلُ. قالَ: والمِطْرَقُ قَضيبٌ، يُضْرَبُ بِهِ الصوفُ حتى يَنْفُشَ، ويَلينَ كما يُنْدَفُ القطنُ، يُقالُ: طَرَقْتُ الصوفَ،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ويحلفون على ذلك، ويقسمون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال.
(٥) في الأصل وم: نقضت. (٦) ساقطة من الأصل وم.

أطرُقُهُ طَرْقاً، أي ضَرَبْتُهُ، ويُقالُ: نَفَشْتُهُ، أنْفُشُهُ نَفْشاً أي فَرَّقْتُ بينَهُ، فَتَفَرَّقَ، ومنهُ قولُهُ: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ويُقالُ: حبلٌ مُثْنًى إذا كانَ ذا طاقَينِ، ومَثْلوثٌ، ومَربوعٌ، ومَخْموسٌ، ومَسْدوسٌ، ومَسْبوعٌ ومَثْمونٌ [ومَتْسوعٌ][1] ومَعْشورٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الأنكاثُ ما نُقِضَ مِنْ غَزْلِ الشَّعْرِ وغيرِهِ، واحدُها: نِكْثٌ. يقولُ: لا تُؤَكِّدوا على أنفسِكُمُ الأيمانَ والعُهودَ، ثم تَنْقُضوا ذلكَ، وتَحْنَثوا، فتكونوا كامْرأةٍ غَزَلَتْ، ونَسَجَتْ، ثم نَقَضَتْ ذلكَ، فَجَعَلَتْهُ أنكاثاً، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ المَشيئةُ ههنا مَشيئةُ القَهْرِ والقَسْرِ، أي لو شاءَ لَجَبَرَهُمْ، وقَهَرَهُمْ على الإيمانِ، فآمَنوا جميعاً. وهذا فاسدٌ، لأنهُ لا يكونُ بالقَهْرِ والجَبْرِ إيمانٌ، لأنهُ، لا صُنْعَ لِلْعَبْدِ في حالِ القَهْرِ والجَبْرِ، فَيَبْطُلُ تأويلُهُ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يَثْبُتَ إيمانٌ في تلكَ الحالِ.

وقالَ أبو بكرٍ: تأويلُ[2] قولِهِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأنزَلَ لهمْ آيةً حتى يؤمِنوا جميعاً [كتلكَ الآيةِ، وهي قولُهُ][3] ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

لكنْ عندنا لَيسوا يؤمِنونَ، ويَخْضَعونَ للآيةِ، ولكنْ بِما شاءَ لهمْ ذلكَ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ تَحْمِلَهُمُ الآيةُ على الإيمانِ، شاؤوا، أو أبَوا. ألا تَرَى أنهمْ يَكْذِبونَ يومَ الحَشْرِ عندَ مُعايَنَتِهِمُ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢ و٢٣] أخبَرَ أنهمْ يكذبونَ، وقد يَمْنَعُهُمْ ذلكَ عنِ الكذبِ. دَلَّ أنَّ الآيةَ ليستْ تَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ، ولا تَضْطَرُّهُمْ عليهِ. ولكنْ لو شاءَ لآمَنوا بالاختيارِ، فَيَبْطُلُ تأويلُهُ.

ثم الآيةُ تَحْتَمِلُ عندنا وجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بظاهِرِ السببِ الذي لو[4] أعطاهُمْ لآمَنوا لهُ [كقولِهِ تعالى][5]: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآيةَ [الزخرف: ٣٣] أخبَرَ أنهُ لو ما يَرْغَبُ الناسُ في الكُفْرِ، فيكونونَ كُفّاراً كُلُّهُمْ، وإلا جَعَلَ سُقُفَ أهلِ الكُفْرِ ومَعارِجَهُمْ مِنْ فِضَّةٍ. فلو أنهُ جَعَلَ ذلكَ بعينِهِ لأهلِ الإسلامِ لا يَحْمِلُ أهلَ الكُفْرِ على تركِ الكُفْرِ والدخولِ في الإسلامِ.

والوجهُ الثاني: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بِلُطْفٍ منهُ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] مِنْ غيرِ أنْ يُعْلَمَ أنَّ أحداً ألقى ذلكَ في قلبِهِ مِنْ نَحْوِ ما يُمَكِّنُ للشيطانِ عدوًّا للهِ حتَّى يَقْذِفَ في قلوبِ الخَلْقِ، ويُلْقِيَ وَساوِسَ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَموا أنَّ أحداً دعا إلى ذلكَ، أو ألقى في[6] قلوبِهِمْ.

الا تَرَى أنَّ إبليسَ لَمَّا وَسْوَسَ إلى آدمَ ﷺ لِيَتَناوَلَ مِنَ الشجرةِ التي نَهَى عنها ربُّهُ، لو عَلِمَ أنهُ إبليسُ لَما أجابَهُ؟ وكذلكَ ما مَكَّنَ للملائكةِ مِنْ تَثْبيتِ قلوبِ الذينَ آمَنوا وإلقاءِ أشياءَ في قلوبِهِمْ، وإلهامِهِمْ[7]، وهو قولُهُ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَموا أنَّ أحداً دعاهُمْ إلى ذلكَ، أو ألقى أحدٌ ذلكَ في قلوبِهِمْ.

فَمَنْ مَلَكَ تمكينَ عَدُوِّهِ وملائكتِهِ على ما ذَكَرْنا يَمْلِكُ شَرْحَ الصدرِ للإسلامِ والدعاءِ إلى ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ أنَّ أحداً فَعَلَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على قولِ الحسنِ على الحُكْمِ لذلكَ.

وقالَ أبو بكرٍ: ﴿يُضِلُّ﴾ بالنَّهْيِ مَنْ نَهى، ﴿وَيَهْدِى﴾ بالأمْرِ. لكنَّ هذا فاسدٌ، لأنهُ لو كانَ بالنَّهْيِ مُضِلاً، وبالأمْرِ هادِياً

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تأويله. (٣) في الأصل وم: لتلك الآية كقوله. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إلى. (٧) في الأصل وم: ويلهمونهم.

لَكانَ مُضِلاً للأنبياءِ والرُّسُلِ لأنهُ قد نَهاهُمْ بِمَناهٍ، فيكونُ مُضِلاً لهمْ. فإنْ قيلَ: لم يُضِلَّ[1] ما ذَكَرْتَ لأنهمْ لم يرتكِبوا المَناهِيَ، قيلَ: الارْتِكابُ فِعْلُهُمْ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بِفِعْلِهِمْ ذلكَ، فَدَلَّ أنَّ ما ذَكَرْنا فاسدٌ. وعلى قولِهِمْ يكونُ بالنَّهْيِ عاصِياً مُضِلاً.

وعندَنا قولُهُ: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَخْلُقُ فِعْلَ الضلالِ منهمْ، أو يُضِلُّ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَخْتارُ الضلالَ على الهُدَى، ويَخْذِلُهُ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هو ظاهِرٌ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ قد ذَكَرْنا. وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: دلَّ قولُهُ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أنَّ الآياتِ التي تَقَدَّمَ ذكرُها في أهلِ الإسلامِ، لأنهُ أخْبَرَ أنهُ تَزِلُّ ﴿قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ وهو الكُفْرُ بَعْدَ الإسلامِ.

وعندَنا ما ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ بالخوفِ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أو بَعْدَ ما كانوا آمنينَ، لأنهمْ بإيمانِهِمْ كانوا يأمَنونَ، وبِنَقْضِهِمُ العَهْدَ والأيمانَ يَخافونَ. فيكونُ قولُهُ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ كِنايَةً عنِ الخوفِ [وقولُهُ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾][3] كِنايةً عنِ الأمنِ، أي صاروا خائِفينَ بِنَقْضِ العُهودِ والأيمانِ بَعْدَما كانوا آمِنينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على هذا التأويلِ: يَذوقونَ ذلكَ في الدنيا بالقَتْلِ والقَهْرِ، ويَحْتَمِلُ في الآخِرَةِ بما صَدّوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ، واسْتَبْدَلوا بهِ الكُفْرَ بَعْدَ الإيمانِ ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: عَهْدُ اللهِ دينُ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: عَهْدُ اللهِ الذي عَهِدَ إليهِمْ. ويَحْتَمِلُ عَهْدُ اللهِ ما أعْطَوا مِنَ العَهْدِ والأيمان، أي [لا][4] تَنْقُضوها بشيءٍ يَسيرٍ ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ دائمٌ باقٍ، وهذا زائلٌ فانٍ، أو ما يَجْزي بِوَفاءِ ما عَهِدَ[5] خيرٌ لَكُمْ مِنْ هذا، أي [ما][6] يَجْزيكُمْ بِوَفاءِ ما ذَكَرَ مِنَ العَهْدِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ أي ما أخَذْتُمْ مِنَ الأموالِ، واكْتَسَبْتُمْ بِنَقْضِ العُهودِ والأيمانِ يَنْفَدُ، ويَفْنَى، وما عِنْدَ اللهِ مِنَ الجَزاءِ والثوابِ بِعَهْدِ الوفاءِ باقٍ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ على ما أُمِروا بهِ، ونُهوا عنهُ، وصَبَروا على وفاءِ العَهْدِ ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِأَحْسَنِ﴾ أي الجزاءُ الذي نجزيهِمْ على الصَّبْرِ أحْسَنُ مِنْ وَفاءِ العَهْدِ. أو يَجزيهِمْ بأحْسَنِ ما عَمِلوا؛ أي يَجْعَلُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ كقولِهِ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ اخْتَلَفَ أهْلُ التأويلِ [في قولِهِ][7]: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الآخِرَةِ، وهي الجنةُ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا.

فَمَنْ قالَ: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هي الجنةُ في الآخِرَةِ يكنْ[8] تأويلُهُ: مَنْ يكنْ عَمَلُهُ في الدنيا صالحاً يُحْيِهِ اللهُ في الآخِرَةِ حياةً طَيِّبَةً في الدنيا. وإلاّ فظاهِرُ قولِهِ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ إنما هو على عَمَلٍ واحدٍ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] ظاهِرُهُ على حَسَنَةٍ واحدةٍ. لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا: مَنْ يكُنْ عَمَلُهُ في الدنيا صالحاً يَفْعَلُ ما ذَكَرَ، وقولُهُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي ما تُؤتينا في الدنيا ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أو أنْ يكونَ على الخَتْمِ بهِ، أي مَنْ خَتَمَ بالعَمَلِ الصالِحِ يُحْيِهِ اللهُ حياةً طَيِّبَةً في الجنةِ/ ٢٩٢ ـ ب/ كقولِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كذا.

---

(١) في الأصل وم: يضر. (٢) في الأصل وم: ويخذلهم. (٣) في الأصل وم: والثبوت. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عهدوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يكون.

وقال الحَسَنُ: الحياةُ الطَّيِّبَةُ هي الجنةُ لأنَّ في الدنيا ما يُنَغِّصُ حياتَهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الحياةُ الطَّيِّبَةُ في الدنيا. فتأويلُهُ: مَنْ يَكُنْ هَمُّهُ وجَهْدُهُ العَمَلَ الصالحَ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي نُوَفِّقُهُ، ونُيَسِّرُهُ للخيراتِ والعَمَلِ والصالحِ والطاعاتِ، وهو ما رُوِيَ [عنهُ ﷺ][1] أنهُ قالَ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ» [مسلم ٢٦٤٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ و٦ و٧] وكقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ونَحْوُهُ.

فذلكَ هو الحياةُ الطَّيِّبَةُ في الدنيا حينَ[2] يَسَّرَ عليهِ العَمَلَ الصالحَ، ووَفَّقَهُ لِلطاعاتِ والخيراتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي قَنِعَ في الدنيا بما قَسَمَ اللهُ لهُ، ورزَقَهُ، ورَضِيَ بهِ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ في الدنيا ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ بما أزالَ عنهُ هَمَّ طَلَبِ الفَضْلِ وغَمَّهُ وذِلَّةَ حِرْصِهِ عليهِ، لأنَّ أكثرَ هُمومِ الناسِ في الدنيا وذُلِّهِمْ لِما لم يَرْضَوا بما قَسَمَ اللهُ لهمْ، ولم يَقْنَعوا بهِ، فهو يَحْيى ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ لِما عُصِمَ عنْ ذلكَ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي في الآخرةِ ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ على تأويلِ مَنْ قالَ: الحياةُ الطَّيِّبَةُ في الدنيا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الرزقُ الحلالُ، وقولُهُ: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ما ذُكِرَ هؤلاءِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الرزقُ الحلالُ، وقولُهُ: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقد ذكَرْنا.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ كقولِهِ[3] في آيةٍ أُخرى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وكقولِهِ[4] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] فيَجِبُ أنْ يَتَعَوَّذَ مِنْ هَمَزاتِهِ على ما أمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ أو عندَ نَزْغِ الشيطانِ على ما ذُكِرَ. لكنهُ إذا تَعَوَّذَ منهُ تَعَوَّذَ مِنْ هَمَزاتِهِ ونَزَعاتِهِ.

فإنْ قيلَ: كيفَ خَصَّ قراءةَ القرآنِ بالتَّعَوُّذِ منهُ دونَ غيرِهِ مِنَ الأذكارِ والعباداتِ والأعمالِ الصالحةِ؟ قيلَ: قد يُتَعَوَّذُ منهُ دونَ غيرِهِ أيضاً في غَيرِهِ مِنَ العباداتِ والأذكارِ بقولِهِمْ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إذ لا يُفْتَتَحُ شيءٌ إلّا بهِ. فذلكَ تَعَوُّذُهُمْ بهِ، لكنَّ التَّعَوُّذَ في هذا تَعَوُّذٌ بالكِنايةِ[5]، والتَّعَوُّذُ في قراءةِ القرآنِ بالتصريحِ؛ وذلكَ لأنهُ[6] حُجَّةٌ وبرهانٌ وطَعْنٌ للأعداءِ في ما هو حُجَّةٌ في نَفْسِهِ أكثرُ مِنَ الأفعالِ التي فَعَلُوها.

ألا تَرَى [أنَّ الشيطانَ كانَ يُلَقِّنُ أولياءَهُ][7] أنهُ ﴿سِحْرٌ﴾ [المائدة: ١١٠ و...] وأنهُ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] وأنهُ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؟ [النحل: ١٠٣] ونَحوَهُ، وهو[8] قولُهُ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] كانوا يَطْلُبونَ الطَّعْنَ في القرآنِ لأنهُ حُجَّةٌ وبرهانٌ، ولم يَشْتَغِلوا في طَعْنِ فِعْلٍ مِنَ الأفعالِ أو ذِكْرٍ مِنَ الأذكارِ. فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ التَّعَوُّذُ منهُ في ما هو حُجَّةٌ بالتَّصْريحِ، وفي غيرِهِ بالكِنايةِ[9]، واللهُ أعلَمُ.

ثم في هذهِ الآيةِ وفي غيرِها مِنْ قولِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقولِهِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ لم يَفْهَمْ أهلُها منها [التَّعَوُّذَ][10] على ظاهرِ المُخْرَجِ، ولكنْ فَهِمُوا على مُخْرَجِ الحِكْمَةِ، لأنَّ ظاهرَ المُخْرَجِ أنْ يُفْهَمَ التَّعَوُّذُ بَعْدَ الفَراغِ[11] مِنَ القراءةِ.

وكذلكَ يُفْهَمُ مِنَ الأمرِ بالقيامِ إلى الصلاةِ الوضوءُ بَعْدَ القيامِ إليهِ. ثم [لم][12] يَفْهَموا في هذا ونَحْوِهِ هذا، ولكنْ فَهِموا إذا أردْتَ قراءةَ القرآنِ فاستَعِذْ باللهِ. وكذلكَ فَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ أي إذا أرَدْتُمُ القيامَ إلى الصلاةِ فاغْسِلوا كذا، ولم يَفْهَموا كُلَّ قيامٍ، إنما فَهِموا قياماً دونَ قيامٍ، أي إذا [أرَدْتُمْ][13] القيامَ إلى الصلاةِ، وأنْتُمْ مُحْدِثونَ، وفَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وفَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ [الأحزاب: ٥٣]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: بكناية.
(٦) في الأصل وم: أنه. (٧) في الأصل وم: أنه كان يلقنهم أعني الشيطانَ أولياءه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: بكناية.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فراغه. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ فهموا مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠] الفراغَ منها. دلَّ أنَّ الخِطابَ لا يوجِبُ المُرادَ والفَهْمَ على ظاهِرِ المَخرَجِ، ولكنْ على مُخرَجِ الحِكْمَةِ والمَعْنى.

واصْلُ التَّعَوُّذِ هو الِاعْتِصامُ باللهِ مِنْ وَساوِسِ عَدُوِّهِ وكَيْدِهِ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ لهُ سَبيلٌ على الذينَ آمَنوا. وقالَ بعضُهُمْ: السلطانُ الحُجَّةُ، أي ليسَ لهُ حُجَّةٌ على الذينَ آمَنوا. وقالَ بعضُهُمْ: أي ليسَ لهُ مُلْكٌ على الذينَ آمَنوا، مُلْكُ القَهْرِ والغَلَبَةِ.

الآية ١٠٠ [وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ لكنْ ليسَ لهُ مُلْكُ القَهْرِ على الذينَ يَتَوَلَّونَهُ أيضاً. إنما يَتَّبِعونَهُ بإشاراتٍ منهُ طَوعاً. فَدَلَّ أنَّ تأويلَ المُلْكِ لا يَصِحُّ في السلطانِ أوِ الحُجَّةِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالقرآنِ، لأنهُ ذَكَرَهُ[(٢)] على إِثْرِ ذِكْرِ القرآنِ. ويَحْتَمِلُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهما واحدٌ في الحاصِلِ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ حُجَّتُهُ أو سَبيلُهُ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يَتَّخِذونَهُ[(٣)] وَلِيًّا، فَيُطيعونَهُ في كلِّ أمْرِهِ وجميعِ إشاراتِهِ وما يُلْقيهِ[(٤)] إليهِمْ.

واصلُهُ: ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بربِّهِمْ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في جَميعِ أحوالِهِمْ وساعاتِهِمْ، أي [لا][(٥)] سُلْطانَ لهُ، ولا سَبيلَ على مَنْ آمَنَ بربِّهِ، وتَوَكَّلَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ إبليسُ؛ يَتَّبِعونَهُ، ويَعْدِلونَهُ بربِّهِمْ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ بربِّهِمْ.

والتَّوَكُّلُ هو الِاعْتِمادُ عليهِ وتَفْويضُ الأمْرِ إليهِ في كلِّ حالٍ: السَّراءِ والضَّراءِ، وفي كلِّ وَقْتٍ: الضِّيقِ والسَّعَةِ. فذلكَ التوكُّلُ عليهِ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ الآيةَ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ على التَّناسُخِ: أنْ يُبَدِّلَ آيَةً مكانَ آيَةٍ، وهو على تَبديلِ حُكْمِ آيَةٍ بِحُكْمِ آيَةٍ أُخْرَى لا على رَفْعِها[(٦)] عينِها.

والثاني: قولُهُ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ أي بَدَّلْنا حُجَّةً بَعْدَ حُجَّةٍ وآيَةً بَعْدَ آيَةٍ لرسالتِهِ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ كلَّما آتاهُمْ حُجَّةً على إِثْرِ حُجَّةٍ وآيَةً بَعْدَ آيَةٍ يقولونَ ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ يَنْسُبونَ إليهِ الِافْتِراءَ أنهُ افْتَرَى. وكذلكَ كانَتْ عادَتُهُمُ المُعانَدَةَ والمُكابَرَةَ كقولِهِ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤] وكقولِهِ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ؛ كلَّما [آتاهُمْ بِحُجَّةٍ][(٧)] وآيَةٍ بَعْدَ آيَةٍ كانوا يَسْتَقْبِلونَهُ بالتكذيبِ لها ونِسْبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى الِافْتِراءِ مِنْ نَفْسِهِ، ويَزْدادونَ[(٨)] بذلكَ كُفْراً.

وهو ما قالَ ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ و: ١٢٥] أخْبَرَ أنهُ كانَ يَزْدادُ أهلُ[(٩)] الإيمانِ بما يَنْزِلُ عليهِمْ مِنْ سُورَةٍ إيماناً، ويَزْدادُ أهلُ[(١٠)] الشِّرْكِ رِجْساً وكُفْراً إلى كُفْرِهِمْ.

[وهو][(١١)] مِثْلُ هذا. ولو كانَ يَحْتَمِلُ حَرْفُ ﴿وَإِذَا﴾ مكانَ: لو كانَ أقْرَبَ، ويكونُ تأويلُهُ، ولو أنْزَلْنا حُجَّةً بَعْدَ حُجَّةٍ، وآيَةً على إِثْرِ آيَةٍ جديدةٍ ما[(١٢)] آمَنوا، كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١] وكقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية [الرعد: ٣١] أي لو أنَّ هذا القرآنَ قرآنٌ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ ما آمَنوا بِعِنادِهِمْ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يلقون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أتى بهم حجة. (٨) في الأصل وم: ويزداد لهم. (٩) في الأصل وم: لأهل. (١٠) في الأصل وم: لأهل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فما.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بالسؤالِ أي بَدَّلْنا آيةً بالسؤالِ مكانَ آيةٍ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ بهِ صَلاحُهُمْ وغيرُ صَلاحِهِمْ، أو أنْ يكونَ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ مِنْ تَثبيتِ قلوبِ الذينَ آمَنوا كقولِهِ: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل: ١٠٢] أو أنْ يكونَ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جبريلَ على رسولِهِ جواباً لقولِهِمْ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ وكقولِهِ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] أي ليسَ بِمُفْتَرٍ، ولكنْ نَزَّلَهُ جبريلُ مِنْ ربِّهِ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي عليهِمْ أي بالحقِّ الذي لِبَعْضِهِمْ/٢٩٣ ـ أ/ على بَعْضٍ. والحَقُّ في الأقوالِ هو[1] الصِّدْقُ، وفي الأفعالِ صَوابٌ ورُشْدٌ، وفي الأرحامِ عَدْلٌ وإصابةٌ. والحَقُّ هو الشيءُ الذي يُحْمَدُ عليهِ صاحِبُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا تفسيرُ قولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] لأنهُ أخبَرَ أنهُ ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فَذَكَرَ مِنْ زيادةِ الإيمانِ، هو التَّثبيتُ الذي ذُكِرَ ههنا، قولُهُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وذَكَرَ قولَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ مُقابِلَ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] لِيُعْلَمَ أنَّ الزيادةَ التي ذَكَرَ في سورةِ التوبةِ هي ما ذَكَرَ ههنا مِنَ التَّثبيتِ والطُّمَأنينةِ ونَحْوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي هُدًى مِنَ الجَهالاتِ والشُّبُهاتِ التي كانَتْ تَعْتَرِضُ لهمْ أو مِنَ الضلالةِ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] لِيُعْلَمَ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ هُمْ لم يقولوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ولكنْ كانوا يَنُصُّونَ واحداً فلاناً، لكنَّ الخَبَرَ مِنَ اللهِ على ذِكْرِ البَشَرِ.

ألا تَرَى أنهُ أخبَرَ أنَّ لسانَ ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾؟ دَلَّ أنَّ البَشَرَ الذينَ أخبَرَ عنهُمْ أنهم يَقولونَ: إنهُ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ كانَ منصوصاً عليهِ مُشاراً إليهِ حينَ[2] قالَ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ ولسانُ النَّبِيِّ عَرَبِيٌّ. فكيفَ فَهِمَ هذا مِنْ هذا؟ وهذا مِنْ هذا؟ ولسانُ هذا غيرُ لِسانِ هذا. وما قالَهُ أهلُ التأويلِ أنهُ كانَ يَجْلِسُ إلى غلامٍ، يُقالُ لهُ كذا، وهو يهوديٌّ، يَقْرأُ التوراةَ، فَيَسْتَمِعُ إلى قِراءَتِهِ، وكانَ يُعَلِّمُهُ الإسلامَ حتى أسْلَمَ. فعندَ ذلكَ قالَتْ لهُ قُرَيْشٌ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾. ولو كانَ ما ذُكِرَ أنهُ كانَ يُعَلِّمُهُ الإسلامَ، فأسْلَمَ، فَلِقائِلٍ أنْ يقولَ: كيفَ فَهِمَ ذلكَ الرجلُ منهُ لسانَ رسولِ اللهِ ﷺ ولسانُهُ غيرُ لسانِهِ على ما أخبَرَ؟ لكنْ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في القرآنِ حينَ[3] ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١] ثم يقولونَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فنقولُ، واللهُ أعلَمُ، إنهُ كيفَ عَلَّمَهُ هذا القرآنَ، وهو لا يَفْهَمُ مِنْ لسانِهِ إلّا يَسيراً منهُ، فأنتمْ لسانُكُمْ عربيٌّ، لا تَقْدِرونَ أنْ تأتوا بِمِثْلِهِ ولا بِسورةٍ مِنْ مِثْلِها ولا بآيةٍ. فكيفَ قَدَرَ على مِثْلِهِ مَنْ لا يَفْهَمُ لسانَهُ، ولا كانَ ذلكَ بِلسانِهِ. يُخَرَّجُ ذلكَ على الاحتِجاجِ عليهِمْ.

وبَعْدُ فإنَّ في قولِهِمْ ظاهر التَّناقضِ، لأنهمْ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ ثم قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فالذي عَلَّمَهُ غيرُهُ، ليسَ بِمُفْتَرٍ، إنما يكونُ الافْتِراءُ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ. فهو ظاهرُ التناقضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يَحْتَمِلُ مُبينٌ ما لهمْ وما عليهِمْ، أو مُبينٌ للحقوقِ التي للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ، أو مبينٌ أنهُ[4] مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ، ليسَ بِمُفْتَرًى.

وهذهِ الآيةُ تَرُدُّ على الباطِنيَّةِ قولَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ رسولَ اللهِ هو الذي ألَّفَ هذا القرآنَ بِلِسانِهِ، ولم يُنْزِلِ اللهُ عليهِ بهذا اللسانِ. فلو كانَ على ما ذَكَروا ما كانَ لأولئكَ ادِّعاءُ ما ادَّعَوا على رسولِ اللهِ مِنَ الافْتِراءِ.

---

(١) من م، في الأصل: هذا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أي بين.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَميلونَ إليهِ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبيِّ. قالوا: الإلحادُ المَيلُ، ولذلكَ سُمِّيَ اللَّحْدُ لَحداً لِمَيلِهِ إلى ناحيةِ القَبْرِ. وقالَ الكِسائيُّ: هو مِنَ الرُّكونِ إليهِ، أي يركَنونَ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنهُ، واللهِ، مَنْ كذبَ بآياتِ اللهِ، فهو ليسَ بِمُهْتَدٍ عندَ اللهِ. وقالَ أبو بكرٍ: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ بتكذيبِهِمُ الآياتِ، فهو كلُّهُ خَبالٌ على كلِّ مَنْ يُشْكِلُ، ويُخفِي؛ أي مَنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ فهو غيرُ مُهْتَدٍ، ومَنْ يَظُنُّ هذا. وقولُ أبي بكرٍ أيضاً: مَنْ يَتَوَهَّمْ أنَّ مَنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ أنهُ يَهْدِيهِ فهذا[1] فاسدٌ، خَبالٌ كلُّهُ.

وأصلُهُ عندَنا قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ [لِعِنادِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ لأنهمْ كانوا يُعانِدونَ آياتِ اللهِ، ويُكابِرونها، ويُكَذِّبونَ مَعَ علمِهِمْ أنها آياتٌ وأنها حَقٌّ. أو قالَ ذلكَ [في قومٍ][2] عَلِمَ اللهُ أنهم لا يُؤمنونَ][3] يموتونَ عليهِ، فَمَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ لا يؤمِنُ لا يَهْدِيهِ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ لا الذينَ يؤمنونَ بها، ويُصَدِّقونَها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذينَ كَذَّبوها ﴿هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ قولُهُ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[4]: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ في زَعْمِ المُكْرَهِ لأنهُ أكْرَهَهُ بهِ؛ ففي زعمِهِ [أنهُ][5] كافرٌ باللهِ لِطَلَبِهِ ذلكَ منهُ، وهو كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ [الصافات: ٩١] في زَعْمِهِمْ [أنها آلهةٌ، وهي لم تكنْ][6] وكقولِهِ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ [طه: ٩٧] سَمّاهُ إلهاً لأنهُ [إلهٌ][7] في زَعْمِ السامِرِيِّ.

والثاني: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ شارحاً صَدْرَهُ بالكُفرِ، فهو[8] الكافرُ به. وأمّا مَنْ أظهَرَ الكُفْرَ بلسانِهِ بالإكراهِ، وقَلْبُهُ مُعْتَقِدٌ بالإيمانِ على ما كانَ مُطْمَئِنّاً بهِ، فهو ليسَ بكافرٍ.

وأصْلُهُ أنَّ مَنِ اعْتَقَدَ مَذْهَباً وديناً فإنهُ يَعْتَقِدُهُ بِخِصالٍ ثلاثٍ:

أحدُها: يُقَلِّدُ آخَرَ لَمّا رآهُ أبْصَرَ وأحْذَقَ وأعْلَمَ فيهِ، وهو لا يَبْلُغُ ذلكَ، فَيُقَلِّدُهُ لِفَضْلِ بَصَرِهِ وعِلْمِهِ فيهِ ورأيِهِ.

والثاني: يَعْتَقِدُهُ[9] للشُّبْهَةِ لِما يَتَراءى عندَهُ أنهُ الحَقُّ، فَيَعْتَقِدُهُ لتلكَ الشُّبْهَةِ التي ذَكَرْنا.

والثالثُ: يَتَّضِحُ لهُ الحَقُّ، فَيَعْتَقِدُهُ.

فلهذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يَعْتَقِدُ مَنْ يَعْتَقِدُ [ديناً ومَذْهباً. فأمّا أنْ يَعْتَقِدَ][10] الإنسانُ مذهباً مَجّاناً على الجُزافِ [فلا، فإذا][11] كانَ إظهارُ كُفرٍ هذا لأكراهِ مَنْ أكْرَهَهُ لم يَصِرْ كافراً.

وأصلُهُ أنَّ الإيمانَ والكُفرَ إنما يكونانِ بالاختيارِ. فالإكراهُ يُزيلُ الاختيارَ اختيارَ الكُفرِ. لِذلكَ يَبْقى على الإيمانِ على ما كانَ لِما لم يُوجَدْ منهُ اختيارُ الكُفرِ.

فإنْ قيلَ: أليسَ أمَرَنا أنْ نُقاتِلَ أهلَ الكُفرِ لِيُسْلِموا، وذلكَ إسلامٌ بإكراهٍ، وعلى ذلكَ نَطَقَ الكتابُ، وهو قولُهُ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ [الفتح: ١٦] وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلّا اللهُ» [البخاري ٢٥] ثم إذا أسْلَمَ لِخوفِ السيفِ كانَ إسلامُهُ إسلاماً في الظاهرِ؟ ما مَنَعَ كذلكَ أنهُ إذا أُكْرِهَ على الكُفرِ، فأجرى كلمةَ الكُفرِ، فكانَ[12] كُفْرُهُ كُفراً في الظاهرِ، فَيُحْكَمُ بِحُكْمِهِ كما حُكِمَ في الإسلامِ على الإكراهِ، فما الفَرْقُ فيهِ؟

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: لقوم. (٣) ساقطة من م. (٤) أدرج قبلها في الأصل: ذكر من كفر بالله، وأدرج قبلها في م: حيث ذكر كفر بالله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لأنهم لم يكونوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فلانا إذا. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم.

قيلَ: كذلكَ كانَ يَجيءُ، إلاّ أنَّ اللهَ تعالى عفا عبادَهُ عنْ ذلكَ، فأبقاهُمْ على الإيمانِ وحُكْمِهِ، وإنْ أظْهَروا بلسانِهِمْ كلامَ الكُفرِ بَعْدَ أنْ تكونَ قلوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بذلكَ فَضْلاً منهُ ونِعْمَةً.. وإلاّ القياسُ أنْ يُحْكَمَ بِحُكْمِ الكُفرِ إذا تَكَلَّمَ بِكلامِ الكُفرِ.

وأمّا الطلاقُ والعِتاقُ والنِّكاحُ [ونَحْوُ ذلكَ فظاهرٌ][1] على ما تَكَلَّمَ بِهِ عاملٌ واقعٌ؛ لأنَّ الطلاقَ والعِتاقَ ونَحوَهُما مِمّا تَعَلَّقَ بالكلامِ نفسِهِ لا غيرِهِ، فهو، وإنْ أُكْرِهَ على ذلكَ فهو مُختارٌ لِلتَّكَلُّمِ بِهِ، قاصدٌ[2] لهُ؛ لأنَّ المُكْرَهَ لو أحبَّ أنْ يَستَعمِلَ لسانَهُ بالتَّكَلُّمِ بما ذُكِرَ ما قَدَرَ عليهِ. دلَّ أنهُ على الاختيارِ يَتَكَلَّمُ.

وأمّا البَيعُ والشراءُ [ونَحْوُهما فلم يَتَعَلَّقا][3] بالكلامِ نفسِهِ، إذ قد يكونُ الأخذُ والتسليمُ دونَ التكلُّمِ بهِ. لذلكَ عَمِلَ الإكراهُ في إبطالِهِ [وأبْقَى المُكْرَهَ][4] على الإيمانِ وحُكْمِهِ، وإنْ أظْهَرَ بلسانِهِ كلامَ الكفرِ بَعْدَ أنْ يكونَ قلبُهُ مُطْمَئِنًّا بذلكَ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ حينَ[5] قالَ: «وُضِعَ عنْ أُمَّتي الخَطَأُ والنسيانُ وما اسْتُكْرِهوا عليهِ» [ابن ماجه ٢٠٤٥] وذلكَ في الكُفرِ، ليسَ في غَيرِهِ، لأنَّ الإكراهَ على الكُفرِ كانَ ظاهراً يومئذٍ ولم يَكُنْ في غيرِهِ مِنْ طلاقٍ وغَيرِهِ.

وأمّا قتالُنا إيّاهُمْ لِيُسْلِموا فهو يَحْتَمِلُ [وجهَينِ]:

أَحَدُهُما[6]: على المُجازاةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] فَنُقاتِلُهُمْ لِيُظْهَروا على الإسلامِ، وإنْ لم تُعْرَفْ حقيقَتُهُ على المُجازاةِ.

والثاني: قَبِلْنا منهمُ الإسلامَ على الإكراهِ لِنُقَرِّبَهُمْ[7] / ٢٩٣ ـ ب/ في ما بَينَ المُسْلِمينَ، فَيَرَونَ الإسلامَ، ويَتَعَلَّمونَ منهمْ حقيقَتَهُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾ سَمّاهُنَّ مؤمناتٍ، ثم أمَرَنا بامْتِحانِهِنَّ بقولِهِ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] فإنما يُمْتَحَنَّ لِتَظْهَرَ حقيقةُ إيمانِهِنَّ، وإلاّ لم [يَكُنْ][8] لِلامتِحانِ مَعْنًى لولا ذلكَ.

وأصلُهُ أنَّ اللهَ جَعَلَ حقيقةَ الإيمانِ والكُفرِ بالقَلْبِ دونَ اللسانِ وغَيرِهِ مِنَ الجَوارحِ، لأنَّ غَيرَهُ مِنَ الجَوارحِ يجوزُ استعمالُهُ[9] بالإكراهِ. وأمّا القَلْبُ فإنهُ لا يَمْلِكُ أحدٌ سِواهُ اسْتِعمالَهُ، وذلكَ لِفَضْلِهِ ومَنِّهِ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ فهو كافرٌ بِهِ إنْ كانَ ذلكَ على الإكراهِ لِما ذَكَرْنا أنهُ باختيارِهِ[11] الكُفرَ يَنْشَرِحُ لهُ الصدرُ لِما لا يَعْمَلُ[12] الإكراهُ على القَلْبِ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾ أي ذلكَ الغَضَبُ والعذابُ ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ جُحوداً وإنكاراً. وإلاّ نَفْسُ الاسْتِحْبابِ قد يكونُ مِنَ المؤمِنِ، فلا يَزولُ عنهُ اسْمُ الإيمانِ كقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] فلم يَزُلْ عنهمُ اسْمُ الإيمانِ بِاخْتِيارِهِمْ واسْتِحْبابِهِمُ الحياةَ الدنيا. فَدَلَّ أنَّ الأوَّلَ على الجُحودِ لهُ والإنكارِ، وهذا على المَيلِ إليهِ دونَ الجُحودِ.

والثاني[13]: أنْ يكونَ كذلكَ لِما لم يَرَوُا الآخِرَةَ كائنةً، لا مَحالَةَ، ظَنًّا ظَنُّوا لَعَلَّها كائنةٌ كقولِهِمْ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

وأمّا أهلُ الإسلامِ، لم يكونوا فيها ظانِّينَ شاكِّينَ، ولكنْ مُتَحَقِّقينَ مُسْتَيقِنينَ، فاسْتَحَقُّوا بذلكَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وقْتَ اختيارِهِمُ الكُفرَ، وأنَّ اللهَ لا يَهْدِي القومَ المُختارينَ الكُفرَ على الإيمانِ. وقالَ ذلكَ لِقَومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ يَختارونَ الكُفرَ، وأنهمْ يموتونَ على الكُفرِ، فلا يَهْديهِمْ.

(١) في الأصل وم: ونحوه ظاهر. (٢) في الأصل وم: قاصداً. (٣) في الأصل وم: ونحوه لم يتعلق. (٤) في الأصل وم: وأبقاهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وجوها. (٧) في الأصل وم: لنقرهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: استعمالها. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الهاء ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: يعلم. (١٣) في الأصل وم: أو.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ الطبعُ هو التَّغطيةُ؛ تُغطِّي ظُلْمَةُ الكُفرِ نورَ القَلْبِ والسَّمْعِ ونورَ البَصَرِ؛ كأنَّ لكلِّ أحدٍ نورَينِ وبَصَرَينِ: ظاهرٌ وباطنٌ، يُبْصِرُ بها جميعاً فإذا ذهبَ أحَدُهما، أو عَمِيَ، صارَ لا يُبْصِرُ كمنْ يُبْصِرُ بِبَصَرِ الظاهِرِ، إنما يُبْصرُ بنورِ بَصَرِهِ ونورِ الهواءِ: فإذا دَخَلَ في أحَدِهِما آفَةٌ ذَهَبَ الانتِفاعُ، وصارَ لا يُبْصِرُ شيئاً. فَعَلَى ذلكَ. للقَلْبِ بَصَرٌ خَفِيٌّ، وبَصَرٌ ظاهرٌ: الذي هو معروفٌ. فإنما يُبْصِرُ بهما. فإذا غَطَّتْ ظُلْمَةُ الكُفرِ بَصَرَ القَلْبِ صارَ لا يُبْصِرُ شيئاً.

ألا تَرَى أنهُ قالَ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] أخبرَ أنَّ الأبصارَ الظاهرةَ لمْ تَعْمَ، ولكنْ عَمِيَتِ ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؟ هذا يدلُّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنى طَبْعِ السَّمْعِ والبَصَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ: غافِلينَ[1] عنِ النَّظرِ في آياتِهِ وحُجَجِهِ، ويَحْتَمِلُ: غافِلينَ[2] عمَّا يَحُلُّ بِهِمْ بِكُفرِهِمْ وتكذيبِهِمْ آياتِ اللهِ وحُجَجَهُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قد [ذَكَرْنا ما قيلَ فيهِ: لابُدَّ، و: حَقًّا][3] وقيلَ: هو حَرْفُ وعيدٍ. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قالَ الحسنُ: إنهمْ، واللهِ، خَسِروا الجنةَ ورَحْمَةَ اللهِ، خَسِروا أهلَهُمْ ومَنْزِلَهُمُ الذي كانَ لهمْ في الجنةِ، وخَسِروا أنفُسَهُمْ حينَ قَذَفُوها في النارِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: خَسِروا النِّعَمَ الدائمةَ الباقيةَ بالزائلةِ الفانيةِ، وخَسِروا أنْفُسَهُمْ حينَ[4] قُتِلوا، وأُسِرُوا في الدنيا.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ قيلَ: عُذِّبوا على الإيمانِ بمكةَ ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ معَ النَّبِيِّ وأصحابِهِ ﴿وَصَبَرُوا﴾ على ذلكَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيلَ: مِنْ بَعْدِ الفِتْنَةِ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِما كانَ منهمْ ﴿رَّحِيمٌ﴾. ذَكَرَ [﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ مَرَّتَينِ:

إحداهُما:][5] قولُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [والثانيةُ: قولُهُ:][6] ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيلَ: مِنْ بَعْدِ الفِتْنَةِ، فَيَجِيءُ أنْ يُكْتَفى [بواحدةٍ، فيقولَ][7] ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ موصولاً بقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ﴾ فَعَلوا ما ذَكَرَ. لكنهُ ذَكَرَهُ[8] مَرَّتَينِ، واللهُ أعلَمُ [لطولِ الكلامِ. ويَحْتَمِلُ][9] ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهمْ؛ يعني لهؤلاءِ الذينَ فُتِنوا، وعُذِّبوا، ولِغَيرِهِمْ.

ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ أُناساً مِنَ المؤمنينَ، خَرَجوا إلى المدينةِ، فأدرَكَهُمُ المُشركونَ لِيَرُدُّوهُمْ، فقاتَلوهُمْ؛ فمنهُمْ مَنْ قُتِلَ، ومنهُمْ مَنْ نَجا، فأنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآيةَ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: أيضاً فيهمْ نَزَلَ قولُهُ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ الآيةَ [العنكبوت: ١ و: ٢].

وأكْثَرُهُمْ قالوا: إنَّ قولَهُ: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] إنما نَزَلَ في عَمَّارِ بْنِ ياسِرٍ، وليسَ لنا إلى ذلكَ حاجةٌ، إنما الحاجةُ في ما ذَكَرْنا مِنَ الحُكْمِ بهِ والحِكْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿تُجَادِلُ﴾ أي تُخْبِرُ عنْ نفسِها عمَّا عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ. وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: إنَّ كلَّ نَفْسٍ رهينةٌ بما كَسَبَتْ مِنْ شَرٍّ حتى يكونَ طائراً في عُنُقِهِ. ولكنْ ليسَ في ما ذَكَرَ هؤلاءِ مُجادَلَةٌ؛ المُجادَلَةُ المُخاصَمَةُ، كأنها تُخاصِمُ عنْ نفسِها مِنِ ارْتِكابِ أشياءَ ودَعْوى أشياءَ على ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ جَهَنَّمَ تَزْفِرُ زَفْرَةً حتى لا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرسَلٌ إلاّ وقد جثا بِرُكْبَتَيْهِ خوفاً منها. فعندَ ذلكَ تُجادِلُ، وتُخاصِمُ كلُّ نفسٍ عَنْ نفسِها.

---

(١) في الأصل وم: غافلون. (٢) في الأصل وم: غافلون. (٣) من م، في الأصل: ذكر ما قيل فيه لابد حقا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: ذكر مرتين أحدهما. (٦) في الأصل وم: ثم قالوا. (٧) في الأصل وم: بواحد يقول. (٨) في الأصل وم: ذكر. (٩) في الأصل وم: انه.

ويُشبِهُ أنْ تكونَ مُجادَلَتُهُمْ على غيرِ هذا؛ وهو ما ذَكَرَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢٠ و٢١] فتلكَ مُجادَلَتُهُمْ أنفُسَهُمْ، وكقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣] وكذلكَ ما ذَكَرَ في المنافِقينَ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآية [المجادلة: ١٨] وذلكَ كلُّهُ مُجادَلَتُهُمْ أنفُسَهُمْ.

او أنْ يُقالَ: ﴿تُجَٰدِلُ﴾ لكنْ لا يُفسِّرُ ما تلكَ المُجادلَةُ؟ ولم يذكُرْ ما تلكَ المُجادَلَةُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي تُوفَّرُ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ، ولا يُنْقَصونَ مِنْ حسناتِهِمْ ولا يُزْدادونَ على سَيِّئاتِهِمْ.

وهذهِ الآيةُ تَرُدُّ على المُعتَزِلَةِ لأنهم يقولونَ بالتخليدِ لِصاحِبِ الكبيرةِ، وقد أخبَرَ أنهُ ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من سوءٍ، وتوفَّرُ ما عَمِلَتْ مِنَ الخيراتِ والطاعاتِ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ اختُلِفَ في ضَرْبِ المَثَلِ بهذهِ الآيةِ وفي نزولِها: قالَ بعضُهُمْ: ضَرَبَ المَثَلَ لأهلِ مكةَ، وفيها نزلَتْ بِقُرَياتٍ؛ نَزَلَ بهمُ العذابُ بتكذيبِهِمْ رسُلَهُمْ في بني إسرائيلَ؛ يُحَذِّرُ أهلَ مكةَ بتكذيبِهِمْ رسولَ اللهِ نزولَ العذابِ بهمْ كما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ضَرَبَ المَثَلَ لأهلِ المدينةِ [إذْ نَزَلَ العذابُ][1] بأهلِ مكةَ؛ يُحَذِّرُ أهلَ المدينةِ لئلا يُكذِّبوا محمداً كما كَذَّبَ أهلُ مكةَ، فَيَحُلُّ بهِمْ ما[2] حَلَّ بأهلِ مكةَ مِنْ لِباسِ الجوعِ والخوفِ بالتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قيلَ: هي مكةُ، وهكذا كانَتْ مكةُ؛ أهلُها كانوا آمِنين فيها مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، مُطمَئِنّينَ، يأتيهِمْ رِزْقُهُمْ مِنْ كلِّ مكانٍ. ويَحتَمِلُ قريةً أُخرى غيرَها [كانَ أهلُها][3] على ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي كَفَرَتْ بالشُّكرِ لأنعُمِ اللهِ، أي لم يَشكُروها، ليسَ أنهمْ لم يَرَوها مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ اللباسُ هو ما يَسْتُرُ وُجوهَ الجَواهِرِ. ألا تَرى أنهُ سَمَّى الليلَ ﴿لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧ والنبإ: ١٠] لِما سَتَرَ وُجوهَ الأشياءِ. فَعَلى ذلكَ الجُوعُ، يرفَعُ السِّتْرَ واللِّباسَ الذي كانَ قَبْلَ الجُوعِ؛ لأنَّ الجوعَ إذا اشْتَدَّ غَيَّرَ وَجْهَ صاحِبِهِ، ورفَعَ سِتْرَهُ. والجُوعُ: ما ذَكَرَ أنهُ أصابَهُمْ جُوعٌ حتى أكلوا الكلابَ والجِيَفَ والعظامَ المُحتَرِقَةَ. والخوفُ: ذَكَرَ أنهُ بَعَثَ رسولَ اللهِ ﷺ إليهِمْ.

ألا تَرى أنْ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ/ ٢٩٤ ـ أ/ شَهْرَينِ»؟ [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] وقيلَ: الخَوفُ: القَتْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَغَدًا﴾ قالَ الكسائيُّ: أرغَدَ الرجلُ إذا أصابَ مالاً أو عيشاً مِنْ غيرِ عَناءٍ وكَدٍّ.

وقالَ القُتَبيُّ ﴿رَغَدًا﴾ أي كثيراً واسعاً.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ قولُهُ: ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي [منْ][4] أنفسِهِمْ، مِنْ نَسَبِهِمْ وحَسَبِهِمْ، يعْرِفونَهُ كقولِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بالتكذيبِ حينَ[6] وَضَعوا الشيءَ في غَيرِ مَوضِعِهِ، أو ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ على أنفسِهِمْ. أخبَرَ أنهُ بَعَثَ الرسولَ مِنْ جِنْسِهِمْ ومِنْ حَسَبِهِمْ، لأنهُ لو كانَ مِنْ غيرِ جوهَرِهِمْ لم تَظْهَرْ لهمُ الآيةُ مِنْ غَيرِ الآيةِ، ولا الحُجَّةُ مِنَ الشُّبْهَةِ، لأنهُ إذا خَرَجَ على غَيرِ المُعْتادِ والطَّوقِ عَرَفوا أنهُ آيةٌ، وأنهُ حُجَّةٌ؛ إذْ لا يَعْرِفونَ

(١) في الأصل وم: وفيهم نزل. (٢) في الأصل وم: كما. (٣) في الأصل وم: كانوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: حيث.

مِنْ غَيرِ جَوهَرِهِمُ الخارجَ عنِ المُعْتادِ والطَّوقِ [ويَعْرِفونَ ذلكَ مِنْ جوهَرِهِمْ][١] وكذلكَ يُعْرَفُ صِدْقُ مَنْ نَشَأَ بَينَ أَظْهُرِهِمْ مِنْ كَذِبِهِ، ولا يُعْرَفُ إذا كانَ مِنْ غَيرِهِمْ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحَلالُ والطَّيِّبُ واحدٌ، وهو الحَلالُ؛ كأنهُ قالَ: كُلوا ممَّا أحلَّ لَكُمُ اللهُ، كقولِهِ: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي حلالاً، يَطِيبُ لكمْ ما تَتَلَذَّذُونَ بهِ [لأنَّ مِنَ الحَلالِ ما لا تَتَلَذَّذُ بِهِ][٢] ولا تَسْتَطِيبُ، بل تَكْرَهُهُ. [ويَحْتَمِلُ][٣] قولُهُ: ﴿طَيِّبًا﴾ تَسْتَطيبُهُ[٤] أنفُسُكُمْ، وتَتَلَذَّذُ بِهِ، لا ما تَسْتَخْبِثُ، لأنَّ اللهَ جَعَلَ غذاءَ البَشَرِ ما هو أطْيَبُ وألَذُّ، وجَعَلَ للبهائمِ والأنعامِ ماهو أخبَثُ وأخشَنُ لأنَّ ماهو أطْيَبُ أدْعَى لِلشُّكْرِ لَهُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ لا تَبِعَةَ عليكُمْ.

وفي الآيةِ دلالةٌ [أنهُ][٥] قد يَرْزُقُ ما يَخْبُثُ، ولا يَحِلُّ، على ما يَخْتارُهُ حينَ[٦] شَرَطَ فيهِ الحلالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ الشُّكْرُ لهُ عليهِمْ لازِمٌ، وإنْ لم يَعْبُدوا، وهو كقولِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] طاعتُهُ وطاعةُ رسولِهِ واجبةٌ، وإنْ لم يكونوا مؤمِنينَ. أو يقولُ: وَجِّهوا شُكْرَ نِعَمِهِ إليهِ إنْ كُنْتُمْ عابدينَ[٧] لهُ بِجِهَةٍ؛ أي افْعَلوا العِبادَةَ لهُ والشكْرَ في الأحوالِ كلِّها.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي حَرَّمَ أكْلَ المَيتةِ وما ذُكِرَ، كأنهُ قالَ هذا، وذَكَرَ على إثْرِ تَحريمِهِمْ أشياءَ أحلَّ لهمْ نَحْوَ ما حَرَّموا على أنفسِهِمْ أشياءَ أحَلَّ لهمْ مِنَ الزَّرْعِ والأنعامِ والبَحيرةِ والسائبةِ وما ذُكِرَ، فقالَ: لم يُحَرِّمْ ذاكَ، ولكنْ إنما حَرَّمَ ما ذَكَرَ مِنَ المَيتَةِ والدَّمِ ولحمِ الخِنْزيرِ ونَحْوَهُ على هذا يَجوزُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُهُ، وإمّا على الابْتِداءِ فإنهُ يَبْعُدُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إلى ما ذَكَرَ مِنَ المُحَرَّماتِ ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على ما نُهِيَ عنهُ، وهو الشِّبَعُ كقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَلَا عَادٍ﴾ عليهِ[٨].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ يَسْتَحِلُّهُ في دينِهِ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا مُتَعَدٍّ في أكْلِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على المسلمينَ مُفارِقٍ لِجماعَتِهِمْ مُشاقٍّ لهمْ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ عليهِمْ أنفُسِهِمْ[٩]. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ وأقاويلَهُمْ.

وأمّا تأويلُهُ عندنا ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على المسلمينَ سِوَى دَفْعِ الإهلاكِ عنْ نفسِهِ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مُتَعَدٍّ ومُتجاوِزٍ اضطِرارَهُ. ولا يَحْتَمِلُ ما قالَهُ بعضُ الناسِ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على الناسِ ولا مُتَعَدٍّ عليهِمْ لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ لا يَحْتَمِلُ البَغْيَ على الناسِ في حالِ الاضطِرارِ لأنهُ لا يَقْدِرُ عليهِ، والحالُ ما ذَكَرَ.

والثاني: أنهُ، وإنْ كانَ باغياً على ما ذَكَروا [لو][١٠] لم يُبِحْ لهُ التَّناوُلَ مِنَ المَيْتَةِ، يكونُ باغياً على نفسِهِ لأنهُ إنْ لم يَتَناوَلْ هَلَكَتْ نفسُهُ، فيصيرُ باغياً على نفسِهِ. فدلَّ أنهُ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ يَحْتَمِلُ: أي: لا تَعودوا إلى ما وصفَتْ ألسنَتُكُمْ مِنَ الكذبِ ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ و[١١] لا تقولوا الكذبَ الذي [تَصِفُ][١٢] ألسنَتُكُمْ ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][١٣] قالَ: لا تقولوا لِما أحْلَلْتُموهُ ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾ ولِما حَرَّمْتُموهُ ﴿وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [يونس: ٥٩].

---

(١) في الأصل وم: ويعرف ذلك من جوهره. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: تستطيب له.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: عابدون. (٨) في الأصل وم: إليه. (٩) في الأصل وم: يستفهم.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وأن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ ألاّ يَسَعَ لأحدٍ أنْ يقولَ: هذا مِمَّا أحَلَّهُ اللهُ، وهذا ممَّا حَرَّمَهُ اللهُ إلاّ بإذْنٍ مِنَ اللهِ ومَنْ يَقُلْ[1] بأنَّ الأشياءَ في الأصلِ على الإباحةِ أو على الحَظْرِ فهو مُفْتَرٍ بذلكَ على اللهِ الكَذِبَ لأنَّ اللهَ لم يأذَنْ لهُ أنْ يقولَ ذلكَ، بل نهاهُ عنْ ذلكَ ممَّا ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: تكونونَ[2] مُفْتَرِينَ على اللهِ الكَذِبَ إذا قُلْتُمْ هذا. فإنْ قيلَ: كيفَ سَمَّاهُمْ مُفْتَرِينَ على اللهِ بِتَسْمِيَتِهِمُ الحرامَ حلالاً والحلالَ حراماً؟ قيلَ: لأنَّ التحليلَ والتحريمَ والأمْرَ والنَّهْيَ رُبوبِيَّةٌ، فإذا حَرَّموا شيئاً أحلَّهُ اللهُ، وأحَلُّوا شيئاً حَرَّمَهُ اللهُ، فكأنَّهُمْ على اللهِ افْتَرَوا أنهُ حَرَّمَ، أو أحَلَّ، أو حَرَّموا هُمْ، أو أحَلُّوا، فأضافوا ذلكَ إلى اللهِ تعالى أنهُ هو الذي حَرَّمَ، أو أحَلَّ، فقدِ افْتَرَوا على اللهِ لأنَّ مَنْ أحَلَّ شيئاً، حَرَّمَهُ اللهُ، أو حَرَّمَ شيئاً، أحَلَّهُ اللهُ، فقد كَفَرَ. وليسَ مَنِ انْتَفَعَ بالمُحَرَّمِ، أو تَرَكَ الانْتِفاعَ بالمُحَلّلِ كافراً[3]، إنما يصيرُ آثماً مُجْرِماً، وكذلكَ تاركُ الأمرِ ومُرْتَكِبُ النَّهْيِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في تحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ عليهِمْ وفي تحريمِ ما أحَلَّهُ وقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ وهمْ مُفْتَرونَ على اللهِ، وأمَّا إذا انْتَزَعوا [أنفسَهُمْ][4] مِنَ الافْتِراءِ، وتابوا، أفْلَحوا. أو﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ في الآخِرَةِ إذا كانوا مُفْتَرِينَ على اللهِ في الدنيا.

الآية ١١٧ ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ على الابْتِداءِ. وإنما سَمَّى قليلاً، واللهُ أعلَمُ، لِوُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ مَتاعَ الدنيا على الزوالِ والانْقِطاعِ. فَكُلُّ ما كانَ على شَرَفِ الزوالِ والانْقِطاعِ فهو قليلٌ كما قيلَ: كُلُّ آتٍ قريبٌ لِما يأتي، لا مَحالَةَ. فَعَلَى ذلكَ: كلُّ زائِلٍ مُنْقَطِعٌ قريبٌ.

والثاني: سَمَّى قليلاً لِما هو مَشوبٌ بالآفاتِ والأحزانِ وأنواعِ البلايا والشدائدِ، فهو قليلٌ في الحقيقةِ.

والثالثُ[5]: سَمَّاهُ قليلاً لِما أنَّ مَتاعَ الدنيا قليلٌ عمَّا وَعَدَ في الآخِرَةِ؛ فَمَتاعُها مِنْ مَتاعِ الآخِرَةِ قليلٌ، لِما ليسَ فيها الوجوهُ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ وهو ما قصَّ في سورةِ الأنعامِ، وهو قولُهُ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ إلى قولِهِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الآية: ١٤٦] وقولُهُ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية [النساء: ١٦٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بتحريمِ ما حَرَّمْنا عليهِمْ لأنَّا إنما حَرَّمْنا عليهِمْ تلكَ الطَّيِّباتِ عُقوبةً لهمْ وجَزاءً لِبَغْيِهِمْ، وهو ما قالَ في سورةِ النساءِ، وهو قولُهُ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية [الآية: ١٦٠] وهو ما قالَ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أخْبَرَ أنهُ إنما [حَرَّمَ][6] عليهِمْ ذلكَ بظلمٍ كانَ منهُمْ عقوبةً وجَزاءً لِبَغْيِهِمْ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في ذلكَ.

أو يكُونُ قولُهُ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ لأنهمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ولِلَّهِ أنْ يَمْتَحِنَ عِبادَهُ وإماءَهُ بِتَحريمِ مَرَّةً وبتحليلٍ ثانياً، ولكنْ ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[7] وجَّهوها إلى غيرِ مالِكِها، أو صَرَفوا شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ إلى غيرِهِ.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾: [عَمَلُ السوءِ بجهالةٍ][8] يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنَّ الفِعْلَ فِعْلُ جاهِلٍ وسَفيهٍ، وإنْ لم يَجْهَلْ يُقَلْ[9] لِمَنْ عَمِلَ السوءَ: يا جاهلُ، يا سَفيهُ.

والثاني: جَعْلُ ما يَحُلُّ بهِ بعملِهِ السوءَ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ إلى آخِرِهِ يَجيءُ أنْ يكونَ في الآيةِ إضمارٌ، لم يَذْكُرْهُ[10]، لأنهُ قالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ ثم كَرَّرَ ذلكَ

---

(١) في الأصل وم: يقول. (٢) في الأصل وم: تكونوا. (٣) في الأصل وم: كفرا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: أي عمل السوء بجهالة و. (٩) في الأصل وم: يقال. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم.

الحَرْفَ على الابْتِداءِ مِنْ غَيرِ أنْ ذَكَرَ لهُ جواباً[١]، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للذينَ عَمِلوا السوءَ بجهالةٍ ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فظاهرُ الكلامِ أنْ يقولَ: ثم/ ٢٩٤ ـ ب/ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للذينَ عَمِلُوا السوءَ بِجهالةٍ ثم تابوا ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ الآية [النحل: ١١٠] لكنْ يُخَرَّجُ على الإضمارِ أو على التكرارِ على إرادةِ التأكيدِ أو على الابْتِداءِ والاكْتِفاءِ بجوابٍ ذَكَرَهُ في موضعٍ آخرَ بقولِهِ[٢]: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩] هذا، واللهُ أعلَمُ، جوابٌ. أي إنَّ ربَّكَ بَعْدَ التوبةِ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فهو قبْلَ أنْ يَعْمَلَ عَمَلَ السوءِ. والعَرَبُ قد تُكرِّرُ أشياءَ على إرادةِ التأكيدِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا﴾ قالَ عبدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ: الأُمَّةُ الذي يُعْلِمُ الناسَ الخَيْرَ، والقانِتُ المُطِيعُ للهِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿أُمَّةٗ قَانِتٗا﴾ أي مُؤْمِناً وحدَهُ، والناسُ كُلُّهُمْ كفارٌ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَانَ أُمَّةٗ﴾ أي إماماً يُقْتَدَى بهِ في كلِّ خيرٍ كقولِهِ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ [البقرة: ١٢٤] وقالَ الحَسَنُ: كانَ إماماً أي سُنَّةً يُقْتَدَى بهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سَمَّاهُ أمَّةً [لِما كانَ كالأمَّةِ][٣] والجماعةِ مِنَ القيامِ على[٤] الأعداءِ لأنهُ وإنْ كانَ منفرداً وحدَهُ [كانَ قيامُهُ على][٥] الأعداءِ والأكابِرِ منهمْ كالجماعةِ والعَدَدِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَانَ أُمَّةٗ﴾ أي مَجْمَعَ كلِّ خيرٍ وكلِّ طاعةٍ لِما عَمِلَ هو مِنَ الخَيرِ عَمَلَ الجماعةِ، واجْتَمَعَ فيهِ كلُّ خَيرٍ، فَسَمَّاهُ[٦] أمَّةً لهذا الذي ذَكَرْنا. أو أنْ يكونَ تفسيرُ الأمَّةِ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ والقانتُ: قيلَ: المُطيعُ، والقُنوتُ كما ذُكِرَ أنهُ سُئِلَ [رسولُ اللهِ ﷺ][٧] عنْ أفْضَلِ الصلاةِ، فقالَ: «طولُ القُنوتِ» [مسلم ٧٥٦/ ١٦٤] أي طولُ القِيامِ. فَعَلَى هذا المَعْنَى هو القائمُ للهِ في كل ما تَعَبَّدَهُ، وأَمَرَهُ بهِ.

وقيلَ: ﴿أُمَّةٗ﴾ أي ديناً لِقولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: ٩٢ و...] أي دينُكُمْ ديناً واحداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَنِيفٗا﴾ قيلَ: [الحَنيفُ][٨] الحاجُّ، وقيلَ: الحَنيفُ المُسْلِمُ، وقيلَ: المُخْلِصُ، وفيهِ [عليهِ الصلاةُ والسلامُ][٩] كلُّ ذلكَ؛ كانَ حاجًا مُسْلِماً مُخْلِصاً للهِ.

وأصلُ الحَنَفِ[١٠] المَيْلُ أي كانَ مائلاً إلى أمْرِ اللهِ وما تَعَبَّدَهُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لاشَكَّ أنهُ لم يكُنْ مِنَ المُشْرِكينَ، لكنهُ ذَكَرَ هذا[١١] لِوجهَينِ:

أحدُهُما: لِما ادَّعَى كلُّ أهلِ الأديانِ أنهمْ على دينِهِ، وانْتَسَبَتْ كلُّ فِرْقَةٍ إليهِ، فَبَرَّأَهُ اللهُ مِنْ ذلكَ، وأخبرَ أنهُ ليسَ على ما هُمْ عليهِ مِنَ الدينِ. وهو ما قالَ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ الآية [آل عمران: ٦٧].

والثاني: ذَكَرَ هذا أنهُ لم يَكُنْ مِنَ المشركينَ بقولِهِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦و: ٧٧ و: ٧٨] لأنهُ هو قالَ[١٢] ذلكَ عنهُ على ظاهِرِ ما نَطَقَ، وكانَ[١٣] ذلكَ في الظاهِرِ إشراكاً، ففيهِ شُبْهَةٌ[١٤] في ظاهِرِهِ، فَبَرَّأَهُ اللهُ عَنْ ذلكَ، وأخبرَ أنَّ ذلكَ منهُ لم يكُنْ إشراكاً، ولكنْ على المُحاجَّةِ خَرَجَ ذلكَ منهُ مُحاجَّةَ قومِهِ كقولِهِ: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾ أي [لم][١٥] يَصْرِفْ شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيرِ المُنْعِمِ بل صَرَفَ شُكْرَها إلى مُنْعِمِها. والشكرُ في الشاهدِ هو المكافأةُ، ولا يَبْلُغُ أحدٌ مِنَ الخَلائقِ المرتبةَ التي يُكافِئُ اللهُ في أصْغَرِ نعمةٍ أنْعَمَها عليهِ، ولا يَتَفرَّغُ أحَدٌ عنْ أداءِ ما عليهِ مِنْ إحسانِ اللهِ إليهِ[١٦] فَضْلاً أنْ يَتَفَرَّغَ لِمُكافأتِهِ.

لكنَّ اللهَ بفضلِهِ ومَنِّهِ سَمَّى ذلكَ شُكْراً، وإنْ لم يكُنْ في الحقيقةِ شُكْراً كما ذَكَرَ الصدقةَ التي يَتَصدَّقُ بها العبدُ إقراضاً

---

(١) في الأصل وم: جواب. (٢) في الأصل وم: ثم قال. (٣) من م، ساقطة في الأصل. (٤) في الأصل وم: مع. (٥) في الأصل وم: فكان قيامه مع. (٦) في الأصل وم: فسمى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: هذين. (١١) في الأصل وم: هذين. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم (١٤) في الأصل وم: شبه. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: عليه.

كما سمّى تسليمَهُ نَفْسَهُ وبَذْلَها[1] لأمرِ اللهِ شِراءً، وإنْ كانتْ أنفسُهُمْ وأموالُهُمْ في الحقيقةِ لهُ، ولا يطلُبُ المَرْءُ في العُرْفِ القَرْضَ مِنْ عَبْدِهِ، وكذلكَ الشراءَ. لكنهُ بِلُطفِهِ عامَلَ عبادَهُ مُعامَلَةَ مَنْ لا مُلْكَ لهُ في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ في تَسْمِيَةِ الشكرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لِرسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ أوِ اجْتَباهُ مِنْ بَينِ ذلكَ القومِ، وجَعَلَهُ إماماً يُقْتَدَى بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دينُ الإسلامِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: الثناءَ الحَسَنَ، وقالَ بعضُهُمْ: الحَسَنَةَ في الدنيا؛ لأنَّ جميعَ الأديانِ يَتَوَلَّونَهُ، ويَرْضَونَهُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي ما آتاهُ اللهُ إلّا حَسَنَةً على ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أي ما تأتِنا في الدنيا حَسَنَةً آتِنا كلَّها؛ لأنَّ قولَهُ ﴿حَسَنَةً﴾ إنما هي اسْمُ حَسَنَةٍ واحدةٍ، أو أنْ يكونَ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عندَ قَبْضِ روحِهِ أي على الحَسَنَةِ قَبَضَ روحَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي لم يُنْقِصْ ما آتاهُ في الدنيا عمّا يُؤْتِيهِ في الآخِرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ النُّبُوَّةَ والرِّسالَةَ. أو يُقالُ: إنهُ لم يُبَيِّنِ الحَسَنَةَ التي أخبَرَ أنهُ آتاها إياه، لكنهُ [خصَّهُ بها][2] كما هو خُصَّ في قولِهِ: «اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ» [البخاري ٦٣٥٧] قد كانَ مِنْ إبراهيمَ مَعْنًى، خَصَّ اللهُ إبراهيمَ بهِ مِنْ غَيرِهِ، فذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دينَ إبراهيمَ وسَبِيلَهُ. وذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: جاءَ جبريلُ إلى إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ، يومَ التَّرْوِيَةِ، فَراحَ بِهِ إلى مِنًى، فَعَلَّمَهُ المَناسِكَ كلَّها، وأراهُ إياها[3]، فأوحَى اللهُ إلى محمدٍ ﷺ ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فَنَحْنُ أُمِرْنا أنْ نَتَّبِعَ مِلَّتَهُ في الحَجِّ وفي غَيرِهِ.

وأصلُ المِلَّةِ الدينُ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ ﷺ: «لا يَتَوارَثُ أهلُ مِلَّتَينِ» [الترمذي ٢١٠٨] أي أهلُ دِينَينِ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اختِلافُهُمْ في[4] ذلكَ أنَّ موسى أَمَرَ بَني إسرائيلَ أنْ يَتَفَرَّغُوا في كلِّ سبعةِ أيامٍ يوماً للعبادةِ، وهو يومُ الجمعةِ، ويَنْزِعوا فيهِ عَمَلَ دنياهُمْ، فقالوا: نَتَفَرَّغُ يومَ السبتِ فإنَّ اللهَ لم يَخْلُقْ يومَ السبتِ شيئاً. فقالَ فريقٌ منهمْ: انْظُروا إلى ما يأمُرُكُم نَبِيُّكُمْ، فَخُذوا بِهِ، فذلكَ اختِلافُهُمْ، فَجَعَلَ لهمْ يومَ السبتِ على ما سألوا، فاسْتَحَلُّوا فيهِ المَعاصيَ، فَحَرَّمَ اللهُ عليهِمُ العملَ فيهِ عقوبةً لهمْ.

وقالَ الحَسَنُ وقَتادَةُ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي إنما لُعِنوا[5] في السبتِ، فَمُسِخوا قِرَدَةً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وكانَ اختِلافُهُمْ أنهُ حَرَّمَهُ بعضُهُمْ، واسْتَحَلَّهُ بعضٌ.

وقالَ أبو بكرٍ: اختِلافُهُمْ كانَ في تكذيبِ الرسلِ والأنبياءِ؛ فمنهُمْ مَنْ صَدَّقَ، ومنهُمْ مَنْ كَذَّبَ، فَحَرَّمَ عليهِمْ يومَ السبتِ عُقوبةً، أو يكونُ اختِلافُهُمْ ما سألوا موسى مِنَ الآياتِ العجيبةِ والأسئِلَةِ الوحْشِيَّةِ كقولِهِمْ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وكقولِهِمْ[6]: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ونَحْوَهما[7] بَعْدَ ما أقامَ عليهِمْ مِنَ الآياتِ [ما][8] كانَتْ لهمْ فيها كِفايَةٌ.

فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ اختِلافُهُمُ الذي ذَكَرَهُ[9] ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: وبذله. (٢) في الأصل وم: خص به. (٣) في الأصل وم: إياه. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: لعن. (٦) في الأصل وم: وكقوله. (٧) في الأصل وم: ونحوه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: إنما جَعَلَ [السبتَ مِحْنَةً][1] على الذينَ اخْتَلَفوا فيهِ، أي على الذينَ فَسَقوا فيهِ حينَ[2] قالَ: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

والثاني: إنما جَعَلَ عقوبةَ السبتِ على الذينَ اعْتَدَوا فيهِ دونَ الذينَ اخْتَلَفوا فيهِ؛ لأنَّ فريقاً منهمْ، قد نَهَوْهُمْ عنْ ذلكَ، وفريقاً قدِ اعْتَدَوا، فأهلكَ الذينَ اعْتَدَوا دونَ الذينَ نَهَوْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ عُوقِبوا فيه، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يحكُمُ بينَهُمْ بالجزاءِ، ويَحْكُمُ بما بَيَّنَ لهمُ المُحِقَّ مِنَ المُبْطِلِ، خَيَّبَ فريقاً، وأنْجى فريقاً. فكيفَ قالَ: ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الآية[3]؟ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ بالجزاءِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ قيلَ: دينِ ربِّكَ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي ادْعُهُمْ إلى دينِ اللهِ بالقرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾/ ٢٩٥ ـ أ/ بالحُجَّةِ والبرهانِ، أيِ ادْعُهُمْ إلى دينِ اللهِ بالحُجَجِ والبراهينِ، أي أَلْزِمْهُمْ دينَ اللهِ بالحُجَجِ والبراهينِ حتى يُقِرُّوا بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي عِظْهُمْ بالمَوعِظَةِ التي وَعَظَهُمُ اللهُ تعالى في الكتابِ.

وقالَ أبو بكرٍ: أي ذَكِّرْهُمُ النِّعَمَ التي أنْعَمَ عليهِمْ ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي جادِلْهُمْ أحْسَنَ المُجادَلَةِ بلينِ القَوْلِ وخَفْضِ الجانِبِ والجَناحِ، لَعَلَّهُمْ يَقْبَلُونَ [دينَ اللهِ][4] ويَخْضَعونَ لربِّهِمْ.

وكذلكَ اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [المائدة: ١١٠] وقولِهِ: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١].

قالَ الحَسَنُ: الكتابُ والحِكْمَةُ واحدٌ اسْمٌ مُثَنًّى، وهو القرآنُ. وقالَ بعضُهُمْ: الكتابُ هو القرآنُ، وهو سَماعُ الوَحْيِ، والحكْمَةُ وَحْيُ الإلهامِ، وهو السُّنَّةُ. وقالَ بعضُهُمْ: الكتابُ هو التنزيلُ، والحكْمةُ هي المَعْنَى المُودَعُ فيهِ.

فَمَنْ يقولُ: إنَّ الكتابَ والحِكْمَةَ واحدٌ، وهي القرآنُ، يقولُ في قولِهِ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ القرآنَ. ومَنْ يقولُ عنهُ إنهما غيرُ [واحدٍ][5] يقولُ ههنا: إنَّ الحكمةَ الحُجَّةُ والبرهانُ: إمَّا مِنْ جِهَةِ الإلهامِ وإمَّا مِنْ جهةِ الانْتِزاعِ مِنَ الكتابِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ التي ذَكَرَ في هذهِ السورةِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ﴾ [الآية: ٦٩] يعني مِنْ بُطونِ النحلِ، وقولُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الآية: ٦٦] وما ذَكَرَ أنهُ يُخرِجُ مِنَ الخُشُبِ اليابِسَةِ الأعنابَ وأنواعَ الثمراتِ ونَحْوَهُ [الآيتان: ١٠ و١١]. وذلكَ كلُّهُ بحكمتِهِ، أيِ ادْعُهُمْ إلى دينِهِ، وذَكِّرْهُمْ بهذا، وهُمْ يُقِرُّونَ بهِ ليَقْبَلوا دينَهُ، ويَخْضَعوا لأمْرِهِ.

[ويَحْتَمِلُ قولُهُ][6]: ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية [النحل: ٩٠] وذلكَ كُلُّهُ مُسْتَحْسَنٌ في العَقْلِ وتوجيهِ الحِكْمَةِ، لأنَّ العَدْلَ والإحسانَ وما ذَكَرَ مِنْ إيتاءِ ذي القُرْبَى الصدقةَ مُسْتَحْسَنٌ في عقلِ كلِّ أحدٍ، والانْتِهاءَ أيضاً عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ مُسْتَحْسَنٌ، مُسْتَقْبَحٌ ارْتِكابُهُ وإتيانُهُ؛ كأنَّ الحِكْمَةَ هي التي تَشْتَمِلُ على العِلْمِ والعَمَلِ جميعاً؛ كأنهُ قالَ: ادْعُهُمْ إلى دينِ اللهِ بالعِلْمِ جميعاً حتى يَنْجَعَ ذلكَ فيهِمْ، أوِ ادْعُهُمْ باللِّينِ وخَفْضِ الجَناحِ مَرَّةً بالعُنْفِ والخُشونَةِ ثانيا، فيكونُ وضْعُ الشيءِ مَوْضِعَهُ، ثم قالَ: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ، أي جادِلْهُمْ بالذي يُقِرُّونَ على ما يُنْكِرونَ، وهو ما

---

(١) في الأصل وم: محنة السبت. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: لكن. (٤) في الأصل وم: دينهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

ذَكَرَ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ الآية [النحل: ١٧] وقولُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ [النحل: ٧٣] وقولُهُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الآية [النحل: ٧٥] وقولُهُ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٧٦] وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ﴾ الآية [النحل: ٧١] ونحوُ هذا [أمَرَ أنْ][1] يُجادِلَهُمْ بأحسَنِ المُجادَلَةِ بالذي يُقِرُّونَ أنهُ كذلكَ على الذي[2] يُنْكِرونَ لِيُلْزِمَهُمُ القَبولَ والخُضوعَ لهُ.

ثم في الآيةِ دليلُ تعليمِ المُناظَرَةِ في الدينِ وكَيفِيَّةِ المُعاملةِ بعضِهِمْ لِبَعْضٍ فيها حينَ[3] قالَ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ التي عندَهُ بالقرآنِ أو غيرِهِ مِنَ الحَجَجِ والبيِّناتِ ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هكذا يَجبُ أنْ يُناظِرَ بعضُهُمْ بعضاً بالوَجْهِ الذي وَصَفَ اللهُ تعالى.

وعلى ذلكَ ما ذَكَرَ اللهُ في كتابِهِ مُناظَرَةَ الأنبياءِ والرسلِ معَ الفراعنةِ والأكابرِ، وهو ما قالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وقولُهُ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨٠] ومُناظَرَةُ فِرْعَونَ مَعَ مُوسى، صَلَواتُ اللهِ على نَبيِّنا وعليهِ، حينَ[4] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الشعراء: ٢٣ و: ٢٤] وما قالَ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] وقولُهُ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ [الشعراء: ٣١ و٣٢] وما ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ و: ٥٠] وأمثالُهُ ممَّا يكثُرُ. فهذِهِ مُناظَرَةُ الرُّسُلِ والأنبياءِ معَ الفراعنةِ والأعداءِ. فكيفَ المُناظَرَةُ بينَ الأولياءِ؟ فهذا كلُّهُ يَرُدُّ على مَنْ يأبى المُناظَرَةَ في الدينِ، ويَمْتَنِعُ عنِ التكلُّمِ فيهِ والاحتِجاجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ في الآيةِ نِسْبَتُهُمْ إلى الضلالِ إشارةً وكِنايةً لا تَصْريحاً لأنهُ لم يَقُلْ لهمْ مُصَرِّحاً: إنكُمْ قد ضَلَلْتُمْ عَنْ سَبيلِهِ لِحُسْنِ مُعامَلَتِهِ التي عَلَّمَ رسولَهُ، وأمَرَهُ أنْ يُعامِلَهُمْ، لأنَّ ذلكَ أقْرَبُ إلى القَبولِ وأمْيَلُ إلى القُلوبِ[5] وآخَذُ.

ألا تَرى أنهُ قالَ لِموسى وهارونَ حينَ أرسلَهُما إلى فِرْعَونَ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾؟ [طه: ٤٤]

الآية ١٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ في سَبَبِ نُزولِ ذلكَ.

قالَ بعضُهُمْ: [نَزَلَ][6] في أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وذلكَ أنَّ نفراً منهُمْ قد [مُثِّلَ بهِمْ][7] يومَ أُحُدٍ مُثْلَةً سَيِّئَةً مِنْ قَطْعِ الآذانِ وتَجْديعِ الأنوفِ وبَقْرِ البُطونِ ونَحْوِهِ، فقالَ [رسولُ اللهِ][8] «لَئِنْ أدالَنا اللهُ منهمْ لَنَفْعَلَنَّ كذا وكذا» [بنحوه زاد المسير ٤/ ٣٧٠] فأرادوا أنْ يُجازوا ذلكَ، فأنزَلَ اللهُ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية.

وفيهِ البِشارةُ لهمْ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ على أعدائِهِمْ، لأنهُ لو لم يكُنْ لهمُ الظَّفَرُ بهمْ كيفَ يَقْدِرونَ على معاقَبَةِ مِثْلِ ما عُوقِبوا؟ دلَّ أنهُ على البِشارةِ لهمْ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ بهِمْ.

وفيهِ دِلالَةُ جَوازِ أخذِ مَنْ لم يَتَوَلَّ القَتْلَ والأخذَ والضَّرْبَ لِما لَعَلَّهُمْ لا يَظْفَرونَ بأولئكَ الذينَ تَوَلَّوا ذلكَ، لكنْ يُؤْخَذُ[9] إخوانُهُمْ بهمْ لِما بِمعونةِ بعضِهِمْ بعضاً فَعَلوا [ذلكَ][10] ويكونُ فيهِ دليلُ أخذِ قُطَّاعِ الطريقِ بالقَتْلِ والقَطْعِ، وإنْ كانَ الذي تولَّى ذلكَ بَعْضاً منهمْ لِما أنَّ مَنْ تَوَلَّى ذلكَ إنما تولَّى بِمَعونةِ مَنْ لمْ يَتَوَلَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما نَزَلَتِ الآيةُ في ابْتِداءِ الأمْرِ الذي كانَ القَتْلُ معَ الكَفَرَةِ قَتْلَ مُجازاةٍ مِثْلَ قولِهِ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وكقولِهِ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] ومِثْلَهُ.

فإذا كانَ على المُجازاةِ أمَرَ ألاّ يَتَجاوَزوا عُقوبَتَهُمْ، ولكنْ بِمِثْلِهِ. وأمَّا إذا كانَ القِتالُ معهمْ لا قِتالَ مجازاةٍ فإنهمْ يُقتَلونَ جميعاً إذا أبَوُا الإسلامَ بقولِهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] وقولِهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلاّ اللهُ» [البخاري ٢٥] وقولِهِ تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الذين. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: القبول.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: مثلوا. (٨) في الأصل وم: أصحابهم. (٩) أدرج قبلها في م: لا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أهلِ الإسلامِ وحكْمِهِ في القِصاصِ والقَطْعِ في ما دونَ النفسِ والجراحاتِ. أمَرَ ألّا يَتجاوَزوا حُدودَهُمْ[1] كقولِهِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وقولِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ الآيةَ [البقرة: ١٧٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ﴾ على ما ذَكَرَ ﴿لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ ودلَّ قولُهُ: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ على أنَّ الآيةَ في القِصاصِ لا في الحَرْبِ، لأنهُ في الحَرْبِ لا يُقالُ: اصْبِرْ، ولا يكونُ الصَّبْرُ خيراً. دَلَّ أنهُ في غَيرِ المُحارَبَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمدُ ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][2]: أي وما توفيقُكَ على الصبرِ إلّا باللهِ كقولِ شُعَيبٍ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ [هود: ٨٨].

والثاني: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي تَرْكُكَ القِصاصَ لأمْرِ اللهِ حينَ[3] أمَرَكَ بهِ لا لِضَعْفٍ أو عَجْزٍ فيكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهُ كانَ يَحْزَنُ، ويَضِيقُ صَدْرُهُ لِمَكانِ كُفْرِهِمْ باللهِ وتَرْكِهِمُ الإيمانَ كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] فقالَ: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ لِذلكَ على التَّسَلّي والتَّخفيفِ لا على النَّهْيِ عنْ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾/ ٢٩٥ ـ ب/ على المؤمنينَ الذينَ قُتِلوا، واسْتُشْهِدوا لأنهمْ مُسْتَبْشِرونَ فَرِحونَ ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠] أي لا تَحْزَنْ عليهِمْ، وهُمْ [في ما][4] ذَكَرَ، أو لا تَحْزَنْ على المؤمنينَ، ولا يَضيقَنَّ صَدْرُكَ ممّا يَمْكُرُ بكَ أولئكَ الكَفَرَةُ؛ إذْ كانوا يَمْكُرونَ برسولِ اللهِ وبأصحابِهِ، ويُؤذونَهُمْ. أخْبَرَ ألّا يَضيقَنَّ صدرُكَ لذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتْ في أمْرِ حَمْزَةَ سَيِّدِ الشهداءِ، وإنهُ مُثِّلَ [بِهِ][5] وجُرِحَ جِراحاتٍ عظيمةً، فاشْتَدَّ على النَّبِيِّ، فقالَ: «لَئِنْ ظَفِرْنا بأولئكَ لَنَفْعَلَنَّ كذا، ولَنَفْعَلَنَّ كذا» [الطبراني في الكبير ١١٠٥١] فَنَزَلَتِ الآيةُ ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

لكنْ إنْ ثَبَتَ هذا فإنهُ يكونُ في الوقتِ الذي كانَ يُؤْخَذُ غيرُ[6] القاتِلِ والجارحِ بالقَتْلِ؛ وذلكَ قد كانَ في الابْتِداءِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ [البقرة: ١٧٨] كانوا هَمّوا أنْ يأخذوا الحُرَّ بالعَبْدِ والذَّكَرَ بالأُنْثى حتى نَزَلَ هذا؟ فصارَ مَنسوخاً بهِ وبقولِهِ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩] ولو كانَ يُؤْخَذُ غَيرُ القاتِلِ بالقِصاصِ لم يَكُنْ فيهِ حياةٌ.

أو إنْ قاتَلوا في الحربِ معَ الكَفَرَةِ، فذلكَ يَحْتَمِلُ لأنهُ في الحَرْبِ، لهمْ أن يَقْتُلوا الكلَّ، وألّا يَتْرُكوا واحداً منهمْ.

دلَّ أنهُ يُخَرَّجُ على أحدِ وجهَينِ:

[أحَدُهُما][7]: على النسخِ الذي ذَكَرْنا.

والثاني[8]: على النَّهْيِ عنْ أخْذِ أكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ كقولِهِ: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٩٤].

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ مُخالَفَةَ اللهِ ورسولِهِ بالنصرِ لهمْ والعَوْنِ، فإنَّ اللهَ ناصِرُكُمْ ومعينُكُمْ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ في العَمَلِ والتوحيدِ، أو يقولُ: إنَّ اللهَ مع الذينَ اتَّقَوا مَحارِمَ اللهِ وارْتِكابَ مَناهيهِ بالنَّصْرِ لهمْ والمَعونَةِ ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ إلى نِعَمِ اللهِ بالقيامِ بالشُّكْرِ لها، واللهُ تعالى أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حقوقهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: فيها. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: غيره. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو.

[سورة بني إسرائيل مكية][(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ سُبحانَ كلمةُ إجلالِ اللهِ عنِ الأكفاءِ وتنزيهِهِ عنِ الشركاءِ وتَبرِئَتِهِ عمّا قالتِ المُعَطِّلَةُ فيهِ، وظَنَّتِ المَلاحِدَةُ بِهِ مِنَ الوَلَدِ والحاجاتِ والآفاتِ وجميعِ مَعاني الخَلْقِ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عن تفسيرِ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [المؤمنون: ٩١و...] فقالَ[(٢)]: «هو تَنْزيهُ اللهِ عنْ كلِّ سُوءٍ»[بنحوه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢/٩]

ومَعْنى قولِهِ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ ذَكَرَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على أنْ يَسْرِيَ بِعَبْدِهِ ليلاً مَسيرَةَ شَهْرٍ يَقْدِرُ على إحياءِ [الموتى][(٣)] بَعْدَ الموتِ، ويَمْلِكُ حِفْظَ رسولِهِ والنَّصْرَ لهُ وإظهارَ آياتِ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ وقَطْعَ حِيَلِ المُكَذِّبينَ لهُ والمُخالِفينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ سَمّاهُ أقصى، وهو الأبعَدُ، مِنْ قَصَى يَقْصي، فهو قاصٍ؛ كأنهُ لم يكُنْ يومئذٍ إلا المَسْجِدُ الحرامُ ومَسْجِدُهُ بالمدينةِ ومَسْجِدُ بيتِ المَقْدِسِ، فسمّاهُ، واللهُ أعلَمُ، المَسْجِدَ الأقصى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ قيلَ: سَمّاهُ[(٤)] مُباركاً لكثرةِ أنزالِهِ وخيراتِهِ وسَعَتِهِ. وقيلَ: سَمّاهُ[(٥)] مُباركاً لأنهُ مكانُ الأنبياءِ ومُقامُهُمْ، فَبورِكَ فيهِ بِبَرَكَتِهِمْ ويُمْنِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ أي لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا الحِسِّيَّةِ بَعْدَ ما أرَيناهُ[(٦)] الآياتِ العقليّةَ؛ لأنَّ الآياتِ الحِسِّيَّةَ أكبَرُ في قَطْعِ الشُّبْهَةِ ورَفْعِ الوساوِسِ مِنَ العقليَّةِ، إذْ لا يَشُكُّ أحدٌ في ما كانَ[(٧)] سَبيلُ مَعْرِفَتِهِ الحِسَّ والعِيانَ، وقد تَعْتَرِضُ الشُّبَهُ[(٨)] والوَساوِسُ في العَقْلِيّاتِ لأنهُ لا يَشُكُّ أحدٌ في نَفْسِهِ أنهُ هو، فأحَبَّ ﷺ أنْ يُرِيَ رسولَهُ آياتٍ حِسِّيَّةً تَضْطَرُّ [المُتَعَنِّتينَ إلى][(٩)] قَبولِها والإيمانِ والإقرارِ لهُ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ لِما يَعْلَمونَ أنَّ ما كانَ يُخْبِرُهُمْ مِنْ أخبارٍ حينَ[(١٠)] قالَ: إنهُ رَأى غَيرَ فلانٍ وأموراً يَعْلَمونَ أنهُ لا يقولُ إلا عَنْ مُشاهدةٍ وعِيانٍ، لأنهُ كانَ ما أُوتِيَ مِنَ الآياتِ العقلِيّاتِ قالوا: أنهُ سِحْرٌ، وما ذَكَرَ مِنَ الأنباءِ التي كانَتْ في كُتُبِهِمْ المتقدمةِ قالوا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥و...] وقالوا[(١١)]: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل: ١٠٣] ليسَ ذلكَ عَمَلَ سِحْرٍ ولا إفكاً ولا افْتِراءً ولا أساطيرَ الأوّلينَ على ما نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ مَرَّةً وإلى الإفكِ والافتراءِ ثانياً، ونَحْوِهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَخْفى عليهِ شيءٌ مِنْ قولٍ أو عَمَلٍ. ثم رُوِيَ مِنَ الأخبارِ، وأنهُ عُرِجَ إلى السماءِ حتى رأى إخوانَهُ الأنبياءَ الماضِينَ قَبْلَهُ وما ذَكَرَ فيها. فنحنُ نقولُ ما قالَ الصديقُ، رضوانُ اللهِ تعالى عليه، إنْ كانَ قالَ ذلكَ فأنا أشْهَدُ على ذلكَ، وإلا[(١٢)] نقولُ على مقدارِ ما في الآيةِ: إنهُ أُسْرِيَ بِهِ إلى البيتِ المَقْدِسِ المَسْجِدِ الأقصى، ولا نزيدُ عليهِ، لأنهُ مِنْ أخبارِ الآحادِ فلا تَسَعُ الشهادةُ لهُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني التوراةَ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كلُّ كتابٍ [مِنْ كتبِ][(١٣)] اللهِ هُدىً لِمَنِ اسْتَهْدى ورُشْدٌ لِمَنِ اسْتَرْشَدَ وبَيانٌ[(١٤)] لِمَنِ اسْتَوْضَحَ لأنها دَعَتْ إلى ثلاثِ خصالٍ: دَعَتْ إلى

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أن سورة بني إسرائيل وهي مكية. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: سمى. (٥) في الأصل وم: سمى. (٦) في الأصل وم: أراه. (٧) أدرج قبلها في الأصل: أن. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ربما. (٩) في الأصل وم: المنصفين على. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) من م، في الأصل ولا. (١٣) ساقطة من الأصل و م. (١٤) في الأصل وم: وبيانا.

مَعالي الأمورِ ومَكارِمِ الأخلاقِ ومَصالِحِ الأعمالِ، ونَهَتْ عنْ ثلاثٍ: عنْ مساوئِ الأعمالِ وعنْ سَفاسِفِ الأمورِ ودناءةِ الأخلاقِ ورداءَتِها.

ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ الكتابَ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لأنَّ مَنْفَعَةَ الكتابِ حَصَلَتْ لهمْ لأنهمْ همُ الذينَ اسْتَهْدَوا بهِ. فَعَلى ذلكَ هو هُدىً لِمَنِ اسْتَهْدَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي مُعْتَمداً، أي قُلْنا لهمْ، أو ذَكَرْنا لهمْ فيهِ، أو أمَرْناهُمْ فيهِ ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي مُعْتَمداً موكولاً. الوكيلُ، هو موكولُ الأمرِ إليهِ، مُعْتَمَدٌ في الأحوالِ عليهِ، قائمٌ في جميعِ ما وُكِلَ إليهِ بالتَّبرُّعِ والتَّفضُّلِ.

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها:][2] قالَ بعضُهُمْ: يعني بالذُّرِّيَّةِ الأنبياءَ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ؛ أي كانوا مِنْ ذُرِّيَّةِ نوحٍ ومَنْ حَمَلَ معهُ، وهم بَشَرٌ؛ قالَ ذكرَ هذا لإنكارِهِمْ بَعْثَ الرسلِ مِنَ البَشَرِ حينَ[3] ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]

والثاني: يَحْتَمِلُ غيرَهُ: أي مِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي هؤلاءِ [الكفرةُ][4] مِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فكيفَ خالفوا آباءَهُمُ الذينَ كانوا على الهُدَى، وتابَعوا غيرَهُمْ.

والثالثُ[5]: يَذْكُرُ أنَّ هؤلاءِ الرسلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾/ ٢٩٦ ـ أ/ وهُمْ بَشَرٌ فكيفَ أنْكَروا الرسولَ مِنْ بَشَرٍ.

والرابعُ[6]: هو على النِّداءِ والدُّعاءِ يا﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينةِ في أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النساءِ زمانَ الطوفانِ. لا تتَّخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾. قيلَ: ربّاً وإلهاً، وقيلَ: شريكاً.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا: أنَّ الوكيلَ، هو المُعْتَمَدُ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يعني نوحاً. سَمّاهُ شكوراً لأنهُ كانَ يَذْكُرُ ربَّهُ في جميعِ أحوالِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: الشكورُ هو الذي يَبْتَغي مَرْضاةَ مُنْعِمِهِ، ويَجْتَنِبُ مَساخِطَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الشكورُ، هو المُطيعُ للهِ، وقد ذَكَرْنا مَعْنى الشُّكْرِ أنهُ اسْمُ المكافأةِ. أو يُقالُ كانَتْ عبادَتُهُ للهِ عبادةَ شُكْرٍ. لا عبادةَ استِغْفارٍ؛ أي كانَ شكوراً في عبادَتِهِ لا مُسْتَغْفِراً.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ قالَ الحَسَنُ وغيرُهُ: أوحينا إليهِمْ، وأخبَرْناهُمْ، وأعْلَمْناهُمْ ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: قَضَينا عليهِمْ، وقالَ بعضُهُمْ كَتَبْنا عليهِمْ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزلةِ، لأنهُ أخْبَرَهُمْ[8]، وأعْلَمَهُمْ، على تأويلِ مَنْ زَعَمَ أنَّ القَضاءَ ههنا هو الإعلامُ والإخبارُ لهمْ.

فيُقالُ لهمْ: كانَ أخبَرَهُمْ، وأعْلَمَهُمْ، لِيَصْدُقَ في خَبَرِهِ أولاً. فإنْ كانَ أخبَرَهُمْ لِيَصْدُقَ في خَبَرِهِ فذلكَ منهُ حكمٌ أنهمْ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وإنْ كانَ تأويلُ القضاءِ الكِتابَ والحُكْمَ فهو ظاهرٌ، وهو ما نقولُ: إن كلَّ فاعلٍ فعلاً طاعةً كانَتْ أو مَعْصِيَةً كانَ بحكْمِهِ، ثم مَنْ سألَ آخَرَ عنِ المَعْصِيَةِ أنها كانَتْ بقضاءِ اللهِ فلا يجبُ أنْ يُجابَ لهُ على الإطلاقِ بنعم أوْ لا إلّا أنْ يُبيِّنَ[9] ما يُريدُ بالقضاءِ وما يَفْهَمُ منهُ، لأنَّ القضاءَ يَتَوَجَّهُ إلى [وجهَينِ:

أحدُهما][10]: يَرْجِعُ إلى الخَلْقِ كقولِهِ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي خَلَقَهُنَّ.

[والثاني: إلى][11] الأمرِ بقولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أمرُ ربِّكَ [القضاءُ والحُكْمُ][12] كقولِهِ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] أي احْكُمْ ما أنتَ حاكمٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: ثم قال بعضهم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) أدرج قبلها في م: أخبر أنه. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: أنه. (١٠) في الأصل وم: وجوه. (١١) في الأصل وم: والقضاء. (١٢) في الأصل وم: والقضاء الحكم.

ولم يُعرَفِ القضاءُ الحَمْلَ والدفْعَ على ما يقولُهُ المُعْتَزِلةُ ونَحْوَهُ، فلا يُجابُ على الإطلاقِ إلا أنْ يُبَيِّنَ[1] ما أرادَ بالقضاءِ. فإنْ أرادَ بالقضاءِ الحُكْمَ فعندَ ذلكَ يُقالُ: نعمْ كانَ بقضائِهِ وحُكْمِهِ. وليسَ في ما قَضى، وحَكَمَ، دفْعُهُ في المَعْصِيَةِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: إنَّ بني إسرائيلَ عَصَوا ربَّهُمْ، فَسَلَّطَ اللهُ عليهمْ جالوتَ، فَقَتَلَهُمْ، وسَبى ذَرارِيَّهُمْ، وسَلَبَ[2] أموالَهُمْ، فكانوا كذلكَ زماناً، ثم تابوا، ورَجَعوا عن ذلكَ. ثم بعثَ اللهُ داوودَ، فَقَتَلَ جالوتَ، واسْتَنْقَذَهُمْ منْ يَدَيهِ، وردَّهُمْ، ثم عادوا إلى ما كانوا مِنْ قَبْلُ. ثم سَلَّطَ عليهِمْ بُخْتُنُصَّرَ، فَفَعَلَ بهِمْ مافَعَلَ جالوتُ، ثم تابوا. فَبَعَثَ محمداً ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: بَعَثَ أوَّلاً بُخْتُنُصَّرَ، ثم فلاناً وفلاناً، وهو ما قالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى العِصيانِ ﴿عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٥ ـ ٨] إلى العقوبَةِ.

وليسَ لنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى ما فيهِ مِنْ وجوهِ الحِكْمَةِ والدلالةِ:

أحدُها: دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ عما كانَ في كُتُبِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ عَلِمَ ما في كُتُبِهِمْ، ولا اخْتَلَفَ إلى أحدٍ منهمْ، فكانَ على ما أخْبَرَ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ بما أخْبَرَهُ في كتابِهِ.

والثاني[3]: أنهُ لم يُهْلَكْ قومٌ بنفسِ الكُفْرِ إهلاكَ اسْتِئصالٍ حتى كانَ منهمْ معَ الكُفْرِ السَّعْيُ في الأرضِ بالفسادِ والعِنادُ للآياتِ.

[والثالثُ: أنهُ][4] ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لهمْ وإعطاؤهُ [إياهمْ][5] في الدينِ حينَ[6] لم يُمِتْهُمْ على الإيمانِ، ولكنْ تَرَكَهُمْ حتى عَصَوا ربَّهُمْ، ثم سَلَّطَ عليهِمْ مَنْ قَتَلَهُمْ على تلكَ الحالِ، ودعاهُمْ إلى دينِهِ، وهو كُفْرٌ. فلو كانَ عليهِ إعطاءُ الأصلَحِ لأماتَهُمْ على الإسلامِ، فذلكَ أصلَحُ لهمْ في الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ قيلَ: لَتَجْتَرِؤُنَّ جَراءةً عظيمةً، وقيلَ: ولَتَقْهَرُنَّ، ولَتَغْلِبُنَّ غلَبَةً كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي قَهَرَ، وغَلَبَ. الا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص: ٤] ثَبَتَ أنهُ على الغَلَبَةِ والقَهْرِ.

وقيلَ: العُلُوُّ، هو العُتُوُّ والجَراءةُ والتَّكَبُّرُ، وهو ما ذَكَرْنا.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي جاءَ وَعْدُ هلاكِ مَنْ عَصى منهُمْ أوَّلاً، وخالفَ أمْرَ اللهِ، وكَفَرَ بهِ، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ ليسَ على بَعثِ الوحْيِ إليهِمْ، ولكنْ على التَّخْلِيَةِ، أي خَلَّينا بَينَهُمْ وبَيْنَ عبادٍ ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أُولي بَطْشٍ شديدٍ وقُوَّةٍ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] أي سَلَّطْنا عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على المُعْتَزِلةِ لأنهُ ذَكَرَ[أنهُ][7] بَعَثَ عليهِمْ عباداً أُولي بأسٍ شديدٍ، وإنما بَعَثَهُمْ لِجَزاءِ إساءَتِهِمْ ولسوءِ صَنيعِهِمْ، وذلكَ شَرٌّ، يُفْعَلُ بهِمْ. دلَّ أنَّ لِلّهِ صُنْعاً في جميعِ فِعْلِ العبادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: جاسوا: مِنَ التَّجَسُّسِ، أي يَتَجَسَّسُونَ أخبارَهُمْ، ويَسْمَعونَ أحاديثَهُمْ، وهُمْ جنودٌ، جاؤوا مِنْ فارِسَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَجَاسُواْ﴾ أي قَتَلوا الناسَ في الأزِقَّةِ وفي الطرقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي [وَعْدَ][8] الذينَ قالَ [لهمْ][9]: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وعداً كائناً مفعولاً، أي كانَ وعداً موعوداً مفعولاً كائناً، إذ[10] الوعدُ لا يأتي، وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي مَوعوداً مَأْتِيّاً، وكذلكَ ما أشْبَهَ هذا.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: وفيه. (٤) في الأصل وم: وفيه أن. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل وم: وإلا.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الغَلَبَةَ والهلاكَ عليهِمْ ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكْثَرَ رجالاً منكُم. قيلَ: ذلكَ وَعَدداً[1]، ثم إذا عَصَوا ثانياً، وكَفَروا بربِّهِمْ، سَلَّطَ اللهُ عليهِمْ قوماً آخَرينَ، فَدَمَّروا عليهِمْ. فذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: ٧و١٠٤] الهلاكُ والتدميرُ، أي مَوعودُ الآخِرَةِ ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

ثم وَعَدَ لَهُمُ الرحمةَ إنْ تابوا، ورجَعوا عنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨] ثم أوْعَدَهُمُ العَودَ إليهِمْ بالعقوبةِ بقولِهِ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي وإنْ عُدْتُمْ إلى المَعاصي عُدْنا عليكُمْ بالعقوبةِ.

ثم قولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ سَلَّطَ عليهِمْ بَخْتُنَصَّرَ وجالوتَ ثم فلاناً وفلاناً، فذلكَ لا يُعْلَمُ إلا بالخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ، وليسَ في الآيةِ سِوَى أنهُ بَعَثَ عليهِمْ ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فلا يُزادُ على ذلكَ إلا بالخَبَرِ سِوَى أنهُ ذَكَرَ هذا لنا. وفيهِ وَجْهانِ[2] مِنَ الحِكْمَةِ:

أحَدُهما[3]: ما ذَكَرْنا مِنْ إثباتِ نُبُوَّةِ محمدٍ ومنْ صِدْقِ رسولِهِمْ حينَ[4] حَذَّرَهُمُ العقوبةَ بِعِصْيانِهِمْ. فكانَ كما قالَ.

والثاني[5]: تَحْذيرُنا عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ لأنهمْ لَيسوا بذلكَ أولَى مِنْ غَيرِهِمْ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي عاثوا بَينَ الديارِ، وأفسَدوا، ويُقالُ: جاسوا، واجْتاسوا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي الدَّوْلَةَ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي عَدَداً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ هو مِنَ الخُروجِ والنَّفْرِ؛ ومَعْناهُ: أكْثَرُ عَدَداً.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ مَعْناهُ: أي قَتَلوا في ديارِهِمْ.

وقالَ قَتادَةُ: النفيرُ المُقاتِلَةُ الذينَ يُستَنْفَرونَ لِلْقِتالِ، أي لوِ اسْتُنْفِرْتُمْ أنتمْ، واسْتُنْفِرَ أولئكَ كنتُمْ أكثَرَ منهُمْ. ثم جاءَ قولُهُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ إلى قولِهِ ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾

ومَعْلومٌ[6] أنهُ لم يكُنْ في كتابِهِمْ هذا اللفظُ: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿فَجَاسُوا﴾ على الاِبْتِداءِ، ولكنْ كانَ، واللهُ أعلَمُ، إذا جاءَ وَعْدُ أولاهُما لَيَبْعَثَنَّ عِباداً أولي بأسٍ شديدٍ، يَتَجَسَّسُونَ، أو يَجْتاسُونَ.

لكنهُ خاطَبَ بهذا، واللهُ أعلَمُ[الذينَ][7] كانوا بِحَضْرَةِ رسولِ اللهِ ﷺ وإنْ كانوا هُمْ لم يَفْعلوا ما ذَكَرَ، لكنْ لِما فَعَلَ أوائِلُهُمْ خاطَبَ هؤلاءِ لِما كانوا/ ٢٩٦ ـ ب/ يَفْتَخِرونَ بأوائِلِهِمْ، ويقولونَ هُمْ ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] فَيُذَكِّرُ هؤلاءِ نِعْمَةَ التي أنْعَمَ على أولئكَ، ويُحَذِّرُهُمْ صنيعَهُمْ، وهو ما خاطَبَهُمْ بقولِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ الآيةَ [البقرة: ٥٥] وقولِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] ونَحْوِهِ.

خاطَبَ هؤلاءِ الذينَ كانوا بِحَضْرَةِ رسولِ اللهِ ﷺ وعاتَبَهُمْ على صَنيعِ أولئكَ وفِعْلِهِمْ، وإنْ كانَ هؤلاءِ لم يَقولوا ذلكَ لِما[لم يَرضَوا][8] بِصَنيعِ أولئكَ، وتحذيراً عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لا للهِ، إذْ إليكُمْ تَرْجِعُ مَنْفَعَةُ ذلكَ، وأنْتُمْ تُجْزَونَ[9] وعلى ذلكَ ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فَعَلَيها كقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ الآية [فصلت: ٤٦] أي عليها ضَرَرُ[10] ذلكَ. وعلى ذلكَ جميعُ [ما][11] أمَرَ اللهُ عبادَهُ مِنَ الأعمالِ، أو نَهاهُمْ عنها؛ إنما أمَرَ، ونَهَى لِمَنْفَعَةِ أنْفُسِهِمْ ولِحاجَتِهِمْ لا لِمَنْفَعَةٍ لهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي إلى أنْفُسِكُمْ تُسيؤونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي جاءَ وَعْدُ مَوعودِ الآخِرَةِ، وهو العقوبةُ بِعِصْيانِهِمْ وتكذيبِهِمْ رُسُلَ اللهِ.

---

(١) من م، في الأصل: وعدا. (٢) في الأصل وم: وجوه. (٣) في الأصل وم: أحدها. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) الواو ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل وم: رضوا. (٩) في الأصل وم: تحزنون. (١٠) في م: ضرورة. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ بالتَّغْيِيرِ وتبديلِ الدينِ ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ بِواوَيْنِ على الجماعةِ، وبواوٍ واحدةٍ[1] على الواحدِ: لِيَسوءَ وجوهَكُم، ولم يُبَيِّنْ مَنْ يَسوءُ وجوهَهُمْ كما ذَكَرَ في الوَعْدِ الأوَّلِ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] فهمْ يَسُوءُونَ وجوهَكُمْ.

ومَنْ قرَأَ بالنونِ[2]: لِنَسوءَ ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أضافَ إلى نفسِهِ لِما يأمُرُهُ ما كانَ يَفْعَلُ وبِتَسْليطِهِ إياهُمْ عليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ الوجْهَ ههنا كِنايةً عنِ الحُزْنِ والهَمِّ والإهانةِ لهمْ كما يُقالُ في السرورِ: أكْرَمَ وجْهَهُ، أي أدخَلَ فيهِ سُروراً، أو ذَكَرَ الوَجْهَ لِما بالوَجْهِ يَظْهَرُ ذلكَ التَّغْييرُ والقُبْحُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في ظاهرِ الآيةِ أنْ يَدْخُلَ الأوَّلونَ المَسْجِدَ في المَرَّةِ الثانيةِ كما دَخَلَ الأوَّلونَ في المَرَّةِ الأولى لأنهُ قالَ: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لكنْ يَحْتَمِلُ لِيَدْخُلَ عبادٌ آخرونَ المسجدَ في المرَّةِ الثانيةِ كما دخلَ الأوَّلونَ في المرَّةِ الأولَى. وقالَ بعضُهُمْ: المَسْجِدُ ههنا: الكنيسةُ والبِيْعَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ أي لِيُهْلِكُوا ما عَمِلوا بهِ، أي ما غَلَبوا بهِ، وقَهَروا، أيِ الأسبابَ التي عَصَوا بها.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ أي لِيُفْسِدوا ما مَلَكوا، والتَّبارُ الفَسادُ؛ يُقالُ: عَلَوتُ الشيءَ، أي مَلَكْتُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ لأولئكَ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وفيهِمْ نَزَلَ ما نَزَلَ: يَرْحَمَهُمْ إنْ تابوا. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بمحمدٍ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى التكذيبِ والعِصْيانِ ﴿عُدْنَا﴾ إلى العُقوبةِ والقِتالِ إلى يَومِ القِيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ قيلَ: سَجيناً؛ لا يَخْرُجونَ منها. وقيلَ: مَحْبَساً وحَصيراً؛ يُحْصَرونَ فيها واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ على مَعْنى التأنيثِ في قولِهِ: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ قيلَ بوجوهٍ: قيلَ ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى﴾ للمِلَّةِ التي ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ المِلَلِ وأعْدَلُها. والمِلَّةُ هي الدينُ دينُ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَهْدي إلى الأمورِ التي هي أعْدَلُ الأمورِ وأصْوَبُها. وقيلَ: يَهْدي إلى السبيلِ التي هيَ أقْوَمُ السُّبُلِ وأعْدَلُها. يَحْتَمِلُ هذهِ الوجوهَ الثلاثةَ التي ذَكَرْناها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي للأعمالِ الصالحاتِ ولِلْخَيراتِ لأنَّ الأعمالَ الصالحاتِ، قِوامُها بهِ. ثم قولُهُ: ﴿يَهْدِى﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما[3]: يُبَيِّنُ. والثاني: يَدعو. فهو يَهْدي الكُلَّ لَوِ اسْتَهْدَوا، لكنْ خَصَّ هؤلاءِ لِما [أنَّ المَنْفَعَةَ][4] تكونُ لِمَنْ ذَكَرَ. وقد ذَكَرْنا أنَّ هذا القرآنَ وغَيرَهُ مِنْ كُتُبِ اللهِ هُدىً ورَحْمَةٌ، يدعو إلى ثلاثِ خِصالٍ: إلى مَعالي الأمورِ ومَكارِمِ الأخلاقِ ومَحاسِنِ الأعمالِ ومَصالِحِها، ويَنْهَى عنْ مَساوِئِ الأعمالِ ودانِي الأمورِ وسوءِ الأخلاقِ ودَناءَتِها. فهو هُدىً ورَحْمَةٌ على ما أخْبَرَ لِمَنِ اسْتَهْدى بهِ، ورُشْدٌ لِمَنِ اسْتَرْشَدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ البِشارةُ المُطْلَقَةُ إنما جَعَلَ للمؤمنينَ الذين عَمِلوا الصالحاتِ، لم يَذْكُرْ للمؤمنينَ خاصَّةً على غَيرِ العَمَلِ الصالحِ، فالمسألةُ فيهِمْ غَيرُ المسألةِ في[5] هؤلاءِ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ اسْمَ الإيمانِ قد يَسْتَحِقُّ بدونِ العَمَلِ الصالحِ حينَ يُشْرَطُ فيهِ العَمَلُ الصالحُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ سَمَّاهُ كبيراً لِكَبيرِ خَطَرِهِ عندَ اللهِ كما سَمَّى النارَ عظيماً لِعِظَمِ خَطَرِهِ عندَهُ، أو سَمَّاهُ كبيراً لأنهُ أكْبَرُ ما يُقْصَدُ إليهِ، ويُرْغَبُ فيهِ، وهو ثوابُ الجنةِ. والنارُ أعظَمُ ما يُحَذَّرُ بها، ويُرْهَبُ منها.

---

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/٣٠٨. (٣) في الأصل و م: يحتمل. (٤) في الأصل و م: منفعة. (٥) في الأصل و م: و.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إنكارُهُمُ البَعْثَ وكُفرُهُمْ بِهِ، هو الذي حَمَلَهُمْ على تكذيبِهِمُ الرسلَ وكفرِهِمْ باللهِ لِتَسْلَمَ لهمْ شَهَوَاتُهُمْ في الدنيا، لأنَّ الرسلَ جميعاً، دَعَوهُمْ إلى تَرْكِ شَهَواتِهِمْ في الدنيا، ورَغَّبوهُمْ بما يُوجِبُ لهمُ الثوابَ في الآخِرَةِ [وحَذَّروهُمْ مِمّا][1] يُوجِبُ العقابَ، فأنكَروا الآخِرَةَ والبَعْثَ رأساً لِتَسْلَمَ لهمُ الدنيا. فذلكَ الذي حَمَلَهُمْ على إنكارِ الرسلِ وتكذيبِهِمْ إياهُمْ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٢] أي بالقرآنِ [أو بِمحمدٍ، أي][2] إيمانُهُمْ بالبَعْثِ حَمَلَهُمْ على الإيمانِ بالقرآنِ والرسولِ، وتكذيبُهُمُ الآخرةَ حَمَلَهُمْ على تكذيبِ الرسلِ، واللهُ أعلَمُ؟

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إذا غَضِبَ الإنسانُ يَدْعُو على نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وأهلِهِ، ويَلْعَنُ كَدُعائِهِ عليهِمْ بالخَيرِ؛ لِذلكَ انْتَصَبَ قولُهُ ﴿دُعَآءَهُۥ﴾.

وقالَ الحَسَن: إنَّ الإنسانَ يَتضايَقُ صَدْرُهُ وقَلْبُهُ بأدْنَى شيءٍ، يُكْرَهُ، فَيَلْعَنُ على نفسِهِ وأهلِهِ، فلا يُجيبُهُ اللهُ، ثم يَدْعُو بالخَيرِ، فَيُعطيهِ، أو نَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ على العِلْمِ منهُ بذلكَ كَدُعائِهِ بالخَيرِ على العِلْمِ منهُ بذلكَ.

والثاني: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ لو أُجيبَ فيهِ على الجَهْلِ منهُ والغَفْلَةِ كَدُعائِهِ بالخَيرِ لو أُجيبَ في ذلكَ.

ثم إنْ كانَ ذلكَ الإنسانُ هو الكافِرَ، فهو يَدْعُو على الاِسْتِهْزاءِ كقولِهِ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] وكذلكَ قولُهُ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] ونَحْوَهُ.

وإنْ كانَ مُسْلِماً فهو يَدْعُو بالشَّرِّ على نفسِهِ وأهلِهِ عندَ الغَضَبِ على عِلْمٍ منهُ أنهُ [منهُ][3] ويَدْعُو أيضاً بالشَّرِّ على السَّهْوِ والغَفْلَةِ منهُ نحوَ ما يَسْأَلُ الأموالَ والنكاحَ، ولَعَلَّ ذلكَ شَرٌّ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا لآدمَ لأنهُ لَمّا خَلَقَهُ اللهُ، فَنَفَخَ الروحَ في بَعْضِ جَسَدِهِ، هَمَّ أنْ يقومَ، فَسَمّاهُ عجولاً. لكنْ كلُّ الإنسانِ خُلِقَ في الطبعِ مِنَ الأصلِ عجولاً. ألا تَرَى أنهُ لا يَصْبِرُ على أمْرٍ واحدٍ ولا على شيءٍ واحدٍ، وانْ كانَ نِعْمَةً لم يَصْبِرْ عليها، ولكنْ يَمَلُّ عنها، وكذلكَ في أدْنَى شِدَّةٍ وبلاءٍ إذا بُلِيَ بِهِ، لم يَصْبِرْ/ ٢٩٧ ـ أ/ عليها. فأبداً يريدُ الاِنْتِقالَ من حالٍ إلى حالٍ؟

ألَا تَرَى أنَّ قومَ موسى قد أكْرَمَهُمُ اللهُ بِكراماتٍ مِنْ إنزالِ المَنِّ والسَّلْوَى عليهِمْ مِنْ غَيرِ كَدٍّ ولا جَهْدٍ ولا مُؤْنَةٍ وكذلكَ اللباسِ، ثم لم يَصْبِرُوا على طعامٍ واحدٍ، فَسَألوا ربَّهُمُ الثومَ والبَصَلَ ونَحْوَهُ على طَبْعِ الإنسانِ مَلولاً عجولاً؟

ألَا تَرَى أنَّ اللهَ مَكَّنَ في باطِنِهِ، وجَعَلَ في [وُسْعِهِ رياضةً][4] نفسِهِ، وصَرَفَها إلى أحدِ الوجهَينِ الذي يُحْمَدُ[5] عليهِ، ولا يُذَمُّ؛ وهو أنْ يُرَوِّضَها، ويُعَوِّدَها على الصَّبْرِ والحِكْمَةِ[6] والوقارِ، ويَصْرِفَ تلكَ العَجَلَةَ إلى الخَيراتِ والطاعاتِ التي يُحْمَدُ[7] عليها المَرْءُ بالعَجَلَةِ؟ وإلّا ففي ظاهِرِ الخِلْقَةِ والطبعِ مُنْشَأٌ على العَجَلَةِ وما ذُكِرَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾][8] [المعارج: ١٩ ـ ٢٢] وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ؟ لكنْ بِما امْتَحَنَهُ مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ والتَّرْغيبِ في المَوْعودِ والتَّرْهيبِ صَيَّرَهُ بحيثُ يَمْلِكُ [إخراجَ نفسِهِ][9] عمّا طُبِعَ، وأُنْشِئَ إلى حالٍ أُخرَى بالرياضَةِ التي ذَكَرْنا.

الا تَرَى أنهُ ذَكَرَ الهَلَعَ و الجَزَعَ، ثم اسْتَثْنَى [﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾][10] [المعارج: ٢٢] وعلى ذلكَ خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ على هِمَمٍ

---

(١) في الأصل و م: وحذرهم عما. (٢) في الأصل: وبمحمد، في م: أو بمحمد. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: سعة رياضية، في م: سعة رياضة. (٥) في الأصل و م: يجهد. (٦) في الأصل و م: الحكم. (٧) من م، في الأصل: يحمل. (٨) في الأصل و م: إلا كذا.
(٩) في الأصل وم: إخراجه. (١٠) في الأصل وم: إلا كذا.

مُخْتَلِفَةٍ وأطوارٍ مُتَشَتِّتَةٍ، لم يَخْلُقْهُمْ جميعاً في مَعاني الأمورِ ومَعاظِمِ الحِرَفِ وأرْفَعِ الأسماءِ، بل طَبَعَهُمْ على أطباعٍ مُخْتَلِفَةٍ: فمنهُمْ مَنْ يَرْغَبُ في مَعالي الأمورِ والحِرَفِ، ومنهمْ مَنْ كانَتْ هِمَّتُهُ الرَّغْبَةَ في الدُّونِ مِنَ الأمورِ والحِرَفِ: في الحِجامَةِ والدِّباغةِ والحِياكَةِ ونَحْوِها؛ وكذلكَ في الأسماءِ، ومنهُمْ بِخِلافِ ذلكَ. ولو كانَتْ هِمَّتُهُمْ هِمَّةً واحدةً لَذَهَبَتِ المَنافِعُ والمَعارِفُ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: المُرادُ بالليلِ والنهارِ الشمسُ والقَمَرُ، أي جَعَلْنا في الشمسِ والقَمَرِ [آيةً](١) الا تَرَى أنهُ أضافَ الآيةَ إلى الليلِ والنهارِ حينَ(٢) قالَ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ وحينَ(٣) قالَ أيضاً: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] وإنما يُعْلَمُ ذلكَ بالقَمَرِ؟

الا تَرَى أنهُ قالَ أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ الآية [يونس: ٥]؟ إنما أضافَ مَعْرِفَةَ عَدَدِ السنينَ والحسابِ إلى القَمَرِ. دلَّ أنهُ بالقَمَرِ يُعْلَمُ ذلكَ، وهو قولُ عليٍّ وابنِ عباسٍ ﷺ وغَيرِهما(٤) من أهلِ التأويلِ. ويكونُ تأويلُ المَحْوِ الذي ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ ما قالوا في مَحْوِهِ، وهو السَّوادُ الذي يُرَى، والنقصانُ الذي يكونُ فيهِ في آخِرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: مَحَى تِسْعَةً وسِتِّينَ(٥) جُزْءاً مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً. إلى هذا يَذْهَبُ هؤلاءِ.

وأمّا الحَسَنُ وأبو بكرٍ وهؤلاءِ فهمْ يَقولونَ: ليسَ في الآيَةِ ذِكْرُ الشمسِ والقَمَرِ، إنما ذَكَرَ الليلَ والنهارَ، وأخبَرَ أنهُ جَعَلَهُما آيَتَينِ، فهما كذلكَ آيتانِ، وبِهما يُعْلَمُ عددُ السِّنينَ والحسابُ؛ لأنهُ بالأيامِ يُعْرَفُ ذلكَ.

فأما الشهورُ فإنها(٦) إنما تُعْرَفُ بالقَمَرِ، لا تُعْرَفُ بالأيامِ. ويكونُ [تأويلُ قولِهِ](٧): ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جَعَلْنا آيَةَ الليلِ في الابتِداءِ مَمْحُوَّةً مُظْلِمَةً ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مُضيئةً في الابتِداءِ، ليسَ أنْ كانَتا جميعاً مُبْصِرَتَينِ مُضيئَتَينِ، ثم مَحَى آيَةَ الليلِ، وأُبْقِيَتْ آيَةُ النهارِ مُضيئَةً. ولكنْ أنشأَ آيَةَ الليلِ في الابتِداءِ مُبْصِرَةً، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٨و١٩] أي أنشأهُما في الابتِداءِ كذلكَ، لا إنَّ السماءَ، كانَتْ مَوضوعةً، فَرَفَعَها، وكذلكَ الجبالُ، كانَتْ مَبسوطَةً، ثم نَصَبَها، ولكنْ أنشأهما في الابتِداءِ كذلكَ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جَعَلَهُما(٨) في الابتِداءِ: هذا مُظْلِماً مَمْحُوّاً وهذا مُبْصِراً مُضيئاً.

[وقولُهُ تعالى:](٩) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ هما آيَتانِ مُخْتَلِفَتانِ، بل مُتَضادَّتانِ، تُضادُّ كلٌّ [واحدةٍ منهما صاحِبَتَها؛ إذ](١٠) كلُّ واحدةٍ تَنْسَخُ الأُخرَى حتى لا يَبْقَى لها أثَرٌ. وهما آيَتانِ دالَّتانِ على وَحْدانِيَّةِ اللهِ تعالى لأنهُ لو كانَتا فِعْلَ عَدَدٍ لكانَ إذا أتى هذا على هذا، مَنَعَ عنْ أنْ يكونَ للآخَرِ سُلْطانٌ أو أمْرٌ فإذا لم يكُنْ دلَّ أنهُ صُنْعُ واحدٍ.

وفيهما دلالةُ تدبيرِهِ حينَ(١١) جَرَيا على سَنَنٍ واحدٍ و مقدارٍ واحدٍ على غَيرِ تَفاوُتٍ يكونُ فيهما وتَفاضُلٍ أو تَغَيُّرٍ على ما كانَ، ومَضَى. دلَّ أنهُ عنْ تدبيرٍ خَرَجا، وكانا كذلكَ.

وفيهِ دلالةُ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ لَمّا جَعَلَ فيهما مِنَ المَنافِعِ ما لو كانَ الليلُ سَرْمَداً لذهبَتْ(١٢) مَنْفَعَةُ الليلِ نفسِهِ. ولو كانَ النهارُ سَرْمَداً لَذَهَبَتْ مَنْفَعَةُ النهارِ رأساً.

وفيهِ دلالةُ البَعْثِ لأنهُ يُتْلِفُ أحدَهُما إذا جاءَ الآخَرُ حتى لا يَبْقَى لهُ أثَرٌ البَتَّةَ، ثم يُعيدُهُ على ما كانَ مِنْ غَيرِ أنْ يُعْلَمَ أنهُ غَيرُ الأوَّلِ.

ثم قولُهُ تعالى ﴿ءَايَتَيْنِ﴾ والآيَةُ علامةٌ، وعلامَتُهما، لا تُعْرَفُ إلّا بالتَّأمُّلِ والنَّظَرِ فيهما. فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ مُرادُ ما في القرآنِ والمَعْنى المُودَعِ(١٣) فيهِ إلّا بالتَّأمُّلِ والنَّظَرِ فيهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وغيرهم. (٥) في الأصل وم: وستون. (٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) في الأصل وم: قوله تأويل. (٨) في الأصل وم: جعلها. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل: واحد منهما صاحبتها إذا، في م: واحدة منهما صاحبتها إذا. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: ذهب. (١٣) من م، في الأصل: الموعود.

وفيهما دلالةُ نَقْضِ قولِ أصحابِ الطبائِعِ وأصحابِ النجومِ والدُّهْرِيَّةِ وجميعِ المَلاحِدَةِ:

أمّا نَقْضُ قولِ أصحابِ الطبائِعِ فَما[١] ذَكَرْنا مِنِ اتِّساقِ مَجْراها على سَنَنٍ واحدٍ وأمْرٍ واحدٍ، دلَّ أنهُ بالتَّدبيرِ صارَ[٢] كذلكَ لا بالطبعِ.

وأمّا نَقْضُ قولِ أصحابِ النجومِ [فهي][٣] مُسَخَّرَةٌ لِمَنافِعِ الخَلْقِ، ومَغْلوبَةٌ؛ يَغْلِبُها ضَوءُ الشمسِ ونورُ القمرِ حتى لا تُرَى، دلَّ أنهُ، لا تَدْبيرَ لها، وأنَّ التَّدْبيرَ لِغَيرِها.

والرَّدُّ[٤] على غَيرِهِمْ مِنَ المُلْحِدَةِ ما ذَكَرْنا مِنِ اتِّصالِ مَنافِعِ هذا بهذا، دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يَحتَمِلُ الفَضْلُ الذي ذَكَرَ الرزقَ والمَعاشَ الذي ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبإ: ١١] ويَحتَمِلُ أنواعَ فَضْلٍ تكونُ في الدينِ ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ بهما يُعْرَفُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ يَحتَمِلُ التفصيلُ تَفْصيلَ آيةٍ مِنْ أُخرَى، أي لم يَجْعَلْهُما آيةً واحدةً على ما ذَكَرَ. وقالَ الحَسَنُ: [فَصَّلَ، أي][٥] بَيَّنَ ما أمَرَ عبادَهُ، ونَهاهُمْ، أي بَيَّنَ، وفَصَّلَ ما يُؤتَى وما[٦] يُتَّقَى، و: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي فَصَّلَهُ تفصيلاً، لم يَتْرُكْهُ مُبْهَماً، بل بَيَّنَ غايةَ البَيانِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: طائرُهُ شَقاوتُهُ وسَعادَتُهُ ورزقُهُ وعَيشُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: عَمَلُهُ الذي عَمِلَ مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ. وقالَ بعضُهُمْ: حَظُّهُ ونَصيبُهُ مِنْ عَمَلِهِ، وهو جَزاؤُهُ، ونَحْوُ ذلكَ، [ذلكَ][٧] كلُّهُ يَرْجِعُ إلى مَعْنىً واحدٍ، لأنهُ إنما يَسْعَدُ [الإنسان][٨] ويَشْقَى بِعَمَلِهِ الذي يَعْمَلُهُ وكذلكَ بِجَزاءِ[٩] عَمَلِهِ.

ولِذلكَ قالَ الحَسَنُ في تأويلِ قولِهِ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] أي بأعمالِنا التي عَمِلْناها، ثم تُخَرَّجُ تَسْمِيَةُ العَمَلِ وما ذَكَروا طائراً لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: على وَجْهِ التَّفاؤُلِ والطِّيَرَةِ؛ كانوا يَتَفاءلونَ، ويَتَطَيَّرونَ بأشياءَ: بالطائِرِ وغَيرِهِ، ويقولونَ: جَرَى لهُ الطائرُ بكذا مِنَ الخَيرِ، وجَرَى لهُ بكذا مِنَ الشَّرِّ على طريقِ الفَألِ والطِّيَرَةِ، فخاطَبَهُمْ على ما يَسْتَعْمِلونَ، وأخبَرَ أنَّ ذلكَ يَلْزَمُ أعناقَهُمْ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقولُهُ[١٠] ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقولُهُ أيضاً ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ الآية [النمل: ٤٧] ونَحْوُهُ.

والثاني: سَمَّى الأعمالَ التي عَمِلوها طائراً لِما أنَّ الذي يَتَوَلَّدُ منهُ تلكَ الأعمالُ كالطائرِ، وهو الهِمَّةُ؛ أوّلاً: يَخْطُرُ [ببالِ الإنسانِ شيءٌ، وفي][١١] الإخطارِ لا صُنْعَ لهُ فيهِ، ثم يَهْتَمُّ، ثم تَبْعَثُ الهِمَّةُ على الإرادةِ، ثم الإرادةُ تَبْعَثُ على الطَّلَبِ والعملِ. فالهِمَّةُ التي في النفسِ التي تَتَوَلَّدُ منها الأعمالُ كالطائرِ، فَسَمّاهُ لِذلكَ باسْمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ [وَجْهَينِ:

أحَدُهما][١٢]: أنْ يكونَ العُنُقُ كِنايَةً عنِ النَّفْسِ، أي ألْزَمْناهُ نفسَهُ. وذلكَ جائزٌ؛ يُقالُ: هذا لكَ عَلَيَّ، وفي عُنُقي.

والثاني: /٢٩٧ ـ ب/ [أنْ يكونَ][١٣] ذَكَرَ العُنُقَ كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ إذا أرادَ التَّخَلُّصَ [مِنْ][١٤] عَمَلٍ: قَلَّدْتُكَ هذا العَمَلَ، وجَعَلْتُهُ في عُنُقِكَ، أي تكونُ أنتَ المَأخوذَ بهِ آثماً إنْ كانَ في ذلكَ شَرٌّ، وأنتَ المَأجورَ بهِ المثابَ إنْ كانَ فيهِ خَيرٌ.

والمَعْنَى في قولِهِ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي لا يُؤخَذُ غَيرُهُ بِعَمَلِهِ وشَقاوتِهِ، ولكنْ هو المَأخوذُ بهِ، وهو

---

(١) في الأصل وم: لما. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: ما. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أي فصّل. (٦) في الأصل وم: مما. (٧) في م: فذلك، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) الباء ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل وم: وكقوله. (١١) في الأصل وم: بباله شيئاً ففي. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

ما قالَ: ﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٥و..] وقولُهُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥و..] هذهِ الآياتُ الثلاثُ، مَعْناها واحدٌ، وهو ما ذَكَرْنا: ألّا يُؤْخَذَ غيرُهُ بِعَمَلِهِ[1]، ولا تُحمَّلُ نفسٌ خطيئةَ أُخرَى ولا وِزْرَها، ولكنْ كلُّ نفسٍ، هي تَحْمِلُ خطيئةَ نفسِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ هذا يَحتَمِلُ وَجهَينِ:

أحدُهُما: أي يَجْعَلُ ما أَلْزَمَ عُنُقَهُ ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

والثاني: أي يَجْعَلُ ما أَلْزَمَ عُنُقَهُ ﴿كِتَٰبًا﴾.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ قيلَ: شَهيداً، وقيلَ: كافياً وحاسباً، وهو واحدٌ، لأنَّ المُؤْمِنَ بما سَبَقَ مِنْ صالحاتِهِ، يَقِفُ فيها، لا يَقْطَعُ القولَ فيها لِرَجائِهِ في رَحْمَتِهِ، ولِخَوفِهِ مِنْ مَساوئِهِ فلا يَشْهَدُ على نَفْسِهِ بالعُقوبةِ. وأمّا الكافرُ فإنهُ يَشْهَدُ على نَفْسِهِ بالنارِ لِما لمْ يكُنْ لهُ ما يَطْمَعُ [في][2] رَحْمَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي نُخْرِجُ ﴿لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ فيُقالُ لهُ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. وفي ذلكَ لُطْفٌ عظيمٌ بقراءةِ كتابِهِ بأيِّ لسانٍ كانَ لأنهُ لم يُبَيِّنْ بأيِّ لسانٍ يُكْتَبُ، ثم يَتَذَكَّرُ جميعَ ما عَمِلَ في عُمُرِهِ، وقد يَنْسَى الرجلُ عملاً، يَعْمَلُ في أدْنَى مُدَّةٍ، لكنْ هنا يَتَذَكَّرُ في ساعةٍ وَوَهْلَةٍ ما كانَ عاملاً فيه.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي مَنِ اهْتَدَى إلى ما جَعَلَ اللهُ عليهِ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ، وقامَ بأداءِ شُكْرِها، فإنما فَعَلَ ذلكَ لنَفْسِهِ، لأنهُ هو المُنْتَفِعُ[3] بهِ، أو يَقولُ: مَنِ اخْتارَ الهُدَى، وأجابَهُ إلى ما دعاهُ مَولاهُ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فإنما اختارَ ذلكَ لِنَفْسِهِ، لأنهُ هو المُنْتَفِعُ[4] بهِ، وهو الساعي في فَكاكِ رَقَبَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي مَنْ ضَلَّ، أي اخْتارَ الضَّلالَ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فإنما يَرْجِعُ عليها ضَرَرُهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقولُهُ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقولُهُ تعالى ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن ذلكَ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي إلى نفسِهِ يَرْجِعُ ضَرَرُ ضَلالِهِ على نفسِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هو ما ذَكَرْنا، أي لا تَحْمِلُ نفسٌ خَطيئةَ أُخرَى، ولا تأثَمُ بِوِزْرِ أُخرَى [ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِوَجْهينِ:

أحدُهما][5]: أنَّ أمْرَ الآخِرَةِ خِلافُ أمْرِ الدنيا لأنَّ في الدنيا قد تُؤْخَذُ نَفْسٌ مَكانَ أُخرَى، وتُحَمَّلُ[6] نَفْسٌ مَؤُنَةَ أُخرَى، وفي الآخِرَةِ لا تُؤْخَذُ نفسٌ بَدَلَ أُخرَى.

والثاني: قد يَتَبَرَّعُ بَعْضٌ عن بَعْضٍ بِتَحَمُّلِ المَؤُناتِ والقيامِ في فَكاكِها [في الدنيا][7] وأمّا في الآخِرَةِ فلا يُتَبَرَّعُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يَحتَمِلُ: ما كُنّا مُعَذِّبينَ تَعذيبَ اسْتِئْصالٍ في الدنيا إلّا بَعْدَ دَفْعِ الشُّبَهِ ورَفْعِها عنِ الحُجَجِ مِنْ كلِّ وَجْهٍ وبَعْدَ تَمامِها، وإنْ كانَتِ الحُجَّةُ قد لَزِمَتْهُمْ بدونِ بَعْثِ[8] الرسلِ لِيَدْفَعَ عنهمْ عُذْرَهُمْ مِنْ كلِّ وَجْهٍ.

ويَحْتَمِلُ[9] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إفضالاً منهُ ورَحْمَةً، وإنْ كانَ العذابُ قد يَلْزَمُهُمْ، والحُجَّةُ قد قامَتْ عليهِمْ. والعذابُ الذي كانوا يُعَذَّبُونَهُ[10] في الدنيا ليسَ، هو عذابُ الكُفْرِ، لأنَّ عذابَ الكُفْرِ دائِمٌ أبداً،

---

(١) في الأصل وم: بعمل آخر. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) من م، في الأصل: المشفع. (٤) من م، في الأصل: المشفع. (٥) في الأصل وم: والله أعلم ذكر هذا. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: البعث. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: يعذبونهم.

لا انقِطاعَ لهُ، وهذا ممّا يَنقَطِعُ، ويَنفَصِلُ. لكنْ يُعذَّبونَ بأشياءَ كانَتْ منهمْ مِنَ العِنادِ ودفعِ الآياتِ. وأمّا عذابُ الكُفرِ فهو في الآخِرَةِ أبداً، لا يَنْقَطِعُ.

وفي الآيةِ دلالةُ أنَّ حُجّةَ التوحيدِ قد لَزِمَتْهُمْ، وقامَتْ عليهِمْ بالعقلِ حينَ[1] قالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فلو لم تَلْزَمْهُمْ لَكانَ الرسلُ إذا دَعَوهُمْ إلى ذلكَ يَقولونَ[2]: مَنْ أنتُمْ؟ ومَنْ بَعَثَكُمْ إلينا؟ فإذا لم يَكُنْ لهمْ هذا الاحتجاجُ دلَّ أنَّ الحُجّةَ قامَتْ عليهِمْ.

لكنَّ اللهَ بِفَضلِهِ أرادَ أنْ يدفَعَ الشُّبْهَةَ عنهمْ، ويَقْطَعَ عنهمْ عُذرَهُمْ برسولٍ يَبْعَثُ إليهِمْ لِما أنَّ أسبابَ العِلْمِ بالأمورِ ثلاثةٌ: فَمِنْها ما يُعلَمُ بظاهِرِ الحواسِّ بالبَديهَةِ، ومِنْها ما يُفْهَمُ بالتّأمُّلِ والنَّظَرِ، ومِنْها ما لايُعلَمُ إلّا بالتَّعليمِ والتَّنبيهِ.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وهو ما ذَكَرْنا: أي[3] نُخرِجُ بذلكَ العَمَلِ كتاباً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي نَكتُبُ ما عَمِلَ، ثم نُقَلِّدُهُ[4] في عُنُقِهِ، فَنجيءُ بهِ يومَ القيامةِ.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ: طائرُهُ حظُّهُ. وقالَ غَيرُهُ مِنَ المُفسِّرينَ: ما عَمِلَ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ الزَمْناهُ في عُنُقِهِ.

وقالَ القُتَبيُّ: وهذانِ المَعْنَيانِ يَحتاجانِ إلى بَيانٍ. والمَعنى في ما أرى، واللهُ أعلَمُ: أنَّ لكلِّ امْرِئٍ حَظّاً مِنَ الخيرِ والشَّرِّ، وقد قَضاهُ اللهُ، فهو لازمٌ عُنُقَهُ، والعَرَبُ تقولُ: إنَّ كلَّ ما لِزِمَ الإنسانَ، قد لَزِمَ عُنُقَهُ، وهو لازمٌ، طائرٌ [في][5] عُنُقِهِ، وهذا لكَ عليَّ، وفي عُنُقي، حتى أخرُجَ منهُ. وإنما قيلَ لِلحَظِّ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ: طائرٌ لِقولِ العَرَبِ ما ذَكَرْنا: جَرَى لهُ الطائرُ بكذا مِنَ الخَيرِ، وجَرَى لهُ الطائرُ بكذا مِنَ الشَّرِّ على وَجْهِ الفَألِ والطِّيَرَةِ على مذهبِهِمْ في تَسْمِيَةِ الشيءِ بما كانَ لهُ سَبَباً، وهو ماذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ التعذيبُ يكونُ على وُجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها[6]: يُعَذِّبُهُمْ في الدنيا ابْتِداءً بِتَعذيبِ امْتِحاناً وابْتِلاءً بلا جريمةٍ كانَتْ منهمْ كقولِهِ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونَحوُهُ؛ فيكونُ تَنبيهاً وتَذكيراً لهمْ لا تكفيراً.

والثاني: يُعَذِّبُ تَعذيبَ العِنادِ والمُكابَرَةِ، وهو تَعذيبُ إهلاكٍ واسْتِئْصالٍ؛ فهو عُقوبةٌ لهمْ ومَوعِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ وعِبْرَةٌ لِغَيرِهِمْ، وهو الذي يأتي على إثْرِ وعيدٍ.

والثالثُ: عذابُ المَوعودِ في الآخِرَةِ؛ يقولُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ في الآخِرَةِ ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ في الدنيا.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ التَّعذيبِ، وهو تَعذيبُ اسْتِئْصالٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالتَّخفيفِ والتَّثقيلِ واحدٌ[7]، ثم [مَنْ][8] قَرأ بالتَّثقيلِ [فإنهُ][9] يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أمَّرْنا مُتْرَفيها مِنَ الإمارَةِ والتَّسليطِ عليهِمْ أي أمَّرْنا عليهِمْ، وسَلَّطْنا مُتْرَفيها، أي أكثَرْنا عَدَدَهُمْ، وسَلَّطْنا مُتْرَفيها: فُسّاقَها ومُستَكبِريها.

والثاني: أمَّرْنا مُتْرَفيها أي أكثَرْنا عَدَدَهُمْ ومُنعَمِيهِمْ. يَذْكُرُ لهمْ هذا لِقولِهِمْ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ الآية [الزخرف: ٢٣] وقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ الآية [سبإ: ٣٦] كانوا يَزْعُمونَ أنهمْ لا يُعَذَّبونَ لأنهمْ قد أُنعِموا في هذهِ الدنيا بِكَثْرَةِ[10] أموالِهِمْ وأولادِهِمْ، فأخبَرَهُمْ ﷻ أنهُ ما أهْلَكَ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ إلّا بَعْدَ ما كَثُرَ عَدَدُهُمْ، ووَسَّعَ عليهِمُ الدنيا، لم يُهْلِكْهُمْ[11] في حالِ القِلَّةِ والضِّيقِ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يقول. (٣) من م، في الأصل: إن. (٤) في الأصل وم: نقلد. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل: أحدهم. (٧) في الأصل وم: أمرنا مترفيها. (٨) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/٣١٣.
(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وأكثروا. (١١) في الأصل وم: يهلكوا.

﴿ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥] أي كَثُروا، وقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] لم يأخُذْ بالعذابِ الأُمَمَ الخاليَةَ إلّا في حالِ كَثْرَتِهِمْ وأمْنِهِمْ وعِزَّتِهِمْ بالسَّعَةِ. يُحَذِّرُ هؤلاءِ لئلّا يَغْتَرُّوا بِكَثْرَةِ أموالِهِمْ وأولادِهِمْ وعَدَدِهِم.

ومَنْ قرأ[1]: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالتَّخفيفِ فهو مِنَ الأمرِ، أي أمَرْنا عُظَماءَهُمْ وكُبَراءَهُمْ طاعَةَ الرسلِ[2] والإجابَةَ إلى ما دَعوهُمْ[3] إليهِ/ ٢٩٨ ـ أ/ حتى إذا عَصَوا رُسُلَهُ، وتَركوا إجابَتَهُمْ على العِنادِ والمُكابَرَةِ، فعندَ ذلكَ يُهْلِكُهُمْ[4] لِما ذَكَرْنا أنَّهُ لم يَسْتَأْصِلِ الأُمَمَ الخاليَةَ إلّا بَعْدَ عِنادِهِمْ في آياتِ اللهِ ومكابَرَتِهِمْ في دَفْعِها وتكذيبِها، لا يُهْلِكُهُمْ في أوَّلِ ما كَذَّبوا آياتِ اللهِ وخالَفوا رسلَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ المُنْعَمُ، وقالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ المُكْرَمُ والمُسْتَكْبِرُ، وكلُّهُ واحدٌ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ دلالةٌ أنَّ الإرادَةَ غَيرُ المُرادِ، لأنهُ أخبرَ بِتَقَدُّمِ الإرادةِ عن وقتِ الإهلاكِ. دلَّ أنها غَيرُهُ. وفيهِ أنهُ أرادَ السَّبَبَ الذي بهِ يُهْلِكُهُمْ[5]، وهو التَّكذيبُ والعِنادُ، لمّا عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَختارونَ ذلكَ؛ إذ لا يُحْتَمَلُ أنْ يُريدَ هلاكَهُمْ، وهو يَعْلَمُ منهمْ غَيرَ سَبَبِ الهَلاكِ. فهذا يَرُدُّ قولَ المُعْتَزِلَةِ: إنَّ الإرادَةَ، هي المُرادُ، وإنهُ لم يُرِدْ ما كانَ منهمْ مِنْ سَبَبِ الهَلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ بما أرادَ إهلاكَهُمْ؛ وَجَبَ عليهِمْ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ بما أخبَرَ عنِ الأُمَمِ الخاليةِ، وهو قولُهُ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٨و٦٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهْلَكْناها إهلاكاً.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخبيرُ والبَصيرُ واحداً. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ بَينَهما فَرْقٌ: الخَبيرُ العالمُ بأعمالِهِمْ والبَصيرُ بِمَصالِحِهِمْ ومَعاشِهِمْ وبِجَزائِهِمْ؛ يُقالُ: فلانٌ بَصيرٌ في أمْرِ كذا، وفلانٌ أبْصَرُ مِنْ فلانٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ هو[6] مَكْرُهُمُ الذي كانوا يَمْكُرونَ بِرَسولِ اللهِ، فقالَ: ﴿وَكَفَىٰ﴾ بِمَكْرِهِمُ الذي يَمكُرونَ بك.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهمْ كانوا يَعْمَلونَ بأعمالِهِمُ الحَسَنَةِ في حالِ كُفْرِهِمْ مِنْ نَحْوِ الإنفاقِ والصَّدَقاتِ وبَذْلِ الأموالِ[7] وغَيرِ ذلكَ؛ يُريدونَ بذلكَ العِزَّ والشَّرَفَ والذِّكْرَ في الدنيا، فأخْبَرَ أنهُ مَنْ أرادَ بما يَفْعَلُ ذلكَ ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

والثاني: يكونُ قولُهُ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي لا يُريدُ بها إلّا جَمْعَ الأموالِ وَسَعَتَها ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ثم أخْبَرَ أنهُ لا كلُّ مَنْ أرادها يُعَجِّلُ لهُ ذلكَ، ولا ما أرادَ يُعَجِّلُ لهُ ذلكَ. ولكنْ إنما يُعَجِّلُ [اللهُ ما أرادَ][8] ولِمَنْ أرادَ؛ إذْ لا كلُّ مَنْ أرادَ شيئاً يُعْطى لهُ ذلكَ.

ثم أخْبَرَ عمّا يُعْطى في الآخِرَةِ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فقالَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي مَذْموماً بما يُسَمّى بأسماءٍ قَبيحَةٍ دَنيئَةٍ مَذْمومَةٍ عندَ الخَلْقِ، أو يُذَمُّ، ويُلامُ في النارِ ﴿مَّدْحُورًا﴾ مَطْروداً مِنَ الأسماءِ الحُسْنى ومِنَ الخَيراتِ أو مُبْعَداً عنْ رحمَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَذْمُومًا﴾ عندَ نفسِهِ يومئذٍ، أو مَذْموماً عندَ الملائكةِ والخَلْقِ جميعاً.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وَجْهانِ:

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) من م، في الأصل: الرسول. (٣) في الأصل وم: دعاهم. (٤) في الأصل وم: يهلكون. (٥) في الأصل وم: يهلكون. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) من م، في الأصل: الأمور. (٨) في الأصل وم: ما أراد الله.

أحدُهما: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ بإهلاكِهِ إياهُمْ موتَهُمْ بآجالِهِمْ، يقولُ: هُمْ كانوا عَدَداً قليلاً زَمَنَ نوحٍ، ثم كَثُروا حتى صاروا قُروناً، ثم ماتوا حتى لم يَبْقَ منهمْ أحدٌ

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الإهلاكُ ههنا إهلاكَ استِئصالٍ فهو يُخرَّجُ على وَجْهَينِ:

أحدُهما: أنهمْ[1] قدِ استَوَوا في هذِهِ الدنيا؛ أعني [الأولياء والأعداء][2] وفي الحِكْمَةِ التَّمييزُ بينَهُمْ[3] والتفريقُ، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ [أُخرى يُفَرِّقُ بينَهُمْ][4] فيها، ويُمَيِّزُ.

والثاني: قد أُهلِكوا جميعاً. وفي العَقْلِ والحِكْمَةِ إنشاءُ الخَلْقِ لِلإفناءِ خاصَّةً بِلا عاقِبَةٍ تُقْصَدُ عَبَثٌ باطلٌ، فَدَلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرى هي المَقصودةُ حتى صارَ خَلْقُ هؤلاءِ حِكْمَةً، وفيهِ إلزامُ البَعْثِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تفسيرُ قولِهِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ كأنهُ قالَ: منْ كانَ يريدُ العاجِلَةَ وهو كافرٌ برَبِّهُ مُكَذِّبٌ بالآخِرَةِ ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ وهو مُؤمِنٌ برَبِّهِ مُصَدِّقٌ بالآخِرَةِ ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بها ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي مَجزِيّاً مَقبولاً.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي [المؤمِنينَ والكافرينَ، نُعطي هؤلاءِ وهؤلاءِ][5] أي لا نَحرِمُ مِنَ العاجِلَةِ مَنْ أرادَ الآخِرَةَ. يُخبِرُ أولئكَ الكَفَرَةَ بكُفرِهِمْ بالآخِرَةِ أنهُ ليسَ يعطي الدنيا وَسَعَتَها لِمَنْ يَكفُرُ بالآخِرَةِ، ولكنْ يُعطي مَنْ كَفَرَ بها، ومَنْ آمَنَ بها لئلّا يَحمِلَهُمْ ذلكَ على حُبِّهِمُ الدنيا وطَلَبِ العِزِّ والشَّرَفِ فيها على كُفرِهِمْ بالآخِرَةِ حينَ[6] قالَ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾أي يُعطي المؤمِنَ والكافِرَ والبَرَّ والفاجِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي رِزقُ ربِّكَ وفَضلُهُ مَحظوراً. قالَ بعضُهُمْ: مَحبوساً ومَمنوعاً.

وقالَ بعضُهُمْ: مَحظوراً أي مَنقوصاً، فهو في الآخِرَةِ، أي لا يُنْقَصونَ في الآخِرَةِ مِنْ جَزائِهِمْ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «إنَّ اللهَ يُعطي الدنيا على نِيَّةِ الآخِرَةِ، ولا يُعطي الآخِرَةَ على نِيَّةِ الدنيا» [كنز العمال ٦٠٥٦]

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ][8] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا كانَ العبدُ، هَمُّهُ الآخِرَةُ، كَفَى اللهُ لهُ في صَنْعَتِهِ، وجَعَلَ غِناهُ في قَلْبِهِ. وإنْ كانَ هَمُّهُ الدنيا أفْشَى اللهُ عليهِ صَنْعَتَهُ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بَينَ عَينَيهِ، فلا يُمسِي إلّا فَقيراً، ولا يُصبِحُ إلا فَقيراً» [بنحوه الترمذي ٢٤٦٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ وأمّا مَنْ كانَ يريدُ العاجلةَ للآخِرَةِ فهو ليسَ بِمَذمومٍ، فهو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ وهو ما قالَ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ الآية [هود: ١٥] وقولُهُ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠] [الحَياةُ الدنيا للدنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ][9]. وأمّا مَنْ أرادَ الحَياةَ الدنيا للآخِرَةِ، فهو ليسَ بلَعِبٍ، ولَهْوٍ، لأنَّ الدنيا لم تُنْشَأ لِنَفْسِها وإنما أُنشِئَتْ للآخِرَةِ. فَمَنْ رآها لها، وأرادَها لِنَفْسِها، فهو لَعِبٌ ولَهْوٌ، ومَنْ رآها للآخِرَةِ، فهو ليسَ بِلَعِبٍ ولا لَهْوٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾في الدنيا في الرزقِ وفي الخِلْقَةِ يكونُ بعضُهُمْ أعمَى، وبعضُهُمْ بَصيراً، ويكونُ أصَمَّ، ويكونُ سَميعاً ونَحوَهُ. فَعَلَى ما يكونُ في الدنيا على التَّفاوُتِ والتَّفاضُلِ يكونونَ في الآخِرَةِ كذلكَ في المَنْزِلَةِ والقَدْرِ عندَ اللهِ لا في الضِّيقِ والسَّعَةِ والأحوالِ التي يكونونَ في الدنيا فقد[10] قالَ: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: الولي والعدو. (٣) في الأصل وم: بينهما. (٤) في الأصل وم: تفريق بينهما. (٥) في الأصل وم: المؤمن والكافر، نعطي هذا وهذا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من م.
(١٠) في الأصل وم: حيث.

﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ولم يَقُلْ أكثَرَ، ولا أوسَعَ. دلَّ أنهُ على القَدْرِ والمَنزِلَةِ عندَ اللهِ لا على اختِلافِ الأحوالِ التي يكونونَ في الدنيا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها][1]: قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ النَّهْيَ في مِثْلِ هذا الخطابِ لِرسولِهِ، وإنْ كانَ غَيرَ مَوهومٍ ذلكَ منهُ لِلْعِصْمَةِ التي عَصَمَهُ، فإنهُ غيرُ مُسْتَحِيلٍ في ذاتِهِ لِمَا ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ إنما يُنْتَفَعُ بها مَعَ النَّهْيِ و الأمرِ؛ لأنهُ لولا الأمْرُ والنَّهْيُ ما احتِيجَ إليها، أو خاطَبَهُ بِهِ على إرادةِ غَيرِ على ما يُخاطِبُ بِهِ ملوكُ الأرضِ الأقربَ إليهِمْ والأعْظَمَ والأخْطَرَ منهُمْ دونَ خَسائِسِ الناسِ ورُذَالِهِمْ.

والثاني: أنهُ يُخاطِبُ كُلّاً في نَفْسِهِ، ليسَ أنْ يَخُصَّ رسولَهُ بذلكَ. ولكنْ كلٌّ مَوْهومٌ ذلكَ منهُ.

والثالثُ[2]: يَحْتَمِلُ أنْ يُخاطِبَ بِهِ [كلَّ إنسانٍ][3] كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الانفطار: ٦و..] وقولِهِ[4]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١و..] ليسَ إنسانٌ أحَقَّ بهذا الخطابِ مِنْ إنسانٍ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

[والرابعُ: يَحْتَمِلُ أنْ][5] يُخاطِبَ رسولَهُ / ٢٩٨ ـ ب/ لِيَعْلَمَ مَنْ دونَهُ أنْ ليسَ لأحدٍ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ عندَ اللهِ، وارْتَفَعَ مَحَلُّهُ ومَنْزِلَتُهُ مُحاباةٌ في الدينِ، لأنَّ الرسلَ هُمُ المُكَرَّمونَ على اللهِ المُعَظَّمون عندَهُ. فإذا لم [يَعْفُ عنهمْ][6] في هذا لم يَعْفُ عَمَّنْ[7] دونَهُمْ.

ألا تَرى أنهُ قالَ للملائكةِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء/ ٢٩] وهُمْ أكْرَمُ خَلْقِ اللهِ حين[8] وصَفَهُمْ أنهمْ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم/ ٦] فَعَلَى ذلكَ الرسلُ. ألا تَرى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] ومَعْلومٌ أنَّ أبَوَيهِ كانا ضالَّينِ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يُخاطِبَ رسولَهُ في قولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٤] دلَّ أنهُ خاطَبَ بِهِ كلَّ مُحْتَمِلٍ ذلكَ ومَوْهومٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ أي ذليلاً مَقْهوراً؛ لأنَّ الخِذْلانَ هو ضِدُّ النَّصْرِ والعَوْنِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ذَكَرَ الخِذْلانَ مُقابِلَ النَّصْرِ؟ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿مَّخْذُولًا﴾ أي مَقْهوراً ذليلاً غَيرَ مَنْصورٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قَضَى: حَكَمَ، وقالَ بعضُهُمْ: قَضَى ههنا: أمَرَ، أي أمَرَ ﴿رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: قَضَى ربُّكَ: وَصَّى ربُّكَ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ ﷺ أنهما كانا يَقْرَآنِ: وَوَصَّى ربُّكَ، وقالَ بعضُهُمْ: وعَهِدَ ربُّكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي خَتَمَ ربُّكَ، وهو مِنَ الفَرْضِ والإلزامِ، أي فَرَضَ ربُّكَ، والزَمَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وكذلكَ حَكَمَ، وهو أشْبَهُ. ألا تَرى أنهُ قالَ في آيةٍ أخرى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ثم قالَ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؟ [الأحزاب: ٣٦] دلَّ قولُهُ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ قولَهُ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مَعْناهُ: أي فَرَضَ اللهُ ورسولُهُ، وحَكَما أمراً.

ثم قولُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فَرْضٌ وحَتْمٌ وحُكْمٌ وأمْرٌ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلّا الإلهَ المَعْبودَ الحَقَّ المُسْتَحِقَّ لِلْعِبادَةِ والرُّبوبِيَّةِ، لا تَعْبُدوا دونَهُ أحداً.

وقد أبانَ لنا أنهُ هو الإلهُ والربُّ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ والألوهِيَّةِ والرُّبوبِيَّةِ لا الذينَ يَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ مِنَ الأوثانِ والأصنامِ بِوُجوهٍ ثلاثةٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو يقول. (٦) في الأصل وم: يعفوهم. (٧) في الأصل وم: من. (٨) في الأصل وم: حيث.

أحدُها: عَجْزُ العقولِ وجهالتُها عن دَرْكِ كُنهِيَّةِ العقولِ وماهِيَّتِها[1]؛ لأنَّ العقولَ لا تَعْرِفُ كُنهِيَّةَ[2] أنفسِها ولا ماهِيَّتَها، وتَعْرِفُ مَحاسِنَ الأشياءِ ومَقابِحَها. فقد عَرَفَتِ الأُلوهِيَّةَ للهِ وحُسْنَ العبادةِ لهُ وقُبْحَها لِغيرِهِ.

والثاني: ما يوجدُ في جميعِ الخَلائِقِ مِنْ آثارِ أُلوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وجَعْلِ العِبادةِ لهُ شُكراً لهُ. وعلى ذلكَ جَعَلَ في كلِّ جارحةٍ مِنْ جَوارِحِ الإنسانِ عِبادةً شُكْراً لهُ لِما فيها مِنْ آثارِ أُلوهِيَّتِهِ.

والثالث: السَّمْعُ، أنبأنا أنْ لا معبودَ إلّا اللهُ، ولا أُلوهِيَّةَ لِسِواهُ دونَهُ. فذلكَ مَعْنى [ما][3] فَرَضَ على خَلْقِهِ، وأمَرَهُمْ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وتأويلُ حُكمِ ربِّكَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لِما أنشأ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ آثارَ وَحدانيَّتِهِ وشَهادةَ رُبوبِيَّتِهِ اسْتِحْقاقُ العِبادةِ لهُ. فذلكَ تأويلُ مَنْ قالَ: قَضى [أي][4] حَكَمَ.

وأمّا تأويلُ مَنْ قالَ: قَضى، أي أمَرَ ربُّكَ، وكَلَّفَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فيكونُ فيهِ أمْرٌ بالعِبادةِ لهُ، والنَّهْيُ عَنْ عِبادةِ غَيرِهِ؛ كأنهُ قالَ: أمَرَ ربُّكَ أنِ اعْبُدوهُ، ونَهاكُمْ أنْ تَعْبدوا غَيرَهُ.

ثم الفَرْقُ بينَ الطاعةِ والعِبادةِ، يَجوزُ أنْ يُطاعَ غَيرُهُ، ولا يَجوزُ أنْ يُعْبَدَ غَيرُهُ، لأنَ الطاعةَ، هي الائتِمارُ كقولِهِ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] أي ائْتَمِروا.

وأمّا العِبادةُ، فهي الاسْتِسْلامُ والخُضوعُ لهُ والشُّكْرُ لهُ، ولا يَجوزُ ذلكَ لِغيرِهِ لِسِوى اللهِ، أو يكونُ في العِبادةِ مَعْنىً لا يُدْرَكُ كَمَعْنى الرَّحمنِ، لا يُدْرَكُ حينَ[5] لم يُجَوِّزْ تَسْمِيَةَ غَيرِهِ بهِ. فعَلى [ذلكَ][6] هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ كأنهُ قالَ: وفَرَضَ عليكُمْ أيضاً، وحَكَمَ الإحْسانَ للوالِدَيْنِ. ثم الإحْسانُ في عُرْفِ الناسِ هو الفِعْلُ الذي ليسَ عليهِ، إنما هو فَضْلٌ ومَعْروفٌ يَصْنَعُهُ [المَرْءُ][7] إلى غَيرِهِ. هذا هو الإحْسانُ في العُرْفِ واللغةِ.

لكنَّ المُرادَ مِنَ الأمرِ بالإحسانِ إلى الوالِدَيْنِ، هو الشُّكْرُ؛ لا ما ذَكَرْنا مِنَ الإحْسانِ المَعْروفِ عندَ الناسِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] لأنَّ الشُّكْرَ، هي المُكافأةُ والجزاءُ لِما أُنعِمَ وصُنِعَ مِنَ المَعْروفِ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، وإنْ ذُكِرَ الإحْسانُ في هذا وفي غَيرِهِ مِنَ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١] وقولُهُ[8] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦] وغَيرِها مِنَ الآياتِ، فالمُرادُ منهُ، واللهُ أعلَمُ، الشُّكْرُ لهما لِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] والشُّكْرُ، هو المُكافأةُ.

أمَرَهُ أنْ يكافِئَ لهما، ويُجازِيَ بَعْضَ ما كانَ منهما إليهِ مِنَ التربيةِ والبِرِّ والعطفِ عليهِ والوِقايةِ مِنْ كلِّ سوءٍ ومَكروهٍ في البَطْنِ وبَعْدَ ما خَرَجَ مِنَ البطنِ حتى كانا يُؤْثِرانِهِ على نَفْسَيهِما[9] في السرورِ، ويَجْعَلانِ نَفْسَيهِما [وِقايةً لهُ مِنْ كلِّ سوءٍ ومَحْذورٍ، فأمَرَ الوَلَدَ أنْ يَشْكُرَ لِوالِدَيهِ جَزاءً ومُكافأةً لِما كانَ منهما إليهِ مِمّا ذَكَرْنا.

[ذَكَرَ هذا في الحالِ التي عَجِزا هما عَنِ القِيامِ لأمرِ نَفْسَيهِما[10]][11] والحَوائِجِ لهُما. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهما إذا كانا قادِرَينِ لِحَوائِجِ نَفْسَيهِما[12] ومنافِعِها يَبَرّانِ وَلَدَهُما، ويُحْسِنانِ إليهِ، فَيَحْمِلُ بِرُّهُما وإحسانُهُما إليهِ على الطاعةِ لهما في البِرِّ والإحسانِ إليهِما على المُجازاةِ.

وهكذا المَعْروفُ عندَ الناسِ أنهُ إذا بَرَّ بعضُهُمْ بَعْضاً يَبْعَثُ ذلكَ على المُكافأةِ لِيَدومَ ذلكَ عليهِمْ، وإلّا يَنْقَطِعَ. لِذلكَ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، الإحسانَ إلى الوالِدَينِ في [الحالِ][13] التي هي حالُ ضَعْفٍ وعَجْزٍ حينَ[14] قالَ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ

(١) في الأصل وم: وما بينها. (٢) في الأصل وم: كيفية. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: أنفسهما. (١٠) في الأصل: أنفسهما. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: أنفسهما. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: حيث.

﴿ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ثم أمَرَهُ أنْ يَذْكُرَ الحالَ التي هو عليها، وهو حالُ طُفوليَّتِهِ وصِغرِهِ، أنْ كيفَ رَبَّيَاهُ، وبَرَّاهُ، وعَطَفا عليهِ، ولانَا لهُ قولاً وفعلاً حتى لم يَسْتَقْذِرا منهُ شيئاً ممّا يَسْتَقْذِرُ الناسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ولم يُبْعِدْهُما عنهُ ما يُبْعِدُ الخَلْقَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ أنواعِ الأذى والخُبْثِ، فأمَرَهُ أنْ يُعامِلَهُما إذا بَلَغا الحالَ التي كانَ هو عليها مِنَ الجَهْلِ والضَّعْفِ والعَجْزِ عنِ القيامِ بالحَوائجِ على ما كانَ هو، وبَلَغا المَبْلَغَ الذي يُسْتَقْذَرُ منهما، ويُبْعَدُ عنهما، ألّا يَسْتَقْذِرَ منهُما، ولا يَبْتَعِدَ عنهما كما لم يَسْتَقْذِرا هما منهُ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ عندَ السؤالِ والحاجةِ إليهِ كما لم يَفْعَلاهُما لهُ، بل يَلينُ، ويَذِلُّ، كما لانا هُما لهُ، وخَضَعا. وهو ما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ الآية [النحل: ٧٠] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤].

أخبَرَ أنهُ يَرُدُّ مِنَ القُوّةِ والعِلْمِ إلى الحالِ التي كانوا عليها وحالِ الضَّعْفِ والجَهْلِ حينَ[1] قالَ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الآيةَ [النحل: ٧٨] وقالَ: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ الآية [الروم: ٥٤] فقالَ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ هو كنايةٌ عنْ إظهارِ الكَراهةِ لهما في الوَجْهِ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تُعَنِّفْهما في القَولِ والكلامِ على ما لم يَفْعلا هما بكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أُفٍّ﴾ المُرادُ منهُ هو ﴿أُفٍّ﴾ لا غيرُهُ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تُعَنِّفْهُما، ولا تَتَخَشَّنْ. لكنهُ ذَكَرَ أوّلَ حالِ الاِسْتِثْقالِ والكَراهةِ منهُ وآخِرَها، أي لا تقلْ لهما: أفٌّ على ما يَسْتَثْقِلُ الناسُ شيئاً، ويَكْرَهونَهُ في أوّلِ حالٍ، يَرَونَ شيئاً مُسْتَثْقَلاً مَكْروهاً، فيقولونَ: أفٌّ، أي لا تَقُلْ: أُفٌّ لئلّا يُحْمَلَ ذلكَ على العُنْفِ والخُشونةِ والنَّهْرِ.

وعلى هذا المعنى/ ٢٩٩ ـ أ/ قالوا في قولِهِ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ الآية [النور: ٣٠] قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ لِيَحْفَظوا[2] فروجَهُمْ، لأنَّ النَّظَرَ بالبَصَرِ [يَحْمِلُ المَرْءَ][3] على الزِّنى في الفَرْجِ، ومنهُ يكونُ بَدْءُ الفُجورِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ ذَكَرَ أوّلَ حالٍ وآخِرَها لِيَمْتَنِعوا عنْ كلِّ ذلكَ.

[فَعَلى ذلكَ][4] قولُهُ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ذَكَرَ أوّلَ الحالِ وآخِرَها: [فَأَوّلُها: ﴿أُفٍّ﴾ وآخِرُها: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾][5] أي لا تُظْهِرْ في وجهِكَ مِنَ الكَراهةِ والاِسْتِثْقالِ [لِئَلّا يُحْمَلَ][6] ذلكَ على العُنْفِ والاِنْتِهارِ.

فإنْ كانَ تأويلُ قولِهِ: ﴿أُفٍّ﴾ أفٌّ لا غيرُ ففيهِ حُجّةٌ لأبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: إذا نَفَخَ المُصَلّي في مَوضعِ سُجودِهِ، فهو[7] كلامٌ، يَقْطَعُ صلاتَهُ [لأنَّ اللهَ تعالى][8] قالَ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي لا تَتَكَلَّمْ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [بَعْدَما][9] نَهاهُ أنْ يقولَ لهما ﴿أُفٍّ﴾ ونَهاهُ أنْ يَنْهَرَهُما. فإذا امْتَنَعَ عنِ الأُفِّ والنَّهْرِ قالَ[10] بَعْدَ ذلكَ قولاً لَيِّناً لطيفاً.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: يُقالُ: نَهَرْتُهُ [وانْتَهَرْتُهُ نَهراً][11] وهو الخَشِنُ مِنَ الكلامِ، يُشْبِهُ[12] الوَعيدَ. وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: الكريمُ هو الذي يَتَوَلّى على آخَرَ نِعَمَهُ، ويُهَنِّئُهُ بِتَرْكِ الأذى والمَنِّ كقولِهِ: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقالَ غيرُهُ في وَصْفِ السَّخِيِّ: هو[13] الذي يَبْذُلُ ما احْتَوى عليهِ لِمَنِ احْتاجَ إليهِ [ويَقْطَعُ طَمَعَهُ][14] عمّا احْتَوى عليهِ غَيرُهُ عندَ حاجَتِهِ إليهِ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ الكريمُ قريباً منهُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ الوالِدَينِ كالمَجْبولينَ المَطْبوعينَ على البِرِّ لأولادِهِما والشَّفَقَةِ عليهِمْ، ولا كذلكَ الأولادُ، فكيفَ يُشْبِهُ بِرُّ مَنْ كانَ مَجبولاً به مَطبوعاً عليهِ بِرَّ مَنْ لم يكُنْ ذلكَ بِطَبْعِهِ؟ قيلَ: لِذلكَ ذَكَرَ هذا في الوَلَدِ دونَ الوالِدَينِ، وأمْرَهُمْ بذلكَ،

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وليحفظوا. (٣) في الأصل وم: يحمله. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: والثاني: . (٦) في الأصل وم: ليحمل. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: كان. (١١) في م: وانتهرته، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: شبهه. (١٣) في الأصل وم: فقال. (١٤) في الأصل وم: وقطع طمعه.

لأنَّ ما يَفْعَلُ الوالدانِ مِنَ البِرِّ والإحسانِ إلى الوَلَدِ يَفْعَلانِ بِطَبْعٍ، والوَلَدُ لا لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ. ولِهذا لم[1] يَجْعَلْ، ولم يَشْرَعْ قَتْلَ الوالِدِ بِوَلَدِهِ، إذِ القِصاصُ حياةٌ بينَهُمْ، وشَرَعَ قَتْلَ الوَلَدِ بِوالِدَيهِ؛ إذْ في الوالِدَينِ مِنَ الشَّفَقَةِ والرَّحْمَةِ ما يَمْنَعُ قَتْلَ الوَلَدِ، وليسَ في الوَلَدِ ذلكَ، فَجَعَلَ في قَتْلِ الوَلَدِ والِدَهُ في القِصاصِ، ولم يَجْعَلْ في قَتْلِ الوالِدَينِ وَلَدَهُما. فَعَلَى ذلكَ هذا في البِرِّ والإحْسانِ.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في ما قَرَنَ اللهُ مِنْ شُكْرِ والدَيهِ شُكْرَهُ في غيرِ آيةٍ مِنَ القُرآنِ [كقولِهِ][2] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؟ [لقمان: ١٤] قيلَ: لأنهُ بهما كانَ نَماؤُهُ مِنْ أوّلِ حالِهِ إلى آخِرِ ما انْتَهَى إليهِ مِنَ التَّغْذِيَةِ والتَّربِيَةِ والوِقايَةِ مِنْ كلِّ سُوءٍ والحِفْظِ مِنْ كلِّ آفةٍ وشَرٍّ.

وفي الآيةِ دليلٌ لقولِ أبي حنيفةَ حينَ[3] قالَ في المُكاتِبِ: إذا اشْتُرِيَ والِدُهُ أو أمُّهُ صارَ مُكاتَباً، وإذا اشْتُرِيَ [أخوهُ أو ذو][4] رَحِمٍ مَحْرَمٍ منهُ لم يَصِرْ مُكاتَباً لأنَّ الأبَ والأمَّ يَصيرانِ كذلكَ بِحَقِّ الجَزاءِ والشُّكْرِ. فَعَلَيهِ ذلكَ. وأمّا الأخُ وغَيرُهُ مِنَ المَحارِمِ بِحَقِّ المَعْروفِ، فَمُلْكُهُ لا يَحْتَمِلُ ذلكَ.

والخِطابُ مِنَ اللهِ، وإنْ كانَ مَعَ رسولِهِ، فالمُرادُ منهُ غَيرُهُ. لأنَّ رسولَ اللهِ مَعْلومٌ أنهُ لم يُدْرِكْ والدَيهِ في الوقتِ الذي أُرسِلَ [فيهِ إليهِم][5] وخاطَبَهُ بما خاطَبَ. دلَّ أنهُ أرادَ بالخِطابِ غَيرَهُ. كلُّ [ذلكَ][6] مُحْتَمِلٌ ذلكَ ومَوهومٌ منهُ. وأمَرَهُ أنْ يُعامِلَهُما بالمُعامَلَةِ التي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الجَناحُ كِنايةً عنِ اليَدينِ، لأنَّ اليَدَينِ في الإنسانِ بِموضِعِ الجَناحِ للطائرِ، وجَناحُ الطائرِ يَداهُ، فكأنهُ قالَ: اخْفِضْ، واخضَعْ لهما بِيَدَيكَ كما أمَرَهُ أنْ يَخْضَعَ لهما بِلِسانِهِ بقولِهِ: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أيِ اخْضَعْ لهما قولاً وفِعْلاً. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الجَناحُ كنايةً عنِ النَّفْسِ، أي اخْضَعْ لهما بِجَميعِ النَّفْسِ والجَوارِحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلذُّلِّ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الذُّلِّ نفسَهُ، أي كُنْ لهما كالمُسْتَعينِ المُحْتاجِ إليهما لا كالمُعينِ لهما قاضيَ الحاجةِ، ولكنْ ذليلاً كالمُسْتَعينِ [بالآخِرِ][7] رافِعِ الحاجةِ إليهِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿ٱلذُّلِّ﴾ كِنايةً عنِ الرَّحْمَةِ التي تكونُ في القَلْبِ، أيِ اخْضَعْ لهما بِرَحْمَةِ القلبِ والجَوارِحِ جميعاً.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أخرَى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وذَكَرَ مُقابِلَ الذُّلِّ في تلكَ الآيةِ الرَّحْمَةَ [وفي هاتينِ مُقابِلَ الذُّلِّ العِزَّةَ ومُقابِلَ الشِّدَّةِ الرَّحْمَةَ][8]. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ كِنايةً عنِ الرَّحْمَةِ، فيكونُ معناهُ: أنِ اخْضَعْ لهما بالظاهِرِ والباطِنِ جميعاً على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ ويَحْتَمِلُ أن [يكونَ][9] على الإضمارِ، فيكونُ، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ قالَ: ربِّ ارْحَمْهُما كما رَحِماني، ورَبَّياني صغيراً.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ هذا منسوخٌ، نَسَخَهُ قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآيةَ [التوبة: ١١٣] بَعيدٌ. وأمْكَنَ أنْ تكونَ الآيةُ في المؤمنينَ والكافرينَ. فالرَّحْمَةُ التي ذَكَرَ تكونُ في الكافرينَ سُؤالَ الهِدايَةِ لهمْ وجَعْلِهِمْ أهلاً لِلرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ، وذلكَ جائزٌ كقولِ نوحٍ لِقَومِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي استَهْدُوا ربَّكُم، فَيَهْدِيَكُم، فَيَغْفِرَ لكُمْ ما كانَ منكُمْ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ لم يَزَلْ ﴿غَفَّارًا﴾ إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُم بالاسْتِغْفارِ، ويَعِدَهُمْ بالمَغْفِرَةِ على الحالِ التي همْ عليها، وكذلكَ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أخاه أو ذا. (٥) في الأصل وم: إليه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: من الآخر. (٨) في الأصل وم: في هذا مقابل العزة الشدة. (٩) ساقطة من الأصل وم.

أو أنْ يكونَ مِنَ الرَّحْمَةِ التي يَتَراحَمُ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ، والشَّفَقَةِ التي تكونُ بَينَ الناسِ كما يَتَراحَمُ لِلصِّغارِ[1] والضُّعفاءِ ثم مِثْلُ هذهِ المُعاملةِ التي أمَرَ الوَلَدَ أنْ يُعامِلَ أبَويهِ يُلْزِمُ المؤمنينَ مِنْ جهَةِ الدينِ ومَكارِمِ الأخلاقِ أنْ يُعامِلَ[2] الناسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. غيرَ أنَّ هذا في ما بَينَ الناسِ، ليسَ بِفَرْضٍ لازمٍ، وذلكَ لازمٌ، لأنها بِحَقِّ الشُّكْرِ والجَزاءِ لهما بما كانَ منهما إليهِ مِنَ البِرِّ والإحسانِ، وحقُّ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليمِ[3] حَقُّهُما وجَليلُ قدرِهما وخُصوصيَّتُهما، وهو كما قالَ[4] لِرَسوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وإلا فقد وَصَفَ المؤمنينَ بِتَراحُمِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ على ما ذَكَرَ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وأمَرَهُمْ بذلكَ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ مِنْ إسرارِ المَحَبَّةِ لهما والبِرِّ والكَرامَةِ. وقالَ [بعضُهُمْ][5]: قولُهُ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ أي أعْلَمُ [بما تَعْلَمُهُ][6] نفوسُكُمْ، وهو كما قالَ عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي تَعْلَمُ ما تَعْلَمُهُ[7] نفسي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ مِنَ التدبيرِ والتقديرِ. فَعَلى ذلكَ هذا

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الآية، أي ربُّكُمْ أعْلَمُ بما في ضميرِكُمْ مِنَ الاسْتِقْذارِ إيّاهما والاسْتِثْقالِ والكَراهةِ إذا بَلَغا[8] المَبْلَغَ الذي ذَكَرَ. ولكنْ لا تُظْهِرْ ذلكَ لهما، ولا تُوافِقْ ظاهِرَكَ باطِنَكَ، أو أنْ يَقولَ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ فلا تُراؤوا[9] الناسَ، ولا تَصْرِفوا ما في ضَميرِكُمْ إلى مَنْ لا يَعْلَمُ ذلكَ، يُخاطِبُ الكُلَّ على الابْتِداءِ ألا يَجْعَلَ ما في قلبِهِ لِغَيرِهِ، بل يُخْلِصُ لهُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ أي ما تَعْلَمُهُ[10] أنفُسُكُمْ وتُدَبِّرُهُ[11].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ أي تَصيروا صالحينَ، لأنَّ قولَهُ: ﴿تَكُونُوا۟﴾ إنما هو في حادثِ الوَقْتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ لِلاوابين ولِمَنْ يَشاءُ. ثم اخْتُلِفَ في الأوّابِ: قالَ بعضُهُمْ الأوّابُ الرَّجّاعُ التَّوّابُ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ. قالَ القُتَبِيُّ: الأوّابُ التائبُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وهو مِنْ آبَ يَؤوبُ، أي يَرْجِعُ، وهما واحدٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الأوّابُ المُطيعُ، وقيلَ: المُسَبِّحُ، ونَحْوُهُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ في قولِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي لِنْ لهما، وارْفُقْ بهما، ذَكَرَ بِرَّ الإنسانِ لِلْوالدَينِ ولُطْفَهُ بهما[12] قولاً وفِعْلاً.

وليسَ في ظاهِرِ الآيةِ ذِكْرُ البِرِّ بالمالِ/ ٢٩٩ ـ ب/ والإنفاقِ عليهما. فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ داخلاً في قولِهِ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أو لم يَذْكُرْ ذلكَ لِما أنَّ مالَ[13] الوَلَدِ مالٌ لهما.

ألا تَرَى إلى ما رُوِيَ عنْ جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ [أنهُ][14] قد جاءَ رجلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ ومعهُ أبوهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ إنَّ لي مالاً، وإنَّ لي أباً، ولهُ مالٌ، وإنَّ أبي يريدُ أنْ يأخُذَ مالي. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ «أنتَ ومالُكَ لأبيكَ»؟ [ابن ماجة: ٢٢٩٢]

أوَ لا تَرَى أيضاً أنهُ أضافَ بُيوتَ الوَلَدِ إليهما حينَ[15] قالَ: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] مَعْناهُ بيوتُ أبنائِكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ[16] في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ إنهُ [يَغْفِرُ تَرْكَ][17] صلاةِ الضُّحى. ويَرْوي في ذلكَ خَبَراً [عَنْ][18] زَيدِ بْنِ أرْقَمَ [أنهُ][19] قالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ على قومٍ، وهمْ يُصَلُّونَ الضُّحى، فقالَ: «صلاةُ الضحى إذا رَمَضَتِ

---

(١) في الأصل وم: الصغار. (٢) في الأصل وم: يعاملهم. (٣) في الأصل وم: والتعظيم. (٤) في الأصل وم: يقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما تفعله. (٧) في الأصل وم: تفعله. (٨) في الأصل وم: بلغ. (٩) في الأصل وم: يرون. (١٠) في الأصل وم: تفعله. (١١) في الأصل وم: وتدبرها. (١٢) في الأصل وم: إياهما. (١٣) في الأصل وم: المال. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: بعض. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من الأصل وم.

الفِصالُ مِنَ الضُّحَى» [بنحوه مسلم ٧٤٨] وفي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ [أنهُ](١) قالَ: «أمَرَني رسولُ اللهِ ﷺ بثلاثٍ: أمَرَني أنْ أصومَ ثلاثاً في كلِّ شهرٍ وألا أنامَ إلا على وِترٍ وأنْ أُصَلِّيَ رَكْعَتَي الضُّحَى فإنها صلاةُ الأوابِينَ» [التمهيد ٨/ ١٤١]

ورُوِيَتْ (٢) أحاديثُ كثيرةٌ في الحَثِّ على صلاةِ الضُّحَى وفِعْلِها وأنهُ صلّى هو رَكْعَتَينِ وأربعاً وسِتّاً وثمانِيَ ما يَكْثُرُ ذِكْرُها، ويَطولُ، ومَنْ صَلّاها فإنما صَلّاها على سَبيلِ التَّطَوُّعِ ليسَ على سَبيلِ اللُّزومِ الواجِبِ أو السُّنَّةِ المُؤكَّدَةِ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ صَلّاها مَرَّةً، فكانَتْ كصلاةِ الليلِ، يُدرِكُ فاعِلُها الفَضلَ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ كأنَّ الآيةَ، هي صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]أي وقَضى أنْ تُؤتِيَ ذا القُرْبى حَقَّهُ ومَنْ ذَكَرَ، أي فَرَضَ، وحَتَمَ، وحَكَمَ على اختِلافِ ما قالوا، وهو كقولِهِ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية [النساء: ٣٦] أمَرَ ﷻ بِبِرِّ الوالِدَينِ والشُّكرِ لهما وصِلَةِ ذي القُرْبى فريضةً ومَنْ ذكرَ.

ثم اختَلَفوا في قولِهِ: ﴿حَقَّهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ الحَقُّ فريضةٌ، وهو الزكاةُ حينَ(٣) جَعَلَ ذلكَ صِلَةَ ما هو فَرْضٌ، وهو الشُّكْرُ للهِ وجَعْلُ العِبادةِ لهُ وشُكرُ الوالِدَينِ جَزاءَ لِما كانَ منهما إليهِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ ذلكَ فَرْضٌ لازِمٌ. فَعَلى ذلكَ صِلَةُ هؤلاءِ. إنَّ صِلَتَهُمْ فَريضَةٌ لِما جاءَ مِنَ المَواعيدِ الشديدةِ في قَطْعِ الرَّحِمِ والتَّرْغيبِ في صِلَتِهِمْ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: ذلكَ الحَقُّ نَفلٌ. الا ترى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [وقالَ:](٤) ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقالَ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨] فلا يَحتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ الإعراضِ ﴿عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ في الفَرْضِ. دَلَّ أنهُ في النَّفْلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: التَّبْذيرُ والإسرافُ واحدٌ، وهو المُجاوَزَةُ عَنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ في الإنْفاقِ والحقوقِ، والمُجاوَزَةُ عنِ المُحَقِّ وغيرِ المُحَقِّ.

رُوِيَ عن ابنِ مَسْعودٍ أنهُ سُئِلَ عنِ التَّبذيرِ، فقالَ إنفاقُ المالِ في غَيرِ حَقِّهِ. وكذلكَ قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: التَّبذيرُ هو الإنفاقُ في ما لا يُنْتَفَعُ بهِ. ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ يُتْرَكُ الإنفاقُ على المُحَقِّ [وهو ذو](٥) القُرْبى، ويُنْفِقُ على الأجنَبِيِّينَ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي كانوا أولياءَ الشياطينِ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي كفوراً لِنِعَمِ ربِّهِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنهُ](٦) قالَ: «كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسْأَلُ، فيقولُ: ما لآلِ محمدٍ، وإنهمْ لَتِسْعَةُ أبياتٍ، إلا صاعٌ مِنْ طعامٍ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾» [بنحوه البخاري ٢٥٠٨] أي عِدْهُمْ أنهُ سَوفَ يأتي الرِّزْقُ.

وعَنِ(٧) ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ](٨) قالَ في قولِهِ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ إذا سألوكَ، وليسَ عندكَ شيءٌ، انْتَظَرْتَ رزقاً مِنَ اللهِ، يأتيكَ ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ يكونُ، إنْ شاءَ اللهُ، شِبْهَ العِدَةِ. وأمثالُ هذا، قالوهُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ إعراضَ الإجابةِ فذلكَ يكونُ بالإسْتِثْقالِ والإسْتِخْفافِ مَرَّةً، أو لِما ليسَ عندَهُ شيءٌ يُعْطِيهِمْ ثانياً. لكنْ لا يُعْرَفُ أنَّ الإعراضَ، كانَ لِلإسْتِثْقالِ والإسْتِخْفافِ أو لِما ليسَ عندَهُ ما يُعْطِيهِمْ، [فَأمَرَهُ اللهُ](٩) أنْ يُبَيِّنَ لهمْ أنَّ الإعراضَ عنهم ليسَ لِلإسْتِثْقالِ والإسْتِخْفافِ، وكذلكَ تَرْكُ الإجابةِ لهمْ، ولكنْ لِما ليسَ عِنْدَهُ شيءٌ لِيَعْلَموا أنَّ الإعراضَ عنهمْ ليسَ لِلإسْتِخْفافِ ولا لِلإسْتِثْقالِ، ولكنْ لِما ليسَ عندَهُ ما يُعْطِيهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقد يروى. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: وغير المحق. (٦) في الأصل وم: عن الحسن. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فأمر.

اجْمَعَ أهلُ التأويلِ أنَّ هذا الإعراضَ، هو السؤالُ، لأنهُ كانَ يُعْرِضُ عنهمْ لابْتِغاءِ ما يُعطيهِمْ؛ فذلكَ الإعراضُ يُرْجِعُ مَنْفعَةً إلى السؤالِ. ثم اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿مَّيْسُورًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: عِدْ هُمْ عِدَةً حَسَنَةً إذا كانَ ذلكَ أعْطيناكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: أي عِدْهُمْ خيراً. وقالَ بَعْضُهُمْ: قُلْ لهمْ قولاً لَيِّناً وسَهْلاً. وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿مَّيْسُورًا﴾ أي حَسَناً، وهو مِنَ التَّيْسيرِ[1] ونَحْوِهِ. ذلكَ قالوا، أيِ ارْدُدْ عليهِمْ رداً حَسَناً لِيَقَعَ عندَهُمْ أنَّ الإعراضَ لِما ليسَ عندَكَ[2] شيءٌ، لا لِوَجْهٍ آخَرَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ في الإنفاقِ إذا كانَ عندَكَ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [لا لئلا يَلُومَكَ][3] مَنْ رَجاكَ، ولكنْ لِما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ الآية [الفرقان: ٦٧] أمرَ اللهُ تعالى أنْ يُنْفِقوا نَفَقَةً، ليسَ فيها سَرَفٌ ولا إقتارٌ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ وغَيرِهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: لا تُمْسِكْ عنِ النَّفَقةِ في ما أمَرَكَ رَبُّكَ بهِ عنِ الحَقِّ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ في ما نَهاكَ عنهُ [﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾][4] وقالَ بَعْضُهُمْ: هذا نَهْيٌ عنِ البُخْلِ والسَّرَفِ. فَلَئِنْ كانَ هذا نَهياً عَنِ [البُخْلِ كانَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾][5] نَهياً عنِ الجودِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَنْهَى [اللهُ تعالى أحداً][6] عنِ البُخْلِ والجُودِ لأنهما غَريزَتانِ طَبيعِيَّتانِ، ولا يَنْهَى [اللهُ تعالى أحداً][7] عمّا سَبيلُهُ الطَّبْعُ والغريزَةُ، ولكنْ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، مِنْ كَفِّ اليَدِ وقَبْضِها عنِ الإنفاقِ في الحَقِّ والمُحَقِّ وبَسْطِها في غَيرِ الحَقِّ وذي الحَقِّ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: دلَّ قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أنَّ قولَ اليهودِ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أنهمْ لم يُريدوا حقيقةَ اليَدِ، ولكنْ [أرادوا][8] التَّضييقَ والتَّقْتيرَ. وكذلكَ لَمْ يُرِدْ بقولِهِ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ حقيقةَ بَسْطِ اليَدِ، ولكنْ[9] أرادَ التَّوسيعَ في الرِّزْقِ والتَّكْثيرَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾؟ [المائدة: ٦٤]

ثم يَحْتَمِلُ الخِطابُ في هذهِ الآياتِ الوُجوهَ الثلاثَةَ التي ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ:

أحدُها: أنهُ خاطَبَ رسولَهُ بذلكَ كلِّهِ، وأشْرَكَ[10] فيهِ قومَهُ، وفي القرآنِ كَثيرٌ ممّا[11] خاطَبَ رسولَهُ بأشياءَ، فأشْرَكَ[12] قومَهُ في ذلكَ.

والثاني: [أنهُ][13] خاطَبَ كُلاً في نَفْسِهِ نَحْوَ ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الإنفطار: ٦] وقولِهِ[14]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١و...] وقولِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقولِهِ[15]: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وقولِهِ[16]: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] ونَحْوِهِ مِنَ الخِطابِ؛ خاطَبَ كلَّ أحدٍ في نفسِهِ، إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُخاطِبَ في قولِهِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ رسولَهُ[17] خاصَّةً، ولا يُخاطِبَ غَيرَهُ. بلِ الخِطابُ بهِ كلَّ الناسِ وكلَّ إنسانٍ.

والثالثُ: [أنهُ][18] خاطَبَ رسولَهُ على إرادةِ غَيرِهِ على سَبيلِ الخُصوصِيَّةِ لهُ نَحْوَ ما يُخاطِبُ مُلوكُ الأرضِ خَواصَّهُمْ وأعْقَلَهُمْ مِنْ رَعِيَّتِهِمْ على إرادةِ ذلكَ الخِطابِ غَيرَ المُخاطَبينَ. فَعَلَى ذلكَ يُحْتَمَلُ هذا، أو يكونُ خاطَبَ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ غَيرَهُ مِمَّنْ يُمْسِكُ، ويُخاطِبُ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ رسولَ اللهِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونُ ما ذكَرَ، وقد يُحْتَمَلُ البَسْطُ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى/ ٣٠٠ ـ أ/: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَلُومًا﴾ عندَ نفسِكَ وعندَ الناسِ [وعندَ اللهِ][19] تلومُ نفسَكَ بأنكَ لِمَ أنْفَقْتَ؟ وعندَ الناسِ ما لم تَجِدْ ما تُنْفِقُ عليهِمْ وعندَ اللهِ إذا[20] أنْفَقْتَ في غَيرِ حقٍّ ﴿مَّحْسُورًا﴾ قالَ القُتَبيُّ:

---

(١) في الأصل وم: التفسير. (٢) في الأصل وم: عنده. (٣) في الأصل وم: فيلومك. (٤) في الأصل وم: فتقعد كذا. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أحد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: ممكن. (١٠) في الأصل وم: وشارك. (١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: فيشرك. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: و. (١٦) في الأصل وم: و. (١٧) في الأصل وم: رسول الله. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أيضاً.

أي يَحْسُرُكَ العَطِيَّةَ، ويَقطَعُكَ، كما يَحسُرُ السَّفَرُ البَعيرَ مُنْقَطِعاً. وقالَ أبو عوسَجَةَ: هو مِنَ الحَسْرَةِ، وهي النَدامةُ؛ يُقالُ: حُسِرَ الرجلُ، فهو مَحْسورٌ، وقالَ: التَّبْذيرُ الفسادُ، وقالَ[1] ﴿مَلُومًا﴾ أي مَحزوناً.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها:][2] هو يُوسِعُ الرِّزْقَ على مَنْ يُوسِعُ، وهو يَقْتُرُ، ويُضَيِّقُ على مَنْ يُضَيِّقُ، ويَقْتُرُ، أي ذلكَ إلى اللهِ تعالى، لا إلى الخَلْقِ، لِيَقْطَعوا الرجاءَ مِنَ الخَلْقِ، ويَرَوا ذلكَ مِنَ اللهِ، لا يَرَونَ مِنْ غيرِهِ.

والثاني: ذَكَرَ هذا لِيُديمَ[3] الفَضلَ لِمَنْ ذَكَرَ الفَضلَ [وقد بيَّنَهُ لهمْ حينَ][4] قالَ: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

ومِنَ[5] الناسِ مَنْ قالَ: بأنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] يقولُ: واللهُ أعلَمُ. إنكَ إنْ مَنَعْتَهُ، وحَرَمْتَهُ، وكانَ في تقديرِهِ التَّضييقُ والتَّقتيرُ، لم يَنْفَعْهُ بَسْطُكَ ولا تَوسيعُكَ، لِيَعْلَموا أنَّ التَّوسيعَ والبَسْطَ والتَّضييقَ والمَنْعَ مِنَ اللهِ.

أو[6] ذَكَرَ هذا ليَقطَعوا الرجاءَ مِنَ الخَلْقِ، ويَطْمَعوا في رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأعمالِهِمْ ﴿بَصِيرًا﴾ بِمَصالِحِهِمْ ومالَهُمْ وما عليهِمْ، أو يكونُ الخَبيرُ والبَصيرُ واحداً. أو ذَكَرَ هذا لِيُعْلَمَ أنهُ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ [مِنْ إنشائِهِمْ][7] الخِلافَ لأمْرِهِ والرَّدَّ والتَّكذيبَ لرسلِهِ، ولم يَخْرُجْ فِعْلُهُ وإنشاؤهُ إياهُمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ عنِ الحِكْمَةِ، لأنهُ لا مَنْفَعَةَ لهُ في طاعتِهِمْ إياهُ وائْتِمارِهِمْ، ولا مَضَرَّةَ ولا تَبِعَةَ في خِلافِهِمْ إياهُ، بلِ المَنْفَعَةُ والمَضَرَّةُ في ذلكَ راجعةٌ إليهِمْ. لِذلكَ كانَ إنشاؤهُ إياهُمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ حِكْمَةً، ومِنْ ملوكِ الأرضِ [سَفَهاً وجَهْلاً][8]، لأنَّ ما يُرْسِلونَ مِنَ الرُّسُلِ، ويَعْمَلونَ مِنَ الأعمالِ، ويَسْعَونَ، لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِدَفْعِ مَضارِّهِمْ. فإذا فَعَلوا شيئاً يَضُرُّهُمْ على عِلْمٍ منهمْ بالضَّرَرِ كانَ ذلكَ سَفَهاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: إنَّ مِنْ عادةِ العَرَبِ أنهم كانوا يَقْتُلونَ البناتِ، ويَقْتُلونَ البَنينَ إذا صاروا بِحَيثُ، لا يَنْتَفِعونَ بهِمْ، ويَقْتُلونَ الآباءَ والأمَّهاتِ إذا بَلَغوا أرْذَلَ العُمُرِ فَنَهى اللهُ أهلَ الإسلامِ عنِ الاسْتِنانِ بِسُنَّتِهِمْ، وأمَرَ أنْ يَبَرُّوا الآباءَ والأمهاتِ إذا بَلَغوا ذلكَ المَبْلَغَ، وهو ما قالَ: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وفي قَتْلِ ما كانوا يَقْتُلونَ مِنَ البناتِ قَطْعُ التَّناسُلِ والتَّوالُدِ الذي كانَ المَقْصودَ مِنْ إنشاءِ هذا العالَمِ؛ ذلكَ إذِ المَقْصودُ مِنْ إنشاءِ العالَمِ هذا الذي ذَكَرْنا، وفي قَتْلِ البناتِ قَطْعُ ذلكَ وذهابُ المَقْصودِ مِنْ إنشائِهِ.

ثم قالَ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي هُمْ لا يأكلونَ مِنْ أرزاقِكُمْ، بل لِكُلٍّ منكُمْ رِزْقٌ على حِدَةٍ، ليسَ في بَقائِهِمْ نُقصانٌ في رزقِكُمْ، ولا في فَنائِهِمْ زِيادةٌ، بل كلٌّ يأكلُ رِزْقَهُ.

أوَ لا تَرَونَ أنهُ قد أنْشأَ لهمْ رِزْقاً، لا شِرْكَةَ لكُمْ فيهِ؟ وهو ما أنْشأَ لهمْ مِنَ اللَّبَنِ في الضَّرْعِ، ولا تَنْتَفِعونَ أنْتُمْ بهِ، فَظَهَرَ أنَّ كُلاً يأكُلُ رزقَهُ، لا يُدْخِلُ بَعْضٌ في رِزْقِ بَعْضٍ نُقْصاناً.

ثم قالَ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ لِما ذَكَرْنا أنَّ في قَتْلِهِمْ قَطْعَ ما بهِ قَصَدَ إنشاءَ هذا العالَمِ وفناءَهُ.

أو يقولُ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ في الأمَمِ الخاليةِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ خِطابَ ما خاطبَ هؤلاءِ الآياتِ مِنْ قَتْلِ الأولادِ والزِّنى وقَتْلِ النَّفْسِ بِغَيرِ حَقٍّ وغَيرِ ذلكَ ما تَقَدَّمَ وما تأخَّرَ لِوَجْهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: ليدوم. (٤) في الأصل وم: وتبيين لهم حيث. (٥) هذا هو الوجه الثالث.
(٦) هذا هو الوجه الرابع. (٧) في الأصل وم: إنشاءهم من. (٨) في الأصل وم: سفهاء وجهلاء.

أحدُهما: ما كانَ للعربِ [مِنْ][1] أفعالٍ وعاداتِ السوءِ ممّا تَخرُجُ على السَّفَهِ والقُبحِ في العَقْلِ خارجةً عنِ الحِكْمَةِ، تَنهاهُم عنْ ذلكَ.

والثاني: ذَكَرَ هذا، ونَهَى لِما عَلِمَ أنهُ قد يكونُ في خَلْقِهِ مَنْ[2] يَفعَلُ ذلكَ خَشيَةَ ما ذَكَرَ، ويَحْمِلُهُمْ ذلكَ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي في العَقْلِ كانَ وَقْتَ ما كانَ فاحشةً، لأنّ في إباحةِ الزّنى ذَهابُ المَعارِفِ التي بها يُوصَلُ إلى الحِكْمَةِ والعِلْمِ، أو ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ في الحِكْمَةِ.

ألا تَرَى أنهُ قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؟ دلَّ قولُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ على أنَّ هنالكَ فَحْشاءَ قَبْلَ الأمرِ في الحِكْمَةِ أو في العَقْلِ حتى قالَ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ إذْ لو لم يَكُنْ لكانَ قالَ لا يَأْمُرُ، فَحَسْبُ.

وفي إباحةِ قَتْلِ الأنفُسِ ذَهابُ ما بِهِ قَصْدُ إنشاءِ هذا العالَمِ. أخْبَرَ ﷻ أنهُ[3] ﴿كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ وهو ما يَعْظُمُ في العَقْلِ، وذَكَرَ في الزّنى [أنهُ][4] فاحشةٌ، وهو ما يَفْحُشُ في العَقْلِ والحِكْمَةِ، وذَكَرَ في قَتْلِ النفسِ الإسرافَ، وقالَ: فلا تُسْرِفْ ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ﴾[5] والإسرافُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أي لا تَزْنوا فإنهُ ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ويَحتَمِلُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ الأسبابَ التي يُوصَلُ بها إلى الزّنى.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ والحَقُّ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرِئٍ مُسْلِمٍ إلّا في ثلاثٍ: كُفْرٌ بَعْدَ إسلامٍ أو زِنىً بَعْدَ إحصانٍ أو قَتْلُ نفسٍ بِغَيرِ حقٍّ» [بنحوه النسائي ٤٠٥٩] حَرَّمَ اللهُ قَتْلَ النفسِ بِغَيرِ حَقٍّ، إذْ في إباحَتِهِ ذهابُ ما قُصِدَ مِنْ إنشاءِ العالَمِ، وفي التَّحريمِ حياةُ الأنفسِ، وفي إباحةِ الزّنى ذهابُ المَعارِفِ وجَهالَتُها، وفي تَحريمِها حياةُ المَعارِفِ وبقاؤُها والوصولُ إلى الحِكْمَةِ والعلومِ التي يَطْلُبُ بَعْضٌ مِنْ بعضٍ، إذْ لا يُعْرَفُ أهلُ الحِكْمَةِ مِنْ غَيرِهِمْ، ففي ذلكَ ذَهابُ العلومِ والحِكْمَةِ.

وفي القَتْلِ على الدينِ إذا اسْتَبْدَلَهُ حياةُ الدينِ، لأنَ مَنْ تَفَكَّرَهُ قَتَلَ نفسَهُ إذا تَرَكَ الدينَ؛ أعني دينَ الإسلامِ، ورَجَعَ عنهُ.

[وفي الزّنى][6] لم يَتْرُكْ دينَهُ الإسلامَ، ومَنْ تَفَكَّرَ رَجْمَهُ بالزّنى امْتَنَعَ عنِ الزّنى، وتَرَكَهُ.

ومَنْ تَفَكَّرَ أنهُ يُقْتَلُ إذا قَتَلَ غَيرَهُ امْتَنَعَ عنْ قَتْلِهِ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فإنْ قيلَ في المرأةِ إذا ارْتَدَّتْ عنِ الإسلامِ: إنها لا تُقْتَلُ، قيلَ: لأنهُ ليسَ في قَتْلِها حياةُ الدينِ، لأنَّ النساءَ أتباعُ الرجالِ في الدينِ، لأنهنَّ يُسْلِمْنَ بإسلامِ أزواجِهِنَّ، ويَصِرْنَ ذِمّةً بِذِمَّةِ الأزواجِ. فإذا كانَ كذلكَ فليسَ في قَتْلِهِنَّ حياةٌ. ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ أنَّ فلاناً أسْلَمَ معهُ كذا وكذا نِسْوَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ والحقُّ ما ذَكَرْنا. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ بالإسلامِ أو بالذِّمّةِ بإعطاءِ الجِزْيَةِ. [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ قيلَ: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي تَسَلُّطاً وقَهْراً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي حُجَّةً على القَتْلِ في ما يَسْتَوجِبُ بِهِ القِصاصَ. ثم ذَكَرَ أنهُ [جَعَلَ][8] لِوَلِيِّ القَتيلِ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ ولم يَذْكُرْ أيَّ وليٍّ. فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الوَلِيِّ الذي يَخْلُفُ الميتَ في التَّركَةِ، وهُم الوَرَثَةُ، إذْ هو حَقٌّ كَغَيرِهِ[9] مِنَ الحقوقِ، فذلكَ إلى الوَرَثَةِ، فَعَلَى ذلكَ حقُّ الدَّمِ، فكأنهُ قالَ: ومَنْ قَتَلَ مظلوماً فقد جعَلْنا لِوَرَثَتِهِ سُلْطاناً أي حُجّةً في ما يَسْتَوجِبُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) هذه قراءة الكسائي وهشام وحمزة وغيرهم، وقراءة الجمهور ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/٣٢٠. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: كغير.

وفي ظاهرِ هذهِ الآيةِ دلالةٌ: أنَّ للواحدِ مِنَ الوَرَثَةِ القِيامَ باسْتِيفاءِ الدَّمِ؛ إذْ لو كانَ لِلْكُلِّ الاسْتيفاءُ لَدَخَلَ في ذلكَ الإسرافُ الذي ذُكِرَ: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ إذْ لو ضَرَبَهُ كلُّ الوَرَثَةِ لصاروا[١] في ذلكَ مثلةً، وقد مُنِعوا عنْ ذلكَ فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ في ذلكَ دلالةٌ لِقولِ أبي حنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، حينَ[٢] قالَ: إنَّ الوَرَثَةَ إذا كانَ بَعْضُهُمْ صغاراً، وبَعْضُهُمْ كِباراً، فَلِلْكِبارِ[٣] أنْ يَقوموا بالاسْتيفاءِ دونَ أنْ يَنْظُروا بلوغَ الصغارِ/ ٣٠٠ - ب/ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يَقْتُلْ غيرَ القاتِلِ[٤]؛ وذلكَ إذ كانَ مِنْ عادةِ العَرَبِ قَتْلُ غيرِ القاتِلِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ الأوَّلِ حينَ[٥] قَتَلَ نفساً بغَيرِ حقٍّ، فذلكَ إسرافٌ كما قالَ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجهَينِ]:

أحَدُهُما[٦]: أنْ يكونَ خاطَبَ بهِ وَلِيَّ القتيلِ، فقالَ: لا تُسْرِفْ في القَتْلِ أي [لا][٧] تُجاوِزِ الحَدَّ الذي جُعِلَ لهُ على ما رُوِيَ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ][٨] «إذا قَتَلْتَ فأحْسِنِ القَتْلَ» [بنحوه مسلم ١٩٥٥].

والثاني: [أنْ يكونَ][٩] خاطَبَ بهِ القاتلَ؛ يقولُ لهُ: لا تَقْتُلْ فإنهُ إسرافٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ المَقْتولَ كانَ مَنصوراً بالوَلِيِّ بقولِهِ: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ويَحْتَمِلُ ﴿مَنصُورًا﴾ بالمسلمينَ، أي على المُسْلِمينَ والحُكّامِ وغيرِهِمْ دَفْعُ ذلكَ القَتْلِ عنهُ.

هذا على تأويلِ مَنْ يَتَأَوَّلُ في قولِهِ: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ قَتْلَ غيرِ القاتِلِ وَلِيُّهُ، أويَزِدْ في جِراحاتِهِ، أو يُمَثِّلْ تَمْثيلاً[١٠]، يقولُ: احْذَروا ذلكَ فإنَّ على المسلِمينَ دفعَ ذلكَ عنهُ، أو ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ في الآخِرَةِ.

وفي ظاهرِ هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ القِصاصَ واجبٌ بينَ الأحرارِ والعَبيدِ وبينَ أهْلِ الإسلامِ وأهْلِ الذِّمَّةِ، لأنَّ اللهَ ﷻ قالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فكانَتْ أنْفُسُ أهْلِ الذِّمَّةِ والعَبيدِ داخِلَةً في هذهِ الآيةِ لأنها مُحَرَّمَةٌ. وفيهِ ما ذَكَرْنا أنَّ الكبيرَ مِنَ الوَرَثَةِ يُقْتَلُ[١١]، وإنْ كانَ فيهِمْ صغارٌ.

ورُوِيَ أنَّ الحَسَنَ بْنَ عليٍّ رضي الله عنهما قتلَ قاتلَ أبيهِ فلاناً، وفي الوَرَثَةِ صِغارٌ، لم يُدْرِكوا يومئِذٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ في ظاهِرِ هذا أنَّ القاتلَ، هو كانَ مَنْصوراً، إذْ[١٢] لم يَقُلْ: هو مَنصورٌ؛ فجائزٌ أنْ يقولَ: كانَ مَنصوراً قَبْلَ قَتْلِ هذا، إذْ[١٣] كانَ على المُسْلِمينَ نَصْرُهُ، فلما قَتَلَ كانَ غيرَ مَنصورٍ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ الوَلِيَّ صارَ مَنصوراً، وذلكَ جائزٌ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] يَحْتَمِلُ النَّهْيَ عنْ نَفْسِ الزِّنى، ويَحْتَمِلُ [النَّهْيَ عنْ][١٤] أسبابِ الزِّنى مِنْ نَحْوِ القُبْلَةِ والمَسِّ وغيرِهِ على ما ذَكَرَ [رسولُ اللهِ ﷺ][١٥] «العَينانِ تَزْنِيانِ، واليدانِ تَزْنِيانِ، والفَرْجُ، يُصَدِّقُ ذلكَ كلَّهُ، ويُكَذِّبُهُ» [مسلم ٢٦٥٧]

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قولُهُ: ﴿أَحْسَنُ﴾ هو أفْعَلُ، فإنْ كانَ في الأشكالِ[١٦] فهو على غايةِ الحُسْنِ، وإنْ كانَ في الجَوهَرينِ فهو على طَلَبِ الحَسَنِ كقولِهِ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] أي اتَّبِعوا[١٧] ما هو طاعةٌ؛ كأنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا﴾ ما هو خَيرٌ لهُ وحَسَنٌ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦] يقولُ: لا تأكلوا إسرافاً وبِداراً، ولكنِ اقْرَبوا ما هو خيرٌ لهُ. وإنْ كانَ على طَلَبِ الغايَةِ مِنَ الحُسْنِ فهو ما قالَهُ أبو حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، إذا قَرَبَ مالَ اليتيمِ لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ فلا يَقْرَبُهُ إلا لِمَنْفَعَةٍ حاضِرَةٍ لليتيمِ، لا

---

(١) في الأصل وم: لصار. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قاتل. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: مثلاً.
(١١) في الأصل وم: قتله. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: إذا. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) من م، في الأصل: الإنكار. (١٧) في الأصل وم: اتبع.

يَقْرَبَ مالَهُ لِمَنْفَعَةٍ مَرْجُوَّةٍ له، وإنْ لم يكُنْ فيه مَنْفَعَةٌ حاضِرَةٌ. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ وما فيهِ مِنَ الدلالةِ بِقَولِ أبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في ما تَقَدَّمَ في سورةِ الأنعامِ [الآية: ١٥٢].

ثم مِنَ الناسِ مَنِ احتَجَّ لهُ، لأنَّ لهُ أنْ يَبيعَ مِنْ غَيرِهِ بِمِثْلِ قيمتِهِ. فَدَلَّ أنَّ ذِكْرَ الخَيرِ لهُ إذا كانَ يبيعُ مِنْ نَفْسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ كأنهُ على الإضمارِ، أي لا تَقْرَبوا مالَ اليَتيمِ إلّا بالوجوهِ التي هي أحْسَنُ لهُ وأنْفَعُ، وهو الحِفْظُ لهُ، وطَلَبُ الرِّبحِ والنَّماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يَسْتَحكِمَ عَقْلُهُ، ويَشْتَدَّ تدبيرُهُ في مالِهِ وأمْرِهِ. فعندَ ذلكَ يكونُ الأمْرُ إليهِ. وليسَ فيهِ أنهُ لا يكونُ بعدَ ذلكَ الأمْرُ إلى الوَصيِّ، إنْ كانَ، ولكنْ بإذْنِهِ يَبيعُ، ويَشْتري.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿بِٱلْعَهْدِ﴾ العُهودَ والمواثيقَ بَيْنَ الناسِ، أمَرَهُمْ[1] بِوَفاءِ العَهْدِ ما ذُكِرَ في هذهِ الآياتِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ مِنْ نَحْوِ ما قالَ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى هذا المَوضِعِ، أي وأوفُوا بذلكَ كلِّهِ فإنَّ ذلكَ كلَّهُ ﴿كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ يُسْأَلُ عنهُ: وفاءً كانَ ذلكَ أو نَقْضاً.

وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي ناقِضُ العَهْدِ كانَ مسؤولاً

ثم إنَّ العَهْدَ على وجوهٍ: أحدُها: عَهْدُ [الخِلْقَةِ، والثاني:][2] العَهْدُ الذي أخَذَ عليهِمْ على ألْسُنِ الرسلِ، والثالثُ[3] العَهْدُ الذي بَينَ الناسِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أمَرَ توفيرَ الكيلِ إذا كالوا ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ والوَزْنِ إذا وَزَنوا لهمْ، وإيفاءِ حقوقِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] أنَّ عادَتَهُمْ إذا كالوا، أو وَزَنوا، يَبْخَسونَ الناسَ أشياءَهُمْ، ولم يُوفِروا حقوقَهُمْ، فَنهاهُمْ عنْ ذلكَ، وأوعَدَهُمْ بالوعيدِ الشديدِ، وهو قولُهُ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ و٢ و٣].

ذِكْرُ تخصيصِ الكَيليِّ والوَزْنيِّ مِنْ بينِ سائرِ الأشياءِ، يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لِما بهما تُجْرَى عامَّةُ مُعامَلةِ الناسِ، فأمَرَهُمْ بإيفاءِ ذلكَ.

والثاني: لِخَوفِ الرِّبا لأنَّ الكَيليَّ والوَزْنيَّ، هما اللذانِ يكونانِ دَيناً في الذِّمَّةِ، فإذا أُخِذَ شيءٌ منهما أُخِذَ عمّا كانَ دَيناً في الذِّمَّةِ؛ فإنْ نَقَصَ، أو زادَ، فيكونُ رِباً. لِذلكَ خُصَّ، وإنْ كانَ غَيرُهُ مِنَ الأشياءِ يُؤْمَرُ بالإيفاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: القِسْطاسُ حَرْفٌ أُخِذَ مِنَ الكتبِ السالِفَةِ، ليسَ بِمعْرِفَةٍ. وقالَ بعْضُهُمْ: هو العَدْلُ أي زِنوا بالعَدْلِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الميزانُ كقولِهِ: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥]وقالَ بَعضُهُمْ: القِسْطاسُ القَبّانُ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأمرِ بِتَوفيرِ الكَيلِ والوَزْنِ [وإيفاءِ الحقوقِ][4] والنَّهْيِ عنِ البَخْسِ والنُّقصانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ما ذَكَرَ مِنْ توفيرِ الكَيلِ وإيفاءِ الحقوقِ خَيرٌ في الدنيا لِما فيهِ أمْنٌ لهمْ مِنَ الناسِ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبةً في الآخرةِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ما ذَكَرَ في هذهِ مِنْ أوّلِها إلى آخِرِها إذا عَمِلوا بها خيرٌ لهمَ في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي عاقبةً.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ قيلَ: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي لا تَقُلْ، وقيلَ: لا تَرْمِ، وقيلَ: لا تَتْبَعْ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ النَّهْيُ عنِ القَوْلِ والرَّمْيِ في ما لا عِلْمَ لهُ بهِ؛ ولا تَرْمِ ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ، ولا تَقُلْ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كلُّ أولئكَ؛ يعني السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ، يُسْأَلُ عمّا

---

(١) في الأصل وم: أمروا. (٢) في الأصل وم: خلقة أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل: وإيفاء لحقوقهم، في م: والإيفاء لحقوقهم.

عَمِلَ صاحِبُهُ كقولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ الآية [يس: ٦٥] وقولِهِ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ [فصلت: ٢٠] يُسْأَلُ هؤلاءِ عمّا عَمِلَ صاحِبُها، فَيَشْهَدونَ عليهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو عنْ كلِّ أولئكَ كانَ مَسْؤولاً؛ أي يُسْأَلُ المَرْءُ عمّا اسْتَعْمَلَ هذهِ الجَوارِحَ؟ وفيمَ[١] اسْتَعْمَلَها؟

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يَعْني الخَلائِقَ جميعاً ﴿كَانَ عَنْهُ﴾ يعني عَمّا ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفؤادِ ﴿مَسْـُٔولًا﴾. وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يقولُ: لا تَقُلْ: رأيتُ، ولم تَرَ، وسَمِعْتُ، ولم تَسْمَعْ، وعَلِمْتُ، ولم تَعْلَمْ. ومنهُمْ مَنْ قالَ في شهادةِ الزُّورِ.

فإنِ احْتَجَّ يَحْتَجُّ بهذا في إبطالِ القِياسِ والاجتهادِ، فَيَقولُ: إذا قاسَ الرجلُ، فقدْ قالَ ما ليسَ لهُ بِهِ علمٌ.

لكنْ ليسَ كذا لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ قد تكلّموا في الحوادِثِ/ ٣٠١ ـ أ/ بآرائِهِمْ، وشاوَرُوا في أمورِهِمْ، وَوَلّي أبو بَكْرٍ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِ، الخِلافَةَ بِغَيرِ نَصٍّ مِنَ الرسولِ عليها، وجَعَلَها عُمَرُ شُورَى بَيْنَهُمْ، ولم يُرْوَ ذلكَ عنِ النّبيِّ ﷺ ولا نَقولُ: إنهمْ فَعَلُوا ذلكَ بِغَيرِ عِلْمٍ، ولا قالوا ما لم يَعْلَموا، فَدَلَّ ما ذَكَرْنا أنَّ مَعْنى قولِ اللهِ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ليسَ يَدْخُلُ فيهِ الاجْتِهادُ في الأحكامِ وتشبيهُ الفَرْعِ الحادثَ بالأصلِ المَنْصوصِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي يَتَناهى في الثباتِ إلى حالِ الرجالِ، ويُقالُ: ثماني عشرةَ سنةً، وقالَ: أشُدُّ اليَتيمِ غَيرُ أشُدِّ الرجلِ في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] والأشُدُّ ما ذَكَرْنا مِنِ استِحْكامِ عَقْلِهِ وتَدْبيرِهِ إلى أنْ يأخُذَ بالنُّقصانِ، وهو إذا جاوزَ أربعينَ، يأخُذُ في النُّقصانِ، وإلى أربعينَ يكونُ على الزِّيادةِ والنَّماءِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ أي ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بأسبابِ العِلْمِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ يُسْأَلُ عن شُكْرِ هذهِ الأشياءِ، أو يُسْأَلُ عمّا امْتُحِنَ بهذهِ الأشياءِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ دلالةُ جوازِ الاجْتِهادِ لأنهُ أمَرَ بإيفاءِ الكَيْلِ والوَزْنِ، ولا يَقْدِرُ على ذلكَ إلا بالاجْتِهادِ الكايلُ والوزانُ لأنَّ كَيلَ الرجلِ يزيدُ على كَيلِ غيرِهِ، ويَنْقُصُ، ورُبّما كالَ الرجلُ الشيءَ، ثم يُعيدُ كَيْلَهُ هو بِنَفْسِهِ، فَيَزيدُ، ويَنْقُصُ، ولا يكادُ يَسْتَوي الكَيْلانِ، وإنْ كانا مِنْ رجلٍ واحدٍ. وإنما التَّكليفُ[٢] الاجْتِهادُ في كَيلِهِ، وتَرْكُ التَّعَمُّدِ لِلزِّيادةِ أو النُّقصانِ. فإذا فَعَلَ ذلكَ فقد وَفَّرَ الكَيلَ، وأدّى الواجبَ. وهذا عندَنا أصلُ الاجْتِهادِ والاسْتِحْسانِ لأنَّ الكايلَ إنما يَجْتَهِدُ في توفيقِهِ الحَقَّ، ولا يَعْلَمُ يَقيناً أنهُ وَفَّرَ ما كانَ عليهِ مِنَ الكيلِ الذي سَمّاهُ في العَقْدِ.

فَعَلى ذلكَ الاسْتِحْسانُ؛ إنما هو اجْتِهادُ العالِمِ في اختيارِ أحْسَنَ ما يَقْدِرُ عليهِ إذا لم يكُنْ للحادثةِ أصلٌ يَرُدُّها عليهِ، ويُثْبِتُها بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ليسَ النَّهيَ عنِ المَشْيِ [نَفْسِهِ إنما النَّهيُ][٣] لِلْمَشْيِ المَرِحِ. ثم النَّهْيُ عنِ الشيءِ، يوجِبُ ضِدَّهُ، وكذلكَ الأمْرُ بِضِدِّهِ، وكذلكَ الأمْرُ. ثم إنَّ النَّهيَ عنِ الشيءِ، يوجِبُ الأمْرَ بِضدِّهِ، وهٰهنا نَهْيٌ عنِ المَرَحِ، فيكونُ أمْراً بما ذَكَرَ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَرَحًا﴾ بَطَراً وأشَراً، وقيلَ: مُتَعَظِّماً مُتَكَبِّراً بالخُيلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ خَرْقَ الأرضِ وبُلوغَ الجبالِ طُولاً لأنَّ مِنَ الخَلائِقِ مَنْ يَخْرِقُ الأرضَ ويَدْخُلُها، ويَبْلُغُ طولَ الجبالِ، وهُمُ الملائكةُ، ثم لم يَتَكَبَّروا على اللهِ، ولا تَعَظَّموا عليهِ ولا على رسولِهِ، بل خَضَعوا لهُ. فَمَنْ لم يَبْلُغْ في القُوَّةِ والشِّدَّةِ ذلكَ أحْرَى أنْ يَخْضَعَ لهُ، ويَتَواضَعَ، ولا يَتَكَبَّرَ.

---

(١) في الأصل وم: وأنه فيم. (٢) في الأصل وم: تكليف. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِما أنهمْ كانوا يَسْعَونَ في إطفاءِ هذا الدينِ وقَهرِ رسولِ اللهِ ﷺ فيقولُ: كما لم يَتَهَيَّأْ لكمْ خَرْقُ الأرضِ وبُلوغُ الجبالِ طولاً لم يَتَهَيَّأْ لكُمْ إطفاءُ دينِ اللهِ وقَهْرُ رسولِهِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] أو يَذْكُرَ هذا، فيقولُ[1]: إنكَ لنْ تَبلُغَ بِكِبْرِكَ وعَظَمَتِكَ مَرْتَبَةَ الرُّؤساءِ والقادةِ ومَنزِلَتَهُمْ. على هذا التمثيلِ يَحتمِلُ أنْ يُخرَّجَ، واللهُ أعلَمُ، أو يقولَ: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي لا تَقْدِرُ أن تَخرِقَ الأرضَ، ما فيها مِنَ الكنوزِ والمَنافِعِ، فَتَنتَفِعَ بها، ولا تَقْدِرُ أنْ تَبْلُغَ الجبالَ طُولاً، فَتَنتَفِعَ بما في رؤوسِ الجبالِ مِنَ المَنافِعِ. وكيفَ تَتَكبَّرُ، وتَمْرَحُ على غيرِكَ، وهو مِثْلُكَ في القُوّةِ والشِّدّةِ؟

وأصْلُ الكِبْرِ أنَّ مَنْ عَرَفَ نفسَهُ على ما هي عليهِ مِنَ الأحداثِ والآفاتِ وأنواعِ الحَوائجِ لم يَتَكبَّرْ على مِثْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي كلُّ ما أمَرَ اللهُ بهِ، ونَهَى عنهُ، في هؤلاءِ الآياتِ ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بالعَقْلِ ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ مَسْخوطاً. وفيهِ دلالةٌ أنَّ الأمْرَ الذي أمَرَ في هذهِ الآياتِ، ونَهاهُمْ عنهُ، لم يَكُنْ أمْرَ أدبٍ ولا نَهْيَ أدبٍ، ولكنْ أمْرُ حَتْمٍ وحُكْمٍ حينَ[2] ذَكَرَ أنَّ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ إذْ لو كانَ أدباً لم يُكْرَهْ أيُّ شيءٍ مِمّا[3] ذُكِرَ في مَكروهٍ عندَ ربِّكَ. وهو كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨] ويَتْرُكونَ غيرَهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ أي ذلكَ الذي أمَرَ اللهُ بهِ، ونَهَى عنهُ في هؤلاءِ الآياتِ مِنَ الحِكْمَةِ، ليسَ مِنَ السَّفَهِ، أي ما أمَرَ فيها، هو حِكْمَةٌ، وما نَهَى عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحِكْمَةُ ههنا القرآنُ لِقولِهِ[4]: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ الذي أوحَى إليكَ، هو حِكْمَةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الحِكْمَةُ الإصابَةُ، أي ذلكَ الذي ﴿أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ صَوابٌ، وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ أي ما ذَكَرَ في هذهِ الآياتِ، وأمَرَ بهِ، ونَهَى عنهُ، مِنَ الحِكْمَةِ، والحِكْمَةُ هي وَضْعُ الشيءِ مَوضِعَهُ؛ يقولُ: حُكْمُهُ وَضْعُ كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ، لا وَضْعُ الشيءِ غَيرَ مَوضِعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَجْعَلُ مع اللهِ إلهاً آخَرَ، إذْ عَصَمَهُ، واختارَهُ لِرسالتِهِ، لكنهُ ذَكَرَ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنهُ لو كانَ منهُ ذلكَ لَفُعِلَ[5] بهِ ما ذَكَرَ. فَمَنْ هو دونَهُ أحَقُّ أنْ يُفْعَلَ بهِ ما ذَكَرَ، وهو ما قالَ في الملائكةِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩] إنهُ عَصَمَهُمْ حتى أخبَرَ أنهمْ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] فَمَنْ لم يكُنْ مَعْصوماً لم يوصَفْ أنهُ لا يَسْبِقُ بالقولِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ عندَ اللهِ أو عندَ نفسِكَ أو عندَ الخَلْقِ ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبْعَداً مَطْروداً مِنْ رَحْمَتِهِ في النارِ. أو خاطَبَ بهِ رسولَهُ، وأرادَ بهِ غيرَهُ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ يُخبِرُ عن سَفَهِ مُشْركي العَرَبِ أنهمْ نَسَبوا إلى اللهِ البناتِ والبَنونَ إلى أنفُسِهِمْ بقولِهِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] والذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ قولُ أهلِ الكتابِ حينَ[6] وَصَفوا اللهَ بالوالدِ[7]، فَرَأَوا أنَّ ما يكونُ لهُ الوَلَدُ يكونُ لهُ البناتُ، فقالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لم يَزِدْ على هذا العظيمِ ما قالوا في اللهِ، فلم يَضْرِبْ لِقَولِهِمْ ذلكَ مثلاً لِما ليسَ وراءَ ذلكَ مَثَلٌ يُضْرَبُ، لأنهُ ضَرَبَ مَثَلَ ما قالوا بالوَلَدِ لهُ بِانْفِطارِ السماءِ وانْشِقاقِ الأرضِ وخُرورِ الجبالِ حينَ[8] قالَ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ الآية [مريم: ٩٠] أخبَرَ أنَّ السمواتِ وما ذَكَرَ كادَتْ تَنقَلِبُ عنْ وَجْهِها لِعَظيمِ ما قالوا في اللهِ مِنَ الوَلَدِ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل وم: فيفعل.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: بالولد. (٨) في الأصل وم: حيث.

وقالَ في الشريك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ٣١] فهذا غايةُ ما ذَكَرَ مِنَ الأمثالِ لِمَنْ قالَ لهُ بالوَلَدِ والشريكِ.

فليسَ وراءَ هذا [مَثَلٌ](١) يَذْكُرُ لِمَنْ قالَ لهُ بالبناتِ، ولكنْ قالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لم يَزِدْ على ذلكَ لأنَّ الذي قالوا لهُ، ونَسَبوا إليهِ نهايةٌ في السَّفَهِ والسَّرَفِ في القولِ، تعالى اللهُ عمّا يَقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

أو يقولُ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ في عقولِكُمْ لو تَفَكَّرْتُمْ، وتَدَبَّرْتُمْ، لَعَلِمْتُمْ أنَّ ما قُلْتُمْ في اللهِ ﷻ عظيمٌ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم﴾ أي أعطاكُمْ ربُّكُمْ. يُقالُ: أصْفَيْتُهُ: أعطيْتُهُ، وأصفاكُمْ أي اختارَكُمْ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾

قالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿صَرَّفْنَا﴾ يقولُ: بَيَّنّا/ ٣٠١ ـ ب/ في هذا القرآنِ ما نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسلِ مِنَ الأممِ الخاليةِ بِتَكْذيبِهِمُ الرسلَ ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ مانَزَلَ بهِمْ، فَيَنْتَهُوا عنْ تكذيبِهِمُ الرسلَ ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ما بَيَّنَ لهمْ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي تكذيباً للرسلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي بَيَّنّا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ والآياتِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها جميعَ ما يُؤْتى وما يُتَّقى ومالهمْ وما عليهِمْ لِيَعْتَبِروا، فَيُؤْمِنوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ القرآنُ إلّا تباعُداً مِنَ الإيمانِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ الآية [الإسراء: ٣٩]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ مِنَ المَواعيدِ الشديدةِ أنهُ ما يَنْزِلُ بهمْ في الآخِرَةِ مِنَ العذابِ والعقوبةِ بِصَنيعِهِمْ وتكذيبِهِمُ الرسلَ، لكنْ(٢) لم يُؤْمِنوا بالآخِرَةِ، ولَمْ(٣) يَزِدْهُمْ ذلكَ الوعيدُ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾.

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى قد ذَكَرَ في القرآنِ المَواعِظَ الكبيرةَ ما لو نَظَروا فيها، وتأمّلوا، لكانَتْ تَمْنَعُهُمْ، وتَزْجُرُهُمْ عن مِثْلِ صَنيعِهِمْ. لكنْ لم يَنْظُروا إليهِ بالتعظيمِ، ولكنْ نَظَروا إليهِ بالاسْتِهْزاءِ والاسْتِخْفافِ بهِ. لذلكَ أُضيفَتْ زيادةُ النفورِ إليهِ، أو أضافَ ذلكَ إليهِ لمّا أحْدَثوا بنزولِهِ الكُفْرَ والتكذيبَ لهُ، فأضافَ ذلكَ إليهِ لمّا ازدادَ لَهُمُ التكذيبُ، وحَدَثَ لهمُ الكُفْرُ إذا تُرِكَ كما كانَ [لأهلِ](٤) الإسلامِ يَزْدادُ لهمُ الإيمانُ واليَقينُ إذا نَزَلَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي لِيَشْرُفوا كقولِهِ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي شَرَفُكُمْ. أو ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ما نَسُوا، وتَرَكُوا، وغَفَلُوا عنهُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنْزَلَهُ لِيُلْزِمَهُمُ الذِّكْرَ، أو لِيكونَ عليهِمُ [الذِّكْرُ، أو لِيَأمُرَهُمْ](٥) بالذِّكْرِ، وهو ماذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ الآية [الذاريات: ٥٦] وقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] أي لِيُلْزِمَهُمُ العبادةَ والطاعةَ، أو لِيَأمُرَهُمْ بالعبادةِ والطاعةِ، أو أرسَلَ، وخَلَقَ، لِمَنْ عَلِمَ منهُ العِبادةَ والطاعةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي ليكونَ لهمُ الذِّكْرى بذلكَ، لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُبَيِّنَ لهمْ، ويَجْعَلَ لهُمْ بياناً ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ثم لا يكونُ، ولكنْ ما ذَكَرْنا ليكونَ لهمُ الذِّكْرى، وقد كانَتْ، لكنْ لم تَنْفَعْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ليسَ القرآنُ بالذي يَزيدُهُمْ نُفوراً، ولكنْ لمّا نَظَروا إليهِ بِعَيْنِ الاسْتِخْفافِ والاسْتِهْزاءِ زادَ لهمْ بذلكَ نُفوراً عندَهما وتكذيباً، وإلّا القرآنُ، لا يَزيدُ إلّا هُدىً ورُشْداً على وَصْفِهِ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: الآيةُ في الأصنامِ والأوثانِ التي كانوا يَعْبُدونَها، أي لو كانَتْ هي آلهةً مَعَهُ كما تقولونَ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ التَّقَرُّبَ والزُّلْفى ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أو. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: ليأمر، في م: ليأمرهم.

وقالَ بعضُهُمْ: لو كانَتْ لهمْ عقولٌ لابْتَغَتْ، وأمْكَنَ لها مِنَ الطاعةِ والعِبادةِ؛ إذاً لابْتَغَتْ ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ بالطاعةِ لهُ والعبادةِ، وهو ما قالَ في الملائكةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]

لكنَّ الأشْبَهَ أنْ يكونَ اللهُ تعالى ألّا يقولَ في الأصنامِ مثلَ هذا لو كانَ مَعَهُ آلهةٌ، إنما هي خَشَبٌ. لكنْ قالَ فيها ما قالَ: لا تَسْمَعُ، ولا تَعْقِلُ، ولا تُبْصِرُ، وما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] وما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ[1] مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ الآية [الحج: ٧٣] مِثْلُ هذا أنْ يُقالَ في الأصنامِ.

وأمّا ما ذَكَرَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾[2] الآية فَمَعْلومٌ[3] أنها ليسَتْ مِنْ أهلِ الابْتِغاءِ إلّا أنْ يُقالَ ما ذَكَرَ بعضُهُمْ، أي لو كانَ الأصنامُ التي تَعْبُدونَها آلهةً على ما تَزْعُمونَ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ وتَتَّخِذونَهُمْ معبوداً.

وأمّا[4] في الثَّنَوِيَّةِ الذينَ يقولونَ بالعَدَدِ الذينَ لهمْ تدبيرٌ، أو الذينَ يقولونَ بِقِدَمِ المعالَمِ وأصولِهِ فهو يُخَرَّجُ على وُجوهٍ.

فنقولُ، واللهُ أعْلَمُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي إذنْ لأظْهَرُوا دلالةَ رُبوبِيَّتِهِمْ وأُلوهِيَّتِهِمْ بإنشاءِ[5] الخلائقِ كما أظهَرَ اللهُ سُبْحانَهُ أُلوهِيَّتَهُ ورُبوبِيَّتَهُ بإنشاءِ الخَلائقِ، ولم يَظْهَرْ مِمَّنْ يَدَّعونَ لهمْ أُلوهِيَّةً إنشاءُ شيءٍ مِنْ ذلكَ. فَدَلَّ أنهُ ليسَ هنالكَ إلهٌ غَيرُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [أي صاروا كَهُوَ][6] يعني اللهَ، أي في الإنشاءِ والإفناءِ والتدبيرِ، ومَنَعُوهُ عنْ إنفاذِ الأمْرِ لهُ في خَلْقِهِ والمَشيئةِ له فيهمْ واتِّساقِ التدبيرِ. فإنْ لم يكنْ ذلكَ منهمْ فإنهُ[7] لا إلهَ معهُ سِواهُ، ويكونُ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ الآية [المؤمنون: ٩١]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا﴾ تَزْعُمونَ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ في القَهْرِ والغَلَبَةِ على ما عُرِفَ مِنْ عادةِ ملوكِ الأرضِ أنهُ يَسْعَى كلٌّ منهمْ في غَلَبَةِ غيرِهِ وقَهْرِ آخَرَ، ويُناصِبُهُ [العِداءَ][8] كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] أي غَلَبَ، وقَهَرَ، وناصَبَ.

ويَحْتَمِلُ غَيرَ هذا؛ وهو أنْ يَمْنَعَ كلٌّ منهمْ أنْ يكونَ للهِ الواحدِ بالخَلْقِ دلالةُ ألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وجِهَةُ الاسْتِدْلالِ لهُ بذلكَ. فإذا لم يَمْنَعُوا ذلكَ دلَّ أنهُ [لا][9] أُلوهِيَّةَ لِسِواهُ، وهو الأوَّلُ بِعَيْنِهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: لَعَرَفُوا فَضْلَهُ ومَرْتَبَتَهُ عليهمْ، ولابْتَغَوا ما يُقَرِّبُهُمْ إليهِ، وقيلَ: ولابْتَغَتِ الحَوائجُ إليهِ. وهذا هو الذي ذَكَرْناهُ بَدْءاً مِنْ طلبِ الطاعةِ لهُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نَزَّهَ نفسَهُ، وبَرَّأَها عمّا يقولُ المُلْحِدَةُ فيهِ، ويَصِفونَهُ[10] بالشركاءِ والأشْباهِ والوَلَدِ وما لا يَليقُ بهِ. فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

الآية ٤٤ ثم قالَ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ثم يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ [وجوهاً]:

أحَدُها[11]: جَعْلُ اللهِ تعالى في خَلْقِهِ السمواتِ والأرضَ وما ذَكَرَهُ دلالةً على وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ وشهادةً[12] لهُ أنهُ واحدٌ، لا شَريكَ لهُ، ولا شَبيهَ. فإنْ كانَ على هذا يَدْخُلُ[13] فيهِ كلُّ شيءٍ ذو الروحِ وغيرُهُ، فيكونُ قولُهُ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لِلْكَفَرَةِ[14] خاصةً. وأمّا أهلُ الإسلامِ [فإنهمْ][15] يَفْقَهونَ ذلكَ.

والثاني: جَعْلُ[16] اللهِ في سِرِّيَّةِ هذهِ الأشياءِ ما ذَكَرَ مِنَ التَّسْبيحِ والتَّنْزيهِ، لكنْ لا نَفْقَهُ نحنُ ذلكَ، ولا نَعيهِ على ما أخْبَرَ

---

(١) في الأصل وم: يدعون، وهي قراءة أبي عمرو ويعقوب والحسن وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٩٦. (٢) في الأصل وم: تقولون، وهي قراءة أبي عامر ونافع وأبي عمرو وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٢٤. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الاصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: بما أنشأ. (٦) في الأصل: إلى صاروا كهؤلاء، في م: أي صاروا كهؤلاء. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ووصفوه. (١١) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (١٢) في الأصل وم: وشاهدة. (١٣) في الأصل وم: فيدخل. (١٤) في الأصل وم: الكفرة. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ادرج قبلها في الأصل وم: أنه.

﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وهي لا تَعْرِفُ أيضاً أنَّ ذلكَ تسبيحٌ على ما جَعَلَ في الجَوارِحِ والأعضاءِ تسبيحاً وعِبادَةً لهُ، وإنْ كانَتْ هي، لا تَعْرِفُ ذلكَ أنها تُسَبِّحُ.

والثالثُ: [جَعْلُ اللهِ][1] صوتَ هذهِ الأشياءِ تسبيحاً لهُ حقيقةً على مَعْرِفةِ هذهِ الأشياءِ أنهُ تَسبيحٌ، وإنْ كانَ لا يَعْرِفُ ذلكَ إلا خواصٌّ مِنَ الناسِ، وهُمُ الأنبياءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الحِلْمُ هو ضِدُّ السَّفَهِ، وهو الحَليمُ، ليسَ بِعَجولٍ، أي لا يَعْجَلُ بالعُقوبةِ ﴿غَفُورًا﴾ إذا تابوا، أو ﴿غَفُورًا﴾ حينَ[2] سَتَرَ عليهِمْ فضائِحَهُمْ. الحِلْمُ ما ذَكَرْنا ضِدُّ السَّفَهِ، والعَجَلَةُ: ذَكَرَ ههنا على إثْرِ ما ذَكَرَ منهمْ مِنَ القولِ الوَحْشِ فيهِ والعظيمِ: أنهُ حليمٌ لِيَعْلَموا أنهُ عنْ حِلْمٍ، لم يَأْخُذْهُمْ بالعُقوبةِ عاجلاً، و﴿غَفُورًا﴾ لِيَعْلَموا أنهمْ، وإنْ أعْظَموا القولَ فيهِ، يَغْفِرْ لهمْ، ويَتَجاوَزْ عنهُمْ، إنْ رَجَعوا، وتابوا.

فإنْ قالَ لنا مُلْحِدٌ: إنكُمْ تَصِفونَ ربَّكُمْ بالحِلْمِ والرَّحْمَةِ ثم يقولونَ: إنهُ يُعَذِّبُ أبَدَ الآبدينَ في النارِ بكُفْرٍ كانَ [مِنْ كافرٍ][3] فأنَّى تكونُ فيهِ رحمةٌ أو حِلْمٌ؟

قيلَ: إنكمْ لا تَعْرِفونَ ما الحِلْمُ؟ وما الرَّحْمَةُ؟ ولو عَرَفْتُمْ ما قُلْتُمْ ذلكَ، ولو لم يُعَذِّبْ على الكُفْرِ أبَدَ الآبدينَ لم يكنْ حليماً، ولكنْ [يكونُ][4] سَفيهاً. وكذلكَ الرَّحْمَةُ. وليسَ خُروجُ الشيءِ على غَيرِ مُوافَقَةِ الطَّبْعِ بالذي يُخْرِجُ صاحِبَهُ عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ. فأنتمْ إنما تَصَوَّرْتُمْ الحِكْمَةَ والرَّحْمَةَ على مُوافَقَةِ طِباعِكُمْ وليسَ كذا.

وكذلكَ يُقالُ لِلْمُعْتَزِلَةِ حينَ[5] قالوا: إنهُ لا يَفْعَلُ إلّا ما هو أصْلَحُ لنا في الدينِ لأنهُ جَوادٌ، فلو مَنَعَ الأصْلَحَ والأخْيَرَ لم يَكُنْ/ ٣٠٢ ـ أ/ جَواداً مَوصوفاً بالجودِ، وإنما قَدَّرْتُمْ، وقُلْتُمْ، على ما وافَقَ طِباعَكُمْ وأنْفُسَكُمْ، ولو[6] عَرَفْتُمْ حقيقةَ الجودِ ما قُلْتُمْ ذا، ولا خَطَرَ على بالِكُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ[7]. وإنما على اللهِ أنْ يَخْتارَ لِكُلٍّ ما عَلِمَ منهُ أنهُ يَخْتارُ، ويُؤْثِرُ؛ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَخْتارَ الوَلايَةَ لِمَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَخْتارُ [عَداوَتَهُ، وكذلكَ لا يَجوزُ أنْ يَخْتارَ][8] العداوَةَ لِمَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَخْتارُ وَلايَتَهُ.

وليسَ على اللهِ تعالى حِفْظُ الأصْلَحِ لِأحدٍ في الدينِ بل عليهِ حِفْظُ ما توجِبُهُ الحِكْمَةُ والرُّبوبيَّةُ.

وفي ذِكْرِ تَسْبيحِ[9] مَنْ ذَكَرَ مِنْ جميعِ المَواتِ على إثْرِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِ أُولئكَ الكَفَرَةِ مِنْ وَصْفِ اللهِ تعالى بالوَلَدِ والشُّرَكاءِ [ونَحْوِهِما وُجوهٌ][10]:

أحَدُها: ذِكْرُ سَفَهِهِمْ أنهمْ مَعَ ادِّعائِهِمُ العَقْلَ والعِلْمَ والتَّمييزَ والسُّؤْدُدَ، وَصَفوا اللهَ بالذي لا يَليقُ بِهِ وما يُسْقِطُ الألوهِيَّةَ والرُّبوبِيَّةَ عنهُ على زَعْمِهِمْ. فالذينَ ليسَ لهمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ التَّمييزِ والفَهْمِ والعَقْلِ نَزَّهوهُ عنْ ذلكَ كِلِّهِ، وبَرَّؤوهُ عنْ جميعِ ذلكَ.

الثاني: ذِكْرُ تَسْبيحِهِمْ [على إثْرِ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنْ لا حاجَةَ إلى تَسْبيحِهِمْ][11] ولا مَنْفَعَةَ لهُ في ذلكَ، إذْ يُسَبِّحُ لهُ جميعُ الخَلائِقِ سِواهُمْ. بل مَنْفَعَةُ تَسْبيحِهِمْ تَرْجِعُ إليهِمْ.

والثالثُ: ذِكْرُ [تَسْبيحِهِمْ][12] لإثباتِ الرسالةِ للرسلِ، لأنهمْ ذَكَروا تَسْبيحَ المَواتِ، ولا يُفْهَمُ ذلكَ، ولا يُعْقَلُ إلّا بِوَحْيٍ مِنَ السماءِ. فذلكَ يَدُلُّ على الرسالةِ.

فَعَلى هذهِ الوُجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْنا يجوزُ ذِكْرُ تَسْبيحِ ما ذَكَرَ على إثْرِ ذِكْرِ ما ذَكَرَ.

وكذلكَ ذِكْرُ سُجودِ المَواتِ يُخَرَّجُ على هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه جعل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل وم: وقوله. (٧) من م، في الأصل: شيء (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج قبلها في الأصل: من. (١٠) في الأصل وم: يخرج على. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٥ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قال بعضهم: إنَّ الكَفَرَةَ كانوا يَمْنعون رسولَ اللهِ عن تبليغِ الرسالةِ إلى الناسِ وقراءةِ ما أُنزلَ إليهِ مِنَ القرآنِ عليهِمْ، وقد أُمِرَ بتَبليغِ الرسالةِ، فأنزلَ اللهُ عليهِ هذهِ الآيةَ، فأخبرَ أنهُ جَعَلَ بينَهُ وبينَ أولئكَ حِجاباً مَستوراً، ومَكَّنَ لهُ التبليغَ إليهِمْ بالحجابِ الذي ذَكَرَ[1].

ثم اختُلِفَ في ذلكَ الحجابِ: قالَ بعضُهُمْ: شَغَلَهُمْ في أنفسِهِمْ بأمورٍ وأشغالٍ حتى بَلَّغَ إليهِمْ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: ألقى في قلوبِهِمُ الرُّعْبَ والخوفَ حتى لم يَقْدِروا على مَنعِ ذلكَ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: صَيَّرَهُمْ بحيثُ كانوا لا يَرَوْنَهُ، ويَسْتَمِعونَ قِراءَتَهُ وتِلاوَتَهُ، ولم يَقْدِروا على أذاهُمْ بهِ والضَّررِ عليهِ، فَبَلَّغَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الحجابِ، هو حجابُ الفَهْمِ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يَنْظُرونَ إليهِ بالاستِخْفافِ والاستِهْزاءِ بهِ، فَحُجِبوا عنْ فَهْمِ ما فيهِ، وهو كقولِهِ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٦] يدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ٢٥ والإسراء: ٤٦ والكهف: ٥٧].

ثم قالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي طَبَعَ على قلوبِهِمْ حتى لا يؤمِنوا. ومذهَبُهُ في هذا أنهُ يقولُ: إنَّ لِلكُفرِ حَدًّا، إذا بَلَغَ الكافرُ ذلكَ الحدَّ طَبَعَ على قلبِهِ، فلا يؤمِنُ أبداً، واستَوجَبَ بذلكَ العُقوبةَ والإهلاكَ بالذي كانَ منهُ[2]. إلّا أنَّ اللهَ بِفضلِهِ أبقاهُمْ لِما عَلِمَ أنهُ يَلِدُ منهمْ مَنْ يُؤمِنُ، أو يُبْقيهِمْ لِمنافعِ غيرِهِ، وإلّا قدِ استَوجَبَ الإهلاكَ[3]. فيقولُ الحَسَنُ: أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لِما استَوجَبوا هُمْ بِفِعلِهِمْ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: أضافَ ذلكَ إليهِ لأنهمْ أنِفوا عنِ اتِّباعِ الرُّسُلِ، وتَكَبَّروا عليهِمْ، فاستَكْبَروا.

لكنْ نقولُ لهُ: الاستِكبارُ الذي ذَكَرْتَ فِعلُهُمْ، لا فِعْلُ اللهِ، فما مَعْنى إضافةِ ذلكَ إليهِ؟ فهو خَيالٌ وفِرارٌ عمّا يَلزَمُهُمْ في مذهبِهِمْ.

وقالَ جَعفَرُ بْنُ حَرْبٍ: في الآيةِ إضمارٌ لِما هُمْ أضافوا ذلكَ إليهِ أنهُ هو جَعَلَ ذلكَ، وهو ما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] ونَحْوُهُ مِنَ الخَيالِ؟ فلو جازَ صَرْفُ هذهِ الآياتِ إلى ما ذَكَروا مِنَ الخَيالِ لَجازَ صَرْفُ الكُلِّ إلى مِثْلِهِ. فهذا بعيدٌ.

ولكنْ عندَنا أنَّ إضافةَ ذلكَ إلى نفسِهِ تَدُلُّ على أنَّ لهُ فيهِ صُنعاً وفِعلاً، وهو أنْ يَخذُلَهُمْ باختيارِهِمْ ما اختاروا، أو أضافَ ذلكَ إليهِ لِمَا خَلَقَ ظُلْمَةَ الكُفرِ في قلوبِهِمْ، وهذا معروفٌ في الناسِ؛ أي إنَّ مَنِ اعتَقَدَ الكُفْرَ يَضيقُ صَدْرُهُ، ويَخْرُجُ قَلْبُهُ، حتى لا يُبْصِرُ غَيرَهُ؛ وهو ليسَ يَعْتَقِدُ الكُفْرَ لئلا يُبْصِرُ غيرَهُ، ولا يَهْتَدي إلى غيرِهِ، لكنْ لا يُبْصِرُ غيرَهُ، فيدلُّ هذا أنهُ يَصيرُ كذلكَ لِصُنْعٍ لهُ فيهِ.

وكذلكَ مَنِ اعتَقَدَ الإيمانَ يُبْصِرُ بنورِهِ أشياءَ؛ وهو ليسَ يَعْتَقِدُ الإيمانَ لِيُبْصِرَ بنورِهِ أشياءَ غابَتْ عنهُ، دلَّ أنهُ بِغَيرِهِ أدركَ ذلكَ.

فكذلكَ المعروفُ في الخَلْقِ أنَّ مَنِ اعتَقَدَ عَداوَةَ آخَرَ يَضيقُ صَدرُهُ بذلكَ، وكذلكَ مَنِ اعتَقَدَ وَلايَةَ آخَرَ يَنْشَرِحُ صدرُهُ لهُ بأشياءَ. فهذا كلُّهُ يدلُّ أنَّ لِغَيرٍ في ذلكَ فِعلاً، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الخِذْلانِ والتوفيقِ، أو خَلَقَ ذلكَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ، فَيُدْخِلُ في ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية [الأنعام: ٢٥ والإسراء: ٤٦ والكهف: ٥٧]

وأصلُهُ أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ الحِجابِ والغِلافِ والأكِنَّةِ إنما هو على العقوبَةِ لهمْ لِعِنادِهِمْ ومكابَرَتِهِمُ الحَقَّ لأنهمْ كلما ازدادوا عِناداً وتَمَرُّداً ازدادَتْ قُلوبُهُمْ ظُلْمَةً وعَمىً، وهو ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ حينَ[4] قالَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الآية [الصف: ٥] وقالَ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] وقالَ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: ثم ذكر. (٢) في الأصل وم: منهم. (٣) في الأصل وم: الهلاك. (٤) في الأصل وم: حيث.

أخبَرَ أنَّ ما رانَ على قلوبِهِمْ بِكَسْبِهِمُ الذي كَسَبوا، وأزاغَ قُلوبَهُمْ بِاختيارِهِمُ الزَّيغَ، وصَرَفَ قلوبَهُمْ بِاختيارِهِمُ الانصِرافَ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ الحِجابِ والأكِنَّةِ عليها بما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشيطانُ، إذا ذُكِرَ اللهُ، وَلَّى عنهُ، وأعرَضَ، وفَرَّ منهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠ وفصلت: ٣٦] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا﴾ الآية [الأعراف: ٢٠١]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [هُمُ][1] الإنسُ، أي وَلَّوا عمّا دَعَوهُمْ إليهِ، وأقبَلوا نَحْوَ أصنامِهِمُ التي عَبَدوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ يَحْتَمِلُ: [وإذا ذَكَرْتَ وحدانيَّةَ ربِّكَ والوهيَّتَهُ وربوبيَّتَهُ][2] وإذا ذَكَرْتَ دلالةَ رسالَتِكَ أو دلالةَ البَعْثِ؛ يَحْتَمِلُ ذِكْرَ هذهِ الأشياءِ الثلاثةِ لأنهمْ كانوا مُنْكِرينَ لهذهِ الأشياءِ، فعندَ ذلكَ ذَكَرَها.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ يَحْتَمِلُ الهَرَبَ والإعراضَ، ويَحْتَمِلُ الكِنايَةَ عنِ الإنكارِ والتكذيبِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ كأنهمْ يَسْتَمِعونَ إلى القرآنِ إمّا لِما يَسْتَحْلُونَ نَظْمَهُ وَوَصْفَهُ، أو يَسْتَمِعونَ إليهِ لِما فيهِ مِنَ الأنباءِ العجيبةِ، أو يَسْتَمِعونَ إليهِ لِيَجِدوا مَوضِعَ الطَّعْنِ فيهِ.

فإنْ كانَ استِماعُهُمْ لِلْوَجْهَينِ الأوَّلَينِ فإذا [هو][4] مَوضِعُ الخِلافِ والتنازُعِ، وهو ما يَذْكُرُ فيهِ مِنْ دلالةِ الوَحدانيةِ ودلالةِ الرسالةِ ودلالةِ البَعْثِ. عندَ ذلكَ كانوا يُوَلُّونَ الأدبارَ نافِرينَ لإنكارِهِمْ.

وإنْ كانَ الاستِماعُ لِطَلَبِ الطَّعْنِ فهو مُحْتَمَلٌ أيضاً.

واختُلِفَ في قولِهِ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ قيلَ: كانوا يَسْتَمِعونَ إليهِ لِيُكَذِّبوا عليهِ كقولِهِ: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦و٣٧] كانوا يُسْرِعونَ إلى استِماعِ ما يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ لِيُكَذِّبوا عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانوا يَسْتَمِعونَ إليهِ لِيَجِدوا مَوضِعَ الطَّعْنِ فيهِ. و قالَ بعضُهُمْ: استَمَعوا إليهِ لِيُرُوا الضَّعَفَةَ والأتباعَ أنهمْ إنما كانوا يَطْعَنونَ فيهِ بَعْدَ ما استَمَعوا إليهِ، وعَرَفوهُ عندَهُمْ أنَّ الطَّعْنَ كانَ في مَوضِعِ الطَّعْنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ قيلَ: أي يَتَناجَونَ في ما بينَهُمْ: أنهُ مَسْحورٌ، وأنهُ مَجْنونٌ، وأنهُ كاهنٌ. ثم أخبَرَ اللهُ نَبيَّهُ ما أَسَرُّوا فيهِ، وتَناجَوا بينَهُمْ، لِيَدُلَّهُمْ على رسالتِهِ، وأنهُ إنما عَرَفَ باللهِ، وسَمَّاهُمْ ظالِمينَ لمّا عَلِموا أنهُ ليسَ بِمَجْنونٍ ولا مَسْحورٍ، ولكنْ قالوا ذلكَ لهُ، ونَسَبوهُ إلى ما نَسَبوهُ مِنَ السِّحْرِ والجُنونِ على عِلْمٍ منهُمْ / ٣٠٢ ـ ب/ أنهُ ليسَ كذلكَ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ بالمَجانينِ والسَّحَرَةِ والكَهَنَةِ ﴿فَضَلُّوا﴾ وضَرَبوا لكَ الأسبابَ التي تَزْجُرُ الناسَ، وتَمْنَعُهُمْ عنِ الاقتِداءِ بكَ ممّا وصَفوا لهُ، ونَسَبوا إليهِ مِنَ السِّحْرِ والجُنونِ والكهانَةِ. فذلكَ كانَ يَمْنَعُهُمْ عنْ إجابَةِ ما أرادَ إجابَتَهُ والاقتِداءَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: لا يَسْتَطيعونَ إلى ما قَصَدوا مِنْ مَنْعِ الناسِ عنكَ وصَدِّهِمْ سَبيلاً. و قالَ بعضُهُمْ: لا يَسْتَطيعونَ إلى المَكْرِ بهِ والكَيْدِ لهُ سَبيلاً لأنهمْ قَصَدوا بهِ ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: [لا يَسْتَطيعونَ][5] إلى ما نَسَبوهُ إليهِ سَبيلاً.

وقالَ الحَسَنُ: لا يَجِدونَ إلى الهُدى والإيمانِ سَبيلاً لِما طَبَعَ على قُلوبِهِمْ، وجَعَلَها في أكِنَّةٍ وغُلُفٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلى الاحتِجاجِ على الحُجَجِ والدّلالاتِ التي أقامَها رسولُ اللهِ ﷺ على التوحيدِ والرسالةِ والبَعْثِ ﴿سَبِيلًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي إذا كُنّا عِظاماً باليةً ناخِرةً ﴿وَرُفَٰتًا﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

قيلَ: تراباً، وقيلَ: غُباراً. وقيلَ: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ أي باليَة حتى إذا فُتِّتَتْ تَكَسَّرَتْ، وذَهَبَتْ، كقولِهِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾[1] ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١و١٢] أي غيرَ كائنةٍ.

قالوا ذلكَ كلَّهُ إنكاراً لِلْبَعْثِ واسْتِهْزاءً بهِ: إنهمْ يُبْعَثونَ، ويُجْزَونَ بأعمالِهِمْ. وهذا كأنهمْ قالوا ذلكَ على التَّعَجُّبِ والإسْتِبْعادِ عنْ كونِ ذلكَ والإسْتِهْزاءِ بذلكَ. والجَهْلُ بهِ هو الذي حَمَلَهُمْ على التَّعَجُّبِ والإسْتِهْزاءِ بما ذَكَرَ.

أنكرَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ قدرةَ اللهِ على البَعْثِ كما أنْكَرَ المُعْتَزِلَةُ قُدْرَتَهُ على خَلْقِ أفعالِ العبادِ، وليسَ لهمُ الإحْتِجاجُ على أولئكَ الكَفَرَةِ بالإنشاءِ[2] الأوَّلِ؛ لأنَّ لهمْ أنْ يقولوا: إنكُمْ تُقِرُّونَ بالقُدْرَةِ على الخَلْقِ[3] الأوَّلِ وتُنْكِرونَ خَلْقَ أفعالِهِمْ، وليسَ لكُمُ الإحْتِجاجُ.

الآيتان ٥٠ و٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي لو كُنْتُمْ حِجارةً أو حَديداً يُميتُكُمْ[4]. لكنَّ هذا بعيدٌ، لأنهُمْ لم يكونوا يُنْكِرونَ المَوتَ؛ إذْ كانوا يُشاهِدونَ المَوتَ، فلا يَحْتَمِلُ الإنكارَ. ولكنْ كانوا يُنْكِرونَ البَعْثَ بَعْدَ الموتِ وبَعْدَ ما صاروا تراباً ورُفاتاً، إلّا أنْ يُقالَ: إنكُمْ لو كُنْتُمْ بحيثُ لا تُبْعَثونَ، ولا تُجْزَونَ بأعمالِكُمْ لَكُنْتُمْ حِجارةً أو حديداً لم تكونوا بَشَراً، لأنَّ الحِجارَةَ والحديدَ ونَحْوَ ذلكَ غيرُ مُمْتَحَنٍ ولا مأمورٍ بِشيءٍ ولا مَنْهِيٍّ عن شيءٍ.

وأمّا البَشَرُ فإنهمْ لم يُنْشَؤوا إلّا لِلإمْتِحانِ بأنواعِ المِحَنِ والأمْرِ والنَّهْيِ والحِلِّ والحُرْمَةِ. فلا بُدَّ مِنَ الإمْتِحانِ. فإذا امْتُحِنوا بأشياءَ لا بُدَّ مِنَ البَعْثِ لِلْجَزاءِ والعقابِ. فإذا لم تكونوا ما ذَكَرَ، ولكنْ كُنْتُمْ، فاعْلَموا أنكُمْ تُبْعَثونَ، وتُجْزَونَ بأعمالِكُمْ.

على هذا يَحْتَمِلُ أنْ يُصْرَفَ تأويلُهُمْ لا إلى ما قالوا. وإلّا ظاهِرُ ما قالوا، وتأوَّلوا لا يُحْتَمَلُ لِما لا أحَدَ أنكَرَ الموتَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي لو كُنْتُمْ ما ذَكَرَ حِجارَةً أو حديداً أو أشَدَّ ما يكونُ مِنَ الخَلْقِ لَقَدَرَ أنْ يُنْشِئَكُمْ بَشَراً مِنْ ذلكَ. فكيفَ إذا كُنْتُمْ بَشَراً في الإبْتِداءِ؟ [إنه قادرٌ][5] أنْ يُعيدَكُمْ بَشَراً على ما كُنْتُمْ كما أنْشأكُمْ في الإبْتِداءِ منْ ماءٍ وترابٍ، وليسَ في ذلكَ الماءِ والترابِ منْ آثارِ البَشَرِ مِنَ العِظامِ واللحومِ والعَصَبِ والجِلْدِ وغيرِها.

فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ هذا قَدَرَ على إنشاءِ البَشَرِ بَعْدَ المَوتِ وبَعْدَ ما صارَ تُراباً ورُفاتاً. على هذا يجوزُ أنْ يُتأوَّلَ.

ووجهٌ آخرُ [هو][6] أنْ يُقالَ: ظَنَنْتُمْ[7] أنْ لو كُنْتُمْ حِجارَةً أو حديداً أو ماذَكَرَ لَبَعَثَكُمْ، فكيفَ تَظُنّونَ أنهُ لا يَبْعَثُكُمْ إذا كُنْتُمْ تراباً ورُفاتاً أو كلاماً[8] نَحْوَهُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ذَكَروا هذا وكلَّ ما يَكْبُرُ في صدورِهِمْ[9] على ما ذَكَرَ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ اسْتِهْزاءً منهمْ بهِ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إنهمْ قالوا ما قالوا اسْتِهْزاءً بهِ وسُخْرِيَةً؛ فقد أمَرَ اللهُ تعالى أولياءَهُ والمؤمنينَ أنْ يُحاجُّوهُمْ مُحاجَّةَ العُقَلاءِ والحُكَماءِ مَعَ الحُجَجِ والبَراهينِ، وإنْ كانوا قالوا ما قالوا سَفَهاً واسْتِهْزاءً.

وعلى ذلكَ عامَلَهُمُ اللهُ، وإنْ كانوا سُفَهاءَ في قولِهِمْ مُسْتَهْزِئينَ، وكذلكَ أمَرَ رسلَهُ أنْ يُعامِلوا قومَهُمْ أحْسَنَ المُعامَلةِ لِهؤلاءِ حينَ[10] قالَ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقالَ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]. وإنما ذَكَرَ اللهُ هذهِ الآياتِ لِنُحاجَّ بما هؤلاءِ [حاجَّ][11] ونَعْلَمَ أنْ كيفَ المُعامَلَةُ لهؤلاءِ؟ إذْ قد أقامَ اللهُ تعالى مِنَ الآياتِ والحُجَجِ على بَعْثِهِمْ وإحيائِهِمْ حُجَجاً كافيةً ما لم يُحْتَجْ إلى مِثْلِ هذا. لكنهُ ذَكَرَ هذا لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: ناخرة وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٥٦. (٢) في الأصل وم: بإنشاء. (٣) في الأصل وم: خلق. (٤) في الأصل وم: فيميتكم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ظننوا. (٨) في الأصل وم: كلام. (٩) من م، في الأصل: صدوركم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وكانَ الذي حمَلَهُمْ على إنكارِ ذلكَ وجهَين[1] مِنَ الاعتبارِ:

أحَدُهما[2]: أنهمْ لم يَرَوا مِنَ الحِكمَةِ إماتَتَهُمْ ثم الإحياءَ على مِثْلِ ذلكَ؛ إذْ لو كانَ[3] يُحْيِيهِمْ ثانياً لكانَ لا يُميتُهُمْ كنَقْضِ البناءِ على قَصْدِ بناءِ مِثْلِهِ.

والثاني: لِما رَأَوا أقواماً قد ماتوا مُنْذُ [أمَدٍ][4] طويلٍ، ثم لم يُبْعَثوا.

فيُقالُ لهمْ: إنهُ قد تأخَّرَ كونُكُمْ وإنشاؤُكُمْ، ثم لم يَدُلَّ تأخُّرُكُمْ على أنكُمْ لا تكونونَ. فعَلَى ذلكَ لا يدلُّ تأخُّرُ البَعْثِ على أنهُ لا يكونُ.

وأمّا جوابُ الأوَّلِ فإنهُ يُقالُ لهمْ: إنكمْ تُقِرّونَ أنهُ أنشأكُمْ أوَّلَ مرَّةٍ، وأنهُ يُميتُكُمْ، فليسَ مِنَ الحِكْمَةِ الإنشاءُ[5] ثم الإماتةُ لأنهُ يكونُ كمَنْ بَنَى بِناءً لِلنَّقْضِ والإفناءِ. فإذا كانَ حِكْمَةً كانَ الثاني: أيضاً حِكْمَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ أي يُعيدُكُمُ الذي خلَقَكُمْ أوَّلَ مرَّةٍ، ولم تكونوا شيئاً على ما ذَكَرْنا. وإعادةُ الشيءِ [بِمَعْرِفَةِ ابْتِدائِهِ][6] إنما يَتَكلَّفونَ تَعَلُّمَ ابْتِداءِ الصناعاتِ ومَعْرِفَتَها، ثم يَعْرِفونَ [الإعادةَ بِمَعْرِفَةِ الابْتِداءِ. فدَلَّ أنها][7] أهْوَنُ وأيْسَرُ، وهي[8] ما قالَ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٢٧] أي في عقولِكُمْ ذلكَ أهْوَنُ وأيْسَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي يُحرِّكونَ رؤوسَهُمُ استِهزاءً بهِ وهُزُواً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ على الاستِهزاءِ أيضاً، أي لا يكونُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾ قالَ: قالوا ذلكَ جَهْلاً بهِ وإنكاراً، وإلّا لو عَلِموا أنهُ كائنٌ، لا مَحالَةَ، لكانوا لا يقولونَ ذلكَ، بل يَخافونَ كما خافَ الذينَ آمَنوا بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وعَسَى مِنَ اللهِ واجِبٌ، أي يكونُ، لا مَحالَةَ.

وقولُهُ: ﴿قَرِيبًا﴾ أي كائناً. القريبُ يُقالُ على الكونِ أي كائناً، ويُقالُ على القريبِ والبَعيدِ. كذلكَ يُقالُ على الإنكارِ رأساً، ويُقالُ على الاستِبْعادِ كقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦و٧] أي هُمْ لا يَرَونَهُ كائناً، ونَراهُ نحنُ كائناً كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] كانوا يَستَعْجِلونَ بها لِما لم يكونوا يَرَونَهُ كائناً، والمؤمنونَ يَرَونَهُ كائناً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ هذا الدعاءُ والإجابةُ دُعاءَ الخِلْقَةِ وإجابَةَ الخِلْقَةِ لِما كانَتْ خِلْقَتُهُمْ، تُعَظِّمُ ربَّهُمْ، وتَحْمَدُ في كلِّ وقتٍ، وتُثْني، على ما ذَكَرْنا في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ.

ويَحتَمِلُ دُعاءَ القولِ وإجابَةَ القولِ والعَمَلِ لمّا كانوا عايَنوا قُدْرَتَهُ وعَظَمَتَهُ أجابوا لهُ بِحَمْدِهِ وثَنائِهِ كقولِهِ: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ [القمر: ٨] ونَحْوِهِ.

أو أنْ يكونَ قولُهُ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يومَ القِيامةِ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] وقولِهِ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٣]

أخبَرَ أنهمْ يُجيبونَ داعِيَهُمْ يومَئذٍ، ويُثْنونَ على اللهِ، ويَحْمَدونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالَ الحَسَنُ قولُهُ: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي وتَعلَمونَ، وتَتَيقَّنونَ أنكُمْ ما لَبِثْتُمْ في الدنيا إلّا قليلاً. وكذلكَ قالَ قَتادَةُ: أي يَستَحْقِرونَ الدنيا، ويَستَصغِرونَها لمّا عايَنوا القِيامَةَ وأهوالَها.

ثم مَنْ أنكَرَ عذابَ القَبْرِ احْتَجَّ بِظاهِرِ هذهِ الآيةِ حينَ[9] قالَ: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقالَ[10] ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ [المؤمنون: ١١٣].

(١) في الأصل وم: وجوه. (٢) في الأصل وم: أحدها. (٣) في الأصل وم: كانوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إنشاء. (٦) في الأصل وم: ومعرفته. (٧) في الأصل وم: إعادة بمعرفة ابتدائه فدل أنه. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وقوله.

ومِثْلُهُ قالوا في العذابِ والشدَّةِ، لم يكونوا يَسْتَقْصِرونَ، ويَسْتَصْغِرونَ المُقامَ فيهِ؛ إذْ كلُّ مَنْ كانَ في عَذابٍ وبَلاءٍ وشِدَّةٍ يَسْتَعْظِمُ ذلكَ، ويَسْتَكْثِرُهُ[١]، ولا يَنساهُ أبداً.

هذا المَعْروفُ /٣٠٣ ـ أ/ عندَ الناسِ. فإذَنْ هُمُ اسْتَقَلّوا ذلكَ، واسْتَقْصَروهُ، حتى ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣] وقالَ[٢]: ﴿قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢ والمؤمنون: ١١٤] وقالَ[٣]: ﴿يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].

دلَّ ذلكَ أنهمْ لم يكونوا في عَذابٍ وبَلاءٍ. ويَتأوَّلونَ قولَهُ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] على التقديمِ والتأخيرِ، يقولونَ: تأويلُهُ: ويومَ القيامةِ أدْخِلوا آلَ فِرْعونَ أشدَّ العذابِ النارِ يُعْرَضونَ عليها غُدُوّاً وعَشِيّاً، ليسَ على ألّا يكونَ لهمْ عذابٌ في ما بينَ ذلكَ، ولكنْ على ما في الجنةِ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

ومَنْ يقولُ بالعذابِ في القبْرِ: قولُهُ: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الدنيا، أو يقولُ[٤]: ذلكَ في وَقْتٍ، وهو ما بينَ النَّفْخَتَيْنِ. كذلكَ يقولونَ: إنهُ يُرْفَعُ عنهُمُ العذابُ ما بَيْنَ النَّفْخَةِ الأولى والثانيةِ. وهذا احْتِيالٌ.

ويُقالُ أيضاً: ليسَ في اسْتِقْلالِهِمُ المُقامَ والاسْتِقْصارِ ما يَدُلُّ على أنْ لم يَكُنْ لهمْ عذابٌ في القبْرِ لأنَّ العُرْفَ في الناسِ أنهمْ كانوا في بَلاءٍ وشِدَّةٍ ونَوعٍ مِنَ المَرَضِ، ثم نَزَلَ بهمْ ما هو أشَدُّ مِنْ ذلكَ وأعْظَمُ، فاسْتَصْغَروا ما كانوا هُمْ فيهِ، ونَسُوا ذلكَ.

ألا تَرَى أنهمْ إذا عايَنوا الجنةَ ونَعيمَها نَسُوا ما كانَ لهمْ مِنَ النِّعَمِ في الدنيا؟ ولا شَكَّ أنهُ قد كانَ لهمْ نعيمٌ في الدنيا. فَعَلى ذلكَ العذابُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: ٤٩] قالَ: رُفاتاً مُتَكَسِّرَةً، وفَتَتُّهُ، أي كَسَّرْتُهُ. وقالَ القُتَبِيُّ في: ﴿أَكِنَّةً﴾ [الإسراء: ٤٦] جَمْعُ كِنانٍ، مِثْلُ غِطاءٍ وأغْطِيَةٍ ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي مُتَناجونَ، يُسارُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً: أنهُ مَجْنونٌ وأنهُ ساحِرٌ كاهِنٌ، وأساطيرُ الأوَّلينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ نَجْواهُمْ ما ذُكِرَ في سورةِ الأنبياءِ حينَ قالوا: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ الآيةَ [الآية: ٣] فذلكَ قولُهُ: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي ما تَتَّبِعونَ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قالَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿مَّسْحُورًا﴾ أي قد سُحِرَ بهِ، وقد يَتَناقَضُ قَوْلُهُمْ. وقد ذَكَرْنا وَجْهَ تَناقُضِ قولِهِمْ[٥] في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الوجوهَ الثلاثةَ:

أحدُها: الدَّعْوَةُ كقولِهِ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فالتأنيثُ لِلدَّعْوَةِ، كأنهُ قالَ: ادْعُوا لهمُ الدعوةَ التي على إضمارِ الدَّعْوَةِ، وجائزٌ على إضمارِ الحَسَنَةِ، أي قُلْ لهمْ أن يقولوا لهمُ الحَسَنَةَ، هي أحْسَنُ، أو على إضمارِ الأقوالِ التي هي أحْسَنُ الأقوالِ، وإلّا فَظاهِرُهُ أنْ يقولَ: قولوا[٦] الذي هو أحْسَنُ.

والثاني: على إضمارِ المُجادَلَةِ والمُناظَرَةِ مَعَهُمْ كقولِهِ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] أمَرَ رسولَهُ أنْ يُجادِلَهُمْ أحْسَنَ المُجادَلَةِ والمُحاجَّةِ مَعَهُمْ.

والثالثُ: في حُسْنِ المُعامَلَةِ مَعَهُمْ والعَفْوِ والصَّفْحِ عمّا كانَ منهمْ إلى المُسْلِمينَ مِنْ أنواعِ الأذى، فأمَرَهُمْ أنْ يُحْسِنوا مُعامَلَتَهُمْ، ويَصْفَحوا عنهمْ [كقولِهِ][٧] ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] وكقولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وكقولِهِ[٨] ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٣٤] ونَحْوَهُ مِنَ الآياتِ أمَرَهُمْ أنْ يُعامِلوا أولئكَ أحْسَنَ المُعامَلَةِ، ولا يُكافِئوهُمْ بِسوءِ صَنيعِهِمْ، ولكنْ يَعْفونَ عنهُمْ، ويَصْفَحونَ لِما لَعَلَّهُمْ يكونونَ أولياءَ و ﴿حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] على ما أخْبَرَ، ويَصيرونَ إخواناً لهمْ مِنْ بَعْدِ هذا في حَقٍّ وأمّا مِنْ جِهَةِ الحِكْمَةِ، وهي[٩] أنَّ اللهَ تعالى أنْشأ

---

(١) في الأصل وم: ويستكثر. (٢) في الأصل وم: وقالوا. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: يقولون. (٥) في الأصل وم: يقولوا.
(٦) في الأصل وم: يقولوا. (٧) ساقطة من الأصل وم: (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) في الأصل وم: وهو.

هذا اللسانَ، وجَعَلَهُ تَرْجُماناً بينَ الخَلْقِ، بهِ يَفْهَمُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وبهِ تُقْضَى حَوائجُ(١) بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ، وبهِ قِوامُ مَعاشِهِمْ ومُعامَلَتِهِمْ(٢)، وبهِ بَعْثُ الرسلِ والكتبِ جميعاً، فإذا كانَ كذلكَ فالواجبُ ألّا يُسْتَعْمَلَ إلّا في الخَيْرِ والحِكْمَةِ، ولا يُنْطَقَ بهِ إلا ما هو أحْسَنُ وأصْوَبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يَفْسُدُ بينَهُمْ، ويُوَسْوِسُ إليهِمْ، ويُغْرِي بعضَهُمْ على بَعْضٍ لِيُفْسِدَ بينَهُمْ، وذلكَ دأبُهُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي كانَ الشيطانُ منذُ كانَ للإنسانِ عَدُوّاً مُظهراً(٣) عداوَتَهُ ﴿مُّبِينًا﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى الشيطانَ بحيثُ يُوَسْوِسُ إليهِمْ، ويَدْعوهُمْ إلى أشياءَ يَظُنّونَ أنَّ ذلكَ خيرٌ لهمْ، وأبداً يُلْقي إليهِمْ ما يَقَعُ لهمْ، ويُحَبِّبُ إلى كُلٍّ مَذْهباً، يَقَعُ عندَهُ أنه(٤) الحَقُّ فَيَقْصِدُ بذلكَ الإفسادَ وإلقاءَ العداوَةِ بَيْنَهُمْ. أبداً هذا دَأْبُهُ وشَأْنُهُ؛ يُجْبِرُ كُلّاً إلى جِهَةٍ، ويُرِي كُلَّ أحدٍ جِهَةً غَيرَ الجِهَةِ التي أرى الآخَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بمصالِحِكُمْ ومفاسِدِكُمْ(٥) [وما يَصْلُحُ لكُمْ في الدنيا والآخِرَةِ.

والثاني: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بما](٦) تُسِرُّونَ وما تُعْلِنونَ [وما تَعْلَمونَ وتَفْعَلونَ، وإلّا فلا شَكَّ أنهُ أعْلَمُ بنا مِنّا وقولُهُ ﷻ ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [اختُلِفَ فيهِ بوجهَيْنِ:

أحَدُهُما:](٧) قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فَيَحْمِكُمْ مِنْ أذى هؤلاءِ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فَيُسَلِّطْهُمْ عليكُمْ.

والثاني: [و قالَ بعضُهُمْ:](٨) ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فَيَهْدِكُمْ إلى دينِهِ، ويُوَفِّقْكُمْ لِسَبيلِهِ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ يَتْرُكْكُمْ، ويَخْذُلْكُمْ، ولا يَهْدِكُمْ إلى سَبيلِهِ، ولا يُوَفِّقْكُمْ لدينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ الرَّحْمَةَ في الدنيا والآخِرَةِ. أمّا في الدنيا فهو(٩) أنْ يُوَفِّقَهُمْ على الطاعةِ، ويُعينَهُمْ على ذلكَ. وفي الآخِرَةِ يُنْجيهِمْ، ويُدْخِلُهُمُ الجنةَ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾](١٠) في الدنيا، هو أنْ يَخْذُلَهُمْ، ويَتْرُكَهُمْ، على ما يَخْتارونَ، وفي الآخِرَةِ يُعَذِّبُهُمْ في النارِ بالذي اختاروا في الدنيا.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي لم نَجْعَلْكَ حفيظاً على ردِّهِمْ وإجابَتِهِمْ وعلى صَنيعِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَكِيلًا﴾ أي ثقيلاً بأعمالِهِمْ، أي لا تُؤاخَذُ أنتَ بِصَنيعِهِمْ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي مُسَلَّطاً عليهِمْ وقاهِراً لهمْ.

الآية ٥٥ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ أعْلَمُ بِمَصالِحِهِمْ ومَفاسِدِهِمْ وما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ]](١١).

ويَحْتَمِلُ غَيرَ هذا جواباً لقولِهِ(١٢): ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

يقولُ، واللهُ أعلَمُ؛ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ لِلنُّبُوَّةِ والرسالةِ وبِمَنْ لا يَصْلُحُ، ومَنْ هو أهْلٌ لها، أو يقولُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ، أنْشَأهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ، أو ﴿أَعْلَمُ﴾ بِهِمْ مِنْ أنفُسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: الحوائج. (٢) في الأصل وم: ومعادهم. (٣) في الأصل وم: ظاهرا. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) من م، في الأصل: وما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م. (٩) الفاء ساقطة من م. (١٠) في م: وأما التعذيبُ. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: لقولهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مثلُ هذا لا يكونُ إلّا في نازلةٍ. لكنهُ لم يذكُرِ النازلةَ التي عندَها نزلَتْ. ثم اختُلِفَ في ما ذَكَرَ مِنْ تفضيلِ بعضِهِمْ على بَعْضٍ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إنهُ أعْطَى كلاً[1] شيئاً، لم يُعْطِ غَيرَهُ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ أنهُ كَلَّمَ موسى، واتَّخَذَ إبراهيمَ خليلاً، وأعْطَى عيسى إحياءَ المَوتى وإبراءَ الأكْمَهِ والأبْرَصِ، وهو روحٌ منهُ، وكَلِمَتُهُ، وأعْطَى سُلَيمانَ مُلْكاً، لا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وأعْطَى داوودَ زَبوراً، وأعْطَى سَيِّدَنا محمداً أنْ بَعَثَهُ إلى الناسِ كافَّةً، وغَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِهِ وما تَأخَّرَ، ومَثَلَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: فَضَّلَ بَعْضاً على بَعْضٍ في الدرجةِ والمَنْزِلةِ والقَدْرِ عندَهُ.

فالأوَّلُ يكونُ التَّفْضيلُ في الآياتِ والحُجَجِ، والثاني: في أنْفُسِهِمْ في المَنْزِلَةِ والقَدْرِ؛ ويَحْتَمِلُ ماذَكَرَ مِنْ تَفْضيلِ بَعْضٍ على بَعْضٍ في الآياتِ والحُجَجِ، ويَحْتَمِلُ في كَثْرَةِ الأتباعِ يُفَضِّلُ بعضَهُمْ على بَعْضٍ بكَثْرَةِ الأتباعِ.

والثالثُ: يُفَضِّلُ بعضَهُمْ على بَعْضٍ في القِيامِ بِشُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِ وبِصَبْرِ ما ابْتَلاهُ بهِ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ لا يكونُ لأحدٍ فَضيلَةٌ عندَ اللهِ إلّا باسْتِحْقاقٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ جميعُ كُتُبِ اللهِ زَبورٌ، لأنَّ الزَّبورَ هو الكتابُ. وقد ذَكَرْنا أنّا لا نَدْري لأيَّةِ نازلةٍ ذَكَرَ هذا، ولا يُحْتَمَلُ ذِكْرُ مِثْلِهِ على الابْتِداءِ والائتِنافِ، لكنَّ فيهِ أنَّ التفضيلَ والمنزلَةَ إنما يكونُ مِنْ عندِ اللهِ، ومِنْ عندِهِ يُسْتَفادُ، لا بِتَدبيرٍ مِنْ أنفسِهِمْ واسْتِحْقاقٍ حينَ[2] قالَ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] لئلا يَرَى أحدٌ الفَضلَ والمَنْزِلَةَ لِنَفْسِهِ بأسبابٍ منهُ، ولكنْ مِنْ عندِ اللهِ.

وقالَ الأصَمُّ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يقولُ[3]: يُخاطِبُ بهِ أهلَ الكتابِ: أنَّ أوائِلَكُمْ كانوا يَرَونَ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ فَضْلاً في الدنياوِيَّةِ، ثم إنَّ أولئكَ المُفَضَّلينَ كانوا يَتَّبِعونَ الرُّسُلَ لِما رَأَوا لهمْ مِنَ الفَضْلِ والخصوصِيَّةِ، فما بالُكُمْ يا أهلَ مكةَ لا تَتَّبِعونَ محمداً [وأنْتُمْ تَرَونَ لهُ][4] فضائلَ وخُصوصِيَّةً ما لا تَرَونَ ذلكَ لأنفسِكُمْ ولا لأحَدٍ سواهُ، أو كلاماً[5] نَحْوَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ وفي سورةِ سَبَإٍ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية [الآية: ٢٢] فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ عندما نَزَلَ البَلايا والشدائدُ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، فَأُمِرُوا عندَ ذلكَ أنْ يَطْلُبوا كَشْفَ ذلكَ/ ٣٠٣ ـ ب/ عنهُمْ مِنَ الذينَ يَعْبدونَ دونَهُ، فيقولُ لهمْ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهةٌ دونَهُ، يَكْشِفونَ عنكُمْ ما نَزَلَ بكُمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ لا على نازِلَةٍ، ولكنْ على تَبْيينِ سَفَهِ أولئكَ حينَ[6] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأنَّ عبادَتَهُمْ إياها لا تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى كقولِهِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] أخْبَرَ أنهمْ لا يَمْلِكونَ ما[7] يَطْمَعونَ بِعبادَتِهِمْ إياها.

أو أنْ يَذْكُرَ هذا لِقَطْعِ ما يَرْجونَ مِنْ دونِ اللهِ مِنْ كَشْفِ ضُرٍّ عنهمْ ودَفْعِهِ أو جَرِّ نَفْعٍ إليهِمْ وسَوقِ خَيرٍ على ما أخْبَرَ أنهُ، لا يَمْلِكُ أحَدٌ سِواهُ كقولِهِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ﴾ الآية [فاطر: ٢] وقولِهِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ١٧] أخْبَرَ أنهُ لو فَتَحَ هو رَحْمَةً لا يَمْلِكُ أحدٌ دونَهُ إمساكَهُ، ولو أمْسَكَ هو لا يَمْلِكُ أحدٌ إرسالَهُ دونَهُ، ولو مَسَّ [الإنسانَ][8] ضُرٌّ لا يَمْلِكُ أحَدٌ كَشْفَهُ، وإنْ أرادَ خَيراً لا يَمْلِكُ أحدٌ دفعَهُ وردَّهُ.

---

(١) من م، في الأصل: كلّ. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: بقوله. (٤) في الأصل وم: وقد ترون. (٥) في الأصل وم: وكلام. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: ولا. (٨) ساقطة من الأصل وم.

هذا تذكيرٌ، واللهُ أعلَمُ لِلْمُسلِمينَ لئلا يَرْجُوا أحداً مِنَ الخلائقِ دونَ اللهِ، ولا يَخافوا أحداً سِواهُ.

ثم صَرَفَ أهلُ التأويلِ تأويلَ الآيةِ إلى الملائكةِ. لكنَّ الآيةَ تَحتَمِلُ كلَّ مَعْبودٍ دونَ اللهِ: الملائكةَ والجِنَّ والأصنامَ التي عَبَدُوها.

الآية ٥٧ وأمّا الآيةُ الثانيةُ التي [تَلِيها؛ فَظاهِرُها][1] في الملائكةِ والجِنِّ، وهو قولُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي أُولئكَ الذينَ يَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ يَبْتَغونَ هُمْ إلى رَبِّهِمُ الوسيلَةَ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الآية. واخْتُلِفَ فيهِ.

منهُمْ مَنْ صَرَفَها إلى الملائكةِ، ومنهُمْ مَنْ صَرَفَها إلى الجِنِّ، وهو قولُ عبدِ اللهِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ، يقولُ: إنَّ قوماً مِنَ العَرَبِ كانوا يُعْبُدونَ الجِنَّ، ثم أسْلَمَ الجِنُّ، فَبَقِيَ أولئكَ [الذينَ][2] كانوا يَعْبُدونَهُمْ بَعْدَ إسلامِهِمْ. فيقولُ: أولئكَ الذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِهِ يَبْتَغونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلَةَ، فكيفَ تَعْبُدونَهُمْ؟

ومَنْ قالَ: إنها في الملائكةِ اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ قالَ الحَسَنُ: يَرْجُونَ مَحَبَّتَهُ ورِضاهُ، ويَخافونَ عذابَهُ، أي خَوفَ الهَيْبَةِ والجَلالِ والعَظَمَةِ لا خَوفَ عذابِ النارِ ونَقْمَتِهِ، لأنَّ اللهَ عَصَمَهُمْ مِنْ أنْ يَرْتَكِبوا ما يُوجِبُ لهمُ النَّقْمَةَ والعذابَ حينَ[3] قالَ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] وقالَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]

وقالَ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] هذا إخبارٌ أنهمْ لو قالوا ذلكَ لَفَعَلَ بهمْ[4] ما ذَكَرَ، ليسَ على أنْ يقولَ أحَدٌ منهمْ ذلكَ.

وقالَ أبو بكرٍ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ ثوابَهُ ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ نَقْمَتَهُ حينَ[5] قالَ: فُهِمَ مِنَ الوَعيدِ ما قالَ ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ الآيةَ؛ فَقَدْ أثْبَتَ لهمُ الوَعيدَ فيهِ. لكنَّ ثوابَهُ ما يُتَلَذَّذُ بهِ، وعذابَهُ ما يُتَأَلَّمُ[6] بهِ، ويُتَوَجَّعُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ أي جَنَّتَهُ. لكنَّ هذا يُشْبِهُ أنْ يكونوا يَرْجونَ صُحْبَةَ أهلِ الجَنَّةِ كقولِهِ: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ الآية [الرعد: ٢٣و٢٤]

وجائزٌ عندَنا صَرْفُ قولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ إلى الأصنامِ التي عَبَدوها مِنْ دونِهِ أيضاً، ويكونُ تأويلُهُ ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾ أي [لو مُكِّنَ][7] لهمْ مِنَ العِبادةِ والطاعةِ، ورُكِّبَ فيهِمْ مِنْ أسبابِهِ لَكانوا كما ذَكَرَ، وهو كقولِهِ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي لو مُكِّنَ لهُ، ورُكِّبَ فيهِ ما رُكِّبَ في البَشَرِ، ومَكَّنَ لهمْ ﴿لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] على ما ذَكَرَ مِنْ سَفَهِ أولئكَ الذينَ عَبَدوا دونَ اللهِ:

يقولُ: كيفَ تَعْبُدونَ مَنْ لو مُكِّنَ [لهمْ][8] مِنَ العِبادةِ والطاعةِ لكانوا يَبْتَغونَ بذلكَ الوسيلةَ إلى رَبِّهِمْ؟ أو كيفَ تَعْبُدونَ مَنْ هو بطاعةِ رَبِّهِ يَبْتَغي الوسيلَةَ إليهِ؟ إنْ كانتِ الآيةُ في الملائكةِ؛ كأنهُ يذكُرُ سَفَهَ أهلِ مكَّةَ حينَ[9] سألوا العذابَ بقولِهِمْ[10]: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونَحْوِهِ، وأهلُ السماءِ والأرضِ جميعاً يَحْذَرونَ عذابَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ما ذَكَرَ، ليسَ هو بأمْرٍ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ أمْراً، ولكنْ إخبارٌ عَنْ عَجْزِ ما يَدْعونَ مِنْ دونِهِ وتَعْجيزِ ما ذَكَرَ مِنْ كَشْفِ الضُّرِّ ودَفْعِهِ والتحويلِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٠] ليسَ هو بأمْرٍ، إنما هو إخبارٌ عنْ قُدْرَتِهِ أنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وإنْ بُدِّلْتُمْ أصْلَبَ الأشياءِ وأعْظَمَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي دفعَهُ وردَّهُ ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: تتلوها ظاهرها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: به. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) أدرج قبلها في الأصل: لم. (٧) من م: في الأصل: لم يكن. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بقوله.

أحَدُهما: فلا يَمْلِكونَ تحويلَ[1] ذلكَ الضُّرِّ إلى غَيرِكُمْ ولا صَرْفَهُ، والثاني: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ مِنَ الأشَدِّ والأثْقَلِ إلى الأخَفِّ والأيْسَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي يَحْذَرُهُ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ﴾ مُميتوها، وقد يُسْتَعْمَلُ الهلاكُ في مَوضِعِ الموتِ كقولِهِ ﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] أي ماتَ. ويُقالُ أيضاً: هَلَكَ فلانٌ أي ماتَ.

فَعَلى ذلكَ يَقولُ: قولُهُ: ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مُميتوها ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وكقولِهِ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ [أي مُنْتَقِموها][2] ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

فَعَلى تأويلِهِ يَصِحُّ على جميعِ القُرى والمُدُنِ، ليسَ [على][3] قريةٍ دونَ قريةٍ ولا [على مدينةٍ دونَ][4] مَدينةٍ، ولكنْ على الكُلِّ ما أخبرَ مِنْ إهلاكِ الكُلِّ بقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقولِهِ[5] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ إهلاكِ القريةِ إهلاكَ الأهلِ مِنْ بَعْدِ إهلاكِها[6] على ما فَعَلَ بكثيرٍ مِنَ القُرى.

وجائزٌ أنْ يكونَ يُهْلِكُ الأهلَ، وتَبْقى القريةُ على حالِها، ثم تَهْلَكُ بِنَفْسِها قبلَ يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ: على تأويلِ أبي بكرٍ يَفْعَلُ ذا أو ذا: إمّا يُميتُهُمْ موتاً بآجالِهِمْ، أو يُعَذِّبُهُمْ عذابَ إهلاكٍ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مُميتوها على ما قالَ أبو بكرٍ ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقولُ: إذا قامَتِ الساعةُ قَبْلَ يومِ القيامةِ كقولِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٨] وقولِهِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] تقومُ على شِرارِ الناسِ، فيكونُ ما ذَكَرَ مِنَ التعذيبِ لأولئكَ الذينَ يقومُ بهِمُ الساعةُ على قولِهِ.

وقالَ قَتادةُ: هذا قضاءٌ مِنَ اللهِ كما نَسْمَعُهُ، ليسَ منهُ بُدٌّ: إمّا أنْ يُهْلِكَها بموتٍ كقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وإمّا أنْ يُهْلِكَها بعذابٍ مُسْتَأصِلٍ إذا تركوا أمرَهُ، وكَذَّبوا رسلَهُ، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الانتقامِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يُميتُ [أهلَ][7] القريةِ بآجالِهِمْ، وأمّا القريةُ الظالِمةُ، فيأخُذُها بالعذابِ الذي ذَكَرَ، فهو في القرونِ الماضيةِ، إنِ احتَمَلَ ذلكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هو أنْ يُهْلِكَ رُؤساءَ [أهلِ الكُفْرِ][8] وقادَتَهُمْ، فَيَصيرُ الدِّينُ كلُّهُ ديناً واحداً، أي هو الإسلامُ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] قالوا: هو أنْ يُهْلِكَ أهلَ الكُفْرِ[9]، فَيَجْعَلَ مُلْكَ أهلِ الكُفْرِ لأهلِ الإسلامِ، فذلكَ نُقْصانُها مِنْ أطرافِها، لا يَزالُ يُنْقِصُ أهلَ الكُفْرِ قريةً فقريةً وبلدةً فبلدةً حتى تَصيرَ الأرضُ كلُّها لأهلِ الإسلامِ.

وهو ما رُوِيَ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «زُوِيَتْ لِيَ الأرضُ، فأُريتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وسَيَبْلُغُ مُلْكُ أمَّتي ما زُوِيَ لي منها» [مسلم ٢٨٨٩] فذلكَ، واللهُ أعلَمُ، تأويلُ قولِهِ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي نُهْلِكُ أهلَ الكُفْرِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على ما أخبرَ أنهُ كانَ يُفْني جميعَ مَنْ كانَ على وجهِ الأرضِ، ويَجْعَلُ الأرضَ مُسْتَوِيَةً /٣٠٤ ـ أ/ لا بِناءَ فيها ولا ارْتِفاعَ حينَ[10] قالَ: ﴿كُلُّ مَنْ

---

(١) في الأصل وم: تحويلاً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: مدينة دون، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: إهلاكهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل أهل الكفرة، في م: الكفر. (٩) من م، في الأصل: الكفرة. (١٠) في الأصل وم: حيث.

عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وقالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥] وقالَ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ الآية [الواقعة: ٥] أخبرَ أنهُ لا يَبْقَى عليها أحَدٌ ولا بناءٌ، فتَصيرُ كُلُّها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦و١٠٧] فذلكَ إهلاكُها وتَعْذيبُها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ في الكتابِ الذي عندَ اللهِ، وهو اللوحُ المحفوظُ مكتوباً. وقالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ في جميعِ كُتُبِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِهِ مكتوباً، أي ما مِنْ كتابٍ أنزَلَهُ اللهُ على رُسُلِهِ إلّا وكانَ فيهِ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وفيهِ(١): ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿مَسْطُورًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أخبرَ أنهُ ليسَ يَمنَعُهُ مِنْ إنزالِ [الكتبِ](٢) إلّا تكذيبُ الأوّلينَ بها.

فإنْ قيلَ: فأيُّ شيءٍ في ما يُكَذِّبُ الأوّلونَ بالآياتِ ما يَمْنَعُ إنزالَها على هؤلاءِ؟ قيلَ: كأنهُ على الإضمارِ، أي [ما](٣) مَنَعَنا أنْ نُرْسِلَ بالآياتِ إلّا عِلْمُنا بأنَّ الآخرينَ، يُكَذِّبونَ بها كما كَذَّبَ بها الأوّلونَ. فإنْ قيلَ: عنْ هذا يُسألُ: أنَّ عِلْمَهُ بتكذيبِ الآخَرينَ كَعِلْمِهِ بتكذيبِ الأوّلينَ، ثم لم يَمْنَعْ عِلْمُهُ بتكذيبِ الأولينَ إياها إنزالَها، كيفَ مَنَعَ عِلْمُهُ بتكذيبِ الآخرينَ ذلكَ؟ أوَليسَ قد أرسَلَ الرُّسُلَ، وأنزَلَ الكُتُبَ(٤) على عِلْمٍ منهُ أنهُمْ يُكَذِّبونَ الرسولَ والكتابَ؟ ثم لم يَمْنَعْ عِلْمُهُ بتكذيبِ الآياتِ منهمْ عن إرسالِ الآياتِ، ولم يَمْنَعْ عِلْمُهُ بتكذيبِ الرسولِ عَنْ بَعْثِ الرسولِ وإنزالِ الكتابِ؟

قيلَ: إنهُ قد مَضَى مِنْ سُنَّتِهِ أنهُ إذا أنْزَلَ الآياتِ على إثْرِ سُؤالٍ؛ أعني سُؤالَ الآياتِ، فَكَذَّبوها، أهْلَكَهُمْ. هكذا مَضَتْ سُنَّتُهُ في القرونِ الأُولَى.

ثم قد سَبَقَ مِنْ وَعْدِهِ ألّا يُهْلِكَ هذهِ الأمّةَ إهلاكَ تَعْذيبٍ واسْتِئْصالٍ في الدنيا رَحْمَةً منهُ وفَضْلاً على ما أخْبَرَ رسولَهُ حينَ(٥) قالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فَرَحْمَتُهُ أنْ مَنَّ عليهِمْ بإبقائِهِمْ وإزالةِ العذابِ عنهمْ واسْتِئصالِهِمْ. فَكأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ إلّا ما سَبَقَ مِنْ وَعْدِنا ورَحْمَتِنا ألّا نُهْلِكَ هذهِ الأمّةَ إهلاكَ اسْتِئصالٍ وتَعْذيبٍ. فذلكَ الوَعْدُ والرَّحْمَةُ الذي ذَكَرْنا مَنَعَنا عَنْ إرسالِ الآياتِ على عِلْمٍ منّا أنهمْ يُكَذِّبونَها إذا أرْسَلْناها إليهِمْ.

وقد مَضَتِ السُّنَّةُ منّا على الإهلاكِ إذا أنْزَلْنا الآياتِ على إثْرِ سُؤالِهِمْ إياها، ثم التكذيبُ مِنْ بَعْدُ، ثم سَبْقُ الوَعْدِ لهؤلاءِ ألا يُهْلَكوا في الدنيا إهلاكَ تَعْذيبٍ رَحْمَةً منهُ لهم على ما أخْبَرَ أنهُ لم يُرْسِلْهُ(٦) ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ قد أنْزَلَ الآياتِ والحُجَجَ على إثباتِ رسالتِهِ الرُّسُلَ آياتٍ كافيةً وحُجَجاً مِنْ بَعْدُ إنما سألوا سؤالَ تَعَنُّتٍ وتَمَرُّدٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ. فإذا كانَ سؤالُهُمُ الآياتِ سؤالَ عِنادٍ وتَعَنُّتٍ أهْلِكوا إذا كَذَّبوها، ولم يُنْظَروا كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] وقولِهِ: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] ونَحْوَهُ.

ألا تَرَى أنَّ عيسى ﵇ سألوهُ أنْ يَسْألَ ربَّهُ أنْ يُنَزِّلَ عليهِمْ مائدةً مِنَ السماءِ لتكونَ لهمْ آيةً منهُ، فَسَألَهُ، فأخبرَ أنهُ يُنَزِّلُها عليكُمْ، ثم أخْبَرَ ما يَفْعَلُ بهمْ إذا كَفَروا بَعدَ ذلكَ، وهُمْ كانوا يَسْألونَهُ سُؤالَ تَعَنُّتٍ وتَمَرُّدٍ، فقالَ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ الآية [المائدة: ١١٥]

هكذا كانَتْ سُنَّتُهُ في مَنْ سألَ الآياتِ سُؤالَ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الذي مَنَعَ عَنْ إرسالِ الآياتِ على إثْرِ السؤالِ وإهلاكِ هذهِ الأمّةِ ما يكونُ مِنَ الإسلامِ مِنْ نَسْلِ هذهِ الأمّةِ بَعْدُ بِسَبَبِهِمْ وإبقاءِ التناسُلِ إلى يومِ القِيامَةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: الكتاب. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: يرسل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ قيلَ: آيةً لِرسالةِ صالحٍ. وقالَ بعضُهُمْ: مَبْصَرَة[1] أي مُعايَنَةً، يُعايِنونَها أنها آيةٌ مِنَ اللهِ لهمْ حينَ[2] رَأَوها مُخالِفَةً لِنوقِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣ وهود: ٦٤] ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي كَذَّبوا بها، وجَحَدوها، ثم عَقَروها بَعْدَ عِلْمِهِمْ أنها آيةٌ مِنَ اللهِ لهمْ حينَ[3] رَأَوها، وعايَنوها خِلافاً لِنوقِهِمْ خارجَةً عنْ نوقِ البَشَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قالَ ابْنُ عباسٍ والحَسَنُ وغيرُهما: المَوتُ الذريعُ أي السريعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للناسِ. فإنْ لم يُؤمِنوا بها عُذِّبوا في الدنيا، أو يقولُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ مَقرونَةً بالسُّؤالِ سُؤالَ التَعَنُّتِ، فَكَذَّبوها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للهلاكِ على ما ذَكَرْنا مِنَ الآياتِ التي سألوها، أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ على إثْرِ السؤالِ بها ثم التكذيبِ لها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لِمَن تأخَّرَ مِمَّنْ سألَ مِثْلَها، فَكَذَّبَ، أو كلاماً[4] نَحْوَهُ.

وتَحْتَمِلُ الآياتُ التي ذَكَرَ كسوفَ الشمسِ وخُسوفَ القَمَرِ وغَيرَهُ ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للناسِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ الإحاطَةُ بالشيءِ تكونُ بالوجوهِ الثلاثةِ:

أحَدُها: بالغَلَبَةِ والقُدْرَةِ والسلطانِ كقولِهِ: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] أي أخَذَهُمُ الهَلاكُ والغَلَبَةُ، وقُدِرَ عليهِمْ.

والثاني: الإحاطةُ العِلْمُ بهِ كقولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦] أي عالماً وقولِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي لا يَعْلَمونَ.

والثالثُ: الإحاطةُ المَعْروفَةُ بينَ الخَلْقِ مِنْ إحاطةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، فذلكَ لا يُحْتَمَلُ في اللهِ ﷻ فهو على الوَجْهَينِ الأوَّلينِ على إحاطةِ العِلْمِ بهمْ أو القُدْرَةِ عليهِمْ والغَلَبَةِ.

ثم قولُهُ [﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ][5] قالَ بعضُهُمْ: أحاطَ بأعمالِهِمْ: بما لَهُمْ وما عليهِمْ وبما لا يَصْلُحُ [لهمْ وما يَصْلُحُ][6] وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٥٥]

وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ كانوا يَمْكُرونَ برسولِ اللهِ ﷺ ويُريدونَ إطفاءَ نورِهِ، ويَمْنَعونَهُ عنْ تبليغِ الرسالةِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] فيقولُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي قد عَلِمَ بِمَكْرِهِمْ بكَ، على عِلْمٍ منهُ بِمَكْرِهِمْ بكَ، بَعَثَكَ رسولاً إليهِمْ، وكَلَّفَكَ بِتَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ، لكنهُ وَعَدَ أنْ يَعْصِمَكَ منهُمْ، ويَمْنَعَكَ عنهمْ حتى تُبَلِّغَ الرسالةَ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقولِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]

كانَ ﷻ يَبْعَثُ الرسلَ، ويُكَلِّفُهُمْ بِتَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ مِنْ قَومِهِمْ مِنَ المَنْعِ والمَكْرِ برسلِهِ، لكنهُ عَصَمَهُمْ، ومَكَّنَ لهمْ، حتى بَلَّغوا الرسالةَ إليهِمْ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ بالعِلْمِ أو القُدْرَةِ والغَلَبَةِ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الرُّؤيا التي أراهُ إيّاها لم تَكُنْ رُؤيا المَنامِ، ولكنْ كانَتْ [رُؤيا][7] يَقَظَةٍ، ورؤيا غيرَ مُعايَنَةٍ بالتي تَنامُ [العَينُ][8] لا بالذي يَنامُ [القَلْبُ][9] منهُ [لأنهُ رُوِيَ][10] عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «تَنامُ عَيناي، ولا يَنامُ قَلْبي» [البخاري٣٥٦٩] فإنهُ أراهُ مِنَ الرُّؤيا بالعَينِ التي كانَتْ لا تنامُ، لا رُؤيا قَلْبٍ وعِلْمٍ.

---

(١) هذه قراءة قتادة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٢٧. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: كلام. (٥) في الأصل: اختلف، في م: أحاط. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: لا ندري.

قالَ سَعيدُ بْنُ المُسَيِّبِ: هي رُؤْيا مَنامٍ. ورُوِيَ[1] أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ «رأى قوماً على مَنابرَ، فَساءَهُ ذلكَ، فَذَكَرَ أنهمْ كانوا يُعْطَون مالاً». فذلكَ فِتْنَةٌ لهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ أُرِيَ رسولُ اللهِ ﷺ في المنامِ «كأنهُ يدخُلُ المَسْجِدَ الحرامَ آمِناً، فأخْبَرَ بذلكَ أصحابَهُ أنهُ رأى ذلكَ. فلَمّا كانَ عامُ الحُدَيْبِيَةِ، وصُرِفَ عنِ البيتِ، ارْتابَ بَعْضُ الناسِ في رُؤْياهُ، فذلكَ فِتْنَةٌ للناسِ على ما أخْبَرَ» [عن ابن عباس. ابن جرير الطبري ج١٥/١١٢] لكنهُ لم يُبَيِّنْ لهُ متى يَدْخُلُ فيهِ؟ وقد وَعَدَ/ ٣٠٤ ـ ب/ أنهُ يَدْخُلُ فيهِ آمِناً، وهو ما قالَ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الفتح: ٢٧]

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ والفِتْنَةُ المِحْنَةُ الشديدةُ. فإنْ كانَ ذلكَ في الرُّؤْيا التي رآها في [الإسراء إلى][3] بيتِ المَقْدِسِ، وما أخْبَرَ مِنَ الآياتِ، لا يُتَوَهَّمُ مِثْلُ ذلكَ بِتَعْليمِ بَشَرٍ ولا بِسِحْرٍ، فذلكَ الذي أخْبَرَهُمْ أنهُ رأى، فِتْنَةٌ لهمْ، ومِحْنَةٌ في التَّصْديقِ والتَّكْذيبِ في الخَبَرِ الذي أخْبَرَ مِنَ الآياتِ، لا يُتَوَهَّمُ مِثْلُ ذلكَ بِتَعْليمِ بَشَرٍ. فإنْ كانَ على رُؤْيا مَنامٍ فهو فِتْنَةٌ لِما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي كانَتِ الشَّجَرَةُ المَلْعونَةُ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ أيضاً فِتْنَةً لهمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٣و٦٤]

وَوَجْهُ فِتْنَتِها لهمْ ما ذُكِرَ في القِصةِ أنهمْ قالوا: إنَّ محمداً يقولُ: إنَّ في النارِ شَجَرَةً، والنارُ مِنْ طَبْعِها أنْ تأكُلَ الشَّجرَ[4]، فكيفَ يكونُ في النارِ الشَّجَرَةُ، وهي [لا][5] تأكُلُها؟ ولكنْ لم يَعْرِفوا أنَّ شَجَرَ النارِ، يكونُ مِنَ النارِ، وشرابَهُمْ مِنَ النارِ، وكذلكَ طعامُهُمْ مِنَ النارِ، فإذا كانَ مِنَ النارِ لم يأكُلْها النارُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: الزَّقُّومُ الزُّبْدُ والتَّمْرُ، فكيفَ يكونُ فيها ذلكَ؟ فَيَدَّعونَ بذلكَ الكَذِبَ عليهِ في ما يُخْبِرُهُمْ أنَّ في النارِ شَجَرَةً، فتلكَ الشَّجَرَةُ، كانَتْ فِتْنَةً لهمْ ومِحْنَةً في تصديقِ رسولِ اللهِ وتكذيبِهِ. وسُمِّيَ مَلْعونَةً؛ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ العَرَبَ سَمَّتْ كلَّ ضارٍّ مُؤْذٍ مَلْعوناً، فلذلكَ سُمِّيَتْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ مَلْعونَةً إذ[6] كانَتْ ضارَّةً لأهلِها مُؤْذِيَةً.

قالَ الحَسَنُ: سُمِّيَتْ مَلْعونَةً لِما لُعِنَ أهْلُها بها، فَسُمِّيَتْ باسْمِ أهلِها، وهو كما سَمَّى النهارَ مُبْصِراً والنهارُ لا يُبْصِرُ، ولكنْ يُبْصَرُ بهِ، فَسَمَّى باسْمِهِ. فَعَلى ذلكَ هذا.

وأصْلُ اللَّعْنِ الطَّرْدُ، فَطُرِدَ منها كلُّ خيرٍ ونَفْعٍ، فهي ملعونَةٌ، وهي[7] كقولِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] أضافَ الإضلالَ إلى الأصنامِ [التي][8] لا صُنْعَ لها في ذلكَ، لكنَّ كثيراً مِنَ الناسِ ضَلُّوا بهنَّ، فكأنها أضَلَّتْهُمْ، وكقولِهِ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] أي اغْتَرّوا بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي ذُكِرَتْ في القرآنِ. وإلّا الشَّجَرَةُ لا تكونُ في القرآنِ، وهو ما ذُكِرَ مِنَ المَصائِبِ وغيرِها كقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الحديد: ٢٢] والمَصائِبُ، لا تكونُ في الكتابِ، لكنْ ذُكِرَتْ فيهِ ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ هو ما ذَكَرْنا، لأنهمْ نَظَروا إليهِ بِعَيْنِ الاسْتِخْفافِ والاسْتِهْزاءِ، فزادَهُمْ ما ذُكِرَ. وأمّا أهلُ الإسلامِ فزادَ لَهُمْ إيماناً وهُدىً، لأنهمْ نَظَروا إليهِ بِعينِ التَّعْظيمِ والتَّبْجيلِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ قولُهُ: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ أي لا أسْجُدُ كقولِهِ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] فَدَلَّ هذا أنَّ قولَهُ: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ مَعْناهُ: أي لا أسْجُدُ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) في م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: سير. (٤) في الأصل وم: الشجرة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: إذا. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ذَكَرَ في قصةِ إبليسَ ألفاظاً مُختَلِفَةً؛ مَرَّةً: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] وقالَ في مَوضِعٍ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقالَ[1] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: ٧٥] ونَحوَهُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا على اختِلافِ الأحوالِ لا في حالٍ واحدةٍ. هذا مِن هذا على ما ذَكَرَ في قصةِ آدمَ مِنَ اختِلافِ الأحوالِ حينَ[2] قالَ مَرَّةً: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩و..] وقالَ مَرَّةً: ﴿مِّن طِينٖ﴾ [الأنعام: ٢و..] ومَرَّةً ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ [الحجر: ٢٦و..] ونَحوَهُ.

وذلكَ إخبارٌ عن أحوالٍ تَغَيَّرَتْ فيها. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ بغيرِ هذا اللِّسانِ، فَذَكَرَ ههنا بألفاظٍ مُختَلِفَةٍ والزِّيادةِ والنُّقصانِ لأنَّ اختِلافَ الألفاظِ لا يُغَيِّرُ المَعنَى.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ قد أَقَرَّ إبليسُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ بالفضيلةِ لآدمَ والإكرامِ لهُ: إمّا مِنَ الطاعةِ والنُّبوَّةِ التي أعطاها اللهُ، وإنِ ادَّعَى لِنفسِهِ الفَضيلَةَ عليهِ مِن جِهةِ الخِلْقَةِ بأنهُ ناريٌّ، وهو طِينِيٌّ، حينَ[3] ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ قد أقَرَّ إبليسُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ بالفضلِ عليهِ والإكرامِ إما لِطاعَتِهِمْ لهُ، أو لِما جَعَلَهُ رسولاً إلى خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [لا يَحتَمِلُ أنْ يُخاطِبَ رَبَّهُ، ويقولَ: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾][4] لأنهُ لمّا يَطلُبُ التأخيرَ والبَقاءَ إلى يومِ القيامةِ طالبُ نِعمَةٍ مِنهُ ومِنَّةٍ، فيقولُ مُقابِلَ ما يَطلُبُ مِنَ النِّعمَةِ: لَئِنْ أعطَيتَني ذلكَ لأُعطِيَنَّكَ، إنما يَذْكُرُ مُقابِلَ طَلَبِ النِّعمَةِ الطاعةَ لهُ والشُّكرَ على ما قالَ: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] إنما يُقابِلُ بِطَلَبِ النِّعمَةِ الطاعةَ لهُ. وأمّا مُقابَلَةُ المَعصِيَةِ فلا تُعرَفُ.

ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على وجهَينِ

أحَدُهُما: على التأكيدِ: يقولُ: أي إنكَ ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

[والثاني:][5] على التَّمَنِّي منهُ الأمرَينِ جميعاً: التأخيرَ واحتِناكَ ذُرِّيَّتِهِ وسُؤالَهُ إياهما.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: قالَ بعضُهُمْ: لأحتَوِيَنَّهُمْ، ولأُحيطَنَّ بهمْ. وقالَ بعضُهُمْ[6] لأُضِلَّنَّهُمْ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ [النساء: ١١٩] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ لأستَنزِلَنَّ، وقيلَ: لأستَولِيَنَّ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ أي لأستَأصِلَنَّهُمْ، ويُقالُ: هو مِن حَنَكِ الدابَّةِ، حَنَكَ دابَّتَهُ، يَحنِكُها حَنْكاً، إذا شَدَّ في حَنَكِها الأسفلِ حَبْلاً، يَقودُها بهِ. وقالَ القُتَبِيُّ: أي لأقودَنَّهُمْ كيفَ شِئْتُ.

ثم قولُهُ: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ كأنهُ سألَ رَبَّهُ التأخيرَ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى حينَ[7] ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤و..] كأنَّ اللعينَ لمّا سَمِعَ قولَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] إنهُ لا يَنالُهُ الرَّحمَةُ في الإيمانِ بهِ حينَ[8] ذَكَرَ اللَّعنَةَ عليهِ إلى يومِ الدينِ. واللَّعينُ هو المَطرودُ عن رَحمَتِهِ. فعِندَ ذلكَ سألَ رَبَّهُ النَّظِرَةَ إلى يومِ الدينِ لِيُغوِيَنَّ عِبادَهُ. وقد عَلِمَ اللعينُ أنَّ طاعةَ خَلقِهِ لهُ، لا تَزيدُ في مُلكِهِ شيئاً، وعِصيانَهُمْ، لا يُنقِصُ في مُلكِهِ شيئاً. لِذلكَ قالَ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [وقالَ][9] ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] [وقالَ:][10] ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ [النساء: ١١٩] وما ذَكَرَ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ مع إحساني إليهِمْ وإنعامي عليهِمْ ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: بعض. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحدُهما: على التَّمكُّنِ لهُ مِن ذلكَ و الإقدارِ على ما ذَكَرَ؛ أي مَكَّنَ لهُ ذلكَ، وأقدَرَ عليهِ لِخِذلانِهِ إيَّاهُ لمَا عَصَى ربَّهُ، وتَرَكَ أمْرَهُ بالسجودِ جَوراً منهُ حينَ[1] قالَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] مَكَّنَ لهُ ذلكَ لِيُتِمَّ لهُ اللَّعْنَةَ والخِذلانَ.

والثاني: قالَ ذلكَ لهُ على التَّوَعُّدِ والتَّهَدُّدِ. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ [لهُ هذا][2] على أمْرِ وَعيدٍ، وهو قولُهُ: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾؟ فيُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ على إثرِ ذلكَ مُخرَجَ الوَعيدِ لهُ لِمَنْ تَبِعَهُ، وأجابَهُ، كقولِهِ ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] لهذا، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ أمْراً فهو وعيدٌ. فعَلَى هذا قولُهُ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ فإنَّ ذلكَ ولِمَنْ تَبِعَكَ كذا. أو لِما ذَكَرنا مِنَ التَّمكِينِ لهُ مِن ذلكَ والإقدارِ على ذلكَ لِيُتِمَّ لهُ الخِذلانَ واللَّعْنَ الذي لَعَنَهُ.

وإلّا لا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ يأمُرُهُ بِما ذَكَرَ إذ يُخرَّجُ الأمرُ بما ذَكَرَ مُخرَجَ السَّفَهِ والأمرِ بالفحشاءِ، وقد أخبَرَ أنهُ لا يأمُرُ بالفحشاءِ والمُنكَرِ، وإنما يأمُرُ بالعَدْلِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾ [النحل: ٩٠] فلو حُمِلَ هذا على الأمرِ لكانَ أمراً بالفحشاءِ والمُنكَرِ.

فدَلَّ أنهُ يُخرَّجُ على أحَدِ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما/ ٣٠٥ - أ/ أي[3] على الاستِبعادِ والإياسِ عن أنْ يَملِكَ أو يَقدِرَ عليهِمْ بما ذَكَرَ إلّا مَنِ اختارَ منهمُ اتِّباعَهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ الآية [الحجر: ٤٢ والإسراء: ٦٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: أي استَخِفَّ، [واستَخِفَّ][4] الرَّجْلَ والرَّجالةَ. وقالَ أبو عوسَجةَ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ أي استَخِفَّ [أي دعاهُ، فأجابَهُ، فأطاعَهُ، وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾][5] [الزخرف: ٥٤] فأطاعوهُ، أي أمَرَهُمْ، فأطاعوهُ، أي دَعاهُمْ، فأجابوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُهما: على الصَّوتِ؛ يكونُ لهُ صوتٌ، يدعو[6] الناسَ بهِ، فتَسمَعُ ذلكَ الصوتَ النفسُ الخَفيَّةُ التي تكونُ في هذهِ النفسِ الظاهرةِ الكثيفةِ، ولا تَسمَعُهُ النفسُ الظاهرةُ، على ما تَخطُرُ أشياءُ بالقَلْبِ مِن غَيرِ أنْ يَعلَمَ بهِ الإنسانُ أنهُ مِن أينَ[جاءَ؟ ومِنْ أينَ][7] هَيَجانُهُ؟ وعلامَ يَقذِفُ؟ ويُوَسوِسُ أشياءَ في القلوبِ مِن غَيرِ أنْ يُعلَمَ ذلكَ، ويُطَّلَعَ عليه.

فعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ لهُ صوتٌ يدعو الناسَ بهِ، وإنْ كنّا، لا نَسمَعُهُ، لكنهُ يُسمِعُ النَّفْسَ الخَفِيَّةَ بما يُسمِعُ النفسَ الظاهرةَ، وبها تُبصِرُ؛ أعني بالنفسِ الخَفِيَّةِ. ألا تَرَى أنَّ النائمَ يَرَى أشياءَ، ويكونُ في أقصَى الدنيا، ونفسُهُ الظاهرةُ مُلقاةٌ ههنا. فذلكَ كلُّهُ بالنفسِ الخَفِيَّةِ.

والثاني: على التمثيلِ، ليسَ على تَحقيقِ الصوتِ [لكنْ ذَكَرَ الصوتَ][8] لِما بالصوتِ يُرسِلُ الإعلامَ إلى بعضِهِمْ بعضاً، وبهِ يَدعو بعضُهُمْ بعضاً عندَ البعدِ، فذكَرَ الصوتَ لهُ مكانَ الوَسْوسةِ التي تُوَسْوِسُ للناسِ أشياءَ مِن بُعْدٍ، وتَدعوهُمْ بهِ إلى مَعاصي اللهِ، وكذلكَ قالَ الحَسَنُ في قولِهِ ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠] مِن بُعْدٍ مِن غَيرِ أنْ كانَ هنالكَ تَقرُّبٌ منهُ.

والثالثُ: على إضافةِ عَمَلِ كلِّ عاصٍ مِن نَحوِ الغِناءِ والمَزاميرِ وغَيرِهِ، أو يُضافُ عَمَلُ كلِّ طائعٍ وكلِّ ضالٍّ إليهِ؛

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لهذا. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يدعوه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

أُضيفَ ذلكَ إليهِ كما أضافَ موسى حينَ[1] قالَ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] وقالَ[2]: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] ولم يكُنْ ذلكَ عَمَلَ الشيطانِ حقيقةً، ولكنْ قالَ ذلكَ، وأضافَهُ إليهِ لِما بأمْرِهِ ودعائِهِ يَعْمَلُ ذلكَ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي بِدُعائِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أجْلِبْ أي اجْمَعْهُمْ، ويُقالُ: أجْلَبْتُهُمْ أي أعَنْتُهُمْ أيضاً. وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يُخَرَّجُ على الوُجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْنا:

أحَدُها: أنْ يكونَ لهُ خيلٌ ورَجَّالَةٌ وجُنودٌ مِنْ جِنْسِهِ وجَوهَرِهِ، يَجْلُبُهُمْ بهِمْ، وإنْ كُنّا، لا نَراهُمْ كما قالَ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ الآيةَ[الأعراف: ٢٧] فجائزٌ أنْ يكونَ لهُ خَيلٌ ورَجَّالَةٌ وجُنودٌ، لا نَراهُمْ نحنُ، وهُمْ يَرونَنا.

والثاني: على ما ذَكَرْنا أنهُ على التمثيلِ، لكنهُ ذَكَرَ الخَيلَ والرَّجْلَ لِما بالخَيلِ والمشْيِ يَصِلُ بعضٌ إلى بَعْضٍ عندَ الحاجةِ إليهِ في البُعْدِ والقُرْبِ، فَذَكَرَ ذلكَ لهُ على ما ذَكَرْنا في الصوتِ.

والثالثُ: أنهُ أضافَ كلَّ خَيلٍ راكبٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ أو كلَّ ماشٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ إليهِ على ما ذَكَرْنا في الصوتِ في مَعْصِيَةِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ قالَ القُتَبيُّ: ﴿مَّوْفُورًا﴾ أي مُوفَراً. وقالَ غيرُهُ: وافراً.

وفي قولِهِ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتزلَةِ لأنَّ إبليسَ سألَ ربَّهُ التأخيرَ والإبقاءَ لهُ إلى يومِ القيامةِ، وقد عَلِمَ أنهُ إذا أعطاهُ ذلكَ لهُ وَفَى[3] لهُ ما وَعَدَ، وأبقاهُ إلى ذلكَ الوقتِ، وهُمْ لم يَعْرِفوا ذلكَ، بل قالوا: إنهُ يَجيءُ عَبْدٌ، فَيَقْتُلُهُ، فَيَمْنَعُهُ عن وفاءِ ما وَعَدَ والإبقاءِ إلى الوَقْتِ الذي وَقَّتَ لهُ، فهو أعْرَفُ بِرَبِّهِ منهُمْ، وكذلكَ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] وهُمْ يقولونَ: لم يُغْوِهِ. فهو أعْرَفُ بهِ منهُمْ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: مُشارَكَتُهُ في الأموالِ هي أنْ [يَجْعَلوا لهُ][4] البَحيرَةَ والسائبَةَ والوَصِيلَةَ والحاميَ على ما كانوا يَفْعَلونَهُ. وأمّا الأولادُ فإنهمْ هَوَّدوهُمْ ونَصَّروهُمْ، ومَجَّسوهُمْ، وهو قولُ قتادَةَ.

وقالَ بَعضُهُمْ: مُشارَكَتُهُ في الأموالِ هي أنْ يَكْتَسِبوها مِنْ خَبيثٍ وحَرامٍ، ويُنْفِقوها في مِثْلِهِ وفي مالا يَحِلُّ، وأمّا الأولادُ فَهُمْ[5] ما وَلَدوا مِنَ الزِّنى. وقالَ بعضُهُمْ: الأموالُ ما كانوا يَذْبَحونَ لِآلِهَتِهِمْ، ويَجْعَلونَها[6] ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٣٦] والأولادُ ما وُلِدوا مِنَ الزِّنى.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ حتى تُشارِكَهُمْ في الأموالِ والأولادِ.

ثم مَعْنى المُشارَكَةِ لهُ في ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، هو أنَّ هذهِ الأموالَ والأولادَ لِلّهِ تعالى حَقيقَةً لِما هو أنْشَأها، وخَلَقَها. فَحَقيقَةُ المُلْكِ لهُ بما ذَكَرْنا. وظاهِرُ الانْتِفاعِ لِعَبْدِهِ، إذْ هذا كلُّهُ للهِ بِحَقِّ المِحْنَةِ يَمْتَحِنُهُمْ، وحَقُّ الانْتِفاعِ لهمْ، إذْ لا يَجوزُ أنْ يَخْلُقَ اللهُ شيئاً لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ، ولكنْ يَخْلُقُ لِمَنافِعِ أنْفُسِهِمْ لِيَمْتَحِنَهُمْ بها.

وقد شَرَعَ اللهُ لهمْ [شَرائعَ، وشَرَعَ إبليسُ لهمْ][7] شَرائعَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] فإذا صَرَفوا ذلكَ إلى ما شَرَعَ [لهمْ إبليسُ دونَ ما شَرَعَ][8] اللهُ فَقَدْ أشْرَكوهُ فيها، وكُلُّ ما أطيعَ فيها مِمّا سَنَّ[9] لهمْ إبليسُ، وشَرَعَ لهمْ، فذلكَ شِرْكَتُهُ فيها.

وذلكَ لأنَّ الأولادَ في الشاهدِ إنما تُطْلَبُ لأحَدِ الوجوهِ الثلاثةِ: إمّا لِلاسْتِئْناسِ بهمْ في حالِ الوَحْشَةِ، وإمّا لِلاسْتِنْصارِ بهِمْ والعَوْنِ على أعدائِهِمْ، وإمّا لِلذِّكْرِ بَعْدَ الوَفاةِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: قوله. (٣) في الأصل وم: يفي. (٤) في الأصل وم: يجعلوه. (٥) في الأصل وم: هم. (٦) في الأصل وم: ويجعلون لها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.

وكذلكَ الأموالُ يُطْلَبُ منها ما ذَكَرْنا: الانتِفاعُ بها في حالِ الحَياةِ، وإمّا لِلْمَعونَةِ على الأعداءِ والذِّكْرِ بَعْدَ المَوتِ لِخَيراتٍ يَتْرُكونها. فإذا صَرَفوها إلى ما أَمَرَهُمْ إبليسُ أشرَكوهُ فيها. ومُشارَكَتُهُ إيّاهُمْ[1] في الأموالِ متى يأمُرُهُمْ، ويدعوهُمْ إليهِ، فيطيعونَهُ، ويُجيبونَهُ، في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، مُشارَكَتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أي وَعِدْهُمْ أنْ لا جَنَّةَ، ولا نارَ، ولا بَعْثَ، أي[2] يَعِدُهُمْ بِخِلافِ ما وَعَدَهُمُ اللهُ، وخوَّفَهُمْ، على ضِدِّ ما خوَّفَهُمُ اللهُ: ما كانَ مِنَ اللهِ وَعْدُ خوفٍ يكونُ منهُ وَعْدُ رَجاءٍ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أخبرَ أنَّ ما وَعَدَ هو، قد أخلَفَ. فذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي كَذِباً وباطِلاً لأنهُ يَخْرُجُ كلُّهُ على خِلافِ ما وَعَدَ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: القُدْرَةُ والقَهْرُ. والثاني: في الحُجَّةِ والبرهانِ. والثالثُ: الوَلايَةُ.

فأمّا القُدْرَةُ والقَهْرُ فليسَ لهُ عليهِمْ ذلكَ لأنهُ يَجْعَلُ لهُ قُدْرَةَ القَهْرِ عليهِمْ، شاؤوا، أو أبَوا. وكذلكَ ليسَ لهُ عليهِمُ الحُجَّةُ في ما يَدْعوهُمْ إليهِ، ويأمُرُهُمْ بهِ، كقولِهِ يومَ يقومُ [الحساب][3]: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٢٢] وأمّا سُلْطانُ الوَلايَةِ فإنَّ لهُ ذلكَ على مَنِ اختارَ اتِّباعَهُ وتَوَلِّيَهُ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ المُخْلِصينَ الذينَ أخلَصوا إليَّ ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ أي حُجَّةٌ، لأنهم إنما يَبْتَغونَ أمْرَ اللهِ بِحُجَجِهِ، فلا يَتَّبِعونَ الشيطانَ بأمانِيِّهِ التي يُشَبِّهُ عليهِمْ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ مِنَ الحُجَّةِ والمُلْكِ على ما ذَكَرْنا ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ عليهِمْ سُلْطانُ الوَلايَةِ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ عاصماً، يَعْصِمُكَ عن تَمْويهاتِهِ وتَسْويلاتِهِ، وناصراً، يَنْصُرُكَ على مَكائِدِهِ، أو مَفْزَعاً، تَفْزَعُ إليهِ، أو مُعْتَمَداً، تَعْتَمِدُ عليهِ في جميعِ أمورِكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يُجْري، ويُسَيِّرُ، ويَسوقُ الفُلْكَ في البَحْرِ.

قالَ الحَسَنُ: أي سَخَّرَ الفُلْكَ أو السُّفُنَ لنا في البَحْرِ، والدَّوابَّ/ ٣٠٥ ـ ب/ في البَرِّ لِنَقْطَعَ بها البِحارَ والمَفاوِزَ والبَرارِيَ لِنَصِلَ بذلكَ إلى حوائِجِنا التي جُعِلَتْ لنا في البُلْدانِ النائِيَةِ والأمكِنَةِ البَعيدةِ، وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] أي سَخَّرَ لنا ذلكَ.

ونحنُ نقولُ كذلكَ؛ سَخَّرَ لنا ذلكَ. ونحنُ نقولُ كذلكَ؛ سَخَّرَ لنا ما ذَكَرَ، إلّا أنَّ إضافةَ ذلكَ إليهِ على قولِنا [هو][4] أنَّ أفعالَنا مَخْلوقَةٌ لهُ.

ثم يَذْكُرُ فيهِ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ وعِلْمَهُ حينَ[5] خَلَقَ الخَشَبَ، وجَعَلَ فيهِ[6] مَعْنىً يَقِرُّ على وَجْهِ الماءِ مع ثِقَلِهِ. ومِنْ طَبْعِ الشَّيءِ الثَّقيلِ التَّسَرُّبُ في الماءِ والتَّسَفُّلُ فيهِ، ولأنفُسِهِمُ المَعْنى الذي بهِ [لا][7] تَقِرُّ على وَجْهِ الماءِ، وإنْ كانَتْ دونَ ذلكَ في الثِّقَلِ، تَتَسَفَّلُ، وتَتَسَرَّبُ. أو جَعَلَ ذلكَ بِطَبْعِهِ بحيثُ يَقِرُّ على وَجْهِ الماءِ، ولا يَسْرُبُ فيهِ لُطْفاً منهُ.

فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ما يَقِرُّ على وَجْهِ الماءِ لِمَعْنىً، جَعَلَهُ فيهِ، لا نَعْقِلُهُ نحنُ، أو بِلُطْفِهِ، [فهو قادرٌ][8] على إنشاءِ هذا الخَلْقِ وإعادَتِهِ بَعْدَ فَنائِهِ وذَهابِهِ، وإنْ كانَتْ عقولُ الخَلائقِ، لا تُدْرِكُ ذلكَ، وأفهامُ البَشَرِ تَعْجَزُ عن دَرْكِهِ. فكما قَدَرَ على إنشاءِ ما هو طَبْعُهُ التَّسَرُّبُ في الماءِ والتَّسَفُّلُ فيهِ بحيثُ يَقِرُّ، ويَرْكُدُ على الماءِ، يَقْدِرُ على ما ذَكَرْنا، وحينَ[9] قَدَرَ على تَسْكينِ الأمواجِ في البَحْرِ لِيُعْبَرَ فيها، وخَلَقَ رِياحاً فيها لِتَجْرِيَ السُّفُنُ كما تَجْري في الماءِ الجاري.

فَمَنْ قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على ما ذَكَرْنا [مِنَ الإحياءِ بَعْدَ الفَناءِ.

---

(١) في الأصل وم: إياه. (٢) في الأصل وم: لكن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: فيها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لقادر. (٩) في الأصل وم: وحيث.

وفيه ما ذكرنا[١] مِنْ تذكيرِ نِعَمِهِ لنا لِنَشْكُرَهُ وتذكيرِ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ لِنَهابَ منهُ، ولا نُنْكِرَ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ في شيءٍ مِنَ الأشياءِ على ما أنكَرَ قُدْرَتَهُ بَعْضُ خَلْقِهِ لِقُصورِ[٢] عقولِهِمْ عَنْ دَرْكِ ذلكَ.

وفيه وجوهٌ مِنَ الدلالةِ:

أحدُها: تعليمُ الأسبابِ التي بها يُوصَلُ إلى قَطْعِ البحارِ والبَراري مِنِ اتِّخاذِ السُّفُنِ والحَمْلِ عليها وغيرِ ذلكَ.

والثاني: تسخيرُ البحارِ والبراري لنا [ما لولا ذلكَ ما تَهَيَّأَ لنا][٣] استعمالُ ذلكَ.

والثالثُ: دلالةُ الرسالةِ، إذ لولا خبرُ السماءِ، وإلّا ما يُعْرَفُ أنَّ ما يُحتاجُ إليهِ هو في تلكَ البلدانِ النائيةِ والأمكنةِ البعيدةِ، وما يُعْلَمُ أنَّ ذلكَ الطريقَ، يَفْضي إلى تلكَ الأمكنةِ إلّا بِخَبَرِ الرسولِ عنِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي مِنْ رحمتِهِ أنْ جَعَلَ لكُمُ الفُلْكَ والدوابَّ لِتَصِلوا بها إلى أرزاقِكُمْ التي في البلادِ النائيةِ البعيدةِ. و قالَ بعضُهُمْ: إنهُ لم يَزَلْ بكُمْ رحيماً إذا تُبْتُمْ، ورَجَعْتُمْ عنْ ذلكَ. [وإنْ][٤] كانتِ الآيةُ في المؤمنينَ فهو لم يَزَلْ بهمْ رحيماً، وإنْ كانتْ في الأرزاقِ ففيهِمْ جميعاً.

فإنْ قالتِ الثَّنَوِيَّةُ: [كيفَ تَصِفونَ رَبَّكُمْ][٥] بالرَّحمةِ والرأفةِ، وهو يُميتُكُمْ، ويَقْتُلُكُمْ، ويَحْمِلُ عليكُمُ الشدائدَ والمُؤَنَ العِظامَ، فذلكَ ليسَ مِنْ صِفَةِ الرحيمِ؟

قيلَ: إنا قد ذَكَرْنا لكُمْ في غيرِ موضعٍ جوابَ السؤالِ: أنَّ المرءَ رحيمٌ على نفسِهِ، ولهُ الرَّحمةُ والشَّفَقةُ عليها، ثم مَعَ ذلكَ يَحْمِلُ على نفسِهِ الشدائدَ والمُؤَنَ العظامَ لِما يأْمُلُ مِنَ النَّفْعِ في العاقبةِ مِنْ نحوِ الحِجامةِ والافتِصادِ وشُرْبِ الأدويةِ الكريهةِ ما لو لا يأْمُلُ مِنَ النَّفْعِ في العاقبةِ ما يَحْمِلُ ذلكَ.

وكذلكَ الوالدانِ، فيهما مِنَ الرَّحمةِ والرأفةِ لِوَلَدِهِما ما لا يَخْفَى ذلكَ على أحدٍ، ثم يُحَمِّلانِ وَلَدَهُما ما ذَكَرَ مِنَ الشدائدِ والمُؤَنِ العظامِ لِما يأْمُلانِ[٦] مِنَ النَّفْعِ لهمْ في العاقبةِ. ثم لا يَمْنَعُ ذلكَ مِنَ الوصفِ بالرَّحمةِ والرأفةِ.

فعلى ذلكَ اللهُ ﷻ لا يَمْنَعُ ما يَحْمِلُ علينا مِنَ الشدائدِ عنْ أنْ يُوصَفَ بالرحمةِ، ولا يُخْرِجُهُ ذلكَ عنِ الحِكمةِ. بل هو على ما قالَ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤ و٩٢].

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي بَطَلَ ما كانوا يأْمُلونَ مِنْ عبادتِهِمُ الأصنامَ إلّا العبادةَ التي كانتْ للهِ فإنها[٧] لم تَبْطُلْ لِما[٨] يُؤَمِّلُ مِنْ عبادتِهِمْ إياهُ، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ والأوثانَ، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويقولونَ[٩]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأخبرَ ﷻ عنْ سَفَهِهِمْ لِعبادتِهِمُ الأصنامَ وعَجْزِهِمْ عمّا يأْمُلونَ منها في الآخرةِ حينَ[١٠] لم يَمْلِكوا دَفْعَ شيءٍ مما مَسَّهُمْ وكَشْفَ ما أصابَهُمْ في الدنيا. فكيفَ يأْمُلونَ ذلكَ في الآخرةِ؟

أو يكونُ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي ضَلَّ الآلهةُ التي عَبَدوها دونَ اللهِ إلّا إلهَ الحقِّ المُستَحِقَّ لِلعبادةِ فإنهُ أعانَكُمْ، ونَجّاكُمْ مِنَ الهلاكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ هكذا كانتْ عادتُهُمْ: أنهمْ إذا خافوا الهلاكَ على أنفسِهِمْ أخلَصوا الدعاءَ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةَ [العنكبوت: ٦٥] وكقولِهِ: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآيةَ [يونس: ٢٢ و٢٣]][١١]

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل لقصوره. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل: إنكم تصفون بربكم. (٦) في الأصل وم: يأملون. (٧) في الأصل وم: فإنه. (٨) في الأصل وم: ما لم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: ﴿فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن وَفاءِ ما عاهَدْتُمْ وإنجازِ ما وَعَدْتُمْ لأنهمْ قالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] فأعرَضوا عن هذا الوعدِ، ولم يُوفوا ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ لِنِعَمِ ربِّهِ؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ مِنْ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: عبادَتُهُمْ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يُنْعِمُ عليهِمْ في حالِ الرَّخاءِ، ولا يَدْفَعُ عنهُمُ البلاءَ في حالِ الشِّدَّةِ.

والثاني: أنَّ الشاهدَ مَنْ أنعَمَ على آخَرَ نِعْمَةً، وأحْسَنَ إليهِ، يَشْكُرُ لهُ، ويُثْني عليهِ. وإذا حَلَّ بهِ بلاءٌ وشِدَّةٌ مِنْ أحَدٍ مِنَ الخَلائِقِ يَدْعو عليهِ، ويلْعَنُهُ.

فَمُعامَلَةُ أُولئكَ الكَفَرَةِ معَ اللهِ على خِلافِ مُعامَلَةِ الخَلْقِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً: يُخْلِصونَ لهُ الدعاءَ في حالِ الشِّدَّةِ والبلاءِ، ويَكْفُرونَ[1] نِعَمَهُ في حالِ الرَّخاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ على ما خَسَفَ قوماً في البَرِّ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ على ما أرْسَلَ على قومٍ مِنَ الحَصْباءِ، وهي الحَصَى، فأهلَكَهُمْ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ناصراً، يَنْصُرُكُمْ، أو مُعْتَمَداً [تَعْتَمِدونَ][2] عليهِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي يُخْرِجَكُمْ إلى ركوبِ البَحْرِ مَرَّةً أُخرى ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أو يَذْكُرُ هذا: أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ما ذُكِرَ مِنَ الفُلْكِ وإجرائِها في البَحْرِ وتَسْكينِ أمواجِهِ ودَفْعِ أهوالِهِ عنكُمْ قادِرٌ على إهلاكِكُمْ في البَرِّ وإعادَتِكُمْ في البَحْرِ ثانياً وإغراقِكُمْ فيهِ.

وفي قولِهِ: ﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٦] دلالةُ أنَّ لِلّهِ في فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً، لأنهمْ هُمُ الذينَ يَسيرونَ في البَحْرِ، وهُمُ الذينَ يُجْرونَ الفُلْكَ فيهِ. ثم أضافَ الإجراءَ إلى نفسِهِ، وكذلكَ السَّيْرَ لِيُعْلَمَ أنَّ لهُ فيهِ صُنْعاً وفِعلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿تَبِيعًا﴾ أي مَنْ يَتْبَعُنا بِدمائكُمْ، ويُطالِبُنا بها.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: التَّبيعُ الكفيلُ، ويُقالُ المُتَقاضي في مَوضِعٍ آخَرَ. وقالَ غيرُهُ: هو مَنِ اتَّبَعَهُ، أي لا تَجِدوا لكُمْ علينا بهِ تَبِعَةً، وهو ما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبِيُّ: الحاصِبُ الريحُ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنها تَحْصِبُ أي ترمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، والقاصِفُ الريحُ الشديدةُ التي تَقْصِفُ الشَّجَرَ، أي تكْسِرُها. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: القاصفُ الشديدةُ مِنَ الرياحِ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ كَرَّمَهُمْ بأنْ خَلَقَهُمْ في أحْسَنِ صورةٍ كقولِهِ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] وقَوَّمَهُمْ في أحْسَنِ تقويمٍ وأحْسَنِ قامةٍ كقولِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]

وكَرَّمَهُمْ بأنْ رَكَّبَ فيهِمُ العقولَ التي بها يَعْرِفونَ الكَراماتِ مِنَ الهَوانِ، ويَعْرِفونَ بها المَحاسِنَ مِنَ المَساوِئِ والحِكْمَةَ مِنَ السَّفَهِ والخَيرَ مِنَ الشَّرِّ

وكَرَّمَهُمْ/ ٣٠٦ ـ أ/ بأنْ جَعَلَ لهمْ لِساناً يَتَكَلَّمونَ بهِ[3] الحِكْمَةَ وكلَّ خيرٍ، وبهِ[4] يَتَوَصَّلونَ إلى دَرْكِ الحِكْمَةِ وجَمْعِها.

وكَرَّمَهُمْ بأنْ جَعَلَ أرزاقَهُمْ أطْيَبَ الأرزاقِ، وجَعَلَ لِغَيرِهِمْ ما خَبُثَ منها وما فَضَلَ منهمْ.

وكَرَّمَهُمْ بأنْ جَعَلَ جميعَ ما على وجهِ الأرضِ لهمْ كقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]

وكَرَّمَهُمْ بأنْ سَخَّرَ لهمْ جميعَ الخَلائقِ كقولِهِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى [ٱلْأَرْضِ﴾][5] [الحج: ٦٥].

وجَعَلَ بَني آدمَ هُمُ المَقْصودونَ بِخَلْقِ جميعِ الخَلائقِ، ونَحوَهُ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) و(٤) في الأصل وم: بها. (٥) في الأصل وم: السموات والأرض جميعاً منه.

وكَرَّمَهُمْ حينَ(١) جَعَلَهُمْ بحيثُ يَتَهَيَّأُ لهمُ اسْتِعْمالُ السماءِ والأرضِ واسْتِعْمالُ الشمسِ والقَمَرِ واسْتِعْمالُ البحارِ والبَراري وجميعِ الصِّعابِ والشَّدائدِ في حَوائِجِهِمْ ومَنافِعِهِمْ ما لا يَتَهَيَّأُ لِغَيرِهِمْ مِنَ الخَلائقِ ذلكَ.

فذلكَ تَفْضيلُهُمْ. وجائزٌ أنْ يكونَ كَرَّمَ بَني آدمَ لأنهُ كَرَّمَ آدَمَ لأنهُ أَسْجَدَ ملائكتَهُ لهُ، وبَعَثَهُ رسولاً إليهِمْ حينَ(٢) ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] فلما كَرَّمَ آدَمَ صارَ بَنوهُ مُكَرَّمينَ أيضاً. ولهذا نَقولُ: إنَّ(٣) الأبَ يَصيرُ مَشْتوماً بِشَتْمِ ابْنِهِ.

وما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ فَضْلَ بَني آدَمَ على غَيرِهِمْ مِنَ الحَيَوانِ والدَّوابِّ حينَ أَكَلُوا، وشَرِبوا هُمْ بأيديهِمْ، وسائرُ الدَّوابِّ يَأْكُلونَ بأفواهِهِمْ. هذا الذي ذَكَروا، هو مِنَ التفضيلِ. إلّا أنَّ ذِكْرَهُ لهُ خاصَّةً، ليسَ فيهِ كثيرُ حِكْمَةٍ وفَضْلٍ. لكنْ فَضَّلَهُمْ، وكَرَّمَهُمْ بِما ذَكَرْنا مِنْ وُجوهِ الكراماتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هذا تَفْسيرُ ما ذَكَرَ مِنْ تَكْريمِ بَني آدَمَ وتَفْضيلِهِ إياهُمْ. ثم يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ جَعَلَ لهمُ البَرَّ والبَحْرَ مُسَخَّرَينِ حتى يَصِلوا إلى ما في باطِنِ البَحْرِ وظاهِرِهِ مِنْ أنواعِ المالِ والمَنافِعِ، وكذلكَ البَرُّ، سَخَّرَ لهمْ حتى يَصِلوا إلى مافي باطِنِهِ مِنَ الأموالِ والمَنافِعِ وظاهِرِهِ.

والثاني: أنْ جَعَلَهُمْ بحيثُ يَقْضونَ حَوائِجَهُمُ التي كانَتْ لهمْ مِنْ وراءِ البَرِّ ما لم يَجْعَلْ ذلكَ لِغَيرِهِمْ مِنَ الخلائِقِ قَضاءَ الحَوائِجِ مِنْ وَرائِهِما.

وذلكَ مَعْنَى تَفْضيلِهِمُ الذي ذَكَرَ. ثم ما ذَكَرَ على إثْرِ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ وهو تفسيرُ تَفْضيلِهِ وإكرامِهِ حينَ(٤) قالَ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ تكريمِ بَني آدمَ وتَفْضيلِهِ إيّاهُمْ، هو ما جَعَلَ فيهِمْ مِنَ الأنبياءِ والرسلِ والأتْقياءِ والأخيارِ منهُمْ ما لم يَجْعَلْ ذلكَ في غَيرِهِمْ.

ألَا تَرَى أنَّ موسى قالَ: ﴿لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] وقولَهُ: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنْ جَعَلَ أرزاقَهُمْ وغِذاءَهُمْ ما بَلَغَ في الطِّيبِ غايَتَهُ؟ ولا كذلكَ غِذاءُ غَيرِهِمْ مِنَ الدَّوابِّ ورِزْقُهُمْ لأنهمْ لا يَأْكلونَ إلّا بَعْدَ أنْ يَسْتَخْرِجوا منهُ ما فيهِ مِنْ أذىً وخُبْثٍ وخُشونَةٍ مِنَ النُّخالَةِ وغَيرِها، وفي الطَّبْخِ والنُّضْجِ حتى يَبْلُغَ في الطِّيبِ واللِّينِ غايَتَهُ؟

وأمّا غَيرُهُمْ(٥) مِنَ الدَّوابِّ فإنهمْ يَأْكلونَ كما هو نِيًّا غَيرَ مَطْبوخٍ ولا نَضِجٍ، وفيهِ مِنَ الخُبْثِ والأذى [الكثيرُ.

وقولُهُ تعالى](٦): ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ قالَ بعضُ أهلُ التأويلِ(٧): ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ على الجِنِّ والشياطينِ وأصحابِهِمْ غَيرِ الملائكةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مِنَ الحَيَوانِ الدَّوابِّ ﴿تَفْضِيلًا﴾ بالأكْلِ بالأيدي وجَعْلِ رِزْقِهِمْ مِنْ غَيرِ رِزْقِ الدَّوابِّ.

ويَحْتَمِلُ ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مِمَّنْ على وَجْهِ الأرضِ مِنَ الجِنِّ وغَيرِهِمْ لِما لم يُرْسَلْ إلى الجِنِّ رسولٌ منهمْ، ولا أُنْزِلَ كتابٌ على حِدَةٍ، وما جَعَلَ أرزاقَهُمْ مِمّا يَفْضُلُ مِنَ العِظامِ والسِّرْقينِ وغَيرِهِ على ما ذَكَرَ. فذلكَ وَجْهُ تَفْضيلِهِمْ عليهِمْ.

وأمّا الكلامُ في تَفْضيلِ البَشَرِ على الملائكةِ والملائكةِ على البَشَرِ فإنّا لا نَتَكَلَّمُ في [ذلكَ لأنّا](٨) لا نَعْلَمُ ذلكَ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ. فالأمرُ فيهِ إلى اللهِ في تَفْضيلِ هؤلاءِ على هؤلاءِ وهؤلاءِ على هؤلاءِ، ليسَ إلينا مِنْ ذلكَ شيءٌ، ولا جائزٌ أنْ يُجْمَعَ بَينَ أشَرِّ البَشَرِ وأفْسَقِهِمْ وبينَ الملائكةِ الذينَ لم يَعْصُوا اللهَ طَرْفَةَ عَينٍ، فَيُقالُ: هُمْ أفْضَلُ مِنَ الملائكةِ.

ولكنْ إنْ كانَ، لا بُدَّ، فإنما يُجْمَعُ بَينَ الأنبياءِ والرسلِ وأتْقى الخَلائِقِ وبَينَ الملائكةِ، فَيُتَكَلَّمُ حينئذٍ بتَفْضيلِ بَعْضٍ على بَعْضٍ، فهو ما ذَكَرْنا أنَّ الأمرَ في ذلكَ إلى اللهِ، ليسَ إلينا مِنْ ذلكَ شيءٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: بأن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في م: غيره. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: فإنه قال. (٨) في الأصل: ذلك، في م: شيء من ذلك.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ قالَ الحَسَنُ: هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢] فَيُقالُ[1]: أيُّ يومٍ؟ فيقولُ: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَدْعو بإمامِهِمْ أي بِدينِهِمُ الذي دانوا به، وذَبُّوا عنهُ، و يُدْعَى كلٌّ بدينِهِ الذي دانَ به، وذَبَّ عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي بِرُؤَسائِهِمْ وأئِمَّتِهِمُ الذينَ أضَلُّوهُمْ، أي يُدْعَى الأتباعُ بِأئِمَّتِهِمْ ورُؤَسائِهِمُ الذينَ أضَلُّوا، حتى يَلومَ بعضُهُمْ على بَعْضٍ، ويَلْعَنَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ، ويَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ منْ بَعْضٍ كقولِهِ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ الآية [البقرة: ١٦٦] وقولِهِ ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقولِهِ: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ [سبإ: ٣١] يُدْعَى الأتباعُ بالمَتْبوعِينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: يُدْعَى كلُّ أناسٍ بِداعيهِمُ الذي دَعاهُمْ: إنْ كانَ رسولاً فَبالرسولِ، وإنْ كانَ شيطاناً فَبالشيطانِ، وهو قريبٌ مِمّا ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ بِكتابِهِمُ الذي كَتَبَ الملائكةُ أعمالَهُمْ فيهِ. و قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ بِكتابِهِمُ الذي أُنزِلَ عليهِمْ. يُدْعَى كُلٌّ بِما ذَكَرَ لِيَعْلَموا أنَّ الحُجَّةَ قد قامَتْ عليهِمْ، وأوجَبَتْ لهمُ العذابَ باتِّباعِهِمْ ما اتَّبعوا بلا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ.

وحاصِلُ أقاويلِ هؤلاءِ يَرْجِعُ إلى وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ نَدْعو إمامَ كلِّ أناسٍ: [إنْ][2] كانَ إمامُهُمْ في خيرٍ أو شرٍّ، فَيُجْزَى لهُ جَزاؤُهُ، ثم يُكَلَّفُ هو دُعاءَ أتباعِهِ إلى ما أُعِدَّ لهمْ مِنَ الثوابِ والعقابِ.

والثاني: يُدْعَى كلُّ إمامٍ ورئيسٍ في خيرٍ أو شرٍّ بأتباعِهِ الذينَ يَتَّبِعونَهُ في ما يدعوهُمْ إليهِ: [كلُّ][3] رسولٍ يُدْعَى بقومِهِ الذينَ اتَّبعوهُ[4]، وكلُّ رئيسٍ وشيطانٍ [بِمَنْ][5] اسْتَتْبَعَهُمْ.

والثالثُ: إمامُهُمْ كتابُهُمُ الذي كَتَبَ أعمالَهُمْ [التي كَسَبوا][6] كقولِهِ: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ كلُّهُمْ قد يَقْرَؤونَ كتابَهُمْ. غيرَ أنَّ المؤمنَ إذا نَظَرَ في الكتابِ فَرِحَ بهِ، واسْتَبْشَرَ بما فيهِ، فَسَهُلَ عليهِ القراءةُ، وهانَتْ، لِما كانَ يَتْبَعُ حُجَجَ اللهِ.

وأمّا الكافرُ، إذا نَظَرَ في الكتابِ حَزِنَ، واغْتَمَّ بهِ، فَعَسُرَ عليهِ قراءةُ كتابِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩ و ٢٠] وكقولِهِ[7]: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥ و ٢٦] لأنهُ اتَّبَعَ بلا حُجَّةٍ.

أو يكونُ المؤمنُ إذا نَظَرَ في كتابِهِ، ورأى[8] سيِّئاتِهِ مَغْفورَةً كقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ [الأحقاف: ١٦] فَرِحَ بذلكَ. والكافرُ رَأى سيِّئاتِهِ باقيةً عليهِ وحَسَناتِهِ، قد بَطَلَتْ، حَزِنَ بذلكَ، واغْتَمَّ[9] لِذلكَ قالَ ما قالَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عنْ توحيدِ اللهِ والإيمانِ بهِ مع كَثْرةِ آياتِهِ ودَلالاتِهِ[10] على وَحْدانيَّتِهِ فهو عنِ الإيمانِ بالآخِرةِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ أعمى.

---

(١) في الأصل وم: فيقول. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: اتبعوهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الذي كتبوا. (٧) في الأصل وم: ويقول الكافر. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: واهتم. (١٠) في الأصل وم: ودلالته.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ الدنيا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عنِ الحقِّ ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن حُجَجِهِ، لأنهُ إذا عَمِيَ عنِ الحقِّ فهو عن حُجَجِهِ أعمى، فتكونُ ﴿فِي﴾ بمعنى عَنْ؛ إذِ الآياتُ والدلالاتُ على وَحدانيّةِ اللهِ أكثرُ وأظهرُ مِنَ الدَّلالةِ على البَعْثِ والآخِرَةِ؛ إذْ ليسَ شيءٌ إلا وفيهِ أثرُ وَحدانيَّتِهِ ودَلالةُ ألوهيَّتِهِ، ولا كذلكَ الآخِرَةُ، فهو عنِ الإيمانِ بها أشدُّ عَمىً.

وقالَ بعضُهُمْ: مَنْ عَمِيَ في هذهِ الدنيا عنِ الإيمانِ باللهِ فهو في الآخِرَةِ أعمى عنِ الإيمانِ بهِ، لأنَّ الدنيا ممّا يُقْبَلُ فيها الإيمانُ، وفي/٣٠٦ ـ ب/الآخِرَةِ لا يُقبَلُ، وهو ما قالَ: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ [سبإ: ٥٤] أي ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ مِنَ الإيمانِ بهِ كما فُعِلَ بأشياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، أي كما حِيلَ بَيْنَ أشياعِهِمْ وبَيْنَ الإيمانِ بهِ عندَ مُعايَنَةِ بأسِ اللهِ وعذابِهِ، وهو قولُ الحَسَنِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ قريباً مِنْ هذا، وهو أنَّ مَنْ عَمِيَ عنِ الرُّشْدِ والحَقِّ في هذهِ الدنيا لِجَهْلِهِ بهِ فهو في الآخِرَةِ عِندَ عِلْمِهِ بالرُّشْدِ والحَقِّ أشدُّ عَمىً، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقالَ بعْضُهُمْ: مَنْ عَمِيَ قَلْبُهُ في الدنيا عنِ الإيمانِ باللهِ والتوحيدِ لهُ فهو في الآخِرَةِ أعمى الوَجْهِ والحَواسِّ كقولِهِ: ﴿لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ [طه: ١٢٥] وكقولِهِ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ الآية [الإسراء: ٩٧] ما ذَكَرَ: ذاهبةً حواسُّهُمْ، لِما تَرَكوا الانتفاعَ بها في الدنيا لِما جُعِلَتْ لهمُ الحواسُّ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ بالافتراءِ على اللهِ ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ أي مُفْتَرٍ على اللهِ أيضاً كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ونَحوُهُ: يَفْتَرونَ في الآخِرَةِ، ويَكْذِبونَ كما كَذَبوا في الدنيا، وكقولِهِ: ﴿أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] ثم أخبرَ عنهُمْ فقالَ[1]: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقالَ قَتادةُ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا في ما أراهُ اللهُ مِنْ آياتِهِ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ والجبالِ والنجومِ ﴿أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الغائِبَةِ عنهُ التي لم يَرَها ﴿أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا.

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ [النِّعَمِ ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عَنْ][2] أنْ يَعْلَمَ أنها مِنَ اللهِ ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن حُجَّتِهِ، ويُقالُ عَنْ دينِ اللهِ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ يَعْني الكافِرَ، عَمِيَ عنها، وهو يُعايِنُها، فلا يَعْرِفُ أنها مِنَ اللهِ، فَيَشْكُرُ ربَّها ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ يقولُ: عمّا غابَ عنهُ مِنْ أمْرِ الآخِرَةِ مِنْ أمْرِ البَعْثِ والجَزاءِ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ وأخطأُ طريقاً. وبعْضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ دلَّ على هذا أنهُ قد كانَ مِنَ الكَفَرَةِ شيءٌ [مِنَ الدعاءِ إلى شيءٍ][3] يَصيرُ مَفْتوناً لو أجابَهُمْ إلى ذلكَ. وكذلكَ كانَتْ عادةُ الكَفَرَةِ [يكادونَ يَضِلّونَ][4] رسولَ اللهِ ﷺ ويَفْتِنونَهُ[5] عنِ الذي أوحِيَ إليهِ، ويَصْرِفونَهُ[6] عنهُ، كقولِهِمْ: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس: ١٥] هكذا كانَتْ عادَتُهُمْ؛ كانوا يَطْلُبونَ منهُ الافتِراءَ على اللهِ والضَّلالَ على وَجْهِ المَكْرِ بهِ لا ضَلالَ على وَجْهِ المَكْرِ بهِ لا ضَلالَ تَصْريحٍ وكُفْرَ تَصْريحٍ، ولكنْ بِمَعْنىً[7]: يؤدِّي ذلكَ إلى الضَّلالِ والكُفْرِ؛ يريدونَ المُساعَدَةَ لهمْ في بعضِ ما هُمْ فيهِ بما كانوا يَرَوْنَهُ مِنَ الموافَقَةِ لهُ والمُساعَدَةِ.

لكنَّ اللهَ عَصَمَ رسولَهُ عنْ جَميعِ ما كانوا يَطْلُبونَ منهُ بالآياتِ التي ذَكَرَ في كتابِهِ وبالعقولِ كقولِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الآية [النساء: ٦٥] أخبرَ أنهمْ لا يؤمنونَ حتى ﴿لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا﴾ [النساء: ٦٥] قَضى. ومَنْ لم يَكُنْ مَعْصوماً يَجُزْ[8] أنْ يُوجَدَ منهُ حَرَجٌ ممّا قَضى بهِ، وكقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ

---

(١) في الأصل وم: فقالوا. (٢) في الأصل: أعمى النعم أعمى، في م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: كادوا أن يضلوا. (٥) في الأصل: يفتنوه. (٦) في الأصل وم: ويصرفوه. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يجوز.

﴿وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] ومَنْ لم يكُنْ مَعصوماً يَجز[1] أنْ يُؤذَى، وتَلْحقَه[2] اللَّعنَةُ، وقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ الآية[الأحزاب: ٣٦] فَمَنْ لم يكُنْ مَعصوماً يَجز[3] أنْ تكونَ[لَهُ][4] الخِيَرَةُ مِنْ أمرِهِ، وقولِهِ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١] وأمثالُهُ ممّا يكثُرُ عَدَدُها[5].

وكذلكَ العقولُ تَشهَدُ أنهُ كانَ مَعصوماً. فَمَنْ أرادَ أنْ يَصرِفَ، ويُزيلَ عنهُ العِصمَةَ بِتأويلٍ، يَتأوَّلُهُ في بَعْضِ الآياتِ، أو بِحَديثٍ، يَرْويهِ، فإنّا لا نَقْبَلُ تأويلَهُ ولا خَبَرَهُ[6] الذي رَوَى، ونَشهَدُ أنهُ كذبٌ.

ويجوزُ أنْ يكونَ في خَبَرِهِ الذي رَوَى مَعنىً آخرَ سِواهُ، فليسَ لهُ أنْ يَرْوِيَ إلّا بالمَعْنَى الذي كانَ فيهِ.

فتأويلُ أهلِ التأويلِ أنهُ ألقَى عليهِ الشيطانُ، ولَقَّنَهُ عندَ تِلاوَتِهِ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩و٢٠] تلكَ الغَرانيقَ العُلَى، شَفاعتُهُنَّ تُرْتَجَى.

وقالَ بعضُهُمْ: لا نَدَعُكَ تَستَلِمُ الحجرَ إلّا أنْ تَستَلِمَ آلِهَتَنا، ونَحوَهُ.

إنَّ ذلكَ كلَّهُ فاسِدٌ خَيالٌ؛ إنهُ كانَ لا يَحومَ حَولَ أصنامِهِمْ في حالِ صِغَرِهِ، ولا رَأَوْهُ دَنا مِنها حتى لم يَطمَعُوا بذلكَ[7] الاِسْتِلام بَعْدَما أُوحِيَ إليهِ، وصارَ رسولاً؟ وكذلكَ ما ذَكَرُوا أنهمْ طَلَبوا منهُ أنْ يَطْرُدَ بَعْضَ الذينَ اتَّبَعوهُ عنهُ ليكونوا هُمْ أتباعَهُ[8]، فَهَمَّ أنْ يَفعَلَ ذلكَ، فنَزَلَ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾. لكنَّ ذلكَ كلَّهُ فاسِدٌ خَيالٌ؛ لا يُحتَمَلُ ما تَوَهَّمُوا فيهِ، لأنهمْ لم يَعرِفوهُ حَقَّ مَعرِفَتِهِ، وإلّا لو عَرَفوهُ حَقيقَةَ المَعرِفَةِ ما تَوَهَّمُوا فيهِ شيئاً مِنْ ذلكَ، وباللهِ التوفيقُ والمعونَةُ. ثم قولُهُ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ عادَتَهُمْ ذلكَ، إلّا أنَّ اللهَ عَصَمَهُ عنْ ذلكَ.

الآية ٧٤ ثم قولُهُ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ ظاهِرُ[9] الآيةِ يَرُدُّ جميعَ ما قالَ أهلُ التأويلِ في هذهِ الآيةِ، يقولُ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ﴾

أخبَرَ أنهُ، وقد ثَبَّتَهُ، فلم يَرْكَنْ، لأنهُ أخبَرَ أنهُ قد ثَبَّتَهُ، فلم يَكَدْ يَرْكَنُ إليهِمْ، وقالَ: ﴿شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ سَمَّى ذلكَ شيئاً يَسيراً. ولو كانَ ما قالَ أُولئكَ لكانَ شيئاً كبيراً عظيماً، بلْ يَبْلُغُ الكُفرَ، دلَّ أنهُ لم يكُنْ ما ذَكَروا.

وقالَ: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ﴾ وكادَ، هو حَرْفُ [بِمَعْنَى][10] قارَبَ أنْ يَرْكَنَ كقولِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي تُقارِبُ[11] أنْ ﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ [مريم: ٩٠] وليسَ فيهِ أنهُ رَكَنَ إليهِمْ. فقولُهُمْ فاسِدٌ لِلْوُجوهِ التي ذَكَرْنا ﴿شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾

وما قالوا كثيرٌ عظيمٌ [لِوَجوهٍ: أحدُها][12]: يُخافُ أنْ يَبْلُغَ الكُفرَ.

والثاني: قالَ ﴿كِدتَّ﴾ وهو حَرْفُ تَقارُبٍ.

والثالثُ: ذَكَرَ على الشرطِ ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ فلم يَرْكَنْ لِما ثَبَّتَهُ، وهو ما قالَ إبراهيمُ: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وما ذَكَرْنا في قصةِ يوسُفَ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] فَلَيسَ فيهِ أنهُ هَمَّ، ولا فيه أنهُ، رَكَنَ، لأنهُ خَرَجَ على الشرطِ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي هَمَمْتَ، لكنهُ هَمَّ بهِ هَمَّ خَطَرٍ، خَطَرَةَ إبليسَ.

كذلكَ في قصةِ يوسفَ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ هَمَّ عَزْمٍ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ خَطَرٍ [الآية: ٢٤].

وقالَ غَيرُهُ: أرادوا منهُ أنْ يَجْعَلَ لهمْ مَجْلِساً على حِدَةٍ لِيُسلِموا، فَهَمَّ بهِ أنْ يَفعَلَ ذلكَ لِحِرْصِهِ على إسلامِهِمْ وإشفاقاً عليهِمْ. فَمِثْلُ هذا يَجوزُ الفِعْلُ. إلّا أنَّ الرُّسُلَ لا يَجوزُ لهمْ أنْ يَفْعَلوا شيئاً، وإنْ صَغُرَ إلّا بإذنِ اللهِ. ألا تَرَى أنَّ يونسَ لمّا

---

(١) في الأصل وم: يجوز. (٢) في الأصل وم: ولا تلحقه. (٣) في الأصل وم: يجوز. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عدها.
(٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أتباعهم. (٩) في الأصل وم: فظاهر. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قارب. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

خرَجَ مِنْ عندِ قومِهِ مُغاضِباً عليهِمْ بغَيرِ إذْنٍ منهُ عاتبَهُ ربُّهُ مُعاتبَةً عظيمةً حينَ[1] قالَ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؟ [الصافات: ١٤٣و١٤٤].

ومِثْلُ هذا لو فَعَلَهُ غَيرُهُ مِنْ دونِهِ[2] كانَ مَمْدوحاً مَحْموداً في ذلكَ. فهذا يَدُلُّ على أنَّ الأنبياءَ لم يَكُنْ لهمْ صُنْعُ شيءٍ، وإنْ قَلَّ، إلا بإذْنِ اللهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي ضِعْفَ عَذابِ الحَياةِ وضِعْفَ عَذابِ المَماتِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ [أي مِثْلَ الحَياةِ][3] عَذابَ [الدنيا][4] ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ عَذابَ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ قيلَ: ناصِراً، يَنْصُرُكَ، وشافِعاً، يَشْفَعُكَ إلينا واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي لَيَقْتُلُونَكَ، أو لَيُخْرِجونَكَ منها بالقَتْلِ. وقد كانوا هَمّوا قَتْلَهُ، لكنْ عَصَمَهُ اللهُ عنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ/ ٣٠٧ ـ أ/ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هكذا كانَتْ سُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ الخاليَةِ؛ إنهمْ إذا قَتَلوا نَبِيَّهُمْ لم يَلْبَثوا بَعْدَهُ إلّا قليلاً حتى أُهْلِكوا.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على الإخراجِ نفسِهِ، إلّا أنَّ اللهَ ﷻ أخرَجَهُ إخراجَ هِجْرَةٍ إلى المدينةِ لِما سَبَقَ مِنْ رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، أي لا يُهْلِكُ هذهِ الأمَّةَ إهلاكَ اسْتِئْصالٍ. فلو كانوا هُمْ أخرَجوهُ لَاسْتَوجَبوا بهِ الإهلاكَ لِما كانَ مِنْ سُنَّتِهِ في الأوّلِينَ إهلاكُهُمْ إذا أخرَجوا رسولَهُمْ مِنْ بَينِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على حَقيقَةِ الإخراجِ منهُمْ؛ أخرَجوا رسولَ اللهِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وفَعَلوا ذلكَ، فلم يَلْبَثوا بَعْدَهُ إلّا قليلاً حتى أهْلَكَهُمُ اللهُ بالقَتْلِ يَومَ بَدْرٍ وغيرِهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] ففيهِ دلالةُ أنهمْ أخرَجوهُ، وأنهمْ أُهْلِكوا بذلكَ. وكذلكَ كانَتْ سُنَّةُ اللهِ في الرُّسُلِ إذا فَعَلَ بهمْ قومُهُمْ مِثْلَ ذلكَ.

وقالَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي يَسْتَنْزِلونَكَ مِنْ أرضِ المدينةِ حيثُ نَزَلَ بالمدينةِ.

قالَتْ لهُ اليهودُ: إنَّ هذهِ الأرضَ ليسَتْ بأرضِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، إنما أرضُ الأنبياءِ والرُّسُلِ أرضُ الشامِ، فإنْ كُنْتَ نَبِيّاً رسولاً فاخْرُجْ إليها، فَخَرَجَ الرسولُ، ﷺ مُتَوَجِّهاً إلى الشامِ، فَعَسْكَرَ على رأسِ أميالٍ لِيَنْسابَ إليهِ أصحابُهُ، فَنَزَلَ بهِ جبريلُ بهذهِ الآيةِ.

لكنْ ذَكَرْنا أنَّ هذا وأمثالَهُ، لا يَحْتَمِلُ، لأنهُ لا يَجوزُ أنْ يَخْرُجَ رسولُ اللهِ مِنْ أرضِ المدينةِ إلى أرضِ الشامِ بقولِ أولئكَ اليهودِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ مِنَ اللهِ إذْنٌ لهُ في ذلكَ. هذا، لا يُحْتَمَلُ، ولا يُتَوَهَّمُ منهُ ذلكَ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي كادوا يَفْتِنونَكَ بالمَكْرِ والخَديعةِ لكَ ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ لا لأنهُمْ[5] كانوا يَطْمَعُونَ يَفْتِنونَكَ، ويُضِلُّوهُ عنِ الذي أوحِيَ إليهِ على التَّصْريحِ والإفْصاحِ، ولكنْ على جِهَةِ المَكْرِ والخَديعةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ على قولِ الحَسَنِ: السُّنَّةُ في الأُمَمِ التي[6] قَبْلَهُ أنهمْ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: دونهم. (٣) من م، في الأصل: وغيره قال: ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي مثل الحياة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) في الأصل وم: الذي.

إذا قتلوا الرسولَ أُهلِكوا، وعُذِّبوا. وعلى قولِ بعضِهِمْ: السُّنَّةُ فيهِمْ أنهمْ إذا أخرَجوا الرسولَ مِنْ بَيْنِهِمْ على عِلْمٍ منه أنهمْ لا يُؤمِنونَ بَعْدَهُ الإهلاكُ. وعلى قولِ بعضِهِمْ: على الإخراجِ نَفْسِهِ.

وهؤلاءِ قد أخرَجوا رسولَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ بقولِهِ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ الآية [التوبة: ٤٠] وقولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [محمد: ١٣] لكنَّهُمْ عُذِّبوا تعذيبَ رَحْمَةٍ وإهلاكَ رَحْمَةٍ، لا إهلاكَ استِئصالٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لِعذابِنا تحويلاً.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحتَمِلُ الأمْرَ بإقامةِ الصلاةِ الأمْرَ بالدَّوامِ عليها واللُّزومِ بها، أيِ الْزَمْ بها، وأدِمْها، أوِ اسْمَ التَّمامِ والكمالِ، أي أتِمَّها، وأكمِلْها، بالشرائِطِ التي أُمِرْتَ بها.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ افْعَلْها. ولم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الانتِصابُ على ما يُنْصَبُ الشيءُ، ويُقامُ بِهِ. فَدَلَّ أنهُ لا يُفْهَمُ مِنَ الخِطابِ ظاهِرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ زوالِها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي إلى ظُلْمَةِ الليلِ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي صلاةَ الفَجْرِ. فيقولُ الناسُ: في هذهِ الآيةِ بَيانُ أوقاتِ الصَّلَواتِ الخَمْسِ جميعاً لأنهُ ذَكَرَ أوَّلَ ما يَجِبُ مِنَ الصلاةِ، وهو[1] الظهرُ إلى ما يَنْتَهي، وهو[2] الفَجْرُ فَعَلى هذا التأويلِ ﴿إِلَىٰ﴾ لا تكونُ غايةً، ولكنْ تكونُ كأنهُ قالَ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وغَسَقِ الليلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِدُلُوكِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: دُلوكُ الشمسِ زوالُها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي إلى ظُلْمَةِ الليلِ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ: فيهِ ذِكْرُ صلاةِ النهارِ لأنهُ ذَكَرَ دلوكَ الشمسِ، وهو زوالُها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وغَسَقُ الليلِ هو بَدْءُ ظُلْمَةِ الليلِ، فَيَدْخُلُ فيهِ الظُّهرُ والعَصْرُ. فَعَلى تأويلِ هذا يكونُ حَرْفُ ﴿إِلَىٰ﴾ غايةً، لا تَدْخُلُ صلاةُ الليلِ فيهِ.

ثم تَخصيصُ الخِطابِ لِرسولِ اللهِ ﷺ والأمْرُ لهُ بإقامةِ الصلاةِ، يكونُ كأنهُ قالَ: أقِمْ لهمُ الصلاةَ. [فإنْ][3] كانَ هذا ففيهِ دَلالةُ صِحَّةِ صلاةِ القَوْمِ بِصلاةِ الإمامِ وتَعَلُّقِ صلاتِهِمْ بِصلاةِ الإمامِ حينَ[4] قالَ: أقِمْ لهمُ الصلاةَ. ولو كانَ كلُّ أحدٍ يُقيمُ صلاةَ نفسِهِ لكانَ لا يقولُ: أقِمْ لهمُ الصلاةَ، ولكنْ يقولُ: صَلِّ الصلاةَ. فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أقِمِ الصلاةَ للذي تَدْلُكُ لهُ الشمسُ كقولِهِ ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ الآية [النحل: ٤٨]

والثاني: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لِلْوَقْتِ الذي يَلِي دلوكَ الشمسِ [إلى غَسَقِ الليلِ، وأقِمْ قرآنَ الفَجْرِ أي صلاةَ الفَجْرِ][5] ثم تخصيصُ الفَجْرِ لِما ذَكَرَ حينَ[6] قالَ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فالتَّخصيصُ[7] لِقرآنِ الفَجْرِ لأنهُ مَشْهودٌ، والفَرْضيَّةُ بها لِقولِهِ: ﴿أَقِمِ﴾ قراءةَ الصلاةِ على ما ذَكَرْنا ثم قولِهِ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي لم يَزَلْ في عِلْمِ اللهِ ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ أو صارَ مَشهوداً ثم قولِهِ[8]: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ وصلاةَ الفَجْرِ.

وإنما ذَكَرَ صَلَواتِ النهارِ، فَدَخَلَتْ[9] صلاةُ الليلِ بقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ لكنهمْ يقولونَ: إنَّ التَّهَجُّدَ بَعْدَ النومِ، وقد يُكْرَهُ النومُ قَبْلَ فِعْلِ المَغْرِبِ والعِشاءِ، فلا يَصِحُّ هذا.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: دُلوكُ الشمسِ غروبُها، وهو قولُ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ وغيرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: فيهِ ذِكْرُ صلواتِ الليلِ لأنهُ ذَكَرَ بَدْءَ ظُلْمَةِ الليلِ، وذلكَ بالغروبِ، وقرآنَ الفَجْرِ لأنهُ[10] هو آخِرُ ما تَنْتَهي [بِهِ][11] ظُلْمَةُ الليلِ [ولأنهُ بِهِ][12] تَبْقى ظُلْمَةُ الليلِ إلى وقتِ الفَراغِ مِنَ الفَجْرِ.

---

(١) في الأصل وم: وهي. (٢) في الأصل وم: وهي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: الصلاة.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الفاء ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: قال. (٩) في الأصل وم: فدخل. (١٠) في الأصل وم: إن.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: لأنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يحتمِلُ هذا وجهَين:

أحدُهما: القرآنُ يكونُ كِنايةً عن صلاةِ الفَجْرِ، كأنهُ قال: اقرأِ الصلاةَ ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وأقِمْ أيضاً صلاةَ الفَجْرِ لأنهُ نَسَقَ على الأوَّلِ.

والثاني: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي قراءة[1] الفَجْرِ، أي أقِمْ قراءةَ الفَجْرِ.

ويجوزُ أنْ يُقالَ: القرآنُ مكانَ القراءةِ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] أي قراءتَهُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ احتجَّ بِفَرضيَّةِ القراءةِ في الصلاةِ بهذا لأنهُ نَسَقَ على الأوَّلِ على ما ذَكَرْنا، كأنهُ [قال][2]: وأقِمِ القراءةَ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ: إنما حَثَّ على قراءةِ الفَجْرِ دونَ غيرِها مِنَ الصلواتِ لمَا طَوَّلَ القراءةَ فيها لِتَقْصيرِها عنِ الأربعِ لأنهُ لم يَجْعَلْ غيرَها مِنَ الصَّلَواتِ ركعتَينِ، فَحَثَّ على قِراءَتِها لهذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال عامَّةُ أهلِ التأويلِ: تَشْهَدُهُ ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ [أي حَرَسُ الليلِ][3] وحَرَسُ النهارِ، وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الآثارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعنِ الصحابةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي قراءةُ الفَجْرِ، تَشْهَدُها[4] ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ. على هذا حَمَلَهُ أهلُ التأويلِ، وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الأخبارُ. وإلّا جازَ أنْ يُقالَ فيهِ [وَجْهٌ][5] آخَرُ، وهو أنْ تَشْهَدَهُ القلوبُ والأسماعُ[6] والعقولُ، لأنَّ ذلكَ الوَقْتَ، هو وقتُ الفراغِ عنْ جميعِ الأشغالِ والمَوانِعِ التي تَشْغَلُ عنِ الاستِماعِ والفَهْمِ عنهُ مالا يكونُ ذلكَ الفراغُ لِغَيرِها مِنَ الصلواتِ مِنْ صلاةِ المَغْرِبِ والعِشاءِ لأنهما بقُرْبٍ مِنَ الأشغالِ والحَوائِجِ. ألا تَرى أنَّ الجَهْرَ بالقراءةِ إنما جُعِلَ في الأوقاتِ التي هي أوقاتُ الفراغِ عنِ الاشتِغالِ، وهي المَغْرِبُ والعِشاءُ؟ ثم وَقْتُ الفَجْرِ هو أخلَى وَقْتٍ عنْ غيرِهِ لأنهُ بَعْدَ فَراغِ النومِ وقَبْلَ هجومِ وَقْتِ التَّقَلُّبِ، فالقراءةُ [فيهِ أسْمَعُ، والقُلوبُ أشهَدُ لهُ][7]. لكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفوا ذلكَ إلى ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: النافِلَةُ الغنيمَةُ كقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١] أي الغنائمِ/ ٣٠٧ ـ ب/ وقولُهُ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي غَنيمَةً لكَ تَغْنَمُ بها غنائمَ، أو كلاماً[8] نَحْوَ هذا.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [أي خالصةً لكَ][9] وخُلوصُهُ لهُ [هو أنهُ][10] لا يَغْفُلُ هو عَنْ شَيْءٍ منها في حالٍ مِنَ الأحوالِ، وغيرُهُ مِنَ الناسِ يَغْفُلُونَ فيها عَنْ أشياءَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ أنهُ نافِلَةٌ لكَ لأنهُ كانَ مغفوراً لهُ؛ فما يَعْمَلُ يكونُ لهُ نافِلَةً. وأمّا غيرُهُ فإنَّ ما يَعْمَلُ مِنَ الخَيراتِ، يكونُ كَفّارَةً لذنوبِهِ[11]، فلا يكونُ لهُ نافِلَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قالَ [بعضُهُمْ][12]: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تُحْمَدُ عاقِبَتُهُ بالتَّهَجُّدِ، أي يَبْعَثُكَ ربُّكَ مَقاماً تَحْمَدُ أنتَ[تلكَ][13] العاقبةَ جزاءَ تَهَجُّدِكَ في الدنيا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ما يَحْمَدُهُ كلُّ الخلائقِ الأوّلونَ والآخِرونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ هو مَقامُ الشَّفاعَةِ، واللهُ أعلَمُ، أي تَشْفَعُ لِأُمَّتِكَ[14] وأهلِ العِصْيانِ منهم.

وجائزٌ أنْ يكونَ هو صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] وقولِهِ: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] وقولِهِ: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] وما سَمِعَ مِنَ المَواعيدِ؛ لمّا سَمِعَ هذا، وقَرَعَ سَمْعَهُ ذلكَ، أخافَهُ، وأفْزَعَهُ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ إنْ عَبَدْتَ اللهَ، وأطَعْتَهُ في جميعِ أُمورِهِ ونَواهيهِ، وأقَمْتَ لهُ الصلاةَ والصيامَ.

---

(١) من م، في الأصل: قرآن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: تشهده. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والسمع. (٧) في الأصل وم: فيها والقلوب أشهد لها. (٨) في الأصل وم: كلام. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وهو أن. (١١) في الأصل وم: لذنوبهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) اللام ساقطة من الأصل وم.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ ظاهِرُ هذا الخطابِ يكونُ لِرسولِ اللهِ ﷺ حينَ[1] أمَرَهُ أنْ يَدْعُوَ ممّا ذَكَرَ، وقد عَرَفَ هو ما أمَرَهُ مِنَ الدعاءِ بقولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ فلا حاجَةَ، تَقَعُ لنا إلى أنْ نَطْلُبَ المُرادَ مِنْ ذلكَ إلا أنْ يكونَ لِغَيرٍ في ذلكَ اشْتِراكٌ، فعندَ ذلكَ نَتَكَلَّفُ فيهِ، ونَطْلُبَ المُرادَ منهُ.

وقد تَكَلَّمَ أهلُ التأويلِ في ذلكَ؛ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ كانَ النَّبِيُّ ﷺ بمكَّةَ، ثم أُمِرَ بالهِجْرَةِ منها إلى المدينةِ، وأُمِرَ أنْ يَدْعُوَ بهذا الدعاءِ ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ في المدينةِ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ آمِناً على رَغْمِ اليهودِ ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ مِنَ المدينةِ إلى مكةَ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ آمناً على رَغْمِ كُفّارِ مكةَ ظاهِراً عليهِمْ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ عليهِمْ، فَفَعَلَ اللهُ ذلكَ لهُ، وأجابَهُ؟

وقد ذَكَرْنا في غيرِ موضِعٍ أنَّ حَرْفَ السلطانِ، يَتَوَجَّهُ إلى وجوهٍ ثلاثةٍ: يكونُ مَرَّةً عِبارَةً عن حُجَّةٍ قاهِرَةٍ غالِبَةٍ، ويكونُ[مَرَّةً][2] عِبارةً عنْ وَلايَةٍ نافِذَةٍ غالِبَةٍ، ويكونُ [مَرَّةً][3] عِبارَةً عنِ اليَدِ الظاهِرَةِ الغالِبَةِ أيضاً. وقد كانَ بِحَمْدِ اللهِ ومِنَّتِهِ لِرسولِ اللهِ على الكَفَرَةِ ذلكَ كُلُّهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ في مكةَ لِيَعْلَمَ أهلُ مكةَ أني قد بَلَّغْتُ الرسالةَ ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ منها ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ لِيَعْلَمَ يهودُ المدينةِ أني نُصِرْتُ، وبَلَّغْتُ ما أُمِرْتُ بهِ.

وقالَ الحَسَنُ: أخرِجْني مِنْ مكةَ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وأدخِلْني في الجنةِ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ في ما حَمَّلْتَني مِنَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ وما أمَرْتَني بها لِأُؤَدِّيَها على ما أمَرْتَني وأُبَلِّغَ الرسالةَ إلى الخَلْقِ على ما كَلَّفْتَني، ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي أخرِجْني ممّا كَلَّفْتَني سالماً، لا تَبِعَةَ عليَّ، أو كلاماً[4] نَحْوَهُ.

وأصلُهُ كأنهُ أمَرَهُ أنْ يَسْأَلَ ربَّهُ الصِّدْقَ في جَميعِ أفعالِهِ وأقوالِهِ وفي جميعِ ما يَتَعَبَّدُهُ بهِ مِنَ الدُخولِ في أمرٍ أوِ الخُروجِ منهُ؛ إذْ لا يَخلو العبدُ مِنْ هذينِ مِنَ الدخولِ في أمرٍ والخُروجِ منهُ. سَأَلَهُ الصِّدْقَ في كلِّ حالٍ وكلِّ دُخولٍ وكلِّ خُروجٍ.

وقالَ مجاهِدٌ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ في الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: حُجَّةً منهُ، وقد أقامَها على الكَفَرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أيِ اجْعَلْ في قلوبِ الناسِ هَيْبَةً لِيَهابوني، وقد كانَ في الهَيْبَةِ بِحيثُ هابوهُ مِنْ مَسيرَةِ شَهْرَينِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو السلطانُ الذي يَنْصُرونَ بهِ الدينَ، ويُقيمون الحدودَ والأحكامَ ونَحْوَهُ.

وقيلَ: السلطانُ هو إقامةُ الحدودِ والأحكامِ والشرائِعِ، وهو تَفْسيرُ الوَلايَةِ، لأنهُ بالوَلايَةِ ما يُقيمُها، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الوَلايَةِ وإقامةِ الأحكامِ.

ثم قيلَ في الصِّدْقِ والإخلاصِ: قالَ بعضُهُمْ: الإخلاصُ هو ألّا يَجْعَلَ[المَرْءُ لِشيءٍ][5] بِقَلْبِهِ نَصيباً لِأحَدٍ سِواهُ، والصِّدْقُ [إنْ جَعَلَ فلا][6] يَجِدُ لِذلكَ لَذَّةً.

الصِّدْقُ عندَنا أنْ يَجْعَلَ الفَضْلَ في جميعِ أفعالِهِ للهِ تعالى، لا يَجْعَلُ لنفسِهِ شيئاً مِنَ الفَضْلِ. وعلى ذلكَ يَلْزَمُهُ الشُّكْرُ لربِّهِ في جميعِ خيراتِهِ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][7] قالَ: لمّا مَكَرَ كفارُ [مكةَ][8] برسولِ اللهِ ﷺ لِيُثْبِتوهُ، أو يَقْتُلوهُ، أو يُخرِجوهُ، أرادَ[9] اللهُ تعالى بقاءَ أهلِ مكةَ، فأمَرَ نَبِيَّهُ أنْ يَخْرُجَ منها مُهاجِراً إلى المدينةِ، وعَلَّمَهُ ما يقولُ، فأنزَلَ اللهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ وَعَدَهُ اللهُ [بأنْ يَنْزِعَ][10] مُلْكَ فارسَ والرومِ، ويَجْعَلَهُ لأمتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كلام. (٤) في الأصل وم: كلام. (٥) في الأصل وم: الشيء. (٦) في الأصل وم: وإن جعل لا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فأراد. (١٠) في الأصل وم: لينزعن.

الآية ٨١ وقولهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ قال بعضُهُم: جاء الحقُّ، وهو الإسلامُ، وقيلَ: جاءَ الحقُّ القرآنُ، وقيلَ: جاءَ الحَقُّ أي محمدٌ. أو يقولُ: جاءَ آثارُ الحقّ، فَذَهبَ الباطلُ وآثارُهُ، أو جاء حُجَجُ الحقّ وبراهينُهُ، وذهبَ شُبَهُ الباطلِ وتَمْويهاتُهُ. والحقُّ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الإسلامِ ورسولِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي ذَهَبَ، وبَطَلَ غَيرُهُ مِنَ الأديانِ وغَيرُه مِنَ المذاهِبِ وعبادَةُ الأصنامِ ونَحوُ ذلكَ.

قالوا: وأصلُهُ أنَّ الناسَ كانوا في حَيرَةٍ وتيهٍ قبلَ بَعْثِ الرسولِ لمّا كانوا فَقَدوا دينَ اللهِ وَسبيلَهُ منذُ كانَ رُفِعَ عيسى مِنَ الأرضِ إلى السماءِ، لا يَجِدونَ سَبيلَ اللهِ، ولا يَهْتَدونَ إلى شَيءٍ، حَيارى، حَزانى، حتى بَعَثَ اللهُ محمداً لِيَدْعُوَهُمْ إلى دينِ اللهِ، ويُبَيِّنَ لهمْ سَبيلَهُ الذي كانَ يَتَمَسَّكُ بِهِ الأنبياءُ مِنْ قَبْلِهِ ويُخرِجَهُمْ مِنْ تلكَ الحَيرةِ التي كانوا فيها، فَفَعَلَ ﷺ فذلكَ الذي قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الذي فَقدوهُ، فَسُرُّوا بذلكَ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي ذَهَبَ، واضمَحَلَّ ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي ذاهباً مُضمَحِلّاً، لا يُجْدي خيراً، ولا يُعْقِبُ لأهلِهِ نَفْعاً، والحَقُّ هو الذي يُعْقِبُ، ويُجْدي نفعاً لأهلِهِ.

ثم قولُهُ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾لم يَفْهَمْ أهلُ الخِطابِ بِمَجيءِ الحَقّ الانْتِقالَ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ ولا بذهابِ الباطلِ على ما يُفْهَمُ مِنْ مَجيءِ فلانٍ وذهابِ فلانٍ، بل فَهِموا مِنْ مَجيءِ الحقّ ظُهورَهُ وعُلُوَّهُ، وفَهِموا من زُهوقِ الباطلِ وذهابِهِ فَناءَهُ واضمِحْلالَهُ وتَلاشِيَهُ.

وعلى ذلكَ لم يَفْهَموا مِنْ مَجيءِ الأعراضِ ما فَهِموا مِنْ مَجيءِ الأجسامِ والأجسادِ. فَعَلَى ذلكَ لا يَجِبُ أنْ يَفْهَموا مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] الانْتِقالَ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وكذلكَ لا يُفْهَمُ من قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤و...] اسْتِواءُ الخَلْقِ ولا مِنْ نُزولِهِ نزولُ الخَلْقِ على ما لم يُفْهَمْ ممّا أُضيفَ إلى الأعراضِ مِنَ الأفعالِ ما فَهِموا مِنَ الأجسادِ والأجسامِ، بل فَهِموا مِنَ الآخرِ.

فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ ممّا أُضيفَ إلى الخَلْقِ، بل يَتَعالى عنْ أنْ يُشْبِهَ الخَلْقَ، أو يُشْبِهَهُ الخَلْقُ في مَعْنىً مِنَ المَعاني أو في وَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، بل هو كما وَصَفَ نفسَهُ [بقولِهِ][1] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقولِهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ كأنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في ابْتِداءِ الأمْرِ حينَ[2] قالَ: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ ولم يَقُلْ: ونَزَّلْنا ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ نفسَ القرآنِ، وهو ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ المَواعيدَ التي في القرآنِ مِنْ وقائِعَ، تكونُ عليهِمْ، وكانَ في ذلكَ شِفاءٌ للمؤمنينَ كقولِهِ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾/٣٠٨ ـ أ/ الآيةَ [التوبة: ١٤] أو نقولُ بأنهُ يَجوزُ: نَفْعَلُ بِمَعْنى فَعَلْنا، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

ثم قولُهُ: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي شِفاءٌ لِلْمُسْتَشْفِينَ في الدنيا، ورَحْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ به، وعَمىً وخَسارَةٌ وظُلْمَةٌ لِمَنْ أعْرَضَ عنهُ، ونَظَرَ إليهِ بِعَينِ الاسْتِخْفافِ والاسْتِثْقالِ.

وأمّا مَنْ نَظَرَ إليهِ بعينِ التَّعْظيمِ والإجلالِ فهو لهُ شِفاءٌ ورَحْمَةٌ.

وإنْ كانَ القرآنَ نَفْسَهُ [كانَ][3] شِفاءً ونوراً. وهكذا في الشاهِدِ: أنَّ من أبصَرَ شيئاً إنما يُبْصِرُ بِنورِ البَصَرِ وبِنورِ الهواءِ بارْتِقاءِ[4] ما يَسَّرَ النُّورَينِ جميعاً، لأنهُ إذا كانَ أعْمى[5] البَصَرِ لم يُبْصِرْ شيئاً، وإنْ كانَ نورُ الهواءِ مُتَجَلّياً، وكذلكَ لا تبصِرُ شيئاً إذا كانَ نُورُ البَصَرِ مُتَجَلّيًا بَعْدَ أنْ سَتَرَتِ الظُّلْمَةُ نورَ الهواءِ.

فإنْ كانَ ما ذَكَرْنا أنهُ لا يُبْصِرُ في الشاهِدِ شيئاً إلّا بِنُورَينِ: نُورِ البَصَرِ ونُورِ الهواءِ، فالكافِرُ لم يُبْصِرْ نُورَ القرآنِ وشِفاءَهُ لِما سَتَرَتِ الظُّلْمةُ نورَ قلبِهِ، والمؤمنُ أبصَرَ نورَهُ وشفاءَهُ بِنُورِ إيمانِهِ. وهكذا الأدويةُ فإنها لا تُجْدي نَفْعاً، وإنْ كانَتْ نافِعةً

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: بارتفاع. (٥) في الأصل وم: عمى.

شافيةً في نفسِها، إلّا بقبولِ الطبيعةِ، لأنَّ الطَّبعَ إذا لم يَقبَلْها، وإنْ كانَتْ شافيَةً نافِعَةً، لم تَنفَعْ صاحِبَها، ولم يكُنْ له[1] شِفاءٌ، وصارَتْ كأنها في الأصلِ كانَتْ ضارَّةً غيرَ شافيةٍ فَعلَى ذلكَ القرآنُ، وإنْ كانَ في نَفسِهِ شِفاءٌ ونُوراً، وصارَ للكافِرِ عمىً وخَساراً، كأنْ لا شِفاءَ فيهِ، ولا رَحْمَةَ لِما سَتَرَتْ ظُلْمَةُ الكُفرِ نورَهُ، فَصارَ كالزائدِ لهُ رِجساً وطُغياناً ونفوراً، وهو ما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ يُشبِهُ أنْ تكونَ النِّعمةُ التي ذَكَرَ، هو محمدٌ لِما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا في حَيرةٍ وعَمىً، لا يَجِدونَ السَّبيلَ إلى دينِ اللهِ، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] فذلكَ [هو][2] الإعراضُ الذي ذكروا، واللهُ أعلَمُ. فَبَعَثَ اللهُ محمداً ﷺ لِيَدْعُوَهُمْ إلى دينِ اللهِ، ويُبَيِّنَ سَبيلَهُ، فذلكَ مِنهُ نِعْمَةٌ عظيمةٌ؛ أعْرَضوا عنهُ، وتَباعَدوا عنهُ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنهُ إذا وَسَّعَ عليهِ الرِّزْقَ والعَيشَ أعْرَضَ عنِ الدعاءِ له، وتَباعَدَ بجانِبِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي يائساً مِنَ الخيرِ ألّا يَعودَ إليهِ أصلاً. وهكذا كانَتْ عادَتُهُمْ أنهمْ كانوا يُخلِصونَ الدعاءَ لهُ إذا مَسَّهُمْ سوءٌ وأصابَتْهُمْ شِدَّةٌ، ويَكْفُرونَ بِهِ إذا انْجَلَى ذلكَ لهمْ، وانْكَشَفَ، كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] [وقولِهِ][3]: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وأمثالِهِ.

وكانَ الناسُ كُلُّهُمْ فِرَقاً أربَعَةً: منهمْ مَنْ كانَ مَذْهَبُهُمْ ما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا يُخلِصونَ لهُ الدعاءَ في حالِ الشِّدَّةِ، ويَكْفُرونَ في حالِ الرَّخاءِ. ومنهُمْ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ في حالِ الرَّخاءِ والنِّعْمَةِ، ويَكفُرُ في حالِ الشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١] وهُمْ أهلُ النِّفاقِ. ومنهم مَنْ يَكْفُرُ في الأحوالِ كلِّها كقولِهِ[4]:

والفِرْقَةُ الرابعةُ هم أهلُ الإسلامِ، يؤمنونَ بهِ في حالِ الرَّخاءِ وفي حالِ الشِّدَّةِ في الأحوالِ كلِّها.

على هذا كانوا في الأصلِ، وعلى هذا يَجيءُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ مِنَ الأصنامِ كقولِهِ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] فيكونُ إياسُهُمْ مِنَ الأصنامِ التي عَبَدوها.

لكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفوا إلى ما ذَكَرْنا مِنَ الإياسِ مِنَ الخيرِ مِنْ ألّا[5] [يعودَ إليهِمْ].

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ لَسْنا نَعْلَمُ أنهُ أيُّ سَبَبٍ كانَ هنالكَ حتى قالَ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾؟ إذ لا يَجوزُ أنْ يُقالَ هذا بلا سَبَبٍ كانَ منهُمْ ابْتِداءً. لكنْ يُشبِهُ أنْ يكونَ][6] قالَ هذا على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ لِما لمْ يَزِدْهُمْ دعاؤهُ إياهُمْ وكَثْرةُ تِلاوةِ آياتِهِ عليهِمْ وإقامَةُ حُجَجِهِ عليهِمْ إلّا عِناداً وإنكاراً. فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على دينِهِ وطريقتِهِ كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وكقولِهِ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] فهو كلُّهُ على الإياسِ مِنْ أنْ يُؤْمِنوا بِهِ، ويَقْبَلوا دينَهُ.

ثم قالَ: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي ربُّكُمْ أعلَمُ بِمَنْ منا على الهُدَى ومَنْ ليسَ، أو مَنْ[7] مِنّا أهْدَى سَبيلاً نَحْنُ أو[8] أنتُمْ؟

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الشاكِلَةُ: الحاضِرَةُ[9]، أي على ناحِيَتِهِ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على خَليقَتِهِ. وقالَ: قُطْرُبٌ: على طَريقَتِهِ، وكانَ هذا أشْبَهَ. وقالَ بعضُهُمْ: على نِيَّتِهِ. وقيلَ: على دينِهِ ومَذْهَبِهِ. وقيلَ: على جَديلَتِهِ ومِنهاجِهِ. وكلُّهُ يَرْجِعُ إلى واحدٍ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ: أي كلٌّ يَعْمَلُ[10] بما هو الشَّبيهُ بِهِ وما هو يُشْبِهُهُ، لأنَّ الشَّكْلَ هو ما يُشبِهُ الشيءَ؛ يُقالُ: هذا شَكْلُ هذا.

---

(١) في الأصل وم: لهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: بياض في الأصل، ولعل المقصود قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، في الأصل: الحافرة. (١٠) في الأصل وم: عمل.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على قولِ مَنْ يقولُ: على خليقتِهِ [التي][1] خُلِقَ عليها، لأنهُ خُلِقَ على ما عَلِمَ منهُ ما[2] يختارُ، ويُؤثِرُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] قيلَ: ذاهباً باطلاً، لا يُجدي لأهلِهِ نفعاً، لأنهُ يَتلاشى، ولا يَبقى، والحقُّ يُجدي لأهلِهِ نفعاً، ويَبقى. وعلى ذلكَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلَ الحقِّ بالشَّيْءِ الذي يَبقى، وضَرَبَ مَثَلَ الباطِلِ بالذي لا يَبقى ولا يَثْبُتُ، فقالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وقد ذكرْنا في موضِعِهِ ضَرْبَ مَثَلِ الباطلِ بالزَّبَدِ، وهو يَتلاشى، ولا يُنتَفَعُ بهِ. فَعَلى ذلكَ الباطلُ.

وضَرَبَ مَثَلَ الحقِّ بالماءِ، وهو يَبقَى في الأرضِ، ويَنفعُ الناسَ، وضَرَبَ مثلَ الباطلِ أيضاً بالشَّجرةِ الخبيثةِ التي اجتُثَّتْ مِنْ فوقِ الأرضِ، ولا يكونُ لها قرارٌ بقولِهِ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٢٦] وضَرَبَ مَثَلَ الحقِّ بالشَّجرةِ الطَّيِّبَةِ الثابتةِ في الأرضِ ذاتِ القرارِ والثَّباتِ بقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] فهو على ما وَصَفَها: الحقُّ ثابتٌ باقٍ، ولهُ قرارٌ، يَنفعُ أهلَهُ، والباطلُ يُرى، ثم يَتلاشَى، ولا بقاءَ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [اختُلِفَ فيه:

قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: الرُّوحُ القرآنُ ههنا كقولِهِ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ الآية [الشورى: ٥٢] ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾][3] أي من تدبيرِ ربِّي، ما لَوِ اجتمَعَ الخلائقُ ما قَدَروا على مِثْلِهِ.

فإنْ قيلَ: كيفَ سألوا عنِ القرآنِ، وهُمْ لم يُقِرّوا بالقرآنِ؟ قيلَ[4]: سَمَّوهُ قرآناً ورُوحاً على ما عندَهُ؛ أعني عندَ رسولِ اللهِ، كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] وهُمْ لم يكونوا أقرُّوا أنهُ رسولٌ، ولكنْ سَمَّوهُ رسولاً لِما عندَ نفسِهِ وزعْمِهِ [أنهُ][5] رسولٌ، أي ما لهذا الذي يَزْعُمُ أنهُ رسولٌ يأكلُ الطعامَ؟ فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ وهو الذي بهِ حياةُ الأبدانِ مِنْ هَلاكِ الضلالِ، أي مَنْ تمسَّكَ بهِ نجا مِنْ هَلاكِ الضلالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي بأمرِ ربِّي يَنزِلُ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][6] قالَ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي مِنْ خَلْقِ ربي [ما لَوِ اجتمَعَ الخلائقُ ما قَدَوا على مِثْلِهِ][7] وهما[8] واحدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرُّوحُ هو المَلَكُ، وإنما سألوهُ عنهُ كقولِهِ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] يَعْني المَلَكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما سألوهُ عنِ الرُّوحِ المَعْروفِ الذي بهِ حياةُ الأبدانِ، لكنهُ لم يُجِبْهُمْ، فَوَكَّلَ أمْرَهُ[9] إلى اللهِ لِما لا يُدْرِكونَ ذلكَ، لو بَيَّنَ لهمْ وأمثالَهُ.

ورُوِيَ عنْ أبي يوسُفَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ كانَ يَنهى عنِ الخوضِ[10] في الكلامِ، ويَحتجُّ بظاهرِ هذهِ الآيةِ حينَ[11] سألوهُ عنِ الروحِ، فلم يُجِبْهُمْ، ولكنْ فَوَّضَ أمْرَهُ إلى اللهِ، وما سُئِلَ عنِ الأحكامِ إلّا وقد بَيَّنَ لهمْ كقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢١٩] وقولِهِ[12]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآيةَ [الأنفال: ١] [وقولِهِ][13] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠] [وقولِهِ][14] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] [وقولِهِ][15]: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فقال. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من م. (٨) أدرج قبلها في الأصل: فإن قيل. (٩) من م، في الأصل: أمر. (١٠) من م، في الأصل الحق.
(١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

مِثْلُ هذا ما سُئِلَ عنْ شيءٍ مِنَ الأحكامِ إلّا وقد أجابَهُمْ، وبَيَّنَ لهمْ بياناً شافياً، وقالَ ههنا: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: إنَّ اللهَ قد أمَرَ بالتَّكَلُّمِ في الكلامِ بقولِهِ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ الآيةَ[النحل: ١٢٥] وقولِهِ[1]: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ﴾ الآيةَ[الكهف: ٢٢] ونَحْوِهِ فكيفَ نَهَى عنِ الخَوضِ في الكلامِ؟

لكنَّ أبا يوسفَ إنما نَهَى /٣٠٨ ـ ب/ عنِ الخَوضِ في الكلامِ الذي لا يُدْرَكُ، ولا يَزيدُ الخَوضُ فيهِ إلا حَيرةً وضَلالاً نَحوَ ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «تَفَكَّروا في المَخلوقِ ولا تَفَكَّروا في الخالقِ» [أبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٦ و٦٧] لأنهُ لا يُدرَكُ. فالتَّفَكُّرُ في ما لا يُدْرَكُ، لا يَزيدُ إلّا عَمىً وحَيرةً وتيهاً. وأمّا الخَوضُ في الذي يُدْرَكُ، ويُعْقَلُ، فإنه لم يَنْهَ عن مِثْلِهِ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا مِنْ إباحَةِ التَّكَلُّمِ في الدينِ والخَوضِ في الكلامِ في كثيرٍ مِنَ الآياتِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ الآيةَ [النحل: ١٢٥] ونَحْوُهُ.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، ولا نُفَسِّرُ الرُّوحَ: ما هو؟ لِما لا نَعْلَمُ أنهمْ ما أرادوا بالرُّوحِ، وهُمْ قد عَلِموا ما أرادوا، أو عَلِمَ رسولُ اللهِ ﷺ ما سَألُوا ذلكَ عمّا في كُتُبِهِمْ لِيَعْلَموا صِدْقَهُ في ما يَدَّعي مِنَ الرسالةِ لِما عَلِموا أنَّ غَيرَ الرسولِ لا يَعْلَمُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ما أُوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ الذي بِهِ مَصالِحُكُمْ، وما جاءَكُمْ إلّا قليلاً.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ما أُوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ الذي عندَهُ إلّا قليلاً، وهو هكذا: أنّا لم نُؤْتَ مِنَ العِلْمِ إلّا عِلْمَ ظواهِرِ الأشياءِ وباديها، لم نُؤْتَ عِلْمَ بَواطِنِ الأشياءِ وحَقائِقِها. وذلكَ أنّا نَعْلَمُ أنَّ البَصَرَ، يَبْصُرُ، والسَّمْعَ، يَسْمَعُ، واللسانَ، يَنْطِقُ، واليَدَ تَقْبِضُ، وتأخُذُ، والرِّجْلَ، تَمْشي، والعَقْلَ، يُدرِكُ. لكنْ لا نَعْلَمُ المَعْنَى الذي جُعِلَ فيهِ؛ بهِ يَسْمَعُ، وبهِ يَبْصُرُ، وبهِ يَنْطِقُ، وبهِ يأخُذُ، وبهِ يَمْشي، وبهِ يُدْرِكُ.

وكذلكَ نَعْرِفُ هذهِ الجواهِرَ التي نُشاهِدُها، ونُعايِنُها، بأنَّ هذا حمارٌ، وهذا ثورٌ، وهذا كذا. ولكنْ لا نَعْرِفُ المَعْنى الذي صارَ [فيهِ][2] هذا حماراً، وهذا ثوراً. وكذلكَ كلُّ [الجَواهِرِ والأجناسِ][3] فلا نَعْرِفُ مِنَ العلومِ التي أنْشأها اللهُ إلّا القليلَ منها: ظَواهِرَها، وأمّا الحَقائقُ فلا.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مَنْ يَقولُ بأنَّ الروحَ الذي سألوهُ عنهُ هو الوَحْيُ، والقرآنُ الذي أُنْزِلَ عليهِ يَحْتَجُّ بهذهِ الآيةِ وبقولِهِ: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] لِما خَرَجَ ذِكْرُها على إثْرِ سؤالِ الرُّوحِ، فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

وقد ضَلَّ بهذهِ الآيةِ فَريقانِ الحَشْويَّةُ والمُعْتَزِلَةُ. أمّا الحَشْويَّةُ فإنهمْ يقولونَ: إنَّ القرآنَ والكلامَ هو صِفَةُ اللهِ الذي هو لم يَزَلْ بهِ مَوصوفاً، وإنهُ لا يُزايِلُهُ. ثم يَقولونَ: القرآنُ في المصاحفِ بِعَيْنِهِ، وهو في الأرضِ وفي القلوبِ. فقولُهُمْ مُتَناقِضٌ، لأنهُ إذا كانَ صِفَتَهُ، لا هو ولا غَيرُهُ، لا يجوزُ أنْ يكونَ في المصاحِفِ أعني القرآنَ، ويُقالُ: هذا حكايَةٌ عنْ ذلكَ.

وأمّا المُعْتَزِلَةُ فإنهمْ يُنْكِرونَ خلقَ أفعالِ العبادِ، ثم يقولونَ: إنَّ القرآنَ مَخلوقٌ. فَعَلَى زَعْمِهِمْ[4] يكونُ القرآنُ والكلامُ ما يُكْتَبُ، ويُثْبَتُ، ويُمْحَى، وذلكَ فِعْلُ العبادِ، ثم يقولونَ: أفعالُهُمْ غَيرُ مخلوقةٍ. فذلكَ تَناقُضٌ في القولِ بَيِّنٌ.

وعلى قولِنا: ما ذَكَرَ مِنَ الذهابِ والمَجيءِ؛ كلُّهُ على المَجازِ، أيِ المُوافَقَةِ لا على الحَقيقةِ كما يُقالُ: سَمِعْتُ كلامَ فلانٍ وقولَ فلانٍ ونَحْوَهُ. فذلكَ كلُّهُ على المَجازِ لا على التَّحقيقِ، لأنهُ لا يَسْمَعُ قولَ فلانٍ حقيقةً ولا كلامَهُ ولا حديثَهُ، ولكنْ يَسْمَعُ صوتاً، يَفْهَمُ بهِ قولَهُ وكلامَهُ وحديثَهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، يَذْهَبُ بالذي يُسْمَعُ، ويُكْتَبُ. أما حقيقةُ ذلكَ فلا يُوصَفُ بشيءٍ مِنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: جواهر وأجناس. (٤) من م، في الأصل: زعم.

وبعدُ فإنهُ، قد أُضيفَ المَجيءُ إلى الذي لا يُعْرَفُ منهُ ذلكَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ حتى لا يَظْهَرُ بهِ. وإلّا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ أنهُ لو شاءَ لَذَهَبَ بالذي أوحيَ إليهِ، وقادرٌ عليهِ، ولهُ رَفْعُهُ. وكذلكَ يَعْرِفُ هذا كلُّ مُؤْمِنٍ.

وإنْ كانتِ الآيةُ على الابْتِداءِ فهو يُخَرَّجُ على ذِكْرِ المِنَّةِ والرَّحْمَةِ، أي لهُ أنْ يَرْفَعَ هذا الذي أوحَى إليهِ لِيَعْلَموا أنَّ إبقاءَ النُّبُوَّةِ والوَحْيِ فَضلٌ منهُ ورَحْمَةٌ. وكذلكَ الوَحْيُ إليهِ في الابْتِداءِ وبَعْثُهُ رسولاً إليهِمْ [فضلٌ واخْتِصاصٌ لا اسْتِحْقاقٌ منهُ واستِيجابٌ][1] كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] وقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٣] أخبرَ أنَّ النُّبُوَّةَ لهُ وما أرْسَلَ إليهِ [اخْتِصاصٌ منهُ وفَضلٌ واسْتِحقاقٌ][2] منهُ.

فَعَلَى ذلكَ إبقاءُ النُّبُوَّةِ والوَحْيِ رَحْمَةٌ وفَضلٌ[3] منهُ.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ مِنْ وُجوهٍ:

أحَدُها: ما قالوا: [إنَّ اللهَ لا يَخْتارُ][4] أحداً لرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ إلّا مَنْ كانَ مُسْتَحِقّاً لها ومُسْتَوجِباً لذلكَ؛ وقد أخْبَرَ أنهُ بِفَضْلِهِ واخْتِصاصِهِ أرسَلَهُ رسولاً، وبِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ أبقاها، وتَرْكُها، بَعْدَ ما أوْحَى إليهِ، وأرْسَلَهُ رسولاً.

والثاني: فيهِ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ ما ليسَ هو بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ حينَ أوعَدَ لهمْ بِرَفْعِ ما أوحَى إليهِ، وأرسَلَهُ، وإذهابِهِ إيّاهُ، ولا يُوعِدُ إلّا بما لهُ أنْ يَفْعَلَ ما أوعَدَ، إذْ لا يُوعِدُ بما ليسَ لهُ الفِعْلُ في الحكمةِ. ثم لا شَكَّ أنْ يُقالَ: النُّبُوَّةُ وتَرْكُ ما أوحَى إليهِ أصْلَحُ لهمْ مِنْ رفعِها وتَرْكِهِ إياهُمْ خُلُوًّا عنْ ذلكَ. دلَّ أنهُ قد يَفْعَلُ ما ليسَ هو بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ.

والثالثُ[5]: أنهُ يُكَلِّفُ خَلْقَهُ التوحيدَ والإيمانَ، وإنْ لم يُرْسِلْ رسولاً، ولا أوحَى إليهِ وَحياً، لأنهُ مَعْلومٌ أنهُ لو لم يُرْسِلِ الرسولَ، ولا كانوا مُكَلَّفينَ في أنفسِهِمْ لَكانَ خَلْقُهُ إيّاهُمْ عَبَثاً لِيَتْرُكَهُمْ سُدىً، فَدَلَّ أنهمْ مُكَلَّفونَ بتوحيدِهِ ومعرفَتِهِ، وإنْ لم يرسِلْ، ولا أوحَى حينَ[6] أخبَرَ أنَّ بَعْثَ الرسالةِ وإبقاءَها فَضلٌ منهُ ورَحْمَةٌ بقولِهِ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إبقاءُ النُّبُوَّةِ والوَحْيِ رَحْمَةٌ مِنْ ربِّكَ، وفَضْلُهُ ايضاً في إبقاء ذلكَ [كبيرٌ].

والرابعُ[7]: أنَّ الحِفْظَ والنِّسيانَ، وإنْ كانا مِنَ العبدِ، فَلِلَّهِ فيهما صُنْعٌ، بهِ يَحْفَظُ حينَ[8] قالَ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أخبَرَ أنهُ لو شاءَ لَذَهَبَ بالمَحفوظِ في القَلْبِ، ويُنْسيهِ. دلَّ أنَّ لهُ قدرةً في فِعْلِ العَبْدِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وجهٌ آخَرُ[9] مِنَ الحِكْمَةِ، وهو أنْ يَعْلَمَ المؤمنونَ أنَّ الفَضلَ كلَّهُ مِنَ اللهِ لئلّا يَرُدُّوا لأنْفُسِهِمْ في ذلكَ فَضلاً ومَعْنىً، وإليهِ يُضيفونَ[10] جميعَ ما يجري على أيديهِمْ مِنْ أفعالِ الخَيرِ والطاعةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

ثم [قولُهُ تعالى][11]: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ ما قَدَرُوا عليهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ أي بهِ كقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي ليسَ هو شيئاً[12]، إذْ لا مِثْلَ لَهُ.

---

(١) في الأصل وم: فضلاً واختصاصاً لا استحقاقاً منه واستيجاباً. (٢) في الأصل وم: اختصاصاً منه وفضلاً واستحقاقاً. (٣) في الأصل وم: وفضلاً. (٤) في الأصل وم: أن لا يختار الله. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: كبيراً وفيه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) هو الخامس. (١٠) من م، في الأصل: يصنعون. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: شيء.

فدلّ أنّ قولَهُ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي لا يَقْدِرونَ أنْ يأتوا بهِ بَعْدَ ما عَرَفوهُ، وعايَنوهُ. فَلأَنْ لا يَقْدِروا على إتيانِهِ ابْتِداءً قَبْلَ أنْ يَنْظُروا فيهِ، ويَعْرِفوا[1] أمثالَهُ أشدُّ وأبعَدُ، إذْ نَظْمُ الشيءِ وتَصويرُهُ[2] بَعْدَما عايَنوا الأشياءَ والصُّوَرَ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِنْ تصويرِها[3] قَبْلَ أنْ يُعايِنوها، ويُشاهِدوها[4].

وجائِزٌ أنْ يُسْتَدَلَّ بهذِهِ الآيةِ على أنهُ كانَ مَبعوثاً إلى الإنسِ والجنِّ جميعاً حينَ[5] قالَ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ لأنهُ لو لم يكنْ [مبعوثاً إلى الفريقَينِ جميعاً لم يكنْ][6] لِذِكْرِهما مَعْنًى وفائدةٌ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ [في][7] الجنِّ مَنْ لِسانُهُ لِسانُ العَرَبِ، إذْ لو لم يَكُنْ [ذلكَ لم يكُنْ][8] يَذْكُرُ أولئكَ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإنسُ معَ الإنسِ، والجنُّ معَ الجنِّ، أو الإنسُ معَ الجنِّ، أي][9] هؤلاءِ معَ هؤلاءِ ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾.

وقالَ بَعْضُ /٣٠٩ ـ أ/ أهلِ التأويلِ: إنما ذَكَرَ هذا لِقولِهِمْ: إنهُ ﴿سِحْرٌ﴾ [المائدة: ١١٠ و...] وقولِهِمْ[10]: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وقولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] وقولِهِمْ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨] ومِثْلِهِ. يقولونَ[11]: إنَّ الإفكَ والسِّحْرَ وما ذَكَرْتُمْ لا يكونُ إلّا مِنْ هذينِ مِنَ الجنِّ والإنسِ، فأخبرَ أنهمْ لو اجْتَمَعوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ ما قَدَروا عليهِ.

والدلالةُ على أنهمْ عَجِزوا عنْ ذلكَ، ولم يَطْمَعْ أحدٌ منهُمْ [في][12] ذلكَ إلّا سَفيهٌ، أظْهَرَ اللهُ سَفَهَهُ وكَذِبَهُ في القرآنِ حيثُ قالَ: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣١و٣٢] لم يَسْأَلِ التوفيقَ إنْ كانَ هو حَقًّا، ولكنْ سألَ العَذابَ ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

دَلَّ أنهُ كانَ سَفيهاً غايةَ السَّفَهِ بقولِهِ[13]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ثم ارتابَ فيهِ، وشَكَّ بقولِهِ: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ وإلّا لم يَطْمَعْ، ولم يَخْطُرْ ببالِ أحدٍ مِنَ الخلائقِ التَّكلُّفُ لذلكَ. دَلَّ أنهُ آيةٌ مُعْجِزَةٌ مِنَ اللهِ تعالى.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ قيلَ: مِثْلَ نَظْمِهِ ورَصْفِهِ، وقيلَ: مِثْلَ حَقِّهِ وصِدْقِهِ.

ويَحْتَمِلُ: مِثْلَ حُجَجِهِ وبَراهينِهِ. ويَحْتَمِلُ: مِثْلَ إحكامِهِ وإتقانِهِ. يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ هذهِ الوجوهَ الخَمْسَةَ التي ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أي بالذي رَفَعَ، وذَهَبَ بهِ على التأويلِ الذي جَعَلْناهُ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ بالذي ذَهَبَ بهِ، ورَفَعَ ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي لا يَقْدِرونَ على إتيانِهِ.

وإنْ كانَ على الابْتِداءِ فهو على المِثْلِ، أي لا يَقْدِروا عليهِ بَعْدَ ما قَرَعَ سَمْعَهُمْ هذا. فلو كانَ في وُسْعِهِمْ هذا لَفَعَلوا لِيَخْرُجَ قولُهُمْ صِدْقاً وقولُ الرسولِ كَذِباً. فإنْ لم يَفْعَلوا ذلكَ، ولم يَتَكَلَّفوا، دَلَّ أنهمْ عَرَفوا أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ وأنَّهُ آيةٌ مُعْجِزَةٌ خارِجَةٌ عنْ وُسْعِهِمْ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بَيَّنّا. ويَحْتَمِلُ: ضَرَبْنا. ويَحْتَمِلُ: فَرَّقْنا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ذَكَرْنا للناسِ مَثَلاً على إثْرِ مَثَلٍ، ومَثَلاً بَعْدَ مَثَلٍ، ما لو تَفَكَّروا فيهِ، وتأمَّلوا لَعَرَفوا صِدْقَ رسولِ اللهِ ﷺ وكَذِبَ أنْفُسِهِمْ وسَفَهَهُمْ، ولَعَرَفوا الحَقَّ مِنَ الباطلِ والمُحِقَّ مِنَ المُبْطِلِ. ولكنْ لم يَتَفَكَّروا فيهِ، ولم يَتَأمَّلوا، وعانَدوا.

---

(١) في الأصل وم: عرفوا. (٢) في الأصل وم: وتصوره. (٣) من م، في الأصل: تصوير. (٤) في الأصل وم: ويشاهدونها. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: مع الجن أو الإنس مع الجن أو، في م: أو الإنس مع الجن أو. (٩) في الأصل: مع الجن أو الإنس مع الجن أو، في م: أو الإنس مع الجن أو. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: يقول. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ لا يُريدُ كُلَّ الأمثالِ، ولكنْ ما ذَكَرَ[1] مِن كلِّ مَثَلٍ؛ وتفكَّروا لكانَ لهمْ مُعْتَبَراً.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يكونُ ما ذَكَرَ مِنْ تَصريفِ الأمثالِ وضَرْبِها للناسِ وجوهٌ ثلاثةٌ:

أحَدُها: ضَرَبَ المَثَلَ لهذهِ الأمَّةِ لِمَنْ[2] شَهِدَ رسولَ اللهِ ﷺ وغيرِهِ مِنْ مُكَذِّبِهِمْ ومُصَدِّقِهِمْ بالأُمَمِ الماضيةِ؛ ماذا حَلَّ بالمُكَذِّبينَ منهُمْ رُسُلَ اللهِ مِنْ نَقْمَتِهِ وعذابِهِ؟ وقد أخبَرَ أنَّ تلكَ سُنَّتُهُ في المُكَذِّبينَ منهمْ، وذَكَرَ أنَّ سُنَّتَهُ تلكَ، لا تَحَوَّلُ، ولا تَبَدَّلُ، وهي غَيرُ مُحَوَّلَةٍ ولا مُبَدَّلَةٍ لواحدةٍ مِنَ الأُمَمِ.

والثاني: يَحْتَمِلُ تَصْريفُ الأمثالِ، هو ما بَيَّنَ لهمْ، وذَكَرَ ما بِهِ صَلاحُ مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ وصَلاحُ دينِهِمْ ودُنياهُمْ، ما لو تأمَّلوا فيها، وتَفَكَّروا، أدرَكوا ذلكَ.

والثالثُ: يكونُ تَصْريفُ الأمثالِ التي ذَكَرَ دعاةَهُ إلى دينِ اللهِ وسَبيلِهِ بالحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ كقولِهِ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

إلى هذهِ الوُجوهِ الثلاثةِ يُصْرَفُ جميعُ ما ذَكَرَ مِنَ الأمثالِ في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بالأمثالِ التي ضَرَبَها في القرآنِ، وصَرَّفَها لهمْ. أو يقولُ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بِنِعَمِ اللهِ في صَرْفِ الشُّكْرِ إلى غيرِهِ، أو ﴿كُفُورًا﴾ في وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ.

الآيتان ٩٠ و٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ مِنَ الأسئلةِ يُشْبِهُ أنْ تكونَ هذهِ الأسئلةُ جميعاً مِنْ فَريقٍ واحدٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ كلِّ فريقٍ سُؤالٌ، لم يَكُنْ ذلكَ مِنْ غيرِهِ مِنَ الفِرَقِ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥] كانَ مِنْ كُلِّ [فريقٍ][3] غيرُ ما كانَ مِنَ الآخرِ؛ كانَ مِنَ اليهودِ: كونوا هوداً تَهْتَدوا، ومِنَ النَّصارى: كونوا نَصارى تَهْتَدوا. فَعَلى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الأوَّلُ كذلكَ.

ثم إنَّ الذي حَمَلَهُمْ على هذهِ الأسئلةِ المُحالَةِ الفاسِدَةِ وجوهٌ:

أحَدُها: سُؤالُهُ بما كانَ يَعِدُهُمْ رسولُ اللهِ الجِنانَ والأنهارَ الجاريةَ والبساتينَ المُثْمِرَةَ، إنْ هُمْ، تابوا، وأجابوا، وكانَ يُوعِدُهُمُ العُقوباتِ، إنْ تَرَكوا إجابَتَهُمْ، مِنْ إسقاطِ السماءِ كِسَفاً كقولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢١٠] سألوهُ ذلكَ استِعْجالاً منهمْ على الاستِهْزاءِ كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

[والثاني][4]: أنْ يكونَ أهلُ الكتابِ عَلَّموا مُشْرِكي العَرَبِ الذينَ، لا كتابَ لهمْ، هذهِ الأسئلةَ الفاسِدَةَ المُحالَةَ التي عَرَفوا أنهمْ لا يُجابونَ فيها، لِيَسْألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنها، فإنهُ لا يُجيبُهُمْ لِيَرى [السَّفَلَةُ منهمْ والأتباعُ أنْ لو كانَ رسولُ اللهِ أجابَهُمْ لَتَمادَوا[5] في طُغْيانِهِمْ وضلالاتِهِمْ، ولَبَقُوا[6] على ما هُمْ عليهِ.

[والثالثُ][7]: أنْ يكونَ الرؤساءُ منهمْ والقادةُ سألوهُ عنْ ذلكَ على عِلْمٍ منهمْ أنهُ لا][8] يُجيبُهُمْ لِيَرى أتباعُهُمْ وسَفَلَتُهُمْ أنهمْ قد حاجُّوا رسولَ اللهِ ﷺ، واعتَرَضوا لِحُجَجِهِ وبَراهينِهِ لئلا يَنْظُروا إلى حُجَجِهِ وبَراهينِهِ لِتَبْقَى لهُمُ الرئاسةُ والمَنافِعُ التي كانَتْ لهمْ، ولا يَذْهَبُ ذلكَ منهمْ.

الآيتان ٩٢ و٩٣ ثم بَيَّنَ أنَّ أسئِلَتَهُمُ التي سَألوها سُؤالَ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ، لا سُؤالَ استِرْشادٍ وحاجةٍ ما ذَكَرَ في قولِهِمْ: ﴿أَوْ

(١) في الأصل وم: ذكرنا. (٢) في الأصل وم: من. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل: فيتمادون. (٦) في الأصل: ويبقون. (٧) في الأصل: أو. (٨) ساقطة من م.

﴿تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ وقولِهِمْ[1]: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾.

دلَّ هذا كلُّهُ أنَّ سُؤالَهُمْ إيَّاهُ كُلُّهُ سُؤالُ مُعانَدَةٍ، لا سُؤالُ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ، لأنهُ لو كانوا يَسْألونَ ما يَسْألونَ سُؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ لَكانوا لا يَسْألونَ إسقاطَ السماءِ عليهِمْ؛ إذْ لا مَنْفَعَةَ لهمْ في ذلكَ، وإنَّ في سؤالِهِمُ الجَنَّةَ مَنْفَعَةً. يَذْكُرُ سَفَهَ القومِ وتَعَنُّتَهُمْ وسُوءَ معامَلَتِهِمْ رسولَ الله ﷺ.

ثم الحِكْمَةُ والفائدةُ [في سؤالِهِمْ][2] قُرآناً يُتْلَى إلى يومِ القيامةِ لِيَعْرِفَ المُتَأخِّرونَ مُعامَلَةَ السفهاءِ، إذا بُلُوا بهِمْ، أنْ كيفَ [يُعامِلونَهُمْ حتى يُعامِلوهُمْ مِثْلَ][3] مُعامَلَةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ أمَرَهُ أنْ يُنَزِّهَ رَبَّهُ عنْ أنْ يكونَ لأحَدِ الاحْتِكامُ عليهِ والحُكْمُ، والذي سَألوهُ احْتِكامُ[4] منهُمْ على اللهِ.

وفي قولِهِ: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ يُنَزِّهُ ربَّهُ عنْ أنْ يَمْلِكَ سِواهُ ما سَألوهُ مِنْ إتيانِ الجنةِ، وغيرِ ذلكَ ممّا[5] ذُكِرَ في الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ أي هل كُنتُ إلّا بَشراً كَغَيري[6] مِنَ الرُّسُلِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ مِنَ البَشَرِ، فلم يُسْألوا هُمْ بِمِثْلِ الذي تَسْألونَني أنتمْ مِنَ الأسئلَةِ.

أو إن تَسْألوا ذلكَ فلنْ تُجابوا كقولِهِ: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ﴾ [البقرة: ١٠٨]

أو يكونُ قولُهُ: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ أي ليسَ للرسولِ أنْ يَعْتَرِضَ على الرُّسُلِ بِشيءٍ. إنما على الرسولِ تَبْليغُ ما أُرْسِلَ، وأُمِرَ بِتَبْليغِهِ. أو يقولُ: إني لا أمْلِكُ عمّا تَسْألونَني سِوَى تَسْبيحِ ربِّي وتَنْزيهِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾ أي تعاظَمَ ربي، وتَعالَى، عن أنْ يكونَ لِعِبادِهِ عليهِ احْتِكامٌ / ٣٠٩ ـ ب/ واخْتِيارٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: اليَنْبوعُ العَيْنُ، والينابيعُ جَمْعٌ، والكِسْفَةُ القِطْعَةُ، والكِسَفُ جَمْعٌ. وقالَ غيرُهما[7]: الكِسْفُ بالجَزْمِ عذابٌ. و﴿كِسَفًا﴾ مِثْلُ قِطعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي إذْ جاءَ الرسولُ بالهُدَى ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ وقالَ في سُورةٍ أُخرَى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥] لكنَّ هذا على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ: إنهمْ لا يُؤمنونَ إلّا عندَ مُعايَنَتِهِمْ بَأْسَ اللهِ. والإيمانُ في ذلكَ الوَقْتِ، لا يُقْبَلُ، ولا يَنْفَعُهُمْ.

وأمّا قولُهُ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ فَيَخْرُجُ مُخْرَجَ الاحْتِجاجِ: لو شاءَ اللهُ أنْ نُؤْمِنَ لأنْزَلَ ملائكةً كقولِهِ: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [فصلت: ١٤] ففيهِ مَوضِعُ الشُّبْهَةِ لهمْ أنْ يَقولوا: هو بَشَرٌ [ونَحْنُ بَشَرٌ، فَلَيسَ هو][8] أولَى بالرسالةِ إلينا مِنْ أنْ نكونَ نَحْنُ رُسُلاً إليهِ. فذلكَ مَوضِعُ الشُّبْهَةِ، فأجابَهُمْ لِذلكَ لمّا اسْتَنْكَروا، واسْتَبْعَدوا بَعْثَ الرسولِ إليهِمْ مِنْ جَوهَرِهِمْ وجِنْسِهِمْ.

الآية ٩٥ فقالَ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ﴾ أي مُقيمينَ ساكِنينَ فيها ﴿لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ ثم اخْتُلِفَ فيهِ [بوجوهٍ]:

أحَدُها[9]: ﴿لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ﴾ أي لو كانَ سُكّانُ الأرضِ ملائكةً، فَبَعَثَ إليهِمْ رسولاً منهمْ، أكانَ لهمْ أنْ يَقولوا: أبَعَثَ اللهُ مَلَكاً رسولاً؟ أي أبَعَثَ اللهُ إلينا [رَسولاً][10] مِنْ جَوهَرِنا؟ أي ليسَ لهمْ أنْ يقولوا ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وقوله. (٢) في م: في جعل سفههم، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: يعاملون، في م: يعاملونهم. (٤) في الأصل وم: احتكامهم. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) في الأصل وم: كغيره. (٧) في الأصل وم: غيره. (٨) في الأصل وم: فليس هذا. (٩) في الأصل وم: قال بعضهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلى ذلكَ إذا كانَ سُكانُها البَشَرَ؛ ليسَ لهم أنْ يَقولوا: ابْعَثَ اللهُ إلينا مِنْ جَوهَرِنا رَسولاً؟

والثاني: لو كانتِ الأرضُ مَكانَ الملائكةِ، وهم سُكّانُها لكانَ لَهُمْ[١] أنْ يَقولوا ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ مِنْ غيرِ جَوهَرِنا. فأمّا إذا كانتِ الأرضُ مَكانَ البَشَرِ، وهُمْ سُكّانُها، فليسَ لهمْ أنْ يُنكِروا بَعْثَ الرسولِ منهُمْ ومِنْ جَوهَرِهِمْ، لأنهمْ لا يَعْرِفونَ الملائكةَ ولا مَنْ كانَ مِنْ غَيرِ جَوهَرِهِمْ، ويَعْرِفونَ مَنْ كانَ مِنْ جَوهَرِهِمْ.

فَبَعْثُ الرسولِ مِنْ جَوهَرِهِمْ أولَى بهمْ مِنْ غَيرِ جَوهَرِهِمْ.

[والثالثُ][٢]: لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ وبَشَرٌ، فَعَرَفوا الملائكةَ، لَكانَ لهمْ أنْ يَسْألوا رَسولاً مِنَ الملائِكةِ لَمّا عَرَفُوهُمْ[٣].

فأمّا إذا كانَ سُكّانُ الأرضِ لَيسوا إلّا بَشَراً، فليسَ لهمْ أنْ يَقولوا ذلكَ لأنهمْ لم يَعْرِفوا قِوَى الملائكةِ ولا قِوَى الجِنِّ، وقد عَرَفوا قِوَى البَشَرِ، فَيَعْرِفونَ الآياتِ والحُجَجَ مِنَ التَّمْويهاتِ إذْ عَرَفوا [قِواهُمْ، ولم يَعْرِفوا][٤] قِوَى الملائكةِ والجِنِّ، فلا يَعْرِفونَ ما أقاموا أنها آياتٌ وحُجَجٌ، أو كانَ ذلكَ بِقِواهُمْ، ويَعْرِفونَ ذلكَ مِنَ البَشَرِ إذا خَرَجَتْ مِنِ احْتِمالِ وُسْعِهِمْ وقِواهُمْ.

وبَعْدُ فإنهمْ أقَرّوا برسالةِ البَشَرِ، لأنهمْ لا يَعْرِفونَ الملائكةَ إلّا بِخَبَرٍ مِنَ البَشَرِ [بوجودِ المَلَكِ][٥] فليسَ لهمْ أنْ يُنكِروا رسالةَ البَشَرِ.

وأصْلُهُ ما قالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] لِما ذَكَرْنا أنهمْ لا يَعْرِفونَ الملائكةَ ومَنْ كانَ مِنْ غَيرِ جَوهَرِهِمْ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ رجلاً، فكانَ في ذلكَ تَلْبيسٌ عليهِمْ على ما أخْبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كَفَى ما أقامَ اللهُ مِنَ الآياتِ على رِسالتي وأني رسولٌ إليكُمْ، إذْ كانَ ذلكَ مِنْ قولٍ كانَ مِنَ الكَفَرَةِ مِنْ إنكارِ الرسالةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ﴾ الآية [الشورى: ١٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ بأنهُ عن عِلْمٍ بإجابَتِهِمْ ورَدِّهِمْ بَعَثَهُ إليهِمْ[٦] رسولاً لا عنْ جَهْلٍ بأحوالِهِمْ. وليسَ في ما يَعْلَمُ أنهمْ يَرُدّونَ، ولا يُجيبونَ رُسُلَهُ، خروجٌ عنِ الحِكْمَةِ، لأنهُ ليسَ في إجابَتِهِمْ مَنْفَعَةٌ للرسلِ ولا رَدِّهِمْ ضَرَرٌ لهُ. وإنما[٧] المَنْفَعَةُ في الإجابةِ لهمْ، وفي الرَّدِّ الضَّرَرُ عليهِمْ. لِذلكَ لم يَكُنْ في بَعْثِ الرسلِ على عِلْمٍ منهُ بالرَّدِّ خُروجٌ[٨] عنِ الحكمةِ، لأنَّ في الشاهِدِ أنَّ ما يَبْعَثُ الرسولَ لِمَنْفَعَةٍ يَتأمَّلُ [أنْ تَصِلَ إليهِ، أو تَدْفَعَ ضَرَراً][٩] عنهُ. فإذا عَلِمَ أنهُ يَرُدُّ رسالَتَهُ ولا يُجيبُ[١٠]، كانَ في وقتِ [بَعْثِهِ الرسولَ][١١] بَعْدَ عِلْمِهِ بالرَّدِّ خروجٌ[١٢] عنِ الحِكْمَةِ.

أو يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ على الوَعيدِ، وكذلكَ أمثالُهُ.

وإنِ احْتَجَّ علينا بعضُ المُعْتَزِلَةِ بقولِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٩٤] يقولونَ لهُ: مَنَعَنا القضاءُ والقَدَرُ؛ إذْ مِنْ قولِهِمْ: أنَّ ما يَفْعَلُ الإنسانُ مِنْ فِعْلٍ [أو مَعْصِيَةٍ][١٣] أو طاعةٍ فإنما يَفْعَلُ بِقَضائِهِ وتَقْديرِهِ. فيكونُ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ بأنْ يَقولوا: مَنَعَنا قَضاؤُكَ وتَقْديرُكَ.

لكنَّ هذا فاسدٌ، لأنهمْ لا يَفْعَلونَ هُمْ ما يَفْعَلونَ عندَ وقْتِ فِعْلِهِمْ، لأنَّ اللهَ قَضَى ذلكَ وَقَدَّرَ، ولو جازَ لهمْ هذا الاحْتِجاجُ، لأنهُ كذلكَ قَضَى، وقَدَّرَ، فإذا كانوا هُمْ عندَ أنْفُسِهِمْ لا يَفْعَلونَ ما يَفْعَلونَ، لأنهُ كذلكَ قَضَى عليهِمْ، وقَدَّرَ، لم

(١) في الأصل وم: لكم. (٢) في الأصل وم: أو يقول. (٣) في الأصل وم: أعرفوهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أنه ملك. (٦) من م، في الأصل: إليه. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: خروجاً. (٩) في الأصل وم: وتصل إليه أو دفع ضرر. (١٠) من م، في الأصل: يجب. (١١) في الأصل وم: بعث الرسول إليه. (١٢) في الأصل وم: خروجا. (١٣) من م، في الأصل: معصيته.

يكُنْ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ بذلكَ، لأنَّ القضاءَ والقَدَرَ لم يَضطَرَّهُمْ إلى ذلكَ، ولا قَهَرَهُمْ عليهِ. بل كان غَيرُهُ مُمكِناً لهُمْ. لِذلكَ لم يكنْ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ بذلكَ، لأنَّ الاحْتِجاجَ[1] بهذا؛ أعني بالقضاءِ والقَدَرِ [لو كانَ][2] لَكانَ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ أيضاً بالعِلْمِ، إذْ لاشَكَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ منهمْ؛ فإذا لم يَكُنِ الاحْتِجاجُ عليهِ بما عَلِمَ منهمْ ذلكَ. إذْ يَقْدِرونَ أنْ يَفعَلوا غيرَ الذي عَلِمَ منهمْ. فَعَلَى ذلكَ لم يَكُنِ الاحْتِجاجُ عليهِ بالقضاءِ والقَدَرِ لِما عُلِمَ أنهُ يَختارُ ذلكَ، ويُؤْثِرُهُ على ذلكَ[3].

دَلَّ أنَّ ذلكَ ليسَ بشيءٍ لِما قَضى ذلكَ عليهِمْ وقَدَّرَ. وإذا كانوا هُمْ عندَ أنفسِهِمْ، لا يَفعَلونَ وقتَ فِعْلِهِمْ لِما كذلكَ قَضى عليهِمْ، فلم يكنِ الاحْتِجاجُ لهمْ عليهِ بذلكَ، إذِ القَضاءُ و القَدَرُ لم يَمْنَعْهُمْ عن ذلكَ لِما لا يُضطَرّونَ إلى ذلكَ. وإنما قَضى عليهِمْ، فلم يكنِ الاحْتِجاجُ لهمْ عليهِ بذلكَ، إذِ القَضاءُ والقَدَرُ لم يَمْنَعْهُمْ عن ذلكَ لِما لا يُضطَرّونَ إلى ذلكَ وإنما قَضى ذلكَ لِما عَلِمَ أنهمْ يَفعَلونَ، ويَختارونَ ذلكَ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا. وكذلكَ كلُّ مَنْ قَضى في الشاهِدِ على آخَرَ إنما يَقضي لِما سَبَقَ منهُ العِلْمُ بهِ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي[4] مَنْ وَفَّقَ اللهُ لِقَبولِ ما كانَ [لهُ][5] مِنَ الهُدى، وعَصَمَهُ عمّا وَسْوَسَ إليهِ الشيطانُ فهو المُهْتَدي عندَ اللهِ وعندَ مَنْ عَقَلَ الهُدى ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي مَنْ خَذَلَهُ، ولم يَعْصِمْهُ حتى يَقْبَلَ مِنَ الشيطانِ ما جاءَ مِنْ وَساوِسِهِ، فهو ضالٌّ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يَهْدونَهُمْ لدينِهِمْ، ويُوَفِّقونَهُمْ. أو لَنْ تَجِدَ لهمْ أولياءَ يَنْصُرونَهُمْ مِنْ دُونِهِ، ويدفَعونَ عنهُمْ ما نَزَلَ بهِمْ مِنَ العَذابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قالَ الحَسَنُ: يُحاسَبونَ حتى يَعلَموا سُوءَ صَنيعِهِمُ الذي صَنَعوا في الدنيا، ثم يُحْشَرونَ إلى جَهَنَّمَ [على][6] ما ذَكَرَ عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، أو كلاماً[7] نَحْوَ هذا.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الفرقان: ٣٤] ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وقولَهُ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية [الزمر: ٢٤] إنما يَتَّقي بوجهِهِ لِما تكونُ أيديهِمْ مَغلولةً إلى أعناقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ هذا يَحتَمِلُ [وجوهاً]:

أحَدُها: سَمّاهُمْ[8] عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لِذهابِ مَنافِعِ هذهِ الحواسِّ ولَذّاتِها في الآخِرَةِ، ليسَ على حقيقةِ ذَهابِها، لكنْ حالَ بَيْنَها[9] وبَيْنَ الانْتِفاعِ بها ما ذَكَرَ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ الآية [الزمر: ١٦] فَتِلْكَ الظُّلَلُ تَحولُ بَيْنَها وبَيْنَ رُؤْيَةِ الأشياءِ.

[والثاني][10]: سَمّاهُمْ في الدنيا عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، ليسَ على حقيقةِ ذهابِ [أعيُنِ الحواسِّ][11]، ولكنْ لِما لم يَنْتَفِعوا بهذهِ الحواسِّ في الدنيا، ولم يَستَعْمِلوها في ما أُمِروا في استِعْمالِها، نَفى ذلكَ عنهُمْ. فَعَلَى ذلكَ في الآخِرَةِ.

[والثالثُ][12]: يَحتَمِلُ على حقيقةِ ذهابِ أعيُنِ هذهِ الحواسِّ عقوبةً لِما لم يَستَعْمِلوها / ٣١٠ ـ أ/ في الدنيا لِما لهُ خُلِقَتْ كقولِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مَقامُهُمْ جَهَنَّمُ، وإليها يَأْوُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ قالَ [بعضُهُمْ][13]: يَخمُدُ لَهَبُها مِنْ غيرِ أنْ يَذْهَبَ وَجَعُ ما أصابَهُمْ، ثم يَزْدادُ لهمْ سَعيراً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي نَضِجَتْ جُلودُهُمْ، وسَكَنَتِ النارُ ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي نَعودُ بنارٍ على ما كانَتْ، وجُعِلَتْ تَلْتَهِبُ، وتَسْتَعِرُ كقولِهِ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ [النساء: ٥٦].

---

(١) في الأصل وم: القضاء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم العبارة التالية: لجاز ذلك لهم بالعلم ونحوه. (٤) من م، في الأصل: أن. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كلام. (٨) في الأصل وم: بوجهين أحدهما: أسماهم. (٩) من م، في الأصل: بينهما. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: أعينها. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: وذلكَ أنَّ النارَ إذا أكَلَتْهُمْ، فلم يَبْقَ منهُمْ غيرُ العظامِ، وصاروا فَحماً، سَكَنَتِ النارُ، فهو الخَبْوُ[1]، ثم بُدِّلوا جلوداً غيرَها جُدُداً لها، فتكونُ وَقوداً لها، واللهُ أعلَمُ، وكلُّهُ واحدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ أي كلّما أحرَقَتْهُمُ النارُ، فصاروا رَماداً، خُلِقوا لها خَلْقاً جديداً، فَتُعاوِدُهُمُ النارُ، فَتَحرِقُهُمْ. وذلكَ قولُهُ: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ وهو قولُ اللهِ: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٨] لا تُبقي منهمْ شيئاً إذا أخذَتْ حتى تَحرِقَهُمْ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ أي ذلكَ الذي ذَكَرَ جزاؤُهُمْ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي أولَمْ يَعْتَبِروا، أولَمْ يَنْظُروا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ هذا الاِعْتِبارُ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: إنكمْ تُقِرّونَ أنَّ اللهَ هو خالقُ السمواتِ والأرضِ [وخالِقُكُمْ، فَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ][2] على الاِبْتداءِ، وخَلْقُ سائِرِ الخَلائِقِ على الاِبْتِداءِ بلا احْتِذاءٍ تَقَدَّمَ، وسَبَقَ، أعظَمُ وأكبَرُ مِمَّنْ هو دونَهُ. فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ذلكَ فهو على إنشاءِ أمثالِكُمْ وإعادَتِكُمْ أقْدَرُ. وإعادةُ الشيءِ في عقولِكُمْ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِنِ ابْتِدائِهِ.

والثاني: تَعْلَمونَ أنهُ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وخَلَقَكُمْ أيضاً، فلم يَخْلُقْهُما لِلْفَناءِ خاصَّةً؛ إذْ خَلْقُ الشيءِ لِلْفَناءِ خاصَّةً لا لِعاقِبَةٍ عَبَثٌ ولَعِبٌ. فَدَلَّ أنهُ خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ السمواتِ والأرضَ لِعاقِبَةٍ، وهي البَعْثُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أنهُ كائنٌ، لا مَحالَةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ جواباً لِما اسْتَعْجَلوا مِنَ العذابِ، فقالَ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا﴾ لا يَتَقَدَّمُ عنهُ، ولا يَتَأَخَّرُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ الموتَ الذي بهِ تَنْقَضي آجالُهُمْ. لكنهُ[3] لم يَخْلُقْهُمْ للموتِ خاصَّةً، ولكنْ لِلْعاقِبَةِ كما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿خَبَتۡ﴾ أي سَكَنَتْ [يُقالُ: خَبَتْ][4] إذا سَكَنَ لَهَبُها [تَخبو. فإذا سَكَنَ لَهَبُها][5] ولم يُطْفَإِ الجَمْرُ قُلْتَ: خَمَدَتْ تَخْمُدُ خُموداً. فإذا طُفِئَتْ، ولم يَبْقَ منها شيءٌ، قيلَ: هَمَدَتْ تَهْمُدُ هُموداً. وقولُهُ تعالى: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ أي ناراً تَتَسَعَّرُ، أي تَتَلَهَّبُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: السعيرُ النارُ؛ يُقالُ: سُعِرَتِ النارُ إذا أوقَدْتَها، ويُقالُ: نارٌ مَسْعورَةٌ أي مَوقودَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي كُفْراً بالبَعْثِ. الظالِمونَ ههنا، هُم الكافرونَ [ولو قالَ: فأبى الكافرونَ][6] إلّا ظُلْماً[7] كانَ واحداً.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾ تَحْتَمِلُ الآيةُ وجوهاً:

قالَ[8] بعضُهُمْ: هي صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ أسْئِلَتِهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ﴾ ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٠و٩١و٩٣] وقولُهُ: ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾ [الفرقان: ٨] كانوا يَسْألونَ هذهِ الأشياءَ على التَّعَنُّتِ والعِنادِ والاِسْتِهْزاءِ. فأخبَرَ أنهُ، وإنْ أعطاهُمْ ما سألوا، لا [يُنْفِقوا، بل يُمْسِكوا][9] عنِ الإنفاقِ.

ومِنْ سُنَّتِهِ أنهُ، إذا أعطاهُمْ ما سألوا على السُّؤالِ، فَتَرَكوا الإيمانَ بهِ والوفاءَ، أهْلَكَهُمْ[10].

فأخبَرَ أنهمْ يَسْألونَ سُؤالَ تَعَنُّتٍ لا سُؤالَ ما يَتَوَسَّعونَ بهِ.

---

(١) في الأصل وم: الخبت. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لكنهم. (٤) ساقطة من م. (٥) و(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: ظلموا ما. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: ينفقون بل يمسكون. (١٠) في الأصل وم: إنهم يهلكون.

وفي الآيةِ إثباتُ الرسالةِ، وهو ما بيَّنَ عنْ بُخلِهِمْ وإمساكِهِمْ عنِ الإنفاقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ في قوم خاصٍّ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لو أُعْطوا ما سألوا لَفَعَلوا ما ذَكَرَ، لا في كلٍّ منهُمْ. وهو كقولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في قومِ ضَمَّنوا اللهَ الإنفاقَ والتوسيعَ، وعاهَدوا اللهَ على ذلكَ: إنْ وَسَّعَ عليهِمْ، فأخبَرَ أنهمْ لا يَفعَلونَ ما عاهَدوهُ، وضمَّنوا، كقولِهِ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآية [التوبة: ٧٥]

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا إخباراً منهُ عنْ طَبْعِ الخَلْقِ وعادَتِهِمْ؛ وذلكَ أنهمْ لمّا اسْتَكْثَروا مِنَ الأموالِ، وجَمَعوا، يَزدادُ لهمْ بذلكَ حِرْصٌ على جَمْعِها وبُخْلٌ على التوسيعِ والإنفاقِ لِما لمْ يكنْ قَبْلَ الجَمْعِ والاسْتِكْثارِ هذا المعروفُ في الناس. فأخبَرَ أنهمْ يُمْسِكونَ عنِ الإنفاقِ والتوسيعِ إذا مَلَكوا ما ذَكَرَ عنْ طَبْعِ الإنسانِ بالبُخْلِ والتَّضْييقِ عندَ الاسْتِكْثارِ ما لم يكنْ قَبْلَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا صفةَ كلِّ كافرٍ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩و٢٠و٢١] تكونُ عادَتُهُ[1] البُخْلَ والجَزَعَ عندَ المصائبِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا صِفَةَ كلِّ إنسانٍ في الابْتِداءِ؛ هكذا يكونُ، ثم بالامْتِحانِ والتَّجْرِبَةِ يَصيرونَ أسْخياءَ صابِرينَ. أو يكونَ يُخْبِرُ أنهمْ لو مُلِّكوا، وأُعْطوا جميعَ ما يُرْزَقونَ في عُمُرِهِمْ على التفاريقِ بِدَفْعَةٍ واحدةٍ مَجموعاً لأمْسَكوا عنِ الإنفاقِ خَشْيَةَ الفقْرِ في آخِرِ عُمُرِهِمْ؛ إذ لا يَعْلَمونَ إلى ما يَنْتَهونَ مِنْ آجالِهِمْ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على البُخْلِ والإمساكِ.

أو يَذْكُرَ لِما أنهُ جَبَلَهُمْ، وأنشأهُمْ على الإمساكِ والمَنْعِ في الابْتِداءِ، وإنْ لمْ يكنْ لهمْ حاجةٌ إلى ذلكَ؛ [ألا][2] تَرى الصِّبْيانَ والصِّغارَ مِنَ الأولادِ يَمْنَعونَ مافي أيديهِمْ عنْ غيرِهِمْ، وإنْ لم يكنْ لهم حاجةٌ إلى ذلكَ؟

هذا مَعروفٌ فيهِمْ، وإنما جبَلَهُمْ، وأنشأهُمْ هكذا لِيَمْتَحِنَهُمْ بالجودِ والتوسيعِ والبُخْلِ والتَّضْييقِ، وإلّا كانوا في أصْلِ خِلْقَتِهِمْ وابتداءِ نشأتِهِمْ[3] على ما ذَكَرْنا أشِحَّةً بُخَلاءَ، وهو ما أخبَرَ ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩و٢٠و٢١] ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] أنشأهُمْ ﴿جَزُوعًا﴾ عندَ الألَمِ والمصائبِ غيرَ صابرينَ عليها، وكذلكَ أنشأهُمْ ﴿عَجُولًا﴾ لا يَصْبِرونَ على أمْرٍ واحدٍ ولا حالٍ واحدٍ، ثم امْتَحَنَهُمْ على الصَّبْرِ وتَرْكِ الجَزَعِ والعَجَلَةِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي طَمِعاً بخيلاً مُمْسِكاً مُضَيِّقاً، واللهُ أعلَمُ، ثم تَرَكَ ذلكَ [بالامْتِحانِ واعْتِيادِ خِلافِهِ][4].

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، في ما آتاهُ مِنَ الآياتِ، وأمَرَهُ أنْ يُحاجَّ فِرْعونَ، وإلّا كانَتْ آياتُ موسى ﷺ أكْثَرَ مِنْ تِسْعٍ؛ كأنها تَبْلُغُ عشرينَ، وتزدادُ عليهِ؛ إذْ كانَ في عَصاهُ أربَعٌ مِنَ الآياتِ: إحداها: حينَ[5] ضَرَبَ بها البَحْرَ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]. [والثانيةُ حينَ ضَرَبَ بها الحَجَرَ ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] والثالثةُ: حينَ][6] ألقاها [﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧ والشعراء: ٣٢] والرابعةُ: حينَ][7] تَلَقَّفَتْ حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] وأمثالُها[8]، فإنها تَبْلُغُ إلى ما ذَكَرْنا. لكنهُ ذَكَرَ تِسْعَ [الآياتِ البَيِّناتِ][9] التي أمَرَهُ اللهُ تعالى أنْ يُحاجَّ بها فرعونَ وقومَهُ.

---

(١) في الأصل وم: عادتهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: انشاؤا. (٤) في الأصل وم: واعتياد ذلك وخلافه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وحيث كانَ يضرب بها الحجر فينفجر منه عيوناً وحيث. (٧) في الأصل وم: فصارت ثعباناً وحيث كانت تلقف. (٨) في الأصل وم: وأمثاله. (٩) في الأصل: آيات، في م: آيات بينات.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيِّنَـٰتٍۢ﴾ أنها مِن عندِ اللهِ جاءَتْ، وأنها ليسَتْ مِنَ البَشَرِ، وأنها سَماوِيَّةٌ، أو ﴿بَيِّنَـٰتٍۢ﴾ أي[1] مُبَيِّناتٍ ما تُبَيِّنُ صِدْقَ موسى في جميعِ ما يُخبِرُ، ويقولُ، ويُبَيِّنُ عَدْلَهُ في حُكْمِهِ وفِعْلِهِ؛ لأنَّ في آياتِ الرُّسُلِ يُحتاجُ إلى هذا: أنْ تُبَيِّنَ للناسِ صِدْقَهُمْ في قولِهِمْ وعَدْلَهُمْ في حُكْمِهِمْ لأنهمْ يَدْعونَ إلى عِبادةِ اللهِ والطاعةِ لهُ. وذلكَ يوجِبُهُ[2] على كلِّ عَقْلٍ وطَبْعٍ سليمٍ. فالحاجةُ إلى الآياتِ ليستْ إلّا لِصِدْقِهِمْ/ ٣١٠ ـ ب/ وعَدْلِهِمْ في حُكْمِهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في الآياتِ. قالَ بعضُهُمْ: العصا واليَدُ والحَجَرُ والطَّمْسُ والخَمْسُ التي ذَكَرَ في سورةِ ﴿الْقَصَصِ﴾[3] وهي[4] قولُهُ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الآية: ١٣٣].

وقالَ بعضُهُمْ: الخَمْسُ التي ذَكَرَ في سورة ﴿الْقَصَصِ﴾ والعَصا والموتُ الذي أرسَلَ عليهِمْ واليَدُ البيضاءُ وانفِلاقُ البَحْرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما الخَمْسُ التي ذَكَرَ في سورة ﴿الْقَصَصِ﴾ واليَدُ وحَلُّ العُقْدَةِ التي بِلِسانِهِ، وفي العَصا آيتانِ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ والسِّنونَ ونَقصٌ مِنَ الثَّمراتِ.

ثم منهمْ مَنْ يَجْعَلُ السِّنينَ ونَقْصاً مِنَ الثَّمراتِ آيةً واحدةً [ومنهُمْ][5] مَنْ يَجعَلُها آيَتَينِ. وكذلكَ العصا: منهُمْ مَنْ يَجعَلُها[6] آيةً واحدةً، ومنهُمْ مَنْ يَجعَلُها[7] آيَتينِ. ومنهُمْ مَنْ يَعُدُّ الطَّمْسَ، ومنهُمْ لا مَنْ يَعُدُّ.

ونحنُ نَجْعَلُ العصا آيةً واحدةً، والسِّنينَ ونَقصاً مِنَ الثَّمراتِ آيةً واحدةً، والطَّمْسَ آيةً، والخَمْسَ التي ذُكِرَتْ في سورةِ ﴿الْقَصَصِ﴾ فتكونُ ثمانيَ، وتكونُ التاسعةُ قولَهُ تعالى: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لأنهُ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أنها آياتٌ، ولم يُكَذِّبْهُ [فرعونُ، ولم يَستَقْبِلْهُ بشيءٍ يُكَذِّبُهُ][8] في قولِهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] أخْبَرَ أنهمْ جَحَدوا بها بَعْدَما اسْتَيقَنوا أنها آياتٌ، وأنها آياتٌ وحُجَجٌ ظُلْماً وعُلُوّاً.

وما رَوى صَفْوانُ بْنُ عَسّالٍ المُراديُّ أنهُ قالَ: إنَّ يهودِيَّينِ أتَيا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فَسأَلاهُ عن تِسْعِ الآياتِ[9] التي ذَكَرَ أنهُ آتاها موسى، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تُشْرِكوا باللهِ شيئاً، ولا تَقْتُلوا النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحَقِّ، ولا تَزْنوا، ولا تَسْرِقوا، ولا تَسْحَروا، ولا تَمْشوا بِبَريءٍ إلى ذي سلطانٍ، فَيَقْتُلَهُ، ولا تأكُلوا الرِّبا، ولا تَقْذِفوا مُحْصَنَةً، ولا تَفِرّوا مِنَ الزَّحْفِ، وعليكُمْ خاصةً يا يَهودُ ألّا تَعْدوا في السبتِ. قالَ: فَقَبَّلا يَدَيهِ ورجلَيهِ، وقالا: نَشْهَدُ أنكَ نَبِيُّ اللهِ، فقالَ ﷺ: فما يَمْنَعُكُما أنْ تُسْلِما؟ قالا: إنا إنْ أسْلَمْنا يَقْتُلْنا اليهودُ» [أحمد ٤/ ٢٣٩].

فإنْ ثَبَتَ هذا الخَبَرُ عنهُ فلا يجوزُ أنْ يَتَعَدّى إلى غَيرِهِ مِنَ التأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ يعني موسى، صَلَواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ.

قالَ بعضُهُم: أمَرَ رسولَنا ﷺ أنْ يَسْأَلَ بني إسرائيلَ الآياتِ التِّسْعَ التي كانَتْ في كُتُبِهِمْ على التَّقريرِ عندَهُمْ [لِيَعْلَموا][10] أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ، وأنهُ رسولٌ [لأنهُ كانَ يَعرِفُ][11] تلكَ الآياتِ في كُتُبِهِمْ بِغَيرِ لسانِهِ، وكانَ لا يَخُطُّ بِيَدِهِ، ولا كانَ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ منهمْ لِيَعْرِفَ ذلكَ. فَدَلَّ أنهمْ عَلِموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ بِوَحْيِ السماءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ هو على الأمرِ أنْ يَسْأَلَهُمْ ذلكَ. ولكنْ لو سَأَلْتَهُمْ لأخْبَروكَ عنها كقولِهِ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ في عَقْلِكَ، أي سُحِرْتَ، والمَسحورُ هو المَغلوبُ في العَقْلِ. وقولُهُمْ مُتَناقِضٌ لأنهمْ قالوا مَرَّةً: ساحِرٌ، ومَرَّةً: مَسْحورٌ. فالساحرُ هو الذي يَبْلُغُ بالبَصيرةِ غايَتَهُ، والمَسْحورُ المَغْلوبُ.

---

(١) من م، في الأصل: أو. (٢) من م، في الأصل: يوجب. (٣) الأعراف. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يجعل. (٧) في الأصل وم: يجعل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: آيات. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لما علموا أنه كان.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ قولُهُ: ﴿عَلِمْتَ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ عَلِمْتُ جميعاً قد قُرِئا[(١)]. وأمكَنَ أنْ يكونَ قالَ في ابتِداءِ الأمرِ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى لمّا أقامَها عليهِ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ يُبْصِرُ[(٢)] بها الحَقَّ مِنَ الباطِلِ مَنْ لم يُعانِدْ، ولم يُكابِرْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قالَ موسى عليه السلام لِفِرعَونَ ﴿مَثْبُورًا﴾ مُقابِلَ ما قالَهُ فِرعونُ حينَ[(٣)] قالَ: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَثْبُورًا﴾ هالِكاً، وقيلَ: مَلْعوناً، و قالَ بعضُهُمْ: مُبَدَّلاً.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي تدعو على نَفْسِكَ بالثُّبورِ، وهو الهَلاكُ، كقولِهِ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] أي هلاكاً. والظَّنُّ يكونُ في مَوضِعِ الظَّنِّ، ويكونُ في مَوضِعِ العِلْمِ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَادَ﴾ يعني فِرعَونَ ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ. أرادَ أنْ يُخرِجَهُمْ، ويَستَخِفَّهُمْ مِنَ الأرضِ أي أرضِ مِصرَ، لكنهُمْ قد كانوا خَرَجوا طائعينَ قَبْلَ أنْ يُخرِجَهُمْ مِنْ حَيثُ أَمَرَ موسى بإخراجِهِمْ بقولِهِ: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] فيكونُ تأويلُ قولِهِ: فأرادَ أنْ يُخرِجَهُمْ مِنَ الأرضِ بالقَتْلِ والهلاكِ في الدنيا.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] أرادَ مِنْ مَشارِقِ الأرضِ، وإلّا قد كانوا هُمْ قد خَرَجوا مِنْ أرضِهِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ هو ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ الآيةَ [يونس: ٩٠].

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي بعدَ هلاكِ فرعَونَ ﴿ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ مِصْرَ التي[(٤)] كانَ يَسكُنُ فِرعَونُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ الشامِ والأرضَ المُقَدَّسَةَ كقولِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ ليسَ في أرضٍ دونَ أرضٍ، ولكنِ اسْكُنوا أيَّ أرضٍ شِئتُمْ مَشارِقَها ومَغارِبَها آمنينَ، لا خَوفَ عليكُمْ على ما أرادَ[(٥)] أنْ يُخرِجَكُمْ مِنْ مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها بالقَتْلِ كقولِهِ: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ الآيةَ [الشعراء: ٥٩ والدخان: ٢٨] وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه. وعلى[(٦)] هذا قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بَعْثُ عيسى ابنِ مَرْيَمَ: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جميعاً مُجتَمِعينَ مِنْ مشارِقِ الأرضِ و مَغارِبِها على ما تفَرَّقوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَعْني حَياةَ عيسى ونُزولَهُ مِنَ السماءِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جَميعاً مُنتَزَعينَ[(٧)] مِنَ القُرَى ههنا وههنا، ولُفّوا جميعاً، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وأمّا عامَّةُ أهلِ التأويلِ فإنهمْ قالوا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يومُ القِيامَةِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جَميعاً: أنتمْ وفِرعونُ وجنودُهُ حتى يَرَوا كراماتِكُمْ التي أُكرِمْتُمْ بها، ويَرَوا هوانَهُمْ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ في القرآنِ حُكماً وأنباءً، وأنباؤُهُ صِدْقٌ وحَقٌّ. وهو كقولِهِ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿صِدْقًا﴾ ما فيهِ مِنَ الأنباءِ ﴿وَعَدْلًا﴾ مافيهِ مِنَ الحُكمِ العَدْلُ، والأنباءِ [الصِّدْقُ، أنْزَلَهُ. ويُقالُ: الصِّدْقُ في الأخبارِ والأنباءِ][(٨)] والعَدْلُ في الأحكامِ والحَقِّ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٤٠. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الذي. (٥) في الأصل وم: أرادوا. (٦) من م، في الأصل: وقال. (٧) في الأصل وم: انتزاع. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي بذلكَ الحَقِّ الذي دامَ، وقَرَّ فيكُم، أو كلام نَحْوِ هذا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي بالحَقِّ الذي لِيَعْضِهِمْ على بعضٍ ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي بذلكَ الحَقِّ الذي للهِ على خَلْقِهِ دامَ، واسْتَقَرَّ، بالحَقِّ الذي لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ ثَبَتَ، واسْتَقَرَّ.

وأصلُهُ أنَّ قولَهُ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الحَقُّ اسْمُ كلِّ مَحبوبٍ مَحْمودٍ، والباطلُ اسمُ كلِّ مَكْروهٍ ومَذْمومٍ. فَمَنِ اتَّبَعَهُ صارَ مَحْبوباً محموداً، ومَنْ خالَفَهُ، وتَرَكَ اتِّباعَهُ صارَ مَذْموماً.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي لم يَأْتِهِ التَّغْييرُ والتَّبْديلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أخْبَرَ أنهُ لم يُرْسِلْهُ إلّا لِلْبِشارَةِ والنِّذارَةِ. لكنَّ هذا في حَقِّ الرسالةِ، لم يُرْسِلْهُ إلّا لِهذينِ / ٣١١ - أ/ اللَّذَيْنِ ذَكَرَ، وإلّا قد كانَ امْتَحَنَهُ في نفسِهِ بِمِحَنٍ كثيرةٍ، فلم يكنْ في جميعِ الأوقاتِ مَشْغولاً بهذينِ خاصَّةً، لكنهُ في حقِّ الرسالةِ لم يُرْسِلْهُ إلّا لِبِشارةٍ ونِذارةٍ؛ أي لم يُرْسِلْكَ حافظاً ولا وكيلاً ولا مُسَلَّطاً عليهِمْ. بل أرْسَلَكَ لِتَبْليغِ الرسالةِ إليهِمْ.

ثم البِشارَةُ والنِّذارَةُ، هما[1] أمرانِ، يكونانِ في عَواقِبِ الأمورِ: البِشارَةُ، تكونُ عاقِبَةَ كلِّ محبوبٍ، والنِّذارَةُ عاقبةَ كلِّ فِعْلٍ مَكْروهٍ ومَذْمومٍ.

ثم لِقائلٍ أن يقولَ[2] في قولِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ البِشارَةُ لِمَنْ أجابَهُ في ما أمَرَهُ بِهِ، ودَعاهُ إليهِ، والنِّذارَةُ لِمَنِ ارْتَكَبَ ما نَهَى عنهُ. فكيفَ لا دَلَّ هذا على أنَّ النَّهْيَ يوجِبُ الحَظْرَ والتحريمَ [حينَ الْحَقِّ][3] النِّذارة بارْتِكابِ ما نَهَى عنهُ؟ قيلَ: إنَّ النِّذارَةَ عاقِبَةُ كلِّ مَكْروهٍ ومَذْمومٍ، والبِشارَةَ عاقبةُ كلِّ مَحْبوبٍ ومحمودٍ[4]، فيكونُ ذلكَ في الآدابِ وغَيرِها. ولأنَّ الرُّسُلَ لم يُبْعَثوا إلّا لِتَغْييرِ مَناكيرَ وفَواحِشَ، ظَهَرَتْ في الخَلْقِ [كالشِّرْكِ][5] وغَيرِهِ مِنَ الفَواحِشِ والمَناكيرِ، لم يُبْعَثوا لِصغائرَ، ظَهَرَتْ فيهِمْ. ثم أدْخَلَ[6] الصغائرَ والآدابَ في ما أرْسَلَ تَبَعاً. وإلّا كانَ سَبَبَ إرسالِهِمْ الكبائرُ والفَواحِشُ.

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ في النَّهْيِ نَهْيُ أدَبٍ ونَهْيُ حَتْمٍ وحُكْمٍ. وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى قد أخْبَرَ أنهُ قد يَعْفو عنْ كثيرٍ مِنَ السَّيِّئاتِ، وما عَفَا عنهُ لم يُلْحِقْ فيهِ النِّذارَةَ والوَعيدَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ﴾ بالتخفيفِ والتثقيلِ[7] ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بالتخفيفِ أي أحْكَمْناهُ، وبَيَّنّاهُ حتى ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وقالَ بعضُهُمْ: فَرَّقْناهُ أي[8] قَطَّعْناهُ في الإنزالِ سُورَةً فَسورَةً وآيَةً فآيَةً على ما أُنزِلَ ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾. فهو، واللهُ أعلَمُ، لِوُجوهٍ

أحَـدُهـا: مـا ذَكَـرَ [فـي][9] قـولِـهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] فأخْبَرَ ﷺ أنهُ إنما أنْزَلَهُ بالتَّفاريقِ ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لأنَّ ذلكَ أثْبَتُ في القَلْبِ وأيْسَرُ في الحِفْظِ.

والثاني: أنْزَلَهُ بالتَّفاريقِ على قَدْرِ النوازلِ لِتَتَجَدَّدَ لهمُ البَصيرةُ، وتزدادَ لهمُ الحُجَّةُ بَعْدَ الحُجَّةِ. ولو كانَ جملةً لم يكنْ لِيَتَجَدَّدَ لهمْ ذلكَ، ولا تزدادُ لهمُ البَصيرةُ.

والثالثُ[10]: أنْ يكونَ أنْزَلَهُ بالتَّفاريقِ لِلتَّنبيهِ لِيُنَبِّهَهُمْ في كل وقتٍ، ويَعِظَهُمْ في كل حالٍ؛ إذْ ذلكَ أنْبَهُ لهمْ وأوعَظُ مِنْ أنْ يكونَ مُنَزَّلاً جُمْلَةً واحدةً.

ألا تَرَى أنَّ الآيةَ إذا دامَتْ تكونُ في التَّنْبيهِ أقلَّ، وإذا كانَتْ مُتَقَطِّعَةً في الأوقاتِ كانَتْ أخْوَفَ وأنْبَهَ نَحْوَ كسوفِ الشمسِ بالليلِ صارَ بالدوامِ غَيرَ مَخوفٍ ولا مُنَبِّهٍ لهمْ لِلدَّوامِ، وكسوفُها بالنهارِ صارَ تَنْبيهاً لِلانْقِطاعِ؟ فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وهما. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) في الأصل وم: حيث الحقه. (٤) الواو ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: دخل. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٤٢. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ ظاهِرُ هذا خُرِّجَ على التَّخْيِيرِ، لكنَّ المُرادَ منهُ يُخَرَّجُ على خَتْمِ المَواعِظِ وتأكيدِ الوَعيدِ وتَغليظِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ظاهِرُهُ على التَّخْيِيرِ، لم يَفْهموا منه ما خُرِّجَ ظاهِرُهُ، لكنْ فَهِموا منهُ تأكيدَ الوَعيدِ وخَتْمَ الوَعْظِ. وهكذا المَعْروفُ في الشاهِدِ أنَّ إنساناً لو أمَرَ آخَرَ بأمْرٍ، ووَعَظَ امْرأً، فلم يَنْجَعْ فيهِ، يقولُ لهُ: إنْ شِئْتَ فافْعَلْ، وإنْ شِئْتَ لا تَفْعَلْ، على ما لو فَعَلْتَ، أو لم تَفْعَلْ، فإنما ضَرَرُ ذلكَ عليكَ، إنْ تَرَكْتَهُ. ونَفْعُهُ يَرْجِعُ إليكَ لو فَعَلْتَ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فلا ضَرَرَ علينا في تَرْكِكُمُ الإيمانَ بهِ، ولا يَرْجِعُ نَفْعُهُ إلينا لو آمَنْتُمْ بهِ، إنما نَفْعُهُ لكُمْ، وضَرَرُهُ عليكُمْ. إنْ شِئْتُمْ فَعَلْتُمْ، وإنْ شِئْتُمْ لم تَفْعَلوا. فهو كقولِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وكقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الآية[فصلت: ٤٦] ونَحْوَ ذلكَ ممّا يُخْبِرُ أنَّ كلَّ مَنْ عَمِلَ خيراً فَلِنَفْسِهِ عَمِلَ، ومَنْ عَمِلَ شَراً فَعَلَى نَفْسِهِ ضَرَرُ ذلكَ فهذا يَنْقُضُ على أصحابِ الظواهِرِ حينَ[1] قالوا: يُفْهَمُ مِنَ الخِطابِ ظاهِرُهُ، لا يُتَعَدّى عنْ ظاهرِهِ حينَ[2] لم يَجِبْ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ التَّخْيِيرُ لكنْ فَهِموا الوَعيدَ الوَكيدَ وخَتْمَ المَواعِظِ.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في لزومِ الأمرِ وافْتِراضِهِ إذا كانَ ما يأمُرُنا ويَنْهانا لِمَنافِعِ أنْفُسِنا [ودفعِ الضَّرَرِ عن][3] على أنفُسِنا ومَنْ لم يَعْمَلْ في الشاهِدِ لِنَفْسِهِ فلا لائِمَةَ عليهِ، ولا مُؤاخَذَةَ؟

قيلَ: في الحِكْمَةِ أنْ يُفْرَضَ علينا السَّعْيُ في فَكاكِ أنفُسِنا ودَفْعُ الهَلاكِ عنْ أنفُسِنا، وفي أمْرِهِ إيّانا أمْرٌ بالسَّعْيِ في فَكاكِ أنفُسِنا ودَفْعِ الهَلاكِ عنها. وحاصلُ أمْرِهِ ونَهْيِهِ يكونُ لِمَنْفَعَةٍ لنا، لا لهُ. وكذلكَ الضَّرَرُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ [قولُهُ][4]: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ الآية[النحل: ١١٨] وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ دعاءُ آدمَ ﷺ وغيرِهِ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية[الأعراف: ٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وهذا أيضاً يَنْقُضُ على أصحابِ الظَّواهِرِ لأنهُ لا كُلُّ مَنْ أوتِيَ العِلْمَ منهمْ يَخِرُّ لِلأذقانِ على ما خُرِّجَ ظاهِرُهُ. فَدَلَّ أنَّ الِاعْتِقادَ ليسَ بالظاهِرِ على ما قَرَعَ السَّمْعَ ولكنْ على ما توجِبُهُ الحِكْمَةُ.

ثم قولُهُ: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ على التَّمْثيلِ، ليسَ على حقيقةِ السجودِ، ولكنْ على الِانْقِيادِ لِما سَمِعوا والخُضوعِ لهُ والذِّلَّةِ على ما ذَكَرْنا مِنَ التَّمْثيلِ في قولِهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ليسَ على حقيقةِ الِانْقِلابِ على الأعقابِ، ولكنْ على التَّمْثيلِ: الرُّجوعِ وتَرْكِ العَمَلِ، فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، وكقولِهِ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] على تَرْكِ العَمَلِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ السجودُ كِنايَةً عنِ الصلاةِ، أي يُصَلُّونَ للهِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حقيقةِ السجودِ: خَرّوا لِلهِ سُجَّداً إذا تُتْلَى عليهِمْ آياتُ اللهِ وحُجَجُهُ، وهو كَسُجودِ سَحَرَةِ فِرْعَونَ حينَ عايَنوا آياتِ اللهِ وحُجَجَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦] فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ سُجودُ هؤلاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ﴾ عمّا قالَتِ المُلْحِدَةُ فيهِ ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي قد كانَ مَوْعودُ رَبِّنا لَمَفعولاً. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] [وقولُهُ][5]: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي كانَ [ما][6] يأمُرُ اللهُ كائناً ومَفْعولاً، أي قد كانَ مَأتاهُ[7] وَعْدُهُ مَفعولاً، وهو ما ذَكَرْنا: كانَ وعدُ اللهِ مَفعولاً.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فإنْ كانَ التأويلُ مِنَ السجودِ الصلاةَ ففيهِ دليلٌ لِقَولِ أبي حنيفةَ،

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: والضرر على. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: يأباه.

رَحِمَهُ اللهُ، إنّ المُصَلّيَ إذا بَكَى في صلاتِهِ خوفاً على نفسِهِ وإشفاقاً أو سُروراً على ما أَنْعَمَ اللهُ عليهِ، وأَكْرَمَهُ [في][1] دينِهِ لم تَفْسُدْ صلاتُهُ. وإذا كانَ البُكاءُ لِلتّسَلّي ممّا حَلّ بهِ منَ الشّدائدِ والبَلايا تَفْسُدُ صلاتُهُ.

وأصْلُهُ أنّ البكاءَ إذا كانَ للهِ فلا يُفْسِدُ الصلاةَ، وإذا كانَ للدنيا أو لِحاجَةِ نفسِهِ فهو يُفْسِدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي يزيدُ ما يُتْلَى عليهِمْ مِنَ القرآنِ[2] خُشوعاً وخُضوعاً لهمْ أو الآياتِ.

وقالَ الحَسَنُ: الخُشوعُ هو الخوفُ الدائمُ في القَلْبِ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلمُ، أنّ العَرَبَ كانَتْ لا تَعْرِفُ الرُّسُلَ والكُتُبَ المُنْزَلَةَ مِنَ السماءِ، ولا يُؤمنونَ بهما، وكانَتْ لا تَعْرِفُ ذِكْرَ الرحمنِ ولا التّسْمِيَةَ به، وكذلكَ غَيْرَهُ مِنَ الأسماءِ لِما لا سَبيلَ إلى معرفةِ ذلكَ إلّا[3] بألْسُنِ الرُّسُلِ والأنبياءِ وبالكُتُبِ[4] المُنْزَلَةِ مِنَ السماءِ. فإذا لم يُؤمِنوا بالرُّسُلِ، ولا عَرَفوا الكُتُبَ، حَمَلَهُمْ ذلكَ على الإنكارِ والجُحودِ لأسمائِهِ، ولذلكَ ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وقولُهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] واسْمِهِ لِما ذَكَرْنا أو أنْ يكونوا أنْكَروا اسْمَ الرحمنِ لِما لَمْ يَعْرِفوا أنهُ مأخوذٌ مِنَ الرَّحْمَةِ.

وأمّا اللهُ فهمْ يُسَمّونَ كلَّ معبودٍ إلهاً. وعلى ذلكَ سَمَّوُا الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونَها آلِهَةً، ويقولونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيُسَمّونَ اللهَ [إلهاً][5] لِما هو المَعْبودُ/ ٣١١ـب/ عندَهُمْ. ورَجَعَتْ عبادَتُهُمُ الأصنامَ إلى اللهِ حينَ[6] زَعَموا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] كانوا يَطْلُبونَ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ القُرْبَةَ إلى اللهِ.

لِذلكَ أنْكَروا غَيْرَهُ مِنَ الأسماءِ. على أنّ العَرَبَ لم يُنْكِروا لشيءٍ واحدٍ اسْمَينِ وأكْثَرَ، وعَرَفوا أنّ اخْتِلافَ الأسماءِ وكَثْرَتَها لا يُوجِبُ اخْتِلافَ المُسَمّى بهِ، ولا يُوجِبُ[7] عدداً منهُ، وأنّ ما قالوا: إنهُ كانَ يَدْعُو حتى الآنِ إلى عبادةِ واحدٍ، فالساعةَ يَدْعو إلى عبادةِ اثْنَينِ وأكْثَرَ؟ إنما قالوا على التّعَنُّتِ والعِنادِ. وإلّا قد عَرَفوا لشيءٍ واحدٍ اسْمَينِ، لكنهمْ أنْكَروا للهِ ذلكَ لِما ذَكَرْنا تَعَنُّتاً منهمْ وعِناداً. على هذا يجوزُ أنْ تُتأوّلَ الآيةُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في تَخْصيصِ ذِكْرِهِ بهذينِ الاسْمَينِ: قالَ بعضُهُمْ: وجهُ تَخْصيصِهِمْ لأنهما اسْمانِ مَخْصوصانِ لهُ، لا يجوزُ أنْ يُسَمّى غَيْرُهُ بهذينِ الاسْمَينِ. وأمّا غَيْرُهما مِنَ الأسماءِ فإنهُ يَجوزُ أنْ يُسَمّى غَيْرُهُ بها.

وقالَ الحَسَنُ: خَصَّ بِذِكْرِهما لأنهما اسْمانِ مُعَظّمانِ عندَ الخَلْقِ ما لم يَجْعَلْ لِغَيرِهما مِنَ الأسماءِ مِنَ التعظيمِ ما جَعَلَ لهذينِ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: خَصَّ بالذِّكْرِ هذينِ لأنّ غَيرَهُما مِنَ الأسماءِ أسماءٌ أُخِذَتْ عَنْ صِفاتِهِ، وأمّا هذانِ فهما ليسا أخْذاً عَنْ صِفاتِهِ[8].

وقالَ الزّجّاجُ: الرحمنُ هو مَأخوذٌ مِنَ الرحمةِ؛ إلّا أنهُ النهايةُ في الرَّحْمَةِ، لأنهُ فَعْلانُ، وهو كما[9] يُقالُ: غَضْبانُ إذا انْتَهَى غَضَبُهُ غايَتَهُ، وقولُهُ[10]: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢] كلاهما مِنَ الرحمةِ إلّا أنّ الرحمنَ فَعْلانُ والفَعْلانُ هو النهايةُ مِنْ وَصْفِ الرحمةِ لِما ذَكَرْنا، وغَيْرُهُ مِنَ الخَلائقِ لا يَبْلُغونَ في الرحمةِ ذلكَ المَبْلَغَ. لذلكَ خَصَّ بالذِّكْرِ الرحمنَ دونَ الرحيمِ.

وهذا كلُّهُ واحدٌ، ليسَ فيهِ خِلافٌ. وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا: لا يَشْتَرِكُ غَيْرُهُ في هذينِ، ويجوزُ في غَيرِهِما[11].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي أسماؤُهُ[12] التي يُسَمّى بها كلُّها الحُسْنَى، ليسَ شيءٌ منها قَبيحاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: القرائن. (٣) في الأصل وم: إما. (٤) في الأصل وم: وإما بالكتب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أوجب. (٨) في الأصل وم: صفته. (٩) في الأصل وم: ما. (١٠) في الأصل وم: وإلا قوله. (١١) في الأصل وم: غيره. (١٢) من م، في الأصل: أسماء.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي كلُّ [الأعمالِ الصالحةِ والأمورِ الحَسَنَةِ][(١)] لهُ، أي تُنْسَبُ إليهِ، وتُضافُ، ولا يَجوزُ أنْ يُضافَ، ويُنْسَبَ إليهِ ما قَبُحَ منها، وسَمُجَ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا: إليهِ يُنْسَبُ كلُّ حَسَنٍ وكلُّ صالحٍ على الإشارةِ والتسميةِ بهِ، وهو ما نَذْكُرُ: التَّحِيّاتُ للهِ والصلواتُ الطَّيِّباتُ إلى آخِرِهِ، ويُنْسَبُ إليهِ كلُّ طيِّبٍ وكلُّ حَسَنٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: لهُ أسماءُ حَسَنَةٌ، يُسَمَّى بها. والثاني: أنَّ كلَّ حَسَنٍ، يُسَمَّى بهِ غيرُهُ، فهو راجعٌ إليهِ في الحقيقةِ، وهو مُسَمَّى بهِ، وكلُّ حَسَنٍ مَنسوبٌ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في ذلكَ:

قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي لا تَجْعَلْ صَلاتَكَ في مكانٍ غيظاً لِلْمُشرِكينَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي ولا تُسِرَّ عنْ أصحابِكَ، فَتُخْفِيَ عليهِمْ، لكنِ ابْتَغِ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: لا تَجْعَلْ كلَّ صلاتِكَ في جماعةٍ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ولا [تَجْعَلْها][(٢)] كلَّها في غيرِ جماعةٍ ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ ولكنِ اجْعَلْ بَعْضَها بالجماعةِ وبَعْضَها لا بالجماعةِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تُجاوِزِ الحَدَّ في الأمورِ والأعمالِ التي أمَرْتُكَ بها، ولا تُقَصِّرْها عنِ الحَدِّ الذي حَدَّدْتُ لكَ فيها، ولكنِ ابْتَغِ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ مُراآةً للناسِ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا [تَجْعَلْ بها الإخفاءَ][(٣)].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تَجْهَرْ بِجَميعِ الأذكارِ التي في الصلاة أو بِجَميعِ القِراءاتِ التي فيها، ولا تُخافِتْ في الكلِّ، ولكنِ[اقْرأْ][(٤)] بَعْضَها بالجَهْرِ وبَعْضَها بالمُخافَتَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ [ﷺ][(٥)] كانَ يَجْهَرُ في صَلاتِهِ بحيثُ يَسْمَعُهُ المُشرِكونَ فَيُؤْذونَهُ، فأمَرَهُ ألّا يُجْهِرَها لئلا يُؤْذوهُ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كلَّ المُخافَتَةِ [فلا يَسْمَعَ أصحابُكَ، ولا يأخذوا][(٦)] قراءَتَكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ في الدعاءِ إلى اللهِ وتوحيدِهِ في حقِّ التَّبْليغِ والمَسْألةِ وأمثالِهِ.

ولكنْ لا يجوزُ أنْ يُقْطَعَ التأويلُ في هذا وأمثالِهِ، فَيُقالَ: أنهُ كانَ كذا إلا بِخَبَرٍ منهُ ثابتٍ، لأنَّ الخِطابَ بهِ خطابٌ لهُ. فَقَطْعُ التأويلِ فيهِ والقولُ على شيءٍ واحدٍ شهادةٌ على اللهِ وعلى رسولِهِ، ولا تَحِلُّ الشهادةُ عل اللهِ ولا على رسولِهِ إلّا بالإحالةِ أنهُ أرادَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ جميعَ ما تَقَعُ بهِ الحاجةُ إلى التوحيدِ، لأنَّ مَنْ نَفَى التوحيدَ، وأنْكَرَهُ، إنما نَفَى لِأحَدِ الوجوهِ التي ذَكَرَ. منهُمْ مَنْ قالَ لهُ بالوَلَدِ، وهُمُ اليهودُ والنَّصارَى، ومنهُمْ مَنْ قالَ لهُ بالشريكِ، وهُمْ مُشْرِكو العَرَبِ، ومنهمْ من قالَ لهُ بالوَلِيِّ والعَوْنِ مِنَ الذُّلِّ، وهُمُ الثَّنَوِيَّةُ [وغَيرُهُمْ حينَ][(٧)] قالوا: أنْشأَ هذا النورَ لِيَسْتَعِينَ على التَّخَلُّصِ مِنْ وَثاقِ الظُّلْمَةِ.

فَنَزَّهَ نَفْسَهُ، وبرَّأها عن جميعِ ما قالوا فيهِ، ونَسَبوا إليهِ؛ لأنَّ الوَلَدَ في الشاهدِ إنما يُطْلَبُ إمّا لِلتَّلَهِّي وإمّا لِلاسْتِئْناسِ، واللهُ يَتَعالى عنْ أنْ تَقَعَ لهُ الحاجةُ إلى ذلكَ، ويَتَعالى عنْ أنهُ يكونُ لهُ شريكٌ، لأنَّ الشُّرَكاءَ في الشاهدِ إنما تُتَّخَذُ لِلْمَعُونَةِ والقُوَّةِ[(٨)] بهِمْ على بَعْضٍ ومالِهِمْ[(٩)] وما هُمْ فيهِ.

---

(١) في الأصل وم: أعمال صالحة وأمور حسنة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تعجب بها للإخفاء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيسمع أصحابك فيأخذوا. (٧) في الأصل وم: وغيرها حيث. (٨) في الأصل وم: والتقوى. (٩) الواو ساقطة من م.

والوَلِيُّ مِنَ الذُّلِّ: إنما[يُتَّخذُ][1] في الشاهدِ لِلاسْتِنْصارِ والإِسْتِعانةِ على أعدائِهِ. واللهُ يَتعالى عنْ أنْ تَقَعَ لهُ الحاجةُ إلى شَيءٍ مِنْ ذلكَ.

فَنَفَى عنهُ جميعَ مَعاني الخَلْقِ وجميعَ ما يُنْسَبُ إليهِمْ، ويُضافُ، ويَصِفونَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي صِفْهُ بما[2] وَصَفَ نفسَهُ، وانْفِ عنهُ مَعانِيَ الخَلْقِ، فيكونَ في ذلكَ تَعْظيمُهُ وتَكْبيرُهُ. أوِ اعْرِفْهُ بِما ذَكَرَ؛ فإذا عَرَفْتَهُ هكذا فقد عَظَّمْتَهُ وكَبَّرْتَهُ.

والوَلَدُ في الشاهدِ إنما يُتَّخذُ، ويُطْلَبُ لِوُجوهٍ:

أحدُها: لِلتَّسَلِّي بهِ والاِسْتِئْناسِ عَنْ وَحْشَةٍ.

[والثاني:][3] لِحاجةٍ تُمَسُّهُ، فَيَسْتَعينُ بهِ على قَضائها.

[والثالثُ:][4] لِذُلٍّ يَخافُهُ مِنْ عَدُوٍّ لهُ، فَيَسْتَنْصِرُ بهِ عليهِ. واللهُ يَتعالى عنْ أنْ يُصِيبَهُ شَيءٌ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي لم يَتَّخِذِ الأولياء لِيَتَعَزَّزَ بهِمْ مِنَ الذُّلِّ. بل إنما [يَتَّخِذُ الناسُ][5] أولياءَ رَحْمَةً منهُ وفضلاً لِيَتَعَزَّزُوا هُمْ بذلكَ، ويكونوا عُظَماءَ.

وذَكَرَ ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وقد خَلَقَ الأولادَ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ في خَلْقِهِ[6] الشيءَ ما يَصْلُحُ أنْ [يَتَّخذَهُ لنفسِهِ ولداً][7].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ولو كانَ على ما تقولُهُ المعتزلةُ لكانَ لهُ شريكٌ في الملكِ على قولِهِمْ؛ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لم يُرِدْ لأحدٍ مِنَ الكَفَرَةِ المُلْكَ لهمْ، وإنما أرادَ لأوليائِهِ. فَعَلَى قولِهِمْ صارَ الفراعنةُ شركاءَ لهُ في المُلْكِ حينَ[8] لم يكُنْ ما أرادَ هو، وكانَ ما أرادوا هُمْ، واللهُ أعلمُ. والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ. والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: بها. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: اتخذ. (٦) في الأصل وم: خلق. (٧) في الأصل وم: بنخذ لنفسه. (٨) في الأصل وم: حيث.

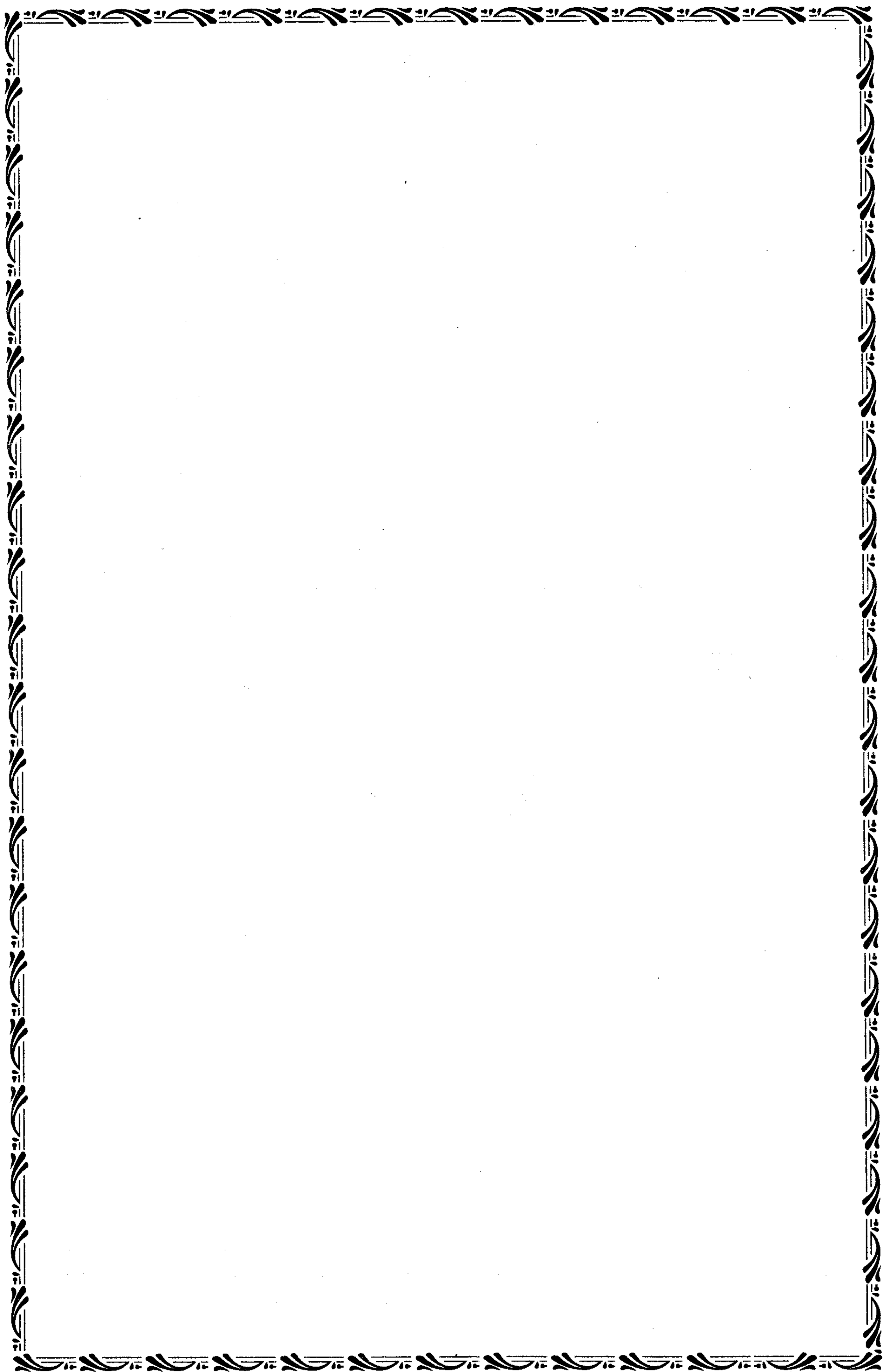

سورة الكهف

مَكِّيَّةٌ[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ[٢] تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ تأويلُ الحَمْدِ هَهنا وفي أمثالِهِ، /٣١٢ ـ أ/ واللهُ أعلَمُ، أنَّ[٣] حَقَّ الحَمْدِ الذي منهُ وَصَلَتْ إلى كلِّ أحدٍ نِعَمُهُ، أي إنها، وإنْ وَصَلَتْ على أيدي مَنْ وَصَلَتْ، فإنَّ حَقَّ الحَمْدِ والثناءِ لهُ في تلكَ النِّعَمِ[٤]، وإنْ حُمِدَ مَنْ دونَهُ؛ إذْ منهُ ذلكَ لا مِنَ الذي وَصَلَتْ على يديهِ، وإنَّ الذي وَصَلَتْ على يَديهِ كالمُسْتَعْمِلِ لهُ، فَحَقُّ الحَمْدُ والثناءُ لهُ لا لِمَنْ[٥] دونَهُ.

أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي قولوا: لهُ الحَمْدُ والثَّناءُ، لأنهُ في جَميعِ ما ذَكَرَ الحَمْدَ لهُ الْحَق به شيئاً: إمّا قُدرَتَهُ وسُلْطانَهُ، وإمّا نِعَمَهُ التي أنْعَمَ على الخَلْقِ كقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: ١] وقولِهِ[٦] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [فاطر: ١] وقولِهِ[٧] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: ١] وقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] ونَحْوَهُ[٨].

ما ذَكَرَ الحَمْدَ لنفسِهِ والثَّناءَ إلّا ذَكَرَ على إثْرِهِ إمّا[٩] قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ وإمّا نِعَمَهُ. فما كانَ المذكورُ على إثْرِهِ النِّعْمَةَ فهو يَستأدي بهِ شُكْرَهُ وحَمْدَهُ. وإنْ كانَ المُلْحَقُ بهِ القُدْرَةَ والسُّلْطانَ فَيَخْرُجُ القَولُ منهُ مَخْرَجَ الأمرِ بالتعظيمِ لهُ والهَيْبَةِ والإجلالِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ ﴿قَيِّمًا﴾ أي لم يَجْعَلْهُ عِوَجاً. ويَجوزُ زِيادَةُ اللامِ في مِثْلِهِ كقولِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] أي رَدِفَكُمْ. هذا جائزٌ في اللغةِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ ﴿قَيِّمًا﴾ يُخرَّجُ[١٠] على وجهَينِ:

أحَدُهما: على التقديمِ والتأخيرِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، أي أنْزَلَ على عبدِهِ الكتابَ قَيِّماً، ولم يَجْعَلْهُ عِوَجاً.

والثاني: على زِيادَةِ: بل؛ كأنهُ قالَ: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ بل جَعَلَهُ قَيِّماً. على أحدِ هذينِ الوَجْهَينِ يُخَرَّجُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ ﴿قَيِّمًا﴾: إذا لم يكنْ عِوَجاً كانَ قَيِّماً، وإذا كانَ قَيِّماً كانَ غيرَ عِوَجٍ، في كلِّ واحدٍ مِنَ الحَرْفَينِ يَغني الآخَرَ، لأنَّ[١١] مِنْ عادةِ العَرَبِ تَكرارَ الكلامِ وإعادَتَهُ على التأكيدِ كقولِهِ ﴿مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] [فإذا كُنَّ مُحصَناتٍ لم يَكُنَّ مُسافِحاتٍ][١٢] وإذا كُنَّ مُسافِحاتٍ لم يَكُنَّ مُحْصَناتٍ: حَرْفانِ مُؤَدِّيانِ مَعْنىً واحداً، إلا أنهُ كَرَّرَ لِما ذَكَرْنا [أنَّ][١٣] مِنْ عادةِ العَرَبِ التكرارَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ البأسُ، هو الشديدُ، والشديدُ، هو البأسُ، هما واحدٌ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: قال أهل التأويل: سورة الكهف. (٢) من م، في الأصل: وقوله. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: النعمة. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) أدرجت في الأصل وم قبل هذه الآية. (٩) في الأصل وم: ما. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أي لم يجعله عوجا وهو. (١١) في الأصل وم: إلا أن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿قَيِّمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: القَيِّمُ الشاهدُ، أي القَيِّمُ على الكُتُبِ والشاهدُ عليها في الزِّيادةِ والنُّقصانِ وفي التَّغْييرِ والتَّحْريفِ، يُبَيِّنُ ما زادوا فيها، وما نَقَصوا، وما حَرَّفوهُ، وما غَيَّروهُ، كقولِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٧٩] وقولِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] وقولِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ الآية [آل عمران: ٧٨] كانوا يُحَرِّفونَ نَظْمَهُ ورَصْفَهُ.

ومنهُمْ مَنْ كانَ يُحَرِّفُ أحكامَهُ. فهذا القرآنُ شاهدٌ وقَيِّمٌ في بيانِ ما فَعَلوا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قَيِّمًا﴾ أي ثابتاً قائماً أبداً، لا يُبَدَّلُ، ولا يُغَيَّرُ، ولا يَزْدادُ، ولا يَنْقُصُ، وهو على ما وَصَفَهُ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الآية [فصلت: ٤٢] وهو على ما وَصَفَ الحَقَّ بالثَّباتِ والقيامِ، والباطلَ بالذهابِ والتَّلاشي كقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ الآية[الرعد: ١٧] وما وصفَ الكلمةَ الطَّيِّبَةَ بالثباتِ والقيامِ لها، والخبيثةَ بالزَّوالِ والتَّغْييرِ والذَّهابِ. فَعَلى ذلكَ هذا القرآنُ لأنهُ حَقٌّ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿قَيِّمًا﴾ أي مُسْتَقيماً. وتأويلُ المُسْتَقيمِ المُسْتَوي المُوافِقُ، أي يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، ويُوافِقُ أوَّلُهُ آخِرَهُ، وآخِرُهُ أوَّلَهُ، أي لم يَخْرُجْ مُخْتَلِفاً، وهو على ما قالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أي[1] لو كانَ مِنْ عندِ غَيرِ اللهِ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ لكانَ خَرَجَ مُخْتَلِفاً مُتَناقِضاً، يَنْقُضُ أوَّلُهُ آخِرَهُ، وآخِرُهُ أوَّلَهُ.

فإنْ لم يَكُنْ دلَّ أنهُ منْ عندِ اللهِ نَزَلَ، ولو كانَ على ما يقولُ[2] أصحابُ العُمومِ والظاهرِ أيضاً لم يكُنْ ﴿قَيِّمًا﴾ ولا مُسْتَقيماً، بل لَخَرَجَ[3] مُخْتَلِفاً مُتَناقِضاً، لأنهمْ يَعْتَقِدونَ على العُمومِ والظاهرِ، ثم يَخُصّونَ بدليلٍ، هو[4] مُخْتَلِفٌ.

وأصْلُهُ قَيِّمٌ بالحُجَجِ والبَراهينِ على أيِّ تأويلٍ كانَ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي أنْزَلَهُ على عَبْدِهِ لِيُنْذِرَكُمْ بأساً شديداً، أي لِيُنْذِرَ بِبَأسٍ شديدٍ، والبأسُ العذابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْزَلَ على عبدِهِ الكتابَ ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي مِنْ عِنْدِهِ.

والثاني: لِيُنْذِرَ[5] الكفارَ بأساً شديداً، يَنْزِلُ مِنْ عندِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيهِ دلالةٌ أنهُ قد يكونُ المؤمنونَ يَسْتَحِقّونَ[6] اسْمَ الإيمانِ، و إنْ لم يَعْمَلوا الصالحاتِ حينَ[7] ذَكَرَ المؤمنينَ، ثم ذَكَرَ الأعمالَ الصالحاتِ. خَصَّ المؤمنينَ بِعَمَلِ الصالحاتِ، لكنَّ البِشارةَ المُطْلَقَةَ إنما تكونُ للمؤمنينَ الذينَ عَمِلوا الصالحاتِ لأنهُ لم يَذْكُرِ البِشارةَ المُطْلَقَةَ في جميعِ القرآنِ إلا[8] للمؤمنينَ الذينَ عَمِلوا الصالحاتِ.

ثم المؤمنونَ الذينَ عَمِلوا غيرَ الصالحاتِ في مَشيئَةِ اللهِ؛ إنْ شاءَ عَفا عنهمْ، وإنْ شاءَ عَذَّبَهُمْ بِقَدْرِ عَمَلِهِمُ الذي كانوا عَمِلوا، وإنْ شاءَ قابلَ سَيِّئاتِهِمْ بِحَسناتِهِمْ؛ فإنْ فَضَلَتْ حَسَناتُهُمْ على سَيِّئاتِهِمْ بَدَّلَ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ على ما أخْبَرَ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] هُمْ في مَشيئَةِ اللهِ على ما ذَكَرَ، وليسَتْ لهمُ البِشارَةُ المُطْلَقَةُ التي للمؤمنينَ الذينَ عَمِلوا الصالحاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ لا سُوءَ فيهِ، ولا قُبْحَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ دونَ قولِهِ: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] كبيراً في الذِّكْرِ،لكنهُ صارَ مِثْلَهُ بقولِهِ: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يَخْرُجونَ منهُ أبداً، وهُمْ مُقيمونَ فيهِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: يقولون. (٣) في الأصل وم: يخرج. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: لينذركم.
(٦) في الأصل وم: ويستحقون. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: لا.

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾](1) يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لا تأخذُهُمْ سآمةٌ ولا مَلالَةٌ فيهِ، فَيُريدوا(2) التَّحوُّلَ منهُ إلى غيرِ ما يكونُ في الشاهدِ أنهُ يَسأمُ المَرْءُ، ويَمَلُّ مِنْ طعامٍ، وإنْ كانَ رَفيقاً، ويَرْغَبُ في ما دونَهُ، وهو ما قالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

والثاني: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ لأنَّ حَرْفَ الخُروجِ والزَّوالِ عنِ النِّعْمَةِ يُنَغِّصُ النِّعْمَةَ على صاحِبِها، وهو ما قالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النساء:٥٧و...]وقالَ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨و...].

الآيتان ٤ و ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما: أي يَعْلَمونَ أنهُ لم يَتَّخِذْ ولداً، ولكنْ يقولونَ ذلكَ على العِلْمِ منهمْ كَذِباً وزُوراً كقولِهِ: ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [غافر: ٤١ و٤٢] أي أُشْرِكُ [بهِ](3) ما أعْلَمُ منهُ [أنهُ](4) لَيسَ هو بِشريكٍ لهُ، وكقولِهِ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس:١٨] أي أتُنَبِّئونَ اللهَ بما يَعْلَمُ أنهُ ليسَ على ما يقولونَ.

والثاني: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي عَنْ جَهْلِهِمْ يقولونَ مِنَ الولَدِ والشريكِ لا عَنْ عِلْمٍ تقليداً لآبائِهِمْ، لأنهمْ لَيسوا بأهلِ كتابٍ يُعْرَفونَ بهِ، ولا كانوا يؤمنونَ بالرُّسُلِ وأسبابِ العِلْمِ وهذينِ الكتابِ والرُّسُلِ. فمّا قالوا إنما قالوا عَنْ جَهْلٍ لا عَنْ عِلْمٍ، وكذلكَ آباؤهُمْ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ دلالةٌ أنَّ مَنْ قالَ شيئاً عَنْ جَهْلٍ فإنهُ مُؤاخَذٌ بهِ حينَ(5) قال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ الآية.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي كَبُرَتْ وعَظُمَتْ تلكَ الكَلِمَةُ [التي](6) قالوها على مَنْ عَرَفَ اللهَ حَقَّ المَعْرِفةِ حتى كادَتِ السمواتُ والأرضُ تَنْشَقُّ لِعِظَمِ ما قالوا في اللهِ كقولِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم:٩٠]

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولونَ إلا كَذِباً.

ثم تَكَلَّمَ أهلُ الأدَبِ في نَصْبِ ﴿كَلِمَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: انْتَصَبَتْ على المَصْدَرِ أي كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمُ التي قالوها ﴿كَلِمَةً﴾ كقولِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

وقالَ قُطْرُبٌ: هو على الوصفِ كما يُقالُ: بِئْسَ رجلاً، ونِعْمَ رجلاً على الوصفِ بهِ(7)، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. فَعَلى ذلكَ هذا.

وقالَ الخليلُ: إنما انْتَصَبَتْ لأنها نَعْتٌ لِاسْمٍ مُضْمَرٍ [هو](8) مَعْرِفةٌ، وهو بِمَنْزِلَةِ قولِهِ: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ [الأعراف:١٧٧]وإنما كانَ نَعْتاً لِاسْمٍ مُضْمَرٍ لأنهُ قالَ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فهذا القولُ فِرْيَةٌ. فتَأويلُهُ: كَبُرَتِ الفِرْيَةُ كَلِمَةً. وقد قيلَ: كَبُرَتِ المَقالةُ كَلِمَةً، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي كَبُرَتْ كَلِمَةً تَكَلَّموا بها. أو يقولُ:/ ٣١٢ ـ ب/ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَتَكَلَّمونَها.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ كقولِهِ(9) في آيةٍ أُخْرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] أخبَرَ أنهُ فاعلٌ ما ذَكَرَ، ولم يَقُلْ لهُ: افْعَلْ، أولا تَفْعَلْ في هذا، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ النَّهْيُ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرى، وهو قولُهُ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨] ولهذا قالَ بَعْضُ الناسِ: إنَّ في قولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ نَهياً عنِ الحُزْنِ عليهِمْ.

---

(1) في الأصل وم: ثم. (2) في الأصل وم: فيريدون. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) ساقطة من الأصل وم. (5) في الأصل وم: حيث.
(6) من م، ساقطة من الأصل. (7) من م، في الأصل: كما. (8) ساقطة من الأصل وم. (9) في الأصل وم: وقال.

وعندنا ليسَ يَخرُجُ على النَّهي ولكنْ على التَّسَلّي.

ثم اختلِفَ في قولِهِ: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ في الأسَفِ قالَ بعضُهُمْ: الأسَفُ هو النهايةُ في الغَضَبِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] قالَ أهلُ التأويلِ: آسَفونا: أغْضَبونا.

وقالَ بعضُهُمْ: الأسَفُ هو النهايةُ في الحُزْنِ كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] أي يا حُزني.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ منهُ الحُزنُ إشفاقاً عليهِمْ أنْ تَتلَفَ أنفُسُهُمْ في النارِ بِتَرْكِهِمُ الإيمانَ، أو كانَتْ نفسُهُ تَغضَبُ عليهِمْ بِتَرْكِهِمُ الإجابةَ والقولِ في اللهِ، سُبْحانَهُ، على ماقالوا فيهِ. وكلاهما يجوزُ: إذْ إذا كانَ ذلكَ للهِ كادَتْ نفسُهُ تَتلَفُ حُزناً عليهِمْ إشفاقاً منهُ، أو كادَتْ تَتلَفُ غَضَباً عليهِمْ.

وفيهِ دلالةٌ أنهُ لم يكنْ يُقاتِلُ الكَفَرَةَ لِلقَتْلِ والإتلافِ[١]، ولكنْ كانَ يُقاتِلُهُمْ لِيُسْلِموا حتى[٢] كادَتْ نفسُهُ تَتلَفُ إشفاقاً عليهِمْ[٣]؛ فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يُقاتِلُهُمْ لِلْقَتْلِ، وفي القَتْلِ تَرْكُ الشَّفَقَةِ. ولكنْ كانَ يُقاتِلُهُمْ لِيَضْطَرَّهُمُ القتالُ إلى الإسلامِ، فَيُسلِموا، فلا يَهْلِكُونَ.

وفيهِ تذكيرٌ لِلْمُسْلِمينَ وتنبيهٌ لهمْ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحَدُهما: ما أخْبَرَ عنْ عَظيمِ مَحَلِّ الذنوبِ في قَلْبِهِ؛ فَلَعَلَّ ذلكَ يُؤذيهِ، فَيَلْحَقَهُمُ اللعنُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٧] وفي ذلكَ زَجْرٌ عنِ ارْتِكابِ ما يَسوؤُهُ ويؤذيهِ.

والثاني: تعليمٌ منهُ لأُمَّتِهِ أنْ كيفَ يُعامِلونَ[٤] الكَفَرَةَ وأهلَ[٥] المَناكيرِ منهُمْ؟ يُقاتِلونَهُمْ في الظاهِرِ، ويُضْمِرونَ الشَّفَقَةَ لهمْ في القَلْبِ على ما فَعَلَ بهِمْ رسولُ اللهِ ﷺ وعامَلَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ سَمَّى القرآنَ حديثاً، وهو ما قالَ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] سَمّاهُ بأسامٍ: قَصَصاً وحديثاً وذِكْراً ورُوحاً وأمثالَها[٦].

والنهايةُ في الحُزْنِ والغَضَبِ للأنبياءِ أنفسِهِمْ؛ تقومُ لهذينِ. وأمّا غيرُهُمْ منَ الخَلائقِ فلا تَحْتَمِلُ أنفسُهُمْ إلّا لأحدِهِما: إذا كانَ الحُزْنُ ذَهَبَ الغضبُ وإذا كانَ جاءَ الغَضَبُ ذَهَبَ الحزنُ. فالأنبياءُ عليهم السلام هُمُ المَخْصوصونَ بهذا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ اخْتُلِفَ في ما أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ للأرضِ زينةً:

قالَ بعضُهُمْ: كلُّ ما على وَجْهِ الأرضِ مِنَ النباتِ والشجرِ والإنسانِ وغيرِهِ هو زينةٌ لها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فإنْ كانَ التأويلُ على هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨] القيامَةَ؛ يَعْني جَميعُ ما على وَجْهِ الأرضِ يَبْقى[٧] قاعاً صَفْصَفاً، وذلكَ إخبارٌ عنِ القِيامَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿زِينَةً﴾ هو النباتُ الذي[٨] عليها، وما جَعَلَ لهمْ مِنَ الرِّزْقِ لِيَبْلُوَهُمْ بما جَعَلَ لهمْ مِنَ الأرزاقِ بالأمْرِ والنَّهْيِ والعباداتِ وغيرِها[٩]، لم يَجْعَلْ ذلكَ النباتَ عليها وتلكَ الأرزاقَ مَجّاناً[١٠]، ولكنْ لِيَخْتَبِرَهُمْ، ويَبْتَلِيَهُمْ بأنواعِ الإمتِحانِ. فإذا كانَ كذلكَ ففيهِ دلالةٌ أنْ ليسَ لأحدٍ أنْ يَتَناوَلَ[١١] ممّا عليها إلّا بإذنِ [أربابِها][١٢] ولا يُقْدِمَ على شيءٍ منها إلّا بأمْرٍ مِنْ أربابِها.

وقالَ أبو بكرٍ عبدُ الرحمنِ بنُ كَيْسانَ: ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أهْلَها، جَعَلَ ذلكَ لِيَبْلُوَهُمْ. ذَكَرَ ههنا أنهُ جَعَلَ ما على الأرضِ لِيَبْلُوَهُمْ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يَجْمَعُ بينَ الآيتَيْنِ، فيقولُ: جَعَلَ الحياةَ لِلابْتِلاءِ والمَوتَ لِلْجزاءِ، فَيَسْتَدِلُّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ بالزينةِ والحياةِ لا بالضِّيقِ والمَواتِ.

---

(١) في الأصل وم: والتلف. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وفيه. (٤) في الأصل وم: يعامل. (٥) الواو ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وأمثاله. (٧) في الأصل وم: فيبقى. (٨) في الأصل وم: التي. (٩) في الأصل وم: وغيره. (١٠) من م، في الأصل مجازا. (١١) من م، في الأصل: يتأول. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ومنهُم مَنْ يقولُ: امتَحَنَهُمْ بهما جميعاً بالحياةِ لِيَتزَوَّدوا فيها لِما بَعْدَ المَوتِ كما يَتزَوَّدونَ[١] في حالِ السَّعةِ والرَّخاءِ لِحالِ[٢] الضِّيقِ والشِّدَّةِ. فَمَنْ لم يَتزَوَّدْ في حالِ السَّعةِ فلا زادَ لهُ في حالِ الضِّيقِ. فَعَلى ذلكَ مَنْ لم يَتزَوَّدْ في الحياةِ فلا زادَ لهُ بَعْدَ المَوتِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ أي نَبْتَليهِمْ، ونَخْتَبِرُهُمْ أيضاً بذهابِ النباتِ وأَنْزالِهِ.

وتأويلُهُ: أنْ يَبْتَلِيَهُمْ بالرخاءِ والسَّعةِ وبالضِّيقِ والشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقولِهِ: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونَحْوَهُ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ واللهُ أعلَمُ، أي نَبْتَليهِمْ بالسَّعةِ والرَّخاءِ والضِّيقِ والشِّدَّةِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ أي مُهْلِكٌ نفسَكَ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿بَٰخِعٞ﴾ بَخَعَ نفسَهُ، أي أخرَجَها، وقالا جميعاً: الأسفُ الحُزْنُ. وقالَ غيرُهُما: الأسَفُ الغَضَبُ أيضاً. دليلُهُ قولُهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغْضَبونا.

وقالَ القُتَبِيُّ: الصَّعيدُ المُسْتَوي، ويُقالُ: وجهُ الأرضِ، ومنهُ قيلَ لِلتُّرابِ: ﴿صَعِيدٗا﴾ لأنهُ وجهُ الأرضِ والجُرُزُ: الأرضُ التي لا تُنْبِتُ شيئاً. يُقالُ: أرضٌ جُرُزٌ، وأرضونَ أجرازٌ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: والجُرُزُ الأرضُ التي لا نَبْتَ فيها، والصَّعيدُ الترابُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ قيلَ: أحَسِبْتُ؟ وقيلَ: قد حَسِبْتَ، ويَحْتَمِلُ بِمَعْنَى: بل حَسِبْتَ كقولِهِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الشورى: ٢٤] أي بل يقولونَ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾.

وقد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ حَرْفَ الاستِفهامِ مِنَ اللهِ يكونُ على الإيجابِ والإلزامِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الأمرِ: احْسَبْ، واعْلَمْ أنَّ أنباءَ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ وما ذَكَرْنا: بل حَسِبْتَ، وهو كذلكَ.

[والثاني: على النَّهْيِ][٣]: لا تَحْسَبَنَّ ﴿أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ ليسوا[٤] أعْجَبَ منها، بل أتاكَ آياتٌ أعْجَبُ منها بكثيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في الرَّقيمِ: قالَ بعضُهُمْ: الرَّقيمُ: الكتابُ كقولِهِ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٩و٢٠] أي مَكْتوبٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرَّقيمُ: الوادي الذي فيهِ كَهْفُهُمْ. وقيلَ: الرَّقيمُ: اللوحُ الذي كُتِبَ فيهِ أسامي الفِتْيَةِ. وقيلَ: الرَّقيمُ القَرْيَةُ التي خَرَجَتِ الفِتْيَةُ منها. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ما أدري ما الرَّقيمُ؟ لكني سألْتُ كَعْباً عنها، فَزَعَمَ أنها القَرْيَةُ التي خَرَجوا منها. وقيلَ: الرَّقيمُ: الكَلْبُ الذي كانَ مَعَهُمْ. قالوا أمثالَ ما ذَكَرْنا، وليسَ بنا إلى مَعْرِفةِ الكَهْفِ والرَّقيمِ حاجةٌ [إنما ذلكَ بِلسانِهِمْ، ولم يَسْألوا عنِ الكَهْفِ والرَّقيمِ، وإنما سألوا عن أصحابِ الكَهْفِ والرَّقيمِ][٥] فما يَنْبَغي لهمْ أنْ يَشْتَغِلوا بهِ.

ثم قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن قصةِ أصحابِ الكَهْفِ والرَّقيمِ وأنبائِهِمْ، فقالَ: أُخْبِرُكُمْ غداً، ولم يَسْتَثْنِ[٦]، فعاقَبَهُ اللهُ فيهِ أنْ حَبَسَ عنهُ الوَحْيَ كذا وكذا يوماً، فَنَزَلَ [قولُهُ تعالى][٧]: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣و٢٤].

لكنَّ ذلكَ فاسدٌ. وماتَوَهَّموا على رسولِ اللهِ ﷺ مُحالٌ، لأنهُ كَذِبٌ، لا يَجوزُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ، يقولُ: أُخْبِرُكُمْ غداً،

---

(١) في الأصل وم: يتزود. (٢) في الأصل وم: حال. (٣) في الأصل وم: أو يقول. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) يعني لم يقل: إن شاء الله. (٧) ساقطة من الأصل وم.

واللهُ لم يَأمُرْهُ[١] بذلكَ، أو قالَ، ولم يَسْتَثْنِ، فَيَحْبِسُ اللهُ الوَحْيَ عنهُ، ولا يُخْبِرُهُمْ في الوقتِ الذي قالَ: إنهُ يُخْبِرُهُمْ، فيَظْهَرُ كَذِبُهُ عندَهُمْ بَعْدَما اختارَهُ لِرِسالتِهِ، واصْطَفاهُ لِمَوضِعِ وَحْيِهِ، ثم يُكَذِّبُهُ في ما أخْبَرَ. هذا فاسِدٌ مُحالٌ غيرُ مُحْتَمَلٍ ما تَوَهَّموا بهِ على اللهِ وعلى رسولِهِ. لقد[٢] كانَ مِنْ كُفَّارِ مكةَ السَّعْيُ في مَنْعِ/ ٣١٣ ـ أ/ رسولِ اللهِ ﷺ عنْ تَبْليغِ الرسالةِ إلى الناسِ والحَيلولَةِ عنِ الدعاءِ إلى ما أُمِرَ أنْ يَدْعُوَهُمْ واستِقْبالِ حُجَجِهِ وبَراهينِهِ بِتَمْويهاتِهِمْ، وقد ذُكِرَ في غَيرِ قِصَّةٍ وخَبَرٍ أنهمْ سألوا اليهودَ عنهُ وعَنْ بَعْثِهِ[٣]: هل تَجِدونَ [بَعْثَهُ في كُتُبِكُمْ][٤]؟ إذْ لم يكونوا أهلَ كتابٍ، يَعْلَمونَ ذلكَ، فاحتاجوا إلى مَنْ يُعَلِّمُهُمْ، ويُخْبِرُهُمْ عنهُ[٥]، فَسألوا يَهودَ المدينةِ عنهُ وعَنْ خَبَرِهِ، فقالوا: نَجِدُ بَعْثَهُ[٦] في كتابِنا كما تقولونَ. فهذا وَقْتُ خُروجِهِ وأوانُهُ.

فَقالوا لهمْ: حَدِّثونا بِشيءٍ، لا يَعْلَمُهُ إلّا نَبِيٌّ. فَقالوا: سَلُوهُ عَنْ ثلاثِ خِصالٍ، فإنْ أجابَهُنَّ فهو نَبِيٌّ، وإلّا فهو كَذّابٌ. اسْألُوهُ عنْ أصحابِ الكَهْفِ، واسْألُوهُ عنْ ذي القَرْنَينِ فإنهُ كانَ مَلِكاً، وكانَ مِنْ أمْرِهِ كذا وكذا، واسْألُوهُ عنِ الرُّوحِ. فإنْ أخْبَرَكُمْ فهو نَبِيٌّ، وإنْ لم يُخْبِرْكُمْ فهو كَذّابٌ. فَسألُوهُ، فأخْبَرَهُمْ عنْ ذلكَ. وفي بَعْضِ القِصَّةِ اسْألُوهُ عنِ الرُّوحِ فإنْ أخْبَرَكُمْ عنهُ فهو لَيسَ بِنَبِيٍّ، فإنْ لم يُخْبِرْكُمْ، ولكنهُ وَكَّلَ أمْرَهُ إلى اللهِ، فهو نَبِيٌّ.

ثم قولُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخِطابُ بِهِ، وإنْ كانَ لِرسولِ اللهِ ﷺ فالمُرادُ بِهِ غَيرُهُ على ما خاطَبَهُ بهِ في غَيرِ آيَةٍ مِنَ القرآنِ، والمُرادُ بِهِ غَيرُهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ [يكونَ][٧] الخِطابُ لهُ، والمُرادُ هو. وإنْ كانَ هو المخاطَبَ بهذا فإنهُ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ إلى آخِرِهِ وجهَينِ.

أحدُهُما: يَقولُ: قد حَسِبْتَ أنَّ أنباءَهُمْ وأخبارَهُمْ كانَتْ مِنْ آياتِنا لِرِسالتِكَ ونُبُوَّتِكَ عَجَباً. فيكونُ الحِسابُ على هذا التأويلِ في مَوضِعِ العِلْمِ واليَقينِ. كأنهُ قالَ: قد عَلِمْتُ أنَّ أنباءَ أصحابِ الكَهْفِ وأخبارَهُمْ آيَةٌ عجيبةٌ لِرِسالَتِكَ.

والثاني: إخبارٌ عنْ أحوالِهِمْ وتَقَلُّبِهِمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ. فإنْ كانَ على هذا فيكونُ الحِسْبانُ في مَوضِعِ الحِسْبانِ، كأنهُ قالَ: قد حَسِبْتَ أنَّ أحوالَهُمْ وتَقَلُّبَهُمْ كانَ مِنْ آياتِنا عَجَباً. هذا إن كانَ الخِطابُ بهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ [والمُرادُ بهِ هو. وأمّا إذا كانَ المُرادُ][٨] بِهِ غَيرَهُ فإنهُ يجوزُ على الحِسْبانِ والظَّنِّ وغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي انْضَمَّ [واختُلِفَ في الكَهْفِ][٩] قالَ بعضُهُمْ: الكَهْفُ: الغارُ في الجَبَلِ. وقيلَ: الفضاءُ. وقيلَ: المَلْجأُ. ولكنْ قد ذَكَرْنا أنا لا نَدْري ما الكَهْفُ؟ وما الرَّقيمُ؟ ذلكَ بِلِسانِهِمْ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ.

والفِتْيَةُ[١٠] اسْمُ الأحداثِ منهمْ والشُّبّانِ، لا اسْمُ المَشْيَخَةِ، ثم يكونُ [اسْمَ][١١] الأحرارِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [قالَ الحَسَنُ: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾][١٢] أي حَسَنَةً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي تَيسيراً[١٣]. وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] فهذا ليسَ بدعاءٍ. إنما هو تَلْقينٌ وإلهامٌ منهُ إيّاهُمْ، فيكونُ تفسيراً للأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رِزْقاً، لأنهمْ يُفارِقونَ قومَهُمْ لِكُفْرِهِمْ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمُ الذي هُمْ عليهِ، وهو الإسلامُ، وقد عَرَفوا أنهُ [تَسَعُ المُفارَقَةُ][١٤] الناسَ طَلَباً لِسَلامَةِ الدينِ، ولكنْ لم يَعْرِفوا أنهُ [تَسَعُ مُفارَقَةُ الناسِ][١٥] قومَهُمْ وما بِهِ قِوامُ أنفسِهِمْ إلى مَكانٍ خالٍ عنْ ذلكَ، فَسألوا ربَّهُمُ الرِّزْقَ إشفاقاً على أنفسِهِمْ بقولِهِمْ: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رِزْقاً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي اجْعَلْ جميعَ أُمورِنا على الصَّوابِ والرُّشْدِ على ما ذَكَرْنا أنهمْ عَرَفوا سَعَةَ المُفارَقَةِ

---

(١) من م، في الأصل: يأمركم. (٢) في الأصل وم: قد. (٣) في الأصل وم: نعته. (٤) في الأصل: نعته في كتبهم، في م: نعته في كتبكم. (٥) من م، في الأصل: عن. (٦) في الأصل وم: نعته. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وأما إذا كان الخطاب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وهم الفتية. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: يسيرا. (١٤) في الأصل وم: يسمع مفارقة. (١٥) في الأصل وم: يسمع.

للدينِ، ولكنْ لم يَعْرِفوا سَعَةَ تلكَ[1] إذا كانَ فيها[2] خَوفُ هَلاكِ أنفُسِهِمْ، فَسألوا رَبَّهُمْ أنْ يَحْمِلَ أمْرَهُمْ ذلكَ على الرُّشْدِ والصَّوابِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً وسَعَةً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ مِنْ أمْرِ دينِنا صَواباً؛ يقولُ: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ ديناً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [صَواباً][3].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ الضَّرْبُ على الآذانِ هو المَحْوُ مَحْوُ الأسماعِ، ويُقالُ: اضْرِبْ على حديثِ كذا: امْحُهُ. ثم يَحْتَمِلُ مَحْوُ الأسماعِ وجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: مَحْوُ الأرواحِ التي بها تَحْيَى الأنفُسُ، فيكونُ كِنايَةً عنِ المَوتِ.

والثاني[4]: مَحْوُ أرواحِ الأسْماعِ التي تُسْمِعُ لا المَوتِ. فلمّا قالَ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨] دلَّ أنهُ إنما أرادَ مَحْوَ أرواحِ الأسماعِ لا مَحْوَ الأرواحِ التي بها حَياةُ الأنفُسِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: مِنْ رُقودِهِمْ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي لِنَعْلَمَ ما قَدْ عَلِمْناهُ غائباً شاهداً، إذْ كانَ عالماً بما يكونُ [منهمْ][5].

وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا: لِيَعْلَمَ الخَلْقَ شاهداً، كما عَلِمَ هو غائباً، أو لِيَعْلَمَ المُخطِئَ منهم مِنَ المُصيبِ، أو مُحالٌ وَصْفُهُ بالعِلْمِ بالمُخطِئِ، ولا مُخطِئٌ، ثم وبالمُصيبِ، ولا مُصيبٌ[6]. فإذا كانَ كذلكَ فيكونُ قولُهُ: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ المُخطِئَ مِنَ المُصيبِ والمُصيبَ مِنَ المُخطِئِ، إذا كانَ. وأصلُهُ أنهُ يَعْلَمُ كائناً على ما عَلِمَ أنهُ يكونُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [اخْتُلِفَ في قولِهِ][7] ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ. مُشْرِكيهِمْ ومُؤْمِنيهِمْ. ومنهُمْ مَنْ قالَ: المَلِكُ والفِتْيَةُ.

[ثم اخْتَلَفُوا في لُبْثِهِمْ][8] إذْ بُعِثوا: قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩].

ولكنْ لَسْنا نَدْري مَنْ ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ سِوى أنا ذَكَرْنا قولَ أهلِ التأويلِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [قالَ بعضُهُمْ:][9] الحَقُّ في النَّبَإِ الصِّدْقُ، والحَقُّ في الأحكامِ العَدْلُ، وفي الأفعالِ الصَّوابُ. وقالَ بعضُهُمْ. الحَقُّ ههنا، هو القرآنُ، فيكونُ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي في الحَقِّ، وهو القرآنُ، أي نَقُصُّ عليكَ نَبَأَهُمْ في القرآنِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هذانِ الحَرْفانِ، مَعْناهُما واحدٌ: الزِّيادَةُ والرَّبْطُ، كلُّ واحدٍ منهما يُؤَدِّي مَعْنَى صاحِبِهِ: زِيادَةُ الهُدَى [وتَثْبيتُهُمْ][10] على الهُدَى.

ويجوزُ أنْ يُقالَ: هو التَّثْبيتُ والرَّبْطُ كذلكَ، ويجوزُ أنْ يُقالَ على التَّجديدِ والابْتِداءِ لأنَّ[11] للإيمانِ حُكْمَ التَّجديدِ في كلِّ وَقْتٍ؛ إذْ هو يكونُ مُنْكِراً جاحِداً لِلْكُفْرِ في كلِّ وقْتٍ، فهو مُجَدِّدٌ للإيمانِ كذلكَ في كلِّ وقتٍ. فإنْ شِئْتَ حَمَلْتَهُ على الثَّباتِ والزِّيادَةِ على ما كانَ، وإنْ شِئْتَ على الابْتِداءِ والتَّجَدُّدِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢ والتوبة: ١٢٥].

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [إنَّ مِنْ حِكَمِ اللهِ أنَّ مَنِ اهْتَدَى زادَهُ اللهُ هُدىً][12] كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

---

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) في الأصل وم: فيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو يكون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ثمة. (٧) في الأصل وم: يحتمل. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم هم اختلفوا في ملتهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أي ثبتناهم. (١١) في الأصل وم: ان. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

لكنَّ هذا لو كانَ على ما ذَكَرَ لَكانَ لا يجوزُ أنْ يَكْفُرَ إذا اهْتَدَى مَرَّةً [لأنهُ][1] لا يزالُ يَزيدُ لهُ هُدىً. فإذا لم يَكُنْ دلَّ أنهُ لا يَصِحُّ ذلكَ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بالحُجَجِ والبَراهِينِ. ويَحتَمِلُ ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بالنهوضِ إلى الكَهْفِ حينَ انْضَمُّوا إليهِ، أو قاموا للهِ ولِدِينِهِ، أو قاموا مِنْ عندِ أولئكَ الكَفَرَةِ ﴿فَقَالُوا۟﴾ ما ذَكَرَ ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وربُّ ما فيهنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي لن نُسَمِّيَهُمْ آلهةً على ما سَمَّى قومُهُمُ الأصنامَ التي عَبَدوها آلهةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ تَسْمِيَتُهُمْ[2] آلهةً على زَعْمِهِمْ وعلى ما عِنْدَهُمْ كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] وقولِهِ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] لا يجوزُ أن يُسَمِّيَ الأنبياءُ الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونَها آلهةً، وهي ليسَتْ بآلهةٍ. ولكنْ قالوا ذلكَ على زَعْمِهِمْ وعلى ما عِنْدَهُمْ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي لنْ نَعْبُدَ. فإنْ كانَ على العِبادةِ ففيهِ إضمارٌ؛ أي لنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِهِ إلهاً غَيرَ اللهِ كَفِعْلِ قومِنا. ولو فَعَلْنا ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي جَوراً وظُلْماً.

الآية ١٥ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يَعْبُدونَها ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي هَلّا يَأتونَ على تَسْمِيَتِهِمْ آلهةً أو[4] استِحْقاقِ العِبادةِ لها بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ؟/ ٣١٣ ـ ب/

ثم حَرْفُ هلّا يُسْتَعْمَلُ في الماضي، ويُسْتَعْمَلُ في المُسْتَقْبَلِ. فإنْ كانَ على الماضي [فهو][5] على الإنكارِ، أي لم يَكُنْ، وإنْ كانَ على المُسْتَقْبَلِ فهو على السؤالِ، أي ائْتوا بحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ أي بأنها[6] آلهةٌ كما أتَوا هم بأنَّ[7] اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ، وأنهُ خالقُ السمواتِ والأرضِ، وربُّ ما فيهما.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي أنَمْناهُمْ. والأمَدُ، هو الغايةُ. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ألْهَمْناهُمُ الصَّبْرَ، وثَبَّتْنا قلوبَهُمْ. وقولُهُ: ﴿شَطَطًا﴾ أي غُلُوّاً. يُقالُ: شَطَّ عليَّ إذا غلا في القَولِ.

وقولُهُ تعالى: أي لا أحَدَ أظْلَمُ مِمَّنْ جَعَلَ معَ اللهِ آلهةً. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وإذا اعْتَزَلْتُموهُمْ وما يَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][8] على القراءةِ الظاهرةِ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي وإنِ اعتَزَلْتُموهُمْ والذينَ لا يَعْبُدونَ إلّا اللهَ فلا تَعْتَزِلوا عبادَتَهُ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ، ويَعْبُدونَ اللهَ أيضاً، ويَرَونَهُ مَعْبوداً. فكأنهمْ قالوا: وإذِ اعْتَزَلْتُموهُمْ والذينَ [ما][9] يَعْبُدونَ إلّا اللهَ فلا تَعْتَزِلوهُمْ[10]. وهو كقولِ إبراهيمَ ﷺ لِقومِهِ حينَ[11] ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥و٧٦] اسْتَثْنى عِبادَةَ ربِّ العالَمينَ مِنْ بَينِ عبادةِ ما[12] يَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ، إذْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تَشْفَعَ لهمْ عندَهُ، أو تُقَرِّبَ عبادَتُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى وأمثالَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على التقديمِ والتأخيرِ؛ أي وإذِ اعتَزَلْتُموهُمْ فَأْوُوا إلى الكهفِ لأنهمْ كانوا لا يَعْبُدونَ هُمْ في الحقيقةِ إلّا اللهَ، يعني أصحابَ الكهفِ.

والثاني: ما ذَكَرْنا: وإذ اعتزَلْتُموهُمْ، وما يَعْبُدونَ هم في الحقيقةِ إلّا اللهَ، وإنْ كانوا في الظاهرِ يَعْبُدونَ غَيرَ اللهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فسموهم. (٣) في الأصل وم: ثم قالوا. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الباء ساقطة من الأصل. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فتأويل الآية. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: تعتزلوه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: من.

وتأويلُ قراءةِ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ: وإذا اعْتَزَلْتُموهُمْ وجميعَ ما يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منهمْ ليسَ على القَولِ والنُّطْقِ، ولكنْ أُلْقِيَ في قلوبِهِمْ، وقُذِفَ، أنهمْ إذْ فارَقوا قومَهُمْ، وبايَنُوهُمْ[1] ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ في قَومِهِمْ مَنْ قد آمَنَ سِواهُمْ، فَقالوا: إنكمْ بايَنْتُمْ، وفارَقْتُم [قومَكُمْ][2] ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فلا تُعَدُّوا[3] منهُمْ، فَلَعَلَّهُمْ يَلْحَقونكُمْ، ويَطْلُبونَ لِقاءَكُمْ، فلا يُعَدُّوا[4] منهمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لمّا عَزَموا أنْ يُفارِقوا قومَهُمُ اعْتَزَلَهُمُ الشيطانُ، فقالَ: إنكمْ تفارقونَ قومَكُمْ إلى مَكانٍ، وليسَ مَعَكُمْ شَرابٌ ولا طَعامٌ، فَتُهْلِكونَ أنْفُسَكُمْ، فَدَفَعُوا وَساوِسَهُ بقولِهِ ﷺ ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

ثم قولُهُ ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَخْلُقُ لكمْ ربُّكُمْ كقولِهِ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ بالراءِ [نَنْشُرُها][5] [البقرة: ٢٥٩] أي كيفَ نَخْلُقُها، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ أي يَبْسُطْ، والنَّشْرُ هو البَسْطُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ الرِّزْقَ، ويَحْتَمِلُ كلَّ شيءٍ يَدْفَعُ الهَلاكَ عن أنْفُسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي ما تَرْتَفِقونَ بهِ، وتَنْتَفِعونَ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ، وهو مِنَ الرِّفْقِ [والمِرْفَقُ][6] أيضاً مِثْلُهُ، لأنهُ يُنْتَفَعُ [بهِ][7].

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما يُرْتَفَقُ بهِ وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: المَرْفَقُ ما ارْتَفَقْتَ بهِ. فأمّا في اليَدينِ فهو مِرْفَقٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ كانَتْ لا تُصيبُهُمْ لا عندَ طُلوعِها ولا عندَ غُروبِها، لأنَّ الكَهْفَ كانَ مُسْتَقْبَلَ بَناتِ النَّعْشِ، لا تُصيبُهُ الشمسُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا. ولكنْ كانَ ثَمَّةَ حِجابٌ وسَتْرٌ يَحْجُبُ الشمسَ عنْ أنْ تَقَعَ عليهِمْ. لكنَّ هذا لا يَصِحُ، لأنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لهمْ ذلكَ آيَةً مِنْ آياتِهِ وكَرامَةً مِنْ كَراماتِهِ. فليسَ في ما لا تَقَعُ عليهِمُ الشمسُ بِحِجابٍ أو سَتْرٍ كبيرُ آيَةٍ ومِنَّةٍ. إنما الآيَةُ في ما تَقَعُ الشمسُ عليهِمْ، ثم تَدْفَعُ عنهمْ ضَرَرَها وأذاها. فإذا كانوا بِحَيثُ لا تُصيبُهُمُ الشمسُ. فأذاها وضَرَرُها أيضاً لا يُصيبُهُمْ. فليسَ في ذلكَ كبيرُ آيَةٍ وحكمةٍ؛ إذْ ليسَ في ما تُصيبُ الشمسُ ضَرَرٌ أو أذىً، ولكنْ يَذْكُرُ لُطْفَهُ حينَ[8] مَنَعَ ضَرَرَ الشمسِ وأذاها عنهمْ معَ إصابَةِ الشمسِ إيّاهُمْ ووقوعِها عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ يَمينَهُمْ أو يَمينَ القِبْلَةِ. وكذلكَ ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ شِمالَ هؤلاءِ أو شِمالَ القِبْلَةِ. فأمّا يَمينُ الجَبَلِ أو الغارِ على ما قالَ أهلُ التأويلِ فإنهُ ليسَ لِلْجَبَلِ يَمينٌ ولا شِمالٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الفَجْوَةُ الظِّلُّ، و قالَ بعضُهُمْ: الفَجْوَةُ الفَضاءُ. و قالَ بعضُهُمْ: هي سَعَةُ المَكانِ. يُخْبِرُ ﷻ عنْ لُطْفِهِ ومِنَّتِهِ أنهُ قد حَشَرَهُمْ إلى غارٍ كانوا يَسْعَونَ فيهِ حيثُ[9] يَتَقَلَّبونَ فيهِ. والغارُ الذي يكونُ في الجبالِ لا هكذا يكونُ، بل يكونُ ضَيِّقاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا يَرُدُّ قولَ مَنْ يُنْكِرُ جَرْيَ الآياتِ على يَدَي غيرِ الأنبياءِ، لأنهُ جَعَلَ في أصحابِ الكَهْفِ عَدَداً مِنَ الآياتِ، كلُّها خارجَةٌ عنِ احتمالِ وُسْعِ الخَلْقِ وعادَتِهِمْ لِمُفارَقَةِ قومِهِمْ لِسلامَةِ دينِهِمْ [وفيهِ وجوهٌ][10]

أحَدُها: ما أخْبَرَ أنهُ ضَرَبَ على آذانِهِمْ، وأنامَهُمْ نوماً[11] خارجاً عَنْ طَبْعِ الخَلْقِ وعادَتِهِمْ، وهو ثلاثُ مئةِ سَنَةٍ. ثم ﴿بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩] على ما أخْبَرَ ﷻ.

---

(١) في الأصل وم: وباينوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تعبدوا. (٤) في الأصل وم: يعبدوا. (٥) ساقطة من الأصل وم، وهي قراءة عاصم وأبان وابن عباس، وقراءة الجمهور ﴿نُنشِزُهَا﴾ بالزاي. انظر معجم القراءات القرآنية ج١/ ٢٠٠. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حتى. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: نوعا.

والثاني: لم تَبلَ ثيابُهُمْ في مِثْلِ تلكَ المُدَّةِ ومِثْلِ المَكانِ، ولم تَتَغيَّرْ. ألا تَرَى أنهمْ قالوا حينَ بُعِثوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] ولو كانَتْ ثيابُهُمْ باليَةً أو مُتَغيِّرَةً لم يَستَقِلّوا، ولا استَقصَروا كلَّ هذا ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ألا تَرَى أنهمْ فَزِعوا إلى الطعامِ، ولم يَفْزَعوا إلى الشيابِ حينَ[1] قالوا: ﴿فَابْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩] ولو كانَتْ ثيابُهُمْ باليَةً أو مُتَغيِّرَةً لَكانَ فَزَعُهُمْ إلى الثيابِ كَهُوَ إلى الطعامِ، وهو أولَى.

والثالثُ: ما أخبَرَ مِنْ تَزاوُرِ الشمسِ إذا طَلَعَتْ ذاتَ اليمينِ وقَرْضِها إيّاهُمْ ذاتَ الشِّمالِ.

والرابعُ: دَفْعُ الحَرِّ والبَرْدِ عنهمْ إذْ مِنْ طَبْعِهِما الإهلاكُ والإفسادُ إذا اشتَدَّ، وكَثُرَ.

والخامِسُ: ما ذَكَرَ مِنْ تَقْليبِهِ إيّاهُمْ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ وحِفْظِهِ إيّاهُمْ عنْ أنْ تُفْسِدَهُمُ الأرضُ، وتأكُلَهُمْ؛ إذْ مِنْ طَبْعِ الأرضِ ذلكَ عندَ امْتِدادِ الوقتِ.

والسادِسُ: ما ذَكَرَ في الآيةِ من الهَوْلِ والهَيْبَةِ إذا دَخَلَ عليهِمْ [رسولُ اللهِ][2] واطَّلَعَ حينَ[3] قالَ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ خوفاً ممّا تَرَى فيهِمْ مِنَ الأهوالِ. هذا لِرَسولِ اللهِ ﷺ فكيفَ لِمَنْ دُونَهُ؟

والسابعُ: حِفْظُهُ إيّاهُمْ مِنْ جَميعِ الخَلائِقِ حتى لم يَطَّلِعْ، ولم يَعْثُرْ عليهِمْ أحدٌ مِنَ الخَلائِقِ.

والثامِنُ: إبقاؤُهُمْ أحياءً أكثَرَ مِنْ ثلاثِ مئةِ سَنَةٍ بلا غِذاءٍ، والأنفسُ لا تَبْقَى بلا غِذاءٍ بِدونِ ذلكَ [الوَقْتِ][4]. وذلكَ باللطفِ. وأمثالُ هذا كثيرٌ ممّا يَكْثُرُ عَدُّها وإحصاؤُها، كُلُّهُ مِنْ آياتٍ عظيمةٍ خارجةٍ عنْ وُسْعِ الخَلْقِ وعادَتِهِمْ.

فذلكَ لهمْ بِاخْتِيارِهِمْ دينَ اللهِ [على دينِ][5] قومِهِمْ، وبِمُفارَقَتِهِمْ إياهم لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ؛ إذِ الغَلَبَةُ فيهِمْ يومَئِذٍ الكُفْرُ، فأكْرَمَهُمُ اللهُ بذلكَ بالكراماتِ التي ذَكَرْنا.

فلا نُنْكِرُ أنْ يُعْطِيَ اللهُ أحداً مِنْ أوليائِهِ قَطْعَ مَسيرَةِ أيّامٍ بيومٍ أو بساعةٍ أو المَشْيَ على الماءِ ونَحْوَ ذلكَ. ليسَ بِمُسْتَبْعَدٍ ولا مُسْتَنْكَرٍ.

وقولُ/ ٣١٤ - أ/ أهلِ التأويلِ: إنهمْ كانوا كذا، والكَلْبُ كذا [وَأَسامِيهِمْ كذا][6] وعَدَدُهُمْ كذا، ونَحْوُهُ، فذلكَ ممّا لا يُعْلَمُ إلّا بِخَبَرِ الصِّدْقِ وقولِ الحَقِّ. وقد نَهَى رسولَهُ أنْ يَسْتَفْتِيَ فيهم منهم أحداً حينَ[7] قالَ: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢] وهو ما ذَكَرَ هؤلاءِ[8]، كُلُّهُ مِنَ الاستِفْتاءِ الذي نَهَى رسولَهُ عنْ ذلكَ، [واللهُ أعلَمُ][9].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَّزَاوَرُ﴾ تَميلُ، وتَزْوَرُّ مِثْلُهُ ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تَدَعُهُمْ على شِمالِها، أي إنَّ الشمسَ لا تُصيبُهُمْ طالِعَةً ولا غارِبَةً عندَ طُلوعِها وغُروبِها. ويُقالُ: قَرَضْتُهُ: تَرَكْتُهُ، أقْرِضُهُ قَرْضاً. ويُقالُ: قَرَضْتُ مَوضِعَ كذا[10]، أي جاوَزْتُهُ، وتَرَكْتُهُ خَلْفي. ويُقالُ: قَرَضَهُ، أي قَطَعَهُ بِمِقْراضٍ. وتَزاوَرَ يَتَزاوَرُ، أي عَدَلَ، ومالَ. ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي سَعَةٍ، وفَجَواتٌ جَمْعٌ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلكَ البِناءُ وما ذَكَرَ مِنْ قِصَّةِ أصحابِ الكَهْفِ مِنْ آياتِ قُدْرَةِ اللهِ، أو مِنْ حُجَجِ اللهِ على إثباتِ رسالةِ رسولِهِ ونُبُوَّتِهِ، أو مِنْ آياتِ كَراماتِهِ لِلْفِتْيَةِ ولِمَنْ اختارَ دينَ اللهِ، وآثَرَهُ على غَيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: تزاوَرُ، وتَقْرِضُهُمْ، كلاهُما واحدٌ؛ وهو أنْ تَميلَ عنْ كَهْفِهِمْ، فَتَدَعُهُمْ ذاتَ اليَمينِ ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تَدَعُهُمْ ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ و قولُهُ: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي زَيغَةٍ[11] مِنَ الكهفِ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: الزَّيغَةُ[12] قَدْرَ ما يَصْلُحُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: من بين.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) أدرجت في م بعد كله. (٩) في الأصل وم: علمه: مدرجة قبل عن ذلك.
(١٠) من م، في الأصل: كذلك. (١١) من م، في الأصل: زائغة. (١٢) من م، في الأصل: الزائغة.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ أي يُبوّئْ لكُمْ كقولِهِ: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٢١] أي تُهيِّئُ، [وقولِهِ](١): ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] الرشيدُ الصالحُ، قالَ مُقاتلُ ﴿رَشَدًا﴾ أي مَخرَجاً [وقولِهِ](٢) ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: غذاءً تأكلونَهُ، وهو ما ذَكَرْنا: كلُّ ما يُترَفَّقُ به، ويُقالُ: مَخرَجاً.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لأنهمْ كانوا مُفتَّحةً [لَهُمْ](٣) الأعيُنُ والأبصارُ كالأيقاظِ(٤). و قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لأنهمْ كانوا يَتقلَّبونَ في رُقودِهِمْ [ذاتَ](٥) اليمينِ والشِّمالِ كما يَتقلَّبُ اليَقْظانُ يَميناً وشِمالاً.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما كانَ يُقلِّبُهُمْ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ لِيَدْفَعَ عنهُمْ أذى الأرضِ وضَرَرَها لئلا يَفسُدوا، ويَتَلاشَوا، وإنْ كانَ اللهُ قادراً أنْ يَدفَعَ عنهمُ الأذى وضَرَرَ الأرضِ لا بِتقليبٍ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ، وإنْ كانَ مِمّا يَفعَلُ مَنْ لا يَملِكُ دفعَ الأذى بِما ذَكَرْنا. فأمّا مَنْ كانَ قادراً بِذاتِهِ مُستَغنِياً عنِ الأسبابِ التي بها يُدفَعُ [الضَّرَرُ](٦) فَغيرُ مُحتَمَلٍ. وقولُهُ على التَّعليمِ منهُ إياهُمْ: أنْ كيفَ يُتَّقى الأذى؟ وكيفَ يُدفَعُ الضَّرَرُ. فإذا لم يكُنْ بِمَشهَدٍ مِنَ الخَلْقِ فلا مَعنًى لهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لأنهمْ كانوا في مَكانِ الرِّيبَةِ واللصوصِ مِمّا لا يَأوي إليهِ إلّا هاربٌ مِنْ رِيبةٍ وشَرٍّ أو قاصِدُ رِيبةٍ وطالبُ عَثْرةٍ ومكابَرةٍ. لم يكونوا في مكانٍ يُسْلَمُ فيهِ، ويُرْقَدُ، ولا يُختارُ للنومِ مثلُهُ. فقالَ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لِما كانوا في مكانٍ لا يُنامُ فيهِ للخوفِ، كأنهمْ أيقاظٌ، وهُمْ رُقودٌ، واللهُ أعلَمُ. ولكنْ لا نَدْري لأيِّ مَعنًى ذَكَرَ أنهُ يَحسَبُ الناظرُ إليهِمْ كأنهمْ أيقاظٌ، وهمْ رقودٌ. وإذْ لم يُبيِّنِ اللهُ ذلكَ فلا يُفسَّرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ هو ما ذَكَرْنا [أنَّ النَّوْمَ](٧) قد يَتقلَّبونَ في نومِهِمْ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ، وذَكَرَ التَّقليبَ. وجائزٌ أن يكونَ لِما ذَكَرَ بعضُهُمْ مِنْ دَفعِ أذى الأرضِ وضَرَرِها، أو ذَكَرَ فِعلَهُ لِما لهُ في تَقلُّبِهِمْ صُنعٌ وفعلٌ، واللهُ أعلَمُ، وقولُهُ ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ إذْ لا نَفهَمُ مِنْ ذاتِ الشيءِ غيرَ ذلكَ أو شيئاً آخرَ سِواهُ، لأنهُ ذَكَرَ ذاتَ اليمينِ، فهو اليَمينُ، والشِّمالُ نَفسُهُ لا غيرَ. فعَلى ذلكَ في قولِنا: عالِمٌ بذاتِهِ لا يُفهَمُ غيرُهُ عِلْمَهُ، أي عالِمٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الوَصيدُ، هو فِناءُ البابِ. و قالَ بعضُهُمْ: الوَصيدُ هو عَتَبَةُ البابِ. قالَ القُتَبيُّ: الوَصيدُ الفِناءُ، ويُقالُ عَتَبَةُ البابِ، وهذا أعْجَبُ لأنهُمْ يقولونَ: أوصِدْ بابَكَ أي أغلِقْهُ [ومنهُ قولُهُ](٨): ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أي مُطبَقَةٌ.

وأصلُهُ أنْ تُلصَقَ البابَ بالعَتَبَةِ إذا أغلَقْتَهُ. فإذا كانَ الوَصيدُ هو عَتَبَةَ البابِ ففيهِ أنَّ الكَلْبَ كانَ داخلَ بابِ الغارِ، وإنْ كانَ الفِناءَ ففيهِ أنهُ كانَ خارجَ بابِ الغارِ. وفيهِ أيضاً [أنهُ](٩) أبْقَى الكلبَ ثلاثَ مئةِ سَنةٍ على ما أبقاهُمْ، وإنْ لم يكُنْ مِنْ جوهَرِهِمْ، بلُطْفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وذلكَ لأنَّ(١٠) شُعورَهُمْ قد طالَتْ، وأظفارَهُمْ قدِ امْتَدَّتْ، وعَظُمَتْ. فكانوا بحالٍ يُرْغَبُ عنهُمْ، ويُهابُ. لكنَّ هذا لا يُحتَمَلُ لأنهمْ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] فلو كانوا على الحالِ التي ذكروا مِنْ تَطاوُلِ الشعورِ وامْتِدادِ الأظفارِ وتَغيُّرِ أحوالِهِمْ لم يكونوا لِيَقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إذْ لو نَظَروا في أنْفُسِهِمْ مِنْ تَغيُّرِ الأحوالِ لَعَرَفوا أنهمْ لم يَلْبَثوا ما ذَكَروا مِنَ الوَقْتِ. دَلَّ ذلكَ أنَّ ذلكَ لِلْخَوفِ والهَيبَةِ لا لذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لأنهمْ كانوا في مَكانِ الرِّيبَةِ، في ما لايُؤْوَى إلى مِثْلِهِ إلّا لِخَوفٍ أو رِيبَةٍ أو طَلَبِ رِيبَةٍ، لا يَأويهِ إلّا هذانِ(١١) هارِبٌ مِنْ شَرٍّ أو طالبُ شَرٍّ إلى آخِرِ ما ذَكَرْنا؛ إذْ مَنْ أقامَ في مَهابٍ ومَكانٍ مَخوفٍ يُهابُ منهُ، ويُخافُ. أو أنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كاليقظان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) في الأصل وم: ومنها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أن. (١١) في الأصل وم: هذين.

يكونوا بحيثُ يُهابونَ، ويُخافُ منهمْ، لئلا يَدْنُوَ منهمْ أحدٌ، ولا يَقْرُبَ، فلا يُوقِظُهُمْ أحدٌ، لِيَبْقَوا إلى المدةِ التي أرادَ اللهُ أنْ يَبْقَوا فيها. وكذلكَ يَحْتَمِلُ هذا المَعْنَى في تَقْليبِ اليَمينِ والشِّمالِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ ذلكَ الخوفَ وتلكَ الهَيْبَةُ هَيْبَةُ الدينِ على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٥٠٦] وذلكَ لدينِهِ وحقيقةِ أمرِهِ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ هَيْبَةِ أحوالِهِمْ لِدينِهِمُ الذي اختاروا مِنْ بينِ [دينِ][1] قومِهِمْ، وفارَقوهُمْ، لِيَسْلَمَ دينُهُمْ، إلى مَكانٍ، لا طَعامَ فيهِ، ولا شَرابَ، وذلكَ لِحَقيقَةِ ما اختاروا مِنَ الدينِ. كانَ ذلكَ لِمَعْنَىً لَمْ يُطْلِعِ اللهُ رسولَهُ على ذلكَ، فلا نُفَسِّرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي كما أنْبَأكُمْ مِنْ أنبائِهِمْ[2] وقَصَصِهِمْ [كذلكَ بَعَثْنَهُمْ][3] أو كما ضَرَبَ على آذانِهِمْ، وأنامَهُمْ سِنينَ، كذلكَ يَبْعَثُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ بَعَثَهُمْ لِما عَلِمَ ما يكونُ منهمْ، وهو التَّساؤُلُ، وهكذا جميعُ ما يَخْلُقُ، ويُنْشِئُ؛ إنما يَخْلُقُ ويُنْشِئُ لِما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهمْ لِقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ [الأعراف: ١٧٩] ذَرَأَهُمْ لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ، وهو عَمَلُ أهلِ جَهَنَّمَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] مَنْ عَلِمَ أنهُ يَعْبُدُهُ، ويَعْمَلُ[4] بِهِ عَمَلَ أهلِ الجنةِ، خَلَقَهُ لذلكَ.

هكذا كلُّ ما يَخْلُقُ؛ إنما يَخْلُقُ لِما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهُ؛ إذْ يُخَرَّجُ الفِعْلُ لذلكَ مُخْرَجَ العَجْزِ والجَهْلِ بالعواقِبِ. فإذا كانَ اللهُ عالماً بما كانَ، ويكونُ، ويَتَعالى عنْ أنْ يكونَ فِعْلُهُ عَبَثاً، لم يُجِزْ أنْ يَخْلُقَ شيئاً لِغَيرِ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ.

وهكذا في الشاهِدِ: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً/ ٣١٤ ـ ب/ أو فَعَلَ فِعْلاً لِغَيرِ ما عَلِمَ [ما يكونُ منهُ][5] فهو عابثٌ أو جاهلٌ بعواقِبِهِ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تأويلُهُ ما ذَكَرَ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] قالوا ذلكَ لِما لم يَرَوا في أنفسِهِمْ آثاراً وأعلاماً تَدُلُّ على طولِ المُكْثِ والمُقامِ فيهِ. ثم تَذَكَّروا أحوالَهُمْ وما يَرَى النائمُ في نَومِهِ مِنَ العجائبِ وأشياءَ كثيرةٍ. عَرَفوا أنَّ ذلكَ القَدْرَ مِنَ الأشياءِ مَثَلٌ مِنَ العجائبِ التي رَأَوا، لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ في يومٍ أو بَعْضِ يومٍ. فعندَ ذلكَ وَكَلُوا الأمْرَ إلى اللهِ، فقالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

وأمّا الذي أماتَهُ مِئَةَ عامٍ لَمّا بَعَثَهُ قَطَعَ القولَ في ذلكَ، ولم يَكِلِ الأمْرَ إلى اللهِ، حينَ[6] ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] لأنهُ كانَ مَيْتاً. والمَيْتُ لا يَرَى شيئاً، ولم يكُنْ في نفسِهِ آثارٌ تَدُلُّ على ذلكَ، فَقَطَعَ القولَ فيهِ، ولم يَكِلِ الأمْرَ إلى اللهِ. وأمّا النائمُ فإنهُ يَرَى في نومِهِ أشياءَ، [يَعْرِفُ أنها][7] لا تكونُ في وقتٍ قصيرٍ، لذلكَ وَكَلُوا الأمْرَ إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيهِ أنهمْ لما فارَقوا، ومعهمْ زادٌ، وهو الوَرِقُ، أمَرَ بعضُهُمْ بَعْضاً أنْ يُبْعَثَ [أحدُهُمْ][8] بالوَرِقِ، لِيَأتِيَهُمْ بالطعامِ. وفيهِ أنهُ أضافَ الوَرِقَ إليهِمْ، ولا شَكَّ أنهُ كانَ لهُ فيهِ نَصيبٌ حينَ[9] قالَ: ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ وفيهِ دلالةُ جَوازِ المُناهَدَةِ في الأسفارِ وغيرِها إذا كانَ ذلكَ الوَرِقُ بَينَهُمْ. وفيهِ دلالةُ جَوازِ الوَكالةِ، وأنها ليسَتْ بِمُبْدَعَةٍ، ولكنْ كانَتْ في القرونِ الماضِيَةِ، وهي مُتَوارَثَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أنبائكم. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: ويعلم. (٥) في الأصل وم: أنه يكون.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: فيعرفه أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أحَلُّ طعاماً لأنَّ بَعْضَ أهلِ تلكَ المدينةِ، يَذْبَحونَ للأصنامِ وبِاسْمِ تلكَ الأوثانِ التي كانوا يَعْبُدونَها. فأمَروهُ بأنْ يأتِيَهُمْ بحلالٍ يَحِلُّ أكْلُهُ والتَّناوُلُ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَزْكَىٰ﴾ أرخَصُ وأكثَرُ لأنهمْ كانوا في مَكانٍ، لا يَدْرونَ متى يَخْرُجونَ منهُ، فَطَلَبوا الأكْثَرَ لِشِدَّةِ حاجَتِهِمْ إليهِ، ويَكْفِيَ لِوَقْتِ مُقامِهِمْ ونَحْوِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أطْيَبُ وأجْوَدُ لأنَّ الطَّيِّبَ أزْيَدُ لِلْعُقولِ وأصْلَحُ للأنفُسِ وأنْفَعُ.

ولِذلكَ جَعَلَ اللهُ أرزاقَ البَشَرِ ما هو أطْيَبُ وألْيَنُ لِما يزيد ذلكَ في العقولِ والفُهُومِ[1]، وجَعَلَ لِغَيرِهِمْ مِنَ الدَّوابِّ كلَّ خَشِنٍ خَبيثٍ لِما لَيسَ لهمْ عقولٌ تَحتاجُ إلى ما يَزيدُ لها فيها. وأصْلُ الزَّكاءِ النَّماءُ والزِّيادَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي ولْيَرْفُقْ بهمْ لئلا يَشْعُروا[2] أنهُ مِنْ أولئكَ الذينَ فارَقُوهُمْ لدينِهِمْ. أو أمَرَهُ بالتَّلَطُّفِ أي بالسَّماحةِ والسُّهولةِ في الشِّراءِ لِما جاءَ في الخَبَرِ «رَحِمَ اللهُ رجلاً سَمْحَ البَيعَ والشِّراءِ» [بنحوه الترمذي ١٣١٩]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أنهُ فُلانُ بْنُ فُلانٍ، وأنهُ مِنْ قَومِ كذا، فَيَعْرِفوا[3] أنهُ مِنْ أصحابِ الكهفِ، أو لا يُشْعِرَنَّ بمكانِكُمْ أحداً مِنَ الناسِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ يَقْتُلوكُمْ، أو ما أرادوا بهِ ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي في دينِهِمُ الكُفْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي ما دُمْتُمْ في مِلَّتِهِمْ ودينِهِمْ. هذا كأنهمْ لم يَعْرِفوا التَّقِيَّةَ. وإلّا لو أعْطَوهُمْ بِلِسانِهِمْ، ولم يُعْطُوهُمْ بِقُلُوبِهِمْ، لكانوا قد أفلَحوا، أو عَرَفوا التَّقِيَّةَ. إلّا أنهُ لم يكُنْ لِلْقُرونِ الماضيَةِ التَّقِيَّةُ، ولم يُؤْذَنْ لهمْ فيها، أو هي رُخْصَةٌ [رَخَّصَهَا اللهُ][4] لهمْ. والأفضَلُ ألّا يُعْطى ذلكَ، ولا يُظْهَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كما أخْرَجَ المَبْعوثَ لِشراءِ الطَّعامِ مِنَ الكَهْفِ معَ الوَرِقِ المُتَقَدِّمِ ضَرْبُها، فَكانَ ذلكَ سَبَبَ إعلامِ أهلِ المدينةِ عنِ الفِتْيَةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطْلَعْنا عليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: كما أعْلَمَ عنْ أنباءِ الفِتْيَةِ وأصحابِ الكَهْفِ وقَصَصِهِمْ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطْلَعْنا عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي كما ضَرَبَ على آذانِهِمْ [وأنامَهُمْ مدةً طويلةً][5] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ لِيَعْلَموا أنَّ ما وَعَدَ لهمُ الرسلُ عنِ اللهِ حَقٌّ.

ثم اخْتُلِفَ في إطْلاعِهِمْ عليهِمْ: قالَ بعضُهُمْ: أطْلَعَ اللهُ المَلِكَ الذي هَرَبوا منهُ وأهلَ المدينةِ بَعْدَما أنامَهُمْ، لكنْ حِيلَ بَينَهُمْ وبَينَ أولئكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: أطْلَعَهُمْ قَبْلَ أنْ يُنِيمَهُمْ، فَحِيلَ بَينَهُمْ وبَينَهُمْ، فَسَدُّوا بابَ الكهفِ، فَبَقُوا هنالكَ، ثم أنامَهُمْ بَعْدَ ذلكَ ما ذَكَرَ، فَهَلَكَ ذلكَ المَلِكُ، وانقَرَضَتْ تلكَ القُرونُ، ثم وُلِّيَ مَلِكٌ آخَرُ مُسْلِمٌ صالحٌ، ثم أطْلَعَ ذلكَ المَلِكَ عليهِمْ.

وأمثالَ ذلكَ قد قالوا، فلا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفي ظاهِرِ الآيَةِ أنهُ أطْلَعَ عليهِمْ بَعْدَ ما أنامَهُمْ، وبَعَثَهُمْ. وليسَ فيهِ بَيانُ أنهُ مَنْ أطْلَعَ عليهِمْ؟ المَلِكُ الأوَّلُ أو الثاني: أو القومُ أو غَيرُهُمْ؟ ولا يجوزُ أنْ يُقْطَعَ فيهِ القولُ: إنهُ فلانٌ لأنَّ هذهِ الأنباءَ ذُكِرَتْ[6] في القرآنِ حُجَّةً لِرسولِ اللهِ ﷺ فلو قُطِعَ القولُ على شيءٍ، أو زِيدَ، أو نُقِصَ عمّا كانَ في كُتُبِهِمْ خَرَجَتْ مِنْ أنْ تكونَ حُجَّةً لهُ.

---

(١) في الأصل وم: والفهم. (٢) في الأصل وم: يشعرن. (٣) في الأصل وم: فيعرفون. (٤) في الأصل وم: رخص. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ذكر.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما][1]: يُشبِهُ أنْ يكونَ الرسلُ مِنْ قَبلُ كانوا يُخبِرونَ قومَهُمْ أنَّ نَفَراً يَهْرُبونَ مِنْ مَلِكِهِمْ إشفاقاً على دينِهِمْ، ويَلْتَجِئونَ إلى الكهفِ، فَيَنامونَ كذا وكذا[2] سنةً، ثم يُبْعَثونَ. فأكْذَبَهُمْ قومُهُمْ بما أخْبَروا قومَهُمْ مِنْ أنبائِهِمْ، فقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أنَّ ما وَعَدَ الرُّسُلُ، وأخْبَروهُمْ مِنْ نَبَإِ أصحابِ الكَهْفِ حَقٌّ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا يُنْكِرونَ البَعْثَ والساعةَ، والرُّسُلُ يُخْبِرونَ أنهمْ يُبْعَثونَ، فأطْلَعَ على أولئكَ لِيَعْلَموا أنَّ البَعْثَ والقِيامَةَ حَقٌّ؛ لأنَّ الأُعْجوبَةَ في إبقاءِ أنفُسِ أصحابِ الكَهْفِ في نومِهِمْ ثلاثَ مِئَةِ سَنَةٍ أو أكثَرَ بلا غِذاءٍ يَغْتَذونَ ولا طعامٍ يَطْعَمونَ ولا شيءٍ تَقومُ بِهِ الأنفُسُ إنْ لم تكُنْ أكثَرَ وأعْظَمَ مِنْ إحياءِ المَوْتَى وجَمْعِ العِظامِ الناخِرَةِ البالِيَةِ فَلا[3] تكونُ دونَهُ لِما لم يَرَوُا الأنفُسَ تَبْقَى أياماً بلا غِذاءٍ فَضْلاً أنْ تَبْقَى سِنينَ كثيرةً ثلاثَ مِئَةِ سنةٍ أو أكثَرَ. فَبَعَثَ هؤلاءِ لِيَعْلَمَ مَنْ أنكَرَ البَعْثَ [أنَّ][4] مَنْ قَدَرَ على إبقاءِ الأنفُسِ مُدَّةً مَديدَةً طويلَةً بلا غِذاءٍ تَغْتَذي قادِرٌ على إحياءِ المَوتَى وبَعْثِهِمْ بَعْدَ المَوتِ.

أو أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا بَدْءاً أنَّ الرُّسُلَ السالفَةَ كأنهمْ أخبَروا قومَهُمْ عَنْ قصةِ أصحابِ الكهفِ، فَكَذَّبُوهُمْ، فأطْلَعَ اللهُ نَبَأَهُمْ وَخَبَرَهُمْ لِيَعْلَمِ أولئكَ أنَّ الذي أخْبَرَهُمُ الرُّسُلُ حَقٌّ وصِدْقٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ هذهِ الأنباءَ والقِصَصَ المُتَقَدِّمَةَ ذُكِرَتْ في القرآنِ حُجَّةً لرسولِ اللهِ ودلالةً في إثباتِ رسالتِهِ. فلا يجوزُ أنْ يُقْطَعَ القَولُ في شيءٍ لم يُبَيِّنْ فيهِ، ولم يُوَضِّحْ، ولم يُفَسِّرْ، لِما يُخافُ فيهِ الكَذِبُ على اللهِ أو[5] الزيادَةُ والنُّقْصانُ على ما ذُكِرَ فيهِ لِما لَعَلَّها تَخْرُجُ مُخالِفَةً لِما ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ، فلا تكونُ لهُ حُجَّةً ولا دلالةً.

فإنْ قيلَ: كيفَ عَلِموا أنَّ ما أخْبَرَهُمُ الرُّسُلُ، ويُخْبِرونَهُمْ، إنما هو اخْتِراعٌ منهمْ، لا وَعْدٌ مِنَ اللهِ وخَبَرٌ عنهُ؟ قيلَ: عَلِموا أنَّ ذلكَ حَقٌّ بوجوهٍ.

أحَدُها: ما رَأَوا مِنَ الدراهِمِ التي كانَتْ في يَدَيِ المَبْعوثِ بِشراءِ الطعامِ مِنَ الضَّرْبِ المُتَقَدِّمِ، وإنْ كانَ يجوزُ أنْ تكونَ تلكَ الدراهِمُ/ ٣١٥ ـ أ/ مِنْ كَنْزٍ أصابَ ذلكَ الرجلُ لا مِنْ دراهِمِ أصحابِ الكَهْفِ. فإذا صَدَّقوا ذلكَ الرجلَ في ما أخْبَرَ أنها مِنْ دراهِمِ أصحابِ الكَهْفِ، فَتَصْديقُ الرُّسُلِ أولَى، وخَبَرُهُمْ أحَقُّ أنْ يُصَدَّقَ.

والثاني: عَلِموا لمّا رَأَوا أنهُ أنامَهُمْ مُدَّةً طويلةً خارجَةً عنِ العادةِ، وحَفِظَهُمْ مِنْ كلِّ ضَرَرٍ[6] وأذىً وفَسادٍ، وأبْقاهُمْ مِنْ غَيرِ طَعامٍ ولا شَرابٍ على عِلْمٍ منهمْ أنَّ الأنفُسَ لا تَبْقَى، ولا تقومُ بِغَيرِ طعامٍ ولا شَرابٍ بدونِ تلكَ المُدَّةِ بكثيرٍ فَضْلاً أنْ تَبْقَى إلى مِثْلِ تلكَ المُدَّةِ. فَعَلِموا إنَّ مَنْ قَدَرَ على حِفْظِ ما ذَكَرْنا وإبقائِهِمْ لَقادِرٌ على البَعْثِ والإحياءِ، ولا يَعْجِزُ[7] عَنْ شَيءٍ يُريدُ كونَهُ، وأنهُ فَعّالٌ لِما يُريدُ.

والثالثُ: عَلِموا أنَّ ذلكَ حَقٌّ لمّا رَأَوا أنهُ أنامَهُمْ وَقْتاً طويلاً وحَفِظَهُمْ مِنْ جَميعِ الآفاتِ، ثم بَعَثَهُمْ، وأحْياهُمْ، وأنهُ لم يُنِمْهُمْ، ولم يَبْعَثْهُمْ إلّا لِعاقِبَةٍ تُتَأمَّلُ وحِكْمَةٍ تُقْصَدُ. فَعَلَى ذلكَ إحياءُ الخَلْقِ وإماتَتُهُمْ، ليسَ إلّا لِعاقِبَةٍ تُتَأمَّلُ و حِكْمَةٍ [واللهُ أعلَمُ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ لَسْنا نَدْري في ماذا تَنازَعوا في أمْرِهِم في ما بَينَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ [يَحْتَمِلُ أنهمْ][9] تَنازَعوا في السَّبَبِ الذي بِهِ الْتَجَؤوا إلى الكَهْفِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ تَنازُعُهُمْ في البناءِ الذي ذَكَرَ في المَسْجِدِ وغَيرِهِ. ويَحْتَمِلُ في عَدَدِهِمْ ونَحْوِهِ.

ولكنْ لا نَقْطَعُ القولَ فيهِ إذْ وَكَلُوا[10] أمْرَهُمْ إلى اللهِ حينَ قالوا: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كذا. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ولا.
(٦) من م، في الأصل: ضرب. (٧) في الأصل وم: يعجزه. (٨) من م، في الأصل: فعلى ذلك. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: وكل.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ يَحتَمِلُ بناءَ المَسْجِدِ عليهِمْ إكراماً لهمْ وإعظاماً لِيَذْكُروهُمْ في ذلكَ المكانِ على قُرْبٍ منهمْ على ما ظَهَرَ عندَهُمْ مِنْ إكرامِ اللهِ إيّاهُمْ [ويَحتَمِلُ أنْ يَتَّخِذوا أنفسُهُمْ مَسْجِداً لِلعِبادَةِ][1] لِيَعْبُدوا اللهَ على قُرْبٍ منهمْ لِينالوا مِنْ بَرَكَتِهِمْ [ونَحْوِ ذلكَ][2]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ عَدَدُهُمْ سَبْعَةً، والثامِنُ الكَلْبُ، لأنهُ ذَكَرَ في الثلاثِ والخَمْسِ ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي قَذْفاً بالغيبِ وظَنّاً. وقيلَ: تَرْجَمَةً بالغَيبِ، أي بِلا عِلْمٍ. ولم يَذْكُرْ في قولِهِ: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾.

وكذلكَ قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ وقالَ: أنا مِنَ القليلِ الذينَ اسْتَثْناهُمُ اللهُ، وكانوا سَبْعَةً، والثامنُ الكَلْبُ. لَعَلَّ ابْنَ عباسٍ قالَ: أنا مِنَ القَليلِ ظَنّاً واستِدْلالاً بالذي ذَكَرَ، أو كانَ سَماعاً مِنْ رسولِ اللهِ ذلكَ.

وقالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ وغَيرُهما: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ ثم اسْتَثْنى قليلاً مِنْ عبادِهِ، فلا نَعْلَمُ بأنَّ أولئِكَ القليلُ مِنَ الملائكةِ أو مِنَ البَشَرِ أو منهمْ، فلا نَدْري مَنْ هُمْ؟ ولا كَمْ عَدَدُهُمْ؟ وبِهِ نقولُ نحنُ، وهو ما قالَ ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ نَهى رسولَهُ أنْ يَسْتَفْتِيَ فيهِمْ منهمْ أحداً لِما يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ غيرَ مُبَيَّنٍ في كُتُبِهِمْ فلا يُطْلِعُ رسولَهُ خوفَ التكذيبِ.

ثم اخْتُلِفَ في وقْتِهِمْ: قالَ بعضُهُمْ: كانَ في ما بَينَ عيسى ومحمدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ كانَ قَبْلَ بَعْثِ موسى، وهو قولُ الحَسَنِ وأبي بَكْرٍ وغَيرِهما[3]، وهذا أشْبَهُ لأنهمْ إنما سألوا عنهمْ أهلَ التوراةِ، وهمُ اليهودُ. فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بَعْدَ عيسى، وهمْ لا يُؤْمِنونَ[4] بالإنجيلِ.

وقالَ[5] أهلُ التأويلِ: كانَتْ أساميهِمْ [كذا، وعَدَدُهُمْ كذا، وليسَ بنا إلى معرفةِ أساميهِمْ وعَدَدِهِمْ][6] حاجةٌ. ولو كانَتْ لَتَوَلّى اللهُ بَيانَ ذلكَ في الكُتُبِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي ظَنّاً بالغيبِ، أي يقولونَ بالظَّنِّ، وقيلَ: قَذْفاً بالظَّنِّ على غَيرِ اسْتيقانٍ، وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٤] يَحْتَمِلُ الخِطابُ بهذا كلَّ الناسِ، ليسَ أحَدٌ أولَى بِهِ مِنْ غيرِهِ، فَيُخَرَّجُ ذلكَ مُخْرَجَ التعليمِ لهمْ في قَوْلِهِ المِراءِ معَ الكَفَرَةِ ﴿إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ وكذلكَ الإسْتِفْتاءُ، وكذلكَ عَلَّمَهُمْ، وأدَّبَهُمْ ألّا يَعِدوا عِدَةً إلّا والثُّنيا بها مُلْحَقٌ.

ويَحْتَمِلُ أيضاً أنْ يكونَ الخِطابُ بِهِ رسولَ اللهِ ﷺ لكنْ ليسَ لهُ أنهُ قد كانَ منهُ ما ذَكَرَ مِنَ المِراءِ والإسْتِفْتاءِ والوَعْدِ بِغَيرِ ثُنيا، ولكنْ خاطَبَ بِهِ رسولَ اللهِ ﷺ لِيَتَأَدَّبَ غَيرُهُ مِنَ الناسِ بذلكَ الأدبِ. وهو ما خاطَبَ بِهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤و. .] ونَحْوُهُ مِنَ الخِطاباتِ[7] التي خاطَبَ بها [لا لأنهُ][8] كانَ منهُ ذلكَ، أو كانَ فيهِ ما ذَكَرَ، ولكنْ لِما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ في ما تَقَدَّمَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في أمْرِ أصحابِ الكَهْفِ، أي ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ إلّا قَدْرَ ما كانَ في كُتُبِهِمْ؛ فإنكَ لو مارَيْتَهُمْ بما ليسَ في كتابِهِمْ كَذَّبوكَ، ولكنْ [ما][9] قَدْرَ ما في كُتُبِهِمْ.

هذا [إنْ][10] كانَ على المَسْألَةِ. فإنْ كانَ على غَيرِ المَسْألَةِ في غَيرِ أمْرِ أصحابِ الكَهْفِ على ابْتِداءِ المُحاجَّةِ والحِجاجِ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: أو يتخذون مسجداً للعبادة أنفسهم. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) في الأصل وم: وهؤلاء. (٤) في الأصل وم: يؤمنوا. (٥) في الأصل وم: وقول. (٦) في الأصل وم: وعددهم. (٧) في الأصل وم: الخطاب. (٨) في الأصل وم: فخاطبه بها إلا أن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: أي لا تُمارِ فيهمْ إلّا بما هو أظهَرُ، ويَعْرِفونَ ذلكَ ظاهراً مِنْ نَحْوِ ما يَعْرِفونَ أنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها لا تَنْفَعُ، ولا تَضُرُّ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَسْمَعُ، ونَحْوِ ذلكَ ممّا يَعْرِفونَ أنها كذلكَ.

والثاني: لا تُحاجُهُمْ بِلَطائفِ الحِكْمَةِ ورَقائِقِها، ولكنْ بشيءٍ محسوسٍ ظاهرٍ مِنَ الآيةِ بما يَلْطُفُ، ويَدِقُّ، على ما يُحاجُهُمُ الأنبياءُ بآياتٍ حِسِّيّاتٍ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ دَلالةٌ أنهُ لا يَسَعُ النظرُ في كُتُبِ[1] الفلاسفةِ إلّا على جِهَةِ العَرْضِ لِما فيها على كتابِ اللهِ، فَيأْخُذَ بما يُوافِقُهُ، ويَتْرُكَ الباقيَ.

الآيتان ٢٣ و٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لو كانَ فُهِمَ الخِطابُ على ظاهِرِ ما خُرِّجَ لَكانَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نَهْيٌ عنِ العِدَةِ بالثُّنْيا. فإنْ لم يُفْهَمْ هذا، ولكنْ فَهِموا ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [إلّا أنْ تقولَ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾][2] على إضمارِ القولِ؛ دلَّ أنَّ الخِطابَ ليسَ يُحْمَلُ على ظاهِرِ المَخرَجِ، ولكنْ على ما توجِبُهُ الحِكْمَةُ. والدليلُ ثَمَّ نَهْيٌ [عَنْ عِدَةٍ لا][3] يُسْتَثْنى فيها. وقاسَ بعضُ الناسِ الأيمانَ على العِداتِ، فَيَقولُ: إذا حَلَفَ فإنهُ يُلْزِمُهُ أنْ يَسْتَثْنِيَ فيها. وذلكَ فاسدٌ لأنَّ الأيمانَ تُخَرَّجُ على تَعْظيمِ الرَّبِّ وإجلالِهِ، فلا يَجوزُ أنْ يُؤْمَرَ بالثُّنْيا فيها، لأنَّ الثُّنْيا نَقْضُ ذلكَ التعظيمِ.

وكذلكَ ما رُوِيَ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ:][4] «إذا حَلَفْتُمْ فاحْلِفوا باللهِ» [بنحوه مسلم ١٦٤٦/٣] «ولا تَحْلِفوا بآبائكُمْ ولا بالطَّواغيتِ» [مسلم١٦٤٨] نَهى عنِ الحَلْفِ بِغَيرِ اللهِ لِما في الحَلْفِ بِهِ تَعْظيمٌ لذلكَ الشيءِ. وأمّا العِدَةُ فإنما هي إضافةُ الفِعْلِ إلى نفسِهِ، وهو لا يَمْلِكُ حقيقَتَهُ[5] لِذلكَ أَمَرَ أنْ يُلْحِقَ الثُّنْيا فيهِ لئلّا يَلْحَقَهُ الخُلْفُ في الوَعْدِ، إذا لم يَفْعَلْ ما وَعَدَ. وعلى ذلكَ ذُكِرَ مِنَ الأنبياءِ أنهمْ إذا وَعَدوا اسْتَثْنَوا فيهِ كقولِ موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ الآية [الكهف: ٦٩] ثم إذا لم يَصْبِرْ لم يُعاتِبْهُ بِتَرْكِ الصَّبْرِ، ولو كانَ خُلْفاً لَعاتَبَهُ[6] كما عاتَبَ صاحبُ موسى [موسى حينَ[7]] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]

وقد ظَهَرَ مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ الأيمانُ والأقسامُ[8]، ثم لم يُذْكَرْ عَنْ أحدٍ منهمُ الثُّنْيا في ذلكَ. دلَّ أنَّ الثُّنْيا في العِداتِ لازمةٌ، وفي الأيمانِ لا.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ دلالةُ ألّا يكونَ شيءٌ إلّا بِمَشيئةِ اللهِ حينَ[9] نَدَبَهُ إلى الثُّنْيا. ثم إذا خَرَجَ على غَيرِ ما وَعَدَ، يَلْحَقُهُ[10] الخُلْفُ في الوَعدِ، دلَّ أنهُ قد شاءَ ذلكَ، وأنهُ إذا لم يَشَأْ شيئاً لم يَكُنْ، لأنهُ لو كانَ [الحادثُ شيئاً لم يَشَأْهُ][11] هو، أو شاءَ شيئاً، فلم يكُنْ، لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مَعْنىً إذا كانَ ما لم يَشَأْ هو، ولم يكُن ما هو شاءَ. دلَّ [أنَّ ما][12] شاءَ هو كانَ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ. /٣١٥ ـ ب/

وفيهِ أنهُ قد شاءَ كلَّ طاعةٍ وخَيرٍ مِنَ العَبْدِ. فلو لم يَشَأْ ما ليسَ بطاعةٍ لَكانَ لا يَسْتَثْني. وقد عَلِمَ أنهُ قد شاءَ ذلكَ. فَدَلَّتْ ثُنْياهُ على أنهُ قد يَشاءُ ما ليسَ بِطاعةٍ إذا عَلِمَ أنهُ يَختارُ ذلكَ. وذلكَ [نَقضٌ][13] على المُعْتَزِلَةِ.

فإنْ قيلَ: إنما أمَرَ بالثُّنْيا في العَدَةِ لِما لَعَلَّهُ سَيموتُ قَبْلَ أنْ يَفْعَلَ ما وَعَدَ، أو تَذْهَبَ عنهُ القُدْرَةُ، فَيَعْجِزَ عمّا وَعَدَ، قيلَ: إنَّ الأوهامَ لا تَرْجِعُ إلى ذلكَ، بلِ الإمكانُ مَشْروطٌ فيهِ، وإنْ لم يَذْكُرْ. فَعَلى ذلكَ في العِداتِ والأيمانِ وغيرِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بهذا الخِطابِ غَيرَ النَّبِيِّ، وهو الأشْبَهُ، لِما لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النَّبِيُّ ﷺ يَعِدُ عِدَةً، ولا يَذْكُرُ الثُّنْيا لِما لا يَعْرِفُ ألا يكونُ شيءٌ إلّا بِمَشيئةِ اللهِ وإرادَتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: كتاب. (٢) في الأصل: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ في م: إلا أن تقولوا: إن شاء الله. (٣) في الأصل وم: إن عدة ولا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حقيقة. (٦) في الأصل وم: لعاقبه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: والقسم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (١١) في الأصل وم: شيئاً لم يشاء. (١٢) في الأصل: أنه إن، في م أنه. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وأمّا غيرُ النَّبيِّ فجائزٌ إلّا يَعْرِفَ ذلكَ. لِذلكَ كانَ غَيرُهُ أَولَى بِما[1] يَخرُجُ منهُ على التَّعْرِيفِ لهمْ أوِ التَّعْليمِ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ أي إذا ذَكَرْتَهُ بَعْدَ ما نَسِيتَهُ فاذْكُرْهُ كقولِهِ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثاني: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ أي [اذْكُرِ][3] الثُّنيا في آخِرِ الكلامِ ﴿إِذَا نَسِيتَۚ﴾ [في أوّلِهِ][4] أعني الثُّنيا. إذِ المُسْتَحَبُّ أنْ يَستَثْنِيَ في أوّلِ كلامِهِ على التَّبَرُّكِ كقولِهِ ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] اسْتَثْنَوا أوّلاً ثم وَعَدوا. فهو المُسْتَحَبُّ. فكأنَّهُ قالَ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ الثُّنيا في آخِرِ كلامِكَ ﴿إِذَا نَسِيتَۚ﴾ في أوّلِهِ. وهو الثُّنيا.

وهذا يَرُدُّ على أصحابِ الظاهِرِ، لأنَّ ظاهرَ الكتابِ أنْ يُخاطِبَهُمْ بِذِكْرِهِ إذا نَسُوا، ولا يجوزُ أنْ يُخاطَبَ أحدٌ[5] في حالِ نِسْيانِهِ. فإذا لم يُفْهَمْ مِنْ هذا هذا دلَّ أنَّهُ لا يُفْهَمُ على ما خُرِّجَ ظاهِرُهُ، ولكنْ على ما يَصِحُّ، ويُوجِبُ الحِكْمَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي﴾ الآيةُ هي أوضَحُ على دلالةِ رِسالتي وآخَذُ مِمّا تَسْألونَني مِنْ أمرِ أصحابِ الكهفِ؛ لأنهمْ كانوا[6] يَسْألونَهُ عن خَبَرِهِمْ، فَيَسْتَدِلّونَ على رسالتِهِ وصِدْقِهِ، ويقولُ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٦١] على دلالةِ رسالتي [التي هي][7] أوضَحُ ممّا تَسْألونني وآخَذُ للقلوبِ، إذْ كانَتْ لهُ آياتٌ حِسِّيّاتٌ على رسالتِهِ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ﴾ عَسَى مِنَ اللهِ واجبٌ؛ أي قد هَداني ربي الرُّشْدَ والصوابَ. وأمّا غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ فيقولونَ[8]: إنهُ وَعَدَ لأولئكَ أنْ يُخبِرَهُمْ غداً عمّا يَسْألونَ، وقالَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن﴾ يُرْشِدَني ربي لأَسْرعَ مِنْ هذا المِيعادِ الذي وَعَدْتُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِ أولئكَ الذينَ قالوا: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ الآيةَ [الكهف: ٢٢] معَ قولِهِ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ ما ذُكِرَ. فأمَرَهُ أنْ يَقولَ لهمْ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ الآيةَ [الكهف: ٢٦].

وقالَ بعضُهُمْ: هو قولُ اللهِ أخبَرَ أنهمْ لَبِثوا ما ذُكِرَ مِنَ المُدَّةِ ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ قالَ: تِسْعَ سِنينَ لكنْ ليسَ فيهِ بَيانٌ أنهُ أرادَ تِسْعَ سِنينَ أو تِسْعَةَ أشهُرٍ أو تِسْعَةَ أيّامٍ، فلا نَدْري أرادَ بذلكَ ذا أو ذا.

فالأمرُ فيهِ إلى اللهِ على ما أمَرَ رسولَهُ أنْ يَقولَ لهمْ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

فإنْ قيلَ في قولِهِ: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ﴾ ألا قالَ: ثلاثَ مِئَةِ سنةٍ كما يُقالُ: ثلاثُ مِئَةِ رجلٍ وثلاثُ مِئَةِ درهمٍ ونَحْوُهُ؟ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: إنهُ لم يُضِفْ ثلاثَ مئةٍ إلى سِنينَ، ولكنهُ أرادَ تمامَ الكلامِ لقولِهِ: ثلاثَ مئةٍ. لذلكَ نَوَّنَها[9].

ثم أخبَرَ ما تِلْكَ [ثلاثُ المئةِ][10]، فقالَ: سِنينَ على القَطْعِ مِنْ أولِ القَطْعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ جَعَلَ عِلْمَ مُدَّةِ لَبْثِهِمْ إلى اللهِ تعالى. وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً ثلاثةً:

أحَدُها: لهُ عِلْمُ ما غابَ عنْ أهلِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ كقولِهِ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: ٧٣].

والثاني: لهُ عِلْمُ ما غَيَّبَ، وأسَرَّ أهلُ السمواتِ والأرضِ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) في الأصل وم: العلم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وله. (٥) في الأصل وم: أحداً. (٦) في الأصل وم: قالوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نون فيها. (١٠) في الأصل وم: الثلاث مئة.

والثالث: لهُ عِلْمُ غَيبِ ما شَاهَدَ[1] أهلُ السمواتِ وأهلُ الأرضِ، لأنَّ في [ما][2] شاهَدوهُ مِنَ الأشياءِ، وعايَنوها، غَيْباً وسِرِّيَّةً لم يَعْلَموهُ مِنْ نَحوِ الشمسِ شاهَدوها، وعَرَفوا أنها شمسٌ، ولكنْ لم يَعْلَموا ما فيها مِنَ المَعْنَى الذي بِهِ صلاحُ الأشياءِ ومَنافِعُها، وكذلكَ القَمَرُ. وإنما شاهَدوا هذِهِ الأشياءَ، ولكنْ لم يَعْرِفوا المَعْنَى الذي بِهِ، صارَتْ نافِعةً لِلأشياءِ[3].

وكذلكَ السمعُ والبَصَرُ والعَقْلُ ونَحْوُها[4] مِنَ الحواسِّ عَرَفوا هذِهِ الحواسَّ على ظواهِرِها، ولكنْ لا يَعْرِفونَ المَعْنَى الذي بِهِ يَسْتَمِعونَ، ويُبْصِرونَ، ويَفْهَمونَ. فَيَقولُ: لهُ عِلْمُ ما غابَ عنكُمْ مِنْ هذهِ الأشياءِ التي شاهَدْتُموها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ هذا كلامٌ يُتَكَلَّمُ عنِ النهايةِ والغايةِ والبلاغِ[5] مِنَ الوصفِ. ويُقالُ: أكْرِمْ بِهِ مِنْ فلانٍ، إذا كانَ بَلَغَ الكرمُ بِهِ غايَتَهُ. وكذلكَ يُقالُ: أحْسِنْ بِهِ مِنْ فلانٍ، إذا بَلَغَ في الحُسْنِ غايَتَهُ. ونَحْوُهُ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ هو وصفٌ لهُ على النهايةِ كما يُقالُ: ما أعْلَمَهُ، وما أبْصَرَهُ، وما أكْرَمَهُ، وما أحْسَنَهُ في العِلْمِ، إنهُ يَعْلَمُ ما غابَ [عنِ الخَلْقِ وما شاهدوا و ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ مِنَ الأفعالِ التي يَفْعَلونَ و ﴿وَأَسْمِعْ﴾ بهِ مِنَ الأقوالِ التي يَتَفَوَّهونَ، أي يَعْلَمُ ما غابَ][6] عنهُمْ ممّا لم يَفْعَلوا، ولم يَقولوا: فالذي قالوهُ، وفَعَلوهُ أحَقُّ أنْ يَعْلَمَ. يُحَذِّرُهُمْ ﷻ عَنْ أفعالِهِمْ، والله المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يَحْتَمِلُ: ولايُشْرِكُ في ألوهِيَّتِهِ أحداً. ويَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أيِ الحُكْمُ لهُ، ليسَ لأحدٍ دونَهُ حُكْمٌ، إنما عليهِمْ طَلَبُ حُكْمِ اللهِ في ما يَحْكُمونَ. أو لا يُشْرِكُ في تقديرِهِ وتدبيرِهِ الذي يُدَبِّرُ في خَلْقِهِ أحداً. ويَحْتَمِلُ ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى﴾ قِسْمَتِهِ التي يَقْسِمُ بينَ الخَلْقِ أحداً ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ أي في ما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، ودَعَتِ الخَلْقَ إليهِ ﴿أَحَدًا﴾.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿كِتَابِ رَبِّكَ﴾ اللَّوحَ المَحْفوظَ؛ أي بَلِّغْ ما أُوحِيَ إليكَ مِنَ اللوحِ الذي عندَ اللهِ مِنْ مَتْلُوٍّ كقولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وهو جميعُ ما أُنْزِلَ إليهِ مِنَ المَتْلُوِّ. ويَحْتَمِلُ ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ الكتابَ الذي أُنْزِلَ عليهِ، وهو القرآنُ؛ أي اتْلُ عليهِمْ ذلكَ الكتابَ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ أنَّ القرآنَ ممّا يُتَقَرَّبُ بِتِلاوَتِهِ.

ثم في قولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وقولِهِ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ فريضةٌ ضَيَّعْناها. وذلكَ أنهُ أَمَرَ رسولَهُ بِتَبْليغِ رسالتِهِ وما أَنْزَلَ إليهِ. ثم مَعْلومٌ أنَّ مَنْ كانَ في أقْصَى الدنيا وأبْعَدِ أطرافِها لم يَقْدِرْ رسولُهُ أنْ يَتَوَلَّى التَّبْليغَ بنفسِهِ، وكذلكَ بَعْدَ وفاتِهِ، لا يَجوزُ أنْ يَتَوَلَّى تَبْليغَهُ[7].

فكانَ [القِيامُ بِتَبْليغِ ذلكَ][8] يَلْزَمُ المُسْلِمينَ وأئِمَّتَهُمْ[9]، فَضَيَّعوا ذلكَ.

ولهذا ما رَخَّصَ، واللهُ أعلَمُ، بدخولِ المُسْلِمينَ دارَ الحَرْبِ للتجارةِ ودخولِ أولئكَ دارَ الإسلامِ للتجارةِ أيضاً لِيَنْتَهِيَ إليهِمْ خَبَرُ هذا الدينِ حيثُ عُلِمَ أنهُ يكونُ أئمةٌ في آخِرِ الزَّمانِ، لا يَهْتَمّونَ لِدينِهِ، ولا يَتَوَلَّوْنَ تَبْليغَ ما أُمِروا بِتَبْليغِهِ، ويُضَيِّعونَ أمْرَهُ، فَتَلْزَمُهُمْ حُجَّةُ اللهِ. وإلّا ما الحاجةُ في تلكَ التجارةِ والأموالِ التي يَتَّجِرونَ فيها؟ ولكنْ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا مُبَدِّلَ لِسُنَّتِهِ؛ إذْ سُنَّتُهُ في المُكَذِّبينَ الإهلاكُ، [وفي][10] المُصَدِّقينَ النجاةُ. وهذِهِ سُنَّتُهُ، وإنْ أمْكَنَ تَعْجيلُها وتأخيرُها. فأمّا سُنَّتُهُ فهيَ لا تَبَدَّلُ، ولا تَحَوَّلُ، كقولِهِ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] [وقولِهِ][11]: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما وَعَدَ، وأوعَدَ لهمْ في الدنيا، فذلكَ في الآخِرَةِ لا يُبَدَّلُ، ولا يُحَوَّلُ؛ إذ وَعَدَ للمؤمنينَ الجنةَ وللكافرينَ العذابَ. فذلكَ لا يُبَدَّلُ.

---

(١) من م، في الأصل: أشهد. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: ومصلحتها. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) في الأصل وم: والإبلاغ. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: بتبليغه. (٨) في الأصل وم: ذلك القيام. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: بتبليغه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقال/٣١٦ ـ أ/ بعضُهُمْ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وهي القرآنُ، لا يَتَبَدَّلُ، ولا يَتَغَيَّرُ، ولا يُزادُ، ولا يُنْقَصُ، كقولِهِ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لِحُجَجِهِ وبَراهينِهِ التي جَعَلَ لدينِهِ، وأقامَ لهُ. ذلكَ يَلْزَمُ الإسلامَ ودينَهُ إلّا مَنْ قَصَّرَ عليهِ في العبادةِ، أو كانَ المُقامُ عليهِ الحُجَّةُ مُعانِداً مُكابِراً. وأمّا مَنْ لم يكنْ [فيهِ][1] هذانِ المَعْنَيانِ يَسْلَمْ، لا مَحالَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ هذا الخِطابُ، وإنْ كانَ في الظاهرِ لرسولِ اللهِ، فهو يُخَرَّجُ مُخرَجَ التَّنْبيهِ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ. وقولُهُ تعالى: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُدْخَلاً، ولذلكَ سُمِّيَ اللَّحْدُ لَحْداً لِما يُدْخَلُ فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: مَلْجَأً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ بالغَداةِ والعَشِيِّ مَعَ الذينَ يَدعونَ ربَّهُمْ، فيكونُ فيهِ الأمرُ بالجُلوسِ لهمْ بالغَدَواتِ والعَشِيّاتِ لِلتَّذْكيرِ وتَعْليمِ العِلْمِ على ما تَعارَفَ الناسُ الجلوسَ للناسِ لذلكَ في هذينِ الوَقْتَينِ؛ إذْ ذانِكَ الوَقْتانِ خالِيانِ عنِ الأشغالِ التي تَشْغَلُهُمْ عَنْ ذلكَ: الغَداةُ والعَشِيُّ لِما لم يَجْعَلْ عليهِمْ بَعْدَ صلاةِ الغَداةِ صلاةً وكذلكَ بَعْدَ العَصْرِ لِلذِّكْرِ الذي ذَكَرْنا وتَعْليمِ ما يَحْتاجونَ في لَيلِهِمْ ونَهارِهِمْ.

أو أنْ يكونَ ذلكَ كِنايَةً عَنْ صلاةِ الفَجْرِ والعَصْرِ لِما جاءَ لهما مِنْ فَضْلٍ وَوَعيدٍ[2] لم يَجِئْ في غَيرِهِما مِنَ الصلواتِ نَحْوُ ما ذَكَرَ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. وأمّا ما رُوِيَ في العَصْرِ مِنَ الوعيدِ [فهو][3] «مَنْ فاتَهُ العَصْرُ فكأنما وَتَرَ أهلَهُ ومالَهُ» [مسلم٦٢٦/ ٢٠١] ونَحْوُ أمرٍ يُصَبِّرُ نَفْسَهُ على حِفْظِ هذينِ لِما ذَكَرْنا مَعَ ذِكْرٍ.

أو أنْ يكونَ لا على إرادةِ غَداةٍ أو عَشِيٍّ، ولكنْ بالكَونِ مَعَ أتباعِهِ في كلِّ وقتٍ والصَّبْرِ معهمْ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ذَكَرَ هذا لأنَّ رؤساءَ كُفّارِ مكةَ سألوهُ أنْ يَطْرُدَ أتباعَهُ مِنْ عندِهِ، ويَتَّخِذَ لهمْ مَجْلِساً. فنَزَلَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٥٢]. وقولُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

وقالوا في قولِهِ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ نَزَلَ في أصحابِ الكَهْفِ. يَقولُ: وأخبِرْهُمْ ما سَألوكَ مِمّا أوحَينا إليكَ مِنْ أخبارِ أصحابِ الكَهْفِ، ولا تَزِدْ[4]، ولا تَنْقُصْ عليهِ. فإنْ كانَ في أمْرِهِمْ نَزَلَ هذا فَرَسولُ اللهِ كانَ لا يُخْبِرُهُمْ إلّا ما أُوحِيَ إليهِ، وأُنْزِلَ عليهِ مِنْ أمرِهِمْ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا[5]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ قيلَ: ولا تَتَعَدَّ عنهُمْ إلى غَيرِهِمْ. وقيلَ: لا تَصْرِفْ، ولا تَرْفَعْ عَينَيكَ عنهمْ [ولا][6] تُجاوِزْهُمْ إلى غَيرِهِمْ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: إنْ كانَ على تأويلِ أهلِ التأويلِ أنهمْ سألوهُ أنْ يَتَّخِذَ لهمْ مَجْلِساً دونَ أولئكَ فيكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تريدُ أولئكَ الذينَ يَطْلُبونَ منكَ مَجْلِساً على حِدَةٍ، يُريدونَ بذلكَ زينةَ الحياةِ الدنيا لا يُريدونَ بذلكَ وجهَ اللهِ.

والثاني: لو فَعَلْتَ ما سَألوكَ كانَ فِعْلُ ذلكَ فِعْلَ مَنْ يريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا، لأنَّ المَجْلِسَ الذي يَحْضُرُهُ الأشرافُ والرُّؤَساءُ إنما يُرادُ بهِ زينةُ الحياةِ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ تأويلُ الآيةِ على قَولِنا ظاهرٌ؛ نحنُ نقولُ على ما نَطَقَ ظاهِرُ الآيةِ: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي مَنْ خَلَقْنا ظُلْمَةَ الكُفْرِ بِكُفْرِهِمْ في قلوبِهِمْ، أو خَذَلْناهُمْ بكفرِهِمُ الذي فَعَلوا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تزيد. (٥) من م، في الأصل: ذكر. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وأمّا المُعْتَزِلَةُ فإنهم قد تَحَيّروا فيهِ، وتاهُوا، وأكْثَرُوا التأويلاتِ فيهِ حتى إنّ منهمْ مَنْ صَرَفَ القراءَةَ عنْ وَجْهِها، فقالَ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ﴾ أغْفَلَنا بِنَصْبِ اللامِ، وقالَ[1]: قَلْبُهُ بِرَفْعِ الباءِ؛ مَعْناهُ: أي مَنْ غَفَلَ قَلْبُهُ عنْ ذِكْرِنا، على قَوْلِ المُعْتَزِلَةِ، على صَرْفِ الفِعْلِ إلى القَلْبِ. وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[2] [الفلق: ٢] لِيَصِحَّ على مذهبِهِمْ، ويَسْتَقيمَ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي لا تُطِعْ مَنْ وجَدْنا قَلْبَهُ غافِلاً، وقالَ: وذلكَ مُسْتَقيمٌ في اللغةِ. يُقالُ: [قاتَلْناهُمْ فما أَجْبَنّاهُمْ][3] أي ما وَجَدْناهُمْ جُبَناءَ، ويُقالُ: فَسَأَلْناهُمْ، فما أبْخَلْناهُمْ، أي ما وجَدْناهُمْ بُخَلاءَ، ونَحْوُهُ مِنَ الكلامِ، وهو تأويلُ الجُبّائيِّ في ما أظُنُّ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أي مَنْ خَلَّينا بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يَغْفُلُ [عنهُ][4] وهو كما يُقالُ لِمَنْ خَلّى عَبْدَهُ حتى أفْسَدَ كثيراً مِنَ الناسِ؛ يُقالُ: سَلَّطْتَ عبدَكَ على الناسِ، وهو لم يُسَلِّطْهُ عليهِمْ، لكنهُ يُقالُ لهُ لِما قَدَرَ على مَنْعِهِ عنْ ذلكَ والحَيلولَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما فَعَلَ، أُضيفَ ذلكَ إليهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي خَلَّينا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ما فَعَلوا، ولم نَمْنَعْهُمْ؛ وهو تأويلُ جَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ للأسبابِ التي أعطاهُمْ مِنَ السَّعَةِ والغِنَى والشَّرَفِ في الدنيا. فتلكَ الأسبابُ التي أعطاهُمْ هي التي حَمَلَتْهُمْ على ذلكَ، فأُضيفَ إليهِ ذلكَ لِذلكَ، وهو ما قالَ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وهو تأويلُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أي خَذَلْناهُمْ، وطَبَعْنا على قلوبِهِمْ، وهو يقولُ: إنّ لِلْكُفْرِ حدًّا، إذا بَلَغَ [الكافرُ][5] ذلكَ الحَدَّ يَخْذُلُهُ، ويَطْبَعُ على قَلْبِهِ، فلا يؤمِنُ أبداً، فَيُقالُ: خَذَلَهُ في أوَّلِ حالِ كُفْرِهِ، فهو قولُنا. وإنْ قالَ لا في أوَّلِ حالِهِ، ولكنْ بَعْدَ زَمانٍ، فهو كافرٌ مُرَفَّقٌ[6] ومُؤْمِنٌ مَخْذولٌ على قولِهِ. فنعوذُ باللهِ ممّا قالوا.

ثم الجوابُ للأوَّلِ ما ذَكَرْنا مِنْ صَرْفِ التنزيلِ عنْ وجهِهِ وظاهِرِهِ. فلو جازَ لهمْ ذلكَ [جازَ][7] لِغَيرِهِمْ صَرْفُ جميعِ الآياتِ عنْ ظاهِرِ التَّنْزيلِ، وذلكَ بَعيدٌ مُحالٌ.

وأمّا تأويلُ الجُبّائيِّ: أي وجَدْناهُمْ كذا، فإنما يَسوغُ لهُ هذا إذا كانَ جميعُ حروفِ أفْعَلَ يُخَرَّجُ على ما يقولُهُ في اللغةِ. فأمّا أنْ يُقالَ في بَعضٍ فإنَّ ذلكَ غَيرُ مستقيمٍ.

وبَعْدُ فإنهُ لو كانَ كما ذَكَرَ لَكانَ يقولُ: ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْتَهُ عنْ ذِكْرِنا، أي وجَدْتَهُ غافِلاً عنْ ذِكْرِنا، لأنهُ نَهَى عنْ أنْ يُطيعَ مَنْ وجَدَهُ غافلاً. فهو لا يَعْلَمُ مَنْ [وجَدَهُ اللهُ غافِلاً. إنما يَعْلَمُ مَنْ][8] وَجَدَهُ[9] بِنَفْسِهِ غافِلاً.

فأمّا إذا ذَكَرْنا لم يَكُنْ لِلنَّهْيِ عمّا ذَكَرَ مَعْنىً. فَدَلَّ أنّ تأويلَهُ فاسِدٌ وخَبالٌ، وأنَّ إضافَتَهُ إليهِ لِمَعْنىً يكونُ مِنَ اللهِ.

وأمّا جوابُ تأويلِ جَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ أنهُ على التَّخْلِيَةِ والتَّسْليطِ فهو إنما يُقالُ لِمَنْ قالَ:[10] سَلَّطْتَ عبدَكَ على كذا على الذَّمِّ لا على المَدْحِ، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ ذلكَ في اللهِ على الذَّمِّ، ويُضافَ إليهِ أيضاً ذلكَ.

وكذلكَ يُقالُ لأبي بَكْرٍ حينَ[11] قالَ: إنما أضافَ ذلكَ إليهِ للأسبابِ التي ذَكَرَ أنهُ أعطاهُمْ؛ يُقالُ لهُ ذلكَ، ويضافُ على الذَّمِّ: إنكَ أعْطيتَ كذا حتى فَعَلَ كذا. فأمّا أنْ يُقالَ على المَدْحِ فلا. فَيَبْطُلُ قولُهُ وتأويلُهُ.

فَدَلَّتْ إضافةُ ذلكَ إلى نفسِهِ أنهُ كانَ منهُ في ذلكَ مَعْنىً تَسْتَقيمُ إضافَتُهُ إليهِ. وهو ما ذَكَرْنا مِنْ خَلْقِ الظُّلْمَةِ في قلوبِهِمْ بِكُفْرِهِمُ الذي اخْتاروا وخِذْلانِهِ إيّاهُمْ لِما اخْتاروا، وآثَروا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [قالَ بعضُهُمْ: ﴿فُرُطًا﴾][12] أي ضَياعاً وهَلاكاً. و قالَ بعضُهُمْ: ﴿فُرُطًا﴾ أي خُسْراناً وخَساراً.

---

(١) في الأصل وم: و، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٦١. (٢) مِن شَرٍّ ما خُلِقَ بالتنوين والبناء للمجهول، انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٢٧٧. (٣) في الأصل: فأتيناهم فما أوجبناهم، في م: قاتلناهم فما أوجبناهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: موفق. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وجدهم. (١٠) في الأصل وم: يقال. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿فُرُطًا﴾ هو مِنَ التَّفريطِ. وقالَ غيرُهُ: [فَرَطٌ][1] في القولِ ليسَ كما قالَ: إنّا رؤوسٌ مِنْ مُضَرَ إنْ تَسلَمْ يَسْلَم الناسُ بَعْدَنا على ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ[2]: ﴿فُرُطًا﴾ أي نَدَماً.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ كأنهُ على الإضمارِ، أي قُلْ قد جِئتُكُمْ بالحَقِّ مِنْ ربِّكُمْ. أو يقولُ: قُلْ لهمْ: قد تَعلَمونَ أني قد جِئتُكُمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ على ما أدعوكُمْ إليهِ ما لا تَحتَمِلُ بُنْيَتي[3]، ويَخرُجُ عنْ وُسْعي وطاقتي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ يَحتَمِلُ[4] هذا وجوهاً:

أحدُها: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إنما يَعمَلُ لِنفسِهِ، ليسَ يَعمَلُ لأحدٍ سِواهُ، كقولِهِ[5]: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقولِهِ: /٣١٦ - ب/ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧] فعَلَى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: إني بَلَّغتُ الرسالةَ إليكُمْ، فلا أُكرِهُكُمْ أنا على الإسلامِ، ولا أحَدَ سِوايَ ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [فَمَنْ آمَنَ فإنما][6] يُؤمِنُ بِاختيارِهِ ومَشيئتِهِ. ومَنْ كفَرَ فإنما يَكفُرُ باختيارِهِ ومَشيئتِهِ لا يُكرَهُ على ذلكَ.

والثالثُ: أنَّ الإيمانَ والكُفرَ قد بَيَّنَ اللهُ لهما العَواقبَ: [عاقِبَةَ مَنِ اختارَ الإيمانَ؟ و][7] عاقِبَةَ مَنِ اختارَ الكُفرَ؟ وهو ما قالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وقالَ للمؤمنينَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ الآية [الكهف: ٣٠و٣١] يقولُ: قد بَيَّنَ لكلٍّ واحدٍ منهما عاقِبَتَهُ. فَمَنْ شاءَ اكْتَسَبَ لِنَفْسِهِ في العاقبةِ الجِنانَ وما فيها مِنَ النعيمِ، ومَنْ شاءَ اكْتَسَبَ ما ذَكَرَ في العاقبةِ مِنَ النارِ وأنواعِ العذابِ. فذلكَ كلُّهُ يُخَرَّجُ على الوَعيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ وقتَ دخولِهِمُ النارَ ﴿نَارًا﴾ وهو في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهما: على إرادةِ حَقيقةِ السُّرادِقِ.

والثاني: على التَّمثيلِ، أي تُحيطُ بهِمُ النارُ فلا يَقدِرونَ على الخروجِ منها على ما يَمْنَعُ السُّرادِقُ مِنَ الخروجِ في الدنيا ودَفْعِ الحَرِّ والبَرْدِ.

فإنْ كانَ على حَقيقةِ السُّرادِقِ فهو، واللهُ أعلَمُ، على ما جَعَلَ اللهُ لهمْ مِنْ أنواعِ ما كانوا يَتَفاخَرونَ في الدنيا بهِ مِنَ اللِّباسِ والطعامِ والشرابِ وغَيرِ ذلكَ يَجعَلُ لهمْ [الطعامَ][8] في الآخِرَةِ مِنْ ذلكَ النوعِ مِنَ النارِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وما قالَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] والشرابَ ما ذَكَرَ ﴿مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] و ﴿مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] وغَيرِ ذلكَ مِنَ النوعِ الذي كانوا يَتَفاخَرونَ بهِ في الدنيا، ويَمْنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ، جَعَلَ لهمْ في الآخِرَةِ مِنْ ذلكَ النوعِ مِنَ النارِ، وبهِ يُعاقِبُهُمْ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونوا يَتَفاخَرونَ بهِ في الدنيا بالسُّرادِقِ، إذا خَرَجوا في السَّفَرِ، فَيُعاقِبُهُمُ اللهُ في النارِ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ تَحتَمِلُ اسْتِغاثَتُهُمْ[9] ما ذَكَرَ في الآيةِ ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] فَيُغاثونَ ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ وتَحتَمِلُ أنْ يَطلُبوا في النارِ الماءَ بَعْدَ ما طُعِموا فيها منها. فَيُغاثونَ بالمُهْلِ.

ثم المُهْلُ: قالَ عامَّتُهُمْ: المُهْلُ هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ أو العَكَرُ[10]. لكنهُمُ اختَلَفوا في مَعْنَى التشبيهِ بهِ: قالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَهُ بهِ لِغِلَظِهِ، لأنَّ الشيءَ الغليظَ يكونُ ألصَقَ وآخَذَ مِنْ غَيرِهِ. و قالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَهُ بهِ لِسَوادِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: عبيد. (٣) في الأصل وم: بليتي. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم. (٥) من م، في الأصل: بقوله. (٦) في الأصل وم: إنما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: العصير.

وقالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ: تَشبيهُهُ بِهِ لِكَثْرَةِ تَلَوُّنِهِ مِنَ الحُمْرَةِ والصُّفْرَةِ والسَّوادِ ونَحْوِهِ لِشِدَّتِهِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] لِتَلَوُّنِهِ لِشِدَّةِ ذلكَ اليومِ وهَوْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي ساءتِ النارُ مُرْتَفَقاً. اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: المُجْتَمَعُ، أي بئسَ الاِجْتِماعُ. وقالَ بعضُهُمْ: مَجْلِساً. و قالَ بعضُهُمْ: بئسَ المَنْزِلُ النارُ، قُرَناؤُهُمْ فيها الكفارُ والشياطينُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: إنّا لا نُضيعُ أجرَ مَنْ أحْسَنَ عملاً منهمْ، ثم قالَ: الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أولئكَ لهمْ جَنّاتُ عَدْنٍ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، ولكنْ ما ذَكَرَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ منهمْ. ثم بَيَّنَ ما لهمْ، فقالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: السُّرادِقُ البِناءُ الذي يُبْنى مِنَ الكِرْباسِ[1] شِبْهُ الدارِ والحُجْرَةِ ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي مُتَّكأً ومَنْزِلاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: السُّرادِقُ الحُجْرَةُ التي تكونُ حَولَ الفُسْطاطِ، قالَ: وهو الدُّخانُ يُحيطُ بالكفارِ يومَ القِيامةِ، وهو الظِّلُّ ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] والمُهلُ دُرْدِيُّ الزيتِ، ويُقالُ: ما أُذيبَ مِنَ النُّحاسِ والرَّصاصِ ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي مَجْلِساً. وأصلُ الاِرْتِفاقِ الاِتّكاءُ على المِرْفَقِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ يَذْكُرُ ثَوابَ المؤمنينَ الذينَ تَرَكوا شَهَواتِهِمْ في الدنيا لها ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ قالوا: الإِسْتَبْرَقُ الديباجُ الغليظُ، والسُّنْدُسُ هو الرقيقُ، والغَليظُ منهُ لا يُلْبَسُ. لكنهُ لأنَّهُ جَمَعَ بينَ ما يُلْبَسُ وبينَ ما يُبْسَطُ، فَذَكَرَ اللُّبْسَ كما يُقالُ: أطْعَمْتُ فلاناً طَعاماً وشَراباً، والشَّرابُ لا يُطْعَمُ. وقيلَ: إنَّ الإِسْتَبْرَقَ، هو الرقيقُ مِنَ الدِّيباجِ بِلُغَةِ قومٍ. فإنْ كانَ ما ذَكَرَ فكأنهُ إنما ذَكَرَ ذلكَ لأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأرائكُ السُّرُرُ في الحِجالِ، والأريكةُ السريرُ في الحَجَلَةِ. و قالَ بعضُهُمْ: الأرائِكُ السُّرُرُ عليها حِجالٌ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الأرائكُ [جمعُ الأريكةِ، وهي][2] الوِسادةُ ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قيلَ: مَنْزِلاً.

وأصلُ هذا أنهُ وَعَدَ لهمْ في الآخِرَةِ ما كانَتْ أنفُسُهُمْ تَرْغَبُ فيهِ في الدنيا لِيَتْرُكوا ذلكَ في الدنيا لِلْموعودِ في الآخِرَةِ. وكذلكَ حَذَّرَهُمْ في الآخِرَةِ بأشياءَ تنفُرُ [منها][3] أنفُسُهُمْ وطِباعُهُمْ في الدنيا لِيَحْذَروا ما يَسْتَوجِبونَ المَوعودَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ جائزٌ أنْ يكونَ هذا المَثَلُ، كانَ في الأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ وكُتُبِهِمْ.

سُئِلَ رسولُ اللهِ عَنْ ذلكَ لِيُعْلَمَ، ولِيَتَبَيَّنَ لهمْ صِدْقُهُ بأنهُ رسولُ اللهِ ﷺ على ما يَدْعُو[4] على ماسُئِلَ هو عَنْ قِصَّةِ ذي القَرْنَينِ ونَبَئِهِ، وأنباءِ أصحابِ الكَهْفِ وأخبارِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لهمْ صِدْقُهُ، إذْ عَلِموا أنَّ تلكَ الأنباءَ والقِصَصَ لا تُعْلَمُ، ولا يَعْرِفُها إلّا مَنْ عَلِمَ كتابَ اللهِ، إذْ كانَ ذلكَ في كُتُبِ اللهِ، وهو لم يَعْرِفْ تلكَ الكُتُبَ لأنها كانَتْ بِغَيرِ لسانِهِ، ولم [يُرَ أنهُ][5] اخْتَلَفَ إلى مَنْ يَعْرِفُها لِيَتَعَلَّمَ منهُ.

---

(١) في الأصل: الكبريس، في م، الكريبس. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يدعى. (٥) في الأصل وم: يروه.

ثم أنبأهُمْ على ما كانَ في كُتُبِهِمْ. فَدَلَّ ذلكَ أنهُ[1] إنما عَرَفَ باللهِ وأنهُ صادقٌ في ما يَدْعُو[2] مِنَ الرسالةِ.

على هذا يجوزُ أنْ يُقالَ، واللهُ أعلَمُ، فيكونُ في ذلكَ آيةٌ لِرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ إلى آخِرِهِ أيِ اضربْ لِلْمُعْتَبِرينَ والمُتَوسِّمينَ مَثَلَ رَجُلَينِ، هذا سَبِيلُهُما؛ يَرْغَبُ أحدُهُما في الدنيا وزينَتِها، ويَطْلُبُها، لا يَرى غيرَها. والآخَرُ يَرْغَبُ في الزهدِ فيها وتَرْكِ الطَّلَبِ لها، ويَرْغَبُ[3] في الآخِرَةِ.

فإنْ كانَ على هذا أو ما ذَكَرْنا مِنْ ضَرْبِ مَثَلِهِ ومَثَلِ أولئكَ فهو على الابْتِداءِ، فَيَخْرُجُ على الاعْتِبارِ والتَّفَكُّرِ في ما ذَكَرَ تنبيهاً وإيقاظاً. وإنْ كانَ على السؤالِ عمّا كانَ فهو ليسَ على الاعْتِبارِ، ولكنْ على الإنباءِ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ ففيهِ آيةٌ لِرسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ.

ثم قولُهُ: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي بَينَ الجَنَّتَينِ.

الآية ٣٣ [وقولُهُ تعالى]: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي حَمْلَها، ولم يَقُلْ: آتتا أُكُلَهُما، خَرَّجَهُ[4] على اسْمٍ واحِدٍ، وإنْ كانَ في المَعْنَى على التَّثْنِيَةِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِكَ: كِلْتا المَرْأتَينَ صالحةٌ /٣١٧ ـ أ/ وكِلانا صالحٌ، وفيهِ قولُ الشاعِرِ.

كِلانا شاعرٌ مِنْ حَيِّ صِدْقٍ ... ولكنَّ الرَّحى تَعلو الثُّفالا

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي لم تُنْقِصْ مِنْ ثَمَرِها شيئاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي أجْرينا بَينَهما مِياهاً جارِيَةً.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ ثُمُرٌ[5] بالرفعِ فهو كلُّ ما كانَ يَمْلِكُ مِنَ الجِنانِ وغَيرِها.

ومَنْ قَرَأَ بالنصبِ فهو على الثَّمَرِ. و قالَ بعضُهُمْ: الثَّمَرُ بالنصبِ هو[6] الثَّمَرُ، والثُّمُرُ بالرفعِ هو[7] جميعُ الثمارِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يُكَلِّمُهُ، أو يُجيبُهُ، أو يُنازِعُهُ، ويُناظِرُهُ ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الخِطابُ منهُ على الابْتِداءِ، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ كانَ مِنْ صاحبِهِ لهُ وعيدٌ وتخويفٌ. فَعِنْدَ ذلكَ قالَ لهُ ما ذَكَرَ. أو أنْ يكونَ قالَ: يُعْطيني ربي في الآخِرَةِ مِثْلَ ذلكَ أو خَيراً منها. فقالَ لهُ عندَ ذلكَ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي قد تَفَضَّلَ عليَّ في الدنيا، وفَضَّلَني عليكَ، فَيُفَضِّلُني أيضاً في الآخِرَةِ عليكَ حينَ[8] قالَ: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] أي [إنْ][9] كانَ ما تَزْعُمُ صِدْقاً أنّا نُبْعَثُ، ونُرَدُّ إلى اللهِ، وإلّا على الابْتِداءِ لا يَصِحُّ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ أي ظالِمٌ نفسَهُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾ بَدَنَهُ ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ﴾ المَعْنَى الذي يكونُ في النَّفْسِ[10]؛ يَسْتَعْمِلُها في ما يُسْتَعْمَلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿مَآ أَظُنُّ﴾ أي ما أُوقِنُ[11]، وما أعلَمُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الظَّنُّ لأنَّ صاحِبَهُ كانَ يُناظِرُهُ فيهِ، فاضْطَرَبَ في فَنائِها وقِيامِ الساعةِ، فَشَكَّ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ ما دامَتْ نفسُهُ، أو كأنهُ لم يُشاهِدِ الهَلاكَ، ولم يَنْظُرْ إليهِ، فقالَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي لو رُدِدْتُ إلى رَبِّي على ما تَزْعُمُ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ إنْ كُنْتَ صادقاً.

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: والرغبة. (٣) في الأصل وم: والرغبة. (٤) في الأصل وم: خرج. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٦٣. (٦) في الأصل وم: فهو. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) أدرج بعدها في م: به. (١١) في الأصل وم: أوفق.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي صَحَّحَكَ وقَوَّمَكَ رجلاً.

جائزٌ أنْ تكونَ مُحاجَّتُهُ إيّاهُ في هذهِ لإنكارِهِ البَعْثَ؛ أي أكَفَرْتَ، وأنْكَرْتَ قدرةَ اللهِ على البَعْثِ والإعادةِ، وهو خَلَقَ أصْلَكَ مِنْ تُرابٍ، وخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ؟ فأنتَ إذا مِتَّ، وهَلَكْتَ، تَصيرُ تراباً أو ماءً. فإذا قَدَرَ على خَلْقِ أصْلِكَ مِنْ ترابٍ وخَلْقِ نَفْسِكَ مِنْ ماءٍ [فهو قادِرٌ][1] على إعادَتِكَ وبَعْثِكَ بَعْدَ ما صِرْتَ تراباً أو ماءً.

أو تكونَ مُحاجَّتُهُ في إنكارِ حِكْمَةِ اللهِ، فيقولُ: خَلَقَ أصْلَكَ مِنْ تُرابٍ، وخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم سَوّاكَ، وصَحَّحَكَ. فإذا لم يَبْعَثْكَ، ويُعِدْكَ[2]، كانَ [خَلْقُ أصْلِكَ وخَلْقُكَ][3] بما ذَكَرَ عَبَثاً غيرَ حِكْمَةٍ؛ إذْ مَنْ بَنى بناءً ثم نَقَضَهُ على غَيرِ الانْتِفاعِ بهِ كانَ في بِنائِهِ في الابْتِداءِ عابِثاً تائِهاً سَفيهاً غيرَ حكيمٍ. فَعَلى ذلكَ خَلْقُكَ وخَلْقُ أصْلِكَ مِنْ غيرِ إعادةٍ مِنْ بَعْدِ [موتِكَ يكونُ سَفَهاً][4] على غيرِ حِكمةٍ. وهو ما قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ الآية [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَهُمْ على غَيرِ رجوعٍ إليهِ عَبَثاً.

أو تكونَ مُحاجَّتُهُ في تَسْفيهِهِ إيّاهُ في عبادَتِهِ غيرَ اللهِ؛ يقولُ: أكَفَرْتَ نِعَمَ[5] الذي خَلَقَ أصْلَكَ مِنْ تُرابٍ، وخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم سَوّاكَ صحيحاً، فَصَرَفْتَ نِعَمَهُ إلى غَيرِهِ، وعَبَدْتَ غَيرَهُ.

على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ تَحْتَمِلُ[6] مُحاجَّتُهُ إيّاهُ؛ إمّا في إنكارِ قُدْرَتِهِ على[7] بَعْثِهِ وإعادَتِهِ [وإمّا في إنكارِهِ الحِكْمَةَ في البَعْثِ وإمّا في][8] إنكارِهِ نِعَمَهُ و صَرْفِهِ الشكرَ إلى غَيرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ كأنهُ قالَ: لكنَّ الذي خَلَقَ أصلَكَ مِنْ ترابٍ، وخَلَقَ نَفْسَكَ[9] مِنْ نُطْفَةٍ هو ربّي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾. وقالَ الخليلُ: لكنّا: إنما هو على تأويلِ لكنني أنا أقولُ: هو اللهُ ربي كقولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ [يوسف: ٦٩] إنهمْ حينَ ألقَوُا الألِفَ مِنْ أنا أثْبَتُوها بَعْدَ النونِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [أي هلاّ إذا دَخَلْتَ جَنَّتَكَ][10] نَظَرْتَ إلى ما أنْعَمَ اللهُ عليكَ، وقُمْتَ بِشُكْرِهِ دونَ أنِ اشْتَغَلْتَ [بما زِدْتَهُ، ونَظَرْتَ إلى قِلَّةِ ذاتِ حالي ويدي، واشْتَغَلْتَ][11] بالافْتِخارِ عليَّ؟

وكذلكَ قالَ [في قولِهِ:][12] ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾

الآية ٤٠ ثم ذَكَرَ طَمَعَهُ ورجاءَهُ على ربِّهِ وخوفَهُ حينَ[13] قالَ: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي[14] يُرْسِلَ على جَنَّتِكَ حُسْباناً مِنَ السماءِ.

قالَ أهلُ التأويلِ: الحُسْبانُ العذابُ. إلّا أنَّ أبا بَكْرٍ الأصَمَّ قالَ: عذاباً على حسابِ ما عَمِلوا؛ وذلكَ جَزاؤُهُ في الكَفَرَةِ، وهو ما ذَكَرَ في الجَنَّتَينِ اللَّتَينِ أهلَكَهُما حينَ[15] قالَ: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ الآية [سبأ: ١٦و١٧]

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي عذاباً، والحُسْبانُ الصِّغارُ مِنَ النَّبلِ، والحُسْبانَةُ واحِدُها[16]، والحُسْبانُ جَمْعٌ، والأوَّلُ العذابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ الذي ليسَ عليهِ نَبْتٌ، و ﴿زَلَقًا﴾ أي مُسْتَوِياً[17].

وقالَ القُتَبِيُّ: الصعيدُ الأمْلَسُ المُسْتَوي، والزَّلِقُ الذي تَزِلُّ عنهُ الأقدامُ.

---

(١) في الأصل وم: لقادر. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: و. (٣) في م: خلقك وخلق أصلك. (٤) في الأصل وم: يكون سفيهاً. (٥) في الأصل وم: نعمه. (٦) في الأصل وم: وتحتمل. (٧) في الأصل وم: في. (٨) من م، في الأصل: أو. (٩) في الأصل وم: أصلك. (١٠) ساقطة من م. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: واحدة. (١٧) في الأصل وم: تسوية.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحَدُهُما: يقولُ: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً، فتَصيرَ صعيداً زَلِقاً أملَسَ.

والثاني[1]: يَذْهَبُ بمائها، فتَهلَكُ بذهابِ الماءِ؛ إذْ هَلاكُ البساتينِ يكونُ بذهابِ الماءِ مَرَّةً وبالعذابِ النازِلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي تصيرَ بحالٍ لا تَسْتَطيعُ لهُ طَلَباً.

والثاني[2]: لن تَسْتَطيعَ لهُ وجوداً.

وقالَ في قولِهِ: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ بالنصبِ[3]، لأنَّ الكلامَ مَبْنِيٌّ على قولِهِ: ﴿إِن تَرَنِ﴾ وجَعَلَ ﴿أَنَا﴾ صِلَةً. وأمّا قولُهُ ﴿أَنَا أَكْثَرُ﴾ [الكهف: ٣٤] فَوَصْفُ ﴿أَنَا﴾ أكْثَرُ، فارْتَفَعَ.

الآية ٤٢ وقولُه تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي أُهلِكَ بثَمَرِهِ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ هكذا كانَتْ عادةُ الناسِ أنهمْ إذا أصابَهُمْ خُسْرانٌ أو مصيبةٌ يُقَلِّبونَ أكُفَّهُمْ بَعْضَها[4] على بَعْضٍ على الندمِ والحَسْرَةِ على ما فاتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قيلَ: ساقِطَةٌ على عُروشِها. و يَحْتَمِلُ خاويةٌ: ذاهبةٌ بَرَكَتُها[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ إنْ كانَ هذا القولُ في الدنيا فذلكَ منهُ تَوبةٌ، لأنَّ التوبَةَ، هي النَّدامَةُ على ما كانَ منهُ. وقالَ بعضُهُمْ: هذا القولُ منهُ في الآخِرَةِ، فإنْ كانَ في الآخِرَةِ فإنهُ لا يَنْفَعُهُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ. وهكذا كلُّ كافرٍ يُؤْمِنُ في الآخِرَةِ [لا يَنْفَعُهُ ذلكَ][6].

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، مُقابلُ ما قالَ: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] أي لم يُغْنِهِ عنْ عذابِ اللهِ ما ذَكَرَ مِنَ النَّصْرِ، ولا قَدَرَ أنْ يَقومَ بنفسِهِ مُنْتَصِراً بالمالِ الذي ذَكَرَ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عندَ ذلكَ، و قالَ بعضُهُمْ: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي هكذا وَلايةُ اللهِ. ثم اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ وتأويلِهِ.

قَرَأَ بعضُهُمْ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ بالفَتْحِ. كذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: هنالكَ الوَلايَةُ لِلّهِ الغفورِ وهو الحَقُّ بالرَّفْعِ، وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وهنالكَ المُلْكُ والوَلايَةُ لِلّهِ الغفورِ ذي الرَّحْمَةِ.

وقَرَأَ بعضُهُمْ: الوِلايةُ ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [بالكَسْرِ، أيِ المُلْكُ لِلّهِ الحَقِّ][7]. والوَلايَةُ بالنَّصْبِ مِنَ المُوالاةِ.

قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ: لا يَبْقَى أحدٌ إلّا تَوَلَّى اللهَ، وآمَنَ به، وعَلِمَ أنهُ حَقٌّ، والوِلايَةُ بالكسرِ مِنَ الإمارةِ والمُلْكِ على ما ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ.

وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ الحَقُّ [أيِ الوَلايَةُ للهِ][8]/ ٣١٧ ـ ب/ وهو الحقُّ. ويُقرأُ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ بالخَفْضِ. ويُقْرَأُ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ الحَقُّ[9] للهِ.

وذَكَرَ هذا المَثَلَ لرسولِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ فيهِ دلالةَ رسالتِهِ وحُجَّةَ توحيدِ اللهِ وقُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي ثَوابُ هذا المؤمنِ منها أفْضَلُ ثواباً في الآخِرَةِ وأفْضَلُ عاقِبَةً من عُقْبَى ذلكَ الكافِرِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) وقرأها عيسى بن عمر بالضم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/٣١٧. (٤) في الأصل وم: بعضهم. (٥) في الأصل وم: البركة. (٦) في الأصل وم: لكن لا ينفع. (٧) في الأصل وم: أي الولاية الحق لله. انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/٣٦٩. ثم انظر الحاشية (٧) المتعلقة بالآية ٧٢ من سورة الأنفال ج٤/١٠٢. (٨) في الأصل وم: يقرأ الولاية لله. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٧٠.

قالَ ابْنُ عباسٍ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ [الكهف: ٣٢] يعْني لأهلِ مكةَ ﴿مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ آخَوَيْنِ[1] مِنْ بَني مَخزومٍ: أحَدُهُما مُسْلِمٌ، والآخَرُ كافرٌ، وهما الرجلانِ اللذانِ ذَكَرَهُما اللهُ في سورةِ الصافاتِ: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الآيات: ٥١ ـ ٥٥] تَصَدَّقَ المُسْلِمُ منهُما بمالِهِ [وطَلَبَ الآخِرَةَ][2] وطَلَبَ الآخَرُ بِهِ الدنيا.

وعَنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: كانا[4] أخوينِ، وَرِثا عنْ أبيهِما مالاً، فاقْتَسَماهُ. فأمّا أحدُهُما فالْتَمَسَ[5] بمالِهِ الدنيا وزينَتَها، وأمّا الآخَرُ فَتَصَدَّقَ[6] بِهِ، وطَلَبَ الآخِرَةَ حتى لم يَبْقَ لهُ شيءٌ. إلى هذا يذهَبُ هؤلاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في ضَرْبَ هذا المَثَلِ.

قالَ بعضُهُمْ: ضَرَبَ هذا لِمُشْرِكي العَرَبِ لأنهمْ يُنْكِرونَ فَناءَ الدنيا وهَلاكَها لأنها لا تَبيدُ أبداً، فيقولُ: إنَّ الذي يُعاينونَ مِنْ [فنائِها ما][7] ذَكَرَ مِنَ النباتِ وغَيرِهِ، وهلاكُهُ هو جُزْءٌ منها. فإذا احْتَمَلَ جُزْءٌ منها الفَناءَ والهَلاكَ فَعَلَى ذلكَ الكُلُّ.

وقالَ بعضُهُمْ: وَجْهُ ضَرْبِ هذا المَثَلِ هو[8] أنَّ أهلَ الدنيا وطُلّابَها إذا ظَفِروا بالدنيا وطَمِعوا بالاِنْتِفاعِ بها والاِسْتِمْتاعِ بها كما طَمِعَ الزُّرّاعُ بالظَّفَرِ بذلكَ الزَّرْعِ والوُصولِ إلى الاِنْتِفاعِ بالزَّرْعِ والوُصولِ إلى مَقْصودِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الدنيا يُحالُ بَينَ أهلِها وطالِبيها وبَينَها.

وقالَ بعضُهُمْ: وَجْهُ ضَرْبِ مَثَلِ الدنيا بما ذَكَرَ مِنَ النباتِ لِلتَّزيينِ والتَّحْسينِ لأهْلِها كالنباتِ الذي ذَكَرَ أنهُ يُعْجِبُ[9] أهلَها، ويَتَزَيَّنُ لهمْ، ثم يَفْسُدُ، ويَصيرُ مَؤُوفاً. فَعَلَى ذلكَ الدنيا، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الآية [الحديد: ٢٠] هكذا، وما فيها، كلُّهُ مَشوبٌ بالآفاتِ والفَسادِ.

وفي هذا المَثَلِ وجوهٌ مِنَ الحِكْمَةِ والدَّلالَةِ:

أحَدُها: العَظَمَةُ والاِعْتِبارُ لِلْمُتَفَكِّرينَ والمُعْتَبِرينَ، والحُجَّةُ على المعانِدينَ والمُكابِرينَ في إنكارِهِمْ إحداثَ العالَمِ ومُحْدِثِها وإنكارِهِمْ فَناءَ العالَمِ وإنكارِهِمُ البَعْثَ. أمّا إحداثُ العالَمِ لَمّا عايَنوا حُدوثَ أشياءَ منهُ واحداً بَعْدَ واحد. فَعَلَى ذلكَ الكُلُّ. وأراهُمْ أيضاً فَناءَ أشياءَ منها حتى لم يَبْقَ لَها أثَرٌ. ثم حَدَثَ مِثْلُها. فإذا ظَهَرَ هذا في بَعْضٍ منها فكذلكَ الكُلُّ. فإذا ظَهَرَ حُدوثُهُ وفَناؤُهُ لا بُدَّ مِنْ قاصِدٍ يُحْدِثُها.

والثاني[10]: دَلالَةُ البَعْثِ بما أراهُمْ تَجَدُّدَ وإحداثَ[11] هذهِ الأنزالِ والأشجارِ والنباتِ وغَيرِها والعَوْدَ على ما كانَ بَعْدَ فَنائِها. فَعَلَى ذلكَ إعادَةُ العالَمِ الذي هو المَقْصودُ في إنشاءِ تلكَ الأشياءِ. وذلكَ أوْلَى بالإعادةِ مِنْ غَيرِهِمْ مِنَ الأشياءِ؛ إذْ هُمُ المَقْصودونَ في خَلْقِ غَيرِهِمْ مِنَ الأشياءِ.

وبَعْدُ فإنهمْ قَدِ اتَّفَقوا على أنَّ خَلْقَ الشيءِ وفَناءَهُ لِلْهَلاكِ خاصَّةً مِنْ غَيرِ مَقْصودٍ وعاقِبَةٍ عَبَثٌ، ليسَ بِحِكْمَةٍ. فلو لم يكُنْ بَعْثٌ و لا إعادَةٌ لم يكُنْ في خَلْقِهِ إيّاهُمْ حِكْمَةٌ لأنهُ يَحْصُلُ خَلْقُهُ لِلْفَناءِ والهلاكِ خاصَّةً.

والثالث[12]: في قولِهِ ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ دَلالَةُ عِلْمِهِ وتدبيرِهِ وقُدْرَتِهِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ يُنْزِلُ مِنَ السماءِ ما يَخْتَلِطُ بِهِ نباتُ الأرضِ. والماءُ مِنْ طَبْعِهِ إفسادُ النباتِ إذا اخْتَلَطَ بِهِ. فإذا لم يُفْسِدْهُ[13] أحْياهُ الاِخْتِلاطُ. دلَّ أنَّ في الماءِ مَعْنىً، بِهِ يَحْيا النباتُ، لا يَعْلَمُ ذلكَ غَيرُهُ. دلَّ أنهُ عالِمٌ بذاتِهِ.

---

(١) من م، في الأصل: آخرين. (٢) من م، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كان. (٥) و(٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: فنائها، في م: فناء ما. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) من م، في الأصل: يحبب. (١٠) في الأصل وم: وفيه. (١١) في الأصل وم: وتحدث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: يفسد ولكن.

والتدبيرُ هو ما جَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمنافِعِ الأرضِ معَ بُعْدِ ما بَيْنَهُما. دلَّ أنَّ ذلكَ كانَ بواحِدٍ عليمٍ مُدَبِّرٍ قادرٍ بِذاتِهِ، وأنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ مِنَ الإحداثِ والإفناءِ قادرٌ على الإعادةِ والبَعْثِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ قيلَ: كَسيرا مَكسوراً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ هو مُفْتَعِلٌ مِنِ اقْتَدَرَ[1].

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ كانَ هذا ذُكِرَ على مَقصودِ الناسِ أنَّ مَنْ كانَ قَصْدُهُ في الدنيا كَثْرَةَ المالِ والبَنينَ فهو زينةُ الحياةِ الدنيا، وهو الفاني والذاهبُ على ما ذَكَرَ. ومَنْ كانَ مَقصودُهُ في هذهِ الدنيا الخَيراتِ والآخِرَةَ فهو ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أبداً.

ثم اختُلِفَ في ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو قولُهُ [ﷺ][2]: «سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ» وعلى ذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: «ألا وإنَّ سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، هُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ» [أحمد٣/ ٧٥] وفي بَعْضِ الأخبارِ أنهُ قالَ لأصحابِهِ: «خُذوا جُنَّتَكُمْ، قالوا: مِنْ عَدُوٍّ حَضَرَنا؟ قالَ: خُذوا جُنَّتَكُمْ مِنَ النارِ، فقولوا: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ، فإنهنَّ المُقَدِّماتُ والمُؤَخِّراتُ الباقياتُ الصالحاتُ» [النسائي في الكبرى ١٠٦٨٤].

وفي بعضِ الأخبارِ لأبي الدَّرْداءِ: «خُذْهُنَّ قَبْلَ أنْ يُحالَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُنَّ فإنهنَّ الباقياتُ الصالحاتُ، وهنَّ كَنْزٌ مِنْ كُنوزِ الجنةِ، قالَ: وما هي يا رسولَ اللهِ؟ فَذَكَرَ: سُبْحانَ اللهِ إلى آخِرِهِ» [بنحوه ابن ماجه ٣٨١٣] فإنْ ثَبَتَتْ هذهِ الأخبارُ فهي الأصلُ، لا يَجوزُ غَيرُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الصَّلَواتُ الخَمْسُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وغَيرِهِ. فأيُّهُما كانَ ففيهِ مَعْنَى الآخَرِ. وإنَّ كلَّ واحِدٍ منهما يَجْمَعُ أنواعَ الخيراتِ والعِباداتِ في الحقيقةِ؛ لأنَّ «سُبْحانَ اللهِ» هو تَنْزيهُ الرَّبِّ عَنْ كُلِّ آفَةٍ وعَيبٍ. و«الحمدُ للهِ» هو الثَّناءُ لهُ بكلِّ نِعْمَةٍ، وَصَلَتْ منهُ إلى الخَلْقِ، وجَعَلَتْهُ[4] مُسْتَحِقاً لِلْحَمْدِ والثَّناءِ لهُ دونَ مَنْ سِواهُ.

وأنَّ «ولا إلهَ إلّا اللهُ» هو لا مَعْبودَ سِواهُ، ولا[5] يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ غَيرُهُ، وأنَّ[6] «واللهُ أكْبَرُ» هو الإجلالُ لهُ عن كُلِّ ما قيلَ فيهِ، ونَفْيُ كُلِّ مَعاني الخَلْقِ عنهُ، [وأنَّ][7] «ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ» هو التَّبَرّي وقَطْعُ الطَّمَعِ عَمَّنْ دونَهُ، وتَفْويضُ الأمورِ بِكُلِّيَّتِها إليهِ، والتَّسْليمُ لهُ.

فَكُلُّ حَرْفٍ مِنْ هذهِ الحُروفِ يَجْمَعُ في الحقيقةِ كُلَّ أنواعِ العِباداتِ والخَيراتِ لِما ذَكَرْنا. وكذلكَ الصَّلَواتُ أيضاً تَجْمَعُ كُلَّ أنواعِ العباداتِ [لأنَّ المُصَلِّيَ][8] يَسْتَعْمِلُ كُلَّ جارِحَةٍ فيها في كُلِّ حالٍ منها. فهي تَجْمَعُ جَميعَ العِباداتِ.

والأصلُ في قولِهِ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أنها كُلُّ الخيراتِ والطاعاتِ، لأنَّ اللهَ تباركَ وتَعالى ذَكَرَ، وَ وَصَفَ الحَقَّ بالبَقاءِ والثَّباتِ في غَيرِ آيَةٍ مِنَ القرآنِ، وَوَصَفَ الباطلَ بالبُطْلانِ والتَّلاشي والذهابِ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الرعد: ١٧]. وقولُهُ[9]: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤] وأمثالُهُ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي باقيةٌ ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي خيرٌ ما يأْمُلونَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي يابِساً بالِياً. وقالَ القُتَبِيُّ: ومنهُ سُمِّيَ الرجلُ هاشِماً.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي تَطيرُ بِهِ. وقالَ القُتَبِيُّ: أي تَنْسِفُهُ كقولِهِ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

وعَنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][10] قالَ: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي خَيرٌ: ما يُثابُ الناسُ عليهِ ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾/ ٣١٨ ـ أ/ أي خَيرٌ: ما يَأْمَلُ الناسُ عَنْ أعمالِهِمْ يومَ القيامَةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قدرت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجعله. (٥) في الأصل وم: وإن لا.
(٦) في الأصل وم: هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لأنه. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ يُذكِّرُهُمْ، جَلَّ، وعَلَا، بِشِدَّةِ[١] أهوالِ ذلكَ اليومَ وأفزاعِهِ حينَ[٢] سارَ أثبَتُ شيءٍ رَأَوا في الدنيا، وتكَسَّرَ أصلَبُ شيءٍ رَأَوا في الدنيا، وهو الجبالُ لِشِدَّةِ أهوالِ ذلكَ اليومَ وأفزاعِهِ.

وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤و٥].

وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وقالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وأمثالَهُ.

يُذكِّرُهُمْ بِشِدَّةِ[٣] أهوالِ ذلكَ اليومِ وأفزاعِهِ حينَ[٤] صارَ أثبَتُ شيءٍ في الدنيا وأشَدُّ على الوَصْفِ الذي ذَكَرَهُ [ومِنْ دونِ][٥] هذهِ الأهوالِ والأفزاعِ التي ذَكَرَ لا تَقُومُ أنفُسِ البَشَرِ في الدنيا. فَقيامُها بِمِثْلِ هذهِ الأهوالِ التي ذَكَرَ أحْرَى ألّا تَقومَ.

ألَا تَرَى أنَّ موسى، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، كانَ أشَدَّ الناسِ وأقْوَى البَشَرِ، ثم لم تَقُمْ نفسُهُ لِاندِكاكِ الجَبَلِ حتى صَعِقَ[٦]؟ إلّا أنَّ اللهَ حَكَمَ أنَّ الإهلاكَ يومئذٍ بَعْدَ ما أحياهُمْ، وإلّا كانَتْ أنفسُهُمْ لا تَقومُ بدونِ ما ذَكَرَ مِنَ الأهوالِ.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ أحوالِ الجبالِ يكونُ ذلكَ في اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ، يكونُ في ابْتِداءِ ذلكَ اليومِ ما ذَكَرَ أنها تَسيرُ وأنهمْ يَرَونَها جامِدَةً، وهي ليسَتْ بِجامِدَةٍ، ثم تَصيرُ كثيباً مَهيلاً، ثم تَصيرُ كالعِهْنِ المنفوشِ في وقْتٍ، ثم تَصيرُ هَباءً مَنْثوراً، يكونُ على الأحوالِ التي ذَكَرَ على اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ على قَدْرِ الشِّدَّةِ والهَولِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] بِشِدَّةِ ذلكَ اليومِ [وجهَينِ:

أحَدُهما:][٧] تَتَراءَى كأنها جامِدَةٌ، وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، وقد يَتَراءَى في الشاهِدِ مِثْلُهُ لِلْهَولِ والفَزَعِ.

والثاني: تَتَراءَى لِازْدِحامِ الجبالِ واجْتِماعِها، وقد يَتَراءَى في الشاهِدِ السائرُ كالجامِدِ والساكنِ لِلْكَثْرَةِ والازْدِحامِ مِثْلُ عَسْكَرٍ عظيمٍ يَسيرُ، يَراهُ الناظِرُ إليهِ كأنهُ ساكنٌ لا يَسيرُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الأهوالُ التي ذَكَرَ لأهلِ الكُفْرِ والعُصاةِ منهمْ. فأمّا أهلُ الإيمانِ والإحسانِ يكونونَ في أمْنٍ وعافِيَةٍ مِنْ تلكَ الأهوالِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ الآية [فصلت: ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي ظاهِرَةً، ليسَ عليها بِناءٌ ولا شَجَرٌ ولا جِبالٌ ولا حَجَرٌ ولا شيءٌ؛ تَصيرُ مُستَوِيَةً على ما ذَكَرْنا ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٦و١٧] و يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي يكونُ أهلُها بارزينَ لهُ كقولِهِ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي يَجْمَعُهُمْ جميعاً كقولِهِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩و٥٠].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ جميعاً، ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ لِلْحِسابِ. و قالَ بعضُهُمْ: يُعْرَضونَ على مَقامِهِمْ، أي يُعْرَضُ كُلُّ فَريقٍ على مَقامِهِ، أي يُبْعَثُ كقولِهِ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠و٩١].

ويَحْتَمِلُ مَعْنَى العَرْضِ في ذلكَ اليومِ[٨]، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ والأوقاتِ في الدنيا والآخِرَةِ مَعْروضينَ عليهِ [أنهُ][٩] عالِمٌ بِأحوالِهِمْ لِما يُقِرّونَ لهُ جميعاً يومئذٍ مُنْكِرُهُمْ ومُقِرُّهُمْ بالعَرْضِ والقيامةِ كقولِهِ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

---

(١) في الأصل وم: عن شدة. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: عن شدة. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وبدون. (٦) إشارةً إلى قولِهِ تعالى ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: القوم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

[إبراهيم: ٢١] [وقولِهِ:][١] ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] أي[٢] الأمرُ في جميعِ الأوقاتِ لله. وكذلكَ هُمْ بارزونَ لهُ في جميعِ الأوقاتِ. لكنهُ خصَّ ذلكَ اليومَ بالإضافةِ إليهِ بما يُقِرُّونَ لهُ جميعاً في ذلكَ اليومِ بالألوهيّةِ لهُ والمُلْكِ، ويَعْرِفونَ حقيقتَهُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ يَحتمِلُ هذا وجوهاً:

[أحدُها:][٣] يَحتمِلُ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ بالإجابةِ والإقرارِ لنا كما أجابتْ[٤] خِلقَتُكُمْ في أوّلِ خَلْقِنا إيّاها في الدنيا.

والثاني: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ كما قُلْنا في الدنيا ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦] [وقُلْنا:][٥] ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣و..] [وقُلْنا:][٦] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٢٧].

والثالثُ: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤] بلا أنصارٍ يَنْصُرونَكُمْ ولا أعوانٍ يُعينونَكُمْ على ما كُنتُمْ في الابتِداءِ، و قالَ بعضُهُمْ: كما خَرَجْتُمْ مِنْ بُطونِ أُمَّهاتِكُمْ عُراةً وحُفاةً، ليسَ مَعَكُمْ مالٌ يُمانِعُكُمْ و لا أنصارٌ يُناصِرونَكُمْ[٧]. وهو ما قالَ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ هذا يدلُّ أنَّ تلكَ الأهوالَ التي ذَكَرَ إنما تكونُ لِلْعُصاةِ ومَنْ أنكَرَ البَعْثَ حينَ[٨] قالَ: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ يعني القيامَةَ. وهذا يَدُلُّ أنَّ الأهوالَ والأفزاعَ التي ذَكَرَ في الآيةِ الأولى تكونُ لِلْعُصاةِ والفَسَقَةِ مِنْ خَلْقِهِ دونَ المؤمنينَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قيلَ: الحسابُ. ويَحْتَمِلُ الكتابَ الذي كَتَبَتْهُ الملائكةُ؛ وُضِعَ ذلكَ الكتابُ في أيديهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفينَ وَجِلينَ. و قالَ بعضُهُمْ: لمّا نَظَروا في الكتابِ، فَرَأوا مِنْ أعمالِهِمُ الخبيثةِ فيهِ، عندَ ذلكَ خافوا ممّا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنَ الأعمالِ[٩] السَّيِّئَةِ ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي حَفِظَها، و﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي لا يَتْرُكُ شيئاً مِمّا يُجزى [بها الإنسانُ وما لا يُجْزَى بها][١٠] ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي حَفِظَها.

[وقولُهُ تعالى][١١]: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا ﴿حَاضِرًا﴾ في الآخِرَةِ مَحفوظاً غيرَ فائتٍ[١٢] عنهُ شيءٌ ولا غائبٍ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما هو قولُ المَلَكِ، يقولُ لهمْ ذلكَ كقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] أي حَفيظٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي يَجزي كُلّاً على قَدْرِ عَمَلِهِ، لا يَزيدُ على قَدْرِ عَمَلِهِ، ولا يُنْقِصُ منهُ، أي لا يُنْقِصُ المؤمنَ مِنْ حَسَناتِهِ، والكافرُ لا يَتْرُكُ لهُ سَيِّئَةً.

الظُّلْمُ هو في الشاهِدِ وَضْعُ الشيءِ[في][١٣] غيرِ موضِعِهِ؛ يقولُ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي لا يكونُ بما يَجْزي كُلّاً على عَمَلِهِ ظالماً واضعاً شيئاً [في][١٤] غيرِ مَوضِعِهِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ ذَكَرَ اللهُ، ﷻ قصةَ آدمَ وإبليسَ في غيرِ موضعٍ مِنَ القرآنِ على

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أجاب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يناصركم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: أعمال. (١٠) من م، في الأصل وم: به. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ثابت. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الزِّيادةِ والنُّقصانِ. وإنما ذَكَرَ [ذلكَ، وكَرَّرَ لما][1] كذلكَ كانَ في الكُتُبِ المُتقدِّمَةِ مُكرَّراً مُعاداً، فذَكَرَ في القرآنِ على ما كانَ في تلكَ الكُتُبِ لِيكونَ ذلكَ آيةً لِرسالةِ مُحَمَّدٍ حينَ[2] عَلِموا أنهُ كانَ لا يَعرِفُ الكُتُبَ المُتقدِّمَةَ. أو أنَّ ما كَرَّرَهُ لِحاجاتٍ كانَتْ لهمْ ولِفوائِدَ تكونُ لهمْ في التَّكْرارِ لهمْ لِيكونَ لهمْ عِظَةً وتنبيهاً في كلِّ وقتٍ وكلِّ حالٍ. وقد يُكَرَّرُ الشيءُ، ويُعادُ على التَّذكيرِ والتَّنبيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ مِنَ الجِنِّ لأنَّهُ كانَ مِنَ الجانِّ الذينَ[3] يَعْمَلونَ في الجِنانِ، فَنُسِبَ إليهِمْ[4].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ مِنَ الملائكةِ قبيلَةً، يُقالُ لها: الجِنُّ، فكانَ إبليسُ منها، فَنُسِبَ إليها.

وقالَ الحَسَنُ: ما كانَ إبليسُ مِنَ الملائكةِ قَطُّ طَرْفَةَ عَينٍ، ولكنهُ مِنَ الجِنِّ كما قالَ اللهُ، فهو أصلُ[5] الجِنِّ، وهو أوَّلُ مَنْ عَصى ربَّهُ مِنَ الجِنِّ [كما][6] أنَّ آدمَ هو أصلُ الإنسِ، وهو أبوهُمْ. فَعَلَى ذلكَ إبليسُ، هو أبو الجِنِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي صارَ مِنَ الجِنِّ، وكذلكَ [قالَ تعالى][7] ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤ وص: ٧٤] وقتَ عِصْيانِهِ ربَّهُ وإبائِهِ السجودَ لآدمَ. وقد ذَكَرْنا هذهِ المَسألةَ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ قيلَ: عَتَا، وعَصَى. وأصْلُ الفِسْقِ الخروجُ، أي خَرَجَ عنْ أمرِ ربِّهِ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَفَسَقَ﴾ أي خَرَجَ عنْ طاعتِهِ. يُقالُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ إذا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرِها.

وقولُهُ تعالى: /٣١٨ ـ ب/ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ أرادَ بقولِهِ: ﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ مِنْ دونِ نَفْسِهِ. فكأنهُ قالَ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أرباباً وآلهةً مِنْ دوني ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ ولَيسوا بآلهةٍ ولا أربابٍ. فكيفَ يجوزُ أنْ يُتَّخَذَ العَدُوُّ ربّاً، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهُ أرادَ بقولِهِ ﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ أي مِنْ دونِ أوليائي. فكأنهُ قالَ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن﴾ دونِ أوليائي ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ أي كيفَ تَتَّخِذونَ الأعداءَ أولياءَ، وتَتْرُكونَ مَنْ همْ لكمْ أولياءُ، ولا تَتَّخِذونَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ أي بئسَ ما استَبدَلوا بِعبادةِ ربِّهِمْ أنْ عَبَدوا إبليسَ، وأطاعوهُ، فَبِئْسَ ذلكَ لهمْ بَدَلاً؛ أي ما اتَّخَذوا أعداءَهُمْ أولياءَ بَدَلاً عنْ ألوهيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ هذا لِمُشرِكي العَرَبِ حينَ[8] قالوا [إنَّ][9] الملائكةَ بناتُ اللهِ، والأصنامَ التي عَبَدوها [هي آلهةٌ، وهي][10] شُرَكاؤُهُ. فيقولُ: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ ولا كانَ لهمْ كتابٌ، ولا آمَنوا برسولٍ. فكيفَ عَرَفوا ما قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، والأصنامُ آلهةٌ وشُرَكاؤُهُ؟!.

وأسبابُ العِلْمِ والمَعارِفِ هذا: إمّا المُشاهَدَةُ، وإمّا الرُّسُلُ. فإذا لم يكُنْ لهمْ واحدٌ ممّا ذَكَرْنا فكيفَ عَرَفوا ربَّهُمْ؟

وبِمَ عَلِموا قالوا في اللهِ مِنَ الوَلَدِ والشُّرَكاءِ؟ وإلى هذا يَذْهَبُ الحَسَنُ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: لا تُخاذِهِمْ إبليسَ وذُرِّيَّتَهُ أولياءَ وأرباباً، وهو صِلَةُ ما قالَ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ الآية. وفيهِ وجوهٌ مِنَ التأويلِ:

أحَدُها[11]: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي ما استَحضَرْتُهُمْ خَلْقَ أنفسِهِمْ لأنهمْ لم يكونوا في ذلكَ الوَقْتِ، ولا خَلْقَ السمواتِ والأرضِ؛ لأنهُ خَلَقَهُما، وهُمْ لم يكونوا أيضاً أشياءَ.

---

(١) في الأصل: كذلك وكرر، في م: كذلك وكرر لما. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) في الأصل وم: إليه. (٥) من م، في الأصل: أهل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قالوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أنها آلهة و أنها. (١١) في الأصل وم: يقول.

والثاني[1]: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ ما أعْلَمْتُهُمْ تَدبيرَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، ولا تدبيرَ خَلْقِ أنفُسِهِمْ. فكيفَ قالوا ما قالوا في اللهِ مِنَ الدَّعاوَى؟

والثالثُ: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ أي ما اسْتَعَنْتُ بهمْ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ولا في خَلْقِ أنفسِهِمْ. فكيفَ أشْرَكوا في ألوهِيَّتي و رُبوبِيَّتي؟ وما اسْتَعَنْتُ بهمْ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقدِ اسْتَدَلَّ كثيرٌ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ بهذهِ الآيةِ على أنَّ خَلْقَ الشيءِ، هو غَيرُ ذلكَ الشيءِ، لأنهُ قال: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ وقد شَهِدوا السمواتِ والأرضِ، وشَهِدوا أنفسُهُمْ، حتى قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ثم أخبَرَ أنهُ لم يُشْهِدهُمْ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ[ولا][2] خَلْقَ أنفسِهِمْ [وأنَّ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ غيرُ خَلْقِ أنفُسِهِمْ وخَلْقَ أنفسِهِمْ غيرُ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ][3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها][4]: قال بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ عنِ الإيمانِ والهُدَى ﴿عَضُدٗا﴾ أعواناً لِديني.

والثاني: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ عبادي ﴿عَضُدٗا﴾ يَنْصُرِ ديني، أو يَعونُ أو ليائي.

[والثالثُ: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ الذينَ أضَلُّوا بَني آدمَ ﴿عَضُدٗا﴾ عَوناً في ما خَلَقْتُ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وخَلْقِ أنْفُسِهِمْ، وهو إبليسُ وذُرِّيَّتُهُ.

[والرابعُ:][6] ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ أولياءَ، إنما أتَّخِذُهُمْ أعداءً، وما كُنْتُ لأولِيَ المُضِلِّينَ عَضُداً على أوليائي كقولِهِ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] ونَحْوُهُ. وكلُّهُ قريبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ[7] نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ قالَ: ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ على زَعْمِهِمْ، وإلا لم يَكُنْ للهِ شُرَكاءُ. ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ يعني دَعَوُا الأصنامَ التي عَبَدوها ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: لم يُجيبوهُمْ في وقتٍ، وقد أجابوهُمْ في وقتٍ آخَرَ، وهو ما قالوا: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]. ولكنَّ قولَهُ: ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ لِما كانوا يَعْبُدونَها في الدنيا، وإنما كانوا يَعْبُدونها طَمَعاً أنْ يكونوا شُفَعاءَ وأنصاراً كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] وكقولِهِمْ[8]: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ وكقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ ﴿كَلَّاۚ﴾ [مريم: ٨١و٨٢] فيكونُ قولُهُ ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ ما طَمِعوا بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ مِنَ الشَّفاعةِ والنُّصْرَةِ ودَفْعِ ما حَلَّ بهمْ عنهمْ والمَنْعِ عنْ عذابِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ أي بَينَ أولئكَ وبَينَ الأصنامِ مَوْبِقاً. قالَ بعضُهُمْ: مَهْلَكاً. وقالَ بعضُهُمْ: المَوبِقُ الذي يُفَرِّقُ بينَهُمْ وبينَ آلهتِهِمْ في جهنَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: نَهَرٌ فيها. وقالَ بعضُهُمْ: جَعَلْنا وَصْلَهُمْ في الدنيا الذي كانَ بَينَ المُشرِكينَ وبَينَ الأصنامِ مَوْبِقاً أي مَهْلَكاً.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي عَلِموا، وأيْقَنوا أنهمْ داخِلوها: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ أي لم تَقْدِرِ الأصنامُ التي عَبَدوها أنْ تَصْرِفَ النارَ عنهمْ. قالَ أبو عُبَيدَةَ: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ أي مَعْدِلاً.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ قد ذَكَرْنا، وبَيَّنَّا، في غيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) من م، في الأصل: و. (٣) في الأصل: غير السموات والأرض وغير أنفسهم، في م: الخلق السموات والأرض وخلق أنفسهم غير السموات والأرض وغير أنفسهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: نقولُ وهي قراءة حمزة والأعمش وغيرهما، انظر معجم القراءات القرآنيةح٣/ ٣٧٥. (٨) في الأصل وم:و.

أحدُهما: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي مِنْ كلِّ صِفَةٍ كقولِهِ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] أي الصفاتُ العُلْيا.

والثاني: المَثَلُ هو الشَّبيهُ كقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فإنْ كانَ التأويلُ الشَّبيهَ فكأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بَيَّنّا في هذا القرآنِ ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِنْ كُلِّ ما بهِمْ حاجَةٌ إلى مَعْرِفَةِ ما غابَ عنهمْ؛ جَعَلَ لهمْ شَبيهاً ممّا شاهَدوا، أو عَرَفوا، لِيَعْرِفوا بهِ ما غابَ عنهمْ.

وإنْ كانَ تأويلُ المَثَلِ الصِّفَةَ فكأنهُ يقولُ: ولَقَدْ بَيَّنّا في هذا القرآنِ مِنْ كُلِّ ما يؤتى وما يُتَّقى صِفَةً، يَعْرِفونَ بها ما لهمْ وما عليهِمْ، وما يأتونَ، وما يَتَّقونَ[1]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافِرَ ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي جِدالاً كقولِهِ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦].

ويشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي جَوهَرُ الإنسانِ ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ مِنْ غيرِهِ[2] مِنَ الجواهِرِ، لأنَّ الجِنَّ لمّا عُرِضَ عليهِمُ القرآنُ والآياتُ قَبِلوها على غَيرِ مُجادَلَةٍ ذُكِرَتْ حينَ[3] قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ الآيةَ[الجن: ١] وكذلكَ الملائكةُ لم يُذكَرْ منهمُ الجِدالُ ولا المُحاجَّةُ في ذلكَ.

وقد ظَهَرَ [مِنْ][4] جَوهَرِ الإنسانِ المُجادَلاتُ والمُحاجّاتُ في الآياتِ والحُجَجِ.

مِن ذلكَ قولُهُ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآيةَ[آل عمران: ٦٦] وقولُهُ[5]: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]وقولُهُ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]وقولُهُ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦] وأمثالُ هذا. ولذلكَ احْتيجَ إلى إنزالِ كَثْرَةِ الآياتِ لِكَثْرَةِ ما ظَهَرَ منهمْ مِنَ المُجادَلَةِ. وفيهِ الإذْنُ بالمُجادَلَةِ والمُحاجَّةِ في الدِّينِ على الوَصْفِ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي لم يَمْنَعِ الناسَ أنْ يُؤمِنوا إلا التَّعَنُّتُ والعِنادُ لأنهُ قد أَكْثَرَ عليهِمْ مِنَ الحُجَجِ والآياتِ ما [لو][6] لم يُعانِدوا، ولا كابَروا، لالْتَزَموا[7] الإيمانَ بها والتَّصْديقَ. لكنَّ الذي مَنَعَهُمْ عنِ الإيمانِ ما ذَكَرْنا مِنْ عِنادِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الاسْتِئْصالُ والإهلاكُ. فيقولُ: لا يُؤمِنونَ إلّا في ذلكَ [الوَقْتِ][8]. والإيمانُ لا يَنْفَعُهُمْ في ذلكَ الوَقْتِ كقولِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [وقُبُلاً مُقابَلَةً. وقيلَ: قِبَلاً][9] أي عِياناً جِهاراً. قالَ أبو عُبَيدَةَ: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي [عِياناً وقَبَلاً: اسْتِئْنافاً، وقال][10] مُجاهِدٌ ﴿قُبُلًا﴾ [فُجاءَةً، وقال:][11] قِبَلاً. وقالَ أبو عَوسَجَةَ قُبُلاً [أي مُواجَهَةً وكذلكَ ﴿قُبُلًا﴾][12] وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿قُبُلًا﴾ أي مُقابَلَةً وعِياناً[13] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي لم نُرْسِلْهُمْ إلا بما[14] يوجِبُ لهمُ البِشارَةَ والنِّذارَةَ، إنما أُرسِلوا للأمرِ والنَّهْيِ ليأمُروا الناسَ بالطاعةِ طاعةِ اللهِ، ويَنْهَوهُمْ عنْ مَعاصيهِ. لهذا، واللهُ أعلَمُ، أُرْسِلوا بالبِشارَةِ لِمَنِ اتَّبَعَ أمْرَهُمْ، وانْتَهى عمّا[15] نَهَوا عنهُ/ ٣١٩ ـ أ/ والنِّذارةِ لِمَنِ ارْتَكَبَ ما نَهَوا عنهُ. فتكونُ البِشارةُ لِلْمُتَّبِعينَ لهمْ في أمْرِهِمْ، والنِّذارةُ لِلْمُرْتَكِبينَ المَنْهِيَّ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ما نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ والكِهانَةِ والإفْكِ وغَيرِهِ. بهِ يُجادِلونَهُ، وهو باطِلٌ. أو أنْ يكونوا عَرَفوا أنَّ ما يُجادِلونَهُمْ بهِ، ويُحاجُّونَهُمْ باطِلٌ وأنَّ ما

---

(١) في الأصل وم: يسبقون. (٢) في الأصل وم: غيرهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل وقولهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لا لتزمهم. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل: مقابلة استناقا قال، في م: مقابلة استناقا وقال. انظر غريب القرآن للسجستاني ص ٢٩٣ ومعجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٧٦ و٣٧٧ وانظر الحواشي المتعلقة بهذه الكلمة من الآية ١١١ من سورة الأنعام. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٧٦. (١٤) و(١٥) في الأصل وم: ما.

يَدْعوهُمُ الرسولُ إلى اللهِ حَقٌّ وصِدْقٌ ونورٌ. لكنْ يُعانِدونَهُ، ويُجادِلونَهُ، وعِنْدَهُمْ أنهمْ[1] على باطلٍ كقولِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآيةَ[التوبة: ٣٢] عَرَفوا أنهُ نورٌ لكنهمْ عانَدوهُ في المُجادَلَةِ والمُحاجَّةِ بالباطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي لِيُبْطِلوا بهِ الحَقَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: آياتُهُ: الشَّمْسُ والقَمَرُ وغيرُهما[2] ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ [وما أنذَرَ بِهِ][3] الرسُلُ، هو القرآنُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ القرآنَ والحُجَجَ التي أقامَها، وما أُمِروا بهِ غيرَ القرآنِ، وهي[4] المَواعيدُ، هُزُواً. وقالَ[صاحبُ][5] هذا التأويلِ: تأويلُ الأوَّلِ باطلٌ، لا يَصِحُّ لأنهُ قالَ على إثْرِهِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يقولُ: هذا يدلُّ أنهُ أرادَ بالآياتِ ما ذَكَرْنا مِنَ الحُجَجِ والبَراهينِ لا ما ذُكِرَ.

وجائزٌ أنهمْ إذا لم يَعْمَلوا بآياتِهِ، ولم يَسْتَعْمِلوها، نَسَبَهُمْ إلى الهُزْءِ بها والسُّخْرِيَةِ، وإنْ لم يَهْزَؤوا بها وهوَ كما[6] سَمَّاهُمْ عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، لِما لم يَنْتَفِعوا بهذهِ الحواسِّ، ولم يَسْتَعْمِلوها في ما جُعِلَتْ لهُ، وإنْ لم يكونوا في الحقيقةِ كذلكَ. فإذا كانَ، فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم تَحْتَمِلُ مُجادَلَتُهُمْ إياهُمْ ما قالوا: هذا سِحْرٌ وكهانةٌ، وإنهُ إفْكٌ وشِعْرٌ، ونَحْوَهُ. أو أنْ تكونَ مَجادَلَتُهُمْ قولَهُم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقولَهُمْ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وأشباهَ ذلكَ مِنَ المُجادِلاتِ التي كانَتْ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي وُعِظَ بالآياتِ التي نَزَلَتْ بمكةَ في الرسُلِ مِنَ الأمَمِ الماضيَةِ، فيكونُ تأويلُهُ: أي لا أحَدَ أظْلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنْ وُعِظَ بآياتِ ربِّهِ، فأعْرَضَ عنها، ما لَوِ اتَّعَظَ بما وُعِظَ كانَ بهِ نَجاتُهُ.

أو أنْ يكونَ تذكيرُهُ بآياتِ ربِّهِ، وهو ما أقامَ مِنْ حُجَجِهِ وبَراهينِهِ على تَوحيدِهِ ورسالةِ الرسولِ، فلم يَقْبَلْها، ولم يُصَدِّقْها: أي لا أحَدَ أظْلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنْ لمْ يَتَّعِظْ بما ذُكِّرَ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ، ولم يَقْبَلْها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يَحْتَمِلُ الإعْراضُ عنها في الابْتِداءِ؛ أي لم يقْبَلْها، ولم يَكْتَرِثْ إليها، ولم يَنْظُر فيها. أو أعْرَضَ عنها بَعْدَ ما عَرَفَها أنها آياتٌ وأنها حُجَجٌ تَعَنُّتاً وعِناداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يَحْتَمِلُ أي نَسِيَ مِنَ الخيانةِ والشِّرْكِ. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ مَوصولاً بالأوَّلِ؛ أي [لا][7] أحَدَ أظْلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنْ وُعِظَ، وجُعِلَ لهُ سَبيلُ التَّخَلُّصِ والنجاةِ ممّا قَدَّمَتْ يَداهُ، فلم يَتَّعِظْ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ إنَّ الكُفْرَ مُظْلِمٌ؛ إذا أتَى بهِ إنسانٌ، يَسْتُرُ على نُورِ القَلْبِ وعلى نُورِ كلِّ جارِحَةٍ منهُ، والإيمانَ مُنيرٌ يُنيرُ القَلْبَ، ويُنيرُ كلَّ جارِحَةٍ منهُ وعُضْوٍ، وهو ما ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ أنَّ الإنسانَ إنما يُبْصِرُ بِنُورَينِ ظاهِرَينِ بنُورِ نَفْسِهِ وبِنُورِ ذلكَ الشيءِ. فإذا ذَهَبَ أحَدُهُما ذَهَبَ الانْتِفاعُ بالآخَرِ.

والإيمانُ ما ذَكَرْنا أنهُ منيرٌ، وفي القَلْبِ نُورٌ. فإذا اجْتَمَعَ النُّورانِ مَعاً فَعِنْدَ ذلكَ انْتَفَعَ بهِ [الإنسانُ][8] فَجَعَلَ يَفْقَهُ، ويَعْقِلُ الشَّيْءَ بنورِ القَلْبِ و بِنورِ الإيمانِ، وكذلكَ كُلُّ جارِحَةٍ منهُ مِنَ الأُذُنِ والبَصَرِ واللِّسانِ؛ جَعَلَ يُبْصِرُ الحَقَّ بهِ، ويَعْتَبِرُ بهِ، ويَسْتَمِعُ الحقَّ والصوابَ.

والكُفْرُ مُظْلِمٌ، يَمْنَعُ، ويَسْتُرُ على نُورِ الجَوارِحِ [فَيَجْعَلُ الإنسانَ][9] لا يُبْصِرُ، ولا يَعْتَبِرُ، ولا يَسْتَمِعُ، ولا يَتَكَلَّمُ

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: وغيره. (٣) في الأصل به، في م: ما أنذر به. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) من م، ساقطة منَ الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فجعل.

بالحقّ؛ وهو ما ذكَرْنا أنَّ الإنسانَ إنما يُبْصِرُ الشّيءَ بِنُورِ العَينِ وبِنُورِ الهَواءِ. فإذا ذَهَبَ أحدُهُما صارَ لا يُبْصِرُ شيئاً. فَعَلى ذلكَ ما ذكَرْنا.

وفي الآيةِ دَلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتَزِلَةِ لأنهُ لا يَخلو الكُفرُ مِنْ أنْ [يكونَ][1] مُظلِماً قبيحاً ذميماً بنفسِهِ أو باللهِ تعالى. فإنْ قيلَ: [بنفسِهِ][2] صارَ كذلكَ قيلَ: لئنْ جازَ حدوثُ الأشياءِ بأنفُسِها[3]، إذْ لا فَرْقَ بَينَ أنْ يكونَ الشيءُ مُظلِماً قبيحاً ذميماً وبَينَ أن تكونَ الأشياءُ بأنفُسِها على ما كانَتْ، فإنهُ يَظَلُّ بِنَفسِهِ مُظلِماً قبيحاً.

ثَبَتَ أنَّ اللهَ هو الذي جعَلَهُ[4] مُظلِماً قبيحاً. وهو ما نَقولُ نحنُ: إنَّ اللهَ خَلَقَ فِعْلَ الكُفْرِ مِنَ الكافرِ مُظلِماً قبيحاً، وخَلَقَ فِعْلَ الإيمانِ مِنَ المؤمنِ مُنيراً حَسَناً، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ هذا في قَومٍ مَخصوصينَ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنونَ أبداً. هذا لا يَحتَمِلُ في جميعِ الكفارِ؛ إذْ مِنَ الكفارِ مَنْ قد آمَنَ.

وقالَ الحَسَنُ: هو في القومِ[5] الذينَ جَعَلَ على قلوبِهِمُ الغِطاءَ والطَّبْعَ؛ إذْ مِنْ قولِهِ: إنَّ لِلْكُفرِ حَدّاً، إذا بَلَغَ الكافرُ ذلكَ الحَدَّ طَبَعَ على قَلْبِهِ، فلا يُؤْمِنُ أبداً.

وقالَ بعضُهُمْ: [هو][6] في قومٍ، عادَتُهُمُ العِنادُ والمكابَرَةُ وتكذيبُ الآياتِ والحُجَجِ. فأخبَرَ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً لِعِنادِهِمْ. وأصلُهُ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ حينَ[7] سَتَرَ عليهِمْ، ولم يُعاقِبْهُمْ وقتَ عِصيانِهِمْ. و﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَقْبَلُ توبَتَهُمْ، إذا تابوا.

والثاني: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ إذا استَغْفَروا، وتابوا. و﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَرْحَمُهُمْ، ويَتَجاوَزُ عنهمْ ما سَبَقَ لهمْ مِنَ الذنوبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: جَعَلَ اللهُ لكلِّ أمَّةٍ، يَهلِكونَ هلاكَهُمْ، مَوعِداً وأجَلاً كقولِهِ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. وجَعَلَ مَوعِدَ هذهِ الأمةِ الساعةَ، وهو قولُهُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦].

وقالَ بعضُ أهلِ العِلْمِ: أهلَكَ اللهُ كُلَّ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ رسولَها لِتَتَّعِظَ الأمةُ التي تأتي بَعْدَها. وجَعَلَ هلاكَ أُمَّةِ محمدٍ بالساعةِ لأنهُ ليسَ بَعْدَها أُمَّةٌ تَتَّعِظُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ قيلَ: مَلْجأً. وقالَ القُتَبِيُّ: يُقالُ: لا وَأَلَتْ نَفْسُكَ، أي لا نَجَتْ، ويُقالُ: واءَلَ فلانٌ إلى كذا: لَجَأَ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتَزِلَةِ لأنهمْ يَجعَلونَ المُهْلَكَ هالكاً قَبْلَ أجَلِهِ. وقد أخبَرَ ﷻ ﴿لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتأخَّرُ، طَرْفَةَ عينٍ.

وفي قولِهِ: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧] ذِكْرُ تَقَدُّمِ اليَدِ، وإنْ لم يكُنْ لِلْيَدِ صُنْعٌ في ذلكَ لِما في العُرْفِ الظاهِرِ إنما يُتَقَدَّمُ، ويُؤَخَّرُ باليَدِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الكَسْبِ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] لأنَّ في الشاهِدِ إنما يُكْتَسَبُ باليَدِ، ونَحْوِهِ. فهو يَرُدُّ على أصحابِ [الظواهِرِ][8] أنَّ الخِطابَ على مُخرَجِ الظاهِرِ حينَ[9] لم يُفْهَمْ مِنْ ذِكْرِ اليَدِ نَفْسِها، ولكنْ فُهِمَ غَيرُ اليَدِ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿لَآ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بنفسها. (٤) في الأصل وم: جعل. (٥) في الأصل وم: قول.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: حيث.

﴿أَبۡرَحُ﴾ أي لا أزالُ حتى أبْلُغَ كذا. فإنْ كانَ على هذا فهو ظاهرٌ، ولا[1] حَرْفُ البَراحِ عنِ المكانِ، أي لا أبْرَحُ المَكانَ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ وهو كأنهُ على الإضمارِ، أي لا أبْرَحُ أسيرُ مَعَكَ حتى أبْلُغَ كذا؛ كأنهُ سَبَقَ مِنْ فَتاهُ أنهُ يَسيرُ إلى ذلكَ المَكانَ دونَهُ على ما يقولُ الخادِمُ لِمَولاهُ إذا أرادَ أنْ يَسيرَ لِحاجَةٍ: أنا أسيرُ، وأنا أذهَبُ. فَعِنْدَ ذلكَ قالَ لهُ ﴿مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ﴾ أي لا أفارِقُكَ، وأسيرُ مَعَكَ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ ما ذَكَرَ، أي أُمِرْتُ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ فَتىً لأنهُ كانَ خادِمَهُ يَخْدِمُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ فَتىً لأنهُ يَتْبَعُهُ، ويَصْحَبُهُ، لِيَتَعَلَّمَ منهُ العِلْمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾/ ٣١٩ ـ ب/ أي مُلْتَقى البَحْرَيْنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ قيلَ: زَماناً ودَهْراً. وقيلَ: الحُقُبُ ثمانونَ سَنَةً. وقالَ بعضُهُمْ: هو بِلُغَةِ قومٍ سَنَةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هو على التَّمْثيلِ على ما يَبْعُدُ. وقيلَ: سَبْعونَ سَنَةً ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أضافَ النِّسْيانَ إليهما، وإنْ كانَ الذي نَسِيَهُ، هو فَتاهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أضافَ النِّسْيانَ إليهما على التَّرْكِ لأنهما فارَقا ذلكَ المكانَ، وتَرَكا الحوتَ فيهِ. وإنما أضافَ النِّسْيانَ إليهما لِما تَرَكاهُ جَميعاً فيهِ، وفارَقاهُ، وإنْ كانَ الفَتى، هو الذي نَسِيَهُ دونَ موسى [حينَ[2] قالَ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] وكُلُّ مَنْسِيٍّ مَتْروكٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: أضافَ إليهما [النِّسْيانَ][3] لِما كانَ منهما جميعاً النِّسْيانُ؛ نَسِيَ الفَتى أنْ [يُذَكِّرَ موسى، ويُخْبِرَهُ عنْ حالِ الحوتِ أنهُ][4] سَرَبَ في البَحْرِ، ونَسِيَ موسى][5] أنْ يَسْتَخْبِرَهُ عنهُ. فقد كانَ منهما جَميعاً النِّسْيانُ؛ عنِ الفَتى الإخبارُ والتَّذْكيرُ، وعنْ موسى الاسْتِخْبارُ عنْ حالِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أضافَ ذلكَ إليهما لِما نَسِيا مكانَ الرجلِ الذي أُمِرَ موسى أنْ يأتِيَهُ، ويَقْتَبِسَ منهُ العِلْمَ. فهو على الجَهْلِ يُخَرِّجُ العلماءُ[6] هذا التأويلَ، أي جَهِلا مَكانَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿سَرَبٗا﴾ أي دَخَلَ في البَحْرِ كما يَدْخُلُ في السَّرْبِ. والسَّرْبُ، هو داخِلُ الأرضِ، يُقالُ بالفارِسِيَّةِ: سَمْهَجْ[7]. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿سَرَبٗا﴾ أي مَذْهَباً ومَسْلَكاً. وقالَ[8] أهلُ التأويلِ: إنَّ الحوتَ كانَ مَشْوِيّاً، فأحْياهُ اللهُ. وقالَ بعضُهُمْ: كانَ طَرِيّاً. ولكنْ ليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ الحوتِ أنهُ كانَ مَشْوِيّاً أو طَرِيّاً حاجَةٌ، وهو قادرٌ على أنْ يُحْيِيَهُ مَشْوِيّاً أو طَرِيّاً في أي حالٍ كانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يَعْني مكانَهُ قالَ لِفَتاهُ: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ فيهِ دلالةُ أنْ لا بأسَ للرجلِ إذا أصابَتْهُ مَشَقَّةٌ وجَهْدٌ أنْ يَذْكُرَ أصابَني كذا، ولِلْمَريضِ [أنْ][9] يقولَ: بي مِنَ المَرَضِ كذا، ولا يُخَرِّجُ ذلكَ مُخْرَجَ الشَّكْوى والجَزَعِ مِنَ اللهِ حينَ[10] قالَ موسى ﷺ: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ تَعَباً وجَهْداً.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: أنْ أذْكُرَ لهُ. قالَ الحَسَنُ: لم يكُنْ نَسِيَهُ، ولكنْ تَرَكَهُ مُتَعَمِّداً مُضَيِّعاً. وإنما أضافَ إلى الشيطانِ؛ يقولُ: إنَّ الشيطانَ هو الذي حَمَلَني [على ذلكَ][11] حتى تَرَكْتُ ذِكْرَهُ لكَ.

وكذلكَ يقولُ[12] في قولِهِ تعالى في قصةِ آدَمَ: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥] أي ضَيَّعَ أمْرَهُ، وتَرَكَهُ. ونَحْوُهُ مِنَ المُحالِ لأنهُ[13] لا يُحْتَمَلُ أنْ يَتْرُكَ ذِكْرَهُ[14] عَمْداً. والشيطانُ إنما يَسْعى بالحَيلولةِ في مِثْلِ هذا في أمْرِ الدينِ وفي النِّعَمِ إذا كَثُرَتْ، واتَّسَعَتْ على إنسانٍ، فَيَسْعى في مِثْلِهِ.

---

(١) في الأصل وم: ولا. (٢) في الأصل: حيث. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: يذكره ويخبره أن. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: علما. (٧) في الأصل وم: سمج، والسمهج: سهل لين، انظر معجم البلدان ح٣/٢٤٦. (٨) في الأصل وم: وقول. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) الضمير يعود على الحسن. (١٣) في الأصل وم: ولكن. (١٤) في الأصل وم: أن يذكر له.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: عَجِبَ موسى مِنَ الفَتى أنْ كيفَ يَنْسى أنْ يُذَكِّرَهُ، وقد احْتاجَ إلى أنْ يَتَحَمَّلَ مُؤْنَةً عظيمةً في حَمْلِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: عَجِبَ موسى منهُ حينَ يَبِسَ لهُ الماءُ وأثَرُهُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ، ثم ذُكِرَ موسى بِخَبَرِ الحوتِ، وما صَنَعَ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أني نَطْلُبُ مِنْ حاجَتِنا مِنَ الظَّفَرِ بذلكَ الرجلِ، يقولُ ذلكَ لِفَتاهُ.

ثم في الآيةِ وجوهٌ مِنَ الغرائبِ.

أحدُها: أنْ يَلْزَمَ الإنسانُ طَلَبَ العِلْمِ واقتِباسَهُ؛ إذ كانَ بهِ وبالناسِ حاجةٌ إليهِ، وإنْ بَعُدَتِ الشُّقَّةُ، ونأى المَوضِعُ حينَ[1] قالَ موسى ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

والثاني[2]: أنْ لا بأسَ لِاثْنَينِ أنْ يُسافِرا؛ إذْ لا كُلُّ واحدٍ واثْنَينِ يكونانِ شيطانَينِ على ما ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ الواحدَ شيطانٌ، والاثْنَينِ شيطانانِ، ولكنَّ واحداً[3] دونَ واحدٍ، واثْنَينِ دونَ اثنينِ.

والثالثُ[4]: أنهُ لا يُسافَرُ إلّا بالزادِ، إذْ[5] تَزَوَّدَ موسى والفَتى بالحوتِ[6] الذي ذَكَرَ حينَ خَرَجا إلى حيثُ أُمِرَ موسى أنْ يَخْرُجَ في مَجْمَعِ البَحْرَينِ.

فأمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ قالوا جميعاً: إنهُ أُمِرَ موسى أنْ يأتِيَ الخُضْرَ لِيَتَعَلَّمَ منهُ العِلْمَ، ولكنْ ليسَ في القرآنِ ذِكْرٌ لِلْخُضْرِ، إنما فيهِ ذِكْرُ عَبْدٍ مِنْ عبادِهِ حينَ[7] قالَ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥]

والرابعُ[8]: أنَّ الثُّنيا إنما يَلْزَمُ في كلِّ فِعْلٍ مُسْتَقْبَلٍ ممّا يُشَكُّ فيهِ، ويُرْتابُ. فأمّا ما كانَ سَبيلُ مَعْرِفَتِهِ الوَحْيَ واليَقينَ فإنهُ لا يُسْتَثْنَى فيهِ: حينَ[9] قالَ موسى لِفَتاهُ: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] قالَ ذلكَ مِنْ غَيرِ ثُنْيا لأنه ﷺ [أمَرَهُ][10] أنْ يأتِيَهُ. ولا يُحْتَمَلُ أنْ يُؤْمَرَ بالإتيانِ في مَكانٍ، ثم هو يَشُكُّ أنهُ لَعَلَّهُ لا يأتيهِ. لذلكَ قَطَعَ القولَ فيه.

وكذلكَ قولُ ذلكَ العَبْدِ الصالحِ لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] قَطَعَ القولَ فيهِ مِنْ غَيرِ ثُنْيا لأنهُ عَلِمَ بالوَحْيِ أنهُ لا يَصْبِرُ على ما يَرَى منهُ.

وأمّا موسى فإنهُ قدِ اسْتَثْنَى في ما وَعَدَ أنهُ يَصْبِرُ لأنهُ أضافَ إلى حادثٍ مِنَ الأوقاتِ على الشَّكِّ منهُ أنهُ يَصْبِرُ، أو لا يَصْبِرُ، وعلى الارْتِيابِ ليسَ على اليَقينِ. فقالَ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] ممّا ذَكَرْنا.

والخامسُ[11]: أنَّ الرجلَ إذا اخْتَلَفَ إلى عالمٍ يَقْتَبِسُ منهُ العِلْمَ، ويَتَعَلَّمُ منهُ، فَرَأى منهُ مَناكيرَ ومَظالِمَ تُلْزِمُهُ أنْ يُفارِقَهُ[12]، ولا يَتَعَلَّمُ [منهُ العِلْمَ][13] كَصَنيعِ موسى بِصاحِبِهِ لِما رَأى مِنْ خَرْقِ السفينةِ وقَتْلِ الغلامِ وغَيرِهِ ممّا كانَ مُنْكَراً وظُلْماً في الظاهِرِ، وإنْ كانَ ما فَعَلَ، هو فِعْلُ الأمرِ، كَرِهَ موسى صُحْبَتَهُ، ونَدِمَ على ذلكَ أشَدَّ النَّدامَةِ، حتى جَعَلَهُ على عِلْمٍ مِنْ ذلكَ كلِّهِ.

فهكذا الواجبُ على الرجلِ إذا رأى مَناكيرَ مِنَ الذي يأخذُ منهُ العِلْمَ ومَظالِمَ أنْ يُفارِقَهُ، ولا يأخذَ مِنْ عِلْمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ دلالةٌ أنَّ الاختيارَ والمُسْتَحَبَّ في الثُّنيا أنْ يكونَ في ابْتِداءِ الكلامِ، لأنَّ موسى ابْتَدَأَ بهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] فإذا تَرَكَهُ في أوَّلِ كلامِهِ، أو نَسِيَ، يَسْتَثْني في آخِرِهِ، فَيَعْمَلُ عَمَلَهُ في دَفْعِ الخُلْفِ في الوَعْدِ والكَذِبِ. وعلى هذا تَأوَّلَ بَعْضُ الناسِ قولَهُ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] أيِ اسْتَثْنِ في آخِرِهِ إذا نَسِيتَ في أوَّلِ كلامِكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وفيه. (٣) في الأصل وم: واحد. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: والحوت. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وفيه. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وفيه. (١٢) من م، في الأصل: يقال قة. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ثم هذهِ القِصَصُ والأنباءُ التي ذُكِرَتْ لِرسولِ اللهِ ﷺ على إثرِ سُؤالٍ كانَ منهمْ على ما ذَكَرْنا في قصةِ أصحابِ الكهفِ وغَيرِها مِنَ القِصَصِ، أو على غَيرِ سُؤالٍ. ولكنْ كانَتْ في كُتُبِهِمْ، فَذُكِرَتْ[1] لهُ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في السَّبَبِ الذي أُمِرَ موسى عليه السلام على طَلَبِ العِلْمِ مِنْ عندِ ذلكَ الرجلِ وبَعْثِهِ إليهِ.

قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ أنَّ موسى، قامَ خَطيباً في قومِهِ، فَخَطَبَ خُطْبَةً، لم يَخْطُبْ قَطُّ مِثْلَها، فأعْجَبَهُ ذلكَ، فَوَقَعَ عندَهُ أنْ ليسَ أحدٌ أعْلَمَ منهُ، فأُخبِرَ أنَّ في مَجْمَعِ البَحْرَينِ رجلاً أعْلَمَ منكَ، فأُمِرَ بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ موسى قد أُعْطِيَ التوراةَ، وفيها علومٌ كثيرةٌ، فَظَنَّ أنهُ ليسَ أحدٌ أعْلَمَ منهُ، فأُخبِرَ أنَّ في مَجْمَعِ البَحْرَينِ عَبْداً مِنْ عبادِنا أعْلَمَ منكَ، فأُمِرَ بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ.

فإنْ كانَ على ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ السَّبَبِ، فَيَخْرُجُ الأمْرُ بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ مُخْرَجَ العُقوبَةِ لهُ والعِتابِ لِما خَطَرَ ببالِهِ، وَوَقَعَ في وَهْمِهِ ما وَقَعَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمْرُ لهُ بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ ابتِداءَ مِحْنَةٍ مِنَ اللهِ تعالى إيّاهُ بِتَعَلُّمِ العِلْمِ مِنْ غَيرِ سَبَبٍ كانَ [مِنْ][2] موسى على ما يُؤْمَرُ المَرْءُ بِتَعَلُّمِ العِلْمِ ابتِداءً مِنْ غَيرِ سَبَبٍ مِحْنَةً مِنَ اللهِ يَمْتَحِنُهُ بها، نَحْوَ ما أُمِرَ موسى بالمَصيرِ إلى طورِ سيناءَ، وأُعْطِيَ هنالكَ التوراةَ في الألواحِ على غَيرِ سَبَبٍ كانَ منهُ. ولكنِ ابتِداءُ مِحْنَةٍ يَمْتَحِنُهُ بها[3]. فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أمْرُهُ لهُ بالمَصيرِ إلى ما أمَرَ والتَّعَلُّمِ منهُ ابتِداءً/ ٣٢٠ ـ أ/ مِحْنَةٍ، امْتَحَنَهُ بها.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ صاحبَ موسى الذي أُمِرَ موسى بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ الخُضرُ، وفَتاهُ الذي كانَ يَصْحَبُهُ، ويَتْبَعُهُ، يُوشَعُ بْنُ نونٍ. فذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا بالسَّمْعِ والخَبَرِ عَمَّنْ يُوحَى إليهِ، فَيَعْلَمُهُ بالوَحْيِ.

وأمّا مَنْ أخبَرَ ذلكَ، وقالَهُ لا عَنْ وَحْيٍ فلا يُعْلَمُ ذلكَ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ. إنما الحاجَةُ إلى ما أودَعَ فيهِ مِنْ أنواعِ الحِكْمَةِ والعلومِ.

وأمّا ما ذَكَروا أنهُ فلانٌ، وأنهُ كانَ في مَوضِعِ كذا في البَحْرِ، وأنَّ موسى قالَ [لَهُ][4] كذا، وهو قالَ لِموسى كذا، فإنَّ سَبيلَ مَعْرِفَةِ ذلكَ السَّمْعُ. فإنْ ثَبَتَ السَّمْعُ فيهِ، وإلّا لم يَجِبْ أنْ يُذْكَرَ فيهِ أكثَرُ مِمّا ذُكِرَ في الكتابِ لأنَّ هذهِ الأنباءَ والقِصَصَ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ إنما ذُكِرَتْ لتكونَ آيةً لِرسالةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ.

فلو قيلَ فيها ما لم يُذْكَرْ في كُتُبِهِمْ مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ لَكانَ ذلكَ سَبَباً لإكْذابِهِ لا تَصْديقِهِ على ما يَدْعو[5] مِنَ الرسالةِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي فَقْدُ الحوتِ هو ما كُنّا نبغي؛ إذْ كانَ ذلكَ عِلْماً لِوُجودِ مَكانِ ذلكَ الرجلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي رَجَعا عَودَهُما على بَدْئِهِما.

وقالَ[6] بعضُهُمْ: أي رَجَعا يَقُصّانِ طَريقَهُما وآثارَهُما الذي مَشَيا فيهِ، يَطْلُبانِ المَكانَ الذي فَقَدا الحوتَ فيهِ، إذْ ذلكَ المكانُ هو مكانُ وُجودِ[7] ذلكَ الرجلِ الذي أُمِرَ موسى بالمَصيرِ إليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: اقْتَصّا أثَرَ الحوتِ في الماءِ. لكنَّ الأوَّلَ أشْبَهُ لأنَّ في الآيةِ ذِكْرَ آثارِهِما لا ذِكْرَ أثَرِ الحوتِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ النُّبُوَّةَ حينَ[8] قالَ لِموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] لا يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ لهُ هذا إلّا على عِلْمِ وَحْيٍ، وحينَ[9] قالَ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] أخبَرَ أنهُ لم يَفْعَلْ[10] ما فَعَلَ عَنْ أمْرِ نفسِهِ، ولكنْ [عَنْ][11] أمْرِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فذكر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: به. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يدعي. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: علم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: يفعله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا﴾ كلَّ خيرٍ وكلَّ بَرَكَةٍ أعطاهُ اللهُ إيّاهُ، أو أنْ يكونَ رَحْمَةَ القَلْبِ وشَفَقَتَهُ التي كانَتْ منهُ على أهلِ السفينةِ بِخَرْقِها وقَتْلِ ذلكَ الغُلامِ الذي قَتَلَهُ إشفاقاً منهُ على والِدَيهِ أو على الناسِ وإقامَةَ الجوارِ الذي[1] كادَ أنْ يَنقَضَّ، فأقامَهُ، وأمثالَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ هو ظاهِرٌ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ في قولِهِ: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ دلالةٌ أنهُ كانَ على سَفَرٍ، ولم يكُنْ مُقيماً في ذلكَ المكانِ، ومَنْ يَتَعَلَّمْ مِنْ آخَرَ عِلْماً فإنهُ يَتْبَعُهُ حيثُ يذهَبُ هو في حَوائِجِهِ، لا يُؤمَرُ بالمُقامِ[2] حيثُ يُقيمُ المُعَلِّمُ[3] لأنهُ قالَ: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ يَحتَمِلُ أيِ ارْشُدْني إلى ما عُلِّمْتَ أو تُعَلِّمَني ممّا عُلِّمْتَ مِنَ الرُّشدِ والصَّوابِ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ بما تَرَى مني مِنَ الأمورِ ما يَخرُجُ في الظاهِرِ مَخرَجَ المَناكيرِ، أو يقولُ: إنكَ نَبِيٌّ ورسولٌ، والرسولُ إذا رأى مُنكَراً في الظاهِرِ لا يَسَعُ لهُ تَرْكُ الإنكارِ عليهِ والتَّغْييرِ حينَ[4] قالَ لهُ.

الآية ٦٨ ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ أي ما لم تَعْلَمْ عِلْماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ يَحتَمِلُ أنْ [تكونَ][5] الثُّنيا منهُ على الأمْرَينِ جميعاً: على الصَّبرِ الذي وَعَدَ، وعلى قولِهِ: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾. ويُشبِهُ أنْ يكونَ على وَعْدِ الصَّبرِ خاصّةً دونَ قولِهِ ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ عَهْدٌ منهُ، والثُّنيا لا تُستَعمَلُ في العُهودِ.

وأمّا قولُهُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ إنما هو فِعْلٌ أضافَهُ إلى نَفْسِهِ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يَسْتَثْنِيَ فيهِ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ ممّا تُنكِرُهُ نفسُكَ، وتَكرَهُهُ ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ أني[6] لماذا فَعَلْتُ ما فَعَلْتُ؟

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ هذا الكلامُ يُخرَّجُ على وجهَينِ.

[أحَدُهما][7]: على الإنكارِ عليهِ، أي أخَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهْلَها؟ أو لِتَعيبَها؟

[والثاني: على الاستِفهامِ، أي أخَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهْلَها؟ أو لِتَعيبَها؟][8] أو لماذا؟

وظاهرُ[9] هذا الحَرْفِ استِفهامٌ لولا قولُهُ: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾.

فإنْ كانَ على الأوّلِ على الإنكارِ عليهِ والرَّدِّ فقولُهُ: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ ظاهراً، أي جِئتَ شيئاً عظيماً[10] شديداً. [وإنْ كانَ على الاستِفهامِ فهو على الإضمارِ، كأنهُ قالَ: أخَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهلَها فلَئِنْ خَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهلها فلَقدْ جِئتَ شيئاً إمْراً][11].

وإنْ كانَ التأويلُ على الإنكارِ فهو كما يُقالُ لِمَنْ يَبْني بِناءً، ثم يَترُكُ الإنفاقَ عليهِ في عِمارتِهِ: بَنَيْتَ لِتُخرِّبَ، أو لِتَهدِمَ، وكما يُقالُ لِمَنْ زَرَعَ زَرْعاً، ثم تَرَكَ سَقْيَهُ: زَرَعْتَ لِتُفسِدَهُ، ونَحوُهُ، وإنْ كانَ لم يُبيِّنْ [سَبَباً][12] لذلكَ، ولم يَزرَعْ لِما ذَكَرَ، ولكنْ لِما كذلكَ يَصيرُ في العاقبةِ إذا تَرَكَ سَقْيَهُ أو عِمارَةَ ما بَنَى.

فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ لهُ موسى ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ وبَعْدَ [ذلك][13] لم يَعلَمْ أنَّ ذلكَ الخَرْقَ مُغرِقٌ أهلَها، وقد يجوزُ

---

(١) في الأصل وم: التي. (٢) من م، في الأصل: القيام. (٣) في الأصل وم: المتعلم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: أن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من م. (١٠) أدرج قبلها في الأصل: إمرا أي. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

أنْ يكونَ غيرَ مُغرِقٍ. قيلَ: إنما أخبرَ عمّا يؤولُ الأمرُ في العاقبةِ، والظاهرُ مِنَ الخَرْقِ أنْ يُغرِقَ في [آخِرِ الأمرِ][1] وهو كما ذَكَرْنا مِنْ أمْرِ البِناءِ والزَّرْعِ: بَنَيْتَ لِتُخرِّبَ، وزَرَعْتَ لِتُفسِدَ، وإنْ لم يَكُنْ بِناؤُهُ وزِراعَتُهُ لِذلكَ.

فَعَلَى ذلكَ قولُ موسى لِصاحِبِه، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ هذهِ الآيةُ على المُعْتَزِلَةِ لأنهُ قالَ لهُ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ دلَّ أنهُ كانَ يَحتاجُ إلى اسْتِطاعةٍ، تُقارِنُ الفِعْلَ، لا تَتَقَدَّمُ الفِعْلَ، فيكونُ بها الفِعْلُ. وإلّا قد كانَتْ لهُ أسبابٌ، لو لم يُؤْثِرْ غيرَهُ، لَاسْتَطاعَ الصَّبْرَ مَعَهُ. دلَّ أنَّ اسْتِطاعةَ الفِعْلِ [لا تَتَقَدَّمُهُ][2] ولكنْ تُقارِنُهُ.

وقالَ الحَسَنُ: إنما يُقالُ هذا لِلاسْتِثْقالِ والبُغْضِ، ليسَ على حقيقةِ نَفْيِ الاسْتِطاعَةِ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلمُ؛ فيقالُ لهُ: هو كما يُقالُ: لا أسْتَطيعُ أنْ أنْظُرَ إليكَ نَظَرَ الرَّحمَةِ، فهو وإنْ كانَ ناظراً لِما ذَكَرَ، فهو غيرُ ناظرٍ إليهِ نَظَرَ رَحمَةٍ وشَفَقَةٍ، فهما سَواءٌ، وهو ما يَقولُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا الكلامُ وجوهاً:

أحَدُها: على التَّعْريضِ مِنَ الكلامِ؛ أي لا تُؤاخِذْني بما لو نَسِيتُ كقولِ إبراهيمَ حينَ[3] قالَ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨و٨٩] أي[4] سَأسْقَمُ.

والثاني: على حقيقةِ النِّسْيانِ نَسِيَ لِقولِهِ[5]: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ [الكهف: ٧٠] بَعْدَها مِمّا رَأى مِنَ المَناكيرِ في الظاهِرِ. هكذا كانَتْ عادةُ الأنبياءِ أنهمْ إذا رَأَوا مُنكَراً لا يَمْلِكونَ أنفسَهُمْ حُزناً وغَضَباً على ما رَأَوا، فلا يُنْكَرُ أنْ يكونَ نَسِيَ ما قالَ لهُ.

[والثالثُ: ما][6] قالَ بعضُهُمْ: على التَّضْييعِ واللهُ أعلَمُ، فهو يُخَرَّجُ على الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا تُكَلِّفْني مِنْ أمري ما يَعْسُرُ عليَّ. وقالَ بعضُهُمْ: الإرهاقُ هو الشِّدَّةُ والتَّعَبُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ أي لا تَفْتِنّي ﴿عُسْرًا﴾.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ[7] بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا الكلامُ أيضاً وجهَيْنِ:

[أحَدُهُما][8]: على الإنكارِ والرَّدِّ عليهِ.

والثاني: على الاسْتِفهامِ والسؤالِ على ما ذَكَرْنا في الأوَّلِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أو بِحَقٍّ؟ أو لِماذا؟ أو على الإنكارِ والرَّدِّ على ما رَأى في الظاهرِ قَتْلَ نَفْسٍ، ولم يَعْرِفِ الوَجْهَ الذي بهِ يَجِبُ القَتْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ هو على ما ذَكَرْنا على الإنكارِ ظاهرٌ، وعلى الاسْتِفْهامِ والسؤالِ على الإضمارِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ فَلَئِنْ فَعَلْتَ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي مُنْكَراً.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿نُّكْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نُّكْرًا﴾ أكْبَرُ مِنْ قولِهِ ﴿إِمْرًا﴾ لأنَّ فيهِ مُباشَرَةَ القَتْلِ وإهلاكَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ، فهو أكْبَرُ. وليسَ في نَفْسِ الخَرْقِ إهلاكٌ، وإنما هو سَبَبُ الإهلاكِ. وقد يجوزُ ألّا يُهْلِكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِمْرًا﴾ أكْبَرُ مِنْ قولِهِ: ﴿نُّكْرًا﴾ لأنَّ فيهِ إهلاكَ جماعَةٍ، وههنا إهلاكُ واحدةٍ، فهو دونَ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: الآخرة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ادرج قبلها في الأصل وم: ونحوه. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل زاكية وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٨٥. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ ما ذَكَرْنا في الأوّلِ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى/ ٣٢٠ ـ ب/ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ في تركِ المُصاحَبةِ ﴿عُذْرًا﴾ لِما قلتَ لي: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ سَمّى قَرْيَةً، وهي كانَتْ مدينةً. ألا ترى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢] دلَّ أنها كانَتْ مدينةً. والعَرَبُ قد تُسَمّي المَدينةَ قَرْيَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ قالَ الحَسَنُ: كانَ الجِدارُ كَهَيئةٍ عندَ الناظرِ أنهُ يَسقُطُ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ الإرادةُ صِفَةُ كلِّ فاعلٍ لهُ حقيقةُ الفِعْلِ، أو ليسَ لهُ حقيقةُ الفِعْلِ بَعْدَ أنْ يُضافَ إليهِ الفِعْلُ. ألا تَرى أنهُ يُقالُ [عنِ الجدارِ][1] سَقَطَ، وإنْ كانَ، في الحقيقةِ [لم][2] يَسقُطْ؟

وعندَنا أنهُ إنما يُقالُ ذلكَ لِقُرْبِ الحالِ وعندَ الإشرافِ على الهَلاكِ والسُّقوطِ. ألا تَرى أنَّ الرجلَ يقولُ: إني[3] أردتُ أنْ أموتَ، وأرَدْتُ أنْ أهلِكَ، وأرَدْتُ أنْ أسْقُطَ، وهو لا يريدُ المَوتَ ولا السُّقوطَ، ولكنهُ يَذْكُرُ ذلكَ لإشرافِهِ على الهَلاكِ وقُرْبِ الحالِ إليهِ ليسَ على حقيقةِ الإرادةِ؟ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي أشْرَفَ، وقَرُبَ، على حالِ السقوطِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ هذا القولُ مِنْ موسى يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحدُهُما: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لِشِدَّةِ حاجتِهِ إلى الطعامِ لئلا تَقَعَ لهما حاجةٌ إلى أهلِ تلكَ المدينةِ؛ إذْ قد وَقَعَ لهما إليهِمْ حاجةٌ حينَ[4] قالَ: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ مَرَّةً، فلم يُطعِمُوهما، فأرادَ أنْ يأخُذَ على ذلكَ أجراً لئلا تَقَعَ لهما حاجةٌ إليهِمْ ثانياً.

والثاني: قالَ لهُ ذلكَ: لمّا لم يَرَ أهلَ تلكَ البَلْدَةِ أهلاً ليَصْنَعَ إليهِمُ المَعْرُوفَ، لِما رَأى منهمْ مِنَ البُخْلِ والضِّنَّةِ في الإطعامِ، حينَ[5] اسْتَطْعَماهُمْ، فَلَمْ يُطعِموهُما بُخلاً منهمْ، وضِنَّةً، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصّةِ أنَّ الجدارَ الذي أقامَهُ صاحبُ موسى، كانَ طولُهُ خَمْسَ مئةِ ذراعٍ، وقامَتُهُ مِئَتَي ذِراعٍ، وعَرْضُهُ أربَعينَ ذراعاً، أو نَحْوَهُ. وتَحْتَهُ طريقُ القومِ. لكنْ لا حاجَةَ لنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ، إنما الحاجَةُ إلى ما فيه مِنْ أنواعِ الحِكْمَةِ والفوائدِ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سَأُنبِئُكَ بَيانَ ما قُلْتُ لكَ: إنكَ لنْ تَستَطيعَ مَعِيَ صَبْراً. ثم بَيَّنَهُ، وفَسَّرَهُ لهُ.

الآية ٧٩ فَقالَ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعَلَها مَعيبَةً. وقالَ[6]: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ الحُروفِ: وكانَ أمامَهُمْ مَلِكٌ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

فَعَلَى ذلكَ التأويلِ فيهِ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجْعَلَها مَعيبَةً لئلا يأخُذَها ذلكَ المَلِكُ غَصْباً؛ إذْ كانَ لا يأخُذُ إلّا [كلَّ][7] سَفينَةٍ صالحةٍ صحيحةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ اخْتُلِفَ في سِنِّ ذلكَ الغُلامِ. [قالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ الغُلامُ][8] كبيراً بالغاً. والعَرَبُ قد تُسَمّي الرجلَ البالِغَ الذي لم يَلْتَحِ بَعْدُ، أو لم تَسْتَوِ لِحْيَتُهُ غُلاماً لِقُرْبِهِ لِوَقْتِ البُلوغِ. ولذلكَ[9] قالَ لهُ موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤] والصغيرُ ممّا لا يُقْتَلُ إذا قَتَلَ نَفساً بِغَيرِ حقٍّ. فلو كانَ صغيراً لم يكُنْ لِقولِ موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [مَعْنىً][10].

---

(١) في الأصل وم: للجدار. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وكذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وهو كما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ قالَ:](١) «إنَّ إيمانَكُمْ يَحْقِنُ دماءَكُمْ»[أي إيمانُكُمْ يَحْقِنُ دماءَكُمْ](٢) إذ ظَهَرَ منهمُ الدمُ. وكَقولِهِ: «لولا الإيمانُ لكانَ لي وَلَها شَأنٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] إذا ظَهَرَ منها الزِّنى. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لو كانَتْ مُحْتَمِلَةً القَتْلَ بالنَّفْسِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في سَبَبِ قَتْلِ الغلامِ. قالَ بعضُهُمْ: قَتَلَهُ لِكُفرِهِ؛ كانَ كافراً، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: وأمّا الغلامُ فكانَ كافراً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ دلَّ هذا أنهُ كانَ بالغاً كافراً، إذْ لو لم يكُنْ كافراً لم يَلْحَقْ والِدَيهِ منهُ الطُّغيانُ والكُفرُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما قَتَلَهُ لأنهُ كانَ لِصّاً قاطِعَ الطريقِ [يَقْطَعُ الطريقَ](٣) على الناسِ، ويأخذُ أموالَهُمْ.

وعلى قولِ مَنْ يقولُ: إنه كانَ صغيراً قتلَهُ لأنهُ عَلِمَ أنه لو بلغَ [بلغَ](٤) كافراً، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. وليسَ لَنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ السببِ الذي قَتَلَهُ حاجَةٌ، ولا أنهُ كانَ صغيراً أو كبيراً لأنهُ أخبَرَ أنهُ إنما قَتَلَهُ بِأمْرِ اللهِ لا مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ حينَ قالَ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] ولكنْ إنما فَعَلْتُهُ بأمْرِ اللهِ، للهِ أنْ يأمُرَ عَبْداً مِنْ عبادِهِ بِقَتْلِ الصغيرِ على ما لَهُ أنْ يُميتَهُ وعلى ما يَأمُرُ مَلَكَ المَوتِ بِقَبْضِ أرواحِ الخَلْقِ. فَعَلى ذلكَ لهُ أنْ يُميتَهُ على يَدَي آخَرَ، وأنْ يَقْبِضَ رُوحَهُ؛ إذْ لهُ الخَلْقُ والأمْرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ليسَ، هو الخوفُ، ولكنْ: العِلْمُ؛ أي عَلِمْنا أنْ يُرْهِقَهُما طُغياناً وكُفراً. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ أُبَيٍّ.

فإنْ قيلَ: كيفَ احْتَجَّ على قَتْلِهِ وإهلاكِهِ بما عَلِمَ أنهُ يَلْحَقُ أبَوَيهِ منهُ الطُّغيانُ والكُفرُ، وقد تَرَكَ إبليسَ وجُنودَهُ يَعيشونَ إلى آخِرِ الدهرِ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ يَحْمِلونَ الناسَ على الطُّغيانِ والكُفرِ، ويُرْهِقونَهُمْ بأنواعِ المَعاصي والفَواحِشِ، وكذلكَ هؤلاءِ الظَّلَمَةُ الذينَ لا يكونُ منهمْ إلا كلُّ شَرٍّ وجَورٍ على الناسِ مِنْ تَرْكِهِمْ على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ منهمْ. فما مَعْنى الاحْتِجاجِ في قَتْلِهِ وإهلاكِهِ بما ذَكَرَ مِنْ إرهاقِ [الوالِدَينِ بالطغيانِ والكفرِ](٥)؟

قيلَ: لهذا جوابانِ:

[أحَدُهما](٦): أنَّ اللهَ ﷻ قد يَمْتَحِنُ البَشَرَ بِمَعانٍ وعِلَلٍ وأشياءَ، تَحْمِلُهُمْ تلكَ المَعاني والأشياءُ على الرغْبَةِ والحِنْثِ في ما امْتَحَنَهُمْ، وإنْ كانَ لهُ الامْتِحانُ لا على تلكَ المَعاني والعِلَلِ نَحْوُ ما امْتَحَنَهُمْ بأنواعِ العباداتِ والطاعاتِ بِثَوابٍ وجَزاءٍ ذَكَرَ لهمْ فيها لو فَعَلُوا، وإنْ كانَ لهُ الامتحانُ بِذلكَ على غَيرِ ثوابٍ ولا جَزاءٍ. وكذلكَ العُقوباتُ وغَيرُ ذلكَ مِنَ المِحَنِ. فَعَلى ذلكَ الأولى.

والثاني: ذَكَرَ هذا لِيُطَيِّبَ بِهِ أنْفُسَهُمْ إحساناً منهُ إليهِمْ وإنعاماً عليهِمْ؛ إذ لهُ أنْ يُميتَهُمْ صِغاراً وكِباراً. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ الآية [الشورى: ٢٧] وقد وَسَّعَ على كثيرٍ مِنَ الخَلْقِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية [الزخرف: ٣٣] وقد جَعَلَ لِلْكثيرِ مِنَ الخَلْقِ ذلكَ. لكنَّ هذا لِما لهُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ لِلْكُلِّ. فَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ يَفْعَلْ إحْساناً منهُ وإفْضالاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي صَلاحاً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ وأبَرَّ بِوالِدَيهِ. و قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي عَمَلاً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي وأحْسَنَ منهُ بِرًّا لِوالِدَيهِ.

وقالَ(٧) أبو عَوسَجَةَ: ﴿رُحْمًا﴾ مِنَ الرَّحِمِ والقَرابَةِ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿رُحْمًا﴾ أي رَحْمَةً وعَطْفاً. وذَكَرَ أنهما قد أُعْطِيا خَيراً منهُ، أي خَيراً مِنَ القَتيلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: حيث قال. (٢) من م، ساقطة من الأصل. إشارة إلى قوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني أنفسهم وأموالهم إلا بحقها» البخاري ٢٥] (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في م: كان، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الطغيان والكفر بالوالدين. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ اختُلِف في ذلكَ الكَنزِ. قالَ بعضُهُم: كانَ ذلكَ مالاً كَنَزهُ أبوهُما. وقالَ[1] ابنُ عباسٍ: حُفِظَ بِصلاحِ أبيهما وما ذُكِرَ منهما صَلاحاً. وقالَ بَعضُهُم: كانَ ذلكَ الكَنزُ صُحُفاً[2] فيها عِلْمٌ.

قالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عِلماً لأنَّ العِلمَ ممّا يَعْلَمُهُ العُلماءُ، ويَشْتَرِكُ الناسُ فيهِ، فلا يُحتَمَلُ أنْ يُحفَظَ ذلكَ دونَ الناسِ. فإنْ ثَبَتَ، وحُفِظَ ما رُوِيَ في الخَبَرِ فهو مالٌ و عِلْمٌ.

ورُوِيَ عن ابنِ مالكٍ [أنهُ][3] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كانَ تَحتَ الجِدارِ الذي قالَ اللهُ تعالى في كتابِهِ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ لَوحٌ مِنْ ذَهَبٍ فيهِ مكتوبٌ: «بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم. عَجِبْتُ لِمَنْ أيْقَنَ بالموتِ كيف/ ٣٢١ ـ أ/ يَفرَحُ؟ وعَجِبتُ لِمَنْ أيْقَنَ بالقَدَرِ كيفَ يَحزَنُ؟ وعَجِبتُ لِمَنْ أيْقَنَ بزوالِ الدنيا وتَقَلُّبِها بأهْلِها كيفَ يَطْمَئِنُّ إليها؟ لا إلهَ إلّا اللهُ، محمدٌ رسولُ اللهِ» [السيوطي في الدر المنثور٥/ ٤٢١] فإنْ حُفِظَ هذا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، ففيهِ مالٌ وعِلْمٌ، لأنَّ اللوحَ مِنَ الذَّهبِ ممّا يَكثُرُ، ويَعظُمُ قَدْرُهُ، وليسَ لنا إلى مَعرفَةِ ذلكَ حاجةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي نعمةً مِنْ ربِّكَ وإحساناً عليهما؛ إذْ كانَ لهُ ألّا يَحفَظَ ذلكَ لهما، ولا يُوصِلَهُ إليهما على ما لم يُعْطِ لِكَثيرٍ مِنَ اليَتامى والمساكينِ شيئاً مِنْ ذلكَ. لكنَّ ذلكَ منهُ إليها فَضْلٌ وإنعامٌ ورَحْمَةٌ عليهما. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي تأويلُ ما قُلتُ لكَ في بَدْءِ الأمرِ ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ موسى حينَ[4] أُمِرَ بالذهابِ إلى ذلكَ الرجلِ والاتِّباعِ لهُ والصُّحْبَةِ مَعَهُ لِيَتَعَلَّمَ منهُ العِلْمَ، فلم يَستَفِدْ منهُ إلّا عِلْمَ ما أنْكَرَ عليهِ وسَبَبَ حلِّ ذلكَ لهُ؛ إذ كانَ ذلكَ بإنكارِ ما أنْكَرَ عليهِ مِنَ الأفعالِ التي هي في الظاهِرِ مُنْكَرَةٌ. لكنْ جائزٌ أنْ يكونَ استَفادَ منهُ علوماً كثيرةً سِوى ذلكَ، لكنهُ لم يَذكُرْ لنا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: اسْمُ الغلامِ الذي قَتَلَهُ صاحِبُ موسى خشنونا[5]، ولا أدري ماذا؟ ووالداهُ اسمُهما كذا، لا نَعْلَمُ ذلكَ. وليسَ لنا إلى مَعرِفَةِ أساميهِمْ حاجةٌ، وكذا اسْمُ الغُلامَينِ اليتيمَينِ صاحِبَي الجدارِ: أصْرَمُ وصَريمٌ، ولا أدري ماذا؟ ولا حاجةَ بنا إلى ذلكَ.

وقولُهُم: كانَ صاحِبُ موسى خُضراً، وإنهُ إنما سُمِّيَ خُضراً لأنهُ جَلَسَ على فَرْوَةٍ بيضاءَ، فاخضَرَّتْ، فذلكَ أيضاً ممّا لا يُعْلَمُ إلّا بالخَبَرِ عَنِ الوَحْيِ وَحْيِ السماءِ، فلا تَقولُ فيهِ إلّا ما ذَكَرَهُ الكتابُ [وما قيل][6] فإنهُ يُخَرِّجُ ذِكْرُهُ مُخرَجَ الشهادةِ على اللهِ مِنْ غيرِ حصولِ النَّفعِ لنا في [عَمَلِ ذلكَ] أو غيرِهِ. وليسَ في الكتابِ إلّا ذِكْرُ عَبْدٍ ﴿مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥] وذِكْرُ الغُلامِ[7] وذِكْرُ الفَتى وذِكْرُ غُلامَينِ ﴿يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢] وأمثالُهُ؛ يُقالُ ما فيهِ، ولا يُزادُ على ذلكَ مَخافَةَ الشهادَةِ على اللهِ بالكَذِبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ في الآيةِ دلالةُ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ قَبلَ أنْ يُسْأَلَ هو عَنْ خَبَرِ ذي القَرنَينِ لأنهُ قالَ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ ولم يَقُلْ: سألوكَ.

والخَبَرُ الذي رَوى عُقْبَةُ بْنُ عامِرٍ الجُهَنِيُّ يَدُلُّ على ذلكَ أيضاً؛ لأنهُ رَوى أنَّ نَفَراً من أهلِ الكتابِ جاؤوا بالصُّحُفِ والكُتُبِ، فقالوا لي: اسْتَأذِنْ لنا على رسولِ اللهِ لِنَدْخُلَ[8] عليهِ، فانصَرَفْتُ إليهِ، فأخبَرْتُهُ بِمَكانِهِمْ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ مالي ولَهُمْ؟ يَسْألونَ عمّا لا أعْلَمُ، إنما أنا عَبْدٌ، لا عِلْمَ لي إلّا ما عَلَّمَني ربّي. ثم قالَ: أبْلِغْني وُضوءاً [أتَوَضَّأُ بهِ][9] فَتَوَضَّأَ. ثم قامَ إلى مَسْجِدٍ في بَيْتِهِ، فَرَكَعَ [رَكْعَتَينِ. فما][10] انْصَرَفَ حتى بَدا لِيَ السُّرورُ في وجهِهِ، ثم قالَ لي: اذْهَبْ،

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مصحفاً. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) انظر الوجه الثالث من باب غلام في كتابنا (وجوه القرآن) للضرير الحيري. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: الغلامين. (٨) في الأصل وم: لندخلن. (٩) من م، في الأصل: أو توضاء. (١٠) في الأصل وم: فيه ركعتين فلما.

فأدخِلهُم ومَن وجَدتَ مِن أصحابي، فأدخَلتُهُم.[1] فلما رآهُمُ النَّبيُّ قالَ لهم: إنْ شِئتُمْ أخبَرْتُكُم عمّا تَجدونَهُ في كتابِكُم. [السيوطي في الدر المنثور ج٥/٤٣٧] فهذا إنْ ثَبَتَ [فإنهُ][2] يَدُلُّ أنهُ نَزَلَ عليهِ نَبأُ ذي القَرنَينِ وخَبَرُهُ قَبلَ أنْ يُسألَ.

وأمّا أهلُ التأويلِ [فقد][3] قالوا جميعاً: إنهُ سُئِلَ قَبلَ أنْ يَنزِلَ عليهِ خَبَرُهُ، ثم نَزَلَ مِن بَعدِ السؤالِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ: كانَ نَبيّاً. دليلُهُ ما قالَ: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] قالَ: هذا تَحكيمٌ مِنَ اللهِ إيّاهُ في ما ذَكَرَ، ولا يُولي الحُكمَ إلّا مَنْ كانَ نَبيّاً.

وأمّا عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ فإنهُ سُئِلَ عنْ ذلكَ: كانَ نَبيّاً أو مَلِكاً؟ فقالَ: لا واحدٌ منهما.

وقالَ غيرُ هؤلاءِ: إنهُ كانَ مَلِكاً. يَدُلُّ على ذلكَ الخَبَرُ الذي رَوى عُقْبَةُ بْنُ عامرٍ الجُهَنِيُّ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنْ خَبَرِهِ ونَبَئِهِ. قالَ: فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ كانَ غُلاماً مِنَ الرومِ، أُعطِيَ مُلْكاً، فَسارَ حتى بَلَغَ كذا على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ.

الآية ٨٤ والأشبهُ أنْ يكونَ أنهُ كانَ مَلِكاً. ألا تَرى أنهُ قالَ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ [أي مَلَّكْنا لهُ الأرضَ][4] جُملَةً. ذَكَرَ تَمكينَ الأرضِ لهُ جُملَةً، يَصنَعُ فيها ما يَشاءُ، لم يَخُصَّ لهُ ناحيَةً منها دونَ ناحيَةٍ. وليسَ كقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية [القصص: ٥٧] وكقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ههنا خَصَّ مكاناً لهمْ دونَ مكانٍ. وأمّا في ذي القَرنَينِ فَذَكَرَ[5] التَّمكينَ لهُ في الأرضِ، لم يَخُصَّ ناحيَةً منها دونَ ناحيَةٍ؛ فهو أنْ مَلَّكَهُ، ومَكَّنَ [لهُ][6] الأرضَ كلَّها.

وقولُ الحَسَنِ: إنهُ[7] عَلَّمَهُ، وَوَلّى لهُ الحُكمَ، فهذا لا يدلُّ أنهُ كانَ نَبيّاً؛ لأنَّ الملوكَ هُمُ الذينَ كانوا يَتَوَلَّونَ الجهادَ والغَزْوَ في ذلكَ الزمانِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ [البقرة: ٢٤٦] إنَّ الملوكَ هُمُ الذينَ كانوا يَتَوَلَّونَ الجِهادَ والغَزْوَ والقِتالَ في ذلكَ [الزمانِ][8] معَ العَدُوِّ، فَعَلى ذلكَ هذا، وقولِهِ: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ [الكهف: ٨٧] ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨][9] يَحتَمِلُ هذا منهُ إلهاماً[10] مِنَ اللهِ تعالى أو تَعليمَ المَلِكِ الذي كانَ فيهِ أو كانَ معهُ نَبيٌّ، فأخبَرَ لهُ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ اختُلِفَ في ذلكَ: قالَ بعضُهُمْ: عِلْمُ المنازِلِ أي[11] منازِلِ الأرضِ ومَعالِمِها وآثارِها. وقالَ [بعضُهُمْ][12]: العِلمُ والقُوَّةُ. وقالَ بعضُهُمْ: إعطاءُ السببِ الذي بِهِ صَلاحُ ما مَكَّنَ لهُ، ومَلَّكَ لهُ [ممّا تَقَعُ][13] الحاجةُ إليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ السببُ، كانَ أنعاماً، كانَ عليها يَحمِلُ الخَشَبَ، فَيَتَّخِذُ منهُ سَفينَةً إنِ استَقْبَلَهُ بَحْرٌ، فَيَعْبُرُ بها، ثم يَنْقُضُها، ويَحمِلُ الخَشَبَ على الأنعامِ، ويَعْبُرُ البَرَّ على الدَّوابِّ. فذلكَ السَّبَبُ الذي ذَكَرَ.

وأصلُهُ أنهُ ذَكَرَ أنهُ آتاهُ الذي بِهِ صلاحُ ما مَكَّنَ، ومَلَّكَ عليهِ، ولم يُبَيِّنْ ما ذلكَ السَّبَبُ؟ فلا نَدري ماذا أرادَ بذلكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٥ و٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ كأنهُ أرادَ، وطَلَبَ أنْ يَعرِفَ أنها أينَ تَغرُبُ؟ حينَ[14] قالَ: ﴿حَمِئَةٍ﴾ وفيه لُغتانِ[15]: حَمِئَةٍ وحامِئَةٍ. قالوا: مَنْ قَرَأها حامِيَةً أرادَ في عينٍ حارَّةٍ، ومَنْ قَرَأَ ﴿حَمِئَةٍ﴾ مَهموزَةً بِغَيرِ ألفٍ أرادَ الحَمْأةَ، وهي الطينَةُ السوداءُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانوا كُفّاراً ومُؤمِنينَ الفريقانِ جميعاً. فقالَ في الكفارِ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ وهو القَتْلُ. وقالَ في المؤمِنينَ: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] ليسَ على التَّخييرِ، ولكنْ على الحُكمِ في كلِّ فَريقٍ على حِدَةٍ. وقالَ

(١) في الأصل وم: فادخلهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: له. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: إن. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: كذا. (١٠) في الأصل وم: إلهام. (١١) في الأرض وم: أن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٩.

بعضُهُم: كانوا كلُّهُمْ كُفّاراً، فيكونُ تأويلُهُ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ إذا لم يُجيبوكَ، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ إذا أجابوكَ، وآمَنوا باللهِ.

الآيتان ٨٧ و٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذا [ما ذَكَرْنا][1] أنهُ حَكَمَ بذلكَ بِتَعْليمِ نَبِيٍّ كانَ معهُ، أو حَكَمَ بذلكَ لِما كانَ عَرَفَ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الكُفّارِ: القَتْلُ. والإهلاكُ، وفي المؤمنينَ: التَّرْكُ والإحسانُ، أو أُلْهِمَ بذلكَ إلهاماً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي عارفاً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُسْرًا﴾ مَعروفاً وقالَ بعضُهُمْ: اليُسْرُ هو اسْمُ كلِّ خيرٍ وبَرَكَةٍ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي بلاغاً لِحاجَتِهِ. وقالَ غيرُهُ: ما ذَكَرْنا مِنَ السببِ الذي بهِ مَلَكَ طريقَ المَغْرِبِ والمَشْرِقِ، وبهِ بَلَغَ ما بَلَغَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختَلَفوا في ما سُمِّيَ ذا[2] القَرْنَيْنِ لأنهُ دعا قَوْمَهُ إلى توحيدِ اللهِ والإيمانِ بهِ، فَضَرَبوهُ على قَرْنِهِ الأيمَنِ، ثم غابَ ما شاءَ اللهُ. وفي بَعْضِ/ ٣٢١ - ب/ الأخبارِ ماتَ، ثم حَضَرَ، فَدَعاهُمْ ثانياً، فَضَرَبوهُ على قَرْنِهِ الأيسَرِ، فَبَقِيَ عليهِ لِذلكَ [أثرٌ، فَسُمِّيَ لِذلكَ][3] ذا القَرْنَيْنِ، لا أنْ كانَ لهُ [قَرْنانِ كَقَرْنَيِ الثورِ][4] وقالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ ذا القَرْنَيْنِ لأنهُ كانَ لهُ ذُؤابَتانِ؛ أعني ضَفيرتانِ. وقالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ ذا[5] القَرْنَيْنِ لأنهُ بَلَغَ قَرْنَيِ الشمسِ مَغْرِبَها ومَطْلِعَها. وقالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ ذا القَرْنَيْنِ لأنهُ عاشَ حياةَ قَرْنَيْنِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ بالسَّبَبِ الذي ذَكَرَ أنهُ أعطاهُ [إيّاهُ لَمّا][6] بَلَغَ مَغْرِبَ الشمسِ ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾. قالَ الحَسَنُ: إنَّ تلكَ الأرضَ تَميدُ، وتَميعُ، لا تَقِرُّ، ولا تَسْكُنُ، و[7] لا تَحْتَمِلُ البِناءَ والحَجَرَ، فإذا طَلَعَتِ الشمسُ طَلَعَتْ عليهِمْ، لِما لم يَكُنْ لهمْ بِناءٌ ولا سِتْرٌ، تَهَوَّروا في البِحارِ. فإذا ارْتَفَعَتْ عنهمْ خَرَجوا.

وقالَ ابنُ عباسٍ: إنَّ الشمسَ إذا طَلَعَتْ كانَتْ حَرارَتُها أشَدَّ عندَ طُلوعِها مِنْ غُروبِها، فَتَحْرِقُ كلَّ شيءٍ حتى لا تُبْقِيَ لهمْ ثَوباً[8] ولا بِناءً ولا خَشَباً[9] ولا غَيرَهُ إلا أحْرَقَتْهُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كذلكَ أخبَرَنا رسولُ اللهِ مِنْ نَبَإِ ذي القَرْنَيْنِ وخَبَرِهِ على ما كانَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أعطَينا لهُ مِنَ السَّبَبِ حتى بَلَغَ مَطْلِعَ الشمسِ كما بَلَغَ مَغْرِبَها بالسَّبَبِ الذي ذَكَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قيلَ لهُ في المَطْلِعِ مِنْ قولِهِ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] كما قيلَ لهُ في المَغْرِبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: [هو][10] صِلَةُ قولِهِ: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي عَنْ عِلْمٍ سَأتْلو عليكُمْ: وقالَ بعضُهُمْ: هو على الابتِداءِ، ليسَ على الرَّبْطِ والصِّلَةِ على الأوَّلِ؛ أي قد أحَطْنا عِلْماً[11] بما لَدَيهِ.

الآيتان ٩٢ و٩٣ [وقولُهُ تعالى:][12] ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ما ذَكَرْنا في بُلوغِهِ مَغْرِبَها ومَطْلِعَها، أي أعطَينا لهُ مِنَ السَّبَبِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ في بَعضِ القراءاتِ السُّدَّينِ، بالرَّفْعِ[13] فإنْ كانَ بَينَ اللُّغَتَينِ فَرْقٌ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ السُّدّانِ بالرَّفْعِ الجَبَلَينِ اللَّذينِ كانا هنالكَ. والسَّدَّينِ بالنَّصْبِ هو بِناءُ ذي القَرْنَينِ. وإنْ لم يَحْتَمِلِ الفَرْقَ فهو ما بَنى هو، أو مَكانٌ[14] في

---

(١) في الأصل وم: ذو. (٢) في الأصل وم: ذو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: قرن كقرن. (٥) في الأصل وم: ذو.
(٦) في الأصل وم: كما. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ثوب. (٩) في الأصل وم: خشب. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) في الأصل وم: علمنا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: بالنصب، انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٣. (١٤) في الأصل وم: مكانا.

الخِلْقَةِ. ثم اختُلِفَ في ذلكَ السَّدِّ. قالَ بعضُهُمْ: هو المَنْفَذُ الذي كانَ بَينَ طَرَفَيِ الجَبَلِ الذي كانَ مُحيطاً بالأرضِ، يَدْخُلُ فيهِ يأجوجُ ومَأجوجُ إلى هذهِ الأرضِ. فَسَدَّ ذو القرنَينِ ذلكَ المَنْفَذَ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ كانا جَبَلَينِ:

أحَدُهما: سِتْرٌ[1] بينَ يأجوجَ.

والثاني: بَينَ مأجوجَ. فَسَدَّ [ذو القَرْنَينِ][2] ذلكَ، واللهُ أعلَمُ كيفَ كانَ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قالَ الحَسَنُ: كانوا يَفْقَهونَ ما بِهِ صَلاحُ مَعاشِهِمْ وما بِهِ بَقاؤُهُمْ. ولكنْ كانوا لا يَفْقَهونَ الهُدى مِنَ الضلالِ والخَيرَ مِنَ الشَّرِّ ونَحْوَهُ.

الآية ٩٤ وقالَ بعضُهُمْ: لا يَفْقَهونَ قولاً مِنْ غَيرِ كلامِهِمْ ولِسانِهِمْ. ولكنْ يَفْقَهونَ بلسانِهِمْ وكلامِهِمْ. وذو القَرْنَينِ كانَ يَعْرِفُ الألْسُنَ كُلَّها، فَفَقِهوا هُمْ [منهُ][3]، وفَقِهَ هو منهمْ حينَ[4] ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي جُعْلا: أجراً ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

الآية ٩٥ و﴿قَالَ﴾ هو ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ فَهِمَ ذو القَرْنَينِ منهُمْ، وفَهِموا أيضاً منهُ ما ذَكَرْنا. فَدَلَّ ذلكَ أنهمْ كانوا لا يَفْقَهونَ بِلِسانِ غَيرِهِمْ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنهمْ لا يَفْقَهونَ شيئاً قليلاً مِنَ القولِ، وإنْ كانوا لا يَفْقَهونَ كثيراً، لأنهُ يقولُ: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فهو يَتَكَلَّمُ على القُرْبِ لا على النَّفْيِ رَأساً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾[5] جُعْلاً وأجراً ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ على تأويلٍ، يكونُ قولُهُ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ مِنَ النُّبُوَّةِ ﴿خَيْرٌ﴾ لأنهُ يقولُ: إنهُ كانَ نَبياً حينَ[6] قالَ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الكهف: ٨٤]

وعلى قَولِ غَيرِهِ يكونُ ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ مِنَ المُلْكِ والسَّبَبِ الذي أعطاني، وأَبْلُغُ بِهِ مَغْرِبَ الشمسِ ومَطْلِعَها ﴿خَيْرٌ﴾ مِمّا تَذْكُرونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بما أتقوّى بِهِ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي سَدًّا.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي قِطَعَ الحديدِ. وقالَ بعضُهُمْ: سَأَلَهُمُ الحديدَ لأنَّ المَكانَ مَكانُ الحديدِ. و قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الحديدَ كانَ ألْيَنَ لهمْ مِنَ اللَّبِنِ أو القِطْرِ. ولكنْ لا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالسَّمعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي بَلَغَ ذلكَ السَّدُّ رأسَ الصَّدَفَينِ، وهما جَبَلانِ، وسَوّى بَيْنَهُما[7]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي أصُبَّ عليهِ قِطْراً: قيلَ: نُحاساً، وقيلَ: رَصاصاً. ذُكِرَ أنهُ كانَ يَبْسُطُ الحديدَ صَدْراً، ثم يَبْسُطُ الحَطَبَ فوقَهُ صَدْراً، ثم حديداً فوقَ الحَطَبِ حتى بَلَغَ رأسَ الجَبَلَينِ، وسَوّى بَيْنَهُما[8] على هذا السَّبيلِ. ثم أذيبَ القِطْرُ، فَصُبَّ فيهِ، فَجَعَلَ القِطْرُ يَحْرِقُ الحَطَبَ، ويُذيبُ الحديدَ حتى دَخَلَ القِطْرُ مكانَ الحَطَبِ، وصارَ مكانَهُ، فالْتَزَقَ القِطْرُ بالحديدِ. على هذا ذُكِرَ أنهُ بَنى ذلكَ السَّدَّ.

وقالَ الحَسَنُ: كانَ القِطْرُ لهُ كالمِلاطِ لنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يَعْلُوهُ؛ يعني على ذلكَ السَّدِّ ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ في أسفَلِهِ ولا يُزادُ على المذكورِ في الكتابِ في هذهِ الأنباءِ والقِصَصِ خَوفاً [مِنَ الشهادةِ][9] على اللهِ والكَذِبِ عليهِ. ولكنْ نَذْكُرُ مِقْدارَ ما ذُكِرَ في الكتابِ، لا نَزيدُ على ذلكَ. وفي الكتابِ القَدْرُ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: سترا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: خراجاً وهي قراءة حمزة والكسائي وغيرهما، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٤. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: بهما. (٨) في الأصل وم: بهما. (٩) في الأصل وم: للشهادة.

قالَ القُتَبِيُّ: يُقالُ لِلْجَبَلِ السُّدُّ، وزُبُرٌ[1] قِطَعٌ، والقِطْرُ النحاسُ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يَعْلوهُ؛ يقالُ: ظَهَر فلانٌ السَّطْحَ إذا عَلاهُ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ، وقالَ: السُّدَّينِ: ناحِيَتَي الجَبَلِ، والرَّدْمُ السَّدُّ، والصَّدَفَينِ هو مِثْلُ السُّدَّينِ ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي أَصُبَّ عليهِ نُحاساً.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ يَحْتَمِلُ أنْ [يكونَ][2] السَّدُّ الذي بَنى، وحالَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ يَأجوجَ و مأجوجَ[3]، منهُ رَحْمَةً، أي بِرَحْمَتِهِ كانَتْ تلكَ الحَيلولَةُ، أي[4] كانَ ذلكَ مَنَّةً ونِعْمَةً[5] مِنَ اللهِ، والرَّحْمَةُ هي النِّعْمَةُ؛ أي هذا السَّدُّ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ نِعْمَةٌ مِنْ ربي عليكُمْ. ثم فيهِ وجهانِ:

أحدُهما: ذَكَرَ أنَّ ذلكَ كانَ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ، إذا فَرَغَ منهُ، وقد كانَ في الإبْتِداءِ حينَ سَألوهُ أنْ يَجْعَلَ لهمُ السَّدَّ أضافَ الفِعْلَ إلى نفسِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ فَدَلَّ ذلكَ أنَّ ما فَعَلَ بِرَحْمَةٍ منهُ وفَضْلٍ، وأنَّ لهُ في ذلكَ صُنْعاً.

والثاني: فيهِ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ بالخَلْقِ ما ليسَ هو بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ، لأنهُ لا يَخْلو: إمّا أنْ كانَ الأوّلُ لهمْ أصْلَحَ في الدينِ، ثم فَعَلَ الثانيَ: [فلا يكونُ الثاني: أصْلَحَ لهمْ في الدينِ، وإمّا[7] أنْ كانَ الأصْلَحُ][8] لهمْ في الدينِ الثاني: فالأوّلُ لم يكُنْ. ثم ذَكَرَ أنَّ ذلكَ رَحْمَةٌ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وهو المَوعودُ، لأنَّ الوَعْدَ لا يَجيءُ؛ فكأنهُ قالَ: مَوعودُ ربي، وهو خُروجُ يَأجوجَ ومَأجوجَ، أو فَتْحُ ذلكَ السَّدِّ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي كَسْراً أو هَدْماً على ما ذَكَرْنا. [وقولُهُ][9] ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي هَدَمَهُ، وسَوّاهُ بالأرضِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي ألْصَقَهُ بالأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ هذا وَعْدٌ، والأولُ مَوعودٌ.

الآية ٩٩ قوله تعالى ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي يَجولُ بعضُهُمْ في بَعْضٍ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ عندَ السَّدِّ الذي بَناهُ ذو القَرْنَينِ يموجونَ عندما[10] فَتَحَ ذلكَ السَّدَّ. أو يَذْكُرُ هذا لِكَثْرَتِهِمْ و ازْدِحامِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ظاهِرُهُ على الماضي، والمُرادُ منهُ المُسْتَقْبَلُ، أي يُنْفَخُ في الصُّورِ فَيَجْمَعُهُمْ جميعاً. ومِثْلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ: يُذْكَرُ الماضي بِحَرْفِ المُسْتَقْبَلِ، والمُسْتَقْبَلُ بِحَرْفِ الماضي/ ٣٢٢ ـ أ/.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عَرَضَها عليهِمْ قَبْلَ أنْ يَدْخُلوا فيها كقولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ العَرْضُ كِنايَةً عنِ التَّعْذيبِ بها بَعْدَ ما أُدْخِلوا فيها كقولِهِ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ أنَّ ظُلْمَةَ الكُفْرِ تَسْتُرُ، وتَحْجُبُ نورَ القَلْبِ، ونورَ كلِّ حاسَّةٍ مِنْ حواسِّهِ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفُؤادِ وغَيرِهِ؛ إذْ لِكُلِّ حاسَّةٍ مِنْ هذهِ الحَواسِّ نورٌ وضياءٌ في سِرِّيَّتِها، لا تُبْصِرُ، ولا تَسْمَعُ الحَقَّ والحُجَّةَ إلّا بِنُورَينِ جميعاً نُورِ الظاهِرِ ونورِ السِّرِّيَّةِ والباطِنِ.

فالكُفْرُ يَسْتُرُ، ويُغَطّي ذلكَ النورَ [فَيَجْعَلُ صاحبَهُ][11] لا يُبْصِرُ الحَقَّ، ولا يَنْظُرُ العِبَرَ، ولا يَتَفَكَّرُ، ولا يَتَجَلّى لهُ الحَقُّ بِنُورِ الظاهِرِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: فذلك. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في م: أو. (٨) من م، في الأصل: أصلح. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عنده في. (١١) في الأصل وم: فجعل.

وللإيمانِ نُورٌ وضياءٌ يُبَصِّرُ [صاحِبَهُ](١) بهِ، ويُسْمِعُ، ويَرْفَعُ(٢) لهُ غِطاءَ كلِّ شيءٍ حتى يَتَجلَّى لهُ الحقُّ، ويَعرِفُ بهِ حُسْنَ [كلِّ حَسَنٍ](٣) وقُبْحَ كلِّ قَبيحٍ. فهو كما يَرى الإنسانُ الشيءَ بِنُورِ بَصَرِهِ وبِنورِ الهواءِ. فإذا ذَهَبَ أحَدُهما صارَ بحيثُ لا يُبْصِرُ، ولا يَرَى شيئاً. فَعَلَى ذلكَ إنما يَعْرِفُ الشيءَ، وتَظْهَرُ لهُ حقيقَتُهُ بِنورَينِ بِنُورِ القَلْبِ وبِنُورِ الحواسِّ. فإذا غَطَّتْ ظُلْمَةُ الكُفرِ نورَ القَلْبِ صارَ لا يُبْصِرُ شيئاً، ولا يَعْتَبِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَنْطِقُ بالحقِّ. والإيمانُ يُنَوِّرُ ذلكَ [القَلْبَ، ويُضيئُهُ، فَيَجْعَلُهُ](٤) يُبْصِرُ كلَّ شيءٍ، ويَتَجلَّى لهُ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، ويَعْرِفُ(٥) الآياتِ مِنَ التَّمْويهاتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ فيهِ وجهانِ مِنَ الدلالةِ:

أحَدُهما: أنهُ نَفَى عنهمُ استِطاعةَ السَّمْعِ، وقد كانَ لهمُ السَّمْعُ. فَدَلَّ أنَّ الاستِطاعةَ التي هي استِطاعةُ الفِعْلِ تَقْتَرِنُ بالفِعْلِ، لا يَتَقدَّمُ، ولا يَتَأخَّرُ [حينَ](٦) قالَ: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ وكذلكَ قولُ صاحِبِ موسى حينَ(٧) قالَ لهُ ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨و٧٢و٧٥] في [ثلاثةِ](٨) مواضِعَ، فَدَلَّ ما نَفَى عنهُ الفِعْلَ إنما تُقارِنُ الفِعْلَ، لا تَحْتَمِلُ التَّقدُّمَ والتأخُّرَ](٩).

والثاني: فيهِ دلالةٌ أنَّ هنالكَ استِطاعةً، هُمْ يَسْتَفيدونَ بما وَعَدَ اللهُ، ويَسْتَوجِبونَ بِهِ، فَضَيَّعوها باشْتِغالِهِمْ بِغَيرِها حينَ(١٠) عُوتِبوا، واسْتَوجَبوا ذلكَ العتابَ والتَّوبيخَ بالتَّضْييعِ الذي كانَ منهُمْ. فلو لم يَكُنْ [ذلكَ منهمْ](١١) لم يكنْ لِلْعِتابِ والتوبيخِ الذي عُوتِبوا، وَوُبِّخوا مَعْنًى.

قالَ قومٌ: إنما نَفَى عنهمُ ذلكَ لِلاسْتِثْقالِ الذي كانَ منهمْ. وقد يُقالُ مِثْلُهُ على المجازِ لِلاسْتِثْقالِ دونَ الحقيقةِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: ما أستَطيعُ أنْ أنْظُرَ إليكَ لِكذا، وهو ناظرٌ إليهِ. لكنْ قد ذَكَرْنا أنهُ على الوجهِ الذي قالَ: لا أستطيعُ أنْ أنْظُرَ إليكَ، وهو ناظرٌ إليهِ، غَيرَ مُسْتَطيعِ النظرَ إليهِ، وهو نَظَرُ رَحْمَةٍ وشَفَقَةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على الطَّبْعِ، وهو قولُ الحَسَنِ. و قالَ بعضُهُمْ: إنما نَفَى ذلكَ عنهُمْ [لِما لم يَنْتَفِعوا بهِ كما نَفَى عنهُمْ](١٢) السَّمْعَ والبَصَرَ والنُّطْقَ لِما لم يَنْتَفِعوا بهِ، ليسَ على أنهمْ لم يَكُنْ لهمْ تلكَ الحواسُّ. فَعَلَى ذلكَ ما نَفَى عنهمْ مِنَ الاسْتِطاعةِ لِما لم يَنْتَفِعوا بها، ليسَ على أنها ليسَتْ قَبْلُ هكذا. نَفَى عنهمْ ذلكَ لمّا عَمُوا، وصَمُّوا عنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً]:

أحَدُها(١٣): قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ عَبَدوا في الدنيا الملائكةَ والرسلَ، واتَّخذوهُمْ مِنْ دوني أولياءَ أنْ يكونوا لهمْ أولياءَ في الآخِرَةِ، ويَتَوَلَّونَ شَفاعَتَهُمْ، يَشْفَعونَ لهمْ، ويَنْصُرونَ. كلا لنْ(١٤) يَصيروا لهمْ أولياءَ كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِهِمْ(١٥): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

والثاني: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ المُخْلِصينَ ﴿دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ويَتَوَلَّوهُمْ(١٦)؛ أي لا يَقْدِرونَ على أنْ يَتَّخِذوا أولياءَ مِنْ دوني، وقد(١٧) كانوا يدعونَ المؤمنينَ إلى دينِهِمْ والتَّوَلِّي لهمْ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩و١٠٠].

والثالث: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ أنَّ ما عَبَدوا، واتَّخذوا مِنْ دوني أولياءَ أني أمَرْتُهُمْ بذلكَ، وأذِنْتُ لهمْ حينَ(١٨) قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ونحوَهُ(١٩). كلّا إنهُ [ما أمَرَهُمْ بذلكَ وما](٢٠) أذِنَ لهمْ في ذلكَ.

ومَنْ قَرَأ ﴿أَفَحَسِبَ﴾ على الجَزْمِ(٢١) فهو على إسْقاطِ ألِفِ الاسْتِفهامِ؛ يَعْني فَحَسْبُ الذينَ كَفَروا، فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: ويبصر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ويضيء فجعل. (٥) في الأصل وم: وعرفوا. (٦) في الأصل: حيث. (٧) في الأصل: حيث. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: إن. (١٥) في الأصل وم: و. (١٦) في الأصل وم: ويتولونهم. (١٧) من م، في الأصل: و. (١٨) في الأصل وم: حيث. (١٩) من م، في الأصل: ونحو. (٢٠) في الأصل وم: آمرهم بذلك أو. (٢١) هي قراءة ابن كثير وغيره، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/١٩.

أحدُها: فَحَسْبُ الذينَ كَفروا، واتَّخذوا عِبادي مِنْ دوني أولياءَ ما أعْتَدْنا لهمْ مِنْ جَهنَّمَ كقولِهِ[1]: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ الآية [المجادلة: ٨].

والثاني: فَحَسْبُ[2] الذينَ كَفروا ما اتَّخذوا مِنْ دوني أولياءَ؛ أي أما كَفاهُمْ ذلكَ؟ وما حانَ أنْ يَرْجِعوا إلى عبادَتي وأُلوهِيَّتي؟ وقد أقَمْتُ لهمُ الآياتِ والحُجَجَ على ذلكَ.

والثالثُ: فَحَسْبُ[3] لهمْ مِنَ الذُّلِّ ما اتَّخذوا مِنْ دوني أولياءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نُزُلًا﴾ هو النُّزولُ، وهو كالنُّزُلِ[4]. وقالَ بعضُهُمْ: هو المَنْزِلُ والأنزالُ، أي يأكلونَ فيها النارَ، فيكونُ مأكَلُهُمْ ومَشْرَبُهُمْ مِنَ النارِ. قالَ القُتَبِيُّ: النُّزُلُ ما يُقَدَّمُ لِلضَّيفِ ولأهلِ العَسْكَرِ.

الآيتان ١٠٣ و١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا خَرَجَ على مُقابَلَةِ قولٍ كانَ مِنْ رُؤساءِ الكَفَرَةِ وجَوابٍ لهمْ؛ وهو أنَّ الرُّؤساءَ منهمْ كانوا يُوَسِّعونَ الدنيا على بَعْضِ أتباعِهِمْ، ويُحْسِنونَ إليهمْ. ثم صارَ أولئكَ الأتباعُ أتباعاً لرسولِ اللهِ، ودَخلوا في دينِهِ، فضاقَتْ عليهمُ الدنيا، وذَهَبَتِ المَنافِعُ التي كانَتْ لهمْ منهُمْ، فَعَيَّرَهُمْ بذلكَ أولئكَ الكَفَرَةُ، وَوَبَّخوهُمْ، على ما اختاروا مِنَ الدينِ أنهُ لو كانَ حَقًّا لاتَّسَعَتْ عليهمُ الدنيا كما اتَّسَعَتْ علينا وعليهِمْ ما داموا على دينِنا أو كلامٍ نَحْوِ هذا فأجابَهُمُ اللهُ بذلكَ، فقالَ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ الآية.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الاِبْتِداءِ في أهلِ الصوامعِ منهُمْ والرُّهْبانِ الذينَ اعْتَزَلوا النِّساءَ، وحَبَسوا أنْفُسَهُمْ لِعِبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، وجَهَدوا[5] هُمْ فيها، وحَمَلوا على أنفسِهِمُ الشدائِدَ والمَشَقَّةَ. فأخْبَرَ ﷺ أنَّ هؤلاءِ أخْسَرُ أعمالاً وأضَلُّ[6] سَعْياً مِنَ الذينَ طَلَبوا الدنيا والرِّئاسَةَ فيها، ولم يَفْعَلوا ما فَعَلَ هؤلاءِ، وإنْ كانوا في الكُفْرِ سَواءً. والأخسَرُ هو الوَصْفُ بالخُسْرانِ على[7] النهايَةِ والغايَةِ.

وجائزٌ أنْ يُسْتَعْمَلَ أفْعَلُ في مَوضِعِ فاعِلٍ[8]. هذا في اللغةِ غيرُ مُمْتَنِعٍ، فيكونُ تأويلُهُ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ بالخاسِرينَ ﴿أَعْمَٰلًا﴾ كقولِهِ: ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢ وغافر: ١٠] أي كبيرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ضَلَّ﴾ أي ذَلّوا لِعِبادَتِهِمُ التي عَبَدوا: تلكَ الأوثانَ والأصنامَ، وخَذَلوا أنفُسَهُمْ بذلكَ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٦٩] [أي][9] أذَلّوا أنفُسَهُمْ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ.

والثاني: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ الذي سَعَوا في الدنيا بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ في الآخِرَةِ لأنهمْ قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[10]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوَهُ.

فَضَلَّ ما أمَّلوا في الآخِرَةِ بِسَعْيِهِمْ في الدنيا[11]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ التي عَبدوها ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ بما أنْفَقوا على أولئكَ، وَوَسَّعوا ﴿صُنْعًا﴾ أي خَيراً أو مَعْروفاً؛ أي ليسَ [ذلكَ بِصُنْعٍ، ولا][12] خَيرٍ.

وفيهِ دلالةٌ أنهمْ يُؤاخَذونَ بِفِعْلِهِمُ الذي فَعَلوا، وإنْ جَهِلوا الحَقَّ. وهكذا قولُنا: إنَّ مَنْ فَعَلَ فِعْلاً، وهو جاهلٌ، فإنهُ يُؤاخَذُ بهِ بَعْدَ أنْ يكونَ لهُ سَبيلُ الوصولِ إلى الحَقِّ بالطَّلَبِ والتَّعَلُّمِ حينَ قالَ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

الآية ١٠٥ ثم أخبَرَ مَنْ هُمْ، فقالَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بِحُجَجِهِ وبَراهينِهِ. وقالَ الحَسَنُ: بدينِهِ. وقد ذَكَرْنا ذلكَ في غَيرِ مَوضعٍ.

---

(١) في الأصل وم: كقولهم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: من النزل، في م: من النزول.
(٥) في الأصل وم: وجهدوها. (٦) في الأصل وم: وأضلهم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: فعل. (٩) ساقطة من الأصل وم.
(١٠) في الأصل وم: و. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: والآخرة. (١٢) في الأصل وم: لهم ذلك بصنع لا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ البَعْثُ أوِ المَصيرُ، وهو مذكورٌ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي لا نُقيمُ لهمْ وَزناً، وهو كقولِهِ[1] ﷻ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] فإذا لم تَربَحْ لهمْ خَسِرتْ عليهِمْ /٣٢٢ ـ ب/ وقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل: ٢٥] هذا يَدُلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ قد يُقامُ عليهِمُ الوَزْنُ.

الآية ١٠٦ ثم أخبَرَ ﷻ عَنْ جَزائِهِمْ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ ثم ذَكَرَ [ما][2] ذَكَرَ لِلْكَفَرَةِ، فقالَ:

الآية ١٠٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ وكانَتِ الجَنّاتُ التي لِلْمُتَّقينَ [أربعاً][3] جَنّاتِ النعيمِ وجَنّاتِ المَأْوَى وجَنّاتِ عَدْنٍ وجَنّاتِ الفِرْدَوسِ. ثم كانَ في كلِّ واحدةٍ منها؛ أعني الجَنّاتِ، مَعْنَى الأُخْرَى، لأنهُ قالَ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [السجدة: ١٩] وهو ما يُؤْوَى إليهِ [وقالَ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨] وهو ظاهرٌ، وقالَ][4]: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الكهف: ١٣] مِنَ المُقامِ أو غيرِهِ. والفِرْدَوسُ سُمِّيَتْ فِرْدَوساً لأنها تكونُ مُلْتَفَّةً مَحْفوفَةً بالأشجارِ. وفي كلِّ واحدةٍ منها ذلكَ كُلُّهُ.

وقولُهُ: ﴿نُزُلًا﴾ قيلَ: مَنْزِلاً مِنَ النُّزولِ، وقيلَ مِنَ النُّزُلِ، وهو مِنَ الأنزالِ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي تَحَوُّلاً. أخبَرَ أنهمْ لا يَمَلّونَ، ولا يَسْأمونَ مِنْ نَعيمِها كما يَمَلُّ أهلُ الدنيا مِنْ نَعيمِها، ويَسْأمونَ، لأنَّ السرورَ بما يُمَلُّ مِنْ نِعْمَةٍ، ويُرْغَبُ في أُخرَى. فأخبَرَ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ لا يَمَلّونَ، ولا يَسْأمونَ، ولهمْ فيها ما يَشْتَهونَ، ولهمْ فيها ما يَتَخَيَّرونَ.

ورُوِيَ أنَّ ابنَ عباسٍ سَألَ كَعْباً عنِ الفِرْدَوسِ، فقالَ: هي جَنّاتُ الأعنابِ بالسُّرْيانيَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ ما ذَكَرْنا أنها سُمِّيَتْ [بذلكَ][5] لِكَثْرَةِ أشجارِها والْتِفافِها.

ورُوِيَ عَنْ عبادةَ بْنِ الصامِتِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «الجنةُ مئةُ دَرَجَةٍ ما بَينَ كلِّ دَرَجَتَينِ كما بَينَ السماءِ والأرضِ: الفِرْدَوسُ أعلاها دَرَجَةً؛ مِنْ فَوقِها يكونُ العَرْشُ[6]، منها تَتَفَجَّرُ أنهارُ الجنةِ الأربَعَةُ. فإذا سَألْتُمُ اللهَ الجَنَّةَ فاسألوهُ الفِرْدَوسَ» [البخاري ٢٧٩٠]

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي تَحَوُّلاً. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: هو مِنَ التَّحَوُّلِ. وقالَ: ﴿نُزُلًا﴾ قالَ هذا مِنَ الطعامِ والشَّرابِ، وجمعُ النُّزُلِ النِّزالُ، وجَمْعُ الفِرْدَوسِ الفراديسُ. وقالَ القُتَبيُّ: النُّزُلُ ما يُقَدَّمُ للضيفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا خَرَجَ مُقابِلَ قولِهِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وجوابُهُ لِما ذَكَرَ فيهِ ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١]. فقالَ ﷻ عندَ ذلكَ جواباً لِقولِهِمْ: إنهُ لو بَسَطَ ما أَوْدَعَ فيهِ مؤمنٌ مِنَ[7] المعاني والحِكْمَةِ، فَشَرَحَ ذلكَ، فَكَتَبَ بما ذُكِرَ، لَبَلَغَ القَدْرَ الذي ذُكِرَ، وازدادَ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ أي لو قالَ ما خَلَقَ، وأمْلَى أني خَلَقْتُ كذا، وخَلَقْتُ كذا، ويَكْتُبُ[8] جميعَ ما خَلَقَ، لَبَلَغَ القَدْرَ الذي ذَكَرَ. فَيَرْجِعُ تأويلُهُ إلى ما خَلَقَ مِنْ أصنافِ الخَلْقِ وأجناسِ الأشخاصِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: قولُهُ: ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ لِبيانِ ما خَلَقَ ربي، فهو يرجِعُ إلى الأوَّلِ. وقالَ: فائدةُ ما ذَكَرَ [أمرانِ أحَدُهما][9]: هو أنْ يَعْرِفوا أنَّ خَلائِقَهُ وما أنْشَأَ خارجٌ[10] عنِ الوقوعِ في الأوهامِ. فالذي أنْشَأَ ذلكَ وخَلَقَهُ أحرَى أنْ يكونَ خارجاً عنِ الوقوعِ في الأوهامِ والتَّصَوُّرِ فيها.

---

(١) في الأصل وم: ما قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: الفردوس. انظر سنن ابن ماجه ح٢/ ٤٣٦ رقم الحديث/ ٣٤٩٦. (٧) في الأصل وم: نحو. (٨) من م، في الأصل: فليكتب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: خارجا.

والثاني: أنْ يَعْرفوا قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ وإحاطَةَ عِلْمِهِ بالخَلائِقِ وما أنْشأ، فَيَعْلَموا أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا فهو على البَعْثِ الذي أنكروا أقْدَرُ، ومَنْ أحاطَ عِلْمُهُ بما ذَكَرَ فهو على الإحاطةِ بأفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ [أعْلَمُ][١] وأعْرَفُ، لِيكونوا على الحَذَرِ أبداً في كلِّ وقْتٍ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ حُجَجَهُ وآياتِهِ التي أقامَها على وَحْدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ؛ أي لو كُتِبَ ذلكَ لَبَلَغَ ذلكَ ما ذَكَرَ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنَ الكلماتِ القرآنَ فالتأويلُ ما ذَكَرْنا بَدْءاً أنهُ خَرَجَ كانَ على الجوابِ والمقابَلَةِ لِقولٍ كانَ منهمْ.

[ويَحْتَمِلُ][٢] ما قالَهُ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ: إنَّ كلماتِهِ خَلْقُهُ أوِ البَيانُ عنْ خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ هذا ليسَ على التَّحَدِّي، ولكنْ على التَّعْظيمِ والإبلاغِ. وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] دَلَّ هذا على أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أنْ ليسَ لِذلكَ المَدَدِ حَدٌّ ولا نهايةٌ. ولكنْ ذَكَرَ على التَّعْظيمِ لهُ والإبلاغِ.

وفيهِ دلالةُ أنْ ليسَ لِما خَلَقَ اللهُ مِنَ العلومِ نهايةٌ ولا غايةٌ تُدْرِكُهُ الخلائِقُ، ولكنْ يُؤْخَذُ مِنْ كلِّ جِنْسٍ شيءٌ، فَيُعْمَلُ بهِ.

وفيهِ أنْ ليسَ الأمْرُ بِتَعَلُّمِ العِلْمِ، والمَقْصودُ منهُ العِلْمَ نفسَهُ، ولكنَّ المَقْصودَ منهُ العَمَلُ بما يُعْلَمُ؛ إذْ ليسَ للعلومِ نهايةٌ ولا حَدٌّ، يَبْلُغُ ذلكَ البَشَرُ. فدَلَّ أنهُ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أمَرَهُ أنْ يُخْبِرَهُمْ أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ. ثم يكونُ لِذلكَ الأمْرِ وإخبارِهِ إيّاهُمْ أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ وجوهٌ مِنَ المَعْنى.

أحَدُها: أنهمْ كانوا يَسْألونَهُ آياتٍ خارجةً عنْ وُسْعِ البَشَرِ وطَوْقِهِمْ، فأمَرَهُ أنْ يُخْبِرَهُمْ أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ لا يَقْدِرُ على مايسألونَهُ مِنَ الآياتِ التي تَخْرُجُ عنْ وُسْعِ البَشَرِ وطَوْقِهِمْ. وليسَ لأحدٍ التَّحَكُّمُ على اللهِ والتَّخَيُّرُ عليهِ في شيءٍ. إنما ذلكَ إلى اللهِ؛ إنْ شاءَ أنْزَلَ، وإنْ شاءَ لم يُنْزِلْ، وأنا لا أمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ.

والثاني: ذَكَرَ هذا لِيَعْرِفوا أنهُ إذا جاءَ مِنَ الآياتِ التي لا يَحْتَمِلُ وُسْعُ البَشَرِ أنْ يأتوا بِمِثْلِها: أنهُ إنما أتى بذلكَ مِنْ عندِ اللهِ لا مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ، إنْ عَلِموا أنَّ وُسْعَ البَشَرِ لا يَحْتَمِلُ ذلكَ، فلمّا أتاهُمْ بذلكَ إنما أتى بها مِنْ عندِ اللهِ، وأنهُ رسولٌ على ما يقولُ.

والثالثُ: أمَرَهُ أنْ يقولَ لهمْ هذا: إنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ لئلا يَحْمِلَهُمْ فَرْطُ حُبِّهِمْ [إيّاهُ اتِّخاذَهُ][٣] إلهاً ربّاً على ما اتَّخَذَ قومُ عيسى عيسى إلهاً ربّاً لِفَرْطِ حُبِّهِمْ إيّاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فإنْ كانَتِ الآيةُ في مُشْركي العَرَبِ فهمْ يُنْكِرونَ البَعْثَ، ولا يَرْجونَهُ. لكنهُ يكونُ ذَكَرَ لِقاءَ ربِّهِ لهمْ لأنهمْ عَرَفوا في أنفُسِهِمْ قديمَ إحسانِ اللهِ إليهِمْ ونِعَمِهِ[٤] عليهِمْ. فأُمِروا أنْ يَعْمَلوا[٥] العَمَلَ الصالحَ لِيَسْتَديموا بذلكَ الإحسانَ الذي كانَ مِنَ اللهِ إليهِمْ، فيَحْمِلَهُمُ العَمَلُ على التوحيدِ باللهِ والإقرارِ بالبَعْثِ.

وإنْ كانَتِ الآيةُ في المؤمنينَ فيكونُ تأويلُهُ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي ثوابَ ربِّهِ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لِيُثابَ عليهِ؛ إذِ الثوابُ إنما يكونُ لِلْعَمَلِ الصالحِ دونَ غيرِهِ.

وفيه ما ذَكَرْنا أنَّ المقصودَ مِنَ العِلْمِ العَمَلُ الصالحُ، والعِلْمُ[٦] ممّا ليسَ لهُ نهايةٌ، فالأمْرُ بِطَلَبِ ما لا نِهايَةَ لهُ ليسَ لِنَفْسِهِ، ولكنْ لِلْعَمَلِ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ يَحْتَمِلُ حقيقةَ الإشراكِ في العبادةِ والألوهيَّةِ على ما أشْرَكَ أولئكَ: أشْرَكوا الأصنامَ والأوثانَ التي عَبَدوها في عبادتِهِ وألوهيَّتِهِ. و يَحْتَمِلُ المُراآةَ في العَمَلِ الصالحِ على ما يُرائي بَعْضُ أهلِ التوحيدِ في بَعْضِ ما يَعْمَلونَ مِنَ الطاعةِ والخيراتِ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ.

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعمل.
(٦) من م، في الأصل: والعمل.

[سورة مريم

وهي مكيّةٌ][١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ[٢] تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ اسْمٌ مِنْ أسماءِ القرآنِ. وقيلَ: اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عن عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: يا كهيعص اغْفِرْ لي.

قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: لا يَصِحُّ هذا مِنْ عليٍّ لأنَّ هذا لم يُذْكَرْ في أسماءِ اللهِ المَعْروفَةِ التي يُدْعَى بها.

وقالَ بعضُهُمْ: حروفٌ مِنْ أسماءِ اللهِ افْتَتَحَ بها السورةَ. فهو ما ذَكَرْنا، وهو الأوّلُ. وقالَ بعضُهُمْ: الكافُ مِفْتاحُ اسْمِهِ: كافٍ[٣]، والهاءُ مِفْتاحُ اسْمِهِ: هادٍ[٤]، والعَيْنُ مِفْتاحُ اسْمِهِ: عالمٌ، والصادُ مِفْتاحُ اسْمِهِ: صادقٌ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ: الكافُ مِنْ كريمٍ، والهاءُ مِنْ هادٍ، والياءُ مِنْ حَكيمٍ، والعَيْنُ مِنْ عَليمٍ، والصادُ مِنْ صادقٍ.

وقالَ الربيعُ [بْنُ أنسٍ][٥] الياءُ مِنْ قولِهِ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وقالَ/ ٣٢٣ ـ أ/ الكَلْبِيُّ: هو ثناءٌ، أثْنَى اللهُ على نفسِهِ، فقالَ: كافٍ هادٍ عالِمٌ صادقٌ؛ يقولُ: كافٍ لِخَلْقِهِ، هادٍ لِعبادِهِ، وعالِمٌ بِبَرِيَّتِهِ وبأمْرِهِ، صادقٌ في قولِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: لم يُنْزِلِ اللهُ كتاباً إلّا وَلَهُ فيه سِرٌّ، لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ. سِرُّ القرآنِ فواتِحُهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: تَفْسيرُهُ[٦] ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُ الحَسَنِ، وأمثالُ هذا قد أكْثَروا فيه، وقد ذَكَرْنا الوَجْهَ في الحروفِ المُقَطَّعَةِ في ما تَقَدَّمَ في غَيْرِ موضعٍ

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: على الأمْرِ؛ أيِ اذْكُرْ لهمْ رَحْمةَ ﴿رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ بالإجابَةِ لهُ عندَ سؤالِهِ الوَلَدَ في الوَقْتِ الذي أيِسَ مِنَ الوَلَدِ في ذلكَ الوقتِ. فيكونُ فيهِ دلالةُ رسالَتِهِ حينَ ذَكَرَ لهمْ رَحْمَةَ ربِّهِ على عبدِهِ زَكَرِيّا، وأخْبَرَهُمْ على ما في كُتُبِهِمْ.

والثاني: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي هذا ذِكْرُ رَحْمَةِ ربِّكَ لِعَبْدِهِ زَكَرِيّا في دعائِهِ. وعلى هذا التأويلِ يكونُ الذِّكْرُ هو القرآنَ، وقد سَمّى اللهُ القرآنَ ذِكْراً في غَيْرِ آيةٍ[٧] مِنَ القرآنِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ في قَلْبِهِ على الإخلاصِ مِنْ غيرِ أنْ يَنْطِقَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ عن قومِهِ ومَنْ حَضَرَهُ. ثم يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: أحَدُهما: أخفاهُ، وأسَرَّهُ منهمْ، إخلاصاً للهِ تعالى وإصفاءً لهُ. والثاني: أخْفاهُ، وأسَرَّهُ منهمْ، حَياءً أنْ يَعيبوهُ أنهُ سألَ ربَّهُ الوَلَدَ في وقتِ كِبَرِهِ وإياسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضَعُفَ، ورَقَّ ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ اعْتَذَرَ إليهِ، وقَدَّمَ زَكَرِيّا ما حَلَّ بهِ مِنَ الكِبَرِ وبلوغِهِ الوَقْتَ الذي لا يُطْمَعُ في ذلكَ الوقتِ الوَلَدُ؛ أي بَلَغْتُ المَبْلَغَ الذي ضَعُفَ [فيه][٨] بَدَني ورَقَّ عظمي. ثم سَألَ ربَّهُ الوَلَدَ؛ ليسَ على أنهُ كانَ لا يَعْرِفُ قدرَةَ اللهِ أنهُ قادرٌ على هِبَةِ الوَلَدِ وإنْشائِهِ في كل وَقْتٍ: الكِبَرِ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: وقوله. (٣) في الأصل وم: كافي. (٤) في الأصل وم: هادي. (٥) من م، في الأصل: ابن الربيع بن أنس. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) ساقطة من الأصل وم.

والضَّعفِ وبالسَّببِ وبغيرِ السَّببِ. لكنهُ لا يَعرِفُ أنهُ يَسعُ، ويَصلُحُ سُؤالُ الوَلَدِ وهِبَتُهُ في الوَقتِ الذي كانَ بَلَغَهُ[١]، وهو الوَقتُ الذي لا يُطمَعُ فيهِ الوَلَدُ في الأغلَبِ، وهو ما ذَكَرَ في سورة آل عِمرانَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الآية: ٣٧] فعندَ ذلكَ عرَفَ زكريّا أنهُ يَسعُ دُعاءُ هِبَةِ الوَلَدِ وسُؤالُهُ في وقتِ الإياسِ حينَ[٢] رَأى عندَ مريمَ فاكهةَ الشتاءِ في الصَّيفِ وفاكهةَ الصيفِ في الشتاءِ غَيرَ مُتغيِّرةٍ عن حالِها. فسألَ عند ذلكَ ربَّهُ الولَدَ، وهو قولُهُ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الآية [الآية: ٣٨] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ قالَ بعضُهُم: أي كُنتَ تُعوِّدُني الإجابَةَ في دعائي[٣] إيّاكَ في ما مَضى. وقالَ بعضُهُم: أي لم يكُنْ دعائي ممّا يَخيبُ عندَكَ[٤]، وهما واحدٌ؛ ذَكَرَ مِنّتَهُ وفَضلَهُ الذي كانَ منهُ إليهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ قالَ الحَسَنُ: خافَ مَواليَهُ أنْ يَرِثوا مالَهُ. فأمّا عِلمُهُ ونُبوّتُهُ فَمِمّا يُورَثُ. قالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: هذا لا يَصِحُّ؛ لا يَحتَمِلُ أنْ يَخافَ زَكَريّا وِراثَةَ[مَواليهِ مالَهُ][٥] فَيَسألُ ربَّهُ لِذلكَ الوَلَدَ لِيَرِثَ مالَهُ. ولكنْ كأنهُ خافَ أنْ يُضيِّعَ مَواليهِ دينَهُ وسُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَسألَ ربَّهُ أنْ يَهَبَ لهُ الوَلَدَ لِيَقومَ مَقامَهُ في حِفظِ دينِهِ وسُنَّتِهِ. وقالَ: لا يَحتَمِلُ وِراثَةَ المالِ لِما رُوِيَ مِنَ الخَبَرِ: «إنا مَعاشِرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ. ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ» [التمهيد ٧/ ١٧٥] فلا يَخلو هذا مِنْ أحَدِ وجهَينِ: إمّا أنْ كانَ هذا في المالِ لهُ خاصّةً دونَ سائرِ الأنبياءِ، و إمّا ألّمْ[٦] يكُنْ زَكَريّا نَبيّاً. فَدَلَّ هذا أنهُ لا يَحتَمِلُ وِراثَةَ المالِ. فَدَلَّ أنهُ على العِلمِ: أنْ يُضيِّعَ المَوالي عِلمي مِنْ ورائي.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ وسُؤالُهُ الوَلَدَ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ سَألَ ربَّهُ الوَلَدَ الرَّضِيَّ الطَّيِّبَ لِيُذكَرَ هو بِهِ بَعدَ وفاتِهِ بالأعمالِ والصَّنيعِ الذي كانَ منهُ في حياتِهِ، ويُدْعَى لهُ لِئلا يَنقطِعَ ذِكرُهُ ودُعاءُ الخَلقِ لهُ. وهذا هو المعروفُ في الخَلقِ أنهمْ يَذْكُرونَ، ويَدْعونَ لهمْ بالخَيراتِ التي كانَتْ في حالِ حياتِهِمْ، إذا كانَ لهُ وَلَدٌ صالحٌ، فَعَلى ذلكَ سؤالُ زَكَريّا الوَلَدَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي لا تَلِدُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِي﴾ أي يَلي أمْري. وقولُهُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ ما ذَكَرْنا ﴿يَرِثُنِي﴾ مالي ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ النُّبوَّةَ، وقالَ [بعضُهُم][٧]: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ وارِثاً ﴿يَرِثُنِي﴾ مكاني وجُبورتي ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ المُلكَ لأنهمْ كانوا ملوكاً، وكانوا أخوالَهُ، وهو كانَ جَبْراً، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ولكنَّ قولَهُ: ﴿يَرِثُنِي﴾ ما كانَ لهُ مِنَ العِلمِ والحِكمَةِ والدينِ وغَيرِهِ ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ كانوا أخوالَهُ، ففيهِ أنَّ ذوي الأرحامِ يَرِثونَ بعضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال بَعْضُهُم: لم نَجعَلْ لهُ مِثلَ يَحيى مِنْ قَبلُ في الفَضلِ والمَنزِلَةِ لأنهُ رُوِيَ عنْ نَبيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لم يكُنْ مِنْ وَلَدِ آدمَ إلّا وقد عَمِلَ بِخَطيئةٍ، أو هَمَّ بها غَيرُ يَحيى ابنِ زَكَريّا فإنهُ لم يَهُمَّ بخطيئةٍ، ولا عَمِلَ بها» [أحمد ١/ ٢٥٤].

وقالَ بعضُهُم: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم يُسَمَّ أحدٌ قَبلَهُ يَحيى. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [أي تَوَلّى اللهُ تَسْمِيَةَ يَحيى، لم يُولِ تَسمِيَتَهُ][٨] غيرَهُ، وسائرُ الخلائقِ تَوَلّى أهلوهُمْ تَسمِيَتَهُم.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وقالَ الحَسَنُ: عبادَ اللهِ إنَّ زَكَريّا اسْتَوهَبَ ربَّهُ الوَلَدَ، فأجابَهُ، وبَشَّرَهُ، فقالَ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وطَلَبَ منه الآيةَ لذلكَ. فَقالَ: ﴿اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [مريم: ١٠] فما عابَهُ على ذلكَ، ولا وَبَّخَهُ، ولكنْ رَحِمَهُ، أو كلاماً[٩] نَحوَ هذا.

---

(١) في الأصل وم: بلغ هو. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل دعائك. (٤) في الأصل وم: عنك. (٥) في الأصل وم: ماله مواليه. (٦) في الأصل وم: لم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: كلام.

وقالَ غيرُهُ: إنما [أمَرَهُ أنْ يُمسِكَ لسانَهُ ويَعتقِلَهُ](١) عقوبةً لِما سألَ مِنَ الآيةِ.

هؤلاءِ كلُّهُمْ يَجْعَلونَ ذلكَ منهُ [زَلَّةً](٢). إلّا أنَّ الحَسَنَ قالَ: لم يَعِبْهُ على ذلكَ، ولا عاقَبَهُ عَلَيهِ، ولكنْ ذَكَرَ [ذلكَ رَحْمَةً منهُ] إليهِ. وغَيرُهُ يَجعَلُ ذلكَ عقوبةً لِما كانَ منهُ.

وجائزٌ أنْ يُخَرَّجَ ذلكَ على غَير ما قالوا؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي على أيِّ حالٍ يكونُ مني الوَلَدُ؟ على الحالِ التي أنا عليها؟ أو أُرَدُّ إلى (٣) شبابي؛ ففي تلكَ الحالِ يكونُ مني الوَلَدُ. فذلكَ منهُ اسْتِخبارٌ واسْتِعْلامٌ عنِ الحالِ الذي يكونُ منهُ الوَلَدُ، ليسَ على أنهُ لم يَعْرِفْ أنَّهُ قادرٌ على إنشاءِ الوَلَدِ في حالِ الكِبَرِ وبِسَبَبٍ وبلا سَبَبٍ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ حينَ(٤) ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] أي قَبْلَ أنْ نَخْلُقَكَ لم تَكُ شيئاً وطَلَبُ الآيةِ والعلامةِ بَعْدَ ما بُشِّرَ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ لمّا بُشِّرَ بالوَلَدِ لَعَلَّهُ أشكَلَ عليهِ بأنَّ تلكَ [البِشارةَ](٥) بِشارةُ مُلْكٍ أو غيرِهِ، فَطَلَبَ منهُ العلامةَ لِيَعْرِفَ أنَّ تلكَ بِشارةُ مُلْكٍ وأنها مِنَ اللهِ لا مِنْ غَيرِهِ لأنهُ ذَكَرَ في الآيةِ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا﴾ [آل عمران: ٣٩]فَطَلَبُ الآيةِ يَخرُجُ منهُ على اسْتِعلامٍ بِشارةِ المُلْكِ وأنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ لا أنهُ [لم يَعْرِفْ أنَّ اللهَ](٦) قادرٌ على خَلْقِهِ في كلِّ حالٍ. هذا لا يُظَنُّ بأضعَفِ مُؤمِنٍ في الدنيا، فكيفَ يُظَنُّ بِنَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ؟

[والثاني](٧): أنْ يكونَ طَلَبَ الآيةَ منهُ لِيَعْرِفَ وَقْتَ حَمْلِها الوَلَدَ وَوَقْتَ وُقوعِهِ في الرَّحِمِ لِيَسْبِقَ لهُ السرورُ بِحَمْلِهِ عَنْ وَقْتِ الوِلادِ وعَنْ وَقْتِ وُقوعِ بَصَرِهِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ لأني أخلُقُ بِسَبَبٍ وبِغَيرِ سَبَبٍ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ وأنتَ سَوِيٌّ صحيحٌ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي ثلاثَ لَيالٍ بأيّامِها على ما قالَهُ في آيةٍ أُخرَى ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] ذَكَرَ ههنا ثلاثَ لَيالٍ وفي تِلكَ الآيةِ ثلاثةَ أيامٍ. والقِصَّةُ واحدةٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ /٣٢٣ ـ ب/ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قولُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ قيلَ: أومَأَ إليهِمْ، وقيلَ: كَتَبَ لهمْ على الأرضِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ بالشَّفَتَينِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] والرَّمْزُ هو تحريكُ الشَّفَةِ والإيماءُ بها.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عاقرٌ وعَقيمٌ المرأةُ التي لا تَلِدُ، وقولُهُ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] قالَ: هو أشَدُّ الكِبَرِ سِناً(٨) [وقولُهُ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾](٩) قالَ: إنْ شِئْتَ قَصْراً أو داراً.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿عِتِيًّا﴾ أي يُبْساً، ويُقالُ: عُتِيًّا وعِتِيًّا بِمَعْنَى واحدٍ، ويُقال: مَلِكٌ عاتٍ إذا كانَ قاسيَ القَلْبِ غيرَ لَيِّنٍ، وقولُهُ(١٠) ﴿سَوِيًّا﴾ أي سَليماً، وقولُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ أومَأَ إليهِمْ، وقالَ بعضُهُمْ: كَتَبَ لهمْ على الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ أي صَلّوا للهِ ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فإنْ كانَ التَّسبيحُ هو الصلاةَ ففيهِ أنَّ الصلاةَ كانَتْ في الأُمَمِ الماضيةِ في خَتْمِ الليلِ. ويَحْتَمِلُ التَّسبيحَ نفسَهُ والثَّناءَ على اللهِ والدُّعاءَ بالغَدَواتِ والعَشِيّاتِ.

---

(١) في الأصل وم: أمسك لسانه واعتقله. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: على. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في م: لم يعرف قدرة الله أنه، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل: شيئاً، في م: شيباً، أي كثر الشيب. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: و.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: خذِ الكتابَ بما قوّى اللهُ، وأعانَكَ. وقالَ بعْضُهُمْ: خُذِ الكتابَ، واصْبِرْ على العَمَلِ بما فيهِ. وقالَ بعضهُمْ: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي بِجِدٍّ. قالَ أبو بَكْرٍ: الجِدُّ هو الإنكِماشُ في العَمَلِ، والقُوَّةُ، هي احْتِمالُ ما حُمِلَ عليهِ.

وفيهِ دلالةُ نَقْض قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يَقولونَ بأنَّ القُوَّةَ تَتَقَدَّمُ الفِعْلَ، ثم لا تَبْقَى وقْتَينِ. فيكونُ على قولِهِمْ أخذَ بِغَيرِ قُوَّةٍ، وقد أمَرَهُ أنْ يأخُذَهُ بقوةٍ. فقولُهُمْ[١] على خِلافِ ما نَطَقَ بِهِ ظاهِرُ الكتاب.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قالَ بعضهُمْ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ أي النُّبُوَّةَ في حالِ صِباهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: آتاهُ اللهُ الفَهْمَ واللُّبَّ. وقالَ بعضهُمْ: الحِكْمَةَ والعِلْمَ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ فَسادُ مَذْهَبِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يَقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى لا يَخُصُّ أحداً بِنُبُوَّةٍ ولا شيءٍ مِنَ الخيرِ إلّا بَعْدَ أنْ يَسْبِقَ مِنَ المُخْتَصِّ لهُ ما يَسْتوجِبُ ذلكَ الاِخْتِصاصَ، ويَسْتَحِقُّهُ.

فما الذي كانَ مِنْ يَحْيى في حالِ صِباهُ وطُفوليَّتِهِ ما يَسْتَوجِبُ بِهِ النُّبُوَّةَ؟ وما ذَكَرَ مِنَ الحُكْمِ أنهُ آتاهُ؟ فدلَّ ذلكَ [على أنَّ][٢] الاِخْتِصاصَ منهُ يكونُ لِمَنْ كانَ إفضالاً منهُ وإنعاماً ورَحْمَةً لا باسْتِحْقاقٍ مِنَ المُخْتَصِّ لهُ واسْتِجابَةٍ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ دلالةُ أنهُ كانَ نَبِيًّا حين[٣] كانَ أخبَرَ أنهُ آتاهُ الكتابَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ هو [مَبْنِيٌّ][٤] على قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وآتيناهُ حناناً وزكاةً أيضاً.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: تَعَطُّفاً مِنْ لَدُنَّا. وقالَ بعضهُمْ: أي رَحْمَةً مِنْ لَدُنّا، وهو قولُ الحَسَنِ. وقالَ بعضهُمْ: الحَنانُ المحبةُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: حَنانَكَ وحنانَيكَ كليهِما يَعْني رَحْمَتَكَ. وقالَ: أصْلُهُ مِنَ التَّحَنُّنِ وهو التَّرَحُّمُ. وقالَ القُتَبِيُّ: أصلُهُ مِنْ حنينِ الناقةِ على وَلَدِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ قالَ بعضهُمْ ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي صَدَقَةً، تَصَدَّقَ بها على زَكَرِيّا وزوجَتِهِ في الوَقْتِ الذي لا يُرْجى مِنْ مِثْلِهِما الوَلَدُ. وقال بعضهُمْ: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي صَلاحاً وما يَنْمو بِهِ مِنَ الخيراتِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الزكاةُ اسْمَ كلِّ خيرٍ وبَرَكَةٍ، وهو كالبِرِّ والتَّقْوى[٥]. كأنهُ قالَ: أعْطيناهُ كلَّ بِرٍّ وخَيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ عَنْ جميعِ الشُّرورِ كقولِهِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] أي تَعاوَنُوا على البِرِّ، وتَعاوَنُوا أيضاً على دَفْعِ الشُّرورِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هو [مَبْنِيٌّ أيضاً][٦] على قولِهِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾وآتيناهُ البِرَّ بوالدَيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ بل كانَ خاضِعاً للهِ ذليلاً مُطيعاً. وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكُنْ ممَّنْ يَجْبُرُ الناسَ على مَعْصِيَةِ اللهِ. وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ أي قَتّالاً، أي لم يَكُنْ مِمَّنْ يَقْتُلُ على الغَضَبِ، ويَضْرِبُ على الغَضَبِ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا أنهُ كانَ على ضِدِّ ما ذَكَرَ خاضعاً للهِ مُطيعاً لهُ على ما ذَكَرَ أنهُ لم يَرْتَكِبْ ذنباً، ولا هَمَّ بِهِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ يَحْتَمِلُ السلامُ عليهِ الوجوهَ الثلاثةَ:

أحدُها: اسْمٌ[٧] كلِّ بِرٍّ وخَيرٍ، أي عليهِ كلُّ بِرٍّ وخَيرٍ في هذهِ الأحوالِ التي ذَكَرَ.

والثاني: السلامُ هو الثناءُ؛ أثنى اللهُ عليهِ مِنْ أوَّلِ أمْرِهِ إلى آخرِهِ وبَعْدَ المَوتِ في الآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: فقوله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. من التقوى.
(٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) أدرج قبلها: في الأصل وم: هو.

[والثالثُ](1): أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ أي السَّلامةُ عليهِ في هذهِ الأحوالِ التي يكونُ للشيطانِ في تلكَ الأحوالِ الاعْتراضُ والنَّزْغُ فيها؛ لأنهُ وَقْتَ الولادةِ يَعْتَرِضُ، ويُفْسِدُ الوَلَدَ، إنْ وَجَدَ السبيلَ إليهِ، وكذلكَ عندَ الموتِ يَعْتَرِضُ، ويَسْعَى في إفْسادِ أمْرِهِ. فأخبَرَ أنَّ يَحْيَى كانَ سَليماً سالماً عَنْ نَزَغاتِ الشيطانِ مَحْفوظاً عنهُ حتى لم يَرْتَكِبْ خَطيئةً، ولا هَمَّ بها، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ دلالةٌ أنَّ المَوتَ والقَتْلَ سَواءٌ، وإنْ [كانا في الحقيقةِ مُخْتَلِفَينِ](2) لأنهُ ذُكِرَ في القِصةِ أنَّ يَحْيَى قُتِلَ، ثم ذَكَرَ المَوتَ، فَدَلَّ أنهما واحدٌ.

فهذا يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ حين(3) قالوا: إنَّ المَقْتولَ مَيِّتٌ قَبْلَ أجَلِهِ.

وفيهِ أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ﴾ [البقرة: ١٥٤] نَهانا أنْ نُسَمِّيَهُمْ أمواتاً في جِهَةٍ ليسَ في الجِهاتِ كُلِّها حين(4) سَمَّى يَحْيَى مَيِّتاً، وهو كانَ شَهيداً على ما ذُكِرَ أنهُ قُتِلَ.

وفي(5) قولِهِ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ اسْتِدْلالٌ لأبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، حينَ(6) وَقَفَ في أولادِ المُسْلِمينَ والمُشْرِكينَ، فقالَ: لا عِلْمَ لي بهِمْ، ولم [يَقْطَعْ فيهِمْ](7) القولَ لِما يَجوزُ أنْ يَجْعَلَ اللهُ لهمْ مِنَ المَعْرِفَةِ(8) والتَّمْييزِ والفَهْمِ في حالِ صِغَرِهِمْ حتى يَعْرِفوا خالِقَهُمْ ومَنْشَأَهُمْ على ما أعْطَى يَحْيَى وعيسى في حالِ صِباهُما الحُكْمَ والفَهْمَ والمَعْرِفَةَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ قالَ الحَسَنُ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] أي اذْكُرْ رَحْمَةَ ربِّكَ مريمَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: واذْكُرْ نَبَأَ مَرْيَمَ وقِصَّتَها في الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي نَحْوَ المَشْرِقِ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ إذ بَلَغَتْ مَبْلَغَ النِّساءِ، فارَقَتْ أهْلَها، وانْتَبَذَتْ منهمْ لئلا يَقَعَ بَصَرُ غيرِ ذي الرَّحِمِ عليها، وألّا يَراها أحدٌ، لا [يَحِلُّ لَهُ](9) النَّظَرُ إليها. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي جَلَسَتْ في المَشْرَقَةِ، لأنهُ كانَ في الشتاءِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: احْتَجَبَتْ مِنْ دونِهِمْ بالغَيْبَةِ عنهمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ أي سِتْراً. وقالَ مُقاتِلٌ: اتَّخَذَتْ مِنْ دونِهِمْ مِنَ الجَبَلِ حِجاباً وسِتْراً، أي جَعَلَتِ الجَبَلَ بينَها وبَيْنَ أهلِها فلم يَرَها أحَدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ قالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: هو رُوحُ عيسى أرْسَلَهُ اللهُ إلى مريمَ في صورةِ بَشَرٍ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ وقالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ جِبْريلَ. وقد سَمَّى اللهُ جِبْريلَ رُوحاً في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ [كَقولِهِ](10): ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] [وقولُهُ تعالى](11): ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ أي لم يَكُنْ بهِ أثَرُ غيرِ البَشَرِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ لا عَيبَ فيهِ، ولا نُقْصانَ، بل كانَ سَوِيّاً صحيحاً كاملاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ وإنما يُتَعَوَّذُ بالرحمنِ مِنَ الفاجِرِ والفاسِقِ.

قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ مَفْصولٌ مِنْ قولِهِ: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ فيكونُ على الابْتِداءِ. كأنها قالَتْ: إنْ كُنْتَ تَقِياً لا يَنالُني منكَ سُوءٌ، ولا يَمَسُّني شَرٌّ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [أي ما كُنْتَ تَقِيّاً، أي حين(12) دَخَلْتَ عليَّ مِنْ غيرِ اسْتِئْذانٍ ولا اسْتِئْمارٍ ما كُنْتَ تَقِيّاً. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي وقد كُنْتَ تَقِيّاً](13) فَعَلَى هذا التأويلِ كأنهُ دَخَلَ عليها على صورةِ بَشَرٍ، عَرَفَتْهُ بالتُّقَى والصلاحِ. فكأنها قالَتْ: قد كُنْتُ عَرَفْتُكَ بالتُّقى والصلاحِ، فكيفَ دَخَلْتَ عليَّ بلا إذْنٍ ولا أمْرٍ.

---

(1) في الأصل وم: أو. (2) في الأصل وم: كان في الحقيقة مختلفا. (3) في الأصل وم: حيث. (4) في الأصل وم: حيث. (5) الواو ساقطة من الأصل وم. (6) في الأصل وم: حيث. (7) من م، في الأصل: يقع فهم. (8) في الأصل وم: المعتزلة. (9) في الأصل وم: يصلح. (10) ساقطة من الأصل وم. (11) في الأصل وم: وغيره. (12) في م: حيث. (13) من م، ساقطة من الأصل.

وقد يجوزُ أنْ يُسْتَعْمَلَ إنْ مَكانَ ما وَمَكانَ قد، وفي القرآنِ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ هو على الإضمارِ، كأنهُ قالَ: إنما أنا رسولُ ربِّكَ بالقولِ بأنْ أهَبَ لكِ غُلاماً زَكيّاً، أي أرسَلَني إليكِ بهذا القولِ، وهو قولُهُ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: إنما أنا رسولُ ربِّكِ لِيَهَبَ لكِ غلاماً زكيّاً. وقولُهُ تعالى: ﴿زَكِيًّا﴾ أي صالحاً طاهراً مِنْ جميعِ الشرورِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ إنْ قالَتْ لم يَمْسَسْني بَشَرٌ يُعْلَمُ أنهُ / ٣٢٤ ـ أ/ لم يَمَسَّها بَشَرٌ: لا [تَقِيٌّ ولا غيرُ تَقِيٍّ][1]. لكنْ كأنها قالَتْ: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ نِكاحاً ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ولا بَغْياً. فَمِنْ أنَّى يكونُ لي وَلَدٌ؟ كأنها لم تَعْرِفِ الوَلَدَ إلّا بِسببٍ. لِذلكَ قالَتْ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي أخلُقُ بِسَبَبٍ وبلا سَبَبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي خَلْقُ الشيءِ بِسَبَبٍ وبِغيرِ سَبَبٍ هَيِّنٌ عليَّ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ للأنبياءِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ: إنهُ يَخْلُقُ ولداً بلا أبٍ ولا أُمٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي نَجْعَلَ ولادةً بلا أبٍ على ما أخبَرَ الأنبياءُ مِنْ قَبْلُ آيةً للناسِ لِرسالتِهِمْ لأنهمْ أُخْبِروا أنهُ يُولَدُ بلا أبٍ[2]، فكانَ ما أُخْبِروا. فَدَلَّ ذلكَ أنهمْ إنما عَرَفوا ذلكَ باللهِ، فيكونُ ذلكَ آيةً لِصِدْقِهِمْ، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي ذلكَ الخَبَرُ الذي أخبَرَ الأنبياءُ مِنْ قَبْلُ، والوعدُ الذي وَعَدَ لهمْ [كانَ][3] أمْراً مَقْضِيّاً كائناً.

وقالَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي نَجْعَلُ عيسى آيةً للناسِ حينَ[4] وُلِدَ بلا أبٍ، وكَلَّمَ الناسَ في المَهْدِ [وفي][5] غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي كانَتْ فيهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ آيةً للناسِ لِلْبَعْثِ لأنهُ أنْشأهُ بلا أبٍ ولا سَبَبٍ، وهمْ إنما أنْكَروا البَعْثَ لِما لم يُعايِنوا الوَلَدَ بِغيرِ أبٍ أيضاً، ثم كانَ. فَعَلَى ذلكَ البَعْثُ؛ إذْ لا فَرْقَ بَيْنَهما، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ الوَلَدِ بلا أبٍ قادرٌ[6] على الإحياءِ بَعْدَ الموتِ، بل هو أولَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي رَحْمَةً مِنّا لِلْخَلْقِ لأنَّ مَنِ اهْتَدَى، واتَّبَعَهُ، كانَ لهُ بِهِ نَجاةٌ، وهو ما قالَ اللهُ ﷻ لرسولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وعلى ذلكَ جَميعُ الأنبياءِ والرُّسُلِ الذينَ بَعَثَهُمُ اللهُ إلى خَلْقِهِ؛ كانَ ذلكَ[7] رَحْمَةً منهُ إلى خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كانَ أمْراً كائناً. وعلى التأويلِ الذي ذَكَرَهُ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ في قولِهِ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ يكونُ قولُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كانَ وَعْداً وخَبَراً مَعْلوماً على [ما][8] أخبَرَ الأنبياءُ عنْ نَبَإِ عيسى وأمِّهِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ دلَّ هذا على أنَّ الوِلادَ لم يَكُنْ على إثْرِ الحَمْلِ، ولكنْ كانَ بَيْنَ الوِلادِ وبَيْنَ الحَمْلِ وقتٌ. لكنْ لا يُعْلَمُ ذلكَ الوَقْتُ إلّا بِخَبَرٍ عنِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: تباعَدَتْ بهِ حَياءً مِنْ أهْلِها. وقالَ بعضُهُمْ: انفَرَدَتْ بهِ مكاناً قَصِيّاً مُتَباعِداً.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي جاءَ بها مِنَ المَجيءِ، وألْجَأها إليها. يقولُ: جاءَتْ بي الحاجةُ إليكَ، وأجاءَتْني الحاجةُ. والمَخاضُ هو الحَمْلُ، ودَلَّ قولُهُ: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا

---

(١) في الأصل وم: تقياً ولا غيره. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: ولا أم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ولا أم قدر. (٧) في الأصل وم: كانه. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

﴿قَصِيًّا﴾ أنَّ النَّخلَةَ التي ألْجَاها المَخاضُ إليها يابِسَةٌ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ لأنهُ إنما انْتَبَذَتْ مكاناً قَصِيًّا، وتَباعَدَتْ حَياءً مِنْ أهْلِها. فلو كانَتْ تلكَ النَّخلَةُ رَطْبَةً ذاتَ ثِمارٍ لَكانَ الناسُ بادِينَ[1] إليها، ويُقيمونَ عندَها، فلا يَحْتَمِلُ أنْ تَأوِيَ إليها مَرْيَمُ، وعندَها مَأْوَى الناسِ، ثم الْتِجاؤُها إلى النَّخلَةِ لِتتساندَ إليها، وتَسْتَعينَ بِها على ما تَقَعُ الحاجةُ للنساءِ وقْتَ الوِلادِ إلى شَيءٍ تَسْتَعينُ بهِ عمّا يَنْزِلُ بهِنَّ مِنَ الشِّدَّةِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي وكُنْتُ غيرَ معروفَةٍ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على ما ذُكِرَ: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ لا أُذْكَرُ بَعْدَ المَوتِ بذلكَ لأنهُ ذُكِرَ أنها كانَتْ مِنْ أهلِ شَرَفٍ وكَرَمٍ ومِنْ أهلِ بيتِ النُّبُوَّةِ، فَتَمَنَّتْ أنْ تكونَ غيرَ مَعْروفَةٍ لئلا تُذْكَرَ بِسوءٍ بَعْدَها، ولا تُقْذَفَ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي حَيضَةً مُلْقاةً. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: النَّسْيُ الحَيضُ. قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: لا يَحْتَمِلُ هذا لأنها قد عَرَفَتْ قَدْرَها عندَ اللهِ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ تَتَمَنَّى ما ذُكِرَ. لكنَّ الإنسانَ ربَّما يَتَمَنَّى الأمْرَ العظيمَ إذا اشْتَدَّ بِهِ الأمْرُ نَحْوَ ما يَتَمَنَّى المَوتَ في بَعْضِ الوَقْتِ لِعِظَمِ ما يَحُلُّ بِهِ. فَعَلَى ذلكَ غيرُ مُنْكَرٍ هذا مِنْ مَرْيَمَ أنْ تَتَمَنَّى ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾، وقولُهُ[2]: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ. قالَ بعضُهُمْ: ناداها مَلَكٌ. وقال بَعْضُهُمْ: ناداها ابنُها عيسى. قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الذي ناداها مَلَكاً، لأنهُ قالَ ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ ولو كانَ مَلَكاً لَناداها مِنْ فَوقِها. لكنَّ هذا ليسَ بِشيءٍ، لأنَّ المَلَكَ إنما يُنادي مِنْ حيثُ يُؤْمَرُ: مِنْ تَحْتُ، ومِنْ فَوقُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ناداها جِبْريلُ مِنْ تَحْتِ الوادي: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ ابنَها عيسى لأنها كانَتْ تَحزَنُ أنْ تُشْتَمَ، وتُقْذَفَ بِهِ. فَعيسى إذا تكلمَ، وصارَ بذلكَ المَحَلِّ تُسَرُّ هي بذلكَ لِما تَعْلَمُ أنهُ يَنْفي عنها بَعْضَ ما طُعِنَتْ بِهِ، وقُذِفَتْ.

ويَحْتَمِلُ حُزْنُها مِنْ وجْهٍ آخَرَ، وهو أنها كانَتْ حَزِنَتْ خَوفاً على نَفْسِها وعلى وَلَدِها لأنها أقامَتْ في مكانٍ، لا ماءَ فيهِ، ولا طعامَ. فخافَتْ على نَفْسِها وَوَلَدِها الهلاكَ. فَحَزِنَتْ لذلكَ. فَبُشِّرَتْ حينَ[3] قالَ لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أمَّنَها عنِ الخَوفِ الذي كان.

ثم السَّرِيُّ: قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ هو الجَدْوَلُ، وهو النَّهْرُ الصغيرُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فيهِ دلالةٌ لُزومِ الكَسْبِ لأنهُ أمَرَ مَرْيَمَ أنْ تَهُزَّ النَّخْلَةَ لِتَتساقَطَ عليها[الرُّطَبُ. ولو شاءَ لَسَقَطَ مِنْ غَيرِ فِعْلٍ يكونُ منها لِتَجْتَنِيَ هي. وذلكَ عليها][4] أهْوَنُ وأيْسَرُ على ما كانَ رِزْقُها عندَ ما كانَتْ مُؤْنَتُها على زَكَرِيّا.

وفيهِ دلالةٌ ألا يَسَعَ لِلْمَرْءِ المسألةُ ما دامَ بِهِ أدْنَى قُوَّةٍ يَقْدِرُ على قُوتِهِ. وفيهِ دليلٌ أنَّ زَكَرِيّا كانَ أفْضَلَ منها، وأكبَرَ مَنْزِلَةً عندَ اللهِ حينَ[5] رَزَقَها عندَ ما كانَتْ في عِيالِ زَكَرِيّا مِنْ غَيرِ تَكَلُّفٍ كان مِنْ زَكَرِيّا ولا مُؤْنَةٍ.

فلمّا فارقَتْ زَكَرِيّا أمَرَها بالكَسْبِ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ الآياتِ التي تكونُ لِلأنبياءِ يجوزُ أنْ يُجْرِيَها على غَيرِ أيدي الأنبياءِ حينَ[6] جَعَلَ لِمَرْيَمَ نَخْلَةً يابِسَةً رَطْبَةً، تُثْمِرُ رُطَباً، وحينَ[7] جَعَلَ مِنْ تَحْتِها سَرِيّاً أي نَهَراً جارِياً، وحينَ[8] رَزَقَها عندَ ما كانَتْ في عِيالِ زَكَرِيّا مِنْ غَيرِ تَكَلُّفِ أحَدٍ.

---

(١) في الأصل وم: بادون. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث.

فذلكَ يُشبِهُ آياتِ الأنبياءِ والرُّسُلِ ويُقارِنُها. وهذهِ المِحَنُ التي امْتُحِنَ بها مَرْيَم، في الظاهِرِ عظيمةٌ عند الناسِ، وفي الباطِنِ مِنْ أعْظَمِ كَراماتِهِ إليها، لأنهُ أخْبَرَ أنهُ تعالى اصْطَفاها على نِساءِ العالَمينَ بِقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وسَمّاها صِدِّيقَةً بقولِهِ: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] وذلكَ لا يُسَمَّى إلّا مَنْ بَلَغَ مِنَ البَشَرِ في الصِّدْقِ [والصبر غايَتَهما][(١)] واللهُ أعلَمُ.

وقال بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ أي مِنْ تَحْتِ النَّخْلَةِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي كُلي الرُّطَبَ الذي يَتَساقَطُ عليكِ، واشْرَبي مِنَ السَّرِيِّ الذي جَعَلَ تَحْتَكِ ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي وارْضَي مَكانَ ما حَزِنْتِ عليهِ، وخِفْتِ على نَفْسِكِ وعلى وَلَدِكِ، أو طِيبي نَفْساً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾: ﴿صَوْمًا﴾ أي صَمْتاً وسُكوتاً. وكذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الحروفِ؛ وهو في حَرْفِ أُبَيٍّ[(٢)].

ثم قولُهُ: ﴿فَقُولِيٓ﴾ ليسَ على القَولِ نفسِهِ، ولكنهُ إشارةٌ أشارَتْ إليهِمْ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فإنْ كانَ على هذا ففيهِ دلالةٌ أنَّ الإشارةَ إذا كانَتْ مُعْلِمَةً مُفهِمَةً المُرادَ تَعْمَلُ عَمَلَ[(٣)] القولِ نَفْسِهِ والكلامِ. ولذلكَ وَقَعَ الطلاقُ بالإشارةِ والنِّكاحِ وكُلُّ عَقْدٍ مِنَ الأخْرَسِ وغَيرِهِ إذ كانتِ الإشارةُ / ٣٢٤ ـ ب/ مَفهومَةً مَعْلومَةً.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَقُولِيٓ﴾ هو على حقيقةِ القَولِ، أي أُمِرَتْ أنْ تقولَ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فكانَ نَذْرُها الصَّومَ للرحمنِ بَعْدَ هذا. إلى هذا يَذْهَبُ الحَسَنُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أي بِعيسى ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: لَقَدْ فَرَيتِ عظيماً مِنَ الأمْرِ. لكنهُ يُخَرِّجُ تأويلَهُ: فَرَيتِ مِنَ التَّقْديرِ؛ يُقالُ: فَرَى أي قَدَّرَ، وقالَ بعضُهُمْ: لقدِ افْتَرَيتِ[(٤)] عظيماً، وهو قَذْفٌ صريحٌ[(٥)] بالزِّنَى كقولِهِ: ﴿بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ كلُّ قائمٍ [مِنْ][(٦)] عَجَبٍ أو مِنْ عَمَدٍ[(٧)] فهو فَرِيٌّ. وهو ههنا: عَجَبٌ فَرِيٌّ. هذا أقرَبُ، إذ لا يجوزُ أنْ يُحْمَلَ كلامُهُمْ على تَصْريحِ القَذفِ. ثم لِتَعْريضِ القَذْفِ مَساغٌ وَوَجْهٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كانَتْ أخْتَ هارونَ بْنِ عِمْرانَ أخي موسى. وعلى ذلكَ رُوِيَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فإنْ ثَبَتَ فهو هو. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ كانَ لها أخٌ مِنْ أبيها، يُقالُ لَهُ: هارونُ بْنُ ماثانَ، لذلكَ نَسَبوها إليهِ؛ فقالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ هارونَ كانَ رجلاً صالحاً ناسِكاً فيهِمْ، فَشَبَّهُوها بِهِ، ونَسَبوها إليهِ لِصلاحِها ونُسُكِها. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ بَني إسرائيلَ يُسَمُّونَ[(٨)] كلَّ صالحٍ هارونَ حُبًّا لِهارونَ. لذلكَ سَمَّوها، ونَسَبوها إلى هارونَ لِنُسُكِها وصلاحِها.

وقولِهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي ما كانَ أبوكِ ما ذَكَرَ ولا أُمُّكِ ولا أنْتِ، فَمِنْ أينَ كانَ لكِ هذا. هذا تَعْريضٌ مِنَ الكلامِ ليسَ بِتَصْريحٍ، فهو ما ذَكَرْنا أنهمْ قالوا ذلكَ على التَّعَجُّبِ ليسَ على تَصْريحِ الفِرْيَةِ والقَذْفِ لها.

الآيتان ٢٩ و٣٠ وقولُهُ تعالى: [﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾][(٩)] ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي آتاني عِلْمَ الكتابِ، ولا نُفَسِّرُ أيَّ هو؟ الإنجيلُ أو التوراةُ أو غيرُهُ؟ لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ فهذا يدلُّ أنَّ الكتابَ غَيرُ التوراةِ والإنجيلِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ هذا يدلُّ أنهُ تَكَلَّمَ بَعْدَ هذِهِ الكلماتِ، وليسَ

(١) في الأصل وم: والصبر له غاية. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وقال. (٣) من م، في الأصل: على. (٤) من م، في الأصل: افتريتم. (٥) في الأصل وم: تصريح. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عمل. (٨) في الأصل وم: يسمى. (٩) ساقطة من الأصل وم.

كما قالَ أهلُ التأويلِ: إنهُ تَكَلَّمَ بهؤلاءِ الكلماتِ، ثم لم يَتَكَلَّمْ بَعْدَ ذلكَ إلى [إنْ][1] بَلَغَ المَبْلَغَ الذي يَتَكَلَّمُ الصِّبيانُ، لأنهُ أخبَرَ أنهُ جَعَلَهُ نَبِيًّا، وجَعَلَهُ مُباركاً، فلا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ نبيّاً، ولا يَتَكَلَّمُ، ولا يَدْعو الناسَ إلى[2] دينِ اللهِ، وأيُّ بَرَكَةٍ تكونُ فيهِ إذا لم يَتَكَلَّمْ بكلامِ خيرٍ. فَدَلَّ ذلكَ منهُ أنْ ليسَ على ما قالوا هُمْ. والبَرَكَةُ هي اسْمُ كلِّ خيرٍ وصَلاحٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يَحتَمِلُ الصلاةَ المَعْروفَةَ والزكاةَ المعهودَةَ. وتَحتَمِلُ الصلاةُ الثناءَ لهُ والدعاءَ في كلِّ وقْتٍ وفي كلِّ مكانٍ، وتَحتَمِلُ الزكاةُ كلَّ ما تَزْكو بِهِ النَّفْسُ، وتَصْلُحُ، وتَنْمو، مِنْ كلِّ خيرٍ.

فإنْ كانَ الأوّلُ الصلاةَ المفروضَةَ والزكاةَ المَعْروفَةَ فهو على تعليمِ الناسِ؛ كأنهُ قالَ: أوصاني أنْ أعلِّمَ الناسَ الصلاةَ، وأُعْلِمَهُمْ [عنْ حُكْمِ][3] الزكاةِ، إذْ لم يَكُنْ يَمْلِكُ عيسى ما تَجِبُ فيه الزكاةُ، فهو يُخَرَّجُ على إعلامِ الناسِ عن حُكْمِ الزكاةِ، أو على[4] المُواساةِ؛ فذلكَ ممّا قَلَّ، وكَثُرَ سَواءٌ. وإنْ كانَ الثاني فَهو وغَيرُهُ مِنَ الناسِ في تركِ الزكاةِ سَواءٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي وجَعَلَني بَرّاً بوالِدَتي، صِلَةٌ لِقولِهِ: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ وجَعَلَني بَرًّا بوالِدَتي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قد ذَكَرْنا في قِصَّةِ يَحْيَى.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ هذا أيضاً قد ذَكَرْناهُ في قصةِ يَحْيَى غَيرَ أنَّ اللهَ تعالى هو مُسَلِّمٌ على يَحْيَى في تلكَ الأحوالِ، وهَهنا ذَكَرَ أنَّ عيسى مُسَلِّمٌ على نفسِهِ. وذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ عيسى ويَحْيَى، عليهما الصلاةُ والسلامُ، الْتَقَيا، فَقَالَ يَحْيَى لِعيسى: أنْتَ خَيرٌ مني، فقالَ عيسى: بل أنْتَ خَيرٌ مني، سَلَّمَ اللهُ عليكَ، وسَلَّمْتُ أنا على نفسي، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي ذلكَ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ، ليسَ على ما قالَتِ النَّصارَى وغَيرُهُمْ: إنهُ ابْنُ اللهِ، وإنهُ ثالثُ ثلاثةٍ على ما قالوا، ولكنْ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ عبدُ اللهِ كما أقَرَّ هو بالعبوديّةِ حينَ[5] ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أنْ يكونَ ذلكَ الذي أنبأتُهُمْ مِنْ نَبإِ عيسى ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أنْ يكونَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ حين[6] أنْكَروا أنهُ ليسَ على ما أنبأتُهُمْ مِنْ نَبَئِهِ، أيِ الذي يَشُكّونَ فيهِ، هو قولُ الحَقِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ عن أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لأنهُ لا تَقَعُ[لهُ][7] الأسبابُ التي لها يُتَّخَذُ الوَلَدُ، ويُطْلَبُ[8]. أو يقولُ: إنَّ اتّخاذَ الوَلَدِ يُسْقِطُ الألوهيَّةَ، لأنَّ الوَلَدَ في الشاهدِ يكونُ شَكْلَ الأبِ وشَبيهاً لهُ، فلا يَحتَمِلُ أنْ تكونَ الألوهيّةُ لِمَنْ يُشْبِهُ الخَلْقَ، لأنَّ الوَلَدَ في الشاهدِ إنما يُتَّخَذُ، ويُطْلَبُ لأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا لِوَحْشَةٍ تأخُذُهُ، فَيَسْتأنِسُ بِهِ، وإمّا لِحاجةٍ تَمَسُّهُ، فَيَسْتَغْني بهِ في [دَفْعِها، وإمّا][9] لِخوفٍ يَخافُ مِنْ أعدائِهِ، فَيَسْتَنصِرُ بهِ.

فإذا[10] كانَ اللهُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ يَتَعالى عنْ ذلكَ، ولَهُ مِنْ سُرْعَةِ نَفاذِ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فما لَهُ مِنْ سُرْعَةِ نَفاذِ الأمْرِ ما ذَكَرَ لا تَقَعُ لهُ الحاجَةُ إلى الوَلَدِ في مَعْنًى مِنَ المَعاني ولا وَجْهٍ مِنَ الوجوهِ ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثم قولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ نُفِخَ في جَيبِ مَرْيَمَ أو أنفِها أو في غَيرِهِ، وغَيرُ ذلكَ مِنَ القِصَصِ التي ذَكَروها ممّا ليسَ في الكتابِ ذِكْرُها، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ ذلكَ إلّا بِخَبَرٍ عنِ اللهِ تعالى أو عَمَّنْ أوْحَى إليهِ فإنهُ لم يُعْلَمْ صِدْقُهُ ولا ثُبوتُهُ، فَيُذْكَرُ مقدارُ ما في الكتابِ، لا يُزادُ على ذلكَ، ولا يُنْقَصُ، لأنَّ هذهِ الأنباءَ لَمّا ذُكِرَتْ لِرسولِ اللهِ لتكونَ آيةً لِرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ لأنها كانَتْ مَذكورَةً في الكُتُبِ المُتَقدِّمَةِ، وكانَ هنالكَ مَنْ يَعْرِفُها، ذُكِرَتْ[11] لهُ هذهِ الأنباءُ على ما كانَ في كُتُبِهِمْ لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ. فلو زيدَ فيهِ، أو نُقِصَ، لكانَتْ غَيرَ دالّةٍ على ذلكَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: لا. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: منه. (٩) في الأصل وم: دفعه. (١٠) من م، في الأصل: فاذ. (١١) في الأصل وم: فذكرت.

قالَ القُتيبيُّ: الصَّومُ الإمساكُ ﴿صَوْمًا﴾ أي صَمْتاً. ﴿فَرِيًّا﴾ أي عظيماً عَجَباً. والبَغِيُّ: يُقالُ: امرأةٌ بَغِيٌّ، ونِسْوةٌ بَغايا أي فاجراتٌ. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ.

الآية ٣٦ وقولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ إنهمْ كانوا يَعْرِفونَ [أنَّ][1] اللهَ، هو ربُّهُمْ حين[2] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ونَحْوَهُ. فكانَ عيسى قالَ لهمْ: ارْجِعوا إلى عبادةِ الذي تَعْرِفونَ أنهُ ربي وربُّكُمْ، واتْرُكوا [عِبادةَ مَنْ][3] تعْرِفونَ أنهُ ليسَ بِرَبِّكُمْ.

الآية ٣٧ وقولهُ تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ. قالَ بعضُهُمْ: اختلَفَ الذينَ تَحزَّبوا في عيسى في حياتِهِ؛ منهمْ مَنْ قالَ: هو ساحِرٌ، وقالَ بعضُهُمْ: هو كاهنٌ، وقالَ بعضُهُمْ: كذا مِنْ هذا النَّحْوِ.

وقال بعضُهُمْ: اختَلَفَ الذينَ تحزَّبوا في عيسى بَعْدَ ما رُفِعَ [مِنْ][4] بَيْنِهِمْ؛ فمنهُمْ مَنْ قالَ: هو اللهُ، وقالَ بعضُهُمْ: هو ابْنُ اللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: هو ثالثُ ثلاثةٍ. وأمثالُ ما قالوا على عِلْمٍ منهمْ أنهُ لم يَكُنْ على ما وَصَفوهُ، وقالوا فيهِ. لكنهمْ عانَدوا، وكابَروا.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ الذينَ تَحزَّبوا، واختَلَفوا /٣٢٥ـأ/ في رسولِ اللهِ لمّا بُعِثَ، فمنهُمْ مَنْ قالَ: إنهُ ساحِرٌ، وإنهُ كاهنٌ ومَجْنونٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، وإنهُ كذّابٌ، ونَحْوَ ما قالوا فيهِ على عِلْمٍ منهمْ أنَّ ما يقولُ هو يُوافِقُ كتبَهُمْ وأنَّ كتابَهُ مُصَدِّقٌ لكتُبِهِمْ وأنه يُؤْمِنُ بالرسلِ الذينَ يؤمنونَ هُمْ بهِمْ، لكنهمْ قالوا ذلكَ على المُعاندةِ والمكابَرةِ. فقالَ أصحابُ هذا التأويلِ: الوَيلُ والوعيدُ [للذينَ تَحزَّبوا في رسولِ اللهِ][5] واختَلَفوا فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

والويلُ لكلِّ كافرٍ. ما مِنْ كافرٍ إلّا ولَهُ ذلكَ الوَعيدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وَصْفُ ذلكَ اليومِ لِما فيهِ؛ مَجْمَعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، ويَشْهَدُهُ الجِنُّ والإنْسُ والملائكةُ، فهو مَشْهَدٌ عظيمٌ. ويَحْتَمِلُ أنهُ وَصَفَهُ بالعِظَمِ لأنهُ هو المَقْصودُ في خَلْقِ العالَمِ في الدنيا؛ فهو إنما خَلَقَهُمْ لأمْرٍ عظيمٍ، وهو ذلكَ اليومُ.

الآية ٣٨ وقولهُ تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قالَ الحَسَنُ: يكونونَ سُمعاءَ [وبُصَراءَ في الآخِرَةِ، لَيسوا][6] على ما كانوا في الدنيا [عُمْياً بُكْماً صُمًّا][7] وقالَ بَعْضُهُمْ: ما أسْمَعَهُمْ، وما أبْصَرَهُمْ يومَ يأتونَنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: لا يَصِحُّ هذا [لأنَّ هذا][8] لَيسَ على وَجْهِ الهُزْءِ والتَّعَجُّبِ، ولكنَّ تأويلَهُ[9] يَسْمَعونَ ما قالوا، ويُبْصِرونَ ما عَمِلوا. وقال بعضُهُمْ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي أسْمِعْ بحديثِهِمْ [وأعْلِمْ بهِمْ][10] وأبصِرْ، كيفَ نَصْنَعُ بهِمْ يومَ يأتونَنا؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في حَسْرَةٍ بَيِّنَةٍ أو في هلاكٍ بَيِّنٍ. وقد ذَكَرْنا ذلكَ في غيرِ مَوضعٍ.

الآية ٣٩ وقولهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: الحَسْرَةُ، هي أنْ يُصَوَّرَ الموتُ بصورةِ كَبْشٍ أمْلَحَ، فَيُذْبَحَ بينَ الجنةِ والنارِ، فَيَنْظُرَ إليهِ أهلُ النارِ وأهلُ الجنةِ، فَيَنْدَمَ أهلُ النارِ، وتكونَ لهمُ الحَسْرَةُ لِما كانوا يَطْمعونَ الموتَ [ويَتأسَّونَ بهِ][11] تلكَ الحَسْرَةُ التي ذُكِرَ. لكنَّ هذا لا يُعْلَمُ إلّا بخَبَرٍ عنْ رسولِ اللهِ. فإنْ ثَبَتَ شيءٌ عنهُ فهو ذلكَ، وإلّا فالحَسْرَةُ لهمْ في أعمالِهِمُ التي عَمِلوا في الدنيا، وهو ما قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقولُهُ: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وقولهُ تعالى: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١] ونَحْوُهُ كلُّ عَمَلٍ في الدنيا يكونُ لهمْ ذلكَ حَسْرَةً في الآخِرَةِ ونَدامَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي أُدخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي هُمْ كانوا في غَفْلَةٍ مِنْ هذا وهُمْ لا يؤمنونَ باللهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: العبادة لمن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: في الآخرة ليس، في م: وبصراء في الآخرة ليس. (٧) في الأصل وم: عمي بكم صم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: أي. (١٠) في الأصل وم: واعلمهم. (١١) في الأصل: يتاسون الموت في م: يتاسون منه.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كنايةٌ عَنْ فَناءِ الخَلْقِ جميعاً وبَقاءِ الخالِقِ، فذلكَ مَعْنى الوِراثةِ، واللهُ اعلَمُ. وعلى ذلكَ سُمّيَ الوارثُ في الشاهِدِ وارثاً لأنهُ باقٍ بَعْدَ فَناءِ مُوَرِّثِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قالَ الحَسَنُ: هو صِلَةُ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [الآيتان: ١ و٢] يقولُ واذْكُرْ رَحْمَةَ ربِّكَ إبراهيمَ، وكذلكَ يَجْعَلُ جميعَ ما ذُكِرَ في هذه السورةِ مِنْ نَحْوِ هذا صِلَةَ ذلكَ، كأنهُ ذَكَرَ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ في كلِّ ذلكَ، لأنهُ يَجْعَلُ تَفْسيرَ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ في كلِّ ذلكَ على ما ذُكِرَ على إثْرِهِ، وكذلكَ [يقولُ][1] في جَميعِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ: إنَّ تَفسيرَها ما ذُكِرَ على إثْرِها.

وأمّا غَيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ فإنهُ يقولُ: واذكُرْ لهمْ نَبَأَ إبراهيمَ وقِصَّتَهُ في الكتابِ، واذْكُرْ لَهُمْ[2] في الكتابِ نَبَأَ موسى وخَبَرَهُ[3] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ الصِّدِّيقُ إنما يُقالُ لِمَنْ كَثُرَ منهُ ما يَسْتَحِقُّ ذلكَ الاسْمَ، وكذلكَ التَّشديدُ إنما يُشَدَّدُ إذا كَثُرَ الفِعْلُ منهُ،[4] وصارَ كالعادةِ لهُ والطَّبْعِ، فكأنهُ سُمّيَ بهذا لِما لم يكُنْ يَجْعَلُ بَينَ ما ظَهَرَ لهُ مِنَ الحُقوقِ والفِعْلِ وبَينَ وفائِها وأدائِها نَظْرَةً ولا مُهْلَةً، بل كانَ يَفي بها، ويُؤدّيها كما ظَهَرَ لهُ. لِذلكَ سَمّاهُ، واللهُ أعلَمُ، وَفِيّاً بقولِهِ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] وقولِهِ[5] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] سَمّاهُ وَفِيّاً [لِما][6] كانَتْ عادَتُهُ القِيامَ بِوَفاءِ [ما][7] ظَهَرَ لهُ، وإتمامَ ما ابْتَلاهُ ربُّهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ إذا دَعَوتَهُ ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ لو عَبَدْتَهُ ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ إذا احْتَجْتَ إليهِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي لا يُجيبُ لو دَعَوتَهُ، واحْتَجْتَ إليهِ ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ حاجَتَكَ إذا احتَجْتَ إليهِ ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يَنْصُرُكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ مِنْ عذابِ اللهِ في الآخِرَةِ. [كأنهُ][8] يقولُ: كيفَ لا تَعْبُدُ مَنْ إذا دَعَوتَهُ سَمِعَ، وإذا دَعَوتَهُ أبْصَرَكَ[9] ونَصَرَكَ إذا احْتَجْتَ إليهِ، وسألْتَهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي مِنَ البيانِ ما يَحُلُّ بكَ بَعْدَ المَوتِ إذا مُتَّ على ما أنتَ عليهِ ما لم يأتِكَ ذلكَ مني ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ إلى ما أدعوكَ إليهِ مِنْ دينِ اللهِ ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي ديناً عَدْلاً سَوِيّاً قَيِّماً، لا عِوَجَ فيهِ. فهذا يدلُّ منهُ أنهُ قد أوحِيَ ؟[إليهِ][10] في ذلكَ الوَقْتِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ عَرَفَ ذلكَ اسْتِدْلالاً منهُ واجْتِهاداً على غَيرِ وَحْيٍ كقولِهِ: ﴿هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] حتى انْتَهى إلى قولِهِ: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وكلُّ ذلكَ كانَ لهُ مِنَ اللهِ ألّا ترى أنهُ قالَ في آخِرِهِ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ هُمْ لم يكونوا يعبدونَ الشيطانَ عندَ أنفُسِهِمْ. ولكنْ تَحْتَمِلُ إضافةُ عبادَتِهِمْ إلى الشيطانِ [وجْهَينِ]:

أحَدُهما[11]: أنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها كانَتْ لا تأمُرُهُمْ بالعبادةِ، ولا تَدْعوهُمْ إليها، ثم عَبَدوها بأمرِ الشيطانِ وبِدُعائِهِ إيّاهُمْ، فأضافَ ذلكَ إليهِ للأمرِ الذي كانَ منهُ بذلكَ.

والثاني: ذُكِرَ أنَّ الشيطانَ كانَ يَنْطِقُ مِنْ جَوفِ الصَّنَمِ، فَعَبَدوها لِكلامِهِ، فكأنهمْ عبدوا الشيطانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ أي أعلَمُ أنْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرجت في الأصل وم: واذكر. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وذكره. (٤) في الأصل وم: منهم. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أبصر. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وجوها أحدها.

يَمَسَّكَ عذابٌ مِنَ الرحمنِ لو دُمْتَ على الكُفرِ، وخَتَمْتَ بِهِ. فإنْ كان تأويلُ [الخوفِ على](١) العِلْمِ فهو على هذا الشَّرْطِ يُخرَّجُ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الخوفُ في مَوضِعِ الخوفِ؛ أي أخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ مِنَ الرحمنِ إنْ لم تُنجِزْ وَعْدَكَ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي قريباً مِنَ العَذابِ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾ ولا شَكَّ أنهُ كانَ راغباً عن عِبادةِ آلهتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً.

أحدُها: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عنْ دِينكَ الذي أنتَ عليهِ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأقْتُلَنَّكَ.

والثاني: [﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عنْ دعائكَ إيّايَ إلى دينكَ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأطْرُدَنَّكَ.

والثالثُ](٢): ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عنْ قَذْفِ آلهتنا وسَبِّها وذِكْرِها بِسُوءٍ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأشْتُمَنَّكَ مكانَ شَتْمِكَ وقَذْفِكَ آلهتَنا. فالرجْمُ يَشتَمِلُ على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ: القَتْلِ والطَّرْدِ والشَّتْمِ.

فإنْ كانَ على القَتْلِ فهو مُقابلُ الدينِ، أي ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن دينكَ لأقْتُلَنَّكَ. وإنْ كانَ على الطَّرْدِ مُقابلُ الدعاءِ، أي ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عنْ دعائكَ إلى ما تدعو لأطْرُدَنَّكَ. وإنْ كانَ على الشَّتْمِ فهو مُقابلُ الشَّتْمِ، أي ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن شَتْمِكَ آلِهَتَنا لأشْتُمَنَّكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: طَويلاً. وقالَ بعضُهُمْ: دَهْراً. فإنْ كانَ مَلِيًّا أي بَعيداً فهو على بُعْدِهِ منهُ، أي ابْعُدْ مني، وتَباعَدْ مني[داراً ومُقاماً](٣) وإنْ كانَ على الدَّهْرِ والطُّولِ فهو يُخرَّجُ [على ألا](٤) تُكَلِّمَني أبداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ يَحتمِلُ أنهُ ليسَ على أنْ سَلَّمَ عليهِ، ولكنْ كَلَّمَهُ بكلامِ السَّدادِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ/ ٣٢٥ ـ ب/ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] هو أنْ يقولوا لهمْ كلامَ السَّدادِ، ليسَ على [أنْ](٥) تُسلِّموا عليهِمْ.

ويَحتمِلُ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ على حقيقةِ السلامِ المَعْروفِ، لكنَّهُ يُخرَّجُ على الإضمارِ، أي سَلامٌ عليكَ إذا أسْلَمْتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ إذا أسْلَمْتَ على نَحْوِ ما قُلْنا. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ لِيُوَفِّقَكَ على السببِ الذي تَسْتَوجِبُ بهِ الاسْتِغْفارَ، وتكونُ أهلاً لِلاسْتِغْفارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي بَرًّا لَطيفاً، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَفِيًّا﴾ [أي](٦) عالماً، وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ كانَ عَوَّدَني الإجابةَ إذا دَعَوتُهُ.

قالَ أبو عَوسَجةَ: الحَفِيُّ العالِمُ بالأمْرِ، ويُقالُ: حَفِيَ الرجُلُ يَحْفَى إذا سارَ بلا نَعْلٍ ولا خُفٍّ، وجَمْعُهُ حُفاةٌ، واحتَفَى يَحْتَفي أي إذا احْتَفَى حَشيشاً.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاعتِزالُ ههنا: الهِجْرَةُ(٧) إلى أرضِ الشامِ ومُفارَقَتُهُ إيّاهُمْ مُفارَقَةَ المكانِ والدارِ كقولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] فقولُهُ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ النجاةُ بالفراقِ منهمْ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وأعتَزِلُكُمْ وما تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ أيضاً. ففيهِ إخبارٌ عنِ اعْتِزالِهِ عنهمْ بالدارِ والمكانِ وعنْ فعلِهِمِ أيضاً، اعْتَزَلَهُمْ عنِ الأمْرَينِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي أدعو ربي عَسَى ألّا أكونَ بعبادةِ غَيرِ اللهِ شَقيّاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: داره ومقامه. (٤) في الأصل وم: أي لا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: اعتزال هجرة.

والثاني: ﴿أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي خائباً مَرْدودَ الدُّعاءِ، والله أعْلَمُ

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ اعْتَزَلَ الدارَ والمكانَ بالهجرةِ إلى الأرضِ المباركةِ التي ذَكَرَ أنهُ نَجّاهُ، واعْتَزَلَ أيضاً صَنيعَهُمُ الذي كانوا يَصْنَعونَ مِنْ عبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] ذَكَرَ الهِبَةَ لأنَّ الوَلَدَ هِبَةٌ مِنَ اللهِ؛ خَلَقَهُ على الإفضالِ منهُ والإنعامِ عليهِ، لأنهُ يُعْطي لا عَنْ حَقٍّ كانَ لهمْ عليهِ. فذلكَ فائدةُ ذِكْرِ الوَلَدِ هِبَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ هو ظاهرٌ؛ وَهَبَ لهُ ما ذَكَرَ، ثم أخْبَرَ أنهُ جَعَلَهُمْ أنبياءَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الرَّحْمَةُ ههنا هي النُّبوَّةُ، أي وَهَبْنا لَهُمُ النُّبوَّةَ، وقالَ بعضُهُمْ: الرَّحْمَةُ النِّعْمةُ أي مِنْ نِعْمتِهِ وَهَبَ لهمْ ما وَهَبَ مِنَ النُّبوَّةِ وغَيرِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ هي الكُتُبُ التي أنزَلَها اللهُ؛ فيها أنباءُ صِدْقِهِمْ وفَضْلِهِمْ ومَنْزِلَتِهِمْ؛ هي ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ هم وأولادُهُمُ الذينَ جَعَلَهُمْ أنبياءَ رُسُلاً؛ يُذْكَرونَ، ويُعَظَّمونَ مِنْ بَعْدِهِمْ [لأنَّ جميعَ الأنبياءِ والرُّسُلِ[2] يُذْكَرونَ، ويُعَظَّمونَ مِنْ بَعْدِهِمْ][3] لأنَّ جميعَ الأنبياءِ والرُّسُلِ [ﷺ][4] كانوا مِنْ نَسْلِ إبراهيمَ مِنْ لَدُنْهُ إلى لَدُنْ محمدٍ ﷺ.

فهمْ كانوا ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ لأنهمْ[5] يُذْكَرونَ بكلِّ خَيرٍ وبكلِّ بَرَكَةٍ ويُمْنٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ هو ما آمَنَتْ[6] جَميعُ الأديانِ بهِ، أعني بإبراهيمَ، ودانُوا جَميعاً بهِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ تخصيصُ إبراهيمَ وآلِهِ بالصلاةِ وبالبَرَكَةِ عليهمْ والثناءِ على قولِ قومٍ حينَ[7] قالوا: «اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ» [البخاري ٦٣٥٧].

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وقولِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ على قولِ الحَسَنِ: صِلَةُ قولِهِ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] أي اذْكُرْ رَحْمَةَ ربِّكَ موسى.

وعلى قولِ غَيرِهِ مِنْ أهلِ التأويلِ أي اذْكُرْ لهمْ نَبَأَ موسى وقِصَّتَهُ في الكتابِ، وهو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ ومُخْلِصاً: قد قُرِئَ بالنَّصْبِ والخَفْضِ جميعاً. قالَ بعضُهُمْ ﴿مُخْلَصًا﴾ أخْلَصَهُ اللهُ، واصْطَفاهُ، واخْتارَهُ لِرِسالَتِهِ ونُبوَّتِهِ، وقولِهِ ﴿مُخْلِصًا﴾ بالخَفْضِ[8] أخْلَصَ عبادَتَهُ وتوحيدَهُ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الرسولُ هو الذي يُنْبِئُ، ويُخْبِرُ عنِ التأويلِ. وقال بَعْضُهُمْ: الرسولُ هو الذي يَنْزِلُ عليهِ الوَحْيُ والكتابُ، والنَّبيُّ هو الذي يُنْبِئُ لا عنْ لِسانِهِ.

وأصلُ النَّبيِّ هو الذي يُنبِئُ عنْ كلِّ خَيرٍ وبَرَكَةٍ. وسُمِّيَ نَبِيًّا لِاجْتِماعِ خصالٍ فيهِ كالصِّدِّيقِ؛ لا يُسَمَّى بهِ إلّا بَعْدَ اجْتماعِ كلِّ خِصالِ الخَيرِ والبَرَكَةِ مالَوِ انْفَرَدَ بكلِّ خَصْلَةٍ مِنْ تلكَ الخَصالِ سُمِّيَ صادقاً. فإذا [اجْتَمَعَتْ تلْكَ][9] سُمِّيَ صدِّيقاً.

فَعَلى ذلكَ النَّبيُّ؛ سُمِّيَ نَبيّاً لِاجْتِماعِ خِصالٍ، وهو ما رُوِيَ في [خَبَرِ الرُّؤيا][10]: «الرُّؤيا الصالحةُ جُزْءٌ مِنْ خمسةٍ وأربعينَ جُزْءاً مِنَ النُّبوَّةِ» [التمهيد ١/ ٢٨١، وعند مسلم ٢٢٦٣، والبخاري ٦٩٨٩جزء من ستةٍ وأربعين] «والصَّمْتُ الحَسَنُ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وعشرينَ جُزْءاً مِنَ النُّبوَّةِ»[11] فهذا يُدُلُّ أنَّ النَّبيَّ إنما سُمِّيَ نَبيًّا لِاجْتماعِ خِصالِ الخَيرِ والبَرَكَةِ فيهِ كما ذَكَرْنا في الصِّدِّيقِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل: رسلا. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم آمن من. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) وهي قراءة ابن عامر وابن كثير وغيرهما، انظر معجم القراءات القرانية ج٤/ ٤٩. (٩) في الأصل وم: اجتمع ذلك. (١٠) في الأصل: الخبر الرؤيا، ساقطة من م. (١١) في الموطأ ٢/ ٩٥٤ و٩٥٥: القصد والتؤدة وحسن السمت جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ فإنْ كانَ الأيمنُ مِنَ اليُمْنِ والبَرَكةِ فيكونَ تأويلُهُ: وناديناهُ مِنْ جانبِ الطُّورِ المُبارَكِ المَيْمونِ[١].

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ موسى ﷺ قالَ: أتاني ربي مِنْ جَبَلِ طورِ سيناءَ، وأطْلَعَ مِنْ جَبَلِ ساعورا، وأظْهَرَ مِنْ جَبَلِ فارانَ. ومعناهُ: أتاني وَحْيُ ربي مِنْ جَبَلِ طورِ سيناءَ، وأطْلَعَ مِنْ جَبَلِ ساعورا، أي أتَى وَحْيُ عيسى مِنْ جَبَلِ ساعورا، وأتَى وَحْيُ محمدٍ مِنْ جَبَلِ فارانَ؛ فهو على اليُمْنِ يُمْنِ الجَبَلِ وبَرَكَتِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو يَمينُ الجبَلِ، وقالَ بعضُهُمْ: يَمينُ موسى. وقالَ: أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: هذا لا يُعْلَمُ إلّا بالخَبَرِ، ولا نُفَسِّرُهُ أنهُ ماذا أرادَ بهِ؟ مَخافَةَ التَّغْييرِ لأنهُ ذُكِرَ في مَوضِعِ الاِحْتِجاجِ عليهِمْ، فإنْ زادوا، أو نَقَصوا على ما في كُتُبِهِمْ يَبْطُلُ الاِحْتِجاجُ بهِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هو تَقْريبُ المَنْزِلَةِ والقَدْرِ والفَضْلِ. هذا مَعْروفٌ، وهو أسْلَمُ.

﴿نَجِيّٗا﴾ مِنَ المُناجاةِ، أي ناجاهُ مِنْ حيثُ لم يُطْلِعْ على ذلكَ غيرَهُ[٢]، وسَمَّى موسى. فهذا لأنهُ أخْلَصَ نفسَهُ للهِ، وسَلَّمَها[٣] له، ولذلكَ سُمِّيَ المُصَلِّي أيضاً مُناجياً رَبَّهُ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ: «انْظُرْ مَنْ تُناجي» [بنحوه الموطأ: ١/ ٨٠] حينَ[٤] فَرَّغَ نَفْسَهُ عن جميعِ الأشغالِ، وسَلَّمَها إليهِ، فَسُمِّيَ لذلكَ ﴿نَجِيّٗا﴾ مُناجِياً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ هو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ على قولِ الحَسَنِ هو صِلَةُ قولِهِ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] أي اذْكُرْ لهمْ رَحْمَةَ ربِّكَ إسماعيلَ. وعلى قولِ غيرِهِ مِنْ أهلِ التأويلِ على الابْتِداءِ، أي اذْكُرْ لهمْ نَبَأَ إسماعيلَ. وقِصَّتُهُ في الكتابِ على الاِحْتِجاجِ لهُ عليهِمْ لأنَّ هذِهِ الأنباءَ والقِصَصَ كانَتْ في كُتُبِهِمْ، فأخبَرَ رسولَهُ عن تلكَ الأنباءِ والقِصَصِ على ما كانتْ لِيُخْبِرَهُمْ، فَيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَها باللهِ لِيَدُلَّهُمْ ذلكَ على نُبُوَّتِهِ[٥] ورسالَتِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في إسماعيلَ: قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: هو إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهما، وقالَ بعضُهُمْ: هو الذي قالوا ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ولكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ إلّا بالخَبَرِ عنِ اللهِ. ولَيْسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: سَمّاهُ صادقَ الوَعْدِ [لأنهُ وَعَدَ][٦] رجلاً/ ٣٢٦ ـ أ/ أنْ يُقيمَ عليهِ، وأنْ يَنْتَظِرَهُ حتى يرجِعَ إليهِ، فأقامَ مكانَهُ أيّاماً، يَنْتَظِرُهُ لِلْميعادِ حتى رَجَعَ إليهِ.

لكنْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِثْلُ إسماعيلَ يَعِدُ عِدَةً، ولا يَسْتَثْني. وقد نَهى اللهُ رسولَهُ أنْ يقولَ: إنهُ فاعِلٌ كذا غداً حتى يَسْتَثْنِيَ، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣ و٢٤]. ويكونُ قولُهُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ أي صِدّيقاً؛ والصديقُ هو القائمُ بِوَفاءِ كلِّ حقٍّ، ظَهَرَ لهُ، لأنَّ كلَّ مؤمنٍ، يَعْتَقِدُ في أصلِ إيمانِهِ طاعةَ ربِّهِ في كلِّ أمْرٍ، يأمُرُ بهِ، والانْتِهاءَ عنْ كلِّ نَهْيٍ، يَنهاهُ، وَوَفاءَ كلِّ حقٍّ عليهِ. فَسَمّاهُ ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ لِقيامِهِ بِوَفاءِ كلِّ حقٍّ، ظَهَرَ لهُ، وتَجَلّى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ قد ذَكَرْناهُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي قومَهُ بالصلاةِ والزكاةِ، فإنْ كانَتِ الصلاةُ هي الصلاةُ المَعْروفَةَ، والزكاةُ [الزكاةُ][٧] المَعْروفَةَ، ففيهِ أنهما كانَتا في الأُمَمِ الماضِيَةِ. وإنْ كانَتِ الدعاءَ والثناءَ وما بهِ تزكو الأنفسُ، وتَصْلُحُ، فهو[٨] على جَميعِ الخلائقِ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ ظاهِرٌ.

---

(١) في الأصل وم: واليمن. (٢) في الأصل وم: غيرهما. (٣) في الأصل وم: وسلمه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: النبوة.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: وهو.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ هو ما ذَكَرْنا. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ قد ذَكَرْناهُ أيضاً.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ﴾ أي نَرْفَعُهُ في الجَنَّةِ، وقالَ أهلُ التأويلِ: رَفَعَهُ إلى السماءِ الرابعةِ [وهو مَيِّتٌ، أو كلاماً][1] نَحْوَ هذا.

ولكنْ عندَنا يُشْبِهُ أنْ يكونَ رَفْعُهُ إيّاهُ في المَنْزِلَةِ والقَدْرِ، والرِّفْعَةُ عندَ اللهِ وعندَ الناسِ جميعاً على [ما][2] ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠].

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ أي بالنُّبُوَّةِ والرَّحمَةِ التي ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ. والرَّحمَةُ هي النِّعْمَةُ.

فهذا يَرُدُّ قَولَ أهلِ الاعتِزالِ لأنهمْ يقولونَ: لا يَخُصُّ اللهُ أحَداً بالنُّبُوَّةِ أو بِشَيءٍ مِنَ الأفضالِ إلّا مَنْ يَسْتَحِقُّ ذلكَ، ويَسْتَوجِبُهُ. فأخبَرَ اللهُ ﷻ أنَّ ذلكَ منهُ إنعامٌ وإفضالٌ عليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أيضاً، ومِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي يَعقوبَ، ومِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ هداهُ التوحيدَ، واجْتَباهُ لِلْرِسالةِ والنُّبُوَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هذا في مُؤْمِني أهلِ الكتابِ عبدِ اللهِ ابنِ سَلامٍ وأصحابِهِ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ﴾ القرآنِ بَعْدَ ما آمَنوا ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا في أولئكَ [الذينَ][4] ذَكَرَ أنهُ أنْعَمَ عليهِمْ؛ كانَتْ لهمْ آياتٌ في كُتُبِهِمْ، ؛ فيها سُجودٌ إذا تُلِيَتْ ﴿عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ﴾ للهِ ﴿سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾. أو أنْ يكونَ لا على حقيقةِ السجودِ، ولكنْ على الخضوعِ لهُ والقَبولِ لِحُجَجِهِ وبراهينِهِ التي تُلِيَتْ عليهِمْ. أو أنْ يكونوا لا يَمْلِكونَ أنفسَهُمْ إذا رَأَوا آياتِ اللهِ وسُلْطانَهُ، ولكنْ وَقَعوا سُجَّداً[5] على ما أخْبَرَ عَنْ سَحَرَةِ فِرْعَونَ عندَ معايَنَتِهِمُ الآياتِ حينَ قالَ: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ [طه: ٧٠، والشعراء: ٤٦] وقالَ[6]: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] ليسَ أنْ سَجَدوا لهُ، ولكنْ يُلقَونَ سُجَّداً لِما لا يَمْلِكونَ أنفُسَهُمْ عندَ مُعايَنَتِهِمُ الآياتِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَبُكِيّٗا﴾ فيهِ ثلاثُ لُغاتٍ: بُكِيّاً وبِكِيّاً وبَكِيّاً[7]، وهو جماعةُ الباكي. وقولُهُ: ﴿نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢] يُقالُ: فلانٌ نَجِيُّ فلانٍ، أي مَوضِعُ [سِرِّهِ][8].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ أنْ يكونَ كنايةً عنِ الصلاةِ، وَصَفَهُمْ ﷺ أنهمْ كانوا يكونونَ في الصلاةِ خاشِعينَ باكينَ.

الآية ٥٩ وقولُهُ[9] تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ أي خَلَفَ مِنْ بَعْدِ أولئكَ الذينَ وَصَفَهُمْ ﷺ بالصلاةِ للهِ والخُشوعِ للهِ فيها والبُكاءِ ﴿خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي جَعَلوها لغَيرِ اللهِ وهي الأصنامُ التي كانوا يَعْبُدونَها. فإذا جَعَلوها، وصَرَفوها إلى غَيرِ الذي يُصَلِّي أولئكَ، فقد أضاعوها، لأنهمْ كانوا يُصَلّونَ للأصنامِ الصلاةَ التي كانَ يُصَلّي أولئكَ للهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي آخِرُ ما يُتْرَكُ، ويَضيعُ، لأنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «لَتُنْقَضَنَّ عُرا الإسلامِ عُرْوَةٌ فَعُروةٌ؛ أوَّلُها الأمانةُ، وآخِرُها الصلاةُ» [بنحوه أحمد ٥/ ٢٥١].

[وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾][10] إضاعَتُها تأخيرُها عَنْ مَواقيتِها، لا أنْ تَركوها أصْلاً، فهذا في أصْلِ الإسلامِ، إنْ ثَبَتَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ أي آثَروا الشهواتِ على العباداتِ، وجَعَلوا الشَّهَواتِ، هي المُعْتَمَدةُ دونَ العباداتِ.

---

(١) في الأصل وم: فهوميت فيها أو كلام. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: سجودا. (٦) في الأصل وم: و. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٥٠. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ثم قال. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الغَيُّ وادٍ في جَهَنَّم. لكنَّ هذا لا يجوزُ أنْ يُقالَ إلّا بالخَبَرِ عنْ رسولِ الله أنهُ قالَ: وادٍ في جَهَنَّم. وقالَ بعضُهُمْ: الغَيُّ العذابُ. وقالَ بعضُهُمْ: الغَيُّ الشَّرُّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ سَمَّى جَزاءَ أعمالِهِمُ التي عَمِلوها في الدنيا بالغِوايَةِ باسْمِ أعمالِهِمْ غَيًّا. ويجوزُ تَسْمِيَةُ الجزاءِ باسْمِ سَبَبِهِ كقولِهِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ونَحْوُهُ.

الآية ٦٠ ثم اسْتَثْنَى، فقالَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عنِ الشِّرْ ﴿وَءَامَنَ﴾ باللهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا يُنْقَصونَ مِنْ حَسَناتِهِمُ التي عَمِلوها في حالِ إيمانِهِمْ[1] لِمكانِ ما عَمِلوا مِنَ الأعمالِ في حالِ كُفْرِهِمْ، بل يُبَدِّلُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ على [ما][2] أخْبَرَ اللهُ تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقالَ في آيةٍ [أُخرى][3]: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ أخْبَرَ أنهمْ إذا آمَنوا، وانْتَهَوا عنِ الشِّرْكِ، لا يُؤاخِذُهُمْ بما كانَ منهمْ في حالِ كُفْرِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦١ ثم بَيَّنَ أيَّ جَنَّةٍ؟ فقالَ: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ الذينَ آمَنوا ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾.

ثم يَحتَمِلُ إيمانُهُمْ بالغَيبِ، أي باللهِ: آمَنوا بهِ بالخَبَرِ، وإنْ لم يَرَوهِ. ويَحتَمِلُ الغَيبُ الجنةَ، أي صَدَّقوا بها، وإنْ لم يَرَوها [ويَحتَمِلُ الغيبُ البعثَ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ أي كانَ مَوعودُهُ آتِياً. ولكنْ ذَكَرَ مَأتِيّاً لأنَّ كلَّ مَنْ أتاكَ فقد أُتِيتَهُ، فَسَمَّى لِذلكَ مَأتِيّاً.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ كقولِهِ[5] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥ و٢٦] أي لا يَسْمَعونَ باطلاً وما يكْرَهُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ولا [ما][6] يُؤْثِمُ بعضَهُمْ بَعْضاً ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ والسلامُ كأنهُ اسْمُ كلِّ خيرٍ وبَرَكةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ أطيَبَ العَيشِ وأحَبَّهُ إلى العَرَبِ الغَداءُ والعَشاءُ، فأخْبَرَهُمُ اللهُ ﷻ أنَّ لهمْ في الجنةِ الغداءَ والعَشاءَ. وأطيبُ العَيْشِ إلى العَجَمِ لِباسُ الحَريرِ واللُّؤلُؤِ، فأعْلَمَهُمْ أنَّ لهمْ في الجنةِ ذلكَ بقولِهِ: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣ وفاطر ٣٣].

ويقولُ أهلُ التأويلِ: ليسَ في الجنةِ بُكْرَةٌ ولا عَشِيٌّ ولا ليلٌ ولا نهارٌ، ولكنْ يُؤْتَونَ على ما يُحِبّونَ مِنَ البُكْرَةِ والعَشِيِّ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][7] قالَ: على مَقاديرِ الليلِ والنهارِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ ليسَ على تخصيصِ وقْتٍ دونَ [وقْتٍ][8] ولكنْ [في][9] الأوقاتِ كلِّها: في كلِّ وقْتٍ يُحِبّونَ، ويَشْتَهونَ كقولِهِ: ﴿فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ [فصلت: ٣١] [وقولِهِ][10]: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠].

ويُخَرَّجُ ذِكْرُ البُكْرَةِ والعَشِيِّ [على][11] أنَّ زمانَ الجنةِ يكونُ شِبْهَ البُكْرَةِ مِنْ وقْتِ طُلوعِ الفَجْرِ إلى طُلوعِ الشمسِ ومِثْلِ الوقْتِ [الذي][12] يكونُ بَعْدَ غروبِ الشمسِ إلى أنْ يُظْلِمَ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ ظِلَّهُ مَمْدودٌ بقولِهِ: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة: ٣٠].

الآية ٦٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾][13] أخْبَرَ أنَّ ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي﴾ ذَكَرَ أنَّ فيها كذا هي التي

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: اعلمهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والنار والبعث بالغيب.
(٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: ثم.

﴿نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾. يَحتمِلُ أنْ يكونَ وَعدُ الجنةِ لِلبَشرِ كُلِّهِمْ بِشروطٍ[1]، شَرَطَ عليهِمْ؛ إنْ وَفوا بها فَلَهُمُ الجنةُ جميعاً، وإنْ لم يَفُوا بها فلا. فَمَنْ وَفَى وُفّيَ بشروطِهِ[2] التي / ٣٢٦ ـ ب/ شَرَطَ؛ يَجْعَلُ الذي كانَ وَعَدَ لِلَّذي يَفي[3]، إذا وفَى بذلكَ. فهو الميراثُ الذي ذَكَرَ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠] الفِرْدَوسَ[4]، والوارثُ هو الباقي عنِ المُورِّثِ والخَلَفُ عنِ المَيّتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩]. قالَ بعضُهُمْ: الخَلْفُ بالجَزْمِ يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ الذَّمِّ، والخَلَفُ بالتحريكِ والنَّصْبِ في مَوضِعِ المَدْحِ. وقالَ بعضُهُم: هما سَواءٌ، ويُسْتَعْمَلانِ جميعاً في مَوضِعٍ واحدٍ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [هذا الكلامُ منهُ لا يكونُ إلّا عنْ سؤالٍ كانَ منهُ، كأنهُ قد كانَ اسْتَبْطأَ نزولَ جبريلَ عليهِ، فعندَ ذلكَ قالَ لهُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾][5].

ثم فيهِ أنهُ لم يقلْ ذلكَ لهُ إلّا بأمرِ اللهِ؛ أخبرَ أنهمْ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] فلا يَحتمِلُ أنْ يقولَ لهُ ذلكَ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ، فَيَجْعَلَ ذلكَ آيةً في كتابِ اللهِ، تُتْلَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ كأنَّ هذا الكلامَ موصولٌ بقولهِ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لأنهما جميعاً كانا يَعْلَمانِ أنَّ لهُ ما بَينَ أيديهِمْ وما خلفَهُمْ وما بَينَ ذلكَ. فَدَلَّ ذلكَ أنهُ موصولٌ بالأوّلِ.

وَجِهَةُ الصِّلَةِ بالأوَّلِ هو أنْ يُقالَ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لا نَتَقَدَّمُ إلّا بأمرِهِ، ولا نَتَأَخَّرُ، ولا نَعْمَلُ شيئاً إلّا بأمرِهِ. وهو كقولِهِ ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

وأمّا [أهلُ التأويلِ فقدِ][6] اختَلَفوا فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ وهو الآخِرةُ ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما مَضى مِنَ الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الحالُ التي نحنُ فيها. وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآخِرةُ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ما بَينَ النَّفْخَتَينِ، وأمثالُ هذا.

لكنَّ الذي ذَكَرْنا بَدْءاً أولى وأشبَهُ، إذْ هو على الصِّلَةِ بالأوَّلِ ألّا يَتَقَدَّمَ، ولا يَتَأَخَّرَ، ولا يَعْمَلُ شيئاً إلّا بأمرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ جبريلَ قد كانَ احْتَبَسَ عنهُ زماناً، فقالَ أهلُ مكةَ: قد وَدَّعَهُ ربُّهُ، وقَلاهُ، فَنَزَلَ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١و٢ و٣] على ما قالَ المُشركونَ، فَيُخَرَّجُ على هذا قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ على التَّرْكِ أي ما كانَ ربُّكَ تَرَكَكَ كما[7] قالَ أولئكَ مِنَ التوديعِ والقِلَى.

[والثاني][8]: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ كَملوكِ الأرضِ، يُطْلَبُ خَدَمُهُمْ وخَوَلُهُمْ وقتَ سَهْوٍ لهمْ وحالةَ غَفْلَتِهِمْ، فَيَقْضونَ حوائجَهُمْ وحَوائجَ مَنْ يَطْلُبُ منهمُ القيامَ بها. أي ما كانَ ربُّكَ بالذي يَسْهو لهمْ، ويَغْفُلُ كملوكِ الأرضِ.

والثالثُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لِتأخيرِ نُزولٍ عَنْ وقتِ النُّزولِ، بل أنْزَلَ عليكَ في الوقتِ الذي هو وقتُ النُّزولِ. فهذانِ الوَجْهانِ يُخَرَّجانِ على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، والأوَّلُ على التَّرْكِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي أصْبِرْ نفسَكَ عليها وعلى طاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي ما تَعلَمُ لهُ شريكا، تَشْتَغِلُ بِعبادَتِهِ عنْ عِبادةِ اللهِ. إنما هو إلهٌ واحدٌ، لا راحةَ لكَ عنْ عبادَتِهِ، ولا يَشْغَلُكَ عنهُ. وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هل تَعْلَمُ أحداً، اسْمُهُ اللهُ سِواهُ. وقالَ بعضُهُمْ: هل تَعْلَمُ لهُ مَثَلاً وشبيهاً.

---

(١) في الأصل وم: بشرائط. (٢) في الأصل وم: بشرائطه. (٣) في الأصل وم: لم يف. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: الآية. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: غيره من أهل التأويل. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) في الأصل وم: ويحتمل.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ هذا الكلامُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على إنكارِ البَعْثِ ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي ما أُخرَجُ حَيًّا.

والثاني: على الهُزْءِ؛ والهُزْءُ جوابُ ما قالَ لهمْ أهلُ الإسلامِ: إنكُمْ تُبْعَثونَ، وتُحْيَونَ، فقالوا عندَ ذلكَ على الهُزْءِ بهمْ والسُّخْرِيَةِ.

الآية ٦٧ ثم ذَكَّرَهُمْ بَدْءَ حالِهِمْ حينَ[1] لم يكونوا شيئاً، فَخَلَقَهُمْ، فقالَ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فإنْ قَدَرَ على خَلْقِهِ في الابتِداءِ، ولم يَكُ شيئاً، كانَ على إحيائِهِ وبَعْثِهِ بَعْدَ ما كانَ شيئاً أقْدَرَ.

الآية ٦٨ ثم أقْسَمَ أنهمْ يُبْعَثونَ، فقالَ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي لَنَجْعَلَنَّهُمْ والشياطينَ الذينَ أضَلُّوهُمْ كقولِهِ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الصافات: ٢٢ و٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿جِثِيًّا﴾ جماعاتٍ كقولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿جِثِيًّا﴾ على الرُّكَبِ لأنَّ أقدامَهُمْ لا تَحْمِلُهُمْ[2] لشدةِ هَولِ ذلكَ اليومِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشِّيعَةُ الصِّنفُ، أي مِنْ كلِّ صِنفٍ [وقالَ بعضُهُمْ: الشِّيعةُ الأتباعُ كقولِهِ: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾][3] ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥] أي من أتباعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي تَمَرُّداً وعِناداً. والعاتي هو القاسي المُتَمَرِّدُ في عُتُوِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ أي لَنُخرِجَنَّ أي نَبْدأُ بِمَنْ كانَ منهمْ أشَدَّ على الرحمنِ تَمَرُّداً وعِناداً، وَهُمُ القادةُ والرؤساءُ منهمْ، فَيُقْذَفونَ في النارِ أوّلاً، ثم الأمْثَلُ على المراتِبِ التي كانوا في الدنيا.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي أعْلَمُ بِمَنْ [هُمْ][4] أولى بها صِلِيّاً، أي يُصْلَى بالنارِ، وهمُ القادةُ والكَفَرَةُ كقولِهِ[5] ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الغَيُّ الشَّرُّ ﴿جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] قالَ: جماعاتٍ، والجاثي هو البارِكُ على رُكْبَتِهِ، والشِّيعَةُ الصِّنفُ مِنَ الناسِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿جِثِيًّا﴾ جَمْعُ جاثٍ، وفي التفسيرِ جماعاتٍ.

وقالَ قَتادةُ في قولِهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] قالَ: لا سَمِيَّ لهُ، ولا عَدْلَ، ولا مِثْلَ؛ كلُّ خَلْقِهِ يُقِرُّ لهُ، ويَعْرِفُهُ، ويَعْلَمُ أنهُ خالقُهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: لا يُسَمَّى أحدٌ باسْمِهِ؛ يعني باللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: بالرحمنِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في الكَفَرَةِ خاصةً، واسْتَدلَّ بأوّلِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: ٦٨، . . .] إلى آخرِ ما ذُكِرَ. والمؤمنونَ لا يُحْشَرونَ مَعَ الشياطينِ، ولكنْ إنما يُحْشَرُ الكفارُ مَعَ الشياطينِ كقولِهِ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [الصافات: ٢٢ و٢٣]. ويكونُ قولُهُ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ على ابْتِداءِ مَنْعِ الوُرودِ عليها والنجاةِ منها.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في المؤمنينَ والكافرينَ جميعاً. لكنِ اخْتُلِفَ في الوُرودِ، وقالَ بعضُهُمْ: الوُرودُ الحُضورُ دُونَ الدخولِ لأنَّ اللهَ ﷻ أخبَرَ أنَّ مَنْ أُدْخِلَ النارَ فقد أخزاهُ بقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]. وقالَ بعضُهُمْ: الوُرودُ الدخولُ فيها، واسْتَدَلَّ بقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: تعمل. (٣) في م: والشيعة الأتباع كقولِهِ ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقوله.

وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وبقولِهِ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ الآية [هود: ٩٨] يقولُ: يدخُلُ الفريقانِ جميعاً فيها، لكنها تَصيرُ جامِدةً وبَرْداً على المؤمِنينَ على ما صارَتْ ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ثم تَصيرُ حارَّةً مُحرِقَةً لِلْكُفّارِ والظَّلَمَةِ.

قالَ الحَسَنُ: لا يُحتَمَلُ أنْ يَدْخُلَ أهلُ الإيمانِ النارَ لأنَّ اللهَ ﷻ، أمَّنَ المؤمنينَ أنْ يكونَ عليهِمْ خَوفٌ أو حُزْنٌ بقولِهِ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، . .] فلو كانوا يدخُلونَ النار لكانَ لهمْ خوفٌ وحُزنٌ. وقد أخبرَ أنْ لا ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ دلَّ أنهمْ لا يَدْخُلونَ.

وجائزٌ أنْ يكونوا واردينَ جميعاً داخِلينَ فيها، لا دخولَ تعذيبٍ فيها وعِقابٍ، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ مَمَرَّهُمْ جميعاً على الصِّراطِ لِجَهَنَّمَ كالسَّطحِ للدارِ. ومَنْ حَلَفَ ألّا يَدْخُلَ داراً، فَتَسَوَّرَ بِسورِها، أو صَعِدَ سَطْحاً مِنْ سطوحِها، حَنِثَ، ويصيرُ داخلاً فيها. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنهمْ إذا مَرُّوا على الصِّراطِ نَجا أهلُ الإيمانِ، فَمَرُّوا بِهِ، وزَلَّتْ أقدامُ الكفارِ فيها. فكانَ الفريقانِ جميعاً يُوصَفونَ بالدخولِ على/ ٣٢٧ ـ أ/ الوجهِ الذي وَصَفْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: وُرودُ المُسْلِمينَ المرورُ بِهِم على الجِسْرِ بَيْنَ أظهُرِها، ووُرودُ[1] المُشْرِكِينَ أنْ يَدخُلوها. وقالَ النَّبِيُّ ﷺ «الزالّونَ والزالّاتُ»[2]. وما ذَكَرَ الحَسَنُ أنهُ مِنَ المؤمِنينَ ألّا يكونَ عليهِمْ خَوفٌ ولا حُزنٌ، فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ يُدْخِلُهُمْ فيها غَيرِ جِهَةِ العقوبةِ، فلا يكونُ لهمْ خوفٌ ولا حُزنٌ.

ألَا تَرَى أنهُ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ الملائكةَ أصحابَ النارِ في قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] ثم لا يكونُ لهمْ خوفٌ ولا حُزنٌ؟ وهُمْ ممّا أُوعِدوا بها إذا خالَفوا أمْرَ اللهِ، وعَصَوهُ، بقولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩]. وهُمْ في الدنيا إذا اطَّلَعوا عليها، لا شَكَّ أنهمْ يخافونَ، ويَحزنونَ، ويَسوؤُهُم ذلكَ أشَدَّ الخَوفِ، ثم في الآخِرَةِ لا.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونوا يَرِدونَها، ويدخُلونَها، ولا يُخيفُهُمْ ذلكَ، ولا يُحزِنُهُمْ، ولا يَسوؤُهُمْ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي قَضاءً واجباتِهِمْ.

الآية ٧٢ [وقولُهُ تعالى:][3] ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الشِّرْكَ أوِ الفواحِشَ ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ على رُكَبِهِمْ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ كانَ هذا مِنَ الكَفَرَةِ؛ خَرَجَ جوابَ ما احْتَجَّ عليهِمْ أهلُ الإيمانِ بالآياتِ التي ذَكَروا حِجاجاً[4] عليهِمْ، فَيَقولونَ: إنكُمْ تقولونَ: إنَّ الدنيا والآخِرَةَ للهِ فقد وسَّعَ علينا الدنيا، وضَيَّقَ عليكُمْ، فَعَلى ذلكَ يوسِّعُ الآخِرَةَ علينا كما فَعَلَ في الدنيا؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يُواليَنا في الدنيا، ويُعادِيَنا في الآخِرَةِ. وعلى هذا قولُهُمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥] فَظَنّوا أنهُ لمّا وَسَّعَ عليهِمْ، وأحْسَنَ لهمُ النَّدى والمَجْلِسَ، كذلكَ يكونونَ في الآخِرَةِ، فأكْذَبَهُمُ اللهُ، وردَّ عليهِمْ ذلكَ، فقالَ:

الآية ٧٤ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أخبَرَهُمْ بما عَرَفوا هُمْ أنهمْ كانوا أهلَ السَّعَةِ والزِّينةِ، ثم أُهلِكوا بِتَكْذيبِهِمُ الرسلَ وعِصيانِهِمْ ربَّهُمْ.

فلو كانَ ما ذَكَرَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ لكانوا لا يَهلِكونَ، فَيَلْزَمُهُمْ بما ذَكَرَ أنَّ مَنْ وَسَّعَ عليهِ الدنيا، وضَيَّقَ عليهِ[5] الآخِرَةَ، إنما يكونُ بِحَقِّ المِحْنَةِ لا بِحَقِّ المَنْزِلَةِ والقَدْرِ. وأمّا الثَّوابُ والجَزاءُ فهو حَقُّ القَدْرِ والمَنْزِلَةِ والخِذْلانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَثَٰثًا﴾ قيلَ: المَتاعُ والمالُ ﴿وَرِءْيًا﴾ أي مَنْظَراً[6].

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) روى هذا الحديث ابن كثير في تفسيره عن عبد الرحمن بن زيد، انظر المختصر ج٢/ ٤٦٢. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حجاباً. (٥) في الأصل وم: على. (٦) في الأصل وم: منتظرا.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي خيراً وسَعَةً في الدنيا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ هو العذابُ والهلاكُ وَعَدَهُمْ رسولُ اللهِ في الدنيا ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ هذا يدلُّ أنَّ قولَهُمْ ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أرادوا الخَدَمَ والحَواشِيَ حينَ[1] قالَ ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] أي واجباً ﴿نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أي مَجْلِساً، والأَنْدِيَةُ[2] جَمْعٌ، والأثاثُ المَتاعُ ﴿وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤] مَنْظراً ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩] أي نُطيلُ عذابَهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿نَدِيًّا﴾ أي مَجْلِساً؛ يُقالُ لِلْمَجْلِسِ: نَدِيٌّ ونادٍ، ومنهُ قيلَ: دارُ النَّدْوَةِ التي كانَ المُشرِكونَ يَجْلِسونَ، ويَتَشاوَرون في رسولِ اللهِ، والأثاثُ المَتاعُ، والرِّئْيُ المَنْظَرُ والشارةُ[3] والهَيْئةُ، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي يَمُدُّ لهُ في ضلالَتِهِ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أي نَرِثُهُ المالَ والوَلَدَ الذي قالَ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] أي لا شيءَ مَعَهُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ جميعُ ما ذَكَرَ اللهُ ﷻ، مِنْ زيادةِ الهُدَى[4] وابْتِداءِ الهدايةِ [فهو إنما يزيدُ لهُ الهِدايةَ][5] ويَهْديهِ ابْتِداءً إذا كانَ مِنَ العَبْدِ رَغْبَةٌ في ذلكَ وبُغْيَةٌ وطَلَبٌ.

إذا كانَ مُهْتَدِياً يَزيدُ لهُ الثباتَ[6] على ما كانَ عليهِ في وقتِ رغْبَتِهِ وطَلَبِهِ منهُ. وإنْ[7] لم يكُنْ مُهْتَدياً يَهْدِهِ ابْتِداءً هدايةً في وقْتِ رغْبَتِهِ وقَبولِهِ. على هذا يُخَرَّجُ عندَنا ما ذُكِرَ بِحَقِّ الزيادةِ أو بِحَقِّ الابْتِداءِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ أي يُوَفِّقُهُمْ إذا اهْتَدَوا، وعَرَفوا وَحْدانِيَّةَ اللهِ بأنواعِ[8] الخَيراتِ والطاعاتِ.

وقالتِ المُعْتَزِلَةُ: [الهِدايَةُ الأُولَى][9] البَيانُ، وهي هدايَةٌ عامَّةٌ، والهِدايَةُ الثانيةُ هي شرحُ الصَّدْرِ لها والتوفيقُ، وهي هدايَةٌ خاصةٌ، تكونُ في وقْتٍ ثانٍ بحَقِّ الثوابِ.

فَعَلَى زَعْمِهِمْ يَجيءُ ألّا يَكْفُرَ أحدٌ بَعْدَ ما هداهُ اللهُ مَرَّةً أبداً؛ لأنهمْ يقولونَ: إذا [اهْتَدَى أحدٌ، وقَبِلَ][10] هدايَتَهُ مَرَّةً، يُوَفِّقُهُ، ويَشْرَحُ صَدْرَهُ في الوقتِ الثاني: ، فهو أبداً يكونُ على الهِدايَةِ والإيمانِ. فإذا وُجِدَ عن كثيرٍ مِمَّنِ اهْتَدَوا مَرَّةً الكُفْرَ مِنْ بَعْدُ دلَّ أنَّ تأويلَهُمْ فاسِدٌ، وأنَّ التأويلَ ما ذَكَرْنا نحنُ أنهُ يزيدُ لهمُ الهِدايَةَ وقْتَ رَغْبَتِهِمْ وطَلَبِهِمُ الهِدايَةَ، إنْ كانَ بِحَقِّ الزيادةِ أو بِحَقِّ الابْتِداءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الأمورَ الباقياتِ التي لها البَقاءُ، أي ما يَبْقَى لكمْ عندَ اللهِ خيرٌ ممّا يَبْطُلُ، لأنَّ اللهَ ﷻ وَصَفَ الحَقَّ والخَيرَ بالبَقاءِ والمُكْثِ، وَوَصَفَ الباطلَ بالذَّهابِ والتَّلاشي بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ الآية [الرعد: ١٧] وقولِهِ[11] في آيةٍ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤] [وقولِهِ في آيةٍ][12]: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٦] وقولِهِ[13] في آيةٍ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] أي ذاهباً.

فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ أي الأعمالُ التي لها البَقاءُ خيرٌ لكُمْ عندَ اللهِ ثواباً مِنَ التي[14] ليسَ لها البقاءُ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي ما أَبْقَى لكُمْ في الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ خيرٌ لكُمْ ممّا أعطَى لكمْ في الدنيا؛ لأنَّ هذا فانٍ، وذاكَ باقٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: والآية. (٣) في الأصل وم: والبشارة. (٤) في الأصل وم: الهداية. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: الشباب. (٧) في الأصل وم: أو إن. (٨) في الأصل وم: الأنواع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: اهتدوا وقبلوا. (١١) و(١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال. (١٤) في الأصل وم: الذي.

الآيتان ٧٧ و٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾][1] قالَ بعضُهُمْ: هذا القولُ قالَهُ العاصُ بنُ وائِلِ السَّهْمِيُّ لمّا حاجَّهُ أهلُ الإيمانِ في أمْرِ الآخِرَةِ أنها لهمْ دونَ الكَفَرَةِ، فقالَ لهمْ عندَ ذلكَ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ في الآخِرَةِ، إنْ كانَ ما تقولونَ أنْتُمْ حقّاً: إنما نُبْعَثُ، ونُحْيا، [﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾][2] كما أُوتِيتُ في هذهِ الدنيا.

وقالَ الحَسَنُ: قالَ هذا القولَ[3] الوليدُ بْنُ المُغيرَةِ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٦].

الآية ٧٩ وكانَ يَطْمَعُ أنْ يُزادَ[4] لهُ في الدنيا أبداً، فقالَ ﷻ: ﴿كَلَّآ﴾ ردّاً على ذلكَ.

وقالَ ههنا: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ إنهُ يكونُ لهُ في الآخِرَةِ؛ ذلكَ على التأويلِ الأوّلِ، أو في الدنيا في وقْتٍ آخَرَ: ذلكَ على تأويلِ الحَسَنِ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي لهُ بذلكَ عندَ اللهِ عهدٌ.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ[6] على ما ادَّعَوا ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي سَنَحْفَظُ ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾ أي نزيدُ لهُ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ في كلِّ يومٍ كقولِهِ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي نُعَذِّبُ [بلا انْقِطاعٍ][7] لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي نَرِثُهُ المالَ والوَلَدَ الذي قالَ: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ [مريم: ٧٧] أي للهِ ما يقولُ بأنهُ لهُ مِنَ المالِ وغيرِهِ، لا لَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ إنهُ يُعْطَى في الجنةِ ما يُعْطَى المؤمنونَ، فَنَرِثُهُ عنهُ، ونُعْطِيه غيرَهُ.

وجائزةٌ إضافةُ الوِراثَةِ إليهِ على إرادةِ أوليائِهِ، أي ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ ذلكَ أولياءَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ في الآخِرَةِ، ولا شيءَ مَعَهُ، ولا أهْلَ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ في وقْتٍ، لا شيءَ مَعَهُ، ولا أهلَ /٣٢٧ ـ ب/ ولا وَلَدَ على تأويلِ مَنْ يقولُ في قولِهِ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في العَهْدِ الذي ذَكَرَ أنَّ لهُ ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨] قالَ: بعضُهُمْ: شهادةُ أنْ لا إله إلّا اللهُ في الدنيا. وقالَ بعضُهُمْ: [تقديمُ العَمَلِ الصالحِ][8] وقالَ بعضُهُمْ: الصلاةُ، وهو قولُ مُقاتِلٍ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه [أنهُ][9] قالَ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [فإنَّ اللهَ يقولُ يومَ القِيامَةِ: مَنْ كانَ لهُ عندي عهدٌ][10] فَلْيَقُمْ، فقيلَ: كيفَ هو؟ قالَ [أنْ تقولَ:][11] اللهمَّ فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، إني أعْهَدُ إليكَ في هذهِ الحياةِ الدنيا أنكَ لا تَكِلُني إلى عَمَلٍ، يُقَرِّبُني مِنَ الشَّرِّ، ويُباعِدُني مِنَ الخيرِ، وإني لا أثِقُ إلّا بِرَحْمَتِكَ، فاجْعَلْهُ لي عندكَ عَهْداً، تُؤَدِّيهِ إليَّ يومَ القِيامةِ، إنكَ لا تُخْلِفُ الميعادَ. ويَرْفَعُ ابنُ مَسْعودٍ هذا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، والأوّلُ كأنهُ أشْبَهُ، إنْ ثَبَتَ الخَبَرُ.

الآيتان ٨١ و٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ فإنْ كانَ على حقيقةِ العِزِّ فهو في القادةِ منهمْ والمَتْبوعينَ الذين عَبَدوا تلكَ الأصنامَ لِيَتَعَزَّزوا بذلكَ، ولا يُذَلُّوا[12]، وتدومَ لهمُ الرئاسَةُ التي كانَتْ لهمْ في الدنيا. فَظَنُّوا أنهمْ إنْ آمَنوا تَذْهَبُ تلكَ الرئاسَةُ والمَأْكَلَةُ عنهمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي نَصْراً ومَنَعَةً. فإنْ كانَ هذا فهو في الرُّؤَساءِ منهمْ والأتباعِ في الدنيا والآخِرَةِ.

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: قول. (٤) في الأصل وم: أزيد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ردا. (٧) من م، في الأصل: بالانقطاع. (٨) في الأصل وم: قدم عملاً صالحاً. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يذلون.

أمّا ما طَمِعُوا بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ [فهو][١] النَّصرُ في الآخِرَةِ، وهو كقولِهِم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ[٢]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] طَمِعُوا بعبادتِهِمُ الأصنامَ النَّصرَ والشَّفاعَةَ في الآخِرَةِ.

وأمّا في الدنيا [فقد][٣] ظَنُّوا أنَّ آلِهَتَهُمُ التي [اتَّخذوها، وعَبَدوها، تَنْصُرُهُمْ][٤] في الدنيا حينَ[٥] قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] فكيفَ ما كانَ فقد رَدَّ اللهُ تعالى عليهِمْ ما طَمِعُوا: عِزّاً كانَ أو نَصراً.

يقولُ: ﴿كَلَّا﴾ لأنهمْ أَذَلُّوا [أنْفُسَهُمْ لِخَشَبٍ][٦] وحنَوا ظُهورَهُمْ لها. فكَفَى بذلكَ [ذُلّاً وصَغاراً].

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: سَيَكْفُرُ عُبّادُ الأصنامِ في الدنيا، ومَنْ عَبَدوها[٧] في الآخِرَةِ أنهمْ ما كَفَروا وما عَبَدوها كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ﴾[٨] ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. يُنكِرونَ في الآخِرَةِ أنْ يكونوا أشرَكوا فيهِ غَيرَهُ[٩]، أو عَبدوا دونَهُ.

وقالَ غيرُهُ مَنْ أهلِ التأويلِ: سَيَكْفُرُ المَعْبودونَ بالعابِدينَ، ويَتَبَرَّؤونَ منهمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وقولِهِ: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ضِدًّا﴾ أي عَوناً. وتأويلُ العَونِ هو أنْ تُلقَى الأصنامُ مَعَهُمْ في النارِ، فَيُحْرَقونَ فيها معهمْ، فَيزدادُ لهم عذاباً، وفكانَتْ [عوناً][١٠] على إحراقِهِمْ. فَعَلَى هذا يُخَرَّجُ.

وقولُ مَنْ[١١] يقولُ: الضِّدُّ البَلاءُ [هو أنْ][١٢] يكونوا بَلاءً عليهِمْ على ما ذَكَرْنا، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨] فإذا صاروا حَصَباً كانوا بَلاءً وعَوناً على إحراقِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي قُرَناءَ في النارِ؛ [يُخاصِمُ][١٣] بعضُهُمْ بَعْضاً، ويَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ويُكَذِّبُ[١٤] بعضُهُمْ بَعْضاً. فذلكَ كُلُّهُ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ما طَمِعوا منها لأنهمْ عَبَدوها في الدنيا رَجاءَ أنْ يكونوا لَهُمْ شُفَعاءَ في الآخِرَةِ ونُصَراءَ، فكانوا لهمْ على ضِدِّ ذلكَ أعداءً.

وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي حَسْرَةً، وكلُّهُ واحِدٌ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أي سَلَّطْنا عليهِمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي قَيَّضْناهُمْ لهمْ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] فهما في الحقيقةِ واحِدٌ؛ لأنهُ إذا أَرْسَلَهُمْ اتَّصلوا بهمْ [وإذا اتَّصلوا بهمْ][١٥] قُيِّضُوا، وقُرِنوا بعضُهُمْ ببعضٍ.

وقالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ الأَصَمُّ وغَيرُهما: ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي خَلَّينا بينَهُمْ وبَينَهُمْ، ولم نَمْنَعْهُمْ منهمْ مِمّا[١٦] ذَكَرَ.

لكنْ لو كانَ تأويلُ الإرسالِ التَّخلِيَةَ، وتأويلُ التَّقيِيضِ كذلكَ لم يَكُنْ لِتَخْصِيصِ الكُفّارِ بذلكَ مَعْنىً[١٧] إذ قد كانَ ذلكَ القَدْرُ مِنَ التَّخلِيَةِ بينَهُمْ وبينَ المُسْلِمينَ، إنْ كانَ تأويلُ التَّخلِيَةِ أنهُ لم يَمْنَعْهُمْ منهمْ [وأنهُ خَلَّى][١٨] بينَهُمْ.

فَدَلَّ [أنَّ][١٩] تَخْصِيصَ الكُفّارِ بهذا وأمثالِهِ ليسَ هو التَّخلِيَةَ [بلْ غَيرَها][٢٠] وأنَّ تَخْصِيصَ هؤلاءِ بهذا وأمثالِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] [وقولِهِ][٢١] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥، ...] ونَحْوِهِ، وأنَّ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: اتخذوا وعبدوها ينصرونهم، في م: عبدوها ينصرونهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: لأنفسهم الخشب. (٧) في م، عبدوه. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وغيره. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: ومن (١٢) في الأصل وم: أي. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، في الأصل: ويخاصم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: ما. (١٧) في الأصل وم: المعنى. (١٨) في الأصل وم: ولم يخل. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل وم: لا غير. (٢١) ساقطة من الأصل وم.

هنالك[١] مِنَ اللهِ مَعْنىً في الكُفّارِ، ليسَ ذلكَ في المؤمنينَ، وفي المؤمنينَ مَعْنىً ليسَ ذلكَ في الكافرين. وهو، واللهُ أعلَمُ: إذا عَلِمَ في المؤمنينَ الرغبَةَ والإجابَةَ وَفّقَهُمْ على ذلكَ، وهداهُمْ. وإذا عَلِمَ مِنَ الكُفّارِ خِلافَ ذلكَ وضِدَّهُ خَذَلَهُمْ، وأضَلَّهُمْ. فذلكَ تَخصيصُهُ إياهُمْ بما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: تُزْعِجُهُمْ إزعاجاً. وقالَ بعضُهُمْ: تَشُلُّهُمْ شَلّاً، وتُغريهمْ إغراءً. وقالَ الحَسَنُ: تُحَرِّكُهُمْ تَحريكاً. وقالَ بعضُهُمْ: تُقْدِمُهُمْ إقداماً إلى الشَّرِّ. وقالَ بعضُهُمْ: تَأمُرُهُمْ أمْراً. وقالَ بعضُهُمْ: تُوقِعُهُمْ إيقاعاً، ونَحْوَهُ، وكُلُّهُ واحدٌ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تُكافِئْهُمْ على أذاهُمْ إيّاكَ، ولا تُعاقِبْهُمْ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي أنفاسَهُمُ [التي][٢] يَتَنَفَّسونَ في الدنيا، فهي مَعْدودةٌ، تَنْقَضي آجالُهُمْ عن قريبٍ، فلا تُكافِئْهُمْ على ذلكَ وما يَسْتَقبِلونَكَ بالمَكْروهِ والسُّوءِ.

ثم وَجْهُ ما ذَكَرَ مِنْ إرسالِ الشياطينَ عليهِمْ والتَّمْكينِ لهمْ مِنَ الوَسْوَسَةِ في الصدورِ، أعني صدورَ المؤمنينَ، والنَّزْغِ في ردْعِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ يَمْلِكوا القَهْرَ والقَسْرَ على ذلكَ، وما جَعَلَهُمْ بِمَحَلٍّ، لا نَراهُمْ نحنُ، وهمْ يَرَوْنَنا، على ما أخْبَرَ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فهو، واللهُ أعلَمُ[٣] أنَّ مَنْ عَلِمَ بِحَضْرَتِهِ وقُرْبِهِ عَدُوًّا لهُ، يُراقِبُهُ، ويطلُبُ الفُرْصَةَ عليهِ، يكونُ أحْذَرَ وأهْيَبَ لهُ مِمَّنْ لا يَعْلَمُ ذلكَ ولا كانَ بِقُرْبِهِ وحَضْرَتِهِ عَدُوٌّ. وعلى ذلكَ ما جَعَلَ ﷻ مِنَ الحَفَظَةِ والكِرامِ الكاتِبينَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، على بَني آدَمَ رُقَباءَ عليهِمْ في قَليلِ ما يَفْعَلونَ، ويَتَفَوَّهونَ، وكَثيرِهِ[٤]، وإنْ كانَ قادراً على حِفْظِ ذلكَ عليهِمْ والتَّذْكيرِ لهمْ، واحداً بَعْدَ واحدٍ شَيئاً على إثْرِ شيءٍ. وذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ عليهِ رقيباً، يُراقِبُهُ، ويَكْتُبُ عليهِ كلَّ قليلٍ أوكَثيرٍ كانَ أحْذَرَ وأهْيَبَ مِمَّنْ لم يَعْلَمْ ذلكَ على نفسِهِ رقيباً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي الذينَ اتَّقَوا مُخالَفَةَ أمرِ اللهِ في كلِّ ما لا يَغْلِبُ عليهِمْ، لأنَّ المؤمِنَ لا يَرْتَكِبُ المَعْصِيَةَ إلّا لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ أو لِغَلَبَةِ رَجاءٍ إلى مَغْفِرَةِ ربِّهِ ونَحْوِها[٥] أو توبَةٍ يُضْمِرُها بَعْدَ[٦] ارْتِكابِها. على هذا يكونُ ارْتِكابُ المؤمِنِ مُخالَفَةَ ربِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ أي إلى[٧] ما وَعَدَ لهمُ الرحمنُ مِنَ الثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفْدًا﴾ الوَفْدُ في الشاهِدِ همْ أهلُ الكرامَةِ والمَنْزِلَةِ؛ يُبْعَثونَ لِأمورٍ. فَكَأنَّهُ ذَكَرَ أنَّ المُتَّقينَ يُحشَرونَ، وهمْ مُكَرَّمونَ مُعَظَّمونَ، ولهمْ مَنْزِلَةٌ عندَ اللهِ وقَدْرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ الواردُ هو طالِبُ الماءِ، والوِرْدُ الجَمْعُ. فكَأنَّهُ قالَ: ونَسوقُ المُجْرِمينَ إلى جَهَنَّمَ عِطاشاً طُلّابَ الماءِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ. والمُجْرِمُ: قالَ أبو بَكْرٍ الأَصَمُّ: هو الوَثّابُ في المَعْصِيَةِ. وأصْلُ الإجرامِ الاِكْتِسابُ، ولهذا[٨] قالَ بعضُ الناسِ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٢ و٨] أي يُكْسِبَنَّكُمْ. وأصْلُهُ هو/ ٣٢٨ ـ أ/ كَسْبُ الإثْمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فيهِ أنهمْ إنما يُساقونَ على كُرْهٍ منهمْ؛ إذْ ذُكِرَ في الكافِرينَ السَّوْقُ، وذُكِرَ في المؤمنينَ الجَمْعُ والحشْرُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ الشَّفاعَةُ إنما تكونُ في مَنِ اسْتَوجَبَ العذابَ والعُقوبَةَ. فأمّا مَنْ، لا عُقوبَةَ عليهِ، مَغْفورُ الذَّنْبِ، فإنهُ لا مَعْنىً لها [فيه][٩] فهو يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ: أنَّ صاحبَ الكبيرَةِ، لا يُغْفَرُ لهُ،

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: كان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وذلك. (٤) في الأصل وم: وكثيرهم. (٥) في الأصل وم: ونحوه. (٦) في الأصل وم: بقدر (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: إن. (٨) في الأصل وم: ولها. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وصاحبَ الصغيرةِ مَغفورٌ لهُ. فالشَّفاعةُ التي ذَكَرَ لا تَخلُو: إمّا أنْ تكونَ لأهلِ الكَبائرِ، فَيُغفَرَ لهمْ بالشَّفاعةِ، فَيَبْطُلَ قولُهُمْ، وإمّا[1] لأهلِ الصَّغائرِ فَلَهُ تَعذيبُهُمْ. فكيفَ ما كانَ فهو يَرُدُّ قولَهُمْ: إنهُ[2] لا مَعْنىً لِذِكرِ الشَّفاعةِ في المغفورينَ.

وقالوا: إنَّ الشَّفاعةَ في الشاهدِ أنْ تُذكَرَ مَحاسِنُ الإنسانِ عندَ آخَرَ لِيَعْرِفَ مَحاسِنَهُ ومَناقِبَهُ، لتكونَ لهُ مَنزلةٌ وقَدْرٌ عندَهُ. لكنْ مِثْلُ هذا يَجوزُ لِمَنْ[3] يَجهَلُ ذلكَ، ولا يَعْرِفُ محاسِنَهُ، فأمّا اللهُ ﷻ هو عالِمٌ بذاتِهِ، يَعْلَمُ حالَ كلِّ أحدٍ، فلا يَحْتَمِلُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: شهادةُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ. وقالَ بعضُهُمْ: العَمَلُ الصالحُ. وقالَ بعضُهُمْ: الصلاةُ على ما ذَكَرْنا.

وأصلُ العَهْدِ هو أنْ يُشْتَرَطَ عليهِ شَرْطُ الوفاءِ حتى بما شُرِطَ عليهِ، وهو الوفاءُ بما أُمِرَ بهِ، ونُهِيَ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في مُشرِكي العَرَبِ لأنهمْ همُ الذينَ قالوا: الملائكةُ بَناتُ اللهِ.

لكنَّ أهلَ التأويلِ قالوا أيضاً: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠] فهو في كلِّ مَنْ قالَ ذلكَ.

الآية ٨٩ وقولُهُ[4] تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ يُخَرَّجُ على الإضمارِ حينَ أخبَرَ عنهمْ أنهمْ قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾: أنْ قُلْ لهمْ يا محمدُ ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ أي عظيماً مُنكَراً. أو يكونُ[5] لمّا قالوا ذلكَ أقْبَلَ عليهِمْ، فقالَ لهمْ: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ عظيماً مُنكَراً، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩٠ و٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِثْلُ هذا إنما يُقالُ على المُبالَغةِ في العظيمِ مِنَ الأمورِ والنهايةِ مِنَ الضِّيقِ والشِّدّةِ على التَّمثيلِ. يقولُ الرجلُ لآخَرَ: أظلَمَتِ الدنيا عليهِ، وضاقتْ عليهِ الأرضُ بما رَحُبَتْ، ونَحْوَهُ على المُبالَغَةِ[6] في الضِّيقِ والشِّدّةِ.

فَعَلى ذلكَ هذا؛ ذَكَرَ على المُبالَغَةِ[7] والنهايةِ في العظيمِ مِنَ القولِ الذي قالوا [في اللهِ][8] سُبْحانَهُ، ثم جَعَلَ مِثْلَ ما قالوا في العظيمِ [في اللهِ][9] بما يَعْظُمُ مِنَ المحسوساتِ في العقولِ. وهو ما ذَكَرَ مِنِ انْفِطارِ السمواتِ وانشِقاقِ الأرضِ وهَدِّ الجبالِ، وهُنَّ أصلَبُ الأشياءِ وأشَدُّها لِيَعْرِفوا عِظَمَ ما قالوا فيهِ. وهكذا تُعْرَفُ الأمورُ الغائبةُ التي سَبيلُ مَعْرِفَتِها الاسْتِدْلالُ بالمَحْسوساتِ مِنَ الأشياءِ والمُشاهَداتِ منها.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ انْشِقاقِ الأرضِ وهَدِّ الجبالِ وانفطارِ السماءِ على حَقيقَةِ ما ذَكَرَ أنْ يكونَ فيها، و إنْ لم يُشاهَدْ ذلكَ منها، ولم يُحَسَّ، كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقالَ قائلونَ: ذَكَرَ هذا في أهلِ السمواتِ والأرضِ أنهمْ يكونونَ كما ذَكَرَ بما قالوا تَعظيماً لذلكَ وإنكاراً.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي ما يَنْبَغي لهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً.

الآية ٩٣ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ وفي الشاهِدِ لا أحَدَ يَتَّخِذُ الوَلَدَ مِنْ عَبيدِهِ. فكيفَ يَنْبَغي [لِمَنْ][11] لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، وكُلُّهمْ عَبيدُهُ، أن يَتَّخِذَ وَلَداً مِنْ عَبيدِهِ؟ أو ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وأسبابُ الأولادِ التي بها يُتَّخَذُ الوَلَدُ لَيْسَتْ فيهِ، لأنَّ في الشاهدِ إنما يُتَّخَذُ الوَلَدُ لِثلاثٍ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوْضِعٍ.

فإنْ كانَ اللهُ، سُبْحانَهُ، يَتعالَى عنْ ذلكَ كلِّهِ لم يَنْبَغِ لهُ أنْ يَتَّخِذَ الوَلَدَ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: إذ. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: ثم قوله. (٥) في الأصل وم: أن يكونوا. (٦) في الأصل وم: الإبلاغ. (٧) في الأصل وم: لله. (٨) في الأصل وم: لله. (٩) في الأصل وم: لله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في م: له. ساقطة من الأصل.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿إِلَّا ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ في الآخِرَةِ. أي كُلُّهُمْ يُقِرُّونَ بالعُبودَةِ لهُ يومَئِذٍ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ مِنْ عَدِّ أنْفُسِهِمْ وإحصائِهِ، ألّا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، أو أنْ يكونَ على الوعيدِ، أنْ يُحْصِيَ أقوالَهُمْ وأفعالَهُمْ بما سَلَّطَ عليهِمْ مِنَ الملائكةِ ما يُراقِبونَ ذلكَ منهمْ كقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وقولِهِ[1]: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الضِّدُّ الخَصْمُ، والإدُّ السَّوقُ الشديدُ، وقولُهُ: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ أي شديداً، والوِرْدُ أي يُورِدُهُمْ إيّاها، أي يُدْخِلُهُمْ. وقالَ: الوِرْدُ النَّصيبُ مِنَ الماءِ، وقولُهُ: ﴿هَدًّا﴾ أي صوتاً يَهُدُّ، أي يَهْدِمُ.

الآية ٩٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي واحداً، ليس مَعَهُ مِنْ دُنْياهُ شيءٌ][2].

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً:

أحَدُها: خاطبَ أهلَ مكةَ: إنكمْ إذا آمَنْتُمْ، وعَمِلْتُمُ الأعمالَ الصالحاتِ، يَرْفَعُ ما بَيْنَكُمْ مِنَ التَّباغُضِ والتَّعادي، فَيُبَدِّلُ مَكانَهُ المَحَبَّةَ والمَوَدَّةَ كقولِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أخبَرَ أنهمْ صاروا بالإيمانِ إخواناً مُؤَلَّفَةً قلوبُهُمْ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلِهِ.

والثاني: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ في الجنةِ، أي يَنْزِعُ ما في قلوبِهِمْ مِنْ غِلٍّ وغِشٍّ كقولِهِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

والثالثُ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ في قلوبِ الأنبياءِ والأخيارِ وأصحابِ الدينِ لأنهمْ إنما يَنْظُرونَ إلى الإنسانِ لدينِهِ ولِخُلوصِ عَمَلِهِ للهِ وصَفائِهِ لهُ لا إلى الدنيا وما تَحْويهِ يَدُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على ما رَوَتِ[3] الأخبارُ، إنْ ثَبَتَتْ: رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، [أنهُ][4] قالَ: «إذا أحَبَّ اللهُ عَبْداً نادَى: أحْبَبْتُ فُلاناً، فأحِبّوهُ» [البخاري ٣٢٠٩] وكذلكَ هذا في البُغْضِ.

وقالَ كَعْبٌ: وَجَدْتُ في التوراةِ أنهُ لم تَكُنْ مَحَبَّةٌ لأحدٍ مِنْ أهلِ الأرضِ حتى يكونَ بَدْؤُها مِنَ اللهِ تعالى؛ يُنْزِلُها على أهلِ السماءِ ثم على أهلِ الأرضِ، وكذلكَ في البُغْضِ. ثم قالَ: وكذلكَ وَجَدْتُ في القرآنِ، فَقَرَأَ هذهِ الآيةَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ يُحِبُّهُمْ، ويُحَبِّبُهُمْ إلى المؤمنينَ، في صدورِهِمْ.

فَعَلى هذا، إنْ ثَبَتَتْ، يَجِبُ أنْ يَخافَ المَرْءُ على نفسِهِ إذا رَأَى الناسَ [لا يُحِبّونَهُ][5] أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ سوءِ عَمَلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: [يَسَّرْنا لَهُ][6] تبليغَ الرِّسالَةِ على لِسانِهِ حتى بَلَّغَها إلى الفَراعِنَةِ منهمْ والأكابِرِ الذينَ كانوا يَقْتُلونَ مَنْ يُخالِفُهُمْ، ويَسْتَقْبِلُهُمْ بغيرِ الذي هُمْ عليهِ قَوْلاً وفِعْلاً، ويُعاقِبونَهُ[7] على ذلكَ. يَسَّرَ ذلكَ عليهِ حتى بَلَّغَها إلى أمثالِ هؤلاءِ، وقَدَرَ على ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ قَدَروا على إهلاكِهِ حينَ[8] أخبَرَ أنهُ عَصَمَهُ منهُمْ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقالَ بَعْضُهُمْ: يَسَّرَهُ على لِسانِهِ حتى قَدَرَ على التَّكَلُّمِ بِهِ والنُّطْقِ لأنهُ كلامُ رَبِّ العالَمينَ.

قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: هذا لا يُحْتَمَلُ لأنهُ أنْزَلَهُ بِلِسانِهِ ولِسانِ العَرَبِ: فلا يُحْتَمَلُ ألّا يَقْدِروا على التَّكَلُّمِ بِلِسانِهِمْ.

وقالَ قائلونَ: يَسَّرَهُ على لِسانِهِ حينَ[9] جَعَلَهُ بِحَيْثُ يَحْفَظونَهُ، ويَقْرَؤونَهُ عن ظَهْرِ قُلوبِهِمْ، ليسَ كسائِرِ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ التي[10] كانوا لا يَقْدِرونَ على حِفْظِها وقِراءَتِها[11] عَنْ ظَهْرِ القَلْبِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: رويت. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: يسرناه. (٧) في الأصل وم: ويعاقبون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: أنهم.
(١١) في الأصل وم: والقراءة.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ كقولِهِ(١) في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّمَا/ ٣٢٨ ـ ب/ تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] وقولِهِ(٢) في آيةٍ أُخرَى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢] [وقولِهِ في آيةٍ أخرَى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]](٣) مَرَّةً ذَكَرَ النِّذارَةَ للناسِ جَميعاً، ومَرَّةً لِلَّذينَ ظَلَموا خاصَّةً، ومَرَّةً لِلَّذينَ اتَّبَعوا الذِّكْرَ.

والأصلُ في النِّذارَةِ [والبِشارَةِ](٤) أنَّ البِشارَةَ إذا كانَتْ خاصَّةً لِأَحَدٍ فهي لهُ على شَرْطِ [الدَّوامِ على ذلكَ أبداً، وفيها](٥) النِّذارَةُ لهُ، إنْ لم يَدُمْ. وكذلكَ النِّذارَةُ الخاصَّةُ لِأَحَدٍ لِدَوامِ ذلكَ(٦) مُلْتَزِماً. فإنْ تابَ، ورَجَعَ عَنْ ذلكَ، فَلَهُ فيها البِشارَةُ.

على هذا تكونُ البِشارَةُ الخاصَّةُ، والنِّذارَةُ الخاصَّةُ تكونُ في كلِّ واحدةٍ منهما أُخرَى.

وأمّا البِشارَةُ المُطْلَقَةُ فهي بِشارَةٌ لا تكونُ فيها النِّذارَةُ، وكذلكَ النِّذارَةُ المُطْلَقَةُ لا تكونُ فيها البِشارَةُ. على هذهِ الأقسامِ تُخَرَّجُ البِشارَةُ والنِّذارَةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ يُخَوِّفُ بهِ أهلَ مَكَّةَ بإهلاكِهِ القرونَ الماضِيَةَ في الدنيا بتَكْذيبِهِمُ الرسلَ لئلّا يُكَذِّبوا محمداً كما كَذَّبَ أولئكَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَيَنْزِلَ بهِمُ العذابُ والهلاكُ كما نَزَلَ بأولئكَ.

يَقولُ لِنَبِيِّهِ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل تَرَى؟ وتُبْصِرُ منهمْ أحداً؟ أي لا تَرَى، ولا تُبْصِرُ منهمْ أحداً ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ قيلَ: صوتاً، وقيلَ: ذِكْراً، أي لا يُذْكَرونَ بَعْدَ هلاكِهِمْ إلّا بِسوءٍ.

يُحَذِّرُ أهلَ مكة لئلّا يُكَذِّبوا رسولَهُمْ كما كَذَّبَ [الذينَ](٧) مِنْ قَبْلِهِمُ الرسلَ، فيكونوا(٨) كما كانَ أولئكَ، ويَصيروا(٩) مِثْلَهُمْ.

قالَ القُتَبِيُّ: اللُّدُّ جَمْعُ أَلَدّ، وهو الخَصْمُ الجَدِلُ، والرِّكْزُ الصوتُ الذي لا يُفْهَمُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الأَلَدُّ، هو شديدُ الخُصومَةِ. ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ هل تراهُ ﴿رِكْزًۢا﴾ أي ذِكْراً. والرِّكْزُ أيضاً الصوتُ، وقالَ ﴿هَدًّا﴾ صَوتاً إذا انْهَدَمَتْ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: ولِلْعَرَبِ في البُشْرَى ثلاثُ لُغاتٍ: بَشَرَ بِهِ بالتَّخْفيفِ، فأنا أَبْشُرُهُ. وبَشَّرْتُهُ بالتَّشديدِ، فأنا مُبَشِّرُهُ. وأَبْشَرْتُهُ، فأنا مُبْشِرُهُ، والرجُلُ مَبْشورٌ، ومُبَشَّرٌ، ومُبْشَرٌ.

وقولُهُ: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي وَحْدَهُ، ليسَ مَعَهُ مِنْ دُنْياهُ شيءٌ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ قالَ صُمّاً صُمَّ آذانِ القلوبِ.

وقالَ بعضُهُمْ: فُجّاراً. وقيلَ: عُوجاً عِنِ الحَقِّ. وأصْلُهُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: بذلك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فيكونون. (٩) في الأصل وم: وصاروا.

سورة طـه

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُه[1] تعالى: ﴿طه﴾ قالَ [بعضُ أهلِ][2] التأويلِ قولُهُ ﴿طه﴾ يا رجلُ بالنَّبَطيَّةِ، وقال بعضُهُمْ: بالسُّرْيانيَّةِ، وقيلَ: يا فُلانُ، وقيلَ: هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ الله، وقيلَ: حرفانِ[3] مِنْ أسمائِهِ، ونَحْوُ ذلكَ قد ذَكَرْنا القولَ في الحروفِ المُقَطَّعَةِ في ما تَقَدَّم في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا نَزَلَ على الابْتِداءِ مِنْ غَيرِ سَبَبٍ ولا أمرٍ، لكنهُ[4] لم يُبَيِّنِ السَّبَبَ [الذي][5] بِهِ نَزَلَ هذا، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سَبَبُهُ وجوهاً:

أحَدُها: ما حَمَّلَ نفسَهُ مِنَ الشدائدِ والمُؤَنِ العِظامِ، وأجْهَدَ نفسَهُ في ذلكَ. فَنَزَلَ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي لِتَتْعَبَ بِهِ نَفْسُكَ كقولِهِ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] أي تَتْعَبَ. الا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾؟ [طه: ١١٨].

والثاني: أنهُ لمّا كَفَّ نفسَهُ عنِ الشَّهَواتِ، ومَنَعَها عن جَميعِ ما تَهواهُ مِنَ اللَّذّاتِ، فقالَ أُولئكَ الكَفَرَةُ: إنهُ شَقِيٌّ [حينَ رَأَوْهُ لم][6] يُعْطِ نفسَهُ شيئاً مِنْ شَهَواتِها ولَذّاتِها.

والثالثُ: أنهم قالوا ذلكَ لمّا رَأَوْهُ أنهُ دعا الفراعِنَةَ والجبابِرَةَ إلى دينِهِ واتِّباعِهِ، وأظْهَرَ لهمُ الخِلافَ، واسْتَقْبَلَهُمْ بما يَكْرَهونَ. وكانَتْ عادَتُهُمْ قَتْلَ[7] وإهلاكَ مَنْ يُظْهِرُ لهمُ الخِلافَ، فخاطَرَ بذلكَ. قالوا: إنهُ شَقِيٌّ حينَ[8] يُخاطِرُ بنفسِهِ. فقالَ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ على ما يَقولُ أولئكَ، بل أنْزَلْهُ عليكَ لِتَسْعَدَ حينَ[9] أخْبَرَ أنهُ عَصَمَهُ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

أو ألّا يُفَسَّرَ، ولا يُذْكَرَ ذلكَ الأمرُ والسَّبَبُ الذي بهِ نَزَلَ لأنهُ لم يُبَيِّنْ. ولا حاجَةَ بنا [إلّا][10] إلى مَعْرِفَةِ ما ذُكِرَ، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي ما أنْزَلْناهُ لِتَسْعَدَ، وأنزلْناهُ لِتُذَكِّرَ بهِ مَن يَخْشى كقولِهِ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي عِظَةً لِمَنْ يَتَّقي ما بِهِ يُخْشى. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ كلَّ مؤمنٍ لأنَّ[11] كلَّ مؤمنٍ يَعْتَقِدُ في أصلِ إيمانِهِ الخَشْيَةَ منهُ والاتِّقاءَ مِنْ نَقْمَتِهِ وعَذابِهِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ كانَ هذا نَزَلَ على إثْرِ قولٍ قالَهُ أولئكَ الكَفَرَةُ، وهو ما قالوا: إنهُ ساحِرٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، وإنهُ شاعرٌ، وإنهُ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ونَحْوَهُ. فقالَ جواباً لِقولِهِمْ: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ ليسَ كما يقولُ أولئكَ: إنهُ ساحرٌ[12]، وإنهُ مُفْتَرٍ، وإنهُ[13] ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ بل ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ واللهُ أعلمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، القَولُ بالكونِ على العَرْشِ، وهو مَوضِعٌ بمَعْنى كونِهِ بذاتِهِ أو في كلِّ الأمْكِنَةِ، لا يَعْدو مِنْ إحاطَةِ ذلكَ بهِ، أوِ الاسْتِواءِ أو مُجاوَزَتِهِ عنهُ أو إحاطَتِهِ.

---

(١) من م، في الأصل: وقوله. (٢) في الأصل وم: بعضهم من. (٣) في الأصل وم: حروف. (٤) من م، في الأصل: لمن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: حيث رآه، في م: حين رآه لم. (٧) في الأصل وم: القتل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لأنه. (١٢) في الأصل وم: سحر. (١٣) في الأصل وم: و.

فإنْ كانَ [على الوجهِ][١] الأوّلِ: فهو إذنْ مَحدودٌ مُحاطٌ بهِ مَنقوصٌ عنِ الخَلْقِ، إذْ هو دونَهُ. ولو جازَ الوصفُ لهُ بذاتِهِ بما تُحيطُ بهِ الأمكنةُ [لَجازَ بما][٢] تُحيطُ بهِ الأوقاتُ، فيَصيرُ مُتَناهياً بذاتِهِ مُقصَّراً عَنْ خَلْقِهِ.

وإنْ كانَ على الوَجْهِ الثاني: فلو زيدَ في الخَلْقِ لا يَنْقُصُ أيضاً، وفيهِ ما في الأوّلِ.

ولو كانَ على الوَجْهِ الثالثِ فهو الأمْرُ المَكروهُ الدالُّ على الحاجةِ وعلى التَّقصيرِ مِنْ أنْ يُنْشِئَ مالا يَفْضُلُ عنهُ مع ما يُذَمُّ ذا مِنْ فِعْلِ الملوكِ، أو يَفْضُلُ عنهمْ مِنَ المَقاعِدِ شيئاً. /٣٢٩ ـ أ/

وبَعْدُ فإنَّ في ذلك تَجْزِئةً بما كانَ بعضُهُ في ذي إبعاضٍ، وبَعْضُهُ يَفْضُلُ عنْ ذلكَ. وذلكَ كُلُّهُ مِنْ وصفِ الخَلائِقِ، واللهُ يَتعالَى عنْ ذلكَ.

وبَعْدُ فإنهُ ليس في الإرْتِفاعِ إلى ما يَعْلو مِنَ المكانِ للجلوسِ شَرَفٌ ولا عُلُوٌّ ولا وصفٌ بالعظمةِ والكبرياءِ كَمَنْ يَعْلو السطوحَ أوِ الجبالَ أنهُ لا يَسْتَحِقُّ الرِّفْعَةَ على مَنْ دونَهُ عندَ استواءِ الجَوهرِ، فلا يجوزُ صَرْفُ تأويلِ الآيةِ إليهِ. بل فيها ذِكْرُ العَظَمَةِ والجَلالِ، إذ ذَكَرَ في قولِهِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وَصْفَهُ بالعَظَمَةِ والسلطانِ والقُدْرَةِ. فكذلكَ على تَعظيمِ العَرْشِ أيُّ شيءٍ كانَ مَنْ نورٍ أو جوهرٍ، لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الخَلْقِ.

وإضافَةُ الاستواءِ إليهِ لِوجْهَينِ:

أحَدُهُما: على تَعْظيمِهِ بما ذَكَرَ على إثْرِهِ، ذَكَرَ سُلْطانَهُ في ربوبيَّتِهِ وقدرَتَهُ وخَلْقَهُ ما ذَكَرَ.

والثاني: على تَخصيصِهِ بالذِّكْرِ بما هو أعظَمُ الخَلْقِ وأجَلُّهُ على المعروفِ مِنْ إضافَةِ الأمورِ العظيمةِ إلى أعظَمِ الأشياءِ كما يُقالُ: تَمَّ لِفُلانٍ مُلْكُ بَلَدِ كذا، أو اسْتَوَى على مَوضِعِ كذا لا على خُصوصِ ذلكَ في الحَقِّ. ولكنْ مَعْلومٌ أنَّ مَنْ لهُ مُلْكُ ذلكَ فَما دونَهُ أحَقُّ بهِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ الآية [المائدة: ٣] بما صارَتْ لهُ أمُّ القرى، وأيِسَ الذينَ[٣] كَفَروا مِنْ دينِهِمْ. وكذا ما ذَكَرَ مِنْ إرسالِ الرُّسلِ إلى الفَراعِنَةِ وإلى أمِّ القُرى لا بتَخْصيصِ ذلكَ ولكن بِذِكْرِ عِظَمِ الأمْرِ.

فَمِثْلُهُ أمرُ العَرْشِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وقولِهِ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] على لُحوقِ غيرِهِمْ[٤] بهِمْ.

وَيحْتَمِلُ أنْ يكونَ على المَنْعِ بوصفِ المكانِ؛ إذ هو أعْلَى الأمْكِنَةِ عندَ الخَلْقِ، ولا تَقْدِرُ العقولُ شيئاً. فأشارَ إليهِ لِيُعْلَمَ عُلُوُّهُ عنِ الأمْكِنَةِ وتَعالِيَهُ عنِ الحاجةِ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ الآية [المجادلة: ٧].

والنَّجْوَى ليستْ مِنْ نَوعِ ما يُضافُ إلى الإسرارِ، فأخْبَرَ بِعُلُوِّهِ عنِ الأمكنةِ وتَعاليهِ عنْ أنْ يَخفى عليهِ شيءٌ، ثم بِقُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ بقولِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] أي بالسُّلْطانِ والقُوَّةِ، وبألوهِيَّتِهِ في البِقاعِ كلِّها لأنها أمْكِنَةُ القادةِ بقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ويَمْلِكُ كلَّ شيءٍ بقولِهِ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦] وبقولِهِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧ و. .] ثم بعُلُوِّهِ وجلالِهِ بقولِهِ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] [وقولِهِ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩ و. . .]][٥] وقولِهِ[٦]: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩و. . .] فَجَمَعَ في هذهِ الأحرفِ ما فَرَّقَ في تلكَ لِيُعْلَمَ أنهُ بكلِّ ما سُمِّيَ بهِ، ووُصِفَ، كانَ ذلكَ لهُ بذاتِهِ، لا بشيءٍ مِنْ خَلْقِهِ. وكذلكَ عِزُّهُ وشَرَفُهُ ومَجْدُهُ، جلَّ ثناؤهُ عنِ الأشياءِ، ولا إلهَ غيرُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: يريدُ بالعَرْشِ المُلْكَ؛ إذ هو اسْمُ ما ارْتَفَعَ مِنَ الأشياءِ، وعَلا، حتى سُمِّيَتْ بهِ السطوحُ ورؤوسُ الأشجارِ والاِسْتِواءُ قيلَ فيهِ بأوجهٍ ثلاثٍ[٧]:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بمجاز. (٣) من م في الأصل :الذي (٤) في الأصل وم: غير. (٥) في م: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في م: ثلاثة.

أحدُها: الإستيلاءُ كما يُقالُ: استوى فلانٌ على كُورةِ كذا بمَعْنَى استولَى.

والثاني: العُلُوُّ والارْتِفاعُ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وقولِهِ: ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣] أي عَلَوتُم.

والثالثُ: التَّمامُ كقولِهِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي تَمّ، واستَقرّ.

وقد قيلَ: بالقَصدِ؛ وإلى ذلكَ وجَّهَ بعضُ أهلِ الأدبِ قولَهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩و..] بمَعْنَى خَلَقَ على التَّمْثيلِ بِفِعْلِ الخَلْقِ في ما يَتْلو فِعْلُهُمْ فِعْلاً أن يكونَ بالقَصْدِ، وإنْ كانَ لا يُقالُ لهُ القَصْدُ، ولا قُوّةَ إلّا بالله.

ثم الوجهُ في ذلكَ لو كانَ [الاسْتواءُ بِمَعْنَى الاستيلاءِ والانفِرادِ بالملكِ][1] أنهُ مُستَولٍ على جَميعِ خَلْقِهِ، وعلى هذا التأويلِ المَحمولِ غَيرُ هذا لَدَلّ على الأمْرَينِ قولُهُ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] بِمَعْنَى المُلْكِ العظيمِ، وفيهِ إثباتُ عروشٍ غَيرِهِ. فذلكَ يَحْتَمِلُ، ما يُحْمَلُ، وتَحُفُّ بِهِ الملائكةُ، واللهُ الموفّقُ.

وأمّا على تأويلِ التَّمامِ والعُلُوِّ فهو أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الآية [فصلت: ٩] فأخبرَ بِخَلْقِ ما ذَكَرَ في سِتَّةِ أيامٍ على التَّفاريقِ، ثم أجمَلَها في مَوضعٍ، فقالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قولِهِ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٤] بِمَعْنَى خَلَقَ المُمْتَحَنَ مِنْ خَلْقِ الأرضِ والسمواتِ؛ فيهمْ ظَهَرَ تمامُ المُلْكِ، وعَلا، وارْتَفَعَ؛ إذ همُ المَقْصودونَ مِنْ خَلْقِ ما بَيَّنّا. فبذلكَ تَمَّ مَعْنَى المُلْكِ، وعَلا؛ إذ وَصَلَ إلى الذينَ لهمْ خُلِقوا.

وقد قيلَ ذا في خَلْقِ البَشَرِ خاصَّةً بقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآية [البقرة: ٢٩] وقولِهِ: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] ونَحْوِهِ.

وذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنَّ البَشَرَ خُلِقَ اليومَ السابعَ؛ فيهِ التَّمامُ والعُلُوُّ؛ إذْ خُلِقَ لهمْ كلُّ شيءٍ، وهُمْ لِعبادةِ اللهِ، ولَحِقَ بهمُ الجِنُّ بقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية [الذاريات: ٥٦] لكنَّ المَقْصودَ البَشَرُ؛ إذْ تَسْخيرُ ما [ذَكَرَ كُلُّهُ إنما][2] يرجِعُ إلى مَنافِعِهِمْ. واللهُ الموفّقُ.

والأصلُ عندَنا في ذلكَ أنَّ اللهَ عز وجل قالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فَنَفَى عن نَفسِهِ شِبْهَ خَلْقِهِ، وقد بَيَّنّا أنهُ في فِعْلِهِ وصِفَتِهِ مُتَعالٍ عنِ الأشباهِ، فَيَجِبُ القولُ [في قولِهِ][3] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] على ما جاءَ بِهِ التَّنْزيلُ، إذْ[4] يَنْفي عنهُ شِبْهَ الخَلْقِ لِما أضافَ إليهِ إذْ لَزِمَ القولُ في اللهِ بالتَّعالي عنِ الأشباهِ ذاتاً وفِعلاً، لم يَجُزْ أن يُفْهَمَ مِنَ الإضافةِ إليهِ المَفْهومُ مِنْ غَيرِهِ في الوجودِ، واللهُ الموفّقُ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضعٍ مِنَ القرآنِ.

الآية ٦ وفي قولِهِ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ الوَصْفُ لهُ بالسُّلْطانِ والقُدرةِ والمُلْكِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٧ وفي قولِهِ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ الوَصْفُ لهُ بالعِلْمِ في الغَيبِ والسِّرِّ والعَلانِيَةِ جميعاً لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ وخَوفٍ ويَقَظَةٍ في جميعِ أفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ وفي[5] الأوّلِ لِيَصْرِفوا طَمَعَهُمْ ورجاءَهُمْ مِنَ الخَلْقِ إلى خالِقِهِمْ، وألّا يُطْمَعَ، ولا يُرْجى غَيرُهُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما أسْرَرْتَ بِهِ إلى غَيرِكَ، ﴿وَأَخْفَى﴾ ما أضْمَرْتَهُ، وأخْفَيتَهُ في نَفْسِكَ، لم تُسِرَّهُ إلى أحدٍ. وقالَ[6] قائلونَ: ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما أسْرَرْتَ بِهِ، وحَدَّثْتَ نَفْسَكَ ﴿وَأَخْفَى﴾ ما عَلِمَ اللهُ أنهُ كائنٌ يكونُ، ولم يكُنْ بَعْدُ، ولم تَعْلَمْ بِهِ. وقالَ قائلونَ: ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما أسَرَّهُ في نَفْسِهِ ﴿وَأَخْفَى﴾ ما خَطَرَ في قَلْبِهِ، وهو لا يَضْبِطُهُ، ونَحْوَ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: على الاستيلاء والعزيز الملك. (٢) في الأصل وم: ذكرت اما. (٣) في الأصل وم: ب. (٤) في الأصل وم: و. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

واصلُهُ: أنّ[1] قولَهُ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [على الإضمار][2] كأنهُ يقولُ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ أو تُسِرَّ ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ واللهُ أعلمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: أي مَنْ[3] وَحَّدَ اللهَ بأسمائِهِ فَلَهُ الحُسنى، وهي الجنةُ. وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ظاهرُ هذا سُؤالٌ واستِفهامٌ، لكنَّ المُرادَ منهُ الإيجابُ. قالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ: قولُهُ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أي لم يأتِكَ حديثُ موسى، وسَيأتيكَ. ثم أخبَرَهُ، وأعلَمَهُ بِحَديثِهِ ونَبَئِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أي قد أتاكَ حديثُ موسى لِتُخبِرَهمْ عمّا في كُتُبِهِمْ لِيكونَ ذلكَ آيةً لِنُبُوَّتِكَ ورِسالتِكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ قيلَ رأيتُ ﴿نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ ليسَ في هذِه الآيةِ بَيانُ أنَّ موسى في أيِّ حالٍ كانَ، وفي أيِّ وقتٍ. لكنْ في مَوضِعٍ آخَرَ بيانُ ذلكَ، وهو ما قالَ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] هذا يدلُّ أنهُ كانَ في حالِ السَّيرِ والسَّفَرِ رأى /٣٢٩ ـ ب/ ذلكَ، وقالَ[4]: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وهذا[5] يدلُّ أنهُ كانَ في وَقتِ الشتاء لأنهُ قالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]. قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ القَبَسُ النارُ، والأقباسُ النيرانُ، ويُقالُ: قَبَسَ يَقبِسُ قَبساً، أي جاءَ بالنارِ، ويُقالُ: اقْبِسْني ناراً، واقْتَبَسْتُ أيضاً: تَعَلَّمْتُ، وهذا مِنْ ذاكَ، لأنَّ العِلْمَ ضوءٌ. ويُقالُ: اقْبَسْتُكَ عَلَّمْتُكَ، واقتَبَستُ النارَ أو العِلْمَ.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أبصرْتُ، ويكونُ في مَوضِعٍ آخَرَ: عَلِمْتُ كقولِهِ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي عَلِمْتُمْ منهُ رُشداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ هذا يُشبهُ أنْ يكونَ قدِ استَقبَلَتْهُ الطُّرُقُ، فلم يَعْلَمِ الطريقَ الذي لهُ مِنْ غيرِهِ، فقالَ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي مَنْ يَدُلُّني، ويُرْشِدُني على الطريقِ، [أو أنْ][6] كانَ قد ضَلَّ الطريقَ، وعَدَلَ عنهُ، فقالَ عند ذلكَ ما قالَ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ١١ و١٢ وقولُهُ تعالى ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي نِداءَ وَحيٍ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما أمَرَهُ أنْ يَخلَعَ نَعْلَيهِ لأنهما كانا مِنْ جِلْدِ مَيتةٍ. وقالَ قائلونَ: أمَرَهُ بِنَزعِ نَعْلَيهِ لِتَمَسَّ قَدَماهُ بَرَكةَ ذلكَ الوادي، أو يُصيبَهُ مِنْ يُمْنِهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: أمَرَهُ بذلكَ لِلتواضُعِ والخُضوعِ لهُ، لأنَّ لِبْسَ النَّعْلِ يُخَرِّجُ مُخرَجَ المباهاةِ. فأمَرَ بذلكَ لِيكونَ أخضَعَ لهُ وأكثَرَ تواضُعاً، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وليسَ لنا أنْ نُفَسِّرَ ذلكَ أنهُ لِماذا أمَرَهُ بذلكَ، إذْ لَهُ أنْ يأمُرَ بِخَلْعِ نَعْلَيهِ لا لِمَعْنًى، وليسَ لنا أنْ نقولَ: أمَرَهُ لِهذا، أو لَعَلَّهُ أمَرَهُ بذلكَ لِمَعْنًى آخَرَ، أو لا لِمَعْنًى، فَيَخْرُجُ ذلكَ مُخرَجَ الشهادةِ على اللهِ تعالى. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المُقَدَّسُ المُطَهَّرُ. وَلَعَلَّهُ سَمّاهُ مُطَهَّراً لِما لم يُعْبَدْ عليهِ سِواهُ ودونَهُ، أو سَمّاهُ مُطَهَّراً لِمَعْنًى خَصَّ بهِ لِفَضْلِ عِبادَةٍ أو غَيرِها على ما خَصَّ بِقاعاً بِفَضلِ عبادةٍ تقامُ فيها مِنْ نَحْوِ المَساجِدِ والحَرَمِ وغيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿طُوًى﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ وَطِئَ الأرضَ، أي وَطِئَ الواديَ المُباركَ حافياً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طُوًى﴾ قد قُدِّسَ مَرَّتَينِ. وهو قولُ الحَسَنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طُوًى﴾ يقولُ: يَطوي مَسيرَهُ. نَحْوَ هذا قد قالوا. لكنَّ الأصْوَبَ ألّا يُفَسَّرَ إلّا بَعْدَ حقيقةٍ [مَعْروفةٍ بهِ، لأنَّ أنباءَهُ][7] كانَتْ في كُتُبِهِمْ، ذُكِرَتْ لرسولِ اللهِ لِتكونَ لهُ [حُجَّةً ودلالةً][8] على رسالتِهِ عَليهِمْ؛ ففي التَّفسيرِ خوفُ دخولِ الغَلَطِ فيهِ والتَّغييرِ[9]. فإذا تَغَيَّرَ لَمْ يَصِرْ لهُ عليهِمْ حُجَّةٌ ودلالةٌ على رسالتِهِ. كذلكَ كانَ السُّكوتُ عنهُ أوْلى، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: في. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ان. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: في آية أخرى (٥) في الأصل وم: فهذا. (٦) في الأصل: والذي، في م: وان. (٧) في الأصل وم: به لأنه أنباه. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وتغيير.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ إمّا بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ، وإمّا بأشياء أُخرَى كقولِهِ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١] وقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرَى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ [مريم: ٥١] أخلَصَهُ الله لِنَفسِهِ بأشياءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ النِّداءَ الذي نُودِيَ كانَ نِداءَ وَحيٍ، وهو قولُهُ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾ [طه: ١١]

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ فهو ظاهرٌ. كذلكَ أَمَرَ رُسُلَهُ أوّلَ ما أمَرَهُمْ[2] بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ لِتكونَ ذاكراً لي، لأنَّ أكثَرَ ما يَذكُرُ المُؤمِنُ[3] ربَّهُ إنما يَذكُرُ في الصلاةِ، لأنَّ الصلاةَ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها: ذِكرٌ لِلَّهِ. لِذلكَ سُمِّيَتِ[4] الصلاةُ مُناجاةَ الربِّ.

ويَحتَمِلُ[5] أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي لِتَذكُرَني بها يا موسى. وقالَ قائلونَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إذ أنتَ نَسِيتَ إذا ذَكَرتَها. وعلى هذا رُوِيَتِ الأخبارُ عنْ رسولِ الله ﷺ أنهُ قالَ ذلكَ، وقرَأَ هذهِ الآيةَ، إنْ ثَبَتَتْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي أقِمِ الصلاةَ لِتَستَوجِبَ بها ذِكرِيْ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي لِتَذكُرَني فيها.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿أَكَادُ﴾ صِلَةٌ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ الساعةَ آتيةٌ أُخفيها. وفي حرفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: إنَّ الساعةَ آتيةٌ أكادُ أُخفيها مِنْ نَفْسي. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: مِنْ نَفسي وجهَينِ:

أحَدُهما: أُخفيها مِنْ خَلْقي، ولا يَجِبُ أنْ يُفهَمَ مِنْ نفسِهِ ذاتُهُ بالإضافةِ إليهِ كما لم يُفهَمْ مِنْ قولِهِ: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وقولِهِ:[6] ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]وهو أخفَى مِنَ الناسِ ذاتَهُ، ولكنْ فُهِمَ منهُ خَلْقُهُ. فعَلَى ذلكَ لا يُفهَمُ مِنْ قولِهِ: مِنْ نفسي ذاتُهُ. هذا يُحْتَمَلُ، والله أعلَمُ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ مِنْ نَفسي أي مِنْ أخيارِ عبادي، أي أُخفيها مِنْ أخيارِ عِبادي معَ عظيمِ قدرِهِمْ ومَنزِلَتِهِمْ عندي: مِنْ نَحوِ الملائكةِ والأنبياءِ والرسلِ. إنَّ مِنْ عادةِ ملوكِ الأرضِ أنهمْ لا يَكتُمونَ سرائِرَهُمْ مِنْ خَواصِّهِمْ، بل يُطْلِعونَهُمْ على ذلكَ. فأخبَرَ ﷻ، والله أعلَمُ، أنهُ أخفاها مِنْ خَواصِّ عِبادِهِ وأخيارِهِمْ. فكيفَ مِنْ دونِهِمْ؟ فتكونُ[7] إضافتُهُ إياهُمْ إلى نَفسِهِ لِعِظَمِ قَدْرِ أولئكَ وفَضْلِ مَنزِلَتِهِمْ كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧] والله لا يُنصَرُ، ولكنْ إنْ تَنصُروا دينَ الله يَنصُرْكُمْ، أو إنْ تَنصُروا أولياءَ اللهِ يَنصُرْكُمْ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] والله لا يُخادَعُ، ولكنْ يُخادِعونَ أولياءَ اللهِ، ونَحْوُهُ.

فعَلَى ذلكَ: قولُهُ: ﴿أُخۡفِيهَا﴾ مِنْ نفسي أي مِنْ خَواصّي وأخيارِ خَلْقي، واللهُ أعلَمُ.

هذا على إسقاطِ قولِهِ: ﴿أَكَادُ﴾ وجَعْلِهِ صِلَةً. وأمّا على إثباتِ ﴿أَكَادُ﴾ فهو على وجهَينِ:

أحَدُهُما: يُقالُ: كادَ أرادَ، أي أُريدُ [أنْ][8] أُخفيَها، وهو معروفٌ باللغةِ.

والثاني: كادَ؛ يُقالُ: قارَبَ، وهو سائغٌ في اللغةِ، جارٍ كادَ على إرادةِ مقارَبَةٍ [كقولِهِمْ][9]: كادَتِ الشمسُ أنْ تَطلُعَ، أو تَغْرُبَ، أي قارَبَتْ [وقولِ مَنْ قالَ:][10] كِدْتُ أنْ أسقُطَ، أي قارَبْتُ [وهو][11] لا يُريدُ السقوطَ. فإذا كانَ على هذا فهو قالَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، على التَّعظيمِ لها؛ أي قارَبَ أنْ يُخفيَها مِنْ نَفْسِهِ، فكيفَ مِنْ غَيرِهِ؟

وقالَ ابنُ عباسٍ قريباً مِنْ هذا: أي ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ مِنْ نفسي، فكيفَ أُعلِنُها لكمْ؟ أي لا أُظهِرُ عليها أبداً غيري، فكأنهُ استَجازَ الإخفاءَ في مَوضِعِ الإظهارِ [وهو سائغٌ جارٍ في اللغةِ][12] نَحْوُ ما قالوا في قولِهِ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: أمروا. (٣) في الأصل: المرور في م: المؤ. (٤) في الأصل وم: سمى. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل: فكيف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وإلا. (١٢) في الأصل وم: باللغة.

[يونس: ٥٤ و سبإ: ٣٣] أي أظهَروا. فعَلَى ما كانَ الإسرارُ في مَوضِعِ الإظهارِ والكتمانِ[1] رأَوُا الإخفاءَ مُسْتَعْمَلاً في الأمْرَينِ جميعاً. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿أُخْفِيهَا﴾ أي أُظهِرُها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي لِهذا أُخفِيها[2] ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ لأنها لو كانَتْ ظاهرةً يُعايِنُها كلُّ أحدٍ، ويَعْلَمُها لَما كانَ ذلكَ جَزاءً. ولكنْ كانَ دَفْعاً، لأنهُ يُعايِنُ كلُّ إنسانٍ ما[3] نَزَلَ بهذِهِ النفسِ بما سَعَتْ مِنَ العذابِ، فَيَمْتَنِعُ هو عنهُ. وإذا رأى كلُّ أحدٍ ثوابَ هذا بسَعْيِهِ يَرْغَبُ في مِثْلِهِ، فيكونُ ذلكَ كُلُّهُ بِحَقِّ الدَّفعِ لا بِحَقِّ الجَزاءِ. فأخبَرَ أنهُ أخفاها لِلْجَزاءِ والمِحْنَةِ، لا لِلدَّفعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي عنِ الإيمانِ بها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ يَعْني الساعةَ، واللهُ أعلَمُ.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ بأسبابٍ ألقاها إليكَ. وقد يمْتَنِعُ الإنسانُ عنِ الشيءِ بأسبابٍ تَعْتَرِضُ وشُبَهٍ تَسْتَقْبِلُ، وإنْ لم يَقْدِرْ على مَنْعِهِ بالتَّصْريحِ والإفصاحِ، واللهُ أعلَمُ؛ أي لا يَصُدَّنَّكَ عنِ الإيمانِ بها / ٣٣٠ ـ أ/ يعني الساعةَ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ في التَّكذيبِ بها بالشُّبَهِ والأسبابِ التي ذكَرْنا ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي فتَهْلَكَ لو صَدَّكَ عنها.

فالخِطابُ، وإنْ كانَ لرسولِ اللهِ فهو لكلِّ أحدٍ مِنَ المؤمنينَ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ في ما خاطَبَ رسولَهُ بهِ.

الآيتان ١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ الآيةَ. كانَ موسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، لم يَفْهَمْ مُرادَهُ بسؤالِهِ إيّاهُ أنهُ ما أرادَ بقولِهِ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أنهُ يَسْأَلُهُ عنِ اسْمِها، أو يَسْأَلُهُ عمّا لَهُ فيها. فأجابَ لِأمْرَينِ جميعاً عنِ اسْمِها وعمّا لَهُ فيها حينَ[4] قالَ: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ثم قالَ الحَسَنُ: إنهُ :كانَ يَعْلَمُ أنَّ في يَدِهِ عَصاً، لكنهُ أرادَ أنْ يقرِّرَ[5] عندَهُ أنها[6] عصاً لا حَيَّةٌ، لِيُرِيَ لهُ منها آيةً، فَيَعْلَمَ ذلكَ، أو إنهُ[7] يريدُ بذلكَ تَنْبيهَهُ وإيقاظَهُ لِيَعْلَمَ أنها[8] وَقْتَ ما أخذَها عصاً، فَيَعْلَمَ أنها صارَتْ كذا بالآيةِ التي جَعَلَها لهُ [لا][9] أنها كانَتْ يومَئذٍ كذلكَ حَيَّةً[10]، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٩ و٢٠ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [يَحْتَمِلُ جَعْلُها حَيَّةً تَسْعَى أنهُ][12] أرادَ الآيةَ لهُ منها لِما أنَّ قومَ فِرْعَونَ كانوا أهْلَ بَصَرٍ وحِذْقٍ في ذلكَ النوعِ مِنَ السِّحْرِ، فأحَبَّ أنْ يُرِيَهُمُ الآيةَ والعلامةَ مِنَ النوعِ الذي كانَ لهمْ فيهِ بَصَرٌ وحَذاقةٌ لِيَعْلَموا بِخُروجِها عنْ وسْعِهِمْ وطَوْقِهِمْ أنها آيةٌ وعَلامةٌ سَماوِيَّةٌ ورُبوبِيَّةٌ لا بَشَرِيَّةٌ؛ إذِ الأعلامُ التي جَعَلَها اللهُ آياتٍ وأعلاماً لِرُسُلِهِ على رِسالتِهِمْ إنما جَعَلَها خارِجَةً عنْ وُسْعِ البَشَرِ وطَوقِهِمْ لِيَعْلَموا بذلكَ أنها سَماوِيَّةٌ لا بَشَرِيَّةٌ [مِنْ سِحْرٍ أو كِهانةٍ][13] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ على ما كانَتْ في الحالةِ الأُولى عَصاً. كانَ موسى خافَ حينَ صارَتْ حَيَّةً، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [النمل: ١٠ والقصص: ٣١] فعِنْدَ ذلكَ قالَ لهُ: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وأخبَرَهُ أنهُ يُعيدُها عصاً على ما كانَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ دلالةُ أنَّ العَصا إنما تُمْسَكُ باليَدِ اليُمْنَى.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي تَهْلِكَ؛ يُقالُ: أرْداهُ أهْلَكَهُ، ويُقالُ: تَرَدَّى الرجلُ إذا وَقَعَ في البِئْرِ أو مِنْ فوقِ حائطٍ،

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: فعلى ذلك. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: لما. (٣) في الأصل وم: بما. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: يقرن. (٦) في الأصل وم: انه (٧) في الأصل وم : ان. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، في الأصل حيته. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ثم يحتمل جعلها حية تسعى ثم جعلها حية و. (١٣) في الأصل وم: سحراً ولا كهانة.

ويُقالُ: رَدَّيتُهُ، أي ألبستُهُ الرِّداءَ، وارْتَدَيتُ، أي لَبِستُ الرِّداءَ، وتَرَدَّيتُ مِثْلُهُ. وقولُهُ: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي أستعينُ بها على المَشْيِ. وقولُهُ: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي أضربُ الشجرةَ حتى يَنْتَثِرَ وَرَقُها [فتأكلَهُ غنمي](1) والهَشُّ الكريمُ، والبِشْرُ مِنَ البَشاشَةِ. وقالَ. والمآربُ الحوائجُ والإِرْبُ أيضاً الحاجةُ، والآرابُ جميعٌ، ويُقالُ: أرَبْتُ الشيءَ: قَسَمْتُهُ، وجَعَلْتُهُ إرَباً أقساماً(2) أي جَزَّيتُهُ أجزاءً. وفي قولِهِ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ دلالةٌ أنَّ الإنسانَ إذا استُخبِرَ عن شيءٍ فإنَّ عليهِ أنْ يُخبِرَ المُستخبِرَ عمّا يَستخبِرُ على الإجابةِ لهُ، وإنْ كانَ يَعلَمُ أنَّ المُستخبِرَ لهُ عنْ ذلكَ عالمٌ بذلكَ؛ لأنَّ موسى كانَ يَعلَمُ أنَّ ربَّهُ كانَ أعلَمَ بما في يَدِهِ منهُ، ولم يَقُلْ لهُ استخبَرَ عمّا في يَدِهِ ربِّ أنتَ أعلَمُ بها(3) مني. ولكنهُ قالَ: هي عَصايَ إجابةً لهُ وتعظيماً لأمرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢] وكانَ في هذا تفسيرُ الأوَّلِ.

وقولُهُ تعالى: وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي مِنْ غيرِ بَرَصٍ، كأنهمْ ذهبوا إلى أنَّ البَياضَ في الإنسانِ، إذا اشتَدَّ بهِ حتى يُخالِفَ سائرَ بَدَنِهِ، لا يكونُ إلا بالبَرَصِ. لِذلكَ قالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي مِنْ غَيرِ بَرَصٍ بكَ ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ سِوَى آيةِ العَصا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي مِنْ غَيرِ آفةٍ وعَيبٍ بكَ وأذىً، لأنَّ التَّغْيِيرَ إذا وَقَعَ في بَدَنِ الإنسانِ لا يكونُ إلّا بِعَيبٍ وآفةٍ تَحُلُّ به. وأخبَرَ أنَّ ذلكَ البَياضَ ليسَ لآفةٍ بكَ، ولا عَيبٍ في بَدَنِكَ، ولا فيهِ أذىً ولكنْ آيةٌ لِنُرِيَها منها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ قالَ قائلونَ: الآيةُ في اليَدِ أكبَرُ مِنَ العَصا، لأنَّ السَّحَرَةَ(4) أولئكَ كانوا أهلَ بَصَرٍ وعِلْمٍ في السِّحْرِ في العِصِيِّ؛ فَخُروجُ عَصا موسى عمّا احتَمَلَ وُسْعُهُمْ، وما بهِ فيهِ بَصَرٌ وعِلْمٌ يَدُلُّ على أنَّ ما أتى موسى ليسَ هو بِسِحْرٍ، ولكنْ آيةٌ مِنَ اللهِ؛ لأنَّ فَضْلَ بَصَرِ الرجلِ وعِلْمَهُ في شيءٍ إنما يَظْهَرُ بِمُجاوَزَتِهِ في ذلكَ [عنْ أهلِ البَصَرِ والعِلْمِ في ذلكَ العلمِ](5) لا يَظْهَرُ ذلكَ على أهلِ الجَهْلِ في ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ أمرُ عصا موسى.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ التي ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى وهو قولُهُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الآياتُ(6) الكُبرى هي التِّسْعُ التي ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ؛ إذ كانَ لِموسى آياتٌ سِوَى التِّسعِ، لكنَّ التِّسْعَ هي أكبَرُ، أو أنْ يكونَ ذلكَ لا على تَخصيصِ آيةٍ دونَ آيةٍ بالكِبَرِ والعِظَمِ، ولكنْ [على](7) وَصْفِ الكُلِّ بذلكَ كقولِهِ: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] وهو على وَصْفِ آياتِهِ كلِّها بالعِظَمِ والكِبَرِ، وهو كقولِهِ: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]هو على إثباتِ النَّفعِ في كلِّ واحدٍ [منهُمْ على ما في الآخَرِ](8) فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ الطُّغيانُ، هو المُجاوَزَةُ عنِ الحدودِ التي جُعِلَتْ. وكذلكَ كانَ فرعَونُ، قد تَعَدَّى، وجاوَزَ الحَدَّ في كُلِّ شيءٍ حتى ادَّعى لنفسِهِ الرُّبوبيَّةَ حينَ(9) قالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ إنَّ موسى سَأَلَ ربَّهُ أنْ يَشرَحَ لهُ صَدْرَهُ. [وَذَكَرَ لمحمدٍ أنهُ شَرَحَ لهُ صَدْرَهُ](10) بقولِهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١و ٢]ثم جائزٌ أنْ يكونَ شَرَحَ صدورَهُمْ لِتَسَعَ ما حَمَّلَ عليهِمْ مِنْ ثِقَلِ النُّبوَّةِ والرسالةِ، لِتَتَّسِعَ صدورُهُمْ لذلكَ، ويَقْدِروا على القيامِ بذلكَ والوَفاءِ بهِ، أو أنْ يكونَ سَأَلَهُ شَرْحَ صَدْرِهِ لِما كانَ الرسلُ يَغْضَبونَ للهِ عندَ [تكذيبِ قومِهِمْ إيّاهُمْ](11) حينَ يَدْعونَهُمْ(12) إلى دينِهِ، ويَحْزَنونَ على ذلكَ، فَيَمْنَعُهُمْ غَضَبُهُمْ وحُزنُهُمْ عنِ القيامِ بِتَبليغِ الرسالةِ كقولِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ الآية

---

(1) في الأصل: فتأكله غنمه. (2) في الأصل وم: اقسما. (3) في الأصل وم: به. (4) في الأصل: سحرة، ساقطة من م. (5) في الأصل وم: النوع وعلم. (6) أدرج في الأصل قبلها: في. (7) ساقطة من الأصل وم. (8) في الأصل: منها على ما في الآخرة في م: منها على ما في الآخر. (9) في الأصل وم: حيث. (10) من م ساقطة من الأصل وم. (11) في الاصل وم: تكذيبهم قومهم. (12) في الأصل وم: دعوهم.

[الشعراء: ١١ و١٢] أخبَرَ أنهُ يَخافُ عندَ تكذيبِ قومِهِ ضيقَ صَدْرِهِ وثِقَلَ لسانِهِ، فسألَهُ لذلكَ أن يَشْرَحَ لهُ صَدْرَهُ، ويُطْلِقَ لهُ لسانَهُ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ أي لَيِّنْ لي قلبي، لأنَّ الرسلَ[1] قد امْتُحِنوا في حالٍ واحدةٍ بِشَيئينِ مُتَضادَّينِ: بالغَضَبِ للهِ عند تكذيبِ قومِهِمْ إياهُمْ، والرأفةِ لهمْ والرَّحْمَةِ بما حَلَّ بهِمْ بالتَّكذيبِ مِنَ العذابِ. فهذانِ[2] أمرانِ مُتَضادّانِ خصَّ الرسلَ بها. فجائزٌ أنْ يكونَ سألَ ربَّهُ أنْ يَشْرَحَ لهُ صَدْرَهُ لِيَتَّسِعَ لِلأمْرَينِ جميعاً: الغَضَبِ لهُ والرحمةِ عليهِمْ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ يَحْتَمِلُ تَبْليغَ الرسالةِ إليهِمْ والقيامَ بها، أو سألَهُ التَّيسيرَ لِجميعِ ما أمَرَهُ بِهِ، ونَهاهُ عنهُ.

الآيتان ٢٧ و٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ أنهُ إذا اشْتَدَّ بِهِ الغَضَبُ يَكِلُّ[3] لِسانُهُ، ويَثْقُلُ حتى يَمْنَعَهُ عنِ النُّطْقِ بِهِ، فَيَظُنُّ / ٣٣٠ ـ ب/ ذلكَ اللعينُ أنهُ صارَ كذلكَ، أو أنْ يكونَ سألَ ذلكَ لآفةٍ كانَتْ بلسانِهِ، كانَتْ تَمْنَعُهُ عنِ التَّكَلُّمِ بِهِ. فسألَهُ أنْ يَحُلَّ تلكَ الآفةَ الرُّبُوبِيَّةَ[4] التي كانتْ بِهِ.

وأمّا قولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ أخَذَ بِلِحْيَةِ فِرْعَونَ، فَلَطَمَهُ، فأرادَ أنْ يُعاقِبَهُ، فقالَتْ لهُ امرَأتُهُ: إنهُ فَعَلَ ذلكَ لأنهُ لا يَعْقِلُ. فَأَتى بِطَشْتٍ مِنْ حُلِيٍّ، فَهَمَّ أنْ يَتَناوَلَ مِنَ الحُلِيِّ، فأهْوَى جِبْريلُ بِيَدِهِ إلى الجَمْرِ فَأَخَذَهُ، وجَعَلَهُ في فيهِ. فَتِلْكَ الرُّبُوبِيَّةُ[5] التي سألَهُ أنْ يَحُلَّها لِذلكَ. لكنّ ذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا بالوَحْيِ عنِ اللهِ أنهُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٩ و٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ سألَ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ أخاهُ مَعَهُ وزيراً لهُ، يُشاوِرُهُ، يَسْتَحْمِلُ عنهُ بَعْضَ ما حُمِّلَ عليهِ مِنَ الأثقالِ؛ إذْ قيلَ: الوزيرُ هو الذي يَتَحَمَّلُ عنِ المَلِكِ بَعْضَ ثِقَلِ ما حُمِّلَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ قالَ بعضُهُمْ: قُوَّتي ظَهْري، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ أي عَوني، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ. وقَرَأَ بعضُهُمْ: أَشْدُدْ[6] ﴿بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ على الخَبَرِ مِنْ موسى.

الآية ٣٢ وكذلكَ في قولِهِ: وأُشْرِكْهُ[7] ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ وأمّا قراءةُ عامّةِ القُرّاءِ فهي[8] على الدعاءِ والسُّؤالِ.

وقالَ أبو عَوْسَجَةَ: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ أي ظَهْري، ويقالُ: آزَرْتُهُ، فَصِرْتُ لهُ وزيراً. وأصلُ الوِزارةِ مِنَ الوِزْرِ، وهو الحِمْلُ؛ كأنَّ الوزيرَ يَحْتَمِلُ عنِ السلطانِ بَعْضَ الثِّقَلِ، ويَرْفَعُهُ عنهُ؛ موسى سألَ ربَّهُ أنْ يُعينهُ بأخيهِ، ويُقَوِّيَهُ بِهِ في ما حَمَّلَهُ، وأنْ يُشْرِكَهُ في ما قَلَّدَهُ مِنَ الرسالةِ والقيامِ بها. فأجابَهُ اللهُ لذلكَ حينَ[9] قالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا﴾ ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا﴾ بالجماعةِ لأنَّ الصلاةَ بالجماعةِ تتضاعَفُ على الصلاةِ وَحْدَهُ، أو أنْ يُعينَ بَعْضُنا [بعضاً][10] على التَّسبيحِ لكَ والذِّكْرِ ونَحْوِهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ أي إنكَ بِضَعْفِنا وعَجْزِنا في ما حَمَّلْتَنا، وقَلَّدْتَنا بَصيراً عالِماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي أُعْطيتَ ما سألْتَ. وكانَ سألَهُ أشياءَ، فأُوتِيَ. فقولُهُ ﴿سُؤۡلَكَ﴾ وسُؤالَكَ ومَسْألَتَكَ لغاتٌ[11] ثلاثٌ، كلُّها واحدٌ.

الآيات ٣٧ و٣٨ و٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾

---

(١) في الأصل وم: اللسان. (٢) في الأصل وم: فذلك. (٣) في الأصل وم: يحمل. (٤) في الأصل وم: الربوبية والرُّبَّوِيَّةُ مصدر صناعي ل: الرُّبَّى وهي العقدة المحكمة. (٥) في الأصل: البوبية انظر الحاشية السابقة. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٧٩. (٧) انظر معجم القراءات القرانيةج٤/ ٨٠. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٠.

الآية. يُشبهُ أنْ تكونَ المِنَّةُ حينَ أنجاهُ في ما ابْتُلِيَ بالبَرْدِ واشتِباهِ الطريقِ حينَ[1] قالَ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] فتِلْكَ المِنَّةُ الأخرى، أو أنْ تكونَ المِنَّةُ التي ذَكَرَ هي[2] ما أنجاهُ اللهُ [حينَ قَتَلَ][3] ذلكَ القِبْطِيَّ، فاشْتَدَّ لهُ ذلكَ الخوفُ حتى بَلَغَ الإياسَ. فتِلْكَ المِنَّةُ التي ذَكَرَ. أو ما ذَكَرَ مِنَ الوَحْيِ إلى أمِّهِ ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾.

وقالَ بعضُهُم: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ﴾ مع النُّبوَّةِ ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ ثم بَيَّنَ النِّعمةَ حينَ[4] قالَ: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. وإلى هذا ذَهَبَ أهلُ التأويلِ. وإلّا قَدْ كانَ منهُ إليهِ مِنَ المِنَنِ ما لا يُحصَى، واللهُ أعلَمُ.

ثم الكلامُ في ما أُلْهِمَ أُمُّهُ، وأُلْقِيَ في رَوعِها أنْ تَقذِفَهُ في البَحرِ أنهُ يَسَعُ لها[5] أنْ تَفعَلَ ذلكَ، ويَحِلُّ، أو لا، إذْ قدْ يجوزُ أنْ يكونَ مِنَ الشيطانِ مِثْلُ هذا نَحوُ ما ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨] فلم يَعرِفوا وقْتَ ما كَلَّمَهُمْ بهذا هو شيطانٌ أو غيرُهُ. فعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يُلقِيَ الشيطانُ إليها. فكَيفَ وَسِعَ لها أنْ تَعمَلَ ما عَمِلَتْ[6] مِنَ الأخطارِ؟ [لولا أنْ][7] يجوزُ أنْ يكونَ في ذلكَ الإلهامِ، وما أُلقِيَ إليها آيةٌ ومَعْنًى عَرَفَتْ بذلكَ أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ لا مِنْ أحدٍ سِواهُ، أو أنْ يكونَ اللهُ رَفَعَ الحجابَ والمَوانِعَ مِنْ قَلبِها،[8] وصارَ لها ذلكَ كالعِيانِ، أو صارتْ كالمُضطَرَّةِ إلى ذلكَ، فوَسِعَ لها ذلكَ لِما ذَكَرْنا. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أُلقِيَ عليهِ مَحَبَّةٌ في قَلْبِ امرأةِ فِرعَونَ حينَ[9] قالتْ: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ الآية [القصص: ٩] ولكنْ أُلقِيَ عليهِ مَحَبَّةٌ في قَلْبِ امرأتِهِ وقَلْبِ فِرعَونَ أيضاً حتى كانَ أشفَقَ الناسِ عليهِ وأحَبَّهُمْ بَعْدَ ما كانَ يَقتُلُ الوِلْدانَ بِسَبَبِهِ لِيَجِدَهُ، ويَظفَرَ بهِ؛ يُذَكِّرُهُ ﷺ رَحمتَهُ عليهِ ومِنَّتَهُ لهُ، وهي[10] المِنَّةُ التي ذَكَرَ حينَ[11] قالَ: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ والصُّنْعُ هو فِعْلُ الخَيرِ والمَعروفِ، أي لِتَصنَعَ إليكَ المَعروفَ والإحسانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ [﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾][12] على حِفْظِي؛ يُقالُ: عَينُ اللهِ عليكَ، أي كُنْ في حِفْظِ اللهِ، وهو قولُ الحَسَنِ وقَتادَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: لِتُرَبّى على عَيني، أي على عِلْمي والأوَّلُ أشبَهُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ أي مَنْ يَضُمُّهُ [ومنهُ][13] يُسَمَّى كافِلُ اليتيمِ الذي يَضُمُّهُ، ويَحفَظُهُ. وهو كقولِهِ: ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] أي يَضُمُّها، ويَحفَظُها. فذا يَدُلُّ أنهُ كانَ عندَهُمْ مِنْ أحَبِّ [الناسِ إليهِمْ][14] وأشفَقِهِمْ عليهِ [حينَ قالَتْ][15] ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ حينَ[16] قالَ لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: ٧] وَعَدَها[17] أن يَرُدَّهُ إليها، فرَدَّهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ أي يَذهَبَ حُزنُها الذي كانَ، لأنها كانتْ حزينةً بِطَرحِها إيّاهُ في اليَمِّ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ الآيةِ؟ [القصص: ١٠] هذا يدلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ أي يذهَبَ حُزنُها الذي كانَ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الغَمُّ الذي أخبَرَ أنهُ نَجّاهُ منهُ هو الخوفُ الذي كانَ بهِ بِقَتْلِ ذلكَ القِبْطِيِّ حينَ[18] قالَ: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤ و القصص: ٣٣] وقالَ[19]: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: ٢١] ونَحوُهُ. أو نَجّاهُ مِنْ أنواعِ الغُمومِ إذْ كانَ لهُ غُمومٌ.

---

(١) في الأصل وم: حتى. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ثم. (٥) في الأصل وم: لهذا. (٦) في الأصل وم: علمت. (٧) في الأصل وم: لكن. (٨) من م، في الأصل: قبلها. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وهو. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: لتعدى. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: إليه الناس. (١٥) في الأصل وم: حيث قال. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) في الأصل وم: وعدلها. (١٨) في الأصل وم: حيث. (١٩) في الأصل وم: وقوله.

وفي الآيةِ دَلالةٌ أنْ لا قِصاصَ يَجِبُ في شِبْهِ العَمْدِ، وإنْ كانَ الضَّرْبُ بشيءٍ لا نَجاةَ فيهِ، لأنَّ موسى ﷺ كانتْ لهُ قُوَّةُ أربعينَ نَفَراً على ما ذُكِرَ. فإنما لَطَمَهُ لَطْمَةً ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ثم قولُهُ[١]: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] هذا يدلُّ أنهُ كانَ لا يَحِلُّ لهُ قَتْلُهُ. ثم قولُهُ[٢]: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١] سَمّاهُمْ ظَلَمَةً. فلو كانَ يَحِلُّ القَتْلُ، ويَجِبُ القِصاصُ، لَكانَ لا يُسَمِّيهِمْ ظَلَمَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فُتُونًا﴾ هو جَمْعُ فِتْنَةٍ، أي فَتَنّاكَ فُتوناً، هو مَصْدَرُ الفِتْنَةِ، أيِ ابْتَلَيْناكَ ابتلاءً أي بَلاءً. والفِتْنَةُ في البلايا والشدائدِ والغُمومِ التي ذَكَرَ أنهُ نَجّاهُ منها. ويَحْتَمِلُ النِّعَمَ والخيراتِ، إذ لم يكُنِ الأنبياءُ في جميعِ الأوقاتِ في البَلاءِ. ولكنْ كانوا في وَقْتٍ في بَلاءٍ وشِدَّةٍ، وفي وَقْتٍ آخرَ في نِعْمَةٍ وخَيرٍ أو فِتْنَةٍ: بهما جميعاً على ما أخبرَ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ مِنَ المِنَّةِ التي ذَكَرَ حينَ[٣] قالَ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ. وقالَ بعضُهُمْ على مَوْعودٍ أو ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ وَقْتَ المَجيءِ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ أنَّ مَجيءَ العَبْدِ وذهابَهُ وجميعَ سَعْيِهِ يكونُ بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ وتَقْديرٍ منهُ. وفيهِ أنهُ يَجْعَلُ الأمورَ / ٣٣١ ـ أ/ بأسبابٍ، وإنْ كانَ يَجْعَلُ[٤] بِغَيرِ أسبابٍ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أيِ اخْتَرْتُكَ، واصْطَفَيْتُكَ لِرِسالَتي ونُبُوَّتي. فَذَكَرَ لِنفسِهِ لأنهُ يأمُرُهُ [أنْ][٥] يقومَ بأداءِ ذلكَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ هو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تَضْعُفا [في الدعاءِ][٦] إلى ديني وتوحيدي. وفي حَرْفِ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ: ولا تَهِنا[٧] في ذِكري: في البلاغِ إلى فِرْعَونَ ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أمَرَهُما ألّا يُقَصِّرا، ولا يَعْجَزا في تبليغِ الرسالةِ إليهِ والدُّعاءِ إلى دينِهِ حينَ[٨] قالَ: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٣و٤٤].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أي تُرَبّى بِعَيني. وسُئِلَ عنِ العَينِ، فقالَ: العَينُ العِلْمُ ههنا، والعَينُ في غَيرِ هذا المالُ. والعَينُ الأديمُ المُنْخَرِقُ. والعَينُ المَصْدَرُ مِنْ عانَ يَعينُ، فهو عايِنٌ، والمفعول بهِ مَعْيُونٌ إذا أصابَهُ بِعَينٍ. والعَينُ الحقيقةُ كقولِكَ: هذا بِعَينِهِ، أي بحقيقَتِهِ. قالَ: والعِينَةُ السَّلَفُ ومِثْلُهُ. وقولُهُ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧ و المؤمنون: ٢٧] [أي بِعِلْمِنا. وقولُهُ][٩] ﴿عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي يَضُمُّهُ، ويَضْمَنُهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ أي وَقْتَ المَجيءِ ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي أخْلَصْتُكَ لِنَفسي ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تُقَصِّرا، ولا تَعْجَزا. واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٤٣ و٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ لأنَّ القولَ اللَّيِّنَ يكونُ أقَرَّ وأثْبَتَ في القُلوبِ مِنَ القَولِ الخَشِنِ البارِدِ وخاصَّةً في المُلوكِ والرُّؤَساءِ؛ إذْ طِباعُهُمْ لا تَحْتَمِلُ ذلكَ، ولا يَنْجَعُ فيهِمْ، بل أكْثَرُ صَولَتِهِمْ على مَنْ دونَهُمْ إنما يكونُ عندَ استِقْبالِهِمْ بالخِلافِ وبما يَكْرَهونَ. فأمَرَ ﷻ رسولَيهِ[١٠] موسى وهارونَ. أنْ يقولا لهُ قولاً لَيِّناً، ويُلْطِفا معامَلَتَهُ، ليكونَ [ذلكَ][١١] أقْرَبَ وأثْبَتَ في قَلْبِهِ وأنْجَعَ. ولذلكَ قالَ: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ قالَ الحَسَنُ: كُلُّ لَعَلَّ [مِنَ اللهِ هو][١٢] على الإيجابِ، لأنهُ قد تذَكَّرَ، وخَشِيَ حينَ[١٣] قالَ: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٤] وحينَ[١٤] قالَ: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] لكنْ لم يَنْفَعْهُ إيمانُهُ في ذلكَ الوَقْتِ لأنهُ إيمانُ دَفْعٍ واضْطِرارٍ.

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ادرج قبلها في الأصل: ان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز١٠/ ٣٣. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: رسوله. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: هومن الله فهو. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: حيث.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ في عُلومِكُمْ. فإنْ كانَ على هذا فهو يَحْتَمِلُ الشَّكَّ. وإنْ كانَ على الأوَّلِ فهو على الإيجاب، لا يَحْتَمِلُ[1] الشَّكَّ.

ثم اخْتُلِفَ في القَولِ اللَّيِّنِ. قالَ ابْنُ عباسٍ: هو[2] قولُ اللهِ: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ و ١٩] فَتُوَحِّدَ. قالَ: هذا القولُ اللَّيِّنُ.

وعَنِ الحَسَنِ: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي قَولاً حَقّاً؛ قُولا لَهُ: إنَّ لكَ مَعاداً، إنَّ لكَ مَرْجِعاً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قولُ: لا إله إلّا الله. وقالَ بعضُهُمْ: أي لِياناً[3] ونَحْوَهُ. وأصلُهُ: ما ذَكَرْنا[4] بَدْياً.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أنْ يُعَجِّلَ[5] بالعُقوبةِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَسْمَعَ حُجَّتَنا ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ بِقَتْلِنا بعد ما يَسْمَعُ الحُجَّةَ منّا.

وجائزٌ أنْ يكونَ أحَدُ هذينِ في الفِعْلِ والآخَرُ في القَولِ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أيُّهما كانَ، لأنهُ قالَ في الجوابِ لهما:

الآية ٤٦ قولُهُ[6] تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي أسْمَعُ ما يقولُ لكما، وأرى ما يَفْعَلُ بكما.

فهذا يَدُلُّ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ قولَهُ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يَرجِعُ أحَدُهما إلى القَولِ والآخَرُ إلى الفِعْلِ لأنهُ قالَ في وقْتٍ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ يَحْتَمِلُ على نَفْيِ الخَوفِ والأمْنِ منهُ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] ليسَ على النَّهْيِ عنِ الحُزْنِ. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ في النَّصْرِ والمَعونَةِ لَكُمْ والذَّبِّ عنكُمْ والدَّفْعِ أسْمَعُ ما يَقولُ، وأرى ما يَفْعَلُ. وقد كانَتْ كُلُّ مِنَّةٍ إليهما النَّصْرَ والمَعونَةَ لهما والدَّفْعَ عنهُما.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ يُشْبِهُ أن يكونَ قولُهُ ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ هذا، أي لا تَضْعُفا في تَبْليغِ الرسالةِ. ولكن قولا ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أوَّلُ ما أتَياهُ قالا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بلْ قد سَبَقَ منهما الدعاءُ إلى توحيدِ اللهِ والإقرارِ لهُ بالألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ. فإذا تَرَكَ الإجابةَ فَعِنْدَ ذلكَ قالا لهُ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: كأنهُ كانَ يَمْنَعُ بني إسرائيلَ عنِ الإسلامِ، وهمْ أرادوا الإسلامَ، فقالا:[7] ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تَمْنَعُهُمْ عنِ الإسلامِ. وكانَ يَسْتَعْبِدُهُمْ [فأمَرَهُما أنْ يَسْتَنْقِذاهُمْ][8] مِنْ يَدَيهِ بقولِهِ:[9] ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وهي[10] ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ هذا يَدُلُّ أنهُ لا يُبْدَأُ بالسلامِ على أهلِ الكُفْرِ، ولكنْ بأهلِ الإسلامِ. وفيهِ أنَّ تَحِيَّةَ أهلِ الإسلامِ هو السلامُ لا قولُ الناسِ: أطالَ اللهُ بقاءَكَ، ونَحْوَهُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ والعذابُ ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ والسلامُ هو اسْمُ كلِّ خيرٍ وبِرٍّ.

---

(١) في الأصل وم: يحصل. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: لينا. (٤) من م في الأصل: ذكره. (٥) في الأصل وم: يجعل. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) في الأصل وم: فقال. (٨) في الأصل وم: فامره أن يستنقذهم. (٩) في الأصل وم: كقوله. (١٠) في الأصل وم: وهو.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يُعَجِّلَ، ويَتَقَدَّمَ؛ قالوا: الفَرْطُ التَّقَدُّمُ والسَّبْقُ. وفي الخَبَرِ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «أنا فَرَطُكُمْ على الحَوضِ» [مسلم: ٢٢٨٩] وهو مِنَ السَّبْقِ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يُعَجِّلَ؛ يُقالُ: فَرَطَ يَفْرُطُ فَرْطاً أي عَجِلَ. وقالَ: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تُقَصِّرا، ولا تَنِيا في البلاغ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أي اسْتَخْلَصْتُكَ لِنَفْسي [فإذا لم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ ﴿لِنَفْسِى﴾][(١)] ذاتُهُ كيفَ يُفْهَمُ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ما لم يُفْهَمْ مِنَ الخَلْقِ، ولا يُتَصَوَّرُ هذا وأمثالُهُ في وَهْمٍ إلا مَنِ اعْتَقَدَ التَّشْبيهَ، ولم يَعْرِفْ ربَّهُ. وإلّا لو عَرَفَ ربَّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لكانَ لا يَتَصَوَّرُ في وَهْمِهِ تَشبيهَ الخَلْقِ بِهِ ولا تَشبيهَهَ بِخَلْقِهِ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآيتان ٤٩ و٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ الآية [الشعراء: ٢٣و٢٤] [وقالَ في آيةٍ أُخرى][(٢)] ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٨]

سألَهُ عَنْ ماهِيَّتِهِ، فأجابَهُ موسى عَنْ آثارِ صُنْعِهِ في خَلْقِهِ، وأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ وربُّ ما ذَكَرَ. لم يُجِبْهُ عمّا سألَهُ مِنْ ماهِيَّتِهِ وكَيفيَّتِهِ حينَ[(٣)] ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ فجَوابُهُ عَنِ الماهِيَّةِ: ﴿رَبُّنَا﴾ فلانٌ وأنهُ كذا. ففيهِ دَلالَةُ أنَّ اللهَ، لا يُعْرَفُ مِنْ جِهَةِ الماهِيَّةِ والكَيفيَّةِ؛ إذْ لا ماهِيَّةَ لهُ، ولا كَيفيَّةَ، إذ هما أوصافُ الخَلْقِ؛ فاللهُ، سُبْحانَهُ، يَتَعالى عَنْ أنْ يوصَفَ بشيءٍ مِنْ صِفاتِ الخَلْقِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [صورتَهُ وهيئتَهُ. والثاني: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ جِنْسَهُ وشَكْلَهُ. والثالثُ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ مَعاشَهُ وقِوامَهُ. والرابعُ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ما يكونُ بَعْدَ الفَناءِ صورةَ ما قد كانَ][(٤)] لِيُعْلَمَ أنهُ قادرٌ على بَعْثِهِمْ على الصورةِ التي كانَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [هو مَبْنِيٌّ][(٥)] على قولِهِ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾.

فإنْ كانَ تأويلُ:[(٦)] ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ صورتَهُ وهيئتَهُ فقولُهُ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ للنَّجاةِ. وإنْ كانَ [تأويلُ][(٧)] ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جِنْسَهُ وشَكْلَهُ [فقولُهُ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾][(٨)] لِلنَّسْلِ. وإنْ كانَ تأويلُ:[(٩)] ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ما بِهِ معاشُهُمْ وقِوامُهُمْ [فقولُهُ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾][(١٠)] لِما يَتَعَيَّشُونَ بِهِ، ويَقومونَ بِهِ، وهَداهُمْ[(١١)] لِما يَصْلُحُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥١ و٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنما سألَ فِرْعَونُ موسى عنِ القُرونِ الأولى لأنهُ سَمِعَ مِنْ ذلكَ الرجلِ المؤمنِ حينَ قالَ: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠] ولم يكُنْ لِموسى بهِمْ عِلْمٌ، فَوَكَلَ عِلْمَهُمْ إلى اللهِ، ثم أنْزَلَ اللهُ عليهِ التوراةَ، فَبَيَّنَ لهُ فيها أمْرَهُمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: سألَ / ٣٣١ ـ ب/ فِرْعَونُ موسى ذلكَ لأنَّ موسى أخْبَرَ أنهُ يُبْعَثُ، وخَوَّفَهُ على ذلكَ. فعندَ ذلكَ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ لم يُبْعَثوا مُنذُ أُهْلِكوا، فقالَ لهُ ما قالَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أهُمْ في الجنةِ، أمْ في النارِ؟ فقالَ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنما سألَهُ عَنْ أعمالِهِمْ: فما أعمالُ القرونِ الأولى؟ فقالَ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي أعمالُهُمْ ﴿عِندَ رَبِّى﴾ [وقولُهُ تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ﴾ كقولِهِ][(١٢)]: ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩ و٢٠] وقولِهِ: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الكتابُ الذي كُتِبَتْ فيهِ أعمالُهُمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: في اللَّوحِ المحفوظِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: يكون صورة ما قد كان معاشه وقوامه.
(٥) في الأصل وم: فهو. (٦) في الأصل وم: التأويل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ثم هداه. (٩) في الأصل وم: قوله.
(١٠) في الأصل وم: ثم هداه. (١١) في الأصل وم: وهداه. (١٢) في الأصل وم: في.

[وقولُهُ تعالى][١]: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ هما واحدٌ [أي][٢] لا يَضِلُّ، ولا يَنْسى ذلكَ الكتابَ.

[وقُرِئَ][٣]: لَا يُضَلُّ[٤] مَنْ خَتَمَ بالهُدى، وقُرِئَ[٥]: لا يُضِلُّ ﴿رَبِّي﴾ [في][٦] ذلكَ الكتابِ الذي ذَكَرَ لأنهُ[٧] يَرْجِعُ إلى قولِهِ: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ هو على قولِهِ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] [وقولُهُ تعالى:][٨] ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي فِراشاً ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يَذْكُرُ نِعَمَهُ التي أنعَمَها عليهِمْ؛ يقولُ: جَعَلَ لكُمُ الأرضَ بحيثُ تفْتَرِشونَ، وتَتَعَيَّشونَ فيها، وتَقِرّونَ عليها، بَعْدَ ما كادَتْ تَميدُ بكُمْ ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طُرُقاً تَسْلُكونَ فيها، وتَخْتَلِفونَ إلى البلدانِ النائيةِ في حوائجِكُمْ وما بهِ مَعاشُكُمْ وقوامُكُمْ ما لولا ذلكَ ما قامَ مَعاشُكُمْ، ولا قُضِيَتْ حَوائِجُكُمْ.

[وقولُهُ تعالى][٩]: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي الماءِ ﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ما به مَعاشُكُمْ وقِوامُكُمْ وقِوامُ أنعامِكُمْ على اختلافِ ما جَعَلَ لِكُلِّ دابَّةٍ مِنْ ذلكَ قُوتاً وغِذاءً، لم يَجْعَلْ ذلكَ لِغَيرِها، لأنَّ مِنَ الدَّوابِّ ما يأكُلُ النباتَ، ومنها ما يأكُلُ اللَّحْمَ ونَحْوَهُ.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى:][١٠] ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ في ما بهِ قِوامُها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي لأُولي العُقولِ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ للذينَ يَتَناهَونَ عمّا نُهُوا عنهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَآيَاتٍ﴾ لِأُولي الوَرَعِ. وأُولو النُّهى، هـمْ أهلُ العقولِ، لأنهُ بالعقلِ يُنْهى، وبهِ يُؤْمَرُ. فذلكَ آياتٌ لهمْ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [لِأُولي العقولِ، وقالَ: النُّهْيَةُ العَقْلُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]][١١] أي ما حالُها؟ يُقالُ: أصلَحَ اللهُ بالَكَ أي حالَكَ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وجوهاً:

أحدُها: منها خلَقْنا أصْلَكُمْ، وهو خَلْقُ آدمَ. لكنهُ أضافَ خَلْقَنا إليهِ، وإنْ لمْ يَخلُقْنا منها كما أضافَ الإنسانَ إلى النُّطْفةِ، وإنْ لم يكنِ الإنسانُ منها، لكنهُ أضافَ إليها لأنها أصْلُ الإنسانِ. فَعَلى ذلكَ إضافةُ خَلْقِ أنفُسِنا إلى الأرضِ.

والثاني: نَسَبَنا إليها لأنّا مِنْ أوّلِ ما نَنْشأُ إلى آخِرِ ما نَنْتَهي إليهِ يكونُ قِوامُنا ومَعاشُنا مِنَ الخارجِ مِنَ الأرضِ. فَنَسَبَ خَلْقَنا إليهِ، وهو ما قالَ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] واللِّباسُ على هَيئةِ ما هو [لم][١٢] يَنْزِلْ مِنَ السماءِ. لكنهُ أضافَ إليهِ لأنهُ كانَ بأسبابٍ مِنَ السماءِ، وأصلُهُ[١٣] منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذُكِرَ أنَّ المَلَكَ يَنْطَلِقُ، فيأخذُ مِنْ ترابِ ذلكَ المكانِ الذي يُدْفَنُ فيهِ الإنسانُ، فَيَذُرُّهُ على النطفةِ التي قَضى اللهُ منها الوَلَدَ، فَيَخْلُقُ مِنَ الترابِ والنطفةِ. فذلكَ مَعنى الإضافةِ إليها. لكنَّ هذا سَمْعَةٌ[١٤]، لا يُعْرَفُ إلّا بالخَبَرِ. فإنْ ثَبَتَ فهو هو، وإلّا لا يجوزُ أنْ يُقالَ ذلكَ رأياً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إذا مِتُّمْ، أي تُقْبَرونَ فيها، فَيُخَرَّجُ مُخْرَجَ الامْتِنانِ عليها. وذلكَ لنا خاصّةً دونَ غَيرِنا مِنَ الحيوانِ لئلا يَتَأذّى بهمْ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١] أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي تَصيرونَ تراباً إذا مُتُّمْ، فَيُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ، أي [إنَّ][١٥] مَنْ قَدَرَ على أنْ صَيَّرَ الإنسانَ تراباً بَعْدَ أنْ لم يكُنْ تراباً لَقادرٌ على أنْ يُصَيِّرَ إنساناً على ما كانَ بَعْدَ ما صارَ تراباً، وهو ما قالَ: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي منها نَبْعَثُكُمْ، ونُنْشِئُكُمْ مَرَّةً أُخرى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٥. (٤) أدرج بعدها في الأصل و م: ﴿رَبِّي﴾. (٥) انظر المرجع السابق. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ليس أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: وأصل. (١٤) في الأصل وم: سمعي. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٦ وقولُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ ولم يُرِهِ جميعَ آياتهِ، إنما أراهُ بَعْضَ آياتِهِ. لكنْ إنْ كانَ المُرادُ منها الإعلامَ لهُ فقد أعْلَمَ الآياتِ كلَّها لأنهُ إذا أراهُ آيةً واحدةً أو بَعضَ الآياتِ فَرُؤْيَةُ آيةٍ واحدةٍ أو[1] بَعْضِها تَدُلُّ على إعلامِ غَيرِها مِنَ الآيات. فهو على الإعلامِ قد أعلَمَهُ كلَّها. وهو ما قالهُ موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] عَلِمَ اللعينُ أنها الآياتُ، وليستْ[2] بِسِحْرٍ. أو أنْ يكونُ يريدُ بالآياتِ كلِّها الآياتِ التي أرسَلَها إلى موسى، فقد أراهُ تلكَ[3] ﴿كُلَّهَا فَكَذَّبَ﴾ بتِلْكَ الآياتِ ﴿وَأَبَىٰ﴾ أنْ يُصدِّقَها، ويَقْبَلَها، فيُسْلِمَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قد عَلِمَ اللعينُ [أنهُ][4] لم يَجِئْهُمْ لِيُخرِجَهُمْ مِنْ أرضِهِمْ، ولكنهُ يريدُ منهمُ الإسلامَ، لكنهُ أرادَ أنْ يُعرِّفَ قومَهُ عليهِ كقولِهِ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] فهذا إغراءٌ منهُ قومَهُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿سُوًى﴾ المكانُ الذي نَحْنُ فيهِ أو[5] غيرُ هذا المَجْلِس. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ عَدْلاً؛ لا نُخْلِفُ نَحْنُ [ولا][6] أنتَ ذلكَ المكانَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي مَنْصَفاً.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي وَسَطاً بَيْنَ فَريقينِ. وقالَ الكِسائيُّ: سُوًى وسِوًى، يُريدُ بهِ سَواءً، وهما لُغَتانِ[7]. إلّا أنهُ يُقرأُ ﴿سُوًى﴾ وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: هو مِثْلُ ﴿طُوًى﴾[8] [طه: ١٢ و النازعات: ١٦] وهو النِّصْفُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يومُ عاشوراءَ. وقالَ بعضُهُمْ: يومُ العيدِ. وقالَ بعضُهُمْ: يومُ سُوقِهِمْ. لكنا لا نَعْلَمُ ذلكَ، وليسَ بنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ؛ وهُمْ قومٌ قد عَرَفوا ذلكَ حينَ[9] رَضوا بذلكَ، ولم يَتَنازَعوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ بَيِّنوا اليومَ، وبَيِّنوا الوقتَ، وهو وَقْتُ الضُّحى ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ وقالَ بَعْضُهُمْ: أي نَهاراً جِهاراً كقولِهِ: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ [الأعراف: ٩٨] نهاراً؛ يَعْني جِهاراً.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي أقْبَلَ على أمْرِهِ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ ليسَ على الإعراضِ عمّا دَعَوا إليهِ ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ بهِمْ، وهو كقولِهِ[10]: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أقْبَلَ على السَّعْيِ ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٥] بالفَسادِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ما بانَ لكُمُ الحَقُّ، وظَهَرَ لكُمَ الحُجَّةُ باتِّخاذِكُمْ فِرْعَونَ إلهاً، لأنكُمْ إذا اتَّخَذْتُمْ دونَهُ سِواهُ إلهاً، ولا إلهَ غَيرُهُ، فقدِ افْتَرَيْتُمْ عليهِ.

والثاني: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ما بانَ لكُمُ الحَقُّ، وظَهَرَ لكُمُ الحُجَّةُ، فلا تَفْتَروا على اللهِ كَذِباً بِقَولِكُمْ: إنهُ سِحْرٌ، وإنهُ كَذِبٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ بِرفْعِ الياءِ ونَصْبِها[11] جميعاً. قالَ أبو مُعاذٍ: يُقالُ: أَسْحَتَهُ، وسَحَتَهُ، وقَهَرَهُ، وأقْهَرَهُ. وقالَ أهْلُ التأويلِ: أي يُهْلِكَكُمْ، ويَسْتَأصِلَكُمْ بِعذابٍ.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ العذابَ في الدنيا؛ أوعَدَهُمْ بعذابٍ، يأتيهِمْ إذا افْتَرَوا على اللهِ كَذِباً بَعْدَما بانَ الحَقُّ، وظَهَرَ لهمْ بالبُرْهانِ[12] والحُجَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: ليس. (٣) في الأصل وم: ذلكَ. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٦. (٨) انظر معجم القراءات القرآنيةج٤/ ٧٢ (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، في الأصل: كقولهم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٨. (١٢) في الاصل وم: البرهان.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ أي السَّحَرَةُ في ما بينَهُمْ سِرًّا مِنْ فِرعَونَ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ مِنْ فِرْعَونَ.

الآية ٦٣ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ يَعنونَ موسى وهارونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ مِنْ موسى وهارونَ. فَنَجْواهُمْ أنْ ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ والأشبَهُ هذا أنهُمْ اعتزَلُوا قومَهُمْ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾/ ٣٣٢ ـ أ/ عنهُمْ في ما بَيْنَهُمْ أنهما كذا.

ثم قولُهُ: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ بالألِفِ[2]. قالَ أبو عُبَيْدَةَ: هذهِ لغةُ قومٍ مِنَ العَرَبِ [تقولُ: مَرَرْتُ برجلانِ][3] ورأيتُ رجلانِ. فهو على تلكَ اللغةِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ هذهِ الألِفَ، لا تَسقُطُ في الوُحْدانِ بِحالٍ؛ يُقالُ: مَرَرْتُ بهذا، ورأيتُ هذا، ونَحْوُهُ. فهو كالأصلِ، لا يَحْتَمِلُ السقوطَ في الأحوالِ كلِّها في الوُحْدانِ والتَّثْنِيَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ أي: نَعَمْ هذانِ لَساحِرانِ، وتلكَ لُغَةُ قومٍ أيضاً؛ يقولونَ: إنْ مَكانَ نَعَمْ كقولِ القائلِ في آخِرِ بيتِهِ: فَقُلْتُ: إنَّهُ[4]، أي: نَعَمْ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ هذا خَطَأٌ مِنَ الكاتبِ، فقالَ: إني أرَى فيهِ خَطايا، فَيُقَوِّمُها العَرَبُ بألسِنَتِها، أو نَحْوَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ هذا القولُ إنما أخذوا مِنْ فرعونَ حينَ[5] قالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ﴾ الآية [الأعراف: ١١٠] وقولُهُ أيضاً حينَ[6] ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧] عَلِمَ فِرْعَونُ أنَّ ذلكَ ليسَ بِسِحْرٍ، لكنهُ أرادَ أنْ يُغْرِيَ قومَهُ عليهِ لئلا يَتَّبِعوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ. قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي بعَيْشِكُمْ أمْثَلَ العيشِ، لأنهمْ كانوا جَبابِرَةً وفَراعِنَةً، وكانَ[7] بَنو إسرائيلَ لهمْ خَدَماً وخَوَلاً يَسْتَخْدِمونَهُمْ، ويَسْتَعْمِلونَهم في حَوائِجِهِمْ، فكانَ تَعَيُّشُهُمْ بهمْ. فقالَ: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي يَذْهَبا بِدينِكُمْ ومَذْهَبِكُمْ الأمْثَلِ؛ لأنهُ يقولُ: إنَّ الذي يَدْعُوهمْ هو إليهِ، هو الرشادُ، وإنَّ الذي يَدعُوهمْ موسى إليهِ، هو باطِلٌ، وإنهُ سِحْرٌ وفَسادٌ كقولِهِ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] وقولِهِ[8] ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وقولِهِ[9] ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ونَحْوُهُ: يَدَّعي أنَّ ما يَدْعوهمْ إليهِ، هو الرشادُ، وأنَّ الذي يَدعو موسى إليهِ السِّحْرُ والفَسادُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي خِيارِكُم وأشرافِكُمْ والأمْثَلِ منكُمْ.

قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾ أي يُهْلِكَكُمْ، ويَسْتَأصِلَكُمْ؛ يُقالُ: سَحَتَهُ اللهُ، وأسْحَتَهُ، وقالَ: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي الأشرافِ، ويُقالُ: هؤلاءِ طَريقَةُ قومِهِمْ، أي أشرافُهُمْ، واشتِقاقُ[10] الطريقةِ مِنَ الشريفِ، ويُقالُ: أرادَ بِسُنَّتِكُمْ ودينِكُمْ. والمُثْلَى مؤنثُ أمْثَلَ، مِثْلُ كُبْرَى وأكبَرَ ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ أي حيلَتَكُمْ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي بدينِكُمُ الأفضلِ، وهو مِنَ الأمْثَلِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ حرْفُ الإجماعِ يُسْتَعْمَلُ في العَزْمِ مَرَّةً، والاجْتِماعِ ثانياً. أمّا في العَزْمِ فما ذُكِرَ في الخَبَرِ: «لا صَومَ لِمَنْ لم يُجْمِعْ رأيَهُ مِنَ الليلِ» [أبو داوود ٢٤٥٤] أي لمنْ لم يَعْزِمْ على [ما رُوِيَ في خَبَرٍ آخَرَ][11]: «لا صَومَ لِمَنْ لم يَعْزِمْ مِنَ الليلِ» [الترمذي ٧٣٠] وأمّا الاجْتِماعُ فظاهِرٌ.

---

(١) في الأصل وم: فقال لهم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٨٩. (٣) في الأصل وم: يقال: مررت. (٤) القائل هو الشاعر عبيد الله ابن قيس الرقيات، والبيت:

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

انظر الديوان ص ٢١٢

(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم حيث. (٧) في الأصل وم: وكانوا. (٨) أدرج بعدها في الأصل: لأن. في الأصل وم: وحيث قال. (٩) في الأصل وم: وحيث قالوا. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: روى الخبر. انظر جنة المرتاب ج٢/٣٦٥.

فإنْ كانَ على الاجْتِماعِ فكأنهُ قالَ: فاجْتمِعوا على عَمَلٍ واحدٍ، لا تَخْتلِفونَ فيهِ. [وإنْ كانَ][1] على العَزْمِ: فهو[2] اعْزموا شيئاً واحداً، واقصِدوا أمْراً واحداً لكي تَغْلِبوا.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: جميعاً غيرَ مُتفرِّقينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ أي المُصَلَّى الذي كانَ مَوعِدَ الاجْتماعِ، وهو يومُ الزِّينةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ قيلَ: مَنْ غَلَبَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي غَلَبَ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ مَنْ طَلَبَ العُلُوَّ، وأرادَ أنْ يَسْعَدَ بما وَعَدَ فِرْعونُ لِلسَّحَرةِ مِنَ الأجْرِ إذا كانوا هُمُ الغالِبينَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ[4] لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣و ١١٤]، فذلكَ هو ما طَلَبوا منهُ. فأخبرَ أنهمْ يَظْفَرونَ بذلكَ. هذا إذا كانَ القولُ مِنْ فِرْعَونَ، والله أعلَمُ.

[وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ أي مُصَلًّى، والصَّفُّ المُصَلَّى، وقالَ: حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنهُ قالَ ما استَطَعْتُ أنْ آتيَ الصفَّ اليومَ المُصَلَّى. وقالَ القُتَبيُّ: ﴿صَفًّا﴾ أي جميعاً، وكذلكَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ، وقولُهُ: ﴿مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي غَلَبَ][5].

الآيتان ٦٥ و٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ بأمْرٍ مِنَ الله وإذْنٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

الآية ٦٧ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي وَقَعَ في قَلْبِهِ الخَوفُ، وخافَ إذْ صَنَعَ القومُ ما صَنَعوا مِنَ السِّحْرِ. ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ الخوفُ منهُ وجهَينِ:

أحَدُهما: خافَ على ما طُبِعَ البَشَرُ عليهِ مِنْ خوفِ الطَّبْعِ لا خوفِ غَلَبَةٍ، لأنهُ قالَ لهمْ: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١] كانَ يَعْلَمُ ﷺ أنَّ تَمْويهاتِ السِّحْرِ لا تُبْطِلُ حُجَجَ اللهِ وآياتِهِ. فَدَلَّ ذلكَ أنهُ خافَ خَوفَ الطَّبْعِ والجِبِلَّةِ لا خوفَ القَهْرِ والغَلَبَةِ.

[والثاني:][7]: أنْ يكونَ خَوفُهُ لمّا أخَذَ سِحْرُ أولئكَ أعْيُنَ الناسِ خافَ موسى أنْ يَمْنَعَهُمْ ذلكَ عنْ أنْ يُبْصِروا ما جاءَ هو بهِ مِنَ الآيةِ والبُرْهانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: خافَ أنْ يَشُكُّوا فيهِ، فلا يُتابِعوا، ويَشُكَّ فيهِ مَنْ تابَعَهُ، وهو ما ذكَرْنا قريباً منهُ، والله أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الغالبُ. فإنْ كانَ الخَوفُ الذي ذَكَرَ خَوفَ طَبْعٍ وما جُبِلَ عليهِ المَرءُ فيكونُ قولُهُ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ على تَسكينِ القَلْبِ وتَثبيتِهِ. وإنْ كانَ الثانيَ فهو على البِشارةِ لهُ والإخبارِ على [ألّا يَمْنَعَ أولئكَ السَّحَرَةَ][8] عن أنْ يُبْصِروا ما [تأتيهِمْ بهِ][9] أنتَ مِنَ الآيةِ، والله أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ سِحْرَ أولئكَ إنما صارَ بَعْدَما ألْقَوا ما في أيديهِمْ، وكذلكَ عصا موسى إنما صارتْ آيةً وحُجَّةً بَعْدَ ما ألقاها مِنْ يَدِهِ. لم تكُنْ وقتَ كونِها في يَدِهِ كذلكَ حينَ[10] قالَ: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ أي تَلْتَقِمْ، وتأكُلْ ﴿مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ بِسِحْرِهِ. وإلّا قد أفْلَحَ سَحَرَةُ فِرْعَونَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسعودٍ: أينَ أتى. وقالَ بعضُهُمْ: حَيْثُ كانَ وحَيْثُ وحَوثُ لُغَتانِ، وهو قولُ الكسائيِّ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لأنهمْ عَرَفوا حقيقَةَ ما أتى بهِ[11] موسى فَعَلِموا أنهُ آيةٌ، ليسَ بِسِحْرٍ، فآمنوا إيماناً، لم يَرْتابوا فيهِ قَطُّ.

---

(١) في الاصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أإن، وهي قراءة ابن عامرة وعاصم وغيرهما انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٣٨٨. (٥) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم في نهاية تفسير الآية ٦٣ سهواً. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: أن يمنع سحر أولئك. (٩) في الأصل وم: تأتي بهم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: بهم.

وهذا يَدُلُّ أنَّ كلَّ ذي بَصَرٍ وعِلْمٍ في شيءٍ يكونُ أبْصَرَ وأعْلَمَ في ذلكَ الشيءِ مِنْ غَيرِهِ [ألَا تَرَى أنهمْ][1] لم يَنْظروا لِما رَأوا ما أتَى بِهِ موسى، وعايَنوا وَقتاً يَنْظُرونَ[2] فيهِ؟ بل لِسُرْعَةِ مَعْرِفَتِهِمْ ذلكَ لم يَمْلِكوا أنفُسَهُمْ، بلْ ألْقوا على وجوهِهِمْ على ما أخْبَرَ حينَ[3] قال: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [وقال:][4] ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠ و الشعراء: ٤٦]

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي أضْمَرَ خَوفاً. وقالَ غيرُهُ: وَقَعَ في قَلْبِهِ [حينَ رَأى ما كانَ][5].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي يَظُنُّ؛ يُقالُ[6]: يُخَيِّلُ إليَّ، أي يُريني فَهْمي وعِلْمي أنَّ هذا الشيءَ كذا وكذا. ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أي أحَسَّ ﴿تَلْقَفْ﴾ وتَلَقَّمْ واحدٌ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَعْني موسى. وقالَ بعضُهُمْ: كَبيرُ السَّحَرَةِ الذي عَلَّمَ السِّحْرَ. وقالَ في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ /٣٣٢ ـ ب/ الآية [الاعراف: ١٢٣] قد عَلِمَ فِرْعَونُ أنَّ ذلكَ ليسَ بِسِحْرٍ ولا مَكْرٍ، مَكَروا بِهِ. لكنهُ أرادَ أنْ يُمَوِّهَ على قومِهِ، ويُلَبِّسَ عليهمْ أمرَ موسى وما جاءَ [بِهِ][7] مِنَ الآياتِ والحُجَجِ لأنهُ هو الذي رَبّاهُ، ونَشَأ بَيْنَ ظَهْرانِيهِ وأهلِهِ. فَعَلِمَ أنهُ لم يَتَعَلَّمِ السِّحْرَ مِنْ أحدٍ لمّا فارَقَهُ، وخَرَجَ مِنْ عِندِهِمْ إلى مَدْيَنَ، لم يكُنْ هُناكَ [ساحرٌ][8] يَتَعَلَّمُ منهُ السِّحْرَ لكنهُ أرادَ التَّمْويهَ والتَّلْبيسَ على قومِهِ. وكذلكَ أهلُ مكةَ حينَ[9] نَسَبوا رسولَ الله إلى السِّحْرِ والكهانَةِ والافْتِراءِ والجُنونِ وغَيرِهِ عَلِموا أنهُ ليسَ بِساحرٍ ولا كاهنٍ ولا مَجْنونٍ ولا مُفْتَرٍ لأنهُ نَشَأ بينَ أظْهُرِهِمْ صغيراً، لم يُؤْخَذْ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ على أحدٍ مِنَ الخَلائقِ، فكيفَ على الله تعالى؟ ولا رَأوهُ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ مِنَ السَّحَرَةِ والكهنةِ في تَعَلُّمِ ذلكَ. لكنهمْ أرادوا التَّمْويهَ والتَّلْبيسَ على الناسِ لئلا يَتَّبِعوهُ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ مِنْ دينِ اللهِ وتَوحيدِهِ.

ثم الرُّسُلُ، صلواتُ الله تعالى عليهمْ، لو لم يكُنْ معهمُ الآياتُ المُعْجِزَةُ ولا الحُجَجُ النَّيِّرَةُ كانَتْ أنفُسُهُمْ وما عليهِ طُبِعوا مِنَ السِّيرَةِ الحَسَنَةِ والأخلاقِ الكريمةِ الجميلةِ وما اختاروا مِنَ الأمورِ العَظيمةِ الرفيعَةِ دالَّةً على رسالَتِهِمْ ونُبُوَّتِهِمْ. فكيفَ وقد جاؤوا بالآياتِ المُعْجِزَةِ والبراهينِ المُنيرَةِ؟ وما طُبِعَ السَّحَرَةُ مِنَ السِّيرَةِ المَذْمومَةِ والأخلاقِ الدَّنِيَّةِ والأمورِ الخَسيسَةِ يَدُلُّ على كَذِبِهِمْ وافْتِعالِهِمْ. فكيفَ أشْكَلَ عليهِمْ مَعْرِفَةُ[10] السِّحْرِ مِنَ الرسالةِ والتَّمْويهِ مِنَ الحُجَّةِ؟ لكنهمْ أرادوا بذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّمْويهِ على قومِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ الوعيدُ منهُ في وقْتَينِ. أوعَدَهُمْ أوّلاً بِقَطْعِ اليَدِ والرِّجْلِ مِنْ خِلافٍ على الإبقاءِ رَجاءَ أنْ يَنْتَهوا عمّا اختاروا. فإذا لم يَنْتَهوا عنهُ فَعِنْدَ ذلكَ أوعَدَهُمْ بالقَتْلِ والصَّلْبِ، إذ في القَتْلِ والصَّلْبِ إتلافُ ما دونَهُ مِنَ الجَوارحِ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنَّ كلَّ حَدٍّ، يُرادُ بهِ الإبقاءُ [فإنهُ لا يُؤْتَى على الجَوارحِ كلِّها، والقطعُ في السرقةِ قدْ يُرادُ بهِ الإبقاءُ لذلكَ لا يُؤْتَى على الجَوارحِ كلِّها، وكذلكَ [حَدُّ][11] قُطّاعِ الطريقِ؛ إذْ يُرادُ بهِ الإبقاءُ][12] لم يَزِدْ على قَطْعِ اليَدِ والرِّجْلِ مِنْ خِلافٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ لو ذاقَ اللعينُ شيئاً مِنْ عذابِ ربِّهِ لم يَقُلْ مِثْلَ هذهِ المَقالَةِ، ولولا ما عَرَفَ مِنْ حِلْمِ ربِّهِ، وإلّا لم يَتَجاسَرْ أنْ يَتَكَلَّمَ بِمِثْلِ هذا، ويُوعِدَهُمْ أنَّ عذابَهُ أشَدُّ مِنْ عذابِ الله.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي لن نُؤْثِرَكَ بالرُّبوبِيَّةِ والعِبادةِ لكَ والطاعَةِ على ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ على رُبوبِيَّةِ اللهِ وأُلوهِيَّتِهِ وعِبادَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قال بعضُهمْ: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أيضاً على الذي خَلَقَنا. لكنَّ غَيرَهُ أشْبَهُ؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ على القَسَمِ أي بالذي فَطَرَنا؛ كأنهُمْ أيأسوهُ عنِ العَودِ[13] إلى عِبادتِهِ وخِدْمَتِهِ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ينظروا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث اتى كان. (٦) في الأصل وم: يقول. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: معجزة. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: العون.

وقولُهُ تعالى: وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ ليسَ على الأمرِ، لكنْ الإياسِ عنْ ذلكَ؛ أي أنكَ وإنْ فَعلتَ بِنا ما أوعَدتَ فإنّا ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ أي إنما تَقضي في هذهِ الحياةِ الدنيا.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ﴾ واللهُ خيرُ مَعْبودٍ، وثوابُهُ ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أبقى مِنْ ثَوابِ غَيرِهِ. أو أنْ يكونَ هذا جَوابَ قولِهِ: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ فيقولُ [السَّحَرةُ][(١)]: عذابُ اللهِ [أشَدُّ][(٢)] وأبقى، والله أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَة: ﴿جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [سُوقُ النَّخلِ وأُصولُها][(٣)].

الآيتان ٧٤ و٧٥ وقـولُـهُ تـعـالـى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ أصلُ هذا، والله أعلَمُ، أنَّ مَنْ قَبِلَ مِنَ اللهِ حياتَهُ بالشُّكرِ، وطَيَّبَها بالأعمالِ الصالحاتِ طَيَّبَ اللهُ حَياتَهُ وعَيشَهُ في الآخِرَةِ. ومَنْ لم يَقبَلْ حياتَهُ مِنَ اللهِ تعالى بالشُّكرِ في الدنيا، بل كَفَرَ بها، وخَبَّثَها، وقَبَّحها بالأعمالِ القَبيحةِ الخَبيثةِ الدَّنِيَّةِ، خَبُثَتْ حياتُهُ وعَيشُهُ[(٤)] في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ هي ما تَرتَفِعُ، وتَعلُو. والدَّرَكاتُ ما تَتَسَفَّلُ، وتَنحَدِرُ في الأرضِ. والدَّرجاتُ لِلمُؤمنينَ في الآخرةِ لِاختيارِهِمْ في الدنيا الأعمالَ الصالحةَ الرفيعَةَ العاليةَ. فَعَلَى ما اختاروا في الدنيا مِنَ الأعمالِ الرفيعةِ [العُلْوِيَّةِ ﴿لَهُمُ﴾][(٥)] في الآخرةِ مُقابلَ ذلكَ ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾. وأمّا الدَّرَكاتُ فهيَ لأهلِ الكفرِ مُقابلَ ما اختاروا في الدنيا مِنَ الأعمالِ الدَّنِيَّةِ الخَبيثةِ، وأخزاهُمْ كَمثلِ مَنْ زَرَعَ بُذور[(٦)] الشوكِ لم يَحصُد بُرّاً قَطُّ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي ذلكَ الذي ذَكَرَ جزاءُ مَنْ أصلَحَ عَمَلَهُ، وأنماهُ. والزَّكاةُ هي النَّماءُ في اللغةِ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ وهو السَّيرُ بالليلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ أي اضرِبْ بعصاكَ البَحرَ، فيَصيرَ[(٧)] لهمْ طريقاً في البَحرِ يابساً كقولِهِ ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ الآية [الشعراء: ٦٣]

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ أي لا تخافُ لُحوقَ فِرعَونَ وجُنودِهِ، ولا تَخشى غَرقَ البَحرَ. ليسَ على النَّهيِ، ولكنَ على رَفعِ الخوفِ عنهُ، والأمنِ عَنِ أنْ يُدرِكَهُمْ، ويَلحَقَهُمْ. الا تَرى أنهُ ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾؟ [الشعراء ٦١ و ٦٢]

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ دلَّ قولُهُ ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ على أنْ كانَ معهُ جنودٌ لا جُندٌ واحدٌ. وأمّا العَدَدُ فإنهمْ كانوا كذا وكذا ألفاً، وقومُ موسى كذا وكذا ألفاً. فذلكَ لا يُعلَمُ إلا بالخَبَرِ، وليسَ بنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ أي مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا﴾ هداهُ اللهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا﴾ هـداهُـمْ حينَ[(٨)] قـالَ: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وقيـلَ: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ نَفْسَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦] أي مَنْ آمَنَ؛ وذلكَ أنهُ بالإيمانِ تَزكو الأعمالُ، وتَنمو، وبهِ يُثابُ عليها، ويُؤجَرُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ أي لحاقاً، وقولُهُ: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي لَحِقَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الاصل وم: ساقُ النخل وأصله. (٤) أدرجت في الأصل وم بعد: الآخرة.
(٥) في الأصل وم: العلوة فلهم. (٦) في الأصل وم: بذر. (٧) في الأصل وم: اجعل. (٨) في الأصل وم: حيث.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ هذا خَبَرٌ يُخبِرُ عمّا أنْعَمَ عليهِمْ، ومَنَّ على أوائِلِهِمْ وآبائِهِمْ [ويخاطبُ][1] مَنْ حَضَرَ رسولَ اللهِ ﷺ [مِنْ أهلِ الكتابِ الذينَ هُمْ أولادُ بني إسرائيلَ][2] يُذَكِّرُ هؤلاءِ بما أنْعَمَ، ومَنَّ على أولئكَ، وإلّا لم يكُنْ هؤلاءِ يومئذٍ.

وفيهِ تذكيرُ النِّعَمِ والمِنَنِ على الصّحابةِ في أواخرِ أمورِهِمْ لأنهُ أمَّنَهُمْ [3] في آخِرِ أمرِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وإياسِهِمْ مِنْ عَودِ هؤلاءِ إلى دينِهِمْ. وفيهِ تذكيرٌ لنا في ما أنْعَمَ علينا، ومَنَّ [في][4] أوائلِ أمورِنا وآخِرِها. ليسَ التذكيرُ لِبَني إسرائيلَ خاصةً. ولكنْ لنا ولِكُلِّ مَنْ أنْعَمَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ لسنا ندري أيُّ الأيمَنِ؟ [أهو][5] اسمُ ذلكَ الجبلِ، أم[6] سَمّاهُ الأيمَنَ[7] لِيُمْنِهِ وبركَتِهِ؟ وقالَ ﷻ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] وسَمّاهُ الأيمَنَ [لأنهُ][8] مِنْ يُمْنِ موسى ﷺ فإنْ كانَ هو مِنَ اليُمْنِ والبَرَكةِ فهو كذلكَ لأنهُ بهِ كانَ بَدْءُ وَحْيِ موسى ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ يُذَكِّرُ هؤلاءِ ما وَسَّعَ على أوائِلِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ / ٣٣٣ ـ أ/ وأخصَبَهُمْ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ الشُّكْرَ على ما أنْعَمَ عليهِمْ. وذلكَ تذكيرٌ لنا ولِمَنْ وَسَّعَ عليهِ ذلكَ، إذْ لم يَزَلْ علينا يُوَسِّعُ الرِّزْقَ مِنْ أولِ عُمُرِنا إلى آخِرِهِ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][9] ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي مِنْ حَلالاتِ ما رَزَقْناكُمْ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ دلالةٌ أنَّ [مِنَ الرِّزْقِ][10] ما ليسَ بحلالٍ.

والثاني: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي ما تَطيبُ بهِ أنفسُكُمْ. ففيهِ دلالةٌ أنهُ يجوزُ لنا أنْ نَختارَ[11] مِنَ الأطعمةِ ما هو أطيَبُ إنْ كانَ على ما تَستَطيبُ بهِ الأنفُسُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ الطُّغيانُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحُدودِ التي جُعِلَتْ، أي لا تَطْغَوا في ما رَزَقْكُمْ مِنَ الطَّيباتِ، وتَجْعَلونَهُ في غَيرِ ما جَعَلَ، وتتجاوَزونَ عنِ القَدْرِ الذي جَعَلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ بِرَفْعِ الحاءِ والخَفضِ[12] جميعاً؛ يَحِلُّ أي يَنْزِلَ عليكُمْ غَضَبي، ويَحُلُّ بالرفعِ يَجِبُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ قيلَ: هَوَى هَلَكَ؛ أي مَنْ يَجِبُ عليهِ عذابي فقد هَلَكَ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: هَوَى أي هَلَكَ؛ يُقالُ: هَوَتْ أمُّهُ، أي هَلَكَتْ. وقيلَ ﴿فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ أي سَقَطَ في النارِ؛ يُقالُ: هَوَى في موضِعِ كذا.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ [وجهينِ:

أحَدُهُما][13]: ﴿لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ عنِ الشِّرْكِ ورَجَعَ عنه ﴿وَءَامَنَ﴾ بِتوحيدِهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ في ما بَيَّنَ ذلكَ ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ في حِفْظِ أمْرِهِ، وانْتَهَى عمّا نَهَى.

والثاني: ﴿لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ عنْ جميعِ المَناهي ﴿وَءَامَنَ﴾ بجميعِ ما أَمَرَ [﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي][14] ما دامَ على ذلكَ، وثَبَتَ، كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى ﷺ خَرَجَ بِنَفَرٍ مِنْ قَومِهِ إلى

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م في الأصل: أملهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: هو. (٦) في م: أو. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: يرزق. (١١) من م في الأصل: المختار. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٠٠. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل: وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أما، في م: وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي ما.

الجبلِ لِيأخذَ التوراةَ، فعَجَّلَ حتى خلَّفَهُمْ وترَكَهُمْ وراءَهُ. فعندَ ذلكَ قالَ لهُ ربُّهُ: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: لم يَخرُجْ بِنَفرٍ، ولكنْ خرَجَ وحدَهُ، وتَرَكَ قومَهُ، فأصابَهُمْ ما أصابَ مِنَ الافتِتانِ بالعِجْلِ الذي اتَّخذَهُ السامِريُّ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ هذا على التأويلِ الأوّلِ، أي هُمْ يَجيئُونَ على أثَري، وعلى التأويلِ الثاني: أي ترَكْتُهُمْ على ديني وسَبيلي، وهو قولُ الحَسَنِ وقتادةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي عَجلْتُ إليكَ ربِّي في ما دَعَوتَني إجابةً وطاعةً في ما أمَرْتَني لِتَرْضى. هذا على التأويلِ الذي قالَ: إنهُ خرَجَ وحدَهُ، وعلى التأويلِ الذي يقولُ إنهُ خرَجَ بِنَفرٍ، يقولُ، والله أعلمُ: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ إذْ لم يكُنْ لي سبَبٌ ولا مانِعٌ[١] يَمْنَعُني عنِ الإسراعِ إلى ما دَعَوتني، وأمَرْتَني.

وهكذا عندَنا أنَّ مَنْ لَزِمَهُ أمرُ اللهِ وفَرْضُهُ لَزِمَهُ الإسراعُ والعَجَلةُ إلى القيامِ [بأدائِهِ، إذا][٢] لم يكُنْ هناكَ سَبَبٌ يَمْنَعُهُ عنِ التَّعجيلِ لهُ والقيامِ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ الفِتْنةُ هي المِحنةُ التي فيها شدائِدُ وبَلايا. ومَعْنى الافتِتانِ ههنا هو ما افتُتِنوا[٣] بالعِجلِ الذي اتَّخذَهُ السامِريُّ؛ جَعَلَهُ جَسَداً بِدَمٍ ولَحْمٍ على ما ذَكَرَ، ونَفَخَ فيهِ الروحَ، وجَعَلَ لهُ خُواراً. فذلكَ مَعْنى الافتِتانِ منهُ إياهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أضافَ الإضلالَ إلى السامِريِّ لأنهُ كانَ سَبَبَ إضلالِهِم حينَ[٤] اتَّخذَ لهمُ العِجلَ، ودعاهُمْ إلى عِبادَتِهِ، وقالَ: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فأضافَ الإضلالَ إليهِ لِما ذَكَرْنا مِنْ دُعائِهِ [إياهُمْ][٥] إليهِ والسَّبَبِ الذي كانَ منهُ. وإلا لم يكُنْ لأحدٍ[٦] إضلالُ أحدٍ. وأضافَ الافتِتانَ إلى نفسِهِ لِما ذَكَرْنا مِنْ جَعْلِ العِجلِ [جَسدانيّاً مِنْ لَحمٍ ودَمٍ وروحانيًّا][٧] فإنْ قيلَ: ما مَعْنى إجراءِ ما أجْرَى على يَدَي السامِريِّ معَ ضَلالِهِ مِنَ الآيةِ؟ قيلَ: هو، واللهُ أعلَمُ، أنهُ لوِ ادَّعى لِنَفْسِهِ الرسالةَ لكانَ لا يَتَهَيَّأ لهُ ذلكَ. لكنَّهُ إنّما ادَّعى أنهُ إلهٌ، وآثارُ العُبوديَّةِ فيهِ ظاهِرةٌ قائمةٌ، يَعْرِفُهُ كلُّ أحدٍ أنهُ ليسَ بإلهٍ.

وأمّا الرسالةُ فإنهُ يجوزُ أنْ تَشْتَبِهَ على الناسِ، وتَلْتَبِسَ عليهِمْ، فيَمْنَعُ اللهُ ﷻ مَنْ ليسَ برَسولٍ إذا ادَّعى الرسالةَ إقامةَ دلالةِ الرسالةِ لِاشْتِباهِها على الناسِ.

وأمّا الألوهيَّةُ فلا [يَمْنَعُهُ اللهُ عنْ إجراءِ][٨] ذلكَ لأنَّ آثارَ العُبودةِ وأعلامَ العَجْزِ فيها ظاهِرةٌ يَعْرِفُها[٩] كلُّ أحدٍ. وهكذا مَنْ أتَى قَرْيَةً، لم يَبْلُغْهُمْ هذا القرآنُ، فَقَرأَ هذا القرآنَ، وقالَ: إني رسولُ اللهِ إليكُمْ، يُقْدِرُهُ اللهُ على قراءَتِهِ. فلو ادَّعى الرُّبوبيَّةَ لم [يَمْنَعْهُ اللهُ][١٠]. لأنَّ آثارَ العَجْزِ عنْ إتيانِ مِثْلِهِ ظاهِرةٌ، وفي الرسالةِ لا، لِذلكَ افْتَرقا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ الأسفُ هو النِّهايةُ في الغَضَبِ والنِّهايةُ في الحُزنِ. وهكذا جَبَلَ رُسُلَهُ، وأنشأهُمْ على نهايةِ الغَضَبِ للهِ والأسفِ لهُ عندَ مُعايَنَتِهِمُ الخِلافَ للهِ والتَّكذيبَ لهُ كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ الآيةَ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ على تأويلِ الحَسَنِ ﴿وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ هو الثوابُ الذي وَعَدَ لهمْ بالدِّينِ والسَّبيلِ [حينَ][١١] ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ [طه: ٨٤] أي على ديني وسَبيلي. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ أي عَدْلاً وصِدْقاً حينَ[١٢] وعَدَ لهمْ أنهُ يَرْجِعُ إليهِمْ عندَ [رأسِ][١٣] أربعينَ أو ثلاثينَ ليلةً على ما ذَكَرَ ﷻ ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ على تأويلِ الحَسَنِ ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ﴾ عَهْدُ ما وَعَدَ لكُمْ مِنْ دونِ الثوابِ والجَزاءِ على دينِهِ وسَبيلِهِ حتى نَسيتُمْ ذلكَ. وعلى تأويلِ مَنْ قالَ: إنَّ الوَعْدَ هو ما وَعَدَ أنهُ يَرْجِعُ إليهِمْ عندَ رأسِ كذا؛ يقولُ: أفطالَ ذلكَ عليكُمْ؟ ومَضَى وَعْدي؟ حتى فَعَلْتُمْ ما فَعَلْتُمْ.

---

(١) في الأصل وم: معنى. (٢) في الأصل وم: بأداء فاذا. (٣) من م، في الأصل: فتنتم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم أحد. (٧) في الأصل وم: جسداني من لحم ودم وروحاني. (٨) من الأصل يمنع عن جزاء في. (٩) في الأصل وم: يعرفه. (١٠) في الأصل وم: يمنع. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم حيث. (١٣) ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي أم تعمَّدْتُمُ الخِلافَ فَيحِلُّ ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ يَحتَمِلُ المَوعِدُ الوجهَينِ الَّذَينِ ذَكَرْناهما في ما مَضَى.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بِرَفْعِ الميمِ وكَسْرِهِ[1]. فَمَنْ قَرَأَ بِمُلْكِنا بِرَفْعِ الميمِ أي بِسُلْطانِنا وطاقَتِنا، أي لم نَفْعَلْ بِسُلْطانِنا وطاقَتِنا. ومَنْ قَرَأَ بِمِلْكِنا بِكَسْرِ الميمِ [أي بما][2] مَلَكَتْ أيدينا.

وقالَ الكِسائِيُّ: مَنْ قَرَأَ بِمُلْكِنا فمَعْناهُ[3] بِسُلْطانِنا، ومَنْ قَرَأَ بِمِلْكِنا بِكَسْرِ الميمِ ونَصْبِهِ فمَعْناها ما مَلَكَتْ أيدينا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ قيلَ أثقالاً ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي مِنْ حُلِيِّ القِبْطِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي قَذَفْنا ما حَمَلْنا مِنْ حُلِيِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أي كذلكَ قَذَفَ ما حَمَلَ السامِرِيُّ مِنْ حُلِيِّهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ما أخَذَ مِنْ قَبْضَتِهِ مِنْ أثَرِ الرسولِ كقولِهِ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه: ٩٦]

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي عِجلاً جَسَدُهُ جَسَدُ عِجلٍ، وليسَ هو بِعِجلٍ في الحقيقةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ لا يَتَعَيَّشُ كما يَتَعَيَّشُ العِجْلُ المَولودُ مِنَ البَقَرِ، والأوَّلُ أشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ هذا القولُ إنما قالَهُ السامِرِيُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَسِىَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَنَسِىَ﴾ السامريُّ حينَ[4] قالَ لهمْ ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [هذا القولَ][5] فيكونُ النِّسيانُ /٣٣٣ ـ ب/ على هذا التأويلِ التَّضييعَ والتَّركَ. كأنهُ قالَ: ضَيَّعَ السامِرِيُّ بَعْدَ ما عَلِمَ، وعَرَفَ ربَّ العالَمينَ، ونَسَبَ الألوهِيَّةَ إلى العِجْلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ السامريَّ لمّا قالَ ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ نَسِيَ هذا حينَ[6] خَرَجَ في طَلَبِ غَيرِهِ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَقْبَلوا هذا القولَ منهُ، ويَجْعَلوا العِجْلَ الذي اتَّخَذَهُ السّامِرِيُّ إلهاً، وقد عَلِموا أنهُ إنما اتَّخَذَهُ مِنْ حُلِيٍّ حَمَلوها[7] مِنَ القِبطِ. لكنهُ كانَ في عَقْدِهِمْ أنهُ يجوزُ اتِّخاذُ إلهٍ دونَ الإلهِ[8] ربِّ العالمينَ، والعِبادةُ لهُ رَجاءَ أنْ تُقَرِّبَ عبادتُهُمْ تلكَ الآلهةَ إلى اللهِ.

وعلى هذا كانوا يَعْبدونَ الأصنامَ دونَ اللهِ كقولِهِمْ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ[9]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ولذلكَ[10] ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ولِذلكَ[11] ما اتَّخَذَ لهم فِرْعَونُ مِنْ آلهةٍ عَبَدوها دونَهُ.

الآية ٨٩ فقالَ عند ذلكَ، ورَدَّ عليهِمُ اعْتِقادَهُمْ[12]: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي ألا يَرَونَ أنْ لا أُذُنَ في عِبادةِ مَنْ [لا][13] يَرْجِعُ إليهِ القولُ [ولا][14] يَمْلِكُ النَّفْعَ والضَّرَّ. فكيفَ إذَنْ في عِبادةِ مَنْ لا يَمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يُذَكِّرُ، واللهُ أعلَمُ، بهذا رسولَهُ أنَّ الذينَ كَذَّبوكَ، وجَحَدوا رسالتَكَ، لم يُكَذِّبوكَ لِجَهْلِهِمْ بالرسالةِ، ولكنْ[15] لِتَعَنُّتِهِمْ وعِنادِهِمْ على ما ذَكَرَ، وأنباهُ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٧. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: معناهما، وهو. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حملوه. (٨) في الأصل وم: إله. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: وكذلك. (١١) في الأصل وم: وكذلك. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: فقال. (١٣) و(١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، في الأصل: ولكنهم.

مِنَ قولِ هارونَ لقومِهِ لمّا عَبَدوا العِجلَ حينَ قالَ ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فكأنهُ يُؤيِسُهُ مِنْ إيمانِ أولئكَ لِعِنادِهِمْ، وهوما قالَ: ﴿۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿فُتِنتُم﴾ أي صِرْتُمْ مَفتونينَ بصَوتِهِ وخُوارِهِ أو بغَيرِهِ.

والثاني: ﴿فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ أي ضَلَلْتُمْ بِهِ أي بالعِجلِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ أي أجيبوا لي إلى ما أدعوكُمْ بِهِ ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ أي ماآمُرُكُمْ بِهِ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ أي لَنْ نَزالَ على عبادةِ العِجلِ ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مُقيمينَ ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ أي لنْ نُفارِقَ عِبادَتَهُ.

الآية ٩٢ ثم قالَ موسى ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ هذا يدلُّ أنَّ قولَ هارونَ لهم: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ أرادَ بِهِ الضلالَ حينَ[1] قالَ لهُ موسى ﴿إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾.

الآية ٩٣ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ يَحتمِلُ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ أي ما مَنَعَكَ إذ رأيتَهُمْ ضَلُّوا؛ ألا صِرْتَ إلى ما كُنْتُ صِرْتُ أنا، وقد عَلِمْتَ إلى أينَ صِرْتُ أنا. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ أي ألا تَتْبَعُ ديني وسُنَّتي وكانَتْ سُنَّتُهُ ومذهَبُهُ القِتالَ والحَرْبَ معهمْ إذا ضَلُّوا وتَرَكوا دينَ اللهِ.

الآية ٩٤ فاعتَذَرَ إليهِ هارونُ، فقالَ ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ هذا أيضاً يُخَرَّجُ أيضاً على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إنِ اتَّبعتُكَ، وصِرتُ إلى ما صِرتَ أنتَ ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لأنكَ لو نَهَيتَهُمْ عمّا اختاروا مِنْ عبادةِ العِجلِ، وبَيَّنْتَ لهمُ السبيلَ، لَعَلَّهُمْ يَتْبعونَكَ. فحينَ[2] لم تَفعَلْ فأنْتَ الذي فَرَّقْتَ بينَهُمْ.

والثاني: على تأويلِ القِتالِ والحَرْبِ في قولِهِ: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ لو قاتَلْتُهُمْ، ونَصَبْتُ الحَرْبَ بينَهُمْ، صاروا فريقَينِ. فإذا تَفَرَّقوا اقْتَتَلوا، وسَفَكوا الدماءَ، وتَفانَوا. فَتَرْكُ القِتالِ لِما أطْمَعوهُ الإيمانَ إذا رَجَعَ إليهِمْ موسى، ونهاهُمْ عنْ ذلكَ. فلَعَلَّ سُنَّتَهُ في القِتالِ مع مَنْ لم يَطمَعْ منهُ الإيمانَ.

هذا على تأويلِ مَنْ يقولُ بأنَّ هارونَ اعتَزَلَهُمْ لمّا عَبَدوا العِجلَ مع عشرةِ آلافِ نَفَرٍ أكثَرَ أو أقَلَّ على ما ذُكِرَ.

وأمّا الحَسَنُ فإنهُ يقولُ: كُلُّهُمْ قد عَبَدوا العِجلَ إلّا هارونَ. فعَلَى قولِهِ: لا يُحتَمَلُ الحربُ والقِتالُ معَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ قيلَ: هو ما قالَ ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ودلَّ قولُهُ: ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ أنهُ[3] كانَ لهُ الشَّعْرُ، فكَنّى بالرأسِ عنِ الشَّعْرِ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ قالَ الحَسَنُ: ما حُجَّتُكَ يا سامِريُّ على ما فَعَلْتَ؟ ولا حُجَّةَ كانَتْ لهُ قَطُّ.

وقالَ غيرُهُ: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ﴾ ما شأنُكَ؟ وما أمْرُكَ؟ والخَطبُ هو الشأنُ والأمرُ في اللغةِ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: فما شأنُكَ؟ أي ما الذي حَمَلَكَ على صَنيعِكَ الذي صَنَعْتَ؟

الآية ٩٦ ثم قولُهُ تعالى: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ بالياءِ والتاءِ جميعاً[4]. ثم بَيَّنَ ما الذي بَصُرَ هو ما لم يَبْصُروا هُمْ، فقالَ: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: فحيث. (٣) في الأصل وم: بأن. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/١٠٧.

أمّا عامّةُ أهلِ التأويلِ فإنهمْ يقولونَ: إنهُ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرابٍ مِنْ أثَرِ فَرَسِ جِبْريلَ، فَنَبَذَها. وليسَ في الآيةِ ذِكْرُ الترابِ ولا ذِكْرُ الفَرَسِ ولا أنَّ ذلكَ الرسولَ جِبريلُ أو غَيرُهُ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ الذي قَبَضَهُ هو ترابٌ مِنْ أثَرِ الفَرَسِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ. وقد ذُكِرَ في حَرْفِ أُبَيٍّ: فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أثَرِ فَرَسِ الرسولِ.

فإنْ ثَبَتَ ما قالوا، وإلّا لم نَزِدْ على ما ذُكِرَ في الكتابِ لأنَّ هذهِ الأشياءَ والقِصَصَ كانتْ في كُتُبِهِمْ، فَذُكِرَتْ في القرآنِ لِيَحتجَّ بها رسولُ اللهِ على أولئكَ لِيَعْرِفوا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى. فلو زِيدَ، أو نُقِصَ عمّا في كُتُبِهِمْ لَذَهَبَ مَوضِعُ الاحتجاجِ عليهِمْ، بل يُوجِبُ ذلكَ شِبْهَ الكَذِبِ عليهِمْ. لِذلكَ وَجَبَ حِفْظُ ما حُكِيَ في الكتابِ مِنَ الأنباءِ والأخبارِ مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ مخافةَ الكَذِبِ إلّا أنْ يَثْبُتَ شيءٌ يُذكَرُ عنْ رسولِ اللهِ أنهُ كانَ، فَعِنْدَ ذلكَ يُقالُ، وإلّا فالكَفُّ أولَى لِما ذَكَرْناهُ في قراءةِ الحَسَنِ وقَتادةَ: فَقَبَصْتُ قَبْصَةً بالصادِ. والقَبْصَةُ [بالصادِ، هو الأخذُ بأطرافِ الأصابعِ، والقَبْضةُ بالضادِ][1] هو بالكَفِّ. فلا يُحتَمَلُ أنْ يَصِحَّ الحرفانِ جميعاً، لأنَّ الأخذَ بأطرافِ الأصابعِ دونَ الكَفِّ هو[2] خَبَرٌ، يُخبِرُ عمّا في كُتُبِهِمْ. فإمّا أنْ يكونَ ذا أو ذا، وإمّا أنْ يكونا جميعاً، فلا يُحتَمَلُ إلّا أنْ يُقالَ: إنهُ أخَذَهُ بأطرافِ الأصابعِ، ثم رَدَّهُ إلى الكَفِّ. فحينَئذٍ يكونُ تَمَّ بِمَرَّتَينِ، واللهُ أعلَمُ. قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي كذلكَ سَوَّلَتْ لي نفسي: أنكَ متى تأخُذْ قَبْضَةً مِنْ أثَرِ الرسولِ، فَتَنْبُذْها في الحُلِيِّ، يَحيَ.

[والثاني][3]: أنْ يكونَ سَوَّلَتْ لهُ نفسُهُ على ما كانَتْ عادَتُهُمْ وطبيعَتُهُمْ أنهمْ لا يَعْبُدونَ [إلهاً][4] لا يَرَونَهُ، ولا يَقَعُ بَصَرُهُمْ عليهِ حينَ[5] ﴿قَالُوا يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقالوا[6] ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فقالَ[7]: ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أنْ أتَّخِذَ لهمْ عِجلاً يَرونهُ، فَيَعْبُدونَهُ، أو ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أنَّ في أخذِ قَبْضَةٍ مِنْ أثَرِ الرسولِ نَبَأً عظيماً أو قالَ ذلكَ اعْتِذاراً لجميعِ ما كانَ منهُ مِنْ أوَّلِ الأمْرِ إلى آخِرِ أمْرِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٧ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي لا تَزالُ تقولُ: لا مِساسَ، لا تَقولُ غَيرَهُ عُقوبَةً لهُ وجَزاءً لِصَنيعِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لا[8] تَمَسَّني، ولا أمَسُّكَ، أي لا تَمَسَّني أبداً. أخرَجَهُ مِنْ بينِ أظهُرِهِمْ لِما عَلِمَ موسى/ ٣٣٤ ـ أ/ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ لِعذابِكَ ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يَحتَمِلُ ذلكَ في الدنيا والآخرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ قولُهُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى﴾ تَزعُمُ أنهُ ألهٌ، لأنَّ موسى سَمّى ذلكَ، وهو كما قالَ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] التي في زَعْمِهِمْ آلهةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ فقولُهُ: ﴿ظَلْتَ﴾ يُقالُ بالنهارِ، وفي الليلِ يُقالُ: باتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ في[9] هذا إثباتُ آيةٍ لِموسى حينَ[10] قالَ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ والعِجلُ الذي هو مِنْ لَحمٍ ودَمٍ ليسَ مِنْ طَبْعِ النارِ إحراقُهُ، وكذلكَ الحُلِيُّ والذهبُ والفضةُ، ليسَ مِنْ طَبْعِ [النارِ][11] إحراقُها حتى تَصيرَ رماداً. ولكنْ مِنْ طَبْعِها الإذابَةُ. ثم أخبَرَ أنها[12] مُحْرِقَةٌ. فدَلَّ أنهُ آيةٌ.

وفي قولِهِ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ لُغتانِ: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بِرَفْعِ النونِ، وهو التَّحْريقُ بالنارِ، ولَنَحْرُقَنَّهُ[13] بِنَصْبِ النونِ وهو القَطْعُ بالمِبْرَدِ. ومَنْ قَرَأ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بِرَفْعِ النونِ والتشديدِ يقولُ: ماكانَ لحماً ودماً، فأُحْرِقَ بالنارِ، وصارَ رماداً، ثم نُسِفَ في اليَمِّ.

---

(١) في الأصل: بالضاد، والقبضة هو الأخذ بأطراف الأصابع والقبضة، في م: هو الأخذ بأطراف الأصابع والقبضة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/١٠٨. (٢) في الأصل وم: فهو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: كقوله. (٧) في الأصل وم: فقالت. (٨) في الأصل وم: لم. (٩) في الأصل وم: وفي. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من م: ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: أنه. (١٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/١١٠.

قالَ أبو مُعاذٍ: يا سُبحانَ اللهِ إنْ كُنتَ أحرَقتَهُ بالنارِ فما حاجتُكَ إلى المِبْرَدِ؟ لكنهُ أرادَ مُقاتلٌ أنْ يَجمَعَ القِراءتَينِ والتأويلَينِ في قراءةٍ واحدةٍ.

لكنهُ عندَنا لا يجوزُ أنْ يكونَ العِجلُ مِنْ لَحمٍ ودَمٍ في إحدَى القراءتَينِ، وفي الأخرَى مِنَ الحُلِيِّ، لا لَحمَ فيهِ، ولا دمَ، وتكونَ القراءتانِ جميعاً مُنزَلَتَينِ. وما قالَهُ مقاتلٌ إنهُ حُرِّقَ بالنّارِ، ثم حُرِقَ بالمِبْرَدِ حَسَنٌ، لأنَّ النارَ لا تَحرِقُ العِجلَ إذا كانَ لَحماً ودَماً، ولكنها تُذيبُهُ[1]، فأُبرِدَ بالمِبْرَدِ. فعِندَ ذلكَ نُسِفَ في اليَمِّ.

قالَ أبو مُعاذٍ: تقولُ العَرَبُ: نَسَفْتُ [البُرادَةَ أنسِفُها][2] نَسفاً إذا أخرَجْتُها[3] المِنسَفَةُ، فطَيَّرْتُ غُبارَها[4]. ويُقالُ في المَشْيِ: ما زِلنا نَنْسِفُ يومَنا كُلَّهُ نَسفاً أي نَمْشيهِ[5].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي لَنَرْمِيَنَّ بهِ ﴿نَسْفًا﴾ أي رَمْياً. والنَّسفُ القَلْعُ مِنَ الأصلِ. وصَرْفُهُ: نَسَفَ يَنْسِفُ نَسفاً. وقالَ: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: ٩١] أي لا نَزالُ. [وقالَ][6]: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أي لا يَمَسُّكَ أحدٌ، ولا يؤذيكَ. وقالَ: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ لُغَةُ سَوءٍ، وإنما هو ظِلْتُ، وظَلِلْتُ.

ورُوِيَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾ إذ جاءَ الرسولُ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ فالقَيتُها، وفي حَرْفِ حَفصَةَ: إذْ مَرَّ الرسولُ. وفي حَرْفِ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أنْ لا مِساسَ، ليسَ فيهِ أنْ تقولَ، وفي حَرْفِ حَفصَةَ: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ الدنيا ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: تأويلُهُ: لا تُماسُّ، ولا يُخالِطونَكَ.

قالَ أبو مُعاذٍ: المِساسُ مَصْدَرُ ماسَّهُ مِساساً ومُماسَّةً

كما يُقالُ: ضارَّهُ ضِراراً ومُضارَّةً، وسارَّهُ سِراراً ومُسارَّةً، ومَنْ قَرَأَ: لا مَساسِ كانَ كقيلِكَ: نَزالِ ودَراكِ.

وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ وانظُرْ كيفَ يُفعَلُ بإلهِكَ ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ قالَ بعضُهُمْ: شَجَّعَتْ. وظاهِرُهُ: زَيَّنَتْ لي نَفْسي.

وقيلَ: سُمِّيَ السَّامِرِيُّ سامِرِيّاً لأنهُ كانَ مِنْ قَبيلَةٍ، يُقالُ لها: السامِرَةُ.

وقولُ هارونَ لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ وكانَ أخاهُ لِأبيهِ وأُمِّهِ. وقيلَ: أرادَ بذلكَ أنْ يُرَقِّقَهُ عليهِ، فيَترُكَهُ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ موسى لمّا أحرَقَ العِجلَ، ونَسَفَهُ في البَحرِ، قالَ عندَ ذلكَ ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ تَعرِفونَهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ لا يَعْزُبُ عنهُ شيءٌ، ولا يَخفى عليهِ شيءٌ. فيُشبِهُ أنْ يكونَ موسى ذَكَرَ هذا لَهُمْ لمّا أضمَروا هم، وأسَرُّوا حُبَّ العِجلِ في قلوبِهِمْ على [ما][7] أخبَرَ اللهُ عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] فقالَ لَهُمْ ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وما [تُظهِرونَ أو][8] لا يَعْلَمونَ أنهُ [يَعلَمُ][9] ما يُسِرّونَ وما يُضمِرونَ وما يَغيبُ عنِ الخَلْقِ، ويكونُ عندَهُمْ كملوكِ الأرضِ يَعلَمونَ الظاهرَ مِنَ الأمورِ الحاضِرةِ منها والغائبَ، فأخبَرَ أنهُ ﷻ يَعْلَمُ الظاهِرَ والباطِنَ والسِّرَّ والعَلانِيَةَ والحاضِرَةَ والغائبَةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ ليكونَ آيةً لِرِسالَتِكَ ونُبُوَّتِكَ. أو يقولُ: كما قَصَصْنا عليكَ هذا النَّبأَ كذلكَ نَقُصُّ عليكَ سائرَ الأنباءِ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: الذِّكْرُ ههنا القرآنُ، وهو الظاهرُ. ألا تَرَى أنهُ [قالَ][10] على إثرِهِ: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ﴾ كذا؟ وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي شَرَفاً وذِكْراً، يُذكَرُ[11] بَعْدَهُ أبداً؛ ومَنِ اتَّبَعَهُ، وأجابهُ إلى ما دَعاهُ، يَصيرُ مَذْكوراً بهِ.

---

(١) في الأصل وم: تذيب. (٢) في الأصل وم: البرد انسفه. (٣) في الأصل وم: أخرجت. (٤) في الأصل وم: غباره. (٥) في الأصل وم: نمشي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: تظهر أو ان يكونوا، في م: تظهرون أو أن يكون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: هو.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ الوزرُ الحِمْلُ، وسُمِّيَتِ الآثامُ حِمْلاً، لأنَّ الآثامَ تَنقُضُ ظُهورَ أصحابِها في النارِ، وتكبيرُها كالحِمْلِ يَنْقُضُ ظَهْرَ صاحِبِهِ، ويَكْبيرُهُ، وهو كما[1] ذَكَرَ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢ و٣].

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي في ذلك الوزرِ، أي لَنْ تُفارِقَهُمْ أوزارُهُمْ أبَدَ الآبِدينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ حِمْلُ السَّوءِ حِمْلٌ يُورِدُ صاحِبَهُ النارَ، بئسَ الحِمْلُ حِملٌ يُورِدُ صاحبَهُ النارَ. ويُقالُ: بئسَ ما حَمَلُوا على أنفسِهِمْ مِنَ الأعمالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ يَحْتَمِلُ الإعراضُ عنهُ وَجْهَينِ:

أحدُهما: ﴿أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي كَفَرَ بِهِ، وكَذَّبَهُ، ولم يَلْتَفِتْ إليهِ. والثاني: ﴿أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي لم يَعْمَلْ بما فيهِ. ومَنْ لم يَعْمَلْ مِنَ المُسْلِمينَ بما فيهِ يَخافُ أنْ يكونَ في وَعيدِ هذهِ الآيةِ.

الآيتان ١٠٢ و١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ قيلَ: يَتَسارُّونَ بَينهُمْ، ويَتَكَلَّمونَ في ما بَينَهُمْ كلاماً خَفِيّاً ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ مِثْلُ هذا الكلامِ إنما يقولونَ تَلَهُّفاً وتَحَزُّناً على ما كانَ منهُمْ في وَقْتٍ قليلٍ لِاسْتِقلالِهِمْ واسْتِصغارِهِمُ الدنيا؛ يقولونَ: كيفَ كانَ منّا كلُّ هذا العَمَلِ في ذلكَ الوَقْتِ القليلِ؟ ثم اختَلَفوا في ذلكَ اللَّبْثِ الذي قالوا[2]. قالَ بعضُهُمْ: [ذلكَ][3] في الدنيا: اسْتَقَلُّوا مُقامَ الدنيا لمّا عايَنوا الآخرةَ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في القُبورِ. ويَسْتَدِلُّ مَنْ يُنكِرُ عذابَ القَبْرِ بهذهِ الآيةِ؛ يقولُ لأنهمُ اسْتَقَلُّوا مُقامَهُمْ في القُبورِ، ولو كانَ لهمْ عذابٌ في ذلكَ لاسْتَعْظَموا ذلكَ، واسْتَكْثَروا، لأنَّ قليلَ اللَّبْثِ في العذابِ يُسْتَعْظَمُ، ويُسْتَكْثَرُ[4]، لا يُسْتَقَلُّ، ولا يُسْتَحْقَرُ. فلَمّا اسْتَقَلُّوا ذلكَ دلَّ أنهمْ لا يُعَذَّبونَ في القبورِ.

واسْتَدَلُّوا أيضاً بِنَفْيِ العذابِ [في القبرِ][5] بقولِهِ: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥٢].

ومَنْ يقولُ بِعذابِ القَبْرِ يَزْعُمُ أنَّ ذلكَ إنما قالوا في القَبْرِ؛ يقولُ: ذلكَ بينَ النَّفْخَتَينِ، يقولُ: هُمْ يُعَذَّبونَ، ويكونونَ في العذابِ إلى النَّفْخَةِ الأولى، ثم يُرْفَعُ عنهمُ العذابُ إلى النَّفْخَةِ الثانيةِ. عندَ ذلكَ يَرْقُدونَ، فَيَسْتَصْغِرونَ مُقامَهُمْ للنومِ؛ وقد يُسْتَصْغَرُ الوَقْتُ الطويلُ، ويُسْتَقَلُّ في حالِ النومِ على ما ذُكِرَ في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ حينَ قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وهُمْ قد أقاموا ثلاثَ مِئَةِ سَنَةٍ وزيادةً. وجائزٌ أنْ يكونَ [عذابُ القبرِ][6] عذابَ عَرْضٍ، وعذابُ الآخِرةِ عذابَ عَينٍ كقولِهِ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ﴾ [غافر: ٤٦] فاسْتَصْغَروا عذابَ العَرْضِ، واسْتَقَلُّوهُ عندَ مُعايَنَةِ عذابِ العَينِ.

ومَنْ يَقولُ ذلكَ في الدنيا يقولُ: تَحاقَرَتِ الدنيا في أعْيُنِهِمْ ومُقامُهُمْ فيها حينَ/ ٣٣٤ ـ ب/ عايَنوا الآخِرَةَ وأهوالَها.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ قولُهُ: ﴿أَمْثَلُهُمْ﴾ قيلَ أعْقَلُهُمْ، وقيلَ: أفضَلُهُمْ ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ مَنْ كانَ أبْصَرَ وأعلَمَ بأمورِ الآخِرَةِ وأهوالِها كانَ أكْثَرَ اسْتِخْفافاً بالدنيا واسْتِحْقاراً لها.

وفي [حَرْفِ][7] ابْنِ مَسْعودٍ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ﴾ عيلَ عليهِمْ أنْ ﴿يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾. قالَ أبو مُعاذٍ: قولُهُ: عيلَ عليهِمْ أي اشْتَبَهَ، وخَفِيَ، وفاتَهُمْ عِلْمُهُ، وقالَ: ومنهُ يُقالُ: عالَتِ الفريضةُ. يقولُ: هؤلاءِ إذا جاوَزَتِ السهامُ فَأشْكَلَ على الفارضِ، واشْتَبَهَ، ومنهُ قيلَ: عِيلَ صَبْري.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ سؤالُهُمْ عن أحوالِ الجبالِ في ذلكَ اليومِ لمّا بَيَّنَ أحوالَ الناسِ في الساعةِ بقولِهِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) أدرج في الأصل وم بعدها: ذلك (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: ويستنكر. (٥) في الأصل وم: فيه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

أرضعت﴾ الآية [الحج: ١و٢] وقولِهِ[1]: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢] وَصَفَ لهمْ أحوالَ الخَلْقِ في ذلكَ اليوم، ولم يَصِفْ أحوالَ الجبالِ والأرضِ. فَعِنْدَ ذلكَ سألوهُ عنْ أحوالِ الجبالِ، فأمَرَ رسولَهُ أنْ يُخبِرَهُمْ بما ذَكَرَ أنهُ ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ وما ذَكَرَ أيضاً في آيةٍ أُخرى ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] [وقولِهِ][2]: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤و٥] ونَحْوِهِ. فجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ على اختِلافِ الأحوالِ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآيتان ١٠٦ و١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ قيلَ: لا وادياً ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ ولا رابيةً.

وقالَ بعضُهُمْ: العِوَجُ الارْتِفاعُ، والأمْتُ الهُبوطُ. وقالَ بعضُهُمْ: العِوَجُ انْحِناءُ الأودِيَةِ، والأمْتُ التِّلالُ. وقيلَ: لا انْخِفاضاً ولا ارْتِفاعاً [وقيلَ][3]: والقاعُ الصَّفْصَفُ، هو تفسيرُ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [وقولُهُ: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ تفسيرُ قولِهِ: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾][4].

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا خِلافَ[5] لهُ، ليسَ كالداعي في الدنيا؛ مِنْهُمْ مَنْ يُطيعُهُ، ويُجيبُهُ، ومِنْهُمْ مَنْ لا يُطيعُهُ، ولا يُجيبُهُ. فأخْبَرَ أنهمْ في الآخِرَةِ يُجيبونَ الداعيَ في أيِّ حالٍ كانوا؛ لا يُخالِفونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا تَخْشَعُ الأصواتُ، لكنْ تَنْخَفِضُ، وتَلينُ، عندَ خَوفِ أهلِها، وتَرْتَفِعُ عندَ الأمْنِ. أو يكونُ خُشوعُ الأصواتِ كنايةً عنهمْ، أي يَخْشَعونَ، ويَذِلّونَ، لِشِدَّةِ فَزَعِهِمْ لِأهوالِ ذلكَ اليومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قيلَ: الهَمْسُ الكلامُ الخَفِيُّ الذي لا تكادُ تَسْمَعُهُ. وقيلَ: وَقْعُ الأقدامِ ونَقْلُها، وهو تَحَرُّكُها.

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ١٠٣] أي أخفَى صوتَهُ[6]، وقولُهُ: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ [طه: ١٠٤] أي أفضَلُهُمْ. فأمّا ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ فإنَّ[7] القاعَ الأرضُ الصُّلْبَةُ التي لا شيءَ فيها، والصَّفْصَفُ المُسْتَوِيَةُ، والصَّفاصِفُ جَميعٌ، والقِيعانُ جَميعُ القاعِ وعِوَجٌ[8] و عَوَجٌ [واحدٌ][9] ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ والأمْتُ هو العِوَجُ، وهو التَّلُّ. وقولُهُ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي سَكَنَتْ، والهَمْسُ [الكلامُ][10] الخَفِيُّ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ ليسَ أنْ يكونَ لهمُ الشَّفاعةُ، فلا تَنْفَعُ، ولكنْ لا شافِعَ لهمْ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالشَّفاعةِ، إذْ[11] لا أحَدَ يَتَكَلَّمُ يومئذٍ إلّا بإذنِهِ فَضلاً ألّا[12] يُؤذَنَ لأحدٍ بالشَّفاعةِ كقولِهِ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بقولِ الشَّفاعةِ ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

والثاني: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ﴾ [وَفَّقَهُ الرحمنُ][13] بما يَسْتَوجِبُ الشَّفاعَةَ لهُ ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ وسألَهُ ذلكَ، وهو قولُ الشهادةِ والتَّوحيدِ.

فَيَرْجِعُ أحدُ التأويلَيْنِ إلى الشُّفعاءِ: أنهُ لا أحدَ يَشْفَعُ لأحدٍ إلّا مَنْ وَفَّقَ لهُ الرَّحْمنُ في الدنيا بالتَّوحيدِ وشهادةِ الإخلاصِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَبْلَ أنْ يُخْلَقوا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ بَعْدَ ما خُلِقوا، أو كانوا. أو أنْ يكونَ قولُهُ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما قَدَّموا مِنَ الأعمالِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ بعدِهِمْ أو أنْ يكونَ

---

(١) في الأصل وم: وكقوله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: اختلاف. (٦) في الأصل وم: صورته. (٧) من م، في الأصل: قال. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: أن. (١٣) في الأصل وم: وقوله.

قولُهُ: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ كنايةٌ عنِ الخيرِ، أي يَعْلَمُ ما يَعْمَلونَ مِنَ الخيراتِ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مِنَ الشُّرورِ وما نَبَذوا وراءَ ظُهورِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ البَيْنِ والخَلْفِ الأحوالَ كلَّها، أي عالمٌ بجميعِ أحوالِهِمْ وبكلِّ شيءٍ يكونُ منهمْ. وهو كقولِهِ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]. أي لا يأتيهِ الباطلُ البَتَّةَ، لأنهُ ليسَ للقرآنِ بَيْنٌ ولا خَلْفٌ، ولكنَّ المُرادَ ما ذَكَرْنا فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنهُ ليسَ البَيْنَ ولا الخَلْفَ، ولكنَّ [المُرادَ][1] إخبارٌ عَنْ إحاطةِ عِلْمِهِ بهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

[أحدُهما:][2] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ ولكنْ إنما يَعْرِفونَهُ على قَدْرِ ما تَشْهَدُ لهمُ الشواهِدُ مِنْ خَلْقِهِ، لأنَّ الخَلْقَ إنما يَعْرِفونَ رَبَّهُمْ مِنْ جهةِ ما يَشْهَدُ، ويَدُلُّ لهمْ مِنَ الدّلالاتِ مِنْ خَلْقِهِ. والإحاطةُ بالشيءِ إنما تكونُ بما كانَ سَبيلُ معرفتِهِ الحِسَّ والمُشاهداتِ. فأمّا ماكانَ سَبيلُ معرفتِهِ الإستِدْلالَ فإنهُ لا يُحاطُ بهِ العِلْمُ.

والثاني: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ أي بِعِلْمِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكقولِهِ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ و ٢٧].

الآية ١١١ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ قيلَ ﴿وَعَنَتِ﴾ ذَلَّتْ، وخَضَعَتِ ﴿ٱلۡوُجُوهُ﴾. وجائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ الوُجوهِ كِنايَةً عَنْ أنفسِهِمْ لِما بالوُجوهِ تَظْهَرُ الذِّلَّةُ والخُضوعُ. فَكَنّى بها عنهُمْ.

فإنْ كانَ ما أخبَرَ مِنْ خُضوعِهِمْ وذُلِّهِمْ في الآخِرَةِ فهو على [ما][4] أخبَرَ مِنْ خُضوعِ الخَلائقِ لهُ في الآخِرَةِ. وإنْ كانَ بعضُهُمْ يَتَكَبَّرُ في الدنيا، وإنْ كانَ [المُرادُ][5] في الدنيا، فهو على خُضوعِ الخِلْقَةِ لهُ؛ خَضَعَتْ خِلْقَةُ الخلائقِ كلِّهِمْ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَ الحيِّ القَيُّومِ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ أي قد خابَ مَنْ حَمَلَ الشِّرْكَ. والظُّلْمُ ههنا الشِّرْكُ. وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ما ذُكِرَ مِنَ الحِمْلِ والوِزْرِ، وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ [طه: ١٠٠و١٠١] أي خابَ مَنْ حَمَلَ ذلكَ الحِمْلَ، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنْ أمْرِ الآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مِنْ أمْرِ الدنيا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ﴾ يعني الملائكةَ ﴿عِلۡمٗا﴾ يقولُ لهمْ: لا يَعْلَمونَ مِنْ كلامِهِ إلّا ما عَلَّمَهُمْ إيّاهُ. فإنْ كانَ هذا في الملائكةِ خاصّةً فإنهُ لا يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مِنَ الشُّرورِ، وما نَبَذوهُ وراءَ ظُهورِهِمْ لأنهمْ مُطيعونَ للهِ، لا يَعْصونَهُ طَرْفَةَ عينٍ، ويَحْتَمِلُ غَيْرَهُ مِنَ التأويلاتِ التي ذَكَرْنا، والله أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في الشفاعةِ ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ قولَ: لا إلهَ إلّا اللهُ، مُسْلِماً في الدنيا مُؤمِناً حَقًّا. فذلكَ الذي رَضِيَ، والشَّفاعةُ تَحِلُّ لهمْ. فأمّا غَيْرُهُمْ فلا يَشْفَعُ [لهمْ][6] وهو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقالَ بعضُهُمْ [في قولِهِ]: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ أي عَمِلَتِ ﴿ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ وقالوا في تأويلِ ﴿وَعَنَتِ﴾ عَمِلَتْ أي خَضَعَتْ لهُ بالعَمَلِ في الدنيا على ما ذَكَرَ بعضُهُمْ][7] مِنَ الرُّكوعِ والسُّجودِ والقيامِ وغيرِهِ. وهو في المؤمنينَ خاصَّةً، ليسَ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ ﴿وَعَنَتِ﴾ أي عَمِلَتْ حقيقةً، ولكنْ مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا. وإنْ كانَ التأويلُ في الآخِرَةِ فهو في الفَريقَيْنِ جميعاً، يَذِلُّونَ جميعاً، ويَخْضَعونَ في الآخِرَةِ، وإنْ كانَ مِنْ بعضِهِمُ التَّكَبُّرُ في الدنيا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ فيه دَلالةٌ / ٣٣٥ ـ أ/ أنهُ يَستَحِقُّ اسمَ الإيمانِ بدونِ الأعمالِ الصالحاتِ حينَ[١] قالَ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ وفيه أنَّ الإيمانَ شرطٌ في قبولِ الصالحاتِ وجَعْلِها طاعةً للهِ حينَ[٢] شرَطَ الإيمانَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ الظلمُ ههنا على ما ذَهَبْنا النُّقصانُ، لا ظُلْمُ الجَورِ لأنَّ الثوابَ على الأعمالِ بِحَقِّ الإفضالِ لا بِحَقِّ العَدْلِ. فإذا كانَ على هذا فَيُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ﴾ أنْ يُنقِصَ مِنْ حَسَناتِهِ شيئاً أو يَزيدَ في سَيِّئاتِهِ شيئاً. ويجوزُ في اللغةِ ذِكْرُ الظلم على إرادةِ النقصانِ كقولِهِ في ذِكْرِ الجنَّتَينِ: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف: ٣٣] والجنةُ لا تُوصَفُ بالظُّلْمِ الذي هو ظُلْمُ جَورٍ. فَدَلَّ أنهُ أرادَ بالظُّلْمِ النقصانَ، أي لم تَنْقُصْ، بل آتَتْ ثمارَها وافِيَةً وافِرَةً.

وإنْ كانَ على الظُّلْمِ الذي هو ظُلْمُ الجَورِ فهو على النَّهيِ، أي لا تَخَفْ منهُ الظُّلْمَ والجَورَ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي كما ذَكَرْنا أنَّ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ في القرآنِ العَرَبِيِّ ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

حَرْفُ لَعَلَّ في جميعِ ما ذُكِرَ في القرآنِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على الوَعْدِ أنهمْ يَتَّقُونَ، فهو على الإيجابِ.

والثاني: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي ألْزَمَهُمْ أنْ يَتَّقُوا بما صَرَفَ فيهِ مِنَ الوَعيدِ.

وإنْ كانَ على الوَعْدِ والإيجابِ منهُ فهو لِمَنْ عَلِمَ أنهمْ يَتَّقُونَ. وإنْ كانَ على الإلزامِ، أي ألْزَمَهُمْ فهو في الكُلِّ. ثم إنْ كانَ على الوَعْدِ فَيُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ فيكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] إذا تَذَكَّرَ خَشِيَ، وإذا خَشِيَ تَذَكَّرَ. فَعَلَى ذلكَ إذ اتَّقَى فَقَدْ أحدثَ لهُ الذِّكْرَ، وإذا أحدَثَ لهُ الذِّكْرَ اتقَى. وإنْ كانَ ألْزَمَهُمْ أنْ يَتَّقُوا فهو [على][٣] أو. ثم قالَ بعضُهُمْ: ﴿ذِكۡرٗا﴾ أي عذاباً.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ مِثْلُ هذا إنما يُذْكَرُ[٤] على نَوازِلَ كانَتْ إمّا قولاً أو فِعْلاً. يُقالُ: فَتَعالى اللهُ عنْ ذلكَ. لكنْ لم تُذْكَرِ النوازِلُ، واللهُ أعلَمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ يَحْتَمِلُ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنَّ جبريلَ كانَ إذا أتاهُ بالسورةِ وبالآيِ فيَتْلُوها كُلَّها[٥]، فلا يَفْرُغُ جبريلُ مِنَ التلاوةِ حتى يَتْلُوَها[٦] رسولُ الله ﷺ [مِنْ أوَّلِها][٧] مَخافَةَ أنْ يَنساها. فأنزَلَ الله: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فَتَقرأهُ ﴿مِن قَبۡلِ أَن﴾ يَفرُغَ مِنَ تلاوتِهِ عليكَ، وقد أمَّنَهُ مِنَ النِّسْيانِ بقولِهِ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] وقولِهِ:[٨] ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

ثم أمَرَهُ ﷺ أنْ يَسألَهُ أنْ يزيدَ لهُ عِلْماً [بقولِهِ][٩] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ أي لا تَعْجَلْ بما ذُكِرَ مِنَ الوعيدِ لهمْ في القرآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يأتيَ وقتُهُ كقولِهِ: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ [مريم: ٨٤]

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ][١٠] مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ جائزٌ ما قالَهُ أهل التأويلِ: أنهُ كانَ يَتْلو مع تلاوةِ جبريلَ، فقالَ لهُ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ إنْ ثَبَتَ عنهُ أنهُ كانَ يَتْلُو مع تلاوةِ جبريلَ: وجائزٌ النَّهيُ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ، على ما نَهَى هو عنْ أشياءَ مِنْ [غيرِ][١١] أنْ كانَ منهُ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م ساقطة من الأصل (٤) من م، في الأصل: يتذكر. (٥) في الأصل وم: عليها.
(٦) في الأصل وم: يتكلم. (٧) في الأصل وم: بأولها. (٨) في الأصل وم: وكذلك. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قالَ الحَسَنُ وعامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي ضَيَّعَ، وتَرَكَ، ليسَ نِسْيانَ السَّهْوِ، لأنهُ عُوتِبَ عليهِ، وعُوقِبَ بهِ. ولا يُعاتَبُ المَرْءُ على ما هو حقيقةُ السَّهوِ والنِّسيانِ. فَدَلَّ أنهُ على التَّضْييعِ والتَّرْكِ، ليسَ على النِّسيانِ والسَّهْوِ. إلى هذا يذهبُ هؤلاءِ. لكنْ يَقْبُحُ هذا: أنْ يُقالَ في آدمَ أو في نَبِيٍّ مِنْ أنبيائِهِ أو في رسولٍ مِنْ رُسُلِهِ ﷺ إنه[1] ضَيَّعَ. والنِّسيانُ عندنا على قسمينِ [أحَدهما][2]: نِسيانٌ يكونُ عنْ غَفْلَةٍ منهُ وشُغْلٍ، ما لولا ذلكَ الشُّغْلُ منهُ والغَفْلَةُ، لَحَفِظَهُ، وذَكَرَهُ، ولا يَنْساهُ. [والمُعاتَبَةُ جائِزَةٌ][3] على هذا النِّسيانِ؛ إذْ لو كانَ تَكَلَّفَ لكانَ لا يَنْساهُ، ولا يَقَعُ فيهِ. [والثاني: نسيانٌ][4] يَقَعُ فيهِ مِنْ غيرِ سَبَبٍ، كانَ منهُ، لا يَمْلِكُ دَفْعَهُ. وذلكَ نِسيانٌ مالا يُعاتَبُ عليهِ، ولا يُعاقَبُ بهِ.

وهكذا الكُلْفَةُ مِنَ اللهِ تعالى والمِحْنَةُ؛ إنهُ جائزٌ أنْ يُكلِّفَ، ويَمْتَحِنَ مَنْ لا يَعْلَمُ، ولا يَعْقِلُ الكُلْفَةَ وَقْتَ تَكْليفِهِ إيّاهُ بَعْدَ أنْ يَحْتَمِلَ عَقْلُهُ إدراكَ ذلكَ لوِ اسْتَعْمَلَهُ.

فأمّا مَنْ كانَ عَقْلُهُ لا يَحْتَمِلُ إدراكَ ما كَلَّفَهُ، وإنِ اسْتَعْمَلَهُ، وأجْهَدَ نفسَهُ فيهِ، فإنهُ لا يُكَلَّفُ البَتَّةَ. فَعَلى ذلكَ النِّسيانُ الذي ذُكِرَ مِنْ آدمَ؛ جائزٌ أنهُ لو تَكَلَّفَ لَحَفِظَهُ[5] وذَكَرَهُ. فإنما عوقِبَ[6] لذلكَ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قالَ الحَسَنُ: أي مَنْعاً مِنَ الشيطانِ. وقالَ بعضُهُمْ: صَبْراً ونَحْوَهُ. والعَزْمُ حقيقةُ القَصْدِ والقَطْعِ على الشَّيءِ، وهو ضِدُّ النسيانِ الذي ذُكِرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: العَزْمُ هو المُحافَظَةُ على أمْرِ الله والتَّمسُّكِ بهِ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي قالَ:

لولا صَرْفُ[7] أهلِ التأويلِ سجودَ[8] الملائكةِ لآدمَ إلى حقيقةِ السجودِ، وإلّا جائزٌ أنْ يُصْرَفَ الأمْرُ بالسجودِ والخُضوعِ لهُ. والسجودُ هو الخُضوعُ حينَ[9] ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] وقد يُؤْمَرُ الإنسانُ بالخُضوعِ لِمَنْ يَتَعَلَّمُ منهُ العِلْمَ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ليسَ شقاءَ الدينِ، ولكنْ تَعَبُ النفسِ والنَّصَبُ في العَمَلِ.

الآيتان ١١٨ و١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي لا تُصيبُكَ [الشمسُ][10].

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي لا يَفْنى.

الآية ١٢١ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ [طه: ١١١] أي ذَلَّتْ؛ يُقالُ: عَنا يَعْنُو عَنْواً. وقالَ ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] أي ظُلْماً؛ هَضَمْتُهُ، واهضَمْتُهُ مِثْلُهُ.

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الهَضْمُ النُّقْصانُ، وقالَ: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٦] القاعُ الأرضُ التي يَعْلُوها الماءُ، وهو قريبٌ مِمّا ذَكَرْنا واللهُ، أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ كلُّ مَنْ عَصى ربَّهُ فقد غَوى. العِصْيانُ والغِوايةُ واحدٌ.

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجائز المعاتبة. (٤) في الأصل وم: ونسيان آخر. (٥) في الأصل وم: حفظه. (٦) في م: عوتب. (٧) في الأصل وم: قول. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٢٢ وقولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ يحتملُ وجوهاً: أحدُها: اجتباهُ للتوبةِ وهداهُ لها. [والثاني:][1] اجتَباهُ ربُّهُ للرسالةِ، وهَداهُ لها. [والثالثُ][2] اجتَباهُ ربُّهُ للدينِ، وهَداهُ لِلتَّوحيدِ. وهذا جائزٌ عندَنا [لأنَّ][3] لِلتَّوحيدِ والإيمانِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ والحُدوثِ في كلِّ وَقْتٍ وكلِّ ساعةٍ لأنهُ مأمورٌ بتَرْكِ الكُفرِ ونَفْيِهِ في كلِّ وقْتٍ. فإذا كانَ مأموراً بتَرْكِ الكُفرِ في كلِّ وقْتٍ مَنهِيّاً عنهُ كانَ مأموراً بالإيمانِ والتَّوحيدِ. فإذا كانَ ما ذَكَرْنا دلَّ أنَّ للإيمانِ والتَّوحيدِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ والحُدوثِ، وفي كلِّ وقتٍ. وإلّا ظاهرُ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أنهُ لم يكُنِ اجْتَباهُ قَبْلَ ذلكَ، فاجْتَباهُ مِنْ بَعْدُ. لكنَّ الوجْهَ ما ذَكَرْنا مِنَ اجْتِبائِهِ إياهُ لِلرِّسالةِ واجْتِبائِهِ لِلتَّوحيدِ والطاعاتِ والخَيراتِ ونَحْوِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ وقالَ [في آيِ أُخَرَ][4]: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ [البقرة: ٣٦و٣٨ والأعراف: ٢٤] عَنَى آدَمَ وحَوّاءَ وإبليسَ. والهُبوطُ ليسَ هو الانْحِدارَ والتَّسَفُّلَ /٣٣٥ ـ ب/ مِنَ المكانِ العالي المرتفعِ. إنما هو النُّزولُ في المكانِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ أرادَ ذُرِّيَّتَهُما: ذُرِّيَّةَ آدمَ وذُرِّيَّةَ إبليسَ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ يَعْني الذُّرِّيَّةَ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ في النارِ. واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ الضَّنْكُ هو الشِّدَّةُ والضِّيقُ. ثم اختَلَفوا فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ في الدنيا، وإنْ كانَتْ واسِعَةً عليهِ، لأنهمْ يُنْفِقونَ، ولا يَرَونَ لِنَفَقَتِهِمْ خَلَفاً ولا عاقِبَةً، ويَرَونَ[5] الدنيا تدومُ. فذلكَ يَمْنَعُهُمْ عنِ التَّوسيعِ في الإنفاقِ خَوفاً [مِنْ نَفادِ][6] ذلكَ المالِ وبَقاءِ أنفسِهِمْ لِما ذَكَرْنا أنهمْ لا يَرَونَ لِنَفَقَتِهِمْ خَلَفاً ولا عِوَضاً ولا عاقِبَةً لها، فذلكَ الضَّنْكُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ لأنهمْ يُنَغَّصونَ[7] بما أُعطُوا مِنَ المالِ، وأُنعِموا فيهِ، لأنَّ تَوَسُّعَهُمْ يكونُ في مَعْصِيَةٍ، فَنَفَى عَنْهُمُ الانْتِفاعَ بِهِ كما نَفَى عَنْهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ باسْتِعْمالِهِمْ هذه الجوارِحَ في المَعْصِيَةِ على قِيامِها لَمّا ذهبَتْ مَنافِعُها فيها[8].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ في عذابِ القَبْرِ. لكنْ لا يُقالُ لِمَنْ في القَبْرِ: إنَّ لهُ مَعيشةً ضَنْكاً حتى يُوصَفَ بالضِّيقِ. وعذابُ القَبْرِ سبيلُ مَعْرِفَتِهِ السَّمْعُ. فإنْ ثَبَتَ السَّمْعُ. وإلّا فالتَّرْكُ أَولَى.

وقالَ قائلونَ: ذلكَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: نَحْشُرُهُ أعْمَى عنْ حُجَجِهِ في دينِهِ. لكنْ متى كانَتْ لهُ الحُجَجُ في الدنيا حتى يَعْمى عنها في الآخِرَةِ؟ وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عَمى الحقيقةِ كقولِهِ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ [الإسراء: ٩٧] فهو على حقيقةِ عَمى البَصَرِ، وهو أشْبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٥ قالَ مُجاهدٌ: قولُهُ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ قال: بلا حُجَّةٍ لي ﴿وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ في الدنيا. لكنَّ الأشبَهَ، هو ماذَكَرْنا مِنْ حقيقةِ ذهابِ البَصَرِ؛ إذْ لم يكُنْ للكافرينَ حُجَّةٌ في الدنيا حتى يقولَ ﴿وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ بعدَ ما حُوسِبوا، وسِيقوا إلى النارِ، نعوذُ باللهِ مِنَ النارِ. فعندَ ذلك يَعْمَى عليهِ البَصَرُ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ يُبْعَثونَ مِنْ قبورِهِمْ، ويُحْشَرونَ عُمياناً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ أي كما أتَتْكَ آياتُنا، فَصَيَّرْتَها كالشيءِ المَنْسِيِّ عنْ رَحْمَتِهِ [لم تكْتَرِثْ إليها، ولم تَنْظُرْ فيها، ولم تَرْغَبْ فيها، كذلكَ تَصيرُ في النارِ كالشيءِ المَنْسِيِّ عنْ رَحْمَتِهِ][9] لا يُكْتَرَثُ إليكَ، ولا يُنْظَرُ إليكَ. أو يقولُ: كما ضَيَّعْتَ آياتِنا التي أتَتْكَ لِنجاتِكَ كذلكَ تُضَيَّعُ أنتَ، وتُتْرَكُ في النارِ، لا نَجاةَ لكَ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) في الأصل وم: يريدون. (٦) في الأصل وم: النفاذ. (٧) في الأصل وم: يغصون. (٨) في الأصل وم: في الطاعة. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي كذلكَ نَجزي كلَّ مَنْ أسْرَفَ في الدنيا، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ ليسَ أحدٌ المخصوصَ بذلكَ دونَ غيرِهِ، ولكنْ كلُّ مَنْ كانَ[1] ضَيَّعَهُ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ كأنهُ قد سَبَقَ منهُ الوَعيدُ لهمْ في عذابٍ. ثم قالَ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ مِنَ العذابِ الذي أُوعِدْتُمْ. وإلّا فَعَلى الابْتِداءِ لا يُقالُ هذا.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ جَميعُ ما ذَكَرَ في القرآنِ مِثْلُ هذا: [قولُهُ][2] ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦و..] [وقولُهُ][3] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ [يوسف: ١٠٩و..] [وقولُهُ][4]: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ [الأنعام: ٦و..] وأمثالُهُ. كلُّهُ أنهُ قد بَيَّنَ لهمْ [ما][5] وراءَ ذلكَ، أي قد بَيَّنَ لهؤلاءِ أنهمْ قد وافَقُوا أولئكَ الذينَ أهْلَكَهُمْ مِنَ القُرونِ الماضيةِ وما نَزَلَ بهمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ والآياتِ التي أتَوا بها، وهُمْ آمِنونَ ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾.

فكيفَ أمِنَ هؤلاءِ مِنْ عذابِ اللهِ موافَقَتَهُمْ أولئكَ في جميعِ صنيعِهِمْ؟ أو يقولُ: أفَلَمْ تَتَبَيَّنْ لهمْ سُنَّتي في مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ مِنَ القرونِ الماضيةِ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ ورَدِّهِمُ الآياتِ، وهُمْ كانوا آمنينَ في مساكِنِهِمْ؟ فكيفَ أمِنَ هؤلاءِ مِنْ عذابِهِ، وقد ساوَوا أولئكَ في جميعِ صَنيعِهِمْ وفِعْلِهِمْ. وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أولُو[6] النُّهَى هُمُ الذينَ انْتَهَوا عمّا نَهاهُمُ اللهُ عنهُ، وهُمْ ذَوُو العقولِ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ موضعٍ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] أي لا تَظْهَرَ للشمسِ، والظَّمأُ العَطَشُ، والضُّحى الحَرُّ، [وكذلكَ][7] قالَ أبو عُبَيْدَةَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١] ﴿وَطَفِقَا﴾ وعَلِقا واحدٌ؛ يُقالُ: عَلِقَ يَعْلَقُ عَلَقاً فهو عالِقٌ وطافِقٌ. وقالَ: يُقالُ: مِنَ الخَصْفِ خَصَفْتُ الخُفَّ إذا أنْعَلْتُهُ، ونَعَلْتُ الخُفَّ، وتُسَمَّى تلكَ [القطعةُ التي يُخْصَفُ بها][8] النَّعيلَةَ، والنَّعايِلُ جمعٌ. وقالَ ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] أي ضَيِّقَةً. قالَ أبو عُبَيْدَةَ: وكلُّ ضيقِ مَنْزِلٍ أو غيرِهِ فهو ضَنْكٌ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو على التَّقديمِ والتأخيرِ، أي ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وأجلٌ مُسَمًّى لكانَ العذابُ لازماً لهمْ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يُلْزَمُ كلُّ إنسانٍ بما عَمِلَ، والأجلُ[9] المُسَمَّى الساعةُ التي قالَ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ على غَيرِ التقديمِ والتأخيرِ، لكنهُ على الإضمارِ، أي ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ولكنْ سيُلْزِمُهُمْ إلى أجلٍ مُسَمًّى، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

وقولُهُ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بما يكونُ بحقِّ الإفضالِ أو توجيهِ الحكمةِ لكانَ العذابُ لازماً لهمْ.

وحقُّ الإفضالِ ما سَبَقَ منهُ الوعيدِ انهُ يؤخِّرُهُ[10]. ولا يُقالُ في مَنْ[11] كانَ طريقُهُ الإفضالَ: لِمَ تَفَضَّلْتَ؟ وأصلُ هذا: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لولا ما سَبَقَ مِنْ وَعْدِهِ أنهُ لا يُعَذِّبُ هذهِ [الأُمَّةَ][12] تَعْذيبَ إهلاكٍ وَقْتَ تَكذيبِهِمُ الرسلَ ورَدِّهِمُ الآياتِ، ولكنْ يُؤَخِّرُهُ[13] إلى أجلٍ مُسَمًّى، وهو ما ذَكَرْنا، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ على أذاهُمْ بِلِسانِهِمْ مِنَ السَّبِّ والنِّسْبَةِ إلى السِّحرِ

(١) من م، في الأصل: هذا. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لأولى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ما. (١٢) من م: ساقطة من الأصل. (١٣) الهاء ساقطة من الأصل وم.

والجُنونِ والافْتِراءِ على اللهِ تعالى ونَحْوِهِ، وإنْ كانَ وَعدَهُ[1] أنهُ يَعْصِمُهُ منهمْ حتى لا يَقْدِروا على إتلافِهِ وإهلاكِهِ، لأنَّ في حِفْظِ نفسِهِ مِنَ الإتلافِ والإهلاكِ آيَةً مِنَ آياتِ رسالتِهِ؛ إذْ بَعَثَهُ إلى الفراعِنَةِ والجبابِرَةِ الذينَ كانَتْ هِمَّتُهُمْ وعادَتُهُمْ قَتْلَ مَنْ يُخالِفُهُمْ في شيءٍ وإهلاكَ مَنْ يَسْتَقْبِلُهُمْ بما يَكْرَهونَ. فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عنْ إتلافِهِ وإهلاكِهِ وحِفْظُ نفسِهِ منهمْ أنهُ كانَ ذلكَ لآيةٍ في نفسِهِ.

وأمّا أذاهُمْ إيّاهُ باللسانِ فَلَيسَ[2] في حِفْظِهِ عنهُ آيةٌ، لأنَّ ذلكَ ما [3] كانَ آيَةً. فهمْ وذلكَ ممّا لا يُؤَثِّرُ نَقْصاً في نَفْسِهِ أو شيئاً. ألا تَرَى أنهمْ قالوا في الله ما لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ وغَيرِهِ؟ فَدَلَّ انهُ ليسَ في حِفْظِ نفسِهِ عنْ أذاهُمْ بِلِسانِهِمْ آيةٌ. إنما الآيةُ في ما ذَكَرْنا مِنْ حِفْظِ نَفْسِهِ مِنَ الإتلافِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: صَلِّ بأمرِ ربِّكَ. وتأويلُ قولِهِمْ هذا: صَلِّ بأمْرِ ربِّكَ لأنهُ أمَرَهُ أنْ يُصَلِّيَ لهُ[4] بقولِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [هود: ١١٤و..] وقولِهِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣و..] فيكونُ قولُهُ: ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي صلِّ بأمرِ ربِّكَ الذي أمَرَكَ بقولِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولولا صَرْفُ أهلِ التأويلِ /٣٣٦ ـ أ/ التسبيحَ في هذهِ الآيةِ إلى الصلاةِ، وإلّا يجوزُ أنْ يُصْرَفَ إلى غَيرِها مِنَ الأذكارِ في كلِّ وَقْتٍ. لكنْ صَرَفوهُ إلى الصلاةِ، لأنَّ الصلاةَ تَشْتَمِلُ على مَعانٍ قَولاً وفِعْلاً، وسائرَ الأذكارِ لا تَشْتَمِلُ إلّا على مَعْنَى الذِّكْرِ قَولاً. فهي أجْمَعُ وأشْمَلُ لِذِكْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ قَبْلَ صلاةِ الفَجْرِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاةُ العَصْرِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [صلاةُ][5] الظهرِ والعَصْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ﴾ قيلَ: صلاةُ الفَجْرِ والعَصْرِ، فهو على التكرارِ والإعادةِ تأكيداً كقولِهِ ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] [ذَكَرَ الصلواتِ كلَّها][6] ثم خَصَّ الصلاةَ [الوُسْطى بالذكرِ لِتأكيدِ المَعْنَى][7] وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تكراراً منهُ لِصلاةِ الفَجْرِ والعَصْرِ [التأكيدِ المَعْنَى][8] وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ ليسَ[9] على إرادةِ وَقْتٍ دونَ وَقْتٍ، ولكنْ يُريدُ بهِ الأوقاتَ كلَّها. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ مَنْ قالَ في قولِهِ: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاةُ الظهرِ والعَصْرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بالنَّصْبِ والرَّفْعِ جميعاً[10] أي يُرضيكَ ربُّكَ بما عَمِلْتَ، أو يَرْضَى بذلكَ.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هذه الآيةُ تَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تَرْغَبَنَّ في هذه الدنيا، ولا تَرْكُنَنَّ إلى ما مَتَّعْنا هؤلاءِ مِنْ ألوانِها وبُهْرَتِها. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٨٥].

والثاني: قولُهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ على حقيقةِ مَدِّ البَصَرِ، أي لا تَمُدَّنَّ بَصَرَكَ إلى أعْيُنُ الدنيا وإلى ظاهِرِ ما هُمْ عليهِ مِنَ الغُرورِ والتَّزْيينِ. ولكنِ انْظُرْ إلى الدنيا إلى ما جُعِلَتِ الدنيا وإلى ما فيها مِنْ سُمومِها وتَنْغيصِها على أهلِها؛ فإنَّ مَنْ نَظَرَ إليها لِما فيها مِنْ سُمومِها وتَنْغيصِها زَهِدَ [11] فيها، ورَغِبَ عنها، ومَنْ نَظَرَ إليها وإلى عَيْنِها وظاهِرِ ما هي عليها مِنَ الغُرورِ والتَّزْيينِ لَاغْتَرَّ بها، ورَغِبَ فيها، ورَكَنَ إليها. ومَنْ نَظَرَ إلى حقيقةِ ما هي عليهِ، وجُعِلَتْ، على ما ذَكَرْنا زَهِدَ [12] فيها، ورَغِبَ عنها.

ثم معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَكُنْ يَمُدُّ بَصَرَهُ إلى الدنيا، أو يَرْكُنُ إليها، ويَرْغَبُ فيها لها. ولكنْ[13] إنما هو ابْتِداءُ نَهْيٍ رسولِهِ.

ومعلومٌ أيضاً أنهُ لو رَغِبَ في شيءٍ منها لم يكُنْ يَرْغَبُ لِيَتَمَتَّعَ هو بهِ. إنما يَرْغَبُ، ويَتَناوَلُهُ لِيُوَسِّعَ بهِ على أهلِ الحاجةِ

---

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لو. (٤) من م، في الأصل: لله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: لمعنى، في م: بالذكر لمعنى. (٨) في الأصل وم: لمعنى. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: انه. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٢٠. (١١) من م، في الأصل لذهب. (١٢) في الأصل وم: لزهد. (١٣) في الأصل وم : و.

والفقرِ، ثم نَهاهُ عن ذلكَ. فَدَلَ أنَّ الزُّهْدَ فيها والرَّغْبَةَ عنها خيرٌ مِنَ الأخذِ منها والوضعِ في [المُسْتَحقِّينَ][1] نَهاهُ عن ذلكَ على عِلْمٍ منهُ أنهُ لا يَتناولُهُ[2] لِيَتَمَتَّعَ هو بهِ، ليُوسِّعَ بهِ على نَفْسِهِ، ولكنْ [يأخُذُهُ لِيَضَعَهُ في المُسْتَحقِّينَ لهُ][3].

ثم اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في التقديمِ والتأخيرِ. قالَ الحَسَنُ: هو على تقديمِ قولِهِ: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ يقولُ: تأويلُهُ: لا تَمُدَّنَّ عينَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بهِ أزواجاً زَهْرَةَ الحياةِ الدنيا. فَعَلَى تأويلِهِ: أزواجاً زَهْرَةَ الحياةِ الدنيا: أي ألواناً وأصنافاً مِنَ النباتِ. فذلكَ زَهْرَةُ الحياةِ الدنيا.

قالَ بعضُهُمْ: على غَيرِ تقديمٍ، ولكنْ على سِياقِ ما ذُكَرَ في الآيةِ. فَعَلَى هذا يكونُ تأويلُ الأزواجِ أي رجالاً منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي لِنَبْتَلِيَهُمْ، ونَخْتَبِرَهُمْ. وكأنَّ الفِتْنَةَ، هي المِحْنَةُ التي فيها شِدَّةٌ وبلاءٌ. كأنهُ أخبَرَ أنهُ إنما مَتَّعَهُمْ بما مَتَّعَ مِنْ زَهْرَةِ الحياةِ الدنيا لِيَمْتَحِنَهُمْ فيها بالشدائدِ كقولِهِ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥٥].

وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقالَ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ففي[4] هذهِ الآياتِ دلالةٌ أنَّ السَّعَةَ والضِّيقَ فيها ليسَ لِفَضْلِ أهلِهِ ولأهوائِهِمْ. ولكنْ إنما هو مِحْنَةٌ؛ يَمْتَحِنُهُمْ، فَيَمْتَحِنُ [بعضَهُمْ][5] بالسَّعَةِ والغِنَى، وبعضَهُمْ بالشِّدَّةِ والضِّيقِ. فالتَّكَلُّمُ بأنَّ هذا خيرٌ مِنْ هذا [وهذا أفضَلُ مِنْ هذا][6] لا مَعْنَى لهُ معَ ما ذَكَرْنا مِنَ البيانِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ أنَّ الزهدَ في الدنيا وتَرْكَ التناولِ منها حَلالاً[7] خَيرٌ مِنَ التناولِ منها [حلالاً ووضعِهِ في مَوضِعِهِ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي ما رَزَقَكَ ربُّكَ مِنَ النُّبُوَّةِ والرسالةِ والتوحيدِ لهُ والإيمانِ بهِ خَيرٌ وأبقَى ممّا مَتَّعَ هؤلاءِ مِنْ ألوانِ زَهْرَةِ الحياةِ الدنيا وأصنافِها.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي حَظُّكَ مِنْ ربِّكَ خَيرٌ في الخيرِ في البَقاءِ ممّا مَتَّعَ بهِ هؤلاءِ مِنْ زَهْرَةِ الدنيا. وهو قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ نَزَلَ بهِ ضَيفٌ، فاسْتَلَفَ مِنْ يَهودِيٍّ طعاماً[9]، فَأَبَى أنْ يُعْطِيَهُ إلّا أنْ يَرْهَنَ دِرْعَهُ عندَهُ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية تَعْزِيَةً لهُ عنِ الدنيا. لكنْ لسنا نَعْرِفُ [سَبَبَ][10] نزولِ الآيةِ على ما ذُكِرَ إلّا أنْ يُثْبَتَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بأهلِهِ قَومَهُ. وقد يُسَمَّى قومُ الرسُلِ أهلَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بالأهلِ الذينَ تَأَهَّلَهُمْ، وكانوا في عِيالِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي داوِمْ عليها، والزَمْها. فيهِ أنَّ الصلاةَ فُرِضَتْ على الدوامِ عليها واللُّزومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا[تَسألُ لِلخَلْقِ][11] رِزْقاً، بل نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي لأهلِ التَّقوَى كقولِهِ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ سألوهُ أنْ يأتِيَهُمْ بآيةٍ مِنْ عندِ ربِّهِ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ، فقالَ ﷻ ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي قد أتاهُمْ بِبَيِّنَةٍ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ ﴿مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾لأنَّ الكُتُبَ المُتَقَدِّمَةَ كانَتْ بِغَيرِ لسانِ رسولِ اللهِ، ولم يَكُنْ يَعْرِفُ الكتابةَ بلسانِهِ فَضْلاً [عنْ أنهُ لم][12] يَعْرِفْ غَيرَها مِنَ الكُتُبِ التي كانَتْ على غَيرِ لسانِهِ.

---

(١) في الأصل وم: الحق حيث. (٢) في الأصل وم: ليتناولها لها. (٣) في الأصل وم: يأخذها ليضع في المحقين لهم. (٤) من م، في الأصل نهي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والغناء. (٧) في الأصل وم: حلال. (٨) في الأصل وم: حلال ووضعها موضعها. (٩) في الأصل وم: طعام. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: نسألك الخلق. (١٢) في الأصل وم : من أن.

ثم أخبَرَ عنِ الأنباءِ التي كانَتْ في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ على ما كانَتْ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ تلكَ الأنباءَ والقِصَصَ التي كانَتْ في كُتُبِهِمْ باللهِ تعالى. فهذا، واللهُ أعلَمُ، تأويلُ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي قد أتاهُمْ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي مِن قَبْلِ رسولِهِ ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: ليسَ للهِ أنْ يُعَذِّبَهُمْ تعذيبَ إهلاكٍ قَبْلَ أنْ يَبْعَثَ رسولاً، ويَحْتَجُّ بظاهرِ هذهِ الآيةِ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

وعندنا لهُ أنْ يُهْلِكَهُمْ بعذابٍ قَبْلَ الرسولِ إليهِمْ، لأنهُ تعالى قد أقامَ عليهِمْ حُجَّةَ العقلِ ما لو تأمَّلوا، ونَظَروا فيهِ، لَعَرَفوا، وأدرَكوا حقَّ اللهِ عليهِمْ. فإذا كانَ كذلكَ كانَ[1] إهلاكُهُ إياهُمْ إهلاكاً عنْ بَيِّنَةٍ وحُجَّةٍ. لكنهُ بِفَضْلِهِ ورحمَتِهِ لا يُهْلِكُهُمْ بأوَّلِ آيةٍ يُرسِلُها[2] عليهِمْ حتى يُرْسِلَ الآياتِ إفضالاً منهُ ومِنَّةً. وإلّا كانَ لهُ إهلاكُهُمْ بآيةٍ واحدةٍ، فيكونُ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ [لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾][3] إنما ذلكَ لِقَطْعِ ذلكَ القولِ منهُمْ لا أنْ كان لهمْ ذلكَ القولُ والإِحتِجاجُ بذلكَ، ولأنَّ قولَهُ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ [لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾][4] يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الإمْتِنانِ أنهُ لم يُهْلِكْهُمْ قَبْلَ بَعْثِ الرسلِ. فَدَلَّ أنَّ لهُ إهلاكَهُمْ قَبْلَ بَعْثِ الرسولِ لِما ذَكَرْنا مِنْ إقامَةِ حُجَّةِ العَقْلِ عليهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ كانوا يَتَرَبَّصونَ هلاكَ رسولِ اللهِ وانْقِلابَ / ٣٣٦ ـ ب/ أمْرِهِ، ورسولُ اللهِ يَتَرَبَّصُ بهمْ عذابَ اللهِ ومَواعيدَهُ فيهِمْ.

قالَ الحَسَنُ: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي تربَّصوا مَواعيدَ الشيطانِ، ونحنُ نَتَرَبَّصُ مواعيدَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [أي[5] فَستَعْلَمونَ في الآخرةِ عِلْمَ عِيانٍ ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾][6] نَحْنُ أو أنْتُمْ.

وفي الدنيا لو تأمَّلوا، ونَظَروا، لَعَلِموا عِلْمَ استِدلالٍ وإدراكٍ ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ والصراطُ السَّوِيُّ: قالَ بعضُهُمْ: العَدْلُ، وقيلَ[7]: السَّوِيُّ القَيِّمُ.

وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ومَنْ على الهُدَى، واللهُ أعلمُ. والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

(١) في الأصل وم: فكان. (٢) في الأصل وم: يرسل. (٣) في الأصل وم: كذا. (٤) في الأصل وم: كذا. (٥) في م: قوله. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: قال.

سورة الأنبياء عليهم السلام

كلُّها مكيةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي مُحاسَبَتُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ ظاهرُ هذا أنهُ نَزَلَ في المُشْرِكينَ لأنها نَزَلَتْ بمكةَ، وكانَ أكْثَرُ أهلِها أهلَ شِرْكٍ. لكنْ لِأهلِ الإسلامِ في ذلكَ [حظٌّ وشِرْكٌ في ما وَصَفَهُمْ بالغَفْلَةِ عَنْ ذلكَ][1] والإعراضِ عنهُ.

وأهلُ الإسلامِ قد يَغْفُلونَ عنِ الحسابِ، إلّا أنَّ غَفْلَةَ أهلِ الكُفرِ غَفْلَةُ تكذيبٍ، وإعراضَهُمْ إعراضُ تكذيبٍ بالحسابِ والآياتِ التي أنزَلَها عليهِمْ. وغَفْلَةَ أهلِ الإسلامِ ليسَتْ كذا؛ قد آمَنوا بالحسابِ، وصَدَّقوا بآياتِهِ، وعَرَفوها، لكنهُمْ غَفَلوا عنِ الحسابِ لِشَهَواتٍ مُكِّنَتْ فيهِمْ، وغَلَبَتْ شَهَواتُهُمْ، وأغْفَلَتْهُمْ عنهُ [فهمْ مِنْ][2] هذهِ الجهةِ كأولئكَ. فأمّا مِنْ جِهَةِ الإيمانِ بِهِ والتصديقِ بالآياتِ فَلَيسوا كأولئكَ.

ثم وصفُ الحسابِ والساعةِ بالقُرْبِ والدُّنُوِّ والإتيانِ كقولِهِ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] وقولِهِ[3]: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ وأمثالُهُ. هي قريبةٌ كالمَأتِيَّةِ عندَ اللهِ تعالى عَرَّفَ جملةَ الأوقاتِ، فهي في جملةِ ما عَرَّفَ قريبةٌ كالمَأتِيَّةِ.

وأمّا الخَلْقُ [فإنهمْ قدِ استَبْعَدوها لأنهمْ][4] إنما يُقَدِّرونَ ذلكَ بآجالِهِمْ وأعمارِهِمْ، وما جاوَزَ أعمارَهُمْ فهو عندَهُمْ بعيدٌ ليسَ بقريبٍ. وهذا إنما يكونُ بَعْدَ ذهابِ أعمارِهِمْ.

وقالَ قَتادةُ: ذُكِرَ أنهُ لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ والآيةُ[5]: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] قالَ ناسٌ مِنْ أهلِ الضَّلالِ: يَزْعُمُ هذا الرجلُ أنَّ الساعةَ قدِ اقْتَرَبَتْ، فَتَناهَوا قليلاً، ثم عادوا إلى أعمالِهِمْ[6]. وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] تناهَوا عنها. ثم لمّا تَأخَّرَ ذلكَ عنهمْ عادوا إلى ما كانوا مِنْ قَبْلُ. هذا لأنهمْ فَهِموا مِنْ قُرْبِ الساعةِ وإتيانِ أمرِهِ وَقْتاً يَقْرُبُ، ومُدَّةً تَدْنو. فلمّا مَضَى ذلكَ وقَعَ عندَهُمْ أنَّ الخَبَرَ كَذِبٌ، فَكَذَّبوهُ لأنهمْ إنما قَدَّروهُ بآجالِهِمْ وما عَرَفوا هُمْ مِنَ القُرْبِ والدُّنُوِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ غَفْلَةِ تكذيبٍ وإعراضِ تكذيبٍ بَعْدَ ما عَرَفوا أنها آياتُ اللهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ مُحكَمٍ أحْكَمَهُ مِنْ أنْ يأتيَهُ الباطلُ مِنْ بَينِ يَدَيهِ أو[7] مِنْ خَلْفِهِ، وأحْكَمَهُ لمّا أعْجَزَ الخَلْقَ عنْ أنْ يَأتوا بِمِثْلِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ لأنَّ اللهَ أنْزَلَ هذا القرآنَ بالتفاريقِ، وأحْدَثَ إنزالَهُ في كلِّ وقْتٍ على قَدْرِ الحاجَةِ.

فَعَلى ما نَزَلَ بالتَّفاريقِ أحْدَثوا هُمْ؛ أعني الكَفَرَةَ تَكْذيبَهُ ورَدَّهُ على ما ذَكَرَ ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٥] ونَحْوِهِ. فهو مُحْدَثٌ مِنَ الوُجوهِ التي ذَكَرْنا، لأنَّ كلَّ مَوصوفٍ بالإتيانِ فهو مُحْدَثٌ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فمن. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) في الأصل وم: أعمارهم. (٧) في الأصل وم: ولا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أنَّ استِماعَهُمْ إيّاهُ استِماعُ استِهزاءٍ بِهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا الذي أسَرُّوا في ما بَينَهُمْ ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ هذا كانَ نَجواهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ قيلَ: غافِلَةً قلوبُهُمْ عنِ الذِّكرِ ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الذي أسَرُّوهُ هو ما ذَكَرْنا قولُهُمْ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ السِّحْرَ.

وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: وأسَرُّوا النَّجْوَى الذينَ كَفَروا منهُمْ. وقالَ الكِسائيُّ: وفي بَعْضِ الحروفِ ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قالَ: وفي حَرْفِنا ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ ثم أخبَرَ ﷻ عنهمْ خَبَراً مُستأنَفاً، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كقولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ [المائدة: ٧١] ثم قالَ: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا على كلامَينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ القولَ الذي أسَرُّوا في ما بينَهُمْ ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقولَهُ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وقولَهُ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الآية: ٥] وأمثالَ ما قالوا فيهِ، ونَسَبوهُ إليهِ، أي قُلْ لهمْ: ربّي يَعْلَمُ ذلكَ القولَ منكُمْ في السماءِ والأرضِ لِتَنْتَهوا عنْ ذلكَ، لأنَّ مَنْ يَعلَمُ في الشاهِدِ أنَّ أحداً يَطَّلِعُ على جميعِ ما يَختارُهُ مِنَ القولِ والفِعْلِ تَرَكَ ذلكَ، وامْتَنَعَ عنِ التَّفَوُّهِ بهِ والإقدامِ على ما يَختارُهُ، أو أنْ يكونَ قالَ ذلكَ على الابْتِداءِ والائْتِنافِ أنهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميعُ لِقولِهِمْ، العَليمُ بأفعالِهِمْ.

الآية ٥ ثم أخبَرَ عنْ سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ نَظَرِهم في قولِهِمْ وكلامِهِمْ وحِفْظِهِمْ عنِ التَّناقُضِ، فقالَ: ﴿بَلْ قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ في ما نَسَبوهُ إلى الشِّعْرِ والسِّحْرِ والافْتِراءِ وأنهُ أضغاثُ أحلامٍ: تَناقُضٌ في قولِهِمْ، لأنَّ السِّحْرَ هو غيرُ الافْتِراءِ، والسِّحْرَ غيرُ أضغاثِ الأحلامِ، كلُّ حَرْفٍ مِنْ هذه الحروفِ التي نَسَبوها[1] إليهِ يُناقِضُ الآخَرَ، ويُبْطِلُهُ. فَدَلَّ أنهمْ إنما قالوا ذلكَ، ونَسَبوهُ إلى ما نَسَبوا مُتَعَنِّتِينَ مُكابِرِينَ لا عَنْ معرفةٍ وعِلْمٍ قالوا ذلكَ. وتَناقَضَ[2] قولُهُمْ وكلامُهُمْ؛ إذِ السِّحْرُ لا يَدومُ، ولا يَبْقَى في وَقْتٍ آخَرَ.

فإذا عَرَفوا، وعَلِموا أنهُ دائمٌ، ويَبْقَى إلى آخِرِ الدهرِ، وكذلكَ ما قالوا مِنْ أضغاثِ الأحلامِ والافْتِراءِ، أعني ما أتى رسولُ اللهِ ﷺ [دامَ، وبَقِيَ، وأنهُ][3] لو كانَ ما أتاهُمْ بهِ سِحْراً كانَ ذلكَ آيةً وعلامةً على صِدْقِهِ ونُبُوَّتِهِ، لأنَّ السِّحْرَ لا يَعْرِفُهُ أحدٌ إلّا بالتعليمِ. فإذا رَأَوْهُ نَشَأَ بَينَ أظهُرِهِمْ، ولم يكُنْ في قومِهِ ساحرٌ حتى يَتَعَلَّمَ منهُ/ ٣٣٧ ـ أ/ ولا[4] اخْتَلَفَ إلى أحدٍ مِنَ السَّحَرَةِ يَتَعَلَّمُ منهُ السِّحْرَ، ثم أتى بهِ، كانَ[5] ذلكَ يَدُلُّ على أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

فكيفَ وقد أتاهُمْ بالحُجَجِ النَّيِّرَةِ الواضِحَةِ والآياتِ المُعْجِزَةِ الخارجةِ عنْ وُسْعِ البَشَرِ وطَوْقِهِمْ؟ لكنهمْ كابَروا، وعانَدوا في رَدِّها وتَكْذيبِها، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ قد عَلِموا عِلْمَ حقيقةٍ أنهُ قد أتاهُمْ بآياتٍ وحُجَجٍ ما لو تَأَمَّلوا فيها، ولم يُكابِروا، لَدَلَّهُمْ على صِدْقِهِ ورسالَتِهِ، وقد عَرَفوا أنهُ صادقٌ. لكنهُمْ سألوا في قولِهِمْ: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ الآيةَ التي تَنْزِلُ عندَ المُكابَرَةِ والعِنادِ، وهي الآيةُ التي نَزَلَتْ في الأُمَمِ الخاليةِ عندَ مُكابَرَتِهِمُ الآياتِ والحُجَجَ، وهي إهلاكُهُمْ واستِئصالُهُمْ؛ إذْ مِنْ سُنَّتِهِ وحُكْمِهِ في الأوّلينَ الإهلاكُ والاسْتِئصالُ عندَ مكابَرَتِهِمُ الآياتِ والحُجَجَ. وسُنَّتُهُ وحُكْمُهُ في هذهِ الأمّةِ خَتْمُ النُّبُوَّةِ بهِمْ وإبقاءُ شريعةِ محمدٍ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، إلى الساعةِ.

وسُنَّتُهُ في الأُمَمِ الماضيةِ نَسْخُ شرائِعِهِمْ واستِبْدالُ أحكامِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: نسبوه. (٢) في الأصل وم: إذ تناقض. (٣) في الأصل وم: بهم وبعد فانه. (٤) من م، في الأصل: ولما. (٥) في الأصل وم: لكان.

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا جَعَلَ وقْتَ إهلاكِهِمُ الساعةَ، وهو ما قالَ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الآية [القمر: ٤٦].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيةٍ سألوا الآيةَ سُؤالَ مُكابرَةٍ وعِنادٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يُؤمِنُ هؤلاءِ، وإنْ أتاهُمْ بآيةٍ فإنهمْ لا يُؤمِنونَ كما لم يُؤمِنْ أولئكَ المُتقدِّمونَ، لأنهمْ يَسْألونَ سُؤالَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ كأنَّ هذا خَرَجَ جواباً لقولِهِمْ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ كذا، وجوابَ قولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وجوابَ قولِهِمْ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فقالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي بَشَراً نوحي إليهِمْ إلى عامَّةِ الخَلْقِ؛ أي الرسالةُ في الأممِ الذينَ منْ قَبْلِهِ إلى عامَّةِ الخَلْقِ كانَتْ في البَشَرِ. لم تكُنْ في الملائكةِ، وإلّا كانَتِ الرسالةُ إلى الخَواصِّ في الملائكةِ، وهُمُ الرسلُ. فَعَلَى ذلكَ لا تُجعَلُ الرسالةُ في هذهِ الأمَّةِ إلى عامَّةِ الخَلْقِ في الملائكةِ، ولكنْ تُجعَلُ في البَشَرِ على ما جَعَلَ في الأُمَمِ الأُولى في البَشَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي [جَعَلْنا الرسالةَ][(1)] في الذكورِ منهمْ، لم يَجْعَلْها في النساءِ والإناثِ لِما لم يَسْتَكْمِلْنَ شرائِطَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ. فكانَ الأوَّلُ في بَيانِ الجِنْسِ؛ أي لم يَجْعَلِ الرسالةَ إلى عامَّةِ الخَلْقِ إلى الملائكةِ، ولكنْ جعَلَها في البَشَرِ. والثاني في بَيانِ اسْتِكْمالِ شرائِطِ الرسالةِ واسْتِحْقاقِها.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: وما أرْسَلْنا قَبْلَهُ إلّا رجالاً نوحي إليهِمْ. فَعَلَى حَرْفِهِما كأنهُ خاطَبَ بِهِ أولئكَ الكَفَرَةَ، أي ما أرْسَلْنا قَبْلَ محمدٍ إلّا رجالاً نوحي إليهِمْ. وفي القراءةِ الظاهرةِ المشهورةِ يكونُ الخِطابُ لرسولِ اللهِ، أي قُلْ لهمْ: إنهُ ما أرسلَ اللهُ مِنْ قَبْلِكَ إلّا رجالاً يُوحَى[(2)] إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما خاطَبَ بِهِ مُشْرِكي العَرَبِ، وأمَرَهُمْ أنْ يَسْألوا أهلَ الكتابِ الذينَ كانوا يؤمِنونَ بالرسلِ المُتقدِّمةِ لِيُخبِروكُمْ أنهُ لم تُجْعَلِ الرسالةُ فيهِم إلى عامَّةِ الخَلْقِ إلّا في البَشَرِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنما خاطَبَ بِهِ مَنْ كَفَرَ مِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ لا يَعْرِفُ الكتابَ وغَيرَهُ بمحمدٍ أنِ اسْألوا أهلَ الذِّكْرِ أي مَنْ آمَنَ منهمْ لِيُخبِروكُمْ أنَّ محمداً رسولُ اللهِ إليكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتمْ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ خاصَّةً. والتأويلُ الأوَّلُ في جميعِ الرسلِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما جَعَلْناهُمْ[(3)] أجساداً، لا أرواحَ فيها، لا يَأكلونَ، ولا يَشْرَبونَ. ولكنْ جَعَلْناهُمْ أجساداً فيها أرواحٌ، يَأكلونَ، ويَشْرَبونَ، ويَمْشونَ في الأسواقِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ مِنْ نَحْوِ الملائكةِ والجِنِّ، ولكنْ جَعَلْناهُمْ بَشَراً.

وحاصِلُهُ أنهمْ كانوا يَطْعَنونَ الرسلَ بأشياءَ؛ مَرَّةً قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] ومَرَّةً طَعَنوا الرسلَ أنهمْ كانوا يأكلونَ الطعامَ، ويَشْرَبونَ، ويَنْكِحونَ، ويَمْشونَ في الأسواقِ كغَيرِهِمْ مِنَ الناسِ كقولِهِمْ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] ونَحْوَهُ. فَأَلْزَمَهُمْ ﷺ وأخبَرَهُمْ أنَّ الرسلَ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ كانوا يأكلونَ، ويَشْرَبونَ، ويَمْشونَ، ويَقْضونَ حوائِجَهُمْ حينَ[(4)] قالَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَٰلِدِينَ﴾ في الدنيا، وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

فَعَلَى ذلكَ هذا الرسولُ المَبْعوثُ إليكُمْ هو كسائِرِ الرسلِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ؛ هو مِمَّنْ يأكُلُ، ويَشْرَبُ، ويَنْكِحُ، وهو رسولٌ، وإنهُ بَشَرٌ كسائِرِ الرسلِ. وهو رسولُ اللهِ. على هذا يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ.

(١) في الأصل: جعلنا، في م: جعلها. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٣٠. (٣) في الأصل وم: جعلنا. (٤) في الأصل وم: حيث.

وهذه الآيةُ تَرُدُّ على الباطِنيَّةِ قولَهُمْ ومذهَبَهُمْ، لأنهم يقولونَ: إنَّ الرسالةَ لا تكونُ في الجوهَرِ الكثيفِ الجَسَدانيِّ الذي يأكُلُ، ويَشْرَبُ، ويَفْنَى، ويَبِيدُ، إنما يكونُ في الجوهَرِ البَسيطِ الذي لا يأكُلُ، ولا يَشْرَبُ، ولا يَبِيدُ، ولا يَفْنَى. فأخبَرَ ﷻ أنهُ لم يَجْعَلْهُمْ أجساداً[1]، لا يأكُلونَ الطعامَ، ولا يَبيدونَ، بل جَعَلَهُمْ أجساداً يأكُلونَ، ويَموتونَ، بقولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أخبَرَ أنهُ وَعَدَ الرسلَ وَعْداً لكنهُ لم يُبيِّنْ ما كانَ ذلكَ الوعدُ الذي وَعَدَ رسلَهُ. لكن في آخِرِهِ بيانٌ أنَّ الوَعْدَ الذي وَعَدَهُمْ كانَ وَعْدَ إهلاكٍ وتعذيبٍ لأنهُ قالَ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أنَّ الوَعْدَ كانَ وَعْدَ إهلاكٍ. فنقولُ كانَ وَعَدَ ﷺ الرسلَ الذينَ[2] مِنْ قَبْلُ مِنْ إهلاكِ مَنْ كَذَّبَهُمْ، فكانَ كما وَعَدَ، وإنْ تأخَّرَ ذلكَ الموعودُ عَنْ وقْتِ الوَعْدِ. فَعَلَى ذلكَ ما وَعَدَكُمْ محمدٌ مِنَ العذابِ فإنهُ نازلٌ بكمْ، وإنْ تأخَّرَ نُزولُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ ما يُذَكِّرُكُمْ ما تأتونَ، وتتَّقونَ، أو يُذَكِّرُكُمْ مالكُمْ وما عليكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ أي شَرَفُكُمْ ونُبْلُكُمْ لوِ اتَّبَعْتُمْ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيهِ دينُكُمُ الذي أمْسَكَ عليكم بِهِ. وقالَ غيرُهُ: فيهِ شَرَفُكُمْ ونُبْلُكُمْ لوِ اتَّبَعْتُموهُ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي شَرَفٌ لكَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ قَصَمْنا: أهلَكْنا. وأصلُ القَصْمِ الكَسْرُ. يُخَوِّفُ أهلَ مكةَ بتكذيبِهِمْ محمداً ما نَزَلَ بأولئكَ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ قولُهُ ﴿أَحَسُّواْ﴾: قالَ بعضُهُمْ: عَلِموا بالعذابِ ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي يَفِرّونَ، ويَهْرُبونَ. وقالَ بعضُهُمْ: يَعْدونَ، وهو واحدٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي أُنعِمْتُمْ ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ مِثْلُ هذا يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الاستِهْزاءِ بهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تُحاسَبونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ الإيمانَ كما سُئِلْتُموهُ قَبْلَ نُزولِ/ ٣٣٧ ـ ب/ العذابِ. وقيلَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنْ قتْلِ نَبِيِّكُمْ لأنهمْ قَتَلوا [نبيَّهُمْ؛ تُسْألونَ فيمَ][3] قَتَلْتُموهُ؟

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ هذا في نازلةٍ، واللهُ أعلَمُ، تَلَقَّتْهُمُ الملائكةُ، وهُمْ هاربونَ فارّونَ، فقالوا لهمْ: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ استِهْزاءً بهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تفقَهونَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الأنبياء: ٥] قالَ: الضِّغْثُ ما لا تأويلَ لهُ. ويُقالُ: حُلْمٌ وأحلامٌ.

ويُقالُ: حَلَمَ يَحْلُمُ حُلْماً فهو حالمٌ إذا رأى [حُلْماً أي][4] شيئاً في النومِ، واحْتَلَمَ يَحْتَلِمُ لا يكونُ مِثْلَ: حَلِمَ يَحْلَمُ، ويُقالُ مِنَ الحِلْمِ حَلُمَ [يَحْلُمُ][5] حِلْماً فهو حليمٌ. ويُقالُ: حَلَّمْتُهُ أي جَعَلْتُهُ حَليماً. والافتِراءُ الكذِبُ، والشاعرُ إنما سُمِّيَ شاعراً لأنهُ يَشْعُرُ مِنَ الكلامِ مالا يَشْعُرُ بهِ غيرُهُ. والقَصْمُ الكَسْرُ، والمُرادُ منهُ الهلاكُ؛ قَصَمَ غيرَهُ، وانقَصَمَ بنفسِهِ أي انكَسَرَ.

وقالَ: أحَسُّوا، أي استَيقَنوا بِعذابِنا، ويُقالُ: أحْسَسْتُ، أي وَجَدْتُ، وأحْسَسْتُ، أي عَلِمْتُ، واستَيقَنْتُ. يقالُ: أحْسَسْتُ؛ قَطَعْتُ، وتَحَسَّسْتُ، أي تَخَبَّرْتُ، والمِحَسَّةُ الفِرْجَونُ.

وقالَ: يركُضونَ يَهْرُبونَ ﴿إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي أُنعِمْتُمْ، ومُتِّعْتُمْ، والإترافُ الإكرامُ.

---

(١) في الأصل وم: جسداً. (٢) من م، في الأصل: الذي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ أبو عُبَيدَة: يركُضونَ يَعْدونَ، وقولُهُ ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ ليسَ على الأمرِ، ولكنْ أي لو رَجَعْتُمْ ﴿إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾. وكذلكَ ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ [النمل: ٣٦،٠٠] ليسَ على الأمرِ، ولكنْ لو سِرْتُمْ ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي لو رَجَعْتُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [عمّا أُترِفْتُمْ فيهِ][1] مِنْ قَبْلُ. فَيُخَرَّجُ ذلكَ مُخرَجَ الاستِهزاءِ جَزاءً لِصَنيعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يُقِرّونَ يومئذٍ بالظُّلْمِ، لكنْ لا يَنفَعُهُمْ ذلكَ، ويَنْدَمونَ على سوءِ صَنيعِهِمْ، فَيَطلُبونَ العَودَ إلى دُنياهُمْ كقولِهِ[2]: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي ما زالَتْ تلكَ أقوالُهُمْ: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ في النارِ في الآخِرةِ، واللهُ أعلَمُ. و﴿حَصِيدًا﴾ أي هالِكاً، وهو محصودٌ. و﴿خَٰمِدِينَ﴾ كما يُقالُ: خَمَدَتِ النارُ إذا طُفِئَتْ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ لم يَخْلُقِ السماءَ والأرضَ وما بينَهما [لِتكونا][3] سماءً وأرضاً على ما هما عليهِ، ثم تَفْنَيانِ، وتَبيدانِ. ولكنْ خَلَقَهُما لِعاقبةٍ قَصَدَها، وهي[4] أنْ يَمْتَحِنَ أهلَها، لأنَّ مَنْ عَمِلَ في الشاهِدِ عَمَلاً، لا يَقْصِدُ بهِ عاقبةً يأمُلُ، ويرجو أمراً، فهو في عَمَلِهِ عابثٌ لاهٍ[5]، ولو كانَ على ما عندَ أولئكَ الكَفَرةِ بأنْ لا بَعْثَ، ولا حِسابَ، ولا جَزاءَ، ولا ثوابَ، لَكانَ إنشاؤُها وما بينَهما باطلاً لَعِباً كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ عَدَمَ الرجوعِ إليهِ خَلْقَهُمْ شيئاً باطلاً.

وقالَ الحَسَنُ: لم يَخْلُقْهُما عَبَثاً، ولكنْ خَلَقَهُما لِحِكْمةٍ؛ مَنْ نَظَرَ إليهما دَلّاهُ[6] على وَحْدانيّةِ مُنْشِئِهِما وسُلْطانِهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ وعلى عِلْمِهِ وتدبيرِهِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَهْوًا﴾ أي زوجةً. لكنَّ هذا بَعيدٌ لأنهُ احتَجَّ عليهِمْ على نَفْيِ الوَلَدِ بِنَفْيِ الصاحِبةِ بقولِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] فلولا أنهمْ أقَرّوا، وعرَفوا أنْ لا صاحِبةَ لهُ، وإلّا لم يكُنْ لِلاحتِجاجِ عليهِمْ على نَفْيِ الوَلَدِ بِنَفْيِ الصاحِبةِ مَعْنًى، ويكونُ قولُهُ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي وَلَداً، لأنَّ الناسَ يَتَلَهَّونَ بالوَلَدِ فَسَمّاهُ لَهْواً. لِذلكَ قالَ: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ وهذا[7] يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ بحيثُ لا يَبْلُغُ أفهامُكُمْ، ولا يُدْرِكُهُ عِلْمُكُمْ، لأنَّ الولدَ يكونُ مِنْ جِنْسِ الوالدَينِ ومِنْ شَكْلِهِما، وسَبيلَ مَعْرِفَتِهِ وعِلْمِهِ الاستِدْلالُ الحِسِّيُّ. فإذا لم يَعْرِفوهُ[8] بالحِسِّيِّ، فكيفَ يَعْرِفونَ مَنْ هو يكونُ منهُ لو كانَ؟.

والثاني: إنَّ الغائبَ إنما يُعْرَفُ بالاستِدْلالِ بالشاهِدِ. فلو كانَ لهُ الوَلَدُ على ما تَزْعُمونَ لَكانَ لا يُعْرَفُ لأنهُ لا صُنْعَ لِلْوَلَدِ في الشاهِدِ، إذْ هو الواحدُ المُنْفَرِدُ بإنشاءِ العالَمِ، فَتَذْهَبُ مَعْرِفَةُ الولدِ وإدراكُهُ[9] لو كانَ على ما تَزْعُمونَ. وقولُهُ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ ليسَ على أنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لهُ الوَلَدُ، أو أنْ يَحْتَمِلَ أنْ يَتَّخِذَ ولداً، ولكنْ لوِ احْتَمَلَ أنْ يكونَ لم يَحْتَمِلْ أنْ يُدْرَكَ. وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ليسَ [على][10] أنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ فيهما آلهةٌ [ولكنْ لوِ احْتَمَلَ أنْ يكونَ فيهما آلهةٌ][11] لَفَسَدَتا.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الحقُّ الذي أخبَرَ أنهُ يَقْذِفُ على الباطلِ القرآنَ الذي أنْزَلَهُ على رسولِهِ، والرسولَ نفسَهُ، أوِ الآياتِ التي جَعَلَها لِوحدانيّتِهِ والوهيّتِهِ ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي يُبْطِلُ ذلكَ الذي قالوا في اللهِ ما قالوا مِنَ الوَلَدِ والصاحِبةِ وغَيرِهِ مِمّا لا يَليقُ بهِ. فإذَنْ هو زاهِقٌ، أي هو ذاهبٌ مُتَلاشٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كقولهم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: لاغ. (٦) في الأصل وم: دالان. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يعرفوا هو. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ مِنَ الوَلَدِ والصاحِبَةِ وجميعِ ما وَصَفوهُ مِمّا لا يَليقُ بِهِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كأنهُ ذَكَرَ جواباً لقولِهِمْ وَرَدّاً على وَصْفِهِمْ إياهُ بالذي وَصَفوهُ، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كُلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ولا أحَدَ في الشاهِدِ يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ وَلَداً مِنْ عَبيدِهِ وإمائِهِ. فإذا لم تَرَوا هذا في الخَلْقِ أنَفاً مِنْ ذلكَ واسْتِنْكافاً فكيفَ قُلْتُمْ ذلكَ في اللهِ سُبحانَهُ؟ وأَضَفْتُمْ إليهِ؟

أو يُخْبِرُ غِناهُ عنِ الخَلْقِ بأنَّ لهُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ، والوَلَدُ في الشاهِدِ إنما يُطْلَبُ لِحاجةٍ تَسْبِقُ. فإذا كانَ اللهُ ﷻ غَنِيّاً بِذاتِهِ بما ذَكَرَ بأنَّ لهُ كذا فلا[1] حاجَةَ تَقَعُ لهُ إلى الوَلَدِ. تعالى اللهُ عمّا يقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لقولِهِمْ: الملائكةُ بَناتُ اللهِ. فأخْبَرَ أنهمْ لَيسوا كما وصَفْتُموهُمْ[2]، ولكنَّهُمْ عَبيدٌ لي، وهُنَّ[3] لا يَسْتَريحونَ عنْ عبادتي، ولا يَفْتُرونَ، ولم يَدَّعُوا هُمْ ألوهِيَّةً لأنفُسِهِمْ. فكيفَ نَسَبْتُمُ الألوهِيَّةَ إليهِمْ، وعَبَدْتُموهُمْ دوني؟ أو أنْ يكونَ قالَ ذلكَ: إنكمْ إنِ اسْتَكْبَرْتُمْ عنْ عِبادَتي فلم يَسْتَكْبِرْ عنها مَنْ هو أرفَعُ مَنْزِلَةً وأعْظَمُ قَدْراً منكمْ.

الآية ٢٠ [وهو قولُهُ تعالى][4]: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ يُنَزِّهونَ اللهَ، ويُبَرِّؤونَهُ عمّا وَصَفَهُ المُلْحِدَةُ مِنَ الوَلَدِ وجميعِ ما قالوا فيهِ مِمّا لا يَليقُ بهِ.

وهذهِ الآيةُ تَنْقُضُ قولَ المُعْتَزِلَةِ ومذهَبَهُمْ حينَ قالوا: إنَّ الأعمالَ لأنفسِها مُتْعِبَةٌ مُنْصِبَةٌ، ولو كانَتِ الأفعالُ لأنفسِها مُتْعِبَةً على ما ذَكروا لَكانَ البَشَرُ والملائكةُ شَرْعاً. فلما أخْبَرَ عنهمْ أنهم لا يَعْيَونَ، ولا يَفْتُرونَ، ولا تُتْعِبُهُمُ العبادةُ دلَّ أنها صارَتْ مُتْعِبَةً لِصُنْعِ غَيرٍ فيها لا لأنفسِها. وهذهِ المسألةُ في خَلْقِ أفعالِ العبادِ: همْ يُنْكِرونَ خَلْقَها، ونَحْنُ نقولُ: هي خَلْقُ اللهِ ﷻ كَسْبٌ لِلْعِبادِ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ موضعٍ كلاماً كافياً.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨] أي يُبْطِلُهُ. وقالَ غيرُهُ: يُهْلِكُهُ، وهو مِنْ قولكَ:/ ٣٣٨ - أ/ ضَرَبْتُ الرجلَ، فَدَمَغْتُهُ إذا وَصَلَتِ الضربةُ إلى الدماغِ. وإذا كانَ كذلكَ ماتَ. فكذلكَ يَدْمَغُ الحقُّ الباطلَ، أي يُهْلِكُهُ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهبٌ ومَيِّتٌ. زَهَقَ إذا ماتَ، وهَلَكَ، والزاهقُ في غَيرِ هذا السمينُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] أي لا يَعْيَونَ، ومنهُ ﴿حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] ومَحسورٌ أيضاً [وقولُهُ][5]: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ الفتورُ[6] الإعياءُ أيضاً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قولُهُ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ اسْتِفهامٌ في الظاهرِ مِنَ الخَلْقِ، لكنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ على الإيجابِ؛ كأنهُ قالَ: قدِ اتَّخذوا آلهةً. وهكذا كلُّ ما خَرَجَ في الظاهرِ مِنَ اللهِ على الاسْتِفْهامِ فإنهُ على الإيجابِ لأنهُ عالمٌ بما كانَ، ويكونُ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

وأمّا الخَلْقُ فإنهُ يجوزُ أنْ يَسْتَفْهِمَ بَعْضٌ مِنْ بَعْضٍ لِما يَخْفَى على بَعْضٍ أمورُ بَعْضٍ، فَيَطْلُبُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضِ العِلْمَ والفَهْمَ بذلكَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ][7] وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يَخْلُقونَ؟ أيِ اتَّخذوا آلهةً، لا يَخْلُقونَ، كقولِهِ ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ [الرعد: ١٦] وكيفَ اتَّخذوا آلهةً؟ لا يَخْلُقونَ، وإنما يُعْرَفُ الإلهُ بالخَلْقِ، وبآثارٍ تكونُ في الخَلْقِ. فإذا لم يكُنْ مِنْ هؤلاءِ خَلْقٌ كيفَ اتَّخذوها آلهةً؟

والثاني: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يَبْعَثونَ؟ ويُحْيُونَ؟ فإنْ كانَ على البَعْثِ والإحياءِ فكأنهُ يقولُ: كيفَ اتَّخذوا مَنْ لا يَمْلِكُ البَعْثَ والإحياءَ آلهةً؟

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وصفتهم. (٣) في الأصل وم: فن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والفتور. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وخَلْقُ الخَلْقِ لِلْبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ يُخرَّجُ على غَيرِ الحِكْمَةِ في الظاهرِ، لأنَّ مَنْ بَنَى في الشاهدِ بناءً لِلنَّقْضِ خاصَّةً لا لِعاقِبَةٍ يَقْصِدُها[1] بِهِ كانَ غَيرَ حكيمٍ في فِعْلِهِ عابثاً في بِنائِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جَعَلَ خَلْقَ الخَلْقِ لا للرجوعِ إليهِ عَبَثاً، فيُخَرَّجُ هذا على وجهَين:

[أحَدُهما][2]: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾ أي قدِ اتَّخذوا ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾؟.

[والثاني][3]: أولم يَتَّخِذوا ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ هُمْ يَمْلِكونَ النَّشْرَ أوِ النُّشورَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصَةَ: لو كانَ فيهِنَّ آلِهةٌ غَيرُ اللهِ لَفَسَدْنَ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وُجوهاً:

أحَدُها: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي لم يكونا مِنَ الأصلِ، لأنَّ العُرْفَ في الملوكِ أنَّ ما بَنَى هذا، وأثبَتَهُ، يُريدُ الآخَرُ نَقْضَهُ وإفناءَهُ، فلم يُثْبِتا، ولم يكونا مِنَ الأصلِ، لو كانَ لِعَدَدٍ.

والثاني: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ لم تكُنْ مَنافِعُ إحداهما مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأُخرَى لِلْخَلْقِ؛ إنْ مَنَعَ كلُّ واحِدٍ منهُمْ مَنافِعَ ما خَلَقَ هو مِنْ أنْ تَصِلَ إلى الأُخرَى. فإذا اتَّصلَتْ مَنافِعُ إحداهما بالأُخرَى. دلَّ أنهُ صُنْعُ واحِدٍ وتدبيرُ واحِدٍ لا عَدَدٍ.

والثالثُ: لو كانَ عَدَداً لكانَ لا يَخرُجُ تدبيرُهما على حدٍّ واحِدٍ في كلِّ عامٍ على سَنَنٍ واحِدٍ. دَلَّ أنهُ تدبيرُ واحِدٍ لا عَدَدٍ؛ إذْ لو كانَ لِعَدَدٍ لكانَ يَختلِفُ الأمْرُ في كلِّ عامٍ، ولم يَتَّسِقْ على سَنَنٍ واحِدٍ، ولا جَرَى على أمْرٍ واحِدٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ هو قولُ اللهِ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] على ما هو مِنْ عادةِ ملوكِ الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها: أنهُ لا يُسْأَلُ، لأنَّ ما يَفْعَلُ يَفْعَلُ في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ، وإنما يُسْأَلُ مَنْ فَعَلَ في سُلْطانِ غَيرِهِ ومُلْكِ غَيرِهِ. ففي ذلكَ دلالةٌ أنهُ لا يجوزُ التناوُلُ في شيءٍ إلّا بالأمْرِ والإباحةِ مِنْ مالِكِهِ. فَيَبْطُلُ قولُ مَنْ يقولُ هو على الإطلاقِ والإباحةِ في الأصلِ.

والثاني: لا يُسْأَلُ عما يَفْعَلُ لأنهُ حكيمٌ بذاتِهِ، لا يَخرُجُ فِعْلُهُ عنِ الحِكْمَةِ، فإنما يُسْأَلُ مَنْ يَحْتَمِلُ فِعْلُهُ السَّفَهَ. فأمّا مَنْ لا يَحْتَمِلُ فِعْلُهُ إلّا الحِكْمَةَ فإنهُ لا يَحْتَمِلُ السؤالَ لِمَ فَعَلْتَ؟ ولماذا فَعَلْتَ؟.

والثالثُ: لوِ احْتَمَلَ السؤالَ عمّا يَفْعَلُ لَاحْتَمَلَ الأمْرَ النَّهْيَ أنِ افْعَلْ كذا، ولا تَفْعَلْ كذا. وذلكَ مُحالٌ. ولو ثَبَتَ الأمْرُ فيهِ لكانَ يُخَرَّجُ سؤالُهُ سؤالَ حاجةٍ، لأنَّ مَنْ يأمُرُ مَنْ فوقَهُ بأمْرٍ فإنما يكونُ أمْرَ سؤالِ حاجةٍ، ومَنْ يأمُرُ مَنْ دونَهُ فيكونُ أمْرُهُ أمْراً.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ فيهِ دلالةُ لزومِ الدليلِ على النافي، لأنهُ لمّا قالَ: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ كانَ لهُمْ أنْ يقولوا: هاتِ أنتَ البرهانَ على ما ادَّعيتَ مِنَ الأُلوهِيَّةِ، ونحنُ نُنْكِرُ ذلكَ. فإذا لم يكونوا يقولونَ ذلكَ دلَّ أنَّ الدلالةَ تُلْزِمُ النافِيَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ أي هذا القرآنُ [﴿ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾][4]. قالَ بَعْضُهُمْ: هذا القرآنُ فيهِ ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ مِنَ الحلالِ والحرامِ لهمْ ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ أي فيهِ ذِكْرُ أعمالِ الأُمَمِ السالِفَةِ وأخبارِهِمْ وما صَنَعَ اللهُ بهِمْ إلى ما صاروا إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: يقصده. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي خَبَرُ مَنْ معي ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾ أي خَبَرُ مَنْ قبلي، فيكونُ فيهِ دليلُ رسالتِهِ لأنهُ أخبَرَ عنْ أبناءِ الأُمَمِ السالِفَةِ وأخبارِهِمْ على ما ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ ما في كتبِهِمْ [أو][1] يَتَعلَّمَ منهُمْ، أو يَنْظُرَ [ما][2] كانَ منهُ فيها لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾ ما ذَكَرَ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] أي ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾ وذِكْرُ الرسُلِ مَنْ قَبْلي ومَنْ معهمْ، أي هذا الذِّكْرُ أرسَلَني إلى مَنْ معي وأرسلَ الذينَ مَنْ قبلي إلى قومِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ كذلكَ كانوا لا يَعلمونَ الحقَّ بإعراضِهِمْ عنهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ أخبَرَ أنهُ لم يُرسِلْ رسولاً مِنْ قَبْلُ إلّا بما ذَكَرَ مِنْ قَبْلُ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي وَحِّدوني في الألوهيَّةِ؛ لا تَصرِفوا الألوهيَّةَ إلى غَيري، ولا تُشرِكوا مَنْ دوني في أُلوهيَّتي، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي فاصْرِفوا[3] العِبادَةَ إليَّ، ولا تَصرِفوا العِبادَةَ إلى مَنْ دوني[4]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ أنهمْ لم يَنْسِبوا الولَدَ إليهِ، ولا قالوا ذلكَ: إنهُ اتَّخذَ ولداً على حقيقةِ الوِلادِ، ولكنْ قالوا ذلكَ على الصَّفْوَةِ واصْطِفاءِ مَنْ أضافوا، ونَسَبوا إليهِ، لأنهُ أخبَرَ أنَّ الذينَ قالوا: إنهمْ وَلَدُهُ مِنْ نَحْوِ عيسى وعُزَيرٍ والملائكةِ، لَيسوا كما وَصَفوا، ولكنهمْ عبادٌ مُكْرَمونَ.

الآية ٢٧ ثم أخبَرَ بما أكْرَمَهُمْ، فقالَ: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ أخبَرَ أنهمْ لا يَتَقدَّمونَ في قولٍ[5] ولا فِعْلٍ إلّا بإذْنٍ[6] منهُ وأمرٍ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا يأمُرونَ بشيءٍ، ولا يَنْهَونَ عن شيءٍ إلّا بإذْنٍ مِنَ اللهِ وأمرٍ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ هذا قد ذَكَرْناهُ في سورةِ طه [الآية: ١١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ كقولِهِ[7] في آيةٍ أُخرى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩] فيكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ أي إلا لِمَنْ أذِنَ لهُ.

ثم يَتوَجَّهُ قولُهُ: ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ إلى الشفيعِ، أي لا يُؤذَنُ لأحدٍ بالشَّفاعةِ إلّا مَنْ كانَ مَرْضِيّاً مُرْتَضى ديناً وعَمَلاً. ويتوجَّهُ قولُهُ: ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ إلى المَشفوعِ لهُ ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ عنهُ الرَّبُّ مَذهباً وعَمَلاً حتى لم يدخُلْ في عملِهِ تقصيرٌ.

ثم الشَّفاعةُ إنما جُعِلَتْ/ ٣٣٨ ـ ب/ في الأصلِ لِلتَّجاوُزِ في ما دَخَلَ في العَمَلِ مِنَ التَّقْصيرِ. ثم لا يَخْلُو الذي يَشْفَعُ لهُ إمّا أنْ يكونَ صاحبَ الصغيرةِ فيجوزُ أنْ يُعذَّبَ عليها، وإمّا[8] أنْ يكونَ صاحبَ كبيرةٍ، ففيهِ دلالةُ التجاوُزِ، والعَفْوُ عنْ صاحبِ الكبيرةِ لأنّا قد قُلْنا: إنَّ الشَّفاعةَ إنما جُعِلَتْ لِمَنْ منهُ التَّقْصيرُ في العَمَلِ. ففيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ صاحبَ الصغيرةِ مَعْفُوٌّ عنهُ لِلصَّغيرةِ[9] حتى لا يجوزَ أنْ يُعَذَّبَ عليها، وصاحبُ الكبيرةِ لا يجوزُ العَفْوُ عنهُ لِلتَّجاوُزِ، بل هو مُعَذَّبٌ أبداً.

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٧] أي مِنْ خَشْيَةِ عذابِهِ وهَيْبَتِهِ لا يَتَقدَّمونَ بقولٍ، ولا فِعْلٍ، ولا أمرٍ، ولا نَهْيٍ خوفاً منهُ وهَيْبَةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا كأنهُ مَقطوعٌ عمّا سَبَقَ، وتقدَّمَ ذِكْرُهُ، غيرُ مَوصولٍ بهِ، لأنَّ ما سَبَقَ: هو القَولُ منهمْ: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ [الأنبياء: ٢٦].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إلي. (٤) من م،في الأصل: دونه. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) من م،في الأصل: بأذنه. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: الصغيرة.

فلو كانَ على اتِّصالِهِ بالأوَّلِ لَكانَ يقولُ: ومَنْ يَقُلْ منهُمْ: إني وَلَدُ إلهٍ لأنهمْ قالوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ ولم يقولوا: اتَّخَذَ الرحمنُ إلهاً.

فلو كانَ على الصِّلَةِ بالأوَّلِ والجوابِ لهُ لكانَ[1] يُخَرَّجُ على الجوابِ لهمْ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ﴾ لكنْ كأنهمْ كانوا فِرَقاً: منهمْ مَنْ قالَ: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ ومنهمْ مَنْ عَبَدَ دونَهُ الملائكةَ، واتَّخَذَهُمْ آلهةً، فَيُخَرَّجُ هذا جواباً لذلكَ، فقالَ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ الآيةِ.

فإنْ قيلَ لنا في قولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقد عُبِدَ عيسى دونَهُ، وعُبِدَتِ الملائكةُ دونَهُ، فيكونونَ حَصَبَ جَهَنَّمَ على ظاهِرِ ما ذَكَرَ. قُلْنا: تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي إنكم وما تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ بأمرِ الذينَ عُبِدوا، وقالوا لهمُ: اعْبُدوني حَصَبُ جَهَنَّمَ. دليلُهُ ما ذَكَرَ في الآيةِ: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي المُشْرِكينَ؛ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ ههنا المُشْرِكينَ الكافِرينَ.

ثم قالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا يقولونَ ذلكَ لِما وَصَفَهُمْ بالطاعةِ[2] لهُ وتَرْكِ الخِلافِ لأمرِهِ. لكنهُ ذَكَرَ هذا لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنَّ مَنْ قالَ ذلكَ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ عندَهُ، وجَلَّتْ مَنْزِلَتُهُ، يَجْزيهِ[3] بما ذَكَرَ أنهُ يَسْتَوجِبُ لِذلكَ.

ولكنْ عندَنا المَعْصِيَةُ مِنَ الملائكةِ [مُمْكِنَةٌ مُحْتَمَلَةٌ، دليلُها][4]: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ لأنهُ قد مَدَحَهُمْ بقولِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ الآية [التحريم: ٦] وقولِهِ[5]: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية [الأنبياء: ١٩] فَدَلَّ ذلكَ كلُّهُ على أنهمْ مُخْتارونَ في ذلكَ غيرُ مَجْبورينَ[6] عليهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ هو إبليسُ؛ هو كانَ منهمْ، وهو الذي قالَ ذلكَ: ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ فاعْبُدوني، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: أنِ اعْلَموا، وَرُوا أنَّ السمواتِ والأرضَ كانَتا كذا.

والثاني: لو تَفَكَّروا، وتأمَّلوا، لَعَلِموا أنها كذا.

والثالثُ: على التَّنْبيهِ: أنْ قَدْرُوا، وعَلِموا أنهما كانَتا كذا. وكذلكَ هذا في كلِّ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أو لم تروا﴾ إلى كذا. فهو كلُّهُ يُخَرَّجُ على هذهِ الوُجوهِ.

ثم يكونُ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠إلى٣٣] كلُّ هذا كانَ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كأنهُ يقولُ: أوَلَمْ يَرَوا كذا؟ [أوَلَمْ يَرَوا ما جَعَلْنا لهمْ][7] مِنْ أنواعِ ما ذَكَرَ.

ثم ذِكْرُ ذلكَ لهمْ يكونُ لِوُجوهٍ:

أحَدُها: أنْ يَذْكُرَ نِعْمَهُ عليهمْ حينَ[8] أخبَرَ أنَّ السمواتِ والأرضَ كانَتا رَتْقاً، فَفَتَقَ منهما أرزاقَهُمْ.

[والثاني:][9] ذَكَّرَهُمْ أنهُ جَعَلَ بالماءِ حياتَهُمْ، وجَعَلَ لهمُ الأرضَ بحيثُ تَقَرُّ بأهلِها، وتَسْكُنُ بهمْ، وجَعَلَها مِهاداً لهمْ وفِراشاً بالجِبالِ حتى قَدَرُوا على المُقامِ بها والقَرارِ.

---

(١) في الأصل وم: فهو. (٢) من م، في الأصل: الطاقة. (٣) ادرج قبلها في الأصل وم: أنهُ. (٤) في الأصل وم: ممكن محتمل دليله. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مجبولين. (٧) في الأصل وم: ما جعلناهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: و.

[والثالث:](١) أنهُ جَعَلَ فيها فِجاجاً سُبُلاً لِيَصلوا إلى حوائجِهِمْ وشَهَواتِهِمْ ومنافِعِهِمُ التي جُعِلَتْ لهمْ في البلادِ النائيةِ.

[والرابعُ: أنهُ](٢) ذَكَّرَهُمْ نِعَمَهُ أيضاً في حِفْظِ السماءِ عنْ أنْ تَسْقُطَ عليهِمْ على ما أخْبَرَ أنهُ يُمْسِكُهُما هو بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

[والخامسُ:](٣) ذَكَّرَهُمْ أيضاً نِعَمَهُ في ما جَعَلَ لهمْ مِنَ الليلِ والنهارِ وفي الشمسِ والقمرِ مِنَ المَنافِعِ: يَسْتَأدي بذلكَ كلِّهِ الشُّكْرَ على ما أنْعَمَ عليهِمْ. أو تُذَكِّرُهُمْ بهذا قُدْرَتُهُ وسلطانُهُ، إذْ مَنْ قَدَرَ على فَتْقِ السماءِ والأرضِ وجَعْلِ حياةِ كلِّ شيءٍ في الماءِ وإمساكِ السماءِ وحِفْظِها عنْ أنْ تَسْقُطَ بلا عَمَدٍ وما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الليلِ والنهارِ وقَطْعِ الشمسِ والقَمَرِ بِيَومٍ واحدٍ مَسيرَةَ خَمْسِمِئَةِ عامٍ إنَّ مَنْ قَدَرَ على كلِّ ما ذَكَرَ لَقادِرٌ على بَعْثِهِمْ وإحيائِهِمْ بَعْدَ الموتِ وبَعْدَ ما صاروا تراباً.

[والسادسُ:](٤) أنْ يُذَكِّرَهُمْ غِناهُ بذاتِهِ ومُلْكِهِ. إنَّ مَنْ كانَ هذا سَبيلُهُ فأنّى تَقَعُ لهُ الحاجةُ إلى اتِّخاذِ الوَلَدِ أوِ الشَّريكِ أوِ الصاحبَةِ ردًّا على ما قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦] وما ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الأنبياء: ٢٤] ونَحْوَهُ؟

وبَيَّنَ فسادَ ذلكَ كلِّهِ وبُطلانَهُ حينَ قالَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقالَ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١] ونَحْوَهُ. يُبَيِّنُ بهذا كلِّهِ فسادَ ما ادَّعَوا على اللهِ أنهُ اتَّخَذَ كذا.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: فَتَقَ السماءَ بالمَطَرِ، والأرضَ بالنباتِ. فَتَقَ السماءَ، وهيَ أشَدُّ الأشياءِ وأصْلَبُها، بألْيَنِ شيءٍ، وهو الماءُ. وكذلكَ الأرضُ فَتَقَها بألْيَنِ شيءٍ، وهو النباتُ معَ شِدَّتِها وصلابَتِها، وهو ما ذَكَرَ مِنْ لُطْفِهِ وقُدْرَتِهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ مُلْتَزِقَتَينِ، فَفَتَقَهُما، وجَعَلَ بَينَهما هواءً مكاناً لِلْخَلْقِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانتِ السماءُ واحدةً والأرضُ كذلكَ، فَجَعَلَ مِنَ السماءِ سَبْعاً [ومِنَ الأرضِ كذلكَ سَبْعاً](٥) فكذلكَ فَتْقُهُ إياهُما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الماءُ نُطْفَةٌ، ونُطْفَةُ الرجالِ منهُ يَخْلُقُ الخلائِقَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ الذي خَلَقَ في الأرضِ أو أنْزَلَ مِنَ السماءِ حياةَ كلِّ شيءٍ؛ تُعْلَمُ حياةُ خَلائِقِ الأرضِ بهذا الماءِ. ولكنْ لا تُعْلَمُ حياةُ أهلِ السماءِ بماذا؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ الأرضَ لم يَكُنْ مِنْ طَبْعِها في الأصلِ التَّسَفُّلُ والتَّسَرُّبُ في الماءِ على ما قالَهُ بعضُ الناسِ، لأنهُ لو كانَ طَبْعُها التَّسَفُّلَ والتَّسَرُّبَ لَكانَتِ الجبالُ تُريدُ(٦) التَّسَفُّلَ في الماءِ والتَّسَرُّبَ. فإذا لم يَكُنْ دلَّ أنَّ طَبْعَها كانَ الاضْطِرابَ والزوالَ والتَّحَرُّكَ، والمَيْدَ بأصلِهِ(٧) في التَّسَفُّلِ والتَّسَرُّبِ. ولكنْ على ما ذَكَرْنا، فأثْبَتَها بالجبالِ، وإنْ كنا نشاهِدُ بَعْضَ أجزائها تَسْفُلُ، وتَسْرُبُ.

وهذا كما نقولُ: إنَّ بعضَ العالَمِ مُتَعَلِّقٌ بِبَعْضٍ، وإنهُ لا يَخْلو مِنْ مكانٍ، وكلُّ العالَمِ لا تَعَلُّقَ لهُ بهِ، ولا الأمكنةُ آخذةٌ لها. فَعَلى ذلِكَ الأرضُ. أو إنْ كانَ/ ٣٣٩ ـ أ/ طَبْعُها التَّسَفُّلَ والتَّسَرُّبَ، جَعَلَها بحيثُ تَقِرُّ، وتَسْكُنُ بشيءٍ، طَبْعُهُ(٨) التَّسَفُّلُ أيضاً باللُّطْفِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الفِجاجُ والسُّبُلُ واحدٌ، وهي الطُّرُقُ التي جَعَلَها في الجِبالِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الفِجاجُ السَّعَةُ والفُسْحَةُ، والسُّبُلُ الطُّرُقُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الفِجاجُ هي الطُّرُقُ التي في الجِبالِ، والسُّبُلُ هي التي في المَفاوِزِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: تدبر. (٧) في الأصل وم: بأصلها. (٨) في الأصل وم: طبعها.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي مَحبوساً عنْ أنْ يَسْقُطَ عليهِمْ. وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿مَّحْفُوظًا﴾ مِنَ الشّياطينِ، أي صارَ مَحفوظاً منهمْ حتى لا يَستَمِعوا كلامَ الملائكةِ بَعْدَ أنْ كانوا يَستَمِعونَ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: الفَلَكُ السماءُ. وقالَ بَعضُهُمْ: اِسْتِدارةُ السماءِ. وقيلَ: الفَلَكُ: الجَرْيُ والسُّرْعَةُ. وقيلَ: الفَلَكُ فَلْكَةٌ كَفَلْكَةِ المِغْزَلِ، وهو دَورانُهُ، وكذلكَ فَلْكَةُ الطاحونِ، وهو ما يُدَوِّرُ بِهِ الطاحونَةُ، وهي الحديدةُ التي تَدورُ بها الطاحونَةُ. وقالوا: إنَّ الفَلَكَ هو اسْتِدارَةٌ. وكلُّ شيءٍ دارَ فهو فَلَكٌ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: يَجْرونَ. وقالَ بَعضُهُمْ: [﴿يَسْبَحُونَ﴾ يَعْمَلونَ][1] وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ عبدِ اللهِ [بْنِ مَسْعودٍ][2]: كلٌّ في فَلَكٍ يَعْمَلونَ.

وظاهِرُ الآيةِ أنْ يكونَ هنالكَ [بَحْرٌ أو نَهرٌ][3] فيهِ تَجري الشمسُ والقَمَرُ، وفيهِ تَغْرُبانِ، ومنهُ يَطْلُعانِ، لأنهُ قالَ: ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والسِّباحَةُ هي المَعْروفَةُ عندَ الناسِ، وهو ما يُسْبِحُ المَرْءَ في بَحْرٍ أو نَهرٍ. هذا ظاهِرُ الآيةِ، [على ذلكَ][4] جاءتِ الأخبارُ.

رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ عَنِ النَّبيِّ ﷺ، أنهُ قالَ: «خَلَقَ اللهُ بَحراً دونَ سماءِ الدنيا، مِقْدارُهُ ثلاثةُ فراسِخَ، وهو موجٌ مَكْفوفٌ قائمٌ في الهواءِ بأمْرِ اللهِ تعالى، لا تَقْطُرُ منهُ قَطْرَةٌ، والبحورُ كلُّها ساكنةٌ، وذلكَ البَحْرُ جارٍ في سُرْعَةِ السَّهْمِ. ثم انْطِباقُهُ في الهواءِ مُسْتوٍ، كأنهُ حَبْلٌ ممدودٌ ما بَيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، فَتَجري الشمسُ والقَمَرُ والخُنَّسُ في ذلكَ البحرِ» فذلكَ قولُهُ: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والخُنَّسُ هي التي تَخْنُسُ بالنهارِ، وتَجري بالليلِ. والفَلَكُ دَورانُ العَجَلَةِ في لُجَّةِ غَمْرَةِ ذلكَ البَحْرِ.

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «والذي نَفْسِي بيدِهِ لو بَدَتِ الشمسُ مِنْ ذلكَ البَحْرِ لَحَرَقَتْ كلَّ شيءٍ في الأرضِ حتى الصخورَ. ولو بَدَا القَمَرُ مِنْ ذلكَ البَحْرِ لافْتَتَنَ بِهِ أهلُ الأرضِ كُلُّهُمْ، يَعْبُدونَهُ مِنْ دونِ اللهِ إلّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ».

وفي بَعْضِ الأخبارِ: «الفَلَكُ ماءٌ مَكْفوفٌ تَجْري فيهِ الشمسُ والقمرُ والنجومُ والليلُ والنهارُ، كلُّهُ دونَ السماءِ يَدورُ بِهِ الفَلَكُ» ومِثْلُ هذا قد قيلَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وظاهِرُ الآيةِ في الخَبَرِ ما ذَكَرْنا أنَّ الشمسَ والقَمَرَ هما اللذانِ يَجْرِيانِ، ويَسْبَحانِ في ذلكَ المكانِ. وعلى تأويلِ بَعْضِهِمْ أنهما على حالِهِما لا يَجْرِيانِ، لكنْ هو يَجْري، فَيَظْهَرانِ، ويَبْدُوانِ في وقتٍ، ويَخْتَفِيانِ في وَقْتٍ آخَرَ. ولو كانا هما اللذانِ يَجْرِيانِ لكانا على حالةٍ واحدةٍ، ويَظْهَرانِ في الأحوالِ كلِّها. لكنّا لا نَعْلَمُ ذلكَ إلّا بالخَبَرِ عنِ اللهِ أنهُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟ كأنَّ هذا خَرَجَ جواباً لِقولِ أولئكَ الكَفَرَةِ في رسولِ اللهِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ. والأشبَهُ أنْ يكونَ ما أصابَهُمْ مِنَ الشدائدِ والفِتَنِ والهَلاكِ كانوا يَتَشاءمونَ برسولِ اللهِ ﷺ ويَتَطَيَّرونَ بهِ: إنَّ ذلكَ إنما يُصيبُهُمْ بهِ، وقالوا: لولا هو ما يُصيبُنا مِنْ ذلكَ شيءٌ. فقالَ جواباً لهمْ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ بل حُكْمُهُ أنْ يموتَ الكُلُّ على ما أخبَرَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فإذا لم يكُنْ لأحَدٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدُ، بل كلُّهُمْ قد ماتوا، كيفَ يَتَشاءَمونَ بكَ؟ إنَّ ذلكَ إنما يُصيبُهُمْ بِسَبَبِكَ وشُؤمِكَ ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي وإنْ مِتَّ أنتَ، وأُخرِجْتَ[5] مِنْ بَيْنِهِمْ فلا[6] يَخْلُدونَ هُمْ فيها [لا أنَّ][7] مِنْ حُكْمِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؟

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بحراً ونهراً. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وتخرج. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لأن.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ قد ذكَرْنا تأويلَهُ في ما تقَدَّمَ في غيرِ موضعٍ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يذكُرُ آلهتَهُمْ[2] بسوءٍ، ويَعيبُها، فيَهزَؤونَ بهِ، مكانَ ما يَعيبُ هو آلهتَهُمْ، ويقولونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾؟

ثم يَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا مِنَ القادةِ منهمْ والرؤساءِ إغراءً لأتباعِهِمْ عليهِ أنهُ يَذكُرُ آلهتَكُمْ بسوءٍ، أو أنْ يقولَ[3] بعضُهُمْ لبَعضٍ إذا ضَلُّوا عنهُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٧٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: كانوا يقولونَ: لا نَعرِفُ ما الرحمنُ؟ فيَكفُرونَ باسمِ الرحمنِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بنِعمَةِ الرحمنِ، وهو محمدٌ ﷺ أي يَكفُرونَ بنِعمَتِهِ، أو أنْ يَذكُرَ هذا لِيُصَبِّرَ رسولَهُ، ويُعَزِّيَهُ، على تكذيبِهِمْ: ليسَتْ أياديكَ إليهِمْ بأكثَرَ مِنْ أيادي الرحمنِ، فهمْ يَكفُرونَ بهِ، ويُكذِّبونَهُ، ويقولونَ فيهِ ما يقولونَ. فاصْبِرْ أنتَ على أذاهمْ وما قالوا فيكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كقولِهِ[4] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

قالَ الحَسَنُ: ﴿عَجُولًا﴾ أي ضعيفاً، وضَعفُهُ، هو أنْ يَضيقَ صدرُهُ، ويُخرَجَ عندَ [إصابَتِهِ بأدنى][5] شيءٍ حتى يَحمِلَهُ ضِيقُ صَدْرِهِ على أنْ يَدْعُوَ على نَفْسِهِ وعلى مَجيئِهِ بالهلاكِ لِضيقِ صدرِهِ، وذلكَ لِضَعْفِ[6] فيهِ.

وعندَنا أنهُ خَلَقَهُ عَجولاً حتى لا يَصْبِرَ على حالةٍ واحدةٍ، وإنْ كانَتِ الحالةُ حالةَ نِعْمَةٍ ورَخاءٍ حتى يَمَلَّ منها، ويَسأَمَ، ويُريدَ التَّحَوُّلَ إلى حالةٍ هي دونَ تلكَ الحالةِ، ويَرْضى بشيءٍ دونَهُ.

لكنهُ، وإنْ خَلَقَهُ على ما أخبَرَ، جَعَلَ في وُسْعِهِ رِياضةَ نَفْسِهِ حتى يَصِيرَ صَبوراً حَليماً، وهو ما أخبَرَ أنَّ ﴿عَجُولًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩و٢٠و٢١ و٢٢] أخبَرَ أنهُ خَلَقَهُ هلوعاً، ثم اسْتَثْنى المُصَلِّينَ. دلَّ أنهُ بالرياضةِ يَتَحَوَّلُ عنِ الحالةِ التي خَلَقَهُ إلى حالةٍ أُخرى، وهي حالةُ الحِلْمِ والصَّبْرِ. وكذلكَ ما أخبَرَ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] كانَ كذلكَ في الابتِداءِ. لكنهُ بالرياضةِ والعادةِ يَصيرُ سَخِيّاً جَواداً. وكذلكَ ما قالَ: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] ثم قالَ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [الحشر: ٩ والتغابن: ١٦] أخبَرَ أنَّ الأنفسَ الشُّحَّ[7] أحضِرَتْ، ثم أخبَرَ أنَّ مَنْ ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ فلَهُ كذا.

دَلَّ بهذا كلِّهِ أنهُ بالرياضةِ والعادةِ يَحتمِلُ التَّحَوُّلَ إلى حالةِ السَّخاءِ والجودِ[8] بَعْدَ ما كانَ شَحيحاً قَتوراً بَخيلاً. فعَلى ذلِكَ ما ذَكَرَ مِنَ العَجَلَةِ والهَلَعِ والجَزَعِ يَحتمِلُ [التَّحَوُّلَ][9] بالرياضةِ والعادةِ إلى أنْ يَصيرَ حَليماً صَبوراً في الأمورِ غيرَ ملولٍ فيها.

وليستِ المِحْنَةُ إلّا بالرياضةِ والعادةِ. فأمَرَهُ أنْ يُرَوِّضَ نفسَهُ، ويُعَوِّدَها بالقيامِ بجميعِ ما أمَرَهُ اللهُ، ويكُفَّها عنْ جميعِ ما نَهى عنهُ، فيَعْتادُ اتِّباعَ أمْرِهِ والانتِهاءَ عنْ نَهْيِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونوا سَألوا رسولَ اللهِ ﷺ الآياتِ على رسالتِهِ أنهُ رسولٌ، أو سَألوا آياتٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ وربوبيَّتِهِ، فقالَ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ مِنَ الوَجْهِ الذي يُريدُ ربّي، ويُبَيِّنُ لكُمْ ذلكَ لا مِنَ الوجهِ الذي تريدونَ أنتمْ، وتَسألونَهُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ في ما نَزَلَ مِنَ العذابِ فيهِمْ وفي مَنازِلِهِمْ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾/ ٣٣٩ - ب/ أنتُمُ العذابَ على مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ. فإنْ سافَرْتُمْ، وضَرَبْتُمْ في الأرضِ رأيتُمْ آثارَ العذابِ فيهِمْ وفي

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: آلهتكم. (٣) من م، في الأصل: يقولوا. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: أصابه أدنى. (٦) في الأصل وم: لضعفه. (٧) أدرجت في الأصل وم بعد: أحضرت. (٨) في الأصل وم: والجواد. (٩) ساقطة من الأصل وم.

منازِلِهِمْ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أنتمُ العذابَ الذي يَعِدُ لَكُمُ الرسولُ؛ كانَ يُخَوِّفُهُمُ العذابَ، ويَعِدُ لَهُمْ إيّاهُ [إنْ يُكَذِّبوهُ][1] في ذلكَ، فقالَ عندَ ذلكَ ما قالَ.

الآية ٣٨ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ويقولونَ أيضاً: متى هذا الوعدُ الذي تَعِدُنا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنا نُعَذَّبُ؟

وجائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ فيهِمْ بِتكذيبِهِمُ الساعةَ والقيامةَ وإنكارِهِمْ إياها. فقالَ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ التي تكونُ قَبْلَ وقوعِها ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ وقوعَها ومَجيئَها[3].

دليلُهُ ما ذَكَرَ ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩] وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ الآية [الأنبياء: ٤٠].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لو يَعْلَمُ الذين كَفروا ما يَنْزِلُ[4] بهِمْ بوقوعِ القيامةِ حينَ[5] لا يملكونَ [كَفَّ النارِ][6] ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مِمّا[7] يُحيطُ بهِمْ حتى لا يَمْلِكونَ هُمْ دَفْعَها عن أنفسِهِمْ، ولا يَمْلِكُ ما اتَّخذوا أنصاراً وأعواناً في الدنيا دَفْعَ ذلكَ أيضاً. وهو كقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ الآية [الزمر: ١٦] وقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي فَجأةً، لا يَعْلَمُ أهلُها عن وقْتِ وقوعِها ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال أهلُ التأويلِ: ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فَتَفجأُهُمْ. والبَهْتَةُ كأنها حَيْرَةٌ. يقولُ: ﴿تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ فَجأةً، فَتُحَيِّرُهُمْ، وهو ما أخبرَ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] وذلكَ لِحَيْرَتِهِمْ في أنفُسِهِمْ، وهُوَ[8] ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢] يَصيرونَ حَيارَى لِشِدَّةِ أهوالِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أخبرَ أنهمْ لا يَمْلِكونَ دَفْعَها إذا وقَعَتْ بهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ في وقوعِها. إنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بالبلايا في الشاهدِ فإنما يَمْلِكُ دَفْعَها[9] عنْ نَفْسِهِ إمّا بقوةِ نَفْسِهِ وإمّا بأنصارٍ وأعوانٍ، يَنْصُرونَهُ، ويُعينونَهُ في دَفْعِها[10] عنهُ وإمّا بالتَّضرُّعِ والابْتِهالِ والاسْتِسْلامِ كقولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٣] فأخبَرَ ﷺ [أنهمْ][11] لا يَمْلِكونَ دَفْعَها بِقُوَى أنفسِهِمْ ولا بأنصارِهِمُ الذينَ اسْتَنْصَروا [بهِمْ حينَ][12] قالَ: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ بالتَّضرُّعِ والاسْتِسْلامِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيهِ تَصْبيرُ رسولِ اللهِ على ما يَسْتَهزِئُ قومُهُ بهِ لأنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي لَسْتَ أنتَ بأوّلِ رسولٍ [مِنَ][13] اللهِ، اسْتَهزَأَ بِهِ قومُهُ.

وفيهِ[14] تَخويفُ أولئكَ بِاسْتِهزائِهِمْ بهِ بما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ بِاسْتِهزائِهِمْ برسُلِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: حاقَ: نَزَلَ، ووَجَبَ، ووَقَعَ، وأمثالُهُ. وقالَ بَعْضُ أهلِ المَعاني: الحَيْقُ هو ما اشْتَمَلَ على الإنسانِ مِنْ مَكروهِ فِعْلِهِ[15] كقولِهِ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. وقالَ بَعْضُهُمْ: حاقَ أي رَجَعَ عليهِمْ، وأحاطَ بهِمْ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي مَنْ يَحفَظُكُمْ، ويَحرُسُكُمْ مِنْ عذابِ الرحمنِ. وقيلَ: يدفَعُ عنكمْ عذابَ الرحمنِ. ثم هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: فكذبوه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ووجوبها. (٤) في الأصل وم: نزل. (٥) في الأصل وم: حتى. (٦) في الأصل وم: كفها. (٧) في الأصل وم: إنما. (٨) في الأصل وم: وهم. (٩) في الأصل وم: دفعه. (١٠) في الأصل وم: دفعه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أي بفعله.

أحدُهما: قولُهُ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي لو سألتَهُمْ[1] مَنْ يَكْلَؤُكُمْ مِنْ عذابِ الرحمنِ لأقرّوا لكَ أنَّ الرحمنَ هو الذي يَكْلَؤُهُمْ[2]، ويَحفظُهُمْ مِنْ عذابِ الرحمنِ، لا الآلهةُ التي يَعْبُدونَها. وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] وقولِهِ[3]: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨] ونَحْوُهُ، فَسَيَقولونَ: اللهُ، لا الآلهةُ التي يَعْبُدونها.

فَقُلْ أنتَ[4] كيفَ عَدَلْتُمْ عنْ عِبادَتِهِ، وعَبَدْتُمْ دونَهُ مَنْ لا يَكْلَؤُكُمْ، ولا يَدْفَعُ عنكُمُ العذابَ، وقد عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ هو الذي يَكْلَؤُكُمْ بالليلِ والنهارِ، وهو إلهُ السمواتِ والأرضِ؟ فكيفَ عَبَدْتُمْ مَنْ ليسَ هو بإلهٍ؟ فَيُخَرَّجُ على[5] الاحتِجاجِ عليهِمْ ولزومِ الحُجَّةِ لهمْ لئلا يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والثاني: يُخَرَّجُ على التذكيرِ والتنبيهِ لهمْ لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ الرحمنَ، ويقولونَ: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] ويقولُ[6]: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] فيُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي كيفَ تُنْكِرونَ الرحمنَ، وتكفُرونَ بهِ، وهو يَكْلَؤُكُمْ بالليلِ والنهارِ عنْ عذابِهِ؟ وعلى هذا يُخَرَّجُ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بلْ هُمْ عنْ ذِكْرِ ربِّهِمُ الرحمنِ مُعْرِضونَ، أي مُنْكِرونَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي ليسَ لهمْ آلهةٌ مِنْ دونِنا، تَمْنَعُهُمْ مِنْ عذابِنا، هو على النَّفْيِ، أي ليسَ لهمُ الآلهةُ مِنْ دونِهِ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ استِفهاماً. ثم بَيَّنَ مَوضِعَ الاحتِجاجِ عليهِمْ، وهو ما أخْبَرَ عنْ عَجْزِهِمْ حينَ[8] قالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي لا تَستطيعُ الآلهةُ نَصْرَ أنفسِها إذا أرادوا بها سُوءاً ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي يُنْصَرونَ.

تأويلُهُ: كيفَ[9] عَبَدْتُمْ مَنْ دونَهُ، واتَّخَذْتُموهُمْ آلهةً رجاءَ شَفاعتِهِمْ وَوَسيلَتِهِمْ [حينَ قُلْتُمْ:][10] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقُلْتُمْ[11]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾؟ [يونس: ١٨] فإذا كانوا لا يَملِكونَ نَصْرَ أنفسِهِمْ إنْ أصابَها سُوءٌ، ولا يَصْحَبُها مَنْ يدفعُ عنها السُّوءَ، فكيفَ اتَّخَذْتُمْ آلهةً دونَهُ؟ فَمَنْ كانَ عنْ دفعِ السُّوءِ عنْ نفسِهِ ونَصْرِها عاجزاً فهو عنْ دفعِهِ عنِ الآخَرِ ونَصْرِهِ أعْجَزُ.

الآية ٤٤ ثم بَيَّنَ الذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ، وهو ما قالَ: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ولم يأخُذْهُمْ[12] بالعقوبةِ بأعمالِهِمُ التي عَمِلُوها [وما ظَنُّوا][13] أنَّ اللهَ راضٍ عنهمْ وأنهمْ على الحقِّ. ولهذا قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ادَّعَوا رِضا اللهِ بما هُمْ عليهِ وآباؤُهُمْ.

ثم بَيَّنَ أنهُ، وإنْ تَرَكَهُمْ وقتاً طويلاً، ومتَّعَهُمْ عليهِ[14]، قد نَقَصَ ما[15] كانوا يَملِكونَ حينَ[16] غَلَبَ عليهِمْ رسولُ اللهِ على بَعْضِ أملاكِهِمْ، وجَعَلَهُ مُلْكاً لِلْمُسلمينَ، وهو قولُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [ثم اختُلِفَ في تأويلِ هذا. قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾][17] أي اعْلَموا ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي نَحْشُرُهُمْ يومَ القيامةِ مِنْ أطرافِ الأرضِ إلى المَحْشَرِ. فذلكَ نَقْصُها.

وقالَ غيرُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنَّ رسولَ اللهِ كلّما بُعِثَ إلى أرضٍ[18] ظَهَرَ عليها [وهو ما][19] قالَ: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بالظُّهورِ عليها أرضاً فأرضاً ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي لَيسوا هُمُ الغالِبينَ، ولكنَّ رسولَ اللهِ هو الغالبُ عليهِمْ.

وقالَ ابنُ عباسٍ ﴿نَنقُصُهَا﴾ بذهابِ فُقَهائِها وخِيارِ أهْلِها. وقالَ قتادةُ: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بالمَوتِ. وقالَ: لو كانتِ الأرضُ تَنْقُصُ لم يوجدْ لِلرَّجُلِ مَجْلِسٌ يَجْلِسُ فيهِ. ونَحْوَ هذا قد قالوا.

---

(١) في الأصل وم: سألتم. (٢) من م، في الأصل: يكلؤكم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ادرج قبلها في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل وم: حيث قالوا.
(١١) في الأصل وم: ونَحْوُهُ وفي يقولهم. (١٢) من م، في الأصل: يأخذ. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ادرج بعدها في الأصل وم: أنهُ. (١٥) في الأصل وم: عما. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) من م، ساقطة من الأصل. (١٨) من م، في الأصل: الأرض. (١٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهُما: [أنهُ][1] خَرجَ جواباً لقولِهِمْ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: ١٤٥] إنهمْ كانوا يُنكِرونَ رسالَتَهُ، ويقولونَ: إنهُ بَشَرٌ، كيفَ خُصَّ هو بهِ؟ فيقولُ: إني لَسْتُ أُنذِرُكُمْ لأني بَشَرٌ، ولكنْ ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ مِنَ اللهِ، وأنتُمْ ممّا لا تَقْبَلونَ بِشارَةَ ربّي ونِذارَتَهُ.

والثاني: [أنهُ][2] قالَ ذلكَ لِما تَقَدَّمَ منهُ في الآياتِ [منَ][3] النِّذارةِ المُرْسَلَةِ غيرَ مضافَةٍ إلى اللهِ، فأمَرَهُ أنْ يقولَ لهمْ: إني في ما أنْذَرتُكُمْ مِنَ النِّذاراتِ لم أُنذِرْكُمْ مِنْ ذاتِ نفسي، ولكنْ ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ مِنْ ربّي.

فَمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، إني في ما أُنذِرُكُمْ بالأُمَمِ[4] المُتَقَدِّمَةِ والأنباءِ التي أخبَرْتُكُمْ عنها ممّا لم أشْهَدْها، ولا أنتُمْ. بل ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ فذلكَ مَوضِعُ الاِحتِجاجِ/ ٣٤٠ ـ أ/ عليهِمْ في إثباتِ رسالتِهِ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، يقولُ: إنَّ الأصمَّ[6] إذا أُريدَ أنْ يُدْفَعَ عنِ المهالكِ لا سَبيلَ أنْ يُدْفَعَ عنها، ويُكَفَّ بالدعاءِ والنداءِ. ولكنْ إنما يُكَفُّ، ويُدفَعُ عنِ المهالكِ بالأيدي والراحاتِ؛ كأنهُ قالَ ذلكَ لمّا كَثُرَ [دُعاؤُهُ إياهُمْ][7] إلى ما بهِ نجاتُهُمْ، فأبَوا ذلكَ، ولم يُجيبوهُ، قالَ[8] حينَئِذٍ ذلكَ إنكمْ لا تَسْمَعونَ الدعاءَ والنداءَ إلى ما بهِ نجاتُكُمْ، ولكنْ تَعْرِفونَ ذلكَ بالقَتْلِ والسيفِ.

أو يقولُ[9] ذلكَ: إنكُمْ صُمٌّ عنِ الحقِّ حينَ لا تسمعونَهُ [كالأصَمِّ، لا يَسْمَعُ بالسَّمْعِ، والأصَمُّ][10] بالسَّمْعِ لا يُدْعَى، ولا يُنادَى، لأنهُ لا يَسْمَعُ. ولكنْ يُدْعَى باليَدِ والإشارةِ. فَعَلَى ذلِكَ أنتُمْ صُمٌّ عنِ الحقِّ، لا تُدْعَونَ بالنداءِ، ولكنْ بالذي يُعْرَفُ الدعاءُ، وهو اليَدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [قالَ الحَسَنُ ﴿نَفۡحَةٞ﴾ أي طائفةٌ ﴿مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾][11] وقالَ بَعضُهُمْ: نَقْمَةٌ مِنْ ربِّكَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: عُقوبةُ ربِّكَ.

وأصلُ النَّفْحَةِ الرَّمْيَةُ، ولذلكَ سُمِّيَتْ[12] نَفْحَةُ الدابَّةِ، أي رَمْيَتُها، وهو ما ذَكَرَ مِنْ رَمْيِ الشَّرَرِ كقولِهِ: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ [المرسلات: ٣٢].

[وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾][13].

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في ظاهرِ الآيةِ أنَّ الموازينَ هي القِسْطُ، والقِسْطُ هو العَدْلُ لأنهُ قالَ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ فَكَأنَّهُ قالَ: ونَضَعُ الموازينَ التي توضَعُ في الدنيا، وتُعْرَفُ بها حقوقُ الناسِ في الآخِرَةِ، العَدْلَ الذي بهِ تُعْرَفُ حدودُ الأشياءِ وأقدارُها، فتكونُ الموازينُ العَدْلَ ما ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ أي لا تَنْقَصُ مِنْ حسناتِهِ، أو تُزادُ على جَزاءِ سَيِّئاتِهِ. ولكنْ يُوفَّى كلٌّ جزاءَ عَمَلِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ على الإضمارِ، أي نَضَعُ المَوازينَ التي تكونُ في الدنيا يَومَ القيامَةِ بالعَدْلِ؛ لا نُطَفِّفُ، ولا نُنْقِصُ، ولا نُخسِرُ، كما تَفعَلونَ في الدنيا. ولكنْ نَعْدِلُ[14]، ولا نُطَفِّفُ، ولا نُنْقِصُ. ولكنْ نُسَوِّي، ونَسْتَوفي مُسْتَوِياً مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نُقْصانٍ، لأنَّ الزيادةَ والنُّقْصانَ إنما تكونُ في الشاهِدِ لِوُجوهٍ: لِلْجهالةِ أو للحاجَةِ أو للجَورِ، فَيَحْمِلُهُ كلُّهُ على الزيادةِ والنقصانِ، واللهُ ﷻ يَتَعالى عنْ ذلكَ كلِّهِ لأنهُ عالمٌ بذاتِهِ، غَنِيٌّ بذاتِهِ، عادلٌ، فلا وَجْهَ لِلْخُسْرانِ منهُ والزيادةِ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ﴾ أي آتينا بِجَزائها، أو ﴿أَتَيۡنَا بِهَاۗ﴾ أي بِعَينِها، لا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الأمة. (٥) في الأصل وم: رسالتهم. (٦) في الأصل وم: الصم. (٧) في الأصل وم: دعاءهم. (٨) في الأصل وم: فقال. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل وم: كالصم بالسمع والصم. (١١) من م، في الأصل: وقال بعضهم: طائفة من عذاب ربك. (١٢) في الأصل وم: سمى. (١٣) ساقطة من م. (١٤) في الأصل وم: العدل.

يفوتُه[1] شيءٌ، ولا يَغيبُ عنهُ. وليسَ المرادُ مِنْ ذِكرِ مِثقالِ حبَّةٍ ومِثقالِ ذَرّةِ الذَّرَّةُ والحَبَّةَ. ولكنْ ذُكِرَ على التمثيلِ، أي لا يَفوتُ عنهُ شيءٌ، ولا يَغيبُ، ذلكَ المقدارُ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ غيرُ فائتٍ عنهُ، ولا مَنْسِيٍّ، ولكنْ مَحْفوظٌ مُحاسَبٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ لا تَشْغَلُهُ كَثْرَةُ الحسابِ وازْدِحامُهُ، ليسَ كَمَنْ يُحاسِبُ آخَرَ في الشاهدِ؛ إنهُ إذا كَثُرَ الحِسابُ عليهِ، وازْدَحَمَ، شَغَلَهُ ذلكَ عنْ حِفْظِ الحسابِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهو ما يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ وبَيْنَ الشَّبيهِ والواضحِ وبَيْنَ ما يُؤْتى، ويُتَّقى، وبَيْنَ ما عليهِمْ ولهمْ. والنورُ ما تَتَجَلّى بِهِ حقائقُ الأشياءِ، والضياءُ هو ما يَظْهَرُ بِهِ حُسْنُ ما تَجَلّى، واسْتَنارَ. والروحُ[2] هو ما بِهِ حياةُ كلِّ شيءٍ. والقرآنُ سَمّاهُ رُوحاً لأنهُ بِهِ حياةُ الدينِ. وسَمّى الماءَ حياةً لأنهُ بِهِ حياةُ الأبدانِ. والمُبارَكُ هو ما يُنالُ بِهِ [ويُوصَلُ إلى][3] كلِّ خَيرٍ. والذِّكْرُ هو ما يَذْكُرُ ما لهمْ وعليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَذِكْرًا﴾ قيلَ: هو المَوعِظَةُ. والمَوعِظَةُ قيلَ: هي التي تُلَيِّنُ القلوبَ، وتُوَسِّعُ الصُّدورَ، وتَفْسَحُ، ويَخْشَعُ بها الفؤادُ.

وعلى هذا الوصفِ جميعُ كُتُبِ اللهِ الذي وَصَفَ هذا القرآنَ بها، ثم بَيَّنَ أنها على الوصفِ الذي ذَكَرَ لِمَنْ؟ فقالَ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وإنْ كانَتْ هي في أنفُسِها على الوصفِ الذي ذَكَرَ فإنها إنما تَتَجَلّى بها الشُّبَهُ مِنَ الحقائقِ والحَقُّ مِنَ الباطلِ لِمَنْ قَبِلَها، وأَقْبَلَ نَحْوَها، ونَظَرَ إليها بِعينِ التعظيمِ والإجلالِ.

فأمّا مَنْ أعْرَضَ عنها فَلَيسَتْ لهمْ على ما ذَكَرَ. لكنْ على ما أَخْبَرَ بقولِهِ: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٦].

الآية ٤٩ ثم بَيَّنَ مَنِ المُتَّقونَ؟ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾][5] أي يَخْشَونَ العذابَ الموعودَ ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ في الآخِرَةِ، فَيَحْذَرونَ ما بِهِ يَحُلُّ ذلكَ. وأمّا الكفارُ فإنهمْ[6] لم يَخافوا العذابَ الموعودَ، ولم يُصَدِّقوهُ. إنما يخافونَ العذابَ المُعايَنَ المُشاهَدَ. فأمّا العذابُ الموعودُ في الغيبِ فلا يخافونَهُ[7].

ويَحْتَمِلُ أيضاً قولُهُ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يَهابونَ رَبَّهُمْ، ويَخافونَهُ، وإنْ لم يَرَوْهُ لِما رَأَوا مِنْ آثارِ سُلْطانِهِ ومُلْكِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هُمْ مِنْ أهوالِ الساعةِ وأفزاعِها خائفونَ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: وهمْ مِنْ محاسَبَةِ أعمالِهِمْ مُشْفِقونَ خائفونَ، فحاسَبوا أنْفُسَهُمْ في الدنيا إشفاقاً على محاسَبَةِ أنفسِهِمْ في الآخِرَةِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الذِّكْرُ المبارَكُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ ظاهِرُهُ، وإنْ كانَ اسْتِفهاماً فهو في الحقيقةِ إيجابٌ، كأنهُ قالَ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ وتَعرِفونَهُ أنهُ كذلكَ، فأنتمْ في هذا، لهُ مُنكِرونَ؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ، ويُخْبِرُ عنْ عِنادِهِمْ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قال[8] الحَسَنُ: ﴿رُشْدَهُۥ﴾ دِينَهُ وهُداهُ. وقالَ غيرُهُ: ﴿رُشْدَهُۥ﴾ النُّبُوَّةَ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ حُجَجَهُ وبَراهِينَهُ التي حاجَّ بها قومَهُ على غيرِ تعليمٍ مِنْ أحدٍ.

وفيهِ دلالةُ أنْ ليسَ كلُّ رُشْدٍ وهُدًى بياناً[9]، لأنهُ لو كانَ كلُّهُ بياناً[10] لم يكُنْ لِتَخصيصِ إبراهيمَ بالرُّشْدِ كثيرُ مَعْنًى؛ إذْ هو في ذلكَ وغيرِهِ مِنَ الكَفَرَةِ والفراعِنَةِ سَواءٌ. فدلَّ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أنهُ يكونُ مِنَ اللهِ لِلْمُهتَدينَ فَضْلُ صُنْعٍ، ليسَ ذلكَ في الكافرينَ، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ.

---

(١) من م، في الأصل: يفوت. (٢) في الأصل وم: روح. (٣) في الأصل وم: ويصل إليه من. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) في الأصل وم: يخافون. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: بيان. (١٠) في الأصل وم: بيان.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: مِنْ قَبْلِ الأوقاتِ التي يُعْطي البَشَرَ الرشْدَ، وهو حالُ الصِّغَرِ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي مِنْ قَبْلِ محمدٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ موسى وهارونَ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قبلَ إيمانِ أهلِ الأديانِ كلِّها، لأنَّ جميعَ أهلِ الأديانِ يَدَّعونَ أنهمْ على دينِ إبراهيمَ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ دِينُهُ ورُشْدُهُ الذي آتاهُ اللهُ هو كلَّ ذلكَ، بل إنما كانَ ذلكَ واحداً[1]. فَوَجَبَ النَّظَرُ فيهِ والتَّأمُّلُ في ذلكَ لِيَظْهَرَ الدينُ الذي كانَ عليهِ إبراهيمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي كُنّا بجميعِ ما يكونُ مِنْ إبراهيمَ عالِمِينَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ﴾ اتَّخذْتُموها ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ﴾ اتَّخذْتُموها ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي إنما يُعْبَدُ مَنْ يُعْبَدُ لِفِعْلٍ يكونُ مِنَ المَعْبودِ إلى مَنْ يَعْبُدُهُ. فأمّا أنْ يُعْبَدَ بما يُفْعَلُ بالمَعْبودِ فلا يُحْتَمَلُ. وهو ما قالَ إبراهيمُ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥و٩٦] يُسَفِّهُهُمْ، ويَعيبُ عليهِمْ عِبادَتَهُمْ[2] ما يَنْحِتونَ بأيديهِمْ، ويَتْرُكونَ عبادةَ مَنْ خَلَقَهُمْ، وخَلَقَ أعمالَهُمْ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ قد انْقَطَعَ حِجاجُهُمْ لمّا قالَ إبراهيمُ ما قالَ، وأظْهَرَ سَفَهَهُمْ، فَفَزِعوا إلى تَقْليدِ آبائِهِمْ،/ ٣٤٠ ـ ب/ فقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لم يُنْكِرْ عليهِمْ فِعْلَ آبائهمْ وعِبادَتَهُمُ الأصنامَ، ولكنْ أقرَّ لهمْ بِصنيعِ آبائِهِمْ، ثم جَمَعَهُمْ وآباءَهُمْ، وأخبرَ ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بعبادةِ الأصنامِ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ لمّا عَلِموا أنَّ مِثْلَ هذا القولِ لا يقولُ إلّا مَنْ كانَ عندَهُ حُجّةٌ وبرهانٌ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ بما تقولُ بِحُجّةٍ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ تَلْعَبُ بنا، وتَهْزَأُ؟

الآية ٥٦ وأخبرَهُمْ[4] أنهُ جاءَهُمْ بالحقِّ، وبيَّنَ لهمْ ذلكَ الحقَّ، فقالَ: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها، أي ربُّكُمْ ربُّ السمواتِ والأرضِ الذي يُعْرَفُ بالدلالاتِ والبراهينِ وآثارِ الصَّنْعَةِ في غَيرِهِ لا الذي أحْدَثْتُمْ أنتمْ، واتَّخَذْتُموهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وأنا على جميعِ ما قالَ، وكانَ منهُ مِنَ الحِجاجِ وإقامةِ الحُجَجِ على أُلوهيَّتِهِ تَعالى، وتَسْفيهِ أولئكَ في عبادةِ الأصنامِ مِنَ الشاهدينَ، أو مِنَ الشاهِدينَ على خَلْقِها. ويجوزُ أنْ يُقالَ: الشاهدُ المُبَيِّنُ، وأنا على ذلكمْ مِنَ المُبَيِّنينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ الأصنامُ، لا يُقْصَدُ إليها بالكَيدِ، لكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلَمُ، لأَكيدَنَّ لكمْ في أصنامِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ إبراهيمَ إنما قالَ ذلكَ: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عنِ الأصنامِ إلى عيدِكُمْ، لأنهمْ كانوا يَخْرُجونَ إلى عيدِهِمْ مِنَ الغَدِ، فقالَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أي لأَكيدَنَّ لكمْ في أصنامِكُمْ ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيدِكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عَنّي. وكانوا في ذلكَ الوقتِ بِحَضْرةِ الأصنامِ. ألا تَرى أنهُ قالَ لهمْ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟ [و ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ ...][5] فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عَنّي.

على التأويلِ [الأوّلِ][6] يكونُ تَوَلّيهِمُ الأدبارَ عنِ الأصنامِ إلى عيدِهِمْ. وعلى التأويلِ الثاني يكونُ تَوَلّيهِمُ الأدبارَ عنْ إبراهيمَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) في الأصل وم: لعبادتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: وأخبره، في م: وأخبر. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ و ﴿جُذَاذًا﴾ قالَ بَعضُهُمْ: قِطعاً. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿جُذَاذًا﴾ فُتاتاً، وكلُّ شيءٍ، كَسَرتَهُ، جَذَذْتَهُ، ومنهُ قيلَ لِلسَّويقِ جَذيذٌ، والجَذُّ هو القَطْعُ، والمَجْذوذُ المَقْطوعُ، وذلكَ قولُهُ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي غيرَ مَقْطوعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ لم يَكْسِرْهُ[1] ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ يقولُ: إلى الصنمِ الأكبرِ الذي لم يَكْسِرْهُ إبراهيمُ، ﴿يَرْجِعُونَ﴾ مِن عبدِهِمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: لعلَّهُمْ إلى الحُجَّةِ يَرجعونَ. وقيلَ: [إلى الصَّنَمِ، وهو][2] أحجُّ القولَينِ، أي مِنَ الحُجَّةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي يَتَذَكَّرون.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي يَرْجِعونَ إلى ما يُريدُ أنْ يَكيدَ لهمْ في أصنامِهِمْ، لأنهُ إنما يُريدُ أنْ يَكيدَ لهمْ إذا رَجَعوا إلى الأصنامِ، فَرَأوها مَجْذوذةً. والكَيدُ هو الأخذُ على الأمْنِ. وكذلكَ المَكْرُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لو تأمّلوا كانوا هُمُ الظَّلَمَةَ في الحقيقةِ لأنهمْ كانوا يَعْبدونَ تلكَ الأصنامَ رَجاءَ مَنْفَعَةٍ تكونُ لهمْ حينَ[3] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[4]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فإذا رَأوهُمْ لا يَقْدِرونَ على دَفْعِ الكَسْرِ والقَطْعِ عن أنفُسِهِمْ ودَفْعِ مَنْ فَعَلَ بهمْ ذلكَ كيفَ طَمِعوا منها نَفعاً أو دَفْعَ الضُّرِّ عن أنفسِهِمْ، لأنَّ مَنْ عَجزَ عن [دَفعِ الضُّرِّ عن نَفْسِهِ فهو][5] عن دَفعِهِ عن غيرِهِ أعْجزُ.

فهمُ الظَّلَمَةُ في الحقيقةِ حينَ[6] طَمِعوا النَّفْعَ ودَفْعَ الضُّرِّ مِمَّنْ لا يَمْلِكُ ذلكَ لنفسِهِ. لكنْ قالوا ذلكَ سَفَهاً[7] منهمْ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بالكَيدِ لهمْ ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بالعَداوةِ، وهو حينَ قالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] أخبرَ أنَّ أولئكَ الذينَ عَبَدوا الأصنامَ أعداءٌ لهُ؛ فالمَعْبودُ الذي عَبَدوهُ يكونُ عَدُوّاً لهُ أيضاً. فاستَدَلّوا بذلكَ القولِ منهُ أنهُ هو فَعَلَ بهمْ ما فَعَلَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: على رؤوسِ الناسِ. وقيلَ: بِحَيثُ يَراهُ الناسُ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: يَشْهَدونَ عُقوبَتَهُ بِما فَعَلَ بأصنامِهِمْ، فيكونُ نكالاً لهُ وزَجْراً لِغَيرِهِ عنْ أنْ يَفْعَلَ [بها مِثْلَ ما فَعَلَ][8] هو. وذلكَ [ما][9] ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨ والعنكبوت: ٢٤] ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بِفِعْلِهِ الذي فَعَلَ بالأصنامِ. ولم يُريدوا أنْ يُعاقِبوهُ بلا بَيِّنَةٍ ولا حُجَّةٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أنهُ قالَ لآلهتِهِمْ ما قالَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٢ و٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ اخْتُلِفَ في هذا؛ قالَ بَعْضُهُمْ: هذا القولُ مِنْ إبراهيمَ كَذِبٌ في الظاهرِ في ما أرادَ أنْ يَكيدَ لهمْ، وإنْ لم يكُنْ في الحقيقةِ عندَهُ كَذِباً، وكذلكَ ما قالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وكانَ صحيحاً، وقولُهُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦و٧٧و٧٨] ومِثْلُ هذا قالوا: هذا في الظاهرِ [كَذِبٌ، وإنْ لم يُرِدْ هو بهِ في الحقيقةِ كَذِباً.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنهُ إنما قالَ ذلكَ على أنْ يُريَهُمْ مِنْ نفسِهِ المُوافَقَةَ لهمْ في الظاهرِ لِيَكونوا لِلْحُجَجِ أسْمَعَ ولِلْبَراهينِ أقْبَلَ. فيكونُ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، لَعَلَّ كبيرَهُمْ فَعَلَ بهمْ هذا، أو أنْ يقولَ: أكْبَرُهُمْ[10] فَعَلَ هذا بهمْ. وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦و٧٧و٧٨].

---

(١) من م، في الأصل: يكسرهم. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) تقدمت في الأصل وم على: ذلكَ. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في م: أكبر.

قالَ بَعْضُهُمْ: ليسَ هذا، ولا فيهِ كَذِبٌ في الظاهرِ[(١)] ولكنْ قالَ ذلكَ على الشَّرْطِ حينَ[(٢)] ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ عَلَّقَ فِعْلَهُ بِشَرْطِ النُّطْقِ. فإذا كانوا لا يَنْطِقونَ لم يَفْعَلْهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي سَأَسْقَمُ، وكُلُّ حَيٍّ يَسْقَمُ يوماً. وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦و٧٧و٧٨] أي ليسَ هذا ربِّي. ومِثْلَ هذا قد قالوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي رَجَعوا إلى أنفسِهِمْ باللائمةِ ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ في ما بَيْنَهُمْ ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

[أحدُها:][(٣)] ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حينَ[(٤)] نَسَبْتُمُ الفِعْلَ بهذِهِ الأصنامِ والكَسْرِ إلى إبراهيمَ، وقُلْتُمْ إنهُ فَعَلَ ذلكَ بهِمْ، وإنما فَعَلَ بهِمْ هذا كبيرُهُمْ لِما وَقَعَ عندَهُمْ أنَّ كبيرَهُمْ هو الذي فَعَلَ بهِمْ.

والثاني: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حينَ[(٥)] اتَّخَذْتُمْ مَعَ كبيرِهِمْ آخرينَ شُركاءَ في العِبادةِ حتى غَضِبَ عليهِمْ، فَكَسَرَهُمْ.

والثالثُ[(٦)]: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يَعْنونَ الأصنامَ المَكْسورَةَ: يا هؤلاءِ إنكمْ أنتُمُ الظالمونَ حينَ[(٧)] حَمَلْتُمُ الكبيرَ على كَسْرِكُمْ، واللهُ أعلَمُ بما أرادوا بذلكَ.

ولا يجوزُ لنا أنْ نزيدَ، أو نَنْقُصَ في هذهِ الأنباءِ المذكورةِ في الكتابِ، أو نَقْطَعَ على جِهَةٍ دونَ جِهَةٍ، لأنها ذُكِرَتْ لِيُحْتَجَّ عليهِمْ بما في كُتُبِهِمْ. فلو زيدَ، أو نُقِصَ، قُطِعَ على جهةٍ دونَ [جِهَةٍ][(٨)]، وذهبَ[(٩)] الاحْتِجاجُ بها عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ قولُهُ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ لِلتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ في قولِ إبراهيمَ حينَ[(١٠)] ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] إنما عَلَّقَ فِعْلَ الكبيرِ بهِمْ إنْ نَطَقوا، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾/ ٣٤١ ـ أ/ يا إبراهيمُ ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيفَ قُلْتَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ﴾؟ فإذا كانوا لا يَنْطِقونَ لم يَفْعَلْ كبيرُهُمْ.

الآية ٦٦ [وقولُهُ تعالى][(١١)]: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ [مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ فإنْ قيلَ: إنَّ إبراهيمَ لم يَحْتَجَّ عليهِمْ أنْ كيفَ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ][(١٢)] ما لا يَنْطِقُ؟ ولكنْ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؟ قيلَ: قد كانَ احْتَجَّ عليهِمْ [مِنْ ذلكَ النوعِ حينَ[(١٣)] ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾؟ [الشعراء: ٧٢و٧٣].

وبَعْدُ فإنهُ قد احْتَجَّ عليهِمْ][(١٤)] بِعَجْزِهِمْ عنِ النُّطْقِ حينَ[(١٥)] قالَ: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. ثم قالَ ههنا ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ إنْ عَبَدْتموهُمْ ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إنْ تَرَكْتُمْ عبادَتَهُ.

الآية ٦٧ [وقولُهُ تعالى][(١٦)]: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أُفٌّ هو كلامُ كلِّ مُسْتَخِفٍّ بآخَرَ ومُسْتَحْقِرٍ لهُ في فِعْلِهِ. يقولُ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ فإبراهيمُ حينَ[(١٧)] قالَ [ذلكَ لهمْ إنما قالَ][(١٨)] اسْتِخْفافاً بهِمْ وبما عَبَدوهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ عبادةَ مَنْ لا يَنْفَعُ، ولا يَضُرُّ، لا يَصْلُحُ، ولا يَحِلُّ؟ وفي أنباءِ إبراهيمَ خِصالٌ ليسَتْ تلكَ في غَيرِها مِنَ الأنباءِ:

إحداها: أنهُ لم يَتْرُكْ صَنَماً كانَ يُعْبَدُ دونَ اللهِ إلّا وقد نَقَضَ ذلكَ.

والثانيةُ: أنهُ حاجَّ قومَهُ أوّلاً في فَسادِ مذاهِبِهِمْ وفَسادِ ما اعْتَقَدوهُ، ثم بَعْدَ ذلكَ أقامَ عليهِمْ حُجَجَهُ وبراهينَهُ، لأنهُ ﴿قَالَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: أو أن يكون قوله. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يذهب. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: ثم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في م: حيث. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: حيث. (١٨) من م، ساقطة من الأصل.

هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] و﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] و﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فلمّا أراهُمْ فسادَ مذهبِهِمْ، فعِندَ ذلكَ ذكَرَ حُجَجَهُ وبراهينَهُ حينَ[١] قالَ: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وقالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

وهكذا الواجبُ على كلِّ مُناظِرٍ أنْ يَبْدَأَ أوّلاً بإظهارِ فَسادِ مَذْهبِ خَصْمِهِ. فإذا أراهُ فسادَ مذهبِهِ فحينئذٍ يَذْكُرُ حُجَجَ مَذْهَبِهِ وبراهينَ ما يَعْتَقِدُ ليكونَ لها أسْمَعَ وعندَ إقامتِها أقْبَلَ.

والثالثةُ[٢]: أنهُ لم يُبْتَلَ نَبِيٌّ قطُّ بِفِرْعَونٍ مِثْلِ فِرْعَونِهِ ولا قومٍ مِثْلِ قومِهِ في السَّفَهِ والبُغْضِ والهَمِّ بِقَتْلِهِ في النارِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ خُصوصِيَّتُهُ بالخِلْقَةِ[٣] لِهذهِ الخِصالِ التي ذَكَرْناها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ هذا ظاهرٌ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ أي جَعَلَها في الخِلْقَةِ بَرْداً وسلاماً على إبراهيمَ خاصَّةً. وأمّا على غَيرِهِ فهي على ما هيَ في طَبْعِها مِنَ الإحراقِ والحَرِّ، فيكونُ ذلكَ مِنْ أعْظَمِ آياتِ رسالةِ إبراهيمَ ونُبُوَّتِهِ، أو أنْ يكونَ على الوَحْيِ والإلهامِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنهُ أوحَى لها: أنْ ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

لكنهُ إنْ كانَ على هذا فجائزٌ أنْ يَجْعَلَ في سِرِّيَّتِها ما تَفْهَمُ أمْرَهُ، ويُمَكِّنَ فيها ما تَفْطَنُ ذلكَ، فلم تَحْرُقْهُ وقولُ أهلِ التأويلِ: إنها بَرَدَتْ حتى لم يَنْتَفِعْ بها أهلُ المَشْرِقِ وأهلُ المَغْرِبِ ثلاثةَ أيامٍ، فذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا بالسَّمْعِ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ الكَيدُ هو الأخذُ مِنْ حيثُ الأمْنُ. فجائزٌ أنْ يكونوا كادوهُ أنْ حَبَسُوهُ في مَوضعٍ، ثم جَمَعوا عليهِ الحَطَبَ مِنْ غَيرِ أنْ عَلِمَ هو ذلكَ، ثم أوقَدوا عليهِ النارَ، أو أنْ أخذوهُ مُخافَضَةً[٤]، فجَعَلوهُ في المِنْجَنيقِ، ثم رَمَوهُ في النارِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، أو أنْ يكونوا كادوهُ كَيداً آخَرَ سِوَى ذلكَ لم يُذْكَرْ. فنَحْنُ لا نَعْلَمُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ لا شَكَّ أنهمْ في الآخِرَةِ مِنَ الأخْسَرينَ. وأمّا خُسْرانُهُمْ في الدنيا فلا نَعْلَمُ ما ذلكَ الخُسْرانُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ وذلكَ أنهُ لمّا جُعِلَ في النارِ أنْجاهُ اللهُ منها، وجَعَلَها عليهِ بَرْداً وسلاماً، وأمَرَهُ اللهُ تعالى بالخُروجِ إلى الأرضِ المُقَدَّسَةِ، فَخَرَجَ إليها، فطَلَبوهُ، وبَعَثَ مَلِكُهُمْ إلى أصحابِ المَناظِرِ، فقالَ: لا يَمُرُّ بكُمْ إنسانٌ يَتَكَلَّمُ بالسِّرْيانيَّةِ إلا حَبَسْتُموهُ. قالوا[٥]: فَحَوَّلَ اللهُ لسانَهُ، [فَجَعَلَهُ يَنْطِقُ][٦] بالعبرانيَّةِ؛ فَمَرَّ بهِمْ، فَغُيِّرَ عليهِمْ، فانطَلَقَ إبراهيمُ مُتَوَجِّهاً نَحْوَ أهْلِهِ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي الأسفلينَ، وأعلاهُمْ أبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ دلَّ هذا أنَّ إبراهيمَ كانَ كالمُشْرِفِ على الهلاكِ لأنَّ لَفْظَةَ النَّجاةِ لا تُقالُ إلّا في ما كانَ هنالكَ إشرافٌ على الهلاكِ. وفيهِ أنَّ لوطاً كانَ مَعَهُ، وإنْ كانَ إبراهيمُ هو المُمْتَحَنَ في ذلكَ، وهُمْ كانوا يَقْصِدونَ قَصْدَ إهلاكِ الرُّسُلِ والأتباعِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: بَرَكَتُهُ لِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] كثيرةِ المياهِ والنَّبْتِ ونَحْوِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: الثالث. (٣) في الأصل وم: بالخلة. (٤) في الأصل وم: مغافضة. (٥) في الأصل وم: قال.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بَعضُهُمْ: بَرَكَتُهُ سَعَتُهُ على أهلِها. وقالَ بَعضُهُمْ: بَرَكَتُهُ لأنها كانَتْ مكانَ الأنبياءِ والرسلِ، وصارتْ[1] مُباركَةً بإبراهيمَ ولوطاً، لِما بِهِمْ ظَهَرَ الإسلامُ هنالكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قالَ بَعضُهُمْ: النافلَةُ العَطِيَّةُ. وقالَ بَعضُهُمْ: النافلَةُ الفَضلُ.

وأصلُ النافلَةِ الغَنيمةُ كقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١] أي الغنائمِ. والوَلَدُ وَوَلَدُ الوَلَدِ فَضلٌ منهُ وعَطِيَّةٌ وغنيمةٌ، لأنهُ سَمَّى الوَلَدَ هبَةً بقولِهِ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] وسَمَّى [الوالدَ مُوهَباً][2] وخاصةً إبراهيمَ [إذْ][3] لم يَكُنْ يَطمَعُ أنْ يُولَدَ لهُ الولَدُ، فكيفَ يَطمَعُ بولدِ[4] الوَلَدِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿صَٰلِحِينَ﴾ رُسُلاً، أو ﴿صَٰلِحِينَ﴾ في كلِّ أمرٍ وكلِّ شيءٍ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادةً في أمرِ الدينِ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَهْدُونَ﴾ أي يَدْعونَ الناسَ بأمْرِنا كقولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي داعٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يَهْدونَ الناسَ إلى ما بِهِ أمْرُ اللهِ وإلى دِينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾ أنهمْ كانوا رسلاً. ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فِعْلَ العباداتِ][5].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ فيهِ أنَّ الصلاةَ والزكاةَ كانَتا في شرائعِ المُتقدِّمينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ موحِّدينَ، أو عابِدينَ لهُ في كلِّ وَقْتٍ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قالَ بَعضُهُمْ: حُكماً؛ يعني النُّبوَّةَ، وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿حُكْمًا﴾ أي الفَهْمَ والعَقْلَ ﴿وَعِلْمًا﴾. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حُكْمًا﴾ أي الحُكْمَ بينَ الناسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ أي العِلْمَ الذي كانَ بِهِ يَحْكُمُ بينَ الناسِ.

ومَنْ قالَ: ﴿حُكْمًا﴾ هو النُّبُوَّةُ قالَ: لأنَّ الأنبياءَ إنما يَحكُمونَ بينَ الناسِ بالنُّبُوَّةِ. فَكَنَّوا بالحُكْمِ عنِ النُّبُوَّةِ. ومَنْ قالَ بالفَهْمِ فهو لأنهُ إنما يَحْكُمُ بينَ الناسِ بَعْدَ ما فَهِمَ مِنَ الخُصومِ، وإلّا حاصلُ الحُكْمِ هو الحُكْمُ بَينَ الناسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ أي العِلْمَ الذي بِهِ يَحْكُمُ، أو ﴿وَعِلْمًا﴾ في ما بَينَهُ وبَيْنَ ربِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أضافَ عَمَلَ الخَبائِثِ إلى القَرْيَةِ. ومَعْلومٌ أنَّ القَرْيَةَ لا تَعْمَلُ شيئاً، لكنَّ مَعْناهُ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى﴾ كانَ أهلُها يَعْمَلونَ الخَبائِثَ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ. وقولُهُ: ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ كلُّ أنواعِ الخُبْثِ مِنَ الكُفْرِ والتكذيبِ بالآياتِ واللُّواطَةِ وغَيرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ أي كانوا قَومَ سَوءٍ في أفعالِهِمْ وأعمالِهِمُ التي كانوا يَعْمَلُونها ﴿فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجينَ عنْ أمْرِ اللهِ تاركينَ لهُ. والفِسْقُ هو الخُروجُ عنِ الأمْرِ.

الآية ٧٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾][6] لأنهُ بِرَحْمَتِهِ يُدْخَلُ فيها، ويُدْرَكُ[7]. وقالَ بَعضُهُمْ[8]: ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي بِنِعْمَتِنا، ونِعْمَتُهُ النُّبُوَّةُ كقولِهِ [عَنْ عيسى][9]: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]/ ٣٤١ ـ ب/ بالنُّبُوَّةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي أعطَيناهُ كلَّ أنواعِ الخَيرِ بِرَحْمَتِنا؛ إذ كلُّ مَنْ أصابَ خيراً في الدنيا والآخِرَةِ إنما يُدْرِكُهُ بِرَحْمَتِهِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الولد مواهباً. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: ويترك. (٨) في الأصل وم: غيره. (٩) في الأصل وم: لعيسى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ مِنَ النَّبِيِّينَ، أو ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ لأنهُ[1] كانَ يَعْمَلُ بكلِّ أنواعِ الصلاحِ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ قَبْلِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ لأنهُ ذَكَرَ هؤلاءِ على إثْرِهِ. ثم اخْتُلِفَ في ندائِهِ. قالَ بَعْضُهُمْ: نِداؤُهُ، هو قولُهُ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] وقالَ بَعْضُهُمْ: نِداؤُهُ هو قولُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥و٦] أو يكونُ ذلكَ قولَهُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقولَهُ: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ الآية [نوح: ٢٨] وأمثالَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أهْلُهُ أتباعُهُ مِنْ أهلِهِ وغيرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ هو الغَرَقُ والهَوْلُ الشديدُ الذي كانَ بهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الكَرْبُ العظيمُ هو [ما قاسى][2] مِنْ قومِهِ، ولَقِيَ مِنْهُمْ بِدُعائِهِ إيّاهُمْ إلى دينِ اللهِ في تِسْعِ مِئَةٍ وخَمْسِينَ عاماً وما كانوا يَسْخَرونَ بهِ، ويُؤْذونَهُ مِنْ أنواعِ الأذى كقولِهِ: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الأذى الذي قاساهُ منهمْ، فأنجاهُ مِنْ ذلكَ الكَرْبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وفي حَرْفِ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والنَّصْرُ هو اسمٌ لأمْرَيْنِ: اسمٌ لِلْمَنْعِ واسمٌ لِلظَّفَرِ. فَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي مَعْنَاهُ مِنْ أنْ يَقْتُلَهُ قومُهُ، ويُهْلِكوهُ؛ والنَّصْرُ المَنْعُ كقولِهِ: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] أي لا مانعَ لهمْ. ومَنْ قَرَأَ: على القومِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي[3] أظفَرْناهُ على قومِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقد كانَ لهُ الأمرانِ جميعاً: المَنْعُ والظَّفَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ أفعالِهِمْ وأعمالِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ حتى لم يَنْجُ منهمْ أحَدٌ. قالَ أبو عوسَجَةَ: الكَرْبُ واحدٌ، وجَمْعُهُ كُروبٌ، وهي[4] الهُمومُ والشدائدُ، والكُرْبَةُ واحدةٌ، والكُروبُ جميعٌ، وهو مِثْلُ [جَمْعِ][5] الكَرْبِ؛ قالَ: والأكرابُ يكونُ للدِّلاءِ، وهي جَماعةُ الكَرَبِ، وهو حَبْلٌ يُشَدُّ في عَراقِي الدَّلْوِ، وعَراقِي الدَّلْوِ خَشَباتُ الدَّلْوِ، الواحدةُ عَرْقُوَةٌ؛ قالَ: والكَرّابُ الحَرّاثُ.

الآيتان ٧٨ و٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الآية. قالَ بعضُ الناسِ: دلَّ تَخْصيصُ سُليمانَ بالتَّفهيمِ على أنهُ لَمْ يُفَهَّمْ داوُودَ ذلكَ. ويَدُلُّ على ذلكَ وجوهٌ:

أحَدُها: إشراكُهُ ﷻ إياهُما جميعاً في الحُكْمِ والعِلْمِ وغيرِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ وقالَ: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] ذَكَرَ ما كانا مُشْتَرِكَيْنِ فيهِ، وخَصَّ سُليمانَ بالتَّفهيمِ. فَدَلَّ التَّخصيصُ بالشيءِ على أحَدِهِما، والإشراكُ في الآخَرِ على أنهُ كانَ مَخْصوصاً بهِ دونَ الآخَرِ.

والثاني: أنَّ هذهِ الأنباءَ إنما ذُكِرَتْ لنا لِنَسْتَفيدَ بها عِلْماً لم يكُنْ. فلو لم يكُنْ سُليمانُ مَخْصوصاً بالفَهْمِ دونَ داوُودَ لكانَ يُفيدُنا سِوَى الحُكْمِ والعِلْمِ، وكنّا نَعْلَمُ أنهما قد أُوتِيا حُكْماً وعِلْماً، وكانا يَحْكُمانَ بالعِلْمِ. فإذا كانَ كذلكَ فَدَلَّ التَّخصيصُ بالتَّفهيمِ لأحدِهِما على أنَّ الآخَرَ لم يكُنْ مُفَهَّماً ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: فيهِ دلالةٌ أنَّ المُجْتَهِدَ إذا حَكَمَ، وأصابَ الحُكْمَ، أنهُ إنما أصابَ بِتَفْهيمِ اللهِ إيّاهُ وبِتَوْفيقِهِ حينَ[7] أخبَرَ أنهُ قد آتاهما جميعاً العِلْمَ، ثم خَصَّ سليمانَ بالتَّفهيمِ، والتَّفهيمُ هو فِعْلُ اللهِ حينَ[8] أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) من م، في الأصل: القاسي. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٤٣. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث.

ثم إنْ كانَ ما ذَكَرْنا كانَ في ذلكَ دلالةُ لأصحابِنا في مَنْ قَتَلَ مُسلِماً في دارِ الحَرْبِ، أسْلَمَ هنالكَ، أنَّ عليهِ الكفارَةَ، وليسَتْ عليهِ الدِّيَةُ حينَ[1] قالَ: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] ذَكَرَ في الأوَّلَينِ الدِّيَةَ والكَفارَةَ جميعاً، ثم خَصَّ الثالثةَ بِذِكْرِ الكَفّارةِ دونَ الدِّيَةِ، فَدَلَّ التخصيصُ له بأحَدِهما على أنْ ليسَ عليهِ الآخَرُ، لأنهُ لو لم يكُنْ كذلكَ لكانَ يَذْكُرُ في الأوَّلِ الدِّيَةَ والكَفّارةَ، ولا يَذْكُرُ في الآخَرينِ، أو لا يَذْكُرُ ذلكَ كُلَّهُ في الكُلِّ. فإذا لم يَفعَلْ هكذا، ولكنهُ ذَكَرَ كلَّ الواجبِ في الاثْنَينِ على الإبلاغِ، وتَرَكَ في الواحِدِ أحَدَهُما، وذَكَرَ الآخَرَ. فَدَلَّ تَخصيصُ الثالثِ بأحَدِ الحُكْمَينِ على أنْ ليسَ عليهِ الآخَرُ.

ثم اسْتَدَلُّوا بهذهِ الآيةِ على جوازِ العَمَلِ والقضاءِ باجْتِهادِ الرأيِ. فمنهُمْ مَنِ اسْتَدَلَّ بإصابةِ المُجْتهِدِ في ما يَجْتَهِدُ، وإنْ يُصِبْ هو الحُكْمَ الذي هو حُكْمٌ عندَ اللهِ فيهِ حقيقةً، وهو قولُ[2] مَنْ يَقولُ: كلُّ مُجْتَهِدٍ مُصيبٌ في ما عليهِ مِنَ الاجْتِهادِ في تلكَ الحادثةِ، وهو قولُ أبي يوسفَ ومحمدٍ، رَحِمَهُما اللهُ.

ومنهُمْ مَنْ يَسْتَدِلُّ بهِ بِخَطَإِ أحدِ المُجْتَهِدينَ وعُذْرِهِ في خَطَئِهِ، فيذهَبُ إلى أنَّ المَقصودَ ممّا كُلِّفَ مِنَ الحُكْمِ في ذلكَ واحدٌ لا [حُكْمانِ مُخْتلِفانِ][3] فإذا كانَ المَقصودُ ممّا كُلِّفَ مِنَ الحُكْمِ فيهِ واحداً فلا يجوزُ أنْ يَحْكُمَ اثْنانِ في شيءٍ واحدٍ بِحُكْمَينِ مُخْتَلِفَينِ، والمقصودُ فيهِ واحدٌ، فيكونانِ جميعاً [مُصيبَينِ حينَ][4] خَصَّ أحدَهُما بالتَّفْهيمِ بقولِهِ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ فلو كانا جميعاً مُصيبَينِ كانا جميعاً مُفَهَّمَينِ.

فإذا أخْبَرَ أنهُ فَهَّمَ سليمانَ، ولم يُفَهِّمِ الآخَرَ، دلَّ أنَّ المُصيبَ، هو المُفَهَّمُ منهما، وهو قولُ أبي حَنيفَةَ وبِشْرٍ وغَيرِهما.

ومَنِ اسْتَدَلَّ بإصابَةِ، يَسْتَدِلُّ بقولِهِ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فَدَلَّ ذلكَ على أنهُ لم يكُنْ عليهما غَيرُ ما فَعَلا، وحَكَما فيهِ، وإنْ لم يُصيبا الحُكْمَ الذي هو حُكْمُ حقيقةٍ عندَ اللهِ.

ثم ذَكَرَ في الآيةِ أنهما يَحْكُمانِ في الحَرْثِ، ولم يَذْكُرْ أنهما حَكَما بالضمانِ أوِ البراءةِ عنِ الضمانِ أو كيفَ كانَ حُكْمُهما؟ فَدَلَّ تَرْكُ بَيانِ ما حَكَما فيهِ على أنْ ليسَ علينا ذلكَ الحُكْمُ؛ إذ بَيَّنَ لنا ما علينا العَمَلُ فيهِ. فَدَلَّ بَيانُ أحَدِهِما وتَرْكُ بَيانِ الآخَرِ على أنْ ليسَ علينا الذي تَرَكَ ذِكْرَهُ وبَيانَهُ.

إلّا أنَّ أهلَ التأويلِ حَمَلوا حُكْمَهما على الضمانِ والبراءةِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «رُوِيَ أنَّ ناقةً لرجلٍ هاربةً، دَخَلَتْ حائطَ رجلٍ، فأفسَدَتْ ما فيهِ، فَكَلَّمَ رسولَ اللهِ فيها، فَقَضى أنَّ حِفْظَ الحوائطِ بالنهارِ على أهْلِها، وأنَّ حِفْظَ المواشي بالليلِ على أهلِها، وأنَّ على أهلِ الماشيةِ ما أصابَتْ ماشِيَتُهُمْ بالليلِ» [أحمد ٥/ ٤٣٦].

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ما أصابَتِ الماشيةُ بالليلِ فَعَلَى أهْلِها، وما أصابَتْ بالنهارِ فليسَ على أهْلِها منهُ شيءٌ» [السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٦٤٧] لكنَّ الخَبَرَ إنما جاءَ في المدينةِ. وفي المدينةِ إنما تُرْعَى الماشيةُ في السِّكَكِ، إذْ ليسَ لها مَراعٍ.

ونحنُ نقولُ: إنَّ مَنْ أرسَلَ ماشِيَتَهُ في مكانٍ لا مَرْعَى لها إلّا كَرْمُ إنسانٍ أو حائطٌ، فأفْسَدَتْهُ[5]، فإنا نوجِبُ الضمانَ ضَمانَ ما أفْسَدَتْ. وهو كَمَنْ يُرْسِلُ [الماءَ][6] في مُلْكِهِ في مكانٍ، لا يَقِرُّ فيهِ، فَتَعَدّى إلى مُلْكِ جارِهِ فأفسَدَهُ. فعليهِ ضمانُ ما أفْسَدَهُ منهُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ يَجْعَلُ الخَبَرَ مَنْسوخاً بما جاءَ «جُرْحُ العَجْماءِ جُبارٌ» [بنحوه مسلم ١٧١٠] لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا. وإنما يكونُ جُرْحُها جُباراً إذا تَعَدَّتْ مِنْ غَيرِ إرسالِ صاحِبِها. فأمّا إذا كانَ بِصُنْعِ صاحِبِها فَعَلَيهِ/ ٣٤٢ - أ/ الضمانُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: القول. (٣) في الأصل وم: حكمين مختلفين. (٤) في الأصل وم: مصيبان حيث. (٥) في الأصل وم: فأفسده. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿نَفَشَتْ﴾ أي رَعَتْ ليلاً. يُقالُ: نَفَشَتِ الغنمُ بالليلِ، وهي إبلٌ نَفَشٌ وأنفاشٌ ونُفَّاشٌ، واحِدُها: نافِشٌ، وسَرَحَتْ، وسَرَبَتْ بالنهارِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ يُقالُ: أنفَشْنا الغَنَمَ إذا أنزَناها في الليلِ، فَرَعَتْ، وهو النَّفْشُ، ونَفَشَتْ[1] أي انتشرَتْ بِغَيرِ عِلْمِ أهلِها؛ نَفَشَتْ تَنفُشُ نَفشاً، فهي نافِشَةٌ.

قالَ أبو عُبَيدَةَ: النَّفْشُ بالليلِ أنْ تَدخُلَ في زَرْعٍ، فتَأكُلَهُ، أو رَعَتْ، فتأكُلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ ذَكَرَ التسبيحَ هنا في الجبالِ، ولم يَذْكُرْ في الطَّيْرِ. ولكنْ ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حينَ[2] قالَ: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩] أي[3] تُسبِّحُ لَهُ.

ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ تَسبيحُ الجِبالِ ههنا [وتَسبيحُ الطَّيرِ][4] تَسبيحَ خِلْقَةٍ. لكنهُ لو كانَ تَسبيحَ خِلْقَةٍ لكانَ تَسبيحُها مَعَ داوُدَ وغيرِهِ سَواءً. وقد ذَكَرَ يُسَبِّحْنَ مَعَ داوُدَ لِيُعْلَمَ أنَّ اللهَ جَعَلَ لهذهِ الأشياءِ تَسبيحاً، يُسَبِّحْنَ اللهَ، ويذكُرونَهُ.

وكذلكَ ما رُوِيَ في الأخبارِ أنَّ الطعامَ سَبَّحَ في كفِّ رسولِ اللهِ ﷺ ورُوِيَ أنهُ أخَذَ حجراً، فَسَبَّحَ في يدِهِ، وأنهُ أخَذَ كذا، فَسَلَّمَ عليهِ، وأمثالُ هذا كثيرٌ، وذلكَ كلُّهُ آيةٌ لرسلِ اللهِ على رسالتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي كُنَّا فاعلينَ ما نُريدُ: إنْ أردْنا أنْ يُسَبِّحْنَ سَبَّحْنَ، وإنْ أردْنا ألّا يُسَبِّحْنَ لا يُسَبِّحْنَ، أي كنّا فاعلينَ جميعَ ما نُريدُ لَسْنا[5] كالخلائقِ، لأنهمْ يُريدونَ أشياءَ لا تُلائِمُهُمْ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ كقولِهِ[6] في آيةٍ أُخرى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ الآية [سبأ: ١٠و١١].

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ أي عَلَّمْناهُ السببَ الذي بهِ يَلينُ الحديدُ، فَيَصْنَعُ بهِ ما شاءَ كما عَلَّمَ غيرَهُ مِنَ الخَلْقِ السببَ الذي بهِ يَلينُ الحديدُ.

ويَحتَمِلُ أنْ جَعَلَ الحديدَ لَيِّناً بلا سَبَبِ تَسخيراً لهُ كما سَخَّرَ لهُ غَيرَهُ مِنَ الأشياءِ الشديدةِ الصلبَةِ كما أعطى وَلَدَهُ عَينَ القَطْرِ حينَ[7] قالَ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢] وذلكَ لم يكنْ لأحدٍ سِواهُ وكذلكَ الحديدُ. ألانَ لِوالِدِهِ حتى يَعْمَلَ بهِ ما شاءَ ما لم يكُنْ ذلكَ لِأحَدٍ[8] سِواهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ قيلَ: دروعُ الحديدِ ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي تَقيكُمْ مِنْ بأسِكُمْ أي مِنْ عَدُوِّكُمْ ومِنْ أمرِ حَرْبِكُمْ.

وفيهِ قراءاتٌ[9]: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاءِ، ولِيُحْصِنَكُمْ بالياءِ، ولِنُحْصِنَكُمْ بالنونِ. قالَ الكسائيُّ: مَنْ قَرَأَ بالتاءِ ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي الصنعةُ تُحصِنُكُمْ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ ومَنْ قَرَأَ بالياءِ لِيُحْصِنَكُمْ أي اللَّبوسُ يُحْصِنُكُمْ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ ومَنْ قَرَأَ بالنونِ لِنُحْصِنَكُمْ فإنهُ يقولُ اللهُ: نُحْصِنُكُمْ نَحْنُ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ما أعطاكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ التي ذَكَرَ مِنْ تَسخيرِ الجبالِ لهُ والطَّيْرِ والحديدِ والرياحِ وغيرِها[10] ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ذلكَ، أي اشكُروا لهُ في نِعَمِهِ، لأنَّ الاِسْتِفهامَ مِنَ اللهِ على الإيجابِ والإلزامِ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ذَكَرَ ههنا عاصفَةً، وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي لَيِّنَةً. فهو يَحتَمِلُ وُجوهاً:

قالَ بَعضُهُمْ: كأنها تَشتَدُّ إذا أرادَ سليمانُ، وتَلينُ إذا أرادَ. وقالَ بَعضُهُمْ: كانَتْ تَشتَدُّ وقتَ حَمْلِ السَّريرِ، وتَلينُ وقتَ

(١) من م،في الأصل: ونفشنا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م،في الأصل: أو. (٤) في الأصل وم: والطير. (٥) في الأصل وم: ليس. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: في حديد. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٤٤. (١٠) في الأصل وم: وغيره.

سَيرِهِ. ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ ﴿عَاصِفَةً﴾ شديدةً في الخِلْقةِ، لكنّها تَلينُ لهُ، وتَرْخو؛ فكأنّهُ يقولُ: سَخَّرْنا لسليمانَ الريحَ العاصفةَ الشديدةَ حتى كانَتْ تَلينُ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ لا يَقْصِدُ غيرَها[1] ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

الآية ٨٢ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ذَكَرَ نِعَمَهُ التي كانَتْ [عليهما حينَ][3] أخبَرَ أنهُ سَخَّرَ لهما أشدَّ الأشياءِ وأصلَبَها مِنْ نَحْوِ الجبالِ والرياحِ والبحارِ والحديدِ والشياطينِ أيضاً، وهُمْ أعداءُ النّبِيِّ آدمَ، سَخَّرَ لهُ الأعداءَ الشياطينَ والرياحَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ حتى لا يُضِلّوا الناسَ.

[والثاني][4]: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ على سليمانَ لئلا يَتَفَرَّقوا عنهُ، لأنَّ سليمانَ كانَ لا يَمْلِكُ إمساكَهُمْ واستِعْمالَهُمْ، لكنَّ اللهَ سَخَّرَهُمْ لهُ حتى عَمِلوا لهُ، وذَلّوا لهُ، وخَضَعوا.

والثالثُ: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ عنِ الخِلافِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ كقولِهِ[5] في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] ذَكَرَ في سليمانَ أنهُ سَلَّطَهُ على الشيطانِ، وجَعَلَهُمْ مُسَخَّرينَ لهُ، يَسْتَعْمِلُهُمْ في كلِّ أمرٍ وعَمَلٍ شاءَ. وذَكَرَ في أيّوبَ على إثْرِ قِصَّةِ سليمانَ أنهُ سَلَّطَ الشياطينَ عليهِ، وصارَ هو كالمُسَخَّرِ لهمْ حينَ[6] قالَ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ حتى [يُعلَمَ][7] أنَّ تَسْخيرَ الشياطينِ لِسُليمانَ، كانَ لهُ إفضالٌ وإنعامٌ، لم يَكُنْ سَبَقَ منهُ ما يَسْتوجِبُ بهِ ذلكَ، ويَستَحِقُّهُ، ولا كانَ مِنَ أيوبَ إليهِ مِنَ العِصْيانِ ما يَسْتَحِقُّ ذلكَ. وما أصابَهُ مِنَ البَلاءِ منهُ عَدْلٌ. وكانَ ما يُعطي مِنَ السَّلامَةِ والصِّحَّةِ رَحْمَةً ونِعْمَةً. ولهُ أنْ يُعْطِيَ مَنْ شاءَ ما شاءَ، ويَحْرِمَ مَنْ شاءَ ما شاءَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِهِ لمّا رَدَّ عليهِ ما أخَذَ منهُ، وكَشَفَ عنهُ البلاءَ ﴿رَحْمَةً﴾؟ [الأنبياء: ٨٤] ولو كانَ ذلكَ حقّاً لهُ على اللهِ لم يكُنْ لِذِكْرِ الرَّحْمَةِ مَعْنًى.

فهذا يَرُدُّ على المُعتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ أنَّ على اللهِ الأصلَحَ لهمْ في دينِهِمْ لأنَّ ما أصابَ أيوبَ مِنَ البلايا أضافَ ذلكَ إلى الشياطينِ حينَ[8] قالَ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] ولو كانَ ذلكَ أصلَحَ في دينِهِ لكانَ لا يُضيفُ فِعْلَ الأصلَحِ لهُ في الدينِ إلى الشياطينِ. فَدَلَّ أنهُ ليسَ على ما يَذْهبونَ إليهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ فيهِ إضمارُ دعاءٍ؛ كأنهُ قالَ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ فارْحَمْني، وعافِني ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾؟ [الأنبياء: ٨٤] دلَّ أنهُ على الدعاءِ خَرَجَ [كقولِهِ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [ص: ٤١]][9] وصِرْتُ بحالٍ يَرْحَمُني مَنْ رآني مِنَ الخَلْقِ ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ هو ظاهرٌ أنهُ كَشَفَ عنهُ ما أصابَهُ مِنَ البلاءِ في بَدَنِهِ وأهلِهِ حتى عادَ إلى الحالِ التي كانَ قَبْلَ ذلكَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: أُوتِيَ أهلَهُ في الدنيا ومِثْلَ أجورِهِمْ في الآخِرَةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ فأحياهُمُ اللهُ ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ وكانتِ امرأةُ أيّوبَ وَلَدَتْ قَبْلَ البلاءِ أولاداً بَنينَ وبَناتٍ، فأحياهُمُ اللهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ أي ما يَتأهَّلُ بهِ مِنَ الأهلِ والأنصارِ على ما كانَ لهُ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ادرج قبلها في الأصل وم: وقوله تعالى. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم حيث. (٤) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: والثاني في قوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَين:

أحَدُهما][(١)]: أنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بِبلاءٍ، فَصَبَرَ على ما صَبَرَ أيوبُ على بلائِهِ[(٢)]، فَفَرَّجَهُ اللهُ عنْ ذلكَ [البلاءِ][(٣)] يُفَرِّجُهُ عنهُ كما فَرَّجَ لأيوبَ.

والثاني: يُعْلِمُ أنَّ ما أصابَهُ ليسَ لأمرٍ سَبَقَ منهُ، ولكنَّهُ ابْتِداءُ مِحْنَةٍ منَ اللهِ، امْتَحَنَهُ بها، ولهُ أنْ يَمْتَحِنَ مَنْ شاءَ بما شاءَ مِنَ المِحَنِ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [يُشْبِهُ أنْ يكونَ][(٤)] [ذو الكِفْلِ اسْماً][(٥)] مِنْ أسمائِهِ.

وجائزٌ أنهُ سَمَّى ذا الكِفْلِ لِأمرٍ كانَ منهُ؛ ذُكِرَ أنهُ كانَ رجلاً صالحاً، فَكُفِّلَ لِنَبِيٍّ بأمْرِ قومِهِ، فَوَفَى ما تَكَفَّلَ بهِ، فَسُمِّيَ لذلكَ ذا الكِفْلِ. ثم اخْتُلِفَ فيهِ.

قالَ بَعْضُهُمْ: هو رجلٌ صالحٌ على ما ذَكَرْنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ نَبِيّاً ولَسْنا[(٦)] نَعْلَمُ ذلكَ سِوَى أنهُ ذُكِرَ أنهُ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾/ ٣٤٢ - ب/ سَمّاهُمْ صابِرينَ على الإطلاقِ. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ جَمَعوا جميعَ أنواعِ الصَّبْرِ وجميعَ أنواعِ الصلاحِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ وهي الجنةُ. وجائزٌ أنْ يكونَ جميعُ ما قالوا مِنَ الصَّبْرِ والصلاحِ، كانَ ذلكَ كلُّهُ رَحْمَةَ اللهِ وفَضْلَهُ. وهكذا أنَّ مَنْ نالَ شيئاً مِنَ الخيراتِ والطاعاتِ فإنما يَنالُ ذلكَ كلَّهُ بِرَحْمَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ هو اسْمٌ مِنْ أسْمائِهِ، سُمِّيَ بهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: سَمّاهُ ذا النونِ لِكَوْنِهِ في بَطْنِ النونِ، وهو الحوتُ، أي صاحبَ النونِ؛ سُمِّيَ بِاسْمَينِ مُخْتَلِفَينِ: أحَدُهما: اسْمٌ مَوضوعٌ، والآخَرُ: مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ وممّا كانَ بهِ، وهو كما[(٧)] سَمَّى عيسى مَرَّةً، وسَمّاهُ مَسيحاً أُخرَى: أحَدُهما: اسْمٌ مَوضوعٌ، والآخَرُ: مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ، وهو ممّا كانَ يَمْسَحُ بهِ المَرْضَى والمَوتى، فَيَبْرَؤونَ. وكذلكَ ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ [الأنبياء: ٨٥] يُخَرَّجُ على هذينِ الاسْمَينِ: أحَدُهما: مَوضوعٌ لهُ، والآخَرُ مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: مُغاضِباً لربِّهِ أي حزيناً لهُ، لأنهُ كانَ أرادَ أنْ يُهْلِكَ اللهُ قومَهُ لمّا أَيِسَ مِنَ إيمانِ قومِهِ، وقد كَثُرَ عِنادُهُمْ ومُكابَرَتُهُمْ، فَخَرَجَ حزيناً لذلكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: مُغاضِباً لِلْمَلِكِ؛ وذلكَ أنَّ قومَهُ قد [أَسَرَهُمْ عَدُوُّهُمْ، وقد كانَ اللهُ أوحَى إليهِمْ، فقالَ: إذا][(٨)] أسَرَكُمْ عَدُوُّكُمْ، أو أصابَتْكُمْ مُصيبةٌ، فادْعوني. فإذا دَعَوْتُموني اسْتَجَبْتُ لكمْ. فلمّا أُسِروا نَسُوا أنْ يَدْعوهُ زماناً. حتى إذا ذَهَبَتْ أيامُ عُقوبَتِهِمْ، ونَزَلَتْ أيامُ عافِيَتِهِمْ، أوحَى اللهُ إلى نَبِيٍّ مِنْ أنبياءِ بَني إسرائيلَ أنِ ابْعَثوا رجلاً قوياً أميناً فإني مُلْقٍ في قلوبِ الذينَ أَسَرُوا قومَكُمْ[(٩)] أنْ يُرْسِلُوهُمْ، وفي القصةِ طولٌ غيرَ أنّا نَخْتَصِرُ، فَبَعَثَ مَلِكُهُمْ يونسَ إلى أولئكَ الأُسارَى لِيَسْتَنْقِذَهُمْ مِنْ أيديهِمْ، فَخَرَجَ، وأْتَمَرَ[(١٠)] بأمْرِهِ، لكنهُ غَضِبَ عليهِ لمّا اشْتَدَّ[(١١)] عليهِ. فذلكَ قولُهُ: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ للملكِ حينَ[(١٢)] أمَرَه بالخروجِ إلى أولئكَ الأَسْرَى.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لقومِهِ، وذلكَ يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ لمّا أَيِسَ مِنْ إيمانِ قومِهِ؛ خَرَجَ مَكيدَةً لِقومِهِ لأنَّ السُّنَّةَ فيهِمْ أنهُ إذا خَرَجَ [رسولُ اللهِ][(١٣)] مِنْ بَينِ أَظْهُرِهِمْ نَزَلَ بهمُ العذابُ؛ خَرَجَ[(١٤)] مِنْ عندِهم لِيَخافوا العذابَ، فَيُؤْمِنوا.

---

(١) في الأصل وم: وجوهاً أحدها. (٢) في الأصل وم: بلاء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ذا الكفل اسم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ما. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: قومهم. (١٠) من م، في الأصل: أو ائتمر. (١١) من م، في الأصل: اشتدت. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: رسوله. (١٤) في الأصل وم: فخرج.

والثاني: خَرَجَ إشفاقاً على نَفْسِهِ لئلا يُقْتَلَ لِما أنَّ قومَهُ هَمُّوا بِقَتْلِهِ؛ خَرَجَ(١) لئلا يُقْتَلَ إشفاقاً على نَفْسِهِ كما خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ [مِنْ بَينِ أظهُرِ قومِهِ لمّا هَمُّوا بِقَتْلِهِ. لكنَّ رسولَ اللهِ](٢) خَرَجَ بإذْنٍ، ويُونُسَ بِغَيرِ إذْنٍ.

والثالثُ: خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ لمّا أكْثَرُوا العِنادَ والمُكابَرَةَ، وأيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ؛ خَرَجَ [لِيُفَرِّغَ نَفْسَهُ لِعبادةِ ربِّهِ](٣) [إذْ كانَ مأموراً بعبادةِ ربِّهِ](٤) ودَعا قومَهُ إلى ذلكَ. فلما أيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ خَرَجَ كما(٥) ذَكَرْنا بِغَيرِ إذْنٍ مِنْ ربِّهِ، وإنْ كانَ في خروجِهِ مَنْفَعَةٌ لهُ ولقومِهِ، فَعوقِبَ(٦) لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾](٧) أي لَنْ نُضَيِّقَ عليهِ، ولا نَبْتَلِيَهُ بالضِّيقِ والشدائدِ(٨) لمّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ. يقالُ: فلانٌ مَقْدورٌ(٩) عليهِ، ومُقَتَّرٌ، أي مُضَيَّقٌ عليهِ الأمْرُ، وهو كقولِهِ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] أي يُضَيِّقُ وقولِهِ: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ قالوا: في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ: ظُلْمَةِ الليلِ وظُلْمَةِ البَحْرِ وظُلْمَةِ بَطْنِ الحوتِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الْتَقَمَ الحوتَ حوتٌ آخَرُ، فكانَ في بَطْنِ حوتٍ وحوتٍ آخَرَ وظُلْمَةِ البَحْرِ، فقالَ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَحَّدَ ربَّهُ، ونَزَّهَهُ عنْ جَميعِ ما قيلَ فيهِ، ثم اعْتَرَفَ بِزَلَّتِهِ وذنْبِهِ، فقالَ: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الآية ٨٨ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سَمِعَ](١٠) اللهُ دعاءَهُ، وقَبِلَ تَوبَتَهُ، وأخْبَرَ أنهُ كَشَفَ عنهُ الغَمَّ الذي كانَ [بهِ حينَ](١١) قالَ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وأخْبَرَ أنهُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُنَجِّي اللهُ مَنِ ابْتَلاهُ](١٢) بالبلاءِ والشِّدَّةِ، فَدَعا بِما دَعا بِهِ يونُسُ أنْ يُفَرِّجَهُ اللهُ عنهُ حينَ(١٣) قالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ دَعا بِدَعْوَةِ ذي النونِ اسْتُجيبَ لهُ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٨٤].

ثم قالَ بَعْضُهُمْ: الْتَقَنَ [اللهُ ﷻ ذلِكَ الدعاءَ](١٤) مِنَ الأرضِ لمّا بَلَغَ إلى(١٥) قرارِ الأرضِ، فقالَ: [﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾](١٦).

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ رجلاً صالحاً عابداً، وكانَ عَوَّدَ نَفْسَهُ ذلكَ [الدعاءَ](١٧) قَبْلَ أنْ يُدْخَلَ بَطْنَ الحوتِ. فلمّا [أُدْخِلَ فيهِ اسْتَمَرَّ يقولُهُ فيهِ على ما كانَ يقولُ](١٨) مِنْ قَبْلُ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾](١٩) كقولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ الآية [الصافات: ١٤٣و١٤٤].

قالَ بَعْضُهُمْ: [﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قَبْلُ](٢٠) هذا، وإلّا لَلَبِثَ فيهِ على ما ذَكَرَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: لولا أنهُ قالَ هذا القولَ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَلَبِثَ فيهِ. فيكونُ على هذا التأويلِ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ صارَ مِنَ المُسَبِّحينَ. والأوَّلُ أشْبَهُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ الغَمُّ هو ما ابْتَلاهُ اللهُ بالضِّيقِ في بَطْنِ الحوتِ والبَحْرِ، فَنَجّاهُ مِنْ ذلكَ الغَمِّ. وجائزٌ أنْ يكونَ نَجّاهُ مِنَ الغَمِّ الذي كانَ بهِ بِسَبَبِ خروجِهِ مِنْ بينِ أظْهُرِهِمْ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ يونسَ مَكَثَ في بَطْنِ الحوتِ أربَعينَ يوماً أو ثلاثةَ أيامٍ ونَحْوَ هذا، فذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا بالوَحْيِ. فإنْ أثْبَتَهُ(٢١) الوَحْيُ فهو هو، وإلّا ليسَ بِنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ حاجةٌ.

---

(١) في الأصل وم: فخرج. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في م: إليه لعبادته. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: لما.
(٦) في الأصل وم: فعوتب. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: والشديدة، في م: والشديد. (٩) في الأصل وم: مقدر. (١٠) في الأصل وم: فسمع. (١١) في الأصل وم: له حيث. (١٢) في الأصل وم: فيرجى أن. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: ذلكَ.
(١٥) ساقطة من م. (١٦) في الأصل وم: ذلكَ. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل: دخل فيه على ما كان يقول، في م: دخل فيه فكان يقول فيه على ما كان يقول فيه. (١٩) في الأصل وم: وهو. (٢٠) ساقطة من الأصل وم. (٢١) في الأصل وم: ثبت.

وقال القُتَبِيُّ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يعني ذا الحوتِ، والنُّونُ الحوتُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: إنما سُمّيَ ذا النُّونِ لأنَّ الحوتَ الْتَقَمَهُ، والنُّونُ الحوتُ، والنِّينانُ الجميعُ.

وقال القُتَبِيُّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أنْ لَنْ نُضيِّقَ عليهِ. يُقالُ: فلانٌ مَقْدورٌ[1] عليهِ، ومُقَتَّرٌ. ومنهُ: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضَيَّقَ عليهِ. ومنهُ قولُهُ أيضاً: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] أي يُضَيِّق، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ قوله: ﴿لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ في الظاهرِ نَهيٌ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وأمثالُهُ تَخرُجُ في الظاهرِ مُخرَجَ النَّهيِ، وقولُهُ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ونَحوُهُ يُخرَّجُ مُخرَجَ الأمرِ والنَّهيِ. إذا كانَ مِنَ العَبْدِ لِلسَّيِّدِ فهو تَعوُّذٌ ودعاءٌ، وإذا كانَ مِنَ السَّيِّدِ للعبدِ فهو أمْرٌ ونَهيٌ، ليسَ بتَعوُّذٍ ولا دُعاءٍ، ولكنْ حقيقةُ الأمرِ والنَّهيِ. وكذلكَ سؤالُ الأميرِ لِرَعِيَّتِهِ أمْرٌ ونَهيٌ، وسؤالُ الرعيَّةِ للأميرِ تَضَرُّعٌ وتَعَوُّذٌ ودعاءٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ في الطاعةِ والعبادةِ والذِّكْرِ والتَّسبيحِ والتَّحميدِ مادُمْتُ حيّاً، ولكنْ أشرِكْ لي في العِبادَةِ والذِّكرِ مَنْ يُعينُني على ذلكَ، وهو كقولِ موسى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩ـ ٣٤] [وقولِ زكريا أيضاً][2]: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥و٦] إذا مِتْنا، أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ بَعْدَ مَماتي في قَبْري، ولكنْ هبْ لي مَنْ يَذْكُرُني، ويَدعو لي بَعْدَ وفاتي، ويُحْيِي أمْري.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي وأنتَ خيرُ مَنْ يَرِثُ العِبادَ. على هذا التأويلِ. وعلى التأويلِ الأوَّلِ: أنتَ خَيرُ مَنْ يُعينُ على العبادَةِ والطاعةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي دعاءَهُ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنهُ كانَ يَحيَى على ما سَمّاهُ اللهُ في الطاعةِ والعِبادةِ، وفي الآخِرَةِ يَحْيَى في الكراماتِ والثوابِ الجزيلِ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ جَعَلْناها بحيثُ يَرْغَبُ فيها زوجُها ذاتَ هيئةٍ ومَنْظَرٍ لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنها بَلَغَتْ في السِّنِّ مِئَةً غيرَ شَيءٍ. والعُرْفُ في النساءِ/٣٤٣ ـ أ/ أنهُنَّ إذا بَلَغْنَ المَبْلَغَ الذي ذُكِرَ أنها بَلَغَتْ زوجةُ زَكَريّا يَكُنَّ مِنَ القَواعِدِ اللاتي لا يَرْغَبُ فيها أحدٌ. فأخبَرَ أنهُ أصْلَحَها، وصَيَّرَها بحيثُ يُرْغَبُ فيها ذاتَ هيئةٍ ومَنْظَرٍ.

والثاني: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي [جَعَلْناها][3] وَلوداً، بحيثُ تَلِدُ، لأنهُ لمّا بُشِّرَ بِيَحْيَى ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨] والعاقرُ هي التي لا تَلِدُ. فيكونُ قولُهُ: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [أي جَعَلْناها][4] وَلوداً بحيثُ تَلِدُ، واللهُ أعلَمُ.

هذانِ الوجهانِ مُحتَملانِ. وأمّا قولُ مَنْ يقولُ: كانَ في لسانِها بَذاءٌ، وفي خُلُقِها سُوءٌ. فذلكَ لا يَحِلُّ أنْ يُقالَ إلّا [أنْ][5] يُثْبَتَ. وهو على خِلافِ ما ذَكَرَهُمْ، وَوَصَفَهُمْ حينَ[6] قالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

ثم المُسارَعَةُ في الخيراتِ أنهُ كانَ لا يَمْنَعُهُمْ شيءٌ عنْ [فِعْلِ][7] الخيراتِ. وهكذا المؤمنُ، هو يَرْغَبُ في الخَيراتِ كلِّها إلّا أنْ يَمْنَعَهُ شيءٌ مِنْ شَهْوَةٍ أو سَهْوٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [في وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: مقدر. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما:][1] أي يَدْعونَنا رَغَباً في ما عندَنا مِنْ جزيلِ الثوابِ ورَهَباً مِنْ أليمِ عِقابِنا.

والثاني: رَغَباً في ما عندَنا مِنَ اللَّطائفِ مِنَ التوفيقِ على الخَيراتِ والعِصْمَةِ عنِ المَعاصي ورَهَباً ممّا عندَنا مِنَ النَّقِماتِ والخِذلانِ والزَّيغِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: الخُشوعُ هو الخَوفُ الدائمُ المُلازِمُ لِلقَلْبِ، لا يُفارِقُهُ. وقالَ بَعضُهُمْ: مُتواضِعينَ ذَليلينَ لِأمرِ اللهِ؛ تفسيرُ الخُشوعِ ما ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عَفَّتْ فَرْجَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ جبريلَ أتاها فَنَفَخَ في جَيبِها أي فَرْجِها. وهذا ليس في الآيةِ. فلا يجوزُ القولُ إلّا [أنْ][2] يُثْبِتَ. ولكنَّ قولَهُ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ كقولِهِ في آدمَ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩ وص: ٧٢] أي أنْشأتُ فيهِ مِنْ روحي، إذْ لم يَقُلْ أحدٌ فيهِ بالنَّفْخِ: أي جبريلُ نَفَخَ فيهِ. فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي أنْشأْنا فيها مِنْ روحِنا، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ذَكَرَ فيها آيةً واحدةً لأنها وَلَدَتْ بِغَيرِ زوجٍ، وَوَلَدَ هو بلا أبٍ، فهو واحدٌ إذا كانَتْ هي وَلَدَتْهُ بِغَيرِ زَوجٍ، فيكونُ بِغَيرِ أبٍ، فهو آيةٌ واحدةٌ. والآيةُ فيها ما ذَكَرَ ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وآيةُ عيسى حينَ تَكَلَّمَ في المَهْدِ، فقالَ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [مريم: ٣٠].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَحْصَنَتْ﴾ أي عَفَّتْ، ويُقالُ: امرأةٌ حَصانٌ أي عفيفةٌ، ومُحْصَنَةٌ أي قد أحْصَنَها زوجُها، ومُحْصِنَةٌ أي عَفيفةٌ، وامرأةٌ حَصانٌ، ونِسْوَةٌ حاصِناتٌ وحَواصِنُ. قالَ: والحِصانُ ذَكَرُ الخيلِ، وحُصُنٌ جميعٌ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قالَ بَعضُهُمْ: إنَّ هذهِ مِلَّتُكُمْ وشريعتُكُمْ ومذاهِبُكُمْ مِلَّةٌ واحدةٌ وشريعةٌ واحدةٌ؛ يعني شريعةَ الإسلامِ، ومِلَّةٌ واحدةٌ ليسَتْ بِمُتَفَرِّقَةٍ. وقالَ بَعضُهُمْ: إنَّ هذا[4] دينُكُم دينٌ واحدٌ ليسَ كَدينِ الأُمَمِ الخاليةِ أدياناً[5] مُختلِفَةً، أو تكونُ الأُمَّةُ ما يُؤَمُّ إليها، ويُقْصَدُ لأنَّ الأُمَّةَ، هي الجماعةُ، وهي المَقصودةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ إخباراً عنْ هذهِ الأمّةِ على دينٍ واحدٍ ومِلَّةٍ واحدةٍ، ليسوا بِمُختلِفينَ فيهِ ولا بِمُتَفَرِّقينَ[6] كسائرِ الأُمَمِ الخاليةِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٠٥] [وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]][7] أخبَرَ عنهمْ أنهمْ غَيرُ مُتَفَرِّقينَ، ونهاهُمْ عنْ أنْ يَتَفرَّقوا كما تَفَرَّقَ الأوّلونَ.

ألا تَرى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؟ [الأنبياء: ٩٣] هذا يدلُّ على أنهُ إخبارٌ عنْ أهلِ الإسلامِ في [صَدَدِ][8] الأمرِ أنهمْ على شيءٍ واحدٍ.

وقالَ الزَّجاجُ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ما لَزِموا الحَقَّ، واتَّبَعوهُ. وأمّا إذا تَرَكوا لُزومَهُ، وتَرَكوا اتّباعَهُ، فهي ليسَتْ بأمّةٍ واحدةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ كقولِهِ[9] في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢] لِيُعْلَمَ أنَّ العِبادةَ والتَّقْوَى واحدٌ في الحقيقةِ لأنَّ الاتِّقاءَ هو ما يُجْتَنَبُ مِنَ الأفعالِ، والعبادةَ ما يُؤْتَى مِنَ الأفعالِ[10]. فإذا اجْتُنِبَ ما يَجِبُ اجْتِنابُهُ فقد أُتِيَ بما يَجِبُ إتيانُهُ، وإذا أُتِيَ بما يَجِبُ إتيانُهُ فَقَدِ اجْتُنِبَ ما يَجِبُ اجْتِنابُهُ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] لأنهُ بِفِعْلِهِ إيّاها مُجْتَنِبٌ عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي فَوَحِّدوني على ما قالَ أهلُ التأويلِ، لأنهُ إنما خاطَبَ بهِ أهلَ مكةَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: هذه. (٥) في الأصل وم: أديان. (٦) في الأصل وم: بمفترقين. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) ادرج بعدها في الأصل وم: والعبادة.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أخبرَ عنِ الأوَّلينَ أنهمُ[1] اختلفوا في دينِهِمْ، وتفرَّقوا ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ مَنْ تَفرَّقَ [ومَنْ][2] لم يتفرَّقْ كقولِهِ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] [وقولِهِ:][3] ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ فيهِ دلالةٌ ألّا يُقبَلَ مِنَ الأعمالِ الصالحاتِ إلّا بالإيمانِ لأنهُ شُرِطَ في قَبولِها الإيمانُ بقولِهِ[4]: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [أي يُشكَرُ][5] سعيُهُ، ويُقبَلُ، ولا يُجحَدُ، ولا يُكفَرُ كقولِهِ: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ [آل عمران: ١١٥] [بالياءِ والتاءِ ﴿فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾][6].

وأصلُ الكفرانِ السَّترُ، والشُّكرُ هو الإظهارُ. ويُخبِرُ ﷻ أنهُ لا يَستُرُ ما عَمِلوا مِنَ الحسناتِ والخيراتِ، بل يَشكُرُ، ويُظهِرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي يَكتُبُ لهمْ تِلْكَ الحَسناتِ والخَيراتِ كقولِهِ: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: وحِرْمٌ[7] ﴿عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ و﴿وَحَرَٰمٌ﴾ بالألِفِ أيضاً. ثم قولُهُ: وحِرْمٌ و﴿وَحَرَٰمٌ﴾ على قولِ أهلِ اللسانِ واللغةِ واحدةٌ. يقولُ: حِرْمٌ عليكَ كذا، وحَرامٌ، كما يُقالُ: حِلٌّ وحَلالٌ.

وأمّا على قولِ أهلِ التأويلِ فإنهمْ يُفرِّقونَ بينَهما، فيقولونَ: وحِرْمٌ حَتمٌ وواجِبٌ ﴿عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أو حُكْمٌ[8] وواجِبٌ ﴿عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ إهلاكُهُمْ بَعْدَ ما عَلِمَ ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي لا يَتوبونَ، لأنهُ إنما يُهلِكُهُمْ لِما عَلِمَ منهمْ أنهمْ لا يَتوبونَ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ أرادَ اللهُ إهلاكَها ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [وظاهرُ قولِهِ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾][9] أنْ يكونَ لهمُ الرجوعُ لأنهُ يقولُ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾؟ [الأنبياء: ٩٦] وظاهرُهُ ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦و٩٧] فعندَ ذلكَ يَرجِعونَ لقولِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

أو يكونُ ذَكَرَ هذا ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ لِقولِ قومٍ: لأنَّ قوماً يقولونَ: إنَّ الخَلْقَ كالنباتِ[10] يَنبُتُ، ثم يَيْبَسُ، ثم يَنبُتُ. فَعَلى ذلِكَ الخَلْقُ يموتونَ، ثم يَعودونَ، ويَرجِعونَ.

وبَعْضٌ مِنَ الرَّوافِضِ يقولونَ: يَرْجِعُ عليٌّ وفُلانٌ، فأخبَرَ أنهمْ لا يَرجِعونَ ردّاً عليهِمْ وتكذيباً لِخَبَرِهِمْ لأنَّ القرآنَ قد صارَ حُجّةً عليهِمْ، وإنْ أنكروهُ، لمّا عَجِزوا عنْ أنْ يأتوا بِمِثْلِهِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ كلِّهِ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، أضافَ فَتْحَ ذلكَ السَّدِّ إلى أنفسِهِمْ، وَهُمْ جماعةٌ، وإلّا لَسْتُ أعرِفُ لِتأنيثِ فَتْحِ السَّدِّ وَجهاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ قيلَ: الحَدَبُ الشيءُ المُشرِفُ، وقيلَ: الحَدَبُ كلُّ ما ارْتَفَعَ مِنَ الأرضِ، وقيلَ: الحَدَبُ الأكَمَةُ. وقيلَ: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ مِنْ كلِّ جهةٍ ومِنْ كلِّ مكانٍ ﴿يَنسِلُونَ﴾ قيلَ: يُسْرِعونَ، وقيلَ: يَخرُجونَ.

أخبَرَ أنهمْ ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ أي مِنْ كلِّ ناحيةٍ ومِنْ كلِّ جهةٍ يُسْرِعونَ؛ كأنهمْ لمّا سُدَّ عليهِمْ ذلكَ السَّدُّ، وحيلَ

---

(١) من م، في الأصل: ثم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كقوله. (٥) من م، في الأصل: والشكر. (٦) من م، انظر معجم القراءات القرآنية ٢/ ٥٩. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٥٠. (٨) من م، في الأصل: حتم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، في الأصل: والنبات.

بَينَهُمْ وبَيْنَ ما يَتَعيَّشونَ، ويَرْتَزِقونَ مِنْ هذا العالَمِ، تَفَرَّقوا في تلكَ الأمكنةِ لِطَلَبِ ما يَتَعيَّشونَ بِهِ. فإذا بَلَغَهُمْ خَبَرُ [فَتْحِ][١] السَّدِّ أَتَوا مِنْ كلِّ جِهةٍ وناحيةٍ كانوا[٢] مُتَفرِّقينَ فيها ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسْرِعونَ لأنهم [كانوا][٣] مُذْ سُدَّ/ ٣٤٣ ـ ب/ عليهم السَّدُّ [مُتَفرِّقينَ في كلِّ][٤] جِهَةٍ. فلما[٥] فُتِحَ خَرَجوا مُسْرِعينَ. وهو ما ذَكَرَ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩].

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [قولُهُ: ﴿وَاقْتَرَبَ﴾ أي وَقَعَ، ووَجَبَ ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾][٦] لأنهُ قد أخْبَرَ مِنْ قَبْلِ هذا الوقتِ أنهُ قَدِ اقْتَرَبَ بقولِهِ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقولِهِ[٧]: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ليسَ على القُرْبِ ولكنْ على الوُجُوبِ.

فَعَلَى ذلِكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ إخباراً عنِ الوُقوعِ والوُجوبِ. وجائزٌ أنْ يكونَ على القُرْبِ أيضاً، ويكونُ وُجوبُها وُوقوعُها في قولِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقولِهِ[٨]: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقولِهِ[٩]: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الآية [القمر: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي يقولونَ: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ كأنهمْ تذاكَروا في ما بَينَهُمْ أنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ثم تَداركوا أنهمْ لم يكونوا في غَفْلَةٍ، ولكنْ قالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في ذلكَ ضالِّينَ. اعْتَرَفوا بالظلمِ والضّلالِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يُقالُ: إنَّ حَرْفَ: مَنْ: يَتَكلَّمُ عنِ البَشَرِ ونحوِهِ [وحَرْفَ: ما][١٠]: إنما يَتَكلَّمُ عمّا سِواهُمْ مِنَ العالَمِ. فإذا كانَ على هذا الذي ذُكِرَ[١١] فما يَنْبَغي لِأولئكَ أنْ يَفْهَموا مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عيسى وعُزَيراً والملائكةَ. هؤلاءِ يَقولونَ: هؤلاءِ عُبِدوا دونَ اللهِ، فهمْ حَصَبُ جَهَنَّمَ على زَعْمِكُمْ. إلى هذا يَذْهَبُ أهلُ التأويلِ، ويَقولونَ.

ثم نَزَلَ قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قالوا: اسْتَثْنى مِنْ عَمَلِهِ مَنْ عُبِدَ دونَ اللهِ مَنْ سَبَقَتْ لهُ منهُ الحُسْنَى، وهو عُزَيرٌ وعيسى وهؤلاءِ [الملائكةُ][١٢]. لكنْ قد ذَكَرْنا أنهُ لا يَجوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ هذا هؤلاءِ، ولكنِ الأصنامُ والأحجارُ التي عَبَدوها كقولِهِ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] التي عَبَدوها، أو يكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الشّياطينَ الذينَ أمَروهُمْ، ودَعَوهُمْ إلى عبادةِ غَيرِ اللهِ. فتكونُ العبادةُ لِمَنْ دونَ اللهِ لِلشَّيطانِ حقيقةً لأنهُ هو الآمِرُ لهمْ بذلكَ والداعي إلى ذلكَ دونَ مَنْ ذُكِروا لأنَّ هؤلاءِ، أعني عيسى وعُزَيراً والملائكةَ لم يأمُروهُمْ[١٣] بذلكَ.

فيكونُ على هذا كأنهُ قالَ: إنكمْ والشياطينَ الذينَ تَعْبُدونَ منْ دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٢٢و٢٣إلى ٥٠ و٥١]. دلَّ هذا أنَّ القرينَ هو الشيطانُ كقولِهِ: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بالصادِ، وقُرِئَ بالطاءِ[١٤] حَطَبُ جَهَنَّمَ قالَ ابنُ عباسٍ: الحَصَبُ بِلسانِ الزَّنْجيَّةِ هو الحَطَبُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو حَطَبٌ بلسانِ الحبشةِ، ويُقالُ أيضاً بالصادِ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

قالَ بَعْضُهُمْ: الحَصَبُ هي مِنَ الرَّمْيِ، يَحْصِبُ جَهَنَّمَ بهِمْ، أي يَرْمي بهِمْ. والحَطَبُ هو معروفٌ، والحَضَبُ هو التَّهْييجُ أي تُهَيَّجُ النارُ عليهِمْ. وقالَ الكسائيُّ: حَضَبْتُ النارَ، أي أَلْقَيْتُ فيها الحَطَبَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: التي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: في. (٥) ادرج قبلها في الأصل وم: من فتح ذلك السد. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: كقوله. (٩) في الأصل وم: كقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ذكروا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يأمرهم. (١٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٥٢.

وعنْ عائشةَ: ﴿حضب جهنم﴾ بالضادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي واقِعونَ فيها.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي لو كانَ الذينَ عُبِدوا دونَ اللهِ آلهةً على ما زَعَموا ما وَرَدوا النارَ. فإنْ قيلَ: إنهمْ لم يُقِرّوا أنها تَرِدُ النارَ، بل أنْكَروا ذلكَ، فكيفَ احتجَّ عليهِمْ بهذا ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾؟ قيلَ: إنهمْ، وإنْ لم يُقِرّوا بذلكَ، ألْزَمَهُمْ ﷺ الحُجَّةَ مِنْ جهةِ الكتابِ [أنهم يَرِدون][(1)] النارَ لمّا عَجزوا عنْ إتيانِ مِثْلِهِ، فقد لَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ. فكأنهمْ أقَرّوا أنهمْ وارِدوها، وهو كقولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] لم يُقِرُّوا أنهمْ يَحْيَونَ بَعْدَ ما ماتوا. ولكنْ لمّا عَرَفوا أنهمْ كانوا أمواتاً، فَأحْياهُمْ، فقد لَزِمَهُمُ الإقرارُ والحُجَّةُ بالإحياءِ بَعْدَ الموتِ. فَعَلَى ذلِكَ الأوَّلُ: كأنَّهُمْ أقَرُّوا بأنَّهُمْ[(2)] وارِدونَ بما لَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [قيلَ: الزَّفيرُ هو الصوتُ الخَفيضُ الذي فيهِ أنينٌ، و][(3)] قيلَ: الزفيرُ هو الصوتُ الرفيعُ الذي [فيهِ أنينٌ][(4)] وقيلَ: الشهيقُ هو أوَّلُ نَهيقِ الحِمارِ، والزفيرُ هو آخِرُ نَهيقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيلَ: لا يَسْمَعونَ الخيرَ، ويَسْمَعونَ غيرَهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهمْ يكونونَ صُمّاً وبُكْماً وعُمْياً في النارِ كقولِهِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أي حَرامٌ عليهِمْ أنْ يَرْجِعوا، ويُقالُ: واجِبٌ، وقالَ: هو حِرْمٌ وحَرامٌ واحدٌ كما قالَ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي مِنْ كلِّ نَشْزٍ مِنَ الأرضِ وأكَمَةٍ يَنْسِلونَ مِنَ النَّسَلانِ، وهو مُقارَبَةُ الخَطْوِ مَعَ الإسراعِ كَمَشْيِ الذئبِ إذا بادَرَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَدَبُ ما ارْتَفَعَ مِنَ الأرضِ، الواحدةُ حَدَبةٌ ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يَجيئونَ.

الآية ١٠١ [وقولُهُ تعالى][(5)]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنهُ لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قالتِ الكَفَرَةُ: إنَّ عيسى وعُزَيراً والملائكةَ قد عُبِدوا مِنْ دونِ اللهِ، فهمْ حَصَبُ جهنَّمَ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ استَثْنَى مَنْ سَبَقَ لهُ الحُسْنَى منهُ، [وهُمْ عيسى وعُزَيرٌ والملائكةُ][(6)] وكذلكَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: إلّا الذينَ سَبَقَتْ لهمْ منّا الحُسْنَى على الاِسْتِثْناءِ.

عنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ][(7)] قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية ذلِكُمْ عُثْمانُ وطَلْحَةُ والزبيرُ، وأنا مِنْ شيعةِ عُثْمانَ وطَلْحَةَ والزبيرِ. ثم قالَ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ الآية [الأعراف: ٤٣ والحجر: ٤٧].

ولكنْ قد ذَكَرْنا الوجهَ فيهِ. فإنْ[(8)] ثَبَتَ أنهُ نَزَلَ بِشأْنِ هؤلاءِ، وإلّا فهو لكلِّ مَنْ سَبَقَ لهُ مِنَ اللهِ الحُسْنَى.

ثم الحُسْنَى تَحْتَمِلُ الجنةَ كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥و٦] أي بالجنةِ فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وتَحْتَمِلُ الحُسْنَى السَّعادةَ والبِشارَةَ بالجنةِ وثوابِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي لا يَعودونَ إليها أبداً. ليسَ على بُعْدِ المكانِ كقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢] أي لا يَعودونَ إلى الهُدَى أبداً. أو يكونُ قولُهُ: ﴿عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ مكاناً.

لكنْ قد ذَكَرَ في آيةٍ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤و٣٥] وقالَ في آيةٍ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] ولا نَعْلَمُ هذا: أنهُ يَجْعَلُ في قِوَى أهلِ الجنةِ أنهمْ متى أرادوا أنْ يَنْظُروا إلى

---

(١) في الأصل وم: أنها ترد. (٢) في الأصل وم: بأنها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أنين فيه. (٦) في الأصل وم: وهو عيسى والملائكة. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: قال.

أولئك، ويَرَوهُمْ، يَقْدِروا على ذلكَ، أو تُقرِّبِ النارُ إليهِمْ، فَيَنظروا إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ. والأوَّلُ أشبهُ، أنهمْ لا يَعودونَ إليها أبداً.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي صَوتَها، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الأبعادِ، وإذا بَعُدوا مِنها لم يَسْمَعوا حَسيسَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ وهو ما قالَ في [آيةٍ][1] أُخرى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي لا يَحزنُهُمْ أهوالُ يومِ القيامةِ وأفزاعُها ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بالبِشارةِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الآية [فصلت: ٣٠] أو ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي لا يَحْزُنُهُمْ ما يَحُلُّ بالكَفَرةِ مِنَ الفَزَعِ والعذابِ، ليسَ كَمَنْ رَأى في الدنيا إنساناً في بلاءٍ وشِدَّةٍ، أو يُعَذَّبُ بعذابٍ، فإنهُ يَحزَنُ / ٣٤٤ ـ أ/ ويَهْتَمُّ بما حلَّ بهِ. فأخبَرَ أنهمْ لا يَحْزَنونَ بما حَلَّ بالكَفَرةِ مِنَ العذابِ والشدائدِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قالَ: الحَصَبُ [والحَطَبُ][2] واحدٌ. قالَ: وما أكثَرُ [الناسَ][3] مِنَ العَرَبِ مَنْ يَتَكَلَّمُ بهذهِ اللفظةِ. قالَ: ولا أعرفُ: حَضَبَ جهنَّمَ بالضادِ. وقالَ غيرُهُ ما ذَكَرْنا مِنْ إلقاءِ الحَطَبِ فيهِ والتَّهْييجِ. وقولُهُ: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي داخِلونَ، وقولُهُ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ الزفيرُ هو شِدَّةُ النَّفَسِ في الصدرِ؛ يُقالُ: زَفَرَ يَزْفِرُ زفيراً. وقالَ بَعضُهُمْ: الزفيرُ هو أنينُ كلِّ مَحزونٍ ومَكروبٍ، وهو قريبٌ مما ذَكَرْنا. وقولُهُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي صَوتَها، وهو مِنَ الحِسِّ والصَّوتِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما أُلقِيَ فيها. وأصلُهُ مِنَ الحَصْباءِ، وهي الحَصا، ويُقالُ: حَصَبْتُ فلاناً أي رَمَيْتُهُ حَصْباً بِتَسْكينِ الصادِ، وما رَمَيْتُ بهِ حَصَبٌ بِفَتْحِ الصادِ، وكما تقولُ: نَفَضْتُ الشجرةَ نَفْضاً، وما وَقَعَ نَفَضٌ، واسْمُ حَصا الجِمارِ حَصَبٌ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كأنَّ هذا قد خُرِّجَ على إثْرِ سُؤالٍ سألوهُ على غيرِ ابْتِداءٍ؛ لأنَّ الابْتِداءَ بِمِثْلِهِ على غيرِ تَقَدُّمِ أمْرٍ لا يُحتَمَلُ. فكأنهُ، واللهُ أعلَمُ، لمّا ذَكَرَ أهلَ النارِ في قولِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قولِهِ: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧و٩٨] وذَكَرَ أهلَ الجنةِ، ووَصَفَهُمْ بقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣] فكأنهُمْ قالوا: متى يكونُ ذلكَ؟ فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أخبَرَ أنَّ السماءَ تُطْوَى كما يُطْوَى السِّجِلُّ لِلْكُتُبِ.

ثم ذَكَرَ في السماءِ الطَّيَّ مَرَّةً والتَّبديلَ في آيةٍ أُخرى بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وذَكَرَ الانْشِقاقَ في [آياتٍ بقولِهِ][4]: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقولِهِ[5]: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] ونَحْوِهِ كما ذَكَرَ في الجبالِ أحوالاً: مَرَّةً قالَ: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقالَ في آيةٍ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] ونَحْوَهُ.

فجائزٌ أنْ تكونَ كذلكَ على اخْتِلافِ الأحوالِ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، ثم تَتَلاشى، وتَفْنَى، حتى لا يَبْقى منها شيءٌ كما ذَكَرَ ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ فَعَلَى ذلكَ السمواتُ والأرَضونَ، تَخْتَلِفُ عليها الأحوالُ على ما ذَكَرَ، ثم آخِرُها التبديلُ كما ذَكَرَ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: آية كقوله. (٥) في الأصل وم: و.

وفي[1] ما ذَكَرَ في هؤلاءِ الآياتِ مِنْ تَغْيِيرِ الجبالِ والسمواتِ والأرَضِينَ دليلُ فَناءِ هذا العالَمِ بِجُمْلَتِهِ وأسْرِهِ، لأنَّ فَناءَ السمواتِ والجبالِ والأرضِ يَبْعُدُ عنْ أوهامِ الخَلْقِ، وأمّا غيرُها مِنَ الخلائقِ فإنهمْ يُشاهِدونَ فَناءَهُ، فَذَكَرَ فَناءَ ما يَبْعُدُ في أوهامِهِمْ لِيَعْلَموا أنَّ هذا العالَمَ يَفْنَى بِأسْرِهِ، ويُسْتَبْدَلُ عالَماً آخَرَ، يَحْتَمِلُ البقاءَ لِلْجزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ هذا أيضاً لا يُحْتَمَلُ إلّا على تَقَدُّمِ ذِكْرٍ؛ فهو مُحْتَمِلٌ ما ذَكَرْنا ممّا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ أهلِ الجنةِ وأهلِ النارِ. فقالوا: كيفَ يَحْيَوْنَ؟ فقالَ[2] عندَ ذلكَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: فقالَ بَعْضُهُمْ: نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عِظاماً ثم لَحْماً ثم تَنْفُخُ فيها[3] الروحَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ حُفاةً عُراةً على ما خُلِقوا في الابْتِداءِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ يعني السمواتِ [السَّبْعَ][4] يَطْويها اللهُ، فَيَجْعَلُها سماءً واحدةً كما كانَتْ أوّلاً قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ منها[5] سِتَّ سمواتٍ، والأرَضِينَ كذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا إخباراً أنهُ قادرٌ على أنْ يُعيدَهُمْ كما قَدَرَ على ابْتِداءِ خَلْقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي [كانَ][6] بَعْثُهُمْ وَعْداً علينا لا نُخْلِفُ ذلكَ على ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩و...].

ثم اخْتُلِفَ في السِّجِلِّ وفي قراءتِهِ[7]: قالَ بَعْضُهُمْ: السِّجِلُّ: اسمُ رجلٍ، وهو كاتبُ رسولِ اللهِ ﷺ وقالَ بَعْضُهُمْ: هو اسْمُ المَلَكِ الذي يَكْتُبُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: السِّجِلُّ الصحيفةُ. ثم قالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ: السُّجُلّ بالتشديدِ[8] فهو الصحيفةُ، ومَنْ قَرَأَ: السِّجْلِ بالتخفيفِ فهو[9] مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالصُّحُفِ، اسْمُهُ[10] السِّجْلُ [ويَقْرَأُ: لِلْكِتابِ][11].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قالَ: يُقالُ: أسْجَلْتُ[12]، وسَجَّلْتُ، أي كَتَبْتُ إسْجالاً وتَسْجيلاً، وسَجَلْتُ أيضاً عَمِلْتُ، وسَجَلَ خَلَقَ؛ يُقالُ: منهُ سَجَلَ يَسْجُلُ سَجْلاً، والمُساجَلَةُ المُفاخَرَةُ، ويُقالُ: ساجَلْتُهُ فاخَرْتُهُ، ويُقالُ: أسْجَلْتُ الكلامَ، فهو مُسْجَلٌ، أي أطْلَقْتُهُ، وأرْسَلْتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ كلَّ كُتُبِ اللهِ التي أنْزَلَها، هي [زُبُرٌ، وقولُهُ][13]: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي الكتابِ الذي عندَ اللهِ، وهو اللوحُ المَحْفوظُ؛ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، على هذا التأويلِ: كَتَبْنا في الكتبِ التي أنْزَلْناها بَعْدَ ما كانَ مكتوباً في اللوحِ المَحْفوظِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها كذا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كَتَبَ اللهُ في الزَّبورِ المَعْروفِ، وهو زَبورُ داوُدَ، بَعْدَ ما كَتَبَ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي التوراةِ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني الجنةَ ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ كَتَبَ ذلكَ في هذا القرآنِ، فقالَ: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ أي زَبورِ داوُدَ بَعْدَ ما كَتَبَ في الذِّكْرِ الذي عندَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ في بعضِ الكتابِ أي في بَعْضِ السُّوَرِ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي بَعْدِ السورةِ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ كذا.

وجائزٌ أيضاً ﴿كَتَبْنَا فِى﴾ الكتابِ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي مِنْ بَعْدِ ما ذَكَّرَهُمْ، ووَعَظَهُم ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ كذا.

ثم اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: هي الجنةُ؛ أخْبَرَ أنَّ الجنةَ إنما

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فقالوا. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيها.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قراءة. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٥٤. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: باسمه. (١١) في الأصل وم: وبقراءة الكتاب. (١٢) في الأصل وم: أسجل. (١٣) في الأصل وم: زبور.

يَرِثُها عبادِيَ الصالحونَ. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠و١١] فيكونُ هذا تفسيراً لذلكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ يعني أرضَ بيتِ المَقْدِسِ ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ وهو كذلكَ: كانَ، ولم[1] يَزَلْ بها عِبادُ اللهِ الصالحونَ إلى يَومِ القيامةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ أُمّةُ محمدٍ كقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «زُوِيَتْ لِيَ الأرضُ فأُريتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمّتي ما زُوِيَ لي منها» [مسلم ٢٨٨٩] فذلكَ وِراثَتُها، وهُمْ عبادُهُ الصالحونَ كقولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٠] أخبَرَ أنها خَيرُ الأُمَمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ في هذا أي في ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ في ذلكَ بلاغاً ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي لِقومٍ هَمُّهُمُ العِبادةُ أو لِقومٍ مُطيعينَ مُوَحِّدينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قولِهِ: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧و٩٨] وما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ كلِّهِ ﴿لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ بلاغاً للناسِ جَميعاً كقولِهِ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] فيكونُ قولُهُ: ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي لِقومٍ يُلْزِمُهُمُ العبادةَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي هذا القرانِ ﴿لَبَلَاغًا﴾ أبْلَغَهُمْ عنِ اللهِ ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: إنَّ في هذا لَذِكْرَى[2] /٣٤٤ ـ ب/ لِقومٍ عابدينَ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ كلُّ رُسُلِ اللهِ رَحمةً مِنَ اللهِ لِلْعالَمينَ، وكذلكَ كلُّ كُتُبِ اللهِ رَحمةٌ لِلْعالَمينَ على ما ذَكَرَ في عيسى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

وجائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ خاصّةً، فيكونُ في وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي[3] جعَلْناكَ ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

والثاني[4]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ رحمةً منّا لِلْعالَمينَ. و﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ هُمُ[5] الجنُّ والإنسُ لأنهُ بُعِثَ إليهِمْ.

ثم الرَّحْمَةُ فيهِ تَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: تأخيرُ العذابِ عنهمْ.

والثاني: أنهُ رَحْمَةٌ حتى إذا اتَّبَعوهُ تكونُ بِهِ نجاتُهُمْ، وبِهِ عِزُّهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ.

والثالثُ: شَفاعَتُهُ لأهلِ الكَبائرِ في الآخِرَةِ ونَحْوُ ذلكَ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ كأنهُ على الدعاءِ خَرَجَ الأمْرُ، كأنهُ قالَ: أمَرَني ربِّي أنْ أُخبِرَكُمْ أنَّ إلهَكُمْ إلهٌ واحدٌ، فاصْرِفوا العبادةَ إليهِ، ولا تُشرِكوا فيها غَيرَهُ. أو يقولُ: أُوحِيَ إليَّ أنْ أدْعُوَكُمْ إلى إلهِكُمُ الذي هو إلهٌ واحدٌ. وإلّا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ أنهُ إلهٌ واحدٌ، لكنَّهُ خَرَجَ على الدعاءِ والإخبارِ، وأنه إلهٌ

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: أي في هذا. (٣) في الأصل وم: إلا. (٤) في الأصل وم: أو أن يقال. (٥) في الأصل وم: هو.

واحدٌ، أو يُخبِرُهُمْ أني إلى ما أدعوكُمْ إليهِ، وآمُرُكُم بهِ، إنما أدعوكُمْ، وآمُرُكُم بالوَحْيِ بما أُوحِيَ إليَّ لا مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي [لقولِهِ تعالى:][1] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ظاهرُهُ، وإنْ كانَ استِفهاماً، فهو على الأمرِ والإيجابِ؛ كأنهُ قالَ: قد أُوحِيَ إليَّ أنَّ إلٰهَكُمْ إلٰهٌ واحدٌ، فأسْلِموا، وأخلِصوا العِبادةَ لهُ، لا تُشْرِكوا فيها غيرَهُ. والإسلامُ هو أنْ تُجْعَلَ كُلِّيَّةُ الأشياءِ، والأعمالُ كلُّها للهِ ﷻ ثم هو يكونُ على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: على الاعتِقادِ أنْ تُعتَقَدَ كُلِّيَّةُ الأشياءِ للهِ لا على تَحقيقِ ذلكَ الفِعْلِ.

والثاني: على تحقيقِ جَعْلِ الأشياءِ كلِّها للهِ اعتِقاداً وفِعلاً وقَولاً؛ منهُ يَخافُ، ومنهُ يَرْجو، لا يَخافُ غيرَهُ، ولا يَرْجو مَنْ دونَهُ. فهذا[2] حقيقةُ الإسلامِ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ الأوَّلَ خَرَجَ على الأمْرِ والدعاءِ حينَ[3] قالَ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عنِ الإجابَةِ إلى ما دَعوتَهُم[4] إليهِ: ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعْلَمْتُكُمْ[5] على عَدْلٍ وحَقٍّ كقولِهِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي عَدْلٍ بَيْنَنا وبينَكُمْ. فَعَلى ذلِكَ هذا مُحتَمَلٌ: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على عَدْلٍ وحَقٍّ.

ويَحْتَمِلُ أيضاً: ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعْلَمْتُكُمْ حتى صِرْتُ أنا وأنتُمْ في العِلْمِ على سَواءٍ، أي على الاستِواءِ في العَداوَةِ والمُخالَفَةِ، وفي كلِّ أمْرٍ على الاستِواءِ. وهو كقولِهِ: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] على الاستِواءِ في العَداوَةِ، أي انْبِذْ إليهِمْ حتى تكونَ أنتَ وهُمْ على الاستِواءِ في العِلْمِ بالمُنابَذَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي ما أدري أقريبٌ أمْ بَعيدٌ ما توعَدونَ؟ ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ الساعةَ والقِيامةَ التي كانوا يُوعَدونَ بها، وهُمْ كانوا يَستَعجِلونَ بها كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] فيقولُ: ما أدري أقَريبٌ ما تُوعَدونَ أمْ بَعيدٌ؟

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ العذابِ الذي كانَ يَعِدُ لَهُمْ أنهُ نازلٌ بهِمْ في الدنيا، وهُمْ كانوا يَستَعجِلونَ بهِ قولَهُ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] فيقولُ: ما أدري أقريبٌ أمْ بَعيدٌ ما تُوعَدونَ مِنَ العذابِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ يَخْرُجُ ذلكَ على الوَعيدِ والتَّنبيهِ والزَّجْرِ عنِ المَكْرِ برسولِ اللهِ والقولِ فيهِ بما لا يَليقُ بهِ. يُخْبِرُ أنهُ يَعْلَمُ ما تُظْهِرونَ مِنَ القولِ وما تكتُمونَ، أي ما تُسِرُّونَ مِنَ المَكْرِ بهِ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ حينَ[6] أخبَرَهُمْ عَمّا أسَرُّوا في ما بَينَهُمْ مِنَ المَكْرِ بهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ذَكَرَ: أني[7] ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ذَكَرَ: أنهُ ما يَدْري[8] ﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ ولم يُبَيِّنْ ما الذي يكونُ فِتْنَةً لهم.

لكنَّ بَعْضَ أهلِ التأويلِ قالَ: ما أدري ما قُلْتُ لكُمْ مِنَ العذابِ والساعةِ لِمَدِّكُمْ[9] ومَتاعٌ لكُمْ إلى حينٍ. فَيَصيرُ ما قَرَّبْتُ لكُمْ مِنَ العذابِ والساعةِ فِتْنَةً لكُمْ، فيقولونَ: لو كانَ ما خَوَّفَنا بهِ محمدٌ حَقّاً لكانَ نَزَلَ بَعْدُ، فَيَصيرُ قولي ذلكَ فِتْنَةً لكُمْ. هذا مُحتَمَلٌ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ، وهو لمّا قالَ: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أنهُ كانَ خَوَّفَهُمْ نُزولَ العذابِ بهِمْ، ولكنْ لم يُبَيِّنْ لهمُ الوقتَ أنهُ متى يَنْزِلُ بهِمْ؟ فيقولُ: ما أدري لَعَلَّ تَخويفي إيّاكُمُ العذابَ على بَيانِ وقتِهِ فِتْنَةً لكُمْ، لأنهُ إذا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فهو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: دعوتكم. (٥) من م، في الأصل: أعلمتم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أنه. (٨) في الأصل وم: أدري. (٩) في الأصل وم: لمدتكم.

تأخَرَ عنهُمُ العذابُ مَتاعاً لهمْ يَأمَنونَ منهُ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على تكذيبِهِ في ما خَوَّفَهُمْ منَ العذابِ، ويكونُ ما يَأمَنونَ[1] مِنَ العَذابِ مَتاعاً لهمْ، لأنهُ لو كانَ وَقْتُ نُزولِ العذابِ مُبَيَّناً لهمْ لكانوا[2] أبداً على خَوفٍ، فَيُنغِّصُ ذلكَ الخوفُ [عيشَهُمْ][3] ويَمْنَعُهُمْ عنِ المَتاعِ.

وإنْ لم يُبيِّنْ لهمُ الوقتَ، فإذا تأخَرَ عنهُمْ يَأمَنونَ، ويَتَمَتَّعونَ، فيقولُ: ما أدري لَعَلَّ تخويفي إيّاكُمْ لكمْ فِتْنَةٌ.

إذَنْ[4] لا يَجِبُ أنْ يُفَسَّرَ قولُهُ: ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ لأنَّ[5] أيَّ شيءٍ أرادَ هُمْ قد عَرَفوا ما أرادَ بهِ. وليسَ لنا أنْ نُفَسِّرَ ذلكَ أنهُ أرادَ كذا إلّا بِبَيانٍ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ تَعَلَّقَ أكْثَرُ المُعْتَزِلَةِ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ في مسائلَ لهمْ:

يقولونَ: يَجوزُ أنْ يُدْعَى بِدَعَواتٍ، يَعْلَمُ الداعي أنهُ قد أُعطِيَ ذلكَ لهُ مِنْ نَحْوِ سؤالِ المَغْفِرَةِ: ربِّ اغْفِرْ لي، وهو مَغفورٌ [لهُ][6]، و: ربِّ أعْطِني كذا، وهو مُعْطًى لهُ ذلكَ، ويقولُ: ربِّ اغْفِرْ لي، وهو يَعْلَمُ أنهُ لا يُغْفَرُ لهُ ونَحْوِ هذا مِنَ المسائلِ لهمْ، فَيَحْتَجّونَ بظاهِرِ قولِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أمَرَ رسولَ اللهِ أنْ يَدْعُوَ بهِ على عِلْمٍ منهُ أنهُ لا يَحْكُمُ [إلّا][7] بالحقِّ.

ونحنُ نقولُ: إنهُ لا يجوزُ أنْ يُدْعَى بِمِثْلِ هذا الدعاءِ على الإطلاقِ إلّا على اعْتِقادِ مَعْنًى آخَرَ في ذلكَ، كانَ للهِ[8] فِعْلُ ذلكَ، فيكونُ ذلكَ منهُ عَدْلاً [وحَقّاً][9] نَحْوَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالنَّصْرِ لهُ والظَّفَرِ على أعدائِهِ. ولهُ ألّا يَنْصُرَهُ، ويكونُ ذلكَ عَدْلاً منهُ وحَقّاً، أو أن يكونَ المُرادُ بهِ: احْكُمْ بالحَقِّ أي بالعَذابِ الذي هو حُكْمُكَ على مُكَذِّبي الرسلِ.

[فأمّا أنْ يُعْتَقِدَ مِنْ قولِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ ما اعْتَقَدَ المُعْتَزِلَةُ فَيَجْعَلَ الدعاءَ بهِ: اللهمَّ لا تَجُرْ، وربِّ اعْدِلْ. ومَنْ عَرَفَ ربَّهُ هكذا فهو ليسَ يَعْرِفُ حقيقتَهُ[10].

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ في قولِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾][11] ربِّ احْكُمْ بِحُكْمِكَ، وهو الحَقُّ، وهو مُحْتَمَلٌ مُسْتَقيمٌ. وقد ذَكَرْنا هذهِ المَسْألَةَ وأمثالَها في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أمَرَ رسولَهُ أنْ يستَعينَ باللهِ تعالى على ما يقولونَ مِنْ تكذيبِهِمْ إيّاهُ في ما يَدْعو، ويَعِدُ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعْلَمْتُكُمْ، فَصِرْتُ أنا وأنتُمْ على سَواءٍ. وإنما يُريدُ بـ: آذَنْتُكُمْ: أخْبَرْتُكُمْ، وأعْلَمْتُكُمْ، ذلكَ. فاستَوَيْنا في العِلْمِ. وهو ما ذَكَرْنا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي كُلَّكُمْ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمَآبُ، وعليهِ التُّكْلانُ.

---

(١) في الأصل وم: يؤمنون. (٢) في الأصل وم: لكان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: أنهُ. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الله. (٩) من م، في الأصل: لاحقاً. (١٠) انظر الحواشي المتعلقة بالآية الرابعة من سورة الفاتحة. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

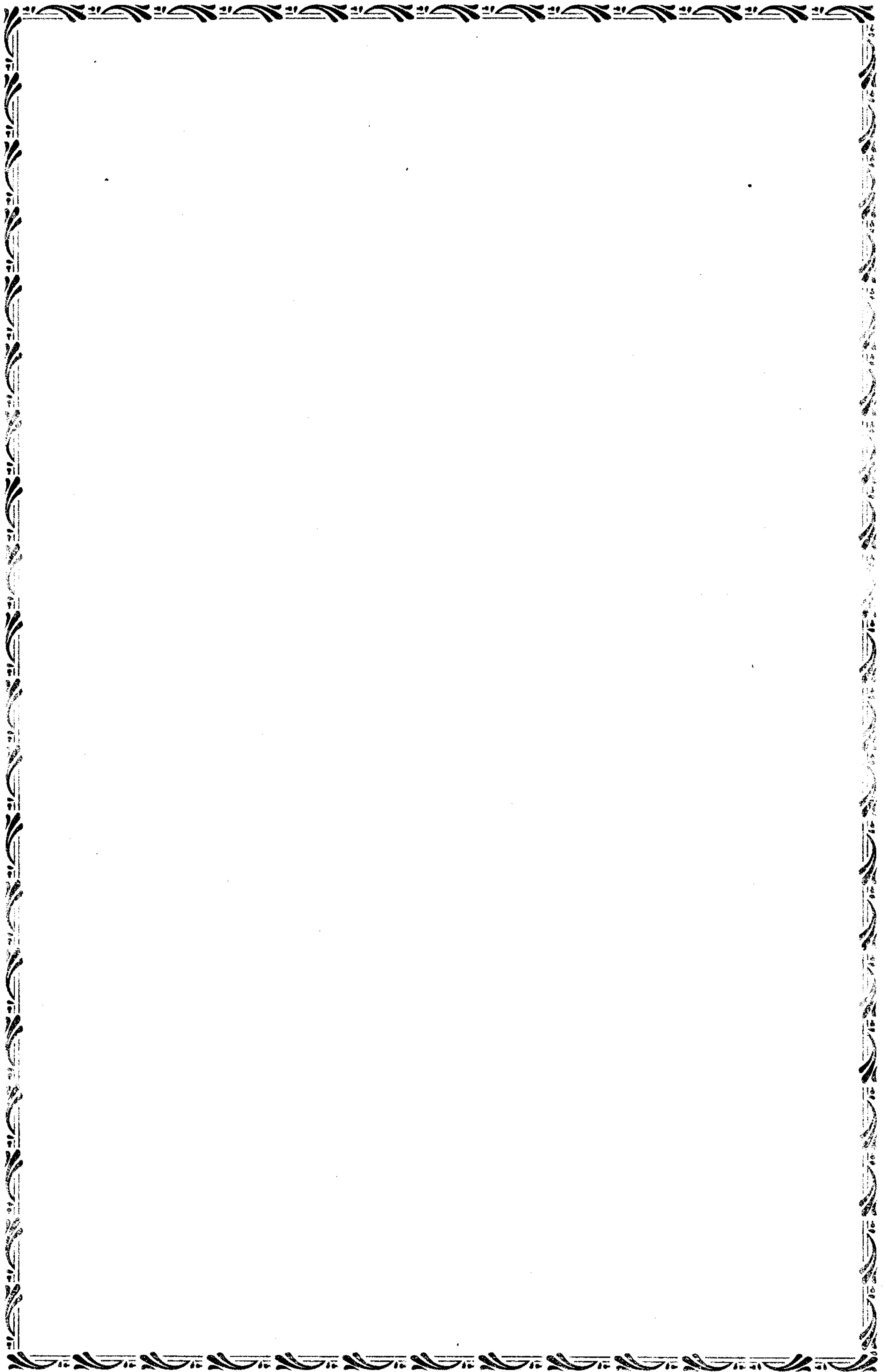

سورة الحج

سورةُ[1] الحجِّ / ٣٤٥ ـ أ/ كُلُّها مكّيَّةٌ إلّا ثلاثَ آياتٍ [﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الآية: ١٩] وغيرَها][2]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قد ذكَرْنا تأويلَهُ في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ بينَ يَدَي الساعةِ آياتٍ تَحْجُبْنَ التوبةَ وقَبولَ الإيمانِ: منها الزَّلْزَلَةُ التي ذَكَرَ، ومنها طُلوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها، وخُروجُ الدَّجّالِ، والدابَّةُ، وخُروجُ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ [وأمثالُها، وهي][3] كقولِهِ: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وجائزٌ عندَنا أنْ تكونَ هذهِ الآياتُ غايةً لِقَبولِ التوبةِ، والإيمانُ يُقْبَلُ إلى ذلكَ الوقتِ، ولا يُقْبَلُ بَعْدَ ذلكَ، وإنْ تابوا، وآمَنوا، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ لأنهمْ لا يُؤْمِنونَ لِما تَشْغَلُهُمْ تلكَ الآياتُ عنْ ذلكَ، فلا يُؤْمِنونَ، لأنَّ تلكَ الآياتِ تَعُمُّ الخَلائقَ كلَّهُمْ: المؤمِنَ والكافِرَ جميعاً؛ فلا يَعْرِفُ المُبْطِلُ والضّالُّ أنهُ على الضَّلالِ والباطِلِ، فَيَرْجِعَ إلى الهُدَى والحَقِّ، ليسَتْ[4] كَعَذابٍ يَنْزِلُ على قومٍ خاصٍّ لأنَّ ذلكَ يُعْرَفُ أولئكَ أنهُ إنما يَنْزِلُ بهمْ خاصَّةً لِما فيهِمْ مِنَ التكذيبِ والعِنادِ.

وإذا كانتِ الآياتُ عامَّةً لم يَعْرِفْ أهلُ الضَّلالِ أنهمْ على باطلٍ، وأنهُ إنما يَنْزِلُ بِسَبَبِهِمْ لِما يَرَوْنَهُ أنهُ قد عَمَّ الخَلائِقَ كلَّها.

فقولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ لأنهمْ لا يُؤْمِنونَ كقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا يكونُ لهمْ مَنْ يَشْفَعُ، ليسَ أنْ يكونَ لهمْ شُفَعاءُ، فَيَشْفَعونَ، فلا تُقْبَلُ شَفاعَتُهُمْ.

فَعَلَى ذلِكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ﴾ لأنهمْ يُشْغَلونَ عنِ الإيمانِ، فلا يُؤْمِنونَ، فلا يَنْفَعُ لهمْ على ما ذَكَرْنا.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ قيلَ: الساعةُ، وقيلَ: القِيامَةُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ وَصَفَها بالشِّدَّةِ والفَزَعِ.

الآية ٢ فقالَ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ أي تُشْغَلُ ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ لِشِدَّةِ أهوالِها وأفزاعِها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾.

هذا على قولِ مَنْ يَقولُ: إنَّ زَلْزَلَةَ الساعةِ قَبْلَ الساعةِ؛ تكونُ على التَّحْقيقِ، أي تَذْهَلُ عَمّا أرْضَعَتْ، وتَضَعُ حَمْلَها لأنها تكونُ في ذلكَ الوقْتِ مُرْضِعاً وحاملاً [فَتَذْهَلُها أهوالُ ذلكَ اليوم][5] وأفزاعُها عنْ وَلَدِها، وتَضَعُ ما في بَطْنِها كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ إلى ٣٧]][6] يذكرُ هؤلاءِ لأنَّ مَنْ أصابَ شيءٌ[7] مِنَ البَلاءِ في هذهِ الدنيا يَفْزَعُ إلى هؤلاءِ، فَيُخْبِرُ [أنهُ في][8] ذلكَ اليومِ يَفِرُّ بَعْضٌ مِنْ بَعْضٍ لِشِدَّةِ ذلكَ اليومِ وهَوْلِهِ لِشُغْلِهِ بِنَفْسِهِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: وامثاله وهو. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) في الأصل وم: فتذهل الأهوال ذلك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: شيئاً. (٨) في الأصل: أن،في م: أن في.

وعلى قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ زَلْزَلَةَ الساعةِ هي السَّاعةُ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ الآية على التمثيلِ، أي تَذْهَلُ عمّا أرضعَتْ أنْ لو كانَتْ مُرْضِعَةً، وتَضَعُ حَمْلَها أنْ لو كانَتْ حاملاً لِشِدَّتِهِ وهَولِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ أي [مَنْ][1] مَكَّنَ لهُ، وقَوَّى، يَرَى الناسَ كأنهمْ سُكارَى، وما هُمْ بِسُكارَى، وإلّا لم يَجُزْ أنْ يُرِيَهُمْ سُكارَى، وليسوا هُمْ بِسُكارَى في الحقيقةِ، وإنما قُلْنا: إنهُ يُرِي مَنْ مَكَّنَ لهُ، وقَوَّى، وإلّا لو كانوا كلُّهُمْ سُكارَى [لَكانَ لا يُرِيهِمْ سُكارَى][2] لأنَّ السَّكْرانَ لا يَرَى مَنْ كانَ في مِثْلِ حالِهِ سَكْرانَ. أو يكونُ خاطَبَ بِهِ رسولَهُ، ولا يكونُ فيهِ ذلكَ الهَولُ الذي يكونُ في غَيرِهِ. أو يكونُ ذلكَ على التَّمْثيلِ، ليسَ على التحقيقِ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: يقولُ لآدَمَ في ذلكَ: قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ النارِ، فيقولُ: يا ربِّ كمْ، فَيَقولُ: مِنْ كلِّ ألْفٍ تِسْعَ مِئةٍ [وتِسْعاً][3] وتسعينَ في النارِ، وواحداً[4] في الجنةِ.

ويَرْوُونَ الأخبارَ في ذلكَ عنْ رسولِ اللهِ. فإنْ ثَبَتَ ما رُوِيَ عنهُ في ذلكَ، وإلّا فالكَفُّ[5] عنْ مِثْلِهِ أولَى، لأنهُ يَحْزَنُ حينَ[6] يؤمرُ أنْ يَتَوَلَّى بَعْثَ وَلَدِهِ إلى النارِ مِنْ غَيرِ أنْ يَسْتَوجِبَ هذهِ العُقوبَةَ.

قالَ القُتَبِيُّ: تَذْهَلُ أي تَسْلُو عَنْ وَلَدِها، وتَتْرُكُهُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: تَذْهَلُ أي تَنْسَى؛ يقالُ: ذَهَلَ يَذْهَلُ ذُهولاً، وأذْهَلْتُهُ أي أنْسَيتُهُ. وقالَ غَيرُهُ: أي تُشْغَلُ. والحَمْلُ بالنَّصْبِ ما في البَطْنِ، والحِمْلُ بالخَفْضِ ما على الظَّهْرِ، والزَّلْزَلَةُ الرَّجْفَةُ؛ يُقالُ: زَلْزَلَتْ أي حَرَّكَتْ، وتَزَلْزَلَتْ أي تَحَرَّكَتْ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ذَكَرَ المُجادَلَةَ في اللهِ، ولم يُبَيِّنْ فيمَ جادَلوا؟ وقد كانَتْ مُجادَلَتُهُمْ مِنْ وجوهٍ: منهُمْ مَنْ جادَلَ في مَشيئةِ اللهِ، تَبارَكَ وتَعالى ومنهُمْ مَنْ جَادَلَ أنَّ هذا العالَمَ مُنْشَأٌ أوْ لا، ومنهُمْ مَنْ جَادَلَ في وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى: واحدٌ أو عَدَدٌ، ومنهُمْ مَنْ جَادَلَ في بَعْثِ الأنبياءِ وإرسالِ الرُّسُلِ، ومنهُمْ مَنْ جَادَلَ في إنْزالِ الكُتُبِ، ومنهُمْ مَنْ جَادَلَ في دينِ اللهِ المَدْعُوِّ إليهِ.

وبِمِثْلِ هذا قد كَثُرَتْ مُجادَلاتُهُمْ في ما ذَكَرْنا. وكلُّ ذلكَ كانَ مُجادَلَةً بِغَيرِ عِلْمٍ، لأنهمْ لو تَفَكَّروا في هذا العالَمِ، ونَظَروا فيهِ حَقَّ النَّظَرِ لَعَرَفوا أنَّ لهذا العالَمِ مُنْشِئاً، وأنهُ واحدٌ، لا عَدَدٌ، وأنهُ عالِمٌ قادرٌ بذاتِهِ، وأنهُ بَعَثَ الرسُلَ والكُتُبَ، وعَرَفوا أيضاً أنهُ يَبْعَثُ هذا العالَمَ، ويُحْيِيهِمْ، وأنهُ قادرٌ على ذلكَ.

لكنهمْ [لم][7] يَتَفَكَّروا فيهِ، ولم يَنْظُروا حَقَّ النَّظَرِ، فجادَلوا فيهِ بِغَيرِ عِلْمٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ الشيطانَ المَعْروفَ، يُتابِعُهُ في كلِّ ما يَدْعوهُ. وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ [أنهُ][8] يتبعُ كلَّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ الشيطانِ، وهُمُ القادةُ الذينَ كانوا يَدْعُونَ إلى اتِّباعِ ما يَدْعُو الشيطانُ، ويُوحي إليهمْ [كقولِهِ][9]: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] أخبَرَ أنَّ الشياطينَ يُوحونَ إلى أوليائِهِمْ مِنَ الإنْسِ لِيُجادِلوكُمْ.

فذلكَ مَعْنَى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ قيلَ: فَعيلٌ بِمَعْنَى فاعلٍ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧] وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ مُتَمَرِّدٍ في العِنادِ والمُكابَرَةِ فهو ماردٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الماردُ هو المُجاوزُ عَنْ جِنْسِهِ في عُتُوِّهِ وتَمَرُّدِهِ، ولذلكَ سُمِّيَ الذي لا لِحْيَةَ لهُ أمْرَدَ لِخُروجِهِ [ومُجاوَزَتِهِ أجناسَهُ مِنَ الذكورِ][10] والماردُ بالفارِسيَّةِ: سِتَنْبَه.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كُتِبَ على مَنْ تَوَلّى الشيطانَ، واتَّبَعَهُ أنْ[11] يُضِلَّهُ، أي يَدْعُوَهُ إلى ما بِهِ ضَلالُهُ وهلاكُهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وواحد. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ومجاوزة أجناسه ورجاله. (١١) في م: أنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ قِيلَ: حُكِمَ، وقيلَ: قُضِيَ. وكُتِبَ يَحْتَمِلُ الإثباتَ، أي أثْبتَ في أمِّ الكتابِ أنَّ مَنْ تَوَلَّى الشيطانَ، واتَّبَعَهُ، يُضِلُّهُ[1]. وقد ذُكِرَ إضلالُ الشيطانِ في غَيرِ موضعٍ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي خلقنا أصْلَكُمْ مِنْ ترابٍ، وخَلَقْنا أولادَهُ مِنْ نُطفةٍ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ الآية.

تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنْ كيفَ تَشُكُّونَ في البَعْثِ، وتُنْكِرونَهُ، وليسَ سَبَبُ إنكارِكُمُ البَعْثَ إلّا أنْ تصيروا تُراباً أو ماءً في العاقبةِ وقد كنتُمْ في مَبادِئِ أحوالِكُمْ تراباً وماءً، فكيفَ أنْكَرْتُمْ بَعْثَكُمْ إذا صِرْتُمْ تراباً؟ أو أنْ يكونَ مَعْناهُ: أنْ كيفَ أنْكَرْتُمُ البَعْثَ، وقد رَأَيْتُمْ/ ٣٤٥ ـ ب/ أنهُ يُقَلِّبُكُمْ مِنْ حالِ النُّطْفَةِ إلى حالِ العَلَقَةِ ومِنَ العَلَقَةِ إلى المُضْغَةِ، ولا يُقَلِّبُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ بلا عاقبةٍ تُقْصَدُ.

فلو لم يكُنْ بَعْثٌ كما تَزْعُمونَ لَكانَ خَلْقُكُمْ وتَقْليبُكُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ عَبَثاً على ما أخبرَ أنَّ خَلْقَ الخَلْقِ لا لِلرُّجوعِ إليهِ عَبَثٌ لقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَ الخَلْقِ لا لِلرُّجوعِ إليهِ عَبَثاً. فَعَلَى ذلِكَ الأوَّلُ.

أو يكونُ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ. ولو اجْتَمَعَ حُكَماءُ البَشَرِ وعُلَماؤُهُمْ لِيَعْرِفوا السَّبَبَ الذي خَلَقَ البَشَرَ مِنْ ذلكَ الترابِ أو مِنَ النُّطْفَةِ ما قَدَرُوا عليهِ، وما وَجَدُوا لِلْبَشَرِ فيهِ أثَراً ولا مَعْنًى لِلْبَشَرِيَّةِ فيهِ. فَمَنْ قَدَرَ على ابْتِداءِ إنشاءِ هذا العالَمِ مِنَ الترابِ أو مِنَ النُّطْفَةِ مِنْ غَيرِ سَبَبٍ، يوجَدُ فيهِ، ولا أثَرٍ [فهو قادرٌ][2] على إعادَتِهِمْ. وإعادةُ الشيءِ في عقولِكُمْ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِنَ الابْتِداءِ. فَمَنْ قَدَرَ على الابْتِداءِ فهو على الإعادةِ أقْدَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي تامَّةٍ ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي غيرِ تامَّةٍ خَلْقاً، وهو الأشْبَهُ لأنَّ التشديدَ إنما يُذْكَرُ لِتَكْثيرِ خَلْقِ[3] الفعلِ، والتَّخفيفَ لِتَقْليلِهِ. فكأنهُ قالَ: ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي قد أتَمَّ خَلْقَها مِنَ الجَوارحِ والأعضاءِ ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي غيرِ تامَّةٍ خَلْقاً بل ناقصةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كأنَّ قولَهُ: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ موصولٌ[4] بقولِهِ: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مِنْ سِتَّةِ أشْهُرٍ إلى سَنَتَينِ أو ما شاءَ اللهُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ مِنَ الأرحامِ بَعْدَ الإقرارِ فيها ﴿طِفْلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ثم نُخْرِجُ كُلًّا منكُمْ طِفلاً. وقالَ بعضُهُمْ: واسْمُ الطفلِ يُجْمَعُ، ويُفْرَدُ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأشُدُّ هو ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ ثماني عشرةَ سنةً إلى ثلاثينَ سنةً.

وأصلُ الأشُدِّ هو اشْتِدادُ كلِّ شيءٍ، وتَقَوِّي كلِّ شيءٍ عنهُ مِنَ الجَوارحِ والأعضاءِ، وكلِّ ما رُكِّبَ فيهِ مِنَ العقلِ وغَيرِهِ. ثم عندَ ذلكَ يُبَيِّنُ لهمْ. ويكونُ قولُهُ: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بَعْدَ هذا كُلِّهِ إذا بَلَغوا المَبْلَغَ الذي تعرفونَ تَقْليبَهُ إيّاكمْ[7] مِنْ حالٍ إلى حالٍ على ما ذَكَرَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: يُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على تَحْويلِهِمْ مِنْ حالِ الترابِ إلى حالِ الإنسانيَّةِ والبَشَرِيَّةِ ومِنْ حالِ النُّطْفَةِ إلى حالِ العَلَقَةِ ثم إلى آخِرِ ما ذَكَرَ يَقْدِرُ[8] على البعثِ والإحياءِ بَعْدَما صاروا تُراباً.

(١) في الأصل: أن يضله، في م: أنه يضله. (٢) في الأصل وم: لقادر. (٣) في الأصل وم: خلقها. (٤) في الأصل وم: موصولاً. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: إياهم. (٨) في الأصل وم: قدر.

والثاني[١]: يُبيِّنُ عِلْمَهُ في الظُّلُماتِ الثلاثِ التي[٢] كانَ الوَلَدُ فيها: أنْ كيفَ قَلَّبَهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ في تلكَ الظُّلُماتِ لِيَعْلَموا أنهُ لا يَخفى عليهِ شيءٌ.

والثالثُ[٣]: يُبيِّنُ حِكْمَتَهُ وتَدْبيرَهُ في خَلْقِ الإنسانِ مِنَ الترابِ ومِنَ النُّطْفَةِ ما لَوِ اجْتَمَعَ جميعُ الحُكَماءِ مِنَ البَشَرِ والعُلَماءِ لِيَعْرِفوا المَعْنَى الذي بِهِ خُلِقَ الإنسانُ منهُ، وصارَ بِهِ بَشَراً، ما قَدَروا عليهِ، ولا عَرَفوا السَّبَبَ الذي بِهِ صارَ كذلكَ لِيَعْلَموا أنهُ حكيمٌ بذاتِهِ وعالِمٌ قادرٌ بذاتِهِ لا بِتَعْليمِ غَيرِهِ ولا بأقدارِ غَيرِهِ.

فَمَنْ كانَ هذا سبيلُهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ؛ يُنْشِئُ الأشياءَ مِنَ الأشياءِ ولا مِنَ الأشياءِ على ما شاءَ وكيفَ شاءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي يُتَوفّى قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ أشُدَّهُ. دليلُهُ: قولُهُ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي مِنْ قَبْلِ أنْ يَبْلُغَ ذلكَ المَبْلَغَ، وهو الأشُدُّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي إلى وَقْتٍ يُسْتَقْذَرُ منهُ، ويُسْتَخْبَثُ.

ليسَ كالصغيرِ، لأنَّ الصغيرَ والطِّفْلَ مِمّا يُؤَمَّلُ منهُ في العاقبةِ المَنافعُ والزِّياداتُ، وهذا[٤] لا يرجى منهُ، ولا يُؤَمَّلُ منهُ العاقبةُ. كلّما مَرَّ عليهِ وقْتٌ كانَ أضْعَفَ في عَقْلِهِ ونَفْسِهِ. ولا كذلكَ الصغيرُ، وهو ما قالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي الخَرَفِ والهَرَمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي لكيلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِما كانَ يَعْلَمُهُ شيئاً.

ثم ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ، فقالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَيْتَةً. وقيلَ: خاشِعَةً، وقيلَ: يابِسَةً. وقيلَ: باليَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ قالَ الزَّجّاجُ: ﴿وَرَبَتْ﴾ مِنَ الزِّيادَةِ والنَّماءِ. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: يُقالُ: رَبا يَرْبو، أي زادَ، وهو الرِّبا، ورَبَواتٌ مِنَ الارْتِفاعِ، ربا يَرْبو رَبْوَةً كقولِهِ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

ثم أضافَ الاهْتِزازَ والزِّيادَةَ إلى الأرضِ، وهي لا تَهْتَزُّ، ولا تَرْبو. وإنما يَرْبو، ويَهْتَزُّ ما يَخْرُجُ منها مِنَ النباتِ. لكنْ أضافَ ذلكَ إليها لِما بها كانَ اهْتِزازُ ذلكَ النباتِ، وبها كانَ النَّماءُ، فأُضيفَ إليها، أو إنْ كانَ مِنَ الارتفاعِ والرَّبْوَةِ فهيَ تَرْتَفِعُ، وتَنْتَفِخُ، وتَهْتَزُّ بالمَطَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ قيلَ: البَهيجُ: الحَسَنُ. يُخْبِرُ في هذا [عَنْ][٥] كلِّ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ بَعْدَما كانَتْ يابِسَةً مَيْتَةً [هو قادرٌ][٦] على إحياءِ المَوْتى بَعْدَ المَوتِ وبَعْدَما صاروا تراباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي مِنْ كلِّ جِنْسٍ حَسَنٍ بَهيجٍ، أي يُسِرُّ، وهو فَعيلٌ بِمَعْنى فاعلٍ. يُقالُ: امْرأةٌ ذاتُ خُلُقٍ باهِجٍ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الهامِدُ البالي، يُقالُ: هَمَدَ[٧] الثوبُ إذا بَلِيَ، والهامِدُ أيضاً الخامِدُ، خَمَدَتِ النارُ تَخْمُدُ خُموداً.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي ضاعَفَتِ[٨] النباتَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلكَ الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الساعةِ وزَلْزالِها وأهوالِها وما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الإنسانِ وتَقْليبِهِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ وما ذَكَرَ مِنَ البَعْثِ والإحياءِ وإحياءِ الأرضِ بَعْدَما كانَتْ هامِدَةً، هو الحقُّ، أي كائنٌ لا مَحالَةَ.

ألَا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: الذي. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لقادر. (٧) من م، في الأصل: همدت. (٨) في الأصل وم: أضعفت.

الآية ٧ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾؟ هذا كُلُّهُ يَدُلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ في تَحقيقِ البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ وأنهُ قادِرٌ بذاتِهِ عالِمٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ يقولُ: هذا الذي فَعَلَ، وظَهَرَ، مِنْ صُنْعِهِ يَدُلُّ على أنَّ اللهَ ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وغيرُهُ مِنَ الآلهةِ التي يَعْبُدُونَها باطِلٌ ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في الآخِرَةِ لا الآلِهَةُ التي يَعْبُدونَها ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على ما يَشاءُ. وهو ما أخْبَرَنا.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ الحُسْنَى، سُمّيَ بِهِ لأنهُ يَحْكُمُ بالحقِّ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حِسّيٌّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي لا بَيانٍ دَليليٍّ مِنْ جِهَةِ الفِعْلِ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي ولا وَحْيٍ مُنيرٍ ما يُجادِلُ فيهِ، ويُخاصِمُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾][1] أي بغيرِ إذعانٍ مِمَّنْ عندَهُ العِلْمُ ﴿وَلَا هُدًى﴾ ولا اسْتِسْلامٍ لِمَنْ عندَهُ الدليلُ ولا خُضوعٍ لِمَنْ عندَهُ كتابٌ مُنيرٌ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لاوِيَ عُنُقِهِ إلى مَعْصِيَةِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ناظراً في عِطْفِهِ أي في جانِبِهِ. وقيلَ مِثْلُ هذا. لكنَّ حقيقتَهُ تُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: على التمثيلِ والكِنايةِ عنْ إعراضِهِ عنْ دينِ اللهِ الحَقِّ والصُّدودِ عنهُ كقولِهِ: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] وقولِهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ونَحْوَهُ، كلُّهُ على التمثيلِ والكِنايةِ عنِ الإعراضِ عنِ الحَقِّ والصُّدودِ لا على حقيقةِ الانْقِلابِ على الأعقابِ. فَعَلَى ذلِكَ/٣٤٦ ـ أ/ جائزٌ قولُهُ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ يُخَرَّجُ على التمثيلِ والكنايةِ عنِ الإعراضِ عنِ الحَقِّ.

والثاني[2]: جائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ عَطْفِ العُنُقِ والمَيلِ عنهُمْ تكَبُّراً وتَجَبُّراً منهُ عليهِمْ.

ثم بَيَّنَ أنهُ لم يَفْعَلْ [ذلكَ][3] فقالَ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. ثم أخبرَ مالَهُ في الدنيا [بِصُنْعِهِ، فقالَ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخِزْيُ][4] هو العذابُ الذي يَفْضَحُهُ.

وأصْلُ الخِزْيِ الهَوانُ والذُّلُّ. وهُمْ لمّا أعْرَضوا عنْ عبادةِ اللهِ ودينِهِ بُلُوا بعبادةِ الأصنامِ واتِّباعِ الشيطانِ، فذلكَ الخِزْيُ لهمْ في الدنيا. ثم أخْبَرَ مالَهُ في الآخِرَةِ مِنَ الجزاءِ، فقالَ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وعامَّةُ أهْلِ التأويلِ يَصْرِفونَ الآيَةَ إلى واحِدٍ منهُمْ، وهو النَّضْرُ بْنُ الحارثِ، ويقولونَ ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ لأنهُ أُسِرَ يومَ بَدْرٍ، فَضُرِبَ عُنُقُهُ، وقُتِلَ صَبْراً. فذلكَ الخِزْيُ لهُ.

والحَسَنُ يقولُ: هذا الخِزْيُ لِجَميعِ الكَفَرَةِ لأنهُ لم يَزَلْ هذا صَنيعُهُمْ مُنْذُ كانوا، فَلَهُمُ الخِزْيُ، في الدنيا الخَسْفُ والحَصْبُ على ما كانَ في الأممِ الخاليةِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ليسَ على تَحقيقِ تَقْديمِ الأيدي، ولكنْ على التمثيلِ لِما بالأيدي يُقَدَّمُ، فَذَكَرَ اليَدَ لِذلكَ على ما ذَكَرْنا مِنَ انْقِلابِ الأعقابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأنهُ لا يأخُذُ أحداً بِغَيرِ ذنبٍ، ولا يأخُذُهُ[5] بذنبِ غَيرِهِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على شَكٍّ، يَمْتَحِنُ ربَّهُ على أنهُ [إنْ][6] أعطاهُ طَمَعَهُ وأمَلَهُ في هذهِ الدنيا حَقَّقَ [لهُ الأُلوهيَّةَ والعبادةَ، وإنْ لم يَجِدْ طَمَعَهُ وأمَلَهُ لا يُحَقِّقُ][7] لهُ ذلكَ، ويَقُلْ[8]: ليسَ هو بإلهٍ؛ إذْ لو كانَ إلهاً لأعطاهُ ما يَطْلُبُ منهُ. على هذا الشَّكِّ يَعْبُدُ بالامْتِحانِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م،في الأصل: خزي. (٥) من م، في الأصل: يأخذ. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ويقول.

وقالَ بعضُهُم: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على شَرْطِ الإعطاءِ. يقولُ: إنْ أعطاني أملي عَبَدْتُهُ، وأنْ لم يُعْطِني ذلكَ لم أعبُدْهُ؛ تكونُ عبادَتُهُ على هذا الشَّرْطِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على حالٍ واحدةٍ، على جِهَةٍ واحدةٍ، ليسَ يَعْبُدُهُ على حالَينِ: كالمؤمنِ يَعْبُدُهُ في حالَينِ جميعاً حالَةِ الظاهرِ وحالَةِ الباطنِ وحالةِ الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ وحالَةِ السَّعَةِ والشِّدَّةِ على ما تَعَبَّدَهُ اللهُ كقولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونَحْوَهُ.

عَبَدَهُ المُؤمِنُ على الحالَينِ جميعاً على ما تَعَبَّدَهُ اللهُ. والمُنافِقُ إنما يَعْبُدُهُ على حالةِ السَّعَةِ والخِصْبِ لأنهُ ليسَ يَعْرِفُ ربَّهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ، فإنما يَعْبُدُ السَّعَةَ والرَّخاءَ.

وأمّا المُؤمِنُ فَقَدْ[1] عرفَ ربَّهُ، وعَبَدَهُ[2] في الأحوالِ كلِّها لِما عَرَفَ نفسَهُ عَبْداً لِسَيِّدِهِ، ولم يَرَ لِلْعَبْدِ سَعَةَ تَرْكِ العِبادةِ لِمَولاهُ في كلِّ حالٍ، ورَأى لِلْمَعْبودِ حَقَّ اسْتِعْبادِهِ واسْتِخْدامِهِ في كلِّ حالٍ: في حالِ الضِّيقِ وحالِ السَّعَةِ، أو [لأنْ يكونَ رَأى ما][3] يُصيبهُ مِنَ الشدائدِ والبَلايا بِتَقْصيرٍ كانَ منهُ وتَفريطٍ، فَعَبَدَهُ[4] في الأحوالِ كلِّها، أو لِما رَأى، وعَرَفَ نِعَمَ ربِّهِ عليهِ كثيرةً، ورَأى شُكْرَ تلكَ النِّعَمِ عليهِ لازِماً، فَعَبَدَهُ في الأحوالِ كلِّها شُكْراً لِتِلْكَ النِّعَمِ.

وأمّا أولئكَ، لم يَرَوا لِلهِ على أنْفُسِهِمْ نِعَماً، فإنما عَبَدوهُ على الجِهَةِ التي ذَكَرْنا: [كانَ الكَفَرَةُ فِرَقاً أيضاً: منهُمْ][5] مَنْ يَعْبُدُ اللهَ في حالِ الشِّدَّةِ والضِّيقِ، ولا يَعْبُدُهُ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ونَحْوَهُ.

ومنهُمْ مَنْ كانَ يَعْبُدُهُ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ، وهو ما ذَكَرْنا مِنْ أمْرِ المُنافِقِ.

وأمّا المُؤمِنُ فهو يَعْبُدُهُ في الأحوالِ كلِّها لِما رآهُ مَعْبوداً حقيقَةً على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الفِتْنَةَ هي التي فيها بلاءٌ وشِدَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ قالَ[6] بعضُهُمْ: هو على التمثيلِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] وقولِهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقالَ بعضُهُمْ: على تَحْقيقِ انْقِلابِ وَجْهِهِ، لأنهُ كانَتْ[7] عبادَتُهُ ظاهرةً، لم يكُنْ يَعْبُدُهُ في الباطِنِ في حالِ السَّعَةِ. فلمّا أصابَتْهُ الشِّدَّةُ تَرَكَ عبادَتَهُ الظاهِرَةَ، وانْقَلَبَ على ما كانَ باطِنُهُ، فهذا[8] انقلابُ وَجْهِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أمّا خُسْرانُ الدنيا فَلأنَّهُ[9] فاتَ عنهُ ما كانَ يَأمُلُهُ بِزَوالِها، وخُسْرانُ الآخِرَةِ ظاهِرُهُ[10] العذابُ والشدائدُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ خُسْرانُ الدنيا، هو خضوعُهُ لِمَنْ لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ لِلْعِبادةِ للأصنامِ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ لأنهُ خَسِرَ في الدارَينِ جميعاً أمَلَهُ وطَمَعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ قيلَ: إنَّ الآيَةَ في المُنافقينَ، وهُمْ كانوا لا يَعْبُدونَهُ[12] على حرفٍ [لأنَّ العبادةَ على حَرْفٍ][13] ليسَتْ بعبادةِ اللهِ، إنما هي عبادةُ الشيطانِ. فأخْبَرَ أنهُ [يَعْبُدُ ما لا يَضُرُّهُ][14] إنْ تَرَكَ العبادةَ لهُ، ولا يَنْفَعُهُ إنْ عَبَدَهُ، يدلُّ على ذلكَ [قولُهُ][15]: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾. لأنهُ عبدَ مَنْ لا يَضُرُّهُ إنْ لم يَعْبُدْهُ، ولا يَنْفَعُهُ إنْ عَبَدَهُ. فذلكَ هو الضَّلالُ البَعيدُ.

---

(١) في الأصل وم: فإذا. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أن يكون أي بما. (٤) في الأصل وم: وعبدوه. (٥) في الأصل وم: كانوا فرقاً من الكفرة. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: كان. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) في الأصل وم: لأنه. (١٠) في الأصل وم: ظاهر. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: يعبدون. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تأويلُهُ[1]: يدعو مَنْ ضَرُّهُ[2] أقربُ مِنْ نَفْعِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ هذا إنْ عَبَدَهُ ضَرَّتْهُ عبادَتُهُ إيّاهُ في الآخِرَةِ.

[وذَكَرَ في الآيةِ][3] الأولَى حينَ[4] قالَ: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إنْ تَرَكَ عبادَتَهُ في الدنيا ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إنْ عَبَدَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي الوليّ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾][5] يعني الصاحبَ كقولِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. أي صاحِبوهُنَّ بالمَعْروفِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي الوليُّ، وهو الشيطانُ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي القرينُ الذي لا يُفارِقُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: أي الصاحبُ والخليلُ، وهو ما ذَكَرْنا، كُلُّهُ واحدٌ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿ٱلْعَشِيرُ﴾ الرفيقُ الذي تُعاشِرُهُ، وتُصاحِبُهُ، وتُخالِطُهُ، والعَشيرُ الزوجُ أيضاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ يَتَكَبَّرُ مُعْرِضاً. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ أي مُتَكَبِّراً مُتَجَبِّراً. والعِطْفُ في الأصلِ الجانبُ، والأعطافُ جَميعٌ، وقولُهُ: ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قالَ: لا يَدْري أحقٌّ هو أم باطلٌ؟ وهو الشَّكُّ. يُقالُ: إني مِنْ هذا الأمْرِ على حَرْفٍ أي على شَكٍّ، لَسْتُ بِمُسْتَيقِنٍ. وقالَ القُتَبِيُّ: على حَرْفٍ واحدٍ وعلى وَجْهٍ واحدٍ وعلى مَذْهبٍ واحدٍ. وقالَ قَتادَةُ على شَكٍّ على ما ذَكَرْنا. وقالَ أبو عُبَيدَةَ: على حَرْفٍ أي لا يَدومُ، ويَقولُ: إنما أنا [على][6] حَرْفٍ أي لا أثِقُ بكَ، ونَحْوَ هذا. وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ في الآخِرَةِ ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ انقَلَبَ على وَجْهِهِ، أي رَجَعَ إلى دينِهِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ المُعْتَزِلَةُ كَذَّبَتْ هذهِ الآيةَ والآيةَ التي تلي هذهِ الآيةَ، وهو قولُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦] لأنهمْ يقولونَ: أرادَ اللهُ إيمانَ جميعِ الخلائقِ، ثم لم يَفْعَلْ ذلكَ، وأرادَ جميعَ الخيراتِ والكَفَّ عنِ الشرورِ، ثم لم يَقْدِرْ على وفاءِ ما أرادَ، ويقولونَ: لا صُنْعَ لهُ في أفعالِ العِبادِ، ولا تَدْبيرَ.

فَعَلَى قولِهِمْ لم يَفْعَلِ اللهُ ممّا أرادَ واحداً مِنْ ألوفٍ. ويقولونَ: إنَّ اللهَ أرادَ هُدَى جميعِ الخلائقِ، لكنهمْ لم يَهْتَدوا، وهو أخْبَرَ أنهُ يَهْدي مَنْ يُريدُ. وهُمْ يَقولونَ: يُريدُ هُدَى الخَلْقِ كُلِّهِمْ، فلم يَهْتَدوا.

ونَحْنُ نقولُ: مَنْ أرادَ اللهُ هُداهُ اهْتَدَى، وما أرادَ أنْ يُفْعَلَ [فُعِلَ [ما يريدُ][7]. وهو ما أخْبَرَ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧ والبروج: ١٦] أخْبَرَ أنهُ يَفْعَلُ ما يُريدُ][8] فيخرجُ على قولِهِمْ على أحدِ الوجهَينِ: إمّا على الخِلافِ في الوَعْدِ، وإمّا على الكذبِ في القولِ والخَبَرِ/ ٣٤٦ ـ ب/ فَنَعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ تأويلُ الآيةِ عندنا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن﴾ يَنْصُرَ اللهُ محمداً، صلواتُ اللهِ تعالى عليهِ، وسلَّمَ، ثم نَصَرَهُ، فغاظَهُ نَصْرُهُ [إيّاهُ][9]، فَيَدومُ غَيظُهُ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي بِحَبْلٍ مِنَ السماءِ، فَيَخْتَنِقَ، ويَقْتُلَ نفسَهُ، لِيُذْهِبَ غَيظَهُ الذي غاظَهُ نَصْرُهُ لِيَسْتَريحَ ممّا غاظَهُ.

والثاني: يُخَرَّجُ على الوَعْدِ بالنَّصْرِ والخَبَرِ أنهُ يَنْصُرُهُ. يقولُ: مَنْ كانَ يَظُنُّ أنَّ ما وَعَدَ لهُ مِنَ النُّصْرةِ لا يَفْعَلُ ذلكَ لهُ، ولا يَنْصُرُهُ، ولا يُنْجِزُ ما وَعَدَ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي لِيَخْبِسْ ما وَعَدَ لهُ مِنَ النَّصْرِ إنْ غاظَهُ ما وَعَدَ لِيُذْهِبَ غَيظَهُ الذي غاظَهُ. فَعَلَى هذا التأويلِ تكونُ السماءُ سماءَ الأصلِ، أي يَحْبِسُ السببَ الذي يَنْزِلُ مِنَ السماءِ.

---

(١) أدرجت في الأصل وم: بعد يدعو. (٢) في الأصل وم: يضره، في م: يضر به. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أنْ لنْ يرزُقَهُ اللهُ، ويَجْعَلُهُ صلةَ قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] لأنهُ يَجْعَلُ الآيةَ في أهلِ النِّفاقِ، يقولُ: مَنْ كانَ يظُنُّ مِنْ أهلِ النِّفاقِ أنَّ اللهَ لا يَرْزُقُهُ إذا كانَ في ذلكَ الدينِ الذي كانَ فيهِ، ودامَ، فَلْيَمْدُدْ بما ذُكِرَ.

وقالَ مجاهدٌ: ﴿كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ قالَ ذلكَ خِيفةَ ألّا يُرْزَقَ، وأهلُ التأويلِ صَرَفوا السماءَ إلى سَقْفِ البيتِ، ويقولونَ: القطعُ الخنقُ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أنْ لَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ، وهو قولُ أبي عُبَيدَةَ؛ يُقالُ: مَطَرٌ ناصرٌ، وأرضٌ مَنصورةٌ أي مَمْطورةٌ.

وقالَ المُفَسِّرونَ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ محمداً ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي بِحَبْلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى سَقْفِ البيتِ ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي لِيَخْتَنِقْ ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ أي حيلَتُهُ ﴿مَا يَغِيظُ﴾ غَيظَهُ، أي لِيُجْهِدْ جَهْدَهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ قالَ: هذا شيءٌ لا يكونُ، ولا يُقْدَرُ عليهِ، وهذا ذَمٌّ لِلْمَقولِ فيهِ لأنهُ جَعَلَ السماءَ سماءَ الأصلِ، وقولُهُ: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ أي يَمُدَّ يَدَهُ، وقولُهُ: ﴿بِسَبَبٍ﴾ والسَّبَبُ في الأصلِ الحبلُ، أي يُعَلِّقُ سَبَباً، فَيَرْتَقِي في السماءِ، والسِّبُّ الخِمارُ، وسُبوبٌ جميعٌ أي خُمُرٌ، والسَّبَبُ الحَبْلُ بِلُغَةِ هُذَيلٍ، وقولُهُ: ﴿مَا يَغِيظُ﴾ هو شدةُ الغَضَبِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي مِثْلُ هذا أنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ، تُبَيِّنُ ما لَهُمْ وما عليهِمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ أمّا الصائبونَ فإنَّ الناسَ اختَلَفوا فيهِمْ: قالَ أهلُ التأويلِ: همْ عُبّادُ الملائكةِ، وقد ذَكَرْنا أقاويلَهُمْ فيهِ في سورةِ المائدةِ، فَتَرَكْنا ذِكْرَهُ هَهنا لِذلكَ. ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ قيلَ: هم مُشْرِكو العَرَبِ، وهُمْ عَبَدَةُ الأوثانِ والأصنامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يَحْكُمُ بَينَ هؤلاءِ يومَ القيامةِ لاختِلافِهِمْ في الدنيا كقولِهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] وقولِهِ[1]: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يَحْكُمُ بَينَ هؤلاءِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١١٣].

فالفَصْلُ بَينَهُمْ يومَ القِيامةِ، هو الحُكْمُ الذي ذُكِرَ في الآيةِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في المَقامِ؛ يَبْعَثُ هؤلاءِ إلى الجنَّةِ وهؤلاءِ إلى النارِ. فذلكَ الفَصْلُ بينَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَفْصِلُ﴾ أي يُبَيِّنُ لهمُ الحقَّ مِنَ الباطلِ حتى يُقِرّوا[2] جميعاً بالحقِّ، ويُؤْمِنوا[3] بهِ. ولكنْ لا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ يومَئذٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مِنْ أعمالِهِمْ وأفعالِهِمْ وأقرارِهِمْ وأقوالِهِمْ وجَميعِ ما كانَ منهُمْ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حَرْفُ ﴿مَن﴾ في ظاهِرِ اللغةِ واللسانِ إنما يُعَبَّرُ بهِ عنِ المُمْتَحَنِ مِنَ البَشَرِ والجِنِّ والملائكةِ. وأمّا المَواتُ فإنهُ لا يُعَبَّرُ بهِ عنهُ، وإنما يُعَبَّرُ عنهُ بِحَرْفِ: ما.

لكنْ ذَكَرَ في آخِرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ﴾ الآيةَ ما يَدُلُّ أنهُ أرادَ الكلَّ المُمْتَحَنَ والمَواتَ جميعاً حينَ[4] قالَ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وإلّا ظاهرُهُ ما ذَكَرْنا أنهُ إنما يُعَبَّرُ بـ: مَنْ عنِ المُمْتَحَنِ وبِحَرْفِ: ما عنِ الكلِّ. جائزٌ أنْ يكونَ عندَ الاجتِماعِ يُذْكَرُ باسْمِ المُمْتَحَنِ على ما يُذْكَرُ عندَ اجتِماعِ الذَّكَرِ والأنثى باسْمِ[5] الذكورِ.

ثم ما ذُكِرَ مِنْ سُجودِ هذهِ[6] الأشياءِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: سُجودُ خِلْقِهِ؛ يَسْجُدُ كلُّ شيءٍ ذُكِرَ بِخِلْقَتِهِ للهِ على ما ذَكَرْنا في التسبيحِ.

والثاني: سُجودُ عبادَةٍ؛ وهو سُجودُ كلِّ مُمْكِنٍ [منهُ السجودُ][7] وتركُهُ، وهو سُجودُ المُمْتَحَنِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال. (٢) في الأصل وم: يقرون. (٣) في الأصل وم: ويؤمنون. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: باسمه. (٦) في الأصل وم: وهذه. (٧) ساقطة من الأصل وم.

والثالث: سُجودٌ[1] بِذُلٍّ؛ فما[2] جعلَ في هذهِ الأشياءِ مِنَ المنافعِ، لا تأتي بِتَذَلُّلِها[3] لأحدٍ مِنَ الماءِ والشمسِ والشجرِ والدَّوابِّ وكلِّ شيءٍ.

والرابعُ: ما أَلْهَمَ هذهِ الأشياءَ مِنَ الطاعةِ للهِ والخضوعِ لهُ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾؟ [فصلت: ١١] ألا تَرَى أنهُ أَلْهَمَ الدَّوابَّ مَعْرِفَةَ إتيانِ الصالحِ واتِّقاءَ المَهالِكِ؟ فجائزٌ أنْ يَعْرِفْنَ طاعَتَهُ والخُضوعَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ في الجَنَّةِ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: مَنْ خَذَلَهُ اللهُ، وطَرَدَهُ عنْ عبادَتِهِ وبابِهِ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ كقولِهِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣ والزمر: ٢٣و٢٦].

والثاني[4]: يقولُ: ومَنْ أهانَهُ اللهُ في النارِ بالعذابِ فَمَا لهُ مِنْ مُنْجٍ يُنْجيهِ عنْ ذلكَ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ هذا على المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: شاءَ أشياءَ، فَلَمْ يَفْعَلْ. وهو يقولُ: يَفْعَلُ ما يَشاءُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ اختلَفوا في تأويلِهِ. قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ في سِتَّةِ نَفَرٍ تبارَزوا: ثلاثةٌ مِنَ المسلمينَ: حمزةُ بْنُ عبدِ المطلبِ وعليُّ بْنُ أبي طالبٍ وعُبَيدَةُ بْنُ الحارثِ ﷺ، وثلاثةٌ مِنَ المُشرِكينَ: عُتْبَةُ بْنُ ربيعةَ وشَيْبَةُ بْنُ ربيعةَ والوليدُ بْنُ عُتْبَةَ. فذلكَ اختِصامُهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: [اختَصَمَ][6] أهلُ الإسلامِ وأهلُ الكتابِ في الدينِ: قالتِ اليهودُ والنَّصارى نَحْنُ أَوْلى باللهِ منكُمْ يا مَعْشَرَ المُسلِمينَ لأنَّ نَبِيَّنا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ ودينَنا قَبْلَ دينِكُمْ وكتابَنا قَبْلَ كِتابِكُمْ. فقالَ: المُسْلِمونَ: بل نَحْنُ أَوْلى باللهِ؛ آمَنّا بِكِتابِنا وكِتابِكُمْ ونَبِيِّكُمْ وبكلِّ كتابٍ أنْزَلَهُ، ثم كَفَرْتُمْ أنتمْ بِنَبِيِّنا وكتابِنا وبكلِّ نَبِيٍّ كانَ قَبْلَ نَبِيِّكُمْ. فأنزَلَ اللهُ تعالى ما فَصَلَ بَينَ المؤمِنينَ وأهلِ الكتابِ فقالَ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بمحمدٍ وبالقرآنِ، وهُمُ اليهودُ والنَّصارى ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وقالَ في المؤمِنينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [الحج: ٢٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ النارُ والجنةُ. قالتِ النارُ: جَعَلَني اللهُ لِلْعُقوبةِ لِلْعُصاةِ والفَسَقَةِ، وقالَتِ الجنةُ: جَعَلَني اللهُ لِلرَّحْمَةِ لِلأنبياءِ والأولياءِ ونَحْوَهُ. لكنْ متى يكونُ للنارِ مُخاصَمَةٌ وكذلكَ الجَنَّةُ؟ وهو بَعيدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: اخْتَصَمَ المُسْلِمُ والكافرُ في البَعْثِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اخْتِصامُهُمْ ما ذَكَرَ مِنْ أوَّلِ السورةِ إلى هذا المَوْضِعِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية: ٨] وقولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الآية: ١١] وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [الآية: ١٧].

يكونُ الاختِصامُ[7] بينَ هؤلاءِ الذينَ ذَكَرَ في هذهِ السورةِ؛ وهُمْ أهلُ الإسلامِ وأهلُ [الكفرِ. وفي][8] الآيةِ بيانُ ذلكَ حينَ[9] قالَ: /٣٤٧ ـ أ/ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ وقالَ في المؤمِنينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الآية: ٢٣].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ هذا الذي ذَكَرَ في الآيةِ الأولى: حينَ[10] قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الآية: ١٧] يُنْزِلُ أهلَ الإسلامِ في الجنةِ، وأهلَ الكُفرِ في النارِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: سجوده. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: بذلها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: اختصامهم. (٨) في الأصل وم: الكفرة لي. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ كقولِهِ: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٥٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ قيلَ: الحَميمُ الماءُ الحارُّ الذي انْتَهَى حَرُّهُ غايتَهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: يُصْهَرُ يُذابُ، يُقالُ: صَهَرَتِ النارُ الشَّحْمَةَ، والصُّهارةُ ما أُذيبَ مِنَ الإلْيَةِ، وكذلكَ يُقالُ[1]: الصُّهارةُ ما يَبْقَى مِنَ الشَّحْمِ والإلْيَةِ إذا أُذيبا. يقالُ: صَهَرْتُ الشَّحْمَ أي أذبتُ أصْهَرُهُ صَهْراً.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَقامِعُ الأعْمِدَةُ مِنَ الحديدِ، وهو قَولُ أبي مُعاذٍ. وقالَ بعضُهُمْ: المَقامِعُ: شِبْهُ العُصِيِّ، الواحدةُ مِقْمَعَةٌ.

قالَ أبو مُعاذٍ: يَعْني قولُهُ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ أي يُذابُ ما في بُطونِهِمْ خاصةً. وأمّا الجلودُ فإنها تُحْرَقُ لأنَّ الجِلْدَ لا يُصْهَرُ، ولا يَنْصَهِرُ، وقالَ: هذا مِثْلُ قَولِ العَرَبِ: أتيتُهُ، فأطْعَمَني، واللهِ، ثَريداً، واللهِ ولَبَناً قارِصاً، أي حامضاً، واللهِ وإزاراً ورِداءً أي واللهِ وحُمْلاناً فارِهاً؛ تُضْمِرُ لكلِّ شيءٍ فِعْلاً يُشاكِلُهُ. وفي القرآنِ مِثْلُهُ كثيرٌ، وكذلكَ في اللسانِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ جَهَنَّمَ إذا جاشَتْ ألقَتْ مَنْ فيها إلى أعلاها، فَيُريدونَ الخُروجَ منها، فَيُعيدُهُمُ الخُزّانُ فيها بالمقامعِ، ويقولُ لهمُ الخَزَنَةُ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ في جَهَنَّمَ دَرَكاتٍ، فإذا اشْتَدَّ العذابُ بهِمْ يَنْقَلِبونَ مِنَ الدَّرَكةِ السُّفْلَى إلى الدَّرَكَةِ العُلْيا، ويَصْعَدونَ، ثم يُريدونَ الخروجَ منها فيُعادونَ فيها [كقولِهِ][3]: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ النارَ تَضْرِبُهُمْ بِلَهَبِها، فَتَرْفَعُهُمْ، حتى إذا كانوا في أعلاها ضُرِبوا بِمَقامِعَ مِنْ حديدٍ، فإذا انْتَهَوا إلى أسْفَلِها ضَرَبَهُمْ زُفَرُ لَهَبِها، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي مِنْ تَحْتِ أهلِها، وهو كما ذُكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣و...].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لقومٍ رَغِبوا في هذهِ الدنيا في[4] التَّحَلّي، وتَفاخَروا بهِ فيها، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣] والأقَلُّ ما يَرْغَبُ الناسُ في الدنيا في التَّحَلّي بما ذُكَرَ إلّا النساءَ خاصَّةً. فأمّا ما[5] ذُكَرَ للنساءِ أو لقومٍ تَفاخَروا بهِ في الدنيا [فقد وَعَدَ][6] لهمْ في الآخِرَةِ ذلك [بقولِهِ][7]: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قالَ الكسائيُّ: مَنْ قَرَأَ: ولُؤلُؤٍ بالخَفضِ[8] فهو [يُخَرِّجُهُ على وجهَيْنِ][9]

أحَدُهما: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [ولُؤلُؤٍ][10].

والثاني[11]: يُحَلَّونَ فيها: مِنْ لُؤلؤٍ: حَلْيَةٍ سِوَى الأساوِرِ.

ومَنْ قَرَأَ بالنصبِ: ولُؤلُؤاً [يُخَرِّجُهُ على][12] يُحَلَّونَ فيها لُؤلُؤاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وكذلكَ ذُكِرَ في الخَبَرِ: «هو لهم في الدنيا ولنا في الآخِرَةِ» [ابن ماجه ٣٥٩٠].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا في الدنيا والآخِرَةِ. أما في الدنيا فهو[13] التوحيدُ وشَهادةُ الإخلاصِ. وأمّا في الآخِرَةِ [فهو][14] كقولِهِ: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فهو القولُ الطَّيِّبُ الذي هُدُوا إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بـ. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) في الأصل وم: فوعد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية: ج٤/١٧٢. (٩) في الأصل وم: يخرج. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: أي. (١٣) في الأصل وم: هو. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ هو القرآنُ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ الإسلامِ وشرائِعِهِ.

وقالَ قتادةُ: أُلهِموا التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما أُلهِموا النَّفَسَ، وقالَ: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ هو كلُّ قولٍ حَسَنٍ، وقولُهُ: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ يَحتَمِلُ صِراطَ الحَميدِ أي صِراطَ اللهِ كقولِهِ: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٣] ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ نَعتَ ذلكَ الصِّراطِ أي صِراطٍ حَميدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ قولُهُ: ﴿كَفَرُواْ﴾ هو خَبَرٌ ماضٍ، وقولُهُ: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ خَبَرٌ مُستقبَلٌ، فَنَسَقَ المُستقبَلَ على الماضي. وقالَ الزَّجّاجُ: [معناهُ:][1] إنَّ الكافِرينَ والصادِّينَ عن سَبيلِ اللهِ ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾.

وعندَنا تأويلُهُ: إنَّ الذينَ كَفَروا قَبلَ أنْ يُبعَثَ محمدٌ، ويَصُدُّونَ الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ إذا بُعِثَ محمدٌ. ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [وجهَينِ:

أحَدُهُما:][2] كانوا يمنَعونَ المُسلِمينَ عنْ دخولِ المَسْجِدِ الحرامِ للإسلامِ والسؤالِ عنهُ.

والثاني: إخراجُهُمْ منهُ كقولِهِ: ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ الذي جَعَلَ فيهِ العاكفَ والباديَ سَواءً المَسْجِدَ الحرامَ لأنهُ قالَ: ﴿جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾.

لكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفوا ذلكَ إلى مكةَ، وقالوا: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِ﴾ في النُّزولِ في المَنازِلِ.

وظاهِرُهُ ما ذَكَرْنا. ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ المَسْجِدُ مَخصوصاً بهذا ليسَ كسائِرِ المَساجِدِ التي لها أهْلٌ أنَّ أهْلَها أحَقُّ بها مِنْ غَيرِهِمْ. وأمّا المَسْجِدُ الحرامُ فإنَّ الناسَ شَرْعٌ[3] سَواءٌ العاكِفُ فيهِ والبادي.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ [ذَكَرَ في][4] المسجدِ الحرامِ أنَّ الناسَ فيهِ [سَواءٌ][5] لِيَعلَموا أنَّ الحُكْمَ في سائِرِ المَساجِدِ كذلكَ أي[6] الناسُ فيها سَواءٌ أهْلُها وغَيرُ أهْلِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الإلحادُ فيهِ، هو الشِّرْكُ والكُفْرُ، وقالَ [بعضُهُمْ][7]: الإلحادُ هو كلُّ المَعاصي. وأصْلُ الإلحادِ، هو العُدولُ والمَيلُ عنِ الطريقِ. وتأويلُهُ: ومَنْ يُلْحِدْ فيهِ إلحادَ ظُلْمٍ نُذِقْهُ كذا.

وقالَ بعضُهُمْ: مَنْ هَمَّ فيهِ بالحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ كذا.

ثم يَحتَمِلُ تخصيصُ ذلكَ المكانِ بما ذَكَرَ وجوهاً:

أحَدُها: لِيَعلَموا أنَّ كَثْرَةَ الخيراتِ وتَضاعُفَها ممّا لا يَعْمَلُ في إسقاطِ المَساوِئِ فيهِ وهَدْمِها لِما رُوِيَ: «إنَّ صلاةً واحدةً بمكّةَ تَعدِلُ كذا صلاةً في غَيرِها مِنَ الأماكنِ، وكذلكَ حَسَنَةٌ فيها» [بنحوه الطبراني في الكبير ١/ ٩٠٧].

والثاني: خُصَّتْ بالذِّكْرِ على التَّغليظِ والتَّشديدِ على ما خُصَّتْ تلكَ البُقْعَةُ بِتضاعُفِ الحَسَناتِ.

والثالثُ: أُولئكَ ادَّعَوا أنهُمْ أولَى باللهِ مِنْ غَيرِهِمْ لِنُزولِهِمْ ذلكَ المَكانَ. فأخبَرَ أنَّ مَنْ يُرِدْ فيهِ بكذا نُذِقْهُ. ليسَ تَخصيصُ ذلكَ المكانِ بما ذَكَرَ والعَفْوِ في غَيرِهِ، ولكنْ بما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: مَعناهُ: مَنْ يُرِدْ فيهِ إلحاداً بظُلْمٍ، والباءُ زائدةٌ. ومِثْلُهُ قولُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] مَعناهُ، تُنْبِتُ الدُّهْنَ.

رُوِيَ بالخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «احْتِكارُ الطعامِ بمكةَ إلحادٌ» [أبو داوود: ٢٠٢٠] وكذلكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وابنِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: شرعا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أن. (٧) ساقطة من الأصل وم.

عُمَرَ. وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّغْليظِ والتَّشديدِ وتَضاعُفِ العُقوبةِ. ولِذلكَ كَرِهَ قومٌ الجِوارَ بمكةَ لِما تَتَضاعَفُ بها[١] العقوبةُ إذا ارْتُكِبَ [فيها مأثَمٌ، وأُلْحِدَ فيها][٢] وجائزٌ ما ذَكَرْنا.

وقد كَرِهَ قومٌ بَيْعَ[٣] رباعِ مكةَ وإيجارَها[٤] بقولِهِ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾. وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الأخبارُ بالنَّهْيِ عن ذلكَ.

رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ [أنه][٥] قالَ: «مكةُ مُباحَةٌ، لا تُباعُ رِباعُها، ولا تُؤجَرُ بيوتُها» [السيوطي في الدر المنثور: ٦/٢٦].

وعنْ[٦] عمرَ ﷺ «يا أهْلَ مكةَ لا تَتَّخِذوا لِدورِكُمْ أبواباً لِيَرِدَ البادي حيثُ شاءَ» [عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٩٢١١] ونهاهُمْ أنْ يُغْلِقوا أبوابَ دورِهِمْ.

وليسَ في ظاهرِ الآيةِ ذِكْرُ مكةَ، بل[٧] في الآيةِ ذِكْرُ المَسْجِدِ حينَ[٨] قالَ: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وإنما ذَكَرَ ذلكَ في المَسْجِدِ/ ٣٤٧ ـ ب/ الحرامِ خاصَّةً.

وقالَ أبو حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ: أكْرَهُ إيجارَ[٩] بيوتِ مكةَ في المَوسِمِ مِنَ الحاجِّ والمُعْتَمِرِ. فأمّا المُقيمُ والمُجاوِرُ فلا نَرى بأخْذِ ذلكَ منهمْ بأساً، وهو قولُ محمدٍ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بَوَّأْنا أي هَيَّأْنا لهُ[١٠] مكانَ البيتِ لِيَنْزِلَ فيهِ، والتَّبوِئَةُ الإنزالُ. كأنهُ قالَ: ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ لِيَتَّخِذَ فيهِ بيتاً، وقُلْنا لهُ: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ وهكذا بُعِثَ الأنبياءُ جميعاً، بُعِثوا ألّا يُشْرِكوا باللهِ، وأُمِروا أنْ يَدْعُوا الناسَ إلى تَرْكِ الإشراكِ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ وادْعُ الناسَ أيضاً إلى ألّا يُشْرِكوا باللهِ شيئاً. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ مِمَّنْ[١١] ذَكَرَ أي طَهِّرْهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ التي فيهِ لئلّا يُعْبَدَ غيرُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ مِنْ جميعِ الخَبائثِ ومِنْ كلِّ أنواعِ الأذى مِنَ الخُصوماتِ والبِياعاتِ وغيرِها. وذلكَ المَسْجِدُ الحرامُ كَغيرِهِ[١٢] مِنَ المساجِدِ يُطَهَّرُ، ويُجَنَّبُ جميعَ أنواعِ الأذى والخُبْثِ والفُحْشِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ هُمُ القادمونَ مِنَ البلدانِ ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ المُقيمينَ هنالكَ ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المُصَلِّينَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ لكلِّ طائفٍ بهِ ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ والعاكِفينَ لكلِّ عاكِفٍ نَحْوَهُ، أي لكلِّ مُصَلٍّ، وهذا أشْبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: على الإعلامِ، أنْ أعْلِمِ الناسَ أنَّ للهِ عليهِمُ الحَجَّ بالبيتِ كقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٧].

والثاني: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي ادْعُ الناسَ، ونادِهِمْ أنْ يَحُجّوا البيتَ.

قالَ أهلُ [التأويلِ][١٣]: لمّا أمرَ اللهُ إبراهيمَ أنْ يُناديَ في الناسِ بالحَجِّ، فَنادَى، فأسْمَعَ اللهُ صَوتَهُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ حتى أسْمَعَ صوتَهُ ونداءَهُ مَنْ [في][١٤] أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النساءِ، قالوا[١٥]: لَبَّيكَ، ومَنْ حَجَّ بَيْتَهُ فهو الذي أجابَ إبراهيمَ لمّا ناداهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: عليها. (٢) في الأصل وم: فيه مأثماً وألحد فيه. (٣) في الأصل وم: البيع. (٤) في الأصل وم: وإجارتها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: إجارة. (١٠) في الأصل وم: ه. (١١) في الأصل وم: ومن. (١٢) في الأصل وم: ولغيره. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: فقالوا.

لكنْ لا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالخبَرِ عنْ رسولِ اللهِ أنهُ كانَ ما ذَكَروا، وإلّا فالسُّكوتُ(١) عنهُ وعَنْ مِثْلِهِ أولَى.

وقالوا: إنَّ قولَهُ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ موصولٌ(٢) بقولِهِ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [الحج: ٢٦].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ لرسولِ اللهِ أو لِكُلِّ رسولٍ، بُعِثَ، الأمْرَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي على الأرجُلِ مُشاةً ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي يَضْمُرُ، ويَذْهَبُ سِمَنُهُ لِبُعْدِ المَضرِبِ، وهو ما ذَكَرْنا: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي مِنْ كلِّ طريقٍ بَعيدٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ على الدعاءِ والأمْرِ، فيكونُ في قولِهِ: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ دلالةُ لزومِ الحَجِّ على المُشاةِ؛ كأنهُ قالَ: مُرْهُمْ [أنْ يَحُجّوا](٣) مشاةً على الأرجُلِ ورُكْباناً. وإنْ كانَ على الإعلامِ فهو على الوَعْدِ والجَزاءِ يَأتوكَ(٤) على الأرجلِ مُشاةً [وعلى الدَّوابِّ رُكْباناً](٥).

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أضافَ الإتيانَ إلى الدَّوابِّ لأنهُ بالدَّوابِّ يأتونَ، فأضافَ إليها لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٣] مِنَ الحَلْيِ مِنَ الذهَبِ والفضةِ. يُقالُ: حَلَّيْتُ المرأةَ أي اتَّخَذْتُ [لها](٦) حُلِيّاً. ويقالُ: حَلِيَ الشَّيءُ، يَحْلَى حِلاً إذا ما حَسُنَ. ويُقالُ: حَلِيَ بعينِهِ إذا حَسُنَ في عينِهِ، ويُقالُ: حَلَا الشَّيءُ يَحْلُو حَلاوَةً، فهو حُلْوٌ، ويُقالُ: تَحَلَّيْتُ: إنْ شِئْتُ جَعَلْتُهُ [مِنَ الحُلْوِ](٧) أكلتُ حَلاوَتَهُ، وإنْ شِئْتُ جَعَلْتُهُ مِنَ الحَلْيِ.

[ويُقالُ: حَلَّيْتُ الشَّيءَ، وأحْلَيْتُهُ، أي جَعَلْتُهُ حُلْواً](٨). [ويقالُ:](٩) حلأتُ الإبلَ عنِ الماءِ، أي مَنَعْتُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥] [العاكفُ أي المُقيمُ، والبادي، هو](١٠) الطارئُ مِنَ البَدْوِ. وسَواءٌ فيهِ؛ ليسَ المُقيمُ فيهِ بأولَى مِنَ النازعِ إليهِ. وقولُهُ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ أي مَنْ يَرِدْ فيهِ إلحاداً، وهو الظُّلْمُ والمَيلُ عنِ الحَقِّ، فزيدَتِ الباءُ كما يُقالُ [في](١١): ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وهو ما ذَكَرْنا. وقولُهُ: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي رُكْباناً [أي على كلِّ بَعيرٍ ضامرٍ](١٢) مِنْ طولِ السَّفَرِ ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي بَعيدٍ غامِضٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: العاكِفُ المقيمُ، والبادي: مَنْ كانَ في الباديةِ، والإلحادُ المَيْلُ عنِ الحقِّ، ومنهُ اشْتُقَّ اللَّحْدُ لَحَدَ القَبْرَ، و ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي على كلِّ بَعيرٍ ضامرٍ أي خَميصِ البَطْنِ، و(١٣) ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ يقولُ: رَجِلَ الرجُلُ يَرْجَلُ [هُمْ رَجْلَةٌ، وهو](١٤) راجلٌ، والفجُّ الطريقُ، والعَميقُ(١٥) البعيدُ، يُقالُ: عَمُقَ أي بَعُدَ يَعْمُقُ عُمْقاً فهو عميقٌ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: يَشهَدونَ مَشاهِدَ فيهِ، فَيَذْكُرون اللهَ فيها، ويَكْتَسِبونَ أشياءَ، تَنْفَعُ لهمْ في الآخِرَةِ. فذلكَ ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ التي يَشْهَدونَها.

وقالَ غَيرُهُ مِنْ أهْلِ التأويلِ: ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ التِّجاراتِ والمَنافِعَ التي يَكْسَبونَها إذا خَرَجوا لِلْحَجِّ. وقالَ بعضُهُمْ: التجارةُ في الدنيا، والأجْرُ في الآخِرَةِ، وهو مِثْلُ الأوّلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ الأرزاقَ التي جُعِلَتْ لهمْ في البلدانِ النائيةِ البَعيدةِ ما لو لم يَشْهَدوها لم يَسُقِ اللهُ ذلكَ إليهِمْ، لأنَّ مِنَ الأرزاقِ التي جُعِلَتْ لهمْ في البلدانِ ما يُساقُ إلى أهْلِها، وهُمْ في مُقامِهِمْ وأمْكِنَتِهِمْ. ومِنَ(١٦) الأرزاقِ ما يُساقُ أهْلُها إليها ما لو لم يأتوها لم يُسَقْ ذلكَ إليهِمْ.

فجائزٌ ما ذُكِرَ مِنَ المنافِعِ، وهو ما غابَ عنهُمْ مِنَ المَنافعِ والأرزاقِ التي جُعِلَتْ لهمْ في البُلْدانِ النائيةِ والبَعيدةِ؛ إذا خَرَجوا للحجِّ نالوها، وإذا لم يَخْرُجوا لهُ لم يَنالوها.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: موصولاً. (٣) في الأصل وم: يحجون. (٤) في الأصل وم: أنهم يأتون. (٥) أدرجت في الأصل وم قبل: وإن كان. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرجت في الأصل وم: بعد: أي منعت. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: والبادي أي المقيم والبادي وهو، (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: عل ضمر. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: رجلة فهو. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي مَتاجِرَهُمْ وقَضاءَ مَناسِكِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ اختُلِفَ فيهِ. قالَ الحَسَنُ: هو يوم النَّحْرِ خاصَّةً.

وجائزٌ إضافةُ الواحدةِ إلى الجماعةِ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦] وإنما جَعَلَ في السماءِ الدنيا، وكما يُقالُ: تَوارَى[1] فلانٌ في دورِ بني تميمٍ، وإنما توارى في دارٍ مِنْ دورِهِمْ. ومِثْلُ هذا كثيرٌ. وذلكَ جائزٌ في اللِّسانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الأيامُ المَعْلوماتُ هو يومُ النَّحْرِ ويومانِ بَعْدَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الأيامُ المَعْلوماتُ والمَعْدوداتُ هي أيامُ التَّشريقِ جميعاً. وقالَ بعضُهُمْ: الأيامُ المعلوماتُ [هي أيامُ العَشْرِ لأنها][2] هي أيامُ الذِّكْرِ فيها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ كِنايةً عنِ الذَّبْحِ وأيامُ الذَّبْحِ ثلاثةٌ: يومُ النَّحْرِ ويومانِ بَعْدَهُ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَٰمِ﴾ ذَكَرَ الأكْلَ[3]، ولم يذكرِ الذَّبحَ؟ فذلكَ يدلُّ على أنَّ قولَهُ: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ كِنايةٌ عنِ الذَّبحِ. وإنما كانَ كِنايةً عنهُ لأنهُ بالذِّكْرِ تُقَدَّمُ الذبائحُ، ولا يَخْلو منهُ دونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنَ الأضاحي لأنَّ التَّناوُلَ مِنَ الأضاحي، كانَ لا يَحِلُّ، فَخَرَّجَ ذلكَ مُخْرَجَ رُخْصَةِ التَّناوُلِ منها. والحِلُّ لكلِّ[4] الأضاحي لا يَحْتَمِلُ لأنَّ الوقتَ ليسَ هو وقتَ الأضاحي ولا أماكِنَها، إنما هو وَقْتُ دَمِ المُتْعَةِ والقِرانِ ودَمِ التَّطَوُّعِ، وفيهِ إباحةُ التَّناوُلِ مِنْ دمِ المُتْعَةِ والقِرانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: البائِسُ مِنَ البُؤْسِ، وهو ما اشْتَدَّ بهِ مِنَ الحاجةِ والشِّدَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ: البائِسُ الذي سأَلَكَ، والفَقيرُ المُتَعَفِّفُ الذي لا شَيْءَ لهُ، وقالَ بعضُهُمْ: البائِسُ هو الذي بهِ زَمانَةٌ، والفَقيرُ الصحيحُ الذي لا شَيْءَ لهُ. وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لْيَقْضُوا/ ٣٤٨ ـ أ/ تَفَثَهُمْ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ الأدَبِ: التَّفَثُ لا يُعْرَفُ في لسانِ العَرَبِ. ما يُرادُ بهِ.

وقالَ الحَسَنُ: التَّفَثُ هو التَّقَشُّفُ، وهو تَرْكُ الزِّينَةِ. يَدُلُّ على ذلكَ ما رُوِيَ أنهُ سُئِلَ عنِ الحاجِّ، فقالَ: «كُلُّ أشْعَثَ تَفِلٍ» [بنحوه الترمذي ٢٩٩٨].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّفَثُ في الأصلِ الوَسَخُ؛ يُقالُ: امْرَأةٌ تَفِثَةٌ إذا كانَتْ خَبيثَةَ الريحِ، وهو قريبٌ ممّا قالَ الحَسَنُ: إنهُ تَرْكُ الزينَةِ.

وأهْلُ التأويلِ يقولونَ: التَّفَثُ هو حَلْقُ الرأسِ وقَصُّ الأظفارِ والشاربِ والرَّمْيُ والذَّبحُ ونَحْوُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ المَناسِكَ كلَّها.

ورُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ وقَفَ مِنْ عَرَفَةَ بِلَيلٍ، وَوَصَلَ مَعَنا الجَمْعَ، فقد تَمَّ حَجُّهُ، وقُضِيَ تَفَثُهُ» [أبو داوود ١٩٤٩] ظاهِرُ: قُضِيَ تَفَثُهُ، أي نُسُكُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: «وقُضِيَ تَفَثُهُ» أي جاءَ وقتُ الزينةِ، وهو وَقْتُ الحَلْقِ واللباسِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أي لِيوفوا ذَبْحَ ما أوجَبُوا ذبحَهُ. ذَكَرَ ممّا ساقَ مِنَ الهَدْيِ لِمُتْعَتِهِ ولِحَجَّتِهِ الأكْلَ منهُ لقولِهِ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ولم يَذْكُرِ الأكْلَ ممّا أوجَبَ بالنَّذْرِ. فكذلكَ يقولُ أصحابُنا: إنهُ يجوزُ التَّناوُلُ مِنْ هَدْيِ المُتْعَةِ والقِرانِ، ولا يَجوزُ التَّناوُلُ مِمّا كانَ وجوبُهُ بالنَّذْرِ والكَفّارَةِ. بل عليهِ أنْ يَتَصَدَّقَ بالكُلِّ، وهو ما قالَ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: نوراتي. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: الكل. (٤) في الأصل وم: لكن.

[وقولُهُ تعالى][(1)]: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هو طوافُ الزّيارةِ، وهو طوافُ يومِ النّحرِ، وهو الفَرْضُ عندَنا.

ولا يَحْتَمِلُ ما قالَ بَعْضُ الناسِ: إنهُ طوافُ الصَّدْرِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] وحجُّ البيتِ هو الطَّوافُ بالبيتِ، لا غيرَ. وطَوافُ الدخولِ وطَوافُ الصَّدْرِ، ليسَ على أهلِ مكةَ ذانِكَ[(2)] الطَّوافانِ، وعليهِمُ الحَجُّ كما كانَ على غَيرِهِمْ مِنَ الناسِ. فَدَلَّ ما ذَكَرْنا على أنَّ قولَهُ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هو طَوافُ الزّيارةِ، وهو حَجُّ البيتِ الذي قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ عَتيقاً لأنهُ أعْتَقَهُ اللهُ عَنِ الجبابرةِ عنْ أنْ يَتَجَبَّروا عليهِ. وكَمْ مِنْ جَبّارٍ قد صارَ إليهِ لِيَهْدِمَهُ، فَمَنَعَهُ اللهُ عنْ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ عَتيقاً لأنهُ يُرْفَعُ إلى السماءِ الرابعةِ، فذلكَ المَرْفوعُ، هو البيتُ العَتيقُ.

والبيتُ العَتيقُ عندَنا، هو الذي بَناهُ إبراهيمُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، وأَسَّسَهُ. ويكونُ قولُهُ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الذي أَسَّسَ إبراهيمُ لا البَيْتَ الحادثَ الذي أَسَّسَ الناسُ.

ألا تَرى أنهُ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ لعائشةَ: «لولا أنَّ قومَكِ حديثو عَهْدٍ بالإسلامِ وإلّا رَدَدْتُ البيتَ على أساسِ إبراهيمَ، وجَعَلْتُ لهُ بابَينِ: باباً يُدخَلُ فيهِ، وباباً يُخرَجُ منهُ»؟ [بنحوه البخاري ١٥٨٦].

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ [خَبَرٌ][(3)] يرويهِ عبدُ اللهِ بْنُ الزبيرِ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنما سُمِّيَ البيتَ العتيقَ لأنهُ لم يَظْهَرْ عليهِ جَبّارٌ» [الترمذي ٣١٧٠] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو هو.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ قولِهِ: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الآيتان: ٢٧و٢٨] إلى آخِرِ ما ذُكِرَ ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على ذلكَ. ولكنَّ [ذلكَ][(4)] حرفٌ يُذكَرُ عندَ خَتْمِ قصةٍ والفراغِ منها لِمُبْتَدَإٍ لا على رَبْطِ شيءٍ نَحْوُ قولِهِ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ص: ٤٩] كذا [وقولِهِ[(5)]][(6)]: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ [ص: ٥٥] كذا.

وقولُهُ: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [وقولُهُ][(7)]: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ يصِحُّ دونَ ذِكْرِ ﴿هَذَا﴾. لكنَّهُ ذُكِرَ عندَ خَتْمِ الكلامِ الأوّلِ وابْتِداءِ آخَرَ. فَعَلَى ذلِكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ وخَرَجَ للحجِّ، وأنفقَ المالَ، وأتْعَبَ النَّفْسَ [في ما][(8)] لهُ عندَ ربِّهِ مِنَ الثوابِ، فذلكَ خَيرٌ لهُ مِنْ حِفْظِ مالِهِ وحِفْظِ نَفْسِهِ. وإلّا فلا[(9)] شَكَّ أنَّ مَنْ يُعَظِّمُ حُرُماتِ اللهِ خيرٌ لهُ مِمَّنْ لم يُعَظِّمْها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: وأُحِلَّتْ لكمْ بهيمةُ الأنعامِ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ مِنَ المُحَرَّماتِ مِنَ المَيتةِ والدَّمِ وما ذُكِرَ في سورةِ المائدةِ[(10)]. وقد ذَكَرْنا هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [هو اجْتِنابُ][(11)] الأوثانِ، وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ عبادةَ الأوثانِ؛ فإنهُ رجسٌ. وليسَ فيهِ أنَّ غيرَ الأوثانِ، ليسَ برِجْسٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] ليسَ فيهِ أنهُ يَحِلُّ قتلُ الأولادِ في غيرِ خَشْيَةِ الإملاقِ. فَعَلَى ذلِكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ويَحْتَمِلُ الزُّورَ الذي قالوا في اللهِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ وما لا يَليقُ بهِ. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: واجْتَنِبوا قولَ الزُّورِ، وكونوا ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ قد ذَكَرْنا. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ تفسيرَ قولِهِ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أي كونوا مُخْلِصينَ للهِ في جَميعِ أمورِكُمْ غيرَ مُشْرِكينَ بهِ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فما. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الآية الثالثة. (١١) في الأصل وم: وهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ يَحْتَمِلُ ضَرْبُ مَثَلِ مَنْ أَشْرَكَ باللهِ بالساقِطِ مِنَ السماءِ [وخَطْفِ الطيرِ إيّاهُ وهُوِيِّ الريحِ به][1] في مكانٍ سَحيقٍ وجوهاً:

أحَدُها: ما وَصَفَ، وضَرَبَ مَثَلَهُ بشيءٍ لا قرارَ لهُ، ولا ثَباتَ، نَحْوُ ما قالَ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] ونَحْوُ ما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الآية [النور: ٣٩] ضَرَبَ مَثَلَ الكُفرِ بشيءٍ، لا قرارَ لهُ، ولا ثَباتَ. فَعَلَى ذلِكَ [ضَرْبُ][2] مَثَلِهُ بالساقِطِ: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ لا يَدْري أينَ [هو؟ ولا أينَ يَطْلُبُ إنْ أرادَ][3] طَلَبَهُ؟ ولا يَظْفَرُ به. فَعَلَى ذلِكَ الكافِرُ.

والثاني: [ما][4] ضربَ مَثَلَهُ بالساقطِ مِنَ السماءِ، وهي أبْعَدُ البِقاعِ في الأوهامِ، لا يَنتَفِعُ مَنْ[5] سقطَ منها ولا بشيءٍ مِنْ نَفْسِهِ، ولا تَبْقَى نَفْسُهُ. فَعَلَى ذلِكَ الكافرُ لا يَنْتَفِعُ بشيءٍ مِنْ محاسِنِهِ، ولا تَبْقَى نفسُهُ، يَنْتَفِعُ بها، لِبُعْدِهِ عَنْ دينِ اللهِ.

والثالثُ: [ما ضَرَبَ مَثَلَهُ بالساقِطِ][6] مِنَ السماءِ إثْرَ سُقوطِهِ منها في نفسِهِ وفي جَميعِ جَوارِحِهِ وظهورِ[7] ذلكَ فيهِ حتى لا يُرْجَى[8] بُرْؤُهُ وصِحَّتُهُ. فَعَلَى ذلِكَ الكافرُ تَظْهَرُ آثارُ الكُفْرِ في نفسِهِ وجوارِحِهِ لِبُعْدِهِ عَنْ دينِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِمَنْ أشْرَكَ بِهِ في هلاكِهِ وبُعْدِهِ مِنَ الهُدَى. والسَّحيقُ البعيدُ وهو قريبٌ مِمّا ذَكَرْنا.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥] [وقولِهِ][9]: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ[10] مَنْ يُعَظِّمْ شعائِرَ اللهِ بالجوارحِ، فذلكَ التعظيمُ مِنْ تَقْوَى القلوبِ. وهكذا الأمْرُ الظاهرُ في الناسِ أنهُ إذا كانَ في القَلْبِ شيءٌ مِنْ تَقْوَى أو خيرٍ ظَهَرَ ذلكَ في الجَوارحِ. وكذلكَ الشَّرُّ أيضاً إذا كانَ في القَلْبِ ظَهَرَ في الجوارحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقولُهُ[11]: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هما واحدٌ، وهي المناسكُ. وقالَ بعضُهُمْ: الحُرُماتُ هي جميعُ مَحارِمِ اللهِ ومَعاصيهِ يَتَّقيها تعظيماً لها. وقد ذَكَرْنا تأويلَ ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ في سورةِ المائدةِ[12].

[وقولُهُ تعالى: ﴿سَحِيقٍ﴾ بعيدٍ][13] يقالُ: سَحُقَ المَكانُ يَسْحُقُ سُحْقاً فهو سَحيقٌ إذا بَعُدَ. والسُّحْقُ أيضاً الشيءُ الخَلَقُ؛ يُقالُ: أسْحَقَ الثوبُ. وسَحُقَ يَسْحُقُ، وسَحِقَ[14] يَسْحَقُ [سُحْقاً، والسَّحوقُ:][15] النخلةُ الطويلةُ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي تَذْهَبُ بهِ؛ هَوَى يَهْوي هُوِيّاً[16] أي ذهبَ بنَفْسِهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في ما ذَكَرَ مِنَ الشَّعائِرِ ﴿مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ مِنْ ظُهورِها وألبانِها وأصوافِها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أنْ تُقَلَّدَ، وتُهْدَى/ ٣٤٨ ـ ب/ ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ إذا قُلِّدَتْ وأُهْدِيَتْ ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

وكذلكَ يقولُ أصحابُنا: إنَّ مَنْ أوجَبَ بُدْنَةً، أو أهْدَى بُدْنَةً، لا يَحِلُّ لهُ الانْتِفاعُ بها ولا بِشَيءٍ منها إلّا في حالِ الاضطِرارِ فإذا بَلَغَتْ مَحِلَّها، وذُبِحَتْ، حَلَّ الانْتِفاعُ بِلَحْمِها.

ومِنْهُمْ مَنْ قالَ في قولِهِ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتِ مَحِلِّها مِنَ الرُّكوبِ وحَلْبِ اللَّبَنِ وجَزِّ الصوفِ وغيرِ ذلكَ مِمّا كانوا يَنْتَفِعونَ بها مِنْ قَبْلُ، ويَرْوي في ذلكَ خَبَراً؛ رُوِيَ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ «رأى رجلاً، ساقَ بَدَنَةً، فقالَ: ارْكَبْها، فقالَ: إنها بَدَنَةٌ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: ارْكَبْها فقالَ: إنها بَدَنَةٌ يا رسولَ اللهِ، قالَ: ارْكَبْها، قالَ: إنها بَدَنَةٌ يا رسولَ اللهِ. قالَ: ارْكَبْها وَيْلَكَ» [البخاري ١٦٩٠] وبهِ يقولُ بَعْضُ الناسِ؛ يُبيحونَ الانْتِفاعَ بالهدايا والقلائِدِ قَبْلَ أنْ تُنْحَرَ، وتُذْبَحَ.

---

(١) في الأصل وم: واختطاف الطير أو تهوي به الريح. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: يطلب إن أرادوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ممن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وظهر. (٨) من م، في الأصل: يرجو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الآية الثانية. (١٣) السحيق هو المكان البعيد. (١٤) في الأصل وم: وأسحق. (١٥) في الأصل: والسحق، في م: والسحوق. (١٦) في الأصل وم: هواء.

لكنْ عندنا ذلكَ في وَقْتِ الحاجةِ الشديدةِ [في][1] المُضطرِّ إليها. ففي مثلِ ذلكَ يجوزُ الانتِفاعُ بِتِلْكَ غَيْرَ بَدَلٍ. فَعَلَى ذلِكَ بالهدايا: يُنْتَفَعُ بها بما ذَكَرْنا، ويُضْمَنُ ما نَقَصَها ركوبُهُ بها. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أنْ تَهْلِكَ أو تُهْلِكوا أنتمْ كقولِهِ: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] فَعَلَى ذلِكَ الأوّلُ.

ثم يكونُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ واللهُ أعلَمُ، ابْتِداءَ سُؤالٍ سُئِلَ عنْ مَحَلِّ الهدايا والقلائدِ، فقالَ: عندَ ذلكَ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ واللهُ أعلَمُ. والأوّلُ أشْبَهُ وأقْرَبُ لما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ذَكَرَ البيتَ العَتيقَ. ومَعْلومٌ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ نَفْسَ البيتِ، ولكنْ إنما أرادَ بِهِ البُقْعَةَ التي فيها البَيْتُ، لأنَّ الدماءَ لا تُراقُ في البيتِ، إنما تُراقُ في تلكَ البُقْعَةِ التي هو فيها [لأنَّ][2] الحرمَ كلَّهُ مَنْحَرٌ ومَذْبَحٌ. وأرادَ بهِ بقولِهِ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ نَفْسَ البيتِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ ههنا ﴿بِٱلْبَيْتِ﴾ لِما[3] يطافُ بهِ، وقالَ هنالكَ ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [لِما][4] أضافَ إليهِ؟ دلَّ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ نَفْسَ البيتِ، ولكنْ [أرادَ][5] البقعةَ التي فيها البيتُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَنْسَكُ المَوضِعُ الذي يَعْبُدونَ، ويَنْسُكونَ فيهِ، ويَصيرونَ إليهِ لِعبادَتِهِمْ. ومِنْ ثَمَّةَ يُقالُ للرجلِ العابدِ: ناسِكٌ. ولذلكَ قالَ مَنْ قالَ: ﴿مَنسَكًا﴾ أي يَصيرونَ، ويَخرجونَ إليهِ للعبادةِ، وقالَ: المَنْسَكُ الدينُ، وقالَ: الشريعةُ. وقالَ بعضُهُمْ: المَنْسَكُ المَنْحَرُ والمَذْبَحُ.

وجائزٌ أنْ يُسَمَّى في اللغةِ الذَّبحُ نُسُكاً كقولِهِ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] وهو الذَّبحُ، وقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ولو كانَ النُّسُكُ عبادةً كذِكْرِ الصلاةِ، وهي عبادةٌ، لَكانَ لا يَذْكُرُ النُّسُكَ. فَدَلَّ أنهُ أرادَ بالنُّسُكِ الذَّبحَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ ذِكْرَ اسمِ اللهِ مِنْ شَرْطِ الذَّبيحةِ حينَ[6] ذكرَ اسمَ اللهِ، ولم يَذْكُرِ[7] الذبحَ، فَفَهِموا مِنْ ذِكْرِ اسمِ اللهِ الذَّبحَ أنهُ مِنْ شَرْطِ جَوازِهِ وحِلِّهِ سِوَى الشافعِيِّ فإنهُ لم يَفْهَمْ ما فَهِمَ الناسُ والأمَمُ جميعاً حينَ[8] لم يجعلْ ذِكْرَ اسمِ اللهِ مِنْ شَرْطِ الذَّبيحةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كأنهُ ذَكَرَ قولَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ لقومٍ أنكروا الذبائحَ، فقالَ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي ذَبحاً ذَبَحُوهُ، وذَكَروا اسْمَ مَعْبودِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى:][9] ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي أخلِصوا ذلكَ كُلَّهُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قالَ [بعضُهُمْ][10]: المُتَواضِعينَ، وقالَ بعضُهُمْ: المُطْمَئِنِّينَ. وقالَ بعضُهُمْ: الخاشِعينَ. وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ مُجْتَهِدٍ في العبادةِ هو المُخْبِتُ، ويُقالُ: المُخلِصينَ. وتفسيرُ المُخْبِتينَ[11] ما ذكرَ على إثْرِهِ حينَ[12] قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية. ومَنْ قالَ: المُخْبِتينَ[13] المُطْمَئِنِّينَ قالَ: والخَبْتَةُ الطُّمأنينةُ.

وقولُهُ[14] تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾ ومَنْسِكاً لُغَتانِ[15]. قالَ الكِسائيُّ: مَنْ قَرأَ مَنْسِكاً بكسرِ السينِ فهو مِنْ نَسَكَ يَنْسِكُ، ومَنْ قَرأَ مَنْسَكاً بالنصبِ فهو مِنْ نَسَكَ يَنْسُكُ[16].

ثم لا خِلافَ بَيْنَ أهلِ العِلْمِ في أنَّ البُدْنَ التي تُساقُ والهَدايا التي تُقَلَّدُ في الحجِّ لا يَجوزُ أنْ تُنْحَرَ في غيرِ الحَرَمِ، إنما اختَلَفوا في المُحْصِرِ إذا أرادا أنْ يَنْحَرَ، ويَذْبَحَ هَدْيَهُ الذي يَحِلُّ بهِ. وقد ذَكَرْنا أقاويلَهُمْ واختِلافَهُمْ في سورةِ البقرةِ[17] ولم يُخْتَلَفْ في أنَّ مَعْنَى قولِ اللهِ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يَدْخُلُ فيهِ الحَرَمُ كُلُّهُ على ما ذَكَرْنا وعلى [ما رَوَتِ][18] الأخبارُ.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فإنما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: يذكروا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: المخبت. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: المخبت. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٥) أدرج قبلها في الأصل وم: فيه. (١٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٨٠. (١٧) في تفسير الآية/ ١٩٦. (١٨) في الأصل وم: رويت.

رُوِيَ عَنْ جابِرِ بْنِ عبد اللهِ [أنهُ] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عَرَفَةُ، كُلُّها مَوقِفٌ، وكلُّ مِنًى مَنْحَرٌ، وكُلُّ فِجاجِ مكةَ طريقٌ ومَنْحَرٌ» [مسلم ١٢١٨/١٤٩].

وعَنْ عليٍّ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى الجَمْرَةَ، فَرَمَى بها، ثم أَتَى المَنْحَرَ، فقالَ: «هذا المَنْحَرُ، ومِنًى كلُّها مَنْحَرٌ» [مسلم ١٢١٨/١٤٩].

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: إنما المَنْحَرُ بمكةَ، ولكنها نُزِّهَتْ عنِ الدماءِ، ومِنًى بمكةَ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافَتْ، وفرِقَتْ خوفاً منهُ ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِنَ المَصائبِ والرَّزايا ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذهِ الآيةُ قد ذَكَرْنا تأويلَها في سورةِ الأنفالِ[2].

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ فَرائضِ اللهِ. وقالَ الحَسَنُ: مِنْ دينِ اللهِ والأشبَهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي مِنْ مَعالِمِ دينِ اللهِ وعِبادَتِهِ ونُسُكِهِ، لأنَّ الشعائرَ، هي المَعالِمُ في اللغةِ خُصَّتْ بها المَناسِكُ دونَ غَيرِها مِنَ العِباداتِ، فَجَعَلَها مَعالِمَ لها.

والبَدَنَةُ سُمِّيَتْ بَدَنَةً لِما تَعْظُمُ في نَفْسِها، وتَبْدُنُ. ويُقالُ للرجلِ إذا عَظُمَ في نَفْسِهِ: بَدُنَ فلانٌ.

وظاهِرُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «البَدَنَةُ تُجزِئُ عنْ سَبْعَةٍ والبَقَرَةُ تُجزِئُ عنْ سَبْعَةٍ» أنَّ البَدَنَةَ هي الجَزورُ والإبلُ حينَ[3] قالَ: «البَدَنَةُ تُجزِئُ عنْ سَبْعَةٍ [والبقرةُ تُجزِئُ عنْ سَبْعَةٍ» [بنحوه مسلم ١٢١٣/١٣٨] قَرَنَ][4] بينَ البَدَنَةِ والبَقَرَةِ بالذِّكْرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَنافِعُ الحاضِرَةُ مِنَ الركوبِ والحَلْبِ والحَمْلِ عليها بَعْدَما قُلِّدَتْ، وأُوجِبَتْ هَدْياً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ إلى أنْ تُقَلَّدَ، فإذا قُلِّدَتْ فَلَهُمُ الأجرُ في الآخِرَةِ، وكانَ هذا أشْبَهَ أنْ[5] يكونَ قولُهُ ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الأجرَ[6] في الآخرةِ، لأنَّ الانْتِفاعَ بها لا يَحِلُّ إلّا إذا أُوجِبَتْ بَدَنَةً إلّا في حالِ الاضْطِرارِ لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٢] وفي الانْتِفاعِ بها إحْلالُ شَعائرِهِ لذلكَ قالَ أصحابُنا: لا يُنْتَفَعُ بالبُدْنِ.

وما رُوِيَ عنهُ ﷺ «أنهُ رَأى رجلاً يَسوقُ بَدَنَةً، فقالَ لهُ: ارْكَبْها فقالَ: إنها بَدَنَةٌ يا رسولَ اللهِ، فقالَ النَّبِيُّ: ارْكَبْها، فقالَ: إنها بَدَنَةٌ، فقالَ: ارْكَبْها وَيحكَ» [البخاري ١٦٩٠] وفي بَعْضِ الأخبارِ: «وَيْلَكَ».

وهذا عندَنا لمّا رَأى بالرجلِ الحاجَةَ الشديدةَ إلى رُكوبِها، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ الانْتِفاعَ بالمُحَرَّماتِ يجوزُ في حالِ الاضْطِرارِ، ولا يَجوزُ في حالِ الاخْتِيارِ[7]؛ إذِ الانْتِفاعُ بالمُحَرَّماتِ يَجوزُ في حالِ الاضْطِرارِ. فَعَلَى ذلِكَ بالبُدْنِ التي جُعِلَتْ مَعالِمَ لِلْمَناسِكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ دلَّ هذا أنَّ ذِكْرَ اسْمِ اللهِ مِنْ شَرْطِ الذَّبيحةِ لأنهُ لم يَذْكُرِ الذَّبحَ بنفسِهِ، ولكنْ إنما ذَكَرَ اسْمَهُ. فَلَولا أنهمْ فَهِموا مِنْ ذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليها ذَبْحَها ونَحْرَها، وإلّا لم يَكْتَفِ بِذِكْرِ اسْمِهِ دون ذِكْرِ الذَّبْحِ. فَدَلَّ أنهمْ عَرَفوا ذلكَ بِهِ، وأنهُ مِنْ شَرْطِ [جَوازِ ذَبْحِها][8] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾ / ٣٤٩ ـ أ/ فيهِ لُغاتٌ ثلاثٌ: إحْداها: صَوافِيَ بالياءِ، وهو مِنَ الإخلاصِ للهِ والصَّفوِ للهِ. والثانيةُ[9]: صوافِنَ بالنونِ، وهو مِنْ عَقْلِ ثلاثِ قَوائِمَ منها وتَرْكِ واحدةٍ مُطْلَقَةٍ. والثالثةُ: صَوافًا بالتنوينِ أي قِياماً مُصْطَفَّةً[10]. وكانَ جميعُ ما ذُكِرَ يُرادُ أنْ يُجْمَعَ فيها مِنَ الإخلاصِ لهُ وعَقْلِ القَوائِمِ والقِيامِ. وكذلكَ جاءَتِ السُّنَّةُ والآثارُ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: صَوافِنَ بالنونِ. وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا. وظاهِرُ الآيةِ يَدُلُّ على القِيامِ لأنهُ قالَ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في تفسير الآيتين الثانية والثالثة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: فرق. (٥) في الأصل وم: أي.
(٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٧) من م، في الأصل: الاختيار. (٨) في الأصل وم: جوازها. (٩) من م، في الأصل: والثاني.
(١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٨١و/ ١٨٢.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سَقَطَتْ. والسقوطُ إنما يكونُ مِنَ القِيامِ. فَدَلَّ أنها تُنْحَرُ قِياماً لا مُضْطَجِعَةً، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى:][1] ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في قولِهِ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨] البائسُ الفقيرُ مَنْ سألَكَ. هذا قولُ بَعْضٍ. وقالَ بعضُهُمْ: البائسُ المَعْروفُ بالبؤسِ، والفَقيرُ المُتَعَفِّفُ الذي لا يَسْألُ. وقالَ بعضُهُمْ: البائسُ المسكينُ، والفَقيرُ فَقيرٌ. وقالَ بعضُهُمْ: البائسُ الضريرُ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿الْقَانِعَ﴾ الراضيَ، وهو مِنَ القناعةِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو السائلُ، وهو مِنَ القُنُوعِ ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يَعْتَريكَ، ولا يَسْألُ، والقانعُ: هو الجالسُ في بيتِهِ ونَحْوُهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: القانعُ السائلُ؛ يُقالُ: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنوعاً، ومِن الرِّضا قَنِعَ يَقْنَعُ قناعةً ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يَعْتَريكَ، ولا يَسْألُ. يُقالُ: [عَرَّني، واعْتَرَّني][3].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: القانعُ السائلُ، والقُنُوعُ السُّؤالُ، والقَناعَةُ مِنَ الرِّضا؛ يُقالُ منهُ: قَنِعَ يَقْنَعُ قَناعةً، ويقولُ: أقْنَعْتُهُ[4] أي أرضَيتُهُ، وقَنَّعْتُهُ أي غَطَّيْتُ رأسَهُ بالقِناعِ ونَحْوُهُ. ؛ ويُقالُ مِنَ المُعْتَرِّ: اعْتَرَّ اعْتِراراً وعَرَّ عَرًّا، وكلُّها واحدةٌ.

وقالَ: ﴿صَوَافَّ﴾ أي قِياماً مُصْطَفَّةً. وقالَ: ويكونُ: صَوافِنَ [وصَوافِيَ أي قِياماً][5] على ثلاثِ قَوائِمَ؛ يُقالُ: صَفَنَ الفرسُ يَصْفِنُ صُفوناً إذا قامَ على ثلاثِ قوائِمَ.

وقولُهُ: ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سَقَطَتْ إلى الأرضِ. يُقالُ: وَجَبَ يَجِبُ وُجوباً فهو واجبٌ إذا سَقَطَ، ووَجَبَتِ الشمسُ إذا غابَتْ. وهذا كلُّهُ مِنَ الصوتِ؛ يُقالُ: سَمِعْتَ وَجْبَتَهُ أي [صَوتَ سَقْطَتِهِ][6].

وقالَ: ﴿مَنسَكًا﴾ أي مَوضِعاً يَنْسُكونَ إليهِ لِلعبادةِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][7] قالَ: القانعُ الذي يَقْنَعُ بما أعْطَيْتَهُ، والمُعْتَرُّ الذي يُريكَ نفسَهُ، ولا يَسْألُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي البُدْنَ التي ذَكَرْناها. ثم يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِهِ إيَّاها لنا وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي كما سَخَّرْناها لكُمْ لركوبِها والحَمْلِ عليها وأنواعِ الانْتِفاعِ بها في حالِ الحياةِ.

[والثاني][8]: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي مثلَ الذي وصَفْتُهُ لكُمْ كلُّ ذلكَ مِنْ تَسْخيرِنا[9] إيّاها لكُمْ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لَنْ يَقْبَلَ اللهُ تِلْكَ[10] إلا مِمَّنْ كانَ مِنْ أهلِ التَّقْوَى، ولا يَقْبَلُها مِنْ أهلِ الكُفْرِ لأنهمْ كانوا يَنْحَرونَ البُدْنَ في الجاهليةِ على ما ذَكَرْنا. فأخبَرَ أنهُ لا يَقْبَلُ ذلكَ إلّا مِمَّنْ كانَ مِنْ أهلِ التَّقْوَى. وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ﴾ أي لَنْ يُرْفَعَ إلى اللهِ إلّا الأعمالُ الصالحةُ الزاكِيَةُ وما كانَ بالتَّقْوَى. وأمّا ما كانَ [بِغَيرِ التَّقْوَى فلا][11] يُرفَعُ، ولا يُصْعَدُ بها. وهو ما قالَ: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ذَكَرَ هذا لأنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا إذا نَحَروا البُدْنَ نَضَحوا بِدِمائِها حَولَ البيتِ، ويقولونَ: هذا قُرْبَةٌ إلى اللهِ. فأرادَ المُسْلِمونَ أنْ يَصْنَعوا صنيعَهُمْ. فنَزَلَ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾: قد ذَكَرْنا ما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: اعتراني وعرني واعتراني. (٤) في الأصل وم: قنعته. (٥) في الأصل وم: وصوافن أي قائماً. (٦) في الأصل وم: صوتا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تسخيرها. (١٠) في الأصل وم: ذلك. (١١) في الأصل: بالتقوى لا، في م: غيرها لا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:][1] أي لِتَصِفُوا اللهَ بالعظمةِ والكِبْرِياءِ على ما هداكُمْ مِنْ أسبابِ تَسخيرِ البُدْنِ التي بها يُوصَلُ إلى الاِنْتِفاعِ؛ إذْ لولا ما هدانا اللهُ، وعَلَّمَنا مِنَ الأسبابِ التي بها تُسَخَّرُ، وتُذَلَّلُ، وإلّا ما قَدَرْنا على الاِنْتِفاعِ بها لِقُوَّتِها وشِدَّتِها وصَلابَتِها.

والثاني: بأنْ يكونَ[2] قولُهُ: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ منْ أمْرِ الدينِ والهُدَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ على وجوهٍ:

أحَدُها: المُحْسِنونَ[3] إلى انفسِهِمْ،

[والثاني: المُحْسِنونَ][4] إلى إخوانِهِمْ.

[والثالثُ:][5] الذينَ حَسُنَتْ أفعالُهُمْ، وصَلُحَ عَمَلُهُمْ [فأمّا المحسنونَ][6] إلى اللهِ فلا يُحْتَمَلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي بعضِ القراءاتِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ يَدْفَعُ ﴿عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[7] [بغيرِ الفٍ][8].

وتأويلُ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يَدْفَعُ عنِ الذينَ آمَنوا جميعَ شُرورِ الكَفَرَةِ وأذاهُمْ. وتأويلُ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يُدافِعُ الكفارَ عنهُمْ بِنَصْرِ المؤمنينَ عليهِمْ.

وكانَ قولُهُ[9]: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إنما نزلَ بمكةَ وَعْداً[10] للذينَ آمَنوا هنالكَ النَّصْرَ والدفعَ عنهمْ في حالِ قِلَّتِهِمْ وضَعْفِهِمْ وكَثْرَةِ أولئكَ الكَفَرَةِ وقُوَّتِهِمْ، وهنالكَ كانوا كذلكَ؛ أعني بمكةَ قليلاً ضُعفاءَ، ويكونُ نزولُ قولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ بالمدينةِ، لأنهُ هنالكَ كانَ أهلُ الخيانةِ، لأنهمْ كانوا أهلَ كتابِ ائْتُمِنوا على رسالةِ محمدٍ وأتباعِهِ، فَخانوهُمْ، وكَتَموها، ولم يكُنْ يومئذٍ بمكةَ أحدٌ منهُمْ، إنما كانوا جميعاً أهلَ شِرْكٍ.

فَيُشبِهُ أنْ [يكونَ ما ذَكَرْنا، أو][11] يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ بإزاءِ ما قالتِ ﴿الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] فأخبَرَ أنهُ ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ على ما يقولونَ[12]، بل يُبْغِضُهُمْ.

وفيهِ إثباتُ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ [أنَّ اللهَ يَنْصُرُ المؤمنينَ][13] ويدفعُ عنهمْ [أذى الكَفَرَةِ][14] وشَرَّهُمْ، وأنهمْ خَوَنَةٌ. فكانَ على ما أخبَرَ. فَدَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ المشركينَ كانوا لا يَزالونَ يُؤذونَ أصحابَ رسولِ اللهِ، ويُقاتِلونَهُمْ، وهُمْ لم يُؤْمَروا بِقتالِهِمْ بَعْدُ. فلمّا هاجَروا إلى المدينةِ أُمِروا بِقِتالِهِمْ [بقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهُ لم يكُنْ لهمُ الأمْرُ بِقِتالِهِمْ][15] ولا الإذنُ حتى أُمِروا بذلكَ، وأُذِنوا، فقالَ أولئكَ: لم تُؤْمَروا بِقِتالِنا، فكيفَ تُقاتِلونَنا؟ فأخبَرَ انهمْ أُذِنوا، وأُمِروا بالقِتالِ مَعَهُمْ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وظاهِرُهُ أنهُ كانَ هنالكَ مَنْعٌ عنِ القِتالِ حتى أُذِنوا، وأُمِروا. ولكنْ لا نَدْري لأيةِ جِهَةٍ كانَ ذلكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ظاهرٌ على ما أخبَرَ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: أخرَجَ الكفارُ أصحابَ رسولِ اللهِ مِنْ مكةَ بِغَيرِ حقٍّ بأنْ قالوا: رَبُّنا اللهُ، وآمَنوا بهِ، ووَحَّدوهُ. لهذا[16] أخرجوهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: يكونوا. (٣) في الأصل وم: محسنين. (٤) في الأصل وم: أو المحسنين. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل: فإن المحسنين، في م: فأما المحسنين. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٨٤. (٨) من م، في الأصل: جميع. (٩) من م، في الأصل: قولهم. (١٠) في الأصل وم: وعد. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: يقول. (١٣) في الأصل وم: أنه ينصرهم. (١٤) في الأصل وم: أذاهم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ما.

وقالَ بعضُهُمْ: على التقديمِ والتأخيرِ؛ يقولُ: كأنهُ قالَ: أُذِنَ للذينَ ظُلِموا، وأُخرِجوا مِنْ ديارِهِمْ بِغَيرِ حقٍّ، أنْ يُقاتِلوهُمْ إلّا أنْ يَقولوا ربُّنا اللهُ. فإذا قالوا ذلكَ يُرْفَعُ عنهمُ القِتالُ لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا لا يُقِرّونَ [بِوَحدانِيَّةِ اللهِ، ويُشرِكونَ][1] بهِ فإذا قالوا ذلكَ، وأقرّوا أنهُ ربُّهُم رُفِعَ عنهمُ القِتالُ. وأمّا مَنْ يُقِرُّ بِهِ، ويُصَدِّقُهُ، لكنهُ يُنْكِرُ رسالةَ محمدٍ ونُبُوَّتَهُ، فَمَنْ[2] لم يُقِرَّ بها، ولا يُصَدِّقُ بها، فإنَّ القِتالَ لا يُرْفَعُ عنه[3]، ومنْ يُقِرُّ بهِ ويُصَدِّقُهُ بأنهُ رسولُهُ، إلّا أنهُ يُنْكِرُ الشَّرائعَ فإنهُ يُقاتَلُ حتى يُقِرَّ بها، ويُصَدِّقَ بها. فإذا أقرَّ بها رُفِعَ عنهُ[4] القتالُ.

وذلكَ كلُّهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يَقولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ. فإذا قالوها عَصَموا مني دِماءَهُمْ وأموالَهُمْ إلّا بِحَقِّها» [البخاري ٢٥].

وفي خَبَرٍ آخَرَ: [«حتى][5] يقولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ. فإذا قالوا ذلكَ عَصَموا مني كذا».

وفي خَبَرٍ آخَرَ: «حتى يَقولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ. وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ» [البخاري ٢٥] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

فالأوَّلُ [في الذينَ][6] لا يُقِرّونَ بِوَحدانيَّةِ اللهِ. فإذا أقَرّوا بهِ/ ٣٤٩ ـ ب/ رُفِعَ عنهُمُ القِتالُ.

والثاني: في الذينَ يُقِرّونَ بهِ، ولا يؤمِنونَ بالرسالةِ. فإذا آمَنوا بها رُفِعَ عنهُمُ القِتالُ.

والثالثُ: في الذينَ يُقِرّونَ باللهِ، ويؤمِنونَ برسولِهِ، لكنهُمْ يُنْكِرونَ الشرائعَ. فإذا أقَرّوا بها رُفِعَ عنهُمُ القِتالُ.

كانوا أنواعاً ثلاثةً على ما ذَكَرْنا، فجاءَ في كلِّ فريقٍ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ كقولِهِ[7] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وكقولِهِ[8] في موضعٍ آخَرَ: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١] ونَحْوُهُ.

قالَ بعضُهُمْ: دَفَعَ بالنَّبِيِّينَ عَنِ المؤمنينَ، ودَفَعَ بالمُجاهِدينَ عَنِ القاعِدينَ ما لو لم يَدْفَعْ لَهُدِّمَتْ كذا وما ذَكَرَ، أي دَفَعَ بالأخيارِ عَنِ الأشرارِ وبالأخيَرِ عَنِ الأدْوَنِ، وإلّا لَهُدِّمَتْ، وفَسَدَ ما ذَكَرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لو لا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يُصَلّي عَمَّنْ لا يُصَلّي وبِمَنْ يَصومُ عَمَّنْ لا يَصومُ وبِمَنْ يَحُجُّ عَمَّنْ لا يَحُجُّ، وبِمَنْ يُزَكّي عَمَّنْ لا يُزَكّي وبِمَنْ يَفْعَلُ الخَيراتِ عَمَّنْ لا يَفْعَلُ وإلّا لَفَسَدَتِ الأرضُ ولَهُدِّمَتِ الصَّوامِعُ وما ذَكَرَ.

وعلى ذلكَ عنْ أبي الدَّرْداءِ ﷺ أنهُ صلّى بأهلِ دمشقَ صلاةَ الصبحِ، فقالَ: لو يَعْلَمُ الناسُ [ما][9] في هذهِ الصلاةِ مِنَ الخَيرِ لَحَضَروها. ثم قالَ: لولا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَحْضُرُ المَساجِدَ عَمَّنْ لا يَحْضُرُها، وبالغُزاةِ عَمَّنْ لا يَغْزو لَجاءَهُمُ العذابُ قُبُلاً، أو كلاماً[10] نحوَ هذا.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ [في][11] الصوامعِ والبِيَعِ والكَنائسِ مِنَ الرُّهْبانِ والأحْبارِ [مَنْ][12] يَتَمَسَّكُ بالإسلامِ وشرائِعِهِ، فَيَدْفَعُ بهمْ عَمَّنْ لا يَتَمَسَّكُ منهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: لولا دَفْعُ اللهِ بأهلِ هذا الدينِ كُلِّهِمْ[13] لكانَ كذا. وقالَ بعضُهُمْ: دَفَعَ بالمُسْلِمينَ عنْ مَسْجِدِهِمْ وبالنَّصارَى عَنْ بِيَعَتِهِمْ وباليهودِ عَنْ كَنيسَتِهِمْ. إلى هذا ذَهَبَ أهلُ التأويلِ والمُتَقَدِّمونَ.

ولو قيلَ غَيرُ هذا كانَ أشْبَهَ وأقْرَبَ؛ وهو أنَّ اللهَ خَلَقَ هذا الخَلْقَ، وجَعَلَ[14] بعضَهُمْ عَوناً لِبَعْضٍ وَرِدْأً في أمْرِ المَعاشِ والدينِ جميعاً، وجَعَلَ بعضَهُمْ مَنافِعَ مُتَّصِلَةً بِبَعْضٍ لِما[15] لو كَلَّفَ كُلّاً القِيامَ بنفسِهِ لَهَلَكوا، ولم يَكُنْ في وُسْعِهِمْ

---

(١) في الأصل وم: بالله ولا يؤمنون. (٢) في الأصل وم: فما. (٣) في الأصل وم: عنهم. (٤) في الأصل وم: عنهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: للذين. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: كلام.
(١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: كلها. (١٤) في الأصل وم: وقال. (١٥) في الأصل وم: ما.

القيامُ بذلكَ، نَحوَ أنْ لم يُكلِّفْ أحداً القيامَ بجميعِ ما يَحتاجُ إليهِ مِنَ الحراثةِ والزراعةِ والحَصادِ والدِّراسِ والتَّذريةِ والطَّحنِ والخَبزِ وغَيرِها لِما[١] لو كُلِّفَ بنفسِهِ بذلكَ كلِّهِ لَهَلَكَ. ولكنْ جَعَلَ بَعضَهُمْ عَوناً لِبَعْضٍ ورِدْأً [في الِانْتِفاعِ][٢] بعضِهِمْ بِبَعْضٍ.

وكذلكَ الغَزْلُ والنَّسْجُ والخِياطَةُ والقَطْعُ والغَسْلُ كلُّهُ على هذا القِياسِ لِما[٣] لو كُلِّفَ [كُلٌّ][٤] بنفسهِ القِيامَ بذلكَ كلِّهِ لَهَلَكوا، ولو هَلَكوا هَلَكَ ما لَهُمْ خَلَقَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما سَخَّرَ لَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: دَفَع بما يَذْكُرُ أهلُ المساجدِ في المساجدِ مِنْ أسماءِ[٥] اللهِ عنْ أهلِ الصَّوامِعِ والبِيَعِ والكنائسِ، وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ.

ثم اخْتُلِفَ في ما ذَكَرَ مِنَ الصَّوامِعِ والبِيَعِ والصَّلَواتِ. قالَ بعضُهُمْ: الصَّوامِعُ لِلرّاهِبينَ، والبِيَعُ لِلنصارى، والصَّلَواتُ لِلْكَنائسِ التي تكونُ لِلْيَهودِ، والمَساجِدُ لِلْمُسْلِمينَ. وقالَ بعضُهُمْ: الصَّلَواتُ لِلصّابِئينَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الصَّوامِعُ لِلصّابِئينَ، والبِيَعُ لِلنَّصارى، والصَّلَواتُ[٦] بيوتُ صَلَواتِ اليَهودِ، والمساجِدُ للمسلِمينَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الصَّوامِعُ لِلرَّهبانِيَّةِ، والبِيَعُ لِلنَّصارى ومُصَلّاهُمْ، والصَّلَواتُ لِلْيَهودِ، وهي شِبْهُ البِيعَةِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [أي مَنْ نَصَرَ][٧] أولياءَ اللهِ نَصَرَهُ. وقالَ الحَسَنُ: مِنْ حِكَمِهِ: أنَّ مَنْ نَصَرَ[٨] اللهَ نَصَرَهُ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَقَوِيٌّ﴾ لِنَصْرِ أوليائِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾ لِانتقامِ أعدائِهِ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَوِيّاً[٩] يضعُفُ كلُّ قويٍّ مِن دونِهِ عندَ قواهُ [وعَزيزاً][١٠] يذلُّ كلُّ عَزيزٍ، أو قَوِيّاً[١١]، لا قويَّ سِواهُ، عَزيزاً[١٢] لا عزيزَ سِواهُ.

وفي [قولِهِ تعالى][١٣]: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ و ما ذَكَرَ دلالةُ تَرْكِ هَدْمِ الكنائسِ و البِيَعِ و ما ذَكَر، و النَّهْيِ عن هَدْمِها لأنهُ ذَكَرَ الصَّوامِعَ و البِيَعَ. و على ذلكَ تُرِكَتِ الكنائسُ و البِيَعُ في أمصارِ المُسلِمينَ لم تُهَدَّمْ. ولا خِلافَ بَيْنَ أهلِ العِلْمِ في ذلكَ، وإنما يَمنَعونَ عن إحداثِ البِيَعِ والكَنائسِ في أمصارِ المُسْلِمينَ وقُراهُمْ. وأمّا العَتيقَةُ منها فإنهمْ يَتْرُكونَ ذلكَ[١٤]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى آخِرِهِ. قالَ بعضُهُمْ: هذا نَعْتٌ مِنَ اللهِ ﷻ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ومَنْ تَبِعَهُ، ومَدْحٌ لهمْ بالدوامِ على دينِ اللهِ الذي[١٥] قَبِلوهُ، وأخَذوهُ في حالِ الخَوفِ، بَعْدَما مَكَّنَ لهمْ في الأرضِ، وأمَّنَهُمْ مِنْ ذلكَ الخَوفِ الذي كانَ في الِابْتِداءِ. وأخبَرَ أنهمْ داموا على ذلكَ، ولم يَتْرُكوا ما كانوا عليهِ، بل زادَ لَهُمْ حِرْصاً على ذلكَ وجُهْداً.

وكذلكَ الآيةُ التي ذَكَرَ في سورةِ النورِ، وهو قولُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [٥٥].

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو يَرُدُّ على الرَّوافِضِ قَولَهُمْ ومَذْهَبَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: إنهُ لَمّا وُلِّيَ أبو بَكْرٍ ارْتَدّوا جميعاً، وتَركوا الدينَ الذي اختاروهُ. فالآيتانِ تَدُلّانِ على نَقْضِ قولِهِمْ: إنهمُ ارْتَدُّوا لأنَّ اللهَ ﷻ أخبَرَ أنهُ مُمَكِّنٌ لهمْ في الأرضِ، واستَخْلَفَهُمْ، ووَعَدَ لهمُ الجنةَ. وإنما ارْتَدَّ مَنْ كانَ إسلامُهُ بالقَهْرِ والغَلَبَةِ، فإذا مَكَّنَ لهمْ تَرَكوا ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: والانتفاع. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: اسم. (٦) في الأصل وم: وصلوات. (٧) في الأصل: أو من نصر، في م: أو من. (٨) في الأصل وم: نصره. (٩) في الأصل وم: أي قوي فيضعف. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: قوي. (١٢) في الأصل وم: عزيز. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وذلك. (١٥) في الأصل وم: الذين.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيةَ، وإنْ كانَ ظاهرُها خبراً فهيَ في الحقيقةِ أمْرٌ: أنِ افْعَلوا كذا إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. وهو كقولِهِ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٧]][1].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي ترجِعُ إليهِ الأمورُ في الآخِرةِ كقولِهِ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وجائزٌ أنْ تكونَ عاقِبةُ الأمورِ لأوليائِهِ مِنَ النَّصْرِ والقَهْرِ على أعدائِهِ. فالمُرادُ بالإضافةِ إليهِ أولياؤُهُ كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي إنْ تَنصُروا أولياءَهُ، أو تَنصُروا دينَهُ يَنصُرْكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٤٢ و٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ [وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾][2].

هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: وإنْ يُكَذِّبوكَ في ما أخبَرْتَ لهمْ، وذَكَرْتَ مِنَ التَّمْكينِ والثُّبوتِ على الدينِ، وَوَعَدْتَ لهمُ الجنةَ، فقد كَذَّبَتِ[3] الأممُ الذينَ مِنْ قبلِكَ رُسُلَهُمْ إذا أخبَروا لهمْ بشيءٍ، أو وَعَدوا لهمْ بِنَصْرٍ أو نَحْوِهِ.

والثاني[4]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في الرسالةِ وفي ما تُخْبِرُ عنِ اللهِ مِنَ الأخبارِ، يُصَبِّرُ رسولَهُ: لَسْتَ أنتَ بأوّلَ مُكَذَّبٍ في الخَلْقِ، ولكنْ قد كَذَّبَ الأقوامُ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكَ رسلَهُمْ في الرسالةِ. وهو ما قالَ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ الآية [هود: ١٢٠].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي لم يُعاقِبِ اللهُ قوماً كَذَّبوا رسلَهُمْ وقتَ تكذيبِهِمُ الرسلَ، بل أمْهَلَهُمْ حتى اغتَرّوا بِتأخيرِ العذابِ عنهُمْ، وزادوا[5] لهمْ تكذيباً وعِناداً. فَعِنْدَ ذلكَ أُخِذوا، وعُوقِبوا بالتكذيبِ، وهو ما أخْبَرَ عنهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

قالَ الحَسَنُ: إنَّ اللهَ لم يُهْلِكْ قوماً بأوّلِ التكذيبِ، ولكنْ أمْهَلَهُمْ قَرْناً فقَرْناً وقوماً بَعْدَ قومٍ ورسولاً بَعْدَ رسولٍ، فَعِنْدَ ذلكَ إذا عَلِمَ منهُمْ أنهمْ لا يُؤمِنونَ أهْلَكَهُمْ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ في الأزلِ مَنْ يُؤمِنُ منهُمْ ومَنْ لا يُؤمِنُ؛ حتى يَعْلَمَ عِلْمَ ظهورٍ وعِلْمَ ابتلاءٍ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ. وهو كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد: ٣١] عِلْمَ[6] ظهورٍ في الخَلْقِ/ ٣٥٠ ـ أ/ وإنْ كانَ يَعْلَمُ عِلْمَ باطنٍ وخَفِيٍّ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ لم يُهْلِكِ اللهُ ﷻ أهلَ قَرْيَةٍ إهلاكَ استِئْصالٍ وتَعْذيبٍ إلّا بَعْدَ عِنادِ أهلِها وظُلْمِ شِرْكٍ كقولِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] وكقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [هود: ١١٧] وأمثالُهُ كثيرةٌ[7].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [قالَ بعضُهُمْ][8]: فإذا ذهبتِ السُّقُفُ وبَقِيَتِ[9] الحيطانُ ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وقالَ بعضُهُمْ: خاويةٌ: خَرِبةٌ ساقطةٌ حيطانُها على سُقوفِها.

وقالَ الحَسَنُ: العريشُ: كلُّ ما ارْتَفَعَ مِنَ الأرضِ، وعَلا؛ يُقالُ: عَرْشٌ، وعُروشٌ جميعٌ. وهكذا كانَ ما أهْلَكَ اللهُ مِنَ القُرى: منها ما أهْلَكَ أهْلَها، وتَرَكَ القُرى والبُنْيانَ على حالِها لأوليائِها؛ مِنْ ذلكَ فِرْعَونُ [وقومُهُ وغيرُهُمْ][10] مِنَ الأقوامِ، ومنها ما أهلكَ القُرى بأهْلِها، لم يَتْرُكْ منها شيئاً مِنْ نَحْوِ قُرَياتِ لوطٍ وثمودَ وعادٍ وغيرِها[11].

وقالَ بعضُهُمْ: العُروشُ[12] هي أجزامُ الشجرِ، وكأنَّها أساطينُها[13]. وأصلُ الخاويةِ خَلاؤُها عنِ الأهلِ[14].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عَطَّلَها أهلُها، ليسَ بها أحَدٌ. لا أنَّها خُرِّبَتْ على [ما][15] ذَكَرْنا مِنْ إهلاكِ أهلِها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الآية. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: لهم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وزاد.
(٦) في الأصل وم: على. (٧) في الأصل وم: كثير. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بقية. (١٠) في الأصل وم: وقوله وغيره.
(١١) في الأصل وم: وهؤلاء. (١٢) في الأصل وم: والعرش. (١٣) في الأصل وم: اسطوانته. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وكذلك.
(١٥) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَّشِيدٍ﴾ مُجَصَّصٍ، والشِّيدُ الجِصُّ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَّشِيدٍ﴾ مُرْتفعٍ، والمُشَيَّدُ بالتَّشديدِ المُطَوَّلُ المُرْتَفِعُ.

قالَ القُتَبِيُّ: المَشيدُ المَبْنِيُّ بالشِّيدِ، وهو الجِصُّ، والمُشَيَّدُ المُطَوَّلُ، ويُقالُ: هما سَواءٌ، وهو مُطَوَّلٌ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ أو قريباً [منهُ][1].

وكأنهُ ذَكَرَ هذا لأهلِ مكَّةَ لِوَجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ كانَتْ لهمْ قريةٌ، فيها قصورٌ مُشَيَّدَةٌ مُحصَّنَةٌ، يَتَحصَّنونَ بها. يُخبِرُ أنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ أشَدَّ قُوَّةً وأكثَرَ حِصناً وقُصوراً. فلما كَذَّبوا رسلَهُمْ لم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، ولكنْ نَزَلَ بهمُ العذابُ. فَعَلَى ذلِكَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ إذا كَذَّبْتُمْ رسولَكُمْ يَنزِلُ بِكُمْ مِثْلُ ما نَزَلَ بأولئكَ.

[والثاني][2]: أنْ يكونوا آمِنينَ فيها مُطمئِنِّينَ. فقالَ: إنَّ أولئكَ قد كانوا آمِنينَ مُطْمَئنِّينَ في قراهُمْ كأمْنِكُمْ، ثم نَزَلَ بهمْ ما نَزَلَ. فأنتمْ وإنْ كُنتُمْ آمنين فَسَيَنْزِلُ بكمْ ما نَزَلَ بأولئكَ. وهو ما قالَ ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل: ١١٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هَلَّا ساروا في الأرضِ؟ ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ فَيَنْظُروا لِيَعْرِفوا ما حَلَّ بأولئكَ بالتكذيبِ، فَيَمْتَنِعوا[3] عنهُ ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي [أفلَمْ][4] يسيروا فَيَسْتَمعوا إلى الأخبارِ التي[5] فيها ذِكْرُ هلاكِهِمْ وما نَزَلَ بهمْ بالتَّكْذيبِ والعِنادِ؟ لأنَّ ما حَلَّ بالأوَّلينَ إنما يُعْرَفُ[6] بأحدِ أمْرَينِ: إمّا بالمُعايَنَةِ بالنَّظَرِ إليهمْ وإمّا بالسماعِ مِنَ الأخبارِ.

[ويَحْتَمِلُ][7] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قد ساروا في الأرضِ لكنْ لم تَكُنْ لهمْ قُلوبٌ وعقولٌ[8] أو أفهامٌ يَعْقِلونَ بها ما نَزَلَ بأولئكَ بالتَّكْذيبِ فَيَعْتَبِروا بذلكَ، ولا كانَتْ لهم آذانٌ يَسْمَعونَ [بها][9] ما حَلَّ بهمْ. أي كانَتْ لهمْ عقولٌ، يَعْقِلونَ بها لو نَظَروا حَقَّ النَّظَرِ، وآذانٌ يَسْمَعونَ بها لو سَمِعوا حَقَّ السَّماعِ، لكنهُمْ لم[10] يَنْتَفِعوا بعقولِهِمْ وأسْماعِهِمْ.

نَفَى ذلكَ عنهُمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الظاهِرةُ ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وهو ما نَفَى عنهمُ السَّمْعَ والبَصَرَ لِتَرْكِهِمُ الانتِفاعَ بها [كقولِهِ][11]: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨و١٧١].

وقالَ بعضُهُمْ: هذهِ الآيةُ في شأنِ عبدِ اللهِ بْنِ زائدةَ بْنِ مَكْتُومِ الأعْمَى. مَعْناهُ: أنَّ العَمَى عَمَى القَلْبِ ليسَ عَمَى البَصَرِ، وهو كانَ [أعْمَى][12] البصرِ لا أعْمَى القَلْبِ. هذا مَعْناهُ إنْ ثَبَتَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي لَنْ يُخْلِفَ اللهُ وعْدَهُ الذي وَعَدَ في نزولِ العذابِ، أي يَنْزِلُ بهمْ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتَأخَّرُ عنْ ميعادِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ نَحْوُ ابْنِ عباسٍ والضَّحّاكِ ومجاهِدٍ وغَيرِهِمْ[13]: إنها هي الأيامُ التي خَلَقَ اللهُ فيها الدنيا، وجَعَلَها أجَلاً لها؛ يُعَدُّ كلُّ يومٍ مِنْ تلكَ الأيامِ كألْفِ سَنَةٍ. إلى هذا صَرَفَ عامّةُ أهلِ التأويلِ، فلا نَعْلَمُ لِذلكَ[14] وجهاً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ مِنْ عَذابِهِمْ في الآخِرَةِ ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا؛ اليومُ الواحدُ ألْفُ سَنَةٍ. وَوَجْهُ هذا أنَّ الوقْتَ القصيرَ القليلَ يَجوزُ أنْ يَصيرَ مَديداً طويلاً لِشِدَّةِ العَذابِ والبَلاءِ نَحْوَ ما قِيلَ لَهُمْ: ﴿كَم

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: فيمتنعون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل: هم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لما. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: وهؤلاء. (١٤) في الأصل وم: ذلك.

لَبِثۡتُمۡ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ [الكهف: ١٩] قَصَّروا[1] مقامَهُمْ في الدنيا لِشِدَّةِ ما عايَنوا مِنَ العَذابِ. فَعَلَى ذلِكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا لا لِلتَّوقيتِ والمُدَّةِ، إذِ الآخِرَةُ، مِمّا لا غايَةَ لِانْتِهائِهِ. وكلُّ شيءٍ لا غايَةَ لِانْتِهائِهِ، فَذِكْرُ الوقْتِ لَهُ[2] يُخرَّجُ مُخرَجَ التمثيلِ لا التوقيتِ كقولِهِ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١]. وقولِهِ[3]: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ليسَ على التَّحديدِ لها والتَّوقيتِ، ولكنْ على ما خَرَجَ عنِ الأوهامِ ذِكْرَ ذلكَ، ومَثَّلَها بِهِ. فَعَلَى ذلِكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾: ﴿أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾: لم آخُذْها وقتَ [ظُلْمِ أهلِها][4] ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾ مِنْ بَعْدُ ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ هو ظاهِرٌ، قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لِذُنوبِهِمْ ومَعاصيهِمْ ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ رِزقاً كَريماً لأنَّ مَنْ رُزِقَ ذلكَ، وأُعطِيَ، يُكَرَّمُ، ويُعَظَّمُ قَدْرُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ كريماً لأنَّ الكريمَ هو الذي تُقْضَى عندَهُ الحوائجُ والحاجاتُ. فَعَلَى ذلِكَ هذا الرزقُ؛ مَنْ نالَهُ، وأصابَ، قُضِيَتْ عندَهُ الحَوائجُ. لذلكَ سُمِّيَ كريماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ في بَعْضِ القراءاتِ: مُعْجِزينَ[5]. قالَ بعضُهُمْ: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُثَبِّطينَ مُبَطِّئينَ؛ يُبَطِّئونَ الناسَ عنِ اتِّباعِ الشيءِ.

والأشْبَهُ عندَنا أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ سابِقينَ فائتينَ، لكنَّهُ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ على ظَنٍّ منهُمْ أنَّهُمْ سابِقونَ فائتونَ عَنْ عذابِهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي تَلا ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ قيلَ: في تلاوَتِهِ وقراءَتِهِ الآيةَ.

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي تَلا في صلاتِهِ، أو حَدَّثَ نفسَهُ، ألْقَى الشيطانُ على لسانِهِ عندَ تِلاوَتِهِ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] حتى إذا انْتَهَى إلى قولِهِ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩و٢٠]. [قالَ:][6] تلكَ الغَرانيقُ العُلا، شفاعَتُهُنَّ تُرْجَى. وذَكَروا[7] أنهُ أتاهُ على صورةِ جبريلَ ﵇ فألْقَى عليهِ ما ذَكَروا.

ثم أتاهُ جبريلُ ﵇ فأخبَرَهُ النَّبِيُّ بذلكَ، فقالَ: لَهُ: إنهُ لم يُنْزِلْ عليهِ قَطُّ شيئاً مِثْلَهُ. وأمثالَ هذا قالوا. لكنهُ لو كانَ ما ذَكَرَ هؤلاءِ كيفَ عَرَفَهُ في المَرَّةِ الثانيةِ أنهُ جبريلُ؟ وأنهُ ليسَ بشيطانٍ؟ ولا يُؤْمَنُ أنْ يُلْبَسَ عليهِ في وقتٍ آخَرَ في أمثالِهِ.

وقالَ قتادةُ: إنهُ ﷺ كانَ يَتَمَنَّى أنْ يَذْكُرَ اللهُ آلهتَهُمْ بِعَيبٍ. فلما قَرَأَ تلكَ الآيتَينِ[8]: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩و٢٠] قالَ: إنهنَّ الغَرانيقُ العُلا، وإنَّ شفاعَتَهُنَّ تُرْجَى عندَهُمْ. يعني بِهِ عندَ أُولئكَ الكَفَرَةِ، وهُمْ على ذلكَ كانوا يَعْبُدونَها.

وقالَ الحَسَنُ: إنهُ أرادَ بقولِهِ: تلكَ الغَرانيقُ العُلا، وشفاعَتُهُنَّ تُرْتَجَى، الملائكةَ، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ رَجاءَ أنْ يَشْفَعوا/ ٣٥٠ ـ ب/ لهمْ يومَ القيامةِ، فأخبَرَ أنَّ شَفاعةَ الملائكةِ تُرْجَى. وهذانِ التأويلانِ أشبَهُ مِنَ الأوّلِ.

والأشْبَهُ عندَنا أنْ يكونَ على غَيرِ هذا الذي قالوا، وهو أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ

---

(١) في الأصل وم: قصر. (٢) في الأصل وم: لم. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: ظلمهم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/١٩١. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتذكروا. (٨) في الأصل وم: الآية.

﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي عندَ تِلاوَتِهِ القرآنَ في قلوبِ الكَفَرَةِ ما يُجادِلونَ بِهِ رسولَ اللهِ، ويُحاجّونَهُ، فَيُشَبِّهونَ بذلكَ على الأتباعِ لِيَتَّبِعوهُمْ. وهو نَحْوُ قولِهِمْ: إنهُ يُحَرِّمُ ما ذَبَحَهُ اللهُ، ويُحِلُّ ما ذَبَحَ هو بِنَفْسِهِ، ونَحْوُ قولِهِمْ عندَ نزولِ قولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: إنَّ[1] عيسى وعزيراً والملائكةَ عُبِدُوا دونَ الملائكةِ، فهمْ حَصَبُ جَهَنَّمَ إذَنْ، ونَحْوُ صَرْفِهِمْ قولَهُ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١و٢] إلى حسابِ الجُمَّلِ، وأمثالُ هذا ممّا حاجُّوا رسولَ اللهِ، وجادَلُوهُ بِهِ. فأخبَرَ أنهُ يَنْسَخُ مُجادَلَتَهُمْ ومُحاجَّتَهُمْ رسولَهُ، وأنهُ يُحْكِمُ آياتِهِ: حينَ[2] قالَ عندَ قولِهِمْ: إنهُ يُحِلُّ ذَبيحَ نفسِهِ، ويُحَرِّمُ ذَبيحَ اللهِ. فَبَيَّنَ أنهُ بِمَ حَرَّمَ هذا؟ وبِمَ أحَلَّ الآخَرَ؟ وهو قولُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] ولكنْ كُلُوا ممّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليهِ. فَبَيَّنَ أنهُ إنما أحَلَّ هذا بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليهِ، وحَرَّمَ الآخَرَ بِتَرْكِ ذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليهِ.

وبَيَّنَ [ما][3] في قلوبِهِمْ أنَّ عيسى عُبِدَ دونَ اللهِ، والملائكةَ عُبِدُوا دونَهُ، فَهُمْ ليسوا بِحَصَبِ جَهَنَّمَ حينَ[4] استثنى أولئكَ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١] فأبطَلَ مُجادَلَتَهُمْ ومُحاجَّتَهُمْ وصَرْفَهُمُ الآيةَ إلى حسابِ الجُمَّلِ بقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ الآية [آل عمران: ٧].

فهذا تأويلُ قولِهِ: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ نَسْخُ ما ألقَى الشيطانُ في قلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ ما بِهِ جادَلوهُ، وأحْكَمَ آياتِهِ بما ذَكَرْنا.

ثم وإنْ ثَبَتَ ما ذَكَرَ ابنُ عباسٍ وعامَّةُ مَنْ ذَكَرْنا حينَ[5] قالوا: جَرَى على لِسانِهِ ذلكَ، فجائزٌ عندما جَرَى الخَطَأُ على لسانِ مَنْ عُصِمَ، إذا عَرَفَ السامِعُ منهُ مذهَبَهُ ودينَهُ الذي يَدينُ بِهِ، عَرَفَ أنَّ ما جَرَى غَلَطٌ[6] وخطأٌ نَحْوَ مَنْ يَعْتَمِدُ مذهباً، ويَنْتَحِلُ نِحْلَةً، فَجَرَى على لسانِهِ خِلافُ ما يُعْرَفُ منهُ الاعْتِقادُ، يَعْرِفُ أنهُ جَرَى على لسانِهِ غَلَطاً.

فَعَلَى ذلِكَ الذي ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ إنْ ثَبَتَ ما ذَكَروا عنهُ أنهُ قالَ ذلكَ.

والأشبَهُ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ إلقاءِ الشيطانِ في قُلُوبِ الكَفَرَةِ ما يُجادلونَ بِهِ رسولَ اللهِ، ويُحاجّونَهُ[7] كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١].

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي تَلا القرآنَ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي[8] في تلاوتِهِ. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ، وقالَ: أمانيُّ مشددةٌ جميعٌ.

وقالَ غيرُهُمْ: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ إذا حَدَّثَ، و ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [في حديثِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: تَمَنَّى في أُمْنِيَّتِهِ][9] هو مِنْ تَمَنّي النفسِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ﴾ الآية [النساء: ٣٢] ونَحْوُهُ، وهو قولُ الحَسَنِ: تَمَنَّى كبَعْضِ ما تَمَنَّى الناسُ مِنَ الدنيا. وقالَ قتادةُ: و ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ تَمَنّي النفسِ أنْ يَذْكُرَ آلِهَتَهُمُ التي كانَتْ تُدْعَى، وتُرْجَى شَفاعَتُهُنَّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هذا تأويلُهُ[10]: ليجعلَ ما يُلْقي الشيطانُ في قلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ فِتْنَةً للذينَ ذَكَرَ لِما ظَنّوا العِلَّةَ؛ لا يَقْدِرُ [على][11] الإجابةِ لهمْ، أو لا يَحْضُرُهُ ما يُجيبُهُمْ، فيكونُ ذلكَ فِتْنَةً لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كأنهمْ هُمُ المُنافِقونَ، لأنهمْ هُمُ المَوصوفونَ المُسَمَّونَ بهذا الاسْمِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ كأنهمْ هُمُ الرُّؤساءُ المُكابِرونَ المُعانِدونَ لرسولِ اللهِ والكَفَرَةِ، كُلُّهُمْ مَوصوفونَ بِقَساوَةِ قُلوبِهِمْ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

---

(١) ادرج بعدها في الأصل وم: فقالوا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: غلطاً. (٧) في الأصل وم: ويجادلونه. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: تأويل القوم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أي في عِنادٍ وفي مكابَرَةٍ ﴿بَعِيدٍ﴾ عنِ الإجابةِ لهُ أو ﴿بَعِيدٍ﴾ [عنِ اسْتِماعِ][1] الحقِّ وقَبولِهِ. وقيلَ: ﴿شِقَاقٍۭ﴾ أي خِلافٍ بعيدٍ أي لا يَرْجِعونَ إلى الوِفاقِ[2] أبداً.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قولُهُ: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي تَخْضَعَ، وتَذِلَّ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ هذهِ الآيةُ كالآياتِ التي ذَكَرْناها في ما تَقَدَّمَ: مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية [التوبة: ١٢٤و١٢٥] ونَحْوُها مِنَ الآياتِ التي وصَفَتْ[3] أهلَ التوحيدِ بالقَبولِ لها والخُضوعِ والإقبالِ إليها، وَوَصَفَتْ[4] أهلَ الكُفرِ بالرَّدِّ والتكذيبِ.

فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ عِلْمَ الذينَ آمَنوا[5] أنَّ القرآنَ ومحمداً الحقُّ مِنْ ربكَ لأنهمْ نَظَروا إليهِ بالتَّعظيمِ والتَّبجيلِ والخُضوعِ لهُ، فأقَرُّوا بهِ، فَزادَ لهمْ بذلكَ هدًى ورحمَةً وشِفاءً. وأولئكَ نظروا إليهِ بالاستِخفافِ والهواءِ والتكذيبِ فزادَ لهمْ بذلكَ رِجْساً وضَلالاً وفَساداً[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو يومُ بَدْرٍ، وقالَ بعضُهُمْ: هو عذابُ يوم القيامةِ، وهو شديدٌ. وجائزٌ أنهُ سَمّاهُ عقيماً لأنهُ لا تُرْجَى النجاةُ منهُ ولا الخيرُ. وكذلكَ سُمِّيَتِ المرأةُ التي لا تَلِدُ عقيماً [لِما][7] لا يُرْجَى منها الولدُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ قالَ الحَسَنُ: المُلْكُ في الأحوالِ كلِّها للهِ في الدنيا والآخِرَةِ.

لكنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أيِ الحُكْمُ بينَهُمْ دونَ الخلائقِ لأنَّ في الدنيا مَنْ قد حكَمَ غَيْرُهُ. فأمّا يومئذٍ فالحُكْمُ لهُ [خاصَّةً.

وعندَنا][8] تخصيصُ المُلْكِ يومئذٍ لهُ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ المُلْكُ في الأيامِ كلِّها للهِ، لأنهمْ جميعاً يُقِرّونَ لهُ بالمُلْكِ يومئذٍ، لا أحدَ يُنازِعُ، وفي الدنيا مَنْ قدِ ادَّعى المُلْكَ لنفسِهِ، وهو ما ذَكَرَهُ في قولِهِ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] [وقولِهِ][9]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨و...] [وقولِهِ][10]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠و...] ونَحْوُهُ. فَعَلَى ذلِكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

الآية ٥٧ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ظاهرٌ [تأويلُهُما في

الآية ٥٨ قولِهِ تعالى][12]: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾.

أمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ صَرَفوا تأويلَ الآيةِ إلى الغُزاةِ والمُجاهدينَ في سَبيلِ اللهِ قُتِلوا، أو ماتوا حَتْفَ أنفِهِمْ، فإنَّ لهمْ ما ذُكِرَ مِنَ الرِّزْقِ الحَسَنِ والمَدْخَلِ المَرْضِيِّ.

وظاهِرُهُ أنْ يكونَ في الذينَ هاجَروا إلى رسولِ اللهِ. فإنْ كانَ فيهِمْ ففيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ الرَّوافِضِ حينَ[13] قالوا: ارتدَّ عامَّتُهُمْ حينَ[14] شهِدَ اللهُ لهمْ بالجَنَّةِ والرِّزْقِ الحَسَنِ والمَدْخَلِ المَرْضِيِّ؛ قُتِلوا، أو ماتوا حَتْفَ أنفِهِمْ. فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ منهمْ ما قالوا.

(١) في الأصل وم: لاستماع. (٢) من م، في الأصل: الوفاء. (٣) في الأصل وم: وصف. (٤) في الأصل وم: وصف. (٥) في الأصل وم: أوتوا العلم. (٦) من م، في الأصل: وفسادة. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عندنا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: تأويله و. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: حيث.

قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تَخضَعَ، وتَذِلَّ. وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ وقال: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ عَنْ أنْ يكونَ فيهِ خَيرٌ أو فَرَجٌ للكافِرِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ شديدٍ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيلَ: هو الجنةُ، لأنهُ إنما ذَكَرَ بَعْدَ المَوتِ والقَتْلِ. فلا يكونُ/ ٣٥١ ـ أ/ رِزْقٌ حَسَنٌ إلّا في الجنةِ، فَيَسْتَحْسِنُها كلُّ طَبْعٍ وعَقْلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أخْبَرَ أنهُ خَيرُ الرازقينَ، وإنْ لم يكُنْ رازِقٌ سِواهُ، لأنهمْ كانوا يَطْمَعونَ ويَطلُبونَ الرِّزقَ والسَّعَةَ مِنْ عندِ مَنْ سِواهُ حينَ كانوا يَعْبُدونَ مَنْ دونَهُ طَمَعاً في السَّعَةِ. فأخْبَرَ أنهُ هو الرازقُ، ومنهُ يُطْمَعُ الرزقُ والسَّعةُ، لأنهُ هو المالكُ لذلكَ. وهو ما قالَ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، [وقال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]][(١)] وإنْ لم يكُنْ خالقٌ سِواهُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ وهو الجنةُ أيضاً، يَرْضَى بها كلُّ طَبْعٍ وعَقْلٍ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾: عليمٌ بما صَنَعَ بأوليائِهِ أعداؤُهُ أو ما صَنَعَ هو بأوليائِهِ ﴿حَلِيمٌ﴾ حينَ[(٢)] أخَّرَ الانتِقامَ مِنْ أعدائِهِ، لم يَنْتَقِمْ منهمْ وقتَ صَنيعِهِمْ ما صَنَعوا بأوليائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ جائزٌ في اللغةِ ذِكْرُ حَرْفِ: ذلكَ وحَرْفٍ. هذا على الابتِداءِ، وإنْ كانَ ممّا يُخْبَرُ به عنْ غائبٍ، نَحْوُ قولِهِ: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩] [وقولِهِ][(٣)]: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥] يستقيمُ ذِكْرُهُ بدونِ ذِكْرِ هذا، وهو أنْ يقولَ: وإنَّ لِلْمُتَّقينَ كذا، وإنَّ لِلطّاغينَ كذا. فَعَلَى ذلِكَ هذا، أو أنْ يكونَ ذَكَرَ ذلكَ صلةَ ما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الأنبياءِ؛ يقولُ: ذلكَ الذي ذَكَرْتُ لكَ، وأنبَأتُكَ: مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بهِ.

ثم اختُلِفَ في سَبَبِ نُزولِ هذهِ الآيةِ: قالَ بعضُهُمْ: هي في القِصاصِ. مَنْ قَتَلَ وليَّ آخَرَ، فاقْتُصَّ منهُ، ثم إنَّ المُقْتَصَّ منهُ بَغَى على وَليِّ المَقْتولِ، فَقَتَلَهُ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ على مَنْ بَغَى عليهِ. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ثم قالَ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ [عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾][(٤)] [البقرة: ١٧٨].

لكنْ ذَكَرَ ههنا الاعتِداءَ بَعْدَما أخَذَ المالَ، وعَفَا. وفي الأوَّلِ ذَكَرَ البَغْيَ بَعْدَ القِصاصِ، وهو واحدٌ في مَعْناهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ في المُؤمنينَ والمُشْرِكينَ؛ وذلكَ أنَّ المُشْرِكينَ عاقَبوا المُؤمِنينَ بِعُقوباتٍ، واعْتَدَوا عليهِمْ. ثم إنَّ المُسْلِمينَ ظَفِروا بهِمْ، فعاقَبوهُمْ جَزاءَ عقوبَتِهِمْ، ثم إنَّ المُشْرِكينَ بَغَوا على المُؤمِنينَ، فَوَعَدَ اللهُ لهمْ بالنَّصْرِ عليهِمْ بَعْدَ البَغْيِ.

وقالَ بعضُهُمْ قريباً مِنْ هذا؛ وهو أنَّ المُشْرِكينَ كانوا يُؤذونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ومَنْ آمَنَ منهُمْ، ويُعاقِبونَهُمْ في أشْهُرِ الحجِّ، ولم يكُنْ لِلْمُؤمِنينَ إذْنٌ بِقِتالِهِمْ في ذلكَ الوقْتِ، فَقاتَلوهُمْ مُكافَأةً لهمْ. فأخْبَرَ اللهُ ﷻ وَوَعَدَ لهُمُ النَّصْرَ إذا بَغَى أولئكَ عليهِمْ مِنْ بَعْدُ. فَعَلَى هذا التأويلِ يكونُ وَعْدُ النَّصْرِ لهمْ إذا بَغَى أولئكَ عليهِمْ مِنْ بَعْدُ. وعلى التأويلِ الأوَّلِ يكونُ لهُمُ الوَعْدُ بالنَّصْرِ بَعْدَما بَغَى أولئكَ على هؤلاءِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أمْرٌ للمؤمنينَ بِقِتالِهِمْ أولئكَ في أشْهُرِ الحجِّ [حينَ][(٥)] كانَ لم يأذَنْ لهمْ بالقِتالِ، أو ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إذا تابوا، ورَجَعوا عمّا فَعَلوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ صَرْفَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَسْتَقيمُ ذِكْرُهُ على الابتِداءِ والائتِنافِ على غَيرِ صِلَةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كذا. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي ذلكَ النصرَ لِمَنْ ذَكَرَ، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إيلاجِ الليلِ في النهارِ وإيلاجِ النهارِ في الليلِ قادرٌ على ما وَعَدَ مِنَ النَّصْرِ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾: ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالِهِمْ ﴿بَصِيرٌ﴾ بحَوائِجِهِمْ. والسَّميعُ: يُقالُ: هو المُجيبُ، أي مجيبٌ لدعائِهِمْ، بَصيرٌ بما يكونُ مِنَ الأعداءِ. أو يكونُ على الابْتِداءِ في كلِّ أمْرٍ. وكذلكَ [قولُهُ][1]: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] ما ذَكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ بأنَّ اللهَ هو الذي يَفْعَلُ هذا.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ قالَ الحَسَنُ: الحَقُّ هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ، بهِ يُعْطِي، وبهِ يَحْكُمُ بَيْنَ الخَلْقِ[2]، وبهِ يَقْضِي، ونَحْوُهُ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي عندَهُ يَتَحَقَّقُ ما يُطْمَعُ في العِبادةِ، ويُطْلَبُ؛ إذْ هو المالكُ لذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي ما يَطْمَعونَ في عبادَةِ مَنْ دونَهُ باطلٌ، وهو الأصنامُ التي عَبَدوها رَجاءَ الشَّفاعةِ وطَمَعاً في السَّعَةِ. فأخبَرَ أنها لا تَمْلِكُ ذلكَ. وإنما [يَمْلِكُ][3] ذلكَ اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي مِنْ عندِهِ يُطْلَبُ العُلُوُّ، ومِنْ عندِهِ يُطْلَبُ، ويُطْمَعُ الرِّزْقُ والسَّعَةُ والشَّفاعَةُ والنَّصْرُ والظَّفَرُ والإجابةُ، لا مِنْ عندِ هؤلاءِ الأصنامِ التي يَعْبُدونها. يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ مِنْ دونِ اللهِ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[4] إنما هو حرفُ تَعْجيبٍ؛ يُعَجِّبُ رسولَ اللهِ جميعَ ما يَفْعَلُ منْ أفعالِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو حرفُ إيضاحِ الحُجَجِ وإنارةِ براهينِهِ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] ونَحْوُهُ.

وأصْلُهُ أنَّ ظاهِرَهُ، وإنْ كانَ اسْتِفهاماً فهو في الحقيقةِ تحقيقٌ وإيجابٌ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي قد رأيتَ، وقد أُخْبِرْتَ. وهكذا جميعُ ما خَرَجَ الظاهرُ في الكتابِ مَخْرَجَ الاسْتِفهامِ فهو في الحقيقةِ إيجابٌ وإلزامٌ.

ثم في قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ وجهانِ مِنَ الاسْتِدْلالِ على مُنْكِري البَعْثِ:

أحَدُهُما: يُخْبِرُ عنْ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ وشَقِّ الأرضِ وإخراجِ النباتِ منها معَ لِينِهِ وضَعْفِهِ وصَلابةِ الأرضِ وشِدَّتِها قادرٌ على إحياءِ الخَلْقِ بعدَ الموتِ، ولا يُحْتَمَلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

والثاني: [أنَّ مَنْ][5] قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ بَعْدَ مَواتِها ويُبْسِها قادرٌ على البعثِ والإحياءِ، وقد عَرَفوا أنَّ إعادةَ الشيءِ أهونُ مِنِ ابْتِدائِهِ، أو يَقْدِرُ على الإعادةِ مَنْ [يَمْلِكُ القُدْرَةَ][6] على الابْتِداءِ إذا عَرَفَ الابْتِداءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: اللطيفُ في الشاهِدِ إنما يُقالُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنهُ يُقالُ للشيءِ لطيفٌ لِرِقَّتِهِ، وذلكَ عنِ اللهِ مَنْفِيٌّ.

والثاني: لِما تَتَأتَّى لهُ الأشياءُ، ولا تَصْعُبُ عليهِ.

والثالثُ: اللطيفُ هو الرحيمُ الرؤوفُ. وهذانِ الوجهانِ يُضافانِ[7] إلى اللهِ، والأولُ لا يَجوزُ إضافَتُهُ إليهِ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾ أي][8] عليمٌ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [يحتمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ وجهَيْنِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الحق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) بين المؤلف أبو منصور أحوال هذا الحرف في تفسير الآية: ٧٠ من هذه السورة ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال: ان حرف ﴿أَلَمْ﴾ حرف يتوجه إلى وجوه: إلى التعجب مرة وإلى التنبيه والإيقاظ ثانياً وإلى إيضاح الحجج والبراهين ثالثاً. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: لا يملك. (٧) في الأصل وم: يضاف. (٨) في الأصل وم: خبير.

أحَدُهما:](١) يخبرُ أنَّ لهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وأنهمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، وأنهُ لم يَخْلُقْهُمْ لحاجةِ نفسِهِ. ولكنْ إنما خَلَقَهُمْ لحاجةِ أنفُسِهِمْ حينَ(٢) أخبرَ أنهُ الغَنيُّ بذاتِهِ.

والثاني: يُخْبِرُ أنهُ لم يَأْمُرْهُمْ، ولم يَنْهَهُمْ، ولا امْتَحَنَهُمْ لِمَنافِعَ، تكونُ لهُ، ولكنْ لِمَنافِعِ المُمْتَحَنينَ.

[وقولُهُ تعالى](٣): ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ هو المحمودُ في أفعالِهِ، أو(٤) ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ الحامدُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ لِيَسْتأْدِيَ بهِ شُكْرَهُ، لأنهُ أخبرَ أنهُ سَخَّرَ لهمْ ما في الأرضِ منْ أنواعِ المَنافِعِ لِيَعْلَموا أنهُ لم يَخْلُقْهُمْ عَبَثاً لِيَتْرُكَهُمْ سُدًى؛ لأنَّ مَنْ كانَ خَلْقُهُ لِما ذُكِرَ لم يكنْ خَلْقُهُ لِيكونَ خَلْقاً مَتروكاً سُدًى.

ويُخْبِرُ أنهُ أعْطى لهمُ الأسبابَ التي بها يَصِلونَ إلى مَنافِعِ الأرضِ معَ شِدَّتِها وصلابَتِها، والأسبابَ التي بها يَصِلونَ إلى مَنافِعِ البَحْرِ، وهي الفُلْكُ التي خَلَقَها لَهُمْ لِيَصِلوا بها إلى مَنافِعِ البَحْرِ حينَ(٥) خلقَ الخَشَبَ قارَّةً على وجْهِ الماءِ غَيرَ مُتَسَرِّبَةٍ. وغَيرُهُ مِنَ الأشياءِ، مِنْ طَبْعِها التَّسَفُّلُ والتَّسَرُّبُ في الماءِ كالحديدِ(٦) والحجرِ ونَحْوِهِما مِنَ الأشياءِ لِيعرفوا فَضْلَهُ ورَحْمَتَهُ، أنْ كيفَ ثَبَتَ، وقَرَّ هذا / ٣٥١ ـ ب/ على وَجْهِ الماءِ؟ ولم يَثْبُتِ الحديدُ والحجرُ ونَحْوُهُما(٧)؟ ثم يَثْبُتُ الحديدُ على وجْهِ الماءِ معَ الخَشَبِ؟ إذِ السُّفُنُ لا تَخْلُو مِنَ الحديدِ، وبهِ تقومُ السفنُ، ثم لم يَتَسَرَّبْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي يُمْسِكُ السماءَ لا بالأسبابِ ولا بالأشياءِ التي تُمْسِكُ الأشياءَ في الشاهِدِ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ الآية [فاطر: ٤١].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي رأفَتُهُ ورحمَتُهُ ما خَلَقَ لهمْ، وسَخَّرَ ما ذَكَرَ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ هذا قد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أيِ الكافرَ ﴿لَكَفُورٌ﴾ للبَعْثِ، أي جاحدٌ لهُ. والكَفورُ لربِّهِ في نِعَمِهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ حينَ(٨) ذَكَرَ أنهُ سَخَّرَها لهمْ في قولِهِ: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ كذا، لأنهُ يَنْظُرُ في النِّعَمِ إلى أسبابِهِ والحِيَلِ التي يَحْتالُ لا إلى فَضْلِ ربِّهِ وأفضالِهِ في تلكَ النِّعَمِ. لِذلكَ صارَ كَفوراً لربِّهِ في نِعَمِهِ.

وأمّا المُؤْمِنُ فإنهُ ليسَ يَنْظُرُ إلى الأسبابِ والحِيَلِ فيها، ولكنْ يَنْظُرُ إلى فَضْلِ اللهِ وإفضالِهِ وإنعامِهِ عليهِ فيها، فيكونُ شَكوراً لهُ فيها غَيرَ كَفورٍ. والكافرُ يَنْظُرُ إلى ما ذَكَرْتُ.

لذلكَ كانَ ما ذَكَرْتُ على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ لأنهُ يقولُ: هذا الذي سَخَّرَ الفُلْكَ، وهم يَقولُونَ: لم يُسَخِّرِ الفُلْكَ، ولكنْ إنما سَخَّرَ الخَشَبَ [الذي منهُ](٩) تُتَّخَذُ الفُلْكُ لأنهمْ لا يَرَوْنَ للهِ في فِعْلِ العِبادِ تدبيراً ولا صُنْعاً، وهُمْ يَكْفُرونَ نِعْمَةَ ربِّهِمْ في ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الفُلْكِ لنا، وهُمْ داخلونَ في ظاهِرِ هذهِ الآيةِ على الوجْهِ الذي ذَكَرْنا.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ اخْتُلِفَ في المَنْسَكِ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَنسَكًا﴾ [ديناً](١٠) أي جَعَلْنا لكلِّ أمّةٍ ديناً، يَدعونَ إليهِ، أي كلُّ أمّةٍ تُدْعَى إلى دينٍ واحدٍ، وهو قولُ الحَسَنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي شَريعةً. فهذا على الاخْتِلافِ، أي جَعَلْنا لكلِّ أمّةٍ شريعةً على حِدَةٍ ﴿هُمْ نَاسِكُوهُۖ﴾ ذلكَ كقولِهِ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقالَ عامّةُ أهْلِ التأويلِ ﴿مَنسَكًا﴾ أي ذبائِحَ وعيداً. قالوا ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يَنْكِرُ أنْ يكونَ الذَّبْحُ شَريعةَ اللهِ. فأخْبَرَ أنَّ الذَّبْحَ سُنَّةُ اللهِ وشَريعَتُهُ في الأُمَمِ كلِّها. ليسَ على ما قالتِ الثَّنَوِيَّةُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: من الحديد. (٧) في الأصل وم: ونَحْوُهُ. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: التي منها. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ على تأويلِ[١] من يقولُ: إنَّ المَنْسَكَ هو الدينُ، أي لا يُخالِجَنَّكَ في نفسِكَ [شكٌّ][٢] أنَّ الذي أنتَ عليهِ، هو دينُ اللهِ، وادْعُ الناسَ إليهِ.

وعلى تأويلِ مَنْ [يقولُ:][٣] هو الذبحُ يقولُ: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ أي لا يَصُدَّنَّكَ عنِ الذَّبحِ مَنْ يُنْكِرُ ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٨٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي ادْعُ إلى توحيدِ رَبِّكَ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ إلى عبادةِ رَبِّكَ، وانْهَهُمْ عن عِبادةِ مَنْ دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هذا يدلُّ أنَّ التأويلَ الذي ذَكَرْنا في المَنْسَكِ، وهو الدينُ، أشْبَهُ، وأقربُ، لأنهُ ذَكَرَ ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فلا يَتخالَجَنَّ في نفسِكَ شكٌّ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في أمرِ الذبيحةِ أو في الدينِ كثيراً. لكنَّ ذلكَ قالَ، واللهُ أعلَمُ، عندَ إياسِهِ مِنْ توحيدِهِمْ وإسلامِهِمْ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: و﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في الدينِ والتوحيدِ ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥] فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

الآية ٦٩ [وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ مِنَ الدينِ. وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هذهِ الآيةُ منسوخةٌ نَسَخَتْها آيةُ القِتالِ[٥] لأنَّ فيها حَظْراً عنِ القتالِ والتَّرْكَ على ما هُمْ عليهِ وتَسْليمَ الأمرِ إلى اللهِ، يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يومَ القيامةِ. لكنْ جائزٌ ما ذَكَرْنا أنهُ إنما قالَ ذلكَ عندَ الإياسِ منهُمْ مِنْ توحيدِهِمْ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ حَرْفَ ﴿أَلَمۡ﴾ حَرْفٌ يَتَوَجَّهُ إلى وجوهٍ: إلى التَّعْجيبِ مَرَّةً وإلى التَّنْبيهِ والإيقاظِ ثانياً وإلى إيضاحِ الحُجَجِ والبراهينِ ثالثاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ حُجَجاً وبراهينَ ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ يُخْبِرُ عن سَفَهِهِمْ أنهمْ يَعْبُدونَ غيرَ اللهِ، ولا سلطانَ، ولا حُجَّةَ لهمْ في ذلكَ، ولا عِلْمَ، لأنهمْ كانوا لا يُؤْمِنونَ برسولٍ يُخْبِرُهُمْ، ولا كانَ لهمْ كتابٌ، فَيَعْلَمونَ بهِ، فيقولُ: إنهمْ يقولونَ: اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ، ولا حُجَّةَ لهمْ في ذلكَ، ولا عِلْمَ.

وفيهِ أنهُ إنما بَعَثَ الرسلَ إليهِمْ على عِلْمٍ لهُ منهمْ أنهمْ يُكَذِّبونَ الرسلَ، لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْثَ الرسلِ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُمْ، ويَتْرُكُ إجابَتَهُمْ؛ كَمَنْ لا يَبْعَثُ في الشاهدِ رسولاً إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ولا يُجيبُهُ. فَعَلَى ذلكَ يقولونَ: لا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ يَبْعَثُ الرسولَ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ولا يُجيبُهُ.

لكنَّ اللهَ أخْبَرَ أنهُ على عِلْمٍ منهمْ بالتكذيبِ وتَرْكِ الإجابةِ. بَعَثَهُمْ [لا على الجَهْلِ حينَ][٦] قالَ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

وأمّا قولُهُمْ: إنَّ مَنْ عَلِمَ في الشاهدِ تكذيبَ المُرْسَلِ إليهِ رسولَهُ فإنهُ لا يَبْعَثُهُ إليهِ، لأنَّ المُرْسِلَ إنما يَبْعَثُهُ لِحاجةِ نفسِهِ ومنافِعِهِ. فإذا عَلِمَ منهُ تكذيبَهُ وتَرْكَ الإجابةِ لهُ لم يَبْعَثْهُ.

فأمّا اللهُ ﷻ إنما يُرْسِلُ الرسولَ لِحاجةِ [المُرْسَلِ إليهِ ومنافِعِهِ لا لحاجةِ][٧] نفسهِ ومَنْفَعَتِهِ. فلا ضَرَرَ يَلْحَقُهُ في تكذيبِهِ وجُحودِهِ. فجائزٌ [أنْ يكونَ][٨] أرْسَلَهُ على عِلْمٍ منهُ بالتكذيبِ[٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ذلكَ في الكتابِ الذي عندَهُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ يقولُ: حِفْظُهُ يَسيرٌ على اللهِ بغيرِ كتابٍ، لا يَصْعُبُ عليهِ حِفْظُ شيءٍ، لأنهُ عالِمٌ بذاتِهِ لا بِسَبَبٍ ولا تَعْليمٍ. وإنما يَصْعُبُ ذلكَ على مَنْ كانَ عِلْمُهُ بالشيءِ بِسَبَبٍ أو تَعْليمٍ.

(١) في الأصل وم: التأويل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: بتكذيب.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فيهِ دلالةُ ردّ قولِ القَدَرِيَّةِ حينَ[1] قالوا: يُكَذِّبُ مَنْ كَذَّبَ الرسُلَ لا بإرادةِ اللهِ. فَذَكَرَ أنهُ بَعَثَهُمْ[2] على علمٍ منهُ ذلكَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «سيكونُ في آخِرِ الزمانِ ناسٌ مِنْ أُمَّتي يُكَذِّبونَ بالقَدَرِ. سَيَكْفيكُمْ مِنَ الرَّدِّ عليهِمْ أنْ تقولوا ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾» [السيوطي في الدر المنثور٦/ ٧٤].

وتأويلُ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنْ يُسائلوا، فَيُقالَ لهمْ: أأرادَ[3] اللهُ أنْ يُصَدَّقَ في خَبَرِهِ الذي أخبَرَ، أم[4] يُكَذَّبَ. فإنْ قالوا: أرادَ أنْ يُصَدَّقَ في خَبَرِهِ[5] لَزِمَهُمْ أنْ يقولوا: أرادَ اللهُ جميعَ ما كانَ منهُمْ. وإنْ قالوا: أرادَ أنْ يُكَذَّبَ خَبَرُهُ، فيكونُ كُفْراً مَحضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ يُسَفِّهُهُمْ بعبادتِهِمْ دونَ اللهِ بلا حجّةٍ ولا بُرْهانٍ ولا عِلْمٍ وتَرْكِهِمْ عبادةَ اللهِ معَ الحُجَجِ والبراهينِ والعِلْمِ أنهُ إلهٌ وأنهُ ربُّهُمْ مُستوجِبٌ لِلعبادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يَنْصُرُهُمْ، ويَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ. ففيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ لأنهُ قالَ ذلكَ لِلرُّؤساءِ منهُمْ والقادةِ. فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ نَصْرُهُمْ[6] بشيءٍ ولا رَدُّهُمْ[7] ما قالَ بشيءٍ. دلَّ أنهُ باللهِ كانَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾/ ٣٥٢ ـ أ/ تَحْتَمِلُ الآياتُ الحُجَجَ والبراهينَ، وتَحْتَمِلُ القرآنَ المُنْزَلَ عليهِ ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ الإنكارَ وأَثَرَ العِنادِ والرَّدِّ لآياتِهِ والكراهِيَةَ والبُغْضَ لهُ ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يُخبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ وشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ وعُتُوِّهِمْ عندَ تِلاوةِ الآياتِ عليهِمْ وإقامةِ الحُجَجِ عليهِمْ حينَ[8] قالَ: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يَسْطونَ: قيلَ: يأخذونَ أخذاً، وقيلَ: [يَبْطُشونَ بَطْشاً].

وقالَ: القُتَبِيُّ: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ قد يَتَناولونَهُمْ بالمَكروهِ مِنَ الشَّتْمِ والضَّرْبِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي يُوقِعونَ بهمْ، يُقالُ: سَطا يَسْطو][9] سَطْوَةً، ورجلٌ ذو سَطْوَةٍ وبَطْشَةٍ أي ذو قُوَّةٍ وقُدْرَةٍ. قالَ: ويُقالُ: سَطَوْتُ بفلانٍ، أي أخَذْتُهُ أخذاً شَديداً، أو بَطَشْتُ بهِ كذلكَ. ثم قالَ: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ظاهرُ الآيَةِ ليسَ بجوابٍ لِما تقَدَّمَ، ولا صِلَتَهُ، وليسَ على الابْتِداءِ، ولكنْ على نازلةٍ وأمْرٍ كانَ منهُمْ، لم يَذْكُرْ لنا ذلكَ.

فأمّا ابنُ عباسٍ وغيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ فقالوا: إنما نَزَلَتْ جواباً لِما قالوا لرسولِ اللهِ ﷺ ولِأصحابِهِ حينَ[10] قالوا: ما نَعْلَمُ قوماً أشقى منكُمْ حينَ رَأَوهُمْ، قد [حُظِرَتِ الدنيا عنهمْ][11]، لم يُعْطَوا مِنَ الدنيا شيئاً، فَنَزَلَ جواباً لهمْ ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ كقولِهِ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ قد ذَكَرْنا مَعْنى ضَرْبِ الأمثالِ والحاجةِ إليها. وذلكَ أنَّ العقولَ يجوزُ أنْ يَعْتَرِضَها[12] ما يسترُ عليها سبيلَ الحقِّ، ويَحْجُبُ عنها إدراكَ الحقِّ. فَضَرَبَ الأمثالَ لِيَرْفَعَ عنها ذلكَ الحِجابَ والسِّتْرَ لِتُدْرِكَ العقولُ سَبيلَ الحقِّ. وإلّا لم يَجُزْ ألّا تُدْرِكَ العُقولُ لِما جُعِلَتِ العُقولُ [مِمَّنْ يُدْرِكُ][13] الحقَّ. لكنْ يَمْنَعُ عنْ دَرْكِ الحقِّ وسَبيلِهِ ما ذَكَرْنا مِنِ اعْتِراضِ السَّواتِرِ والحُجُبِ، فَيُسْتَكْشَفُ ذلكَ بِما ذَكَرْنا مِنَ الأمثالِ. ثم في هذا المَثَلِ وجهانِ:

أحدُهُما: يُخْبِرُ عنْ تَسْفيهِ أحلامِهِمْ في عِبادَتِهِمْ مَنْ لا يَقْدِرُ على خَلْقِ أضْعَفِ خَلْقٍ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ وتَرْكِهِمْ عبادةَ مَنْ هو خالِقُهُمْ وخالِقُ جميعِ الخلائِقِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) أدرجت في الأصل وم: بعد ذلك. (٣) همزة الاستفهام ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: خبرهم. (٦) في الأصل وم: نصره. (٧) في الأصل وم: رده. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حظر الدنيا. (١٢) في الأصل وم: يعترض. (١٣) في الأصل وم: من درك.

والثاني: يُخبِرُ عنْ قَطْعِ ما يَأمُلُونَ، ويَطْمَعونَ مِنْ عبادَتِهِمُ الأصنامَ حينَ[1] قالَ: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ﴾ ويَترُكونَ عبادةَ مَنْ يُؤمَلُ منهُ، ويُطْمَعُ كلُّ خَيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أجيبوا لهُ. وقالَ بعضُهُمْ: اسْتَمِعوا لهُ اسْتِماعَ مَنْ يَنظُرُ، ويَأمُلُ الحقَّ، ويَقْبَلُهُ [لا اسْتِماعَ][2] مَنْ لا يَنْظُرُ إلى الحقِّ، ولا يَقْبَلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَدْعُونَ﴾ أي تَعْبُدونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وقالَ [بعضُهُمْ][3]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [لا][4] على الدعاءِ، أي تُسَمُّونَهُمْ آلهةً مِنْ دونِ اللهِ.

وقد كانَ منهُمُ الأمرانِ جميعاً: العِبادةُ للأصنامِ مِنْ دونِ اللهِ، وتَسْمِيَتُهُمْ آلِهَةً مِنْ دونِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ تَسْفيهِ أحلامِهِمْ في عِبادَتِهِمْ مَنْ لا يَمْلِكُ خَلْقَ أضْعَفِ خَلْقِ اللهِ وعَجْزِهِمْ عَمّا يَأمُلونَ مِنَ النَّفْعِ وعَنْ دَفْعِ مَنْ يَرومُ بهمُ الضَّرَرَ والسَّلْبَ ما ذَكَرَ منها.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الطالبُ الصَّنَمُ، والمَطلوبُ، هو الذُّبابُ لكنْ على هذا التأويلِ يُضمَرُ فيهِ: لو، أي ضَعُفَ الصَّنَمُ، لو كانَ طالباً. وقالَ بعضُهُمْ: الطالبُ هو الذُّبابُ، والمَطْلوبُ، هو الصَّنَمُ. فإنْ قيلَ: وَصَفَهُما جميعاً بالضَّعْفِ: الذُّبابَ والصَّنَمَ جميعاً على تأويلِهِمْ؛ أعني هؤلاءِ.

فالصَّنَمُ ضَعيفٌ عاجزٌ عَمّا وَصَفَ. وأمّا الذُّبابُ فهو ليسَ بضعيفٍ لأنهُ غَلَبَ ذلكَ الصَّنَمَ، وإنْ كانَ طالباً أو مَطلوباً. فكيفَ وَصَفَهُ بالضَّعْفِ، وهو[5] الغالبُ عليهِ في الحالَينِ؟

لكنهُ كأنهُ [أرْجَعَ قولَهُ][6] ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ إلى العابِدِ والمَعْبودِ، كأنهُ قالَ: ضَعُفَ العابدُ عمّا يأمُلُ، ويَطْمَعُ مِنْ عِبادَتِهِ إيّاهُ، وضَعُفَ المَعْبودُ عن إيفاءِ ما يُؤمَلُ، ويُطْمَعُ منهُ. فهذا كأنهُ أشْبَهُ وأقْرَبُ إليهِ مِنَ التأويلِ الأولِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عَرَفوا اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ. قالوا لهُ بالشريكِ والوَلَدِ والصاحبَةِ. [وما][7] قالوا فيهِ ممّا لا يَليقُ بهِ، لأنهمْ لو عَرَفوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لم يَنْسِبوا إليهِ، ولا وَصَفوهُ بالذي وَصَفوهُ، وعَرَفوهُ[8] بذاتِهِ وتعاليهِ عنْ ذلكَ. لكنْ حينَ[9] لم يَعْرِفوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ شَبَّهوهُ بواحدٍ مِنْ خَلْقِهِ على ما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عَظَّموا اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ حينَ[10] صَرَفوا العبادةَ والشُّكرَ إلى غَيرِهِ؛ إذْ لو عَظَّموهُ حَقَّ تعظيمِهِ ما صَرَفوا عِبادَتَهُمْ وشُكْرَهُمْ إلى غَيرِ الذي أنْعَمَ عليهِمْ، وما أشْرَكوا غَيرَهُ في ذلكَ على عِلْمٍ منهمْ أنهُ إنما وَصَلَتْ إليهِمْ تلكَ النِّعَمُ مِنَ اللهِ لا مِمَّنْ عَبَدوهُ، وباللهِ العِصْمَةُ والصَّوابُ.

ثم يكونُ تعظيمُهُ ومَعْرِفَتُهُ على الحقيقةِ بِتَعْظيمِ أمورِهِ وقَبولِها والقِيامِ بها، لا في قولِهِ: يا عظيمُ، يا كبيرُ ونَحْوُهُ. ولكنْ على ما ذَكَرْتُ مِنْ تَعْظيمِ أمورِهِ وقِيامِهِ بها. وكذلكَ المَحَبَّةُ للهِ، إنما تكونُ في القِيامِ بأمورِهِ وإقْبالِهِ نَحْوَها والانْتِهاءِ عنْ مَناهيهِ لا في ما في قولِهِ: أنا حَبيبُكَ، أو تصويرِ شيءٍ في قلْبِهِ. ولكنْ ما ذَكَرْتُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ لِنَصْرِ أوليائِهِ وجَعْلِ العاقبةِ لهمْ ﴿عَزِيزٌ﴾ أي مُنْتَقِمٌ مِنْ أعدائِهِ. أو يقولُ: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ لأنهُ تَضْعُفُ كلُّ القُوى عندَ قُوَّتِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾ تَذِلُّ كلُّ العِزَزِ عندَ عِزَّتِهِ. أو يقولُ: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ لأنهُ بهِ يَقْوَى مَنْ قَوِيَ، ومنهُ يَسْتَفيدُ القُوَّةَ[11] ﴿عَزِيزٌ﴾ لأنهُ بهِ يَعِزُّ مَنْ عَزَّ[12]، ومنهُ كانَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ومعناه إذا ظهر له الاستماع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فهو. (٦) في الأصل وم: رجع قول. (٧) من م،في الأصل: ومما. (٨) في الأصل وم: وعرفوا. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: ذلك. (١٢) في الأصل وم: عزته.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي اختارَ رُسُلاً مِنَ الملائكةِ في بَعْضِ ما امْتَحَنَهُمْ. ويَحْتَمِلُ ﴿يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى الرسلِ مِنَ الإنسِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي اختارَ منهُمْ؛ أعني مِنَ الناسِ رُسُلاً إلى الإنسِ، واللهُ أعلَمُ [وهو][1] كقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَصِيرٌ﴾ بِمَنْ يَصْلُحُ للرسالةِ ومَنْ لا يَصْلُحُ، و ﴿بَصِيرٌ﴾ بِمَنِ اختارَ لها ومَنْ لم يَخْتَرْ ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما يَتَلَقَّى المُرْسَلُ إليهِ الرسولَ مِنَ الإجابةِ والقبولِ والرَّدِّ والتَّكْذيبِ. وإنهُ على عِلْمٍ منهُ بالرَّدِّ والتَّكْذيبِ لِلرُّسُلِ.

وفيهِ دلالةٌ أنهُ إنما اصْطفاهُمْ لِلرِّسالةِ لا بِشيءٍ، يَسْتَوجِبونَ منهُ ذلكَ، ولكنْ إفضالاً منهُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يَعْلَمُ ما كانَ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَهُمْ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ بَعْدَما خَلَقَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ: يَعْلَمُ بِأوائِلِ أُمورِهِمْ وبِأواخِرِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنَ الآخِرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنَ الدنيا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وما عَمِلوا بأنْفُسِهِمْ في حياتِهِمْ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما سَنُّوا لِغَيرِهِمْ مِن بَعْدِهِمْ كقولِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ ما عَمِلوا هُمْ، وما ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ ما سَنُّوا لِغَيرِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على حقيقَةٍ: بَيْنَ الأيدي، ولا خَلْفَ. ولكنْ [على التمثيلِ، أي][2] لا يخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى:][3] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾/ ٣٥٢ ـ ب/ قد ذَكَرْنا معناهُ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ في الآيةِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ، هو شيءٌ خاصٌ، وشيءٌ واحدٌ، لا اسْمُ جَميعِ الخيراتِ، وهو التَّصْديقُ، لأنهُ أثْبَتَ لهمُ اسْمَ الإيمانِ، ثم أمَرَهُمْ بالرُّكوعِ والسُّجودِ وفِعْلِ الخيراتِ، لأنَّ جَميعَ المُخاطَبينَ بهذهِ الآيةِ عَرَفُوا مَنْ خوطِبَ بها. فلو كانَ اسْماً لِجميعِ الخيراتِ لَكانَ لا يُعْرَفُ المُخاطَبُ بها، لأنهُ لا يَقْدِرُ واحدٌ على جميعِ الخيراتِ. فَدَلَّ أنهُ شيءٌ مَعْروفٌ خاصٌّ مِمّا يُرْجِعُ صاحِبَهُ إلى حدِّ المَعْرِفَةِ حينَ[4] عُرِفَ المُخاطَبُ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: أنِ اجْعَلوا رُكوعَكُمْ وسُجودَكُمْ وعبادَتَكُمْ عبادةً للهِ، لا تُشْرِكوا فيها غَيرَهُ على ما أشْرَكَ أهْلُ مكةَ وغَيرُهُمْ مِنَ الكفارِ في عبادَتِهِمْ غَيرَهُ، وهي الأصنامُ التي عَبَدوها.

والثاني: اعْبُدوا ربَّكُمْ بالأسبابِ والأشياءِ التي عَرَّفَكُمْ أنها عبادةٌ، وكذلكَ افْعَلوا الخَيراتِ التي عَرَّفَكُمْ أنها خَيراتٌ.

والثالثُ: أنِ اجْعَلوا أحوالَكُمْ التي أنتُمْ عليها مِنْ قِيامٍ وقُعودٍ وحَرَكَةٍ وسُكونٍ عبادةً للهِ، واجْعَلوا تَقَلُّبَكُمْ أيضاً لِلْمعاشِ الذي أُبيحَ لكُمْ، وأُذِنَ فيهِ، عبادةً للهِ تعالى.

فالأوَّلُ: هو عبادةٌ بِنَفْسِهِ التي جَعَلَها اللهُ نَصّاً. والثاني: هو الذي يُصَيِّرُهُ عبادةً بالنِّيَّةِ والقَصْدِ. فيكونُ في جَميعِ أحوالِهِ مُؤَدِّيَ عِبادَةٍ.

وهكذا الواجبُ على المَرْءِ أنْ يكونَ في جَميعِ ما يُؤَدِّي مِنَ النوافِلِ مِنَ الصلاةِ والصيامِ وغَيرِهِ مُؤَدِّيَ فَرْضٍ؛ وهو أنْ يُؤَدِّيَ جميعَ ذلكَ بِنِيَّةِ الشُّكْرِ لِنِعَمِهِ وتَكْفيراً لِمَعاصيهِ. وكِلاهما لازمانِ واجبانِ. فإنْ فَعَلَ ذلكَ كانَ مُؤَدِّيَ لازمٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ظاهِرُهُ خرجَ على التَّرَجِّي، وفي الحقيقةِ على الوجوبِ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ ليسَ لِحَقِّ اللهِ غايةٌ يُوصَلُ إليها. وكذلكَ قولُهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] لأنهُ لو كانَ لِحَقِّهِ غايةٌ لكانَ الرسلُ والملائكةُ يقومونَ بِوفاءِ ذلكَ، ويُتَوَهَّمُ منهُمُ المُجاوَزَةُ عن ذلكَ؛ إذْ كلُّ ذي حَدٍّ وغايةٍ تُتَوَهَّمُ المُجاوَزَةُ فيه. فإنْ لم يَحْتَمِلِ المُجاوَزَةَ دَلَّ أنَّ حَقَّهُ ليسَ بذي حَدٍّ وغايةٍ. ويكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وقولِهِ[1]: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حَقَّهُ الذي احْتَمَلَ وُسْعَكُمْ وبُنْيَتَكُمْ وطاقَتَكُمْ كقولِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فيكونُ هذا تَفْسيراً لقولِهِ: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ وقولِهِ[2]: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي جاهِدوا في أنفسِكُمْ في شَهَوَاتِها وأمانِيِّها، أو جاهِدوا أعداءَ اللهِ في دفعِ الوَسواسِ والمُحارَبَةِ مَعَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ للإيمانِ والهُدى والتوحيدِ.

[والثاني][3]: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ جِنساً مِنْ أفْضَلِ الأجناسِ وأكْرَمِهِمْ مِنْ بَينِ سائرِ الأجناسِ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقالَ عامَّةُ أهْلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي وَحِّدوا رَبَّكُمْ؛ اجْعَلوا كلَّ عبادةٍ مَذكورةٍ في الكتابِ توحيداً. فيكونُ ذِكْرُ العبادةِ ههنا كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] كأنهُ قالَ: يا أيُّها الذينَ آمَنوا وَحِّدوا رَبَّكُمْ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فيهِ وجوبُ سَجْدَةِ التلاوةِ على ذلكَ، وهي في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «فُضِّلَتْ سورةُ الحجِّ بِسَجْدَتَيْنِ على غيرِها مِنَ السُّوَرِ. فَمَنْ لم يَسْجُدْهُما فلا يَقْرَأْهما» [بنحوه الموطأ ١/ ٢٠٥ و٢٠٦] وكذلكَ رُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ قَرَأها، فَسَجَدَ فيها مَرَّتَيْنِ، ثم قالَ ما ذَكَرْنا.

وتأويلُهُ عندنا أنَّ قولَهُ: «فُضِّلَتْ سورةُ الحجِّ بِسَجْدَتَيْنِ»: السَّجْدَةُ[4] التي هي مِنْ صُلْبِ الصلاةِ[5]، وسجدةُ التلاوةِ في أوَّلِ السورةِ[6]. فمنْ لم يَسْجُدْهُما فلا يَقْرَأْهُما.

وأصْلُهُ في وجوبِ سَجْدَةِ التلاوةِ أنَّ كلَّ سُجودٍ في القرآنِ لِلْخُضوعِ للهِ فهو واجبٌ لِلتِّلاوةِ لازِمٌ لهُ. وكلُّ سجودٍ كانَ الأمْرُ بهِ لِحَقِّ سجودِ الصلاةِ فإنهُ لا تَلْزَمُهُ السَّجدةُ بالتلاوةِ[7]. فالأمرُ بالسُّجودِ في قولِهِ: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أمْرٌ بِسُجودِ الصلاةِ، لا غيرَ. لم يُلْزِمْ تالِيَهِ السجودَ بالتِّلاوةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ يَحْتَمِلُ تأويلُهُ وجوهاً:

أحَدُها: أنَّ عليهِمْ مَعْرِفَةَ وَحْدانِيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ وتَعاليهِ عنِ الأشباهِ والشركاءِ، وعليهِمْ معرفةَ نِعَمِهِ والقِيامَ بِشُكْرِها لهُ والخضوعَ لهُ في كلِّ وَقْتٍ، وإنْ [لم][8] يبعثِ الرسلَ.

ولكنهُ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ بَعَثَ إليهِمُ الرسلَ ليكونَ أيْسَرَ عليهِمْ مَعْرِفَةُ ذلكَ وأهْوَنَ، والقيامُ بأداءِ ذلكَ أخَفَّ، لأنَّ مَعْرِفَةَ الأشياءِ بالسماعِ مِنْ لِسانِ الصَّدوقِ والعَدْلِ أيْسَرُ، والإدراكَ أهْوَنُ مِنْ مَعْرِفَتِها بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

أخْبَرَ أنهُ لولا فَضْلُهُ ورَحْمَتُهُ في بَعْثِ الرسلِ لاتَّبَعوا الشيطانَ إلّا قليلاً. والقليلُ الذينَ اسْتَثْناهُمُ الذينَ يَتَفَكَّرونَ، ويَنْظُرونَ، فَيَعْرِفونَ بالتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ، وذلكَ لا يُعْرَفُ إلا بِجَهْدٍ وتَكَلُّفٍ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من م. (٥) المقصود بها الآية: ٧٧. (٦) المقصود بها الآية: ١٨. (٧) في الأصل وم: للتلاوة. (٨) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ ولكنْ بَعَثَ إليكُمُ الرسلَ ليكونَ أوضَحَ لِسَبيلِ الحَقِّ ومَعْرِفَتِهِ. وإنْ كانَ لهُ ألّا يُرْسِلَ، ويُكَلِّفَ ذلكَ بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ.

والثاني: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [في قَطْعِ ما][1] تقعُ لكمُ الحوائجُ وتحريم كلِّ أنواعِ المَطاعِمِ والمَشارِبِ واللِّباسِ عليكُمْ، لكنهُ إذا حَرَّمَ نوعاً منها أباحَ آخَرَ بإزائِهِ مِمّا يَسُدُّ بهِ حاجَتَهُ، ويُزيحُ بهِ عِلَّتَهُ. ولو حَرَّمَ كلَّ أنواعِها كانَ [ذلكَ][2] حَرَجاً في الدينِ وضِيقاً.

والثالثُ: لم يَجْعَلْ عليهِمْ مِنَ العِباداتِ والفَرائضِ التي كَلَّفَهُمْ بها والقيامِ بأدائِها ما لا يَحْتَمِلُ وسْعُهُمْ ولا بُنْيَتُهُمْ، ولا حَمَلَ عليهِمْ أموراً شاقَّةً خِلافَ ما عليهِ طِباعُهُمْ وأمْرُ مَعاشِهِمْ. ولكنْ كَلَّفَهُمْ بِعباداتٍ، احْتَمَلَ بها وُسْعُهُمْ وبُنْيَتُهُمْ، وحَمَلَ عليهِمْ أموراً غَيْرَ شاقَّةٍ مُوافِقَةً لِما عليهِ أمْرُ مَعاشِهِمْ وطِباعِهِمْ وإنْ بَعُدَ، ونَأى عنهُمْ.

والرابعُ: أنهُ لم يَجْعَلْ توبَتَهُمْ عمّا ارْتَكَبُوا مِنَ المَعاصي والمآثِمِ قَتْلَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً وإهلاكَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً على ما جَعَلَ ذلكَ بقومٍ [حينَ قالَ موسى لقومِهِ][3]: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] ولو كُلِّفَ ذلكَ كانَ حَرَجاً في الدينِ وأمثالَ ذلكَ.

والخامسُ: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ أي مِنْ شَكٍّ وشُبَهٍ، أي قد أزاحَ عنكُمُ الشُّبَهَ والشَّكَّ بالحُجَجِ والبراهينِ التي أقامَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ وهذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على[4] الأمرِ أنِ الْزَمُوا مِلَّةَ إبراهيمَ.

والثاني: أنَّ هذا الذي ذُكِرَ هو مِلَّةُ أبيكُمْ إبراهيمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ. قالَ عامَّةُ أهْلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي اللهُ سَمّاكُمُ المسلمينَ، وقالَ بعضُهُمْ: إبراهيمُ ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ حينَ[5] قالَ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] ورسولُ اللهِ محمدٌ ﷺ كانَ مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ، وقد دعا لهُ ولِذُرِّيَّتِهِ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي في القرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الأمَمِ الذينَ كانوا/ ٣٥٣ ـ أ/ مِنْ قَبْلُ، لأنهُ ما مِنْ قوم وأمَّةٍ إلّا وفيهِمْ مُسْلِمونَ مُتَّسِمونَ بهذا الإسْمِ ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ في قومِهِ، أي[6] كنتمْ مُتَّسِمينَ[7] بهذا الإسْمِ في الأمَمِ الخالِيَةِ كقولِهِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي كُنْتُمْ خيرَ أمَّةٍ في الأُمَمِ التي كانَتْ مِنْ قَبْلِ أنها تَخْرُجُ في هذا الوقتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمعنَى: لَكُمْ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ. فَعَلَى ذلِكَ جائزٌ في هذا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أي لكُمْ.

ويكونُ تأويلُهُ: يكونُ الرسولُ لكمْ شهيداً بالتصديقِ لهُ ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ بالتصديقِ لرسولِ اللهِ إذا صَدَّقْتُمْ إياهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ تأويلُهُ: يكونُ شهيداً عليكُمْ إذا خالَفْتُموهُ، ولم تُصَدِّقوهُ، ﴿وَتَكُونُواْ﴾ أنتمْ إذا صَدَّقْتُمْ رسولَكُمْ، ووافَقْتُموهُ ﴿شُهَدَآءَ عَلَى﴾ سائِرِ ﴿ٱلنَّاسِۚ﴾ إذا كَذَّبوا رسولَهُمْ أنهمْ كَذَّبوهُ، وخالَفوهُ.

وفي هذِهِ الآيَةِ دلالةُ اتِّفاقِ قَرْنٍ حُجَّةٍ على مَنْ بَعْدَهُمْ حينَ[8] جَعَلَهُمْ شُهداءَ على مَنْ بَعْدَهُمْ ومَنْ قَبْلَهُمْ. وقد ذَكَرْنا تأويلَ الآيَةِ في سورةِ البقرةِ[9].

---

(١) في الأصل: قطع ما لم، في م: قطع ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث قالوا لهم. (٤) ادرج قبلها في الأصل وم: إن. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: أن. (٧) في الأصل وم: متسمون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) الآية: ٨٤.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإذا أرادَ الصلاةَ المَعْروفةَ والزَّكاةَ المَعْروفةَ فَفي الأمْرِ بإقامةِ الصلاةِ أمْرٌ بإصلاحِ [ما][1] بينَهُمْ وبَيْنَ ربِّهِمْ، وفي الزكاةِ [أمْرٌ بإصلاحِ][2] ما بينَهُمْ وبَيْنَ الخَلْقِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفي حرفِ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ: إنّ الصلاةَ تَأمُرُ بالعَدْلِ، وتَنْهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بدينِ اللهِ، وهو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ قولِهِ: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ إلى ما ذَكَرَ فكأنهُ يقولُ: اعْتَصِموا بالذي ذَكَرَ.

وأصلُ الاعْتِصامِ هو الالْتِجاءُ إليهِ. فكأنهُ قالَ: اعْتَصِموا بهِ منْ كلِّ ما نَهى عنهُ مِنَ الشرورِ وبكلِّ ما أمَرَ بهِ مِنَ الخَيْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: هو مَولَى كلِّ مَنْ تَوَلّاهُ بالطاعةِ. وقالَ بعضُهُمْ: المَولَى النَّصيرُ أي هو ناصِرُكُمْ وحافِظُكُمْ ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ المانعُ والنَّصيرُ المُنْتَصِرُ: يَنْتَصِرُ لهمْ مِنْ أعدائهمْ، ويَمْنَعُ عنهمُ الأعداءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي ربُّكُمْ وسَيِّدُكُمْ كما يُقالُ: المَولَى العَبْدُ، هذا مَولاهُ وسَيِّدُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويكونُ في قولِهِ: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ انهُ قد بَلَّغَكُمْ ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بأنَّ الرسولَ قد بَلَّغَكُمْ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٤] أي ما عَرَفوا اللهَ حقَّ مَعْرِفَتِهِ. يُقالُ في الكلامِ: ما قَدَرْتُكَ حقَّ قَدْرِكَ، أي ما عَرَفْتُكَ، وقالوا: الحَرَجُ الضَّيِّقُ[3] في هذا، وفي غيرِ هذا المَوضِعِ قيلَ: هو شَكٌّ في قولِهِ: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] أي شَكٌّ. والضِّيقُ إنما يكونُ مِنَ الشَّكِّ، إذا شَكَّ في شيءٍ ضاقَ صَدْرُهُ منهُ.

قالَ أبو معاذٍ: وأصلُ الحَرَجِ في كلامِ العَرَبِ: شَجَرٌ مِنْ شَوكٍ مُلْتَفٌّ، والواحدةُ حَرَجَةٌ، منهُ حَرَجَةُ سَلَمٍ، وقولُهُ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي اخْتارَكُمْ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: هو اجْتَباكُمْ، وسَمّاكُمُ المُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ. وهذا يُؤَيِّدُ تأويلَ مَنْ يقولُ: هو سَمّاكُمُ المُسْلِمينَ، أي اللهُ سَمّاكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ قالَ: لمْ يَفْرِضِ اللهُ على هذهِ الأمَّةِ شيئاً إلّا جَعَلَ فيهِ رُخْصَةً لهمْ عندَ الاضْطِرارِ مِثْلَ التَّيَمُّمِ إذا لم تَجِدْ ماءً، [وأنْ][4] تصليَ قاعداً أو مُضْطَجِعاً في المرضِ، وتُفْطِرَ إذا كُنْتَ مريضاً. في نَحْوِ هذا ليسَتْ فريضةٌ إلّا فيها رُخْصةٌ، ولم يكنْ مِنْ قَبْلُ ذلكَ، وهو قولُ مُقاتِلِ بْنِ حَيّانَ.

وقالَ قتادةُ: قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضِيقٍ. قالَ: أُعْطِيَتْ هذه الأمةُ ثلاثاً، لم يُعْطَها إلّا نَبِيٌّ: كانَ يُقالُ للنَّبِيِّ: اذْهَبْ فليسَ عليكَ حَرَجٌ، وقالَ اللهُ لهذهِ الأمَّةِ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وكانَ يُقالُ للنَّبِيِّ: أنتَ شهيدٌ على قومِكَ، وقالَ اللهُ لهذهِ الأمةِ: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وكانَ يقولُ لِلنَّبِيِّ: سَلْ تُعْطَهُ، وقالَ اللهُ [لهذهِ][5] الأمةِ ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أي صَلّوا للهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨] يقولُ: صَلّوا لا يُصَلّونَ.

وقالَ قَتادةُ: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ قالَ: لا صَلاةَ إلّا بِرُكوعٍ، وإنَّ أقواماً أحْدَثوا بِدَعاً، يَسْجُدُ أحَدُهُمْ مِئةَ سَجْدَةٍ لا يَرْكَعُ فيهنَّ. وكانَ يُقالُ: مِمّا أحْدَثَ الناسُ رَفْعُ الأيدي في الدعاءِ والأصواتُ عندَ المسألةِ والاخْتِصارُ في السُّجودِ. وقالَ أبو هُرَيرَةَ: لا يَصْلُحُ سُجودٌ إلّا بِرُكوعٍ. واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ، وصلّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إصلاح. (٣) في الأصل وم: الضعيف. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

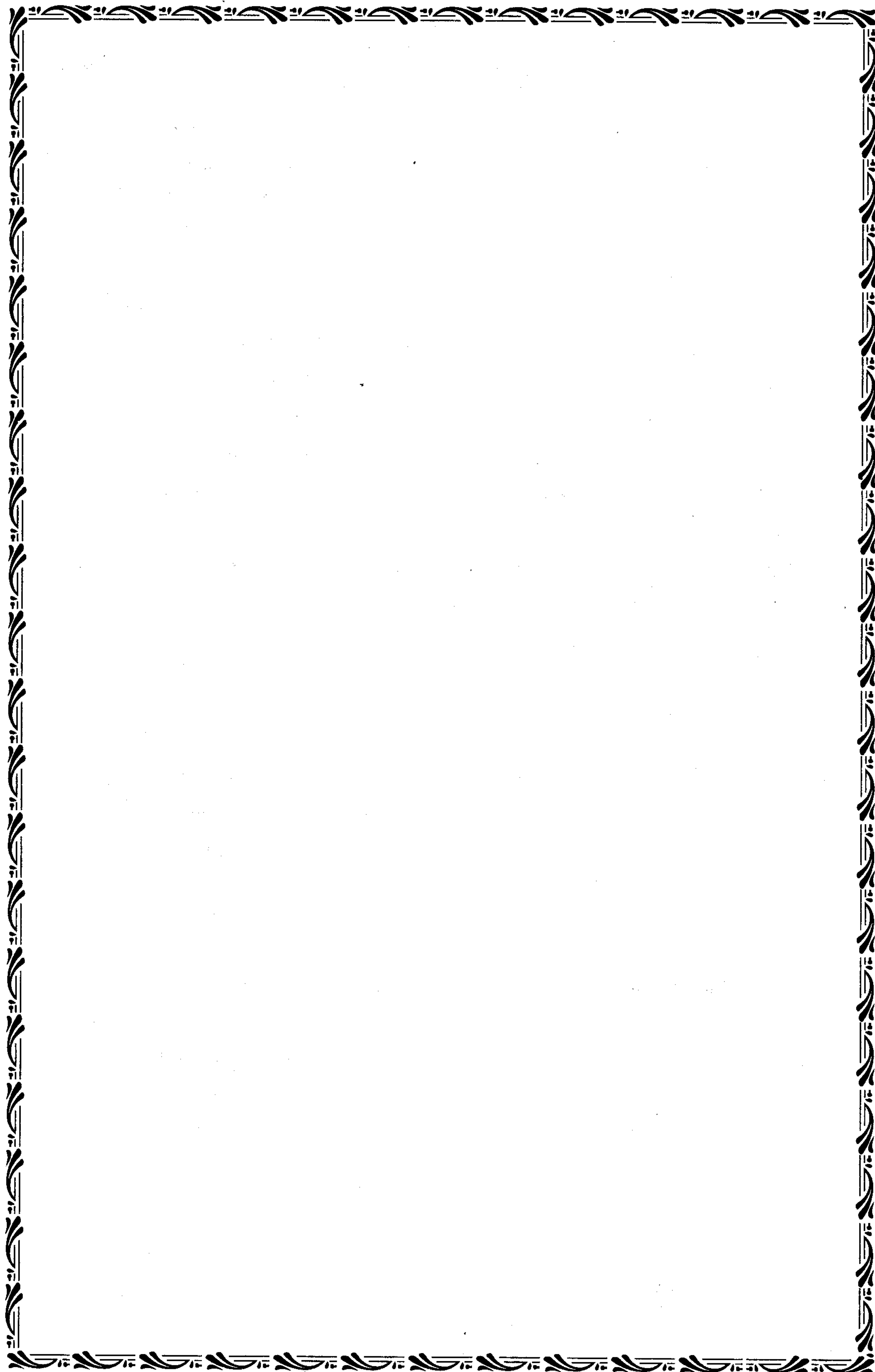

سورة المؤمنون

وهي مكّيّةٌ أيضاً

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الفَلاحُ هو البقاءُ، أي بَقِيَ المؤمنونَ، وقالَ قائلونَ: الفَلاحُ السعادةُ. وقالَ [آخرونَ][١]: الفَلاحُ الفوزُ وأمثالُهُ.

وفي[٢] قولِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دلالةٌ أنَّ مِنَ المؤمنينَ مَنْ [لم يَكنْ][٣] بهذا الوصفِ الذي وَصَفَ هؤلاءِ، وأنَّ اسْمَ الإيمانِ يَقَعُ بدونِ الذي ذَكَرَ[٤]، لأنهُ لو لم يكُنْ لِذِكْرِ ما ذَكَرَ مِنَ الخُشوعِ في صلاتِهِمْ والحِفظِ لِفُروجِهِمْ و الإعراضِ عنِ اللّغْوِ مَعْنىً، دلَّ أنهُ يكونُ مؤمناً بِغَيرِ الوَصْفِ الذي وَصَفَ هؤلاءِ. وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وقوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فَدَلَّ أنَّ فيهِمْ مَنْ ليسَ بِعَدْلٍ، وفيهِمْ مَنْ لا يُرْضَى في الشهداءِ حينَ[٥] خصَّ العَدْلَ و المَرْضِيَّ في الشهادةِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قالَ الحَسَنُ: الخُشوعُ، هو الخَوفُ الدائمُ اللازِمُ في القَلْبِ. وقالَ غَيرُهُ: الخُشوعُ في القَلْبِ.

وأصلُ الخُشوعِ، هو آثارُ ذُلٍّ مِنْ خَوفٍ يَظْهَرُ في الوجهِ والجوارحِ كلِّها. ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ[٦]: الخُشوعُ في الصلاةِ، هو ألّا يَعْرِفَ مَنْ عَنْ يَمينِهِ وشِمالِهِ، لأنَّ ذلكَ يَشْغَلُهُ عَنِ العِلْمِ [بِما يَتْلُوهُ][٧]. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللّغْوُ كأنهُ اسْمُ كلِّ باطلٍ، واسْمُ كلِّ ما يُلْغَى، ولا يُعْبَأُ بِهِ. أخْبَرَ أنهمْ يُعْرِضونَ عنْ كلِّ باطلٍ وعنْ كلِّ مانُهُوا عنهُ، ويُقْبِلونَ على كلِّ طاعةٍ وكلِّ[٨] ما أُمِروا بِهِ.

الآية ٤ [وقولُهُ تعالى:][٩] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ تَحْتَمِلُ الزكاةُ الزكاةَ التي بها تَزْكو أنفُسُهُمْ عند اللهِ. وجائزٌ [أنْ تكونَ][١٠] الزكاةَ المعروفةَ المَعْهودَةَ، أخْبَرَ أنهمْ/ ٣٥٣ ـ ب/ فاعلونَ ذلكَ مُؤَدُّونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا مِنَ المؤمنينَ [إخباراً عَنْ طاعَتِهِمْ][١١] للهِ تعالى والائْتِمارِ لأمْرِهِ والرِّضا بِهِ مُقابلَ ما كانَ مِنَ المُنافِقينَ مِنَ الكراهيةِ في الإنفاقِ والصلاةِ على الكَسَلِ والمُراآةِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الآية [النساء: ١٤٢] وقولِهِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وقولِهِ[١٢]: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧] نَعَتَهُمْ بالكَسَلِ والخِلافِ وتَرْكِ الإنفاقِ والمُراآةِ في الطاعاتِ. ونَعَتَ المُؤمِنينَ بِضِدِّ ذلكَ وبالرَّغْبَةِ في أوامِرِهِ والانْتِهاءِ عَنْ مَعاصيهِ ونَواهيهِ.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ اسْتَثْنى في هذا، لأنَّ هذا مِمّا يَحِلُّ في حالٍ، ويُحْرُمُ في حالٍ. وأمّا اللّغْوُ وما ذَكَرَ فلا[١٣] يَحِلُّ بِحالٍ، واللّغْوُ حَرامٌ في الأحوالِ كُلِّها، وكذلكَ تَرْكُ أداءِ الأمانةِ والزكاةِ والصلاةِ مِمّا لا يَحِلُّ تَرْكُهُ بِحالٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هؤلاء. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: في الآية. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بعض. (٧) في الأصل وم: بمن بابه. (٨) في الأصل وم: وبكل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: من الطاعة. (١٢) في الأصل وم: وقولهم. (١٣) في م: من أول الآية إلى آخرها لا.

[وقولُهُ تعالى:][١] ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ذَكَرَ[٢] ألا تَلْحَقَهُمْ لائمةٌ في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ لوجهَيْنِ:

أحَدُهُما: [لِرَدِّ قولِ][٣] الثَّنَوِيَّةِ، لأنهمْ لا يَرَوْنَ التَّناكُحَ، فأخْبَرَ أنْ [لا لائمةَ][٤] في هذينِ وإنما اللائِمَةُ في غَيرِ هذينِ.

والثاني: ذَكَرَ لإبطالِ المُتْعَةِ، لأنهُ اسْتَثْنى الأزواجَ وما مَلَكَتْ أيمانُهُمْ، والمُتْعَةُ لَيسَتْ في هذينِ اللَّذَينِ اسْتَثْناهُما.

ثم أخْبَرَ أنْ لا لائمةَ في هذينِ، وفي ما عَداهُما لائمةٌ. والمُتْعَةُ مِمّا عدا هذينِ، وهي[٥] ما قالَ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور: ٣٣]. وإلى هذا يُصْرَفُ حِفْظُ الفروجِ. وإلّا كانَ عامَّةُ الناسِ يَحْفَظُونَ فُروجَهُمْ عنِ الزِّنا، ويَعْرِفونَ حُرْمَتَهُ، لكنهُمْ كانوا يَسْتَبيحونَ المُتْعَةَ والإجازةَ فيها، فَحَرَّمَ ذلكَ.

الآية ٧ ثم قالَ: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ والعادي هو المُتَجاوِزُ[٦] عنِ الحَدِّ الذي حُدَّ لهُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ تَحْتَمِلُ الأماناتُ العباداتِ أوِ الفرائضَ التي فُرِضَتْ عليهِمْ، راعَوها أي أدَّوها في أوقاتِها، والعُهودُ التي فيما بَينَهُمْ وبَينَ الحَقِّ راعَوها أي حَفِظوها، وأدَّوها إلى أربابِها، ولم يُضَيِّعوها واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ تكونُ [المحافظةُ على الصلاةِ][٧] بوجوهٍ:

أحَدُها: [يُحافِظونَ عليها][٨] بأركانِها وفَرائِضِها ولَوازِمِها وآدابِها.

والثاني: [يُحافِظونَ عليها][٩] بأسْبابِها التي جُعِلَتْ لها مِنَ الأوقاتِ والطَّهاراتِ وسَتْرِ العَوْراتِ وغَيرِها مِنَ الأسبابِ التي لا تقومُ الصلاةُ إلّا بها.

والثالثُ: [يُحافِظونَ عليها][١٠] بالخُشوعِ والوَقارِ وإظهارِ الذُّلِّ لهُ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ مِمّا نُدِبَ المُصَلّي إليهِ. وعلى ذلكَ جميعُ ما ذُكِرَ مِنَ الأماناتِ وغَيرِها، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٠ و١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الوارثُ هو الباقي عَنِ المُورِّثِ. وقالَ الله ﷻ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ [مريم: ٤٠] أي إنا نَحْنُ باقونَ عَنِ الخَلْقِ، أي يَفْنى الخلائقُ، وهو يَبْقى. أو يكونُ قولُهُ: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ هكذا هو ما وَعَدَ اللهُ عبادَهُ: الجنةُ إنْ أجابوهُ، وإليها دعاهُمْ بقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] فَمَنْ تَرَكَ إجابَتَهُ يَصِرْ [إلى المَوعِدِ الذي أُوعِدَ بِهِ][١١]. فتلكَ الوِراثةُ التي ذَكَرَ اللهُ تعالى.

وقولُهُ[١٢] تعالى: ﴿الْفِرْدَوْسَ﴾ قيلَ: هو بلسانِ الرومِ: بُسْتانٌ. سَمّى اللهُ تعالى الجنةَ بأسماءٍ مُخْتَلِفَةٍ. منها: عَدْنٌ [ومنها نَعيمٌ، ومنها مَأْوى، ومنْها فِرْدَوسٌ، وهي في][١٣] الحقيقةِ واحدٌ، لأنَّ العَدْنَ هو المُقامُ، والنعيمُ هو ما يُنْعِمُ، ومَأْوى، فهي كذلكَ. ثم فِرْدَوسٌ وعَدْنٌ ومَأْوى نَعيمٌ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الفِرْدَوسُ رَبْوَةُ الجنةِ العُلْيا، وهي أوسَطُها وأحْسَنُها» [الترمذي ٣١٧٤] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو ما ذُكِرَ. وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][١٤] قالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] الخُشوعُ[١٥] الإقبالُ عليها. وعنِ ابْنِ عليٍّ رضي الله عنه [أنهُ][١٦] قالَ: الخُشوعُ في القَلْبِ، وأنْ تُلينَ كَنَفَكَ لِلْمَرْءِ المُسْلِمِ، وألّا تَلْتَفِتَ في صلاتِكَ. وقيلَ: التواضعُ، وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ حُرٍّ، أي مِنْ أجْوَدِ الطينِ. ذَكَرَ مَرَّةً ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ومَرَّةً ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦و٢٨و٣٣] ومَرَّةً قالَ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] ومَرَّةً

---

(١) ساقطة من م. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لقول. (٤) في الأصل: الانمة، في م: اللائمة. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: المجازي. (٧) في الأصل وم: محافظة الصلاة. (٨) في الأصل وم: يحافظونها. (٩) في الأصل وم: يحافظونها. (١٠) في الأصل وم: يحافظونها. (١١) في الأصل وم: الموعد الذي وعد له إن أجاب من أجابه. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ونعيم ومأوى وفردوس وفي. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: قال. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

[قال][1]: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ونَحوَهُ، وهو آدمُ ﷺ وذلكَ على تغْيِيرِ الأحوالِ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً﴾ أي ثم خَلَقنا وَلَدَهُ وذُرِّيَّتَهُ مِن نُطفةٍ. أخْبَرَ [عن][2] أصلِ ما خَلَقَ آدمَ منهُ، وأصلِ ما خَلَقَ وَلَدَهُ منهُ، وهي النُّطفةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الرَّحِمُ. وجائزٌ أنْ يكونَ القرارُ هو صُلْبَ الرجلِ، لأنَّ النُّطفَةَ لا تُخلَقُ في الصُّلبِ أوَّلَ ما يُخلَقُ الإنسانُ، ولكنْ تُجعَلُ فيهِ مِنْ بَعْدُ. فيكونُ الصُّلْبُ قَرارَها ومكانَها إلى وَقْتِ خُروجِها منهُ إلى الرَّحِمِ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] الرَّحِمُ. وقالَ بعضُهُمْ: المُستَقَرُّ الرَّحِمُ، والمُستَودَعُ الصُّلْبُ.

وجائزٌ أنْ يكونا جميعاً واحداً، أيُّهما كانَ الرَّحِمَ أوِ الصُّلْبَ، لأنَّ كِلَيهِما قَرارٌ، وما يَستَوعِبُ فيهِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ وغَيرُه: السُّلالةُ صَفوَةُ الماءِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ والنُّطفَةُ هي المَعروفَةُ. والعَلَقَةُ: الدَّمُ[3]. والمُضغَةُ القِطعَةُ مِنَ اللحمِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ يُخبِرُهمْ عَنْ تَحويلِهِ إياهُمْ و تَقْليبِهِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ لِوُجوهٍ:

أحَدُها: يُخبِرُ عَنْ قُدرَتِهِ وسُلطانِهِ وعلْمِهِ وتَدْبيرِهِ، لِيَعلَموا أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ العَلَقَةِ مِنَ النُّطفَةِ، ما لوِ اجْتَمَعَ الخَلائقُ جميعاً على أنْ يَعْرِفوا سَبَبَ خَلْقِ هذا معَ إحاطَةِ عِلْمِهِمْ أنْ ليسَ فيها مِنْ آثارِ العَلَقَةِ شيءٌ، ما قَدَروا على ذلكَ، وعلى ذلكَ جميعُ ما ذَكَرَ [العَلَقَةَ منَ النُّطفَةِ][4] والمُضغَةُ مِنَ العَلَقَةِ، والعَظمُ مِنَ المُضغَةِ، والإنسانُ مِن ذلكَ كلِّهِ؛ يُخبِرُ[5] أنه قادرٌ بذاتِهِ.

فَمَنْ قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على إنشائِهِمْ مِنَ الأصلِ مِنْ لا شَيءٍ، ويَقْدِرُ على إحيائِهِمْ بَعْدَ ما صاروا تراباً. والأعجوبَةُ في خَلْقِ الإنسانِ ممّا ذَكَرَ مِنَ النُّطفَةِ والعَلَقَةِ والمُضغَةِ، ليسَ بدونِ خَلْقِهِ إياهُمْ مِنَ الترابِ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا.

والثاني[6]: فيهِ دلالةُ عِلْمِهِ الذاتيِّ لأنَّ مَنْ قَدَرَ على تحويلِهِمْ من حالٍ إلى الحالِ[7] التي ذَكَرَ في الظُّلُماتِ الثلاثِ دلَّ أنهُ عالمٌ بذاتِهِ، لا بِعِلْمٍ مُستَفادٍ مِنْ أحدٍ، ولا قُوَّةٍ مُكتَسَبَةٍ، ولكنهُ بالعِلْمِ الذاتيِّ والقُوَّةِ الذاتيَّةِ، لأنَّ مِنْ عِلْمِهِ يُستَفادُ، ومِنْ قُوَّتِهِ يُستَفادُ[ويُكتَسَبُ، لا يَبْلُغُ أحَدٌ][8] ذلكَ.

والثالثُ[9]: فيهِ دلالةُ تَدْبيرِهِ لِخُروجِ الخَلْقِ جميعاً وتوالُدِهِمْ مِنْ أوَّلِ أمْرِهِمْ إلى آخرِ ما يَنْتَهونَ على جَرْيٍ واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ على غَيرِ تَغْييرٍ في التوالُدِ والتَّناسُلِ الذي جَعَلَ فيهِمْ.

وكذلكَ جميعُ ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ النباتُ ومِنَ الأشجارِ الأوراقُ في كلِّ عامٍ وفي كلِّ سنةٍ، يَخْرُجُ على جَرْيَةٍ واحدةٍ وسَنَنٍ واحدٍ، لا يَتَغَيَّرُ، ولا يَتَفاوَتُ وَقْتُ خُروجِهِ. بل على تقديرٍ واحدٍ وميزانٍ واحدٍ. دلَّ أنهُ على تَدْبيرِ ذاتِ خَرَجَ، لا على الجُزافِ. وباللهِ الحَولُ والقُوَّةُ.

والرابعُ[10]: في ما ذَكَرَ مِنْ تحويلِهِ إياهمْ وتَقْليبِهِمْ[11] مِنْ حالٍ إلى [حالٍ][12] دلالةُ أنهُ لم يُنْشِئْهُمْ لأنفُسِهِمْ، وأنَّ مَنْ أنشأَ مِنَ العالَمِ سِواهُمْ إنما أنشأهُ لهمْ، وأنشأَ أنفُسَهُمْ لِعاقِبَةٍ. لأنهُ لو كانَ أنشأَ إياهُمْ لأنفُسِهِمْ ولِلْفَناءِ الذي ذَكَرَ في قولِهِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] لَكانَ يَتْرُكُهُمْ على حالٍ واحدةٍ، ولا يُحَوِّلُهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ.

فإذا حَوَّلَهُمْ وقَلَّبَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ دلَّ أنهُ لا لِلْمَوتِ الذي ذَكَرَ خَلَقَهُمْ خاصّةً بقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ/ ٣٥٤ ـ أ/ لَمَيِّتُونَ﴾ ولكنْ لعاقِبَةٍ تُقْصَدُ، وهي[13] البقاءُ الدائمُ [الذي][14] لا فناءَ فيهِ، وهو [ما][15] ذَكَرَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: الدم. (٤) في الأصل من العلقة من النطفة، في م: من النطفة و المضغة. (٥) في الأصل وم: على. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: حال. (٨) في الأصل وم: ومكتسبة لا يبلغ. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: وتقلب. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: و هو. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أمّا [أهلُ](١) التأويل فَمِنهُمْ مَنْ قال: نَفَخَ الرُّوحَ فيهِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وغيرِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنباتُ الشَّعْرِ ونَحْوُهُ، وهو قولُ قَتادةَ وغيرِهِ [وعَنِ الحَسَنِ وغيرِهِ](٢): ذَكَرٌ أو أنثى.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ غيرَ ما قالَ هؤلاءِ، وهو إظهارُ الجَوارِحِ والأعضاءِ وتركيبُها ما فيهِ دلالةُ [ذلكَ](٣) لأنهُ أخبَرَ أنهُ يُقَلِّبُهُ شيئاً واحداً مُصمَتاً، ليسَ بهِ هذهِ الجَوارِحُ والأعضاءُ، إنما يكونُ فيهِ آثارُها لا أعيُنُها، فَيُرَكِّبُ فيهِ أعيُنَ الجَوارِحِ والأعضاءِ حتى يكونَ إنساناً. فذلكَ هو إنشاءُ خَلْقٍ آخَرَ، ويكونُ نَفْخُ الروحِ ونَبْتُ الشعرِ في تركيبِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ومَنْ يُنكِرُ خَلْقَ الشيءِ لا مِنْ شيءٍ، أو يقولُ بِقِدَمِ العالَمِ، إنما يُنكِرُ ذلكَ لِما لم يَرَ في الشاهِدِ صُنْعَ شيءٍ لا مِنْ شَيءٍ، فَيُقالُ لهُ: وهل رَأيتَ إنشاءَ شيءٍ مِنْ لا شَيءٍ على إتلافِ الأصلِ حتى لا يَبْقَى لهُ أثرٌ. فإذا لم تَرَ هذا في الشاهِدِ، وقد رَأيتَ في الغائبِ إنشاءَ شَيءٍ مِنْ لا شَيءٍ على إتلافِ الأوَّلِ منهُ نَحْوَ النُّطْفَةِ تصيرُ عَلَقَةً على إتلافِ النُّطْفَةِ فيهِ، ونحوَ العَلَقَةِ تصيرُ مُضغَةً على إتلافِ العَلَقَةِ فيها إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. كلُّ ذلكَ مُنشَأً مِنْ آخَرَ. إنما كانَ بَعْدَ إتلافِ الأصلِ. فَهَلّا دلَّ(٤) ذلكَ أنَّ عَدَمَ الإنشاءِ في الشاهِدِ لا مِنْ شَيءٍ، لا يَدُلُّ على عَدَمِهِ في الغائبِ أنهُ حينَ(٥) قَدَرَ [على](٦) هذا يَقْدِرُ على كُلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يَستَدِلُّ على أنهُ إذا لم يكُنْ سِواهُ خالقاً لم يكُنْ لقولِهِ: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ معنى قولِهِ: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١ و...] وقولِهِ(٧): ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ونَحْوِهِ. وإنما قالَ هذا لِما يكونُ سِواهُ رحيماً حكيماً كريماً، فأخبَرَ أنهُ ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ و ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. فَعَلى ذلكَ ما قالَ: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

ولكنْ جائزٌ القولُ بِمِثْلِ هذا عندَ الناسِ على غَيرِ إثباتِ آخَرَ سِواهُ في ذلكَ حقيقةً. وهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ مِمّا تَنسُبونَ أنْتُمْ إليهِ، وتَجعَلونَهُ خالقاً عندَكُمْ كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]. فإبراهيمُ(٨) لم يُسَمِّ مَعْبودَهُمُ الذي(٩) عَبَدُوهُ إلهاً على جَعْلِ الألوهيَّةِ لهُ. ولكنْ على ما سَمَّوهُ هُمْ، ونَسَبوا الألوهيَّةَ إليهِ. وكذلكَ قولُ موسى حينَ(١٠) قالَ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] على ما عندَهُمْ، ليسَ على تَسْمِيَةِ الآلِهَةِ لهُ حقيقةً.

دلَّ ما ذَكَرْنا على أنَّ تَسْمِيَةَ ما ذَكَرَ وذِكْرَهُ يجوزُ، وإنْ لم يكنْ هنالكَ سِواهُ إلهاً خالقاً. وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] ليسَ على أنَّ لهمْ شُفَعاءَ، يَشْفَعونَ لهمْ، ولكنْ لا شُفَعاءَ لهمْ. فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرْنا.

والثاني: تأويلُ ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي لو جازَ أن يكونَ خالقٌ آخَرُ سِواهُ لكانَ(١١) هو أحْسَنَ الخالقِينَ.

ولكنْ لا يَجوزُ. وهو كقولِهِ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] أي لو جازَ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى ممّا ذَكَرَ. لكنْ لا يَجوزُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي لو جازَ أنْ يكونَ كذا لكانَ كذا ليسَ على أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ الآية [المؤمنون: ٩١] أي لو جازَ أنْ يكونَ معهُ إلهٌ لَذَهَبَ بما ذَكَرَ. لكنْ لا يَجوزُ. فَعَلى ذلك قولُهُ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي لو جازَ أنْ يكونَ هنالكَ خالقٌ غَيرُهُ لَكانَ هو أحسَنَ الخالقِينَ. ولكنْ لا يَجوزُ. واللهُ المُوَفِّقُ.

والثالثُ: ذَكَرَ ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لِما أنَّ العَرَبَ تُسَمّي كلَّ صانِعِ شيءٍ خالقاً. فَخَرَّجَ الذِّكْرُ لهمْ على ما يُسَمّونَهُ(١٢)

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: الذين. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لكن. (١٢) في الأصل وم: يسموه.

هِمْ، ليسَ على حقيقَةِ الخَلْقِ لِمَنْ دونَهُ كقولِ عيسى حينَ[1] قالَ ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أو أنْ ذَكَرَ أنَّ العالَمَ، أصلُهُ مِنْ أربعِ طَبائِعَ: مِنَ الحرارةِ والبُرودةِ واليُبوسَةِ والرُّطوبَةِ.

أو يكونُ كقولِ[2] بَعْضِ الفلاسِفَةِ: إنّ العالَمَ، أصلُهُ مِنْ أربعٍ أو مِنْ خَمْسٍ: مِنَ الماءِ والأرضِ والنارِ وغَيرِهِ.

فأخبَرَ أنهُ ليسَ كذا، ولكنْ هو خالِقُهُمْ لا مِنَ الأشياءِ التي تَوَهَّمُوا هُمْ.

وعلى قولِ مَنْ يقولُ: إنهُ [لو][3] يكونُ غَيرُهُ خالقاً لَكانَ الخَلْقُ غَيرَ دالٍّ على الخالقِ. وقد جَعَلَ اللهُ الخَلْقَ سَبَباً لِمَعْرِفَةِ الخالقِ. فلو كانَ غَيرُهُ خالقاً لَكانَ الخَلْقُ غَيرَ دالٍّ على مَعْرِفَةِ الخالقِ لأنهُ قالَ: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الرعد: ١٦]

أخبَرَ أنهُ لو كانَ سِواهُ في ذلكَ لَتشابَهَ الخَلْقُ عليهِمْ، فإذا تَشابَهَ لم يكُنْ سَبَباً لِمَعْرِفَةِ ما أخبَرَ في إثباتِ عَدَدِ الآلهةِ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] فإذنْ بَطَلَ هذا، ولم يَجُزْ عَدَدُ الآلهةِ و إثباتُ الألوهِيَّةِ لِغَيرِهِ. فَعَلَى ذلكَ في الخَلْقِ على الوُجوهِ [التي ذَكَرْناها][4].

الآيتان ١٥ و١٦ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ قد ذَكَرْنا فيما تَقَدَّمَ أنَّ المَقصودَ مِنْ خَلْقِ هذا العالَمِ لم يَكُنِ الإماتَةَ والإفناءَ، ولكنَّ [المَقصودَ][5] عاقِبَةٌ، تَأمُّلٌ، وتُقصَدُ، حينَ[6] قَلَبَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ثم لم يَتْرُكْهُمْ على حالةٍ واحدةٍ.

فلو كانَ المَقصودُ مِنْ خَلْقِهِمُ الفَناءَ والهَلاكَ، لا غَيرَ، لَكانَ تَرَكَهُمْ على حالٍ واحدةٍ، ولم يُقَلِّبْهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ. فَدَلَّ التَّحْويلُ والتَّقْليبُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ على أنَّ المَقصودَ مِنَ الخَلْقِ العاقبةُ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، أنهُ إخبَرَ أنَّ خَلْقَهُمْ، بلا عاقِبَةٍ، يُقْصَدُ بها، عَبَثٌ حينَ[7] قالَ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَهُمْ لا لِلرُّجوعِ إليهِ عَبَثاً، وقالَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ الآية [النحل: ٩٢] صَيَّرَ نَقْضَ الغَزْلِ بَعْدَ إبرامِهِ وقُوَّتِهِ سَفَهاً منها.

فلا جائزٌ أنْ يُسَفِّهَ تلكَ المرأةَ بِنَقْضِ غَزْلِها بَعْدَ الإحكامِ والإبرامِ بلا نَفْعٍ يكونُ لها، ثم هو يَفْعَلُ ذلكَ، إذْ خَلْقُ الخَلْقِ لِلْفناءِ والهلاكِ خاصَّةً عَبَثٌ ولَهْوٌ. وعلى ذلكَ بِناءُ البناءِ في الشاهدِ لا لِعاقِبَةٍ ومَنْفَعَةٍ، ولكنْ لِلْهَدْمِ والنَّقْضِ سَفَهٌ ولَعِبٌ. لذلكَ قُلْنا: إنَّ خَلْقَ الخَلْقِ لا لِلْموتِ خاصَّةً، ولكنْ لِما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ أي تُحْيَوْنَ.

قالَ القُتَبِيُّ [في قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢]][8] يُقال لِلْوَلَدِ: سُلالَةُ أبيهِ، ولِلْخَمْرِ سُلالَةٌ، ويُقالُ: إنما جَعَلَ آدَمَ مِنْ سُلالَةٍ لأنهُ سُلَّ مِنْ كلِّ تُرْبَةٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: السُّلالَةُ: الخالصُ مِنْ كُلٍّ. قالَ أبو مُعاذٍ: النَّسْلُ الوَلَدُ يُنْسَلُ مِنْ [تَحْتِ][9] كلِّ شَعْرَةٍ. وقالَ القُتَبِيُّ: المُضْغَةُ اللحمةُ الصغيرةُ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنها بِقَدْرِ ما يُمْضَغُ كما قيلَ: غُرْفَةٌ بِقَدْرِ ما يُغْرَفُ. وقولُهُ: ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ أي [مكانٍ حَريزٍ][10] وهو الرَّحِمُ أو الصُّلْبُ، أيُّهما كانَ فهو ما وَصَفَ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَبْعَ سمواتٍ. وقالَ بعضُهُمْ: سَبْعَةَ أفلاكٍ.

يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، أيُّهما كانَ السمواتِ أو الأفلاكَ التي جَعَلَ لأمرِ[11] الخَلْقِ ولِحَوائِجِهِمِ لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: يُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ وغِناهُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ ما ذَكَرَ وإنشائِهِ بلا سَبَبٍ قادرٌ على إنشاءِ الخَلْقِ لا مِنْ شيءٍ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لقول. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الذي ذكرناه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: مكانا حريزا. (١١) من م، في الأصل: الأمر.

والثاني: أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على بَعْثِهِمْ وإحيائِهِمْ بَعْدَ الموتِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي سَبْعَ سمواتٍ، كلُّ سماءٍ طريقةٌ، ويُقالُ: هي الأفلاكُ، كلُّ واحدٍ طريقٌ، وإنما سَمّى طرائِقَ لأنَّ بَعْضَها فَوقَ بَعْضٍ، يُقالُ طارَقْتُ الشيءَ إذا جَعَلْتُ بَعْضَهُ على بعضٍ. ويُقالُ: ريشُ [الطائِرِ][1] طرائقُ. وغيرُهُ قالَ: طرائقُ أهواءٌ مُخْتَلِفَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي لم نَخْلُقْهُمْ على جَهْلٍ/ ٣٥٤ ـ ب/ مِنّا بأحوالِهِمْ، ولكنْ على عِلْمٍ منّا بذلكَ. ولا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ خَلْقُهُ إيّاهُمْ على عِلْمٍ منهُ، ثم يَخْلُقُهُمْ لِلْفَناءِ لا للعاقِبَةِ تُتأمَّلُ. لأنَّ مَنْ فَعَلَ هذا في الشاهِدِ فإنما يَفْعَلُ إمّا لِلْجَهْلِ أو لِحاجَةٍ، واللهُ يَتعالَى عنْ ذلكَ كلِّهِ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ خَلْقَ ما ذُكِرَ. أي إذا عَرَفْتُمْ أنَّ خَلْقَ هذهِ الأشياءِ لا لأنفُسِها ولكنْ لأنفُسِكُمْ ولِمَنافِعِكُمْ فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ خَلْقُها لكُمْ بِلا مِحْنَةٍ ولا ابْتِلاءٍ. فإنْ ثَبَتَتِ المِحْنَةُ فيكُمْ ثَبَتَ الثوابُ والعقابُ. فإذا ثَبَتَ [هذا ثَبَتَ][2] البعثُ والحياةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِقَدَرٍ﴾ بِعِلْمٍ منّا. وقالَ بعضُهُمْ: ما تَقَعُ لهمُ الحاجةُ والكِفايَةُ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي مَعْلُومٍ مُقَدَّرٍ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتَأَخَّرُ، ولا يَزْدادُ، ولا يَنْتَقِصُ. ولكنْ على ما قُدِّرَ. وكذلكَ جميعُ الأشياءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَذْكُرُ هذا، ويُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على اسْتِنْزالِ الماءِ مِنَ السماءِ يَقْدِرُ على البَعْثِ وعلى خَلْقِ الشيءِ لا مِنْ شيءٍ، إذْ لا أحَدَ مِنَ الخَلائِقِ يَقْدِرُ على ذلكَ إلّا بالحِيَلِ التي عَلَّمَهُ اللهُ. أو[3] يقولُ: إنهُ حينَ[4] جَعَلَ مَنافِعَ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ [السماءِ][5] ومَنافعَ السماءِ [مُتَّصِلَةً][6] بمنافِعِ الأرضِ [مَعَ بُعْدِ][7] ما بَيْنَهُما دَلَّ اتِّصالُ مَنافِعِ أحدِهِما بالآخَرِ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهُما على أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ، ومُدَبِّرَهُما واحدٌ عالِمٌ بذاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ الآية [الملك: ٣٠].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي بالماءِ ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي الكرومِ [يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ][8] التي أنْعَمَها عليهِمْ مِنَ الماءِ الذي بِهِ حياةُ الأبدانِ والأشياءِ جَميعاً لِيَسْتَأْدِيَ بِهِ شُكْرَهُ وعبادَتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وإنْ كانَ قولُهُ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجَنّاتِ حينَ[9] ذَكَرَ أنهُ أنشأَها لنا ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ ففيهِ حُجَّةٌ لأبي حَنيفَةَ[10]، رَحِمَهُ اللهُ، أنَّ مَنْ حَلَفَ ألّا يأكُلَ فاكِهَةً فأكَلَ عِنَباً لم يَحْنَثْ لأنَهُ[11] ذَكَرَ النَّخيلَ والأعنابَ، وذَكَرَ فيها الفواكِهَ على حِدَةٍ، وإنْ كانَ يَعْنِي بِهِ النَّخيلَ والأعنابَ، فليسَ فيهِ حُجَّةٌ لهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي أنْشَأْنا لَكُمْ أيضاً شَجَرَةً في طورِ سيناءَ.

ثم الشجرةُ التي تكونُ في الجبالِ، لا صُنْعَ لِلْخَلْقِ في إنباتِها، وما يكونُ في الجِنانِ والبَساتينِ إنّما يكونُ بِإنْباتِ الخَلْقِ. ثم أضافَ كِلَيهِما: ما يكونُ لِلْخَلْقِ فيهِ صُنْعٌ، وما لا يكونُ. دلَّ إضافةُ ذلكَ إليهِ كلُّهُ على أنَّ [للهِ في فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً][12] وأنَّ جميعَ ما يكونُ إنما يكونُ بِصُنْعٍ منهُ ولُطْفٍ، ويُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةَ اللهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ مِنْ إنشاءِ الجِنانِ لهمْ والنخيلِ والأعنابِ والفَواكِهِ التي ذُكِرَ لِيَسْتَأْدِيَ بِذلكَ شُكْرَهُ.

وفيهِ دلالةُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ حينَ[13] أنشأَ الشَّجَرَةَ، وأخرَجَها مِنَ الجَبَلِ، وهو أشَدُّ الأشياءِ وأصلَبُها، [ثم أنشأَ][14] في تلكَ الشَّجَرَةِ الدُّهْنَ، وهو أَلْيَنُ الأشياءِ وألطَفُها. فَيُخْبِرُ أنَّ [مَنْ][15] قَدَرَ على إخراجِ أَلْيَنِ الأشياءِ مِنْ أشَدِّها وأصلَبِها لا يُعْجِزُهُ شيءٌ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: أن يكون. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: لبعد. (٨) في الأصل وم: يذكر نعمة الله. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، في الأصل: يوسف. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: الله في فعل العباد صنع. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وفيه أنْ لا بأسَ بِقِرانِ شيءٍ إلى شيءٍ، فَيُؤْكَلانِ[١] جميعاً، وضَمّ بَعْضِهِ[٢] إلى بَعْضٍ، فَيُجْمَعُ في الأكلِ حينَ[٣] قالَ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ وهو الإدامُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ الجَبَلُ بالسُّرْيانيَّةِ، والسِّيناءُ الحَسَنُ بالحَبَشيَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ الجَبَلُ وما ذُكِرَ، والسِّيناءُ الشَّجَرَةُ الحسناءُ. وقالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ هو الجَبَلُ الذي كَلَّمَ اللهُ موسى [مِنْ جانِبِهِ][٤] وأوحَى إليهِ، والشَّجَرَةُ الزيتونَةُ. وقالَ بعضُهُمْ: السِّيناءُ الحِجارةُ. وقالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ الجَبَلُ، والسِّيناءُ المُبارَكُ بما أوحِيَ إلى موسى. وقالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ الجَبَلُ والسِّيناءُ شَجَرٌ حَولَهُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ وحَفْصَةَ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ تُخرِجُ الدهنَ ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾. قالَ بعضُهُمْ: تُخرِجُ الثَّمَرَ. قالَ أبو مُعاذٍ: أنْبَتَ النَّباتُ، ونَبَتَ لُغَتانِ كَقولِكَ: أسْرَى، وسَرَى. وقالَ زهيرٌ:

[رَأَيْتُ ذَوِي الحاجاتِ حَولَ بُيوتِهِمْ ... قَطِيناً لهمْ حتى][٥] إذا أَنْبَتَ البَقْلُ[٦]

قالَ الكِسائيُّ: تقولُ: خَرَجْتُ بِزَيدٍ، وأخرَجْتُ زيداً. ولا تقولُ: أخرَجْتُ بزيدٍ إلّا أنْ تقولَ: أخرَجْتُ بِزَيدٍ عَمْراً.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ مِثْلِ الصِّباغِ كما يُقالُ: دِبْغٌ ودِباغٌ[٧]، ولِبْسٌ ولِباسٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ أي الصِّباغُ، وهو ما اصْطَبَغْتَ بِهِ مِنْ شيءٍ، أي غَمَرْتَهُ فيهِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ وفي[٨] سورةِ النحلِ: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [الآية: ٢١] قالَ بعضُهُمْ: إنما ذَكَرَهُ على الفَرْدِ والوُحْدانِ، وفي ما ذَكَرَهُ على التأنيثِ [أرادَ بِهِ][٩] الجمْعَ. وقالَ بعضُهُمْ في ما ذَكَرَهُ بالتَّذكيرِ أرادَ بِهِ جِنْساً مِنَ الأنعامِ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي﴾ بُطونِهِ، وهذا أشْبَهُ. وقد ذَكَرْنا هذا فيما تَقَدَّمَ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ وَجْهُ[١٠] العبرَةِ فيها مِنْ وجهَينِ:

[أحدُهُما][١١]: ما قالَ ابْنُ عباسٍ، وهو ما ذَكَرَ ﷺ ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ الآية [النحل: ٦٦] ففي ذلكَ عِبْرَةٌ ودلالةٌ على وَحْدانيَّتِهِ و رُبوبيَّتِهِ وعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وتَدْبيرِهِ ولُطْفِهِ، إذْ ليسَ شيءٌ منها إلّا وفيهِ[١٢] دلالةُ وَحْدانيَّتِهِ و رُبوبيَّتِهِ ودلالةُ عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وتَدْبيرِهِ.

[والثاني][١٣]: فيهِ أنهُ لم يُنْشِئْ هذهِ الأنعامَ لأنفُسِها، ولكنْ أنْشَأَها للبَشَرِ حينَ[١٤] أخبَرَ أنهُ سَخَّرَها لنا لِيَمْتَحِنَهُمْ بها.

ثم اختُلِفَ في الأنعامِ: قالَ مُقاتِلٌ الأنعامُ كلُّ شيءٍ يُؤْكَلُ لَحْمُهُ، ويُشْرَبُ لَبَنُهُ. وما لا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ، ولا يُشْرَبُ لَبَنُهُ فَليسَ مِنَ الأنعامِ. وقالَ أبو مُعاذٍ: إنَّ مِنَ الأنعامِ ما لا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ، ولا يُشْرَبُ لَبَنُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الأنعامُ كلُّ بَهيمةٍ حتى الوحشُ. والأشْبَهُ أنْ تكونَ الأنعامُ هي[١٥] الإبلَ، ولكنا لا نَعْلَمُ حقيقةً، إنما هو اللسانُ، فهو على ما يُسَمّيهِ أهلُ اللسانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ قيلَ: مِنَ الحَمولَةِ وغَيرِها، وقد ذَكَرْنا هذا في سورةِ النحلِ[١٦].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ في ما سَخَّرَ لهمْ مِنَ الأنعامِ والسفنِ لِيَسْتَأْدِيَ بهِ شُكْرَهُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ يُرَدِّدُ ﷺ أنباءَ أولي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وأخبارَهُمْ، ويُكَرِّرُها على رسولِ اللهِ لِيكونَ أبداً يَقْظانَ[١٧] مُنْتَبِهاً، ويَعْرِفَ أنْ كيفَ عامَلَ أولو العَزْمِ قومَهُمْ؟ كيفَ صَبَرَ أولو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ على أذى قومِهِمْ وتكذيبِهِمْ إياهُمْ لِيُعامِلَ[١٨] هو قومَهُ مِثْلَ مُعامَلَتِهِمْ، ويَصْبِرَ على

---

(١) من م، في الأصل: فهو كان. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: بعضهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) انظر الديوان ص ١١١. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: على. (١٠) في الأصل وم: ووجه. (١١) في الأصل وم: وجه أحدهما. (١٢) في الأصل وم: و فيها. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: هو. (١٦) في تفسير الآية: ١٦. (١٧) في الأصل وم: يقظانا. (١٨) في الأصل وم: ليتعامل.

أذى قومِهِ مثلَ ما صَبَرَ أولئكَ على أذى قومِهِمْ وتكذيبِهِمْ إياهُمْ. لهذا ما يُرَدِّدُ، ويُكَرِّرُ أنباءَهُمْ عليهِ، ويَعْرِفُ قومُهُ أيضاً ألّا يَظْفروا[١] بما يأمُلُونَ مِنْ تكذيبِهِمُ العاقِبَةَ. بلِ العاقبةُ تَصيرُ لهُ على ما صارَتْ لِأولي العَزْمِ مِنَ الرسلِ لا لِقَومِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَةَ اللهِ؟.

[والثاني: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾][٢] مخالفة رسولِهِ؟.

[والثالث][٣]: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادةَ غيرِ اللهِ؟.

[والرابعُ[٤]: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَهُ ونَقِمَتَهُ وَوَعيدَهُ][٥].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا الذي قالوا، هو مُتَناقِضٌ، لأنهمْ قالوا: إنهُ ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بما ادّعَى مِنَ الرسالةِ والإجابةِ إلى [ما][٦] دعاهُمْ. ثم هُمْ أعني الرُّؤساءَ منهمْ والقادةَ ادَّعَوا لأنفُسِهِمُ الفَضلَ بما استَتْبَعُوا هُمُ السَّفَلَةَ، وطَلَبوا منهُمُ المُوافَقَةَ لهمْ والإجابَةَ، وهمْ بَشَرٌ أمثالُهُمْ. فذلكَ تناقُضٌ في القولِ.

ثم أقَرُّوا بِتَفْضيلِ بعضِ الخَلْقِ على بعضٍ، وعَرَفوا قُدْرَةَ اللهِ على ذلكَ حينَ[٧] قالوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ فَمَنْ[٨] قَدَرَ على تَفْضيلِ/ ٣٥٥ ـ أ/ [الملائكةِ على البَشَرِ قَدَرَ على تَفْضيلِ][٩] بعضِ البَشَرِ على بَعْضٍ. ثم أخبَرَ عنْ نوحٍ أنهُ لا يُريدُ بما ادّعَى مِنَ الرسالةِ التَّفَضُّلَ عليهِمْ، ولكنْ يُريدُ النُّصْحَ لهمْ والإشفاقَ عليهِمْ حينَ[١٠] قالَ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقالَ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩ والشعراء: ١٣٥] وقالَ[١١]: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ونَحْوَ ما قالَ أخْبَرَ أنهُ إنما أرادَ النُّصْحَ والشَّفَقَةَ لا التَّفَضُّلَ الذي قالوا هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا قولُهُمْ وقد كَذَبوا في قولِهِمْ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ قد عَرَفوا أنهُ ليسَ بهِ جنونٌ [ولكنْ أرادوا التَّلْبيسَ والتَّمْويهَ على قومِهِمْ حينَ[١٢] خالَفَهُمْ في جميعِ أمورِهِمْ، وعادَى الرُّؤساءَ منهمْ والقادةَ، ويقولونَ: ما يَفْعَلُ هذا إلّا لِجُنونٍ][١٣] فيهِ وآفَةٍ أصابَتْهُ في عَقْلِهِ، وإلّا عَرَفوا هُمْ في أنفسِهِمْ، أعني القادةَ، أنهُ ليسَ بِمَجْنونٍ، ولكنْ أرادوا التَّمْويهَ على قومِهِمْ، ثم قالوا: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لسْنا ندري ما أرادوا بالحينِ: أردوا الموتَ أو وقْتَ ارْتِفاعِ ما قالوا فيهِ مِنَ الجنونِ أو أرادوا وقتاً آخَرَ.

قالَ مُقاتِلٌ: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بالرسالةِ، وليسَ عليكُمْ فضلٌ في شيءٍ، فَتَتَّبِعونَهُ. وقولُهُ: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي بالعذابِ ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ويُقالُ: ما سَمِعْنا التوحيدَ ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما يَدْعُو نوحٌ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ لم يَدْعُ عليهِمْ بأوّلِ ما كَذَّبوا، وإنما دعا عليهِمْ بَعْدَ ما أيِسَ مِنْ عَودِهِمْ إلى تَصديقِهِ، وهو ما قالَ: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وقالَ أهلُ التأويلِ: انْصُرْني بِتَحْقيقِ ما وَعَدْتَ لهمْ مِنَ العذابِ، بأنهُ نازلٌ بهمْ في الدنيا، وعذابِهِمْ بما كَذَّبوني في قولي بأنَّ العذابَ نازلٌ بهمْ في الدنيا. أو يكونُ قولُهُ: ﴿ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أيِ اجْعَلْ ليَ الظَّفَرَ عليهِمْ بالتكذيبِ ونَحْوِهِ.

---

(١) في الأصل وم: يظفرون. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في م: أو. (٥) من م، مدرجة قبل: أو ﴿أفلا تتقون﴾ عبادة غير الله. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: فإن. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في م: حيث. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: بِمَنْظَرٍ منّا. وقالَ بعضُهُمْ: بِمَرْأَى منّا.

وجائزٌ أنْ يكونَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، ظنَّ لمّا أمَرَ باتّخاذِ الفُلْكِ أنهمْ لا يتْرُكونَهُ أنْ يَتَّخِذَ الفُلْكَ؛ فأخبَرَهُ ﷺ أنكَ تَتّخِذُهُ بحيثُ نَراهُ؛ ونَنْصُرُكَ عليهِمْ بحيثُ لا يَمْلِكونَ مَنْعَكَ عنِ اتّخاذِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي بأمرنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي إذا جاءَ المَوعودُ بأمرِنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أو أنْ يقولَ: إذا جاءَ وقتُ أمرِنا بالعذابِ، وفارَ ما ذَكَرَ أي خَرَجَ الماءُ مِنَ التَّنُّورِ، وظَهَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ قيلَ: أدْخِلْ فيها. يُقالُ: سَلَكْتُ [وأسْلَكْتُ، وهو مِنَ][1] الإدخالِ كقولِهِ: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [القصص/ ٣٢] أي أدْخِلْ. وتفسيرُ ﴿فَٱسْلُكْ﴾ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ نَعْتاً[2] لقولِهِ: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ مِنَ الذَّكَرِ و الأُنثَى. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ أي كلّ زَوجَينِ عَدَدَينِ لَونَينِ أبيضَ وأسْوَدَ وطيِّبٍ وخبيثٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي احْمِلْ أهْلَكَ أيضاً في السفينةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالعذابِ والهلاكِ، وقد ذَكَرْنا هذا في سورة هودٍ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيه. قالَ قائلونَ: إنما نهاهُ عنْ مُخاطَبَتِهِ في الذينَ ظَلَموا حينَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥] نهاهُ عَنْ أنْ يَسْألَهُ. فإنْ كانَ على هذا فَقولُهُ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ أي لا تُراجِعْني في نَجاتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ مِنَ المؤمنينَ ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هكذا الواجبُ على كلِّ مَنْ أنْجاهُ اللهُ مِنَ الظَّلَمَةِ أنْ يَحْمَدَ ربَّهُ على ذلكَ، يَسْألُهُ النَّجاةَ إذا ابْتُلِيَ بهِمْ كما عَلَّمَ نوحاً أنْ يقولَ ما ذَكَرَ، ويَحْمَدَهُ على النَّجاةِ منهمْ، وكما قالَ موسى حينَ خَرَجَ مِنْ عندِهِمْ خائفاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، وكما سألَتِ امْرَأةُ فِرْعَونَ النَّجاةَ مِنْ فِرْعَونَ وقومِهِ حينَ قالتْ: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

الآية ٢٩ ثم علَّمَهُ ربُّهُ أنْ يَسْألَهُ الإنزالَ في مُنْزَلٍ مُبارَكٍ حينَ[4] قالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾. ثم يَحْتَمِلُ سؤالُهُ المُنْزَلَ المُبارَكَ جميعَ الخَيراتِ[5] والحَسَناتِ وعَمَلَ الصالحاتِ. ويَحْتَمِلُ سؤالُهُ المُنْزَلَ المُبارَكَ المَوضِعَ الذي فيهِ السَّعَةُ والخِصْبُ على ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: المُبارَكَ بالماءِ والشجرِ وغيرِهِ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ دلالةُ إباحةِ سُؤالِ السَّعَةِ والخِصْبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي [إنّ][6] في إهلاكِ قومِ نوحٍ وإغراقِهِمْ لآياتٍ لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ بآياتٍ تَفَضُّلاً مِنّا وإحساناً سِوَى ذلكَ. ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ، وهو أنَّ قولَهُ: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ بِسُوَرِ الآياتِ التي كانتْ.

وجائزٌ في اللغةِ إنْ بِمَعْنَى ما.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ، وهو أنَّ قولَهُ: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي قدِ ابْتلاهُمْ قَبْلَ إهلاكِهِ إياهمْ.

ولسْنا نَعْرِفُ ما حقيقةُ هذا الكلامِ؟ وما مُرادُهُ؟ واللهُ أعلَمُ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] أي أدْخِلْ فيها. يُقالُ: سَلَكْتُ الخَيطَ في الإبرةِ، وأسْلَكْتُهُ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ كذلكَ.

(١) في الأصل وم: و هو. (٢) في الأصل وم: نعت. (٣) في تفسير الآية ٤٠ (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: الخير.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ هذا مِنَ الابتلاءِ، أي الاختبارِ. ومِنَ البَلاءِ: لَمُبْلِينَ[1].

الآيتان ٣١ و٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ عاداً وغيرَهُمْ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ قالوا هوداً ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ جميعُ الأنبياءِ والرسلِ إنما بُعِثوا بالدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وجَعْلِ العبادةِ[2] لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَتَهُ أو عبادةَ مَنْ دونَهُ وجميعَ مَعاصيهِ على ما ذَكَرْنا مِنْ قبْلُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بالبَعْثِ ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ أو بَسَطْنا لهمْ في الدنيا حتى رَكِبوا المَعاصِيَ. وقالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ الغَنِيُّ الطاغي. وقولُهُ تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

الآية ٣٤ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ الآية. قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهمْ تَناقَضُوا[4] في قولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى قولِهِمْ[5]: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لِما أنهمْ مَنَعوا الأتباعَ عَنْ أنْ يَتَّبِعوا الرسولَ[6]، ويُطيعوهُ، لأنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، ثم طَلَبوا منهمُ الطاعةَ لهمْ والاتّباعَ في أمورِهِمْ، وهمْ بَشَرٌ أمثالُهُمْ. فذلكَ تَناقُضٌ في القولِ وفَسادٌ.

الآيتان ٣٥ و٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ استِبْعادُ الأمرِ وإنكارُهُ، أي بَعيداً بَعيداً، أي الأمرُ[7] لا يكونُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ إنْ كانَ هذا القولُ مِنَ الثَّنَوِيَّةِ والدَّهْرِيَّةِ فقولُهُمْ[8]: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ همْ بأنفسِهِمْ، لأنهمْ يقولونَ: يموتُ الإنسانُ، فَيَحْيَا غيرُهُ مِنَ البَقَرِ والحُمُرِ، وغيرُهُ مِنْ تُرابِهِ إذا أُكِلَ.

وإنْ كانَ هذا القولُ مِنْ غيرِ الثَّنَوِيَّةِ فنقولُ: قولُهُمْ[9]: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموتُ نَحْنُ، ويَحْيَا الأبناءُ[10]. وذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: نَحيا، ونَموتُ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هذا قولُهُمْ[11].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ٤٠ [وقولُهُ تعالى][12]: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ أي عنْ قريبٍ يَنْدَمونَ بتكذيبِ[13] هذا القولِ الذي قالوهُ، والإنكارِ الذي أنكَروهُ، لا شَكَّ في ذلكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]/ ٣٥٥ ـ ب/ أي وَسَّعْنا عليهمْ حتى أُتْرِفوا، والتُّرْفَةُ النِّعْمَةُ[14]، ومِثْلُها تُحْفَةٌ، كأنَّ المُتْرَفَ، هو الذي يُتْحَفُ.

وقالَ غَيرُهُ: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ أي وأنْعَمْنا عليهِمْ، وبَسَطْنا لهمْ. فَكُلُّهُ يَرْجِعُ إلى واحدٍ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] هذا تَبْعيدٌ للأمرِ، أي إنهُ أمرٌ بَعيدٌ على ما ذَكَرْنا أنهُ لا يكونُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ قد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ قالَ بعضُهُمْ: الغُثاءُ اليابِسُ الهامِدُ كَنَباتِ الأرضِ إذا يَبِسَ. وقالَ بعضُهُمْ: الغُثاءُ هو الذي يَحْمِلُهُ السَّيْلُ [مِنَ العيدانِ][15]. قالَ أبو معاذٍ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٥] أي أسودَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غُثَآءً﴾ أي مَوتَى.

---

(١) في الأصل وم: مبلون. (٢) في الأصل وم: عبادة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تناقض. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) في الأصل وم: الرسل. (٧) في الأصل وم: آمر. (٨) في الأصل وم: فقوله. (٩) في الأصل وم: قوله. (١٠) من م، في الأصل: الأنبياء. (١١) من م، في الأصل: قوله. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: بالتكذيب عن. (١٤) في الأصل وم: منه. (١٥) في الأصل وم: بالموج.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ: ﴿غُثَآءً﴾ أي كالشَّيءِ المَنْسِيِّ الذي لا يُذْكَرُ البَتَّةَ، لأنَّ أولئكَ الفَراعنةَ والأكابرَ إذا هَلَكوا لم يُذْكَروا البَتَّةَ [ولا][1] افتَخَرَ أحدُهُم مِنْ أولادِهِمْ بهِمْ مِنْ بَعْدِ الهلاكِ كما افتَخَرَ أولادُ الأنبياءِ والرُّسُلِ والصالِحينَ بآبائهِمْ وأجدادِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، وصاروا مذكورينَ إلى أبَدِ الآبِدينَ. فأمّا أولئكَ فصاروا خامِلِي الذِّكْرِ كالشَّيءِ الخَسيسِ المَنْسِيِّ المَتروكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ الغُثاءُ ما ذَكَرْنا، وعلى[2] قولِ بعضِهِمْ: كالرَّميمِ الهامِدِ الذي يَحْمِلُهُ السيلُ، وعلى[3] قولِ بعضِهِمْ: كالشيءِ البالي المُتَغَيِّرِ، وعلى [قولِ بعضِهِمْ][4]: الغُثاءُ ما ارْتَفَعَ على الماءِ مِمّا لا يُنْتَفَعُ بِهِ، وكُلُّهُ واحدٌ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿غُثَآءً﴾ أي هَلْكَى كالغُثاءِ، وهو ما على السَّيْلِ مِنَ الزَّبَدِ والقَمْشِ، لأنهُ يَذْهَبُ، ويَتَفَرَّقُ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: الغُثاءُ ما يَحْمِلُ السَّيْلُ مِنَ العِيدانِ والبَعْرِ، والأغْثِيَةُ جميعٌ، والغُثاءُ حَمْلُ السَّيْلِ.

ثم ذَكَرَ أنْفُسَ قومِ عادٍ وثَمودَ، وشَبَّهَها بما ذَكَرَ مِنَ الغُثاءِ، وكذلكَ يَذْكُرُ جميعَ أهلِ الشرورِ والفَسادِ، وذَكَرَ في أهلِ الخَيرِ أعمالَهُمْ لا أنْفُسَهُمْ، لأنَّ لهمْ أعمالَ الخَيرِ والصلاحِ، فَتَجعَلُ أنْفُسَهُمْ حَيَّةً بالأعمالِ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤] جَعَلَ أعمالَهُمْ أحاديثَ في ما بَينَهُمْ.

وأمّا أهْلُ الكُفْرِ والشَّرِّ فإنهمْ[5] لا أعمالَ لهمْ تُذْكَرُ، فَتُذْكَرُ أنْفُسُهُمْ بُعْداً وسُحْقاً.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ قيلَ: مِنْ بَعْدِ قومِ عادٍ وهؤلاءِ ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾.

الآية ٤٣ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ كأنهُ ذَكَرَ هذا لِما كانوا يَسْتَعْجِلونَ العذابَ المَوعودَ والهَلاكَ الذي أُوعِدُوا. فأخبَرَ أنَّ لكلِّ أمةٍ أجلاً[7]، لا تَسْبِقُ أجَلَها باسْتِعْجالِ[8] مَنْ يَسْتَعْجِلُ ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أجَلَهُمْ[9] الذي جُعِلَ لهمْ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [تِباعاً واحداً][10] بَعْدَ واحدٍ وبَعْضاً[11] على إثْرِ بَعْضٍ ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهَلاكِ الأوَّلِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ ولِمَنْ بَقِيَ منهمْ، يعني [مِنَ][12] الذينَ أُهْلِكوا ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ٤٥ [وقولُهُ تعالى][13]: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ٤٦ [وقولُهُ تعالى][14]: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] قالَ[15] بعضُهُمْ: مُتَكَبِّرينَ مُتَجَبِّرينَ وقالَ[16] أبو عَوسَجَةَ: هو مِنَ العُلُوِّ، ليسَ مِنَ التَّعالي، والتَّعالي لا يُوصَفُ بِهِ الخَلْقُ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿تَتْرَا﴾ أي تَتَتابَعُ بِفَتْرَةٍ بَينَ كلِّ رسولَينِ، وهو مِنَ التَّواتُرِ. والأصلُ: وَتْرَى، فَقُلِبَتِ الواو تاءً كما قَلَبوها في التَّقوى والتُّخَمَةِ والتُّكْلانِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَتْرَا﴾ بَعْضُهُمْ على إثْرِ بعضِهِمْ [وهو مِنَ المُتابَعَةِ][17].

وفي قولِهِ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ دلالةُ أنَّ أهلَ الفَتْرَةِ ومَنْ كانَ في ما بَينَ بَعْثِ الرسلِ، لا عُذْرَ لهمْ في شيءٍ لإبقاءِ الحُجَجِ والبراهينِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ آخَرُ وحُسْنِ آثارِهِمْ وأعلامِهِمْ. أخبَرَ أنهُ أرسَلَ الرُّسُلَ تِباعاً بَعْضاً على [إثْرِ][18] بعضٍ وأنهُ[19] كانَ بينَ بَعْثِهِمْ فَتْرَةٌ لِما أبْقَى الحُجَجَ والبراهينَ وآثارَ الرُّسُلِ وأعمالَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بعض. (٥) في الأصل وم: فإنه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أجل. (٨) في الأصل وم: بالاستعجال. (٩) في الأصل وم: أجلها. (١٠) في الأصل وم: تباع واحد. (١١) في الأصل وم: وبعض. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وقال. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، في الأصل: وهي من التابعة. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل دم: وإن.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَذْهَبُ: تَرْفَعُهُمْ بَعْدَ ما كُنَّا عالِينَ عليهِمْ، تَجْعَلُهُمْ عالِينَ علينا، وكانوا لنا عابدينَ؟ أي تَرْفَعُهُمْ فَوقَنا، ونكونَ تَحْتَهُمْ، ونحنُ اليومَ فَوقَهُمْ، وهُمْ تَحْتَنا. كيفَ تَصْنَعُ ذلكَ؟ [ذلكَ][1] واللهُ أعلَمُ، حينَ أتوهما[2] بالرسالةِ.

الآية ٤٨ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بالتكذيبِ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ حَرْفُ لَعَلَّ لِموسى، أي آتينا موسى الكتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتدونَ عندَهُ. ولَعَلَّ: حَرْفُ رَجاءٍ وتَرَجٍّ. ولكنْ يُسْتَعْمَلُ مَرَّةً على الإيجابِ والإلزامِ، ومَرَّةً على النَّهْيِ كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الشعراء: ٣] أي لا تَبْخَعْ نفسَكَ، وقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ١٢] أي لا تَتْرُكْ بَعْضَ ما يُوحَى إليكَ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: يقولُ الرجلُ لآخَرَ: لَعَلَّكَ تَفْعَلُ كذا، أي لا تَفْعَلْ. ونَحْوَهُ.

وحَرْفُ: لَعَلَّ مِنَ اللهِ يَحْتَمِلُ الإيجابَ والإلزامَ والنَّهْيَ، ومِنَ الخَلْقِ على النَّهْيِ والتَّرَجِّي، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ خصَّ عيسى ﷺ وأمَّهُ بأنْ جَعَلَهُما آيةً. وجميعُ البَشَرِ في مَعْنَى الآيةِ واحدٌ، إذْ خُلِقوا جميعاً مِنْ نُطْفَةٍ، ثم حُوِّلَتِ النُّطْفَةُ عَلَقَةً، والعَلَقَةُ مُضْغَةً، إلى آخِرِ ما يَنْتَهي إليهِ، فَيَصيرُ إنساناً.

فالآيةُ والأُعجوبةُ في خَلْقِ الإنسانِ مِنَ النُّطْفَةِ وممّا ذَكَرْنا إنْ لم تكنْ أكثَرَ وأعظَمَ لم تكنْ دونَ خَلْقِهِ بلا أبٍ ولا زوجٍ وما ذَكَرَ، لكنهُ خَصَّهما بِذِكْرِ الآيةِ فيهما لِخُروجِهما عنِ الأمرِ المُعْتادِ في الخَلْقِ، إذِ العادةُ الظاهرةُ فيهِمْ أنْ يُخْلَقوا مِنَ النُّطْفَةِ والأبِ والتَّزاوُجِ [والأسبابِ التي][4] جُعِلَتْ للتَّوالُدِ والتَّناسُلِ الذي يجري في ما بينَهُمْ[5]. والأُعجوبَةُ في خَلْقِ البَشَرِ مِنَ النطفةِ وما ذَكَرَ إنْ لم تكُنْ أكثَرَ وأعظَمَ لم تكنْ دونَهُ: وهو ما خَصَّ بني إسرائيلَ بالخِطابِ بالشكرِ لِما أنْعَمَ عليهِمْ مِنَ المَنِّ والسَّلْوى، ولِما أنجاهُمْ مِنْ [فِرْعَونَ وآلِهِ بقولِهِ:][6]: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [إبراهيم: ٦] وقولِهِ[7]: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧و١٢٢].

وقد كانَ عليهِمْ مِنَ النِّعَمِ ما هو أعظَمُ وأكثَرُ مِنَ المَنِّ والسَّلْوى ونَجاتِهِمْ مِنْ فِرْعَونَ وآلِهِ. لكنَّهُ خَصَّهُمْ بِذِكْرِ المَنِّ والسَّلْوى، واستَأْدى منهُمُ الشكرَ بذلكَ مِنْ بَينِ سائرِ النِّعَمِ لأنها خَرَجَتْ عنِ المُعْتادِ مِنَ النِّعَمِ المَعْروفةِ، وهُمْ كانوا مَخصوصينَ بهذا مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ.

فَعَلى ذلكَ عيسى وأُمُّهُ كانا خارِجَينِ عنِ الأمرِ المُعْتادِ ومَخصوصَينِ بذلكَ. لذلكَ خَصَّهُما بِذِكْرِ الآيةِ، والآيةُ ما ذَكَرَ بَعْضُ أهْلِ التأويلِ أنهُ خُلِقَ مِنْ غَيرِ أبٍ؛ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنْ غَيرِ بَعْلٍ وأمثالُها.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في عيسى بأنْ كَلَّمَ الناسَ في المَهْدِ صَبِياً ونَحْوِهِ مِنْ إبراءِ الأكْمَهِ والأبْرَصِ وإحياءِ المَوتى ومِثْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ ذَكَرَ أنهُ آواهُما إلى رَبْوَةٍ كما يُؤْوِي الأبُ والأُمُّ الوَلَدَ إلى مَكانٍ، يَتَعَيَّشُ بِهِ؛ إذِ الرَّبْوَةُ هي مكانُ التَّعَيُّشِ فيهِ. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ ﴿ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ هو المكانُ الذي يُسْتَقَرُّ فيهِ، ويُتَعَيَّشُ، وقالَ[8]: ﴿وَمَعِينٖ﴾ المَعينُ هو الماءُ الجاري الظاهرُ الذي تأخُذُهُ العيونُ، وتَقَعُ عليهِ الأبصارُ؟.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنما خاطَبَ بهذا محمداً خاصَّةً على ما يُخاطِبُ هو. والمُرادُ منهُ جميعُ أُمَّتِهِ في ذلكَ. ولكنْ جائزٌ أنْ يُقالَ: خاطَبَ به جميعَ الرُّسُلِ لأنهمْ جميعاً مُخاطَبونَ بهذا كلِّهِ مِنْ أكلِ الطَّيِّباتِ والعَمَلِ الصالحِ؛ هذا الخِطابُ فيهِ وفي غَيرِهِمْ؛ إذْ عَمَّهُمْ جميعاً بهذا. ثم [قولُهُ تعالى][9]: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يُرادَ بِهِ الحَلالاتُ؛ كأنهُ قالَ: كُلوا حَلالاً غَيرَ حَرامٍ.

---

(١) في م: وذلك، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أتوهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: و الأسباب التي جعل للتوالد في الخلق لخروجها عن الأمر المعتاد في الخلق و العادة الظاهرة خصهما بذكر الآية. (٦) في الأصل وم: آل فرعون. (٧) في الأصل وم: و قال. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) ساقطة من الأصل وم.

ألا ترى/ ٣٥٦ ـ أ/ أنهُ قالَ: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [أي اعمَلوا صالحاً][(١)] ولا تعمَلوا سيِّئاً؟ فعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي كُلُوا حَلالاً، ولا تأكُلوا حَراماً: ما خَبُثَ.

وفيهِ أنهمْ يُمْتَحَنونَ كما يُمْتَحَنُ غيرُهُمْ بالأمْرِ والنَّهْيِ.

ويَحتَمِلُ أيضاً قولُهُ: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ما طابَتْ بِهِ أنفُسُكُمْ، وتَلَذَّذْتْ. فإنْ كانَ على هذا فهو يُخرَّجُ على الإباحةِ والرُّخصَةِ، ليسَ على الأمْرِ. مَعناهُ: لكُمْ أنْ تأكُلوا ما تَستَطيبُ بِهِ أنفُسُكُمْ، ولكُمْ أنْ تُؤثِروا غيرَكُمْ بِهِ على أنفُسِكُمْ. وإنْ كانَ على الأمْرِ فهو على الأمْرِ يُخرَّجُ والنَّهْيِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ظاهرٌ، وهو وعيدٌ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في الكُتُبِ المُتَقدِّمَةِ وعلى لسانِ الرُّسُلِ السالِفَةِ كقولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي كُنتُمْ خيرَ أمَّةٍ في الكُتُبِ المُتَقدِّمَةِ وفي الأُمَمِ الماضيَةِ. فعَلى ذلكَ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي دينُكُمْ دينٌ واحدٌ، ومِلَّتُكُمْ مِلَّةٌ واحدةٌ، وهي الإسلامُ. وقالَ بعضُهُمْ: لسانُكُمْ لسانٌ واحدٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا تَختَلِفونَ في رسولِكُمْ إلى يومِ القيامةِ كما اختَلَفَ الأُمَمُ الذينَ مِنْ قَبلِكُمْ في رسلِهِمْ، بل تَجعَلونَ[(٢)] رَسولَكُمْ رسولاً على ما هو عليهِ. وأمّا سائرُ الأُمَمِ فإنهمْ قد فرَّطوا فيهِمْ حتى كانَ فيهِمْ جَعْلُ الرسولِ ابْناً لهُ كقولِهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وأمّا هؤلاءِ فإنهمْ لا يزالونَ على أمرٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ كقولِهِ[(٣)] في آيةٍ أخرى ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] جائزٌ أنْ يكونا واحداً. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ اتَّقوا[(٤)] مُخالَفَتي [وقولُهُ][(٥)]: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ اعْبُدوني[(٦)]، وأطيعوني.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ وقَطَّعوا[(٧)] واحدٌ، وهما لُغتانِ: تَفرَّقوا وفرَّقوا. ﴿زُبُرًا﴾ برَفْعِ الباءِ، وزُبْراً بنَصْبِ الباءِ[(٨)].

قالَ أبو مُعاذٍ: مَنْ قَرأَ بالنَّصْبِ: زُبَراً فمَعْناهُ قِطَعاً كقولِهِ: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] وزُبُراً بالرَّفْعِ أي كُتُباً كقولِهِ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقولِهِ: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] ونَحوُهُ؛ وقالَ: في حَرفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ: وقَطَّعوا الزُّبورَ بَيْنَهُمْ. قالَ أبو مُعاذٍ: قَطَّعوا، وتَقَطَّعوا لُغتانِ كَقولِكَ عَلِقْتُ الشيءَ، وتَعَلَّقْتُهُ، وحَوَّلْتُ، وتَحَوَّلْتُ، ووَلَّيْتُ، وتَوَلَّيْتُ، ونَحْوُهُ كثيرٌ.

[وقولُهُ تعالى][(٩)]: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ راضونَ أو مَسْرورونَ بما لَدَيْهِمْ مِنَ الدينِ أو ما ذَكَرْنا.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى][(١٠)]: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كقولِهِ[(١١)] في آيةٍ أُخرى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ [الزخرف: ٨٣] وقولِهِ[(١٢)]: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] فذلكَ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: قالَ ذلكَ[(١٣)] عندَ الإياسِ عَنْ إجابَتِهِمْ لمّا عَلِمَ أنهمْ لا يؤمنونَ؛ وذلكَ في قومٍ مَخْصوصِينَ، كأنهُ قالَ: ذَرْ هؤلاءِ، واقْبَلْ[(١٤)] هؤلاءِ الذينَ يَقْبَلونَ بأمْرِكَ، ويُجيبونَ دعاءَكَ، ويَسْمَعونَهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تجعلوا. (٣) في الأصل وم: و قال. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ادرج قبلها في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: و تقطعوا. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٤/ ٢١٥ (٩) ساقطة من الأصل وم.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) من م، في الأصل: كذلك. (١٤) من م، في الأصل: وقيل.

والثاني: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ ولا تُكافِئْهُمْ حتى أنا أكافِئُهُمْ كقولِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥].

والثالثُ: أمَرَهُ أنْ يَذَرَهُمْ، ويُعْرِضَ عنهمْ لئلا يَخوضوا في سَبِّ اللهِ والطَّعْنِ في الآيةِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآيةِ [الأنعام: ٨٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ القيامَةَ، ويَحْتَمِلُ وقتاً[١] آخرَ، لم يُبَيِّنْ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] الربوةُ المكانُ المُرْتَفِعُ، وآوَيْتُهُ أي آوَيْتُهُ. وقالَ القُتَبِيُّ: الرَّبْوَةُ الارْتِفاعُ، وكلُّ شيءٍ ارْتَفَعَ، أو زادَ، فقد ربا، ومنهُ الرِّبا في البيعِ. قالَ أبو مُعاذٍ: لِلْعَرَبِ في الرَّبْوَةِ أربعُ لُغاتٍ: رَبْوَةٌ ورِبْوَةٌ ورُبْوَةٌ ورَباوَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَعينُ الماءُ الظاهرُ الجاري، والقَرارُ الثباتُ، وتقولُ منهُ: [قَرَّ][٢] يَقَرُّ قَراراً، فهو قارٌّ، وأقْرَرْتُهُ أي أثْبَتُّهُ، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: وقالَ: ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماءٌ ظاهرٌ، وهو مَفْعُولٌ مِنَ العَينِ، كانَ أصْلُهُ مَعْيُونًا[٣] كما يُقالُ: ثوبٌ مَخِيطٌ، وبُرٌّ مَكِيلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ قيلَ: في ضَلالَتِهِمْ. [قالَ القُتَبِيُّ:][٤] الغَمْرُ الماءُ الكثيرُ، وغَمْرَةُ الحَرْبِ وَسَطُها، وغَمْرَةُ[٥] الموتِ [شِدَّتُهُ، ورجلٌ][٦] غَمْرٌ أي سَخِيٌّ، ليسَ لهُ جَمْعٌ، وجَمْعُهُ غِمارٌ، ويقالُ: غَمَرَهُ الماءُ أي صارَ فوقَهُ، والغَمْرُ العَداوةُ[٧]، والغَمْرُ الذي لم يُجَرِّبِ الأمورَ، وقومٌ أغمارٌ، والغَمَرُ الدَّسَمُ، والغَمْرَةُ الشِّدَّةُ، والغَمَراتُ جميعٌ، والغُمَرُ القَدَحُ الصغيرُ، والمُغامَرةُ المُخاطَرَةُ، تقولُ: غامَرَ بِنَفْسِهِ أي خاطَرَ [بها][٨].

الآيتان ٥٥ و٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ حَسِبَ أولئكَ الكَفَرَةُ أنَّ ما أمَدَّ لهمُ اللهُ مِنَ الأموالِ والبنينَ وما[٩] أعطى لهمْ أنَّ ما أعطى خيراً وبِرّاً، لا شَرًّا. فأخبَرَ ﷻ وكَذَّبَهُمْ في حسابِهِمْ الذي حَسِبوا، فقالَ: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنهُ إنما أعطى لهمْ ذلكَ شَرًّا وإثماً. فَعَلَى ما حَسِبَ أولئكَ الكَفَرَةُ في ما أُعطوا مِنَ الأموالِ والبَنينَ إنما أُعطوا خيراً.

حَسِبَ المُعْتَزِلَةُ في قولِهِمْ: أنَّ اللهَ تعالى لا يَفْعَلُ بأحدٍ مِنَ الخَلْقِ إلّا ما هو أصلحُ لَهُمْ في الدينِ، فأخبَرَ ﷻ أنَّ ذلكَ ليسَ بِخَيْرٍ لهمْ في الدينِ، ولا أصْلَحَ لهمْ، وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وهمْ يقولونَ: إنما نُمْلي لهمْ لِيَزْدادوا خيراً وبِرّاً. وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥و٨٥] وهمْ يقولونَ: لا بل إنما أرادَ لِيَرْحَمَهُمْ بها. فَيُقالُ لهمْ: أأنتمْ أعلَمُ أمِ اللهُ كما قالَ لأولئكَ الكَفَرَةِ حينَ قالَ: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ [البقرة: ١٤٠] إلّا أنْ يُكابِروا.

وقولُهُ[١٠] تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لِما أنهمْ قالوا ذلكَ على الظَّنِّ والحُسْبانِ لا على العِلْمِ حينَ[١١] قالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ فقالَ: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ حينَ[١٢] قالوا ذلكَ ظَنًّا وحُسْباناً. وإنما الواجبُ عليهمْ أنْ يَعْلَموا ذلكَ عِلْمَ إحاطةٍ ويقينٍ.

فجوابُ هذا أنْ يُقالَ: إنَّ عندَهُمْ أنَّ ذلكَ إنما أُعْطِيَ لهمْ، وأُمْلِيَ خيراً وبِرّاً لهمْ، فكانوا على يَقينٍ مِنْ ذلكَ وإحاطةٍ عندَ أنفسِهِمْ، وإنما ذلكَ الظَّنُّ والحُسْبانُ لهمْ ممّا عندَ اللهِ، وإلّا كانوا على حقيقةِ العِلْمِ عندَ أنفسِهِمْ أنهُ إنما أعطاهُمْ، وأمَدَّ لهمْ خيراً. فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ في ذلكَ، وردَّ عليهِمْ قولَهُمْ أنهُ إنما أعطاهُمْ ذلكَ لِما ذَكَروا، بل أخبَرَ أنَّ ما أعطاهُمْ لِمُضادَّةِ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وقت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: معيون. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و قال. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: شدتها رجل. (٧) في الأصل وم: عداوة. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: في قوله. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: حيث.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا موصولاً بقولِهِ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ على التَّقْديمِ والتَّأخير. فكأنهُ قالَ: إنما نُسارعُ في[1] الخيراتِ للذينَ هم مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهم مُشْفِقونَ إلى آخرِ ما ذَكَرَ [لا لأولئكَ][2] الكَفَرَةِ.

وجائزٌ[3] أنْ يكونَ على الابْتِداءِ وَصَفَ الذينَ آمَنوا، ونَعَتَهُمْ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي مِنْ عذابِ ربِّهِمْ مُشْفِقونَ، أي مِنْ عذابِ ربِّهِمْ خائفونَ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الإيمانُ بالآياتِ يكونُ إيماناً باللهِ حقيقةً لأنَّ الآياتِ هُنَّ الأعلامُ التي تَدُلُّ على وَحْدانيَّةِ اللهِ ورُبُوبِيَّتِهِ. والإيمانُ هو التصديقُ. فإذا صَدَّقَ آياتِهِ، وهُنَّ أعلامٌ وأخبارٌ، تُخْبِرُ عنْ وَحْدانيَّةِ اللهِ. فإذا صَدَّقَها صَدَّقَ اللهَ، وآمَنَ به. لِذلكَ قُلْنا: الإيمانُ بآياتِهِ يكونُ إيماناً باللهِ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي لا يُشْرِكونَ غيرَهُ في عبادتِهِمْ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ وفي بعضِ القراءاتِ: والذينَ يأْتونَ ما آتوا: مَقْصورةً، وهي قراءةُ عائشةَ[4]. فَمَنْ قَرَأَ: يأْتونَ ما آتوا فتأويلُهُ[5]: أي الذينَ يَعْمَلونَ مِنْ عَمَلٍ، وَجِلَتْ/ ٣٥٦ ـ ب/ لهُ قلوبُهُمْ: أيَتَقَبَّلُ[6] منهمْ أمْ لا؟ ومَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ فهو مِنَ الإعطاءِ والإنفاقِ؛ يقولُ: والذينَ يُعْطونَ، ويُنْفِقونَ ما أنْفَقوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أنَّ ذلكَ يُقْبَلُ منهمْ أمْ لا.

وفيهِ دلالةُ أنَّ المُطيعَ في ما يُطيعُ ربَّهُ يكونُ على خَوفٍ منهُ كالمُسيءِ في إساءتِهِ وكذلكَ «رُوِيَ عنْ عائشةَ أنها سَألَتْ رسولَ اللهِ، صلّى اللهُ تعالى عليهِ، وسَلَّمَ عنْ هذهِ الآيةِ، قالَتْ: أهُمُ الذينَ يَشْرَبونَ الخَمْرَ، ويَسْرِقونَ، ويَزْنونَ؟ فقالَ: لا، ولكنهمُ الذينَ يَصومونَ، ويُصَلّونَ، ويَتَصَدَّقونَ، وهم يَخافونَ ألّا يُقْبَلَ منهمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]» [الترمذي ٣١٧٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ لا على ذلكَ، ولكنْ على ما يَذْكُرُ: أي قلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أنهمْ يَرْجِعونَ إلى ربِّهِمْ على السَّعادةِ أمْ على الشَّقاوةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أخبَرَ أنَّ الذينَ نَعَتَهُمْ، ووَصَفَهُمْ، هُمُ الذينَ يُسارعونَ في الخَيراتِ لا أولئكَ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أي سَبَقوا أولئكَ الكَفَرَةَ بها.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا، وقالَهُ، لمّا عَمِلَ أولئكَ مِنَ الأعمالِ[7] التي لا تَسَعُ، ولا تَحِلُّ، فقالوا: اللهُ أَمَرَهُمْ بذلكَ بقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فقالَ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إلّا ما يَسَعُها، ويَحِلُّ كقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] رَدّاً لِقَولِهِمْ وتَكْذيباً.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ يقولَ: لا نُكَلِّفُ نفساً مِنَ الأعمالِ إلّا وُسْعَها أي طاقَتَها. وذلكَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي لا يُكَلِّفُ أحدٌ مِنَ العَمَلِ ما يُتْلِفُ طاقَتَهُ وَسَعَتَهُ فيهِ؛ لا يُكَلِّفُ الغَنِيُّ مِنَ الإعطاءِ ما يُتْلِفُ بهِ طاقَتَهُ وحياتَهُ، ولكنهُ إنما أمَرَهُ، وكَلَّفَهُ، بأمورٍ تَحْتَمِلُ طاقَتُهُ[8] ذلكَ العملَ والأمْرَ. فإنْ كانَ كذلكَ فَدَلَّ ذلكَ أنهُ لم يُرِدْ بهِ طاقةَ العَمَلِ وقدرَتَهُ، ولكنْ طاقةَ الأحوالِ التي يَجوزُ تَقَدُّمُها عنِ الأفعالِ[9].

والثاني: ذلكَ هذا لئلّا يقولوا: إنا لم نُطِقْ ما كَلَّفْنا لأنهمْ تَرَكوا الأعمالَ التي أُمِروا بها، وكُلِّفوا بأعمالٍ، مِثْلُها التي

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: لهم. (٢) في الأصل: لأنه أولئك، في م: لأولئك. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) أنظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٢١٧. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي يتقبل. (٧) في الأصل وم: أعمال. (٨) في الأصل وم: طاقتهم. (٩) في الأصل وم: الأحوال.

تَركوها، وهي المَعاصي التي عَمِلوها. فما أُمِروا مِنَ الأعمالَ ليسَ يَفوقُ التي عَمِلوها، ولكنْ مِثْلُها، فلا يكونُ لهمْ في ذلكَ احْتِجاجٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ قالَ قائلونَ: هو الكتابُ الذي يَكْتُبُ فيهِ أعمالَهُمْ وأفعالَهُمْ مِنَ الخَيراتِ والسَّيِّئاتِ. وذلكَ كُلُّهُ مَحفوظٌ مُحصِيٌّ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] فإنْ كانَ هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالتصديقِ.

وقالَ قائلونَ: هو الكتابُ الذي أُنْزِلَ إلينا، وهو هذا القرآنُ، يَنْطِقُ عليكُمْ بالحقِّ، أي بالحَقِّ الذي يكونُ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ، وهو كقولِهِ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الحَقِّ الذي لهُ علينا ومِنَ الحَقِّ الذي لِبَعْضِنا على بعضٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هو اللوحَ المحفوظَ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ أنَّ اللهَ لم يَزَلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ، في الأوقاتِ التي تكونُ [إلى][(1)] أبدِ الآبدينَ.

[وقولُهُ تعالى][(2)]: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فإنْ كانَ على الكتابِ الذي يَكْتُبُ فيهِ أعمالَهُمْ فيكونُ قولُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنْقَصُ مِنْ أعمالِهِمُ التي عَمِلوا مِنَ الخَيراتِ، ولا يُزادُ فيهِ على سَيِّئاتِهِمْ. بل يُحْفَظُ ما عَمِلوا. أو يكونُ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُزادُ على الجزاءِ على قَدْرِ أعمالِهِمْ، ولا يُنْقَصُ مِنْ قَدْرِها. بل يُجْزَوْنَ على قَدْرِ أعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ قيلَ في عَمايَةٍ وجَهالةٍ وغَفْلَةٍ ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ مِنَ الكتابِ الذي كَتَبَ فيهِ أعمالَهُمْ، وأحْصَى عليهِمْ. وقالَ قائلونَ في[(3)] قولِهِ: ﴿فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي مِنْ هذا القرآنِ الذي يَنْطِقُ بالحَقِّ، أي قلوبُهُمْ في عَمايَةٍ وغَفْلَةٍ مِنْ هذا القرآنِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ مِنَ الأعمالِ التي ذَكَرَ للمؤمنينَ في ما تَقَدَّمَ: مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧و٥٨] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ أعمالِهِمْ. فأخبَرَ أنَّ قلوبَ أولئكَ الكَفَرَةِ في غَفْلَةٍ وعَمايَةٍ عنِ الأعمالِ التي عَمِلَها المُؤمِنونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي مِنْ دونِ ما عَمِلَ أولئكَ الكَفَرَةُ مِنَ الأعمالِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها مِنْ قولِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤إلى٥٦] على [ما][(4)] ذَكَرَ. ثم أخبرَ أنَّ لهمْ أعمالاً مِنْ دونِ ما ذَكَرَ.

وقالَ قائلونَ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ يعني المؤمنينَ[(5)] الذينَ ذَكَرَ أعمالَهُمْ، أي لهمْ أعمالٌ دونَ التي[(6)] ذَكَرَ، لهمْ دونَ تلكَ الأعمالِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: ذلكَ في العذابِ الذي أخَذَ أهْلَ مكةَ في الدنيا مِنَ الجوعِ سِنينَ حتى أكلوا الجِيَفَ والعِظامَ [المُحَرَّمَةَ ونَحْوَها][(7)].

لكنَّ الأشبَهَ أنْ يكونَ ذلكَ في عذابِ الآخِرَةِ. ألا تَرَى أنهُ يقولُ: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي يَتَضَرَّعونَ؟

الآيتان ٦٥ و٦٦ ويقولُ أيضاً: [﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾][(8)] ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾؟ فإنما [يُخْبِرُهُمْ أنكُمْ][(9)] كنتمْ تَفْعَلونَ كذا في الدنيا، ويَذْكُرُ ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَتَضَرَّعوا إليهِ في الدنيا، ثم لا يَقْبَلُ منهمْ ذلكَ التَّضَرُّعَ [أو يَنهاهُمْ][(10)] عنِ التَّضَرُّعِ بقولِهِ ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ فَدَلَّ ذلكَ أنهُ في الآخِرَةِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤].

---

(١) ساقطة في الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: المؤمنون. (٦) في الأصل وم: الذي. (٧) في الأصل وم: المحرقة ونَحْوُهُ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يخبر أن. (١٠) من م، في الأصل: بقوله نهاهم.

مِثْلُ هذا يكونُ في الآخِرةِ، وفي الدنيا ما ذُكَرَ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] ذَكَرَ في عذابِ(1) الدنيا أنهمْ لم يَتَضرَّعوا [فلا يُحتَمَلُ أنْ يَتَضرَّعوا](2) في الدنيا عندَ نزولِ العذابِ بهمْ [ثم](3) لا يُقْبَلُ منهمُ التَّضرُّعُ والاِسْتِكانَةُ. دلَّ ذلكَ أنهُ ما ذَكَرْنا. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ﴾؟ نهاهُمْ عنِ التَّضرُّعِ، ولا يُحتَمَلُ النَّهْيُ عن ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي تُمْنَعونَ مِنْ عذابِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ تَرْجِعونَ على التمثيلِ لا على التحقيقِ لأنهمْ إذا رَجَعوا على الأعقابِ صارَ ما كانَ أمامَهُمْ وراءَهُمْ، فَكَأنَّهُمْ نَبَذوا ذلكَ وراءَ ظُهورِهِمْ، أو(4) يكونُ المُنْقَلِبُ على الأعقابِ كالمُكِبِّ على الوَجْهِ. والمُكِبُّ على وجهِهِ مَذمومٌ عندَ جميعِ مَنْ رآهُ، وعايَنَهُ. لهذا [شَبَّهَهُ بِهِ، وضَرَبَ مَثَلَهُ](5) بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ قالَ عامةُ أهْلِ التأويلِ: قولُهُ ﴿بِهِۦ﴾ أي بالبيتِ. وَوَجْهُ هذا أنهمْ لمّا رَأَوا أنفُسَهُمْ آمِنينَ بِمُقامِهِمْ عندَ البيتِ وفي حَرَمِ اللهِ، وأهلُ سائرِ البقاعِ في خَوفٍ ظَنّوا أنَّ ذلكَ لهمْ لِفَضْلِ كَرامَتِهِمْ ومَنْزِلَتِهِمْ عندَ اللهِ. فَحَمَلَهُمْ ذلكَ إلى الاِسْتِكْبارِ على رسولِ اللهِ ومَنْ تابَعَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآنِ. وتأويلُهُ: أي اسْتَكْبَروا على اللهِ ورسولِهِ لمّا نَزَلَ القرآنُ. وإضافةُ الاِسْتِكْبارِ إلى القرآنِ لأنهمْ بِنُزولِهِ تكَبَّروا على اللهِ، فأضافَ اسْتِكْبارَهُمْ إليهِ لأنهُ كانَ سَبَبَ تكَبُّرِهِمْ. وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤و١٢٥] أضافَ زيادةَ رِجْسِهِمْ إلى السورةِ لِما بها يَزدادُ رِجْسُهُمْ، وكانَتْ [سَبَبَ](6) رِجْسِهِمْ، وإنْ كانَتْ لا تزيدُ رِجْساً في الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قالَ الزَّجّاجُ: السَّمَرُ حديثٌ(7) بالليلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قالَ قائلونَ: تَهْذونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ القرآنَ أي كانوا لا يَعْمَلونَ بهِ، ولا يَعْبَأونَ. فهو الهَجْرُ.

وفيهِ لُغَةٌ أُخرَى: تُهْجِرونَ(8) وهو/ ٣٥٧ ـ أ/ كلامُ الفُحْشِ والفسادِ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ قيلَ: أي في القرآنِ. يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ أي فَهَلّا تَدَبَّروا ذلكَ القولَ الذي يقولونَ في الآخِرةِ في الدنيا، وهو قولُهُمْ ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وما ذَكَرَ مِنْ تَضَرُّعِهِمْ في الآخِرةِ، وهو قولُهُ: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي قد تَدَبَّروا القولَ، لكنهمْ تعانَدوا، وكابَروا، واسْتَكْبَروا، ولم يَخْضَعوا لهُ أنَفاً واسْتِكْباراً. أوَلَا تَرَى أنهُ إذا قَرَعَ أسماعَهُمْ قولُهُ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقولُهُ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية؟ [الإسراء: ٨٨] لا يَحْتَمِلُ أنْ يَدَّبَّروا فيه. دَلَّ أنَّهُمْ قد تَدَبَّروا فيهِ، وعَرَفوهُ، إلّا أنهمْ تعانَدوا، وكابَروا، واسْتَكْبَروا، أنَفاً منهمْ واسْتِكْباراً واسْتِنكافاً عنِ اتِّباعِهِ والخُضوعِ لهُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي يَسْتَغيثونَ. قالَ: وأصلُهُ مِنَ الصِّياحِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ يَصْرُخُونَ، وقيلَ: يَصيحونَ. وقولُهُ: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ما ذَكَرْنا مِنَ الحديثِ بالليلِ. ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي تَهْذونَ كما يَهْذي النائمُ والمريضُ الشديدُ المَرَضِ. قالَ: وهَجَرَ يَهْجُرُ مِنَ الهُجْرِ، وهو الفُحْشُ، وهَجَّرَ يُهَجِّرُ إذا سارَ في الهاجِرةِ، وهي شِدَّةُ الحَرِّ وقولُهُ:

(1) في م، في الأصل: العذاب. (2) ساقطة من الأصل وم. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) في الأصل وم: و. (5) في الأصل وم: أشبه وبه ضرب مثل به. (6) ساقطة من الأصل وم. (7) في م: هو ظل القمر فيه كانوا يهجرون، والسمو. (8) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/٢١٨.

﴿تَنكِصُونَ﴾ قالَ [بعضُهُمْ: ترجِعونَ، وقالَ][1] بعضُهُمْ: تَستأخِرونَ كقولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] ترجِعونَ، وتَستأخِرونَ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على تَرْكِ التَّدبيرِ فيهِ والتَّفكُّرِ[2] والإعراضِ عنهُ، أي لم يَدَّبَّروا فيهِ، ولم يَتفكَّروا.

والثاني: على إيجابِ حقيقةِ التَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ، أي قد تَدَبَّروا فيهِ، وعَرَفوا أنهُ مُنزَلٌ مِنَ اللهِ، لكنهمْ تَركوا مُتابعَتَهُ عِناداً وتَمرُّداً إشفاقاً على ذهابِ رئاسَتِهِمْ وطَمَعاً في إبقائها ودَوامِ مَآكِلِهِمْ.

فأيُّ الوجهَينِ كانَ ففيهِ لُزومُ حُجَجِ اللهِ وبَراهينِهِ على مَنْ جَهِلَها، ولم يَعرِفْها، بالإعراضِ عنها وتَرْكِ التَّدبُّرِ فيها حينَ[3] استَوجَبوا عذابَ اللهِ ومَقْتَهُ لِجَهْلِهِمْ بها بِتَرْكِ التَّدبُّرِ فيها بَعْدَ أنْ[4] كانَ لهمْ سَبيلُ الوُصولِ إلى مَعرِفتِها.

وظاهرُ قولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ استِفهامٌ إلّا أنهُ في الحقيقةِ إيجابٌ لِما[5] لا يجوزُ أنْ يَستَفهِمَ اللهُ أحداً. فهو على الإيجابِ لأنهُ عَلّامُ الغُيوبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي قد جاءَهُمْ [ما جاءَ آباءَهُمْ][6] الأوَّلينَ مِنَ الرسولِ؛ لم[7] يأتِ هؤلاءِ شيءٌ إلّا ما أتى آباءَهُمْ، لم يُخَصُّوا همْ بالرسولِ. فكيفَ أنكَروهُ؟

ألَا تَرى أنهمْ قالوا: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] قد أقَرُّوا أنَّ في الأُمَمِ المُتقدِّمَةِ رسولاً حينَ[8] قالوا ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾؟

الآية ٦٩ وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ أي قد عَرَفوا رسولَهُمْ، لكنهمْ أنكَروهُ، وتَركوا اتِّباعَهُ بِما[9] ذَكَرْنا في القرآنِ مِنْ أحَدِ الوجهَينِ عِناداً وتكبُّراً وإشفاقاً على رئاسَتِهِمْ لكي تَبقى.

ألَا تَرى أنهُ قالَ: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الآية؟ [البقرة: ١٤٦ والأنعام: ٢٠].

الآية ٧٠ وعلى هذا [يُخرَّجُ قولُهُ][10]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي قد عَرَفوا أنهُ ليسَ بهِ جِنَّةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ جاءَ هؤلاءِ ما لم يأتِ آباءَهُمْ، وخَصَّ هؤلاءِ بِما لمْ يُخصَّ آباءَهُمْ. وكذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ: لَعَمْري لقد جاءَهُمْ ما لم يأتِ آباءَهُمُ الأوَّلينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ إلى ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يُخرَّجُ[11] على الأمرِ بالتَّدبُّرِ فيهِ ومَعرِفةِ الرسولِ أنهُ ليسَ كما يَصِفونَهُ مِنَ الجُنونِ وغيرِهِ لقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤] أي تَفكَّروا فيهِ فإنهُ ليسَ بهِ جِنَّةٌ على ما تَصِفونَهُ، أو على ما ذَكَرْنا أنهمْ تفكَّروا، وعَرَفوا أنهُ ليسَ بهِ جنونٌ، ولا شيءٌ مِمّا وَصَفوا بهِ. لكنهُمْ أرادوا أنْ يُلبِسوا على أتباعِهِمْ وسَفَلَتِهِمْ إشفاقاً على إبقاءِ ما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ مِنَ البَراءَةِ مِنَ العذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالرسالةِ والقرآنِ مِنْ عندِ اللهِ وجَعْلِ العِبادةِ لهُ مِنْ دونِ الأصنامِ التي عَبَدوها، ولكنَّ أكثَرَهُمْ ﴿لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ كَرِهوا الحَقَّ لَمّا ظَنّوا أنَّ في [اتِّباعِهِ ذهابَ الرئاسةِ والأسبابِ التي كانَتْ لهمْ[12] على][13] أتباعِهِمْ بعدَ معرفتِهِمْ أنهُ حقٌّ. أو كَرِهوا لمّا لم يَعرِفوا في الحقيقةِ أنهُ حقٌّ. وإلّا فلا أحَدَ مِمَّنْ يُوصَفُ بِصِحَّةِ العقلِ وسَلامَتِهِ يَكرَهُ الحَقَّ، ويَترُكُ اتِّباعَهُ إلّا لِلوَجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهُما، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهْلِ التأويلِ: الحَقُّ ههنا، هو اللهُ أي لوِ اتَّبَعَ اللهُ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج بعدها في الأصل: حقيقة التفكر. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: لها. (٦) في الأصل وم: ما جاءهم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (١٢) في م: وهم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

أهواءَهُمْ في كُفرِهِمْ وشِرْكِهِمْ ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وتأويلُ [هذا][1] أنَّ الكُفرَ والشِّرْكَ مِمّا لا عاقبةَ لهُ. فهو في الحِكْمَةِ والعقلِ فاسدٌ باطلٌ غيرُ مُسْتَحْسَنٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحَقُّ ههنا كتابُ اللهِ، وهو القرآنُ على ما يَهْوَوْنَ هُمْ لَفَسَدَ ما ذُكِرَ لأنهُ يكونُ خارجاً عنِ الحِكْمَةِ.

وجائزٌ أنْ يُوصَلَ قولُهُ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بالحقِّ[2] الذي سَبَقَ ذكرُهُ، وهو قولُهُ: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي [لو اتَّبَعَ][3] ذلكَ الحقُّ أهواءَهُمْ، وجاءَ على ما هَوِيَتْهُ[4] أنفسُهُمْ، واشتَهَتْ، [والحَقُّ][5] اسْمُ كلِّ مُسْتَحْسَنٍ ومَمْدُوحٍ في العقلِ والحِكْمَةِ. ولَوِ اتَّبَعَ ذلكَ الحَقُّ أهواءَهُمْ، وجاءَ على ما هَوِيَتْهُ[6] أنفسُهُمْ، واشتَهَتْ مِنْ عبادةِ غَيرِ اللهِ وتَسْمِيَتِهِمْ إيّاها آلهةً وإنكارِهِمُ البَعْثَ والتوحيدَ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأفعالِ التي كانوا اختاروها وعَمِلوا ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وما ذُكِرَ لأنهُ يكونُ خَلْقُهُمْ وخَلْقُ ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهِنَّ لا لِما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ والعقلُ إذْ[7] خَلَقَهُمْ، وخَلَقَ ما ذُكِرَ لأفعالِهِمُ التي يَفْعَلونَ.

فإذا[8] خُرِّجَتْ أفعالُهُمْ على غَيرِ ما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ والعقلُ بل على السَّفَهِ والجَهْلِ خُرِّجَ الذي لها خُلِقَ مِنْ أجْلِها الشيءُ. كذلكَ إذْ خَلْقُ الشيءِ وفِعْلُهُ لا لعاقبةٍ تُقْصَدُ خارجٌ عنِ الحِكْمَةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الحقُّ، هو رسولُ اللهِ؛ أي رسولُ اللهِ لَوِ اتَّبَعَ أهواءَهُمْ لَفَسَدَ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: بِشَرَفِهِمْ وذِكْرِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي عَنْ شَرَفِهِمْ مُعْرِضونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الذِّكْرُ هو الحَقَّ الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، أي لَو قَبِلوا [ذلكَ الحقَّ، وأقْبَلوا][9] نَحْوَهُ يكونُ في ذلكَ ذِكْرُهُمْ مِنْ بَعْدِ هلاكِهِمْ كما يُذْكَرُ أصحابُ رسولِ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ماتوا. ألا تَرَى أولادَهُمْ بِذِكْرِ آبائِهِمْ يَتَعَيَّشونَ؟ يقولونَ: إنا مِنْ بَني فلانٍ، فَيَبَرُّهُمُ الناسُ بذلكَ، ويُكْرِمونَهُمْ.

وأمّا أولئكَ فإنهمْ لا يُذْكَرونَ بشيءٍ مِنْ ذلكَ. فذلكَ يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ الثناءَ عليهِمْ: أي لو آمَنوا كقولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠] وقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقولِهِ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] ونَحْوِ ذلكَ ممّا أثْنَى اللهُ على مَنْ آمَنَ منهُمْ. فهمْ لو آمَنوا اسْتَوجَبوا بذلكَ الثناءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بِدُعاءٍ لهمْ، وهو ما دَعَا الملائكةُ والرُّسُلُ للمؤمنينَ كقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [غافر: ٧] وقولِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥ ومحمد: ١٩] [وقولِ[10] نوح]: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ الآية [نوح: ٢٨] وقولِ إبراهيمَ ودعائِهِ لهمْ [﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]][11] لو آمَنوا اسْتَوجَبوا دعاءَ هؤلاءِ الملائكةِ والرسلِ جميعاً، أو أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا مِنْ إبقاءِ ذِكْرِهِمْ إلى يومِ القيامةِ كما بَقِيَ ذِكْرُ أولئكَ الذينَ آمَنوا بهِ، وصَدَّقوهُ. فيكونُ في ذلكَ كلِّهِ شَرَفُهُمْ وقَدْرُهُمْ على ما قالَهُ أهْلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٨و٦٩] أي قد عَرَفوا رسولَهُمْ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [المؤمنون: ٧٠] أي ليسَ بهِ/٣٥٧ ـ ب/ جِنَّةٌ، أي ليسَ بهِ شيءٌ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابةِ والإيمانِ بهِ بما يُعْذَرونَ هُمْ في تَرْكِ الإيمانِ بهِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الحق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: هوت به. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: هوت به. (٧) في الأصل وم: إذا. (٨) في الأصل وم: فإذ. (٩) في م: ذلك الحق الذي واقبلوا. (١٠) في الأصل وم: وقوله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلى ذلِكَ قولُهُ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي لم تَسألْهُمْ أجراً على ما تَدعوهُمْ إليهِ حتى يَمنَعَهُمْ ثِقَلُ ذلكَ الأجرِ عن إجابتِهِ وتَصديقِهِ كقولِهِ أيضاً: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] يَقطَعُ ممّا ذَكَرَ جميعَ أعذارِهِمْ وحِجاجِهِمْ، وإنْ لم يكُنْ [لهمْ][1] عُذرٌ ولا حُجّةٌ في تَرْكِ الإجابةِ لهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الخَراجُ: الرِّزقُ[2]، أي تسألهم رِزقاً. ثم أخبَرَ أنَّ أجرَ ﴿رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المُستقيمُ القائمُ بالآياتِ والحُجَجِ ليسَ كالسبيلِ التي يَسلُكونَ هُمْ بلا آياتٍ ولا حُجَجٍ ولا بُرهانٍ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ إنكارَهُمُ البَعثَ والآخِرَةَ هو الذي حَمَلَهُمْ على العدولِ عنِ الصِّراطِ المُستقيمِ.

والثاني: أنَّ الصراطَ الذي في الدنيا هو المَجعولُ للآخِرَةِ. فإذا تَركوا سلوكَهُ لِشَهَواتٍ مَنَعَتْهُمْ عن ذلكَ أنكَروا الآخِرَةَ. أو كلامٌ نَحوُ هذا.

وقولُهُ: ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ أي لَعادِلونَ، مِنَ العُدولِ عنهُ والمُجانَبَةِ والمَيلِ إلى غَيرِهِ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ذَكَرَ الضُّرَّ، ولم يَذكُرْ أيَّ شيءٍ كانَ. وليسَ لنا أنْ نَقولَ كانَ الجوعَ، أو كذا إلّا بِثَبَتٍ. وفيهِ وجهانِ مِنَ المُعتَبَرِ:

أحَدُهُما: أنَّ دَفعَ المِحَنِ التي امتَحَنَهُمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ إنما يكونُ بِرَحْمَةٍ منهُ وفَضلٍ لا على ما قالَهُ بعضُ الناسِ بالاِستِحقاقِ حينَ[3] ذَكَرَ [أنَّ][4] رَحمَتَهُ تَكشِفُ ذلكَ عنهمْ.

والثاني: فيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ أنهُ، وإنْ كَشَفَ ذلكَ الضُّرَّ عنهم لَجُوا[5] في طُغيانِهِمْ. فَكَشَفَ عنهمْ ذلكَ، فَلَجُوا في طُغيانِهِمْ على ما أخبَرَ. فَدَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وجَهلِهِمْ باللهِ وقَسوَةِ قلوبِهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ وعِنادِهِمْ حينَ[6] أخبرَ أنهمْ، وإنْ أُخِذوا بالعذابِ، لم يَتَضَرَّعوا إليهِ، وما استَكانوا لهُ لِجَهلِهِمْ بعذابِ اللهِ حينَ[7] أخبرَ أنهمْ، وإنْ أُخِذوا [بالعذابِ، لم يَتَضَرَّعوا إليهِ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى][8]: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مُبْلِسُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُبلِسُ الآيِسُ مِنْ كلِّ خيرٍ، وهو ما وَصَفَهُ[9] ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩] فَيَؤوسٌ قَنوطٌ ونَحوُهُ.

قالَ الزَّجاجُ: المُبلِسُ الساكتُ المُتَحَيِّرُ، لا يَدري ما يَعمَلُ بهِ. فَعَلى ذلِكَ هُمْ كانوا حَيارى لَمّا نَزَلَ بهمُ العذابُ لا يَدرونَ ما يَعمَلونَ بهِ في رَفعِ ذلكَ عنهمْ.

وقالَ الكسائيُّ: المُبلِسُ المُنقَطِعُ السَّيِّءُ الظَّنِّ. قالَ: ومنهُ سُمِّيَ إبليسُ لأنهُ أيِسَ مِنْ رَحمَةِ اللهِ، وانقَطَعَ رجاؤُهُ عندَهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: اليائسُ الحزينُ، ويُقالُ: إبليسُ الرجلُ إنْ[10] أيِسَ، فَحَزِنَ، وإبليسُ غَيرُهُ أيضاً، وإنما سُمِّيَ إبليسُ إبليسَ لأنهُ يَئِسَ مِنْ رَحمَةِ اللهِ، فَحَزِنَ. قالَ: وقولُهُ: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يَذِلّوا لربِّهِمْ بالطاعةِ لهُ والخضوعِ لِما ذَكَرْنا.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعمَةَ التي[11] أنعمَها عليهمْ لِيَستَأدِيَ بذلكَ الشُّكرَ لهُ عليها. ذَكَرَ أُمَّهاتِ النِّعَمِ، لم يَذكُرْ غيرَها، وهي[12] السَّمْعُ والبَصَرُ والفؤادُ الذي ذَكَرَ، إذْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والرزق. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: للجوا.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وصفهم. (١٠) في الأصل وم: أي.
(١١) من م، في الأصل: الله. (١٢) في الأصل وم: وهو.

بها يُوصَلُ إلى مَعْرِفةِ كُلِّ نافعٍ وضارٍّ وكُلِّ طَيِّبٍ وخَبيثٍ وكُلِّ لَيِّنٍ وخَشِنٍ وكُلِّ سَهْلٍ وشديدٍ وكُلِّ حُلْوٍ ومُرٍّ، وكانَ الإنسانُ مطبوعاً على حبِّ النافعِ والطَّيِّبِ واللَّيِّنِ والسَّهْلِ، واختيارُهُ على أضدادِهِ، والهَرَبُ مِنْ كُلِّ ضارٍّ ومُؤذٍ والفِرارُ مِنْ أضدادِ ما ذَكَرْنا مِنَ المُختاراتِ عندَهُ.

فأخْبَرَ أنهُ أعْطَى لهمْ ما يَعْرِفونَ بهِ النافعَ مِنَ الضارِّ والطَّيِّبَ [مِنَ][1] الخبيثِ مُشاهَدَةً وخَبَراً، وما بهِ يُمَيِّزونَ ذا مِنْ ذا، ويَختارونَ ما هو المُختارُ عندَهُمْ مِنْ غَيرِهِ، وما يَنْفَعُهُمْ مِمّا يَضُرُّهُمْ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ.

الآية ٧٩ وذَكَّرَهُمْ[2] في قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بِقُدرَتِهِ وسُلْطانِهِ، وأخبَرَ أنهُ لم يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، ولكنْ: لِلْبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ والحَشْرِ إليهِ كما ذَكَرْنا في غَيرِ موضعٍ، وأنَّ خَلْقَ الخَلْقِ لِلْفَناءِ خاصَّةً لا لِلْبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ عَبَثٌ ولَعِبٌ.

الآية ٨٠ وأخبَرَ عن قدرتِهِ وسُلْطانِهِ حينَ[3] قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أنَّ مَنْ قَدَرَ، ومَلَكَ إحياءَ المَوتى وإماتَةَ الحَيِّ قادرٌ على البَعْثِ، ومَنْ مَلَكَ إنشاءَ الليلِ بَعْدَما ذَهَبَ أثَرُ النهارِ وإنشاءَ النهارِ بَعْدَما ذَهَبَ أثَرُ الليلِ قادرٌ على الإحياءِ والبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ.

ثم قالَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنهُ كذلكَ، فكيفَ تُنْكِرونَ قُدرَتَهُ على البعثِ والإحياءِ بَعْدَما صِرْتُمْ رماداً وتُراباً؟ وكيفَ تُشْرِكونَ[4] غيرَهُ في عبادَتِكُمْ إيّاهُ؟ وتَصْرِفونَ الشُّكْرَ إلى غَيرِهِ في ما أنْعَمَ عليكُمْ؟

ثم أهْلُ التأويلِ صَرَفوا قولَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ إلى آخِرِهِ إلى الكُفّارِ، وهُمْ يَكْفُرونَ بِنِعْمَتِهِ التي ذَكَرَ، ويُنْكِرونَها، وهُمْ لا يَشْكُرونَ رَأساً بقولِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ إلّا أنْ يُقالَ: إنهمْ في بعضِ الأحايينِ ربّما يَشْكُرونَ اللهَ، ويَتَضَرَّعونَ إليهِ نَحْوَ قولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] ونحْوَهُ مِنَ الآياتِ التي ذَكَرَ فيها دعاءَهُمْ وتَضَرُّعَهُمْ إلى اللهِ عندَما أصابَهُمُ الضُّرُّ. فذلكَ منهمْ شُكْرٌ. أو أنْ يُقالَ: إنَّ قولَهُ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قليلاً ما تَشْكُرونَ رَأساً كقولِ الرجلِ لآخَرَ: قليلاً ما تَفْعَلُ كذا، أي لا تَفْعَلُ أصلاً. فَعَلى ذلكَ هذا إنْ كانَ المُرادُ منها والخِطابُ بها أولئكَ الكَفَرَةَ، وإلّا فالخطابُ[5] بها يجيءُ أنْ يكونَ راجعاً إلى المؤمنينَ، إذْ هُمُ الذينَ يَقومونَ بِبَعْضِ الشُّكرِ لِنِعَمِهِ وقَليلِهِ. وأمّا الكَفَرَةُ فهمْ يَكْفُرونَها، ويُنْكِرونَ رأساً.

الآيتان ٨١ و٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ يُخْبِرُ جلَّ، وعلا، رسولَهُ سَفَهَ قومِهِ وقولَهُمُ الذي قالوا بَعْدَ ما بَيَّنَ[6] لهمْ حِكْمَتَهُ في خَلْقِهِمْ وإنشائِهِمْ. وذَكَّرَهُمْ نِعَمَهُ التي أنْعَمَ عليهِمْ، وذَكَرَ قُدرَتَهُ وسُلْطانَهُ في ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون ٧٨ و٧٩ و٨٠].

ذَكَّرَهُمْ ما ذَكَرَ في هؤلاءِ الآياتِ مِنْ حِكْمَتِهِ في خَلْقِهِمْ وقُدرَتِهِ في إنشاءِ ما أنْشَأَ لهمْ، وعَرَّفَهُمْ ذلكَ حتى عَرَفوا ذلكَ كلَّهُ. ثم بَيَّنَ سَفَهَهُمْ في جوابِهِمْ رسولَهُ، فقالَ: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يُخْبِرُ رسولَهُ أنَّ هؤلاءِ لَيسوا بأوَّلِ مُكَذِّبي الرسُلِ، ولكنْ كانَ لهمْ شُرَكاءُ وأصحابٌ في التكذيبِ، قَلَّدَ هؤلاءِ أولئكَ الأوَّلينَ، يُصَبِّرُ رسولَهُ على سَفَهِ هؤلاءِ وأذاهُمْ لِيَصْبِرَ على ذلكَ كما صَبَرَ إخوانُهُ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ، أو يَذْكُرُ هذا لِيُسَلِّيَ[7] بعضَ ما تداخَلَ فيهِ بِتَرْكِهِمْ إجابَتَهُ وخوضِهِمْ في ما فيهِ هلاكُهُمْ لأنهُ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ [كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ][8] حتى قالَ [لَهُ][9]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقالَ[10]: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣].

فَبَيَّنَ ما ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يذكرهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: تشكرون. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم (٦) في الأصل وم: تبين (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم : السبيل. (٨) في الأصل وم: كان أن تهلك نفسه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و.

الآية ٨٣ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقولونَ: قد وُعِدَ[1] آباؤنا بِمِثْلِ ما وُعِدْنا نحنُ، فَلَمْ يَنْزِلْ بهِمْ ما أُوعِدوا مِنَ العذابِ، ولا يَنْزِلُ أيضاً بنا ما تَعِدُنا، وهو أساطيرُ الأوَّلينَ، أي أحاديثُ الأوَّلينَ.

ثم أمَرَ رسولَهُ أنْ يَسْألَهُمْ ما يُلْزِمُهُمُ الإقرارَ والاعْتِرافَ بما كانوا يُنْكِرونَ.

الآيتان ٨٤ و٨٥ فقال: /٣٥٨ ـ أ/ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾] فقالوا: للهِ. لم يَجِدوا بُدّاً مِنْ أنْ [يقولوا للهِ][2] ويُقِرُّوا بهِ لأنهمْ [لو أنكروا ذلكَ جَهَّلَهُمْ، وأظْهَرَ][3] جهلَهُمْ عند كلِّ الخلائِقِ.

فقالوا: للهِ، فيقولُ: فإذا عَرَفْتُمْ أنَّ ذلكَ كلَّه لهُ، وهو خالِقُكُمْ[4]، فكيف تركْتُمْ طاعَتَهُ، وأنا لَسْتُ أدعوكُمْ إلّا إلى ذلكَ: أنْ تَجْعَلوا الأرضَ وما فيها كلَّهُ للهِ؟ أفلا تَتَّعِظونَ، وتُقِرّونَ بما أدعوكُمْ إليهِ؟

الآيتان ٨٦ و٨٧ وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لا بُدَّ لهمْ مِنْ أنْ يُقِرُّوا بذلكَ. فإذا اعْتَرَفْتُمْ[5] بذلكَ، وأقْرَرْتُمْ بهِ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَتَهُ، وتَتَّقونَ نَقْمَتَهُ؟

الآيتان ٨٨ و٨٩ وكذلكَ ما قالَ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فإذا عَرَفْتُمْ ذلكَ، وأقْرَرْتُمْ بهِ ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ قيلَ: فأنّى تُصْرَفونَ عنْ ذلكَ؟ وقالَ بعضُهُمْ: فأنّى تُخْدَعونَ، وتُغَرُّونَ [إذا عَرَفْتُمْ أنّ ذلكَ][6] كلَّهُ للهِ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ رسولَ ﷺ وتقولونَ: إنهُ ساحِرٌ كذابٌ، وهو ليسَ يَدْعوكُمْ إلّا إلى ما أقْرَرْتُمْ، واعْتَرَفْتُمْ بهِ، فأنّى تَنْسِبونَهُ إلى السِّحْرِ؟ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي يُؤَمِّنُ كلَّ خائفٍ، ولا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يُؤَمِّنَ مَنْ أخافَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية [الأنعام: ١٧].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي يَمْنَعُ[7] ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يَمْنَعَ منهُ أحداً [وقولُهُ][8]: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي تُغَرُّونَ، وتُخْدَعونَ؟ تقولُ: سُحِرْتُ أي خُدِعْتُ، وغُرِرْتُ.

وقالَ: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ أي تُخْدَعونَ، وتُصْرَفونَ عنْ هذا.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بِوَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ وتَعاليهِ عنِ الشركاءِ والوَلَدِ وعمّا وَصَفوهُ.

[والثاني][9]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالقرآنِ الذي عَرَفوهُ أنهُ حقٌّ وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ.

[والثالثُ][10]: أنْ يُريدَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ محمداً ﷺ عَرَفوا أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ.

[والرابعُ][11]: أنْ يكونَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ما ذَكَرَ مِنْ ذِكْرِهِمْ وما فيهِ شَرَفُهُمْ ومَنْزِلَتُهُمْ.

[والخامسُ: أنْ يكونَ][12] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يكونُ للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ مِنَ الحقوقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في وَصْفِهِمْ ربَّهُمْ [في ما][13] وَصَفوهُ بما لا يَليقُ وصْفُهُ بهِ، أو كاذبونَ [بأنَّ القرآنَ][14] مُفْتَرىً ومُخْتَلَقٌ مِنْ عندِ اللهِ، أو كاذبونَ في قولِهِمْ بأنهُ ساحرٌ وأنهُ مَجنونٌ وأنهُ ليسَ برسولٍ. كَذَبوا في جميعِ ما أنكَروا، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل و م: وعدنا (٢) في الأصل و م: يقول الله (٣) في الأصل: أنكروا ذلك جهلهم، في م: لو أنكروا ذلك جهلهم و يظهر (٤) في الأصل و م: خالقهم (٥) في الأصل و م: عرفتم. (٦) في الأصل: في ذلك، في م: في ذلك فإذا عرفتم ذلك. (٧) أدرج قبلها في م: لا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل و م: أو. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: مما. (١٤) في الأصل وم: بالقرآن.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ كلُّ حَرْفٍ مِنْ هذه الحروف موصولاً بَعْضُهُ بِبَعْضٍ بما[1] تقدَّمَ. وجائزٌ أن يكونَ كلُّ حرْفٍ من هذهِ الأحْرُفِ مُنْفصِلاً عنِ الأوَّلِ مُسْتَبِدّاً بذاتِهِ.

فإنْ كانَ على الأوَّلِ فيكونُ قولُهُ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لو[2] كانَ اتَّخذَ وَلَداً لكانَ إلهاً، إذِ الوَلَدُ يكونُ مِنْ جِنْسِ الوالِدِ ومِنْ جوهَرِهِ، لا يكونُ مِنْ خِلافِ جوهرِهِ ولا مِنْ غَيرِ جِنْسِهِ في المُتَعارَفِ.

فإذا كانَ إلهاً منَ الوجْهِ الذي ذَكَرْنا ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

وإنْ كانَ مُنْفَصِلاً فهو على ما ذَكَرَ مِنْ فسادِ ذلكَ كلِّهِ لأنهُ قالَ: ولو كانَ معهُ إلهٌ على ما زَعَموا ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ مِنَ الخَيرِ و الشَّرِّ [وذَهَبَتِ][3] الدَّلالةُ على الوهيَّتِهِ ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي قَهَرَ، وغَلَبَ بعضُهُمْ بَعْضاً على ما يكونُ مِنْ عادةِ ملوكِ الأرض. فإذا كانَ ما قالوا ذهبَتْ دلالةُ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ. فإذا لم يكنْ ذلكَ دلَّ أنهُ واحدٌ لا شريكَ معهُ، ولا وَلَدَ لهُ؛ إذِ اتِّساقُ التدبيرِ وجَرْيُ الأشياءِ على حدٍّ واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ دلَّ على ألوهيَّةِ واحدٍ لا لِعَدَدٍ؛ إذْ لو كانَ لِعَدَدٍ لَكانَ ما ذَكَرَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ثم مَعْلومٌ أنَّ مِثْلَ هذا الإحْتِجاجِ لا يكونُ مَعَ الذينَ يُنْكِرونَ أُلوهيَّةَ اللهِ، ويَعْبُدونَ الأصنامَ، وهمْ مُشْرِكو العَرَبِ وكُفّارُ مكةَ. ولكنْ إنما يكونُ مع الذينَ يُقِرّونَ بأُلوهيَّةِ اللهِ، لكنْ يَجْعَلونَ مَعَهُ شريكاً لِحاجةٍ تَقَعُ لهُ، وهُمُ الثَّنَويَّةُ والدَّهْرِيَّةُ والمَجوسُ وأولئكَ الذينَ يَجْعلونَ خالقَ الشَّرِّ غَيرَ خالقِ الخَيرِ وخالقَ هذا غَيرَ خالقِ هذا.

فيكون قولُهُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ على هذا، أي يَتَعالىَ عمّا وَصَفوهُ بالحاجَةِ لهُ في خَلْقِ ما خَلَقَ والنَّفْعِ لهُ في ذلكَ.

الآية ٩٢ وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وأمّا على ظاهرِ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنِ اتّخاذِ الولدِ والشَّريكِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ وما قالوا فيهِ، ونَسَبوا إليهِ ممّا لا يَليقُ بهِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كما يُوصَفُ[4] المخلوقُ المُحْدَثُ، لأنهمْ وَصَفوهُ بالوَلَدِ [والوَلَدُ][5] في متعارَفِ الخَلْقِ لا يكونُ إلّا مِنَ الوالِدِ والأمِّ. هذا التَّوالُدُ المعروفُ في ما بَينَ الخَلْقِ.

فإنْ وَصَفوهُ باتّخاذِ الوَلَدِ شَبَّهوهُ بالمَخْلوقِ المحْدَثِ مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا، فَنَزَّهَ نفسَهُ عنْ ذلكَ.

الآيتان ٩٣و٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قولُهُ[6]: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما][7]: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنهُ كانَ وَعَدَ لهُ أنْ يُرِيَهُ بَعْضَ ما وَعَدَ لهمْ بقولِهِ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦والرعد: ٤٠] فلا نُريكَ شيئاً، فقالَ: ربِّ إنْ أرَيْتَني ما يُوعَدونَ، أو لا تُرِني ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والثاني: إنكَ وإنْ أرَيْتَني ما تقدَّمَ على التحقيقِ ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم[8] يحتمِلُ قولُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في العذابِ الذي وَعَدْتَ لهمْ أنْ [تُنْزِلَهُ عليهِمْ][9] لأنهُ مِنَ العَدْلِ أنْ يُعَذِّبَهُ ويُعامِلَهُ معامَلَةَ أهلِ العَدْلِ. كأنهُ يقولُ: ربِّ لا تُعامِلْني مُعامَلَتَكَ إياهُمْ، وإنْ كانَ ذلكَ مِنَ العَدْلِ أنْ تُعامِلَني مثلَ ما تُعامِلُ أولئكَ، لأنَّ رسولَ اللهِ، وإنْ لم يكُنْ [لهُ][10] زلاتٌ ظاهرةٌ فَلَقَدْ كانَ منَ اللهِ إليهِ مِنَ النِّعَمِ والإحْسانِ ما لو أخَذَ بِشُكْرِ ذلكَ لم يَقْدِرْ على أداءِ شُكْرٍ واحدةٍ منها فَضْلاً عنْ أنْ يُؤَدِّيَ شُكْرَ الكُلِّ.

---

(١) في الأصل وم: لما. (٢) في الأصل وم: ولو. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، في الأصل: يصف. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لم. (٩) في الأصل وم: تنزل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

ألا ترى أنهُ رُوِيَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يَدْخلُ أحدٌ الجنةَ إلّا برَحْمَةِ اللهِ، فقيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برَحْمَتِهِ» [مسلم/ ٢٨١٦/ ٧١و. و٢٨١٨/ ٧٨].

[والثاني][(١)]: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الزَّيْغِ والغِوايةِ. يَسْأَلُ ربَّهُ أنْ يَعْصِمَهُ عنِ الزَّيغِ في الضَّلالِ[(٢)] والغِوايةِ التي عليه القومُ الظالمونَ[(٣)]، وهو كدعاءِ إبراهيمَ ربَّهُ وسؤالِهِ[(٤)] العصمةَ عنِ الزَّيغِ بقولِهِ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وإنْ كانَ وَعَدَ لهمُ العِصْمَةَ عنْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٥ وقولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: يُخبِرُ رسولَهُ أنهُ ليسَ لِعَجْزٍ يُؤَخِّرُ ما وَعَدَ لهمْ منَ العذابِ ولكنْ لِحِلْمٍ منهُ وعفوٍ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ هذا.

والثاني: يُعَزِّي رسولَهُ[(٥)]، ويُصَبِّرُهُ على أذاهمْ إيّاهُ؛ يقولُ: إني معَ قُدْرَتي على إنزالِ العذابِ عليهِمْ والانتقامِ مِنهمْ أحلُمُ، وأؤَخِّرُ عنهمْ، فأنتَ مع ضَعفِكَ عَنْ ذلكَ أولَى أنْ تَصْبِرَ على أذاهُمْ.

الآية ٩٦ وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [على وجهَينِ:

أحدُهما:][(٦)] أي لا تُكافِئْهُمْ لأذاهُمْ إياكَ، ولا تَشْتَغِلْ بهمْ بِمُجازاةِ ذلكَ [ولكنِ ادْفَعْ بالتي هيَ أحْسَنُ][(٧)] وَكِلْ مُكافأتَهُمْ إليَّ حتى أنا أكافِئُهُمْ، و﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ مِنَ الكذبِ والأذى الذي يُؤذونَكَ.

والثاني: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ/ ٣٥٨-ب/ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي ادْفَعْ سَيِّئاتِهِمُ المُتَقَدِّمَةَ بإحسانٍ يكونُ منكَ إليهِمْ لِيكونوا لكَ أولياءَ وإخواناً في حادثِ الأوقاتِ. وهو كقولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

الآيتان ٩٧ و٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ كقولِهِ[(٨)] في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ وفصلت: ٣٦] عَلَّمَ رسولَهُ، وأمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ بهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ اللَّعينِ إذا نَزَغَهُ، ونَزْغُهُ [وَسوَسَ لهُ][(٩)]. وأمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ من هَمْزِهِ أيضاً، وهو هَمُّهُ وقَصْدُهُ بذلكَ، وأمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ به مِنْ حضورِهِمْ مكانَ الوَسْوَسَةِ حتى [يَدْفَعَهُمْ عنهُ ولا يَحْضُروا] ذلكَ المكانَ.

وكانَ التَّعَوُّذُ مِنْ نَزْغِهِمْ لِيَدْفَعَ عنهُ لئلا يُؤثِّروا في نفسِهِ بَعْدَ ما حَضَروهُ [وَوَسْوَسُوا لهُ][(١٠)] والتَّعَوُّذُ مِنْ هَمْزِهِمْ هو أنْ يَدْفَعَ عنهُ[(١١)] طَعْنَهُمْ ونَخْسَهُمْ لِئلّا يَشْغَلوهُ بالذي قَصَدوهُ بهِ، والتَّعَوُّذُ مِنْ حُضورِهِمْ مكانَ الوسوسةِ.

قالَ الحَسَنُ: هَمْزُ الشيطانِ المُوتَةُ، والمُوتَةُ غَشَيانُ القَلْبِ.

رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ مِنْ[(١٢)] همزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ [أبو داوود ٧٦٤]. وقالَ بَعْضُهُمْ: هَمَزاتُهُ ونَزَغاتُهُ واحدٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: هَمَزاتُ الشياطينِ نَخْسُها وطَعْنُها، ومنهُ قيلَ للعائِبِ: هُمَزَةٌ لأنهُ[(١٣)] يَطْعنُ، ويَعيبُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: هَمَزاتُ الشياطين وَساوِسُهُمْ، يُقالُ: هَمَزَ يَهمِزُ هَمْزاً، أي وَسْوَسَ، ومِنْ وَجْهٍ آخَرَ: هَمَزَ يَهمُزُ هَمْزاً، أي عابَ يَعيبُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

ثم في قولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وجهانِ على المُعْتَزِلَةِ:

أحَدُهُما: أنهُ أمَرَ رسولَهُ [أنْ يَتَعَوَّذَ بهِ][(١٤)] مما ذَكَرَ، فَدَلَّ أنَّ عندَهُ لُطفاً، لم يُعْطِهِ، ما لو أعطاهُ اللهُ لَدَفَعَ بهِ ما ذَكَرَ،

(١) في الأصل وم: و. (٢) في م: بالضلال (٣) في الأصل وم: الظالمين. (٤) في الأصل وم: وسؤال. (٥) في الأصل وم: رسول الله.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: احسن ذلك، في م: بأحسن ذلك. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وسوسه. (١٠) في الأصل وم: ووسوسوه. (١١) في الأصل وم: عنهم. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال في. (١٣) في الأصل وم: كأنه. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

وأنهُ مالكٌ لِذلكَ؛ إذْ لو كانَ غيرُهُ مالكاً[1] لذلكَ لَخُرِّجَ السؤالُ بهِ مُخرَجَ الهُزْءِ بهِ، إذْ مَنْ طَلَبَ مِنْ آخرَ شيئاً، يَعْلَمُ أنهُ ليسَ عندَهُ ذلكَ، خُرِّجَ ذلكَ الطَّلَبُ مُخرَجَ الهُزْءِ بهِ. فَعَلى ذلكَ هذا.

والثاني: أنَّ كلَّ مأمورٍ بالتَّعَوُّذِ جَعَلَ اللهُ لهُ الإعاذةَ عمّا يَتَعَوَّذُ عنهُ.

فالوَجهانِ يَنْقُضانِ على المُعتَزِلَةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ قد أعطى كلّاً الأصلَحَ في الدينِ، وأعطى كُلّاً العِصمَةَ عن كلِّ زَيغٍ وضَلالٍ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ بَعْدَ المَوتِ وبَعْدَ ما عايَنَ أهوالَ الآخِرَةِ وأفزاعَها، لأنَّ الموتَ ليسَ هو شيئاً يأتي مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، إنما هو شيءٌ يذهَبُ بالحياةِ التي فيهِمْ.

إلّا أنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: إنَّ ذلكَ عندَ مُعايَنَتِهِمْ مَلَكَ الموتِ وعندَ هجومِهِ عليهِمْ بأهوالِهِ فَعندَ ذلكَ يَسألونَكَ الرَّجْعَةَ إلى الدنيا. والأوّلُ أشبَهُ، وأقرَبُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ليسَ هو صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ ولا جوابَهُ لأنهُ ليسَ مِنْ نوعِهِ ولا مِنْ جِنْسِ ذلكَ، ولكنهُ، واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ قولِهِ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠] وجَوابُ قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] ونَحوُهُ الذي تَقَدَّمَ ذِكرُهُ. يقولُ: وإنهمْ على ذلكَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فعندَ ذلكَ يَرْجِعُ إلى الحقِّ والتَّصديقِ. لكنَّ ذلكَ لا يَنْفَعُهُ في ذلكَ الوقتِ.

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ولم يَقُلْ: ربِّ أرجِعْني. وذلكَ يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحَدُهُما: سَأَلَ على ما يُسْأَلُ الملوكُ، ويُخاطَبونَ: افعَلوا كذا على الجماعةِ، وإنْ كانَ إنما يُخاطِبُ واحداً على ما خُرِّجَ جوابُ اللهِ وقولُهُ: إنا فَعَلْنا كذا، ونَفْعَل كذا.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ يَسْألُ ربَّهُ أنْ يأمُرَ الملائكةَ الذينَ يَتَوَلَّونَ قَبْضَ أرواحِهِمْ، أنْ يُرْجِعوهُ إلى ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي في ما كَذَّبْتُ. وقالَ بعضُهُمْ: في ما تركْتُ في الدنيا مِنَ الأعمالِ الصالحةَ فأعْمَلَ بها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ مِنَ الأموالِ، فَأُؤَدِّيَ منهُ حقَّكَ لأنَّ مِنَ الكَفَرَةِ ما كانَ سَبَبُ كُفرِهِمْ مَنْعَ الزكاةِ وجحُودَها[2] كقولِهِ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦ و٧] فَيَسألُ أنْ يَرْجِعَ إلى المالِ الذي تَرَكَهُ لِيُؤدِّيَ الحَقَّ الذي كانَ فيهِ، فَمَنَعَهُ كقولِهِ: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] وقولُهُ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدَّقَ بالصَّدَقَةِ التي مَنَعْتُها لأنَّ الخِطابَ في الصدقةِ بقولِهِ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ الآيةِ [المنافقون: ١١] وهذا أشبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ هو ردٌّ لِما سَألوا مِنَ الرجْعَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ [هُوَ قَآئِلُهَا]﴾: أي اللهُ تعالى قالَها، وتلكَ الكلمةُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ الآيةِ [المنافقون: ١١] وقالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[3] يعني الكافرَ عندَ معايَنَةِ العذابِ، وهو قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

ثم قولُهُ ﴿كَلَّآ﴾ على هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ لا حقيقةَ لِسؤالِهِ الذي يَسألُهُ مِنَ الرجْعَةِ ليَعْمَلَ العَمَلَ الصالحَ، أي إنهُ، وإنْ رُدَّ، ورجَعَ، لا يَعْمَلُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١) في الأصل وم: مالك. (٢) في الأصل وم: وجحوده. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: هو قول الله ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾.

والثاني: أنهُ لا مَنْفَعَةَ لهمْ في سؤالِهِمُ الرَّجْعَةَ؛ إذْ لو رُجِعوا لا يَصِلُونَ إلى ما يَأْمُلونَ لأنهمْ إنما يَسألونَ ليؤمنوا، والإيمانُ، سبيلُهُ الِاسْتِدْلالُ. فإذا لم يَسْتَدِلّوا بهِ وَقْتَ أمْنِهِمْ وفُسْحَتِهِمْ فكيفَ يَقْدِرونَ على الِاسْتِدْلالِ في وَقْتِ خَوفِهِمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي أمامَهُمْ. قالَ أبو مُعاذٍ: [إنه مُشتقٌّ][1] مِنْ تَوارَيتُ عنكَ، فكلُّ ما تَوارَى عنكَ، أمامَكَ كانَ أو خَلْفَكَ، فهو وراءَكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ على حقيقةِ الوَراءِ ﴿بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: البَرْزَخُ، هو ما بَينَ النَّفْخَتَينِ. وقالَ بعضُهُمْ: البَرْزَخُ هو الأجَلُ بينَ المَوتِ والبَعْثِ، وهو قولُ الكَلْبِيِّ وقَتادَةَ. وقالَ مُجاهدٌ: البَرْزَخُ، هو حاجِزٌ بَينَ المَوتِ والرجوعِ إلى الدنيا.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عُبَيدَةَ: البَرْزَخُ، ما بَينَ الدنيا والآخِرَةِ، وقالا: كلُّ شيءٍ بَينَ شيئَينِ فهو بَرْزَخٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: البَرْزَخُ ما بَينَ الحَدَّينِ، يعني الدنيا والآخِرَةِ [وقالَ: البَرْزَخُ][2] الأرضُ المُسْتَوِيَةُ.

وأصلُ البَرْزَخِ الحاجِزُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان: ٥٣] أي حاجزاً. وتأويلُهُ أي صاروا إلى الوقتِ الذي يَحْجُزُهُمْ عمّا يَتَمَنَّونَ، ويَشْتَهونَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبإ: ٥٤] وإنما يَشْتَهونَ، ويَتَمَنَّونَ، الإيمانَ والأعمالَ الصالحةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [أي مِنْ ورائِهِمْ][3] أحوالُهُمُ المُمْكِنةُ. الإيمانُ فيهِ أحوالٌ، لا يُمْكِنُ فيها الأمانُ[4] وما تَمَنَّوا مِنَ العَمَلِ الصالحِ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الباطِنيَّةِ لأنهمْ يقولونَ: البَعْثُ هو أنْ يُجْعَلَ لِلْمُؤمِنِ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ صورةٌ روحانيَّةٌ، تَبْقَى أبداً ثِيابُ تلكَ الصورةِ الروحانيَّةِ: مِنَ الأعمالِ القبيحةِ السَّيِّئَةِ لِلْكافِرِ صورةٌ قَبيحةٌ روحانيَّةٌ، هي تُعاقَبُ، وتُعَذَّبُ أبداً. فذلكَ البَعْثُ عندَهُمْ.

فأخبَرَ ﷺ أنَّ بَينَ مَوتِهِمْ وبَينَ البَعْثِ البَرْزَخَ، وهو الأجَلُ الذي ذَكَرْنا أو الحاجِزُ. فَدَلَّ ذلكَ على نَقْضِ قولِهِمْ أنْ ليسَ البَعْثُ إلّا خُروجَ الصورةِ الروحانيَّةِ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ إنْ كانَ قولُهُ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ في الناسِ كلِّهِمْ فذلكَ في اخْتِلافِ المَواطِنِ على ما قالَهُ ابنُ عباسٍ وغيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ واخْتِلافِ الأوقاتِ: لا يَتَساءلونَ في مَوطِنٍ أو في وَقْتٍ، ويَتَساءلونَ في وقْتٍ آخَرَ.

ألَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧و..] ونَحْوَهُ؟

وإنْ كانَتِ الآيةُ في الكَفَرَةِ[5]/ ٣٥٩ ـ أ/ خاصةً فهو يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لأنهُ كانَ يَتَناصَرُ بعضُهُمْ بِبَعْضٍ على غَيرِهِمْ، ويَسْتَعينُ بعضُهُمْ بِبَعْضٍ، [وكانَ ذلكَ][6] رِدْءاً لهمْ في هذه الدنيا وشُفَعاءَ وأعواناً وأنصاراً. فأخبَرَ أنَّ ذلكَ يَنْقَطِعُ منهمْ، ويَذْهَبُ ذلكَ التَّناصُرُ عنهُمْ في الآخِرَةِ. والعَرَبُ خاصَّةً كانَ يَتَفاخَرُ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ بالأنسابِ، ويَتَناصَرُ. فأخبَرَ أنَّ ذلكَ مُنْقَطِعٌ عنهُمْ في الآخِرَةِ.

والثاني: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وما ذَكَرَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [إلّا][7] لِشُغْلِهِمْ بأنفسِهِمْ لِفَزَعِ ذلكَ اليومِ وأهوالِهِ؛ يَنْسَى بعضُهُمْ بعضاً، ويَهْرُبُ منهُ كقولِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٣] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] وقولِهِ[8] في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢].

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ومشتقة. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل.
(٤) في الأصل وم: الإيمان. (٥) في م: الكفر. (٦) في الأصل وم: ويكون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقال.

فذلكَ كلُّهُ لِشِدَّةِ أهوالِ ذلكَ اليومِ وأفزاعِهِ، كانَ لكلٍّ في نفسِهِ شُغْلٌ[1] حتى لا يتفرغَ إلى أحدٍ، وإنْ قَرُبَ عنهُ لِشُغْلِهِمْ بأنفسِهِمْ.

وإنْ [كانَتِ الآيةُ][2] في الناسِ جميعاً فهو ما ذَكَرْنا أنَّ ذلكَ يكونُ في اختِلافِ المَواطِنِ والأوقاتِ، يَسْألونَ في وَقْتٍ، ولا يَسْألونَ في وَقْتٍ، ويَسْألونَ في مَوطِنٍ، ولا يَسْألونَ في مَوضِعٍ، أو يَسْألونَ عَنْ شيءٍ، ولا يَسْألونَ عَنْ آخَرَ.

ورَوَى الخَبَرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «كلُّ نَسَبٍ كانَ فهو مُنْقَطِعٌ إلّا نَسَبي» [بنحوه أحمد٤/ ٣٢٣] أو كلاماً[3] نحوَ هذا. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: «إلّا نَسَبي» وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: الشَّفاعةُ لهُ في أنسابِهِ، لا يكونُ ذلكَ لِغَيْرِهِ في نَسَبِهِ. فإذا أرادَ هذا فهو على حقيقةِ نَسَبِهِ.

والثاني: أرادَ بقولِهِ: «إلّا نَسَبي» المُعَيَّنَ لهُ في دينِهِ، لأنَّ كلَّ مَنِ اتَّبَعَهُ فَقَدِ انْتَسَبَ إليهِ، فكأنهُ قالَ: إنَّ كلَّ شَفاعةٍ دوني فهو مُنْقَطِعٌ إلّا شَفاعتي، فَمَنِ اتَّبَعَني فَقَدِ انْتَسَبَ إليَّ بِقَبولِهِ ديني.

الآيتان ١٠٢و١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أنَّ[4] مَنْ عَظُمَ قَدْرُهُ ومَنْزِلَتُهُ عندَ اللهِ بالأعمالِ التي عَمِلَها[5] مِنَ الصالحاتِ والحَسَناتِ فهو مِنَ المُفْلِحينَ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ مَنْزِلَتُهُ وقَدْرُهُ عندَ اللهِ بأعمالِهِ الخَبيثةِ السَّيِّئةِ فهو مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ واللهُ أعلَمُ. وقد ذَكَرْنا أقاويلَ أهلِ التأويلِ في المَوازِنِ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَلْفَحُهُمْ[6] النارُ لَفْحةً، فلا[7] تدعُ لَحْماً على عَظْمٍ إلّا ألقَتْهُ ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عابِسونَ. وقالَ [بعضُهُمْ][8]: ﴿تَلْفَحُ﴾ أي تَنْفَحُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَلْفَحُ﴾ تَشْوي وتَحْرِقُ. وذلكَ عادةُ النارِ أنها تَعْمَلُ كلَّ هذا العَمَلِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَلْفَحُ﴾ أي تَضْرِبُ، واللَّفْحُ الضَّرْبُ؛ يُقالُ: لَفَحَتْهُ النارُ، أي ضَرَبَتْهُ، فأحرَقَتْ وَجْهَهُ، تَلْفَحُ لَفْحاً، فهي[9] لافحةٌ، والكالِحُ العابِسُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كذلكَ كانوا يُكَذِّبونَ. وقد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أمّا[10] ما قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [كُتِبَ علينا][11] مِنَ الشَّقاوةِ فإنهُ لا يُحْتَمَلُ لأنهمْ يقولونَ ذلكَ القَولَ اعتِذاراً لما كانَ منهمْ مِنَ التَّفْريطِ في أمْرِهِ والتَّضْييعِ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَطْلُبوا لأنفسِهِمْ عُذْراً في ما كانَ منهمْ؛ إذْ لو كانَ ما ذَكَرَ أولئكَ لَكانَ في ذلكَ طَلَبُ العُذْرِ لأنْفُسِهِمْ، وهمْ في ذلكَ الوقتِ لا يَطْلُبونَ عُذْراً لأنفسِهِمْ، ولكنْ يُقِرّونَ بما كانَ منهُمْ كقولِهِ: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ١١].

لكنْ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: يقولونَ: ربَّنا شَقِينا بأعمالِنا التي عَمِلْناها، وظَلَمْنا أنْفُسَنا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾.

والثاني: عَمِلْنا أعمالاً اسْتَوجَبْنا بِتلكَ[12] الأعمالِ جَزاءً، فنحنُ أولَى بذلكَ الجزاءِ، فَغَلَبَ علينا جَزاءُ تلكَ الأعمالِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وأمّا ما قالَه أولئكَ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿غَلَبَتْ﴾ أي كُتِبَتْ فهو بعيدٌ لأنهُ إنما يُكْتَبُ ما يَفْعَلُ العبدُ وما يُعْلَمُ أنهُ يَخْتارُهُ، لا يُكْتَبُ غيرُ الذي عُلِمَ أنهُ يَفْعلُهُ[13]، ويَخْتارُهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: شغلا. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) في الأصل وم: كلام. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: عملوها. (٦) في الأصل وم: لفحتهم. (٧) في الأصل وم: فلم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فهو. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: بذلك. (١٣) في الأصل وم: يفعل.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ ظُلْمَ عِيانٍ [وظُلْماً ظاهراً][(١)] وإلّا قد كانوا أقرّوا بالظُّلمِ بقولِهِمْ: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ [الملك: ١١]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ قد أقرُّوا بالظُّلمِ، لكنهمْ أقرُّوا بظُلْمِ خَبَرٍ وظُلْمِ سَماعٍ لا ظُلْمِ عِيانٍ، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ ظُلْمَ عِيانٍ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ أي اسْكُتوا، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي ابْعُدوا فيها.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: يُقالُ: خَسَأْتُ فُلاناً، وأخْسَأْتُهُ، أي باعَدْتُهُ، فَخَسِئَ، أي تباعَدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: جائزٌ أنْ يكونَ هذا السؤالُ منهمْ في أوّلِ ما أُدْخِلوا، فقالَ لهمْ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فإنكمْ ماكِثونَ.

[والثاني: جائزٌ][(٢)] أنْ يكونَ هذا السؤالُ منهمْ بَعْدَ ما سألوا المَلَكَ الموتَ مَرَّةً بقولِهِ: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧] وسالوا مَرَّةً تخفيفَ العذابِ بقولِهِ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] فلمّا أيِسوا منهُ، فعندَ ذلكَ يَسألونَ ربَّهمْ إخراجَهُمْ منها والإعادةَ إلى المِحْنَةِ، فقالَ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي ابْعُدوا فيها ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي تَصيرونَ بِحالٍ، لا تَقْدِرونَ على الكلامِ لِشِدّةِ العذابِ، فَعِنْدَ ذلكَ يكونُ منهمُ الشَّهيقُ والزَّفيرُ.

الآيتان ١٠٩و١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ يُخبِرُ ﷻ أولئكَ الكفَرَةَ الذينَ يَسألونَ الإخراجَ منَ النارِ أنكمْ قدْ أخَذْتمْ فَريقاً منْ عبادي، آمَنوا بي ﴿سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ يَذكُرُ هذا لهمْ، واللهُ أعْلَمُ، ليكونَ حَسْرَةً ونِكايَةً.

وقولُهُ تعالى: [﴿سِخۡرِيًّا﴾][(٣)] اخْتُلِفَ في قراءتِهِ و تأويلِهِ: [قرَأ بعضُهُمْ: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ بِكَسْرِ السينِ، وقرأ بعضُهُمْ: بِرَفْعِهِ][(٤)].

قالَ أبو مُعاذٍ: مَنْ قرَأ برَفْعِ السينِ فهو منَ العُبودَةِ والخُوَلَةِ، أي اتَّخَذْتُموهُمْ خَوَلاً وعَبيداً، ومَنْ قرَأ][(٥)] بكسرِ السينِ فهو مِنَ الاسْتِهْزاءِ والهَمْزِ.

وقالَ الكِسائيُّ: بالرَّفْعِ والكَسْرِ جميعاً منَ الاسْتِهْزاءِ، ولا يُقالُ في العُبودَةِ إلّا برَفْعِ السينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: [هُما سَواءٌ].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ قالَ بعضُهُمْ][(٦)]: حتى أنساكُمُ الهُزْءُ بهمْ عنِ العَمَلِ بطاعتي. وقيلَ: أضافَ الإنساءَ إلى الذِّكْرِ لأنهمْ كانوا يذكرِهِمْ ودعائِهِمْ إلى ذِكْرِ اللهِ يَهْزَؤونَ بهمْ، فأضافَ إليهِ ذلكَ، فكانَ كإضافةِ الرجْسِ إلى السورةِ[(٧)] لأنَّ ذلكَ إنما يزدادُ لهمْ عندَ تلاوةِ السورةِ، فأُضيفَ ذلكَ إليهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي إني جَزَيْتُهُمُ اليومَ الفوزَ بما صَبَروا في الدنيا على أذى أولئكَ الكَفَرَةِ أو على أداءِ ما أُمِروا بهِ، ونُهوا عنهُ، أو يكونُ ذلكَ كقولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [غافر: ٥١] ونَصْرُهُ إيّاهُمْ، هو أنْ صارتْ لهمُ العاقبةُ[(٨)]، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١١٢و١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ مُقاتِلُ بنُ سليمانَ: في القبورِ. قالَ أبو مُعاذٍ: أخطأَ مُقاتِلٌ، وذلكَ قولُ مَنْ يُنْكِرُ عذابَ القبْرِ، وهو قولُ الجَهْمِيَّةِ،

---

(١) في الأصل وم: وظلم ظاهر. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٦٦. (٥) ساقطة من م. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]. (٨) في الأصل وم: عاقبة.

لأنَّ مَنْ كانَ في عذابٍ وشدةٍ لا يَقْتَصِرُ المُقامَ فيهِ كلَّ هذا الاقْتِصارِ حتى يقولَ: لَبِثْتُ يوماً أو بَعضَ يوم، بل يزدادُ لهُ مُقامُ [يوم][1] في العذابِ على سنةٍ أو أكثَرَ. فقالَ: إلّا أنْ يكونَ عَنَى ما بَينَ النَّفْختَينِ/ ٣٥٩ ـ ب/ حتى يُؤْذَنَ لأرواحٍ، فتَرْقُدَ. فإذا بُعِثوا اسْتَقَلّوا رَقْدَةَ ذلكَ المِقدارِ بما كانوا قاسوا قَبْلَ الرَّقْدَةِ مِنَ العذابِ في القبورِ: إلى هذا يَذْهَبُ بعضُ أهلِ التأويلِ.

وجائزٌ عندَنا ما قالَ مُقاتِلٌ ومحمدُ بنُ إسحاقَ بأنَّ ذلكَ يكونُ في القبرِ. وذلكَ لا يَدُلُّ على نَفْيِ عذابِ القَبْرِ لأنهمْ لا يُعَذَّبونَ في القبورِ العذابَ الذي يُعَذَّبونَ في الآخِرَةِ. فجائزٌ أنْ يَسْتَقِلّوا عذابَ القَبْرِ بعذابِ الآخِرَةِ، ويَسْتَقْصِروا[2] ذلكَ الوقتَ بعذابِ الآخِرَةِ لِشِدَّتِهِ وأهوالِهِ. وذلكَ جائزٌ في مُتَعارَفِ الخَلْقِ أنْ يكونَ الرجلُ في بَلاءٍ و شِدَّةٍ، ثم يَزْدادَ له البَلاءُ والشِّدَّةُ، فَيَسْتَقِلُّ ذلكَ البلاءَ الذي كانَ بهِ لِشِدَّةِ ما حَلَّ بهِ.

فَعَلَى ذلكَ همْ؛ جائزٌ أنْ يكونوا في عذابٍ في قبورِهِمْ، لكنهمْ إذا عايَنوا عذابَ الآخِرَةِ اسْتَقَلّوا عذابَ القبرِ، واسْتَقْصَروهُ لِشِدَّةِ عذابِ الآخِرَةِ، أو أنْ يكونَ عذابُ القَبْرِ على النَّفْسِ الرُّوحانيِّ الدَّراكِ، الذي يَخْرُجُ في حالِ النومِ ليسَ على رُوحِ حياةِ النائمِ؛ يَرَى نفسَهُ في بَلاءٍ وعَذابٍ في نومِهِ، ويكونُ في أفْزاعٍ، وكانَتْ نفسُهُ مُلْقاةً في مكانٍ، لا عِلْمَ لها بذلكَ، ولا خَبَرَ، وبها آثارُ الأحياءِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ عذابُ القبرِ على هذا السبيلِ على الرُّوحِ الذي بهِ يُدْرِكُ الأشياءَ لا على رُوحِ الحياةِ الذي بهِ يَحْيَى.

وقالَ قائلونَ: ذلكَ في الدنيا؛ اسْتَقَلُّوا حياةَ الدنيا بالحياةِ[3] الآخِرَةِ. وهو كقولِهِ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾؟ هذا يَدُلُّ على أنَّ ذلكَ في الحياةِ الدنيا أشْبَهُ حينَ[4] أمرَ أنْ يَسْألَ الذينَ يَعُدُّونَ؛ وذلكَ إنما يكونُ في الدنيا لا في الآخِرَةِ.

ثم اخْتُلِفَ في العادِّينَ: قالَ بعضُهُمْ: همُ الملائكةُ الذينَ يَكْتُبونَ أعمالَهُمْ في هذهِ الدنيا، ويَرْقُبونَهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمْ مَلَكُ المَوتِ وأعوانُهُ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولكنْ لا تَعْلَمونَ.

قالَ القُتَبِيُّ ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكَسْرِ السينِ، أي تَسْخَرونَ منهمْ، وسُخْرِيّاً بضَمِّها، أي تُسَخِّرونَهُمْ مِنَ السُخْرَةِ[5] عَبَثاً. وقولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي شَغَلَكُمْ أمْرُهُمْ عن ذِكري. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ صَيَّرَ خَلْقَهُ الخَلْقَ لا لِلرُّجوعِ والبَعْثِ عَبَثاً لوجهَينِ:

أحَدُهُما: لأنَّ خَلْقَهُ إياهُمْ لا لِعاقِبَةٍ تُتَأمَّلُ أو لِمَنافِعَ تُقْصَدُ، لِلْهلاكِ خاصَّةً ولِلْفَناءِ عَبَثٌ كبناءِ الباني لا لِمَنْفَعةٍ تُقْصَدُ بهِ، ولكنْ لِلنَّقْضِ يكونُ عَبَثاً في الشاهِدِ. وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ [النحل: ٩٢] سَفَّهَها في غَزْلِها لِلنَّقْضِ خاصَّةً لا لِمَنْفَعةٍ قَصَدَتْ بهِ، ونهانا أنْ نَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِها [فلو لم][6] يكنِ المَقصودُ مِنْ خَلْقِ الخَلْقِ إلّا الموتَ والفَناءَ خاصَّةً لا لِعاقِبَةٍ تُقْصَدُ كانَ سَفَهاً وعَبَثاً.

والثاني: ما أخْبَرَ أنهُ إنما أنْشأَ هذا العالَمَ غَيرَ البَشَرِ لهذا البَشَرِ، ولهُ سَخَّرَ ذلكَ كلَّهُ حينَ[7] قالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] إذ ليسَ لغَيرِ البَشَرِ مَنْفَعَةٌ بهذهِ النِّعَمِ التي أنْشَأها لهمْ مِنْ نَحْوِ الجنِّ والملائكةِ ونَحْوِهِمْ، إذْ لهمْ قِوامٌ بدونِ ذلكَ مِنَ الشمسِ والقمرِ ونَحْوِهِ مِنَ النِّعَمِ إنما ذلكَ لِلْبَشَرِ خاصَّةً.

فإذا كانَ كذلكَ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَجْعَلَ لهمْ كلَّ هذهِ النِّعَمِ التي ذَكَرَها، وأنشَأها لهمْ، ثم لا يَمْتَحِنُهُمْ بالشكرِ على ذلكَ، ولا يأمُرُهُمْ بأوامِرَ، ولا يَنْهاهُمْ بِمَناهٍ. فَدَلَّ ما أنشَأَ لهمْ مِنَ النِّعَمِ، وسَخَّرَ لهمْ مِنَ الأشياءِ أنهمْ يُبْعَثونَ، ويُرْجَعونَ إليهِ حتى

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ويستقصرون. (٣) في الأصل وم: الحياة. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: السخرية. (٦) من م، في الأصل: فلم. (٧) في الأصل وم: حيث.

يُجْزَوا جميعاً: لِلْمُحْسِنِ [جزاءُ الإحسانِ ولِلْمُسِيءِ][١] جزاءُ الإساءةِ؛ إذْ في العقولِ التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ وبَيْنَ المُحْسِنِ والمُسِيءِ وبَيْنَ الشاكِرِ والكافِرِ. ثم رَأيناهُمْ جميعاً في هذهِ الدنيا عاشوا على سَواءٍ في الضِّيقِ والسَّعَةِ، لم نَرَ ما يَفْصِلُ بَيْنَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ وبَيْنَ المُحْسِنِ والمُسِيءِ وبَيْنَ الشاكِرِ والكافِرِ. فَدَلَّ ما لم نَرَ مِنَ التَّفْرِقَةِ ما ذَكَرْنا في هذهِ الدنيا على أنَّ هنالكَ داراً أُخْرَى: دارُ الجزاءِ.

هناكَ يَفْصِلُ بَيْنَ ما ذَكَرْنا في الجزاءِ، واللهُ الموفِّقُ.

[وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ قيلَ: لا تُبْعَثُونَ، وقيلَ: لا تُرْجَعونَ إليهِ بالأعمالِ التي عَمِلْتُموها كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] وقولِهِ: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي يَتَعالَى اللهُ عنْ أنْ يكونَ خَلْقُ الخَلْقِ لا لِحِكْمَةٍ ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ [الحُسنَى][٣] أوِ المَلِكُ الذي خَلَقَ الخَلْقَ لِحِكْمَةٍ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَنْزِيهٌ وتَبْرِئَةٌ مِنْ جميعِ ما قالوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ على الأوَّلِ: يَتَعالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ وربُّ العَرْشِ الكريمِ عنْ أنْ يَخْلُقَهُمْ لا لِحِكْمَةٍ أو لِلْعَبَثِ.

وقالتِ الباطِنِيَّةُ: العَرْشُ القيامَةُ على ما قالوا هُمْ، إلّا أنهمْ يقولونَ: هو قائِمُ الزمانِ، وقُلْنا نحنُ: هي القيامَةُ المَعْروفَةُ، وهي الساعةُ [وهو][٤] ربُّ القِيامةِ، وهي المُلْكُ الذي ذَكَرْنا كقولِهِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] خَصَّ ذلكَ اليومَ بالمُلْكِ لهُ، وإنْ كانَ المُلْكُ لهُ في الدارَيْنِ جميعاً لما لا يُتَنازَعُ في مُلْكِهِ يومَئِذٍ، قد نُوزِعَ في الدنيا، فَخَلَصَ له مُلْكُ ذلكَ اليومِ، وصَفا لهُ يومئذٍ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: العَرْشُ السريرُ، أضافَ إلى نفسِهِ لِمَنْزِلَتِهِ[٥] عندَ اللهِ، و﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ هو نَعْتُ ذلكَ السريرِ، أي الحَسَنِ كقولِهِ: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي حَسَنٍ. وهكذا يُوصَفُ كلُّ كريمٍ بالحُسْنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو نَعْتُ الرَّبِّ، أي ذو عَفْوٍ وصَفْحٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ظاهِرُ هذا يُوحِي أنَّ هنالكَ إلهاً آخَرَ لأنهُ قالَ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ لكنهُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: كقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩] وكقولِهِ[٦]: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الذريات: ٥١].

والثاني: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [أي مَنْ يُسَمِّ معَ اللهِ إلهاً آخَرَ][٧] إذْ كانوا يُسَمُّونَ الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونَها آلهةً. على هذينِ الوجْهَيْنِ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي لا حُجَّةَ له[٨] بذلكَ، لأنَّ الحجَّةَ إنما تكونُ بوجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا بالأخبارِ التي تجوزُ الشهادةُ على صِدْقِها وصِحَّتِها، وإمّا بالعُقولِ تَشْهَدُ على ذلكَ، وإمّا مِنْ جِهَةِ الحِسِّ يَدُلُّ على ذلكَ. فلم يكُنْ [لهُ][٩] واحدٌ مِنْ هذهِ الوجوهِ.

ثم الحِسُّ يكونُ بالدلالةِ مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: بوقوعِ الحِسِّ عليهِ بالبَدِيهَةِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ومنزلته. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) في م: لهم، ساقطة من الأصل.

[والثاني][1]: بآثارٍ تَدُلُّ على الألوهِيَّةِ.

فلا كانَ في ظاهرِ وقوعِ الحِسِّ دلالةُ ذلكَ، ولا كانَ بها آثارٌ تدلُّ على ذلكَ، بل فيها آثارُ العُبودةِ والذُّلِّ فَضلاً ألّا تكونَ لها آثارُ الألوهِيَّةِ. ولا عُذْرَ لهمْ في ذلكَ، لأنَّ العبادةَ لِآخَرَ إنما تكونُ لوجوهٍ:

إمّا لِلنِّعَمِ والأيادي تكونُ منهُ إليهِ، فَيَعْبُدُهُ[2] شكراً لما أنْعَمَ عليهِ، وأحْسَنَ إليهِ، وإمّا لِحَوائِجَ[3]، يطمعُ قضاءَها لهُ من عندِهِ، أو لِما يَرَى لهُ في نفسِهِ منْ آثارِ العُبودةِ لهُ. فإذا لم يكُنْ واحدٌ مِنْ هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا لا عُذْرَ لهمْ في عبادةِ تلكَ الأصنامِ.

فإنْ قالوا: لنا برهانٌ وحُجَّةٌ في ذلك قيلَ: قَطَعَ حِجاجَكُمْ بما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨] وقولِهِ: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ونحوِ ذلكَ منَ الآياتِ فيها قَطْعُ حِجاجِهِمْ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾ أي لا سُلْطانَ/ ٣٦٠ـ أ/ لهُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ هو قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: حِسابُهُ: جَزاؤُهُ لِصَنيعِهِ عندَ ربِّهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥و٢٦].

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا تَعْظيماً مِنَ اللهِ لكلِّ أحدٍ [سَأَلَ][4] سُؤالَ المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ. وقيلَ: هو لِرسولِ اللهِ ﷺ.

فهو يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

[أحَدُهما][5]: أنَّ في حكْمَتِهِ وعَدْلِهِ ألّا [يَغْفِرَ، ولا يَرْحَمَ][6] أحداً، وإنْ كانَ في فَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ أنْ يَرْحَمَ، ويَغْفِرَ.

والثاني: يَجْعَلُ لهُ العِصْمَةَ والرَّحْمَةَ بهذا الدعاءِ، أو تكونُ العِصْمَةُ، تزيدُ في الخَوفِ كقولِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنَّ رَحْمَتَهُ إذا أدركَتْ أحداً أغْنَتْهُ عنْ رَحْمَةِ غيرِهِ [ورحْمَةَ غيرِهِ][7] لا تُغْنيهِ عنْ رَحْمَتِهِ. واللهُ الموَفِّقُ [وصلّى الله على سَيِّدِنا محمدٍ وآله أجمعينَ][8].

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: فيعبدوه. (٣) في الأصل وم: لحوائجهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: يرحم ويغفر. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

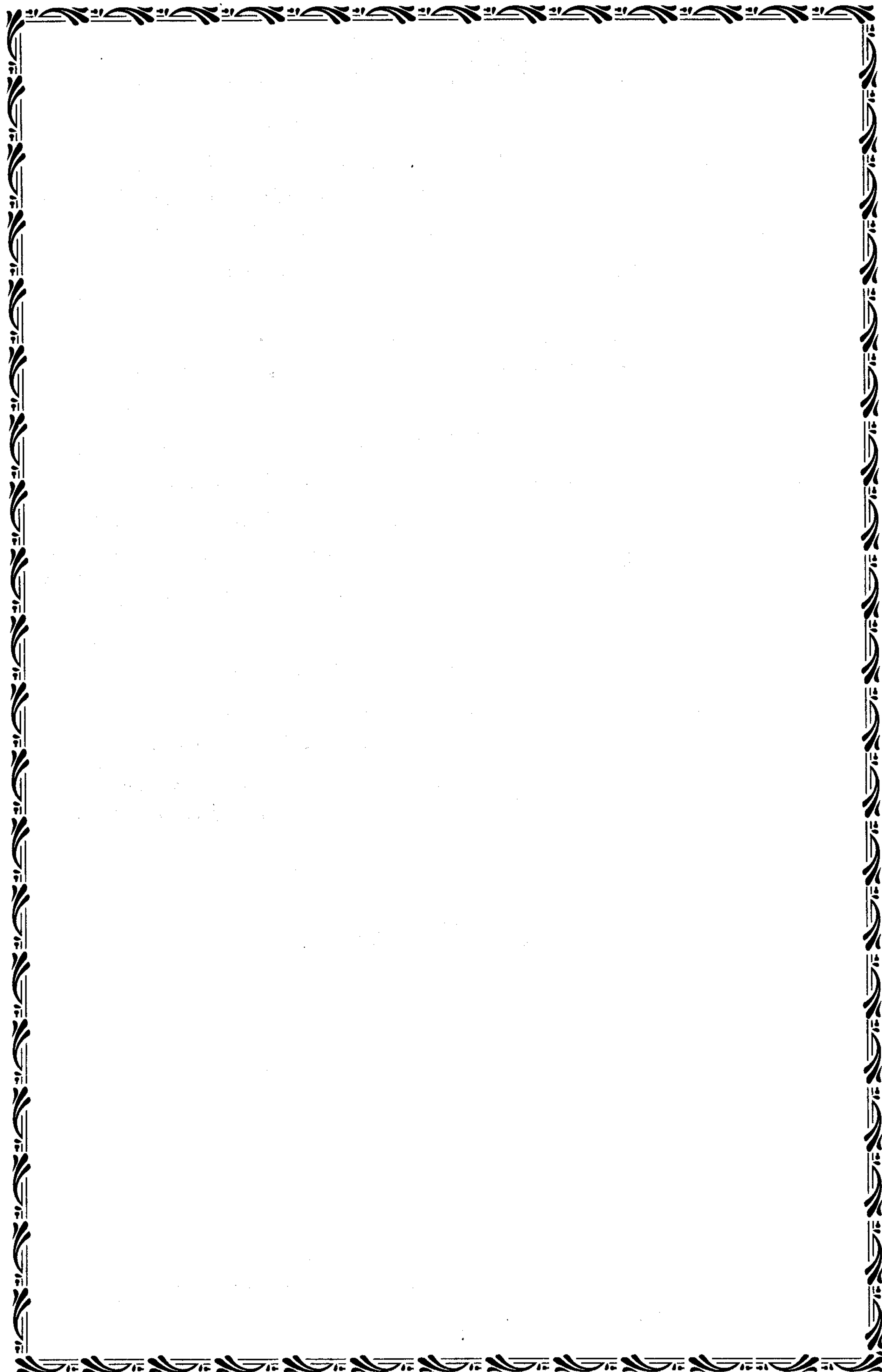

سورة النور

كلُّها[١] مدنيةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ سَمّاها سُورَةً، وجَعَلَ تِلاوتَها سُورَةً، ولم يَجْعَلْ لِغَيرِها مِنَ السُّوَرِ[٢] التِّلاوَةَ كما جَعَلَ لهذهِ[٣].

فجائزٌ ذلكَ لِكَثْرةِ ما فيها مِنَ الأحكامِ ومِنَ[٤] الفَرائضِ والآدابِ ما بالناسِ إلى ذلكَ حاجةٌ، أو لِمَعْنىً [لم يَذْكُرْهُ، أو لا لمعنىً][٥] ولكنهُ ذَكَرَ هذا، إذْ[٦] لهُ الخَلْقُ والأمْرُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: السُّورَةُ القِطْعَةُ مِنْ كلِّ شيءٍ. يقولُ: سَوَرْتُ الشيءَ، أي قَطَعْتُهُ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنما سُمِّيَ القرآنُ لِجَماعةِ السُّوَرِ، وسُمِّيَتِ السُّورَةُ [لأنها][٧] مَقطوعةٌ مِنَ الأخرى. فلمّا قُرِنَ بَعْضُها إلى بَعْضٍ سُمِّيَ قُرْآناً كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ أي تأليف بَعْضِها إلى بَعْضٍ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧و١٨] أي فإذا جَمَعْناهُ، وألَّفْناهُ، ﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ أي ما جُمِعَ فيه، فاعْمَلْ بهِ مِنْ أمْرٍ ونَهْيٍ. ويُقالُ: ليسَ لِشِعْرِهِ قُرآنٌ أي نَظْمٌ وتأليفٌ. ويُقالُ للمرأةِ: ما قَرَأَتْ سَلىً قَطُّ، أي لم تَجْمَعْ في بَطْنِها وَلَداً.

وقالَ بعضُهُمْ: سُورةٌ بلا هَمْزٍ أي المَنْزِلَةُ والرِّفْعَةُ، وبالهَمْزِ سُؤْرَةٌ: البَقِيَّةُ، ومنهُ سُمِّيَ سُؤْرُ الكلبِ وسُؤْرُ الهِرِّ وسُؤْرُ الطائرِ أي بَقِيَّتُهُ والقِطْعَةُ منهُ.

ثم قُرِئَتْ بالنَّصْبِ[٨] سُورَةً ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ والرَّفْعِ جميعاً ﴿سُورَةٌ﴾، وَهي القراءةُ الظاهِرةُ.

فَمَنْ قَرَأها بالنَّصْبِ أوقَعَ الفِعْلَ عليها، أي أنْزَلْناها سُورَةً. والفعلُ إذا وَقَعَ على شيءٍ انْتَصَبَ، تَقَدَّمَ الفِعْلُ، أو تأخَّرَ، كقولِكَ: زيداً ضَرَبْناهُ، وضَرَبْنا زيداً. وقالَ بعضُهُمْ: إنما انْتَصَبَ لإضمارٍ فيهِ كأنهُ قالَ: اتَّبِعوا سورةً أنزَلْناها كقولِهِ: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣] بالنصبِ، أي احْذَروا ناقةَ اللهِ.

ومَنْ قَرَأَ بالرفعِ [رَفَعَ][٩] على الابْتِداءِ. فكلُّ ما يُبْتَدَأُ بِهِ فهو رَفْعٌ. وقالَ بعضُهُمْ: رُفِعَ [على][١٠] إضمارِ: هذِهِ، سورةٌ أنْزَلْناها، وذلكَ كلُّهُ جائزٌ في اللغةِ. واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وبالتَّشديدِ: وفَرَّضْناها[١١].

قالَ الزَّجّاجُ: قولُهُ: وفَرَّضْناها بالتَّشديدِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي كَثَّرْنا فيها الفرائضَ والأحكامَ.

والثاني: فَرَّضْناها، أي فَصَّلْنا فيها بَيْنَ ما يُؤْتَى وبَيْنَ ما يُتَّقى وبَيْنَ ما [أُمِرَ وبَيْنَ ما][١٢] نُهِيَ.

وقالَ: وأمّا التَّخفيفُ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ فَمَعْناهُ: الزَموا ما فيها مِنَ الفرائِضِ وآدابِها.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن سورة النور، وفي م: سورة النور. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: سورة. (٣) من م، في الأصل لهذا. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٣٣. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٣٣. (١٢) ساقطة من الأصل.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ بالتَّخفيفِ أي بيَّنّا فيها الفَرائِض.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: مَنْ قرَأَها بالتَّخفيفِ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أنْزَلْنا فيها فَرائِضَ مُخْتَلِفَةً، ومَنْ قرَأَ: فَرَّضْناها بالتَّشديدِ يَقُلْ: فَرَّضْناها عليكُمْ وعلى مَنْ بَعْدَكُمْ على التَّكثيرِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي حُجَجاً بيِّنَةً، يَقُصُّها، ويَعْرِفُها كلُّ أحدٍ بالبديهةِ والتَّأمُّلِ، أو أنْ يُريدَ بالآياتِ الآياتِ التي جَمَعَ فيها أشياءَ، وتُتْلَى لأنَّ الآيةَ إنما تَستَحِقُّ اسْمَ الآيةِ إذا جُمِعَ فيها كلماتٌ وحُروفٌ، فأمّا كلمةٌ واحدةٌ وحَرْفٌ واحدٌ فلا تُسَمَّى بهذا الإسْمِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ماذَكَرَ فيها، وبيَّنَ مايُؤْتَى ويُتَّقَى، وبيَّنَ ما يَحِلُّ ويَحرُمُ. فذلكَ كلُّهُ مُبيَّنٌ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَتَّعِظونَ بما ذَكَرَ فيها مِنَ المَواعِظِ، وبيَّنَ فيها ما يَزْجُرُ عنِ المُعاوَدَةِ، وهي الحدودُ التي ذَكَرَ فيها لأنَّ سَبَبَ الإتِّعاظِ أحدُ شيئَينِ: المَواعِظُ التي تُلينُ القلوبَ والحدودُ التي تَزْجُرُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ لو كانَ الخِطابُ يَجِبُ اعْتِقادُهُ على ظاهِرِ المَخرَجِ والعمومِ على ما قالَهُ بَعْضُ الناسِ لَكانَ [لكلّ](١) أحدٍ أنْ يُقيمَ على آخَرَ حَدًّا بِظاهِرِ قولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فيقولَ: اللهُ أمرَني ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ أو أنْ يَضرِبوا جميعاً واحداً مِنَ الزُّناةِ بظاهِرِ قولِهِ: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ فَيَزْدادُ الضَّرْبُ والحَدُّ على ما حَدَّ اللهُ أضعافاً مُضاعَفَةً.

فَدَلَّ أنَّ اعْتِقادَ العُمومِ فاسدٌ بِظاهِرِ المَخرَجِ، أو أنْ يقولَ قائِلٌ: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «العَينانِ تَزْنِيانِ واليَدانِ تَزْنِيانِ، والرجلانِ تَزْنِيانِ والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ كلَّهُ ويُكذِّبُ» [مسلم: ٢٦٥/ ٢١] سَمَّى الناظِرَ إلى ما لا يَحِلُّ نَظَرُهُ إليهِ زانياً والماسَّ لَهُ(٢) كذلكَ، فَيَلْزَمُهُ الحَدُّ بِظاهِرِ قولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

فإذا لم يُفهَم مِنْ ظاهِرِ قولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ ما ذَكَرْنا كلُّهُ دلَّ أنَّ الإعْتِقادَ على عُمومِ المَخرَجِ فاسدٌ، وأنَّ المُرادَ بقولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ راجعٌ إلى الخُصوصِ إلى مُقيمٍ دونَ مُقيمٍ، وإلى زانٍ دونَ زانٍ، وهو الزاني الذي يَجْمَعُ في فِعْلِ الزِّنَى جميعَ بَدَنِهِ: العَينَ واليَدَ والرِّجْلَ والفَرْجَ وجميعَ بَدَنِهِ. ورَجَعَ الخِطابُ بهِ إلى البِكْرَينِ الحُرَّينِ والثَّيِّبَينِ الحُرَّينِ اللَّذَينِ لم يَسْتَجْمِعا جميعاً أسبابَ(٣) الإحصانِ. فأمّا مَنِ اسْتَجْمَعَ جميعَ أسبابِ الإحصانِ فإنَّ حَدَّهُ الرَّجْمُ على اتِّفاقِ القولِ منهمْ جميعاً.

إلّا أنَّ طائفةً مِنْ أهلِ العِلْمِ أوجَبوا عليهِ مَعَ الرَّجْمِ الجَلْدَ، وفي البِكْرِ مَعَ الجَلْدِ تَغريبَ عامٍ. والدليلُ على أنَّ المُرادَ راجعٌ إلى الحُرَّينِ البِكْرَينِ أوِ الثَّيِّبَينِ اللَّذَينِ لم يَسْتَجْمِعا أسبابَ الإحْصانِ ما ذَكَرْنا مِنَ القَولِ المُتَّفَقِ [عليهِ](٤).

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ/ ٣٦٠ ـ ب/ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

دلَّ إيجابُ نِصْفِ ما على المُحْصَناتِ على الإماءِ على أنهُ أرادَ بالمُحْصَناتِ الحَرائرَ اللاتي لم يَسْتَجْمِعْنَ جميعَ أسبابِ الإحْصانِ، وأنَّ الخِطابَ بِقولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ راجعٌ إلى الحُرَّينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما. ثم لم يَضْرِبْ في الزِّنى الذي بهِ زَنَى، وهو الفَرْجُ، وَقَطَعَ في السرقةِ [التي بها سَرَقَ، وهي](٥) اليَدُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما جَعَلَ الحدودَ زَواجِرَ عنِ المُعاوَدَةِ، لم تُجْعَلْ دافِعَةً مُذْهِبَةً إمكانَ ذلكَ الفِعْلِ مِنَ الأصلِ. وفي ضَرْبِ الفَرْجِ ذهابُ إمكانِ الفِعْلِ مِنَ الأصلِ، ولا كذلكَ في قطعِ اليَدِ في السرقةِ، إذْ تَبْقَى أُخرَى، بها يأخُذُ، وبها يَقْبِضُ. لذلكَ افْتَرَقا؛ إذْ أنْ يُقالَ: في ضَرْبِ الفَرْجِ خوفُ [هَلاكِ المرءِ](٦) في الأغلَبِ، وليسَ ذلكَ في قَطْعِ اليَدِ، بل يَبْقَى حيّاً في الغالبِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ الحدودَ لم تُجعَلْ مُهلِكَةً مُتلِفَةً، ولكنْ جُعِلَتْ زَواجِرَ عنِ المُعاوَدَةِ لذلكَ افْتَرَقا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: لها. (٣) في الأصل وم: أحكام. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الذي به سرق وهو. (٦) في الأصل وم: هلاك.

وفي قولِهِ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النَّفيَ ليسَ مِن عَذابِ الزانِيَين ولا مِن عُقوبَتِهما لأنهُ قالَ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والنَّفيُ ممّا لا يَحتَمِلُ أنْ يُؤمَرَ بِشُهودِهِ لأنهُ لا يُمكِنُ. فَدَلَّ أنهُ ليسَ مِن عذابِهما.

ويَدُلُّ أيضاً قولُهُ: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [على ذلكَ][1] لأنهمْ أجمَعوا على أنْ لا نَفيَ على الإماءِ إذا زَنَينَ، وقد أوجَبَ عليهنَّ إذا زَنَينَ نِصفَ ما على المُحصَناتِ أو إنْ ثَبَتَ النَّفيُ فهوَ يَحتَمِلُ [وجوهاً]:

أحَدُها][2] أنهُ أرادَ بِهِ قَطعَ الشَّينِ الذي لَحِقَهُما بِفِعلِ الزِّنى لأنهُ ليسَ جُرمٌ مِنَ الأجرامِ أكثَرَ شَيناً وأشَدَّ مِن فِعلِ الزِّنى، فَأرادَ أنْ يَنقَطِعَ ذلكَ مِن بَينِ الناسِ.

[والثاني][3]: أنْ يَكونَ أرادَ بِهِ قَطعَ الشَّهوَةِ التي حَمَلَتْهُما على الزِّنى بِذُلِّ السَّفَرِ وذِلَّةِ الغُربَةِ.

[والثالثُ: أنهُ][4] صارَ مَنسوخاً لمّا شُدِّدَ في الضَّربِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.

وفي ما ذَكَرَ النَّفيَ لم يَذكُرْ فيه الشِّدَّةَ، إنما ذَكَرَ فيهِ الجَلدَ فَحَسْبُ بقولِهِ عليهِ السلامُ: «أمّا على ابنِكَ هذا فَجَلدُ مئةٍ وتَغريبُ عامٍ» [البخاري: ٢٦٩٥ و٢٦٩٦] فجائزٌ أنْ يَكونَ الضربُ كانَ بالتَّخفيفِ. وفيهِ نَفيٌ. فلما شُدِّدَ في الضَّربِ ارتَفَعَ النَّفيُ.

وقد جاءَ عن عُمَرَ رضي الله عنه أنهُ نَفى رجلاً، فارتَدَّ عنِ الإسلامِ، ولَحِقَ بالرومِ، فقالَ: كَفى بالنَّفيِ فِتنَةً، وقالَ: لا أنفي بَعدَ هذا أبداً.

وكذلكَ رُوِيَ عن عليٍّ رضي الله عنه واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ في تَخفيفِها. فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ مِنْ أعظَمِ الأجرامِ في الشَّينِ.

ثم لِلمُعتَزلةِ تَعلُّقٌ بظاهِرِ قولِهِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قالوا: إنَّ اللهَ وَصَفَ نَفسَهُ بالرحمةِ بقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ثم نَهاهُمْ أنْ تَأخُذَهُمْ رَأفَةٌ على الزانِيَينِ وقتَ إقامةِ الحَدِّ عليهِما. دَلَّ أنَّ الزانيَ قد خَرَجَ بِفِعلِهِ عنِ الإيمانِ لِما ذَكَرْنا مِن رَفعِ الرَّأفةِ والرحمةِ عنهُما.

لكنْ عندَنا في الآيةِ دلالةٌ أنهُ ليسَ على ما ذَهَبوا إليهِ، لأنَّ الزّانيَ لو كانَ يَخرُجُ عنِ الإيمانِ بِفِعلِ الزِّنى لَكانَ لا يَحتاجُ إلى أنْ يقولَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لأنهمْ كانوا على ما وَصَفَهُمُ اللهُ بالشِّدَّةِ على غَيرِ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾.

دَلَّ أنَّ الزِّنى لم يُخرِجْهُ عنِ الإيمانِ، فَنَهى ألّا تَأخُذَنا بهما رَأفَةُ الإيمانِ والدينِ في تَعطيلِ الحَدِّ وتَخفيفِهِ، ويكونُ النَّهيُ عنْ أخذِ الرَّأفةِ لِيَتَحمَّلا[5] ذلكَ الحَدَّ. وإلّا لم يُنتَفَعْ بِهِ في الآخِرةِ، وهو ألّا يُعَذَّبَ بِهِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؟ وفائدتُهُ ما ذَكَرْنا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ إضاعةَ الحَدِّ لِما يُتَأمَّلُ مِنَ النَّفعِ في الآخِرةِ نَحوُ مَنْ يَشرَبُ الأدويةَ الكريهةَ، وَيَفتَصِدُ، وَيَحتَجِمُ، لِما يَطمَعُ البُرْءَ بهِ والنَّفعَ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يَكونَ النَّهيُ عنْ أخذِ الرأفةِ في حَدِّ الزِّنى لِيُقامَ ذلكَ عليهِ، فَيَنجوَ في الآخِرةِ مِنْ عذابِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الطائفةُ واحدٌ أو اثنانِ فصاعداً. وكذلكَ قالوا في قولِهِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥)في الأصل وم: وجهين: أحدهما.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] هما رَجُلانِ اقْتَتلا. دَلَّ عَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وهما اثْنانِ في الظاهِرِ لكنْ أنْ يَنْضَمَّ إلى كلِّ واحدٍ منهما جماعةٌ مِنْ عَشيرَتِهِ، فتكونُ الطائفةُ جَماعةً لا واحداً.

وقالَ بَعضُهُمْ: الطائِفَةُ جَماعةٌ مِنَ العَشَرَةِ[1] فَصاعداً.

ثم يَجبُ أنْ يُنْظَرَ لأيِّ مَعْنىً أمَرَ أنْ يَشْهَدَ عذابَهُما طائفةٌ مِنْ بَينِ سائرِ الأجرامِ. فهو، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: لِلْمِحْنَةِ: أرادَ أنْ يَمْتَحِنَ مَنْ حَضَرَ ذلك؛ إذِ[2] المَرْءُ قد يَتألَّمُ على ضَرْبِ آخَرَ، وما يَحُلُّ بِغَيرِهِ لِيَنْزَجِرَ عن مِثْلِهِ.

الثاني: لِانْتِشارِ الخَبَرِ في الناسِ لِيَنْزَجِروا عن مِثْلِهِ.

والثالثُ: لئلا يَتَعَدّى الضاربُ والمُقيمُ ذلكَ الحَدَّ، ويُجاوِزَهُ على الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ؛ فإنْ هو يَتَعَدَّ مَنَعَهُ مَنْ حَضَرَهُ عنِ المجاوَزَةِ والتَّعَدِّي.

والرابعُ: لِدَفْعِ التُّهَمَةِ عنِ الحاكمِ: لئلا يَتَّهِمَهُ الناسُ أنه أقامَ عَليهِ الحَدَّ بلا سَبَبٍ، كانَ منهُ، ولا جُرْمٍ.

فإنْ كانَ الأمْرُ بِشُهودِ الطائفةِ عذابَهُما هذهِ الوجوهَ الأربَعَةَ[3] التي ذَكَرْنا مِنِ انْتِشارِ الخَبَرِ ودَفْعِ التُّهمَةِ عنهُ ومَنْعِ المُجاوَزَةِ [والمِحْنَةِ فهو][4] يَحتاجُ أن تكونَ جماعةٌ لأنَّ[5] الواحدَ غَيْرُ كافٍ لذلكَ.

فإنْ كانَ الأولُ، وهو المِحْنَةُ، فالواحدُ وما فَوقَهُ يكونُ: يَمْتَحِنُ كلًّا في نفسِهِ بِحُضورِ ذلكَ الحَدِّ لِيَتألَّمَ بِهِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ بعضَ أهلِ العِلْمِ قالوا: إنهُ يُجْمَعُ مَعَ الرَّجْمِ الجَلْدُ، واحْتَجُّوا بما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ جَلْدُ مئةٍ ورَجْمٌ بالحجارةِ، والبِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مئةٍ وتَغريبُ عامٍ» [مسلم: ١٦٩٠]. فأمّا الجَلْدُ فلا خِلافَ في أنهُ حَدُّ البِكْرِ. وأمّا النَّفْيُ [فقدِ اختَلَفوا فيهِ][6]: فمنهُمْ مَنْ رآهُ واجباً، ومنهُمْ مَنْ رآهُ عقوبةً، [لم يَضُمُّهُ][7] إلى الحَدِّ.

ونحنُ قد ذَكَرْنا المَعْنى في ذلكَ إنْ ثَبَتَ ما يُغْنينا عنْ تَكرارِهِ. ونزيدُ أيضاً نُكْتَةً، وهي أنَّ الحدودَ[8] ذاتُ نِهاياتِ مقدارٍ[9] وغاياتٍ، ولذلكَ سُمِّيَتْ حُدوداً لأنَّ لها نِهايةً وغايةً كما يُقالُ: حَدُّ الدارِ[10] مُنْتَهاها وآخِرُها.

فلما لم يكُنْ لِلنَّفْيِ مكانٌ معلومٌ، يُنْفَى الزاني إليهِ، دلَّ أنهُ ليسَ بِحَدٍّ، ولكنْ أرادَ بِهِ الوجوهَ التي ذَكَرْنا: إمّا حَبْساً كما يُحْبَسُ الدّاعِرُ حتى يُحدِثَ توبةً [وإمّا][11] قَطْعَ الشَّينِ والذِّكْرِ الذي يَتَحدَّثُ الناسُ بِهِ لِيُنْسَى ذلكَ، ويُتْرَكَ [وإمّا][12] قَطْعَ الشَّهَواتِ التي حَمَلَتْهُما[13] على ذلكَ بِذِلَّةِ السَّفَرِ والغُرْبَةِ. وإنْ كانَ ثَمَّ صارَ مَنْسوخاً بما شُدِّدَ فيهِ الضَّرْبُ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا قولُ أصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في إزالةِ الجَلْدِ عنِ الثَّيِّبِ إذا كانَ مُحْصَناً لِقولِ النَّبيِّ ﷺ[14] «اغْدُ يا أُنَيسُ على امْرأةِ هذا فإنِ اعْتَرَفَتْ فارْجُمْها» [البخاري: ٢٦٩٥ و٢٦٩٦] ولم يَذْكُرْ جَلْداً.

وذهبوا أيضاً إلى أنَّ حديثَ ماعِزِ بْنِ مالكٍ لمّا رَجَمَهُ النَّبيُّ ﷺ بِاعْتِرافِهِ، ولم يُذْكَرْ أنهُ جُلِدَ.

ورُوِيَ أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه قالَ لهُ [لمّا][15] اعْتَرَفَ ثلاثاً. لو اعْتَرَفْتَ في المَرةِ الرابعةِ لَرَجَمْتُكَ[16]، ولم يَقُلْ: لَجَلَدْتُكَ. عُلِمَ أنهُ لا يُجْمَعُ مَعَ الرجمِ الجَلْدُ.

وما رُوِيَ عنْ عُمَرَ رضي الله عنه أنهُ أمرَ بِرَجْمِ امرأةٍ زَنَتْ، ولم يَجْلِدْها. ورُوِيَ عنِ ابنِ عُمَرَ عن عُمَرَ مِثْلُهُ. إلى هذه الأخبارِ ذَهَبَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ.

ويقولونَ: لا يَجْتَمِعُ على رجلٍ في فِعْلٍ واحدٍ حَدّانِ الجَلْدُ والرَّجْمُ جميعاً كما يَجْتَمِعُ في غَيرِهِ مِنَ الأجْرامِ في فِعلٍ واحدٍ حَدّانِ أو عُقوبَتانِ / ٣٦١ ـ أ /.

---

(١) في الأصل وم: العشيرة. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: الثلاثة. (٤) في الأصل وم: فالطائفة. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: فما اختلفوا. (٧) في الأصل وم: لهم يضم. (٨) في الأصل وم: ذو. (٩) في الأصل وم: المقدار. (١٠) في الأصل وم: الدارين أنه. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم:أو. (١٣) في الأصل وم: حملتهم. (١٤) أدرج بعدها في الأصل: قال حيث، وفي م: حيث قال. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: لرجمك.

وقولُهُ ﷺ «الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ يُجلَدُ، ويُرجَمُ» [مسلم ١٦٩٠] يَحتَمِلُ الجَلْدَ ثَيِّباً غَيرَ مُحصَنٍ والرجْمَ[١] ثَيِّباً آخَرَ مُحصَناً أوِ الجَلْدَ[٢] ثَيِّباً في حالٍ والرجْمَ[٣] ثَيِّباً في حالٍ. وقد ذَكَرْنا هذِه المسألةَ في سورةِ النساءِ[٤].

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ في ظاهرِ الآيةِ ألّا يَحِلَّ للزاني أنْ يَنكِحَ إلّا الزانيةَ مِنَ المؤمناتِ [أو المشركةَ، وكذلكَ الزانيةُ مِنَ المؤمناتِ][٦] لا يَنكِحُها العَفيفُ مِنَ المؤمنينَ، وإنما يَنكِحُها الزاني[٧] منهم والمُشرِكُ.

وفي ظاهرِ الآيةِ النَّهيُ للزاني عنْ نِكاحِ العَفائفِ وإباحةِ نِكاحِ الزانياتِ أو المُشرِكاتِ. فإنْ كانَ ذلكَ، فكانَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] إلّا الزُّناةَ منكُمْ، فإنهُ يَحِلُّ لهمْ أنْ يَنكِحوا المُشرِكاتِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ٢٢١] إلا الزانياتِ فإنهُ يَحِلُّ.

هذا ظاهرٌ، لكنهم أجمعوا على ألّا يَحِلَّ للمؤمنِ، وإن كانَ زانياً أنْ يَنكِحَ المُشرِكةَ، وكذلكَ لا يَحِلُّ لِلمُشرِكةِ أنْ تتزوَّجَ بالزاني مِنَ أهلِ الإيمانِ.

ثم اختلَفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِهِ: قالَ مُقاتِلٌ ومحمدُ بْنُ إسحاقَ: وهؤلاءِ: الزاني مِنْ أهلِ الكتابِ لا يَنكِحُ، أي لا يَتزَوَّجُ إلّا زانيةً مِنْ أهلِ الكتابِ [أو لا يَنكِحُ إلّا مُشرِكةً مِنَ][٨] غيرِ أهلِ الكتابِ، والزانيةُ مِنْ أهلِ الكتابِ لا يَنكِحُها إلّا زانٍ مِنْ أهلِ الكتابِ أو مُشرِكٌ مِنْ غيرِ أهلِ الكتابِ، والزانيةُ مِنْ أهلِ الكتابِ لا يَنكِحُها إلّا زانٍ مِنْ أهلِ الكتابِ أو مُشرِكٌ مِنْ غَيرِ أهلِ الكتابِ؛ يَزنونَ[٩] علانيةً.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه: [أنهُ][١٠] قالَ: نَزَلَتِ الآيةُ في نَفَرٍ مِنْ أهلِ مكةَ هاجَروا إلى المدينةِ وكانوا ذَوي عُسْرَةٍ، وكانَ بالمدينةِ بَغايا يَبْغينَ بأنفُسِهِنَّ ظاهراتٍ بالفُجورِ، وكنَّ مُخصِباتٍ أو مَخاصيبَ البيوتِ، فَهَمَّ أولئكَ المهاجرونَ أنْ يَتزوَّجوا بأولئكَ البَغايا لِيُصيبوا مِنْ خِصْبِهِنَّ وسَعَتِهِنَّ، فَذَكَروا ذلكَ لرسولِ اللهِ، واستأذَنوهُ في ذلكَ، فَنَزَلتِ الآيةُ في شأنِهِمْ: الزاني مِنْ أهلِ القِبْلَةِ المُعْلِنِ بهِ لا يَنكِحُ إلّا زانيةً مِنَ اليهودِ أو مُشرِكةً، وحُرِّمَ ذلكَ على المؤمنينَ.

لكنَّ هذا، يَصلُحُ[١١] لو كان أولئكَ المُهاجرونَ مثلَهُنَّ زُناةً. فأمّا أنْ كانوا مهاجرينَ أهلَ الإيمانِ والعِفَّةِ، فلا يَصلُحُ أنْ يُقالَ فيهِمْ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ وهُمْ لم يكونوا زُناةً إلّا أنْ يُقالَ على الابْتداءِ: إنهُ لا يُفعَلُ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾ أي لا يُجامِعُ، ولا يَزني ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ إلّا بِزانيَةٍ مِثلِهِ. وكذلكَ الزانيةُ لا تَزني إلّا بِزانٍ مِثلِها أو مُشرِكٍ، لا يُحرِّمُ الزِّنَى، وهو قولُ الضَّحّاكِ[١٢].

وقالَ سعيدُ بْنُ المُسيِّبِ: نَسَخَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] قولَهُ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآيةَ.

وسُئِلَ ابْنُ مَسعودٍ رضي الله عنه عن رجلٍ، يَزني بالمرأةِ، ثم يَتزوَّجُها. قالَ: هما زانيانِ ما اصْطَحَبا.

وجائزٌ أنْ يكونَ النَّهيُ عنْ نِكاحِ الزانيةِ والزاني نَهْياً عنِ الزِّنَى نفسِهِ لا عنْ نكاحٍ؛ كأنهُ قالَ: لا تَزْنوا فإنكُمْ إذا زَنَيْتُمْ، وصِرْتُمْ مَعروفينَ بهِ، لا تَجِدونَ أنْ تَنكِحوا إلّا زانيةً أو مُشرِكةً[١٣]، لا تُحرِّمُ الزِّنَى، لأنَّ العَفائفَ مِنهُنَّ، لا يَرغَبْنَ [في نكاحِ مَنْ صارَ يُعلِنُ الزِّنَى، فإذا لم يَرغَبْنَ][١٤] لم يَجِدوا إلّا مَنْ ذَكَرَ، وهو ما قالَ: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] ليسَ النَّهيُ عنْ قُرْبانِ الصلاةِ، ولكنَّ النَّهيَ عنِ السُّكْرِ وشُرْبِ المُسْكِرِ.

وكذلكَ ما رُوِيَ أنهُ قالَ: «لا صَلاةَ لِلمرأةِ الناشِزةِ ولا لِلعَبْدِ الآبِقِ» [بنحوه مسلم: ٧٠ ليسَ فيه ذِكْرُ المرأةِ] إنما النَّهيُ عنْ نُشوزِها وعَنْ إباقَتِهِ[١٥]، ليسَ عنِ الصلاةِ.

---

(١) في الأصل وم: ويرجم. (٢) في الأصل وم: يرجم. (٣) في الأصل: يرجم. (٤) في تفسير الآية /٢٥/. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: الزانية. (٨) في الأصل وم: أي لا ينكح أو مشركة. (٩) في الأصل وم: يزنين. (١٠) في الأصل وم: يزنين. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وهؤلاء. (١٣) ادرج بعدها في الأصل وم: التي. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: إباقة.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إنما [هو](١) نَهيٌ عنِ الزِّنى، أي لا تَزْنوا لِتَرْغَبَ العَفائفُ مِنَ المؤمناتِ فيكُمْ، ولا تَزْنِ النساءُ لِيَرْغَبَ أهلُ العَفافِ مِنَ المؤمنِينَ [فيهنَّ](٢) فإنكُمْ إذا زَنَيْتُمْ، وصِرْتُمْ مَعْروفينَ به مُعلِنينَ، لا تَجِدوا إلا نِكاحَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الزانيةِ أو المُشْركَةِ، أو أنْ يكونَ ما ذَكرْنا: لا يَرْغَبُ الزّاني إلّا في نِكاحِ زانيةٍ أو مُشْرِكةٍ(٣)، لا تُحَرِّمُ الزِّنى، وكذلكَ الزّانيةُ لا تَرْغَبُ إلّا بِزانٍ مِثْلِها أو مُشْرِكٍ(٤)، لا يُحَرِّمُ الزِّنى.

[وقولُهُ تعالى](٥) ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وحُرِّمَ الزِّنى على المؤمنِينَ.

أو إنْ كانَ على النّكاحِ فيكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَحُرِّمَ﴾ أي مُنِعَ عنْ ذلكَ المُؤمنونَ؛ أعْني نِكاحَ الزانياتِ والزُّناةِ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ يُقالُ منهُ: زَنَى يَزْني زِنىً [وزِناءً، وَزَنَأ](٦) يَزْنَأُ زُنوءاً، أي ارْتَقَى يَرْتَقي، ويُقالُ الزَّنَاءُ الضِّيقُ، ويُقالُ: زَنَتُهُ أزُنُّهُ زَنّاً، أي ظَنَنْتُ بهِ ظَنّاً. والقَذْفُ التُّهَمَةُ، والرَّمْيُ أشَدُّ مِنَ القَذْفِ.

ومَنْ جَعَلَ الآيةَ في الزّانينَ المُسْلِمينَ، وجَعَلَ قولَهُ: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ عَلى التَّزْويجِ لَزِمَهُ أنْ يُجيزَ للزانيةِ المُسْلِمَةِ أنْ تَتَزَوَّجَ الزّانِيَ المُسْلِمَ والمُشْرِكَ على مَا ذَكَرْنا بَدْءاً. وهذا لا يقولُهُ أحدٌ. وفي بُطْلانِ هذا القولِ بَيانُ أنَّ الآيَةَ، إنْ كانَ المُرادُ بها عَقْدَ النِّكاحِ، فإنها نَزَلَتْ في الزّانِيَةِ المُشْرِكَةِ، يُريدُ المُسْلِمُ أن يَتَزَوَّجَها كما ذُكِرَ في حديثِ مَرْثَدٍ(٧). وإنْ كانَ المُرادُ بِهِ بِذِكْرِ النِّكاحِ منها الوَطْءَ، فهو كما قالَ ابْنُ عباسٍ في إحْدَى الروايَتَينِ عنهُ: إنهُ الجماعُ، ليسَتْ تَحْتَمِلُ الآيَةُ غَيرَ هذينِ الحالَينِ، واللهُ أعلَمُ بما أرادَ.

وقد زَعَمَ قومٌ أنَّ المرأةَ إذا زَنَتْ حَرُمَتْ على زَوجِها، فكأنهمْ ذَهَبوا إلى أنهُ لِما لم يَحِلَّ أنْ يَطَأها لأنها إذا كانَتْ زانيةً لم يَحِلَّ المُقامُ عليها إذا زَنَتْ، وهي زوجةٌ.

لكنَّ التأويلَ في الآيَةِ على خِلافِ ما تَوَهَّمَ أولئكَ بما وصَفْنا، فلا وَجْهَ لِتَحْريمِهِمُ الزانيةَ على زوجِها. ولو كانَ التأويلُ على ما تَوَهَّموهُ لَوَجَبَ(٨) أنْ تَحْرُمَ الزانيةُ على زوجِها مِنْ حينِ(٩) أنْ كانَ مَمْنوعاً مِنْ تَزَوُّجِها(١٠).

ألا تَرَى أنهُ لا يجوزُ للرجلِ أنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأةً في عِدَّةٍ مِنْ غَيرِهِ؟ ولو أنَّ رَجلاً وَطِئَ امْرأةَ رَجلٍ بِشُبْهَةٍ [في ما وَجَبَ](١١) عليها مِنْ عِدَّةٍ، لم تَحْرُمْ على زَوجِها. ألَا تَرَى أنَّ العِدَّةَ، إذا كانتْ على النِّكاحِ، تُخالِفُهُ في العِدَّةِ؟

واحْتَجّوا أيضاً بأنَّ الرجلَ إذا قَذَفَ امْرأتَهُ لُعِنَ [وفُرِّقَ بَينَهما](١٢) لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ ذَكَرَ الرَّمْيَ، ولم يَذْكُرْ بِمَ؟ فَيُعْرَفُ ذلكَ بالنازلَةِ وبقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ ذَكَرَ الأربعةَ الشهودَ، والزِّنى هو المَخصوصُ بالشُّهودِ الأربعةِ دونَ غَيرِهِ مِنَ الأجرامِ. فَدَلَّ ذِكْرُ ذلكَ على إثْرِ ذلكَ على أنَّ الرَّمْيَ المَذكورَ فيهِ، هو الزِّنى.

ثم قولُهُ: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هنَّ الحرائرُ في هذا المَوضِعِ لا العفائِفُ، لأنَّ قاذفَ الأمَةِ يَلْزَمُهُ التَّعْزيرُ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية [النساء: ٢٥] الا تَرى أنهُ أوجَبَ على الإماءِ نِصْفَ ما على المُحصَناتِ أي الحرائرِ؟ ولأنّا [لو](١٣) جَعَلْنا المُحصناتِ عِبارَةً وكِنايَةً عنِ العَفائفِ دونَ الحرائرِ لأَسْقَطْنا شهادةَ الشهودِ لأنَّ العِفَّةَ تُكَذِّبُها. وكذلكَ يَدُلُّ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣] أنَّ الغافلاتِ عِبارَةٌ عنِ العَفائفِ.

فَدَلَّ أنَّ المُحْصَناتِ [عِبارَةٌ عنِ الحرائرِ، ثم أدْخَلَ المُحْصَنينَ](١٤) في حُكْمِ هذهِ الآيةِ في الرَّمْيِ والقَذْفِ وغَيرِهِ، وإنْ لم يُذْكَروا في الآيَةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ادرج بعدها في الأصل وم: التي. (٤) ادرج بعدها في الأصل وم: الذي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وإما زناء. (٧) انظر أبو داوود ٢٠٥١. (٨) في الأصل وم: فوجب. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: تزويجها. (١١) في الأصل وم: فوجب. (١٢) من م، في الأصل: بينهما وفرق. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

ثم شَدَّدَ اللهُ تعالى في الزِّنَى، وغَلَّظَ في أمْرِهِ ما لم يُشَدِّدْ، ولم يُغَلِّظْ في غَيرِهِ مِنَ الأجرامِ مِثْلَهُ [في وجوهٍ:](١)

منها ما نَهَى عنْ تَعطيلِ الحَدِّ فيهِ وإضاعَتِهِ وتَخفيفِهِ حينَ(٢) قالَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] ومنها ما أَمَرَ بِرَجْمِهِ إذا كانَ مُحصَناً مِثْلَ ما يُرْجَمُ الكلبُ، ويُقْتَلُ بالحجارةِ. ومنها ما أوجَبَ على الرامي بهِ مِنَ(٣) الحَدِّ إذا لم يَأْتِ بأربَعَةِ شهداءَ.

والزِّنَى/ ٣٦١ ـ ب/ بهذا كُلِّهِ مَخصوصٌ مِنْ بَينِ غَيرِهِ منَ الأجرامِ. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لِقُبْحِهِ في العَقْلِ والطَّبعِ جميعاً وكذلكَ في الشَّرْعِ.

والدليلُ على أنهُ قَبيحٌ في الطَّبْعِ والعَقلِ جميعاً، ما يَنْفُرُ عنهُ طَبْعُ كلِّ مُسْلِم، ويَنْفُرُ عنهُ كلُّ عَقْلٍ سليم، فإنْ قيلَ: لو كانَ يَنْفُرُ عنهُ لكانَ لا يَرْتَكِبُهُ، ولا تَأتيهِ، قيلَ: يَنْفُرُ عنهُ، إلا أنَّ الشَّهْوَةَ التي مُكِّنَتْ فيهِ، ورُكِّبَتْ، تَغْلِبُهُ، وتَمْنَعُهُ عنِ النِّفارِ عنهُ.

الا تَرَى أنهُ [لو](٤) تَفَكَّرَ بِمِثْلِهِ في المُتَّصِلاتِ بهِ منَ الأُمِّ والابْنَةِ وجميعِ المَحارمِ لم يَحْتَمِلْ قَلْبُهُ ذلكَ؟

وبِمِثْلِهِ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنَّ رجلاً أتاهُ، فقالَ لهُ: ائْذَنْ لي في الزِّنَى، فقالَ: ارأيتَ لو فُعِلَ بابْنَتِكَ وأُمِّكَ مِثْلُهُ، أكُنْتَ تَكرَهُهُ؟ فقالَ: نعم، فقالَ: اكْرَهْ لِغيرِكَ ما تكرَهُ لِنفسِكَ» [أحمد: ٥/ ٢٥٦] دلَّ ذلكَ أنهُ قبيحٌ في الطبعِ والعقلِ جميعاً، إلا أنَّ الشَّهْوةَ [لم](٥) تَمْنَعُهُ عنِ النِّفارِ عنهُ.

وفيهِ اشْتِباهُ الأنسابِ والمَعارفِ التي جُعِلَتْ في ما بَينَ الخَلْقِ حتى لا يَهْتَدِيَ أحدٌ إلى مُعَلِّم، يُعَلِّمُ الحِكْمَةَ والآدابَ ومَعالِمَ السُّنَنِ، لا(٦) الدعاءُ بالإباءِ وارْتِفاعُ التواصلِ وحِفْظُ الحقوقِ التي يَقومُ بعضٌ لبعضٍ، والشَّفَقَةُ التي جُعِلَتْ لبعضٍ على بعضٍ منَ التربيةِ في الصغارِ وحقوقُ المَحارمِ وغيرِهِمْ.

وبهِ(٧) امتُحِنَ البَشَرُ والعالَمُ الصغيرُ، وبَطَلَ خَلْقُ ما ذَكَرَ مِنَ الإنشاءِ لهذا العالَمِ وتَسْخيرُ ما ذَكَرَ ممّا في السمواتِ والأرضِ لهمْ.

فهذا كُلُّهُ يَدُلُّ على قُبْحِ الزِّنى ونهايَتِهِ في الفُحْشِ والمُنْكَرِ حتى لا يَعْرِفُ هذا العالَمُ قُبْحَهُ ونهايةَ فُحْشِهِ، وإنما يَعْرِفُهُ العالَمُ الرُّوحانيُّ الذي لم يكُنْ فيهِمْ هذهِ الشَّهْوَةُ، ولم يُمْتَحَنوا بها.

وأمّا هذا العالَمُ الذي جُعِلَتْ فيهمُ الشَّهْوَةُ، فلا(٨) يَعْرِفونَ قَدْرَ قُبْحِهِ وفَحْشائِهِ، لِما تَغْلِبُهُمْ، وتَمْنَعُهُمْ عنِ النِّفارِ عنهُ والنَّظَرِ في مَعْرِفَةِ قُبْحِهِ.

لهذا، واللهُ أعلَمُ، ما شَدَّدَ اللهُ تعالى أمْرَ الزِّنَى، وغَلَّظَ في أحكامِهِ، ما لم يُغَلِّظْ بِمِثْلِهِ في غَيرِهِ مِنَ الأجْرامِ، وعَظَّمَ شَأنَهُ مِنْ بَينِ سائرِ الآثامِ.

ثم الذِّكْرُ إنما جَرَى في الحَرائِرِ بما ذَكَرْنا، فهو بالرجالِ مِنَ الأحرارِ، إنْ لم يكُنْ ممّا يكونُ، دونَهُ، لأنَّ العُذْرَ فيهنَّ أكثَرُ، وهي الشَّهْوَةُ التي تَغْلِبُ، وتَمْنَعُ عنِ النِّفارِ عنهُ، وفي الرجالِ أقلُّ، فالعُذْرُ فيهمْ أقَلُّ.

الا تَرَى أنهُ ذَكَرَ الحَدَّ في الإماءِ بقولِهِ: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ولم يَذْكُرْ في العَبيدِ شيئاً، فَيَلْزَمَ العبدَ ذلكَ الحَدُّ إذا ارْتَكَبَهُ؟

فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الحَدِّ في النساءِ والقَذْفِ، فهو في الرجالِ مِثْلُهُ.

ثم أجْمَعوا على أنَّ على قاذفِ الأمَةِ التَّعْزيرَ، ولا حَدَّ عليهِ.

ثم سَمَّى الزوجةَ، وإنْ كانَتْ مُحصَنَةً أمَةً، وقالَ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] سَمَّى مُلكَ اليَمينِ مُحْصَنَةً بقولِهِ: ﴿أُحْصِنَّ﴾ أي تَزَوَّجْنَ وقولِهِ: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي الحرائرِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: عن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ولا. (٧) في الأصل وم: وبها. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم.

فقد بانَ بهذه الآيةِ أنَّ الإحصانَ، قد يكونُ بالحُرِّيَّةِ، ويكونُ بالزواجِ، وإنْ كانتِ الزوجةُ أَمَةً؛ إذا كانَ لها زوجٌ.

وتُسمَّى الطَّبَقَةُ مِنَ النساءِ مُحْصَنَةً. قال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] يعني العفائِفَ.

فالإحصانُ على ثلاثةِ أوجُهٍ، وإنما يجبُ الحَدُّ على قاذفِ الحُرِّ المُسْلِمِ والحُرَّةِ المُسْلِمَةِ.

فإنْ كانَ حُرّاً أو حُرَّةً فَعَليهِ[1] الحَدُّ ثمانينَ، وإنْ كانَ عَبْداً أو أَمَةً فَعَلَيْهِ الحَدُّ أربعينَ سَوطاً على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [يَحْتَمِلُ هذا الحَدُّ وجهَين:

أحَدُهما: أنَّ ظاهرَهُ[2] لا يَقَعُ عندَ حَضرَةِ القَذْفِ، ولكنْ لهُ أنْ يأتيَ إلى وَقْتِ إياسِهِ، وهو المَوتُ، كَمَنْ يَحْلِفُ بيمينٍ، ولم يُوَقِّتْ لها وَقْتاً، فإنما وَقَعَتْ إلى وَقْتِ إياسِهِ، فَحَنِثَ عندَ ذلكَ.

فَعَلَى ذلكَ يَجيءُ على ظاهِرِهِ: أنْ يَقَعَ على الأبَدِ، ليسَ عندَ حَضرَةِ المَوتِ، لكنْ لو وَقَعَ إلى الأبَدِ لكانَ فيهِ سُقوطُهُ؛ إذْ لا يُقامُ الحَدُّ عندَ المَوتِ، أو أنهُ[3] أرادَ بِذِكْرِ الشهودِ الأربعةِ زَجْرَهُ عنْ قَذْفِ المُحصَناتِ لما لا يَجِدُ الشُّهودَ على الحُلولِ[4]، فالذي، هو أخفَى، وأسَرَّ، أبْعَدُ.

والثاني: أنَّ الحَدَّ قد لَزِمَهُ بالقَذْفِ. فإنْ أرادَ إسقاطَهُ لم يَسْقُطْ إلّا بِبَيِّنَةٍ، تَقومُ [على][5] حَضرَةِ ذلكَ كَمَنْ يُقِرُّ بِقِصاصٍ[6] أو حَقٍّ مِنَ الحقوقِ، ثم ادَّعَى العَفْوَ في ذلكَ أو إسْقاطَ ما أقَرَّ بهِ[7] والخروجَ منهُ، لم يُصَدَّقْ إلا بِبَيِّنَةٍ تقومُ على حَضرَةِ ذلكَ.

فَعَلَى ذلك قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وَقَعَ ذلكَ [الحَدُّ][8] على حَضرَةِ القاذفِ[9]. فإنْ أتَى بهِ، وإلا حُدَّ، واللهُ أعلَمُ.

ثم المَسألةُ بأنهُ إذا أتى بأربَعَةِ فُسَّاقٍ دَرَأَ عنْ نَفْسِهِ الحَدَّ عندَنا.

والقياسُ ألا يُطالَبَ بشهودٍ عُدولٍ، لأنَّ العدولَ، لا يَشْهَدونَ ذلكَ المَشْهَدَ، ولا يَنْظُرونَ إليهِ، إنما يَشْهَدُهُ الفُسَّاقُ، [فهو أحَقُّ][10] أنْ يَدْرَأَ بهِمُ الحَدَّ عنهُ مِنَ العدولِ، وليسَ كالشهادةِ على إقامةِ حَدِّ الزِّنَى، لأنَّ قَصْدَهُمْ بالنَّظَرِ إلى ذلكَ المكانِ قَصْدُ إقامةِ الشهادةِ وإيجابِ الحَدِّ على فاعلِ ذلكَ.

لذلكَ لم يَصيروا فَسَقَةً، ولأنهمْ لا يَشهَدونَ بذلكَ إلا عنْ تَوبَةٍ تكونُ منهمْ، إذْ يَمْلِكونَ التوبةَ.

ولأنَّ الفسَّاقَ مِنْ أهلِ الشهادةِ لَيسوا[11] كالكفّارِ والعبيدِ. وهؤلاءِ، وإنْ كانَتْ لا تُقبَلُ شهادةُ الفُسَّاقِ، فهمْ من أهلِ الشهادةِ.

ألا تَرى أنَّ مَنْ قَذَفَ [كانَ][12] فاسقاً، أو [إنْ][13] كانتِ امرأةً، قَذَفَها[14] زوجُها، وهو فاسقٌ، فإنا[15] نَجِدُ القاذفَ[16] الفاسقَ، ويُلاعَنُ بينَ الزوجِ وبَينَ امرأتِهِ؟ وإنْ قَذَفَ مُسْلِمٌ كافراً، أو قَذَفَ حُرٌّ عبداً، أو إنْ قَذَفَ أحَدُهُما زوجَهُ[17]، لم يُلاعَنْ بَينَهُما؟

فَمَنْ خالَفَنا في هذا اللِّعانِ فليسَ يُخالِفُنا في أنَّ الحُرَّ إذا قَذَفَ العَبْدَ، والمُسْلِمَ إذا قَذَفَ الكافِرَ، فلا حَدَّ على واحدٍ منهما، فهذا كلُّهُ يَدُلُّ أنَّ الفاسقَ مِنْ أهلِ الشهادةِ والكافرَ والعبدَ والمَحْدودَ في القَذْفِ لَيسوا مِنْ أهلِ الشَّهادةِ.

فإذا كانوا مِنْ أهلِ الشهادةِ، ولم تُقْبَلْ شهادَتُهُمْ في غَيرِهِ، فَأَوجَبَ ذلكَ شُبْهَةً، والحدودُ ممّا تُدْرَأُ بالشُّبُهاتِ. لِذلكَ دُرِئَ عنهُ[18] الحَدُّ.

---

(١) في الأصل وم: فليهما. (٢) في الأصل وم: فظاهر هذا أنه. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: الحلال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل: له. (٧) في الأصل وم: له. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: القذف. (١٠) في م: أحق، ساقطة من الأصل. (١١) من م، في الأصل: ليس. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فقذفها. (١٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: قاذف. (١٧) في الأصل وم: زوجته. (١٨) يعود الضمير على الفاسق.

وأمّا الكافرُ والعَبْدُ والمَحْدودُ في قَذْفٍ، فإنْ لم يكونوا مِنْ أهل [الشهادةِ][1] لم تَجِبْ شُبْهَةٌ في دَرْءِ الحَدِّ عنهُمْ[2] لِذلكَ افْتَرَقا.

ثم المسألةُ: إذا جاءَ الشهودُ مُتَفَرِّقِينَ حُدُّوا، ولم تُقْبَلْ شهادَتُهُمْ.

والقياسُ عندَنا ألا يُحَدُّوا لأنهم إنما يقومونَ في الشهادةِ مُحْتَسِبِينَ، لا يَقْصِدونَ بها قَذْفَهُ وشَتْمَهُ. وأمّا الرامي فإنهُ يَقْصِدُ قَصْدَ شَتْمِهِ وقَذْفِهِ، ولأنَّ الشاهدَ، يقولُ: رأيتُهُ فَعَلَ كذا، والراميَ، يقولُ: أنت كذا، فكانَ كمَنْ يقولُ [عن آخَرَ][3]: رأيتُهُ كَفَرَ، لم يُضْرَبْ بهذا القولِ، ولو قالَ: يا كافرُ ضُرِبَ لأنَّ هذا خَرَجَ [مَخْرَجَ][4] الشَّتْمِ، والأوّلَ لا. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

لكنهُمْ أقاموا الحَدَّ على الشُّهودِ، إذا جاؤوا مُتَفَرِّقِينَ، لأنَّ اللهَ أكَّدَ الشَّهادةَ بالزِّنَى بأمْرَيْنِ:

أحَدُهما: ألّا يُقْبَلَ فيها أقَلُّ مِنْ أربعَةٍ، وألّا تُقْبَلَ حتى يَقولوا: زَنَى بها، فيأتوا[5] بهذهِ اللفظةِ، ويَصِفوا بأكثرَ ممّا يُوصَفُ غَيْرُهُ مِنَ النِّكاحِ وغَيرِهِ. فالشهادةُ بالزِّنَى أحْوَجُ على اجْتِماعِ الشهودِ في مَوطِنٍ واحدٍ مِنَ اجْتِماعِ الشهودِ على النِّكاحِ، إذا عُقِدَ بشاهِدينِ مُتَفَرِّقَيْنِ لم يكنْ نكاحاً.

فالزِّنى/ ٣٦٢ ـ أ/ الذي كانَ أمْرُهُ أوكَدَ[6]، والحاجةُ إليهِ أحْوَجَ، وأكْثَرَ، أحَقُّ ألا يُقْبَلَ.

والثاني: ما جاءَ عنْ عُمَرَ أنَّ ثلاثةً شَهِدوا على رجلٍ بالزِّنَى، وفيهِمْ أبو بَكْرَةَ، فَجَلَدَهُمْ عُمَرُ جميعاً لِما لَمْ يَشْهَدِ الرابعُ كما شَهِدوا هُمْ. وكانَ ذلكَ بِحَضْرَةِ أصحابِ النَّبِيِّ، فلم يُنْكِرْ عليهِ أحدٌ. فكانَ ذلكَ إجماعاً.

ألا تَرَى أنَّ أبا بَكْرَةَ قالَ بَعْدَ ذلكَ: أنا أشْهَدُ، فَهَمَّ عُمَرُ أنْ يَجْلِدَهُ، فقالَ لهُ عليٌّ ﷺ: إنْ جَلَدْتَ هذا فارْجُمْ صاحِبَكَ؟ فلم يُنْكِرْ عليهِ عليٌّ جَلْدَهُ إيّاهُمْ إذا لم يَتِمَّ أربعةً، إنما أنْكَرَ إذا تَمَّ، واللهُ أعلمُ.

لذلكَ قُلْنا: إنهمْ إذا جاؤوا فُرادَى مُتَفَرِّقِينَ، صاروا قَذَفَةً، ولا يُنْظَرُ بهِ حضورُ مَنْ بَقِيَ منهمْ كما لم يَنْتَظِرْ عُمَرُ.

ثم مسألةٌ أُخرَى: أنهُ إذا جاءَ أربعةٌ، واحِدُهُمْ زوجٌ قُبِلَ عندَنا، ودُرِئَ عنهُ الحَدُّ لِما رُوِيَ [عنِ][7] ابْنِ عباسٍ ﷺ وغيرِهِ مِنَ السَّلَفِ ولأنَّ الشهادةَ عليها وشهادَةَ الزوجِ على امرأتِهِ تُقْبَلُ، وإنما تُرَدُّ إذا شَهِدَ لها.

ألا تَرَى أنهُ لو شَهِدَ عليها في الديونِ والقِصاصِ والسرقةِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الحقوقِ قُبِلَ؟ فَعَلَى ذلكَ في هذا ماقيلَ: إنَّ الزوجَ إنما يَشْهَدُ لِنَفْسِهِ، وفيهِ مَنْفَعَةٌ لهُ لأنَّ حَدَّهُ اللِّعانُ، إذا قَذَفَها فهوَ يُزيلُ اللِّعانَ عنْ نَفْسِهِ.

قيلَ: إنما يكونُ حدُّ الزَّوجِ اللِّعانَ إذا قَذَفَها قَبْلَ أنْ يَرْتَفِعا إلى الحاكمِ. فإذا فَعَلَ ذلكَ، ثم شَهِدَ مع ثلاثةٍ [لم تَجُزْ شهادتُهُ. وأمّا إذا كانَ أوّلَ ما بدأ بهِ أنْ جاءَ مع ثلاثةٍ][8]، فَشَهِدوا عليها بالزِّنَى فليسَ يُبْطِلُ بِشهادتِهِ عنْ نفسِهِ شيئاً، وجَبَ عليهِ.

ألا تَرَى أنَّ الأجنبِيَّ إذا قَذَفَ امرأتَهُ، ثم جاءَ لِيَشْهَدَ بذلكَ عليها مع ثلاثةٍ، فإنَّ[9] شهادتَهُ، لا تجوزُ لأنَّ الحَدَّ قد لَزِمَهُ قَبْلَ شهادتِهِ؟ وهو يدفَعُ الحَدَّ الذي وجَبَ عليهِ بشهادتِهِ، فلا تُقْبَلُ. وأنهُ لو جاءَ مع ثلاثةٍ، وكانَ أوّلَ أمْرِهِمْ أنْ يَشْهَدوا عليها بالزِّنَى، فَشهادَتُهُمْ جائزةٌ، ولا يُقالُ: إنَّ أحداً منهمْ يدفَعُ عنْ نفسِهِ شيئاً، وَجَبَ عليهِ، فَعَلَى ذلكَ الزَّوجُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ تَسْمِيَةُ الفِسْقِ لهمْ لا تَخْلو: إمّا أنْ كانَ لِمَا رَمَوا، وقَذَفُوا بهِ بَرِيئاً من ذلكَ، أو لِمَا هَتَكوا عليهِ السِّتْرَ مِنْ غَيرِ أنْ هَتَكَ هو على نفسِهِ.

فإنْ كانَ الأوّلُ فذلكَ لا يَعْلَمُ إلا اللهُ. فَعَلَى ذلكَ تَوبَتُهُ، لا تَظْهَرُ عندَنا؛ فإنما ذلكَ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ. فكأنهُ قالَ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ عندكُم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النور: ٥].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لآخر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيأتون. (٦) في الأصل وم: واكد. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: أو، في م: إن.

وإنْ كانَ الثانيَ فإنا نُعلِمُهُ. فكأنهُ قالَ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ عندكُمْ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ لا تَظْهَرُ توبَتُهُ عندنا، لأنَّ توبَتَهُ هو أنْ يَعْزِمَ ألّا يَهْتِكَ على آخرَ سِتْرَهُ، أو يَعْزِمَ ألّا يَقْذِفَ بَرِيئاً مِنَ الزِّنى أبداً.

فأيُّ الوجهَينِ كانَ تَسْمِيَتُهُ فِسقَهُمْ فإنَّ التوبَةَ مِنْ ذلكَ لا تَظْهَرُ عندَ الناسِ. لذلكَ لم تُقْبَلْ [شهادتُهُمْ][1] ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ: وإنما تَوبَتُهُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ؛ إذا تابَ غَفَرَ اللهُ لهُ ذنبَهُ: الفِرْيَةَ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ غَيرِ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ مِنْ نَحوِ الحَسَنِ وإبراهيمَ وأمثالِهِما[2]؛ قالوا: تَوبَتُهُ [في ما][3] بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ ليسَ ثَمَّةَ شهادةٌ، رُفِعَتْ إلى الحاكمِ، فَرَدَّها. ولكنْ لا تَقْبَلوا لهمْ شهادةً يَرْفَعونَها إلى الحاكمِ. فالحَرَجُ على كلِّ شهادةٍ، يرفَعونَ مِنْ بَعْدُ.

ثم إذا شَهِدوا بَعْدَ ما قُذِفَ قَبْلَ أنْ يُجْلَدَ قُبِلَتْ شَهادَتُهُمْ. إنما تُرَدُّ بَعْدَ ما جُلِدَ لِما اتَّهَمَهُ الحاكِمُ.

وكلُّ شهادةٍ رُدَّتْ لِتُهَمَةٍ فهي لا تُقْبَلُ أبداً. والتُّهَمَةُ التي بها جَلْدُ القاذفِ، هي لا تَزولُ أبداً.

أو تكونُ توبَتُهُ قولَهُ: فقد كذبْتُ في ما قَذَفْتُ، فكنا نَرُدُّ شهادَتَهُ [لِتُهَمَتِهِ بالكَذِبِ][4] فإذا أكْذَبَ نفسَهُ نَقْبَلُها لِتَحَقُّقِ الكذبِ، فهذا بعيدٌ.

الآية ٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أصلُهُ][5] أنَّ كلَّ توبةٍ كانَتْ بَعْدَ التَّمكينِ فهيَ لا تَرْفَعُ الحُكْمَ الذي جُعِلَ لهُ بالحَدِّ، وكلُّ توبةٍ كانَتْ قَبْلَ التَّمكينِ فهي تَرْفَعُ العقوباتِ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] فلو لم يَرْفعوا عنهمْ تلكَ العقوباتِ لكانوا يَتَمادَونَ في السَّعْيِ في الأرضِ بالفَسادِ. وأمّا في ما نَحْنُ فيهِ فليسَ في ذلكَ التَّمادي فيهِ.

وزَعَمَ الشافِعِيُّ أنَّ حالَهُ قَبْلَ الحَدِّ وبَعْدَ ذلكَ سواءٌ. هذا خِلافُ ما نصَّ اللهُ عليهِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ الآية. وقالَ: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فَجَعَلَهُمْ كاذِبينَ عندَ العَجْزِ عنِ [الإتيانِ بالشهداءِ][6] وكانَ أمرُهُمْ قَبْلَ ذلكَ موقوفاً.

فالواجبُ أنْ يَجْعَلَهُمْ كاذبينَ عندَ عَجْزِهِمْ عنْ تَصْحيحِ ما قالوا، وهي الحالُ التي جَعَلَهُمُ اللهُ فيها كاذبينَ.

فَبانَ بما وَصَفْنا أنَّ مَنْ جَعَلَ حالَ المَحْدودِ بَعْدَ أنْ ضُرِبَ الحَدَّ كحالِهِ قَبْلَ ذلكَ مُخْطِئٌ. ودَلَّ ما وَصَفْنا على أنهُ لا يجبُ أنْ يُسْتَدَلَّ بجوازِ شهادَتِهِ قَبْلَ أنْ يُجْلَدَ على جوازِ شهادَتِهِ إذا تابَ بَعْدَ الجَلْدِ على ما ذَكَرْنا، لأنّا بالجَلْدِ عَلِمْنا أنهُ قاذفٌ لا بما كانَ مِنْ رَمْيِهِ المَرْأَةَ قَبْلَ أنْ يُجْلَدَ.

ومِنَ الدليلِ على اختلافِ الحالَينِ أنَّ عُمَرَ لمّا جَلَدَ أبا بَكْرَةَ قالَ لهُ: إنْ تُبتَ قَبِلْتُ شهادَتَكَ، وأنهُ قَبْلَ أنْ يُجْلَدَ لم يَرُدَّ شَهادَتَهُ، لأنهُ لو كانَ عندَهُ مجروحاً بالقَذْفِ لم يَسْمَعْ شهادَتَهُمْ. ولا أعلَمُ بَيْنَ أهلِ العِلْمِ خِلافَ أنهُ لا تُقْبَلُ شهادَتُهُ بَعْدَ الجَلْدِ ما لم يَتُبْ، وإنما يَخْتَلِفونَ في شهادَتِهِ بَعْدَ التوبَةِ، وأنَّ شهادَتَهُ قَبْلَ الجَلْدِ مَقْبولَةٌ. فكيفَ تَشْتَبِهُ الحالتانِ مَعَ ما وَصَفْنا؟

وقالَ غَيرُهُمْ: التوبةُ تُزيلُ فِسقَهُ، ولا تجوزُ شهادَتُهُ؛ قالوا: الاسْتِثْناءُ على آخِرِ الكلامِ على الذي يليهِ. وقد رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ: «المُسْلِمونَ عُدولٌ بعضُهُمْ على بَعْضٍ إلّا مَحْدوداً في قَذْفٍ» [البيهقي في الكبرى ١٠/١٩٧]

وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][7] قالَ: لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ وذَكَرَ حديثاً[8]، فيه طولٌ، وفيهِ: لم يَلْبَثوا إلا قليلاً حتى «جاءَ هِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ، وهو أحدُ الثلاثةِ الذينَ تابَ اللهُ عليهِمْ. قالَ: يارسولَ اللهِ لقد رأيتُ فلاناً مَعَ أهلي، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ما تقولُ يا هِلالُ؟ قالَ: واللهِ يا رسولَ اللهِ لقد رأيتُهُ، وسَمِعْتُهُ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وأمثاله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: لتهمة الكذب. (٥) في الأصل وم: وأصله. (٦) في الأصل وم: إقامة الشهداء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حديث.

بأذني. قالَ: فَشَقَّ على رسولِ اللهِ ﷺ الذي جاءَ بهِ، ثم قالَ: أيُجلَدُ هلالٌ، وتَبْطُلُ شهادتُهُ في المُسْلِمين؟» [أحمد ١/ ٢٣٨] فاشتَدَّ ذلكَ على رسولِ اللهِ ﷺ وجَعَلَ يقولُ: أيُجلَدُ هِلالٌ، وتَبْطُلُ شهادتُهُ في المُسْلِمينَ؟ وقولُ رسولِ اللهِ ﷺ: أيُضرَبُ هِلالٌ، وتَبْطُلُ شهادتُهُ في المُسلِمينَ؟ وما ظَهَرَ مِنْ غَمِّهِ بذلكَ وجَزَعِهِ يَدُلّانِ على أنَّ المحدودَ لا تُقبَلُ شهادتُهُ بَعْدَ توبَتِهِ لأنَّ توبتَهُ، لو قُبِلَتْ، وكانَ كسائِرِ الأشياءِ التي إذا أُتِيبَ منها جازَتْ شهادتُهُ، لَقالَ النَّبِيُّ: تَبْطُلُ شهادتُهُ في المُسْلِمينَ حتى يَقْرِنَ إلى ذلكَ إلّا أنْ يَتوبَ.

وقد ذَكَرْنا عنِ ابْنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [أنهُ] قالَ: فَتابَ اللهُ عليهِمْ مِنَ الفِسْقِ، فأمّا الشهادةُ فلا تجوزُ.

وكذلكَ رُوِيَ عَنْ كَثيرٍ مِنَ السَّلَفِ أنهمْ قالوا: توبَتُهُ في ما بَيْنَهُ وبينَ ربِّهِ.

وفيهِ وَجْهٌ آخَرُ؛ وهو أنَّ القاذفَ إذا ضُرِبَ الحَدَّ، فهو يقولُ ما لم يُرجِعْ: أنا صادقٌ في نفسي، ولم يَلْزَمْني الحَدُّ في ما بيني وبَينَ ربي، وإنما لَزِمَني/ ٣٦٢ ـ ب/ في ذلكَ الحُكْمِ. فإذا تابَ، فهو يقولُ: كانَ الحَدُّ واجباً عليَّ في ما بَيني وبَينَ ربّي. وفي الحُكْمِ فذلكَ أحْرَى ألا يَزولَ عنهُ مِنْ إبطالِ شهادَتِهِ بذلكَ.

وَوَجْهٌ آخَرُ؛ وهو أنَّ القاذفَ، لم تَبْطُلْ شهادتُهُ بقولِهِ: فلانٌ زانٍ لأنهُ مُدَّعٍ بقولِهِ هذا شيئاً، قد يجوزُ أنْ يكونَ حقّاً، وإنما يَصيرُ قاذفاً إذا عَجِزَ عن إقامةِ البَيِّنَةِ، وضَرَبَهُ الحاكمُ الجَلْدَ.

فإذا كانَتْ شهادتُهُ إنما بَطَلَتْ بِحُكْمِ حاكمٍ، لم يُزَلْ ذلك الحكْمُ إلا بِحُكْمِ حاكمٍ. فإذا حَكَمَ حاكمٌ بجوازِ شهادتِهِ في شيءٍ جازَتْ شهادتُهُ فيهِ. فإنْ قيلَ: يَلْزَمُكُمْ على هذا أنْ تقولوا: إنْ قالَ حاكمٌ: قد أجَزْتُ شهادتَهُ في كلِّ شيءٍ فإنها[1] تَجوزُ، لأنَّ الحاكمَ، قد رَفَعَ ما لَزِمَ مِنْ بُطلانِ شهادَتِهِ بالحُكْمِ الأوّلِ. قيلَ: قَولُ الحاكمِ: قد أجَزْتُ شهادَتَهُ، ليسَ بِحُكْمٍ، إنما هو فَتْوَى.

والحُكْمُ إنما يكونُ في ما تُقامُ لهُ البَيِّنَةُ، أو يَقَعُ لهُ الإقرارُ. فإنْ قيلَ: فما تقولونَ في رجلٍ، زَنَى، فَحَدَّهُ الحاكمُ: هل تجوزُ شهادتُهُ إنْ تابَ. قيلَ: بَلَى.

فإنْ قيلَ[2]: قد بَطَلَتْ شهادَتُهُ بِحُكْمٍ آخَرَ، وتوبَتُهُ مقبولةٌ بِغَيرِ حُكْمِ حاكمٍ، فما مَنَعَ أنْ يكونَ القَذْفُ مثلَ ذلكَ؟ وما الفَرْقُ؟ قيلَ: الزِّنَى فِعْلٌ ظاهرٌ، يُعْرَفُ بِهِ فِسقُ الزّنَى، وإنْ لم يُحَدَّ، والقَذْفُ لا يُعْلَمُ كَذِبُ القاذِفِ فيهِ مِنْ صِدْقِهِ لأنهُ شيءٌ يَدَّعيهِ على غَيرِهِ، وإنما يُعْلَمُ أنهُ كاذبٌ في قَذْفِهِ بما يُنَفَّذُ عليهِ مِنْ حكمِ الحاكمِ. فلذلكَ افْتَرَقا.

ومنَ الدليلِ أيضاً على أنَّ شهادةَ القاذفِ، إذا حُدَّ، لا تُقْبَلُ، وإنْ تابَ، أنهُ إذا قالَ: تُبتُ عَنْ [قَذْفي فلاناً][3] أو: كُنْتُ في ذلكَ كاذباً[4]. فَلَسْنا نَدْري هل هو صادقٌ في قولِهِ: [كنتُ كاذباً أو هو في قولِهِ][5] ذلكَ [كانَ][6] كاذباً لأنَّ المقذوفَ، إنْ كانَ في الحقيقةِ زانياً فقولُ القاذِفِ: كُنْتُ في قَذْفي إيّاهُ كاذباً [كَذِبٌ][7] منهُ، وهو في ذلكَ آثِمٌ.

فإذا كنا لا نَقِفُ بتكذيبِهِ نفسَهُ على كَذِبِهِ مِنْ صدقِهِ لم [نَجْعَلْ توبَتَهُ][8] تَوبةً؛ لأنَّ التوبةَ إنما تكونُ أنْ يَظْهَرَ عندَ الحاكمِ[9] مِنَ الأفعالِ ما يَعْلَمُ بنفسِها أنها طاعةٌ، وأنهُ فيها على خِلافِ ما ظَهَرَ مِنْ نفسِهِ في الوَقْتِ الأوّلِ. فلمّا لم يُعْرَفْ كَذِبُ المُكَذِّبِ لنفسِهِ مِنْ صِدْقِهِ لم يُجْعَلْ ذلكَ منهُ تَوبةً، وقُلْنا: توبَتُهُ في ما بَينَهُ وبَينَ ربِّهِ، لأنَّ اللهَ يَعْلَمُ هل هو كاذبٌ في تَكْذيبِهِ نفسَهُ أو صادقٌ؟ ونحنُ لا نَعْلَمُ، ولا دليلَ لنا مِنَ الظاهرِ عليهِ، فلم نَجْعَلْ توبَتَهُ توبةً في الحُكْمِ، وقُلْنا: حالُكَ الآنَ كَحالِكَ قَبْلَ ذلكَ.

ودليلٌ آخَرُ أنّا قد عَلِمنا كَذِبَهُ بقولِ اللهِ: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فإذا قالَ: كَذَبْتُ في قذفي قُلْنا: لم تُفِدْنا بِتَكْذيبِكَ نفسَكَ فائدةً، لم نَعْرِفْها، فأنتَ في هذا الوقتِ كاذبٌ؛ فإنكَ في الوَقْتِ الأولِ تُعْلِمُنا أنكَ كاذبٌ، فَحالُكَ الآنَ في شهادَتِكَ كحالِكَ قَبْلَ ذلكَ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) من م، في الأصل: قذف فلاناً. (٤) في الأصل وم: كذباً. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم، نجعله. (٩) في الأصل وم: الحكم.

على أنَّ الشافعِيَّ، يقولُ: لا تُرْجَعُ المُلاعِنَةُ إلى زَوجِها، وإنْ تابَ. فإذا كانَتْ توبَتُهُ لا تُبْطِلُ ما لَزِمَها[1] من الحُكْمِ في رُجوعِها إليهِ فكذلكَ لا يُبْطِلُ ما لَزِمَهُ مِنَ الحُكْمِ في بُطلانِ شهادَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ إنْ كانَ الجَلْدُ مأخوذاً مِنَ الجُلودِ فَجائزٌ أنْ يُستَخرَجَ منهُ حدُّ الضَّرْبِ، وهو ألا يُجاوِزَ الجُلودَ، ولكنْ يُضرَبُ مِقدارُ ما يَتألَّمُ بهِ، ويَتَوَجَّعُ، ولا تُمَزَّقُ بهِ الجُلودُ، ولا يَخرِقُها، ويُسْتَخرَجُ منهُ التَّفريقُ في الأعضاءِ كلِّها والجَوارِحِ، لأنهُ لو ضُرِبَ في مكانٍ واحدٍ لَخَرَقَهُ، ومَزَّقَهُ، سِوَى الرأسِ والوَجْهِ والمَذاكيرِ لِما فيهِ مِنَ التأثيرِ والمُجاوَزَةِ.

فإنْ كانَ كذلكَ ففيهِ حُجَّةٌ لأبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: إنَّ الشُّهودَ إذا شَهِدوا على حدٍّ، فَضَرَبَ بهِ الإمامُ، فأصابَهُ بالجِراحاتِ، ثم رجَعوا، لا يَضمَنونَ ما أصابَهُ مِنَ الجِراحاتِ لأنهمْ لم يَشْهَدوا على ضَرْبٍ يَجْرَحُ، ويُؤثِّرُ فيهِ ما أصابَهُ. لِذلكَ لم يَضمَنوا.

وقولُ عُمَرَ لأبي بَكْرَةَ: تُقْبَلُ شهادتُكَ إنْ تُبْتَ، فهو يَحتَمِلُ أي تُقْبَلُ روايَتُكَ عنْ رسولِ اللهِ ومَشاهِدُكَ التي شَهِدْتَها. قد ذُكِرَ أنَّ الحُكْمَ والحَدَّ في الآيةِ إنما جَرَى في قَذْفِ المُحصَناتِ دونَ المُحصَنينَ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية. لكنَّ قَذْفَ المُحصَنِ وشَتْمَهُ، إنْ لم يكُنْ أكثرَ في الشَّيْنِ وأعظَمَ في الوِزْرِ، فلا يكونُ دونَهُ. فالذِّكْرُ، وإنْ جَرَى في المُحصَناتِ، فأمكَنَ وجودُ المَعنَى الذي بهِ، جَرَى [في المُحصَنينَ][2] وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] وهو الإيمانُ والإحصانُ والعِفَّةُ. لذلكَ لَزِمَ الحُكْمُ في المُحصَنينَ[3] كما لَزِمَ في المُحصَناتِ.

وقد ذَكَرْنا أيضاً في ما تَقَدَّمَ ألا يُجلَدَ مَنْ قَذَفَ مَمْلوكَةً، أو قَذَفَ كافِرَةً [أو كافِراً، أمّا قاذفُ المَمْلوكِ فَلِقَولِهِ][4] ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ وقد ذَكَرْنا الدليلَ على أنَّ المرادَ بالمحصَناتِ الحرائرُ دون غيرِهِنَّ. لذلك لم يُجلَدْ قاذِفُ المَمْلوكِ [أو المملوكَةِ][5] ولأنّا لو أوجَبْنا جَلْدَهُ ثمانينَ فهو لو أَتَى بِفِعْلِ الزِّنَى حُدَّ خَمسينَ، فلا يجوزُ أنْ يُوجَبَ في عَينِ ذلكَ الفِعْلِ، لو أَتَى بهِ. فَسَقَطَ بما ذَكَرْنا الجَلْدُ عنْ قاذفِ المَمْلوكِ.

وأمّا الكافرُ والكافرةُ [فقد سَقَطَ] عنْ قاذِفِهِما الحَدُّ لِما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ شَرَطَ فيهِ الإيمانَ والإحصانَ والعِفَّةَ. فإذا عُدِمَ واحدٌ ممّا ذَكَرْنا لم يُقَمْ [عليهِ][6] الحَدُّ، ولأنّا لو أوجَبْنا [حَدَّهُ حَدَدْناهُ][7] لِقَذْفِ عَدُوِّ اللهِ.

ولا يجوزُ أنْ يُجلَدَ مسلمٌ يَقْذِفُ عَدُوّاً مِنْ أعداءِ اللهِ مع ما في ما ذَكَرْنا مِنَ المسائلِ إجماعٌ بَينَ أهلِ العِلْمِ في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ رُوِيَ عن ابْنِ عباسٍ [أنهُ][8] قالَ: لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ قالَ [عاصمُ][9] بْنُ عَدِيٍّ الأنصاريُّ: [إنْ][10] دَخَلَ مِنّا رجلٌ بيتَهُ، فَوَجَدَ رجلاً على بَطْنِ امْرأتِهِ، فأرادَ أنْ يَخرُجَ، فَيَجيءَ بأربعةِ رجالٍ شهودٍ يَشْهَدونَ على ذلكَ [يَكُنْ][11] قد قَضَى الرجلُ حاجَتَهُ، وخَرَجَ. وإنْ هو عَجَّلَ، فَقَتَلَهُ[12]، قُتِلَ بهِ. وإنْ هو قالَ: وَجَدْتُ فلاناً مَعَ فلانةٍ، ضُرِبَ بهِ الحَدُّ، ولاعَنَ امْرَأتَهُ. وإنْ سَكَتَ سَكَتَ على غَيظٍ. فَذَكَرَ أنهُ ابْتُلِيَ بذلكَ مِنْ بَينِ الناسِ.

فأتَى رسولَ اللهِ، فأخْبَرَهُ بذلكَ، وقالَ: وَجَدْتُ فلاناً [على][13] بَطْنِها، فأرسلَ رسولُ اللهِ إلى امْرأتِهِ وإلى فلانٍ، فَجَمَعَ بَينَهما وبَينَ عاصمٍ، فقالَ للمَرْأةِ: وَيْحَكِ! ما يقولُ زوجُكِ؟ قالَتْ: يا رسولَ اللهِ إنهُ لكاذبٌ، ما رَأَى شيئاً مِنْ ذلكَ،

---

(١) من م، في الأصل: لزمهما. (٢) في الأصل وم: ذلك في المحصنات في المحصن. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل وم: أما المملوك لقوله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الحد وحددناه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: عبد الله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فقتل. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ولكنهُ رجلٌ غيورٌ، فذلكَ الذي حَمَلَهُ على أنْ يَتكلَّمَ بالذي تَكلَّمَ. [فكانَ][١] فلانٌ ضَيفاً عندهُ؛ يَدْخُلُ، ويَخرُجُ عليّ، وهو يَعْلَمُ ذلكَ، فلم يَنْهَني عنْ ذلكَ ساعةً مِنْ ليلٍ أو نهارٍ أنْ يَدْخُلَ عليّ، فسألَهُ عنْ ذلكَ، فقالَ: يا عاصِمُ اتَّقِ اللهَ في حَليلَتِكَ، ولا تَقُلْ إلا حقاً. قالَ: يا رسولَ اللهِ، أُقسِمُ باللهِ ما قُلْتُ إلا حقاً، ولقد رَأيتُهُ يَغْشَى على بَطْنِها، وهي حُبْلَى، وما قَرِبْتُها مُنْذُ كذا وكذا. فأمَرَهما رسولُ اللهِ أنْ يَتلاعَنا عندَ ذلكَ.

الآية ٧ وقالَ: يا عاصِمُ قُمْ، فاشهَدْ أربعَ شَهاداتٍ باللهِ إنهُ لَكما قُلْتَ، وإنكَ لَمِنَ الصادقينَ في قولكَ عليها، ثم قُلْ[٢] ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ عليكَ إنْ كُنْتَ مِنَ الكاذبينَ. ففَعلَ ما ذُكِرَ.

الآيتان ٨ و٩ ثم قالَ للمرأةِ مِثْلَ [ذلكَ][٣] فشَهِدَتْ ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ عليها / ٣٦٣ ـ أ/ في قولِهِ.

فلمّا تلاعَنا، وفَرَغا من اللِّعانِ، فَرَّقَ بَينَهما، ثم قالَ للمرأةِ: إذا وَلَدْتِ فلا تُرْضِعيهِ حتى تأتِيَني بهِ. فلما انصرفوا عنهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنْ وَلَدَتْهُ أحْمَرَ مِثْلَ الدِّبسِ فهو الذي يُشْبِهُ أباهُ الذي نَفاهُ [وإنْ وَلَدَتْهُ][٤] أسْوَدَ أدْعَجَ جَعْداً قَطَطاً فهو يُشْبِهُ الذي رُمِيَتْ بهِ. فلّما وضَعَتْ أتَتْ بهِ رسولَ اللهِ ﷺ، فَنَظَرَ إليهِ، فإذا هو أسْوَدُ أدْعَجُ جَعْدٌ قَطَطٌ على ما نَعَتَهُ رسولُ اللهِ ﷺ يُشْبِهُ الذي رُمِيَتْ بهِ. فقالَ رسولُ[٥] اللهِ: لولا اللِّعانُ والأيمانُ التي سَلَفَتْ لكانَ لي فيها رأيٌ» [البخاري ٤٧٤٧].

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنهُ لمّا جَمَعَ بينَهما قالَ لهما[٦]: «اتَّقِيا اللهَ، فإنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُما كاذبٌ، فهل منكُما تائبٌ، فإنَّ عذابَ الآخِرَةِ أشَدُّ مِنْ عذابِ الدنيا» [البخاري ٤٧٤٧].

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ الآيةَ نزلَتْ في شأنِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ، فذُكِرَ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم في هذا مسائلُ: إحداها: أنهُ ذَكَرَ قَذْفَ الأزواجِ، وذَكَرَ فيهِ اللِّعانَ، ولم يُبَيِّنْ.

فظاهرُ الآيةِ الزوجُ والزوجةُ كافرانِ أو حُرّانِ مُسْلمانِ أو مَمْلوكانِ أو كيفَ؟

فعندَنا أنهُ إذا كانَ أحَدُهُما كافراً أو مملوكاً أو كانا جميعاً لم يكنْ بَينَهما لِعانٌ إلّا أنْ يكونا جميعاً مِنْ أهلِ الشهادةِ. وحُجَّتُنا[٧] في ذلكَ أنَّ اللهَ جَعَلَ على الأجنبيِّ الحُرِّ إذا قَذَفَ أجنبيَّةً حُرَّةً الحَدَّ ثمانينَ، وجَعَلَ حَدَّ الزَّوجِ إذا قَذَفَ زَوجَتَهُ، وهما حُرّانِ مُسْلمانِ، اللِّعانَ.

ثم قد ذَكَرْنا إجماعَهُمْ على أنَّ الحُرَّ إذا قَذَفَ أمَةً أو يهوديَّةً فلا حَدَّ عليهِ. فلما لم يكُنْ على الحُرِّ القاذِفِ الأمَةَ مِنَ الحَدِّ[٨] لم يَكُنْ على زوجِ الأمَةِ مِنَ اللِّعانِ ما على زوجِ الحُرَّةِ.

وأصلُ هذا بأنَّ اللهَ ذَكَرَ الشهادةَ في رَمْيِ الأجنبيَّةِ المُحْصَنَةِ وإبراءِ القاذفِ عنِ الحدِّ إذا أتَى بها، وأمَرَ بإقامةِ الحَدِّ إذا عَجِزَ عَنْ إتيانِها[٩].

ثم اسْتَثْنى مِنَ الشهداءِ الذينَ ذَكَرَ في قَذْفِ الأجنبيَّةِ شهادةَ الزوجَينِ بقولِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ فإذا لم يَدْخُلا في تلكَ الشهادةِ إذا كانا مَمْلوكَينِ أو كافِرَينِ، أو أحَدُهما لم يَدْخُلْ في ما اسْتَثْنى، إذِ الثُّنيا اسْتِخراجٌ مِنْ تلكَ الجُمْلَةِ المُسْتَثْناةِ وتَحْصيلٌ منها. لِذلكَ بَطَلَ اللِّعانُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ في الكافِرَةِ، وهو أنَّ المرأةَ تقولُ في الخامسةِ: إنَّ ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وغَضَبُ اللهِ يكونُ عليها بِغيرِ شَرْطٍ. فَمُحالٌ أنْ يقولَ القاضي لها: عليكِ غَضَبُ اللهِ بِشَرْطِ إنْ كانَ الزوجُ صادقاً، وهو[١٠] يَعْلَمُ أنَّ غَضَبَ [اللهِ][١١] عليها في كلِّ حالٍ. لِذلكَ بَطَلَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل: يا. (٦) في الأصل وم: لها. (٧) في الأصل وم: وحجتهم. (٨) أدرج بعدها في الأصل: على ما قاذف الأمة. (٩) في الأصل وم: إقامتها. (١٠) في الأصل وم: وهم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

والمُخالِفُ لنا أولى بإبطالِ اللِّعانِ بَينَ الحُرَّةِ والأمَةِ والمُسلِمةِ والذِّمِّيَّةِ منّا لأنهمْ يَزْعُمونَ أنَّ العبدَ ليسَ بِكُفءٍ لِلحُرَّةِ، ولا الكافرُ بكُفءٍ لِلْمُسْلِمِ في القِصاصِ في النفسِ وفي ما دونَ النَّفْسِ. فكيفَ جَعَلوها في أيمانها مُكافِئةً[1] لِأيمانِ الأحرارِ المُسْلِمينَ؟ كانَ يجبُ أن يقولوا: ليستْ يَمينُ الكافرِ بمُجازيَةٍ لِيَمينِ المسلمِ، فلا يُوجبونَ بَينَهما لِعاناً. والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

ثم المسألةُ [الثانيةُ][2]: في إباءِ الأيمانِ [في وجهَينِ:

أحَدُهما][3] إذا أَبَى أحَدُهُم الأيمانَ حُدَّ عِندَ بَعْضِ أهلِ العِلْمِ، وهو قولُ الشافِعِيِّ.

وعِنْدَنا أنهُ لا يُحَدُّ بالإباءِ، فَذَهبَ مَنْ أوجبَ الجَلْدَ بالإباءِ إلى ظاهرِ قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] أوجبَ الجَلْدَ في قَذْفِ الأجْنَبِيِّ إذا عَجِزَ عن إتيانِ[4] الشهودِ، ودَرَأَ عنهُ الحَدَّ إذا أتَى بأربعةٍ، يَشْهَدونَ. فَعَلَى ذلكَ دُرِئَ عَنِ الزَّوجَينِ الحَدُّ إذا شَهِدَ كلُّ واحدٍ منهما أربعَ شَهاداتٍ باللهِ. فَوَجَبَ إذا أبَى أحدُهُما الأيمانَ أنْ يُحَدَّ؛ إذ بالأيمانِ يُدرَأُ الحَدُّ، ويُوجَبُ اللِّعانُ.

والثاني: ما قالَ ﷻ ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ جَعَلَ الأيمانَ سَبَبَ دَرْءِ الحَدِّ عنها. فإذا أبَتْ ذلكَ لَزِمَها[5] الحَدُّ.

وعِندَنا أنهُ لا يُحَدُّ بالإباءِ، لأنهُ ليسَ بالإباءِ ظُهورُ الكَذِبِ، إذْ ليسَ كلُّ مَنْ أبَى اليَمينَ يَظْهَرُ كَذِبُهُ فيه، وإنما يُحَدُّ لظهورِ كَذِبِهِ في القَذْفِ، وهو لا يَعْلَمُ، لا يَظْهَرُ بالإباءِ. وإنَّما حُدَّ في الأجنبيَّةِ إذا لم يَأْتِ بأربعةِ شُهداءَ، لأنهُ في الظاهرِ عندَ الناسِ كاذِبٌ، لأنهُ ليسَ بَينَهُ وبَينَ الأجنبيَّةِ سَبَبٌ ولا مَعْنى يَبْعَثُهُ على إظهارِ ما ذَكَرَ.

وأمّا في ما بَينَهُ وبَينَ زوجَتِهِ سَبَبٌ ومَعْنًى يَحْمِلُهُ على إظهارِ ذلكَ، وهو الغَيرةُ. فإذا كانَ كذلكَ فهو في قَذْفِ الزوجَةِ في الظاهِرِ صادقٌ عندَ الناسِ للسَّبَبِ الذي ذَكَرْنا لأنهُ طالبُ حقٍّ قِبَلَها على ما رُوِيَ: «لا يُوطِئْنَ فُرُشَهُنَّ مَنْ يَكرَهُ الأزواجُ» [بنحوه الترمذي: ١١٦٣] فلا يُزالُ صِدْقُهُ بإباءِ اليَمينِ.

وأمّا في قَذْفِ أجنَبيَّةٍ فهو كاذبٌ في الظاهرِ لِعَدَمِ السَّبَبِ الحاملِ على إظهارِ ذلكَ الكَذِبِ حتى يأتِيَ ما بِهِ يُزيلُ الكَذِبَ، وهو الشُّهودُ. وفي [قَذْفِ][6] الزوجةِ على الصِّدْقِ حتى يَظْهَرَ بالإباءِ. لذلكَ افْتَرَقا؛ ولأنَّ الحَدَّ لا يُقامُ بالإباءِ البَتَّةَ، ولأنَّ الأيمانَ لا تُقابَلُ بِشهادةِ العُدولِ بحالٍ.

ألا تَرَى أنَّ مَنْ شَهِدَ عليهِ شاهدا عَدْلٍ بِحَقٍّ، فَحَلَفَ هو بأيمانٍ، لم تَكُنِ الأيمانُ بِتلكَ الشهادةِ في سقوطِ الحقِّ؟

وأمّا قولُهُ: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ فجائزٌ[7] أنْ يكونَ ذلكَ في تلكَ المرأةِ التي في أمرِها نَزَلَتِ الآيةُ؛ عَلِمَ رسولُ اللهِ ﷺ كَذِبَها بالوَحْيِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: «إذا جاءَتْ بكذا فهو لِكذا، وإذا جاءَتْ بكذا فهو لِكذا»؟ ثم جاءَتْ به شَبيهاً بالذي رُمِيَتْ بِهِ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لولا الأيمانُ لكانَ لي ولها شَأْنٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] عَلِمَ كَذِبَها حين[8] قالَ: «لولا الأيمانُ لكانَ لي ولها شأنٌ» فَدَرَأَتْ تلكَ المرأةُ العذابَ عنها بالأيمانِ.

أو أنْ يكونَ العذابُ الذي دُرِئَ عنها الحَبْسَ؛ إذْ مِنْ قولِنا: أيُّهما أبَى اليَمينَ حُبِسَ حتى يَشْهَدَ أربعَ شهاداتٍ باللهِ، أو يُقِرَّ بالزِّنى، أو يُكَذِّبَ نفسَهُ. فَدَرْءُ الحَبْسِ عنهُما بالأيمانِ التي ذَكَرَ.

وإنما لم يُحَدَّ بالإباءِ لأنَّ الإباءَ لا يُظْهِرُ الكَذِبَ كالإقرارِ ولأنَّ الإباءَ في الحقيقةِ إباحَةٌ. ولو أنَّ إنساناً أباحَ للحاكِمِ أنْ يُقيمَ عليهِ الحَدَّ لم يُقِمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا. أو لِما يجوزُ أنْ يأبَى عنِ الأيمانِ صَوناً لِنَفسِهِ عن اللَّعْنِ أو الغَضَبِ الذي ذَكَرَ، لم[9] يُحَدَّ لِما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: اكفاء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إقامة. (٤) في الأصل وم: إقامة. (٥) في الأصل وم: لزم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في م: فلم.

ثم مَسْألتانِ[1] في هذا، نَذْكُرُهما، وإنْ لم تكونا في ظاهِرِ هذهِ الآيةِ:

إحداهُما: في إلحاقِ الوَلَدِ أمَّهُ. والأُخرَى: في تفريقِ الحاكمِ بَينَهما إذا تَلاعَنا.

قالَ بَعْضُ أهلِ العِلْمِ: إذا فَرَغَ الزَّوجُ مِنْ [أيمانِهِ وَقَعَتْ بَينَهما الفُرْقَةُ، وإنْ لم يُفَرِّقِ الحاكمُ. وقُلْنا نحنُ: لا تَقَعُ الفُرْقَةُ بَينَهما حتى يَفْرَغا مِنْ تَلاعُنِهما. ويُفَرِّقُ الحاكمُ بَيْنَهما.

والأولَى[2] في إلحاقِ الوَلَدِ. قال أُولئكَ أيضاً: إذا فَرَغَ [الزَّوجُ][3] مِنْ][4] لِعانِهِ لَحِقَ الوَلَدُ أمَّهُ، وإن لم تَلْتَعِنِ المرأةُ.

والقياسُ في لُحوقِ الولدِ ما قالَ أُولئكَ: إنهُ يَلْحَقُ بِفَراغِ الزَّوجِ مِنَ اللِّعانِ. والقياسُ في وُقوعِ الفُرْقَةِ ما قالَ أصحابُنا: إنهُ لا يَقَعُ إلا بَعْدَ فَراغِ الزَّوجَينِ جميعاً وتَفريقِ الحاكِمِ بَينَهما؛ لأنَّ الزَّوجَ إذا شَهِدَ ﴿أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ قد ألزَمَ امْرَأتَهُ الزِّنى في الظاهِرِ.

فإذا ظَهَرَ أنَّ الوَلَدَ ليسَ منهُ فَجائزٌ لُحوقُهُ بالأُمِّ بفَراغِهِ مِنَ اللِّعانِ.

وأمّا الفُرْقَةُ فإنها لا تَقَعُ بِظُهورِ الزِّنى. ألا تَرَى أنَّ امْرَأةَ الرجلِ إذا زَنَتْ لا تَقَعُ/ ٣٦٣ ـ ب/ بَينَهما[5] الفُرْقَةُ؟

ألا تَرَى أنَّ دَعْوَى المَرْأةِ باقِيَةٌ بعدَ فَراغِ الزَّوجِ مِنْ أيمانِهِ؟ لِذلكَ افْتَرَقا.

والأخبارُ تَدُلُّ لِمَذْهَبِ أصحابِنا في المسألَتَينِ جميعاً لأنهُ رُوِيَ عنْ نافِعِ [ابنِ مالكٍ][6] عنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ رجلاً لاعَنَ امْرأتَهُ في زَمانِ رسولِ اللهِ ﷺ وانْتَفَى مِنْ وَلَدِها، فَفَرَّقَ رسولُ اللهِ ﷺ بَينَهما، وألْحَقَ الوَلَدَ بالمَرْأةِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمّا لاعَنَ بَينَهما فَرَّقَ بَينَهُما. ورُوِيَ في الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لهما: «اللهُ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُما كاذبٌ، فَهَلْ منكُما تائبٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] قالَ ذلكَ لهما ثلاثاً، فَأبَيا، فَفَرَّقَ بَينَهما. وفي بَعْضِ الأخبارِ قالَ: «حِسابُكُما على اللهِ[7]» [البخاري: ٥٣٥٠].

فإنْ قيلَ: إنما فَرَّقَ بَينَهما النَّبيُّ لأنَّ الفُرْقَةَ قد وَقَعَتْ بينهما، فأخبَرَهُ النَّبيُّ أنها[8] لا تَحِلُّ لهُ، وقالَ: لا سبيلَ لكَ عليها. قيلَ: قولُكَ: إنَّ الفُرْقَةَ قد وَقَعتْ بَينَهما باللِّعانِ دَعْوَى منكُمْ، وظاهِرُ الأخبارِ يَشْهَدُ لنا، وعلى وَهْمِ الخَصْمِ.

ثم يُقالُ لهمْ: ألَسْتُمْ تقولونَ في المَولَى: إذا مَضَتْ مُدَّتُهُ، فارْتَفعا إلى الحاكِمِ، هل تَقَعُ الفُرْقَة بينَهما إذا امْتَنَعَ مِنْ قُرْبانِها وطلاقِها ما لم يَقُلِ القاضي: قد فَرَّقْتُ بَينَكما؟

فإنْ قيلَ: فُرْقَةُ الإيلاءِ طَلاقٌ، وفُرْقَةُ اللِّعانِ غَيرُ طلاقٍ عندَنا، قيلَ: هما عندنا طَلاقٌ.

فإنْ قِيلَ: إنكُمْ تَزْعُمونَ أنَّ فُرْقَةَ الإيلاءِ تَقَعُ بِمُضِيِّ الأجَلِ، فما مَنَعَ أنْ تَقَعَ الفُرْقَةُ باللِّعانِ بِتَمامِ اللِّعانِ؟ قيلَ: لم يَكُنْ للحاكِمِ في الإيلاءِ صُنْعٌ، فلا تُحْتاجُ إلى حُكْمِهِ. وفي الآخَرِ لا يَتِمُّ اللِّعانُ إلّا بالقاضي، فلا تَقَعُ الفُرْقَةُ إلّا بالقاضي.

ويُقالُ لهمْ: ما تَقولونَ في رجلٍ، ادَّعَى حَقًّا، فأقامَ عليهِ شاهِدانِ[9] عندَ قاضٍ. هل يَلْزَمُ الحُكْمُ قَبْلَ أنْ يقولَ القاضي: قد حَكَمْتُ بذلكَ؟ فإنْ قالوا: لا يَلْزَمُ الحُكْمُ حتى يقولَ: قد حَكَمْتُ. فَيُقالُ: ما مَنَعَ أنْ [يكونَ اللِّعانُ مِثْلَهُ][10]؟

ويُقالُ لهمْ أيضاً: ما تَقولونَ في العِنِّينِ: أجَلُهُ [حُكْمُ][11] الحاكمِ بَينَهما. فإنْ قالوا: لا تَقَعُ [الفُرْقَةُ بَينَهما][12] حتى يُفَرِّقَ الحاكمُ بَينَهما. قيلَ: [ما مَنَعَ][13] في فُرْقَةِ اللِّعانِ أنهُ كذلكَ؟ فإنْ قالوا: إنما صارتِ الفُرْقَةُ، لا تَقَعُ في العِنِّينِ والمَولَى حتى يُوقِعَها الحاكمُ: يقولُ: طَلِّقْها، أو فِئْ إليها، ويقولُ لِامْرَأةِ العِنِّينِ: اختاري في الفُرْقَةِ أو المُقامِ مَعَهُ.

---

(١) هما الثالثة والرابعة، في الأصل وم: مسئلتنا. (٢) في الأصل: والأخرى. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، في الأصل: بظهور. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: أحدكما كاذب لا سبيل لك عليها. (٨) في الأصل وم: أنه.
(٩) في الأصل وم: شاهدين. (١٠) في الأصل وم: اللعان لمثله. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: مانع.

فلمّا كانَ الحاكمُ يَنْتَظِرُ[١] ما يَقولُ المَولَى وامرأةُ العِنِّينِ لم تَقَع الفُرقَةُ حتى يُوقِعَها. وليسَ في اللِّعانِ شيءٌ يَنْتَظِرُهُ الحاكمُ. لذلكَ افْتَرقا.

فقيلَ: بل يَنْتَظِرُ الحاكمُ تكذيبَ المَرأةِ نَفْسَها، فَيَحُدُّها، وتكونُ امرَأتَهُ. وكذلكَ إنْ أكْذَبَ الزَّوجُ نفسَهُ حَدَّهُ، وتَرَكَ عندَهُ امرَأتَهُ.

وأصْلُهُ: أنهُ لا تَقعُ الفُرقَةُ إلا بَعْدَ الْتِعانِهِما جميعاً وتَفريقِ الحاكِمِ بينَهما إذا الْتَعَنا جميعاً. عندَ ذلكَ يكونُ أحَدُهُما مَلعوناً؛ أيُّهما كَذَبَ. والإنْتِفاعُ بالمَلعونِ حرامٌ.

ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ «أنها مُوجِبَةٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] أي اللَّعْنَةُ التي ذُكِرَتْ؟ فإنما يَلْحَقُ اللَّعْنُ أحَدَهُما إذا الْتَعَنا جميعاً. فأمّا بالْتِعانِ الزَّوجِ خاصَّةً فلا تَقَعُ. فإذا كانَ كذلكَ فَيُحتاجُ إلى أنْ يُفَرِّقَ الحاكمُ بينَهما، ويَطْرُدَ أحَدَهُما مِنْ صاحِبِهِ؛ إذِ اللَّعْنُ هو الطَّرْدُ في اللغةِ.

وهو عندَنا كالعقودِ التي تُفْسَخُ، لا تكونُ إلا بالحاكمِ نَحْوَ ما ذَكَرْنا مِنَ العِنِّينِ والذي يَأبَى الإسلامَ وغَيرِها مِنَ العقودِ، فإنهُ لا تَقَعُ بينَهما الفُرْقَةُ إلّا بالحاكِمِ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ أنهُ قالَ: المُتلاعِنانِ يُفَرَّقُ بينَهما، ثم لا يَجْتَمِعانِ أبداً.

ثم مَسْألَةٌ أخرَى: أنهُ إذا فُرِّقَ بينَهما باللِّعانِ، فَأكْذَبَ المُلاعِنُ نَفْسَهُ، أيَجوزُ[٢] لهُ أنْ يَتَزَوَّجَها أم لا؟

فعندَ بعضِ أهلِ العِلْمِ ليسَ لهُ أنْ يَتَزَوَّجَها. احْتَجّوا بما رُوِيَ عن عُمَرَ وعليٍّ ﷺ: المُتَلاعنانِ لا يَجْتَمِعانِ أبداً، وعَنْ عبدِ اللهِ كذلكَ.

وعندَ أبي حَنيفةَ ومحمدٍ، رحِمَهُما اللهُ: لهُ أنْ يَتَزَوَّجَها إذا أكْذَبَ نَفْسَهُ. وليسَ في الخَبَرِ: لا يَجْتَمِعانِ أبداً، وإنْ تابَ، وأكْذَبَ نَفْسَهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ قَولُهُمْ[٣]: لا يَجْتَمِعانِ أبداً ما داما في تَلاعُنِهِما، وما أقامَ على قولِهِ، ولم يُكَذِّبْ نَفْسَهُ.

وإنْ كانَ فيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ قالَ: إذا قالَ: لا يَجْتَمِعانِ قَبْلَ التوبَةِ وبَعْدَها يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُرْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠] قولُهُ: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ ما قاموا في مِلَّتِهِمْ. فأمّا إذا انْقَلَعوا منها فقد أفْلحوا. فَعَلَى ذلكَ لا يَجْتَمِعانِ [ما داما][٤] في تَلاعُنِهِما وما[٥] أقامَ الزَّوجُ على قولِهِ. فأمّا إذا رَجَعَ عنْ ذلكَ فَلَهُما الاجْتِماعُ.

[واجْمَعُوا على أمرَينِ:

أحَدُهما][٦]: أنهُ إذا أكْذَبَ نفسَهُ، وادَّعَى الوَلَدَ، ألْحِقَ بهِ، فَعَلَى ذلكَ هي.

والثاني: لو أكْذَبَ الزَّوجُ نفسَهُ بَعْدَ اللِّعانِ قَبْلَ الفُرْقَةِ، وَجَبَ أنْ يُحَدَّ، ويكونانِ على نِكاحِهِما[٧]. فَيَجِبُ إذا أكْذَبَ نَفْسَهُ بَعْدَ اللِّعانِ [أنْ يُجْلَدَ، ولَهُ][٨] أنْ يَتَزَوَّجَها.

ثم فُرْقَةُ اللِّعانِ عندَنا طلاقٌ، وهي تَطليقَةٌ بائنةٌ لِما رُوِيَ عن[٩] النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][١٠] لمّا لاعَنَ بَينَ عُوَيمِرٍ وامرَأتِهِ قالَ: «كَذَبْتُ عليها إنْ أمْسَكْتُها. هي طالقٌ ثلاثاً» [البخاري: ٥٢٥٩] فصارَتْ سُنَّةً في المُتَلاعِنَينِ. فإذا كانَتْ سُنَّةُ الفُرْقَةِ بَينَ المُتَلاعِنَينِ الطَّلاقَ الذي أوقَعَهُ [على][١١] عُوَيمِرٍ. فواجِبٌ أنْ تكونَ كلُّ فُرْقَةٍ تَقَعُ باللِّعانِ طلاقاً.

ومِنَ الدليلِ على ذلكَ أنَّ قَذْفَ الزوجِ كانَ سَبَبَ هذهِ الفُرْقَةِ، وكلُّ فُرْقَةٍ تكونُ مِنَ الزَّوجِ، أو [يكونُ فِعْلُ][١٢] الزَّوجِ

(١) في الأصل وم: ينظر. (٢) همزة الاستفهام ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قوله. (٤) في الأصل: إذا ما داموا، في م: ما داموا. (٥) من م، في الأصل: وأما. (٦) في الأصل وم: واجتمعوا. (٧) من م، في الأصل: النكاحهما. (٨) في الأصل وم: فجلد فله. (٩) في الأصل وم: أن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم الملكي، في الأصل وم: أن يكون.

سَبَبَها، وتَقَعُ بقولِهِ، فإنها طلاقٌ [كما في العِنّينِ][(١)] والخَلْعِ والإيلاءِ [ونحْوُ ذلكَ][(٢)] فَعلَى ذلكَ فُرْقَةُ اللِّعانِ تَطْليقَةٌ بائِنَةٌ، لأنَّ الزَّوجَ سَبَبُها، وتَقَعُ به.

وعلى ذلكَ جاءتِ الآثارُ عنِ السَّلَفِ: أنَّ كلَّ فُرْقَةٍ، وَقَعَتْ مِنْ قِبَلِ الرجالِ بقولٍ فهيَ طلاقٌ، مِنْ نَحْوِ إبراهيمَ والحَسَنِ وسَعيدٍ وقَتادَةَ وهؤلاءِ، وكذلكَ بِقولِ أصحابِنا: إنَّ كلَّ فُرْقَةٍ جاءَتْ مِنَ الرجالِ بِقَولٍ فهي تَطليقَةٌ. فإنْ عُورِضَ بأفعالٍ، تكونُ مِنَ الرجالِ، فَتَقَعُ بهِ الفُرْقَةُ والحُرْمَةُ مِنْ نَحْوِ الجِماعِ ونَحْوِهِ، فذلكَ ليسَ بِمُعارَضَةٍ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ ثم وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ هذا الحَرْفُ ممّا يَقْتَضي الجَوابَ. ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جوابُهُ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لأظْهَرَ الكاذبَ منهُما والصادقَ والمُذْنِبَ مِنْ غَيرِهِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لأظْهَرَ المَلْعونَ منهُما مِنْ غَيرِهِ، لكنْ لا يُنْتَفَعُ بِهِ، إذْ أحَدُهما ممّا لَحِقَهُ اللَّعْنُ الذي ذَكَرَهُ، ولا يَحِلُّ الإنْتِفاعُ بالمَلْعونِ.

ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ امْرَأةً رَكِبَتْ ناقَتَها، فَلَعَنَتْها[(٣)]، فاسْتُجيبَ، فأُمِرَتْ أنْ تَرْفَعَ ثيابَها، وتُخلّيَ سَبيلَها. لكنْ بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ سَتَرَ على المَلْعونِ حتى يَجوزَ لِغَيرِهِ أنْ يَنْتَفِعَ بِهِ، وإنْ كانَ لا يجوزُ لواحِدٍ منهُما أنْ يَنْتَفِعَ بِصاحِبِهِ ما دامَتِ اللعنةُ فيهما قائمةً؟

وجائزٌ أنْ يكونَ وَجْهٌ آخَرُ، وهو أنْ يقالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لأظْهَرَ المَلْعونَ منهُما، وإلا لَجَعَلَ العُقوبَةَ بَينَ الزَّوجَينِ كَهِيَ في الأجْنَبِيَّيْنِ، وهي الحَدُّ، ولأظْهَرَ [الزانيَ منهُما][(٤)]. لكنْ بِفَضْلِهِ لم يَجْعَلْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ [قولُهُ][(٥)] ﴿تَوَّابٌ﴾ يَقْبَلُ التوبةَ، إذا تابَ، وأكْذَبَ نَفْسَهُ، فَيَرفَعُ اللَّعْنَ عنهُما بالتوبَةِ. فإذا رُفِعَ اللَّعْنُ جازَ لهُما الإنْتِفاعُ والإجْتِماعُ بَينَهُما.

ففيهِ حُجَّةٌ لِقَولِ أبي حنيفةَ ومحمدٍ، رَحِمَهُما اللهُ، في جوازِ نكاحِهِما إذا أكْذَبَ نفسَهُ/ ٣٦٤ ـ أ/

[وقولُهُ تعالى][(٦)]: ﴿حَكِيمٌ﴾ حينَ[(٧)] حَكَمَ بما حَكَمَ بَينَ المُتلاعِنَينِ، أو ﴿حَكِيمٌ﴾ [حينَ][(٨)] وَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ بأحَدٍ إلا ما هو أصْلَحُ لهُ في الدينِ. وأخْبَرَ أنهُ[(٩)] لو لم يَكُنْ لهُ أنْ يَفْعَلَ غيرَ الذي فَعَلَ، لم يَكُنْ لِتَسْمِيَتِهِ ما فَعَلَ فَضْلٌ[(١٠)] ولا مَعْنَى. فَدَلَّ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ غَيرَ الأصلَحِ في الدينِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ﴾ أي بالكذبِ ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي جماعةٌ منكُمْ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مِّنكُمْ﴾ قالَ قائلونَ: كانوا مِنْ أصحابِ [عائشَةَ رَمَوها بما ذُكِرَ][(١١)] في الآيةِ. وقالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ مِنَ الفَريقَينِ جميعاً مِنْ أصحابِ أبي بَكْرٍ وأقْرِبائِهِ والمُنافِقينَ أيضاً.

فإنْ كانَ ذلكَ مِنْ أصحابِ عائشةَ رضي الله عنها وأقْرِبائها فذلكَ يُخَرَّجُ منهمْ على الغَفْلَةِ والعَثْرَةِ، ليسَ على الإنْتِقامِ والحِقْدِ، لأنَّ القَراباتِ والمُتَّصِلينَ بالرجلِ، لا يَقْصِدُ بَعضُهُمْ بِبَعْضِ الإنْتِقامَ والحِقْدَ بِمِثْلِهِ. فإذا كانَ كذلكَ فَيُخَرَّجُ ذلكَ منهمْ، إنْ كانَ، مُخْرَجَ الغَفْلَةِ والزَّلَّةِ لا مُخْرَجَ الإنْتِقامِ.

وإنْ كانَ ذلكَ مِنَ المُنافِقينَ فهو على الإنْتِقامِ وطَلَبِ الشَّينِ منهمْ لها.

وكانَ في ظاهِرِ الآيَةِ دلالةُ أنَّ ابْتِداءَ ذلكَ الإفْكِ مِنَ المُنافِقينَ، ثم تَسامَعَ المؤمنونَ بَعدَ ذلكَ، وتَلَقّى[(١٢)] بعضُهُمْ مِنْ بَعضٍ حينَ[(١٣)] قالوا: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] فإن كانَ ذلكَ فهو على ما وَصَفْنا أنَّ ذلكَ مِنَ المؤمنينَ غَفْلَةٌ وزَلَّةٌ وعَثْرَةٌ، ومِنَ المُنافِقينَ انْتِقامٌ وطَلَبُ شَينٍ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم الملكي، في الأصل وم: كالعنين. (٢) من نسخة الحرم الملكي، في الأصل وم: ونحوه. (٣) في الأصل وم: فلعنت. (٤) في الأصل: الزنا منهما، في م: الزاني. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: حيث، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: إذ. (١٠) في الأصل وم: فضلاً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ويتلقى. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال[١] بعضُهُمْ: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنكمْ تُؤجَرونَ على ما قيلَ فيكُمْ مِنَ الفُحشِ والقَذْفِ بما قُرِفوا بهِ ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الآخِرَةِ على ما ذَكَرْنا مِنَ الأجرِ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا لِما بَرّأهُمُ اللهُ مِمّا قُرِفوا بهِ، ودَفَعَ عنهمْ تمكينَ ما قُرِفوا بهِ، ووَعَدَ لهمُ الجنةَ بقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

وكانَ قَبْلَ نُزولِ هذهِ الآيةِ مَوْهوماً[٢] عندَ الناسِ فيها مُتَمَكِّناً[٣] احتِمالُ ذلكَ الفِعْلِ.

ألا ترى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٣١] كانَ الأمرانِ جميعاً مَوهومَينِ[٤] عنهُنَّ عندَ الناسِ ومُحتَمَلينِ[٥] ذلكَ؟

فلما قُرِفَتْ رَفَعَ اللهُ ما كانَ موهوماً عندَ الناسِ قَبْلَ ذلكَ، ووَعَدَ لهمُ الثوابَ الكريمَ والرِّزْقَ الحَسَنَ بقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فلا شَكَّ أنَّ ذلكَ خيرٌ لهمْ في الدنيا والآخِرَةِ وشَرٌّ لأولئكَ الذينَ رَمَوها حتى لا[٦] يَتجاسَرَ أحدٌ بَعْدَ ذلكَ، ولا يَجترِئَ أنْ يَظُنَّ فيها ظَنَّ السَّوءِ فَضْلاً عنْ أنْ يقولَ فيها شيئاً.

وقصةُ عائشةَ، رضي الله عنها طويلةٌ لكنّا نَذكُرُ ما كانَ بِنا إلى ذلكَ حاجةٌ، أي أنْ يُقالَ: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لِما أنزَلَ اللهُ تعالى بِشأنِهِمْ آياتٍ فيها براءتُهُمْ عمّا قُرِفوا بهِ، تُتْلَى تلكَ الآياتُ إلى يومِ القيامةِ؛ وذلكَ خيرٌ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي إثْمِ ما قَرَفَها بهِ ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو ذلكَ [المُنافِقُ الذي ألْقَى ذلكَ][٧] في الناسِ.

[وقولُهُ تعالى][٨]: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيهِ دلالةٌ أنهُ يَموتُ على نِفاقِهِ. وكذلكَ [ماتَ][٩] على نِفاقِهِ، فَلَحِقَهُ هذا الوَعيدُ، قِيلَ: هو عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلولٍ ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأنهُ كانَ مُنافِقاً.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضُهمْ: هلّا إذْ سَمِعْتُمْ[١٠] قَذْفَ عائشةَ رضي الله عنها بِصفوانَ كَذَّبْتُمْ بهِ أولئكِ القَذَفَةَ؛ يقولُ: ألا ظَنَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ خيراً، وهلّا قالوا: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يقولُ اللهُ: هلّا قالوا: [هذا][١١] القَذْفُ كَذِبٌ مُبينٌ.

الآية ١٣ وعلى هذا يُخَرَّجُ أيضاً قولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي هَلّا قالوا لهمْ: جيئوا بأربعةِ شُهَداءَ على قَذْفِكُمْ إيّاها[١٢] ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ظَنَنْتُمْ بهمْ ظَنّاً ما ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ دونَ أنْ قالوا: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أو أنْ يكونَ التأويلُ: إنْ لم يَظُنَّ أحدٌ منكُمْ بِنفسِهِ إذا كانَ مَعَ أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ فكيفَ ظَنَّ بِصَفوانَ[١٣] ذلكَ إذا كانَ مع أزواجِهِ؟ أو أنْ يُقالَ: إذا لم يكُنْ يَظُنُّ أحدٌ بِأُمّهاتِهِ ومَحارِمِهِ ذلكَ فكيفَ ظَنَّ بأزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ وهُنَّ[١٤] امهاتُكُمْ وأُمّهاتُ جَميعِ المؤمنينَ؟ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي لم يكنْ لهم بما قَذَفوا شُهَداءُ، ولا يَجِدونَ على ذلكَ شُهَداءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّوْلَا﴾ أي لم يكُنْ كقولِهِ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ أي لم يكنْ ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا﴾ [هود: ١١٦] وإلّا على تأويل: هَلّا يَبْعُدُ لأنهُ لم يكُنْ لهمْ شُهداءُ على ذلكَ، فكيفَ يأتونَ؟

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: موهوم. (٣) في الأصل وم: متمكن. (٤) في الأصل وم: مرهوم. (٥) في الأصل وم: ومحتمل. (٦) في الأصل وم: لم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: سمعتموه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: إياهم. (١٣) في الأصل وم: يصفون. (١٤) في الأصل وم: وهي.

وقولهُ تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وإنْ أتوا بالشُّهَداءِ على أمْرِ عائشة كانوا كاذِبِينَ أيضاً. فدَلَّ أنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي لم يكُنْ لهمْ شُهَداءُ، فكيفَ قذَفوها؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهينِ:

[أحدُهما][1]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ حينَ[2] أنزلَ في قَذْفِكُمْ عائشة بِصَفوانَ آياتٍ في بَراءَتِهِما حتى تُبْتُمْ عن ذلكَ، وإلا لَمَسَّكُمُ العذابُ في الآخِرَةِ بذلكَ.

والثاني: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ العذابُ، ولَعاقَبَكُمْ بما قُلْتُمْ في عائشةَ في الدنيا.

على هذا التأويلِ العذابُ الموعودُ ف الدنيا. وعلى التأويلِ الأوّلِ الوَعيدُ في الآخِرَةِ. لكنْ بِفَضلِهِ ورحمَتِهِ رُفِعَ عنكُمْ، والله أعلَمُ.

وقولهُ تعالى: ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي خُضتُمْ فيه.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي بأمْثالِهِمْ خيراً، تأويلهُ: لولا ظَنَّ المؤمنونَ بأمْثالِهِمْ خيراً دونَ أنْ يَظُنُّوا بهمْ شرّاً[3].

وفي ما عَظَّمَ اللهُ ﷻ أمْرَ القَذْفِ، وشَدَّدَ فيهِ مالَمْ يُشَدِّدْ في غَيرِهِ، ولَمْ يُعَظِّمْ وجوهٌ:

أحَدُها: قَطْعُ طَمَعِ أهلِ الفُجورِ والرِّيبَةِ فيهِنَّ لئلا يَطْمَعَ أحدٌ منهمْ في المُحْصَناتِ وأولادِ الكِرامِ ذلكَ الفِعْلَ[4]، فَقَطَعَ طَمَعَهُمْ بما شَدَّدَ فيهِ لئلا يُقْرَفْنَ بذلكَ، ولا يُطْمَعُ فيهِنَّ ذلكَ.

والثاني: لِيَتْرُكَ[5] الناسُ الرَّغْبَةَ في مُناكَحَةِ المُحْصَناتِ وأولادِ الكرامِ، ويَرْغَبوا[6] في مَنْ دونَهُنَّ.

[والثالثُ: لئلا][7] تَحْدُثَ الضَّغائنُ والعَداوةُ بَينَ القَذَفَةِ وبينَ المُتَّصِلينَ بالمَقْذوفاتِ.

وقولهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لكانَ كذا، هذا مِنَ اللهِ على الإيجابِ؛ أي قد كانَ منهُ ذلكَ. وإذا كانَ مُضافاً إلى الخَلْقِ فهو على أنهُ لم يكُنْ ذلكَ، ولذلكَ تأوّلوهُ: هلّا.

وعنِ ابنِ عباسٍ أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ [النور: ١٢] يقولُ: قالَ لِلْمُؤْمِنينَ: ﴿لَّوْلَا﴾ هلّا إذْ بَلَغَكُمْ عنْ عائشةَ/ ٣٦٤ ـ ب/ وصَفوانَ ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ يقولُ: فَظَنَنْتُمْ بعائشةَ ظَنَّكُمْ بأنفسِكُمْ، وعَلِمْتُمْ أنَّ أُمَّكُمْ، لا تَفعَلُ ذلكَ، وكذلكَ المؤمنةُ، لا تَفعَلُ ذلكَ، وقُلْتُمْ: ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿لَّوْلَا﴾ هلّا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [يَشهَدونَ][8] على قولِهِمْ، ويُصَدِّقونَهُمْ على مقالَتِهِمْ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ كَذَّبْتُموهُ ﴿فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٥ وقولهُ تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ بالتَّشديدِ، أي تَقَبَّلونَهُ، وتَلِقونَهُ بالتخفيفِ، أي تأخذونَهُ مِنَ الوَلْقِ، وهو الكَذِبُ، وكذلكَ قَرَأَتْ[9] عائشةُ ﵂.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي تقولونَهُ، قالَ: تَلَقَّيْتُ الكلامَ، ولَقِنتُ، وتَلَقَّنْتُ، واحدٌ. ثم قولُهُ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ مِنْ غَيرِكُمْ ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ في مابَينَكُمْ. جائزٌ أنْ يكونا جميعاً واحداً، أي تَتَكَلَّمونَ ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي مِنْ غَيرِ أنْ تَعلَموا أنَّ الذي قُلْتُمْ مِنَ القَذْفِ قد كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولهُ تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَحْسبونَ القَذْفَ ذَنْباً هَيِّناً ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوِزْرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ ولا تَحْسبونَهُ ﴿هَيِّنًا﴾ في الدينِ؛ لأنَّ القَذْفَ يُحدِثُ نَقصاً في الدينِ. والنُّقصانُ في الدينِ عظيمٌ عندَ اللهِ، وتَحْسَبونَهُ أنتمْ هَيِّناً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: شر. (٤) في الأصل وم: الفضل. (٥) في الأصل: وم بترك.
(٦) في الأصل وم: ويرغبون. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ٢٤٠.

الآية ١٦ ثم وَعَظَ الذينَ خاضوا في أمرِ عائشةَ، فقالَ: ﴿وَلَوْلَا﴾ يقولُ: هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي القَذْفَ ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ أي [ما](1) يَنبَغي لنا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ الأمرِ. وهَلا قُلتُمْ: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لِعِظَمِ ما قالوا فيها. والبُهْتانُ الذي يَبْهَتُ، فيقولُ ما لم يكنْ مِنْ قَذْفٍ أو غَيرِهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: البُهْتانُ الكَذِبُ؛ يُقالُ: بَهَتَ أي كَذَبَ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي القَذْفِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الآية ١٨ [وقولُهُ تعالى](2): ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في بَيانِ ذلكَ وبراءَتِهِمْ. أو يُبَيِّنُ أوامِرَهُ ونَواهِيَهُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ مِنْ قولٍ أو فِعْلٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضَعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [قيلَ في عائشةَ وفي المؤمنينَ](3): كانَ أهلُ(4) النفاقِ [هم](5) الذينَ أحَبّوا أنْ تَشيعَ الفاحِشَةُ. وأمّا(6) أهلُ الإسلامِ فلا(7) يُحِبّونَ ذلكَ أبداً(8) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لِنِفاقِهِمْ وقَذْفِ عائشةَ.

وأمّا [ماقيلَ:](9) في المؤمنينَ فهو ما قالَ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ورُوِيَ عنْ عَمْرَةَ عنْ عائشةَ [أنها](10) قالَتْ: لمّا نَزَلَ عُذْري قامَ رسولُ اللهِ ﷺ على المِنبَرِ، فَذَكَرَ ذلكَ، وتَلا القرآنَ، فلمّا نَزَلَ أمَرَ برجلَينِ وامْرَأةٍ، فَضُرِبوا حَدَّهُمْ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ [بْنِ سَلولٍ](11) وحسّانَ بْنَ ثابتٍ(12) ومِسْطَحَ بْنَ أثاثَةَ الحَدَّ، وفي بَعْضِ الأخبارِ: وامْرأةً أيضاً، وهي حَمْنَةُ [بِنْتُ جَحْشٍ](13): لكلِّ واحدٍ ثمانونَ جَلْدَةً.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ قَذْفِ عائشةَ أنهُ ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وقولُهُ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] ونَحْوُهُ فجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ في قَذْفِ كلِّ مُحْصَنَةٍ بَريئةٍ دونَ أنْ يكونَ ذلكَ خصوصاً لِعائشةَ، وهو كما ذَكَرَ في قَذفِ المُحْصناتِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية [النور: ٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: يُشيعونَ الفاحِشَةَ، ويُذيعونَها في الذينَ آمَنوا هُمُ الذينَ تَوَلَّوا إشاعَتَها(14) وإذاعَتَها [بأنفُسِهِمْ](15) فيهِمْ لهُمْ ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ الأليمِ.

والثاني: ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِيكونَ(16) ذلكَ ذَريعةً لهُمْ في المؤمنينَ، فيقولوا(17): إنَّ دينَكُمْ لم يَمْنَعْكُمْ عنِ الفواحشِ والمُنْكَرِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنهمْ كانوا مُنافِقينَ: منهمْ كانَ أوَّلُ بَدْءِ القَذْفِ، وبهِمْ شاعَ. لِذلكَ كانَ لهمْ هذا الوَعيدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي واللهُ يَعْلَمُ حَقائقَ الأشياءِ، وأنتُمْ لا تَعْلَمونَ حَقائقَها.

وفيهِ دلالةُ تَعْليقِ الحُكْمِ بالظَّواهِرِ دونَ تَعْليقِهِ بالحَقائقِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لم يَذْكُرْ جوابَ قولِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ فَجوابُهُ ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] بِفَضْلِهِ يَزْكو مَنْ زَكا، وبِرَحْمَتِهِ يَصْلُحُ مَنْ صَلَحَ، لا يَصْنَعُ [شيئاً](18) مِنْ نفسِهِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: والا. (٧) الفاء ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: في المؤمنين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أشياعهم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: ليكونوا. (١٧) في الأصل وم: فيقولون. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ نَهى المؤمنينَ أنْ يَتَّبِعوا خُطُواتِ الشيطانِ، ولم يُبيِّنْ ما خُطُواتُ الشيطانِ؟ لكنهُ قالَ: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فَجوابُهُ أنْ يقولَ: فإنَّ خُطُواتِهِ كذا. ولم يَقُلْ أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ يَفعَلُ الفاحشةَ، ولكنهُ قالَ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

لكنَّ جوابَهُ ما قالَ في آيةٍ أخرى. وما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٨ و ١٦٩] أخبَرَ [أنَّ مَن اتَّبَعَهُ][1] أُمِرَ بالفحشاءِ والمُنكَرِ.

[ثم][2] خُطُواتٌ مِنَ الخُطْوَةِ، والخَطْوَةِ؛ وهما مِنْ رَفعِ القَدَمِ وَوَضعِهِ.

وأصْلُهُ نَهْيٌ عنِ اتِّباعِ آثارِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ التَّزكِيَةُ تَحتَمِلُ التَّوفيقَ والعِصمَةَ [أو][3] يَزكونَ بِما أعطى لهمْ مِنَ التَّوفيقِ والعِصمةِ، أو يَزكونَ بما أرسَلَ إليهِمْ مِنَ الكُتُبِ والرُّسُلِ [لكنَّ التَّوفيقَ][4] والعِصمَةَ أشبَهُ.

وفيهِ نَقضُ قولِ المُعتَزِلةِ لأنهُ أخبَرَ أنَّ مَنْ زكا فإنما يَزكو بِفَضلِهِ ورَحمَتِهِ، وهُمْ يقولونَ: لو فَعَلَ بهِمْ غَيرَ الذي فَعَلَ كانَ جائزاً عندَهُمْ. فَعَلى قولِهِمْ: ليسَ بِمُفَضِّلٍ، ولكنَّهُ[5] عادلٌ لأنهُ فَعَلَ ما عليهِ أنْ يَفعَلَ.

فَعَلَى قولِهِمْ: لا يكونُ مُفَضِّلاً، ولكنْ عادلاً؛ إذْ لم يُسَمّ في الشاهدِ مَنْ فَعَلَ ما عليهِ أنْ يَفعَلَ مُفَضِّلاً. وعلى قولِهِمْ: إنهُ قد أعطَى كُلّاً ما بهِ [يَزكو، ويَصلَحُ][6] لكنهمْ لم يَزكوا هُمْ [باختيارِهِمْ][7] فَعَلَى قَولِهِمْ: لم يَزكُ مَنْ زَكا بهِ، ولكنه إنما زَكا بما أعطاهُ لهُ. فقد أخبَرَ أنَّ مَنْ زَكا فإنما زَكابهِ، وأنهُ قد أبقى عندَهُ ما لو أعطاهُمْ ذلكَ لَزَكَوا. وقد أعطَى ذلكَ مَنْ زَكا، وصَلَحَ، ولم يُعطِ مَنْ لم يَزكُ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميعٌ لأقوالِهِمْ وعليمٌ بأفعالِهِمْ. وأصْلُهُ ما ذَكَرَ: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧و..]

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي ولا يَحلِفْ، وهو يَفتَعِلُ، مِنَ الإيلاءِ.

وقال أبو عَوسَجَةَ: لا يأتَلِ: لا يَعجزْ، ولا يُقَصِّرْ؛ يُقالُ: ائتَلَى يَأتَلي، ولا يَألُ ألواً، وهو التَّقصيرُ وتركُ المُبالَغةِ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي مَنْ لهُ الفَضلُ والسَّعَةُ. ويَحتَمِلُ ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾ مَن لهُ الأفضالُ والمَعروفُ وبِرُّ ﴿أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ أبا بَكْرٍ كانَ حَلَفَ ألا يَنْفَعَ مِسْطَحاً بِنافِعَةٍ، وكانَ قَريبَهُ، بما تَكَلَّمَ في عائشةَ فأنزَلَ اللهُ النَّهيَ عن ذلكَ، فقالَ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ/ ٣٦٥ ـ أ/ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾.

لكنَّ الآيةَ، وإنْ نَزَلَتْ في أمرٍ ومَعنىً كانَ مِنْ أبي بَكْرٍ فإنَّ غَيرَهُ مِنَ الناسِ يَشتَرِكُ في مَعْنَى ذلكَ؛ وفي ذلكَ النَّهيِ، وكذلكَ ما قالَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٢٤] ذَكَرَ أنَّ قوماً يَحلِفونَ ألّا يَبَرّوا الناسَ، ولا يُصلِحوا [في ما بينَ الناسِ، يُريدونَ][8] بذلكَ أنْ يكونَ حَلفُهُمْ في ذلكَ عُذْراً لهمْ في تَرْكِ الإنفاقِ عليهِم والتَّعاوُنِ والإصلاحِ بَيْنَ الناسِ، فَنُهُوا عنْ ذلكَ. وذلكَ النَّهيُ[9] لهمْ ولِمَنْ كانَ في مَعناهُمْ، ليسَ لهمْ خاصةً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ولكن. (٦) في الأصل وم: يزكون ويصلحون. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: اليمين.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ الآية. وإنْ كانَ في أبي بكرٍ فهو فيهِ وفي الذينَ في مَعْناهُ. وإنْ كانَ حَلَفَ هذا بِتَرْكِ الإنفاقِ لإساءةٍ كانَتْ منهمْ إليهِ، والأوّلُ على الابْتِداءِ [لا][١] لِإساءةٍ كانَتْ منهمْ إليهمْ.

وكذلكَ هذهِ الآياتُ نَزَلَتْ لنازلةٍ كانَتْ في عائشةَ وصَفْوانَ [بْنِ المُعَطَّلِ][٢] فإنما نَزَلَتْ لِتِلْكَ النازلةِ لِمَعْنًى، لا نَزَلَتْ لأنها كانَتْ عائشةُ وأبو بكرٍ، ولكنْ لِمَعْنًى بكلِّ مَنْ وَجَدَ ذلكَ، فيهِ شِرْكٌ في ذلكَ، ويَجْعَلُ كأنَّ هذهِ الآياتِ كلَّها نَزَلَتْ فيهِ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فكلُّ مُحصَنَةٍ مؤمنةٍ غافلةٍ بَريئةٍ ممّا رُمِيَتْ بهِ، دَخَلَتْ في هذهِ الآيةِ، وكلُّ رامي مُحصَنٍ مؤمنٍ غافلٍ بَريءٍ [مِمّا رُمِيَ بهِ دَخَلَ][٣] في الآيةِ لوجودِ المَعْنَى الذي نَزَلَتِ الآيةُ [لَهُ][٤].

وعلى ذلكَ القرآنُ إذا نَزَلَ بِسَبَبٍ أو[٥] نازلةٍ لِمَعْنًى، يَشْتَرِكُ مَنْ وَجَدَ فيه ذلكَ المَعْنَى [في ذلكَ الحُكْمِ][٦]. فعلى ذلكَ ما نَزَلَ في أبي بكرٍ مِنَ النَّهْيِ بِتَرْكِ الإنفاقِ وما عَوَّدَهُ مِنِ اصْطِناعِ المَعروفِ إليهِ لما كانَ منهُ إليهِ مِنَ الإساءةِ.

ثم أمَرَهُ بالعَفْوِ والصَّفْحِ، وهو قولُهُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ أي اعفوا عن إساءتِهِ، واصفَحوا، أي لا تَذْكُروا عَفْوَكُمْ إيّاهُ عَنْ إساءتِهِ، ولا تَذْكروا زَلَّتَهُ أيضاً، لأنَّ ذِكْرَ العَفْوِ يُخَرِّجُ مُخْرَجَ الامْتِنانِ كقولِهِ ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. أخْبَرَ أنَّ المَنَّ يُبْطِلُ الصَّدَقَةَ وذِكْرَ الزَّلَّةِ يُخَرِّجُ مُخْرَجَ التَّعْييرِ والتوبيخِ. فأمَرَهُ بالعَفْوِ، وهو ظاهرٌ، والصَّفْحِ [وهو][٧] ما ذَكَرْنا مِنْ تَرْكِ ذِكْرِ العَفْوِ والزَّلَّةِ والإساءةِ جميعاً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي قد تُحِبّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لكمْ ماكانَ منكمْ إليهِ مِنَ الإساءةِ؛ فإنْ أحْبَبْتُمْ ذلكَ فاعْفُوا عَمَّنْ أساءَ إليكُمْ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المُحْصَناتِ ههنا، هُنَّ الحرائرُ، والغافلاتِ، هُنَّ البَريئاتُ مِنَ الفاحشةِ، والمؤمناتِ: ظاهرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كأنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في المُنافِقينَ الذين كانَ[٨] منهمُ ابْتِداءُ القَذْفِ وإشاعَتُهُ في الناسِ. لذلكَ ذَكَرَ فيهمُ اللَّعْنَ والعذابَ العظيمَ.

فهوَ كما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ [النور: ١٩] والمؤمِنُ لا يُحِبُّ شُيُوعَ[٩] الفواحِشِ في المؤمنينَ؛ إنما ذلكَ عادةُ المُنافِقينَ.

ثم اللَّعْنُ في الدنيا، هو الحَدُّ الذي ضُرِبَ، وفي الآخِرَةِ العذابُ الأليمُ العظيمُ. كأنهُ ذَكَرَ اللَّعْنَ والعذابَ الأليمَ إذا لم يَتوبوا، وماتوا على النِّفاقِ. فعندَ ذلكَ يكونُ لهمْ ما ذَكَرَ.

الآية ٢٤ ويَدُلُّ لِما ذَكَرْنا أنَّ الآيةَ في المُنافقينَ قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ الآية. وإنما تَشْهَدُ هذهِ الجوارحُ على الكافرِ لإنكارِهِ باللسانِ.

وأمّا المؤمنُ فإنهُ مُقِرٌّ بذلكَ كلِّهِ، لا يَحتاجُ إلى أنْ تَشْهَدَ عليهِ الجوارحُ، وهو ما قالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية [يس: ٦٥] كأنهمْ يُنْكِرونَ ذلكَ في الآخِرَةِ كما أنكروا في الدنيا كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. أخْبَرَ أنهمْ يَحْلِفونَ للهِ في الآخِرَةِ كما يَحْلِفونَ لرسولِ اللهِ في الدنيا.

فجائزٌ [أنْ تكونَ] ألسنَتُهُمْ تَشْهَدُ عليهمْ بَعْدَ ما أنْكَروا، وتَشْهَدُ عليهمْ سائرُ الجوارحِ إذا أنْكَروا، وهو ما قالَ في آيةٍ أخرَى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ الآية ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ الآية [فصلت: ٢٠و٢١] تكونُ شهادةُ الألسُنِ بعدَ ما أنْكَروا هُمْ ذلكَ، وحَلَفوا، فعندَ ذلكَ تَشْهَدُ عليهِمْ ألسنَتُهُمْ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: دخل مما رمي به، في م: مما رمي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بالمره أمر. (٦) في الأصل: فيه شرك، في م: فيه شرك في ذلك الحكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كانت. (٩) في الأصل وم: شياع.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ يؤمنونَ بهِ جميعاً يومئذٍ، ويُقِرّونَ بالحقّ، لكنْ لا يَنفعُهُمْ إيمانُهُمْ يومئذٍ كقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

[وقولُهُ تعالى][١]: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي يَعْلَمونَ أنَّ ما دَعاهُمُ الرسولُ إليهِ مِنْ توحيدِ اللهِ والإقرارِ بالرّبوبيّةِ لهُ والألوهيّةِ ﴿هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي يُبيِّنُ ذلكَ، والحقُّ المُبينُ ما يُبيِّنُ ما يُؤتى وما يُتّقى، وما يَحِلُّ، وما يَحْرُمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ مِنَ الكلماتِ [﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِنَ الناسِ][٢] ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ مِنَ الكلماتِ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مِنَ الناسِ ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ مِنَ الناسِ ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ مِنَ الكلماتِ.

وقالَ مجاهِدٌ: هو القولُ السّيِّءُ والقولُ الحسَنُ، فالحسَنُ للمؤمنينَ، والسّيِّءُ للكافرينَ؛ وذلكَ ما قالَ: الكافرونَ [بريئونَ من كلِّ][٣] كلمةٍ طيّبةٍ، هي[٤] للمؤمنينَ، وما قالَ: المؤمنونَ [بريئونَ][٥] مِنْ كلِّ خبيثةٍ، هي للكافرينَ؛ كلٌّ بريءٌ ممّا ليسَ لهُ نَحْوٌ مِنَ الكلامِ.

ثم قالَ: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يَعْني عائشةَ وصَفْوانَ ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا﴾ يَقولُ أولئكَ القَذَفَةُ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي حَسَنٌ. فَابْنُ عباسٍ صَرَفَ الآيةَ إلى عائشةَ وصَفْوانَ وإلى قَذَفَتِهِمْ؛ وذلكَ مُحْتَمَلٌ، وهو قريبٌ مِنَ الأوّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ مِنَ النساءِ ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِنَ الرجالِ، ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ مِنَ الرجالِ ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ مِنَ النساءِ، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ مِنَ النساءِ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مِنَ الرجالِ. لكنَّ هذا يَتَوَجَّهُ إلى النّكاحِ شَرْعاً ووُجوداً.

أمّا الشّرعُ [فهو][٦] نَهْيُهُ المؤمنينَ عنْ نِكاحِ المُشركاتِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] وقولِهِ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] فالمشركاتُ مِنَ الخَبيثاتِ، هنَّ لخبيثينَ منهُمْ، وهُمُ المُشركونَ. وكذلكَ الزانياتُ للزُّناةِ منهم، والمؤمناتُ، هُنَّ الطّيّباتُ، فهنَّ للمؤمنينَ. وكذلكَ المُحصَناتُ الغافلاتُ، هُنَّ الطّيّباتُ، فَهنَّ لِلْمُحْصَنينَ مِنْ أهلِ العَفافِ والصلاحِ. هذا، هو الشّرْعُ.

وأمّا الوجودُ، فهو ما صَبَّرَ أزواجَ المنافقينَ والكَفَرَةِ على كُفْرِ أزواجِهِنَّ، والسَّبُّ لرسولِ اللهِ، والأذى لهُ؛ وذلكَ لِخُبْثِهِنَّ وكُفْرِهِنَّ ومُوافَقَةِ أزواجِهِنَّ. فلو كنَّ طَيّباتٍ لَكُنَّ لا يَصْبِرْنَ على ذلكَ كما لا تَصْبِرُ المؤمنةُ [على كُفْرِ][٧] زَوجِها [ولا يَصْبِرُ الزّوجُ على كُفْرِ][٨] امْرأتِهِ.

ومَنْ صَبَرَ على ذلكَ فإنما صَبَرَ لِخُبْثِهِ؛ فَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أكْفاءٌ: الخَبيثاتُ لِلْخَبيثينَ، والخَبيثونَ لِلْخَبيثاتِ، وكذلكَ الطّيّباتُ والطّيّبونَ، واللهُ أعلَمُ.

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][٩] قالَ: قالَ: إنَّ الكلمَةَ الخَبيثةَ لَتَكونُ في جوفِ الرجلِ الصالحِ، فلا يكونُ لها في قَلْبِهِ مُسْتَقَرٌّ حتى يَلْفِظَها، فَيَسْمَعَها الرجلُ الخبيثُ، فَيَضُمَّها إلى ما عندَهُ مِنَ الشّرِّ، وإنَّ الكلمةَ الصالحةَ لَتكونُ في جوفِ الرجلِ الخبيثِ، فلا يكونُ لها في قَلْبِهِ مُسْتَقَرٌّ حتى يَلْفِظَها، فَيَسْمَعَها الرجلُ الصالحُ، فَيَضُمَّها إلى ما عندَهُ مِنَ الخيرِ، ثم تَلا عبدُ اللهِ: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ الآية.

وجائزٌ أنْ تكونَ الخبيثاتُ هي الدَّرَكاتِ التي تكونُ في النارِ للّذينَ عَمِلوا أعمالاً خَبيثَةً في الدنيا، والطّيّباتُ هي الدّرجاتِ التي تكونُ في الجنةِ للطّيّبينَ الذين عَمِلوا في الدنيا. / ٣٦٥ ـ ب/

فالدرجاتُ في الجنةِ لِلطّيّبينَ الذين عَمِلوا الطّيّباتِ في الدنيا والدَّرَكاتُ في النارِ للذينَ عَمِلوا الخَبائِثَ والمَعاصِيَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والقول. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: فهي. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يصير. (٨) في الأصل وم: والزوج بكفر. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أُنزِلَ[1] في المُنافِقينَ الذينَ قَذَفوا عائشةَ [وهمْ][2] عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ [بْنِ سَلولٍ][3] وأصحابُهُ.

وكانَ قَذَفَها مُنافِقونَ ومؤمنونَ، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ المؤمنينَ لَمْ يَقْصِدوا بِهِ قَذْفَها، ولكنْ كانَ ذلكَ زَلَّةً منهمْ أو غَفْلَةً. وأمّا المُنافِقونَ فقد قَصَدوا بِهِ القَذْفَ والفِرْيَةَ.

فأوجبَ لِلْمُنافِقينَ الحَدَّ واللَّعْنَ والعَذابَ العظيمَ على ما ذَكَرَ: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

وأمّا المؤمنونَ فقالَ لهمْ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

وقالَ بعضُهُمْ: فَضْلُهُ الإسلامُ ورَحْمَتُهُ القرآنُ، أي لولا ذلكَ لَعَذَّبَكُمْ كما عَذَّبَ أولئكَ.

ثم قالَ [بعضُهُمْ: قولُهُ][4] ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ مِنَ القولِ [والعَمَلِ][5] ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِنَ الناسِ كما ذَكَرَ أولئكَ. إلا أنهُ زادَ فيهِ: والعَمَلِ[6]. وذلكَ كلُّهُ قريبٌ بعضُهُ [مِنْ بعضٍ][7] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ [بعضُهُمْ][8]: إنَّ الرجلَ الصالحَ يَتَكَلَّمُ بالكلمةِ العوراءِ، فيقولُ القائلُ: قالَ فلانٌ كذا وكذا، فيقولُ الآخَرُ: ما هذا مِنْ كلامِ فلانٍ.

ورُوِيَ عن أُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ أنهُ قالَ مِثْلَ قولِ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ][9] إنَّ الكلمةَ الخبيثةَ، تَخْرُجُ مِنْ لسانِ العبدِ، فَتَصْعَدُ إلى السماءِ، فلا تُفْتَحُ لها أبوابُ السماءِ، وتَرْجِعُ إلى الأرضِ، فلا تَجِدُ لها مُسْتَقَرّاً، وتَذهَبُ إلى البُحورِ، فلا تَجِدُ لها مكاناً، فتقولُ: ما أَجِدُ لي مَوضِعاً أسْكُنُهُ غيرَ المَوضِعِ الذي خَرَجْتُ منهُ، فَتَرْجِعُ إلى صاحِبِها. ثم تلا كعبٌ هذه الآيةَ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآيةَ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ أنهُ كان يَقْرَؤُها: حتى تَسْتَأذِنوا[10]، وتُسَلِّموا على أهلِها، وقالَ: تَسْتَأْنِسوا وَهْمٌ مِنَ الكاتِبِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الِاسْتِئناسُ الِاسْتِئذانُ. وقالَ بعضُهُمْ: الِاسْتِئناسُ الِاسْتِعْلامُ، وهو أنْ يَطْلُبَ مِنْ أهلِ البَيتِ الإذْنَ بالدُّخولِ، والِاسْتِئذانُ هو طَلَبُ الإذنِ منهمْ للدُّخولِ.

«ورُوِيَ عن أبي أيّوبَ [أنهُ][11] قالَ: قُلْنا: يا رسولَ اللهِ هذا السلامُ قد عَرَفْناهُ، فما الِاسْتِئذانُ؟ قالَ: أنْ يَرْفَعَ صوتَهُ بالتَّحْميدِ أو بالتَّسْبيحِ أو بالتكبيرِ لِيُؤذَنَ لِلدُّخولِ» [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو إلى الِاسْتِعْلامِ أقْرَبُ، وهو قولُهُ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي عَلِمْتُمْ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، أي حتى تُسَلِّموا، وتَسْتَأْنِسوا، وهو أنْ تَبْدَأَ، فتقولَ: السلامُ عليكمْ، ورَحْمَةُ اللهِ [أَأَدْخُلُ؟ تُسَلِّمُ أوّلاً، ثم تَسْتَأْذِنُ][12] وهو ما رُوِيَ: «السلامُ قَبْلَ الكلامِ» [الترمذي: ٢٦٩٩]

ولكنْ عندَنا: الِاسْتِئذانُ[13] لِلدُّخولِ، فإذا أُذِنَ بالدُّخولِ، فَدُخِلَ، فعندَ ذلكَ يُسَلِّمُ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١] فإنما أَمَرَ بالسلامِ بعدَ الدخولِ.

---

(١) في الأصل: أنزلت، في م: نزلت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ادرج قبلها في الأصل وم: من القول. (٧) في الأصل وم: ببعض. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بمثل قيل عبد الله فقال. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ٢٤٦. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أأدخل يسلم أولاً ثم يستأذن. (١٣) ادرج قبلها في الأصل وم: أن.

فَعَلَى ذلكَ هذا يُستَأذَنُ لِلدُّخولِ. فإذا أُذِنَ لهُ دَخَلَ، فَبَعْدَ الدخولِ يُسَلِّمُ عليهِمْ لأنهُ[1] لو سَلَّمَ أوّلاً، ثم استَأذَنَ، احتاجَ أن يُسَلِّمَ ثانياً إذا دَخَلَ. فهذا الذي ذَكَرْنا أشبهُ بِعَمَلِ الناسِ وظاهرِ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لم يَرْجِعْ إلى المَساجِدِ ونَحوِها[2]، بل يَرْجِعُ ذلكَ إلى بُيوتٍ مَسْكونةٍ. فذلكَ يدلُّ لِقَولِنا: إنَّ مَنْ حَلَفَ ألا يَدخُلَ بيتاً، فَدَخَلَ المَسْجِدَ، لم يَحْنَثْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي ذلك الاِسْتِئذانُ والتَّسليمُ خَيرٌ لكمْ مِنْ تَرْكِ الاِسْتِئذانِ لأنهُ تَرَكَ التَّأدُّبَ بما أدَّبَهُ اللهُ، وعَلَّمَهُ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَتَّعِظونَ بأدبِ اللهِ.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ مَنْ دَخَلَ بَيتاً بِغيرِ إذنٍ قالَ لهُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بهِ: عَصَيْتَ، وآذَيْتَ، فَيَسْمَعُ صوتَهُ الخَلْقُ كلُّهُ غَيرَ الثَّقَلَينِ، ويَصْعَدُ صوتُهُ إلى السماءِ الدنيا، فتقولُ ملائكةُ السماءِ: أُفٍّ لفلانٍ عَصَى رَبَّهُ، وآذى.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ هذا يَدلُّ على أنَّ الاِستِئذانَ وطَلَبَ الإذنِ لا لِحَيثُ أنفسِهِمْ خاصّةً، ولكن لانفسِهِمْ ولما لهمْ في البيوتِ مِنَ الأموالِ لأنهُ قالَ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لم يأذَنْ لهمْ بالدخولِ فيها، وإن لم يكُنْ فيها أحدٌ حتى يَأْذَنَ أربابُ الأموالِ والمنازِلِ بالدخولِ فيها لِيُعْلَمَ أنَّ النَّهيَ عنِ الدخولِ لِلأنفُسِ والأموالِ جميعاً، لأنَّ الناسَ يَتَّخِذونَ البيوتَ والمنازلَ صَوناً لِلأنفُسِ والأموالِ جميعاً. فكما يَكْرَهونَ اطِّلاعَ غَيرِهِمْ على انفسِهِمْ وعِيالاتِهِمْ، فلا تَطيبُ انفُسُهُمْ أيضاً [باطِّلاعِ غَيرِهِمْ][3] على اموالِهِمْ وأمْتِعَتِهِمْ، فلا تُدْخَلُ إلا بإذنٍ مِنْ أهلِها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ الاِستِئذانَ ثلاثٌ؛ مَنْ لم يُؤذَنْ لهُ فيهِنَّ فَلْيَرْجِعْ. أمّا الأولى[4] فَيَسْمَعُ الحيُّ، وأمّا الثانيةُ فيأخُذونَ حِذْرَهُمْ، وأمّا الثالثةُ فإنْ شاؤوا أذِنوا، وإنْ شاؤوا رَدّوا.

وقيلَ: لا تَقْعُدَنَّ على بابِ قومٍ رَدّوكَ عنْ بابِهِمْ؛ فإنَّ للناسِ حاجاتٍ، ولهمْ أشغالٌ، واللهُ أعْذَرَ بالعُذْرِ.

وفي بَعضِها: وما تَنْقِمُ مِنْ شيءٍ يا ابْنَ آدمَ هو أزكى لكَ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ لأنهُ إذا لم يُؤذَنْ بالدخولِ، فَقَعَدوا على بابِهِمْ، ولم يَرْجِعوا، أورثَ ذلكَ مَعانِيَ تُكْرَهُ.

أحَدُها: تُهَمَةٌ على أهلِ الدارِ على ما يُقْعَدُ على أبوابِ أهلِ التُّهَمِ مِنَ الشُّرْطِيِّ وغَيرِهِ، فذلكَ مَكروهٌ عندَ الناسِ.

والثاني: يكونُ للناسِ أشغالٌ وحاجاتٌ في منازلِهِمْ وخارجَ المَنازِلِ. فإنِ انْتُظِرَ، وقُعِدَ على بابِهِمْ، ضاقَ بذلكَ ذَرْعُهُمْ، وشَغَلَ قلوبَهُمْ ذلكَ، فَلَعَلَّ حاجاتِهِمْ، لا تَلْتَئِمُ لِشُغْلِهِمْ بهِ، لذلكَ كانَ الرجوعُ أزكى لهمْ وخيراً لهمْ مِنَ القُعودِ على البابِ والاِنتِظارِ، واللهُ أعلَمُ.

ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: «الاِستئذانُ ثلاثٌ، فإنْ أذِنَ فيهِنَّ، وإلّا فارْجِعْ» [الموطأ ٢/٩٦٣] وقالَ بعضُهُمْ: مَعناهُ ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ يقولُ: إنْ سَكَتَ عنكُمْ، فلم يُؤذَنْ لكُمْ، فقد قيلَ لكمُ: ارْجِعوا، وإنْ لم يَقولوا بألسِنَتِهِمْ: ارجعوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيدٌ كقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩].

ثم الاِستِئذانُ على مَحارِمِهِ لازمٌ، وإنْ كانَ يجوزُ لهُ أنْ يَنْظُرَ إلى شَعْرِ ذاتِ مَحْرَمَةٍ ووَجهِها، فإنهُ مَنْهِيٌّ عنِ النَّظَرِ إلى ما سِوَى ذلكَ مِنْ عَورَتِها، لِما يُخْشَى أن يَبْدُوَ مِنْ عَورَةِ المرأةِ إنْ دُخِلَ عليها بِغيرِ إذنٍ. «رُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ نَبيَّ اللهِ ﷺ فقالَ: أنا أخدُمُ أمي، وأفْرُشُها، أأسْتأذِنُ[7] عليها؟ قالَ: نعمْ، فسألَهُ ثلاثاً، فقالَ لهُ: أيَسُرُّكَ أنْ تراها عُريانَةً؟ قالَ: لا، [قالَ][8]: فاستَأذِنْ عليها» [الموطأ: ٢/٩٦٣].

---

(١) في الأصل وم: لأنهم. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الأول. (٥) في الأصل وم: لكم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

«وكذلكَ رُوِيَ عنْ خَديجَةَ أنَّ رجلاً سألَهُ؛ فقالَ[١]: أأسْتأذِنُ على أختي؟ فقال: إنْ لم تَسْتأذِنْ عليها رأيت ما يَسوؤكَ»[٢] وكذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ عنْ أحدِهِما في الأمِّ، وعنِ الآخَرِ في الأختِ لكنَّ/ ٣٦٦ ـ أ/ أمْرَهُ في الاستِئذانِ على هؤلاءِ اسْهَلُ وأيْسَرُ مِنْ أمْرِ الأجْنبيِّ؛ إذْ كانَ مُطْلقاً لهُ أنْ يَنْظُرَ إلى شَعْرِ مَحْرُمَةٍ ووجْهِها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ وجهَيْنِ.

أحَدُهما: بيوتاً غيرَ مُحْتَمِلَةٍ لِلسُّكْنَى، وهي الخَرِباتُ والمواضِعُ التي تُقْضَى فيها الحَوائِجُ، وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ حَفْصَةَ: بيوتاً غَيرَ مَعْمورَةٍ لكمْ فيها منافِعُ لكمْ.

[والثاني: بُيوتاً غيرَ][٣] مسكونَةٍ مُحْتَمِلَةً لِلسُّكْنَى، إلاّ أنَّ أهلَها لم يَسْكُنوها لِنُزُولِ الناسِ فيها، وهي نَحوُ الخاناتِ والرِّباطاتِ[٤] التي تكونُ للمارَّةِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ الإستِئذانُ: قالَ أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ فكيفَ بالبيوتِ التي بَيْنَ مكةَ وبينَ المدينةِ، ليس فيها ساكنٌ؟فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ وذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: ليس عليكم جُناحٌ في بيتٍ، ليسَ فيه ساكنٌ، أنْ تدخُلوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ إنْ [كانتْ تلكَ][٥] البُيوتُ الخاناتِ والبُيوتَ التي يَنْزِلُ فيها أهلُ السَّفَرِ فيكُونُ قولُهُ ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ يَعْني[٦]: فيها مَنْفَعَةٌ لكُمْ مِنَ الدِّفْءِ في الشتاءِ والظِّلِّ في الصيفِ ودَفْعِ الحَرِّ في أيامِ الحَرِّ ودَفْعِ البَرْدِ في أيامِ البَرْدِ.

وإنْ كانَتِ البُيوتُ هي الخَرِباتِ [والأقْتابَ والأمْتِعاتِ][٧] التي كانوا يَصنعونَ [لِلطُّهورِ وقَضاءِ][٨] الحَوائِجِ فيكونُ قولُهُ: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ يَعْني[٩] الخَلاءَ والبَوْلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ قيل: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ مِنَ السلامِ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وما تُخْفونَ منهُ، أو في كلِّ شيءٍ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩] يذكُرُ هذا لِنكونَ[١٠] أبداً على حِذْرٍ أو خَوفٍ واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ رُوِيَ عن عليٍّ ﷺ [أنهُ][١١] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يا عليُّ إنَّ لكَ لَكَنْزاً في الجنةِ، وإنكَ لَذو قَرْنَيها، فلا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فإنَّ لكَ الأولَى، ولَيسَتْ لكَ الآخِرَةُ» [أحمد: ١/ ١٥٩].

وعَنْ أنَسٍ ﷺ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [قولُهُ:][١٢] «يا ابْنَ آدَمَ لكَ أوَّلُ نَظْرَةٍ فإيّاكَ الثانيةَ» [بنحوه أحمد: ٥/ ٣٥٢] وعَنْ جَريرِ [بْنِ عبدِ اللهِ أنهُ][١٣] قالَ: سألْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الفُجاءَةِ، فأمَرَني أنْ أصْرِفَ بَصَري.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ [ﷺ قولُهُ][١٤] يَغُضّوا أبصارَهُمْ عنْ شَهَواتِهِمْ في ما يَكْرَهُ اللهُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ وجوهاً ثلاثةً.

أحَدُها: غَضُّ[١٥] أبْصارِهِمْ لكي يَحْفَظوا فُروجَهُمْ؛ فإنَّ حِفْظَ الفَرْجِ إنما يكونُ[١٦] بِغَضِّ البَصَرِ وحِفْظِهِ.

والثاني: غَضُّ[١٧] أبْصارِهِمْ عنِ النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ مِنَ الأجْنَبِيّاتِ، لأنَّ النَّظَرَ إلى المَحارِمِ [لا يَحِلُّ، وحِفْظَ][١٨] فُروجِهِمْ عنِ الكُلِّ مِنَ المَحارِمِ والأجْنَبِيّاتِ إلّا الذينَ اسْتَثْناهُمْ في [الآيةِ التاليةِ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج هذا في تفسير ابن جرير الطبري على أنه قول ابن جرير وهو ليس حديثا: ١٨/ ١١٢. (٣) في الأصل وم: الثاني بيوتاً. (٤) في الأصل وم: والرباط. (٥) في الأصل وم: كان ذلك. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: وأقباب وأمتعات. (٨) في الأصل وم: في الطهور لقضاء. (٩) في الأصل وم: فيكون. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: غضوا. (١٦) من م، في الأصل: يكونوا. (١٧) في الأصل وم: يغضوا. (١٨) في الأصل وم: يحل ويحفظوا.

والثالثُ: غَضُّ[1] أبصارِهِمْ عمّا في أيدي الخَلْقِ [والَّا يُفَتِّحوها][2] إلى ما في أيديهِمْ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [طه: ١٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي أطْهَرُ لهمْ وأدْعَى إلى الصلاحِ مِنَ النَّظَرِ.

الآية ٣١ وعلى هذا[3] يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه [أنهُ][4] قالَ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ الرِّداءُ مِنَ الثيابِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][5] قالَ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الكُحْلُ والخاتَمُ، وفي روايةٍ أُخْرى: الكَفُّ والخاتَمُ.

وعَنْ عائشةَ رضي الله عنها [أنها][6] قالَتْ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: القُلْبُ، والفَتَخَةُ، وهي خاتَمُ إصْبَعِ الرِّجْلِ.

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيرِ [قولُهُ: الزِّينَةُ][7] زينتانِ: زِينَةٌ باطنةٌ، لا يَراها إلا الزَّوجُ [كالإكليلِ والسِّوارِ والخاتَمِ. وأمّا الزِّينَةُ الظاهرةُ فالثِّيابُ][8].

فإنْ كانَ التأويلُ ما رُوِيَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ [حينَ خَصَّ الرِّداءَ مِنَ الثيابِ][9] ففيهِ دلالةُ ألا يَحِلَّ النَّظَرُ إلى امرأةٍ أجْنَبِيَّةٍ وإنْ كانَ ما قالَ ابنُ عباسٍ ففيهِ دلالةُ حِلِّ النَّظَرِ إلى وَجْهِ المرأةِ لا بِشَهْوَةٍ.

وإنْ كانَ ما قالتْ عائشةُ مِنَ القُلْبِ والفَتَخَةِ ففيهِ دلالةُ جوازِ النَّظَرِ إلى الكَفَّينِ والقَدَمَينِ لأنهما ظاهِرَتانِ بادِيَتانِ

ألا ترى أنهما مِنَ الظَّواهِرِ في فَرْضِ غَسْلِ الوُضوءِ؟ وإنْ كانَ ذلكَ ففيهِ دَلالةُ جوازِ صَلاتِها مَعَ ظُهورِ القَدَمِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ النَّظَرُ إلى وجهِ المَرْأةِ حَلالاً إذا لم يَكُنْ بِشَهْوَةٍ. لكنْ غَضُّ البَصَرِ وتَرْكُ النَّظَرِ أوفقُ وأزكى كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهُنَّ حرائرُ ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] كما يُؤذى الإماءُ.

والذي يدلُّ أنَّ للمَرْأةِ ألا تُغَطِّيَ وَجْهَها، ولا يَنْبَغي للرجُلِ أنْ يَتَعَمَّدَ النَّظَرَ إلى وجْهِ المرأةِ إلّا عندَ الحاجةِ إليهِ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ لِعَليٍّ رضي الله عنه: «إنّما لكَ الأولى وليستْ لكَ الآخِرَةُ» [الترمذي: ٢٧٧٧] وفي بَعْضِها: «الأولَى لكَ والآخِرَةُ عليكَ» [بنحوه الترمذي: ٢٧٧٧] لأنهُ كأنهُ إنما يَتَعَمَّدُ النَّظَرَ في الثانيةِ لِشَهْوَةٍ تَحْدُثُ في قَلْبِهِ.

وإذْنُهُ للذي تُريدُ أنْ يَتزَوَّجَ امْرَأةً أنْ يَنْظُرَ إليها يَدُلُّ على أنَّ نَظَرَ الرجلِ إلى وَجْهِ المرأةِ غَيرُ حرامٍ، لأنهُ لو كانَ حَراماً لم يأذَنْ فيهِ النَّبِيُّ لأحدٍ.

ونَرَى، واللهُ أعلَمُ، أنَّ النَّظَرَ إلى وجهِ المرأةِ ليسَ بِحرامٍ إذا[10] لمْ يَقَعْ في قَلْبِ الرجُلِ مِنْ ذلكَ شَهْوَةٌ. فإذا وَجَدَ لذلكَ شَهْوَةً، ولم يَأمَنْ أنْ [يُوْدِيَ بهِ][11] ذلكَ إلى ما يُكْرَهُ، فَمَحظورٌ عليهِ أنْ يَنْظُرَ إليها إلّا أنْ يُريدَ بهِ مَعْرِفَتَها والنِّكاحَ، فإنهُ قد رُخِّصَ في ذلكَ.

رُوِيَ أنَّ المُغيرةَ [بْنَ شُعْبَةَ][12] أرادَ أنْ يَتَزَوَّجَ امْرأةً، فقالَ لهُ رسولُ[13] اللهِ ﷺ «اذْهَبْ، فانْظُرْ إليها، فإنهُ أحْرَى أنْ يُؤدَمَ بَينَكُما» [أحمد: ٤/ ٢٤٥].

وقالَ في بَعْضِ الأخبارِ: «إذا خَطَبَ أحَدُكُمُ المَرْأةَ فلا بأسَ أنْ يَنْظُرَ إليها إذا كانَ إنما يَنْظُرُ إليها لِلْخِطْبَةِ، وإنْ كانَتْ لا تَعْلَمُ» [بنحوه أحمد: ٣/ ٣٦٠].

---

(١) في الأصل وم: آية أخرى والثالث يغضوا. (٢) في الأصل وم: ولا تفتحوا لها. (٣) في الأصل وم: هذه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م: الزينة، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فأما الزينة الظاهرة فالثياب، والباطنة فالإكليل والسوار والخاتم. (٩) في الأصل وم: حيث خص من الثياب وغيره. (١٠) في الأصل وم: إذ. (١١) في الأصل وم: يؤد به. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: لرسول.

واحْسَنُ لِلشابَّةِ وأفضلُ لها أنْ تَستُرَ وجهَها ويَدَيها عنِ الرجالِ، ليسَ أنَّ ذلكَ حَرامٌ[1] ولكنْ لِما يُخافُ في ذلكَ مِنْ حُدوثِ الشَّهْوَةِ ووقوعِ الفِتْنَةِ بهنَّ.

فإذا لم يكُنْ لِلناظِرِ في ذلكَ شَهْوَةٌ بأنْ كانَ شيخاً كبيراً، أو كانتِ المرأةُ دَميمةً أو عجوزاً، فإنهُ لا يُحظَرُ النَّظَرُ إلى وجوهِ أمثالِهِنَّ، ولا يُنظَرُ إلى[2] ما سِوَى ذلكَ.

واصْلُهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وممّا يَدُلُّ على أنَّ الوجهَ والكفَّينِ جائزٌ ألّا يكونا[3] بِعورَةٍ: بأنَّ المرأةَ، لا تُصَلّي وعَورَتُها مَكْشوفةٌ، ويجوزُ أنْ تُصَلّيَ وَوَجْهُها ويَداها ورِجْلاها مَكْشوفةٌ. فإذا كانَ كذلكَ دلَّ ذلكَ على أنَّ النَّظَرَ إلى ذلكَ جائزٌ، إذا لم يكُنْ ذلكَ لِشَهْوَةٍ، دَخَلَ في ذلكَ مَعْنَى قَولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «العَينانِ تَزْنِيانِ» لأنَّ زِناءَ العينِ لا يكونُ إلّا بالنَّظَرِ لِلشَّهْوَةِ. فإذا كانَ لِشَهْوَةٍ دَخَلَ في ذلكَ مَعْنَى قَولِ رسولِ اللهِ ﷺ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ما يَدُلُّ على أنَّ الوجهَ والكَفَّينِ، لَيسا بِعورَةٍ ما رُوِيَ عَنْ عائشةَ [أنها][4] قالَتْ: «دخَلَتْ عليَّ أختي أسماءُ، وعليها ثيابٌ شاميةٌ رِقاقٌ، وهي اليومَ عندكُمْ صِفاقٌ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: هذه ثيابٌ، لا تُحِبُّها سورةُ النورِ، فأمَرَ بها، فأُخرِجَتْ، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ زارَتني أختي، فَقُلتُ لها ما قُلتَ، فقالَ ياعائشُ إنَّ الحُرَّةَ إذا حاضَتْ لا يَنْبَغي أنْ يُرَى إلّا وجهُهَا وكَفّاها» [بنحوه أبو داوود: ٤١٠٤] فإنْ ثَبَتَ هذا فإنهُ يُبَيِّنُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ/ ٣٦٦ ـ ب/.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المرأةَ يُكرَهُ لها النَّظَرُ إلى الرجالِ مِن غَيرِ مَحْرَمِها كما يُكرَهُ للرجلِ [النَّظَرُ][5] إلى المرأةِ الأجْنَبِيَّةِ.

الا تَرَى أنهُ «رُوِيَ أنَّ [عبدَ اللهِ ابْنَ أمِّ مَكْتومِ المؤذِّنَ الأعمى، دَخَلَ][6] على رسولِ اللهِ ﷺ وبَعْضُ أزواجِهِ عِندَهُ: عائشةُ وأخرَى. فقالَ لهما رسولُ اللهِ ﷺ: قوما، فقالَتا: [يا رسولَ اللهِ أليسَ هو أعمَى؟][7] فقالَ لهما: [أفَعَمْياوانِ أنتما؟ ألستما تُبْصِرانِهِ» [الترمذي: ٢٧٧٨] أو كلاماً][8] نَحْوَ هذا. فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

وعلى ذلكَ أخبارٌ: رُوِيَ عنْ خالدِ بْنِ مَعْدانَ [أنهُ][9] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا يَحِلُّ لِامْرأةٍ، تؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ تَبيتَ في مَكانٍ، تَسْمَعُ نَفَسَ رجلٍ، ليسَ بِمَحْرَمٍ. ولا يَحِلُّ لِامْرِئٍ، يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ يَبيتَ في مكانٍ، يَسْمَعُ نَفَسَ امْرَأةٍ، ليسَتْ بِمَحْرَمَةٍ» [بنحوه البخاري: ٣٠٠٦].

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنهُ [قالَ:][10] «لا يُرَخَّصُ لِلمرأةِ أنْ تُرِيَ غَيرَ ذي مَحْرَمٍ منها إلا الوَجْهَ والكَفَّ وما ظَهَرَ، وقُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ على كُوعِ عائشةَ، وقالَ: هذا» [بنحوه أبو داوود: ٤١٠٤].

وعن الحَسَنِ أنهُ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الوجهَ وما ظَهَرَ مِنَ الثيابِ.

فإنْ ثَبَتَ ما ذَكَرْنا مِنَ المَرْوِيِّ عن رسولِ اللهِ ﷺ حينَ[11] رَخَّصَ النَّظَرَ إلى الوَجْهِ والكفِّ لقولِهِ: «إلّا الوَجْهَ والكَفَّ» اسْتِثْناءَ الوَجْهِ والكَفِّ مِنْ بَينِ سائرِ الجَوارِحِ، كانَ ذلكَ تفسيراً لِقولِهِ: «إلّا ما ظَهَرَ منها» كأنهُ قالَ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ للأجْنَبِيِّينَ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهو الكُحْلُ والخاتَمُ.

ثم الكُحْلُ [يكونُ][12] في الوَجْهِ، والخاتَمُ في اليَدِ. فَذِكْرُ الزِّينةِ يكونُ كنايَةً عن مَواضِعِها لأنَّ النَّظَرَ إلى الزِّينةِ [حلالٌ لِكلِّ أحدٍ إذا كانَ المُرادُ بالزِّينةِ][13] الحُلِيَّ. وما ذَكَرَهُ القومُ يَدُلُّ أنَّ المُرادَ بِذِكْرِ الزِّينةِ مَواضِعُ الزِّينةِ لا نَفْسُ الزِّينةِ والحُلِيِّ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: إليها للخطبة. (٢) من م، في الأصل: أن. (٣) في الأصل وم: يكون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أعميين دخلا، انظر الإصابة ج٤/١١. (٧) في الأصل وم: أنهما عميان يا رسول الله. (٨) في الأصل وم: هما وإن كانا أعميين فأنتما لستما بأعميين أو كلام. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ثم رَخَّصَ للأجنبيينَ النظرَ إلى بَعْضِ الزِّينةِ، وهو ما ظَهرَ منها مِنَ الوَجْهِ والكَفِّ، ولم يُرَخِّصْ ما خَفِيَ منها وما بَطَنَ، ثم استثنى المَحارِمَ منها [ورَخَّصَ لهمُ النَّظَرَ][1] إلى ذلك بقولِهِ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

ثم مَواضِعُ الزِّينةِ الخَفِيَّةِ؛ منها الصَّدْرُ، ومنها الأذُنانِ، وهما في الرأسِ، ومنها الساقُ.

ثم جَمَعَ بَينَ الأبِ ومَنْ سَمَّى مَعَهُ وبَينَ الزَّوجِ في النَّظَرِ إلى زينةِ المرأةِ. ولا خِلافَ في أنَّ الأبَ، لا يَجوزُ لهُ أنْ يَنْظُرَ مِنْ عَوراتِ ابنتِهِ إلّا إلى رَأسِها، وفي الرأسِ الأذُنانِ، وقد يكونُ فيهما القِرطانِ[2]، ونَحْوِهِ.

وإذا جازَ لهُ أنْ يَنْظُرَ إلى رأسِها، ولا خِمارَ عليها، فَلَهُ أن يَنْظُرَ إلى صَدْرِها، وهو موضِعُ الزِّينةِ، لأنهُ مِمّا يُغَطّيهِ الخِمارُ، ويَنْظُرَ إلى ذِراعَيها ومَوضِعِ الخَلْخالِ مِنْ قَدَمَيها ورِجْلَيها، وهيَ[3] مَواضِعُ الزِّينَةِ الباطنةِ التي لا يجوزُ للأجنَبيِّ أنْ يَنْظُرَ إليها.

ثم النَّظَرُ إلى الوَجْهِ أحقُّ أنْ يَحرُمَ النَّظَرُ إليهِ للأجنَبيِّ مِنَ الرأسِ وغَيرِهِ مِنْ مَواضِعِ الزِّينَةِ لأنَّ الوَجْهَ يَجْمَعُ فيه جميعَ المحاسِنِ، وغَيرَهُ مِنْ مَواضِعِ الزِّينةِ، ليسَ فيها محاسِنُ. لكنْ إنما حُرِّمَ النَّظَرُ إلى هذهِ المَواضِعِ لأنها عَورَةٌ في نَفْسِها، فالنَّظَرُ إلى العورَةِ حَرامٌ للأجنَبيِّ، ولأنَّ النَّظَرَ إليها؛ أعني مَواضِعَ الزِّينةِ، لا يكونُ إلّا لِلشَّهْوَةِ، والنَّظَرُ إلى الشَّهْوَةِ حَرامٌ[4].

فأمّا المحارِمُ منها فإنهمْ لا يَنْظُرونَ إلى هذهِ المَواضِعِ منها لِشَهْوَةٍ، ولا يَقْصِدونَ بهِ ذلكَ البَتَّةَ، فأُبيحَ لهمُ النَّظَرُ إليها. وكلُّ مَنْ يَخْشَى مِنَ المَحارِمِ النَّظَرَ إليها لِشَهْوَةٍ لا يَنْظُرُ إليها. وكذلكَ الأجنبيُّ [حينَ أُبيحَ لهُ][5] النَّظَرُ إلى الزِّينةِ الظاهرةِ، فإن خَشِيَ بهِ الشَّهْوَةَ لم ينظُرْ إليها. وضرورةٌ[6] ثَمَّ غَيرُها مِنَ العَجَزَةِ، لا يَحِلُّ لأحدٍ النَّظَرُ إليها: للأبِ وغَيرِهِ إلّا للزَّوجِ خاصَّةً أو للمَولَى إلى مَمْلوكَتِهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥و٦].

استثنى الأزواجَ والمَواليَ مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ لأنَّ النَّظَرَ إلى ذلكَ لا يكونُ إلا للشَّهْوَةِ، لا تَقَعُ فيهِ حاجةٌ، فلا يباحُ ذلكَ إلّا لِمَنْ لهُ قضاءُ الشَّهْوَةِ والوَطْءِ، وهو الزَّوجُ والمَولَى.

فانقسمَتِ العَورةُ إلى جِهَتَينِ: جِهَةٍ تُحِلُّ للمَحارِمِ النَّظَرَ إليها لحاجةٍ وضرورةٍ، تَقَعُ لهمْ، وجِهَةٍ لا تُحِلُّ لهمْ إلّا للأزواجِ لما لا تَقَعُ لهمْ حاجةٌ ولا ضرورةٌ بالنَّظَرِ إلى ذلكَ.

ألا تَرَى أنَّ الأمَةَ يَنْظُرُ [الأجنبيُّ][7] إلى شَعْرِها وذراعَيها وساقَيها وصَدْرِها إذا أرادَ شِراءَها؟ فلا يَنْظُرُ إلى ما سِوَى ذلكَ. فإذا جازَ للأجنبيِّ أنْ يَنْظُرَ إليهِ مِنَ الأمَةِ جازَ لِمَحْرَمِها النَّظَرُ إلى ذلكَ مِنَ المرأةِ لِلْحاجةِ التي ذَكَرْنا.

ثم ذَكَرَ في الآيةِ المَحارِمَ جميعاً إلّا الأعمامَ والأخوالَ. قالَ بعضُهُمْ: إنما لم يَذْكُرْهُمْ[8] في هذهِ الآيةِ لأنها تَحِلُّ لِبَنيهِمْ[9] بالنكاحِ، فَكَرِهَ أنْ [يَصِفوها لِبَنيهِمْ][10] ولهذا كَرِهَ [في ماكَرِهَ مِنَ المرأةِ][11] المسلمةِ إبداءَ الزِّينةِ الخَفِيَّةِ للكافرةِ مِنَ اليهوديَّةِ والنصرانيَّةِ لِما لَعَلَّها تَصِفُ ذلكَ لِلْمُشركينَ، فَيَرْغَبونَ فيها، ويَتَكَلَّفونَ ذلكَ، وصَرَفَ قولَهُ: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ إلى[12] المسلماتِ.

لكنْ جائزٌ عندَنا أنَّ العَمَّ والخالَ إنما لم يَذْكُرْهُما لِلْكَثْرَةِ والتَّطويلِ لِما يَكْرَهُ ذلكَ، أو لِما ذَكَرَ مِنْ أجناسِهِمْ وأمثالِهِمْ؛ فَذِكْرُ الرُّخْصَةِ في أمثالِهِمْ كافيةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

---

(١) في الأصل وم: ورخصهم نظرا. (٢) في الأصل وم: القرط. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: إليها. (٥) في الأصل وم: حيث أبيح. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يذكر. (٩) في الأصل وم: لبنيهما. (١٠) في الأصل وم: يصفاها لبنيهما. (١١) من كره للمرأة. (١٢) في الأصل وم: أي.

يَحْتَمِلُ النساءَ [اللواتي](١) يَخْتَلِطْنَ بهنَّ، أو نساءَ قرابَتِهِنَّ أو النساءَ اللاتي(٢) توافَقْنَ في دينهِنَّ وهنَّ المسلماتُ على ما قالَهُ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ كقولِهِ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] ونَحْوَهُ.

وقالَ قائلونَ. الإماءُ [والعبيدُ جميعاً. فإنْ كانَ المُرادُ بِهِ الإماءَ](٣) فهو ظاهرٌ، وإنْ كانَ المُرادُ بِهِ الأمَةَ والعَبْدَ ففيهِ إباحةُ نَظَرِ العَبْدِ إلى شَعْرِ مَولاتِهِ على ما يقولُهُ بعضُ الناسِ.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ المُرادُ بِهِ، واللهُ أعلَمُ، الإماءُ دونَ العَبيدِ [وهو](٤) ما ذَكَرَ في آخرِ الآيةِ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ العَبيدُ(٥) مِنَ الرجالِ. أو ذَكَرَ التابِعينَ(٦)؛ والتابعُ، وإنْ كانَ خَصِيّاً أو غَبِيّاً أو مَعْتوهاً على ما قالوا فإنَّهُ لا يَحِلُّ لهؤلاءِ النَّظَرُ إلى تلكَ المَواضِعِ على حالٍ. فَعَلى ذلكَ العبدُ.

فيكونُ الدخولُ عليهِنَّ مُضْمَراً(٧) في الآيةِ، وتكونُ(٨) النساءُ متأهِّباتٍ وَقْتَ دخولِ العَبيدِ والتابعينَ عليهِنَّ، لأنهُ ذَكَرَ التابِعينَ، وهم تابِعو الأزواجِ، وَوَقْتُ دُخولِ هؤلاءِ يكونُ مَعْلوماً عندَهُنَّ، فَيَتَأهَّبْنَ لهم، وتُسَرَّنَّ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ألا تَرَى [أنهُ](٩) لا يَحِلُّ للمرأةِ أنْ تُسافِرَ بِعَبْدِها؟ دَلَّ أنهُ ليسَ بِمَحْرَمٍ لها. لِذلكَ لم يَحِلَّ لهُ النَّظَرُ إلى شعرِ مَولاتِهِ.

فإنْ قيلَ: ما مَعْنَى: إمائِهِنَّ ونسائِهِنَّ؟ وكلُّ النساءِ يجوزُ لهنَّ النَّظَرُ إلى المرأةِ وإلى هذه المَواضِعِ التي ذَكَرْنا؟ قيلَ: خَصَّ اللهُ ﷻ بالذِّكْرِ إماءَهُنَّ ونساءَهُنَّ دونَ النساءِ الأجنبياتِ تأديباً لا خَطراً. وذلكَ أنَّ المرأةَ قد يَضيقُ عليها أنْ تَسْتَتِرَ مِنْ أمَتِها ونساءِ أهلِ بَيْتِها لِكَثْرَةِ رؤيَتِهِنَّ لها، وقد تَقْدِرُ أن تَسْتُرَ مِنَ الأجْنَبِيَّةِ مَحاسِنَها وزينَتَها لِقِلَّةِ رُؤْيَتِها لها.

ألا تَرَى أنهُ قد نَهَى المرأةَ أنْ تَضربَ برجلِها لِتُعْلِمَ ما تُخفي مِنْ زينتِها. وفي ذلكَ صِيانَةٌ للرجلِ والمرأةِ وإبعادٌ لهما عمّا(١٠) يُحذَرُ عليهِما، ويُخافُ؟ فليسَ بِبَعيدٍ أنْ يَجْعَلَ نَهْيَهُ المرأةَ أنْ تُظْهِرَ زينَتَها ومحاسِنَها للأجنبيةِ لِما يُخافُ على الأجْنبيةِ مِنْ فَسادِ(١١) قَلْبِها وحدوثِ الشَّهْوَةِ لها صيانةً / ٣٦٧ ـ أ/ للنِّساءِ والرجالِ جميعاً وإبعاداً لهمْ مِنَ الزينةِ، ولئلا تَصِفَها لِرَجلٍ، يَفْتَتِنُ بها، ويَتَكَلَّفُ الوصولَ إليها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ رُوِيَ عن عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ أخَذَتِ النساءُ أُزُرَهُنَّ، فَشَقَقْنَها مِنْ قِبَلِ الحواشي، فاخْتَمَرْنَ بها(١٢).

وعَنِ ابْنِ عباسٍ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يقولُ: ولْيَشْدُدْنَ بِخُمُرِهِنَّ على الصَّدْرِ والنَّحْرِ، فلا تُرينَ منهما شيئاً. قالَ: وكانَ(١٣) النساءُ قَبْلَ هذهِ الآيةِ إنما تَسْدُلْنَ خُمُرَهُنَّ سَدْلاً مِنْ ورائِهِنَّ كما يَصْنَعُ النَّبَطُ. فلما نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ سَدَلْنَ الخُمُرَ على النَّحْرِ والصَّدْرِ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ دُروعَ النساءِ كانَتْ ذاتِ جَيبٍ، لأنَّ الجَيبَ إنما تكونُ لِلدُّروعِ، وذلكَ كانَ لباسُ النساءِ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ نَهَى الرجالَ عَنْ لِبْسَةِ النساءِ وأنهُ لَعَنَ المُتَشَبِّهينَ مِنَ الرجالِ بالنساءِ. ورُوِيَ أنهُ لَعَنَ الرجلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المرأةِ، والمرأةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرجلِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ: لَعَنَ النَّبِيُّ المُؤَنَّثِينَ مِنَ الرجالِ والمُذَكَّراتِ مِنَ النساءِ. وكأنهُ مَكْروهٌ للرجلِ، واللهُ أعلَمُ. أنْ يَلْبَسَ فَراعةً وحْدَها، لا قَميصَ تَحْتَها، لأنَّ ذلكَ لِباسُ النساءِ، إلا أنْ يكونَ لها شَقُّ ذيلٍ، فَخَرَجَتْ مِنْ لُبسِ النساءِ، ولم يُكْرَهْ للرجالِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: التي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والعبد. (٦) في الأصل وم: التابع. (٧) في الأصل وم: مضمر. (٨) في الأصل وم: وكن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ما. (١١) من م، في الأصل: فشا. (١٢) في الأصل وم: به. (١٣) في الأصل وم: وكن.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إنما يُباحُ النَّظَرُ إلى الوَجْهِ للحاجةِ، وأمّا على غَيرِ الحاجةِ فلا يُباحُ لِما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٩] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فَعَلَى ذلكَ تَرْكُ النَّظرِ إلى وَجْهِ المرأةِ أطْهَرُ للنساءِ وللناسِ جميعاً. فلا يُباحُ ذلكَ إلّا عندَ الحاجةِ إليهِ، وهو مَعْرِفَتُها لتُقيمَ بِهِ الشهادةَ.

فإنْ قيلَ: أليسَ النَّظَرُ يَسَعُ إلى مَواضِعِ الزِّينةِ الخَفِيَّةِ للأجْنَبيِّ لِلتَّداوي[1]؟ قِيلَ: يَسَعُ ذلكَ للضرورةِ، وأمّا للحاجَةِ فلا. ومَسْألَتُنا في الحاجَةِ ليسَتْ في الضرورةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ جائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بِرُخْصَةِ النَّظرِ إلى الزِّينةِ لهؤلاءِ المُسَمَّينَ في الآيةِ رُخْصَةَ النَّظَرِ إلى نَفْسِ الزِّينةِ في مَوضِعِ الزِّينةِ لا مَوضِعِ الزِّينةِ. فَيَدْخُلُ في هذهِ الرُّخصَةِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ونَحْوُهُ، لأنَّ الزِّينةَ في الصدرِ وما ذَكَرَ إنما تكونُ مِنْ وراءِ ثيابٍ، تكونُ على الصدرِ[2].

ثم رَخَّصَ النَّظَرَ للمَحارمِ إلى مَواضِعِ الزينةِ ولِغَيرِ المَحارِمِ مِنَ المَماليكِ والتابِعينَ ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾

و[أمّا في][3] ذِكْرِ رخصَةِ الدُّخولِ عليهِنَّ فيكونُ في الآيةِ إضمارُ الدُّخولِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ المَحارِمِ: ولا يَدْخُلُ عليهِنَّ إلا العَبيدُ والتابِعونَ ومَنْ ذَكَرَ مِنْ ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ فَيَكُنَّ في وَقْتِ دُخولِ هؤلاءِ مُتَأهِّباتٍ، لأنَّ وقتَ دُخولِ هؤلاءِ يكونُ مَعْلوماً، يَعْرِفْنَهُ[4]، فَيَتَأَهَّبْنَ، لأنَّ العَبيدَ إنما يَدْخُلونَ على سَيِّداتِهِمْ ومَولَياتِهِمْ عندَ حاجتِهِنَّ إليهِمْ [ولأنَّ][5] التابِعينَ ومَن ذَكَرَ إنما يَدْخُلونَ إذا دَخَلَ أزواجُهُنَّ عليهِنَّ، فَيَتَأهَّبْنَ لذلكَ.

ومِثْلُ هذا[6] الإضمارِ جائزٌ في الكلامِ؛ بَيَّنَ ذلكَ بالثُّنيا كقولِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١]

دَلَّ قولُهُ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ أنهُ كانَ الصَّيدُ مذكوراً؛ إذْ لو لم يكُنْ مذكوراً لم يكُنِ اسْتَثْنَى منهُ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ في الأوَّلِ إضمارُ الدُّخولِ فيهِ لهؤلاءِ الذينَ لا يَحِلُّ لهمُ النَّظَرُ إلى مَواضِعِ الزِّينةِ منهنَّ، ورُخصَةُ الإبْداءِ[7] لِلمَحارمِ، أو أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشيخُ الكبيرُ الذي لا حاجةَ لهُ في النساءِ وقالَ بعضُهُمْ: المَعْتوهُ الأحْمَقُ الذي لا تَشْتَهيهِ النساءُ، ولا يَغارُ منهُ[8] الأزواجُ، وقالَ بعضُهُمْ: العِنِّينُ والخَصِيُّ وهؤلاءِ [همُ][9] الذينَ لا يُطيقونَ الجِماعَ.

لكنْ عندَنا: لا يَسَعُ العِنِّينِ أوِ الخَصِيَّ أنْ يَخْلُوَ بامرأةٍ أجنبيةٍ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ همُ الرجالُ المُخَنَّثونَ.

رُوِيَ عَنْ عائشةَ [أنها قالَتْ: كانَ][10] يَدْخُلُ على أزواجِ النَّبيِّ ﷺ مُخَنَّثٌ، وكانوا يَعُدّونَهُ مِنْ ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ قالتْ: فدخَلَ النَّبيُّ ذاتَ يومٍ، وهو يَنْعَتُ امرأةً، فقالَ: «لا أرَى هذا يَعْلَمُ ما ههنا، لا يدخُلَنَّ عليكُمْ، فَحَجَبوهُ» [مسلم: ٢١٨١].

وعنْ أمِّ سَلَمَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخَلَ عليها، وعندَها مُخَنَّثٌ، فأقْبَلَ على أخي أمِّ سَلَمَةَ، فقالَ: يا عبدَ اللهِ إنْ فَتَحَ اللهُ لكم غداً الطائفَ دَلَلْتُكَ على بِنْتِ غَيلانَ، فإنها تُقْبِلُ بأربَعٍ، وتُدْبِرُ بِثَمانٍ، فقالَ: [رسولُ اللهِ ﷺ][11] «لا أرَى هذا يَعْرِفُ ما ههنا، لا يدخُلَنَّ عليكُمْ» [بنحوه مسلم: ٢١٨٠].

---

(١) في م: للتداوي بها، في الأصل: المتداوي بها. (٢) من م، في الأصل: وقوله. (٣) في الأصل وم: ومن. (٤) في الأصل وم: يعرفن. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: هذه. (٧) في الأصل وم: الابتداء. (٨) في الأصل وم: عليه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قالت: كانت. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ الذينَ لا تَهُمُّهُمْ إلا بُطونُهُمْ، ولا [يُخافُ منهمْ][1] على النساءِ.

وكلُّهُ واحدٌ، وهمُ الذينَ ليسَتْ لهمُ الحاجةُ إلى النساءِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الإِرْبَةُ الحاجةُ، والإِرَبُ جميعٌ، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ. وقالَ ابْنُ عباسٍ: هو الذي لا تَستَحيي منهُ النساءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو [مِنَ][2] الإطّلاعِ؛ أي لم يَطَّلِعوا، ولم يَدْروا ما هو مِنَ الصِّغَرِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لم يَبْلُغوا الحُلُمَ؛ والأوَّلُ أشبهُ عندَنا؛ وذلكَ لأنَّ الطِّفلَ الذي لم يَحتَلِمْ قد أُمِرَ بالاِسْتِئذانِ في بَعْضِ الأوقاتِ لقولِهِ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ [النور: ٥٨] فالذي يُؤمَرُ بالاِسْتِئذانِ، هو الطِّفلُ الذي لم يَحتَلِمْ، وقد يَطَّلِعُ على عوراتِ النساءِ.

والذي لا يُؤمَرُ بالاِسْتِئذانِ، هو أصغَرُ مِنْ ذلكَ. وهو الذي لا يَطَّلِعُ على عَوراتِ النساءِ لِصِغَرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي لا يَضرِبْنَ إحدَى [الرجلَينِ بالأخرَى][3] لِيُقْرِعَ الخَلْخالُ بالخَلْخالِ ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي ما تُوارِي الثيابُ مِنَ الزِّينةِ، وهو الخَلْخالُ [الذي أخفَتْهُ][4] الثيابُ.

نُهِيَتِ المرأةُ عنْ ضَرْبِ رِجْلِها لِتُعلِمَ الرجالَ ما تُخفي مِنْ زينتِها. وذلكَ مَحظورٌ عليها، لم يُخَرَّجْ ذلكَ مُخرَجَ تَرْغيبِ الناسِ وحَثِّهِمْ عليها، إذِ الزِّينةُ في الأصلِ ما جُعِلَتْ إلّا للتَّرغيبِ والتَّحريضِ على أنفسِهِمْ، وهي الداعِيةُ إلى النَّظَرِ والشَّهْوَةِ.

وفي تَرْكِ ذلكَ وفي تَرْكِ إبداءِ الشَّهْوَةِ صِيانَتُها وصِيانةُ الرجالِ وإبعادُهُمْ جميعاً مِنَ الزِّينةِ والرَّغبةِ.

فكَشْفُ الشابةِ عنْ وَجهِها ونَظَرُ الرجلِ لِشَهْوَةٍ إليها أحرَى أنْ يكونَ مَحظوراً عليهِ مَنْهيّاً عنهُ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [يَحتَمِلُ وَجهَينِ:

أحدُهُما][6]: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ارْجِعوا إلى اللهِ بالطاعةِ لهُ والخُضوعِ لِتكونوا مُفْلِحينَ.

[والثاني][7]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أيِ ارْجِعوا عمّا قَدَّمْتُمْ مِنَ المَعاصي والمَساوِئِ، واجْعَلوا مكانَ ذلكَ طاعةً لهُ لِيَغفُوَ عنكُمْ ما قَدَّمْتُمْ مِنَ المَعاصي، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ الأمرُ بالإنكاحِ، وإنْ خُرِّجَ مُخرَجَ أمرٍ واحدٍ في الظاهرِ فهو في الحقيقةِ على أقسامٍ:

الأمْرُ في تَزويجِ الإماءِ والعَبيدِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ التَّرغيبِ والتَّحريضِ فيهِ، وفي الأحرارِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ المَعونَةِ والتَّقْوِيَةِ، لأنَّ مَنْ بَلَغَ ولَدُهُ النِّكاحَ ذَكَراً أو أُنثَى اسْتَشارَ أقرباءَهُ وأهلَ أنسابِهِ / ٣٦٧ ـ ب/ والمُتَّصِلينَ بهِ في ذلكَ [فاسْتَعانَ بهِمْ][8] على ذلكَ. ولا كذلكَ الساداتُ في المَماليكِ، دَلَّ أنَّ الأمْرَ في أحَدِهِما يُخَرَّجُ على المَعونةِ وفي الآخَرِ على التَّرغيبِ.

ثم تزويجُ العبدِ يُخَرَّجُ كأنهُ فِعْلُ المعروفِ؛ إذْ في ذلكَ إلزامُ مُؤَنٍ بلا عِوَضٍ؛ يَحْصُلُ[9] لهُ.

ألا تَرَى أنهُ لا يَملِكُ [الأمرَ][10] إلّا مَنْ يَملِكُ المَعْروفَ: مِنْ نَحْوِ الوَصِيِّ والأبِ والمُكاتِبِ والعَبْدِ المأذونِ له في التجارةِ؟ ولا كذلكَ تَزويجُ الإماءِ؛ إذْ يَملِكُهُ[11] هؤلاءِ وكلُّ مُكْتَسِبٍ خيراً[12] لنفسِهِ أو لِغيرِهِ.

ثم جَرَى الوِفاقُ بَينَهُمْ أنَّ لِلْمَولَى أنْ يُزَوِّجَ أمَتَهُ، شاءَتْ هي، أو أبَتْ. واخْتَلَفوا في تَزويجِ العبدِ امْرَأةً:

قالَ بعضُهُمْ: لهُ ذلكَ إلّا بِرِضا العَبْدِ. وقالَ بعضُهُمْ: لهُ ذلكَ، شاءَ، أو أبَى.

---

(١) في الأصل وم: يخافون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: رجليها على الأخرى. (٤) في الأصل وم: قد أخفاق. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: هذا يحتمل قوله، في م: هذا يحتمل وجهين يحتمل. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: فاستعانهم. (٩) من م، في الأصل: يحتمل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: يملك. (١٢) في الأصل وم: خير له.

ثم الناسُ اختلفوا في قولِهِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ قالَ: بعضُهُمْ: الأيامَى منهُنَّ: الإناثُ مِنَ الأحرارِ دونَ الذكورِ. واسْتَدَلُّوا بِبُطلانِ النكاحِ وفسادِهِ إذا كانَ بِغَيرِ إذْنِ الوَلِيِّ بهذهِ الآيةِ، لأنَّ اللهَ تعالى أمرَ الأولياءَ، وخاطَبَهُمْ أنْ يُزَوِّجُوهنَّ كما أَمَرَ المَولَى بِتَزويجِ أَمَتِهِ. فأوجَبَ لِلْوَلِيِّ الوِلايةَ كما أوجَبَها لِلْمَولَى، وإنْ كانا مُخْتلِفَيْنِ في الوِلايةِ.

لكنْ عندَنا لو كانتِ الآيةُ خُرِّجَتْ على التَّفسيرِ على ما يقولُ خُصومُنا﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الإناثَ لم يكُنْ فيهِ دليلٌ على ما قالوا هُمْ. ويُخَرَّجُ ذلكَ على وجوهٍ.

أحَدُها: على التَّرغيبِ في إنكاحِهِنَّ لِما [لا تَتَوَلّى النساءُ][1] النكاحَ بأنفسِهِنَّ حياءً، ويَسْتَحْيِينَ التكلمَ بذلكَ حتى مَنْ فَعَلَتْ ذلكَ منهنَّ بِنَفْسِها صارَتْ مَطْعونةً عندَهُنَّ.

[والثاني][2]: أنْ يُخَرَّجَ مُخْرَجَ المَعونةِ لهنَّ على ما ذَكَرْنا. ألا تَرَى إلى ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ [قالَ][3]: «مَنْ بَلَغَ وَلَدُهُ النِّكاحَ، وعندَهُ ما يُنْكِحُهُ فأحْدَثَ، فالإثْمُ بَينَهما» [الديلمي في الفردوس: ٥٥٠٧] فهذا يدُلُّ، واللهُ أعلَمُ، على وَجْهِ المَعونةِ في تزويجِ الأبِ الابْنَ البالغَ.

فإذا كانَ الأبُ مأموراً مِنْ جهةِ التأديبِ على المَعونةِ بتزويجِ ابنِهِ، ولا يوجِبُ ذلكَ عليهِ وِلايةً إذا كَرِهَ[4] ذلكَ، فكذلكَ يكونُ مأموراً بِتَزويجِ ابْنَتِهِ مِنْ طريقِ المَعونةِ أو جِهةِ الحَياءِ.

[والثالثُ][5]: أنْ يُخَرَّجَ ذلكَ على ما قالَ خُصومُنا مِنْ إيجابِ الوِلايةِ عليها.

ثم رَأينا أنها إذا رَغِبَتْ في النكاحِ، ورَضِيَتْ بهِ، وَكَرِهَ وَلِيُّها ذلكَ، أُجْبِرَ الوَلِيُّ على الإنكاحِ. وإنْ هي كَرِهَتِ النِّكاحَ، وأبَتْهُ، ورَغِبَ الوَلِيُّ ذلكَ، وشاءَهُ، لم تُجْبَرْ هيَ على ذلكَ.

دلَّ ذلكَ على أنَّ الحَقَّ لها عليهِ دونَ أنْ يكونَ الحَقُّ في ذلكَ لهُ عليها. فإذا كانَ الحَقُّ لها عليهِ جازَ ذلكَ إذا تَوَلَّتْ بِنَفْسِها لِما ذَكَرْنا أنَّ الخِطابَ للأولياءِ يُخَرَّجُ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

هذا إذا كانَ في الآيةِ ذِكْرُ الإناثِ دونَ الذكورِ، فكيفَ إنْ ليسَ في الآيةِ ذِكْرُ تَخصيصِ الإناثِ دونَ الذكورِ؟ واسْمُ الأيِّمِ تَقَعُ على الإناثِ والذكورِ جميعاً؟

ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ عنْ عُمَرَ رضي الله عنه [أنهُ][6] قالَ: لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ ما رأيتُ [مَنْ يَحْبِسُ][7] بَعْدَ هذهِ الآيةِ أيِّماً: الْتَمِسوا الغِنَى في الباءَةِ.

وما رُوِيَ عنْ نَجْدَةَ أنَّ عُمَرَ دعانا أنْ نَنْكِحَ مِنْ أيائِمِنا. وفي الشِّعْرِ:

لِلَّهِ دَرُّ بَني عَلِيّ … أيِّمٍ مِنْهُمْ وناكِحْ[8]

وفي بَعْضِها:

وأيِّمٍ[9] تأبَى مِنَ الـ … ـقومِ [الكِرامِ][10] أيِّماً

جَمَعَ فيها اسْمَ الأيِّمِ الرجالَ والنِّساءَ.

ومِنَ الدليلِ أيضاً على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فَدَلَّ ذلكَ على أنهُ حَثٌّ على تَزْويجِ البالغِينَ مِنَ الأحرارِ رجالَهُمْ ونِساءَهُمْ.

فإنْ قِيلَ: فما وَجْهُ أمرِهِ بِتَزْويجِ الرجالِ والأمرِ إليهِمْ؟ فجوابُ ذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ المَعونةِ والترغيبِ فيه.

---

(١) في الأصل وم: تولى هن. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: ذكره. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: مثل ما يلتمس. (٨) هذا البيت من قصيدة لأمية بن أبي الصلت: انظر الديوان ص: ٣٥٠، وأدرج في الأصل: الله در بني إيم منهم وناكح. (٩) في الأصل وم: وابنة. (١٠) ليست في الأصل وم.

ثم قولُهُ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي المؤمنينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مَنْ طَلَبَ منكُمُ الصلاحَ، أو ذَكَرَ الصالحينَ لِما كانَتِ العادةُ في الملوكِ أنهمْ يُخاطِبونَ أهلَ الصَّلاحِ مِنْهُمْ والأخيارَ لا على إخراجِ غيرِهِمْ مِنْ حُكْمِ ذلكَ الخطابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذهِ الآيةِ أنَّ العَبْدَ يَمْلِكُ لأنهُ ذَكَرَ العبيدَ والأحرارَ جميعاً، ثم ذَكَرَ في آخرِهِ الإغناءَ[1] دلَّ أنهُ يَمْلِكُ، ويُسْتَدَلُّ بقولِهِ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥] أضافَ الأجورَ والإيتاءَ إليهِنَّ دَلَّ أنَّهُنَّ يَمْلِكْنَ.

لكنْ عندَنا أنَّ المماليكَ يَمْلِكونَ مُلْكَ التَّوسيعِ [ومُلْكَ التَّصرُّفِ، ويَقَعُ لهمْ غِنَى التوسيعِ وغِنَى][2] التَّصرُّفِ، ولا يَقَعُ لهمُ التَّمْليكُ ولا حقيقةُ المُلْكِ. والدلالةُ على ذلكَ [ثلاثةُ أقوالٍ.

أحدُها][3] قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ [النحل: ٧١] لو كانَ ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ يَمْلِكونَ ما يَمْلِكُ الموالي والساداتُ لكانَ المماليكُ يُفَضَّلونَ على الساداتِ في المُلْكِ؛ إذ هُمُ الذينَ يَتَصرَّفونَ، ويَكْتَسِبونَ الأموالَ دونَ الساداتِ، فَدَلَّ ذِكْرُ تَفْضيلِ بعضٍ على بَعْضٍ أنهمْ لا يَمْلِكُونَ ما يَمْلِكُ الموالي.

والثاني: قولُهُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ الآية [الزمر: ٢٩] ولو كانوا يَمْلِكونَ ما[4] يَمْلِكُ الساداتُ لكانوا [فيهِ سواءً][5]. دلَّ أنهمْ لا يَمْلِكونَ حقيقةَ المُلْكِ، ولكنْ يَمْلِكونَ مُلْكَ التَّوسيعِ والتَّصرُّفِ.

والثالثُ[6]: قولُهُ ﴿يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يَرْجِعُ[7] إلى الأحرارِ منهمْ دونَ المَماليكِ. وذلكَ جائزٌ في اللسانِ كقولِهِ [هذا][8].

ثم رُوِيَ عَن أبي هُرَيرَة عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: «ثلاثةٌ حَقٌّ على اللهِ تعالى أنْ يُغْنِيَهُمْ: المُجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، والناكحُ يُريدُ العَفافَ، والمُكاتِبُ يُريدُ الأداءَ» [النسائي: ٦/ ٦١].

وعَنْ عُمَرَ [أنهُ][10] قالَ: ما رأيتُ مِثْلَ الرجلِ لا يَلْتَمِسُ الغِنى في الباءةِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

ورُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ[11] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «يا مَعْشَرَ الشبابِ مَنِ استطاعَ منكُمُ الباءةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنهُ أغَضُّ لِلْبَصَرِ وأحْصَنُ لِلفَرْجِ. ومَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيهِ بالصومِ فإنهُ لهُ وِجاءٌ» [البخاري: ٥٠٦٥].

ورُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][12] قالَ لِعُمَرَ بنِ الخَطّابِ «ما فَعَلَتْ بِبَناتِكَ؟ قالَ: هُنَّ عندي يا رسولَ اللهِ. قالَ: وقد حِضْنَ؟ قالَ: نعم. قالَ: إنكَ لم تَحْبِسْ واحدةً منهنَّ عنْ كُفْءٍ إلّا نَقَصَ مِنْ أجْرِكَ قيراطٌ».

وفي بَعْضِ الأخبارِ: «مَنْ بَلَغَ وَلَدُهُ النكاحَ وعندَهُ ما يُنْكِحُهُ فَأحْدَثَ فالإثْمُ بَيْنَهُما» [الديلمي في الفردوس: ٥٥٠٧]

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ الاسْتِعْفافُ، هو طَلَبُ العَفافِ؛ كأنهُ قالَ: يَطْلُبُ الأسبابَ التي تَمْنَعُهُ عنِ الزِّنى، وتُصَيِّرُهُ عفيفاً، حتى يُغْنِيَهُ اللهُ مِنْ فضلِهِ.

وأسبابُ العِفَّةِ تكونُ بأشياءَ[13]:

أحَدُها: ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ «يا مَعْشَرَ الشبابِ مَنِ استطاعَ منكُمُ الباءةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنهُ أغَضُّ لِلْبَصَرِ وأحْصَنُ لِلفَرْجِ. ومَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيهِ بالصومِ فإنهُ لهُ وِجاءٌ» [البخاري: ٥٠٦٥].

---

(١) في الأصل وم: الغنى. (٢) من م، في الأصل: وغناء. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٥) في الأصل وم: لهم فيه شركاء. (٦) في الأصل وم: أو أن يكون. (٧) في الأصل وم: راجعاً. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قال. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: أشياء.

وبِنَحْوِهِ[1]: يَكْتَسِبُ أسبابَ العِفَّةِ إنْ لم يكُنْ عندَهُ ما يَنْكَحُ حتى لا يَقَعَ في الزِّنَى إلى أنْ يُغْنِيَهُ[2] اللهُ، كقولِهِ عليهِ السلامُ: «مَنِ اسْتَعَفَّ أعَفَّهُ اللهُ» [النسائي: ٥/ ٩٨].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ﴾ أي لِيَتَعَفَّفِ الذينَ ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ لم يَجْعَلِ اللهُ ﷻ للذي عَجِزَ عنِ النِّكاحِ اسْتِباحةَ الفُروجِ/ ٣٦٨ ـ أ/ والاسْتِمْتاعَ بها إذا لم يكُنْ عندَهُ ما يَنْكَحُ كما جَعَلَ في الأموالِ وغَيرِها رُخْصَةَ التَّناوُلِ مِنْ مُلْكِ غَيرِهِ عندَ الحاجةِ والضرورةِ بِبَدَلٍ لوجوهٍ.

[أحَدُها][3]: أنَّ رخصَةَ التَّناوُلِ مِنْ مُلْكِ غَيرٍ إنما تكونُ عندَ الضرورةِ. والضروراتُ لا تَقَعُ في الفروجِ وفي الاسْتِمْتاعِ بها بحالٍ، لذلكَ لم تُبَحْ.

والثاني: الاسْتِمْتاعُ بالنساءِ في الأصلِ كانَ إنما جُعِلَ، وأبيحَ لِبَقاءِ النَّسْلِ والتَّوالُدِ لا لحاجةِ أنفسِهِمْ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ. فإذا لم يكُنْ عندَهُ ما يَنْكَحُ ارْتَفَعَ عنهُ إبقاءُ النَّسْلِ والتَّوالُدِ.

والثالثُ: أنَّ السَّعَةَ والغِنى وأنواعَ النِّعَمِ هي الداعِيةُ إلى الحاجةِ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ. فإذا كانَ فَقيراً، لا يَجِدُ ما يَنْكَحُ، زالَ عنهُ الأسبابُ التي تَدْعوهُ إلى ذلكَ. لِذلكَ لم يُبَحْ.

وأمّا الحاجاتُ والضروراتُ وما ذَكَرْنا فَكُلُّها تَقَعُ في الأموالِ. وإنما الحاجةُ في التَّناوُلِ منْها لأنفسِهِمْ ولإبقائها. لذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [وقولِهِ ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾][4] وَجْهانِ مِنَ المُعْتَبَرِ على نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ:

أحَدُهما: أنهُ أضافَ الإغناءَ إلى نفسِهِ، وهو ليسَ يُعْطِي أحداً شيئاً، يَطْرَحُهُ، ويُلْقيهِ في يَدِهِ بِلا سَبَبٍ ولكنْ إنما يُغنيهِ، ويُعْطيهِ[5]، بأسبابٍ [يَجْعَلُها لهُ. فَدَلَّتْ][6] إضافةُ الإغناءِ إلى نفسِهِ على أنَّ لهُ في تلكَ الأسبابِ التي [للناسِ بها غِنىً][7] صُنْعاً وفِعْلاً، ليسَ على ما تقولُهُ المُعْتَزِلَةُ: إنهُ لا صُنْعَ للهِ في أفعالِ عبادِهِ.

والثاني: فيهِ دلالةُ أنَّ غِناهُمْ وسَعَتَهُمْ فَضلٌ منهُ[8] ورَحْمَةٌ، لا شيءَ يَسْتَوجِبونَهُ[9] بأنفسِهِمْ [قِبَلَهُ. لكنهُ إفضالٌ منهُ لهمْ وإحسانٌ][10] إذْ لو كانَ عليهِ[11] ذلكَ كانَ منهُ عَدْلاً، لا فَضْلاً.

فَدَلَّتْ تَسْمِيَةُ الفَضْلِ ذلكَ على أنَّ منْ أعطاهُ اللهُ يُقالُ: أعطاهُ ذلكَ فضلاً منهُ وإنعاماً لا اسْتِيجاباً واسْتِحْقاقاً. وذلكَ رَدٌّ عليهِمْ في الأصْلَحِ في الدينِ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذهِ الآيةِ بقولِهِ ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وقولِهِ ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ على تفضيلِ الغِنى على الفَقْرِ؛ فقالوا[12]: لأنهُ سَمّاهُ فضلاً بقولِهِ: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسَمّاهُ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ رَحْمَةً وحَسَنَةً، وسَمّاهُ خَيراً أيضاً في غَيرِ مَوضعٍ، وسَمَّى الفَقْرَ والضِّيقَ بلاءً مَرَّةً، وسَيِّئَةً ثانياً، وضُرّاً وشِدَّةً ثالثاً[13] بقولِهِ ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقولِهِ[14] ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ: ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨] وغَيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وكانَ ما سَمَّى مِنَ البلاءِ والشِّدَّةِ والشَّرِّ والضُّرِّ والسَّيِّئَةِ كلُّهُ عِبارَةً وكِنايةً عنِ الضيقِ والفَقْرِ، وما ذَكَرَ مِنَ الخَيرِ والرَّحْمةِ ونَحْوِها كلُّهُ عبارةً عنِ السَّعَةِ والغِنى.

فَدَلَّتْ تَسْمِيَةُ الغِنَى خَيراً وحَسَنَةً ورَحْمَةً على أنهُ أفْضَلُ؛ إذْ لا شَكَّ أنَّ الخَيرَ والحَسَنَةَ والرَّحْمَةَ خَيرٌ مِنَ الشَّرِّ والسَّيِّئةِ والبَلاءِ. لِذلكَ كانَ الغِنَى أفْضَلُ مِنَ الفقرِ.

---

(١) في الأصل وم: ونحوه. (٢) في الأصل وم: أغناه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ويعطيها. (٦) في الأصل وم: تجعل لهم فدل. (٧) في الأصل وم: مالهم غناء. (٨) في الأصل وم: منهم. (٩) في الأصل وم: يستوجبون هم. (١٠) في الأصل وم: ذلك قبله لكن إفضالاً منهم لهم وإحساناً. (١١) من م، في الأصل: حكمه. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من م. (١٤) في الأصل وم: وقال.

فَيُقالُ لهمْ: هو كما قُلْتُمْ: إنها خَيرٌ ممّا ذَكَرْتُمْ.

إلّا أنَّ هذهِ الأسبابَ التي ذَكَرْتُمْ هي الداعيةُ إلى الفَسادِ والباعثةُ على قَضاءِ الحاجاتِ والشَّهَواتِ وأنواعِ المعَاصي والمُحَرَّماتِ، ولا كذلكَ الفَقْرُ والضيقُ والشِّدَّةُ، بل هُنَّ أسبابٌ تَمْنَعُ صاحبَها عَنِ التَّعاطي في أنواعِ المَعاصي والمُحَرَّماتِ فَضْلاً أنْ تَدْعُوَهُ، وتَبْعَثَهُ إلى ذلك.

فقولُنا: إنهُ أفضلُ لِلْمَعنى الذي ذَكَرْنا لا لِمَعْنىً فَهِمْتُموهُ أنتمْ، أو أنْ يكونَ ما ذُكِرَ، وسُمِّيَ خيراً؛ أعني السَّعَةَ عندَ الناسِ، وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ الضيقِ شَرّاً وسَيِّئَةً عندَهُمْ، لأنهُ كذلكَ عندَ الناسِ، لا إنهما في الحقيقةِ كذلكَ لِما يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الغِنَى والسَّعَةُ سَبَبَ الفَسادِ، والضيقُ والفَقْرُ سَبَبَ مَنْعِهِ عنِ الفسادِ، أو ألّا يُتَكَلَّمَ في تفضيلِ أحَدِهِما على الآخَرِ؛ إذْ هما مِحْنَتانِ يَمْتَحِنُ [اللهُ][1] بهما العِبادَ؛ هؤلاءِ بالصَّبْرِ على الفَقْرِ والضيقِ، وهؤلاءِ بالشُّكْرِ على النِّعْمَةِ والسَّعَةِ. والتَّكَلُّمُ في فَضْلِ أحَدِهِما على الآخَرِ فَضْلٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ظاهرُ هذا ليسَ على الكتابةِ، ولكنْ على الكتابِ المَعْروفِ، وهو كتابُ اللهِ تعالى، لأنَّ الكتابَ المُطْلَقَ، هو كتابُ اللهِ تعالى؛ يَسْألونَ ساداتِهِمْ تَعليمَ الكتابِ لهمْ. إلّا أنَّ الناسَ لم يَفْهَموا مِنْ هذا هذا، ولكنْ فَهِموا كتابَةَ العبيدِ والإماءِ حينَ صَرَفوا الآيَةَ إليها.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ليسَ على الوَجوبِ والإلزامِ، ولكنْ على التَّرْغيبِ فيها والحَثِّ. دليلُهُ تَرْكُ الأُمَّةِ المماليكَ بَعْدَ موتِهِمْ مواريثَ لِوَرَثَتِهِمْ مِنْ لَدُنْ رسولِ اللهِ إلى يومِنا هذا.

ولو كانَ على الوجوبِ واللُّزومِ لم يكونوا يَتْرُكونَهُ لازماً واجباً عليهِمْ. فَدَلَّ تركُهُمْ ذلكَ على أنهُ خُرِّجَ مُخْرَجَ التَّرْغيبِ [فيها والحثِّ عليها][2] لا على الوُجوبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: أي كاتِبوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ أنهم في أنواعِ الخَيرِ وإقامةِ الصلاةِ وأنواعِ الصلاحِ، وفَرَّغوا أنفسَهُمْ لذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي وَفاءً وأمانَةً وصلاحاً، وهو قولُ الحَسَنِ. وتأويلُ هذا: أي كاتِبوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ أنهم يَقْدِرونَ على وفاءِ ما كوتِبوا أو أداءِ ذلكَ.

وقالَ قائلونَ: ﴿خَيْرًا﴾ أي حِيلَةً. وقالَ قائلونَ: مالاً، وقالَ قائلونَ ﴿خَيْرًا﴾ أي حرفَةً، ورَوَوا في ذلكَ حديثاً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ مُفَسَّراً عنْ يَحْيَى بْنِ أبي[3] كثيرٍ «إنْ عَلِمْتُمْ [منهُمْ حِرْفَةً][4] فلا تُرْسِلوهُمْ كلاباً على الناسِ» [البيهقي في السنن الكبرى١٠/٣١٧].

إنْ ثَبَتَ هذا فلا[5] يَحْتاجُ إلى غَيرِهِ مِنَ التفسيرِ. ولو كانَ قالَ: إنْ عَلِمْتُمْ لهمْ[6] خيراً جازَ أنْ يُقالَ: مَعنى ذلكَ مالٌ[7]. ولكنهُ قالَ: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ والمالُ لا يكونُ فيهِمْ، وإنما يكونُ لهمْ. فأشْبَهَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ أنْ يكونَ الخَيرُ حِرْفَةً لِما[8] رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ وفاءٌ وأمانَةٌ.

ثم في الآيةِ دلالةُ أنَّ العَبيدَ لا يَمْلِكونَ شيئاً، لأنهمْ لو كانوا يُمَلَّكونَ لكانَ يُرَغِّبُهُمْ، ويَحُثُّهُمْ على العِتاقِ دونَ الكتابةِ. فَدَلَّ تَرْغيبُهُ إياهُمْ عليها أنهمْ لا يُمَلَّكونَ حتى تُجْعَلَ الكتابَةُ الكَسْبَ لهمْ والخِدْمَةَ دونَ المَوْلَى.

وفي الكتابةِ أيضاً نَظَرٌ لِلْمَوالي لأنهمْ إنْ قَدَروا على وفاءِ ما قَبِلوا أو أدائِهِ. وإلّا كانَ للمَوالي رَدُّهُمْ إلى مَنافِعِ أنفُسِهِمْ، ولو كانَ عِتْقاً لم يَمْلِكوا رَدَّهُمْ إلى مَنافِعِ أنفسِهِمْ، ويَبْطُلُ حَقُّهُمْ بلا شيءٍ، يَصِلُ إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ دلالةُ القولِ بِعِلْمِ العَمَلِ على ظاهرِ الأسبابِ دونَ تَحقيقِ العِلْمِ بهِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عليها والحث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: فيهم خيراً أي حركة، في م: فيهم خيراً أي حرفة. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيهم. (٧) في الأصل وم: مالاً. (٨) في الأصل وم: الجباء.

حين[1] قالَ: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وإنما يُوصَلُ ما ذُكِرَ مِنَ الخَيرِ بأسبابٍ تكونُ لهمْ على نَحْوِ ما ذَكَرُوا فيهِ مِنَ الحِرْفَةِ والوَفاءِ وأداءِ الأمانةِ وأمثالِهِ. وتلكَ أسبابٌ توصِلُ إلى الخَيرِ على أكْبَرِ الظَّنِّ والعِلْمِ لا على الحقيقةِ.

وفيهِ دلالةُ العَمَلِ بالاِجْتِهادِ على ما يُرَى بهِم مِنْ مَظاهِرِ الأسبابِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اخْتُلِفَ في خِطابِهِ.

قالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: هو شيءٌ، حَثَّ الناسَ عليهِ مولاهُ وغَيرُهُ. فَيُخَرَّجُ ذلكَ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما جَعَلَ اللهُ مِنَ الحَقِّ لِلْمُكاتِبِينَ في الصَّدَقاتِ لِقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠] وَهُمُ المُكاتِبونَ. أمَرَ أربابَ الأموالِ بِدَفْعِ الصَّدَقاتِ إلى المُكاتِبِينَ، وجَعَلَهُمْ أهلاً لها لِيَسْتَعِينوا بها على أداءِ ما عليهِمْ مِنَ الكتابَةِ. فإنْ كانَ ذلكَ فذلكَ حَقٌّ لهمْ.

والثاني: جائزٌ أنْ يأمُرَ الناسَ بِمَعونةِ هؤلاءِ المُكاتِبِينَ على أداءِ ما عليهِمْ مِنَ الكتابةِ بأموالِهِمْ سِوَى الصَّدَقاتِ لِيَفُكُّوا رِقابَهُمْ عنْ ذُلِّ الرِّقِّ والكَسْبِ.

وقالَ /٣٦٨ ـ ب/ قائلونَ: إنما الخِطابُ لِلْمَوالي خاصَّةً لِما أنَّ أوَّلَ الخِطابِ بالكتابَةِ راجعٌ إلى المَوالي. فَعَلَى ذلكَ هذا. ثم اخْتَلَفوا فيهِ.

رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: يَتْرُكُ المَولَى[3] الثُّلُثَ مِنْ مُكاتَبَتِهِ لهُ، ورُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: رُبُعَ المُكاتَبَةِ لهُ.

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ كاتَبَ غلاماً لهُ، فَحَطَّ عنهُ أوَّلَ نُجومِهِ، وقالَ لهُ: حُطَّ عني آخِرَهُ، فقالَ عُمَرُ ﷺ: لَعَلِّي، لا أصِلُ إليهِ، أو كلاماً[4] نَحْوَ هذا، ثم تَلا هذهِ الآيةَ: قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيةَ.

ورُوِيَ عنْ غُلامٍ لِعُثْمانَ بْنِ عَفّانَ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: كاتَبَني عثمانُ ﷺ ولم يَحُطَّ عني شَيئاً. دَلَّ ما رُوِيَ عنْ عثمانَ أنهُ لم يَحُطَّ عنهُ شيئاً على أنَّ الأمْرَ بالإيتاءِ لِلْمُكاتِبِينَ مِنَ الأموالِ والحَطِّ عنهمْ إنما هو على الاِختيارِ والإفضالِ، وليسَ على الوُجوبِ واللزومِ، لأنهُ لو كانَ على الوجُوبِ لكانَ عثمانُ بْنُ عفانَ لا يَحْتَمِلُ ألّا يَحُطَّ عنهُ شيئاً.

ومَنْ جَعَلَ ذلكَ واجباً على المَولَى أنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ مالِهِ، ويُعَجِّلَهُ لهُ، كانَ ذلكَ خارجاً عمّا رُوِيَ عنِ الصحابَةِ ﷺ أجمَعِينَ خِلافاً لهمْ، لأنهُ رُوِيَ عنْ بَعْضِهِمُ الحَطُّ عنهُمْ والوَضْعُ دونَ الإيتاءِ مِنْ مالِهِمْ[6].

ورُوِيَ عنْ بعضِهِمُ: الاِسْتيفاءُ على الكمالِ، لا حَطَّ فيهِ، ولا إيتاءَ. دَلَّ أنَّ قولَ مَنْ يأمُرُهُمْ بالإيتاءِ مِنْ أموالِهِمْ دونَ الكتابةِ خارجٌ مِنْ قولِهِمْ جُمْلَةً. ثم يَبْطُلُ ذلكَ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ مَنْ قالَ لعبدِهِ: إذا أدَّيتَ إليَّ كذا فأنتَ حُرٌّ، فَحَطَّ عنْ بَعْضِ ذلكَ، فأدّى البَقِيَّةَ، لم يُعْتَقْ حتى يُؤَدِّيَ الكُلَّ، فَدَلَّ أنَّ قولَهُ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ليسَ على الوُجوبِ، ولكنْ على الاِخْتيارِ.

والثاني: أنهُ لا يُسَمَّى بعدَ الأداءِ مُكاتَباً، وإنما هو حُرٌّ، وإنما ذِكْرُ الإيتاءِ إيّاهُمْ، وهُمْ مكاتَبونَ حينَ[7] قالَ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ثم قالَ: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ فلو كانَ على ما يقولُهُ قومٌ لكانَ باطلاً لِلْوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ بِشَرْطٍ منهُ، لأنهنَّ لا يُكْرَهْنَ على البِغاءِ، وإنْ لم يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ. دَلَّ أنَّ ذلكَ ليسَ بشرطٍ فيه، ولا يَتَمَكَّنُ الإكراهُ فيهِ إذا كُنَّ أطَعْنَ فيهِ، لكنَّهُ خَرَّجَ ذلكَ على ما ذُكِرَ في القصةِ:

كانوا يُكْرِهونَهُنَّ على الزِّنَى ابْتِغاءَ المالِ، وهُنَّ كُنَّ يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ، فَخَرَجَ الخطابُ والنَّهْيُ على فِعلِهِمْ دونَ أنْ يكونَ ذلكَ شَرْطاً فيهِ، أو أنْ يكونَ ذلكَ إكراهاً إذا كُنَّ مُطاوِعاتٍ في ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الموالي. (٤) في الأصل وم: كلام. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ماله. (٧) في الأصل وم: حيث.

وفيهِ دلالةُ بُطلانِ المُتْعَةِ وفسادُها لأنهمْ كانوا يُكرِهونَ إماءَهم على أنْ يُؤاجِرْنَ أنفُسَهُنَّ لِلزِّنَى ابْتِغاءَ الأجْرِ، وليستِ المُتْعَةُ إلّا كذلكَ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في نَفَرٍ في المنافقينَ: عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ وفلانٍ وفلانٍ، كانوا يُكرِهونَ فَتَياتِهِمْ على الزِّنَى ابْتِغاءَ عَرَضِ الدنيا. فإنْ كانَ ما ذَكَروا ففيهِ دلالةُ أنَّ الزِّنَى حَرامٌ في الأديانِ كلِّها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: يرجِعُ إلى الإماءِ؛ يقولُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهنَّ. وكذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الحروفِ أنهُ قُرِئَ[1]: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ لهنَّ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والثاني: يرجِعُ إلى الساداتِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهمْ إذا تابوا، وأصْلَحوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بِخفضِ الياءِ ونَصْبِها[2]. ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالآياتِ آياتِ القرآنِ جميعاً، وقولُهُ: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بالخَفضِ أي تُبَيِّنُ لِلْخَلْقِ ما لهمْ وما عليهِمْ وما للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ، ومُبيَّناتٍ بالنَّصْبِ أي مُبَيَّناتٍ أنها مِنْ عندِ اللهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المرادُ بالآياتِ الحُجَجَ والبراهينَ فإنْ كانَ هذا فقولُهُ: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بالخَفضِ أنها[3] تُبَيِّنُ وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى وعلمَ رسالةِ رسولِهِ، وقولُهُ[4]: مُبيَّناتٍ بالنَّصْبِ أنها [مُوضَحاتٌ أنها][5] حُجَجٌ وبراهينُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي أنْزَلْنا إليكُمْ أيضاً مَثَلَ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ ما حَلَّ بهِمْ، ونَزَلَ بالمُكَذِّبينَ مِنَ العذابِ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ما يَتَّعِظُ المُتَّقُونَ، أو جَعَلَ لكمْ في ما أنْزَلَ مِنَ الآياتِ عليكُمْ أمثالاً ﴿مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ لِتَتَّعِظوا بها[6]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اللهُ هادي السمواتِ والأرضِ. ثم انْقَطَعَ الكلامُ، فأخَذَ في نَعْتِ محمدٍ ﷺ وما ضَرَبَ لهُ مِنَ الأمثالِ، فقالَ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يقولُ: نورُ محمدٍ إذْ كانَ في صُلْبِ أبيهِ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي كُوَّةٍ بِلُغَةِ الحَبَشِ غيرِ نافِذَةٍ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي سِراجٌ ﴿الْمِصْبَاحُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ذلكَ السراجُ المُضيءُ، ضَوءُهُ ﴿فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ نَعْتُها الصافيةُ التامّةُ الصفاءِ. والمِشكاةُ صُلْبُ أبيهِ عبدِ اللهِ. والزُّجاجةُ وصفاؤُها محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ وطُهْرُهُ مِنَ الأدناسِ والمَعاصي. والمِصْباحُ نورُهُ وصفاؤُهُ قَلْبُ رسولِ اللهِ ﷺ، وما فيهِ مِنَ الإيمانِ والحِكْمَةِ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي محمدٌ ﷺ ذِكْرُهُ مَعَ أسماءِ الأنبياءِ والرسلِ في اللَّوحِ المَحفوظِ عندَ اللهِ في الفَضيلةِ على تلكَ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ كَفَضْلِ الكوكَبِ الدُّرّيِّ أي المُضيءِ، وهو الزُّهَرةُ، على سائرِ الكواكِبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اسْتَنارَ نورُ محمدٍ مِنْ نورِ إبراهيمَ، لأنَّ محمداً على دينِ إبراهيمَ وعلى سُنَّتِهِ ومِنْهاجِهِ. فَمَثَلُ إبراهيمَ مَثَلُ الشجرةِ المباركةِ، وأصلُ محمدٍ مِنْ نَسْلِ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [أرادَ بالزيتونةِ][7] المَحاسِنَ وطاعةَ إبراهيمَ لربِّهِ، فَنَفَعَهُ اللهُ بِحُسْنِ طاعتِهِ يومَ القيامةِ وفي غيرِهِ مِنَ المَواطِنِ كما نَفَعَ بالزيتونةِ[8] أهلَها في الدنيا؛ فهي فاكهةٌ وطعامٌ، وهي إدامٌ، وهي[9] الصِّباغُ والدُّهْنُ والدِّباغةُ.

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يقولُ: إبراهيمُ، صلواتُ اللهِ على نَبِيِّنا، وعليهِ، لم يكُنْ نَصْرانياً لِقولِ النَّصارَى: هو نصرانيٌّ: يُصَلّي إلى قِبْلَةِ النَّصارَى مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ، ولا يهودياً لِقولِ اليهودِ: إنهُ كانَ على دِينِنا، يُصَلّي قِبَلَ المَغْرِبِ لِبيتِ المَقْدِسِ[11].

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٥١. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٥١. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: و.
(٥) في الأصل وم: واضحات مبينات أي. (٦) في الأصل وم: به. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: والزيتونة. (٨) الباء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: يعني. (١١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٤٠].

يقولُ اللهُ تعالى: لم يكُنْ كما قالَ هؤلاءِ ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] مُصَلِّياً إلى الكعبةِ، وهي قِبْلَتُهُ، وإليها حَجَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يقولُ: واللهُ أعلمُ: لو أنَّ إبراهيمَ لم يكُنْ نَبيًّا [لَمَا أصابَ][1] بِحُسْنِ طاعةِ اللهِ الفَضْلَ مَعَ الأنبياءِ والرسلِ في الدنيا والدَّرجاتِ العُلَا في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ لأنَّ محمداً ﷺ وما جاءَ بِهِ مِنَ الدينِ والكتابِ، أصلُ نورِهِ مِنْ قِبَلِ إبراهيمَ لأنهُ على دينِهِ وسُنَّتِهِ وكتابِهِ ومِنْهاجِهِ.

ثم قولُهُ[2]: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الذي جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ وهو النورُ، وهو القرآنُ [يَهْدي بِهِ][3] ﴿مَن يَشَآءُ﴾ /٣٦٩ ـ أ/ مِمَّنْ سَبَقَ لهُ في عِلْمِهِ السعادةُ، ويُضِلُّ[4] عنهُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِمَّنْ سَبَقَ لهُ في عِلْمِهِ الشقاءُ.

ثم قولُهُ[5]: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: ويَصِفُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لِيُؤْمنوا باللهِ، ويُوَحِّدوهُ، ويَعْرِفوا رُبُوبِيَّتَهُ[6] مِنْ صُنْعِهِ، ويُصَدِّقوا بإبراهيمَ ومحمدٍ، عليهما السلام أنهما رسولا الربِّ وهو تأويلُ مُقاتِلٍ.

وقالَ أهلُ الكلامِ: قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أنارَ اللهُ لأهلِ السمواتِ والأرضِ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي بِهِ أنارَ ما ذَكَرَ مَثَلُ المِشْكاةِ التي ذَكَرَ إلى آخِرِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي باللهِ نورُ أهلِ السمواتِ والأرضِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ كذا، ولم يَقُلْ مِثْلُهُ؟ ولو كانَ النورُ هو اللهَ، على ما قالَهُ المُشَبِّهَةُ[7]، وفَهِموهُ، لَقالَ: اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ، مِثْلُهُ كذا، ولم يَقُلْ: مِثْلَ نورِهِ فَدَلَّ قولُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ كذا [أنهُ][8] لم يُرِدْ بالنورِ نفسَهُ، ولكنْ ما ذَكَرْنا أنهُ بِهِ نورُ أهلِ السمواتِ والأرضِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أنهُ لم يُرِدْ بالنورِ ما فَهِموا ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؟

دلَّ أنهُ ليسَ على ما [فَهِمَهُ المُشَبِّهَةُ][9] أنهُ نورٌ كسائرِ الأنوارِ التي [عايَنوها، وشاهَدوها][10].

على هذا يُخَرَّجُ تأويلُ ابْنِ عباسٍ: قولُهُ[11] تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللهُ [هادي][12] أهلِ السمواتِ والأرضِ، وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي مِثْلُ نورِ المؤمنِ الذي في قلبِهِ مِثْلُ مِشكاةٍ فيها مصباحٌ، لأنَّ المِشْكاةَ هي الكُوَّةُ التي لا مَنْفَذَ لَها، تَدْخُلُ فيها الأنوارُ؛ تكونُ مُظْلِمةً، فإذا جُعِلَ فيها المِصْباحُ، أضاءَ ذلكَ كُلَّهُ، وأنارَهُ، حتى لا يَبْقَى فيها ناحيةٌ إلّا وقد أصابَها الضياءُ والنورُ. فَعَلى ذلكَ القَلْبُ، وهو مُظْلِمٌ؛ إذْ ليسَ لهُ مَنْفَذٌ، يَدْخُلُ فيهِ النورُ مِنَ الخارجِ، فإذا آمَنَ أنارَ اللهُ قلبَهُ بإيمانِهِ حتى ظَهَرَ ذلكَ النورُ وأثرُهُ في جميعِ نَواحيهِ وَجَوارِحِهِ. وهو ما قالَ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

أخبَرَ أنَّ مَنْ ﴿شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فهذا يدلُّ أنَّ قولَهُ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ إنما هو مَثَلُ نورِ المؤمنِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أنهُ قَرَأ: مَثَلُ نورِ المؤمنِ كَمِشْكاةٍ، وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: مَثَلُ نورِهِ في قَلْبِ المؤمنِ، وقالَ الحَسَنُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قالَ: مَثَلُ القرآنِ في قَلْبِ المؤمنِ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كُوَّةٍ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: لأصاب. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفضل. (٥) في الأصل وم: قال.
(٦) في الأصل وم: نور نبيه. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قوم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فهموا به.
(١٠) في الأصل وم: عاينوه وشاهدوه وهم المشبهة. (١١) في الأصل م: حيث قال. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

[ويحتمِلُ](١) أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بِهِ تَنجلي الظُّلُماتُ، وتَنكَشِفُ الحُجُبُ والسَّواتِرُ؛ إذ النورُ إنما سُمِّيَ نوراً لِما بِهِ تَنجَلي المَظالِمُ، وتَنكَشِفُ السَّواتِرُ والحُجُبُ، لا لأنهُ(٢) نورٌ.

ألا تَرى أنهُ سَمّى القرآنَ نوراً، والرسولَ نوراً، لِما بهِما(٣) تَنجلي الشُّبهاتُ والظُّلُماتُ، وبهِما(٤) ترتفعُ السَّواتِرُ والحُجُبُ، وإنْ كانا في نَفسَيهِما(٥) لَيسا بنورٍ سَمّاهُما(٦) نوراً لِما ذَكَرْنا مِن [انجلاءِ الشُّبهاتِ](٧) بهما وارْتِفاعِ السَّواتِرِ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يُسَمِّيَ اللهُ نوراً [كلَّ ما](٨) بِهِ يكونُ انجلاءُ(٩) الظُّلُماتِ والشُّبَهِ وانكِشافُ السَّواتِرِ وارْتِفاعُ الحُجُبِ، لا لأنه(١٠) نورٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَثَلُ نورِ المؤمِنِ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في صَدْرِ المؤمِنِ. وقالَ بعضُهُمْ: مَثَلُ نورِ محمدٍ على ما ذَكَر مُقاتلٌ وغيرُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: مَثَلُ نورِ القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قالَ [بعضُهُمْ:](١١) الكُوَّةُ التي لا مَنفَذَ لَها للنورِ على ما ذَكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: مَوضِعُ الفَتيلةِ مِنَ القنديلِ. وقالَ بعضُهُمْ: الحَدائدُ التي يُعَلَّقُ بها القنديلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي شجرةٌ مُضحَرَةٌ؛ تَطلُعُ عليها الشمسُ إذا طَلَعَتْ، وتَغرُبُ عنها إذا غَرَبَتْ، وزيتُها(١٢) أجوَدُ الزيتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هي شجرةٌ في كَنٍّ، لا تَطلُعُ عليها الشَّمسُ إذا طَلَعَتْ، ولا تَغرُبُ عنها(١٣) إذا غَرَبَتْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَتْ شرقيَّةً، لا غَرْبَ لها، ولا غربيَّةً، لا شَرْقَ لها، ولكنها شرقيَّةٌ غربيَّةٌ؛ فكيفَ ما كانَ فإنما ذَكَرَ الزيتَ لِصفائِهِ وخُلوصِهِ، فَيَجبُ أن يُسألَ أهلُهُ، فيقالَ: أيُّ الزيتِ أجودُ وأصفَى؟ الذي تُصيبُهُ الشمسُ، أمِ(١٤) الذي لا تُصيبُهُ، أمِ(١٥) الذي تُصيبُهُ في وقتٍ، ولا تُصيبُهُ في وقتٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو اللهُ سبحانَهُ هادي أهلِ السمواتِ والأرض [يُضيءُ هُداهُ قَلْبَ](١٦) المؤمنِ كما يكادُ الزيتُ الصافي يُضيءُ قَبْلَ أنْ تَمَسَّهُ النارُ [فإذا مَسَّتْهُ النارُ](١٧) ازدادَ ضَوءاً على ضوءٍ. كذلكَ يكونُ قَلْبُ المؤمِنِ يَعمَلُ الهُدَى قَبْلَ أنْ يأتِيَهُ العِلْمُ [فإذا جاءَهُ العِلْمُ](١٨) ازدادَ هُدىً على هُدىً ونوراً على نورٍ.

وعنْ أُبيِّ بْنِ كَعْبٍ [أنهُ](١٩) قالَ في قولِهِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يقولُ: مَثَلُ نورِ المؤمِنِ، وكذلكَ يَقرَؤها: مَثَلُ نورِ المؤمِنِ على ما ذَكَرنا مِنْ قَبْلُ؛ قالَ: فهو عبدٌ، قد جَعَلَ القرآنَ والإيمانَ في صَدْرِهِ.

قالَ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قالَ: المِشْكاةُ صَدْرُهُ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قالَ: المصباحُ القرآنُ والإيمانُ الذي جَعَلَ في صَدْرِهِ. قالَ: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ فالزجاجةُ قلبُهُ.

قالَ: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ يقولُ: كوكبٌ مُضيءٌ ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قالَ: الشَّجرةُ المُبارَكَةُ: [أصلُ المبارَكِ: الإخلاصُ](٢٠) للهِ وحدَهُ، لا يُشْرِكُ بهِ.

قالَ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قالَ: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرةٍ، الْتَفَّ بها الشَّجَرُ، فهي خضراءُ ناعمةٌ، لا تُصيبُها الشمسُ على أيِّ حالٍ كانَتْ: لا إذا طَلَعَتْ، ولا إذا غَرَبَتْ. وكذلكَ هذا المؤمِنُ، قد أُجيرَ مِنْ أنْ يَصِلَهُ شيءٌ مِنَ الفِتَنِ، وقدِ ابْتُلِيَ بها، فَثَبَّتَهُ اللهُ فيها؛ فهو بَينَ أربعِ خِلالٍ: إنِ ابْتُلِيَ صَبَرَ، وإنْ أُعطِيَ شَكَرَ، وإنْ قالَ صَدَقَ، وإنْ حَكَمَ عَدَلَ، فهو في سائرِ الناسِ كالرجلِ الحَيِّ، يمشي في قبورِ الأمواتِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) في الأصل وم: به. (٤) في الأصل وم: وبه. (٥) في الأصل وم: أنفسهما. (٦) في الأصل وم: سمى. (٧) في الأصل وم: تجلي الأشياء. (٨) الأصل وم: لما. (٩) في الأصل وم: تجلي. (١٠) في الأصل وم: انه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) في الأصل وم: عليه. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: أو. (١٦) في الأصل وم: كما هداه في. (١٧) من م، ساقطة من الأصل. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل: اصله فالمبارك والإخلاص، في م: اصله فالمبارك الاخلاص.

قالَ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قالَ: فهو يَتَقَلَّبُ في خمسةٍ مِنَ الأنوارِ[1]: كلامُهُ نورٌ، وعَمَلُهُ[2] نورٌ، ومَدْخَلُهُ نورٌ، ومَخْرَجُهُ نورٌ، ومَصيرُهُ إلى النورِ يومَ القيامةِ إلى الجنةِ.

قالَ: ثم ضَرَبَ مَثَلَ الكافرِ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ الآية [النور: ٣٩] [يَجيءُ يومَ القيامةِ، وهو يَحْسَبُ][3] أنَّ لهُ عندَ اللهِ خيراً، فلا يَجِدُهُ، فَيُدْخِلُهُ اللهُ إلى النارِ.

وقالَ: [وضَرَبَ مَثَلاً آخرَ في آيةٍ أُخرى][4] فقالَ: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] فهو يَتَقَلَّبُ في ظُلُماتٍ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بنورِهِ يَهْتَدي مَنْ في السموات ومَنْ في الأرضِ على ما ذَكَرْنا ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في قَلْبِ المؤمنِ ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ هي الكُوَّةُ غيرُ النافذةِ على ما ذَكَرْنا ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي سراجٌ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مُضِيءٌ، أي مَنْسوبٌ إلى الدُّرِّ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ الكُوَّةُ التي تكونُ في الحائطِ، ومَشاكٍ جَماعَةٌ، وكُوىً جَماعَةٌ، و﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [شديدُ الضَّوءِ، ودُرِّيٌّ هو أيضاً مِنَ الضوءِ مأخوذٌ، هما جميعاً مِنَ الضوءِ[5]، وكواكبُ درارٍ[6] مُضيئةٌ.

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ [في قولِهِ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أنهُ][7] قالَ: ضَرَبَ مَثَلَ محمدٍ ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾][8] مَثَلَ لسانِهِ وصَدْرِهِ وقَلْبِهِ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ قالَ: يكادُ محمدٌ يُبَيِّنُ للناسِ، وإنْ لم يَنْطِقْ [أنهُ نَبِيٌّ كما يكادُ ذلكَ الزيتُ يضيءُ ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾][9].

وعنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزاحِمٍ [في قولِهِ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أنهُ][10] قالَ: خُلِقَتِ الكواكبُ مِنْ نارٍ، ويُقالُ لها: درارٍ، فَمِنْ ثَمَّةَ قالَ ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

وقد ذَكَرْنا قولَهُمْ في المِشْكاةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: الكُوَّةُ التي لا مَنْفَذَ لها. وقالَ بعضُهُمْ: الفَتيلَةُ. وقالَ بعضُهُمْ: الفَتيلَةُ التي في جَوْفِ القِنْديلِ نفسِهِ وقالَ /٣٦٩ ـ ب/ بعضُهُمْ: هي الحدائدُ التي يُعَلَّقُ بها القِنْديلُ، وأمّا الزُّجاجةُ فهيَ القِنْديلُ.

ثم إنْ كانَ قولُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي نورِ المؤمنِ فليسَ ذلكَ وَصْفَ كلِّ مؤمنٍ ونَعْتَهُ، ولكنْ وَصْفُ المؤمنِ الذي تَجْتَمِعُ فيهِ جَميعُ شَرائطِ الإيمانِ وجميعُ الأخلاقِ الحَسَنَةِ والآدابِ لأنهُ وَصَفَهُ بِطهارةِ نفسِهِ وجَسَدِهِ وقلبِهِ وجميعِ أعمالِهِ وأفعالِهِ لأنهُ قالَ: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهي قَلْبُهُ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو صَدْرُهُ الذي فيهِ[11] قَلْبُهُ ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ وهو الإيمانُ الذي في صَدْرِهِ.

ثم نَعَتَ الزُّجاجَ، فقالَ: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي مُضيءٌ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ الدُّرِّ فَوَصَفَ الكُلَّ بالضِّياءِ والنورِ وطَهارةِ الداخِلِ منهُ والخارجِ ونَقاوَتِهِ.

فهو المؤمنُ الذي تَجْتَمِعُ فيهِ جميعُ الشرائطِ والخِصالِ المَحْمودَةِ، وأمّا كلُّ مؤمنٍ فلا يَحْتَمِلُ، وهذا أشْبَهُ. ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ نَعْتَ الكافرِ مِنْ بَعْدِ [هذا][12] وخُبْثَهُ حينَ[13] قالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾؟ [النور: ٣٩].

وإنْ كانَ [قولُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾][14] وَصْفَ محمدٍ ففيهِ جميعُ ما ذُكِرَ، ونَعْتُهُ.

وإن كانَ القرآنَ فهو كذلكَ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ الذي[15] ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: النور. (٢) في الأصل وم: وعلمه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: في آية أخرى مثلاً، في م: في آية أخرى له مثلاً. (٥) في الأصل: الدر. (٦) في الأصل: مراري. (٧) في الأصل: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾. (٨) ساقطة من م. (٩) من الدر المنثور ٦/١٩٦. ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. (١١) في الأصل وم: في. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: التي.

[وقولُهُ تعالى][١]: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ لِنورِ محمدٍ ﷺ ويَحتَمِلُ القرآنَ، ويَحتَمِلُ الإيمانَ والهُدَى.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: فالزيتُ[٢] نورٌ، والمصباحُ [نورٌ][٣] والقِنْدِيلُ نورٌ، وقالَ [بعضُهُمْ][٤]: المؤمِنُ نورٌ وعَمَلُهُ نورٌ، وكلامُهُ نورٌ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي بنورِهِ أضاءتِ السمواتُ والأرضُ على ما ذَكَرْنا: مَثَلُ نورِهِ يكونُ[٥] في قَلْبِ المؤمِنِ.

وهو في حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ في قَلْبِ المؤمنِ: وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ للإيمانِ والقرآنِ والقَلْبِ حينَ يَدْخُلُهُ الإيمانُ والقرآنُ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ يعنى الكُوَّةَ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ يعنى الإيمانَ والقرآنَ ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ يعني القَلْبَ، والمِشْكاةُ الصدرُ؛ كما دَخَلَ هذا المصباحُ في الزُّجاجةِ، فأضاءه، فكذلكَ أضاءَ القَلْبَ.

ثم خَرَجَ مِنَ الزُّجاجةِ، فأضاءَ[٦] المِشْكاةَ. فكذلكَ أضاءَ الصدرَ. ثم نَزَلَ الضوءُ مِنَ الكُوَّةِ، فأضاءَ البيتَ. فكذلكَ نَزَلَ النورُ مِنَ الصدرِ، فأضاءَ الجوفَ كُلَّهُ، فلم يَدْخُلْهُ حَرامٌ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يَحتَمِلُ ضَرْبُ الأمثالِ لهمْ وجهَينِ:

أحَدُهما: ضَرَبَ لأفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ مَثَلاً لِيَعْرِفوا مَقاديرَها في الحُسْنِ والجمالِ، لِيَعْلَموا قَدْرَها مِنَ الجَزاءِ والثوابِ.

[والثاني][٧] ضَرَبَ الأمثالَ لهمْ للأنفُسِ المُكَرَّمينَ المُعَظَّمينَ المُسْتَوجِبينَ كلَّ خيرٍ، ليرغَبوا في مِثْلِ ذلكَ، فَيَسْتَوجِبوا ما اسْتوجَبَ أولئكَ.

وكانَ ضَرَبَ مَثَلَ الإيمانِ والقرآنِ ومحمدٍ[٨] وما كانَ على اخْتِلافِ ما قالوا بالأنوارِ التي ضَرَبَها، واللهُ أعلَمُ، لِما أنهُ قد أقامَ الحُجَجَ والبراهينَ على الإيمانِ والقرآنِ ومحمدٍ حتى صاروا كالأنوارِ التي شَبَّهَهُمْ بها مِنَ الحُسْنِ والجَمالِ والضِّياءِ والبَهاءِ حتى يَعْرِفَ حُسْنَ هذهِ الأنوارِ وبهاءَها كلُّ أحدٍ.

فَعَلَى ذلكَ المَضْروبُ بها المَثَلُ: صارَ في الحُسْنِ والبهاءِ بالحُجَجِ والبراهينِ كالأنوارِ التي لا يَخْفَى حُسْنُها وبَهاؤُها على أحدٍ، ولا يُنْكِرُها إلّا مُعانِدٌ ومُكابِرٌ.

وكانَ مَثَلُ الكُفْرِ والعِنادِ مِنَ القُبْحِ والفَسادِ والبُطْلانِ كالظُّلُماتِ التي ذَكَرَ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] وكالسَّرابِ والزَّبَدِ الذي ذَكَرَ حينَ[٩] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] وكالظُّلُماتِ التي ذَكَرَ حينَ[١٠] قالَ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ وقالَ[١١]: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ [في قولِهِ][١٢] ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ الأنْجُمُ[١٣] الخَمْسَةُ كُلُّهُنَّ دُرِّيٌّ الزُّهَرَةُ وعُطارِدُ والمُشْتَري والمِرِّيخُ[١٤] وزُحَلُ.

قالَ قَتادَةُ: الدُّرِّيُّ الضَّخمُ المُنيرُ. قالَ الكِسائيُّ: مَنْ هَمَزَ دِرِّيءٌ [فقد أرادَ حُسنَهُ][١٥] وظُهورَهُ وارْتِفاعَهُ؛ يقولُ: دَرَأَ النَّجْمُ، وهو [دارِئٌ، وهو][١٦] فاشٍ ظاهرٌ في كلامِ العَرَبِ.

ومَنْ رَفَعَ الدالَ، ولم يَهْمُزْ، فهو يَنْسُبُهُ إلى الدُّرِّ، ومنهمْ مَنْ يَرْفَعُ الدالَ، ويَهْمُزُ، وأظُنُّها لُغَةً[١٧].

وقالَ أبو عَمْرِو بْنُ العَلاءِ: الدُّرِّيُّ النجمُ الذي تَراهُ يَتَلأْلأُ، كأنهُ يَجيءُ، ويَذْهَبُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقول. (٦) في الأصل وم: فأضاءت. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، في الأصل: أو محمداً. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: الآية. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٤) في الأصل وم: وبهرام، وهي بالفارسية. (١٥) في الأصل: فهو حسن، في م: فهو حسنه. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٥٣.

وقد رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ](١) قالَ: «إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ عِلِّيِّينَ لَيُشرِفُ على أهلِ الجنةِ، فَتُضيءُ الجنةُ بوجهِهِ، كأنهُ كوكبٌ دُرِّيٌّ، وإنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ ﵄ لَمِنهُمْ، وأنعِما» [أبو داوود: ٣٩٨٧].

وأيضاً رُوِيَ دُرِّيٌّ بالرَّفعِ.

وفي خَبَرٍ آخَرَ عنهُ: «إنَّ أوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجنةَ، وجوهُهُمْ على صورةِ القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ، والذينَ يَلونَهُمْ على أضواءِ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماءِ. لكلِّ امْرِىءٍ منهمْ زَوجانِ اثْنَتانِ آدَمِيَّتانِ، يُرى مُخُّ سُوقِهِما مِنْ وَراءِ اللَّحْمِ. والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ ما فيها عَيْبٌ(٢)» [بنحوه مسلم: ٢٨٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ اخْتُلِفَ في قراءَتِهِ(٣): قرأَ بعضُهُمْ: يُوقَدُ بالياءِ ورَفعِها ونَصبَ القافِ؛ يقولُ: المصباحُ يُوقَدُ. ومَنْ قَرَأَ: توقَدُ بالتاءِ ورفعِها يَعْني الزُّجاجةَ التي تُوقَدُ. وأهلُ مكةَ [قَرَؤوا](٤): تَوَقَّدُ بِنَصبِ وتَشديدِ القافِ؛ يَعْنونَ(٥) المِصْباحُ تَوَقَّدَ، فلِذلكَ انْتَصَبَ. ومَنْ قَرَأَ: يُوقَدُ؛ يَعْني الكوكبَ(٦) أو المِصْباحَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قد ذَكَرْنا بَعضَ أقاوِيلِهِمْ في ما تَقَدَّمَ. لكنّا نَزيدُ فيها شيئاً: قالَ قائلٌ: هي شَجَرَةٌ ضاحِيَةٌ مِنْ حينِ تَطْلُعُ الشمسُ إلى أنْ تَغْرُبَ، ليسَ لها ظِلٌّ شَرْقِيٌّ ولا غَرْبِيٌّ، وزَيتُها أصفى الزَّيتِ وأعْذَبُهُ وأطْيَبُهُ.

وقالَ قائلٌ: لَيسَتْ بِشَرْقِيَّةٍ، يَجوزُها المَشْرِقُ دونَ المَغْرِبِ، ولَيستْ(٧) بِغَرْبِيَّةٍ، يَجوزُها المَغْرِبُ دونَ المَشْرِقِ.

ولكنّها في صحراءَ أو في رأسِ جَبَلٍ، تُصيبُها الشمسُ النهارَ كلَّهُ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وقالَ الكسائيُّ: لَيسَتْ بِشَرْقِيَّةٍ وَحْدَها، ولا بِغَرْبِيَّةٍ وَحْدَها، ولكنّها شَرْقِيَّةٌ وغَرْبِيَّةٌ كما تقولُ: لا آتيكَ، ولا آتي فلاناً: لهُ مَعْنَيانِ؛ إنْ شِئْتَ كانَ مَعْناهُ: لا تَأتي واحداً منهُما، وإنْ شِئْتَ كانَ مَعْناهُ: أنكَ لا تأتيهِما معاً. ومِثْلُهُ: واللهِ لا آكُلُ، ولا يَأكُلُ زَيدٌ، لهُ(٨) مَعْنَيانِ.

وكذلكَ يُقالُ: رجلٌ، لا يَرْجو الجنةَ، ولا يَخافُ النارَ، ويُحِبُّ الفِتْنَةَ؛ إنهُ رجلٌ صالحٌ. أمّا الفِتْنَةُ فالمالُ والوَلَدُ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨ والتغابن: ١٥] وهو يرجو الجنةَ، ويخافُ النارَ على ما فَسَّرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ يقولُ: لا تَضحَى للشمسِ مِنْ أوَّلِ النهارِ إلى آخِرِهِ ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تُصيبُها الشمسُ والظِّلُّ. والعَرَبُ تقولُ: لا خَيرَ في شَجَرَةٍ [في مَضْوَأةٍ(٩)، ولا خَيرَ في شَجَرَةٍ](١٠) في مَضْحاةٍ.

وقائلٌ يقولُ: لا تَطْلُعُ الشمسُ، ولا تَغْرُبُ، وقائلٌ يقولُ: هي شَجَرَةٌ بالشامِ، لَيسَتْ [بالمَشْرِقِ، ولَيسَتْ](١١) بالمَغْرِبِ.

والحَسَنُ يقولُ: واللهِ لو كانَتْ هذهِ الزَّيتونَةُ في الأرضِ لكانَتْ شَرْقِيَّةً أو غَرْبِيَّةً. واللهِ ما هي في الأرضِ. ولكنَّ هذا مَثَلٌ، ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لِنورِهِ، وهو هذا القرآنُ.

وأمّا قولُهُ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [فقد](١٢) قالَ: بعضُهُمْ: إيمانُ المؤمنِ نورٌ [وعِلْمُهُ نورٌ](١٣)، فهو نورٌ على نورٍ. وقالَ(١٤) بعضُهُمْ: نورُ النارِ على نورِ الزيتِ، فذلكَ نورٌ على نورٍ، وهو بِجَودَتِهِ؛ يَعْني الزيتَ. وقالَ بعضُهُمْ: نورُ النارِ ونورُ الزيتِ حينَ اجْتَمَعا أضاءا، ولا يُضيءُ واحدٌ بِغَيرِ صاحبِهِ. كذلكَ نورُ القرآنِ ونورُ الإيمانِ إذا اجْتَمَعا لا يكونُ أحَدُهُما مُضيئاً إلّا بصاحِبِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: / ٣٧٠ ـ أ/ ما ذَكَرْنا مِنْ نورِ الإيمانِ والعَمَلِ.

ثم مَعْنَى تشبيهِ ما ذَكَرَ بالزيتِ لأنَّ الزيتَ أصفَى شيءٍ وأطْهَرُ وأطيَبُ شيءٍ وأضوَأُ للسِّراجِ، كلُّ المَنافِعِ مِنَ الإدامِ والدَّواءِ وغَيرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غرب. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ٤/ ٢٥٥. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعني. (٦) من م، في الأصل: الكواكب. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في م: مضيأة. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) الواو ساقطة من الأصل.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أي تُعَظَّمَ، ويُرْفَعَ قَدْرُها، وهي المساجِدُ، على غَيرِها مِنَ البُيوتِ المَسْكونةِ، يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ فيها والتَّسْبيحُ والتَّنْزيهُ مِنَ الأقذارِ والأنجاسِ ومِنَ الأمورِ الدُّنيَوِيَّةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أي تُبْنَى، وتُتَّخَذَ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا ففيهِ الأمرُ ببناءِ المساجِدِ واتِّخاذِها. وإنْ كانَ الأوَّلَ ففيهِ الأمرُ بِتَعْظيمِ المساجِدِ ورَفْعِ قَدْرِها بِما ذَكَرَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ والتَّسبيحِ فيها.

ثم الإذْنُ في هذا الأمرِ لوجهَيْنِ:

أحَدُهُما: لِحَقِّ إقامةِ الجماعاتِ فيها في هذهِ الصَّلَواتِ المَعْروفةِ؛ إذِ الأرضُ كلُّها في الأصلِ جُعِلَتْ مَسْجداً حينَ[١] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجداً وطَهوراً» [البخاري: ٣٣٥] فهي في حَقِّ جوازِ الصلاةِ مَسْجِدٌ. فَيُخَرَّجُ الأمرُ مِنْ مُخرَجِ الأمرِ بِبِنائها لإقامةِ الجماعاتِ.

والثاني: أمَرَ بها خصوصاً لِلمساجِدِ؛ إذْ غَيرُها مِنَ البُيوتِ المَسْكونةِ إنما اتُّخِذَتْ وبُنِيَتْ بالإذْنِ والإباحةِ، فَخَصَّ المساجِدَ بالإذنِ بِبِنائِها خُصوصاً لها؛ إذْ لو كانَ إذناً على ظاهِرِ ما ذَكَرَ لكانَتِ المساجدُ وغَيرُها مِنَ البُيوتِ سَواءً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فإنْ كانَ تأويلُ قولِهِ ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أي تُعَظَّمَ، ويُرْفَعَ قَدْرُها فيكونُ قولُهُ ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ تفسيراً لذلكَ التَّعظيمِ [ورَفْعِ القَدْرِ][٢] الذي أمَرَ، أي أنْ تُعَظَّمَ، ويُرْفَعَ قَدْرُها، بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ فيها وما ذَكَرَ مِنَ التَّسْبيحِ.

وإنْ كانَ التأويلُ هو الأمرَ بالبناءِ يَكُنْ[٣] قولُهُ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ كذا على الابْتِداءِ أي أمَرَ أنْ تُبْنَى بيوتٌ أي مساجدُ، وأمَرَ أنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ، ويُسَبَّحَ لهُ في الغُدُوِّ والآصالِ.

ثم اخْتُلِفَ في تِلاوةِ[٤] قولِهِ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ قَرَأَ بعضُهُمْ: يُسَبَّحُ لهُ بِنَصْبِ الباءِ[٥] وقرأ بعضُهُمْ: يُسَبِّحُ بِخَفضِ الباءِ.

فَمَنْ قَرَأَها بالنَّصْبِ صَيَّرَهُ على الأوَّلِ: يُذْكَرُ فيها اسْمُهُ يُسَبَّحُ لهُ بالغُدُوِّ والآصالِ. ثم ابْتَدَأَ، فقالَ: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾.

ومَنْ قَرَأَها بالخَفضِ؛ أعني خَفضَ الباءِ صَيَّرَهُ مَقْطوعاً مِنَ الأوَّلِ مُبْتَدأً بهِ، أي يُسَبِّحُ لهُ بالغُدُوِّ والآصالِ. ثم ابْتَدأَ مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾. ثم قولُهُ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ جائزٌ [أنْ يُرادَ][٦] بِذِكْرِ اسْمِهِ الصَّلَواتُ وكذلكَ [المُرادُ][٧] بالتَّسْبيحِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُرادَ بِذِكْرِ اسْمِهِ جميعُ أنواعِ الأذكارِ مِنَ الخَيرِ، ويُرادَ بالتَّسْبيحِ بالغُدُوِّ والآصالِ الصَّلَواتُ المَفروضَةُ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: الغُدُوُّ صلاةُ الغَداةِ، والآصالُ: صلاةُ الظُّهرِ والعَصْرِ والمَغْرِبِ والعِشاءِ، فَيَجْعَلُ الأصيلَ عِبارةً عنْ هذهِ الصَّلَواتِ في أوقاتِها.

وقالَ بعضُهُمْ: الآصالُ صلاةُ العَصْرِ خاصَّةً. وأمّا غَيرُها مِنَ الصلاةِ [فإنها عُرِفَتْ][٨] لا بهذا، ولكنْ بشيءٍ آخَرَ، والغُدُوُّ هو صلاةُ الفَجْرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي لا تَشْغَلُهُمْ تِجارةٌ ولا بَيعٌ. ذَكَرَ التِّجارةَ والبَيعَ، والبَيعُ تِجارةٌ. ولكنْ كانَ اسْمُ التجارةِ يَجْمَعُ كلَّ أنواعِ التَّقَلُّبِ، واسْمُ البَيعِ، يَقَعُ على خاصٍّ. وكذلكَ يُقالُ لِلَّذي يَجْمَعُ أنواعَ التَّقَلُّبِ تاجرٌ، ولِلَّذي يَبيعُ شيئاً خاصاً بائعٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: والقدر. (٣) في الأصل وم: يكون. (٤) في الأصل وم: تلاوته. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٢٥٧. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وإنما عرف.

أخبرَ أنهُ لا تَشغَلُهُم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ اللهِ، أي لا يَشتَغِلونَ بالتّجارةِ والبَيعِ، ولكنْ فَرَّغوا أنفسَهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وإقامةِ الصلاةِ وما ذَكَرَ.

وجائِزٌ أنْ يكونوا[1] يَتَّجِرونَ، ويَبيعونَ، لكنَّ تِجارَتَهُمْ وبَيعَهُمْ، لا تَشغَلُهُمْ، ولا تَمنَعُهُمْ عن ذِكْرِ اللهِ. يكونونَ أبداً في ذِكرِ اللهِ. ثم قولُهُ: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ الصلاةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إتمامِ الصلاةِ بِرُكوعِها وسُجودِها وقِراءَتِها وجميعِ أسبابِها وشَرائِطِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الخُطبَةَ ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صلاةَ الجُمُعَةِ لأنهُ قالَ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً﴾ الآيةَ [الجمعة: ١١] وقالَ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ وهو الخُطبَةُ، غيرُ مَسموعٍ مِنْ أهلِ التأويلِ، ولكنهُ مُحتَمَلٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ وهو يومُ القيامةِ. يُخبِرُ عن شِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ وخَوفِهِ، لا تَثبُتُ القُلوبُ والأبصارُ فَزَعاً منهُ وخَوفاً كقولِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٤٣] وكقولِهِ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يَعرِفونَ مَرَّةً، ويَجهَلونَ تارةً، ويَعتَبِرونَ يَومئذٍ بما لم يَعتَبِروا في الدنيا، ويُقِرُّونَ بما لم يُقِرّوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ حينَ تُزالُ[2] عَنْ أماكِنِها مِنَ الصدورِ، فَتَنشَقُ[3] في حُلوقِهِمْ عندَ الحَناجِرِ، ثم قالَ: ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي تُقلَبُ أبصارُهُمْ، فيكونونَ زُرقاً، وهو قولُ القائلِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي لِيَجزِيَهُمْ اللهُ جَزاءَ إحسانِهِمْ، ويُكَفِّرُ عن مَساويهِمْ، ولا يَجزيهِمْ بها كقولِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ الآيةَ [الأحقاف: ١٦] وكقولِهِ: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على قَدرِ حَسَناتِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: لَيسَ فوقَهُ مَلِكٌ يُحاسِبُهُ، فهو المَلِكُ يُعطي ﴿مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يَخافُ مِنْ أحدٍ يُحاسِبُهُ كقولِهِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يُعطيهِمْ بلا حسابٍ، يُحاسِبُهُمْ، ويُدخِلُهُمُ الجنةَ بلا محاسَبَةٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يُعطيهِمْ بلا حِسابٍ أضعافاً مُضاعَفَةً ما لا يُحصَى لا على قَدرِ أعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ضَرَبَ مَثَلَ أعمالِ الكَفَرَةِ بالسَّرابِ الذي ذَكَرَ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهمْ قد عَمِلوا في الظاهرِ أعمالاً طَمِعوا أنْ يَصِلوا إليها في الآخِرَةِ، ويَنتَفِعوا بها مِنْ نَحوِ الصَّدَقاتِ والنَّفَقاتِ وَصِلَةِ الأرحامِ ونَحوِها[4] ممّا هي في الظاهرِ أعمالُ الخَيرِ، فإذا هُمْ حُرِموا ذلكَ، ولم يَجِدوا شيئاً كالذي يَرَى السَّرابَ مِنْ بَعيدٍ ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ فسارَ إليهِ، فإذا هو، لا شيءَ.

فَعَلى ذلكَ الكُفّارُ عَمِلوا تلكَ الأعمالَ على طَمَعٍ منهمْ أنهمْ يَنتَفِعونَ بها، فإذا هُمْ على [لا][5] شيءٍ كالعَطشانِ الذي يَرَى السَّرابَ، فَيَحسَبُهُ أنهُ ماءٌ، فإذا هو سَرابٌ.

والثاني: ضَرَبَ مَثَلَ أعمالِهِمْ بالسَّرابِ الذي ذَكَرَ؛ وذلكَ لأنهمْ[6] قد عَبَدوا الأصنامَ والأوثانَ رَجاءَ أنْ يَنتَفِعوا

---

(١) في الأصل وم: يكون. (٢) في الأصل وم: زالت. (٣) في الأصل وم: فنشقت. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أنهم.

بِشَفاعَتِهِمْ في الآخِرَةِ كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وكانَتْ عبادَتُهُمُ الأصنامَ لِما ذَكَروا مِنْ [طَمَعِهِمْ بِشَفاعَتِهِمْ][1] فإذا هُمْ لم يَنْتَفِعوا، فصاروا[2] كالعَطْشانِ الذي يَرَى السَّرابَ، فَيَحْسَبُهُ أنهُ ماءٌ. فإذا جاءَهُ وَجَدَهُ سَراباً، لم يَجِدْهُ ما حَسِبَهُ. إلى هذا تَمامُ المَثَلِ.

ثم ابْتَدَأَ، فقالَ: /٣٧٠ ـ ب/ ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي وَجَدَ اللهَ يُوَفِّيهِ حِسابَ عَمَلِهِ وجزاءَهُ، أو يقولُ: قَدِمَ على عَمَلِهِ يومَ القِيامةِ، لم يَجِدْ عَمَلَهُ الذي عَمِلَ في الدنيا شيئاً إلا كما وَجَدَ هذا العطشانُ هذا السَّرابَ ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ يقولُ: قَدِمَ على اللهِ، فَوَفّاهُ حِسابَهُ أي عَمَلَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا المَثَلُ ضُرِبَ لِلْكُفّارِ؛ وذلكَ أنهمْ يُبْعَثونَ يومَ القِيامةِ، وقد تَقَطَّعَتْ أعناقُهُمْ مِنَ العَطَشِ، فَيُرْفَعُ لهمْ سَرابٌ بِقِيعَةٍ مِنَ الأرضِ، فإذا نَظَروا إليهِ حَسِبوهُ ماءً، فَأَمُّوهُ لِيَشْرَبوا منهُ، فلم يَجِدوا شيئاً، ويُؤْخَذونَ ثَمَّةَ، فَيُحاسَبونَ. وكذلكَ أعمالُهُمْ تَضْمَحِلُّ يومَ القيامةِ، فلا يُصيبونَ منها.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ هذا مَثَلٌ آخَرُ ضَرَبَ اللهُ لأحوالِ الكافِرِ ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ﴾ جَسَدُهُ شَبَّهَهُ بِظُلُماتٍ؛ وذلكَ أنَّ البَحْرَ إذا كانَ عميقاً كانَ أَشَدَّ ظُلْمَةً[3]، فقالَ: ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ والبَحْرُ اللُّجِّيُّ قَلْبُ الكافِرِ ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ فوقَ الماءِ ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فهي[4] ظُلْمَةُ المَوجِ وظُلْمَةُ الليلِ، وظُلْمَةُ السحابِ هذهِ ﴿ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فكذلكَ الكافرُ: قلبُهُ مُظْلِمٌ: في صَدْرٍ مُظْلِمٍ في جَسَدٍ مُظْلِمٍ؛ لا [يُبْصِرُ نورَ الإيمانِ][5] كما أنَّ صاحبَ البَحْرِ ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ في تلكَ الظُّلْمَةِ ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي لم يَرَها البَتَّةَ.

أو يكونُ ضَرَبَ المَثَلَ: ظُلُماتٌ[6] ثلاثٌ بِظُلُماتِ أحوالٍ، لا تزالُ تزدادُ ظُلْمَةً: كُفْرُهُ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حالٍ بِعَمَلِهِ[7] الذي يَعْمَلُهُ كالظُّلُماتِ التي ذَكَرَ.

فكانَ كَضَرْبِ المَثَلِ الذي سَبَقَ لأنوارِ أحوالِ المؤمنِ حينَ[8] قالَ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] والنورُ جَسَدُهُ وصَدْرُهُ وقَلْبُهُ.

ثم قولُهُ ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ﴾ ليسَ هو حَرْفَ شَكٍّ، ولكنهُ كأنهُ قالَ: إنْ ضَرَبْتَ مَثَلَ عَمَلِهِ بالسَّرابِ فَمُسْتَقيمٌ، وإنْ ضَرَبْتَهُ بالظُّلُماتِ التي ذَكَرْتُها[9] فَمُسْتَقيمٌ. بأيِّهِما ضَرَبْتَ فَمُسْتَقيمٌ وصحيحٌ، لا أنه ذا، أو ذا.

ثم ذَكَرَ في أعمالِ الكَفَرَةِ مَثَلَيْنِ: أحَدُهُما: السَّرابُ، والثاني: الظُّلُماتُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ في المؤمنِ، أيضاً مَثَلانِ[10]: الظُّلْمَةُ التي ذَكَرَ [في الكافرِ تُقابِلُ النورَ الذي ذَكَرَ][11] في المؤمنِ، والسَّرابُ الذي ذَكَرَ [لأعمالِ الكافرينَ يُقابِلُ][12] ما ذَكَرَ مِنْ أعمالِ المؤمنينَ حينَ[13] قالَ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨] وقالَ[14]: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ إيماناً ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مِنْ إيمانٍ. وقيلَ: هُدىً فما لهُ مِنْ هُدىً، وهما واحدٌ.

والآيةُ على المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: لم يَجْعَلِ اللهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ النورِ إلا وقد جَعَلَ مِثْلَهُ للكافرِ، وفي الآيةِ إخبارٌ أنهُ لم يَجْعَلْ للكافِرِ النورَ؛ إذْ لو كانَ جَعَلَ [للكافرِ كما جَعَلَ][15] لِلْمُؤْمِنِ لم يَكُنْ لقولِهِ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مَعْنىً. دَلَّ أنهُ لم يَجْعَلْ للكافِرِ النورَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ يقولُ: فَجازاهُ بِعَمَلِهِ، فلم يَظْلِمْهُ، وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ.

---

(١) في الأصل وم: شفاعتهم. (٢) في الأصل وم: فصار. (٣) في الأصل وم: لظلمته. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: يبصرون الإيمان. (٦) في الأصل وم: بظلمات. (٧) في الأصل وم: يعلمه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: مثلين. (١١) في م: مقابل النور الذي ذكر، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لأعمالهم مقابل. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: وقوله. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

قالَ القُتَبِيُّ: السَّرابُ ما رأيتَهُ مِنَ الشمسِ كالماءِ نِصْفَ النهارِ، والآلُ ما رأيتَهُ في أوَّلِ النهارِ وآخِرِه، [وهو][١] الذي يَرْفَعُ كلَّ شيءٍ، والقِيعَةُ القاعُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: السَّرابُ الذي يُثيرُهُ الحَرُّ، فَتَراهُ كأنهُ ماءٌ يَجْري، وهو يكونُ نِصْفَ النهار إلى السماءِ والآلُ في أوَّلِ النهارِ إلى قريبٍ مِنْ نِصْفِ النهارِ، والقِيعَةُ القاعُ، وهي الأرضُ اليابسةُ التي يَسْتَنْقِعُ فيها الماءُ، وقاعٌ واحدٌ، وقيعانٌ جَمْعٌ، والظَّمآنُ العَطْشانُ، وقومٌ ظِماءٌ، وامرأةٌ ظَمْأى، ونِسْوةٌ ظِماءٌ وأظْماءٌ، وأظْمَأتُهُ أعطَشْتُهُ، وظَمَّأتُهُ أيضاً ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ كثيرِ الماءِ، واللُّجَّةُ وسَطُ البَحْرِ ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ أي يَصيرُ فوقَهُ. قالَ: المَوجُ طرائقُ في الماءِ، تكونُ إذا هَبَّتِ الريحُ.

وقالَ الكِسائيُّ: الظَّمآنُ والصَّدْيانُ والعَطْشانُ واحدٌ، والسَّرابُ قَبْلَ الزَّوالِ، والآلُ قَبْلَ الزَّوالِ، وهو أرفَعُ مِنَ السَّرابِ، والرَّواقُ [بالكَسْرِ والضَّمِّ][٢] بَعْدَ العَصْرِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ يقولُ: لم يُقارِبْهُ البَصَرُ كقولِهِ: الرجلُ، لم يُصِبْ، ولم يُقارِبْ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألَمْ تَعْلَمْ ونَحْوُهُ حَرْفُ تَعْجيبٍ واسْتِفْهامٍ. يقولُ الرجلُ لآخَرَ: ألَمْ تَرَ كذا؟ و: ألَمْ تَعْلَمْ كذا؟ على التَّعْجيبِ أو على الاِسْتِفْهامِ. لكنهُ يُخَرَّجُ مِنَ اللهِ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي قد رَأيتَ، وعَلِمْتَ؛ إذِ الاِسْتِفْهامُ لا يَجوزُ عنهُ.

والثاني: على الأمْرِ: أي اعْلَمْ، ورَ[٣] على ما ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن﴾ ذَكَرَ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: يُسَبِّحُ خَلْقَهُ وصُنْعَهُ؛ إذْ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ دَلالةُ وَحْدانيَّتِهِ وتَعاليهِ عنِ الأشباهِ وتنزيهِهِ، والشهادةُ لهُ بالرُّبوبيَّةِ والتَّفَرُّدِ بالألوهيَّةِ لهُ.

والثاني[٤]: يَجْعَلُ اللهُ تعالى في هذهِ الخلائِقِ مِنَ الطيورِ والدَّوابِّ وغيرِها مَعْنىً؛ يُسَبِّحونَ لهُ بذلكَ، يَفْهمونَ هُمْ ذلكَ مِنْ أنفسِهِمْ، ويَعْرِفونَ أنهُ تَسْبيحٌ، وإنْ لم يَفْهَمْ غَيرُهُمْ مِنَ الخَلائقِ، نَحْوَ ما ذُكِرَ مِنْ تَسْبيحِ الجبالِ والطَّيرِ في قصةِ سُليمانَ في قولِهِ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وقولِهِ[٥] في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨ و ١٩].

ولو كانَ التَّسبيحُ مِمَّنْ ذَكَرَ تَسبيحَ خِلْقَةٍ لَكانَ سُليمانُ وغَيرُهُ مِنَ الناسِ في ذلكَ شَرْعاً سَواءً، والعَشِيُّ وغَيرُهُ مِنَ الأوقاتِ سَواءً.

فَدَلَّ تَخْصيصُ سليمانَ في ذلكَ وتخصيصُ الأوقاتِ مِنْ بَينِ غَيرِها[٦] على أنَّ تَسْبيحَ هذهِ الأشياءِ ليسَ تسبيحَ خِلْقَةٍ، ولكنهُ تَسْبيحُ عِبادةٍ بالمَعْنَى الذي جَعَلَهُ لهُ فيهِ، وإنْ لم يَفْهَمْ غَيرُهُ[٧] مِنَ الخَلائِقِ تَسْبيحَها[٨].

ألا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى أخْبَرَ عنِ النملةِ حينَ[٩] قالَ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ الآية [النمل: ١٨].

ثم مَعْلومٌ أنهُ لم تكنْ حقيقةُ قولِهِ كقولِ المُمَيِّزِ والمُمْتَحَنِ، ولكنهُ مَعْنىً فَهِموهُ منها ذلكَ [الفَهْمَ][١٠] فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

ألا تَرَى أنهُ أخْبَرَ عنْ نُطْقِ الجَوارحِ وشهادَتِها عليه يومئذٍ حينَ[١١] قالَ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [النور: ٢٤] [وقالَ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾؟ [فصلت: ٢٠]][١٢] فَفَهِمَ هؤلاءِ مِنْ شهادةِ الجَوارحِ عليهِمْ ما لَمْ يَفْهَمْ غَيرُهُمْ[١٣] حتى أنْكَروا عليها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وارأ. (٤) من م، في الأصل: والشهادة. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: غيرهم. (٧) من م، في الأصل: غير. (٨) في الأصل وم: تسبيحهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: غيرها.

دلَّ ذلكَ أنهُ ما ذَكَرْنا. وذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ لِمَعْنىً فيهِمْ فَهِمُوا همْ، ولا يَفْهَمُ غيرُهُمْ.

ألا تَرى أنَّ اللهَ جَعَلَ في سِرِّيَّةِ الماءِ مَعْنىً يَحْيا بهِ كلُّ شيءٍ، إذا أصابَهُ، وَوَصَلَ إليه؟ وذلك المَعنى لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ أو مَنْ أطْلَعَهُ اللهُ عليهِ، وارْتَضاهُ لِنَفْسِهِ رسولاً.

فَعَلى ذلكَ تَسْبيحُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ والطَّيْرِ. وغَيرُهُمْ[١] جَعَلَ في سِرِّيَّتِهِمْ مَعْنىً، يَعْرِفونَهُ[٢] هُمْ مِنَ أنفسِهِمْ ذلكَ تَسْبيحاً لهُ وتَنْزيهاً، وإنْ لم يَفْهَمْ غَيرُهُمْ[٣]، واللهُ أعْلَمُ، كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حَرْفُ ﴿مَن﴾ إنما يُعَبَّرُ بهِ عنِ المُمَيِّزِ[٤]، وحَرْفُ: ما يُعَبَّرُ بهِ [عِنْ غيرِ][٥] المُمَيِّزِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كلُّ مَنْ فيها، قد عَلِمَ صلاتَهُ وتَسْبيحَهُ مِنَ الملائكةِ وغيرِهِمْ[٦] بِلُغَتِهِ ولِسانِهِ غَيرَ كُفّارِ الإنْسِ والجِنِّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ ما ذَكَرْنا أنَّ كُلّاً منهمْ يَعْرِفُ، ويَفْهَمُ أنهُ يُسَبِّحُ لهُ، وإنْ لم يَفْهَمْ غَيرُهُ؛ كأنهُ يَذْكُرُ سلطانَهُ ومُلْكَهُ وغِناهُ عنْ عبادةِ هؤلاءِ [وتَسْبيحِهِمْ، وأنَّ][٧] مَنْ يُسَبِّحُ لهُ كلُّ شيءٍ في السمواتِ والأرضِ، وتَرْكَ[٨] عِبادةِ هؤلاءِ لهُ وعبادَتَهُ بِمَحَلٍّ واحدٍ، لا يَنْفَعُ، ولا يَضُرُّ.

أو أنْ يقولَ: مَنْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، لا تَقَعُ لهُ/ ٣٧١ ـ أ/ الحاجةُ إلى عِبادةِ أحدٍ ولا طاعةِ [أحدٍ][٩]، وإنما الحاجةُ والمَنْفَعَةُ في الطاعةِ والعِبادةِ لهمْ دونَ اللهِ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤٢] على [إثْرِ][١٠] ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا على الأوَّلِ، أي عليمٌ بما يَفْعَلُ مَنْ ذَكَرَ مِنَ التَّسْبيحِ وغَيرِهِ، أو أنْ يكونَ على ابْتِداءِ وَعيدٍ لِلْخَلْقِ، أي عليمٌ بِجَميعِ ما يَفْعَلونَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ قد ذُكِرَ في غَيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أي قد صَفَّتْ أجْنِحَتَها في الطَّيَرانِ. كذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ، أي صَفَّتْ أجْنِحَتَها في الهواءِ، فلا تُحَرِّكُها.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ قيلَ: يَسوقُ سَحاباً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي [يَضُمُّ][١١] بَعْضَهُ إلى بَعْضٍ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ قالَ: [بعضُهُمْ][١٢]: فيها تَقْديمٌ وتأخيرٌ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي قِطَعاً يُحْمَلُ [بعضُهُ][١٣] على إثْرِ بَعْضٍ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي يَضُمُّ السَّحابَ بَعْضَهُ أيِ[١٤] الرُّكامَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يُزْجِي﴾ أي يُخْرِجُهُ مِنَ الأرضِ، فَيُسَخِّرُهُ بَينَ السماءِ والأرضِ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي المَطَرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وقيلَ: خِلَلِهِ[١٥]، أي مِنْ خِلالِ السَّحابِ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: جبالٌ مِنْ ثَلْجٍ: يُنَزِّلُ اللهُ تعالى [مِنَ السَّحابِ] الثَّلْجَ والبَرَدَ. وقالَ بعضُهُمْ: جبالٌ خَلَقَها اللهُ تعالى مِنْ بَرَدٍ [في][١٦] السماءِ، ثم يُنَزِّلُ.

وليسَ في الآيةِ بيانُ الجبالِ التي ذَكَرَ أنها[١٧] مِنَ السماءِ أنها مِنْ ثَلْجٍ أو بَرَدٍ سِوَى أنها مِنْ ثَلْجٍ أو بَرَدٍ سِوَى أنهُ خَبَرٌ أنَّ فيها بَرَداً.

---

(١) في الأصل وم: وغيره. (٢) في الأصل وم: يعرفون. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل وم: التمييز. (٥) في م: عن، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وغيره. (٧) في الأصل وم: والتسبيح أن. (٨) في الأصل وم: فترك. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: بعد. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٦٢. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: أنه.

فالأشياءُ تُشَبَّهُ بالجبالِ، وتُنسَبُ إليها إمّا لِلْكَثْرَةِ [أوّلاً][1] وإمّا لِلشِّدَّةِ والغِلَظِ والعِظَمِ ثانياً كقولِهِ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ الآية [النمل: ٨٨].

فجائزٌ أنْ تكونَ الجبالُ المذكورةُ في هذهِ الآيةِ هي الجبالَ التي أخبَرَ أنهُ يُنَزِّلُ منها، إذْ لا يُدْرَى أينَ هي؟ أفي[2] السماءِ أم[3] في ما بَينَ السماءِ والأرضِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ في نَفسِهِ أو زَرْعِهِ أو ثَمَرِهِ، فَيَضُرُّهُ ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فلا يُصيبُهُ. فإنْ كانَ على هذا فهو يُخَرَّجُ على التَّعْذيبِ. وكذلكَ عَمَلُ البَرَدِ يُفسِدُ في مكانٍ، ويَترُكُ مكاناً، لا يَعُمُّ، ولكنْ يُصيبُ مَكاناً، ويُخطِئُ مَكاناً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ بَرَكَتِهِ ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ مِنْ بَرَكَتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][4] ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ قيلَ: ضَوْءُ بَرْقِهِ، يكادُ ضوءُ البرقِ يَذْهَبُ بالأبصارِ مِنْ شِدَّةِ نورِهِ.

الآية ٤٤ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ تَقليبُهُ الليلَ والنهارَ اختِلافُهُما: يأتي بهذا، ويَذْهَبُ بالآخرِ. يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، صِلَةً لقولِهِ[6]: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٤٢] يُخبِرُ عنْ سُلْطانِهِ وقُدْرَتِهِ وتدبيرِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وَوَحْدانيَّتِهِ.

أمّا سُلْطانُهُ وقُدْرَتُهُ فما[7] ذَكَرَ مِنْ سَوقِ السَّحابِ بَينَ السماءِ والأرضِ، وتَسْخيرِهِ، وضَمِّ بَعْضِهِ إلى بَعْضٍ. دَلَّ ذلكَ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ودَلَّ نُزولُ المطرِ وإصابَتُهُ في مَكانٍ دونَ [مَكانٍ][8] وتَخَطِّيهِ مَوضِعاً دونَ مَوضِعٍ معَ اتِّصالِ السَّحابِ وانضِمامِ بَعْضِهِ إلى بعضٍ على السَّواءِ أنهُ على التَّدْبيرِ والعِلْمِ، كانَ ذلكَ لا بِطِباعِ السَّحابِ أو على جُزافٍ.

ودَلَّ جَرَيانُ الأمرِ واتِّساقُ التَّدْبيرِ في ما ذَكَرْنا، وفي اختِلافِ الليلِ والنهارِ، وتَقْليبِها مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنَ النُّقصانِ إلى الزِّيادةِ [ومِنَ الزِّيادةِ][9] إلى النُّقصانِ، واتِّصالِ مَنافعِ الأرضِ [بالسماءِ][10] على بُعْدِ ما بينَهما، أنهُ تَدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ؛ إذ لو كانَ تدبيرَ عَدَدٍ لَمَنَعَ بَعْضٌ بَعْضاً عمّا يُريدُ مِنَ التَّدْبيرِ والنَّفعِ.

دَلَّ ذلكَ كلُّهُ على أنهُ واحدٌ عليمٌ قادرٌ مُدَبِّرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لِما ذَكَرْنا ما فيهِ مِنْ وجوهِ الاسْتِدْلالِ والاعْتِبارِ.

قالَ القُتَبيُّ وأبو عوسَجةَ: ﴿يُزْجِى﴾ أي يَسوقُ ﴿رُكَامًا﴾ بَعْضَهُ فوقَ بَعْضٍ ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أيِ المَطَرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وخِلَلِهِ ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ ضَوءُ بَرْقِهِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: [الرُّكامُ والرُّكْمُ الكثيرُ][11] المُتراكِمُ الذي بَعْضُهُ فَوقَ بَعْضٍ، يُقالُ: ارْتَكَمَ الشيءُ، أي صارَ بَعْضُهُ فوقَ بَعْضٍ، ويُقالُ: رَكَمْتُ المَتاعَ أرْكُمُهُ كما إذا جَعَلْتُ بَعْضَهُ فوقَ بَعْضٍ، والوَدْقُ المَطَرُ، يُقالُ: وَدَقَتِ السَّماءُ تَدِقُ وَدْقاً أي أمْطَرَتْ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي مِنْ بينِهِ، وواحدُ الخِلالِ خَلَلٌ ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ السَّنَى مقصورٌ [وممدودٌ هو][12] الضَّوءُ. يُقالُ: السَّنَى النارُ، وهو واحدٌ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ][13] واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيات[14] [النور: ٤٢ و٤٣ و٤٤] ذَكَرَ السحابَ وما فيهِ مِنَ التدبيرِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ، وذَكَرَ أيضاً تَقْليبَهُ الليلَ والنهارَ وما فيهما مِنَ التَّدْبيرِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ والقُدْرَةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: والركام والكثير. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) في الأصل وم: هو. (١٤) في الأصل وم: الآية.

فعلى ذلك قولُهُ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ يَذكُرُ قُدرَتَهُ وسُلطانَهُ وعلمَهُ وتَدبيرَهُ. أخبَرَ أنهُ خَلَقَ الخَلائِقَ كلَّهُمْ مِنْ هذا الماءِ على اختِلافِ أجناسِهِمْ وجَواهِرِهِمْ، مِنْ شيءٍ واحدٍ، أنهمْ لم يكونوا بالطِّباعِ كذلكَ، ولكنْ بِتَدبيرِ واحدٍ عالمٍ بِذاتِهِ، لا بِعِلْمٍ وتَدبيرٍ مُستَفادٍ، ولكنْ بِعِلْمٍ[1] ذاتِيٍّ؛ إذْ لو كانوا بالطِّباعِ لَخَرجوا على تقديرٍ واحدٍ وصِفَةٍ واحدةٍ.

والثاني: أنهُ لا أحدَ مِنْ حُكَماءِ البَشَرِ يُدرِكُ كَيفِيَّةَ إنشاءِ هذا العالمِ وخَلْقِ هذهِ الخَلائقِ مِنْ هذِهِ المِياهِ. فإنهُ خَلَقَ ذلكَ، وليسَ في تلكَ المِياهِ مَعْنىً، ولا شيءَ مِنْ جواهِرِ الخَلائقِ.

دلَّ إنشاؤهُ إياهُمْ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ لِخَلْقٍ بِسَبَبٍ وبِغيرِ سَبَبٍ، وأنهُ خَلَقَ الخَلائِقَ بِحِكْمَةٍ ذاتِيَّةٍ؛ إذْ لم تُدرِكْ ذلكَ حِكْمَةُ[2] البَشَرِ.

ودَلَّ خَلْقُ هذهِ الخَلائقِ على هذهِ المَعاني والأسبابِ أنهُ لم يَخلُقْهُمْ عَبَثاً لِيَترُكَهُمْ سُدىً، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنهاهُمْ. فإذا ثَبَتَ الأمرُ والنَّهيُ ثَبَتَ الإحياءُ مِنْ بَعْدِ المَماتِ لِلْجَزاءِ.

ودَلَّتْ قُدرَتُهُ على خَلْقِ هذهِ الخَلائقِ مِنَ الماءِ أنهُ قادرٌ على الإحياءِ، وأنهُ لا يُعجِزُهُ شيءٌ، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا قادرٌ على ما ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ يَذكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، لأحدِ وجهَينِ:

[أحدُهما: تَذكيرُهُ إياهُمْ][3] نِعَمَهُ ومِنَّتَهُ وفَضلَهُ الذي أعطاهُمْ وإحسانَهُ الذي أحسَنَ إليهِمْ لأنهُ أخبَرَ أنهُ خَلَقَ هذا العالَمَ مُعتَدِلاً سَوِيًّا مِنْ غَيرِ أنْ كانَ مِنهُمْ اختيارٌ لذلكَ، أو [كانوا][4] يَستَوجِبونَ ذلكَ قِبَلَهُ، وخَلَقَ غَيرَهُمْ مِنَ الدَّوابِّ مُنْكَبِّينَ على وجوهِهِمْ وماشِينَ على بطونِهِمْ. وذلكَ فَضلٌ منهُ ونعمَةٌ.

[والثاني: ذِكرُ مِثالٍ لِحالِ][5] الكَفَرَةِ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ الآية [الملك: ٢٢] أخبَرَ أنَّ الكَفَرَةَ يكونونَ مُنكَبِّينَ على وجوهِهِمْ، وأهلَ الإسلامِ يَمشونَ مُنتَصِبينَ مُستَوينَ.

[وقولُهُ تعالى:][6] ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ بِسَبَبٍ وبِغيرِ سَبَبٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنهُ قادرٌ بذاتِهِ لا بِقُدرَةٍ مُستَفادَةٍ مِنْ غَيرِهِ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ الآية: قد ذَكَرْنا.

الآيتان ٤٧ و٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ابنُ عباسٍ وغَيرُهُ: إنهُ قد وقَعَتْ بَينَ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ وبَيْنَ عُثمانَ [بْنِ عَفّانَ][7] ﷺ خُصومَةٌ في الأرضِ [التي][8] اشتَراها عُثمانُ مِنْ عَلِيٍّ، فاختَصَما إلى رسولِ اللهِ ﷺ في تلكَ [الأرضِ][9] فَقَضى لِعَلِيٍّ على عُثمانَ، والزَمَهُ الأرضَ. فقالَ قومُ عُثمانَ: إنهُ ابنُ عمِّهِ، وأكرَمُ عليهِ، فَقَضى [لهُ عليكَ][10] أو نَحوَ / ٣٧١ ـ ب/ هذا مِنَ الكلامِ. فَنَزَلَ في قومِ عُثمانَ ذلكَ إلى آخِرِ ما ذَكَروا[11].

لكنَّ هذا بَعيدٌ، لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ عُثمانُ وقومُهُ يَخطُرُ بِبالِهِمْ [ما ذُكِرَ في رسولِ اللهِ][12].

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ هذا في بِشْرٍ المُنافِقِ؛ وذلكَ أنَّ رجلاً مِنَ اليهودِ كانَ بَينَهُ وبَينَ بِشْرٍ خصومَةٌ، وأنَّ اليَهوديَّ دعا بِشراً إلى رسولِ اللهِ ﷺ ودعاهُ بِشْرٌ إلى كَعْبِ ابْنِ الأشرَفِ، فقالَ: إنَّ محمداً يَحيفُ علينا، ونَحوَهُ مِنَ الكلامِ. فَنَزَلَ هذا.

---

(١) الباء ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: حكماء. (٣) في الأصل وم: أما تذكيرا أياه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو ذكر مثالاً بحال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عليك له. (١١) في الأصل وم: ذكر. (١٢) في الأصل وم: في رسول الله ما ذكر.

لكنا لا نَعْلَمُ أنهُ في مَنْ نَزَلَ[١] سِوَى أنَّ فيهِ بَياناً [أنهُ إنما نَزَلَ][٢] في المُنافقينَ وفي ظاهِرِ الآيةِ دلالةٌ أنهمْ عَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَقْضي إلّا بالحَقِّ.

الآية ٤٩ ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ في آخِرِهِ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ مُسْرِعينَ مُطيعينَ، ولو كانَ عندَهُمْ أنهُ يَقْضي بالجَورِ لَكانوا لا يَأتونَهُ لِلْقضاءِ، وإنْ كانَ الحَقُّ لهمْ مَخافَةَ الجَورِ والظُّلْمِ عليهِمْ؟ لكنَّ ما ذَكَرَ في سِياقِ هذا يَمْنَعُ هذا التأويلَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ في هذا مِنَ الدلالةِ أنَّ عندَهُم أنهُ لا يَقْضي بالحَقِّ لهمْ، وأنهُ يَجوزُ حينَ[٣] قالَ: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ فَمَنْ كانَ على هذا الوصْفِ فهو يَخافُ جَورَهُ وحَيفَهُ إلّا أنْ يَجْعَلَ الآيةَ في فِرَقٍ [مِنَ][٤] المُنافِقينَ: فِرْقَةٌ منهمْ عَرَفُوا أنهُ لا يَقضي إلّا بالحَقِّ، وفِرْقَةٌ منهمْ كانَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ، وفِرْقَةٌ [منهمْ][٥] ارْتابوا، وفِرْقَةٌ [منهمْ][٦] خافوا جَورَهُ. فهم كانوا فِرَقاً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٥] ومنهُمْ مَنْ قالَ كذا، ومنهُم [مَنْ][٧] قالَ كذا؟

أو يكونُ تأويلُ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي وإنْ يكُنْ لهمُ القَضاءُ بالحَقِّ أتوهُ مذعِنينَ أي إذا عَرَفوا أنهُ يُقْضَى لهمْ، لا محالةَ، أتوهُ. وإلّا لا يأتونَهُ.

فإنْ كانَ على هذا فما ذَكَرَ على سِياقِهِ مِنَ المَرَضِ والارْتيابِ والخَوفِ مِنَ الحَيفِ فَمُسْتَقيمٌ على هذينِ الوجهَينِ يَحْتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ. وأمّا على غَيرِ ذلكَ فإنا لا نَعْلَمُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ[٨] مِنَ ارتابَ، أو شَكَّ في رسالَتِهِ، أو خافَ جَورَهُ وحَيفَهُ فهو كافرٌ ليسَ بمؤمنٍ.

وقولُهُ[٩] تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ حَرْفَ[١٠] شَكٍّ:

أحَدُهُما: على الإيجابِ والتَّحقيقِ، أي في قلوبِهِمْ مَرَضٌ، وارْتابوا، وخافوا[١١]، على ما ذَكَرْنا في حَرْفِ الاسْتِفهامِ أنهُ في الظاهِرِ، وإنْ كانَ اسْتِفهاماً، فهو في التَّحقيقِ عِلْمٌ وإيجابٌ، أي عَلِمْتَ، ورأيتَ، ونَحْوَهُ، لِما لا يَجوزُ الاسْتِفهامُ منهُ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنهُ في فِرَقٍ: فِرْقَةٌ [منهُمْ][١٢] عَرَفَتْ أنهُ لا يَقْضي إلّا بالحقِّ، وفِرْقَةٌ منهمُ ارْتابَتْ، وفِرْقَةٌ منهم خافَتْ جَورَهُ وظُلْمَهُ.

قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ أي خاضِعينَ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: مُسْرِعِينَ مُطيعينَ؛ يُقالُ: ناقَةٌ مِذْعانٌ أي سريعةٌ، ونوقٌ، والحَيفُ الجَورُ، حافَ يَحيفُ حَيفاً، فهو حائفٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قولُهُ: ﴿دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَحْتَمِلُ إضافةُ الدعاءِ إلى اللهِ وجهَينِ:

أحَدُهما: دُعُوا إلى كتابِ اللهِ وإلى رسولِهِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

والثاني: إضافَتُهُ إلى اللهِ هي إضافَتُهُ إلى رسولِهِ كقولِهِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] جَعَلَ إطاعةَ الرسولِ إطاعةَ اللهِ تعالى.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يُرادَ بإضافةِ الدعاءِ إلى اللهِ الدعاءُ[١٣] إلى رسولِ اللهِ.

---

(١) في الأصل وم: تنزل. (٢) في الأصل وم: أنها إنما نزلت. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: كان. (٩) في الأصل وم: وفي قوله. (١٠) من م، في الأصل: خوف. (١١) من م، في الأصل: أو يخافوا. (١٢) ساقطة من الأصل: وم. (١٣) في الأصل وم: دعا به.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ لا يَحتَمِلُ أنْ يكونوا يَخافونَ حَيفَ اللهِ وجَورَهُ، لكن إنما يَخافونَ جَورَ رسولِهِ أو كتابِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قد ذَكَرْنا إضافةَ الدعاءِ إلى اللهِ ورسولِهِ في قصةِ المُنافِقينَ ونَعْتِهِمْ. فَعَلى ذلك في نَعْتِ المؤمِنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿سَمِعْنَا﴾ أي سَمِعْنا الدعاءَ ﴿وَأَطَعْنَاۚ﴾ الأمْرَ. ويَحتَمِلُ ﴿سَمِعْنَا﴾ أجَبْنا ﴿وَأَطَعْنَاۚ﴾ الأمْرَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ ليسَ على حَقيقةِ القَولِ منهمْ والنُّطقِ بِهِ، ولكنْ إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى عمّا عليهِ، واعْتَقَدوا بِهِ؛ إذْ كلُّ مؤمنٍ يَعْتَقِدُ في أصْلِ اعْتِقادِهِ طاعةَ اللهِ وطاعةَ رسولِهِ، فيكونُ كما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

هذا إخبارٌ عمّا أطْعِموا هُمْ ليسَ أنهمْ قالوا باللسانِ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ لكذا، ولكنْ إخبارٌ عمّا في قُلوبِهِمْ فَعَلى ذلكَ الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المُفْلِحُ هو الذي يَظْفَرُ بِحاجَتِهِ [الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ][(١)] يُقالُ: فلانٌ أفلَحَ أي ظَفِرَ بِحاجَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي يَخْشَ اللهَ على ما مَضَى مِنْ ذُنوبِهِ ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ في ما بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ، أو يَخْشَ اللهَ على ما يكونُ منهُ مِنَ التَّقْصيرِ والتَّفْريطِ، ويَتَّقِ ذلكَ وكلَّ مَعْصِيَةِ اللهِ ومُخالَفَتَهُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصَةَ فأولئكَ هُمُ المؤمنونَ، وهما واحدٌ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كلُّ يَمينٍ باللهِ فهو جَهْدُ اليَمينِ لأنهمْ مِنْ عادتِهِمْ أنهمْ[(٢)] كانوا لا يَحْلِفونَ باللهِ إلا في العَظيمِ مِنَ الأمرِ والخَطيرِ. فأمّا الأمْرُ الدّونُ فإنما يَحْلِفونَ بِغَيرِهِ. فيكونُ على هذا كلُّ يَمينٍ باللهِ فهو جَهْدُ اليَمينِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا حَلَفوا أيماناً[(٣)] غليظةً شديدةً على ما يُغَلِّظُ الناسُ في أيمانِهِمْ، ربّما سُمِّيَ ذلكَ جَهْدَ اليَمينِ. أو أنْ يكونَ جَهْدُ اليَمينِ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ قولُهُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ هو جَهْدُ أيمانِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ قولُهُ ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

[يَحتَمِلُ][(٤)]: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ مِنْ أرضِهِمُ التي تخاصَموا إليهِ فيها، أي لَيَخْرُجُنَّ، ويُسَلِّمُنَّها إلى خَصْمِهِمْ.

ويَحتَمِلُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ مِنْ جميعِ أملاكِهِمْ وما تَحويهِ أيديهِمْ تَعْظيماً لأمْرِك وإجلالاً [لكَ][(٥)] فكيف لا يَتّبعونَ قضاءَكَ، ويَنْقادونَ لِحُكْمِكَ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ مِنَ المدينةِ بِعِيالاتِهِمْ وجَميعِ حَواشيهِمْ إلى بلدةٍ أُخرَى.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي أمَرْتَهُمْ أنْ يَخْرُجوا في الجِهادِ ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ لأنهمْ كانوا يَتَخلَّفونَ.

ثم أمَرَ رسولَهُ أنْ يَنْهاهُمْ عنِ القَسَمِ الذي أقْسَموا [فقالَ][(٦)] ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ﴾.

[وقولُهُ تعالى][(٧)] ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَّا تُقْسِمُواْۖ﴾ فإنّ اللهَ، لو بَلَغَ منكُمُ الجَهْدُ، لَنْ[(٨)] تَبْلُغوهُ. ثم قالَ ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ﴾ يقولُ: أطيعوهُ، وقولوا لهُ المَعْروفَ.

(١) في الأصل وم: دنيوية أو أخروية. (٢) من م، في الأصل: كأنهم. (٣) في الأصل وم: يمين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لم.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ تَمَّ الكلامُ، ثم قالَ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وفي الكلامِ حَذْفُ الإيجازِ، يُسْتَدَلُّ بظاهِرِهِ عليهِ: كأنَّ القومَ، كانوا يُنافِقونَ، ويَحلِفونَ في الظاهِرِ/ ٣٧٢ ـ أ/ على ما يُضمِرونَ خِلافَهُ، فقيلَ لهمْ: لا تُقْسِموا؛ هي طاعةٌ مَعْروفةٌ صحيحةٌ، لا نِفاقَ فيها، ولا طاعةَ فيها نِفاقٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا تَحْلِفوا، ولَكِنْ هذهِ منكُمْ لِلنَّبِيِّ طاعةٌ مَعْروفةٌ حَسَنةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ تُعْرَفُ أنها طاعةٌ بالقَولِ والعَمَلِ. لا تكونوا كاذبينَ فيها بالقَولِ دونَ العَمَلِ. وبَعْضُهُ قريبٌ من بعضٍ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تُقْسِموا.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ، لأنهمْ كانوا يُسِرّونَ، ويُضْمِرونَ في ما بينَهُمُ التَّوَلِّيَ والإعراضَ عن حُكْمِهِ، ثم أخبرَهُمْ بذلكَ، فَعَلِموا أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي تَوَلَّوا عن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ قالَ: فإنما على النَّبِيِّ ما أُمِرَ بِتَبْليغِ الرسالةِ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وأُمِرْتُمْ مِنَ الطاعةِ للهِ ورسولِهِ.
ويَحتَمِلُ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أداءُ ﴿مَا حُمِّلَ﴾ مِنَ الفرائضِ ﴿وَعَلَيْكُم﴾ أداءُ ﴿مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وأُمِرْتُمْ مِنَ الفرائضِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي لا يُسْأَلُ هو، ولا يُؤاخَذُ بما عليكُمْ، ولا تُسْأَلونَ أنتمْ، ولا تُؤاخَذونَ أيضاً بما عليهِ؛ يُسْأَلُ كلٌّ عمّا عليهِ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ ولا شَكَّ؛ إنهمْ إنْ أطاعوهُ اهْتَدَوا ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: «مَكَثَ رسولُ اللهِ بمكةَ سِنينَ مِنْ بَعْدِ ما أُوحِيَ إليهِ خائفاً هو وأصحابُهُ، يَدْعونَ الناسَ إلى اللهِ سِرّاً وعَلانِيَةً، ثم أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ، فكانوا بها خائفينَ؛ يُصْبِحونَ في السِّلاحِ؟ فقالَ: رسولُ اللهِ ﷺ لَنْ تَلْبَثوا إلّا يسيراً حتى يَجْلِسَ الرجلُ منكُمْ في المَلإِ مُحْتَبِياً[2] ليسَ عليهِ[3] حديدةٌ» [السيوطي في الدر المنثور: ٦/ ٢١٥] فأنزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ على إثْرِ ما ذَكَرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لمّا صَدَّ المُشْرِكونَ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ يومَ الحُدَيبِيَةِ وَعَدَ اللهُ المُسْلِمينَ أنْ يُظْهِرَهُمْ وأنْ يَفْتَحَ لهمْ مكةَ، وقالوا[4]: وتَصْديقُ ذلكَ ما ذَكَرَ في سورةِ الفتحِ، وهو قولُهُ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية [الفتح: ٢٥] [وقولُهُ][5] في آخِرِ ذلكَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ الآية [الفتح: ٢٨].

وَعَدَ رسولَهُ في القرآنِ أنهُ يَسْتَخْلِفُهُمْ في الأرضِ، ويُنْزِلُهُمْ[6] فيها كما اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَجَعَلَهُمْ خُلَفاءَ في الأرضِ.

[وقالَ قائلونَ][7]: كانَ وَعْدُهُ إيّاهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ أنهُ يَجْعَلُهُمْ خُلَفاءَ في الأرضِ كما فَعَلَ بالذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

ولكنْ كيفَما كانَ ذلكَ الوَعْدُ لهمْ في القرآنِ أو في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ ففيهِ أمْرانِ اثْنانِ:

أحَدُهُما: البِشارةُ لِلْمُسْلِمينَ.

[والثاني][8]: الحُجَّةُ على الكافرينَ؛ لأنهُ وَعَدَ لهمُ الأمْنَ[9] في النَّصْرِ في وَقْتٍ، لا يَرْجونَ، ولا يَطْمَعونَ النجاةَ فَضْلاً أنْ يَطْمَعوا الاِسْتِخْلافَ والتَّمَكُّنَ في الأرضِ وإظهارَ الدِّينِ الذي ارْتَضى لهمْ، وهو الإسلامُ على الأديانِ كلِّها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مختبئاً. (٣) في الأصل: عليهم، في م: فيهم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: حتى قال. (٦) في الأصل وم: وينزل. (٧) من م، في الأصل: وينزلون فيها. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، في الأصل: إلا.

فإذا كانَ مِثْلُ ذلكَ الوَعْدِ والبِشارَةِ، لا يُطْمَعُ، ولا يُرْجَى في مِثْلِ ذلكِ الوَقْتِ والخَوْفِ عُلِمَ أنهُ إنما بَشَّرَهُمْ بذلكَ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ وَوَعْدٍ منهُ، فكانَ ما وَعَدَ.

دَلَّ أنهُ باللهِ وَعَدَ ذلكَ، وبَشَّرَ. فذلكَ حُجَّةٌ على أولئكَ، وبِشارَةٌ لِلْمُؤمِنينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قولُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ليسَ بِشَرْطٍ لأنهُ لو كَفَرَ قَبْلَ ذلكَ أيضاً فهو فاسقٌ.

ثم منَ الناسِ مَنْ قالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ﴾ هذهِ النِّعَمِ التي أنْعَمَها عليهِمْ، ولم يَشْكُرْهُ عليها فهو كذا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ وليسَ لهُ جوابٌ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في ما أمَرَكُمْ بهِ، ونَهاكُمْ عنهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [أي تُرْحَمونَ][1] هو ظاهرٌ، قد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضعٍ.

الآية ٥٧ وقولُهُ[2] تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي فائتِينَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ هَرَباً مِنْ عذابٍ، فلا يُدْرِكُهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: سابِقينَ في الأرضِ هَرَباً أيضاً حتى لا يُجزَوا[3] بِكُفْرِهِمْ، وهو واحدٌ ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قد ذَكَرْنا أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ أنهمْ لَيسوا بِفائتينَ ولا سابِقينَ عنهُ، لكنهُ ذُكِرَ لهُ هذا كما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] هما واحدٌ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصَةَ: أحَسِبَ الذينَ كَفَروا أنْ يُعْجِزوا[4] اللهَ في السمواتِ والأرضِ. إنهُ وإنِ اخْتَلَفَتِ الحروفُ فالمَعْنى واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: «ذُكِرَ أنَّ رَجُلاً وامْرأتَهُ، تُسَمَّى أسماءُ بنتُ مَرْثَدٍ اتَّخذوا طعاماً لِلنَّبِيِّ، فَجَعَلَ الناسُ يَدْخُلونَ بِغَيرِ إذْنٍ، فقالَتْ أسماءُ: ما أقْبَحَ هذا يا رسولَ اللهِ: أنْ يُدْخَلَ على الرجلِ وامْرأتِهِ بِغَيرِ إذْنٍ، وهما في ثوبٍ واحدٍ، غُلامُهُما المَمْلوكُ: فأنْزَلَ اللهُ: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾» [السيوطي في الدر المنثور: ٦/٢١٧].

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ هذا في شأنِ عُمَرَ بنِ الخطابِ، وهو ما قالَ: وافَقْتُ ربي في ثلاثٍ: ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ [بَعَثَ][5] غلاماً مِنَ الأنصارِ، يُقالُ لهُ: مُدْلِجٌ، إلى عُمَرَ بنِ الخطابِ ظَهيرَةً لِيَدْعُوَهُ، فانطَلَقَ الغلامُ إليهِ لِيَدْعُوَهُ، فوجَدَهُ قايلاً، قد أغْلَقَ عليهِ البابَ، فقامَ مِنْ خَلْفُ، وحَرَّكَهُ، فلم يَسْتَيقِظْ، فقالَ الغلامُ: اللهمَّ أيْقِظْهُ[6] لي. قالَ: فَدَفَعَ البابَ، ثم ناداهُ، ودَخَلَ، فاسْتَيقَظَ عُمَرُ، فَجَلَسَ، فانْكَشَفَ منهُ شيءٌ، فَرَآهُ الغلامُ، وعَرَفَ عُمَرُ أنَّ الغُلامَ [قد رَأى ذلكَ منهُ، فقالَ عُمَرُ: وَدِدْتُ، واللهِ، أنَّ اللهَ نَهى][7] أبْناءَنا ونساءَنا وخَدَمَنا أنْ يَدْخُلوا هذِهِ الساعاتِ علينا إلّا بإذْنٍ[8]، ثم انْطَلَقَ مَعَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَهُ قد نَزَلَتْ عليهِ هذه الآيةُ، وأمَرَ بالاسْتئذانِ على دخولِهِمْ في هذه الساعاتِ. لكنْ لا حاجَةَ لنا[9] إلى أنْ نَتَعَرَّفَ أنها نَزَلَتْ في شأنِ فلانٍ أو فلانٍ أو في أمْرِ فلانٍ وسَبَبِهِ سِوَى أنْ نَتَعَرَّفَ المُودَعَ فيها وما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ الآدابِ والأحكامِ.

ثم خاطَبَ بالاسْتِئذانِ المُسْتَأْذَنَ عليهِ لا المُسْتَأْذِنَ والساداتِ والآباءَ ومَنْ لهُ الصِّغارُ حينَ[10] قالَ: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ وذلكَ الخِطابُ، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الأمْرِ للآباءِ والساداتِ بِتعليمِ أمورِ الدينِ والقِيامِ بِما يَحْتاجونَ إليهِ والتأديبِ على ذلكَ، إنْ أبَتْ أنْفُسُهُمْ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: ثم قال. (٣) في الأصل وم: يجزون. (٤) في الأصل وم: يعجزه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: أيقظ. (٧) من م: ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بإذنه. (٩) في الأصل وم: لها. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وكذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ[1] قالَ: «مُرُوا صِبيانَكُمْ بالصلاةِ إذا بَلَغوا سَبْعاً، واضربوهُمْ إذا بلَغوا عَشْراً، وفرِّقوا بَيْنَهُمْ في المضاجِعِ» [أحمد: ٢/ ١٨٠] خاطَبَ بِهِ الآباءَ والأولياءَ أنْ يأمُروهُمْ بأمورِ الدينِ أمْرَ العبادةِ[2] والتَّعليمِ لهمْ والتَّأديبِ إنِ امْتَنَعوا عنْ ذلكَ، ولم يُخاطِبْهُمْ في أنفسِهِمْ لِجَهْلِهِمْ وقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بأمْرِهِمْ.

وإذا بَلَغوا، وعَرَفوا الأمْرَ، فعندَ ذلكَ خاطَبَهُمْ بأنفسِهِمْ بالاسْتِئْذانِ حينَ[3] قالَ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ/ ٣٧٢ ـ ب/ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩] خاطَبَهُمْ إذا بَلَغوا [الحُلُمَ][4] وأمَرَهُمْ بالاسْتِئْذانِ في أنفسِهِمْ. وما داموا صغاراً خاطبَ بِهِ الآباءَ والأولياءَ لِما لا يَجْري عليهِمُ القَلَمُ.

وليسَ الخِطابُ والأمْرُ والنَّهْيُ إلّا لِجَرْيَةِ القَلَمِ عليهِمْ، وتَرْكُ الأمرِ والخِطابِ لِدَفْعِ القَلَمِ عنهمْ.

وأمّا أمْرُ الآباءِ لهمْ بذلكَ فَيَخْرُجُ مُخْرَجَ الشَّفَقَةِ لهمْ عليهِمْ والقيامِ لِبَعْضِ مَصالِحِهِمْ. وذلكَ جائزٌ.

ثم اخْتُلِفَ في ما مَلَكَتْ أيمانُنا. قالَ جماعةٌ [مِنْ أهلِ التأويلِ][5]: هُنَّ النساءُ دونَ الرجالِ. وأمّا الرجالُ فإنهمْ يَسْتأذِنونَ في جميعِ الأوقاتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: همُ النساءُ والرجالُ جميعاً، والنَّهْيُ عنِ الدخولِ في هذهِ الأوقاتِ الثلاثِ؛ إذْ هذهِ أوقاتُ غِرَّةٍ وساعاتُ غَفَلٍ لِلذُّكورِ والإناثِ جميعاً.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: الكِبارُ منهمْ دونَ الصِّغارِ.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ في الصِّغارِ منهمْ لأنَّ الكِبارَ منهُمْ والأحرارَ سَواءٌ في خَطَرِ النَّظَرِ إلى العَوْرَةِ وإباحتِهِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾؟ وهمُ الأحرارُ والصِّغارُ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الصِّغارُ منهمْ. أمَرَ الساداتِ بتَعليمِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأمورِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ أي لم يَحْتَلِموا[6] ويَحْتَمِلُ: ﴿لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ أي لم يَبْلُغوا مَبْلَغَ الحُلُمِ بَعْدَ ما جَعَلَهُمْ في مَراتِبَ ثلاثٍ؛ أعني الصِّغارَ:

في حالٍ لا يُؤْمَرونَ، ولا يُنْهَونَ، وهي الحالُ التي لا يُمَيِّزونَ بينَ العَوْرَةِ وبَيْنَ غيرِ العَوْرَةِ، وهي[7] ما قالَ: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١] أي لا يَعْرِفونَ العَوْرَةَ مِنْ غَيرِ العَوْرَةِ.

وحالٍ يَعْرِفونَ ذلكَ إلّا أنهُ لا تَقَعُ لهمُ الحاجةُ إليها، فَيُؤْمَرونَ بالسَّتْرِ عنهُمْ.

وحالٍ تَقَعُ [لهمُ][8] الحاجةُ إليها وقضاءُ الوَطَرِ، فَيُؤْمَرونَ بالحجابِ والتَّفريقِ في المَضاجِعِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: ثلاثُ أوقاتٍ: عَوراتٌ لكُمْ وساعاتُها.

[والثاني][9]: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ أي ثلاثُ حالاتٍ: تَظْهَرُ فيها العَوْرَةُ كقولِهِ ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] أي ليسَتْ[10] ممّا يَمْنَعُ السارِقَ[11] عنِ السَّرِقَةِ فيها.

وفيهِ أنَّ العَمَلَ بالاجْتِهادِ في الأغْلَبِ والأكثرِ[12] مِنَ الرَّأْيِ، والأمْرَ ليسَ [في الحقيقةِ جائزاً، لأنهُ][13] قد سَمّى ثلاثَ عَوراتٍ في الأمْرِ، ونَهَى عنِ الدخولِ بلا اسْتِئْذانٍ، وإنْ كانَ يَجوزُ أنْ تكونَ العَوْرَةُ مَسْتورةً، وأباحَ في غَيرِها مِنَ الأوقاتِ الدخولَ بلا اسْتِئْذانٍ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: عادة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل: يحتمل. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويحتمل. (١٠) في الأصل وم: ليس.
(١١) في الأصل وم: السرق. (١٢) في الأصل وم: والأكبر. (١٣) في الأصل: في الحقيقة جائز لأمر، في م: على الحقيقة جائز لأنه.

ويَجوزُ أنْ يكونَ هنالكَ كَشفُ العَورةِ حينَ[1] قالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي بَعْدَ ثلاثِ ساعاتٍ [هنّ][2] ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لكنهُ أباحَ وحَظَرَ بالأغلَبِ والأكثَرِ[3] لا على الحقيقةِ وهكذا العَمَلُ بالاجْتِهادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ أي يَخدِمونكُمْ بعدَ هذهِ ثلاثِ الساعاتِ، وفي الثلاثِ لا.

قالَ القُتَيْبي: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيدُ والإماءُ ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ يريدُ هذهِ الأوقاتَ لأنها أوقاتُ التَّجَرُّدِ وظُهورِ العَورَةِ: أمّا قَبْلَ صلاةِ الفَجْرِ فلِلْخُروجِ مِنَ الثيابِ للنَّومِ ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بَعْدَ هذهِ الأوقاتِ. ثم قالَ: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ يريدُ أنهمْ خَدَمُكُمْ، فلا بأسَ بأنْ يَدخُلوا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] أي يَطوفُ عليهِمْ في الخِدْمةِ.

وقالَ أبو عَوسَجةَ: ﴿الظَّهِيرَةِ﴾ نِصفُ النهارِ، وظهايرُ جمعٌ، وأظْهَرْتُ أي دخلتُ في الظَّهيرةِ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ فقد ذَكَرْنا أنهُ خاطَبَ بهِ الأولياءَ في تَعليمِ الآدابِ وأمورِ الدِّينِ الصِّغارَ، ولم يُخاطِبْهُمْ هو حينَ[4] قالَ: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ وإذا بَلَغوا خاطَبَهُمْ بأنفُسِهِمْ حينَ[5] قالَ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾.

ثم[6] يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾ وجهين: يَحتَمِلُ: إذا احتَلَموا، ويَحتَمِلُ إذا بَلَغوا وقتَ الحُلُمِ؛ فالأوّلُ على حَقيقةِ الاحتِلامِ، والثاني على قُرْبِ بُلوغِ الاحتِلامِ. فكانَ الأوّلُ أشبَهَ لأنهُ خاطَبَهُمْ في أنفُسِهِمْ، وأمَرَهُمْ بالاستِئذانِ. فلو لم يكونوا بالِغينَ لم يُخاطِبْهُمْ، ولكنْ خاطَبَ بهِ الأولياءَ كما خاطَبَهُمْ في الآيةِ الأولى.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ الحدَّ في بُلوغِ الصَّغيرِ الاحتِلامُ. وعلى ذلكَ اتّفاقُ القَولِ منهمْ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما[7] أمَرَ بهِ قَبْلَ هذهِ الآيةِ البالغينَ ألّا يَدخُلوا بيتاً حتى يَستأنِسوا [ويُسلِّموا][8] على أهلِهِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني الكِبارَ: أنْ يكونَ الاستِئذانُ في الكِبارِ مَعْروفاً ظاهراً، وفي الصِّغارِ لا. فأمَرَ إذا بَلَغوا أنْ يَستأذِنوا كما يَستأذِنُ الكِبارُ منهمْ.

ورُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ما يُوافِقُ ظاهِرَ الآيةِ، وهو ما قالَ: «رُفِعَ القَلَمُ عنْ ثلاثةٍ: أحَدُها: الصَّبِيُّ حتى يَحْتَلِمَ»[9] وأمّا إذا بَلَغَ خَمْسَ عشرةَ سنةً فيمّا اختَلَفَ أصحابُنا فيهِ:

ما رآهُ أبو يوسفَ ومحمدٌ بالغاً لحديثِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ أجازَهُ في القِتالِ، وهو ابنُ خَمْسَ عشرةَ سَنَةً، ولم يُجِزْ لهُ، وهو ابنُ أربَعَ عشرةَ سَنَةً. لكنْ ليسَ فيهِ أنهُ أجازَهُ لِبُلوغِهِ، ولم يُجِزْهُ لأنهُ لم يَبْلُغْ. جائزٌ إجازَتُهُ في العامِ الثاني لِتَقْوِيَتِهِ[10] وطاقَتِهِ على القِتالِ. ولم يُجِزْ في العامِ الأوّلِ لِضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ وعَجْزِهِ عنِ القِتالِ.

واحتَجَّ بَعْضُ مَشايخِنا، وَوَجَدوا المَعْروفَ في مَنْ نَقَصَتْ سِنُّهُ عنِ اثْنَتي عشرةَ [سَنَةً][11] ألّا يَحْتَلِمَ، فإذا بَلَغَها فرُبَّما احتَلَمَ، فجَعَلَ حَدَّ الزِّيادةِ على الخَمْسَ عشرةَ سَنَةً التي هي وَسَطٌ بَيْنَ المُختَلِفينَ ثلاثَ سِنينَ كما كانَ مِقدارُ النُّقصانِ عنها ثلاثَ سِنينَ. وهذا القولُ مِنْ قولِهِ استِحْسانٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أعلامَهُ أي يُبَيِّنُ لكمُ الأعلامَ التي تَحتاجونَ إليها، وتَعرِفونَ ما يَسَعُ لكُمْ وما لا يَسَعُ وما يُؤتَى وما يُتَّقَى. وقالَ بعضُهُمْ: آياتُهُ هنا أمْرُهُ ونَهْيُهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: والأكبر. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: لم. (٧) في الأصل وم: ما (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، ساقطة من الأصل وم. (٩) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم» انظر سنن أبي داوود ج٤/٣٠٣ رقم الحديث ٤٣٩٩. (١٠) في الأصل وم: تقويه. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ قال أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يُرِدْنَ نِكاحاً. لكنَّ الأشبَهَ أن يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يَطْمَعْنَ أنْ يَرْغَبَ فيهِنَّ الرجالُ لِكِبَرِهِنَّ، وإلّا كُنَّ يُرِدْنَ النِّكاحَ، وإنْ كَبِرْنَ، وعَجِزْنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بقولِهِ: ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ الرِّداءَ. وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ أنهُ قَرَأ: أنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيابِهِنَّ وهو الرِّداءُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو الجِلْبابُ؛ يُقالُ: الجِلْبابُ، هو القِناعُ الذي يكونُ فوقَ الخِمارِ، فلا بأسَ أنْ تَضَعَ ذلكَ عندَ أجْنَبِيٍّ وغيرِهِ بَعْدَ أنْ يكونَ عليها خِمارٌ صَفِيقٌ غيرَ مُتَبَرِّجةٍ بِزينَةٍ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: مِنْ غيرِ أنْ تكونَ وَضَعَتِ الرِّداءَ والجِلْبابَ، تريدُ بذلكَ إظهارَ الزينةِ والتَّبَرُّجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن/ ٣٧٣ ـ أ/ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي وإلّا يَضَعْنَ ما ذَكَرْنا مِنَ الثيابِ خَيرٌ لهنَّ مِنْ أنْ يَضَعْنَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الخِمارُ، لكنهُ لا يُحْتَمَلُ لأنهُ معلومٌ أنَّ المرأةَ، وإنْ كَبِرَتْ، أو عَجِزَتْ، لا تَكْشِفُ عَورَتَها لأحَدٍ.

ثم الزينةُ رُبَّما تُكْشَفُ لِلْمَحارِمِ، ولا تُكْشَفُ لِلْغَريبِ [وهي في][1] الرأسِ والصَّدرِ ونَحْوِهِما[2]. فإذا بَلَغَتْ في السنِّ مَبْلَغاً لا تَطْمَعُ أنْ تُرْغَبَ في نِكاحِها، لا تَتَزَيَّنُ. ومع ما لا تَفْعَلُ لا يَحِلُّ للأجنَبِيِّ أنْ يَنْظُرَ إلى شَعْرِها ولا إلى صَدْرِها ولا إلى ساقِها. وإنها، وإنْ صَلَّتْ، ورأسُها مَكْشوفٌ [فَصلاتُها][3] فاسدةٌ.

وإذا كانَ كذلكَ فليسَ يَجوزُ أن يُجْعَلَ تأويلُ وَضْعِ الثيابِ الخِمارَ لما ذَكَرْنا. ولكنَّ الرداءَ والجِلْبابَ الذي يَلْبَسْنَ إذا خَرَجْنَ مِنْ مَنازِلِهِنَّ.

فإنْ قيلَ: إنما أُطْلِقَ لها بهذهِ الآيةِ أنْ تَضَعَ خِمارَها عنْ رأسِها إنْ لم يَرَها أحَدٌ. قيلَ: الشابَّةُ أيضاً يَجوزُ لها أنْ تَضَعَ الخِمارَ عنْ رأسِها إذا دَخَلَتْ في البيتِ. فَذلكَ يدلُّ على أنَّ العجوزَ أُذِنَ لها أنْ تَضَعَ الخِمارَ عنْ رأسِها إذا دَخَلَتْ في البيتِ. فَذلكَ يدلُّ على أنَّ العجوزَ أُذِنَ لها أنْ تَضَعَ ثَوبَها، وهو الجِلْبابُ أو المُلاءةُ التي كانَتْ تُغَطّي بها وَجْهَها إذا خَرَجَتْ.

وإذا كانَ المُطْلَقُ لها هذا فالواجبُ على الشابَّةِ ألّا تُظْهِرَ [وجهَها][4] إذا كانَتْ تُشْتَهى ولا يَدَيها. فإذا كانَ كذلكَ كانَ قولُهُ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] وهو الزينةُ التي لا يُمْكِنُ سَتْرُها بِحالٍ، وهو الكُحْلُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي مُظْهِراتٍ مَحاسِنَهُنَّ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ أي غيرَ مُتَزَيِّناتٍ بِزينةٍ، والمتبَرِّجَةُ المُتَزَيِّنَةُ لإظهارِ الزِّينةِ، والزِّينةُ هي الداعِيَةُ المُرَغِّبَةُ في النَّظَرِ إليها وقَضاءِ الشَّهوَةِ. فَكَأنهُ أباحَ لها وَضْعَ الثيابِ إذا كانَتْ غيرَ مُتَزَيِّنَةٍ. وإذا كانَتْ مُتَزَيِّنَةً فلا.

وأباحَ لها أيضاً إذا لم يَكُنْ بها محاسِنُ، يُرْغَبُ فيها، وإذا كانَ بها ذلكَ لم يُبِحْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما][5]: يَحْتَمِلُ ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ ولا يُبدينَ محاسِنَهُنَّ ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ مِنْ أنْ يُبدينَ.

والثاني: ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ مِنَ الوَضْعِ كقولِهِ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] أي يُعْرَفْنَ أنهنَّ حَرائرُ فلا يُؤْذَينَ كما تُؤْذَى الإماءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كأنَّ قولَهُ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ههنا صِلَةُ قولِهِ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وإلّا ليسَ في هذهِ الآيةِ ما يُوصَلُ بهِ، أو يكونُ جواباً لهُ.

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هُنَّ العُجُزُ، واحِدَتُها[1] قاعِدٌ، ويُقالُ: إنما قيلَ لها: قاعدٌ لِقُعودِها عنِ الحَيضِ والوَلَدِ، ومِثْلُها تَرْجو النِّكاحَ، أي تَطْمَعُ فيه [ولا أراها][2] سُمِّيَتْ قاعداً بالقُعودِ عمّا ذُكِرَ، إلّا أنها إذا أَسَنَّتْ عَجِزَتْ عنِ التَّصَرُّفِ وكَثْرَةِ الحَرَكةِ، وأطالتِ القُعودَ، فَقيلَ لها: قاعدٌ بلا هاءٍ لِيَدُلَّ بِحَذْفِ الهاءِ على أنهُ قُعودٌ كبيرٌ كما قالوا: امرأةٌ حامِلٌ بلا هاءٍ لِيُعْرَفَ على أنهُ حَمْلُ حَبَلٍ. وقالوا في غيرِ ذلكَ: قاعِدةٌ في بَيْتِها، وحامِلةٌ على ظَهْرِها.

وقالَ: والعَرَبُ تقولُ: وامرأةٌ واضِعٌ إذا كَبِرَتْ، فَوَضَعَتِ الثيابَ، ولا يكونُ هذا إلّا في الهَرِمةِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ أي غَيرَ مُظْهِراتٍ محاسِنَهُنَّ، والمُتَبَرِّجَةُ المُتَزَيِّنَةُ. وحاصِلُ[3] قولِهِ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ، واللهُ أعلَمُ:

أحَدُهما: يكونُ مَعْنى قولِهِ: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ كلُّ واحدٍ مِنَ الحَرْفَينِ يكونُ مَعْناهُ مَعْنى الآخرِ كقولِهِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] إذا كُنَّ مُحصناتٍ كُنَّ غيرَ مُسافِحاتٍ، وإذا كُنَّ غَيرَ مُسافِحاتٍ كُنَّ مُحصناتٍ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ إذا كُنَّ لا يَرْجونَ النِّكاحَ كُنَّ غَيرَ مُتَبَرِّجاتٍ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ التَّزَيُّنَ إنما يكونُ منهنَّ طَمَعاً في النِّكاحِ.

والثاني: مع ما لا يَرْجونَ النِّكاحَ يَتَزَيَّنَّ، ويَتَبَرَّجْنَ، فقالَ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ غَيرَ مُظْهِراتِ الزينةِ.

على هذينِ الوجهَينِ جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ. وقولُهُ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ عن ذلك كلِّهِ ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الآية. اخْتُلِفَ في تأويلِهِ.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الرجلَ الصحيحَ كانَ يَتَحَرَّجُ مُؤاكَلَةَ الأعْمَى والأعْرَجِ والمريضِ إشفاقاً عليهِمْ ورَحْمَةً؛ يقولُ: إنهُ لا يُبْصِرُ طَيِّبَ الطعامِ، ولعلَّهُ يأكُلُ الخَبيثَ، وأنا آكلُ الطَّيِّبَ، ويقولُ: إنَّ الأعْرَجَ، لا يَسْتَوِي جالساً إذا قَعَدَ، فلا يَقْدِرُ أنْ يَتَناوَلَ [كما أتناوَلُ][4] أنا، وإنَّ المَريضَ، لا يأكُلُ مِثْلَ ما يأكُلُ الصحيحُ. وكانَ الرجلُ، لا يأكُلُ مِنْ بيتِ أبيهِ ولا مِنْ بيتِ أمِّهِ إذا لم يكونا فيهِ. وكذلكَ الصديقُ وهؤلاءِ. فأنْزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ رُخْصَةً لِذلكَ كلِّهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ هؤلاءِ المَرْضَى: العُمْيانَ والعُرْجَ والمَرْضَى وأُولي الحاجةِ منهمْ، يَسْتَتْبِعُهُمْ رجالٌ إلى بيوتِهِمْ، ويَسْتَضيفونَهُمْ، فإنْ لم يَجِدوا لهمْ طعاماً أو شيئاً يأكلونَهُ ذهبوا بهِمْ إلى بيوتِ آبائهِمْ ومَنْ عَدَّدَ مَعَهُمْ، فَكَرِهَ ذلكَ المُسْتَتْبَعونَ التَّناوُلَ في غَيرِ بُيوتِ أولئكَ بِلا دَعْوَةٍ ولا إذْنٍ، سَبَقَ منهُمْ. فأنْزَلَ اللهُ في ذلكَ إباحَةً لهمْ ورُخْصَةً، وأحَلَّ لهمُ الطعامَ حيثُ وَجَدوهُ.

وقالَ [بعضُهُمْ][5]: إنَّ الأعْمَى والأعْرَجَ والمَريضَ وهؤلاءِ الذينَ كانَتْ بهمْ زَمانَةٌ، كانوا يَتَحَرَّجونَ مُؤاكَلَةَ الأصِحّاءِ مَخافَةَ أنْ يَتَقَزَّزوا منهمْ، ويَسْتَقْذِروا.

يقولُ الأعْرَجُ: لا أُآكِلُ الناسَ لأني آخُذُ مِنَ المَجْلِسِ مَكانَ رجلَينِ، وأُضَيِّقُ عليهِمْ.

ويقولُ[6] الأعْمَى: إني أُفْسِدُ عليهِمْ طعامَهُمْ، وكذلكَ المريضُ منهم، يقولُ مثلَ ذلكَ.

فأنْزَلَ اللهُ الرُّخْصَةَ في ذلكَ، ورَفَعَ عنهُمُ الجُناحَ في مُؤاكَلَتِهِمْ؛ يقولُ: إنَّ الحَقَّ عليهِمْ أنْ يَرْحَموكُمْ لما بكُمْ مِنَ الزَّمانَةِ وأنْ يَدْعوا لكمْ بالرفعِ عنكُمْ لا التَّقَزُّزُ والاِسْتِقْذارُ منكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الرجلَ الغَنِيَّ كانَ يدخلُ على الرجلِ الفقيرِ والزَّمِنِ، فَيَدعوهُ[7] إلى طعامِهِ، فيقولُ: واللهِ إني لا أَجْنَحُ، ولا أُحَرِّجُ أنْ آكلَ مِنْ طعامِكَ، وأنا غَنِيٌّ، وأنتَ فَقيرٌ، فأنْزَلَ اللهُ في ذلكَ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ.

---

(١) في الأصل وم: واحدها. (٢) من م، في الأصل: ولا إذا بها. (٣) من م، في الأصل: والتزين. (٤) في م: فيما أتناول، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) من م، في الأصل: فيدخل.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ هذا في أهلِ الجهادِ، وإنَّ الرجلَ كانَ يَخرُجُ إلى الجهادِ، فَيُخلِفُ آخَرَ في منزلِهِ في حِفظِ مالِهِ وأهلِهِ والقيامِ بِكفايَتِهِمْ، فكانَ يَحرَجُ، ولا يأكلُ مِنْ مالِهِ شيئاً لا مِنْ طعامِهِ لِما لم يَسْبِقْ منهُ الإذْنُ في ذلكَ. [فأنزَلَ اللهُ][1] في ذلكَ رُخصَةً وإباحةَ التّناوُلِ مِنْ ذلكَ.

إلى هذا انْتَهَتْ أقاويلُ أهلِ التأويلِ وتَأويلُهُمْ.

والأشبَهُ عندَنا أنْ يكونَ تأويلُ الآيةِ في غَيرِ ما ذَهبوا هُمْ إليهِ، وهو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليسَ على هؤلاءِ حَرَجٌ أنْ يأكلوا مِنْ بيوتِ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ أو بُيوتِ إخوانِهِمْ أو بُيوتِ أخواتِهِمْ أو بُيوتِ أعمامِهِمْ إلى قولِهِ: ﴿أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ﴾ لأنهمْ إنما يأكلونَ بالحَقِّ لأنَّ مَنْ كانَ بهِ زَمانَةٌ كانَ لهُ التناوُلُ مِنْ أموالِ ما ذَكَرَ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ والقراباتِ؛ إذْ تُفرَضُ لهمُ النَّفَقَةُ في أموالِهِمْ، فيكونُ في ذلكَ دلالةُ وُجوبِ النَّفَقَةِ لهمْ في أموالِهِمْ، ويكونُ ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ جُناحٌ ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ . . . ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي بأسَ أنْ تأكلوا مِنْ بيوتِكُمْ أو ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أو صديقِكُمْ؛ إذْ ليسَ يُباحُ للرجلِ التّناوُلُ مِنْ مالِ نفسِهِ ومِنْ مالِ صديقِهِ في حالِ عُذرٍ، ولا يُباحُ في حالِ الصِّحّةِ والسلامةِ، بل يُباحُ في الأحوالِ كلِّها.

دلَّ أنَّ التأويلَ الذي ذَكَرْنا أشْبَهُ؛ فَيُصرَفُ تَناوُلُ الزَّمْنَى مِنْ أموالِ القراباتِ بِحَقِّ النَّفَقَةِ، والحَقُّ لِمَنْ[2] ليسَ بهِ زَمانَةٌ في مالِهِ ومالِ صَديقِهِ بِحَقِّ المُلْكِ والصداقةِ، لأنَّ الزَّمانةَ تَرفَعُ الصداقَةَ مِنْ بينِهِمْ، وكذلكَ وجوبُ النَّفَقةِ في مالِ الصَّديقِ تَرفَعُ الصداقَةَ / ٣٧٣ ـ ب/ ولا تَرفَعُ القرابَةَ، ولا تَزولُ صِلَتُها.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ بُيوتِ أولادِكُمْ. وقالَ بعضُهُم: مِنْ بُيوتِ [أزواجِكُم ونسائِكُمْ][3]. وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ بُيوتِ أنفسِكُمْ[4]، وهو ما يَجِدُ الرجلُ في بَيتِهِ مِنْ طعامٍ، فإنهُ لا بأسَ أنْ يأكُلَهُ، ولذلكَ لا بأسَ للرجلِ أنْ يَتناوَلَ مِنْ بَيتِ زَوجتِهِ لأنهُ لم يَذْكُرْ في الآيةِ بَيتَ الوَلَدِ، وبَيتُ الزوجةِ على الإشارةِ والتفسيرِ، فَيَصْرِفونَ تأويلَ قولِهِ: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ إلى هؤلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي خَزائِنَهُ؛ يَحتَمِلُ العَبيدَ لأنَّ السَّيِّدَ يَملِكُ مالَ عَبْدِهِ، ويَحتَمِلُ الوكيلَ والخازنَ: أنْ يأكلَ مِنْ طَعامِهِ وأدْمِهِ بِغَيرِ إذْنِ السَّيِّدِ، ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ السَّيِّدَ نفسَهُ صاحبَ الخِزانةِ ومالِكَها.

ثم ذِكْرُ الأكْلِ مِنْ بُيوتِ مَنْ ذَكَرَ على التأويلِ الذي ذَكَرْنا، واسْتَدْلَلْنا على إيجابِ النَّفَقَةِ لهؤلاءِ الزَّمْنى في أموالِ مَنْ ذَكَرْنا مِنَ القراباتِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ذَكَرَ البيوتَ لأنهمْ إذا كانوا زَمْنَى يَسْتَوجِبونَ السُّكْنَى أيضاً مع النَّفَقَةِ، فَذَكَرَ البيوتَ لِكَونِهِمْ فيها وسُكْناهُمْ مَعَهُمْ.

والثاني: ذَكَرَ الأكْلَ مِنْ بُيوتِهِمْ لئلا يُفهَمَ مِنَ الأكلِ الأخذُ منها لأنهُ ذَكَرَهُ في آياتِ الأكْلِ، والمُرادُ المفهومُ منهُ الأخذُ كقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] وقولِهِ: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [آل عمران: ١٣٠] مَفهومُ المُرادِ مِنَ الأكلِ في هذهِ الآياتِ الأخذُ لا الأكْلُ نفسُهُ.

فَذَكَرَ ههنا الأكْلَ مِنْ بُيوتِهِمْ لئلا يُفْهَمَ منهُ الأخذُ كما فُهِمَ مِنْ تِلْكَ.

وعلى تأويلِ أهلِ التأويلِ مُسْتَقيمٌ ظاهِرٌ ذِكْرُ البُيوتِ إذْ لا يَجعَلونَ ذلكَ الأكلَ والتّناوُلَ منهُ أكْلاً وتَناوُلاً بِحَقٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ هذا لأنَّ قوماً كانوا لا يأكُلونَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ومن. (٣) في الأصل وم: أزواجهم ونسائهم. (٤) في الأصل وم: أنفسهم.

وَخدَمُهُم[1]، ولا يَرَونَ ذلكَ حَسَناً في الخُلُقِ، ويَتَحرَّجونَ [عنْ][2] ذلكَ حتى يكونَ معهمْ غيرُ [واحدٍ][3] فَرَخَّصَ اللهُ تعالى لهمْ ذلكَ، ورَفَعَ عنهمُ الحَرَجَ، فقالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

وعلى تأويلِ مَنْ يقولُ: إنهمُ اسْتَضافوا قوماً، فلم يَجدوا في بَيتِهِمْ شيئاً يأكلونَ، فَذَهبوا بهمْ إلى بُيوتِ هؤلاءِ، فَيَتَحرَّجُ أولئكَ الأضيافُ الأكْلَ مِنْ بيوتِ مَنْ ذَكَرَ، وأربابُ البُيوتِ لَيسوا فيها، فرخَّصَ لهمْ في ذلكَ.

وعلى تأويلِ مَنْ يقولُ: إنهمْ كانوا يَتَحرَّجونَ الأكْلَ معَ العُميانِ[4] إشفاقاً عليهمْ وتَرَحُّماً لِما لا يُبْصِرونَ طَيِّبَ الطعامِ، ولا يَأكلونَ ما يأكُلُ الصحيحُ، فَرَفَعَ عنهمْ ذلكَ الحَرَجَ، ورَخَّصَ لهمْ في ذلكَ.

وعلى تأويلِ مَنْ يقولُ: إنهمْ كانوا يَتَحرَّجونَ الأكْلَ معَ هؤلاءِ تَقَزُّزاً واسْتِقْذاراً، فَرَغَّبَهُمْ في الأكْلِ مَعَ أولئكَ وتَرْكِ التَّقَزُّزِ مِنْ ذلكَ.

ويَدُلُّ التأويلُ الأوَّلُ [على][5] ما رُوِيَ عنْ أصحابِ رسولِ اللهِ؛ رُوِيَ عنْ محمدِ بنِ عليٍّ [أنهُ][6] قالَ: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ لا يَرَى أحَدُهُمْ أنهُ أحقُّ بالدّنانيرِ والدراهمِ مِنْ أخيهِ المُسْلِمِ. قالَ: وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ يكونُ الدينارُ والدراهمُ أحَبُّ إلى الرجلِ مِنْ أخيهِ المُسْلِمِ» [بنحوه أحمد: ٢/ ٤٢].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ [أنهُ][7] قالَ: «لقد رَأيتني ومالُ الرجلِ المُسْلِمِ أحَقُّ بدينارِه ودِرْهَمِهِ مِنْ أخيهِ المُسْلِمِ» [بنحوه أحمد ٢/ ٨٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ يحتملُ قولُهُ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي يُسَلِّمُ بعضُكُمْ على بعضٍ. فَصَيَّرَ المُسْلِمينَ أجمَعينَ[8] بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ كأنفُسِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي لا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وقولِهِ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] ونَحوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

فَصَيَّرَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ كأنفسِهِمْ لأنهمْ كشيءٍ واحدٍ؛ يَتَألَّمُ بَعْضُهُمْ بألمِ بَعْضٍ، ويَحْزَنُ بَعْضُهُمْ بِحُزْنِ بَعْضٍ، ويُسَرُّ بَعْضُهُمْ بسرورِ بَعْضٍ ونَحْوَهُ. فَهُمْ جميعاً كَشيءٍ واحدٍ، وأنفسُهُمْ جميعاً كَنَفْسٍ واحدةٍ. لِذلكَ جَعَلَ سَلامَ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ في حقِّ السَّلامةِ[9] واحداً.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ، وهو أنَّ بَعْضَهُمْ إذا سَلَّمَ على بَعْضٍ، رَدَّ عليهِ مِثْلَهُ، فَيَصيرُ كأنهُ هو يُسَلِّمُ على نَفْسِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي لا يَقْتُلْ أحدٌ آخَرَ، فَيُقْتَلَ بهِ، فيكونَ قاتلَ نفسِهِ، إذْ لولا قَتْلُهُ إيّاهُ، لم يُقْتَلْ بهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ إنهُ إذا أكلَ مالَ غَيرِهِ بِغَيرِ رضاهُ ضَمِنَهُ، فإذا ضَمِنَهُ فكأنهُ أكلَ مالَ نَفْسِهِ بالباطلِ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ أرادَ بهِ السَّلامَ على أنْفُسِهِمْ، أي يُسَلِّمُ كلٌّ على نفسِهِ، وإنْ لم يَكُنْ فيه أحَدٌ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][10] قالَ: أرادَ المساجدَ؛ إذا دَخَلْتَها فَقُلْ السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالِحينَ [وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ دَخَلَ بَيتاً أو مَسْجداً ليسَ فيهِ أحدٌ فَلْيَقُلْ: السلامُ علينا مِنْ رَبِّنا، والسلامُ على عبادِ اللهِ الصالحينَ»][11] [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ١٧٤].

وعلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بِتَرْكِ الإنفاقِ عليها وغَيرِهِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾.

وجائزٌ أنْ يُرادَ بالأنفُسِ أهلُهُمْ، أي سَلِّموا على أهْلِكُمْ، وهو الأولَى.

ثم اختُلِفَ في السَّلامِ: قالَ بَعْضُهُمْ: السَّلامُ مِنَ السَّلامةِ مِنْ جميعِ الآفاتِ والنَّكَباتِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: السَّلامُ هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى الحُسْنَى؛ فَتأويلُهُ: عليكَ اسْمُ اللهِ الذي لا [يَضُرُّكَ مَعَهُ][12] شيءٌ، ولا يَلْحَقُكَ بِهِ أذًى كقولِهِ «بسمِ اللهِ الذي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ» [أحمد: ١/ ٦٢ و٦٣].

---

(١) في الأصل وم: وحده. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الأعمى ومن ذلك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أجمع. (٩) في الأصل وم: السلام. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: يضر معك.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ التَّحِيَّةُ كأنّها الكَرامَةُ، كأنهُ قالَ: كَرامَةٌ مِن عندِ اللهِ لكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ المُبارَكُ هو الذي يُنالُ بِهِ كلُّ خَيرٍ وبِرٍّ، أو [سُمِّيَ مُباركاً][1] لِما فيهِ يَنمو الشيءُ، ويَزْكو.

وقولُهُ تعالى: ﴿طَيِّبَةً﴾ أي ما يَستطيبُهُ[2] كلُّ أحدٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿طَيِّبَةً﴾ أي حَسَنَةً؛ فتَأويلُهُ: ما يَسْتَحسِنُهُ[3] كلُّ أحدٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ: سَلامٌ مِن أمرِ اللهِ لكمْ ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ بالأجرِ ﴿طَيِّبَةً﴾ بالمَغفِرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ﴾ أي مَثَلَ الذي ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كي تَعْقِلوا ما لَكُمْ وما عليكُمْ وما للهِ عليكُمْ وما لِبَعْضِكُمْ على بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ ما ذَكَرْنا. قالَ بَعْضُهُمْ: المساجِدُ، وقالَ بعضُهُمْ: البيوتُ المَسْكونةُ كقولِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٢٧].

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ كقولِهِ[4] في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية [الحجرات: ١٥] وقولِهِ[5] في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

هذا، واللهُ أعلَمُ، ليسَ أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ الاسْتِئذانِ وتَرْكِ الارْتِيابِ وزيادةِ الإيمانِ بالتِّلاوةِ ونَحوَهُ مِن شَرْطِ الإيمانِ. ولكنْ، واللهُ أعلَمُ، إنَّ الأولَى بالمُؤمِنينَ هذا: ألّا يَذهبوا حتى يَسْتَأذِنوا رسولَهُ، وألّا يَرْتابوا، وأنْ يُجاهِدوا، وأنْ تَزيدَهُمُ[6] التِّلاوةُ ما ذَكَرَ. ليسَ على جَعْلِهِ شَرْطاً للإيمانِ، ولكنْ ما ذَكَرْنا مِنَ الأولَى بهِمْ والاخْتيارِ لهمْ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ أنَّ المؤمنينَ لا يَذْهبونَ عنهُ، ولا يُفارِقونَهُ إلّا بالاسْتِئذانِ منهمْ من رسولِ اللهِ، وذَكَرَ أنَّ المُنافِقينَ يَذْهبونَ، ويُفارِقونَ تَسَلُّلاً ولِواذاً حينَ[7] قالَ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٤٤] ذَكَرَ أنهمْ لا يَستأذِنونَكَ، وإنما يَستأذِنُكَ/ ٣٧٤ ـ أ/ المنافِقونَ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٤٥].

فهذهِ الآياتُ في ظاهِرِ المَخرَجِ مُختَلِفةٌ، وإنْ كانَتْ في المَعاني المُدْرَجةِ فيها مُتوافِقةً[8]. فهذا يُبْطِلُ قولَ مَنْ يَحتَجُّ بظاهِرِ المَخرَجِ؛ إذْ لِلْمُلْحِدَةِ أنْ تقولَ: هو مُختَلِفٌ في الظاهِرِ، وإنهُ مِن عندِ غَيرِ اللهِ يقولُهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فَدَلَّ ما ذَكَرْنا أنَّ الاحْتِجاجَ بظاهِرِ المَخرَجِ باطلٌ، والاعْتِقادَ بهِ فاسدٌ خَبالٌ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِن اسْتِئذانِ المؤمنينَ وتَرْكِ اسْتِئذانِ أولئكَ لِلخُروجِ منهُ لِما لا يَسْتَأذِنُهُ المؤمنونَ لِلخُروجِ مِن عندِهِ إلّا بِعُذرٍ، وأولئكَ يَستأذِنونَهُ لِلخُروجِ لا لِلعُذرِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]. وأمّا المؤمنونَ فلا يَستأذِنونَهُ إلّا بِعُذرٍ، أو أنْ يكونَ ذلكَ في نوازِلَ مُختَلِفةٍ أو في فِرَقٍ، أو أنْ يكونَ المؤمنونَ يُظهِرونَ لهُ عُذرَهُمْ، ويُفَوِّضونَ أمورَهُمْ إلى رسولِ اللهِ على أنْ يَنْظُرَ في ذلكَ؛ فإنْ رَأى الصوابَ الكَونَ والمُقامَ مَعَهُ أقاموا مَعَهُ، والمُنافِقونَ لا على ذلكَ كانوا يَفْعَلونَ.

وعلى هذا، واللهُ أعلَمُ، جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآياتِ التي ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي مَعَ رسولِ اللهِ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: يومُ الجُمُعةِ ويومُ

---

(١) في الأصل وم: يسمى مباركة. (٢) في الأصل وم: يستطيب به. (٣) في الأصل وم: يستحسن به. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: يزداد لهم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: موافقة.

العيدِ. وقالَ بعضُهُمْ: في الغَزْوِ والجهادِ في سَبيلِ اللهِ؛ يُخبِرُ أنَّ المؤمِنينَ يكونونَ مَعَهُ، لا يَذهَبونَ عنهُ إلّا بإذنٍ، والمُنافِقينَ يَتَسَلَّلونَ، ويَذهَبونَ: مُستَخفِينَ منهُ، ويَقعُدونَ، ويَخرُجونَ مِنْ عندِهِ.

وأصلُهُ: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أي مَعَ رسولِ اللهِ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ على أمرِ طاعةٍ ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

قالَ بَعضٌ مِنْ أهلِ التأويلِ: هذه الآيةُ نَسَخَتِ الآيةَ التي في سورةِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ حيثُ قالَ في ذاكَ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآية [الآية: ٤٣] وقالَ في سورةِ النورِ ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أذِنَ لهُ بالإذنِ لهم. لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأمْرُ بالاستِغفارِ لهمْ يُخرَّجُ مُخرَجَ الأمرِ بالتَّشفُّعِ لهمْ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ﴾ إيّاكُمْ إلى ما يَدعوكُمْ إليهِ ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ مَرَّةً تُجيبونَهُ، ومَرَّةً لا تُجيبونَهُ كما يُجيبُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً إذا دعاهُ مَرَّةً، ولا يُجيبُهُ تارةً. بَلْ أجيبوا رسولَ اللهِ في جميعِ ما يَدعوكُمْ إليهِ في كلِّ حالٍ تكونونَ.

والثاني: لا تَجعلوا دُعاءَكُمُ الرسولَ إذا دَعَوتُموهُ كما يَدْعو بَعْضُكُمْ بَعْضاً: يا فلانُ، ويا فلانُ، ولكنِ [ادْعُوهُ بِاسْمِهِ المَخصوصِ][١] بهِ: يا رسولَ اللهِ، ويا نَبيَّ اللهِ على ما أقْرَرْتُمْ أنهُ مَخصوصٌ مِنْ بَيْنِكُمْ ، ليسَ كَمِثْلِكُمْ.

فَعَلى ذلكَ في الدُّعاءِ والإجابةِ اجْعَلوهُ مَخصوصاً تَعْظيماً لهُ وإجلالاً خصوصيَّةً لهُ وفَضيلَةً، وهو ما ذَكَرَ[٢] في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ المُنافقينَ إذا كانوا في أمْرٍ جامعٍ، فَيَسْمَعونَ رسولَ اللهِ، يَذْكُرُ مَثالِبَهُمْ ومَساوِئَهُمْ وعُيوبَهُمْ، فَيَتَسَلَّلونَ كراهيةَ لِما سَمِعوا؛ يَلوذُ بَعضُهُمْ [بِبَعْضٍ، وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتْ][٣] هذهِ في المُنافقينَ الذينَ كانوا يَذْهَبونَ عنهُ، ويَخرُجونَ مِنْ عندِهِ بِغيرِ اسْتِئْذانٍ منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِوَاذًا﴾ أي يَسْتَتِرونَ بالشيءِ، ويَلوذُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، ويَسْتُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً[٤]، فَيَخرُجونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي يُخالِفونَ أمْرَهُ، وحَرْفُ ﴿عَنْ﴾ يكونُ صِلَةً فيهِ.

وجائِزٌ أنْ يكونَ على ظاهرِ ما ذَكَرَ ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ فإنْ كانَ على هذا فكأنهُ قالَ: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي[٥] يَعْدِلونَ عنْ أمْرِهِ، ويَزيغونَ عنهُ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبإ: ١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ تَحْتَمِلُ الفِتْنَةُ الكُفْرَ [وتَحْتَمِلُ][٦] القِتالَ والتَّعْذيبَ في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ ليسَ ههنا ما يَسْتَقيمُ أنْ يَجْعَلَ قولُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ صِلَةً لهُ؛ اللَّهُمَّ إلّا أنْ يَجْعَلَ ذلكَ صِلَةَ قولِ[٧] مَنْ يَجْعَلُ لهُ الوَلَدَ والشريكَ أو صِلَةَ قولِهِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فنقولُ: مَنْ لهُ ما في السمواتِ والأرضِ لا يَحْتَمِلُ أنْ تَقَعَ [لهُ][٨] الحاجةُ إلى الوَلَدِ أو الشَّريكِ، ومَنْ لهُ مُلْكُ ما في السمواتِ والأرضِ يختارُ لِرِسالتِهِ مَنْ يَشاءُ بَشَراً أو مَلَكاً، ليسَ لأحدِ القولُ في ذلكَ القولِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل: ادعوا باسم هو مخصوص. (٢) من م، في الأصل: ذكرنا. (٣) في الأصل: نزل، في م: ببعض، وقال بعضهم: نزل. (٤) في الأصل وم: ببعض. (٥) من م، في الأصل: و. (٦) من م، في الأصل: و. (٧) في الأصل وم: قوله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ هذا وعيدٌ وإعلامٌ أنهُ مُراقِبُهُمْ مُطَّلِعٌ عليهِمْ في جميعِ أحوالِهِمْ لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ؛ لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ عليهِ رقيباً وحافظاً كانَ أنْبَهَ وأيْقَظَ وأحْذَرَ مِمَّنْ لا يَعْلَمُ ذلكَ، أو يكونُ على عِلْمٍ بأحوالِكُمْ وما أنتُمْ عليهِ مِنَ الخِلافِ لأمْرِهِ [لأنهُ خَلَقَكُمْ، وأرسلَ إليكمْ رُسُلاً][1] لا على جَهْلٍ بذلكَ وغَفْلَةٍ، أو يُؤَخِّرُ عنكُمُ العذابَ على عِلْمٍ بما أنْتُمْ عليهِ لِلْيومِ المَوعودِ لا بِسَهْوٍ وغَفْلَةٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢].

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ أي إنما يُؤَخِّرُ ذلكَ عنهمْ إلى يومِ الرجوعِ إليهِ. فعندَ ذلكَ يُنَبِّئُهُمْ ﴿بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي يَذْهبونَ مُسْتَخْفينَ، ويقالُ: انْسَلَّ الرجُلُ أي انْسَرَقَ مِنَ الناسِ، أي فارَقَهُمْ، ولا يَعْلَمونَ بهِ والتَّسَلُّلُ [إنما يُسْتَعْمَلُ][2] إذا كانَ الاِسْتِخْفاءُ مِنَ الجماعةِ، وقولُهُ: ﴿لِوَاذًاۚ﴾ يُقالُ: لاذَ مِنّي، أي اسْتَتَرَ، واخْتَبَأَ مِنّي، واخْتَفَى، ويُقالُ: لاذَ بي، أي اسْتَتَرَ بي.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ﴾ أي [يَسْتَتِرُ كُلٌّ][3] بصاحِبِهِ في انْسِلالِهِ، ويَخْرُجُ، يُقالُ: لاذَ فلانٌ، واللِّواذُ مَصْدَرٌ [وصَلَّى اللهُ سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ، وبهِ نَستعينُ][4].

(١) في الأصل وم: خلقكم أو أرسل إليكم رسولاً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: من يستتر. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

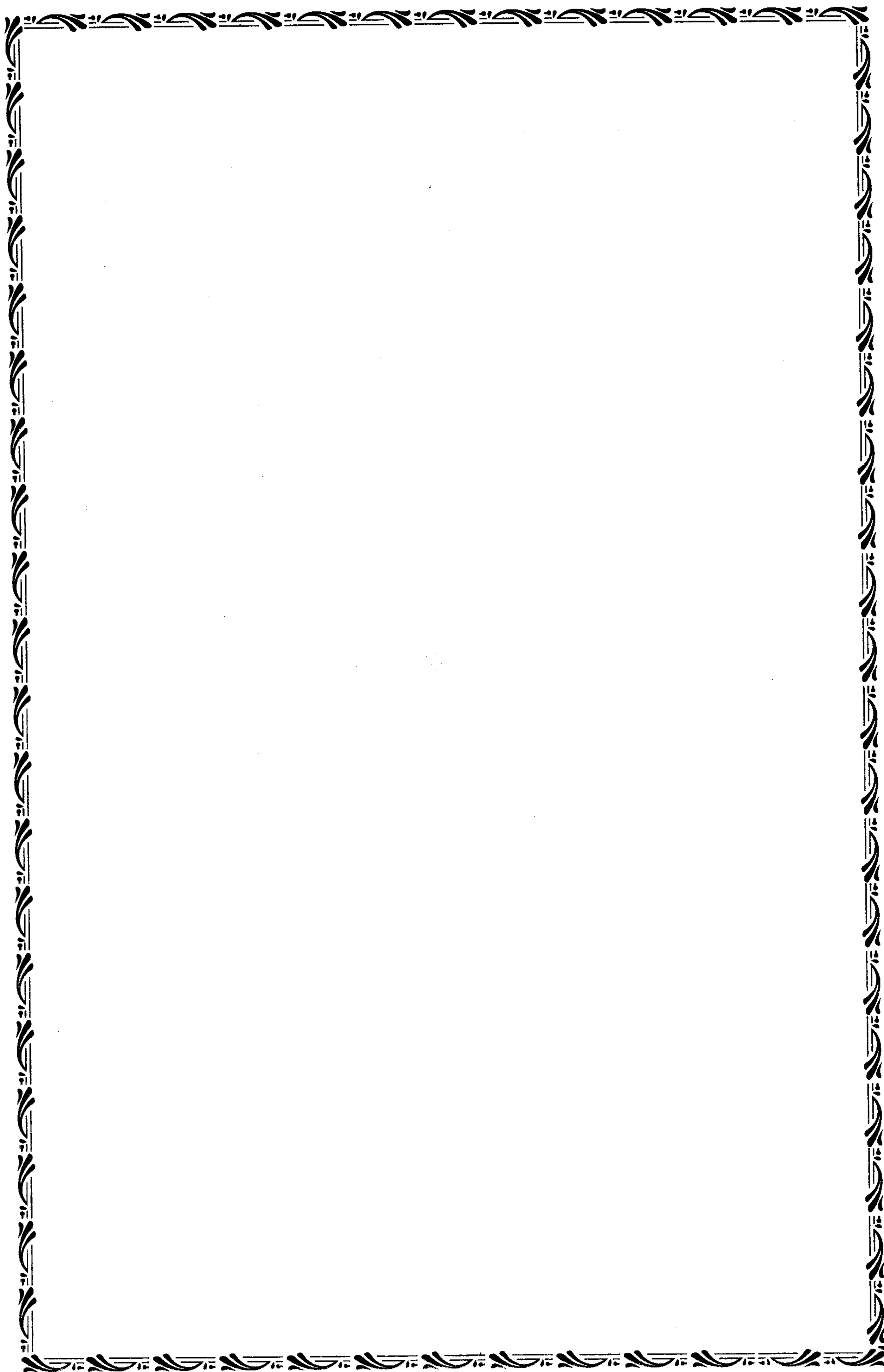

سورة الفرقان

مَكِّيَّةٌ(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿تَبَارَكَ﴾ مِنَ التَّفاعُلِ، وهو مِن تَعالى لأنَّ البَرَكَةَ هي اسْمُ كلِّ رِفْعَةٍ وفَضِيلَةٍ وشَرَفٍ، فكانَ تأويلُهُ: تعالَى مِنَ التَّعالي والارْتِفاعِ.

وقالَ أهلُ الأدبِ: ﴿تَبَارَكَ﴾ هو مِنَ البَرَكَةِ، والبَرَكَةُ هي اسْمُ كلِّ فَضلٍ وبِرٍّ وخَيرٍ، أي بِهِ يُنالُ كلُّ فَضلٍ/ ٣٧٤ ـ ب/ وشَرَفٍ وبِرٍّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَبَارَكَ﴾ هو تَنْزِيهٌ، مِثْلُ قولِكَ: تَعالى: وقالَ الكِسائيُّ والقُتَبِيُّ: هو مِنَ البَرَكَةِ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ سَمَّاهُ فُرْقاناً. قالَ بعضُهُمْ: لأنهُ يُفَرِّقُ بَينَ الحَقِّ والباطلِ وبَينَ الحلالِ والحرامِ وبَينَ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى.

وعلى هذا جائزٌ أنْ تُسَمَّى جميعُ كُتُبِ اللهِ التي أنْزَلَها على رُسُلِهِ فُرْقاناً لأنها تُفَرِّقُ بَينَ الحَقِّ والباطلِ وبَينَ ما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ وبَينَ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى. ولذلكَ سَمَّى التوراةَ فُرْقاناً بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وأمّا القرآنُ فهو مِنْ قَرَنَ بَعْضَهُ إلى بَعْضٍ؛ يُقالُ: قَرَنْتُ الشيءَ إلى الشيءِ، إذا ضَمَمْتُهُ إليهِ، قَرَنَ يَقْرِنُ قَرْناً.

وقالَ بعضُهُمْ: سَمَّى [القُرْآنَ فُرْقاناً](٢) لأنهُ أنْزَلَهُ بالتَّفاريقِ مُفَرَّقاً، وسائرُ الكُتُبِ أُنْزِلَ مَجموعةً. لكنَّ الوَجْهَ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً، وهو أقْرَبُ وأشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أيِ القرآنُ الذي أنْزَلَهُ على عبدِهِ يكونُ نذيراً لِمَنْ ذَكَرَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي ليكونَ محمدٌ بالقرآنِ الذي أنْزَلَ عليهِ نَذيراً كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وكقولِهِ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي مَنْ بَلَغَهُ القرآنُ مِنَ الخَلْقِ فَرسولُ اللهِ نَذيرُهُ.

ثم قولُهُ: ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ جائزٌ أنْ يُرادَ بهِ الإنْسُ والجِنُّ.

ثم ذَكَرَ النِّذارَةَ فيهِ، ولم يَذْكُرِ البِشارَةَ. فإنْ كانَ على هذا فهو حُجَّةٌ لأبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنْ ليسَ لِلْجِنِّ ثوابٌ إذا أطاعوا سِوَى النَّجاةِ مِنَ العِقابِ، ولهمْ عِقابٌ بالأجْرامِ، لأنَّ اللهَ تعالى، لم يَذْكُرْ لهمُ الثوابَ في الكتابِ، وذَكَرَ لهمُ العِقابَ بالعِصْيانِ حينَ(٣) قالَ: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾ الآية [الأحقاف: ٣١] جَعَلَ ثوابَهُمْ نَجاتَهُمْ مِنْ عذابٍ أليمٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في النِّذارةِ بِشارةٌ أيضاً؛ [بِشارَةٌ](٤) ما كانَ وما يكونُ إلى يومِ القِيامةِ؛ لأنهمْ إذا اتَّقوا مُخالَفَةَ اللهِ ومَعاصِيَهُ كانَتْ لهمُ العاقبةُ، فَلَهُمْ بِشارةٌ في ذلكَ ونِذارةٌ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

---

(١) من م، أدرج قبلها في الأصل: كلها أنزلت بمكة وهي. (٢) من م، في الأصل: الفرقان قرآنا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وَوَجْهُها[(١)]، واللهُ أعلَمُ: أي تعالى عَنْ أنْ يكونَ النَّذيرَ الذي بَعَثَهُ إليهِمْ، إنما بَعَثَهُ لِحاجةِ نفسِهِ: لِجَرِّ مَنْفَعَةٍ إليهِ أو لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ عنهُ على [ما يَبْعَثُ][(٢)] ملوكُ الأرضِ مِنَ الرُّسُلِ لِحوائجِ أنفسِهِم: إمَّا لِجَرِّ مَنْفَعَةٍ إليهِمْ أو لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ عنهُمْ.

ولكنْ إنما يَبْعَثُ النَّذيرَ والبَشيرَ إلى الخَلْقِ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ، إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَنْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ أنْ يَبْعَثَ النَّذيرَ والبَشيرَ لِمَنافِعِ نفسِهِ ولحاجَتِهِ لِغِناهُ.

وأمَّا مُلوكُ الأرضِ فلا يَمْلِكونَ ذلكَ، ويَبْعَثونَ[(٣)] الرُّسُلَ، ويُرْسِلونَ لِمَنافِعِ أنفُسِهِمْ وحوائجِهِمْ: لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ أو جَرِّ مَنْفَعَةٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تَعالَى عَنْ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً أو شَريكاً في المُلْكِ على ما نَسَبوا إليهِ مِنَ الوَلَدِ أو الشَّريكِ، فقالَ: تَعالَى عنْ أنْ يكونَ لهُ الوَلَدُ أوِ الشريكُ؛ إذْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ. فالوَلَدُ في الشاهِدِ إنما يُتَّخَذُ لإحْدَى خِلالٍ ثلاثٍ، وقد ذَكَرْنا.

وبَعْدُ فإنَّ الوَلَدَ في الشاهِدِ إنما يكونُ مِنْ جِنْسِ الوالدِ ومِنْ جَوهَرِهِ، ويكونُ مِنْ أشكالِهِ. وكلُّ ذي شَكْلٍ تكونُ فيهِ مَنْفَعَةٌ وآفَةٌ. وكذلكَ الشريكُ إنما يكونُ مِنْ جِنْسِهِ ومِنْ شَكْلِهِ، وإنما تَقَعُ الحاجةُ إلى [الوَلَدِ أو الشريكِ إمَّا لِعَجْزٍ أو آفةٍ][(٤)].

فإذا كان اللهُ، سُبْحانَهُ، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو خالِقَها، فأنَّى تَقَعُ لهُ الحاجةُ إلى الوَلَدِ أو الشريكِ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾: فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ خَلَقَ كلَّ شيءٍ. وعلى قولِهِمْ: أكثَرُ الأشياءِ، لم يَخْلُقْها، مِنَ الحَرَكاتِ والسُّكونِ والاجْتِماعِ والافْتِراقِ[(٥)] وجميعِ الأعراضِ؛ فَهُمْ[(٦)] يقولونَ: إنها ليسَتْ بمخلوقَةِ اللهِ، ولا صُنْعَ لهُ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ لِحِكْمَةٍ، أو قَدَّرَهُ تَقْديراً لِوَحْدانِيَّتِهِ[(٧)] والوهِيَّتِهِ، أو قَدَّرَهُ تقديراً؛ أي جَعَلَ لهُ حَدًّا؛ لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائقُ على ذلكَ ما عَرَفوا قَدْرَهُ ولا حَدَّهُ مِنْ صلاحٍ وغيرِهِ ما لو لم يُقَدِّرْ ذلكَ لَفَسَدَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي مَعْبودينَ[(٨)]. ثم تَسْمِيَتُهُ إيَّاها؛ أعني الأصنامَ التي عَبَدوها، آلِهَةً، [على ما عندَهمْ وفي زعمِهِمْ][(٩)] فالإلهُ عندَ العَرَبِ مَعْبودٌ، ويُسَمُّونَ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً [وهو كقولِهِ][(١٠)]: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] عندَهُمْ وفي زَعْمِهِمْ، وقولِ موسى﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] في زَعْمِهِمْ وعندَهم أنَّ كلَّ معبودٍ إلهٌ.

لقد[(١١)] عابَهُمْ بِتَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ آلِهةً، ثم بَيَّنَ سَفَهَهُمْ وقلةَ فَهْمِهِمْ في عبادَتِهِمُ الأصنامَ وتَسْمِيَتِهِمْ إيَّاها آلِهةً حينَ[(١٢)] قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي يَتْرُكونَ عبادةَ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ خالِقُ كلِّ شيءٍ، ويَعْبُدونَ مَنْ يَعْلَمونَ أنهمْ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي[(١٣)] يَتْرُكونَ عبادةَ مَنْ يَعْلَمونَ [أنهُ يَمْلِكُ النَّفْعَ والضَّرَّ][(١٤)] [[ويَعْبُدونَ مَنْ يَعْلَمونَ][(١٥)] أنهُ لا يَمْلِكُ النَّفْعَ لهمْ ولا الضَّرَّ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي يَعْبُدونَ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يَمْلِكُ النَّفْعَ لهمْ إنْ عَبَدوهُ ولا الضَّرَّ إنْ تَرَكوا عبادَتَهُ، ولا يَمْلِكونَ النَّفْعَ والضَّرَّ][(١٦)] لأنفسِهِمْ أيضاً، وهو قولُهُ: ﴿وَلَا

---

(١) في الأصل وم: ووجهه. (٢) في الأصل وم: يبعثه. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: من الرسل إنما يبعثو من. (٤) في الأصل: إما لعجز لا رأفة، في م: الولد إما لعجز أو آفة. (٥) في الأصل وم: والتفرق. (٦) في الأصل وم: لأنهم. (٧) في الأصل وم: لوحدانية الله. (٨) في الأصل وم: معبود. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وكذلك قوله. (١١) في الأصل وم: وإلا. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من م.

﴿يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ لِغيرِهِمْ. فعلى هذا الظاهرُ يَجيءُ أنْ يكونوا هم سَمَّوا أنفُسَهُمُ [الأصنامَ آلهةً][(١)] لأنهمْ يَمْلِكونَ ضَرَرَ الأصنام، ولا[(٢)] تَمْلِكُ ذلكَ لهمْ ولا لأنفُسِها.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي المَوتَ الذي[(٣)] كانَ قبلَ أنْ يُخلَقَ الناسُ كقولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾؟ [البقرة: ٢٨]. وأمَّا قولُهُ: ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ فيقولُ: لا يَمْلِكونَ أنْ يَزيدوا في هذا الأجَلِ المُؤَجَّلِ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ أي بَعْثاً بَعْدَ المَوتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أنْ يُميتوا حَيًّا قَبْلَ أجلِهِ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ ولا يُحْيُوا[(٤)] مَيْتاً إذا جاءَ أجلُهُ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ أي بَعْثاً على ما ذَكَرْنا، وباللهِ العِصْمَةُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يَعْنونَ هذا القرآنَ الذي أُنْزِلَ على رسولِهِ[(٥)]، وكانَ يَقرَؤُهُ عليهِمْ، فيقولونَ[(٦)]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كَذِبٌ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ واخْتَرَعَهُ[(٧)] من نَفْسِهِ.

إنَّ أهلَ الشركِ كانوا يُكَذِّبونَ الأنباءَ والأخبارَ مِنْ غَيرِ أنْ كانَتْ لهمُ الأسبابُ التي بها ما يُوصَلُ إلى مَعْرِفةِ صِدْقِ الأخبارِ وكَذِبِها. وكذلكَ كانَتْ عادتُهُمْ وهِمَّتُهُمْ. والأسبابُ التي يُعْرَفُ بها صِدْقُ الأخبارِ وكَذِبُها، هي الكُتُبُ السماويَّةُ والرُّسُلُ الذينَ[(٨)] نَطَقوا عنْ وَحْيِ السماءِ.

فكُفَّارُ مكةَ لم يكُنْ لهمْ واحدٌ مِنْ هذينِ. فكيفَ ادَّعَوا على رسولِ اللهِ اخْتِلافَ هذا القرآنِ واخْتِراعَهُ مِنْ نفسِهِ وأنهُ مُفْتَرٍ على غَيرِ كَونِ أسبابِ مَعْرِفةِ الكَذِبِ والصِّدْقِ لهم في الأخبارِ مَعَ ما ظَهَرَتْ لهمْ آياتُ رسالتِهِ وأعلامُ صِدْقِهِ في الإخبارِ حينَ[(٩)] لم يُؤْخَذْ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ، ولا رَأَوهُ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ مِنْ أهلِ الكتابِ، ولا كانَ يُحْسِنُ أنْ يَخُطَّ بيدِهِ كتاباً، وما قَرَعَ أسماعَهُمْ مِنْ أوَّلِ الأمرِ إلى آخِرِ الأبَدِ [التَّحْريرُ والتَّقْريعُ بقولِهِ][(١٠)]: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقولِهِ: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

فَدَلَّ عَجزُهُمْ وتَرْكُ تكَلُّفِهِمْ ذلكَ على أنهمْ عَرَفوا أنهُ مِنْ عندِ اللهِ وأنهمْ/ ٣٧٥ ـ أ/ كَذَبَةٌ في قولِهِمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قالوا: إنهُ إفْكٌ مُفْتَرًى، وأعانَهُ على ذلكَ قومٌ آخرونَ في افْتِرائِهِ واخْتِراعِهِ، وهم قومٌ مِنْ أهلِ الكتابِ، أسْلَموا، وقد كانوا يَجِدونَ في التوراةِ والإنجيلِ بَعْثَهُ[(١١)] وصِفَتَهُ وماكانَ أنْبَأَهُمْ رسولُ اللهِ، وأخْبَرَهُمْ[(١٢)] مِنَ الأنباءِ المُتَقَدِّمةِ والأخبارِ الماضيةِ، فأخْبَرُوهُمْ بذلكَ حينَ سأَلَهُمْ أولئكَ المُشْرِكينَ عمَّا يُخْبِرُهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ وقالوا: إنهُ كما يَقولُ، وإنهُ صادقٌ في ذلكَ كلِّهِ، وإنا نَجِدُ ذلكَ في كِتابِنا.

فلما سَمِعوا ذلكَ مِنْ أهلِ الكتابِ ما سَمِعوا مِنْ تَصْديقِهِمْ إياهُ؛ عندَ ذلكَ قالوا: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

ثم أخْبَرَ أنهمْ﴿جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾. أمَّا قولُهُ: ﴿ظُلْمًا﴾ فلأنهمْ كذَّبوهُ [وقالوا][(١٣)]: إنهُ مُفْتَرًى مِنْ غَيرِ أنْ كانَ لهمْ أسبابُ الكَذِبِ والصِّدْقِ. فهو ظُلْمٌ حينَ[(١٤)] وَضَعوا ذلكَ [في غَيرِ مَوْضِعِهِ][(١٥)].

وأمَّا قولُهُ: ﴿وَزُورًا﴾ فلأنهمْ[(١٦)] قالوا: إنهُ مُخْتَلِفٌ، وإنهُ سِحْرٌ، وإنهُ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وإنهُ أعانَهُ ﴿عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

الآية ٥ [وقولُهُ تعالى][(١٧)]: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قد ظَهَرَ كَذِبُهُمْ بهذا في ما بَيْنَهُمْ، لأنهمْ، ما[(١٨)] رَأَوهُ اخْتَلَفَ إلى واحدٍ منهمْ، يُعَلِّمُهُ ذلكَ، وما[(١٩)] رَأَوهُ كَتَبَ شيئاً قَطُّ، أو يُحْسِنُ الكِتابَةَ قَطُّ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: آلهة لا أصنام. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: التي. (٤) في الأصل وم: يحيون. (٥) من م، في الأصل: رسول الله. (٦) من م، في الأصل: بقوله. (٧) في الأصل وم: ويخترعه. (٨) في الأصل وم: الذين. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قوله. (١١) في الأصل وم: نعته. (١٢) في الأصل وم: ويخبرهم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل: غير موضوعه، في م: غير موضعه. (١٦) في الأصل: كأنهم، في م: لأنهم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: متى. (١٩) في الأصل وم: أو متى.

فإذا عَرَفَ تلكَ الأنباءَ والأحاديثَ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ، ولاشَكَّ أنها لم تكنْ بلسانِ أولئكَ، دلَّ إخبارُهُ عمَّا في كُتُبِهِمْ بلسانِهِ أنهُ عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: غُدُوًّا وعَشِيًّا. فلو كانَ على ذلكَ لكانَ [الكَفَرَةُ][1] يَحْضُرُونَهُ في البُكْرَةِ والعَشِيِّ، فَيَسْمَعُونَهُ، ويُشاهِدونَ[2] ما يُمْلَى عليهِ؛ إذِ الوَقْتُ وَقْتُ الحُضورِ.

ولكنْ عندَنا كأنَّهُمْ أرادوا بالبُكْرَةِ والعَشِيِّ أوَّلَ الليلِ وآخِرَهُ الأوقاتَ التي هي ليسَتْ بأوقاتِ الحُضورِ والجلوسِ؛ يقولونَ: يأتونَهُ سِرًّا [وهي، تُمْلَى عليهِ، ويَتَعَلَّمها][3]. فلو كانَ ذلكَ أيضاً لكانوا يُراقِبونَهُ، ويُحافِظونَهُ سِرًّا لِيَعْرِفوا ذلكَ، ويُشاهِدوهُ. فإذا لم يَفْعَلوا ذلكَ دلَّ أنهم كانوا يَعْرِفونَ صِدْقَهُ وأنهم كَذَبَةٌ في زَعْمِهِمْ. لكنهمْ كابَروهُ، وعانَدوهُ في ذلكَ.

الآية ٦ ثم أخبرَ أنهُ إنما أنزَلَهُ عليهِ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حينَ[4] قالَ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليسَ بِمُخْتَلَقٍ منهُ ولا مُفْتَرًى.

ثم قولُهُ: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يَعْلَمُ الأعمالَ الخَفِيَّةَ والسِّرِّيَّةَ مِنْ أهلِ السمواتِ والأرضِ، أي يَعْلَمُ الكوامِنَ التي في السموات والأرضِ وخَفِيَّاتِها.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي قُلْ لهمْ يا محمدُ: أنزَلَهُ أي هذا القرآنَ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ.

وذلكَ لأنهمْ[5] قالوا بمكةَ سِرًّا: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بل هو ساحِرٌ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

ففي ذلكَ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ لأنهمْ قالوا سِرًّا في ما بَيْنَهُمْ، ثم أخبَرَهُمْ بذلكَ. دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ في تأخيرِ العذابِ. يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إذا تابوا عنْ ذلكَ، وآمنوا بهِ، ورَجَعوا إلى الحقِّ أو﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ، أي برحْمَتِهِ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ، لَعَلَّهُمْ يَتوبونَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿تَبَارَكَ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ البَرَكَةِ. وكذلكَ قالَ الكِسائيُّ، وقد ذَكَرْنا ذلكَ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: تَنْزِيهٌ مِثْلُ قولِكَ: تعالى على ما ذَكَرْنا، وقالَ: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو الحقُّ، فَرَّقَ بينَ الحقِّ والباطِلِ، والقرآنُ، هو مِنْ قَرَنَ بَعْضاً إلى بَعْضٍ، والزَّبورُ، هو اسْمُ كتابٍ، والزُّبُرُ جَميعٌ، وزَبَرْتُ كَتَبْتُ، والزُّبَرُ قِطَعُ الحديدِ كقولِهِ: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] الواحدةُ[6] زُبْرَةٌ. والتوراةُ اسْمُ كتابٍ لا أظُنُّهُ بالعربيَّةِ[7]. وقالَ أبو مُعاذٍ: الأساطيرُ الأحاديثُ، واحِدَتُها[8] أسطورَةٌ كأُرْجوزَةٍ وأراجيزَ وأُحْدوثَةٍ وأحاديثَ وأعْجوبَةٍ وأعاجيبَ. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وهي تُمَلُّ عليهِ، وهما لُغتانِ[9]. وفي سورةِ البقرةِ: ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كانَ الكَفَرَةُ يَطْعَنونَ رسولَ اللهِ ﷺ بِشَيْئَيْنِ:

أحَدُهما: أنهُ مِنَ البَشَرِ بقولِهِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وقولِهِ[10] ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] كانوا لا يَرَوْنَ أنْ يكونَ مِنَ البَشَرِ رسولٌ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ الآية [الأنعام: ٨] وقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] ونَحْوُ ذلكَ.

والثاني: كانوا يَطْعَنونَهُ[11] بالفَقْرِ والحاجةِ وصَفارَةِ اليَدِ حينَ[12] قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويشاهدونه. (٣) في الأصل وم: فتملى عليه وتعلمه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) في الأصل وم: الواحد. (٧) دليل ظنه ما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]: وقيل سمي إنجيلاً لما يجلي، وهو من الإظهار في اللغة، وقيل: سمي التوراة توراة أوريت الزند: وهو كذلك، والله أعلم. (٨) في الأصل وم: واحدها. (٩) الأولى: أملى من مادة: م ل ي، والثانية: أَمَلَّ من مادة: م ل ل، انظر اللسان، ثم انظر معجم القراءات القرآنية ج١/ ٢٢١ وج٤/ ٢٧٤. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: يطعنون. (١٢) في الأصل وم: حيث.

[الفرقان: ٨] وحينَ[1] قالوا: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] يُنكِرونَ الرِّسالةَ في الفقراءِ وذوي الحاجةِ، ويَرَونَها في ذَوي المُلْكِ والأموالِ. ولذلكَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فَعَلَى ذلكَ قولُهُمْ: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وفي حوائجِهِ كما يَمْشي الفقراءُ. ولو كانَ رسولاً لكانَ مَلِكاً غنيًا، يأكلُ طعامَ الملوكِ، ولا تقعُ لهُ الحاجةُ إلى أنْ يَمْشِيَ في الأسواقِ وفي حوائجِهِ.

فأجابَ لهمْ في طَعْنِهِمْ فيهِ أنهُ بَشرٌ مِثْلُهُمْ وإنكارِهِمُ الرسالةَ في البَشرِ في وُجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الآية [الأنعام: ٨] مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ. أنهُ لا يُنْزِلُ المَلَكَ إلّا بالعذابِ. فلو أنْزَلَ لأنْزَلَ بالعذابِ، فأُهلِكوا.

والثاني: ما قالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الآية [الأنعام: ٩] تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ لم يَجْعَلْ في وُسْعِ البَشرِ رُؤيَةَ المَلَكِ على صُورَتِهِ وعلى ما هو عليهِ؛ إذْ جِنْسُ هذا غيرُ جِنسِ أولئكَ، وجَوهَرُهُ غيرُ جوهرِ أولئكَ. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ هكذا كُنَّا لَبَسْنا عليهِمْ ما كانَ يَلْبِسُ أولئكَ القادةُ على الأتباعِ كقولِهِمْ[2]: إنهُ ساحرٌ، وإنهُ كذَّابٌ، وإنهُ مَجنونٌ، فكانَ ذلكَ تَلْبيساً[3] عليهِمْ.

والثالثُ: ما قالَ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ الآية [الإسراء: ٩٥] أي لو كانَ أهلُ الأرضِ ملائكةً لكُنَّا أنزَلْنا عليهِمُ الرسولَ مَلَكاً مِنْ جِنْسِهِمْ وجَوهَرِهِمْ لأنهمْ أعْرَفُ بِهِ، وأظهَرُ صِدْقاً عندَهُمْ مِمَّنْ هو مِنْ غيرِ جَوهَرِهِمْ وجِنْسِهِمْ.

فإذا كانَ أهلُ الأرضِ بَشَراً فالرسولُ إذَنْ كانَ منهمْ؛ فهُمْ أعْرَفُ بِهِ، وصِدْقُهُ أظْهَرُ عندَهُمْ، وقلوبُهُمْ إليهِ أميَلُ إلى مَنْ هو مِنْ غيرِ جِنْسِهِمْ.

وأجابَ لِطَعْنِهِمْ في أكلِهِ ومَشْيِهِ في الأسواقِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] في حَوائِجِهِمْ، أي[5] غيرُهُ مِنَ الرسلِ الذينَ تُؤمنونَ أنتمْ بهمْ كانوا فُقراءَ، يأكلونَ الطعامَ، ويَمشونَ في حَوائجِ أنفسِهِمْ. ثم لم يَمْنَعْ ذلكَ عنْ أنْ يكونوا مَوضِعاً لِرسالَتِهِ.

فَعَلى ذلكَ محمدٌ: الفَقيرُ وذو الحاجةِ أحقُّ أنْ يكونَ مَوضِعاً لِرسالَتِهِ مِنَ الغَنيِّ، الثَّريِّ لأنَّ الناسَ يَتْبَعونَ الغَنِيَّ ومَنْ لهُ المُلْكُ والثَّرْوَةُ. فلو كانَ الرسولُ غنيًا ثَريًّا مَلِكاً لكانَ لا يَظْهَرُ مُتَّبِعُ الحَقِّ مِنْ غيرِهِ. وإذا كانَ فَقِيراً مُحْتاجاً لَظَهَرَ ذلكَ، اللَّهُمَّ إلّا أنْ يكونَ مُلْكُهُ[6] هو آيةٌ لِرسالَتِهِ[7] نَحْوَ مُلْكِ سُليمانَ وداوودَ. [وذلكَ بِنَفْسِهِ][8] آيةٌ لِرسالَتِهِ على ما قالَ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ كأنهم قالوا ذلكَ لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ قالوا / ٣٧٥ ـ ب/ عندَ ذلكَ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾.

الآية ٨ وقالوا: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ عندَ سَماعِ قولِهِ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٢] أي قالوا: لو كانَ محمدٌ رسولَ مَنْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ونذيراً لِلعالَمينَ على ما يقولُ لكانَ أُنزِلَ معهُ مَلَكٌ نذيرٌ، أو لكانَ أُعطِيَ هو كَنْزاً أي مالاً ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ على ما يكونُ لِرُسُلِ ملوكِ الأرضِ.

لكنَّ الجَوابَ لهمْ ما ذَكَرَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [الفرقان: ١٠] أي لو شاءَ اللهُ أعطاكَ خَيراً مِمّا يقولونَ مِنَ البُستانِ والقُصورِ على ما أعْطى غَيرَكَ. لكنْ ليسَ في ما مَنَعَ مَنْقَصَةٌ لكَ، ولا في ما أعطاهُمْ فَضيلَةٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) في الأصل وم: تلبيس. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: إلى.
(٦) في الأصل وم: ملكا. (٧) في الأصل وم: الرسالة. (٨) في الأصل وم: ذلك لنفسه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتّبِعونَ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ لا تزالُ عادتُهُمْ بِنِسْبَةِ الرسولِ إلى السِّحْرِ والجُنونِ والكَذِبِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟﴾؟ فتاويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أي انظُرْ إلى سَفَهِهِمْ أن﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ وشبَّهوكَ بها؟ نَسبوكَ مَرَّةً إلى السِّحْرِ، وقالوا: إنكَ ساحرٌ، ومَرَّةً إلى الجُنونِ، وقالوا: إنكَ مَجنونٌ، ومَرَّةً إلى الكَذِبِ حينَ[1] قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] ونَحْوَ هذا ممّا كانوا يَنْسِبونَهُ إليهِ.

فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: انظُرْ إلى سَفَهِهِمْ أن﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ ونَسبوكَ إلى ما ذَكَروا، وعلى عِلْمٍ منهمْ أنكَ لَسْتَ كذلكَ، ولا على ذلكَ، وإنكَ على الحَقِّ، وهُمْ على باطلٍ وكَذِبٍ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾؟ ما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ وأمثالُ ما سَألوا، وقالوا[2]: لو كانَ ما يَقولُ: إنهُ رسولٌ لَكانَ ذلكَ لهُ أعلامُ الرسالةِ وأماراتُ صِدْقِهِ، فيُخبِرُ أنَّ الأعلامَ والآياتِ ليسَتْ تأتي على شَهَواتِ سُؤالِ المُعانِدينَ وأمانِيهِمْ.

ولكنْ إنما تَجيءُ على ما تُوجِبُهُ الحكمةُ ما يدلُّ على صِدْقِ ما ادَّعى، ويُظْهِرُ كَذِبَ مَنْ عانَدَ، وتَوَلّى. وقد أتاهُمْ بِحَمْدِ اللهِ بِحُجَجٍ وبَراهينَ ما أظْهَرَ لهمْ صِدْقَ ما ادَّعى مِنَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، ولكنَّهُمْ عانَدوها، وكابَروا، فلم يُقِرُّوا بها خَوفاً أنْ تَذْهَبَ عنهُمْ رئاسَتُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَلُّوا۟﴾ لاشكَّ أنهمْ قد ضَلُّوا عنِ الهُدَى، أي عَدَلوا بِضَرْبِهِمُ الأمثالَ لهُ ونَسَبِهِمْ إيّاهُ إلى ما نَسَبوهُ إليهِ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهُدَى أو إلى ما سألوا مِنَ الأشياءِ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: فلا يَهْتَدونَ سبيلاً. وقالَ بعضُهُمْ: فلا يَسْتَطيعونَ مَخْرَجاً مِنَ الأمثالِ التي ضَرَبوها لكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ خَرَجَ جوابَ ما سألوا مِنَ الأشياءِ مِنَ المَلَكِ والكَنْزِ والجنةِ وأنواعِ الطعنِ الذي طَعَنوهُ، أي لو شاءَ لأعطاكَ خيراً مِنْ ذلكَ.

ثم أخبَرَ أن الذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ السؤالِ وأنواعِ الطَّعْنِ فيه، هو تكذيبُهُمْ بالساعةِ حينَ[3] لم يَرَوا لأمورِهِمْ عاقبةً، يَنْتَهونَ إليها: يُثابونَ عليها، أو يُعاقَبونَ.

الآية ١١ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾][4].

ثم أخبَرَ ما أعَدَّ لهمْ بِتَكْذيبِهِمُ الساعةَ، فقالَ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

الآية ١٢ ثم وَصَفَ ذلكَ السَّعيرَ، فقالَ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما][5]: يَجْعَلُ لها أسباباً: تَراهُمْ بها كما يَرَونَها [بتلكَ الأسبابِ.

والثاني: إذا صارَ الكَفَرَةُ][6] في مكانٍ بحيثُ يَرَونَها كأنها رأتْهُمْ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قيلَ: إنَّ النارَ، تَرْفَعُ، وتُغْلي لَهَبَها، وتَرِدُ مِنْ مكانٍ مِنْ أعلاها إلى أسْفَلِها [وتَرِدُ مِنْ مكانٍ مِنْ أسْفَلِها][7] فتَجْمَعُهُمْ جميعاً، فيَضيقُ عليهمُ المكانُ، ويَشْتَدُّ بهمُ العذابُ؛ كلَّما ضاقَ عليهمُ المكانُ كانَ العذابُ لهمْ أشَدَّ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: فيقولون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم، وإذا صار ما. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُه تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قال بعضهُم: مُقَيَّدِينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

ثم قالَ بعضهُمْ: الشيطانُ يُقرَنُ، ويُقَيَّدُ: كلٌّ بشيطانِهِ الذي دَعاهُ إلى ما دَعاهُ، وأتْبَعَهُ، كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقالَ بعضُهُمْ: يُقرَنُ العابدُ والمَعْبودُ مِنْ دونِ اللهِ، وهو الأصنامُ التي عَبَدوها كقولِهِ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الآية [الصافات: ٢٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي هلاكاً. والثُّبورُ الهلاكُ كقولِه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكاً. والثُّبورُ والوَيلُ، هما حَرْفانِ، يَدْعُو بهما كلُّ مَنْ كانَ في الهَلَكَةِ والشِّدَّةِ.

الآية ١٤ [وقولُهُ تعالى][(1)]: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي لا تَدْعُوا هلاكاً واحداً كما يكونُ في الدنيا أنَّ مَنْ هَلَكَ مَرَّةً لا يَهْلِكُ ثانياً. وأمّا في النارِ فإنَّ لأهلِها هَلَكاتٍ لا تُحصَى كقولِهِ: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابُ الموتِ تأتيهِ[(2)] مِنْ كلِّ مكانٍ ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] وكقولِهِ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ الآية [النساء: ٥٦].

وإنما يَسْألونَ، ويَدْعونَ بالهلاكِ لِما يَرْجونَ مِنَ الهلاكِ النجاةَ مِنْ ذلكَ العذابِ. وهكذا كلُّ مَنِ ابْتُلِيَ بِبَلاءٍ شديدٍ يَتَمَنّى الهَلاكَ والمَوتَ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ قالَ هذا لِقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ و٨] فيقولُ: أذلكَ الذي سَألْتُموهُ أنتمْ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾؟ أو يكونُ قالَ ذلكَ لِما رَأوا لأنفسِهِمُ الفَضلَ والمَنزِلَةَ في الدنيا لمّا وَسَّعَ عليهِمُ الدنيا، وأُعطُوا مِنْ حُطامِها، فقالَ: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي أُعطيتُمْ في الدنيا مِنَ السَّعَةِ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ ممّا سَألَتْهُ لهمُ الملائكةُ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية [غافر: ٨] أو[(3)] سؤالِ الرُّسُلِ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٤] أو ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ ممّا سألوا ربَّهُم، فوَعَدَ لهمْ ذلكَ.

فهذا يَدُلُّ أنهمْ إنما يَدْخلونَ الجنةَ بالسؤالِ والتَّشَفُّعِ لهمْ والتَّضَرُّعِ، لا أنهمْ يَستَوجبونَ ذلكَ بأعمالِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ في السَّلاسِلِ؛ ذلكَ أنهمْ إذا أُلقوا فيها تَضايَقَتْ عليهِمْ كتَضايُقِ الزُّجِّ في الرُّمْحِ، فالأسفَلونَ، يَرْفَعُهُمُ اللَّهَبُ، والأعلَونَ، يُخفِضُهُمُ اللَّهَبُ، فَيَزْدَحِمونَ في تلكَ الأبوابِ الضَّيِّقَةِ، فَتَضيقُ[(4)] عليهِمْ. فعندَ ذلكَ يَدْعونَ بالثُّبورِ؛ يقولونَ: يا ثُبوراهُ، ويا وَيلاهُ.

ورُوِيَ مِثْلُهُ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ؛ وكانَ يقولُ: إنَّ جَهَنَّمَ لَتَضيقُ على الكافِرِ كَضيقِ الزُّجِّ في الرُّمْحِ، وقولُهُ: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ يقولونَ[(5)]: وَيْلاً، وهَلاكاً، ويقولُ[(6)] اللهُ تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ثم يقولُ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يَعْني الذي ذَكَرَ ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ أي مَنزِلاً.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّغَيُّظُ مِنَ الغَيظِ، والزَّفيرُ [والشَّهيقُ، يكونانِ][(7)] في الحَلْقِ، وشَهَقَ يَشْهَقُ شَهيقاً وشَهْقاً، وهو نَفَسٌ في الحَلْقِ شَديدٌ، لهُ صوتٌ. وقالَ: ﴿ثُبُورًا﴾ أي هَلاكاً، وصَرْفُهُ: ثَبَرَ يَثْبُرُ ثَبْراً، فهو مَثْبورٌ. وقالَ القُتَبِيُّ ﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي تَغَيُّظاً عليهِمْ. كذلكَ قالَ المُفَسِّرونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: بل يَسْمَعونَ فيها تَغَيُّظَ المُعَذَّبينَ وزَفيرَهُمْ، واعتَبَروا ذلكَ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

---

(١) في الأصل وم: فقال. (٢) في الأصل وم: يأتيهم. (٣) في م: و. (٤) في الأصل وم: تضايق. (٥) في الأصل وم: يقول. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) في الأصل وم: الشهيق يكون.

[هود: ١٠٦]. واعتبَرَهُ الأوَّلون بِقولِهِ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]. وهذا أشْبَهُ التَّفسيرَينِ، إنْ شاءَ اللهُ، لأنهُ قالَ: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ ولم يَقُلْ: سَمِعوا فيها، ولا: منها.

وقالَ: ﴿ثُبُورًا﴾ أي يالَلْهَلَكَةِ كما يقولُ القائلُ: واهلاكاهُ، واللهُ أعلَمُ/ ٣٧٦ ـ أ/

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ اختُلِفَ [فيهِ][١] قالَ بعضُهُمْ: يَحْشُرُ أولئكَ الذينَ عَبدوا دونَ اللهِ والمَعْبودِينَ، وهُمُ الملائكةُ، لأنَّ مِنَ العَرَبِ مَنْ قَدْ عَبَدوا [الملائكةَ مِنْ دونِ اللهِ][٢] كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية [سبأ: ٤٠ و٤١].

وقالَ [بعضُهُمْ: هو][٣] عيسى، يَحْشُرُ بينَهُ وبَينَ مَنْ عَبَدوهُ لأنهُ قد عُبِدَ دونَ اللهِ، فيقولُ لهُ ما ذَكَرَ [وهو قولُهُ][٤] ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ١١٥].

وقالَ بعضُهُمْ: يَحْشُرُ الأصنامَ ومَنْ عَبَدها، ثم يأذَنُ لها في الكلامِ، فيقولُ: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨ و٢٩]

ولو كانَ عيسى ﷺ والملائكةُ لكانوا عالِمينَ بِعبادَتِهِمْ إيَّاهُمْ غَيرَ غافلينَ. دلَّ ذلكَ أنها الأصنامُ التي عَبَدوها دونَ اللهِ، وإيَّاها يُسألونَ، وكلُّ ذلكَ مُحتَمِلٌ، إذْ قد كانَ منهمْ ذلكَ كلُّهُ. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ واللهُ ﷻ كانَ عالِماً ما كانَ منهمْ. لكنَّ السؤالَ إيَّاهُمْ، واللهُ أعلَمُ، يُخرَّجُ مُخرَجَ توبيخِ أولئكَ الكَفَرَةِ وتَعييرِهِمْ لأنهمْ يَعْبُدونَ مَنْ ذَكَرَ مِنْ دونِ اللهِ، ويقولونَ: هُمْ أمروهُمْ بذلكَ، وكانوا مَقْبولي القولِ عندَهُمْ صادِقِينَ في ما يُخبِرونَ، ويَقولونَ.

فأرادَ أنْ يُظهِرَ كَذِبَهُمْ عندَ الخلائقِ. لذلكَ سألَهُمْ، واللهُ أعلَمُ، بالكائنِ منهمْ مِنْ أنفسِهِمْ. لكنهُ يُخرَّجُ على ما ذَكَرْنا. ثم نَزَّهوهُ عن جميعِ ما لا يَليقُ بهِ، وبَرَّؤوا أنفسَهُمْ عن أنْ يكونَ منهمْ أمرٌ أو شيءٌ مما نَسَبوا أولئكَ إليهِمْ، وهو أعلَمُ بهِمْ:

الآية ١٨ فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي أرباباً، وَهُمْ لم يَتَّخِذوا أرباباً مِنْ دونِهِ.

لكنهُ عندَنا يُخرَّجُ على وجْهَينِ:

أحدُهما: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ هُمُ المؤمنونَ.

[والثاني][٥]: أنْ يكونَ ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن﴾ دونِ وِلايتِكَ وِلايةَ سِواكَ.

وفي بعضِ القراءاتِ أنْ نُتَّخَذَ مِنْ دونكَ مِنْ أولياءَ بِرَفْعِ النونِ[٦]. لكنَّ أهلَ الأدبِ يقولونَ: هو خَطأٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ آباءَهُمْ قد أُمْهِلوا، ومُتِّعوا في هذهِ الدنيا حتَّى ماتوا على ذلكَ مِنْ غَيرِ [أنْ][٧] أصابَهُمْ شيءٌ ممَّا أُوعِدوا في كِتابِهِمْ وما أوعَدَهُمُ الرُّسُلُ مِنَ العذابِ والهلاكِ على ما اختاروا مِنَ الدينِ وصَنيعِهِمْ، فَظَنُّوا أنهمْ على حقٍّ مِنْ ذلكَ حينَ[٨] لم يُصِبْهُمْ مِنَ المواعيدِ المذكورةِ في كتابِهِمْ. أو ما أوعَدَهُمْ رُسُلُهُمْ بشيءٍ. فَعلى هذا التأويلِ الذِّكْرُ الذي إنهمْ نَسُوهُ، هو كتابُهُمْ، أو ما أوعَدَهُمْ رُسُلُهُمْ، واللهُ أعلَمُ، فإنْ كانَ على هذا فالآيةُ في أهلِ الكتابِ منهمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: من دون الله، في م: الملائكة. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: كقوله. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٢٧٩. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث.

[والثاني](١): يَحتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في الفراعنةِ والقادةِ مِنْ هؤلاءِ الكَفَرَةِ، مُتِّعوا بأحوالٍ ورئاسةٍ، وَوَسَّعَ عليهِمُ المعيشةَ حتى دَعَوُا الناسَ وأتْباعَهُمْ إلى ما هُمْ عليهِ مِنَ التّكذيبِ برسولِهِ وما أُنزِلَ عليهِ، فأُجِيبوا بالأموالِ عندَهُمْ، فنَسُوا ما في القرآنِ مِنَ الوَعيدِ ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

والبُورُ: قالَ بعضُهُمْ: الهلاكُ، وقالَ بعضُهُمْ: البُورُ الفَسادُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي فقد كذَّبكُمْ أولئكَ المَعْبودونَ بما تقولونَ: إنهمْ أمَرونا بذلكَ، وكانوا عندَهُمْ صَدَقَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها: أي ما يَسْتَطيعُ أولئكَ الكَفَرةُ صَرْفَ قولِ مَنْ عَبدوهُمْ(٢) وتكذيبَهُمْ حينَ كذَّبوهُمْ قولَهُمْ ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي ولا استَطاعوا الانْتِصارَ منهمْ حينَ كَذَّبوهُمْ. وعلى ذلكَ تُخَرَّجُ قراءةُ مَنْ قرأ بالتاءِ(٣) ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

[والثاني](٤): يَحتَمِلُ: فما يَسْتَطيعُ(٥) أولئكَ المَعْبودونَ صَرْفَ عذابِ اللهِ ونَقْمَتِهِ عنكُمْ، ولا كانوا لهمْ نُصَراءَ، لأنهم قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا(٦): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

والثالثُ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ أي فِداءً ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي لا يُقْبَلُ منهمُ الفِداءُ، ولا كانَ لهمْ ناصرٌ، يَنْصُرُهُمْ في دَفْعِ العذابِ عنهمْ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: [قالَ بعضُهُمْ: الصَّرْفُ الحِيلَةُ مِنْ قولِهِمْ لِيَنْصَرِفَ، و](٧) قالَ بعضُهُمْ: الصَّرْفُ النافِلَةُ، سُمِّيَتْ صَرْفاً لأنها زيادةٌ على الواجبِ والعَدْلِ: الفَريضةُ.

وقد رُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ طَلَبَ صَرْفَ الحديثِ لِيَبْتَغِيَ بِهِ إقبالَ وُجوهِ الناسِ لم يُرَحْ رائحةَ الجَنَّةِ» [بنحوه الترمذي ٢٦٥٤]. أي مَنْ طَلَبَ تَحْسينَهُ بالزيادةِ فيهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الصَّرْفُ [والعَدْلُ: الفِدْيَةُ](٨): رجلٌ مِثْلُهُ [كأنهُ يريدُ، لا يُقْبَلُ منهُ أنْ يُفْتَدى برجلٍ مِثْلِهِ](٩) وعَدْلِهِ، ولا يَصْرِفُ عنْ نفسِهِ بِدِيَتِهِ. ومنهُ قيلَ: [صَرَّافٌ: صَرَفَ](١٠) الدَّراهِمَ بالدنانيرِ لأنهُ(١١) يَصْرِفُ هذا [إلى هذا](١٢). وأصلُهُ ما ذَكَرْنا.

قالَ القُتَبِيُّ وأبو عُبَيدَةَ: ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هَلْكَى، وهو مِنْ بارَ يَبورُ إذا هَلَكَ، وبَطَلَ، يُقالُ: بارَ الطَّعامُ، إذا كَسَدَ، وبارَتِ الأيِّمُ إذا لم يُرْغَبْ فيها. وفي الخَبَرِ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ بَوارِ الأيِّمِ.

قالَ أبو عُبَيدَةَ: يُقالُ: رَجُلٌ بُورٌ، وقومٌ بُورٌ؛ لا يُثَنَّى، ولا يُجْمَعُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ لا خَيرَ فيهِمْ، ورجلٌ بائرٌ. وكذلكَ قالَ أبو زيدٍ: ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ ليسَ فيهِمْ مِنَ الخَيرِ شيءٌ. وقالَ قتادةُ: ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ فاسِدينَ بِلُغَةِ أهلِ عُمانَ، وقالَ: ما نَسِيَ قومٌ ذِكْرَ اللهِ قَطُّ إلّا باروا، وفَسَدوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أمّا على قولِ الخوارجِ، كلُّ ظُلْمٍ ارْتَكَبَهُ [امْرُؤٌ](١٣) فهو في ذلكَ الوعيدِ على أصلِ مَذْهَبِهِمْ، وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: كلُّ صاحبِ كبيرةٍ في ذلكَ الوعيدِ. وأمّا على قولِ المسلمينَ: فذلكَ الوعيدُ لِمُرْتَكِبي الظُّلْمِ: ظُلْمِ [الكُفْرِ والشِّرْكِ](١٤)، وأمّا ما دونَ ذلكَ فهو في مَشيئةِ اللهِ، إنْ شاءَ عَذَّبَهُ، وإنْ شاءَ عفا عنهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ قد ذَكَرْنا في

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: عبدوه. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٨٠. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يستطيعون. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: الدية والعدل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: صارفي وصرف. (١١) في الأصل وم: لأنك. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: كفر وشرك.

ما تَقدَّمَ أنَّ هذا إنما أُخرِجَ جواباً لِقولِ أولئكَ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] فأخبَرَ أنَّ الرسُلَ الذينَ[1] كانوا مِنْ قَبْلِ محمدٍ كانوا يأكلونَ الطعامَ، ويَمشونَ في الأسواقِ على ما يأكُلُ هو، ويَمْشي.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ كَرِهَ الركوبَ في الأسواقِ بهذا، وقالَ: إنهُ أخبَرَ عنِ الأنبياءِ والرسلِ جُملَةً أنهمْ كانوا، يَمْشونَ في الأسواقِ، لم يَذْكُرْ منهمُ الركوبَ، فَدَلَّ ذلكَ منهمْ أنهُ مَكروهٌ مَنهِيٌّ.

فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ ما قالَ هؤلاءِ: إنهُ[2] يكونُ مكروهاً، لأنهُ يُخرَجُ الركوبَ في الأسواقِ مُخرَجَ التَّعزُّزِ والمُباهاةِ.

فالواجبُ على كلِّ مُسْلِمٍ أنْ يكونَ تَعزُّزُهُ بالإسلامِ وبدينِهِ الذي[3] اختارَهُ اللهُ تعالى، وخاصّةً على العلماءِ يجبُ أنْ يكونَ تَعزُّزُهُمْ ومُباهاتُهُمْ بالعِلْمِ الذي أعطاهُ اللهُ لهمْ، وأكرَمَهُمْ [بهِ][4] فإنهُ عِزٌّ، لا يَعقُبُهُ ذُلٌّ، ولا يُورِثُ[5] صَغاراً ولا قَهراً. وأمّا كلُّ عِزٍّ كانَ سِوى ما ذَكَرْنا فهو إلى ذُلٍّ، يَصيرُ[6] سَريعاً، كأنهُ ليسَ بِعِزٍّ في الحقيقةِ، لو تُؤُمِّلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الفِتْنَةُ كأنها، هي المِحْنَةُ التي فيها شِدَّةٌ وبَلاءٌ.

ثم قالَ أهلُ التأويلِ: لمّا أسلَمَ عبدُ اللهِ وأبو ذَرٍّ وعَمّارٌ وبِلالٌ وصُهَيبٌ وأمثالُ هؤلاءِ قالَ الفَراعِنَةُ مِنْ قريشٍ نَحْوُ أبي جَهْلٍ والوليدِ/ ٣٧٦ ـ ب/ وأمثالُهُما: انظُروا إلى هؤلاءِ الذينَ اتَّبعوا محمداً: [الذينَ][7] اتَّبعوهُ مِنْ مَوالينا وأعرابِنا: رِذالَةُ كلِّ قومٍ [فازوَرُّوا عنهمْ][8] وآذَوهُمْ، واستَهزَؤوا بهمْ. فأنزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ لهؤلاءِ الفُقَراءِ الذينَ اتَّبعوا رسولَ اللهِ لِيُصَبِّرَهُمْ على أذاهُمْ، فقالَ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي اصْبِروا على الأمرِ. هذا مُحتَمَلٌ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ جَعَلَ أهلَ البَلْوَى فِتْنَةً لِغَيرِهِمْ، وغيرَ أهلِ البَلْوَى [فِتْنَةً لأهلِ البَلْوَى][9]؛ يقولُ الأعمَى: لو شاءَ اللهُ لَجَعَلَني بَصيراً مِثْلَ فُلانٍ، ويقولُ الفقيرُ: لو شاءَ اللهُ لَجَعَلَني غَنِيًّا مِثْلَ فُلانٍ، وكذلكَ يقولُ السقيمُ: لو شاءَ اللهُ لَجَعَلَني صَحيحاً مِثْلَ فُلانٍ.

لكنهُ أعطَى لأهلِ البَلْوَى [البَلاءَ][10] وأمَرَهُمْ بالصَّبْرِ عليهِ، وأعطَى لأهلِ النِّعْمَةِ النِّعْمَةَ، وأمَرَهُمْ بالشُّكرِ عليها. وجائزٌ أنْ يكونَ غَيرَ هذا، وهو قريبٌ مِنْ هذا، وذلكَ أنهُ أعطَى بَعْضاً النِّعْمَةَ والسَّعَةَ، وجَعَلَ بعضَهُمْ أهلَ ضِيقٍ وشِدَّةٍ، ثم جَعَلَ كلَّ فَريقٍ مُحتاجاً إلى الفَريقِ الآخَرِ، جَعَلَ الغَنِيَّ والثَّرِيَّ مُحتاجاً إلى الفقيرِ في بَعْضِ أمورِهِ، والفَقيرَ مُحتاجاً إلى الغَنِيِّ لِغِناهُ، وجَعَلَ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ مُؤْنَةً ما لولا فَقْرُ الفقيرِ لم يَعْرِفِ الغَنِيُّ قَدْرَ غِناهُ ولا الفَقيرُ قَدْرَ فَقْرِهِ، ولا قامَ بَعْضٌ بِكِفايةِ مُؤْنَةِ بَعْضٍ.

ثم أمَرَ كُلّاً بالصَّبْرِ على تَحَمُّلِ مُؤْنَةِ الآخَرِ بقولِهِ: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أي اصْبِروا، على الأمرِ يُخرَّجُ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ اسْتِفهاماً وسُؤالاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي على بَصَرٍ وعِلْمٍ، جَعَلَ بَعْضاً فِتْنَةً لِبَعْضٍ، ليسَ على سَهْوٍ وغَفْلَةٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يَخافونَ، ولا يَخشَونَ﴿لِقَآءَنَا﴾ أي البَعْثَ بعدَ المَوتِ.

وقالَ أهلُ الكلامِ: الرجاءُ، هو الرجاءُ لا الخَوفُ. لكنْ جائزٌ أنْ يكونَ في الرَّجاءِ خَوفٌ، وفي الخَوفِ رَجاءٌ، لأنَّ الرَّجاءَ الذي لا خَوفَ فيهِ، هو أَمْنٌ، والخَوفَ الذي، لا رَجاءَ فيهِ، إياسٌ؛ فكلاهُما مَذمومانِ: الإياسُ والأمْنُ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رُسُلاً دونَ أنْ أُنزِلَ البَشَرُ رُسُلاً إلينا لإنكارِهِمُ البَشَرَ رُسُلاً كقولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤ و٣٣].

ويَحتَمِلُ قولُهُمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الوَحْيُ والرِّسالَةُ لنا دونَكَ، ونحنُ الرُّؤَساءُ والمُلوكُ والقادةُ دونَكَ؛

---

(١) في الأصل وم: الذي. (٢) في الأصل وم: وإنه. (٣) في الأصل وم: التي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يورثه. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فازورهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

يقولونَ: لو كانَ ما تَقولُ حقًّا وصِدْقاً: إنكَ رسولٌ، وإنهُ يُنَزَّلُ عليكَ الوَحْيُ والمَلَكُ، فنحنُ أولَى بالرسالةِ منكَ؛ إذْ نحنُ الملوكُ والرُّؤساءُ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وأمثالُ هذا لإنكارِهِمُ الرسالةَ لِمَنْ هو دونَهُمْ في الدنياوِيَّةِ، أو أنْ يكونَ ذلكَ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] أو يكونَ لهُ شاهداً أنهُ رسولٌ.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عِياناً، ونُكَلِّمُهُ، ونَسألُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الاسْتِكْبارُ، هو ألاَّ يَرَى [المَرْءُ][(٢)] غيرَهُ مَثَلاً لهُ ولا عَدْلاً ولا شَكْلاً في نَفْسِهِ وأمْرِهِ. فإنْ كانَ هذا فهو ما لم يَرَوا رسولَ اللهِ أهْلاً لِلرِّسالةِ ومَوْضِعاً لِصِغَرِ يَدِهِ وحاجَتِهِ، ورَأَوا أنفُسَهُمْ أهلاً لها. فاستِكْبارُهُمْ، هو ما لم يَرَوا غيرَهُمْ[(٣)] مَثَلاً ولا شَكْلاً لأنفسِهِمْ.

فاستَكْبَروا، ولم يَخْضَعوا لرسولِ اللهِ، ولم يُطيعوهُ، ولم يَتَّبِعوهُ أنَفاً منهُ بَعْدَ عِلمِهِمْ أنهُ نُجِزَ لذلكَ، وأنهُ رسولٌ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: العُتُوُّ هو الحَرادَةُ، وهو أشَدُّ مِنَ الاسْتِكْبارِ. وقالَ بعضُهُمْ: العُتُوُّ هو الغُلُوُّ في القولِ غُلُوًّا شديداً. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ التَّكَبُّرِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [قالَ الحَسَنُ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ هي كلمةٌ][(٤)] مِنْ كلامِ العَرَبِ؛ إذا كَرِهَ أحَدُهُمُ الشيءَ قالَ: حِجْراً [مَحْجوراً، أي حَراماً مُحَرَّماً][(٥)] فإذا رَأَوُا الملائكةَ [يَكْرَهُونَهُمْ قالوا][(٦)]: حِجْراً مَحْجوراً.

فَعَلَى هذا القولِ الكَفَرَةُ: هُمْ يقولونَ: حِجْراً مَحْجوراً إذا رَأَوُا الملائكةَ وما مَعَهُمْ مِنَ المَواعيدِ.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الملائكةَ يَتَلَقَّوْنَ المؤمنينَ بالبُشْرَى على أبوابِ الجنةِ، ويقولونَ لِلْكَفَرَةِ: لا بُشْرَى لَكُمْ، ويقولونَ: حِجْراً مَحْجوراً، أي تقولُ الملائكةُ: حرامٌ البُشْرَى لِلْمُجْرِمينَ، أو حرامٌ عليهِمُ الجنةُ أنْ يَدْخُلوها. والحِجْرُ على هذا القولِ، هو الحرامُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحِجْرُ ههنا، هو المَنْعُ والحَظْرُ؛ يقولونَ: إنهمْ يُمْنَعونَ، ويُحْظَرونَ عمَّا طَمِعوا، وقَصَدوا، بِعِبادَتِهِمُ الملائكةَ والأصنامَ التي عَبَدوها حينَ[(٧)] قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا[(٨)]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فيقولُ: يُمْنَعُ عنهمْ ما قَصَدوا، وطَمِعوا، بِعِبادَتِهِمُ [الملائكةَ][(٩)].

أو يكونُ المَنْعُ ثوابَ الخَيراتِ التي عَمِلوها في هذهِ الدنيا مِنْ صِلَةِ الأرحامِ والصَّدقاتِ ونَحْوِها ممَّا هي في الظاهِرِ خَيراتٌ، مُنِعُوا ثوابَها في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ونَحْوَ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنَ الأعمالِ [التي][(١٠)] عَمِلوها في هذهِ الدنيا رَجاءَ أنْ يَصِلوا إليها في الآخِرَةِ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي وعَمِدْنا، وقَصَدْنا إلى ما عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ.

لكنْ عندَنا: جَعَلْنا أعمالَهُمْ تلكَ في الأصلِ ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] وهو رَهْجُ الدَّوابِّ[(١١)]. وقالَ بعضُهُمْ: الهَباءُ المَنْثورُ، هو[(١٢)] غُبارُ الثيابِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الغُبارُ الذي يكونُ في شَعاعِ الشَّمْسِ، وهو[(١٣)] الذي يُسَمَّى الذَّرَّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل: كله، في م: قالَ الحسن: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ كله. (٥) في الأصل وم: حرام هذا. (٦) في وم: كرهتهم وقال. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: الدابة. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي عَوذاً مُعاذاً؛ يقولُ: المُجْرِمونَ، يَسْتَعِيذونَ مِنَ الملائكةِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ هو مِنَ التَّكَبُّرِ، ويُقالُ: مِنَ الخِلافِ عَتا عُتِيًّا إذا خالَفَ، يُقالُ في الكلامِ: لا تَعْتِ عَلَيَّ، أي لا تُخالِفْني، وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الشِّدَّةِ واليُبْسِ كقولِهِ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، أي يابساً. وقالَ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حَراماً مُحَرَّماً، وحَجَرْتُ عليهِ مالَهُ، أي مَنَعْتُهُ مِنْ مالِهِ، أحْجُرُ حِجْراً. ويُقالُ: حَجَرْتُ [عَيْنَيهِ، أي](١) لَطَخْتُ أجْفانَها بشيءٍ مِنَ الدواءِ(٢).

وقولُهُ تعالى: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي لا شيءَ، والهَباءُ هَباءُ النارِ، أي رمادٌ يكونُ على أعْلَى النارِ إذا خَمَدَتْ، ويُقالُ: هَبَتِ النارُ، تَهْبُو هَبْواً إذا خَمَدَتْ، والجَمْرَةُ على حالِها إلّا [أنها قد غَطّاها](٣) ذلكَ الهَباءُ، وكلُّ شيءٍ، ليسَ بِشيءٍ، فهو هَباءٌ، وتقولُ: هذا هَباءٌ، أي لا شيءَ، ومَنْثورٌ، قد نُثِرَ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وَصَفَ. ﷻ أعمالَ الكَفَرَةِ مَرَّةً بالهَباءِ المُنْثورِ ومَرَّةً بالرَّمادِ ومَرَّةً بالسَّرابِ ومَرَّةً بالترابِ الذي يكونُ على الصَّفْوانِ، وهو الحَجَرُ الأمْلَسُ إذا أصابَهُ الوابلُ. وَوَصَفَ أعمالَ المؤمنينَ بالثَّباتِ والقَرارِ ونَحْوِهِ.

وعنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: لا يَنْتَصِفُ النهارُ يومَ القيامةِ حتى يَقيلَ أهلُ النارِ [في النارِ](٤) وأهلُ الجنةِ في الجنةِ. ثم قَرَأَ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وكذلكَ ذَكَرَ في حَرْفِهِ في سورةِ الصافاتِ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الآية: ٦٨] أي إلى الجَحيمِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لقولِهِمْ: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي لنا أموالٌ وجَناتٌ، وليسَ لهُ مِنْ ذلكَ/ ٣٧٧ ـ أ/ شيءٌ، فقالَ جواباً لهمْ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وَصَفَ السماءَ لِهَولِ ذلكَ اليومِ بأوصافٍ، وذَكَرَ لها أحوالاً، فقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١] وقالَ(٥): ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وقالَ(٦): ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقالَ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقالَ(٧): ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ونَحْوَ ذلكَ.

وذلكَ في اخْتِلافِ الأوقاتِ، يكونُ في كلِّ وَقْتٍ على الحالِ التي وَصَفَ، وكذلكَ ما وَصَفَ [الجبالَ](٨) مَرَّةً بالهَباءِ المَنْثورِ [بقولِهِ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] وشَبَّهَها مَرَّةً بالعِهْنِ ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]](٩) ومَرَّةً [قالَ](١٠): ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] ومَرَّةً قالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ الآية [النمل: ٨٨] ونَحْوَهُ مِنَ الأوصافِ التي وَصَفَها، وذلكَ في أوقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ تكونُ في كلِّ وَقْتٍ على حالٍ وَوَصْفٍ.

فَعَلَى ذلكَ السماءُ لِشِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ وفَزَعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي تَنْشَقُّ عنِ الغَمامِ، فَتَبْقَى بِلا غَمامٍ كقولِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي يَبْقَى الغمامُ فَوقَ رؤوسِ الخلائقِ يُظِلُّهُمْ. وهذا يدلُّ على أنَّ قولَهُ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] إنما مَعْناهُ: يُظَلَّلُ مِنَ الغَمامِ.

فإنْ كانَ على هذا فَيَرْتَفِعُ الاشْتِباهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ تَحْتَمِلُ إضافةُ مُلْكِ ذلكَ اليومِ إليهِ، وإنْ كانَ المُلْكُ لهُ في جميعِ الأيامِ في الدنيا والآخِرَةِ، وُجوهاً:

---

(١) من م، في الأصل: عيشه أو. (٢) من م، في الأصل الغداوة. (٣) في الأصل وم: إنه قد غطاه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُها: لِما أنَّ مُلْكَ الآخِرةِ مُلْكٌ دائمٌ باقٍ، لا[١] فناءَ لهُ، ومُلْكَ الدنيا، جَعَلَهُ فانياً، لا دَوامَ [لهُ][٢]، ولا بقاءَ.

والثاني: يُقِرُّ لهُ جميعُ الخلائقِ بالمُلْكِ لهُ في ذلكَ اليومِ، وإنْ لم يُقِرَّ لهُ البَعْضُ بِمُلْكِ الدنيا.

والثالثُ: لِما [لا][٣] يُنازِعُهُ أحدٌ في مُلْكِ ذلكَ اليومِ، وإنْ كانَ لهُ مُنازِعٌ في الدنيا.

أو أنْ يكونَ المَقصودُ بِخَلْقِ هذا العالَمِ لِذلكَ[٤] اليومِ، يَظْهَرُ للخَلْقِ [يومئذٍ. ثم][٥] يَعْلَمُ كُلٌّ أنَّ خَلْقَهُمْ في الدنيا لذلكَ اليومِ كانَ لا للدُّنيا خاصَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ذَكَرَ هنا الرحمنَ، وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] لِتَعْلَمَ العَرَبُ أنَّ الرَّحْمنَ المَذكورَ في هذهِ الآيةِ، هو اللهُ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥ و...] [والذي][٦] ذَكَرَ في تلكَ الآيةِ لأنَّ العَرَبَ تُسَمّي، وتَعرِفُ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً، ولا تَعرِفُ الرحمنَ مَعْبوداً ولا تَسْميةَ الرَّحْمنِ، فَعَرَّفَهُمْ أنَّ اللهَ والرَّحْمنَ [اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُما][٧] واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ ظاهرٌ، لا شَكَّ فيهِ، فكذلكَ يكونُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَتِ الآيةُ في عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ؛ كانَ يُؤاخي رسولَ اللهِ ﷺ، ويُوادُّهُ، وكانَ رسولُ اللهِ يُجيبُهُ إذا دعاهُ إلى طَعامِهِ، فَدَعا يوماً رسولَ اللهِ إلى طَعامِهِ، فقالَ: لا حتى تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني رسولُ اللهِ، فَشَهِدَ بذلكَ، فَطَعِمَ مِنْ طَعامِهِ، فَبَلَغَ ذلكَ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ، فأتاهُ، فقالَ: صَبَوتَ يا عُقْبَةُ [إلى محمدٍ][٨] وأجَبْتَهُ إلى ما دَعاكَ إليهِ، وعَيَّرَهُ[٩] على ذلكَ حتى رَجَعَ عُقْبَةُ عنْ ذلكَ، وارْتَدَّ عنْ دينِهِ. وفي الحديثِ طولٌ. فنزلتِ الآيةُ في شأنِهِ وصَنيعِهِ ونَدامَتِهِ وحَيرَتِهِ على ما فَعَلَ، فقالَ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. وذُكِرَ أنَّ عُقْبَةَ، وأُبَيَّ بنَ خَلَفٍ قُتِلا: أحَدُهما يومَ بَدْرٍ والآخَرُ يومَ أُحُدٍ [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٠ و٢٥١].

ولكنَّ الآيةَ في كلِّ ظالمٍ وكلِّ كافرٍ يكونُ على ما ذَكَرَ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ على التَّمْثيلِ والكِنايةِ عنِ النَّدامَةِ والحَسْرَةِ، لأنَّ مَنِ اشْتَدَّتْ بِهِ النَّدامَةُ والحَسْرَةُ والغَيظُ على شيءٍ، يكادُ يَعَضُّ يديهِ غَيظاً منهُ على ذلكَ، كما كَنّى بِغُلِّ اليَدِ عنْ تَرْكِ الإنفاقِ وبالبَسْطِ عنْ كَثْرَةِ الإنفاقِ والمُجاوَزَةِ فيهِ، وكما كَنّى بالنَّبْذِ وراءَ الظَّهْرِ عنْ تَرْكِ الانْتِفاعِ وقِلَّةِ النَّظَرِ فيهِ والاكْتِراثِ إليهِ كقولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] عنِ الرُّجوعِ ونَحْوِهِ وقولِهِ: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وقولِهِ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤] وأمثالُ هذا على التَّمْثيلِ والكِنايةِ عنِ الرجوعِ والثَّباتِ والأخْذِ والتَّرْكِ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ عَضُّ الأيدي كِنايةً عنْ شِدَّةِ النَّدامةِ والغَيظِ على ما حَلَّ بهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على التَّحْقيقِ تَحْقيقَ عَضِّ اليَدِ [إذْ][١٠] يَجْعَلُ اللهُ عُقوبَتَهُ بِعَضِّ اليَدِ كما جَعَلَ عُقوبَةَ أنفُسِهِمْ بأنفُسِهِمْ حينَ[١١] جَعَلَ أنفسَهُمْ حَطَباً للنارِ، يُعَذَّبونَ، ويُعاقَبونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ السبيلَ الذي دعاهُ الرسولُ إليهِ.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][١٢]: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ الإنسانَ، ويَحْتَمِلُ الشيطانَ، أي لم أتَّخِذِ الشيطانَ خليلاً، ولَمْ أُطِعْهُ في ما [دعاني إليهِ][١٣]، والإنسانَ الذي قَلَّدَهُ في ما قَلَّدَهُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ الشَّرَفَ الذي يُذْكَرُ بهِ المَرْءُ ﴿أَضَلَّنِى عَنِ﴾ الشرفِ ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أو ﴿أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي عنِ القرآنِ وما فيهِ مِنَ الذِّكْرى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بلا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: في ذلك. (٥) في الأصل وم: ويومئذ يتم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الذي ذكرها. (٨) في الأصل وم: محمدا. (٩) من م، في الأصل: فعير. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: دعاه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي تاركاً لهُ مُتبرِّئاً منهُ؛ يقولُ كما قالَ في آيةٍ أُخرى حِكايةً عنهُ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦] ويقولُ كما قالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢] أو يكونُ كما ذَكَرَ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] أو يكونُ ذلكَ الخُذلانُ [منهُ لهُ][١] في الدنيا [إذْ][٢] يُمَنِّيهِ بأمانيَّ [ويُزَيِّنُ لهُ][٣] أشياءَ، ثم لا يُوصِلُهُ إليها.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَهجورُ، هو الذي لا يُنْتَفَعُ [بهِ][٤] ولا يُعْمَلُ [بهِ][٥].

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي تَركوهُ مَهجوراً. ويُقالُ: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي كالهَذَيانِ، والهُجْرُ الإسْمُ[٦]، يُقالُ، فُلانٌ، يَهْجُرُ في مَنامِهِ، أي يَهْذي، وهو بالفارسيَّةِ: بلابه كفتي.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مِثْلَ الذي جَعَلْنا لكَ مِنَ العَدُوِّ مِنَ الكَفَرَةِ جَعَلْنا لكلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ عَدُوًّا.

ثم العَداوةُ، تكونُ في الدينِ مَرَّةً، ومَرَّةً في الأنفُسِ وأحوالِها. فإنْ كانَ العَدُوُّ عَدُوًّا في الدينِ فجميعُ[٧] الكَفَرَةِ لهُ أعداءٌ لِخِلافِهِمْ لهُ في الدينِ، ويكونُ حَرْفُ: مِنْ صِلَةً، أي جَعَلْنا لكلِّ نبيٍّ المُجْرِمينَ أعداءً.

وإنْ كانَ على تَحْقيقِ مِنْ وإثباتِها فالعَداوةُ عَداوةٌ في [الأنفُسِ وأحوالِها][٨] وذلكَ راجِعٌ إلى الفَراعِنةِ وأضدادِ الرُّسُلِ: ما مِنْ رسولٍ [إلاّ][٩] ولَهُ فَراعِنَتُهُ، وأضدادُهُ، يُنازِعونَهُ، ويُقاتِلونَهُ [ويَهُمّونَ بِقَتْلِهِ][١٠].

ثم بَشَّرَ رسولَهُ بالحِفْظِ لهُ والنَّصْرِ والظَّفَرِ على أعدائِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ أهلَ مكةَ كانوا يأتونَ رسولَ اللهِ، فَيَعْنَتُونَهُ، ويَسْأَلونَهُ، ويقولونَ: يا محمدُ أتَزْعُمُ أنكَ رسولٌ مِنْ عندِ اللهِ؟ أفَلا أتَيْتَنا بالقرآنِ جُمْلَةً كما أُنزِلَتِ التوراةُ جُمْلَةً واحدةً على موسى والإنجيلُ على عيسى والزَّبورُ على داوُدَ؟

فقالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ /٣٧٧ ـ ب/ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي بِمِثْلِ الذي نُثَبِّتُ بهِ فؤادَكَ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وَجْهَيْنِ:

أحَدُهما: أنزَلْناهُ مُتَفَرِّقاً لِنُثَبِّتَهُ في فؤادِكَ، فَتَحْفَظَهُ[١١]، وتَذْكُرَهُ، لأنَّ حِفْظَ الشيءِ إذا كانَ سَماعُهُ بالتَّفاريقِ، كانَ حِفْظُهُ أهْوَنَ وأيْسَرَ مِنْ حِفْظِهِ إذا سُمِعَ جُمْلَةً واحدةً وخاصَّةً إذا كانَ الكلامُ مِنْ أجناسٍ وأنواعٍ.

والثاني: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي لِنُثَبِّتَ بما في القرآنِ مِنَ الحِكمةِ والمَعاني فؤادَكَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فُؤَادَكَ﴾ أنهُ يُرادُ بهِ فؤادُ مَنْ يَسْتَمِعُ إليهِ، ويَسْمَعُهُ. فإنْ كانَ هذا فهو كقولِهِ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٦] على ما ذَكَرْنا أنهُ يكونُ أسْرَعَ حِفْظاً وأهْوَنَ ثَباتاً مِنْ سَماعِهِ جُمْلَةً.

وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ [بهِ][١٢] فؤادَهُ كقولِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ و١٧] وقولِهِ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأعلى: ٦ و٧] كانَ يُعَجِّلُ بِحِفْظِهِ إذا قُرِئَ عليهِ خَوفاً أنْ يَذْهَبَ، فأخبَرَهُ أنهُ يُثَبِّتُ فؤادَهُ[١٣]، ويُنَزِّلُهُ بالتَّفاريقِ لكي يَحْفَظَهُ، ويَذْكُرَهُ.

ثم إن كانَ المُرادُ تَثْبيتَهُ في الفؤادِ، هو ما فيهِ مِنَ الحكمةِ والمعاني وقراءَتَهُ على الناسِ على مُكْثٍ كذلكَ، فهو، واللهُ أعلَمُ، يُنَزِّلُهُ على قَدْرِ النَّوازِلِ والحَوائِجِ ليكونوا أحْفَظَ لتلكَ المَعاني وأعْرَفَ بِمَواضِعِها وتقديرِ غيرِها مِنَ النوازِلِ بهِ مِنْ أنْ يَنْزِلَ جُمْلَةً في دفعةٍ واحدةٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: منزله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويزينه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل: كاسم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الدين والأحوال. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ويهمونه قتله. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: فؤادك.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بِصِفَةٍ، يُشَبِّهونَ بها على الخَلْقِ﴿إِلَّا جِئْنَكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بِصِفَةٍ هي أحَقُّ مِمَّا أتَوها هُمْ، فَتَرْتَفِعُ تلكَ الشُّبْهَةُ عنهمْ؛ أعني عنِ الخَلْقِ، أو يُقالُ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بِصِفَةٍ، هي باطلٌ ﴿إِلَّا جِئْنَكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بصفةٍ، هي حَقٌّ، فَتَبطُلُ تلكَ، وتَضمَحِلُّ ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي بَياناً مِنَ الأوّلِ. وعلى التأويلِ الثاني ظاهرٌ، ولاشَكَّ أنهُ أحْسَنُ وأحَقُّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي أنْزَلْنا بَعْضَهُ بَعْدَ بَعْضٍ وعلى إِثْرِ بَعْضٍ؛ لم يُنْزِلْهُ في مَرَّةٍ واحدةٍ. وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي بَيَّنّاهُ تِبياناً.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ قالَ: لا يُخاصِمونَكَ بشيءٍ، ولا يُجادِلونَكَ ﴿إِلَّا جِئْنَكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقولُ[1]: جِئْناكَ بالقرآنِ بِأحسَنَ مِمَّا جاؤُوا بِهِ تفسيراً. وهو قريبٌ مِمَّا ذَكَرْنا بَدْءاً. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: إلاّ جِئْناكَ بِأحَقَّ مِنْهُ وأحْسَنَ تَفْسيراً. وهو شبيهٌ بِبَعْضِ التأويلاتِ التي ذَكَرْنا.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا على مُقابَلَةٍ سَبَقَتْ. وإلاّ على الابْتِداءِ لا يَسْتَقيمُ ذِكْرُهُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ ذكرَهُ على مُقابَلَةِ قولِهِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ الآية [الفرقان: ٢٤] هذا ذِكْرُ مُقامِ أهلِ الجنةِ. فَذَكَرَ مُقابِلَ ذلكَ مكانَ أهلِ النارِ، فقالَ: ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي شَرٌّ مكاناً في الآخِرَةِ، وأضَلُّ سَبيلاً في الدنيا.

أو أن يكونَ مُقابِلَ قولِهِ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؟ [مريم: ٧٣] فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مِنَ الذينَ آمَنوا، بل مُقامُهُمُ الجنةُ؛ أعني المؤمنينَ، ومُقامُ الكَفَرَةِ النارُ، فَهُمْ شَرٌّ مكاناً منهُمْ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ رجلاً قالَ: يا نَبِيَّ[2] اللهِ كيفَ يُحْشَرُ الكافرُ على وجهِهِ يومَ القيامةِ؟ فقالَ: إنَّ الذي أمْشاهُ على رِجلَيهِ قادرٌ على أنْ يُمْشِيَهُ على وجْهِهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراةَ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ ذَكَرَ هَهنا أنهُ كانَ وزيراً لَهُ، وذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وفي آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] حينَ[3] قالَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

فكانَ [في][4] ما ذَكَرَ ذلكَ كلِّهِ نَبِيًّا ورسولاً. وكانَ له وزيراً، والوزيرُ هو العَونُ والعَضُدُ، كأنهُ قالَ: وجَعَلْنا معهُ أخاهُ هارونَ وزيرا عَوناً وعَضُداً كقولِهِ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ و٣٢] سَأَلَ ربَّهُ المَعونَةَ لهُ والإشراكَ في أمْرِهِ.

وقالَ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤].

وقالَ الزَّجّاجُ: الوَزيرُ هو الذي يُلْتَجأُ إليهِ في النوائبِ، ويُعْتَصَمُ بأمْرِهِ، وهو واحدٌ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي أهْلَكْناهُمْ إهلاكاً.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ [أرادَ بِهِ][5] نوحاً خاصةً لأنهُ ذَكَرَ قومَ نوحٍ. فإنْ كانَ ذلكَ ففيهِ دلالةُ جوازِ تَسْمِيَةِ الواحدِ باسمِ الجماعةِ، وجائزٌ أنْ يكونَ نوحٌ دَعاهُمْ إلى الإيمانِ [باللهِ ﷻ][6] وبجميعِ الرسلِ، فَكَذَّبوهُ، وكذَّبوا الرسلَ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بقوله. (٢) من م، في الأصل: ليتني. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ لم يُغْرِقْهُمْ على إِثْرِ تكذيبِهِمْ إيَّاهُ، ولكنْ إنما أغْرَقَهُمْ بَعْدَ ما دَعاهُمْ ألْفَ سنةٍ إلّا خَمْسينَ عاماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي آيةً لِلْمُكَذِّبينَ والمُصَدِّقينَ [لِمَا بَيَّنَ حُكْمَهُ: في المُكَذِّبينَ][1] منهُمُ الإهلاكَ والاسْتِئْصالَ، وفي المُصَدِّقينَ منهُمُ النجاةَ [والخَلاصَ. فذلكَ آيةٌ لكلِّ مُكَذِّبٍ ومُصَدِّقٍ لِما إليه تَؤولُ عاقبةُ أمْرِهِمْ: عاقبةُ المُكَذِّبينَ الإهلاكُ، وعاقبةُ المُصَدِّقينَ النجاةُ][2].

فإنْ قيلَ: إنهمْ جميعاً، قد هَلَكوا: المُصَدِّقونَ منهمْ والمُكَذِّبونَ قيلَ: أُهْلِكَ المُكَذِّبونَ منهُمْ إهلاكَ عُقوبَةٍ وتعذيبٍ [وهلاكُ المُصَدِّقينَ][3] بانقِضاءِ آجالِهِمْ لا هلاكُ عُقوبةٍ.

ثم ذَكَرَ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ فَمَعْنَى جَعَلَ أنفُسَهُمْ آيةً ما ذَكَرْنا. وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] أي السفينةَ.

قالَ بعضُهُمْ: جَعَلَ السفينةَ آيةً لأنَّ مِنْ طَبْعِ السُّفُنِ أنها إذا امْتَدَّتِ الأوقاتُ، وطالَ الزَّمانُ، تَفْسُدُ[4]، وتَتَلاشى، وهي بَعْدُ باقيةٌ كما هي؛ أعني سَفينةَ نوحٍ. لكنَّ ذلكَ لا يُعْلَمُ أنهُ كما ذَكَرَ أوْ: لا. فالوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هكذا جزاءُ كلِّ ظالمٍ ظُلْمَ كُفرٍ وشِرْكٍ أنْ يُعَدَّ لهُ العذابُ الأليمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أخبرَ أنهُ أهلَكَ هؤلاءِ كلَّهُمْ عاداً، وهُمْ قومُ هودٍ، وثَموداً، وهُم قومُ صالحٍ ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ لأنهمْ رَسُّوا نَبِيَّهُمْ في بِئْرٍ، أي رَسُّوهُ فيها.

وقالَ بعضُهُمْ: الرَّسُّ هو اسْمُ البِئْرِ، كانوا نُزُولاً عليها، فَبَعَثَ اللهُ تعالى إليهمْ شُعَيباً، فَكَذَّبوهُ، فَسُمُّوا بذلكَ، ونُسِبوا إلى تلكَ البِئْرِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ أنهُ سألَ كَعْباً عنِ الرَّسِّ، فقالَ: إنكُمْ.معاشِرَ العربِ.تَدْعُونَ البِئْرَ رَسًّا، والقَبْرَ رَسًّا، وتَدْعونَ الخَدَّ رَسًّا [وقد خَدَّ قومٌ قَبْلَكُمْ][5] أُخْدوداً في الأرضِ، فأوقَدوا فيها النارَ لِلرَّسولَينِ اللَّذينِ ذَكَرَ اللهُ في يس: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [الآية: ١٤] واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي ذَكَرْنا لأهلِ مكةَ أمثالَ مَنْ تَقَدَّمَ منهمْ مِنَ الأُمَمِ، مِنَ المُكَذِّبينَ والمُصَدِّقينَ وما حَلَّ بهمْ وما إليهِ آلَتْ عاقبةُ أمورِهِمْ بالتكذيبِ حتى[6] قالَ: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهْلَكْنا إهلاكاً. وقالَ بَعْضُهُمْ: تَبَّرْنا أي كَسَّرْنا بالنَّبَطِيَّةِ؛ يقولُ أحدُهُمْ [عنِ الشَّيْءِ][7] إذا أرادَ أنْ يَكْسِرَهُ: أَتْبِرُهُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ يَعْني، واللهُ أعْلَمُ، أهلَ مكةَ ﴿الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ وهي الحجارةُ؛ يعني، واللهُ أعلَمُ، قُرَياتِ لوطٍ أي/٣٧٨ ـ أ/ يَمُرُّ عليها[8] أهلُ مكةَ في تجارتِهِمْ، ويأتونَها، وهو كما قالَ في الصافاتِ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الآية: ١٣٧].

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ ما حَلَّ بهمْ بالتَّكذيبِ فَيَعْتَبِرُوا، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، أي بَعْثاً بعدَ الموتِ وإحياءً. إنما كَذَّبوا الرسلَ لأنهمْ لا يؤمنونَ بالبَعْثِ، ولا يخافونَ نُشوراً.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؟ كانوا إذا رَأَوهُ هَزِئُوا بهِ، وإذا خَلَا بعضُهُمْ إلى بعضٍ يقولونَ في ما بَيْنَهُمْ: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ [الإسراء: ٩٤] هكذا كانَتْ عادةُ الكَفَرةِ يَهْزَؤُونَ بهِ إذا حَضَروهُ، وإذا غابوا عنهُ قالوا ما ذَكَرَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: والمصدقين. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أنها. (٥) في الأصل وم: فخدوا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: للشيء. (٨) في الأصل وم: عليهم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٢ [وهو][(١)] قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

[وفي][(٢)] قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ﴾ عبادةِ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ دلالةٌ أنهُ إنما أرادَ أنْ يُضِلَّهُمْ عن عبادَتِهِمُ الأصنامَ بالحُجَجِ والآياتِ؛ إذْ ليسَ في وُسْعِ النَّبِيِّ صَرْفُهُمْ ومَنْعُهُمْ عن ذلكَ إلاّ مِنْ وجْهِ لزومِ الآياتِ والحُجَجِ [إلاّ أنهُمْ عانَدوا تلكَ الآياتِ والحُجَجِ][(٣)] وكابَروها، وثَبَتُوا على عِبادةِ الأصنامِ والأوثانِ. وإلاّ عَلِموا مِنْ جهةِ الآياتِ والحُجَجِ التي أقامَها عليهمْ أنهُ على الحَقِّ وأنهمْ على باطلٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي يَعْلَمونَ حينَ لا يَقْدِرونَ على الجُحودِ والإنكارِ إذا نَزَلَ بهمُ العذابُ، وَوَقَعَ ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هُمْ أوِالمُؤمنونَ لأنهمْ[(٤)] عَلِموا بالآياتِ والحُجَجِ أنهُ على حقٍّ وأنهمْ على باطلٍ وعَلِموا المَوعودَ مِنَ العذابِ.

فأخبَرَ أنهمْ يَعْلَمونَ عندَ وقوعِهِ بهمْ عِلْماً، لا يَقْدِرونَ على جُحودِهِ ولا إنكارِهِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وهذهِ الآيةِ وقولُهُ: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وأمثالُ ذلكَ إذا عايَنوا المَوعودَ في الدنيا يُقِرُّونَ بهِ، لا يَقْدِرونَ على الجُحودِ؛ فكذلكَ قولُهُ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [عِلْماً][(٥)] لا يَقدِرونَ على الإنكارِ والجُحودِ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ كانوا يَعْبدونَ أشياءَ: حَجَراً وغَيرَهُ. فإذا رَأوا أحْسَنَ منهُ في رَأْيِ العَينِ والمَنْظَرِ تَركوا عبادةَ ذاكَ، وعَبَدوا ما هو أحْسَنُ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: كلَّما هَوَتْ أنفُسُهُمْ شيئاً عَبَدوهُ، وكلَّما اشْتَهَوا شيئاً أتَوهُ، لا يَحْجُرُهُمْ عن ذلكَ وَرَعٌ ولا تَقْوى اللهِ.

ويَحْتَمِلُ وجهَينِ آخَرَينِ سِوى [ما][(٦)] ذَكَرَ هؤلاءِ:

أحدُهما: تَركوا عبادةَ الإلهِ الذي قامتِ الحُجَجِ والبراهينُ بألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ، ولَزِموا عبادةَ مَنْ لم تَقُمْ لهُ الآياتُ والحُجَجُ بذلكَ بِهَواهُمْ.

والثاني: أنهمْ عَبَدوا [ما عَبَدوا][(٧)] مِنَ الأصنامِ بلا أمْرٍ كانَ لهمْ بالعبادةِ [إذْ][(٨)] لا بُدَّ مِنْ أمْرٍ [يأتَمِرونَ بهِ][(٩)] بل عَبَدوا بِهَواهُمْ أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي لَسْتَ أنتَ بوكيلٍ ومُسَلَّطٍ عليهِمْ، ولا حافظٍ، أي لا تُسْأَلُ أنتَ عن أعمالِهِمْ، ولا تُحاسَبُ عليها، بل همُ المَسْؤولونَ عنها، وهُمْ مُحاسَبونَ عليها كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآيةَ [النور: ٥٤] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ قولُهُ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ وإنْ كانَ في الظاهرِ اسْتِفْهاماً فهو في الحقيقةِ على الإيجابِ. وهكذا كلُّ اسْتِفهامٍ مِنَ اللهِ يُخرَّجُ على الإيجابِ أو على النَّهْيِ. كأنهُ قالَ: قد حَسِبْتَ ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ [بِما يَسْمَعونَ، ولا يَنْتَفِعونَ][(١٠)] بما يَعْقِلونَ.

[أو يكونُ على النَّهْيِ، أي لا تَحْسَبْ ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بما يَسْمعونَ، ولا يَنْتَفِعونَ بما يَعْقِلونَ، واللهُ أعلَمُ][(١١)].

[وقولُهُ تعالى][(١٢)]: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ لأنَّ هِمَّتَهُمْ، ليستْ إلاّ كَهِمَّةِ الأنعامِ، وهي[(١٣)] الأكلُ والشُّرْبُ، ليستْ لهمْ هِمَّةٌ سِواها[(١٤)]، ولَيْسَتْ للأنعامِ هِمَّةُ العاقِبةِ. فَعَلَى ذلكَ الكَفَرَةُ؛ فهمْ كالأنعامِ مِنْ هذهِ الجهةِ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وإن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يؤتمر به. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) في الأصل وم: سواه.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿أَضَلُّ﴾ لأنَّ الأنعامَ، تَعرِفُ ربَّها وخالِقَها، وتَذْكُرُهُ، وهُمْ لا يَعْرِفونَ ربَّهُمْ، ولا يَذْكُرونَ. أو هُمْ أضَلُّ لأنهمْ يَنْسِبونَ إلى اللهِ ما لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ، ويُشْرِكونَ غيرَهُ في العبادةِ، والأنعامُ [لا تَفْعَلُ ذلكَ؛ فهمْ][1] أضَلُّ.

[وقالَ بعضُهُمْ: هُمْ أضَلُّ][2] لأنَّ الأنعامَ إذ هُدِيَتْ إلى الطريقِ اهْتَدَتْ، وهُمْ يُهْدَونَ، ويُدْعَونَ إلى الطريقِ، فلا يَهْتَدونَ، ولا يُجيبونَ، فهمْ أضَلُّ. أو يُقالُ: همْ أضَلُّ لأنهمْ يَضِلُّونَ [ويُضِلُّونَ][3] غيرَهُمْ، ويَمْنَعونَهُمْ[4] مِنَ الهُدَى، والأنعامُ لا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ أنَّ حَرْفَ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو حَرْفُ تَعْجيبٍ واسْتِفْهامٍ، لكنهُ[5] في الحقيقةِ على الإيجابِ؛ أي قد رأيتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى تدبيرِ ربِّكَ ولُطْفِهِ[6]: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ وهو لا يُؤذي، ولا يَضُرُّ، ولا يُمَسُّ، ولا يَشْعُرُ بهِ أحدٌ، ولا يَثْقُلُ، ولا يَخِفُّ، ولا يَستُرُ، ولا يَكْشِفُ عنْ وجوهِ الأشياءِ.

[إنما النورُ][7] هو الكاشفُ عنْ وجوهِ الأشياءِ، والظُّلْمَةُ هي الساتِرَةُ لذلكَ.

ونَحْوُ ذلكَ ممّا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ ممَّا يُحيطُ بالخلائقِ كلِّها لِيُعْلَمَ أنَّ [مِنَ][8] المَحْسوساتِ التي تَقَعُ عليها الحَواسُّ ما لا تُدرَكُ حقيقتُهُ: مِنْ نَحْوِ الظِّلِّ الذي ذَكَرْنا. هو ما [لا][9] تُدرَكُ حقيقتُهُ، ومِنْ نَحْوِ السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ والنُّطْقِ لِيُعْلَمَ أنَّ الذي سَبيلُ مَعْرِفَتِهِ الاسْتِدلالُ، وهو مُنْشِئُ هذهِ الأشياءِ، أحَقُّ ألاّ يُدْرَكَ، ولا يُحاطَ بِتَدْبيرِهِ ولُطْفِهِ، لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ بَلَغَ تَدْبيرُهُ ولُطْفُهُ هذا المَبْلَغَ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ، أو يَخْفَى عليهِ شيءٌ؛ يُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وتدبيرِهِ ولُطْفِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ قادرٌ ومُدَبِّرٌ [ولطيفٌ بذاتِهِ][10].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي دائماً[11]، لا يَذْهَبُ أبداً، ولا تُصيبُهُ الشمسُ، ولا يَزولُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سَاكِنًا﴾ أي مُسْتقِرًا دائماً، لا تَنْسَخُهُ الشمسُ كَظِلِّ الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [قالَ بعضُهُمْ: أي تَليهِ، وتَتْبَعُهُ، حتى تأتيَ على كُلِّهِ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾][12] يقولُ: حيثُما [تَكُنِ الشمسُ يَكُنِ][13] الظِّلُّ.

وأصْلُهُ: أنهُ بالشمسِ يُعْرَفُ الظِّلُّ أنهُ ظِلٌّ، ولولا الشمسُ ما عُرِفَ الظِّلُّ. فهي دليلُ مَعْرِفَتِهِ وكونِهِ أنهُ ظِلٌّ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هَيْناً خفِيًّا. وأصلُهُ أنهُ يَقْبِضُ بالشمسِ الظِّلَّ، ويَنْسَخُهُ شيئاً فَشيئاً حتى تأتيَ على كلِّهِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ قيلَ: سَكَناً، يَسْكُنُ فيهِ الخَلائقُ، وقيلَ: ﴿لِبَاسًا﴾ أي سِتْرًا ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي راحةً؛ يُقالُ: سَبَتَ الرجلُ، يَسْبُتُ سُباتاً، فهو مَسْبوتٌ. وقالَ بعضُهُمْ: أصلُ السَّبْتِ التَّمَدُّدُ. وقالَ بعضُهُمْ: سَبَتَ الرجلُ إذا نَعَسَ. وقيلَ: رجلٌ مَسْبوتٌ، لا يَعْقِلُ، كأنهُ مَيِّتٌ ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

فَمَنْ جَعَلَ السُّباتَ النومَ جَعَلَ قولَهُ: ﴿ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي حياةً يَحْيَونَ فيهِ، ومَنْ يقولُ: السُّباتُ راحةٌ يَجْعَلُ قولَهُ ﴿ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ يُنْتَشَرُ فيهِ لِلْمَعاشِ والكَسْبِ وابْتِغاءِ الرِّزْقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَذْكُرُ نِعَمَهُ ومِنَّتَهُ على عبادِهِ لِيَسْتَأْدِيَ شُكْرَهُ.

---

(١) في الأصل وم: لأنهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ويمنعوهم. (٥) في الأصل وم: لكن. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (٧) من م، في الأصل: والظلمة. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: بذاته لطيف. (١١) في الأصل وم: دائبا. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل: يكون، في م: تكون الشمس يكون.

وقالَ أبو مُعاذٍ: قالَ مُقاتلٌ: ؟ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ يَعْني الفَيْءَ مِنْ أوّلِ وقتِ صلاةِ الفَجْرِ إلى طُلوعِ الشمسِ، وأخطأ؛ ولا يُسَمّى ذلكَ الظِّلُّ فَيئاً.

وقالَ الكسائيُّ: العَرَبُ، تقولُ: الظِّلُّ مِنْ حينِ يَصْبَحُ إلى انْتِصافِ النهارِ، فإذا زالتِ الشمسُ مِنْ كَبِدِ السماءِ، فما خَرَجَ مِنْ ظِلٍّ فذلكَ الفَيءُ، ويُقالُ: الفَيْءُ الظِّلُّ، ولا يُقالُ: الظِّلُّ الفَيْءُ قَبْلَ الزوالِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ قالَ بعضُهُمْ: نُشراً[1] أي حياةً، وقالَ بعضُهُمْ: نَشراً لِلسَّحابِ، أي تَبْسُطُهُ. وعلى التأويلِ الأوّلِ أي [يُحْيِي بها][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي بَينَ يَدَي/ ٣٧٨ ـ ب/ المَطَرِ. سَمّى المَطَرَ رَحْمَةً لِما بِرَحْمَتِهِ يَكونُ. وكذلكَ سَمّى[3] الجنةَ رَحْمَةً لأنها بِرَحْمَةٍ منهُ[4] يَدْخُلُ مَنْ يدخُلُ[5] فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ هذا يَدُلُّ أنهُ لا يُفْهَمُ [مِنَ اليَدِ][6] اليَدَ المَعْروفَةَ التي هي الجارحَةُ حينَ[7] ذَكَرَ ذلكَ، ولا تُعْرَفُ؛ أعني اليَدَ لِيُعْلَمَ أنهُ لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣ والحديد: ٢٩] وقولِهِ[8]: ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ١] ذلكَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقَرأَ بعضُهُمْ: ﴿بُشْرًۢا﴾ بالباءِ، وهو مِنَ البِشارَةِ كقولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] أي تُبَشِّرُهُمْ بالرَّحْمَةِ والسَّعَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ أي ماءً يُطَهِّرُ بهِ الأنجاسَ والأقذارَ الظاهِرَةَ منها والباطِلَةَ. وكذا الطَّهورُ؛ إنهُ يُطَهِّرُ حيثُ ما أصابَهُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [فيهِ لُغتانِ: أَسْقَى، وسَقَى: بالألِفِ وبغَيرِ الألِفِ[9] يُقالُ: سَقَى بهِ حَرْثَهُ وماشِيَتَهُ، وأسْقَيتُهُ[10] أي ناوَلْتُهُ ما يَشْرَبُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ وأبي عَوسَجَةَ][11].

وقولُهُ[12] تعالى: ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأناسِيُّ جمعُ إنْسِيٍّ، وقالَ بعضُهُمْ: هو جَمْعُ إنسانٍ؛ وأصْلُهُ بالنونِ: أناسِينُ، لكنْ أُبْدِلَتِ النونُ ياءً.

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ ﴿وَأَنَاسِىَّ﴾ مُشَدَّدَةً؛ يعني آناساً[13]. وأناسِيُّ جماعةُ الإنسانِ على ما ذَكَرْنا. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي نَسْقِيهِ مِنَ الماءِ الطَّهورِ المُنْزَلِ مِنَ السماءِ كثيراً مِنَ الأنعامِ وكثيراً مِنَ الآناسِ وكثيراً ممّا يُسْقَى مِنَ المِياهِ المُنْزَعَةِ مِنَ الأرضِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي صَرَّفْنا المَطَرَ والسَّحابَ بَيْنَهُمْ؛ يُمْطِرُ في مَكانٍ، ويَسوقُ السَّحابَ إلى مَكانٍ، ولا يَسوقُ إلى مَكانٍ آخَرَ كقولِهِ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤] وكقولِهِ: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ الآية [فاطر: ٩].

يُذَكِّرُهُمْ في هذهِ الآياتِ مِنْ قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ تَدْبيرَهُ وقُدْرَتَهُ وحِكْمَتَهُ ونِعَمَهُ.

أمّا تَدْبِيرُهُ [فهو حينَ][14] تَرَى السَّحابَ في مَوضعٍ، ولا تَراهُ في مَوضِعٍ، وتَراهُ مُنْبَسِطاً في الآفاقِ، ثم يُمْطِرُ في

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٨٨. (٢) في الأصل وم: يحييها. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٤) من م، في الأصل: ما. (٥) في الأصل وم: دخل. (٦) في الأصل وم: باليد. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ٤/ ٢٨٩. (١٠) في الأصل: وسقيته. (١١) ساقطة من م. (١٢) الواو ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: أناسي. (١٤) في الأصل وم: حيث.

مَوضعٍ آخرَ، ولا يُرْسِلُهُ[1] في مَكانٍ، ويُرْسِلُهُ[2] في مَكانٍ آخرَ؛ لِيُعْلَمَ أنهُ عنْ تدبيرٍ كانَ هكذا لا بالطَّبْعِ؛ لأنهُ لو كانَ بالطَّبْعِ كانَ ذلكَ لَكانَ جائزاً[3] أنْ يُمْطِرَ في مكانٍ، ويَتْرُكَ في مَكانٍ آخرَ. دلَّ أنهُ بالتدبيرِ كانَ ما كانَ وبالأمرِ.

وأمّا قُدْرَتُهُ [فهي][4] ما ذَكَرَ مِنْ إحياءِ الأرضِ المَيْتَةِ بَعْدَ مَوتِها وإنباتِها بَعْدَ إحيائِها ممّا يَعْلَمُ كلُّ أحدٍ حياتَها وموتَها، ويُقِرُّ بذلكَ. فَمَنْ قَدَرَ على هذا [فهو][5] قادرٌ على إحياءِ المَوْتَى بَعْدَ الموتِ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وأمّا حِكْمَتُهُ فإنَّ[6] ما خَلَقَ ممّا ذَكَرَ، وأنشأَ؛ لم يُنْشِئْهُ عَبَثاً. يُهْمِلُهُمْ[7]؛ لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ، ولا يَمْتَحِنُهُمْ بشيءٍ، ولا يَجْعَلُ لهمْ عاقبةً؛ يُثابونَ [ولا][8] يُعاقبونَ، ولا يَسْتَأْدِي منهمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهمْ مِنْ أنواعِ [النِّعَمِ][9] ممّا تَعْجِزُ عقولُهُمْ عنْ إدراكِهِ، وتَقْصُرُ أفهامُهُمْ عنْ تقديرِ مِثْلِهِ. [أنْشَأهُ][10] لِيُعْلَمَ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ثم قولُهُ[11] تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قالَ الكِسائيُّ: الكُفورُ برفعِ الكاف الكُفْرِ، والكَفورُ بِفَتْحِ الكافِ الكافرُ، والشُّكورُ بِضَمِّ الشينِ الشُّكْرُ، والشَّكورُ بِفَتْحِ الشينِ الشاكرُ، وهو المؤمِنُ. فيكونُ تأويلُهُ: فأبَى أكثَرُ الناسِ إلّا كُفْراً باللهِ وتكذيباً لِنِعَمِهِ بِصَرْفِهِمُ العبادَةَ إلى غَيرِهِ ولِتفاؤُلِهِمْ وتَطَيُّرِهِمْ: أنَّ هذا مِنْ نوءِ كذا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لو شِئْنا لَرَفَعنا عنكَ بَعْضَ ما حَمَلْنا عليكَ مِنَ المُؤَنِ: مِنْ مُؤْنَةِ التَّبْليغِ والقِيامِ بذلكَ، وحَمَّلْناها[12] غَيرَكَ، فيكونُ عليكَ أيْسَرَ وأهْوَنَ مِنَ القِيامِ بالكُلِّ.

والثاني: لو شِئْنا لَجَعَلْنا غَيرَكَ أيضاً أهلاً للرِّسالةِ ومَوضِعاً لها في زمانِكَ وحِينِكَ، فَبَعَثْناهُ في بَعْضِ القُرَى والمُدُنِ لكنّا لم نَجْعَلْ غَيرَكَ أهلاً لها، وخَصَّصْناكَ لها مِنْ غَيرِكَ[13] مِنَ الناسِ. فهو على الامْتِنانِ يُخَرَّجُ والاخْتِصاصِ لهُ.

ثم لا يَخلو ذلكَ مِنْ أنْ يكونَ فيهِمْ مَنْ يَصْلُحُ للرسالةِ، ويَصْلُحُ أنْ يكونَ أهلاً لها ومَوضِعاً، فلم نُرْسِلْ، أو كانَ لم يكُنْ فيهِمْ مَنْ يَصْلُحُ لذلكَ. فيكونُ تأويلُهُ: لو شِئْنا لَجَعَلْنا فيهِ مَنْ يَصْلُحُ للرسالةِ، ويَصْلُحُ أنْ يكونَ أهلاً لها وموضِعاً.

فأيُّ الوجهَينِ كانَ فهو يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ لأنهُ إنْ كانَ فيهِمْ مَنْ يَصْلُحُ لها، وأرسَلَ، كانَ أصْلَحَ لهُ، فلم يُرْسِلْ، فقد تَرَكَ ما هو أصْلَحُ لهُ وأخيَرُ، أو يكونُ، لا يَصْلُحُ فيهِمْ أحدٌ لذلكَ، لكنهُ يَمْلِكُ أنْ يُصْلِحَهُ، ويَجْعَلَهُ أهلاً لها، فهو أصْلَحُ لهُ وأخيَرُ، ثم لم يَفْعَلْ.

دَلَّ أنَّ [لهُ][14] أنْ يَتْرُكَ الأصْلَحَ والأخيَرَ في الدينِ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ فيه وَجْهانِ:

أحَدُهما: أنهُ لا يجوزُ للرسُلِ التَّقِيَّةُ والامْتِناعُ عنِ التبليغِ إليهِمْ والقِيامِ بِمُجاهَدَتِهِمْ، وإنْ خافوا على أنفسِهِمُ الهلاكَ، حينَ[15] قالَ: ﴿تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ ولم يكنْ مَعَهُ[16] يومئذٍ إلّا قليلٌ مِمَّنِ اتَّبَعَهُ، إذْ كانَ ذلكَ بمكةَ لأنَّ سورةَ الفرقانِ فيها نَزَلَتْ.

والثاني: فيهِ دلالةُ إثباتِ لِرسالَتِهِ لأنهُ أمْرٌ بالخِلافِ لهمْ والقِيامِ بِمُجاهَدَتِهِمْ بالحُجَجِ والآياتِ، وهُمْ يَعْلَمونَ ألّا يكونَ في وُسْعِ واحِدٍ القِيامُ لذلكَ لأمثالِهِمْ، وكانَتْ هِمَّتُهُمُ القَتْلَ والإهلاكَ لِمَنْ خالَفَهُمْ، فَعَلِموا أنهُ إنما قامَ لِذلكَ باللهِ لا بنفسِهِ، إذْ لا يَمْلِكُ واحدٌ القِيامَ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَرَجَ أي خَلَعَ ماءَ المالحِ عن ماءِ العذبِ، وقالَ

---

(١) و(٢) في الأصل وم: يرسل. (٣) في الأصل وم: جائز. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يُمْهلهم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قال. (١٢) في الأصل وم: وحملنا. (١٣) الكاف ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: معهم.

بعضُهُمْ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسَلَ البَحْرينِ؛ أحَدُهُما: عَذْبٌ، والآخَرُ أُجاجٌ، وقالَ بعضُهُمْ: مَرَجَ أي أفاضَ أحَدَهُما على الآخَرِ.

قالَ أبو مُعاذٍ: العرَبُ تقولُ: مَرَجْتُ الدابَّةَ إذا خَلَعْتُها، وتَرَكْتُها تَذْهَبُ حيثُ أمْرُجُها إمراجاً، وإنما سُمّيَ المَرْجُ مَرْجاً لأنهُ مَتْروكٌ للسِّباعِ غيرُ مَعمورٍ، والمُمْرِجُ[1] الذي يَرْعَى دابَّتَهُ في المَرْجِ، والدّابَّةُ المُمْرَجَةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مَرَجَهُما: خَلَطَهُما، فهو مارِجٌ، وقالَ ﷻ: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] أي مُخْتَلِطٍ، ويُقالُ: مَرَجْتُ عن كلِّ شيءٍ إذا خَلَعْتُ[2]، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في البَحْرَينِ، قالَ بعضُهُمْ: أحَدُهما: بَحْرُ الأرضِ، والآخَرُ بَحْرُ السماءِ، وجَعَلَ بَيْنَهما بَرْزَخاً أي حاجِزاً عنْ أنْ يَخْتَلِطَ أحَدُهُما بالآخَرِ، وهو [الهواءُ][3].

وقالَ بعضُهُمْ: أحَدُهُما: بَحْرُ السماءِ، والآخَرُ: بَحْرٌ تَحتَ الأرضِ، وجَعَلَ بَيْنَهما برزَخاً، وهو الأرضُ.

وقالَ بعضُهُمْ: بَحْرانِ: أحَدُهُما: بَحْرُ الرومِ، والآخَرُ: بَحْرُ الهندِ.

وقالَ بعضُهُمْ: بَحْرانِ: أحَدُهُما: بَحْرُ الشامِ، والآخَرُ: بَحْرُ العِراقِ، أحَدُهُما: مالِحٌ أُجاجٌ، والآخَرُ: عَذْبٌ.

وكانَ الأُجاجُ، هو الذي بَلَغَ في المُلوحَةِ غايَتَهُ، والفُراتُ، هو الذي بَلَغَ في العُذوبَةِ غايَتَهُ.

ذَكَرَ مِنَّتَهُ وفَضْلَهُ ولُطْفَهُ حينَ[4] لم يَخْلِطْ أحَدَهُما بالآخَرِ، بل حَفِظَ كُلّاً على ما هو عليهِ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، فعندَ ذلكَ يصيرُ الكُلُّ واحداً كقولِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

ثم إنْ كانَ أحَدُهُما بَحْرَ السماءِ والآخَرُ بَحْرَ الأرضِ [فالحاجزُ بَينَهما الهواءُ][5] وإنْ كانَ البَحْرانِ[6] في الهواءِ، فالحاجزُ بَيْنَهما ليسَ إلّا اللطفَ، وكذلكَ إنْ كانَ الثالثَ، يُعْلَمُ إنَّ مَنْ قَدَرَ على حِفْظِ هذا مِنْ هذا بِلا حِجابٍ ولا حاجِزٍ باللُّطفِ، لَقادِرٌ على إحياءِ المَوتَى وبَعْثِهِمْ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولهُ الحَولُ والقُوَّةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ماءٌ أُجاجٌ شديدُ المُلوحَةِ، ويُقالُ: أجَّ الماءُ يَأجُّ أجًّا [فهو أُجاجٌ][7] ويُقالُ: ثَجّاجٌ/ ٣٧٩ ـ أ/ أي ماءٌ، رُوِيَ بِهِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي مِنَ النُّطْفَةِ. يُخْبِرُ عنْ فَضْلِهِ ومِنَّتِهِ وقُدْرَتِهِ ولُطْفِهِ.

[أمّا لُطْفُهُ وقُدْرَتُهُ ففي][8] خَلْقِ البَشَرِ مِنَ النُّطْفَةِ، ولو اجْتَمَعَ جميعُ حُكَماءِ البَشَرِ على أنْ يَعْرِفوا، ويُدْرِكوا كَيْفِيَّتَهُ، لم يَقْدِروا على ذلكَ. دلَّ أنهُ قادِرٌ بذاتِهِ لطيفٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وأمّا فَضْلُهُ ومِنَّتُهُ فما[9] أخبَرَ أنهُ جَعَلَ لهمْ نَسَباً وصِهْراً. أمّا النَّسَبُ ففيهِ[10] يَتَعارَفونَ، ويَتَواصَلونَ، ما لولا ذلكَ ما تَعارَفوا، ولا تَواصَلوا. وأمّا الصِّهْرُ فَلِما بهِ يَتَزاوَجونَ، ويَتَوادُّونَ، ويَتَوالَدون، كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢] وقولِهِ[11] ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] يَذْكُرُ فَضْلَهُ ومِنَّتَهُ لِيَسْتَأْدِيَ بِهِ شُكْرَهُ لِيُعْلَمَ أنَّ مِثْلَ هذا لا يَخْرُجُ عَبَثاً باطلاً بِلا مِحْنَةٍ ولا عاقِبَةٍ.

وكانَ النَّسَبُ مِمّا لا يَجْري بَيْنَهُمُ التَّناكُحُ والتَّزاوُجُ، والصِّهْرُ ما يُحِلُّ بَيْنَهُمُ التَّناكُحَ والتَّزاوُجَ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وهو الذي خَلَقَ مِنَ الماءِ نَسَباً وصِهْراً.

قالَ أبو مُعاذٍ: الصِّهْرُ الفَتَى وآلُهُ، والخَتَنُ أبو المرأةِ، والخَتَنَةُ أمُّ المرأةِ والأختانُ المرأةُ وأهلُها، والأصهارُ آلُ الفَتَى وأهلُهُ.

---

(١) في الأصل وم: والممروج. (٢) في الأصل وم: خلعت. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بحرين. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: وقدرته حيث، في م: أما لطفه وقدرته حيث. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وقال.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَصِهْرًا﴾ مِنَ المُصاهَرَةِ، وكلُّهُم أصهارٌ مِنَ الجانِبَينِ جميعاً. والمَعْروفُ عندَنا أنهُ إنما تُسَمَّى قَرابةُ الزَّوْجِ أخْتاناً، وقَرابَةُ المرأةِ أصهاراً، وذلكَ لِسانٌ؛ فهو على ما تَعارَفوهُ بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما يَعْلَمونَ أنهُ لا يَنْفَعُهُمْ في الآخِرَةِ إنْ عَبَدوهُ، ولا يَضُرُّهُمْ إنْ تَرَكوا عِبادَتَهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨] وأمثالُ ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ مِنَ القُرآنِ سَفَهُ أولئكَ بِعِبادَتِهِمْ للأصنامِ وتَرْكِهِمْ عِبادَةَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: وكانَ الكافرُ للكافرِ وَوَلِيِّهِ[1] ظَهيراً على مَنْ أطاعَ رَبَّهُ؛ يكونُ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ عَوناً وظَهيراً على أولياءِ اللهِ، وإلاّ لا يكونُ الكافرُ على اللهِ ظَهيراً، ولكنْ على أوليائِهِ. ويكونُ ذَكَرَ الذي على إرادةِ وليِّهِ ومَنْ أطاعَهُ كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وكقولِهِ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] ونَحْوَ ذلكَ مِمّا يُرادُ بِهِ أولياؤُهُ لا نفسُهُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مُبَشِّرا لمن أطاعَهُ، ونذيراً لِمَنْ عصاهُ. والبِشارَةُ هي الإعلامُ لِما يَلْحَقُ مِنَ السرورِ والفَرَحِ في العاقِبَةِ بالأعمالِ الصالِحَةِ. والنِّذارَةُ هي الإعلامُ لِما يَلْحَقُ مِنَ المَكْروهِ والمَحْذورِ في العاقِبَةِ بالأعمالِ السَّيِّئَةِ القبيحةِ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي ما أسألُكُمْ على الدين الذي أدْعوكم إليهِ مِنْ أجْرٍ كقولِهِ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠] أي لا أسألُكُمْ أجراً على ذلكَ حتى يَمْنَعَكُمْ ثِقَلُ المَغْرَمِ عن إجابَتي.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: كأنَّ فيهِ إضماراً، أي لا أسألُكُمْ عليهِ أجْراً إلّا مَنْ شاءَ، ولكنْ إنما أسألُكُمْ أنْ تَتَّخِذوا إلى ربِّهِ سَبيلاً، أو[2] يقولُ: قولُهُ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي ولكنْ مَنْ أرادَ أنْ يَتَّخِذَ إلى ربِّهِ سبيلا أطاعَني، وأجابَني.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على تَبليغِ الرسالةِ إليكمْ وما أدعوكُمْ إليهِ ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فَيَبَرُّني، أو يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فَيَوَدُّني كقولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي تَوَكَّلْ على اللهِ. والتَّوَكُّلُ هو الاعْتِمادُ عليهِ بكلِّ أمْرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي نَزِّهْ ربَّكَ، وبَرِّئْهُ مِنَ الآفاتِ كلِّها والعُيوبِ بِثَناءٍ، تُثْني عليهِ، وهو التَّسْبيحُ بِحَمْدِهِ. وقالَ أهلُ التأويلِ: أي صَلِّ بأمرِ ربِّكَ. لكنَّ التأويلَ عندَنا ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي كَفَى بهِ عِلْماً بذنوبِ عبادِهِ، أي لا أحَدَ أعْلَمُ بها منهُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قد ذَكَرْنا هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قالَ قائلونَ: فاسْألْ باللهِ خَبيراً لِما تَسْألُ عنهُ [يا محمدُ][3] وذلكَ أنَّ بَعْضَ كفارِ مكةَ، قالوا: يا محمدُ إنْ كُنْتَ تَتَعَلَّمُ الشِّعْرَ فَنَحْنُ لكَ، فقالَ النَّبِيُّ: أشِعْرٌ[4] هذا؟ إنَّ هذا كلامُ الرحمنِ، فقالوا: أجَلْ لَعَمْرُ اللهِ إنهُ لَكَلامُ الرحمنِ الذي باليَمامَةِ، هو يُعَلِّمُكَ، فقالَ النَّبِيُّ: الرحمنُ، هو اللهُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِنْ عندِهِ يأتيني ذلكَ، فقالوا: أيَزْعُمُ أنَّ اللهَ واحدٌ، وهو يقولُ: اللهُ يُعَلِّمُني، والرحمنُ يُعَلِّمُني، ألَسْتُمْ تَعْلَمونَ أنَّ هذينِ[5] إلهانِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لِما لا يَعْرِفونَ الرحمنَ، وعَرَفوا اللهَ، فأنْكَروا ذلكَ لِما لم يكونوا يَسْمَعونَ ذلكَ، فَعَرَّفَهُمْ بقولِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية [الإسراء: ١١٠].

---

(١) في الأصل وم: وليه. (٢) أدرج بعدها في م: أن. (٣) في الأصل وم: محمد. (٤) في الأصل وم: الشعر. (٥) في الأصل وم: هذا.

أو أنْ يكونوا يَعْرِفونَ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً، وكذلكَ يُسَمُّونَ الأصنامَ التي عَبَدوها آلهةً، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ دعاهُمْ إلى عبادةِ الرحمنِ، فَظَنوا أنهُ غيرٌ، فقالوا: فلئنْ جازَ أنْ يُعْبَدَ غيرُ اللهِ فنحنُ نَعْبُدُ الأصنامَ، فَلِمَ تَمْنَعُنا عنْ ذلكَ؟ فأخبرَ [أنَّ](١) الرحمنَ والإلهَ واحدٌ، ليسَ وهو غيراً حينَ قالَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ [الفرقان: ٦١ . . .] يقولُ اللهُ تعالى: لا(٢) يكونُ الرحمنُ غيرَ الإلهِ، بلِ الرحمنُ هو ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وقد كانوا يَعْلَمونَ أنَّ الذي جَعَلَ في السماءِ البُروجَ، وهي النجومُ، وجَعَلَ فيها السُّرُجَ، وهي الشمسُ والقَمَرُ، هو اللهُ. فأخبَرَ أنَّ الرحمنَ هو ذلكَ، لا غيرُ.

وفي قولِ بعضِهِمْ: إنَّ قولَهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية دلالةٌ أنهُ ليسَ مِنَ المَكْتومِ، ولكنهُ ممّا يُعْلَمُ، ويُفَسِّرُ حينَ(٣) قالَ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ ولو كانَ ممّا لا يُعْلَمُ لَكانَ لا يَأْمُرُهُ أنْ يَسْأَلَ بهِ خبيراً، أو لو(٤) أمَرَهُ بالسؤالِ لَكانَ لا يُحْتَمَلُ ألّا يُخْبِرَهُ. دلَّ ذلكَ أنهُ ليسَ مِنَ المَكْتومِ، ولكنّهُ ممّا يُعْلَمُ، لكنْ لا يَعْلَمُهُ إلّا الخَبيرُ، والخَبيرُ هو العالِمُ.

ثم يَحْتَمِلُ اللهَ أو جبريلَ أو مَنْ يُعَلِّمُهُ اللهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: باللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: بالذي سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قد ذَكَرْنا ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [بالتاءِ والياءِ](٥) جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي زادَهُمْ دعاؤُهُ إلى عبادةِ الرحمنِ نُفوراً مِنْ رسولِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يقولُ: ما أخْبَرْتُكَ مِنْ شيءٍ فهو كما أخْبَرْتُكَ، لاشَكَّ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قولُهُ: ﴿تَبَارَكَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ بعضَهُمْ يقولونَ: هو مِنَ البَرَكَةِ، وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ التعالي: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ خَرَجَ جواباً لقولِهِمْ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

الآية ٦٢ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي جَعَلَ أحدَهُما خَلْفَ الآخَرِ: إذا ذَهَبَ هذا جاءَ هذا﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي يُذَكِّرُ الليلَ والنهارَ، لِمَنْ أرادَ أنْ يَتَذَكَّرَ الموعِظَةَ، أو يَشْكُرَ لِنِعَمِهِ لأنهما يُذَكِّرانِ قدرتَهُ وسُلْطانَهُ حينَ(٦) يَقْهَرَ الجَبابِرَةَ والفَراعِنَةَ ويَغْلِبُهُمْ(٧) حينَ يَظْلِمونَ، ويأتيانِهِمْ، شاؤوا، أو كَرِهوا، لا يَقْدِرونَ دَفْعَهُما عنْ أنفسِهِمْ.

وفيهما دلالةُ الإحياءِ والبَعْثِ بَعْدَ الفناءِ والهلاكِ [حينَ يذهبُ بهذا، ويأتي](٨) بآخَرَ بَعْدَ/ ٣٧٩ ـ ب/ أنْ لم يَبْقَ مِنْ أثَرِهِ شيءٌ. فَمَنْ قَدَرَ على هذا قَدَرَ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ وذَهابِ أثَرِهِ.

ويُذَكِّرانِ أيضاً نِعَمَهُ وآلاءَهُ لأنهُ جَعَلَ النهارَ مُنْقَلَباً لِمَعاشِهِمْ ومَطْلَباً لِرِزْقِهِمْ وما بِهِ قِوامُ أنفُسِهِمْ، وجَعَلَ الليلَ مُسْتَراحاً لأبدانِهِمْ [وسُكوناً؛ إذْ](٩) لا قِوامَ للأبدانِ لأحدٍ دونَ الآخَرِ.

ألا تَرى أنهُ كيفَ ذَكَرَ نِعَمَهُ فيهما حينَ قالَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [القصص: ٧١] وقالَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧٢] يُذَكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ فيهما؟ أعني في الليلِ والنهارِ لِيَسْتَأْدِيَ بِهِ شُكْرَهُ. فَعَلى ذلكَ هذا ما ذَكَرْنا [في](١٠) قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ النعمةَ التي جَعَلَ فيهما.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: بالياء والتاء، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٩٢. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ويغلبانهم. (٨) في الأصل وم: حيث ذهب بهذا أتي. (٩) في الأصل وم: وسكونهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي يكونُ كلُّ واحدٍ منهما خَلَفاً للآخَرِ في ما يَفُوتُ مِنَ التَّذَكُّرِ والتَّشَكُّرِ؛ يُقْضَى في الآخَرِ.

وقالَ الحَسَنُ قريباً ممَّا ذَكَرْنا، وقالَ: مَنْ فاتَهُ شيءٌ بالليلِ أدرَكَهُ بالنهارِ، ومَنْ فاتَهُ شيءٌ بالنهارِ أدرَكَهُ بالليلِ، وعلى مِثْلِ ذلكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ أنَّ رجلاً، قالَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ إنني فاتَتْني الصلاةُ الليلةَ، فقالَ عُمَرُ: أَدْرِكْ ما فاتَكَ مِنْ لَيلِكَ في نَهارِكَ الآخَرِ.

ثم يَحْتَمِلُ الاخْتِلافُ وجهَينِ:

أحدُهُما: مَجيءُ هذا وذهابُ الآخَرِ على ما ذَكَرْنا كقولِهِ: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والثاني: هو اخْتِلافُ اللَّونِ مِنَ السَّوادِ والبَياضِ؛ أحَدُهُما أسْوَدُ، والآخَرُ أبيضُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: البُروجُ، هي النجومُ العِظامُ، والواحدُ بُرْجٌ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ إلى الأعرابيِّ. وقالَ بعضُهُمْ: البُروجُ القُصورُ في السماءِ، فيها تَنْزِلُ الشمسُ في كلِّ ليلةٍ.

ورُوِيَ مثلُ قولِ عُمَرَ عن سَلْمانَ أنَّ رجلاً أتاهُ، فقالَ: إني لا أستطيعُ قِيامَ الليلِ، قالَ: إنْ كُنْتَ لا تَستطيعُ قيامَ الليلِ فلا [تَعجَزْ عنهُ][(١)] بالنهارِ.

وذَكَرَ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ: «أصيبوا مِنَ الليلِ ولو ركعتَينِ ولو أربعاً» وذَكَرَ لنا أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «والذي نفسي بيَدِهِ إنَّ في كلِّ ليلةٍ ساعةً، لا يُوافِقُها رجلٌ مسلمٌ يسألُ فيها خيراً إلّا أُعطِيَ لهُ في هذا الليلِ والنهارِ، فإنهما مَطِيَّتانِ، تَحمِلانِ الناسَ إلى آجالِهِمْ؛ تُقَرِّبانِ كلَّ بعيدٍ، وتُبْلِيانِ كلَّ جديدٍ، وتَجيئانِ بكلِّ مَوعودٍ، حتى يُؤَدِّي[(٢)] ذلكَ إلى ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] يَصيرُ الناسُ بأعمالِهِمْ إلى الجنةِ وإلى النارِ ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]»[(٣)] [بنحوه مسلم ٧٥٧].

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وَصَفَ ﷻ أهلَ الصَّفْوَةِ والإخلاصِ مِنْ عبادِهِ أنهمْ يَمشونَ على الأرضِ هَوناً إلى آخرِ ما ذَكَرَ، وإلّا كانوا كلُّهُمْ عِبادَ الرحمنِ لكنْ وَصَفَ أهلَ الصَّفْوَةِ منهمْ والإخلاصِ والتُّقَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: حُلَماءُ أتقِياءُ بِغَيرِ مَرَحٍ ولا بَطَرٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هُوناً[(٤)] أي مُتَواضِعينَ، لا خُيلاءَ، ولا كِبْرِياءَ، ولا مَرَحاً.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][(٥)] قالَ: هُمُ المؤمنونَ، قَومٌ ذُلُلٌ، ذَلَّتْ [منهُمْ][(٦)] واللهِ الأسْماعُ والأبصارُ والجَوارِحُ حتَّى يَحْسَبَهُمُ الجاهِلُ مَرْضَى، واللهِ ما بالقَومِ مَرَضٌ، وإنهمْ لأَصِحَّةُ القُلوبِ، ولكنْ دَخَلَهُمْ مِنَ الخَوفِ ما لم يَدْخُلْ غَيرَهُمْ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ مَرْفوعاً عَنْ رسولِ ﷺ قالَ: «المؤمنونَ هَيِّنونَ لَيِّنونَ كالجَمَلِ الإلْفِ، إنْ قيدَ انْقادَ، وإنْ أُنيخَ على صَخْرَةٍ اسْتَناخَ» [ابن المبارك في الزهد ٣٨٧].

وأصلُهُ أنهمْ يَمشونَ هَوناً مِنْ غَيرِ أنْ يَتَأذَّى بهم أحَدٌ أو يَلْحَقَ بأحدٍ منهمْ ضَرَرٌ أو ضَنًى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إذا جاهَلَهُمُ[(٧)] الجاهلونَ، وسافَهَهُمُ السُّفَهاءُ لا يُجاهِلونَ أهلَ الجَهْلِ والسَّفَهِ، ولكنْ يقولونَ[(٨)]: السَّلامُ عليكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: وإذا سَمِعوا الشَّتْمَ والأذَى قالوا: سَلاماً، أي سَداداً وصَواباً مِنَ القَولِ ورَدًّا مَعْروفاً؛ أعْرَضوا عَنْ سَفَهِهِمْ وجَهْلِهِمْ بهمْ، ولم يُكافِئوهُمْ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ الآية [القصص: ٥٥] يُخبِرُ.

---

(١) في الأصل وم: تعجزه. (٢) من م، في الأصل: يرد. (٣) أدرج هذا الحديث في صحيح مسلم في كتاب الجمعة بلفظ آخر. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٩٣. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: معنى. (٧) في م: خاطبهم. (٨) في الأصل وم: قالوا.

ﷺ عن صُحبَتِهِمْ أهلَ السَّفَهِ والجهلِ وحُسْنِ مُعاشَرَتِهِمْ إيَّاهُمْ ورِفْقِهِمْ. فكيفَ يُعامِلونَ أهلَ الخيرِ والعَقْلِ منهمْ، ويُصاحبونَهُمْ[١]؟ فهذهِ معامَلَتِهِمُ الخَلائِقَ على الوَصْفِ الذي وَصَفَهُ.

الآية ٦٤ ثم أخبرَ عنْ صَنيعِهِمْ وركونِهِمْ إليهِ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][٢] قالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ الذينَ يَبيتُونَ الليلَ، وأيديهِمْ على رُكَبِهِمْ، ثم قالَ: مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشاءِ فقد تابَ للهِ تعالى ساجداً قائماً».

وقالَ الحَسَنُ: كانوا يَبيتونَ للهِ على أقدامِهِمْ، ويَفْتَرِشونَ وجوهَهُمْ سُجَّداً لِرَبِّهِمْ تَجْري دموعُهُمْ على خُدودِهِمْ فَرَقاً مِنْ رَبِّهِمْ. وقالَ: لأمرٍ ما سَهِرَ لهُ ليلُهُمْ، ولأمرٍ ما خَشَعَ لهُ نهارُهُمْ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا إخباراً مِنَ اللهِ تعالى عمّا في ضَميرِهِمْ ليسَ على حقيقةِ القولِ والدُّعاءِ لأنَّ مَنْ بَلَغَ في العِبادةِ والوَرَعِ المَبْلَغَ الذي وَصَفَ لا يَشْغَلونَ أنْفُسَهُمْ بالسُّؤالِ عنْ دَفْعِ المَضارِّ أو دَفْعِ المَنْفَعَةِ. ويَحْتَمِلُ على ما أخْبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخْبَرَ عَنْ عذابِها [فقالَ:][٣] ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قالَ الحَسَنُ: الغَرامُ اللازمُ الذي لا يُفارِقُ صاحِبَهُ، وكلُّ غَريمٍ، يُفارِقُ غَريمَهُ غَيرَ عذابِ جَهَنَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: الغَرامُ الهَلاكُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي جَهَنَّمُ، بِئْسَ المُسْتَقَرُّ، وبِئْسَ المُقامُ لأهلِها، وهو[٤] مُقابِلُ ما ذَكَرَ لأهلِ الطاعةِ الجنةَ حينَ[٥] قالَ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَرَامًا﴾ غَرِموا في الآخِرَةِ ما نَعِموا في الدنيا. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ إنّا أُنبِئْنا أنّها﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿هَوْنًا﴾ هو مِنَ الرِّفْقِ، يُقالُ: هانَ يَهونُ هَوناً، فهو هائنٌ [ومنهُ يُقالُ:][٦] إذا عَزَّ أخوكَ فَهُنْ: أي إذا اشْتَدَّ فارْفُقْ بهِ، والغَرامُ الهلاكُ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ ﴿غَرَامًا﴾ أي هَلَكَةً، وقالَ: مَشْياً ﴿هَوْنًا﴾ رُوَيداً ﴿سَلَٰمًا﴾ أي سَداداً مِنَ القولِ؛ لا رَفَثَ فيهِ، ولا هُجْرَ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ في غَيرِ حقٍّ؛ كَسَبوا طَيِّباً، وأنْفَقوا قَصْداً، وأعْطَوا فَضْلاً [لا جُحوداً، واستَيْسَروا][٧] ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ أي ولم يُمْسِكوا عنِ الحَقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي بَينَ الإسرافِ والتَّقْتيرِ مَقْصَداً، وهو تأويلُ مُقاتِلٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الإسرافُ هو الإنفاقُ في مَعْصِيَةِ اللهِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ أي لم يَمْنَعوا عن طاعةِ اللهِ ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي عَدْلاً؛ لا يُمْسِكُ عنْ حَقٍّ، ولا يُنْفِقُ[٨] في باطلٍ، ولكنْ نَفَقَةٌ في طاعةِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الإسرافُ في النفقةِ، هو الإنفاقُ في ما لا يُنْتَفَعُ [بهِ][٩] مِنْ نَحْوِ البَحيرَةِ والسائِبَةِ والوَصيلَةِ التي كانوا يَتْرُكونَها سُدًى، ولا يَنْتَفِعونَ بها. والإقتارُ، هو الإمساكُ عنِ الإنفاقِ فيما يُنْتَفَعُ/ ٣٨٠ ـ أ/ بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الإسرافُ، هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ في الإنفاقِ، في الإكثارِ. والإقتارُ هو المَنْعُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي وَسَطاً كقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ولكنْ بَينَ ذلكَ.

وأصْلُهُ: ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ أي لم يُنْفِقوا، ولم يَضَعوا إلّا في ما أُمِروا أنْ يَضَعوا فيهِ [أموالَهُمْ][١٠] ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي قائماً في ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ويصاحبون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) في الأصل وم: والجحود واستبشروا. (٨) في الأصل وم: ينفقون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أخبَرَ أنهمْ ما يَفْعَلونَ [ما يَفْعَلونَ][(١)] إلّا بأمرٍ.

الآية ٦٨ وأخبَرَ أنهمْ ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ثم يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

[أحَدُهما:][(٢)] ﴿لَا يَدْعُونَ﴾ أي لا يَعْبُدونَ دونَ اللهِ غَيرَهُ.

[والثاني][(٣)]: لا يُسَمُّونَ غيرَ الله [إلهاً][(٤)]. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

أخْبَرَ في الآيةِ الأولَى في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] عنْ مُعامَلَتِهِمُ الخَلْقَ وصَنيعِهِمْ بَيْنَهُمْ وبَينَ العبادِ حين[(٥)] أخبَرَ أنهمْ يَمْشونَ هَوناً، ولا يُؤْذُونَ أحداً، ولا يَضُرُّونَهُ، وإذا آذاهُمْ أهلُ الجَهْلِ والسَّفَهِ لم يُكافِئوهُمْ لِأذاهُمْ، ولكنِ احْتَمَلوا ذلكَ عنهمْ، وتَجاوَزوا، وقالوا لهمْ قولاً سَديداً.

هذهِ مُعامَلَتُهُمْ في ما بَيْنَهمْ وبَينَ الخَلْقِ بالنهارِ.

وأخبَرَ عنْ مُعامَلَتِهِمْ ودعائِهِمْ ربَّهُمْ بالليلِ حينَ[(٦)] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٤و٦٥].

ثم أخبَرَ عنْ صنيعِهِمْ في أموالِهِمُ التي في أيديهِمْ أنهمْ لا يَضَعونَها إلّا في ما أُمِروا بالوَضْعِ فيها، وأخبَرَ عنْ صَفْوَتِهِمْ وإخلاصِهِمْ للهِ في العبادةِ وكَفِّهِمْ عنْ مَحارِمِ اللهِ حينَ[(٧)] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: ٦٧] وقالَ[(٨)]: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ موصولٌ بهذا ومُقَدَّمٌ على قولِهِ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ كأنهُ قالَ: ولا يزنونَ، ولا يشْهَدونَ الزُّورَ، ومَنْ يَفْعَلْ ذلكَ أي ما ذَكَرِمِنْ قَتْلِ النَّفْسِ المُحَرَّمَةِ والزِّنَى وشهادةِ الزُّورِ والشِّرْكِ يَلْقَ أثاماً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَثَامًا﴾ أي وادياً في جَهَنَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَثَامًا﴾ عذاباً في النارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] قالَ بعضُهُمْ: لا يَشْهَدونَ مَكانَ الزُّورِ، وهو الغِناءُ، أي لا يَشْهَدونَ المكانَ الذي يُتَغَنَّى فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: لا يَشْهَدونَ بِشَهادَةِ الزُّورِ، وهو الكَذِبُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ مُرورَ الكِرامِ، أي إنْ قَدَروا على تَغْييرِ ما عايَنوا مِنَ اللَّغْوِ والمُنْكَرِ غَيَّروهُ، ومَضَوا على وجوهِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَدْخُلَ في ذلكَ فَسادٌ، وإنْ لم يَقْدِروا مَضَوا، ولم يَعْبَؤوا بهِ، ولا اشْتَغَلوا بهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ الخوارجِ بإكفارِهِمْ أصحابَ الكبائرِ لأنهُ أخبَرَ أنها مُحَرَّمَةٌ بَعْدَ ارْتِكابِها الزِّنَى[(٩)] كما هي قَبْلَ ارْتِكابِها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ حينَ[(١٠)] قالَ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ دلَّ أنها مُحَرَّمَةٌ بِحَقٍّ[(١١)] غيرُ كافِرَةٍ إلّا بالحَقِّ: إمّا بِحَقِّ القِصاصِ، وإما بِحَقِّ الزِّنَى، وإمّا بِحَقِّ الارْتِدادِ. وعلى ما ذُكِرَ في الخَبَرِ: «لا يَحِلُّ قَتْلُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلّا في ثَلاثِ خِصالٍ: زِنًى بَعْدَ إحصانٍ، وكُفْرٌ بَعْدَ إيمانٍ، وقَتْلُ نَفْسٍ بِغَيرِ حَقٍّ» [بنحوه البخاري ٦٨٧٨] ولو كانَتْ كافِرَةً بارْتِكابِ ما ذَكَرَ لكانَتْ غَيرَ مُحَرَّمَةٍ، فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الإسرافُ الفَسادُ، والتَّقْتيرُ التَّضْييقُ ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي لم يُنْفِقوا قليلاً، لا يَكْفي عيالَهُمْ، والقَوامُ الوَسَطُ، ويُقالُ: لا قَوامَ لي في هذا الأمْرِ أي لا طاعَةَ لي فيه، ولا أُقاوِمُ هذا الأمْرَ أي لا أُطيقُهُ، والقِوامُ القَصْدُ.

قالَ أبو مُعاذٍ في قولِهِ: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ لُغاتٌ أربَعٌ: لم يُقْتِروا بِرَفْعِ الياءِ وبِخَفْضِ التاءِ غَيرَ مُثَقَّلٍ [ويُقَتِّروا: مُثَقَّلاً][(١٢)]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: والقتل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: بعد. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ويَقْتِروا بِنَصْبِ الياءِ وخَفْضِ التاءِ، ويُقْتُروا بِرَفْعِ التاءِ ونَصْبِ الياءِ، والمَعْنَى كلُّهُ واحدٌ(١). وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣] قالَ بعضُهُمْ: يقولُ: إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهِمْ لم يَصَمُّوا عنِ الحَقِّ، ولم يَعْمَوا. قالَ: هُمْ. واللهُ أعلَمُ. قومٌ عَقَلُوا عنِ اللهِ، وانتَفَعُوا بما سَمِعوا مِنْ كتابِ اللهِ.

وقالَ الحَسَنُ: مَنْ يَقْرَأُها بِلِسانِهِ يَخِرُّ عليها أصَمَّ وأعمَى؛ كأنهُ يُخْبِرُ أنَّ أولئكَ؛ أعني أهلَ صَفْوَةِ اللهِ وإخلاصِهِ لم يَخِرُّوا على تلكَ الآياتِ صُمًّا وعُمْياناً كالكَفَرَةِ العَنَدَةِ، ولكنْ خَرُّوا عليها مُتَذَكِّرينَ ومُتَفَقِّهينَ مُتَيَقِّظِينَ عالِمينَ بما فيها كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ إنْ(٢) قيلَ: أخبَرَ ههنا أنهُ يُضاعِفُ لهُ العذابَ، وقالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] فما مَعْنَى الضِّعْفِ ههنا؟

قيلَ: يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحَدُها:](٣) أنهُ يُضاعِفُ العذابَ لِلَّذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ: إذا كَفَروا باللهِ بَعْدَ ما بَلَغوا المَبْلَغَ الذي وَصَفَهُمْ والرُّتْبَةَ التي ذَكَرَ، وهو قولُهُ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] أنَّ واحداً منهُمْ، إذا كَفَرَ ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ يَتَضاعَفُ عذابُهُ على قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ ومَرْتَبَتِهِ عندَ اللهِ وعلى قَدْرِ نِعَمِ اللهِ عليهِ إذا كانَ منهُ عِصْيانٌ وكُفْرانٌ لذلكَ؛ وهو كما قالَ لِرسولِهِ(٤) ﷺ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤ و٧٥] أي ضِعْفَ عذابِ الحياةِ وضِعْفَ عذابِ المَماتِ، وما ذَكَرَ لأزواجِهِ حينَ(٥) قالَ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

كلُّ مَنْ كانَ أعْظَمَ قَدْراً وأكْثَرَ نِعَماً عليهِ فَعُقوبَتُهُ إذا عَصَى رَبَّهُ أكثَرُ وأشَدُّ مِنَ الذي لم يَبْلُغْ ذلكَ ولا تلكَ الرُّتْبَةَ(٦)، فتكونُ ضِعْفَ غَيْرِهِ وجزاءَ مِثْلِهِ.

والثاني: أنْ يكونَ ذلكَ لِلأَئِمَّةِ؛ أعني الكَفَرَةَ والرُّؤَساءَ دونَ الأتباعِ لأنهمْ عَمِلوا هُمْ بأنفُسِهِمْ، ودَعَوا غَيْرَهُمْ إلى ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ١٣].

والثالثُ(٧): أنْ يكونَ ذلكَ [لِلْعِنادِ](٨) الذي كانَ منهم والمُكابَرَةِ.

الآية ٧٠ ثم استَثْنَى مَنْ تابَ منهُمْ، فقالَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ الآية.

[فإنْ كانَتِ الآيةُ](٩) في الذينَ قالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] فكأنَّ(١٠) فيهِ دلالةَ قَبولِ تَوْبَةِ المُرْتَدِّ إذا تابَ، ورَجَعَ إلى الإسلامِ حينَ(١١) استَثْنَى مَنْ تابَ منهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: يُوَفِّقُهُمُ(١٢) اللهُ إذا تابوا، ونَدِموا على ما فَعَلوا مِنَ السَّيِّئاتِ في الدنيا حتى يَعْمَلوا مكانَ [كلِّ](١٣) سَيِّئَةٍ عَمِلوها [حَسَنَةً](١٤) فذلكَ مَعْنَى تَبْديلِ اللهِ [سَيِّئاتِهِمْ](١٥) حَسَناتٍ، أي يُوَفِّقُهُمْ على ذلكَ.

والثاني: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ في الآخِرَةِ لِما كانَ منهمُ النَّدامَةُ والحَسْرَةُ على كلِّ سَيِّئَةٍ كانَتْ منهُمْ في الدنيا.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه [أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ](١٦): «لَيَأْتِيَنَّ أقوامٌ يومَ القيامَةِ/ ٣٨٠ ـ ب/ وَدُّوا أنهمُ استَكْثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ، فَقيلَ لهُ: [ومَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ](١٧)؟ قالَ: هُمُ الذينَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨١] وكأنهُ رُوِيَ مِثْلُهُ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٩٤. (٢) في الأصل وم: فإن. (٣) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٤) في الأصل وم: لرسول الله. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: الزينة. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: لهم المعتاد. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: فكأنه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: يوفق. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: قال. (١٧) في الأصل: يا أبا هريرة ومن هم.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: أنْ يكونَ على الأمْرِ؛ كأنهُ قالَ: ومَنْ تابَ فَلْيَتُبْ إلى اللهِ مَتاباً، لا يرجعُ عنهُ][1] أبداً. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] أي إنْ يكنْ منكُمْ عشرونَ، فَيَثْبُتوا، يَغْلِبوا مِئتَينِ على الأمرِ؛ دليلُهُ قولُهُ حينَ[2] قالَ: ﴿ٱلْـَٔانَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٦٦].

والثاني: أنْ يكونَ ذلكَ لِقومٍ خاصٍّ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ إذا تابوا توبَةً لا يَرْجِعونَ عنها أبداً. وإلّا ليسَ كلُّ مَنْ تابَ يكونُ على تَوبَتِهِ أبداً.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قد ذَكَرْناهُ ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ قد ذَكَرْناهُ أيضاً.

وقالَ[3] بعضُهُمْ: إذا أُوذوا صَفَحوا، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنهمْ كانوا إذا أَتَوا على ذِكْرِ النِّكاحِ أو غَيرِهِ كَفُّوا عنهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي عُقوبَةَ الأثامِ، وقولُهُ: ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي لم يَخوضوا فيهِ، وأكْرَموا أنفسَهُمْ عنهُ.

الآية ٧٣ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يَتَغافَلوا عنها، وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ إذا وُعِظوا بالقرآنِ ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ عندَ تِلاوَةِ القرآنِ، فلا يَسْمَعونَ، ولا يُبْصِرونَ، ولكنْ يَخِرّونَ عليها سَمْعاً وبَصَراً، وهو واحدٌ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قد نَعَتَهُمْ ﷺ في مُعامَلَتِهِمْ: أنْ كيفَ عامَلوا ربَّهُمْ بالليلِ والنهارِ نَعَتَهُمْ أيضاً في مُعامَلَتِهِمْ عبادَهُ: أنْ كيفَ عامَلوا عبادَهُ. ثم نَعَتَهُمْ في معامَلَتِهِمْ أهليهِمْ ودعائِهِمْ لهمْ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فهو، واللهُ أعلَمُ لمّا أمرَهُمْ أنْ يَتوبوا [ويَقُوا][5] أنفسَهُمْ وأهليهِمُ النارَ بقولِهِ: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ الآية [التحريم: ٦] فعندَ ذلكَ دَعَوا ربَّهُمْ، وسألوهُ أنْ يَهَبَ لهمْ مِنْ أزواجِهِمْ وذُرِّياتِهِمْ ما تَقَرُّ بهِ أعيُنُهُمْ في الدنيا والآخرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: اجْعَلْهُمْ صالِحينَ مُطيعِينَ فإنَّ ذلكَ يُقِرُّ أعيُنَنا. قالَ الحَسَنُ: واللهِ ما شيءٌ أحبُّ إلى العبدِ المُسْلِمِ مِنْ أنْ يَرى وَلَدَهُ أو حَميمَهُ، يُطيعُ اللهَ، وقالَ: نَراهُمْ، يَعْمَلونَ بِطاعَةِ اللهِ، فَتَقَرُّ بذلكَ أعيُنُنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أيِ اجعَلْنا أئِمَّةَ هُدًى، يُقْتَدَى بِنا. وقالَ بعضُهُمْ: واجْعَلْنا بِحالٍ يَقْتَدي بنا المُتَّقونَ.

وأصْلُهُ، واللهُ أعلَمُ: كأنهُمْ[6] سألوا ربَّهُمْ أنْ يَجْعَلَهُمْ بحالِ مَنِ اقْتَدَى بِهِمْ صارَ تَقِيًّا، لا مَنِ اقْتَدَى صارَ ضالاً فاسِقاً. هذا، واللهُ أعلَمُ: تأويلُهُ. وإلّا سُؤالُهُمْ: أنِ اجْعَلْنا إماماً لِلْمُتَّقينَ، لا مَعْنَى لهُ أنْ يَطْلُبوا لأنفسِهِمُ الإمامَةَ، ولكنْ على الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ ثم أخْبَرَ عَنْ جزائِهِمْ في الآخِرَةِ بِصَنيعِهِمْ في الدنيا وصَبْرِهِمْ على ما أُمِروا، فقالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ والغُرْفَةُ، هي أعْلَى المَنازِلِ، وأشْرَفُها. أخْبَرَ أنهمْ يُجْزَوْنَ ذلكَ، ويكونونَ فيها. وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ؓ، أولئكَ يُجْزَوْنَ الجنةَ بما عَمِلوا. فجائزٌ أنْ تكونَ الغُرْفَةُ المذكورةُ في الآيةِ كِنايةً عنِ الجنةِ بدلالةِ[7] حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ.

وجائزٌ أنْ يُرادَ بها[8] نَفْسُ الغرفَةِ لِارْتِفاعِها وعُلُوِّها على غَيرِها مِنَ المَنازِلِ؛ وذلكَ مِمّا يُخْتارُ السكونُ فيها في الدنيا؛ والناسُ يَرغَبونَ فيها لِإشرافِها وارْتِفاعِها على غَيرِها، فَرَغَّبَهُمْ في ذلكَ في الآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: لا يرجع عنها. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فإنهم. (٧) في الأصل وم: يدله. (٨) في الأصل وم: به.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ [بالتشديدِ، والتخفيفِ][1]: ويَلْقون فيها تحيَّةً وسلاماً، أي تلقاهُمُ الملائكةُ بالتَّحِيَّةِ والسلام كقولِهِ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] وقولِهِ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] أي[2] يَلْقَى بعضُهُمْ بعضاً بالتَّحِيَّةِ والسلامِ، ويُحَيِّي بعضُهُمْ بعضاً، ويُسَلِّمُ بعضُهُمْ على بَعْضٍ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي حَسُنَتِ الجنةُ لهمْ مُسْتَقرًّا ومُقاماً حتى لا يَمَلُّوا فيها، ولا يَسأموا، ولا تأخُذَهُمُ الوَحْشَةُ والكآبةُ كنعيمِ الدنيا، يُمَلُّ، ويُسْأَمُ فيها، عند الكَثْرَةِ وطولِ المقامِ فيها.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا﴾ دعاؤُهُ][3] إياكُمْ إلى التَّوحيدِ لِتُوَحِّدوهُ، وتُطِيعُوهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ أي ما يَصْنَعُ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي ما يَصْنَعُ ربي بعذابِكُمْ، إنْ شَكَرْتُمْ، وآمَنْتُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو عذابُ يومِ بدرٍ، يَعْني الْزَمَ بَعْضَهُمْ بعضاً، وكذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ، قالَ: مَضَتْ آيةُ الدخانِ والبَطْشَةِ[4]، واللِّزامُ يومُ بدرٍ، وقالَ: ﴿لِزَامًا﴾ أي عذاباً مُلازِماً غيرَ مُفارِقٍ، وهو عذابُ الآخِرَةِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ أي ما يَصْنَعُ؛ يُقالُ: عَبَأَ يَعْبَأُ عِبْئاً، فهو عابِئٌ، إذا احتاجَ إليكُمْ، ويُقالُ: ما أعْبَأُ بهذا الأمرِ، أي ما أصْنَعُ، ويُقالُ: عَبَأْتُ بِفُلانٍ أي احتَجْتُ إليهِ. وكذلكَ قولُ القُتَبِيِّ. واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

(١) في الأصل وم: بالتخفيف والتشديد، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٩٩. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل.
(٤) وهي قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٠ و١٦]

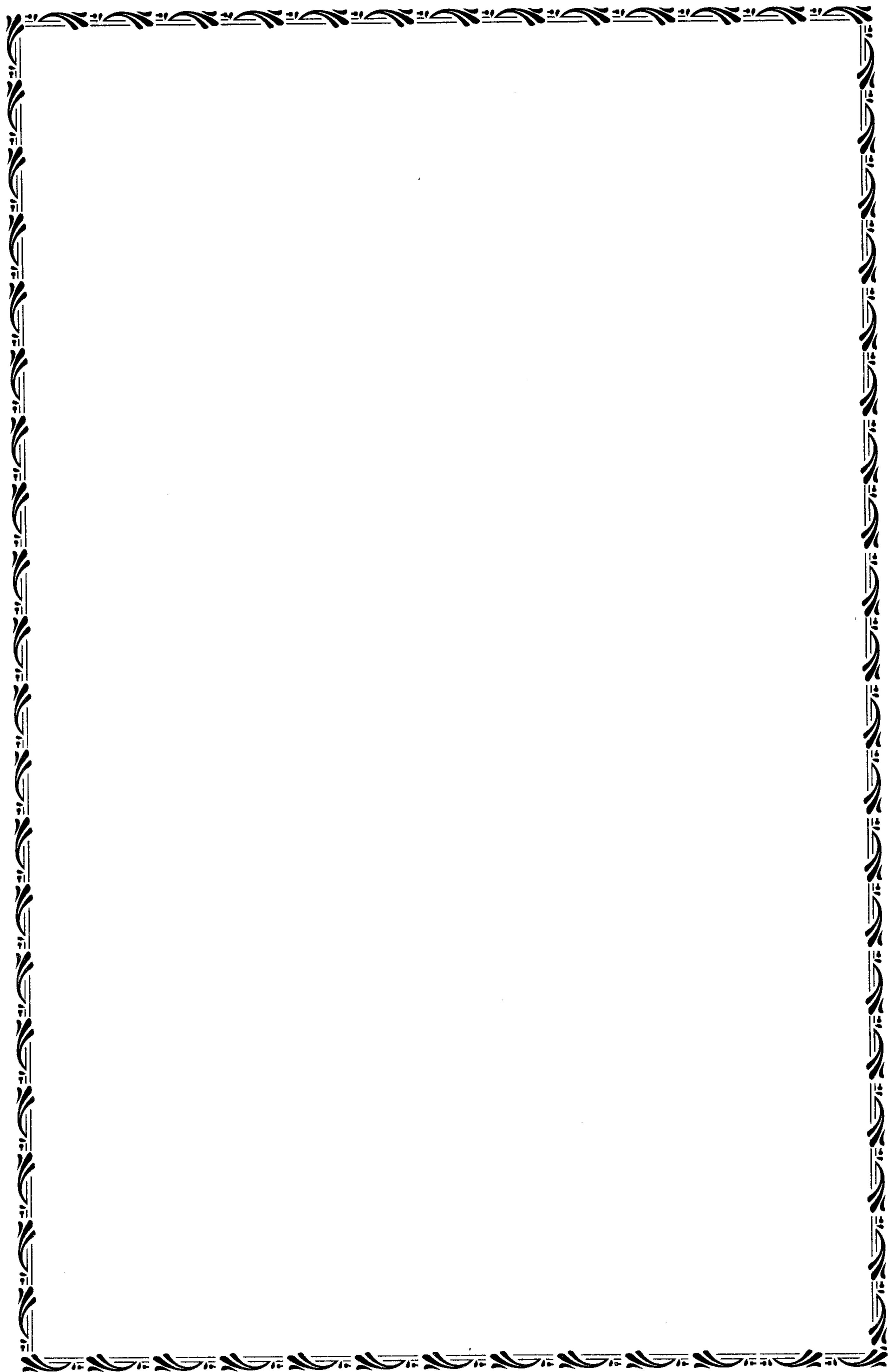

[سورة الشعراء

وهي](١) مَكِّيَّةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَ الحُروفِ المُعْجَمَةِ في ما تَقَدَّم، وكذلكَ قولُهُ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ أيضاً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ كانَ يَشْتَدُّ على رسولِ اللهِ تَرْكُهُمُ الإيمانَ وتكذيبُهُمْ إيّاهُ إشفاقاً وخَوفاً عليهِمْ وتَعْظيماً وإجلالاً لِحقِّهِ حتى كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ حُزْناً على ذلكَ. [وهو](٢) كقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. والأسَفُ، هو النهايةُ في الحُزْنِ كقولِ يَعْقوبَ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]. وقالَ /٣٨١ ـ أ/ بَعْضُهُم: الأسفُ، هو النهايةُ في الغَضَبُ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] قيلَ: أغْضَبُونا.

وقد ذَكَرْنا في سورةِ يوسفَ على ما ذَكَرَ اللهُ رسولَهُ، وَوَصَفَهُ [أنهُ](٣) كانَ مَطْبوعاً بِحُزْنٍ وتأسُّفٍ لِمَكانِ كُفْرِهِمْ وتكْذيبِهِمْ كقولِهِ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية [التوبة: ١٢٨] يَحزَنُ عليهِمْ إشْفاقاً عليهِمْ [ويَغضَبُ عليهِمْ](٤) للهِ تَعْظيماً لهُ وإجلالاً لأمرِهِ لِما ضَيَّعُوا أمْرَهُ ونَهْيَهُ.

وهكذا الواجبُ على كلِّ مَنْ رَأى آخَرَ في فاحشةٍ أو كَبيرةٍ أنْ يَحْزَنَ، ويَتَرَحَّمَ عليهِ، ويَغْضَبَ للهِ لِما(٥) ارْتَكَبَ مِنَ الفاحِشَةِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ قالتِ المُعْتَزِلَةُ: قولُهُ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ مَشيئةُ قَسْرٍ وقَهْرٍ حتى يُضْطَرُّوا لها، فَيُؤْمِنوا.

لكنْ عندَنا مَشيئةُ الإيمانِ والإختيارِ أي إنْ نَشَأْ إيمانَهُمْ نُنْزِلْ عليهِمْ آيةً فَيُؤْمِنوا، لأنَّ الآيَةَ، لا تَضْطَرُّ أحداً، ولا تَقْهَر على الإيمانِ، دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] أخْبَرَ أنهُمْ لا يؤمنونَ، وإنْ فَعَلَ ما ذَكَرَ، ولا يَضْطَرُّهُمْ ذلكَ على الإيمانِ، وكذلكَ ما أخْبَرَ عنهمْ في الآخِرَةِ بقولِهِ(٦): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ الآية [المجادلة: ١٨] وقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٢٣] أخْبَرَ عنْ حَلْفِهِمْ وإنْكارِهِمْ في الآخِرَةِ أنهمْ لم يكونوا على ما كانوا. ولا تكونُ آيةٌ أعْظَمَ مِمَّا عايَنوا مِنْ أنواعِ العذابِ.

ثم لم يَمْنَعْهُمْ ذلكَ عنِ التَّكْذيبِ، ولا اضْطَرَّهُمْ على الإقرارِ والتَّصْديقِ. دَلَّ، وإنْ كانتْ عظيمةً، لا تَضْطَرُّ أهلَها على الإيمانِ والتَّصْديقِ. وقد ذَكَرْنا هذهِ المسألةَ في ما تَقَدَّمَ ما يُغْنينا عنْ ذِكْرِها في هذا الموضِعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي مالَتْ، وخَضَعَتْ لها أعناقُهُمْ، والأعناقُ كأنها كِنايةٌ عنْ أنفسِهِمْ، وعنِ

---

(١) من م، في الأصل: قيل: سورة الشعراء. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: عقلاً. (٦) في الأصل وم: قال.

ابْنِ عباسٍ [أنهُ][١] قالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ قالَ: سيكونُ لنا دُولَةٌ على بني أُمَيَّةَ، فَتَذِلُّ لنا أعناقُهُمْ [خضوعاً][٢] بَعْدَ صُعوبَةٍ وهَواناً بَعْدَ عِزَّةٍ، فقد كانَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الأعناقُ السَّادةُ والقادةُ، والواحدُ عُنُقٌ، أي إذا أَسْلَمَ القادةُ أَسْلَمَ الأتباعُ اتّباعاً لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يقولُ: كلَّما نَزَلَ شيءٌ بَعْدَ شيءٍ مِنَ المَوعِظَةِ والذِّكْرِ فهو مُحْدَثٌ مِنَ الأزَلِ[٣].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ ممَّا بِهِ فيهِ ذِكْرُهُمْ في الآخرينَ، وشَرَفُهُمْ في الخَلْقِ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ لأنهمْ لو آمَنوا لَذُكِروا في الناسِ، وبَقِيَ لهمْ ذِكْرٌ وشَرَفٌ كَذِكْرِ الأنبياءِ والرسلِ فيهمْ إلى آخِرِ الدَّهْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُحْدَثٍ﴾ هو مُحْدَثٌ على هذينِ الوجهَينِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْناهُما.

قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَة: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ كما تقولُ: ظَلِلْتُ اليومَ. قالا: والأعناقُ السَّادَةُ، والواحدُ منهُ: عُنُقٌ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ الآية [هو ظاهرٌ][٤] قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تقدَّمَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: قد رَأَوا ما أَنْبَتْنا، وأخرَجْنا منها.

والثاني: على الأمْرِ، أي رُوا ما أَنْبَتْنا في الأرضِ، وأخرَجْنا منها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

قالَ الحَسَنُ: الكريمُ الحَسَنُ كالبَهيجِ، وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي جِنْسٍ حَسَنٍ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ لِوَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ، وآيةً لِسُلْطانِهِ وقدرتِهِ، وآيةً لِعِلْمِهِ وتدبيرِهِ، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إحياءِ النباتِ مِنَ الأرضِ بَعْدَ ما يَبِسَ، وجَفَّ، قادرٌ على إحياءِ المَوتى وبَعْثِهِمْ. ودلَّ إخراجُ النباتِ مِنَ الأرضِ في كلِّ عامٍ على حَدٍّ واحدٍ وعلى قَدْرٍ وميزانٍ واحدٍ، على [أنهُ][٥] إنما خَرَجَ ذلكَ عَنْ تَدْبيرٍ [مدبرٍ عليمٍ؛ لهُ تدبيرٌ ذاتيٌّ][٦] وعِلْمٌ ذاتيٌّ وقُدْرةٌ ذاتيَّةٌ، ليسَتْ بِمُسْتَفادَةٍ. فَدَلَّ ذلكَ كلُّهُ أنهُ فِعْلُ واحدٍ قادرٍ ومُدَبِّرٍ عالمٍ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أكثَرُ الذينَ بُعِثَ إليهِمْ محمدٌ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ وهمُ الذينَ كانوا وقْتَ مَبْعَثِهِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ [وما يكونُ][٧] أكثَرُهُمْ مؤمنينَ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ جائزٌ أنْ يُقالَ: ﴿الْعَزِيزُ﴾ المُنْتَقِمُ مِنْ أعدائِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿الْعَزِيزُ﴾ على الخَلائقِ كلِّهِمْ، وهمْ أذِلَّاءُ دونَهُ؛ بهِ يَعِزُّ مَنْ عَزَّ.

الآيتان ١٠ و١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ أي أمَرَ ربُّكَ موسى، وأوحى ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ موسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، كانَ مَبْعوثاً مُرسَلاً إلى فِرْعَونَ وقومِهِ، وإنْ كانَ لم يَذْكُرْ في بعضِ الآياتِ قومَهُ حينَ[٨] قالَ: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤ والنازعات: ١٧] وقالَ في بَعْضِها: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: ١٠٣ و...] [والمَلأُ: هُمُ][٩] الرُّؤَساءُ والقادةُ. فإذا آمَنوا هُمُ اتَّبَعَهُمُ الأتباعُ في ذلكَ، فكانَ[١٠] مَبْعوثاً في الحقيقةِ رسولاً إليهِ وإلى قومِهِ جميعاً الأتباعِ والمَتْبوعِينَ لِما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كأنهُ على الإضمارِ: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقُلْ لهمْ: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾؟

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: أحَدُهُما: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مُخالفةَ أمرِ اللهِ ونَهْيِهِ.

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأول. (٤) في الأصل وم: هي ظاهرة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فهذه لأنهم كانوا. (١٠) في الأصل وم: والاكان.

والثاني[1]: ألا يتَّقونَ نَقْمَةَ اللهِ وعقوبَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لم يَقطَعْ موسى القولَ في التكذيبِ، ولكنهُ على الرَّجاءِ قالَ ذلكَ. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] فكأنهُ رجا ذلكَ منهُ لهذا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على القَطْعِ والعِلْمِ منهُ بالتكذيبِ؛ كأنهُ قالَ: إني أعلَمُ أنهمْ يُكذِّبوني، وذلك[2] جائزٌ في اللغةِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ لأنَّ عليهِ أنْ يَغضَبَ لِلَّهِ إذا كَذَّبوهُ، فإذا اشْتَدَّ بالمَرْءِ الغَضَبُ ضاقَ صَدْرُهُ، وكَلَّ لسانُهُ، وهو ما دَعا ربَّهُ، وسألَهُ حينَ[3] ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٥ و٢٦ و٢٧] وهو ما ذَكَرْنا إذا اشْتَدَّ بالمَرْءِ [الغَضَبُ][4] يَضيقُ صَدْرُهُ حتى يَمْنَعَهُ عنِ الفَهْمِ، ويَكِلُّ لسانُهُ حتى يَمْنَعَهُ عنِ العبارةِ والبَيانِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ لِآفَةٍ، كانَتْ بلسانِهِ.

ثم ضِيقُ الصَّدْرِ يكونُ لِوَجهَيْنِ:

أحدُهُما: لِعِظَمِ أمْرِ اللهِ وجَلالِ قَدْرِهِ إذا كَذَّبوهُ، وردُّوا رسالَتَهُ وأمْرَهُ، ضاقَ لِذلكَ صَدْرُهُ.

[والثاني][5]: لِما يَنْزِلُ مِنْ عذابِ اللهِ ونَقْمَتِهِ بالتكذيبِ إشفاقاً عليهِمْ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٣ و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾: قولُهُ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ كسؤالِهِ إياهُ حينَ[6] قالَ: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٢] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ يكونُ معي في الرسالةِ، وقولُهُ[7]: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ الآية [القصص: ٣٤].

وذَنْبُهُ الذي ذَكَرَ أنهُ عليهِ، هو قَتْلُ ذلكَ القِبْطِيِّ، وهو قولُهُ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] ذلكَ ذنبُهُ الذي لهمْ عليهِ.

الآية ١٥ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ على قولِ موسى ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ كأنهُ قالَ: لا تخَفْ، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى حينَ[9] ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ بالفِعْلِ ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا﴾ [أي لا تخافا][10] / ٣٨١ ـ ب/ ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

وقالَ في تلكَ الآيةِ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أي أسْمَعُ ما يقولونَ لكما، وأرَى ما يَفْعَلونَ بكما[11]، فأمْنَعُهُمْ عنكما؛ لأنهما ذَكَرا الخَوفَ منهُ مِنْ شيئَيْنِ: مِنَ الفِعْلِ والقولِ حينَ[12] ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ بالفِعْلِ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] باللِّسانِ.

الآيتان ١٦ و١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ليسَ على حقيقةِ الإرسالِ معهُ، ولكنْ على تَرْكِ استِعْبادِهِمْ كقولِهِ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧] أي خَلِّ بَيْنَهُمْ وبَينَ استِخْدامِكَ إيَّاهُمْ واستِعْبادِكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ ثم قالَ لهُ فرعونُ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ يَذْكُرُ نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِ بتَربِيَتِهِ إياهُ صَغيراً وكونِهِ فيهِمْ دَهْراً، وكُفْرانَ موسى لِما أنْعَمَ عليه:

الآية ١٩ وهو ما قالَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهو قَتْلُ ذلكَ القِبْطِيِّ الذي وَكَزَهُ موسى، فَقَضَى عليهِ، فَأقَرَّ لهُ موسى بذلكَ، فأخْبَرَ أنهُ فَعَلَ ذلكَ حينَ[13] ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

(١) في الأصل وم: ونقول. (٢) من م، في الأصل: وكذلك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو يضيق. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وكقوله. (٨) في الأصل وم: ثم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من م.
(١١) في الأصل وم: بكم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: حيث.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي فَعَلْتُ ذلكَ، وأنا كنتُ مِنَ الجاهِلينَ؛ لا يَعْلَمُ أنَّ وَكْزَتَهُ تلكَ، تَقْتُلُهُ، وإلّا لو عَلِمَ ما وَكَزَهُ، لأنهُ لم يكُنْ يَحِلُّ لهُ قَتْلُهُ حينَ[1] ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] دلَّ ذلكَ منهُ أنه كانَ لم يُحِلَّ قَتْلَهُ إلّا أنهُ جَرَى ذلكَ على يَدِهِ خَطَأً وجَهْلاً.

وفيهِ دلالةُ أنَّ الرجلَ، قد يُنْهَى، ويُؤاخَذُ بما يَجْري على يَدِهِ خَطَأً وجَهْلاً، ويُخاطَبُ بذلكَ حينَ[2] ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ وهو حينَ قالَ لهُ ذلكَ الرجلُ ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ الآية ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢٠ و٢١] وذلكَ فِرارُهُ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿حُكْمًا﴾ أي عِلْماً بالحُكْمِ ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقد كانَ ذلكَ لهُ كُلُّهُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهو اسْتِعْبادُكَ إيّاهُمْ، أي إذا ذَكَرْتَ هذا فاذْكُرْ ذاكَ. وهذا[3] يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنْ تَذْكُرَ ما أنْعَمْتَ عَلَيَّ، وتَمُنُّها، ولا تَذْكُرَ مَساوِئَكَ بِبَني إسرائيلَ، وهو اسْتِعْبادُكَ إيّاهُمْ، أي إذا ذَكَرْتَ هذا فاذْكُرْ ذاكَ.

والثاني: أنَّ تلكَ ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ حينَ[4] لم تُعَبِّدْني، وعَبَّدْتَ بَني إسرائيلَ؛ يُخَرِّجُهُ[5] على قَبولِ المِنَّةِ منهُ.

والثالثُ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ لو تَخَلَّيْتَ[6] عنْ بَني إسرائيلَ، ولم تَسْتَعْبِدْهُمْ، لَوَلَوْا ذلكَ عنهُ.

وتَمامُ هذا بقولِ موسى لِفِرعَونَ: أتَمُنُّ عليَّ يا فِرْعَونُ بأنِ اتَّخَذْتَ بَني إسرائيلَ عَبيداً، وكانوا أحراراً، فَقَهَرْتَهُمْ، وقولِهِ[7] ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي مِنَ الجاهِلينَ بذلكَ: أنهُ يَتَوَلَّدُ مِنْ وَكْزَتِهِ الموتُ.

وكذلكَ رُوِيَ في بعضِ الحروفِ: وأنا مِنَ الجاهِلينَ[8]. دلَّ أنهُ على الجهلِ فَعَلَ[9] ذلكَ لا على القَصْدِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يقولُ: وهذهِ مِنَّةٌ تَمُنُّها عليَّ بقولِكَ[10] ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ يقولُ: تَمُنُّ بها عَلَيَّ أنْ تَسْتَعْبِدَ بَني إسرائيلَ، وتَمُنُّ عَلَيَّ بذلكَ.

الآيات ٢٣ و٢٤ و٢٥ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِموسى ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فقالَ لهُ موسى ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِنْ خَلْقٍ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ثم ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾.

إنما قالَ اللَّعينُ هذا، واللهُ أعلَمُ [لِما][12] وَقَعَ عندَهُ أنَّ موسى حادَ عنْ جوابِ ما سَأَلَهُ لأنهُ إنما قالَ اللَّعينُ هذا، فهو إنما أجابَهُ عنْ [فِعْلِ وربوبِيَّةِ ربِّ العالَمينَ][13]، فَظَنَّ أنهُ حائِدٌ عَنْ جوابِ ما سألَهُ، ولِذلكَ[14] قالَ لِقَومِهِ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلى ما يقولُ موسى تَعَجُّباً منهُ: إني أسألُهُ عنْ شيءٍ، وهو يُجيبُني عنْ شيءٍ.

الآيتان ٢٦ و٢٧ ثم قالَ موسى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ نَسَبَهُ إلى الجُنونِ لِما ذَكَرْنا أنهُ [ظَنَّهُ حائداً][15] عنِ الجَوابِ في كلِّ ما ذَكَرَ؛ إنما كانَ السؤالُ منهُ عنِ الماهِيَّةِ، وهو لم يُجِبْهُ عنها.

الآية ٢٨ فَعِندَ ذلكَ قالَ موسى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لم يُجِبْهُ موسى في كلِّ ما ذَكَرَ لهُ عنِ

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: يخرج. (٦) في الأصل وم: خليت. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) هذه قراءة ابن مسعود وابن عباس، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٠٨. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١٠) في الأصل وم: بقوله. (١١) في الأصل وم: ثم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: فعله وربوبية. (١٤) في الأصل وم: وكذلك. (١٥) في الأصل وم: ظن حائد.

الماهيَّةِ، ولكنْ أجابَهُ في الأوَّلِ عنْ بَيانِ [الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ حينَ](١) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] ذلكَ، فَعَرَفَ اللعينُ أنهُ ليسَ هو ربَّ السمواتِ والأرضِ لِما يَعْلَمُ أنهُ لا صُنْعَ لهُ في ذلكَ، وأنهُ لم يُنْشِئْهُما، ولكنْ أنْشَأَهُما ربُّ العالَمينَ على ما ذَكَرَ موسَى.

لكنْ كأنهُ لم يَعْرِفْ حَدَثَهُما ولا فناءَهما بِما ذَكَرَ لهُ موسى لِما [لم](٢) يُشاهِدْ حَدَثَهُما وفَناءَهُما، فلم يَتَقَرَّرْ ذلكَ عندَهُ أنهما كذلكَ كانا، ويكونونَ أبداً. فَعِنْدَ ذلكَ احْتاجَ إلى أنْ يَذْكُرَ لهُ ما يُشاهِدُ [حَدَثَهُ وفَناءَهُ](٣) وهو ما ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ذَكَرَ لهُ ما شاهَدَ حَدَثَهُ وفَناءَهُ.

فإذا عَرَفَ حَدَثَ ما ذَكَرَ وفَناءَهُ يَعْرِفُ أنهُ إذا لم يكُنْ بِنَفْسِهِ، ولا يكونُ نَفْسُهُ إلاّ بِمُحْدِثٍ أحْدَثَهُ وبِمُدَبِّرٍ، دَبَّرَهُ.

ثم ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ ذَكَرَ ههنا قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ، وهو يأتي بالنهارِ مِنَ المَشْرِقِ وبالليلِ مِنَ المَغْرِبِ، ويُطْلِعُ الشمسَ مِنَ المَشْرِقِ، ويُغْرِبُها في(٤) المَغْرِبِ، وكذلكَ القَمَرُ والنُّجومُ.

ففيهِ دلالةُ البَعْثِ لأنَّ مَنْ قَدَرَ على أنْ يأتِيَ بالنهارِ مِنْ كذا وبالليلِ مِنْ ناحِيَةِ كذا والشمسِ والقَمَرِ من كذا قادرٌ على البَعْثِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ. ففي كلِّ حَرْفٍ مِنَ الأحْرُفِ دلالةٌ واسْتِدْلالٌ على شيءٍ، ليسَ في الأُخرَى.

وفي قولِهِ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دلالةُ رُبوبيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ. وفي قولِهِ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دلالةُ حَدَثِ ما ذَكَرَ وفنائِهِ ودلالةُ مُحْدِثٍ ومُدَبِّرٍ. وفي قولِهِ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ دلالةُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ على البَعْثِ على الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا.

وفي ذلكَ دلالةُ أنَّ اللهَ تعالى لا يُعْرَفُ بالماهيَّةِ ولا بما يُحَسُّ(٥)، ولكنْ إنما يُعْرَفُ مِنْ جهةِ الاِسْتِدْلالِ بِخَلْقِهِ وبالآياتِ التي تَدُلُّ على وَحدانيَّتِهِ حينَ(٦) سَأَلَ فِرْعَونُ موسى عنِ الماهيَّةِ، فأجابَ على الاِسْتِدْلالِ بِخَلْقِهِ.

الآية ٢٩ ثم قالَ اللَّعينُ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما أوعَدَهُ السِّجْنَ، ولم يوعِدْهُ القَتْلَ لأنهُ طَلَبَ منهُ الحُجَّةَ على ما ادَّعَى مِنَ الرسالةِ حينَ(٧) قالَ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ الآية [الشعراء: ٣١] ولو قَتَلَهُ لَكانَ لا يَقْدِرُ على إتيانِها. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ كانَ سِجْنُهُ أشَدَّ مِنَ القَتْلِ ومِنْ كلِّ عُقوبةٍ.

الآية ٣٠ فقالَ لهُ موسى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما يُبَيِّنُ رُبوبيَّةَ اللهِ وأُلوهيَّتَهُ، أو ما يُبَيِّنُ أني رسولُ اللهِ.

الآية ٣١ فقالَ لهُ فِرْعَونُ: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بالرسالةِ وبما ادَّعَيتَ.

فَدَلَّ قولُ فرعونَ لِموسى حينَ(٨) قالَ لهُ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنهُ قد عَرَفَ أنهُ رسولٌ، وأنهُ ليسَ بإلهٍ على ما ادَّعَى، وأنَّ الإلهَ غَيرُهُ حينَ طَلَبَ هذهِ الآيةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] بالآياتِ التي تَدُلُّ على وحدانيَّةِ اللهِ/ ٣٨٢ ـ أ/ تعالى ومَشيئَتِهِ.

ذَكَرَ هذا مُقابِلَ إنكارِهِمُ الصانعَ. والإيمانُ هو العِلْمُ [الذي](٩) يُسْتَفادُ مِنْ جِهَةِ الاِسْتِدْلالِ.

لِذلكَ لا يُقالُ للهِ: موقِنٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] [مُقابِلُ](١٠) قولِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الثُّعْبانُ، هو(١١) الكبيرةُ العظيمةُ مِنَ الحَيَّاتِ، وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] وقالَ في موضعٍ آخَرَ ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]. فجائزٌ أنْ تكونَ كالثُّعْبانِ بَعْدَ ما طَرَحَها، وألقاها، وقَبْلَ أنْ يَطْرَحَها كالجانِّ، وهيَ الحيةُ الصغيرةُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: ربوبيته وألوهيته حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حدثهما وفناءهما. (٤) في الأصل وم: من.
(٥) في الأصل وم: يحسن. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وهو.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بَياضاً خارجاً عنْ خِلْقَةِ البَشَرِ وخارجاً عنِ الآفةِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢ و...].

الآيتان ٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ هذا منهُ إغراءٌ وتَحريشٌ منهُ لِقَومِهِ على موسى لئلا يَنْظُروا إليهِ بِعَينِ التَّعْظيمِ لِعَظيمِ ما أتاهُمْ مِنَ الآيةِ؛ [أراهُمْ حينَ][١] قالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ أنهُ[٢] لم يُرِدْ إخراجَهُمْ مِنْ أرضِهِمْ[٣]، ولكنَّ ذلكَ إغراءٌ منهُ لهمْ عليهِ لئلاّ يَتَّبِعوهُ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ﴾ فَيُفْسِدَ عليكُمْ مَعاشَكُمْ، ويُضيِّقَ عليكُمْ مُقامَكُمْ ومُتَقَلَّبَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ هذا يُبيِّنُ أنهُ كانَ عَرَفَ أنهُ ليسَ بإلهٍ، فَيُبَيِّنُ دَناءَتَهُ وقِلَّةَ مَعْرِفَتِهِ، لأنهُ لا يقولُ مَلِكٌ مِنَ الملوكِ لِقومِهِ: ماذا تأمُرونَ؟ وخاصَّةً مَنْ يَدَّعي لِنَفْسِهِ الأُلوهِيَّةَ. بقولِهِ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] فَدَلَّ أنهُ كانَ خَسيسَ الهِمَّةِ دَنيءَ الرأيِ والبالِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ احْبِسْهُ، وأَخِّرْهُ ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ الحاشِرُ: الجامعُ، والحَشْرُ الجَمْعُ.

الآية ٣٧ [وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ كانَ يَجِبُ أنْ يَعْرِفَ أنَّ السِّحْرَ يُقابَلُ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، ولا يَحْتاجُ إلى أنْ يَسْأَلَ قومَهُ ذلكَ. لكنهُ كانَ اللَّعينُ ما ذَكَرْنا مِنْ قِلَّةِ البَصَرِ في الأمْرِ وخَساسَةِ الهِمَّةِ ودَناءَةِ الرأيِ.

الآيات ٣٨ و٣٩ و٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ قالَ اللعينُ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ ولم يَقُلْ: نَتَّبِعُهُمْ إنْ كانَتْ مَعَهُمُ الحُجَّةُ، لِيُعْلَمَ أنهُ قد عَلِمَ، وعَرَفَ أنْ لا حُجَّةَ مَعَهُمْ، وأنَّ الحُجَّةَ مَع موسى حينَ[٥] وَجَدَ[٦] أتباعَ الغالبينَ دونَ مَنْ مَعَهُمُ الحُجَّةُ.

وفي حَرْفِ ابنِ مَسعودٍ: قالَ للناسِ: أنتمْ مُسْتَمِعونَ إلى السَّحَرَةِ أنهُمُ الغالبونَ، لَعَلَّنا نَتْبَعُ منهمُ الغالبينَ.

الآيتان ٤١ و٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ هذا ظاهرٌ، لكنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: كانَ السَّحَرَةُ كذا كذا عَدَداً، وإنَّ موسى قالَ لأكبَرِهِمْ ساحراً: أتُؤمِنُ لي إنْ غَلَبْتُكَ؟ وقالَ الساحرُ: كذا وغيرَ ذلكَ مِنَ الكلامِ ممَّا ليسَ ذلكَ، في الكتابِ ذِكْرُهُ، وليسَ يَنْبَغي لهمْ أنْ يَشْتَغِلوا بِشيءٍ مِنْ ذلكَ أو أنْ يَتَأوَّلوا شيئاً، ليسَ في القرآنِ لِما يُدْخِلُ في ذلكَ مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ، فيكونَ لِلْكَفَرَةِ مَقالٌ في ذلكَ وطَعْنٌ في رسالةِ رسولِ اللهِ، لأنَّ هذهِ الأنباءَ كانَتْ في كُتُبِهِمْ، فَذُكِرَتْ لرسولِ اللهِ لِتكونَ آيةً لهُ في الرسالةِ، فإنْ زادوا، أو نَقَصوا، يقولوا: هذا كَذِبٌ، لم يُذْكَرْ في كتابِنا ذلكَ.

فلهذا الوجهِ ما يَنْبَغي أنْ يَزيدوا على ما ذُكِرَ في الكتابِ، أو يُنْقِصوا، لئلا يَجِدَ أولئكَ مَقالاً في تكذيبِ رسولِ اللهِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ موسى لأولئكَ السَّحَرَةِ: ﴿أَلۡقُواْ﴾ وهو يَعْلَمُ أنَّ ما يُلْقُونَ، هو سِحْرٌ؟ فكيفَ أمَرَهُمْ بالسِّحْرِ؟ قيلَ: هذا [يَحْتَمِلُ وجوهاً]:

أحدُها[٧]: إنْ كانَ في الظاهِرِ أمراً فهو في الحقيقةِ تَوَعُّدٌ كقولِهِ لإبليسَ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ الآية [الإسراء: ٦٤] [لا][٨] يُخَرَّجُ على الأمْرِ، ولكنْ على التَّوَعُّدِ والتَّهَدُّدِ، أي وإنْ فَعَلْتَ ذلكَ فلا سلطانَ لكَ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقولِهِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠].

والثاني: أمَرَهُمْ بذلكَ لِما كانَ ذلكَ سَبَبَ إيمانِ أولئكَ السَّحَرَةِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ السَّحَرَةَ كانوا

---

(١) في الأصل وم: أراهم حيث. (٢) في الأصل وم: وموسى كأنه. (٣) في الأصل وم: أرضكم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وعد. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَعْبُدونَ فِرْعَونَ حينَ[1] قالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وعَلِمُوا عَجْزَ فِرْعونَ وضَعْفَهُ حينَ[2] فَزِعَ إليهِمْ، وقالَ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وقد قُرِئَ تَلَقَّفُ بالتَّشديدِ[3].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: تقولُ: لَقِفتُ الشيءَ، والشيءَ، والتَقَفْتُهُ، أي أخذْتُهُ. وقالَ غيرُهُ: تَلْقَفُ، أي تَلْقِمُ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ وهو الفاعلُ بِمَعْنَى المَفْعولِ أي مَأفوكٌ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. وأمثالُهُ كثيرٌ كقولِهِ: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] ونَحْوُهُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أخبرَ [عَنْ سُرْعَةِ][4] ما سَجدوا كأنهُمْ أُلْقُوا لِما بانَ لهمْ مِنَ الحقِّ، وظَهَرَ.

الآية ٤٧ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ فِرْعَونَ قالَ عندَ ذلكَ: أنا ربُّ العالَمينَ.

الآية ٤٨ فقالَتِ السَّحَرَةُ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لكنَّ الامْتِناعَ عنْ هذا وأمْثالِهِ ممَّا لم يُذْكَرْ في الكِتابِ أولَى لِما ذَكَرْنا أنهُ إنما يُحتَجُّ عليهِمْ بهذهِ الأنباءِ على تصديقٍ مِنْ أهلِ الكتابِ لهُ في ذلكَ لِما هي مذكورةٌ في كُتُبِهِمْ، فَتُخافُ الزِّيادةُ والنُّقصانُ، فَيُكَذِّبونَهُ في ذلكَ. فَيُذْكَرُ القَدْرُ الذي في الكتابِ لئلا تُدْخَلَ فيهِ الزِّيادةُ والنقصانُ، فَيُفَرَّقَ بِهِ، ويُكَذَّبَ، إلّا ما ظَهَرَ عنْ رسولِ اللهِ القولُ بِهِ، فَيُقالُ، وإلّا[6] الامْتِناعُ والكَفُّ أولَى.

الآية ٤٩ ثم قالَ فِرْعَونُ: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ إنَّ فِرْعَونَ قد عَلِمَ أنَّ ما جاءَ بِهِ موسى هو حُجَّةٌ، لكنهُ كانَ يُلْبِسُ على قومِهِ وأصحابِهِ، ويُغْويهِمْ عليهِ:

فقالَ مَرَّةً: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] وقالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وقالَ مَرَّةً: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩] وقالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٢٣].

ثم أوعَدَ لهمْ بِوَعائِدَ، فقالَ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي إنَّا إلى ثوابِ ربِّنا الذي وَعَدَ لنا لَراجِعونَ، لا يَضُرُّنا ما تُوعِدُنا بِهِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: لا ضَيْرَ: هو مِنْ ضارَهُ يَضُورُهُ، ويَضِيرُهُ، بِمَعْنى ضَرَّهُ. وقد قُرِئَ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [الأعراف: ١٢٠] لا يَضُرْكُمْ بالتَّخفيفِ[7] بِمَعْنَى لا يَضُرُّكُمْ.

الآية ٥١ فقالوا ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنْ كُنَّا أَوَّلَ المؤمنينَ [مِن قوم فرعونَ][8] وقالَ بعضُهُمْ: إنْ كُنَّا أوَّلَ أهلِ مِصْرَ إيماناً. وجائزٌ: إنْ كُنَّا أوَّلَ المؤمنينَ للحالِ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ فِرْعَونَ قد فَعَلَ بهمْ ما أوعَدَ مِنْ قَطْعِ الأيدي والأرجُلِ والصَّلْبِ. لكنْ ليسَ في الآيةِ بَيانُ حُلولِ ما أوعَدَ بهِمْ، فلا نَقولُ بهِ مَخافَةَ الكَذِبِ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ السُّرَى سَيرُ الليلِ، وهو [ما][9] قالَ في آيةٍ أخرَى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣] أي يَتْبَعُكُمْ فِرْعَونُ وقومُهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: بالتخفيف، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣١١. (٤) في الأصل وم: لسرعة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ولا. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٦١. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أرسَلَ في المَدائِنِ مَنْ يَحشُرُ الجُنودَ/ ٣٨٢ ـ ب/ والعَساكِرَ.

وقالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْنونَ أصحابَ موسى ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي عصابةٌ قليلةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي طائفةٌ قليلةٌ.

الآية ٥٥ [وقولُهُ تعالى][(1)]: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ في الحَلْيِ الذي استَعاروهُ منَّا، أي ذَهبوا بهِ مُغايَظَةً لَنا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ بما فَعَلْنا بهمْ مِنْ قَتْلِ أولادِهِمْ واستِعْبادِ نِسائِهِمْ ورجالِهِمْ يَفْعَلونَ بِنا ما فَعَلْنا بهمْ إنْ ظَفِروا.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ وحَذِرونَ[(2)]. قالَ بعضُهُمْ: مِنَ الحَذَرِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي مُؤْدُونَ أي مُقَوُّونَ، أي معنا أدواتُ[(3)] أصحابِ الحَرْبِ، والمُقَوَّى الذي دابَّتُهُ قَوِيَّةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَٰذِرُونَ﴾ أي مُسْتَعِدُّونَ للحَرْبِ، وقالَ بعضُهُمْ: حاذِرونَ لِما حَدَثَ لهمْ مِنَ الحُزْنِ، والحَذِرُ للحالِ، حَذِروا المُعاوَدَةِ، أي حَذِروا أنْ يَعودوا إليهِمْ، وحَذِرونَ أي كُنَّا، ولم[(4)] نَزَلَ منهمْ على حَذَرٍ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: حاذِرونَ مُؤْدُونَ مِنَ الأداةِ أي تامُّو السِّلاحِ.

وفي خروجِ موسى بِبَني إسرائيلَ مَعَ كَثْرَتِهِمْ على ما ذُكِرَ أنهمْ كانوا سِتَّمِئَةِ ألفٍ فَصاعِداً مِنْ غيرِ أنْ عَلِمَ القِبْطُ بذلكَ آيَةٌ عظيمةٌ؛ إذْ لا يَقْدِرُ نَفَرٌ الخروجَ مِنْ مَحَلَّةٍ او ناحِيَةٍ إلاّ ويَعْلَمُ أهلُها بِخُروجِهِمْ.

ففي ذلكَ كانَتْ آيَةٌ عظيمةٌ حينَ[(5)] خَرَجوا مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ عَلِمَ أحَدٌ منهمْ بذلكَ.

الآيات ٥٧ ـ ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ يَعني فِرْعَونَ وقومَهُ ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي حَسَنٍ ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي تَبِعَ فِرْعَونُ وقومُهُ حينَ شَرَقَتِ [الشمسُ][(6)] أي طَلَعَتْ، وقيلَ[(7)]: ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ أي كانوا في الشمسِ، أي قومُ موسى صاروا في الشمسِ. يُقالُ: أشْرَقُوا[(8)] إذا صاروا فيها.

الآيتان ٦١ و٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ جَمْعُ موسى وجَمْعُ فِرْعَونَ، أي رَأى بَعْضُهُمْ بَعْضاً ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾. كانَ قومُ موسى لم يَعْلَموا بالبِشارةِ التي بَشَّرَها اللهُ موسى أنهُم لا يُدْرَكُونَ، وهو ما قالَ: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] أي لا تَخافُ دَرَكَهُمْ، ولا تَخْشَى فِرْعَونَ وقومَهُ. لذلكَ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

وكانَتِ البِشارةُ لهمْ لا لِموسى خاصَّةً. يَدُلُّ [على][(9)] ذلكَ قولُ موسى ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ على إثْرِ قولِهِمْ ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي كلا إنهمْ لا يُدْرِكونَكُمْ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ أي انْشَقَّ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ: فانْشَقَّ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي كالجَبَلِ العَظيمِ، والطَّودُ واحدٌ، وأطْوادٌ جماعةٌ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: أزْلَفْنا أي أهْلَكْنا ثَمَّ الآخرينَ. وقالَ بعضُهُمْ: جَمَعْنا، ومنهُ قيلَ: ليلةُ المُزْدَلِفَةِ أي ليلةُ الإزْدِلافِ، وهو الإجْتِماعُ، وكذلكَ قيلَ لِلْمَوْضِعِ: جَمْعٌ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا ففيهِ دلالةٌ أنَّ [للهِ في][(10)] فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً وتَدْبيراً لأنهُ أضافَ الجَمْعَ إليهِ، وهمْ إنما كانوا خَرَجوا لِلْمَعْصِيَةِ، فَدَلَّ ذلكَ أنهُ على ما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي أدْنَيناهُمْ وقَرَّبْناهُمْ، ومنهُ أزْلَفَكَ اللهُ [أي قَرَّبَكَ اللهُ][(11)].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣١٣. (٣) في الأصل وم: أداة. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: أشرقنا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: الله ما. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

ويُقال: أزْلَفَني كذا عندَ فلانٍ، أي قَرَّبَني منهُ، والزُّلَفُ المَنازلُ والمَراقي لأنها تَدْنو بالمُسافِرِ [إلى المَقْصِدِ، ومنهُ قولهُ تعالى][1]: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي أُدْنِيَتْ وقُرِّبَتْ. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ.

الآيتان ٦٥ و٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ الآيةُ ظاهرةٌ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي في هَلاكِ فِرْعَونَ وإنجاءِ موسى ومَنْ مَعَهُ مُتَّعَظٌ ومَزْجَرٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ [حينَ يَرَونَ][2] أنهُ أهْلَكَ الأعداءَ، وأبْقى الأولياءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجْهَينِ:

أحَدُهما: ما][3] قالَ بعضُهُمْ: لم يَكُنْ أكثَرُ أهلِ مِصْرَ بِمُصَدِّقِينَ بِتَوحيدِ اللهِ؛ إذْ لو كانَ أكْثَرُهُمْ مؤمنينَ لم يُعَذَّبوا في الدنيا. ولكنْ غيرُ هذا، كأنهُ أشْبَهُ، أي لو لم يُهْلِكْهُمُ اللهُ تعالى، ولكنْ أبْقاهُمْ، لم يُؤْمِنْ أكْثَرُهُمْ.

[والثاني: ما][4]: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ مِنْ بَني إسرائيلَ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ أي لم يَدُمْ أكْثَرُهُمْ على الإيمانِ، بلِ ارْتَدَّ أكْثَرُهُمْ مِنْ بَعْدِ ما أنجاهُمْ حينَ[5] قالوا لِموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المُنْتَقِمُ مِنْ فِرْعَونَ وقومِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بِموسى ومَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنينَ. هذا في هذا المَوضعِ يَسْتَقيمُ أنْ يُصْرَفَ تأويلُ العزيزِ إلى الأعداءِ والرحيمِ إلى الأولياءِ: كلُّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ إلى الفَريقِ الذي يَسْتَوجِبُ ذلكَ: الرَّحْمَةُ إلى المؤمنينَ والنِّقْمَةُ إلى الأعداءِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وخَبَرَهُ لأنهمْ كانوا مِنْ أولادِ إبراهيمَ ومِنْ نَسْلِهِ، يُقَلِّدونَ آباءَهُمْ في عِبادَتِهِمُ الأصنامَ، وإبراهيمُ وبَعْضُ أولادِهِ إسماعيلُ وإسحاقُ وهؤلاءِ كانوا مُسْلِمينَ عُبَّادَ ربِّ العالَمينَ لا عُبَّادَ الأصنامِ. فَهَلاَّ اتَّبَعوا إبراهيمَ ومَنْ كانَ مَعَهُ على دِينِهِ مِنْ آبائِهِمْ دونَ [أنْ يَتَّبِعوا][6] مَنْ عَبَدَ الأصنامَ.

يُسَفِّهُ أحلامَهُمْ في عبادَتِهِمُ الأصنامَ وتَقْليدِهِمْ أولئكَ الذينَ [مِنْ آبائِهِمْ عَبَدوا][7] الأصنامَ وتَرْكِهِمْ تَقْليدَ مَن لَمْ يَعْبُدْها، وعَبَدَ اللهَ.

الآية ٧٠ ثم قولُ إبراهيمَ حينَ[8] ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَئِفْكًا﴾ [الصافات: ٨٥ و٨٦] ويَحْتَمِلُ ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي مَنْ تَعبدونَ؟

الآية ٧١ [وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟][9] نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي نُقيمُ لها عابِدِينَ، أي نَدومُ على عِبادَتِها. والعُكوفُ على الشيءِ، هو الإقامةُ عليهِ، والدَّوامُ.

قالَ أبو مُعاذٍ النَّحْويُّ: ظَلَّ: لا يُقالُ إلاّ بالنهارِ، ومُحالٌ أنْ يقالَ: ظَلَّ ليلَهُ يَصْنَعُ كذا، وإنما[10] يُقالَ: باتَ ليلَهُ، ومنهُ الحديثُ: «ظَلَّ نهارَهُ صائماً، وباتَ ليلَهُ قائماً» [بمعناه النسائي ٤/ ٢١٠].

الآية ٧٢ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [يُبَيِّنُ سَفَهَهُمْ][12]: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي هل يُجيبونَكُمْ إذْ تَدْعونَهُمْ، ويَحْتَمِلُ: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ على السَّماعِ نفسِهِ، أي هل يَسْمَعونَ دُعاءَكُمْ إذْ تَدْعونَهُمْ كقولِهِ: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ الآية؟ [فاطر: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ تَعْبُدونَ، ويَحْتَمِلُ الدعاءَ نفسَهُ، فإنْ كانَ على العبادةِ فلا يَحْتَمِلُ السَّماعَ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي[13] هل يَقْدِرونَ على نَفْعِكُمْ وضَرِّكُمْ إنْ أرادوا ذلكَ بكُمْ، أو شاؤوا؟ [ويَحْتَمِلُ][14] أنْ يكونَ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ: هل ﴿يَنفَعُونَكُمْ﴾ إنْ عَبَدْتُموها، وأطَعْتُموها؟ ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إنْ عَصَيْتُموها؟ فَبُهِتوا، ولم يَقْدِروا على الجوابِ لهُ سِوَى ما ذَكَروا مِنْ تَقْليدِ آبائِهِمْ في ذلكَ:

---

(١) في الأصل وم: ومنه. (٢) في الأصل وم: حيث رأوا. (٣) في الأصل وم: وجوها. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: من اتبعوا. (٧) في الأصل وم: عبروا من آبائهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فقالوا. (١٠) في الأصل وم: حتى. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرجت في الأصل وم قبل الآية. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٤ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا﴾[1] بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لمّا عَرَفوا أنَّ تلكَ التي عَبَدوها، لا تَمْلِكُ ضَرّاً ولا نَفْعاً، لكنهمْ عَبدوها تَقْليداً لِآبائِهِمْ لِما وَقَعَ عندَهُمْ أنَّ آباءَهُمْ ما عَبَدوها إلّا بأمْرٍ؛ إذْ لو لم يكُنْ ذلكَ بأمْرٍ لتَرَكوا[2]. لكنْ قد ذَكَرْنا أنَّ مِنْ آبائِهِمْ مَنْ لم يَعْبُدْها قَطُّ، ثم لم يُقَلِّدوهُمْ، فكيفَ قَلَّدُوا أولئكَ؟ دَلَّ أنَّ الإعْتِلالَ فاسِدٌ.

الآيات ٧٥ ـ ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [قالَ بعضُهُمْ][3] إنهمْ وآباءَهُمُ الذينَ عَبَدوا الأصنامَ مِنْ قَبْلُ عَدُوٌّ لهُ ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استَثْنَى رَبَّ العالَمينَ؛ يقولُ: هُمْ عَدُوٌّ لي، وأنا بريءٌ منهمْ إلّا مَنْ يكونُ فيكُمْ مَنْ يَعْبُدُ ربَّ العالمينَ؛ فيكونُ على الإضمارِ، أي فإنهمْ جميعاً عَدُوٌّ لي إلّا مَنْ عَبَدَ ربَّ العالَمينَ.

وقالَ بعضُهُمْ/ ٣٨٣ ـ أ/ يقولُ: إنَّ [العابدينَ والمَعْبودينَ][4] كلُّهُمْ ﴿عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إلّا المَعْبودَ بالحقيقةِ الذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ، فإنهُ وَلِيِّي.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ على الإسْتِثْناءِ، ولكنْ على الإبْتِداءِ؛ كأنهُ قالَ: أنتُمْ وآباؤُكُمُ الأقدمونَ عَدُوٌّ لي.

الآيات ٧٨ ـ ٨٢ ولكنْ ربُّ العالمينَ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: فَهْماً وعِلْماً. وجائزٌ أنْ يكونَ إبراهيمُ سَألَ ربَّهُ الإبقاءَ على الحُكْمِ، إذْ قد كانَ أعطاهُ العِلْمَ والحُكْمَ كقولِهِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥] أو سألَ الزِّيادةَ على ما أعطاهُ كقولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سألَ رَبَّهُ قَبولَ حُكْمِهِ في الخَلْقِ ورَفْعَ الحَرَجِ لهُ عن قلوبِهِمْ على ما ذَكَرَ في حُكْمِ رسولِ اللهِ حينَ[5] قالَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي تَوَفَّني على ما تَوَفَّيْتَ الصالِحينَ حتى ألْحَقَ بهمْ. هذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنى سؤالِهِ الإلحاقَ بالصالِحينَ أنْ يَتَوَفّاهُ على الذي تَوَفّى أولئكَ وهو [الإسلامُ][6] لِيَلْحَقَ بهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أيِ اجْعَلْ ليَ الثَّناءَ الحَسَنَ في الناسِ. وكذلكَ [كانَ][7] إبراهيمُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، [وكانَ][8] جميعُ أهلِ الأديانِ على اختِلافِهِمْ قدِ انْقادوا لهُ، وانْتَسَبوا إليهِ، وادَّعَوا أنهمْ على دينِهِ، وأنَّ دينَهُ الذي هو عليهِ ليسَ مِنْ أهلِ مِلَّةٍ إلّا وهُمْ يَتَوَلَّونَهُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي اجْعَلْني باقياً مِنْ بَعْدِ مَوتي في جَنَّةِ النَّعيمِ، إذِ الوارثُ، هو الباقي عنِ المَوروثِ. وكذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] أي نَبْقَى بَعْدَ فَناءِ أهلِها، إذِ الوارثُ، هو الباقي. فَعَلَى ذلكَ قولُ إبراهيمَ: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ استِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ، واللهُ أعلَمُ، على ظاهِرِ ما ذُكِرَ في ظاهِرِ الآيةِ ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَدْعُوَ لهُ، وهو كذلكَ. لكنْ كانَ مِنْ إبراهيمَ الإسْتِغْفارُ لهُ. فأخْبَرَ اللهُ أنهُ[9] كانَ مِنَ الضّالِّينَ؛ فيكونُ هذا الثاني إخباراً مِنَ اللهِ لإبراهيمَ أنهُ مِنَ الضالِّينَ، والأوَّلُ قولُ إبراهيمَ.

وكذلكَ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قصةِ بِلْقيسَ حينَ[10] ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ

---

(١) في الأصل وم: فقالوا. (٢) في الأصل وم: ما تركوا. (٣) في الأصل وم: ثم قال. (٤) في الأصل وم: العابد والمعبود. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: له. (١٠) في الأصل وم: حيث.

أَذِلَّةً﴾ فَصدَّقَها تعالى في مَقالَتِها، وقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] يَجْعَلونَ قولَهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تَصْديقاً مِنَ اللهِ لها [لا قولَ][1] تلكَ المرأةِ.

ومِثالُ ذلكَ كثيرٌ في القرآنِ، يكونُ بعضُهُ مَفصولاً مِنْ بَعْضٍ [كقولِهِ تعالى][2]: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٥ و١٦] قولُهُ: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ مفصولٌ مِنْ قولِهِ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ لا وَصْلَ بَينَهما. فَعَلى ذلك دُعاءُ إبراهيمَ، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ مَفصولاً مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

هذا جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ أي أعْطِ لهُ ما بهِ تَغْفِرُ خَطاياهُ، وهو التَّوحيدُ، فيكونُ سُؤالُهُ سُؤالَ التَّوحيدِ لهُ والتَّوفيقِ على ذلكَ؛ [إذْ بهِ][3] يَغْفِرُ مِنَ الخَطايا كقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ دعاءُ هودٍ لقومِهِ حينَ[4] أمَرَهُمْ أنْ يَسْتَغْفِروا ربَّهُمْ، وهو قولُهُ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] وأَسْلِموا لهُ.

طَلَبَ منهُمُ ابْتِداءَ الإسلامِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولَ لهمْ: قولوا: نَسْتَغْفِرُ[5] اللهَ، ولكنْ أمَرَهُمْ أنْ يأتوا بِما بهِ يُغْفَرُ لهمْ، وهو التَّوحيدُ. وكذلكَ قولُ نوحٍ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ إبراهيمَ كَذَبَ ثلاثاً كلامٌ لا مَعْنى لهُ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ يَخْتارُهُ، ويَجْعَلَ رِسالَتَهُ في الذي يُكذِّبُ بِحالٍ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ أي ولا تُعَذِّبْني ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ وكانَ الإخزاءُ هو العذابَ الذي يَهْتِكُ السِّتْرَ على صاحِبِهِ. فَسأَلَهُ ألاّ يَهْتِكَ السِّتْرَ عليهِ لِما خافَ أنْ كانَ منهُ ما يَهْتِكُ السِّتْرَ عليهِ، فَسأَلَ ربَّهُ ذلكَ؛ إذِ العِصْمَةُ، لا تَرْفَعُ عن أصحابِها الخَوفَ، بل كلَّما عَظُمَتِ العِصْمَةُ كانَ الخَوفُ أشَدَّ. لأنَّ الأنبياءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، كانَ خَوفُهُمْ أشَدَّ على دِينِهِمْ وأنفُسِهِمْ مِنْ غَيرِهِمْ، ثم الأمثَلُ فالأمثَلُ بهِمْ كانوا[6] أشَدَّ خوفاً منهُمْ مِمَّنْ هو دونَهُمْ.

ألا تَرَى إلى قولِ إبراهيمَ حينَ[7] قالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقولِ[8] يوسفَ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟ [يوسف: ١٠١] ومِثْلُهُ كثيرٌ.

الآيتان ٨٨ و٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لا يَنْفَعُ، ويَضُرُّ، لا يكونُ في نَفْيِ النَّفعِ دَفْعُ الضَّرَرِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] وكقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦] وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] وقولُهُ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و٣٥] وقولُهُ: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج: ١١ و١٢] وقولُهُ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وفي ظاهرِ ما استَثْنَى مِنَ الآيةِ دلالةٌ أنهُ يَنْفَعُ المالُ والبَنونَ إذا أتَوُا اللهَ بِقَلْبٍ سليمٍ حينَ[9] قالَ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ كذلكَ يَنْفَعُهُمْ [مالُهُمْ][10] وأولادُهُمْ إذا أتَوا ربَّهُمْ بقلوبٍ سَليمةٍ لِما اسْتَعْمَلوا أموالَهُمْ في الطاعاتِ وأنواعِ القُرَبِ، وعَلَّموا الأولادَ الآدابَ الصالحةَ والأخلاقَ الحَسَنَةَ، فَيَنْفَعُهُمْ ذلكَ يومئذٍ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبإ: ٣٧] أخبَرَ أنهمْ إذا آمَنوا، وتابوا، تُقَرِّبُهُمْ أموالُهُمْ وأولادُهُمْ عندَهُ.

---

(١) في الأصل: قوله، في م: قول. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وبه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: استغفروا. (٦) في الأصل وم: كذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ على غيرِ ذلكَ، أي لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنونَ، وإنما يَنْفَعُ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سليم. والقَلْبُ السليمُ هو السالِمُ مِنَ الشِّرْكِ، أوِ السليمُ مِنَ الآفاتِ والذنوبِ، والخالِصُ لربِّهِ، لا يَجْعَلُ لِغيرِهِ فيهِ حقًّا ولا نَصيباً. وشَرَطَ فيهِ إتيانَهُ ربَّهُ ما ذَكَرَ لِيُعْلَمَ أنهُ ما لم يُقْبَضْ على السَّلامةِ والتَّوحيدِ لا يَنْفَعُهُ ما كانَ منهُ مِنْ قَبْلُ مِنَ الطاعاتِ إذا لم يُقْبَضْ على التَّوحيدِ.

وكذلكَ شَرَطَ في الحَسناتِ الإتيانَ، فقالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كذا، ولم يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بالحَسَنَةِ. وهو ما ذَكَرْنا أنْ يَخْرُجَ مِنَ الدنيا على التوحيدِ، ولا يُفيدُ ما عَمِلَ مِنَ الحَسَناتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩٠ و٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ وذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وأُبَيّ ﷺ وقُرِّبَتِ الجَحيمُ لِلضَّالينَ. وفي هذهِ القراءاتِ[1] الظاهرةِ بُرِّزَتْ أُظْهِرَتْ.

الآيتان ٩٢ و٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا / ٣٨٣ ـ ب/ أي ثُمَّ يُقالُ لهمْ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ ويَمْنَعونَكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ هُمْ مِنَ العذابِ؟ لأنهمْ يُطْرَحونَ جميعاً: العابِدونَ والمَعْبودُونَ في النارِ كقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وإنما قالوا ذلكَ لهمْ [لأنهمْ][2] كانوا يقولونَ في الدنيا﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [ويَقولونَ:][3] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فَيُقالُ لهمْ مُقابِلَ ذلكَ في الآخِرَةِ: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ الآية؟

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ قالَ الزَّجّاجُ: هو مِنْ كُبَّ أي كُبُّوا لكنْ ذَكَرَ كُبْكِبوا على التَّكْرارِ والإعادةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ أي يُكَبُّونَ [ثم يُكَبُّونَ][4] لم يَزَلْ عَنْهُمْ[5] ذلكَ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ أُلْقوا على رُؤوسِهِمْ، وقُذِفوا. وأصْلُ الحَرْفِ كُبُّوا؛ مِنْ ذلكَ كَبَبْتُ الإناءَ، فأُبْدِلَتْ مكانَ الباءِ الكافُ، وهو الطَّرْحُ والإلقاءُ على الوجوهِ. يُقالُ: كَبْكَبْتُهُمْ أي طَرَحْتُهُمْ في النارِ أو في البِئْرِ. [ومنهُ][6] قولُهُ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ قيلَ: الضَّالُّون. يُقالُ: غَوَى يَغْوي غَيًّا وغَوايَةً، فهو غاوٍ، أي ضَلَّ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ. وقالَ أبو مُعاذٍ [النَّحْوِيُّ][8]: أصْلُهُ كُبُّوا. وقالَ بعضُهُمْ: جُمِعوا فيها.

الآية ٩٥ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الغاوُونَ، هُمُ الشياطينُ، وجُنودُ إبليسَ ذُرِّيَّتُهُ، أي الشياطينُ الذينَ أضَلُّوا بَني آدمَ، وهو قولُ قَتادَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: الغاوُونَ: هُمْ كُفّارُ الجِنِّ، وجُنودُ إبليسَ: هُمُ الشياطينُ. وقالَ بعضُهُمْ: الغاوُونَ: هُمُ الأئِمَّةُ مِنَ الكُفّارِ، وجُنودُ إبليسَ سائرُ الكُفّارِ: أتباعُهُمْ وذُرِّيّاتُهُمْ[10]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ذُكِرَ أنهمْ يَخْتَصِمونَ في النارِ، ولم يُذْكَرْ فيمَ تكونُ خصومَتُهُمْ؟ [وجائزٌ أنْ تكونَ ما ذَكَرَ][11] في آيٍ أخرى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبإ: ٣١] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وقولُهُ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١] وقولُهُ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا﴾ الآية [الأعراف: ٣٨] وأمثالُهُ [كثيرٌ في القرآنِ][12] مِنَ المُجادلاتِ التي تَجْري في ما بَيْنَ الأتباعِ والمَتْبوعينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: اختِصامُهُمْ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ و٩٨] هذهِ مُخاصَمَتُهُمْ.

الآيتان ٩٧ و٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنْ كانَ قولُهُمْ هذا للأصنامِ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣١٩. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: وم: وإنما. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عملهم. (٦) في الأصل وم: هو من. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وذريتهم. (١١) في الأصل: ما ذكر، في م: وجائز أن تكون. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

التي عَبَدوها فذلكَ في تَسْمِيَتِهِمْ آلهةً وجَعْلِهِمُ العِبادةَ لها يُسَوُّونَها بِرَبِّ العالَمينَ في التَّسْمِيَةِ والعبادةِ. وإنْ كانَ قولُهُمْ هذا للشياطينِ فهو في اتِّباعِهِمْ أمْرَهُمْ ودعاءَهُم الذي دَعَوهُمْ، وإلاّ لا أحَدَ مِنَ الكَفَرَةِ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبادَةِ الشيطانِ، أو يُسَمِّيهِ إلهاً. ولكنْ على ما ذَكَرْنا مِنْ مُتابَعَتِهِمْ أمْرَهُمْ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذْ كُنّا نُشْرِكُكُمْ بربِّ العالَمينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إذْ كُنّا نُطيعُكُمْ كما نُطيعُ ربَّ العالَمينَ. وقالَ بعضُهُمْ: إذْ نَعْدِلُكُمْ بِرَبِّ العالَمينَ.

وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي وما أضَلَّنا إلاّ أوَّلُنا. وكذلكَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ: وما أضَلَّنا إلّا الأوَّلونَ. وتأويلُ هذا أنهمْ لَمّا رَأَوُا الأوَّلِينَ، تُرِكُوا على ما كانوا عليهِ مِنَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، ولم يُعَذَّبوا في الدنيا، ولا أصابَتْهُمْ نِقْمَةٌ، ظَنُّوا أنهمْ أُمِروا بذلكَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ لأنهمْ قالوا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فلم يَشْفَعوا لهمْ، أي ليسَ لنا شُفَعاءُ يَشْفَعونَ لنا، ولو كانَ لهمْ شُفَعاءُ لا تَنْفَعُهُمْ شَفاعَتُهُمْ على ما قالَ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وهو ما قالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ١٨] ليسَ أنهُ كانَ يَنْفَعُهُمْ، فَعَلى ذلكَ [هذا][1].

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الحميمُ القريبُ، أي ليسَ لهمْ حَميمٌ، يَهْتَمُّ بأمْرِهِمْ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقولُهُ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي لو أنَّ لنا رَجْعَةً إلى المِحْنَةِ ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأخْبَرَ اللهُ أنهمْ لو رُدُّوا لَعادوا بقولِهِ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقد ذَكَرْناهُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ ما ذَكَرْنا مِنَ الأخبارِ والأنباءِ الآيةُ والعِبْرَةُ[2] لِمَنْ اعْتَبَرَ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لو كانَ أكْثَرُهُمْ مؤمنينَ ما عُذِّبوا في الدنيا. وجائزٌ أنْ يكونَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ إلى المِحْنَةِ التي سَألوا الرَّجْعَةَ إليها [﴿لَعَادُوا۟﴾][3] ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وجائزٌ أنْ يكونَ نَفَرٌ منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٤ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ذَكَرَ ﴿كَذَّبَتْ﴾ بالتأنيثِ على إضمارِ جماعةٍ، كأنهُ قالَ: كَذَّبَتْ جماعةُ قومِ نوحٍ، وإلاّ القومُ يُذَكَّرُ، ويُؤَنَّثُ. [وإنما ذَكَرَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهم كَذَّبوا نوحاً][5] لأنَّ مَنْ كَذَّبَ رسولاً مِنَ الرسُلِ فقد كَذَّبَ الرُّسُلَ جميعاً لأنَّ كلَّ رسولٍ، يَدْعو الخَلْقَ إلى الإيمانِ بِجَميعِ الرُّسُلِ.

وبَعْدُ فإنَّ نوحاً كانَ يَدْعو قومَهُ إلى الإيمانِ بالرُّسُلِ الذينَ يكونونَ بَعْدَهُ. لِذلكَ قالَ، واللهُ أعلَمُ؛ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: كانَ أخاهُمْ في النَّسَبِ، وليسَ بأخيهِمْ [في الدينِ][6]. قالَ الشيخُ أبو مَنْصورٍ، رَحِمَهُ اللهِ عليهِ: إنَّ اللهَ سَمَّى الناسَ بَني آدَمَ على بُعْدِهِم مِنْ آدَمَ، فيجوزُ أيضاً تَسْمِيَتُهُمْ إخوةً على بُعْدِ بعضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ نِقْمَةَ اللهِ وعذابَهُ في مُخالَفَتِكُمْ أمْرَهُ ونَهْيَهُ، أو يقولُ: ألا تَتَّقونَ عبادةَ غيرِ اللهِ وطاعةَ مَنْ دونَهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وعبرة. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَين.

أحَدُهما: أني كُنتُ أميناً فيكُمْ قَبْلَ هذا، فَتُصدِّقونَني في جميعِ ما أخبَرْتُكُمْ، وأنبأتُكُمْ. فما بالُكُمْ لا تُصدِّقونني الآنَ إذا أخبَرْتُكُمْ أني رسولُ اللهِ إليكُمْ؟

والثاني: يقولُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ائتَمَنَني اللهُ، وجعَلَني أميناً على وَحْيِهِ، فَأُبلِغُكُمُ الرسالةَ، وأُؤدِّي الأمانةَ، شِئتُمْ، أو أبَيْتُمْ، قَبِلْتُمْ، أو لم تَقبَلوا، فلا أخافُكُمْ بما تَتَوعَّدونَني بَعْدَ أنْ جعَلَني اللهُ أميناً، وائتَمَنَني على أمانَتِهِ [وهو][1] كقولِهِ: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أيِ اتَّقوا نِقمَةَ اللهِ وعَذابَهُ، واتَّقوا مُخالَفَةَ اللهِ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما أُبلِغُكُمْ عنِ اللهِ، وأدعوكُمْ إليهِ.

الآية ١٠٩ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أسألُكُمْ على ما أدْعوكُمْ إليهِ، وأُبلِغُكُمْ، أجراً أو شيئاً، فَيَمْنَعَكُمْ[3] ثِقَلُ ذلكَ عنِ الإجابةِ، ولا أُحَمِّلُكُمْ في أموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ مُؤنَةً في ما أدعوكُمْ إليهِ، بل أدعوكُمْ إلى عبادةِ الواحدِ، وعِبادةُ الواحِدِ أهْوَنُ وأخَفُّ على أنفُسِكُمْ مِنْ عِبادةِ العَدَدِ، ولا أُحَمِّلُكُمْ في أموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ مُؤنَةً في ما دَعَوكُمْ[4] إليهِ مِنْ عِبادةِ العَدَدِ، ولا أُحَمِّلُكُمْ أيضاً مُؤنَةً تَمنَعُكُمْ تَحَمُّلَ ذلكَ عن إجابَتي ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما أجْري ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآية ١١٠ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتَّقوا اللهَ ما ذَكَرْنا، أي اتَّقُوا نِقْمَةَ اللهِ وعذابَهُ، واتَّقوا مُخالَفَةَ اللهِ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما أدعوكُمْ إليهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾/ ٣٨٤ - أ/ يقولونَ: نُصدِّقُكَ، وإنما اتَّبَعَكَ الضُّعَفاءُ منّا والسَّفَلَةُ مِمَّنْ[6]، لا رَأْيَ لهمْ، ولا تَدْبيرَ. ولو كُنْتَ صادِقاً لاتَّبَعَكَ الأشرافُ والرُّؤساءُ.

فكانَ في اتِّباعِ الأراذِلِ لهُ ومَنْ ذَكَرَ أعظَمُ آيةٍ مِنْ [آياتِ][7] الرسالةِ مِن اتِّباعِ الأشرافِ؛ وذلكَ أنَّ الأرذالَ مِنَ الناسِ همْ أتباعٌ لِغَيرِهِمْ لِما يَأمُلونَ مِنْ فَضْلِ مالٍ ونَيْلٍ منهمْ أو رئاسةٍ ومَنْزِلَةٍ تكونُ لهمْ.

والفَضْلُ[8] بَصَرٌ وحَظٌّ وعِلْمٌ في الدينِ، فَيَصيرونَ أتباعاً لِمَنْ كانَ عندَهُ مِنْ هذهِ الخِصالِ شيءٌ.

فالرسُلُ، صَلَواتُ اللهِ تعالى عليهِمْ، حينَ[9] لم يكنْ عندَهُمْ أموالٌ، ولا طَمَعُ رئاسةٍ، ولا مَنْزِلَةٌ، اتَّبَعَهُمُ الضُّعفاءُ والسَّفَلَةُ مَعَ خوفِهِمْ[10] على أنفسِهِمْ مِنْ أولئكَ الأشرافِ مِنَ القتلِ والصَّلْبِ لِمُخالَفَتِهِمْ[11] إياهُمْ. فما اتَّبَعوهُمْ إلاّ لَمّا تَبَيَّنَ عندَهُمْ أنهمْ على حقٍّ، وأنَّ ما يَدْعونَ صِدْقٌ.

ففي اتِّباعِ ما ذَكَرْنا أعظَمُ دلالةٍ على صِدْقِ الرسُلِ في ما دَعَوا مِنَ الرسالةِ لو تأمَّلوا، وتَفَكَّروا[12] في ذلكَ.

الآية ١١٢ [وقولُهُ تعالى][13]: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: لم أكُنْ أعلَمُ أنَّ اللهَ يَهْدِيهِمْ للإيمانِ والتوحيدِ مِنْ بَينِكُمْ، يعني الضُّعَفاءَ، ويَدَعُكُمْ؛ لا يَهْدِيكُمْ. ثم قالَ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ما جزاءُ هؤلاءِ الذينَ اتَّبعوني مِنَ الأرذالِ ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

والثاني: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما أنا بعالِمٍ بما يَعْمَلونَ [هُمْ في السِّرِّ][14] وما ذلكَ عَلَيَّ.

الآية ١١٣ [وقولُهُ تعالى:][15]: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي حِسابُهُمْ عليهِمْ في ما يَعْمَلونَ في السِّرِّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أدعوكم. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: من. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو الفضل. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: خوف لهم. (١١) في الأصل وم: لمخافتهم. (١٢) في الأصل وم: والتفكر. (١٣) في الأصل وم: وقول نوح. (١٤) من م، في الأصل: في السر. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

فهذا يدلُّ على أنَّ التأويلَ الأخيرَ أشبَهُ وأقرَبُ مِنَ الأوَّلِ. وكانَ مِنَ أولئكَ طَعْنٌ في الذينَ آمَنوا بأنهمْ يَعْملونَ في السِّرِّ على خِلافِ ما أظهَروا حتى قالَ لهمْ ذلكَ.

وفي بعضِ القراءاتِ: ﴿لَوْ يَشْعُرُونَ﴾ بالياءِ[١] فهو راجعٌ إلى المؤمنينَ الذينَ اتَّبعوهُ؛ يقولُ: حسابُهُمْ على اللهِ في ما يَعْمَلونَ في السِّرِّ، أي لو يَشْعُرُونَ ذلكَ، ولا يَعْمَلونَ في السِّرِّ خلافَ ما يَعْمَلونَ في العلانيَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنهمْ سَألوا نوحاً أنْ يَطْرُدَ أُولئكَ الذينَ آمَنوا بهِ مِنَ الضُّعَفاءِ حتى يُؤْمِنوا هُمْ بهمْ[٢]. فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وجائزٌ أن يكونوا طَعَنُوا في الذينَ آمَنوا [بأنهمْ آمَنوا][٣] ظاهراً. وأمَّا في السِّرِّ فليسوا على ذلكَ، فقالَ نوحٌ عندَ ذلكَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يدلُّ على ذلكَ قولُ نوحٍ حينَ[٤] قالَ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١].

هذا القولُ منهُ يَدُلُّ على أنْ كانَ منهمْ طَعْنٌ في أولئكَ الذينَ آمَنوا بهِ حينَ[٥] وَكَلَ أمْرَهُمْ إلى اللهِ، فقالَ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غيرِ موضِعٍ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ المَرْجومُ المَقتولُ بالحِجارةِ، وهو أشَدُّ قَتْلٍ، لِذلكَ أوعَدوهُ. وقالَ بعضُهُمْ: لَتكونَنَّ مِنَ المَرجومِينَ[٦] باللسانِ. لكنَّ الأوَّلَ أقرَبُ لأنهُ قد كانَ منهُمُ الشَّتْمُ فلا يُحْتَمَلُ الوعيدُ بهِ.

الآيتان ١١٧ و١١٨ ثم دعَا نوحٌ عندَ ذلكَ، فقالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ أي اقْضِ بيني وبَينَهُمْ قَضاءً، أيِ اقْضِ عليهِمْ بالعذابِ والهلاكِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ فَدَلَّ سُؤالُهُ نَجاةَ نفسِهِ ومَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنينَ على أنَّ قولَهُ: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ سأَلَ ربَّهُ هلاكَ مَنْ كَذَّبَهُ، وهو ما قالَ في آيةٍ[٧] أُخرى ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] الذي وَعَدْتَ أنهُ يَنْزِلُ بهِمْ، وهو العذابُ. فَعَلى ذلكَ هذا.

ثم لا يُحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منهُ في أوَّلِ تكذيبٍ كانَ منهمْ، بل كانَ ذلكَ بَعْدَ ما أيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ لأنهُ لَبِثَ فيهِمْ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وفي كلِّ ذلكَ دعاهُمْ إلى توحيدِ اللهِ. وإنما دعا عليهِمْ بالهَلاكِ بَعْدَ ما أخبَرَ اللهُ عنْ أمْرِهِمْ وإياسِهِ مِنْ إيمانِهِمْ، فقالَ: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وأُذِنَ لهُ بالدُّعاءِ عليهِمْ بما دَعا، إذِ الأنبياءُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، لا يَدْعونَ على قومِهِمْ بالهلاكِ إلّا بإذْنٍ منَ اللهِ في ذلكَ.

ألَا تَرَى أنهُ ذَكَرَ أنهُ عاتَبَ يونسَ بالخُروجِ مِنْ بَينِهِمْ بلا إذْنٍ، كانَ مِنَ اللهِ لهُ بالخُروجِ مِنْ بَينِهِمْ[٨]؟ فإذا عوتِبَ هو بالخُروجِ بلا إذْنٍ فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَدْعُوَ بالهلاكِ بلا إذْنٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١١٩و١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ الفُلْكُ المَشحونُ: قيلَ: المَملوءُ.

قالَ أبو مُعاذٍ: شَحَنْتُ السفينةَ، فلم يَبْقَ إلاّ الدَّفْعُ، وهو السَّوقُ، وتقولُ العَرَبُ: شَحَنَّا عليهِمْ بلادَهُمْ خَيلاً ورِجالاً، أي مَلأْناها. وقالَ بعضُهُمْ: المَشحونُ المُجهَّزُ الذي قد فُرِغَ منهُ، فلم يَبْقَ إلّا دَفْعُهُ، وهو واحدٌ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٢٠. (٢) في الأصل وم: به. (٣) في الأصل وم: انهم قالوا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: المشتومين (٧) في الأصل وم: قصة. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠].

وإنما شُحِنَتِ السَّفينةُ بأصنافٍ مِنَ الخَلْقِ. وكانَ(١) المؤمنونَ قَليلي العَدَدِ، وهو ما قالَ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] أخبَرَ أنهُ أنجى مَنْ كانَ مَعَهُ في الفُلْكِ المَشْحونِ وأهْلَكَ الباقِينَ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي في نَبَإِ نوحٍ الآيَةَ لِمَنْ كانَ بَعْدَهُمْ. أو إنَّ في هَلاكِ قومِ نوحٍ وإغراقِهِمْ لَعِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إلى آخِرِ قصةٍ قد ذَكَرْنا.

الآية ١٢٢ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ](٢).

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، ما ذَكَرْنا، أي كَذَّبَتْ جماعةُ عادٍ المُرْسَلينَ.

وقولُهُ: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ رسولٍ، كانَ دعا قومَهُ إلى الإيمانِ بهِ وبجميعِ الرسلِ. فَمَنْ كَذَّبَ واحداً منهمْ فقد كَذَّبَ الكُلَّ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ هو كانَ أخاهُمْ في النَّسَبِ لأنهمْ جَميعاً وَلَدُ آدمَ على بُعْدٍ مِنْ آدَمَ. فَعَلَى ذلكَ هُمْ إخوةٌ في ما بَيْنَهُمْ على بُعْدِ بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ:

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: ألا تَتَّقونَ نِقْمَةَ اللهِ وعذابَهُ.

[والثاني](٣): ألا تَتَّقونَ مُخالَفَةَ أمْرِ اللهِ ومَناهِيَهُ.

الآية ١٢٥ [وقولُهُ تعالى:](٤) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ في ما ائْتَمَنَني اللهُ، وبَعَثَ علي يَدَيَّ هِدايَتَهُ وأمانَتَهُ. أو يكونُ ما ذَكَرْناهُ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٢٦و١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ما ذَكَرْنا ﴿وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أسْعَى في نَجاتِكُمْ وتَخْليصِكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ، وما أسْألُكُمْ على ذلكَ أجْراً.

وفي الشاهِدِ: لا يَعْمَلُ أحدٌ إلّا ويَطْمَعُ على ذلكَ منهُ أجراً، وأنا لا أسْألُكُمْ على ذلكَ أجراً فَيَمْنَعَكُمْ ذلكَ عَنْ قَبولِ ذلكَ مني ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما أجْري ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآيتان ١٢٨و١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: كأنهُمْ كانوا يَبْنونَ بُنْياناً، لا حاجةَ لهمْ إلى ذلكَ البُنْيانِ، ولا يَنْتَفِعونَ بهِ، فهو عَبَثٌ، لأنَّ كلَّ مَنْ بَنى بناءً أو عَمِلَ عَمَلاً، لا يَنْتَفِعُ بِهِ، ولا يَحْتاجُ إليهِ، فهو عابِثٌ. لِذلكَ سَمَّى ما بَنَوا عَبَثاً.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ المكانُ لهم، كانَ مَكانَ العَبَثِ والاجْتِماعِ لِلَّهْوِ، فَبَنَوا ذلكَ المَكانَ، فَسَمّاهُ عَبَثاً لِما لم يكُنِ اجْتِماعُهُمْ في ذلكَ إلّا لِلعَبَثِ واللَّهْوِ.

والثالثُ: أنْ يكونَ ذلكَ المَكانُ مَكاناً، يَمُرُّ فيهِ الناسُ، فَبَنَوا أعلاماً، يُضِلُّونَ الناسَ بها لِما يَرَونَ أنهُ طريقٌ، ولم يكُنْ ذلكَ، فكانَ قَصْدُهُمْ بذلكَ البناءِ باطلاً. وكلُّ باطِلٍ عَبَثٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ولا تَموتونَ، أي تُنْفِقونَ نَفَقَةَ مَنْ يَطْمَعُ أنْ يَخْلُدَ في هذهِ الدنيا، ليسَتْ بِنَفَقَةِ مَنْ يموتُ، ويَرْجو ثوابَهُ [لا عِقابَهُ](٥)، أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ لَمّا وسَّعَ عليهِمُ الدنيا، ورَزَقَهُمُ(٦) / ٣٨٤ ـ ب/ الدَّعَةَ، يَحْسَبونَ أنهمْ يَخْلُدونَ، لأنَّ مَنْ وَسَّعَ عليهِ الدنيا، ونالَ(٧) الدَّعَةَ والسَّعَةَ في هذهِ الدنيا، يَطْمَئِنُّ فيها، ويَسْكُنُ، وهو كما قالَ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٣] فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: إلا كان. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وعاقبته. (٦) في الأصل: أو رزق لهم، في م: ورزق. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ويكون.

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ عَنى، واللهُ أعلَمُ، بالجَبَّارِ الظالِمَ والمُتَعَدِّيَ، أي وإذا بَطَشْتُمْ ظالِمينَ.

والرِّيعُ، هو المكانُ المُرْتَفِعُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الطريقُ: و﴿مَصَانِعَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: البُنْيانُ، وقيلَ: الحِياضُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الرِّيعُ: ما ارْتَفَعَ مِنَ الأرضِ، وجَمْعُ الرِّيعَةِ رِيعٌ، وجَمْعُ الرِّيعِ أرياعٌ، وهما واحدٌ، والرَّيعُ الرِّبْحُ أيضاً. تقولُ: أراعَ [المالُ][1] إذا رَبِحتَ عليهِ، وجَمْعُهُ أرياعٌ. ومصانعُ: في مَوضِعِ قُصورٌ، ومَوضِعِ حِياضٌ يَجْتَمِعُ فيها الماءُ، الواحدُ: مَصْنَعَةٌ مِنْ كِلَيهما. وقالَ: البَطْشُ: الأخذُ؛ يُقالُ: بَطَشْتُ بفلانٍ، أبطِشُ بَطْشاً، إذا أخذْتُهُ، وقَبَضْتُ عليهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ أيضاً: الرِّيعُ: الارْتِفاعُ مِنَ الأرضِ، والمَصانِعُ البِناءُ، واحدُها مَصْنَعَةٌ، فكانَ المَعْنى أنهمْ يَسْتَوثِقونَ في البناءِ والحصونِ، ويذهبونَ إلى أنها[2] تُحَصِّنُهُمْ مِنْ أقدارِ اللهِ وقضائِهِ. وهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ لأنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي تَبْنونَ بِناءً، كأنكُمْ تَخْلُدونَ، ولا تموتونَ، وقالَ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي إذا ضَرَبْتُمْ بالسِّياطِ ضَرَبْتُمْ ضَرْبَ الجَبَّارِينَ، وإذا عاقَبْتُمْ قَتَلْتُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: بَطَشْتُمْ أخذْتُمْ بالظُّلْمِ والاعْتِداءِ والاسْتِحلالِ لِما حَرَّمَ اللهُ.

وقال أبو مُعاذٍ: وكلُّ بِناءٍ مَصْنَعَةٌ. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وتَبْنونَ مَصانِعَ كأنكمْ خالدونَ. والآيةُ العَلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرِّيعُ ما اسْتَقْبَلَ الطريقَ مِنَ الجبالِ والظِّرابِ.

وقالَ قَتادَةُ: كلُّ نَشْزٍ في الأرضِ، وقالَ محمدُ بْنُ إسحاقَ: إنهمْ كانوا إذا سافَروا فلا يَهْتَدونَ إلاّ بالنجومِ فَبَنَوا القُصورَ الطِّوالَ عَبَثاً عَلَماً بكلِّ طريقٍ يَهْتَدونَ بها في طُرُقِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَصَانِعَ﴾ أي مَجالِسَ ومَساكِنَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ما بَقِيَتْ مَصانِعُكُمْ، والجَبَّارُ، هو الذي يَضْرِبُ، أو يَقْتُلُ بلا حقٍّ بلا خوفِ تَبِعَةٍ في العاقِبَةِ.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أمَدَّكُمْ؛ قيلَ أعطاكُمْ، وهو مِنَ المَدَدِ، أي أعطاكُمُ النِّعَمِ تِباعاً واحدةً بَعْدَ واحدةٍ، لا تَنْقَطِعُ، ثم هو يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: اتَّقُوا كُفرانَ الذي أعطاكُمُ النِّعَمَ، فلا تُوجِّهوا شُكْرَها إلى مَنْ لم يُنْعِمْ عليكُمْ، ولم يُمِدَّها لكُمْ، وأنتمْ تَعلَمونَ[3] عِبادَتَكُمُ الأصنامَ التي لا تَقْدِرُ[4] على إعطاءِ شيءٍ مِنَ النِّعَمِ.

والثاني: اتَّقُوا نِقْمَةَ [اللهِ الذي][5] أعطاكُمْ هذهِ النِّعَمِ، فإنَّ الذي قَدَرَ على إنعامِها قادرٌ[6] على صَرْفِها عنكُمْ. على هذينِ الوجْهَينِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآيات ١٣٣ ـ ١٣٥ ثم ذَكَرَ الذي أمَدَّهُ لهمْ مِنَ النِّعَمِ، فقالَ: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ هذا وغَيرُهُ مِمَّا لا يُحْصَى ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ أي أعْلَمُ أنْ يَنْزِلَ بكُمْ عذابُ يومٍ عظيمٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الخَوفُ هٰهنا هو الخَوفُ نفسُهُ لأنه كانَ يرجو الإيمانَ منهمْ بَعْدُ، فقالَ: إني أخافُ عليكُمُ العذابَ إذا مِتُّمْ على هذا.

الآية ١٣٦ فقالوا عندَ ذلكَ جَواباً لهُ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ الوَعْظُ هو الإخبارُ عن عَواقِبِ الأمورِ: مِنْ تَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ؛ أي سَواءٌ علينا أتُخَوِّفُنا العذابَ، أم لم تُخَوِّفْنا، [لا][7] نُصَدِّقُكَ، ولا نُجيبُكَ إلى ما تَدْعونا إليهِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنهم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: يقدرون. (٥) في الأصل: التي، في م: الله. (٦) في الأصل وم: قدر. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قيلَ: فيهِ وجوهٌ.

أحدُها: أي ما هذا الذي نَحْنُ عليهِ إلّا دينُ الأوَّلينَ، وما أُوتيتَ أنتَ، وتدعُونا إليهِ، هو حادثٌ بَديعٌ، والخَلْقُ يجوزُ أنْ يُكَنّى بهِ عنِ الدينِ كقولِهِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أي لِدينِ اللهِ.

[والثاني: ما][1] قالَ بعضُهُمْ: الوَعْظُ هو النَّهيُ كقولِهِ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] أي يَنهاكُمْ.

الآية ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ عليهِ على ما تَزْعُمُ، وتُخْبِرُ، كما لم يُعَذَّبِ الآباءُ.

الآية ١٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ قيلَ: أُهْلِكوا بالريحِ كقولِهِ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ الآيةِ [الحاقة: ٦].

الآية ١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: خَلْقُ الأوَّلينَ: أيِ اخْتِلاقُهُمْ وكَذِبُهُمْ؛ يُقالُ: خَلَقْتُ الحديثَ، واخْتَلَقْتُهُ إذا افْتَعَلْتُهُ. قالَ الفَرّاءُ: والعَرَبُ تَقولُ: لِلْخُرافاتِ أحاديثَ الخَلْقِ، قالَ: ومَنْ قَرَأَ ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بضمِّ الخاءِ[2] أرادَ عادَتَهُمْ وشأنَهُمْ.

الآيات ١٤١و١٤٢و١٤٣و١٤٤و ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ . . . ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي كنتُ أميناً قَبْلَ ذلكَ، فكيفَ تَتَّهِمونَني اليومَ؟ ويُقالُ: ﴿أَمِينٌ﴾ على الرسالةِ، ناصِحٌ لكمْ. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ إلى[3] قولِهِ: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ هكذا[4]. وإنْ خُرِّجَ على الاسْتِفْهامِ فكأنَّهُ قالَ على الإخبارِ: ولا تُتْرَكونَ في ما ذَكَرَ آمِنينَ.

والثاني: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ أي أتَظُنّونَ أنْ تُتْرَكوا.

الآيتان ١٤٧و١٤٨ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الهَضيمُ المُتَهَشِّمُ. وقالَ بعضُهُمْ: الذي أرْطَبَ بعضُهُ، وهو الذي يُسَمَّى المُذَنِّبَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][6] قالَ: هو الذي قد أرْطَبَ، واسْتَرْخَى، وهو اللَّيِّنُ [وعنِ الحسنِ قولُهُ][7]: الذي ليسَ لهُ نَوًى. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الرُّطَبِ الهَضِيمِ الطَّلْعِ قَبْلَ أنْ يَنْشَقَّ عنهُ القِشْرُ، ويَنْفَتِحَ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الهَضيمُ الذي لا شَوكَ فيه، ولا مَشَقَّةَ. وقالَ بعضُهُمْ: الهَضِيمُ: هو الذي يَتَراكَمُ بَعْضُهُ [فوقَ بَعْضٍ][8] ولو قيلَ: إنَّ الهَضيمَ، هو الهَنيءُ المَريءُ الذي، لا داءَ فيهِ، ولا مَشَقَّةَ، يُهْضَمُ كلُّهُ[9]، ما فيهِ داءٌ ومَرَضٌ. ولِذلكَ سُمِّيَ الهاضومُ هاضوماً[10]، وهو الذي يَهْنِئُ الطعامَ، ويَهْضِمُهُ لَجازَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ بالألِفِ، وفرِهِينَ بِغيرِ ألِفٍ[11]: فارِهينَ: أي حاذِقينَ مُجيدينَ أي لهمْ حَذاقةٌ وبَصَرٌ في نَحْتِ البيوتِ في الجبالِ، يقالُ: فلانٌ فارِهٌ في أمرِ كذا أي حاذِقٌ. وفَرِهِينَ: أشِرينَ بَطِرينَ أي فَرِحِينَ.

قالَ القُتَبيُّ: والفَرَحُ قد يكونُ السرورَ، ويكونُ الأشَرَ. ومنهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] أي الأشِرِينَ. قالَ: وَمَنْ قَرَأَها: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بالألِفِ فهي لغةٌ أُخرَى، يُقالُ: فَرِهٌ وفارِهٌ كما يُقالُ: فَرِحٌ وفارِحٌ، ويقالُ: فارِهينَ حاذِقينَ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٢٢. (٣) في الأصل وم: إلا. (٤) في الأصل وم: هذا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: عن الحسن، في م: وعن الحسن. (٨) في الأصل وم: بعضا. ويكون فوق بعض. (٩) في الأصل وم: كل. (١٠) من م، في الأصل: هاضوم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٢٤.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَرِهِينَ﴾ وفَرِهِينَ أي مَسْرورِينَ، ويُقالُ: فَرِهَ يَفْرَهُ فَرَهاً، فهو فَرِهٌ وفارِهٌ.

الآيات ١٥٠ ـ ١٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾/ ٣٨٥ ـ أ/ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اتَّقوا نِقْمَةَ اللهِ في مُخالَفَتِكُمْ أمْرَهُ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا تُطيعوا أمْرَ مَنْ ظَهَرَ منهُ الإسرافُ والفسادُ، ولكنْ أطيعوا أمري؛ إذْ لم يَظْهَرْ لكمْ مني إسرافٌ ولا فسادٌ، ولا تُطيعوا الذينَ تَعلَمونَ انهمْ يُفسِدونَ في الأرضِ، ولا يُصْلِحونَ.

[ويَحتَمِلُ][1] أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾، مُؤَخَّراً عن قولِهِ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] يقولُ لهمْ صالحٌ: أتَتْرُكونَ طاعتي والإجابةَ لي لأني بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فلا تُطيعوا إذنْ بَشَراً، هُمْ[2] دوني، وهُمُ الذينَ ظَهَرَ لكمْ منهمُ الفَسادُ والإسرافُ. ولم يَظْهَرْ لكمْ مني شيءٌ. يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ تَمييزِهِمْ حينَ[3] تَرَكوا اتِّباعَ الرسُلِ وطاعتَهُمْ لأنهمْ بَشَرٌ دونَهُمْ في كلِّ شيءٍ.

ثم أجابوا صالحاً [في قولِهِ][4]: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فقالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيه:

قالَ بعضُهُمْ: يقولونَ: إنما أنتَ سوقَةٌ مِثْلُنا، لَسْتَ بأفضَلِنا، وإنما نَتَّبِعُ نحنُ الملوكَ [وذوي الثروةِ][5] مِنَ المالِ، وأنتَ لَسْتَ بِمَلِكٍ ولا لكَ ثَرْوَةٌ. فهمْ، واللهُ أعلَمُ، طَعَنوا صالحاً كما طَعَنَ كُفّارُ مكةَ رسولَ اللهِ حينَ[6] قالوا: ﴿مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

وقالَ بعضُهُمْ: يقولونَ: أنتَ بَشَرٌ مِثْلُنا في المنزلةِ، لا تَفْضُلُنا بشيءٍ، لستَ بِمَلِكٍ ولا رسولٍ ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ﴾ بأنكَ رسولٌ فَنَتَّبِعَكَ كما أطَعْنا أولئكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي مِنَ المُعَلَّلينَ بالطعامِ والشرابِ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ مِمَّنْ لهُ سَحْرٌ، والسَّحْرُ الرِّئَةُ، وأسحارٌ جمعٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ المَسْحورِينَ، لكنهُ عند الكَثْرَةِ يُشَدَّدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥٥ ثم قالَ صالحٌ: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الماءَ مُنْقَسِمٌ بَيْنَهُمْ؛ كانَ يومٌ لهمْ ويومٌ للناقةِ؛ اسْتَدَلُّوا بقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فلمَّا كانَ يومٌ لها مَعْلومٌ [كانَ يومٌ لهمْ مَعْلومٌ][7] لكنْ ليسَ في الآيةِ دلالةٌ أنَّ الأمْرَ ما وصَفوا، ولكنْ في الآيةِ ﴿أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨] وظاهِرُهُ أنَّ الماءَ بَيْنَهُمْ بالقِسْمَةِ لا الشربِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الماءُ بَيْنَهُمْ: بَعْضُهُ للناقةِ، وبَعْضُهُ لهمْ. ثم لهمْ يومٌ مَعْلومٌ، ليسَ للناقةِ في ذلكَ اليومِ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقد ذَكَرْنا أنَّ هذهِ الأنباءَ إنما ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ حُجَّةً لرسولِ اللهِ، فلا يُزادُ على ما ذَكَرَ في الكتابِ مَخافَةَ أنْ تَذْهَبَ حُجَّتُهُ عليهمْ؛ أعني أهلَ الكتابِ لئلا يُكَذِّبوا رسولَ اللهِ في ما يُخبِرُ مِنَ الأنباءِ التي في كُتُبِهِمْ.

الآيتان ١٥٦ و١٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَـٰدِمِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿فَأَصْبَحُوا نَـٰدِمِينَ﴾ إذا هَلَكوا. وإلَّا لو نَدِموا على صنيعِهِمْ، وتابوا قَبْلَ أنْ يهلِكوا لَقُبِلَ ذلكَ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ كلُّ آيةٍ أتاهُمْ [الرسولُ بها][8] على إثْرِ السؤالِ، فَكَذَّبوها، أخَذَهُمُ العذابُ، فأُهلِكوا.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وذي ثروة. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الرسل.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قد ذكَرْنا.

الآيات ١٦٠و١٦١و١٦٢و١٦٣و١٦٤و ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قد ذَكَرَ بالتأنيثِ على إضمارِ: جماعةٍ؛ كأنهُ قال: كَذَّبَتْ [جماعةُ][(1)] قومِ لوطٍ المُرْسَلينَ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كقولِهِ[(2)] في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

الآية ١٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ أي تَذَرونَ ما جَعَلَ اللهُ ذلكَ طَلَباً لإبقاءِ هذا النَّسْلِ، لأنهُ لم يَجْعَلِ النِّساءَ لهمْ لِقَضاءِ الشَّهْوَةِ خاصَّةً، ولكنْ إنما جَعَلَ لهمُ الأزواجَ لإبقاءِ هذا النَّسْلِ ودوامِهِ، فَيُعَيِّرُهُمْ لوطٌ بِتَرْكِهِمْ إتيانَ النِّساءِ لِما في ذلكَ انْقِطاعُ ما جُعِلْنَ لهُ، وهو إبقاءُ النَّسْلِ واشْتِغالِهِمْ بالرجالِ. وليسَ في ذلكَ إبقاءُ النَّسْلِ.

هذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنى قولِهِ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ وإنما خَلَقَ لِبَقاءِ النَّسْلِ لا لِقَضاءِ الشَّهْوَةِ خاصَّةً. لكنْ جعَلَ فيهِمْ، ومَكَّنَ قَضاءَ الشَّهْوَةِ لِيُرَغِّبَهُمْ في ذلكَ لِيَبْقى هذا النَّسْلُ إلى يومِ القِيامةِ. وإلاّ لو لم يَجْعَلْ ذلكَ فيهِمْ لَعَلَّهُمْ لا يَتَكَلَّفونَ ذلكَ، ولا يَتَحمَّلونَ هذهِ المُؤَنَ التي يَتَكَلَّفونَ حَمْلَها لذلكَ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ المرأةَ، هي المَمْلوكةُ عليها دونَ الزوجِ، والزوجَ، هو المالكُ عليها ذلكَ حينَ[(3)] قالَ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ وقالَ [في][(4)] آيةٍ أُخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الآية [الروم: ٢١] أخبَرَ أنهُ خَلَقَ النِّساءَ لنا، لا أنهُ خَلَقَنا لهنَّ. وفي ذلكَ حُجَّةٌ لأصحابِنا في قولِهِمْ: إنَّ المُسْلِمَ إذا تَزَوَّجَ نَصْرانيَّةً بِشهادةِ نَصْرانِيَّيْنِ جازَ النِّكاحُ لأنهُ هو المُتَمَلِّكُ عليها بالنِّكاحِ، وهي المملوكةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي بل أنتمْ قومٌ مُتَجاوِزونَ حَدَّهُ الذي حَدَّ لكُمْ، أو عادونَ حَقَّهُ الذي لهُ عليكُمْ.

الآية ١٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ذَكَرَ الانْتِهاءَ، ولم يُبَيِّنْ مِمَّاذا؟ فجائزٌ أنْ يكونوا ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ مِنْ تَعْييرِكَ الذي تُعَيِّرُنا بهِ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ بقولِكَ[(5)]: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] وقولِكَ[(6)] ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦].

ويَحْتَمِلُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ مِنْ دُعائِكَ الذي تَدْعونا إليهِ ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ كذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ يَحْتَمِلُ نَفْسَ الإخراجِ، أي نُخْرِجُكَ مِنَ القريةِ ومِنْ بَيْنِنا.

وجائزٌ أنْ يكونوا[(7)] أرادوا بالإخراجِ إخراجاً بالقَتْلِ كقولِ[(8)] قومِ نوحٍ حينَ[(9)] ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وهو أشبَهُ.

الآية ١٦٨ ثُمَّ قالَ لوطٌ: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي مِنَ المُبْغِضِينَ، أي كيفَ تُوعِدونني بالإخراجِ، وإني لِعَمَلِكُمُ الذي تَعْمَلونَ مِنَ المُبْغِضِينَ؛ أكْرَهُ المُقامَ فيكمْ، وأبْغَضُ رُؤْيَةَ أعمالِكُمُ التي تَعْمَلونَ، فكيفَ تُوعِدُونني بالإخراجِ؟

الآية ١٦٩ وقولُهُ تعالى: قالَ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ربِّ نَجِّني وأهلي مِنْ عَذابِ ما يَعْمَلونَ وجَزائِهِ.

[والثاني][(10)]: ربِّ نَجِّني وأهلي مِنْ عَمَلِ ما يَعْمَلونَ مِنَ الخبائثِ كقولِ إبراهيمَ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

[والثالث][(11)]: ربِّ نَجِّني وأهلي مِنْ رُؤْيَةِ ما يَعْمَلونَ [ومُعايَنَتِهِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وقال.
(٦) في الأصل وم: وقوله تعالى. (٧) في الأصل وم: يكون. (٨) في الأصل وم: كقولهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: أو أن يكون. (١١) في الأصل وم: أو أن يقول.

الآيات ١٧٠ ـ ١٧٢ وقولُهُ تعالى[(١)]: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أمْطَرَ عليهمُ الحجارةَ بَعْدَما قَلَبَهُمْ ظَهراً لِبَطنٍ وبَطناً لِظَهرٍ كقولِهِ: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ [هود: ٨٢].

وجائزٌ أنْ يكونَ جَعَلَ عالِيَها سافِلَها بما أمْطَرَ عليهمْ مِنَ الحجارةِ. وجائزٌ أنْ يكونَ [جَعَلَ][(٢)] القَرياتِ ومَنْ فيها عالِيَها سافِلَها، وأمْطَرَ على مَنْ كانَ غائباً منهُمُ الحجارةَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي مِنَ المُبْغَضينَ؛ يُقالُ: قَلَيتُ الرجلَ إذا أبْغَضتُهُ، ومِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] والغابرُ: الباقي.

الآيتان ١٧٤و١٧٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْنا][(٣)].

الآية ١٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ والأيْكَةُ: قالَ بعضُهُمْ: هي شَجَرةٌ، نُسِبوا إليها. وقالَ بعضُهُمْ: الأيْكَةُ الغَيضَةُ.

الآية ١٧٧ [وقولُهُ تعالى][(٤)]: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما لم يَقُلْ ههنا في شُعَيبٍ أخاهُمْ[(٥)] لأنَّ شُعَيباً، لم يكنْ مِنْ نَسْلِهِمْ؛ أعني مِنْ نَسْلِ أصحابِ الأيْكَةِ. لِذلكَ[(٦)] لم يَقُلْ: إذْ قالَ لهمْ أخوهُمْ شُعَيبٌ، وقالَ في سورةِ هودٍ حينَ[(٧)] قالَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] لأنهُ كانَ مِنْ نَسْلِ أهلِ مَدْيَنَ. ويقولونَ: إنَّ شُعَيباً، كانَ بُعِثَ إلى أهلِ مَدْيَنَ، وهو كانَ منهمْ/ ٣٨٥ ـ ب/ وإلى أصحابِ الأيْكَةِ، وهو لم يكُنْ منهمْ. لِذلكَ[(٨)] قالَ ثَمَّ: أخاهُمْ، ولم يَقُلْ ههنا.

لكنْ ليسَ في ما لم يَقُلْ: إنهُ أخوهُمْ ما يَدُلُّ أنهُ لم يَكُنْ مِنْ نَسْلِهِمْ ولا مِنْ نَسَبِهِمْ لأنَّ جميعَ أولادِ آدَمَ إخوةٌ؛ إذْ يُسَمّى جميعُ البَشَرِ بَنيهِ[(٩)]. فَعَلى ذلكَ أولادُهُ إخوةٌ وأخواتٌ.

ثم لا نَدْري أنَّ مَدْيَنَ غَيرُ الأيْكَةِ، والأيْكَةَ غيرُ [مَدْيَنَ، أبُعِثَ][(١٠)] شُعَيبٌ إليهمْ جميعاً، أمْ[(١١)] هما واحدٌ؟ نُسِبوا إلى مَدْيَنَ [مَرّةً، وإلى الأيْكَةِ أُخرى][(١٢)]؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الأيْكَةُ الغَيضَةُ، وجَمْعُها أيْكٌ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الأيْكَةُ شَجَرةٌ، والأيكُ جَمْعُ أيْكَةٍ، ولا أعْرِفُ لَيكَةَ بلا ألِفٍ. وكذلكَ قالَ أبو عُبَيدَةَ. وقالَ أبو زيدٍ: أصحابُ لَيكَةٍ[(١٣)] أصحابُ باديةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٧٨ ـ ١٨٠ [وقد ذَكَرْنا تأويلَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾][(١٤)].

الآية ١٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ وكذلكَ قالَ لأهلِ مَدْيَنَ في سورةِ هودٍ ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] ذَكَرَ فيهما جميعاً إيفاءَ الكَيلِ، فَلَسْنا نَدري: أظْهَرَ[(١٥)] فيهما جميعاً نُقْصانُ الكَيلِ والوَزْنِ، فأمَرَهُما بإيفاءِ ذلكَ، أمْ[(١٦)] كانَتِ القصةُ واحدةً، فَذَكَرَ فيهما ذلكَ؟

ثم في قولِهِ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥ والشعراء: ١٨٣] جوازُ الاِسْتِدلالِ مِنْ وجهَينِ:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ومعاقبته ثم قال. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أخوهم. (٦) في الأصل وم: كذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: كذلك. (٩) في الأصل وم: بنوه. (١٠) في الأصل وم: المدين فبعث. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل: وإلى الأيكة مرة ثانيا، في م: وإلى الأيكة مرة إلى مدين ثانيا. (١٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٢٤. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أنه ظهر. (١٦) في الأصل وم: أو.

أحدُهما: وُقوعُ المَبيعِ بِمُلْكِ المُشْتَري، وإنْ لم يَقْبِضْهُ المُشْتَري.

والثاني: جوازُ بَيعِ الجُزْءِ مِنَ الكَيليِّ والوَزْنيِّ شائعاً مِنَ الكلِّ، لأنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أضافَ الأشياءَ إلى الناسِ، ونَسَبَها إليهِمْ. فلولا أنَّ ذلك مُلْكٌ لهمْ، وإلاّ لم تَكُنْ أشياءَهُمْ، ولكنْ كانَتْ أشياءَ هؤلاءِ؛ إذْ لا يَخلو ذلك: إمّا أنْ كان ثَمَناً وإمّا[1] كانَ مَبيعاً.

فكيف ما كانَ فهو موصوفٌ بالمُلْكِ لهمْ دونَ الذينَ عليهِمْ إيفاءُ ذلكَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ والوَزْنَ في ما عليكُمْ إيفاؤُهُ، ولا تَستَوفوا مِنَ الناسِ أكثرَ ممّا لكمْ عليهِمْ.

الآية ١٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ القِسْطاسُ: قالَ بعضُهُمْ: العدلُ، أي وَزِنوا للناسِ حُقوقَهُمْ بالعَدْلِ، ولا تُنْقِصوها. وقالَ بعضُهُمْ: القِسْطاسُ، هو القَبّانُ، وهو الميزانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ المُسْتَوي؛ كأنهُ قالَ: وزِنوا بالميزانِ المُسْتَوي، لا تَجْعَلوا إحْدَى الكِفَّتَينِ أثقَلَ مِنَ الأُخرى؛ كأنهمْ [كانوا][2] يَجْعَلونَ الكِفَّةَ التي يُوفونَ بها حقوقَ الناسِ أثقَلَ، والكِفَّةَ التي يَسْتَوفونَ [بها][3] مِنَ الناسِ أخفَّ. فأمَرَهُمْ أنْ يُسَوُّوا الكِفَّتَينِ جميعاً.

الآية ١٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تُفْسِدوا فيها.

الآية ١٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي اتَّقوا نِقْمَةَ الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ الجِبِلَّةَ الأوَّلينَ أي كيف عَذَّبَهُمْ، وانْتَقَمَ منهمْ بِظُلْمِهِمْ، والجِبِلَّةُ، هي الخليقة، يُقالُ: جُبِلَ أي خُلِقَ.

الآية ١٨٥ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو الذي سُحِرَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. فعَلَى هذا التأويلِ يكونُ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ ويكونُ[5] التَّشديدُ لِلتَّكثيرِ.

الآية ١٨٦ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما أنتَ مَخلوقٌ وبَشَرٌ مِثْلُنا. وقد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ هذا يدلُّ أنهمْ إنما قالوا ذلك ظَنًّا منهمْ لا يَقيناً وحَقًّا.

الآية ١٨٧ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ سألوا شُعَيباً العذابَ على التَّعَنُّتِ كما سَأَلَ غَيرُهُمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فنَزَلَ بهمُ العذابُ مِنْ حيثُ سألوا مِنَ السماءِ.

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ][8] قالَ: سَلَّطَ اللهُ الحَرَّ على قومِ شُعَيبٍ سبعةَ أيامٍ ولَياليَها حتى كانوا لا يَنْتَفِعونَ بِظِلِّ بيتٍ ولا بِبَرْدِ ماءٍ، ثم رُفِعَتْ سَحابةٌ في البَرِّيَّةِ، فوَجَدوا تَحْتَها الرَّوحَ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَدْعو بَعْضاً حتى إذا اجْتَمَعوا تَحْتَها أشعَلَها اللهُ تعالى ناراً، فأحْرَقَتْهُمْ، فذلكَ قولُهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ الآية [الشعراء: ١٨٩].

وقالَ بعضُهُمْ: سَقَطَتْ عليهِمْ تلكَ السحابةُ، فقَتَلَتْهُمْ.

والظُّلَّةُ: قالَ أبو عَوسَجَةَ: حَرٌّ شديدٌ، وقالَ القُتَبيُّ: ﴿كِسَفًا﴾ أي قِطَعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والكِسَفُ القِطَعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أصابَهُمْ حَرٌّ شديدٌ وغَمٌّ في بُيوتِهِمْ، فَخَرَجوا يَلْتَمِسونَ الرَّوحَ قِبَلَهُ، فلمّا غَشِيَتْهُمْ تلكَ السحابةُ أخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨ و . . .].

وقالَ بعضُهُمْ: ظَلَّلَ العذابُ إيّاهُمْ. وبَعْضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لكن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وعنِ ابنِ عباسٍ قريبٌ مِنْ هذا: قالَ: بَعَثَ اللهُ عليهِمْ وَمَدَةً وحرًّا شديداً، فأخَذَ بأنفاسِهِمْ، فلمَّا أحسُّوا[1] بالموتِ، بَعَثَ لهمْ سَحابَةً، فأظَلَّتْهُمْ، فَتنادَوا تحتَها، فلما اجْتَمَعوا سَقَطَتْ عليهِمْ. فذلكَ قولُهُ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ والظُّلَّةُ السحابَةُ، وهو قريبٌ مِنَ الأوَّلِ.

الآيات ١٨٩ - ١٩١ وقولُ شُعَيبٍ: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ نُقصانِ الكَيلِ وغَيرِهِ مِنْ صَنيعِهِمْ، وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ كَذَّبوهُ في ما أخبَرَ مِنْ نُزولِ العذابِ بهمْ، أو كَذَّبوهُ في ما ادَّعَى مِنَ الرسالةِ وما سَيُرَى ذلكَ [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾][2] هو مَذكورٌ في ما تَقَدَّمَ.

الآيتان ١٩٢و١٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي نَزَّلَهُ ربُّ العالَمينَ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [رَدًّا لِقولِهِمْ][3]: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

الآية ١٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنَّ جبريلَ لمَّا يُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ إنما يُنَزِّلُ على قَلْبِهِ.

والثاني: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي لا يَذْهَبُ عنهُ، بل اللهُ يَجْمَعُهُ في قَلْبِكَ، كقولِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ و١٧].

[والثالثُ][4]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي يُثَبِّتُهُ على قَلْبِكَ لِقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً﴾ [وقولِهِ تعالى][5]: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

[والرابعُ][6]: أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لمَّا انْتَهَى إلى قَلْبِهِ، وحَفِظَهُ غايةَ حِفْظِهِ قالَ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ كأنهُ أُلْقِيَ في قَلْبِهِ. وكذلكَ يُقالُ.

الآية ١٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، على التَّقديمِ والتَّأخيرِ يُخَرَّجُ، أي: نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ على قَلْبِكَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ لِتكونَ مِنَ المُنْذِرينَ.

والباطِنِيَّةُ يقولونَ: أنْزَلَهُ على رسولِهِ كالخَيالِ غَيرَ موصوفٍ بلسانٍ، ثم إنَّ رسولَهُ، أدَّاهُ بلسانِهِ العَرَبيِّ المُبينِ، أي بَيَّنَهُ. لكنهُ ليسَ كذا لأنهُ[7] قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] فَيَبْطُلُ قولُهُمْ: إنهُ أدَّاهُ بلسانِهِ عَرَبيًّا مِنْ غيرِ أنْ أنْزَلَهُ كذلكَ. ولو كانَ على ما يقولُهُ الباطِنِيَّةُ: إنهُ لم يُنْزِلْهُ بهذا اللسانِ؛ أعني اللسانَ العَرَبيَّ، وإنَّ الرسولَ، هو الذي صَيَّرَهُ بهذا اللِّسانِ، وأدَّاهُ بِهِ، لكانَ لا يَصيرُ جواباً لقولِهِمْ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ولا حُجَّةَ عليهِمْ. فاذْكُرْ هذا جواباً لقولِهِمْ وحُجَّةً عليهِمْ.

دَلَّ أنهُ إنما أنْزَلَ عليهِ عربيًّا، وأنَّ تأويلَ الآيةِ[8] ما ذَكَرْنا على التَّقديمِ والتَّأخيرِ.

الآية ١٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي بَعْثَ محمدٍ وَوَصْفَهُ كانَ في كُتُبِ الأولينَ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]: هذا[9] القرآنُ كانَ ذِكْرُهُ في كُتُبِ الأولينَ، أنهُ يُنْزَلُ على رسولِ اللهِ ﷺ محمدٍ، لا أنهُ[10] عَينَهُ، كانَ فيها [أو أنَّ بَعْضَهُ، كانَ][11] في زُبُرِ الأوَّلينَ، لا الكُلَّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أوَ لم يكُنْ محمدٌ آيةً: أنَّ عُلَماءَ بَني إسرائيلَ، كانوا يَعْلَمونَ أنهمْ ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى [ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾][12] [الأعراف: ١٥٧]؟

(١) في الأصل وم: حسبوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لقوله. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، في الأصل: إنه. (٨) في الأصل وم: الأول. (٩) في الأصل وم: هذه. (١٠) في الأصل وم: أن. (١١) في الأصل: وإن كان بعضه، في م: او ان كان بعضه. (١٢) في الأصل وم: الكتب.

لكنَّ تأويلَهُ: أوَلم يَكفِهِمْ عِلْمُ عُلَماءِ بَني إسرائيلَ آيةَ أنهُ رسولٌ؟

ثم/٣٨٦ ـ أ/الآيةُ تكونُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذُكِرَ أنَّ أهلَ مكةَ، أرسَلوا إلى اليهودِ بالمدينةِ يَسْألونَهُمْ عنْ رسولِ اللهِ، فأخبَروهُمْ عنهُ أنهُ، يَخرُجُ في وَقْتِ كذا، وهذا وَقْتُ خروجِهِ.

والثاني: يقولُ: أوَلَمْ يَكفِهِمْ آيةً إسلامُ عُلَماءِ بَني إسرائيلَ وفُقهائِهِمْ أنهُ رسولٌ نَحْوِ ابْنِ سَلَامٍ وغَيرِهِ؛ إذْ كانوا لا يُسْلِمونَ إلّا عنْ عِلْمٍ وثَبَتَ أنهُ رسولٌ، إذْ[1] كانَ في إسلامِهِمْ ذَهابُ مَمْلَكَتِهِمْ[2] ورئاسَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٩٨و١٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَزَّلْناهُ على رجلٍ منهمْ عربيٍّ، فلمْ يُؤْمِنوا بهِ، فكيفَ لو نَزَّلْناهُ على أعْجَمِيٍّ؟

وقالَ بعضُهُمْ: لو نَزَّلْنا هذا القرآنَ على بعضِ الأعْجَمِيِّينَ، فَقَرَأَهُ عليهِمْ؛ يقولُ: إذَنْ لكانوا شَرَّ الناسِ فيهِمْ، ما فَهِموهُ [وما دَرَوا ماهو][3] وهو قريبٌ [مِنَ][4] الأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ مِنَ الدَّوابِّ، فَكَلَّمَهُمْ هذا ما صَدَّقوهُ؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وتَعَنُّتَهُمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أي نَزَّلْناهُ أعْجَمِيًّا، فلم يَفْهَموهُ ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] ولكنْ نَزَّلْناهُ عَرَبِيًّا لئلّا يَقولوا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٠٠ و ٢٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هكذا سَلَكْنا الكُفْرَ والتَّكذيبَ، وأدْخَلْناهُ في قلوبِ المُجْرِمينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ يعني البَيانَ والحُجَجَ في قلوبِ المُجْرِمينَ حتى عَقَلُوهُ، ولَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ. لكنهُمْ تَركوا الإيمانَ تَعَنُّتاً وعِناداً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ حينَ لا يَنفَعُهُمْ إيمانُهُمْ، لأنَّ إيمانَهُمْ عندَ مُعايَنَةِ العذابِ إيمانُ دَفْعٍ واضْطِرارٍ[5] لا إيمانُ اختيارٍ، وهو كما قالَ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] لأنهُ إيمانُ دَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ [حينَ خَرَجَتْ أنفُسُهُمْ][6] مِنْ بَينِ أيديهِمْ، وإيمانُ اضْطِرارٍ[7] لا إيمانُ اختيارٍ. لذلكَ لم يَنْفَعْهُمْ.

الآية ٢٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي يَأتِيَهُمُ العذابُ فَجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنهُ. ﷻ إذْ عَلِمَ منهمْ أنهمْ، لا يُؤْمِنونَ أبداً، فأنزَلَ عليهِمُ العذابَ بَغْتَةً. ولو عَلِمَ منهُمْ أنهمْ[8] يُؤْمِنونَ حقيقةً عندَ مُعايَنَةِ العذابِ لأنزَلَ عليهِمُ العذابَ مُعايَنَةً مُجاهَرَةً لِيُؤْمِنوا، فَيَقْبَلُ منهمْ ذلكَ، ويَرْفَعُ العذابَ عنهمْ كما قَبِلَ إيمانَ قومِ يونسَ حينَ[9] قالَ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٨] قَبِلَ منهمُ الإيمانَ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ لمَّا عَلِمَ منهمْ أنهمْ يُحَقِّقونَ الإيمانَ في ذلكَ [الوَقْتِ][10].

وأمّا مَنْ كانَ هَمُّهُمُ العِنادَ والمُكابَرَةَ فهمْ لا يُحَقِّقونَ الإيمانَ.

الآية ٢٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ لا يَزالونَ، يَطْلُبونَ الرَّجْعَةَ إلى الدنيا وتَأخيرَ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ، [إذا نزلَ][11] بهمْ كقولِهِمْ ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وكقولِهِمْ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧]. فَيَتَمَنَّونَ الرجوعَ والنَّظِرَةَ، لكنْ لا يُجابونَ [إلى ذلكَ].

الآية ٢٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هذا جوابٌ لهمْ لمَّا أوعَدَهُمُ النَّبِيُّ العذابَ، يَنزِلُ بهمْ: مَتَى العذابُ؟ تكذيباً لهُ واستِهْزاءً. يقولُ اللهُ عندَ ذلكَ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[12] لِقولِهِمْ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس:

---

(١) من م، في الأصل: إذا. (٢) في الأصل وم: ماكلتهم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: واضطراب. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: اضطراب. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: فأنزل. (١٢) ساقطة من م.

٤٨ و. . .] وقولِهِمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ومِثْلِهِ وإلّاَ ليسَ في الظاهِرِ جواباً لِقولِهِمْ[1]: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾.

الآيات ٢٠٥ ـ ٢٠٧ [وجَوابُ هذين][2]، واللهُ أعلَمُ، قولُهُ[3] تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ يقولُ: ما يُغْنِي تأخيرُ العذابِ عنهُمْ وإمهالُهُمْ عنْ وقتٍ، يُمْنَعونَ منْ عذابِ اللهِ مِنْ شيءٍ؟ [أي][4] لا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ[5] أنْ يكونوا سَألوا العذابَ في الظاهِرِ، واسْتَمْهَلوهُ في الحقيقةِ، فَخَرَجَ قولُهُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ الآياتِ[6] جواباً لِاسْتِمْهالِهِمْ، ويَحْتَمِلُ[7] أنْ يكونَ: بعضُهُمُ اسْتَعْجَلَ العذابَ، واسْتَمْهَلَ غيرُهُمْ، فَخَرَجَ هذا جوابَ مَنِ اسْتَمْهَلَ.

الآية ٢٠٨ وقولُهُ تعالى: فقالَ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ إهلاكَ اسْتِئْصالٍ وانْتِقامٍ إلاّ بَعْدَ الإنذارِ وإقامةِ الحُجَّةِ والبيانِ.

الآية ٢٠٩ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي مَوعِظَةً وزَجْراً عمَّا همْ فيهِ، أو ﴿ذِكْرَىٰ﴾ يُذَكِّرُ ما لهمْ وما عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبِهِمْ، أي لم نُعَذِّبْهُمْ بِلا ذَنْبٍ ولا[9] جُرْمٍ، ولكنْ بِعِنادِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ لأنَّ العذابَ في الدنيا، لا يكونُ لِنَفْسِ الكُفْرِ، ولكنْ لِعِنادٍ ومُكابَرَةٍ. وإنما عذابُ الكُفْرِ في الآخِرَةِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] أي ما كنَّا مُعَذِّبينَ في الدنيا تعذيبَ انْتِقامٍ حتى نَبْعَثَ رسولاً، فَيَظْهَرَ منهُمُ العِنادُ والمُكابَرَةُ. فعندَ ذلكَ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي ما كنا نُعَذِّبُهُمْ إلاّ مِنْ بَعْدِ البَيانِ والحُجَّةِ وقَطْعِ العُذْرِ، واللهُ أعلَمُ. وفي مُصْحَفِ أُبَيٍّ: وما أهْلَكْنا مِنْ قريةٍ إلاّ بِذُنوبِ أهلِها.

الآيتان ٢١٠و٢١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما تَنَزَّلَتْ بالقرآنِ الشياطينُ. فذلكَ جواباً لِقَولِ أهلِ مكةَ: إنَّ محمداً كاهنٌ، مَعَهُ رِئِيٌّ، هو يأتيهِ بما يقولُ، يَعْنونَ بالرِّئِيِّ الشيطانَ. وكانتِ الشياطينُ مِنْ قَبْلُ يَقْعُدونَ مِنَ السماءِ مَقاعِدَ، يَسْتَمِعونَ فيها الوَحْيَ مِنَ الملائكةِ، فَيَنْزِلونَ بهِ على الكُهّانِ، فهُمْ[10] بينَ مُصيبٍ ومُخْطِئٍ، فقالوا: محمدٌ كذلكَ، فأكْذَبَهُمُ اللهُ تعالى في مَقالَتِهِمْ تلكَ، فقالَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي بالقرآنِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أنْ يَنْزِلوا بالقرآنِ، وما كانوا يَسْتَطيعونَ، أي قد حِيلَ بينَهُمْ وبينَ السَّمْعِ بالملائكةِ والشُّهُبِ.

الآية ٢١٢ وأخبَرَ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ عَنْ ذلكَ.

[وفي قولِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾][11] دلالةُ أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يَجْعَلَ القرآنَ حُجَّةً لِغَيرِ الذي جُعِلَ هو حَجَّةً لم يَقْدِرْ على النُّطْقِ بهِ ولا التِّلاوَةِ نَحْوُ مَنْ يَأْتِ أُفُقاً مِنْ آفاقِ الأرضِ، لم يَنْتَهِ إليهِ[12] هذا القرآنُ، فادَّعى[13] لنفسِهِ النُّبُوَّةَ، وجَعَلَ يَحْتَجُّ بهذا القرآنِ، فإنهُ لا يَقْدِرُ على تِلاوَتِهِ ولا النُّطْقِ لأنهُ إنما جُعِلَ حُجَّةً وبُرهاناً لِلْمُحِقِّ لا لِلْمُبْطِلِ حينَ[14] قالَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أنْ [يَنْزِلوا بهِ][15] ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلكَ.

الآية ٢١٣ وقد ذَكَرْنا وَجْهَ النَّهْيِ لرسولِ اللهِ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وأمثالِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لقوله. (٢) من م، في الأصل: جواب. (٣) في الأصل وم: وقوله. في م: وجواب هذان. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: وما. (١٠) في الأصل وم: فمن. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: إليهم. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فالمدعى. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: ينزلون.

الآية ٢١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جمَعَ رسولُ اللهِ ﷺ قُرَيشاً، فَخصَّ، وعَمَّ، وقالَ: «يا مَعْشَرَ قُريشٍ أنقِذوا أنفسَكُمْ منَ النارِ فإني لا أملِكُ لكمْ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفعاً. وقالَ يا مَعْشَرَ بَني قُصَيٍّ أنقِذوا أنفُسَكُمْ مِنَ النارِ فإني لا أملِكُ لكُمْ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفعاً. وقالَ: يا مَعْشَرَ بَني عبدِ مَنافٍ: أنقِذوا أنفُسَكُمْ مِنَ النارِ فإني لا أملِكُ لكمْ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفعاً. وكذلكَ قالَ لبَني عَبْدِ المُطَّلِبِ، وقالَ لفاطمةَ: يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ أنقِذي نَفسَكِ مِنَ النارِ فإني لا أملِكُ لكِ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفْعاً. ولكنْ لَكِ رَحِمٌ، سَأَبُلُّها بِبَلاها» [مسلم ٢٠٤] أي سَأَصِلُها.

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنهُ قالَ عندَ نزولِ هذهِ الآيةِ: «إني أُرسِلْتُ إليكُمْ يا بني هاشمٍ وبَني عبد المُطلبِ خاصَّةً» [عن عائشة مسلم ٢٠٥] وهمُ الأقربونَ، وهمْ إخوانٌ، أبناءُ عَبْدِ مَنافٍ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][1] قالَ: ذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جمَعَ أهلَ بيتِهِ قَبلَ موتِهِ، فقالَ «ألا إنَّ لي عملي، ولكمْ عَمَلُكُمْ، ألا إني لا أملِكُ لكُمْ منَ اللهِ شيئاً» «ألا إنَّ أوليائي منكُمُ المُتَّقونَ، ألا لأعرِفَنَّكُمْ/ ٣٨٦ ـ ب/ يَوْمَ القِيامةِ: تأتونني بالدنيا، تَحمِلونَها على رِقابِكُمْ[2] ويأتيني الناسُ بالآخِرَةِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٩/ ١٢٣].

وعنْ قَتادَةَ: ذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يأتي ليلةً على الصَّفا، يُفَخِّذُ عَشيرَتَهُ فَخذاً فَخذاً، يَدْعوهُمْ إلى اللهِ.

وقالَ[3] في ذلكَ المُشرِكونَ: لِيَأتِ هذا الرجلُ، يُهَوِّتُ منذُ الليلةِ، يقولُ: يَصيحُ. فأنزَلَ اللهُ في ذلكَ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ الآية [سبأ: ٤٦].

ومعنى التَّخصيصِ في إنذارِهِ عَشِيرَتَهُ[4] في هذهِ الآيةِ يَحتَمِلُ وجهَينِ، وإنْ كانا داخِلينَ في جُمْلَةِ إنذارِ الناسِ جميعاً في قولِهِ: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] إذْ هُمْ مِنَ العالَمِينَ:

أحَدُهما: جائزٌ أنْ يكونوا همْ يَطْمَعونَ بشفاعةِ رسولِ اللهِ يومَ القيامةِ، وإنْ لم يُطيعوهُ، ولم يُجيبوهُ إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ على ما رُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: «كلُّ نَسَبٍ وسَبَبٍ مُنْقَطِعٌ يومئذٍ إلّا نَسَبي وسَبَبي» [الحاكم في المستدرك ٣/ ١٤٢]. فَيُشبِهُ أنْ يكونوا[5] يَطْمَعونَ بِشفاعَتِهِ يومئذٍ، وإنْ خالَفوهُ بِحَقِّ القَرابَةِ والوُصْلَةِ ما لا يَطْمَعُ بذلكَ غَيرُهُمْ مِنَ الناسِ إلّا بالطاعةِ والإجابةِ.

فأمَرَهُ أنْ يُنْذِرَهُمْ لِئلا يَكِلوا [أمرَهُمْ][6] إلى شَفاعَتِهِ. ولكنِ احتالوا حيلَتَهُمْ بالطاعةِ والعَمَلِ لِما يَأْمُرُهُمْ؛ وهو ما ذُكِرَ في الأخبارِ التي ذَكَرْنا: «إني لا أملِكُ لكُمْ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفعاً ألا إنَّ أوليائي منكُمُ المُتَّقونَ» [الطبري في تفسيره: ١٩/ ١٢٣]. أخبَرَ أنْ [لا][7] وَلايَةَ لهمْ [إذا لم][8] يَتَّقوا مخالَفَتَهُ.

والثاني[9]:

الآية ٢١٥ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهُ أمَرَ [رسولَهُ أنْ][11] يَتواضَعَ لهمْ، ويَرحَمَهُمْ[12].

وقالَ في الوالِدَينِ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقالَ في المؤمنينَ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢ و...] ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ذَكَرَ الذُّلَّ في ما بَيْنَهُمْ والرَّحمَةَ، ولم يذكُرْ في رسولِ اللهِ ﷺ الذُّلَّ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ الذُّلَّ كأنهُ يَرْجِعُ إلى الخُضوعِ واستِخْدامِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. وذلكَ في رسولِ اللهِ بعيدٌ، لا يَحتَمِلُ أنْ يَأمُرَهُ بالخدمةِ لهمْ.

وجائزٌ أنْ يَمْتَحِنَ بَعْضَهُمْ بِخِدْمَةِ بَعْضٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: ركابها، في م: رقابها. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وعشيرته. (٥) من م، في الأصل: يكون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أشار الناسخ في الأصل وم في حاشيته أن بعد هذه الكلمة بياضاً ليدل أن المؤلف لم يأتِ بالوجه الثاني. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: رسول الله. (١٢) في الأصل وم: ويرحم.

الآية ٢١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قالوا: إنهُ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ومَوصولٌ بهِ؛ كأنهُ قالَ: وأنذِرْ عشيرَتَكَ الأقرَبِينَ. فإنْ عصوْكَ فقُلْ: إني بريءٌ ممَّا تعْمَلونَ. قد كانَ رسولُ اللهِ بريئاً ممَّا كانَ يَعْمَلُ أولئكَ الكفَرَةُ.

لكنهُ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أولئكَ لَمَّا أنذَرَهُمْ رسولُ اللهِ طَلَبوا منهُ أنْ يُطيعَهُمْ في بَعْضِ أمورِهِمْ، ويُشارِكَهُمْ في بَعْضِ أعمالِهِمْ حتى يُطيعوا أولئكَ لهُ في بَعْضِ ما يأمُرُهُمْ، ويَدْعوهُمْ إليهِ، ويُشاركوهُ[1] في بَعْضِ أعمالِهِ.

فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ أي ممَّا يَدْعونَهُ إليهِ، ويَطلُبونَ[2] منهُ مساعَدَتَهُ إياهُمْ والإغماضَ عمَّا يَعْمَلونَ.

الآية ٢١٧ وقولُهُ[3] تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ولا تَخَفْ مُخالَفَتَهُمْ إياكَ في ما تَدْعوهُمْ[4]. أو أمَرَهُ أنْ يَكِلَ نَفْسَهُ إليهِ، ويُفَوِّضَ جَميعَ أمورِهِ [إليهِ][5] في كلِّ وَقْتٍ، فقالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ المُنتَقِمِ بأوليائِهِ أو الشديدِ بأعدائِهِ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأوليائِهِ. أو ذَكَرَ العزيزَ لأنهُ بهِ يَعِزُّ مَنْ يُعِزُّ، وهو يَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ، ومَنْ لم يُعِزَّهُ هو فلا[6] يكونُ عزيزاً، ومَنْ لم يَرْحَمْهُ هو [فلا يَنْفَعُهُ][7] تَرَحُّمُ غيرِهِ. والعزيزُ هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآيتان ٢١٨و٢١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في ظُلْمَةِ الليلِ وَحْدَكَ قائماً وجالساً وعلى حالاتِكَ، يَراكَ ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أيضاً ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في الصلاةِ معَ الناسِ في الجماعةِ.

وبعضُهُمْ يقولُ: في تَقَلُّبِكَ في الساجدينَ: في المُصَلِّينَ؛ يقولُ: كانَ يَرى مَنْ خَلْفَهُ مِنَ الصفوفِ كما يَرى مَنْ أمامَهُ[8]. لكنَّ هذا ليسَ تأويلَ الآيةِ [إنما هو][9] كلامٌ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ. ولو كانَ ما ذَكَرَ لكانَ يقولُ: يُريكَ بِرَفْعِ الياءِ لا بالنَّصْبِ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ: «أنا إمامُكُمْ فَلا تَسْبِقوني بالرُّكوعِ ولا بالسُّجودِ ولا بالقيامِ فإني أراكُمْ خَلْفي كما أراكُمْ أمامي. والذي نفسي بيدِهِ لو رَأيتُمْ ما رَأيتُ لَضَحِكْتُمْ قليلاً ولَبَكَيْتُمْ كثيراً. قالوا: يا رسولَ اللهِ وما رَأيتَ؟ قالَ: رأيتُ الجنةَ والنارَ» [مسلم ٤٢٦].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاةِ، فَتُصَلِّي وَحْدَكَ، ويَراكَ معَ المُصَلِّينَ في جماعةٍ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: [وتقَلُّبَ وَجْهِكَ][10] ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

الآية ٢٢٠ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السَّميعُ لِمقالَتِهِمْ ممَّا يُخْفونَ، ويُسِرُّونَ، وما يُعْلِنونَ. والعَليمُ بِضمائِرِهِمْ وخَفِيَّاتِهِم. والسَّميعُ المُجيبُ لِمَنْ دَعاهُ. والعَليمُ بأفعالِهِمْ وأعمالِهِمْ.

الآيتان ٢٢١و٢٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ خَرَجَ هذا، واللهُ أعلَمُ، وما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الآياتِ جواباً لِقولٍ كانَ مِنْ رُؤساءِ الكَفَرَةِ وقادَتِهِمْ، لا يزالونَ يُلْبِسونَ على أتباعِهِمْ والسَّفَلَةِ أمْرَ رسولِ اللهِ، وما يَنْزِلُ [عليهِ][12]. فقالوا: مَرَّةً: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] ومَرَّةً: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبإ: ٤٣] [ومَرَّةً إنهُ ﴿شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥ والطور: ٣٠]][13] [ومَرَّةً إنهُ][14] ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ [يونس: ٢ وص: ٤] ومَرَّةً قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وأمثالَ هذا.

فجائزٌ إنْ كانَ منهُمْ أيضاً قولٌ: إنَّ الشياطينَ همُ الذينَ يَتَنزَّلونَ بهذا القرآنِ عليهِ على ما ذُكِرَ أنهُمْ قالوا: إنما يَجيءُ بهِ الرِّئِيُّ، وهو الشيطانُ، فَيُلْقيهِ على لسانِهِ. فقالَ عندَ ذلكَ جواباً لهمْ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ و٢١١] وإنما يَتَنَزَّلُ بهِ جبريلُ حينَ[15] قالَ ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ الآية [النحل: ١٠٢].

---

(١) في الأصل وم: ويشاركونه. (٢) في الأصل وم: وطلبوا. (٣) في الأصل وم: فقال. (٤) في الأصل وم: تدعونهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لا. (٧) في الأصل وم: ولا ينفع. (٨) من م، في الأصل: أمام. (٩) في الأصل وم: إلا. (١٠) في الأصل وم: وتقلبك. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في م: وإنه شاعر. (١٤) في الأصل وم: وإنه. (١٥) في الأصل وم: حيث.

ثم أخبَرَ عنِ الشياطينِ أنهمْ على مَنْ [يَتنزَّلونَ حين][1] قالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ذَكَرَ هذا لمَّا عَرَفوا همْ أنَّ الشياطينَ لا يَتنزَّلونَ إلاّ بِكَذِبٍ وباطِلٍ. [فَمَنْ لا يَتنزَّلُ إلاّ بِكذِبٍ وباطلٍ لا يَتنزَّلُ][2] إلاّ ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وكانَ مَعْلوماً[3] ما عندَهُمْ أنَّ محمداً، لم يَكْذِبْ قطُّ، ولا أفِكَ أبداً، إذْ لم يأخذوهُ بِكَذِبٍ قطُّ.

فنقولُ، واللهُ أعلَمُ: كيفَ تَتنزَّلُ عليهِ الشياطينُ، وهو معروفٌ عندكُمْ أنهُ ليسَ بِكذّابٍ ولا أفّاكٍ، وقد تَعلَمونَ أنَّ الشياطينَ لا يَتنزَّلونَ إلّا بِكَذِبٍ باطلٍ، على هذا يُخرَّجُ تأويلُ هذهِ الآياتِ، وإلاّ على الابْتِداءِ لا يُحتَمَلُ أنْ تكونَ.

الآية ٢٢٣ ثم أخبَرَ عنْ صَنيعِ الشياطينِ، فقال ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُلْقي الشياطينُ بآذانِهِمْ إلى السمعِ في السماءِ لِكَلامِ الملائكةِ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ إذا أرادَ أمراً في الأرضِ عَلِمَ بهِ أهلُ السماءِ مِنَ الملائكةِ، فَيَتكلَّمونَ بهِ، فَيَسمَعُ الشياطينُ ذلكَ، فَيُخبِرونَ بهِ الكَهَنَةَ أهلَ الأرضِ بذلكَ، فيقولونَ: إنهُ يكونُ في الأرضِ كذا في وقتِ كذا.

ثم قالَ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ على [هذا التأويلِ؛ أي][4]: وأكثَرُ الشياطينِ كاذبونَ في ما يُخبِرونَ الكَهَنَةَ مِنْ أخبارِ السماءِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الجِنَّ كانوا يَصْعَدونَ إلى السماءِ، فَيَسْتَرِقونَ أسماعَهُمْ إلى السماءِ، فَيَسْمَعونَ مِنْ أخبارِ أهلِها، ثم يَنْزِلونَ بِهِ على الكَهَنَةِ، ويَسْمَعُ الكَهَنَةُ أيضاً مِنْ أخبارِ الرسلِ، ويَخلِطونَ ما سَمِعوا مِنَ الرسلِ مِنَ الحَقِّ بما سَمِعوا مِنَ الشياطينِ مِنَ الباطِلِ، فَيُحدِّثونَ الناسَ بذلكَ. فما كانَ مِنَ الرسُلِ حقٌّ، وما كانَ مِنَ الشياطينِ فيكونُ باطلاً.

فذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ أي أكثَرُ الكَهَنَةِ كاذبونَ في ما يُخبِرونَ الناسَ في ما سَمِعُوا مِنَ الشياطينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانوا يَسْمَعونَ مِنَ الجنِّ حقًّا. لكنهُمْ يَخلِطونَ مِنْ عندِ أنفسِهِمْ كَذِباً، فَيُحدِّثونَ بِهِ الناسَ، حتى إذا كانَ الناسُ، يَتْرُكونَ ما يَسْمَعونَ منهمْ مِنَ الكَذِبِ، حَدَّثوهُمْ بذلكَ الحَقِّ الذي يَنْزِلُ مِنَ السماءِ، ويُراجِعُونَهُمْ/ ٣٨٧ ـ أ/ ويُصَدِّقونَهُمْ، فذلكَ قولُ اللهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ أي أكثَرُ قولِهِمْ كَذِبٌ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٢٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: رجلانِ شاعرانِ، كانا على عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ أحَدُهما مِنَ الأنصارِ، والآخَرُ مِنْ قومِ آخَرينَ، فَهَجَوَا رسولَ اللهِ وأصحابَهُ، ومعَ كلِّ واحدٍ منهما غُواةٌ مِنْ قومِهِ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾. قالَ: فاستَأذَنَ شُعراءُ المُسْلِمينَ النَّبيَّ أنْ يَقْتَصُّوا مِنَ المُشْرِكينَ، فأذِنَ لهمُ النَّبيُّ، فَهَجَوُا المُشْرِكينَ، ومَدَحوا النَّبيَّ. فذلكَ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. أخبَر في الأوَّلِ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فاستَثْنى شُعراءَ المُسْلِمينَ [منهُمْ][5] بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: الشُّعراءُ عُصاةُ الجنِّ، يَتْبَعُهُمْ غُواةُ الإنسِ كقولِهِ: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقالَ بعضُهُمْ: همُ الكفَّارُ يَتْبَعونَ ضُلّالَ الجنِّ والإنسِ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

الآيتان ٢٢٥ و ٢٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: في كلِّ فَنٍّ يأخُذونَ، أي يَمْدَحُونَ قوماً بباطلٍ، ويَذُمّونَ قوماً بباطلٍ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وأنهمْ يَصِفونَ ما لا يَعْلَمونَ، وكذلكَ ذُكِرَ في بعضِ الحروفِ أنهُ كذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ في كل لَغْوٍ وباطلٍ يَخوضونَ، وإنهمْ ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي يقولونَ: فَعَلْنا كذا، وهُمْ كَذَبَةٌ، لم يَفْعَلوا ذلكَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَهِيمُونَ﴾ أي يَذْهَبونَ، ويَمْضونَ، ويَرْكَبونَ في كلِّ وادٍ، هامَ يَهيمُ هَيْماً. وهَيمانُ عَطْشانُ، وقومٌ هِيمٌ، والهائمُ الوامِقُ المُحِبُّ الذي هو عَطْشانُ إلى لِقاءِ مَنْ يُحِبُّ، والتَّهْويمُ: النومُ، يُقالُ: هَوَّمَ يُهَوِّمُ تَهويماً، وقولُهُ: ﴿فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] همُ العِطاشُ، والواحدُ هَيمانُ.

---

(١) في الأصل: تنزل الشياطين، وفي م: ينزلون حيث. (٢) من م، في الأصل: لا ينزل. (٣) في الأصل وم: معلوم. (٤) في الأصل: التاويل. في م: هذا التأويل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي في كلِّ وادٍ مِنَ القولِ وفي كلِّ مَذْهَبٍ، يَذْهَبونَ، كما يَذْهَبُ الهائمُ على وَجْهِهِ.

الآية ٢٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ هذا الاسْتِثْناءُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ وهو ما ذَكَرْنا. كأنهُ[1] قالَ: أولئكَ الشُّعراءُ، وهمُ[2] القادةُ منهُمْ: نَحْنُ نقولُ بِمِثْلِ ما أتى محمدٌ ﷺ وقالوا الشِّعْرَ، وأنْشَدوهُ، واجْتَمَعَ إليهِمْ غُواةٌ مِنْ قومِهِمْ، يَسْتَمِعونَ أشعارَهُمْ، ويَرْوُونَ عنهُمْ، حينَ يَهْجونَ النَّبِيَّ وأصحابَهُ.

فاسْتَثْنَى شُعراءَ المُسْلِمينَ الذينَ قالوا الشِّعْرَ، وأنْشَدوهُ، في انْتِصارِ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، فقالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهمْ لا يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ.

ويَحْتَمِلُ[3] أنْ يكونَ الاِسْتِثْناءُ مِنْ قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهمْ لا يَهيمونَ في كلِّ وادٍ، ويقولونَ ما يَفْعَلونَ، ولا يقولونَ ما لا يَفْعَلونَ. بل يَذْكُرونَ اللهَ كثيراً ويَنْصُرونَ[4] رسولَهُ وأنفسَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا.

فيكونُ الاِسْتِثْناءُ في أحدِ التأويلَينِ مِنَ الاتِّباعِ في الآخِرَةِ مِنَ الأئِمَّةِ والقادةِ، فكانَ منهُمْ قولٌ سَبَقَ في ذلكَ حتى قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ على الاِبْتِداءِ دونَ قولٍ كانَ منهُمْ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] وقولِهِ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١].

قد كانَ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ قولٌ وطَعْنٌ بأنَّ الشياطينَ همُ الذينَ يَتَنَزَّلونَ بهِ عليهِ حتى خَرَجَ جواباً لهمْ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ و٢١١] وإنْ لم يَذْكُرْ ذلكَ يَظْهَرْ ذلكَ في الجوابِ، إنْ كانَ منهُمْ قولٌ وطَعْنٌ، وإنْ لم يَذْكُرْ.

ثم أوعَدَهُمْ، وقالَ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. ويَحْتَمِلُ في الآخِرَةِ في مُنْقَلَبِ الظَّلَمَةِ، وهي النارُ، أي يَعْلَمونَ عِلْمَ عِيانٍ يومئذٍ، وإنْ لم يَعْلَموا ذلكَ في الدنيا عِلْمَ الاِسْتِدلالِ لِما تَرَكوا النَّظَرَ فيهِ، أو يَعْلَمونَ ذلكَ عِلْمَ عِيانٍ في الآخِرَةِ، وإنْ عَلِموا في الدنيا عِلْمَ اسْتِدْلالٍ، لكنَّهُم تَعانَدوا، وكابَروا، فلم يُؤمِنوا، واللهُ أعْلَمُ بالصوابِ.

(١) في الأصل وم: كانهم. (٢) من م، في الأصل: وهو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في م: وينتصرون.

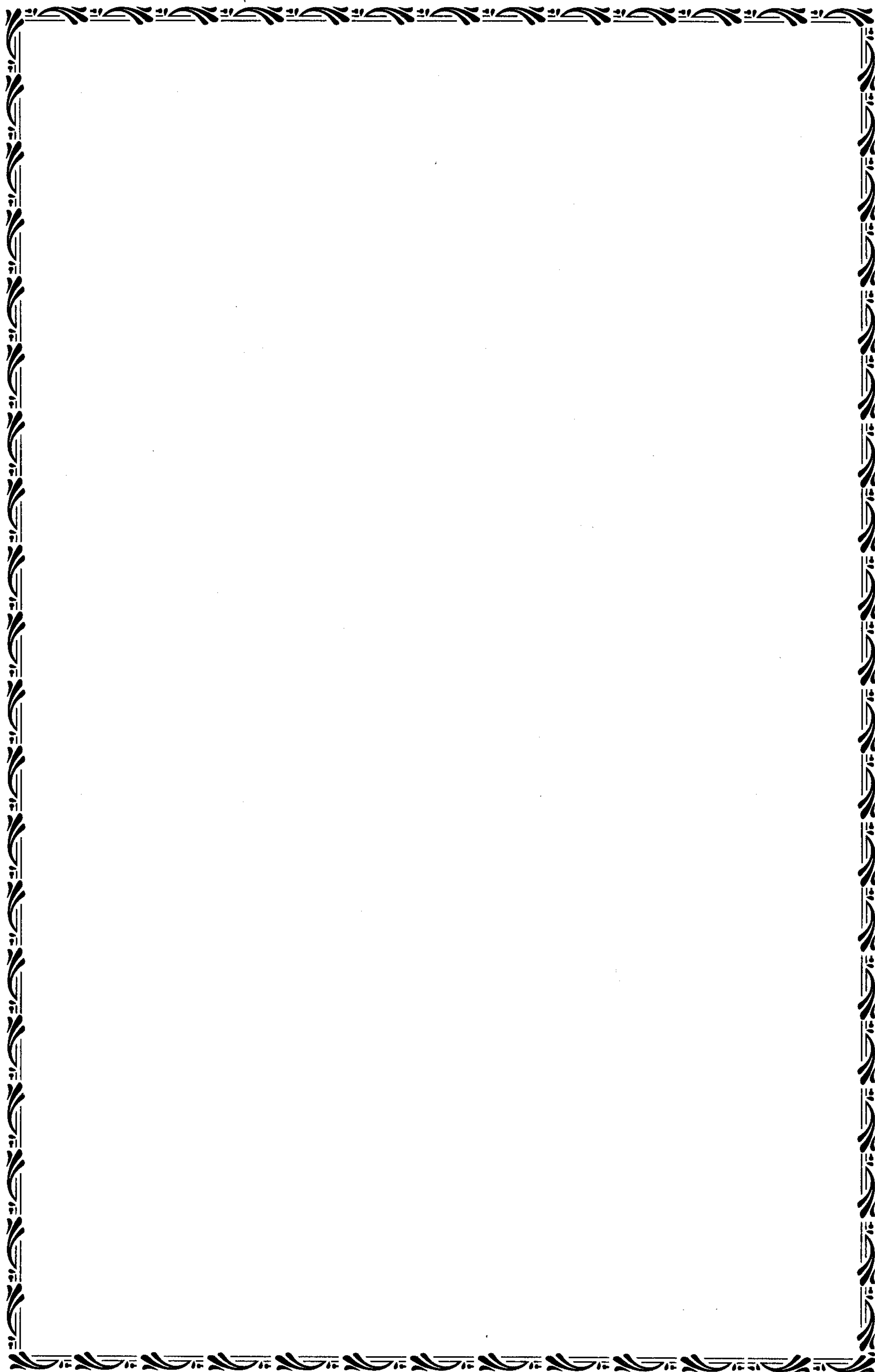

سورة(١) النمل

وهي مكيةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿طسٓ﴾ قد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ تأويلَ الحروفِ المُعْجَمَةِ وأقاويلَ الناسِ فيها وكذلكَ الآياتِ [المذكورةَ على إثْرِها](٢).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بَيِّنٌ واضحٌ لأنَّ أبانَ قد يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ بانَ، يُقالُ: بانَ وأبانَ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي يُبَيِّنُ ما لِلَّهِ عليهِمْ [وما لِبَعْضِهِمْ عليهِمْ](٣) وما لهمْ، وما عليهِمْ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قولُهُ: ﴿هُدًى﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: دعاةٌ كقولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي داعٍ، يَدْعو الخَلْقَ إلى توحيدِ اللهِ تعالى.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هُدًى﴾ أي دعاةٌ يَدْعوهُمْ إلى توحيدِ اللهِ تعالى. فإنْ كانَ هذا فهو للناسِ كافَّةً.

والثاني: جائزٌ أنْ يُريدَ بالهُدَى الهُدَى الذي هو نَقيضُ الضَّلالِ وضِدُّهُ، فهو للمؤمنينَ خاصَّةً، وإنْ كانَ أرادَ بهِ البَيانَ والدعاءَ فهو لِلْكُلِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يَدْعوهُمْ إلى الإيمانِ باللهِ وبرسولِهِ. فإذا آمنوا بهِ كانَ لهمْ بُشْرَى.

الآية ٣ ثم نَعَتَ المؤمنينَ، وَوَصَفَهُمْ، فقالَ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يُقِرُّونَ بها، ويُؤمِنونَ، لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ وبرسولِهِ، لكنهمْ أبَوُا الإيمانَ بالصلاةِ والزكاةِ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]

لا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُمْ بِحَبْسِهِمْ إلى أنْ تَمْضِيَ السنةُ، فَتَجِبَ الزكاةُ عليهِمْ، فَيُؤتوا(٤). فحينئذٍ يُخَلُّونَ سَبيلَهُمْ، ولكنَّ الأمْرَ بِحَبْسِهِمْ إلى أنْ يُقِرُّوا بها، ويؤمِنوا، فَيُخَلُّونَ عندَ ذلكَ سبيلَهُمْ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٧]/ ٣٨٧ ـ ب/ لا يَقْبَلونها، ولا يُقِرُّونَها، ليسَ على فِعْلِ الإيتاءِ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، يَحْتَمِلُ هذا، والثاني، يَحْتَمِلُ الأمْرَيْنِ جميعاً: القبولَ والإقرارَ بها والإيتاءَ جميعاً، أي قَبِلوها، وأقَرُّوا بها، وأعْطَوها. فَحينئذٍ يَسْتَوجِبونَ هذهِ البِشارةَ التي ذُكِرَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقانُ بالشيءِ، هو العَمَلُ به مِنْ جِهَةِ الاسْتِدْلالِ والاجْتِهادِ والأسبابِ التي يُسْتَفادُ بها لِلْعِلْمِ بالأشياءِ، لا العِلْمُ الذاتِيُّ. لذلكَ لا يُوصَفُ اللهُ على الإيقانِ بالشيءِ، ولا يُقالُ: يا موقِنُ لأنهُ عالمٌ بذاتِهِ لا بالأسبابِ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الأعْمالُ التي هُمْ فيها بما رُكِّبَ فيهِمْ مِنَ الشَّهَواتِ

---

(١) من م، أدرج في الأصل قبلها: ذكر ان. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قد ذكرنا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فيؤتون.

والأمانيّ. ويَحتَمِلُ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الأعمالَ التي هي عليهِمْ، أي زَيَّنَ لهمُ الخيراتِ والطاعاتِ. لكنهمْ أبَوا أنْ يأتُوا بها.

فالمُعتزِلَةُ قالوا بهذا التأويلِ، وأبَوا أنْ يقولوا بالأوَّلِ: أنْ يكونَ مِنَ اللهِ تَزْيينُ ما همْ فيهِ مِنَ الشِّرْكِ والكُفرِ، إذْ أضافَ تَزيينَ ذلكَ إلى الشيطانِ حينَ[1] قالَ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] وقالَ: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الآياتِ، فقالوا: أضافَ إلى الشيطانِ، ولا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ. ذلكَ بُغْيَتُهُ.

فَدَلَّ أنَّ اللهَ إنما زَيَّنَ أعمالَهُمُ التي عليهِمْ مِنَ الإيمانِ والخيراتِ لا الأعمالَ التي هُمْ فيها.

لكنْ عندَنا يجوزُ إضافةُ تَزيينِ أعمالِهِمُ التي هُمْ فيها إلى اللهِ مِنْ جِهَةِ ما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ الشَّهَواتِ والأمانيّ التي تُوافِقُ طباعَهُمْ وأنفُسَهُمْ لأنَّ التَّزيينَ يَقَعُ بِنَفْسِ الكُفْرِ وأفعالِهِ؛ إذِ الكُفْرِ نفسُهُ ليسَ بِمُزَيَّنٍ ولا مُسْتَحْسَنٍ. إنما هو شَتْمُ ربِّ العالَمينَ، ولكنَّ تَزيينَهُ واستِحسانَهُ، هو مُوافَقَةُ ما يُعْمَلُ مِنَ الأعمالِ طِباعَةً والجهةُ التي تضافُ إلى اللهِ، إذِ الجِهَةُ التي تُضافُ إلى الشيطانِ هي دعاؤُهُ وتَمْنِيَتُهُ إلى ما يُوافِقُ طباعَهُمْ. فَمِنْ هذهِ الجهةِ تجوزُ إضافَتُهُ إلى الشيطانِ.

والجِهَةُ التي تُضافُ إلى اللهِ هي ما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ الشَّهَواتِ والأمانيّ، وجَعَلَ الطِّباعَ مُوافِقَةً[2] لها.

وإلّا الصِّدْقُ وجميعُ الخيرِ يأتي[3]؛ إنما يكونُ مُزَيَّناً مُسْتَحْسَناً في العقلِ لِلْعاقِبَةِ. وجميعُ المَعاصي مُسْتَقْبَحٌ في العَقْلِ لِلْعاقِبَةِ: إذا حُمِدَ أحَدُهُما، وأُثِيبَ على فِعْلِهِ، ذُمَّ[4] الآخَرُ، وعُوقِبَ لِسوءِ اختيارِهِ.

ويَحتَمِلُ[5] أنْ تكونَ إضافةُ ذلكَ إلى اللهِ لِما خَلَقَ أفعالَهُمْ وأعمالَهُمُ التي عمِلوها، وأخرَجَها مِنَ العَدَمِ إلى الوجودِ، وهي مِنْ هذهِ الجِهَةِ فِعْلُهُ. وهو يَرُدُّ قولَهُمْ في إبائِهِمْ خَلْقَ أفعالِ العبادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيلَ: يَتَرَدَّدونَ. وأصلُ العَمَهِ الحَيرةُ، أي يَتَحيَّرونَ.

الآية ٥

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي لهمْ ما يَسوءُهُمْ مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ لِاختيارِهِمْ سوءَ الأفعالِ في الدنيا ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ الأخسَرونَ [والخاسرونَ][7] واحدٌ.

وجائزٌ أنْ يُقالَ: ﴿هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لِلْقادةِ منهمْ والرُّؤساءِ لأنهمْ ضَلّوا بأنفسِهِمْ، وأضَلّوا غيرَهُمْ، هُمْ أخسَرُ مِنَ[8] الأتباعِ كقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ [النحل: ٢٥].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لَتُلَقَّى القرآنَ مِنَ اللهِ [والثاني][9] على يَدَي رسولِهِ، وهو جبريلُ، وهو حكيمٌ، يَضَعُ الوَحْيَ والقرآنَ حيثُ أُمِرَ بوضعِهِ فيهِ؛ إذِ الحكيمُ، هو المُصيبُ في فِعْلِهِ، الواضِعُ الشيءَ موضِعَهُ، وعليمٌ بما أُمِرَ به، وأُرسِلَ. وهو كذلكَ كانَ؛ إذْ يجوزُ أنْ يُقالَ لِلْمَخلوقِ: حكيمٌ عليمٌ. ألا تَرَى إلى [قولِ يوسفَ][10]: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؟ [يوسف: ٥٥].

فَعَلَى ذلكَ هذا جائزٌ، والأوَّلُ أشْبَهُ، أي إنكَ لَتَأخُذُ ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ على [يَدَي][11] رسولِهِ جبريلَ. فما يأخُذُ مِنْ رسولِهِ كأنهُ يأخذُهُ مِنْ عندِ مُرْسِلِهِ؛ إذِ الرسولُ إنما يُؤَدِّي كلامَ مُرْسِلِهِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ يُقالُ: تَلَقَّيْتُهُ أخَذْتُهُ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ ﴿لَتُلَقَّى﴾ أي لَتَأخُذُهُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ أي لَتُؤتَى بالقرآنِ كقولِهِ: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٥] أي ما يُؤتاها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: موافقاً. (٣) في الأصل وم: بات. (٤) في الأصل وم: وذم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ومن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قوله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧ وقولهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ قيلَ: رَأيتُ، وأبصرْتُ ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] هذا يدلُّ أنهُ كانَ ضلَّ الطريقَ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ. وقالَ في آيةٍ أخرَى: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

ذَكَرَ على التَّقديمِ والتأخيرِ على اختِلافِ الألفاظِ والحُروفِ، والقصةُ واحدةٌ، والمُمْتَحَنُ بذلكَ موسى لا غَيرُهُ. فهذا يدلُّ أنْ ليسَ على الناسِ تَكَلُّفُ حِفظِ الألفاظِ والحروفِ بلا تَقديمٍ ولا تَأخيرٍ ولا تَغييرٍ بَعْدَ أنْ أصابوا المَعْنَى المُودَعَ فيها؛ أعني في الألفاظِ، وحَفِظوها مِنْ غيرِ تغييرٍ يَدخُلُ في المَعْنَى المُودَعِ؛ إذْ قصةُ موسى هذهِ وغَيرُها مِنْ قِصَصِ الأنبياءِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، ذُكِرَتْ[1] في الكتابِ على التَّقديمِ والتأخيرِ على اختِلافِ الألفاظِ والحروفِ في كثيرٍ مِنَ الأحكامِ في الشَّهاداتِ والأخبارِ وغَيرِها، إنما عليهِمْ إصابةُ المَعْنَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشِّهابُ خَشَبَةٌ، في طَرَفِها نارٌ، والقَبَسُ النارُ، وشُهبانُ[2] جميعٌ، ولا تُسَمَّى النارُ قَبَساً إلّا ما يُحمَلُ مِنْ مَوضِعٍ إلى مَوضِعٍ؛ يُقالُ: قَبَسْتُ النار قَبَساً، واقْتَبَسْتُ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: القَبَسُ الجَمْرُ، والشِّهابُ النارُ المُوقَدَةُ، وهو قولُ أبي عُبَيدَةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي شُعْلَةٍ مِنْ نارٍ، والجَذْوَةُ كأنها خَشَبَةٌ فيها نارٌ، وهو مِثْلُ الأوّلِ.

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ على أنَّ الوقْتَ [وقْتُ][3] البردِ وأيامِ الشتاءِ حينَ[4] ذَكَرَ الاصْطِلاءَ، وهو الاسْتِدْفاءُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ اضطَرَبَتْ أقاويلُ أهلِ التأويلِ في هذا: صَرَفَ بعضُهُمْ[5] تأويلَهُ إلى ما لا يَزيدُهُ إلّا سَماجَةً وبُعْداً عنِ الحَقِّ والصوابِ وعَمًى. لكنْ لو جازَ أنْ يُعَبَّرَ، ويُكَنَّى بِحَرْفِ: مَنْ عَنْ غيرِ مُمَيِّزٍ وغَيرِ ذي فَهْمٍ وعَقْلٍ لَاسْتَقامَ التأويلُ فيهِ [ولم تَقَعْ فيهِ شُبْهٌ، وجُعِلَ][6] كأنهُ قالَ: أنْ بُورِكَ ما فيهِ مِنَ النارِ وما حولَها، ويكونَ عِبارَةً عنِ المكانِ الذي فيهِ النارُ وما حولَها مِنَ الأمكنةِ، أي بُورِكَ في ذلكَ المكانِ الذي فيهِ النارُ وما حولَها لأنهُ قالَ لهُ في آيةٍ [أُخرَى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] أي طَوَى فيهِ البَرَكاتِ، وقالَ في آيةٍ][7]: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] عنْ بَرَكَةِ ذلكَ المكانِ.

فَعَلَى ذلكَ لو جازَ أنْ يُعَبَّرَ بحرفِ: مَنْ عَنْ غَيرِ المُمَيِّزِ [وذي][8] الفَهْمِ، ويُكَنَّى بهِ، جازَ صَرْفُ التأويلِ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ المكانِ، أو يُقالَ: بُورِكَ ما في النارِ مِنَ النورِ وما حولَ ذلكَ وما يُسْتَنارُ بهِ ويُسْتَضاءُ، وهو ما اسْتَفادَ مِنَ النُّبُوَّةِ والرسالةِ. هذا كلُّهُ إذا جازتِ العِبارةُ والكِنايَةُ بحرفِ مَنْ [عنْ][9] غَيرِ ذي التَّمْييزِ والفَهْمِ.

فإنْ جازَ هذا لَاسْتَقامَ أنْ يُقالَ هذا، أو أنْ يكونَ التأويلُ مُنْصَرِفاً إلى ما ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ على طَرْحِ حَرْفِ: منْ وحَرْفِ: في: ذُكِرَ أنَّ في حَرْفِهِما: نُودِيَ أنْ بُورِكَتِ النارُ ومَنْ حولَها. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ أنْ يُقالَ: بُورِكَ في فلانٍ، وبورِكَ فلانٌ[10]، وبُورِكْتَ، وبُورِكَ فيكَ.

وكذلكَ ذُكِرَ عنِ الكِسائيِّ أنهُ قالَ ذلكَ.

فإنْ كانَ ما ذُكِرَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ ثابتاً[11] صحيحاً، لم تَقَعْ فيهِ شُبْهَةٌ ولا رَيْبٌ، أو إنْ لم تَجُزِ العبارةُ بِحَرْفِ: مَنْ عنْ غيرِ [ذي][12] التَّمْييزِ فجائزٌ أنْ يُصْرَفَ حَرْفُ: مَنْ إلى موسى، فيكونُ كأنهُ قالَ: بُورِكَ في الذي أتى النارَ، وهو موسى، أو بُورِكَ في مَنْ جُعِلَ لهُ اقْتِباسُ النارِ، فَيَنْصَرِفُ تأويلُ: مَنْ إلى موسى/٣٨٨ ـ أ/ وقد جُعِلَ لهُ مِنَ البَرَكَةِ في تلكَ النارِ ما لا يُحْصَى مِنِ اسْتِفادَةِ النُّبُوَّةِ والإرشادِ إلى الطريقِ والاصْطِلاءِ وغَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: ذكر. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: بعضه. (٦) في الأصل: ويجعل، في م: ولم تقع فيه شبه ويجعل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: فلانا. (١١) في الأصل وم: ثانيا. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذَكَرَ هذا تنزيهاً عن جميعِ ما قالَهُ بَعْضُ أهل التأويلِ تَبرئَةً منهُ عنْ ذلكَ كلِّهِ مِنْ نَحْوِ مُقاتلٍ ومَنْ قالَ بِمِثْلِ قولِهِ مِمّا يُؤَدّي إلى التَّشبيهِ والشُّبَهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الذي أعطاكَ ذلكَ ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أو يقولُ: إنَّ الذي جَعَلَ لكَ ذلكَ ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أو يقولُ: إنهُ الذي جَعَلَ لكَ ذلكَ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العَزيزُ: الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، الحَكيمُ: المُصيبُ في فِعْلِهِ، غَيرُ المُخْطِئِ[١]، أو يقولُ: العزيزُ [الذي][٢] لا يَذِلُّ أبداً قَطُّ لأنهُ عَزيزٌ بذاتِهِ، الحكيمُ [الذي][٣] يَضَعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، لا يُخْطِئُ.

قالَ أبو معاذٍ: قال مُقاتِلُ بْنُ سُليمانَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يقولُ: إنَّ النورَ الذي رَأيتَ ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾. وهذا مُحالٌ لأوجُهٍ:

أحَدُها[٤]: لأنكَ لا تقولُ: إنَّ الذي رأيتُ أنا الإنسانُ، رآهُ، أو لِشَيءٍ آخَرَ، ولكنْ تقولُ: أنا الذي رَأيتَ.

[والثاني][٥]: مُحالٌ أيضاً قولُهُ لِما ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: نُودِيَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لا تَخَفْ [﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾][٦] يُكَلِّمُهُ اللهُ، ويُخاطِبُهُ، ثم يقولُ: إنَّ النورَ الذي رأيتَ أنا.

[والثالثُ][٧]: مُحالٌ أيضاً لِقولِ اللهِ ﴿ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ قالَ اللهُ: [﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وقالَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾][٨] ولم يَقُلْ: [منهُ بِخَبَرٍ... جاءَهُ][٩].

[والرابعُ][١٠]: مُحالٌ أيضاً أنْ يكونَ ﴿ٱللَّهُ﴾ نَعْتاً لأنكَ لا تقولُ: [إنَّ الذي][١١] رأيتُ أنا أخوكَ.

فقالَ[١٢]: قولُ مُقاتِلٍ مُحالٌ مِنْ أربعةِ أوجهٍ [خِلافاً لِظاهِرِ][١٣] الآيةِ.

وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ في الآيةِ الأمْرُ بإلقاءِ العَصا، ولم يَذْكُرْ أنهُ ألقاها، ولكنْ فيهِ إضمارٌ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ: أنَّ الجانَّ هي الحَيَّةُ الصغيرةُ، لَيسَتْ بعظيمةٍ. لكنهُ أخبَرَ أنَّ موسى خافَها، ووَلَّى مُدْبِراً.

وموسى لا يُحْتَمَلُ أنْ يَخافَ مِنْ حَيَّةٍ صغيرةٍ على الوصفِ الذي ذُكِرَ؛ فكأنها كانتْ عظيمةً، لكنها في تحرُّكِها والتِوائِها، كأنها صغيرةٌ، إذِ الحَيَّةُ العظيمةُ الكبيرةُ، لا تَقْدِرُ على التَّحَرُّكِ والإلْتِواءِ كالصغيرةِ. لِذلكَ خافَها موسى حتى نَهاهُ اللهُ عنْ ذلكَ، وقالَ: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لم يَرْجِعْ، وقالَ بعضُهُمْ: لم يَلْتَفِتْ، وهو مأخوذٌ مِنَ العَقِبِ.

والجانُّ: قالَ بعضُهُمْ: مِنَ الجِنِّ، والجانُّ الحَيَّةُ، ولا يكونُ إلّا مِنَ الجِنِّ [وهو قولُ][١٤] أبي عُبَيدَةَ [أيضاً][١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ نَهاهُ عنِ الخوفِ؟ وأخبَرَ أنهُ لا يخافُ لديهِ المُرْسَلونَ، وقد مَدَحَ اللهُ الملائكةَ وغيرَهُمْ مِنَ الخَلائِقِ بالخوفِ مِنْ ربِّهِمْ حينَ[١٦] قالَ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] [وقالَ في آيةٍ أُخرَى][١٧] ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] وأمثالَ ذلكَ مِنَ الآياتِ ممّا فيها مَدْحُهُمْ بالخَوفِ مِنْ ربِّهِمْ. لكنه يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ قد أمَّنَ موسى حينَ[١٨] قالَ: ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]. فكأنهُ قالَ هٰهنا: لا تَخَفْ بَعْدَما أمَّنْتُكَ ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إذ أمَّنْتُهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: مخطئ. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: له. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فلما أتاه. (٩) في الأصل وم: أتاه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: بأن الله. (١٢) الضمير يعود على أبي معاذ. (١٣) في الخلاف الظاهر، في م: خلاف لظاهر. (١٤) في الأصل وم: وقول. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) في الأصل وم: و. (١٨) في الأصل وم: حيث.

والثاني: لا تَخَفْ مِنْ غَيري ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مِنْ غَيري. فكأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: على هذا التأويلِ: إنما نَهاهُ عنِ الخَوفِ مِنْ غَيرِهِ، وأخبَرَ أنهُ لا يَخافُ لَدَيهِ المُرْسَلونَ.

والثالثُ: إخبارٌ وأمْنٌ منهُ مِنْ خَوفِ الآخِرَةِ وأهوالِها، كأنهُ قالَ: لا تَخَفْ فإني سأؤَمِّنُ المُرسَلينَ مِنْ خوفِ يومئذٍ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: فقالَ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ هذا [أيضاً][1] يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ إذا بَدَّلَ حُسناً بَعْدَ[2] سُوءٍ.

والثاني: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولكنْ مَنْ ظَلَمَ مِمَّنْ سِواهُمْ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. رَجاءَ المَغفِرَةِ وطَمَعَ العَفْوِ في ما كانَ منهُ.

والثالثُ: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ منهمْ مِنْ نَحْوِ موسى بِقَتْلِهِ النَّفْسَ وإخوةُ يوسفَ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ وتابَ عنْ ذلكَ، فإنهُ يَخافُ أيضاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فاللهُ تعالى قادرٌ أنْ يَجعَلَ يَدَهُ بيضاءَ مِنْ غَيرِ إدخالِهِ إيّاها في جَيبِهِ، لكنهُ امْتَحَنَ موسى بالأمْرِ بإدخالِها في جَيبِهِ، وكذلكَ قادرٌ أنْ يُصَيِّرَ عَصاهُ في يَدِهِ حَيَّةً، لكنهُ امْتَحَنَهُ[3] بالأمْرِ بإلقائِها. ولِلّهِ أنْ يَمْتَحِنَ عبادَهُ بكلِّ أنواعِ المِحَنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قيلَ: مِنْ غَيرِ آفةٍ مِنْ بَرَصٍ أو غَيرِهِ. وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ: [يدُ موسى مِنْ][4] تِسعِ آياتٍ، وقد يَجوزُ استِعْمالُ حَرْفِ في مَكانَ [مِنْ][5] كما يُقالُ: لِفُلانٍ كذا كذا نوقاً، فيها فَحْلانِ، أي منها فَحْلانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ قالَ أبو مُعاذٍ: قد يكونُ مَعْنَى: في و مَعَ واحداً في ما لا يُحصَى عَدَدُهُ؛ تقولُ: خَرَجْتُ في أهلِ مَرْوَ إلى أهلِ مكةَ، ومَعَ أهلِ مَرْوَ إلى أهلِ مكةَ. فإذا قُلْتَ: خَرَجْتُ في تِسعَةٍ اخْتَلَفَ لأنكَ أحصَيْتَ العَدَّ في تِسْعَةٍ، أنتَ تاسِعُهُمْ، ومَعَ تِسْعَةٍ، أنتَ عاشِرُهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على الانْقِطاعِ مِنَ الأوَّلِ؛ كأنهُ قالَ لِرسولِهِ محمدٍ: ولقد [أرسَلْنا][6] موسى في تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَونَ كما قالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ دلَّ هذا أنهُ كانَ مَبْعوثاً إلى فِرْعَونَ وقومِهِ جميعاً؛ إذْ ذُكِرَ في آيةٍ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤ و. . .] خاصَّةً، وفي آيةٍ أخرَى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: ١٠٣ و. . .] وذُكِرَ هـهنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ فكانَ مَبْعوثاً إلى الكلِّ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي يُبْصَرُ بها، ويُعْلَمُ، كقولِهِ ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أي يُبْصَرُ بهِ. وقَرَأَ بَعضُهُمْ: مَبْصَرَةً بِنَصْبِ[7] الصادِ أي بَيِّنَةً ظاهرةً، يُبْصَرُ فيها. وكذلكَ قالَ موسى لِفِرْعَونَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لم تَزَلْ عادةُ فِرْعَونَ اللَّعينِ تَلْبيسَ أمْرِ موسى وآياتِهِ على قومِهِ لئلا يُؤمِنوا بهِ، ولا يُطيعوهُ في ما يَدْعوهُمْ؛ مَرَّةً قالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] [ومَرَّةً قالَ][9]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٤ و٣٥] وأمثالَ ذلكَ ممّا يُلَبِّسُ على قومِهِ أمْرَهُ، ويُغْرِيهِمْ عليهِ لئلا يُطيعوهُ في ما يَدْعوهُمْ إليهِ، ولا يُجيبوهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ وجائزٌ في اللغةِ أنْ يقالَ: جَحَدَ بها، وجَحَدَها، كلاهما واحدٌ. ثم قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الجُحودَ ليسَ إلّا الإنكارُ، وقد يكونُ الإنكارُ للشيءِ لِلْجَهْلِ بهِ وبُعْدِ المَعْرِفَةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بعده. (٣) في الأصل وم: امتحن. (٤) في الأصل وم: موسى في. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٣٣٩. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، كأنهُ قالَ: فلما جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً جَحَدوا بها ظُلْماً وعُلُوًّا، واسْتَيْقَنَتْها أنفُسُهُمْ أنها مِنَ اللهِ وأنها آياتُهُ، ليسَتْ بِسِحْرٍ. ولو كانَ سِحْراً في الحَقيقَةِ لكانَ آيةً لأنَّ السِّحْرَ على غَيرِ تَعَلُّمٍ يكونُ منهُ آيةٌ سماويَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ظُلْمًا﴾ لأنهمْ جَحَدوا الآياتِ، وسَمَّوها[1] سِحْراً، فَوَضعوا الآياتِ مَوضِعَ السِّحْرِ، لم يَضَعوها مَوضِعَها، والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي تكبُّراً وعِناداً ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ليسَ على الأمْرِ لهُ بالنَّظَرِ في ذلكَ، ولكنْ على تَنْبيهِ أولئكَ والزَّجْرِ لهمْ عمّا همْ فيهِ، أيِ انْظُرْ ما يُنْزِلُ بِهِمْ جُحودُ[2] الآياتِ وعنادُهُمْ/٣٨٨ ـ ب/ فيها على ما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيهِ وَجْهانِ مِنَ الاسْتِدْلالِ:

أحَدُهما في خَلْقِ أفعالِ العِبادِ.

والثاني: في تَرْكِ الأصْلَحِ.

أمّا الاسْتِدْلالُ على خَلْقِ الأفعالِ فَلِأنهُ[3] قالَ: ﴿آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ وقالَ على إثْرِهِ: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] وقالَ في رسولِ اللهِ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] وقالَ: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ في ما أضافَ التَّعْليمَ والفِعْلَ إلى نفسِهِ. فلو لم يَكُنْ لهُ في ذلكَ صُنْعٌ لم يَكُنْ لإضافَةِ ذلكَ إليهِ مَعْنًى. فَدَلَّ أنهُ خَلَقَ أفعالَهُمْ منهمْ.

فإنْ قيلَ: إنما أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ بالأسبابِ التي أعطاهُمْ قيلَ: لا يَحْتَمِلُ ذلكَ لأنهُ قد أعْطى رسولَ اللهِ ﷺ جميعَ أسبابِ الشِّعْرِ، ولم يَكُنْ غَيرُهُ مِنَ الشُّعَراءِ أحَقَّ بأسبابِ الشِّعْرِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ثم أخْبَرَ أنهُ لم يُرِدْ بهِ الأسبابَ، ولكنْ أرادَ ما ذَكَرْنا.

وأمّا في تَرْكِ الأصْلَحِ فهو ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ . . . ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إنهُ إنما ذَكَرَ هذا على الامْتِنانِ والإفضالِ. فلو كانَ لا يجوزُ أنْ يُعْطِيَهُ ذلكَ، ولا كانَ لهُ تَرْكُ ما فَعَلَ بهمْ مِنَ الأفضالِ لم يكُنْ لِذِكْرِ ذلكَ لهُ على الإفضالِ والامْتِنانِ مَعْنًى، ولا كانَ داوُدُ وسُلَيمانُ يَحْمَدانِ على ما أعطاهُما، ولا كانَ لهُ تَرْكُ الحَمْدِ بذلكَ أو فِعْلِ ما عليهِ أنْ يَفْعَلَ.

دَلَّ أنهُ إنما أعْطى ذلكَ، وفَعَلَ بهمْ ذلكَ على جِهَةِ الإفضالِ والامْتِنانِ، وكانَ لهُ تَرْكُ ما فَعَلَ، وإنْ كانَ ذلكَ لهمْ أصْلَحَ في الدينِ.

فهذانِ الوَجْهانِ يَنْقُضانِ على المُعْتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ في إنكارِهِمْ خَلْقَ الأفعالِ وجوازِ تَرْكِ الأصْلَحِ في الدينِ. ثم قولُهُ: ﴿عِلْمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: عِلْماً بالقَضاءِ والحُكْمِ، والعِلْمَ بكلامِ الطَّيْرِ والدَّوابِّ. وقالَ بعضُهُمْ: فَضْلاً بالنُّبُوَّةِ والعِلْمِ.

لكنْ عندَنا ذَكَرَ أنهُ آتاهما العِلْمَ، ولم يُبَيِّنْ ما ذلكَ العِلْمُ أنهُ عِلْمُ ماذا؟ مَخافَةَ الكَذِبِ على اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: وَرِثَ النُّبُوَّةَ والحُكْمَ، والوارِثُ هو الباقي بَعْدَ هَلاكِ الآخَرِ وفَنائِهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] أي نَبْقى بَعْدَ هَلاكِ أهلِها وفَنائِهِمْ وقولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣] أي الباقونَ بَعْدَ فَنائِهِمْ.

إلّا أنهُ وَرِثَ شيئاً، لم يكُنْ لهُ مِنْ قَبْلُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٢٧] أي

---

(١) في الأصل وم: وسموا. (٢) في الأصل وم: الجحود. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أبقاكُم، وتركَكُمْ في أرضِهِمْ ودِيارِهِمْ، وقولُهُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] أي أُبقيتُم فيها. وأمثالُ ذلكَ كلِّهِ راجعٌ إلى البَقاءِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي بَقِيَ في مُلْكِهِ ونُبُوَّتِهِ. وعلى ذلكَ ما سَألَ زَكَرِيّا ربَّهُ مِنَ الوَلَدِ حينَ[1] قالَ: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥ و٦]. لا يَحْتَمِلُ أنْ يَسْألَ ربَّهُ وَلَداً، يَرِثُ مالَهُ مِنْ بَعْدِ وَفاتِهِ. ولكنْ كأنهُ سَألَ ربَّهُ الوَلَدَ لِيَبْقى في نُبُوَّتِهِ ورِسالَتِهِ بَعْدَ وَفاتِهِ لِتَبْقَى النُّبُوَّةُ في نَسْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ هذا، صلواتُ اللهِ عليهِ، على الإفْتِخارِ والتَّياهَةِ، ولكنْ ذَكَرَ فَضْلَ اللهِ ونِعَمَهُ التي أعطاهُ، ومَنَّ عليهِ، كقولِهِ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

ألَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾؟

ثم قولُهُ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا يَحْتَمِلُ كلَّ شيءٍ [لأنهمْ لم يُؤْتَوا كلَّ شيءٍ][2] حتى لم يَبْقَ شيءٌ، إنما أُوتوا شيئاً دونَ شيءٍ، ولكنْ كأنهُ قالَ: وأُوتِينا مِنْ كلِّ شيءٍ سَألْناهُ أنْ يُؤتِيَنا، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممّا يُؤتَى الأنبياءُ والمُلوكُ وما يُحتاجُ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يُحْبَسُ أوَّلُهُمْ على آخِرِهِمْ: كأنهُ لا يَدَعُهُمْ أنْ يَنْتَشِروا، ويَتَفَرَّقوا، ولكنْ يُسَيِّرُهُمْ مَجموعينَ على كلِّ صِنْفٍ منهمْ وَزَعَةٌ، تَرُدُّ أوَّلَهُمْ على آخِرِهِمْ؛ ذلكَ مِنْ سِيرَةِ المُلوكِ أو أمراءِ العَساكِرِ أنْ يُسَيِّروا جُنودَهُمْ مَجموعةً غيرَ مُنْتَشِرَةٍ ولا مُتَفَرِّقَةٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُساقونَ. ويُقالُ: أوزِعْني أي أَلْهِمْني، والوَزْعُ مِنَ الكَفِّ والسَّوقِ. تقول: وَزَعَ أي كَفَّ، وَوَزَعَ أي ساقَ.

وقالَ مَرَّةً [أُخرى][3]: ﴿يُوزَعُونَ﴾ مُجمَعونَ[4]. يُقالُ: وَزَعْتُ الإبلَ، أي جَمَعْتُهُ أزَعُ وَزْعاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يُدْفَعونَ. وأصْلُ الوَزْعِ الكَفُّ والمَنْعُ. يُقالُ: وَزَعْتُ الرجلَ، أي كَفَفْتُهُ، ووازِعُ الجيشِ، هو الذي يَكُفُّهُمْ عنِ التَّفَرُّقِ والاِنْتِشارِ، وهو الذي ذُكِرَ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ هذا يدلُّ أنَّ النَّمْلَ، وقْتَئِذٍ لا تُخالِطُ الناسَ حينَ[5] أضافَ [الوادي][6] إليها بقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ ولو كانتْ تُخالِطُ الناسَ كَهِيَ الآنَ لَقالَ: حتى إذا أتَوا على الوادي الذي فيهِ النَّمْلُ. دلَّ أنها لا تُخالِطُ الناسَ، وكانَ لَهُنَّ مَكانٌ على حِدَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ على وجهَينِ:

[أحَدُهما][7]: على حَقيقَةِ القولِ مِنَ النَّمْلَةِ كما يكونُ مِنَ البَشَرِ؛ أطْلَعَ اللهُ تعالى سُليمانَ [على][8] ذلكَ، وألْقاهُ في مَسامِعِهِ لُطْفاً منهُ وفَضْلاً مِنْ سائرِ الخلائقِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤].

والثاني: أنْ يَجْعَلَ اللهُ في سِرِّيَّةِ النَّمْلِ مَعْنًى يَفْهَمُ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ لِما يُريدونَ في ما بَيْنَهُمْ مِنْ أنواعِ الحَوائِجِ على غَيرِ حَقيقَةِ القولِ؛ أطْلَعَ اللهُ سُليمانَ على ذلكَ حتى فَهِمَ منها ما كانَ يَفْهَمُ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ لُطْفاً منهُ وفَضْلاً. وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] ليسَ أحَدٌ يقولُ لآخَرَ إذا تَصَدَّقَ عليهِ ذلكَ. لكنَّ اللهَ أخْبَرَ عمّا عَلِمَ مِنْ ضَميرِهِمْ ومُرادِهِمْ مِنَ التَّصَدُّقِ على غَيرِ حَقيقَةِ القولِ منهمْ.

فَعَلَى ذلكَ قَولُ النَّمْلةِ؛ أخْبَرَ عمّا كانَ في سِرِّيَّتِها في ما بَيْنَهُمْ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منها نُطْقٌ أو كلامٌ يَفْهَمُ منهُ الخَلْقُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم، والضمير على أبي عوسجة. (٤) في الأصل وم: مجتمعون. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقالتِ الباطِنِيَّةُ: ليسَ المُرادُ مِنَ [الذَّكَرِ النملةَ][1] المَعْروفَةَ وقولَها، وكذلكَ مِنَ [الذَّكَرِ][2] الهُدْهُدَ، إنهُ لم يُرِدْ بهِ الهُدْهُدَ المَعروفَ[3]؛ إذْ لا يجوزُ لِلْهُدْهُدِ مِنَ العِلْمِ أكْثَرُ ممّا يكونُ لِسُلَيمانَ ولِغَيرِهِ، ولكنْ أرادَ بهِ الرجلَ، وهو الإمامُ الذي يَدْعو الناسَ إلى الهُدَى، ويَدُلُّهُمْ على الرُّشْدِ. وليسَ كما قالوا لأنهُ إنما ذُكِرَ هذا على التَّعَجُّبِ.

ولو كانَ ذلكَ إنساناً مِمَّنْ يكونُ لهُ قولٌ وكلامٌ لم يَكُنْ لِذِكْرِ[4] ذلكَ منهُ كبيرُ تَعَجُّبٍ ولا فائدةٍ. دلَّ أنهُ ليسَ كما قالوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي لا يَكْسِرَنَّكُمْ، والحَطْمُ هو الكَسْرُ. وفي حرف ابْنِ مَسْعودٍ: لا يَحْطِمُكُمْ على طَرْحِ النونِ والتَّشْديدِ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا مِنَ النَّمْلَةِ ثَناءٌ على سليمانَ ومَدْحٌ [لهُ لِعَدْلِهِ][6] في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ. إنهُ لو شَعَرَ بكُمْ لم يَحْطِمْكُمْ، ولم يُهْلِكْكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يَشْعُرُ جنودُهُ كلامَ النَّمْلِ. وعلى كلِّ رئيسٍ وسَيِّدِ القومِ أنْ يَحْفَظَ رَعِيَّتَهُ وحَواشِيَهُ [مِنَ المهالِكِ][7] أو ما يَحْمِلُهُمْ على الفَسادِ.

وقولُ مَنْ قالَ: إنَّ النَّمْلَ يومَئِذٍ كانَتْ كالذُّبابِ عظيماً، لا يُحْتَمَلُ؛ لأنها لو كانَتْ كما ذُكِرَ/ ٣٨٩ ـ أ/ لم يَكُنْ لقولِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مَعْنًى لأنها لو كانَتْ كالذبابِ لَشَعَروا بها. فَدَلَّ أنها كانَتْ على ما هي اليومَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أي سَبَّحَ اللهَ لِما فَهِمَ مِنْ قَوْلِ النَّمْلَةِ، وحَمِدَ عليهِ. وتَبَسُّمُ الأنبياءِ التَّسْبيحُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ التَّبَسُّمُ هو السُّرورَ؛ إذِ التَّبَسُّمُ إنما يكونُ لِسُرورٍ يدخُلُ في الإنسانِ. فقولُهُ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أي سُرَّ بما أعطاهُ اللهُ مِنْ عِظَمِ النِّعْمَةِ لهُ والمُلْكِ.

ألَا تَرَى أنهُ سَأَلَ ربَّهُ الإلهامَ [لِيَشْكُرَ نِعْمَهُ التي آتاهُ اللهُ حينَ[8] قالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؟ سَأَلَ ربَّهُ الإلهامَ واللُّطفَ الذي يكونُ فيهِ لِيَشْكُرَ نِعَمَهُ. ولو كانَ الإلهامُ][9] هو الإعلامَ على ما قالَهُ بعضُ الناسِ لم يَكُنْ سليمانُ لِيَسْأَلَهُ ذلكَ لأنهُ كانَ يَعْلَمُ أنَّ عليهِ شُكْرَ نِعَمِهِ.

وكذلكَ يَعْلَمُ كلُّ أحدٍ أنَّ عليهِ شُكْرَ مُنْعِمِهِ. فَدَلَّ سؤالُهُ الإلهامَ على الشُّكْرِ أنهُ إنما سَأَلَ اللُّطْفَ الذي عندَهُ، بهِ يَشْكُرُ نِعَمَهُ، إذا أعطاهُ، وهو التَّوفيقُ، لا الإعلامُ[10] الذي قالوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فيهِ أنهُ يَجِبُ على المَرْءِ شُكْرُ النِّعَمِ التي أنْعَمَ اللهُ على والِدَيهِ. وسَأَلَ ربَّهُ أيضاً أنْ يُوَفِّقَهُ على العَمَلِ الذي يَرْضاهُ منهُ [حينَ قالَ][11] ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ سُؤالُهُ هذا بإدخالِهِ في ما ذَكَرَ كسؤالِ يوسفَ حينَ[12] قالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] سأَلَ ربَّهُ التَّوَفِّيَ على الإسلامِ والإلحاقَ بالصالحينَ.

فَعَلَى ذلكَ سؤالُ سُليمانَ، يُشْبِهُ أنْ يُخَرَّجَ على ذلكَ. ثم فيهِ دلالةٌ أنَّ النَّجاةَ ودخولَ الجنةِ إنما يكونُ بِرَحْمَةِ اللهِ لا بالعَمَلِ حينَ[13] قالَ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ بَعْدَ ما سَأَلَ ربَّهُ العَمَلَ الصالِحَ المَرْضِيَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي أَلْهِمْني. والإيزاعُ الإلهامُ، والوَزْعُ الكَفُّ والسَّوقُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: وأصلُ الإيزاعِ الإغراءُ بالشيءِ؛ يُقال: أوزَعْتُهُ بكذا، أي أغْرَيْتُهُ، وهو مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ بكذا.

---

(١) في الأصل وم: ذكر النمل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: قوله. (٤) من م، في الأصل: قوله. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ٤/ ٣٤١. (٦) في الأصل وم: عليه العدل. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إعلام. (١١) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: حيث.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، [أنهُ][1] قالَ: تدرونَ كيفَ تفقَّدَ سُليمانُ الهُدْهُدَ؟ ثم قالَ: إنهُ إذا كانَ في فلاةٍ مِنَ الأرضِ دعا الهُدْهُدَ، فَسألَهُ عن بُعْدِ الماءِ في الأرضِ وغَورِهِ، فهو يَعلَمُهُ مِن بينِ غيرِهِ مِنَ الطيورِ. لِذلكَ تفقَّدَهُ، وسألَهُ عَنْ حالِهِ. وذُكِرَ أنهُ سألَ ابنَ سَلامٍ عنْ ذلكَ، فأخبرَ بذلكَ.

لكنَّ هذا بَعيدٌ لأنَّ سُليمانَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، كانَتْ لهُ الريحُ مُسخَّرَةً، وذُكِرَ أنها كانَتْ تَحمِلُهُ، وتَسيرُ بهِ كلَّ غداةٍ مَسيرةَ شَهرٍ وكلَّ عَشِيَّةٍ كذلكَ. وهو قولُهُ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] فلا يُحتَمَلُ إذا وَقَعتْ لهُ الحاجةُ إلى الماءِ ألّا يَبْلُغَ إلى الماءِ حتى يَحتاجَ إلى أنْ يُحفَرَ له اليَسيرُ، فَيُستَخرَجُ منهُ الماءُ، وما كانَ لهُ مِنَ الشياطينِ والجنِّ مُسخَّرينَ لهُ مُذَلَّلينَ حتى قالَ واحدٌ منهمْ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ [النمل: ٣٩] يَعني عَرْشَ بِلْقيسَ ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وقالَ الآخَرُ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

فَمَنْ لهُ سلطانٌ وقوةٌ على القَدْرِ الذي ذُكِرَ لا يُحتَمَلُ أنْ تقَعَ لهُ الحاجةُ إلى الماءِ. وإذا وَقَعتْ يَحتاجُ إلى أنْ يَتَكلَّفَ وصولَهُ إليهِ بالهُدْهُدِ مع تكلُّفِ الحَفرِ في الأرضِ. هذا يُبْعِدُ عِزَّهُ، واللهُ أعلَمُ. إلّا أنْ يُخرَّجَ على الامتِحانِ ويكونَ تَفقُّدُهُ الطيرَ لِما كانَ عليهِ حِفظُهُمْ جميعاً ومَنْعُهُ إياهُمْ عنِ الانتِشارِ في الأرضِ والتَّفرُّقِ لا لِما ذَكَروا هُمْ، واللهُ أعلَمُ، لِما على كلِّ مَلِكٍ وأميرٍ حِفظُ رَعِيَّتِهِ وحاشيَتِهِ والتَّفقُّدِ عنْ أحوالِهِمْ وأسبابِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم يُحتَمَلُ أنْ يكونَ مِنْ كلِّ صِنفٍ مِنَ الطيرِ واحدٌ لا عَدَدٌ حتى قالَ: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ إذْ لو كانَ عَدَداً مِنَ الهَداهِدِ لَقالَ: مالي لا أرى الهَداهِدَ إلّا أنْ يكونَ الذي فَقَدَهُ كانَ رئيساً لِغيرِهِ مِنَ الهداهِدِ وسَيِّدَهُمْ.

فجائزٌ أنْ يُقالَ ذلكَ ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ مِنْ بينِ غيرِهِ[2]، يَغيبُ عنْ بَصَري، ولا أُدرِكُهُ ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ منهمْ. فكأنهُ سألَ واحداً منهمْ عنْ ذلكَ، فأخبَرَ أنهُ مِنَ الغائبينَ.

الآية ٢١ فَعِنْدَ ذلكَ قالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية.

فقالَتِ الباطِنيَّةُ في ذلكَ: إنَّ سليمانَ لا يُحتَمَلُ أنْ يُعذِّبَ مَنْ ليسَ بِمُخاطَبٍ في شيءٍ، ولا يُجري عليهِ القَلَمَ، فَدَلَّ وَعيدُهُ إيّاهُ مِنَ التَّعذيبِ والذَّبحِ أنهُ لم يَكُنْ هُدْهُداً مَعروفاً، ولكنْ كانَ رجلاً مِمَّنْ يُخاطَبُ، ويَجري عليهِ القَلَمُ. وكذلكَ قالوا في النَّمْلَةِ: إنهُ كانَ رجلاً مِمَّنْ يكونُ منهُ الكلامُ والفَهمُ. وأمّا النَّمْلَةُ المَعروفَةُ فلا يُحتَمَلُ. لكنَّ الجوابَ لهمْ في ذلكَ أنَّ اللهَ خَلَقَ هذهِ الدَّوابَّ والطَّيرَ وغيرَها مِنَ الأشياءِ لِمَنافِعِ البَشَرِ ولِحاجاتِهِمْ. فجائزٌ تَعذيبُها وذَبحُها لِلرَّدِّ إلى مَنافِعِهِمْ إذا امْتَنَعَتْ عنِ الانتفاعِ بها على ما تُؤدَّبُ الدَّوابُّ، وتُعذَّبُ لِلرِّياضَةِ والتَّعليمِ لِرَدِّها إلى الانتفاعِ بها. أو أنْ يُعذَّبَ لِما [يَشغَلُ أحداً][3] عنْ ذِكرِ اللهِ القِيامُ[4] بِبَعضِ أمورِهِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حينَ[5] قالَ: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣١ و٣٢] لِما شَغَلَهُ عنْ ذِكرِ ربِّهِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ تعذيبُ الهُدْهُدِ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

ومِنَ الناسِ مَنِ استَدَلَّ بهذا على مُخاطبةِ الطُّيورِ والدَّوابِّ وغيرِها وتكليفِها بالأمورِ كما يُكَلَّفُ غيرُها مِنَ الخلائقِ، واحتجَّ على هذا بقولِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. أخبرَ أنَّ الطَّيرَ وغيرَهُ أُمَمٌ أمثالُنا. وأخبَرَ في آيةٍ أخرى لم تَخلُ أُمَّةٌ عنْ أنْ يكونَ فيها نذيرٌ بقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

[ولكنّا نقولُ: إنَّ المُرادَ بقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾][6] الأُمَّةُ التي هي أمثالُنا مِنَ الإنسِ والجنِّ. دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقولُهُ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩] ونَحوُهُ كثيرٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غيرهم. (٣) في الأصل وم: يشغله. (٤) في الأصل وم: والقيام. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ ليسَ في الخطابِ ولكنْ في أشياءَ كثيرةٍ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ أي لم يَمْكُثْ طويلاً حتى جاءَهُ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ ثم جاءَهُ ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ كأنهُ سألَ: أينَ كُنْتَ؟ فقالَ عندَ ذلكَ لهُ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أنتَ ولا واحدٌ مِنْ جُنودِكَ، أي بَلَغْتُ ما لم تَبْلُغْ أنتَ، أي[1] عَلِمْتُ ما لم تَعْلَمْ أنتَ ولا واحدٌ مِنْ جنودِكَ.

ثم قالَ: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۢ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ لاشَكَّ فيهِ.

فكأنهُ سألَهُ عنْ ذلكَ النَّبَإِ، فقالَ عندَ ذلكَ:

الآية ٢٣

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُؤْتَى المُلوكُ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ١٦] ثم العَجَبُ مِنْ أمرِ بِلْقِيسَ أنْ كيفَ خَفِيَ خَبَرُها وأمْرُها على سليمانَ كلَّ ذلكَ الخَفاءِ، وكانَتْ بِقُرْبٍ منهُ؟ وكانَتْ ملكةً جَبَّارَةً ذاتَ سُلْطانٍ ومُلْكٍ. وكانَ يَذْهَبُ في كلِّ غُدُوٍّ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وفي كلِّ رَواحٍ كذلكَ.

كيفَ لم يَطَّلِعْ على أمْرِها وخَبَرِها؟ وكانَتِ الجِنُّ والشياطينُ مُسَخَّرِينَ لهُ ومُذَلَّلِينَ يَعْمَلونَ لهُ الأعمالَ الصَّعْبَةَ الشَّديدةَ، ويَطوفونَ في الآفاقِ والأُفُقِ. وكانَ هو بُعِثَ إلى الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ. كيفَ خَفِيَ عليهِ أمْرُها وخَبَرُها كلَّ هذا الخَفاءِ حتى أخْبَرَهُ بذلكَ الهُدْهُدُ؟

هذا، واللهِ، أمْرٌ عَجَبٌ! ومِنْ عادةِ الملوكِ أيضاً أنهمْ يَطَّلِعُ بعضُهُمْ على أمورِ بَعْضٍ، ويَعْلَمُ بأحوالِهِ.

لكنْ يُحْتَمَلُ خفاءُ خَبَرِها لِما لا يَتَجاسَرُ كلُّ أحدٍ أنْ يُكَلِّمَهُ في ذلكَ وأنْ يُعْلِمَهُ عنْ حالِها، وإنْ كانَ لا يَعْلَمُ هو ذلكَ إلّا بَعْدَ السؤالِ وطَلَبِ الخَبَرِ تعظيماً لهُ وإجلالاً. وهكذا الملوكُ ليسَ يَتَجاسَرُ كلُّ أحَدٍ على أنْ يُخْبِرَهُمْ[2] /٣٨٩ ـ ب/ عنْ كلِّ أمْرٍ وخَبَرٍ إلّا بَعْدَ السُّؤالِ إيّاهُ تعظيماً لهمْ وتَوقيراً.

فَعَلَى ذلكَ أمْرُ سُلَيمانَ معَ بِلْقِيسَ، أو أنْ يكونَ لأمْرٍ وسَبَبٍ لم يَبْلُغْنا ذلكَ، ولم نَشْعُرْ بهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] إنما طَلَبَ، وتَفَقَّدَهُ لأنَّ الطَّيرَ قد تُظِلُّهُ على رأسِهِ مِنَ الشمسِ. فلمّا نَظَرَ إلى الطَّيرِ وَجَدَ مَوضِعَ الهُدْهُدِ خالياً، تَقَعُ عليهِ الشمسُ، فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾؟

وقالوا في قولِهِ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١] أي لأَنْتُفَنَّ رِيشَهُ حتى تُصيبَهُ الشمسُ. فذلكَ هو العذابُ الشديدُ. لكنْ لا نُفَسِّرُ ما ذلكَ العذابُ الشديدُ الذي أوعَدَهُ سُليمانُ مَخافَةَ الكَذِبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ [النمل: ٢٢] قالَ بعضُهُمْ: غَيرَ طويلٍ. وجائزٌ أنْ يكونَ: فَمَكَثَ وقتاً، يأتي في مِثْلِهِ مَنْ كانَ بعيداً[3]، لأنهُ إنما يُعَبِّرُ عنِ المكانِ لا عَنِ الوقْتِ في الظاهرِ ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ كأنهُ يُريهِ المُناصَحَةَ لهُ والشَّفَقَةَ؛ يقولُ: أتيتُكَ مِنَ العِلْمِ والخَبَرِ ما لم تَأْتِ أنتَ ولا أحَدٌ مِنْ جُنودِكَ، فكيفَ تُعَذِّبُني؟

وفي حَرْفِ عبدِ اللهِ [بْنِ مسعودٍ][4]: فَتَمَكَّثَ غَيرَ بعيدٍ، ثم جاءَهُ. قالَ أبو مُعاذٍ: مَكَثَ بِنَصْبِ الكافِ ورَفْعِها يَمْكُثُ لُغَتانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۢ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: حقٌّ، لاشَكَّ فيهِ، أي عندَ الهُدْهُدِ.

أمّا عندَ سُلَيمانَ فلا. ألا تَرَى أنَّ سُليمانَ ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؟ [النمل: ٢٧].

---

(١) من م، في الأصل: أو. (٢) في الأصل وم: يخبره. (٣) في الأصل وم: بعيد. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقَفَ في خَبَرِهِ لِيَنْظُرَ أصِدْقٌ ما يقولُ أم كَذِبٌ؟ وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي عَجيبٍ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: سَبَأٌ اسْمُ رجلٍ، تُنْسَبُ القريةُ إليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: اسْمُ بلدةٍ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: سَبَأٌ أبو اليَمَنِ. فَمَنْ جعَلَها اسْمَ بَلْدةٍ لم يَجُرَّهُ[١]، ومَنْ جعَلَها اسْمَ رجلٍ جَرَّهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ كأنهُ[٢] على الإضمارِ، أي وَجَدْتُ امرأةً تَمْلِكُهُمْ أي تَمْلِكُ أهلَ سَبَإٍ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ [النمل: ٢٤] ذِكْرُ القومِ في آخِرِ الآيةِ دلَّ أنَّ الأهلَ كانَ مُضمَراً فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ في بلادِها ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي لها سريرٌ حَسَنٌ عظيمٌ ضَخْمٌ، كذا كذا ذِراعاً [طولُهُ، وكذا كذا ذِراعاً][٣] عَرْضُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ العرشُ كنايةً عنِ المُلْكِ؛ كأنهُ قالَ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي مُلْكٌ عظيمٌ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [قالَ هذا لِعِظَمِ ما وَقَعَ عندَ الهُدْهُدِ مِنَ السُّجودِ لِغيرِ اللهِ لِيُعْلَمَ أنَّ الطَّيْرَ وغيرَها مِنَ البهائمِ يَعْرِفونَ اللهَ، ويُوَحِّدونَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾][٤] يَعْبُدونَ الشمسَ مِنْ دونِ اللهِ. وجائزٌ أنهمْ يُطيعونَ [الشمسَ ويَخْضَعونَ لها][٥] مِنْ دونِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الخَبيثَةَ السَّيِّئَةَ حتى رَأَوها حَسَنَةً ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو سَبيلُ اللهِ لأنَّ المُطْلَقَ هو سَبيلُ اللهِ، وهو الإسلامُ، والكتابَ المُطْلَقَ كتابُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فإنْ كانَ هذا القولُ مِنْ هُدْهُدٍ، وتأويلُهُ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهم غيرُ مُهْتَدينَ فإنهُ[٦] لا يَحْتَمِلُ أنْ يَعْرِفَ أنهمْ لا يَهْتَدونَ في حادثِ الوَقْتِ.

وإنْ كانَ مِنَ اللهِ فهو إخبارٌ أنهمْ لا يَهْتَدونَ [أبداً لِما عَلِمَ أنهم لا يَهْتَدونَ][٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[٨].

فَمَنْ قَرَأَ بالتَّشديدِ ﴿أَلَّا﴾ فهو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على طَرْحِ: لا، كأنهُ يقولُ: فهمْ لا يَهْتَدونَ أنْ يَسْجُدوا، أي هم لا يَهْتَدونَ أن يَسْجُدوا.

والثاني: [على][٩] صِلَةِ قولِهِ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ لِئَلّا يَسْجُدوا.

ومَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ فهو يُخَرَّجُ على الأمْرِ، أي ألا يا اسْجُدوا للهِ[١٠].

وقالَ بعضُهُمْ: ألا بالتَّخفيفِ: هَلّا يَسْجُدونَ لِلّهِ. وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ أنهُ قَرَأَ: هَلّا يَسْجُدونَ لِلّهِ، وهو حُجَّةُ مَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ. وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ألا تَسْجُدونَ لِلّهِ بالتاءِ على المُخاطَبةِ إلى قولِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

وذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: ألا تَسْجُدونَ بالنونِ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٤٤. (٢) في الأصل وم: كأنها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: للشمس ويخضعونها. (٦) في الأصل وم: لأنه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) انظر معجم القرءات القرآنية ج٤/ ٣٤٦ و٣٤٧. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرجت العبارة التالية في نسخة الحرم المكي: ينبغي على التالي أن يقف على قوله: ألا يا، ثم يبتدئ، فيقول: اسجدوا على الأمر، إلا أنه عند الوصل تذهب ألف الوصل التي في: اسجدوا، وتذهب الألف التي في: يا لأنها ساكنة أيضا، ولا يجمع بين ساكنين، فصارت: ألا يسجدوا، وأنشد لذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دارَ مَيَّ على البِلَى ولا زالَ مُنْهَلّاً بِجَرْعائِكِ القَطْرُ

انظر الديوان ج١/ ٥٥٩

قالَ الكِسائيُّ: ومَنْ شَدَّدَ ﴿أَلَّا﴾ فتأويلُهُ: زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ ألّا يَسْجُدوا على ما ذَكَرْنا. وأمّا التَّخفيفُ فهو على وجْهِ الأمْرِ، أيِ اسْجُدوا، وألَا: صِلَةٌ، ويا: صِلَةٌ أيضاً.

ثم قالَ بعضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ يَلْزَمُهُ السُّجودُ لأنهُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَلْزَمَ السُّجودُ بما يأمُرُ غيرَهُ بالسُّجودِ، ولا يَلْزَمُ في ما يُخْبِرُ عنهمْ أنهمْ لا يَسْجدونَ. بل لزومُ السُّجودِ في ما يُخْبِرُ أنهمْ لا يَسْجُدونَ أولَى خِلافاً لِصَنيعِهِمْ وإظهاراً لِلطّاعةِ للهِ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخَبْءُ ما يُخْبَأُ مِنَ الشيءِ ممّا[1] كانَ. قالَ بعضُهُمْ: خَبَأَ في السماءِ المَطَرَ، فَيُخْرِجُ، وفي الأرضِ النباتَ، فَيُخْرِجُ ذلكَ النَّبْتَ. ويَحْتَمِلُ الخَبْءُ ما يُخَبِّئُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ويُسارُّ[2] بَعْضُهُمْ بَعْضاً. يُخْبِرُ أنهُ يُظْهِرُ ذلكَ، ويُعْلِنُهُ[3]. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ على الوَعيدِ ليكونوا على حَذَرٍ أبداً؟

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: ألّا يَسْجُدونَ للهِ الذي يَعْلَمُ غَيْبَ السمواتِ والأرضِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، جوابَ قولِهِ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [يقولُ: ربُّ العَرْشِ العَظيمِ][4] هو اللهُ الذي لا إلهَ إلّا هو، لا هِيَ؛ أعني بِلْقيسَ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي نَنْظُرُ أصَدَقْتَ في ما أخْبَرْتَ، وأتَيتَ مِنْ أمرِ بِلْقيسَ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ذلكَ. وَقَفَ في خَبَرِهِ، ولم يُصَدِّقْهُ، ولم يُكَذِّبْهُ، إلى أنْ يَظْهَرَ لهُ الصِّدْقُ أوِ الكَذِبُ. وهكذا الواجبُ على كلِّ مَنْ أُخْبِرَ بِخَبَرٍ أنْ يَقِفَ فيهِ إلى أنْ يَظْهَرَ لهُ الحَقُّ في ذلكَ إنْ كانَ الخَبَرُ ممّا[5] يَحْتَمِلُ الغَلَطَ والكَذِبَ.

الآية ٢٨ ثم قالَ لهُ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ سُليمانُ أمَرَ الهُدْهُدَ بالذهابِ[6] بالكتابِ إليها، ويُوَلِّيَهُ تَبليغَ ذلكَ إليها، وهو أعْظَمُ مِنْ خَبَرِهِ الذي أخْبَرَهُ بذلكَ [إلّا][7] بَعْدَ ما وَقَفَ في خَبَرِهِ[8] قَبْلَ أنْ يَتَبَيَّنَ، ويَظْهَرَ لهُ صِدْقُهُ في خَبَرِهِ. فَدَلَّتْ تَوْليتُهُ إيّاهُ تبليغَ الكتابِ إليها أنهُ قد ظَهَرَ لهُ صِدْقُهُ في ما أخْبَرَهُ مِنْ أمرِ تلكَ المرأةِ إمّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ تعالى إليهِ، [وإمّا بما][9] انْتَهَى إليهِ مِنَ الخَبَرِ ما قد عَلِمَ بذلكَ عِلْمَ يَقينٍ وإحاطةٍ. فَعِنْدَ ذلكَ وَلّاهُ تَبليغَ الكتابِ [إليها حينَ][10] قالَ لهُ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ألْقِ الكتابَ إليهِمْ، ثم تَوَلَّ عنهُمْ، فانْظُرْ ماذا يقولونَ؟ وماذا يُرَدِّدونَ في ما بَيْنَهُمْ مِنَ الكلامِ والجوابِ؟

والثاني: على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: ألْقِ الكتابَ إليهِمْ، فانْظُرْ ماذا يَرْجعونَ مِنَ الجوابِ ثم تَوَلَّ عنهمْ، أي أعْرِضْ عنهمْ.

الآية ٢٩ فَفَعَلَ ما قالَ لهُ سليمانُ مِنْ إلقاءِ الكتابِ إليها، وإنْ لم يَذْكُرْ في الآيةِ حينَ[11] ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ كأنهمْ قالوا: مِمَّنْ ذلكَ الكتابُ؟

الآية ٣٠ فقالَتْ عندَ ذلكَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي حَسَنٌ لِما رَأَتْ فيهِ مِنَ الكلامِ الحَسَنِ والقولِ اللطيفِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ أي مختومٌ. وقد ذُكِرَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][12] قالَ: «مَنْ كَرَمِ الكتابَ خَتْمُهُ» [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٣] أو كلامٌ نَحْوُ هذا أو شِبْهُهُ.

---

(١) من م، في الأصل: ما. (٢) في الأصل وم: ويسر. (٣) في الأصل وم: ويعلمه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ممن. (٦) في الأصل وم: الذهاب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم. (٩) في الأصل وم: خبر. (١٠) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: إليهم حيث. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ فيهِ إضمارٌ، أي إني أُلقِيَ/ ٣٩٠ ـ أ/ إليَّ كِتابٌ مِنْ إنسانٍ كريمٍ، وسليمانُ كانَ مَعْروفاً بالكَرَمِ؛ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قد أتاهُمْ خَبَرُ كَرَمِهِ، والمَلأُ قالوا: هُمُ الأشرافُ وأهلُ السُّؤْدُدِ.

قالَ الزّجّاجُ: سُمُّوا لِما اجْتَمَعَ عندَهُمْ مِنْ حاجاتِ الناسِ وحُسْنِ الرَّأْيِ والتَّدْبيرِ في كلِّ شيءٍ مِنَ الأمورِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هو ما ذَكَرْنا؛ كأنهمْ سألوها: مِمَّنْ ذلكَ الكتابُ؟ فقالَتْ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ وسألوها أيضاً: ما في ذلكَ الكتابِ؟ فقالَتْ ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾.

الآية ٣١ وقولُهُ[1] تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ أي ألّا تَسْتَكْبِروا، ولا تَتَعَظَّموا عليَّ ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ مُخْلِصينَ للهِ بالتوحيدِ، أي اجْعَلوا أنفُسَكُمْ سالِمَةً لِلّهِ خالِصَةً لهُ، لا تَجْعَلوا لأحدٍ سِواهُ فيها شِرْكاً ولا حقًّا، لأنهُ أخبَرَ أنهمْ كانوا يَسْجُدونَ للشمسِ مِنْ دونِ اللهِ، فَتُخْبِرُ في الكتابِ حينَ[2] افْتَتَحَ بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أنَّ الذي يَسْتَحِقُّ السُّجودَ والعِبادةَ، هو اللهُ الرحمنُ الرحيمُ، لا ما تَعْبُدونَ أنتمْ.

ثم مِنْ[3] عادةِ الأنبياءِ والرسلِ الإيجازُ في الكلامِ والرسائلِ، لا يَشْتَغِلونَ بِفُضولِ الكلامِ وتطويلِهِ على ما ذُكِرَ مِنْ كتابِ سُلَيمانَ إلى بِلْقيسَ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ذُكِرَ أنَّ هذا القَدْرَ، كانَ الكتابُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ اسْتَشارَتْ أشرافَ قومِها، وطَلَبَتْ منهمُ الرَّأيَ في ذلكَ. وهكذا عَمَلُ المُلوكِ وعادَتُهُمْ: أنهمْ إذا أرادوا أمراً، أوِاسْتَقْبَلَهُمْ أمرٌ، يَسْتَشيرونَ أُولي الرَّأيِ مِنْ قومِهِمْ وأهلَ الحِجا والتَّدْبيرِ منهمْ، ثم يَعْمَلونَ بِتَدبيرٍ، يكونُ لهمْ، وما يَرَوْنَ ذلكَ صواباً.

وعلى ذلكَ أمَرَ اللهُ رسولَهُ أنْ يُشاوِرَ أصحابَهُ بقولِهِ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ثم أمَرَهُ إذا عَزَمَ على الأمرِ أنْ يَتَوَكَّلَ على اللهِ في ذلكَ، وأنْ يَكِلَ الأمرَ إليهِ ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ تحْضُروني. أو ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أنهُ صوابٌ حقٌّ. فأجابوها في ما طَلَبَتْ منهمُ الرَّأيَ والتَّدْبيرَ في ذلكَ.

الآية ٣٣ فقالوا: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ أي نَحْنُ أولو قُوَّةٍ في أنفُسِنا وأولو بأسٍ أي حَرْبٍ وقِتالٍ شديدٍ، أي لَنا مَعْرِفَةٌ في ذلكَ. ومَعَ ما قالوا [ذلكَ][4] وَكَلُوا الأمرَ إليها حينَ[5] قالوا ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾.

وهكذا الواجبُ على وزراءِ الملوكِ والرَّعِيَّةِ أنهمْ إذا اسْتَشاروهُمْ في أمرٍ أنْ يَدُلّوهُمْ على الأصْوَبِ والأحْسَنِ[6] إليهِمْ، ثم يَكِلُوا الأمرَ إليهِمْ.

وقصةُ سليمانَ ﷺ مَعَ ما فيها مِنَ العجائبِ والآدابِ ففيها مَعْرِفَةُ سِياسةِ الملوكِ وتَعَلُّمِ آدابِهِمْ:

مِنْ ذلكَ ما قالَ سُلَيمانُ: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] ومِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ الآية [النمل: ٢٠] وقولُهُ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١]، ومِنْ ذلكَ اسْتِشارةُ بِلْقيسَ أشرافَ قومِها في ذلكَ، وجَواباتُ قومِها لها، وإخبارُها إيّاهُمْ: مِنْ طَبْعِ الملوكِ وعادتِهِمُ الإفسادُ والقَتْلُ والإذلالُ حينَ[7]

الآية ٣٤ ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

قالَ أهلُ التأويلِ: هذهِ شهادةٌ مِنَ اللهِ لها بما قالَتْ، والتصديقُ لها في ما أخْبَرَتْ أنهمْ كذلكَ يَفْعلونَ بِكُبرائِهِمْ.

الآية ٣٥ ثم قالَتْ: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ذُكِرَ أنها قالَتْ: إنَّ لي في هذا رأياً: فإنْ يَكُ

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل: أن، وأدرج قبلها في م: أن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: والحسن. (٧) في الأصل وم: حيث.

صاحبَ دُنيا فَعَسى أنْ نُرْضِيَهُ بالمالِ، فَيَسْكُتَ عنّا، ويَكُفَّ شَرَّهُ، وإنْ يكُنْ نَبِيًّا فلا يَقْبَلُ ذلكَ مِنّا، وسَنَعْرِفُ. فَعَمِلَتْ ذلكَ، وأرْسَلَتْ إليهِ بِهَدايا، فلم يَقْبَلْها سُلَيمانُ، فَعَرَفَتْ أنهُ نَبِيٌّ.

وهذا كانَ منها تدبيراً وحُسْنَ رَأيٍ[1] في الأمْرِ واحْتيالاً؛ وَقَفَتْ في ذلكَ، لم تَشْتَغِلْ بالحَرْبِ والقِتالِ على ما أشارَ لها قَومُها.

وقالَ ابنُ عباسٍ: قالَتْ بِلْقيسُ لَمّا أتاها كتابُ سُلَيمانَ، واسْتَشارَتْ قَومَها في ذلكَ، وطَلَبَتْ فُتْياهُمْ، فأفْتَوا لها بما أفْتَوا، قالَتْ: أبْعَثُ إليهِ بهديةٍ، فإنْ قَبِلَها فهو مَلِكٌ، فأُحارِبُهُ، وإنْ لم يَقْبَلْها فهو نَبِيٌّ، أتابِعُهُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أنْظَرتُهُ نِظْرَةً أي أمْهَلْتُهُ، والنَّظْرَةُ في الدَّينِ خاصَّةً، وهي[2] الإنظارُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ الرسولُ الذي [بَعَثَتْهُ بِلْقيسُ إليهِ بالهديَّةِ][3] ويَحْتَمِلُ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ المالُ الذي بُعِثَ إليهِ. يَحْتَمِلُ ذا أو ذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي أتَقْطَعُونَني[4] بمالٍ. وقالَ أهلُ الأدبِ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ مِنَ المَدَدِ، والمَدَدُ الزِّيادةُ كما يُمَدُّ القومُ، ويكونُ الإعطاءُ كقولِهِ: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢] ويَحْتَمِلُ هذا[5] الزِّيادةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي ما آتانِيَ اللهُ مِنَ النُّبُوَّةِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ مِنَ الأموالِ. ويَحْتَمِلُ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ فاديتُكُمْ[6] إذا أتَيتُموني مُسْلمينَ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ إنْ لم تُؤتوني [مُسْلِمينَ][7] أو أبَيتُمُ الإسلامَ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ المُلْكِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ مِنَ المُلْكِ لأنهُ سَخَّرَ لهُ الجِنَّ والإنْسَ والشياطينَ والطيورَ والرِّياحَ وجَميعَ الأشياءِ. فذلكَ خَيرٌ لهُ وأعظَمُ مِنْ مُلْكِها.

والأوَّلُ أشْبَهُ وأقْرَبُ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَفْتَخِرَ سُلَيمانُ بِمُلْكِهِ على غَيرِهِ، إنما يكونُ افْتِخارُهُ بالدِّينِ والنُّبُوَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ قال بعضُهُمْ: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إذا رُدَّتْ إليكُمْ. لكنَّ هذا بَعيدٌ [لأنَّ المُهْدِيَ][8] لا يَفْرَحُ بِرَدِّ الهَدِيَّةِ إذا رُدَّتْ عليهِ هَدِيَّتُهُ، ولم تُقْبَلْ [بل يَحْزَنُ][9] على ذلكَ، ويَهْتَمُّ. لكنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بل أنتُمْ أولَى بالفَرَحِ بالمالِ والهَدايا مِنّا؛ إذْ مُرادُكُمُ المالُ والدنيا، ومُرادُنا الدِّينُ والدارُ الآخِرَةُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ قالَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ لِلرَّسولِ الذي أتاهُ بالهَدِيَّةِ ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لَنَأتِيَنَّهُمْ بجنودٍ، لا طاقةَ لهمْ بها، إنْ لم يأتوني مُسْلمينَ ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ إنْ لم يَأْتوني مُسْلِمينَ.

الآية ٣٨ ثم قالَ سليمانُ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ إنما خاطَبَ بهِ أشْرافَ قومِهِ. وهكذا العادةُ في المُلوكِ أنهمْ إذا خاطَبُوا أحداً بشيءٍ إنما يُخاطِبونَ أهلَ الشَّرَفِ والمَنْزِلَةِ منهمْ ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنما قالَ هذا لأنهُ عَلِمَ، نَبِيُّ اللهِ، أنهمْ متى[10] أسْلَموا تَحْرُمُ أموالُهُمْ مع دمائِهِمْ، فأحَبَّ أنْ يُؤتَى بِهِ قَبْلَ أنْ يكونَ ذلكَ عليهِ.

لكنَّ هذا مُحالٌ بَعيدٌ وَحْشٌ مِنَ القولِ؛ لا يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ رَغْبَةُ سُلَيمانَ في الأموالِ هذا الذي ذَكَرَ بَعْدَما رَدَّ هَدايَاها

---

(١) في الأصل وم: الرأي. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: بعث بلقيس الهدية. (٤) في الأصل وم: أتعطونني. (٥) في الأصل وم: هذه. (٦) من م، في الأصل: فأبنتكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بالحرب. (١٠) من م، في الأصل: حينما.

إليها، وأخبرَ أنكُمْ تفرَحونَ بها لأنكُمْ أهلُ دُنيا؛ إذْ رَغْبَةُ أهلِ الدنيا في الأموالِ، ونَحْنُ، أهلَ الدِّينِ، رَغْبَتُنا في الدِّينِ، بهِ نَفْرَحُ، ويَسْتَعْجِلُ كلُّ هذا الاِسْتِعْجالِ رَغْبَةً في مالِها وعَرْشِها.

لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ أرادَ أنْ يُرِيَهُمْ قُوَّتَهُ وسُلْطانَهُ: أنْ يَرْفَعَ واحدٌ مِنْ جُنودِهِ عَرْشَها مَعَ عِظَمِهِ بِمُعايَنَةٍ منهمْ ومُشاهَدَةٍ، وحَمْلَهُ مِنْ بَينِهِمْ، لِيَعْلَموا إنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا لَقادِرٌ أنْ يأتِيَهُمْ بجنودٍ، لا طاقَةَ لهمْ [بها][1] تَصْديقاً لِما قالَ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [وإنهُ][2] يَقْدِرُ على قَهْرِهِمْ وغَلَبَتِهِمْ.

والثاني: أرادَ أنْ يُرِيَهُمْ آيَةً مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ إذا أتَوهُ [وهي أنْ يَأتوهُ] مُسْلِمينَ لِيَعْلَموا أنهُ نَبِيٌّ، ليسَ بِمَلِكٍ.

وهذا التأويلُ الذي ذَكَرْنا آيةٌ لِقَولِهِ[3]: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾/ ٣٩٠ ـ ب/ لِيَعْلَموا أنهُ ليسَ بِمَلِكٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي صالِحينَ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: مَقامُهُ مَجلِسُهُ الذي كانَ يَقْضي فيه إلى أنْ يَفْرَغَ مِنْ قَضائِهِ حتى يُؤتَى بهِ ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لأنَّ الجنَّ أقوى مِنَ الإنْسِ.

وَصَفَ نَفْسَهُ بالأمانَةِ لأنَّ الجِنَّ، لا يَرْغبونَ الأموالَ ما تَرْغَبُ الإنسُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أمينٌ على عَرْشِ[4] تلكَ المرأةِ، مَقامُهُ: مَجْلِسُ الرجلِ، يكونُ فيه حتى يقومُ. ولكنْ لا نَدْري ما أرادَ بِمَقامِهِ الذي ذَكَرَ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: أرادَ سُليمانُ أنْ يكونَ أعْجَلَ مِنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ذُكِرَ أنهُ كانَ رجلاً يَعْلَمُ اسْمَ اللهِ الأعْظَمَ الذي إذا دُعِيَ بهِ أجابَ: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في ارْتِدادِ طَرْفِهِ. قالَ بعضُهُمْ: هو أنْ يَبْعَثَ رسولاً إلى مُنْتَهى طَرْفِهِ، فلا يَرْجِعُ حتى يُؤْتَى بهِ [وقالَ][5] بعضُهُمْ: هو الرجلُ، يَنْظُرُ إلى الشيءِ البَعيدِ [فَيُؤتَى بهِ][6] قَبْلَ أنْ يَرْجِعَ إليهِ طَرْفُهُ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: دَخَلَ في نَفَقِ الأرضِ، فَخَرَجَ بَينَ يَدَي سُليمانَ؛ يعني العَرْشَ. كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، أتاهُ إذْ دعاهُ بذلكَ الاسْمِ مِنْ غَيرِ أن يَتَحَمَّلَ هو حَمْلَهُ وإتيانَهُ.

فهذا يَدُلُّ أنَّ الآياتِ قد تَجْري على غَيرِ أيدي الرسلِ. لكنْ تكونُ الآيةُ للرسلِ، وإن كانَتْ تَجْري على غَيرِهِمْ. ثم ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: واللهِ ما جَعَلَهُ فَخْراً ولا أشَراً ولا بَطَراً، لكنهُ جَعَلَهُ شُكْراً وتواضُعاً.

وقالَ[8] بعضُهُمْ: لمّا دعا ذلكَ الرجلُ بذلكَ الاسْمِ، فَرَآهُ مُسْتَقِرًّا عندَهُ، وَقَعَ في قَلْبِ سُليمانَ شيءٌ، وخَطَرَ ببالِهِ أنّى يكونُ رجلٌ عندَهُ عِلْمٌ ما لَيسَ عندَهُ مِنَ العِلْمِ قالَ، فَعَزَمَ اللهُ لهُ على الخَيرِ؟ وقيلَ لهُ: إنهُ مِمَّنْ خَوَّلَكَ اللهُ، فقالَ سُليمانُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ يقولُ: ما أعْطَى ذلكَ الرجلَ ما لم يُعْطِني ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ إذ كانَ مِثْلُهُ تَحتَ يَدَيَّ ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ لكنْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَشْكُرَ اللهَ على ما أعْطَى غَيرَهُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ إتيانَهُ أولئكَ مُسْلِمينَ أوِ النُّبُوَّةَ والعِلْمَ الذي آتاهُ اللهُ.

[ويَحْتَمِلُ قولُهُ][9]: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ تَسْخيرَ[10] ما سَخَّرَ لهُ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي لِيَمْتَحِنَني ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لِيَعْلَمَ أنهُ إنما يَمْتَحِنُ بالشكرِ، ويأمُرُهُ بهِ لا لِمَنْفَعَةِ المُمْتَحِنِ [ولكنْ لِمَنْفَعَةِ][12] المأمورِ بهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: لكنه. (٤) في الأصل وم: فرح. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أراد. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ غنيٌّ عنْ شكرِهِ، كَريمٌ، يَقْبَلُ القليلَ منهُ واليَسيرَ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿نَكِّرُوا﴾ أي غيِّروا لها عَرْشَها، كأنهُ أمَرَ أنْ يُغيِّروا بَعْضَ ما عليهِ مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ لِيَمْتَحِنَها: أتَعْرِفُ[1] أنهُ عَرْشُها أمْ لا؟

والمُنْكَرُ هو الذي لا يُعْرَفُ كقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] وقولِهِ: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] أي لم يَعْرِفْهُمْ، وقولِهِ: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ كانْ يَجيءُ أنْ يُقالَ: نَكِّروا عَرْشَها، وتَكونَ ﴿لَهَا﴾ زائدةً، إلّا أنْ يُقالَ ﴿نَكِّرُوا لَهَا﴾ أي نَكِّروا لأجلِها عَرْشَها، وهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَتَهْتَدِي﴾ أنهُ عَرْشُها أمْ لا تَهْتَدي إليهِ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿نَنظُرْ﴾ : ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى دينِ اللهِ وتَوحيدِهِ أمْ تكونُ مِنَ الذينَ لا يَهْتَدونَ إلى دينِ اللهِ؟

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَتْ هي عليهِمْ، ولَبَّسَتْ أمْرَهُ كما فَعَلوا هُمْ بها مِنْ تَغْييرِ عَرْشِها عليها وتَلْبيسِهِ عليها. لكنَّ قولَها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ لم تَقْطَعْ فيهِ القَولَ لمّا رَأَتْ فيهِ مِنَ التَّغْييرِ والتَّنكيرِ، ورأَتْ فيهِ سَريرَها[2]؛ وقَفَتْ فيهِ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أنَّ العَرْشَ، لم يُحْمَلْ، وهي نائمةٌ، على ما قالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ حُمِلَ دونَها مِنْ قَبْلُ، ثم جاءَتْ بَعْدَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ألا تَرى أنهُ لو أمَرَهُمْ أنْ يُغيِّروا عَرْشَها، وهي عليهِ، لم تَشْعُرْ بهِ؟ هذا بَعيدٌ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ إنْ كانَ هذا القولُ مِنْ سُليمانَ فكأنهُ يقولُ: قد أُوتينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِ عِلْمِنا بِهِ أنهُ عَرْشُها، ولَنا غُنْيَةٌ عنِ السؤالِ لها عنهُ، لكنْ نَسْألُها مُسْتَخْبِرينَ عن ذلكَ مُمْتَحِنينَ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أي صِرْنا مُسْلِمينَ جميعاً، أو يكونُ هذا [القولُ: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾][3] صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥] فهذا العِلْمُ الذي قالَ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وإلّا في الظاهرِ ليسَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: وصَدَّها عِبادَتُها الشمسَ والأصنامَ التي عَبَدوها دونَ اللهِ عنِ الإسلامِ وعِبادةِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: وصَدَّها سُليمانُ عن عِبادَتِها [التي][4] كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دونِ اللهِ لأنها ذُكِرَ أنها أسْلَمَتْ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [وقالَ بعضُهُمْ: الصَّرْحُ][5] حِصْنُ الدارِ، وهو قولُ الزَّجّاجِ.

وقالَ القُتَبيُّ وأبو عَوسَجَةَ وأكْثَرُ أهلِ التأويلِ: الصَّرْحُ هو القَصْرُ. ثم لا نَدْري ما سَبَبُ بِناءِ[6] ذلكَ الصَّرْحِ؟ وما سَبَبُ أمْرِهِ إيّاها بالدخولِ فيهِ وكَشْفِها عن ساقَيها؟

أمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ قدِ اختَلَفوا في ذلكَ: قالَ بعضُهُمْ: قالَتِ الجِنُّ: لمّا أقْبَلَتْ بِلْقيسُ لقد لَقينا[7] مِنْ سُليمانَ ما لَقينا مِنَ التَّعَبِ، فلوِ اجْتَمَعَ سليمانُ وهذهِ المرأةُ وما عِنْدَها مِنَ العِلْمِ لَهَلَكْنا، وكانَتْ أمُّ هذهِ المرأةِ جِنِّيَّةً، تعالَوا [نَعيبُها، ونُكَرِّهُها][8] إلى سليمانَ. فقيلَ لِسُليمانَ: إنَّ رِجْلَيها مِثْلُ حافِرِ الدَّوابِّ، لأنَّ أمَّها، كانتْ جِنِّيَّةً، فأمَرَ سُليمانُ عندَ ذلكَ، فَبُنِيَ لَهُ بيتٌ مِنْ قواريرَ فوقَ الماءِ، وأرسلَ فيهِ السمكَ لِتحسَبَ أنهُ ماءٌ، فَتَكْشِفَ عن رِجْلَيها، فَيَنْظُرَ سليمانُ: أصَدَقَتِ الجِنُّ أم كَذَبَتْ؟

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ فَنَظَرَ إليها سُليمانُ، فإذا هي أحْسَنُ الناسِ قَدَمَينِ وساقَينِ. فلما رَأَتِ الجِنُّ أنَّ سُليمانَ رَأى ساقَيها قالَتِ الجِنُّ: لا تَكْشِفي عن ساقَيكِ ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

---

(١) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: سرورها، في م: سررها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: هناء. (٧) في الأصل وم: أتينا. (٨) في الأصل وم: ننقصها وننكرها. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ ذُكِرَ لِسُلَيمانَ أنَّ على ساقَيها شَعْراً، وأنهما شَعْراوانِ، فأمَرَ بذلكَ لِيَعْرِفَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ خافَتِ الجنُّ عندَ ذلكَ أنْ يَتَزَوَّجَها سُلَيمانُ، فتُفْشِيَ إليهِ[1] أشياءَ كانُوا أطْلَعوها عليها[2]، وأفْشَوا إليها، فأرادوا أنْ يُكَرِّهوها إليهِ، فَطَعَنوها بِعُيوبٍ في عَقْلِها وجِسْمِها[3]، فقالوا: يا نَبِيَّ اللهِ ألا نُريكَ عَقْلَها؟ فإنَّ في عَقْلِها شيئاً. قالَ: بَلى، فجاءَتِ الجِنُّ بماءٍ، فأجْرَوْهُ [في صَحْنِ الدارِ][4] فَتَرَكُوهُ لُجَّةً، ثم جاؤوا بالسمكِ والضفادِعِ، فأرسَلوها في الماءِ، ثم جِيءَ بها إلى ذلكَ الماءِ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ فقالوا لِسُلَيمانَ: في عَقْلِها آفَةٌ، ألَا تَرَى أنها لا تَعْرِفُ الصَّرْحَ مِنَ الماءِ، ولا تُمَيِّزُ بينَهما، أو نَحْوَ هذا مِنَ الكلامِ؟

لكنْ لا نَعْلَمُ ما سَبَبُ ذلكَ؟ ولا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ سُلَيمانُ يَحْتالُ هذهِ [الحِيلَةَ][5] لِيَنْظُرَ إلى ساقَيها، وهي أجنبيَّةٌ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ لِغَيرِ ذلكَ أرادَ أنْ يُرِيَها آيَةً مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ حينَ[6] اتَّخَذَ صَرْحاً مُمَرَّداً مِنْ قواريرَ، يُرَى [أنهُ ماءٌ][7] لِلَطافَتِهِ، وذلكَ خارجٌ عنْ تدبيرِ البَشَرِ لِتَعْلَمَ هيَ أنَّ ذلكَ تَدْبيرُ السماءِ لا تَدْبيرُ البَشَرِ، أو أنْ يكونَ أرادَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ / ٣٩١ ـ أ/ أنْ يُرِيَها عِظَمَ مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ لِتَعْلَمَ أنهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ، قادرٌ على ذلكَ، لا تَنْفَعُها سِوى الطاعةِ لهُ والإجابةِ والخُضوعِ للهِ والإسلامِ لهُ.

فعندَ ذلكَ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ في ما عَبَدْتُ دونَ اللهِ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أخْلَصْتُ، وأسْلَمْتُ نفسي للهِ ربِّ العالَمينَ.

قالَ القُتَبِيُّ: عِفْريتٌ، أي شديدٌ وَثيقٌ. وأصْلُهُ العِفْرُ، زِيدَتِ التاءُ فيهِ؛ يُقالُ: عِفْريتٌ، نِفْريتٌ، [وعُفارِيَةٌ ونُفارِيَةٌ][8]، وعَفاريتُ ونَفاريتُ.

قالَ القُتَبِيُّ: العِفْريتُ الخَبيثُ الماردُ، وعَفاريتُ جميعٌ، وقالَ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ أي رَدَّها، ومَنَعَها، وقالَ: الصَّرْحُ القَصْرُ، والصُّروحُ جميعٌ، ولُجَّةُ الماءِ المُجْتَمَعُ الكثيرُ، وقالَ: المُمَرَّدُ، وهو المُمَلَّسُ بالطِّينِ أو بالجِصِّ أو بما كانَ. وقالَ غَيرُهُ: المُجَرَّدُ الطويلُ. وقالَ القُتَبِيُّ: ومِنْ ذلكَ يُقالُ: الأمْرَدُ الذي لا شَعْرَ على وَجْهِهِ، ويُقالُ لِلرَّمْلَةِ التي لا تُنْبِتُ مَرْداءُ، ويُقالُ: المُمَرَّدُ المُطَوَّلُ، ومنهُ قيلَ لِبَعْضِ الحُصونِ: ماردٌ.

وقالَ الكِسائيُّ: المُمَرَّدُ الأمْلَسُ، ويُقالُ: منهُ سُمِّيَ الأمْرَدُ أمْرَدَ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وأمَرْناهُ أنْ يقولَ لهمْ: اعْبُدوا اللهَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ بالرسالةِ التي أرْسَلْناهُ لِيَدْعُوَهُمْ إلى عبادةِ اللهِ.

وقولُهُ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ: وَحِّدوا اللهَ، ويَحْتَمِلُ العِبادَةَ نَفْسَها: أنِ اعْبُدوا اللهَ، ولا تُشْرِكوا غَيرَهُ في العِبادةِ والألوهيَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قيلَ: فريقانِ: [مُؤْمِنٌ بصالحٍ، ومُكَذِّبٌ][9] بهِ، ولم يُبَيِّنْ فيمَ كانَتْ خصومَتُهُمْ؟ وبَينَ مَنْ كانَتْ[10] في هذهِ الآيةِ. لكنهُ بَيَّنَ في آيةٍ أُخرى، وفَسَّرَ، وهو ما ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ و٧٦].

هذهِ الخُصومَةُ التي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ بَينَ الرُّؤساءِ مِنَ الكَفَرَةِ والمؤمنينَ بصالحٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في م: إليها. (٢) في الأصل وم: عليه. (٣) في الأصل وم: ونفسها. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وعفريت ونفريت. (٩) في الأصل وم: وهو من يصالح ويكذب. (١٠) من م، في الأصل: كان.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي لِمَ تَستَعجِلونَ بالسيِّئةِ قَبْلَ الرَّحْمَةِ، واستِعجالُهُمُ العذابَ والسَّيِّئَةُ ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فذلكَ استِعجالُهُمُ السَّيِّئَةَ قَبْلَ الحَسَنةِ. وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لولا تُوَحِّدونَ، ولا تُشرِكوا غَيرَهُ في العِبادةِ وتَسمِيَةِ الإلهِيَّةِ لِكَي يَرحَمَكُم. وفيهِ إطماعٌ لهمْ: لو آمَنوا، وتابوا [عنِ الشِّرْكِ][1] لَرَحِمَهُمْ كقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تَشاءَمْنا منكَ وبِمَنْ مَعَكَ. لم يَزَلِ الكَفَرَةُ [يقولونَ][2] لِرُسُلِ اللهِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِم، ولِمَنْ آمَنَ مَعَهُمْ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ إذا أصابَتْهُمُ الشِّدَّةُ والبَلاءُ؛ يَتَطَيَّرونَ بهِمْ، ويَتَشاءَمونَ، ويقولونَ: إنما أصابَنا هذا بِشُؤْمِكُمْ. وإذا أصابَهُمْ رَخاءٌ وسَعَةٌ قالوا: هذا لنا، بِنا، ومِنْ أنفُسِنا، وهو ما قالَ قومُ موسى حينَ[3] قالوا: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣١] وكذلكَ قالَ أهلُ مكَّةَ لرسولِ اللهِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

كانوا يَتَطَيَّرونَ برسولِ اللهِ، ويَتَشاءَمونَ بِما يُصيبُهُمْ مِنَ الشِّدَّةِ وما يَنْزِلُ بهِمْ مِنَ البَلاءِ، فأخبَرَ اللهُ رسولَهُ، وأمَرَهُ أنْ يقولَ لهمْ: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] أي الرَّخاءُ والشِّدَّةُ مِنْ عِندِ اللهِ يَنْزِلُ، وهو باعثُ ذلكَ لا أنا.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ما يَنْزِلُ بكُمْ، ويُصيبُكُمْ مِنَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ إنما يَنْزِلُ مِنْ عندِ اللهِ، لا بِنا، ولا بكُمْ. أو يُقالُ: ما يَنْزِلُ بكُمْ مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ إنما يُصيبُ بتكذيبِكُمْ إيّايَ في الدنيا، أو يُقالُ: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي جَزاءُ طِيَرَتِكُمْ عندَ اللهِ؛ هو يَجْزيكُمْ بها بعذابِ الدنيا والآخرةِ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالعذابِ بما تَكْسِبونَ مِنَ الأعمالِ في الدنيا، أي تُعَذَّبونَ بها.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقولُ: اللهُ أعلَمُ بطائِرِكُمْ وما تَطَيَّرْتُمْ[6] بهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ليسَ ذلكَ بي، وإنما هو مِنَ اللهِ، وهو ما ذَكَرْنا.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الرَّهْطُ إنما يُقالُ: مِنْ ثلاثةٍ إلى تِسْعَةٍ، وإذا نَقَصَ عنْ ذلكَ، أو زادَ، يُقالُ: رِجالٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الرَّهْطُ: النَّفَرُ، وأراهِطُ ورُهوطٌ جميعٌ.

ثم يَحْتَمِلُ الرَّهْطُ وجْهَينِ

أحَدُهما: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تِسْعَةُ نَفَرٍ مِنَ الأتباعِ والرُّؤَساءِ[7]، ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

والثاني: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي[8] تِسْعَةُ نَفَرٍ مِنَ الرُّؤَساءِ، ولكلِّ واحدٍ منهمْ رَهْطٌ مِنَ الأتباعِ ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

وجائزٌ[9] أنْ [يكونَ][10] هذا إخباراً مِنَ اللهِ أنهمْ يُفْسِدونَ أبداً في الأرضِ، ولا يُؤْمِنونَ أبداً. وجائزٌ أنْ يكونَ إخباراً عنْ حالِهِمْ، أي يَعْمَلونَ الفَسادَ والمَعاصِيَ، ولا يُصلِحونَ، أي لا يَسْعَوْنَ بالصَّلاحِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: إنَّ هؤلاءِ التسعةَ كانوا مِنْ أبناءِ أشرافِهِمْ، وكانوا [في أرضِ حِجْرِ ثَمودَ][11] وكانوا فُسّاقاً، فقالَ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَنَقْتُلَنَّ صالحاً وأهلَهُ ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي لِقومِهِ مِنْ وَرَثَتِهِ: ما قَتَلْناهُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ فَتَحالَفوا على

---

(١) في الأصل وم: عنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: تطيركم. (٧) في الأصل وم: وغيره. (٨) في الأصل وم: لا. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالحجرة، انظر جامع البيان ج١٩/ ١٧٢.

ذلكَ، فأتَوا صالحاً ليلاً، فَدَخلوا عليهِ بأسيافِهِمْ لِيَقْتُلوهُ، وعندَ صالحٍ ملائكةٌ، جاؤوا مِنَ اللهِ تعالى، يَحْرُسونَهُ، فَقَتلوا الرَّهْطَ في دارِ صالحٍ بالحِجارةِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ بِصالحٍ وأهلِهِ ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ أي أهْلَكْناهُمْ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنهمْ يَهْلِكُونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: هؤلاءِ التسعةُ الرَّهْطُ تواثَقوا أنهُمْ يُبَيِّتونَ صالحاً، ويَقْتُلونَهُ وأهلَهُ بَعْدَ ما عَقَروا الناقةَ، وقالوا في ما بَيْنَهُمْ: فإنْ خُوصِمْنا في ذلكَ لَنَقولَنَّ، ونُقاسِمَنَّ ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ أي ما حَضَرْنا في هلاكِهِمْ. على هذا التأويلِ يكونُ على التَّقديمِ والتأخيرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هؤلاءِ التِّسْعَةُ، كانوا شِرارَ قَومِهِ، خَرَجوا بِخَمْرٍ إلى بَعْضِ المَغارِ [لِيَشْرَبوا هناكَ][١] ثم لِيُبَيِّتوا على صالحٍ وأهلِهِ، فَشَربوا هناكَ، فانْهَدَمَتْ بهمُ الصخرةُ، وعُذِّبوا فيه. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ بِقَتْلِ صالحٍ وهلاكِهِ ﴿مَكۡرٗا﴾ ومَكَرْناهُمْ حينَ[٢] أهْلَكْناهُمْ ﴿مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ والمَكْرُ هو الأخذُ بَغْتَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي جَزَيْناهُمْ جزاءَ مَكْرِهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في قراءةِ ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالنونِ. فذلكَ قولُ بعضِهِمْ لِبَعْضٍ. وقَرأَ بعضُهُمْ: بالتاءِ[٣]: لَتُبَيِّتُنَّهُ وأهلَهُ، ثم لَتَقولُنَّ. فذلكَ قولُ الرُّؤساءِ للأتباعِ. ومَنْ قَرأَهُ بالياءِ[٤] يَجْعَلُهُ خَبَراً عنِ اللهِ تعالى لهمْ.

الآية ٥١ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾. هذا ظاهرٌ][٥].

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ أي لم نُسْكِنْ فيها أحداً، ولكنْ تَرَكْناها خاليةً كذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَاوِيَةَۢ﴾ أي خَرِبَةً ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ كقولِهِ: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] /٣٩١ ـ ب/ أي ساقِطَةٌ خَرِبَةٌ. وقد كانَ ذلكَ كلُّهُ؛ منها جَعَلَ لِغَيرِهِمْ سَكَناً إذا أهْلَكَهُمْ مِنْ نَحْوِ ما أورَثَ بَني إسرائيلَ دِيارَ القِبْطِ وأموالَهُمْ، وأنْزَلَهُمْ فيها، ومنها ما تَرَكَها كذلكَ خاليةً بَعْدَما أهْلَكَ أهلَها، وخَرَّبها، وتَرَكَها كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ في هلاكِ مَنْ ذَكَرَ [في][٦] الآيةِ، ولَعِبْرَةً ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يَعْتَبِرونَ.

الآية ٥٣ [وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَةَ أمْرِهِ ونَهْيِهِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ كأنَّ فيهِ إضماراً[٨]؛ كأنهُ قالَ: أرْسَلْنا لوطاً ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾؟ أي أتأتونَ الفاحِشَةَ، وأنتُمْ تُبْصِرونَ، وتَعْلَمونَ أنها فاحشةٌ؟

الآية ٥٥ [وقوله تعالى][٩]: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ أي اشتِهاءً لكُمْ ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾؟ يَقولُ: أتأتونَ الذكورَ، وتَدَعونَ النساءَ؟ وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ولكنْ أنتُمْ قومٌ تجهَلونَ، أي تَجْهَلونَ الأمْرَ، فَتَعْصُونَ.

فَيُشْبِهُ أنْ [يكونَ][١٠] هذا جَوابَ قولٍ، كانَ مِنْ قومِهِ، نَحْوَ ما ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ ما تقولونَ، أي عن جَهْلٍ ما تقولونَ ذلكَ أو كلامٌ نَحْوُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ كذا في وَقْتٍ لا في الأوقاتِ كلِّها، لأنهُ قد كانَ منهمْ قولٌ وجَواباتٌ نَحْوُ ما ﴿قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٩] ونَحْوُهُ وقولُهُمْ: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

---

(١) من م، في الأصل: جائز. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٣٥٨. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٣٥٨. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إضمار. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

دَلَّ هذا منهمْ أنهمْ قد عَلِموا أنَّ ما يأتونَ، ويَعْمَلونَ، أنهُ خُبْثٌ وفُحْشٌ ومُنْكَرٌ حينَ(١) قالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ هذا وُجوهاً:

أحَدُها: أنهمْ قالوا ذلكَ اسْتِهزاءً منهمْ بهمْ.

والثاني: ﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ فإنهم يَسْتَقْذِرونَ(٢) أعمالَنا وأفعالَنا.

والثالثُ: على التَّحقيقِ: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ غيرَ الزَّوجةِ يجوزُ أنْ تُسمّى أهلاً. قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: أهلُهُ بناتُهُ.

وقولُهُ: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العِبادِ حينَ(٣) أخبرَ أنهُ ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ والغُبورُ البقاءُ بِفِعْلِها(٤). فأخبرَ أنهُ قَدَّرَ ذلكَ منها، وخلَقَ. وقولُهُ: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي الباقينَ في عذابِ اللهِ. وفي(٥) حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: ولقد وَقّينا إليهِ أهْلَهُ كلَّهُمْ(٦) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١ والصافات: ١٣٥].

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي ساءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ [الذينَ](٧) لم يَقْبَلوا الإنذارَ، ولم تَنْفَعْهُمُ النِّذارةُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أمَرَ نَبِيَّهُ بالحَمْدِ لهُ والثَّناءِ عليهِ على إهْلاكِ(٨) أعداءِ الرُّسُلِ الخاليةِ.

ثم قالَ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وهُمُ الرُّسُلُ والأنبياءُ، صَلواتُ اللهِ عليهمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أمْرُهُ إيّاهُ بالحَمْدِ لهُ والثناءِ عليهِ لِما أنْعَمَ عليهِ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ: منها ما [ذُكِرَ مِنْ إهْلاكِ](٩) أعداءِ الرُّسُلِ وإبْقاءِ أوليائِهِمْ تَخْويفاً لأعداءِ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُهْلِكَهُمْ(١٠) كما أهْلَكَ أعداءَ الرُّسُلِ الخاليةِ. أو أنْ يكونَ أمْرُهُ إيّاهُ بالحَمْدِ لهُ والثناءِ عليهِ لِما أنْعَمَ عليهِ مِنْ أنواعِ [النِّعَمِ: مِنَ](١١) النُّبُوَّةِ والرسالةِ والهِدايةِ ونَحْوِها(١٢)، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ يَحْتَمِلُ الرسلَ كقولِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] ويَحْتَمِلُ الأمْرَ بالسَّلامِ على أصحابِهِ وجميعِ المؤمنينَ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٤] أمَرَ رسولَهُ بالسلامِ على المُرْسَلينَ وعلى أصحابِهِ وعلى المُؤْمنينَ.

ثم في قولِهِ: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ دلالةٌ أنْ لا أحَدَ يَسْتَوجِبُ الصَّفْوَةَ إلّا باللهِ حينَ(١٣) قالَ: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: أالذي فَعَلَ هذا بالأُمَمِ(١٤) الخاليةِ مِنَ [إهلاكِ الأعداءِ](١٥) وإبقاءِ الرُّسُلِ والأولياءِ أمِ الأصنامُ التي تُشْرِكونَ في عبادتِهِ، وهي لا تَمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ؟

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ، يَمْلِكُ ما ذُكِرَ مِنْ إهلاكِ أعدائِهِ وإبقاءِ رُسُلِهِ، والأصنامَ التي تَعْبُدونَها، لا تَمْلِكُ شيئاً. فكيفَ تُشْرِكونَ في أُلوهِيَّتِهِ؟ وإلّا لم يَذْكُرْ جوابَ قولِهِ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ جوابُهُ أنْ يقولوا: بلِ اللهُ خيرٌ.

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ إنْ ثَبَتَ: «أنه كانَ إذا قَرَأَ هذهِ الآيةَ قالَ: بلِ اللهُ خيرٌ وأبْقى وأجَلُّ وأكْرَمُ» [القرطبي في تفسيره: ١٣/ ٢٠٤].

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ يُذَكِّرُهُمْ بهذا وجهانِ:

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يستقذفون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: فعلها. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: كلها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: هلاك. (٩) في الأصل وم: ذكروا من هلاك. (١٠) في الأصل وم: يهلكوا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ونحوه. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) من م، في الأصل: بالاثم. (١٥) في الأصل وم: الهلاك للأعداء.

أحدُهما: قُدرَتُهُ و سُلْطانُهُ في خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وإنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ وإنباتِ النباتِ مِنَ الأرضِ وإخراجِهِ على أفرادِهِمْ. إنَّ اللهَ خالقُ ذلكَ كلِّهِ، فكيفَ أشْرَكْتُمْ غيرَهُ: مَنْ لا يَمْلِكُ ذلكَ، ولا يُقْدِرُ في تَسْمِيَةِ الإلهيَّةِ والعبادةِ؟

والثاني: يُخْبِرُ عنِ اتِّساقِ الأمورِ والتَّدْبيرِ فيهما جميعاً واتِّصالِ مَنافِعِ أحدِهما بالآخَرِ على تباعُدِ ما بَيْنَهما [لِيُعْلَمَ أنَّ مُنشِئَهما][1] ومُدَبِّرَهُما واحِدٌ، لا عَدَدٌ. فإنْ عَرَفْتُمْ ذلكَ فيكفَ أشْرَكْتُمْ غَيرَهُ فيها؟ وهو كقولِهِ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهذا الحَرْفُ على الثَّنَويَّةِ والدَّهْرِيَّةِ؛ وهؤلاءِ لِقولِهِمْ بالعَدَدِ وإنكارِهِمُ الواحدَ، والأوَّلُ: على المُقِرِّينَ بالواحدِ إلّا أنهمْ أشْرَكوا الأصنامَ في التَّسْمِيَةِ والعبادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحدائقُ: الحيطانُ والبَساتينُ ما دونَ الحيطانِ. وقالَ بعضُهُمْ: الحدائقُ: الحَوائطُ التي خُصَّتْ بالأشجارِ، والبَساتينُ هي المُلْتَفَّةُ بها.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الحدائقُ البَساتينُ والرياضُ، والحَديقةُ الرَّوضَةُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الحدائقُ البساتينُ، واحِدَتُها حديقةٌ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنها تَحْدُقُ بها، أي تَحْظُرُ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ لِما يَبْتَهِجُ صاحبُها إذا نَظَرَ إليها، ويُسَرُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ أي ما تَقْدِرونَ أنتُمْ أنْ تُنْبِتوا شَجَرَها فَمَنْ هو دونَكُمْ أشَدُّ وأبْعَدُ، فكيفَ أشْرَكْتُمْ في العِبادةِ وتَسْمِيَةِ الإلهيَّةِ مَنْ هو دونَكُمْ في كلِّ شيءٍ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي لا إلهَ مَعَ اللهِ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما[2]: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي يَجْعَلونَ مَنْ لا يَمْلِكُ ما ذَكَرَ عديلاً لِلّهِ.

والثاني: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي يَعْدِلونَ عنِ اللهِ ويَميلونَ إلى غَيرِهِ مِنَ العُدولِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يَقِرُّونَ عليها، ويَتَعَيَّشونَ فيها، أو يَبيتونَ ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ يَنْتَفِعونَ بها بأنواعِ المَنافِعِ، ويَشْرَبونَ ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً[4] لئلّا تَميدَ بهمْ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: جَعَلَ بَينَ بَحْرِ [الفُرْسِ وبَحْرِ][6] الرومِ جزيرةَ العَرَبِ حاجزاً، وسُمِّي جزيرةً لِما جُزِرَ الماءُ فيها، أي ذهبَ. وقالَ بعضُهُمْ: بَحْرُ الشامِ وبَحْرُ العراقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بَينَ العَذْبِ والمالحِ حاجزاً بِلُطْفِهِ، ولا يَخْتَلِطُ هذا بهذا، ولا هذا بهذا لُطْفاً منهُ؛ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ عليهِمْ ولُطْفَهُ: أنْ كيفَ أشْرَكْتُمْ في عبادتِهِ وألوهِيَّتِهِ مَنْ لا يَمْلِكُ ذلكَ، وصَرَفْتُمْ شُكْرَها إلى غَيرِ المُنْعِمِ؟

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما][8]: لأنَّ مَنْ لا يَنْتَفِعُ/ ٣٩٢ ـ أ/ بما يَعْلَمُ فكأنهُ جاهِلٌ. نَفَى عنهُمُ العِلْمَ لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بِهِ كما نَفَى عنهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ والعَقْلَ لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بهذهِ الجَوارِحِ والحَواسِّ، وإنْ كانَتْ لهمْ هذهِ الجَوارِحُ والحَواسُّ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ نَفْيُ العِلْمِ عنهمْ لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بِهِ.

والثاني: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِما لا يَتَكَلَّفونَ النَّظَرَ في ما ذَكَرَ، أو لا يَعْلَمونَ أنَّ بَينَهما حاجزاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يحتمل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الجبال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: الفارس بحر، في م: الفارس و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يُخرَّجُ على الصِّلَةِ بقولِهِ ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: مَنْ يَمْلِكُ إجابةَ المُضطَرِّ وكَشْفِ السوءِ عنهُ وجَعَلَكُمُ الخُلَفاءَ في الأرضِ خيرٌ أمَّنْ لا يَمْلِكُ مِن ذلكَ شيئاً؟

فجوابُ ذلكَ أنْ يقولوا: بلِ الذي يَمْلِكُ ذلكَ خيرٌ مِمَّنْ لا يَمْلِكُ، ولا يَقْدِرُ ذلكَ. أو يُخرَّجُ على الوَجْهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْتُهُما:

أحَدُهما: أنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ الذي يُجيبُ المُضطَرَّ، ويَكْشِفُ السُّوءَ، هو اللهُ تعالى، لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها، فيكفَ أشْرَكْتُموها في الإلهيَّةِ والعِبادةِ؟

والثاني: أنهُ إذا أجابَ دَعْوَةَ المُضطَرِّ، وكَشَفَ السُّوءَ [عنهُ، وجَعَلَكُمْ خُلَفاءَ الأرضِ بَعْدَ هلاكِ أوائِلِكُمْ، فَيَدُلُّ ذلكَ أنهُ واحدٌ لا عدَدٌ؛ إذْ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَكانَ إذا أجابَ هذا، وكَشَفَ السُّوءَ، رَدًّا][1] الآخَرُ، ومَنَعَ. فَدَلَّ بَقاءُ ذلكَ كلِّهِ واتِّساقُ الأمرِ أنهُ واحدٌ، لا شَريكَ لهُ.

فهذا على التَّثْويَةِ، والأوَّلُ على المُشركِينَ غَيرَهُ في العِبادةِ لهُ وتَسْمِيَةِ الإلهيَّةِ [وهو قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي لا إلهَ مَعَ اللهِ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

الآية ٦٣ وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ على الوجوهِ التي ذَكَرْناها.

الآية ٦٤ وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مَنْ يَقْدِرُ على ما تقدَّمَ ذِكْرُهُ يَمْلِكُ البَعْثَ بَعْدَ الموتِ [والإحياءَ. ومَنْ يَقدِرُ أنْ يَرْزُقَ الخَلْقَ كلَّهُ؟][2] يُلْزِمُهُمُ البَعْثَ بهذا، أي مَنْ يُقْدِرُ هذا يُقْدِّرُ ما ذَكَرَ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي لا إلهَ معَ اللهِ، بلِ اللهُ المُتَفَرِّدُ بذلكَ دونَ مَنْ يَعْبدونَ، ويُشركونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي مَنْ لَجَّ في هذا، أو أنْكرَ ذلكَ، ادَّعى الشِّرْكَ فيهِ لِغَيرِهِ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالَتِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُشْرًۢا﴾ مِنَ البِشارةِ [ومَنْ قَرَأَ نُشُراً ونُشْراً ونَشْراً بالنونِ فهو][3] مِنَ التَّفريقِ والرَّفْعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَخلُفونَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الأُمَمِ.

قالَ أبو معاذٍ: وَواحِدُ الخُلَفاءِ خَليفٌ، وَواحِدُ الخَلائِفِ خَليفةٌ، والخَليفُ مِنَ الخالِفِ كالعَليمِ مِنَ العالِمِ. وقولُهُ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَفْعَلُ ذلكَ بكُمْ: يَرْزُقُكُمْ، ويُنْزِلُ لكُمْ مِنَ السماءِ ماءً، ويُنْبِتُ مِنَ الأرضِ ما تأكلونَ، وتَرْعى أنعامُكُمْ. أوَ مَعَ اللهِ إلهٌ، يَهْديكُمْ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ، ويُرْسِلُ لكُمُ الريحَ بُشْراً، أو يُجيبُ المُضْطَرَّ، ويَكْشِفُ السُّوءَ عنهُ، وَكُلُّ ما ذَكَرَ؟ أي ليسَ معهُ إلهٌ سِواهُ. بلِ اللهُ يَفْعَلُ ذلكَ كلَّهُ بكمْ، فكيفَ أشْرَكْتُمْ غَيرَهُ في إلهِيَّتِهِ وعِبادَتِهِ على عِلْمٍ منكُمْ أنَّ الذي تَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ، لا يَمْلِكُ شيئاً: أنْ يَفْعَلَ ذلكَ بكُمْ؟ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وقِلَّةَ بَصَرِهِمْ ومَعْرِفَتِهِمْ.

ثم قالَ[4]: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أنَّ مَعَ اللهِ إلهاً فَعَلَ ذلكَ بكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الآية ٦٥ وقولُهُ[5] تعالى: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ، لرسولِهِ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾ [أحدٌ][6] مِمَّنْ تَعْبُدونَ مِنْ أهلِ السمواتِ ومَنْ في الأرضِ ﴿ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأنَّ بعضَهُمْ كانَ يَعْبُدُ أهلَ السمواتِ، وهُمُ الملائكةُ، وبعضُهُمْ كانوا يَعْبدونَ مَنْ في الأرضِ. يقولُ: لا يَعْلَمُ [أحدٌ][7] مِمَّنْ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ: مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغَيْبَ. إنما يَعْلَمُ الغَيبَ اللهُ.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: وإحياءه. (٣) في الأصل: ونشرا من النون، في م: ونشرا بالنون، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٦٤. (٤) الضمير يعود على أبي معاذ. (٥) في الأصل وم: ثم قال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ثم قولُهُ: ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما يَغيبُ بعضُهُمْ عنْ بَعْضٍ فهو يَعْلَمُ ذلكَ.

والثاني: لا يَعْلَمُ الغَيبَ إلّا اللهُ، أي ما كانَ، وما يكونُ إلى أبَدِ الآبِدينَ، لا يَعْلَمُ ذلكَ إلّا اللهُ. وإذا عَلِموا عَلِموا ذلكَ [مِنَ اللهِ تعالى][1].

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الغَيبَ إلى البَعْثِ والساعةِ، يقولُ: لا يَعْلَمُ الساعةَ أحدٌ مَتَى تكونُ إلّا اللهُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: وما يَشْعُرُ أهْلُ مكةَ مَتَى يُبْعَثونَ؟ لكنْ لو كانَ الجَهْلُ عنْ وقْتِ البَعْثِ فأهْلُ مكةَ وغَيرُهُمْ مِنْ أهْلِ السمواتِ والأرضِ في جَهْلِهِمْ بِوَقْتِ البعثِ شَرْعاً سَواءٌ، لا أحَدَ يَعْلَمُ مِنْ أهلِ السمواتِ والأرضِ أنهُ مَتَى يُبْعَثُ؟ إلّا أنْ تكونَ الآيةُ في مُنْكِرِ البَعْثِ، فحينئذٍ جائزٌ صَرْفُهُ إلى بَعْضٍ دونَ بَعْضٍ.

فأمّا في وَقْتِ البَعْثِ فالناسُ في جَهْلِهِمْ بوقْتِ البَعْثِ سَواءٌ، وهو ما قالَ في [آيةٍ][2] أُخرَى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧ والنازعات: ٤٢] أخْبَرَ أنهُ لم يَطَّلِعْ أحدٌ على عِلْمِ ذلكَ عندَ اللهِ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ اخْتُلِفَ في قراءَتِهِ وتأويلِهِ. أمّا القراءةُ[3] فإنهُ قَرَأَ بعضُهُمْ ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ بالتَّشديدِ والألِفِ، وقَرَأَ بعضُهُمْ: بلْ أدْرَكَ بإسقاطِ الألِفِ والتَّشديدِ، وقَرَأَ بعضُهُمْ: بَلَى بإثباتِ الياءِ في بَلَى وعلى الوَقْفِ عليها، و: أَدَّارَكَ على الِاسْتِفهامِ: بَلَى. أَدَّارَكَ؟

ومنهمْ مَنْ قَرَأَ على الِاسْتِفهامِ: بَلَ ادَّارَكَ على غَيرِ إثباتِ الياءِ في حَرْفِ: بَل وعلى غَيرِ قَطْعٍ منهُ؟

فَمَنْ قَرَأَ: ادَّارَكَ بالتَّشديدِ على غَيرِ الِاسْتِفْهامِ فيقولُ: مَعناهُ: تَدارَكَ، واجْتَمَعَ، أي تَدارَكَ علمُهُمْ في الآخِرَةِ. يقولُ: أبَلَغَ[4] عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ؟ أي لم يَدْرِكْ، ولم يَبْلُغْ [في الدنيا][5] ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ بِسَفَهِهِمْ[6] وبِجَهْلِهِمْ. يقولُ: ما بَلَغَ عِلْمُهُمْ بالآخِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: بَلِ ادَّرَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ؟ أي أمِ ادَّرَكَ عِلْمُهُمْ؟ وقالَ بعضُهُمْ: بلْ أدْرَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ، أي غابَ عِلْمُهُمْ عنِ الآخِرَةِ، وأدْرَكَ في الآخِرَةِ حينَ لم يَنْفَعْهُمْ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][7] قالَ: بل ادَّرَكَ عِلْمُهُمْ [أي اضْمَحَلَّ][8] وذَهَبَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ وغَيرِهِ [أنهمْ][9] قالوا: بلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ [بلِ اجْتَمَعَ علمُهُمْ بأنَّ الآخِرَةَ][10] كائنةٌ، وهم مُشْرِكو العَرَبِ ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ قالَ: يقولونَ مَرَّةً: الآخِرَةُ كائنةٌ، ثم يَشُكُّونَ فيها، فَيَقولونَ: ما نَدْري أكائنةٌ هي أمْ لا ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ يعني: جَهَلَةٌ بها.

وجائزٌ أنْ يُسَمّى الشاكُّ في شيءٍ أعمى[11].

وأبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ يَقولانِ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ﴾ أي تَدارَكَ ظَنُّهُمْ في الآخِرَةِ، وتتابَعَ بالقولِ[12] ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ اي مِنْ عِلْمِها.

وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ أهلِ الأدبِ: لا تَسْتَقيمُ قِراءةُ مَنْ قَرَأَ بإثباتِ الياءِ في بَلَى والصِّلَةِ بالأوَّلِ؛ لأنَّ بَلَى بالياءِ إنما يُقالُ في الإيجابِ والإثباتِ، وما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ، هو على الإنكارِ والنَّفْيِ، وذلكَ غيرُ مُسْتَقيمٍ في اللغةِ والكلامِ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ كأنهمْ قالوا ذلكَ لأحَدِ وجهَينِ: إمّا اسْتِهْزاءً بما يُخْبِرُهُمُ الرُّسُلُ أنكمْ تُبْعَثونَ، أو قالوا ذلكَ احْتِجاجاً؛ احْتَجُّوا بهِ على الرُّسُلِ بقولِهِمُ الذي قالوا:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧. (٤) في الأصل وم: أبلغ. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ليفهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: عميا. (١٢) في م: في القول.

الآية ٦٨ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يحتجُّونَ، فيقولونَ: لقد وُعِدَ[1] آباؤُنا بالبَعْثِ كما وُعِدْنا نَحْنُ، ثم لم نَرَهُمْ بُعِثوا مُنْذُ ماتوا. فَعَلَى ذلكَ نَحْنُ وإنْ وُعِدْنا فلا نُبعَثُ كما لم يُبْعَثْ آباؤُنا.

الآية ٦٩ وقولُهُ[2] تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعْلَمُ: لو سِرْتُمْ، فَنَظَرْتُمْ إلى ما حَلَّ بِمُكَذِّبي الرُّسُلِ مِنَ العذابِ، والرُّسُلُ إنما كانوا يَدْعونَ إلى توحيدِ اللهِ والإقرارِ بالبَعْثِ بَعْدَ الموتِ، فَعَلَى[3] ذلكَ يَنْزِلُ بكُمْ ما أُنْزِلَ بأولئكَ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ بالبَعْثِ وغَيرِهِ.

فيكونُ قولُهُ: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليسَ على حقيقةِ الأمْرِ بالسَّيرِ، ولكنْ على ما ذَكَرْنا، أي لو سِرْتُمْ لَعَرَفْتُمْ ما حَلَّ بهمْ بِتَكْذيبِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ[4] أنْ يكونَ الأمْرُ بالسَّيرِ في الأرضِ أمْراً بالتَّفَكُّرِ في ما نَزَلَ بأولئكَ، والأمْرُ/ ٣٩٢ ـ ب/ بالنَّظَرِ في عاقبةِ أمْرِهِمْ أمْراً[5] بالاعْتِبارِ فيهِمْ. وفي أمْرِ أولئكَ أمْرَ بهذا لِيَزْجُرَهُمْ ذلكَ عن مثلِ صَنيعِهِمْ وفِعْلِهِمْ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بما يَحُلُّ بهمْ مِنَ العذابِ إنْ لم يَحْزَنوا هُمْ على أنفسِهِمْ، ولم يَرْحَموها.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إنْ لم يُسْلِموا كقولِهِ[6]: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وكقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وأمثالُ ذلكَ.

كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ، وتَتْلَفُ إشفاقاً عليهِمْ بما يَنْزِلُ بهمْ بِتَرْكِهِمُ الإسلامَ، فقالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [وقالَ][7] ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] ليسَ على النَّهْيِ، ولكنْ على تَسْكينِ نفسِهِ وتَقْريرِها على ما هي عليهِ لئلا تَتْلَفَ، وتَهْلِكَ. وهو ما قالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا﴾ يَسْتَهْزِئونَ بكمْ، ويَسْخَرونَ، بما تُوعِدُهُمْ مِنَ العذابِ والهَلاكِ.

ألَا تَرَى أنهمْ قالوا على إثْرِ ذلكَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ [النمل: ٧١] قالوا ذلكَ لهُ استِهْزاءً بما يوعِدُهُمْ.

فكأنهُ قالَ لرسولِهِ: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا﴾ يَسْتَهْزِئونَ بما تُوعِدُهُمْ فإنَّ اللهَ يَجْزيهِمْ جزاءَ اسْتِهْزائِهِمْ بكمْ.

والثاني: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي مِمّا يُريدونَ، ويَهُمّونَ بِقَتْلِكَ، فإنَّ اللهَ يَحْفَظُكَ، ويَحوطُكَ، فلا يَصِلونَ إليكَ ممّا يُريدونَ مِنْ قَتْلِكَ وإهلاكِكَ، وهو ما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ حينَ[8] أمَّنَهُ، وأخْبَرَهُ أنهُ يَحْفَظُهُ، ويَعْصِمُهُ مِنْ جَميعِ الأعداءِ، وهو بَينَ أظْهُرِهِمْ. فَتِلْكَ آيةٌ مِنْ آياتِ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهمْ إنما يقولونَ ذلكَ استِهْزاءً وتكذيباً بما كانَ يُوعِدُهُمْ مِنَ العذابِ بِتَكْذيبِهِمْ إيّاهُ. ثم كانَ يُوعِدُهُمْ مَرَّةً بعذابٍ يَنْزِلُ بهمْ في الدنيا كما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ، ومَرَّةً يُوعِدُهُمْ بعذابٍ يَنْزِلُ بهمْ في الآخرةِ، فَيُكَذِّبونَهُ في ذلكَ كلِّهِ، ويَسْتَهْزِئونَ بهِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. وكذلكَ قالَ أوائِلُهُمْ لِرُسُلِهِمْ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

الآية ٧٢ وقولُهُ[9] تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ بَعْدَ هذهِ الحالِ وبَعْدَ هذا القَولِ الذي قالوا: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي يَنْزِلُ بكُمْ بَعْدَ هذهِ الحالِ بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلونَ، وهو العذابُ. وقولُهُ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ أي يَدْنو منكمْ، ويَقْرُبُ.

---

(١) في الأصل وم: وعدنا. (٢) في الأصل وم: ثم قال. (٣) في الأصل وم: فكل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أمر. (٦) من م، في الأصل: لقوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ثم قال.

والثاني: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ بَعْدَ الحُزْنِ والمَكْروهِ الذي يَحُلُّ بكُمْ بالموتِ ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو عذابُ القَبْرِ، لأنهمْ وَقْتَ المَوتِ يَحْزنونَ، ويَكْرَهونَ، لِما شاهَدُوا، وعايَنوا مِنْ حالِهِمْ. ولذلكَ يَسْألونَ رَبَّهُمُ الرُّجوعَ والرَّدَّ إلى المِحْنَةِ ثانياً نَحْوَ قولِهِمْ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] وقولِهِمْ: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] ونَحْوَهُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وجوهاً:

أحدُها: ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ في تأخيرِ العذابِ عنهمْ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلكَ الفَضْلَ، ولكنْ يَسْتَعْجِلونَ.

والثاني: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في دينِهِمْ في بَعْثِهِ وإرسالِهِ إليهِمْ مَنْ يَزْجُرُهُمْ، ويَصْرِفُهُمْ عمّا يَسْتَوجِبونَ مِنْ عذابِ اللهِ ومَقْتِهِ، وهو الرسولُ. لكنهمْ لا [يَعْتَرِفونَ بهذا][1] الفَضْلِ، ولا يَشْكُرونَهُ، بل يُعانِدونَهُ، ويُكابِرونَهُ.

والثالثُ[2]: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في ما أَنْعَمَ عليهِمْ في أموالِهِمْ وأنفسِهِمْ. لكنَّهُمْ لا يَشْكُرونَ في ذلكَ، بل يَصْرِفونَ شُكْرَهُ إلى غَيرِ المُنْعِمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما تُكِنّونَ أنتمْ في صدورِكُمْ، وتُسِرّونَ فيها، وما تُعْلِنونَ أي ما تُبْدونَ، وتُظْهِرونَ منها[3]. يَعْلَمُ ذلكَ كلَّهُ.

والثاني[4]: ما تُكِنُّ صُدورُهُمْ، أي ما تُخْفي أنفسُ الصُّدورِ، وتُسِرُّ فيها ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما تَحْمِلُ الصدورُ أصحابَها على إبداءِ ما فيها وإظهارِهِ، وهو ما ذُكِرَ في الخَبَرِ حينَ[5] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ في الإنسانِ مُضْغَةً؛ إذا صَلَحَتْ صَلَحَ جميعُ بدَنِهِ» [البخاري ٥٢٠] وهو القَلْبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ممّا كانَ، ويكونُ أبَدَ الآبِدينَ إلّا كانَ مُبَيَّناً ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ يُخْبِرُ أنهُ كانَ، ولم[6] يَزَلْ عالماً بما كانَ منهُمْ [ويكونُ][7] أبَدَ الآبِدينَ، وأنهُ عَنْ عِلْمٍ بأفعالِهِمْ وصَنيعِهِمْ؛ خَلَقَهُمْ، وأنْشأَهُمْ، لا عَنْ جَهْلٍ وغَفْلَةٍ.

والثاني: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما مِنْ غائبةٍ عنِ الخَلْقِ: ما يَغيبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ويُسِرُّ بَعْضُهُمْ [مِنْ بَعْضٍ][8] إلّا كانَ ذلكَ ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إلّا كانَ ذلكَ عندَ اللهِ مَحفوظاً مَرقوباً، يُنَبِّهُهُمْ ليكونوا على حَذَرٍ يقولُ: إن ما يَغيبُ بعضُهُمْ على بعضٍ فإنه عندَ اللهِ محفوظٌ رقيبٌ، لا [يَغيبُ][9] عنهُ شيءٌ، كقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] واللهُ المُوَفِّقُ.

قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] أي أعْجَلَ لكُمْ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مَقطوعٌ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كأنهُ قالَ: يَقُصُّ على بني إسرائيلَ، أي يُبَيِّنُ لهمْ. ثم قالَ على الاِسْتِئْنافِ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: لا، ولكنْ هو موصولٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ أي يُبَيِّنُ ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ﴾ ممّا اخْتَلفوا فيهِ.

فإنْ كانَ على ما يقولُ هذا فهمْ بأنفسِهِمْ يُبَيِّنونَ الاِخْتِلافَ الذي همْ فيه، لا يَحْتاجونَ[10] إلى أنْ يُبَيِّنَ القرآنُ الذي هُمْ فيهِ يَخْتَلِفونَ إذْ هُمْ يُبَيِّنونَ ما اخْتَلَفوا فيهِ.

---

(١) في الأصل وم: يعرفون هذا. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بعضا. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: يحتاج.

ولكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ هذا القرآنَ يُبيِّنُ لهمُ الحُكْمَ في أكثَرِ ما يَختلِفونَ فيهِ، أو يُبيِّنُ لهمُ الحَقَّ في أكثَرِ ما يَختلِفونَ فيهِ.

وفي ظاهرِ الآيةِ أنهُ يُبيِّنُ لَهُمْ ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وأنهُ[1] قد بَقِيَ شيءٌ ممّا اختلَفوا فيهِ لم يُبيِّنْ حينَ[2] قالَ: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

لكنَّ قولَهُ: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يُبيِّنُ لهمْ ما فيهِ نَصُّ القرآنِ، ولم يُبيِّنْ لهمْ ما فيهِ دليلُ القرآنِ، أو يُبيِّنُ لهمْ ما فيهِ نَصُّ القرآنِ، ولم يُبيِّنْ ما فيهِ سُنَّةُ القرآنِ ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآنَ الذي ذَكَرَ ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هُدًى ورَحْمَةٌ، أي هُدًى مِنَ الضَّلالَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ في الدنيا، وعَمِلَ بِهِ، ورَحْمَةٌ في رَفْعِ العذابِ عنهُمْ في الآخِرَةِ، فيكونُ هو هُدًى ورَحْمَةً لِمَنْ آمَنَ بِهِ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ حُكْمُهُ هو عَدْلُهُ. كأنهُ يقولُ: إنَّ رَبَّكَ يَقْضي بينَهُمْ بِعَدْلِهِ؛ لا يَجورُ، ولا يَظْلِمُ في الحُكْمِ والقَضاءِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ العَزيزُ: الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، العَليمُ: الذي لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، عَزيزٌ بِذاتِهِ، عالِمٌ بِذاتِهِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي تَوَكَّلْ على اللهِ، واعتَمِدْ عليهِ، ولا تَخَفْ مَكْرَهُمْ وما يُريدونَ، ويَقْصِدونَ أنْ يكيدوا بكَ، كقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ/ ٣٩٣ - أ/ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ لأنَّ مَعَكَ حُجَجاً[3] وبَراهينَ، ليسَ معَ أولئكَ حُجَجٌ وبراهينُ، [وإنْ][4]كانَ كلٌّ منهمْ يقولُ: أنا على الحَقِّ، فأنتَ على الحَقِّ المُبينِ، لا هُمْ، لأنَّ مَعَكَ حُجَجاً[5] وبراهينَ [أنَّ][6] الذي أنتَ عليهِ حَقٌّ، وأنَّ الذي هُمْ عليهِ باطلٌ، ليسَ بِحَقٍّ.

الآية ٨٠ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: بَلَغَنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نادَى يومَ بَدْرٍ: يا فُلانُ، ويا فُلانُ، وهُمْ قَتْلَى بَعْدَما أَمَرَ أنْ يُجمَعُوا في قُلَيبٍ، هل وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حقًّا؟ ألم تُكَذِّبوا نَبِيَّكُمْ، وتَكْفُروا بربِّكُمْ[8]، وتَقْطَعوا أرحامَكُمْ. فأنزَلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾.

لكنْ عندَنا أنَّ اللهَ تعالى سَمَّى [الكَفَرَةَ مَوتَى][9] في غيرِ آيةٍ[10] مِنَ القرآنِ لِما لم يُجهِدوا أنفُسَهُمْ في عِبادةِ [اللهِ][11] ولا استَعْمَلوها في طاعَتِهِ. فهمْ كالمَوتَى، وسَمّاهُمْ صُمًّا لِما لم يَسْمَعوا الحَقَّ، ولم يَقْبَلوهُ، وسَمّاهُمْ بُكْماً لِما لم يَنطِقوا بالحَقِّ، ولا تَكَلَّموا بِهِ، وسَمّاهُمْ عُمْياً لِما لم يَبْصُروا الحَقَّ، وسَمّاهُمْ مَوتى لِما لم يَستَعْمِلوا أيديَهُمْ في الحَقِّ. فَنَفَى عنهمْ هذهِ الحواسَّ لِما لم يَنتَفِعوا بهذهِ الحواسِّ، ولا استَعْمَلوها في ما أُنشِئَتْ، وخُلِقَتْ، وإنْ كانَتْ لهمْ هذهِ الحواسُّ.

فَعَلَى ذلكَ سَمّاهُمْ مَوتَى وهَلْكَى، وفي مَوضِعٍ آخَرَ شَبَّهَهُمْ بالأنعامِ، وأخبَرَ أنهمْ ﴿أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لِما لَمْ يَستَعْمِلوا أنفُسَهُمْ في ما أُنشِئَتْ هي لهُ، ولم يَنتَفِعوا بها.

فإنْ قيلَ: ما مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ لا يَقدِرُ على أنْ يُسمِعَ الصُّمَّ، إذا وَلَّوا مُدْبِرينَ، ولا يَقدِرُ على أنْ يُسْمِعَ الصُّمَّ، وإنْ أَتَوا مُقْبِلينَ، ولم يُوَلُّوا؟ قيلَ: مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ صاروا صُمًّا، لا يَنتَفِعونَ بما سَمِعوا لإعراضِهِمْ وتَرْكِ مَكانِ[12] النَّظَرِ فيهِ، ولو أقبَلوا إليهِ لانتَفَعوا بِهِ، فَيَصيرُ مُسْمِعاً لهمْ؛ يُخبِرُ عن شِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ أنهمْ كالصُّمِّ المُدْبِرينَ، لا يُمكِنُ إسماعُهُمْ وتَفْهيمُهُمْ بِجَهْدٍ: بالإشارةِ والإيماءِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ وفي بَعْضِ القراءاتِ: وما أنتَ تَهْدي العُمْيَ عنْ

---

(١) الواو ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حجج. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) من الأصل وم: حجج. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: ربكم. (٩) في الأصل وم: الكافر ميتا. (١٠) في الأصل وم: آي. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: المكان.

ضلالَتِهِمْ[١]. هذا يَدُلُّ أنْ ليس كلُّ الهُدَى البيانَ على ما قالتِ المُعْتَزِلَةُ لأنهُ لو كانَ الهُدَى كلُّهُ بياناً في جميعِ المَواضِعِ على ما قالوا هُمْ لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقْدِرُ أنْ يُبيِّنَ [لِلْكَفَرَةِ ضَلالَهُمْ][٢] وقد بَيَّنَ لهمْ.

ثم أخبَرَ رسولَهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ فدَلَّ هذا أنَّ عندَ اللهِ هدايةً ولُطفاً لو[٣] سألوهُ، وطَلَبوا منهُ ذلكَ، فأعطاهُمْ، لَاهْتَدَوا، وآمَنوا. فهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ما تُسْمِعُ إلّا أهلَ الإيمانِ بالآياتِ وأهلَ الإسلامِ منهمْ. فأمّا أهلُ العِنادِ والمُكابَرَةِ فلا.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إذا وَقَعَتِ الحُجَّةُ عليهِمْ، ولَزِمَتْ، فكَذَّبوها ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾. وقالَ بعضُهُم: وإذا وَقَعَتِ السُّخْطَةُ والغَضَبُ عليهِمْ أخرَجْنا لهمْ دابَّةً. وقالَ قائلونَ: إذا وَقَعَ القولُ عليهم، أي إذا بَلَغوا في الكُفْرِ حَدًّا يَعْلَمُ اللهُ أنهمْ لا يُؤمِنونَ أبداً بَعْدَ ذلكَ أخرَجْنا لهمْ دابَّةً.

لكنْ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ أنَّ هذا، لا يَصِحُّ، ولا يَجوزُ، لأنَّ[٤] اللهَ ﷻ لم يَزَلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ منهمْ أبدَ الآبِدينَ. فليسَ عِلْمُهُ بأحوالِهِمْ بما يكونُ منهُمْ إذا بَلَغوا ذلكَ الحَدَّ، بل لم يَزَلْ عالِماً بما يكونُ منهمْ.

وهذا الحَرْفُ الذي يقولُ هذا القائلُ يُومِئُ إلى أنهُ إنما يَعْلَمُ ذلكَ منهمْ إذا بَلَغوا ذلكَ الحَدَّ، وقبلَ ذلكَ لا. فهو قبيحٌ.

وقولُ مَنْ قالَ: إذا وَقَعَتِ الحُجَّةُ عليهِمْ فلا يُحْتَمَلُ أيضاً، لأنَّ الحُجَّةَ قد كانَتْ قامَتْ قَبْلَ ذلكَ الوقْتِ. وليستْ تقومُ الحُجَّةُ عليهِمْ في ذلكَ الوقْتِ.

فيكونُ التأويلُ أحَدَ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ما ذَكَرْنا مِنْ وقوعِ العذابِ ووجوبِ العُقوبةِ والسُّخْطَةِ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [الأحقاف: ١٨] أي العذابُ وَجَبَ عليهِمْ.

والثاني: أي وإذا أتى وقتُ خُروجِ الدابَّةِ التي وَعَدْنا لهمْ أنها تَخْرُجُ أخرَجْناها[٥] لهمْ في ذلكَ الوقْتِ، أي لا يَتَقَدَّمُ خروجُها عنِ الوقْتِ المَوْعودِ، ولا يَتأخَّرُ، كقولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وهكذا كلُّ شيءٍ جَعَلَ اللهُ لظهورِهِ[٦] وكونِهِ وقتاً، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتأخَّرُ ذلكَ الوقتُ. هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلُ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ قراءةُ العامَّةِ بالتَّشديدِ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ مِنَ التَّكليمِ والتَّحديثِ[٧]، وكذلكَ في بَعْضِ الحروفِ: تَحَدِّثُهُمْ وتُنَبِّئُهُمْ، وقد قُرِئَ: تَكْلِمُهُمْ بالتَّخفيفِ[٨]، وهو مِنَ الجراحةِ، وهو ما ذُكِرَ في الأخبارِ والقِصصِ أنَّ الدابَّةَ إذا خَرَجَتْ تَجْرَحُ الكافِرَ، وتَسِمُهُ بِسِمَةٍ وعلامةٍ حتى يُعْرَفَ الكافرُ مِنَ المؤمِنِ، فيُقالُ: يا مُؤمِنُ، ويا كافِرُ. وسُئِلَ ابْنُ عباسٍ عنْ ذلكَ، وقالَ: تُكَلِّمُ المؤمنَ، وتُحَدِّثُهُ، وتَجْرَحُ الكافِرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ وتأويلِهِ.

[قَرَأَ بعضُهُمْ][٩]: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بِنَصْبِ الألِفِ، و: إنَّ الناسَ بِكَسْرِها. فَمَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ جَعَلَ ذلكَ القولَ مِنَ الدابَّةِ، ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧٠. (٢) في الأصل وم: للكافر عن ضلالتهم. (٣) في الأصل وم: إذا. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: أخرجنا. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: والتحديد. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧٠ و/ ٣٧١. (٩) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: تقولُ الدابّةُ: إنَّ الناسَ كانوا بي وبِخُروجي لِما وَعَدَهُ لا يوقِنونَ.

[والثاني: أنها تُخبِرُ مِنَ اللهِ، وتُنبِئُ، أنَّ الناسَ كانوا بالدابّةِ وبِغَيرِها مِنَ الآياتِ لا يوقِنونَ][1].

ومَنْ قَرَأَ بالخَفضِ[2]: إنَّ الناسَ... يَجْعَلُ ذلكَ القولَ مِنَ اللهِ ابْتِداءَ إخبارٍ. إنهمْ كانوا، لا يَزالونَ لا يوقِنونَ. وفي خروجِ الدابّةِ أعظَمُ آياتٍ في إثباتِ رسالةِ رسولِ اللهِ ﷺ ونُبُوَّتِهِ، لأنهُ أخبَرَ أنها تَخرُجُ في وقْتٍ كذا، فَتَخرُجُ على ما أخبَرَ في ذلكَ الوقْتِ على الوَصْفِ الذي وَصَفَ، فَيَدُلُّهُمْ على صِدْقِهِ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ يُجْمَعُ القادةُ منهمْ والأتباعُ والمتبوعونَ، فَيُساقونَ إلى النارِ جميعاً كقولِهِ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وكقولِهِ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الزمر: ٧١] وكقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩].

قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يُحْبَسُ أوَّلُهُمْ على آخِرِهِمْ حتى يَجْتَمِعوا. وقد ذَكَرْنا الوَزْعَ في ما تَقَدَّمَ وما قيلَ فيهِ[3].

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ أي حتى إذا جاؤوا جميعاً، واجْتَمَعوا، يعني الكفارَ، قالَ لهمْ: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ [وجهَينِ:

أحَدُهما:][4] أي قد أحَطتُمْ بها عِلْماً أنها آياتٌ، لكنْ كَذَّبْتُمْ، وأنكَرْتُمْ أنها آياتٌ عِناداً ومُكابَرَةً؛ إذْ يجوزُ أنْ يُتَكَلَّمَ بالنَّفْيِ على إثباتِ ضِدِّهِ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أي نَعْلَمُ بِضِدِّ ذلكَ وبِخِلافِ ما تقولونَ أنتُمْ. وذلكَ جائزٌ، في القرآنِ كثيرٌ.

والثاني[5]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ لِما لم تَتَفَكَّروا فيها، ولم تَنْظُروا إليها نَظَرَ التَّعْظيمِ والإجلالِ لكي تَعْرِفوا، وتُحيطوا[6] بها علماً أنها آياتٌ.

وإلّا لو كانَ التأويلُ على ظاهِرِ ما ذُكِرَ لكانَ لهمْ عُذْرٌ في تكذيبِها إذا لم يُحيطوا بها عِلْماً؛ إذ مَنْ لم يُحِطِ العِلْمَ بالشيءِ فَلَهُ عُذْرُ الرَّدِّ وتَرْكِ القَبولِ. لكنْ يُخَرَّجُ على الوَجْهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْتُهُما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ[7] تعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في تكذيبِ الآياتِ والأعمالِ التي عَمِلوها بلَا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ.

الآية ٨٥ [وقولُهُ تعالى][8] ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي وَجَبَ القولُ بالعَذابِ، وَوَقَعَ ما وُعِدوا مِنَ العَذابِ ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ حينَ[9] قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ونحوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي لا يَنْطِقونَ بالحُجَّةِ ممّا يكونُ لهمْ بهِ عُذْرٌ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ/ ٣٩٣ ـ ب/ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي في الليلِ والنهارِ آياتٌ لِقومٍ يُؤْمِنونَ.

ثم الآياتُ التي ذَكَرَ فيها دلالاتٌ[10] مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: دلالةُ وَحْدانِيَّتِهِ، والثانيةُ[11]: دلالةُ عِلْمِهِ وتَدْبيرِهِ وحِكْمَتِهِ، والثالثةُ[12]: دلالةُ كَرَمِهِ وجودِهِ، والرابعةُ[13]: دلالةُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ، والخامسةُ[14] دلالةُ القُدْرَةِ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ ما صارَ رَماداً وتُراباً.

أمّا دَلالةُ كَرَمِهِ وجودِهِ فما[15] جَعَلَ لهمْ في الليلِ والنهارِ مَنافِعَ تَدومُ ما داموا هُمْ. ثم تلكَ المَنافِعُ تكونُ مِنْ وجهَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧١. (٣) في تفسير الآية ١٧ من السورة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: وأحطتم. (٧) في الأصل وم: ثم قال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: تكون. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أحَدُهما: جَعْلُ النهارِ لِلتَّقَلُّبِ فيهِ والتَّصَرُّفِ لِمَعاشِهِمْ وما بِهِ قِوامُ دُنياهُمْ، وجَعْلُ الليلِ راحةً لهمْ وسُكوناً. ولو جَعَلَهُما جميعاً لِلتَّقَلُّبِ ما قامَ بِهِ مَعاشُهُمْ وما بِهِ قِوامُ أنفسِهِمْ وأبدانِهِمْ أبداً، لأنهُ لا يَلْتَئِمُ ذلكَ إلّا بالرّاحةِ، ولو جَعَلَهُما جميعاً لِلرّاحةِ لم يَقُمْ أمرُ مَعاشِهِمْ. فَمِنْ رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ جَعَلَ أحَدَهما لِلرّاحةِ والآخَرَ لِلتَّقَلُّبِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

الثاني: مِنَ النِّعْمَةِ التي ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ الذي لِلتَّقَلُّبِ إنما جَعَلَ ذلكَ لِلْكُلِّ لا لِلْبَعْضِ دونَ البَعْضِ، وكذلكَ الذي هو مَجْعولٌ للراحةِ والقَرارِ[1].

إنما [جَعَلَ ذلكَ][2] للكُلِّ لا لِقَومٍ دونَ قومٍ. ولو [لم يَجْعَلْ ذلكَ][3] لكانَ لا يقومُ أمْرُ مَعاشِهِمْ، ولا ما بِهِ تقومُ أبدانُهُمْ وأنفسُهُمْ. ولكنْ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ المَجْعولَ وقتاً للراحةِ للكُلِّ لا لِبَعْضٍ دونَ بَعْضٍ وكذلكَ المَجْعولَ لِلتَّقَلُّبِ[4] لِيَظْفَرَ المُشْتَرونَ بالباعةِ والباعةُ بالمُشْتَرينَ لِيَلْتَئِمَ أمرُ مَعاشِهِمْ ودُنْياهُمْ.

وأمّا دلالةُ وَحْدانِيَّتِهِ فما[5] جَعَلَ مَنافعَ أحَدِهِما مُتَّصِلَةً بالآخَرِ، إذْ لا يَقومُ أحَدُهُما إلّا بالآخَرِ على اختِلافِ جَوهَرِهِما لِيُعْلَمَ أنَّ مُدَبِّرَهُما ومُنْشِئَهُما واحدٌ، إذ لو كانَ عَدَداً لكانَ ما أرادَ هذا إيصالَهُ مَنَعَ الآخَرُ. فإذْ لم يكُنْ، ولكنْ جَرَيا على سَنَنٍ واحدٍ واتِّساقٍ واحدٍ. دلَّ أنهُ تَدْبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

ودلالةُ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ أنهما منذُ كانا على ميزانٍ واحدٍ وعلى تقديرٍ مِنْ غَيرِ تَغَيُّرٍ وتَبَدُّلٍ، يَقَعُ فيهما. دلَّ أنَّ لِمُنْشِئِهِما عِلْماً ذاتياً لا عِلْماً مُكْتَسَباً مُسْتَفاداً كَعِلْمِ الخَلْقِ.

وأمّا دلالةُ القُدْرَةِ والسلطانِ فَلأنهما[6] يَقْهَرانِ الخَلْقَ كُلَّهُ مِنَ الجبابِرَةِ والفراعِنَةِ، شاؤُوا، أو أبَوا، حتى إذا أرادَ واحدٌ منهمْ [أنْ يزيدَ في][7] أحَدِهِما، أو يُنْقِصَ مِنَ الآخرِ، لم يَقْدِرْ عليهِ، أو إنِ اجْتَمَعوا جميعاً على دَفْعِهِما أو دَفْعِ أحَدِهِما دونَ الآخرِ لم يَقْدِروا عليهِ. دلَّ أنَّ لِمُنْشِئِهِما قُدْرَةً وسلطاناً، إذْ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ودلالةُ القُدْرَةِ على البَعْثِ لأنهُ يُتْلِفُ أحَدَهُما، ويَذْهَبُ بِهِ حتى لا يُبْقيَ أثَرَهُ، ثم يأتي بالآخَرِ على تَقْديرِ الأوّلِ. فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ هذا بَعْدَ ذهابِ الآخرِ بِكُلِّيَّتِهِ وذهابِ أثَرِهِ [فإنهُ قادرٌ][8] على إنشاءِ الخَلْقِ بَعْدَ فَنائِهِمْ وهلاكِهِمْ، وإنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ثم لمّا جَعَلَ هذا ما ذَكَرْنا، وخَلَقَ ما خَلَقَ مِنَ المَنافِعِ التي ذَكَرْنا لهذا العالَمِ لِلْمِحْنَةِ، يأمُرُهُمْ، يَنْهاهُمْ، وجَعَلَ لهمْ عاقبةً، فيها يُثابُ مَنْ أطاعَهُ، ويُعاقَبُ مَنْ عصاهُ؛ إذْ لو لم تَكُنْ عاقبةٌ لكانَ خَلْقُهُمْ عَبَثاً، لا حِكْمَةَ فيهِ، لأنَّ مَنْ بَنى بِناءً لِلْفَناءِ والنَّقْضِ خاصَّةً لا لِعاقِبَةٍ [يَأمُلُ نَفْعَها][9] كانَ بناؤُهُ عَبَثاً [لا حِكْمَةَ فيهِ][10]. فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ الخَلْقِ لا لعاقِبَةٍ تُقْصَدُ عَبَثٌ ليسَ بِحِكْمَةٍ. والآياتُ لِمَنْ آمَنَ بها، وصَدَّقَ. فأمّا مَنْ لم يُؤمِنْ، وكَذَّبَ بها، فهي آياتٌ عليهِمْ، لا لهمْ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اخْتُلِفَ في النَّفْخِ؛ ماهو؟ وفي عَدَدِهِ. واخْتُلِفَ في الصُّورِ أيضاً؛ ماهو؟ وكيفَ هو؟

أمّا الاختِلافُ في النَّفْخِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يقولُ: ليسَ على حقيقةِ النَّفْخِ، ولكنْ إخبارٌ عنْ خِفَّةِ قِيامِ القيامةِ على اللهِ. أخْبَرَ بالنَّفْخِ عنها لأنهُ أخَفُّ شيءٍ على الخَلْقِ وأهْوَنُهُ، فأخْبَرَ بِهِ عنها، وهو ما قالَ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] شَبَّهَ أمْرَها بِلَمْحِ البَصَرِ لِما ليسَ شيءٌ أخَفَّ على المَرْءِ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ. فَعَلَى ذلكَ ذَكَرَ النَّفْخَ عندَ قِيامِها لِخِفَّتِهِ على الخَلْقِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ ذَكَرَ النَّفْخَ لِسُرْعَةِ نَفاذِ الساعةِ؛ إذْ ليسَ شيءٌ أسْرَعَ نَفاذاً مِنَ النَّفْخِ، وهو ما قالَ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾

---

(١) من م، في الأصل: والقرآن. (٢) في الأصل وم: جعله كذلك. (٣) في الأصل وم: جعل كذلك. (٤) في الأصل وم: للقلب. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: في منع. (٨) في الأصل وم: لقادر. (٩) يتأمل نفعه. (١٠) في الأصل وم: غير حكمة.

[يس: ٢٩ و...] [وقال][1] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨ و...] ذَكَرَ ذلكَ، وشَبَّهَها بالصَّيحَةِ والرَّجْفَةِ لِسُرْعَةِ نَفاذِها على ما ذَكَرْنا، وهو ما قالَ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] ليسَ أنهُ يَنْفُخُ فيهِ نَفْخاً، ولكنْ يَجْعَلُهُ[2] كأنهُ قالَ: وجَعَلْنا فيهِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ على حقيقةِ النَّفْخِ. فإنْ كانَ على هذا فهو أنْ يَمْتَحِنَ المَلَكَ مِنْ غيرِ أنْ تَقَعَ لهُ الحاجةُ إلى ذلكَ نَحْوَ ما امْتَحَنَ الكِرامَ الكاتبينَ[3] بكتابةِ أعمالِ الخَلْقِ وأفعالِهِمْ مِنْ غيرِ وُقوعِ الحاجةِ إليهِ[4] امْتِحاناً منهُ ملائكتَهُ بذلكَ. أو أنْ يكونوا أُخِذوا، إذْ هو عالمٌ بما كانَ وبما يكونُ، كيفَ يكونُ؟ ومَتَى يكونُ؟ وأيَّ شيءٍ يكونُ؟

وأمّا اخْتِلافُهُمْ في عَدَدِ النَّفْخِ، [فقد][5] قالَ قائلٌ: إنهُ واحدٌ، يَحْتَجُّ بقولِهِ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩ و...].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ بالنَّفْخَتَيْنِ، يَحْتَجُّ بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦ و٧] أخْبَرَ أنهُ يَرْدُفُ الأولَى غيرُها، ويَحْتَجُّ بقولِهِ أيضاً: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ بالنَّفَخاتِ الثَّلاثِ؛ يقولُ: الأولَى لِلْفَزَعِ، والثانيةُ لِلصَّعْقِ على ما ذَكَرَ[6] في الآيةِ، والثالثةُ لِلإحياءِ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ بالثَّلاثِ إلّا أنهُ [يَجْعَلُها كلَّها][7] بَعْدَ الموتِ: أحَدُها لِلْفَزَعِ في القُبورِ، والثانيةُ للإحياءِ فيها، والثالثةُ لِلإخراجِ منها والنَّشْرِ. ويقولُ هذا القائلُ بعذابِ أهلِ القَبْرِ مِنَ النَّفْخَةِ الثانيةِ إلى النَّفْخَةِ الثالثةِ. وعلى ذلكَ رُوِيَتْ أخبارٌ في ذلكَ. فإنْ ثَبَتَتْ فهو ذاكَ، وإلّا نَقِفُ فيهِ.

وأمّا اخْتِلافُهُمْ في الصُّورِ [فقد][8] قالَ قائلونَ: يُنْفَخُ في الخَلْقِ، والصُّورُ جمعُ صورةٍ. قالَ الزَّجّاجُ: لا يُحْتَمَلُ هذا لأنَّ الصُّورَ على سُكونِ[9] الواوِ، ليسَ هو مِنْ إفرادِ الصُّورةِ ولا مِنْ جَمْعِها، لأنَّ الفَرْدَ هو صُورةٌ بالهاءِ، وجَمْعُ الصُّورةِ صُوَرٌ بِتَحْريكِ الواوِ على ما ذَكَرَ في الآيةِ: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو قَرْنٌ يُنْفَخُ فيهِ كَقَرْنٍ كذا، أو بوقٌ كبوقٍ كذا. لكنّا لا نُفَسِّرُ شيئاً ممّا ذُكِرَ مِنَ النَّفْخِ والصُّورِ أنهُ كذا، ولا نُشيرُ إلى شيءٍ أنهُ ذا إلّا إنْ ثَبَتَ شيءٌ مِنَ التَّفْسيرِ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ فَيُقالُ بهِ، وليسَ هو بشيءٍ، يُوجِبُ العَمَلَ بهِ، فَنَتَكَلَّفُ صِحَّتَهُ أو سَقَمَهُ، إنما هو شيءٌ يجبُ التصديقُ بهِ، فَنَقولُ بالنَّفْخِ والصُّورِ على ما جاءَ، ولا نُفَسِّرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كقولِهِ[10] في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] إنما هو إخبارٌ عن شِدَّةِ هَوْلِ ذلكَ اليومِ كقولِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢] وكقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هُمُ الشهداءُ في الأرضِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الحديثِ أنهُ قالَ: «ما أُعْطِيَ آدَمِيٌّ بَعْدَ النُّبُوَّةِ أفْضَلَ مِنَ الشهادةِ» لا يَسْمَعُ الشهيدُ الفَزَعَ يومَ القيامةِ إلّا كرجلٍ قالَ لصاحِبِهِ: أتَسْمَعُ؟ قالَ: أسْمَعُ أذينَ الصلاةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمْ جبرائيلُ وإسرافيلُ مَلَكُ المَوتِ [وغيرُهما][11].

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الأنبياءُ والرُّسُلُ. لكنْ لا نقولُ نحنُ: إنَّ أهلَ الثُّنْيا هُمْ كذا، ولا نُشيرُ إلى أحدٍ، لأنا لا نَعْلَمُ ذلكَ إلّا أنْ يَثْبُتَ في ذلكَ خَبَرٌ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ فنقولَ بهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الذينَ اسْتَثْناهُمْ هُمُ[12] الذينَ أخْبَرَ عنهمْ في آخِرِ الآيةِ أنهمْ يكونونَ آمنينَ مِنْ فَزَعِ ذلكَ اليومِ وهَوْلِهِ، وهو ما قالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم/ ٣٩٤ ـ أ/ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: يجعل. (٣) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: لكن. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ذكرنا. (٧) في الأصل وم: يجعل كله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م، في الأصل: السكون. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل: عن، في م: من.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ قُرِئَ بالمَدِّ آتوهُ وتطويلِهِ وضَمّ[1] التاءِ فيهِ على مثالِ فاعِلوهُ، جَمْعُ آتٍ [كقولِهِ:][2] ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وآتوهُ جَمْعُ آتٍ، وهو مِنْ سَيأتونَ. وقرأ بعضُهُمْ: بِقَصْرِ الألِفِ ونَصْبِ التاءِ على الإتيانِ [أي][3] قد أتَوهُ. وقولُهُ تعالى: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ قيلَ: صاغِرينَ ذَليلينَ؛ دَخَرَ أي ذَلَّ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: وهي تَمُرُّ مَرَّ كذا لِكَثْرَتِها وازْدِحامِها، يَرَى الناظرُ إليها، ويَحْسَبُها كأنها جامدةٌ، وكذلكَ العَسْكَرُ العظيمُ يَحْسَبُهُ[4] الناظرُ إليهِ كأنهُ ساكنٌ جامدٌ [لِكَثْرةِ جنودِهِ][5] وازْدِحامِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الجبالُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ لشدةِ ذلكَ اليوم وهَولِهِ وفَزَعِهِ على الناسِ، يَحْسَبُونَ [الجبالَ][6] كأنها جامدةٌ ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢] لِشِدَّةِ ذلكَ اليوم وفَزَعِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ الجِبالَ لِهَولِ ذلكَ اليومِ وفَزَعِهِ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ وسَيْرَهُ كقولِهِ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

وأصْلُهُ: أنَّ ما يَذْكُرُ هذا وما تَقَدَّمَ مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِهِ على الخَلْقِ لِيَتَّعِظوا، ويَنْزَجِروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أتْقَنَ، أحْكَمَ، وأبْرَمَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَتْقَنَ﴾ أي أحْسَنَ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾.

قالَ بعضُ المُعْتَزِلَةِ: كيفَ يكونُ الكُفرُ حَسَناً، وهو قبيحٌ، لأنهُ شَتْمُ ربِّ العالَمينَ؟ ولا يَجوزُ أنْ يُقالَ: اللهُ خَلَقَ شَتْمَ نفسِهِ، وأحْسَنَ شَتْمَ نفسِهِ، أو أحْسَنَ كُفْرَ الكافِرِ وغيرَ ذلكَ مِنَ الخرافاتِ؟ فيُقالُ لهم: لا[7] يقولُ أحدٌ: إنهُ خَلَقَ الكفرَ، وأحْسَنَهُ، أو أحْسَنَ شَتْمَ نفسِهِ. على هذا الإطلاقِ، ومَنْ[8] قالَ ذلكَ فهو كافرٌ. ولكنْ نقولُ: [خَلْقُ][9] فِعْلِ الكُفْرِ مِنَ الكافِرِ قَبيحاً، وخَلْقُ فِعْلِ المَعصيةِ مِنَ العاصي قَبيحاً. لكنهُ مِنْ حيثُ خَلْقُهُ ذلكَ وجَعْلُهُ حُجَّةً عليهِ حَسَناً مُتْقَناً مُحْكَماً، وإنْ كانَ ذلكَ الفِعْلُ منهُ قبيحاً باطلاً سَفَهاً جَوراً، أعني مِنَ الكافِرِ.

ألَا تَرى أنَّ مَنْ تَكَلَّفَ أنْ يَعْرِفَ فِعْلَ الكُفْرِ منهُ سَفَهاً وجَوراً، كانَ غيرَ مَذْمومٍ؟ لأنهُ يَتَكَلَّفُ أنْ يَعْرِفَ ماهو سَفَهٌ في الحقيقةِ سَفَهاً، ويَعْرِفَ ماهو حَقٌّ حقًّا.

فهو مِنْ هذا الوجهِ عارفُ حقٍّ وحِكْمَةٍ لأنَّ الحِكْمَةَ توجبُ أنْ يَعْرِفَ كلَّ شيءٍ على ماهو في نفسِهِ حقيقةً. فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ فِعْلِ الكُفْرِ مِنَ الكافِرِ على الوجهِ الذي ذَكَرْنا، هو حَسَنٌ مُتْقَنٌ مُحْكَمٌ، وإنْ كانَ مِنْ حيثُ فِعْلُ الكافِرِ قبيحاً سَفَهاً باطلاً. وهذا كما يَصِفُهُ على الإطلاقِ أنهُ ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦ والزمر: ٦٢]. ولا نقولُ: يا خالقَ الأنجاسِ، ويا ربَّ الأقذارِ ونَحْوَهُ، وإنْ كانَ هذا داخلاً في الجملةِ أنهُ خالِقُها وربُّها، لأنهُ على الإطلاقِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ المَدْحِ لهُ والثَّناءِ، وعلى[10] التخصيصِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ الذَّمِ لهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ على إثْرِ وَصْفِ الجبالِ بما وَصَفَ مِنِ انْتِقاضِها وإفسادِها[11] وإخراجِها عنِ الصِّفَةِ التي أنْشَأَها إلى ما ذَكَرَ لم يَخْرُجْ مِنَ الإتقانِ والإحكامِ والإبرامِ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ في إفسادِ الشيءِ خُروجٌ عنِ الإتقانِ إذا كانَ ذلكَ مُحْكَمَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وَعيدٌ لهمْ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

---

(١) في الأصل وم: مضمونة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧٢. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يحسب. (٥) في الأصل وم: لكثرتهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لو. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: وإفساده.

أحدُها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ بالتَّوحيدِ توحيدِ ربِّهِ [يومَ][١] البعثِ ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾.

[والثاني][٢]: مَجيئُهُ رَبَّهُ بالتَّوحيدِ إذا خَتَمَ بهِ فَلَهُ ما ذَكَرَ؛ شَرَطَ المَجيءَ بهِ، ولم يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ كذا، لأنَّ الرجلَ، قد يَعْمَلُ بالحسناتِ، ثم يُفْسِدُها، ويُبْطِلُها، فلا يُثابُ بها عليها، لِيُعْلَمَ أنَّ ما يُنْتَفَعُ بالحَسناتِ في الآخِرةِ الحسناتُ[٣] التي خَتَمَ بها عليها، وجاءَ بها ربَّهُ.

[والثالثُ][٤]: قولُهُ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أي ما يُعْطَى في الآخِرَةِ لهُ مِنَ الثوابِ والجزاءِ إنما يكونُ مِنَ الحَسَنَةِ التي كانَتْ منهُ في الدنيا، منها تكونُ لهُ جميعُ الخَيراتِ في الآخِرَةِ.

[والرابعُ][٥]: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أي الذي أُعْطِيَ لهُ في الآخِرَةِ مِنَ الخَيراتِ خَيرٌ مِمّا تَرَكَ في الدنيا مِنَ النِّعَمِ، وصَبَرَ عليها، فذلكَ خَيرٌ مِمّا تَرَكَ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم [مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾][٦] [هود: ١١].

[والخامسُ][٧]: أي رُؤْيَةُ الرَّبِّ ولِقاؤُهُ خَيرٌ مِمّا أُعْطِيَ غيرَها مِنَ الخَيراتِ على ما يكونُ في الدنيا رُؤْيَةُ المَلِكِ ولِقاؤُهُ على الرَّعِيَّةِ أعظَمُ وأفضَلُ عندَهُمْ مِنْ غَيرِهِ مِنَ الكَراماتِ، وإنْ عَظُمَتْ، وجَلَّتْ.

[والسادسُ][٨]: ذلكَ الثوابُ والجزاءُ في الآخِرَةِ خَيرٌ مِمّا عَمِلوا بهِ مِنَ الخَيراتِ في الدنيا، لأنّ الثوابَ وجوبُهُ الفَضْلُ والرَّحْمَةُ لا الاسْتِيجابُ والاسْتِحْقاقُ؛ إذْ في الحِكْمَةِ والعَقْلِ وجوبُ العَمَلِ، وليسَ فيهما وجوبُ الثوابِ في ما هو سَبيلُهُ فَضْلُ اللهِ خَيرٌ ممّا هو غَيرُهُ.

لكنهُ عُورِضَ بأنَّ كلَّ ما كانَ سَبيلُ وجوبِهِ الحِكْمَةَ والعَقْلَ خَيرٌ ممّا كانَ سَبيلُ وجوبِهِ الإفضالَ؛ إذْ ما كانَ سَبيلُ وجوبِهِ بالحِكْمَةِ والعَقْلِ لا يَسَعُ تَرْكُهُ، وما كانَ وُجوبُهُ الإفضالَ، لهُ تَرْكُهُ. لكنهُ قالَ[٩]: إنَّ قولَهُ ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أي في طباعِكُمْ وَوَهْمِكُمْ ذلكَ الثوابُ خَيرٌ مِنْ ذلكَ، لا أنهُ في الحقيقةِ خَيرٌ. وهو كقولِهِ: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي في طباعِكُمْ.

وعندَكُمْ أنَّ إعادَةَ الشيءِ أهْوَنُ مِنِ ابْتِدائِهِ؛ إذْ ليسَ شيءٌ أهْوَنَ على اللهِ مِنْ شيءٍ.

ولكنْ عندَكُمْ أنَّ إعادَةَ الشيءِ أهْوَنُ مِنِ ابْتِدائِهِ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ أخبَرَ أنهمْ إذا أتَوا رَبَّهُمْ بالتَّوحيدِ يكونونَ آمِنينَ مِنْ فَزَعِ ذلكَ اليومِ وهَولِهِ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي بالشِّرْكِ ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ المُنْكَبُّ على الوَجْهِ، هو المُلْقَى على الوَجْهِ كقولِهِ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ما تُجْزَونَ إلّا بأعمالِكُمْ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ قولُهُ: ﴿حَرَّمَهَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[١٠]: حَرَّمَها، أي مَنَعَها مِنَ الاسْتِلابِ والاِحْتِفاظِ فيها كقولِهِ: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] ليسَ على التَّحْريمِ حتى لا يَحِلُّ لهُ ذلكَ، ولكنْ على المَنْعِ والحَظْرِ، أي مَنَعنا منهُ المَراضِعَ.

والثاني: على التَّحْريمِ نفسِهِ، وهو ما جَعَلَ لِكُلِّ[١١] أحدٍ مِنَ الكافِرِ والمُسْلِمِ في الجاهِلِيَّةِ والإسلامِ حُرْمَةَ ذلكَ المكانِ حتى لا يَتَناوَلَ أحدٌ مِنْ صَيدِ تلكَ البُقْعَةِ ومِنْ شَجَرِها وحَشيشِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ أيضاً عليكُمْ. كأنهمْ أوعَدوهُ بوَعيدٍ، وخَوَّفوهُ بهِ، وطَلَبوا منهُ المُوافَقَةَ لهُمْ. فقالَ عندَ ذلكَ لهمْ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ وهو ربُّ كلِّ شيءٍ، أي

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: الحسنة. (٤) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٥) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٦) في الأصل وم: كذا. (٧) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٩) الضمير يعود على صاحب هذا الوجه. (١٠) في الأصل م: يحتمل. (١١) في الأصل: كل.

أمِرْتُ أنْ أكونَ عبداً لهُ، لا أجْعَلَ نفسي عبداً لِغَيرِهِ، وأُمِرْتُ أيضاً أنْ أجْعَلَ نفسي سالماً لهُ، لا أجْعَلَ لأحدٍ فيها شِرْكاً كما جَعَلْتُمْ انتمْ أيضاً بذلكَ كلِّهِ، وأُمِرْتُ أيضاً أنْ أتْلُوَ القرآنَ عليكُمْ. فأنا أتْلوهُ عليكُمْ، كَذَّبْتُموني، أو لم تُكَذِّبوني فإني لا أخافُ كَيْدَكُمْ ولا مَكْرَكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ دلالةُ لُزومِ الرِّسالةِ لأنَّ أهلَ مكةَ وغَيرَهُمْ قد أقَرُّوا جميعاً بِحُرْمَةِ تلكَ البُقْعَةِ مِنْ أوائِلِهِمْ وأواخِرِهِمْ. فما عَرَفوا ذلك إلّا بالرُّسُلِ. دلَّ أنَّ أوائِلَهُمْ أقَرُّوا[1] بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ. فَعَلَى ذلكَ يَلْزَمُ هؤلاءِ الإقرارُ / ٣٩٤ ـ ب/ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ يُخْبِرُ أنَّ مَنْ آمَنَ، وقَبِلَ الهُدَى، فإنما يَفْعَلُ ذلكَ لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أيضاً فإنما يكونُ ضَرَرُهُ عليهِ كقولِهِ: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي ليسَ عليَّ إلّا الإنذارُ. فأمّا [غيرُ ذلكَ فذلكَ][2] عليكُمْ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤] وقولِهِ: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٥٢].

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: سيريهِمْ آياتِ وَحْدانِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وآياتِ رسالتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ أي الآياتِ[3] ما ذَكَرَ كقولِهِ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣].

والثاني: سَيُريهِمْ ما وَعَدَ لهمْ مِنَ النَّصْرِ والمَعونةِ لِيَعْرِفوهُ عِياناً على ما عَرَفوهُ خَبَراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[4] قالَ بعضُهُمْ: هذا الحَرْفُ توبيخٌ للظالِمِ وتَعْييرٌ وزَجْرٌ، وتَعْزِيَةٌ لِلْمَظلومِ وتَسْلِيَةٌ لهُ. وقالَ بعضُهُمْ: هذا الحَرْفُ تَرْغيبٌ وتَرْهيبٌ.

قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] أي تَبِعَكُمْ، واللامُ زائدةٌ، كأنهُ قالَ: [رَدِفَكُمْ. واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][5].

(١) في الأصل وم: يقرون. (٢) من م، في الأصل: على غير ذلك فذلك. (٣) من م، في الأصل: بالآيات. (٤) في الأصل وم: يعملون. انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧٥. (٥) من م، في الأصل: ردف لكم.

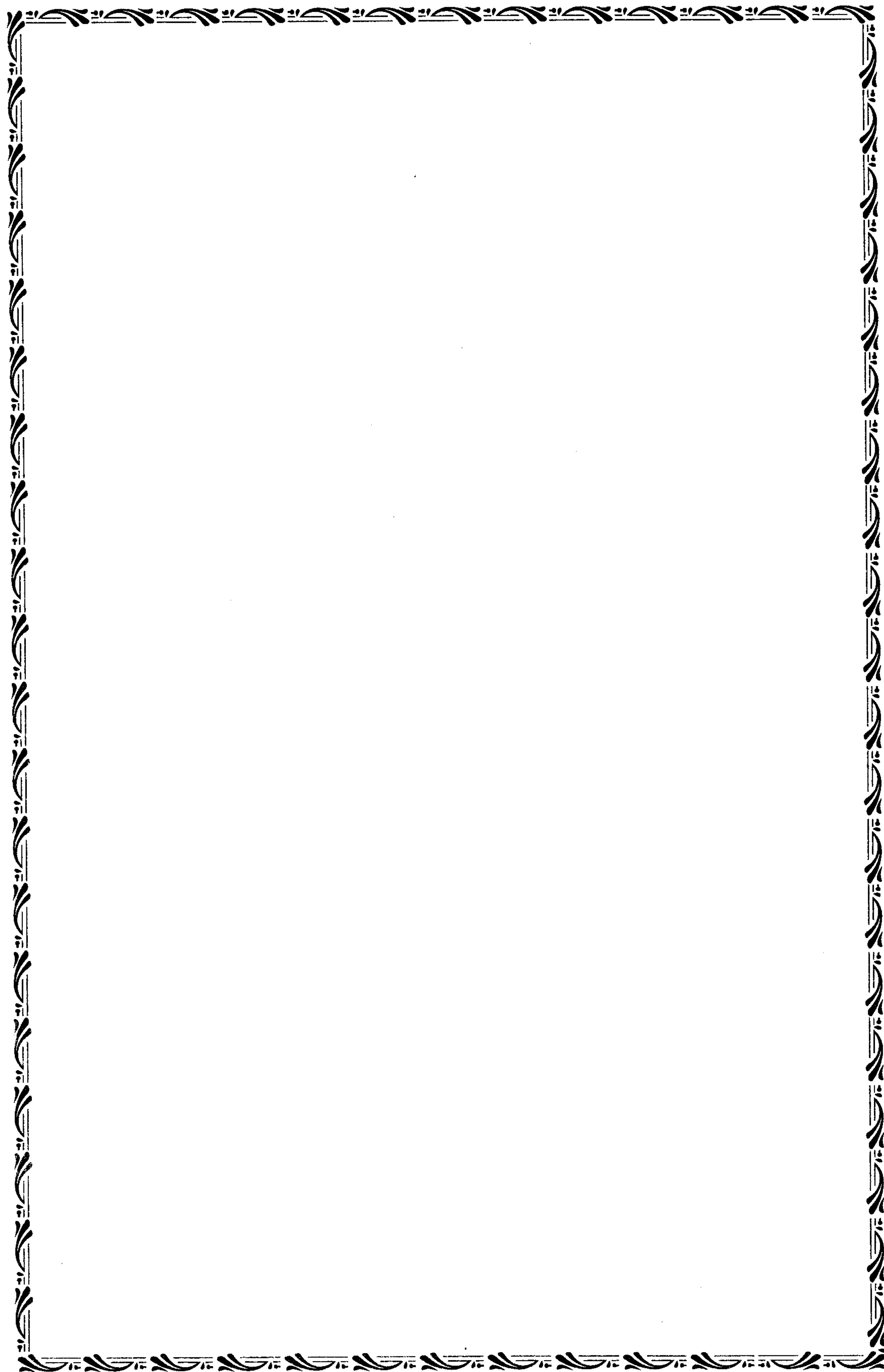

سورة القصص

[وهي مكيةٌ](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَ هذا في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضِعٍ ما يُغْني [عنْ](٢) ذِكْرِهِ في هذا المَوضِعِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ مِنْ نَبَإِ موسى وفِرْعَونَ أي مِنْ خَبَرِهِما.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصِّدْقِ، ما يُعْلَمُ أنهُ صِدْقٌ وحَقٌّ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحَقِّ الذي لِموسى على فِرْعَونَ وقَومِهِ، أو بالحَقِّ الذي عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ.

أحَدُهُما: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ لِلْمُؤْمِنينَ، لأنهمْ هُمُ المُنْتَفِعونَ بالأنباءِ وما فيها. وأمّا مَنْ لا يُؤمِنُ فلا يَنْتَفِعُ بها، فلا تكونُ [لهُ](٣).

والثاني: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالأنباءِ والكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ؛ هُمْ يَعْرِفونَ أنهُ حَقٌّ لِما في كُتُبِهِمْ ذلكَ؛ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَجَبَّرَ، واسْتَكْبَرَ، وأبَى أنْ يَخْضَعَ لِموسى ولأمثالِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بَغَى، وقَهَرَ. فيكونُ تَفسيرُهُ ماذُكِرعلى إثْرِهِ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ عُلُوُّهُ وبَغْيُهُ في الأرضِ، ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي عَلا قَدْرُهُ، وارْتَفَعَتْ رُتْبَتُهُ لِما ادَّعَى لِنَفْسِهِ الألوهِيَّةَ والرُّبوبِيَّةَ بَعْدَ ما كانَ عبداً كَسائِرِ العِبادِ أو دونَهُمْ، فَعَلا قَدْرُهُ، وارْتَفَعَتْ مَنْزِلَتُهُ بِدَعواهُ: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي غَلَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ قيلَ: فِرَقاً: يَسْتَضْعِفُ طائفةً، ويُذَبِّحُ طائفةً، ويَسْتَحْيِي طائفةً، ويُعَذِّبُ طائفةً. جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي جَعَلَ لكلِّ طائفةٍ منهمْ عِبادةَ صَنَمٍ، لم يَجْعَلْ ذلكَ لطائفةٍ أُخْرَى، وجَعَلَ طائفةً أُخْرَى على عَمَلِ أولئكَ وحوائِجِهِمْ لِيَتَفَرَّغوا لِعِبادَةِ الأصنامِ التي اسْتَعْبَدَهُمْ لَها، لأنَّ الشِّيَعَ فِرَقٌ، يَرْجِعونَ جميعاً إلى أصْلٍ واحدٍ وإلى أمْرٍ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كذلكَ كانَ، لَعَنَهُ اللهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ هذا في الظاهِرِ إخبارٌ لِرَسولِهِ أنهُ سَيَفْعَلُ ذلكَ، لا أنهُ مَنَّ عليهِمْ، وفَعَلَ ذلكَ لأنهُ(٤) يقولُ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ كذا، وقد مَنَّ عليهِمْ بذلكَ. فَهَلّا قالَ: وقدْ مَنَنّا على الذين اسْتُضْعِفوا في الأرضِ. لكنَّ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي لكنّا نريدُ في الأزلِ أنْ نَمُنَّ عليهِمْ، وأنْ نَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً، وأنْ نَجْعَلَهُمُ الوارِثينَ. وإلا الظاهرُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أنها مكية نزلت فيها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لا أنه.

أحدُهما: جَعَلَهُمْ جميعاً أئِمَّةً لنا، بهِمْ نَقْتَدِي، ونَنْقادُ لهمْ.

والثاني[1]: أي نَجْعَلُ فيهِمْ أئمَّةً وقادةً لهمْ، أي نَجْعَلُ بعضَهُمْ أئمةً لِبَعْضٍ [كقولِ ﴿مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ﴾][2] ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ [المائدة: ٢٠] والأئمّةُ المذكورةُ ههنا كأنهمْ هُمُ الأنبياءُ الذينَ ذُكِروا في هذهِ الآيةِ: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [والآيةِ التي تَليها][3]: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦].

هذا كما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧] أي يَرِثونَ الأرضَ ومُلْكَهُمْ بَعْدَ فِرْعَونَ وقومِهِ. والوارثُ هو الباقي على ما ذَكَرْنا، كأنهُ قالَ: يَبْقَونَ هُمْ في أرضِهِمْ ومُلْكِهِمْ بَعْدَ هلاكِهِمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] أي نَبْقَى نَحْنُ بَعْدَ هَلاكِ الأرضِ وهَلاكِ مَنْ عليها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ أي يَرَونَ ما كانوا يَحْذَرونَ منهُ، وهو الهَلاكُ. وذهابُ المُلْكِ هذا كانوا يَحْذَرونَ. فأراهُمْ ذلكَ، لأنهُ [كانَ][4] يُذَبِّحُ أبناءَهُمْ إشفاقاً على بَقاءِ مُلْكِهِ، ويَحْذَرُ ذَهابَهُ.

قالَ الزَّجّاجُ: إنَّ مِنْ حَماقَةِ فِرْعَونَ وقِلَّةِ عَقْلِهِ أنهُ كانَ يُذَبِّحُ أبناءَهُمْ لِقولِ الكَهَنَةِ: إنهُ يَذْهَبُ مُلْكُهُ بِغُلامٍ يُولَدُ في العامِ الذي قالوهُ فلا يَخْلُو: إمّا إنْ صَدَقوا في قولِهِمْ، فيذهَبُ مُلْكُهُ، وإنْ قَتَلَ الأبناءَ، وإمّا إنْ كَذَبوا في قولِهِمْ فلا مَعْنَى لِقَتْلِ الأبناءِ لأنهُ لا يَذْهَبُ. لكنهُ فَعَلَ ذلكَ بهمْ لِحَماقَتِهِ وسَفَهِهِ وجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالنَّجاةِ مِنْ فِرْعَونَ وآلِهِ واسْتِنْقاذِهِ إياهُمْ مِنْ يَدَيهِ ومِنْ قَتْلِ الوِلْدانِ وغَيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ التعذيبِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وجوهٌ على المعتزِلَةِ في قولِهِمْ: إنهُ ليسَ للهِ أنْ يَفْعَلَ بِعبادِهِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ [وإنْ لو][5] لم يَفْعَلْ ذلكَ كانَ جائراً.

فَيُقالُ لهمْ: لو كانَ عليهِ فِعْلُ الأصلَحِ لهمْ في دينِهِمْ على كل حالٍ لكانَ لا مَعْنَى لِذِكْرِ المِنَّةِ على الذينَ اسْتُضْعِفوا في الأرضِ في جَعْلِهِمْ أئِمَّةً وإبقائِهِمْ في أرضِهِمْ وتَمْكينِهِ إيّاهُمْ في مُلْكِهِمْ وَوِراثَتِهِمْ أموالَهُمْ لأنهُ على زَعْمِهِمْ فَعَلَ بِهِمْ ما عليهِ أنْ يَفْعَلَ أنَّ ذاكَ أصْلَحُ لهمْ في دِينِهِمْ/ ٣٩٥ ـ أ/ وكلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلاً، عليهِ ذلكَ الفِعْلُ، لا يكونُ لهُ الامْتِنانُ على المَفْعولِ بهِ ذلكَ.

فَدَلَّ ذِكْرُ المِنَّةِ في ما ذَكَرَ أنهُ فَعَلَ بهمْ على أنهُ فَعَلَ ما لم يَكُنْ عليهِ ذلكَ، ولكنهُ فَعَلَ ذلكَ مُفْضِلاً مانّاً[6]، ولهُ ألا يَفْعَلَ ذلكَ.

ويقولونَ أيضاً أنَّ إهلاكَ[7] فِرعَونَ وقومِهِ أصْلَحُ لهمْ مِنْ إبقائِهِمْ وكذلكَ إماتَةُ[8] كلِّ كافرٍ، فلم يَذْكُرْ فيهِ المِنَّةَ. دلَّ ذلكَ أنهُ ليسَ على ما يقولونَ[9] هُمْ، وأنَّ ذلكَ مَنْقوضٌ مَرْدودٌ عليهِمْ.

ويقولونَ أيضاً أنَّ الإرادةَ مِنَ اللهِ لهمْ أمْرٌ لهمْ، يأمُرُهُمْ بهِ. فلو كانَ أمْراً على ما يَزْعُمونَ لكانَ الأمْرُ منهُ قد شَمَلَ الكُلَّ، ثم لم يَصيروا جميعاً أئِمَّةً وقادةً، ولكنْ إنما صارَ بَعْضٌ دونَ بَعْضٍ.

دَلَّ أنَّ الإرادةَ غَيرُ الأمْرِ وأنهُ إذا أرادَ لأحدٍ شيئاً كانَ ما أرادَ ليسَ على ما يقولونَ: إنهُ أرادَ إيمانَ كلِّ كافرٍ، لكنهُ لم يُؤمِنْ بَعْدَما أعطاهُ جميعَ ما عندَهُ مِنَ القوةِ والعَونِ على ذلكَ حتى لم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ إلّا وقد أعطاهُ. فَدَلَّ ما ذَكَرَ على فَسادِ مَذْهَبِهِمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الوحْيَ ههنا وَحْيُ الإلهامِ

(١) في الأصل وم: أو أن يكون قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾. (٢) في الأصل وم: كقوله لموسى. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: فإن. (٦) في الأصل وم: ممتنا. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٩) من م، في الأصل: يقول.

والقَذْفِ في القَلْبِ لا وَحْيُ إرسالٍ [مِنْ غَيرِ أنْ][1] صارَتْ رَسولَةً. وذاكَ لا يَجوزُ. لكنْ يُقالُ: جائزٌ أنْ تُلْهَمَ هي إرضاعَهُ والقاؤهُ في اليَمِّ. فأمّا أنْ تُلْهَمَ ما ذَكَرَ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذا ممّا لا سَبيلَ إلى معرفتِهِ[2] وعِلْمِهِ إلّا بِتَصْريحِ قولٍ ومُشافَهَةٍ آخَرَ اللهمَّ إلّا أنْ يُقالَ إنهُ كانَ بموسى آياتُ الرسالةِ وأعلامٌ بهِ لمّا عَرَفَتْ هي تلكَ الأعلامَ والآياتِ التي كانَتْ لهُ أنهُ يُرَدُّ إليها وأنهُ يَبْقَى رسولاً إلى وَقْتٍ. وقد كانتْ بالرُّسُلِ أعلامٌ وآياتُ الرسالةِ في حالِ صِغَرِهِمْ وصِباهُمْ نَحْوُ عِيسَى حينَ[3] كَلَّمَ قومَهُ في المَهْدِ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ أنَّ محمداً لمّا وُلِدَ بالليلِ اسْتَنارتْ تلكَ الناحيةُ، واسْتَضاءَتْ بِنورِهِ حتى ظَنّوا أنَّ الشمسَ قد طَلَعَتْ ونَحْوُهُ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ بموسى أعلامٌ وآياتٌ، عَرَفَتْ أمُّهُ بها أنهُ رسولٌ وأنهُ يُرَدُّ إليها. وإنما كَلَّفَنا بهذا التَّخْريجِ قولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ وَحْيُ إلهامٍ وقَذْفٌ في القَلْبِ، لا غَيرُ.

وعندَنا جائزٌ أنْ يكونَ الوَحْيُ إليها وَحْيَ إرسالِ رسولٍ وإخبارٍ مِنْ غَيرِ أنْ صارَتْ هي بذلكَ رَسولَةً نَحْوَ ما ذُكِرَ في قصةِ مريمَ أنَّ المَلَكَ لمّا دخلَ تَعَوَّذَتْ باللهِ حينَ[4] ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٨ و١٩] وذلكَ مِنَ البِشارةِ التي بَشَّروها بالوَلَدِ. فلم تَصِرْ بما أُرسِلَ إليها مِنَ الرسلِ، وشافَهوها رَسولَةً. فَعَلَى ذلكَ أُمُّ موسى، ونَحْوَ بِشارةِ الملائكةِ لامْرأةِ إبراهيمَ بالوَلَدِ، وهو قولُهُ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ونَحْوُهُ مِمّا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ لم يَصيروا بذلكَ رُسُلاً.

فَعَلَى ذلكَ الوَحْيُ إلى أمِّ موسى يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا. وجائزٌ ذلكَ مِنْ غَيرِ أنْ صارَتْ بذلكَ رَسولَةً، وهو أَشْبَهُ وأقْرَبُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: في الآيةِ إخبارٌ[5] لأنهمْ لم يَلْتَقِطوهُ ليكونَ لهم عَدُوًّا وحَزَناً، ولكن كانَ فيهِ إضمارٌ أي الْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيَتَّخِذوهُ وَلَداً وَوَلِيًّا، فكانَ لهمْ عَدُوًّا وحَزَناً إذا كَبِرَ [أو كلام][6] نَحْوَ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: ذاكَ إخبارٌ عمّا في عِلْمِ اللهِ أنهُ يكونُ ما ذَكَرَ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: الْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ، فكانَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنهُ يكونُ عَدُوًّا وحَزَناً. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. يُقالُ: لِدوا لِلْموتِ، وابْنوا لِلْخرابِ؛ لا يَلِدونَ لِلْمَوتِ، ولا يَبْنونَ لِلْخَرابِ، ولكنْ إخبارٌ عمّا يَؤولُ أمْرُهُمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ظاهرٌ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ مِنْ وَجْهٍ: [أنَّ اللهَ تعالى إنما يُبْقي الكَفَرَةَ لِما فيهِ صلاحُهُمْ. ثم قد بَيَّنَ أنهمْ كانوا خاطئينَ في ما مَضَى مِنْ عُمُرِهِمْ. والإبقاءُ على الخَطَإِ كيفَ يكونُ أصْلَحَ؟][7].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ هذا لُطْفٌ مِنَ اللهِ ورَحْمَةٌ حينَ[8] أَلْقَى مَحَبَّةً في قلوبِهِمْ وحَلاوةً في أعْيُنِهِمْ، وهو ما ذَكَرَ مِنَّتَهُ عليهِ حينَ[9] قالَ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ الشُّكْرَ عليهِ.

قالَ أبو معاذٍ: قالَ مُقاتِلٌ: قولُهُ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ لا تقولُ [آسيةُ:][10] ليسَ لكَ بِقُرَّةِ عينٍ. قالَ أبو معاذٍ: وهذا مُحالٌ. ولو كانَ كذلكَ لكانَ في القراءةِ [حينَ][11] تَقْتُلونَهُ. وهذا أيضاً مُحالٌ لِقولِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ ولما[12] كانتِ القراءةُ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ كانَ[13] مُقاتِلٌ مُصيباً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معرفة ذلك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إضمار. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) و(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ولو. (١٣) في الأصل وم: لكان.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ هلاكَهُمْ واسْتِئْصالَهُمْ على يَدَيهِ.

والثاني: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهُ هو المطلوبُ قَتْلُهُ[1] مِنْ بَينِ الكلِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: فارغاً مِنْ هَمِّ موسى وحُزْنِها عليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: فارغاً مِنْ كلِّ شيءٍ إلّا على موسى وذِكْرِهِ؛ وكأنَّ قولَهُ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ الآية. وهو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنَّ اللهَ رَفَعَ الحُزنَ والخوفَ، وطَبَعَها مِنْ غيرِ أنْ كانَ ثَمَّةَ قولٌ أو كلامٌ.

والثاني: على القولِ لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فإنْ كانَ على هذا فهو على البِشارَةِ لها بالرَّدِّ إليها وجَعْلِهِ رسولاً.

[والثالثُ][2]: على النَّهيِ والزَّجرِ عنِ الحُزنِ عليهِ والخوفِ عليهِ، وهو حُزنُ مُفارَقَتِهِ عنها، والخوفُ عليهِ خَوفُ الهلاكِ كقولِ يعقوبَ حينَ[3] ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] ذَكَرَ الحُزنَ عندَ المُفارَقَةِ والذهابِ عنهُ والخوفَ عندَ الهلاكِ. فَرَفَعَ اللهُ عنها حُزنَ المُفارَقَةِ، وبَشَّرَها بالرَّدِّ إليها وجَعْلِهِ رسولَهُ، وأمَّنَها عنِ الهلاكِ. فيكونُ قولُهُ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ ممّا خافَتْ عليهِ، وحَزِنَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ كادَتْ لَتُبْدِي بهِ لولا أنْ رَبَطْنا على قَلْبِها بِما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ الآيةَ فلم تَكَدْ تُبْدِي، وهو كما ذَكَرَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] أي كادَ يَهُمُّ بها لو لم يَرَ بُرْهانَ ربِّهِ، لا أنهُ هَمَّ بها. وهو كقولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] لو لم يُثَبِّتْهُ، لكنهُ ثَبَّتَهُ، فلم يَرْكَنْ إليهِمْ، ونَحْوُهُ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: رَبَطَ قَلْبَها بالإيمانِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ رَبْطُهُ قَلْبَها لِما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ الآية.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَارِغًا﴾ مِنْ عَهْدِ اللهِ الذي كانَ عَهِدَ إليها؛ أنساها عَهْدُ اللهِ عِظَمَ البَلاءِ الذي حَلَّ بها، فكادَتْ تُبْدي بهِ، ثم تدارَكَها اللهُ بالرَّحْمَةِ، فَرَبَطَ على قلبِها، فَذَكَرَتْ، وارْعَوَتْ.

وقالَ بعضُهُمْ: اتَّخَذَهُ فِرْعَونُ وَلَداً، فصارَ الناسُ يقولونَ: ابْنُ فِرْعَونَ، ابْنُ فِرْعَونَ، فَأَدْرَكَتْ أمَّهُ الرِّقَّةُ وحُبُّ الوَلَدِ، فكادَتْ تقولُ: بل هو ابْني. والأوَّلُ أشْبَهُ.

وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصَةَ: إنْ كادَتْ لَتُشْعِرُ بهِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي اتَّبِعي أثَرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ قيلَ: عنْ بُعْدٍ، أي كانَتْ تَتْبَعُ أثَرَهُ عنْ بُعْدٍ منهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الجُنُبُ: أنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الإنسانِ إلى مَوضِعٍ بعيدٍ، وهو إلى جَنْبِهِ بِقُرْبٍ منهُ. وذلكَ عند الناسِ مَعْروفٌ ظاهِرٌ فيهم ذلك.

وقالَ/ ٣٩٥ - ب/ بَعْضُهُمْ في قولِهِ: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ قالَ: مَشَتْ بِجُنَّابِهِ[4]، وهي مُعْرِضَةٌ عنهُ كأجْنَبِيَّةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ هذهِ تُراقِبُهُ، أو تَنْظُرُ إليهِ، وتَحْفَظُهُ، أو لا يَشعرونَ أنَّ هَلاكَهُمْ على يَدَيهِ. بَصُرَتْ، وأبْصَرَتْ، واحدٌ. وقولُهُ: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ عنْ ناحيةٍ بَعيدةٍ، وجَوانِبُ جَماعةٌ. ويُقالُ: رَجُلٌ جُنُبٌ، وقومٌ أجنابٌ، وجانِبٌ، وأجانبُ، وأجْنَبِيٌّ، أي غريبٌ، وهذا كلُّهُ مِنَ الاجْتِنابِ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ.

---

(١) في الأصل وم: بقتله. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: بجنباته.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ حَرَّمَ تَحريمَ مَنْعٍ وحَظْرٍ: [التحريمَ][1] الذي ضِدُّهُ الإطلاقُ والإرسالُ لا التَّحريمُ الذي ضِدُّهُ الحِلُّ؛ وذلكَ لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالى وفَضْلٌ ورَحْمَةٌ حينَ[2] مَنَعَ موسى عَنْ أنْ يَرْضَعَ مِنَ النساءِ، وهو طِفْلٌ، وهِمَّةُ أمثالِهِ الارتِضاعُ والرَّغْبَةُ في التَّناوُلِ مِنْ كلِّ لَبَنٍ ومِنْ كلِّ مُرْضِعٍ تُرْضِعُهُ لا [تَمْييزَ لهُ][3] في الارْتِضاعِ. فَدلَّ امْتِناعُهُ وكَفُّهُ نَفْسَهُ عنِ الارْتِضاعِ مِنَ النساءِ جُمَعَ أنَّ ذلكَ لُطفٌ مِنَ اللهِ أعطاهُ لِيَمْتَنِعَ عنهُ.

فَعَلَى ذلك جائزٌ أنْ يكونَ[4] عندَ اللهِ لُطفٌ، لو أعْطَى الكافرَ الذي هِمَّتُهُ الكُفْرُ والرَّغْبَةُ فيهِ لآمَنَ، واهْتَدَى. لكنهُ لَمّا عَرَفَ رَغْبَتَهُ وهِمَّتَهُ فيهِ واخْتِيارَهُ لهُ مَنَعَ ذلكَ عنهُ، ولم يُعْطِهِ.

وهذا[5] الحَرْفُ يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ في زَعْمِهِمْ أنَّ اللهَ قد أعْطَى كلَّ كافِرٍ السَّبَبَ الذي بهِ يُؤْمِنُ وما بهِ يَصيرُ مُؤْمِناً حتى لم يَبْقَ شيءٌ مِمّا يكونُ بهِ إيمانُهُ إلّا وقد أعطاهُ، لكنهُ لم يُؤْمِنْ.

فَيَنْقُضُ قولَهُمْ ما ذَكَرْنا مِنْ أمرِ موسى أنَّ عندهُ لُطفاً[6] لم يُعْطِهِ، لو أعطاهُ لآمَنَ، واهْتَدَى. لكنهُ لم يُعْطِهِ لِما ذَكَرْنا.

وفيهِ لُطفٌ آخَرُ، وهوأنَّ فِرْعَونَ والقِبْطَ كانوا يَقْتُلونَ الوِلْدانَ مِنَ الذكورِ لِيَصيرَ الذي يَخافُ هلاكَهُ وذهابَ مُلْكِهِ على يَدَيهِ مَقْتولاً. فَجَعَلَ اللهُ بِلُطْفِهِ ورَحْمَتِهِ مَحَبَّتَهُ في قَلْبِ فِرْعَونَ وقُلوبِ أهلِهِ حتى صارَ أحبَّ الخَلْقِ إليهِمْ، وصاروا أشْفَقَ الناسِ وأرْحَمَهُمْ عليهِ حتى خافوا هلاكَهُ، وطلبوا لهُ المَراضِعَ لئلا يَهْلِكَ بَعْدَ ما كانوا يَطْلُبونَ هلاكَهُ وتَلَفَهُ. وذلكَ لُطفٌ منهُ لهُ ورَحْمَةٌ. وهو ما قالَ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]. وباللهِ يُسْتَفادُ[7] كلُّ فَضْلٍ ونِعْمَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ قولُهُ: ﴿فَقَالَتْ﴾ أي أخْتُهُ التي كانت تَتْبَعُهُ، وتَمْشي على إثْرِهِ. وذلكَ منها [عَدَمُ][8] تَعْريضِ الدلالةِ لهمْ إلى أُمِّهِ لئلا يَشْعُروا أنها أُمُّهُ حينَ[9] قالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ ولم تَقُلْ: على امرأةٍ لها لَبَنٌ، وهي ترضِعُ. ولَعَلَّها لو قالَتْ لهمْ ذاكَ وَقَعَ عندَهُمْ أنها أُمُّهُ. ولكنْ دَلَّتْهُمْ على بيتٍ لِيَقَعَ عندَهُمْ أنهُمْ أهلُ بيتٍ قُتِلَ وَلَدُهُمْ، ولهمْ ولَدٌ ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي يَقْبَلونَهُ، ويَضُمُّونَهُ إلى أنْفُسِهِمْ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي لِفِرْعَونَ، لا يَخونونَهُ فيه. ويَحْتَمِلُ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لِموسى.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي تُسَرُّ بِرَدِّهِ إليها. وذلكَ مَعْروفٌ في النساءِ ظاهرٌ أنهنَّ يَحْزَنَّ بِمُفارَقَةِ أولادِهِنَّ، ويَهْتَمَّنَّ لذلكَ، ويُسْرَرْنَ إذا [رَجَعوا إليهِنَّ، واجْتَمَعوا مَعَهُنَّ][10].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كانَتْ تَعْلَمُ هي، واللهُ أعلَمُ، أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ كائنٌ، لا محالَةَ. لكنْ [كانَتْ تَعْلَمُ][11] عِلْمَ خَبَرٍ لا عِلْمَ عِيانٍ ومُشاهدةٍ، كأنهُ قالَ: لِتَعْلَمَ عِلْمَ عِيانٍ ومُشاهَدَةٍ كما عَلِمَتْ عِلْمَ خَبَرٍ، لأنَّ عِلْمَ العِيانِ والمُشاهَدَةِ أكْبَرُ وأبْلَغُ وأدْفَعُ لِلشُّبْهَةِ مِنْ عِلْمِ الإخبارِ. ألا تَرَى أنَّ إبراهيمَ سألَ ربَّهُ أنْ يُرِيَهُ إحياءَ المَوْتى، وإنْ كانَ يَعْلَمُ حقيقةً أنهُ يُحْيي المَوتَى وأنهُ قادرٌ على ذلكَ. لكنهُ كانَ يُعْلَمُ عِلْمَ خَبَرٍ، فأحَبَّ أنْ يَعْلَمَهُ عِلْمَ عِيانٍ ومشاهَدَةٍ لأنهُ أكْبَرُ وأبْلَغُ لِلْوَساوِسِ مِنْ عِلْمِ الإخبارِ؟ [فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ][12].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [أخْبَرَ أنَّ أكْثَرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ][13] والمُعْتَزِلَةُ منهمْ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ يَمْلأُ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجْمَعينَ حينَ[14] قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] وهُمْ يقولونَ: أرادَ ألّا يَمْلأَ جَهَنَّمَ لأنهم يقولونَ: إنهُ أرادَ إيمانَ كلِّ الناسِ أجْمَعينَ[15]، وشاءَ ذلكَ لهمْ فلم يُؤْمِنوا. فَعَلَى قولِهِمْ: إن شاءَ ذلكَ لهمْ شاءَ أنْ يَمْلأَ جَهَنَّمَ منهمْ. فذلكَ خُلْفٌ في الوَعْدِ وكَذِبٌ في القولِ على قولِهِمْ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: الأشُدُّ هو ما بَينَ ثمانيَ عشرةَ سَنَةً إلى

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: تميز لهم. (٤) من م، في الأصل: يكونوا. (٥) من م، في الأصل: وهذه. (٦) في الأصل وم: لطف. (٧) من م، في الأصل: ليستفاد. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: جعلوا إليهن واجتمعوا. (١١) في الأصل: كانت، ساقطة من م. (١٢) في م: فعلى ذلك، ساقطة من الأصل. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: جميعا.

ثلاثينَ سَنَةً، ثم هو ما بَينَ الثلاثينَ إلى الأربَعينَ [اسْتِواءُ الشّدّةِ، ثم يأخُذُ بَعْدَ الأربعينَ][١] في النُّقصانِ، ثم غِيرَ بِعُمُرِهِ الأربعينَ سَنَةً.

وقالَ بعضُهُم: [أُريدَ بقولِهِ][٢] ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أربعونَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ مِثْلُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قالَ: الأشُدُّ الحِلْمُ، والاسْتِواءُ أربعونَ سَنَةً.

وأصْلُ الأشُدِّ أنْ يَشْتَدَّ كلُّ شيءٍ منهُ، وصارَ يَحْتَمِلُ ما قُصِدَ بهِ، وجُعِلَ فيهِ، ويَدْخُلُ في ذلكَ العَقْلُ وكلُّ شيءٍ، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [أي اسْتَوَى][٣] ذلكَ، واسْتَحْكَمَ، وصارَ بحيثُ يَحْتَمِلُ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الإسْتِواءُ هو الأشُدَّ الذي ذَكَرَ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي اسْتَحْكَمَ، وانْتَهى شبابُهُ، واسْتَقَرَّ، فلم تَكُنْ فيهِ زيادةٌ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي آتيناهُ الحُكْمَ[٤] الذي يَحْكُمُ بهِ بينَ الناسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ بمصالحِ نَفْسِهِ ومَصالحِ الخَلْقِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: الحُكْمُ الفِقْهُ والعَقْلُ، والعِلْمُ قِيلَ: النُّبُوَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الآخِرَةِ بالوَعْدِ الذي وَعَدَ لهمْ في الدنيا كما جَزَى موسى بإنجازِ ما وَعَدَ لهُ[٥] أو أنْ يكونَ مِنْ موسى إحسانٌ وجَهْدٌ في طَلَبِ العِلْمِ وغَيرِ ذلكَ ممّا أعطاهُ ذلكَ، وأخْبَرَ أنهُ كذلكَ يَجْزي مَنْ ذَكَرَ كقولِهِ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقولِهِ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣] كانَ وَعْدُهُ إيّاها أنْ يَرُدَّهُ إليها، ويَجْعَلَهُ مِنَ المُرْسَلينَ، ومَعْناهُ ما ذُكِرَ في ما تَقَدَّمَ.

قالَ الكسائيُّ: يُقالُ امرأةٌ مُرْضِعٌ مادامَتْ تُرْضِعُ، فإذا فَطَمَتْ سُمِّيَتْ مُرْضِعَةً ما دامَتْ حُبْلَى فهي مُرْضِعَةٌ، أي سَتُرْضِعُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: على غَفْلَةٍ مِنْ أهلِ المدينةِ وهو عندَ الظهيرةِ، وذلكَ وقتُ القائلةِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ أهلِ البَلَدِ عنْ دخولِ موسى، أي دَخَلَها مِنْ غَيرِ أنْ شَعَروا بهِ، وعَرَفوا أنهُ موسى. على هذا التأويلِ الغَفْلَةُ تكونُ على دخولِ موسى عليهِمْ. وعلى الأوّلِ على غَفْلَةِ أهلِ المدينةِ أي وَقْتَ غَفْلَتِهِمْ.

فإنْ كانَ على هذا فَيَحْتَمِلُ أنْ تكونَ غَفْلَةُ أهلِها هي أنْ كانَ ذلكَ يومَ عيدِهِمْ؛ خَرَجوا إليهِ، فَدَخَلَ هو المدينةَ لِيَطّلِعَ [على][٦] أحوالِها وأسبابِها. إلّا أنْ تكونَ العادةُ فيهِمْ أنهمْ بأجْمَعِهِمْ يَقيلونَ، فذلكَ مُحْتَمَلٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: إنَّ قولَهُ: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ إنما يُقالُ للشاهدِ المُشارِ إليهِ، فأمّا الغائبُ فإنهُ لا يُقالُ، لكنْ قالوا: إنَّ فيهِ إضماراً ولُطْفاً؛ كأنهُ قالَ: فَوَجَدَ فيها/ ٣٩٦ ـ أ/ رجلَينِ يَقْتَتِلانِ: مَنْ نَظَرَ إليهما يقولُ: هذا من شيعتِهِ، وهذا مِنْ عَدُوِّهِ، ثم قالَ أهلُ التأويلِ: أحَدُهما كانَ إسرائيليًا والآخَرُ قِبْطِيًا.

فإنْ قيلَ: كيفَ سمّى الإسرائيليَّ مِنْ شيعةِ موسى؟ [قيلَ: كانَ][٧] ذلكَ أوّلَ ما دَخَلَ موسى المدينةَ، وبنو إسرائيلَ يومئذٍ كانوا عُبّادَ الأصنامِ، وقد حُبِّبَ إليهِمْ حتى قالوا لموسى بَعْدَ ما أخْرَجَهُمْ مِنَ المدينةِ وبَعْدَ هلاكِ فرعونَ والقِبْطِ جميعاً. ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وكذلكَ يقولُ مقاتلٌ: كانا كافِرينِ جميعاً.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: العلم.
(٥) من م، في الأصل: لهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وذلك.

ألا ترى أنه قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؟ [القصص: ١٧] لكن يُخرَّجُ هذا على الإضمارِ؛ كأنهُ [قالَ: يكونُ ﴿هَٰذَا﴾][1] مِنْ شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ. أو يقولُ: يكونُ هذا مِنْ قوم، هُمْ شيعَتُهُ، ويَبْقى هذا عَدُوًّا في قومٍ، هم أعداؤُهُ. وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُهُ أنهما كانا كافِرَينِ جميعاً. لكنْ يُخَرَّجُ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي استَغاثَهُ الذي كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يكونُ مِنْ شيعَتِهِ على الذي في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَبْقى عَدُوًّا لهُ لِيَنصُرَهُ[2]. والاِسْتِغاثةُ هي الاِسْتِعانَةُ والاِسْتِنْصارُ، أي سأَلَهُ أنْ يكونَ مِنْ شيعَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: الوَكْزَةُ [الطَّعْنَةُ في الصَّدْرِ][3]. وقالَ الزَّجّاجُ والقُتَبِيُّ وهؤلاءِ: الوَكْزَةُ الدَّفْعَةُ ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ أي دَفَعَهُ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي فَرَغَ منهُ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] وقولِهِ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي فُرِغَ ونَحوُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قَتَلَهُ، وكلاهُما سَواءٌ؛ إذا قَتَلَهُ فَقَدْ فَرَغَ منهُ، وهو لم يَتَعَمَّدْ قَتْلَهُ، ولا قَصَدَهُ. لكنَّ اللهَ قَضى أجَلَهُ، وجَعَلَ انْقِضاءَ عُمُرِهِ بِوَكْزَةِ موسى، وهو في الظاهِرِ قاتِلٌ، لأنهُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣] ولم يُكَذِّبِ اللهُ موسى في قولِهِ: إنكَ لم تَقْتُلْ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ الآية.

وفيهِ دلالةُ جوازِ الاِسْتِدْلالِ لِقولِ أبي حنيفةَ حينَ[4] قالَ: مَنْ قَتَلَ آخَرَ بِحَجَرٍ عظيمٍ أو بخَشَبَةٍ عظيمةٍ ممّا لا يَنْجو مِنْ مِثْلِهِ فإنهُ[5] لا يُقْتَلُ بهِ، ولا يَجِبُ القِصاصُ فيهِ، لأنَّ موسى لمّا وَكَزَ ذلكَ القِبْطِيَّ [ماتَ، وذُكِرَ][6] أنَّ لهُ قوةَ أربعينَ رجلاً، لم يَرَ القِصاصَ بهِ واجباً حينَ[7] قالَ لهُ ذلكَ الرجلُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠ و٢١].

ولو كانَ القِصاصُ واجباً لكانَ أولئكَ لم يكونوا ظلَمةً في قتلِهِ، بل يكونُ هو الظالمَ فيهِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ القِصاصُ واجباً أيضاً، وموسى يَفِرُّ مِنْ ذلكَ، ويَهْرُبُ. وفي ذلكَ إبطالُ حقِّهِمْ.

دلَّ أنهُ لم يَجِبْ، ولاشكَّ أنَّ وَكْزَةَ مَنْ لهُ قوةُ أربعينَ رجلاً إلى الهلاكِ أسْرَعُ وأقْرَبُ[8] وأعْمَلُ مِنَ الضَّرْبِ بالحَجَرِ العظيمِ والخَشَبَةِ العظيمةِ. فإذا لم يجبْ في هذا لم يَجِبْ في ذاكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بما أنْعَمْتَ عليَّ بالمَغْفِرَةِ، فلم تُعاقِبْني بِقَتْلِ النَّفْسِ، وعَصَمْتَني مِنْ أنْ أُعاقَبَ بهِ في الدنيا.

وجائزٌ أن يكونَ بما أنْعَمَ عليهِ هو قُوَّتَهُ التي [أعطاهُ إيّاها][9] أخبَرَ ألّا يكونَ ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ والله أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أكْثَرُ ما ذُكِرَ في القرآنِ: أصْبَحَ مَعْناهُ[10] صارَ كقولِهِ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: ٤١] أي صارَ وقولِهِ: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠]. ونَحوُهُ.

وأمّا ههنا فقولُهُ[11]: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إنما يُريدُ [بِهِ][12] الصباحَ نفسَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي يَنْتَظِرُ سُوءاً ينالُهُ منهمْ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّرَقُّبُ الخوفُ؛ كأنهُ قالَ: خائفاً هلاكَهُ. وأصْلُ التَّرَقُّبِ هو النَّظَرُ، والرَّقوبُ أنْ يَرْقُبَ مَنْ يَطْلُبُهُ، وهو مِنَ الرَّقيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ كانَ الرجلُ الذي أخبَرَ أنهُ مِنْ شِيعَتِهِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ينصره. (٣) في الأصل وم: الطعن في الصدور. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فمات وكز. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: فالأقرب. (٩) في الأصل وم: اعطاها. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ضَعيفاً في نَفْسِهِ حتى[1] لا يَقْدِرَ أنْ يَقومَ لِواحِدٍ، فَيَسْتَنْصِرَ بموسى، ويَسْتَعينَ بِهِ. إلّا أنهُ كانَ يُخاصِمُ[2]، ويُنازِعُ، ويُقاتِلُ، لِسُوءٍ فيهِ وبَلاءٍ؛ يُقاتِلُ، ويُنازِعُ. وإلّا لم يكُنْ بنفسِهِ مِنَ القوةِ ما يَقومُ لواحدٍ فَمِنْ حينَ[3] لا يُقاتِلُ مِثْلَهُ، ولكنهُ لِما ذَكَرْنا مِنْ سوءٍ بِهِ. ولِذلكَ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

[إنما عَرَفَ موسى][4] غِوايَتَهُ بالاسْتِدْلالِ الذي ذَكَرْنا لا بالمُشاهَدَةِ. ولذلكَ أرادَ أنْ يَبْطِشَ بالذي[5] هو عَدُوٌّ لهما لئلّا يَقْتُلَهما، ولا يُهْلِكَهُ، لِما عَرفَ غِوايَتَهُ بالاسْتِدْلالِ لا حقيقةً.

وذَكَرَ هَهنا البَطْشَ، وهو الأخذُ باليدِ. وفي الأوّلِ ذَكَرَ الوَكْزَةَ، وهي الدَّفْعُ والطَّعْنُ على ما ذَكَرْنا، فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ لمّا ذَكَرَ الأوّلَ، فَأتَتِ الوَكْزَةُ على نَفْسِهِ، فَقَتَلَتْهُ، فأخذَ هذا مِنْ هذا لِيَمْنَعَهُ عَنْ إهلاكِهِ وإتلافِهِ، ولا يأتيَ على نفسِ الآخَرِ كما فَعَلَتِ الوَكْزَةُ.

الآية ١٩ [وقولُهُ تعالى:][6] ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ اخْتُلِفَ في قائلِ هذا:

قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قائلَ هذا هو الذي اسْتَصْرَخَهُ، واسْتَغاثَهُ؛ قالوا: لأنهُ ظَنَّ أنَّ موسى إنما أرادَ بَطْشَهُ وأخذَهُ، وإليهِ قَصَدَ، لذلكَ قالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

وقالَ قائلونَ: هذا القولُ إنما قالَهُ[7] ذلكَ القِبْطِيُّ.

فإنْ كانَ هذا فهو يدلُّ أنَّ قَتْلَهُ ذلكَ الرجلَ بالأمسِ كانَ ظاهراً حتى[8] عَلِمَ بِهِ القِبْطِيُّ، وكانَ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي مِنْ دخولِ موسى المدينةَ.

وإنْ كانَ هو الأوّلَ كانَ قَتْلُهُ إيّاهُ خَفِيًّا غيرَ ظاهِرٍ. فَعَلى هذا تكونُ الغَفْلَةُ على أهلِ المدينةِ لا على دخولِ موسى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ لأنَّ الذي يُصْلِحُ بينَ اثْنينِ، لا يَقْتُلُ، ولا يأخُذُ أحدَهُما دونَ الآخَرِ، ولكنْ يُصْلِحُ بينَهما على السَّواءِ. لِذلكَ[9] قالَ ما قالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يقولُ: هكذا فِعْلُ الجبابِرَةِ [أنْ][10] تَقْتُلَ النَّفسَ بِغَيرِ نَفْسٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الجبابِرَةُ، تَقْتُلُ النَّفْسَ بِغَيرِ نفسٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الجَبّارُ، هو الذي يَحْمِلُ الناسَ على هَواهُ وعلى ما يُريدُهُ، ويَقْهَرُهُمْ على ذلكَ، شاؤوا، أو أبَوا. وقالَ بعضُهُمْ: الجَبّارُ، هو الذي تَكَبَّرَ على الناسِ، لا يَرَى أحداً لنفسِهِ نظيراً، أو كلامٌ نَحْوُهُ، ويُقالُ، كلُّ قاتِلٍ آخَرَ على الغَضَبِ بِغَيرِ حقٍّ فهو جَبّارٌ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أقصى المدينةِ هو مَسْكَنَ فِرْعَونَ ومُقامَهُ، فَمِنْهُ جاءَ ذلكَ الرجلُ، أو أنْ يكونَ أقْصى المدينةِ مَوطِنَ المَلإِ والأشرافِ الذينَ ذَكَرَ أنهمُ ائْتَمَروا على قَتْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْعَىٰ﴾ السَّعْيُ[11] هو العَدْوُ في اللغةِ؛ كأنهُ يُسْرِعُ المَشْيَ إليهِ لِيُخْبِرَهُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يأتَمِرونَ: قالَ بعضُهُمْ: يَتَشاوَرونَ في قَتْلِكَ.

وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي يَهُمّونَ في قَتْلِكَ، وذُكِرَ عنهُ أنهُ قالَ: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يَتَشاوَرونَ بكَ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ.

وأصْلُ الائْتِمارِ في اللغةِ، هو الطاعةُ والاتِّباعُ لِما يُؤْمَرُ مِنَ الفِعْلِ؛ كانَ فِرْعَونُ أمَرَ المَلأَ أنْ يَقْتُلوهُ، فأطاعوهُ، وائْتَمَروا لِأمْرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يخاطب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: لكن موسى إنما المعروف. (٥) الباء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) في الأصل وم: قال له. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: الذي. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: والسعي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ قالَ الزَّجّاجُ: قولُهُ: ﴿لَكَ﴾ صِلَةٌ، والصِّلَةُ لا تَتَقَدَّمُ/ ٣٩٦ ـ ب/ المَوصولَ بِهِ. ولكنَّ مَعْناهُ: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الذينَ يَنصحونَ لَكَ. وليسَ كما قالَ: الصِّلَةُ تَتَقَدَّمُ، وتَتَأَخَّرُ. وذلكَ ظاهرٌ في الكلامِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قد ذَكَرْنا هذا.

دَلَّ قولُهُ: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أنَّ الخَوفَ قد يكونُ مِنْ دونِ اللهِ. وجائزٌ أنْ يُخافَ مِنْ غَيرِهِ، وليسَ كما يقولُ بعضُ الناسِ: ألّا يَسَعَ الخَوفُ مِنْ دونِ اللهِ. وحقيقةُ الخوفِ تكونُ مِنَ اللهِ، يُخافُ أنْ يَنْتَقِمَ منهُ على يَدَي[1] هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحتَمِلُ الظالمُ كلَّ مُشْرِكٍ، لأنَّ كلَّ مُشْرِكٍ ظالمٌ. ويَحتَمِلُ: قولُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حينَ[2] هَمُّوا بِقَتْلِهِ. وقَتْلُ موسى ذلكَ القِبْطِيَّ لم يوجِبْ عليهِ القَتْلَ والقِصاصَ لأنهُ لم يَتَعَمَّدْ قَتْلَهُ، أو لم يَقْتُلْهُ بِسلاحٍ، يَجِبُ بهِ القَتْلُ. فَذَكَرَ أنهمْ في ما هَمُّوا بِقَتْلِهِ ظَلَمَةٌ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ بعضُهُمْ: أخَذَ طريقاً؛ إذا سَلَكَ ذلكَ الطريقَ، ونَفَذَ فيهِ، خَرَجَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ، أو وَقَعَ تِلْقاءَ المكانِ المَقْصودِ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أيِ الطَّريقَ الذي كانَ يَقْصِدُهُ، ويَطْلُبُهُ، وهو طريقُ مَدْيَنَ، وذُكِرَ أنهُ كانَ ضَلَّ الطريقَ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي وَرَدَ البِئْرَ التي كانَ ماءَ مَدْيَنَ، أي وَرَدَ[3] البِئْرَ التي كانَ ماءُ مَدْيَنَ مِنْ تلكَ البِئْرِ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أمَّةً أي جماعةً، وقيلَ: أناسٌ، مِنَ الناسِ يَسْقونَ أغنامَهُمْ ومَواشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَذودانِ تَحْبِسانِ حتى يَفْرَغَ الناسُ، ويُصْدِروا[4]، ويَخْلُوَ لهما البِئْرُ. وقالَ بعضُهُمْ: تَذودانِ أغنامَهُما لِتَسْقِيَها.

ثم قولُهُ: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: [تذودانِ][5] غَنَمَهُما، ولا تَسْقِيانِها ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ لِما لا تُتْرَكانِ تَسْقِيانِ غَنَمَهُما مَعَ غَنَمِ أُولئكَ الرِّعاءِ حتى يُصْدِروا هُمْ.

والثاني: لا تَمْنَعانِ ذلكَ، ولكنَّها تَسْتَحيانِ أنْ تُزاحِما الرجالَ، وتَخْتَلِطا بهمْ، فَتَنْتَظِرانِ فَراغَهُمْ صُدورَ الرِّعاءِ عنها.

فإنْ قيلَ: فما بالُهُما لا تَتَخَلَّفانِ وقْتَ اجْتِماعِ القومِ، وتَشْهَدانِ في ذلكَ الوقْتِ، أو لا تَنْتَظِرانِ خَلاءَ البِئْرِ منهُمْ؟ قيلَ: لِما ذُكِرَ أنَّ على رأسِ البِئْرِ حَجَراً، يُلْقَى عليها[6]، لا يُطيقُهُ إلّا كذا كذا نَفَراً، وكذلكَ الدَّلْوُ التي يُسْتَقَى منها، لا يُطيقُها إلّا كذا كذا، مِنْ عَشَرَةٍ إلى أربَعينَ على ما ذُكِرَ. فهما تَشْهَدانِ تلكَ البِئْرِ منهمْ، ثم تأتيانِ، لم تَقْدِرا على نَزْحِ الماءِ والدَّلْوِ ورَفْعِ الحَجَرِ الذي ذُكِرَ أنهُ كانَ على رأسِ البِئْرِ، لِذلكَ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما شأنُكُما؟ وما أمْرُكُما؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ لِما ذَكَرْنا. وقُرِئَ يَصْدِرُ بِنَصْبِ الياءِ وبالرَّفْعِ جميعاً. ومَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ[7] فإنهُ يقولُ: حتى يَصْدِرَ الرِّعاءُ بأنفسِهِمْ، أي يَرْجِعَ. ومَنْ قَرَأَ بالرَّفْعِ [فَمَعْناهُ][8] حتى يَصْرِفوا، ويُرْجِعوا أغنامَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ تَذْكُرانِ، واللهُ أعلَمُ، عُذْرَ أبيهِمْ في التَّخَلُّفِ عنْ سَقْيِ الغَنَمِ، وإرسالِهِ إيّاهما في ذلكَ دونَ تَوَلّي ذلكَ بِنَفْسِهِ، وقالَتا[9]: ذلكَ لِكِبَرِهِ وضَعْفِهِ ما يَتَخَلَّفُ عنْ ذلكَ ويُرْسِلُهُما، وإلّا لا مَعْنَى لِذِكْرِ كِبَرِ أبيهِما بلا سَبَبٍ، يَحْمِلُهُما على ذلكَ سِوَى ما ذَكَرْنا.

وجائزٌ أنْ يكونَ لِمَعْنًى آخَرَ، لا نَعْلَمُهُ.

---

(١) من م، في الأصل: يديه. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: مورد. (٤) في الأصل وم: ويصدرون. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عليه. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٣. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقالا.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ دلَّ أنَّ البِئْرَ التي كانَتْ تُسْقَى الماشِيةُ مِنها كانَتْ في الشمسِ حينَ[1] أخبَرَ أنهُ سَقَى لهما [ثمّ][2] تولّى إلى الظِّلّ. وفيهِ أنْ لا بأسَ بأنْ يُجلَسَ[3] في الظِّلّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قيلَ: إنَّ هذا منهُ شِكايةٌ عمّا أصابَهُ مِنَ الجوعِ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ خَرَجَ مِنَ المِصْرِ إلى مَدْيَنَ هارباً مِنْ فِرْعَونَ وقومِهِ غيرَ مُتَزَوِّدٍ، وهو مَسيرةُ ثماني لَيالٍ.

وفيهِ دلالةٌ أنْ لا بأسَ للرجلِ أنْ يُخبِرَ، ويَذْكُرَ، عمّا هو [فيهِ][4] مِنَ الشِّدّةِ والبَلاءِ حينَ[5] ذَكَرَ موسى حالَهُ التي هو فيها مِنَ الجوعِ الذي أصابَهُ. وكذلكَ[6] ما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] وذلكَ يَرُدُّ قولَ مَنْ يقولُ: إنَّ مِثْلَ هذا يُخرَجُ مُخرَجَ الشّكايةِ إلى اللهِ. ولو كانَتْ شِكايةً لَكانَ موسى لا يَقولُ ذلكَ، ولا يَذْكُرُهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قولُهُ: ﴿تَمْشِي﴾ مَشْيَ مَنْ لم يَعْتَدِ الخُروجَ، أو ﴿تَمْشِي﴾ مَشْيَ مَنْ لم يُخالِطِ الناسَ ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ على التَّسَتُّرِ والتَّغْطِيةِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ هذا يَدُلُّ على أنْ لا بأسَ أنْ يُؤْخَذَ على المَعْروفِ الذي صُنِعَ إلى آخَرَ أجرٌ. والأفضلُ على [مَنْ][8] صَنَعَ إليهِ المَعْروفَ والتَّبَرُّعَ أنْ يُعطَى لِمَعْروفِهِ وتَبَرُّعِهِ بَدَلاً وأجراً. والأفضلُ على المُتَبَرِّعِ وعلى صانِعِ المَعْروفِ ألّا يَأْخُذَ على ذلكَ بَدَلاً.

إلّا أنَّ موسى كانَ قدِ اشْتَدَّتْ بِهِ الحاجةُ. لِذلكَ كانَ ما ذُكِرَ وأخَذَ لِمَعْروفِهِ ما ذُكِرَ بدلاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي لمّا جاءَ موسى أبا المَرْأتَينِ، وقَصَّ عليهِ قِصّتَهُ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلَّ قولُهُ هذا لموسى ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنْ لم يَكُنْ لِفِرْعَونَ على ذلكَ المَكانِ سُلْطانٌ ولا يَدٌ؛ إذْ لو كانَ لهُ سُلْطانٌ لَكانَ لهُ فيهِ الخَوفُ الذي كانَ مِنْ قَبْلُ، ولم يَكُنْ نَجا موسى منهُ. دَلَّ أنهُ لم يَكُنْ لهُ عليهِمْ سلطانٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ المُشْرِكينَ؛ إذْ كلُّ مُشْرِكٍ ظالِمٌ. ويَحْتَمِلُ ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الذينَ يَقْتُلونَ بِغَيرِ حقٍّ حينَ[9] ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]][10].

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: قالَ أبوهُما لَمّا قالَتْ لهُ اسْتأجِرْهُ فإنهُ قويٌّ أمينٌ: ما قُوَّتُهُ وأمانَتُهُ؟

فقالَتْ: أمّا قُوَّتُهُ فإنهُ رَفَعَ الحَجَرَ مِنْ رأسِ البِئْرِ وحْدَهُ، وكانَ لا يُطيقُهُ إلّا كذا كذا نَفَراً، ونَزَعَ الدَّلْوَ مِنَ البِئْرِ وَحْدَهُ، وكانَ لا يُطيقُ[11] نَزْحَهُ إلّا كذا كذا [نفراً][12] فتِلْكَ قُوَّتُهُ.

وأمّا أمانَتُهُ فإنهُ قالَ لي: امْشي خَلْفي، وَصِفي ليَ الطريقَ. فتِلْكَ أمانَتُهُ.

ولكنْ قَدْ كانَتْ تَعرِفُ أمانَتَهُ قَبْلَ ذلكَ: لمّا جَرَى بَيْنَهُ وبَيْنَهما مِنَ المُعامَلَةِ حينَ قالَ لهما: ما خَطْبُكُما؟ وحينَ سَقَى لهما. في مِثْلِ هذا تُعْرَفُ أمانَتُهُ في تَرْكِ النَّظَرِ إليهما وتَرْكِ الاعْتِراضِ لِما يوجِبُ التُّهَمَةَ، واللهُ أعلَمُ.

[وفي قَولِها][13]: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [دليلٌ على أنهُ كانَ أبوهما][14] في طَلَبِ أجيرٍ قَوِيٍّ أمينٍ، لكنهُ[15] لا يَجِدُ، ولا يَظْفَرُ بهِ. لِذلكَ[16] قالَتْ لهُ: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لهُ ماشِيةٌ، ولَهُ غِنًى، وبِهِ حاجةٌ إلى رَعْيِ ذلكَ وسَقْيِهِ، وقد بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ والضَّعْفِ ما ذُكِرَ: يُرسِلُ ابْنَتَيْهِ في الرَّعْيِ والسَّقْيِ، ولا يَسْتأجِرُ الأجيرَ

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: يخلو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) من م، في الأصل: وكذلك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.
(١١) في الأصل وم: يطيقه. (١٢) ساقطة في الأصل وم. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقولها. (١٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كأن أباهما كان. (١٥) من م، في الأصل: لكنا. (١٦) في الأصل وم: كذلك.

لِيَتولّى ذلكَ دونَ بَناتِهِ. هذا لا يَحْتَمِلُ ذلكَ، وخاصَّةً ما وَصَفَ [اللهُ تعالى][1] ابْنَتَهُ مِنَ الحَياءِ حينَ[2] قال: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

دَلَّ ذلكَ أنهُ كانَ في طَلَبِ الأجيرِ، وإنما أرسَلَ ابْنَتَيْهِ في سَقْيِ الغَنَمِ، وهو مُضْطَرٌّ إلى ذلكَ مُحتاجٌ إليهِ. لِذلكَ قالَتْ لهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

الآية ٣٧ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ طَلَبَتْ هي الإسْتِئْجارَ، وهو عَرَضَ عليهِ النّكاحَ لِما لَمْ تَرْغَبْ هي في النّكاحِ، أو طَلَبَتِ الاسْتِئْجارَ لِما[4] لم تُرِ مِن نَفْسِها الرَّغْبَةَ في النِّكاحِ، وإنْ كانَتْ لها الرَّغْبَةُ حَياءً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ/ ٣٩٧ ـ أ/ وجهَين:

أحَدُهُما: أنهُ جَعَلَ عَمَلَهُ ثَمانِيَ حِجَجٍ بَدَلاً لِلنِّكاحِ ومَهْراً لِبُضْعِها، ثم تَحْديدُهُ بِثَمانِيَ حِجَجٍ لِما رَأى عَمَلَ ثَمانِيَ سِنينَ مَهْرَ مِثْلِها، وقولُهُ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فإنْ أتْمَمْتَ عَشْراً، أو زِدْتَ على مَهْرِ المِثْلِ فَمِنْ عِنْدِكَ، أي لكَ ذلكَ: فَضْلٌ منكَ وإحسانٌ.

والثاني: قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ليسَ على جَعْلِهِ بَدَلاً لِلنِّكاحِ ولكنْ على الإجارةِ المَعْروفَةِ على أجْرٍ مَعْلومٍ على حِدَةٍ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ ذلكَ مَهْراً لها.

ثم التَّحْديدُ بِثَماني سِنينَ على هذا الوَجْهِ، يُخَرَّجُ على إحْدَى خَلَّتَينِ:

إحداهُما: أنهُ لَمّا قَصَّ عليهِ قِصَّتَهُ عَلِمَ أنهُ لا يَقْدِرُ على العَوْدِ إلى المِصْرِ، ورَأى أنهُ لا يَأمَنُ تلكَ الناحيةَ بدونِ ما ذَكَرَ مِنَ المُدَّةِ.

[والثانيةُ: أنهُ][5] لَمّا رَأى أنَّ نَفْسَهُ تَنْزِعُ، وتَتوقُ بالعَوْدِ إلى ذلكَ الوَقْتِ، شَرَطَ[6] ذلكَ عليهِ لِئَلّا يُحَدِّثَ نَفْسَهُ بالرجوعِ إليهِ إلى ذلكَ الوقْتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فإنْ زِدتَ سَنَتَينِ على ذلكَ؟ فَمِنْ فَضْلِكَ وإحسانِكَ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في الزِّيادةِ على ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ[7] تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جميعِ ما يجري بَيْنَكَ وبيني مِنَ المُعامَلَةِ والصُّحْبَةِ.

وفيهِ أنَّ الثُّنيا في ما يَعُدُّونَ كانَ ظاهراً في الأُمَمِ السالِفَةِ.

ثم اخْتُلِفَ في أبي المَرْأتَينِ: قالَ بعضُهُمْ: كانَ شُعَيباً. وقالَ بعضُهُمْ: ابْنُ أخي شُعَيبٍ. وقالَ الحَسَنُ: لم يَكُنْ شُعَيباً، ولكنهُ كانَ سَيِّدَ الماءِ يومَئذٍ. وليسَ لنا إلى معرفةِ مَنْ كانَ حاجَةٌ. أمّا شُعَيبٌ فإنهُ لم يَكُنْ في زَمَنِ موسى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ يعني الشَّرْطَ، واللهُ أعلَمُ ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي أوفيتُ، وعَمِلْتُ: إمّا الثّمانيَ[8] وإمّا العَشْرَ ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ يقولُ: لا سَبيلَ لكَ عليَّ بَعْدَ ذلكَ، ولا تَبِعَةَ. والعُدْوانُ: هو الظُّلْمُ والمُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ؛ يقولُ: لا ظُلْمَ عَلَيَّ، ولا مُجاوَزَةَ عَلَيَّ، أيِ الاخْتِيارُ إليَّ: قَضَيْتُ أيَّ الأجَلَينِ: اخْتَرْتُ، وشِئْتُ أنا.

وقولُهُ[9] تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: واللهُ كفيلٌ على مَقالَتي ومَقالَتِكَ. والوكيلُ: هو الشهيدُ أو الحافظُ، كأنهُ يقولُ: واللهُ على ما نقولُ شهيدٌ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ثم قال. (٤) في الأصل وم: ولما. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: فشرط. (٧) في الأصل وم: ثم قال. (٨) من م، في الأصل: الثاني. (٩) في الأصل وم: ثم قال.

ذُكِرَ أنَّ جبريلَ، جاءَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: إنْ سُئِلْتَ: أيَّ الأجَلَينِ قَضَى موسى؟ فَقُلْ: أبَرَّهُما وأوفاهُما، وإنْ سُئِلْتَ: أيَّ المَرْأتَينِ تَزَوَّجَ؟ فَقُلْ: أصْغَرَهُما. فإنْ ثَبَتَ هذا ففيهِ أنهُ قَضَى الأجَلَينِ جميعاً: الثَّماني والعَشْرَ، وليسَ في الآيةِ إلّا انْقِضاءُ الأجَلِ [وهو قولُهُ][(١)]: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ أي تُجازِيَني مِنَ التَّزويجِ. والأجرُ مِنَ اللهِ إنما هو الجزاءُ على العَمَلِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ ما ذَكَرْنا أنهُ قَضَى: أتَمَّهُما، أو أكثَرَهُما. لكنْ لا نَعلَمُ إلّا بالخَبَرِ الصحيحِ. فَعَلَى ما ذَكَروا، وليسَ في الآيةِ إلّا انْقِضاءُ الأجَلِ، فلا يُزادُ على ذلكَ إلّا بِثَبَتٍ. فإنْ ثَبَتَ ما رُوِيَ مِنَ الخَبَرِ فهو، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ آنَسَ قيلَ: أبْصَرَ وأحَسَّ ناراً. قالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى لم يكُنْ رَأى ناراً، ولكنْ إنما رَأى نوراً، ظَنَّ أنهُ نارٌ. فلا يَحْتَمِلُ ذلكَ لأنهُ أخبَرَ أنهُ آنَسَ ناراً، وإنْ لم يَكُنْ ذلكَ في الحقيقةِ ناراً، ولكنْ نورٌ، فذلكَ[(٢)] الكَذِبُ في الخَبَرِ إلّا أنْ يُقالَ على الإضمارِ: آنَسَ مِنْ جانبِ الطورِ ناراً، ظَنَّ أنهُ نارٌ، أو في ظَنِّهِ أنهُ نارٌ.

[وقولُهُ تعالى][(٣)]: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي امْكُثوا لَعَلّي آتيكُمْ منها بِخَبَرٍ يَدُلُّنا، ويُخبِرُنا، على الطريقِ؛ فكأنهُ قد ضَلَّ الطريقَ، فيقولُ ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ بِخَبَرِ الطريقِ ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي آتيكُمْ بِجَذْوَةٍ مِنَ النارِ، [أولو بَقيتُمْ لآتيتُكُمْ][(٤)] بِخَبَرِ الطريقِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. هذا يَدُلُّ أنهُ كانَ في وقتِ الشتاءِ وفي وقتِ البَرْدِ.

الآية ٣٠ [وقولُهُ تعالى][(٥)]: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي عنْ يَمينِ الجَبَلِ. وقالَ بعضُهُمْ: عنْ يَمينِ موسى. وقالَ بعضُهُمْ: يَمينِ الشَّجَرَةِ. ولكنَّ الأيمَنَ المُبارَكُ، وهو مِنَ اليُمْنِ، الوادي اليَمِنُ ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ [سُمِّيَتْ مُبارَكةً][(٦)] لِكَثْرَةِ أشجارِها وأنزالِها وكَثْرَةِ مِياهِها وعُشْبِها. ولكنْ [سَمَّى الوادِيَ][(٧)]مُباركاً وأيْمَنَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ مَكانُ الأنبياءِ والرُّسُلِ ومَوضِعُ الوَحْيِ. [وهو][(٨)] قولُهُ تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [وللهِ أنْ يُسْمِعَ، ويُخبِرَ مَنْ شاءَ بما شاءَ وكيفَ شاءَ كما أسمَعَ مريمَ مِنْ تَحتِها حينَ][(٩)] قالَ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ليسَ هذا بِمَوصولٍ بقولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾][(١٠)].

ولكنَّ[(١١)] ذلكَ ما ذُكِرَ في سورةِ طه: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [الآية: ١٢] إلى آخِرِ ما ذُكِرَ.

ثم قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أي تَتَحرَّكُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الجانُّ الحَيَّةُ الصغيرةُ. وقالَ بعضُهُمْ: الجانُّ ما بَينَ العَظيمَةِ والصَّغيرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ فارًّا هارِباً ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي يَلْتَفِتْ، ولم يَرْجِعْ لِشِدَّةِ خَوفِهِ وفَزَعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ قولُهُ: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: على رَفْعِ الخَوفِ مِنْ قَلْبِهِ إذْ قالَ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

والثاني: على البِشارةِ أنهُ لا يُؤْذيهِ؛ كأنهُ يقولُ: لا تَخَفْ، وكُنْ مِنَ الآمِنينَ، فإنهُ لا يُؤْذيكَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كان ذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ولو بقيتم فيه ولم آتيكم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: سمي مباركا. (٧) في الأصل وم: سماه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في م: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

والثالثُ: [على النَّهْيِ، أي لا تَخَفْ][1] فإني أحفَظُكَ، وأدفَعُ أذاهُ عنكَ كقولِهِ: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥ و: ٤٦] أي أسْمَعُ ما يقولُ لكما، وأرَى ما يَفْعَلُ بكما، وأدفَعُ ذلكَ عنكما.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ وبِكَسْرِ الجيمِ ورَفْعِها. قالَ بعضُهُمْ: عُودٌ، قدِ احْتَرَقَ بعضُهُ. وقالَ قَتادَةُ: أصلُ شَجَرَةٍ، فيها نارٌ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجَذْوَةُ مِثْلُ الشِّهابِ سَواءٌ، والجُذا جَمْعُ الجَذْوَةِ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجَذْوَةُ القِطْعَةُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الجَذْوَةُ عُودٌ، قدِ احْتَرَقَ، أي قِطْعَةٌ منها. وشاطِئٌ أي شَطُّ الوادي. آنَسْتُ أبصَرْتُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي أبصَرْتُمْ، وعَلِمْتُمْ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ [النمل: ١٢] يدلُّ أنْ لا بأسَ بِتَغْييرِ الألفاظِ واخْتِلافِها بَعْدَ إصابةِ المَعْنَى وما قُصِدَ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [بالفَتْحِ الرَّهَبِ، وبالضَّمِّ الرُّهْبِ.][2] وقد قُرِئَ بهما جميعاً.

ثم قالَ بعضُهُمْ: هو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ. قولُهُ: ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ مَوصولٌ بقولِهِ: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ مِنَ الرَّهْبِ أيِ الخَوفِ والفَرَقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أمَرَهُ أنْ يَضُمَّ يدَيهِ إلى نفسِهِ لأنَّ ذلكَ أخوَفُ وأهْيَبُ وأعظَمُ مِنْ إرسالِهِما.

وذلكَ مَعروفٌ أيضاً في الناسِ أنهمْ إذا دَخَلوا على مَلِكٍ مِنَ المُلوكِ ضَمُّوا أيدِيَهُمْ وأجْنِحَتَهُمْ[3] إلى أنفسِهِمْ تعظيماً لهمْ وتَبْجيلاً أو خوفاً منهمْ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يَأمُرَهُ بِضَمِّ يَدَيهِ إلى نفسِهِ ليكونَ بَينَ يَدَي رَبِّهِ أهْيَبَ[4] وأخوَفَ ما يكونُ، وأعظَمَ ما يَجِبُ لهُ، وهو ما قالَ لهُ: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اليَدُ والعَصا اللَّتانِ ذَكَرَهما بُرْهانانِ مِنْ ربِّكَ أي حُجَّتُنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾.

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ كقولِهِ[5] في سورةِ الشعراءِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الآيات: ١٢. ١٤] أخَّرَ في هذا ما كانَ مُقَدَّماً في الذِّكْرِ في ذلكَ، وذَكَرَ على اخْتِلافِ الألفاظِ وتَغْييرِ الحُروفِ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ على السامِعِ حِفْظُ الألفاظِ والحروفِ بَعْدَ إصابةِ /٣٩٧ ـ ب/ المَعْنَى وفَهْمِ ما قُصِدَ بها وأُودِعَ فيها لأنَّ اللهَ ذَكَرَ هذهِ الأشياءَ والقِصَصَ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ في القرآنِ على اخْتِلافِ الألفاظِ وتَغْييرِ الحروفِ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ والزِّيادةِ والنُّقصانِ لِيُعْلَمَ أنَّ المَقصودَ والمُرادَ بِذِكْرِها ما فيها لا عَينُ اللفظِ والحروفِ. فإذا عُرِفَ ما فيها، وفُهِمَ جازَ الأداءُ بأيِّ لسانٍ كانَ وبأيِّ لَفْظٍ كانَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أمّا[6]: أهلُ التأويلِ فإنهمْ قالوا: كانَ في لسانِهِ رُتَّى[7] أي عُقْدَةٌ لِما أدْخَلَ في فَمِهِ مِنَ النارِ. فذلكَ لا نَعْلَمُهُ، وقد قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧ و٢٨].

[والثاني: يجوزُ][8] أنْ يكونَ ذلكَ خِلْقَةً، خَلَقَهُ هكذا على ما خَلَقَ بَعْضَ الخَلْقِ أفْصَحَ وأبْيَنَ مِنْ بَعْضٍ.

أو أنْ يكونَ لِما ذُكِرَ بِهِ مِنَ الخَوفِ والذَّنْبِ ما لم يَكُنْ ذلكَ لهارونَ[9]؛ ولا شَكَّ مَنِ اشْتَدَّ بِهِ الخوفُ مَنَعَ صاحِبَهُ عنِ التَّكَلُّمِ والبَيانِ؛ وذلكَ مُتَعالَمٌ مَعْروفٌ في الناسِ، وهو ما ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [الشعراء: ١٢].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بالضم والرهب بالفتح، انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٠. (٣) في الأصل وم: وجناحيهم. (٤) في الأصل وم: وأهيب. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: أحدها. (٧) في الأصل وم: رقة. (٨) في الأصل وم: فيجوز. (٩) في الأصل وم: آخرون.

أو أنْ يكونَ ذلكَ لأنَّ نشوءَ هارونَ كانَ فيهِمْ، وهُمْ بِلسانِهِ أعْرَفُ ولِنُطْقِهِ أفْهَمُ، ولِموسى فَتَراتٌ، كانَ مُعْتَزِلاً عنهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي عَوناً ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ ثم بَيَّنَ في آيةٍ أخرى أنهُ في ما طَلَبَهُ منهُ عَوناً، وهو ما قالَ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] يُصدِّقُني[1] في ما أقولُ إذا كَذَّبوني هُمْ، أو أسْتأنِسُ بهِ إذا ضاقَ صَدري بالتَّكذيبِ والرَّدِّ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: فقالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ العَضُدُ كِنايةٌ وعِبارةٌ عنِ القُوَّةِ والعَونِ، لأنَّ القُوَّةَ فيهِ تكونُ في مَنْ تكونُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠] [لأنهُ بالأقدامِ][2] تَثْبُتُ، وقولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] لأنهُ بالعَقِبِ يُنْكَصُ، ومِثْلُهُ كثيرٌ. فَعَلى هذا ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قالَ قائلونَ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، أي نَجْعَلُ لكما سُلْطاناً بآياتنا، فلا يَصِلونَ إليكُما. وقالَ بعضُهُمْ: ونَجْعَلُ لكما سُلْطاناً باللُّطفِ، نَدْفَعُ عنكُما أذاهُمْ وشَرَّهُمْ كقولِهِ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أي أسْمَعُ ما يقولُ لكما، وأرى ما يَفْعَلُ لكما، وأدْفَعُ ذلكَ عنكُما، فلا يَصِلونَ إليكما بالآياتِ التي مَعَكُما.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً[3]: الغالبونَ بالحُجَجِ والبراهينِ، أي تَغْلِبُ حُجَّتُكُما سِحْرَهُمْ وتَمْويهاتِهِمْ، أو تكونُ عاقبةُ الأمرِ لكُما، أو يكونُ ذلكَ في الآخِرَةِ.

قالَ أبو مُعاذٍ: تقولُ العَرَبُ: أرْتَيْتُ[4] الرجلَ أي اعْتَقْتُهُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي أُعينُكَ بهِ، وأُقَوّيكَ، والعَضُدُ كِنايةٌ عنِ القُوَّةِ لأنَّ القُوَّةَ تكونُ فيه، وبهِ يَقْوى مَنْ يُوصَفُ بالقُوَّةِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي جاءَ موسى فِرْعَونَ وقومَهُ بآياتنا أي [بِأعلامٍ، أنشأناها][5] مُوضِحاتٍ مُظْهِراتٍ؛ يُظْهِرْنَ، ويُوَضِّحْنَ رسالةَ موسى ونُبُوَّتَهُ، وقد أظْهَرَتْ لهمْ ذلكَ، وعَرَفوا أنها آياتٌ مِنَ اللهِ، نَزَلَتْ، أفَلا تَرى أنَّ موسى [قالَ لِفِرْعَونَ][6]: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾؟ [الإسراء: ١٠٢] لكنهُمْ عانَدوا، وكابَروا، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ هذا منهم تَمْويهٌ وتَلْبيسٌ على الأتْباعِ والسَّفَلَةِ، ولم تَزَلْ عادَتُهُمُ التَّمويهَ والتَّلْبيسَ على أتباعِهِمْ أمْرَ موسى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقولونَ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ آباءَنا قد عَبَدوا الأصنامَ على ما نَعْبُدُ نَحْنُ، وقد ماتوا على ذلكَ مِنْ غَيرِ أنْ نَزَلَ بهِمْ ما تَتَوَعَّدُنا مِنَ الهَلاكِ والعذابِ. فَعَلى ذلك نَحْنُ على دينِ آبائِنا، وعلى ما هُمْ عليهِ، فلا يَنْزِلُ بِنا شيءٌ مِمّا تَذْكُرُ، وتُوعِدُنا بهِ مِنَ العذابِ.

الآية ٣٧ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ ليسَ بجوابٍ لِقولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ويكونُ جوابُ هذا، إن كانَ، هو قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كَنّى بالظُّلْمِ عنِ السِّحْرِ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ليسَ بِسِحْرٍ لأني قد غَلَبْتُكُمْ، وقَهَرْتُكُمْ، وقد أفْلَحْتُ أنا. ولو كانَ سِحْراً ما أتَيْتُكُمْ بهِ لم أُفْلِحْ؛ إذِ اللهُ تعالى أخْبَرَ أنَّ الساحرَ لا يُفْلِحُ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وقالَ أيضاً: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ الآية [يونس: ٨١] وقد أصْلَحَ عَمَلي، فَظَهَرَ أنهُ ليسَ بفسادٍ، ولكنهُ جوابُ قولِهِ: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ما ذُكِرَ في سورةِ المص [حينَ قالَ][8] ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أنتُمْ أو نَحْنُ.

---

(١) في الأصل وم: ويصدقني. (٢) في الأصل وم: ذكر الأقدام. (٣) في الأصل وم: وجهين. (٤) في الأصل وم: أردت. (٥) في الأصل وم: أعلاما أنشأها. (٦) في الأصل وم: قال له يا فرعون. (٧) في الأصل وم: ثم قال. (٨) في الأصل وم: حيث قالوا.

ويكونُ[١] ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ جواباً لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ كأنهُ قالَ: لِلْمَلإِ خُصوصِيَّتُهُ لهمْ لأنهُ كانَ اتَّخذَ للأتباعِ أصناماً يَعْبُدونَها، وجَعَلَ لِلْمَلإِ نفسَهُ إلهاً[٢] لِما لم يَرَ الأتباعَ أهلاً لعبادةِ نفسِهِ، جَعَلَ لهمْ عِبادةَ الأصنامِ، ورأى المَلأَ أهلاً لذلكَ، فَخصَّهُمْ، ومنهُ اتَّخذَتِ العربُ عبادةَ الأصنامِ دونَ اللهِ لِما لم يَرَوا أنفُسَهُمْ أهلاً لِعبادةِ اللهِ، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أوَّلُ مَنِ اتَّخذَ الآجُرَّ هو، ولا نَعْلَمُ ذلكَ [حقيقةً، ويَحْتَمِلُ][٣] أنْ يكونَ قَبْلَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ أي قَصْراً ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كانَ يعرِفُ أنهُ ليسَ بإلهِ السماءِ والأرضِ، إذْ لا يَمْلِكُ ذلكَ، فكأنهُ أرادَ بقولِهِ ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ قومَهُ وأهلَهُ خاصَّةً.

[وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ كانَ جميعُ ما كانَ بَينَ موسى وفرعونَ مِنَ الكلامِ كانَ على الظَّنِّ كقولِهِ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ وكذلكَ قالَ موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠١ و١٠٢].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ الاسْتِكْبارُ هو ألّا يَرى لنفسِهِ شَكْلاً ولا نَظيراً، وهو كذلكَ كانَ، لا يَرى لنفسِهِ شَكْلاً ولا نَظيراً لأنهُ يَدَّعي لِنَفْسِهِ الرُّبوبيَّةَ والألوهيَّةَ، واسْتِكْبارُ قومِهِ لمّا اسْتَعْبَدوا بَني إسرائيلَ، واسْتَخْدَموهُمْ، أوِ اسْتَكْبَروا [على][٥] أنْ يَخْضَعوا لِموسى، ويُجيبوا لهُ إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ[٦] ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾.

الآية ٤٠ [وقولُهُ تعالى][٧] ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أخذَ تَعْذيبٍ وإهلاكٍ ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يُعَذَّبونَ بظُلْمِهِمْ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ذَكَرَ في هؤلاءِ أنهُ جَعَلَهُمْ أئمَّةً في الشَّرِّ، وذَكَرَ في الرُّسُلِ وأهلِ الخَيرِ أنهُ جَعَلَهُمْ أئمَّةً في الخَيرِ حينَ[٨] قال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقالَ[٩]: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فكانَ مِنَ اللهِ تعالى مِنْ أهلِ الخَيرِ صُنْعٌ ومَعْنًى حتى صاروا بذلكَ أئمَّةَ الخَيرِ ما لم يَكُنْ ذلكَ منهُ بأهلِ الشَّرِّ وأئِمَّةِ السُّوءِ.

فهذا على المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: لم يكُنْ مِنَ اللهِ إلى الرُّسُلِ وقادةِ الخَيرِ إلّا وقد كانَ ذلكَ منهُ إلى كلِّ كافرٍ وفاسقٍ. فلو كانَ على ما قالوا لكانَ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَصيرَ هؤلاءِ/ ٣٩٨ ـ أ/ أئِمَّةَ الخَيرِ وأولئكَ أئمَّةَ الشَّرِّ بأعمالِهِمْ أيضاً، وإنْ كانَ ما مَنَّ اللهُ عليهِمْ على السَّواءِ. لكنْ يُضافُ ذلكَ إلى اللهِ بأسبابٍ تكونُ منهُ. وكانَتْ حَقيقةُ ذلكَ منهُمْ وبِعِلْمِهِمْ نَحْوَ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: ١١] أضافَ إنذارَهُ إلى مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وإنْ كانَ رسولُ اللهِ [أنْذَرَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ][١٠] ومَنْ لم يَتَّبِعْ.

وكذلكَ ما قالَ في الشيطانِ[١١]: إنما يدعو الحِزْبَينِ جميعاً. لكنهُ أضافَ دُعاءَهُ إلى حِزْبِهِ لِما منهمْ تكونُ لهُ الإجابةُ، وأضافَ إنذارَ رسولِ اللهِ إلى مَنِ اتَّبَعَهُ، وقَبِلَهُ، لِطاعَتِهِمْ لهُ.

---

(١) في الأصل وم: ويقول. (٢) في الأصل وم: والهيته. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يحتمل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج في الأصل وم بعدها: وقوله تعالى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، في الأصل: وما قال. (١٠) في الأصل وم: ينذر. (١١) في الأصل وم: الشياطين.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ؛ أضاف ذلكَ إلى نفسِهِ لِفِعْلِهِمْ. لكنْ عندَنا لا يكونُ مِنَ الخالِقِ[(١)] في فِعْلِ الخَلْقِ حقيقةُ الفِعْلِ، إنما يكونُ منهُمُ الأسبابُ، ويكونُ منَ اللهِ تعالى في أفعالِهِمُ الأسبابُ وحقيقةُ الفِعْلِ، فتكونُ إضافةُ ذلكَ إلى اللهِ على حقيقةِ الفِعْلِ والأسبابِ جميعاً، وإلى الخَلْقِ لأسبابٍ تكونُ منهمْ إليهِمْ.

والثاني إنما خَصَّ بالإنذارِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ لأنهُ إنما يَقْصِدُ بالإنذارِ [مَنْ تَبِعَهُ لا مَنْ لا يَتْبَعُهُ][(٢)] وكذلكَ الشيطانُ إنما يَقْصِدُ بدعائِهِ إياهُمْ ضَرَرَهُمْ. وإنْ كانَ الرسولُ يُنْذِرُ الخَلْقَ جميعاً الذي يَتْبَعُهُ والذي لا يَتْبَعُهُ. وكذلكَ الشيطانُ يَدْعُو الحِزْبَيْنِ جميعاً؛ لأنَّ هذا يَقْصِدُ ضَرَرَهُمْ بما يَدْعوهُمْ إليهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟ [فاطر: ٦] والرسولُ بما يُنْذِرُ يَقْصِدُ نَفْعَهُمْ؛ لذلكَ خَصَّ الإنذارَ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وخَصَّ في ذلكَ حِزْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ تصريحاً لأنهمْ لو دَعَوهُمْ إلى النارِ لا يُجيبونَهُمْ، ولكنْ يَدْعُونَهُمْ إلى أعمالٍ توجِبُ لَهُمُ النارَ، لو أجابوهُمْ. وهو كقولِهِ: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]. أي ما أصْبَرَهُمْ على عَمَلٍ، يَسْتَوجِبونَ بِهِ النارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ كأنَّ الشيطانَ مَنَّاهُمُ النَّصْرَ والشَّفاعةَ بِعِبادَةِ الأصنامِ، فَيُخْبِرُ أنهمْ لا يُنْصَرونَ لِما مَنَّاهُمْ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ وهو ما عُذِّبوا في الدنيا، واسْتُؤْصِلوا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُسْوَدَّةٌ[(٣)] وُجوهُهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ[(٤)] ذلكَ جَزاءَ ما افْتَخَروا في هذهِ بالحُلِيِّ والزِّينةِ، وطَعَنوا في موسى، وجَواباً[(٥)] لهمْ حينَ[(٦)] قالوا: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] يُخْبِرُ أنهمْ يكونونَ في الآخِرَةِ على غيرِ الحالِ التي كانوا في الدنيا، وافْتَخَروا بها.

وقالَ بعضُهُمْ: القُبوحُ[(٧)] هو السَّوادُ معَ الزُّرْقةِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ من نحوِ عادٍ وثمودٍ وهؤلاءِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ مِنَ الأُمَمِ، أي أرْسَلْناهُ بَعْدَ هلاكِ مَنْ ذَكَرَ.

[وقولُهُ تعالى][(٨)]: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما:][(٩)] يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي هلاكُ مَنْ ذَكَرَ مِنَ القرونِ الأولَى بَصيرَةً وعِبْرَةً لِمَنْ يكونُ مِنْ بَعْدِهِمْ لِيَزْجُرَهُمْ ذلكَ عنْ تَكْذيبِ الرُّسُلِ، ويكونَ ذلكَ آيةً لرسالةِ موسى.

والثاني: [يُشْبِهُ][(١٠)] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي الكِتابُ [الذي][(١١)] آتاهُ اللهُ موسى هو بصائرَ ﴿لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ لهمْ إذا قَبِلوهُ، واتَّبَعوهُ، وعَمِلوا بهِ. وكذلكَ كانَ جميعُ كُتُبِ اللهِ هُدًى ورَحْمَةً وبَصيرَةً لِمَنْ آمَنَ بها، وعَمِلَ بها.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا جَواباً وصِلَةً لِقولِهِمْ: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦] يقولُ، واللهُ أعْلَمُ، إنكمْ لو تَسْمَعونَ ذلكَ في آبائِكُمُ الذينَ اتَّبَعوا رُسُلَكُمْ، فأجابوهُمْ. فأمّا مَنْ كَذَّبوهُمْ فإنا أهْلَكْناهُمْ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ، واسْتَأْصَلْناهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِجَانِبِ

---

(١) في الأصل وم: الخلق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: مسودون. (٤) من م، في الأصل: يكونوا. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: المقبوح. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

﴿ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ حيثُ تَغرُبُ الشمسُ والقمَرُ والنجومُ، والشَّرْقِيُّ حيثُ تَشرُقُ الشمسُ وتَطلُعُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ أي بِجانِبِ الوادي الغَرْبِيِّ واللهُ أعلَمُ ما أرادَ بِهِ.

الآيتان ٤٥ و٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ أي مُقيماً ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: إنكَ لم تَكُنْ شاهداً هذهِ المشاهدَ التي شَهِدَها موسى حينَ[1] قَضَينا إلى موسى الأمْرَ بِجانِبِ الغَرْبِيِّ، ولم تَكُنْ شاهداً هنالكَ ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ حتى تَعلَمَ أمْرَ موسى ووَحْيَهُ[2] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ موسى[3]، أي لم تكُنْ شاهداً هذهِ المشاهدَ التي كانَ موسى شاهداً فيها. ثم أعْلَمْناكَ بِتلكَ الأنباءِ والأخبارِ على ما كانَتْ لِتَتلُوَ تلكَ الأنباءَ والأخبارَ على [أهلِ][4] مكة، فتكونَ آيةً لِنُبُوَّتِكَ وحُجَّةً لِرِسالَتِكَ، إذْ لم تَشْهَدْها، ولا اخْتَلَفْتَ إلى أحدٍ مِمَّنْ يَعرِفُها، فَعَلَّمَكَ، ثم أنبأتَ، لِيَعرِفوا أنكَ إنما عَرَفْتَ باللهِ تعالى.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ هذا لهُ امْتِناناً عليهِ لِيَستأدِيَ بِهِ شُكْرَهُ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ أوحَى إلى موسى، وذَكَرَ محمداً وأمَّتَهُ في شَرَفِهِ حتى تَمَنَّى موسى أنْ يَجعَلَهُ[5] مِنْ أمَّتِهِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لم تَكُنْ أنتَ شاهداً في هذهِ المَشاهِدِ، فَذَكَرْتُكَ ثَمَّةَ وأمَّتَكَ.

[والثالثُ: يَحتَمِلُ][6] أنْ يَذْكُرَ هذا لهُ على الاِخْتِصاصِ لِيُعْرَفَ أنَّ أمْرَ الرسُلِ والوَحْيِ إليهِمْ على الاِخْتِصاصِ لهمْ مِنَ اللهِ، لا بأمْرٍ كانَ منهمْ.

على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يَحتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ ما ذَكَرَهُ لهُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ يقولُ لمحمدٍ: لم تُعايِنْ هذا، ولم تَشْهَدْهُ، وإنما هو شيءٌ، أنْزَلْناهُ عليكَ لِتَتْلُوَهُ على أهلِ مكةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾ هذا ليسَ بصِلَةٍ بالأوَّلِ، ولكن على الاِبْتِداءِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ بَعْدَ انْقِراضِ الرسُلِ ودُروسِ أعلامِهِمْ وآثارِهِمْ، وتَطاوَلَ العَهْدُ والعُمُرُ، ثم بَعَثْناكَ فيهِمْ رسولاً لِتُحْيِيَ بكَ[7] آثارَهُمْ، ونُظْهِرَ فيهِمْ سُنَّتَهُمْ وأعلامَهُمْ رَحْمَةً منّا إليهِمْ، وهو ما قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أرسَلْنا إياكَ رَحْمَةً منّا لهمْ. وهو ما قالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي ما أنبَأكَ، وأعْلَمَكَ مِنْ أنباءِ موسى وأخبارِهِ حينَ[8] لم تَشْهَدْها مِنْ رَحْمَةِ ربِّكَ حينَ[9] جَعَلَها آيةً لِنُبُوَّتِكَ وحُجَّةً لرسالتِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ هذا يَحتَمِلُ [وجوهاً:

أحَدُها:][10] ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ﴾ أنْذَرَ بِهِ الرسلُ الذينَ مِنْ قَبْلِكَ قومَهُمْ.

والثاني: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي على رَجاءِ التَّذَكُّرِ تُنْذِرُهُمْ.

[والثالثُ][11]: يكونُ ذلكَ خاصَّةً لِمَنْ تَذَكَّرَ إذا كانَ على الإيجابِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لا يَنْتَظِمُ الجوابُ، وليسَ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ جواباً لهُ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦] أي لم تقولوا: ما يكونُ لنا أنْ نَتَكَلَّمَ بهذا، وقولِهِ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ﴾ [النور: ١٤] أي لم يَمَسَّهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وحينه. (٣) في الأصل: موسى ونحوه، في م: يا موسى ونحوه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يجعل. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: به. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (١١) في الأصل وم: أو أن.

وجميعُ ما ذُكِرَ في هذهِ السورةِ مِنْ: ﴿وَلَوْلَا﴾ مَعْناهُ[١]: لم يكنْ. فعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي لم تُصِبْهُمْ مُصيبةٌ، ولو أصابَتْهُمْ مُصيبةٌ، وهو العذابُ ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ وهو كقولِهِ ﴿وَلَوْ أَنَّآ /٣٩٨ ـ ب/ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] على هذا يُخرَّجُ تأويلُ هذا.

ثم في هذهِ الآيةِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [دلالةٌ وحُجَّةٌ مِنْ وجهَينِ][٢]:

أحَدُهما: على مَنْ يقولُ: إنهُ[٣] ليسَ للهِ أنْ يُعذِّبَهُمْ بما كانَ منهمْ قَبْلَ بَعْثِ الرسُلِ إليهِمْ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وفي الآيةِ بيانٌ: لهُ أنْ يُعذِّبَهُمْ، وإنْ لم يَبْعَثِ الرسُلَ، لأنهُ أوعَدَهُمُ الهلاكَ، فلو لم يكُنْ لهُ التعذيبُ والإهلاكُ لم يكُنْ للإيعادِ [مَعْنًى][٤]. فَدَلَّ أنَّ لهُ الإهلاكَ في الدنيا والاسْتِئصالَ. لكنَّهُ أخَّرَهُ عنهُمْ فَضلاً منهُ ورَحْمَةً.

والثاني: على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ [بوجوبِ][٥] الأصْلَحِ لأنهُ لا يَخلو: إمّا أنْ يكونَ ما أوعَدَهُمْ أصْلَحَ لهمْ مِنَ التَّرْكِ، وإمّا التَّرْكُ لهمْ أصْلَحُ.

فإنْ كانَ ما أوعَدَ لهمْ أصْلَحَ [وقد تَرَكَهُ][٦] فيكونُ في تَرْكِهِ[٧] إياهُمْ جائزٌ على قولِهِمْ، لأنهُ لم يَفْعَلْ ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ.

أو إنْ يَكُنِ[٨] التَّرْكُ لهمْ أصْلَحَ فيكونُ بما أوعَدَهُمْ جائزاً؛ إذْ أوعَدَ بِما كانَ غَيرُهُ أصْلَحَ لهمْ مما أوعَدَ فَدَلَّ ما ذَكَرْنا على أنْ ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لهمْ في الدينِ.

ثم قولُهُ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ليسَ الكُفْرَ نفسَهُ، ولكنِ العِنادُ والمُكابَرَةُ مَعَ الكُفْرِ لأنَّ عذابَ الكُفْرِ في الآخِرَةِ، ليسَ في الدنيا، لأنَّ اللهَ قد أبْقَى كثيراً مِنَ الكَفَرَةِ لم يُهْلِكْهُمْ، ولم يُعَذِّبْهُمْ في الدنيا، ولكنْ إنما أهْلَكَ، واسْتَأْصَلَ في الدنيا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ الرسُلَ في الآياتِ والحُجَجِ التي [أتَوهُمْ بها][٩] وأقاموها عليهِمْ على إثْرِ سُؤالٍ كانَ منهمْ. فعندَ ذلكَ أهْلَكَهُمْ، واسْتَأْصَلَهُمْ، لا بِنَفْسِ الكُفْرِ.

ثم مَعَ ما كانَ لهُ التعذيبُ قَبْلَ بَعْثِ الرسُلِ لم يُعَذِّبْهُمْ، ولكنْ أخَّرَ عنهُمْ إلى أنْ بَعَثَ الرسُلَ إليهِمْ بالآياتِ والحُجَجِ لِيَقْطَعَ بهِ لَجاجَتَهُمْ ومُنازَعَتَهُمْ فَضلاً منهُ، وإنْ لم يكُنْ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ[١٠] بقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويَحْتَمِلُ[١١] قولُهُ ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الآياتِ التي تُبْعَثُ مَعَ الرسُلِ لأنهُ يَبْعَثُ الرسُلَ بالآياتِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ يَعْنونَ بالآياتِ الرسُلَ [أنفسَهُمْ لأنهمْ آياتُ اللهِ وحُجَجُهُ][١٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الحَقُّ الذي ذَكَرَ الرسُولَ نفسَهُ. ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الكتابَ الذي أُنزِلَ عليهِ وآياتِهِ[١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: قالوا: هلّا أُوتِيَ محمدٌ مِنْ أنواعِ [النِّعَمِ][١٤] مِنَ المَنِّ والسَّلْوى وغيرِهما[١٥] مِنْ غَيرِ تَكَلُّفٍ ولا تَعَبٍ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ لو كانَ رسولاً على ما يقولُ.

---

(١) في الأصل وم: كله إنه. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وجهان. (٣) في الأصل وم: بان. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: فقد تركتم، في م: فقد تركه. (٧) في الأصل وم: تركهم. (٨) في الأصل وم: يكون. (٩) في الأصل وم: أتوها بهم. (١٠) في الأصل وم: عليهم. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لأنفسهم حجج. (١٣) في الأصل وم: وآيات. (١٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.
(١٥) في الأصل وم: وغيره.

[والثاني][1]: أنْ يقولوا ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ مِنَ الآياتِ الحِسِّيَّاتِ الظاهراتِ مِنْ نَحْوِ اليَدِ والعَصا والحَجَرِ الذي كانَ يَتَفَجَّرُ منهُ الماءُ والغَمامُ وما ذَكَرَ مِنَ الضَّفادِعِ والقَمْلِ والدَّمِ والطوفانِ وغَيرِ ذلكَ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

[والثالثُ][2]: أنْ يقولوا ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ محمدٌ القرآنَ جُمْلَةً عِياناً جَهاراً كما أُوتِيَ موسى التوراةَ جُمْلَةً عِياناً جَهاراً، واللهُ أعلمُ بذلكَ: بِما عَنَوا بهِ.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى، وأخبَرَ أنهمْ إنما يَسألونَ ما سألوهُ سُؤالَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ وطَلَبِ [لِلْحَقِّ حينَ][3] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي ألَمْ يكفرْ هولاءِ الذينَ سألوكَ الآياتِ بما أُوتِيَ موسى؛ يَعْني أهلَ مكةَ، لأنهمْ كانوا مُشْرِكينَ، لم يُؤْمِنوا برسولٍ قَطُّ مِنْ قَبْلُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟﴾ أي ألم يَكْفُرْ قومُ موسى بما أُوتِيَ موسى بَعْدَ سُؤالِهِمُ الآياتِ إذْ أتاهُمْ بها. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ يَكْفُرونَ بما أُوتِيتَ. والأوَّلُ أشْبَهُ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ وقد قُرِئَ: ساحِرانِ بالألفِ[5]. قالَ بعضُهُمْ: ساحِرانِ موسى وهارونُ، [وقالَ بعضُهُمْ][6]: موسى ومحمدٌ، وقالَ بعضُهُمْ: عيسى ومحمدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ بِغَيرِ ألفٍ كتابانِ. لكنهُمُ اختَلَفوا. قالَ بعضُهُمْ: التوراةُ والإنجيلُ. وقالَ بعضُهُمْ: الفُرقانُ والتوراةُ ونَحْوُهُ. وقالَ بعضُ أهلِ الأدبِ أيضاً: ساحِرانِ أولَى وأقْرَبُ، لأنَّ ذِكْرَ التَّظاهُرِ إنما يكونُ بَينَ الأنفُسِ، لا يكونُ بَينَ الكُتُبِ؛ تظاهَرا أي تَعاوَنا. وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ الأدبِ أيضاً: سِحْرانِ بِغَيرِ ألِفٍ أولَى لأنهُ أرادَ بِهِ الكتابَينِ.

ألا تَرَى أنهُ طَلَبَ منهُمْ بما قالوا إتيانَ الكتابِ [حينَ قالَ:][7] ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾؟ رَدَّ على ما قالوا، وطَلَبوا منهُ.

لكنْ نقولُ نَحْنُ: لا نُحِبُّ أنْ نُختارَ إحدى القراءَتَينِ على الأُخرَى، لأنهُ إنما هو خَبَرٌ، أخبَرَ عنهمْ أنهمْ قالوا ذلكَ؛ فَمَرَّةً قالوا: سِحْرانِ، ومَرَّةً قالوا: ساحِرانِ. فأخبَرَ على ما قالوا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧] بالألِفِ اللهُ وغَيرِ الألِفِ ﴿لِلَّهِ﴾[8] لا يُختارُ أحَدُهما على الآخَرِ لأنهُ خَبَرٌ، أخبَرَ عنهُمْ على ما كانَ منهمْ، فهو على ما أخبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: في قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ قالَتْ يهودُ نَأمُرُ قُرَيشاً أنْ تَسْألَ أنْ يُؤتَى محمدٌ مِثْلَ ما أُوتِيَ موسى، يقولُ اللهُ لرسولِهِ: قُلْ لِقُرَيشٍ: قولوا[9] لهمْ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ يعني يهودَ ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ قالَ قولَ يَهودَ لموسى وهارونَ، وهو مِمّا ذَكَرْنا قريبٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ بما أُوتِيَ موسى على الاختِلافِ ما ذَكَرْنا.

الآية ٤٩ وقولُهُ[10] تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لقريشٍ أهلِ مكةَ ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ مِنَ التوراةِ والإنجيلِ على الاختِلافِ ما قالوا ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زَعْمِكُمْ أنهما ساحِرانِ تَظاهَرا وأنهُ مُفْتَرًى. ائْتوا أنتُمْ مِنْ عندِ اللهِ بِكتابٍ أتَّبِعْهُ. إلى هذا ذهبَ أهلُ التأويلِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ يُشْبِهُ أنْ يكونَ أقرَبَ منهُ، وهو أنَّ قولَهُ: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [أي ائْتوا بِكِتابٍ][11] مِنْ عِندِ اللهِ أمَرَكُمْ[12] بِعِبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، لأنهمْ كانوا يَعْبدونَ الأصنامَ دونَ اللهِ، ويقولونَ: اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وإنَّ عِبادَتَهُمْ إيّاها تُقَرِّبُهُمْ ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: الحق حيث. (٤) في الأصل وم: ثم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٦. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث قالوا. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٢١. (٩) في الأصل وم: يقولوا. (١٠) في الأصل وم: ثم قال. (١١) من م، في الأصل: الكتاب. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه.

فيكونُ[1]، واللهُ أعلَمُ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أنهُ أمَرَكُمْ بذلكَ ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي أبيَنُ منهُما، وأوضَحُ مِنْ هذينِ، لأنَّ هذينِ إنما جاءا بِنَهْيِ عِبادَةِ غَيرِ اللهِ؛ مَنَعَها دونَهُ. يقولُ: ائتوا بكتابٍ، هو أهْدَى وأبيَنُ ممّا جاءَ فيهِ مِنْ هذينِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ اللهَ أمَرَكُمْ بذلكَ، وتكونُ عبادَتُكُمْ إياها على ما تَزْعُمونَ. هذا جائزٌ أنْ يكونَ أقْرَبَ مِنَ الأوّلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ في إتيانِ ما تَطْلُبُ منهمْ، وتَسْألُ مِنَ الكِتابِ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بغَيرِ عِلْمٍ، وهُمْ كانوا يَعْلَمونَ أنهمْ إنما يَتَّبِعونَ في عبادةِ الأصنامِ وتَحْريمِ الحَلالِ وتَحليلِ الحَرامِ أهواءَهُمْ، ويَجْعَلونَ هواهُمْ، هو الإمامَ؛ إذْ لا يُؤْمِنونَ برسولٍ حتى يكونَ لهمْ كتابٌ.

ثم قالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي لا أحَدَ أضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هواهُ ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مِنْ غَيرِ بَيانٍ مِنَ اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي، واللهُ أعلَمُ، إنَّ اللهَ لا يَهْدي قوماً يَتَّبِعونَ أهواءَهُمْ، لا يَتَّبِعونَ الحُجَجَ والبَراهينَ، لا يَهْديهِمْ ماداموا في اتِّباعِ هواهُمْ، أو لا يَهْدِي الذينَ [هُمْ][3] ظَلَمَةُ الحُجَجِ والبراهينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ قائِلونَ: هو القرآنُ. ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: وَصْلُ القرآنِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ حتى خَرَجَ كلُّهُ مُوافِقاً بَعْضُهُ بَعْضاً مُصَدِّقاً مُجْتَمِعاً غَيرَ مُخْتَلِفٍ، وإنْ فُرِّقَ في الإنزالِ على تَباعُدِ الأوقاتِ وطولِ المُدَدِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ مِثْلَ هذا لا يكونُ إلاّ مِمَّنْ يَعْلَمُ الغَيْبَ، ولا يَعْزُبُ /٣٩٩ ـ أ/ عنهُ شيءٌ، ولا يَغيبُ؛ إذْ لو كانَ هو مِمَّنْ لا يَعْلَمُ ذلكَ مِنْ كَلامِ المَخلوقِ لَخَرَجَ مُخْتَلِفاً مُتناقِضاً على ما يقولُ مِنْ كلامِ المَخلوقِ في تَباعُدِ الوقْتِ وطولِ المُدَّةِ مُخْتَلِفاً مُتناقِضاً.

والثاني: وَصْلُ مَواعِظِ القرآنِ بَعْضِها بِبَعْضٍ ومواعيدِهِ بَعْضِها بِبَعْضٍ وَعِداتِهِ بَعْضِها بِبَعْضٍ. وكذلكَ أوامِرُهُ ونواهيهِ، وإنِ تَفَرَّقَ نُزولُها، واختَلَفَتْ مَواضِعُها؛ يدعوهُمْ [لِما يَدْعوهُمْ بهِ مَرَّةً بَعْدَ][4] مَرَّةٍ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بهِ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي الأنباءَ وأخبارَ الأُمَمِ الخاليةِ نَبَأً [بَعْدَ نَبَإٍ][5] وخبراً على إثْرِ خَبَرِ ما نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسُلِ منهمْ مِنَ الهلاكِ والعذابِ ومُصَدِّقي الرُّسُلِ مِنَ النَّجاةِ والبَقاءِ في النِّعَمِ الدائمةِ على إقرارٍ منهمْ بذلكَ وعِلْمِ أنهُ كانَ بهمْ ذلكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ذلكَ، ويَنْزَجِرونَ عنْ تَكْذيبِ رسولِهِمْ مَخافَةَ أنْ يَنْزِلَ بهمُ التَّكْذيبِ ما نَزَلَ بأولئكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي قولَ التَّوحيدِ. ووَجْهُ هذا أنْ وَصَّلْنا التوحيدَ [حتى جَعَلْنا في كلِّ أمَّةٍ وكلِّ قومٍ أهلَ توحيدٍ][6] لم نُخْلِ قوماً ولا أمَّةً عنهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وكقولِهِ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ على أنَّ [في][7] كلِّ أُمَّةٍ وقَرْنٍ أهلَ توحيدٍ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ في آبائِهِمْ مَنْ قد آمَنَ بالرسُلِ، وصَدَّقَ بهمْ، ولا يقولونَ: إنَّ آباءَنا على ما نَحْنُ[8] عليهِ. يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا وَصْلَ القولِ الذي ذُكِرَ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أتْبَعْنا بعضَهُ بعضاً، واتَّصلَ عندَهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ أي بَيَّنّا شيئاً فشيئاً حتى صارَ عندَهُمْ ظاهراً. وقالَ أبو مُعاذٍ: وَصَّلْنا في كلامِ العَرَبِ: أتْمَمْنا كَصِلَتِكَ الشيءَ بالشيءِ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) في الأصل وم: فيقول. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل به، في م: به مرة بعد. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: هم.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧] وقالَ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ وأمثالَهُ.

يَذْكُرُ في هذهِ الآياتِ أنَّ مِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ لم يُؤمِنْ [بهِ][1] ويَذْكُرُ في الأُولَى على الإطلاقِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وانتَفعوا بهِ يُؤمنونَ بهِ، أو أنْ يكونَ [قولُهُ][2] ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١] وأمّا مَنْ لم يَتْلُهُ حَقَّ تِلاوتِهِ فلا يؤمنُ.

فأمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ صَرَفوا الآيةَ إلى قومٍ خاصٍّ مِنْ أهلِ الكتابِ: عبدِ اللهِ ابنِ سَلَامٍ وأصحابِهِ الذينَ آمَنوا بهِ. ويُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ في قومٍ منهُمْ.

الآية ٥٣ ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِهِ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾؟ يَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنهمْ كانوا آمَنوا بهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ محمدٌ. فلمّا بُعِثَ ثَبَتوا على ذلكَ، وآمَنوا على ما كانوا مِنْ قَبْلُ. وفيهِ دلالةٌ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ، لأنهمْ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ دلَّ أنهما واحدٌ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ و٣٦] وهُما[3] واحدٌ؛ ذَكَرَ مَرَّةً الإيمانَ ومَرَّةً الإسلامَ، دلَّ أنهما واحدٌ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: يُؤْتَونَ أجرَهُمْ مَرَّةً بالإسلامِ ومَرَّةً بما صَبَروا على زَوالِ الرئاسةِ منهمْ وذَهابِها؛ لأنهمْ كانوا أهلَ رئاسةٍ ومَنْزِلةٍ وقَدْرٍ، فَذَهَبَ ذلكَ كُلُّهُ عنهمْ بالإسلامِ، فَلَهُمُ الأجرُ مَرَّتَينِ لِذلكَ.

والثاني: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مَرَّةً بالإسلامِ، ومَرَّةً [بما صَبَروا، وجاهَدوا في تَقْوِيَةِ دينِ اللهِ، حتى][4] صاروا قُدْوَةً وأئِمَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، يَقْتَدونَ بهمْ؛ أحدُ الأجرَينِ بإسلامِ أنفُسِهِمْ، والثاني بدعائِهِمْ غيرَهُمْ إليهِ، على ما يُعاقِبُ الرُّؤساءَ منهمْ والقادةَ، ويُضاعِفُ العذابَ عليهمْ مَرَّتينِ: مَرَّةً بضلالِ أنفسِهِمْ ومَرَّةً بإضلالِ غيرِهِمْ كقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

[والثالثُ][5]: جائزٌ أنْ يكونَ إيتاءُ الأجرِ مَرَّتَينِ [مَرَّةً بالإسلامِ ومَرَّةً بما يَصْبِرونَ حتى يَصيروا][6] أئمَّةً وقُدْوَةً لِغيرِهِمْ[7] في الخيرِ. ويُضاعَفُ عليهمُ العذابُ إذا صاروا أئمّةً وقُدْوَةً في الشَّرِّ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في نساءِ رسولِ اللهِ ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾؟ [الأحزاب: ٣٠] وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، بما يَصِرْنَ هُنَّ أئمّةً لِغيرِهِنَّ يَقْتَدينَ بهنَّ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بالإسلامِ نَفْسِهِ، ويكونُ الصَّبْرُ كِنايةً عنِ الإيمانِ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] أي آمَنوا، وأسْلَموا.

وأمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ يقولونَ: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مَرَّةً بإيمانِهِمْ بمحمدٍ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، ومَرَّةً بإيمانِهِمْ بَعْدَما بُعِثَ. والأوَّلُ أشبَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مَرَّةً بإسلامِهِمْ ومَرَّةً بما صَبَروا وتَحَمَّلوا[8] أذَى أولئكَ الكَفَرَةِ، ولم يُكافِئوهُمْ، بل خاطَبوهُمْ بِخَيرٍ [حينَ قالوا][9]: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «ثلاثةٌ يُؤْتَونَ أجرَهُمْ مَرَّتَينِ: رجلٌ آمَنَ بِنَبِيٍّ، ثم إذا بُعِثَ نَبِيٌّ آخَرُ آمَنَ بهِ، ومَمْلوكٌ لرجلٍ يَخْدِمُهُ، ويُحْسِنُ خِدْمَتَهُ، ويَعْبُدُ ربَّهُ ورجلٌ رَبَّى جارِيَتَهُ، ثم أعْتَقَها، فَتَزَوَّجَها» [البخاري: ٣٠١١].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: لما يصيرون. (٧) من م، في الأصل: لغير. (٨) في الأصل وم: وحكموا على. (٩) في الأصل وم: حيث قال.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: يُحْسِنونَ إليهِمْ بَعْدَ إساءَتِهِمْ إليهِمْ وأذاهُمْ إياهُمْ على ما كانوا يَفْعَلونَ، ويَصْنَعونَ إليهِمْ قَبْلَ ذلكَ.

والثاني: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يَعفونَ عَنْ أذاهُمْ، ويُكافِئونَهُمْ، فيكونُ كقولِهِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الآية [الأعراف: ١٩٩].

والأوَّلُ كقولِه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي يُنْفِقونَ في حَقِّ اللهِ وسَبيلِ الخيرِ. وإلّا كلُّ كافرٍ يُنْفِقُ كقولِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧].

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما][١]: إذا سَمِعوا منهُمْ مِنَ الكلامِ ما يَتَأذَّونَ مِنْ كلامِ اللَّغْوِ والنَّهْيِ والأذى والفِتْنَةِ أعْرَضوا عنهُ، أي [لا][٢] يُكافِئونَهُمْ لأذاهُمْ.

والثاني: إذا سَمِعوا ما يَلْغُونَ بِهِ مِنَ الباطِلِ أعْرَضوا عنهُ، أي لم يُخالِطوهُمْ في ما هُمْ فيهِ، فليسَ أنهُمْ لا يَنْهَونَ عنِ المُنْكَرِ، ولا يَمْنَعونَهُمْ عنْ ذلكَ إذا رَأَوا النَّهْيَ يَنْجَعُ فيهِمْ. وإذا رَأَوا لا يَنْجَعُ فيهِم فعندَ ذلكَ أعْرَضوا عنهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يقولونَ هذا لهمْ إذا لم يَنْجَعِ النَّهْيُ والمَوعِظَةُ، ولم يَقْبَلوا ذلكَ. عندَ ذلكَ يقولونَ: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي لَكُمْ جزاءُ أعمالِكُمْ ولنا جَزاءُ أعمالِنا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. لم يَقُلْ هذا لهمْ في ابْتِداءِ الدعاءِ، ولكنْ بَعْدَ ما أيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ وإجابَتِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ هذا يُشْبِهُ أنْ يُخَرَّجَ على/٣٩٩ ـ ب/ وجهَينِ:

أحَدُهما: على القَولِ منهُمْ: السلامُ عليكمْ[٣]، أي كانوا لا يُخاطِبونَ الجُهّالَ، ولا يُخالِطونَهُمْ إلّا بالسّلامِ خاصّةً. بهذا القَدْرِ يُخالِطونَهُمْ فَحَسْبُ[٤].

والثاني: ليسَ على حقيقةِ قَولِ: السلامُ عليكُمْ[٥]، ولكنْ على الصُّلْحِ وتَرْكِ المُكافأةِ لهمْ وقولِهِمْ إياهُمْ على ما هُمْ عليهِ؛ إذِ السّلامُ هو الصُّلْحُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: رَدّوا عليهِمْ مَعْروفاً [بِمُقابَلَةِ ما وَجَدوا منهُمْ مِنَ الأذى، وقالوا:][٦] ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ يَعْنونَ: لا نُريدُ أنْ نكونَ مِنْ أهلِ الجَهْلِ والسَّفَهِ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ هذا نَزَلَ في أبي طالبٍ عَمِّ النَّبيِّ «وذلكَ أنَّ أبا طالبٍ قالَ: يا مَعْشَرَ بَني هاشمٍ أطيعوا محمداً، وصَدِّقوهُ، تُفْلِحوا، وتَرْشُدوا. فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ تأمُرُهُمْ بالنصيحةِ لأنفُسِهِم، وتَدَعُها لِنَفْسِكَ، قالَ: فقالَ لهُ: ما تُريدُ يا ابْنَ أخي؟ قالَ: أريدُ منكَ كلمةً واحدةً في آخِرِ يومٍ مِنَ الدنيا: أنْ تقولَ: لا إلهَ إلّا اللهُ، أشْهَدُ لكَ بها عندَ اللهِ، قالَ: يا ابْنَ أخي قد عَلِمتُ إنكَ لَصادقٌ، ولكنْ أكْرَهُ أنْ يُقالَ: جَزِعَ عندَ المَوتِ، ولولا أنْ يكونَ عليكَ وعلى بَني أبيكَ وأخيكَ غَضاضَةٌ ومَسَبَّةٌ بَعْدي لَقُلْتُها، ولأقْرَرْتُ بها عَينَكَ عندَ الفِراقِ لِما رأيتُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِكَ ونَصيحَتِكَ. ولكنْ سوفَ أموتُ على مِلَّةِ الأشياخِ فُلانٍ وفلانٍ» [بنحوه مسلم ٢٤/ ٤٢]

فأنْزَلَ اللهُ ذلكَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

فهو على المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الهُدى البَيانُ، ولو كانَ بياناً على ما يقولونَ لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقْدِرُ أنْ يُبَيِّنَ لهُ، وقد بَيَّنَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) الفاء ساقطة في الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

لكنَّ الجُبَّائِيَّ يَحتجُّ لهمْ، فَيَتأوَّلُ، ويقولُ: إنَّ رسولَ اللهِ، كانَ يَحرِصُ أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، فيقولُ: إنكَ لا تَهْدِي طريقَ الجنةِ لهُ حتى يَدْخُلَها، أو كلامٌ يُشْبِهُ هذا، وذلكَ بعيدٌ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: هذا ليسَ في ابْتِداءِ الهدايةِ، ولكنْ في اللَّطائفِ التي تُخَرَّجُ مُخْرَجَ الثوابِ لهمْ لِما كانَ منهُمْ مِنَ الاهْتِداءِ في البَدْءِ والأُنُفِ كقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ الآية [محمد: ١٧] فَيُخبِرُ أنكَ لا تَمْلِكُ الهدايةَ اللطيفةَ التي تُخَرَّجُ مُخْرَجَ الثوابِ أنْ تَهْدِيَهُمْ.

فَيُقالُ لهُ: أخبِرْنا عنْ تلكَ الزيادةِ التي تُخَرَّجُ مُخْرَجَ الثوابِ لِما كانَ منهمْ مِنَ الاهْتِداءِ في الابْتِداءِ [هل][1] تَنفَعُ لهمْ دونَ الابْتِداءِ؟ فإنْ قالَ[2]: نعمْ [فالرَّدُّ في وجهَيْنِ:

أحَدُهما: يُقالُ لهُ][3]: فذلكَ عليهِ أنْ يَفْعَلَ بهمْ؛ إذْ مِنْ قولِكُمْ[4]: أنَّ عليهِ أنْ يُعطِيَ كلَّ كافرٍ ما يَنْفَعُهُ، ويَصْلُحُ لهُ في دينِهِ، فكيفَ مَنْعُ ذلكَ يَنْفَعُهُمْ؟

والثاني: يُقالُ لهُ[5]: إنَّ تلكَ الزيادةَ التي تُخَرَّجُ مُخْرَجَ الثوابِ لهمْ واللَّطائفَ على ما كانَ منهُمْ في الابْتِداءِ يَسْتَوجِبُها، أو لا يَسْتَوجِبُها.

فإنْ كانَ يَسْتَوجِبُها فلا مَعْنَى لِلْمَنْعِ على [قولِكُمْ، لأنكمْ تقولونَ][6]: إنَّ على اللهِ أنْ يُعْطِيَ ذلكَ.

وإنْ كانَ لا يَسْتَوجِبُها فلا مَعْنَى لقولِهِ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ على قولِكُمْ[7]. فَيَبْطُلُ الاحْتِجاجُ بهِ على قولِكُمْ[8].

وعندَنا زيادةُ الهدايةِ وابْتِداؤُها سَواءٌ [وهو][9] على ما أخْبَرَ رسولَهُ أنهُ لا يَهديهِ. ولكنْ لو كانتِ الهدايةُ بَياناً على ما قالوا لَكانَ قد بَيَّنَ لهم، فَدَلَّ ذلكَ منهُ أنْ ثَمَّ هدايةً سِوَى البَيانِ عندَ اللهِ إذا أعْطَى العبدَ يَصيرُ مُؤمِناً، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ والسَّدادُ. وذلكَ لا يَمْلِكُهُ رسولُ اللهِ: إنْ شاءَ ذلكَ أوِ ابْتِداءَهُ. بلِ اللهُ هو المالكُ لذلكَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ دلَّ قولُهُمْ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ هو على أنهم عَرَفوا ما جاءَ بهِ رسولُ اللهِ، ويَدْعوهُمْ إليهِ، هو الهُدَى حينَ[10] قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ يُخَرَّجُ لهمْ هذا على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي نَهْلِكُ، ونَفْنَى جوعاً، إذا خالَفْنا أهلَ الآفاقِ في الدينِ، لأنَّ أرزاقَهُمْ وما بهِ قوامُ أبدانِهِمْ إنما يُحْمَلُ، ويُمارُ مِنَ الآفاقِ. فيقولونَ: إنا إذا اتَّبَعْنا الهُدَى مَعَكَ، وخالَفْناهُمْ في الدينِ، فأهلُ الآفاقِ مَنَعونا المِيرَةَ، فنَهْلِكُ، ونَموتُ جوعاً، فذلكَ تَخَطُّفُهُمْ مِنَ الأرضِ.

والثاني: قالوا ذلكَ مَخافَةَ أنْ يُغْزَوا، ويُؤْسَروا، أو يُقْتَلوا إذا خالَفوا أهلَ الآفاقِ والأطرافِ في الدينِ، واتَّبَعوا الهُدَى مَخافَةَ الأسْرِ والقَتْلِ.

فأجابَهُمُ اللهُ، وردَّ عليهِمُ اعْتِلالَهُمْ في الوَجهَيْنِ.

فقالَ [في الوجهِ الأولِ][11] ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنا جَعَلْناهُمْ في الحَرَمِ آمنينَ، وما يُمْتارُ إليهِمْ مِنْ أنواعِ الثَّمَراتِ باللُّطْفِ، لا بمُوافَقَةِ الدينِ.

ألا تَرَى أنهمْ مَعَ مُوافَقَةِ الدينِ كانوا يَتَخَطَّفونَ الناسَ منهمْ حينَ[12] قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؟ [العنكبوت: ٦٧] أخْبَرَ أنهمْ مَعَ مُوافَقَتِهِمْ في الدينِ كانوا يُتَخَطَّفونَ. دلَّ أنهُ إنما جَعَلَ لهمْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: فيقال لهم. (٤) في الأصل وم: قولهم. (٥) في الأصل وم: لهم. (٦) في الأصل وم: قولهم لأنهم يقولون. (٧) في الأصل وم: قولهم. (٨) في الأصل وم: قولهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأهل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث.

الحَرَمَ مَأمَناً والمِيرَةَ إليهِمْ باللُّطفِ لا بالمُوافَقَةِ في الدينِ حتى [لا يَتَعَرَّضَ][١] لأهلِ الحَرَمِ في الحَرَمِ ولا خارجاً منهُ، ولا يَتَعَرَّضَ مَنْ دَخَلَ الحَرَمَ بشيءٍ لِيُعْلَمَ أنهُ كانَ ذلكَ باللُّطفِ مِنَ اللهِ لا بالموافقةِ.

[وفي][٢] الثاني: إنهُ مَعَ ما كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ دونَ اللهِ فيهِ، لا يَمْنَعُهُمُ الرِّزْقَ، ويُؤَمِّنُهُم فيهِ؛ فَلأَنْ يَفْعَلَ ذلكَ بهِمْ عندَ عبادَتِهِمْ [اللهَ تعالى وتَرْكِهِمْ عبادةَ][٣] غيرِهِ أحقُّ أنْ يُرْزَقوا، ويَأمَنوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي مِنْ كل جِنْسٍ ونَوعٍ مِنَ الثَّمراتِ يُجْبَى إليهِ. وظاهِرُهُ أنْ يُجْبَى إليهِ مِنْ كلِّ شيءٍ أرفَعُهُ وأنفَعُهُ؛ وذلكَ [ثَمَرُهُ، لأنَّ ثَمَرَ][٤] كلِّ شيءٍ أرْفَعُهُ وأنفَعُهُ. يُقالُ: ثَمَرَةُ الشيءِ كذا، وثَمَرَةُ هذا الكلامِ كذا، أي ما يُنْتَفَعُ مِنْ هذا هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ أنَّ[٥] ما يُحْمَلُ إليهِمْ مِنَ الآفاقِ، ويُجْبَى إليهِمْ مِنَ الثَّمَراتِ والأطعمةِ إنما هو باللُّطفِ لا بِمُوافَقَةِ الدينِ. وكذلكَ لا يَعْلَمونَ أنَّ أمنَهُمْ فيهِ باللطفِ لا بِمُوافَقَةِ الدينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كَفَرَتْ مَعيشَتَها، لم تَرضَ مَعيشَتَها. وفيهِ إضمارُ: في؛ أي بَطِرَتْ [في][٦] مَعيشَتِها، فانتَصَبَ لانتِزاعِ حَرْفِ: في. وتأويلُهُ[٧]، واللهُ أعلَمُ: أي كَمْ أهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ، بَطِرَ أهلُها في مَعيشَتِهِمْ[٨] حتى صَرَفوا شُكْرَهُمْ [إلى غيرِ الذي][٩] أنْعَمَ عليهِمْ، وجَعَلوا عبادَتَهُمْ[١٠] لِغَيرِ الذي جَعَلَ لهمُ السَّعَةَ والرَّخاءَ.

فأنتُمْ يا أهْلَ مكةَ إذا بَطِرْتُمْ، وأشِرْتُمْ في سَعَتِكُمْ وخِصْبِكُمْ، تُهْلَكونَ كما أُهْلِكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مِنَ القَرْياتِ قَرْياتٌ إذا هَلَكَ أهلُها أسْكَنَ غيرَهُمْ فيها نَحوُ قَرْياتِ فِرْعَونَ وغيرِهِ، جَعَلَ مساكِنَهُمْ لِبَني إسرائيلَ حينَ[١١] قالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧] وقالَ[١٢]: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [غافر: ٥٣].

ومِنَ القَرْياتِ ما جَعَلَها خَرِبةً مُعَطَّلَةً، لم يُسْكِنْ غيرَهُمْ [فيها][١٣] نَحوُ قَرْياتِ لوطٍ وغيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي الباقينَ. والوارِثُ هو الباقي في اللغةِ على ما ذَكَرْنا آنِفاً في غيرِ مَوضِعٍ. وقولُهُ: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ[١٤]:

أحَدُهما: إخبارٌ عَنْ هَلاكِ أهلِ الأرضِ وفنائِهِمْ وبَقائِهِ[١٥]، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ [مريم: ٤٠] [وقولِهِ][١٦]: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والثاني: إخبارٌ عنْ هَلاكِ أولئكَ وجَعْلِها لِغَيرِهِمْ أي لِلْمُتَّقينَ كقولِهِ[١٧]: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ/ ٤٠٠ ـ أ/ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي نُؤْخَذْ. وقولُهُ: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ مِنَ الجِبايَةِ، أي يُجْمَعُ، يُقالُ: جَبَيْتُ، أجْبي جِبايَةً و: جَباً. واجْبَى يُجْبي، أي حازَ يحوزُ. [وقولُهُ][١٨]: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي لم تَرْضَ بِمَعيشَتِها.

وقالَ القُتَبِيُّ: أي أشِرَتْ، وقالا: ﴿فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] أي [في][١٩] أكثَرِها وأعظَمِها قَدْراً، وهي مكةُ، والنَّبِيُّ منهمْ، والكتابُ أُنْزِلَ عليهِمْ. وقالا: وإمُّها: كلمةٌ لا يَتَكَلَّمُ بها أحَدٌ، يَعْنونَ بالكَسْرِ[٢٠].

---

(١) من م، في الأصل: يتعرضوا. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ثمرته لأن ثمرة. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: معيشتها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عبادتها. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: وقوله. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) أدرج في الأصل بعدها: في هذا. (١٥) في الأصل وم: وبقي، في م: ويبقى. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، في الأصل: لقوله. (١٨) ساقطة من الأصل. (١٩) من م، ساقطة من الأصل. (٢٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٩.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [يَحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما][1]: جائزٌ أنْ تكونَ تلكَ القُرى التي أخبَرَ أنهُ غيرُ مُهْلِكِها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ القرياتِ التي هُنَّ حَولَ مكةَ؛ لا يُهْلِكُ ﴿ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ قيلَ في أعظَمِها، وهي مَكّةُ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

فإنْ كانَ هذا فيكونُ الإهلاكُ لها الانْتِزاعَ مِنْ أيديهِمْ وجَعْلَها في أيدي أهلِ الإسلامِ على ما كانَ، لأنَّ اللهَ كانَ يَفْتَحُ على رسولِهِ قَرْيَةً فَقَرْيَةً وبَلْدَةً فَبَلْدَةً حتى جَعَلَ الكُلَّ في أيدي المُسْلِمينَ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١] وهو وَعْدُ فَتْحِ مكةَ. وذلكَ إهلاكُهُمْ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ هذا [في][2] كلِّ القُرى وجميعِ الرسُلِ؛ أنهُ كانَ لا يُهْلِكُها بالكُفرِ نَفْسِهِ حتى يَبْعَثَ في أكْبَرِها وأعظَمِها، وهي المِصْرُ ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وذلكَ يُشْبِهُ قولَهُ[3]: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وإنما ذَكَرَ بَعْثَ الرسولِ في أُمِّها لأنهُ بَعَثَ الرسولَ في أعظَمِها، وهو المِصْرُ، يَنْتَشِرُ، ويَنْتَهي في الآفاقِ والصغائِرِ منها والقُرى لِما أنهمْ يدخلونَ المِصْرَ لِحوائجِهِمْ، فَيَتَهَيَّأُ للرسولِ تِلاوةُ الآياتِ عليهِمْ والدعاءُ لهمْ، وإذا كانَ بعضُ القُرى لا يَتَهَيَّأُ لها[4] ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي مُعانِدونَ مُكابِرونَ، لا نُهْلِكُهُمْ إهلاكَ تعذيبٍ بِنَفْسِ الكُفرِ في الدنيا حتى يكونَ منهمُ العِنادُ والمُكابَرَةُ، إنما يُعَذَّبونَ عذابَ الكُفْرِ في الآخِرَةِ، وهو العذابُ الأبَدُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ إنهم كانوا يَتفاخَرونَ بما أُوتوا مِنَ السَّعَةِ ومَتاعِ الدنيا، وأهلُ الزُّهْدِ والتَّقْوى آثَروا الباقِيَ الموعودَ في الآخِرَةِ على مَتاعِ الحياةِ الدنيا وزينَتِها.

الآية ٦١ ولذلكَ قالَ: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فجوابُ هذا أنْ يُقالَ: بلِ المَوعودُ الحَسَنُ المُلاقَى بالذي لهُ عاقبةٌ خَيرٌ مِنَ المَتاعِ الفاني الذي ليسَتْ لهُ عاقبةٌ. لكنهُ لم يُذْكَرْ لهُ عاقبةٌ. فجوابُهُ ما ذَكَرْنا.

ثم كلُّ اسْتِفْهامٍ كانَ مِنَ اللهِ فهو على الإيجابِ في الحقيقةِ، ليسَ على الاسْتِفْهامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي يُحْضَرُ[5] في النارِ. وقيلَ: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي المُعَذَّبينَ، وكلاهما واحدٌ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قولُهُ: ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ﴾ في زَعْمِكُمْ انهمْ شُركائي حينَ[6] أشْرَكْتُموهُمْ في العِبادةِ وتَسْمِيةِ الألُوهِيَّةِ. وإلّا لم يكُنْ للهِ شريكٌ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ﴾ زَعَمْتُمْ انهمْ[7] شُركائي؟

ثم قولُهُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ إنما يقولُ[8] لهمْ لِقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيقولُ: أينَ شَفاعةُ مَنْ زَعَمْتُمْ انهمْ شُفعاؤُكُمْ عندَ اللهِ؟ وأينَ قُرْبَتُكُمْ وزُلْفاكُمْ بِعِبادَتِكُمْ إيّاها حينَ[9] زَعَمْتُمْ أنَّ عِبادَتَكُمْ إيّاها تُقَرِّبُكُمْ إلى اللهِ زُلْفى؟ أينَ ذلكَ لكُمْ منهمْ؟

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ القَولُ الذي قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وَجَبَ عليهِمُ العذابُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٨٢] أي وَجَبَ عليهِمْ وكقولِهِ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ [النمل: ٨٥] أي وَجَبَ العذابُ عليهِمْ بما ظَلَموا، ونَحْوُهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كقوله. (٤) في الأصل وم: لهم. (٥) في الأصل وم: يحضر.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: أنتم. (٨) في الأصل وم: يقال. (٩) في الأصل وم: حيث.

ثم اختُلِفَ في الذينَ حقَّ عليهِمُ القولُ: فمنهمْ مَنْ يقولُ: همْ رُؤساءُ الكَفَرَةِ وأئِمَّتُهُمُ الذينَ أضَلُّوا أتباعَهُمْ، ودَعَوهُمْ إلى الضَّلالِ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: همْ شَياطينُ الجنِّ. ولِلْفريقَينِ جميعاً في الكتابِ ذِكْرٌ:

قالَ في أئِمَّتِهِمْ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وقالَ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وأمثالُ هذا كثيرٌ.

وقالَ في شَياطينِ الجنِّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقالَ: ﴿ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] ونَحْوُهُ كثيرٌ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ يَعْتَذِرونَ: أنهُ لم يكُنْ منّا إليهِمْ إلّا الدعاءُ والإشارةُ إلى الغَوايةِ، وهو قولُ إبليسَ اللَّعينِ وخِطْبَتُهُ يومئذٍ حينَ[1] قالَ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ يقولونَ: لم يكُنْ منّا إليهِمْ سِوَى الدعاءِ بلا بُرْهانٍ ولا حُجَجٍ، فاتَّبَعونا، فلا تلومونا، ولوموا أنفُسَكُمْ حينَ[2] تَرَكْتُمْ إجابَةَ الرسُلِ، ومَعَهُمْ براهينُ وحُجَجٌ، وأَجَبْتُمونا بلا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ، فأغويناكُمْ كما غَوَينا، ولو كنّا على الهُدَى لَهَدَيناكُمْ، كقولِهِمْ: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ يَتَبَرَّؤونَ: أنا لم نأمُرْهُمْ بالعِبادةِ لنا، وإلّا كانوا عَبَدونا[3].

ثم إنَّ لِلْمُعْتَزِلَةِ أدنى تَعَلُّقٍ بهذهِ الآيةِ لأنهمْ يقولونَ: إنما أضافوا الغَوايةَ إلى أنفسِهِمْ حينَ[4] قالوا: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ دَلَّ أنَّ اللهَ لا يُغْوي أبداً.

فيُقالُ لهمْ: إنّا لا نُضيفُ، ولا نُجيزُ إضافةَ الغَوايةِ إلى اللهِ في ما يُخَرَّجُ مُخرَجَ الذَّمِّ، وإنما نُضيفُ في ما يُخَرَّجُ مُخرَجَ المَدْحِ لهُ والثَّناءِ عليهِ.

ثم قد أضافَ إبليسُ الغَوايَةَ إليهِ، ولم يُنْكِرْ عليهِ حينَ[5] قالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: ١٦ والحجر: ٣٩] في غَيرِ مَوْضِعٍ، وقالَ: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ونَحْوُهُ كثيرٌ في القرآنِ. فما خُرِّجَ مُخرَجَ المَدْحِ لهُ والثناءِ عليه يُضافُ إليهِ، وما خُرِّجَ مُخرَجَ الذَّمِّ فلا. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يومَ قالَ لإبليسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. ثم قالَتِ الشياطينُ في الآخِرَةِ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ يَعنونَ كفارَ بَني آدمَ؛ هؤلاءِ الذينَ أضْلَلْناهُمْ عنِ الهُدَى كما ضَلَلْنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهمْ يا ربِّ ﴿مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ تبرَّأتِ الشياطينُ مِمَّنْ كانَ يَعْبُدُها فقالوا: لم نأمُرْهُمْ بعبادَتِنا.

الآية ٦٤ [وقولُهُ تعالى][6] ﴿وَقِيلَ﴾ لِكُفّارِ بني آدمَ: ﴿ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ يقولُ: سَلُوا الآلهةَ التي سَمَّيْتُمُوها آلهةً، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي سَألوهُمْ، فَلَمْ تُجِبْهُمُ[7] الآلهةُ بأنها آلهةٌ، وقولُهُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا أنَّ معي شركاءَ على ما ذَكَرْنا من قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ [يَحتَمِلُ][8] ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ في الخِلْقةِ، و﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ في العِبادةِ: ادْعوهُمْ [لِيَشْفَعوا لكمْ، ويُقَرِّبوكُمْ][9] إلى اللهِ على ما زَعَمْتُمْ في الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي لم يَشْفَعوا لهمْ، ولم يَسْتَجِيبوا، لِما لم يَجْعَلْ في وُسْعِهِمُ الإجابةَ لهمْ واجباً كائناً في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ تأويلُهُ [في وجوهٍ:

أحَدُها: لو رَأَوْا][10] العذابَ في الدنيا لَكانوا يَهْتَدونَ، ولكنْ لم يَرَوْهُ. هذا وَجْهٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: عبدوهم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: يجيبوا. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: ليشفعوكم ويقربكم. (١٠) في الأصل: أي رأى، في م: أي رأوا.

وَوَجْهٌ آخَرُ: أنهمْ لم يُصَدِّقوا بالعذابِ في الدنيا، ولو صَدَّقوهُ لاهْتَدَوا مَخافَةَ نُزولِ العذابِ بهِمْ.

والثالثُ: لو أنهمْ كانوا مُهْتَدينَ في الدنيا ما رَأَوُا العذابَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٥ و٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ/ ٤٠٠ ـ ب/ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ قائلونَ: إنما يُسْألونَ عنْ إجابَتِهِمُ الرسُلَ: ماذا أَجَبْتُموهُمْ؟ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ ماذا أجابوهُمْ؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أيِ الإجابةُ، فلا تَتَهَيَّأُ لهمُ الإجابةُ لِهولِ ذلكَ [اليومِ](١) وفَزَعِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما يُسْألونَ عنِ الحُجَّةِ والعُذْرِ الذي بهِ كانوا تركوا إجابةَ الرسُلِ، فَيُقالُ لهمْ: لأيِّ حُجَّةٍ وعُذْرٍ تَرَكْتُمْ إجابَتَهُمْ؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أيِ الحُجَجُ والعُذْرُ لِما لم يكنْ لهمُ الحُجَّةُ والعُذْرُ في تركِهِمْ إجابَتَهُمْ.

[وقولُهُ تعالى](٢): ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يَسْألُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، بل يَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ، ويَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، ويَلْعَنُ بعضُهُمْ بَعْضاً(٣) على ما ذُكِرَ في الكتابِ(٤).

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ بالأنسابِ يومئذٍ لِما لا حُجَّةَ لهمْ، ولا بُرْهانَ؛ أي لا يَسْألُ بعضُهُمْ بَعْضاً عنِ الحُجَجِ لأنَّ اللهَ أدْحَضَ حُجَجَهُمْ، وكَلَّلَ أَلسِنَتَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ بالأنسابِ يومئذٍ كما كانوا يَتَساءلونَ في الدنيا كقولِهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم إنَّ بَعْضَ المُعْتَزِلَةِ تَكَلَّموا فيهِ، وقالوا: لو كانَ الأمْرُ على ما قالَهُ القَدَرِيُّونَ والجَبْرِيُّونَ في المَشيئَةِ والإرادةِ لكانَ يَسْهُلُ لهمُ الاحْتِجاجُ، ويَهونُ لهمُ العُذْرُ، فيقولونَ: يا ربَّنا أَجَبْنا ما نَفَذَ مِنْ مَشيئَتِكَ وإرادَتِكَ وما مَضى منْ قضائِكَ وكتابِكَ علينا إذْ كنْتَ أنتَ قَضَيتَ، وكَتَبْتَ علينا، وشِئْتَ، وأرَدْتَ، بما(٥) كانَ مِنّا مِنَ التَّكذيبِ لهمْ وتَرْكِ الإجابةِ، فلم يَكُنْ لنا تَخَلُّصٌ ممّا شِئْتَ أنتَ، وقَضَيْتَ علينا.

إلى هذا الخيالِ يَذْهَبُ جَعْفَرُ بنُ حَرْبٍ. وهذا منهُ(٦) تَعليمٌ لأولئكَ الكَفَرَةِ الحِجاجَ بالباطِلِ والكَذِبِ بينَ يَدَي ربِّ العالمينَ لِلتَّكذيبِ الذي كانَ منهمْ.

ثم يُقالُ: لو كانَ لهمْ ذلكَ الحِجاجُ على زَعْمِكُمْ فلا يكونُ ذلكَ لهمْ بِقولِنا، ولكنْ إنما يكونُ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ وقولِ المُسْلِمينَ أجْمَعينَ حينَ(٧) قالوا: ما شاءَ اللهُ كانَ، وما(٨) لم يَشَأْ لم يَكُنْ.

وبِكتابِ اللهِ ذُكِرَ(٩) في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ [قولُهُ](١٠): ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقولُهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] وقولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ الآية [يونس: ٩٩] وأمثالُهُ مِمّا لا يُحْصَى مِنَ الآياتِ. فإنْ كانَ لهمْ ذلكَ فإنما يكونُ بما ذُكِرَ لا بقولِنا.

وأصْلُهُ أنهُ لا يكونُ لهمْ هذا النوعُ مِنَ الاحْتِجاجِ لأنهمْ وقتَ فِعْلِهِمْ لا يَعْقِلونَ بأنَّ اللهَ شاءَ ذلكَ لهمْ، أو قَضى، وكَتَبَ ذلكَ عليهِمْ، وهمْ يَوَدُّونَ، ويُحِبّونَ وقتَ فِعْلِهِمْ أنْ يشاءَ اللهُ ذلكَ منهمْ، ويَرضَى. فإنْ كانوا وقتَ فِعْلِهِمْ لا يَعْقِلونَ ذلكَ فكيفَ يكونُ لهمُ الحِجاجُ على ما كانوا يَفْعَلونَ ذلكَ(١١)؟ لكنَّ هذا منهمْ تَعْليمُ الكَذِبِ لهمْ لِيَكْذِبوا بينَ يَدَي ربِّ العالَمينَ على ما ذُكِرَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ببعض. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) الواو ساقطة من الأصل. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لا لذلك.

وأصلُ قولِنا في هذا: أنّا نقولُ: إنهُ شاءَ مِن كلِّ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ؛ إذْ لا يَجوزُ أنْ يُشاءَ منهُ خلافُ عِلْمِهِ[١] أنهُ يكونُ لأنَّ فيهِ أحَدَ وجهَينِ: إمّا الجَهْلُ بالعَواقِبِ وإمّا العَجْزُ فيهِ، وذلكَ مِنَ اللهِ مَنفِيّانِ. تَعالَى اللهُ عنْ ذلكَ عُلُوًّا كبيراً.

وأصْلُهُ ما رُوِيَ عنْ أبي حَنيفةَ .رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ قالَ: بَيْنَنا وبَيْنَ القَدَرِيّةِ حَرْفانِ:

هُما[٢]: أنا نقولُ: إنَّ اللهَ أعْلَمُ ما يكونُ أنهُ يكونُ. فإنْ قالوا: لا كَفَروا لأنهمْ جَهَّلوا اللهَ، وإنْ قالوا: بَلَى، فَيُقالُ لهمْ: وشاءَ أنْ يكونَ. فإنْ[٣] قالوا: لا كَفَروا لأنهمْ يقولونَ: شاءَ أنْ يَجْهَلَ ذلكَ، [وإنْ قالوا: بَلَى][٤] لَزِمَهُمْ قولُنا في المَشيئةِ والإرادةِ للهِ في ذلكَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بالتّخفيفِ أي خَفِيَتْ فَعُمِّيَتْ بالتّشديدِ[٥] أي أُخفِيَتْ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي فأمّا مَنْ رَجَعَ عمّا كانَ فيهِ مِنَ الشّرْكِ والكُفرِ ﴿وَءَامَنَ﴾ بالذي دعاهُمُ الرسُلُ، وأجابَهُمْ ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ رجوعُ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ إلى ذلكَ الرجلِ الذي نَعَتَهُ [بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية][٦] على رَجاءِ القَبولِ والفلاحِ؛ يَفْعَلُ ما يَفْعَلُ مِنَ التوبةِ والعَمَلِ الصالحِ.

[ويَحتَمِلُ][٧] أنْ يُقالَ ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ: عَسَى مِنَ اللهِ واجبٌ؛ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ كل استِفْهامٍ كانَ مِنَ اللهِ فهو على اللُّزومِ والوُجوبِ. فَعَلَى ذلكَ حَرْفُ: لَعَلَّ، وإنْ كانَ حَرْفَ شَكٍّ في الظاهرِ، فهو مِنَ اللهِ على الوُجوبِ واليَقينِ.

قالَ أبو مُعاذٍ: الفَلاحُ في كلامِ العَرَبِ البَقاءُ، ويُقالُ: النَّجاةُ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: وربُّكَ يَختارُ للرسالةِ مَنْ يَشاءُ، ويَجتَبيهِ لها، فَيَجْعَلُهُمْ رسلاً ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ يقولُ: لم يَكُنْ لهمْ أنْ [يَختاروا ويَصْطَفوا مَنْ يشاؤونَ، ولكنَّ اللهَ][٨] يَختارُ، ويَصْطَفي، مَنْ يشاءُ، رَدٌّ لِقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية [الزخرف: ٣١] إلى هذا ذهبَ بعضُهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا في كلِّ أمْرٍ، أي وربُّكَ يَختارُ ما يَشاءُ، ويأمُرُ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مِنْ أمْرِهِ أي التَّخَلُّصُ والنَّجاةُ مِنْ أمْرِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] والقضاءُ ههنا أمْرٌ، لكنهُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الوَقْفِ [في][٩] قولِهِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ والاِبْتِداءِ مِنْ قولِهِ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مِنْ أمرِهِمْ. فإنْ كانَ على هذا فتكونُ ما ههنا: جَحْداً أي لم يَكُنْ لهمُ الخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ.

والثاني: على الصِّلَةِ؛ ليسَ على الجَحْدِ، فيكونُ تأويلُهُ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿وَيَخْتَارُ﴾ الذي لهمُ الخِيَرَةُ: أنْ يكونَ الوَقْفُ على هذا على قولِهِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ثم يقولُ: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ الذي لهمُ الخِيَرَةُ. قالَ أبو معاذٍ: قُرِئَ: الخِيرَةُ بِجَزْمِ الياءِ وبِتَحْريكِها: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾[١٠].

ثم قولُهُ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ على المُعتَزِلَةِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما أجْمَعوا أنَّ اللهَ قد شاءَ جميعَ ما يَفْعَلُهُ العِبادُ مِنَ الخَيراتِ والطاعاتِ. فإذا جازَ ذلكَ دلَّ أنهُ خَلَقَها إذْ أخْبَرَ أنهُ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧ و. . .] وقد شاءَ الخَيراتِ، فَدَلَّ ذلكَ على خَلْقِ أفعالِ العِبادِ. لكنهمْ يقولونَ [في][١١] قولِهِ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إذا خَلَقَهُ[١٢] وكذلكَ يقولونَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠ و. . .] إنْ خَلَقَهُ[١٣] أو كلامٌ نَحْوُ هذا. فلئنْ جازَ لهمْ هذا مِنَ الزّيادةِ جازَ لكل أحدٍ مِثْلُهُ. فذلكَ بعيدٌ.

[والثاني:][١٤] على قولِهِمْ: أكْثَرُ الأشياءِ ليسَتْ بِمَخلوقةٍ للهِ، وهو على أكْثَرِ الأشياءِ غَيرُ قديرٍ، لأنَّ أفعالَ الخَلْقِ،

(١) في الأصل وم: علم. (٢) في الأصل: أحدهما، ولعل الحرفين: لا وبلى الآتيان. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٣٠. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقول. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في م: يختاروا هم ولكن الله، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ٣٠ و٣١. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) و(١٣) الضمير يعود على خلق أفعال العباد. (١٤) في الأصل وم: و.

لا شكَّ أنها أكثرُ مِنْ أنفُسِهِمْ. فأخبرَ أنهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأنهُ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وأنَّ هذا خَرَجَ منهُ مَخْرَجَ الإمْتِداحِ لهُ والثَّناءِ عليهِ بما لهُ مِنَ السلطانِ والقُدْرَةِ على الخَلْقِ كلِّهِمْ.

فلو كانَ على ما يقولُ المُعْتَزِلَةُ: لم يَكُنْ هذا مَدْحاً لهُ ولا ثناءً بالسلطانِ والقُدْرَةِ إذْ هو على قولِهِمْ: على أكثرِ الأشياءِ ليسَ بقادرٍ على ما ذَكَرْنا.

ثم نَزَّهَ نَفْسَهُ، وبرَّأها، عمّا قالوا فيهِ، وأشركوا غيرَهُ في ألوهيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ وفي عِبادَتِهِ، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية ٦٩ وقولُهُ[1] تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على الوَعيدِ لهمْ والتَّنبيهِ ليكونوا على حَذَرٍ في ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ قولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ كقولِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ وقد ذكَرْنا أنَّ قولَهُ: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾/ ٤٠١ـأ/ مِنْ أمرِهِمْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: لَهُ الاختِيارُ في أمْرِهِمْ، لا لَهُمُ الاختِيارُ في أمْرِهِمْ، ولا يَمْلِكونَ هم ما يَختارُ لهمْ دَفْعَهُ.

والثاني: هويَختارُ لهمُ الخِيَرَةَ في أمْرِهِمْ لأنهُ هو العالِمُ بِمَصالِحِ أمورِهِمْ، وما يَرْجِعُ إلى الأوفَقِ والأنفَعِ، هم لا يَعرِفونَ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ لأنَّ أنفُسَ الخَلائقِ لهُ دونَهُمْ، فَلَهُ الحُكْمُ في أمورِهِمْ وأفعالِهِمْ كما لهُ الحُكْمُ في أحوالِهِمْ، لأنهُ لا يَلْحَقُهُ الخِطابُ في حُكْمِهِ؛ إذْ هو عالِمٌ بذاتِهِ، ولا تَلْحَقُهُ التُّهَمَةُ أيضاً في دَفْعِ مَضَرَّةٍ أو جَرِّ نَفْعٍ [لأنهُ غَنِيٌّ بِذاتِهِ][2] فَلَهُ الحُكْمُ في الدارَينِ جميعاً. واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُهما: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنَّ أولياءَهُ يَحْمَدونَهُ في الدنيا والآخِرَةِ؛ في الجنةِ [حينَ يقولونَ][3] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ الآية [فاطر: ٣٤] يقولونَ [ذلكَ][4] إذا دَخَلوا الجنةَ.

والثاني: ما[5] قالَ بعضُهُمْ: ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يقولُ: في السمواتِ والأرضِ. وتَصْديقُهُ قولُ اللهِ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٨] وقولُهُ[6]: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١] وقولُهُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والثالثُ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو أنْ جَعَلَ الدنيا مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الأعداءِ والأولياءِ في نَعيمِها غَيرَ مُفْتَرِقَةٍ ولا مُخْتَلِفَةٍ، وأمّا في الآخِرَةِ فقد فَرَّقَ فيها بَيْنَ الأولياءِ والأعداءِ؛ جَعَلَ للأولياءِ النِّعْمَةَ الدائمةَ وللأعداءِ العذابَ الدائمَ، فَلَهُ الحَمْدُ على ذلكَ.

والرابعُ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لِما جَعَلَ الدنيا دارَ مِحْنَةٍ والآخِرَةَ دارَ الجَزاءِ، لم يَجْعَلْها دارَ المِحْنَةِ.

[والخامسُ][7]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي لهُ الحَمْدُ مِنَ الخَلْقِ في كلِّ حالٍ وكلِّ وقتٍ كقولِهِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] إنهمْ يَحْمَدونَهُ في بَدْءِ كلِّ أمرٍ وخَتْمِهِ أي[8] أنْ يكونَ لهُ الحَمْدُ.

الآيتان ٧١ و٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [وقولُهُ][9]: ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أي دائماً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا ليلَ فيهِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [وقولِهِ][10]: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يُخَرَّجُ ذِكْرُهُ [في وجهَينِ][11]:

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث قالوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، في الأصل: وقول. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل: لوجهين، في م: إلى وجهين.

أحَدُهما: في تَسْفيهِهِمْ في صَرْفِ العِبادةِ والشُّكْرِ إلى الأصنامِ التي كانوا يَعْبدونها على عِلْمٍ منهمْ أنها لا تَمْلِكُ شيئاً ممّا ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ الليلِ نهاراً وجَعْلِ النهارِ ليلاً وتَرْكِهِمْ عِبادةَ مَنْ يَعْرِفونَ أنهُ يَمْلِكُ ذلكَ كلَّهُ، وكذلكَ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى حينَ[1] قالَ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآيةَ [الزمر: ٣٨] فإذا[2] لا يَمْلِكُ ما تَعْبدونَ مِنْ دونِ اللهِ دَفْعَ ضُرٍّ أرادَهُ اللهُ لهُمْ[3] وجَعْلَهُ رَحْمةً ولا دَفْعَ رَحْمةٍ أرادَها اللهُ وجَعْلَها[4] ضُرًّا، فكيفَ تَعْبُدونَها، وتَتْرُكونَ عِبادةَ مَنْ يَمْلِكُ جَعْلَ هذا هذا ودَفْعَ هذا بهذا؟ فَعَلَى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كيفَ تَعْبُدونَ مَنْ لا يَمْلِكُ جَعْلَ الزمانِ كلِّهُ ليلاً دائماً، لا نَهارَ فيهِ، وجَعْلَ الزّمانِ[5] نهاراً كُلَّهُ دائماً، لا ليلَ فيهِ، وتَتْرُكونَ عِبادةَ [مَنْ][6] يَمْلِكُ ذلكَ كلَّهُ؟ يَجْعَلُ وقتَ [الراحةِ والسكونِ [غيرَ][7] وقتِ الاكْتِسابِ والتَّعَيُّشِ وَوَقْتَ التَّعَيُّشِ والكَسْبِ [غيرَ][8] وقتِ][9] الراحةِ والقَرارِ.

والثاني: يُذَكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ ومِنَنِهِ حينَ[10] أنشأَ هذا العالَمَ مُحتاجاً إلى ما بهِ قِوامُ أنفُسِهِمْ وأبدانِهِمْ في دينِهِمْ. ثم جَعَلَ ذلكَ كلَّهُ على التّعاوُنِ وتَظاهُرِ[11] بَعْضِهِمْ بَعْضاً ما لو جَعَلَ ذلكَ على غيرِ ذلكَ لا تقومُ أنفُسُهُمْ وأبدانُهُمْ بذلكَ حينَ[12] جَعَلَ الليلَ وقْتاً للراحةِ والسكونِ، والنهارَ وقْتاً لِلتَّقَلُّبِ والتَّعَيُّشِ.

ولو كانَ ذلكَ كُلُّهُ وقْتاً للراحةِ لا تقومُ أنفُسُهُمْ أبداً لِلتَّعَيُّشِ والكَسْبِ. ولو كانَ كلُّهُ وقْتاً لِلتَّقَلُّبِ والكَسْبِ، لا راحةَ فيهِ، لا تَقومُ أيضاً أنفُسُهُمْ بذلكَ.

لكنهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ جَعَلَ وقْتاً للراحةِ؛ إنما جَعَلَهُ للكُلِّ لا لِبَعْضٍ دونَ بعضٍ، وكذلكَ ما جَعَلَهُ وقْتَ التَّقَلُّبِ؛ إنما جَعَلَهُ كذلكَ للكُلِّ لا لِبَعْضٍ دونَ بَعْضٍ لِتَقومَ لهمْ أسبابُ التَّعَيُّشِ وما بهِ قِوامُ أنفسِهِمْ وأبدانِهِمْ. ولو كانَ ذلكَ كلُّهُ وقْتاً لأحَدِهما لم تَقُمْ أنفُسُهُمْ، ولا بَقِيَ هذا العالَمُ إلى الوقْتِ الذي جَعَلَ لهُ البقاءَ إلى ذلكَ الوقْتِ.

الآية ٧٣ وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وقولُهُ[13]: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إنما هو سَمْعُ عَقْلٍ وقلْبٍ وبَصَرُ عَقْلٍ وقَلْبٍ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذا بالعَقْلِ، ويقولُ[14]: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بالعَقْلِ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قد ذَكَرْناهُ. وهذه الآياتُ التي يُكَرِّرُها، ويُعيدُها[15] مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤] وقولِهِ: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وأمثالُ ذلكَ ممّا يَكْثُرُ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ لا يُصَدِّقونها، ولا يَقْبَلونَها، ولا يَسْمَعونَ إليها، وإنْ كُرِّرَتْ، وأُعِيدَتْ، غَيرَ مَرّةٍ، فهو، واللهُ أعلَمُ على وَجهَيْنِ:

أحَدُهما: لُزومُ الحُجّةِ لِما مُكِّنوا مِنَ[16] الاسْتِماعِ والسماعِ، وإنْ كانوا لا يَسْمَعونَ إليها.

والثاني: يكونُ فيهِ عِظَةٌ للمؤمنينَ مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: لِيَشْكُروا على ما عُصِموا مِنْ عِبادةِ غَيرِ اللهِ، وَوُفِّقوا عِبادةَ المُسْتَحِقِّ إليها، لِيَعْرِفوا عظيمَ نِعْمَةِ اللهِ عليهِمْ.

والثاني: لِيَحْذَروا عاقِبَتَهُمْ في الرجوعِ إلى ما هُمْ[17] عليهِ أولئكَ الكَفَرَةُ على ما حَذَّرَ[18] الرسُلَ والأنبياءَ وأولي العِصْمَةِ عاقِبَتَهُمْ في الرجوعِ إلى ذلكَ كقولِ إبراهيمَ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وأمثالُهُ كثيرٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: فإن. (٣) في الأصل وم: له. (٤) في الأصل وم: وجعله. (٥) في الأصل وم: النهار. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) و(٨) ساقطة من نسخة الحرم المكي. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: والتظاهر. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: ويعيد. (١٦) في الأصل وم: أو. (١٧) من م، في الأصل: هو. (١٨) من م، في الأصل: حذروا.

والثالثُ: خوفُ المُعامَلَةِ: لئلا يُعامِلوا مُعامَلَتَهُمْ[(١)] في العَمَلِ كما عامَلَ أولئكَ في الاعْتِقادِ، لأنَّ المؤمنينَ، وإنْ خالفوا[(٢)] أولئكَ الكَفَرَةَ في الاعْتِقادِ في إشراكِ غَيرِهِ في العِبادةِ فربما يُوافِقونَهُمْ في العَمَلِ، فَكُرِّرَتْ هذهِ الأنباءُ والآياتُ عليهِمْ، وأُعيدَتْ مَرَّةً [بَعْدَ مَرَّةٍ][(٣)] وإنْ كانَ أولئكَ لا يَسْتَمِعونَ إليها للوجوهِ التي ذَكَرْنا.

والرابعُ: كُرِّرَتْ، وأُعيدَتْ، لئلا يَقولوا: إنها لو أعيدَتْ، وكُرِّرَتْ، لَقَبِلْناها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قيلَ: شَهيدُها رسولُها كقولِهِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية [النساء: ٤١] وقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النحل: ٨٤] ونحوُهُ.

سَمّى شهيداً لأنهُ شَهِدَ على ما عَمِلوا، وحَضَرَ ما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ، مِنَ التَّكْذيبِ والقَبولِ والرَّدِّ ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ في تَسْمِيَتِكُمُ الأصنامَ آلهةً أو في اسْتِحْقاقِها[(٤)] العِبادةَ أو في زَعْمِكُمْ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوَ ذلكَ يقولُ: هاتوا برهانَكُمْ وحُجَّتَكُمْ على ما زَعَمْتُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجوهاً:

عَلموا أنَّ الألوهِيَّةَ والرُّبوبِيَّةَ للهِ، أو عَلِموا أنَّ الشَّفاعةَ للهِ لا للأصنامِ التي عَبَدوها ليكونوا شُفَعاءَ عندَ اللهِ كقولِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] أو أنْ يكونَ الحَقُّ[(٥)] الذي عليهِمْ هو[(٦)] العِبادةُ لِلَّهِ، أو أنْ يكونَ ما جاءَ بِهِ الرُّسُلُ/ ٤٠١ ـ ب/ مِنَ الحَقِّ إنما جاؤوا مِنْ عندِ اللهِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [أي ضَلَّ][(٧)] عنهُمْ ما كانوا يَأْمُلونَ مِنْ عبادَتِهِمْ تلكَ الأصنامَ مِنَ الشَّفاعةِ والزُّلْفى.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ كأنهُ كانَ[(٨)]، واللهُ أعْلَمُ، يُخَوِّفُ أهلَ مكةَ، ويوعِدُهُمْ بِبَغْيِهِمْ على اللهِ وعلى رسولِهِ بِعَذابٍ يَنْزِلُ عليهِمْ كما نَزَلَ بِقارونَ بِبَغْيِهِ على موسى وقومِهِ إذْ لم تَنْفَعْهُ قرابَتُهُ مِنْ موسى ولا صِلَتُهُ بِهِ لِما ذُكِرَ أنهُ كانَ ابْنَ عمِّهِ، وكانَ خِتْنَهُ زَوْجَ أُخْتِهِ مَرْيَمَ.

فَعَلى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لا تَنْفَعُكُمُ القرابةُ التي بَيْنَكُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ، ولا اتِّصالُكُمْ بهِ مِنْ عذابِ اللهِ ومَقْتِهِ في الدنيا إذْ[(٩)] بَغى عليهِ، وكما [لم][(١٠)] تَنْفَعْ أُبُوَّةُ أبي إبراهيمَ إذْ بَغى عليهِ، وتَرَكَ اتِّباعَهُ حينَ[(١١)] تَبَرَّأَ إبراهيمُ منهُ، وحينَ[(١٢)] قالَ: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [مريم: ٤٥] وحينَ[(١٣)] لم تَنْفَعْ لامرأةِ نوحٍ ولوطٍ الزَّوجِيَّةُ التي كانتْ بَيْنَهُما وبَيْنَ نوحٍ ولوطٍ مِنْ نُزولِ [عذابِ اللهِ ومَقْتِهِ بهما إذْ تَرَكَتا اتِّباعَهُما، وبَغَتا عليهِما][(١٤)].

فَعَلى ذلكَ يا أهلَ مكةَ لا يَنْفَعُكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ ومَقْتِهِ قرابَتُكُمْ لِرسولِ اللهِ، صلواتُ اللهِ عليهِ، وصِلَتُهُ بكمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في بَغْيِهِ عليهِمْ: قالَ بعضُهُمْ: هو أنَّ موسى طَلَبَ منهُ زكاةَ ما آتاهُ اللهُ مِنَ المالِ، فَمَنَعَهُ، وأبَى أنْ يُعْطِيَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: بَغْيُهُ عليهِمْ، هو أنْ أعْطى امْرأةً جُعْلاً لِتَقْذِفَهُ بِنَفْسِها، فأرادَ أنْ يَفْضَحَهُ على رؤوسِ الأخيارِ والمَلإِ وأنْ يَرْجُموهُ، فَدَفَعَ اللهُ [ذلكَ][(١٥)] عنهُ، وبَرَّأَهُ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما بَغى عليهِ بكثْرَةِ مالِهِ وَوَلَدِهِ. هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ كأنهُ افْتَخَرَ بِكَثْرَةِ مالِهِ في دفعِ عذابِ اللهِ ونِقْمَتِهِ كقولِ أهلِ مكةَ ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقالَ بعضُهُمْ: بَغى عليهِ لأنَّ النُّبُوَّةَ جُعِلَتْ في موسى والحُبورَةَ في هارونَ، ولم يُجْعَلْ لِقارونَ شيءٌ، فاعْتَزَلَ عنْ موسى، واتَّبَعَهُ ناسٌ كثيرٌ، واعْتَدَوا[(١٦)] عليهِ. ونَحْوُ هذا كثيرٌ مِمّا قالوهُ.

---

(١) في الأصل وم: لهم. (٢) في الأصل وم: خالفوا هم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: استحقاق. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٦) في الأصل وم: هي. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: قال. (٩) في الأصل وم: إذا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) و(١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العذاب ومقته بهم إذا تركوا أتباعهم وبغوا عليهم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: واعتدى.

والأشبهُ أنْ يكونَ بَغْيُهُ الذي ذَكَرَ عليهِ كَبَغْيِ فِرْعَونَ وهامانَ عليهِ حينَ[1] قالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ و٢٤] وقالَ[2]: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [العنكبوت: ٣٩] فكانَ منهُ ما كانَ مِنْ فِرْعَونَ وهامانَ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ لرسالَتِهِ وتَسْمِيَتِهِ ساحراً كَذّاباً.

فذلكَ هو البَغْيُ عليهِ، لأنهُ ذَكَرَ البَغْيَ. أو لا يُفَسِّرُ البَغْيَ عليهِ لأنهُ ذَكَرَ البَغْيَ، ولم يُبَيِّنْ ما ذلكَ البَغْيُ؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ قائلونَ: بَغْيُهُ عليهِمْ هو أنْ زادَ في ثيابِهِمْ شِبْراً. فذلكَ أيضاً لا نَعْلَمُهُ، فهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَفَاتِحَهُ﴾ خزائنُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَفَاتِحَهُ﴾ جمعُ مِفْتاحٍ، وهو في الأصل مفاتيحُ.

وذُكِرَ أنَّ كنوزَهُ، كانَتْ كذا كذا ألفاً، وأنَّ مفاتِحَهُ كانَ يَحْمِلُها[3] كذا وكذا بَغْلاً، وأنها مِنْ جلودِ كذا أو مِنْ كذا قَدْرَ كذا. فذلكَ أيضاً لا نَعْلَمُهُ، ولا نُفَسِّرُهُ، ولا نَذْكُرُهُ، إلّا قَدْرَ ما ذُكِرَ في الكتابِ: الكنوزُ والمفاتِحُ.

وذُكِرَ أنَّ العُصْبَةَ تَنوءُ بها، وذلكَ لِكَثْرَةٍ[4] ما ذَكَرَ. ولكنْ لا نَعْلَمُ قَدْرَهُ وعَدَدَهُ؛ ماهو؟ ولا: كَمْ هو؟ وكذلكَ العُصْبَةُ أيضاً؛ لا نَعْلَمُ كمْ عَدَدُها؟ إلّا أنَّ أهلَ التأويلِ: يقولُ بعضُهُمْ: مِنْ عَشْرَةٍ إلى أربعينَ، ويقولُ بعضُهُمْ: مِنْ عَشَرَةٍ إلى خَمْسَةٍ وسَبْعينَ. ويَقولُ بعضُهُمْ: مِنْ عَشْرَةٍ إلى خَمْسةَ عَشَرَ، ونحنُ لا نُفَسِّرُهُ، ولا نَذْكُرُ عَدَدَهُ سِوى أنهُ اسْمُ جماعةٍ، يَتَعَصَّبُ بعضُهُمْ ببعضٍ[5]، ويُعَيِّرُ بعضُهُمْ بَعْضاً، يَرْجِعونَ جميعاً إلى أمْرٍ واحدٍ.

وكذلكَ الشِّيعةُ: هي جماعةٌ، يَتَشَيَّعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ[6]، ويَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. ولذلكَ قالَ إخوةُ يوسفَ لأبيهِمْ: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ١٤] أي يَتَعَصَّبُ بَعْضُنا بِبَعْضٍ[7]، لا نَدَعُهُ يأكُلُهُ، ولَئِنْ لم نَفْعَلْ، ولم نَحْفَظْهُ ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: تلكَ المَفاتيحُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَتَنُوءُ﴾ أي تَميلُ بها العُصْبَةُ إذا حَمَلَتْها مِنْ ثِقَلِها. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ أي لَتَعْجَزُ العُصْبَةُ عنْ حَمْلِها. وقالَ بعضُهُمْ: تَنوءُ تَثْقُلُ، والعُصْبَةُ الجماعةُ[8].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا تَبْطَرْ، ولا تَأْشَرْ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ البَطِرينَ الأشِرينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تَفْتَخِرْ على الناسِ بما آتاكَ اللهُ مِنَ المالِ، ولا تَتَكَبَّرْ عليهِمْ، ولا تَفْرَحْ: لا تَسْكُنْ إليها، ولا تَرْكُنْ إلى ذلكَ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ ذَكَرَ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ كأنَّ كَثْرَةَ ما آتاهُ مِنَ المالِ أنْسَتْهُ الآخِرَةَ، وشَغَلَتْهُ عنها وعنِ العَمَلِ لها حتى حَمَلَهُ ذلكَ على الجُحودِ والإنكارِ، فقالَ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي لا تَنْسَ [نَصيبَكَ][9] مِنْ مالِكَ في الدنيا، ولكنْ قَدِّمْ لآخِرَتِكَ.

قالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ إلى آخِرِهِ؛ قالَ: أَمَرَ أنْ يأخُذَ مِنْ مالِهِ قَدْرَ عَيْشِهِ، ويُقَدِّمَ ما سِوَى ذلكَ لِآخِرَتِهِ. وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي قَدِّمِ الفَضْلَ، وأمْسِكْ ما يُبَلِّغُكَ ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قالَ: يَكْفيكَ ما أحلَّ اللهُ لكَ مِنَ الدنيا، فإنَّ فيهِ غِنًى وكِفايَةً.

وأصلُهُ ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لكَ مِنَ الدنيا ما أكَلْتَ ولَبِسْتَ وأفْنَيتَ وما قَدَّمْتَ» [مسلم ٢٩٥٨] جَعَلَ المُقَدَّمَ مِنَ الدنيا لهُ، وأمّا ما خَلَفَهُ فهو لِغَيْرِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) في الأصل وم: يحمل. (٤) من م، في الأصل: لكثرة. (٥) و(٦) و(٧) في الأصل وم: بعضا. (٨) في الأصل وم: جماعة. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وهكذا [الدنيا؛ لم تُخلَقِ الدنيا][(١)] لِتبقَى لأهلِها، أو يَبْقَى أهلُها فيها. ولكنْ إنما خُلِقَتْ لِتَفْنَى هي، ويَفْنَى[(٢)] أهلُها، وخُلِقَتِ الآخِرَةُ لِلْبَقاءِ. فَنَصيبُهُ مِنَ الدنيا ما قَدَّمَ، وأنْفَقَ في طاعةِ اللهِ في سبيلِهِ، ليسَ ما خَلَّفَهُ في هذهِ الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى نفسِكَ في العَمَلِ للآخِرَةِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وأحْسِنْ إلى الخَلْقِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا يَدُلُّ أنهُ كانَ يُنْفِقُ مالَهُ. إلّا أنهُ كانَ يُنْفِقُ في الصَّدِّ عنْ سبيلِ اللهِ حتى[(٣)] قالَ: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولو كانَ في تَرْكِ الإنفاقِ لم يكُنْ في ذلكَ بَغْيُ الفسادِ في الأرضِ.

ثم الواجبُ على مَنْ حَضَرَ الملوكَ، وشَهِدَ مجالِسَهُمْ مِنْ أهلِ العِلْمِ أنْ يُخَوِّفوا الملوكَ، ويُوعِدوهُمْ[(٤)] بما أوعَدَ قومُ موسى قارونَ وخَوَّفوهُ، ويأمُروهُمْ بالصلاحِ في أنفسِهِمْ وفي رعيَّتِهِمْ كما أمَرَ أولئكَ قارونَ، ويَنْهَوهُمْ كما نَهاهُ أولئكَ. فإنْ أجابوهُمْ، وإلّا امْتَنعوا عنهُمْ، وكَفُّوا أنفسَهُمْ عنِ الاختِلافِ إليهِمْ. فإنْ لم يَفْعَلوا فهمْ شُرَكاؤُهُمْ في جميعِ ما يَفْعَلونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: إنَّ قارونَ كانَ أقْرَأَ الناسِ بالتوراةِ وأعْلَمَهُمْ بها، وسُمِّيَ قارونَ لِذلكَ، وذُكِرَ أنهُ سُمِّيَ المُنَوَّرَ لِحُسْنِ صوتِهِ بالتوراةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ وهو الكيمياءُ؛ ذُكِرَ أنهُ كانَ يُعالِجُ صَنْعَةَ الذَّهَبِ، ويُحْسِنُها. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي على خَبَرٍ/ ٤٠٢ ـ أ/عندي؛ قالَ ذلكَ على إثْرِ قولِ أولئكَ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [إلى قولِهِ تعالى:][(٥)] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾] كأنهمْ أوعَدوهُ بذهابِ ذلكَ عنهُ وهلاكِهِ. فقالَ، واللهُ أعلَمُ ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ لم أوتَ جُزافاً بلا سَبَبٍ، وكأنهُ، واللهُ أعلَمُ، نَسِيَ[(٦)] الآخِرَةَ بِما أوتِيَ مِنَ المالِ والكنوزِ وتَرْكِ الإنفاقِ في الخَيرِ، وكانَ عارفاً باللهِ حينَ[(٧)] قالوا لهُ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وقالوا لهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ دلَّ هذا منهمْ أنهُ كانَ عارفاً باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِما أنهُ كانَ يَفْتَخِرُ، ويَسْتَكْبِرُ على الناسِ بِما أوتِيَ مِنَ الأموالِ والكُنوزِ والأتباعِ.

ويَحْسَبُ أنهُ يدفَعُ العذابَ المَوعودَ في هذهِ الدنيا بذلكَ عنْ نفسِهِ، أو يَظُنُّ [أنَّ مَنْ][(٨)] أوتِيَ ذلكَ لا يُعَذَّبُ كَظَنِّ أولئكَ الكَفَرَةِ حينَ[(٩)] قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥].

فجائزٌ أنْ كانَ مِنْ قارونَ مِنَ الإعجابِ بالكَثْرَةِ والجَمْعِ ما ذُكِرَ [أولئكَ، فقالوا][(١٠)] عندَ ذلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمْ دَفْعُ ما نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ. فَعَلى ذلكَ أنتَ يا قارونُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: لا يُسْألونَ عَنْ ذنوبِهِمْ [لما يُعْرَفونَ بسيماهُمْ][(١١)] كقولِهِ: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقالَ بعضُهُمْ: لا تُسْألُ هذهِ الأمَّةُ عنْ صَنيعِ مُجْرِمي الأمَمِ الخاليةِ. وجائزٌ [أنهمْ لا يُسْألونَ][(١٢)] عنْ ذنوبِهِمْ لأنهمْ لا يَرَونَ ما يَعْمَلونَ مِنَ الأعمالِ ذنوباً، ولكنْ إنما يُسْألونَ عنِ الدليلِ الذي بِهِ لا يَرَونَ تلكَ الأعمالَ ذنوباً[(١٣)]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنهُ خَرَجَ [وغِلْمانُهُ][(١٤)] على بِغالٍ شُهُبٍ، ومَعَهُ كذا كذا مِنَ الجَواري على كذا كذا بِغالٍ شُهُبٍ، عليهِنَّ مِنَ الثيابِ كذا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو يفنى. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: يواعدوهم. (٥) في الأصل وم: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. (٦) من م، في الأصل: لفني. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: إنه لما. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بأولئك فقال. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أن يسأل. (١٣) في الأصل وم: ذنبا. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ خَرَجَ على بَراذينَ كذا بيضٍ مَعَ كذا كذا غِلْمانٍ وجَوارٍ[1] ونَحْوِ ما ذُكِرَ. ولكنّا لا نَدْري على أيِّ زينةٍ خَرَجَ، ولكنا نَعْلَمُ أنهُ خَرَجَ على الزينةِ التي يَخْرُجُ [بأمثالِها الملوكُ][2] ولا نُفَسِّرُ أنهُ كذا على كذا، ولا نُفَسِّرُ العِلْمَ الذي ذُكِرَ أنهُ مِنَ المالِ، والكَنْزَ أنهُ كانَ عندَهُ كذا مِنَ العِلْمِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي أوتوا مَنافِعَ العِلْمِ، رُبَّما [يُؤْتَى أحدٌ العِلْمَ][3] ولا يُؤْتَى مِنَ الاِنْتِفاعِ لهُ بِهِ ما أُوتِيَ هؤلاءِ حينَ[4] قالوا لأولئكَ ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ لم يكُنْ مِنْ أولئكَ إلّا التَّمَنّي أنْ يُؤْتَوا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارونُ. ثم نهاهُمُ الذينَ أُوتوا مَنافِعَ العِلْمِ والاِنْتِفاعَ بهِ عنْ ذلكَ التَّمَنّي. فَدَلَّ ذلكَ أنَّ التَّمَنّيَ لا يَسَعُ في ما لا يَسَعُ الاِشْتِغالُ بِهِ والطَّلَبُ حينَ[5] قالوا لهمْ: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ كيفَ ذَكَرَهُ بالتأنيثِ؟ وإنما تَقَدَّمَ لهُ ذِكْرُ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ فَأَلَا قالَ: وما يُلَقّاهُ[7]؟ اخْتُلِفَ فيهِ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ كِنايةٌ عنْ تلكَ المَقالةِ التي كانَتْ مِنْ أولئكَ الذين أوتوا العِلْمَ لأولئكَ الذينَ يُريدونَ الحياةَ الدنيا، أي لا يُلَقّى تلكَ المَقالةَ التي قالوها لأولئكَ إلّا الصابرونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ ذلكَ كِنايةٌ عنِ الأعمالِ [أي وما يُلَقّى تلكَ الأعمالَ ولا يُوَفَّقُ لها][8] إلّا الصابرونَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي لا يُوَفَّقُ لها، ويُقالُ: لا يُرْزَقُ [إلّا][9] الصابرونَ.

[وقولُهُ تعالى][10] ﴿ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ المؤمنينَ أنفسَهُمْ[11] كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥ و...] وقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [هود: ١١] أي آمنوا.

ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ الذينَ صَبَروا أنفُسَهُمْ، وحَبَسوها على أداءِ ما افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ، ولم يُؤْتوا أنفُسَهُمْ شَهَواتِها[12] وهواها، واللهُ أعلَمُ.

ثم كانَ في قومِ موسى خِصالٌ ثلاثٌ، لم تَكُنْ تلكَ، ولا مِثْلُها في غَيرِهِ مِنَ الأُمَمِ:

أحدُها: ما ذُكِرَ مِنْ صَلابَةِ أولي العِلْمِ ويَقينِهِمْ وطُمَأنينَتِهِمْ في ما وُعِدوا في الآخِرَةِ مِنَ العذابِ وصَبْرِهِمْ على أداءِ ما افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ وحَبْسِهِمْ أنفسَهُمْ عنْ مَناهُمْ وشَهَواتِهِمْ وصَلابَتِهِمْ في الدينِ وما وَعَظوا قارونَ حينَ[13] قالوا لهُ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ و٧٧] وهو كانَ مَلِكاً يومئذٍ [وما][14] قالوا لأولئكَ الذينَ يُريدونَ الحياةَ الدنيا ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾.

والثاني: ما ذُكِرَ سَحَرَةُ فِرْعَونَ حينَ أوعَدَهُمْ بالقَطْعِ والصَّلْبِ والقَتْلِ بإيمانِهِمُ الذي آمنوا، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] وقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] وأمثالُ ذلكَ مِمّا لم يَنالوا حلولَ ما أوعَدَهُمْ، وخَوَّفَهُمْ مِنْ أنواعِ العذابِ.

والثالثُ: ما ذُكِرَ مِنَ الذي كانَ يَكْتُمُ إيمانَهُ حينَ[15] قالَ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] وإنما ظَهَرَ ذلكَ حينَ قالَ ﴿فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] كأنهُ هَمَّ أنْ يَقْتُلَهُ. ألا تَرى أنَّ ذلكَ الرجلَ المؤمِنَ الذي كانَ يَكْتُمُ إيمانَهُ قالَ لهمْ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾؟ لم يُبالِ بِهَلاكِ نفسِهِ بإظهارِهِ الإيمانَ بَعْدَ أنْ أعانَ نَبِيَّ اللهِ موسى، ونَفَعَ لهُ بما [قالَ، واسْتَقْبَلَ فرعونَ وقومَهُ بِما اسْتَقْبَلَ][16].

---

(١) في الأصل وم: وجواري. (٢) في الأصل وم: أمثاله من الملوك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: اختلف في قوله. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: لكن. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا يوفق. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: نفسه. (١٢) في الأصل وم: شهواتهم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: ولما. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) من م، في الأصل: واستقبل.

فهذهِ خصالٌ لم تُذكَرْ عن قوم قطُّ، مِنْ سِوَى قوم موسى مِثْلُها. ولذلكَ وَصَفَهُمْ، ونَعَتَهُمْ بِفَضْلِ الهدايةِ والعَدالَةِ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

وهكذا الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ إذا أُريدَ منهُ أخذُ الإيمانِ، أو خافَ على دينهِ أنْ يُذهَبَ بهِ، أو أنْ يُدخَلَ فيهِ النُّقصانُ ألّا يَبْذُلَ ذلكَ، وإنْ خافَ على نفسِهِ تَلَفَها وهَلاكَها وتَعذيبَها بأشَدِّ ما يكونُ مِنَ العذابِ.

ألا تَرَى أنَّ اللهَ مَدَحَ أصحابَ الأُخدودِ بما احتَملوا أشَدَّ العذابِ وأسْوَأَ القَتْلِ، ولم يَترُكوا الإيمانَ، ولم يُعْطُوا لأولئكَ الكَفَرَةِ ما أرادوا منهُمْ؟ فهكذا الاختيارُ[1] على كلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَختارَ ما اختارَ أولئكَ.

وهكذا الواجبُ على كلِّ مَنْ يَأتي الأمراءَ والسَّلاطينَ، ويَحْضُرُ مجالِسَهُمْ مِنَ العلماءِ أنْ يَعِظوهُمْ، ويَأْمُروهُمْ بكلِّ ما يُؤتَى، ويَنْهَوْهُمْ عنْ كلِّ مَحظورٍ حَرامٍ، ويَدُلُّوهُمْ على كلِّ خيرٍ ما هو طاعةٌ للهِ كما فَعَلَ قومُ موسَى[2] بقارونَ، وألّا يَحْضُروا[3] مجالِسَهُمْ، ولا يأتُوهُمْ[4] طائِعينَ. فإنْ فَعَلوا فإنهمْ يكونونَ شُركاءَهُمْ.

وذُكِرَ عنْ بعضِ السَّلَفِ أنهُ قالَ في عيسى وقارونَ عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ أنَّ عيسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، زَهِدَ في الدنيا زُهْداً حتى لم يَتَّخِذْ لنفسِهِ مَسْكَناً يَسْكُنُ [فيهِ][5] ولا مَقَرًّا يَقِرُّ فيهِ، ولا اتَّخَذَ لنفسِهِ ما يَتَعَيَّشُ بهِ، ولا اشْتَغَلَ بشيءٍ منها، فَرَفَعَهُ اللهُ إلى السماءِ، فَجَعَلَ عيشَهُ ومَقَرَّهُ فيها في كَرامتِهِ وجِوارِهِ، وقارونَ[6] كانَ يَرْغَبُ في هذهِ الدنيا رَغْبَةً [عظيمةً][7] وجَهَدَ في طَلَبِها طاقَتَهُ وَوُسْعَهُ، ورَكَنَ إليها رُكوناً حتى خَسَفَهُ اللهُ في الأرضِ، وأدخَلَهُ فيها مَعَ كُنوزِهِ وأتباعِهِ، فيكونُ فيها إلى يومِ القِيامَةِ.

ففي ذلكَ عِبْرَةٌ وآيَةٌ لكلِّ راغِبٍ وزاهِدٍ؛ فَيَرْغَبُ الزاهدُ [في الزُّهدِ][8] فيها، ويَنْزَجِرُ الراغبُ عنِ الرَّغْبَةِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالبَغْيِ الذي بَغَى عليهِمْ؛ أعني على موسى وأصحابِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كأنهُ كانَ يَفْتَخِرُ بالمالِ والحَواشي، ويَتَقَوَّى بذلكَ في دفعِ عذابِ اللهِ ونِقْمَتِهِ. لِذلكَ قالَ: ﴿فَمَا كَانَ/ ٤٠٢ ـ ب/ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لم تُغْنِهِ[9] في دَفْعِ عذابِ اللهِ عنهُ أتباعُهُ وحَواشيهِ، وهو كَظَنِّ أولئكَ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥] وكانَ ظَنُّهُمْ ذلكَ. وقولُهُمْ إنما كانَ بِوَجْهَيْنِ:

[أحَدُهما][10]: أنهمْ ظَنُّوا أنَّ أموالَهُمْ وأتباعَهُمْ تَدفَعُ عنهمْ عذابَ اللهِ ونِقْمَتَهُ كما تَدْفَعُ نِقْمَةَ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ في ما بَيْنَهُمْ كقولِ [ابنِ نوحٍ][11]: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣].

والثاني: [أنهمْ ظَنُّوا][12] أنّما أُعْطُوا هذهِ الأموالَ والأتباعَ في هذهِ الدنيا لِكَرامَةٍ لهمْ عندَ اللهِ، فلا يُعَذَّبونَ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ كانوا تَمَنَّوا أنْ يُعطَوا مِثْلَ ما أُعطِيَ قارونُ[13] ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

[قالَ بَعْضُ أهلِ الأدبِ: وَيْ صِلَةٌ، وإنما هو كانَّ وكانَهُ. وقالَ مُقاتِلٌ: وَيكَأنَّهُ أي لكنهُ[14]، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أيِ اعْلَموا ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ﴿وَيْكَأَنَّ﴾][15] واعلَموا أنهُ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لكنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ، ولكنهُ لا يُفْلِحُ الكافرونَ.

---

(١) من م، في الأصل: اختيار. (٢) في الأصل وم: قارون. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (٤) في الأصل وم: أتوهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) معطوف على عيسى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يغن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ذلك الرجل. (١٢) في الأصل وم: ظنوا أنهم. (١٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩]. (١٤) أدرج بعدها في م: ويكأن. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقالَ بعضُهُمْ: أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ؟ وألَمْ تَرَ أنهُ لا يُفْلِحُ كذا؟

وقالَ الزَّجّاجُ: وَيْ مقطوعٌ مِنْ كأنَّ، وهو حَرْفٌ يُفْتَتَحُ بِهِ التَّنَدُّمُ. ثم ابْتَدَأَ بقولِهِ: كأنهُ لا يُفْلِحُ الكافرونَ.

ثم في الآيةِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ في وجوبِ الأَصْلَحِ على اللهِ لأنهمْ ذَكَروا مِنَّةَ اللهِ في مَنْعِهِ إيّاهُمْ ما تَمَنَّوا بالأَمْسِ ممّا أُوتِيَ قارونُ. فلو كانَ ما أُعْطِيَ قارونُ أَصْلَحَ لهُ في دينِهِ لم يَكُنْ في مَنْعِهِ عن هؤلاءِ مِنَّةٌ.

دَلَّ أنَّ ما أعْطى قارونَ لم يَكُنْ أَصْلَحَ لهُ، وأنْ ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأَصْلَحِ لِلْعِبادِ في الدينِ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في [ظاهرِ الآيةِ][1] أنَّ كلَّ مَنْ لا يُريدُ العُلُوَّ في هذهِ الدنيا ولا الفسادَ فيها يكونُ مِنْ أهلِ تلكَ الدارِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ دارِ الآخِرَةِ، وجَهَنَّمَ مِنْ دارِ الآخِرَةِ أيضاً. لكنَّ الآيةَ تُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: كأنها نَزَلَتْ في رُؤَساءِ الكَفَرَةِ، وفَراعِينُهُمْ هُمُ الذينَ كانوا يُريدونَ العُلُوَّ في هذهِ الدنيا بالتَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ على الرسُلِ، والفَسادَ فيها في صَرْفِ الناسِ عَنْ دينِ اللهِ لِلرُّسُلِ، ودعا الناسَ إلى دينِ اللهِ واتِّباعِ الرُّسُلِ.

والثاني: تكونُ الآيةُ في الذينَ كانوا يَعْمَلونَ بالخيراتِ والطاعاتِ منهمْ مِنْ[2] نَحْوِ صِلَةِ الأرحامِ والصَّدَقَةِ على الفُقَراءِ والإنفاقِ في ذلكَ. فأخْبَرَ أنهمْ، وإنْ كانوا يَعْملونَ بتلكَ الأعمالِ، فإنما يَعْمَلونَ للدنيا والعُلُوِّ فيها لا للآخرةِ. فتلكَ الدارُ الآخِرَةُ، ليسَتْ لهمْ. إنما هي لِلَّذينَ يَعْمَلونَ، ويُريدونَ [بأعمالِهِمْ][3] الدارَ الآخِرَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ كأنهُ يقولُ: تلكَ الدارُ التي دُعُوا إليها ليسَتْ لِمَنْ ذَكَرَ [وإنما][4] هي الدارُ التي قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] فالدارُ الآخِرَةُ، هي الدارُ التي دُعُوا إليها، وهي الجنةُ؛ الدارُ الآخِرَةُ على الإطلاقِ: الجنةُ كالكتابِ المُطْلَقِ كتابِ اللهِ والدينِ المُطْلَقِ دينِ اللهِ ونَحْوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي تلكَ الدارُ الآخِرَةُ لِلْمُتَّقينَ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: ما قالَ أهلُ التأويلِ: على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، أي فَلَهُ منها خَيرٌ؛ ومَعْناهُ أنَّ ما يكونُ لهُ في الآخِرَةِ مِنَ الخَيرِ إنما يكونُ بتلكَ الحسنةِ التي جاءَ بها في الدنيا، وهي التوحيدُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي ما أُعطوا في الآخِرَةِ مِنَ الخَيرِ والثوابِ خَيرٌ ممّا يُعْطَونَ في الدنيا بِصَبْرِهِمْ وحَبْسِهِمْ أنْفُسَهُمْ عن شَهَواتِها وأمانِيِّها.

والثالثُ: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي ثوابُ اللهِ وما أُكْرِموا بهِ خَيرٌ مِمّا عَمِلوا في الدنيا.

والرابعُ: أنَّ توفيقَهُ إيّاهُمْ وإرشادَهُ خَيرٌ ممّا عَمِلوا.

[والخامسُ][5]: أنْ يكونَ ذِكْرُ اللهِ وحَمْدُهُ خيرٌ مِمّا ذَكَرَ كقولِهِ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ قالوا جميعاً: السَّيِّئَةُ هي الشِّرْكُ [﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾][6].

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَرَضَ﴾ أي نَزَّلَ عليكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ العَمَلَ بالقُرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَرَضَ﴾ تَبليغَ ما أَنْزَلَ عليكَ القرآنَ والرسالةَ إلى الناسِ.

---

(١) في الأصل وم: ظاهرها. (٢) في الأصل وم: في. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: ﴿فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لكن مثلها هو التخليد في النار أبدا﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] في ما يجزون بها بل ظلموا أنفسهم.

واختُلِفَ أيضاً في قولِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال بعضُهُمْ: المَعادُ [مكةُ. وقالَ بعضُهُمْ: المَعادُ][1] البَعْثُ والساعةُ، وقالَ بعضُهُمْ: المَعادُ الجَنَّةُ، ويُقالُ: الموتُ، وكلمةُ البعثِ والمَعادِ هو البَعثُ في الظاهِرِ.

وجائزٌ أنْ تُسَمّى مكةُ مَعاداً لِما يعودُ الناسُ إليها مَرَّةً [بَعْدَ مَرَّةٍ][2] كما تُسَمّى مَثابَةً لِما يثوبُ الناسُ إليها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. لكنْ مَنْ يقولُ: إنَّ المَعادَ، هو مكةُ؛ يقولُ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمّا أُمِرَ بالهِجْرَةِ إلى المدينةِ، فهاجَرَ إليها، اشْتاقَ إلى بَلَدِهِ ومَولِدِهِ ومَولِدِ آبائِهِ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ بهذهِ الآيةِ بِشارةً في العَودِ إليها ظاهراً عليهِمْ قاهراً فاتحاً لهُ مَكَّةَ. هذا تأويلُ مَنْ يقولُ: إنَّ المَعادَ، هو مكةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على غَيرِ هذا، وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: كأنهُ حَزِنَ على الفِراقِ منهمْ إشفاقاً على هَلاكِهِمْ لإخراجِهِمُ الرسولَ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ لأنَّ الأمَمَ السالِفَةَ إذا أُخرِجَ مِنْ بَينِهِمُ الرسُلُ نَزَلَ بهِمُ العَذابُ، فخافَ لِمَا[3] أخرَجوهُ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ، وأبوا إجابَتَهُ أنْ يُهلَكوا، ويُعَذَّبوا، كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] فَبَشَّرَ بهذا أنْ تُرَدَّ إليها، وستعودُ إليهِمْ، فَيَتبعونَكَ، ويُؤمِنونَ بكَ، وهُمْ لا يُهْلَكونَ إهلاكَ اسْتِئصالٍ وتَعْذيبِ كسائِرِ الأمَمِ.

والثاني: يُذَكِّرُ على الامْتِنانِ عليهِ؛ يقولُ: إنَّ الذي أَنْزَلَ عليكَ القرآنَ، وألقاهُ عليكَ بَعْدَ ما لم تكُنْ تَرجو إلقاءَهُ عليكَ وإنزالَهُ. ولكنْ بِرَحْمَتِهِ ومَنِّهِ ألقاهُ إليكَ، وأنزَلَهُ عليكَ حينَ[4] قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

فَعَلى ذلكَ يَرُدُّكَ إلى مكةَ بَعْدَ ما لم تكُنْ تَرجو رَدَّكَ وَعودَكَ إليها.

وإنْ كانَ ا لمَعادُ هو البَعْثَ، فهو يُخَرَّجُ أيضاً على وجهَينِ:

أحَدُهما: على البِشارةِ؛ كأنهُ يقولُ: إنَّ الذي فرضَ عليكَ القرآنَ يَرُدُّكَ ويَبْعَثُكَ، بِمَنْ كَذَّبَكَ وبِمَنْ صَدَّقَكَ، فَيَنْتَقِمُ مِنْ مُكَذِّبيكَ جَزاءَ التَّكْذيبِ، ويَجزي مَنْ يُصَدِّقُكَ جزاءَ التَّصْديقِ.

والثاني: يُذَكِّرُهُ، ويُخاطِبُهُ، وإنما يُريدُ قومَهُ، أي سَتُبْعَثونَ، وستَعودونَ إليها، فيكونُ كالآياتِ التي يُخاطِبُ بها رسولَهُ، والمُرادُ بها قومُهُ، فهو يُخَرَّجُ على الوَعيدِ.

ألا تَرى أنه قالَ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فَيَجزيهِ جزاءَ الهُدَى ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فَيَجزيهِ [جزاءَ الضلالةِ][5].

فَيُخَرَّجُ ذِكْرُ هذا عندَ ادِّعاءِ أولئكَ الكَفَرَةِ أنهمْ على الحَقِّ والهُدَى وأنَّ آباءَهُمْ كانوا على الحَقِّ والهُدَى، وأنتُم على ضَلالٍ. فيقولُ: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نَحنُ أو أنتُم. فهو على التَّحاكُمِ إلى اللهِ أنْ يَحكُمَ بَينَهُمْ، فَيَجزيَ كُلاً بِما جاءَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟﴾ وإنْ كُنْتَ مُطيعاً أي خاضعاً ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أنْ يُنْزَلَ عليكَ [الكتابُ][6] وتَصيرَ رسولاً، أي لم تكُنْ تَطْمَعُ ذلكَ. ولكنْ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ جَعَلَكَ رسولاً نَبِيّاً.

والثاني: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟﴾ أنْ تكونَ في قومِكَ وقَبيلَتِكَ رسالةٌ فَضْلاً أنْ تَرْجُوَ، وتَطْمَعَ في نَفْسِكَ [لأنهُ / ٤٠٣ ـ أ/ ليسَ][7] مِنْ بَني إسرائيلَ ولا مِنْ أهلِ الكتابِ. والرسالةُ مِنْ قَبْلُ كانَتْ لا تكونُ إلّا في بَني إسرائيلَ. ولكنَّ اللهَ جَعَلَ الرسالةَ في العَرَبِ في نَفْسِكَ بِرَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: قال بعضهم: المعاد هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إنهم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: ضلاله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لأنهم ليسوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: على النَّهيِ، أي لا تَكُنْ ظَهيراً، وإنْ كانَ لا يكونُ [ذلكَ النَّهيُ لِلْعِصْمَةِ](١) التي عَصَمَهُ اللهُ [بها](٢)، لأنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ النَّهيَ والأمْرَ. بل مَنْفَعَةُ العِصْمَةِ إنما تكونُ عندَ النَّهيِ والأمْرِ.

والثاني: على الأمْنِ لهُ والإياسِ أنْ يكونَ ظَهيراً لهمْ، كأنهُ يخافُ لِعَلَّةٍ أنْ يكونَ ظَهيراً لهمْ في وقْتٍ مِنَ الأوقاتِ، فأمَّنَهُ اللهُ مِنْ ذلكَ، فقالَ: لا تخَفْ، فإنكَ لا تكونُ ظَهيراً لهمْ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧ والنمل: ٧٠] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] على رَفْعِ الحُزْنِ والحَسْرَةِ بِتَرْكِهِمُ الإيمانَ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

والثالثُ: إنَّ الخِطابَ، وإنْ كانَ لهُ في الظاهِرِ، فالمُرادُ منهُ غَيْرُهُ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيَةٍ(٣) مِنَ القرآنِ أنهُ خاطَبَ بِهِ رسولَهُ، والمُرادُ بِهِ غَيْرُهُ.

الآية ٨٧ وكذلكَ بهذا في قولِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في هذا ما في الأوَّلِ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

الآية ٨٨ وكذلكَ بهذا في قولِهِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾](٤) تُرْجَى مَنْفَعَتُهُ وشَفاعَتُهُ مِنْ دونِ اللهِ باطلٌ ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلّا ما ابْتُغِيَ منهُ [وَجْهُ اللهِ](٥) وعُمِلَ لهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ وزائلٌ إلّا هو فإنه حَيٌّ، لا يموتُ، دائمٌ، لا يَزولُ.

وقالَ بعضُهُمْ: كُلُّ أمْرٍ وَجِهَةٍ، يُتَوَجَّهُ إليها، ويُعْمَلُ بِهِ، هالكٌ، إلّا الجِهَةَ والوَجْهَ الذي أمَرَ هو بالتوجُّهِ(٦) إليهِ والعَمَلِ بِهِ. وهو قريبٌ [مِنَ الأوَّلِ](٧) واللهُ أعلمُ.

تم بعون الله

المجلد الثالث

ويليه المجلد الرابع، وأوله سورة العنكبوت

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العصمة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بالتوجيه. (٧) في الأصل وم: بالأول.

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي

(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الرابع

مؤسسة الرسالة ناشرون

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
مروان رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ ـ ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت ـ لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon
Email:
resalah@resalah.com
Web site:
http://www.resalah.com

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

اللهمَّ

اجْعَلْني ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومنْ يَقْرَؤُهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة العنكبوت

[كلُّها مكيَّةٌ][١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ قولُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ هو، وإنْ كانَ في الظاهِرِ استِفْهاماً فهو على الإيجابِ لا الاستِخْبارِ؛ إذْ حقيقةُ الاستِفْهام والاستِخْبارِ إنما تكونُ مِمَّنْ يَجْهَلُ الأمورَ، فَيَستَخبِرُ، ويَستَفْهِمُ، لِيَعْرِفَ ذلكَ، فاللهُ، سُبحانَهُ، يَتعالَى عنْ أنْ يَخفَى عليهِ شيءٌ. فهو على التَّقريرِ والإيجابِ منهُ[٢].

ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ على أحَدِ وجهَينِ:

[أحدُهما][٣]: أي حَسِبَ الناسُ.

والثاني: أي لا يَحْسَبِ ﴿ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ ذَكَرَ الإيمانَ، ولم يَذْكُرْهُ بِمَنْ: باللهِ أو بِغَيرِهِ. وليسَ أحدٌ مِنَ الخلائقِ إلّا وهو يُؤمِنُ بأحدٍ، ويَكْفُرُ بِغَيرِهِ. وليسَ في الآيةِ بَيانُ الإيمانِ بهِ أو بِمَنْ. إلّا أنَّ اللهَ تعالى سَخَّرَ الخَلْقَ على الفَهْمِ مِنَ الإيمانِ المُطْلَقِ المُرْسَلِ الإيمانَ باللهِ وبرسُلِهِ، وسَخَّرَهُمْ حتى فَهِموا مِنَ الكتابِ المُطْلَقِ كتابَ اللهِ، والدارِ الآخِرَةِ الجَنَّةَ.

وأمثالُ ذلكَ ممّا فَهِموا مِنَ الكتابِ المُطْلَقِ كِتابَ اللهِ، وفَهِموا ممّا ذَكَرْنا مِنَ الإيمانِ المُطْلَقِ الإيمانَ باللهِ تعالى وبرسُلِهِ، وفَهِموا أيضاً مِنَ الدينِ المُطْلَقِ دينَ اللهِ...

فيكونُ قولُهُ: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ باللهِ وبرسُلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي لا يُبْتَلَونَ. والفِتْنَةُ، هي الابْتِلاءُ الذي فيهِ الشِّدَّةُ؛ يَمْتَحِنُ اللهُ عِبادَهُ باخْتِلافِ الأحوالِ: مَرَّةً بالضِّيقِ والشِّدَّةِ، ومَرَّةً بالسَّعَةِ والرَّخاءِ وبأنواعِ[٤] العِباداتِ ليكونَ ذلكَ عِلْماً لِلْخَلْقِ في صِدْقِ الإيمانِ بهِ والكَذِبِ فيهِ، فَيَعْرِفوا صِدْقَ كلِّ مُخْبِرٍ عنْ نفسِهِ الإيمانَ باللهِ تعالى وكَذِبَهُ، إذْ قد يَجوزُ أنْ يكونَ في ما يُخْبِرُ، ويقولُ: آمَنْتُ، كاذباً.

فَجَعَلَ اللهُ تعالى العِلْمَ في صِدْقِهِمْ وكَذِبِهِمْ أعمالاً، تُظْهِرُ بها عندَهُمْ صِدْقَهُ ما لو كانَ الابْتِلاءُ والامْتِحانُ بِجِهَةٍ لِعِلَّةٍ لا تُظْهِرُ ذلكَ. وهو ما أَخْبَرَ عنِ المُنافِقينَ، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

هذا يَدُلُّ أنَّ الفِتْنَةَ، هي المِحْنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ والبلاءُ وما قالَ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فإنما يَظْهَرُ صِدْقُ الرجلِ في إيمانِهِ بما يُصيبُهُ مِنَ الشِّدَّةِ. فأمّا السَّعَةُ والرَّخاءُ فهو يُوافِقُ طَبْعَهُ وَهَوَى[٥] نفسِهِ فلا يَظْهَرُ صِدْقُهُ بما يُوافِقُ طَبْعَهُ، وإنما يَظْهَرُ ذلكَ بما يُخالِفُ طَبْعَهُ، ويَثْقُلُ عليهِ تَحَمُّلُ[٦] ذلكَ.

---

(١) في الأصل: ذكر أن سورة العنكبوت كلها مكية، ويقول قتادة: عشر آيات من أولها مدنية، وسائر الآيات مكية، في م: كلها مكية، ويقول قتادة: عشر آيات من أولها مدنية، وسائر الآيات مكية. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: وهو في. (٦) من م، في الأصل: يحتمل.

ثم قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ في قومٍ، أظهروا الإيمانَ باللسانِ، وأضمَروا الخِلافَ والكَذِبَ.

وقالَ بعضُهُم: نَزَلَتْ في قومٍ، آمَنوا باللهِ وبرسولِهِ حقيقةً، ثم عُذِّبوا بأنواعِ العذابِ، فتَرَكوا الإيمانَ، وكَفَروا بِهِ. وفيهِمْ نَزَلَ [قولُهُ تعالى][1]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] فكيفَ ما كانَ ففيهِ أنَّ مَنْ أقَرَّ بالإيمانِ، وقَبِلَهُ[2] يُمْتَحَنُ بأنواعِ المِحَنِ بِمُوافَقَةِ الطَّبْعِ ومُخالَفَتِهِ لِيَظْهَرَ صِدْقُهُ عندَ الناسِ، فَيُعامِلونَهُ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ما تقدَّمَ، أي[3] يَعْلَمُ ظاهراً كائناً ما قد عَلِمَهُ غيرَ كائنٍ أنهُ يكونُ، ويَعْلَمُهُ[4] موجوداً ما قد عَلِمَهُ غيرَ موجودٍ أنهُ يوجَدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا أيضاً يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: قد حَسِبَ الذينَ ما ذَكَرَ.

والثاني: لا يَحْسَبُ على النَّهْيِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ لا أحَدَ يَظُنُّ أنْ يَسْبِقَ اللهَ في عذابِهِ ونِقْمَتِهِ. لكنهمْ إذا رَأَوُا الكافِرَ والمُسْلِمَ في هذهِ الدنيا على السَّواءِ في نَعيمِها وسَعَتِها، ورَأَوا أيضاً عندَ المَوتِ أنْ لم يُنْزَلْ على الكافِرِ عذابٌ كالمُسْلِمِ ظَنّوا أنْ لا بَعْثَ، وما بَينَهما باطلاً. ذلكَ ظَنُّ الذينَ كَفَروا؛ حَمَلَهُمْ ذلكَ على إنكارِ البعثِ كقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ حينَ خَلَقَهُما إذا لم يكُنْ بَعْثٌ ﴿بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

وهُمْ قد عَلِموا أنَّ اللهَ، خَلْقُهُ إيّاهما، ليسَ بباطِلٍ، ولكنْ صَيَّرَ خَلْقَهُما، إذا لم يَكُنْ بعثٌ باطلاً. فإذا أنكروا البعثَ ظَنّوا أنْ لا عذابَ، ولا جزاءَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أضافَ اللقاءَ إلى نفسِهِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ المصيرِ/٤٠٣ ـ ب/ إليهِ كقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨ و...] وقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] وقولِهِ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] ونَحْوُهُ هذ كلُّهُ، لأنَّ خَلْقَ الدنيا وخَلْقَ العالَمِ فيها لا لَها، ولكنَّ المَقْصودَ بِخَلْقِها وخَلْقِ العالَمِ فيها الآخِرَةُ. فإنما صارَ خَلْقُ هذهِ الأشياءِ فيها حِكْمَةً بالآخِرَةِ؛ إذْ لو لَمْ تَكُنْ آخِرَةٌ كانَ خَلْقُ ما ذَكَرَ في هذهِ الدنيا لَعِباً باطلاً كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَهُمْ لا لِلرُّجوعِ إليهِ لَعِباً باطلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يقولونَ، ويُظْهِرونَ، والعَليمُ بِما يُضْمِرونَ، ويُسِرّونَ، لأنَّ القصةَ قصةُ المنافقينَ، أوِ السَّميعُ المُجيبُ، العَليمُ بِحَوائِجِهِمْ وأمورِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ وكذلكَ قولُهُ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقولُهُ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيها.

ففي هذا أنَّ اللهَ إنما امْتَحَنَ الخَلائِقَ لا لِحاجَةٍ لهُ في ما امْتَحَنَهُمْ في دَفْعِ مَضَرَّةٍ وجَرِّ نَفْعٍ. لكنْ إنما امْتَحَنَهُمْ لِحاجَةِ أنفسِهِمْ في دَفْعِ المَضارِّ وجَرِّ المَنافِعِ.

وكذلكَ إنما أنشأَ الدنيا وهذا العالَمَ فيها لا لِحاجَةٍ لهُ في إنشاءِ ذلكَ، ولكنْ لِحَوائجِ أنفسِهِمْ.

وكذلكَ ما أنْشَأَ مِنَ الخَلائقِ سِوى البَشَرِ، إنما [أنْشَأَهُ لِلْبَشَرِ][5]، ولهُ سَخَّرَ جميعَ ذلكَ، وجَعَلَ البَشَرَ بحيثُ يَقْدِرُ على اسْتِعْمالِ جميعِ ذلكَ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ وحاجاتِهِمْ[6]، وهو ما ذَكَرَ في غيرِ آيَةٍ[7] مِنَ القرآنِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقالَ[9]: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ونَحْوَ ذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقيل. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: وليعلمه. (٥) في الأصل وم: أنشأ البشر.
(٦) في الأصل وم: وحاجتهم. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وقوله.

فَعلَى ذلكَ امْتَحنَ هذا العالَمَ لحاجةِ أنفُسِهِمْ في دَفْعِ مَضارٍّ وجَرِّ مَنْفَعَةٍ. لذلكَ قالَ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ أي لِحاجةِ نَفْسِهِ ومَنْفَعَةِ نفسِهِ لا لِمَنْفَعَتِهِ أو لِحاجَةِ اللهِ تعالى.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا تفسيرُ ما ذَكَرَ.

ثم المُجاهَدَةُ تكونُ مَرَّةً معَ الشيطانِ والجِنِّ، ومَرَّةً معَ أعدائِهِ مِنَ الإنْسِ، ومَرَّةً معَ هَوَى النَّفْسِ، ومَرَّةً في أمْرِ الدنيا. كلُّ ذلكَ مُجاهَدَةٌ في اللهِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] واللهُ أعلمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ كانَ ما عَمِلوا مِنَ الحَسَناتِ والصالحاتِ يُكَفِّرُ بها سَيِّئاتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنَّ جَزاءَهُمُ الذي يُجْزَوْنَ بتلكَ الأعمالِ أحْسَنُ مِنْ أعمالِهِمُ التي عَمِلوا لأنَّ قَدْرَ ذلكَ الجزاءِ عندَهُمْ أعْظَمُ وأحْسَنُ مِنْ قَدْرِ أعمالِهِمْ، إذْ ليسَ لأعمالِهِمْ عندَهُمْ كثيرُ قِيمَةٍ وقَدْرٍ؛ إذْ منهمْ مَنْ يُحْيِي ليلةً بِدِرْهَمٍ وبما يَسُدُّ بهِ حاجَتَهُ في يومٍ وليلةٍ.

والثاني: أنَّ الأعمالَ التي يَعْمَلُها الناسُ[2] تكونُ على وجوهٍ: سَيِّئاتٍ تُكَفَّرُ بالتوبةِ أو بما يُعاقَبونَ عليها، وحَسناتٍ يُجْزَوْنَ بها الثوابَ الجزيلَ، وإباحاتٍ يَعْمَلونَها[3] لِحوائِجِ أنفُسِهِمْ [لا يُعاقَبونَ عليها][4] ولا يُثابونَ. فيقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهو الحَسَناتُ والخَيراتُ [التي][5] عَمِلوها.

[والثالثُ][6]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنْ يُكَفِّرَ سَيِّئاتِهِمْ بِنَوعٍ مِنَ الحَسَناتِ، ويُثابوا[7] على أحْسَنِها، وهو ما قالَ: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ واللهُ أعلمُ بذلكَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ وقُرِئَ أيضاً: إحساناً[8].

قالَ الزَّجّاجُ: قولُهُ: ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ أجْمَعُ وأقْرَبُ لأنهُ يَرْجِعُ إلى حُسْنِ الشيءِ في نفسِهِ، وإلى[9] حُسْنِهِ عندَ ذلكَ الإنسانِ؛ يُقالُ: حُسْنُ كذا إذا كانَ في نفسِهِ حَسَناً. والإحسانُ هو ما يَحْسُنُ عندَ ذلكَ المَعْمولُ لهُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

قالَ الشيخُ رحمه الله: لكنَّ الإحسانَ هو اسْمُ ما حَسُنَ أيضاً في نفسِهِ؛ يقالُ: أحْسَنَ؛ فإذا أحْسَنَ فقد حَسُنَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ إنْ كانَ هذا الخِطابُ لأهلِ الإيمانِ فيكونُ تأويلُ الآيةِ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ بأنَّ[10] لهُ شَريكاً[11] ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ فلا تُشْرِكْ بي، وكقولِهِ: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٨] أي يَعْلَمُ بِخِلافِ ما يقولونَ.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ بأنَّ لهُ شريكاً[12]، أي لكَ العِلْمُ بِخِلافِهِ بأنْ ليسَ لهُ شريكٌ.

وإنْ كانَ الخِطابُ لأهلِ الكُفْرِ [فهمْ][13] يقولونَ على اللهِ ما ليسَ لهمْ بهِ عِلْمٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ أمَرَ بالبِرِّ للوالدَينِ والإحسانِ إليهما والطاعةِ لهما ما لم يَكُنْ في طاعَتِهِما مَعْصِيةُ الرَّبِّ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ تَجِبُ طاعَتُهما في كلِّ شيءٍ، وفي كلِّ ما كانَ عندَهما إحسانٌ، ولكنْ في ما كانَ في ذلكَ طاعةُ الخالِقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وعيدٌ لِتكونوا أبداً على حَذَرٍ في أعمالِكُمْ، لا تَعْمَلونَ في ما فيهِ مَعْصِيةُ الرَّبِّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: المرء. (٣) في الأصل وم: يعملون. (٤) في الأصل وم: مما لا يُعاقبون عليه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: ويثابون. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/٣٩. (٩) الواو ساقطة من الأصل. (١٠) أدرج قبلها في الأصل: أي. (١١) في الأصل وم: شريك. (١٢) في الأصل وم: شريك. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما][1]: كأنَّهُ قالَ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولهُمْ سَيِّئاتٌ، لَنُكَفِّرَنَّ عنهُمْ سَيِّئاتِهِمْ بأعمالِهِمُ الصالحاتِ، ثم ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ الذينَ لا سَيِّئَةَ لهمْ، وهُمُ الأنبياءُ؛ إذْ أكثَرُ ما ذُكِرَ في الكتابِ ﴿الصَّالِحِينَ﴾ إنما أريدَ بهِمُ الأنبياءُ، صَلواتُ اللهِ عليهِمْ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، على تَكْفيرِ السَّيِّئاتِ عنهُمْ على ما ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ، وهو ما قالَ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

[والثاني][2]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي لَنَجْعَلَنَّهُمْ مِنَ الصالحينَ. فإنْ قيلَ: ما مَعْنى ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ وهُمْ قد عَمِلوا الصالحاتِ؟ قيلَ: مَعْناهُ ما ذَكَرْنا بَدْءاً: أنهمْ قد عَمِلوا الصالحاتِ، إلّا [أنَّ لهمْ][3] سَيِّئاتٍ، يُكَفِّرُها بالصالحاتِ، ثم لَيَجْعَلَنَّهُمْ في الصالِحينَ الذينَ لا سَيِّئَةَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ناسٌ مؤمنونَ بألسِنَتِهِمْ؛ فإذا أصابَهُمْ بلاءٌ مِنَ الناسِ أو مُصيبةٌ في أنفُسِهِمْ وأموالِهِمُ افْتُتِنوا، فَجَعَلوا ذلكَ في الدنيا كعذابِ اللهِ في الآخِرَةِ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وذلكَ على المُنافِقِ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: نَزَلَتِ الآيةُ في مَنْ حَقَّقَ الإيمانَ سِرًّا وعَلانِيَةً، إلّا أنهُ عُذِّبَ لأجلِ إيمانِهِ باللهِ وبرسولِهِ، فَتَرَكَ الإيمانَ، وكَفَرَ. فَعَلَى تأويلِ هذا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ على القَطْعِ مِنَ الأوَّلِ والابْتِداءِ منهُ [وهو لِبيانِ][5] صَنيعِ المُنافِقينَ وخَبَرِهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي جَعَلَ فِتْنَةَ الناسِ وتَعْذيبَهُمْ إيّاهُ في إعطاءِ ما سَألوهُ، وهو الكُفرُ، كعذابِ اللهِ في إعطاءِ ما سألَ مِنْ أهلِ الكُفْرِ، وهو الإيمانُ، لأنَّ أهلَ الكُفْرِ إذا نَزَلَ بهِمْ عذابُ اللهِ، أو اشْتَدَّ بهِمْ خَوفُ نُزولِهِ عليهِمْ أعْطَوُا اللهَ ما سألَهُمْ مِنَ الإيمانِ والتوحيدِ، وهو ما قالَ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ جَعَلَ فِتْنَةَ الناسِ في تَرْكِ الإيمانِ كَعذابِ اللهِ في ذلكَ، أي جَعَلَ العذابَ الذي مِنَ الناسِ كأنهُ مِنَ اللهِ جاءَ، فَتَرَكَ الإيمانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ/ ٤٠٤ ـ أ/ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ فإنْ كانتِ الآيةُ في مَنْ حَقَّقَ الإيمانَ باللهِ سِرًّا وعلانيَةً فَيُخَرَّجُ هذا على التَّعْييرِ لهُ في تَرْكِهِ الإيمانَ بما عُذِّبَ بهِ لأنهُ كانَ يَقْدِرُ أنْ يُظْهِرَ الكُفْرَ لهمْ باللسانِ، فَيَدْفَعُ [العذابَ][6] عن نفسِهِ، ويكونُ في الحقيقةِ في السِّرِّ مؤمناً على ما ذَكَرَ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وإنْ كانَتِ الآيةُ في المُنافِقينَ فيقولُ: كيفَ أسْرَرْتُمُ الكُفْرَ والخِلافَ لهُ في القَلْبِ، وأنتم تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ عالمٌ بِما في صدورِ العالَمينَ؟ فَيُخْبِرُ رسولَهُ بما أضْمَروا، وأسَرُّوا مِنَ الخِلافِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَ هذا: أنْ يَعْلَمَ كائناً ما قد عَلِمَ أنهُ سيكونُ، ويَعْلَمَ موجوداً ظاهراً ما قد عَلِمَ أنهُ يوجَدُ، ويَظْهَرُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ كأنهمْ قالوا ذلكَ لهمْ بَعْدَما عَجَزوا عنِ الطَّعْنِ في الحُجَجِ والآياتِ ما يُوجِبُ شُبْهَةً في ما عندَ الناسِ وبَعْدَ ما انْقَطعوا عنِ اللَّجاجِ فيها والاحْتِجاجِ عليها. فلمّا عَجَزوا عنْ ذلكَ كلِّهِ فعندَ ذلكَ اشْتَغَلوا بما ذَكَروا، وقالوا للمؤمنينَ مِمّا ذَكَروا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي دينَنا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أنهم. (٤) في الأصل وم: ثم قال. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: من. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ يقولونَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فإنهُ صوابٌ. فإنْ أصابَكُمْ خَطأً أو أخطأْتُمْ في الاتِّباعِ لهُ فإنّا نَحْمِلُ خَطاياكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قالوا لِمَنْ آمَنَ: لا نُبْعَثُ نحنُ ولا أنتمْ فاتَّبِعونا، وإنْ كانَ عليكُمْ شيءٌ فهو علينا. وهو قريبٌ مِنَ الأوَّلِ.

[ويَحْتَمِلُ][1] أنْ يقولوا لهمْ: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فإنَّ اللهَ أمَرَنا بهِ، فإنْ أخطأْتُمْ في ذلكَ فإنّا نَحْمِلُ خطاياكُمْ، أو نَحْوَهُ.

فهذا القولُ منهمْ مُتَناقِضٌ [مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهما:][2] لأنهمْ [ذَكَروا أنهمْ][3] كانوا يُخْطِئونَ في [طَلَبِ][4] الاتِّباعِ لهمْ دينَهُمْ إلّا أنْ يُريدوا بذلكَ ما ذَكَرْنا.

والثاني: إنما كانوا يَضْمَنونَ، ويَحْمِلونَ خَطاياهُمْ لا بإذْنِ مَنْ لهُ الطَّلَبُ في [غَفْرِ][5] الخَطايا، ولكنْ بإذْنِ مَنْ عليهِ ذلكَ؛ إذْ[6] لا يَصْلُحُ الضَّمانُ إلّا بإذْنِ مَنْ عليهِ.

ثم أخبَرَ أنهمْ لا يَحْمِلونَ ذلكَ حينَ[7] قالَ: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ما يَذْكُرونَ مِنْ حَمْلِ خَطاياهُمْ، أي لا يَقْدِرونَ على حَمْلِها، أو كاذِبونَ في الدعاءِ إلى اتِّباعِ سَبيلِهِمْ، أو كاذِبونَ أنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ﴾ يَحْمِلونَ أوزارَهُمْ بِضلالِ أنفُسِهِمْ ﴿وَأَثْقَالًا﴾ بإضلالِ غَيرِهِمْ ودعائِهِمْ إليهِ كقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [النحل: ٢٥].

وذُكِرَ في خَبَرٍ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «ما مِنْ داعٍ دعا إلى هُدًى فأُتبِعَ عليهِ إلّا كانَ لهُ مِثْلُ أجورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، ولا يَنْقُصُ مِنْ أجورِهِمْ شيءٌ» [مسلم ٢٦٧٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إفْتِراؤُهُمْ اتِّخاذُهُمُ الأصنامَ آلهةً؛ إذْ يكونُ الافْتِراءُ في الفِعْلِ والقولِ جميعاً. وجائزٌ أنْ يكونَ افْتِراؤُهُمْ ما ذَكَروا مِنْ حَمْلِ خَطاياهُمْ وما قالوا: إنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، أو تَسْمِيَتُهُمُ الأصنامَ التي عَبَدوها آلهةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يَذْكُرُ هذا النَّبأَ لِوجْهَيْنِ:

أحَدُهما: تَصْبيرُهُ رسولَهُ على أذى قومِهِ، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ نوحاً لَبِثَ في قومِهِ ألفَ عامٍ غيرَ خَمْسينَ عاماً، كانَ يَدْعو إلى توحيدِ اللهِ، فلم يُجِبْهُ إلّا نَفَرٌ مِنْ أهلِهِ، فلم يَمْنَعْهُ مِنَ الدعاءِ إلى دينِ اللهِ ما أوعَدوهُ مِنَ المَواعيدِ حينَ[8] ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ المواعيدِ.

فذلكَ لم يَمْنَعْهُ مِنَ الدعاءِ، ولذلكَ قالَ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثاني: يَنْقُضُ على المُتَقَشِّفَةِ مَذْهَبَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ المَوعِظَةَ إنما لا تَنْجَعُ في المَوعوظينَ لِتَفْريطِ الواعِظِ وتَرْكِ اسْتِعْمالِ نَفْسِهِ لذلكَ.

فيُقالُ: إنَّ نوحاً قد دعا قومَهُ ألفَ سَنَةٍ إلّا خَمْسينَ عاماً، فلم يُجِبْهُ إلّا نَفَرٌ. فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ منهُ تَقْصيرٌ أو تَفْريطٌ. فَدَلَّ أنها لا تَنْجَعُ ربما لِشَقاوَةِ المَوعوظِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو المَطَرُ الشديدُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الطُّوفانُ كلَّ بلاءٍ، فيهِ الهلاكُ، والطُّوفانُ هو الذي أُرْسِلَ عليهمْ مِنَ الماءِ، فأغْرَقَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي نوحاً ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي مَنْ دَخلَ السَّفينةَ ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: جَعلُها آيةً أنْ هَلَكَتْ كلُّ سَفينةٍ كانَتْ، وهي باقيةٌ إلى اليومِ، على ما هي عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، فَتَمْنَعُهُمْ عنْ تكذيبِ الرسُلِ والعِنادِ مَعَهُمْ.

قالَ الزّجّاجُ: الاِسْتِثناءُ يَخرُجُ على تأكيدِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ، كَذِكْرِ الكُلِّ على إثْرِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ، أو كلامٌ نحوُهُ.

وقُلْنا نَحْنُ: إنْ كانَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الذِّكْرِ كافياً تماماً فَيَخرُجُ النَّبأُ على إثْرِهِ مُخْرَجَ التأكيدِ لِما تَقَدَّمَ نحوَ قولِهِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ [الحجر: ٥٨ و:٥٩]. قولُهُ: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ كافٍ تامٌّ مَفهومٌ ألّا يَدْخُلَ فيهِ آلُ لوطٍ حينَ[1] ذَكَرَ الجُرْمَ، وآلُهُ غيرُ مُجْرِمينَ فهو كافٍ مَفهومٌ لا يَحتاجُ إلى ذِكْرِ آلِ لوطٍ. لكنهُ ذَكَرَهُ على التأكيدِ لهُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤] وقولُهُ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥].

إذا قالَ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ يُفْهَمُ أنَّهنَّ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] لكنهُ ذَكَرَهُ على التأكيدِ. وإذا كانَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ مُجْمَلاً مُرْسَلاً فَيَخْرُجُ ذِكْرُ الثُّنْيا مُخْرَجَ تحصيلِ المُرادِ منهُ على إضمارِ حَرْفٍ: مِنْ فيهِ، كقولِهِ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كأنهُ قالَ: فَلَبِثَ فيهِمْ مِنَ ألفِ سنةٍ تِسْعَ مئةٍ وخمسينَ. وكذلكَ قولُ الناسِ: لِفُلانٍ عَلَيَّ عَشَرَةُ دراهِمَ إلّا كذا؛ كأنهُ قالَ: لِفلانٍ عليَّ مِنْ عَشَرَةِ دراهِمَ كذا، فهو على التَّحْصيلِ يُخَرَّجُ ذِكْرُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الطُّوفانُ كلُّ ماءٍ طافٍ فاشٍ مِنْ سَيلٍ أو غَيرِهِ، وكذلكَ المَوتُ الجارِفُ يُسَمَّى الطُّوفانَ وماءَ الطوفانِ، وهو ما ذُكِرَ في سورةِ الأعرافِ[2].

وقالَ بعضُهُمْ: هو الغَرَقُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ هو نَسَقٌ على قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ١٤] [أي][3]: وأرسَلْنا إبراهيمَ أيضاً إلى قومِهِ، أو أنْ يكونَ نَسَقاً على قولِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [أي][4] وأنْجينا إبراهيمَ أيضاً حينَ أُلْقِيَ في النارِ[5]، أو يقالُ: ذَكَرَ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ في حَقِّ الاِعْتِقادِ، أي وحِّدوا اللهَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ الشِّرْكَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ في حَقِّ المعامَلَةِ، أي إليهِ اصْرِفوا العِبادةَ ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي اتَّقوا عبادةَ مَنْ تَعْبُدونَ مِنَ الأوثانِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ في مَوضِعِ النَّهْيِ، أي ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَوَحِّدوهُ، ولا تَعْبُدوا غَيْرَهُ؛ يكونُ فيهِ نَهْيٌ عنْ مُخالَفَةِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الأمْرِ: افْعَلوا كذا، واتَّقوا ما يُضادُّهُ، ويُخالِفُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي عبادةُ اللهِ خَيرٌ لكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنَّ ذلكَ خَيرٌ لكُمْ.

وجائزٌ ذِكْرُ إذْ مكانَ إنْ في اللغةِ، ويكونُ[6] قولُهُ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: إذْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ [أنَّ ذلكَ خيرٌ لكمْ][7].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تَخْلُقونَ كَذِباً في تَسْمِيَتِكُمُ الأوثانَ آلهةً مَعْبودينَ، أي لَيسوا بآلهةٍ ولا مَعْبودينَ. أو يقالُ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي كَذِباً في صَرْفِ عبادَتِكُمْ إليها واسْتِحقاقِ العبادةِ، أي لا يَسْتَحِقّونَ العبادَةَ، إنما المُسْتَحِقُّ للعبادةِ [اللهُ لا][8] مَنْ تَعْبُدونَ / ٤٠٤ ـ ب/ وقالَ بعضُهُمْ: أي جَعَلْتُمْ كَذِباً مِنَ الآلهةِ لا حَقًّا، وهو قريبٌ مِمّا ذَكَرْنا.

ثم بَيَّنَ سَفَهَهُمْ في صَرْفِ العِبادةِ إلى الأصنامِ، وعَجْزَها [عنْ رِزْقِ مَنْ][9] يَعْبُدُها حينَ[10] قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن

(١) في الأصل وم: و. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات﴾ [الآية: ١٣٣]. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنبياء: ٧١]. (٦) في الأصل وم: أو يكون. (٧) أدرجت هذه العبارة في الأصل قبل: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. (٨) في الأصل: الله دون، في م: دون. (٩) في الأصل وم: عمن. (١٠) في الأصل وم: حيث.

دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ في الشاهدِ لا يَخدِمُ أحدٌ أحداً إلا لِما يَأمُلُ مِنَ النَّفعِ لهُ بالخِدْمَةِ أو لِسابقةِ إحسانٍ، كانَ منهُ إليهِ. فالأصنامُ التي تَعبُدونَها لا يَملِكونَ أنْ يَرزُقوكُمْ، ولا يَنفعوكُمْ، ولا كانَ منها إليكُمْ سابقةُ صُنعٍ، فكيفَ تَعبُدونَها؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي اعبُدوا اللهَ الذي يَرزُقُكُمْ، ويَنفعُكُمْ، ويَملِكُ ذلكَ لكُمْ، واترُكوا عِبادةَ مَنْ لا يَملِكُ ذلكَ.

[وقولُهُ تعالى:][1] ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ يَحتَمِلُ الوَجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما في ما تَقدَّمَ: التوحيدُ والعِبادةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي اشكُروا لهُ في ما أنعَمَ عليكُمْ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: وإنْ يُكذِّبوكَ في ما تُخبِرُ مِنْ نَبَإِ إبراهيمَ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رُسُلَهُمْ في ما أخبَروا عنْ إبراهيمَ بَعْدَ انْتِسابِ كلِّ فريقٍ منهمْ إليهِ وادِّعائهِ نِحلَتَهُ ومَذْهَبَهُ.

والثاني: وإنْ يُكذِّبوكَ في ما تُبَلِّغُ إليهِمْ مِنَ الرسالةِ [﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رُسُلَهُمْ في تَبليغِ الرسالةِ][2].

[وقولُهُ تعالى:][3] ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يُبيِّنُ لهمْ أنها رسالةُ ربِّهِمْ بالحُجَجِ والبراهينِ والآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إنهمْ قد رَأوا أنْ كيفَ أنشأَ اللهُ الخَلْقَ في الابْتِداءِ، وإنْ عَجَزوا عنِ الأسبابِ التي خَلَقَهُمْ، ولا احْتَمَلَ وُسْعُهُمْ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ يُعيدُهُمْ على ما أبْدَأهُمْ، وإنْ عَجَزَ وُسْعُهُمْ عنِ احْتِمالِ ذلكَ وإدراكِهِ. إذِ الأُعجوبَةُ في الإعادةِ لَيستْ بأكثَرَ مِنَ الأعجوبةِ في البدايةِ. بلِ الأعجوبةُ في ابْتِداءِ الإنشاءِ أكثَرُ مِنَ الإعادةِ [إذِ الإعادةُ][4] عندكُمْ أيْسَرُ وأهْوَنُ مِنَ الابْتِداءِ. فَمَنْ قَدَرَ على الابْتِداءِ فهو على الإعادةِ أقْدَرُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [أي][6] الابْتِداءُ والإعادةُ جميعاً يَسيرٌ[7] لا يُعجِزُهُ شيءٌ؛ إذْ هو قادرٌ بذاتِهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ كانَ الأمرُ بالسَّيرِ والنَّظَرِ ليسَ هو سَيراً بالأقدامِ فيها، ولكنْ أمرٌ بإرسالِ الفِكْرِ [في ما][8] فيها مِنَ الخَلائِقِ والنَّظَرِ في بَدْءِ ما فيها مِنَ الخَلْقِ مُتْقَناً مُحكَماً بالتَّدبيرِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ بلا أسبابٍ لِيَعلَموا أنَّ التَّقديرَ في ابْتِداءِ الإنشاءِ والإعادةِ بالخارجِ عنِ احْتِمالِ وُسْعِهِمْ وقواهُمْ خَطَأٌ، وأنَّ الذي قَدَرَ على إنشاءِ الخَلْقِ وابْتِدائهِ[9] بلا سَبَبٍ ولا شيءٍ، وإنْ لم يَحتَمِلْ وُسْعَهُمْ وبُنْيَتُهُمْ وقواهُمْ ذلكَ، وعلى ذلكَ الإعادةُ والنَّشأةُ الأُخرَى، وإنْ [كانَتْ][10] خارجةً عنِ احْتِمالِ وُسْعِهِمْ وقواهُمْ، قادرٌ عليها.

[ويَحتَمِلُ][11] أنْ يُقالَ: انظُروا، واعْتَبِروا أنَّ بَدْءَ الخَلْقِ مِنَ الحكيمِ العالِمِ الذاتيِّ بلا إعادةٍ ورجوعٍ ليسَ بحِكْمَةٍ في العَقْلِ جميعاً. إنَّ [في][12] الحِكْمَةِ والعَقْلِ التَّفريقَ بَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ وبَينَ الشاكِرِ والكافِرِ وبَينَ المُطيعِ والعاصي؛ إذْ قد سَوَّى بَينَهُمْ في الدنيا، وأشْرَكَهُمْ فيها حتى جَعَلَ لِلْكافِرِ ما لِلشاكِرِ والوَلِيِّ والعَدُوِّ والمُطيعِ والعاصي. فلابدَّ مِنَ الإعادةِ في دارٍ يُفَرِّقُ بينَهُمْ لِيَخرُجَ بَدْءُ إنشائِهِ[13] وخَلْقُهُ الخَلْقَ على الحِكْمَةِ والتَّدبيرِ والعِلْمِ لا على السَّفَهِ والعَبَثِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في النشأةِ الأُولَى والآخِرَةِ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ؛ إذْ هو قادرٌ بِذاتِهِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ يَحتَمِلُ هذا في الدنيا ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ في الدنيا، أي

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرجت في الأصل وم قبل: الابتداء. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وابتداء. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: إنشائهم.

يَمْتَحِنُهُ، ويَبْتَليهِ بالشِّدَّةِ والضِّيقِ ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَمْتَحِنُهُ بالسَّعَةِ والرَّخاءِ، فيكونُ التَّعْذيبُ كِنايةً عنِ الشِّدَّةِ والضِّيقِ، والرَّحْمةُ كنايةً عنِ السَّعَةِ والرَّخاءِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي تُرْجَعونَ.

ويَحْتَمِلُ التَّعْذيبَ في الآخِرَةِ والرحمةَ فيها، أي يُعَذِّبُ مَنْ يشاءُ في الآخِرَةِ مَنْ كانَ في الدنيا أهْلاً لهُ مُسْتَوجِباً، ويَرْحَمُ مَنْ يشاءُ مَنْ كانَ في الدنيا أهلاً لها مُطيعاً لها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ما أنتمْ بمُعْجِزينَ اللهَ [إنْ كنتُمْ في الأرضِ أو][1] في السماءِ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ يكونونَ مُعْجِزينَ اللهَ في الأرضِ على ظاهرِ مذهبِهِمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ قد أرادَ إبقاءَ الأخيارِ وأهلِ الصلاحِ، ثم يجيءُ كافرٌ، فَيَقْتُلُهُمْ قَبْلَ أجَلِهِمُ الذي أرادَ إبقاءَهُمْ إلى وقتٍ.

وكذلكَ يقولونَ: أرادَ اللهُ أنْ يَرْزُقَهُمْ منْ رُشْدٍ ونِكاحٍ، لكنهمْ يطلبونَ الرِّزْقَ مِنْ حَرامٍ، ويَزنونَ، وتُخْلَقُ أولادُهُمْ مِنْ زِنًى، شاءَ، أو أبى، لا يَقْدِرُ التَّخَلُّصَ عمّا يُريدونَهُ[2]. فأيُّ إعجازٍ يكونُ أشدَّ مِنْ هذا؟ فَنَعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ همْ يَعْلَمونَ؛ أعني الكَفَرَةَ، أنهمْ لا يُعْجِزونَ اللهَ، ولا يَقْدِرونَ على إعجازِهِ، لكنهُ يَذْكُرُ أنهمْ[3] كانوا يَعْمَلونَ عملَ مَنْ هو مُعْجِزٌ فائتٌ عنْ عذابِ اللهِ ونِقْمَتِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [الحج: ٥١] همْ يَعْلَمونَ أنهمْ لا يَقْدِرونَ أنْ يَسْعَوا في آياتِهِ مُعاجِزينَ، لكنهمْ يَسْعَونَ في دَفْعِ آياتِهِ والإنكارِ لها سَعْيَ مُعاجِزٍ لها لا سَعْيَ خاضعٍ قابلٍ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ ما طَمِعْتُمْ مِنَ النَّصْرِ لكمْ والشفاعةِ، وليسَ لكمْ. ذلكَ لأنهمْ عَبَدوا تلكَ الأصنامَ لِما طَمِعوا شفاعَتَها عندَ اللهِ لهمْ والزُّلْفى [بقولِهِ تعالى][4]: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ [مريم: ٨١ و٨٢] وقولِهِمْ[5]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِهِمْ[6] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ونَحْوِهِ.

فيقولُ: ما لكُمْ ممّا طَعِمْتُمْ بعِبادَتِكُمْ تلكَ الأصنامَ مِنْ وَليٍّ ولا نَصيرٍ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ قولُهُ: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تَحْتَمِلُ آياتُ اللهِ الآياتِ التي جاءَ بها الرُّسُلُ في إثباتِ الرسالةِ لهمْ. وتَحْتَمِلُ آياتُهُ الآياتِ التي جَعَلها لِوَحدانيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي كَفَروا بالعبثِ، وقد ذَكَرْنا في ما تقَدَّمَ وجهَ تَسْمِيَةِ البَعْثِ لِقاءَهُ.

وقالَ الحَسَنُ: آياتُ اللهِ دينُ اللهِ، وكذلكَ يقولُ: كلُّ آيةٍ في القرآنِ الدينُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿مِن رَّحْمَتِى﴾ أي مِنْ جَنَّتي. وتأويلُ هذا أنهمْ قد كَفَروا بالبَعْثِ. فإذا كَفَروا بهِ زَعَموا أنْ لا ثوابَ، ولا جَزاءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِن رَّحْمَتِى﴾ أي مِنْ رُسُلي وكُتُبي لأنَّ اللهَ سَمّى رُسُلَهُ وكُتُبَهُ رَحْمَةً في غَيرِ آيةٍ[8] مِنَ القرآنِ؛ أيِسوا منهمْ حينَ[9] كَذَّبوهُمْ، وكَفَروا بهمْ، أيِسوا أنْ تُرْسَلَ الرُّسُلُ، وتُنْزَلَ الكتبُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ عليهِمُ الإياسُ مِنْ رَحْمَتي بِما كَفَروا بآياتِهِ ورُسُلِهِ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ﴾ كذا ليسَ في جميعِ الأوقاتِ وجميعِ المشاهدِ. ولكنْ جائزٌ أنْ يكونَ هذا ما كانَ جوابَ قومِهِ في مَشْهَدٍ إلّا كذا، أو

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يريدونهم. (٣) في الأصل وم: لأنهم. (٤) في الأصل وم: حيث قال. (٥) في الأصل وم: وقولهم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: آي. (٩) في الأصل وم: حيث.

أنْ يكونَ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وإلّا لم يَحتَمِلْ ألّا يكونَ منهمْ إلّا ما ذَكَرَ مِنَ الجوابِ، قد كانَتْ جَواباتٌ وأجوبةٌ سِواهُ.

لكنْ يَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنَّ ما كانَ جوابَ قومِهِ في مَشهَدٍ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [وهو][1] ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] لا يَحتَمِلُ إنْ لم يَكُنْ منهمْ إلّا هذا ولكنَّ [تأويلَهُ ما ذَكَرْنا][2]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ/ ٤٠٥ ـ أ/ تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ حينَ ألقَوهُ فيها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذِكْرُ الآياتِ في ذلكَ جائزٌ[3] أنْ يكونَ ما ذَكَرَ في هذهِ السورةِ مِنْ أوّلِها إلى آخِرِها ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لِمَنْ ذَكَرَ. وجائزٌ أنْ يكونَ في ما ذَكَرَ خاصةً.

لكنْ ليسَ مِنْ شيءٍ إلّا وفيهِ آياتٌ مِنْ وجوهٍ: آيةُ الوَحْدانيّةِ وآيةُ الألوهيّةِ وآيةُ عِلمِهِ وحِكمَتِهِ وتَدْبيرِهِ وبَعْثِهِ؛ فهو آياتٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذِكْرُ الآياتِ للمؤمنينَ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ذَكَرَ الآياتِ لهمْ لأنهمْ همُ المُنتَفِعونَ بها دونَ مَنْ كَفَرَ.

والثاني: الآياتُ لهمْ على المُكذِّبينَ بها والكافرينَ، أي حُجّةٌ لهمْ عليهمْ كقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ كذا، هو صِلَةُ قولِ[4] إبراهيمَ، وإليهِ يرجعُ، وهو ما تَقَدَّمَ مِنْ دعائِهِ إيّاهُمْ حينَ[5] قالَ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآية [العنكبوت: ١٦].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ مَعْبوداتٍ[6]، وسَمَّيْتُموها آلهةً، فهي ليستْ بآلهةٍ ولا مَعْبوداتٍ[7]، إنما هي أوثانٌ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اتّخاذُكُمُ[9] الأصنامَ مَعْبوداتٍ[10]، واجتِماعُكُمْ عليها إنما هي[11] مَوَدّةُ الحياةِ الدنيا، لا مَوَدّةٌ، لها عاقبةٌ، أو تدومُ، بل تَصيرُ في العاقبةِ عداوةً وبُغْضاً. وهو ما ذَكَرَ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَتَبَرّأُ بَعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ويَكْفُرُ بعضُهُمْ ببَعْضٍ، ويَلْعَنُ بعضُهُمْ بَعْضاً كقولِهِ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقالَ بعضُهُمْ: يَتَبَرّأُ المَتبوعُ مِنَ الأتباعِ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقولِهِ: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] ونَحوُهُ.

ثم أخبَرَ أنَّ مأوَى الكُلِّ النارُ، وما لهمْ مِنْ ناصرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ، أو يَدْفَعُ عنهُمُ العذابَ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا قولُ إبراهيمَ لِقومِهِ كقولِهِ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] وكقولِهِ: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣].

وقالَ بعضُهُمْ: هذا قولُ رسولٍ لقومِهِ الذينَ عَبَدوا الأصنامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي أظهَرَ لهُ لوطٌ الإيمانَ مِنْ بينِ غَيرِهِ[12].

والثاني: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ في ما دعاهُ إليهِ، وهو الهجرةُ، أي في ما أخبَرَهُ أنهُ أُمِرَ بالهجرةِ، فاستَصْحَبَهُ فيها.

---

(١) من م، في الأصل: و. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: ما ذكرت، في م: ما ذكرنا. (٣) في الأصل وم: فجائز. (٤) في الأصل وم: قصة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: معبودا. (٧) في الأصل وم: معبودا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: معبودا. (١١) في الأصل وم: هو. (١٢) في الأصل وم: غيرهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هذا قولُ إبراهيمَ كقولِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ قولَ لوطٍ.

ثم لم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ وقولِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ انْتِقالُهُ [إليهِ أو لِمكانٍ][١] أو شيءٌ ممّا يوجبُ التشبيهَ، ممّا يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ. فكيفَ فُهِمَ مِنْ قولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقولِهِ[٢]: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ [البقرة: ٢٩ و...] وأمثالِهِ ممّا يُفْهَمُ مِنْ مَجيءِ الخَلْقِ وإتيانِهِمْ واسْتِوائِهِمْ، إذْ لا فَرْقَ بَينَ مَجيءِ أحدٍ[٣] إليهِ وبَينَ مَجيئِهِ إلى آخَرَ، هذا في الشاهِدِ سَواءٌ، فكيفَ فُهِمَ في الغائبِ في أحدِهِما ما لم يُفْهَمْ مِنَ الآخَرِ، وهما سِيّانِ في الشاهِدِ؟

فَدَلَّ أنَهُ لا يجوزُ أنْ يُفْهَمَ منهُ في شيءٍ مِنْ ذلكَ ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ؛ إذْ[٤] أخبَرَ أنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني لإبراهيمَ [ذَكَرَ أنهُ وَهَبَ لهُ][٥] إسحاقَ ويعقوبَ لِيُعْلَمَ أنَّ الوَلَدَ هبةُ اللهِ، وكذلكَ وَلَدُ الوَلَدِ لأنَّ يعقوبَ كانَ وَلَدَ وَلَدِهِ حينَ[٦] قالَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] [وكُلُّ الوَلَدِ][٧] هبةُ اللهِ تعالى [ذكوراً كانوا أو إناثاً كما][٨] قالَ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ لم تَزَلِ النُّبُوَّةُ في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ مِنْ لَدُنْهُ إلى هذا الوقتِ: كانَ جميعُ أنبياءِ بني إسرائيلَ مِنْ وَلَدِ إسحاقَ، ونَبِيُّنا محمدٌ ﷺ كانَ مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ اخْتُلِفَ في الأجرِ الذي أخبَرَ أنهُ آتاهُ إبراهيمَ في الدنيا:

قالَ بعضُهُمْ: هو ما وَهَبَ لهُ مِنَ الوَلَدِ في الكِبَرِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو ما سَخَّرَ لهُ الألسُنَ بأجمَعِها على الثَّناءِ الحَسَنِ حينَ[٩] نَسَبَ جميعَ أهلِ الأديانِ على اخْتِلافِ أديانِهِمْ ومذاهِبِهِمْ [إليهِ، وجَعَلَهُمْ][١٠] على دِينِهِ وسُنَّتِهِ وسيرَتِهِ، وتَوَلّى كلٌّ بهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ ما أخبَرَ أنهُ آتى جميعَ المؤمنينَ، وأعطاهُمْ، وهو ما قالَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠] وما ذَكَرَ مِنْ ثوابٍ. فما مِنْ مؤمنٍ إلّا وقد آتاهُ اللهُ في الدنيا أجراً وثَواباً. فذلكَ الذي آتى إبراهيمَ. أو لا نُفَسِّرُ ما ذلكَ الأجرُ الذي آتاهُ اللهُ. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على الوجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ [لو][١١] لم يُكرِمْهُ اللهُ بالنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ لكانَ هو أيضاً مِنَ الصالحينَ.

والثاني: ذَكَرَ الصلاحَ لهُ لِحَقيقةِ صَلاحِهِ[١٢]، أي يكونُ هو مِمَّنْ حَقَّقَ الصلاحَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ في موسى وهارونَ حينَ[١٣] قالَ: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٢] أي مِنْ عِبادِنا الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ، وغيرُهُمْ مِنَ المؤمنينَ لم يُحقِّقوا، أو يكونُ ما ذَكَرْنا، أي لو لم يكنِ الإكرامُ الذي أكرَمَهُ، وهو النُّبُوَّةُ، لكانَ مِنَ المؤمنينَ أيضاً.

وإلّا ليسَ في ذِكرِ الإيمانِ والصلاحِ لهمْ كبيرُ مَنْقَبَةٍ وفَضيلةٍ عندَ الناسِ أنْ يُسَمّى بهذَينِ كلُّ مؤمنٍ ومُصْلِحٍ، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ ما جوزِيَ بهِ][١٤] في الآخِرَةِ.

وقَتادةُ يقولُ: آتاهُ اللهُ عافيةً وعَمَلاً وثَناءً حَسَناً. وقالَ: فَلَسْتَ تَلْقَى أحداً مِنْ أهلِ المِلَلِ إلا يَرْضى بإبراهيمَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ما ذَكَرْنا أنهُ أعطى الوَلَدَ الطَّيِّبَ في كِبَرِ سِنِّهِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: المكان. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أخر. (٤) من م، في الأصل: إن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وكلهم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: إنهم. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لصلاحها. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ قال عمله ما جزى.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اذكُرْ لوطاً إذ قالَ لِقومِهِ. ثم ذِكْرُهُ إياهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنِ اذكُرْ نَبأَ لوطٍ وخَبَرَهُ ليكونَ لكَ آيةً على رسالتِكَ ونُبُوَّتِكَ، إذْ يَعْلَمونَ أنكَ لم تُشاهِدْهُ، ولا شَهِدْتَ زَمَنَهُ، فأخبَرْتَ على ما في كُتُبِهِمْ لِيَعْرِفوا أنكَ إنما عَرَفْتَ ذلكَ باللهِ.

والثاني: [أنِ اذكُرْهُ][1] كيفَ صَبَرَ على أذَى قومِهِ؟ وكيفَ عامَلَ قومَهُ معَ سوءِ صَنيعِهِمْ مِنِ ارْتِكابِ الفواحِشِ والمَناكيرِ وسوءِ معامَلَتِهِمْ إياهُ؟ فاصْبِرْ أنتَ على أذَى قومِكَ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إيّاكَ.

هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ مَعْنَى ذِكْرِ لوطٍ إيّاهُ. وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦] أيِ اذكُرِ إبراهيمَ ونَبَأَهُ أنْ كيفَ عامَلَ قومَهُ؟ وماذا قالَ لهمْ؟ وكيفَ صَبَرَ على أذاهُمْ؟ فعامِلْ أنتَ قومَكَ مِثْلَهُ، واصْبِرْ على أذاهُمْ كما صَبَرَ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ لهمْ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمْ أنْ يُعارِضوهُ بقولِهِ[2]: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فيقولوا][3] بل قد سَبَقَنا بذلك أحدٌ، فكانَ في ذلكَ/ ٤٠٥ ـ ب/ وجهانِ:

أحَدُهما: أن يكونَ ذلكَ آيةً لرسالتِهِ، وأنهُ إنما عَلِمَ باللهِ أنهُ لم يَسْبِقْهُمْ بها أحدٌ ممّا ذَكَرَ.

والثاني: أنهمْ يَعْبدونَ الأصنامَ، ويَرْتَكِبونَ فواحِشَ، ويقولونَ: إنا وَجَدْنا آباءَنا كذلكَ يَفْعَلونَ، وإنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، لِيُعْلَمَ أنهمْ كَذَبَةٌ في قولِهِمْ: إنَّ آباءَهُمْ على ذلكَ حينَ[4] أخبَرَ أنهمْ لم يَسْبِقْهُمْ بها مِنْ أحدٍ. ولو كانَ آباؤُهُمْ على ذلكَ لَذَكَروهُ، وعارَضوهُ. فإذا لم يَفْعَلوا، ولم يَشْتَغِلوا بشيءٍ مِنْ ذلكَ، عُلِمَ[5] أنهمْ كَذَبَةٌ في ما يقولونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ وهو ما ذَكَرَ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي تَعْتَرِضونَ الطريقَ لِمَنْ مَرَّ بكُمْ لِعَمَلِكُمُ الخبيثِ لأنهُ ذَكَرَ أنهمْ إنما كانوا يَعْمَلونَ ذلكَ بالغُرَباءِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي تَقْطَعونَ السبيلَ على الناسِ مِنْ قَطْعِ الطريقِ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي وتَعْمَلونَ في مَجْلِسِكُمُ المُنْكَرَ. اخْتُلِفَ في هذا:

قالَ بعضُهُمْ: أي تَعْمَلونَ في مَجْلِسِكُمُ اللُّواطَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: حَذْفٌ بالحَصَى ورَمْيٌ بالبُنْدُقِ وأمثالُهُ. لكنهُ يُخْبِرُ عن سُوءِ صَنيعِهِمْ في كلِّ حالٍ وكلِّ وقتٍ؛ يقولُ: إنكُمْ تَعْمَلونَ [الفواحِشَ][7] والمناكيرَ في كلٍّ: في الطريقِ والمجلِسِ وفي المَنْزِلِ، ما سَبَقَكُمْ بذلكَ كلِّهِ من أحدٍ مِنَ العالَمينَ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وقولُهُ[9] في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢] وقولُهُ[10] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] هذهِ الآياتُ في الظاهِرِ بَعْضُها مُخالِفٌ لِبَعْضٍ لأنهُ يقولُ في بَعْضِها: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وفي بَعضِها: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] فهو يُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ قولُهُ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم﴾ وقولُهُ[11]: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ إنما ذلكَ في ما بَيْنَهُمْ: يقولُ بعضُهُمْ لِبعضٍ: أخرِجوهُمْ، وقولُهُ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ إنما قالوا ذلكَ لِلوطٍ. فإذا كانَ كذلكَ فليسَ في الظاهِرِ فيهِ خِلافٌ.

والثاني: [أنْ يكونَ قولُهُ][12] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ في مَشْهَدٍ وفي وقتٍ إلّا كذا، وقد كانَ منهمْ أجوِبَةٌ أُخَرُ سِواهُ[13] في غَيرِ ذلكَ المَشْهَدِ وفي [غيرِ][14] ذلكَ الوقْتِ.

---

(١) في الأصل وم: اذكره ان. (٢) في الأصل وم: لقوله. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: ليعلم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ثم قال. (٩) في الأصل وم: وقال.
(١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: سواها. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

[والثالثُ][1]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ﴾ آخِرَ جوابِ قومِهِ [وحاصِلَهُ][2] ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بِنُزولِ العذابِ علينا. إنما قالوا ذلكَ لهُ اسْتِهزاءً وتكذيباً.

الآية ٣٠ ثم دعا لوطٌ ربَّهُ، فقالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فأُجيبَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بِشارةً بالوَلَدِ في كِبَرِ سنِّهِ وسِنِّ زَوجَتِهِ ما لم يُطْمَعْ مِنْ أمثالِهِما الوَلَدُ إذا بَلَغوا ذلكَ الوقتَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ [هود: ٧١] ويَحْتَمِلُ غيرَهُ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ كقولِهِ[4] في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠] ولم يَذْكُرْ فيهِ بِمَ أُرسِلوا؟ وبيَّنَ في هذا.

الآية ٣٢ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ ففي الآيةِ الدليلُ مِنْ وَجْهَينِ:

أحدُهما: يُخَرَّجُ الخِطابُ على العُمومِ، والمرادُ منهُ الخُصوصُ لأنَّ الملائكةَ قالوا [قولاً][6] عامًّا: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ ولم يَكُنِ الأمْرُ بإهلاكِ كلِّ أهلِ القَرْيَةِ، ثم اسْتَثْنَوا لوطاً وأهلَهُ، بَعْدَما قالَ إبراهيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ حينَ[7] ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾.

والثاني: فيهِ جَوازُ تأخيرِ البَيانِ حينَ[8] لم يُبَيِّنوا إلّا بَعْدَ سؤالِ إبراهيمَ إيّاهُمْ.

وفيهِ وجهٌ آخَرُ في امْتِحانِ المَلائكةِ بِمُخْتَلَفِ الأشياءِ لأنَّ هؤلاءِ أُمِروا بالبِشارةِ، وأُمِروا بإهلاكِ قومِ لوطٍ لِيُعْلَمَ أنهمْ يُمْتَحنونَ بِمُختَلِفِ الأشياءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩] رُوِيَ عنْ أمِّ هانِئٍ عن النَّبيِّ ﷺ: «أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ قالَ: كانوا يَخْذِفونَ أهلَ الأرضِ، ويَسْخَرونَ منهمْ» [الترمذي ٣١٩٠] فإنْ ثَبَتَ هذا كانَ تفسيراً لهُ، لا يُحْتاجُ إلى غَيرِهِ.

والنادي: قالَ أبو عَوسَجَةَ: المجلسُ، وأنديةٌ جماعةٌ، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ. قالَ أبو مُعاذٍ: النَّدِيُّ والنادي لُغتانِ؛ فَجَمْعُ النادي أنديةٌ، وجَمْعُ النَّدِيِّ نُدِيٌّ كقراءةِ بعضِ الناسِ في سورةِ مريمَ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣] [نُدِيًّا: بالضَّمِّ][9] أي مَجالِسَ. وقراءةُ العامّةِ: نَدِيًّا مَجْلِساً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ ظاهرُ هذا: أنهُ ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ بالواقِعِ مِنَ الفِعْلِ بهمْ، إنما[10] ساءَ ظَنُّهُ أنهمْ يَفْعَلونَ بهمْ لِما يَعْلَمُ مِنْ قومِهِ[11] الخبيثَ مِنَ العَمَلِ ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾ هذهِ كلمةٌ تَتَكَلَّمُ بها العَرَبُ عندَ انْقِطاعِ جَميعِ الحِيَلِ.

فلوطٌ إنما قالَ ذلكَ لِما لم يَرَ [لِنَفْسِهِ حيلةً][12] يَدْفَعُ بها شَرَّهُمْ وما قَصَدوا بهمْ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾؟ [هود: ٨٠].

[وقولُهُ تعالى][13]: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ هذا يدلُّ على أنهمْ قد قَصَدوهُمْ ولوطاً بالإهلاكِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾؟ [هود: ٨١] دلَّ هذا أنهمْ قَصَدوهُمْ بالإهلاكِ حتى قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ وأنهمْ إنما أرادوا بالإخراجِ بقولِهِمْ: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] إخراجَ قَتْلٍ؛ إذْ لو كانَ إخراجاً مِنَ القريةِ، لا يُقْتَلُ، لَكانَ لا تكونُ لهُ النجاةُ منهمْ والأمْنُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٥٦. (١٠) من سخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكن. (١١) من م، في الأصل: قوم. (١٢) في الأصل وم: نفسه. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ وفي بعضِ الآياتِ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧] والغُبورُ فِعلُها. ثم أخبَرَ أنهُ قَدَّرَ ذلكَ؛ دلَّ [أنَّ][1] أفعالَ العبادِ مَخلوقةٌ للهِ [مُقَدَّرةٌ][2] لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً. والرِّجزُ اسمُ كلِّ عذابٍ، فيهِ شِدَّةٌ.

ألا تَرى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾؟ [هود: ٧٧] أي شديدٌ، ثم ذَكَرَ أنهُ يَنزِلُ مِنَ السماءِ. فإنْ ثَبَتَ ما ذُكِرَ أنَّ جبريلَ أدخَلَ أحَدَ[3] جَناحَيهِ تحتَ الأرضِ، فَرَفَعَ بِهِ[4] قُرياتِ لوطٍ إلى السماءِ حتى سَمِعَ أهلُ السماءِ صِياحَهُم وضَجَّتَهُمْ، ثم أرسَلَها، فهو نُزولُ العذابِ مِنَ السماءِ، وأنَّ قولَهُ: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هود: ٨٢] وأنَّ[5] السِّجيلَ لو كانَ مَكاناً، منهُ يَنزِلُ، فهو في السماءِ على ما يَقولُ بعضُ الناسِ: إنهُ مَكانٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هو اسْمُ ذلكَ الحَجَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ آيةً بَيِّنَةً لِمَنْ عَقَلَ، وعَرَفَ السَّبَبَ [الذي لهُ][7] أهلكَ قُرياتِ لوطٍ، كقولِهِ: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ﴾ ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ و١٣٨] لماذا أُهلِكوا؟ أي تَعْقلونَ.

هذهِ الأنباءُ والقِصَصُ ذَكَرَها اللهُ تعالى في القرآنِ الكريمِ، وكَرَّرَها، وأعادَها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لأنَّ الأنباءَ والقِصَصَ إنما تُذْكَرُ لِلحِجاجِ على الكَفَرَةِ، فتُكَرَّرُ، وتُعادُ لِيُحتَجَّ بها عليهِمْ.

وأمّا الأحكامُ فإنما هي لأهلِ الإسلامِ خاصَّةً، فهم يَطْلُبونَ ما عليهِمْ مِنَ الأحكامِ، فلا تَقَعُ الحاجةُ إلى التكرارِ والإعادةِ.

ثم الكَفَرَةُ كانوا على أصنافٍ ثلاثةٍ: منها أهلُ العِنادِ والمُكابَرَةِ، وأهلُ شَكٍّ وحَيرَةٍ، وأهلُ اسْتِرْشادٍ. ومَنْ كانتْ هِمَّتُهُ الإسْتِرْشادَ يؤمِنُ بها بالبَداهَةِ وفي أوَّلِ ما وَقَعَ في مسامِعِهِ[8]، فلا تَقَعُ الحاجةُ إلى التكرارِ والإعادةِ.

وأمّا أهلُ العِنادِ والمُكابَرَةِ فإنها تُكَرَّرُ عليهِمْ لَعَلَّها تَنجَعُ فيهِمْ، فيؤمنونَ بها [وكذا أهلُ الشَّكِّ والحَيرَةِ][9].

وهذهِ الآياتُ كانَتْ آياتٍ وحُجَجاً لِلتَّوحيدِ والبعثِ والرسالةِ. وعلى ذلكَ جاءتِ الرسُلُ بالدعاءِ إلى التوحيدِ وإلى الإقرارِ بالبعثِ والإيمانِ بهِ وإلى الإيمانِ بالرسُلِ.

الآيتان ٣٦ و٣٧ فشُعَيبٌ عليه السلام/ ٤٠٦ ـ أ/ جَمَعَ هذهِ الخِصالَ الثلاثَ في قولِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ دعاهُمْ إلى التوحيدِ بقولِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾. وفيهِ نَهْيٌ عنْ عبادةِ مَنْ دونَهُ، ودعاهُمْ إلى الإيمانِ بالبَعْثِ بقولِهِ: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي خافوا عذابَ ذلكَ اليومِ. ونَهى عنْ جميعِ المَعاصي بقولِهِ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ أي أرسَلْنا إلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيباً.

ومَدْيَنُ: قالَ بعضُهُمْ: اسْمُ رجُلٍ نُسِبَ إليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: اسْمُ مَوضِعٍ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ أنَّ الرسُلَ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، قد خَوَّفوا الكَفَرَةَ بِعَذابٍ يَنزِلُ بهِمْ في الآخِرَةِ بِتَكذيبِهِمْ إيّاهُمْ وعِنادِهِمْ، فلم يَنْجَعْ ذلكَ فيهِمْ، فلم يَرْتَدِعوا عمّا هُمْ فيهِ حتى أوعَدوهُمْ بِنُزولِ ما قد شاهَدوا[10]، وعايَنوا، مِنْ آثارِ مَنْ قد أهلَكَهُمْ بِتَكذيبِهِمُ الرسُلَ ورَدِّهِمْ إجابَتَهُمْ، وهو ما قالَ ﴿وَعَادٗا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إحدى. (٤) في الأصل وم: بها. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: مسامعهم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: شاهدوه.

﴿وَثَمُودَا﴾ أي أهلَكْنا عاداً وثموداً ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ ما تَعْرِفونَ أنهمْ إنما أُهلِكوا بالذي أنْتُمْ عليهِ، وهو التكذيبُ والرَّدُّ، بأخبارٍ تُصدِّقونَها وبآثارٍ تُشاهِدونَها، وهو كما قالَ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ و: ١٣٨] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ كما زَيَّنَ لكُمْ، وصَدَّهُمْ عنِ السبيلِ كما صَدَّكُمْ ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: أي كانوا يَحْسَبونَ أنهمْ على هُدًى وحقٍّ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي كانوا عالِمينَ بأنَّ العذابَ يَنْزِلُ بهمْ بما شاهَدوا، وعايَنوا مِنْ آثارِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ، وعَلِموا[١] بأنهمْ إنما أُهلِكوا بالذي همْ عليهِ، لكنهمْ عانَدوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي هالِكِينَ في الضلالةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي كانوا بُصَراءَ عُلَماءَ في أنفسِهِمْ، يَعْرِفونَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، ليسُوا[٢] كَغَيرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ.

ألَا تَرَى أنهمْ قد طَلَبوا مِنْ رُسُلِهِمُ الحُجَّةَ والآيَةَ على ما يَدْعونَ إليهِ حينَ[٣] ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] وقالَ قومُ صالحٍ ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤] ونَحْوَهُ؟

وقالَ قَتادَةُ: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي مُعْجَبينَ بِضَلالَتِهِمْ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾ أي أهلَكْنا قارونَ وفِرْعَونَ وهامانَ بِتكذيبِهِمْ موسى، فتَهْلِكونَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ بتكذيبِكُمْ[٤] محمداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي كَذَّبوهُ بَعْدَما جاءَهُمْ موسى بالبيِّناتِ على نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ كما جاءَكُمْ محمدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جائزٌ أنْ يكونوا استَكبَروا، وأبَوا أنْ يَخْضَعوا لموسى، أوِ استَكبَروا في الأرضِ؛ أي سَعَوا في الأرضِ بالفسادِ تَكَبُّراً واستِكْباراً ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ أي فائتينَ عنْ عذابِ اللهِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي الحِجارَةَ، وهمْ قومُ لوطٍ، وقومُ هودٍ أُهلِكوا بالريحِ العاصِفِ حينَ[٥] قالَ: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ و٤٢].

قالَ أبو معاذٍ: الحاصِبُ عندَ العَرَبِ الريحُ التي فيها الزَّنانيرُ، وهي الصِّغارُ[٦] مِنَ الحَصَى.

[وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهمْ قومُ صالحٍ، وقومُ شُعَيبٍ[٨].

[وقولُهُ تعالى][٩]: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [وهمْ][١٠] قارونُ وأصحابُهُ.

[وقولُهُ تعالى][١١]: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ [وهمْ][١٢] قومُ نوحٍ [وقومُ][١٣] فِرْعَونَ.

يَذْكُرُ إهلاكَ هذهِ الأممِ والجبابرةِ لأهلِ مكةَ ولِغَيرِهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ، وقد تواتَرَتْ عليهِمْ بذلكَ الأخبارُ، وظَهَرَتِ الأعلامُ والآثارُ، لِيَرْتَدِعوا عمّا همْ عليهِ، ولئلا يُعامِلوا رسولَهُمْ كما عامَلَ أولئكَ رُسُلَهُمْ، فَيُعَذَّبوا[١٤] كما عُذِّبَ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ في تَعْذيبِهِ إيّاهُمْ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حينَ[١٥] كَذَّبوا الرُّسُلَ، وعانَدوا[١٦] آياتِ اللهِ وحُجَجَهُ وبراهينَهُ، وكابَروا[١٧]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وعلمهم. (٢) في الأصل وم: ليس. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: بتكذيبهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: صغار. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: وهؤلاء. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة ن الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فيعذبون. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: وكابروا. (١٧) في الأصل وم: وعاندوها.

قالَ أبو عوسَجَة: قولُهُ: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] أي اغتَمّ مِنْ ذلكَ؛ يُقالُ: سِئتَ بِفلانٍ، أساءَ سَوءاً، فأنا مَسوءٌ. وقولُهُ: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] أي لَزِقوا في الأرضِ. [وقولُهُ:][1] ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] أي قد عَلِموا، و المُسْتَبْصِرُ العالِمُ. وقولُهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي صيحَ بهِمْ، فماتوا[2].

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ ضَرْبُ مَثَلِ الذينَ اتَّخذوا مِنْ دونِ اللهِ أولياءَ ببيتِ العنكبوتِ: هُمُ الرُّؤساءُ منهُمْ والمَتْبوعونَ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: مَثَلُ اتِّخاذِكُمْ أولئكَ أولياءَ مِنْ دونِ اللهِ وما تأمُلونَ منهمْ كَمَثَلِ بيتِ العنكبوتِ، لا يَنْفَعُ، ولا يُغْني ما يُؤمَلُ مِنَ البيتِ مِنْ دَفْعِ الحَرِّ والبَرْدِ وغَيرِهِ.

فَعَلى ذلكَ اتِّخاذُكُمْ واتباعِكُمْ هؤلاءِ أولياءَ مِنْ دونِ اللهِ مِثْلُ ما ذَكَرَ، لا يَنْفَعُ، ولا يُغْني، ولا يَدْفَعُ عنكُمْ ما يَنْزِلُ بكم، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] ظاهِرُ ما ذُكِرَ مِنَ الأولياءِ أنْ يكونَ المتبوعونَ[3] منهمْ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الأصنامُ التي اتَّخذوها آلهةً ضَرْبَ مَثَلِ عبادَتِهِمُ الأصنامَ واتِّخاذِهِمْ إياها آلهةً ببيتِ العنكبوتِ؛ وذلكَ أنَّ العنكبوتَ اتَّخذَتِ البيتَ رَجاءَ أنْ تَنْتَفِعَ [بِهِ كما يُنْتَفَعُ][4] بالبيوتِ في دَفْعِ الحَرِّ والبَرْدِ والسِّتْرِ والحِجابِ. فلمّا أنْ وَقَعَتِ الحاجةُ إليهِ لم تَنْتَفِعْ بما كانَتْ تأمُلُ منه في شيءٍ ممّا كانَتْ تأمُلُ.

فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ الذينَ اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً ومَعْبوداتٍ[5] رجاءَ أنْ يَنْفَعَهُمْ ذلكَ. فلمّا وَقَعَتِ الحاجةُ لم يَجِدوا ما كانوا يأمُلونَ مِنْ عبادَتِهِمْ [واتِّخاذِهِمْ إياها][6] آلهةً.

بَلْ في بَيتِ العنكبوتِ لِلْعَنْكَبوتِ شيءٌ مِنَ المَنْفَعةِ، وليسَ لأولئكَ العَبَدَةِ بتلكَ الأصنامِ شيءٌ، ممّا كانوا يأمُلونَ؛ فهيَ دونَ بَيتِ العنكبوتِ في المَنْفَعةِ.

لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، ضَرَبَ مَثَلَها ببيتِ العنكبوتِ لِما لا شيءَ أوهَنُ وأضعَفُ عندَ الخَلْقِ مِنْ بيتِها. وهو ما شَبَّهَ أعمالَ الكَفَرةِ بِرَمادٍ ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨] وبِسرابٍ ﴿بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] لِما ليسَ شيءٌ أضيَعَ ولا أبْعَدَ في الوجودِ والقُدْرَةِ عليهِ في الوَهْمِ ممّا ذَكَرَ، فَشَبَّهَ أعمالَهُمْ بهِ.

فَعَلى ذلكَ تَشبيهُ اتِّخاذِ أولئكَ الأصنامَ آلهةً وأولياءَ مِنْ دونِ اللهِ ببيتِ العنكبوتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أي أضعَفَ وأبْعَدَ مِنَ المَنْفَعةِ بَيتُ العنكبوتِ.

فَعَلى ذلكَ عبادَتُهُمُ الأصنامَ واتِّخاذُهُمْ إياها مَعْبوداتٍ[7] وآلهةً أوهَنُ وأبْعَدُ ممّا يأمُلونَ ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يَعْلَمونَ ضَعْفَها وعَجْزَها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ يقولُ[8]: إنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ عالماً بما يكونُ منهم مِنِ اتِّخاذِهِمُ الأصنامَ مَعْبوداتٍ[9]، وإنهُ عنْ عِلْمٍ أنشأهُمْ[10] لا عَنْ غَفْلَةٍ وسَهْوٍ، لكنْ أنشأهُمْ لِمَنافِعِ أنفُسِهِمْ ولِحاجةٍ لهُمْ لا لِحاجةٍ ومَنْفَعةٍ لهُ في إنشائِهِ إياهُمْ[11]. وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ /٤٠٦ ـ ب/ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. [العنكبوت: ٦] وقالَ هنا: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العَزيزُ: قيلَ: إنهُ المَنيعُ، وقيلَ: إنهُ الذي يَذِلُّ كلُّ شيءٍ دونَهُ.

لكنَّ العَزيزَ عندَنا، هو الذي لا يَغْلُو سُلْطانَهُ شيءٌ، ولا يَقْهَرُ مُلْكَهُ شيءٌ، ويَعْلو سُلطانُهُ وإرادَتُهُ على جميعِ الأشياءِ، ويَقْهَرُها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم العبارة التالية: والعنكبوت هذه التي تغزل وهي دويبة كثيرة القوائم وعناكب جمع، والصواب إدراجها بعد: والبرد وغيره. (٣) في الأصل وم: المتبوعين. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: معبودا. (٦) في الأصل وم: إياها واتخاذهم. (٧) في الأصل وم: معبودا. (٨) في الأصل وم: والله أعلم. (٩) في الأصل وم: معبودا. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (١١) في الأصل وم: إياها.

والحَكيمُ عندنا، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التَّدْبيرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ فإنْ قيلَ: ذَكَرَ أنهُ لا يَعْقِلُها إلّا العالِمونَ، والعَقْلُ يَسْبِقُ العِلْمَ بالشيءِ، إذْ بالعَقْلِ يُعْلَمُ ما يُعْلَمُ، فكيفَ ذَكَرَ أنهُ لا يَعْقِلُ إلّا العالِمونَ، ولم يَقُلْ: وما يَعْلَمُها إلّا العاقلونَ؟ فهو، واللهُ أعلَمُ، لِوُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ الأمثالَ إنما تُضْرَبُ لِتقريبِ ما يَبْعُدُ عنِ الأوهامِ ولِكَشْفِ ما اسْتَتَرَ مِنَ الأشياءِ على الأفهامِ، وتُجَلّيها عمّا خَفِيَتْ. فلا يَعْقِلُ الأمثالَ أنها لِماذا ضُرِبَتْ إلّا العالِمُ.

والثاني: أنَّ العقولَ تَعْرِفُ أسبابَ الأشياءِ ودَلائِلَها. أمّا أنْ تَعْرِفَ حقائقَ الأشياءِ وأنْفُسَها فلا. مِنْ نَحْوِ المَسالِكِ والطُّرُقِ إلى البَلَدِ[1] تَعْرِفُ مَسالِكَها وطُرُقَها التي بها يوصَلُ إليها. فأمّا أعيانُها[2] فلا. وكذا المَراقي التي بها تَعْلو، وتَرْتَفِعُ. فأمّا عَينُ العُلُوِّ فلا.

وأمّا العِلْمُ فإنهُ يُوصِلُ إلى مَعْرِفَةِ حَقائِقِ الأشياءِ وأنْفُسِها وصُوَرِها. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

والثالثُ: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي وما يَنْتَفِعُ بما ذَكَرَ إلّا العالِمونَ، وهو كما قالَ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] نَفَى عنهُمْ هذهِ الحواسَّ، وإنْ كانَتْ لهمْ أنفُسُ تلكَ الحواسِّ، لِما لم يَسْتَعْمِلوها في ما جُعِلَتْ، وأُنْشِئَتْ، ولم يَنْتَفِعوا بها، فَنَفَى عنهمْ تلكَ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي ما يَنْتَفِعُ بما يَعْقِلُ إلّا العالِمُ. فأمّا مَنْ لم يَنْتَفِعْ فلا يَعْقِلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي لِعاقِبَةٍ، وهي البَعْثُ، لأنهُ لم يَخْلُقْهُما لأنفسِهِما. وكذلكَ لم يَخْلُقِ الدُّنيا [للدُّنيا][3] ولكنْ إنما خَلَقَها للآخِرَةِ؛ إذْ بالآخِرَةِ يَصيرُ خَلْقُها حكْمَةً وحقًّا، لأنهُ لو لم يكُنْ خَلْقُها لِعاقِبَةٍ كانَ خَلْقُها عَبَثاً باطلاً، وهو ما قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] لأنَّ كلَّ كافرٍ يظُنُّ أنهُ خَلَقَهُما باطلاً. ولكنْ لمّا تَرَكوا الإيمانَ بالبَعْثِ، وأنْكَروا البَعْثَ، فإنهمْ ظَنّوا أنهُ خَلَقَهُما باطلاً؛ إذ لولا البَعْثُ كانَ خَلْقُهما باطلاً عَبَثاً. فإنما صارَ خَلْقُهُما حَقًّا وحكمةً بالبَعْثِ. فإذا أنْكَروا ما بِهِ صلاحُ خَلْقِهِ إيّاهُما حِكْمَةً وحَقًّا فقد ظَنّوا الباطلَ بِخَلْقِهِما. فَنَسْأَلُ اللهَ التوفيقَ والصوابَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أنهُ خَلَقَهُما لِتَدُلّا إلى الحَقِّ لأنهما تدلّانِ على وَحدانِيَّةِ اللهِ ورُبوبيَّتِهِ وتَعالِيهِ عنِ الأشباهِ والشركاءِ وجميعِ الآفاتِ، أو أنْ يكونَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [الذي][4] للهِ عليهِمْ، أو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لبعضِهِمْ على بعضٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ صَيَّرَهُ آيةً لِمَنْ أقرَّ بها، وآمَنَ؛ إذْ هو المُنْتَفِعُ بها. فأمّا مَنْ أنْكَرَ، وجَحَدَ، وكَذَّبَها، فهو آيةٌ عليهِ لا لَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأقِمْ بهِ الصلاةَ أي بالكتابِ الذي أوحَى إليكَ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عليهِمْ، وأقِمْ بهمُ الصلاةَ. فالخِطابُ، وإنْ كانَ لِرسولِ اللهِ فهو لكلِّ أحدٍ على ما ذَكَرْنا في سائرِ المُخاطباتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ هذا يَخْرُجُ على وجهَينِ:

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: أعينها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

أحَدُهما: على الامْتِنانِ.

والثاني: على الإلْزامِ.

فأمّا وجهُ الامْتِنانِ فهو[1] أنْ جَعَلَ لكمُ الصلاةَ لِتَمْنَعَكُمْ[2] عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ما لو [لم][3] يَجْعَلْها لكمْ لا شيءَ يَمْنَعُكُمْ [عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ في مَنْ [مَنْ][4] عليهِمْ بِجَعْلِ الصلاةِ لهمْ لِما يَمْنَعُهُمْ][5] عمّا ذَكَرَ.

وأمّا وجهُ الإلزامِ فإنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الصلاةَ لو كانَ مَفهوماً[6] منها [النَّهيَ بالنُّطْقِ][7] لكانَتْ تَنْهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ على ما أضافَ التَّغْريرَ والتَّزيينَ إلى الحياةِ الدنيا، أي لو كانَ هذا الذي كانَ مِنَ الدنيا، كانَ مَنْ لَهُ التَّغْريرُ، كانَ ذلكَ تَغْريراً. فَعَلَى ذلكَ الصلاةُ لو كانَ منها حقيقةُ الأمْرِ والنَّهْيِ لَكانَتْ تَنْهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ.

والثاني: أُضيفَ النَّهْيُ إلى الصلاةِ لِما بها يُعْرَفُ ذلكَ؛ فقد تُضافُ الأشياءُ إلى الأسبابِ، وإنْ لم يكُنْ منها حقيقةُ ما أُضيفَ إليها، نَحْوَ ما يُضافُ الأمْرُ والنَّهْيُ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ؛ ونَحْوُهُ: يُقالُ: أمَرَنا الكتابُ بكذا، أوِ السُّنَّةُ بكذا، ونَهانا عنْ كذا، وإنْ لم يكُنْ منهما[8] أمْرٌ حَقيقةً، ولا نَهْيٌ، لِما بهما يُعْرَفُ الأمْرُ والنَّهْيُ، وهما سَبَبا ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ إضافةُ النَّهْيِ إلى الصلاةِ أنْ يكونَ على السبيلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ في العباداتِ مِنْ أنْفُسِ تلكَ العباداتِ؛ وَوَجْهُ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنَّ العِباداتِ إنما تكونُ بِجَوارِحَ، تُغْلَبُ، وتُقْهَرُ، وتُسْتَعْمَلُ، فلا تُعْرَفُ تلكَ أنها للهِ إلّا بِتَأويلٍ.

أمّا ذِكْرُ اللهِ إنما يكونُ باللسانِ والقَلْبِ، وهما لا يُغْلَبانِ، ولا يُقْهَرانِ، فهو يُعْرَفُ أنَّ ذلكَ للهِ حَقيقةً، فهو أكْبَرُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ مِنْ سائرِ الأذكارِ التي ليسَتْ للهِ. فهذا ليسَ فيهِ كبيرُ حكمةٍ لأنَّ ذلكَ يَعْرِفُهُ كلُّ أحدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ في النَّهْيِ عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ مِنَ الصلاةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ﴾ إيّاكُمْ أكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إيّاهُ لأنَّ ذِكْرَهُ إيّاكُمْ رَحْمَةٌ ومَغْفِرَةٌ، وذلكَ مِمّا لا يَعْدِلُهُ، ولا يُوازيهِ شيءٌ. وأمّا العبدُ فإنهُ يَذْكُرُ رَبَّهُ بأدْنَى [شيءٍ][9].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ما وَفَّقَ اللهُ العبدَ مِنْ ذِكْرِهِ إيّاهُ وطاعتِهِ لهُ أكْبَرُ مِنْ نَفْسِ ذلكَ الذِّكْرِ ونَفْسِ تلكَ العبادةِ.

وذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحفصةَ ﵃ أنَّ الصلاةَ تأمُرُ بالمَعْروفِ، وتَنْهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ.

وعنِ الحَسَنِ يُحَدِّثُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ لم تَنْهَهُ صلاتُهُ عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ لم يَزْدَدْ بها مِنَ اللهِ إلّا بُعْداً ولم يَزْدَدْ بها عندَ اللهِ إلا مَقْتاً» [الطبراني في الكبير ١١٠٢٥].

وعنْ سَلْمانَ الفارِسِيِّ [أنهُ][10] قالَ: ذِكْرُ اللهِ إيّاكُمْ أكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إيّاهُ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ، ﵄ [أنهُ][11] قالَ: لهذا وجهانِ:

أحَدُهما: يقولُ: ذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ مِمّا سِواهُ مِنْ أعمالِ البِرِّ. والآخَرُ يقولُ: ذِكْرُ اللهِ إيّاكُمْ أكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إيّاهُ [الطبري في تفسيرِهِ: ٢٠/١٥٨].

والضَّحّاكُ يقولُ: العبدُ يَذْكُرُ اللهَ عندما أحَلَّ لهُ، وحَرَّمَ عليهِ، فيأخُذُ بِما أحَلَّ، ويَجْتَنِبُ ما حَرَّمَ عليهِ.

وقتادةُ يقولُ: لا شيءَ أكْبَرُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فتمنعكم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: موهوماً. (٧) في الأصل وم: النطق و النهي. (٨) في الأصل وم: منها. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ التي تقدَّمَ ذِكْرُها.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما: ما][1] قالَ بعضُهُمْ: تَنْهى، وتَمْنَعُ، مادامَ [المُصَلّي فيها][2] لا يَعْمَلُ بالفَحْشاءِ والمُنْكَرِ.

والثاني: أنَّ الصلاةَ تأمُرُ بالمعروفِ، وتَنْهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ، أي لو كانَ لها النُّطْقُ والأمْرُ والنَّهْيُ لَكانَتْ تَنْهى عمّا ذُكِرَ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ/ ٤٠٧ ـ أ/ مَا تَصْنَعُونَ﴾ وَعيدٌ ليكونوا أبدا على حَذَرٍ ويَقَظَةٍ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الآيةُ تَخْرُجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولا تُجادِلوهُمْ لا بالتي هي أحْسَنُ ولا بغَيرِها[3]، وهُمُ الذينَ لا يَقْبَلونَ الحُجَّةَ، ولا يُؤْمِنونَ إذا لَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ، وهُمْ أهلُ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ. والأوَّلونَ يَقْبَلونَ الحُجَّةَ، ويُؤمِنونَ بها.

والثاني: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فقولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ ليسَ على الثُّنيا مِنَ الأوَّلِ، ولكنْ على الاِبْتِداءِ؛ كأنهُ قالَ: إلّا الذينَ ظلَموا منهمْ قولوا آمَنّا بالذي أُنْزِلَ إلَينا إلى آخِرِ ما ذُكِرَ، أي قولوا لهمْ هذا، ولا تُجادِلوهُمْ؛ فإنكُمْ وإنْ جادَلْتُمْ إيّاهُمْ فلا يُؤْمِنونَ، وهو كقولِهِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠] قولُهُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ ليس على الثُّنيا مِنَ الأوَّلِ، ولكنْ على ابتِداءِ نَهْيٍ، أي لا تَخْشَوهُمْ واخْشَوني، فعلى ذلكَ يَحْتَمِلُ الأولُ مِثْلَهُ.

والثالثُ: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى آخرِ ما ذُكِرَ، هي المُجادلةُ الحَسَنَةُ التي أُمِروا بها لأنَّ ذلكَ ممّا يَقْبَلُهُ العَقْلُ والطَّبْعُ، وبها جاءَتِ الكُتُبُ والرسُلُ، فلا سَبيلَ إلى ردِّ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [أي جادِلوا] الذينَ يُصَدِّقونَ منهمْ، ولا يَكْتُمونَ بَعْثَ محمدٍ وما في كُتُبِهِمْ مِنَ الحَقِّ. فأمّا الذينَ تَعْلَمونَ أنهمْ يَكْتُمونَ، ولا يُصَدِّقونَ، فلا تُجادِلوهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣ والأنبياء: ٧] والأوَّلُ كقولِهِ تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤]. والمُجادَلَةُ الحَسَنَةُ هي التي جاءَ بها الكتابُ، ويُوجِبُها العَقْلُ. ثم فيهِ دلالةُ جوازِ المُناظَرَةِ والمُجادلةِ مع الكَفَرَةِ في الدينِ. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ليسَ كما يقولُ بعضُ الناسِ: أي لا تَجوزُ المُناظَرَةُ معهمْ، وذلكَ لِجَهْلِهِمْ بِحُجَجِ الإسلامِ وبراهينِهِ ما يُنْهَونَ عنِ المُجادَلَةِ والمُناظَرَةِ معهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: مَنْ لا عَهْدَ مَعَهُمْ فجادِلْهُمْ بالسيوفِ، ومَنْ كانَ مَعَهُ عَهْدٌ وكتابٌ فجادِلْهُ[4] بالحُجَجِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو مَنسوخٌ بقولِهِ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: مَنْ أدّى إليكُمُ الجزْيَةَ فلا تُغْلِظوا لهُ القولَ، وقولوا لهُ[5] قولاً حَسَناً، ومَنْ لم يُؤَدِّ فأغْلِظوا [لهُ، وجادِلُوهُ بالسيفِ][6] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي كما أخبَرْناكَ في الكتابِ فَقُلْ لهمْ [ما ذَكَرْنا][7] أو جادِلْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فَيَتْلونَهُ حقَّ تِلاوَتِهِ، فهمْ يُؤْمِنونَ بهِ على ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخْرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيهما. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل وم: فجادلهم. (٥) في الأصل وم: لهم.
(٦) في الأصل وم: لهم وجادلهم بالسيف، في م: لهم وجادلهم بالسيوف. (٧) ساقطة من الأصل وم.

يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١] فتكونُ هذهِ الآيةُ تفسيراً للأولَى. وأمّا مَنْ لم يَتْلُهُ[1] حَقَّ تِلاوَتِهِ [فلا يؤمِنُ][2] بهِ.

والثاني: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وانتفعوا بهِ، أي [يُؤمِنُ بهِ][3] الذينَ أُوتوا منافعَ الكتابِ.

[وقولُهُ تعالى:][4]: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي مِن أهلِ مكةَ ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وقد آمَنَ كثيرٌ منهم.

وجائزٌ أنْ يكونَ إشارةً إلى قومٍ كانوا بحضرتِهِ، فقالَ: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قالَ[6] قتادةُ: لا يكونُ الجُحودُ إلّا بعْدَ مَعْرِفَةٍ؛ إنَّ اليهودَ والنَّصارَى عَرَفوهُ كما عَرَفوا أبناءَهُمْ، لكنهُمْ جَحَدوهُ، وكلُّ مَنْ أنكرَ شيئاً فقد جَحَدَهُ، عَرَفَهُ أو لم يَعْرِفْهُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي ما كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ أي مِنْ قَبْلِ هذا الكتابِ مِنْ كتابٍ، ولو كُنْتَ تَتْلو ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فيقولونَ: إنَّ ما أَنْبَأْتَهُمْ مِنَ الأنباءِ المُتَقدِّمَةِ أو كلامِ الحِكْمَةِ إنما [تَلَقَّفْتَهُ، وأخذْتَهُ][7] مِنْ تلكَ الكُتُبِ المُتقدِّمَةِ أو كُتُبِ الحكماءِ، ولو كُنْتَ تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ يقولونَ: إنَّ ذلكَ مِنْ تأليفِكَ وَوَضْعِكَ لأنَّ القرآنَ حُجّةٌ عليهِمْ مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ما ذُكِرَ فيهِ مِنَ الأنباءِ المُتقدِّمَةِ المُتَرْجَمَةِ بِغَيْرِ لسانِ المُتقدِّمِ ما عَمِلوا بأجمَعِهِمْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَعْرِفُها بِمُتَرْجَمٍ، ولا شَهِدَها هو، ثم أنْبَأَهُمْ على ما كانتْ[8]، فَعَلِموا أنهُ باللهِ عَرَفَها.

والثاني: هو آيةٌ مُعْجِزَةٌ نَظْماً وَوَصْفاً، ما يَعْلَمونَ أنهُ ليسَ مِنْ نَظْمِ البَشَرِ ولا وَصْفِهِ، فيقولُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ فيهِ تلكَ الأنباءُ والحِكْمَةُ ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فيقولونَ: مِنْ تأليفِكَ أو مِنْ نَظْمِكَ. فلو كُنْتَ كذلكَ ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ بما ذَكَرْنا على عِنادٍ منهمْ ومُكابَرَةٍ، ولا يَرْتابُ المُحِقُّونَ[9]. وإنْ كانَ كما ذَكَرْنا لَما عَرَفوا صِدْقَهُ بأشياءَ وبآياتٍ كانتْ فيهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ يقولُ: قَبْلَ القرآنِ ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي لا تَكْتُبُهُ بِيَدِكَ، ولو كُنْتَ تَقْرَأُ كتاباً مِنْ قَبْلِهِ، أو كُنْتَ تَكْتُبُ بِيَدِكَ ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يقولُ: لاتَّهَموكَ.

هذا قد ذَكَرْناهُ[10]. ولكنْ نقولُ في قولِهِ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

يقولُ: بل هو اليَقينُ أنكَ لا تَقْرَأُ، ولا تَكْتُبُ، عندَ الذينَ أُوتوا العِلْمَ، وهُمْ مؤمِنو أهلِ الكتابِ مِنْ نَحْوِ عبدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ وأصحابِهِ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يَحتمِلُ القرآنَ؛ إذْ فيهِ آياتُ وَحْدانيّةِ اللهِ وحُجَجُهُ، وآياتُ البَعْثِ وحُجَجُهُ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مِنْ أوّلِ ما نَشَأَ إلى آخِرِ أمْرِهِ آيةً لِما ذُكِرَ مِنَ النورِ في وجهِ أبيهِ مادامَ في صُلْبِهِ، ثم في وجهِ أمِّهِ إذْ وَقَعَ في رَحِمِها، ثم مِنْ ضياءِ الليلةِ التي وُلِدَ فيها، ثم مِنْ ظِلِّ السَّحابِ الذي أظَلَّهُ وقتَ ما خَرَجَ مِنْ وَطَنِهِ. وأمثالُ ذلكَ كثيرٌ، ما لا يُقْدَرُ أحصاؤُهُ، واللهُ أعلَمُ.

فذلكَ كلُّهُ يَدُلُّ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ، لا يَرْتابُ فيهِ إلّا المُبْطِلُ المُعانِدُ المُكابِرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي أُوتوا مَنافِعَ العِلْمِ، أي هو آياتٌ بَيِّناتٌ في صدورِ الذينَ أُوتوا مَنافِعَ العِلْمِ. فأمّا مَنْ لم يُؤْتَ مَنافِعَ العِلْمِ فلا.

---

(١) في الأصل وم: يتلوا. (٢) في الأصل وم: ولا يؤمنون. (٣) في الأصل وم: يؤمنون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: تلقفت وأخذت. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) من م، في الأصل: المحققون. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي أُوتوا مَنافِعَ العِلْمِ، أي هو آياتٌ بيِّناتٌ في صُدورِ الذينَ أُوتوا مَنافِعَ العِلْمِ. فأمّا مَنْ لم يُؤْتَ مَنافِعَ العِلْمِ فلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ [الظالمونَ ظالمي][(١)] الآياتِ لِما لم يَضَعوها في مَوْضِعِها. ويَحْتَمِلُ الظالمونَ الكافرينَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفي بَعْضِ القراءاتِ: آيَةٌ[(٢)] مِنْ ربِّهِ على الوُحْدانِ؛ فكأنهمْ سَألوهُ آياتٍ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ و٨] وكقولِهِمْ: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩١] ونَحْوَها مِنَ الآياتِ التي سَألوها، فَمَرَّةً سَألوهُ آياتٍ ومَرَّةً سَألوهُ آيةً.

فقولُ[(٣)] مَنْ قالَ: اخْتِيارُ قراءةِ آياتٍ على قراءةِ آيةٍ مُحالٌ؛ إذْ أُثْبِتَتْ أنها[(٤)] قراءةٌ، فأخبرَ ﷺ على ما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾/ ٤٠٧ ـ ب/ أي مِنْ عندِهِ تَجيءُ الآياتُ، فكأنهمْ إنما سألوهُ آياتٍ قاهِرَةً تَقْهَرُهُمْ، وتَضْطَرُّهُمْ على القَبولِ والإقبالِ إليهِ، لا[(٥)] آياتٍ يكونُ فيها[(٦)] وجهُ الاختِيارِ، لكنْ سُؤالَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ، لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ. فقالَ: إنَّ اللهَ قد عَفَا عَنْ هذهِ الأمّةِ عَنْ إنزالِ ما بهِ هلاكُهُمْ على إثْرِ سُؤالِ العِنادِ والمُكابَرَةِ، وإنْ كانَ في غَيرِها مِنَ الأُمَمِ السالِفَةِ يَنْزِلُ عليهِمُ الهلاكُ والعَذابُ على إثْرِ سؤالِ العِنادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ اللهَ أمَرَني بذلكَ، وأرْسَلَني إليكُمْ.

والثاني: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ليسَ عليَّ إلّا الإنذارُ لكُمْ، أُبَيِّنُ النِّذارَةَ. فأمّا غيرُ ذلكَ فليسَ عليَّ كقولِهِ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٥٢] ونَحْوَهُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا يَدُلُّ أنهمْ إنما سألوهُ سُؤالَ عِنادٍ واسْتِهْزاءٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ حينَ[(٧)] قالَ: إنَّ في ما أُنْزِلَ عليهِمْ مِنَ الكتابِ كِفايةً لِمَنْ كانَتْ هِمَّتُهُ الاِسْتِرْشادَ والإنصافَ. وأمّا مَنْ كانَتْ هِمَّتُهُ العِنادَ والمُكابَرَةَ فلا.

[وقولُهُ تعالى:][(٨)] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي [إنَّ][(٩)] في ما أُنْزِلَ مِنَ الكتابِ عليكَ لَرَحْمَةً أي رُشْداً وذِكْرَى [أي][(١٠)] عِظَةً لِقومٍ يؤمنونَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ هذا يُقالُ لِوَجهَينِ:

أحَدُهما: عندَ الإياسِ مِنْ قَبولِ الحُجَجِ والآياتِ؛ يقولُ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي حاكماً بيني وبينَكُمْ؛ أإنّا على الحَقِّ أمْ إنّنا على الضلالِ: نَحْنُ أو أنتمْ؟

والثاني: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ عالماً في تَبْليغِ ما أُمِرْتُ تَبْليغَهُ إليكُمْ وإتيانِ ما أتَيتُكُمْ بهِ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ كانَ اسْتِعْجالُهُمْ وسُؤالُهُمُ الآياتِ على عِلْمٍ منهمْ أنهُ لا يَنْزِلُ، ولا يَأتيهِمْ، يَخْرُجُ مَخْرَجَ الاِسْتِهْزاءِ بالرسلِ والتَّمْويهِ والتَّلْبيسِ على الأتباعِ والضُّعفاءِ لأنهمْ يَعْلَمونَ أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ، ولا يُهْلِكُ هذهِ الأمّةَ إهلاكَ اسْتِئْصالٍ وانْتِقامٍ كما أهْلَكَ الأُمَمَ المُتَقَدِّمَةَ بالعِنادِ والاِسْتِهْزاءِ بالرُّسُلِ، إذْ قد أمْهَلَهُمْ إلى وقتٍ.

---

(١) في الأصل وم: الظالم ظالم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٥٢. (٣) من م، في الأصل: فقوله. (٤) في الأصل وم: إنه. (٥) في الأصل وم: إلا. (٦) في الأصل وم: في ذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

فإنْ عَلِموا ذلكَ مِنَ الإمهالِ والتّأخيرِ سألوا الرسولَ العذابَ الذي أوعَدَهُمْ والآياتِ القاهِرَةَ، وَوَعَدُوا الإيمانَ لو جاءَهُمْ، وأقسَموا على ذلكَ بِقولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٠٩] تَمْويهاً وتَلْبيساً على أتباعِهِمْ وضُعَفائِهِمْ، يُرُونَهُمْ أنهمْ على حقٍّ في الأيمانِ فيما يَدْعوهُمُ الرسولُ، وأنهُ لو أتى بآيَةٍ وحُجَّةٍ يؤمِنونَ بِهِ، ويَتَّبِعونَهُ، وهُمْ في ما يَسْألونَ مِنَ الآياتِ والعذابِ عالمونَ أنهمْ مُعانِدونَ كَذَبَةٌ مُتَرَدِّدونَ مُلْبِسونَ مُمَوِّهونَ على الأتباعِ والسَّفَلَةِ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ الآية. فإنْ قالَ لنا مُلْحِدٌ: إنهُ حينَ[1] أخّرَ عنهُمُ العذابَ، وامْهَلَهُمْ، عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَسْتَعْجِلونَ، أو لم يَعْلَمْ ذلكَ.

فإنْ قُلْتَ: على غَيرِ عِلْمٍ منهمْ فقد أثْبَتَّ الجَهْلَ لهُ، وإنْ قُلْتَ: على عِلْمٍ منهُ ذلكَ فكيفَ أمْهَلَ ذلكَ، وقد عَلِمَ ما يكونُ منهمْ؟

قيلَ: إمْهالُهُ العَذابَ عنهمْ، وضَرْبُ الأجَلِ رَحْمَةٌ منهُ لهمْ وفَضْلٌ؛ كأنهُ قالَ: ولولا رَحْمَتُهُ التي جَعَلَ لهمْ على نفسِهِ لَجاءَهُمُ العذابُ كما جاءَ الأمَمَ الخاليةَ عندَ سؤالِهِمُ الرسُلَ العذابَ والآياتِ بالعِنادِ والاِسْتِهْزاءِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] [حينَ لم يَسْتَأْصِلْهُمْ كما اسْتَأْصَلَ أولئكَ][2].

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ أي عذابَ جَهَنَّمَ مُحيطٌ يومَئِذٍ بالكافِرينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أنَّ أعمالَ أهلِ جهنَّمَ وأسبابَها التي تُوجِبُ لهمْ جهنَّمَ مُحيطةٌ بهمْ كقولِهِ: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] الأعمالِ والأسبابِ التي تُوجِبُ لهُمُ النارَ، وإلّا لا أحَدَ يَصْبِرُ على النارِ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أسبابَ جهنمَ وأعمالَهُمُ التي تُوجِبُ لهمْ جَهَنَّمَ والنارَ مُحيطةٌ بهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ظاهِرٌ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ في الآيةِ بِشارةٌ ونِذارةٌ.

أمّا البِشارةُ فقولُهُ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ وَعَدَ لهمُ السَّعَةَ في المكانِ المُنْتَقَلِ إليهِ والمُتَحَوَّلِ كما كانَ لهمْ في مُقامِهِمْ.

والنِّذارةُ والتَّحذيرُ، هي قولُهُ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فلا تُقيموا في أرضِكُمْ.

ثم الأمْرُ بالخروجِ والهِجْرَةِ عنْ أرضِهِمْ إلى أُخرَى يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: لِما لا يَقْدِرونَ على إظهارِ دينِ اللهِ خَوفاً على أنفسِهِمْ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ، فَأُمِروا بالخُروجِ والهِجْرَةِ عنها إلى أرضٍ، يَقْدِرونَ على إظهارِهِ والقيامِ بِهِ.

والثاني: أنْ كانوا يَقْدِرونَ على إظهارِ دينِهِمْ. لكنهمْ لا يَقْدِرونَ القِيامَ على تَغْييرِ المَناكيرِ عليهِمْ. والأمْرُ بالخروجِ منها إلى أرضٍ ليسَ بها مَناكيرُ، وإنْ كانَتْ بها، فَيَقْدِرونَ على تَغْييرِها والأمرِ بالمعروفِ فيها.

في مِثْلِ هذا جائزٌ أنْ يُؤْمَرَ الناسُ بالتَّحَوُّلِ مِنْ أرضٍ إلى أُخرَى، إذا لم يَقْدِروا على تَغْييرِ المُنْكَرِ ودَفْعِهِ، وليسوا كالرُّسُلِ لأنَّ سائرَ الناسِ إذا كَثُرَ سَماعُهُمُ المُنْكَرَ يَخِفُّ[3] ذلكَ على قلوبِهِمْ، وتَميلُ إليهِ القلوبُ، وتَسْكُنُ، وتَطْمَئِنُّ، فَيُؤْمَرونَ بالخروجِ عنها والتَّحَوُّلِ إلى أُخرَى لئلا تَميلَ، وتَسْكُنَ إليهِ قلوبُهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل: حيث لم يستأصل إليك، في م: حيث لم يستأصلهم كما استأصل إليك. (٣) من م، في الأصل: يخفف.

وأمّا الرسلُ، وإنْ كثُر سَماعُهُمُ المُنْكَرَ فإنَّ قلوبَهُمْ لا تَميلُ، ولا تلينُ، ولا تَسْكُنُ إليهِ أبداً. بل تَزْدادُ لهُ شِدَّةً وصَلابةً في ذلكَ وبُعْداً عن قلوبِهِمْ. لِذلكَ اخْتَلَفَ أمْرُ الرسُلِ وغَيرِهِمْ[1] لا يُؤمَرونَ بالخروجِ، ولا يُؤْذَنُ لهمْ لِما هُمْ إنّما بُعِثوا إلى أهلِ الكُفْرِ والمُنْكَرِ لِيَدْعُوهُمْ إلى دينِ اللهِ، لا يُحْتَمَلُ أنْ يُؤْذَنَ لهمْ بالخروجِ والهجرةِ إلى أُخرَى، وهُمْ إليهِمْ بُعِثوا لِيَدْعُوهُمْ إلى دينِ اللهِ.

فقولُهُ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هو ما ذَكَرْنا: أُمِروا بالهجرةِ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ، ولا يَمْنَعَهُمْ عنْ ذلكَ خَوفُ ضيقِ العيشِ في غَيرِها[2] لِما يُعْزَلونَ عنْ أموالِهِمْ وحِرَفِهِمْ وأهلِ قرابَتِهِمْ ومَعونَتِهِمْ لِما وَعَدَ لَهُمْ، جَلَّ وعَلَا، التَّوسِيعَ عليهِمْ، لو خَرَجوا، أو هَرَبوا إشفاقاً على دينِهِمْ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ الحَسَنِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ فَرَّ بدينِهِ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ أُخرَى، وإنْ كانَتْ شِبْراً، أُوجِبَتْ لهُ الجنةُ، ويُبْعَثُ معَ أبيهِ إبراهيمَ ونَبِيِّهِ محمدٍ» [القرطبي في تفسيره: ٥/ ٢٩٧] أو نَحْوَهُ منَ الكلامِ.

وعلى مِثْلِ ذلكَ جاءَتِ الآثارُ مِنَ السَّلَفِ في تأويلِ الآيةِ: «إذا دُعِيتُمْ إلى المَعاصي فاذْهَبوا[3] في الأرض فإنَّ أرضَ اللهِ واسعةٌ» [بنحوه الطبري في تفسيره: ٢١/ ٩].

وقالَ بعضُهُمْ: إذا عُمِلَ بالمَعاصي في أرضٍ فاهْرُبوا إلى أُخرَى فإنَّ أرضَ اللهِ واسعةٌ. وهو ما ذَكَرْنا: أُمِروا بالهجرةِ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ، وَوَعَدَ لهمُ السَّعَةَ والحَسَنَةَ في الدنيا، وفي الآخِرةِ أعْظَمَ منها، وهو ما قالَ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا / ٤٠٨ ـ أ/ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وقالَ في هذهِ الآيةِ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي إنَّ أرضي واسعةٌ، فإنْ مُنِعْتُمْ عنْ عبادتي في الأرضِ فاخْرُجوا منها إلى أُخرَى فاعْبُدوني، ولا تَعْبُدوا غَيري ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فلا عُذْرَ لكمْ بالمُقامِ في أرضٍ تُمْنَعونَ عنْ عبادتي وإظهارِ ديني ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨] عندَ رَبِّهِمْ بما فيهِمْ مِنَ الضعفِ لِتَرْكِ الخروجِ والمُقامِ بَينَ أَظْهُرِهِمْ وكتمانِ الإيمانِ والعِبادةِ سِرًّا، وإنْ لم يَقْدِروا على إظهارِهِ. فأمّا مَنْ كانَتْ لهُ حِيلَةُ الخُروجِ فلم يَعْذُرْهُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، على إثْرِ ما ذَكَرَ لئلا يَمْنَعَهُمْ عنِ الخروجِ والهجرةِ خَوفُ ضيقِ العيشِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كلُّ نفسٍ تَذوقُ الموتَ إذا اسْتَوفَتْ رِزْقَها، لا مَحالَةَ، ولا تَذوقُ قبلَ اسْتِيفائها رِزْقَها. فلا يَمْنَعْكُمْ خوفُ ضيقِ العَيشِ، فإنها تذوقُ ذلكَ، لا مَحالَةَ، خَرَجَتْ أم[4] لم تَخْرُجْ، إذا اسْتَوفَتْ رِزْقَها. وهو ما قالَ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي لو كانَ المَكْتوبُ عليهِ القَتْلَ لَبَرَزَ، لا مَحالَةَ، حتى يُقْتَلَ. فَعَلَى ذلكَ المَكْتوبُ عليهِ المَوتُ يَذوقُ، لا محالةَ، لو أقامَ، واللهُ أعلَمُ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي لَنُهَيِّئَنَّ لهمْ ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ يُقالُ: بَوَّأَها، أنْزَلَها، وهَيَّأَها، وَلَنُثْوِيَنَّهُمْ[5] مِنَ الثَّواءِ، وهو الإقامةُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: هو مِنْ ثَوَيتُ إذا أقمْتُ بهِ، وبالباءِ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي لَنُنْزِلَنَّهُمْ.

وقالَ أبو معاذٍ: بَوَّأَها: هَيَّأَها، والمَثْوَى المَنْزِلُ، والثاوي المُضيفُ.

[وقولُهُ تعالى][6] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي ثوابُهُمْ وجزاؤُهُمْ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي خَرَجوا، وصَبَروا على

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: أو أن يكون. (٢) في الأصل وم: غيره. (٣) في م: فاهربوا. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) هذه قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٥٥. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الهجرةِ، وعلى ربِّهِمْ تَوَكَّلوا في الخروجِ والرِّزْقِ. أو﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الطاعاتِ وأداءِ الفرائضِ، أو أنْ يكونَ الصبرُ كِنايةً وعبارةً عنِ الإيمانِ، أي الذينَ آمنوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بهِ يثِقونَ[1]، و يُفَوِّضونَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] أي لكلِّ مؤمنٍ.

ومحمدُ بْنُ إسحاقَ يقولُ: أُنزِلَتِ الآيةُ بمكةَ في ضُعفاءِ مُسْلِمي مكةَ، يقولُ: إنْ كُنْتُمْ في ضيقٍ بمكةَ مِنْ إظهارِ الإيمانِ بها، فإنَّ أرضَ المدينةِ واسِعَةٌ ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ بها عَلانيَةً.

ثم خَوَّفَ بالمَوتِ لِيُهاجِروا، فقالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ في الآخِرَةِ.

ثم نَعَتَهُمْ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الهجرةِ، وباللهِ يثِقونَ في هِجْرَتِهِمْ. وذلكَ أنَّ أحدَهُمْ كانَ[2] يقولُ بمكةَ: كيف أهاجِرُ إلى المدينةِ، وليسَ لي بها مالٌ، ولا معيشةٌ؟ فوَعَظَهُمْ بما ذَكَرَ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يَجعَلُ الآيةَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ إنهمْ أُمِروا بالهجرةِ مِنْ بَلْدَتِهِمْ والخُروجِ مِنْ مُقامِهِمْ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ، فاشْتَدَّ ذلكَ عليهِمْ، وضاقَ بذلكَ ذَرْعُهُمْ لِضيقِ العيشِ هنالكَ لِما لم يَتَهَيَّأْ لهمْ، ولا يَتَأَتّى لهمْ حَمْلُ أموالِهِمْ والمَكاسِبُ التي يَتَعَيَّشونَ في بلدِهِمْ، ويَكْسَبونَ بها.

فأخبَرَ أنَّ لهُ خلائِقَ رَزَقَهُمْ حيثما تَوَجَّهُوا وحيثما كانوا، لا يَحمِلونَ معهمْ شيئاً مِنَ الرِّزْقِ بل يَرْزُقُهُمْ حيثما كانوا. فَعَلى ذلكَ هو يَرْزُقُكُمْ حيثما كنتُمْ، حَمَلْتُمْ مع أنفسِكُمْ شيئاً مِنَ الأموالِ والمَكاسِبِ أم[3] لم تَحمِلوا. فلا تَضيقَنَّ صدورُكُمْ بِتَرْكِكُمُ الأموالَ والمكاسِبَ في بَلَدِكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على الصلةِ بما تَقَدَّمَ، ولكنْ على ابْتِداءِ تَذْكيرٍ وتَنْبيهٍ للبَشَرِ لئلا يُعَلِّقوا قلوبَهُمْ بأسبابِ الرزقِ [لأنَّ للبشر فَضْلَ تَعَلُّقِ القلوبِ بأسبابِ المَعاشِ والرزقِ، والرزقَ ليسَ يَتَعَلَّقُ بأسبابٍ، بل يَرْزُقُ اللهُ بِسببٍ][4] وبِغَيرِ سببٍ؛ إذْ قد يَرْزُقُ، ويَبْسُطُ مَنْ ليسَ لهُ مِنَ الأسبابِ شيءٌ نَحْوَ ما ذَكَرَ مِنْ رزقِ الطيرِ والدوابِّ وغيرِ ذلكَ مِنَ البشرِ الذينَ يُرْزَقونَ بِلا أسبابٍ ومَكاسِبَ.

ولذلكَ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، على إثْرِ ذلكَ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] يَبْسُطُ لِمَنْ يَشاءُ، وإنْ لم يكُنْ لهُ سببٌ، ويَقْدِرُ على مَنْ يَشاءُ، وإنْ كانَ معهُ سَبَبٌ لئلا يُعَلِّقوا قلوبَهُمْ في الرزقِ بالأسبابِ والمَكاسِبِ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: إنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ أنْ يَبْسُطَ الرزقَ لمنْ يَشاءُ لأنهمْ لا يَجعلونَ للهِ في الأسبابِ والمَكاسِبِ صُنْعاً، وإنما يَجْعلونَ منهُ خَلْقَ أصولِ الأشياءِ مِنَ الإنْباتِ والإخراجِ مِنَ الأرضِ. فأمّا غيرُ ذلكَ فهو كلُّهُ لِلْخَلْقِ على قولِهِمْ. فذلكَ النباتُ الخارجُ منها لِلْكُلِّ، ليسَ بعضُهُمْ بذلكَ أولَى مِنْ بعضٍ، فتذهبُ فائدةُ ما ذَكَرَ مِنَ البَسْطِ والتوسيعِ والتَّقْتيرِ على قولِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ على إثْرِ ما ذَكَرَ يُخَرَّجُ على [وجهَينِ:

أحَدُهُما][5]: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ المُجيبُ لكلِّ ما يَدعونَ، ويَسْألونَ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِحوائِجِهِمْ حيثُ كانوا.

[والثاني][6]: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لِقولِهِمْ: إننا لا نَجِدُ ما نُنْفِقُ، ونَتَعَيَّشُ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما أضمَروا، ونَحْوَهُ.

الآيات ٦١ و٦٢ و٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾][7] إنهمْ أعلَموا جميعا بألسِنَتِهِمْ أنَّ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما سَخَّرَ لهمْ مِنَ الشمسِ والقمرِ

---

(١) في الأصل وم: ويثقون. (٢) في الأصل وم: كما. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: وجوه أحدها. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وما نَزَّلَ مِنَ السماءِ مِنَ الماءِ وما أحْيَى بِهِ الأرضَ، هو اللهُ، لا غَيرُهُ. فَيُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ على إثْرِ ما أعْلَموا بألْسِنَتِهِمْ، ونَطَقوا بِهِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: [﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾][1] عمّا أعْلَموا بألْسِنَتِهِمْ، ونَطَقوا بِهِ إلى صَرْفِ الشكرِ والعِبادةِ إلى الأصنامِ التي يَعْلمونَ أنها لم تَخْلُقْ شيئاً ممّا أعْلَموا بألْسِنَتِهِمْ.

والثاني: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي في تَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ آلهةً على عِلْمٍ منهمْ أنها ليسَتْ بآلهةٍ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إثْرِ ما ذَكَرَ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أمْرُهُ أنْ يَحْمَدَ ربَّهُ في ما لم يُبْلَ بما بُلِيَ أولئكَ مِنَ التَّكْذيبِ والعِنادِ والكُفرِ بربِّهِمْ.

والثاني: أمْرُهُ أنْ يَحْمَدَ ربَّهُ لِما في ذلكَ إظهارُ سَفَهِهِمْ حينَ[2] أعْلَموا باللِّسانِ أنَّ ذلكَ كلَّهُ مِنَ اللهِ، وأنهُ خالقُ ذلكَ كلِّهِ. ثم صَرَفوا ذلكَ إلى غَيرِهِ.

والثالثُ: [ما قالَ][3] بعضُهُمْ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارِهِمْ بذلكَ أنهُ خَلْقُ اللهِ وأنَّ ذلكَ كلَّهُ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [وجهانِ:

أحدُهما][4]: أي لا يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ؛ نَفَى عنهمُ العقولَ لِما لم يَنْتَفِعوا بها كما نَفَى عنهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ لِما لم يَنْتَفِعوا بتلكَ الحواسِّ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثاني: لم يَعْقِلوا لِما تَرَكوا النَّظَرَ والتَّفَكُّرَ في الأسبابِ [التي][5] بها تُعْقَلُ الأشياءُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ كقولِهِ[6]: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠] ولو[7] كانَ الأمْرُ على ظاهِرِ ما نَطَقَ بِهِ الكتابُ دونَ مَعانٍ، تُودَعُ فيهِ، وحِكْمَةٍ، تُجْعَلُ فيهِ على ما يَحْمِلُهُ بَعْضُ الناسِ لَكانَ لأهلِ/٤٠٨ ـ ب/ الإلحادِ في ذلكَ مَطْعَنٌ، لأنهُ يقولُ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ وهو خَلَقَها، فيقولونَ: لِمَ خَلَقَها لَهْواً ولَعِباً؟ وهو خَلَقَها، ولهمْ دَعْوَى التَّناقُضِ فيهِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وقالَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

فلو جُمِعَ بَينَ هذا وبَينَ الأوَّلِ، وهو في الظاهِرِ مُتَناقِضٌ؛ إذْ يَذْكُرُ في بعضِها أنهُ لم يَخْلُقْهما وما بَينَهما باطلاً لَعِباً، ويَذْكُرُ في بعضِها أنَّ الحياةَ الدنيا لَهْوٌ ولَعِبٌ، وهو خَلَقَها.

لكنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ على ما تُقَدِّرونَ أنتمْ وعلى ما عندكُمْ ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾. فأمّا ما عندَ أهلِ التَّوحيدِ وما في تقديرِهِمْ فهي حِكْمَةٌ وحَقٌّ. ثم هو ما ذَكَرَ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ عندَهُمْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهمْ رَأوا أنهُ خَلَقَ الإنسانَ، وجَعَلَ بَدْأهُ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم حَوَّلَها إلى عَلَقَةٍ، ثم إلى مُضْغَةٍ، ثم إلى الإنسانِ الذي صَوَّرَ إلى آخِرِ ما حَوَّلَهُ. فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَخْلُقَهُ، ويُحَوِّلَهُ مِنْ حالٍ إلى الأحوالِ التي ذَكَرَ، ثم يُفْنِيَهِ، بلا عاقِبَةٍ، تُجْعَلُ لهُ[9]، ولا مَنْفَعَةٍ، فيكونُ كما ذَكَرَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢] صَيَّرَ نَقْضَها الغَزْلَ مِنْ بَعْدِ إحكامِها إياهُ بلا انْتِفاعٍ بِهِ لَهْواً ولَعِباً.

فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ الحياةِ الدنيا وخَلْقُ ما فيها مِنَ العالَمِ بَعْدَ إحكامِهِ وتَحْويلِهِ حالاً بَعْدَ حالٍ أو تَحْويلاً بَعْدَ تحويلٍ وإحكاماً بَعْدَ إحكامٍ لِلْفَناءِ خاصةً ما يُقَدِّرُ أولئكَ الكَفَرَةُ بِلا عاقِبَةٍ تُجْعَلُ لهمْ، أو مَنْفَعَةٍ لَهْوٌ ولَعِبٌ وسَفَهٌ وباطلٌ على ما ظَنَّ أولئكَ وقَدَّروهُ.

فأمّا ما في تَقْديرِ أهلِ التوحيدِ وأهلِ الإيمانِ مِنَ العاقبةِ لهمْ فهو حِكْمَةٌ وحَقٌّ.

---

(١) في الأصل وم: أنى يصرفون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لهم.

والثاني: مَعْنَى اللَّهْوِ واللَّعِبِ الذي ذَكَرَ على ما عندَهُمْ، هو أنَّ الجمعَ والتَّسْوِيَةَ بَينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ وبَينَ العاصي والمُطيعِ وبَينَ المُخالِفِ والمُوافِقِ سَفَهٌ باطلٌ. وقد سَوّى بَينَهُمْ في هذهِ الدنيا، وأشْرَكَهُمْ جميعاً في نَعيمِها وسَعَتِها وشِدَّتِها وخَيرِها وشَرِّها؛ يَتَمَتَّعُ الوليُّ فيها كما يَتَمَتَّعُ العَدُوُّ، ويُبْتَلَى فيها المُطيعُ كما يُبْتَلَى العاصي.

فلو لو تَكُنْ دارٌ أُخْرَى، فيها يُفَرِّقُ بينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ وبَينَ المُطيعِ والعاصي لَكانَ خَلْقُهُ إياهُمْ في الحياةِ الدنيا سَفَهاً وباطلاً، إذْ سَوَّى بَينَهُمْ، وأشْرَكَهُمْ جميعاً في هذهِ.

[ويُحْتَمَلُ][(١)] أنْ تكونَ الحياةُ الدنيا على ما اتَّخذوها همْ، وعَمِلوا فيها، لَهْواً ولَعِباً، وأنْ[(٢)] تُقابَلَ الحياةُ الدنيا بحياةِ الآخِرَةِ [خُلِقَتِ الحياةُ الدنيا][(٣)] فانِيَةً مُنْقَطِعَةً، وخُلِقَتْ حياةُ الآخِرَةِ باقيةً دائمةً.

فهو كما قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] أي مَتاعُ الدنيا قليلٌ عندَ مَتاعِ الآخِرَةِ، لأنَّ متاعَ الدنيا فانٍ مُنْقَطِعٌ ومَتاعُ الآخِرَةِ دائمٌ باقٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي هي دارُ الحياةِ، لا مَوتَ فيها، ولا انْقِطاعَ، ولا فَناءَ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الدارَ الآخِرَةَ، هي الدارُ التي لا مَوتَ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنَّ على اللهِ الأصْلَحَ لهمْ في الدينِ، لأنهُ أخبَرَ أنهمْ أخلَصوا الدينَ للهِ إذا رَكِبوا في الفُلْكِ، ولاشَكَّ أنَّ[(٤)] ذلكَ أصْلحُ في الدينِ، ثم لم يُبْقِهِمْ على تلكَ الحالِ ليكونوا على ذلكَ الإخلاصِ. بل أخْرَجَهُمْ منها، فَعادوا إلى ما كانوا. فَدَلَّ ذلكَ أنْ ليسَ عليهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لهمْ في الدينِ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قولُهُ: ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ أي أنْجاهُمْ لِيكونوا على ما عَلِمَ منهمْ أنهمْ يكونونَ. وقد عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُمُ الكُفرَ، فأنْجاهُمْ إلى البَرِّ ليكونَ منهمْ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ، ويَختارونَ.

وكانَ إخلاصُهُمُ الدعاءَ في الفُلْكِ، لم يَكُنْ إخلاصَ اخْتيارٍ، ولكنْ إخلاصَ دفْعِ البَلاءِ عنْ أنفُسِهِمْ؛ إذْ لو كانَ ذلكَ إخلاصَ اخْتيارٍ لا دَفْعَ البَلاء لكانوا لا يَتْرُكونَ ذلكَ في الأحوالِ كلِّها.

فهذهِ الآيةُ، وإنْ كانَتْ في أهْلِ الكُفْرِ ففي ذلكَ أيضاً توبيخٌ لأهلِ الإسلامِ لأنهمْ لا يَقومونَ بالشُّكْرِ للهِ وإخلاصِ العِبادةِ لهُ في حالِ السَّعَةِ والنِّعْمَةِ كما يكونونَ في حالِ الضِّيقِ، فَيُنَبِّهُهُمْ ليكونوا في الأحوالِ كلِّها مُخْلِصينَ العَمَلَ للهِ شاكرينَ لهُ لئلا يكونَ عَمَلُهُمْ على حَرْفٍ وجِهَةٍ كَعَمَلِ أهلِ النِّفاقِ وكَعَمَلِ أولئكَ الكَفَرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ قيلَ: يُكَذِّبونَ، وقيلَ: يَعْدِلونَ، وقيلَ: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُؤفَنونَ، ويُحَمَّقونَ، والمَأفونُ الأحمقُ، والأَفْنُ الحُمْقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي سوفَ يَعْلَمونَ صدقي في قولي: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] كما عادوا إلى ما كانوا عليهِ إذا نَجّاهُمْ مِنَ الأهوالِ التي ابْتُلوا بها، أي سوفَ يَعْلَمونَ ما أوعَدَهُمُ الرسلُ.

وفي قولِهِمْ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ وَجْهٌ آخَرُ، وهو أنْ يُقالَ: ما هذهِ المَحاسِنُ والأعمالُ [التي][(٥)] تَعْمَلونَ، وتَعُدُّونَ مَحاسِنَ وصلاحاً في هذه الدنيا إلّا لهوٌ ولَعِبٌ لِما لا تَبْقَى، ولا يَنْتَفِعونَ بها إلّا ما ابْتُغِيَ بها وجهُ اللهِ والدارُ الآخِرَةُ. وهو ما قالَ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي هي الباقيةُ الدائمةُ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ موضعٍ أنَّ الاِسْتِفْهامَ مِنَ اللهِ يَخْرُجُ مُخْرَجَ

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو أن. (٣) في الأصل وم: لهو ولعب لأنها خلقت. (٤) أدرج بعدها في الأصل: في. (٥) ساقطة من الأصل وم.

الإلزام والإيجابِ، أو يُخرَجُ مُخرجُ الخَبَرِ لا على حقيقةِ الاستِفْهامِ لأنهُ عالمٌ بذاتِهِ، يَعْلَمُ ما في باطِنِهِمْ وظاهِرِهِمْ وما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ بما كانَ، ويكونُ. لا يَستَفْهِمُ عبادَهُ، ولكنهُ يُخرِّجُ على الخَبَرِ أو على الإلزامِ والإيجابِ.

فالخَبَرُ كأنهُ[1] يقولُ: قد رَأوا، وعَلِموا أنّ اللهَ جَعَلَ الحَرَمَ مَأمَناً لهمْ، يأمَنونَ فيهِ، وكانَ الناسُ مِنْ حولِهِمْ يُتَخطَّفونَ، ويَخافونَ.

والإلزامُ والإيجابُ أنْ يقولَ لهمْ: اعْلَموا أنّ اللهَ جَعَلَ الحَرَمَ لكمْ مَأمَناً، تأمَنونَ فيه [وكانَ][2] الناسُ مِنْ حولِكُمْ على خَوفٍ يُسْلَبونَ، ويُسْبَونَ، ويُقتَلونَ.

ثم يُخرِّجُ تذكيرُهُ إياهُمْ هذا على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنّ اللهَ قد جَعَلَ لكمُ الحَرَمَ مَأمَناً تأمَنونَ فيهِ لِتَعْظيمِكُمْ حَرَمَ اللهِ وبَيتَهُ، والناسُ مِنْ حولِكُمْ على خَوفٍ، وأنتمْ تُشارِكونَ مَنْ حَولَكُمْ في الدينِ، فكيفَ تَخافونَ الاختِطافَ والاستِلابَ إذا دِنْتُمْ بدينِهِ، واتّبَعْتُمْ رسولَهُ؟ فإذْ أمَّنَكُمْ بِكونِكُمْ في حَرَمِ اللهِ وتعْظيمِكُمْ بَيتَهُ، ودَفَعَ عنكُمُ الاستِلابَ والاختِطافَ[3]، فكيفَ تَخافونَ ذلكَ إذا دِنْتُمْ بدينِهِ، واتّبَعْتُمْ أمْرَهُ؟ بلِ الأمْنُ والسَّعَةُ إذا دِنْتُمْ بدينِهِ، فاتّبَعْتُمْ أمْرَهُ، أكثَرُ، وأحَقُّ. فكأنهمْ إنما تَركوا اتّباعَ دينِهِ خَوفاً مِنَ الاختِطافِ[4] بقولِهِمْ[5]: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ فقالَ لهمْ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

[والثاني][6]: يَذكُرُ هذا لهمْ: أنهُ قد أمَّنَكُمْ وصَرَفَ عنكُمْ مع عبادَتِكُمُ الأصنامَ وصَرْفِكُمُ الشُّكرَ إليها عنهُ كلَّ مَكروهٍ وسوءٍ بكونِكُمْ[7] في مُجاوَرَةِ بيتِهِ وحَرَمِهِ. فإذا صَرَفْتُمُ العِبادةَ إليهِ، وشَكَرْتُمْ نِعمَهُ [حَقَّ أنْ يُؤمِّنَكُمْ، ويُوسِّعَ عليكُمْ نِعَمَهُ][8] ويَدْفَعَ عنكُمْ ما لم يَدْفَعْ عَمَّنْ حولَكُمْ، وأنتُمْ شُرَكاؤُهُمْ في عبادةِ الأصنامِ واتّخاذِكُمْ[9] إياها آلهةً. على [هذا][10] يُخرَّجُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾/ ٤٠٩ ـ أ/ أي بما أوحَى إليكُمْ إبليسُ مِنَ الباطلِ يؤمنونَ، وهو ما أوحَى إليهِمْ أنّ هؤلاءِ شُفَعاؤُكُمْ[11] عندَ اللهِ، وعبادَتُكُمْ إياهُمْ[12] تُقرِّبُكُمْ إلى اللهِ زُلفَى[13] كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي بما أوحَى إليكُمْ محمدٌ مِنَ اللهِ يَكْفُرونَ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالشِّرْكِ يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي بتَوحيدِ اللهِ يكْفُرونَ، أو أنْ تكونَ النعمةُ ههنا، هي القرآنُ، أو ما ذَكَرْنا، وهو محمدٌ ﷺ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قد ذَكَرْنا أنّ حَرْفَ الاستِفْهامِ مِنَ اللهِ يُخرَّجُ على وجهَينِ: على الخَبَرِ مَرّةً، وعلى الإيجابِ تارةً.

والإلزامُ [مَعْناهُ][14]: اعْلَموا أنْ ليسَ أحدٌ مِنَ المُفترينَ أظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرى على اللهِ كَذِباً بالخَبَرِ، أي قد عَلِمْتُمْ أنْ ليسَ أحدٌ مِنَ المُفترينَ أظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرى على اللهِ، إذْ قد عَرَفْتُمْ بعقولِكُمْ قُبْحَ الافتِراءِ والكَذِبِ في ما بَينَكُمْ؛ فلا كَذِبَ ولا افْتِراءَ أوحَشُ وأقْبَحُ مِنَ الافتِراءِ على اللهِ. فكيفَ افْتَرَيْتُمْ عليهِ، وهو أوحَشُ وأقبَحُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ كَذَّبَ برسولِ اللهِ أو بالقرآنِ الذي عَجَزوا عن إتيانِ مِثْلِهِ أو بالتوحيدِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي ظَهَرَ صِدْقُهُ ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ كأنهُ يقولُ: اعلَمْ أنّ[15] جهنّمَ مَثْوًى للكافِرينَ، يُذَكِّرُهُ على التَّصْبيرِ على أذاهُمْ والتَّسلّي لهُ بما كانَ يَضيقُ صَدْرُهُ لِمكانِ تركِهِمُ الإيمانَ والإياسِ منهمْ.

---

(١) من م، في الأصل: إنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: والاختلاب. (٤) من م، في الأصل: والاختلاب. (٥) في الأصل وم: لقولهم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، في الأصل: بكونهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: واتخاذهم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) وهو ما قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (١٢) في الأصل وم: إياها. (١٣) وهو ما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. (١٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، في الأصل: أي.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ يُشبهُ أنْ يكونَ هذا صلةَ قولِهِ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ [الآية: ٦٤] أي ليسَ مَنْ أجْهَدَ نَفْسَهُ في طَلَبِ الدنيا والعَمَلِ لها إلّا [لاهياً ولاعباً][(١)] وأمّا مَنْ أجْهَدَ نفسَهُ للهِ، وطَلَبَ مَرْضاتَهُ، فهو حَقٌّ، ولهُ دارُ الحياةِ التي لا مَوتَ فيها ولا انْقِطاعَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على الِابْتِداءِ لا على الصِّلَةِ بالأوَّلِ. يقولُ: والذينَ جاهَدوا أنفسَهُمْ في هَواها وشَهَواتِها وأمانِيِّها حقيقةَ ابْتِغاءِ مَرْضاةِ اللهِ وطَلَبِ الهدايةِ والدينِ وسَبيلِهِ ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

ذَكَرَ السبيلَ ههنا لِما سَبَقَ ذِكْرُ الجماعةِ؛ يقولُ: والذينَ جاهَدوا في اللهِ ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي لَنَهْدِيَنَّ كُلّاً سَبيلاً، فيكونُ سَبيلاً لِلْكُلِّ.

وأمّا قولُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فإنَّ[(٢)] السُّبُلَ على الإطلاقِ على [غيرِ][(٣)] تَقَدُّمِ ذِكْرٍ مِنَ الهُدَى أو شيءٍ مِنَ الإضافَةِ إلى اللهِ، فهي سبيلُ الشيطانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في التوفيقِ لهمْ في الإحسانِ والأعمالِ الصالحةِ، أو مَعَ المُحْسِنينَ في النَّصْرِ لهمْ والمَعونَةِ لهمْ على[(٤)] أعدائِهِمْ، أو مَعَ المُحْسِنينَ يَحْفَظُهُمْ، ويَتَوَلّاهُمْ.

ثم لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنَ الخَلْقِ مِنْ قولِهِ: ﴿لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وقولِهِ[(٥)]: ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ وذوي الأجسامِ والجُثَّاتِ. كيفَ فَهِمَ بعضُ الناسِ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...] [وقولِهِ][(٦)]: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقولِهِ[(٧)]: ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي﴾ [البقرة: ٢١٠] كذا ما يُفْهَمُ مِنَ اسْتِواءِ الخَلْقِ ومجيئِهِمْ وإتيانِهِمْ؟ فَلْيُعْلَمْ[(٨)] أنَّ فَهْمَ ذلكَ ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ بعيدٌ مُحالٌ، وباللهِ العصمةُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لهو ولعب. (٢) في الأصل وم: إن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: على. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم.

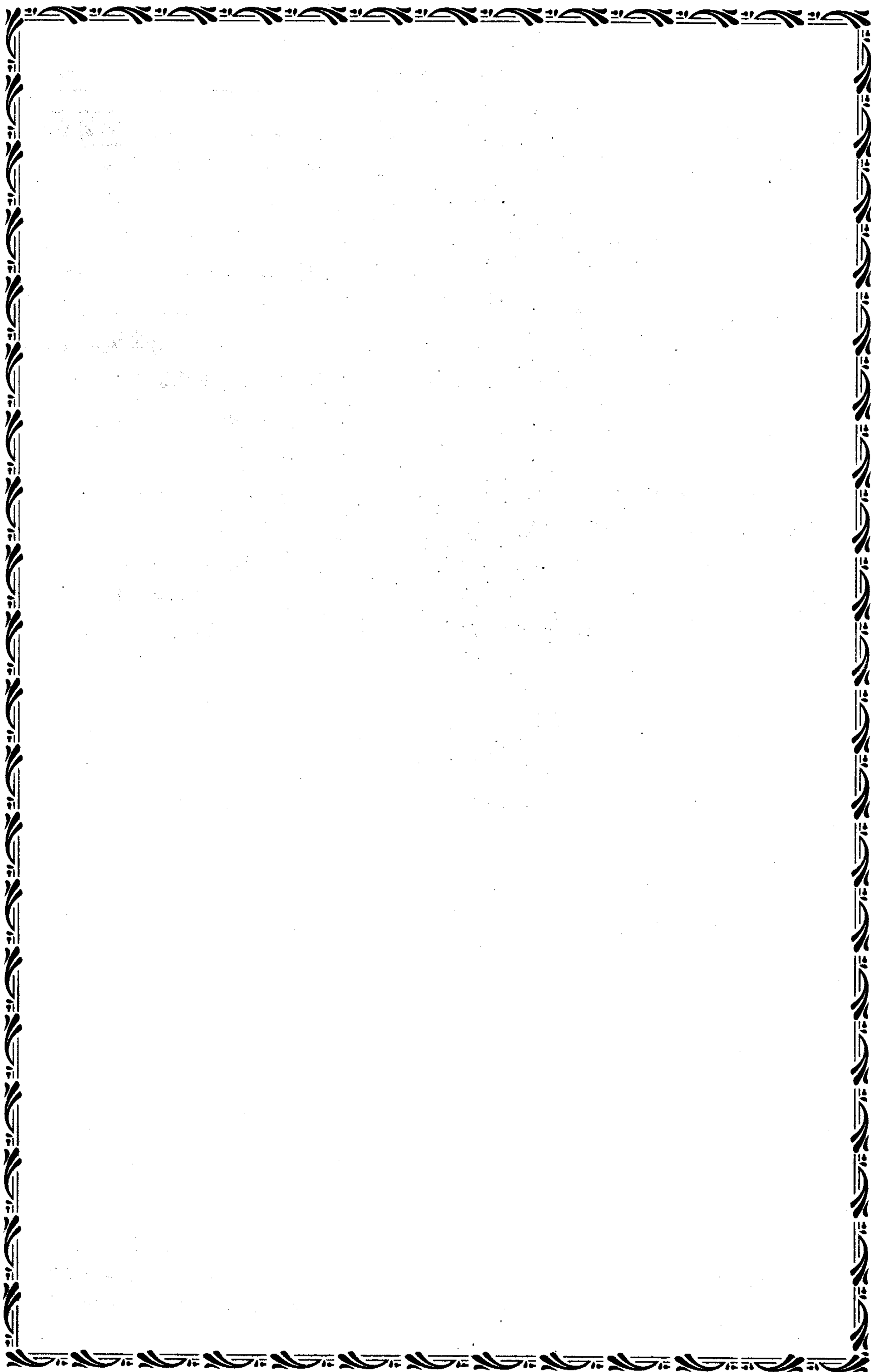

سورة الروم

كلُّها[1] مكيَّةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات (١ و٢ و٣) قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ وفي بَعْضِ القراءاتِ: غَلَبَتِ الرومُ بِفَتْحِ الغَينِ[2] على المُستَقبَلِ.

يَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنهُ إنما يَذْكُرُ هذا لأنَّ المشركينَ كانوا يُجادلونَ المُسْلِمينَ، وهُمْ بمكةَ؛ يقولونَ: إنَّ الرومَ أهلُ الكتابِ، وقد غَلَبَتْهُمُ المَجوسُ، وأنتمْ تَزْعُمونَ أنكُمْ سَتَغْلِبونَ بالكتابِ الذي أُنْزِلَ على نَبِيِّكُمْ، فَسَتَغْلِبُكمْ كما غَلَبَتْ فارسُ الرومَ.

فأنزَلَ اللهُ هذهِ الآياتِ[3]: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةِ. لكنْ يَذْكُرُ في آخِرِهِ ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ فلا يُحتَمَلُ فَرَحُ المؤمنينَ بِغَلَبَةِ الرومِ على فارسَ، ويُسَمَّى ذلكَ نَصراً للهِ، وهمْ كُفارٌ، وغَلَبَتُهُمْ عليهمْ معصيةٌ. اللهمَّ إلّا أنْ يكونَ فَرَحُهُمْ بما يُظْهِرُ الإيمانَ بِكُتُبِ اللهِ وتَصْديقِها والعَمَلِ بها، وهمْ كانوا أهلَ كُتُبٍ، ورسولُ اللهِ ﷺ كانَ بُعِثَ مُصَدِّقاً بكُتُبِ اللهِ وبرُسُلِهِ أجمعينَ[4] فَفَرِحوا بذلكَ.

فإنْ كانَ كذلكَ فجائزٌ الفرحُ بذلكَ وتَسْمِيَتُهُ نَصرَ اللهِ. وأمّا على الوجهِ الذي يقولونَ هم فلا. وعندَهُمْ أنَّ في ذلكَ آيةً عظيمةً في إثباتِ رسالةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ ونُبُوَّتِهِ وصِدْقِهِ ما لم يَجِدِ الكُفارُ فيهِ مَطْعَناً [وما يُمَكِّنُهُمْ نِسْبَتَهُ][5] إلى الكذبِ والافْتِراءِ على ما قالوا، وطَعَنوا في سائرِ الآياتِ والأنباءِ كقولِهِمْ[6] ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل: ١٠٣] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ المَطاعِنِ التي طَعَنوا في القرآنِ والأنباءِ المُتَقَدِّمَةِ حينَ[7] قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥و. .] ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ [سبأ: ٤٣].

فَمِثْلُها لم يَجِدوا في ما أخْبَرَ مِنْ غَلَبَةِ الرومِ على فارسَ لأنهُ أخْبَرَ عن غَلَبَةٍ ستكونُ، وسَتَحْدُثُ، لا عن غَلَبَةٍ قد كانتْ. ومثلُ هذا لا يُدْرِكُهُ البَشَرُ، ولا يُسْتَفادُ منهُ[8] إذْ لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ البَشَرِ، ولا يُدْرَكُ بالقياسِ السابقِ مِنَ الأُمورِ.

فإذا كانَ على ما أخْبَرَ دلَّ أنهُ باللهِ أعْلِمَ ذلكَ، وبِوَحْيٍ منهُ إليهِ، فَعَرَفَ ذلكَ.

وهُمْ: جائزٌ أنْ يَسْتَدِلُّوا بما كانَ مِنْ قَبْلُ مِنْ غَلَبَةِ فارسَ على الرومِ أنْ يقولوا: تَغْلِبُ فارسُ على الرومِ بما شاهَدوهُ مَرَّةً أو بِوجوهٍ[9] أُخَرَ، يَسْتَدِلّونَ بذلكَ: مِنْ نَحْوِ أنْ يَقولوا: إنهمْ أهلُ كتابٍ وعبادةٍ، يكونونَ مَشاغِيلَ بالنظرِ فيها والعَمَلِ بِبَعْضِ ما فيها، لا يَتَفَرَّغونَ لِلْقتالِ والحربِ، أو أنْ يقولوا: إنهمْ نَصارى؛ أعني أهلَ الرومِ، وليسَ في سُنَّتِهِمْ ومَذْهَبِهِمُ القِتالُ والحَرْبُ، فَيَسْتَدِلّونَ بِمِثْلِ هذهِ الوجوهِ على أنْ لا غَلَبَةَ تكونُ لهمْ، ولا ظَفَرَ.

وأمّا أهلُ الإسلامِ، فليسَ لهمْ شيءٌ مِنَ تلكَ الوجوهِ، ولا بِغَيرِها وَجْهُ الاسْتِدْلالِ بِغَلَبَةِ أولئكَ. فما قالوا ذلكَ إلّا وَحْياً مِنَ اللهِ وإعلاماً منهُ إيّاهُ. فكانَ في ذلكَ أعظمُ آيةٍ في صِدْقِ رسولِهِ وأكْبَرُها.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن سورة الروم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٦٣. (٣) في الأصل وم: الآية. (٤) في الأصل وم: اجمع. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا النسبة. (٦) في الأصل وم: وقولهم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: منهم. (٩) من م، في الأصل: بوجوب.

فيكونُ فَرَحُ المؤمنينَ وذِكْرُ نَصرِ اللهِ بإظهارِ تلكَ الآيةِ في تصديقِ رسولِهِ إذ نَصَرَ رسولَهُ حيثُ أظهَرَ صِدْقَهُ ورسالتَهُ.

وقولُهُ ﴿غُلِبَتِ﴾، على الماضي لِما كانَ مِنْ غَلَبَةِ فارسَ على الرومِ. وغَلَبَتْ بالفتحِ على المُستَقبَلِ، أي تَغلِبُ الرومُ على فارسَ، وهو كقولِهِ: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] على الأمرِ في المُستَقبَلِ، و: رَبُّنا[1] باعَدَ بَينَ أسفارِنا على الخَبَرِ. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ قِيلَ: أقرَبُ إلى أرضِ فارسَ. وقالَ بعضُهُم: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدنى أرضِ/ ٤٠٩ ـ ب/ الشامِ. وقيلَ: الأرضُ التي تَلي فارسَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ[2]: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ وفي قولِهِ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤و٥] وجوهٌ على المُعتَزِلةِ:

أحدُها: يُقالُ لهمْ: وَعَدَ أنْ يَغلِبَ الرومُ على فارسَ، وقد أرادَ أنْ يَخرُجَ ما وَعَدَ حقًّا، صِدقاً أمْ لا؟

فإنْ قالوا: لا فقد أعظَموا القولَ، وأفحَشوا حينَ[3] زَعَموا أنهُ أرادَ ألّا يَفِيَ بما وَعَدَ أنهُ يكونُ.

وإنْ قالوا: نعمْ قيلَ: دَلَّ أنهُ أرادَ ما فَعَلوا، وإنْ كانَ الفِعلُ منهمْ فِعلَ مَعصِيةٍ وخِلافٍ، إذْ مُحارَبَةُ كلِّ فريقٍ أصحابَهُمْ مَعصِيةٌ، إذلم يُؤمَروا بذلكَ، وإنما أُمِروا بالإسلامِ. فَدَلَّ أنَّ اللهَ مُريدٌ لِما يَعلَمُ أنهُ يكونُ منهمْ، وإنْ كانَ ما يكونُ منهمْ مَعصِيةً.

والثاني: ما أخبَرَ بِفَرَحِ المؤمنينَ بِغَلَبَةِ هؤلاءِ على أولئكَ على أيِّ جِهَةٍ كانَ فَرَحُهُمْ لإثباتِ آيةٍ عظيمةٍ على رسالةِ نَبيِّهِمْ ونُبُوَّتِهِ على ما ذَكَرْنا، أو لأنهمْ كانوا أهلَ كُتُبِ اللهِ ودارسَتِها أحبّوا غَلَبَتَهُمْ عليهِمْ، وفَرِحوا بذلكَ، ولا يُحتَمَلُ أن يَفرَحوا بذلكَ، ولم يأمُرْهُمْ بذلكَ، ولا أرادَ منهمْ ذلكَ.

دلَّ أنهمْ إنما فَرِحوا بذلكَ لمّا أرادَ ذلكَ.

والثالثُ: في قولِهِ: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ دلالةُ أنَّ للهِ في فِعلِ العبادِ صُنعاً وتدبيراً حينَ[4] ذَكَرَ فِعلَ بعضِهِمْ على بَعْضٍ، ثم سَمَّى نصرَ اللهِ. دلَّ أنَّ لهُ بذلكَ تدبيراً.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ قيلَ: البِضعُ سَبْعٌ، وقيلَ: ما دونَ العَشرِ فهو بِضعٌ. وكذلكَ ذُكِرَ في الخَبَرِ أنَّ أبا بكرٍ ﷺ لمّا خاطَرَ المُشركينَ، وبايَعَهُمْ في ذلكَ خَطَرَ[5] في سِنينَ ذَكَرَها، فَمَضَتْ تلكَ المدةُ، ولم تَغلِبِ الرومُ على فارسَ.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأبي بكرٍ «أما عَلِمْتَ أنَّ ما دونَ العَشرِ بِضعٌ كُلُّهُ، فَزِدْ في الأجَلِ، وزِدْ في الخَطَرِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٢١/١٨] فَفَعَلَ ذلكَ. فلم تَمضِ تلكَ السُّنونَ حتى ظَهَرَتِ الرومُ على فارسَ.

وفي بَعْضِ الحديثِ[أنهُ][6] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ألَمْ تكونوا أحِقّاءَ أنْ تُؤجِلوا أجَلاً دونَ العَشرِ، فإنَّ البِضعَ ما بَينَ الثلاثِ إلى العَشرِ، فزايِدوهُمْ [في القمارِ][7] وما دُّوهُمْ في الأجلِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢١/١٩] فَفَعَلوا حتى ظَهَرَتِ الرومُ على فارسَ.

ثم المسألةُ في المُخاطَرَةِ التي كانَتْ بينَ أبي بكرٍ وبينَ أولئكَ الكَفَرَةِ [تُخَرَّجُ على وَجهينِ:

أحَدُهما][8]: أنَّ مكةَ كانَتْ يومئذٍ دارَ حَرْبٍ. دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

وذلكَ كانَ قبلَ الهجرةِ. لَمّا أُمِرَ بالهجرةِ أيضاً إلى المدينةِ، ونَحْوُهُ كثيرٌ. وذلكَ كانَ كُلُّهُ قبلَ غَلَبَةِ الرومِ على فارسَ.

فإذا كانَتْ مكةُ يومئذٍ دارَ حَرْبٍ جازتِ المُخاطَرَةُ بالعُقودِ في دارِ الحربِ في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ أهلِ الحربِ، وإنْ كانَ مِثلُها في دارِ الإسلامِ غَيرَ جائزٍ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٥٥. (٢) في الأصل وم: قولهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: يخطر. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أحدها.

وهذا يدلّ لأبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في إجازَتِهِ عَقْدَ الرِّبا في دارِ الحربِ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أهلِ الإسلامِ، وإنْ كانَ مِثْلُهُ في دارِ الإسلامِ غَيرَ جائزٍ.

والثاني: جازَ ذلكَ يومئذٍ، وإنْ كانَتْ فيهِ جَهالةُ أسنانِ الإبلِ. والجهالَةُ في العُقودِ إنما تُبْطِلُ العُقودَ لِخَوفِ وقوعِ التّنازُعِ بينهمْ في أمثالِهِمْ، لا يُتَوَهَّمُ وقوعُهُ إنْ كانوا أهلَ شَرَفٍ وكَرَمٍ وأهلَ جُودٍ لا يُنازِعوا في أمثالِها.

فإذا كانَ التنازُعُ في مِثْلِها مُرْتَفِعاً مِنْ بينِهِمْ جازَ ذلكَ أنْ يكونَ التنازعُ بينَهُمْ في الدينِ. فأمّا في الأموالِ فَقَلَّما يَقَعُ لِما ذَكَرْنا.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: كانَ جائزاً ذلكَ في الجاهليةِ. فأمّا اليومَ فقد جاءَ النَّهْيُ عنِ القِمارِ فَنَسَخَهُ. وإنما عُرِفَ النَّهْيُ عنِ المَيْسِرِ، والمَيْسِرُ هو القِمارُ فيكونُ النَّهْيُ عنْ الشيءِ نَهْياً عمّا هو في معناهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ قَبْلِ غَلَبَةِ فارسَ على الرومِ ﴿وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ بَعْدِ غَلَبَةِ فارسَ على الرومِ. ويقالُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ حينَ ظَهَرَتِ الفارسُ على الرومِ ﴿وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ بَعْدَ ما ظَهَرَتِ الرومُ [على فارسَ. وجائزٌ][1] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ في خَلْقِهِ، أي التدبيرُ فيهِ ولَهُ الأمْرُ فيهِمْ، أي ليس لأحدٍ في الخَلْقِ أمرٌ ولا تدبيرٌ، وإنما ذلكَ لهُ كقولِهِ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] لهُ التدبيرُ فيهمْ والأمْرُ.

وفي قراءةِ مَنْ قرَأ: ﴿غَلَبَتِ ٱلرُّومُ﴾ غَلَبَتِ بالنصبِ يكونُ قولُهُ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ حينَ يَتَظاهَرُ عليهمُ المُسْلِمونَ في آخِرِ الزمانِ حينَ تُفْتَحُ قِسْطَنْطينيَّةُ.

وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ وحَفْصَةَ: في بَعْضِ سِنينَ قريباً.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ فرِحَ المؤمنون بِنَصْرِ اللهِ حينَ[2] نَصَرَ رسولَهُ بإظهارِ الآيةِ لهُ في إثباتِ الرسالةِ والنُّبُوّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذَكَرَ العزيزَ على إثْرِ ما سَبَقَ لأنهُ عزيزٌ بذاتِهِ. فَهَلاكُ مَنْ هَلَكَ مَنْ عَبيدِهِ لا يُوجِبُ وَهْناً ولا نَقْصاً في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ، ليسَ كهلاكِ بَعْضِ عبيدِ مُلوكِ الأرضِ [وأتباعِهِمْ وحَشَمِهِمْ][3] لأنّ مُلوكَ الأرضِ أعِزّاءُ بذلكَ. فإذا هلكَ ذلكَ ذَهَبَ عِزُّهُمْ. فأمّا ﷻ، إذْ هو عزيزٌ بذاتِهِ لا بشيءٍ، فَهَلاكُ مَنْ هَلَكَ مِنْ عَبيدِهِ لا يُوجِبُ نَقْصاً ولا ذُلاًّ فيه.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ إنما يكونُ خُلْفُ الوَعْدِ في الشاهِدِ لأحدِ خِصالٍ ثلاثٍ:

إمّا الندامةُ: اسْتَقْبَلَتْهُ في ما وَعَدَ، فَتَمْنَعُهُ تلكَ الندامةُ عنْ إنجازِ ما وَعَدَ [وحِفْظِ الوَفاءِ لهُ.

وإمّا الحاجَةُ: وَقَعَتْ لهُ في ما وَعَدَ، فَتَمْنَعُهُ تلكَ الحاجَةُ عنْ وَفاءِ ما وَعَدَ وإنجازِ ما أطْمَعَ.

وإمّا العَجْزُ: يكونُ بهِ، لا يَقْدِرُ على إنجازِ ما وَعَدَ][4] فَيَحْمِلُهُ عَجْزُهُ عَنْ وفاءِ ما وَعَدَ وإنجازِهِ.

فإذا كانَ اللهُ سبحانَهُ يَتَعالى عنِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا كانَ ما وَعَدَ لم يَحْتَمِلِ الخُلْفَ منهُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِما لم يَنْظُروا، ولم يَتَفَكّروا في الأسبابِ التي هنَّ أسبابُ العِلْمِ بَعْدَ ما أعطاهُمْ أسبابَ العِلْمِ. لكنهمْ إذا تَرَكوا النَّظَرَ في الأسبابِ والتَّفَكُّرَ فيها لم يَعْلَموا، فلم يُعْذَروا بذلكَ لِتَرْكِهِمُ النَّظَرَ والتَّفَكُّرَ فيها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي [لا][5] يَنْتَفِعونَ بما عَلِموا، فَنَفَى عنهمُ العِلْمَ لِما لم يَنْتَفِعوا بهذهِ الحواسِّ، وإنْ كانَتْ لهمْ هذهِ الحواسُّ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: واتباعه وحشمة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ يحتمِلُ قولُهُ: ﴿ظَاهِرًا﴾ الأشياء في المنافِعِ، ولا يَعْلَمونَ باطِنَ المَنافِعِ بِمَ؟ وكيفَ؟ نَحْوَ ما يُعلَمُ أنَّ الماءَ بِهِ حياةُ الأشياءِ ويَعْلَمونَ أنَّ بالطعامِ قِوامَ الأبدانِ، ولكنْ لا يَعْلَمونَ قَدْرَ مَنْفَعَتِهِ وكَيفيَّتَهُ وما في سِرِّيَّةِ ذلكَ مِنَ المَنافِعِ. وكذلكَ السمعُ والبصرُ واللسانُ، لا تُعْلَمُ حقيقةُ ذلكَ وكيفِيَّتُهُ، وإنْ كانَ يُعْلَمُ أنَّ بها يُسْمَعُ، ويُبْصَرُ، ويُتَكَلَّمُ، ويُفْهَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ منافعَ ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ﴾ عَنْ مَنافِعِ ﴿الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ وإنما أُنْشِئَتْ مَنافعُ الدنيا لا لتكونَ لها، ولكنْ لِيَعْلَموا بها مَنافعَ الآخِرَةِ.

وابنُ عباسٍ والكَلْبِيُّ وهؤلاءِ يقولونَ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قالوا: يَعْلَمونَ مَعايِشَهُمْ وتِجاراتِهِمْ وحِرَفَهُمْ وجَميعَ الأسبابِ والمَكاسِبِ والحِيَلِ التي بها تقومُ أمورُ دنياهُمْ ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي لا يؤمنونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ كلَّ استِفْهامٍ مِنَ اللهِ وسُؤالٍ يُخرَّجُ على الإيجابِ والإلزامِ. ثم الإيجابُ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنْ قد تَفَكَّرُوا، واعتَبَروا، ونَظَروا، وعَرَفوا أنهُ ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لكنهمْ عانَدوا، وكابَروا، ولم يَنْقادوا لِلْحقِّ، ولم يُقِرُّوا.

والثاني: يُخَرَّجُ على الأمْرِ، أي تفكَّروا، وانظُروا، واعتَبِروا، لِتَعْلَموا أنهُ ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

والثالثُ: على الخَبَرِ أنهمْ لم يَتَفكَّروا، ولم يَنْظُروا. ولم يَعْتَبِروا. ولو تفكَّروا، واعتَبَروا لَعَلِموا ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لكنهمْ لم يَتَفكَّروا، ولم يَنْظُروا بَعْدَ ما أُعْطوا أسبابَ العِلْمِ بهِ. فلم يُعْذَروا بِتَرْكِ التَّفكُّرِ والنَّظرِ والاعْتِبارِ.

وعلى هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾/ ٤١٠ ـ أ/ ويَعْلَموا ما حَلَّ بالمكذِّبينَ بالتكذيبِ وما صارَتْ عاقبةُ أمْرِهِمْ، أو سِيروا في الأرضِ على الأمرِ لِتَعْرِفوا ما أصابَ أولئكَ بالتكذيبِ، أو لم يسيروا في الأرضِ على ما ذَكَرْنا لئلا يعلَموا عاقبةَ أولئكَ.

ثم قولُهُ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي عليهِمْ مِنَ الشكرِ في ما أنْعَمَ عليهِمْ والتعظيمِ لهُ والتبجيلِ.

والثاني: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي للهِ عليهِمْ مِنَ الشكرِ لهُ في ما أنعَمَ عليهِمْ، أي ما يُحْمَدُ بِفِعْلِهِ عاقبةُ ما لولا تلكَ العاقبةُ لكانَ لا يُحْمَدُ، إذْ في الحكمةِ التفريقُ بَينَ الوَليِّ والعَدُوِّ، وقد أشْرَكَهُمْ جميعاً في هذهِ الدنيا[1]. ولو لم يَجْعَلْ داراً أُخرَى يُفَرِّقُ فيها بَينَهما لكانَ لا يُحْمَدُ في ما أشرَكَهُمْ فيها.

والثالث: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالبعثِ لأنهُ لو يكنِ البعثُ لكانَ خَلْقُهُ السمواتِ والأرضَ وما بَينهما لَعِباً باطلاً لا حَقًّا كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ سُمِّيَ البعثُ لِقاءَ الربِّ والمَصيرَ إليهِ والرجوعَ إليهِ والبُروزَ إليهِ والخُروجَ، وإنْ كانوا في الأوقاتِ كلِّها بارزينَ لهُ خارجينَ صائرينَ إليهِ راجعينَ، لأنَّ خَلْقَهُ إيّاهُمْ إنما صارَ حكمةً لِذلكَ البعثِ، والمَقْصودَ بِخَلْقِهِمْ ذلكَ البعثُ. لذلكَ سُمِّيَ البعثُ بما ذَكَرْنا.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهو يُخَرَّجُ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨].

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: بين الولي والعدو.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ يُذَكِّرُ أهلَ مكةَ، ويُوبِّخُهُمْ في تكذيبِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إيّاهُ بما ذَكَرَ مِنَ القرونِ الماضيةِ أنهمْ معَ شِدَّتِهِمْ وقوتِهِمْ وبَطْشِهِمْ وكَثْرَةِ أتباعِهِمْ وحَواشِيهِمْ وأموالِهِمْ وطولِ أعمارِهِمْ وبُنيانِهِمْ لم[1] يَتَهَيَّأْ لهمُ الانْتِصارُ[2] والامْتِناعُ عن عذابِ اللهِ إذا حَلَّ بهمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ. فأنتم[3] يا أهلَ مكةَ دونَهُمْ في القوةِ والبَطْشِ والحواشي والأتباعِ، فكيفَ يَتَهَيَّأُ لكمُ الانْتِصارُ والامْتِناعُ عن عذابِ اللهِ إذا كَذَّبْتُمُ الرسولَ؟ واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ على التقديمِ والتأخيرِ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مُتقدِّماً على قولِهِ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يقولُ: ما حَلَّ بهمْ مِنَ العذابِ، وعُذِّبوا في هذِهِ الدنيا بتكذيبِهِمْ، لم يَظْلِمْهُمُ اللهُ، ولكنْ ظَلَموا أنفسَهُمْ بما أساؤوا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ في تعذيبِهِمْ في الدنيا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ثم يكونُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ في الدنيا ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ في الآخِرةِ، فيكونُ في الدنيا ما عُذِّبوا تعذيبَ عِنادٍ ومُكابرةٍ، وما يُعَذَّبونَ في الآخرةِ تعذيبَ كفرٍ وتكذيبٍ، وهو ما قالَ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ قومُكَ يا محمدُ، أي بَقُوا فيها أكثَرَ ممّا بَقِيَ الذينَ أُرْسِلْتَ إليهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: عاشوا يَعْمُرُونَ الأرضَ أكثَرَ ممّا عَمَروها، عَمِلوا بها أكثَرَ ممّا عَمِلَ هؤلاءِ. وبعضهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وقال أبو عَوسَجَةَ ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي حَرَثوها. وقالَ القُتَبِيُّ ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي قَلَبوها للزراعةِ، ويُقالُ: البقرةُ المثيرةُ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١] وقولُهُ تعالى: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي جهنَّمُ.

وكذلكَ [قالَ][4] الكسائيُّ: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هي النارُ كقولِهِ: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] أي كانَتْ عاقبتُهُمُ النارَ بما كَذَّبوا بآياتِ اللهِ، واسْتَهْزَؤوا[5] بها.

وقولُهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ إلى الرسلِ بالتكذيبِ وأنواعِ الأذى. ويَحتَمِلُ ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ إلى أنفسِهِمْ حينَ[6] أهلَكوها، وأوقَعوها في النارِ والسُّوأَى: اسمٌ منْ أسماءِ النارِ [كالعُسْرَى والهاويةِ][7] ونحوُهُما [واليُسْرَى والحُسْنَى][8] منْ أسماءِ الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يُذَكِّرُ أهلَ مكةَ، ويُخَوِّفُهُمْ، أنَّ ما حَلَّ بأولئكَ [في][9] القرونِ الماضيةِ مِنَ الإهلاكِ والاسْتِئْصالِ إنما كانَ بتكذيبِ الآياتِ والاسْتِهزاءِ بها في هذهِ الدنيا. فأنتمْ يا أهلَ مكةَ إذ كَذَّبْتُمُ الآياتِ والحُجَجَ، واسْتَهْزَأْتُم بها يصيبُكُمْ ما أصابَ أولئكَ بالتكذيبِ. والآياتُ تَحتَمِلُ حُجَجَ التوحيدِ وحُجَجَ الرسلِ في إثباتِ الرسالةِ وآياتِ[10] البعثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يَحتَمِلُ بالآياتِ التي ذَكَرَ أو بما[11] أوعَدَهُمُ الرسلُ مِنَ العذابِ والإهلاكِ، فاستَهزَؤوا بذلكَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ هذا في الظاهرِ دَعْوَى، لكنهُ قد بَيَّنَ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ ما يَلْزَمُهُمْ بالإعادةِ[12] والإحياءِ مِنْ بعدِ الموتِ حينَ[13] قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الروم: ٨].

---

(١) في الأصل وم: ولم. (٢) من م، في الأصل: الانتصاب. (٣) من م، في الأصل: كأنهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: واستهزاء. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة]. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٧ و٨ و٩]. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: أو آيات. (١١) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٢) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وغيرِهِ[١] مِنَ الآياتِ ما أَلْزَمَهُمْ مِنَ الآياتِ أنهُ لو لم يكُنْ لهُ إعادةٌ وبعثٌ كانَ خَلْقُهُمْ عَبَثاً باطلاً خارجاً عنِ الحكمةِ. والقُدْرةُ في ابْتِداءِ الإنشاءِ، إنْ لم تكنْ أكْثَرَ فلا تكونُ دونَ الإعادةِ. فَمَنْ مَلَكَ، وقَدَرَ على الابْتِداءِ كانَ على الإعادةِ أقْدَرَ؛ إذ إعادةُ الشيءِ عندَكُمْ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِنِ ابْتِداءِ الإنشاءِ على ما ذَكَرَ[٢] في قولِهِ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ذَكَرَ الإعادةَ والإحياءَ بعدَ الموتِ والرجوعَ إليهِ لِما ذَكَرْنا أنَّ المَقْصودَ في خَلْقِهِمْ في هذهِ الدنيا الإعادةُ والإحياءُ. لِذلكَ سَمَّى الإعادةَ الرجوعَ إليهِ والمَصيرَ والبُروزَ لهُ، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ صائرينَ إليهِ راجِعينَ بارِزينَ له خارجينَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الإبلاسُ هو الإياسُ، يُبْلِسُونَ: يأيَسُونَ في الآخرةِ عمّا كانوا يَطْمَعونَ بِعبادتِهِمْ تلكَ الأصنامَ والأوثانَ في هذهِ الدنيا حينَ[٣] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوَهُ.

يقولُ: يأيَسُونَ مِنَ الآخِرةِ عمّا طَمِعوا بِعبادَتِهِمْ في الدنيا حينَ يَشهدونَ[٤] عليهِمْ، ويَتَبرّؤونَ منهمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: يَأيَسُونَ مِنْ كلِّ خيرٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الإبلاسُ هو الفَضيحةُ، أي يَفْتَضِحونَ بِما عَمِلوا. وقالَ بعضُهُمْ: المُبْلِسُ كلُّ مُنْقَطِعٍ رجاؤُهُ ساكتٍ كالمُتَحَيِّرِ في أمرِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: المُبْلِسُ كلُّ آيسٍ حَزينٍ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ الأصنامَ التي عَبدوها، وسَمَّوها آلِهةً، لا تَشْفَعُ لهمْ ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا [وجوهاً]:

أحَدُها[٥]: أيِ الأصنامُ بهِمْ كافرونَ.

[والثاني][٦]: همْ يَكْفُرونَ بالأصنامِ إذا لم يَشْفَعوا لهمْ، وصاروا شهداءَ عليهِمْ.

[والثالثُ][٧]: كلٌّ يَكْفُرُ بصاحِبِهِ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ سَمّى اللهُ تعالى ذلكَ اليومَ يومَ الجَمْعِ بقولِهِ:[٨] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩ والشورى: ٧] وسَمّاهُ[٩] يومَ الافتِراقِ [في هذه الآية][١٠] فهو يومُ الجَمْعِ في أوّلِ ما يُبْعَثونَ، ويُحْشَرونَ، ثم يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ تَفْريقاً، لا اجْتِماعَ بينَهُمْ [بَعْدَهُ][١١] أبداً كقولِهِ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] فهو يومُ الجمعِ في حالٍ [ويومُ الافتِراقِ في حالٍ][١٢] ووقتٍ آخَرَ.

وبعضُ أهلِ التأويلِ يقولونَ: قولُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ العابدُ والمَعْبودُ والتابعُ والمَتْبوعُ بعدما كانوا مُجْتَمِعينَ في الدنيا، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ /٤١٠-ب/ الآية العنكبوت: ٢٥] فهذا تَفَرُّقُهُمْ على قولِهِمْ[١٣].

والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمَنوا بكلِّ ما أُمِروا أنْ يُؤْمِنوا به، وعَمِلوا بكلِّ ما أُمِروا أن يَعْمَلوا ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ والروضةُ كأنها اسْمٌ مِنْ أسماءِ الجِنانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُكْرَمونَ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّونَ. والحَبْرَةُ السُّرورُ، ومنهُ يُقالُ: كلُّ حَبْرَةٍ يَتْبَعُها عَبْرَةٌ.

---

(١) في الأصل وم: وغيرها. (٢) من م، في الأصل: ذكرتم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: شهدوا. (٥) في الأصل وم: وجهين إحدهما. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، في الأصل: يقوم. (٩) في الأصل وم: وسمى. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: قولهم بعضهم.

والزَّجّاجُ يقولُ: ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يَتَنَعَّمونَ، والحَبْرَةُ النِّعْمَةُ الحَسَنَةُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي جَحَدوا توحيدَ اللهِ، وأنْكَروهُ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يَحْتَمِلُ: كذّبوا بآياتِنا [آياتِ][1] التوحيدِ وآياتِ الرسالةِ وآياتِ البعثِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي يُحْضَرُ الأتباعُ والمَتْبوعُ جميعاً في النارِ، ويُجْمَعُ بَيْنَهُمْ كقولِهِ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وقولِهِ: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٨ و٣٩].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ قولُهُ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فَهِمَتِ الأُمَّةُ مِنْ قولِهِ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الصلاةَ، أي صَلُّوا للهِ. ولو كانَتْ أفهامُ أهلِ زمانِنا هذا لكانوا لا يَفْهَمونَ سِوَى التسبيحِ المَذْكورِ.

ثم يَحْتَمِلُ تَسْمِيَتُهُمُ التسبيحَ صلاةً وفَهْمُهُمْ منهُ ذلكَ لِوَجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: لِما في الصلاةِ تسبيحٌ، فَسَمَّوها بذلكَ لِما فيها ذلكَ.

[والثاني][2]: لِما أنَّ التسبيحَ تنزيهٌ، والصلاةُ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها تَنْزيهُ الرَّبِّ لأنَّ فيها إظهارَ الحاجاتِ إليهِ والعَجْزِ والضَّعْفِ، ومنها تعظيمُ الربِّ وإجلالِهِ وَوَصْفُهُ بالجَلالِ والرِّفْعَةِ. فَفَهِموا مِنَ التسبيحِ الصلاةَ لِما ذَكَرْنا لِما هي في[3] تنزيهِ الربِّ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها.

ثم منهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الصلواتِ الخَمْسَ ذُكِرَتْ في هذهِ الآيةِ [والتي تَلِيها][4] بقولِهِ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ﴾ صلاةُ المَغْرِبِ والعِشاءِ الآخِرَةِ ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ صلاةُ الفَجْرِ ﴿وَعَشِيّٗا﴾ صلاةُ العَصْرِ ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ صلاةُ الظُّهْرِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: لا بل ذُكِرَتْ [فيهما أربعٌ][5] صَلَواتٍ ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ المَغْرِبُ ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ الفَجْرُ ﴿وَعَشِيّٗا﴾ العَصْرُ ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ الظهرُ. وأمّا العِشاءُ الآخِرَةُ ففي قولِهِ: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ٥٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ على التقديمِ؛ يقولُ: سُبْحانَ اللهِ، ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ فيكونُ الحَمْدُ كنايةً عنِ الصلاةِ كالتسبيحِ لِما فيها مِنَ التَّحْميدِ، أو يقولُ: لهُ يَحْمَدُ أهلُ السمواتِ والأرضِ[6]: حينَ يُمْسونَ وحينَ يُصْبِحونَ وحينَ يُظْهِرونَ، أي إذا دَخَلوا في المَساءِ والعِشاءِ والصُّبْحِ والظُّهْرِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ يُخْبِرُ عنْ قدرتِهِ في إنشاءِ الأشياءِ مُبْتَدِئاً لا مِنْ أصلٍ، لأنهُ قالَ: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ والمَيِّتُ ليسَ فيهِ الحياةُ، وكذلكَ ﴿ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ وليسَ في الحيِّ مَوتٌ. ولكنَّهُ يُخْرِجُ هذا مِنْ هذا على ابْتِداءِ الحياةِ فيهِ وابْتِداءِ المَوتِ فيهِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ فيهِ ما ذُكِرَ.

ثم اخْتَلَفَ فيهِ أهلُ التأويلِ: قالَ بعضُهُمْ: يُخْرِجُ الناسَ والدوابَّ والطيرَ مِنَ النُّطَفِ ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ﴾ يعني النُّطَفَ ﴿مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ مِنَ الناسِ والدوابِّ والطيرِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ أي المُسْلِمَ مِنَ الكافِرِ ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي الكافرَ مِنَ المُسْلِمِ.

ولكنْ يَجيءُ على هذا أنْ يقولَ: يُخْرِجُ مِنَ المُسْلِمِ ما لا يكونُ كافراً ومِنَ الكافِرِ ما لم يَصِرْ مسلماً، لأنَّ ما يَخْرُجُ لا يُوصَفُ بالإسلامِ ولا بالكُفْرِ، ولا يُنْسَبُ إلى واحدٍ منهما وقتَ الخُروجِ حتى يَبْلُغَ، فيكونُ منهُ فِعْلُ الكُفْرِ أو فِعلُ الإسلامِ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وفي الآياتِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها مِنْ نَحوِ قولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ الآية وقولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [الروم: ٨ و٩] وأمثالِ ذلكَ ما يُذَكِّرُ، ويُخْبِرُ أولئكَ الكَفَرَةَ عنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ، والزَمَهُمْ ذلكَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: من. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيها أربع.
(٦) أدرج قبلها في الأصل: وقوله.

وفي الآية نَقْضُ قولِ المُعْتزِلةِ لأنهمْ لا يَجعلونَ القُدْرَةَ على فِعْلٍ بعوضةٍ، فلا يكونُ لهمُ الاحتِجاجُ على أولئكَ الكَفَرةِ في القُدْرةِ على الإعادةِ والإنشاءِ بَعْدَ ما صاروا رَماداً، أو كلامٌ نَحْوَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي كذلكَ تُبْعَثونَ، وتُحْيَونَ، كما أُخرِجَ الحيُّ مِنَ المَيتِ والمَيْتُ مِنَ الحَيِّ مِنْ غيرِ أنْ كانَتِ الحياةُ في المَيِّتِ والموتُ في الحَيِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يَحتَمِلُ آياتِ وَحْدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ وحُججِهِ وآياتِ بَعْثِهِ وإحيائِهِ وآياتِ رسالةِ الرسلِ ونحوَها[1].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: نَسَبَ خَلْقَنا إلى الترابِ لأنّا إنما خُلِقْنا مِنْ أصلٍ، خُلِقَ ذلكَ الأصلُ مِنَ الترابِ، وهو آدمُ، وإنْ لم تكنْ أنفسُنا مخلوقةً مِنْ ترابٍ حقيقةً كما نَسَبَ خَلْقَنا إلى النُّطفةِ، وإنْ لم تُخلَقْ أنفسُنا كما هي منَ النُّطْفةِ. لكنهُ أضافَ ذلكَ، ونَسبَهُ إلى النُّطفةِ لِما هي أصلُ ما خُلِقْنا منها.

والثاني: نَسَبَنا إلى الترابِ لما جَعَلَ أغذيَتَنا وما بهِ قِوامُ أنفُسِنا وأبدانِنا في الخارجِ مِنَ الترابِ. فإنما هو إخبارٌ بما بهِ قِوامُ أنفسِنا وأبدانِنا، وإنْ لم نُخلَقْ مِنَ الترابِ مِنَ الأصلِ. فَيُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنكمْ لا تَتَصَوَّرونَ خَلْقَ الجِسْمِ إنْ لم تُشاهدوا تلكَ الطِّينَةَ التي منْها تكونُ الأجسامُ بعدَ مشاهدةِ طِينَتِها ومُعايَنَتِكُمْ إياها، ورأيتُمُ القُدْرَةَ لهُ على خَلْقِها قبلَ أنْ تُشاهِدوا طِينَتَها.

والثالثُ: نَسَبَ خَلْقَنا إلى الترابِ، وهو آدمُ على ما ذَكَرْنا. إلّا أنَّ قولَهُ: ﴿خَلَقَكُم﴾ أي قَدَّرَكُمْ مِنْ ذلكَ الأصلِ. والتخليقُ هو التقديرُ في اللغةِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ؛ وإنما قَدَّرَنا على تقديرِ ذلكَ الأصلِ. وذلكَ جائزٌ: نِسْبَتُنا وإضافَتُنا إلى الترابِ، إنْ صَحَّ ما ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ؛ ذُكِرَ أنَّ مَلَكاً يأتي بِكَفٍّ مِنْ ترابٍ، فَيَذُرُّهُ في تلكَ النُّطْفَةِ في رَحِمِ المرأةِ، فَيَخلُقُ منهُ حينئذٍ الولدُ.

فإنْ صَحَّ هذا فيكونُ خَلْقُ جميعِ الناسِ، وأصلُهُمْ مِنْ ترابٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي ثم إذا ذُرِّيَّةٌ مِنْ بَعْدُ بَشَرٌ تَنْبَسِطونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] أي يَبْسُطُ. أو ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ أي تَتَفرّقونَ في حوائِجِكُمْ في طَلَبِ أغذيَتِكُمْ وما بهِ قِوامُ أنفسِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [يَحتمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما][2]: أي مِنْ أجناسِكُمْ وأشكالِكُمْ ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ يقولُ: إنما جَعَلَ ما تَسْكُنونَ إليهِ، وتتآلَفونَ مِنْ جِنسِكُمْ وشَكْلِكُمْ ما تَعرِفونَ، لم يَجْعَلْ في غَيرِ جِنْسِكُمْ وشَكْلِكُمْ ما تَعرِفونَ كقولِهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي مِنْ جِنسِكُمْ وشَكْلِكُمْ مَنْ تَعرِفونَ صدقَهُ وبَعْثَهُ وأمانَتَهُ ما لو كانَ مِنْ غيرِ جِنْسِكُمْ وشَكْلِكُمْ لا تَعْرِفونَهُ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ قولُهُ: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي مِنْ جِنْسِكُمْ ما تَسْكُنونَ إليها [وتَسْتأنِسونَ بهمْ ما لو كانوا مِنْ غَيرِ جِنْسِهِمْ لا يكونُ ذلكَ: أنْ يَستأنِسَ كلُّ ذي شكلٍ بِشَكْلِهِ وجِنسِهِ.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنهُ أرادَ آدمَ وحَوّاءَ، أي خَلَقَ زوجَتَهُ حواءَ مِنْ نفسِهِ، فَجَعَلَها لهُ سَكَناً يَسْكُنُ إليها][3] ويَستأنِسُ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بَيْنَكُمْ وبَينَ الأزواجِ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: يَوَدُّها لِما جَعَلَها[4] لهُ مَوضِعاً لِقضاءِ شَهْوَتِهِ وحاجَتِهِ، وكذلكَ هي تَوَدُّهُ لذلكَ. ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي يَرْحَمُ بعضُهُمْ بعضاً، ويَتَحَنَّنُ إليهِ إذا نَزَلَ بواحِدٍ منهما ما يَمْنَعُ قضاءَ الشَّهْوَةِ والحاجةِ.

---

(١) في الأصل وم: ونحوه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: جعل.

والثاني: يَوَدُّ بعضُهُمْ بعضاً، ويرحَمُ بالطَّبْعِ والخِلْقَةِ؛ إذْ كلُّ ذي طَبْعٍ يَوَدُّ شَكْلَهُ وجِنْسَهُ إذا كانَ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ والسُّرورِ، ويَرْحَمُهُ إذا نَزَلَ بِهِ البَلاءُ والشِّدَّةُ.

هذا مَعْروفٌ عندَ الناسِ: أنْ يَتراحَمَ بعضُهُمْ على بعضٍ في حالِ نُزولِ البلاءِ والشِّدَّةِ، ويَتَوادُّوا[1] في حالِ السَّعَةِ والسُّرورِ.

وقالَ/ ٤١١ ـ أ/ الحسنُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾ أي الجِماعَ ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي الوَلَدَ. فكيفَ ما كانَ فهو يُخْبِرُ عنْ لُطْفِهِ ومِنَّتِهِ حين[2] جَعَلَ بينَ الزوجِ والزوجةِ المَوَدَّةَ والرحمةَ على عَدَمِ القرابةِ والرَّحِمِ وبُعْدِ ما بَيْنَهما، فصارَا لِما ذَكَرْنا في المَوَدَّةِ والرحمةِ كالقَريبَيْنِ وذَوَي الرَّحِمَيْنِ وأقربِ القريبِ.

ثم [الآيةُ حُجَّةٌ][3] على المعتزلةِ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ بينَهُمْ مَوَدَّةً ورحمةً، وذلكَ فِعْلُ الزَّوجينِ في الظاهرِ.

ثم أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ، وأخْبَرَ أنهُ جَعَلَ [ذلكَ آيةً، فَدَلَّ][4] أنَّ لهُ صنعاً في ذلكَ، فَيَبْطُلُ قولُهُمْ: أنْ ليسَ للهِ صُنْعٌ في فِعلِ العبادِ، ويَظَلُّ[5] اللطفُ الذي ذَكَرَ أنهُ جَعَلَهُ[6] بينَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ لما ذَكَرْنا مِنْ آياتِ وحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ وآياتِ البَعْثِ والنُّشورِ وآياتِ الرسالةِ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لِقومٍ يَنْتَفِعونَ، وهمُ المؤمنونَ، أو ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يَتَدَبَّرون[7]، ويَعْتَبِرون، فَيَنْتَفِعونَ[8].

فأمّا منْ لا يَتَفَكَّرُ، ويَتَدَبَّرُ، فلا يَنْتَفِعُ [بها، وهي ليسَتْ][9] بآياتٍ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ آياتِ وحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ وآياتِ بَعْثِهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في خَلْقِ السمواتِ ورَفْعِها في الهواءِ وإقرارِها فيهِ آيةٌ لأنهُ غَيرُ موهومٍ مِثْلُهُ مِنْ فِعْلِ الخَلْقِ وفي قدرتِهِمْ. وكذلكَ خَلْقُ الأرضِ وبَسْطُها وإقرارُها على الماءِ أو على الريحِ خارجٌ عنْ فِعْلِ الخَلْقِ ومِنْ قُدرتِهِمْ غَيرُ مَوهومٍ ذلكَ في أوهامِهِمْ وعقولِهِمْ مِنْ غَيرِ الواحدِ العالمِ القادرِ بذاتِهِ.

فإذا كانَ ما ذَكَرَ غَيرَ مَوهومٍ في أوهامِهِمْ وعقولِهِمْ مِنْ غَيرِ اللهِ فهمْ إنما أنكروا البعثَ لِما يُعايِنوا ذلك، ولم يُشاهِدوهُ في أوهامِهِمْ بعدَ أنْ كانَ ذلكَ مَوهوماً مِنَ اللهِ مُشاهَداً مُعايَناً. لِمِثْلِ هذا، واللهُ أعلمُ، يَذْكُرُ هذا. وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ كأنهُ يقولُ: وفي خَلْقِ اخْتِلافِ ألسنتِكُمْ آياتُهُ أيضاً، لأنَّ الألسنَ بحيثُ خِلْقَةُ الألسنِ غَيرُ مُخْتَلِفَةٍ، ولكنْ إنما تَخْتَلِفُ بحيثُ النطقِ والتَّكَلُّمُ بها لا يَقَعَ في التَّكَلُّمِ بها والنُّطْقِ والصوتِ تَشابُهٌ بحالٍ وخُروجٌ[10] عمّا يَقْدِرونَ مِنَ الكلامِ، وإنْ كانَتْ بحيثُ خِلْقَتُها واحدةٌ غَيرُ مُخْتَلِفَةٍ.

فهذا على المعْتزلةِ لِقولِهِمْ: إنَّ أقوالَ العبادِ غَيرُ مَخلوقةٍ، لا صُنْعَ للهِ في ذلكَ. فلو لم يكُنْ لهُ في ما يَتَكلَّمونَ، ويَنْطِقونَ على اخْتِلافِ ذلكَ صنعٌ، فلا آيةَ تكونُ لهُ في ذلكَ، فَدَلَّ أنهُ إنما صارَ آيةً لهُ لِما لهُ صُنْعٌ في ذلكَ، وكذلكَ في ما تختلِفُ الألوانُ بِفِعْلٍ يكونُ مِنَ الخَلْقِ، و يَتَغَيَّرُ عندَ الغَضَبِ والسرورِ والفَرَحِ، ثم أخْبَرَ أنَّ ذلكَ [مِنْ][11] آياتِهِ، دلَّ أنهُ خالقٌ لأفعالِهِمْ، حتى كانَ آيةً لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ عربيٌّ وأعجميٌّ ونَبَطيٌّ وتركيٌّ ونَحْوُهُ ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أبيضُ وأحمرُ وأسودُ ونَحْوُهُ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى][12]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ جائزٌ أنْ تَكونَ آياتٍ لِمنِ انْتَفَعَ بِهِ مِنَ العالَمينَ، أو آيةً لِمَنْ تَفَكَّرَ، وتَدَبَّرَ، مِنَ العالَمينَ. لأنهُ إذا تَفَكَّرَ، وتَدَبَّرَ، عَرَفَ وَجْهَةَ الآيةِ في ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ويوادهم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: دل. (٥) في الأصل وم: ويبطل. (٦) في الأصل وم: جعل. (٧) في الأصل وم: ويتدبرون. (٨) في الأصل وم: فيعرفون. (٩) في الأصل وم: به فهو ليس. (١٠) في الأصل وم: وخروجه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة في الأصل وم.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لأنَّ النومَ يأخُذُهُمْ مِنْ غيرِ أنْ يَعرفوا أنهُ مِنْ أينَ مَأتاهُ ومَأخَذُهُ؟ ثم يَأخُذُ منهمْ جَميعَ مَنافعِ الأحياءِ مِنَ السمعِ والنطقِ والفهمِ والرؤيةِ وجميعَ ما يُنْتَفَعُ بهِ قَبلَ ذلكَ.

ثم يَرُدُّ ذلكَ إليهِمْ مِنْ غيرِ أنْ عَرَفوا ذلكَ، فيعودونَ إلى ما كانوا مِنَ المنافعِ والاكْتِسابِ لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على مِثْلِ هذا يَقْدِرُ على أخذِ الروحِ ونفسِهِ وردِّهِ إليهِ، فهو أخو الموتِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] [سَمّى النومَ][1] الوفاةَ، وهو مِثْلُها[2] لِما ذَكَرْنا أنَّ جميعَ مَنافعِ الأحياءِ يَرْتَفعُ، ويزولُ بالنومِ، ثم يُرَدُّ إليهِ مِنْ غيرِ أنْ يُشْعَرَ بذلكَ. فَمَنْ قَدَرَ [على هذا يَقْدِرُ][3] على الإحياءِ بعدَ الموتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وجِهَةُ الآيةِ في ما يَبْتَغونَ[4] مِنْ فَضْلِهِ، وهو خَلْقُهُ تلكَ المَكاسبَ والتجاراتِ والحِرَفَ التي يَبْتَغونَ بها الرزقَ.

أخبَرَ أنهُ خَلَقَ ذلكَ منهمْ. ففيهِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العِبادِ. فهو على المعتزلةِ لإنكارِهِمْ خَلْقَ أفعالِهِمْ، أو أنْ تكونَ وِجهَةُ الآيةِ فيهِ ما عَرَّفَهُمْ تلكَ المكاسبَ والتجاراتِ والحِرَفَ، وعَلَّمَهُمْ إيّاها، وأحْوَجَهُمْ إليها لِيَصِلُوا إلى مَنافِعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يَنْتَفِعونَ بِسَمْعِهِمْ، أو لِقومٍ يُجيبونَ. والسمعُ يجوزُ أنْ يُعَبَّرَ بهِ عنِ الإجابةِ كقولِهِ ﷺ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [البخاري ٦٩٠] أي أجابَ اللهُ لِمَنْ دعاهُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يَعْقِلونَ. تَجوزُ العبارةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] أي يَعْقِلونَ. ويُقالُ: لِقومٍ يَسْمَعونَ المَواعِظَ، فَيَقْبَلونَها فَيَنْتَفِعونَ بها.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ للخوفِ والطَمعِ؛ تَخافونَ سُلْطانَهُ وقدرَتَهُ أنْ يُصيبَكُمْ ذلكَ البَرْقُ، فَيَذْهَبَ بأبصارِكُمْ ﴿وَطَمَعًا﴾ ترجونَ رحمتَهُ بِصَرْفِهِ[5] عنكمْ.

والثاني: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي يُريكُمُ البَرْقَ تَخافونَ، وتَطْمَعونَ [يَحْتَمِلُ وجهينِ:

أحَدُهما: يَخافُ][6] المسافرُ قَطْعَ سَيرِهِ ومَنْعَهُ عنهُ، ويَطْمَعُ[7] المُقيمُ برحمتِهِ ما يُكْثِرُ بهِ أنزالَهُ ومعاشَهُ.

والثاني: تَخافونَ الصَّواعِقَ، وتطمعونَ المَطَرَ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ هو ظاهرٌ، قد ذَكَرْناهُ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ، أو ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لو تَدَبَّروا، وتَفَكَّروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهما[8] قاما على شيءٍ غيرِ موهومٍ، ذلكَ في أوهامِ الخَلْقِ قيامُ شيءٍ مِنْ أفعالِهِمْ على مِثْلِهِ، وهو الهواءُ والماءُ والريحُ. فكيفَ حَمَلَهُمْ خروجُ شيءٍ مِنْ أوهامِهِمْ على إنكارِهِ وتكذيبِهِ، وهو البعثُ والإحياءُ بَعْدَ الموتِ؟ فمنْ قَدَرَ على أحَدِهِما قَدَرَ على الآخَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: على التقديمِ، أي ثم إذا دعاكُمْ دعوَةً إذا أنتمْ تخرجونَ مِنَ الأرضِ. والدَّعْوَةُ: هي النَّفْخَةُ الآخِرَةُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو ما ذُكِرَ: الدَّعْوَةُ تكونُ مِنَ الأرضِ مِنْ صخرةِ بيتِ المقدسِ. مِنْ هنالكَ تَسْمَعونَ الدعوةَ.

ثم اخْتُلِفَ في الدَّعوَةِ والصَّيحَةِ والنَّفْخَةِ والصُّورِ ونَحْوِ ما ذُكِرَ: فمنهمْ مَنْ يقولُ على حَقيقةِ الدَّعْوَةِ والصَّيحَةِ والنَّفْخَةِ والصُّورِ على ما ذُكِرَ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ ذلكَ إخبارٌ عنْ سرعةِ نَفاذِ الأمرِ وعِبارةٌ عنْ خِفَّةِ ذلكَ وَهَوْلِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَآ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: مثله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ينتفعون. (٥) في الأصل وم: بصرفكم. (٦) في الأصل وم: يخافه. (٧) في الأصل وم: وتطعمون أي. (٨) في الأصل وم: أنه.

أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧] وقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. ليسَ أنْ كانَ منهُ كافٌ ونونٌ.

لكنهُ ذُكِرَ بأخفِّ حروفٍ يُفْهَمُ منهُ المَعْنَى. فَعَلَى ذلكَ ذِكْرُ الصَّيْحَةِ والنَّفْخَةِ والدَّعْوَةِ والصُّورِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ دلالةٌ وإخبارٌ أنهُ قادرٌ على الإنشاءِ والإحياءِ بلا سَبَبٍ لأنهُ أخبَرَ إذا دعاكمُ دَعْوَةً تَخْرُجونَ. والدَّعْوةُ ليستْ هي بِسببٍ للإحياءِ والإنشاءِ. بل أخبَرَ أنهُ يُخرِجُهُمْ إخراجاً. ثَبَتَ انهُ ما ذَكَرْنا. وقد ذَكَرْنا في اختِلافِ الألسُنِ لولم يكُنْ ما يُسْمَعُ منهمْ وما يَنْطِقونَ يُخلَقُ في الحقيقةِ، فإذنْ آياتُهُ عَبَثٌ، لأنَّ الحروفَ [لا][1] تَشهَدُ خَلْقَهُ ولا جِسْمَهُ ولا سَمْعَهُ ولا ما[2] احْتَجَّ، فيكونُ بِمَعْنَى مَنْ يقولُ: للهِ آياتٌ في الكلامِ، احْتَجَّ بها على عِبادِهِ الذينَ لم يُطْلِعْهُمْ عليهِ/ ٤١١ ـ ب/ ولا سَبيلَ لهمْ إلى الإطِّلاعِ عليها، وذلكَ بعيدٌ عنِ العقولِ، فَثَبَتَ أنَّ اللهَ قد خَلَقَ كلَّ نُطْقٍ على ما عليهِ، يَعْرِفُهُ المُتَفَكِّرُ بِما يَرى مِنْ عَجْزِ المُتَفَوِّهِ على التَّفَوُّهِ بهِ على التقطيعِ الذي يُقَدِّرُهُ في نَفْسِهِ وعلى الحَدِّ الذي يَجِبُ أنْ يكونَ عليهِ دونَ أنْ يَقَعَ في ذلكَ تَفاوُتٌ واختِلافٌ، فَيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ كانَ الآيَةَ على ما كانَ عليهِ، بل باللهِ، جلَّ، وعَلا، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وما ذَكَرَ مِنِ اختِلافٍ فإنا قد نَجِدُهُ يَتَغَيَّرُ بالعبادِ نَحْوُ ما يَظْهَرُ عند شِدَّةِ السرورِ بالشيءِ غَيرُ الذي يَظْهَرُ عندَ شِدَّةِ الغَضَبِ مُتَوَلِّداً عنْ فِعْلِهِمْ.

ومِنْ قولِ المعتزلةِ أو عامَّتِهِمْ أنَّ المتولِّدَ هو فعلُ الخَلْقِ. فعلى ذلكَ القولِ يكونُ اللّونُ فِعلاً بِتَخليقِ اللهِ.

وأمّا النومُ فَمَوضِعُ الاعْتبارِ فيهِ ما في اللّونِ، وإلّا فالاعْتِبارُ إنما هو بابْتِغائِهِمْ مِنْ فَضلِهِ، أي ذلكَ بما رُكِّبَ فيهمْ مِنَ الحاجةِ وإنشائِهِمْ مِنَ الفاقةِ إلى ما ذَكَرَ مِنَ الأغذيةِ بأنَّ ابْتِغاءَها [كانَ][3] فعلاً لِلْخَلْقِ. وقدِ احْتَجَّ اللهُ ﷻ على العِبادِ، فأخْبَرَ أنهُ منْ آياتِهِ. ومُحالٌ أنْ تكونَ حُجَّتُهُ ما يَخلُقُهُ غَيرُهُ دونَ الذي يَخلُقُهُ، بل يَدُلُّ خَلْقُ كلٍّ على مُنْشِئِهِ مِنْ طريقِ الخِلْقَةِ والتدبيرِ. فَثَبَتَ أنَّ الابْتِغاءِ مخلوقٌ بِخِلْقَةِ اللهِ، وإن كانَ فِعلاً لِلْخَلْقِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ حَرْفُ ﴿مَن﴾ إنما يُتَكَلَّمُ بِهِ، ويُعَبَّرُ عمَّنْ لهُ المُلْكُ والتدبيرُ والتَّمْييزُ. وحرفُ: ما عنْ مُلْكِ الأشياءِ نفسِها. فإذا كانَ مَنْ لهُ المُلْكُ في الشيءِ والتدبيرُ والأمرُ لهُ، فالأملاكُ أَحَقُّ أنْ تكونَ لهُ.

يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، عنْ غِناهُ وسلطانِهِ وقدرتِهِ، أي مَنْ لهُ ما ذَكَرَ في السمواتِ والأرضِ، لا يُحْتَمَلُ[4] أنْ يَمْتَحِنَهُمْ، ويأمُرَهُمْ بأنواعِ العِبادةِ والطاعةِ لِحاجةِ نفسِهِ أو مَصْلَحَةِ نفسِهِ؛ إذْ هو غَنِيٌّ عنْ ذلكَ، ولكنهُ إنما يَمْتَحِنُهُمْ[5] ويأمُرُهُمْ بأنواعِ العِبادةِ وأنواعِ المِحَنِ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ وحاجاتِهِمْ ومَصالِحِهِمْ، فإذا كانَ لهُ ما ذَكَرَ مِنَ المُلْكِ لا يُحْتَمَلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: القُنوتُ: القِيامُ، والقانِتُ: القائمُ. فإنْ كانَ هذا فتأويلُ ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي قائمٌ بتدبيرِهِ وأمرِهِ في الوُجودِ والعَدَمِ والإبْداءِ والإعادةِ، وفي كلِّ حالٍ، إنْ أوجَدَ وُجِدَ. وإنْ أعْدَمَ صارَ مَعْدوماً، وإنْ أحْياهُ حَيِيَ، ونَحوُهُ في كلِّ حالٍ يقومُ بِتَدبيرِهِ وأمْرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي مُطيعونَ. فإن كانَ على هذا فهو على طاعةِ الخِلْقَةِ لهُ والشهادةِ للهِ بالوَحدانِيَّةِ والرُّبوبِيَّةِ والتدبيرِ لهُ والعِلْمِ في ذلكَ لأنَّ اللهَ جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ وكلِّ شيءٍ وفي صورتِهِ ما يَشْهَدُ لهُ بالوَحْدانِيَّةِ والربوبيَّةِ، ويدلُّ على تدبيرِهِ وعِلْمِهِ، فكلٌّ لهُ قانتٌ ومطيعٌ بالخِلْقَةِ والصفةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي خاضعونَ، فهو يرجِعُ إلى حالٍ دونَ حالٍ، وهو حالُ الخوفِ والضرورةِ؛

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) في الأصل وم: يمتحن.

يَخْضَعُ لهُ كلُّ كافرٍ ومُشْرِكٍ في تلكَ الحالِ، وهو ما أخْبَرَ عنهمْ مِنَ الخضوعِ لهُ إذا ركبوا الفلكَ حين[1] قالَ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقالوا[2]: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣ويونس: ٢٢] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الأحوالِ التي كانوا يَخْضَعونَ، ويُطيعونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يُخبِرُ أنَّ مَنْ مَلَكَ، وقَدَرَ على بَدْءِ الخَلْقِ][3] وإعادتِهِ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَخْلُقَهُمْ، ويُنْشِئَهُمْ لحاجةِ نفسِهِ أو مصلحتِهِ لأنهُ غنيٌّ بذاتِهِ، أو يَمْتَحِنَهُمْ لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ، أو يأمُرَهُمْ[4] لذلكَ. ولكنْ إنما يَبْدأُ، ويُعيدُ لحاجةِ أنفسِهِمْ، أو يَخْبِرُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على بَدْءِ الشيءِ يَمْلِكُ إعادَتَهُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قالَ [بعضُهُمْ][6]: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [أي هو هَيِّنٌ عليهِ][7]: ابْتِداؤُهُ وإعادتُهُ كقولِهِ: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] وقولِهِ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩ و٢١] وتجوزُ العبارةُ مِنْ فَعَلَ نَحْوُ ما يُقالُ: اللهُ أكْبَرُ، أي كبيرٌ، وأعْظَمُ بِمَعْنَى عظيمٍ، ونحوُهُ كثيرٌ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي عليهِ هيِّنٌ؛ إذْ ليسَ شيءٌ أصْعَبَ على اللهِ مِنْ شيءٍ، أو شيءٌ أهْوَنَ عليهِ مِنْ شيءٍ، بلِ الأشياءُ كلُّها بِمَحلٍّ واحدٍ داخلٍ تحتَ قولِهِ: ﴿كُن﴾ [البقرة: ١١٧و..].

وإنما يُقالُ: أهْوَنُ وأيْسَرُ لِمَنْ كانَ فِعْلُهُ بِسَبَبٍ، فيهونُ عليهِ إذا كَثُرَتِ الأسبابُ، ويَصْعُبُ عليهِ، إذا قَلَّتْ، وضَعُفَتْ.

فأمّا اللهُ ﷻ: فهو[8] الفاعلُ للأشياءِ، وصانِعُها، والقادرُ عليها بِسَبَبٍ وبلا سَبَبٍ.

فلا جائزٌ أنْ يُقالَ [في حقِّهِ][9]: شيءٌ أهْوَنُ عليهِ مِنْ شيءٍ. وإنما يجوزُ ذلكَ [في][10] مَنْ كانَ فِعْلُهُ لا يكونُ إلّا بِسَبَبٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ في عقولِكُمْ وتقديرِكُمْ، أي إعادةُ الشيءِ في عقولِكُمْ وتدبيرِكُمْ أهْوَنُ مِنْ بَدْئِهِ، لأنَّ الخَلْقَ لا يَمْلِكونَ تصويرَ ما لم يَسْبِقْ لهُ المِثالُ والتَّصَوُّرُ ابْتِداءً.

وقد يكونُ تصويرُ الأشياءِ وتمثيلُها إذا سَبَقَ لهمْ مثالٌ رَأَوْهُ، وشاهَدوهُ. فَثَبَتَ أنَّ إعادةَ الشيءِ في عقولِكُمْ وتدبيرِكُمْ أهونُ مِنِ ابْتِدائِهِ. فإذا عايَنْتُمْ، وأقرَرْتُمْ أنهُ قادرٌ على بَدْئِهِ فهو [على][11] إعادتِهِ أمْلَكُ وأقْدَرُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يعني على ذلكَ الشيءِ، أي إعادةُ ذلكَ الشيءِ أهونُ مِنْ بدئِهِ، لأنهُ في الابْتِداءِ يَنْقُلُهُ، ويُحَوِّلُهُ مِنْ حالِ النطفةِ إلى حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المُضْغَةِ، ثم مِنْ حالِ المُضْغَةِ إلى حالِ التصويرِ والنَّسَمَةِ إلى ما ينتهي إليهِ حتى يصيرَ خَلْقاً وصورةً. فَيُخْبِرُ أنَّ إعادتَهُ ليسَتْ على التَّقديرِ و التَّحويلِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ ولكنْ كما ذَكَرَ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقولِهِ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وقولِهِ: ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٥٣ و..] [وقولِهِ][12]: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣] [وقولِهِ][13]: ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] وما ذَكَرَ. فالإعادةُ لذلكَ الشيءِ أهونُ على ذلكَ الشيءِ مِنَ الابْتِداءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لهُ الصفاتُ العاليةُ. ثم يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ كلَّ موصوفٍ بالعُلُوِّ والرفعَةِ مِنْ دونِهِ، فهو المَوصوفُ بِهِ في الحقيقةِ على ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ مَنْ حُمِدَ دونَهُ، فذلكَ الحمدُ لهُ في الحقيقةِ، راجعٌ إليهِ ذلكَ كقولِهِ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ الآية [الروم: ١٨و..]

والثاني: لهُ الصفةُ العاليةُ ممّا تُخالِفُ صِفاتِ الخَلْقِ وشَبَهَهُمْ كقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا تُشْبِهُ صِفاتُهُ صِفاتِ المَخْلوقينَ، ولا اشْتَبَهَتْ صفاتُ الخَلْقِ صفاتِهِ، وهو ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: الذي لا مِثْلَ لهُ، ولا شِبْهَ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣و..] واحدٌ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وقولهم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يأمره. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: و.

والثالثُ: ولهُ الصفاتُ العاليةُ ممّا لا يُضادُّ [بعضُها][1] بَعْضاً: عالمٌ، لا جَهْلَ فيه، قادرٌ، لا عَجْزَ فيهِ، عزيزٌ، لا ذُلَّ فيهِ. وأمثالُ ذلكَ ممّا لا يدخُلُ في ذلكَ نُقصانٌ أو عيبٌ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، ليسَ كالخلْقِ أنهمْ يُوصفونَ بالعِلْمِ بِجِهَةٍ وبشيءٍ وبالجَهْلِ بِجِهَةٍ أُخرَى وبالقُدْرَةِ بِجِهَةٍ أخرَى وبشيءٍ آخَرَ وبالعَجْزِ بِجِهَةٍ أُخرَى وبشيءٍ آخَرَ وبالعِزِّ بِجِهَةٍ أُخرَى وبشيءٍ آخَرَ وبالذُّلِّ بِجِهَةٍ أُخرَى وبشيءٍ آخَرَ.

فاللهُ ﷻ موصوفٌ بِصفاتٍ، لا يُضادُّ بعضُها بعضاً، ولا يدخُلُ في ذلكَ نُقصانٌ بِجِهَةٍ مِنَ الجهاتِ وفي حالٍ مِنَ الأحوالِ لأنهُ بذاتِهِ موصوفٌ بذلكَ لا بِغَيرِهِ ولا بَسَببٍ.

وأمّا غَيرُهُ فإنما يوصفونَ بذلكَ بأسبابٍ وبأعيانٍ[2]، تكونُ لهمْ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يَلْحَقُهُ / ٤١٢ ـ أ/ الذُّلُّ والضَّررُ بِمُخالَفَةِ خَلْقِهِ إيّاهُ وعِصيانِهِمْ لهُ، ليسَ كملوكِ الأرضِ إذا خالفَهَمْ[3] أتباعُهُمْ وحواشِيهِمْ ورعِيَّتُهُمْ، يُذَلّونَ، ويَلْحَقُهُمُ الضَّررُ بإعراضِهِمْ عنهمْ، لأنَّ عِزَّهُمْ كانَ بهِمْ. فَبإعراضِهِمْ عنهمْ ومُخالَفَتِهِمْ إياهُمْ يُذَلّونَ.

فأمّا اللهُ سبحانَهُ [فهو][4] عزيزٌ بذاتِهِ، لا يَلْحَقُهُ الضَّررُ والذُّلُّ بِمُخالَفَةِ الخَلْقِ إيّاهُ.

[ويَحْتَمِلُ][5] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المُنْتَقِمُ مِمَّنْ يُخالِفُ أمْرَهُ، ويَعْصيهِ، أو يُشرِكُ غَيرَهُ في أُلوهيَّتِهِ وعِبادتِهِ[6] و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ هو الذي لا يَلْحَقُه الخَطأُ في التدبيرِ.

يُخْبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أني، وإنْ خَلَقْتُهُمْ وأنشأتُهُمْ على عِلْمٍ مني أنهمْ يُخالِفونَني، ويَعْصونَني، وأعَنْتُهُمْ بكلِّ أنواعِ المَعونةِ على عِلْمٍ مني بذلكَ منهمْ، فإنَّ فِعْلَهُ ليسَ بِخارجٍ عنِ الحكمةِ كما يكونُ في الشاهدِ أنَّ مَنْ أعانَ عَدُوَّهُ بأنواعِ المَعونةِ، وهو يَعْلَمُ أنَّ معونَتَهُ إيّاهُ تزيدُ لهُ قوةً في مُعاداتِهِ ومُخالَفَتِهِ فهو[7] موصوفٌ [بالسَّفَهِ، غيرُ موصوفٍ][8] بالحكمةِ لأنهُ يَسْعَى[9] في إهلاكِ نفسِهِ، ويُعينُهُ على ذلكَ بِمَعونَتِهِ إياهُ. ومَنْ سَعَى في إهلاكِ نفسِهِ فهو غيرُ حكيمٍ.

فأمّا اللهُ سبحانَهُ حينَ[10] خَلَقَهُمْ، وأنشأهُمْ [فقد][11] أعانَهُمْ بكلِّ أنواعِ المَعونةِ على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ مِنَ الخِلافِ لهُ والعِصيانِ والعَداوةِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ضَرَبَ لكمْ مثلاً مِنْ مِثْلِ خَلْقِكُمْ. يقولُ، واللهُ أعلمُ: يُبَيِّنُ لكمْ مثلاً مِنْ أنفسِكُمْ ما لو تفكَّرْتُمْ، وتأمَّلْتُمْ، لَظَهَرَ لكمْ سَفَهُكُمْ بِعِبادَتِكُمُ الأصنامَ دونَ اللهِ أو تَسْوِيَتِكُمُ[12] الأصنامَ باللهِ. ثم يُخرَّجُ ضربُ المَثَلِ بما ذَكَرَ على وجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ[13]: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي لم تُسَوُّوا أنتُمْ أنفسَكُمْ بالذي مَلَكَتْ أيمانُكُمْ في ما رُزِقْتُمْ حتى تكونوا أنتمْ وهمْ سَواءً في ذلكَ. فكيفَ زعمتُمْ أنَّ اللهَ قد سَوّى نَفْسَهُ وما مَلَكَ مِنْ خَلْقِهِ في مُلْكِهِ وألوهيَّتِهِ؟

والثاني: يقولُ: هل تَرْضَونَ أنْ يكونَ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ شُركاءَكُمْ في ما تَمْلِكونَ مِنَ الأموالِ؟ فإذا لم تَرْضَوا بهِ فكيفَ زَعَمْتُمْ أنَّ اللهَ يَرْضَى أنْ يُشْرِكَ مَماليكَهُ في مُلْكِهِ وسلطانِهِ؟

[والثالثُ][14]: يقولُ: فإنْ لم تَرْضَوا لأنفسِكُمْ إشراكَ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ في مُلْكِكُمْ، ولم تُسَوُّوا مَماليكَكُمْ بأنفسِكُمْ في ذلكَ، فكيفَ رَضِيتُمُ ذلكَ للهِ، وسَوَّيْتُمْ نفسَهُ ومَماليكَهُ، وعَدَلْتُمْ بهِ دونَهُ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تَخافونَ مَماليكَكُمْ كما تَخافونَ أحراراً أمثالَكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: وباعتبار. (٣) في الأصل وم: خالفوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: وربوبيته. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يسبق. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: تسميتكم. (١٣) في الأصل وم: قولكم. (١٤) في الأصل وم: او.

تخافونَ لائِمَتَهُمْ كما يخافُ الرجلُ لائمة أبيهِ وأخيهِ وأقاربِهِ. وبعضُهُمْ يقولونَ: تخافونَ عبيدَكُمْ أنْ يَرِثوكُمْ [بعدَ الموتِ كما تَخافونَ أنْ يَرِثَكُمْ][1] أحرارٌ مِنْ أوليائكُمْ. وهو قولُ مُقاتِلٍ. لكنَّ الميراثَ ليسَ منَ الآيةِ في شيءٍ والأوَّلُ أشبهُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ دلالةٌ أنَّ العبدَ لا يكونُ لهُ حقيقةُ المُلْكِ في الأشياءِ كالأحرار، لأنهُ أخبَرَ أنهمْ ليسُوا هُمْ بسَواءٍ في الشِّرْكِ في ما رَزَقَ الساداتِ ومَلكُوا على العِلْمِ انهمْ يَشْتَرِكونَ جميعاً في المنافِعِ؟ دلَّ أنهمْ يَمْلِكونَ مَنافعَ الأشياءِ، ويُشْرِكونَ الأحْرارَ فيها، ولا يَمْلِكونَ حقيقةَ الإملاكِ.

وكذلكَ يدلُّ قولُهُ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٧٥] لمّا نَفَى عنهُ القدرةَ على شيءٍ، واللهُ اعلَمُ، يكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] أي يُغْنِهِمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ بالمَنافِعِ لا بِحقيقةِ مُلْكِ الأشياءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما]:[2] أي نُبَيِّنُها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لقومٍ يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ.

والثاني: قولُهُ: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ﴾ أي نُفَرِّقُ واحدةً بَعْدَ واحدةٍ على ما ذَكَرَ مِنْ أوَّلِ السورةِ إلى هذا المَوضعِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ كذا ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ كذا [الروم: ٢٠ ـ ٢٥].

والتَّفصيلُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: التَّبيينُ.

والثاني: التفريقُ في الذِّكْرِ: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٣] بُيِّنَتْ، وفُصِّلَتْ؛ فُرِّقَتْ واحدةً بعدَ واحدةٍ.

فإنْ قال لنا قائلٌ: في هذهِ الآياتِ التي ذُكِرَتْ ما يَدُلُّ على إيجابِ البعثِ، قيلَ: في هذهِ التي ذُكِرَتْ دفعُ الشُّبْهَةِ التي لها أنْكروا البعثَ لأنهمْ رَأوُا البعثَ مُمْتَنِعاً بالشُّبْهَةِ التي اعْتَرَضَتْ لهم.

ففي هذهِ الآياتِ دفْعُ تلكَ الشُّبْهَةِ التي رَأوُا البعثَ مُمْتَنِعاً حينَ[3] أراهُمْ بَدْءَ خَلْقِهِمْ وقيامَ السماءِ والأرضِ بالذي ذَكَرَ.

ثم إيجابُ البَعْثِ يكونُ بالأخبارِ الصادقةِ، وهي أخبارُ الرسلِ الذينَ[4] ظَهَرَ صِدْقُهُمْ، أو بما ذَكَرْنا أنَّ خَلْقَ الخَلْقِ بلا عاقبةٍ، تُجْعَلُ لهمْ، لِلْفَناءِ خاصَّةً خارجٌ عنِ الحكمةِ [لِوجوهٍ:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا أنَّ بِناءَ البناءِ في الشاهِدِ لِلنَّقضِ والإفناءِ خاصّةً بلا مَنْفَعَةٍ تُؤمَّلُ في العاقبةِ سَفَهٌ خارجٌ عنِ الحكمةِ][5] فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ الخَلْقِ لِلْفَناءِ خاصَّةً بلا عاقبةٍ، يكونُ خارجاً عنِ الحكمةِ.

والثاني: أنهُ لو لم يَجْعَلِ البعثَ وداراً أُخرَى لِيُفَرِّقَ بينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ فيها، وقد سَوَّى بَينَهما في هذهِ الدارِ. وفي الحكمةِ أنْ يُفَرِّقَ، ولا يُسَوِّيَ بَينهما. فلو لم تكنْ دارٌ أُخرَى، فيها يُفَرِّقُ لكانَ ذلكَ خارجاً عنِ الحكمةِ.

والثالثُ: في الحكمةِ أنْ يُجْزَى المُحْسِنُ لإحسانِهِ والمُسيءُ في إساءَتِهِ، وقد يكونانِ في هذهِ الدنيا، ويَخْرُجانِ منها، لا يُصيبُ المُحْسِنُ جَزاءَ إحسانِهِ ولا المُسيءُ جَزاءَ إساءَتِهِ. فلا بدَّ مِنْ دارٍ أُخرى لِيُجْزَى فيها كلٌّ بعَمَلِهِ. وفي ما ذَكَرْنا إيجابُ البعثِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوٓا﴾ أنفسَهُمْ حينَ[6] لم يَسْتعمِلوها في ما أُمِروا بالاسْتِعْمالِ فيهِ، بل صَرَفوها إلى غَيرِ ما أُمِروا بالاسْتِعْمالِ فيهِ، وظَلَموا حُجَجَ اللهِ وآياتِهِ وبراهينَهُ حينَ[7] لم يَتَّبِعوها، ولم يَضَعوها مَوضِعَها حيثُ وضِعَتْ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، من الأصل: الذي.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ في عبادتِهِمُ الأصنامَ وصَرْفِها عنِ اللهِ إلى مَنْ لا يَسْتَحِقُّ العبادةَ والشُّكْرَ، وذلكَ لِهَواهُمْ لأنهُ ليسَ معهمْ حُجَّةٌ ولا برهانٌ كقولِهِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الحج: ٧١] أي حُجَّةً وبرهاناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي [لا أحَدَ][1] سِوَى اللهِ يَهْدي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ، أي مَنْ آثَرَ[2] الضلالَ، واختارَهُ، أضَلَّهُ اللهُ: لا يَهديهِ[3] سِواهُ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يَنصُرُونَهُمْ[4] في دفعِ عذابِ اللهِ عنْ أنفسِهِمْ. أو ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي مِنْ مانِعينَ، يَمْنَعونَهُمْ[5] عنْ عذابِ اللهِ. واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا الخِطابُ لرسولِ اللهِ لأنهُ ذَكَرَ الآياتِ في ما تَقَدَّمَ حيثُ قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الروم: ٢٠، . . .] كذا وكذا، ثم ذَكَرَ الذينَ اتَّبَعوا أهواءَهُمْ بِغَيرِ عِلْمٍ، ثم قالَ لرسولِهِ[6]: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أنتَ ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: وعندَنا أيِ الخِطابُ بِهِ وبِمِثْلِهِ لِكُلِّ أحدٍ كقولِهِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] [وقولِهِ][7]: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] كأنهُ يُخاطِبُ كلَّ مَنِ انْتَهَى إليهِ هذا: أنْ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فَعَلى هذا قولُهُ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ هو لكلِّ أحَدٍ.

ثم الإقامةُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أقِمْ: أي داوِمْ جَهْدَكَ وقَصْدَكَ.

والثاني: أقِمْ: أتْمِمْ، وأقِمْ ما ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قال بعضُهُمْ: الحنيفُ مِنْ حَنَفِ القَدَمِ[9] ومَيلِهِ؛ معناهُ: كُنْ مائلاً إلى الدينِ في كلِّ حالٍ وكلِّ وَقْتٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الإخلاصِ والإسلامِ لهُ[10].

ثم فَسَّرَ ذلكَ، فقالَ: [﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها:][11][12] ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي معرفةَ اللهِ التي جَبَلَ الناسَ عليها: أنْ يكونَ اللهُ يَجْعَلُ في كلِّ صَغيرٍ وطِفلٍ مِنَ المعرفةِ ما يَعْرِفُ / ٤١٢ - ب/ وَحدانيَّةَ ربِّهِ ورُبوبيَّتَهُ على ما جَعَلَ لهمْ مِنَ المَعْرِفةِ ما فيهِ غِذاؤُهُمْ وقِوامُهُمْ مِنْ أخذِ ثَدْيِ أُمَّهاتِهِمْ في حالِ [صِغَرِهِمْ وطُفوليَّتِهِمْ][13]. ولذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ [ﷺ][14]: «كلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانِهِ، ويُنَصِّرانِهِ» [البخاري: ١٣٨٥] على ما جَعَلَ في الجبالِ مِنْ مَعْرِفةِ التسبيحِ لربِّها والتحميدِ، لكنَّ أبَوَيهِ يُشَبِّهانِ ذلكَ عليهِ، ويَصْرِفانِهِ.

والثاني: فَطَرَهُمْ، وجَبَلَهُمْ ما لو تُرِكوا وعقولَهُمْ لَكانوا على [ما][15] جُبِلوا، وفُطِروا، إذْ فُطِرَ كلٌّ[16] منهمْ، و جُعِلَ في خِلْقَةِ كلٍّ دلالةُ وحدانيَّةِ اللهِ ورُبوبيَّتِهِ. وكذلكَ قولُهُ: «كلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ» [البخاري ١٣٨٥] أي على الخِلْقَةِ التي تَدُلُّ، وتَشْهَدُ على وحدانيَّةِ اللهِ وربوبيَّتِهِ مالو تُرِكوا، وخُلِّيَ بَينَهُمْ وبَينَ عقولِهِمْ لأدْرَكوا.

والثالثُ: فَطَرَهُمْ على ما يَحْتَمِلُونَ الامْتِحانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: لا تَبْديلَ لِدِينِ اللهِ، سَمَّاهُ خَلْقاً.

وعلى قولِ المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ بأنَّ فِعْلَ العبدِ ليسَ بِمَخْلوقٍ، ويَحْتالونَ في قولِهِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تَبْديلَ لِما يَقَعُ بهِ الدعاءُ إليهِ، أو كلامٌ نحوُ هذا.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أحد. (٢) في الأصل وم: يؤثر. (٣) في الأصل وم: يهدي. (٤) في الأصل وم: ينصرهم. (٥) في الأصل وم: يمنعهم. (٦) في الأصل وم: لرسول الله. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: القوم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: صغره وطفوليته. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: كلا.

فَيُقالُ: إنَّ الدينَ هو ما يدينُ [به][1] المرءُ، وهو فِعْلُهُ، مأخوذٌ مِنْ دانَ يدَينُ. ثم أخبَرَ أنهُ خَلْقُ اللهِ. فَدَلَّ أنهُ مخلوقٌ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لِما فيه دلالةُ وَحدانيّةِ اللهِ وشهادةُ ربوبيّتِهِ كقولِهِ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] أي[2] لا تفاوُتَ في ما فيهِ دلالةُ الوَحدانيّةِ والشهادةُ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أخبَرَ أنَّ ذلكَ الدينَ القَيِّمَ بالحُجَجِ والبراهينِ، ليسَ كدينِ أولئكَ الكَفَرَةِ اتّباعَ الهَوَى، أو أنْ يكونَ الدينُ القَيِّمَ أي المُستَقيمَ على ما وَصَفَهُ اللهُ أنهُ الدينُ الحَنيفُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ فهذا يدلُّ على أنَّ الخِطابَ بقولِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لِلْكُلِّ حينَ[3] قالَ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي أقبِلوا إليهِ، وأنيبوا لهُ.

ثم الإنابةُ تَقَعُ على ما يَقَعُ بهِ الأمرُ، لأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، أنيبوا إلى اللهِ بِما يَأمُرُكُمْ بهِ، واتَّقُوهُ عمّا نهاكُمْ عنهُ. والتَّقْوَى مِنَ الإنابةِ كَهُوَ مِنَ البِرِّ كقولِهِ تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢٤] بما يأمُرُكُمْ بهِ، وتَتَّقُوهُ عمّا نهاكُمْ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها][4]: ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أيِ الزَموا، وداوِموا فِعْلَها إلى آخِرِ [عُمُرِكُمْ][5] ليسَ على أنْ يَقَعَ الأمْرُ بها مَرَّةً واحدةً.

والثاني: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أتِمُّوها بِرُكوعِها وسُجودِها والقراءةِ وغيرِ ذلكَ.

والثالثُ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أوفُوا إقامَتَها بأسبابِها التي جُعِلَتْ لها.

وفي الصلاةِ أحوالٌ ثلاثٌ: أحَدُها: الجَوازُ، والثاني: التمامُ والكَمالُ، والثالثُ: التزيينُ والتحسينُ.

ثم الجوازُ بحقِّ الأركانِ، والتَّمامُ والكمالُ بحقِّ الشُّعوبِ، والتزيينُ والتحسينُ بحقِّ الحواشي.

ويَجِبُ على كلِّ مُصَلٍّ خِصالٌ [ثلاثٌ][6]: صِدْقُ النِّيَّةِ، وحقُّ الإخلاصِ لهُ، والخُشوعُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أي لا تكونوا مِنَ المُشركينَ غَيرَ اللهِ في الصلاةِ والعبادةِ، أي لا تُصَلّوا لِغيرِ اللهِ، ولا تَعْبُدوا مَنْ دونَهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مَنْ دونَهُ في تَسْمِيَةِ الألوهيّةِ والرُّبوبيّةِ[7] لأنهمْ كانوا يُسَمّونَ الأصنامَ التي يَعْبُدونَها آلهةً، أو أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مُوَحِّدينَ مُقْبِلينَ على طاعتِهِ مُخْلِصينَ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لهُ غَيرَهُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟[8] دِينَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تكونوا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ ثم قولُهُ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ وقُرِئَ: فارَقوا فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: فارَقوا دينَهُمُ الذي جاءَتْهُمْ [به][9] الرسلُ.

[والثاني][10]: فارَقوا دينَهُمُ الذي فُطِروا عليهِ، وهو ما جَعَلَ فيهمْ مِنْ شهادةِ التوحيدِ لهُ والربوبيّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ يَحْتَمِلُ: وصاروا شِيَعاً، أي فِرَقاً وأحزاباً بَعدَها كانوا على ما فُطِروا، أو على ما جاءَتْهُمْ بِهِ الرسلُ، أو كانوا شِيَعاً: ما يَتَشَيَّعُ، ويَتْبَعُ بعضُهُمْ بعضاً لأنَّ الشيعةَ هُمُ الذينَ يَرْجِعونَ إلى أصلٍ واحدٍ وأمرٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾، أي قَطَّعوا دينَهُمْ، وجَعَلوهُ قِطَعاً وفِرَقاً وأدياناً مِنْ نحوِ اليهوديّةِ والمجوسيّةِ والنَّصرانيّةِ وغيرِها ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كلُّ أهلِ دينٍ ومِلَّةٍ بما عندَهُمْ مِنَ الدينِ راضونَ بهِ فرحونَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما تنهون عنه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: والإلهية. (٨) في الأصل وم: فارقوا، وهي قراءة حمزة وغيره، انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٥١. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في الذي فُطِرتُمْ عليهِ؛ وهو ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ واحدٍ شهادةَ الوحدانيَّةِ لهُ والدلالةَ؛ يقولُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿مُّنِيبِينَ﴾ مُخلِصينَ كقولِهِ: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]. وقالَ قائلونَ: مُطيعينَ، وقالَ قائلونَ: مُوَحِّدينَ.

وأصلُ الإنابةِ الرُّجوعُ، أي راجعينَ إليهِ عمّا كانوا فيهِ مِنَ الشِّرْكِ.

فالإنابةُ هي التوحيدُ، وإنْ كانَتِ الإنابةُ الإخلاصَ فهو رجوعٌ عنِ الإشراكِ في العبادةِ، وإنْ كانَتِ [الرجوعَ][1] عنِ العِصْيانِ فهو الطاعةُ. وأصْلُها[2] الرجوعُ عمّا كانوا فيهِ. ففيهِ وجوهٌ مِنَ الاحْتِجاجِ على أولئك وتَنْبيهٌ وعِظَةٌ للمؤمِنينَ:

أحَدُها:[3] الاحْتِجاجُ عليهِمْ: أنهُ معلومٌ أنهم[4] كانوا لا يركبونَ السُّفُنَ والبِحارَ معَ المؤمِنينَ، ولكنْ كانوا يركبونَ بأنفسِهِمْ. ثم أخْبَرَ عَما أخلَصوا لهُ الدُّعاءَ والتَّضرُّعَ. دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ. فذلكَ يَدُلُّ على رسالتِهِ.

والثاني: فيهِ دلالةُ أنهمْ قد عَرَفوا وَحدانيَّةَ اللهِ وألوهِيَّتَهُ حينَ[5] فَزِعوا عندَ الشدائدِ والبَلايا إلى اللهِ أخْلَصوا لهُ الدينَ. ثَبَتَ أنهمْ قد عَرَفوا سَفَهَ أنفسِهِمْ في عبادَتِهِمُ الأصنامَ وتركِهِمْ عبادةَ اللهِ تعالى.

والثالثُ: تصديقٌ[6] لقولِهِ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] لأنهمْ كانوا يسألونَ الرَّدَّ إلى الدنيا لِيُؤمِنوا بهِ كقولِهِمْ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧] فأخْبَرَ أنهمْ يَعودونَ إلى ما كانوا [عليهِ][7] كما عادوا لمّا[8] كَشَفَ عنهمُ الضُّرَّ.

وأمّا العِظَةُ والتَّنْبيهُ للمؤمِنينَ فهو أنْ يكونوا[9] في الأحوالِ كلِّها على حدٍّ واحدٍ في حالِ الرَّخاءِ والشِّدَّةِ ذاكرينَ، لأنهمْ في حالِ الشِّدَّةِ والبَلايا أكْثَرُ ذِكْراً لهُ وإنابةً مِنْ حالِ السَّعَةِ والرخاءِ، فَيُنَبِّهُهُمْ ليكونوا في كلِّ حالٍ ذاكِرينَ لهُ مُنيبينَ إليهِ.

وفيهِ دلالةُ شِدَّةِ سَفَهِ أولئكَ الكَفَرَةِ حينَ[10] أنابوا إليهِ، وأخْلَصوا لهُ الدينَ عندما أصابَتْهُمُ[11] الشِّدَّةُ والبلاءُ، وأعْرَضوا عنهُ[12]، وأشْرَكوا[13] في ألوهِيَّتِهِ عندَ السَّعَةِ.

وفي طِباعِ الخَلْقِ في الشاهدِ خِلافُ ذلكَ: أنَّ مَنْ ضَيَّقَ على آخَرَ أمْرَهُ، وشَدَّدَهُ فهو يُعْرِضُ عنهُ، ويَبْغُضُهُ، ومَنْ أنْعَمَ عليهِ مِنْ ملوكِ الأرضِ، وأحْسَنَ، أطاعَهُ، وأحَبَّهُ لِشِدَّةِ سَفَهِهِمْ عَكَسُوا[14] طباعَهُمْ، وخالَفوا طِباعَ الناسِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي السَّعَةَ والرَّخاءَ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فإنْ قيلَ: ما فائدةُ ذِكْرِ هذهِ الآياتِ وأمثالِها، وهمْ كانوا لا يُؤمِنونَ بها، ولا يَنْظُرونَ فيها؟

قيلَ: قد يَحْتَجُّ عليهِمْ بِما لا يُقِرّونَ، ولا يَنْظُرونَ [فيهِ، أو يَنْظُرُ][15] في ذلك، فريقٌ، ويَعْرِفونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو على التقديمِ والتأخيرِ؛ يقولُ: إذا أذاقَهُمْ منهُ رَحْمَةً لئلا يَكْفُروا. أو: إنما أذاقَهُمْ منهُ رَحْمَةً لئلا يَكْفُروا، لكنهمْ كَفَروا. إلى هذا ذهبَ مُقاتِلٌ.

وعندَنا ما ذَكَرْنا: أذاقَهُمْ منهُ رَحْمَةً ليكونَ منهمْ ما قد عَلِمَ أنهمْ يَخْتارونَ، ويكونُ /٤١٣ ـ أ/ منهُمْ، وهو الكُفْرُ.

ولا جائزٌ أنْ يذيقَهُمُ الرحمةَ لئلا يَكْفُروا، ويُعْلَمَ منهمْ أنهمْ يَخْتارونَ الكُفْرَ، ويكونُ منهمْ ذلكَ، فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وأصله. (٣) في الأصل وم: إما. (٤) في الأصل وم: لأنهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: تصديقا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إذا. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: يصيبهم. (١٢) في الأصل وم: يعرضون. (١٣) في الأصل وم: ويشركون. (١٤) في الأصل وم: عكس. (١٥) في الأصل: فيهما وأن ينظرون، في م: فيه أو أن ينظرون.

ثم [في][1] الآيةِ دلالةُ نَقضِ قولِ المعتزلةِ في قولِهِمْ: إنَّ على اللهِ الأصلَحَ للعبادِ لهمْ في الدينِ، وقولِهِمْ: إذا عُلِمَ مِنْ أحدٍ منهمُ الإيمانُ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ ليسَ لهُ أنْ يَختَرِمَهُ[2]، ولكنْ عليهِ أنْ يُبْقِيَهُ إلى ذلكَ الوقتِ [لأنهُ لوِ اخترَمَهُ[3] قبلَ ذلكَ الوقتِ][4] لكانَ هو المانعَ إيمانَهُ.

فَيُقالُ: إنَّ أولئكَ الكَفَرةَ لمّا أخلصوا دينَهُمْ للهِ في حالِ الشدّةِ وخوفِ الهلاكِ لم يُبْقِهِمُ اللهُ على ذلكَ الإخلاصِ والحالِ التي يُخلِصونَ الأمرَ لهُ أو الدينَ؛ بل وَسَّعَ عليهِمْ، وحَوَّلَهُمْ مِنْ تلكَ الحالِ حتى عادوا إلى ما كانوا.

دَلَّ أنْ ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصلَحِ لِلْخلقِ في الدينِ، وقد أمَرَ نَبيَّهُ بِمُقاتلةِ الكَفَرةِ مُطْلَقاً، ولعلَّهُمْ يُسْلِمونَ في وقتٍ لو تُرِكوا، أو[5] بعضٌ منهمْ. دَلَّ أنْ ليسَ ذلكَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ هو في الظاهرِ أمْرٌ، ولكنهُ يُخَرَّجُ على الوَعيدِ كقولِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وقد ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت: ٦٦] فهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا﴾ بل أنزلْنا عليهِمْ سُلْطاناً حُجَجاً ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي يُبيِّنُ، ويُعْلِمُهُمْ أنَّ الذي همْ عليهِ شِركٌ، ليسَ بِتوحيدٍ لأنهمْ كانوا يقولونَ: إنّا على التوحيدِ، وإنما نَعبُدُ هذهِ الأصنامَ ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحوَهُ.

فيقولُ: بل أنزَلْنا عليهِم ما يُبيِّنُ، ويُعْلِمُ أنَّ ذلكَ شِركٌ، وليسَ بتوحيدٍ.

ويَحتمِلُ وجهاً آخرَ؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي ما أنزلْنا عليهمْ سلطاناً، فَيأمُرَهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أو يَأذَنَ لهمْ بذلكَ كقولِهِ: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤]. فَعَلى ذلكَ قولُهُ ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي لم نُنْزِلْ عليهِمْ سُلْطاناً يأمُرُهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ إذْ[6] كانوا يَدَّعونَ بذلكَ أمْرَ اللهِ كقولِهِمْ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ففيهِ وجهانِ على أولئكَ الكَفَرةِ.

أحَدُهُما: ما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا يَدَّعونَ بذلكَ الأمرَ مِنَ اللهِ، فَيُخبِرُ أنهمْ كَذَبَةٌ في قولِهِمْ: إنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ. بل لم يَأمُرْهُمْ بذلكَ، ولا أنْزَلَ عليهِمُ الكتابَ أوِ السلطانَ في إباحةِ ذلكَ.

والثاني: يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في عبادتِهِمُ الأصنامَ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ، ويُسمّونَها آلهةً بلا سُلْطانٍ ولا حُجّةٍ، كانوا يطلُبونَ على ذلكَ. ثم كانوا يَطْلُبونَ مِنَ الرسولِ آياتٍ تَقْهَرُهُمْ، وتَضْطَرُّهُمْ على رسالتِهِ وما يُوعِدُهُمْ بَعْدَ ما آتاهُمْ مِنَ الآيةِ ما أعْلَمَهُمْ، وأنبأهُمْ، أنهُ رسولٌ، فالعبادةُ أعظمُ وأكبرُ للمعبودِ مِنَ الرسالةِ.

فإذا لم تطلُبوا لأنفسِكُمُ الحُجّةَ والآيةَ القاهرةَ في إباحةِ ما تَعْبُدونَ مِن دونِ اللهِ فكيفَ تَطلُبونَ مِنَ الرسولِ الآيةَ القاهرةَ في إثباتِ الرسالةِ؟.

وقال بعضُهُمْ: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ كتاباً، فيه عُذْرٌ لهمْ، فهو يَشْهَدُ بما كانوا بهِ يُشْركونَ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ إذا أُريدَ أنْ يُسَوّى بَينَ هذهِ الآيةِ والآيةِ التي قَبْلَها، وهي[7] قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] إلى آخرِهِ، ويُجمَعَ بَينَهما، يكونُ قولُهُ: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ مِنَ الأصنامِ التي يَعْبُدونها أنهُ يقولُ في هذهِ الآيةِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وفي الأولى يقولُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾.

فَوَجْهُ الجَمْعِ بَينَهما ما ذَكَرْنا أنْ يكونَ القنوطُ مِنَ الأصنامِ، واللهُ أعلمُ، كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يخترعه. (٣) في م: اخترعه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: أي.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: وهو.

تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ عندما امْتَدَّ بِهِمُ الضُّرُّ والشِّدَّةُ، حينئذٍ يَيْأَسُونَ مِنْ رحمةِ اللهِ. والأوّلُ في ابْتِداءِ ما أصابَهُمْ مِنَ الضُّرِّ فَزِعوا إليهِ، وأنابوا لهُ. أو أنْ تكونَ إحدى الآيتَينِ في قومٍ والأُخرَى في قومٍ آخَرِينَ، لأنهمْ كانوا فِرَقاً وأحزاباً في الكُفْرِ والشِّرْكِ:

منهمْ مَنْ كانَ يُشْرِكُ في الأحوالِ كلِّها: في حالِ الضِّيقِ والسَّعَةِ.

ومنهمْ من كانَ يُشْرِكُ في حالِ الضِّيقِ، فَيُؤمِنُ في حالِ السَّعَةِ كقولِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾. [هـود: ٩ و١٠] وكقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

ومنهُمْ مَنْ كانَ يُخْلِصُ الدينَ في حالِ الضُّرِّ والشِّدَّةِ، ويُعانِدُ، ويَتَمَرَّدُ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ونَحْوُهُ.

فكانوا فِرَقاً وأحزاباً على ما ذَكَرْنا. فجائزٌ أنْ تكونَ إحدى الآيتَينِ في فريقٍ وقومٍ والآيةُ الأُخْرَى في قومٍ آخَرِينَ، أو ما ذَكَرْنا مِنِ اخْتِلافِ الأحوالِ يَقْنَطونَ عندَما يمْتَدُّ[1] بهمُ الضُّرُّ والشِّدَّةُ، ويُنيبُونَ[2] إليهِ عندما لم يَمْتَدَّ إليهِمْ ذلكَ، ولم يَتطاوَلْ، أو ما ذَكَرْنا مِنَ القُنوطِ مِنَ الأصنامِ والإنابةِ إلى اللهِ كقولِهِ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وإلّا الآيتانِ في الظاهِرِ مُتَناقضتانِ. ولكنَّ الوَجْهَ فيهما[3] ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [أنْ يكونَ حُجَّةً][4] على الكافرينَ كقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثم وَجْهُ الآياتِ لهمْ على كُفّارِ مكةَ مِنْ وجوهٍ: في إثباتِ الرسالةِ، وفي البعثِ، وفي[5] إظهارِ سَفَهِهِمْ في عبادةِ الأصنامِ وإشراكِهِمْ إياها في عبادةِ اللهِ لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا يُنْكِرونَ الرسالةَ والبعثَ، ويَرَونَ عبادةَ غَيرِ اللهِ فالاحْتِجاجُ عليهمْ بهذهِ الآيةِ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

فأمّا الاحْتِجاجُ في إثباتِ الرسالةِ فهو مِنْ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنهمْ كانوا يُنْكِرونَ الرسالةَ لأنهمْ بَشَرٌ، ولا يَرَونَ للبَشَرِ بعضِهِمْ على بعضٍ فَضلاً كقولِهِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤ و٣٣] فَيُريهِمُ الفضلَ لبعضِهِمْ على بعضٍ في الرزقِ مُوَسَّعاً على بعضٍ مُضَيَّقاً مُقَتَّراً على بعضٍ. فإنْ ثَبَتَ عندهمْ، وظَهَرَ الفضلُ لبعضٍ على بعضٍ في ما ذَكَرْنا فيجوزُ الفضلُ على بعضٍ في الرسالةِ.

والثاني: ذَكَرَهُ[6] مُقابلاً لقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يُخْبِرُ أنَّ الأمرَ ليسَ إليهمْ إنما ذلكَ [إلى اللهِ][7] يختارُ مَنْ يَشاءُ لِما يَشاءُ مِنَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ وغَيرِهما كما يَخْتارُ التوسيعَ على مَنْ يَشاءُ والتضيِيقَ والتَّقْتيرَ على مَنْ يَشاءُ، وإنْ كانوا جميعاً يَتَمَنَّونَ السَّعَةَ، ويُحِبّونَها، ويَهْرُبونَ مِنَ الضيقِ والتقتيرِ. ولكنَّ الأمرَ في ذلكَ إلى اللهِ كلِّهِ.

والثالثُ: وَسَّعَ على بعضٍ، وضَيَّقَ على بعضٍ؛ فالجِهَةُ التي وَسَّعَ على بعضٍ غَيرُ الجِهَةِ التي ضَيَّقَ على بعضٍ، فلا بُدَّ مِنْ رسولٍ يُخْبِرُ عنْ ذلكَ، ويُعْلِمُ ما على هذا وما على هذا، وما جهةُ التفريقِ بَينَهُمْ والتفضيلِ في الرزقِ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا الاحْتِجاجُ عليهمْ في البعثِ بها فَمِنْ وجوهٍ أيضاً:

أحَدُها: أنهُ جَمَعَ في هذهِ الدنيا بَينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ، وسَوَّى بَينَهما في التوسيعِ والتَّضييقِ؛ إذْ وَسَّعَ على العَدُوِّ والوَلِيِّ [جميعاً، وضَيَّقَ على الوَلِيِّ][8] وَوَسَّعَ على العَدُوِّ. وفي الحكمةِ والعقلِ التفريقُ بَينَهما في هذهِ الدنيا [لا الجَمْعُ والتَّسْوِيَةُ، وقد سَوَّى بَينَهما في هذهِ الدنيا][9] وجَمَعَ. فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخْرَى، فيها يُفَرِّقُ بَينَهما، فَيَلْزَمُهُمُ البعثُ، واللهُ الموفقُ.

---

(١) في الأصل وم: امتده. (٢) في الأصل وم: ينسون. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: إليهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: أنهُ وَسَّعَ الرزقَ على مَنْ هو في تقديرِهِمْ وعقولِهِمْ [أنه لا يَجِبُ التوسيعُ][1] عليهِ؛ وهو السفيهُ /٤١٣ ـ ب/ الجاهلُ الذي في تقديرِ كلِّ ذي عقلٍ ولبٍّ أنْ يكونَ مَحروماً مُضيَّقاً، وضَيَّقَ على مَنْ هو في تقديرِ كلِّ أحدٍ وعَقْلِهِ أنْ يكونَ مُوَسَّعاً عليهِ مَرْزوقاً، وهو العاقلُ العارفُ بجميعِ أسبابِ السَّعَةِ والغِنَى، وفي التقديرِ على خِلافِ هذا، فلا بدَّ مِنْ مكانٍ فيهِ يَظْهَرُ التفضيلُ للعقولِ والمعارفِ والرغبةُ فيها والرغبَةُ عنْ أضدادِها ومَنْ هو أهلَ التوسيعِ ومَنْ هو أهلُ الحِرْمانِ إذْ قدِ اشْتَرَكوا في هذهِ.

والثالثُ: أن يَعْتَبِروا، ويَنْظُروا، بأنَّ مَنْ قَدَرَ على توسيعِ الرزقِ وبَسْطِهِ وتَضْيِيقِ الرزقِ وحرمانِهِ بالأسبابِ الخارجةِ عنْ تقديرِهِمْ وتدبيرِهِمْ وبِغَيرِ أسبابٍ قادرٌ على إحياءِ الأشياءِ الخارجةِ عنْ قدرتِهِمْ وتدبيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا وجهُ الاحتجاجِ عليهِمْ بعبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ ففي ذلكَ تناقضٌ، وذلكَ بأنهمْ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[2]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وكانَتْ لا تَشْفَعُ في الدنيا، ولا تقرِّبُهُمُ الزُّلْفَى فيها في التوسيعِ والبسطِ ودفعِ الضيقِ، وفي الآخرةِ لا يُحْتَمَلُ [ذلكَ][3] لأنهمْ كانوا لا يؤمِنونَ. فهو تَناقُضٌ وسَفَهٌ وسَرَفٌ في القولِ.

وهذهِ الآيةُ وغَيرُها مِنَ الآياتِ تَنْقُضُ على المعتزلةِ لأنهمْ لا يَجْعلونَ للهِ في مكاسِبِ الخَلْقِ وحِرَفِهِمْ وتجاراتِهِمْ وجميعِ أسبابِهِمُ التي بها يرتزقونَ، ويَتَعَيَّشونَ صُنْعاً، وإنما يَجْعَلونَ ذلكَ في الخارجِ مِنَ الأرضِ.

فالناسُ في ذلك [في توسيعٍ][4] وتَضْيِيقٍ إذا لم يكنْ لهُ في تِلْكَ الأسبابِ والمكاسِبِ صُنْعٌ.

فَدَلَّ أنَّ للهِ في ذلكَ صُنْعاً حينَ[5] يقعُ منهُ البسطُ والتوسيعُ والتضييقُ والتقتيرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ما ذَكَرْنا: يكونُ للمؤمنينَ في ذلكَ آياتٌ على الكفارِ.

والثاني: لقومٍ يَنْتَفِعونَ بإيمانِهِمْ، والمُنْتَفِعونَ هُمُ المُنْتَفِعونَ بها. فأمّا مِنْ كَفَرَ فلا يَنْتَفِعُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في ذلكَ العِبْرَةُ مِنْ وَجهٍ آخَرَ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو ألّا يُعَلِّقوا قلوبَهُمْ في الرِّزْقِ بالأسبابِ التي يكتسِبونَ بها، ولكنْ يَرَونَ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ؛ أنهُ يرزقُ بأسبابٍ وبِغَيرِ أسبابٍ، أو يذكُرَ هذا لهمْ على أنَّ مَنْ رَفَعَ الحاجةَ إلى آخَرَ، فلم يَقْضِها، فهو[6] يَرَى حِرْمانَها مِنَ اللهِ لا مِنْ ذلكَ الرجلِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَقَّهُۥ﴾ أي حاجَتَهُ[7] لا على حقٍّ كانَ له كقولِهِ: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩] أي مِنْ حاجةٍ؛ إذْ مَعلومٌ أنهُ لم يكُنْ لهمْ في بَناتِهِ حقٌّ، ولكنْ أرادوا بالحقِّ الحاجةَ. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سُدَّ المسكينَ حاجَتَهُ ومَسْكَنَتَهُ، وكذلكَ: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ الحقَّ الذي كانَ لهُ[8]. لكنْ لم يُبَيِّنْ ذلكَ الحقَّ في هذهِ الآيةِ، وبَيَّنَهُ[9] في آيةٍ أُخرى بقولِهِ[10]: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] وما ذَكَرَ مِنَ المواريثِ بقولِهِ[11]: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الآية: [النساء: ١١] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الحقوقِ، وحقُّ المسكينِ وابنِ السبيلِ ما ذَكَرَ مِنَ الصَّدقاتِ والزكاةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي الإيتاءُ للأقربينَ والمساكينِ والفقراءِ

---

(١) في الأصل: لا يوجب التوسع، في م: لا يوجب التوسع. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حتى. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) من م، في الأصل صاحبته. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) في الأصل وم: وبين. (١٠) في الأصل وم: كقوله. (١١) في الأصل وم: قوله.

خيرٌ مِنَ الأبْعَدينَ والأغنياءِ وغيرِهِمْ. أو أنْ يكونَ قولُهُ [﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي](١) ذلكَ الإيتاءُ إذا أُريدَ وجهُ اللهِ [خيرٌ مِمّا لا](٢) يُرادُ بِهِ [وجْهُ اللهِ](٣).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو المُنْقَطِعُ عنْ مالِهِ، يُعانُ حتى يَصِلَ إلى مالِهِ؛ وقيلَ: الضعيفُ يَنْزِلُ، فَيُحْسَنُ إليهِ إلى أنْ يَرْجِعَ، ويَرْتَحِلَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي آتِ مَنْ ليسَتْ لهُ عندَكَ نعمةٌ فيكونَ ذلك مكافأةً لتلكَ النعمةِ، ولكنْ على إرادةِ وجهِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى](٤): ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الفَلاحَ، هو البقاءُ، وقيلَ: النجاةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] المُستقيمُ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] أي تائبينَ ﴿يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] ييأسونَ

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: هذا في العَطايا التي يعطي بعضُهُمْ بعضاً، ويَهْدونَ لِيُصيبوا أكْثَرَ ممّا أعْطَوا، وأهْدَوا مُجازاةً ومكافأةً.

لذلكَ كأنهُ يقولُ: وما آتَيتُمْ مِنْ عَطِيَّةٍ وهديَّةٍ ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ لِتَزدادوا مِنْ أموالِ الناسِ، ولِتَلْتَمِسوا الفضلَ مِنْ أموالِهِمْ، يقولونَ: هذا رباً حَلالٌ، لا وِزْرَ فيهِ، ولا أجْرَ، فهو مُباحٌ للناسِ عامّةً، لا بأسَ بِهِ.

وأمّا قولُهُ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] فهو للنبيِّ خاصّةً؛ يقولُ: لا تُعْطِهِ لِتُعْطَى أكْثَرَ منهُ ابْتِغاءَ الثوابِ في الدنيا، ولكنْ أعْطِ ابْتِغاءَ ثوابِ الآخِرَةِ. ويَسْتَدِلّونَ بإباحةِ ذلك بقولِهِ: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ولم يَقُلْ ما قالَ في الربا المُحَرَّمِ المَحْظُورِ حينَ(٥) قالَ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ذَكَرَ المَحْقَ هنالكَ، وههنا ذَكَرَ ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يزدادُ، ولا يَتضاعفُ.

لكنْ لو قيلَ: إنها في الربا المحظورِ كانَ جائزاً مُحْتَملاً، ويكونُ قولُهُ: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ كقولِهِ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ٦] إذا لم تَرْبَحْ خَسِرَتْ.

ألَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؟ [الأنفال: ٣٧] دلَّ أنها إذا لم تَرْبَحْ خَسِرَت. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إذا لم يَرْبُ عندَهُ بِحَقِّهِ، وخَسِروا، واللهُ أعلَمُ.

لولا صَرْفُ أهلِ التأويلِ التأويلَ إلى الهدايا والعطايا التي يُبْتَغَى بها الثوابُ في الدنيا، والمكافآتُ فيها أكْثَرَ ممّا أعطَوا. وإلّا جازَ صَرْفُهُ إلى الربا المَعْروفِ بينَ الناسِ في العقودِ.

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «الهديةُ يُبْتَغَى بها وجْهُ الرسولِ وقضاءُ الحاجةِ، والصدقةُ يُبْتَغى بها وَجْهُ اللهِ والدارُ الآخِرَةُ».

ثم بَيَّنَ ما الذي يَرْبو عندَ اللهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ثم اخْتُلِفَ فيهِ. [منْهُمْ مَنْ](٦) قالَ: هو ما يُزَكّونَ مِن زكاةِ المالِ، يريدونَ بهِ وَجْهَ اللهِ، فهو الذي يَقْبَلُهُ اللهُ، ويُضاعِفُ عليهِ.

ومنْهُمْ مَنْ قالَ: كلُّ صَدَقَةٍ أعطاها أرادَ وَجْهَ اللهِ، لم يُرِدْ بها الثوابَ في الدنيا، فهي التي تتضاعَفُ، وتزدادُ عندَ اللهِ.

[وقولُهُ تعالى](٧): ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وكانَ مَجيءُ أنْ يُقالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ المُضْعَفونَ بِنَصْبِ العَينِ(٨) لأنهُ هو يُضاعِفُ لهمْ. لكنَّ الزّجّاجَ يقولُ: هو كما يُقالُ: الموسِرُ، هو الذي لهُ إيسارٌ، والمُقَوِّى الذي لهُ القوةُ، ونَحْوُهُ. فَعَلَى ذلكَ: المُضْعِفُ، هو الذي لهُ الضِّعْفُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: مما، في م: مما لا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) هذه قراءة أبيّ بن كعب، انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٧٣.

وعندَنا، همُ المُضعِفونَ لأنهمْ همُ الذينَ جَعَلوا الآحادَ عَشَراتٍ والأضعافَ المُضاعَفةَ بِتَصدُّقِهِمُ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ، فهمُ المُضعِفونَ لأنفسِهِمْ ذلكَ.

ثم يجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بهذهِ الآيةِ على إباحةِ هذهِ المعاملاتِ التي تجري في ما بَينَ الناسِ لأنهُ أجازَ الهديَّةَ والعَطِيَّةَ على قَصْدِ الفَضْلِ والزيادةِ، وإنْ كانَ على شَرْطِ الزيادةِ لا يجوزُ. فَعَلَى ذلكَ المُعامَلَةُ تَجوزُ على قَصْدِ الزيادةِ والفَضْلِ، وإنْ كانَ على [شَرْطِ الزيادةِ [فلا يَجوزُ][1].

لكنَّ أبا حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، كَرِهَ هذهِ المُعاملاتِ، ولم يَكْرَهِ الهديَّةَ على قَصْدِ طَلَبِ الفَضْلِ لوجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ ليسَ العُرْفُ في الناسِ في الهدايا إعطاءَ الفَضْلِ، وإنْ كانَ][2] قَصْدُ أولئكَ طَلَبَ الفَضْلِ، لا مَحالَةَ، بل يُكافِئونَ مَرَّةً الأكْثَرَ / ٤١٤ ـ أ/ ولا يُكافِئونَ بعضاً، ويَحْرِمونَ بعضاً، فلا يُكْرَهُ. وأمّا المُعامَلةُ فلا تكونُ إلّا على قَصْدِ ذلكَ الفَضْلِ، فلا يَرْضَونَ منهمْ إلّا حِفْظَ المَقْصودِ فيها. وأهلُ العَطايا والهدايا فَيَرْضَونَ بالثناءِ الحَسَنِ والشُّكْرِ لهمْ، وأهلُ المُعامَلةِ لا.

رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، [أنهُ قالَ][3]: «مَنْ أُسْدِيَ إليهِ نِعْمَةٌ فَلْيُجازِهِ، وإلّا فَلْيَشْكُرْهُ، وليُثْنِ عليهِ» [تاريخ أصبهان: ٢/ ١٧١]. أو كلامٌ نحوُ هذا.

والثاني: أنَّ أهلَ المُعامَلةِ يَشْتَرِطون قبلَ المُعامَلةِ الزيادةَ، وإنْ كانوا لا يَشْتَرِطونَ في عَقْدِ المَعامَلةِ.

ولا كذلكَ أهلُ العطايا والهدايا، بل يُعَرِّضونَ[4] تعريضاً. لذلكَ افْتَرَقا[5]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً، وأنتمْ تَعلَمون ذلكَ ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ وأنتمْ تَعلَمونَ أنْ لا رازِقَ لكمْ غَيرُهُ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ وأنتمْ تَعلَمونَ ألّا يملِكَ أحدٌ غَيرُهُ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ يَمْلِكُ إحياءَكُمْ، ولا يَمْلِكُ أحدٌ مِمَّنْ تَعْبدونَ دونَهُ منَ الأصنامِ ذلكَ، فكيفَ تَعبُدونَ دونَهُ؟ وهو قولُهُ: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: هؤلاءِ الذينَ تَعبُدونَ شُرَكاؤُكُم في ما ذَكَرَ مِنَ الخِلْقَةِ والرِّزْقِ، فكيفَ تَعبُدونَ، وتَتَّخِذونَ آلهةً دونَهُ؟

والثاني: هل مِنْ شركائكُمُ الذينَ اشركْتَموهُمْ[6] في عبادةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ [مَنْ][7] يملكُ ما ذَكَرَ؟ يقولُ: لا يَمْلِكُ شيئاً ممّا ذَكَرَ على عِلْمٍ منكُمْ أنه[8] لا يَمْلِكُ ذلكَ، فيقولُ: فكيفَ تُشْرِكونَهُ[9] في ألوهِيَّتِهِ؟.

ثم نَزَّهَ نفسَهُ، وبرّأها[10] مِنْ جميعِ العيوبِ التي وصَفَهُ [بها][11] الملحدونَ: فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لأنَّ حَرْفَ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ حَرْفُ تنزيهٍ عنْ جميعِ العيوبِ. والتَّعالي هو وصفُ تَبْرِئةٍ مِنْ أنْ يَغْلِبَهُ شيءٌ، أو يَقْهَرَهُ؛ هو مِنَ العُلُوِّ، مُتعالٍ عنْ أنْ يغلِبَهُ شيءٌ أو يَقْهَرَهُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هو الشِّرْكَ والكُفْرَ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ مِنَ الأمورِ التي كانوا يَتَعاطَونَ مِنْ قطعِ الطريقِ والسَّرَفِ والظلمِ وأنواعِ أعمالِ السُّوءِ التي يَتَعاطَونَها. ذلكَ سَبَبُ شِرْكِهِمْ وكُفْرِهِمْ باللهِ. وبذلكَ كانَ يُغَطّي قلوبَهُمْ حتى لا تَتَجَلّى قُلوبُهُمْ للإيمانِ كقولِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وكقولِهِ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ٧٧] ونَحوَهُ. فإنْ كانَ هذا فهو على حقيقةِ تقديمِ الأيدي والكَسْبِ.

والثاني: يكونُ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ هو القَحْطُ وقِلَّةُ الأمطارِ والأنزالِ والضيقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يتعرضون. (٥) في الأصل وم: افترق. (٦) في الأصل وم: اشركتموها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنها. (٩) في الأصل وم: تشركونها. (١٠) في الأصل وم: وبرأه. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ هو شِرْكُهُمْ وكُفْرُهُمْ وتعاطيهِمْ ما لا يَحِلُّ، أي ذلكَ القَحْطُ والضيقُ وقلةُ الأنزالِ والشدائدُ لهمْ لِشِرْكِهِمْ وكُفْرِهِمْ وأعمالِهِمُ التي اختاروها.

ويكونُ ذِكْرُ كَسْبِ الأيدي على المجازِ لا على الحقيقةِ، ولكنْ لِما باليدِ يُكْتَسَبُ، وبالقَدَمِ يُقَدَّمُ؛ ذِكْرُ اليدِ كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ولعلّهُ لم يُقَدِّمْ شيئاً، لكنهُ ذَكَرَ أنهُ ظَهَرَ هذا[1] الشِّرْكُ والكفرُ بحقيقةِ كسْبِ الأيدي مِنْ أعمالِ السوءِ التي ذَكَرْنا. ذلكَ كانَ يمنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ وكشفِ الغِطاءِ عنْ قلوبِهِمْ.

وفي التأويلِ الآخَرِ: الفسادُ الذي ظَهَرَ مِنَ القَحْطِ وقِلّةِ الأمطارِ والأنزالِ والضيقِ بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ، هو الشِّرْكُ والكُفْرُ وتعاطي ما لا يَحِلُّ لا على حقيقةِ كسْبِ الأيدي ولكن لِما ذَكَرْنا.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾: قالَ بعضُهُمْ: البَرُّ، وهو المَفازةُ التي لا ماءَ فيها، والقُرى والأمصارُ. وقالَ بعضُهُمْ: أمّا البَرُّ فأهلُ العَمودِ، وأمّا البحرُ فهمْ أهلُ القُرى والريفِ. وقالَ بعضُهُمْ: [فسادُ][2] البَرِّ: قَتْلُ ابنِ آدمَ أخاهُ، [وفسادُ البحرِ][3] أخذُ المَلِكِ كلَّ سفينةٍ غَصْباً.

وجائزٌ: أنْ يكونَ لا على حقيقةِ إرادةِ البرِّ والبحرِ، ولكنْ على إرادةِ الأحوالِ نفسِها على ما ذَكَرْنا مِنَ القَحطِ والضيقِ وقِلّةِ الأنزالِ بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ مِنَ الشِّرْكِ والكُفرِ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ وهو الشِّرْكُ، وهذا أشْبَهُ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][4] قالَ: أفْسَدَهُمُ اللهُ في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها بأعمالِهِمُ الخبيثةِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ قالَ: يرجعُ مَنْ كانَ بَعْدَهُمْ، ويَتَّعِظونَ بهِمْ. وقتادةُ يقولُ: لعلَّ راجعاً يَرجِعُ، لعلَّ تائباً يَتوبُ، لعلَّ مُسْتَغيثاً يَسْتَغيثُ.

وأصْلُهُ لكي يُلْزِمَهُمُ الرجوعَ والتوبةَ عمّا عَمِلوا، ويَنْهاهُمْ[5] عَنْ ذلكَ كلِّهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ظَهَرَ الفسادُ في البرِ والبَحْرِ أي أجْدَبَ البَرُّ، وانقطعَتْ مادَّةُ البحرِ بذنوبِ الناسِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الرِّبا مِثْلُ ما يصنَعُ أصحابُ الرِّبا ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾ ليزيدَ، ويَكْثُرَ؛ يُقالُ: ربا مالُهُ أي كَثُرَ. والقُتَبِيُّ يقولُ: أي يزيدَكُمْ مِنْ أموالِ الناسِ مِنْ زكاةٍ وصدقةٍ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ: أنهُ ليسَ على حقيقةِ الأمْرِ بالسَّيرِ في الأرضِ، ولكنْ كأنهُ يقولُ: لو سِرْتُم في الأرضِ، ونَظَرْتُم، لَرَأيتُمْ عاقبةَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مِنَ المُشركينَ، وهكذا مِنَ الرسلِ وما حَلَّ بهِمْ، فَيُنَبِّهُكُمْ، ويَمْنَعُكُمْ عَنْ تكذيبِ الرسلِ والشِّرْكِ باللهِ.

أو يكونُ هو على الأمرِ بالتَّفَكُّرِ[6] والنظرِ والاعْتِبارِ؛ كأنهُ يقولُ: تفَكَّروا، واعْتَبِروا في ما سِرْتُمْ في الأرضِ، وانظرُوا إلى ماذا صارَتْ عاقبةُ مُكَذِّبي الرسلِ مِنْ قَبْلُ، فَيَنْزِلَ بكُمْ بالتكذيبِ ما نَزَلَ بأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في قولِهِ: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾ [يونس: ١٠٥ والروم ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: لا يَقْدِرُ أحدٌ على رَدِّ ذلكَ اليومَ مِنَ اللهِ، ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي لا يُرَدّونَ مِنْ ذلكَ اليومِ إلى ابْتِداءِ المحنةِ كقولِهِمْ: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية: [الأنعام: ٢٧]. وقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقد أخْبَرَ عنهم، فقالَ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ﴾ [الأنعام: ٢٨] فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي لا يُرَدُّونَ إلى ما يَسْألونَ الرَّدَّ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: والبحر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وينبههم.
(٦) في الأصل وم: بالفكر.

والثاني: ﴿لَا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا إقامةَ لهمْ مِنَ اللهِ، ولا عفْوَ، ولا توبةَ، إذا أتاهُمْ ذلكَ اليومُ كقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرّقونَ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] هو ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧ والتغابن: ٩] و﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١ و. . .] على اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي مَنْ كَفَرَ فعليهِ جزاءُ كُفْرِهِ، وعليهِ ضَرَرُ كُفْرِهِ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فَلَهُ ثوابُ إيمانِهِ، ولهُ مَنْفَعَةُ عملِهِ، ﷻ إنما امْتَحَنَهُمْ بأنواعِ ما امْتَحَنَ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ لِحاجتِهِمْ لا لحاجةٍ أو لِمَنْفَعَةٍ لهُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، والجاثية: ١٥] وقولُهُ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧] وهو ما ذَكَرْنا أنهُ أمَرَهُمْ، ونَهاهُمْ، وامْتَحَنَهُمْ، لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجتِهِمْ لا لحاجةٍ أو لِمَنْفَعَةٍ لنفسِهِ. لِذلكَ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَمْهَدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَفْتَرِشونَ، وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يَعْمَلونَ، ويُوَطِّئونَ، وهو مِنَ المهادِ [والمِهادُ][1] في الأصلِ: الفِراشُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ هذا يدلُّ أنَّ الثوابَ والجَزاءَ، سَبيلُ وجوبِهِ الفضلُ [لأنَّ][2] في الحكمةِ [وجوبُهُ][3] لِما سَبَقَ مِنَ اللهِ إليهِمْ نِعَمٌ ما لَمْ يتَهَيَّأْ لهمُ القيامُ بِشُكْرِ / ٤١٤ ـ ب/ واحدةٍ منها فَضْلاً أنْ يقوموا لِلْكُلِّ. فإذا كانَ كذلكَ صارَ الثوابُ والجزاءُ، وجوبُهُ الفَضْلُ لا الاسْتِحْقاقُ والاسْتيجابُ.

وأمّا العُقوباتُ، فوُجوبُها الاسْتِحقاقُ، إذْ في الحكمةِ وُجوبُها. لِذلكَ افْتَرَقا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَجْزِيَهُمْ في الآخرةِ بالخَيراتِ التي عَمِلوها في الدنيا، وذلكَ مِنْ فَضْلِهِ، بِهِ نالوا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ إنَّ في الرياحِ آياتٍ في نَفْسِها، وفيها بِشاراتٌ، أمّا الآياتُ فهي آياتُ سُلْطانِهِ وتدبيرِهِ مِنْ وجوهٍ: إنهُ أنشأ هذهِ الرياحَ في الهواءِ في الأرضِ وفي الجبالِ وفي السماءِ، تُصيبُ الخَلائقَ، وتُميتُهُمْ، وتُودي بهِمْ، وتُفَرِّعُهُمْ، وتُقَرِّبُهُمْ، مِنْ غيرِ أنْ يَرَوها، أو يَقَعَ عليها البَصَرُ، ومِنْ غيرِ أنْ يُدْرِكوها، أو يُدْرِكوا كيفِيَّتَها أو ماهِيَّتَها، لِيُعْلِمَ أنَّ مِنَ الأجسامِ ما هي [غَيرُ][4] مُدْرَكَةٍ، ولا آخِذُ البصرُ عليها، وتُرى: منها طَيِّبَةٌ وخبيثةٌ وشديدةٌ كاسِرَةٌ عاصِفَةٌ، ويُعَذِّبُ بها قومٌ [ويُنْصرُ بها قومٌ][5] على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَ عادٌ بالدَّبورِ» [البخاري: ٣٢٠٥] ومِنْ بِشاراتِها ما تُلْقِحُ الأشجارَ والنخيلَ، وتَشُقُّ الأرضَ، ويَنْبُتُ النباتُ منها، وتَجْمَعُ السحابَ، وتأتي بالمطرِ وتَجْري بها[6] السُّفُنُ والفُلْكُ في البحارِ في الماءِ الراكدِ [وفي مِثْلِهِ لا تجري السُّفُنُ][7] والفُلْكُ لولا الريحُ. فذلكَ كلُّهُ مِنَ البِشارةِ وأنواعِ المَنافِعِ [التي][8] جُعِلَتْ فيها؛ يُعْلَمُ كلُّهُ بالأعلامِ والآثارِ أنها نافعةٌ أو ضارَّةٌ مُهْلِكَةٌ.

ثم سَمّاها مُبَشِّراتٍ لِيُعْلَمَ أنَّ البشارةِ قد تكونُ بِغَيرِ النطقِ والكلامِ مِنْ نحوِ الكتابِ والإشارةِ أوِ الرسالةِ، إذْ ليسَ للريحِ نُطْقٌ ولا كلامٌ، ثم سَمّاها مُبَشِّرَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ هذا يدلُّ أنَّ هذهِ البِشارَةَ والمَنافِعَ التي جَعَلَها لهمْ كانَتْ مِنْ رحمتِهِ فَضْلاً لا اسْتيجاباً ولا اسْتِحْقاقاً، وسَمّى ذلكَ كلَّهُ رحمةً، لأنهُ برحمتِهِ يكونُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قولُهُ: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ بتدبيرِهِ، أي بتدبيرِهِ تجري السفنُ في البِحارِ على ما

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بهم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ذَكَرَ، أو أنْ يريدَ بأمْرِهِ: تكوينَهُ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وكقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ ما يَصِلُ إليهِمْ مِنَ المَنافِعِ إنما يَصِلُ مِنْ فَضْلِهِ ورحْمَتِهِ، لا يَصِلُ إليهِمْ بتلكَ الأسبابِ والمكاسِبِ لئلا يَرَوا ذلكَ مِنْ تلكَ الأسبابِ، ولكنْ يَرَونَ[1] ذلكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ورحمتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي يَلْزَمَهُمُ الشكرُ للهِ في ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ في هذهِ الآيةِ تَصْبيرُ رسولِ اللهِ ﷺ على أذى الكَفَرةِ حينَ[2] قالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وفيهِ أيضاً بِشارةٌ لِلمؤمنينَ ونِذارةٌ لِأولئكَ الكَفَرةِ.

أمّا النِّذارةُ لهمْ [فهي][3] بقولِهِ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أخْبَرَ أنَّ أولئك لمّا كَذَّبوا الرسلَ، وعامَلوهُمْ بما تُعاملونَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ رسولَ اللهِ انْتَقَمْنا[4] منهمْ جزاءَ معامَلَتِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ يَنْتَقِمُ منكمْ كما انْتَقَمَ مِنْ أولئكَ.

وأمّا البِشارةُ [فهي][5] للمؤمنينَ بقولِهِ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أخبَرَ أنَّ عاقبةَ الأمورِ تكونُ للمؤمنينَ.

وفيهِ أنَّ الرسلَ الذين كانوا مِنْ قَبْلُ؛ كانوا مِنَ البَشَرِ. فكيفَ تُنْكِرونَ رسالةَ محمدٍ، إذْ كانَ مِنَ البَشرِ؟

وفيهِ أنهُ قد أتى قومَهُ بالبيِّناتِ كما أتى أولئكَ الرُسلُ قومَهُمْ بالبيِّناتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي كانَ حقّاً علينا جَعْلُ العاقبةِ للمؤمنينَ لا أنْ يكونَ عليهِ حقّاً نَصْرُ المؤمنينَ في الدنيا، ولكنْ جَعْلُ العاقبةِ للمؤمنينَ حقّاً كقولِهِ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والثاني: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالحُجَجِ التي أعطاهمْ، أي كانَ حقّاً إعطاءُ الحُجَجِ لهمْ، والنصرُ والمَعونةُ بالحُجَجِ، أي إعطاءُ الحُجَجِ لهم.

وقالَ بعضُهُمْ: نَصْرُهُ إياهُمْ أنهُ أنْجاهُمْ معَ الرسولِ، وأهْلَكَ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ كأنهُ يُخبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ حينَ[6] أنْشأَ الرياحَ بحيثُ يَجْمَعُ السحابَ، ويُفَرِّقُهُ، ويَبْسُطُهُ، ويَجْعَلُهُ قِطَعاً تُمْطِرُ في مكانٍ، ولا تُمْطِرُ في مكانٍ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ مَنْ قَدَرَ [على][7] أنْ يُسَلِّطَ الرياحَ في جَمْعِ السحابِ وتَفريقِهِ يَمْلِكُ تَسْليطَ الرياحِ على تعذيبِكُمْ.

أو يقولُ: إنَّ المعبودَ المُستَحِقَّ لِلعِبادةِ هو الذي يُرْسِلُ الرياحَ لِما ذَكَرَ والأمطارَ لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَ، إذْ تَعْلَمونَ أنها لا تملكُ شيئاً ممّا ذَكَرَ.

أو يَذْكُرُ نعمَهُ التي عليهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ[8] شُكْرَها.

أو يُطْمِعُهُمْ إيمانَ بعضٍ منهمْ بَعْدَ ما كانوا آيِسينَ مِنْ إيمانِهِمْ كما أطْمَعَهُمُ المَطَرَ والسَّعَةَ بعدَما قَحَطوا، وكانوا آيِسينَ منهُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؟

---

(١) من م، في الأصل: يريدون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فانتقمنا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بها.

الآية ٤٩ ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي ترفعُهُ، وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: تَجمعُهُ كما يَسْتثيرُ الرجلُ العِلْمَ، فَيَجمَعُهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: قِطَعاً، وقالَ بعضُهُمْ: يضمُّ بعضَهُ إلى بعضٍ، ويَحْمِلُ بعضَهُ على بعضٍ.

وقولُهُ: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ﴾ أي المطرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي مِنْ بَينِ السحابِ. ويُقرأ: مِنْ خَلَلِهِ[1] [ومعناهُ][2]: ثَقْبُهُ، وقولُهُ: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيِسينَ والإبلاسُ الإياسُ. ولذلكَ سُمِّيَ إبليسُ [إبليسَ][3] لأنهُ أُويِسَ منْ رحمةِ اللهِ.

الآية ٥٠ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي المَطرِ؛ أرادَ بالرحمةِ المَطرَ، سَمّى المَطرَ رحمةً لأنهُ يكونُ برحمتِهِ، أو أنْ تكونَ الآثارُ، هي[4] المَطرُ نفسُهُ، جَعَلَهُ مِنْ آثارِ رحمتِهِ وأعلامِهِ.

ثم الأمْرُ بالنَّظرِ والاعْتِبارِ بآثارِ رحمتِهِ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أمَرَهُمْ بالنَّظرِ إلى ذلكَ لِيَعْلَموا أنهُ رحيمٌ كي يَرْغَبوا في ما رَغَّبَهُمْ، ويَرْجوا في ما أطْمَعَهُمْ، ودَعاهُمْ إليهِ، إذْ قد ظَهَرَتْ آثارُ رحمتِهِ، فكلُّ رحيمٍ يَرْغَبُ في ما رغَّبَ، وأطْمَعَ.

[والثاني][5] أنْ يكونَ الأمْرُ بالنَّظرِ إلى آثارِ رحمتِهِ لأنَّ[6] ذلكَ راجعٌ إلى مَنافِعِ أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ وما بهِ قِوامُهُمْ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ. وفي ذلكَ تَقَعُ الحاجةُ إلى منْ يُعَرِّفُهُمْ تلكَ النِّعَمَ، ويُعَرِّفُهُمْ شُكْرَها، فيكونُ في ذلكَ الترغيبُ في قَبولِ الرسالةِ [وإثباتِ نُبُوَّةِ رسولِهِ][7].

[والثالثُ][8]: أنْ يكونَ سَمّى المَطرَ رحمَتَهُ لِما يَرْجِعُ ذلكَ إلى مَنافِعِ أبدانِهِمْ وما بهِ قِوامُ أنفسِهِمْ لِيَعْرِفوا الرحمةَ، هي راجعةٌ إلى منافعِ دينِهِمْ وآخِرَتِهِمْ، وهي[9] رسولُ اللهِ، إذْ سَمّاهُ في غيرِ موضعٍ رحمةً بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

[والرابعُ][10]: أنْ يأمُرَ بالنظرِ إلى ذلكَ المطرِ لِيُرِيَ[11] كيفَ يُحْيي هذهِ الأرضينَ المَواتَ، ويُنْبِتُ فيها مِنْ ألوانِ النباتِ؟ وهذهِ الأشجارَ اليابسةَ كيفَ تَخضرُّ بعدَ يُبوسَتِها بهذهِ الأمطارِ؟ لِيَعْرِفوا إنَّ مَنْ مَلَكَ هذا، وقَدَرَ على ذلكَ، وهو خارجٌ عنْ وُسْعِهِمْ وتَقْديرِهِمْ لَقادرٌ على / ٤١٥ ـ أ/ إحياءِ المَوتى وبَعْثِهِمْ بَعدَ المَماتِ، وإنْ كانَ خارجاً عَنْ تقديرِهِمْ ووَسْعِهِمْ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني بهِ الزرعَ والنباتَ الذي أخرجَ من الأرضِ بالمطرِ. قالَ بعضُهُمْ: رَأوهُ يابساً، إذا أصابَتْهُ الريحُ الباردةُ ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي لأقاموا على كُفرِهِمْ إذا أصابَهُمْ ما ذَكَرَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي يَقْنَطونَ مِنْ رحمتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُريدُ بالمَوتى أنفسَهُمْ ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ الصُّمَّ أنفسَهُمْ أيضاً، ولا تُسْمِعَ الكُفّارَ والضُّلّالَ ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كنايةً عنِ الكفارِ، وكذلكَ الصُّمُّ والعُمْيُ، وقد سَمّى اللهُ الكفارَ مَوتى وصُمّاً وعُمْياً في غيرِ مَوضعٍ منَ القرآنِ.

ثم في قولِهِ: ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ حكمةٌ، وهي ألا يَقْدِرَ أنْ يُسْمِعَ ﴿ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ ولكنْ يَقْدِرُ أنْ يُفْهِمَ الأصمَّ الدعاءَ إذا أقْبَلَ، وأمّا إذا أدبرَ فلا يَقْدِرُ أنْ يُسْمِعَهُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٧٥. (٢) من م، في الأصل: في معناه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: إذ. (٧) في الأصل وم: وإثباته. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: وأنه.

الآية ٥٣ وكذلكَ الحكمةُ في قولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ أي لا تَقْدِرُ أنْ تَهْدِيَ العُمْيَ عنْ ضَلالَتِهِمْ [والأعمَى هو][(١)] الذي يَعمى عنْ ضَلالَتِهِ، ويَظُنُّ أنهُ على الهُدَى، وغيرُهُ على الضَّلالِ. فأمّا مَنْ كانَ مُقِرّاً بالضَّلالِ [فإنكَ لا تَقْدِرُ][(٢)] أنْ تَهْدِيَهُ. يُخْبِرُ عنْ شدةِ سَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ وعَمَاهُمْ في ضَلالَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ما تُسْمِعُ إلّا منْ يُؤمِنُ بآياتِنا. هذا يدلُّ على أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ وقولَهُ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ هي المَواعِظُ لا نَفْسُ الهُدى لأنهُ[(٣)] قالَ: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [أنْ يكونَ][(٤)] كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: ١١] أي إنما يَنْتَفِعُ بإنذارِكَ مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أو إنَّ الذي يَقْبَلُ النِّذارةَ مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. فأمّا منْ لم يَتَّبِعِ الهُدى فلا يَنْتَفِعُ. فَعلى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ما يَنْتَفِعُ أو لا يَسْمَعُ المَواعِظَ إلّا مَنْ يؤمِنُ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: قولُهُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ أي مِنَ النُّطفَةِ، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات: ٢٠] أي ضعيفٍ ثم قولُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ أي إنساناً، يَقْوَى على أمورٍ وعلى أشياءَ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ أي شيخاً فانياً كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النحل: ٧٠، الحج: ٥].

[والثاني][(٥)]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ أي أطفالاً، لا[(٦)] على الخِلْقَةِ التي أنتمْ عليها اليومَ، ضُعَفاءَ لا تَقْوَونَ على أشياءَ وأمورٍ، ولا يَقْوَى شيءٌ منكُمْ على شيءٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ ثم جعلَكُمْ[(٧)] مِنْ بَعدِ ذلكَ الضَّعْفِ أقوياءَ، تَقْوَونَ على أشياءَ وأمورٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ ثم يَجْعَلُكُمْ[(٨)] مِنْ بعدِ تلكَ القُوّةِ والقدرةِ ضُعَفاءَ شيُوخاً، لا تَقْدِرونَ على شيءٍ على ما يكونُ يَحْتَمِلُ هذينِ الوجْهَينِ.

ثم فيهِ وجهانِ مِنَ الدلالةِ:

أحدُهما: على البعثِ.

والثاني: على القُدْرَةِ على إنشاءِ الخَلْقِ والأشياءِ لا مِنْ أصولٍ.

أمّا الدلالةُ على البَعْثِ فَلأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ[(٩)] البعثَ وإنشاءَ الشيءِ لا مِنْ أصلٍ لِخُروجِ عنْ قِواهُمْ وتَقديرِهِمْ؛ يُخْبِرُ أنَّ النُّطفَةَ، تَصيرُ عَلَقَةً، وليسَ فيها مِنَ العَلَقَةِ ولا مِنْ آثارِها شيءٌ. وكذلكَ العَلَقَةُ، تَصيرُ مُضْغَةً، وليسَ فيها مِنْ آثارِ المُضْغَةِ شيءٌ، وكذلكَ المُضْغَةُ، تَصيرُ إنساناً، فيهِ عَظْمٌ وجِلْدٌ وشَعْرٌ ولَحْمٌ، وليسَ شيءٌ مِنْ ذلكَ فيها. فمنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ فَيَقْدِرُ على خَلْقِ الشيءِ لا مِنْ أصلٍ، ويَقْدِرُ على البعثِ، إذْ كلُّ ما ذَكَرَ أقَرّوا بهِ، وهو خارجٌ عنْ قِواهُمْ وعنْ تقديرِهِمْ. فَلَزِمَهُمُ الإقرارُ بالبعثِ والإنشاءِ لا عنْ أصلٍ، وألا يُقَدِّروا قُدْرَتَهُمْ بقدرةِ اللهِ وقوتِهِ على ما شاهَدوا أشياءَ خارجةً عنْ قِواهُمْ وعنْ تقديرِهِمْ بِقُوّةِ اللهِ وقدرتِهِ.

والثاني: أنَّ ما ذَكَرَ مِنْ تحويلِ النُّطفَةِ إلى العَلَقَةِ والعَلَقَةِ إلى المُضْغَةِ والمُضْغَةِ إلى الصورةِ والإنسانِ، لم يُحَوِّلْهُمْ، ولم يَنْقُلْهُمْ ليكونَ كما ذَكَرَ بلا عاقبةٍ تكونُ لهمْ ولا بَعْثٍ.

فلو لم يَكُنْ بَعْثٌ لكانَ ما ذَكَرَ مِنْ تحويلِ حالٍ إلى حالٍ عَبَثاً باطلاً على ما ذَكَرَ.

وكذلكَ في ما أحْدَثَ مِنَ الأطفالِ مِنَ القُوّةِ والقُدْرَةِ بَعْدَ ما كانوا ضُعَفاءَ، لا يَقْوَونَ، ولا يَقْدِرونَ على شيءٍ. إنهُ إنما أحْدَثَ فيهمْ لِيُمْتَحَنوا، ويَجْعَلَ لهمْ [عاقبةً][(١٠)] يُثابونَ، ويُعاقَبونَ، إذْ لو لم يَكُنْ بَعْثٌ ولا عاقبةٌ لكانَ فِعْلُ ذلكَ عبثاً باطلاً.

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل: فأما من كان، في م: فإنك تقدر. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وجائز. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: جعل. (٨) في الأصل وم: يجعل. (٩) من م، في الأصل: يقدرون. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

[وفيهِ القُدْرَةُ][1] على إنشاءِ الشيءِ، وإحداثِهِ لا مِنْ شيءٍ، إذْ كانَ التركيبُ مَوجوداً على التّمامِ، ولا قُوّةَ بهِ[2]، ثم أحْدَثَ القُوّةَ، ولا أصْلَ لها، ولا أثَرَ مِنْ آثارِها. دلَّ أنَّ تَقْديرَ قِوَى الخَلْقِ بِقِوَى اللهِ مُحالٌ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ بأحوالِهِمْ، والقديرُ عل إنشاءِ الأشياءِ لا مِنْ أشياءَ وعلى البعثِ بَعدَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: يُقسِمُ المُجْرِمونَ أنهمْ لم يَلْبَثوا في قبورِهِمْ غَيرَ ساعةٍ. وكذلكَ يقولونَ في قولِهِ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ الآية [المؤمنون: ١١٢ و١١٣].

لكنَّ الأشْبَهَ[3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ في الدنيا في المِحْنَةِ لا في القُبورِ.

استَقْصَروا مُقامَهُمْ في الدنيا تكذيباً لِما ادُّعِيَ عليهِمْ مِنَ الزّلّاتِ[4] والمَعاصي وأنواعِ الكُفْرِ. يقولونَ: إنا لَبِثْنا في الدنيا وَقْتاً، لا يكونُ منّا في مِثْلِ ذلكَ الوقْتِ وقَدْرِ تلكَ المدةِ [مِثْلُ هذهِ الزّلّاتِ][5] والمَعاصي.

ألا تَرَى أنهمْ قد كَذَّبوا في إنكارِهِمْ طولَ المُقامِ حتى[6] قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي كذلكَ كانوا يُكَذّبونَ في الدنيا أنْ لا بَعْثَ، ولا حَياةَ بَعْدَ الموتِ، ولا حِسابَ. ولولا هذا التكذيبُ لهمْ على إثْرِ قولِهِمْ: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ لَكانَ[7] الظاهرُ أنهمْ قدِ استَقْصَروا المُقامَ في الدنيا لِطولِ المُقامِ في الآخرةِ وشدةِ العذابِ في ذلكَ وهَولِهِ. لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، ما ذَكَرْنا أنهمْ يُقْسِمُونَ أنهمْ ما لَبِثوا غَيرَ ساعةٍ في الدنيا إنكاراً وجُحوداً لِما ادُّعِيَ عليهِمْ مِنَ الزّلّاتِ[8] والمَعاصي.

يقولونَ: إنا لم نَلْبَثْ في الدنيا إلّا ساعةً، كيفَ عَمِلْنا هذهِ الزّلّاتِ[9] وأنواعَ الشِّرْكِ والكُفرِ؟ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي كذلكَ، كانوا يُكَذّبونَ في الدنيا، ويُقْسِمونَ حتى[10] قالَ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: ٣٨] فذلكَ القَسَمُ منهمْ أنهمْ ما لَبِثوا غَيرَ ساعةٍ كَذِبٌ وإنكارٌ لِلْمُقامِ كما كذَّبوا، وأنكروا الشِّرْكَ حين[11] ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ: قالَ الذينَ أُوتوا العِلْمَ في كتابِ اللهِ، أي أوتوا العِلْمَ بكتابِ اللهِ والإيمانِ بهِ: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾.

وقالَ بعضُهُم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ في عِلْمِ اللهِ في الدنيا ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: يقولُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ / ٤١٥ ـ ب/ في ما كَتَبَ اللهُ لكمْ مِنَ الآجالِ إلى انقِضاءِ آجالِكُمْ وَفَنائِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ الذي كُنْتُمْ تُنْكِرونَهُ، وتُكَذّبونَهُ ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على حَقيقةِ نَفْيِ العِلْمِ عنهمْ، لكنهمْ لا يُعْذَرون لِجَهْلِهِمْ بذلكَ لِما أُعْطُوا أسبابَ العلمِ، لو تَفَكّروا، أو تأمّلوا، لَعَلِموا.

والثاني: على نَفْيِ الانتِفاعِ بِعِلْمِهِمْ على ما نَفَى عنهمْ حواسَّ كانَتْ لهمْ لِما لم يَنْتَفِعوا بها. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ نَفْيُ العِلْمِ عنهمْ بذلكَ لِما لم يَنْتَفِعوا بِما عَلِموا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ ليسَ على أنْ يكونَ لهمْ عُذْرٌ، فلا يَنْفَعُهُمْ، ولكن لا عُذْرَ لهمُ البَتّةَ، أو أنْ تكونَ مَعْذِرَتُهُمْ ما ذَكَروا ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ فذلكَ مَعْذِرَتُهُمْ، فلا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ لأنهُمْ كذَبَةٌ في ذلكَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بهم. (٣) في الأصل: لا شبهه، في م: لا شبه. (٤) و(٥) في الأصل وم: الزلل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وإلا كان. (٨) و(٩) في الأصل وم: الزلل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل: وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاسْتِعْتابُ، هو الاسْتِرْجاعُ عمّا كانوا فيهِ، فهمْ لا يُطْلَبُ منهمُ الرُّجوعُ عمّا كانوا عليهِ في ذلكَ الوقتِ. والعِتابُ في الشاهدِ أنْ يُعاتَبَ لِيَتْرُكَ ما هو عليهِ، ويرجِعَ عمّا كان منهُ في ما مَضى، وذلكَ لا يَنْفَعُ للكَفَرةِ في ذلكَ اليومَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ [الروم: ٥١] أي رَأَوا ذلكَ الزرعَ والنباتَ مُصْفَرّاً، أي يابساً لِما أصابَهُ مِنَ الريحِ والبَردِ ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ قيلَ: لأقاموا، وقيل: لَمالوا، وكلُّهُ يَرْجِعُ إلى مَعْنًى واحدٍ، وهو ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ القُنوطِ، أي يَقْنَطونَ، ويَيْأَسونَ مِنْ رحمتِهِ، ويَكْفُرونَ بربِّ هذهِ النِّعَمِ. وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ: إنك لا تُسْمِعُ المَوتَى.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ للكُفّارِ خاصّةً؛ يقولُ: قد بَيَّنّا لهمْ ما يَعِظُهُمْ، ويَزْجُرُهُمْ عمّا هُمْ فيهِ، ويَدْعُوهمْ إلى الإيمانِ والتوحيدِ، لكنهمُ اعْتادوا[1] العِنادَ والمُكابَرَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي جِئْتَهُمْ بالآيةِ التي سألوكَ أيضاً فلا يُصَدِّقونَكَ، ولا يَقْبَلونَ الهُدَى ويقولونَ ما ذَكَرَ: ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ لِلْفَريقَينِ جميعاً للمؤمِنِ والكافرِ ويكونُ التأويلُ، واللهُ أعلَمُ، ولقد ضَرَبْنا، وبَيَّنّا للناسِ لأفعالِهِمْ وأحوالِهِمْ مِنَ القَبيحِ والحَسَنِ مَثَلاً وشَبَهاً ما يَعْرِفونَ بهِ قُبحَ كلِّ قَبيحٍ وحُسْنَ كلِّ حَسَنٍ وما بَيَّنَ لهمُ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ والعَدْلَ مِنَ الجَورِ لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ لم يَعْتَبِروا، ولم يَتَأمَّلوا.

ثم رَجَعَ إلى وَصْفِ أولئكَ الكَفَرةِ، فقالَ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي بِزيادةٍ في البَيانِ والوَضوحِ ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ أنَّ قولَهُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: لم يَعْلَموا لِما لم يتأمّلوا، ولم يَنْظُروا، في أسبابِ العلمِ لكي يَعْلَموا، ولا عُذْرَ لهمْ في جَهْلِهِمْ. ذلكَ لِما أُعْطُوا أسبابَ العِلْمِ. لكنهمْ لم يَسْتَعْمِلوها. فمنهمْ جاءَ ذلكَ فلم يُعْذَروا.

والثاني: نَفَى عنهمُ العِلْمَ على وجودِ العِلْمِ لهمْ وكَونِهِ لِما لم ينْتَفِعوا بِما عَلِموا على ما ذَكَرْنا مِنْ نَفْيِ الحواسِّ عنهمْ مَعَ وُجودِها وكَونِها لهمْ[2] لِما لم يَنْتَفِعوا بها، ولم يَسْتَعْمِلوها في ما جُعِلَتْ، وأُنْشِئَتْ لها. فعلى ذلكَ العِلْمُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فاصْبِرْ على تكذيبِهِمْ إيّاكَ بالعذابِ الذي وَعَدتَ لهمْ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في العذابِ بأنهُ نازلٌ بهمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي اصْبِرْ على أذاهُمُ الذي يؤذونَكَ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في النَّصْرِ لكَ والمَعونةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: لا يَحْمِلَنَّكَ أذاهُمْ إيّاكَ حتى تَدعُوَ عليهِمْ بالعذابِ والهلاكِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي لا يَسْتَفِزَّنَّكَ؛ ويقولُ: لا يَسْتَجْهِلَنَّكَ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أي لا يَحْمِلَنَّكَ أولئكَ الكَفَرةُ على الخِفّةِ والعَجَلةِ والجَهْلِ حتى تدعُوَ عليهِمْ بإنزالِ العذابِ والهلاكِ لهمْ، وهو، واللهُ أعلمُ، مِنَ الاسْتِخْفافِ.

(١) في الأصل وم: اعتقدوا. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: تلك الحواس.

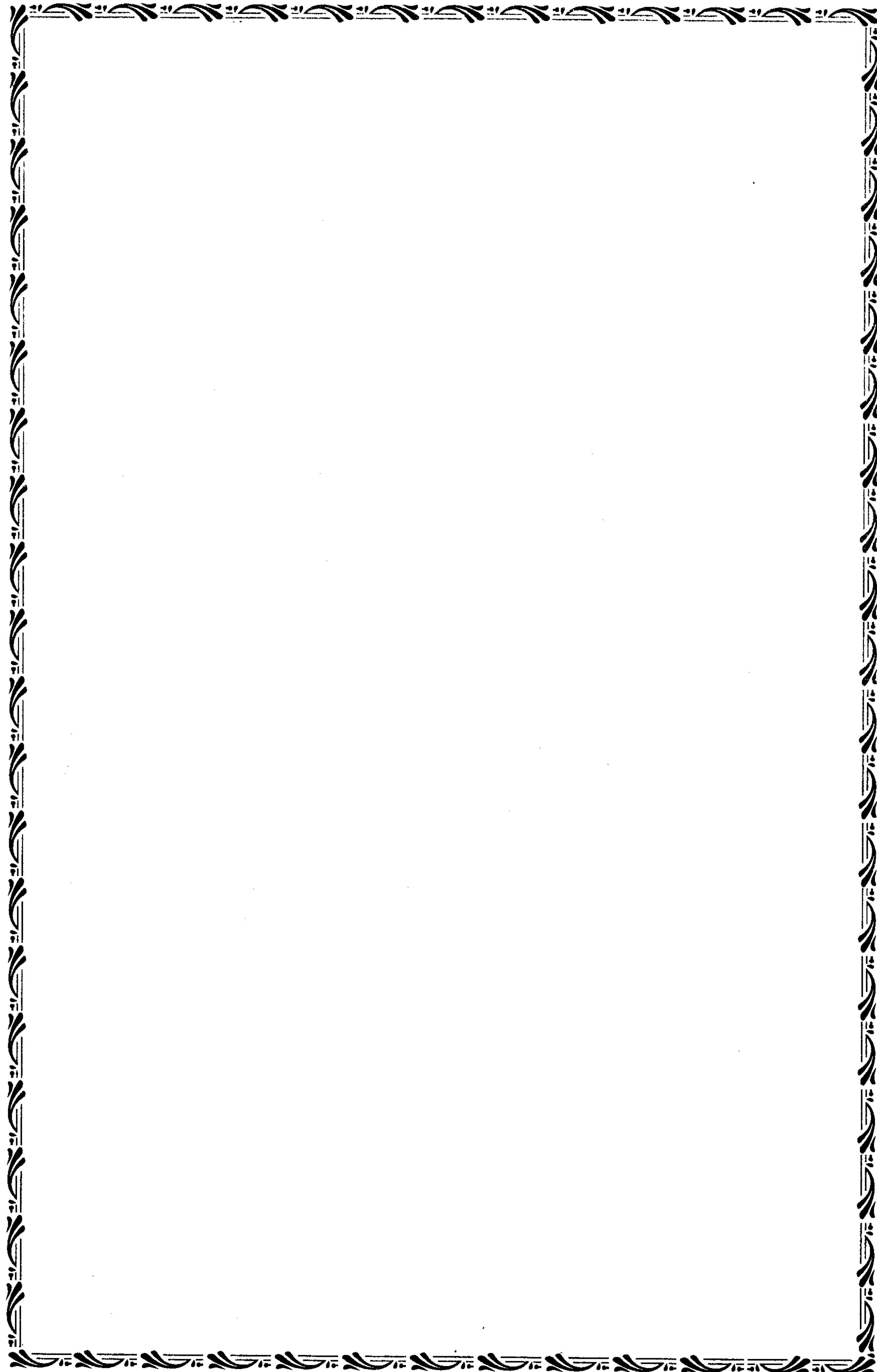

سورة[1] لقمان

كلُّها مكيَّةٌ إلّا آيتَينِ منها فإنهما نَزَلَتا بالمدينةِ:

إحداهُما: [قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الآية][2] [الآية: ٣٤].

والأُخرَى: قولُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ﴾ الآية [الآية: ٢٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في غَيرِ مَوضِعٍ في ما تَقَدَّمَ وما ذُكِرَ فيهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ما بَشَّرَ بِهِ الرسلُ المُتَقَدِّمةُ أقوامَهُمْ مِنْ بِشاراتٍ. يقولُ: تلكَ البِشاراتُ[3] هي آياتُ الكتابِ أي هذا القرآنُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ التي في السماءِ، هذا الكتابُ. ومنهمْ مَنْ قالَ: تلكَ الآياتُ التي أُنزِلَتْ مُتَفَرِّقَةً، فَجُمِعَتْ، فصارَتْ قرآناً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ سَمّى الكتابَ حكيماً كريماً[4] مجيداً[5] ونَحوَهُ. فَتَحْتَمِلُ تسميتُهُ حكيماً وجوهاً:

أحَدُها: لإحكامِهِ وإتقانِهِ، أي مُحكَمٌ مُتقَنٌ، لا يُبَدَّلُ، ولا يُغَيَّرُ، وهو كما وَضَعَ ﷻ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

والثاني: سَمّاهُ حكيماً لأنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بهِ، وعَمِلَ بما فيهِ، يَصيرُ حكيماً مَجيداً كريماً.

والثالثُ: سَمّاهُ حكيماً لأنهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عندِ حكيمٍ كقولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ قولُهُ: ﴿هُدًى﴾ أي توفيقاً وعِصْمَةً ومعَونةً للمحسِنينَ، وكذلكَ، هو رحمةٌ في دفعِ العذابِ عنهمْ.

وأمّا ما يقولُهُ أهلُ التأويلِ: ﴿هُدًى﴾ أي بَياناً للمحسِنينَ، فهو بَيانٌ للكلِّ، ليسَ لبعضٍ دونَ بعضٍ، فلا يَحْتَمِلُ الهُدَى البَيانَ في هذا المَوضِعِ. ولكنْ ما ذَكَرْنا مِنَ المَعونةِ والتوفيقِ والعِصْمةِ.

والمُحسِنُ ههنا جائزٌ أنْ يكونَ المؤمِنَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]. الصَّبّارُ، هو المؤمنُ، سَمّى المؤمنَ صَبّاراً مَرَّةً وشَكوراً مَرَّةً ومُحسِناً مَرَّةً لأنهُ يَعْتَقِدُ / ٤١٦ ـ أ/ بالإيمانِ كلَّ ما ذَكَرَ مِنَ الصَّبْرِ والشُّكرِ والإحسانِ وكلِّ خَيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضعٍ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكران. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قوله، وترك الناسخان فراغاً، وكتبا في حاشيتهما: بياض.
(٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: البشارة. (٤) إشارة إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ تأويلُ الهُدَى ما ذَكَرْنا في هذا المَوضِعِ مِنَ التوفيقِ والعِصْمَةِ والمَعونةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قد ذَكَرْناهُ أيضاً.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ على حقيقةِ الاشْتِراءِ نفسِهِ، ولكنْ على الإيثارِ والاخْتِيارِ، لأنَّ الاشْتِراءَ مُنادَلَةٌ: أخذٌ وعطاءٌ، ولكنْ آثَروا، واختاروا الضّلالَ معَ قُبْحِهِ عندَهُمْ على الهُدَى معَ حُسْنِهِ.

فَعَلَى ذلكَ آثَروا لَهْوَ الحديثِ، واختاروهُ على الحقِّ وحكمةِ الحديثِ، واختاروا الفانِيَ على الباقي، فسَمّاهُ شراءً لذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على حقيقةِ الاشْتِراءِ، لكنهمُ اخْتَلَفوا:

فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنهُ اشْتِراءُ المُغَنِّيَةِ والمُغَنِّي؛ كانوا يَشْتَرون [القِيانَ][1] لِيَتَلَهَّوا بهمْ، ويَلْعَبوا.

ومنهمْ مَنْ قالَ: كانَ [النَّضْرُ بْنُ الحارثِ][2] يَشْتَري، ويَكْتُبُ مِنْ لَهْوِ الحَديثِ باطلَهُ[3] مِنَ حديثِ الأعاجمِ، فَيُحَدِّثُ بها قُرَيشاً، ويقولُ: إنَّ محمداً يُحَدِّثُكُم بأحاديثِ عادٍ وثَمودٍ، وأنا أُحَدِّثُكُمْ بأحاديثِ فارسَ والرومِ. فذلكَ اشْتِراؤُهُ لَهْوَ الحديثِ وإضلالُهُ الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ، لِيُعْرِضوا[4] عنِ القرآنِ والإيمانِ بمحمدٍ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ وكانَ إذا سَمِعَ شيئاً مِنَ القرآنِ اتَّخَذَها هُزُواً. هكذا عادةُ الكَفَرَةِ وأهلِ النِّفاقِ، كانوا يَسْتَهزِئونَ بالقرآنِ وبرسولِ اللهِ وأصحابِهِ. ثم أوعَدَهُمُ الوعيدَ الشديدَ حينَ[6] قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وابْنُ مَسْعودٍ وابنُ عباسٍ ﷺ يقولانِ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: هو شِراءُ المُغَنِّيَةِ والغِناءِ، وقد رُوِيَ مَرْفوعاً، رُوِيَ عنْ أبي القاسمِ عَنْ أبي أُمامَةَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لا تَبيعوا المُغَنِّياتِ، ولا تَشْتَروهنَّ، ولا تُعَلِّموهنَّ، ولا خَيرَ في التجارةِ فيهنَّ، وثَمَنُهُنَّ حرامٌ» [الترمذي ١٢٨٢و٣١٩٥].

في مِثْلِهِ نَزَلَتِ هذهِ الآيةُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية [فإنْ][7] ثَبَتَ هذا فهو تفسيرُ لَهْوِ الحديثِ الذي ذُكِرَ في الآيةِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي أعرَضَ مُتَعَظِّماً مُتَجَبِّراً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ﴾ ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ﴾ على التَّقْريبِ[8]، فهو على تَرْكِ الاسْتِماعِ.

وإنْ كانَ على حقيقةِ النَّفْيِ فقد ذَكَرَ في كثيرٍ مِنَ الآيِ ذلكَ كقولِهِ[9]: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨و..] وذلكَ يَحْتَمِلُ الوجْهَينِ[10]، واللهُ أعلَمُ.

ثم أوعَدَهُ العذابَ الشديدَ حينَ[11] قالَ: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بجميعِ ما أُمِروا: بالإيمانِ بهِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بما تَعَبَّدوا مِنَ العَمَلِ بالطاعاتِ والصالحاتِ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ كلُّ الجِنانِ التي وَعَدَ للمؤمنينَ نعيمٌ، يَتَنَعَّمونَ فيها.

الآية ٩ [وقولُهُ تعالى][12]: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ أي ما وَعَدَ للمؤمنينَ مِنَ الجَنّاتِ النعيمَ، هو حَقٌّ كائنٌ، لا مَحالةَ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ السمواتِ بِعَمَدٍ لا تَرَونَها. وقيلَ: لعلَّ

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وباطله. (٤) في الأصل وم: فأعرضوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: التقرير. (٩) في الأصل وم: قوله. (١٠) في الأصل وم: وجهين. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

لها عَمَداً، لكنْ لا تَرَونَها. وقالَ بعضُهُمْ: خَلَقَها بلا عَمَدٍ. لكنَّ الأعجوبَةَ في ما خَلَقَها بِعَمَدٍ لا تَرَونَها، ليسَتْ بدونِ الأعجوبةِ في خَلْقِها بلا عَمَدٍ، لأنَّ رفْعَ مِثْلِها بِعَمَدٍ لا تُرَى أعظمُ في اللطفِ والقدرةِ مِنْ رفعِها بلا عَمَدٍ؛ إذِ العَمَدُ لو كانَتْ مِقدارَ الريشةِ أو الشَّعْرَةِ تُرَى. فَرَفْعُها معَ ثِقَلِها وعِظَمِها وغِلَظِها على عَمَدٍ لا تُرَى، هو اللطفُ مِنْ ذلكَ وأعظمُ في الأعجوبةِ ممّا ذَكَرْنا.

فأيُّهما كانَ ففيهِ دلالةُ ألّا يجوزَ تقديرُ قِوَى الخَلْقِ بِقِوَى اللهِ تعالى وقدرتِهِ[1]، ولا سلطانِ الخَلْقِ بِسُلْطانِهِ. بل هو القادرُ على الأشياءِ كلِّها بما شاءَ، وكيفَ شاءَ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد: ٣].

والرَّواسي هنَّ الثَّوابِتُ أي ثَبَّتَ الأرضَ بالجبالِ كقولِهِ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢] أي أثبَتَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لا تَميدُ بكمْ؛ ذَكَرَ المَيْدَ، وهو المَيلُ والاضطِرابُ، وليسَ مِنْ طَبْعِ الأرضِ المَيلُ والاضطِرابُ، وإنما طَبْعُها التَّسَرُّبُ والتَّسَفُّلُ والانحدارُ. فلا يُدْرَى أنْ كيفَ حالُها في الابتِداءِ؟ وما في سِرِّيَّتِها ما يَحْمِلُها على الاضطِرابِ والمَيلِ حتى أثْبَتَها، وأرساها بالجبالِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بَثَّ: خَلَقَ، وقيلَ: بَثَّ: فَرَّقَ. وفيهِ أنهُ جَعَلَ الأرضَ مكاناً أو مَعْدِناً لكلِّ أنواعِ الدَّوابِّ المُمْتَحَنِ وغيرِ المُمْتَحَنِ والمُمَيِّزِ وغيرِ المُمَيِّزِ، والسماءَ لم يَجْعَلْها[2] إلّا لِنَوعٍ مِنَ الخَلْقِ أهلِ العبادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي أنْبَتْنا فيها مِنْ كلِّ لونٍ، يَتَلَذَّذُ بهِ الناظرُ إليهِ ﴿كَرِيمٍ﴾ يَنالُ منهُ كلَّ ما أرادَهُ، وتَمَنّاهُ؛ إذِ الكريمُ، هو ما يُطْمَعُ منهُ نَيلُ كلِّ ما عِندَهُ، وأُريدَ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الكريمُ الحَسَنُ، أي أنْبَتْنا فيها مِنْ كلِّ لونٍ حَسَنٍ ما يَسْتَحْسِنُهُ الناظرُ، ويَتَلَذَّذُ بهِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] ما يُبْهِجُ، ويُسَرُّ بهِ كلُّ ناظِرٍ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ يقولُ: ما ذُكِرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما بَثَّ مِنَ الدَّوابِّ وما أَنْبَتَ ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ؛ يقولُ: إنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وجميعَ [ما][3] فيهما، هو كلُّهُ خَلْقُ اللهِ، وأنهُ، هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ، وأنَّ الأصنامَ التي تَعْبُدونَها مِنْ دونِهِ لم تَخْلُقْ شيئاً مِنْ ذلكَ، ولا تَمْلِكُ خَلْقَ شيءٍ، فكيفَ تعبُدونَها مِنْ دونِهِ؟ وسَمَّيتُموها آلهةً؟

وصَرَفْتُمُ العبادةَ والألوهيَّةَ عنِ الذي [هو][4] خالِقُكمْ وخالقُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما؟ وإنما اسْتَحَقَّ الألوهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ لِخَلْقِهِ ما ذُكِرَ [لا الأصنامُ][5]. فإذا لم يكُنْ منها خَلْقٌ فكيفَ سَمَّيتُموها آلهةً، وعَبَدْتُموها دونَ اللهِ؟

هذا، واللهُ أعلَمُ تأويلُ قولِهِ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي لم يَخْلُقْ. يُخْبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ في القولِ والفِعلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[6] وضَعوها في غَيرِ مَوضِعِها الذي أمَرَهُمُ اللهُ أنْ يَضَعوها، وهو وضْعُهُمْ إياها في عبادةِ الأصنامِ.

[والثاني][7]: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حدودَ اللهِ التي[8] حَدَّ لهمْ، لم يَحْفَظوها على [ما حَدَّ][9]، بل جاوَزوها.

---

(١) في الأصل وم: بقدرته. (٢) في الأصل وم: يجعل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فالأصنام. (٦) في الأصل وم: حيث في. (٧) الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: تلك الحدود.

[والثالثُ][1]: سَمّاهُمْ ظَلَمَةً لِما ظَلَموا نِعَمَ اللهِ، ولم يَشْكُروها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في حَيرَةٍ بيِّنَةٍ وهَلاكٍ بيِّنٍ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الإصابةُ في القولِ والفِعْلِ في غيرِ نُبُوَّةٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أعْطَى الفَهْمَ واللُّبَّ، وقيلَ: الفَهْمُ والفِقْهُ في الدينِ، وقيلَ: العِلْمُ. كأنهُ يقولُ: أعطيناهُ العِلْمَ والفَهْمَ بالكتبِ المُتقَدِّمَةِ.

والفِقْهُ هو مَعْرِفة الشيءِ بنظيرِهِ الدالِّ على غَيرِهِ، أو مَعْرِفَةُ ما غابَ بما شَهِدَ، أو مَعْرِفَةُ الخَفِيِّ الباطِنِ بالظاهِرِ ونَحْوُهُ.

والفلاسفةُ يقولونَ: الحكمةُ، هي المَعْرِفَةُ مَعَ العَمَلِ. والحكيمُ، هو الذي لهُ المعرفةُ والعِلْمُ والعَمَلُ جميعاً، فحينئذٍ يُسَمّى حكيماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ والحكمةُ، تَحْتَمِلُ الوجوهَ التي ذَكَرْنا، وقُلْنا له ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ في ما أعطاكَ مِنَ الحكمةِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ النِّعَمِ[2].

وهذا يدلُّ أنَّ للهِ في ما يَكتَسِبُ المَرْءُ مِنَ الحكمةِ / ٤١٦ - ب/ والعِلْمِ صُنْعاً، إذْ لو لم يكُنْ لهُ [صُنْعٌ في ذلكَ لم يكُنْ][3] لِقولِهِ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ معنىً، إذْ هو [فَعَلَ][4] العبدَ وكَسْبُهُ.

ألا تَرى أنهُ أمَرَهُ أنْ يَشْكُرَ لهُ على ذلكَ [ولو لم يكُنْ لهُ صُنْعٌ في ذلكَ لَكانَ لا][5] يأمُرُهُ بالشكرِ لهُ على ما لا صُنْعَ لهُ في ذلكَ، إذْ يُخَرِّجُ ذلكَ مُخرجَ طَلَبِ الحَمْدِ والشُّكرِ على ما لم يَفْعَلْ. وقد ذَمَّ مَنْ أحبَّ أنْ يُحمَدَ بِما لم يَفْعَلْ. فلا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُ[6] بالحَمْدِ والشُّكرِ على ما لم يَفْعَلْ، ولا صُنْعَ لهُ في ذلكَ.

دلَّ أنَّ لهُ فيهِ صُنْعاً، وهو يَنْقُضُ على المُعتزلةِ قولَهُمْ[7]: ليسَ للهِ في فِعْلِ العبدِ صُنْعٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ [اللهَ في][8] ما يأمُرُ عبادَهُ، ويَنْهاهُمْ، وفي ما امْتَحَنَهُمْ إنما يَمْتَحِنُهُمْ، ويأمُرُهُمْ، ويَنْهاهُمْ، لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجاتِهِمْ لا لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ أو لحاجتِهِ حينَ[9] قالَ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ حتى[10] يُتِمَّ النعمةَ، ويُديمَها لهُ. فهو بالشكرِ يَنْفَعُ نفسَهُ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنما ضَرَرُ كُفْرِهِ يَلْحَقُهُ دونَ اللهِ تعالى.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾؟ أي غَنِيٌّ عن شُكْرِهِ وحَمْدِهِ ﴿حَمِيدٌ﴾ وإنْ لم يَحْمَدْهُ أحدٌ مِنْ خَلْقِهِ لأنهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ حميدٌ بِصنائِعِهِ وآلائِهِ. وإنْ لم يُحْمَدْ هو، ولم يُشْكَرْ على ذلكَ فلا يَنْفَعُهُ شُكرُ أحدٍ ولا حَمْدُهُ، ولا يَضُرُّهُ كُفرانُ أحدٍ، ولا تَرْكُ الشكرِ لهُ. وباللهِ الحَولُ والقوةُ

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾][11] وجوهاً:

أحَدُها: ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[12] وَضَعوها في غيرِ مَوضِعِها، وأوقَعوها في المهالِكِ بَعْدَ ما صَوَّرَها اللهُ أحْسَنَ تصويرٍ، ومَثَّلَها أحْسَنَ تمثيلٍ. وأعظَمُ الظُّلْمِ مَنْ عَمِلَ، وسَعَى في إهلاكِ نفسِهِ.

[والثاني][13]: ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ظَلَموا نِعَمَ اللهِ حينَ[14] صَرَفوا شُكْرَها إلى غَيرِ مُنْعِمِها.

[والثالثُ][15]: ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ظَلَموا ظُلْماً عظيماً حينَ[16] لم يَقْبَلوا شهادةَ وَحْدانيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ في ما جَعَلَها في خِلْقَتِهِمْ وبُنْيَتِهِمْ، إذْ جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ الشهادةَ على وَحْدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ. وذلكَ أعظَمُ الظلْمِ وأفحَشُهُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: النعمة. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: لكان. (٦) في الأصل وم: يأمر هو. (٧) في الأصل وم: في قولهم: بان. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: أو. (١٦) في الأصل وم: حيث.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ولم يَذْكُرْ ههنا بماذا وَصّاهُ؟ فجائزٌ [كَونُ][1] الوصيَّةِ بِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى حيثُ قالَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] وإحساناً[2]. والإحسانُ، هو اسمُ ما حَسُنَ مِن فِعْلِهِ. وقولُهُ: ﴿حُسْنًا﴾ هو اسمُ ما حَسُنَ مِمّا كانَ يَفْعَلُهُ، وهما واحدٌ في الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي ضَعْفاً على ضَعْفٍ، أي كلّما مَضَى عليها وقتٌ ازدادَ فيها ضَعْفٌ على ضَعْفٍ وَوَجَعٌ على وَجَعٍ. أَمَرَ بالإحسانِ إليهما جميعاً، ثم ذَكَرَ ما حَمَلَتِ الأمُّ مِنَ المَشَقَّةِ والشِّدَّةِ، ولم يَذْكُرْ مِنَ الأبِ شيئاً. وقد كانَ للأبِ وقتَ احتِمالِ الأمِّ المَشَقَّةَ اللَّذَّةُ والسرورُ والفَرَحُ.

فجائزٌ أنْ يُقالَ: إنْ كانَ الأبُ بإزاءِ تلكَ المَشَقَّةِ التي احتَمَلَتِ الأمُّ مَعْنًى ما يُؤمَرُ أنْ يَشكُرَ لهُ، ويُحْسِنَ إليهِ فهو ما يَتَحَمَّلُ مِنَ الإنفاقِ عليها وعليهِ في حالِ الرِّضاعِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقولُهُ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦] أو ما لم يَجْعَلْهُ مَطْعوناً في الناسِ بحيثُ لم يُعْرَفْ لهُ نَسَبٌ، يُنْسَبُ إليهِ، بل جَعَلَهُ مَعروفَ النَّسَبِ غَيرَ مَطعونٍ في الخَلْقِ. ونَحْوُهُ.

ثم ذَكَرَ الفِصالَ، ولم يَذْكُرِ الرِّضاعَ والمَشَقَّةَ في الإرضاعِ. والمَشَقَّةُ في الإرضاعِ لا في الفِصالِ. لكنّه ذَكَرَ تَمامَ الرِّضاعِ وكَمالَهُ، إذْ بالفِصالِ يَتِمُّ ذلكَ، ويَكْمُلُ. وفي ذِكْرِ التَّمامِ لهُ والكَمالِ ذِكْرُ الرِّضاعِ. وليسَ في ذِكْرِ الرِّضاعِ نفسِهِ ذِكْرُ تَمامِهِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أَمَرَ بالشُّكرِ لهُ ولِوالدَيهِ. وحاصلُ الشكرِ إليهِ راجعٌ دونَ مَنْ يَشكُرُ لهُ؛ إذْ كلُّ مَنْ صَنَعَ إلى آخَرَ ما يَستَوجِبُ بِهِ الشُّكرَ والثَّناءَ فباللهِ صَنَعَ ذلكَ إليهِ، وبِنِعَمِهِ كانَ منهُ ذلكَ. فكُلُّ مَنْ حُمِدَ دونَهُ أو شُكِرَ فراجعٌ إليهِ في حَقيقةِ[3] ذلكَ.

ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: اشكرْ لي في ما تَشْكُرُ والديكَ بإحسانِهِما إليكَ، فإنهما ما أَحْسَنا إليكَ إلّا بِفَضْلي ورَحمَتي كقولِهِ: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] أي اذْكُروا اللهَ في ما تَذْكُرونَ آباءَكُمْ بِصُنْعِهِمْ، فإنهمْ إنما فَعَلُوا ذلكَ بِفَضلِ اللهِ.

[والثاني][4] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ في ما أنْعَمْتُ عليكَ ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ في ما أحْسَنا إليكَ، ورَبَّياكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ خَصَّ ذلكَ المصيرَ إليهِ، وإنْ كانوا في جميعِ الأوقاتِ صائرينَ إليهِ راجعينَ بارزينَ لهُ لِما المَقصودُ مِنْ إنشائِهِمْ في هذا ذاكَ، وصارَ إنشاؤُهُمْ وخَلْقُهُمْ في الدنيا حكمةً بذاكَ ما لولا ذلكَ لَكانَ عَبَثاً باطلاً على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أَمَرَ في الآيةِ الأُولَى بالإحسانِ إليهما والبِرِّ لهما والطاعةِ. ثم بَيَّنَ أنْ لا في كلِّ أمرٍ يُطاعانِ، ولا في جميعِ ما يَأمُرانِ، ويَسْألانِ، يُجابانِ. إنما يُطاعانِ، ويُجابانِ، في ما يُؤذَنُ لهما، ويُباحُ لهما، لا في ما لا يُؤذَنُ، ولا يُباحُ بِحالٍ. بل يُؤمَرُ بالخِلافِ لهما على إنْتِفاءِ[5] المُعاداةِ فَضْلاً أنْ يُطاعا، ويُجابا إلى ما يَدْعُوانِ، ويَأْمُرانِ. وكذلكَ ذُكِرَ في الخَبَرِ: أنْ «لا طاعةَ لِلمخلوقِ في مَعْصيةِ الخالقِ» [ابن أبي شيبه في المصنف ١٢/٥٤٦]وإنما أَمَرَ بِحُسْنِ المُصاحَبةِ لهما والمَعروفِ في ما لم يَكُنْ في ذلكَ مَعْصِيَةُ الخالقِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اتَّبعْ دينَ مَنْ أقبَلَ إليَّ، ورَجَعَ إلى طاعتي، وهو النَّبيُّ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي اتَّبِعْ سَبيلي وديني كقولِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) هذه قراءة أبي وغيره. انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/٣٩. (٣) من م، في الأصل: الحقيقة. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: اعتقاد. (٦) في الأصل وم: حيث.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ: جائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: اتَّبِعْ سَبيلي وديني ولا تَتَّبِعْ غَيرِي. [ويَحتَمِلُ أنِ اتَّبِعْ][١] سَبيلَ مَنْ أنابَ، ورَجَعَ إليَّ، ولا تَتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ لم يُنِبْ، ولم يَرْجِعْ إليَّ.

ثم أخْبَرَ برجوعِ الكلِّ إليهِ: مَنْ رَجَعَ، وأنابَ إليهِ، ومَنْ لم يرجِعْ، ولم يُنِبْ إليهِ، على الوعيدِ حينَ[٢] قالَ: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية. وهو كقولِهِ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] أي مَنِ اسْتَنْكَفَ ومَنْ لم يَسْتَنْكِفْ يُحْشَرُ إليهِ جميعاً. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾.

لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ والقولُ مِنْ لُقمانَ، كانَ لابْنِهِ ابْتِداءً مِنْ غَيرِ سُؤالٍ. لكنْ لا يُعْلَمُ ما كانَ السؤالُ وعمّا كانَ؟

فأمّا إنْ كانَ السؤالُ عنْ علمِهِ، فأخبَرَهُ[٣] بما ذَكَرَ مِنْ حَبَّةٍ مُسْتَتِرَةٍ[٤] مَكْنونَةٍ في أخْفَى الأمكنةِ عنِ الخَلْقِ في ما لا يَطَّلِعُ أحدٌ منهمْ، ولا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الخَلائقِ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي يَعْلَمُها اللهُ.

فإنْ كان على هذا ذَكَرَ فَيَلْزَمُهُمْ أنْ يكونوا أبداً مُراقِبِينَ أعمالَهُمْ وأحوالَهُمْ في جميعِ حالاتِهِمْ وأوقاتِهِمْ وجميعِ أمورِهِمْ لِما لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

[وأمّا إنْ كانَ][٥] السؤالُ عنْ قدرةِ اللهِ وسلطانِهِ فأخبَرَ أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على اسْتِخْراجِ تلكَ الحَبَّةِ التي اسْتَتَرَتْ، واحْتَجَبَتْ عنِ الخَلْقِ بالحُجُبِ التي ذَكَرَ ما تَعْجَزُ الخَلائِقُ عنِ اسْتِخراجِ مِثْلِها مِنْ مِثْلِ تلكَ الحُجُبِ والأمكنةِ، فَيَخافونَ قُدْرَةَ اللهِ، ويَهابونَ سُلْطانَهُ في الانْتِقامِ منهمْ في مُخالَفَةِ أمرِهِ ونَهْيِهِ.

[وأمّا إنْ كانَ][٦] السؤالُ عنِ الرِّزْقِ، فَيُخْبِرُ بهذا: أنَّ الشيءَ، وإنْ كانَ في مكانٍ لا يَبْلُغُهُ وَسْعُ البَشَرِ وحِيَلُهُمْ في اسْتِخراجِ ذلكَ منهُ والوصولِ إليهِ بحالٍ، فاللهُ سُبْحانَهُ بِلُطْفِهِ يَرْزُقُ الخَلْقَ / ٤١٧ - أ/ بأشياءَ خارجةٍ عَنْ وَسْعِهِمْ وحِيَلِهِمْ ما لا يَقَعُ لهمُ الطمعُ في ذلكَ ليكونوا أبداً في حالِ مُطْمَئِنِّينَ في الرِّزْقِ، لا يُؤْلِمُهُمْ[٧] عجزُهُمْ ولا تُعَذُّرُ حِيَلُهُمْ عنْ ذلكَ، ولا يُعَلِّقونَ[٨] قلوبَهُمْ في الرزقِ بالأسبابِ التي بها يَكْتَسِبونَ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

[وأمّا إنْ كانَ][٩] السؤالُ عنْ جزاءِ ما يَعْمَلُ المَرْءُ مِنْ قليلٍ أو كثيرٍ وممّا عَظُمَ، ولَطُفَ، فَيُخْبِرُ أنهُ يجزي بقليلِ العَمَلِ أو كثيرِهِ. وكذلكَ يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ ذلكَ: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ في جَبَلٍ ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [أي يُجازِ بها][١٠] اللهُ، فيكونُ على هذا التأويلِ كقولِهِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

فأيُّ شيءٍ كانَ ففي ذلكَ دلالةُ وحدانِيَّةِ اللهِ ودلالةُ عِلْمِهِ وتدبيرِهِ ودلالةُ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ ودلالةُ الثقةِ بهِ والتوكُّلِ عليهِ في الرزقِ والتَّفويضِ في الأمرِ في كلِّ ما خَرَجَ عنْ وَسْعِ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ في اسْتِخْراجِ تلكَ الحبَّةِ ﴿خَبِيرٌ﴾ بمكانِها. وتأويلُ هذا الكلامِ أي يَسْتَخْرِجُ تلكَ الحَبَّةَ مِنَ الحُجُبِ التي ذَكَرَ والأستارِ التي بَيَّنَ اسْتِخراجاً، لا يَشْعُرُ بها أحدٌ، ولا يَعْلَمُ[١١] كيفيَّةَ الاسْتِخْراجِ منها ولا ماهِيَّتَهُ. واللطيفُ هو البارُّ. ثم يُخَرَّجُ هو على وجهَينِ:

أحَدُهما: البارُّ[١٢] في ما أرسلَ مِنَ الرسلِ[١٣] وما أنزلَ مِنَ الكتبِ لِيَدُلَّهُمْ إلى ما يَهْتَدونَ إلى ما بهِ نجاتُهُمْ، والخبيرُ[١٤] بحوائِجِهِمْ.

والثاني: في اسْتِخراجِ أمورٍ، لا يَبْلُغُها وُسْعُ الخَلْقِ ولا عِلْمُهُمْ وحِيَلُهُمْ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: فأخبروه. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: التي ذكر. (٥) و(٦) في الأصل وم: أو أن يكون. (٧) في الأصل وم: يوليهم. (٨) في الأصل وم: وألا يعقلوا. (٩) في الأصل وم: أو أن يكون. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: أو يجازيها، في م: أي يجازيها. (١١) في الأصل وم: علم. (١٢) في الأصل: بار، ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: الرسول. (١٤) في الأصل وم: خبير.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ الأمر بإقامةِ الصلاةِ وجهيَن:

أحدُهما: الصلاةُ التي عَرَفَتْها العربُ، وهي المسألةُ والدعاءُ والثناءُ على اللهِ والتحميدُ لهُ والتمجيدُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٦] وهذهِ الصلاةُ المذكورةُ في هذهِ الآيةِ، هي الدعاءُ والاسْتِغْفارُ والرحمةُ لهُ والمغفرةُ. فَعَلَى ذلكَ يُشبِهُ أنْ يكونَ الأمرُ بإقامةِ الصلاةِ هو الأمرَ بِمسألةِ الرَّبِّ حوائِجَهُ ومَغْفِرَتَهُ ورحمَتَهُ ليكونَ أبداً في كلِّ حالٍ مُتَضرِّعاً إلى الله مُظْهِراً حاجَتَهُ إليهِ ومُثْنِياً عليهِ واصفاً عظمَتَهُ وجلالَهُ وكبرياءَهُ.

والثاني: أرادَ بهِ الصلاةَ المَعْروفةَ والمَعْهودةَ على شَرائِطِها التي جُعِلَتْ، وشُرِعَتْ. فإنْ كانَ هذا ففيها أيضاً ما في الأوّلِ مِنَ الدعاءِ والثناءِ على اللهِ تعالى والوصفِ لهُ بالعظمةِ والجَلالِ لأنها جُعِلَتْ مِنْ أوّلِها إلى آخرِها ذلكَ.

وإنْ كانَ أرادَ بالصلاةِ [الصلاةَ][1] المَعْروفة ففيهِ أنَّ الصلاةَ التي شُرِعَتْ لنا كانَتْ للأمَمِ المُتَقَدِّمَةِ.

وعلى ذلكَ يُخرَجَ قولُ إبراهيمَ [حينَ قالَ][2]: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقولُ عيسى حينَ [3] قالَ: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٣١] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المَعْروفُ اسْمُ كلِّ بِرٍّ وخَيرٍ وكلِّ مُسْتَحْسَنٍ في العقلِ والطبعِ، والمُنْكَرُ اسْمُ كلِّ شرٍّ وسُوءٍ وكلِّ[4] مُسْتَقْبَحٍ في العقلِ والطبعِ. ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ على وجوهٍ:

أحَدُها: المَعْروفُ الذي جاءَتْ بِهِ الرسُلُ، وشَرَّعوهُ للخَلْقِ، ودَعَوُا الخَلْقَ [إليهِ][5]. والمُنْكَرُ هو الذي يُنْكِرُهُ كلُّ عقلٍ صحيحٍ، ولا يَقْبَلُهُ، ويَسْتَقْبِحُهُ كلُّ طبعٍ سليمٍ، يَعْرِفُ بالبَداهَةِ قُبْحَهُ وفُحْشَهُ[6].

[والثاني][7]: يُعْرَفُ أنهُ معروفٌ أو مُنْكَرٌ عندَ التأمُّلِ والتَّفَكُّرِ. فَكُلُّهُ يَرْجِعُ إلى واحدٍ إلى ما ذَكَرْنا بَدْءاً، لكنهُ يَخْتَلِفُ في ما ذَكَرْنا [بَدْءاً مِنَ السببِ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ مِنَ الأذى بالأمرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ [مِنْ][9] أهلِ السَّفَهِ منهمْ والفِسْقِ، فلا بدَّ مِنْ أنْ يُصيبَ الأذى مَنْ تَوَلّى ذلكَ. وهذا يدلُّ أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عنِ المُنْكَرِ مِنَ اللَّوازمِ، لا يَسَعُ تَرْكُهُ، وإنْ أصابَهُ الأذى في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنْ ذلكَ مِنْ حَزْمِ الأمورِ، والحَزْمُ مِنَ الإحكامِ للشيءِ وإتقانِهِ، كأنهُ يقولُ: إنَّ ذلكَ مِنْ مُحْكَمِ الأمورِ ومُتْقَنِها، لأنَّ الشيءَ إذا حُزِمَ، وشُدِّدَ، يُؤْمَنُ مِنْ سقوطِهِ وذهابِهِ. فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ.

وقالَ [بعضُهُمْ][10]: العَزْمُ هو القطعُ والثباتُ على شيءٍ؛ يقولُ عَزَمْتَ على كذا أو على أمْرِ كذا، إذا قَطَعَ تدبيرَهُ ورأيَهُ واضطِرابَهُ، وجعلَهُ بحيثُ لا يَرْجِعُ، ولا يَتَحَوَّلُ عنهُ لِلدُّنيا أو لِأمْرٍ مِنْ أمورِها، ولكنْ ثَبَتَ على ما عَزَمَ، وقَطَعَ، [هذا هو][11] العَزْمُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قولُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ ولا تُصاعِرْ: بالألفِ، وبِغَيرِ الألِفِ، كلاهُما لُغَتانِ[12].

ثم أهلُ التأويلِ، أو أكثَرُهمْ يقولونَ: قولُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُعْرِضْ بِوجهِكَ عنِ الناسِ تَعَظُّماً وتَجَبُّراً وتَكَبُّراً، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ بَطَراً فَرِحاً بالمعصيةِ في الخُيَلاءِ والعظمةِ مُسْتَكْبِراً جَبّاراً؛ عامتُّهُمْ يُفَسِّرونَ بالإعراضِ التَّكَبُّرَ والتَّجَبُّرَ. وكذلكَ يقولُ الحَسَنُ: إنهُ قالَ: هو الإعراضُ عنِ الناسِ مِنَ الكِبْرِ اسْتِحْقاراً لهمْ واسْتِخْفافاً بهِمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وحسنه. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل: بدءا، في م: من السبب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فهو. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/٨٨.

والزَّجّاجُ يقولُ: الصَّعَرُ، هو داءٌ يأخذُ البَعيرَ، فَيَلْوي عُنُقَهُ. فعَلَى تأويلِهِ يكونُ قولُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ أي لا تَلْوِ عُنُقَكَ ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

وأبو عوسَجَةَ يقولُ قريباً مِنْ ذلكَ، يقولُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ أي لا تتجبَّرْ، وهو أنْ تَلْوِيَ عُنُقَكَ، فلا تَنْظُرَ إليهِمْ كِبْراً، ويقولُ: الصَّعَرُ هو اعوجاجٌ في العُنُقِ؛ يُقالُ: رجلٌ أصْعَرُ، وبَعيرٌ أصعَرُ، وبِهِ صَعَرٌ، ويُقالُ في الكلامِ: فلانٌ صَعَّرَ خَدَّهُ، إذا لَوَى رأسَهُ عنِ الناسِ، فلم يَنْظُرْ إليهِمْ كِبْراً منهُ، وقالَ كما قالَ الزَّجّاجُ: إنَّ الصَّعَرَ داءٌ يأخُذُ البَعيرَ، فَيَلْوي عُنُقَهُ. وأصلُهُ الإعراضُ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ وأهلُ الأدبِ. ثم يُخَرَّجُ على وجهينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنْ حقيقةِ الإعراضِ تكَبُّراً وتَعظيماً لِأنفسِهِمْ اسْتخفافاً بالناسِ واسْتِحْقاراً لهمْ لِما لم يَرَوْا الناسَ أمْثالاً وأشباهاً[1] لأنفسِهِمْ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ على حقيقةِ المَشْيِ على التَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ على ما ذَكَرْنا.

والثاني: ليسَ على حقيقةِ الإعراضِ بالوجهِ عنهمْ، ولا على حقيقةِ المَشْيِ بالأقدامِ، ولكنهُ كِنايةٌ عنِ الامْتِناعِ عنِ الأمْرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكرِ والتَّرْكِ لذلكَ لا على التَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ عليهِمِ والاسْتِخْفافِ بهِمْ، ولكنْ على الحَذَرِ والخَوفِ منهم.

فإذا كانَ الامْتِناعُ والإعراضُ عنِ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ، فلم يُعْذَروا في تَرْكِ ذلك لِما يَحْذَرونَ، ويَخافونَ منهمْ.

الآية ١٩ وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما:

أحَدُهما: على الأمْرِ بِقَصْدِ المَشْيِ وخَفْضِ الصوتِ حَقيقةِ المَشْيِ وحقيقةِ الصوتِ.

والثاني: على الكِنايةِ عنْ كيفيَّةِ المُعاملةِ وماهيَّتِها في ما بينَ الناسِ.

فإنْ كانَ على حقيقةِ المَشْيِ والصوتِ فكأنَّهُ يقولُ: أيِ اقْصِدْ في المَشْيِ في الناسِ، ولا تَمْشِ مُتَكَبِّراً مُسْتَخِفًّا بهِمْ مُسْتَحْقِراً لِتُؤْذِيَهُمْ ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي لا تَرْفَعْ صوتَكَ فوقَ أصواتِهِمْ فَتُؤْذِيَهُمْ بالصوتِ. ولكنْ لِيِّنْهُمْ بالقولِ.

وقال بعضُهُمْ: امْشِ هَيْناً [لَيْناً][2] ناكِسَ الرأسِ ناظراً حيثُ تمشي غيرَ ناظِرٍ إلى ما [لا][3] يَحِلُّ، ولا يَسَعُ، ولا رافِعٍ صوتَكَ على الناسِ، فَتُؤْذِيَهُمْ، فيكونُ صوتُكَ عندَهُمْ كصوتِ الحَميرِ.

وإن كانَ على الكِنايةِ عَنِ الأحوالِ في المُعاملةِ في ما بَينَ الناسِ في الأمرِ بالمَعْروفِ [والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ][4] أي مُروا بالمَعْروفِ وانْهَوا / ٤١٧ ـ ب/ عنِ المُنْكَرِ، ولا تَطْلُبوا لأنفُسِكُمْ في ذلكَ العُلُوَّ والرِّفْعَةَ ونَفاذَ القَولِ وقَبولَهُ. ولكنْ كونوا في ذلكَ عادِلينَ قاصِدينَ غيرَ طالِبينَ العُلُوَّ والرِّفْعَةَ ونَفاذَ القَولِ وقَبولَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحَدُها[5]: ما ذَكَرْنا، أي لا تَرْفَعْ صوتَكَ على الناسِ، فَتُؤْذِيَهُمْ، كما يؤذي الحمارُ، فيكونُ صوتُكَ عليهِمْ كصوتِ الحمارِ [أو يذكُرُ هذا لأنَّ الحمارَ][6] إنما يَصيحُ لِحاجةِ نفسِهِ وشَهْوَتِهِ، وسائرُ [أصحابِ][7] الأشياءِ إذ صاحوا إنما يَصيحونَ لِحاجةِ أهلِها. فيقولُ[8]: إنكُمْ إذا أمَرْتُم بالمَعْروفِ، ونَهَيْتُم عنِ المُنْكَرِ، فلا تَفْعَلوا لِمَنْفَعَةِ أنفسِكُمْ أو لِحاجَتِكُمْ، ولكنْ قوموا لِلّهِ في ذلكَ.

[والثاني: ما][9] ذكَرْنا إذْ[10] خَصَّ صوتَ الحَميرِ، لأنهُ ليسَ مِنْ صوتٍ وفيهِ لَذَّةٌ ومَنْفَعَةٌ[11] غيرَ صوتِ الحَميرِ، فإنهُ ليسَ فيهِ لذَّةٌ ولا مَنْفَعَةٌ.

---

(١) في الأصل وم: وأمثالاً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. . (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م، فيذكر. (٩) في الأصل وم: أولما. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: ومعونة.

[والثالثُ ما :][(١)] قيلَ : إنَّ أوَّلَهُ زَفيرٌ، وآخِرَهُ شَهيقٌ [فَشَبَّهُ بِزَفيرِ][(٢)] أهلِ النارِ وشَهيقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ قالَ [بعضُهُمْ][(٣)] المُخْتالُ المُتَكَبِّرُ البَطِرُ. وقالَ بعضُهُمْ: المُخْتالُ الخَدّاعُ الغَدّارُ، والفَخورُ، يَحتَمِلُ الذي يَفْتَخِرُ بكثرةِ المالِ أو لِما لا يَرَى أحداً شَكلاً لنفسِهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على الخَبَرِ، أي قَدْ رَأَوا، وعَلِموا أنهُ سَخَّرَ لهمْ ما ذَكَرَ.

والثاني: على الأمرِ، أي انْظُروا، ورَوا أنهُ ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِيَنْتَفِعوا بجميعِ ما يَحتاجونَ إليهِ، ويَصِلوا إلى مُرادِهِمْ وحاجتِهِمْ وإلى قَضاءِ وَطَرِهِمْ كيفَ شاؤوا بما شاؤوا.

أو أنْ يَذْكُرَ قدرتَهُ وسلطانَهُ، أي إنَّ مَنْ مَلَكَ تَسْخيرَ ما ذَكَرَ لنا، ومَكَّنَنا، وأقْدَرَنا على تدبيرِ اسْتِعمالِ ما سَخَّرَ لنا والانْتِفاعِ بهِ لَقادرٌ على البعثِ والإحياءِ بعدَ الموتِ، وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، أو أنْ يذكُرَ حكمَتَهُ وعِلْمَهُ أنَّ مِثْلَ هذا التسخيرِ لا يكونُ إلّا بحكمَتِهِ. ولو لم يَكُنْ هنالكَ بعثٌ وعاقبةٌ لَكانَ خَلْقُ الخَلْقِ وتَسْخيرُ ما ذَكَرَ لَعِباً باطلاً. على ما ذَكَرْنا في غيرِ موضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَحتَمِلُ المَطَرَ والسحابَ والشمسَ والقَمَرَ ونَحوَها[(٤)] ممّا جَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ حتى لا تَقومَ مَنافِعُ الأرضِ إلّا بِمَنافِعِ السماءِ [ويَحْتَمِلُ][(٥)] الملائكةَ لأنهمْ قدِ امْتُحِنوا ببعضِ ما يَقَعُ بِمنافِعِ البَشَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ قالَ: «سألْتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ ما هذهِ النِّعَمُ[(٦)] الظاهرةُ والباطِنَةُ؟ قالَ: أمّا ما ظَهَرَ يا ابْنَ عباسٍ فالإسلامُ وما سَوّى مِنْ خَلْقِكَ وما أسْبَغَ عليكَ[(٧)] مِنَ الرزقِ، وأما ما بَطَنَ [فما سَتَرَ مِنَ][(٨)] مَساوِئِ عَمَلِكَ، فلم يَفْضَحْكَ بها» [السيوطي في الدرر المنثور ٦/ ٥٢٥].

فإنْ ثَبَتَ الخَبرُ فلا تَقَعُ الحاجةُ إلى غَيرِهِ. فهو تأويلُ الآيةِ، وإلى هذا ذهبَ عامّةُ أهلِ التأويلِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ النعمةُ الظاهرةُ، هي ما ظَهَرَ مِنَ الحُسْنِ والطهارةِ، والنعمةُ[(٩)] الباطِنَةُ ما سُتِرَ مِنَ الأنجاسِ والعيوبِ، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ في الخَبَرِ المَرْفوعِ، واللهُ أعلَمُ.

والأقذارُ ما لو ظَهَرَتْ لم يَدْنُ منهُ أحدٌ لِخُبْثِهِ ونَجاسَتِهِ.

وبعضُهُمْ يقولونَ: الظاهرةُ باللسانِ والباطِنَةُ بالقلبِ. وقالَ مجاهدٌ: الظاهرةُ الإسلامُ والرزقُ، والباطنةُ ما سَتَرَ مِنَ الذنوبِ والعيوبِ، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ في الخَبَرِ المَرْفوعِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المُجادَلَةُ في اللهِ تَحْتَمِلُ في توحيدِ اللهِ، أو في الرسالةِ أنهُ أرسَلَ أو لم يُرْسِلْ، أو في البعثِ أيَبْعَثُ أم لا يَبْعَثُ؟ ونَحْوِهِ، أو يُجادِلُ في كتابِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أسبابُ العلمِ ثلاثةٌ: العقلُ [والكتابُ والسنةُ][(١٠)]: يُتَفَكَّرُ، ويُنْظَرُ بالعقلِ، فَيُعْرَفُ [الكتابُ بِتأكيدِ ما يُعْرَفُ بالعقلِ، ويُعْلَمُ ما لاحَظَ العقلُ فيهِ، والسنةُ تُعَرِّفُ، وتُبَيِّنُ ما احْتُمِلَ في الكتابِ][(١١)].

فلا[(١٢)] تكُنْ مع الذينَ يُجادلونَ رسولَ اللهِ [في اللهِ في شيءٍ][(١٣)] مِنْ ذلكَ وخاصةً أهلِ مكةَ، كانوا لا يؤمنونَ بالرسُلِ

---

(١) في الأصل وم: أو ذكر: لما. (٢) في الأصل وم: فشبه زفير. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ونحو. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل وم: النعمة. (٧) في الأصل وم: عليكم. (٨) في الأصل وم: وستر. (٩) في الأصل وم: وأما النعمة. (١٠) في الأصل وم: والسنة والكتاب. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وبيان السنة والكتاب يبين. (١٢) في الأصل وم: فلم. (١٣) في الأصل وم: في الله شي، في م: في الشيء.

والكتبِ؛ فكأنهُ يقولُ: ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادلُ في اللهِ، وهمْ يَعلمونَ انهُ ليسَ مَعَهُمْ[١] معقولٌ ولا بَيانٌ مِنَ السنةِ والكتابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟ كقولِهِ[٢] في آيةٍ أخرى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] [وقولِهِ في آيـاتٍ أخـرَ][٣]: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ و٢٣ و٢٤].

كأنهُ يقولُ لرسولِ اللهِ: أنْ قلْ لهمْ: تَتَّبِعونَ آباءَكُمْ، وتُقَلِّدونَهُمْ، وإنْ ظَهَرَ لكُمْ، وتَبَيَّنَ، أنَّ الشيطانَ يَدْعوهُمْ إلى عذابِ السعيرِ؟ وأنهمْ مِنْ أصحابِ السعيرِ؟ وتَتَّبِعونَ آثارَهُمْ، وتَقْتَدونَ بهمْ، وإنْ ظَهَرَ لكُمْ، وتَبَيَّنَ أنَّ الذي أدعوكُمْ إليهِ[٤]، وجِئْتُكُمْ [بهِ][٥] أهْدَى ممّا عليهِ آباؤكُمْ، إذْ تَتَّبِعونَ آباؤكُمْ، وإنْ ظَهَرَ لكُمْ، وتَبَيَّنَ أنَّ آباءَكُمْ كانوا لا يَعْقِلونَ شيئاً، ولا يَهْتَدونَ.

حتى إنْ قالوا: نعمْ نَتَّبِعُهُمْ، وإنْ كانوا كما ذَكَرْتَ، فإنهُ يَظْهَرُ، ويَتَبَيَّنُ عِنادُهُمْ ومُكابَرَتُهُمْ عندَ اتّباعِهِمْ [إياهُمْ حين][٦] ظَهَرَ الحقُّ لهمْ، فلم يَتَّبِعوهُ، بلِ اتَّبَعوا أهواءَهُمْ.

ويَظْهَرُ كَذِبُهُمْ في قولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] أو في قولِهِمْ: [﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠]][٧] بل في آبائِهِمْ مَنْ هو على خِلافِ ما هُمْ عليهِ [أو في قولِهِمْ: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤]][٨].

وإنْ قالوا: لا نَتَّبِعُهُمْ إذا كانوا على ما ذَكَرْتَ فَعِنْدَ ذلكَ يَفْتَرِنُ، ويَثْبُتُ عِنْدُهُمْ بالحججِ والبراهينِ.

وفيهِ دلالةٌ: أنَّ أهلَ الفَتْرَةِ يُعَذَّبونَ، ويُؤاخَذونَ بِتَرْكِهِمُ الدينَ والشرائعَ، لأنَّ هؤلاءِ الذينَ أخْبَرَ أنهمْ مِنْ أصحابِ السعيرِ، هُمْ أهلُ الفَتْرَةِ ما بينَ عيسى وبَيْنَ محمدٍ.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي بل كانَ الشيطانُ يَدْعُوهُمْ إلى عذابِ السعيرِ.

ومحمدُ بْنُ اسحاقَ يقولُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أيِ لا تُعْرِضْ بوجْهِكَ تكبُّراً عن فُقراءِ الناسِ إذا كَلَّموكَ و﴿مَرَحًا﴾ أي فَخْراً بالخُيَلاءِ والعَظَمَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] أي بَطِرٍ مَرِحٍ فَخورٍ في نِعَمِ اللهِ، لا يأخُذُ بالشُّكْرِ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [أي امْشِ][٩] رُوَيداً؛ لا تَختَلْ في مَشْيِكَ، ولا تَنْظُرْ حيثُ لا يَحِلُّ، ﴿وَٱغْضُضْ﴾ أيِ اخْفِضْ ﴿مِن صَوْتِكَ﴾ أي مِنْ كلامِكَ. يأمُرُ لقمانُ ابْنَهُ بالاقْتِصادِ في المَشْيِ والمنطِقِ.

ثم ضَرَبَ للصوتِ الرَّفيعِ مَثَلاً، فقالَ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ لِشِدَّةِ صوتِهِمْ.

وقولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني الشمسَ والقَمَرَ والنجومَ والسَّحابَ والرياحَ ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وسَخَّرَ لكمْ ما في الأرضِ أيِ الجبالَ والأنهارَ والبحارَ [وما فيها منَ][١٠] السُّفُنِ والأشجارِ والنَّبْتَ عاماً بعامٍ [والدوابَّ.

وقولُهُ تعالى:][١١]: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ تَسْوِيَةَ الخَلْقِ والرزقَ والإسلامَ ﴿وَبَاطِنَةً﴾: أي ما سَتَرَ مِنَ الذنوبِ مِنِ ابْنِ آدمَ، فلم يَعْلَمْ بها أحدٌ، ولم يُعاقِبْ فيها. فهذا كلُّهُ مِنَ النِّعَمِ. فالحمدُ للهِ على ذلكَ حَمْداً كثيراً كما هو أهْلُهُ.

وقالَ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في زَعْمِهِ أنَّ للهِ البَناتِ أيِ الملائكةَ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي لا بَيانَ مَعَهُ مِنَ اللهِ بما يقولُ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ لهُ، فيهِ حُجَّةٌ.

---

(١) في الأصل وم: معه. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: وقال في آية أخرى. (٤) في الأصل وم: أنا عليه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: إن آباءهم على ما هم عليه. (٨) في الأصل وم: ونحوه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فيها. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا ﴿يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مِنْ جهةِ العقلِ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي ولا بيانٍ مِنْ جهةِ السنةِ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ مِنَ اللهِ، فيهِ حُجَّةٌ لهُ، وأسبابُ العِلْمِ هذهِ، فلمْ يكُنْ لهُ شيءٌ ممّا ذَكَرَ، وباللهِ العصمةُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: المَرَحُ النشاطُ، وهذا لا يكونُ إلّا مِنَ الكِبْرِ لأنهُ يَتَبَخْتَرُ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي امْشِ مَشْياً رفيقاً ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ /٤١٨ ـ أ/ أي ارْفقْ لا تَصُوتُ صَوتاً شَديداً، وهذا أيضاً مِنَ التَّبَخْتُرِ ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أي أوسَعَ، والسابِغُ الواسِعُ التامُّ الطويلُ العَريضُ.

وقالَ القُتَبيُّ: الأصْعَرُ مُعْرِضُ الوَجْهِ ﴿أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أقبحُها؛ عرَفَةُ قُبْحِ رفْعِ الصوتِ في المخاطَبةِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾ أي نفسَهُ، كأنهُ قالَ: ومَنْ يُسْلِمْ نفسَهُ للهِ، ويَجعَلُها سالمةً لهُ لم يَجْعَلْ لأحدٍ فيها شِرْكاً ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عملِهِ إلى نفسِهِ، أي لا يَسْتَعْمِلُها إلّا في طاعةِ اللهِ وفي ما أمَرَ بهِ؛ فإذا فَعَلَ ذلكَ ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي فقدِ استَمْسَكَ بأوثَقِ العُرَا وأثْبَتِها على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولا انْقِطاعَ، ولا زَوالَ؛ لأنها تَثْبُتُ بالحُجَجِ والبَراهينِ لا بالهَوَى. فكلُّ شيءٍ يَثْبُتُ بالحُجَّةِ فهو ثابتٌ أبداً، لا زوالَ لهُ، ولا انْقِطاعَ، وكلُّ شيءٍ يَثْبُتُ بالهَوَى فهو يَزولُ، ويَنْقَطِعُ عنْ قريبٍ لِزوالِ الهَوَى.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي يُسْلِمْ وجهَ أمْرِهِ للهِ. فالوَجْهُ عِبارةٌ وكنايةٌ عنْ أمْرِهِ، أي يُسْلِمْ أمْرَهُ إلى اللهِ، ويُفَوِّضُهُ إليهِ، أو أنْ يكونَ كِنايةً عنْ نفسِهِ، فتأويلُهُ ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ أي دِينَهُ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي يُخْلِصْ دينَهُ للهِ كقولِهِ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] أي لكلِّ أهلِ دِينٍ ومَذهبٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إلى نفسِهِ في عملِهِ[1]، لا يَسْتَعْمِلُها إلّا في ما أُمِرَ بالاسْتِعْمالِ فيهِ، وهو طاعةُ اللهِ، لا يُوقِعُها في المَهالِكِ.

[والثاني][2]: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إلى الناسِ بالمَعْروفِ والبِرِّ.

[والثالثُ][3]: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي عالمٌ كما يُقالُ: أحْسَنَ أي عَلِمَ.

وبعضُ أهلِ التأويلِ يقولُ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أخلَصَ عَمَلَهُ للهِ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي مؤمنٌ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢] وهو قولُ ابْنِ عباسٍ.

ومُقاتِلٌ يقولُ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أخلَصَ دينَهُ للهِ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ استَمْسَكَ بأوثَقِ العُرَا وأثْبَتِها لأنهُ إنما يَثْبُتُ بالحُجَّةِ والبرهانِ لا بالهَوَى والتَّمَنِّي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: وإلى اللهِ تَدْبيرُ عاقبةِ الأمورِ وتقديرُها لا إلى الخَلْقِ.

والثاني: إلى مَنْ لهُ التَّدْبيرُ والتَّقْديرُ تَرْجِعُ عاقبةُ الأمورِ.

[والثالثُ][4]: أنْ يَخُصَّ رُجوعَ عاقبةِ الأمورِ والمَصيرِ والرُّجوعَ إليهِ والبروزَ لهُ والخروجَ، وإنْ كانوا في جميعِ الأوقاتِ كذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ المَقصودَ مِنْ خَلْقِ هذا العالمِ [العالمُ][5] الثاني، والمَقصودَ مِنْ خَلْقِ الدنيا الآخِرَةُ؛ إذْ بهِ يَصيرُ حكمةً وحقّاً. فَخَصَّ ذلكَ لهُ، وأضافَهُ إليهِ لِذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: عمل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

[والرابعُ][1]: يَذْكُرُ ذلكَ لِما لا يُنازَعُ في ذلكَ اليومِ، وقد نُوزِعَ في هذهِ، ولذلكَ قالَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ حُزناً، تَتْلَفُ، وتَهْلِكُ فيهِ كقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] فَيُخرَّجُ قولُهُ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ على [وجوه:

أحَدُها][2]: على التَّخفيفِ عليهِ والتَّيسيرِ، وليسَ على تَرْكِ الإشفاقِ والحزنِ عليهِمْ لأنَّ رسولَ اللهِ كادَتْ نفسُهُ تَهلِكُ إشفاقاً عليهِمْ وحُزناً على كُفرِهِمْ، فَيُخرَّجُ ذلكَ على التَّخفيفِ عليهِ والتَّسلّي.

والثاني: قولُهُ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ لا يَحزُنْكَ تكذيبُهُ إياكَ، فَذَكَرَ كُفرَهُ لأنهُ بتكذيبِهِ ما يصيرُ كافراً، وهو سَبَبُ كُفرِهِ كقولِهِ: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الآية [المائدة: ٤١] كانَ رسولُ اللهِ يَحزَنُ، ويَهتَمُّ بتكذيبِهِمْ إياهُ في ما يقولُ، ويُخبِرُ عنِ اللهِ، فيقولُ: لا يَحزُنْكَ تكذيبُهُمْ إياكَ فإنهمْ إلينا يَرْجِعونَ، فَنَجزيهِمْ، ونُكافِئُهُمْ جزاءَ التكذيبِ.

والثالثُ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ أي فإنَّ ضَرَرَ ذلكَ الكُفرِ عليهِ[3] لا عليكَ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ يأمُرُ[4] رسولَهُ ألا[5] يَحزَنَ على كُفرِ مَنْ كَفَرَ فإنَّ ضَرَرَ ذلكَ يَلْحَقُهُ دونَكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ هذا وعيدٌ، أي إلينا مرجِعُهُمْ، فَنُنَبِّئُهُمْ بِما غَفَلوا عنهُ، واختاروهُ في الدنيا، فَيَحفَظونَهُ، ويَتذكَّرونَ ما عَمِلوا، أي نَجزيهِمْ، ونُكافِئُهُمْ جَزاءَ أعمالِهِمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالمٌ بِما كان منهمْ، وما جَزاؤُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي في الدنيا لأنَّ مَتاعَ الدنيا قليلٌ، أي [يُمَتَّعونَ، ويُنْعَمونَ][6] بذلكَ القليلِ ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يذكُرُ هذا مُقابِلَ ما ذَكَرَ لأهلِ الجنةِ حينَ[7] قالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] فَيُخبِرُ أنَّ أهلَ النارِ يُضطَرّونَ، ويُدْفَعونَ إلى النارِ، لا أنهمْ يدخُلونها اختياراً كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿غَلِيظٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ كِنايةً عنِ امْتِدادِهِ وطولِهِ، وجائزٌ أنْ يكونَ كِنايةً عنْ شِدَّتِهِ وألَمِهِ وجراحَتِهِ كقولِهِ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية: [المؤمنون: ١٠٤] وقيلَ: يَغْلُظُ عليهِمُ العذابُ لوناً[8] بَعْدَ لونٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أخبَرَ رسولَهُ أنكَ لو سألْتَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ يقولونَ ذلكَ، ويُجيبونَكَ: اللهُ خَلَقَها.

ثم يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إثْرِ إقرارِهِمْ لهُ بالتَّوحيدِ لهُ والتَّفرُّدِ بالخَلْقِ على وجْهَينِ:

أحَدُهُما: أمَرَ رسولَهُ بالحَمْدِ لهُ لِما لا يَحتاجُ إلى إقامةِ الحجّةِ على وَحْدانيّةِ اللهِ وربوبيّتِهِ سوى إقرارِهِمْ؛ إذْ قد أقَرّوا لهُ بالوَحْدانيّةِ في ما ذَكَرَ. فَعَلى ذلكَ يَلْزَمُهُمْ ذلكَ في كلِّ شيءٍ: دَقٍّ، أو جَلٍّ، فَيَقَعُ الأمْرُ بالحَمْدِ لهُ على ذلكَ.

[والثاني][9]: يأمُرُ رسولَهُ بالحَمْدِ لهُ لِما أنجاهُ، وخَلَّصَهُ، وسَلَّمَهُ، مِمّا ابْتُلوا هُمْ، وفُتِنوا مِنَ التكذيبِ وعبادةِ الأصنامِ بعدَ إقرارِهِم بالوَحْدانيّةِ لهُ والألوهيّةِ.

فَحَمْدُهُ على أفضالِهِ عليهِ ورحمتِهِ وعِصْمَتِهِ لهُ بَينَ أولئكَ الكَفَرَةِ. على هذينِ الوجْهَينِ يُخَرَّجُ تأويلُ الحمدِ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويكونُ قولُهُ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَقطوعاً مَفصولاً مِنْ قولِهِ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إذْ لو لم يُجْعَلْ مفصولاً منهُ لَخَرَجَ الأمْرُ بالحمدِ لهُ في الظاهِرِ على ما لَمْ يَعْلَمْ أولئكَ، وذلكَ لا يَصِحُّ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: يخبر. (٥) في الأصل وم: أي لا. (٦) في الأصل وم: يتمتعون ويعمرون. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: لون. (٩) في الأصل وم: أو.

ثم قولُهُ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا أنهُ نَفَى عنهمُ العلمَ[1] لِما لم يَنْتَفِعوا بِما عَلِموا على ما نَفَى عنهمُ حَوَاسَّ، كانَتْ لهمْ، لِما لم يَنْتَفعوا بها مِنْ نَحْوِ البَصَرِ والسَّمْعِ واللسانِ ونَحْوِه. فَعَلَى ذلكَ العلمُ.

والثاني: لا يَعْلَمون لِما تَرَكوا النَّظَرَ والتَّفكُّرَ في أسبابِ العِلْمِ.

[والثالث][2]: أنْ يكونَ قولُهُ ههنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ عبادَتَهُمُ الأصنامَ لا تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى، ولا[3] تَشْفَعُ لهمْ لأنهمْ إنما كانوا يعبدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تُزْلِفَهُمْ إلى اللهِ ورَجاءَ أنْ يكونوا لهمْ شُفَعاءَ عندَ اللهِ بقولِهِمْ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِهِمْ[4]: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

[والثالث][5]: أنْ يكونوا لم يَعْلَموا بِجَزاءِ أعمالِهِمُ التي عَمِلوها في الدنيا، في[6] الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ كأنهُ يُخْبِرُهُمْ، ويَذْكُرُ أنَّ ما يأمُرُهُمْ به، ويَنْهاهُمْ عنهُ، وما يَمْتَحِنُهُمْ مِنْ جَميعِ أنواعِ المِحَنِ، لا لِحاجةِ نفسِهِ أو لِدَفْعِ المَضَرَّةِ عن نفسِهِ، ولكنْ لِحاجةِ أنفُسِ المُمْتَحَنينَ ولِمَنْفَعَتِهِمْ ولدفعِ المَضَرَّةِ عنهمْ؛ إذْ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ وسُلْطانُهُ المَبْلَغَ الذي ذَكَرَ حتى كانَ لهُ جميعُ[7] ما في السمواتِ والأرضِ لا[8] يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَ الخَلْقَ، ويَنْهَى، أو يَمْتَحِنَ، لِحاجةِ نفسِهِ ولكنْ لحاجةِ الخَلْقِ في جَرِّ المَنْفَعَةِ ودفعِ المَضَرَّةِ.

[ويَحْتَمِلُ أنهُ][9] يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ عليهمْ لِيَسْتَأْدِيَ به شُكْرَهُ حينَ[10] سَخَّرَ لهمْ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وحقيقةَ مُلْكِ ذلكَ كلِّهِ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الغَنِيُّ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، أو غَنِيٌّ عَمَّنِ اسْتَغْنَى عنهُ، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ /٤١٨ ـ ب/ قيلَ: أهْلٌ أنْ يُحْمَدَ، ويُشْكَرَ لذاتِهِ، وقيلَ: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في فِعالِهِ وصَنائِعِهِ. ويكونُ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ بِمَعْنَى الحامِدِ، ويكونُ بِمَعْنَى المَحْمودِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذِكْرُ هذا الكلامِ ابْتِداءً مِنْ غَيرِ أمْرٍ أو سؤالٍ أو خِطابٍ سَبَقَ مِنَ القومِ حتى ذَكَرَ هذا.

لكنّا ما نَعْلَمُ سَبَبَ ذلكَ، وما قِصَّتُهُ، وما أمْرُهُ، حتى أنْزَلَ هذا.

لكنَّ ابنَ عباسٍ ﵄، يقولُ: إنَّ اليهودَ أعداءَ اللهِ، سَألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الرُّوحِ، وما هو؟ فَنَزَلَ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ لا عِلْمَ لي بهِ، وتَلَا قولَهُ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] أي [يَسيراً مِنْ][11] عِلْمِ اللهِ. فلما قرَأ عليهِمْ هذهِ الآيةَ قالوا: كيفَ تَزْعُمُ هذا، وأنتَ تَزْعُمُ أنَّ مَنْ ﴿يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فكيفَ يَجْتَمِعُ هذا: عِلْمٌ قليلٌ وخَيرٌ كثيرٌ؟

قالَ: فَنَزَلَ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يقولُ: تُبْرَى الشجرةُ أقلاماً: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فتكونُ كلُّها مِداداً، يُكْتَبُ بها عِلْمُ اللهِ، لَانْكَسَرتِ الأقلامُ، ولَنَفِدَ المِدادُ، ولم يَنْفَدْ عِلْمُ اللهِ؛ فما[12] أعطاكُمْ مِنَ العِلْمِ قليلٌ، وما[13] عندَهُ مِنَ العِلْمِ كثيرٌ.

إلى هذا يَذْهَبُ أكْثَرُهُمْ، ولكنَّ غَيرَ هذا كأنهُ أشْبَهُ بسببِ نزولِهِ وذِكْرِهِ، وهو يُخَرَّجُ على وَجْهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٦] أنهُ بَلَغَ مُلْكُهُ وسُلْطانُهُ ما لو صارَ ما ذَكَرَ مِنَ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: على حقيقة العلم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: و. (٧) من م،في الأصل: الجميع. (٨) من م، في الأصل: ولا. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل: يسيروا في، في م: يسير في. (١٢) في الأصل وم: في ما. (١٣) في الأصل وم: في ما.

الأشجارِ كلِّها أقلاماً والبِحارِ كلِّها مداداً، فكُتِبَ بها أسماءُ خَلْقِهِ ومُلْكِهِ وسُلْطانِهِ لَنَفِدَ ذلكَ كلُّهُ، ولم يَنْفَدْ خَلْقُهُ، ولم يَبْلُغوا غايةَ ذلكَ.

[والثاني][1]: ذَكَرَ هذا [في وصفِ][2] القرآنِ لِقولٍ، كانَ مِنَ الكَفَرَةِ في قِلَّتِهِ في نفسِهِ وصِغَرِ ما كُتِبَ فيهِ، أنْ يقولوا: كيفَ يَسَعُ في هذا المقدارِ عِلْمُ الكُتُبِ السالِفةِ المُتَقَدِّمةِ، وهي أوقارٌ، وهي جُزْءٌ؟ فَيُخْبِرُ، واللهُ أعلمُ:

أنهُ جَمَعَ في هذا مِنَ المَعاني والعِلْمِ والحِكمةِ ما لو فَسَّرَهُ، وبَيَّنَ ما أودعَ فيهِ، وضَمَّنَهُ ما لو جَعَلَ ما في الأرضِ مِنَ الشجرِ أقلاماً والبحارِ مداداً، فكُتِبَ فيه ما أودَعَ فيهِ، وضَمَّنَهُ، لَتَعَذَّرَ ذلكَ كلُّهُ، ولم يَنْفَدْ ما جَمَعَ فيه، وضَمَّنَهُ. هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلَهُ وسَبَبَ نزولِهِ، واللهُ أعلَمُ، بذلكَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ هذا لأنَّ نَفَراً مِنْ قريشٍ قالوا للنَّبِيِّ: إنَّ اللهَ خَلَقَنا أطواراً: نُطْفَةً، عَلَقَةً، مُضْغَةً، عَظْماً، لَحْماً، ثم تزعُمُ أنا نُبْعَثُ خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدةٍ. فقالَ ﷺ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ أيُّها الناسُ جميعاً على اللهِ في القُدْرةِ إلا كَبَعْثِ نَفْسٍ واحدةٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لقولِهِمُ الذي قالوهُ: إنا لا نُبْعَثُ ﴿بَصِيرٌ﴾ بأمرِ الخَلْقِ والبَعْثِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قالَ هذا لِما قد أقَرُّوا بِبَعْثِ [نفسٍ][3] واحدةٍ لَمّا انْتَهَى إليهِمُ الأخبارُ ممّا كانَ مِنَ الأُمَمِ السالفةِ مِنَ الإحياءِ بَعْدَ المَماتِ، وتواتَرَتْ على ذلكَ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] [وقولُهُمْ حينَ][4] قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ الآية [النساء: ١٥٣] وقولُهُ[5]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦] وقولُهُ: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] [فكأنهمْ أقَرُّوا][6] بِبَعْثِ هؤلاءِ لِمّا تواتَرَتِ الأخبارُ بذلكَ، وأنكروا بَعْثَ سائرِهِمْ، فقالَ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ جميعاً ﴿إِلَّا﴾ كَبَعْثِ نفسٍ واحدةٍ؛ [إذا ثَبَتَ لواحدةٍ][7] ففي الكلِّ كذلكَ.

أو أنْ يَذْكُرَ هذا لأنَّ الأسبابَ إنما تَخْتَلِفُ في الأمورِ على الخَلْقِ، وتَعْسُرُ لِخِصالٍ ثلاثٍ: إمّا لِعَجْزٍ أو لِجَهْلٍ أو لِشُغْلٍ.

فإذا كانَ اللهُ سبحانَهُ يَتَعالى عنْ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ، أو يُخْفَى عليهِ شيءٌ، أو يَشْغَلَهُ شيءٌ عنْ شيءٍ صارَ[8] خَلْقُ الكلِّ عليهِ وبَعْثُ الكلِّ كَخَلْقِ نفسٍ واحدةٍ وكَبَعْثِ نفسٍ واحدةٍ.

أو أنْ يَذْكُرَهُ[9] لأنَّ الواحدَ والكلَّ والقليلَ والكثيرَ ما كانَ، وما يكونُ تحتَ قولِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧و..] مُعَبَّرٌ [عنهُ][10] بـ: ﴿كُن﴾ مُتَرْجَمٌ بهِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ أو نونٌ. لكنهُ ذَكَرَ ﴿كُن﴾ لأنهُ أوجزُ حرفٍ في كلامِ العربِ وأقصرُ كلامٍ يُتَرْجَمُ بهِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ أو نونٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ كأنهُ قد كانَ مِنْ أولئكَ قولٌ[11] أو كلامٌ في ذلكَ، حتى قالَ: ﴿سَمِيعٌۢ﴾ لِذلكَ ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوالِ الخَلْقِ وبأمورِهِمْ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ وعِلْمَهُ وتَدْبيرَهُ، وفيهِ دلالةُ البعثِ.

أمّا قُدْرَتُهُ [فهيَ][12] لمّا أدخَلَ الليلَ [في النهارِ][13] والنهارَ في الليلِ، ثم حَفِظَهما على حدٍّ واحدٍ وعلى ميزانٍ واحدٍ على غَيرِ تَفاوُتٍ يَقَعُ في ذلكَ ولا تَغَيُّرٍ. فَمَنْ قَدَرَ على ذلكَ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: لهذا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وكقولهم حيث.
(٥) في الأصل وم: وكقوله. (٦) في الأصل وم: مكانهم فاقروا. (٧) في الأصل وم: إذ ثبت لواحد. (٨) في الأصل وم: فصار. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (١٢) و(١٣) ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الشمسِ والقمرِ وما يَقْطعانِ في يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ مَسيرَةَ خَمْسِ مِئَةِ عامٍ ما لا يُتَصَوَّرُ ذلكَ في أوهامِ الخَلْقِ، ولا في تقديرِهِمْ قَطْعُ ذلكَ المقدارِ مِنَ السَّيرِ في مِثْلِ تلكَ المدةِ.

ودلَ إنشاءُ أحَدِهِما وإحداثُهُ بَعْدَ ما ذَهبَ الآخَرُ بِرُمَّتِهِ وكُلِّيَّتِهِ حتى لا يَبْقَى لهُ أثرٌ على أنهُ قادرٌ على الإحياءِ بَعد الموتِ، وبَعْدَما ذَهَبَ أثَرُهُ.

ففي ذلكَ دلائلُ مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: دلالةُ قُدْرَتِهِ حينَ[1] أدخَلَ أحَدَهُما في الآخَرِ، وحَفِظَهُما كذلكَ على حدٍّ واحدٍ وتقديرٍ واحدٍ على غَيرِ تَغْييرٍ وتَفاوُتٍ يَقَعُ في ذلكَ.

دلَّ ذلكَ على قُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وتَدبيرِهِ. ودلَّ إنشاءُ كلِّ واحدٍ منهما بَعْدَ ما ذَهَبَ الآخَرُ على القدرةِ على البَعْثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى الوقتِ الذي جُعِلَ لهُ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتَأخَّرُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ظاهراً وباطناً. هذا وعيدٌ ليكونوا أبداً خائفينَ حَذِرينَ مُتَيَقِّظينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلكَ الذي ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الخَلْقِ وإنشاءِ ما ذَكَرَ وتَسْخيرِهِ[2] وصُنْعِهِ في الليلِ والنهارِ والشمسِ والقمرِ وجميعِ ما ذَكَرَ صُنْعُ الإلهِ الحقِّ المُسْتَحِقِّ لِتَسْمِيَتِهِ الألوهيَّةَ والعبادةَ. أو ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ لأنهُ هو الذي يَسوقُ إليكُمْ هذهِ النِّعَمَ والمَنافِعَ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ لا تَنْفَعُكُمْ عبادَتُكُمْ إيّاها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ كقولِهِ[3] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقولُهُ: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ هي النعمةُ التي ذَكَرَها[4] في هذهِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: لمّا جَعَلَ لهمُ الفُلْكَ بحيثُ تَجْري على وَجْهِ الماءِ مع أحمالٍ ثقيلةٍ، ومِنْ طَبْعِها التَّسَرُّبُ في الماءِ والانْحِدارُ فيه، جَعَلَها[5] بحيثُ تَسْتَمْسِكُ على وَجْهِ الماءِ، وتَجْري، لِيَصِلوا إلى حوائجِهِمْ ومَنافِعِهِمْ في أمْكِنَةٍ متباعِدَةٍ مُمْتَنِعَةٍ ما لولا السفنُ لم يَصِلوا إلى ذلكَ بَحالٍ.

والثاني: ما ذَكَرَ فيه مِنْ ريحٍ طَيِّبَةٍ[6] بها تَجري السُّفُنُ في البحارِ، وماؤها راكدٌ ساكنٌ، فَتَعْمَلُ تلكَ الريحُ عَمَلَ جَرَيانِ الماءِ [في حالِ سُكونِهِ][7] وذلكَ نِعْمَتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ آياتِ وحدانيَّتِهِ وآياتِ قُدْرَتِهِ وسلطانِهِ وآياتِ نِعَمِهِ.

أمّا آياتُ نِعَمِهِ فما[8] ذَكَرَ، وآياتُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ ما ذَكَرْنا مِنْ قُدْرَتِهِ وسلطانِهِ أنْ جَعَلَ الفُلْكَ والسُّفُنَ [تَجْري][9] بحيثُ تَسْتَمْسِكُ، وتَحْتَبِسُ، فلا تَتَسَرَّبُ، ولا تَنْحَدِرُ مع أحمالٍ ثقيلةٍ. ومِنْ طَبعِ ذلك كلِّهِ التَّسَرُّبُ/ ٤١٩ ـ أ/ والانْحِدارُ وما ذَكَرَ مِنْ إجرائِها بالريحِ الطَّيِّبَةِ.

ولو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لا فِعْلَ واحدٍ لكانَ يَمْنَعُ عَن جَرْيَتِها. دلَّ أنهُ تدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

وقولُهُ تعالى ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الصَّبّارُ، هو المؤمِنُ، والشَّكورُ كذلكَ، والصبرُ[10] كِنايةٌ عنِ الإيمانِ، والشُّكرُ كِنايةٌ عنِ الإيمانِ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] ذَكَرَ الصَّبْرَ مكانَ قولِهِ: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ لأنهُ ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] والشُّكْرُ كِنايةٌ

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: لمن ذكر ذلك. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: ذلكَ. (٥) في الأصل وم: فجعلها. (٦) ادرج بعدها في الأصل وم: التي. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وسكونه. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم،

عنِ الإيمانِ كقولِهِ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقولُهُ: ﴿تَشْكُرُوا﴾ أي تؤمِنوا.

ويَحتَمِلُ [قولُهُ][1]: ﴿صَبَّارٍ﴾ على بَلاياهُ ﴿شَكُورٍ﴾ على نَعْمائِهِ، أو جَعَلَ الآياتِ لِمَنْ ذَكَرَ لأنهُ هو المُنتَفِعُ بها دونَ غَيرِهِ[2] أو ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ في ما أصابَهُمْ في البَحْرِ مِنَ الشدائدِ والأهوالِ و﴿شَكُورٍ﴾ في ما دَفَعَ عنهُمْ، وأنجاهُمْ مِنْ تلك الأهوالِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ هو سَوادٌ مِنْ كَثْرَةِ الماءِ ومُعْظَمِهِ. وقيلَ: يَصيرُ المَوجُ كالظُّلَّةِ فوقَ السفينةِ: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وجائزٌ أنْ تكونَ الظُّلَلُ التي ذَكَرَ على التَّمْثيلِ لا على التَّحْقيقِ كِنايَةً عنْ حَيْرَتِهِمْ في الدينِ كقولِهِ: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠]

وهو على التَّمْثيلِ لا على التَّحْقيقِ؛ يُخْبِرُ عنْ حَيرَتِهِمْ في الدينِ وتِيهِهِمْ فيهِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

ثم يَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنَّ الآيةَ في أهلِ الكُفْرِ كانوا يُخلِصونَ الدعاءَ للهِ والدِّينَ لهُ عندَما [اشْتَدَّ بهمُ الخَوفُ على الهلاكِ][3] عندَ معايَنَتِهِمُ الأهوالَ[والشدائدَ في][4] البِحار، لأنَّ أهلَ الإسلامِ يُخلِصونَ لهُ الدعاءَ والدينَ في الأحوالِ كُلِّها. فهيَ فيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي حَسَنُ القولِ بِلِسانِهِ، كافرٌ بِقَلْبِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي عَدْلٌ أي بَقِيَ على الإيمانِ والإخلاصِ الذي كانَ منهُ في تلكَ الأهوالِ، لم يَعُدْ إلى الكُفْرِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [وَسَطٌ، والوسَطُ][5] العَدْلُ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ قيلَ: الخَتّارُ الغَدّارُ. وقالَ بعضُهُمْ: الخَتّارُ هو الذي بَلَغَ في الغَدْرِ غايَتَهُ ونهايَتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠] العُلُوُّ يَتَّجِهُ وجهَينِ:

أحدُهما: العُلُوُّ القَهْرُ والغَلَبَةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي غَلَبَ، وقَهَرَ، وقولِهِ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] فَعَلَى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿الْعَلِيُّ﴾[6] القاهِرُ الغالبُ.

والثاني: أنْ يكونَ العُلُوُّ الارْتِفاعَ. فإنْ كانَ الارْتِفاعَ فهو يَرْتَفِعُ، ويَتعالى عنْ أنْ يَحتَمِلَ [ما يَحتَمِلُ][7] الخَلْقُ مِنَ التَّغْييرِ والزَّوالِ وغَيرِ ذلكَ مِمّا يَحتَمِلُ الخَلْقُ ﴿الْعَلِيُّ﴾ ارْتَفَعَ، وتَعالى عنِ احْتِمالِ ما يَحتَمِلُ الخَلْقُ.

و﴿الْكَبِيرُ﴾ أي تَكَبَّرَ عنْ أن يَلْحَقَهُ شَيءٌ مِمّا يَلحَقُ الخَلْقَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ في الجهةِ التي[8] لهُ عليكُمْ، وأوفُوا لهُ ذلكَ، أوِ اتَّقُوا مُخالَفَةَ ربِّكُمْ ومَعْصِيَتَهُ، أو اتَّقُوا نَقْمَةَ ربِّكُمْ وعذابَهُ.

لكنهُ يَختَلِفُ الأمْرُ بالاتِّقاءِ في المؤمِنِ والكافِرِ؛ يكونُ للكافِرِ: اتَّقُوا الشِّرْكَ وعبادةَ غَيرِ اللهِ، وفي المؤمنِ: اتَّقُوا مُخالفةَ اللهِ في جميعِ ما يأمُرُكُمْ، ويَنهاكُمْ، واتَّقُوا عبادةَ غَيرِ اللهِ أوِ الشِّرْكَ في حادثِ الوقتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ يَذْكُرُ هذا على الإياسِ وقَطْعِ طَمَعِ بَعْضِهِمْ عنْ بعضٍ بالوَصْلَةِ التي كانَتْ بَيْنَهُمْ في الدنيا.

يُخبِرُ أنَّ ذلكَ كلَّهُ مُنْقطِعٌ في الآخِرَةِ لِهَولِ ذلكَ اليومِ واشْتِغالِ كلٍّ بِنَفْسِهِ حتى لا يَنْفَعَ أحدٌ صاحِبَهُ، وخاصَّةً ما ذَكَرَ مِنَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غيرهم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: والله أعلم. (٥) في الأصل وم: الوسط. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: الذي.

الوَلَد لِوالِدِهِ والوالِدِ لِوَلَدِه ممّا لا يَحْتَمِلُ قلبُ واحدٍ منهما، أنْ يَلْحَقَ المَكْروهُ بالآخَرِ، ولا يَصْبِرُ ألّا يَدْفَعَ ذلكَ عنهُ بكلِّ ما بهِ وُسْعُهُ وطاقَتُهُ لِلشَّفَقَةِ والمَحبَّةِ التي جُعِلَتْ[1] فيهِمْ.

ثم أخبَرَ ألّا يَنْفَعَ أحدُهما صاحبَهُ لاشْتِغالِهِ بنفسِهِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «كلُّ نَسَبٍ وسَبَبٍ فهو مُنْقَطِعٌ إلّا نَسَبي وسَبَبي» [بنحوه أحمد ٤/ ٣٢٣] ونَسَبُهُ دينُهُ الذي دعانا إليهِ، وعَلَّمناهُ، وسَبَبُهُ شَفاعَتُهُ يومَ القِيامةِ. فذلكَ كلُّهُ مُنْقَطِعٌ إلّا هذينِ فإنهُ مَنْ تَمَسَّكَ بدينِهِ فإنهُ يَشْفَعُ [لهُ][2] يومَ القيامةِ في ما قَصَّرَ، وفَرَّطَ. فأمّا مَنْ لم يَقْبَلْ دينَهُ، ولم يُجِبْهُ إلى ما دَعاهُ، فإنهُ ليسَ لهُ واحدٌ مِنْ هذينِ مِنَ الأسبابِ والأنسابِ، مُنْقَطِعٌ كقولِهِ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقالَ بعضُهُمْ قولُهُ: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ قالَ هذهِ الآيةَ في الكفارِ. فأمّا المؤمنونَ فَيَنْفَعُ الوالدُ ولَدَهُ والوَلَدُ والدَهُ في الآخِرَةِ؛ [يَنْفَعُ الوالدُ][3] ابنَهُ بِفَضْلِ عملِهِ، وكذلكَ [يَنْفَعُ الولدُ أباهُ][4] كقولِهِ: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في ما ذَكَرَ مِنَ الإياسِ وقَطْعِ طَمَعِ بعضِهِمْ عنْ بعضٍ، أو ما ذَكَر مِنْ قيامِ [الساعةِ][5] وكَونِها أنها تكونُ، لا مَحالَةَ، أو في الثوابِ والعقابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَينِ: على التَّحْقيقِ [والتَّمْثيلِ].

أمّا التَّحقيقُ فألّا[6] تَشْغَلَنَّكُمْ الحياةُ الدنيا ولَذّاتُها، ولا تُلْهِيَنَّكُمْ عنْ ذِكْرِ اللهِ وعنِ الآخِرَةِ، ولا تَغْتَرّوا بها فإنها لَعِبٌ ولَهْوٌ على ما ذَكَرَ أنها لَعِبٌ ولَهْوٌ على ما هي عندَكُمْ، لأنها [عندَكُمْ إنما][7] أُنْشِئَتْ، وخُلِقَتْ، لها لا للآخِرَةِ.

فالدنيا على ما هي عندَهُمْ لَعِبٌ ولَهْوٌ، وأمّا على ما هي عندَنا فهي[8] حقٌّ، ليسَتْ بباطلٍ، لأنها أُنْشِئَتْ للآخِرَةِ وبالغةً[9] إليها.

وأمّا التَّمْثيلُ [فقدْ][10] أضافَ التَّغْريرَ إليها لأنَّ ما كانَ منها مِنَ التَّزْيينِ والتَّحْسينِ في الظاهِرِ وإظهارِ بَهْجَتِها وسُرُورِها ولَذّاتِها، لو كانَ ممَّنْ لهُ التَّمْييزُ والعقلُ والفَهْمُ وحقيقةُ التَّزْيينِ والتَّحْسينِ كانَ تغريراً. فَعَلَى ذلكَ ما كانَ منها على الظاهِرِ، وهو تَغْريرٌ، على التَّمْثيلِ.

[ويَحْتَمِلُ][11] أنْ يكونَ ما ذَكَرَ ألّا تَغْتَرّوا بالحياةِ الدنيا وما فيها مِنْ لَذّاتِها [على النَّهْيِ][12] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قيلَ: الغَرورُ: الشيطانُ لا يَغُرَّنَّكُمْ: يقولُ[13]: إنَّ اللهَ كريمٌ رحيمٌ جَوادٌ، لا يُعَذِّبُكُمْ، أو يقولُ: إنَّ اللهَ غَنِيٌّ قادرٌ، لا يأمُرُكُمْ بأمرٍ، ولا يَنْهاكُمْ [عنْ شيءٍ][14] إذْ إنما يَأمُرُ، ويَنْهى في الشاهِدِ مَنْ كانَ مُحْتاجاً. فأمّا الغَنِيُّ فلا يَأمُرُهُ، أو نَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ عنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه [أنهُ][15] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «مَفاتيحُ الغيبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُها إلّا اللهُ» [البخاري ٤٦٢٧] وَعَدَّ هذهِ الخَمْسَةَ التي ذُكِرَتْ في هذهِ الآيةِ.

وكذلكَ رَوَى أبو هُرَيرَةَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][16] قالَ: «خَمْسٌ لا يَعْلَمُهُنَّ إلّا اللهُ: قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ» [البخاري ٤٦٢٧ و٤٦٩٧ و٤٧٧٧].

فإنْ ثَبَتَ هذا فهو ما ذَكَرَ، ويَرْجِعُ ذلكَ إلى مَعْرِفةِ حقيقةِ ما ذَكَرَ.

---

(١) من م، في الأصل: جعلته. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يدفع إلى. (٤) في الأصل وم: الوالد على أبيه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: عندهم أنها إنما. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: وبلغه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ويقول. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

وإلّا فجائزٌ أنْ يُقالَ: إنهُ يُعْلِمُ بَعْضَ هذهِ الأشياءِ بأعلامٍ: مِنْ نَحْوِ المطرِ متى يُمْطِرُ؟ أو ما في الأرحامِ أنهُ وَلَدٌ، وأنهُ ذَكَرٌ أو أُنثى، وإنْ لم يُعْلِمْ ماهِيَّةَ ما في الأرحامِ نَحْوَ ما يُعْلِمُ المُنَجِّمَةُ بذلكَ بالحسابِ وبأعلامٍ، يُخَرَّجُ ذلكَ على الصدقِ ممّا أخبَروا. رُبَّما.

ألا تَرَى أنَّ إبراهيم، صلواتُ اللهِ عليهِ، قالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] لمّا نَظَرَ في النجومِ، أي سَأَسْقَمُ؟ ورُوِيَ أنَّ أبا بَكْرٍ الصديقَ ﷺ قالَ: إني أُلْقِيَ إليَّ أنَّ ذا بَطْنٍ جاريةٍ. وكانَ كما ذَكَرَ.

فلا يُحْتَمَلُ [أنْ يكونَ][1] أبو بكرٍ يَعْلَمُ ذلكَ لِما أُلْقِيَ إليهِ، ورسولُ اللهِ لا يَعْلَمُ إلّا الساعةَ، فإنهُ لا يُطْلِعُ عليها أحداً، إلّا أنْ يُقالَ: / ٤١٩ ـ ب/ إنَّ رسولَ اللهِ لم يُؤْذَنْ لهُ بالتكَلُّمِ والقولِ بِشَيْءٍ إلّا مِنْ جِهَةِ الوَحْيِ مِن السماءِ.

فأمّا الاشْتِغالُ بِمِثْلِهِ فلا، لأنَّ الاشْتِغالَ بِمِثْلِهِ تَضْييعٌ لكثيرٍ ممّا امْتُحِنَ [بهِ][2] وتَرْكٌ لِبَعْضِ ما يُؤْمَرُ، ويُنْهَى، أو لِما يُخَرَّجُ ذلكَ مُخْرَجَ التَّطَيُّرِ والتَّفاؤُلِ واكْتِسابِ الرزقِ على غَيْرِ الجهةِ التي جُعِلَتْ، وأُبيحَتْ لهمْ، فكانَ المَنْعُ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي وقْتُ الساعةِ كقولِهِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ و٤٣ و٤٤] أخبَرَ أنهُ ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وذَكَرَ لرسولِ اللهِ أنك ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

أمّا ما سِوَى ذلكَ فليسَ إليكَ.

[ويَحْتَمِلُ][3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي عندَهُ علمٌ بماهِيَّةِ الساعةِ وأهوالِها ولم يَذْكُرْ ماهِيَّتَها وَحَدَّها وقَدْرَها، فأخبَرَ أنهُ يعلَمُ هو ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ سَمَّى المَطَرَ غَيْثاً؛ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ سَمّاهُ غَيْثاً لِما بِهِ يكونُ للناسِ غِياثٌ في ما بِهِ قِوامُ أنفسِهِمْ ودُنْياهُمْ، وسَمّاهُ في مَوضِعٍ رَحْمَةً[4] وفي مَوضِعٍ مُبارَكاً[5].

فَتَسْمِيَتُهُ رَحْمَةً لِما بِهِ نَجاةُ أنفسِهِمْ وأبدانِهِمْ. وذلكَ صورةُ الرحمةِ، وسَمّاهُ مُبارَكاً لِما بِهِ يَنْمو، ويزدادُ كلُّ شيءٍ، إذِ البركةُ هي اسْمُ كلِّ خيرٍ، يَنْمو، ويزدادُ بلا اكْتِسابٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِنِ انْتِقالِ النُّطفَةِ إلى العَلَقَةِ وانْتِقالِ العَلَقَةِ إلى المُضْغَةِ [وتَحَوُّلِ ما في الرَّحِمِ][6] مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخرَى وقَدْرِ زيادةِ ما فيهِ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ ساعةٍ ونَحْوُ ذلكَ لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ.

وأمّا العِلْمُ بأنَّ فيهِ ولداً، وأنهُ ذَكَرٌ أو أُنثى فجائزٌ أنْ يُعْلِمَ ذلكَ غَيْرَهُ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ كَتَمَ ذلكَ، وأخفاهُ، لِيكونوا في كلِّ حالٍ على حَذَرٍ وخَوفٍ وعلى يَقَظَةٍ، إذْ لو كانَ أطْلَعَهُمْ على ذلكَ لكانوا آمِنينَ إلى ذلكَ الوقتِ، فَيعملونَ[7] بكلِّ ما يُريدونَ، ويَشاؤونَ. فيكونُ في ذلكَ ارْتِفاعُ المحنةِ، فليسَ ذلكَ عليهمْ ليكونوا أبداً في كلِّ وقتٍ وكلِّ حالٍ على حَذَرٍ وخَوفٍ ويَقَظَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ ذُكِرَ أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الباديةِ، يُقالُ لهُ: الوارثُ بْنُ عَمْرِو بْنِ حارثةَ بْنِ مُحارِبٍ، جاءَ النبيَّ ﷺ فقالَ: إنَّ أرضَنا أجْدَبَتْ، فَمَتَى الغَيْثُ؟ وتركْتُ امْرَأتي حُبْلَى، فماذا تَلِدُ؟ وقد عَلِمْتُ أينَ وُلِدْتُ،

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ﴾ [الروم: ٥٠]. (٥) بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩]. (٦) في الأصل وم: وتحوله. (٧) من م، في الأصل: فيعلمون. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ففي أيِّ [أرض][1] أموتُ؟ وقد عَلِمْتُ ما عَمِلْتُ اليومَ، فماذا أعْمَلُ غداً؟ ومَتَى الساعةُ؟ فأنزلَ اللهُ تَبارك، وتعالى، في مسألةِ المُحاربيِّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ لا يَعْلَمُها غيرُهُ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثى ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ بَرَّةٌ أو فاجِرةٌ ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِنْ خَيرٍ وشرٍّ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في سَهْلٍ أو جبلٍ أو برٍّ أو بحرٍ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ بهذا الذي ذُكِرَ كلِّهُ. فقالَ النبيُّ: أينَ السائلُ عنِ الساعةِ؟ فقالَ المحاربيُّ: ههنا. فقرأَ النبيُّ، صلواتُ اللهِ عليهِ، هذهِ الآيةَ [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٣٠].

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: قولُهُ ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: ٣٢]أي ما اسْتَظْلَلْتَ بهِ، والظُّلَّةُ السحابةُ.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ جمعُ ظُلَّةٍ، يريدُ أنَّ بعضَهُ فوق بعضٍ، فَلَهُ سَوادٌ مِنْ كَثْرَتِهِ، والبَحْرُ ذو ظِلالٍ لأمواجِهِ. والخَتّارُ الغَدّارُ، والخَتْرُ أقْبَحُ الغَدْرِ وأشَدُّهُ.

وقالَ أبو عَوْسَجَةَ: الخَتّارُ الكَذّابُ الغَدّارُ، يُقالُ: خَتَرَ يَخْتِرُ خَتْراً فهو خاترٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى﴾ [لقمان: ٣٣] أي لا تُغْني. نَقولُ: جَزَى يَجْزِي جزاءاً، فهو جازٍ، أي أغْنَى، وأجْزى يُجْزي مِثْلُهُ، وأجزاني عنْ كذا وكذا، أي كفاني. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، وقالَ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بِنَصْبِ الغَيْنِ الشيطانُ، والغُرورُ بضمِّ الغَينِ الباطِلُ، واللهُ أعلَمُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل.

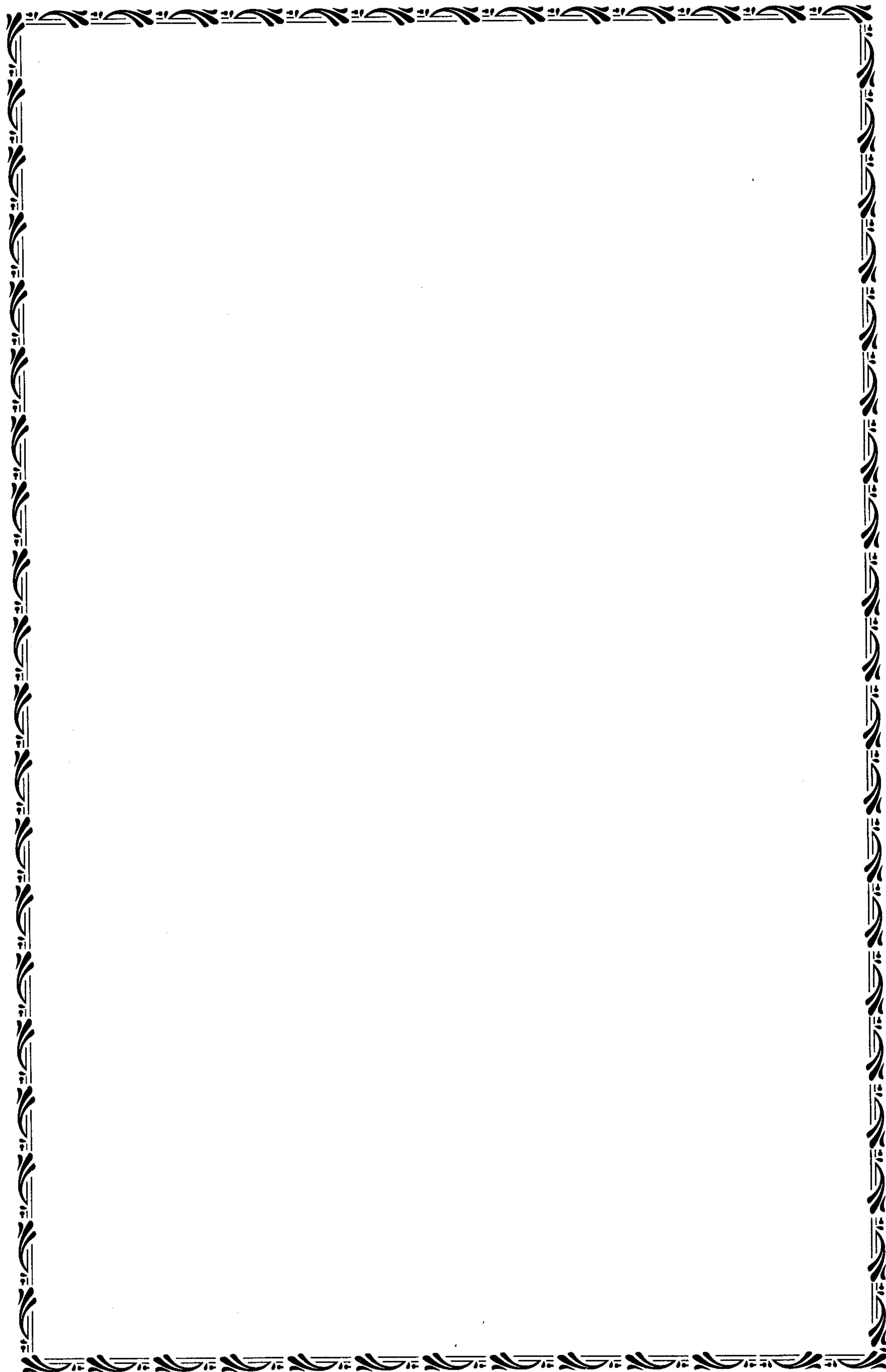

[سورة السجدة

مكيّةٌ](١) إلّا ثلاثَ آياتٍ منها فإنها نزلَتْ بالمدينةِ

وهي قولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾

إلى قولِهِ: [﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الآيات: ١٨ و١٩ و٢٠]](٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في صَدْرِ الكتابِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾ الكتابُ المُطْلَقُ كتابُ اللهِ، والدينُ المُطْلَقُ دينُ اللهِ والسَّبيلُ المُطْلَقُ والطريقُ المُطْلَقُ سَبيلُ اللهِ وطَريقُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنهُ مُنْزَلٌ مِنَ اللهِ، لأنهُ أُنزِلَ على أيدي الأُمَناءِ البَرَرَةِ، لم يُغَيِّروهُ، ولا بَدَّلوهُ، ولا حَرَّفوهُ. أو يقولُ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنهُ ليسَ بِمُخْتَرَقٍ ولا مُخْتَرَعٍ ولا مُفْتَرًى منْ عندِ الرسولِ، بل مُنْزَلٌ مِنْ عندِ ربِّ العالمينَ. أو ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شَكَّ فيهِ على ما يَقولُ الناسُ لكلِّ مُحْكَمٍ مِنَ الأمرِ مُبَيَّنٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى](٣): ﴿مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ العالَمُ هو اسْمُ جِنْسٍ مِنَ الخَلْقِ، وجَوهَرٌ منهُ. والعالَمينَ: جَمْعُهُ، فَيَدْخُلُ في ذلكَ الأوَّلونَ والآخِرونَ الذينَ يكونونَ.

ففيهِ أنهُ ربٌّ لكلِّ ما كانَ، ويكونُ كقولِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣] أخْبَرَ أنهُ مالِكُه، وهو بَعْدُ لم يَكُنْ؛ أعني ذلكَ اليومَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ قولُهُ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هو اسْتِفْهامٌ وشَكٌّ في الظاهِرِ.

لكنهُ مِنَ اللهِ يُخَرَّجُ على تَحقيقِ إلزامٍ وإيجابٍ أو تَحقيقِ نَفْيٍ على ما لو كانَ ذلكَ مِنَ مُسْتَفْهِمٍ ومُسْتَرْشِدٍ، كيفَ يُجابُ لهُ، ويقالُ فيه؟ فإنما يُقالُ لِلْمُسْتَفْهِمِ: لا أو بَلَى.

فَعَلَى ذلكَ هو مِنَ اللهِ على تَحقيقِ إثباتٍ وإيجابٍ أو تَحقيقِ نَفْيٍ؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ الاسْتِفهامَ والسؤالَ كقولِهِ: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤] كأنهُ قالَ: ليسَ للإنسانِ ما تَمَنَّى.

فَعَلَى ذلكَ كأنهُ قالَ ههنا: بل يقولونَ افْتَرَاهُ. ثم رَدَّ ما قالوا: إنهُ افْتَراهُ، فقالَ: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ليسَ بِمُخْتَرَعٍ ولا مُخْتَرَقٍ ولا مُفْتَرىً مِنْ محمدٍ. بل مُنْزَلٌ مِنَ عندِ اللهِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ أو ﴿هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ليسَ بكلامِ البَشَرِ، ولا في وُسْعِهِمْ إتيانُ مِثْلِه. فهو الحقُّ منهُ ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ / ٤٢٠ ـ أ/ الآية [فصلت: ٤٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي لِتُنْذِرَ بالكتابِ الذي أُنْزِلَ ﴿قَوْمًا مَّا أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهُما: على الجَحْدِ أي لِتُنْذِرَ قوماً لم يأتِهِمْ نذيرٌ، وهمْ أهلُ الفَتْرَةِ الذينَ كانوا بَيْنَ عيسى ومحمدٍ عليهما السلام.

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أن سورة ﴿الٓمٓ﴾ و﴿تَنزِيلُ﴾ السجدة، نزلت بمكة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الذينَ قد أتاهُمْ نذيرٌ مِنْ قَبْلِكَ، وهمْ آباؤُهُمْ وأجدادُهُمْ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِ، الذينَ قد أتاهُمْ نذيرٌ مِنْ قبلِهِمْ[1]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: لِتُنْذِرَ قوماً لكي تُلْزِمُهُمْ بِهِ حُجَّةَ الاهْتِداءِ.

والثاني: لِتُنْذِرَ قوماً على رجاءِ وطَمَعِ أنْ يَهْتَدوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذا أيضاً قد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وفي هذا أيضاً قد ذَكَرْنا تأويلاتٍ كثيرةً. لكنّا نَذْكُرُ فيهِ حَرْفاً لم نذكُرْهُ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الذِّكْرِ، وكأنَّهُ أصوبُ وأقْرَبُ إلى الحقِّ، وهو أنَّ ذلكَ حَرْفٌ وكلامٌ، لم يجعَلِ اللهُ تعالى في العقولِ والأفهامِ سَبيلَ الدَّرْكِ لهُ والمَعْرِفةِ، أعني لِقولِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ لأنهُ ذَكَرَ ذلكَ الحَرْفَ في مَوضعٍ آخَرَ، وأمَرَهُ أنْ يَسْأَلَ بِهِ خبيراً حيثُ قالَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

ولو كانَ ذلكَ الحَرْفُ ممّا لِعُقولِ البَشَرِ وأفهامِهِمْ سَبيلُ الوصولِ إلى معرفتِهِ ودَرْكِهِ لأَدْرَكَهُ عقلُ رسولِ اللهِ ربِّ العالَمينَ، وفَهِمَهُ مِنْ غَيرِ أنْ يَسْأَلَ بِهِ الخَبيرَ: مَنْ كانَ: اللهُ أو جبريلَ. فإذا أمَرَهُ بالسؤالِ عنهُ دلَّ أنهُ بالعَقْلِ والفَهْمِ، لا يُدرِكُ، ولا يَعْرِفُ، ولا بالسَّمْعِ عنِ اللهِ. ولم يُذْكَرْ عنِ الرسولِ أنهُ فَسَّرَ ذلكَ، أو قالَ فيهِ، أو سألَهُ أحدٌ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يقولُ: أهلُ التأويلِ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يَنْفَعُكُمْ في الآخِرَةِ ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ [يَدْفَعُ عنكُمْ عذابَهُ].

[ويَحْتَمِلُ][2] أن يكونَ قولُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أو ربٌّ والٍ يلي أمْرَكُمْ سِواهُ ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾][3] [ولا جَعَلَ لكمُ الأصنامَ التي تَعْبُدونَها شُفعاءَ، وأنتمْ تَعْلَمونَ ذلكَ. فكيفَ تَعْبُدونها دونَهُ؟

[ويَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرهُ][4] على الوَعيدِ لهمْ إذْ ليسَ لأولئكَ وَلِيٌّ ولا ناصرٌ][5] ولا شَفيعٌ، لا [هي ولا غَيرُها][6].

وأمّا المُؤمِنونَ[7] فإنهُ وليُّهُمْ كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [أي أفلا تتفكّرونَ][8] في ما ذُكِرَ مِنْ صُنعِهِ، فتُوَحِّدوهُ[9]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي هو يقضي القضاءَ وحدَهُ مِنَ السماءِ إلى[10] الأرضِ. وعندَنا أنهُ يُخَرَّجُ على وجْهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي هو يُكَوِّنُ الأمْرَ، ويُدَبِّرُهُ،[11] أو يَجْعَلُ الخَلْقَ بحيثُ يَقْبَلونَ الأمْرَ والنهيَ، ويَحْتَمِلونَ المِحنَةَ، أو هو يُخْرِجُ الأمْرَ كلَّهُ على الحكمةِ والتَّدْبيرِ.

والثاني: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي يُوَلّي مَنْ يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ نَحْوَ ما وَلّى مَلَكَ المَوتِ قَبْضَ أرواحِ الخَلْقِ، و نَحْوَ ما وَلّى ملائكتَهُ أمْرَ الأمطارِ والنباتِ وغيرَ ذلكَ.

فجائزٌ أنْ يكونَ الأوَّلُ: يُوَلّي ملائكتَهُ أمْرَ ما بينَ السماءِ والأرضِ. فإنْ كانَ الأوَّلُ فليسَ [في][12] ذِكْرِ السماءِ والأرضِ حدٌّ ولا تقديرٌ، يُدَبِّرُ ذلكَ، ولا يُدَبِّرُ ما سِوَى ذلكَ. لكنْ ذَكَرَ هذا لِما إلى ذلكَ يَنْتَهي تدبيرُ البَشَرِ وعِلْمُهُمْ. وأمّا ما سِوَى ذلكَ فلا. وإنْ كانَ الثانيَ فهو على التَّحْديدِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ يقولُ: يَصْعَدُ المَلَكُ إليهِ

---

(١) في الأصل وم: قبله. (٢) في م، أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: ويذكر. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: هو ولا غيره. (٧) في الأصل وم: للمؤمنين. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فتوحدونه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: ويدبر. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

في يوم واحدٍ منْ أيامِ الدنيا ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ كانَ مِقْدارُ ذلكَ اليومِ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أنتُم، لأنَّ ما بَينَ السماءِ والأرضِ مَسيرَةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ. فَيَنْزِلُ مَسيرَةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ، ويَصْعَدُ مَسيرَةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ، وذلكَ مِقْدارُ مَسيرةِ ألْفِ سَنَةٍ في يومٍ واحدٍ مِنْ أيامِ الدنيا. وذَكَرَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

فجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ وَصْفَ يومِ القيامةِ. فَيُخَرَّجُ ذلكَ لا على التَّحديدِ والتَّقديرِ. ولكنْ على التَّعظيمِ لذلكَ اليومِ والوصفِ لهُ بما يَعْظُمُ في قلوبِ الخَلْقِ، وهو ما وَصَفَهُ اللهُ بالعَظَمَةِ كقولِهِ: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

أو أنْ يكونَ [على][1] التَّحديدِ والتَّقديرِ أنْ كانَ حقيقةً لاخْتِلافِ أحوالِهِ وأوقاتِهِ على اختِلافِ الأمورِ؛ يكونَ ألْفَ سنةٍ ذِكْرُ حالٍ ووقتٍ لأمْرٍ، وخمْسينَ ألفَ سنةٍ، [ذِكْرُ][2] حالٍ أُخرى لأمورٍ أُخَرَ على ما سَمَّى ذلكَ اليومَ مَرَّةً ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧ والتغابن: ٩] ومَرَّةً يومَ التفريقِ [بقولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]][3] و﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١، والمرسلات: ٣٨] و﴿يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦ و...] و﴿يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] ونَحوَهُ.

ومعلومٌ أنَّ ذلكَ اليومَ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ، ليسَ بِيَومِ الجَمْعِ ولا بِيَومِ الافْتِراقِ ولا بِيَومِ الحِسابِ ولا بِيَومِ البَعْثِ، ولكنْ بجميعِ ذلكَ كلِّهِ لاخْتِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ لأمورٍ مُخْتَلفةٍ.

فَعَلى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الأوَّلُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ، ويكونَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلكَ كقولِهِ ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨، ...] [وقولِهِ][4] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥، ...] [وقولِهِ][5] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] ونَحوَهُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي صَنَعَ ما ذَكَرَ مِنْ هذهِ الأشياءِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: عالِمُ ما غابَ عنِ الخَلْقِ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ و﴿عَٰلِمُ﴾ ما يُسِرُّونَ[6]، وما يُعْلِنونَ و﴿عَٰلِمُ﴾ ما يكونُ، ويَحْدُثُ، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما قد كانَ، ومَضَى، أو ﴿عَٰلِمُ﴾ ما يُغَيِّبُ بَعْضُ مِنْ بعضٍ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما يُشْهِدُون ويُظْهِرونَ، أو عالِمٌ ما يَغيبُ عنِ الخَلْقِ كَيْفِيَّةِ [منافعِ الأشياءِ][7] الظاهرةِ وماهِيَّتِها نَحْوَ ما غابَ عنهمُ المَعْنَى المُضِرُّ المُودَعُ في الطعامِ والشرابِ والأغذيةِ جميعاً: الذي بِهِ حياةُ أنفسِهِمْ وقِوامُهُمْ، وكذلكَ السمعُ والبَصَرُ والفهمُ والعقلُ، لا يُدْرَكُ المَعْنَى الذي بِهِ يُسْمَعُ، ويُبْصَرُ، ويُفْهَمُ، ويُدْرَكُ، وما بِهِ تَحْيَى أنفسُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في هذا المَوضعِ: المُنْتَقِمُ من أعدائِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على أوليائِهِ، أوِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي لهُ رحمةٌ، يَسَعُ الخلائقَ في رحمتِهِ، أو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يَعِزُّ مَنْ عَزَّ، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي برحمَتِهِ يَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ في قولِهِ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قالَ: مِنْ مُنْتَهى أمْرِهِ مِنْ أسفَلِ الأرَضِينَ إلى مُنْتَهى أمْرِهِ في السمواتِ، مِقدارُ خَمْسينَ ألفَ سنةٍ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ذلكَ نُزولُ الأمْرِ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ ومِنَ الأرضِ إلى السماءِ في يومٍ واحدٍ، فذلكَ مقدارُهُ ألْفُ سنةٍ.

لكنَّ قولَهُمْ[8]: مِنْ مُنْتَهى أمْرِهِ مِنْ أسفَلِ الأرَضِينَ إلى مُنْتَهى أمْرِه فوقَ السمواتِ كذا فاسدٌ، لأنهُ لا يَجوزُ أنْ يكونَ لأمرِهِ[9] أو لِمُلْكِهِ نهايةٌ أو حَدٌّ، والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [بالتَّحريكِ والجَزْمِ][10] جميعاً، كلاهُما لُغَتانِ [وهو يَحْتَمِلُ وجهينِ: أحَدُهما][11]: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي عَلِمَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، أي[12] كيفَ يَخْلُقُ مِنْ غيرِ أنْ يُعَلِّمَهُ أحدٌ[13]، أو أعانَهُ عليهِ أحدٌ؟ وفي الشاهدِ لا يَقْدِرُ أحدٌ، ولا يُمْكِنُ لهُ صُنْعُ [شيءٍ إلا][14] بِمُعَلِّمٍ يُعَلِّمُهُ ذلكَ أو بِمُعينٍ، يُعينُ على ذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يشهدون. (٧) من م، في الأصل: النافع من الأشياء. (٨) في الأصل وم: قوله. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بالجزم والتحريك، انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/٩٨. (١١) في الأصل وم: ثم يحتمل قوله. (١٢) من م، في الأصل: إن. (١٣) من م، في الأصل: أحدا. (١٤) من م، في الأصل: شيء.

يُخبِرُ عن جَهْلِهِمْ وسَفَهِهِمْ بِتَقْدِيرِ قُدْرَةِ اللهِ وقُوَّتِهِ بِقُوَى أنفُسِهِمْ وقُدْرَتِهِمْ في إنكارِهِمُ البَعْثَ لِخُروجِهِ عن تَقْديرِ الخَلْقِ وامْتِناعِهِ /٤٢٠ ـ ب/ عن وُسْعِهِمْ. يقولُ: لا تُقَدِّروا قُدْرَةَ اللهِ بِقُدرَةِ أنفُسِكُمْ وقِواكُمْ كما لم تُقَدِّروا عِلْمَهُ بِعِلْمِكُمْ؛ إذْ يَعْلَمُ هو بذاتِهِ بلا مُعَلِّمٍ، وأنتمْ لا تَعْلَمونَ إلّا بِمُعَلِّمٍ. فَعَلَى ذلكَ هو قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وأنتمْ لا تَقْدِرونَ إلّا بِغَيرٍ أو سَبَبٍ.

ويَحتَمِلُ هذا الوجهُ وجهاً آخَرَ، وهو أنَّ قولَه: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [أي أعْلَمَ كلَّ شيءٍ[1]] مِنْ خَلْقِهِ ما بِهِ صَلاحُهُمْ[2] وفسادُهُم، وما يُؤتَى، وما يُتّقَى. [ويُستَعْمَلُ لازماً ومُتَعدّياً، وفي الأصلِ[3] هو مُتَعَدٍّ، وأنَّ المُرادَ منهُ العِلْمُ المُكْتَسَبُ الذي يُحَصَّلُ بالتَّعَلُّمِ. وأمّا اللازمُ فيكونُ تَحصيلُ العِلْمِ بنفسِهِ. وغَيرُهُ[4] يُستَعْمَلُ في الأمْرَينِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ][5]

والثاني: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أحْكَمَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، وأتْقَنَهُ، ثم يُخَرَّجُ هذا على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أتْقَنَ وأحْكَمَ في ما فيهِ مِنَ المَصالِحِ والمَعاني وفي كلِّ شيءٍ مِنَ التَسْوِيَةِ والتَّفْرِقَةِ وفي الجَمْعِ والتَّصْويرِ.

والثاني: ﴿أَحْسَنَ﴾ أي أتْقَنَ وأحكَمَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ في الشهادةِ على وَحْدانِيَّتِهِ وألوهِيَّتِهِ، أي جَعَلَ في كلِ أثَرٍ وَحْدانيَّتَهُ ورُبوبِيَّتَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ لم يَخْلُقِ الإنسانَ في خَلْقِ البَهائِمِ وصورَتِها، ولا البَهائِمَ في خَلْقِ الإنسانِ. وقَتادةُ يقولُ: كلُّ شيءٍ مِنْ خَلْقِهِ حَسَنٌ على ما خَلَقَ، وعَلِمَ كيفَ يَخْلُقُهُ؟ وهو قَريبٌ مِمّا ذَكَرْنا بَدْءاً.

ثم مَنْ قَرَأَ: خَلْقَهُ بالجزمِ فيكونُ معْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي أحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شيءٍ. ومَنْ قَرَأ: خَلَقَهُ بالتحريكِ فمعناهُ[6]: أحْسَنَ كلَّ شيْءٍ خَلَقَهُ[7].

ثم للمعتزلةِ في هذهِ الآيةِ أدْنَى تَعَلُّقٍ: يقولونَ[8]: أخْبَرَ أنهُ أحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، والكُفْرُ وشَتْمُ ربِّ العالمينَ ونَحْوُهُ، كلُّهُ قبيحٌ وسَفَهٌ، دلَّ أنهُ لم يَخْلُقْهُ وأنهُ ليسَ بخالقِ ذلكَ[9].

يُقالُ لهمْ: إخوانُكُمُ الزَّنادقةُ يُعارِضونَكُمْ، ويقولونَ: إنَّ الخنزيرَ والنَّجاساتِ وجميعَ السِّباعِ الضارَّةِ والمؤذيةِ وجميعَ الخَبائِثِ؛ كلُّها قَبيحةٌ، فاللهُ ليسَ بخالقٍ [لها][10] فِبِمَ تَدْعونَ قولَهُمْ وسؤالَهُمْ في ذلكَ؟

فإنْ زَعَمْتُمْ في الأوّلِ في الكُفرِ والشتمِ وجميعِ فِعْلِ الشرورِ أنهُ ليسَ بِخَلْقٍ لهُ لأنهُ قبيحٌ ضارٌّ مؤذٍ يَلْزَمُكُمْ مَذْهَبُ الزنادقةِ في ما يقولونَ، ويَذْكُرونَ، في إثباتِ خالقٍ سَواهُ لأنهُ قبيحٌ ضارٌّ مؤذٍ.

ويقالُ لهمْ: إنَّ اللهَ، جلَّ، وعلا، سَمّى إبليسَ باطلاً [فهو][11] إذنْ لم يَخْلُقْهُ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ لم يَخْلُقِ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما باطلاً.

ثم يُقالُ لهمْ: إنا نقولُ: إنهُ خَلَقَ فِعْلَ الكُفرِ [مِنَ الكَفَرَةِ قبيحاً، وخَلَقَ فِعْلَ الشرِّ][12] والشَّتْمِ مِنَ الشريرِ والشاتمِ قبيحاً في ما خَلَقَ فِعْلَ الشَّرِّ على ما هو وعلى ما عَرَّفَهُ [وعَلَّمَهُ][13].

فلا عَيبَ يَلْحَقُ في جَعْلِ [ما][14] هو قبيحٌ قبيحاً كَمَنْ يَعْلَمُ الكُفرَ لِيُعَلِّمَهُ قبيحاً على ما هو، وكذلكَ جميعُ الشرورِ.

فَعَلَى ذلكَ ليسَ في خَلْقِ ما هو قبيحٌ عيبٌ على ما لم يكُنْ في تَكَلُّفِ مَعْرِفةِ القبيحِ لِيَعْرِفَهُ قبيحاً على ما هو حقيقةُ عَيبٌ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: مصالحهم. (٣) في نسخة الحرم المكي: الحاصل. (٤) المقصود: غيره من الأفعال. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي. انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/٩٨. (٧) في الأصل وم: منه وخلقه. (٨) من م، في الأصل: يكونون. (٩) في الأصل وم: لذلك. (١٠) من م، ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

هذا إذا كانَ التأويلُ على ما يَذهبونَ همْ إليهِ. فأمّا إذا كانَ ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿أَحْسَنَ﴾ أي عَلِمَ أو عَلَّمَ فليسَ يَدْخُلُ في ذلكَ الشيءِ ممّا ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ قالَ عامَّتُهُمْ: يَعْني آدَمَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ أي نَسْلَ آدمَ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي آدَمَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ ذلكَ نعتُ وَلَدِهِ وذُرّيَّتِهِ، لأنَّ الأعجوبةَ في خَلْقِ وَلَدِهِ في الأرحامِ في ثلاثِ ظُلُماتٍ، مِنَ النطفةِ؛ إنْ لم يكُنْ أكثرَ مِنْ خَلْقِ آدمَ مِنْ طينٍ فلا[1] تكونُ أقلَّ، لأنَّ صُنْعَ الأشياءِ الظاهرةِ الباديةِ وتَسْوِيَتَها [في الشاهدِ أيْسَرُ وأدْوَنُ مِنْ صُنْعِها][2] إذا كانَتْ مُسْتَكِنَّةً. وظاهِرُهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ آدمَ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ذُرّيَّتَهُ، لأنَّ النسلَ هو الوَلَدُ والذُّرّيَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السُّلالَةُ، هي الصَّفْوَةُ مِنَ الماءِ، والخالصُ منْ كلِّ شيءٍ. وقالَ بعضُهُمْ: السُّلالَةُ، هي من السَّلِّ؛ سَلَّ السيفَ، أي أخرَجَهُ، ونَزَعَهُ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي اسْتُخْرِجَ مِنَ الظَّهْرِ، وسُلَّ منهُ، ونُزِعَ، والمَهينُ الضعيفُ، يقالُ: مَهَنَ يَمْهَنُ مَهانَةً فهو مَهينٌ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي جَمَعَهُ، وقَوَّمَهُ، ورَكَّبَ بَعْضَهُ على بَعْضٍ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ هو الرِّيحُ، وبالنَّفْخِ يَتَفَرَّقُ في الجَسَدِ، ولذلكَ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ تركيبِ الجَوارحِ والأعضاءِ، أو جَعَلَهُ بحيثُ يَحْتَمِلُ المِحْنَةَ والأمْرَ والنَّهْيَ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي جَعَلَ فيهِ الروحَ، وذَكَرَ النَّفْخَ لِما ذَكَرْنا على تحقيقِ النَّفْخِ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ ذَكَرَ، جَلَّ، وعلا، جميعَ ما يُوصِلُ إلى العلومِ الغائبةِ والحاضرةِ جميعاً، ويُدْرِكُ، ويُوجِدُ السبيلَ إليها، وهي السمعُ والبصرُ والقَلْبُ في الإنسانِ، لأنهُ بالسمعِ يُوصِلُ إلى ما غابَ عنهمْ مِنَ العِلْمِ، يَسْمَعونَ ما عندَ غيرِهِمْ، وكذلكَ بالبَصَرِ يَرَى، ويَبْصُرُ ما عندَ غَيرِهِ، وبالقَلْبِ يَفْهَمُ، ويَحْفَظُ، ويُمَيِّزُ بينَ ما يُؤتَى، وما يُتَّقَى. يُبَيِّنُ أنهُ قد أعطاهُمْ ما بِهِ يُدْرِكونَ، ويَصِلونَ إلى ما غابَ عنهمْ، ويَفْهَمونَ، ويُمَيِّزونَ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الحواسِّ.

ثم قالَ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي لا تشكُرونَ][4] قَطُّ، لأنهمْ يقولونَ: إنما خاطبَ بِهِ أهلَ مكةَ، أو يقالُ: إنهمْ يَشكرونَ قليلاً، لكنهمْ يُفْسِدونَ، ويَنْقُضونَ ما يَشْكُرونَ بِكُفرانِهِمْ مِنْ بَعْدُ.

وأمّا أهلُ الإسلامِ، وإنْ كانَ شُكْرُهُمْ لِما ذَكَرَ مِنْ هذهِ الحواسِّ قليلاً فإنهمْ قدِ اعْتَقَدوا في أصلِ العَقْدِ الشكْرَ لهُ في جميعِ نِعَمِهِ. والكافرُ اعْتَقَدَ الكُفرانَ لهُ. وإلّا يَجيءُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ للمؤمنينَ، ولهمْ يُقالُ ذلكَ لا لِلْكَفَرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ هذا القولُ منهمْ يُخَرَّجُ على الاسْتِفهامِ والسؤالِ: أإنا نُبْعَثُ؟ ونُخْلَقُ خَلْقاً جديداً؟ وعلى الإيجابِ والتَّحْقيقِ: إنّا نُبْعَثُ، لا مَحالَةَ، فلا يَلْحَقُهُمْ بذلكَ لائمةٌ ولا تَغْييرٌ لو كانَ على الظاهِرِ المُخَرَّجِ منهمْ. لكنهمْ إنما قالوا ذلكَ اسْتِهزاءً وإنكاراً لِلْبَعْثِ.

دليلُهُ ما قالَ على إثْرِهِ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ وإلّا ظاهرُ ذلكَ القولِ منهمْ على أحدِ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهُما: اسْتِفهاماً أو إيجاباً. وهو ما أخْبَرَ عنِ المُنافقينَ حينَ[5] قالَ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]. هذا القولُ منهمْ حَقٌّ وصِدْقٌ، لكنهمْ لمّا أضْمَروا خِلافَ ذلكَ لم يَنْفَعْ ذلكَ لهمْ حينَ[6] قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧ والحشر: ١١].

فَعَلَى ذلكَ القولِ منهُمْ في الظاهرِ ما ذَكَرْنا، لكنهمْ إنما قالوا ذلكَ اسْتِهزاءً وإنكاراً لِلْبَعْثِ وجُحوداً.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ هذا الحَرْفُ في الظاهِرِ ليسَ هو بِصِلَةٍ للأولِ لأنهُ إنما يُقالُ عنْ سؤالٍ سابقٍ في تَوَفّي الخَلْقِ وقَبْضِ أرواحِهِمْ: مَنْ[1]؟ فَيُقالُ عندَ ذلكَ ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الصِّلَةِ بالأولِ لأنهمْ أنكروا البَعْثَ وإحياءَ آبائِهِمْ مِنَ الترابِ لِما لا يَرَوْنَ للهِ القدرةَ على ذلكَ. فَيَذْكُرُ أنهُ مكَّنَ، وأقْدَرَ عبداً مِنْ عَبيدِهِ على قَبْضِ أرواحِ جَميعِ الخلائقِ مِنَ المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ مِنْ غَيرِ أنْ يُعَلِّمَهُ أحدٌ أنهُ كيفَ يَقْبِضُ؟ وكيفَ يُمْكِنُ لهُ ذلكَ. فَيُخْبِرُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا ألا يَقْدِرُ على إحياءِ / ٤٢١ ـ أ/ الخَلْقِ بَعْدَ ما صاروا تُراباً ورَماداً؟ بل قادرٌ على ما يَشاءُ، وكيفَ شاءَ، ومَتى شاءَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

ثم قولُهُ: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ يَتَوَفَّى العَدَّ، أي يَجْعَلُهُمْ وفاءً لِعَدِّها كقولِهِ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] وجائزٌ أنْ يكونَ التَّوَفِّي مِنَ الاسْتِيفاءِ ووفاءِ التَّمامِ، أي يَسْتَوفِي الرُّوحَ كلَّهُ، فلا يَبْقَى في الجَسَدِ منهُ شيءٌ.

ثم في الآيةِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العبادِ لأنهُ أخبَرَ أنَّ ملَكَ المَوتِ يَتوفاهُمْ، ويُميتُهُمْ، وقد أخبَرَ أنهُ خَلَقَ المَوتَ والحياةَ. فَدَلَّ أنَّ جميعَ ما يَفْعَلُ العبادُ، هو خَلْقُ اللهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ضَلَلْنا: أي بَطَلْنا، وصِرْنا تُراباً. وقالَ غَيرُهُ: هَلَكْنا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ضَلَلْنَا﴾ بالضادِ إذا صِرْنا في القُبورِ، وبُلِينا فيها. ويُقالُ: ضَلِلْنا بالكسرِ مِنَ الضَّلالِ، ويُقالُ: ضَلِلْتُ عنْ[2] كذا، إذا لم يَدْرِ أينَ هو[3]، ويُقالُ: صَلَلْنا بالصادِ[4]، وهو مِنْ صَلَّ اللحمُ، أي أنْتَنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يَصْعَدُ في قولِ القُتَبِيِّ وأبي عوسَجَةَ. ويُعَرِّجُ أي يَحْبِسُ. و﴿نَسْلَهُۥ﴾ أي ولَدَهُ. وقالا: السلالةُ الخالصُ مِنْ كلِّ شيءٍ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقولُ: واللهُ أعلَمُ، لو تَرَى يا محمدُ ما نَزَلَ بالمُجْرِمينَ يومئذٍ مِنَ العذابِ وفي ما هم فيهِ مِنَ الحالِ الشديدةِ والهَوانِ بالتكذيبِ الذي كانَ منهمْ وإساءَتِهِمْ إليكَ لَرَحِمْتَهِمْ، ولم تَتَكَلَّفْ مُكافأةَ إساءَتِهِمْ وتكذيبِهِمْ[5] لِعِظَمِ ما نَزَلَ مِنَ العذابِ والشدائدِ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ندامةً وحَسْرَةً وحُزناً على ما كانَ منهمْ.

على مِثْلِ هذا يُخَرَّجُ التأويلُ، وإلّا ليسَ في ظاهِرِ الآيةِ جوابُ قولِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فجوابُهُ ما ذَكَرْنا ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ بالحُجَجِ والبراهينِ عِياناً بَعْدَ ما كُنا أبْصَرْناها في الأولى بالدلالةِ ﴿وَسَمِعْنَا﴾ أي قَبِلْنا، وأجَبْنا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الأولَى إذِ المِحْنَةُ ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

والثاني: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ صِدْقَ الرسلِ، وأيْقَنّا بِما وَعَدونا، وأوعَدونا في الدنيا، ﴿وَسَمِعْنَا﴾ سماعَ إيقانٍ وعِيانٍ ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي لو شِئْنا لآتَينا كلَّ نفسٍ ما عِنْدَنا مِنَ اللُّطْفِ الذي لو كانَ منهمُ الاخْتِيارُ لذلكَ لاهْتَدَوا. لكنْ لم نُعْطِهِمْ ذلكَ اللطفَ لِما لم نَعْلَمْ منهُمْ كونَ ذلكَ الاخْتِيارِ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: شاءَ أنْ يُعْطِيَ كلَّ نفسٍ ما بِهِ تَهْتَدي، وقد أعطاها، لكنها لم تَهْتَدِ. فقولُهُمْ، مُخالِفٌ للآيةِ لأنهمْ يَقولونَ: شاءَ أنْ تَهْتَدِيَ كلُّ نفسٍ، وآتى كلَّ نفسٍ ما بِهِ تَهْتَدي، لكنها لم تَهْتَدِ، ولكنهمْ يقولونَ: المَشيئةُ هنا مَشيئةُ الجَبْرِ والقَسْرِ. فيُقالُ لهمْ: زَعَمْتُمْ أنهُ قد شاءَ أنْ يَهْتَدوا، وآتاهمْ ما بِهِ يَهْتَدونَ، فلم يَهْتَدوا، ولم تُنْفَذْ مَشيئَتُهُ. فأنّى يَقْدِرُ. ويَمْلِكُ؟ إنْ شاءَ مَشيئةً تَقْهَرُهُمْ، وتَجْبُرُهُمْ حتى يَهْتَدوا، وكيفَ يُؤْمَنُ على ذلكَ، فذلكَ بعيدٌ على قولِكُمْ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: إنه. (٢) في الأصل وم: شيء. (٣) في الأصل وم: ذهب. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/٩٩. (٥) من م، في الأصل: إليك لرحمتهم.

فيقالُ لهمْ أيضاً: إنَّ الإيمانَ والتوحيدَ في حالِ القَهْرِ والقَسْرِ لا يكونُ إيماناً لأنَّ القَهْرَ والجَبْرَ يرفَعُ الفِعْلَ عنْ فاعِلِهِ، ويُحَوِّلُهُ عنهُ. فكيفَ يَصِحُّ تأويلُكُمْ على هذا؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أي لكنْ وَجَبَ القولُ مِنّي بما عَلِمْتُ أنهُ يكونُ منهمْ، ويَحْدُثُ ما يَسْتوجِبونَ جَهَنَّمَ، وهو ما عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَختارونَ الرَّدَّ والتكذيبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ في هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنهُ قد عَصَمَ ملائكتَهُ عنْ عَمْدِ ما يَسْتَوجِبونَ بِهِ جَهَنَّمَ بَعدَ قولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] حينَ[1] خَصَّ الجِنَّ والإنْسَ في ما يَمْلأُ بهما جَهَنَّمَ.

فإنْ قيلَ: إنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] قيلَ: هُمْ أصحابُ النارِ في تعذيبِ غَيرِهِمْ، وليسوا هُمْ بأصحابِها في ما يَنْتَهي إليهمُ العذابُ. وللهِ أنْ يَجْعَلَ، ويَمْتَحِنَ مَنْ يَشاءُ على تَعْذيبِ مَنْ شاءَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ النِّسْيانُ الذي ذَكَرَ منهمْ ليسَ هو نِسْيانَ غَفْلَةٍ وسَهْوٍ، لأنهُ لا كُلْفَةَ تَلْزَمُ في حالِ السَّهوِ والغَفْلَةِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: تَضْييعُ وتَرْكُ تَصْديقِ الرسلِ[2] بما أوعَدوهُمْ بِهِ وتكذيبُهُمْ ورَدُّ الحُجَجِ والآياتِ كذلكَ.

والثاني: ﴿نَسِيتُمْ﴾ أي جعَلتُمْ ذلكَ كالمَنْسِيِّ [لو كُنْتُم[3] تكترِثونَ بِلِقاءِ اللهِ.

وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي جَعَلْناكُمْ كالمَنْسِيِّ مِنْ رحمتِهِ وفَضْلِهِ، لا نَكْتَرِثُ إليكمْ، ولا نَعبأُ بِكُمْ كما جَعَلْتُمْ أنتُمْ آياتِهِ وحُجَجَهُ وما دعُوكُمْ إليهِ كالمَنْسِيِّ][4] المَتروكِ الذي لا يُكْتَرَثُ إليهِ.

والثاني: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي نَجزيكُمْ جَزاءَ نِسْيانِكُمْ[5] وتَضْييعِكُمْ.

ويجوزُ تَسْمِيَةُ الجزاءِ باسْمِ أصْلِهِ وأوَّلِهِ، وإنْ لم يَكُنْ الثاني في الحقيقةِ سَيِّئَةً ولا اعْتِداءً. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ذوقوا عذابَ الخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ، وتَعْتَقِدونَ المذهبَ لِلْخُلودِ والأبَدِ، لأنَّ كلَّ ذي مذهبٍ ودينٍ إنما يَعْتَقِدُ المذهبَ، ويَخْتارُهُ لِلأبَدِ.

فعَلى ذلك جَعَلَ تعذيبَهُمْ في النارِ لِلأبَدِ.

وأمّا مَنْ يَرْتَكِبُ المَآثِمَ والزَّلّاتِ مِنَ المؤمِنينَ فإنما يَرْتَكِبُ عندَ شدةِ الحاجةِ وغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ وفي وقتِ ارْتِكابِهِ لا للأبَدِ. لذلكَ افْتَرَقا.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ يُخرَّجُ قَولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ أي يُحقِّقُ الإيمانَ باللهِ، وبآياتِهِ الذينَ إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّداً للهِ حقيقةً.

ثم يَحْتَمِلُ ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [وجهَينِ:

أحَدُهما[6]]: حقيقةُ السجودِ عندَ تِلاوَةِ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ السجودِ.

والثاني: يكونُ ذِكْرُ خرورِ الوجهِ والسجودِ كِنايَةً عنِ الخُضوعِ لها والانْقِيادِ والاسْتِسْلامِ والقَبولِ لها.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: بها. (٣) في نسخة الحرم المكي: تكونوا. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: وتركِكم أي نجعلكم كالمنسي من رحمته وفضله لا يكترث إليكم ولا يعبأ بكم كما جعلتم أنتم آياته وحججه وما دعوكم إليه كالمنسي المتروك الذي لا يكترث إليه والثاني. (٦) ساقطة من الأصل وم.

فأحدُهما: على حقيقةِ السجودِ عندَ تذكيرِ الآياتِ لهمْ والتّلاوةِ عليهم. والثاني: على الكنايةِ عنِ القَبولِ لها والاستِسْلامِ. وإلّا ليسَ مِنْ كُلِّ ذي مَذْهبٍ مِنْ أهلِ الكُفرِ مِنْ عَبَدَةِ الأوثانِ وغَيرِهِمْ إلّا ويَدّعي الإيمانَ باللهِ وبآياتِه، ويَزْعُمُ أنّ الذي هو عليهِ، هو الإيمانُ بهِ والمُؤتَمَرُ بأمْرِهِ.

الا ترى أنهُ كيفَ أخبَرَ عنهمْ حينَ[1] قالَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؟ [الأعراف: ٢٨].

كانوا يَدّعُونَ في جميعِ ما يَعْمَلونَ أنّ اللهَ تعالى أمَرَهُمْ بذلكَ وأنهمْ مؤمنونَ بهِ مُؤتَمِرونَ بأمْرِهِ. فأخبَرَ أنهُ إنما يَحقُّ[2] الإيمانَ باللهِ وبالآياتِ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ لا أولئكَ الذينَ يَدّعونَ ذلكَ، ولَيسُوا هُمْ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ التسبيحُ هو تَنْزيهُ الرّبِّ وتَبرِئتُهُ مِنْ[3] جميعِ ما قالتِ المَلاحِدَةُ فيهِ ونَسَبوهُ إليهِ ممّا لا يَليقُ بهِ. يقولُ: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ذَكَروهُ بِمَحاسِنِهِ ومَحامِدِهِ، وبرّؤوهُ، ونَزّهوهُ، عنْ جميعِ ما وَصَفَهُ أولئكَ، ونَسَبوهُ إليهِ. هذا، واللهُ أعلَمُ، هو التسبيحُ بحمدِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا أحَدَ يَخْطُرُ ببالِهِ أنْ يَسْتَكبِرَ على اللهِ أو على أمْرِهِ. ولكنْ كانوا يَسْتَكبِرونَ على رُسُلِهِ / ٤٢١ ـ ب/ لِما [لا][4] يَرَونَهُمْ أهلاً لِذلكَ، أو أنْ يكونوا يَسْتَكبِرونَ على [ما][5] يَدْعونَ إليهِ، ولا يَجيبونَ لذلكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ رُوِيَ عنْ أنَسِ بنِ مالكٍ ﷺ، أنها نَزَلَتْ في أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، لكنِ اختَلَفَتْ فيهِ الرواياتُ:

ذُكِرَ في بعضِها أنها نَزَلَتْ في نَفَرٍ مِنْ عُمّالِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، كانوا يَعْمَلونَ بالنهارِ، فإذا جَنَّ عليهِمُ الليلُ اضْطَجَعوا بَينَ المَغْرِبِ والعِشاءِ، فَناموا. فلما نَزَلَ هذا اجْتَنَبوا عنْ ذلكَ. ؟

وذُكِرَ عنهُ أنهمْ كانوا يُصَلّونَ بَينَ المَغْرِبِ والعِشاءِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ فيهِمْ.

فإنْ كانَ هذا فَنُزولُ الآيةِ لذلكَ يُخَرَّجُ مُخرَجَ المَدْحِ لهمُ والثناءِ الحَسَنِ، وإنْ كانَ الأوّلَ فهو على النَّهْيِ والتوبيخِ لذلكَ.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِها: قالَ بعضُهُم: هو التَيَقُّظُ والصلاةُ بَينَ المَغْرِبِ والعِشاءِ الآخِرَةِ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ: هو التَّجافي عنِ المَضاجِعِ لصلاةِ العِشاءِ والفَجْرِ[6]، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ بِذِكْرِ اللهِ كلّما استَيقَظوا ذكَروا اللهَ إمّا صلاةً وإمّا قِياما وإمّا قُعوداً، لا يزالونَ يَذْكُرونَ اللهَ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ بقيامِ الليلِ والصلاةِ فيهِ. وهذا أشْبَهُ التأويلاتِ لأنهُ قالَ: ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ والتّجافي عنِ المَضاجِعِ إنما يكونُ في الوقتِ[7] الذي يُضْطَجَعُ فيهِ، وفيهِ يَقَعُ الامْتِداحُ والثناءُ الحَسَنُ لأنهُ وقتُ الغَفْلَةِ والنومِ فيهِ.

وأمّا سائرُ الأوقاتِ فليسَ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي يَعْبدونَ ربَّهُمْ. ويَحْتَمِلُ حقيقةَ الدعاءِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿خَوْفًا﴾ مِنْ عذابِ اللهِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في رَحْمَتِهِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿خَوْفًا﴾ أي يَخافونَ التَّقْصيرَ في العِبادةِ ﴿وَطَمَعًا﴾ أي يَطْمَعونَ في إحسانِهِ. وإحسانُهُ في العَفْوِ والتّجاوُزِ. وهكذا عَمَلُ المؤمنِ بَينَ الخَوفِ والطَمعِ؛ يَخافُ التقصيرَ فيهِ، ويَطْمَعُ في إحسانِهِ.

ذُكِرَ عنِ الحَسَنِ عنِ النّبيّ ﷺ، [أنهُ][8] قالَ: «قالَ ربُّكُمْ ﷻ: وعِزّتي وجَلالي، لا أجْمَعُ على عبدي خَوفَينِ، ولا أجمَعُ أمْنَينِ، فإذا خافَني في الدنيا أمّنْتُهُ يومَ القيامةِ، وإذا أمِنَني في الدنيا أخَفْتُهُ يومَ القيامةِ، ثم قرَأ قولَهُ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الآيةَ» [البزار: في كشف الأستار ٣٢٣٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يتحقق. (٣) في الأصل وم: له عن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: بصليهما. (٧) في الأصل وم: وقت. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يَحتَمِلُ الزكاةَ المَفروضَةَ، ويَحتَمِلُ صدقةَ التَّطوّعِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِنَ القِوَى والأسبابِ البَلِيَّةِ ﴿يُنفِقُونَ﴾ أي يَعْمَلونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ذُكِرَ عن رسولِ الله ﷺ، [أنهُ][1] قالَ: «قالَ ربُّكُمْ: أعْدَدتُ لِعبادي الصالِحِينَ ما لا عَينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [البخاري ٣٢٤٤] هذا عِلْمُ[2] النفسِ: أنها لا تَعْلَمُ أمثالَ[3] ما أحسَّتْ، وعايَنَتْ، وشاهَدَتْ. فأمّا العقلُ فإنهُ جائزٌ أنْ يَعْلَمَ، ويَخطِرَ مالم يَرَ لهُ مِثالاً، واللهُ أعلَمُ.

وعلى قولِ المُعتَزِلَةِ: يَدعونَ ربَّهُمْ أمْناً وإياساً لا على الخوفِ والطَّمعِ على ما ذَكَرَ، لأنهمْ، لا يَخلُو، إمّا أنْ يكونوا أصحابَ الصغائرِ أو أصحابَ الكبائرِ. فإنْ كانوا أصحابَ الصغائرِ فهمْ أَمِنوا على قولِهِمْ: [إنهُ لا يَسَعُ][4] لهُ أنْ يُعَذِّبَ على الصغيرةِ على قولِهِمْ. وأصحابُ الكبائرِ همْ آيِسونَ مِنْ رَحْمَتِهِ، إذْ لا يَسَعُ [لهُ أنْ يَغفِرَ لهمْ][5] على قولِهِمْ. فقولُهُمْ مُخالِفٌ لِظاهِرِ الآيةِ.

قالَ أبو عَوسَجةَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي لا يَضَعونها بالأرضِ، يُقالُ: تجافَى جنبي إذا لم يَضْطَجِعْ، ولم يَنَم، وجافَيتُ جَنْبي، أي لم أُلزِقْهُ في الأرضِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي تَرْتَفِعُ عنِ الأرضِ[6].

الآيات ١٨ و١٩ و٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [إلى قولِهِ: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾][7] إنَّ أهلَ التأويلِ يقولونَ: نَزَلَتِ الآيةُ في شأنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ والوليدِ بنِ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، كانَ بَينَهُ وبينَ عليٍّ ﷺ كلامٌ وتنازُعٌ حتى قالَ لهُ عليٌّ: إنكَ فاسِقٌ وأنا مؤمنٌ، فَنَزَلَتِ الآيةُ في جميعِ المؤمنينَ والفاسِقينَ؛ يُخبِرُ أنْ ليسَ بَينَهُمْ اسْتِواءٌ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا، ونَزَلَ لِقولِ قائلٍ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ الفَسَقَةِ لِلمؤمنينَ: إنَّ مَنزِلَتَنا ومَنزِلَتَكُمْ وقَدْرَنا وقَدْرَكُمْ في الآخِرَةِ عندَ اللهِ سَواءٌ. فَنَزَلَتِ الآيةُ لذلكَ أنهما لَيسا بِسَواءٍ، فَبَيَّنَ مَنزِلَةَ المؤمنِ عندَ اللهِ وقَدْرَهُ وما ذَكَرَ مِنَ الثوابِ لهُ ومَنزِلَةَ الفاسِقِ وما[8] ذَكَرَ مِنَ الخُلودِ في النارِ أبداً كقولِهِ: ﴿الٓمٓ﴾﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ١ و٢]. وكقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية [الجاثية: ٢١]. أو نَزَلَ[9] ذلكَ على الابْتِداءِ: إنكمْ تعرفونَ في عُقولِكُمْ أنْ ليسَ المؤمنُ المُصَدِّقُ في الشاهِدِ في المَنزِلَةِ والقَدْرِ عندَهُ كالخارجِ عنْ أمْرِهِ والمُكَذِّبِ لهُ. فكيفَ تطمَعونَ الاسْتِواءَ عندَ اللهِ، وأنتمْ الفَسَقَةُ الخارجونَ عنْ أمْرِ اللهِ، وأولئكَ همُ الصادقونَ لهُ؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم الخوارجُ والمُعتَزِلَةُ يقولونَ: لو كانَ الفاسِقُ مؤمناً على ما تقولونَ لم يكُنْ لِما ذَكَرَ مَعنًى. فَدَلَّ أنَّ الفاسِقَ لا يكونُ مؤمناً حينَ[10] ذَكَرَ أنهما لا يَسْتَوِيانِ، وأنَّ المؤمنَ، مأواهُ الجنةُ، والخلودُ لهُ فيها، والفاسِقُ مقامُهُ في النارِ، خالدٌ[11] فيها على ما ذَكَرَ. فلو كانَ على ما تقولونَ لَكانا يَستَوِيانِ، أو كلامٌ نَحوُ هذا.

فَيُقالُ لهمْ. إنّا وأنْتُمْ نَتَّفِقُ أنَّ هذا الفاسِقَ المَذكورَ في الآيةِ ليسَ بمؤمنٍ، وأنهُ لا يَستَوي المؤمنُ [والفاسِقُ][12] لأنهُ ذَكَرَ الفِسْقَ مُقابِلَ الإيمانَ. دليلُهُ آخِرُ الآيةِ حيثُ قالَ: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

ذَكَرَ التكذيبَ، والتكذيبُ هو مُقابِلُ الإيمانِ والتصديقِ. وكلُّ فِسْقٍ، كانَ مذكوراً مُقابِلَ الإيمانِ، هو كُفْرٌ وتكذيبٌ، فهو لا يَكُونُ مُؤمِناً. ولكنْ هاتوا فِسْقاً ذُكِرَ لا مُقابِلَ الإيمانِ، ولكنْ مُقابِلَ غيرِهِ مِنَ العِصْيانِ والمساوِئِ، ويكونُ لهُ هذا الوعيدُ الذي ذَكَرَ في هذا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عمل. (٣) في الأصل وم: الأمثال. (٤) في الأصل: لأنه لا يسمح، في م: لأنه لا يسع. (٥) في الأصل وم: أن يغفر. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: و﴿نُزُلًا﴾ [السجدة: ١٩] من النزولِ، والنزولِ ما يجعل للرجل ما يأكله، وينفقه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يذكر. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: خالدين. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ألَا تَرَى أنَّ السؤالَ المذكورَ مُقابِلَ الإيمانِ كُفْرٌ كقولِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾؟ [غافر: ٥٨].

فَعَلَى ذلكَ الفِسْقُ المَذكورُ مُقابِلَ الإيمانِ كُفْرٌ، لا يَقَعُ فيهِ اسْتِواءٌ بحالٍ. وأمثالُ الفِسْقِ المذكورِ، لا يُقابِلُ الإيمانَ. فجائزٌ أنْ يَقَعَ فيهما اسْتِواءٌ، وهو أنْ يُغْفَرَ لهُ ذنْبُهُ، ويُكَفَّرَ عنهُ سَيِّئَتُهُ، ويُدْخَلَ الجنةَ حينَ[1] قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الآية [الأحقاف: ١٦] هو في مشيئةِ اللهِ، إنْ شاءَ عَذَّبَ، وإنْ شاءَ تَجاوَزَ عنهُ.

وأصحابُ الحديثِ يقولونَ: إنَّ جميعَ الطاعاتِ إيمانٌ بهذهِ الآيةِ لأنهُ قال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾.

ثم فَسَّرَ ذلكَ المؤمِنَ، فقالَ: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وَعَدَ لهمُ الجَنّاتِ بالإيمانِ وعَمَلِ الصالحاتِ. فيُقالُ: إنَّ الوَعْدَ المُطْلَقَ هو لِمَنْ آمَنَ، وعَمِلَ الصالحاتِ.

فأمّا مَنْ آمَنَ، ولم يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ شيئاً فلا[2] نقولُ: إنَّ لهُ ذلكَ الوَعْدَ/ ٤٢٢ ـ أ/ المُطْلَقَ، ولكنْ لهُ الوعْدُ الذي ذَكَرْنا.

وفي الآيةِ دلالةٌ: أنْ قد يَعْمَلُ المؤمِنُ غيرَ الصالحاتِ، وهو مؤمنٌ، لأنهُ لو لم يكُنْ منهُ غَيرُ عَمَلِ الصالحاتِ لم يكُنْ لِشَرْطِ العَمَلِ الصالحِ لهُ مَعْنىً، دلَّ أنْ يكونَ مِنَ المؤمِنِ غَيرُ العَمَلِ الصالحِ. وذلكَ على المُعْتَزِلَةِ والخوارجِ.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ اخْتُلِفَ في العذابِ الأدنى: قالَ بعضُهُمْ: هو القَتْلُ يومَ بَدْرٍ، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: هو الجوعُ في السِّنينَ التي كانَتْ لهمْ فيها، والضِّيقُ والشِّدَّةُ، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: هو المصائبُ التي تُصيبُهُمْ، وأمثالُ ذلكَ كثيرةٌ.

لكنَّ ذلكَ العذابَ، ليسَ هو عذابَ الكُفْرِ، لأنَّ عذابَ الكُفْرِ في الآخِرَةِ أبداً دائماً، لا زوالَ ولا انْقِطاعَ. فأمّا عذابُ الدنيا لهمْ [فهو][4] عذابُ عِنادِهِمْ وما يكونُ منهمْ مِنَ الجناياتِ في حالِ كُفْرِهِمْ، يُعَذَّبونَ في الدنيا لِيُذَكِّرَهُمْ ذلكَ العذابُ في الآخِرَةِ العذابَ الدائمَ لِيَمْنَعَهُمْ ما[5] بِهِ يُعَذَّبونَ في الدنيا عنْ عذابِ الآخِرَةِ.

وكذلكَ ما أعْطَى لهمْ مِنَ اللَّذّاتِ والنعيمِ في الدنياَ، وإنْ كانَ مُنْقَطِعاً، لِيُذَكِّرَهُمْ[6] ذلكَ النعيمُ وتلكَ اللذاتُ لذاتِ الآخِرَةِ ونِعَمَها الدائمةَ. ولذلكَ رَغَّبَ اللهُ خَلْقَهُ إلى طَلَبِ الآخِرَةِ، وأخْبَرَ أنَّ لهمْ فيها مِنَ اللَّذاتِ كذا في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ كقولِهِ[7]: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ الآية [الزخرف: ٧١] ونحوُهُ كثيرٌ. والعذابُ الأكبرُ هو عذابُ الآخِرَةِ، وهو عذابُ الكُفْرِ والتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يُلْزِمَهُمْ حُجَّةَ الرجوعِ عمّا هُمْ فيهِ مِنَ التكذيبِ لئلا يقولوا ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ قولُهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي [لا][8] أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ وَوَقَعَ لهُ المعرفةُ والعِلْمُ أنها آياتُ ربِّهِ ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بعدَ ما عرَفَها، وعَلِمَ بها. ليسَ أحدٌ أظْلَمَ مِنْ ذلكَ المُذَكَّرِ[9] بآياتِهِ ما ذَكَرْنا. إنهمْ يُذَكَّرونَ لِيَقَعَ لهمْ أنها آياتُهُ.

ثم يَحْتَمِلُ آياتِ وحدانيَّتِهِ وآياتِ الرسالةِ وآياتِ البَعْثِ أو آياتِ القرآنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جُرْمُهُمْ ههنا جُرْمُ كُفْرٍ؛ يَنْتَقِمُ منهمُ انْتِقامَ الكُفْرِ والتكذيبِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لأنا. (٣) و(٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عما. (٦) من م، في الأصل: ليذكر. (٧) في الأصل وم: حيث قال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: التذكير.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ اختُلِفَ فيه:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي مِنْ أنْ تَلْقاهُ يومَ القيامةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن﴾ لِقاءِ موسى التوراةَ، فإنَّ اللهَ ألْقى التوراةَ عليهِ حقّاً، فتَلَقّاها[1] عِياناً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ ليلةَ أسْرى بهِ؛ قد رُوِيَ مِثْلُ هذا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قد أُسْرِيَ بهِ، وعُرِجَ إلى السماءِ، فقالَ له موسى: كذا وكذا أشياءَ، ذُكِرَتْ في أمْرِ الصلاةِ وغيرِهِ.

فلا نَدري أثبتَ ذلكَ أم لا؟ أو إنْ ثَبَتَ فكيفَ كانَ ذلكَ؟ [أأوحِيَ][2] لهُ، فقالَ ما ذَكَرَ، أم رأى ذلكَ في المنامِ، ورُؤيا الأنبياءِ حقٌّ، أو كيفَ كانَ؟ [فالأمرُ للهِ][3] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: جعَلْنا موسى هُدًى لِبَني إسرائيلَ، يَجْعَلُ الهاءَ كِنايةً عنْ موسى. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الكتابَ الذي أُوتِيَ موسى هُدًى لِبَني إسرائيلَ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهُما: البَيانُ: أي جعَلْناهُ بَياناً لهمْ، يُبيِّنُ ما لهمْ وما عليهِمْ وما للهِ عليهِمْ.

والثاني: ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي دعاةً لِبَني إسرائيلَ، يَدْعونَ الخَلْقَ بهِ إلى توحيدِ اللهِ وأُلوهِيَّتِهِ.

الهُدَى المُضافُ إلى الخَلْقِ يُخَرَّجُ على هذينِ الوجْهَينِ: على البيانِ والدعاءِ.

والهُدَى المُضافُ إلى اللهِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ أربعةٍ: على البَيانِ وعلى الدعاءِ [اللَّذينِ ذَكَرْنا][4] وعلى وجهَينِ آخَرَينِ:

أحَدُهُما: التوفيقُ والمَعونةُ، والثاني: على خَلْقِ فِعْلِ الاِهتداءِ منهمْ.

على هذه الوجوهِ الأربعةِ تُخَرَّجُ إضافةُ الهُدَى إلى اللهِ، وإلى الخَلْقِ على الوجْهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما.

فإنْ قيلَ: كيفَ خصَّ موسى أنهُ جعلَهُ هُدًى لِمَنْ ذَكَرَ؟ وذلكَ قد يكونُ في غَيرِهِ، وهو ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ شهادةَ وحدانيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ. قيلَ: ذلكَ إنما يُدْرَكُ بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ، وأمّا في ما ذَكَرَ فَيُدْرَكُ بالبَديهَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعونَ الناسَ بِما أمَرَهُمْ، وهو التوحيدُ، أو ﴿يَهْدُونَ﴾ أي يُبيِّنونَ لهمْ بالذي أمَرْنا: مالهمْ وما عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: لِما[5] ﴿صَبَرُوا۟ۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي لِما صَبَروا على البلاءِ وتعذيبِ فرعونَ إياهُمْ وأذاهُ إياهُمْ، أي آمَنوا، ودَعَوا غَيرَهُمْ إلى ذلكَ على الخَوفِ كقولِهِ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ﴾ الآية [يونس: ٨٣]. وقالَ بعضُهُمْ: لِما صَبَروا على الطاعاتِ.

وقد قُرِئَ ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ﴾ بالتشديدِ، ومعناهُ، واللهُ أعلَمُ، أي إنما يَهدونَ لمّا كانَ منهمُ الصبرُ على ذلكَ، أي بالصبرِ الذي كانَ منهمْ هَدَوا أولئكَ [وقالَ بعضُهُمْ ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ﴾ أي لم يَرْكَنوا إلى الدنيا، ولا اشْتَغَلوا بها، ولكنْ صَبَروا على ما أُمِروا، وكُلِّفوا، والله أعلَمُ][6].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أنها مِنَ اللهِ، وأنها آياتُهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إنَّ أهلَ الأديانِ جميعاً والمذاهبِ على اختِلافِ أديانِهِمْ ومذاهِبِهِمْ اتَّفَقوا أنَّ الدينَ الذي جاءَ مِنَ اللهِ واحدٌ، وأنَّ الدينَ الذي أمَرَ اللهُ أنْ يَدينوا بهِ واحدٌ. لكنَّ [كُلّاً][7] منهمُ ادَّعى أنَّ الذي هو عليهِ دينُ اللهِ، وأنَّ الأمْرَ بهِ مِنَ اللهِ، وَقَعَ ما يَدينُ هو بهِ، وغَيرُهُ على باطِلٍ على غَيرِ دينِ اللهِ الذي أمَرَ بالديانةِ بهِ. وكذلِكَ[8] قالَ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآيةَ [الأعراف: ٢٨].

---

(١) في الأصل وم: فلقيها. (٢) في الأصل وم: أنه أوحى (٣) في الأصل وم: لأمر الله. (٤) في الأصل وم: الذي ذكرنا أيضاً. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٠٤. (٦) أدرجت في الأصل وم بعد: أنها من الله وأنها آياته. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: ولذلك.

فأخبَرَ أنهُ يَفصِلُ بينَهُمْ، ويُبيِّنُ الذي أمَرَ أنْ يَدينوا بهِ في الدنيا بيانَ الاحتِجاجِ عليهِمْ، وإلّا فقد أبانَ لهمْ، وأظهَرَ الدينَ الذي أمَرَهُمْ أنْ يدينوا بهِ بالحُجَجِ والآياتِ، وعَرَفوا[1] ذلكَ. لكنهمْ كابَروا، وعانَدوا، وكَتَموا ذلكَ، ولَبَسوهُ[2] على الناسِ والأتباعِ، ويُبيِّنُ ما كتَموا في الدنيا، ولَبَسوا في الآخرةِ، فَيُظْهِرُ عِنادَهُمْ ومُكابَرَتَهُمُ احتِجاجاً عليهِمْ، وإنْ كانَ الحَقُّ قد بانَ لهمْ، وظَهَرَ في الدنيا. هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلَ[3] الآيةِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أوَ لم يُبيِّنْ لأهلِ مكةَ؟ أوَ لم يَكْفِهِمْ مِنَ الهدايةِ والبَيانِ ما أهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ القرونِ ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ فيَرَونَ ما حَلَّ بهِمْ ومَنْ أهلكَ ومَنْ نَجا منهمْ، فيَقَعُ الاعْتِبارُ لهمْ بِمَنْ ذَكَرَ مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: زَعَموا أنَّ آباءَهُمْ على ما هُمْ عليهِ، وأنهمْ يُقَلِّدُونَهُمْ في ذلكَ، وأنهمْ أُمِروا بذلكَ.

فَيُخبِرُهُم[4] أنكُمْ أولادُ مَنْ نَجا منهمْ لا أولادُ مَنْ أُهلِكوا لأنهمُ اسْتُؤْصِلوا. فلا يُحتَمَلُ أنْ يكونوا أولادَ مَنِ اسْتُؤْصِلُوا. فدلَّ أنهمْ أولادُ مَنْ نَجا منهمْ [وإنما نَجا منهمْ][5] المُصَدِّقُ لا المُكذِّبُ.

فَيُخبِرُهُمْ[6] أنْ كيفَ لا اتَّبَعْتُمْ آباءَكُمُ الذينَ نَجَوا منهمْ؟ وهُمُ المُصَدِّقونَ دونَ الذينَ / ٤٢٢ ـ ب/ أُهلِكوا بالتكذيبِ والعِنادِ

والثاني: يَعْتَبِرونَ، فيَعْلَمونَ أنَّ هلاكَهُمْ واسْتِئصالَهُمْ كانَ بالتكذيبِ والعِنادِ معَ الرسلِ والخِلافِ لهمْ، فيَمْنَعُهُمْ ما حلَّ بهِمْ بالتكذيبِ والخِلافِ للرسلِ عنْ تكذيبِ رسولِ اللهِ ومجادَلَتِهِمْ إياهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أفلا يُبْصِرونَ ذلكَ حيثُ يمشونَ في مَساكِنِ أولئكَ، ويَمُرُّونَ فيها. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ما حدثَ لهمْ مِنْ أولئكَ، وما حَلَّ بهِمْ، وبِمَ نَزَلَ ذلكَ بهِمْ؟ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أفلا يَعْقِلونَ لِماذا أُهلِكوا أوِ اسْتُؤْصِلُوا؟ فيَمْتَنِعوا[7] عنْ ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعيدَ الذي أوعَدَ لهمْ؟ وقيلَ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ التوحيدَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

هذهِ الآيةُ ذُكِرَتْ في الاحتِجاجِ عليهِمْ لإنكارِهِمُ البَعْثَ. والأُولَى ذُكِرَتْ لإنكارِهِمْ نُزولَ العذابِ بالتكذيبِ والخِلافِ للرسلِ؛ فيُخبِرُهُمْ إنَّ مَنْ قَدَرَ على سَوقِ [الماءِ][8] إلى الأرضِ المَيْتَةِ اليابِسَةِ وإحيائِها لَقادرٌ على إحيائِكُمْ بَعْدَ الموتِ؛ إذِ الأعجوبةُ والقُدْرَةُ في إحياءِ الأرضِ المَيْتَةِ اليابِسَةِ: إنْ لم يَكُنْ أكْثَرَ، فلا تكونُ دونَ[9] ما أنْكَروا. فكيفَ أنكَرْتُمُ القُدْرَةَ على إحياءِ المَوتَى، وقد عايَنْتُمْ ما هو أكثَرُ أو مِثْلُهُ؟

والأرضُ الجُرُزُ: قالَ أبو عَوسَجَةَ: هي التي لا نَبْتَ فيها، وأرَضونَ أجرازٌ [وأراضٍ أجرازٌ][10] وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: الأرضُ الجُرُزُ اليابِسَةُ التي لا نَبْتَ فيها، وجَمْعُها أجرازٌ، ويُقالُ: سِنونَ أجرازٌ إذا كانَتْ سِني جدْبٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الأرضُ الجُرُزُ التي تأكُلُ نَباتَها، أي يَحْتَرِقُ فيها. يُقالُ: امرأةٌ جَرْزاءُ إذا كانَتْ أكولةً، أو كلامٌ نحوُهُ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ مِنَ الزَّرْعِ الذي ذَكَرَ أنهُ يَخرُجُ مِنَ الأرضِ اليابِسَةِ ﴿أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ قدرتَهُ في إخراجِ ما ذَكَرَ ممّا فيهِ غذاؤُكُمْ وغِذاءُ ما سَخَّرَ لكمْ مِنَ الأنعامِ.

[ويَحتَمِلُ أنْ][12] يَذْكُرَ نِعَمَهُ؛ يقولُ: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ نِعَمَهُ، فكيفَ تَكْفُرونَهُ، وتَعْبُدونَ غيرَهُ، وتَصْرِفونَ الشُّكْرَ إلى غيرِهِ؟

وذُكِرَ عنْ عمرَ ﷺ، أنهُ قالَ: الأرضُ الجُرُزُ التي لا نَباتَ فيها.

---

(١) في الأصل وم: وعرفوه. (٢) في الأصل وم: ولبسوا. (٣) في الأصل وم: تأويلا. (٤) في الأصل وم: فيخبر. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: فيخبر. (٧) في الأصل وم: فيمتنعون. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: دونه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أو.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ كانوا يقولونَ، ويَتَحدَّثونَ: إنَّ لنا يوماً أو شَكَ أنْ نَسْتَريحَ فيهِ [ونَتَنَعَّمَ فيهِ][1] يَعْنونَ يومَ القيامةِ، فقالَ كُفّارُ مكةَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؟ وهو القضاءُ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنهُ كائنٌ. فإنْ كانَ البَعْثُ والقيامَةُ حقاً صَدَّقْناهُ يومَئذٍ وآمَنّا.

الآية ٢٩ فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لهمْ ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يومَ القضاءِ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ بالبَعْثِ لِقولِهِمْ: لو كانَ البَعْثُ الذي تقولونَ حقاً صَدَّقْناهُ يومئذٍ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يقولَ: لا يُناظَرُ بهمْ بالعذابِ حينَ يُعَذَّبونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ كانوا يَتَذاكَرونَ، وهمْ بمكةَ، فَتْحَ مكةَ لهمْ، فكانَ ناسٌ مِنْ أهلِ مكةَ إذا سَمِعوا ذلكَ منهمْ هَزَؤوا منهمْ، وسَخِروا، ويقولونَ لهمْ: متى فَتْحُكُمُ الذي تَزْعُمونَ. فَنَزَلَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ يا أصحابَ محمدٍ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنها تُفْتَحُ عليكُمْ. لكنَّ هذا بعيدٌ لأنهُ يقولُ على إثْرِهِ ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ولو كانَ فتحُ مكةَ لكانَ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ، ولهمْ نَظِرَةٌ وإنظارٌ. دلَّ أنهُ يَبْعُدُ صَرْفُهُ إلى فَتْحِ مكةَ. والأوّلُ أشْبَهُ أنْ يكونَ لِما ذُكَرَ مِنْ تَرْكِ قَبولِ الإيمانِ والإنظارِ، وفي الدنيا يُقْبَلُ ذلكَ كلُّهُ، فَظَهَرَ أنَّ الأولَ أشْبَهُ [لِما][2] كانَ السؤالُ عنِ الساعةِ أو عنِ المُحاكَمةِ إلّا أنْ يَثْبُتَ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ أنهُ لمّا فَتَحَ اللهُ مكةَ أقامَ النَّبِيُّ ﷺ وأصحابُهُ ذلكَ اليومَ، وانْهَزَمَ المُشْرِكونَ، فَخَرَجوا مِنْ مكّةَ. وأقامَ مَنْ أقامَ بها، فأمَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ.

فأدْلَجَ خالدُ بْنُ الوليدِ تلكَ الليلةَ دُلْجَةً في سَبْعِ مئةِ رجلٍ، ومعهُ أبو قَتادةَ الأنصاريُّ، وأسَرُّوا في أسْفَلِ مكةَ حتى سَقَطوا مِنْ وراءِ الحَرَمِ، فوجَدوا الذينَ كانوا يَهْزَؤونَ بأصحابِ محمدٍ، ويقولونَ: متى فَتْحُكُمْ هذا؟ فوق جَبَلٍ، وقد تَحَصَّنوا فيهِ. فلما رَأَوا خالدَ بْنَ الوليدِ قالوا: هذا خالدُ بْنُ الوليدِ وإخْتُنُهُ، وقد كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ في الجاهليةِ إخْنَةٌ، فقالَ لهمُ ابْنُ الوليدِ: مالَكُمْ؟ قالوا: أسْلَمْنا. قالَ: إنْ كُنْتُمْ قد أسْلَمْتُمْ فانْزِلوا، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بعضٍ، فقالَ رجلٌ منهمْ: أطيعوني، ولا تَنْزِلوا إليهِ، فَوَ اللهِ لَئِنْ نَزَلْتُمْ إليهِ لَيُهْلِكَنَّكُمْ إنهُ لَخالدُ بْنُ الوليدِ وإخْتُنُهُ، قالوا: واللهِ ما علينا سَبيلٌ، لقد أسْلَمْنا، ثم نَزَلوا، وَوَضَعَ عليهِمْ خالدُ بْنُ الوليدِ السلاحَ، واعْتَزَلَ أبو قَتادَةَ، فقالَ: مَعاذَ اللهِ أنْراهِنَنَّ[3] على شيءٍ ممّا ههنا؟ فَبَلَغَ ذلكَ النبيَّ، فَبَعَثَ إليهِمْ عليَّ بْنَ أبي طالبٍ بالدِّيَةِ مِنْ غَنائمِ خَيْبَر، فَوادَعَهُمْ[4] بالدِّيَةِ، حتى بَعَثَ إليهِمْ بِرَوعةِ الخَيلِ، حينَ راعوهُمْ، ومَساقي الكلابِ كانوا كَسَروها، فَوادَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ كلَّ شيءٍ. فذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

الآية ٣٠ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ محمدُ إلى مدةٍ ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ بهمُ العذابَ أيِ القَتْلَ وهلاكَهُمْ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ هلاكَكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى ذلكَ اليومِ ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ بهمْ فَتْحَ مكةَ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ هلاكَكَ.

[ويَحْتَمِلُ][6] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تُكافِئْهُمْ لِأذاهُمْ إياكَ ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ مكافأتَنا إياهُمْ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾. واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ][7].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أنراعين. (٤) في الأصل: وم: فوداهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

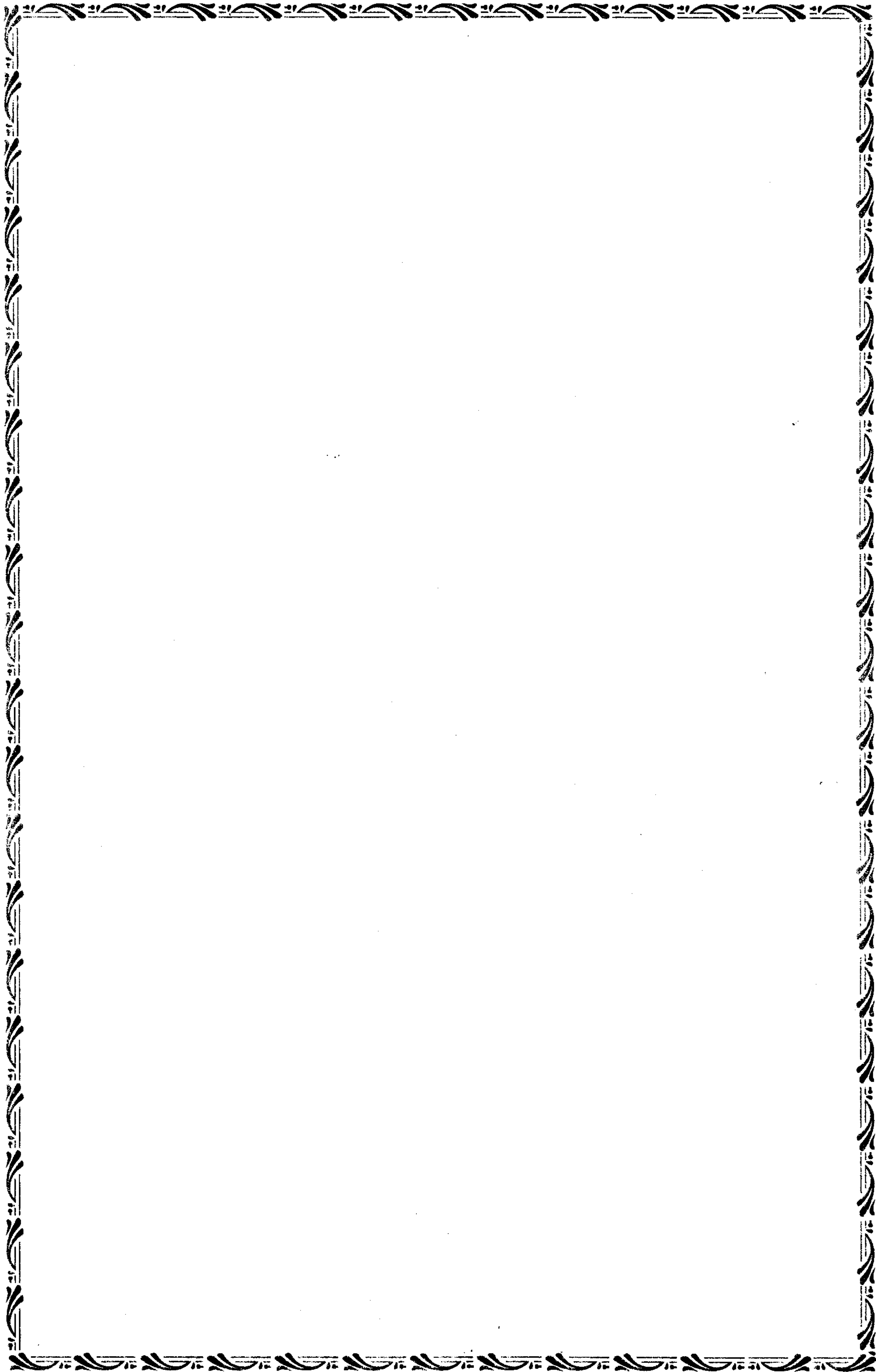

[سورة الأحزاب

مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ظاهِرُ الخِطابِ، وإنْ كانَ لِرسولِ اللهِ ﷺ فهو للناسِ عامّاً. ألَا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ خاطَبَ بِهِ الجماعةَ، وقد خاطَبَ رسولَهُ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ، والمُرادُ بِهِ غَيرُهُ؟ فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ هذا كذلكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ المُرادُ بالخِطابِ أيضاً [هو][2] خاصَّةً. لكنْ إنْ كانَ ما خاطَبَ بِهِ ممّا يَشْتَرِكُ فيهِ غَيرُهُ دَخَلَ في ذلكَ الخطابِ وفي ذلكَ النَّهْيِ.

وإنْ كانَ ممّا يَتَفَرَّدُ بِهِ مِنْ نَحْوِ تَبْليغِ الرسالةِ إليهِمْ وما تَضَمَّنَتْهُ الرسالةُ[3]، وإنْ خافَ على نفسِهِ القَتْلَ والهَلاكَ، فإنَّ عليهِ ذلكَ، لا مَحالَةَ، كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

وأمّا أهلُ التأويلِ فَمِمّا اخْتَلَفوا فيهِ: [ما][4] قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ، وذلكَ أنَّ نَفراً مِنْ أهلِ مكةَ: أبو سُفيانَ بْنُ حَرْبٍ /٤٢٣ ـ أ/ وعِكْرِمةُ بْنُ أبي جَهْلٍ وأبو الأعْوَرِ السُّلَميُّ، وهؤلاءِ قَدِموا المدينةَ، فَدَخَلوا على عبدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ رأسِ المُنافِقينَ بَعْدَ قَتْلَى أُحُدٍ، وقد أعطاهُمُ النَّبيُّ الأمانَ على أنْ يُكَلِّموهُ. فقالوا للنَّبيِّ، وعندَهُ عُمَرُ بْنُ الخطابِ ﷺ: ارْفِضْ ذِكْرَ آلهتِنا اللّاتِ والعُزى ومَناةَ، ونَدَعُكَ وربَّكَ، فَشَقَّ ذلكَ على النَّبيِّ ﷺ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وفيهِمْ نَزَلَ [قولُهُ تعالى][5]: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وفي بعضِ الرواياتِ قالوا ذلكَ، وعندَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ائْذَنْ لي في قَتْلِهِمْ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ، إني قد أعطَيْتُهُمُ الأمانَ. فإنْ كانَ على هذا فالنَّهْيُ عنْ نَقْضِ العَهْدِ والأمانِ.

وإنْ كانَ على الأوّلِ فالنَّهْيُ عنِ اتِّباعِ ما طَلَبوا منهُ مِنْ رَفْضِ آلهتِهِمْ والعبادةِ لها.

وبعضُهُمْ يقولونَ: إنَّ أهلَ مكةَ نَحْوَ شَيبَةَ بْنَ رَبيعَةَ وهؤلاءِ قالوا لهُ: إنا نُعطيكَ يا محمدُ كذا مِنَ المالِ، ونُزَوِّجُكَ كذا امرأةً كثيرةَ المالِ، فارفِضْنا وآلهتَنا، وإلّا قَتَلَكَ المُنافِقونَ: فُلانٌ وفلانٌ [وفلانٌ، وعَدُّوا][6] نَفراً، فأنْزَلَ اللهُ تعالى الآيةَ في ذلكَ بالنَّهْيِ عنِ اتِّباعِ ما طَلَبوا منهُ، ودَعَوهُ إليهِ، وأمْرِهِ بالتَّوَكُّلِ عليهِ[7] في تَرْكِ الاتِّباعِ لهمْ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ النَّهْيَ والأمْرَ، وإنْ كانَ خاصّاً[8] في ما ذُكِرَ، فهو، وإنْ كانَ مَعْصوماً، فالعِصْمَةُ لا تَمْنَعُ الأمْرَ والنَّهْيَ، بلِ العِصْمَةُ إنما تَنْفَعُ إذا كانَ ثَمَّةَ نَهْيٌ وأمْرٌ، إذْ لولا النَّهْيُ والأمْرُ لكانَ لا مَعْنَى لِلْعِصْمَةِ، ولا مَنْفَعَةَ لها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في تَرْكِ تَبْليغِ الرسالةِ إليهِمْ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في اتِّباعِ ما دَعَوكَ إليهِ، وطَلَبوا منكَ، أو في غَيرِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: ﴿عَلِيمًا﴾ بما كانَ، ويكونُ منهمْ، أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ عليكَ بَعْثَكَ، لا على جَهْلٍ ﴿حَكِيمًا﴾ في ذلكَ، أي بَعْثُهُ إياكَ إليهِمْ على عِلْمٍ بِما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ

(١) في الأصل وم: ذكر أن سورة الأحزاب نزلت بالمدينة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الرسل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عدوا. (٧) في الأصل وم: على الله. (٨) في الأصل وم: خاصة.

والرَّدِّ، لا يُخرِجُهُ عنِ الحكمةِ، ليسَ كملوكِ الأرضِ: إذا أرسلَ بعضُهُمْ إلى بعضٍ رسالاتٍ وهدايا على عِلْمٍ مِنَ المُرْسِلِ أنَّ المَبعوثَ إليهِ، يَرُدُّ الرسالةَ والهديَّةَ، يكونُ سَفيهاً[1] لأنهمْ يَبْعثونَ، ويُرْسِلونَ لِحاجةِ أنفسِهِمْ؛ أعني أنفسَ المرسِلِينَ، فإذا أرسَلوا على عِلْمٍ منهمْ بالرَّدِّ والتكذيبِ كانَ ذلكَ سَفَهاً خارجاً عنِ الحِكمةِ.

فأمّا اللهُ سُبْحانَهُ، فإنما يُرْسِلُ الرسُلَ، ويَبْعَثُهُمْ لِمَنْفَعَةِ أنفسِهِمْ وحاجتِهِمْ، فَعِلْمُهُ بالرَّدِّ والتكذيبِ لا يُخرِجُهُ عنِ الحكمةِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ الخُصوصَ لهُ بهِ على ما ذَكَرْنا، ويَحْتَمِلُ العُمومَ على ما ذَكَرْنا في آيةٍ أُخرى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] يدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ خاطَبَ بهِ الكلَّ، واللهُ أعْلَمُ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُ على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعْتَمِدْ على اللهِ في تبليغِ الرسالةِ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً يَحْفَظُكَ، ويَمْنَعُهُمْ عنكَ كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنها[2] نَزَلَتْ في رجلٍ، يُقالُ لهُ: ابنُ مَعْمَرٍ، وكانَ مِنْ أحْفَظِ الناسِ وأوعاهُمْ، فقالوا: إنَّ لهُ قَلْبَينِ: قَلْبٌ يَسْمَعُ، وقَلْبٌ يَحْفَظُ، ويُبْقي، فنَزَلَ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

ويقولُ بعضُهُمْ: كذلكَ: إنها نَزَلَتْ في ابنِ مَعْمَرٍ، وكانَ يُسَمّى ذا قَلْبَينِ لِحِفْظِهِ الحديثَ حتى إذا كانَ يومُ بدرٍ، وهُزِمَ المُشْرِكونَ، وكانَ فيهِمُ ابنُ مَعْمَرٍ، تَلَقّاهُ أبو سُفْيانَ بْنُ حَرْبٍ، وهو مُعَلِّقٌ إحْدَى نَعْلَيهِ بِيدِهِ، والأخرى في رِجْلِهِ، فقالَ لهُ: يا ابنَ مَعْمَرٍ ما فَعَلَ الناسُ؟ قالَ: انهَزَموا، فقالَ لهُ: ما بالُ نَعْلِكَ في يدكَ، والأُخرَى في رِجْلِكَ؟ فقالَ: ما شَعَرْتُ إلّا أنهما جميعاً في رِجْلَيَّ، فَعَرَفوا يومئذٍ أنْ لو كانَ لهُ قَلْبانِ ما نَسِيَ نَعْلَهُ في يَدِهِ، ونَحْوُهُ قد قيلَ. ولكنْ لا نَدْري سَبَبَ نُزولِ هذهِ الآيةِ.

[ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ سُئِلَ عنْ هذهِ الآيةِ][3] فقالَ: كانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يُصَلّي يوماً، فَخَطَرَتْ خَطْرَةٌ، أي وَقَعَ في قَلْبِهِ، فقالَ المنافقونَ الذينَ يُصَلّونَ معهُ: ألا نَرَى أنَّ لهُ قَلْبينِ: قَلْباً مَعَكُمْ، وقَلْباً معَهُمْ؟ فأُنزِلَتْ هذهِ الآيةُ.

وهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ سَبَبَ نُزولِ الآيةِ، أو أنْ يكونَ نُزولُها[4] في المُنافِقينَ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يُصَلّونَ مع النَّبيِّ والمؤمنينَ، ويُرُونَ المُوافَقَةَ لهمْ مِنْ أنفسِهِمْ، ويقولونَ: نَشْهَدُ إنكَ لَرسولُ اللهِ، ثم يَرجِعونَ [إلى أولئكَ الكَفَرَةِ][5] فيقولونَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] ونَحْوَهُ. فَذَكَرَ هذا ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ أي دِينَينِ في جَوفِهِ: الإيمانَ والنِّفاقَ أو ﴿قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ قَلْباً لهذا وقَلْباً للآخَرِ.

[ويَحْتَمِلُ أنها][6] نزلَتْ في المُشْرِكينَ الذينَ يُقِرّونَ بالوَحدانِيَّةِ لِلّهِ وأنهُ، هو الخالقُ، كقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ويَعْبُدونَ الأصنامَ معَ هذا: فنقولُ، واللهُ أعلَمُ: لم يَجْعَلِ [اللهُ لِرَجُلٍ][7] قَلْبَينِ في جَوفِهِ: قَلْباً للشِّرْكِ وقَلْباً للإيمانِ والتوحيدِ، ولكنْ جَعَلَ قَلْباً واحداً لأحَدِ هذينِ: أي قَلْباً لِقَبولِ الشِّرْكِ [أو الإيمانِ][8].

وبعضُهُمْ: يقولُ: هو على التمثيلِ، أي كما لم يجعلْ لرجلٍ واحدٍ قَلْبَينِ، فكذلكَ لا يكونُ المُظاهِرُ[9] مِنِ امْرَأتِهِ؛ لا تكونُ امرأتُهُ أُمَّهُ في الحُرْمَةِ، ولا يكونُ دَعِيُّ الرجلِ ابْنَهُ.

[وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ

---

(١) في الأصل وم: سفها. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: كذلك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل وم: نزول. (٥) في الأصل: إلا أولئك، في م: إلى أولئك. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: الرجل. (٨) في الأصل وم: وقلبا لقبول الإيمان. (٩) في الأصل وم: الظاهر.

﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾][1]؛ يقولُ: نَزَلَ في النبيِّ وزَيدِ ابْنِ حارثةَ؛ كان النَّبِيُّ تَبَنَّاهُ، وكانوا يُسَمُّونَهُ زَيدَ بْنَ محمدٍ، فجاءَ النَّهْيُ عنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ إلى هذا ذَهبَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ.

وبعضُهُمْ يقولُ: تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي لم يَجْعَلْ للرجلِ نَسَبَينِ، يُنْسَبُ إليهما.

وأصْلُهُ عندَنا أنَّ قولَهُ: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ ما ذَكَرْنا، ولم يَجْعَلْ أزواجَكُمُ اللائي تَسْتَمْتِعونَ بهنَّ بالتَّشْبيهِ بالأُمَّهاتِ كالأُمَّهاتِ، أي لم يُحِلَّ لكمْ ذلكَ، ولم يُبِحْ، ولم يُشَرِّعْ ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي لم يَجْعَلِ النَّسَبَ[2] ذلكَ، ولم يُشَرِّعْ. وإنْ كانَ قد يكونُ في النَّسَبِ الفاسدِ، نَحْوَ الجاريةِ بَينَ اثْنَينِ، إذا وَلَدَتْ، فادَّعياهُ جميعاً، ونَحْوَ النِّكاحِ الفاسدِ والمُلْكِ الفاسدِ، لم يَجْعَلْ كذا، أي لم يُحِلَّ، ولم يشَرِّعْ، كقولِهِ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي لم يُشَرِّعْ، ولم يُحِلَّ ذلكَ. وإنْ كانَ يكونُ لو فَعَلوا.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي لم يُشَرِّعْ ذلكَ النَّسَبَ، ولم يُحِلَّ ذلكَ في الإسلامِ ما كانَ في الجاهليةِ لا أنهُ لا يكونُ ذلكَ في ما لم يُشَرِّعْ في الفاسدِ منَ النَّسَبِ على ما ذَكَرْنا أنَّ النَّسَبَ ثَبَتَ في النِّكاحِ الفاسدِ، وإنْ لم يُشَرِّعْ.

والحَسَنُ يقولُ في قولِهِ: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ قالَ: كانَ الرجلَ يقولُ: إنَّ نَفْساً تأمُرُني بكذا، ونَفْساً تأمُرُني بكذا. فَنَزَلَ ذلكَ.

والحِكْمَةُ في ما لم يَجْعَلْ لِلْواحِدِ قَلْبَينِ، وجَعَلَ لهُ سَمْعَينِ وبَصَرَينِ، لأنَّ الإدراكَ بالسَّمْعِ والبَصَرِ إنما يكونُ بالمُشاهَدَةِ فَيَخْرُجُ ذلكَ مُخْرَجَ معاوَنَةِ بَعْضِهِمْ بعضاً، وما يُدْرَكُ [بالقَلْبِ يكونُ][3] بالاجْتِهادِ.

وقد يَخْتَلِفُ القَلْبانِ في ما يَجْتَهِدانِ في شيءٍ، فَيُناقِضُ أحَدُهُما صاحبَهُ؛ إذْ يجوزُ أنْ يَرَى أحَدُهما خِلافَ ما يَراهُ الآخَرُ. وأمّا السَّمْعانِ والبَصَرانِ لا يكونانِ[4] كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ/ ٤٢٣ - ب/ فِي جَوْفِهِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ سَبَبُ ذلكَ ما ذُكِرَ مِنِ ادِّعاءِ مُسَيلِمَةَ الكَذّابِ الرسالةَ لنفسِهِ، وتَواطُؤِ أصحابِهِ على ذلكَ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ما جَعَلَ اللهُ أنْ يُرْسِلَ رجُلَينِ رسولاً إلى خَلْقِهِ؛ مُخْتَلِفَيِ الدينَينِ مُتَضادَّيِ[5] الشرائعِ، يدعو كلُّ واحدٍ إلى دينٍ غَيرِ الآخَرِ وإلى شريعةٍ يُضادُّ بعضُها بعضاً: محمداً رسولَ اللهِ ﷺ ومُسَيلِمَةَ الكَذّابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما: على النَّهْيِ الذي ذَكَرْنا، أي لا تُشَبِّهُوا أزواجَكُمْ بِظهورِ الأُمَّهاتِ، ولا تُحَرِّموهُنَّ على أنفسِكُمْ كَحُرْمَةِ الأُمَّهاتِ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

والثاني: أنْ لم يَجْعَلِ اللهُ لكمْ أزواجَكُمْ حَراماً أبداً كالأُمَّهاتِ، وإنْ جَعَلْتُمْ أنتُمْ. ولكنْ جَعَلَهُنَّ لكمْ بحيثُ تَصِلونَ إليهنَّ بالاسْتِمْتاعِ إلى ما تَصِلونَ إليهنَّ، وتَسْتَمْتِعونَ بهنَّ بَعدَ هذا القولِ.

يَذْكُرُ هذا على المِنَّةِ والنِّعْمَةِ لِيَسْتَأْدِيَ بهِ[شُكْرَهُ][6] لِما أبْقَى لهمُ الاسْتِمْتاعَ بهنَّ بَعدَ هذا، ولم يَجْعَلْهُنَّ لهمْ كالأُمَّهاتِ على ما ذُكِرَ، واللهُ اعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهُما][7]: ما جَعَلَ أدعياءَكُمْ أبناءَكُمْ في [حقوقِ النَّسَبِ][8] إلى الآباءِ؛ وهو ما ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنهُ إذا ادَّعى الرجلُ منهمْ [رجلاً وَرِثَهُ][9] مع أولادِهِ فهو شيءٌ كانوا يَفْعَلونَهُ في الجاهليةِ، دُعِيَ إليهِ، ونُسِبَ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما جَعَلَ ما كُنْتُمْ تَدْعونَ الأبناءَ في الجاهليةِ للعَونِ والنُّصْرَةِ أبناءَكُمْ في الإسلامِ في ما جَعَلوا.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: سبب. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يكون. (٥) في الأصل وم: متضاد. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ورثه منهم.

والثاني: ما جَعَلَ أدعياءَكُمْ أبناءَكُمْ في حقِّ النِّسْبَةِ كما ذُكِرَ أنهمْ كانوا يقولونَ لِزَيْدِ بنِ حارثَةَ: زيدَ بنَ محمدٍ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ إنما هو قولٌ، تقولونَهُ بألسِنَتِكُمْ في ما بينَكُمْ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ إنهمْ لَيسوا بأبنائكُمْ.

الآية ٥ أو إنَّ قولَهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ تأويلُهُ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي انسُبوهُمْ إليهمْ إنْ عَلِمْتُموهُمْ ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ فانسُبوهُمْ إلى آبائِهِمْ مِنْ أسماءِ مَواليكُمْ أو إخوانِكُمْ أو بَني[2] عمِّكُمْ مِثْلِ عَبدِ اللهِ وعُبيدِ اللهِ وعبدِ الرحمنِ وأشباهِ تلكَ الأسماءِ وأسماءِ مَواليكُمْ.

[ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ][3] قولُهُ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي سَمُّوهُمْ إخواناً، وذلكَ أعظمُ في القلوبِ وآخَذُ مِنَ التسميةِ بالآباءِ والنسبةِ إليهمْ؛ وذلكَ لأنَّ[4] الحاجةَ إلى معرفةِ الآباءِ والنسبةِ إليهمْ إنما تكونُ عندَ الكتابةِ والشهادةِ وعندَ الغَيبةِ، وأمّا عندَ الحَضْرَةِ فلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ هذا في شأنِ زَيدِ بنِ حارثةَ، وهو كانَ مَولَى رسولِ اللهِ، وكانوا يُسَمُّونَهُ زَيدَ بْنَ محمدٍ، فَنُهوا عنْ ذلكَ؛ فيقولُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ فانسُبوهُمْ إلى مَواليهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ مِنَ الوِلايةِ كقولِهِ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وقولِهِ[5]: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ليسَ عليكُمْ جُناحٌ بالنسبةِ إلى غَيرِ الآباءِ إذا كُنْتُمْ مُخطِئينَ غَيرَ عارفينَ الآباءَ: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ إنما الجُناحُ والحَرَجُ عليكُمْ إذا كُنْتُمْ عامِدينَ لذلكَ عارفينَ لهمْ آباءً؛ كأنهُ أباحَ التَّبَنِّيَ والتآخِيَ في ما بَينَهُمْ، ولم يُبِحِ النِّسْبَةَ إلى غَيرِ الآباءِ وإيجابَ الحقوقِ في ما بَينَهُمْ.

وكذلكَ رُوِيَ في بعضِ الخَبرِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُؤاخي بينَ الرجُلَينِ. فإذا [ماتَ][6] أحَدُهُما وَرِثَهُ الباقي منهما دونَ عِصْبَتِهِ وأهلِهِ فكانَ الزبيرُ أخا عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ، فَمَكَثوا بذلكَ ما شاءَ اللهُ أنْ يَمْكُثوا حتى نَزَلَتِ الآيةُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ يقولُ: إذ دَعَوْتَ الرجلَ لِغيرِ أبيهِ، وأنت تَرى أنهُ كذلكَ.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يقولُ: لا تَدْعوهُ لِغَيرِ أبيهِ مُتَعَمِّداً؛ فأمّا الخَطأُ فإنَّ اللهَ يقولُ: لا يُؤاخِذُكُمْ بِهِ، ولكنْ ما أرَدْتَ بهِ العَمْدَ، وهو مثلُ الأوّلِ.

وذُكِرَ أنَّ عُمَرَ ﷺ، سَمِعَ رجلاً، يقولُ: اللهمَّ اغْفِرْلي خَطئي، فقالَ لهُ عُمَرُ: اسْتَغْفِرِ اللهَ العَمْدَ، فأمّا الخَطأُ فقد تَجَوَّزَ لكَ عنهُ. وكانَ يقولُ [ﷺ][7]: «ما أخافُ عليكُمُ الخَطأَ، ولكنْ أخافُ العَمْدَ، وما أخافُ عليكُمُ العائلةَ ولكنْ أخافُ عليكُمُ التكاثُرَ، وما أخافُ عليكُمْ أنْ تُزَوِّدوا أعمالَكُمْ، ولكنْ أخافُ عليكمْ أنْ تَسْتَكْثِروها» [بنحوه أحمد ٢/٣٠٨].

وذُكِرَ أنَّ ثلاثةً لا يَمْلِكُ عليها ابْنُ آدمَ: الخطأُ والنِّسيانُ والإسْتِكْراهُ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ مسعودٍ أنهُ قالَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الخَطأُ ههنا هو ما جَرَى على اللسانِ منْ غَيرِ قَصْدٍ، والعَمْدُ ما يَجري على قَصْدٍ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى:][8] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لِما فَعَلوا.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: النَّبِيُّ أولى بهمْ مِنْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي لا يَقْتُلْ بعضُكُمْ بعضاً؛ إذْ لا يَقْتُلُ نفسَهُ [وقولِهِ][9]: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي يُسَلِّمُ بعضُكُمْ على بعضٍ، ليسَ أنهُ يُسَلِّمُ الرجلُ على نفسِهِ، ولكنْ ما ذَكَرْنا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ابن. (٣) في الأصل وم: أو أن يقول. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ.

ثم يَحْتَمِلُ: هو أَوْلَى بهمْ مِنْ أنفسِهِمْ مِنَ الطاعةِ والاحْتِرامِ لهُ والتعظيمِ، أي هو أَوْلَى أنْ يُعَظَّمَ، ويُحْتَرَمَ، ويُطاعَ مِنْ غيرِهِ، أو أنْ يكونَ أَوْلَى في الرحمةِ والشفقةِ لهمْ، أي أرحَمُ بهِمْ، وأشفَقُ مِنْ أنفسِهِمْ، وهو على ما وصَفَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ والرأفةِ حينَ[1] قالَ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وليسَ مِنَ الناسِ [مَنْ][2] يَعِزُّ عليهِ ما يَفْعَلُهُ مِنَ الإثمِ، أو أنْ يجوزَ ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أحَبُّ إليهِمْ مِنْ أنفسِهِمْ وأولادِهِمْ مَحَبَّةَ الاخْتِيارِ والإيثارِ، ليسَ مَحَبَّةَ المَيلِ مِنَ القَلْبِ، لأنَّ مَيلَ القَلْبِ يكونُ بالطبعِ، وذُكِرَ في الخَبَرِ: «ليسَ يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى أكونَ أنا أحَبَّ إليهِ مِنْ نفسِهِ ووَلَدِهِ وأهلِهِ» [البخاري ١٥] أو كلامٌ نَحْوُ هذا. أو أنْ يكونَ أَوْلَى بهمْ في الآخِرَةِ بالشفاعةِ لهمْ، فَينجونَ مِنَ النارِ بهِ لا بأعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ في بعضِ الحروفِ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو أبٌ لهمْ ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وهو حَرْفُ أُبَيٍّ وابْنِ مَسْعودٍ وابْنِ عباسٍ ﷺ قولُهُمْ[3]: وهو أبٌ لهمْ في الرحمةِ والشَّفَقَةِ أو في ما يَلْزَمُ مِنَ الطاعةِ والتعظيمِ والاحْتِرامِ ونَحْوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ في الحُرْمَةِ أي لا يَحِلُّ لهمْ أنْ يَتَزَوَّجوهُنَّ أبداً كالأُمَّهاتِ، ولكنْ يَجِبُ أنْ يكونَ ذلكَ بَعْدَ وفاتِهِ. فأمّا في حياتِهِ، إذا طَلَّقَهُنَّ فيجبُ أنْ يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ لأنهُ إذا قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيةِ [الأحزاب: ٢٨] ولو لم يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ لم يكنْ لِما ذَكَرَ لهنَّ مِنَ التَّمْتيعِ والتَّسْريحِ مَعْنًى.

وهذهِ الحُرْمَةُ يَجِبُ أنْ تكونَ بَعدَ الموتِ، وهي ما قالَ: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [الأحزاب: ٥٣]إنما شَرْطُ هذا بَعْدَهُ لِيَكُنَّ أزواجَهُ في الآخِرَةِ [ويَحْتَمِلُ][4] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي حُرْمَةُ أزواجِهِ مِنْ بَعْدِهِ أبداً، إنما شَرْطُ هذا بَعدَهُ ليكُنَّ أزواجَهُ في الآخِرَةِ، ومَنْزِلَتُهُنَّ[5] كَمَنْزِلَةِ أُمَّهاتِهِمْ يَسْتَوجِبْنَ ذلكَ لِحُرْمَةِ رسولِ اللهِ ومَنْزِلَتِهِ قَبْلَهُمْ.

وأمّا الباطِنِيَّةُ فإنهمْ يقولونَ في قولِهِ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ دلالةُ أنهُ ليسَ يُريدُ أزواجَ النَّبِيِّ.

ألا تَرَى / ٤٢٤ ـ أ/ أنهُ يَحِلُّ للناسِ نِكاحُ أولادِهِنَّ؟ ولو كُنَّ أُمَّهاتٍ لم تَحِلَّ لأنهمْ يَصيرونَ إخْوَةً وأخواتٍ.

فإذا حَلَّ ذلكَ دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، هذا قولُهُمْ.

لكنَّ الجوابَ لذلكَ ما ذَكَرْنا أنهُ جائزٌ أنهُ سَمّاهُنَّ أُمَّهاتٍ، أي مَنْزِلَتُهُنَّ كَمَنْزِلَةِ الأُمَّهاتِ لِحُرْمَةِ رسولِ اللهِ ومَنْزِلَتِهِ. وذلكَ جائزٌ لأنهُ ذَكَرَ الشهداءَ أحياءً عندَهُ، وإنْ كانوا في الحقيقةِ مَوتى لِفَضْلِ الكرامةِ لهمْ والمَنْزِلَةِ عندَ اللهِ.

فَعَلَى ذلكَ ذَكَرَ الأُمَّهاتِ لأزواجِهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حُكْمِ اللهِ كقولِهِ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] أي حُكْمَ اللهِ عليكمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾][6] في ما أُنْزِلَ مِنَ الكِتابِ، وهو الذي [ذَكَرَ على إثْرِهِ[﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾][7] وهو كقولِهِ:][8] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨١] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ المكتوبَ عليهمُ الذي ذَكَرَ على إثْرِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ المَواريثَ في بَدْءِ الأمْرِ لم تَكُنْ تَجْري إلّا في ما بَينَ المؤمنِينَ والمُهاجِرِينَ مِنَ القراباتِ والأرحامِ. فإنْ كانَ مؤمناً، لم يُهاجِرْ، لم يَرِثِ ابْنَهُ ولا أباهُ ولا أخاهُ المُهاجِرَ وسائرَ قراباتِهِ، إذا ماتَ أحدُهما إلّا أنْ يكونا مؤمنَينِ مُهاجِرَينِ. فعندَ ذلكَ يَتَوارثونَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قوله. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: ومنزلتهم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: ذلك. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وكذلك.

فَعلَى ذلكَ التأويلِ يكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ الذينَ لم يُهاجِروا مِنَ المؤمِنينَ أنْ تُوصوا لهمْ شيئاً. فيقولُ قائلُ هذا التأويلِ: إنَّ هذا نُسِخَ بالآيةِ التي ذَكَرَها في سورةِ الأنفالِ، وهو قولُهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية [الآية: ٦] ولم يَذْكُرْ فيهِ الهجرةَ إذا كانوا مسلِمينَ.

وأمّا الكافرُ فإنهُ لا يَرِثُ المُسْلِمَ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكافرَ ولا الكافرُ المُسْلِمَ» [البخاري ٦٧٦٤]، وقالَ: «لا يَتَوارَثُ أهلُ مِلّتَينِ» [الترمذي ٢١٠٨].

وقالَ بعضُهُمْ: تأويلُ قولِهِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ مِنَ الأقربينَ منهمْ، أي أولو الأرحامِ مِنَ المؤمنينَ والمهاجرينَ الأقربَ فالأقربَ منهمْ ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ مِنَ الأبْعَدينَ في المَواريثِ، أيِ الأقْربُ منهُمْ، بَعْضُهُمْ أولَى بِبَعْضٍ مِنَ الأبْعَدِينَ ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ على الأبعدينَ وصيّةً أو شيئاً[1]. فذلكَ مَعْروفٌ. فصارتِ المَواريثُ للقَراباتِ الدنيا[2] مِنَ المؤمنينَ دونَ الأبْعَدِينَ. فتكونُ الآيةُ التي في الأنفالِ وهذهِ سَواءً على هذا التأويلِ بل يكونُ الأقْربُ فالأقْربُ، والأدنَى فالأدنَى أولَى بالمَواريثِ مِنْ غيرِهِمْ.

وبعضُهُمْ يقولُ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ ناسِخَةً لِما كانَ منهمْ مِنَ التَّوارُثِ بالمُؤاخاةِ، لأنَّ النَّبِيَّ كانَ يُؤاخي بينَ رجلَينِ، فإذا ماتَ أحَدُهما وَرِثَهُ الباقي منهما دونَ عَصَبَتِهِ حتى نُسِخَ ذلكَ بالآيةِ التي ذَكَرَ. فَعلَى ذلكَ يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ هو أنْ يَصْنَعوا إلى الذينَ آخَى بينَهُمْ مَعْروفاً.

ثم اخْتُلِفَ في أُولي الأرحامِ المَذْكورينَ في الآيةِ: قالَ بعْضُهُمْ: همُ الذينَ ذَكَرَهُمْ في قولِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١] على آخِرِ ما ذُكِرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لَيسوا هُمْ، وإنّما الذي ذَكَرَ في ذلكَ همُ الذينَ يُبيِّنُ لهمْ حَدَّ مَوارِيثِهِمْ: فأمّا غَيْرُهُمْ فإنما همْ في قولِهِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ فإنما يَرِثُ الأقْرَبُ فالأقْرَبُ منهمْ.

وكذلكَ يقولُ أبو حنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ أُولي الأرحامِ إنما يَرِثُ الأقْرَبُ فالأقْرَبُ منهمْ كالعصَباتِ؛ لأنَّ الابْنَةَ لا شَكَّ أنها أقْربُ مِنِ ابْنِ العَمِّ، ثم يكونُ النصفُ للابْنَةِ والبقيةُ لِابْنِ العَمِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: في اللَّوحِ المَحْفوظِ بَيانُ المؤمِنينَ: بَعْضُهُمْ أولَى بِبَعْضٍ في المَواريثِ مِنَ الذينَ كانوا يَتوارَثونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي في التوراةِ مَكتوباً أنْ يَصْنَعَ بنو إسرائيلَ إلى بَني لاوي بْنِ يَعْقوبَ مَعْروفاً لِيَعودَ الغِنَى على الفَقيرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: خَصَّ هؤلاءِ لأنَّ أهلَ الشَّرْعِ مِنَ الرسُلِ، همْ هؤلاءِ كقولِهِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ الآيةَ: [الشورى: ١٣]. لكنهُ قد ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى ما يَدُلُّ أنَّ غَيرَ هؤلاءِ كانَ لهمْ أيضاً شَرْعٌ كقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ الآية [النساء: ١٦٣].

وجائزٌ أنْ يكونَ تَخصيصُ هؤلاءِ بأخذِ الميثاقِ لأنهمْ همْ أُولو العَزْمِ مِنَ الرسلِ حينَ قالَ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أو أنْ يكونَ لا على التَّخصيصِ لِمَنْ ذَكَرَ، ولكنْ على إرادةِ الكُلِّ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في أخْذِ الميثاقِ: قالَ بعضُهُمْ: أخَذَ ميثاقَهُمْ على أنْ يُبَشِّرَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، يُبَشِّرُ نوحٌ بإبراهيمَ، وإبراهيمُ بموسى، وموسى بِعيسى، وعيسى بمحمدٍ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: أخَذَ ميثاقَهُمْ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وأنْ يَدْعُوا إلى عبادةِ اللهِ تعالى، وأنْ يَنْصَحوا لِقومِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ أخْذِ الميثاقِ منهُمْ لِما ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ أخَذَ منهمُ الميثاقَ في

---

(١) في الأصل وم: شيء. (٢) في الأصل وم: الأدنى.

تبليغ الرسالةِ إلى قومِهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ عن صِدْقِهِمْ أنهمْ قد بلَّغوا ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ لأنَّ تبليغَ الرسالةِ إلى الفراعنةِ منهمْ وأعداءِ اللهِ صَعْبٌ [شديدةٌ مَخاطِرُهُ][1]، فيهِ هَلاكُ النفسِ وفَواتُ الروحِ، وهو ما قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية :[المائدة: ٦٧].

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ الصدقُ، أكْثَرُهُ إنما يَنْفَعُ في الأنباءِ والأخبارِ كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣] وهو ما أخْبَرَهُمْ وأنْبَاهُمْ مِنَ القرآنِ وغيرِهِ، وقولِهِ [2] في آيةٍ أُخْرَى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿صِدْقًا﴾ في نَبَئِهِ ﴿وَعَدْلًا﴾ في حُكْمِهِ.

ثم صِدْقُهُ في النَّبَإِ، وعَدْلُهُ في الحُكْمِ [ما][3] سَمّى القرآنَ مَرَّةً صِدْقاً ومَرَّةً عَدْلاً ومَرَّةً حقاً.

فالحقُّ يَجْمَعُ الأمْرَيْنِ: النَّبَأ والحُكْمَ جميعاً، والصِّدْقُ في النَّبَإِ خاصَّةً، والحُكْمُ في العَدْلِ.

ثم يَحْتَمِلُ سُؤالُهُ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهمُ الرسُلُ، ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: يَسألُهُمْ عن تبليغِ ما أمَرَهُمْ بالتَّبليغِ إلى قومِهِمْ وعن إنباءِ ما ولّاهُمْ مِنَ الأنباءِ أنْ يُنْبِئوا أولئكَ: هل بَلَّغْتُمْ؟ وهل أنْبأتُمْ أولئكَ؟

والثاني: يَسألُهُمْ عن إجابةِ أولئكَ لهمْ: هل أجابوكُمْ إلى ما دَعَوتُمْ؟ لأنَّ منهمْ مَنْ أجابَهُمْ، وصَدَّقَهُمْ، ومنهمْ مَنْ لم يُجِبْ، ولم يُصَدِّقْ، فَيُخْرِجُ السؤالُ عَمَّنْ أجابَ على التقريرِ وعَمَّنْ[4] لم يُجِبْ على التَّنبيهِ والتوبيخِ.

وهو يسألُ الفريقَيْنِ جميعاً: الرسلَ عنِ التبليغِ والمُرْسَلَ إليهِمْ عنِ الإجابةِ كقولِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] واللهُ أعلَمُ.

[[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بِتَرْكِهِمُ الإجابةَ والتَّصديقَ، واللهُ أعلَمُ][6].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اشْكُروا ما أنْعَمَ اللهُ عليكُمْ، وأحْسِنوا صُحْبَةَ نِعَمِهِ في النَّصْرِ لكُمْ والدفعِ عنكُمْ.

ثم الأمْرُ في تَذْكيرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ [فيهِ][7] وجوهٌ مِنَ الحكمةِ والدلالةِ:

أحَدُها: تذكيرٌ لنا في مُقاساةِ أولئكَ السَّلَفِ والصحابةِ[8] وعظيمِ ما امْتُحِنوا في أمْرِ الدينِ [حتى بَلَّغوا الدينَ][9] إلينا لكي لا نُضَيِّعَهُ نحنُ، بلْ يُلْزِمُنا أنْ نَحْفَظَهُ، ونتَمَسَّكَ بهِ، ونتَحَمَّلَ / ٤٢٤ ـ ب/ فيهِ كما تَحَمَّلَ أولئكَ.

والثاني: فيهِ آيةٌ لهمْ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا جميعاً همْ وأعداؤُهُمْ، فجاءَتْهُمُ الريحُ والملائكةُ، فأهْلَكَتْهُمْ دونَ المؤمنينَ. وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَ عادٌ بالدَّبورِ»[البخاري ٣٢٠٥] وذلكَ آيةٌ عظيمةٌ.

والثالثُ: يُذَكِّرُهُمْ ما آتاهُمْ مِنَ الغَوثِ عندَ إياسِهِمْ مِنْ أنفُسِهِمْ وإشرافِهِمْ على الهلاكِ وخُروجِ أنفسِهِمْ مِنْ أيديهِمْ لأنَّ العدوَّ قد أحاطوا بهِمْ. قالَ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وبَلَغَ أمْرُهُمْ وحالُهُمْ ما ذَكَرَ حتى[10] قالَ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ الآية [الأحزاب: ١٠].

[ويَحتَمِلُ][11] أنْ يُذَكِّرَ لِما كانَ منهمْ مِنَ العهدِ والميثاقِ ألّا يُوَلّوا الأدبارَ، ولا يَهْرُبوا كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الآية [الأحزاب:١٥].

يُذَكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ التي كانَتْ عليهِمْ في النصرِ لهمْ على عَدُوِّهِمْ والدفعِ عنهمْ وحالَهُمْ ما ذَكَرَ في الآيةِ.

وذلكَ كانَ يومَ الخَنْدَقِ [إذ تَحَزَّبَ الأعداءُ على][12] المؤمنينَ في ثلاثةِ أمكنةٍ، يُقاتِلونَهُمْ مِنْ كلِّ وجهٍ شَهْراً، فَبَعَثَ اللهُ عليهِمْ بالليلِ ريحاً باردةً، وبعثَ الملائكةَ، فَغَلَبَتْهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: شديد مخاطرة. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ومن. (٥) ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: في الصحابة. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: تخربوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يَذْكُرُ أنهُ لا عن غَفْلَةٍ وسَهْوٍ تَرَكَكُمْ هنالكَ حتى أحاطَ بكمُ العدوُّ، ولكنْ أرادَ أنْ يَمْتَحِنَكُمْ مِحْنَةً عظيمةً، أو يقولُ: إنهُ بَصيرٌ عليمٌ، فَيَجْزيكُمْ جزاءَ عملِكُمْ وصَبْرِكُمْ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قال بعضُهُمْ: مِنْ فوقِ الوادي ومِنْ أسْفَلَ منهُ. وقيلَ: أحاطوا بهمْ مِنَ النواحي جميعاً. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ كنايةً عنِ الخوفِ، أي أُحيطَ بهمْ حتى خافوا على أنفسِهِمُ الهلاكَ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﵄، [أنهُ][1] قالَ: هذا وَصْفُ المُنافقينَ ﴿زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي شَخَصَتْ ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ لِشِدَّةِ خوفِهِمْ كقولِهِ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] وأمثالَ هذا؛ قد وَصَفَهُمْ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ ما وَصَفَ ههنا. وهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا وَصْفُ حالِ المؤمنينَ: شَخَصَتِ الأبصارُ، وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ لمّا اشْتَدَّ بهمُ الخوفُ، لمّا أحاطوا بهمْ مِنْ فَوقِهِمْ ومِنْ أسفَلَ [منهمْ][2].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ على التمثيلِ، أي كادَ يكونُ هكذا، أو جائزٌ أنْ يكونَ على التحقيقِ، وهو[3] أنْ تزولَ عنْ أمكِنَتِها، وتَبْلُغَ[4] ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال بعضُهُمْ: ظَنَّ ناسٌ مِنَ المنافِقينَ ظُنوناً مُخْتَلِفَةً؛ يقولونَ: هَلَكَ محمدٌ وأصحابُهُ ونَحْوَهُ مِنَ الظُّنونِ الفاسدةِ[5] وكقولِهِ: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] ونَحْوَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ الظَّنُّ منَ المؤمنينَ؛ ظَنّوا باللهِ ظُنوناً لِتَقْصيرٍ أو لِتَفْريطٍ كانَ منهمْ نَحْوَ قولِهِ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] وكقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٥].

الآية ١١ وقولُهُ[6] تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بالقِتالِ وأنواعِ الشدائدِ ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ قيلَ: جُهِدوا جَهْداً شديداً.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هما واحدٌ، وهمُ المُنافِقونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المنافقونَ همُ الذينَ أضْمَروا الخِلافَ لهُ، وأظْهَروا الوِفاقَ [على][7] إبانةِ الحقِّ وظهورِهِ ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ همُ الذينَ كانوا مُرْتابِينَ في ذلكَ، لم يَتَبَيَّنْ لهمْ ذلكَ، ولم يَنْجَلِ، قالوا هذا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: الذي وَعَدَ لهمْ فُتوحُ البلدانِ؛ قالوا لمّا أحاطَ بهمْ، أعني بالمؤمنينَ، الكفارُ، قالَ ذلكَ المُنافقونَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ قِيلَ: يَثْرِبُ المدينةُ. ويُقالُ: يا أهلَ يَثْرِبَ: يا أهلَ المدينةِ.

ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، أنهُ قالَ: «مَنْ قالَ للمدينةِ يَثْرِبَ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ ثلاثاً، هي طابَةُ» [ابن عَدِيٍّ في الكامل ٩/ ١٦٥].

ثم قالَ بعضُهُمْ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ إنما قالَهُ أهلُ النِّفاقِ لبعضِهِمْ ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وجهَيْنِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهي. (٤) في الأصل وم: بلغت. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: السوء. (٦) في الأصل وم: ثم قال. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُهما: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مِنَ الفتحِ والنَّصرِ ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾.

والثاني: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ لِما يَقَعُ عندَهُمْ أنهمْ يَصِلونَ إلى ما كانوا يَطْمَعونَ، ويَأمُلونَ، لأنهمْ كانوا يَخْرُجونَ رَغْبَةً في الأموالِ وطَمَعاً فيها، وهو ما وصَفَهُمْ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا القولُ مِنَ المؤمنينَ لأهلِ النِّفاقِ. فإنْ كانَ مِنَ المؤمنينَ لأولئكَ فالوجهُ فيهِ أنهمْ أرادوا أنْ يَطْرُدوهُمْ لِفَشَلِهِمْ وجُبْنِهِمْ لئلّا يَهْزِموا جنودَ المُسْلِمينَ بانهزامِهِمْ لأنهمْ قومٌ هَمُّهُمُ الانهزامُ، فإذا انْهَزَموا همُ انْهَزَمَ غيرُهُمْ. فالمَعْنَى، إذا كانَ مِنَ المؤمنينَ لهمْ، غيرُ المَعْنَى، إذا كانَ [مِنْ][1] أهلِ النِّفاقِ ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف ٦٧] واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ بالرجوعِ إلى المدينةِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ خاليةٌ مِنَ الناسِ، ليسَ فيها أحَدٌ، فنَخافُ السَّرَقَ عليها والأخذَ والمُكابَرَةَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا أرادوا بالعَورَةِ دخولَ العدوِّ عليها إذا كانوا في الجُنْدِ[2] أي يدخُلُ علينا مَكروهٌ ممّا[3] يُحْزِنُنا، ويَهُمُّنا، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، فأكْذَبَهُمُ اللهُ في قولِهِمْ، وقالَ: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بلِ اللهُ يَحْفَظُها على ما وَعَدَ حتى لا يَدْخُلَ عليهمْ مكروهٌ ممّا[4] يَخافونَ، ولا يُصيبُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يُريدونَ ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ مِنَ القِتالِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: أي لو [دَخَلَ الكُفّارُ][5] عليهمْ مِنْ أطرافِ المدينةِ ونَواحيها، ثم دَعَوهُمْ[6] إلى الشِّرْكِ لَأجابوهُمْ ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي لم يَمْتَنِعوا عنْ إجابَتِهِمْ، بل لأجابوهمْ بهِ كما دُعُوا.

[والثاني][7]: أنهمْ لو كانوا في بيوتِهِمْ، فَدَخَلوا عليهمْ مِنْ نَواحيها، ثم سُئلوا الأموالَ وما تَحْويهِ أيديهمْ لَأتَوها. أي أعْطَوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ يُخْبِرُ عنْ نِفاقِهِمْ وخِلافِهِمْ لهُ في السِّرِّ أنهمْ يُعْطُونَ لأولئكَ ما يُريدونَ مِنَ الأموالِ أو الدينِ، ويُوافِقونَهُمْ، ولا يُوافِقونَكُمُ البَتَّةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ أناسٌ قد غابوا عنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ وما أعْطَى اللهُ أصحابَ بَدْرٍ مِنَ الفَضيلةِ والكَرامَةِ، فقالوا: لَئِنْ شَهِدْنا قِتالاً لَنُقاتِلَنَّ، فَساقَ اللهُ ذلكَ حتى كانَ في ناحيةِ المدينةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ / ٤٢٥ ـ أ/ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ وذلكَ أنهمْ كانوا عاهدوا الرسولَ على عَهْدِهِمْ بمكةَ على العَقَبَةِ يَميناً، واشْتَرَطَ عليهمْ لِرَبِّهِ ولنفسِهِ.

أمّا لِرَبِّهِ فأنْ[8] يَعْبُدوهُ، وألّا يُشْرِكوا بهِ شيئاً. واشْتَرَطَ لنفسِهِ أنْ يَنصروهُ، ويُعَزِّروهُ، ويُعينوهُ، وأنْ يَمْنَعوهُ ممّا[9] يَمْنَعونَ منهُ أنفسَهُمْ ونساءَهُمْ وأولادَهُمْ.

فقالوا: فإذا فَعَلْنا ذلكَ فما لَنا يا نَبِيَّ اللهِ؟ قالَ: لكمُ النَّصْرُ في الدنيا، والجَنَّةُ في الآخِرَةِ. قالوا: قد فَعَلْنا.

فذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ ليلةَ العَقَبَةِ حينَ شَرَطوا النَّبِيَّ المَنَعَةَ ألّا يُوَلّوا الأدبارَ مُنْهَزِمينَ ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي يُسْأَلُ مَنْ نَقَضَ العَهْدَ ومَنْ وَفاهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ مُجْزِياً نَقْضاً أو وفاءً، يُجْزَونَ على وفاءِ العَهْدِ ونَقْضِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: العورة. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: لما. (٥) في الأصل وم: دخلوا. (٦) في الأصل وم: دعوا. (٧) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ما.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ قالَ أهلُ التأويل: إنْ قَضَىَ عليكُمُ المَوتَ أو القَتْلَ فلنْ يَنفَعَكُمُ الفِرارُ. وقالَ بعضُهُمْ: إنْ جَعَلَ القضاءُ آجالَكُمُ المَوتَ أو القَتْلَ فلنْ[1] يَنفَعَكُمُ الفِرارُ، بل يَنقضي.

وأصْلُهُ: إنْ كانَ المَكتوبُ عليكُمُ [الموتُ][2] أوِ القَتْلُ فلنْ[3] يَنفَعَكُمُ الفرارُ منهُ، بل يأتي، لا مَحالةَ، كقولِهِ: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤] أي لا مَحالةَ، والمَكتوبُ عليهمُ القَتْلُ، وإنْ كانوا في بيوتِهِمْ لَبرزوا فيُقْتَلونَ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الدنيا قليلٌ إلى آجالِكُمْ. وجائزٌ أنْ يكونَ معناهُ: ولَئِنْ نَفَعَكُمُ الفِرارُ عنهُ فلا تُمَتَّعونَ إلّا قليلاً كقولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ و٢٠٦].

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] مَنْ [تَبنَّيتُموهُمْ، واتَّخذْتُموهُمْ][5] وَلَداً، ما جَعَلَهُمْ بِمَنزلةِ [وَلَدِ][6] الصُّلْبِ، وكانوا يُوَرِّثونَ مَنِ ادَّعَوا ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ إنَّ قولَكُمْ على التشبيهِ والمَجازِ، ليسَ على التحقيقِ، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤]. وقولُهُ: ﴿أَقْسَطُ﴾ [الأحزاب: ٥] أعدلُ [وقولُهُ][7]: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عَدَلَتْ ومالَتْ: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] أي كادَتْ تَبلُغُ الحُلقومَ مِنَ الخوفِ، والحَناجِرُ جماعةُ الحَنجَرةِ، وهي المَذْبَحُ. وقولُهُ: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] شُدِّدَ عليهِمْ، وهُوِّلوا، والزلزالُ: الشدائدُ، وأصلُها مِنَ التحريكِ [وقولُهُ][8]: ﴿ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤] اللائي: ما لها واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ ذَكَرَ هذا على إثْرِ قولِهِ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ، وإنْ فَرَرتُمْ مِنَ الموتِ أو القَتْلِ، فإنَّ اللهَ، إنْ أرادَ بكُمْ سُوءاً أو هَلاكاً، لا يَمْلِكُ أحدٌ دَفْعَهُ عنكمْ، أو إنْ أرادَ بكُمْ رَحمةً ونَجاةً وخيراً، فلا يَمْلِكُ أحدٌ مَنْعَهُ عنكُمْ. وقد تَعلَمونَ أنكُمْ لا تَجِدونَ مِنْ دونِ اللهِ وَلِيّاً يَنفَعُكُمْ ولا نَصيراً يَنصُرُكُمْ، ويَمْنَعُكُمْ عن حُلولِ ذلكَ عليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ هُمُ المانِعونَ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هُمُ اليهودُ، أرسَلوا إلى المُنافقينَ، وقالوا: مَنْ ذا الذي يَحمِلُكُمْ على قَتْلِ أنفسِكُمْ على أيدي أبي سُفيانَ ومَنْ مَعَهُ مِنْ أصحابِهِ؟ فإنهمْ إنْ قَدَروا عليكُمْ هذهِ المَرَّةَ ما استَبْقَوا منكُمْ أحداً. فإنّا نُشْفِقُ عليكُمْ، فإنما أنتمْ إخوانُنا، ونَحنُ جيرانُكُمْ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ المُنافقونَ، عَوَّقَ بعضُهُمْ بعضاً، ومَنَعَ عنِ الخُروجِ مَعَ رسولِ اللهِ إلى قِتالِ العَدُوِّ. وفيهِ أمرانِ:

أحَدُهما: دلالةٌ على إثباتِ الرسالةِ لأنهمْ كانوا، يُسِرّونَ هذا، ويُخفونَهُ[9] في ما بَينَهُمْ، ثم آخَذَهُمْ بذلكَ [لِيَعلَموا أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ][10] باللهِ تعالى.

والثاني: أنْ يكونوا أبداً على حَذَرٍ ممّا يُضمِرونَ مِنَ الخِلافِ كقولِهِ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ الآية [التوبة: ٦٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يَأتونَ القِتالَ والحَرْبَ إلّا مُراءاةً وسَمْعَةً.

هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشبِهُ أنْ يُريدَ بالقَليلِ أنهمْ لا يَأتونَ أنّيَ مَنْ يُريدُ القِتالَ والقِيامَ [معهمْ][11]، ولكنْ مُراءاةً وسَمْعَةً وإظهاراً للوِفاقِ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: أي بُخلاءَ على الإنفاقِ عليكُمْ، أي لا يُنفِقونَ عليكُمْ ولو[12] على سَبيلِ الخَيرِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: تبنيتموه واتخذتموه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويخفون. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ولا.

وقالَ بعضُهُم: الشُّحُّ أيضاً، هو الحِرْصُ؛ يقولُ: ﴿أَشِحَّةً﴾ أي حِراصاً على قِسْمَةِ الغَنيمةِ؛ يُخْبِرُ عن حِرْصِهِمْ في الدنيا ورُكونِهِمْ إليها ومَيْلِهِمْ فيها.

ثم أخبَرَ عنْ خَنْسِهِمْ وفَشَلِهِمْ وشِدَّةِ خوفِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ يُخْبِرُ أنهمْ لِخَنْسِهِمْ وفَشَلِهِمْ يَصيرونَ ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يُخْبِرُ عنْ شِدَّةِ حِرْصِهِمْ في قِسْمَةِ الغَنيمَةِ ورَغْبَتِهِمْ فيها أنهمْ أشَحُّ قومٍ وأسْوَؤُهُمْ مُقاسَمَةً؛ يقولونَ: أعْطوا، ما أعْطونا، قد شَهِدْنا مَعَكُمْ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١] ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا قولُهُمْ: أي إنّا أشَحُّ منكُمْ على رسولِ اللهِ وعلى دينِهِ، وأضَنُّ منكُمْ على الخَيرِ، أي نحنُ أحْرَصُ عليهِ منكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي حِراصاً على الغَنيمةِ والنَّيلِ منها.

ثم أخبَرَ عنهمْ وعنْ خِلافِهِمْ لهُ حينَ[1] قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي عَمِلوها في الظاهِرِ ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي صُنْعُهُمُ الذي صَنَعوا على اللهِ يَسيراً أي لا يَضُرُّهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إحباطُ[2] أعمالِهِمْ وتَغذيَتُهُ إيّاهُمْ معَ كَثْرَةِ أتباعِهِمْ وأعوانِهِمْ على اللهِ [يَسيرٌ أي لا][3] يَشْتَدُّ عليهِ، ولا يَصْعُبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي يَحْسَبُ هؤلاءِ المُنافِقونَ أنَّ الأحزابَ لم يَذهبوا مِنَ الفَرَقِ والجُبْنِ والفَشَلِ الذي فيهِمْ يومَ الخَنْدَقِ ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي يُقْبِلِ الأحزابُ ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ﴾ أي بألسِنَتِهِمْ كانوا بِمَنْزِلَةِ البَداءِ وإنهمْ تَرَكوا أوطانَهُمْ وديارَهُمْ ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾.

كانَ هَمُّهُمُ[4] التَّخَلُّفَ والفِرارَ مِنَ القِتالِ وطَلَبَ أخبارِ المؤمنينَ أنهمْ ما فُعِلَ بهمْ نَحْوَ ما قالَ: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦ و٥٧].

هكذا كانَتْ عادَتُهُمْ، ثم ابْتَلاهُمُ اللهُ بِما كانوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ للمؤمنينَ، ويُضْمِرونَ الخِلافَ لهمْ والعداوةَ بِفَضْلِ فَشَلٍ وجُبْنٍ، ما لم يكُنْ ذلكَ في غَيرِهِمْ.

ففي ذلكَ تَحْذيرٌ للمؤمنينَ وزَجْرٌ عنْ مِثْلِ هذا الصَّنيعِ ومِثْلِ هذهِ المُعامَلَةِ لِئَلّا يُبْتَلَوا بِمِثْلِ ما ابْتُلِيَ أولئكَ.

وفيهِ أنهُ يُعامِلُ بعضُهُمْ بَعْضاً على الظاهِرِ الذي ظَهَرَ دونَ حقيقةِ ما يكونُ. وعلى ذلكَ يَجْري الحُكْمُ على ما عامَلَ رسولُ اللهِ وأصحابُهُ[5] أهلَ النِّفاقِ. وحُكْمُهُ على ما أظْهَروا دونَ ما أضْمَروا في الأنْكِحةِ والصِّهْرِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأحكامِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال بعضُهُمْ: ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [أي إلا][6] في ما يَدفعونَ عنْ أنفسِهِمْ لو قَصَدوا. فأمّا الدَّفْعُ عنِ المؤمنينَ ودينِهِمْ فلا.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بالقليلِ [ألّا يُقاتِلوا][7] البَتَّةَ حقيقةَ القِتالِ، وهو ما ذَكَرَ عنهُمْ حينَ قالَ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] أي فساداً في أمْرِكُمْ، واللهُ أعلَمُ. / ٤٢٥ ـ ب/

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ حَيثُما[8] كانَ يُباشِرُ القِتالَ بنفسِهِ، فَباشِروا معهُ القِتالَ [فَمَنْ باشَرَ مَعَهُ القِتالَ][9] آساهُ بأُسْوَةٍ حَسَنَةٍ، ومَنْ لم يَفْعَلْ فلم يُؤاسِهِ. وابْنُ عباسٍ يقولُ: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي سُنَّةٌ صالحةٌ أو نَحْوُهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حبط. (٣) من م، في الأصل: يسيرا الا. (٤) في الأصل وم: همتهم. (٥) من م، في الأصل: أصحاب. (٦) من م، في الأصل: أي إلا قليلا أي. (٧) في الأصل وم: أي لا يقاتلون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

مِثْلُ هذا إنما يُذْكَرُ عنْ زَلّاتٍ تكونُ إمّا مِنَ المنافِقينَ وإمّا[1] مِنَ المؤمنينَ؛ فيقولُ: لكمْ في التَّأسّي برسولِ اللهِ الاقْتِداءُ والقُدْوَةُ بهِ. فهوَ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي لقد كانَ لكمْ في رسولِ اللهِ قبلَ أنْ يُبْعَثَ رسولاً وقَبْلَ أنْ يُوحَى إليهِ في ما عَرَفْتُموهُ مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ وكَرَمِهِ وشَرَفِهِ وأمانَتِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. فكيفَ تركْتُمُ اتّباعَهُ إذْ[2] بُعِثَ رسولاً؟

الثاني: لقد كانَ لكمْ، أي صارَ لكمْ في رسولِ اللهِ إذْ[3] بُعِثَ رسولاً أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في ما أُنْزِلَ إليهِ، وأُوحِيَ إليهِ، وفي ما شاهَدْتُموهُ مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ وكَرَمِهِ. فالواجبُ عليكم أنْ تتَأسَّوا بهِ.

والثالثُ: لقد كانَ لكمْ بالمؤمنينَ أُسْوَةٌ باسْتِوائِهِمْ لوِ اتَّبَعْتُمْ في ما شَرَّعَ لكُمْ رسولُ اللهِ، وسَنَّ، والأُسْوَةُ هي الاسْتِواءُ كقولِ الناسِ: فلانٌ أُسْوَةُ غُرَمائِهِ، أي يكونُ المالُ بينَهُمْ على الاسْتِواءِ. هذا واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلَ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تكونُ في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ لِمَنْ خافَ اللهَ وآمَنَ باليومِ الآخِرِ وبِجَزاءِ الأعمالِ. فأمّا المُنافِقُ والذي لا يُؤمِنُ بالبعثِ فلا تكونُ فيه أُسْوَةٌ لهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي لقد كانَ لكمْ أُسْوَةٌ حسنةٌ ولِمَنْ كانَ يَرْجو اللهَ واليومَ الآخِرَ، وأنْ يكونَ: لكمْ في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حسنةٌ وفي مَنْ كانَ يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ، واللهُ اعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذِكْرُ اللهِ يَحْتَمِلُ في نِعْمَتِهِ وإحسانِهِ؛ يَذْكُرُهُ بالشكرِ لهُ وحُسْنِ الثناءِ، أو يَذْكُرُ سلطانَهُ ومُلْكَهُ أو جلالَهُ وعظَمَتَهُ وكِبْرياءَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ حينَ[4] أخبرَهُمْ أنكُمْ سَتَلْقَونَ كذا في قولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قالوا لمّا عايَنوا ما وَعَدَلهمْ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ في ما أخبَرَنا مِنَ الوحْيِ قَبْلَ أنْ يكونَ وقبْلَ أنْ نَلْقاهُ ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [أي وما زادَهُمْ][5] ما رَأَوا، وعايَنوا، في ما وُعِدُوا، وأُخْبِروا[6] إلّا إيماناً وتَصْديقاً لرسولِ اللهِ ﷺ في وَعْدِهِ وخَبَرِهِ.

وقالَ قائلونَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد وَعَدَ لهمْ، وأخبَرَ أنَّ يومَ الخَنْدَقِ يكونُ مِنَ الأحزابِ كذا والجنودِ كذا، وأنكُمْ سَتَلْقَونَ يومئذٍ كذا. فلّما رَأَوا ذلكَ، وعايَنوهُ، قالوا عندَ ذلكَ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ وتصديقاً لرسولِ اللهِ لأنَّ ذلكَ آيةٌ وحُجَّةٌ لرسالتِهِ، فهو يزيدُهُمْ تَصْديقاً لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي تَسْليماً لأمرِ اللهِ وتفويضاً له. وقيلَ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ بما أصابَهُمْ يومَ الخندقِ ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ وتصديقاً إلى تَصْديقِهِمُ الأوّلِ ويَقيناً إلى يَقينِهِمُ الأوَّلِ ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمرِ اللهِ ذلكَ لأنَّ الأمرَ كانَ قضاءً، عليهِ[7] أنْ يُصيبَهُمْ. فَسَلَّموا للهِ أمرَهُ، وصَبَروا عليهِ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذينَ همْ عندَكُمْ مؤمنونَ ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ ورجالٌ [لم يَصْدُقوا][8] وهمُ المُنافقونَ لأنَّ ظاهرَ هذا الكلامِ يَدُلُّ على أنَّ مِنَ المؤمنينَ الذينَ همْ في الظاهِرِ عندَهُمْ مؤمنونَ لم يَصْدُقوا فأمّا مَنْ كانَ في الحقيقةِ مؤمناً فقد صَدَقَ عَهْدَهُ.

والثاني: ذَكَرَ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خَصَّ بَعضَ المؤمنينَ بِصِدْقِ ما عاهَدوا، وهُمُ الذينَ خَرَجوا لذلكَ، لم يكُنْ بهمْ عُذْرٌ، فَوَفَوا ذلكَ العهدَ، وتَخَلَّفَ بعضٌ مِنَ المؤمنينَ لِلعُذْرِ، فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ وفاءُ ذلكَ العَهْدِ له[9] وصِدْقُهُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) و(٣) في الأصل وم: إذا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أخبر.
(٧) في الأصل وم: عليهم. (٨) من م، في الأصل: يصدقون. (٩) في الأصل وم: لهم.

وكذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي وَفى بِعَهْدِهِ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الوفاءَ أي يرتَفِعُ عنهُ][1] العُذْرُ، فَفي ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ وفاءَهُ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي هَلَكَ عليهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ذلكَ أي على شَرَفِ الهلاكِ.

[وقولُهُ تعالى][2] ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ هذا يُقَوِّي التأويلَ الذي ذَكَرْنا: أخبَرَ في قولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أنَّ الذينَ خَلَّفَهُمُ العُذْرُ، فلم يَفُوا عَهْدَهُ، والذينَ، لا عُذْرَ بهِمْ، فَخَرَجوا، فَوَفَوا كُلُّهُمْ، لم يُبَدِّلوا عَهْدَ اللهِ تَبْديلاً لأنهُ إنما خَلَّفَهُم العُذْرُ، فلم يَفُوا.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ على ما وَفَوا ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ مِنَ المُنافقينَ مَنْ قد يتوبُ حينَ[3] قالَ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي[4] يُعَذِّبُ الذي ماتَ على نِفاقِهِ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لم يَزَلْ غفوراً رحيماً ﴿رَّحِيمًا﴾ حينَ رَحِمَهُمْ، ولم يَأخُذْهُمْ وقتَ ارْتِكابِهِمُ الجُرْمَ، ولكنْ أمْهَلَهُمْ، واللهُ اعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ أي رَدَّ كُفّارَ مكةَ يومَ الخَنْدَقِ ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي غَنيمةً، أي رَدَّهُمْ بِغَيْظِهِمْ، لم يُصيبوا شيئاً مِنَ الغَنيمةِ.

فإنْ كانَ المرادُ مِنَ الخَيرِ الغنيمةَ فجائزٌ أنْ يُسْتَدَلَّ [بالآيةِ][6] على تَمَلُّكِ أهلِ الحربِ أموالَ المسلمينَ إذا أحْرَزوها حينَ[7] قالَ: ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي مالاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي سُروراً بما كانوا يَأمُلونَ، ويَطْمَعونَ هلاكَ المؤمنين على أيديهِمْ لمّا أحاطوا بهِمْ، وضَيَّقوا عليهِمُ الأمْرَ حتى احْتاجوا إلى الخَنْدَقِ، فكانوا في أيديهِمْ. يقولُ: إنهمْ لم يَنالوا ذلكَ السرورَ الذي كانوا يأمُلونَ، ويَرْجونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ حينَ[8] بَعَثَ عليهِمُ الريحَ، وسَلَّطَ عليهِمُ الملائكةَ حتى هَزَمُوهُمْ، حتى كُفُّوا القتالَ والحَرْبَ مَعَهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ لأنهُ قَوِيٌّ بذاتِهِ، لا يَلْحَقُهُ ذُلٌّ. وإنْ لَحِقَ أولياءَهُ الذُّلُّ والضَّعفُ، فَلَيس كَمُلوكِ الأرضِ إذا ذهبَ أصحابُهُمْ، أو دَخَلَ فيهِمْ ذُلٌّ وضَعُفَ ذلَّ مَلِكُهُمْ لأنهُ عزيزٌ بِجُنْدِهِ وحَشَمِهِ فأمّا اللهُ سُبحانهُ فَقَوِيٌّ بذاتِهِ لا يَلْحَقُهُ ذلٌّ ولا ضَعْفٌ بذهابِ أوليائِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] كانَ رجالٌ فاتَهُمْ يومُ بدرٍ، فقالوا: لئنْ حَضَرْنا قتالاً لَنَفْعَلَنَّ، ولَنَفْعَلَنَّ. فلما كانَ يومُ الأحزابِ قاتلوا. فذلكَ قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي ماتَ على ما شاهدَ اللهُ عليهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ يوماً آخَرَ، يكونُ فيهِ قِتالٌ، فَيُقاتِلُ على ما عاهَدَ اللهُ عليهِ ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ومنهُمْ مَنْ بَدَّلَ، فَيَرْجِعُ ذلكَ على المُنافقينَ الذينَ ذَكَرْنا بَدْءاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] أي خاليةٌ. وأصْلُ العَورةِ ما ذَهَبَ عنه السَّتْرُ والحِفْظُ. فكانَ الرجالُ /٤٢٦ ـ أ/ سَتْراً وحِفْظاً للبيوتِ. فإذا ذهبوا اعْوَرَّتِ البيوتُ. تقولُ العربُ: اعْوَرَّ المَنْزِلُ، أي ذَهَبَ سَتْرُهُ، وسَقَطَ جدارُهُ،

---

(١) في الأصل وم: بالوفاء أن يرتفع عند. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم.

واعورُّ الفارسُ إذا بدا فيهِ موضعُ خَلَلٍ لِلضَّرْبِ بالسيفِ. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأنَّ اللهَ حافِظُها، ولكنْ يُريدونَ الفِرارَ. وقولُهُ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي مِنْ جوانِبِها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الكُفْرَ لَآتَوها[١] أي أعْطَوها مَنْ أرادَها[٢] ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي بالمدينةِ. ومَنْ قرَأها ﴿لَأَتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤] بِغَيرِ مَدٍّ أرادَ لصاروا إليها.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُمْ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ مِنْ ناحيةِ العَدُوِّ، والعَورةُ الموضعُ الذي يُخافُ منهُ. وقولُهُ: ﴿أَقْطَارِهَا﴾ أي نَواحيها، الواحدُ قُطْرٌ ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي عُرِضَتْ عليهِمْ، وهو الكُفْرُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] يقولُ: آذَوكُمْ بالكلامِ. يُقالُ: خطيبٌ سَليقٌ وسَلّاقٌ. وفيهِ لغةٌ أخرى: صَلَقوكُمْ بالصادِ[٣]، وهو الضربُ. وأبو عوسَجَةَ يقولُ قريباً منهُ: سَلَقوكُمْ أي كلَّموكُمْ، فَضربوكُمْ بالسنةٍ حدادٍ أي طِوالٍ. السَّلْقُ الضَّرْبُ، والحاطبُ السَّلّاقُ، والمِسْلاقُ مِنْ هذا، وهو طولُ اللسانِ والجراءةُ على الكلامِ وقولُهُ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣] بِنَصْبِ[٤] الميمِ لا يكونُ إلّا مِنَ القيامِ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ برفعِ الميمِ يكونُ مِنَ الإقامةِ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ. وأبو عُبَيدَةَ يقولُ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي ليسَ مُقامٌ لكمْ تقومونَ فيهِ ﴿لَا مُقَامَ﴾ أي لا إقامةَ لكمْ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: المَقامَةُ المَجْلِسُ، ومَقاماتٌ جمعُ المَقامِ مَوضعُ القَدَمَينِ، والمُقامُ الموضعُ الذي يُقيمُ فيه الرجلُ. وقالَ: ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ قالَ: المُتَعوِّقُ المُحتَبَسُ، والمُعَوِّقُ الذي يُعَوِّقُ غَيرَهُ، أي يُحَبِّسُ. وقولُهُ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي حِراصاً على مانالكُمْ مِنَ الشَّرِّ. الواحدُ شحيحٌ. يُقالُ: شَحَّ يَشُحُّ شَحّاً، فهو شحيحٌ، أي حَرِصَ يَحْرَصُ حِرْصاً، فهو حريصٌ.

وقالَ غَيرُهُ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بُخَلاءَ، لا يُنْفِقونَ عليكمْ أو في سَبيلِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ [الأحزاب: ٢٠] مِنْ شِدَّةِ الفَرَقِ [فهمْ هؤلاءِ المُعَوِّقونَ اليهودُ والمُنافِقونَ ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ والاحزابُ: همُ الفِرَقُ][٥] أعداءُ رسولِ اللهِ وأصحابِهِ: ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ يقولُ: خارجونَ في الأعرابِ مِنَ الرَّهبةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ يَسألونَ عَنْ خَبَرِ المؤمنينَ ساعةً بَعدَ ساعةٍ جَزَعاً ورَهبةً. يقولُ اللهُ للمؤمنينَ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ أي مَعَكُمْ عندَ القِتالِ، هؤلاءِ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ: ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رَمْياً بالحجارةِ مِنْ ضَعْفِهِمْ وفَرَقِهِمْ، وما ذَكَرْنا دَفْعاً عَنْ أنفسِهِمْ، وأمّا غَيرُهُ فلا.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ اليهودَ يَهودَ بَني قُرَيظةَ ظاهَروا أبا سُفيانَ وأصحابَهُ على رسولِ اللهِ وعلى المؤمنينَ، ونَقَضوا العهدَ الذي كانَ بينَهُمْ وبَينَهُ. فلَمّا انْهَزَمَ المُشرِكونَ تَحَصَّنَ بنوقُرَيظةَ في حصونِهِمْ، ورَجَعَ النَّبيُّ إلى المدينةِ، فجاءَهُ جبريلُ، فقالَ لهُ: يا محمدُ، واللهِ ما وَضَعَ أهلُ السماءِ أسْلِحَتَهُمْ، وقد وَضَعْتُمْ انتمْ أسلِحَتَكُمْ، اخرُجْ على بَني قُرَيظَةَ، فقالَ لهُ النَّبيُّ: فكيفَ أصنَعُ بهِمْ، وهمْ في حصونِهِمْ[٦]؟ قالَ: أخرُجْ إليهِمْ، فو اللهِ لَأدُقَّنَّهُم بالخيلِ والرجالِ كما تَدُقُّ البَيضَةَ على الصَّفا، ولَأُخرِجَنَّهُمْ مِنْ حصونِهِمْ[٧]. فنادَى رسولُ اللهِ في الناسِ، وأمَرَ بالخُروجِ على بَني قُرَيظَةَ، فَخرجوا، فَحاصروهُمْ كذا كذا ليلةً حتى صالَحَهُمْ على حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ، فَنَزَلوا على حُكْمِهِ.

فَحَكَمَ سَعْدٌ أنْ يَقْتُلَ مُقاتِلَتَهُمْ، ويَسْبِيَ ذَرارِيَّهُمْ ونساءَهُمْ. فقيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ قالَ يومئذٍ: «يا سَعْدُ لقد حَكَمْتَ فيهمْ بِحُكْمِ اللهِ» [البخاري: ٣٠٤٣]. فأُخرِجَتِ المُقاتِلَةُ، فَقُتِلوا، وسَبَوا ذَرارِيَّهُمْ ونساءَهُمْ، فَقَسَّمَ أرضَهُمْ بينَ المُهاجِرينَ.

فقالَ قومُهُ والأنصارُ: آثَرْتَ المُهاجِرينَ بالعُقارِ دونَنا، فقالَ: إنكمْ ذوو عُقارٍ، وإنَّ القومَ لا عُقارَ لهمْ، أو كلاماً نحوَ هذا.

فذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني الذينَ ظاهَروا أبا سُفيانَ والمُشْرِكينَ جميعاً على رسولِ اللهِ

---

(١) في الأصل وم: ﴿لَآتَوْهَا﴾ انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١١٦. (٢) في الأصل وم: أراده. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١١٧. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١١٤. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حصنهم. (٧) في الأصل وم: حصنهم.

وأصحابِهِ: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي مِنْ حصونِهِمْ: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهُمُ المُقاتِلَةُ: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهمُ النساءُ والذَّراري.

الآية ٢٧ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أي لم تَملِكوها. اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي أرضُ مكةَ. وقالَ بعضُهُمْ: هي أرضُ الشامِ وقُراها. وقالَ بعضُهُمْ: هي أرضُ خَيْبَرَ، أي سَيُوَرِّثُكُمُ اللهُ إياها أيضاً. فأمّا أرضُ مكةَ فقد فَتَحَها، وتَرَكَها في أيدي أهلِها. وكذلكَ بلادُ الشامِ وقُراها.

وعنِ الحسنِ: هي أرضُ الرومِ وفارسَ وما فَتَحَ اللهُ عليهِمْ. وأمّا خَيْبَرُ فقد فَتَحَها، وقَسَّمَها[2] بينَ ما ذَكَرْنا، وجعَلَها فَيئاً.

فهو أشبهُ مِنْ غَيرِهِ؛ ففيهِ أنَّ مَنْ يَخلُفُ على[3] مُلْكِ غَيرِهِ وَقْفاً[4]، مَلَكَهُ الآخرُ، وانْتَقَلَ إليهِ، يُسَمّى وارثاً بموتٍ أو بِغَيرِهِ حينَ قالَ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ الآية، وكذلكَ ما قالَ: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤]. إلى كذا، وقولُهُ: ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١١] أي[5] يَبْقونَ فيهِ، ونَحْوُهُ، وكقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]أي يَبْقى مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، أي لا يُنازَعُ فيهِ، وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ [مريم: ٤٠] أي نَبْقى فيها، والخلائقُ يَفْنونَ.

ثم الفائدةُ في ذِكْرِ هذا وأمثالِهِ لنا، إذْ هُمْ قد شاهَدوها، وعايَنوها، تُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: تعريفٌ للآخِرِ هذهِ الأمّةَ أنّ أوائِلَهُمْ [قاسَوا ما قاسَوا، وتَحَمَّلوا][6] ما تَحَمَّلوا مِنَ الشدائدِ والبلايا في أمْرِ هذا الدينِ حتى بَلَغَ هذا المَبْلَغَ، فَنَجْتَهِدُ نحنُ كما اجْتَهَدَ أولئكَ في حِفْظِ هذا الدينِ وفي أمْرِهِ.

والثاني: أمْرُهُمْ بالتّأهُّبِ لِلْعَدُوِّ[7] حتى أُمِروا بالخَنْدَقِ والتَّحَصُّنِ بأشياءَ، ثم جاءَهُمُ الغَوثُ مِنَ اللهِ بِغَيرِ الذي أُمِروا لِيكونوا أبداً مُتَأهِّبينَ مُسْتَعِدّينَ لذلكَ، ولا يَرْجونَ النَّصْرَ والظَّفَرَ مِنْ ذلكَ [إلا][8] بِفَضْلِ اللهِ. ونَصرَهُ على ما أخْبَرَهُ: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ الآية [التوبة: ٢٥].

والثالثُ: ألا يُؤْيِسَهُمْ خُروجُ أنفُسِهِمْ مِنْ إيذائِهِمْ وإحاطةِ العدوِّ بهمْ وكونُهُمْ في أيديهِمْ مِنْ روحِ اللهِ ورَحْمَتِهِ وغَوثِهِ إيّاهُمْ، لأنَّ الخَوفَ بَلَغَ بهمُ المَبْلَغَ الذي ذَكَرَ حينَ قالَ: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ و١١].

وفيهِ دلالةٌ لإثباتِ الرسالةِ لِرَسولِ اللهِ لأنهُ وَعَدَهُمُ النَّصْرَ، فكانَ على ما وَعَدَ لِيَعْرِفوا صدقَهُ[9] في كلِّ ما يُخْبِرُ، ويَعِدُ.

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أرادَ مِنْ فَتْحٍ أو نصرٍ أو غيرِهِ ﴿قَدِيرًا﴾.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أي قُتِلَ، وقَضى أجَلَهُ. وأصلُ النَّحْبِ النَّذْرُ. كانَ قومٌ[11] نَذَروا، إنْ لَقُوا العدوَّ[12]، أنْ يُقاتِلوا حتى يُقْتَلوا أو يَفْتَحَ اللهُ، فَقُتِلوا.

وقولُهُ: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦] حُصونِهِمْ. وأصلُ الصَّياصي: قُرونُ البقرِ لأنها تَمْتَنِعُ بها، وتدفعُ عنْ أنفسِها. فقيلَ للحصونِ: صَياصٍ لأنها تَمْنَعُ، والواحدةُ الصِّيصِيَةُ، وصِيصِيَةُ الديكِ عُرْفُهُ، والصِّيصِيَةُ خُفٌّ صغيرٌ يحوكُ به الحائكُ، وجَمْعُ ذلكَ كلِّهِ صَياصٍ، والأحزابُ الفِرَقُ، واحِدُها: حِزْبٌ. ويُقالُ: حَزَّبْتُ القومَ أي جَمَعْتُهُمْ، وحَزَّبْتُهُمْ، أي فَرَّقْتُهُمْ، وتَحَزَّبَ القومُ إذا اجْتَمَعوا، وصاروا حِزْباً حِزْباً، وتقولُ: هؤلاءِ حِزبي أي أصحابي وَشِيعَتي، وتقولُ: حازَبَني مُحازَبَةً أي صاحَبَني مُصاحَبَةً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقسم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: وصفا. (٥) من م، في الأصل: أو.
(٦) في الأصل وم: قاسوا. (٧) في الأصل وم: مع العدو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: صدق. (١٠) ساقطة من م.
(١١) في الأصل وم: قوما. (١٢) من م، في الأصل: عدوا.

وقولُهُ: ﴿بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي أنْ يكونوا في الباديةِ ﴿يَوَدُّوا﴾ أنْ يكونوا في الباديةِ معَ الأعرابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ هي[1] ما يَظْهَرُ عليها[2] المسلمونَ إلى يومِ القيامةِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهنَّ جَلَسْنَ، يَتَخَيَّرْنَ الأزواجَ في حياةِ رسولِ اللهِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ توبيخاً لهنَّ وتَعْييراً على ذلكَ. لكنَّ هذا بَعيدٌ مُحالٌ، لا يُحْتَمِلُ أنْ تكونَ أزواجُهُ يَتَخَيَّرْنَ الأزواجَ، وهنَّ تَحْتَهُ في حياتِهِ. فذلكَ سوءُ الظَّنِّ بهنَّ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهنَّ طَلَبْنَ النَّفَقَةَ منهُ، فَنَزَلَ ما ذَكَرَ، وقيلَ: إنهنَّ قد تَحَدَّثْنَ بشيءٍ مِنَ الدنيا، ورَكَنَّ إليها /٤٢٦ ـ ب/ فَنَزَلَ ما ذَكَرَ عتاباً لهنَّ وتَعْييراً. ونَحْوَ ذلكَ قد قالوا.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ، يَمْتَحِنُ رسولَهُ وأزواجَهُ بالتَّخْييرِ، واخْتِيارُ الفِراقِ منهُ ابْتِداءُ امْتحانٍ مِنْ غَيرِ أنْ يكونَ منهنَّ شيءٌ ممّا ذَكَرُوا، ولا سَبَبٌ.

وعلى ذلكَ: «رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ عائشةَ ﵂ [أنها][3] قالَتْ: لمّا أُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ بتَخْييرِ أزواجِهِ بَدَأَ بي، فقالَ: يا عائشةُ إني ذاكِرٌ لكِ أمْراً، فلا عليكِ ألّا تَسْتعجلي حتى تَسْتأمِري أبَوَيكِ، قالَتْ: وقد عَلِمَ اللهُ، وقد عَلِمَ أنَّ أبَوَيَّ لم يكونا لِيأمُراني بِفراقِهِ. قالَتْ: ثم قالَ: إنَّ اللهَ يقولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قولِهِ: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَقُلْتُ: أفي هذا أسْتأمِرُ أبَوَيَّ؟ إني أُريدُ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ» [مسلم١٤٧٥]وفَعَلَ سائرُ أزواجِهِ مِثْلَ ما فَعَلْتُ.

وفي بعضِ الأخبارِ أنها «قالَتْ: بل أختارُ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخِرَةَ» [أحمد ٦/ ١٦٣] فَدَلَّ قولُها: لمّا أمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ تَخْييرَ أزواجِهِ أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ ابْتِداءُ امْتِحانٍ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهنَّ ما ذَكَروا مِنَ الرُّكونِ إلى الدنيا.

والتَّحَدُّثُ بما ذُكِرَ فيهِ[4] وجوهٌ مِنَ الدلالةِ:

أحَدُها: إباحةُ طَلَبِ الدنيا وزينتِها مِنْ وجْهٍ يَحِلُّ، ويُحْتَمَلُ حينَ[5] قالَ: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لأنهُ لو لم يَكُنْ يَحِلُّ ذلكَ لهنَّ، وكنَّ مَنْهِيّاتٍ عنْ ذلكَ، لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يُفارِقُهُنَّ حتى لا يَخْتَرْنَ المَنْهِيَّ مِنَ الأمرِ، وقد كانَ يملكُ حَبْسَهُنَّ في مُلْكِهِ، حتى لا يَخْتَرْنَ ما ذَكَرَهُ مِنَ المَنْهِيِّ. دلَّ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ ذلكَ كانَ على وجهٍ يَحِلُّ، ويُحْتَمَلُ.

والثاني[6]: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يكنْ عندَهُ ما ذُكِرَ مِنَ الدنيا والزينةِ وما يُسْتَمْتَعُ بها، إذْ لو كانَ عندَهُ ذلكَ لما احْتُمِلَ أنْ يُخَيِّرَهُنَّ بالفِراقِ منهُ لِما ذُكِرَ، ولا هُنَّ يَخْتَرْنَ الفِراقَ منهُ، وعندَهُ ذلكَ فارَقْنَهُ. دلَّ أنهُ لم يكُنْ عندَهُ ما ذُكِرَ، ويَبْطُلُ قولُ مَنْ يقولُ: إنهُ كانَ عندَهُ الدنيا، ويُفَضِّلُ الغِنَى على الفَقْرِ بذلكَ.

والثالثُ[7]: أنَّ أزواجَهُ كُنَّ يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ في حياتِهِ إذا فارَقْنَهُ[8] لأنهنَّ إذا لم يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ لم يكُنْ لِقولِهِ[9]: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ مَعْنىً، لأنهنَّ، إذا لم يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ، وعندَهُ ما ذِكْرِ مِنَ الدنيا، يَحْمِلُهُنَّ ذلكَ على الفجورِ. فَدَلَّ أنهنَّ كنَّ يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ في حياتِهِ إذا فارقَهنَّ، وإنما لم يَحْلِلْنَ لِغَيرِهِ إذ ماتَ، فيكونُ لهُ حُكْمُ الحياةِ كأنهُ حيٌّ في حقِّ أزواجِهِ.

[فَعلَى ذلكَ][10] يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] في الآخِرَةِ، لا تَحِلُّ لِغَيرِهِ، فتكونُ زوجَتَهُ في الجنةِ ثم اخْتَلَفَ الصحابةُ ﵃ في مَنْ خَيَّرَ امْرأتَهُ؟ فاختارَتْ:

قالَ بعضُهُمْ: إذا خَيَّرَها، فهي تطليقةٌ رَجْعيَّةٌ، وإذا اخْتارَتْ، فهي بائنةٌ، وهو قولُ عليٍّ ﵁.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: عليه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وفيه. (٧) في الأصل وم: وفيه دلالة. (٨) في الأصل وم: فارقن منه. (٩) من م، في الأصل: كقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: إذا اختارَتْ نفسَها، فهي ثلاثٌ، وإذا اختارَتْ زوجَها، فلا شيءَ. وقالَ بعضُهُمْ: إذا اختَارَتْ زوجَها، فهي تطليقةٌ رَجْعِيَّةٌ، وإنِ اختارَتْ نفسَها فهي تطليقةٌ بائنةٌ.

وعندَنا أنَّ التَّخْيِيرَ نفسَهُ لا يكونُ طلاقاً. فإنِ اختَارَتْ [زَوجَها فلا][1] شيءَ، وإذا اختارَتْ نفسَها، فهي بائنٌ.

أمّا قولُهُ: إذا اختارَتْ زَوجَها فلا[2] شيءَ لِما رُوِيَ عنْ عائشةَ، قالَتْ: خَيَّرَنا رسولُ اللهِ ﷺ فاختَرْناهُ، فلم يَعُدْ ذلكَ طلاقاً.

وأمّا قولُهُ: إذا اختارَتْ نفسَها، فيكونُ بائناً لأنهُ خيَّرَها بَينَ أنْ تختارَ نفسَها لنفسِها وبَينَ أنْ تَختارَ نفسَها لزوجِها. فإنْ اختارَتْ نفسَها [لنفسِها، فهي بائنٌ، لأنّا لو][3] جَعَلْناهُ رَجعياً، لم يكُنِ اختيارُها نفسَها لنفسِها، ولكنْ لزوجِها؛ إذْ لِزَوجِها أنْ يُراجِعَها شاءَتْ، أو أبَتْ. وكانَ التَّخْيِيرُ بينَ النفسَينِ على ما ذَكَرْنا.

وأمّا قولُ مَنْ يقولُ بأنَّ نفسَ التَّخْيِيرِ طلاقٌ، فهو باطلٌ لِما ذَكَرْنا مِنْ تَخْيِيرِ رسولِ اللهِ أزواجَهُ، فلم يكُنْ ذلكَ طلاقاً.

وأمّا [قولُ][4] مَنْ قالَ بالثلاثِ إذا اختارَتْ نفسَها، فهو كذلكَ عندَنا إذا ذُكِرَ في التَّخْيِيرِ الثلاثُ.

وأمّا قولُ منْ قالَ بالرَّجْعِيِّ، فهو إذا صَرَّحَ بالتطليقِ، فهو كذلكَ، واللهُ اعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الإرادةُ ههنا إرادةُ الاختِيارِ وإيثارِ[5] الحياةِ الدنيا وزينتِها لا مَيلُ القلبِ والرِّضا بهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ هو إرادةُ الاختِيارِ والإيثارِ، وهو ما يُرادُ، ويُختارُ فِعلاً، لا مَيلُ القلبِ والرِّضا بهِ، لأنَّ كلَّ ممكنٍ فيهِ الشهوةُ مجعولٌ فيهِ هذهِ الحاجةُ، يَميلُ قلبُهُ، ويَرْكُنُ إلى ما يَتَمَتَّعُ بحياةِ الدنيا ولذَّاتِها، ويرضاهُ، ويُحِبُّ، فَدَلَّ أنهُ أرادَ إرادةَ الفعْلِ والاختِيارِ لا إرادةَ القلبِ ورضاهُ. ثم فيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ حِلِّهِنَّ لِغَيرِ رسولِ اللهِ إذا اختَرْنَ الفِراقَ منهُ لِما ذَكَرَ أنهُ يُمَتِّعُهُنَّ.

ومَعْلومٌ أنهنَّ لا يَكْتَسِبْنَ بأنفسِهِنَّ حتى يَتَمَتَّعْنَ بذلكَ، ولم يكُنْ عندهنَّ ما يَتَمَتَّعْنَ بذلكَ، فَدَلَّ أنهُ إنما يَتَمَتَّعْنَ بأموالِ أزواجِهِنَّ، فَدَلَّ على حِلِّهِنَّ لِغَيرِهِ في حياتِهِ إذا فارَقْنَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ مَعْلومٌ أنهنَّ إذا اختَرْنَ الحياةَ الدنيا وزينَتَها لا يُحتَمَلُ ألّا يُرِدْنَ اللهَ، لكنَّ إضافةَ ذلكَ إلى اللهِ لاختيارِهِنَّ المُقامَ عندَ رسولِهِ، فَيَدُلُّ ذلكَ أنَّ كلَّ ما أُضيفَ إلى اللهِ ورسولِهِ كانَ المُرادُ به رسولَهُ نَحوُ ما قالَ: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] وقولِهِ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] وأمثالِ ذلكَ.

ثم الزهدُ في الدنيا يكونُ [على وجهَينِ][6]:

أحَدُهما: تَرْكُ المكاسِبَ التي [بها][7] تَتوسَّعُ الدنيا، وتكونُ بها السَّعَةُ [وأنْ يؤثِرَها لِغَيرِهِ][8] على نفسِهِ، واختِيارُ حالِ الضِّيقِ مِنْ غَيرِ تَحْريمِ ما أُحِلَّ، وطُيِّبَ لهُ.

والثاني: بَذْلُ ما عندَهُ لِغَيرِهِ، وإيثارُهُ على نفسِهِ، وجَعْلُهُ أوْلَى بِهِ منهُ لا في تحريمِ المُحَلَّلاتِ والطَّيِّباتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي إذا اختَرْنَ المُقامَ عندَ رسولِ اللهِ يَصِرْنَ مُحْسِناتٍ بذلكَ، فأعَدَّ لهنَّ ما ذَكَرَ، فيكونُ ذلكَ الاختِيارُ منهنَّ الإحسانَ فاستَوجَبْنَ ما ذَكَرَ.

ويَحتَمِلُ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ودُمْتُنَّ على ذلكَ، واكْتَسَبْتُنَّ الأعمالَ الصالحاتِ والإحسانَ حتى خُتِمْتُنَّ على ذلكَ، فأعَدَّ لَكُنَّ [ما ذَكَرَ لانفسَ][9] اختِيارِ مُقامِكُنَّ معهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: نفسها لا. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فهي بائن لأنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الآيثار. (٦) في م: بوجهين، في الأصل: وجهين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ويؤثرها لغيرها. (٩) في الأصل وم: لا بنفس.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الفاحشةُ المُبَيِّنَةُ، هي النشوزُ البَيِّنُ. وقالَ بعضُهُمْ: لا بلِ الفاحشةُ المُبَيِّنَةُ، هي الزِّنى الظاهرُ ويُقالُ: مُبَيَّنَةٍ [بالفتح][1] بشهادةِ أربعةِ عُدولٍ، ومُبَيِّنَةٍ بالكسرِ أي مُبَيِّنَةٍ ظاهرةٍ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ الجَلْدُ والرَّجْمُ في الدنيا.

ولكنْ كيفَ يُعْرَفُ ضِعْفُ الرَّجْمِ في الدنيا مَنْ لا يَعْرِفُ حَدَّ رجْمٍ واحدٍ إذا كانَ ذلكَ في عذابِ الدنيا، وإنْ كانَ في عذابِ الآخِرَةِ، فكيفَ ذَكَرَ فاحشةً مُبَيِّنَةٍ، وذلكَ عندَ اللهِ ظاهرٌ بَيِّنٌ؟.

وقالَ بعضُهُمْ: /٤٢٧ ـ أ/ ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ في الدنيا والآخرة: أمّا في الدنيا فَمِثْلَي حُدودِ النساءِ، وأمّا في الآخِرَةِ فَضِعْفَي ما يُعَذَّبُ بهِ سائرُ النساءِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ هذا صلةَ قولِهِ: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إذا اخْتَرْنَ الدنيا، فَمَتَى أتينَ بفاحشةٍ ضُوعِفَ لهنَّ مِنَ العذابِ ما ذُكِرَ. وإذا اخْتَرْنَ المُقامَ عندَ رسولِ اللهِ، والدارَ الآخِرَةَ آتاهُنَّ الأجرَ مَرَّتَينِ. أو أنْ يكونَ إذا اخْتَرْنَ المُقامَ عندَ رسولِ اللهِ والدارَ الآخِرَةَ، ثم أتَيْنَ بفاحشةٍ، ضوعِفَ لهنَّ ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ لئلّا يَحْسَبْنَ أنهنَّ إذا اخْتَرْنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخِرَةَ [لا يُعاقَبْنَ بما ارْتَكَبْنَ مِنَ مَعْصِيَةٍ. بل هذا إخبارٌ لهنَّ أنكُنَّ، وإنِ اخْتَرْتُنَّ الدارَ الآخِرَةَ][2] ثم ارْتَكَبْتُنَّ ما ذَكَرْتُ[3]، عُوقِبْتُنَّ ضِعْفَ ما عُوقِبَ بهِ غيرُكُنَّ[4].

وإذا أطَعْتُنَّ اللهَ ورسولَهُ ضُوعِفَ لكنَّ الأجرُ مَرَّتَينِ، واللهُ أعلَمُ.

والأشبَهُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ ضِعْفِ العذابِ في الآخِرَةِ على ما يقولُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ. ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ لهنَّ الأجرَ كِفْلَينِ؟ ومَعْلومٌ أنَّ ذلكَ في الآخِرَةِ. فَعَلَى ذلك العذابُ.

وأمّا قولُهُ: مُبَيِّنَةٍ عندَ الخَلْقِ، فقد[5] كانَتْ عندَ اللهِ مُبَيِّنَةً ظاهرةً. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي عذابُهُنَّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هَيِّناً، لا يَثْقُلُ عليهِ، ولا يَشْتَدُّ، لِمكانِ رسولِ اللهِ، بلْ على اللهِ يَسيرٌ هَيِّنٌ.

والثاني: أنَّ إتيانَكُنَّ الفاحِشَةَ ومَعْصِيَتَكُنَّ على اللهِ يسيرٌ][6] أي لا يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ ولا تَبِعَةٌ، ليس كَمَعْصِيَةِ خَواصِّ المَلِكِ لهُ في الدنيا، يَلْحَقُهُ الضَّرَرُ والذُّلُّ إذا عَصَوهُ، وأعْرَضوا عنهُ.

فأمّا اللهُ سُبْحانَهُ فَعَزيزٌ بذاتِهِ، غَنِيٌّ، لا يَضُرُّهُ عِصْيانُ عَبيدِهِ، بل يَضُرُّونَ[7] أنفسَهُمْ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ في الآيةِ دلالةُ فَضيلةِ أزواجِ رسولِ اللهِ وعظيمِ قَدْرِهِ حينَ[8] خاطَبَهُنَّ مِنْ بَينِ غيرِهِنَّ مِنَ النساءِ كما خاطَبَ مَريمَ بقولِهِ[9]: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ثم يَحْتَجُّ الشافعيُّ بقولِهِ: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ لتأويلِهِ قولَهُ[10]: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] يقولُ[11]: قولُهُ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي تَطْليقَتانِ في دَفْعَةٍ واحدةٍ [مِنْ غيرِ][12] إحداثِ التطليقِ والفِعْلِ في ما بَينَهما.

ويَسْتَدِلُّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي أجْرَينِ مِنْ غيرِ إحداثِ فِعْلٍ في ما بَينَهما، ولكنْ بِفِعْلٍ واحدٍ وقولِهِ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨] أي أجْرَينِ.

لكنْ عندَنا يجوزُ الإيتاءُ بِمَعْنى الإيجابِ، أي يوجِبُ الأجرَ مَرَّتَينِ نَحْوَ قولِهِ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] أي أوجَبَ لهمْ ثوابَ الآخِرَةِ. فعلى ذلك ما ذَكَرَ؛ ونَحْوُهُ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٢١. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ذكره. (٤) في الأصل وم: غيره. (٥) في الأصل وم: وإن. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: ضروا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يقول. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: بقوله. (١٢) من م، في الأصل: بمرة.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قالَ بعضُ[1] أهلِ الأدبِ: أحَدٌ أجْمَعُ في الكلامِ مِنْ واحِدٍ لأنهُ يرجِعُ إلى واحدٍ وإلى جَماعةٍ، وقولُهُ: ﴿كَأَحَدٖ﴾ إنما يَرْجِعُ إلى الفردِ خاصةً، وإنما يُخاطِبُ بِهِ الواحدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ اخْتِيارَ الدنيا وزينَتِها [ويحْتَمِلُ][2]: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ أيضاً نَقْضَ اخْتِيارِ رسولِ اللهِ والدارِ الآخِرَه.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ مُخالَفَةَ اللهِ ومُخالَفَةَ رسولِهِ، وقولُهُ: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ فأنْكُنَّ مَعْشَرَ أزواجِ النَّبِيِّ [تَنْتَظِرْنَ الوَحْيَ][3] وتَصْحَبْنَ رسولَ اللهِ ﷺ بالليلِ والنهارِ، وتَرَيْنَ أفعالَهُ وصَنيعَهُ. فإنكُنَّ أحقُّ الناسِ بالتَّقْوَى وتَرْكِ المَيلِ إلى الدنيا والركُونِ إليها مِمَّنْ لا يَنْتَظِرُه[4]، ولا يَصْحَبُهُ، إلا في الأوقاتِ مَرَّةً.

وأنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في الفضيلةِ على غيرِهِنَّ[5] مِنَ النساءِ لأنهنَّ يَكُنَّ أزواجَ رسولِ اللهِ في الآخِرَةِ، ويَرْتَفِعْنَ إلى دَرَجاتِ رسولِ اللهِ، ويكُنَّ معهُ. فإنكنَّ لَسْتُنَّ كَغَيْرِكُنَّ مِنَ النساءِ في الفضيلةِ والدَّرَجةِ ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ مُخالفةِ رسولِ اللهِ واخْتِيارِ الحياةِ الدنيا وزينَتِها والمَيلِ إليها والركونِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ قيلَ: فلا تَلِنَّ في القولِ ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي فُجورٌ وزِنًى: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي خَشِناً شديداً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي نِفاقٌ. وهذا أولَى لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ أحدٌ منهمْ يَطْمَعُ في أزواجِ رسولِ اللهِ نِكاحاً بحالٍ أو رَغْبَةً فيهِنَّ بعدَ عِلْمِنا منهمْ أنهمْ إذا عَلِموا مِنْ رسولِ اللهِ رَغْبَةً في أزواجِهِمْ طَلَّقوهُنَّ لِيَتَزَوَّجَهُنَّ رسولُ اللهِ ﷺ فلا يُحْتَمَلُ بَعْدَما عُرِفَ منهمْ هذا أنْ يَطْمَعَ أحدٌ منهمْ، ويَرْغَبَ في أزواجِهِ نِكاحاً فضلاً أنْ يَرْغَبَ فُجوراً.

ولكنْ إنْ كانَ ذلكَ فهو مِنْ أهلِ النِّفاقِ. وجائزٌ أنْ يرغَبوا فيهِنَّ نِكاحاً لأنهنَّ أعظَمُ الناسِ نَسَباً وحَسَباً وأكرَمُهُمْ جمالاً وحُسْناً. فجائزٌ وقوعُ الرَّغْبَةِ فيهنَّ مِنْ أهلِ النِّفاقِ لِما ذَكَرْنا.

وأمّا مِنْ أهلِ الإيمانِ فلا يُحْتَمَلُ ذلكَ لِما ذَكَرْناهُ. يدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨] دلَّ أنهنَّ بحيثُ يُرغَبُ فيهنَّ، ويُطْمَعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ يقولُ: فلا تَرْمِينَّ بقولٍ، يُقارِبُ الفاحشةَ ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي قولاً حَسَناً، لا يُقارِبُ الفاحشةَ. لكنَّ هذا بعيدٌ.

وأصْلُهُ: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا تَقُلْنَ قولاً، تُعْرَفُ بهِ الرَّغْبَةُ في الرجالِ والمَيلُ إلى الدنيا والرُّكونُ فيها ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ ما يكونُ فيهِ تَغْييرٌ لِلْمُنْكَرِ والأمرِ بالمَعْروفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قد قُرِئَ بكَسْرِ[6] القافِ وفَتْحِها. فَمَنْ قَرَأَ بالكَسْرِ [وقِرْنَ][7] فهو مِنَ الوَقارِ، ومَنْ قَرَأَ بالفَتْحِ ﴿وَقَرۡنَ﴾ جَعَلَهُ مِنَ القَرارِ والسُّكونِ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ رسولُ اللهِ كانَتْ تَخْرُجُ نساؤُهُمْ مُتَبَرِّجاتٍ بِزينةٍ مُظْهِراتٍ، فأمَرَ اللهُ أزواجَ رسولِهِ بالسِّتْرِ والحِجابِ عليهِنَّ، وهو ما قالَ: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قالَ: ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ التي وُلِدَ فيها إبراهيمُ، أُعْطِينَ وُفوراً كثيرةً، وكُنَّ يَتَبَرَّجْنَ في ذلكَ الزمانِ تَبَرُّجاً شديداً، وأمَرَ أزواجَهُ بالعِفَّةِ والتَّرْكِ لذلكَ. فَلَسْنا ندري ما أرادَ بالجاهليةِ؟ ومَنْ

---

(١) في الأصل وم: بعضهم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: تنظرن إلى. (٤) في الأصل وم: ينظر إليه. (٥) في الأصل وم: غيرها. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ١٢٤. (٧) ساقطة من الأصل وم.

أرادَ بذلكَ؟ ألذينَ كانوا بِقُرْبِ خُروجِ رسولِ اللهِ وبَعْثِهِ، أمِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِ الأُمَمِ السالفةِ؟ والتَّبَرُّجُ كأنهُ الخروجُ بالزينةِ على إظهارٍ لها؛ أعني إظهارَ الزينةِ.

قالَ القُتَبيُّ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا تَلِنَّ بهِ، وقولُهُ: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي صحيحاً، وقولُهُ: وقِرْنَ في بيوتِكُنَّ بالكسرِ مِنَ الوَقارِ. ويُقالُ: وَقَرَ في مَنْزِلِهِ يَقِرُ وَقْراً[1]. وقَرْنَ في بيوتكُنَّ بِفَتْحِ القافِ مِنَ القَرارِ؛ وكأنهُ مِنْ قَرَّ يَقَرُّ أرادَ اقْرَرْنَ في بيُوتِكُنَّ، فَحَذَفَ الراءَ الأولَى، وحوَّلَ فَتْحَها إلى القافِ كما يُقالُ: ظَلْنَ في مَوضِعِ كذا مِنِ اظْلَلْنَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] ولم يُسْمَعْ قَرَّ يَقَرُّ إلّا في موضِعِ قُرَّةِ العَينِ. فأمّا في الاسْتِقْرارِ فإنما هو قَرَّ يَقِرُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الأمْرُ لهنَّ بإيتاءِ الزكاةِ مِنْ حُلِيِّهِنَّ لأنهنَّ لا يَمْلِكْنَ شيئاً سَوَى ذلكَ مما[2] تَجِبُ في مِثْلِهِ الزكاةُ.

ألَا تَرَى أنهُ وَعَدَ لهنَّ التَّمْتيعَ والسَّراحَ الجميلَ إذا أرَدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها؟ فلو كانَ عندَهنَّ شيءٌ مِنْ فُضولِ الأموالِ كُنَّ يُنْفِقْنَ، ويَتَمَتَّعْنَ، وإنْ لم يكُنْ عندَ رسولِ اللهِ ما يُمَتِّعُهُنَّ، ولا يَطْلُبْنَ ذلكَ مِنْ عندِهِ / ٤٢٧ - ب/ فَدَلَّ ذلكَ أنهنَّ لا يَمْلِكْنَ شيئاً مِنْ ذلكَ. فيجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ في إيجابِ الزكاةِ في الحُلِيِّ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أمَرَهُنَّ بإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ والطاعةِ للهِ ورسولِهِ لئلا يَغْتَرِرْنَ بِما اخْتَرْنَ المُقامَ مع رسولِ اللهِ ﷺ، وإيثارَهُنَّ إيّاهُ على أنَّ ذلكَ كافٍ لهنَّ في الآخِرةِ، ولا شيءَ عليهِنَّ سِوَى ذلكَ مِنَ العِباداتِ. بل إخبارٌ [لهنَّ][3]: وإنْ اختَرْتُنَّ المُقامَ معهُ، وآثَرْتُنَّ إياهُ على الدنيا وزينتِها فلا يُغْنيكُنَّ ذلكَ عمّا ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ هذهِ الآيةَ مَقْطوعةٌ عنِ الأولَى، لأنَّ الأولَى في أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهذهِ في أهلِ بيتِهِ. وهو قولُ الرَّوافِضِ، ويَسْتَدِلّونَ بقَطْعِها عنِ الأولى بوجوهٍ:

أحَدُها: «ما رُوِيَ عن أُمِّ سَلَمَةَ زوجِ النَّبِيِّ ﷺ، أنها قالَتْ: عَنَى بذلكَ علياً وفاطمةَ والحَسَنَ والحُسَينَ، وقالَتْ لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ، اخَذَ النَّبيُّ ثوباً، فَجَعَلَهُ على هؤلاءِ، ثم تَلَا الآيةَ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مِنْ جانبِ البيتِ: [ألَسْتُ][4] مِنْ أهلِ البيتِ؟ قالَ: بَلَى إنْ شاءَ اللهُ» [البيهقي في الكبرى ٢/ ١٥٠].

وعَنِ الحَسَنِ بْنِ عليٍّ أنهُ خَطَبَ الناسَ بالكوفةِ، وهو يقولُ: يا أهلَ الكوفةِ اتَّقوا اللهَ فينا، فإنّا أُمَراؤُكُمْ، وإنّا ضِيفانُكُمْ، ونحنُ أهلُ البيتِ الذي قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

[والثاني: ما][5] يقولونَ أيضاً: إنَ الآيةَ الأُولَى ذَكَرَها بالتأنيثِ حينَ قالَ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾. وهذهِ ذَكَرَها بالتذكيرِ. دلَّ أنها مَقْطوعةٌ عنِ الأولى.

[والثالثُ: ما][6] يقولونَ أيضاً: إنهُ وعَدَ أنْ يُذْهِبَ عنهمُ الرِّجسَ، ويُطَهِّرَهُمْ تطهيراً وعْداً مُطْلَقاً غيرَ مُقَيَّدٍ.

وهذا الرجسُ الذي ذُكِرَ ممّا يَحْتَمِلُ أزواجَهُ، مُمْكِنُ ذلكَ فيهِنَّ غيرُ مُمْكِنٍ في أهلِ بيتِهِ ومَنْ ذَكَرَهُ.

[والرابعُ: ما][7] يقولونَ أيضاً: ما رُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: «تَرَكْتُ فيكُمْ بَعدي الثَّقَلَينِ: كتابَ اللهِ وعِتْرَتي أهلَ بيتي ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ بهما لَيَرِدانِّ بكُمُ الحَوضَ» [الترمذي ٣٧٨٦] أو كلامٌ نَحْوُ هذا، فَفَسَّرَ العِتْرَةَ بأهلِ البيتِ ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الوجوهِ.

وأمّا عندَنا فهي غَيرُ مَقْطوعةٍ مِنَ الأولى: إمّا أنْ يكونَ على الاشْتِراكِ بَينهنَّ وبَينَ مَنْ ذَكَرَ مِنْ أولادِهِ؛ إذِ اسْمُ أهلِ البيتِ ممّا يَجْمَعُ ذلكَ كلَّهُ في العُرْفِ، [وإما أنْ][8] تكونَ الآيةُ لهنَّ على الانْفِرادِ.

(١) في الأصل وم: وقورا. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: أو.

فأمّا أنْ يُخرِجَ أزواجَهُ عنْ أهلِ بيتِهِ، والبيتُ يَجْمَعُهُمْ، فلا يَحْتَمِلُ ذلكَ.

وأمّا قولُهُمْ: إنهُ ذَكَرَ هذهِ الآيةَ بالتذكيرِ، والأُولى بالتأنيثِ فعندَ الاختِلاطِ كذلكَ يُذكَرُ باسمِ التذكيرِ.

وأمّا قولُهُمْ: إنَّ وعْدَهُ لهمْ منهُ خَرَجَ مُطلَقاً غَيرَ مُقَيَّدٍ، فكذلكَ كُنَّ أزواجَ رسولِ اللهِ، لم يأْتِ منهنَّ ما يجوزُ أنْ يُنْسَبْنَ إلى الرِّجْسِ أوِ القَذَرِ إلّا في ما [غُولِبْنَ على رأيهِنَّ وتَدْبيرِهِنَّ بالحِيَلِ، فأُخرِجْنَ في ما](١) أُخرِجْنَ.

وأمّا [قولُهُ: «الثَّقَلَينِ» فهما اللذانِ](٢) تَرَكَهُما فينا بَعْدَهُ: الكتابُ والعِتْرَةُ. وعِتْرَتُهُ سُنَّتُهُ على ما قيلَ.

وقولُهُ: «أهلَ بيتي» كأنهُ قالَ: تركْتُ الثَّقَلَينِ كتابَ اللهِ وسُنَّتي بأهلِ بيتي، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وأمّا ما رُوِيَ عنْ أُمِّ سَلَمَةَ فإنهُ في الخَبَرِ بيانٌ على أنَّ أزواجَهُ دَخَلْنَ حينَ(٣) قالَتْ له أُمُّ سَلَمَةَ: أَلَسْتُ مِنْ أهلِ البيتِ؟ قالَ: بَلَى إنْ شاءَ اللهُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ منْ وجوهٍ:

أحَدُها: ما يقولونَ: إنَّ اللهَ قد أرادَ أنْ يُطَهِّرَ الخَلْقَ كلَّهُمْ الكافرَ والمسلمَ، وأرادَ أنْ يُذْهِبَ الرِّجْسَ عنهمْ جميعاً. لكنَّ الكافرَ حينَ(٤) أرادَ ألّا تُطَهِّرَ نفسُهُ، ولا يُذْهَبَ عنهُ الرِّجْسُ لم يَطْهُرْ. فلو كانَ على ما يقولونَ لم يكنْ لتخصيصِ هؤلاءِ بالتَّطهيرِ ودفعِ الرِّجْسِ عنهمْ فائدةٌ ولا مِنّةٌ. دلَّ [أنهُ](٥) إنما يُطَهِّرُ مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الطهارةِ وتَرْكَ الرِّجْسِ.

وأمّا مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الرِّجْسِ فلا يَحْتَمِلُ أنْ يُذْهِبَ عنهُ الرِّجْسَ، أو يريدَ منهُ غَيرَ ما يَعْلَمُ أنهُ يَختارُ. وإنَّ التطهيرَ، لن يكونَ، إنما يكونُ باللهِ لا بما تقولُهُ المعتزلةُ حينَ(٦) قالَ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إذْ على قولِهِمْ: لا يملكُ هو تطهيرَ مَنْ أرادَ، إذْ لم يَبْقَ عندَهُ ما يُطَهِّرُهُمْ. فذلكَ كلُّهُ يَنْقُضُ عليهمْ أقوالَهُمْ ومذهَبَهُمْ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ أي اتلُونَ ما يُتْلَى في بيوتكنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحكمةِ.

والثاني: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ على حقيقةِ الذكرِ، أيِ اذكُرْنَ ما مَنَّ اللهُ عليكُنَّ، وجَعَلَكُنَّ مِنْ أهلِ بيتٍ، تُتْلَى فيهِ آياتُ اللهِ والحكمةُ، وجَعلَ بيوتَكُنَّ مَوضعاً لِنُزولِ الوحْيِ فيها، وخَصَّكُنَّ بذلكَ ما لم يَجْعلْ في بيتِ أحدٍ ذلكِ.

يُذَكِّرُهُنَّ عظيمَ ما أنعَمَ، ومَنَّ عليهِنَّ ليستأدِيَ بهِ شُكْرَهُ لِيَعْرِفنَ مِنَّةَ اللهِ ونِعَمَهُ عليهِنَّ. وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ آياتِ القرآنِ، ويَحْتَمِلُ حُجَجَهُ وبراهينَهُ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قالتِ الفلاسفةُ: الحكيمُ، هو الذي يَجْمَعُ العلمَ والعملَ جميعاً. وقالَ بعضُهُمْ: الحكيمُ المُصيبُ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هي الإصابةُ. وقيلَ: هي وضعُ الشيءِ مَوضِعَهُ، وهي نَقيضُ السَّفَهِ.

وأصلُ الحكمةِ في الحقيقةِ، كأنهُ، هي الإصابةُ في كلِّ شيءٍ. والحكيمُ، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطَأُ في الحُكْمِ ولا الغَلَطُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحكمةُ ههنا، هي السُّنَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ اللطيفُ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما](٧): [هو البارُّ، يُقالُ: فلانٌ لطيفٌ](٨) إذا كانَ بارّاً.

والثاني: اللطيفُ، هو الذي يَسْتَخرِجُ الأشياءَ الخفيَّةَ الكامنةَ ممّا لا تَتَوَهَّمُ(٩) العقولُ اسْتِخراجَها مِنْ مِثْلِها.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى آخِرِهِ(١٠)؛ ذُكِرَ أنَّ أمَّ سَلَمَةَ زوجَ النَّبيِّ ﷺ وامرأةً، يُقالُ لها: أنيسةُ بنتُ كعبٍ، أتَيَتا رسولَ اللهِ ﷺ فقالتا: يا رسولَ اللهِ ما بالُ ربِّنا يذكرُ الرجالَ في القرآنِ بالخَيرِ، ولا يذكرُ النساءَ في شيءٍ؟ فَنَزَلَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: في الثقلين اللذين. (٣) و(٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: تتوهمها. (١٠) في الأصل وم: آخر ما.

ثم قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يدلُّ أنَّ الإسلامَ والإيمانَ هما في الحقيقةِ واحدٌ؛ أعني في حقيقةِ المَعْنَى واحدٌ، وإنْ كانا مُخْتلِفَينِ بجهةٍ لأنَّ الإسلامَ، هو أنْ يُجعَلَ[1] كلُّ شيءٍ للهِ سالماً خالصاً، لا يُجعَلُ لغيرِهِ فيهِ شِرْكاً ولا حَقًّا، والإيمانُ هو التصديقُ للهِ بشهادةِ كلِّ شيءٍ لهُ بالوَحدانيةِ والرُّبوبيةِ والألوهيةِ.

فَمَنْ جَعَلَ الأشياءَ كلَّها للهِ خالصةً سالمةً، والذي صَدَّقَ اللهَ بشهادةِ كُلِّيَّةِ الأشياءِ لهُ بالوَحدانيةِ والرُّبوبيةِ والألوهيةِ، واحدٌ، لأنَّ المُخْلِصَ، هو الذي يَرَى [كلَّ شيءٍ للهِ خالصاً، والمُوَحِّدَ، هو الذي يَرَى][2] الوَحدانيةِ لهُ والرُّبوبيةَ في كلِّ شيءٍ، فهما في حقيقةِ المَعْنَى واحدٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ القُنوتُ، هو القيامُ في اللغةِ. رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عنْ أفضلِ الصلاةِ، فقالَ «طولُ القُنوتِ» وفي بعضِهِ: «طولُ القِيامِ» [مسلم ٧٥٦] فَثَبَتَ أنَّ القُنوتَ، هو القيامُ، فيكونُ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، القائمينَ والقائماتِ بجميعِ أوامرِ اللهِ ومَناهيهِ. وكذلكَ يُخَرَّجُ تأويلُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المُطيعينَ ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾][3] والمطيعاتِ للهِ، لأنَّ كلَّ قائمٍ بأمرٍ آخَرَ، فهو مطيعٌ لهُ؛ هذا، كأنهُ يقولُ، يكونُ في الاعْتِقادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ إلى آخِرِهِ يكونُ في المعاملةِ في تصديقِ ما اعْتَقَدوا /٤٢٨ ـ أ/ وقَبِلُوا؛ يُصَدِّقونَ، ويُوفُونَ بالأعمالِ في ما اعْتَقَدوا، وقَبِلُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ الصبرُ، هو كَفُّ النفسِ وحَبْسُها عنِ التَّعاطي في جميعِ المُحَرَّماتِ المَحْظوراتِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على أمرِ اللهِ وطاعتِهِ وعلى المآذي والمصائبِ؛ يَكُفُّونَ [أنفسَهُمْ][4] عن جميعِ ما لا يَحِلُّ فيهِ، ويَرَونَ ذلكَ مِنْ تقديرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخاشعُ المُصَلِّي، وقالَ بعضُهُمْ: الخاشعُ المتواضعُ. وأصلُ الخشوعِ: هو الخوفُ اللازمُ في القلبِ، وهو قولُ الحسنِ: يَخافونَ اللهَ في كلِّ حالٍ، ولا يَخافونَ غَيرَهُ، ويَرْجُونَ اللهَ، ولا يَرْجُونَ غَيرَهُ.

هكذا عَمَلُ المؤمنِ تكونُ حقيقةُ خَوفِهِ ورجائِهِ منهُ. وأمّا الكافرُ فإنهُ لا يَخافُ ربَّهُ، ولا يَرْجُوهُ[5]، لأنهُ لا يَعْرِفُهُ، ولا يَخْضَعُ لهُ.

وعلى ذلكَ المعتزلةُ؟ إنما خَوفُهُمْ مِنْ أعمالِهِمُ السيئةِ، ورجاؤُهُمْ منها؛ أعني مِنْ أعمالِهِمُ الحسنةِ لا مِنَ اللهِ حقيقةً. وكذلكَ على قولِهِمْ: لا يكونُ لأحدٍ رجاءٌ في شفاعةِ رسولِ اللهِ ﷺ إنما رجاؤُهُ في أعمالِهِ لقولِهِمْ: ليسَ للهِ في أفعالِ العبادِ شيءٌ مِنْ تَدْبيرِهِ ولا تَقْديرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي المُنْفِقينَ [والمُنْفِقاتِ][6] في طاعةِ اللهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ قد ذَكَرْنا[8] أنَّ هذا راجعٌ إلى حقيقةِ الفِعْلِ في الصيامِ والصدَقةِ والصِّدْقِ في القولِ والمُعامَلَةِ والخُشوعِ منهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في القبولِ والاعْتِقادِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ في ما لا يَحِلُّ كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥ و٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي المُصَلُّونَ للهِ الصلَواتِ الخَمْسَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ باللِّسانِ على كلِّ حالٍ. لكنَّ غَيرَهُ، كأنهُ أولى بذلكَ؛ أيِ الذاكرينَ حقَّ اللهِ الذي عليهِمْ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: لغيره. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: القائمين المطعين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يرجون منه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: ذكر.

الآية ٣٦ [وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ [المُعْتَزِلِيُّ][(٢)]: دلَّتْ هذهِ الآيةُ على أنَّ الكُفْرَ ممَّا لم يقْضِهِ اللهُ، لأنهُ لو كانَ ممَّا قضاهُ اللهُ لكانَ لا يكونُ لهمُ الخِيرَةُ والتَّخْيِيرُ. فإنْ قالَ: إنهُ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ دلَّ أنهُ ممَّا لم يقْضِهِ اللهُ.

لكنْ يقولُ: إنَّ القضاءَ ههنا، ليسَ هو قضاءَ الخَلْقِ على ما فَهِمَ هو، ولكنَّ القضاءَ ههنا الأمْرُ [أوِ الحُكْمُ. فالأمْرُ][(٣)] كقولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي أمَرَ ربُّكَ، وأوجبَ ألّا تعْبُدوا إلّا إيّاهُ.

[ويَحْتَمِلُ][(٤)] أنْ يكونَ الحُكْمَ كقولِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أي ممَّا حَكَمْتَ.

فإذا كانَ القضاءُ يَحْتَمِلُ الأمرَ والحُكْمَ على ما ذَكَرْنا، فيكونُ كأنهُ قالَ: وما كانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قَضى اللهُ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي إذا أمَرَ اللهُ ورسولُهُ أمراً، أو إذا حَكَمَ اللهُ ورسولُهُ حُكْماً[(٥)] ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وهكذا يكونُ في ما أمَرَ اللهُ ورسولُهُ بأمرٍ، أو حَكَمَ بحكمٍ ألّا يكونَ لأحدٍ التَّخْيِيرُ في ذلكَ.

وممّا يدلُّ أيضاً على أنَّ القضاءَ أيضاً ههنا، ليسَ هو القضاءَ الذي فَهِمَ المعتزلةُ حينَ[(٦)] أضافَ ذلكَ إلى رسولِهِ أيضاً حينَ[(٧)] قالَ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ ولا شَكَّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، كانَ لا يَمْلِكُ القَضاءَ الذي هو قضاءُ خَلْقٍ. دلَّ أنَّ المعتزلةَ أخطأَتْ، وغَلِطَتْ، في فَهْمِ ذلكَ، وقَصُرَتْ عقولُهُمْ عنْ دَرْكِ ذلكَ، وأنَّ التأويلَ ما ذَكَرْنا نحنُ.

ثم أجْمَعَ أهلُ التأويلِ على أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ إنما نزلَ في زينبَ بنتِ جَحْشٍ؛ يَذْكُرونَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، كانَ أعْتَقَ زيدَ بْنَ حارثةَ، وتَبَنّاهُ، وكانَ مَولًى لهُ، فَخَطَبَ لهُ زينبَ بنتَ جَحْشٍ، فقالَتْ زينبُ: إني لا أرضاهُ لنفسي، وأنا مِنْ أتَمِّ نساءِ قُرَيشٍ، وكانَتِ ابْنَةَ عمةِ رسولِ اللهِ ﷺ بنتَ ميمونةَ بنتِ عبدِ المطلبِ فقالَ لها النبيُّ ﷺ: قد رَضِيتُهُ لكِ، فَزَوِّجي نفسَكِ منهُ، فأبَتْ ذلكَ، فَنَزَلَ قولُهُ فيها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

لكنْ إنْ كانَ على [ما][(٨)] يَذْكُرونَ مِنَ الخِطْبَةِ لها، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُجْبِرَها على النِّكاحِ، وقد قالَ النَّبِيُّ ﷺ «ليسَ[(٩)] لِلْوَلِيِّ معَ الثَّيِّبِ أمْرٌ» [أبو داوود ٢١٠٠] وقالَ النبيُّ ﷺ «البِكْرُ تُسْتَأْمَرُ في نفسِها، والثَّيِّبُ تُشاوَرُ» [بنحوه مسلم ١٤١٩] ثم تجيءُ الآيةُ في جَبْرِها على النِّكاحِ مِمَّنْ شاءَ، ولهُ الحُكْمُ بالنِّكاحِ لِمَنْ شاءَ على مَنْ شاءَ وليسَ لهمُ الخِيرَةُ في ذلكَ.

فأمّا بالخِطْبَةِ [فهي][(١٠)] دونَ الأمرِ والحكمِ مِنَ اللهِ، لا جَبْرَ في ذلكَ. ألا تَرَى أنهُ ذُكِرَ: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا خَطَبَ أمَّ سَلَمَةَ، فقالَتْ: إنَّ أوليائي غُيَّبٌ، فقالَ: ليسَ أحدٌ مِنْ أوليائِكِ لا يَرْضَى بي» [أحمد: ٦/ ٢٩٥] أو كلامٌ نَحْوُهُ، خَطَبَها، ولم يُجْبِرْها على ذلكَ؟

فَعَلَى ذلكَ زينبُ، إلّا أنْ يكونَ على الأمرِ والحكمِ على ما ذَكَرْنا، أو أن يكونَ سببُ نزولِ الآيةِ في مَنْ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ في خِطْبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ زينبَ بنتَ جَحْشٍ، ويكونَ الوعيدُ الذي ذَكَرَ فيهِ في غَيرِهِ في ما فيهِ أمرٌ مِنَ اللهِ أو حكمٌ نَحْوُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «أنهُ صَلَّى الفَجْرَ، فَرَأى رجلَينِ جالِسَينِ، فقالَ لهما: ما بالُكما لم تُصَلِّيا معنا؟ فقالا: إنا قد صَلَّينا في رِحالِنا، فقالَ: إذا صَلَّيتُما، ثم أتيتُما المسجدَ، فَصَلِّيا معهمْ، فتكونَ لكما سُبْحَةً» [بنحوه أبو داوود ٥٧٥] وإنما قالَ: فَصَلِّيا معهمْ لا في صلاةِ الفَجْرِ، ولكنْ في الصَّلَواتِ التي يُتَطَوَّعُ بعدَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ وإنْ كانَ هذا في المؤمنينَ فيكونُ الضلالُ، هو الخطأُ، كأنهُ قالَ: فقد أخطأَ خَطَأً بَيِّناً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: المعتزلة. (٣) في الأصل: والحكم، في م: أو الحكم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أمراً. (٦) و(٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

ويجوزُ هذا في اللغةِ نَحْوَ قولِ إخوةِ يوسفَ لأبيهِمْ في تفضيلِهِ يوسفَ ﷺ، حينَ[1] قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] أي في خَطَإٍ بَيِّنٍ حينَ[2] يُفَضِّلُ مَنْ لا مَنْفَعَةَ لهُ منهُ على مَنْ منهُ مَنفَعَةٌ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

وإنْ كانَ في المنافِقينَ فهمْ في ضَلالٍ بيِّنٍ. فالضلالُ مِنَ المؤمنِ، لا يُفْهَمُ منهُ ما يُفْهَمُ مِنَ الكافرِ والمُنافِقِ.

ألَا تَرَى أنَّ الظلمَ مِنَ المؤمنِ، لا يُفْهَمُ منهُ ما يُفْهَمُ مِنَ المُنافِقِ أوِ الكافرِ؟

ألَا تَرَى أنَّ آدمَ وحَوّاءَ لمّا ارْتَكَبا، وقَرِبا تلكَ الشجرةَ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] لم يُريدا ظُلْمَ كُفرٍ؟ وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥و الأعراف: ١٩].

فَعَلَى ذلكَ المَفهومُ مِنْ ضَلالِ المؤمنِ غَيرُ المفهومِ مِنْ ضَلالِ المنافِقِ والكافرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلامِ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاقِ حينَ[3] أعْتَقَهُ، لأنهُ ذُكِرَ أنَّ زيداً كانَ عربيًا مِنْ أهلِ الكتابِ، أصابَهُ النَّبِيُّ مِنْ سَبْيِ أهلِ الجاهليَّةِ، فأعْتَقَهُ، وتَبَنّاهُ، فأنْعَمَ اللهُ عليهِ حينَ[4] أعطاهُ الإسلامَ، ووفَّقَهُ للهُدَى، وأنْعَمَ عليهِ الرسولُ حينَ[5] أعتقَهُ.

ويَحْتَمِلُ إنعامَ اللهِ عليهِ أيضاً في الإعتاقِ حينَ[6] وفَّقَ رسولَهُ للعِتاقِ أو في خَلْقِ فِعْلِ الإعتاقِ مِنْ رسولِهِ وإجرائِهِ [على لسانِهِ.

والآيةُ حجَّةٌ على قولِ][7] المعتزلةِ: ليسَ للهِ على زَيدٍ ولا على جميعِ المسلمينَ في الإسلامِ إنعامٌ /٤٢٨ ـ ب/ ولا إفضالٌ لِوُجوهٍ:

أحَدُها: أنهمْ يقولونَ: قد أعطَى كلّاً سَبَبَ ما يُلْزِمُهُمُ الإسلامَ، فهو القُوَّةُ؛ فهُمْ إنما يُسْلِمونَ لا بِصُنْعٍ مِنَ اللهِ في ذلكَ. فَعَلَى قولِهِمْ: كانَ مِنَ اللهِ سببُ لزومِ الإسلامِ، فأمّا في الإسلامِ، فلا صُنْعَ لهُ فيهِ. فإذا كانَ كذلكَ فلا مِنَّةَ، تكونُ منهُ عليهِمْ، ولا إنعامَ[8].

والثاني: يقولون: إنهُ ليسَ للهِ أنْ يَفْعَلَ بالخَلْقِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ. ولا شَكَّ أنَّ الإسلامَ، لهمُ أصْلَحُ. فَعَلَيهِ إنْ يَفْعَلَ ذلكَ بهمْ؛ فهو فِعْلُ ما عليهِ أنْ يَفْعَلَ، ولا يجوزُ أنْ يَفْعَلَ غَيرَهُ. ومَنْ أدّى حَقّاً عليهِ، لا يكونُ في فِعْلِهِ مُنْعِماً ولا مُفَضِّلاً، إنما هو مُؤَدّي حَقٍّ عليهِ.

والثالثُ: يقولونَ: إنهُ ليسَ مِنَ اللهِ إلى الأنبياءِ والمؤمنينَ جميعاً شيءٌ إلّا وقد كانَ ذلكَ منهُ إلى إبليسَ وأتباعِهِ وإلى جميعِ الفِراعنةِ. فإذا كانَ قولُهُمْ ومذهبُهُمْ ما ذَكَرْنا لم يكُنْ للهِ على أحدٍ مِنْ أهلِ الإسلامِ في إسلامِهِمْ إنعامٌ، ولا إفضالٌ. واللهُ أخْبَرَ أنَّ لهُ عليهِمْ في ذلكَ نِعْمَةً ومِنَّةً. وكذلكَ فُهِمَ منهُ ذلكَ في قولِهِ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أبصَرَ امْرأةَ زيدٍ، فأعْجَبَتْهُ، وَوَدَّها، فَفَهِمَ زيدٌ ذلكَ منهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ إني أريدُ أنْ أُطَلِّقَ فُلانَةَ، فإنَّ فيها كِبْراً، تَتَعاظَمُ عليَّ، وتُؤذيني بكذا. فعندَ ذلكَ قالَ لهُ النَّبِيُّ ﷺ ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في طلاقِها، ولا تُطَلِّقْها.

لكنْ لا نقولُ نحنُ شيئاً مِنْ ذلكَ إلّا بِخَبَرٍ، ثَبَتَ عنْ رسولِ اللهِ، يُخبِرُ أنهُ كانَ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ زيدٌ، اسْتَأْذَنَ رسولَ اللهِ ﷺ في طلاقِها على ما يُطَلِّقُ الرجلُ امْرأتَهُ لِما يَمَلُّ منها بلا سَبَبٍ، يكونُ. فقالَ لهُ عندَ ذلكَ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ولا تُطَلِّقْ زوجَكَ بلا سَبَبٍ، يَسْتَوجِبُ بهِ الطلاقَ، لأنهُ لا يَسَعُ للرجلِ أنْ يُطَلِّقَ زوجَتَهُ بلا سَبَبٍ، يَحْمِلُهُ على الطلاقِ مِنْ تَضْييعِ حدودِ اللهِ وتَرْكِ إقامتِها أو مَعْنًى نَحْوِهِ. فأمّا بلا سَبَبٍ يكونُ في ذلكَ، فلا يَسَعُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: إليه وعلى آل، في م: إليه وعلى قول. (٨) في الأصل وم: أنعامهم.

أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي [أمْسِكْ عليكَ][١] تزوُّجها ﴿وَاتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في تَرْكِ تزوُّجِها، فيكونَ هو مأموراً بِنِكاحِها كما كانَتْ هي مأمورةً بتزويجِها نفسَها منهُ. فيقولَ: ﴿وَاتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في تَرْكِ الأمرِ للنَّبيِّ: ذلكَ في تَرْكِ ما نُدِبْتَ إليهِ، وأُمِرْتَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: بل تُخْفي في نفسِكَ حبَّها [وإعجابَكَ بها][٢] ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي ما اللهُ مُظْهِرُهُ في القرآنِ أي حُبَّها وتزوُّجَها.

وقالَ قائلونَ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ يا محمدُ: لَيتَهُ[٣] يُطلِّقُها ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي مُظْهِرُهُ عليكَ متى يُنْزِلُ بهِ قرآناً. لكنَّ هذا بعيدٌ مُحالٌ، لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ النبيُّ، يقولُ لزيدٍ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ثم يُخفي في نفسِهِ: لَيتَهُ[٤] يُطلِّقُها حتى يَتزوَّجَها هو.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ هذا القولُ نفسُهُ، هو الإبداءُ حينَ جعلَهُ آيَةً تُتْلَى بَعدَ ما أخفَى رسولُ اللهِ ﷺ شيئاً في نفسِهِ ما لو لا ذِكْرُ اللهِ إيّاهُ ذلكَ لم يَعْلَمِ الخَلْقُ أنهُ أخفَى شيئاً. ولا نَدري ما الذي أخفاهُ؟ [ولا نقولُ: إنَّ الذي أخفَى][٥] كذا وكذا وكذا إلّا بِخَبَرٍ، يَجيءُ عنهُ، فيقولُ: إني أخفَيتُ في نفسي كذا. فعندَ ذلكَ يَسَعُ. فأمّا على الوَهْمِ فلا نَقولُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي تَستَحْيِي [مِمّا يقولُ][٦] الناسُ: إنهُ[٧] تَزَوَّجَ امرأةَ ابنِهِ، وتَتْرُكُ نِكاحَها، واللهُ أحقُّ أنْ تَستَحْيِيَ منهُ في تَرْكِ أمرِهِ إيّاكَ بالنكاحِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي تَتَّقِي قالَةَ الناسِ؛ تَستَحْيِي منهمْ في أمرِ زينبَ وما أُعْجِبْتَ [بهِ مِنْ][٨] حُسْنِها وحُبِّها ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [في][٩] ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾][١٠] على الابْتِداءِ على غيرِ إلحاقٍ بالأوَّلِ في كلِّ أمرٍ وكلِّ شيءٍ كقولِهِ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي حاجةً أي جِماعاً.

فإنْ كانَ الجِماعُ، ففائدةُ ذِكْرِ الجِماعِ فيهِ لِيُعْلَمَ أنَّ حَليلةَ ابْنِ المُتَبَنَّى تَحِلُّ للرجلِ وأنَّ الوَطَرَ هو عقدُ النكاحِ والجِماعُ جميعاً، وإنْ كانَ كلُّ واحدٍ منهما سَبَبَ الحَظْرِ أوِ المَنْعِ في نكاحِ حَليلةِ ابْنِ الصُّلْبِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي قَضَى هِمَّةَ نفسِهِ، وبَلَغَ غايةَ ما هَمَّتْ نفسُهُ منها. فعندَ ذلكَ زَوَّجْناكَها.

ذُكِرَ أنَّ زينبَ بنتَ جحشٍ كانَتْ تَفْخَرُ على سائرِ أزواجِ النَّبيِّ، فتقولُ: زَوَّجَكُنَّ آباؤُكُنَّ رسولَ اللهِ ﷺ واللهُ زَوَّجَني نَبِيَّهُ [مِنْ][١١] فوقِ سَبْعِ سماواتٍ.

ففيهِ دلالةُ رسالتِهِ لأنهُ أخفَى في نفسِهِ ما كانَ يَخشَى قالَةَ الناسِ في ذلكَ، واستَحْيَى منهمْ. وفي العُرْفِ أنَّ مَنْ أخفَى شيئاً، يَستَحْيِي مِنَ الناسِ، إنْ ظَهَرَ عندَهُمْ، أنْ يَكْتُمَ ذلكَ عنِ الناسِ، ولا يُظْهِرَهُ.

فإذا كانَ رسولُ اللهِ، أظْهَرَ ما كانَ يَخشَى قالَةَ الناسِ فيهِ، ولم يَكْتُمْهُ مِنهمْ، دلَّ أنهُ رسولُ اللهِ، إذْ لو كانَ غيرَ رسولِهِ لَكَتَمَهُ، وأخفاهُ، ولم يُظْهِرْهُ، لِما ذَكَرْنا مِنَ العُرْفِ في الناسِ مِنْ كِتمانِ ما يَستَحْيُونَ منهمْ إذا ظَهَرَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ عمرَ وعائشةَ أنهما قالا: لو كانَ رسولُ اللهِ كاتِماً شيئاً مِنَ القرآنِ لَكَتَمَ هذهِ الآيةَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإعجابها. (٣) و(٤) في الأصل وم: ليت أنه. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: هي إليك. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ في الآيةِ دلالةُ لزومِ الاتِّباعِ لرسولِ اللهِ ﷺ في كلِّ ما يُخبِرُ، ويأمُرُ بهِ، وفي كلِّ فعلٍ يَفعَلُهُ في نفسِهِ إلّا في ما ظَهَرَتِ الخُصوصيَّةُ.

فأمّا في ما لم تَظهَرْ فَعلَى الناسِ اتِّباعُهُ في ما يُخبِرُ، ويَفعَلُ، لأنهُ قالَ: تَزوَّجَ امرأةَ دَعِيِّهِ، ثم قالَ: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ ولو كانَ يُخبِرُهُمْ بذلكَ خبراً لَحَلَّ لهم ذلكَ.

فَعلَى ذلكَ إذ فَعَلَ هو ذلكَ، وأخبَرَ[1] أنَّ ذلكَ: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ﴾ في مِثلِ فِعلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

[وفي قولِهِ: ﴿إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ وجهٌ آخرُ][2]: ذَكَرَ قَضاءَ الوَطَرِ منهنَّ لأنَّ مِنَ النساءِ مَنْ لا يَحرُمْنَ على بعضِ هؤلاءِ بالعَقْدِ، ولكنْ إنما يَحرُمْنَ بقضاءِ الوَطَرِ. ومنهنَّ منْ يَحرُمْنَ بالعِقْدِ نفسِهِ دونَ قَضاءِ الوَطَرِ.

فأخبَرَ أنَّ أزواجَ الأدعياءِ، وإنْ قَضوا منهنَّ الوَطَرَ، فإنهنَّ لا يَحرُمْنَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ أي ما كانَ بأمرِ اللهِ مَفعولاً. وكذلكَ ما قيلَ: الصلاةُ أمرُ اللهِ، أي بأمرِ اللهِ تكونُ [وإنْ كانتِ][3] الصلاةُ هي فعلَ العبادِ، فلا تكونُ أمْرَ اللهِ، ولكنْ بأمْرِ اللهِ.

فَعلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ أي ما يكون بأمرِ اللهِ مفعولاً. وكذا قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤] أي جاءَ ما يكونُ بأمرِ اللهِ، وهو العذابُ الذي أُوعِدوا، لأنَّ أمْرَ اللهِ لا يَجيءُ.

ثم يَحتَمِلُ ذلكَ وجهَينِ:.

أحدُهُما: التكوينُ بكونِهِ، فيكونُ مُكوَّناً كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

والثاني: على الإيجابِ واللُّزومِ أي ما يكونُ بأمرِ اللهِ يكونُ واجباً لازماً إذا أرادَ بهِ الإيجابَ والإلزامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ أي بيَّنَ اللهُ كقولِهِ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا/ ٤٢٩ ـ أ/ وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ [النور: ١].

[والثاني][5]: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ أي أوجبَ اللهُ عليهِ، أي حَرَّمَ، وفَرَضَ لهُ، أي أحَلَّ لهُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم: ٢] يَحتَمِلُ وجهَينِ: [البيانَ والإيجابَ][6] أي بيَّنَ لكُمْ [وأوجَبَ][7] تَحِلَّةَ أيمانِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هكذا كانتْ سُنَّةُ اللهِ في مَنْ كانَ قبلَهُ مِنَ الرسُلِ: داوُدَ وسُليمانَ، وهي[8] كَثرَةُ النساءِ، فليسَ[9] ذلكَ ببديعٍ في رسولِ اللهِ محمدٍ.

وفي كَثرَةِ نساءِ الرسلِ لهمْ آيةٌ عظيمةٌ، لأنهمْ آثَروا الفَقْرَ والضِّيقَ على السَّعَةِ والغِنَى[10]، وكَفُّوا أنفسَهُمْ عنْ جميعِ لذاتِها، وحَمَّلوا أنفسَهُمُ[11] الشدائدَ في العباداتِ والأمورِ العظامِ الثقيلةِ.

وهذهِ الأشياءُ كلُّها أسبابُ قَطعِ قَضاءِ الشهوةِ في النساءِ والحاجةِ فيهنَّ. فإذا لم تُقطَعْ تلكَ الأسبابُ عنهمْ دلَّ أنهمْ باللهِ قَوُوا عليها.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي كذلكَ كانتْ سُنَّةُ اللهِ في الذينَ [كانوا][12] قَبلَ محمدٍ؛ يَعْني داوُدَ النَّبِيَّ حينَ هَوِيَ المرأةَ التي فُتِنَ بها، فجمعَ اللهُ، تَبارَكَ، وتعالى، بَينَ داوُدَ وتلكَ المرأةِ. فكذلكَ يَجمَعُ بَينَ محمدٍ وبَينَ امرأةِ زَيدٍ؛ إذْ هَوِيَها كما فَعَلَ بداوُدَ، ولكنَّ هذا بعيدٌ.

وقيلَ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ أنهُ لا يُحرِّمُ[13] على أحدٍ في ما لم يُحرِّمْ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وفيه وجه أخر وقوله: ﴿إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾. (٣) في الأصل وم: وإلا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ويحتمل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهؤلاء. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الغنائم، في م: الغناء. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يخرج.

وجائزٌ أنْ تكونَ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ في حِلِّ نِكاحِ أزواجِ الأدعياءِ [في ما][1] يَحِلُّ لهمْ برسولِ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي ما كانَ بأمرِ اللهِ وتَقْديرِهِ ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الدَّعِيُّ [بالذي يُدَّعى][2] بعدَ ما يَكْبُرُ، والادِّعاءُ أنْ يكونَ الرجلُ، نَفَى وَلَدَهُ، ولم يَقْبَلْهُ، ثم ادَّعاهُ مِنْ بعدِ ذلكَ. هذا المعروفُ عندي. وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] أي ما يَتَمَنَّوْنَ ويَشْتَهونَ. ويُقالُ: ظَلِلْنَا اليومَ في ما ادَّعَينا، أي وَجَدْنا كلَّ ما اشْتَهَينا. يُقالُ: مِنْ هذا: ادَّعَيتُ أدَّعي ادِّعاءً. وقالَ: الوَطَرُ: الحاجةُ، والأوطارُ جَمْعٌ. والخِيَرَةُ: أي خُيِّرَتْ إليهمُ الخِيَرَةُ، وهو مِنْ قولِكَ: أيَّ شيءٍ تختارُ؟ ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي لم يَجْعَلْ إليكمْ إنْ شِئْتُمْ لم تَفْعَلوا. والقُنوتُ في الأصلِ: القيامُ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقولُ أهلُ التأويلِ: هو محمدٌ خاصّةً: فمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: إنْ كانَ هو المرادَ بهِ أنهُ في ما تَزَوَّجَ حَليلَةَ دَعِيِّهِ زيدٍ مُبَلِّغُ رسالاتِ ربِّهِ حينَ[3] قالَ: ﴿لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾. وتبليغُ الرسالةِ يكونُ مَرَّةً بالخَبَرِ والقولِ، ومَرَّةً بالفِعْلِ، يُلْزِمُ الناسَ في اتِّباعِهِ في فِعْلِهِ كما يُلْزِمُ في خَبَرِهِ وأمْرِهِ إلّا في ما ظَهَرَتْ لهُ الخصوصيّةُ في فِعْلٍ ما.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ همُ الأنبياءُ الذينَ قالَ [فيهمْ][4]: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ بَعْثِهِمْ، وقالَ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾. فَسُنَّةُ اللهِ في محمدٍ كَسُنَّةِ أولئكَ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ في ما ذَكَرَ: ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَخشَونَ اللهَ في تَرْكِ تبليغِ الرسالةِ، ولا يَخشَونَ أحداً سِواهُ في التبليغِ. ويكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بِمَعْنَى سِواهُ على المُبالَغَةِ في الأمرِ. وإلّا لو قالَ: ولا تَخشَونَ أحداً كافياً أي لا يَخشَونَ في ما يُبَلِّغونَ. لكنْ يَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا ألّا يَخشَوا أحداً في ما يُبَلِّغونَ سِواهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بما يُصيبُهُمْ مِنَ الأذى والبَلاءِ بالتَّبليغِ. يقولُ: لا يَرَونَ ذلكَ مِنْ أولئكَ، ولكنْ بتقديرٍ مِنَ اللهِ إيّاهُ، وإلّا كانوا يَخافونَ مِنْ أولئكَ. ألا تَرى [ما قالَ موسى وأخوهُ][5]: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾؟ [طه: ٤٥] [وما][6] قالَ موسى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ وقالَ[7]: ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣ و٣٤] ونَحْوَهُ؟

أو أنْ يكونوا[8] في الابْتِداءِ خافوهُمْ، ثم أمَّنَهُمُ اللهُ، فلم يَخافوا، حينَ[9] قالَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ قيلَ: شهيداً على تَبليغِ الرسالةِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ أُبُوَّةً، تَحْرُمُ بها حلائلُ الأبناءِ، ولكنْ[10] كانَ هو أباً لجميعِ المؤمنينَ حينَ[11] قالَ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. إذا كانَتْ أزواجُهُ أمهاتِنا فهو أبٌ لنا على ما ذَكَرْنا.

لكنَّ التأويلَ فيهِ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أُبُوَّةً تَحْرُمُ بها حلائلُ الأبناءِ، ولكنْ أُبُوَّةُ التعظيمِ لهُ والتَّبجيلِ، وأُبُوَّةُ الشَّفَقَةِ والرَّحمةِ، وهو ما قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية [الحجرات: ٢].

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: انهم قالوا. (٦) في الأصل وم: وحيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يكون. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وإلا. (١١) في الأصل وم: حيث.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهما](١): أولَى أنْ يُعظَّمَ، ويُكرَّمَ، ويُشرَّفَ، لِقولِهِ(٢): ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

والثاني: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أشفَقُ عليهِمْ، وأرحَمُ بهمْ مِنْ أنفسِهِمْ، وهو ما وَصَفَهُ، جلَّ، وعلا، مِنْ رحمَتِهِ حينَ قالَ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [يُخرَّجُ](٣) على وجهَينِ:

أحدُهما: في حقِّ الانْتِسابِ إليهِ، أي ليس هو أبا أحدِكُمْ، يُنْسَبُ إليهِ، ويُدْعَى بِهِ، لأنهُ ذُكِرَ أنهُمْ يقولونَ(٤): زيدُ بْنُ محمدٍ. إنه [لا](٥) يجوزُ لِلنَّبِيِّ، ولا يجوزُ النسبةُ إليهِ ولا التَّسْمِيَةُ بِهِ لِقولِهِ(٦): ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

والثاني: في حقِّ الكرامةِ؛ كأنهُ قالَ: ليسَ هو أبا أحَدِكُمْ في حُرْمَةِ حلائِلِ الأبناءِ عليهِ أبناءِ(٧) النبي ولا في حقِّ النسبةِ، وإنْ كانَ هو أباً لكمْ في الشفقةِ والرحمةِ والرأفةِ على ما ذَكَرْنا بَدْءاً ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ في(٨) التعظيمِ لهُ والتبجيلِ في المُعاملةِ والمُصاحبةِ أو في الدَّعْوَةِ والتَّسْمِيَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أخبرَ [أنهُ](٩) ليسَ بأبي أحدٍ مِنْ رجالِكُمْ على ما ذَكَرْنا ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ لئلا يُعامِلوا رسولَهُ معاملةَ آبائِهِمْ، ولا يُصاحِبوهُ صُحْبَةَ غَيرِهِ، ولكنْ لِيُعامِلوهُ(١٠) مُعامَلَةَ الرسلِ في التعظيمِ لهُ والتَّبْجِيلِ والإكرام، لأنَّ أبُوَّتَهُ وشَفَقَتَهُ دِينيَّةٌ [وأبُوَّةَ الآباءِ وشَفَقَتَهُمْ](١١) دُنياوِيَّةٌ، ولأنَّ الرجلَ قد يَنْبَسِطُ مع والدِهِ في أشياءَ لا تَسَعُ مِثْلُها(١٢) معَ رسولِهِ ﷺ ولذا قالَ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي خَتَمَ بِهِ الرسالةَ، لا نَبِيَّ بَعْدَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَهُ، وأخْبَرَهُ(١٣) أنهُ خاتَمُ النَّبِيِّينَ لِما عَلِمَ، جَلَّ، وعلا، أنهُ يُسَمَّى غَيْرُهُ بَعدَهُ نبيًّا على ما قالَتْهُ الباطِنِيَّةُ: إنَّ قائمَ الزمانِ هو نَبِيٌّ. فأخبَرَ بهذا أنَّ مَنِ ادَّعى ذلكَ لا يُطالَبُ بالحُجَّةِ والدَّلالةِ، ولكنهُ يُكَذَّبُ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا نَبِيَّ بَعْدي» [مسلم ١٨٤٢] أخبَرَ أنَّ بِهِ خَتَمَ النُّبُوَّةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي لم يَزَلِ اللهُ بِما كانَ ويكونُ وبِما بِهِ صَلاحُهُمْ عليماً.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ إنَّ(١٤) أهلَ التأويلِ يقولونَ: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ حالٍ وفي كلِّ وقتٍ ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ باللسانِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ أمْرِهِ بالذِّكْرِ كثيراً أي اذْكُروا نِعَمَهُ لِتَشكُروا لهُ، واذْكُروا أوامِرَهُ لِيُؤْتَمَرَ، ونواهِيَهُ ومَناهِيَهُ لِيُنْتَهَى، ومَواعيدَهُ لِيُخافَ، وعِداتِهِ لِيُرْغَبَ، واذكُروا عَظَمَتَهُ وجلالَهُ وكبرياءَهُ لِيُهابَ ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي دائماً تَذْكُرونَ ما ذَكَرْنا لِيكونَ ما ذَكَرْنا؛ إذْ إنما يكونُ ذلكَ بالذِّكْرِ، واللهُ أعلَمُ /٤٢٩ ـ ب/.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البُكْرَةُ، هي خَتْمُ الليلِ وابْتِداءُ النهارِ، والأصيلُ، هو خَتْمُ النهارِ وابْتِداءُ الليلِ. فكأنهُ أمَرَ بالذكْرِ لهُ والخَبَرِ في ابْتِداءِ كلِّ ليلٍ وخَتْمِهِ وابْتِداءِ كلِّ نهارٍ وانْقضائِهِ لِيَتَجاوَزَ عنهمْ، ويُعْفَى ما يكونُ منهمْ مِنَ الزَّلاتِ في خِلالِ ذلكَ. [وعلى ذلكَ](١٥) ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ «مَنْ صَلَّى العشاءَ الأخيرةَ والفَجْرَ بالجماعةِ فكأنما أحْيَى لَيلَتَهُ» [بنحوه مسلم ٦٥٦].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: من كقوله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يدعونه ويسمونه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: كقوله. (٧) في الأصل وم: الأبناء. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ما ذكرنا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعاملوه. (١١) في الأصل وم: وشفقة. (١٢) في الأصل وم: مثله. (١٣) في الأصل وم: وأخباره. (١٤) في الأصل وم: أما. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ ليسَ على إرادةِ البُكْرَةِ والأصيلِ، ولكنْ على إرادةِ كلِّ وقْتٍ وكلِّ حالٍ؛ ليسَ مِنْ وقتٍ ولا مِنْ حالٍ إلّا وللهِ على عبادِهِ شُكْرٌ وصَبْرٌ؛ الشكرُ لِنَعْمائِهِ، والصَّبْرُ على مَصائِبِهِ.

وقالَ بعْضُهُمْ: الأمْرُ بالذِّكْرِ لهُ بالبُكْرَةِ والأصيلِ، هو[1] الصلَواتُ الخمسُ؛ مِنَ الظهرِ إلى آخِرِ الليلِ أصيلٌ؛ فتدخُلُ فيهِ صَلَواتُ الظهرِ والعَصْرِ والمَغْرِب والعِشاءِ، وفي البُكْرَةِ صلاةُ الفَجْرِ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أمّا صلاةُ اللهِ، فهي[2] الرحمةُ والمَغْفِرَةُ، وصلاةُ الملائكةِ الاسْتِغْفارَ وطَلَبُ العِصْمَةِ والنجاةِ كقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ الآية [غافر: ٧] وقولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية [غافر: ٨] وقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

جائزٌ أنْ يكونَ [الاسْتغْفارِ للمؤمنينَ][3] خاصّةً، وجائزٌ أنْ يكونَ للكلِّ: الكافِرِ والمؤمنِ[4]، فإنْ كانَ هذا فيكونُ اسْتِغْفارُهُمْ طلَبَ الأسبابِ التي بها يَسْتَوجِبونَ المَغْفِرَةَ، وهو الهُدَى، كقولِ هودٍ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] وقولِ نوحٍ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] لا يَحْتَمِلُ أنْ يَسْتَغْفِروا، وهمْ كفارٌ، ولكنْ يطلبونَ منهُ التوبةَ عنِ الكُفْرِ، لِيَسْتَوْجِبوا[5] المغفرةَ.

وكذلكَ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لهُ، وهو كافرٌ، ولكنْ كانَ يطلبُ لهُ مِنَ اللهِ أنْ يَجْعَلَهُ بحيثُ يَسْتَوجِبُ المغفرةَ والرحمةَ، وهو الهُدَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: رَحِمَهُمْ حينَ[6] أخرجَهُمْ مِنْ أصلابِ آبائهمْ قَرْناً فَقَرْناً إلى أنْ بَلَغوا، وجائزٌ إخراجُهُ إيّاهُمْ مِنْ ظلماتِ الكُفْرِ إلى نورِ الهُدَى بدعاءِ الملائكةِ واسْتِغْفارِهِمْ لهمْ ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ لم يَزَلِ اللهُ بالمؤمنينَ رحيماً.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ تحيةُ الملائكةِ، عليهِمْ سلامٌ، كقولِهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] وتحيةُ بعضِهِمْ على بعضٍ سَلامٌ، لا غيرُ، ليسَتْ كَتَحِيَّتِهِمْ في الدنيا: أطالَ اللهُ بَقاءَكَ، وكيفَ حالُكَ؟ ونَحْوَ ما يقولونَ في الدنيا، ويَسْألُ بَعضُهُمْ بَعْضاً عنْ أحوالِهِمْ: يقولُ: ليسَتْ تحيةُ أهلِ الجنةِ ذاكَ، ولكنْ سَلامٌ كقولِهِ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥ و٢٦]. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ صَواباً وسَداداً، لا غيرَ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ليسَ أنْ يقولوا: سَلامٌ عليكُمْ، ولكنْ يقولونَهُ قولاً صَواباً وسَداداً، لا يُقابِلونَهُمْ بِمِثْلِ ما خاطَبوهُمْ. فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي صَوابٌ مِنَ الكلامِ وسَدادٌ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي حَسَناً.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿شَٰهِدًا﴾ على تبليغِ الرسالةِ، يَشْهَدُ لهمْ بالإجابةِ لهُ[7]، إذا أجابوهُ، ويَشْهَدُ عليهِمْ، إذا رَدُّوهُ، وخالَفوهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿شَٰهِدًا﴾ على أُمّتِكَ بالتصديقِ لهمْ. وقيلَ: ﴿شَٰهِدًا﴾ عليهِمْ بالبَلاغِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي يُبَلِّغُ إليهِمْ ما تكونُ لهمُ البِشارةُ إنْ أطاعوهُ، ويُبَلِّغُ إليهِمْ أيضاً ما يَسْتَوجِبونَ بهِ النِّذارةَ، إذا خالَفوهُ.

والبِشارةُ، هي إخبارٌ عنِ الخَيراتِ التي تكونُ في عواقِبِ الأمورِ الصالحةِ، والنِّذارةُ إخبارٌ عنْ أحزانٍ تكونُ في عَواقِبِ الأمورِ السَّيِّئةِ، أو نَحْوُهُ مِنَ الكلامِ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيدِ اللهِ أو دارِ السلامِ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] أو إلى ما يَدْعو اللهُ إليهِ. وقولُهُ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ قيلَ: بأمْرِهِ.

---

(١) في الأصل وم: هي. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: المؤمنين. (٤) في الأصل وم: أو المؤمن. (٥) من م، في الأصل: يستوجبون. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: لهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وجَعَلْناكَ سِراجاً مُنيراً. فالسراجُ المُنيرُ، هو الرسولُ على هذا التأويلِ. وقالَ بعضُهُمْ: السراجُ المُنيرُ، هو القرآنُ؛ يقولُ: أرسَلْناكَ داعياً إلى اللهِ وإلى السراجِ المُنيرِ، وهو هذا.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ فيهِ دلالةُ أنَّ البِشارةَ إنما تكونُ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ، لا إنهمْ يَسْتوجِبونَ بأعمالِهِمْ شيئاً مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هذا قد ذَكَرْناهُ في أوَّلِ السورةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ أعْرِضْ عنهمْ، ولا تُكافِئْهُمْ بما يؤذونَكَ، ويَحْتَمِلُ[1]: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [أي اصْبِرْ على أذاهُمْ][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعتمِدْ باللهِ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كَفى باللهِ مُعْتَمَداً، ويَحْتَمِلُ[3]: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حافِظاً أو مانعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[4] ذُكِرَ أنَّ رجلاً جاءَ إلى ابْنِ عباسٍ، فقالَ: كانَ بيني وبينَ عمتي كلامٌ، فقلتُ: يومَ أتزَوَّجُ ابنتَكِ فهي طالِقٌ ثلاثاً. فقالَ: تَزَوَّجْها، فهي لكَ حَلالٌ، أما تَقْرَأُ هذهِ الآيةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية؟ فَجَعَلَ الطلاقَ بعدَ النكاحِ. وليسَ في الآيةِ مَنْعُ وقوعِ الطلاقِ إذا أضافَهُ على ما بَعدَ النكاحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[5] تحتَمِلُ المُماسَّةُ الجِماعَ أي مِنْ قَبْلِ أنْ تُجامِعوهُنَّ، ويَحتمِلُ مِنْ قَبْلِ أنْ تدخُلوا بهنَّ المكانَ الذي تَماسّوهُنَّ، وإلّا لو دَخَلَ بها المكانَ الذي يَماسُّها، ثم طَلَّقَها وَجَبَ لها نصفُ الصَّداقِ؛ ويَدُلُّ على ذلكَ قولُ اللهِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١] والإفضاءُ ليسَ هو الجِماعَ نفسَهُ، ولكنْ: الدُّنُوُّ منها، والمَسُّ باليَدِ أو شِبْهُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ هذا يدلُّ على أنَّ العِدَّةَ مِنْ حَقِّ الزوجِ عليها حينَ[7] قالَ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ ولا يجوزُ أنْ يَجْمَعَ بينَ أختينِ في مالَهُ مِنْ حقٍّ.

فَعَلى ذلكَ ليسَ لهُ أنْ يَجْمَعَ بينَ الأختينِ في حقِّ العِدَّةِ التي لهُ قِبَلَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذهِ المُتْعَةُ مَنْسوخةٌ بالآيةِ التي ذَكَرَ في سورةِ البقرةِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ[9] وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [الآية: ٢٣٧].

وقالَ بعضُهُمْ: هي التي وَهَبَتْ نفسَها بِغَيرِ صَداقٍ. فإنْ لَمْ يَجِبِ الصَّداقُ وَجَبَتِ المُتْعَةُ.

وعندَنا إنْ كانَ سَمّى لها صَداقاً فليسَ لها إلّا نِصْفُ الصَّداقِ، ولا تَجِبُ عليهِ المُتْعَةُ وجوبَ حكمٍ، لكنْ إنْ فَعَلَها، ومَتَّعَها فهو أفضلُ وأحْسَنُ. وإنْ كانَ لم يَفْرِضْ لها صَداقاً، ثم[10] طَلَّقَها قَبْلَ الدخولِ بها، فهي واجبةٌ على قَدْرِ عُسْرِهِ ويُسْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ/ ٤٣٠ ـ أ/ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: السَّراحُ الجميلُ، هو أنْ يُمَتِّعَها إذا سَرَّحَها.

وقالَ بعضُهُمْ: السَّراحُ الجميلُ هو أنْ يَبْذُلَ لها الصَّداقَ. وقالَ بعضُهُمْ: السَّراحُ الجميلُ، هو أنْ يقولَ: لا تُؤذوهنَّ بألسِنَتِكُمْ إذا سَرَّحْتُموهُنَّ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو أن يقول. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو أن يقال. (٤) في الأصل: تماسوهن، وهي قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٢٩. (٥) في الأصل: تماسوهن، وهي قراءة، انظر الحاشية السابقة. (٦) و(٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: تماسوهن، انظر معجم القراءات القرآنية ج ١/ ١٨٣. (١٠) في الأصل وم: حتى.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يَحتمِلُ هذا وجهَين:

أحَدُهما: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي ضَمِنْتَ أجورَهُنَّ، وقَبِلْتَ. ويكونُ الإيتاءُ عبارةً عنِ القَبولِ والضَّمانِ.

وذلكَ جائزٌ نحوُ قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٥] هو على القَبولِ [والضَّمانِ][1]: تأويلُهُ: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ وقَبِلوا[إقامةَ الصلاةِ وإيتاءَ][2] الزكاةِ: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ ليسَ على فعْلِ الإيتاءِ بنفسِهِ، إذْ لا يَجِبُ إلّا بَعْدَ حَوَلانِ الحَولِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩] ليسَ على نفسِ الإعطاءِ ولكنْ حتى يَقْبَلوا الجِزْيَةَ؛ إذِ الإعطاءُ إنما يَجِبُ إذا حالَ الحَولُ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي قَبِلْتَ أُجورَهُنَّ، وضَمِنْتَ.

والثاني: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ﴾ هنَّ لكَ إذا ﴿ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي قَبِلْتَ.

مَعْناهُ: إنا أحْلَلْنا لكَ إبقاءَهُنَّ إذا آتَيتَ أجورَهُنَّ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ المَهْرَ قد يُسَمَّى أجراً، فيكونُ قولُهُ: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] أي مهورَهُنَّ. فيكونُ الاسْتِمْتاعُ بهنَّ اسْتِمْتاعاً في النكاحِ.

فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ فيكونُ الخُلوصُ لهُ بلا أجْرٍ لا بلَفْظَةِ الهِبَةِ، لأنهُ ذُكِرَ على إثْرِ ذِكْرِ حِلِّ أزواجِهِ بالأجْرِ. كأنهُ قالَ: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وأحلَلْنا لكَ أيضاً امرأةً ﴿مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ بِغَيرِ أجْرٍ، لأنَّ خُلوصَ الشيءِ إنما يكونُ إذا خَلَصَ لهُ بلا بَدَلٍ ولا مُؤْنَةٍ.

فأمّا أنْ يكونَ الخُلوصُ بلفظةٍ دونَ لفظةٍ فَلا.

وبَعْدُ فإنهُ قد ذَكَرَ في آخِرِ الآيةِ ما يَدُلُّ على [ما][3] ذَكَرْنا. وهو قولُهُ: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ دلَّ هذا أنَّ خُلوصَ تلكَ المرأةِ لهُ بَعْدَ ما[4] ذَكَرَ هذا لهُ خَرَّجَ مُخْرَجَ الامْتِنانِ عليهِ. فلا مِنَّةَ لهُ عليهِ في لفظةِ الهِبَةِ، إذْ ليستِ المِنَّةُ[5] في لفظةِ التَّزْويجِ، فيقولُ[6]: وهَبْتُ[7] مكانَ قولِهِ: زَوَّجْتُ.

دَلَّ أنَّ المِنَّةَ لهُ عليهِ في ما صارَتْ لهُ بلا مَهْرٍ لا في لفظةِ الهِبَةِ.

[ويَحْتَمِلُ][8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ في الآخِرَةِ، أي لا تَحِلُّ لأحدٍ سِواكَ إذا تَزَوَّجْتَها، وصارَتْ مِنْ أزواجِكَ.

فأمّا أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ بلفظةِ الهِبَةِ فلا؛ إذْ لا فَرْقَ بينَ أنْ يقولَ: وَهَبْتُ وبينَ أنْ يقولَ: زَوَّجْتُ.

وبَعْدُ فإنَّ كثيراً منَ الصحابةِ وأهلِ التأويلِ مِنْ نَحْوِ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ وابْنِ عباسٍ وغَيرِهما ﵃، لم يَفْهَموا مِنْ قولِهِ: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ﴾ بلفظةٍ دونَ لفظةٍ حتى رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﵄ أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ هنَّ المَوهوباتُ. فما بالُ الشافِعِيِّ في فَهْمِ ذلكَ ما ذُكِرَ؟

وبَعْدُ فإنهُ ليسَ مِنْ عَقْدٍ إلّا وهو يَحْتَمِلُ الانْعِقادَ بلفظةِ الهِبَةِ مِنَ البِياعاتِ والإجاراتِ وغَيرِها. فَعَلَى ذلكَ النكاحُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إيتاء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) في الأصل وم: تلك.
(٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرجت في الأصل وم بعد: قولِهِ. (٨) في الأصل وم: أو.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي قد أحلَلْنا لكَ ممّا مَلَكَتْ يمينُكَ، وأحلَلْنا لكَ أيضاً ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ ثم جائزٌ أنْ يكونَ حِلُّ بناتِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الأعمامِ والأخوالِ للناسِ بهذهِ الآيةِ، لأنهنَّ لم يُذكَرْنَ في المُحَرَّماتِ في سورةِ النساءِ، فيكونُ ذِكْرُ حِلِّهِنَّ لرسولِ اللهِ ﷺ ذِكراً للناسِ كافَّةً كما كانَ ذِكْرُ حِلِّ نِكاحِ حليلةِ زيدِ بنِ حارثةَ لهُ حِلاً للناسِ في أزواجِ حلائلِ [أدعيائِهِمْ حينَ][١] قالَ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، أو أنْ تكونَ مَعْرِفَةُ حِلِّ نكاحِ[٢] بناتِ الأعمامِ والعماتِ ومَنْ ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] إذْ ذَكَرَ المُحَرَّماتِ في الآيةِ [السابقةِ][٣] على إبلاغِ ما كانَ بِنَسَبٍ وما كانَ بِسَبَبٍ. ثم قالَ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ فيكونُ ما وراءَ المَذكوراتِ مُحَلَّلاتٍ بظاهِرِ الآيةِ إلّا ما كانَ في مَعْنَى المذكوراتِ في الحُرْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنْ قولِهِ: ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ الهجرةَ معَهُ حتى لا يَتَقَدَّمْنَ، ولا يَتأخَّرْنَ. بل دَخَلَ في قولِهِ ﴿مَعَكَ﴾ مَنْ هاجَرَ منهنَّ مِنْ قبلُ ومِنْ بَعْدُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما فرضْنا على الناسِ في أزواجِهِم، وهُنَّ أربعةُ نِسوَةٍ، لا تَحِلُّ الزيادةُ على الأربعِ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وهنَّ الجَواري والخَدَمُ، يُجوِّزُ الزيادةَ على ذلكَ، وإنْ كَثُرْنَ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ ممّا فَرَضَ اللهُ ألّا يَتزوَّجَ الرجلُ إلّا بِوَليٍّ ومَهْرٍ وشهودٍ. إلّا النَّبيَّ خاصَّةً فإنَّهُ يجوزُ لهُ أنْ تَهَبَ المرأةُ نفسَها بِغَيرِ وَلِيٍّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ فَرَضْنا أي بَيَّنّا ما يجوزُ وما لا يجوزُ، أي بَيَّنَ ذلكَ في الأزواجِ، أو فَرَضْنا أوجَبْنا عليهِمْ في أزواجِهِمْ مِنَ الأحكامِ والحقوقِ ونَحْوِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

عنِ الحَسَنِ [أنهُ][٤] قالَ: كانَ النبيُّ ﷺ، إذا خَطَبَ امرأةً لم يكُنْ لأحدٍ أنْ يَخطُبَها حتى يَدَعَها النَّبيُّ[٥]، وإذا تركَ خِطْبَتَها كانَ لغيرِهِ أنْ يَخطُبَها، أو كلامٌ نَحوُهُ. فَيُصْرَفُ تأويلُ الآيةِ إلى ما ذَكَرْنا. وكذلكَ كانَ يقولُ قَتادةُ: إنَّ الآيةَ في الخِطْبَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا في قِسْمَةِ الأيامِ بَينَهُنَّ؛ كانَ يُسَوّي بَيْنَهُنَّ بِقَسْمِهِنَّ[٦]، فوسَّعَ اللهُ عليهِ في ذلكَ، فأحَلَّ لهُ، فقالَ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي مَنْ نسائِهِ، أي تَتْرُكُ مَنْ تشاءُ منهنَّ، فلا تَأتِيها ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فَتَأْتِيها ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يقولُ: مِمَّنِ اخترْتَ مِنْ نِسائكَ أنْ تأتيَها، فَعَلْتَ.

فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ على تركِ القَسْمِ إذا عَلِمْنَ أنَّ اللهَ قد جَعَلَ ذلكَ حَلالاً، وأنزَلَ فيهِنَّ الآيةَ ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إذا عَلِمْنَ أنَّ الرخصةَ جاءَتْ مِنَ اللهِ تعالى لهُ، كانَ [ذلكَ][٧] أطيَبَ لأنفسِهِنَّ وأقلَّ لِحُزْنِهِنَّ مِنْ تركِهِ[٨].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ أزواجَ رسولِ اللهِ ﷺ، اللائي كُنَّ تحتَهُ خَشِينَ أنْ يُطَلِّقَهُنَّ، فَقُلْنَ: يا رسولَ اللهِ اقْسِمْ لنا مِنْ نفسِكَ ومالِكَ ما شِئْتَ، ولا تُطَلِّقْنا. فنَزَلَ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تَعْتَزِلُ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أنْ تَعتَزِلَها[٩] بِغَيرِ طلاقٍ ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ﴾ أي تَرُدُّ، وتَضُمُّ ﴿مَن تَشَآءُ﴾ منهنَّ إليكَ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في تَرْكِ نكاحِ ما أباحَ لهُ مِنَ القَراباتِ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الإقدامَ على نكاحِ مَنْ يشاءُ ما أباحَ لهُ مِنَ القَراباتِ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ وفي الإقدامِ على نكاحِ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ لأنهُ على إثْرِ ذلكَ ذُكِرْنَ: يقولُ:/ ٤٣٠ ـ ب/ ﴿تُرْجِي

---

(١) في الأصل وم: النبي حيث. (٢) من م، في الأصل: النكاح. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: أو يتزوجها. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قسمين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ترك ذلك. (٩) في الأصل وم: تعتزلن.

﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ يَعْني مِنْ بَناتِ العمِّ والعمةِ والخالِ والخالةِ، فلا تَتَزَوَّجُها ﴿وَتُئْوِيٓ إِلَيْكَ﴾ أي تَضُمُّ إليكَ ﴿مَن تَشَآءُ﴾ منهنَّ، فَتَتزوجُها(١).

فنقولُ: خَيَّرَ اللهُ رسولَهُ في نِكاحِ القَرابةِ؛ فذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ﴾ فَتَتَزَوَّجُها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ منهنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي لا حَرَجَ عليكَ في ذلكَ ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ يقولُ: أجْدَرُ وأحْرَى ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي النساءُ اللاتي عندَكَ، واخْتَرْنَهُنَّ ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ إذا عَلِمْنَ [أنكَ](٢) لا تَتَزَوَّجُ عليهِنَّ ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ مِنَ النفقةِ، وكانَ في نَفَقَتِهِنَّ قِلَّةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ذلكَ حينَ خَيَّرَهُنَّ رسولُ اللهِ بَيْنَ اختِيارِ الدنيا وزينتِها وبَيْنَ اختِيارِ رسولِ اللهِ والدارِ الآخِرَةِ، فاخْتَرْنَ رسولَ اللهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إذا اخْتَرْنَ المُقامَ عندَ رسولِ اللهِ والدارَ الآخِرَةِ فذلكَ(٣) ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ مِنْ قِلَّةِ النَّفَقَةِ والجِماعِ ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ مِنَ النَّفَقَةِ وغيرِهِ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ مِنَ النفقةِ والرِّضا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾:

قالَ قائلونَ: مِنْ بَعْدِ اختِيارِهِنَّ رسولَ اللهِ والدارَ الآخِرَةَ لأنَّ اللهَ تعالى لمّا خَيَّرَهُنَّ بَيْنَ اختِيارِ [الدنيا](٤) وزينَتِها وبَيْنَ اختِيارِ رسولِ اللهِ والدارِ الآخِرَةِ، فاخْتَرْنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخِرَةَ، قَصَرَهُ اللهُ عليهِنَّ، فقالَ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي مِنْ بَعْدِ اختِيارِهِنَّ المُقامَ مَعَكَ ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

فإنْ [كانَ](٥) على هذا فَيَخْرُجُ الحَظْرُ والمَنْعُ مَخْرَجَ الجزاءِ لهنَّ والمُكافآتِ لِما اخْتَرْنَهُ على الدنيا وما فيها(٦) لئلا يُشْرِكَ غَيْرَهُنَّ في قَسْمِهِنَّ منهُ.

ورُوِيَ عنْ عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: اشْتَرَطْنا على رسولِ اللهِ ﷺ، لَمّا اخْتَرْناهُ والدارَ الآخِرَةَ ألّا يَتَزَوَّجَ علينا ولا يُبَدِّلَ بنا مِنْ أزواجٍ. ثم اسْتَثْنى ما مَلَكَتْ يمينُهُ لأنهنَّ لاحظَّ لهنَّ في القَسْمِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي مِنْ بَعْدِ المُسْلِماتِ كتابياتٍ لا يهودِيّاتٍ ولا نَصْرانِيّاتٍ؛ ألّا تَتَزَوَّجَ يهودِيَّةً ولا نَصْرانِيَّةً، فتكونَ مِنْ أمهاتِ المؤمنينَ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي لا بأسَ أنْ تَشْتَرِيَ اليهودِيَّةَ والنصرانِيَّةَ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ حظْرُ الكتابياتِ [على رسولِ](٧) اللهِ لِما ذَكَرَ خاصَّةً.

وأمّا المؤمنونَ فإنهُ أباحَ لهمْ نِكاحَ الكِتابيّاتِ بقولِهِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] فيكونُ حِلُّ الكِتابيّاتِ للمؤمنينَ دونَ النبيِّ بإزاءِ الزيادةِ والفَضْلِ الذي كانَ يَحِلُّ لرسولِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي مِنْ بَعْدِ المَذكوراتِ المُحَلَّلاتِ لهُ في الآيةِ التي قَبْلَ هذهِ الآيةِ مِنْ بَناتِ العمِّ والعَمّاتِ وبَناتِ الخالِ والخالاتِ. يقولُ: لا يَحِلُّ لكَ النساءُ سِوَى مَنْ ذَكَرَ أنْ تَتَزَوَّجَهُنَّ عليهنّ، ولا [تُبَدِّلَ بهنَّ](٨) ولو أعجبَكَ حُسْنُهُنَّ إلّا ما مَلَكَتْ يَمينُكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ﴾ [في الخَلْقِ](٩) أنْ تَتَزَوَّجَ عليهِنَّ بَعْدَ اختِيارِهِنَّ لكَ والدارَ الآخِرَةَ على الدنيا وما فيها مِنَ الزينةِ.

[ويَحْتَمِلُ](١٠) أنْ يكونَ على التحريمِ نفسِهِ في الحكْمِ. وليسَ لنا أنْ نُفَسِّرَ أيَّ تَحْريمٍ أرادَ: تَحريمَ الحَظْرِ والمَنْعِ في الخَلْقِ أو تَحْريمَ الحكْمِ لأنَّ ذلكَ كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ، وقد كانَ عرَّفَهُ أنهُ ما أرادَ بذلكَ، والاشْتِغالَ بهِ فَضْلٌ.

---

(١) في الأصل وم: فتزوجها. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إن. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: قبلها. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لرسول. (٨) في م: تبديلهن. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: أو.

والتبديلُ بهنّ يُحتَملُ في التطليقِ؛ يُطلِّقُهنّ، فيَتزوّجُ غيرَهُنّ، ويَحتَمِلُ بالمَوتِ إذا مِتْنَ أيضاً. لم يُحِلَّ لهُ أنْ يَنكِحَ غيرَهنّ [بالتطليقِ أو الموتِ][1] واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تَحبِسُ مَنْ تَشاءُ منهنّ، ولا تَقرَبُها.

وقالَ القُتَبيُّ: تُرجي أي تُؤخِّرُ، يُقالُ: أرجَيْتُ الأمرَ، وأرجَأتُهُ، أي أخّرتُهُ، وكذلكَ قالوا في قولِهِ تعالى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] وقالَ بعضُهُمْ: احبِسْهُ، وقالَ بعضُهُمْ: أخِّرْهُ، وقولُهُ: ﴿وَتُؤْوِىٓ إِلَيْكَ﴾ أي تَضُمُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي حَفيظاً. وقيلَ: شاهداً.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ يَحتَمِلُ النّهيُ وجهَين:

أحَدُهما: لا تَدخُلوا بيوتَ النّبيِّ بِغَيرِ إذْنٍ كما يدخُلُ الرجلُ على أمِّهِ، وإنْ كُنَّ هُنَّ كالأمهاتِ لكمْ، بِغَيرِ إذنٍ.

فيكونُ النّهيُ عنِ الدخولِ في بيتِهِ نَهياً عنِ الدخولِ بِغَيرِ إذْنٍ كقولِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ [النور: ٢٧].

والثاني[2]: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ ضَيفاً ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إلا أنْ تُدعَوا إلى طعامٍ لأنَّ رسولَ اللهِ، كانَ إذا هَيّؤوا لهُ شيئاً مِنَ الطعامِ دعا أصحابَهُ، فيأكلونَه. وكانَ لا يُمسِكُ، ولا يَدَّخِرُ فَضلَ الطعامِ لوقتٍ آخرَ. فإذا نَزَلَ بِهِ ضَيفٌ، ولم يكُنْ عندَهُ ما يُقَدِّمُ إليهِ، استَحْيى، وشَقَّ عليهِ ذلكَ. فَنُهُوا عنِ الدُّخولِ عليهِ والنُّزولِ بهِ ضَيفاً لِما ذَكَرْنا، وأُمِروا بالانْتِظارِ إلى أنْ يُدْعَوا إلى الطعامِ. فعندَ ذلكَ يدخلونَ عليهِ، ويُضَيِّفونَهُمْ[3].

فإنْ كانَ الأوّلَ ففيهِ الأمرُ بالحجابِ والنّهيُ عنِ الدخولِ بِلا اسْتِئذانٍ. وإنْ كانَ الثانيَ ففيهِ النّهيُ عنِ النُّزولِ بهِ ضَيفاً قَبْلَ أنْ يُدْعَوا لِما ذَكَرْنا.

ويكونُ الأمرُ بالحجابِ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ هذا لأنَّ أُناساً كانوا يَتَحَيّنونَ طعامَ رسولِ اللهِ، وغِذاءَهُ، فإذا حَضَرَ دَخلوا عليهِ بِغَيرِ إذْنٍ، فَجَلَسوا في بيتِهِ يَنتَظِرونَ نُضجَ الطعامِ وإدراكَهُ. فَنُهُوا عنْ ذلكَ. وكانوا إذا أكلوا، وفَرَغوا منهُ، جَلَسوا في بيتِهِ يَتَحدَّثونَ، ويَستأنِسونَ، فَنُهُوا عنْ ذلكَ، وأُمِروا بالانْتِشارِ، والخُروجِ مِنْ عندِهِ وعندِ نسائِهِ. ولم يكُنَّ يَحتَجِبْنَ قَبلَ ذلكَ منهمْ. فشَقَّ ذلكَ على النّبيِّ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمرُ بالانْتِشارِ والخروجِ مِنْ عِندِهِ لِما كانَ لرسولِ اللهِ أُمورٌ وعباداتٌ يَحتاجُ إلى القيامِ بها، إمّا بَينَهُ وبَينَ اللهِ، وإمّا[4] بَينَهُ وبَينَ غَيرِهِمْ مِنَ الناسِ، فكانوا يُشغِلونَهُ عَنْ ذلكَ [فَنُهوا عنْ ذلكَ][5] لِذلكَ وإمّا[6] لِما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ الحاجةِ لهُ في أزواجِهِ والخَلْوَةِ بهِنَّ وقْتَ القَيلولةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ الدخولَ عليهِ بِغَيرِ إذْنٍ، أوِ الانْتِظارَ لِنُضجِ الطعامِ وإدراكِهِ، أو الجلوسَ بَعْدَ فَراغِهِمْ مِنَ الطعامِ والحديثَ، أو ما كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ورسولُ اللهِ أيضاً كانَ لا يَستَحْيي مِنَ الحقِّ. لكنهُ يَستَحْيي أنْ يقولَ لهمْ: اخرُجوا مِنْ مَنزِلي، ولا تَدخُلوا عليَّ، ونَحوَهُ لِما يُقبِّحُ ذلكَ في الخَلْقِ: أنْ يقولَ الرجلُ لآخرَ: لا تَدخُلْ مَنزِلي، أوِ اخرُجْ مِنْ مَنزِلي، لِما يَرجِعُ ذلكَ إلى دناءةِ الأخلاقِ والبُخْلِ.

فلَمّا أنزَلَ اللهُ تعالى الآيةَ، وأمَرَ أنْ يقولَ لهم ما ذُكِرَ، قالَ لهمْ، وأخبرَهُمْ بذلكَ، فلمْ يَستَحْيِ عندَ ذلكَ لما صارَ ذلكَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: ويضيفونه. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أو.

منْ حقِّ الدِّينِ فَرْضاً عليهِ لازماً أنْ يُعَلِّمَهُمُ الآدابَ، ويُخْبِرَ عمّا يَلْزَمُهُمْ مِنْ حقِّ الدِّينِ، وكانَ قَبْلَ ذلكَ في حَقِّ المُلْكِ وحقِّ النفسِ. فلّما أنْزَلَ اللهُ الآيةَ، وأمَرَ بذلكَ، صارَ مِنْ حَقِّ الدِّينِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ اعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يَدَعُ، ولا يَتْرُكُ أنْ يُعَلِّمَهُمُ الحقَّ والأدبَ، وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ المَعْنَى الذي يكونُ أطْهَرَ [لِقلوبِ الرجالِ غيرَ المَعْنَى الذي يكونُ أطْهَرَ][1] لقلوبِهِنَّ. ذلكَ المَعْنَى الذي يكونُ أطْهَرَ لِقُلوبِهِمْ مِنَ الفُجورِ والهَمِّ لِقَضاءِ الشَّهْوَةِ وما تَدْعوهُ النفسُ إليهِ، وأطهرَ لقلوبِهِن مِنَ العَداوةِ والضغينَةِ لا الفُجورِ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ.

وذلكَ أنهنَّ [قد عَرَفْنَ أنهنَّ][2] لا يَحْلِلْنَ لِغيرِهِ نِكاحاً لِما اخْتَرْنَهُ والدارَ الآخِرَةَ على الدنيا وزينَتِها، وقد أوعِدْنَ بارتِكابِ الفاحشةِ العذابَ ضِعْفَينِ على ما ذَكَرَ[3] وذلكَ يَمْنَعُهُنَّ، ويَزْجُرُهُنَّ عنِ ارْتِكابِ ذلكَ.

فإذا كانَ كذلكَ؛ فإذا عَرَفْنَ مِنَ الداخِلينَ عليهِنَّ والناظرينَ اليهِنَّ نَظْرَةَ شَهْوَةٍ وَقَعَ في قلوبِهِنَّ لهمُ العَداوةُ / ٤٣١ ـ أ/ والضَّغينَةُ. ويكونُ[4] السؤالُ مِنْ وراءِ الحجابِ أطْهَرَ لقلوبِكُمْ مِنَ الفُجورِ والرِّيبَةِ وأطْهَرَ لقلوبِهِنَّ من العداوةِ والضَّغينَةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

[ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المَعْنَى][5] واحداً، وهو الرِّيبةُ والفُجورُ لِما مَكَّنَ فيهِنَّ مِنَ الشَّهَواتِ، ورَكَّبَ فيهِنَّ مِنْ فُضَلِ الدَّواعي إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ أزواجَ الرسولِ، لمّا احْتَجَبْنَ بعدَ نزولِ آيةِ الحِجابِ والنَّهيِ[6] عنِ الدخولِ عليهِنَّ والنَّظَرِ إليهِنَّ، قالَ رجلٌ: أنُنْهَى أنْ ندخُلَ على بَناتِ عَمِّنا وبَناتِ عَمّاتِنا وبَناتِ خالِنا وبَناتِ خالاتِنا؟ أما واللهِ لئِنْ ماتَ لأتَزَوَّجَنَّ فُلانةَ، وذَكَرَ[7] امرأةً مِنْ نسائِهِ. فَنَزَلَ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي لا يَحِلُّ لكمْ ﴿أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ لكنَّ هذا قبيحٌ، لا يَحْتَمِلُ أنْ [يكونَ أحدٌ][8] مِنَ الصحابةِ يقولُ ذلكَ، أو واحدٌ مِمَّنْ صَفَا إيمانُهُ، وحَسُنَ إسلامُهُ، يَخْطُرُ[9] ببالِهِ ذلكَ، إلّا أنْ يكونَ مُنافقاً.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ﴾ في ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ ابْتِداءَ نَهْيٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ في نِكاحِ أزواجِهِ، فيكونُ أذاهُمْ رسولَ اللهِ في نِكاحِ أزواجِهِ مِنْ بَعدِهِ.

ولو كانَ لا يُحِلُّ أزواجَهُ للناسِ لِما يَذْكُرُ بعضُ أهلِ التأويلِ لأنهنَّ أمهاتٌ لم يَحْتَجْ إلى النَّهْيِ عنْ نِكاحِهِنَّ بعدَهُ؛ إذْ لا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ نِكاحِ الأمِّ.

ولكنْ كانَ [لا][10] يُحِلُّ لهمْ ذلكَ؛ وكانَ المَعْنَى في ذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ التعظيمِ والاحْتِرامِ، حتى نَهاهُمْ عنْ نِكاحِ أزواجِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وجَعَلَهُ في حُرْمَةِ أزواجِهِ على غيرِهِ بَعدَ وفاتِهِ، كأنهُ حَيٌّ.

وكذلكَ جَعَلَهُ[11] في حَقِّ مالِهِ ومُلْكِهِ في مَنْعِ الميراثِ لِوارِثِهِ، كأنهُ حيٌّ، لم يَرِثْ مالَهُ وارثُهُ، بل جَعَلَهُ[12] باقياً أبداً على مُلْكِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) وهو قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. (٤) في الأصل وم: ويقول. (٥) من نسخة الحرم المكي، في م: أو أن يكون ذلك، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: ونهوا. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أحداً. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: إن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) و(١٢) في الأصل وم: جعل.

[وكذلكَ جَعَلَهُ][١] في حقِّ الرسالةِ والنُّبوّةِ، كأنهُ حيٌّ؛ لم تُنسَخْ شَريعتُهُ بَعْدَ وَفاتِهِ بِشَريعةٍ أُخرَى كما نُسِخَتْ شَريعةُ الأنبياءِ الذينَ كانوا قَبْلَهُ، وماتوا[٢]، بِشَريعةٍ أُخرَى، بل جَعَلَهُ، كأنهُ حيٌّ، في إبقاءِ شَريعتِهِ إلى يومِ القيامةِ.

فَعَلَى ذلكَ جَعَلَهُ[٣] في أزواجِهِ، كأنهُ حيٌّ، في حُرْمَةِ أزواجِهِ في الآخِرَةِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ تأويلُ قولِهِ عندنا ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] أي هي لكَ خالصةٌ، لا تَحِلُّ لأحدٍ بَعْدَكَ. فتكونُ زوجَهُ[٤] في الجنةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ يَحتَمِلُ أذى رسولِ اللهِ ونِكاحَ أزواجِهِ عندَ اللهِ عظيماً، أو عظيماً في العقوبةِ عندَ اللهِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي تُبْدوا شيئاً، أو تُخفوهُ عنهمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي ما أبْدَيتُمْ، وأخفَيتُمْ ﴿عَلِيمًا﴾ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ. يَذْكُرُ هذا ليكونوا على حَذَرٍ وخوفٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ أي لا حَرَجَ، ولا مَأْثَمَ، على النساءِ في دخولِ مَنْ ذَكَرَ عليهنَّ بِلا إذْنٍ ولا حِجابٍ مِنْ ﴿ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ ذَكَرَ هؤلاءِ، ولم يَذْكُرِ الأعمامَ ولا الأخوالَ. فقالَ بعضُهُمْ: إنما لم يَذْكُرْ هؤلاءِ، ولم يُبِحْ لهمْ في ذلكَ لأنهنَّ يَحْلُلْنَ بالنِّكاحِ لأولادِ الأعمامِ والأخوالِ؛ فإذا دخلوا عليهنَّ، فَرَأوهُنَّ مُتَجَرِّداتٍ مُتَزَيِّناتٍ، فَيَصِفونَهُنَّ لأولادِهِمْ، وقد يَصِفُ الرجلُ لولدِهِ حُسْنَ المرأةِ وقُبْحَها، فَيَنْزِلُ وصفُهُ إيّاهُنَّ لأولادِهِ مَنْزِلَةَ رؤيتِهِنَّ[٥] بأنفسِهِمْ، فَيَزيدُ لهمْ رَغْبَةً فيهنَّ أو رَغْبَةً[٦] عنهنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما لم يَذْكُرِ الأعمامَ والأخوالَ لِما في ذِكْرِ المذكورِ مِنْ بَني الإخوةِ وبَني الأخواتِ غِنًى عنْ ذِكْرِ الأعمامِ والأخوالِ لأنهمْ جميعاً مِنْ جِنْسٍ واحدٍ ومِنْ نوعٍ واحدٍ في مَعْنًى واحدٍ.

وقد يُكْتَفَى بِذِكْرِ[٧] طَرَفٍ مِنَ الجِنْسِ، إذا كانَ في مَعْنَى المذكورِ، نَحْوَ ما ذَكَرَ مِنْ أجناسِ المُحَرَّماتِ على الإبلاغِ، وتَرَكَ مِنْ كلِّ جِنْسٍ شيئاً لم يَذْكُرْهُ؛ إذِ الذي لم يَذْكُرْهُ في مَعْنَى المَذْكورِ.

ففي ذِكْرِ مَنْ ذَكَرَ غِنًى عنِ الذي لم يَذْكُرْ. فَعَلَى ذلكَ في ذِكْرِ بَني الإخوةِ وبَني الأخواتِ غِنًى عَنْ ذِكْرِ الأعمامِ والأخوالِ إذْ هُمْ في مَعْناهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لم يُبِحِ الدخولَ للأعمامِ والأخوالِ لأنهمْ إذا دخلوا عليهنَّ، فَرَأوهُنَّ مُتَجَرِّداتٍ، فَلَعَلَّ بَصَرَهُمْ، يَقَعُ على فُروجِهِنَّ، فَيَنْظُرُ إليها بِشَهْوَةٍ، فَيَحْرُمْنَ على أولادِهِمْ، وهُمْ إذا تَزَوَّجوهُنَّ، لم يَعْلَموا أنهنَّ مُحَرَّماتٌ عليهِمْ، فَمَنَعَ دخولَ الأعمامِ والأخوالِ عليهنَّ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي النساءِ[٨] المسلماتِ؛ يقولُ: خَصَّ النساءَ[٩] المسلماتِ، وأباحَ لهنَّ الدخولَ عليهنَّ بلا إذْنٍ وأنْ يَرَيْنَهُنَّ مُتَزَيِّناتٍ، ولم يُبِحْ ذلكَ لليَهودياتِ والنَّصرانياتِ وأمثالِهِنَّ مَخافَةَ أنْ يَصِفْنَ ذلكَ لأهلِ دينِهِنَّ، فيكونَ ذلكَ سَبَبَ افْتِتانِهِمْ بهنَّ والرَّغْبَةِ بهنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ نساؤهُنَّ قَراباتُهُنَّ، خَصَّ هؤلاءِ مِنْ بَينِ غيرِهِنَّ مِنَ الأجنبياتِ. وذلكَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا مِنْ خَوفِ وَصْفِ الأجنبياتِ لأزواجِهِنَّ والمتَّصِلينَ بهنَّ مِنْ حُسْنِهِنَّ وزينَتِهِنَّ إذا رَأَيْنَهُنَّ مُتَجَرِّداتٍ مُتَزَيِّناتٍ، ولا يُخافُ ذلكَ مِنْ قَراباتِهِنَّ.

والثاني: خَصَّ القَراباتِ لِما بِهِنَّ ابْتِلاءٌ، وليسَ بالأجنبياتِ ذلكَ. وقد يُخَفَّفُ الحُكْمُ ربّما في ما فيهِ الابْتِلاءُ، ويُغَلَّظُ في ما هو أخَفُّ منهُ أو دونَهُ[١٠]، إذا لم يَكُنْ فيه ابْتِلاءٌ.

---

(١) في الأصل وم: أزواجه وكذلك جعل. (٢) في الأصل وم: إذا ماتوا. (٣) في الأصل وم: جعل. (٤) في م: زوجته. (٥) في الأصل وم: رؤيتهم.
(٦) في الأصل وم: رهبة. (٧) من م، في الأصل من ذكر. (٨) في الأصل وم: نساء. (٩) في الأصل وم: نساء. (١٠) في الأصل وم: ودونه.

وعلى ذلكَ جائزٌ أنْ يُقالَ: إنَ الأعمامَ والأخوالَ لم يَذْكُرْهُمْ[1] في الآيةِ، والرخصةَ لأنهُ ليسَ بهمُ ابْتِلاءٌ، وبِمَنْ ذَكَرَ ابْتِلاءٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يَحتمِلُ الإماءَ خاصَّةً كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥ و٦، والمعارج ٢٩ و٣٠] لم يَفْهَموا منهُ سِوَى الإماءِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ المَفهومُ مِنَ[2] قولِهِ: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ الإماءَ.

ويَحتمِلُ الإماءَ والعَبيدَ جميعاً. فإنْ كانَ على الإماءِ والعبيدِ جميعاً، فذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ[3] أباحَ الدخولَ للعبيدِ على مَوليَاتِهِمْ بلا إذنٍ، لأنهمْ إنما يدخلونَ عليهنَّ عندَ حاجاتِهِنَّ إليهمْ في أوقاتٍ مَعْلومةٍ، وهنَّ في تلكَ الأوقاتِ، يكُنَّ مُتأهِّباتٍ لدخولِهِمْ عليهنَ مُحْتَجِباتٍ عنهُمْ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ مارُوِيَ أنَّ مُكاتَباً لعائِشةِ أمِّ المؤمنينَ ﵂، كانَ يدخُلُ عليها. فلمّا أدَّى، فَعُتِقَ، مَنَعَتْهُ مِنَ الدخولِ عليها، وهو لِما ذَكَرْنا أنهُ كانَ يدخُلُ عليها لِوَقْتِ حاجَتِها إليهِ، وهي كانت متأهِبَةً لدخولِهِ عليها. إلّا لا يُحْتَمَلُ أنْ يدخُلَ عليها، ويَراها مُتَجَرِّدَةً أو مُتَزيِّنَةً بعدَ ما أُمِرْنَ بالاحتِجابِ.

فَعَلَى ذلكَ العبيدُ، لا يَحِلُّ لهمُ النَّظَرُ إلى مَوليَاتِهِمْ، ولا يكونونَ مَحْرَماً لهنَّ. وإنِ احْتَمَلَتِ[4] الآيةُ العبيدَ فهمْ بالإذنِ يدخُلونَ لا بِغَيرِ إذنٍ، فيكونُ الإذْنُ مُضمَراً فيهِ.

ثم قولُهُ[5] تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ في ما ذَكَرَ مِنْ إباحةِ دخولِ مَنْ لم يُبِحْ [دخولَهُ عليكُنَّ والنَّظرِ إليكُنَّ][6] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾. هذا تَحْذيرٌ وَوَعيدٌ لهنَّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ ذُكِرَ في بعضِ الحديثِ أنهُ لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ / ٤٣١ ـ ب/ قيلَ [لَهُ][8]: يا رسولَ اللهِ هذا لكَ، فما لنا. فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] [قد بَيَّنَ ما صلاتُهُ، وصلاةُ الملائكةِ، وهو ما ذَكَرَ مِنْ إخراجِهِمْ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ][9] وهو دُعاؤهُمْ إلى الهُدَى والرُّشْدِ.

وذُكِرَ عنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ [أنهُ][10] قالَ: لمّا نَزَلَ [قولُهُ:][11] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ قُمْتُ إليهِ: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ: السلامُ قد عَرَفْناهُ، فكيفَ الصلاةُ عليكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنكَ حَميدٌ مجيدٌ. وبارِكْ على محمدٍ وعلَى آل محمدٍ كما بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيم إنكَ حميدٌ مجيدٌ» [البخاري: ٣٣٧٠].

ففي الآيةِ الأمْرُ للمؤمنينَ أنْ يُصَلُّوا على النَّبِيِّ. ثم لمّا سُئِلَ هو عن كيفيَّةِ الصلاةِ عليهِ وماهِيَّتِها[12] قالَ لهمْ: أنْ تقولوا: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ، وهو سؤالُ أنْ يَتولّى الرَّبُّ الصلاةَ عليهِ.

وفي ظاهِرِ الآيةِ هُمُ المَأمورونَ بِتَوَلِّي الصلاةِ بأنفسِهِمْ عليهِ [لكنهُ، صلواتُ اللهِ عليهِ][13] لمّا أُمِروا بالصلاةِ عليهِ، وهي الغايةُ مِنَ الثناءِ، لَمْ يَرَ في وُسْعِهِمْ وطاقَتِهِمُ القِيامَ بِغايةِ ما أُمِروا بهِ مِنَ الثناءِ عليهِ، فأمَرَهُمْ[14] أنْ يَكِلوا ذلكَ إلى اللهِ، ويُفَوِّضوا إليهِ، وأنْ يَسْألوهُ لِيَتَوَلّى ذلكَ هو دونَهُمْ لِما [لم][15] يَرَ في وُسْعِهِمُ القِيامَ بغايةِ الثناءِ عليهِ. وإلّا ليسَ في ظاهِرِ الآيةِ سؤالُ الرَّبِّ أنْ يُصَلِّيَ هو عليه، ولكنْ فيها الأمرُ: أنْ صَلُّوا أنتمْ عليهِ، و اللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ: [ﷺ][16]: «كما صَلَّيتَ، وبارَكْتَ على إبراهيمَ وآلِهِ» تَخصيصُ إبراهيمَ مِنْ بَينِ غَيرِهِ[17] مِنَ الرسلِ، يَحْتَمِلُ ما

---

(١) في الأصل وم: يذكر. (٢) في الأصل وم: في. (٣) في الأصل وم: احتمل. (٤) في الأصل وم: احتمل. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) في الأصل وم: دخول عليهن والنظر إليهن. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وماهيته. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: غيرهم.

ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ أنهُ ليسَ [أحدٌ](١) مِنْ أهلِ دِينٍ ومَذْهبٍ إلّا وهو يَدَّعي، ويَزْعُمُ، أنهُ على دِينِهِ ومَذْهبِهِ وأنهُ يَتَأسّى بهِ. لذلكَ خَصَّهُ بالصلاةِ عليهِ مِنْ بَينَ غَيرِهِ(٢) مِنَ الأنبياءِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا لهذا، ولكنْ لِمَعْنًى كانَ فيهِ وفي سِرِّيَّتِهِ لا نَعْرِفُهُ نحنُ، فَخَصَّهُ بذلكَ مِنْ بَينِ غَيرِهِ(٣)، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: [ﷺ](٤): «وبارِكْ على محمدٍ» البَرَكَةُ، كأنه اسْمُ كلِّ خَيرٍ، يكونُ أبداً على النَّماءِ والزِّيادةِ في كلِّ وقتٍ. وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ما قيلَ في صلاةِ اللهِ عليهِمْ وصلاةِ الملائكةِ وصلاةِ المؤمنينَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ في اليهودِ حينَ قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] و(٥) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وفي النَّصارى حينَ قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] و(٦) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وفي مُشْرِكي العَرَبِ حينَ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، والأصنامُ آلهةٌ، ونَحْوَ ذلكَ، [وفي](٧) أذاهُمْ رسولَ اللهِ حينَ شَجُّوهُ، وكَسَروا رُباعِيَّتَهُ، وقالوا: إنهُ مجنونٌ، وإنهُ ساحرٌ وأمثالَ ذلكَ.

فأنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقولُ: عَذَّبَهُمُ اللهُ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

فأمّا تَعذيبُهُ إيّاهُمْ في الدنيا فَقَتْلُهُمْ(٨) بالسيفِ؛ يَعْني مُشْرِكي العَرَبِ [وتعذيبُ](٩) أهلِ الكتابِ بالجزيةِ إلى يومِ القيامةِ. وفي الآخِرَةِ النارُ.

وقالَ بعضُهُمْ قريباً مِنْ ذلكَ: إنَّ الذينَ يُؤذونَ اللهَ ورسولَهُ، هُمْ أصحابُ التصاويرِ، فَلَهُمْ ما ذَكَرَ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي يَتَّهِمُونَ فيهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: [قولُهُ](١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هُمُ الذينَ قَذَفوا عائشةَ بِصَفوانَ؛ آذَوا رسولَ اللهِ في زوجتِهِ عائشةَ حين قَذَفوها(١١)، وهي بريئةٌ مِمّا [قَذَفوها بهِ](١٢) وقولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ صفوانَ وعائشةَ.

وقالَ بعضُهُم: نَزَلَتْ في عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ، فَعَلَى هذا عذابُهُمْ في الدنيا الجلدُ، وفي الآخِرَةِ النارُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا الوعيدُ في قاذِفِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ بِغَيرِ ما اكْتَسَبَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إضافةُ الأذى إلى اللهِ على إرادةِ رسولِهِ خاصّةً، لأنَّ اللهَ لا يجوزُ أنْ يُقالَ إنهُ يَتَأذّى بِشيءٍ، أو يُؤذيهِ شيءٌ، لأنَّ الأذى ضَرَرٌ يُلْحَقُ، واللهُ، يَتَعالى عن أنْ يَلْحَقَهُ ضَرَرٌ أو نَفْعٌ، بل هو القاهرُ الغالبُ القادرُ الغَنِيُّ بذاتِهِ. ويكونُ المُرادُ بإضافةِ الأذى إليهِ رسولَهُ خاصّةً على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي يُخادِعونَ رسولَهُ، أو يُخادِعونَ أولياءَهُ، لأنَّ اللهَ لا يُخادَعُ [وهو](١٣) كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد ٧] أي تَنْصُروا دينَ اللهِ يَنْصُرْكُم، أو إنْ تَنْصُروا رسولَهُ وأولياءَهُ يَنْصُرْكُمْ. وأمثالُ ذلكَ كثيرٌ في القرآنِ؛ نَسَبَ ذلكَ إلى نفسِهِ على إرادةِ أوليائِهِ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ، وباللهِ العِصْمَةُ والتوفيقُ، إلّا أنْ يريدَ بالأذى؛ أعني ما ذَكَرَ مِنْ أذى اللهِ، المَعْصِيَةَ، فهو جائزٌ، وكذلكَ ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، [أنهُ](١٤) قالَ: «مَنْ آذاني فقد آذى اللهَ» [الترمذي ٣٨٦٢] أي مَنْ عَصاني فقد عَصَى اللهَ.

وفي الآيةِ بَيانُ وقوعِ المُرادِ على الاختِلافِ والتَّفاوُتِ مِنْ لَفْظٍ واحدٍ، لأنهُ ذَكَرَ ههنا أذى رسولِ اللهِ، وعقَّبَ الوعيدَ الشديدَ مِنَ اللعنِ والعذابِ في الدنيا والآخِرَةِ، وذَكَرَ في الآيةِ التي قَبْلَها حينَ(١٥) قالَ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ .. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وما ذَكَرَ مِنَ الأذى.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) و(٣) في الأصل وم: غيرهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: وأنه.
(٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قذفوا.
(١٢) في الأصل وم: قذفوا. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث.

ثم لا شكَّ أنَّ المَفهومَ مِنْ هذا الأذى المَذكورِ في هذهِ الآيةِ غَيرُ المَفهومِ مِنَ الأذى المَذكورِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وأنَّ أحدَهُما مِنَ المؤمِنينَ والآخَرَ مِنَ الكُفّارِ، وإنْ كانَ ظاهِرُ اللفظِ في المَخرجِ واحداً.

وكذلكَ المَفهومُ مِنَ الظُّلْمِ الذي ذَكَر في قولِهِ: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] غَيرُ المَفهومِ مِنَ الظُّلْمِ الذي قالَ آدمُ [وحوّاءُ][1]: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

والمَفهومُ مِنَ الضَّلالِ الذي قالَ موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] غَيرُ المَفهومِ مِنْ ضَلالِ فرعَونَ وسائرِ الكَفَرَةِ.

ومِثْلُ هذا كثيرٌ، لا يَجِبُ أنْ نَفهَمَ مِنْ أمثالِ هذا شيئاً واحداً، وإنْ كانَ اللفظُ لَفظاً واحداً، ولكنْ على اختِلافِ المَوقِعِ.

وفي الآيةِ دلالةُ عِصمَةِ رسولِ اللهِ وألّا يكونَ منهُ ما يَستَحِقُّ الأذى بِحالٍ. وقد يكونُ مِنَ المؤمِنينَ والمؤمناتِ ما يَستوجبونَ الأذى، ويَستَحِقّونَهُ حينَ[2] ذَكَرَ الأذى لِرسولِ اللهِ مُطلَقاً مُرسَلاً غَيرَ مُقَيَّدٍ بشيءٍ حينَ[3] قالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وذَكَرَ أذى المؤمِنينَ مُقَيَّداً بِشَرطِ الكَسْبِ حينَ[4] قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾.

فَدَلَّ شَرْطُ الكَسْبِ على أنهمْ قد يَكْتَسِبونَ ما يَستَحِقُّونَ الأذى، ويكونُ منهمْ ما يَستوجِبونَ ذلكَ.

وأمّا الرسولُ فلا يكونُ منهُ ما يَستَحِقُّ ذلكَ، أو يُوجِبُ لهُ. ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

واللَّعْنُ هو الطَّرْدُ في اللغةِ؛ طَرَدَهُمْ مِنْ رحمتِهِ، وبَعَّدَهُمْ عنها.

والبُهْتانُ: قيلَ: هو أنْ يُقالَ ما ليسَ فيهِ [وقولُهُ][5] ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] قيلَ: تَحَيَّرَ، وانْقَطَعَ حِجاجُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ نَزَلَ في قومٍ هَمُّهُمُ الزِّنَى بالإماءِ، وكانتِ الحرائرُ يومئذٍ يَخرُجْنَ بالليلِ [فَيَطَّلِعْنَ][6] على أذى الإماءِ. فكانَ ذلكَ يُؤذيهِنَّ[7]، ويَتَأَذَّينَ بذلكَ جداً، فَشَكَونَ[8] ذلكَ إلى رسولِ اللهِ في ذلكَ، فَنَزَلَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾.

ثم أُمِرْنَ عندَ / ٤٣٢ ـ أ/ ذلكَ بإدناءِ الجِلْبابِ وإرخائِهِ عليهِنَّ لِيُعرَفْنَ أنهنَّ حرائرُ، ونُهِينَ أنْ يَتَشَبَّهْنَ بالإماءِ لئلا يُؤذَيْنَ.

الآية ٥٩ وهو قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ هذا في نساءِ المُهاجِرينَ؛ وذلكَ أنَّ المُهاجِرينَ قَدِموا إلى المدينةِ، وهي ضَيِّقَةٌ، ومَعَهُمْ نساؤهُمْ، فنزلوا معَ الأنصارِ في ديارِهِمْ، فَضاقَتِ الدُّورُ عليهِمْ. فكانتِ النساءُ يَخرُجْنَ بالليلِ إلى البَرّازِ، فَيَقْضِينَ حوائِجَهُنَّ هنالكَ، فَكانَ المُريبُ يَرصُدُ النساءَ بالليلِ، فيأتيها، فَيَتَعَرَّضُ لها.

وإنما كانوا يطلبونَ الولائدَ والإماءَ، فلم تُعرَفِ الأمةُ مِنَ الحُرَّةِ بالليلِ لأنَّ زِيَّهُنَّ كانَ واحداً يومئذٍ، فَذَكَرَ نساءُ المؤمنينَ ذلكَ إلى أزواجِهِنَّ، وما يَلْقَينَ بالليلِ مِنْ أهلِ الريبةِ والفُجورِ، فَذَكَروا ذلكَ لرسولِ اللهِ ﷺ، فَنَزَلَ فيهمْ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

أَمَرَ الحرائرَ بإرخاءِ الجِلْبابِ وإسدالِهِ عليهِنَّ ليكونَ عَلَماً بَينَ الحرائرِ والإماءِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) و(٣) و(٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يؤذيهم. (٨) في الأصل وم: فشكوه.

ورُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ أنَّ جاريةً مَرَّتْ مُتَقَنِّعَةً، فضَرَبَها بالدِّرَّةِ، وقالَ: اكْشِفي قِناعَكِ، ولا تَتَشَبَّهي بالحرائرِ.

وأمَرَ الإماءَ بكشفِ ما ذَكَرَ، والحَرائرَ بسَتْرِ ذلكَ.

وقد أمَرَ الحرائرَ في سورةِ النورِ بِضَرْبِ الخُمُرِ على الجُيوبِ بقولِهِ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [الآية: ٣١]. لئلا تَظْهَرَ الزينةُ التي على الجيوبِ، ونُهِينَ أنْ يُظْهِرْنَ، ويُبْدِينَ زينتَهُنَّ للأجْنَبِيِّينَ إلّا ما ظَهَرَ منها.

وأُمِرْنَ في هذهِ الآيةِ بإرخاءِ الجِلْبابِ وإسدالِهِ عليهِنَّ لِيُعْرَفْنَ أنهُنَّ حَرائرُ، فلا يُؤْذَيْنَ بما ذَكَرْنا.

ثم اخْتُلِفَ في الجِلْبابِ: قالَ بعضُهُمْ: هو الرِّداءُ، والجَلابيبُ الأرْدِيَةُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ: أُمِرْنَ أنْ يَلْبَسْنَ الأرْدِيَةَ والمُلاءَ.

وقال أبو عَوسَجَةَ: الجَلابيبُ المَقانِعُ، الواحِدُ: جِلْبابٌ؛ يُقالُ: تَجَلْبَبي أي تقَنَّعي، وهو الذي يكونُ فوقَ الخِمارِ.

وفي الآيةِ دلالةُ رُخْصَةِ خُروجِ الحَرائرِ لِلْحوائجِ، لأنهُ لو لم يُجِزْ لهنَّ الخروجَ لم يُؤْمَرْنَ بإرخاءِ الجِلبابِ على أنفسِهِنَّ. ولكنْ نَهاهُنَّ عنِ الخُروجِ [بِغَيْرِ جلبابٍ][(١)] فَدَلَّ أنهُ يجوزُ لهنَّ الخُروجُ للحاجةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عمّا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعَرُّضِ للنساءِ بالزِّنَى والفُجورِ بهِنَّ، وأنهمْ هُمُ الفاعِلونَ لذلكَ بهِنَّ.

وأمّا المُسْلِمونَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَتَعَرَّضوا لشيءٍ مِنْ ذلكَ الفِعْلِ[(٢)]، فقالَ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ومَنْ ذَكَرَ عنْ ذلكَ يَفْعَلْ بهمْ ما ذَكَرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ أهلَ النفاقِ كانوا يُرْجِفونَ أخبارَ العدوِّ، ويُذيعونَها، ويقولونَ: قد أتاكُمْ عَدَدٌ وعُدَّةٌ مِنَ العَدُوِّ كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] كانوا يُجَبِّنونَهُمْ، ويُضَعِّفونَهُمْ، لئلا يَغْزوا أولئكَ الكَفَرَةَ؛ يُسِرّونَ النفاقَ والخِلافَ لهمْ، ويُظْهِرونَ الوِفاقَ، يُسِرّونَ في ما بَيْنَهُمْ، ويَتَناجَوْنَ الإثْمَ والعُدوانَ ومَعْصِيَةَ الرسولِ، فَنُهوا عنْ ذلكَ حينَ[(٣)] قالَ: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩] فَنُهوا عنْ ذلكَ.

فقالَ ههنا: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عن صَنيعِهِمْ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لَنُسَلِّطَنَّكَ عليهِمْ. [وقالَ بعضُهُمْ: لَنَحْمِلَنَّكَ عليهِمْ][(٤)]، وقالَ بعضُهُمْ: لَنُولِعَنَّكَ بهِمْ. وكانَ الإغراءُ هو التَّخْلِيَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ حتى يُقابِلَهُمْ بالسيفِ، ويَقْتُلَهُمْ، وكانَ قَبْلَ ذلكَ يُقابِلُهُمْ باللسانِ، ولم يأمُرْهُ بالمُقاتَلَةِ بالسيفِ إلى هذا الوقتِ.

الآية ٦١ [وقولُهُ تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾][(٥)] أخبَرَ أنهمْ مَلْعونونَ ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي مَطْرودونَ أينما وُجِدوا، ولأنَّ اللَّعْنَ، هو الطَّرْدُ، ﴿أُخِذُوٓا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ وأنهمْ يُقْتَلونَ تَقْتيلاً، وأنهمْ ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في ما لا تَعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هُمُ الزُّناةُ، والمنافقونَ [هُمُ المنافِقونَ][(٦)]، والمُرْجِفونَ، لَيسوا بِمُنافقينَ، ولكنهمْ قومٌ كانوا يُحِبّونَ أنْ يُفْشوا الأخبارَ، ويُقالُ للإرجافِ: هو تَشْييعُ الخَبَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُنافقُ، هو الذي كانَ معَ الكَفَرَةِ في السِّرِّ حقيقةً، والذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ، هو الذي في قَلْبِهِ رَيْبٌ واضطِرابٌ، لم يَكُنْ مع الكَفَرَةِ لا سِرّاً ولا ظاهراً، والذي بَيْنَ الكافِرِ والمُنافِقِ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ السالفةِ الإهلاكُ مِنَ الكُفّارِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الوقت. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في أهلِ النفاقِ مِنَ الأُمَمِ السالفةِ ما ذُكِرَ في هؤلاءِ.

وقالَ مقاتلٌ: ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ في أهلِ بَدْرٍ حينَ أُسِروا، وقُتِلوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ السؤالُ عنها ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حينَ[1] قالَ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧ والنازعات: ٤٢] وعنْ قيامِها، فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ففيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ رسولِهِ، لأنهُ حينَ سُئِلَ عنها، فَوَّضَ أمْرَها وعِلْمَها إلى اللهِ على ما أَمَرَهُ[2] بهِ.

ولو كانَ غيرَ رسولِ اللهِ لكانَ يُجيبُهُمْ، عَلِمَ، أو [لم][3] يَعْلَمْ على ما يَفعَلُهُ طُلّابُ الرئاسةِ [في الدنيا إذا سُئِلوا عَنْ شيءٍ قالوا شيئاً، وإنْ لم يَعْلَموهُ[4]، لأنَّ ذلكَ أبقى للرئاسةِ لهمْ. فإنْ لَمْ يَفعَلْ ﷺ كما يَفعَلُ أصحابُ الرئاسةِ][5] بل قالَ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ دلَّ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ مُبلِغٌ إليهِمْ ما أُمِرَ بالتَّبليغِ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ هذا يُخرَّجُ على الوَعيدِ والتَّحذيرِ، وهو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: كأنهُ يقولُ: اعلَمْ أنَّ الساعةَ تكونُ قريباً على الإيجابِ، لأنَّ ﴿لَعَلَّ﴾ مِنَ اللهِ واجبٌ؛ فهو وكلُّ ما هو آتٍ [هو كائنٌ][6].

والثاني: على التَّراخي، أيِ اعْلَموا على رجاءِ أنها[7] قريبٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ لعنَهُمْ، أي طَرَدَهُمْ مِنْ رحمتِهِ لِما عَلِمَ أنهمْ يَختارونَ الكُفرَ على الإيمانِ، ويَختُمونَ عليهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾.

الآية ٦٥ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يَنقُضُ على الجَهْمِيَّةِ قولَهُمْ وعلى أبي الهُذيلِ العَلّافِ: أمّا على الجَهْمِيَّةِ فَلِأنَّهُمْ[9] يَزعُمونَ أنَّ الجنةَ والنارَ تَفنَيانِ، ولهما النهايةُ وقالوا: لأنّا، لو لم تُجعَل لهما النهايةُ والغايةُ لَخَرَجْنا عنْ عِلْمِ اللهِ، لأنَّ الشيءَ غيرَ[10] المُتناهي خارجٌ عنْ عِلْمِهِ. لكنَّ هذا بَعيدٌ، جَهْلٌ منهمْ بربِهِمْ؛ لأنَّ عِلْمَهُ بالشيءِ غيرِ[11] المُتناهي أنهُ غيرُ مُتناهٍ، وعَلْمَهُ بالمُتناهي أنهُ مُتناهٍ، ولا يجوزُ أنْ يَخرُجَ شيءٌ عنْ عِلْمِهِ مُتناهياً كانَ أو غيرَ مُتناهٍ، وباللهِ العصمةُ.

وأمّا العَلّافُ فَلِأنَّهُ يقولُ: إنَّ أهلَ الجنةِ وأهلَ النارِ، يَصيرونَ بِحالٍ في وقتٍ ما حتى إذا أرادَ اللهُ أنْ يزيدَ لأحدٍ منهمْ لَذَّةً أو نعمةً أو عذاباً لم يَملِكْ عليهِ أو كلامٌ نَحْوُ هذا. فَنعوذُ باللهِ من السَّرَفِ في القولِ على اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ما طَمِعوا في الدنيا، ورَجَوا مَنْ كَثْرَةِ الأسبابِ والحواشي أو عبادةِ الأصنامِ وغيرِها أنْ يَنْفَعَهُمْ ذلكَ، ويَنْصُرَهُمْ في الآخِرَةِ، بل ضَلَّ عنهمْ ذلكَ، وجُرِّموا / ٤٣٢ ـ ب/ على ما أخبَرَ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤ و..] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [كقولِهِ تعالى في آيةٍ][12] أُخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الفرقان: ٣٤]

وأصلُهُ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] يُفعَلُ بهمْ في الآخِرَةِ على ما كانوا في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ لا يزالُ الكَفَرَةُ قائلينَ لهذا القولِ مُرَدِّدينَ لهُ في الآخِرَةِ لِما رَأَوا مِنَ العذابِ حينَ حلَّ بهمْ ﴿يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ الرسولُ المُطلَقُ رسولُ اللهِ، والسبيلُ المُطلَقُ هو دينُ اللهِ، [وهو المَعْروفُ][13] في القرآنِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الهاء ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م.
(٦) في الأصل وم: فهو الكائن. (٧) في الأصل وم: أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) و(١١) في الأصل وم: الغير. (١٢) في الأصل: وقال في رواية، في م: وقال في آية. (١٣) في الأصل: هو العرف: في م: هو المعروف.

الآية ٦٧ وقولهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ قالَ بعضُهُمْ: السادةُ الملوكُ، والكُبَراءُ العلماءُ، وجائزٌ أنْ يكونَ السادةُ القادةَ، والكُبَراءُ [مَنْ](١) دونَهُمْ. والرسولا والسبيلا أثْبَتوا الألفَ فيهما عندَ الوقفِ، وأمّا عندَ الوصلِ فلا. وذلكَ أنَّ مِنْ عادةِ العربِ ألّا تَقِفَ على الحركةِ، ولكنْ تزيدُ لها ألِفاً إذا كانَتْ فَتْحةً، وإذا كانَتْ كَسْرَةً ياءً.

الآية ٦٨ وقولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ظَنّوا أنْ يكونَ لهمْ بعضُ التَّسلّي والتَّفريجِ إذا رَأَوا أولئكَ الذينَ أضَلّوهُمْ في زيادةٍ مِنَ العذابِ على ما يكونُ للرجلِ بعضُ التَّسلّي إذا رَأَى عَدُوَّهُ في بلاءٍ وشدةٍ. فلَمّا لم يكُنْ لهمْ مِنْ ذلكَ تَسَلٍّ، بل كانَ لهمْ منْ ذلكَ زيادةُ عذابٍ وشدةٍ، قالوا(٢) عندَ ذلكَ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا: أي عَذِّبْهُمْ عذاباً كبيراً طويلاً.

الآية ٦٩ وقولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ يقولُ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ موسى كانَ لا يَغْتَسِلُ في ما يراهُ أحدٌ، فقالَ بَنو إسرائيلَ: إنَّ موسى آدَرُ، ويَرْوُونَ على ذلكَ عَنْ نَبيِّ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «إنَّ بَني إسرائيلَ طَعَنوا نَبيَّ اللهِ موسى بذلكَ، فَذَهبَ ذاتَ يومٍ يَغْتَسِلُ، فوضعَ ثيابَهُ على حَجَرٍ، فَسَعَى الحَجَرُ بثوبِهِ، فَجَعَلَ موسى، يَعْدُو في إثْرِهِ، ويقولُ: حَجَرُ، أي يا حَجَرُ ثوبي حتى مَرَّ بهِ على مَلَإِ بني إسرائيلَ، فَعَلِموا أنهُ ليسَ بِهِ شيءٌ» [البخاري: ٢٧٨] فَذلكَ قولُهُ: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ وكانَ موسى يَتَأذّى بما كانوا يَطْعَنونَ. فَعَلى ذلكَ رسولُ اللهِ. كانَ يَتَأذّى إذا قالوا: زيدُ بنُ محمدٍ [فأمَرَهُمُ اللهُ](٣) أنْ يدعُوهُ لأبيهِ بقولِهِ(٤): ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] زيدُ بْنُ حارثةَ.

لكنَّ هذا التأويلَ بَعيدٌ، لأنَّ موسى كانَ يَدْعوهُمْ إلى سَتْرِ العورةِ، لا يُحتَمَلُ أنْ يَطْمَعوا هُمْ منهُ الاغْتِسالَ معهمْ، وأنْ يَكْشِفَ عورتَهُمْ، أو أن يَنْظُرَ إلى عَورةِ أحدٍ، وهذا وَحْشٌ مِنَ القولِ، أو يُسَلِّطَ حَجَرٌ، فيذهَبَ بثيابِهِ حتى يراهُ الناسُ مُتَجَرِّداً، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: آذَوهُ لأنهُ كانَ خَرَجَ بهارونَ إلى بعضِ الجبالِ، فماتَ هارونُ هنالكَ، فَرَجَعَ موسى إليهِمْ وحْدَهُ، فقالَ بَنو إسرائيلَ لموسى: أنتَ قَتَلْتَهُ. حينئذٍ قال(٥) موسى: وَيلَكُمْ أيَقْتُلُ الرجلُ أخاهُ؟ فآذَوهُ. فذلكَ قولُهُ: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ فجاءَتِ بهِ الملائكةُ، فوضَعَتْهُ بينَهُمْ، فقالَ لهمْ: لم يَقْتُلْني أحدٌ إنما جاءَ أجَلي، فَمِتُّ، فذلكَ قولُهُ: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ.

وغَيرُهُ كأنهُ أقْرَبُ وأشْبَهُ، وهو ما كانَ قومُ كلِّ رسولٍ؛ نَسَبوا رسولَهُمْ إلى الجنونِ مَرّةً وإلى السِّحْرِ ثانياً، [وإلى الافْتِراءِ والكَذِبِ على اللهِ ثالثاً](٦) ونَحْوُهُ على عِلْمٍ منهمْ أنهُ رسولُ اللهِ، ولا شَكَّ أنهمْ كانوا يَتَأذَّونَ بذلكَ جداً. ولِذلكَ قالَ: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ هذا في الأوّلِ لأنهمْ لو كانوا عَلِموا أنهُ ليسَ بهِ ما ذَكَروا لم يُؤذوهُ، فَدَلَّ أنَّ أذاهُمْ إياهُ في ما ذَكَرْنا وفي أمثالِ ذلكَ.

وكذلكَ ما نَهى قومَ رسولِ اللهِ عنِ الأذى لهُ لِما نَسَبوهُ مَرّةً إلى الجنونِ وإلى السِّحْرِ ثانياً وإلى الافْتِراءِ والكذبِ على اللهِ ثالثاً لا في ما ذَكَرَ أولئكَ ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي مَكيناً في القَدْرِ(٧) والمَنْزِلةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اتّقوا الشِّرْكَ في حادثِ الوقتِ ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي إيتوا بالتَّوحيدِ في حادثِ الوقتِ لأنهُ إنما خاطَبَ بهِ المؤمنينَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فقالوا. (٣) في الأصل وم: فأمروا. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) في الأصل وم: فقال.
(٦) من م، في الأصل: وأنه كذاب مفتر. (٧) من م، في الأصل: والقدرة.

الآية ٧١ [وقولُهُ تعالى:][(١)] ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ أي بالتوحيدِ، لأنهُ بالتوحيدِ تَصْلُحُ الأعمالُ، وتُذْكَرُ، وبهِ يُغْفَرُ ما كانَ مِنَ الذنوبِ، وبهِ يكونُ الفوزُ العظيمُ، وباللهِ التوفيقُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الخِيانةِ في ما بينَكُمْ وبينَ الخَلْقِ أي لا تَخونوا الخَلْقَ ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ أي صِدْقاً وصَواباً، أي لا تكْذِبوا، ولا تقولوا فُحْشاً ونَحْوَهُ.

ويَحتمِلُ قولُه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لا تَعْصُوهُ، واعْمَلوا بالمَعروفِ، وانْتَهوا عنِ المُنْكَرِ ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ ومُرُوا الناسَ [بالمَعروفِ، وانْهوهُمْ][(٢)] عنِ المُنْكَرِ ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ قد تَكَلَّفَ أهلُ التأويلِ [في][(٣)] تفسيرِ هذهِ الأمانةِ[(٤)] قالَ بعضُهُمْ: هي كلمةُ الشهادةِ والتوحيدِ، ومنهمْ مَنْ قالَ: هي جميعُ الفرائضِ التي افْتَرَضَ اللهُ على عبادِهِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: هي الصلاةُ والصيامُ والحجُّ وأمثالُهُ وجميعُ ما أُمِروا بهِ، ونُهوا عنهُ.

لكنَّ التَّكَلُّفَ والاشتِغالَ بالتَّكَلُّمِ في ماهِيَّةِ هذهِ الأمانةِ المذكورةِ المَعْروضةِ على مَنْ ذَكَرَ فَضْلٌ، لا يَجِبُ أنْ يُتَكَلَّفَ تَفْسيرُها أنها كذا لأنها مُبْهَمَةٌ، لا تُعْلَمُ إلّا بالخَبَرِ الوارِدِ عنِ اللهِ تعالى أنها كذا، وأنْ يُجْعَلَ ذلكَ مِنَ المَكْتومِ، لا يُشْتَغَلُ بتَفْسيرِهِ[(٥)]، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم اخْتُلِفَ في ما ذَكَرَ مِنْ عَرضِ هذهِ الأمانةِ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ ومَا ذَكَرَ مِنْ إبائِها عنِ احْتِمالِها والإشفاقِ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ومَنْ ذَكَرَ؛ أي خَلَقْنا خِلْقَةَ ما ذَكَرْنا[(٦)] مِنَ السمواتِ والأرضِ والجبالِ خِلْقَةً، لا تَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا[(٧)] مِنَ الأمانةِ ﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾ إباءَ خِلْقَةٍ؛ أي لم يَخْلُقْ خِلْقَتَها بحيثُ تَحْتَمِلُ ذلكَ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ أي خَلَقْنا خِلْقَةَ الإنسانِ خِلْقَةً تَحْتَمِلُ ذلكَ. إلى هذا يَذْهَبُ بعضُهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا﴾ حقيقةَ العَرْضِ، إلّا أنهُ على التَّخْييرِ بَينَ أنْ تَقْبَلَ، وتَحْتَمِلَ[(٨)]، و تَفِيَ بذلكَ، فيكونَ لها الثوابُ، أو لا تَفِيَ، فيكونَ لها العِقابُ في الآخِرةِ، وبَينَ ألّا تَحْتَمِلَ[(٩)]، ولا تَقْبَلَ، فتكونَ كسائِرِ المَواتِ تَفْنى بِفَناءِ الدنيا، ولا ثوابَ لها في الآخِرةِ، وإلّا لم يَحْتَمِلْ أنْ يَعْرِضَ عليهِنَّ ما ذَكَرَ عَرْضَ لُزومٍ وإيجابٍ.

ثم بَيَّنَ [أنهنَّ أَبَيْنَ ذلكَ، وأشْفَقْنَ][(١٠)] منها، وقد وصَفَهُنَّ اللهُ بالطاعةِ لهُ والخُضوعِ في غَيرِ آيةٍ[(١١)] مِنَ القرآنِ حينَ قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقالَ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾ الآية [الحشر: ٢١] وقالَ في آيةٍ [أُخرى][(١٢)]: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ونَحْوَهُ.

ولكنْ إنْ كانَ على حقيقةِ العَرْضِ فهو على التَّخْييرِ الذي ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى][(١٣)] ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ﴾ فكانَ لهُ الثوابُ إنْ قامَ بها، وعليهِ العِقابُ، إنْ لم يَقُمْ [بها][(١٤)] / ٤٣٣ ـ أ/.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ أي عرضَ على أهلِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ وأهلِ الجبالِ [الأمانةَ][(١٥)] فلم يَحْمِلوها، إلّا الإنسانَ منهمْ فإنهُ حَمَلَها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ قالَ الحَسَنُ: ظلوماً لِنفسِهِ جَهولاً لِأمرِ ربِّهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ أي أَبَينَ أنْ يَعْصِينَ اللهَ، وأشْفَقْنَ منهُ، أي لم يَعْصُوا قطُّ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ أي عَصَى الإنسانُ، فَيَجْعَلَ الحَمْلَ كنايةً عنِ العِصْيانِ والوِزْرِ؛ يقولُ لأنهُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وانهوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل: المذكورة في الآية. (٥) في الأصل وم: بالتفسير. (٦) في الأصل وم: ذكر. (٧) في الأصل وم: ذكر. (٨) في الأصل وم: يتحمل. (٩) في الأصل وم: يتحمل. (١٠) في الأصل وم: ما بين ذلك ويشفقن. (١١) في الأصل وم: آي. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

ما ذُكِرَ في القرآنِ الحَمْلُ إلا في الوِزْرِ والخَطايا كقولِهِ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ وقولِهِ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٢ ـ ١٣] وقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: ٢٥] وقولِهِ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢ و٣] ونَحْوُهُ كثيرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إلى أيِّ تأويلٍ منْ هذهِ التأويلاتِ التي ذَكَرْنا صَرفُ هذا إليهِ اسْتَقامَ، واللهُ أعلَمُ.

عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: الأمانةُ العِبادةُ. قالَ اللهُ تعالى للسمواتِ والأرضِ والجبالِ: تأخُذْنَ العبادةَ بما فيها؟ قُلْنَ: يا ربِّ وما فيها؟ قالَ: إنْ أحسَنْتُنَّ جُزيتُنَّ، وإنْ أساتُنَّ عوقِبْتُنَّ ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي خِفْنَ، وعَرَضَها[2] على الإنسانِ، فقَبِلَها، وهو قولُ اللهِ لِبَني آدمَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

أمّا خيانَتُهُمُ اللهَ ورسولَهُ فَمَعْصِيَتُهما، وأمّا خيانةُ الأمانةِ فَتَرْكُهُم ما افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ مِنَ العبادةِ.

وقَتادةُ يقولُ: أمَا واللهِ ما بِهِنَّ مَعْصِيَتُهُ. لكنْ قيلَ لهنَّ: أتَحْمِلْنَها؟ وتُؤدِّينَ حقَّها؟ قُلْنَ: لا نُطيقُ ذلكَ. فقيلَ للإنسانِ، وهو آدمُ. أتَحْمِلُها. وتُؤدِّي حقَّها؟ قالَ: نعمْ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ عَنْ حقِّها.

وفي حَرْفِ أُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ][3] وابْنِ مَسْعودٍ وحَفْصَةَ ﴿فَأَبَيْنَ﴾ أي فلم يُطِقْنَها.

وقالَ أبو مُعاذٍ: الإباءُ في كلامِ العربِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: هذا، وهو العَجْزُ، والآخَرُ [ما قالَ فيهِ، وهو] قولُهُ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [البقرة: ٣٤، . . .] وعَصَى وتَرَكَ الأمرَ.

والحَسَنُ يقولُ: عُرِضَتِ الأمانةُ على السمواتِ وما ذُكِرَ، فقيلَ لهنَّ: أتأخُذْنَ الأمانةَ بما فيها؟ قُلْنَ: يا ربُّ وما فيها. قيلَ لهنَّ: إنْ أحسَنْتُنَّ جُزيتُنَّ، وإنْ أسَاتُنَّ عُوقِبْتُنَّ. قُلْنَ: لا ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لِنَفْسِهِ ﴿جَهُولًا﴾ بربِّهِ، وهو مثلُ الأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ لِنَفْسِهِ في ركوبِهِ المَعْصِيةَ ﴿جَهُولًا﴾ بعاقبةِ ما تَحَمَّلَ.

والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا[4] بَدْءاً أنهُ لا تُفَسَّرُ الأمانةُ أنها ما هي؟ وكيفَ كانَ ذلكَ العَرْضُ على ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ والجبالِ وإبائِهِنَّ[5] وإشفاقِهِنَّ، واللهُ أعلَمُ ما أرادَ بذلكَ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى﴾ مَنْ ذَكَرَ أي لِيُعَذِّبَ مَنْ عَلِمَ أنهُ لا يقومُ بِوَفائها، ويُضَيِّعُها؛ أعني الأمانةَ التي احْتَمَلَها، وإنما يُضَيِّعُها مَنْ ذَكَرَ مِنَ المُنافِقينَ والمُشْرِكينَ، ويُثيبُ مَنْ لمْ يُضَيِّعْها، وقامَ بِوَفائها، وهمُ المؤمنونَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: السَّدادُ الاِسْتِقامَةُ[6]، تقولُ: سَدَّدَكَ[7] اللهُ، وأرْشَدَكَ. وقالَ أبو عُبَيدةَ: السَّديدُ المُقْصَدُ[8]، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، والقَصْدُ كأنهُ العَدْلُ، واللهُ أعلَمُ. [وصَلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ أجْمَعينَ][9].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وعرضت. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل، ذكر. (٥) في الأصل وم: واباؤهن. (٦) من م، في الأصل: والاستقامة. (٧) من م، في الأصل: أرشدك. (٨) في الأصل وم: القصد. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

[سورة سبإ

نَزَلَتْ بمكّةَ][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: حَمِد نفسَهُ بأنْ صَنَعَ إلى خَلْقِهِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: على التعليمِ لِخَلْقِهِ: الحَمْدَ لهُ والثناءَ عليهِ لِآلائِهِ وإحسانِهِ على خَلْقِهِ؛ ما لو لا تَعْليمُهُ إيّاهُمُ الحَمْدَ لهُ والثناءَ عليهِ لم يَعْرِفوا ذلكَ.

والثاني: حَمِدَ نفسَهُ لمّا لم يَرَ في وُسْعِ الخَلْقِ القيامَ[2] بغايةِ الحَمْدِ لهُ والثناءِ عليهِ على آلائِهِ وأياديهِ، فَتَوَلّى ذلكَ بنفسِهِ، وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] فقالوا: [قد عَرَفْنا السلامَ عليك، فكيف الصلاةُ عليك؟ فقالَ][3]: «أنْ تقولوا: اللهمَّ صلِّ عل محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ» [البخاري: ٣٣٧٠] إلى آخرِهِ. فهذا تَفْويضُ الصلاةِ على اللهِ، والدعاءُ لهُ أنْ يُصَلِّيَ هو عليهِ دونَهُمْ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ لم يَرَ فيهمْ وُسْعَ القيامِ بحقيقةِ الصلاةِ عليهِ ولا بغايةِ الثناءِ، فأمَرَهُمْ أنْ يُفَوِّضوا ذلكَ إليهِ ليكونَ هو القاضيَ لذلكَ عنهمْ.

فَعَلَى ذلكَ الحَمْدُ لهُ. [وأصلُ الحَمْدِ][4] هو الثناءُ عليهِ بجميعِ مَحامِدِهِ وإحسانِهِ بأسمائِهِ الحُسْنَى، والشُّكْرُ لهُ على جَميعِ نَعْمائِهِ وآلائِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: الحمدُ للهِ الذي لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، وهو المُسْتَحِقُّ لذلكَ لا الأصنامُ التي عَبَدْتُموها، وسَمَّيْتُموها آلهةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي يَحْمَدُهُ أهلُ الجنةِ إذا دَخَلوا الجنةَ كقولِهِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقولِهِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] وقولِهِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: ٣٤]، ونَحْوَهُ؛ يَحْمَدُهُ أولياؤهُ في الآخِرَةِ، ويَحْمَدُهُ أولياؤهُ في الأولَى كقولِهِ: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [القصص: ٧٠].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي لهُ الحَمْدُ في إنشاءِ الآخِرَةِ لأنَّ إنشاءَ الدنيا وما فيها، إنما كانَ حِكْمَةً بإنشاءِ الآخِرَةِ. ولو لم يَكُنْ إنشاءُ الآخِرَةِ لكانَ خَلْقُ ذلكَ كلِّهِ عَبَثاً باطلاً. فإنشاءُ الآخِرَةِ حينَ صارَ إنشاءُ الدنيا وما فيها مِنَ الخلائقِ حِكْمَةً. فأخْبَرَ أنَّ لهُ الحَمْدَ على إنشائِهِ ما صارَ لهُ إنشاءُ الدنيا حِكْمَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ قد تَقَدَّمَ مَعْنَى الحَكيمِ والخَبيرِ في غيرِ موضعٍ؛ وهو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطَأُ في التدبيرِ، وهو الواضعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

والفلاسفةُ يقولونَ: الحكيمُ هو الذي يجمعُ العِلْمَ والعَمَلَ[5] جميعاً، وهو ما ذَكَرْنا، أوِ الحكيمُ لِما أحْكَمَ كلَّ شيءٍ، وأتْقَنَهُ حتى شَهِدَ كلُّ شيءٍ على وحدانيَّتِهِ، ودلَّ على إلهيَّتِهِ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: والقيام. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: والعلم.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ يُخْبِرُ أنَّ الأرضَ معَ كثافَتِها وغِلَظِها لا تَحْجَبُ عنهُ[1] ما يَدْخُلُ فيها، وما يَخْرُجُ منها. وكذلكَ السماءُ معَ صلابَتِها وشِدَّتِها لا تَحْجُبُ عنهُ[2] الخلائقَ، أو يُخْبِرُ أنَّ كثْرَةَ ما يَنْزِلُ مِنَ السماءِ مِنَ الأمطارِ وما يَعْرُجُ إليهِ مِنَ الدَّعَواتِ والملائكةِ لا يَشْغَلُهُ عنِ العلمِ بالأُخَرِ كما يُشْغَلُ الخلائقُ، لأنهُ عالِمٌ بذاتِهِ لا بِسَبَبٍ والخَلْقُ عالمونَ بأسبابِ فِعْلِهِمْ بِسَبَبٍ / ٤٣٣ ـ ب/ يَشْغَلُهُمْ عنِ الأسبابِ الأُخَرِ.

فأمّا اللهُ سُبْحانَهُ [فإنهُ][3] يَتعالى عنْ أنْ يَشْغَلَهُ شيءٌ أو يُحْجَبَ عنهُ شيءٌ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ أقْسَموا باللاتِ والعُزّى أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ بعدَ الموتِ، فأمَرَ اللهُ نبيَّهُ أنْ يُقْسِمَ باللهِ الواحِدِ على[4] بعثٍ وقيامةٍ بقولِهِ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ على غيرِ هذا، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى حيثُ قالَ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]. أقسَموا باللهِ أنهُ لا يَبْعَثُ مَنْ يموتُ، فأمَرَ رسولَهُ في هذهِ الآيةِ أنْ يُقْسِمَ باللهِ الذي أقْسَموا همْ [به][5] أنهُ يَبْعَثُ، وهو قولُهُ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

وكانَ قَسَمُهُ بما أقْسَمَ عندَهُمْ أصْدقَ مِنْ قَسَمِهِمْ لأنهمْ لم يأخذوا عليهِ كَذِباً قَطُّ، ولا اتَّهَموهُ في شيءٍ.

يدلُّ على ذلكَ ما أخبَرَ اللهُ عنهمْ حينَ قالَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] أخبَرَ انهُمْ لا يُكَذِّبونَكَ في مَقالَتِكَ، ولكنَّ هَمَّهُمْ جُحودُ الآياتِ والإنكارُ لها، فيكونُ قَسَمُهُ مُقابِلَ قَسَمِ أولئكَ في إنكارِهِمُ البَعْثَ لِيَعْلَموا كَذِبَ أنفسِهِمْ في قَسَمِهِمْ بِقَسَمِ رسولِ اللهِ بما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ﴾ بالخَفْضِ. وقد قُرِئ عالِمُ[6] الغَيبِ بالرفعِ، وعَلّامُ[7] الغيبِ. فَمَنْ خَفَضَهُ جَعَلَهُ صفةً ونَعْتاً لِما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ﴾ ومَنْ رَفَعَهُ جَعَلَهُ[8] على الابْتِداءِ، وجَعَلَ[9] الكلامَ [قَبْلَهُ][10] تامّاً بقولِهِ: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم اسْتأنَفَ، فقالَ: عالِمُ ﴿ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ﴾.

وقد قُرِئَ بِرَفْعِ الزاي وبِخَفْضِها[11]: لا يَعْزِبُ، وكِلاهُما لُغَتانِ. والعزبُ في كلامِ العَرَبِ الغائبُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ أي لا يَبْعُدُ، وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾، كقولِهِ[12] في الأولى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

جائزٌ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ في جَواهِرِ الأشياءِ وأجناسِها المُخْتَلِفَةِ لأنهُ أخبَرَ عنْ عِلْمِهِ بما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخْرُجُ منها وما يَصْعَدُ فيها وما يَنْزِلُ، وذلكَ عِلْمُ جَواهِرِ الأشياءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ في الأفعالِ والأعمالِ؛ يُخْبِرُ أنهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، ولا يَغيبُ عنهُ شيءٌ مِنْ أفعالِهِمْ وأعمالِهِمْ لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ.

ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ الجزاءَ حيثُ قالَ: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾؟

[ويَحْتَمِلُ][13] أنْ يكونا واحداً إلّا أنهُ ذَكَرَ في الآيةِ الأولى الداخلَ في الأرضِ والخارجَ منها وما يَنْزِلُ مِنَ السماءِ وما يَعْرُجُ فيها، ولم يذكُرْ في ذلك الساكنَ فيها والمُقيمَ وما يكونُ فيهما، فَذَكَرَ ذلكَ في قولِهِ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُخْبِرُ عنْ إحاطةِ عِلْمِهِ بالأشياءِ كلِّها مِنَ الساكنةِ والمُقيمةِ والمُتَحَرِّكةِ والمُتَقَلِّبَةِ فيهما، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: عند. (٢) في الأصل وم: عن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: بلى. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ١٤١. (٧) انظر المرجع السابق ج٥/ ١٤٢. (٨) في الأصل وم: يجعله. (٩) في الأصل وم: ويجعل.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٤٢. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: أو.

الآية ٤ وقولُه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ المَغْفِرَةُ، هي التَّغْطِيَةُ والسَّتْرُ.

ثم يكونُ السَّتْرُ بوجهَينِ:

أحَدُهما: يَسْتُرُ على المؤمِنِ الزَّلاتِ نفسَها ألا تُذْكَرَ.

والثاني: يَسْتُرُ بالجزاءِ الحَسَنِ؛ إذا لم يُجزِ الزلّاتِ.

هذا للمؤمِنينَ: يَسْتُرُ عليهمُ الزلاتِ مَرَّةً بِتَرْكِ ذِكرِها ومَرَّةً بِتَرْكِ الجَزاءِ عليها وأمّا الكافِرُ فإنهُ إذا جُزِيَ على سَيِّئةٍ فقد [أُظهِرَتْ، وأُفشِيَتْ][1] ولم تُستَرْ عليهِ.

[ويَحتَمِلُ][2] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ﴾ أي سَتْرٌ، وهو أنهُ إذا أدخَلَهُمُ الجنةَ أنساهُمْ زَلاتِهِمْ حتى لا يَذْكُرُوها[3] أبداً، لأنَّ ذِكْرَ زلاتِهِمْ[4] يُنَغِّصُ عليهِمْ لَذّاتِهِم وتَنَعُّمَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ قيلَ: الكريمُ الحَسَنُ. وجائزٌ أنْ يكونَ سَمّاهُ كريماً لأنَّ مَنْ نالَهُ [لهُ][5] كَرَمٌ وشَرَفٌ كقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ يَحتَمِلُ حقيقةَ سَعْيِهِمْ في آياتِهِ بِما ذُكِرَ كقولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] ذَكَرَ مُرورَهُمْ عليها وإعراضَهُمْ[6] عنها؛ فهو سَعْيٌ.

وجائزٌ على التمثيلِ، أي يَعْمَلونَ عَمَلَ مَنْ أعجَزَ الآياتِ للجحودِ لها والرَّدِّ والعِنادِ. والمُعْجِزُ هو المسابِقُ [كقولِهِ][7]: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الشورى: ٣١] أي مُسابِقينَ فائِتِينَ، أي لا تُعْجِزونني، ولا [تَفوتونَني.

وقولُهُ تعالى][8]: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ الرِّجْزُ العذابُ الأليمُ، أي مؤلِمٌ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: المُعاجِزُ الهارِبُ؛ يَهْرُبُ كي يُعْجِزَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذين أُوتوا العِلْمَ هُمُ المؤمنونَ، مؤمنو أهلِ الكتابِ الذينَ أُوتوا العِلْمَ عِلْمَ التوراةِ والإنجيلِ وغيرِهما. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَعْلَمُ الذينَ أُوتوا مَنافِعَ تلكَ الكتبِ أنَّ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ، هو الحقُّ؛ الذينَ[9] أُوتوا العِلْمَ بتلكَ الكتبِ [يَجِدونَ بَعْثَهُ][10] وصِفَتَهُ فيها، يَعْلَمونَ أنهُ الحقُّ مِنْ ربِّكَ. لكنَّ بعضَهُمْ عانَدوا، ولم يؤمِنوا بهِ، وبعضُهُمْ قد آمَنوا بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ هُمْ أصحابُ محمدٍ ﷺ أي الذينَ أُوتوا مَنافِعَ ما أُنْزِلَ إليكَ، هُمْ يَعلَمونَ أنهُ هو الحقُّ مِنْ ربِّكَ. وأمّا مَنْ لم يُؤْتَ مَنافِعَ العِلْمِ فلا يَعْلَمُ ذلكَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: ويَعْلَمُ الذينَ أُوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلُ الذي أُنْزِلَ إليكَ هو الحقُّ؛ يَعْني القرآنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ قولُهُ: يَهْدي يَحْتَمِلُ: يَدْعو، ويَحْتَمِلُ: يَهْدي أي يُبَيِّنُ لهمْ صِراطَ العَزيزِ الحَميدِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ كانَ بعضُهُمْ يقولُ لِبعضٍ: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ قولُهُ: ﴿إِذَا مُزِّقۡتُمۡ﴾ يَحتَمِلُ أنْ قالوا: النبيُّ يقولُ: إذا تَفَرَّقَتْ جوارِحُكُمْ وأعضاؤكُمْ تكونونَ[11] خَلْقاً جديداً.

(١) في الأصل وم: أظهر وفشى. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: تذكرون. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: لربهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والإعراض. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: تفوتون عني. (٩) أدرج قبلها في الأصل: جميعاً، وفي م: بأجمعهم جميعاً. (١٠) في الأصل وم: لما يجدون نعته. (١١) في الأصل وم: تكونوا.

فإنْ كانَ على هذا فهو، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ مِنْ أهلِ الدهرِ ذلكَ القولُ، لأنهمْ يقولونَ بِقِدَمِ العالَمِ، ولا يقولونَ بِفَنائِهِ، لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا فرقتَيْنِ: فرقةٌ تذهَبُ مَذْهبَ أهلِ الدهرِ، وفرقةٌ يقولونَ بِحَدَثِ العالمِ، ويُقِرّونَ بَفَنائِهِ، لكنهمْ يُنْكِرونَ إحياءَهُ بَعْدَ الفَناءِ.

فإنْ كانَ مِنْ هؤلاءِ فيكونُ قولُهُ: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي إذا ذهَبَتْ أجسادُكُمْ[1]، وفَنِيَتِ اللحومُ والعِظامُ، وكُنْتُمْ رَماداً ورُفاتاً ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي تكونونَ خَلْقاً جديداً. ويُخَرَّجُ ذلك على أحدِ وجهَيْنِ:

إمّا على اسْتِبْعادِ ذلكَ في أوهامِهِمْ وعقولِهِمْ، أي لا يكونُ ذلكَ، وإمّا[2] على التَّعَجُّبِ [والاسْتِهْزاءِ أنْ كيفَ][3] يكونُ ذلكَ؟ [وأنهُ لا يكونُ، فقالوا عندَ ذلكَ كما أَخْبَرَ عنهمْ.

الآية ٨ بقولِهِ][4]: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يقولونَ: أفْتَرى محمدٌ على اللهِ كذِبًا أمْ بِهِ جنونٌ؟ إذْ لم نَسْمَعْ ذلكَ مِنْ أحدٍ، ولا رأينا ذلكَ أنهُ كانَ ما ذَكَرَ.

فَرَدَّ اللهُ ذلكَ عليهِمْ، وقالَ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بالبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ هُمُ المُفْتَرونَ على اللهِ، هُمْ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ جزاءَ قولِهِمْ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يقولُ: بل هُمْ في ضلالٍ بعيدٍ. الضلالُ البعيدُ كأنهُ هو الذي لا يُرْجِعُ إلى الهُدَى أبداً.

فتكونُ الآيةُ في قولِهِمْ: عَلِمَ اللهُ أنهمْ يَخْتِمونَ على الضلالِ، ولا يُؤمنونَ أبداً، فيكونُ في ذلكَ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وقولَهُ[5] ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ونَحْوَهُ أنهُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أَحَدُهُما: /٤٣٤ ـ أ/ قد رَأَوا على الخَبَرِ. والثاني: على الأمرِ أنِ انْظُروا إلى ما بَيْنَ أيديهِمْ وما خَلْفَهُمْ مِنَ السماءِ والأرضِ.

ثم يقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ: حيثما قَدِمَ الإنسانُ رَأى بَينَ يَدَيهِ مِنَ السماءِ مِثْلَ الذي[6] يَرَى خَلْفَهُ. وكذلكَ الأرضُ.

وقَتادَةُ يقولُ: لِيَنْظُروا كيفَ أحاطَتْ بهمُ السماءُ والأرضُ، وهما واحدٌ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خَسَفْنا بِمَنْ قَبْلَهُمْ ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً مِنَ السماءِ كما أنْزَلْنا[8] على مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ بالتكذيبِ والعِنادِ. يَذْكُرُ هذا على إثْرِ قولِهِمْ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي لو نَظَروا إلى ما بَيْنَ أيديهِمْ وما خَلْفَهُمْ مِنَ السماءِ والأرضِ لَعَرَفوا أنهُ رسولُ اللهِ وأنهُ صادقٌ وأنَّ ما يقولُهُ: إنهُ بَعْثٌ بَعْدَ الموتِ، وإنَّ العذابَ يَنْزِلُ بقولِهِ لا عنْ جُنونٍ، ولكنْ عنْ عِلْمٍ وعَقْلٍ ومَعْرِفَةٍ؛ لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ السماءِ على ما أنْشأَ مِنْ سَعَتِها وغِلَظِها وشِدَّتِها، وكذلكَ الأرضُ، قَدَرَ على البَعْثِ وخَسْفِ مَنْ يَشاءُ أنْ يَخْسِفَ وإسقاطِ السماءِ على مَنْ يَشاءُ أنْ يُسْقِطَ، أو يقولُ: لو نَظَروا لَعَرَفوا أنهُ لم يُنْشِئْ ما ذَكَرَ مِنَ السماءِ والأرضِ عَبَثاً باطلاً، ولكنْ أنْشأَهُما على الحِكْمَةِ. وإنما يصيرُ إنشاؤهما حكمةً بالبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ ومصيرُهُمْ إليهِ. وأمّا لِلْفَناءِ خاصةً فلا يكونُ حكمةً، واللهُ أعلَمُ ما أرادَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ المُنيبُ: قيلَ: هو المُطيعُ للهِ، وقيلَ: هو المُقْبِلُ على أمرِ اللهِ. والمُنيبُ، كأنهُ هو المؤمنُ لأنهُ هو المُصَدِّقُ بالآياتِ [فإذا كانَ المؤمنُ، هو المُصَدِّقُ بالآياتِ][9]، فيكونُ، هو المُنْتَفِعُ بها [فتكونُ الآيةُ [لهُ][10] وأمّا المُكَذِّبُ فلا يَنْتَفِعُ بها][11] فلا تكونُ الآيةُ لهُ في الحقيقةِ.

---

(١) من م، في الأصل: أجسادهم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: أن يكون، في م: أن كيف. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فقال عند ذلك. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في م: السماء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنزل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من م. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي عِلماً كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَضْلًا﴾ أي نُبُوَّةً. وقال بعضُهُمْ الفَضْلُ، هو المُلْكُ الذي آتاهُ اللهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الفَضْلِ أنهُ آتاهُ، هو ما ذَكَرَ على إثْرِهِ مِنْ تَسْخيرِ الجبالِ والطيرِ والتسبيحِ معهُ وإلانةِ الحديدِ لهُ بلا نارٍ ولا شيءٍ حتى اتَّخَذَ منهُ ما شاءَ أنْ يَتَّخِذَ مِنَ الدُّروعِ[1] وآلاتِ الحَربِ، وقد آتى اللهُ داوودَ مِنَ الفَضلِ ما لو تكَلَّفْنا عَدَّهُ وإحصاءَهُ ما قَدَرْنا عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ قيلَ: سَبِّحي معهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ مَنْ نَصَبَ الطيرَ جَعَلَها مُسَخَّرَةً لهُ، كأنهُ قالَ: سَخَّرْنا لهُ الطيرَ، ومَنْ رَفَعَها جَعَلَهُ على النداءِ: يا طيرُ[2] أوِّبي مَعَهُ، أي سَبِّحي معهُ.

ثم اختُلِفَ في تَسْبيحِ الجبالِ والطيرِ: قالَ بعضُهُمْ: تسبيحُ خِلْقَةٍ لا تَسْبيحُ قولٍ ونُطْقٍ لِما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ شيءٍ الشهادةَ لهُ بالوَحْدانيةِ والألوهيَّةِ.

لكنْ ذَكَرَ ههنا: أنْ سَبِّحي معهُ. ولو كانَ تَسْبيحَ خِلقَةٍ لم يكُنْ لِذِكْرِ التسبيحِ مع داوودَ فائدةٌ لأنَّ تَسْبيحَ الخِلْقَةِ، يكونُ كانَ معهُ داوودُ، أو لم يكُنْ.

ولكنْ جائزٌ أنْ يَجْعَلَ اللهُ تعالى في سِرِّيَّةِ[3] الجبالِ مِنَ التسبيحِ ما يَفْهَمُ منها داوودُ، ولم يَفْهَمْ ذلكَ غَيرُهُ على ما ذَكَرْنا في قيلِ النملةِ لسائرِ النملِ حينَ[4]: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ الآية [النمل: ١٨] جَعَلَ اللهُ تعالى في سِرِّيَّةِ النَّمْلِ مَعْنىً، ألقى ذلك في مَسامِعِ سُليمانَ، فَفَهِمَ منها ذلكَ، ولم يُلْقِ[5] ذلكَ في مَسامِعِ غَيرِهِ مِنَ الجنودِ.

فَعَلى ذلكَ تَسْبيحُ الجبالِ والطيرِ، و اللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ جَعَلَ لهُ آيةً لِنُبُوَّتِهِ لمّا ألانَ الحديدَ بلا نارٍ ولا سَبَبٍ يُلَيِّنُهُ حتى كانَ يَعْمَلُ منهُ ما شاءَ، ولم يَجْعَلْ في وُسْعِ أحدٍ مِنَ الخلائقِ سِواهُ استِعمالَ الحديدِ إلّا بالنارِ وأسبابٍ أُخَرَ ليكونَ لهُ في ذلكَ آيةً.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وقلْنا لهُ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: السابغاتُ هي][6] الدُّروعُ. وقالَ بعضُهُمْ: هي الواسِعاتُ، وقيلَ: هي الطِّوالُ. فكأنهُ أمَرَهُ[7] أنْ يَتَّخِذَ مِنَ الدُّروعِ ما يُؤْخَذُ مِنَ الرأسِ إلى القدمِ ما يَصْلُحُ لِحربِ العدوِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانتِ الدُّروعُ قَبْلَ ذلكَ صفائحَ مَضْروبَةً، فَسَرَدَ نَبِيُّ اللهِ حَلَقَها بَعْضَها إلى بعضٍ. والسَّرْدُ المَساميرُ والحَلَقُ. يقولُ[8]: قَدِّرِ المَساميرَ في الحَلَقِ: لا تُدِقَّ المَساميرَ، وتُوَسِّعَ[9] الحَلَقَ، فَتَسَلْسَلَ، ولا تُضَيِّقِ الحَلَقَ، وتُعَظِّمِ المَساميرَ، فَتَقْصِمَ، وتُكْسَرَ، ولكنْ سَوِّها[10] لِتكونَ أحْكَمَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي في النَّسْجِ[11]، أي لا تَجْعَلِ المساميرَ دِقاقاً، فَتُقْلَقَ، ولا غِلاظاً، فَتُكْسَرَ الحَلَقُ. ومنهُ قيلَ لصانِعِ الدُّروعِ: سَرّادٌ وزَرّادٌ كما يُقالُ: عَرّاطٌ وسَرّادٌ وزَرّاطٌ. والسَّرْدُ الخَرْزُ أيضاً.

وقالَ غَيرُهُما[12]: السَّرْدُ: الخَرْزُ[13] في طَبَقِ الحَلَقِ، وإدخالُ الحَلَقِ بَعْضِها في بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ في ما ذَكَرَ مِنْ عَمَلِ الدُّروعِ. ويَحْتَمِلُ في غَيرِهِ مِنَ الأعمالِ ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو على الوعيدِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: الدرع. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/١٤٦. (٣) في الأصل وم: سيرته. (٤) في الأصل وم: حيث قال. (٥) من م، في الأصل: يبق. (٦) من م، في الأصل: في. (٧) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: بقوله. (٩) في الأصل وم: وتوقع. (١٠) في الأصل وم: مستوياً. (١١) في الأصل وم: التسبيح. (١٢) في الأصل وم: غيره. (١٣) في الأصل وم: الخروق.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ كأنهُ يقولُ: سَخَّرْنا لِسُليمانَ الريحَ كما ذَكَرْنا في آيةٍ أُخرى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي تجري بهِ الريحُ، في غُدُوِّها مَسيرةُ شَهْرٍ، وفي رَواحِها مَسيرةُ شَهْرٍ. وذلكَ آيةٌ لهُ؛ فَمِثْلُها مِنَ الآيةِ كانَ لرسولِ اللهِ حين[1] أسْرَى في ليلةٍ واحدةٍ مَسيرةَ شَهْرَينِ ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وما كانَ لِسُليمانَ مِنَ المُلْكِ الأعوانُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ بنفسِهِ حينَ[2] قالَ: «نُصِرتُ بالرُّعْبِ مَسيرةَ شَهْرينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] أعظمُ ممّا كانَ لِسُليمانَ، فلا يكونُ دونَهُ.

وما كانَ لأبيهِ داوودَ مِنْ إلانةِ الحديدِ لهُ بِلا سَبَبٍ[3]، كانَ لمحمدٍ انْشِقاقُ القَمَرِ، وذلكَ أعظمُ في الآيةِ ممّا ذَكَروهُ.

وما كانَ لِموسى مِنِ انْفِجارِ العيونِ مِنَ الحَجَرِ، كانَ لمحمدٍ مِنْ أصابِعِهِ حتى ذُكِرَ أنهمْ كانوا ألفاً وأربَعَ مئةِ نَفرٍ، شَربوا جميعاً منهُ، ورَوُوا. فذلكَ إنْ لم يَكُنْ أعظَمَ مِنْ آيةِ [موسى][4] فلا يكونُ دونَهُ.

وما كانَ لِعيسى مِنْ إحياءِ اللهِ المَوتى وإجرائِهِ على يَديهِ، كانَ لمحمدٍ مُقابلَ ذلكَ كلامُ الشاةِ المَضْلِيَّةِ المَسمومةِ التي أخبَرَتْهُ أني مَسْمومةٌ، فلا تَتَناوَلْ مني لمّا أرادَ التَّناوُلَ منها.

فآياتُهُ كثيرةٌ حتى لم يُذْكَرْ لأحدٍ مِنَ الأنبياءِ والرسلِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، آيةٌ إلّا ويُمْكِنُ أنْ يُذْكَرَ لمحمدٍ[5] مُقابلَ ذلكَ مِثْلُها أو أعظَمُ منها.

ثم يَحتَمِلُ مُلْكُ سُليمانَ وأبيهِ لئلا يَحْسِدُوا محمداً ﷺ على ما أعطاهُ اللهُ لهُ مِنَ المُلْكِ والشَّرَفِ لِيَعْرِفوا أنهُ ليسَ هو المخصوصَ بالمُلْكِ والشَّرَفِ، ولكنْ لهُ في ذلكَ شُرَكاءُ وإخوانٌ، أعطاهُمُ اللهُ مِثْلَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ قِيلَ: النحاسُ، وقيلَ: الصُّفْرُ. قيلَ: أُسيلَتْ لهُ [لِيَعْمَلَ بها][7] ما أحَبَّ كما أُلينَ لأبيهِ الحديدُ، فَعَمِلَ[8] بهِ ما أحَبَّ مِنَ الدُّروعِ وغيرِها بلا سَبَبٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ قيلَ: بأمْرِ[9] ربِّهِ، أي سَخَّرَ اللهُ الجِنَّ لهُ، وأمَرَهُمْ بطاعتِهِ في جميعِ ما يأمُرُهُمْ، شاؤوا أو كَرِهوا.

ويُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على التَّسْخيرِ لهُ، فيكونُ الإذْنُ كِنايةً عنِ التَّسْخيرِ.

والثاني: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي بأمْرِ ربِّهِ أي أمَرَهُمْ ربُّهُمْ أنْ يُطيعوهُ في جميعِ ما يَأمُرُ، ويَنْهى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي عَصاهُ في ما أمَرَهُ بهِ: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [إنما أضافَ][10] أمْرَهُ إلى نفسِهِ [لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَهُمْ أنْ يَعْمَلوا لهُ إذا اسْتَعْمَلَهُمْ في ما اسْتَعْمَلَهُمْ][11] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَحاريبُ، هي المساجدُ. وقالَ بعضُهُمْ: هي القُصورُ. والمَحاريبُ هي أشْرَفُ المَواضِعِ، ذَكَرَها كِنايةً[12] عن غَيرِها، واللهُ أعلَمُ/ ٤٣٤ - ب/.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي التَّماثيلُ كهيئةِ تماثيلِ الرجالِ، يُصَوِّرونَ في المساجدِ تماثيلَ الرجالِ العُبّادِ والملائكةِ والنَّبِيِّينَ والرجالِ المُتواضِعينَ لكي إذا رآهُمُ الناسُ صُوَراً عَبَدوا عبادَتَهُمْ، وتَشَبَّهوا بهِمْ، أو تكونُ تماثيلَ لا رأسَ لها نَحْوَ الأواني والكيزانِ ونَحْوَها، أو تكونُ التماثيلُ يومئذٍ غَيرَ مَنْهِيٍّ العملُ بها

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وما ذكر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: جميعا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يعمل به. (٨) في الأصل وم: فيعمل. (٩) من م، في الأصل: بإذن. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما ذكر يحتمل إضافة. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: لما يأمره ما يستعملهم، في م: لما يأمره ما يستعملهم في ما يستعملهم. (١٢) في الأصل وم: مكان.

فأمّا اليومَ فقد نُهُوا عنِ العَمَلِ بها مَخافَةَ أنْ يَدْعُوَ ذلكَ إلى عبادةِ غَيرِ اللهِ.

ولذلكَ غَرَّ إبليسُ قوماً حتى عَبَدوا الأصنامَ. وإلا ليسَ مِنَ الأصنامِ ولا فيها ما يَغْتَرُّ بِهِ المرءُ على عبادتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي قِصاعٍ كالجَوابِ كهَيئةِ حياضِ الإبلِ حتى يَجْلِسَ على القَصْعَةِ الواحدةِ ألفٌ وزيادةٌ، يأكلونَ منها. وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي كالجَوبَةِ مِنَ الأرضِ التي تُحْفَرُ للماءِ؛ يَصِفُ عِظَمَ ذلكَ. ففيهِ أنهمْ كانوا يَجتَمِعونَ في الأكلِ، لا يَنْفَرِدونَ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ أي كانوا يَتَّخِذونَ لهُ قُدوراً عِظاماً في الجِبالِ التي لا تُحَرَّكُ مِنْ مكانِها[1] ﴿رَّاسِيَـٰتٍ﴾ أي ثابتاتٍ كما ذُكِرَ. والجبالُ الرواسي أيِ الثوابتُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ هي القُدورُ العِظامُ التي أُفْرِغَتْ إفراغاً وأُكْفِئَتْ لِعِظَمِها إكفاءً، وهما واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أيِ اعْمَلُوا لِآلِ داوودَ شُكْراً لأنهُ ذُكِرَ أنهُ ليسَ مِنْ زمانٍ في ليلٍ ونهارٍ إلّا ويكونُ مِنْ آلِ داوودَ [صائمٌ بالنهارِ ومُصَلٍّ][2] بالليلِ أو كلامٌ نَحْوُهُ، فأُمِروا بالشُّكرِ لهمْ. وقالَ بعضُهُمْ: كأنهُ قالَ: اعْمَلُوا يا آلَ داوودَ شُكْراً لِما أعطيتُكُمْ مِنَ المُلْكِ والفضلِ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي قليلٌ مِنْ عبادِيَ المؤمنُ[3]، والشَّكورُ كِنايةٌ عنِ المؤمنِ على ما ذَكَرْنا مِنَ قولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]. أي لكلِّ مؤمنٍ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي أذَبْنالهُ عَينَ النُّحاسِ. والشَّكورُ، هو الفَعولُ، والفَعولُ والفَعّالُ، هما[4] اللذانِ يُكْثِرانِ الفِعْلَ، فكانَ الشَّكورُ، هو الذي يَعْتَقِدُ الشُّكرَ لربِّهِ، ويَشْكُرُ مَعَ الاعْتِقادِ والمُعامِلَةِ جميعاً.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ دلَّ هذا على أنَّ موتَهُ كانَ بِحَضرَةِ أهلِهِ ومَشْهَدٍ منهمْ حيثُ ذَكَرَ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.

ثم يذكُرُ بعضُ أهلِ التأويلِ انهُ سألَ ربَّهُ أنْ يُعْمِيَ على الجنِّ مَوتَهُ حتى يَعْلَمَهُ الإنسُ [﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن][5] لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ أعني الجنَّ ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

وبعضُهُمْ يقولُ: سألَ ربَّهُ أنْ يُعْمِيَ على الجنِّ موتَهُ حتى يَفْرَغوا مِنْ بناءِ بيتِ المقدسِ، فَدَأَبوا حَولاً يَعْمَلونَ. فلمّا فَرَغوا مِنْ بنائِهِ خَرَّ سُليمانُ مَيْتاً مِنْ عصاهُ، وكانَ مُتَّكِئاً عليها.

وبعضُهُمْ يقولُ: لمّا حَضَرَهُ الموتُ، وكانَ على فِراشِهِ في البيتِ، لم يكُنْ على عصاهُ، فقالَ: لا تُخْبِروا الجنَّ بِموتي حتى يَفْرَغوا مِنْ بناءِ بيتِ المقدسِ، وكانَ بَقِيَ عَمَلُ سنةٍ، فَفَعَلوا، فلمّا فَرَغوا مِنْ بنائِهِ خَرَّ [عندَ][6] عَتَبَةِ البابِ. فعندَ ذلك عَلِمَتِ الجِنُّ بِمَوتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ وهمْ يَدْأَبونَ لهُ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ﴾ تَبَيَّنَ[7] للإنسِ أنَّ[8] الجنَّ لو كانوا يَعْلَمونَ الغَيبَ مالَبِثوا في العذابِ المُهينِ لأنهمْ كانوا يَدَّعونَ عِلْمَ الغَيبِ، فابْتُلُوا بذلكَ.

ودلَّ قولُهُ تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ على أنهمْ كانوا لا يَدْنونَ منهُ لأحدِ وجهَينِ:

إمّا لِهَيبَتِهِ وسلطانِهِ على الناسِ، فإنْ كانَ ذلكَ طاعَ لهُ كلُّ شيءٍ، [وخَضَعَ لهُ][9] الجنُّ والطيرُ والوَحْشُ وغيرُ ذلكَ، وإمّا لِما كانَ يُكْثِرُ العبادةَ للهِ والخضوعَ لهُ بتوحيدِهِ[10]، ويَنْفَرِدُ بِنفسِهِ، لم يَجْتَرِئوا أنْ يَدْنوا منهُ، وإلّا لو دَنَوا منهُ لَرأَوا فيهِ آثارَ الموتِ[11] اللهُمَّ إلّا أنْ يكونَ ما ذَكَرَ بعضُهُمْ: أنهُ قالَ: لا تُخْبِروا أحداً بِموتي، وأمَرَهُمْ أنْ يَكْتُموا موتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: مكان. (٢) في الأصل وم: صائما بالنهار ومصليا بالليل. (٣) في الأصل وم: المؤمنين. (٤) من م، في الأصل: هو. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تبينت. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٩) في الأصل وم: وخضعوا له من. (١٠) في الأصل وم: يتوحد. (١١) في الأصل وم: الموتى.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ قيلَ: المِنسَأةُ العَصا؛ سَمّى مِنسَأةً مِنَ النَّساءِ لأنهُ كانَ بها يُؤَخِّر ما أرادَ تأخيرَهُ، وبها يدفَعُ ما أرادَ دَفْعَهُ.

ثم في إمساكِهِ العَصَا أحَدُ وجهَينِ: إمّا لِضعفِهِ في نفسِهِ، كانَ يَتَقَوّى بها في أمورِ ربِّهِ، وإمّا يُمسِكُها لِخُضوعِهِ إلى ربِّهِ وطاعتِهِ لهُ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ الأنبياءَ ﷺ كانوا لا يَشغَلُهُمُ المُلْكُ وفُضَلُ الدنيا ولا الحاجةُ ولا الفَقْرُ عنِ القيامِ بأمرِ اللهِ وتبليغِ الرسالةِ إلى الناسِ، وهما شاغِلانِ لِغَيرِهِمْ.

وهُمْ كانوا فريقَينِ: [فريقٌ][1] قد وَسَّعَ عليهِمُ الدنيا نَحْوُ سليمانَ وإبراهيمَ وغَيرُهُما، وفريقٌ، قد اشتَدَّتْ بهِمُ الحاجةُ والفَقْرُ، وكِلاهُما مانِعانِ شاغِلانِ عنِ القِيامِ بأمورِ اللهِ وتَبليغِ الرسالةِ، لِيُعلَمَ أنهمْ [ما أخذوا][2] مِنَ الدنيا ما أخذوا للدنيا، ولكنْ أخذوهُ[3] لِلْخَلْقِ، وللهِ قاموا [في ما قاموا][4]. لِذلكَ [لم يَشغَلْهُمْ ذلكَ][5] عنِ القيامِ بما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ودلَّ قولُهُ: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ أنهُ كانَ يأمُرُهُمْ، ويَستَعْمِلُهُمْ في أمورٍ شاقَّةٍ وأعمالٍ صعبةٍ حينَ[6] ذَكَرَ لَبْثَهُمْ في ذلكَ لَبْثاً في العذابِ المُهينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ تَحتَمِلُ الآيةُ التي ذَكَرَ لهمْ في مساكنِهِمُ الجَنّتَينِ اللّتَينِ ذَكَرَهُما:

إحداهما: عَنِ اليَمينِ، والأُخرى عنِ الشمالِ. ويكونُ لهمْ فيهما عِبْرَةٌ، فَتَحمِلُهُمْ على الشكرِ لربِّهِمْ عليهما والحَمْدِ لهُ والثناءِ في تلكَ النِّعَمِ، أو تُذَكِّرُهُمْ قُدرَةَ خالقِهِمْ وسُلطانَهُ وهَيبَتَهُ، فَيَحمِلُهُمْ ذلكَ على الخوفِ مِنَ العَواقبِ والعِقابِ على خِلافِهِ ورجاءِ الثوابِ على طاعتِهِ، فلم يَتَذَكَّروا.

ويَحتَمِلُ[7] أنْ تكونَ الآيةُ التي ذَكَرَ لهمْ في تبديلِ الجَنَّتَينِ اللّتَينِ كانَ لهمْ فيهما كلُّ سَعَةٍ وخِصْبٍ وكلُّ ألوانِ الفواكِهِ والجواهِرِ في غَيرِ مَؤُنَةٍ تَلْحَقُهُمْ، لأنهُ قالَ في غَيرِ آيةٍ[8] مِنَ القرآنِ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] فأخبَرَ ههنا لهمْ أنَّ لهمْ في تبديلِ جنَّتِهِمْ جنَّتَينِ آيةً، لو اعتَبَروا، واتَّعَظوا، [لَما وَقَعَتْ][9] لهمُ الحاجةُ إلى النظرِ في آياتِ مَنْ تَقَدَّمَ منهمْ، بلِ العِبْرَةُ في ذلكَ لهمْ أكثَرُ، لأنهمْ عايَنوا هذا على ما عايَنوا مِنْ أنواعِ النِّعَمِ. ثم غُيِّرَ ذلكَ، وبُدِّلَ عليهمْ. ومَنْ[10] تَقَدَّمَ منهمْ إنما يَعرِفونَ ذلكَ عنْ خَبَرٍ يَبْلُغُهُمْ لأنَّ أصلَهُمْ قد هَلَكَ. وهذا على المُشاهدةِ والمُعاينةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾ قيلَ: عنْ يَمينِ الوادي وشمالِهِ. ويَحتَمِلُ عنْ يَمينِ الطريقِ وشِمالِهِ، فيكونُ عنْ يَمينِهِمْ وشمالِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ كأنهُ قالَتْ لهمُ الرسلُ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ إذ ذَكَرَ أنهُ بَعَثَ فيهمْ كذا كذا رسولاً. ثم وَصَفَ بلدَةَ سَبإٍ أنها طَيِّبَةٌ حينَ[11] قالَ: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾: يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ طِيبِها سَعَتَها وكَثْرَةَ رِيعِها ومِياهَها وألوانَ ثِمارِها وفَواكِهِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ أي إنَّ ربَّكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ في ما رَزَقَكُمْ، وأنعَمَ عليكُمْ ربٌّ غَفورٌ لِذنوبِكُمْ، أو يُقالُ: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ أي سَتورٌ، يَستُرُ عليكُمْ ذُنوبَكُمْ، ولا يَفْضَحُكمْ، إذا صَدَّقْتُموهُ، وأطَعْتُموهُ، وشَكَرْتُمْ نِعَمَهُ.

ذُكِرَ أنَّ المرأةَ منهمْ كانتْ، تَحمِلُ / ٤٣٥ ـ أ/ المِكْتَلَ على رأسِها، والمِغْزَلَ بيدِها، فتدخُلُ البستانَ، فَيَمتَلِئُ مِكْتَلُها مِنْ ألوانِ الفواكِهِ والثمارِ مِنْ غَيرِ أن تَمَسَّ شيئاً بِيَدِها لِكَثْرَةِ رِيعِها ونُزُلِها. واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لما يأخذوا. (٣) في الأصل وم: أخذوا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: آي. (٩) في الأصل وم: فلا تقع. (١٠) في الأصل وم: وما. (١١) في الأصل وم: حيث.

ثم ذِكْرُ سَبَبَ تبديلِ الجنَّتينِ اللَّتينِ كانَتا لهمْ وبما كانَ التبديلُ:

الآية ١٦ هو ما قالَ: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ أهلُ سَبَإٍ إذا أمْطَروا يأتيهمُ السيلُ مِنْ مَسيرةِ شهرٍ أياما[1] كثيرةً، فَعَمَدُوا، فَسَدُّوا العَرِمَ، وهو الوادي ما بَينَ الجنَّتَينِ، بالصَّخْرِ[2] والقِيرِ، وجَعَلوا عليهِ الأبوابَ. فلمّا عَصَوا ربَّهُمْ، فأعْرَضوا عنهُ، وكفَروا نِعَمَهُ، سَلَّطَ اللهُ تعالى [عليهِمْ][3] على ذلكَ السَّدِّ الذي بَنَوا الفارةَ، فَنَقَبَتِ العَرِمَ فَغَشِيَ الماءُ أرضَهُمْ، فَعَقَرَ أشجارَهُمْ، وأَدّ أنعامَهُمْ، ودَفَنَ مَجاريَهُمْ، وذهبَ بِجَنَّتِهِمْ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: العَرِمُ هو المُسَنَّياتُ، واحِدتُها[4] عِرَمَةٌ، فذهبَ السيلُ الذي أرسَلَ عليهمْ بالمُسَنَّياتِ، فَيَبِسَتْ جِنانُهُمْ، وأبْدَلَ لهمْ مكانَ الثمارِ والأعنابِ ما ذَكَرَ مِنَ الخَمْطِ والأَثْلِ والسِّدْرِ بقولِهِ[5]: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: الأُكُلُ هو قليلُ الثَّمرِ، والخَمْطُ الأراكُ.

وقالَ بعضُهُمْ: [الخَمْطُ][6] شَجَرُ العَضاةِ، وهي شجرةٌ ذاتُ شَوكٍ، والأَثْلُ قيلَ: هو شبيهٌ بالطَّرْفاءِ إلّا أنهُ أعظمُ منهُ، والسِّدْرُ، هو مَعْروفٌ عندَهُمْ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ قريباً مِنْ ذلكَ؛ قالَ: الأُكُلُ الحَمْلُ، والخَمْطُ عندي السِّدْرُ وحَمْلُهُ، وقيلَ[7]: الخَمْطَةُ، وتقولُ: هذا شَجَرٌ، لهُ خَمْطَةٌ، أي ريحٌ طَيِّبَةٌ، والخَمْطُ أنْ تأخُذَ شيئاً مِنْ هنا وَثَمَّةَ، وتَخْلِطَهُ، والأَثْلُ شَجَرٌ أيضاً، لا حَمْلَ فيهِ.

والزَّجّاجُ يقولُ: الأَثْلُ هو الثَّمَرَةُ التي فيها المَرارةُ [تَذهبُ تلكَ المَرارةُ][8] بِطَعْمِها، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ نِعَمَهُ، ولم يَشْكُروا ربَّهُمْ عليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ للهِ في نِعَمِهِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قيلَ: متواصِلَةً بعضُها ببعضٍ مِنْ أرضِهِمْ إلى الشامِ، على كلِّ ميلٍ قريةٌ وسوقٌ، وكُلُّ شيءٍ فيها [﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾][9] ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ مِنَ الجوعِ والعطشِ والسِّباعِ وكلِّ ما يُخافُ منهُ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ القُرى الظاهرةِ كانَتْ لهمْ مع الجِنانِ التي ذَكَرْنا بَدْءاً، فيكونَ هذا موصولاً بالأوَّلِ، ولكن على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنهُ لمّا غَيَّرَ عليهمْ ذلكَ، وأبْدَلَ، ضاقَ بهمُ الأمرُ، فَمَشَوا إلى رسلِهِمْ، فقالوا: ادْعُوا ربَّكُمْ فَلْيَرُدَّ علينا ما ذهَبَ عنا، ونُعْطِيَكُمْ ميثاقاً أنْ نَعْبُدَ اللهَ، ولا نُشْرِكَ بِهِ شيئاً.

فَدَعَوُهُ، فَرَدَّ اللهُ عليهِمْ، وجَعَلَ لهمْ ما ذَكَرَ مِنْ قُرًى ظاهرةٍ، فذكَّرَهُمُ الرسلُ ما وَعَدوا ربَّهُمْ، فأبَوا، فَغَيَّرَ ذلكَ.

فَسَبَأٌ: ذُكِرَ أنَّ رجلاً سألَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ ﷺ أخبِرْني عن سَبَإٍ أجَبَلٌ هو أمْ أرضٌ؟ قالَ: فقالَ لهُ: لم يكُنْ جبلاً ولا أرضاً، ولكنْ كانَ رجلاً مِنَ العربِ، وَلَدَ عَشْرَ قبائلَ فأمّا سِتٌّ فَتَيامَنوا، وأمّا أربعٌ فَتَشاءَموا.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ سبأُ رجلاً، اسْمُهُ سَبَأٌ، وسَبَأُهُمُ الذينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ في سورةِ النملِ بقولِهِ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] وقالَ بعضُهُمْ: هو اسْمُ قَرْيَةٍ.

وفي قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ دلالةُ خَلْقِ الأفعالِ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ بينَهُمْ وبينَ القُرى المباركةِ قُرًى ظاهرةً. والقُرى ما اتَّخَذَها أهلُها.

ثم أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ ذلكَ، والجَعْلُ منهُ خَلْقٌ. دلَّ أنهُ خَلَقَ أفعالَ العِبادِ. وأخْبَرَ أنهُ قَدَّرَ السيرَ فيها، والسيرُ، هو فِعْلُ العبادِ، والتقديرُ، هو الخَلْقُ أيضاً. دلَّ أنهُ خَلَقَ سيرَهُمْ، وخَلَقَ اتِّخاذَهُمُ القُرى. وذلكَ على المعتزلةِ لإنكارِهِمْ خَلْقَ أفعالِ العبادِ

---

(١) في الأصل وم: أيام. (٢) في الأصل وم: بالصخرة. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: واحدها. (٥) في الأصل وم: حيث قال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قال. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: قُرًى مُتواصِلَةً بعضُها ببعضٍ؛ يسيرون مِن قريةٍ إلى قريةٍ، ويَنْزِلونَ فيها مِنْ غَيرِ أنْ تَقَعَ الحاجةُ، أو يَلْحَقَهُمْ مُؤْنَةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ نِعَمُها بَيِّنَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي قَدَّرْنا فيها السَّيْرَ لِتَسيروا فيها، أو على الأمرِ، أي قَدَّرْنا فيها السَّيْرَ، وقُلْنا لهمْ سِيروا في ما أنْعَمَ اللهُ عليكُمْ، وتَقَلَّبوا فيها لَيالِيَ وأياماً آمِنينَ مِنَ الجوعِ والعَدُوِّ وكلِّ آفةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي جَعَلْنا ما بَينَ القَرْيَةِ والقَرْيَةِ مِقْداراً واحداً.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فيهِ لُغاتٌ مِنْ خمسةِ أوجهٍ:

أحَدُها: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾. [والثاني][1]: بَعِّدْ؛ وكلاهما[2] على الدُّعاءِ والسُّؤالِ. والثالثُ: بَعَّدَ [والرابع][3]: بُعِدَ. قالَ أبو معاذٍ: ولولا تغييرُ الكتابةِ لكانَ يجوزُ بُوعِدَ [والخامسُ: باعَدَ][4].

ومَنْ قرأَ: ربُّنا باعَدَ فَعَلَى الخَبَرِ، وكذلكَ بَعَّدَ، ومَنْ قرأَ: بَعُدَ بينَ أسفارنا يُخَرَّجُ على الشكايةِ عمّا بَعُدَ مِنْ أسفارِهِمْ

فأمّا على السُّؤالِ والدُّعاءِ فهو، واللهُ أعْلَمُ، لأنهمْ سَئِموا، ومَلُّوا لِكَثْرةِ ما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ، ورَفَعَ عنهم المُؤَنَ، وطالَ مُقامُهُمْ فيها، سَألوا ربَّهُمْ أنْ يُحَوِّلَ ذلكَ عنهمْ سَفَهاً منهُمْ وجَهْلاً. وكانوا كقومِ موسى حينَ أنْزَلَ عليهِمُ المَنَّ والسَّلْوَى، ورَفَعَ عنهمُ المَؤْنَةَ، سَئِموا، ومَلُّوا. في ذلكَ قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ [البقرة: ٦١] وما ذَكَروا. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ.

ومَنْ قَرأَ: ربَّنا بَعُدَ بينَ أسفارِنا فَعَلَى الشكايةِ [شَكَوا إلى ربِّهِمْ][5] لِما ذَهَبَ عنهمُ السَّعَةُ والخِصْبُ، وأصابَهُمُ الجَهْدُ والمَؤْنَةُ.

وأمّا قولُهُ: باعَدَ فَعَلَى الخَبَرِ. فكأنهُ [كانَ فيهِمْ ذلكَ][6] كلُّهُ: فيهِمْ مَنْ سَألَ تحويلَهُ، وفيهِمْ مَنْ شَكا إذا زالَ ذلكَ، وتَحَوَّلَ، وفيهِمْ مَنْ أخْبَرَ بِزَوالِهِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ موسى لِفِرعَونَ حينَ[7]: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لا أنهُ كانَ أحدَهما. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ وما يُشْبِهُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أهْلَكْناهُمْ كلَّ إهلاكٍ حتى صاروا عِظَةً وعِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ يقولُ[8]: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ الناسِ على حقيقةِ الحديثِ، يَتَحَدَّثونَ بأمْرِهِمْ وشَأنِهِمْ [وكذلكَ قولُهُ][9]: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فَرَّقْناهُمْ كلَّ تَفْريقٍ أي في كلِّ أوجهِ التفريقِ حتى وَقَعَ بعضُهُمْ بمكةَ، وبعضُهُمْ بالمدينةِ، وبعضُهُمْ بالشامِ، وبعضُهُمْ بالبَحْرينِ وعُمانَ، ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الصَّبّارُ والشَّكورُ، هو المؤمنُ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ في ذلكَ لَعِبَراً وعِظاتٍ لِكلِّ مؤمنٍ أو آياتٍ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاءِ والمَحارِمِ ﴿شَكُورٍ﴾ لِنِعَمِ اللهِ.

ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: في الاعْتِقادِ لهُ.

والثاني: في المعاملةِ؛ يَعْتَقِدُ الصبرَ لِرَبِّهِ على جميعِ أوامِرِهِ ونواهيهِ والشكرَ لهُ على جميعِ نَعمائِهِ، والمعاملةُ: أنْ يَصْبِرَ على ذلكَ، ويَشْكُرَ لهُ في نِعَمِهِ.

---

(١) في الأصل وم: و، أدرج في معجم القراءات القرآنية ثمانية وجوه، انظر ذلك ج٥/ ١٥٤ و١٥٥ و١٥٦. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: شكا على ربه. (٦) في الأصل وم: كانت فيهم وذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ اختُلِفَ في ظَنِّهِ:

قالَ بعضُهُمْ: ظَنَّ فيهمْ ظَنّاً، فوافَقَ ظَنُّهُ فيهمْ حينَ قالَ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] مَنْ عَصَمْتَ مني ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٨ و١١٩] إلى آخرِ ما ذَكَرَ. فقد صَدَّقَ ما ظَنَّ فيهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ وذلكَ أنَّ إبليسَ خُلِقَ مِنْ نارِ السَّمومِ، وخُلِقَ آدَمُ مِنْ طينٍ، ثم قالَ إبليسُ: إنَّ النارَ سَتَغْلِبُ الطينَ؛ فَمِنْ ثَمَّةَ صَدَّقَ ظَنَّهُ / ٤٣٥ ـ ب/ فقالَ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ و٤٠ وص: ٨٢ و٨٣]

[قالَ اللهُ تعالى][1]: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ ثم استثنى عبادَهُ المُخْلَصينَ، فقالَ: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني عبادَهُ المُخْلَصينَ، فإنهمْ لم يَتَّبِعوهُ؛ [هُمُ الذينَ قالَ فيهمْ][2]: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] وقالَ قائلونَ: ﴿مِّنَ﴾ ههنا صِلَةٌ، كأنهُ قالَ: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذينَ همْ في الحقيقةِ. فأمّا مَنْ كانَ عندكُمْ مِنَ المؤمنينَ في الظاهرِ فقدِ اتَّبعوهُ، لأنهُ لا كلُّ مؤمنٍ عندَنا هو في الحقيقةِ مؤمنٌ. [ويَحتمِلُ][3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ في ما دعاهُمْ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: واللهِ ما ضَرَبَهُمْ بالسيفِ، ولا طَعَنَهُمْ بالرمحِ، ولا أكْرَهَهُمْ على شيءٍ، وما كانَ منهُ إلّا غُرورٌ أو أمانيُّ وَوَسْوَسَةٌ، دعاهُمْ إليها، فأجابوهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي حُجَّةٍ؛ ليسَ لهُ حُجَّةٌ عليهمْ، أي لم يُمَكَّنْ [لهمْ][4] مِنَ الحُجَّةِ، ولكنْ إنما مَكَّنَ لهمُ الوساوِسَ والتَّمويهاتِ. ثم جَعَلَ اللهُ للمؤمنينَ مُقابِلَ ذلكَ حُجَجاً، يدفَعونَ بها شُبَهَهُ وتَمويهاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: لِيَعْلَمَ كائناً ما قد عَلِمَهُ غائباً عنهمْ.

[والثاني: لِيَعْلَمَ حَقَّهُ مِنَ الخَلْقِ وَوَجْهَ ما قد عَلِمَهُ غائباً عنهمْ. فإنْ كانَ لهُ وجودٌ[5] عَلِمَ وجودَ ذلكَ منهمْ، وما [ليسَ لهُ وجودٌ][6] يَعْلَمُهُ موجوداً، والتَّبعيَّةُ تقعُ على [وَجْهِ][7] إعلامٍ لا على آخَرَ. بل هو عالمٌ في الأحوالِ كلِّها][8].

والثالثُ: يُكَنّي بالعِلْمِ معلومَهُ، أي ليكونَ المَعْلومُ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المُوقَنُ بهِ. وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ مِنَ الإيمانِ والشِّرْكِ، وغيرُهُ مِنَ الأعمالِ ﴿حَفِيظٌ﴾ عالمٌ بهِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهمْ[9] آلهةٌ: الملائكةُ والأصنامُ ومَنْ عَبَدوهُمْ مِنْ دونِهِ، هل يَمْلِكونَ لكمْ شيئاً مِنْ دَفْعِ ضُرٍّ أو جَرِّ نَفْعٍ؟ فيقولُونَ[10]: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولا أصْغَرَ مِنْ ذلكَ ولا أكْبَرَ، فكيفَ تُسَمّونَهُمْ آلهةً؟

أو يقولُ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهمْ[11] آلهةٌ، فَلْيَكْشِفوا عنكُمُ الضُّرَّ الذي نَزَلَ بكُم مِنَ الجوعِ وغيرِهِ كقولِهِ: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

فالجوابُ لذلكَ أنْ يقولوا: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ولا أصْغَرَ ولا أكْبَرَ. فكيفَ تَذْكُرونَ ما ذُكِرَ؟.

---

(١) في الأصل وم: يقول الله. (٢) في الأصل وم: الذين قال. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في نسخة الحرم المكي: الوجود. (٦) في نسخة الحرم المكي: لهُ الوجودُ. (٧) ساقطة من نسخة الحرم المكي. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أنه. (١٠) في الأصل وم: فيقول. (١١) في الأصل وم: أنه.

يَذْكُرُ، واللهُ أعلَمُ، سَفَهَهُمْ وفَرْطَهُمْ في عِبادتِهِمْ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ، وتَسْمِيَتِهِمْ إيّاها آلهةً.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ يَعْني في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وحِفْظِهِما. مَنْ يَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

[وقولُهُ تعالى][2] ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي مِنْ عَونٍ في ذلكَ. فكيفَ سَمَّيْتُموهُمْ[3] آلهةً وشُرَكاءَ في العبادةِ؟

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لا يَمْلِكُ أحدٌ الشفاعةَ لأحدٍ إلّا لِمَنْ أَذِنَ لهُ لِلشفاعةِ لهُ. فهو لم يأذَنْ بالشَّفاعةِ لأحدٍ مِنَ الكَفَرةِ، فَذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِقَولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ولِقَولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] أو يَذْكُرُ أنَّ مَنْ تَرْجونَ منهمُ الشفاعةَ بالمَحَلِّ الذي ذَكَرَ، هُمْ مِنَ المحلِّ الذي ذَكَرَهُمْ مِنَ الخوفِ والفَزَعِ، فكيفَ تَرجون شَفاعَتَهُمْ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [وقولِهِ][4]: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فكيفَ يَمْلِكونَ الشفاعةَ لكمْ؟ أو نَحْوُهُ مِنَ الكلامِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ليسَ لهذا الحَرْفِ في ذا الموضِعِ صِلَةٌ، يُوصَلُ بها، ولا تَقَدَّمَ بعطفٍ عليهِ، وعلى الابْتِداءِ لا يَسْتقيمُ.

فبعضُ أهلِ التأويلِ، يقولُ: كانَ بينَ عيسى ومحمدٍ فَترَةُ زمانٍ طويلٍ لا [يجيءُ فيها][5] الرسلُ، فلما بَعَثَ اللهُ محمداً، وكلَّمَ جبريلَ بالرسالةِ إلى محمدٍ، سَمِعَ الملائكةُ ذلكَ، فَظَنُّوا أنَّ[6] الساعةَ قامَتْ، فَصَعِقوا ممّا سَمِعوا. فلما انْحدَرَ جبريلَ جَعَلَ كلّما يَمُرُّ [قريباً][7] منهمْ جَلّى عنهمْ، وكَشَفَ. فقالَ بعضُهُمْ لبعضٍ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ أي الوحيَ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ الوحيُ إذا نَزَلَ مِنَ السماءِ نَزَلَ كأنهُ سِلْسِلةٌ على صخرةٍ، قالَ: فَيَفْزَعُ الملائكةُ بذلكَ، فَيَخِرّونَ سُجَّداً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قالَ: انْجَلى عنْ قلوبِهِمُ [الفَزَعُ][8] ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قيلَ: جُلِّيَ، وكُشِفَ الغِطاءُ. قالَ الكسائيُّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ مُشْتَقَّةٌ من الفَزَعِ كما تقولُ: هَيبَةٌ في قلبِهِ، ورِقَّةٌ، وفَزَعٌ، وكلُّهُ[9] واحدٌ.

ومَنْ قرأَ: فُرِّغَ بالراءِ، أي أُفْرِغَ[10]، وتُرِكَ فارغاً، مِنَ الخوفِ والشُّغْلِ، وهي قراءةُ [ابْنِ مسعودٍ][11].

قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ يقولُ: يُخبِرونَ بالأمرِ الذي جاؤوا بِهِ، ولا يقولونَ إلّا الحَقَّ، لا يَزيدونَ، ولا يَنْقُصونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يَمْلِكونَ إنشاءَ ذَرَّةٍ في السمواتِ والأرضِ، وما لهمْ في إنشاءِ ما فيهما مِنْ شِرْكٍ، وما لهمْ في إنشاءِ ذلكَ مِنْ عَونٍ، فكيفَ تَعْبُدونَهُمْ، وتُسَمّونَهُمْ آلهةً؟.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ ذلكَ الفَزَعُ منهمْ، وذلكَ القولُ منهمْ في القيامةِ؛ فَزِعوا لِقيامِها. وقد قُرِئَ: حتى إذا فَزَّعَ بنصبِ[12] الفاءِ، أي حتى إذا فَزَّعَ اللهُ، أي كَشَفَ اللهُ عنْ قلوبِهِمُ الفَزَعَ، وجَلّى ذلكَ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: سميتموها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل يجري، في م: يجري فيها. (٦) في الأصل وم: أنها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: كل. (١٠) في الأصل وم: أخرج. (١١) أدرج في غريب القرآن للسجستاني أنها قراءة الحسن وأيوب وغيرهما ولم يذكر أن ابن مسعود قد قرأها ص ٢٨٤. انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٥٩. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٥٨.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا في الظاهرِ، وإنْ كانَ استِفهاماً فهو على التقريرِ والإيجابِ، لأنا قد ذَكَرْنا أنَّ كلَّ استِفهامٍ كانَ مِنَ اللهِ فهو على التقريرِ والإيجابِ.

ثم لو كانَ ذلكَ مِنْ [أنْ][1] يكونَ منهُ الاستِفهامُ لَكانَ جوابُ قولِهِ[2]: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قولَهُمْ[3]: اللهُ يَرْزُقُنا كقولِهِ: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقولِهِ[4]: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فيقولُ لهمْ: فإذا عَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ هو رازِقُكُمْ فكيفَ صَرَفْتُمْ عبادتَكُمْ عنهُ إلى مَنْ تَعْلَمونَهُ أنهُ لا يَمْلِكُ شيئاً مِنْ رِزْقِكُمْ؟ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ وحَفْصَةَ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قالوا اللهُ، قالَ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِنَ مَطَرٍ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ النَّباتَ. فإنْ أجابوكَ، فقالوا: اللهُ، وإلّا، فَقُلْ: اللهُ يَفْعَلُ ذلكَ لكمْ، فكيفَ تَعبدونَ غيرَهُ؟ ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ يقولُ ذلكَ رسولُ اللهِ لأهلِ مكةَ: إنّا لَعَلَى هُدًى، أو إنكمْ لَعَلَى هُدًى، أو إنّا وإيّاكمْ لَفي ضلالٍ مُبينٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: معناهُ: وإنّا لَعَلَى هُدًى، وإنكُمْ[5] لفي ضلالٍ مبينٍ. ولكنْ ليسَ هذا في ظاهرِ هذا الكلامِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على تعريضِ الشَّتْمِ لهمْ بالضلالِ والكِنايةِ لذلكَ كما يقولُ الرجلُ لِآخَرَ في حديثٍ أو خَبَرٍ يجري بَيْنَهما: إنَّ أحَدَنا لَكاذبٌ في ذلكَ، أي أنتَ كاذبٌ في ذلكَ، لكنهُ تعريضٌ منهُ ذلكَ، ليسَ بِتَصْريحٍ.

وقالَ قتادةُ: هذا قولُ محمدٍ وأصحابِهِ لأهلِ الشِّرْكِ، واللهُ أعلَمُ: [ما][6] نحنُ وأنتمْ على أمرٍ واحدٍ، واللهِ إنَّ أحَدَ الفريقينِ لَمهتَدٍ، والفريقَ الآخَرَ في ضلالٍ مُبينٍ؛ فأنتمْ تَعْلَمونَ أنّا على هُدًى لِما أقَمْنا مِنَ الدلائِلِ والحُجَجِ والبراهينِ على ذلكَ، وأنتمْ لا.

وقالَ بعضُهُمْ: قالَ ذلكَ لأنَّ كفارَ مكةَ قالوا للنَّبيِّ وأصحابِهِ: تعالَوا نَنْظُرْ في مَعايِشِنا / ٤٣٦ ـ أ/ مَنْ أفضَلُ ديناً؟ أنحنُ أمْ أنتمْ؟ فَعَلَى ذلكَ نكونُ في الآخِرَةِ. فرَدَّ اللهُ تعالى ذلكَ عليهمْ في قولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآيةَ [الجاثية: ٢١].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال بعضُهُمْ: قالَ ذلكَ لأنهمْ كانوا يُعَيِّرونَ رسولَ اللهِ ﷺ [وأصحابَهُ][7] ويُوَبِّخونَهُمْ في طَعْنِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدوها وذِكْرُهُمْ إيّاها بالسوءِ وما يَدَّعُونَ عليهِ مِنَ الافْتِراءِ بأنهُ رسولُ اللهِ، فيقولُونَ لهمْ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ نحنُ ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كقولِهِ في سورةِ هودٍ: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [الآية: ٣٥].

ويَحْتَمِلُ[8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ أي عمّا تَدَيَّنّا مِنَ الدينِ أوعمّا عَمِلْنا مِنَ الأعمالِ ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنتمْ أي عمّا تدينونَ مِنَ الدينِ كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وكقولِهِ: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وإنما يُقالُ هذا بعدَ ظُهورِ العِنادِ والمُكابَرَةِ. فأمّا عندَ الابْتِداءِ فلا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وصِلَةُ قولِهِ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾.

كأنهمْ قالوا لرسولِ اللهِ وأصحابِهِ: إنا لَعَلَى هُدًى وأنتمْ على ضلالٍ مُبينٍ. فقالَ عندَ ذلكَ جواباً لهمْ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: قومه. (٣) في الأصل وم: يقولون. (٤) في الأصل وم: ثم قال. (٥) في الأصل وم: وإياكم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو.

﴿رَبُّنَا﴾ أي يَجمَعُ بيننا [﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَنَا﴾][1] ﴿بِالْحَقِّ﴾ مَن مِنّا على الهُدَى؟ ومَن مِنّا على الضَّلالِ؟ أنحنُ أم أنتمْ؟ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي وهو الحاكمُ العَليمُ ما ظَهَرَ وما بَطَنَ حقيقةً.

والمُفاتَحَةُ، هي المُحاكَمَةُ؛ يُقالُ: هَلُمَّ حتى نُفاتِحَكَ إلى فلانٍ أي نُحاكِمَكَ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي يكشفُ كلَّ خَفِيٍّ منّا وكلَّ ستيرٍ وباطنٍ، فَيَجعَلُهُ ظاهراً بَيْنَنا لِيَظْهَرَ الذي هو على الحقِّ منَ الباطلِ، والهُدَى مِنَ الضلالِ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي الكاشِفُ المُظْهِرُ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ يَعْلَمُ الظاهرَ والباطنَ جميعاً، والإعلانَ والإسرارَ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي أروني الذينَ ألحقتُمْ باللهِ شركاءَ في تَسمِيَتِكُمُ الأصنامَ آلهةً، أو ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ في العبادةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ للذينَ عَبَدوا الملائكةَ، وأشرَكوا فيها، كأنَّ فيهِ إضماراً؛ يقولُ: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ هل خَلَقوا شيئاً؟ أمْ هل رَزَقوا؟ أمْ هل أحْيَوا؟ أم هل أماتوا؟ فإذا عَرَفْتُمْ أنهمْ لم يَخلُقوا، ولم يَرزُقوا، ولا يَقْدِرونَ ذلكَ، وعَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ، وهو الرازقُ. فكيفَ أشرَكْتُمْ مَنْ لا يملكُ ذلكَ في أُلوهيَّتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ منهمْ مَنْ يقولُ: ﴿كَلَّا﴾ ردّاً على قولِهِمْ: ﴿شُرَكَاءَ﴾ أي ليسوا بشركاءَ ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ المُتَفَرِّدُ ﴿الْحَكِيمُ﴾.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو رَدٌّ على قولِهِ: [﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠ والأحقاف: ٤]][3] هل خَلَقوا شيئاً؟ أم هل رَزَقوا شيئاً؛ يقولُونَ[4]: ﴿كَلَّا﴾ أي لم يَخْلُقوا، ولم يَرزُقوا ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو المُتَفَرِّدُ بذلكَ، واللهُ الموفقُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فُزِّعَ﴾ أي ذُهِبَ [وقالَ القُتَبِيُّ: فُزِّعَ خُفِّفَ][5].

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمدُ ﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا﴾ بالجنةِ لِمَنِ اتَّبَعَكَ[6] ﴿وَنَذِيرًا﴾ لِمَنْ [خالَفَكَ، وعصاكَ][7].

وقولُهُ: ﴿كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ما أرسَلْناكَ إلّا جامعاً للناسِ على الهُدَى داعياً إليهِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي ما أرسَلْناكَ إلّا إلى الناسِ جميعاً: إلى العَرَبِ والعَجَمِ وإلى الإنسِ والجنِّ، ليسَ كسائرِ الأنبياءِ؛ إنما أُرسِلُوا إلى قومٍ دونَ قومٍ وإلى بلدةٍ دونَ بلدةٍ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ نبيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أُعْطِيتُ أربعاً لم يُعطَهُنَّ نبيٌّ قبلي:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا «بُعِثْتُ إلى الناسِ جميعاً» عامَّةً «إلى الأحمرِ والأسودِ والعربِ والعَجَمِ.

والثاني: جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِداً وطَهوراً.

[والثالثُ: نُصِرْتُ بالرعبِ][8] مسيرةَ شهرينَ.

[والرابعُ: أُحِلَّتْ لِيَ][9] الغنائمُ» [بنحوه البخاري: ٣٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يُصَدِّقونَ. ويَحتَمِلُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بما يَعْلَمونَ[10] أو لا يَعْلَمونَ حقيقةً لِما لم يَنْظُروا إلى الحُجَجِ والآياتِ، وقد[11] مُكِّنَ لهمْ لو نَظَروا، وأُعْلِموا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الاصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) من م، في الأصل: خفف. (٦) في الأصل وم: اتبعه. (٧) في الأصل وم: خالفه وعصاه. (٨) في الأصل وم: وأرعب لنا عدونا. (٩) في الأصل: وأحلت له، في م: وأحلت لي. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: وألا يعلمون. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا القولُ منهمْ إنما يقولونَ على الاسْتِهزاءِ والسخريةِ، ليسَ على الاسْتِرْشادِ، على أنهُ لا يكونُ ذلكَ، وأنهُ كَذِبٌ، كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] أخبرَ أنَّ أولئكَ يَستعجِلونَ بها لِتَرْكِهِمُ الإيمانَ بها استِهزاءً منهمْ، والذينَ آمنوا خائفونَ منها لإيمانهمْ بها أنها كائنةٌ، لا محالةَ.

لكنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لم يُجِبْهُمْ ما يُجابُ المُستهزِئُ، ولكنْ أجابَهُمْ ما يُجابُ المُسْتَرْشِدُ بلطفِهِ وكرمِهِ وجودِهِ.

الآية ٣٠ حينَ[1] قالَ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي لكمْ ميعادُ الذي وَعَدَكُمْ محمدٌ أنهُ كائنٌ، لا محالةَ، وهو يومٌ: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ وهكذا الواجبُ على كلِّ مَسْؤولٍ، إذا كانَ سائِلُهُ يَسْألُهُ سؤالَ استِهزاءٍ أنْ يُجيبَهُ جوابَ ما يُجابُ المُسْتَرْشِدُ لا ما يُجابُ المُستهزِئُ، ولا يَدَعَ علمَهُ وحكمتَهُ لِسَفَهِ السفيهِ ولا لِهُزْءِ الهازئِ، ولكنهُ يحفظُ حكمتَهُ وعلمَهُ وعقلَهُ، ولا يَشْتَغِلُ بجوابِ مِثْلِهِ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إنْ كانَ على طَلَبِ التأخيرِ وطَلَبِ التقديمِ ففيهِ تَعْيِيرٌ وتوبيخٌ لهمْ؛ كأنهُ يقولُ: ليسَ لكمْ مِنَ الخَطَرِ والقَدْرِ والمَنْزِلَةِ ما يُؤخِّرُ لكمْ ما [2] تَسْتأخِرونَ أو يُقَدِّمُ لكمْ ما تَسْتَقْدِمونَ. وإنْ كانَ على تحقيقِ تَرْكِ التأخيرِ وتَرْكِ التقديمِ فكأنهُ[3] يقولُ: ميعادُكُمْ يومَ لا تَمْلِكونَ تأخيرَهُ إذا جاءَ ولا تقديمَهُ عنْ وقتِهِ ولا دَفْعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كأنَّ هذا القولَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ، خَرَجَ عنْ مُخاصَمَةٍ وَقَعَتْ بينَهمْ وبينَ المؤمنينَ في شأنِ القرآنِ أو في شأنِ محمدٍ، فَتحاكموا على الكتابِ على اتِّفاقٍ منهمْ على ما في كُتُبِهِمْ. فلما خَرَجَ ذلكَ على مُوافقةِ قولِ المؤمنينَ ومُخالفةِ قولِ أولئكَ قالوا عندَ ذلكَ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وإلّا على الابْتِداءِ مِنْ غَيرِ تَنازُعٍ وخصومةٍ، كانَ بينَهُمْ، غَيرُ مُسْتقيمٍ.

ويذكُرُ بعضُ أهلِ التأويلِ [عنِ][4] ابنِ عباسٍ وغيرِهِ أنَّ رَهْطاً بَعَثَتْهُمْ قريشٌ إلى المدينةِ إلى رؤساءِ اليهودِ [والنَّصارَى][5] يَسْألونَهُمْ عنْ محمدٍ وبعثِهِ، فأخبروهُمْ أنهُ كائنٌ وأنهُ مَبْعوثٌ. فلّما رَجَعوا إليهِمْ، فأخبروهمْ أنهمْ قد عَرَفوهُ، وهو عندَهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ، فعندَ ذلكَ قالوا ما قالوا.

ثم كأنهُ اشْتَدَّ ذلكَ على رسولِ اللهِ ﷺ وثَقُلَ عليهِ، فقالَ لهُ على التَّعْزِيةِ والتَّصبيرِ على ذلكَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي [مَحْبوسونَ عندَ ربِّهِمْ][6] على محاسَبَةِ ما كانَ منهمْ مِنَ العِنادِ والمُكابَرَةِ والتكذيبِ، أي لو رأيتَ[7] ما فيهِمْ مِنَ الذُّلِّ والهَوانِ والخُضوعِ لَرَحِمْتَهُمْ، ولأَخَذَتْكَ الرأفةُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي يَلومُ بعضُهُمْ بعضاً، فيقولونَ ما ذَكَرَ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي السَّفَلَةُ والأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي القادةِ منهمْ والرؤساءِ ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ في ما صَرَفْتُمونا عنْ دينِ اللهِ، وصَدَدْتُمونا عنهُ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بهِ تابعينَ لهُ، لأنهمْ كانوا يَصْدُرونَ لآرائِهِمْ، ويَقْبَلونَ قولَهُمْ لِما هُمْ كانوا أهلَ شَرَفٍ / ٤٣٦ - ب/ ومعرفةٍ، والسَّفَلَةُ لا.

فيقولونَ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ نَتْبَعُ رأيَ أنفسِنا، فنؤمِنُ بهِ. لكنْ قُلْتُمْ لنا: أنهُ كذبٌ، وإنهُ افْتَراهُ، وإنهُ سحرٌ، فنحنُ صَدَّقْناكُمْ في ذلكَ.

الآية ٣٢ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لا. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: رأيتم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

قولُهُ: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ هو على التقريرِ، أي نحنُ لم نَصُدَّكُمْ، وإنْ كانَ ظاهرُهُ استِفهاماً، ولكنْ أنتم بأنفسِكُمْ تركْتُمُ اتّباعَهُ. [يُخبِرُ اللهُ ﷻ أنّ الرؤساءَ][1] كانوا يقولونَ للأتباعِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] أخبَروهُمْ[2] أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ. ثم أخبَروهُمْ أنكمْ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] ونحنُ بَشَرٌ، فكيفَ اتّبَعْتُمونا، وأطَعْتُمونا؟ ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ في اتّباعِكُمْ ما اتّبَعْتُموهُ.

[ويَحتَمِلُ][3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [وجهَينِ]:

أحَدُهما[4]: أي لولا تَلْبيسُكُمْ علينا وتَمويهُكُمْ أنَّ الرسلَ كَذَبَةٌ، وأنهمْ سَحَرَةٌ في ما يقولونَ، ويَدْعُونَ، وأنهمْ يَفْتَرونَ على اللهِ، وإلّا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

والثاني: لولا مَنْعُكُمْ إيانا عنِ النَّظَرِ والتَّفكُّرِ مِنْ أمورِهِمْ والتأمُّلِ في الحُجَجِ والآياتِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

هذا قولُ الأتباعِ للرؤساءِ.

ثم أجابَ لهمُ الرؤساءُ، فقالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ يقولونَ، واللهُ أعلَمُ: إنْ صَدَدْناكُمْ، ومَنَعْناكُمْ عنِ اتّباعِهِمْ ظاهراً وعَلانِيَةً [فما مَنَعَكُمْ أنْ تتّبِعوهُ][5] سِرّاً مِنْ غيرِ أنْ نَطّلِعَ، ونَعْلَمَ نحنُ بذلكَ. أوَ ما ذَكَرْنا مِنْ قولِنا[6]: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؟ [المؤمنون: ٣٤] وقد عَرَفْتُمْ أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فأطَعْتُمونا، وترَكْتُمْ طاعةَ الرسلِ لأنهمْ بَشَرٌ.

الآية ٣٣ فأجابَ لهمُ الأتباعُ، فقالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [بل بِمَكْرِكُمْ إيّانا وقولِكُمْ في الليلِ والنهارِ][7]: إنهمْ كَذَبَةٌ، سَحَرَةٌ، وخِداعِكُمْ إيّانا أنهمْ[8] بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ترَكْنا اتّباعَهُمْ؛ إذ تأمُرونَنا أنْ نَكْفُرَ باللهِ [ونَجعَلَ لهُ أنداداً، [ويَحتَمِلُ أنْ قالوا][9]: بل مَكْرُكُمْ في الليلِ والنهارِ؛ إذْ تأمُرونَنا أنْ نَكْفُرَ باللهِ][10] أي مِنْ تَخويفِكُمْ إيّانا وهيبَتِكُمْ لنا مِنَ الأخذِ على البَغْتَةِ والغَفْلَةِ ترَكْنا اتّباعَهُمْ في السِّرِّ، إذا ظَهَرَ، وبَلَغَكُمُ الخَبَرُ بهِ.

هذهِ مُناظراتُ أهلِ الكُفْرِ في ما بَيْنَهم يومئذٍ، ورَدُّ بعضِهِمْ على بعضٍ، ولَعْنُ بعضِهِمْ بعضاً، يَذْكُرُها في الدنيا لِيُلْزِمَهُمُ الحُجّةَ ولئلا يقولوا يومئذٍ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فإن قيلَ: إنهمْ كانوا لا يؤمنونَ بهذا القرآنِ ولا بالبعثِ فكيفَ يُلْزِمُهُمْ ذلكَ، وهم لا يَسْتَمعونَ لهُ؟

قيلَ: إنهمْ مُكّنوا مِنَ الاستِماعِ والنَّظَرِ فيهِ، فَلَزِمَتْهُمُ[11] الحُجّةُ، وإنْ لم يَسْتَمِعوا لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أسَرَّ الرؤساءُ الندامةَ بِصَرْفِ الأتباعِ وصَرْفِ أنفسِهِمْ عنْ دينِ اللهِ واتّباعِ الرسلِ ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾. وقيلَ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ الأتباعُ والرؤساءُ جميعاً وقولُهُ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ مِنَ[12] الإسرارِ والإخفاءِ؛ أخفَى بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أخفَى الكَفَرَةُ الندامةَ عنِ المؤمنينَ.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أظهَروا، وهو [مِنَ][13] الأضدادِ، ويُقالُ: أسْرَرْتُ الشيءَ أخفَيْتُهُ، وأظهَرْتُهُ. وأمّا غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ فإنهمْ قالوا: هو مِنَ الإخفاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الأغلالُ جماعةُ الغُلِّ، وهو ما يُجعَلُ في اليد، ثم تُشَدُّ اليدُ إلى العُنُقِ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يُجزَونَ إلّا جزاءَ عَمَلِهِمْ في الدنيا.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ المُتَكَبِّرُ. وقالَ آخرونَ: المُتْرَفُ هو الذي يجمعُ أصنافَ المالِ مع العِنادِ والتكَبُّرِ. وقالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفونَ الرؤساءُ منهمْ.

---

(١) في الأصل: لأن الرؤساء عنهم، في م: لأن الرؤساء منهم. (٢) في الأصل وم: اخبروا. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فمتى منعناكم. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: وأنهم. (٩) من نسخة الحرم المكي، في م: أو يقولون. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فيلزمهم. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

وهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ إلّا ما هو أَصْلَحُ[١] في الدينِ. ولا شَكَّ أنَّ هؤلاءِ المُتْرَفينَ إنما قالوا ما قالوا، أو فَعَلوا ما فَعَلوا لِسَعَتِهِمْ وبَسْطِهِمْ في المالِ. فلو لم يَكُنْ ذلكَ لهمْ ما فَعَلوا ذلكَ. دلَّ أنَّ المَنْعَ لهمْ عنْ ذلكَ أَصْلَحُ لهمْ مِنَ البَسْطِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ المُتْرَفُ ما ذُكِرَ؛ قالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ المُتَجَبِّرُ. وقالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ الذي يَجْمَعُ معَ الكِبْرِ والعِنادِ الأموالَ. وقالَ بعضُهُمْ: مُترفوها أغنياؤها، وكلُّهُ واحدٌ. وفيهِ ردُّ قولِ المُعْتَزِلَةِ في الأصلَحِ على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ يُخَرَّجُ قولُهُمْ ذلكَ لِوَجهَينِ:

أحَدُهُما: قالوا ذلكَ: إنا أُوتينا في الدنيا الأموالَ والأولادَ، فلا يُعَذِّبُنا في الآخِرَةِ، على ما يَزْعُمونَ.

[والثاني: قالوا][٢] ذلكَ: إنكَ لو كُنْتَ بُعِثْتَ رسولاً على ما تَزْعُمُ فنحنُ أَوْلَى بالرسالةِ منكَ لأنّا أكْثَرُ أموالاً وأولاداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ هذا أيضاً يَنْقُضُ على المعْتَزِلَةِ ومَنْ يقولُ بأنَّ اللهَ لا يَبْسُطُ على أحدٍ الرِّزْقَ إذا لم يكُنْ في البَسْطِ إصلاحٌ لهُ وخيرٌ، وكذلكَ لا يَقْتُرُ على أحدٍ ذلكَ إذا لم يكُنْ في التَّقْتِيرِ خيرٌ.

وعندَنا ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وإنْ لم يكُنْ خيراً لهُ، وكذلكَ يَقْتُرُ على مَنْ يَشاءُ، وإنْ كانَ شرّاً لهُ على ما نَطَقَ ظاهرُ الآيةِ، ليسَ عليهِ حِفْظُ الأصْلَحِ ولا الخيرُ، واللهُ اعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعون بِعِلْمِهِمْ، أو لا يَعْلَمونَ حقيقةً؛ لمّا تَرَكوا النَّظَرَ والتَّفَكُّرَ في أسبابِ العلمِ [لم يَعْلَموا][٣] فلا يُعْذَرونَ لِما مَكَّنَ لهمُ العِلْمَ بهِ.

وقولُهُمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قالوا ذلكَ لِما لم يَرَوا في الحكمةِ أنْ يُحْسِنَ أحدٌ إلى عدوِّهِ، والسَّعَةُ هي مِنَ الفضلِ والإحسانِ، ثم رَأَوا لأنفسِهِمْ ذلكَ؟، ظَنّوا أنهمْ أولياءُ اللهِ، وأنَّ الرسلَ حينَ[٤] ضُيِّقَتْ عليهِمُ الدنيا إنما ضُيِّقَتْ عليهِمُ الدنيا لأنهمْ ليسوا بأولياءِ اللهِ، لذلكَ قالوا ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وهذا القولُ منهمْ لإنكارِهِمُ البعثَ فلو[٥] كانوا مُقِرِّينَ بهِ لَكانوا لا يقولونَ ذلكَ، ويَعْلَمونَ أنَّ السَّعَةَ في الدنيا والضِّيقَ فيها بِحقِّ الإمْتِحانِ. وأمّا إذا كانَ بعثٌ ودارٌ أُخرَى لِلْجَزاءِ ففي الحكمةِ أنْ يُجْزَى الوَلِيُّ جزاءَ الولايةِ والمُسيءُ مِنَ العَدُوِّ جَزاءَ الإساءةِ والعَداوةِ. وأمّا الدارُ التي هي دارُ امْتِحانٍ وابْتِلاءٍ فيجوزُ ذلكَ بحقِّ الإمْتحانِ في الحكمةِ. ولذلكَ خَرَجَ الجوابُ لهمْ [في

الآية ٣٦ قولِهِ][٦]: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يَبْسُطُ الرزقَ لا لِفَضْلٍ وقَدْرٍ لهُ ونِعْمَةٍ عندَهُ، ويَقْتُرُ على مَنْ يَشاءُ لا لِعداوةٍ وجِنايَةٍ كانَتْ منهُ إليهِ، بحقِّ الإمْتِحانِ.

ألا تَرَى أنهُ قد وَسَّعَ على بعضِ المؤمنينَ، وضَيَّقَ على بعضٍ[٧]؟ فَظَهَرَ أنَّ التوسيعَ لأهلِ السَّعَةِ ليسَ لِفَضْلٍ لهمْ وقَدْرٍ أو نعمةٍ، كانَتْ لهمْ عندهُ، حتى يكونَ ذلكَ منهُ مُكافأةً لذلكَ، وكذلكَ التضييقُ لأهلِ الضيقِ لم يكُنْ لِجنايَةٍ أو إساءةٍ، كانَتْ منهمْ إليهِ لِما ذَكَروا، ولكنْ لِما ذَكَرْنا.

ألا تَرَى أنهمْ إذا رأَوا أنهُ وَسَّعَ على بعضٍ، وقَتَّرَ على بعضٍ، هلّا عَلِموا أنهُ يملكُ أنْ يُوَسِّعَ على مَنْ قَتَرَ عليهِ [ويَقْتُرَ على مَنْ وَسَّعَ عليهِ][٨]؟

فيكونُ في ذلكَ ترغيبٌ في التوحيدِ واختيارٌ لهُ وتَحْذيرٌ عَنِ الكُفْرِ وعَمّا هُمْ فيهِ؛ إذْ يملكُ التقتيرَ على مَنْ وَسَّعَ عليهِ،

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: له. (٢) في الأصل وم: أو أن يقولوا. (٣) في الأصل وم: ليعلموا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: فإن. (٦) في الأصل وم: حيث قال. (٧) أدرج في الأصل وم بعدها: أولئك. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

والتوسيعَ على مَنْ قَتَرَ عليهِ، فَيُبْطِلُ هذا كلُّهُ قولَهُمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ الآيةِ، ويُبَيِّنُ أنَّ التقتيرَ والتوسيعَ، ليسَ لِفَضْلٍ ولا قَدْرٍ ولا نِعمةٍ ولا جِنايةٍ ولا ذَنْبٍ، ولكنْ لِلامْتِحانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ ولكنْ ما ذَكَرَ حينَ قالَ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي ذلكَ /٤٣٧ ـ أ/ يُقَرِّبُ عندنا زُلْفَى: مَنْ آمَنَ[1] بِهِ، سَواءٌ أكانَ لهُ مالٌ وَوَلَدٌ أم لم يكُنْ ﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾.

مِنَ الناسِ مَنِ احتجَّ بِتَفضيلِ الغِنَى على الفَقْرِ بهذهِ الآيةِ؛ يقولُ: أخبَرَ أنَّ لهمْ جزاءَ الضِّعْفِ إذا آمنوا، وعَمِلوا الصالحاتِ بالأموالِ التي أعطاهُمْ. وأمّا الفقيرُ فليسَ لهُ ذلكَ، إذْ ليسَ لهُ عندَهُ ما يُضاعِفُ لهُ، أو كلامٌ يُشْبِهُ هذا.

وأمّا عندَنا فإنَّ قولَهُ: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لهمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بالصالحاتِ والحَسَناتِ التي عَمِلوها لأنَّ اللهَ وَعَدَ أنْ يَجْزِيَ كلَّ مَنْ عَمِلَ بحسَنَةٍ أو صالحةٍ عَشْرَ أمثالِها، وذلكَ جَزاءُ الضِّعْفِ لهُ، وذلكَ للغنيِّ والفقيرِ جميعاً.

وذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ أنَّ التَّكَلُّمَ في فَضْلِ الغِنَى على الفَقْرِ أو الفَقْرِ على الغِنَى كلامٌ، لا مَعْنَى لهُ، لأنهما شيئانِ، لا صُنْعَ لأحدٍ في ذلكَ، يُمْتَحَنانِ في تلكَ الأحوالِ [بأمْرَينِ][2]:

أحَدُهُما: بالشكرِ، والآخَرُ بالصَّبْرِ.

فَمَنْ وَفَى بِما امْتُحِنَ هو في تلكَ الحالِ، فهو أفضلُ مِمَّنْ لم يَفِ بذلكَ، وبهِ يَسْتوجِبُ [الفَضْلَ إنِ اسْتَوجَبَ][3] فأمّا بنفسِ تلكَ الحالِ فلا.

ولكنْ مَنْ يُفَضِّلُ الغِنَى على الفَقْرِ يَذْهبُ إلى أنَّ اللهَ تعالى سَمّى الضِّيقَ بَلاءً وشَرّاً وشِدَّةً في غَيرِ موضعٍ مِنَ القرآنِ، وسَمَّى السَّعَةَ خَيراً ونِعْمَةً وحَسَنَةً في غَيرِ موضعٍ؛ ولا شَكَّ أنَّ الخَيرَ والحَسَنَةَ أفضلُ وأحمدُ مِنَ الشَّرِّ والسَّيِّئةِ. فلو لم يكنْ هذا شَرًّا وسَيِّئَةً في الحقيقةِ لم يُسَمِّهِ بذلكَ، وهذا خيراً لم يُسَمِّهِ.

ومَنْ يقولُ بِتَفْضِيلِ الفَقْرِ يَذْهبُ إلى أنَّ الغنيَّ إذا أعْطَى، وبَذَلَ، إنّما اسْتَوجَبَ ذلكَ الفَضْلَ لِما يُفْقِرُ نَفْسَهُ، ويَحوجُ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ مِنْ [سالبِ النعمةِ وخِزْيِهِ][4]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي يَسْعَونَ في آياتِنا سَعْيَ مَنْ يكونُ مُعاجِزاً، لا سَعْيَ مَنْ لا يكونُ، وهو ما قالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤] أي يَعْمَلونَ عَمَلَ مَنْ يَحْسَبُ أنهُ يَسْبِقُ، وهو كقولِهِ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ مُخادَعَةِ اللهِ لِعِلْمِهِ أنهُ لا يُخادَعُ. ولكنْ كأنهُ قالَ: يَعْملونَ عَمَلَ مَنْ يُخادِعُ اللهَ لا عَمَلَ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ لا يُخادِعُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ إنما كانَ سَعْيُهُمْ في الآياتِ: في آياتِ الوَحْدانيَّةِ، أو آياتِ الرسالةِ، لِيُسْقِطوا عنْ أنفسِهِمْ مَؤُنَةَ ذلكَ وقبولَها والعَمَلَ بها ﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لم يُرِدْ [ما ذَكَرَ][5] أهلُ النَّظَرِ، واللهُ أعلَمُ: أنهمْ يُجازَونَ عنِ الواحدِ بواحدٍ مِثْلِهِ [لا اثْنَينِ. وكيفَ يكونُ هذا، واللهُ يقولُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] [ويقولُ][6]: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾؟ [النمل: ٨٩ والقصص: ٨٤] ولكنهُ أرادَ ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أنَّ ما هو مِثْلُهُ يُضَمُّ إلى مِثْلِ ما بَلَغَ، وكانَّ الضِّعْفَ الزيادةُ[7]، أي لهمْ جَزاءُ الزيادةِ.

ويجوزُ أنْ يُجْعَلَ الضِّعْفُ في مَعْنَى جميعٍ، أي جَزاءِ الأضعافِ، ونَحْوِهِ.

---

(١) في الأصل وم: أتى. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: صاحبه النعمه ويخزيه. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: في ما يرى. (٦) في م: و. (٧) في الأصل وم: الزائدة.

[قالَ أبو عوسَجةَ][(1)]: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [ص: ٦١]. أي [اجْعَلْ مِثْلَهُ وخَبْطاً مُضاعفاً، أي][(2)] ضُمَّ إليهِ خَبْطاً آخَرَ [قَدْرَهُ. وقولُهُ][(3)] ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ هي الدُّنُوُّ؛ يُقالُ: تَزَلَّفْتُ إليهِ، ومنهُ أزْلَفْتُهُ أدْنَيْتُهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: أي قُرْبَةً ومَنْزِلَةً عندَنا، وهو واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ ذَكَرَ الأموالَ والأولادَ، ثم ذَكَرَ ﴿بِٱلَّتِى﴾ بالتأنيثِ. قال بعضُهُمْ: هذا مِنْ مَقاديمِ الكلامِ، كأنهُ قالَ: وما أموالُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عندَنا زُلْفَى، ولا أولادُكُمْ ولا ذلكَ، لِغَلَبِ فِعْلِ الآدَمِيِّينَ فِعْلَ الأموالِ.

قالَ أبو مُعاذٍ: يَجوزُ أنْ نَجْمَعَ الأموالَ والأولادَ، ثم نقولُ: التي لأنكَ تقولُ: ذهبَتِ الأموالُ، وهَلَكَتِ الأولادُ كقولِهِ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤] [وقولِهِ][(4)]: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠] ونَحْوُهُ كثيرٌ في القرآنِ. فَعَلَى ذلكَ عندَ الجمعِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ في الدنيا والآخرةِ، لأنَّ ما أنْفَقَ العبدُ لو كانَ اللهُ أخْلَفَهُ لهُ في الدنيا ما أحْصَى أحَدُكُمْ مالَهُ، ولا يَجِدُ مكاناً يَجْعَلُهُ فيهِ، أو كلامٌ هذا مَعْناهُ.

وقالَ آخَرُ: كلُّ نَفَقَةٍ كانَتْ في طاعةِ اللهِ فإنَّ اللهَ يُخْلِفُها في الدنيا، أو يَدَّخِرُها لِوَلِيِّهِ في الآخرةِ.

ومجاهدٌ يقولُ: إذا أصابَ أحدُكُمْ مالاً فَلْيَقْصِدْ في النفقةِ، ولا يَتَأَوَّلَنَّ قولَهُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فإنَّ الرزقَ مَقْسومٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ إذا كانتِ [النفقةُ][(5)] في غَيرِ إسرافٍ ولا تَقْتيرٍ.

وهذهِ التأويلاتُ: ، كلُّها ضعيفةٌ، لأنَّ الآيةَ، كانَتْ، واللهُ أعلَمُ، في مَنْعِ أولئكَ الإنفاقَ مَخافَةَ الفَقْرِ وخَشْيَةَ الإنفاقِ، لأنها نزلَتْ على إثْرِ قولِ الرجلِ: إنّ ربَّكُمْ يَبْسُطُ الرزقَ لمَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ، ويَقْتُرُ لهُ، يقولُ، واللهُ أعلَمُ: تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ، هو الباسطُ لكُمْ والمُوَسِّعُ عليكُمْ وعلى الخَلْقِ الرزقَ، وهو المُقْتِرُ أيضاً على مَنْ شاءَ التقتيرَ عليهِ. فإذا كُنْتُمْ تَعْلَمونَ انهُ، هو الفاعلُ لذلكَ، فكيفَ تَمْتَنِعونَ عنِ الإنفاقِ خَشْيَةَ الفقرِ؟ فهو القادرُ على البَسْطِ والخَلَفِ لِما أنْفَقْتُمْ، وهو القادرُ على التقتيرِ مِنْ غَيرِ إنفاقٍ كانَ منكُمْ.

[ويَحْتَمِلُ][(6)] أنْ يَذْكُرَ هذا لِيَقْطَعوا أطماعَهُمْ عن الخَلَفِ مِنَ الناسِ والبذلِ لهمْ في ما يُنْفِقونَ على ما يُنْفِقُ الرجلُ مِنَ النفقةِ، فَيَطْمَعُ مِنَ الناسِ البِرَّ لهُ والمعروفَ مكافأةً لِما أنْفَقَ.

فيقولُ: اقْطَعوا الطمعَ مِنَ الناسِ في ما تُنْفِقونَ، فإنَّ اللهَ، هو المُخْلِفُ لذلكَ لا الناسُ.

وما يَحْتَمِلُ ما قالَ ابنُ عباسٍ: إنهُ يُخْلِفُ في الآخرةِ؛ إذْ لو أعْطَى لكلِّ رجلٍ، أنْفَقَ في الدنيا، خَلَفاً، ما أحْصَى أحَدُكُمْ مالَهُ، ولا [عَلِمَ][(7)] أينَ يَجْعَلُهُ؟.

هذا هكذا: إذا كانَ الخَلَفُ مِنْ نوعِ ما أنْفَقَ وأعْطَى. فأمّا إذا جازَ أنْ يكونَ الخَلَفُ مِنْ نوعِ ما أنْفَقَ ومِنْ غَيرِ نوعِهِ مِنْ نحوِ ما يدفعُ عنِ المَرْءِ وعنِ المُتَّصِلينَ بهِ مِنْ أنواعِ البلايا والشدائدِ، ويُعْطيهِ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ مِنَ السلامةِ له في نفسِهِ ودينِهِ والصحةِ وغَيرِ ذلكَ ممّا لا يُحْصَى. فذلكَ كلُّهُ بَدَلٌ وخَلَفٌ عمّا أنْفَقَ؛ وذلكَ انهُ إذا عَلِمَ في سابقِ عِلْمِهِ انهُ يُنْفِقُ جُعِلَ ذلكَ في الأصلِ خَلَفاً عمّا أنفقَ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ أنَّ «صِلَةَ الرحِمِ تزيدُ في العُمُرِ» [أحمد ١/ ١٤٣ وابن عساكر ٥/ ٢١٠] إنْ عُلِمَ أنهُ يَصِلُ رحمَهُ زادَ في عُمُرِهِ في الأصلِ ما لو يَعْلَمْ أنهُ لا يَصِلُ رحمَهُ لكانَ يَجْعَلُ عُمُرَهُ دونَ ذلكَ: فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

---

(1) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (2) في الأصل وم: جعلت مثله وخبط مضاعف أي قد. (3) في الأصل وم: قد قتلا قال.
(4) في الأصل وم: وقال. (5) ساقطة من الأصل وم. (6) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم: و. (7) ساقطة من الأصل وم.

ورُوِيَ عنْ جابِرِ بْنِ عبدِ اللهِ [أنهُ قالَ: قالَ][1] قالَ: رسولُ اللهِ ﷺ «كلُّ معروفٍ صَدَقَةٌ وما أنْفَقَ المرءُ على نفسِهِ وأهلِهِ، أو وَقَى بِهِ عِرْضَهُ، فهو لهُ صدقةٌ. وكلُّ نفقةٍ أنفقَها المؤمِنُ فَعَلَى اللهِ، خَلَفُها ضامنٌ، إلّا نَفَقَةً في معصيةٍ أو نَفَقَةً في مَنّانٍ» [الدارقطني ٢٨٧٢] أي لا يُحتاجُ إليه.

الآيتان ٤٠ و٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[2] جَمِيعًا﴾ الملائكةَ ومَنْ عبدَهُمْ ﴿ثُمَّ يَقُولُ[3] لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ إنهُ[4] قالَ لهمْ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ليسَ يقولُ[5] للملائكةِ في ما خاطبَهُمْ ربُّهُمْ لمّا خوطِبوا بقولِهِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ حينَ[6] ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ فجوابُهُمْ أنْ يقولوا: بَلَى، أو: لا.

فأمّا أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [وأنتَ أعلَمُ][7] مِنّا ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ جواباً لذلكَ. فلا يَحتَمِلُ إلّا أنْ يقولَ: إنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ ادَّعَوا على الملائكةِ الأمرَ لهمْ بالعِبادةِ إياهمْ دونَ اللهِ. فهنالكَ يَحتَمِلُ أنْ يقولَ: أهؤلاءِ عنْ أمرِكُمْ عَبَدوكُمْ؟

فعندَ ذلكَ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ ونحنُ بُرآءُ منهمْ، ما أمَرْناهُمْ بِعِبادَتِنا، وأنت أعلَمُ مِنّا / ٤٣٧ ـ ب/ ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ بل كانوا أطاعوا أمْرَ الجنِّ والشياطينِ في ذلكَ، إذْ لو كُنّا أمَرْناهُمْ بذلكَ لم نَكُنْ أولياءَكَ، ولا كُنْتَ أنتَ وَلِيَّنا مِنْ دونِهِمْ.

وهذا كما يقولُ لِعيسى حينَ[8] ﴿قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد كانَ عَلِمَ ﷻ أنهُ لم يَقُلْ ذلكَ، ولكنْ كانَ أولئكَ ادَّعَوا عليهِ الأمرَ والقولَ لهمْ في ذلكَ، فَذَكَرَ ذلكَ لِعيسى تَعْيِيراً لهمْ وتَوبيخاً على صَنيعِهِمْ وإظهاراً لِكَذِبِهِمْ في دَعْواهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ يَحتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ هُمْ كانوا لا يَقْصِدونَ عِبادةَ الجِنِّ، ولكنْ لِما بِأَمْرِهِمْ كانوا يَعْبُدونَ ما يَعْبُدونَ؛ نَسَبَ العِبادةَ إليهِمْ كقولِهِ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] وهو كقولِ إبراهيمَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] وهمْ كانوا لا يَقْصِدونَ بِعِبادَتِهِمُ الشيطانَ، لكنهمْ لمّا عَبَدُوا مَنْ دونَهُ بأمرِ الشيطانِ نَسَبَ العبادةَ إليهِ كأنهمْ عَبَدُوهُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا يَمْلِكونَ[9] يومَ القِيامةِ ما أكَلُوا، أو طَمِعوا مِنْ عِبادَتِهِمْ لأولئكَ مِنَ التَّقريبِ لهمْ إلى اللهِ زُلْفَى والشفاعةِ لهمْ عندَهُ لِقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِهِمْ[10] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

يقولُ: لا يملكُ بعضُهُمْ[11] لبعضٍ ما أكَلُوا، أو طَمِعوا مِنْ عبادَتِهِمْ لأولئكَ ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [أي كُنْتُمْ تُكَذِّبونَ][12] الرسلَ بما أوعَدَكُمْ بها في الدنيا.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قد ذَكَرْنا الآياتِ والبَيِّناتِ في غَيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يريدُ كلُّ رسولٍ أنْ يَصُدَّ قومَهُ عمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ. لكنَّ هذا القولَ مِنْ أولئكَ الرؤساءِ إغراءُ الأتباعِ على الرسلِ؛ يقولونَ: الا تَرَونَ أنَّ واحداً قد خالَفَ الآباءَ في دينِهِمْ، ويريدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عنْ دينِ آبائكُمْ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي ما يدعو محمدٌ إليهِ ليسَ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) و(٣) في الأصل وم: نحشرهم ... ثم نقول، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٦٥. (٤) في الأصل وم: لأنه. (٥) في الأصل وم: قول. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يملك. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: بعضكم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي لَمّا جاءَ الحَقُّ[١]، وهو القرآنُ[وما فيهِ مِنَ التوحيدِ والبيانِ][٢] والإيضاحِ لهُ أنهُ الحقُّ، وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ، وهو الآياتُ والبراهينُ التي جاءَتْ لهُ أنهُ حقٌّ، وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ لا أنهُ مُفتَرىً وإفكٌ وسِحرٌ [على][٣] ما تزعُمونَ. ولِما تَزعُمونَ. ولم يَزَلْ طَعْنُ أولئكَ الكَفَرَةِ في الآياتِ والحُجَجِ بأنها سِحرٌ وأنها افتِراءٌ[٤] يُلَبِّسونَ بذلك على أولئكَ الأتباعِ والسَّفَلَةِ، ويُمَوِّهونَ عليهِمْ، ويَفْتَرونَ، لئلا يَتَّبِعوهُ، ويَسْتَسْلمونَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ [قولِهِ][٥]: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

وقولُهُمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. يقولُ: واللهُ أعلَمُ: جواباً لقولِهِمْ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فَتُخبِرُهُمْ أنَّ ما يقولُ محمدٌ إفكٌ مُفتَرى، وما أرسَلْنا إليهِمْ أيضاً مِنْ قَبْلِهِ رسولاً يُخبِرُهُمْ [أنَّ الكُتُبَ][٦] كَذِبٌ مُفتَرى، وظهورُ الكذبِ في القولِ أو الخَبَرِ إنما يكونُ بأحَدِ هذينِ الأمرَينِ: إمّا بِكتابٍ أو نَبِيٍّ. وهمْ لا يُؤمِنونَ بكتابٍ ولا نَبِيٍّ. فكيفَ يَدَّعُونَ عليهِ الكَذِبَ والافتِراءَ؟

يُخبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ وقِلّةِ عقولِهِمْ وعِنادِهِمْ بَعدَ ما خَصَّهُمْ ﷺ، وفَضَّلَهُمْ على غَيرِهِمْ مِنَ البَشَرِ حينَ[٧] بَعَثَ الرسولَ منهمْ ومِنْ أنفُسِهِمْ والكتابَ على لسانِهِمْ وبِلُغَتِهِمْ بَعْدَ قَسَمِهِمْ أنهُ لو بَعَثَ إليهِمْ نذيراً أو رسولاً اتَّبَعوهُ حينَ[٨] قالوا ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] لم يُؤمِنوا بهِ، ولم يَعرِفوا مِنَّةَ اللهِ عليهِمْ وخُصوصِيَّتَهُمْ في ما خَصَّهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يُذَكِّرُ رسولَهُ، ويُصَبِّرُهُ على تكذيبِ أولئكَ لهُ؛ يقولُ: قد كذَّبَ الذينَ كانوا مِنْ قَبلِهِمْ رُسُلَهُمْ، لَسْتَ أنتَ بأوّلِ مُكَذَّبٍ، بل كُذِّبَ إخوانُكَ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ يقولُ، واللهُ أعلمُ: لم يَبْلُغْ هؤلاءِ الذينَ كَذَّبوكَ عُشْرَ أولئكَ في القوةِ والغِنَى والفَضلِ والعِلْمِ والأتباعِ والأعوانِ وغَيرِ ذلكَ. معَ ما كانوا كذلكَ لم يَقوموا في دَفْعِ العذابِ الذي نَزَلَ بهِمْ بالتكذيبِ عنْ أنفسِهِمْ.

فَقومُكَ الذينَ همْ دونَ أولئكَ بما ذُكِرُوا أحقُّ ألّا يَقوموا لِدَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ إذا نَزَلَ بهمْ بالتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أليسَ وَجَدُوا عذابي حقّاً؟

قالَ الزَّجّاجُ: هو نَكِيري بالياءِ، لكنْ طُرِحَتِ الياءُ لأنهُ آخِرُ الآيةِ وخَتْمُها، فَأُبقِيتِ الكسرةُ علامةً لها، أو كلامٌ يُشْبِهُ هذا.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: نكيري عُقوبتي. وقالَ القُتَبِيُّ: أي إنكاري.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِوَٰحِدَةٍ ۖ﴾ أي بكلمةِ الإخلاصِ والتوحيدِ. وقالَ بعضُهُمْ: أي بطاعةِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِوَٰحِدَةٍ ۖ﴾ أي بكلمةٍ واحدةٍ كقولِ الرجلِ لِصاحبِهِ: أُكَلِّمُكَ كلمةً واحدةً، واسْمَعْ مني كلمةً، لكنَّ الواحدةَ التي وَعَظَهُمْ بها عندَنا ما ذَكَرَ على إثرِهِ حينَ[٩] قالَ: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ بها[١٠] جميعاً ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ وتَنظُروا في ما بَينَكُمْ هل رَأى أحدٌ منكُمْ جُنوناً بهِ قطُّ؟

وقالَ بعضُهُمْ: يريدُ بالـ﴿مَثْنَىٰ﴾ أنْ يَتَناظَرَ الرجلانِ في أمرِ النَّبِيِّ ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ [أنْ يَتَفكَّرَ كلُّ واحدٍ][١١] فإنَّ في ذلكَ ما يَدُلُّ على أنَّ النَّبِيَّ ليسَ بمجنونٍ ولا كَذّابٍ على ما يَزْعُمونَ.

---

(١) من م، في الأصل: بالحق. (٢) في الأصل وم: والتوحيد من البيان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: مفترى. (٥) في الأصل وم: وما. (٦) في الأصل وم: أنه. (٧) في الأصل وم، حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بهما. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أي تفكروا قط.

ثم كانَ الذي حَمَلَهُمْ على أنْ يَنْسُبوهُ إلى الجنونِ وجوهاً.

أحَدُها: أنهمْ رَأوهُ قد خالَفَ الفراعنةَ والجبابرةَ الذينَ كانوا يَقْتُلونَ مَنْ خالَفَهُمْ على الغَضَبِ في أدْنَى شيءٍ بلا أعوانٍ ولا أتباعٍ لهُ، فقالوا: لا يُخاطِرُ بهذا إلّا مَنْ بِهِ جنونٌ، فَنَسَبوهُ إلى الجنونِ.

والثاني: أنهمْ رأوهُ قد خالَفَ دينَهُمْ ودينَ آبائِهِمْ جُمْلَةً مِنْ بَيْنِهِمْ، فقالوا: لا يُحْتَمَلُ أنْ يُصيبَ [أحدٌ دِينَنا][1] بِعَقْلِهِ مِنْ بَيْنِ الكُلِّ، لا يُصيبُ أحدٌ ذلكَ. فاتَّهَموهُ [بِجُنونِ][2] العقلِ.

والثالثُ: أنهُ كانَ في حالِ صِغَرِهِ وصِباهُ، لم يَرَوْهُ اشْتَغَلَ بشيءٍ مِنَ اللعبِ، أو خالَطَ الصِّبْيانَ في شيءٍ مِنْ أمورِهِمْ، بلِ اعْتَزَلَهُمْ مِنْ صِباهُ إلى أوانِ[3] الوقتِ الذي بَلَغَ، فقالوا: إنَّ بِهِ جُنوناً، وإلّا لم يَعْتَزِلِ الناسَ كلَّ هذا الاعْتِزالِ.

ثم أخْبَرَ أنكُمْ لو تفكَّرْتُمْ، ونَظَرْتُمْ، عَرَفْتُمْ[4] أنْ ليسَ بِصاحِبِكُمْ جنونٌ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخِرَةِ، إنْ عَصَيْتُمْ أي رسولَ اللهِ إليكُمْ ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخِرَةِ؛ إنْ عَصَيْتُمْ عوقِبْتُمْ في الآخِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ألا يَتَفَكَّرُ الرجلُ منكُمْ وحدَهُ أو مع صاحبِهِ، فَيَنْظُرَ أنَّ مَنْ[5] خَلَقَ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما، الذي خَلَقَ هذهِ الأشياءَ وحدَهُ، أنهُ واحدٌ، لا شريكَ لهُ؟ وإنَّ محمداً لَصادقٌ في قولِهِ: إنَّ اللهَ واحدٌ، لا شريكَ [لهُ][6] وما بهِ جُنونٌ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ/ ٤٣٨ ـ أ/ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ما[7] قالَ بعضُهُمْ: إنهُ ﷺ سألَ قومَهُ أنْ يَوَدُّوا قرابَتَهُ، وألا يُؤْذوهُمْ كقولِهِ: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]. يقولُ: ما سألْتُكُمْ مِنْ أجرٍ، يعني المَوَدَّةَ في القُرْبى، فهو لكمْ، أيِ الذي سألتُكُمْ هو لكمْ، وهو المَوَدَّةُ في القُربى واتِّخاذُ السبيلِ إلى ربي.

والثاني: قولُهُ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي لم أسألْكُمْ على تبليغِ الرسالةِ إليكُمْ أجراً منكُمْ، فَيَمْنَعَكُمْ ثِقَلُ ذلكَ الأجرِ وغُرْمُهُ عليكُمْ عنِ الإجابةِ كقولِهِ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أجري إلّا على اللهِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بأني نَذيرٌ، وما بي جُنونٌ، أو ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بأني لم أسألْكُمْ عليهِ أجراً أو ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ صَنيعِكُمْ ﴿شَهِيدٌ﴾ عالمٌ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ وهذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

يَحْتَمِلُ ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يَقْضي بالحقِّ، أو ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يَتَكَلَّمُ بالوحيِ، [أو ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي][8] يُلقيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ كلُّ شيءٍ غابَ عنِ الخَلْقِ، وقد ذَكَرَ ذلكَ في غيرِ موضعٍ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ الأوثانُ والأصنامُ التي عَبَدوها ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا تَخْلُقُ شيئاً، ولا تُحْييهِ، ولا تُميتُهُ، كقولِهِ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ما يُبْدِئُ الشيطانُ الخَلْقَ، فَيَخْلُقُهُمْ، وما يُعيدُ خَلْقَهُمْ في الآخِرَةِ، فَيَبْعَثُهُمْ بعدَ الموتِ، بلِ اللهُ يَفْعَلُ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: دينا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: آن. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم (٥) في الأصل وم: في.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أنه سأل. (٨) في الأصل وم: و.

[ويحتَمِلُ][1] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي حُجَجُ الحقّ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وما يُظهِرُ الباطلُ، أي لا يَقْذِفُ بِحُجَجِ الحقّ.

قالَ بعضُهُمْ: [قولُهُ: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾][2] هو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨] إلى آخِرِ الآيةِ. قالَ: يَزْهَقُ الباطلُ، ويَثْبُتُ الحقُّ، أي نَقْذِفُ بالحقّ على الباطل، فَيَهْلَكُ الباطلُ، ويَثْبُتُ الحقُّ، وهو أيضاً ما ذَكَرَ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ بكسرِ اللامِ[3] ونصبِها، كلاهما لُغتانِ. قالَ الكسائيُّ: تقولُ العربُ: ضَلَّ يَضِلُّ ضَلالةً، وضَلَّ يَضَلُّ بالخفضِ والنّصبِ جميعاً.

ثم قولُهُ: ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ فإنما[4] يكونُ ضَررُ ضلالي على نفسي، لا يكونُ على اللهِ مِنْ ذلكَ شيءٌ كقولِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦ والجاثية: ١٥].

والثاني: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ فإنما يكونُ ذلكَ على نفسي، ولا يكونُ على أنفسِكُمْ مِنْ ضَلالي شيءٌ كقولِهِ: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ هذا يُخَرَّجُ أيضاً على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى طاعةِ اللهِ وشرائعِ الدينِ ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ في ذلك، أي فَبِوَحْيِهِ اهْتَدَيتُ إلى ذلكَ.

والثاني: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى دينِهِ فبِهدايتِهِ وبتوفيقِهِ إيايَ وعِصْمَتِهِ اهْتَدَيْتُ.

أضافَ الهِدايةَ إلى اللهِ والضلالَ إلى نفسِهِ، فهو لِما ذَكَرْنا: أنْ كانَ مِنَ اللهِ إليهِ لُطْفٌ في ذلكَ [ليسَ ذلكَ][5] في الضلالِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ يجيءُ أنْ يكونَ المَعْنَى فيهما واحداً لأنهمْ يقولونَ: إنهُ لا يكونُ مِنَ اللهِ سِوَى [الأمرِ][6] والنَّهيِ، فلا يكونُ منهُ إليهِ في الهدايةِ إلّا كما كانَ منهُ في الضلالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي مُجيبُ الداعيَ كقولِهِ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سَمِيعٌ﴾ لِمَقالَتِكُمْ لمحمدٍ [حينَ قُلْتُمْ][7] لهُ: لقد ضَلَلْتَ حينَ تركْتَ دينَ آبائكَ ﴿قَرِيبٌ﴾ أي مُجيبٌ لهُ. وقيلَ: سَميعُ الدعاءِ، قريبُ الإجابةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: وذلكَ أنهمْ بَعَثُوا بَعْثَينِ قاصِدينَ تخريبَ الكعبةِ، فلما بَلَغَا[8] البيداءَ خُسِفَ بأحدِهما، والآخَرُ يَنْظُرُ، فانفَلَتَ[9] منهمْ [لِيُخبِرَ عنهمْ][10]، فتَحَوَّلَ وَجهُهُ في قَفاهُ[11]. وذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ مِنَ الخَسْفِ والعذابِ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ مِنَ عذابِ اللهِ ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي مِنْ تحتِ أقدامِهِمْ تَخْسِفُ بهمُ الأرضُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ تخريبِ الكعبةِ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤] وهمْ أصحابُ الفيلِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ أمِّ سَلَمَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: أنهُ [قالَ][12] «يَغزو هذا البيتَ جيشٌ حتى إذا كانوا بالبيداءِ خُسِفَ بهمْ، فلا يَنْفَلِتُ عنهمْ إلّا واحدٌ يُخْبِرُ عنهمْ، قالَتْ: يا رسولَ اللهِ، وإنْ كانَ فيهمُ المُكْرَهُ؟ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ، يُبْعَثُونَ على نِيّاتِهِمْ» [البخاري: ١٩٠١].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/١٦٨ (٤) في الأصل وم: فما. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث قالوا. (٨) في الأصل وم: بلغوا. (٩) في الأصل وم: وينفلت. (١٠) في الأصل وم: يخبر. (١١) أدرج بعدها في الأصل و: فيخبرهم بما لقوا. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ وهو عندَ الموتِ يَفْزَعونَ منهُ، ولا فَوتَ لهمْ عنهُ ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي [مِنْ على ذلكَ][1] المكانِ.

والحسَنُ يقولُ: ﴿فَزِعُواْ﴾ مِنَ القبورِ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ يقولُ: ﴿وَأُخِذُواْ﴾ عندَ ذلكَ ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وهو المكانُ القريبُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ عندَ القيامةِ يَفْزَعونَ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ[2]، ولا يَفوتونَ اللهَ.

الآية ٥٢ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ هو[4] كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤] وكقولِ فرعونَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ إنهمْ سألوا الرَّجْعَةَ والرَّدَّ أنْ يَنالوهُ: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قالَ: مِنَ الآخِرَةِ إلى الدنيا.

وقالَ بعضُهُمْ: أي لا سَبيلَ لهمْ إلى الإيمانِ في ذلكَ الوقتِ، وقد كَفَروا بهِ مِنْ قبلُ في حالِ الدَّعةِ والرَّخاءِ ولم يؤمنوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي مِنْ حيثُ لا يُنالُ، ولا يكونُ، فذلكَ البعيدُ كقولِ اللهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] أي مِنْ حيثُ لا يكونُ أبداً، ليسَ على إرادةِ حقيقةِ المكانِ.

وقتادةُ يقولُ: هو عندَ الموتِ وعندَ نُزولِ العذابِ بهِمْ. ليسَ مِنْ أحدٍ بَلَغَ ذلكَ الوقتَ إلّا وهو يؤمنُ، ويتَمَنّى الإيمانَ. لكنْ لا يَنْفَعُ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨] على ما ذُكِرَ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: ذلكَ[5] أنهمْ كانوا في الدنيا يُكَذِّبونَ[6] في الآخِرةِ، ويَكْفُرونَ بالغيبِ، ويَرْجُمونَ بالظَّنِّ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يَتَكَلَّمونَ بالإيمانِ مِنْ مكانٍ، تَباعَدَ عنهمْ، فلا يُقْبَلُ منهمْ، وقد غابَ عنهمُ الإيمانُ عندَ نُزولِ العذابِ، فلم يَقْدِروا عليهِ.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ قَبولِ التوبةِ والإيمانِ عندَ نزولِ العذابِ بهمْ أو عندَ مُعايَنَتِهِمْ إيّاهُ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ يقولُ: كما عُذِّبَ أوائِلُهُمْ مِنَ الأممِ الخاليةِ مِنْ قَبْلِ هؤلاءِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ مِنَ العَذابِ والقيامةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ أهلٍ أو مالٍ أو زَهْرةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هو قولُهُمْ: هو ساحرٌ، هو شاعرٌ، كاهنٌ.

والتّناوُشُ عندَ عامَّةِ أهلِ التأويلِ التّناوُلُ. وقالَ بعضُهُمْ: الرَّجْعَةُ والرَّدُّ إلى الدنيا. قالَ أبو عَوسَجَةَ: التّناوُشُ التّناوُلُ مِنْ مَوضعٍ بَعيدٍ، لا يكونُ مِنْ قريبٍ.

والقُتَبِيُّ يقولُ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي تَناوُلُ ما أرادَ بُلوغَهُ وإدراكُ ما طَلَبوا مِنَ التوبةِ مِنَ المَوضعِ الذي لا تُقْبَلُ فيهِ /٤٣٨ ـ ب/ التوبةُ.

قالَ أبو مُعاذٍ والزَّجّاجُ: التّناوشُ في كلامِ العربِ: الطلبُ، تقولُ: ناوَشْتُ إليهِ، أي طَلَبْتُ منهُ، لكنَّ هذا ليسَ مِنْ بابِ التّناوُشِ.

---

(١) في الأصل وم: على. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وأفزعهم ذلك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: وذلك. (٦) في الأصل وم: يكونون. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنِ اختِلافِهِمْ؛ منهمْ منْ قالَ: بَيْنَ الإيمانِ والتوبةِ، ومنهمْ مَنْ قالَ: بَينَ شَهَواتِهِمُ التي كانَتْ لهمْ في الدنيا.

لكنْ [إنْ][1] كانَ على الإيمانِ والتوبةِ؛ فإنما حِيلَ بَينَهُمْ وبينَ القَبولِ للإيمانِ والتوبةِ [وإنْ كانَ][2] نفسُ الفعلِ، قد أتَوا بِهِ، وإنْ كانَ على الشَّهَواتِ فهو على حقيقةِ حَيلولةِ الفعلِ، وكذلكَ إنْ كانَ على تخريبِ البيتِ على ما يقولُهُ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ بأمثالِهِمْ وأشباهِهِمْ، فهو، واللهُ أعلَمُ، بأشباهِهِمْ وأمثالِهِمْ في التكذيبِ والجُحودِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ شِيعةِ الرجلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مِنَ العذابِ بأنهُ غَيرُ نازلٍ بهمْ.

وقالَ [بعضُهُمْ][3]: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مِنَ البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ المماتِ. وشَكُّهُمْ وريبُهُمْ لِما استَبْعَدُوا الإحياءَ بَعْدَ الهلاكِ وبَعْدَ ماصاروا رَماداً. فهذِهِ[4] الحُجَّةُ أنْكَروا، ثم رَأَوا[5] خَلْقَ الشيءِ لِلفناءِ خاصةً لا لِعاقبةٍ وحكمةٍ، فارْتابوا في ذلكَ [واللهُ أعلمُ بالصوابِ][6].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإلا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فمن. (٥) في الأصل وم: يروا. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

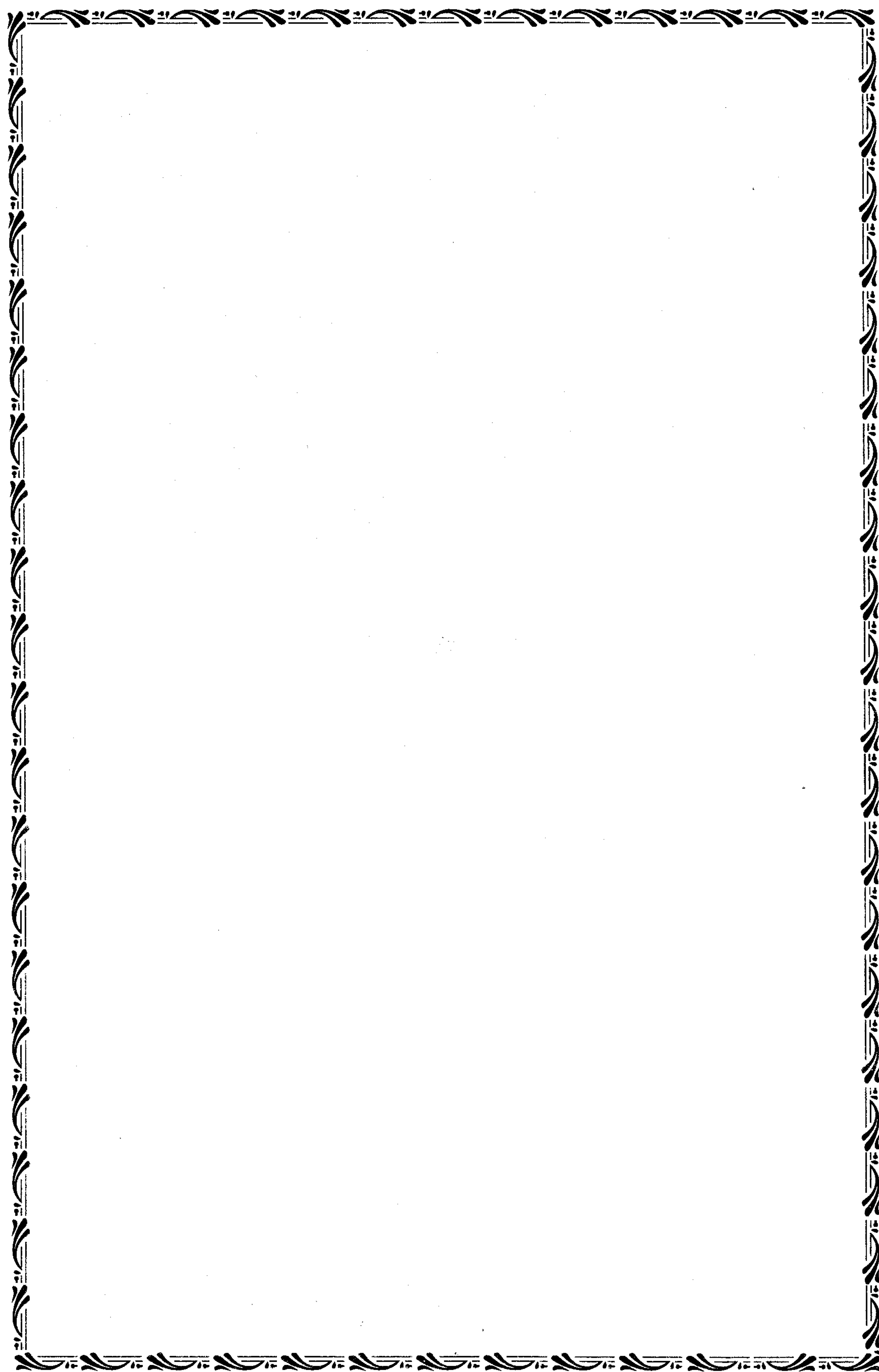

[سورة فاطر][1]

وهي نزلت بمكة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ما ذُكِرَ في القرآنِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلّا وذُكِرَ على إثْرِهِ التعظيمُ للهِ والإجلالُ لهُ، وذُكِرَ[2] ما أنْعَمَ بِهِ على الخَلْقِ لِيُلْزِمَهُمُ الشكرَ لهُ والثناءَ عليه نَحْوُ ما ذُكِرَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١] ونَحْوُ ما قالَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ١] ونَحْوُ قولِهِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الآية [الأنعام: ١] وقولِهِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية [الكهف: ١][وقولِهِ][3] ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ الآية [الإسراء: ١١١].

جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ الحَمْدِ لهُ ذُكِرَ على إثْرِهِ ما يُوجِبُ التَّعظيمَ لهُ والتَّبجيلَ والثَّناءَ عليهِ والشُّكْرَ لهُ تعليماً منهُ الخَلْقَ الثَّناءَ على ذلكَ والشكْرَ لهُ، وباللهِ المَعونةُ والقوةُ على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الفاطرُ، هو المُبْتَدِئُ أو البادِئُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ مِنْ أهلِ الأدبِ. وكذلكَ ذُكِرَ عنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنه، أنهُ قالَ: ما أدري ما فاطرُ السمواتِ والأرضِ، حتى جاءَ أعرابيانِ، فاختَصَما في بئرٍ، فقالَ أحدُهما: أنا فَطَرْتُها، أنا بَدَأْتُها. فعندَ ذلك عَرَفْتُ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ويجيءُ أنْ يكونَ الفاطرُ، هو الشاقُّ، أي شَقَّ السمواتِ كلَّها مِنْ واحدةٍ وكذلكَ الأرَضينَ كقولِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١] أي انْشَقَّتْ كما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥] أي الشاقُّ.

لكنَّ جميعَ ما أُضيفَ إلى اللهِ مِنَ الشَّقِّ والفَطْرِ والجَعْلِ وغيرِهِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ كلُّهُ على اختِلافِ الألفاظِ عبارةٌ عنِ الخَلْقِ، أي [هو][4] خالقُ ذلكَ كلِّهِ.

وأصْلُ الخَلْقِ في اللغةِ هو التَّقديرُ، خَلَقْتُ أي قَدَّرْتُ. وكذلكَ قالَ الكسائيُّ: إنَّ الفَطْرَ في كلامِ العربِ هو الشَّقُّ؛ مَعْناهُ أنهُ شَقَّ مِنَ السماءِ سِتَّ سَمواتٍ ومِنَ الأرضِ مِثْلَهُنَّ. ومنهُ الحديثُ: «حتى تَفَطَّرَتْ قَدَماهُ دماً» [بنحوه البخاري ١١٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ ففي ظاهِرِ الآيةِ جَعَلَ جميعَ الملائكةِ رُسُلاً. فإنْ كانَ على ذلكَ فكأنهُ وَلّى كلَّ واحدٍ منهمْ أمراً مِنْ أمورِ الخَلْقِ والعِبادِ. وإنْ كانَ على البعضِ فيكونُ تأويلُهُ: جاعلٌ مِنَ الملائكةِ رُسُلاً، أوفي الملائكةِ رُسُلاً.

ثم أخْبَرَ عنِ الملائكةِ أنهمْ أُولو أجْنِحَةٍ، تَمْنَعُهُمْ عنْ بعضِ العملِ، ولا تَزيدُ لهمُ نَفْعاً، بل تُنْقِصُ.

وأمّا ما ذَكَرَ مِنْ عَدَدِ الأجْنِحَةِ للملائكةِ، فذلكَ لا يَمْنَعُهُمْ عنِ الطيرانِ، بل تَزيدُ لهمْ قوةً ومَقْدِرَةً على ذلكَ.

ثم قالَ: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ قال بعضُهُمْ: يزيدُ في الملائكةِ على أربعةِ أجْنِحَةٍ ما يَشاءُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ مِنْ خَلْقِ الأجْنِحَةِ والزيادةِ[5].

---

(١) من م، في الأصل: ذكر السورة التي يذكر فيها الملائكة. (٢) في م: على. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: في الزيادة.

وذُكِرَ أنَّ لإسرافيلَ سِتَّةَ أجْنِحةٍ ولجبريلَ سِتَّ مئةِ جَناحٍ[1]. ذُكِرَ عنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ قالَ: رأى][2] رسولُ الله ﷺ، جبريلَ، ولهُ سِتُّ مِئةِ جَناحٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي الصوتَ الحَسَنَ، وقالَ بعضُهُمْ: الشَّعْرَ الحَسَنَ، فهو في ما ذَكَروا مِنَ الزيادةِ في الأجْنِحةِ أشبَهُ وأقْرَبُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مَنَ الزِّيادةِ والابْتِداءِ؛ لا يَصْعُبُ عليهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ. مِنْ عافيةٍ.

وقالَ قَتادةُ: أي مِنْ خيرٍ، وقالَ مُقاتِلٌ وغيرُهُ: أي مِنْ رزقٍ كقولِهِ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨] أي رزقٍ، وكلُّهُ واحدٌ، إذِ الخَيرُ يَشْتَمِلُ على العافيةِ والرزقِ، وكذلكَ كلُّ واحدٍ مِنْ ذلكَ.

وقالَ بعضُهمْ: الرحمةُ الغَيثُ والمطرُ، وهو ما ذَكَرْنا؛ كلُّهُ يرجعُ إلى واحدٍ مِنْ ذلكَ.

ثم قولُهُ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على تَسْفيهِ أحلامِ الكَفَرَةِ في عبادتِهِمُ الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونها مِنْ دونَ اللهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، تَعْلَمونَ أنتمْ أنهُ ليسَ لكمْ ممّا تَعْبُدونَ مِنَ دونِ اللهِ جَرُّ نَفعٍ أو خيرٌ، ولا كَشْفُ ضُرٍّ عنكُمْ أو سوءٍ. فكيفَ تَعبدونها؟ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية: [الزمر: ٣٨] أي تَعْلَمونَ أنهنَّ لا يَمْلِكْنَ ذلكَ، واللهُ هو المالكُ لذلكَ كلِّهِ، فكيفَ صَرَفْتُمْ[3] العبادةَ إليها عنهُ؟

[والثاني][4]: يقولُ: إنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ ما تَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ مِنْ دونَ اللهِ، لا يرزقونكُمْ، ولا منها تَبْتَغونَ الرزقَ، ولا كانَتْ منها إليكمْ سابقةُ نعمةٍ.

فإنما يَعْبُدُ لإحْدَى هذهِ الوجوهِ مَنْ يَعْبُدُ: إمّا لِسابقةِ نعمةٍ أو نَيلِ رزقٍ أو جَرِّ نَفعٍ أو كَشْفِ ضُرٍّ أو دَفْعِ سوءٍ أو طَمَعٍ أو لِعاقبةٍ.

فإذا لم يكنْ مِنْ ذلكَ [مِنَ][5] الأصنامِ، ومِنَ اللهِ ذلكَ كلُّهُ، فكيفَ صَرَفْتُمْ عبادتَكُمْ عنهُ إليها؟ كقولِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

هذا إذا كانَ قولُهُ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ راجعاً إلى الكَفَرَةِ. وإذا كانَ راجعاً إلى المؤمنينَ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: فيهِ قَطْعُ الطَّمَعِ مِنَ الخَلْقِ، والإياسُ عمّا في أيديهمْ، وألا يَرْجوا مَنْ دونَهُ، ولا يخافوا غَيرَهُ.

بل فيهِ الأمرُ بأنْ يَرَوا ذلكَ كلَّهُ مِنَ اللهِ، وأنهُ هو المالكُ لذلكَ دونَ الخَلْقِ.

والثاني: [فيهِ][6] قَطْعُ طَمَعِ الرزقِ مِنَ المكاسِبِ والأسبابِ التي يَكْتَسِبونها. والأمرُ فيها، أعني المكاسِبَ، [وأنْ يَرَوها][7] تَعَبُّداً، وأنْ يَرَوا أرزاقَهُمْ مِنْ فَضْلِ اللهِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: إذا فَتَحَ اللهُ لأحدٍ رحمةً يَقْدِرُ عبدٌ [أنْ يُمْسِكَها][8] وإنْ أمْسَكَ هو قَدَرَ [العبدُ][9] أنْ يُرْسِلَ، إنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ إذا جَعَلَ لأحدٍ أجلاً، وضَمِنَ لهُ الحياةَ ووفاءَ الرزقِ إلى مُضِيِّ الأجلِ، فيجيءُ عدوٌّ مِنْ أعدائِهِ، فَيَقْتُلُهُ قَبْلَ انْقِضاءِ أجلِهِ واسْتيفاءِ رزقِهِ. فذلكَ مَنَعَ على قولِهِمْ عنْ وفاءِ ما ضَمِنَ وما جَعَلَ لهُ مِنَ المدةِ / ٤٣٩ ـ أ/ والأجلِ.

وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ: ما يَفْتَحِ اللهُ على الناسِ مِنْ رحمةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قد ذكَرْنا [تأويلَهُ][10] في غَيرِ مَوضعٍ.

---

(١) في الأصل وم: أجنحة. (٢) في الأصل وم: يقول أرى. (٣) في الأصل وم: صرفهم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي يرونها. (٨) في الأصل وم: في أن يمسك ذلك. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هو صِلَةُ ما تَقَدَّمَ، ثم هو على التقريرِ والإيجابِ، وإنْ خُرِّجَ مُخرَجَ الاستِفهامِ في الظاهرِ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكمْ تَعْلَمونَ أنهُ هو رازِقُكُمْ دونَ مَنْ تَعبُدونَهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ فَمَا الذي حَمَلَكُمْ على إفكِكُمْ وكذبِكُمْ [أنَّ آلِهَتَكُمْ شَريكاتُهُ][١]، وأنها آلهةٌ، وأنها شفيعاتُكُمْ[٢] عندَ اللهِ، وأنَّ عبادتَكُمْ إياها تُقَرِّبُكُمْ إلى اللهِ زُلْفَى [أنها][٣] كتابٌ أو رسولٌ؟ وأنتمْ لا تؤمِنونَ بكتابٍ ولا رسولٍ فَمِنْ أينَ تُؤفَكونَ، وتُكَذِّبونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ معلومٌ أنهمْ كانوا لا يُكَذِّبونَهُ في قولِهِ: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] ولا في قولِهِ: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٍ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢] لأنهمْ كانوا يَعْلَمونَ أنهُ ليسَ مِنْ خالقٍ غَيرُ اللهِ، ولا فاتحَ رحمةٍ سِواهُ، إذا كانَ هو مُمْسِكَها، ولا مُمْسِكَ لها، إذا كانَ هو مُرْسِلَها.

ولكنْ إنما يكونُ تكذيبُهُمْ إيّاهُ في ما يُخْبِرُ أنهُ رسولُ اللهِ إليهمْ. كَذَّبوهُ في الرسالةِ أو في ما يُخْبِرُ أنهُ أُوحِيَ إليهِ مِنَ اللهِ كَذِباً أو في ما يُخْبِرُ عنِ البعثِ بَعْدَ المَوتِ أنهُ كائنٌ وأمثالِ ذلكَ. فأمّا في ما ذَكَرْنا فلا.

وهو تَعْزِيَةٌ منهُ لِرَسولِهِ لِيَصْبِرَ على تكذيبِهِمْ إيّاهُ لِيَعْلَمَ أنهُ ليسَ بأوّلِ مُكَذَّبٍ. بل قد كانَ إخوانُهُ مِنْ قَبْلُ [قد كُذِّبوا مِن قَبْلُ][٤] في ما أخْبَروا قومَهُمْ عنِ اللهِ، فَصَبروا على ذلكَ، فاصْبِرْ أنتَ أيضاً كقولِهِ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٣٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وإلى اللهِ يرجِعُ تدبيرُ الأمورِ، أي لا تَدْبيرَ للخَلْقِ في ذلكَ. أو يُقالُ: إلى اللهِ يَرْجِعُ الحكْمُ في الأمورِ، هو الحاكمُ فيها، كقولِهِ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٍ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠] واللهُ أعلمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ أي البعثَ، إنهُ كائنٌ، لا محالَةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ في ما وَعَدَ مِنَ الثوابِ على الطاعاتِ، وَوَعْدُهُ حقٌّ في ما أوعَدَ مِنَ العِقابِ على السَّيئاتِ أنهُ يكونُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ مَعْنَى قولِهِ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ واللهُ أعلمُ، أي لا تَشْغَلَنَّكُمُ الحياةُ الدنيا عنْ ذِكْرِ الحياةِ الآخِرَةِ، ولا تُنْسِيَنَّكُمُ الحياةُ الدنيا الحياةَ الآخرةَ.

[ألا إنّ][٥] الدنيا لا تَغُرُّ أحداً في الحقيقةِ [وهي لَيستْ][٦] بِلَعِبٍ ولا لَهْوٍ، ولا هي غارَّةٌ، ولكن يَغْتَرُّ أهلُها بها لِما غَفَلوا عمّا جُعِلَتْ لهُ[٧]، وأُنْشِئَتْ. وهو ما ذَكَرْنا أنها جُعِلَتْ زاداً للآخرةِ وبُلْغَةً إليها. فَمَنْ لم يَجْعَلْها زاداً للآخرةِ ولا بُلْغَةً إلى الوصولِ للآخِرَةِ، ولكنْ جَعَلَها في غَيرِ ما جُعِلَتْ له[٨]، وأُنْشِئَتْ للحياةِ[٩] فيها والمُقامِ بها، صارَتْ لِعِباً ولَهْواً، وصارَتْ غُروراً، إذْ صَيَّرَها[١٠] كالمُنْشَأةِ لِنَفْسِها لا للآخِرَةِ.

وهذا كما قالَ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤و١٢٥].

أخْبَرَ أنَّ السورةَ كانَتْ تزيدُ لأهلِ الإيمانِ إيماناً ولأهلِ الكُفْرِ والنِّفاقِ رِجْساً وعَمىً. والسورةُ لا تزيدُ رِجْساً ولا عَمىً في الحقيقةِ، لأنهُ وصفَ القرآنَ بأنهُ نورٌ وأنه هُدًى ورحمةٌ وبُرْهانٌ. ولكنْ صارَ رِجْساً وعَمًى لِمَنْ أعْرَضَ عنهُ، وكَذَّبَ، وردَّهُ. وأمّا مَنْ تَلَقّاهُ بالقَبولِ، وأقْبَلَ عليهِ، ونَظَرَ إليهِ بالتعظيمِ والإجلالِ لهُ والخضوعِ، فهو لهُ نورٌ وهُدًى ورحمةٌ.

---

(١) في الأصل وم: أنها شركاؤه. (٢) في الأصل وم: شفعاؤكم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وإلا. (٦) في الأصل وم: وكذلك هي. (٧) في الأصل وم: هي. (٨) في الأصل وم: هي. (٩) في الأصل وم: وهي الحياة. (١٠) في الأصل وم: صيروها.

فَعَلَى ذلكَ الدنيا وما فيها مِنَ النِّعَمِ واللَّذّاتِ إذا جَعَلَها [في غَيرِ ما جُعِلَتْ لهُ][1] وأُنْشِئَتْ، صارَتْ لَعِباً ولَهْواً وغُروراً. بل لو حُمِدَتْ هي على ما أُنْشِئَتْ مكانَ ما ذُمَّتْ لكانَ حقًّا وصِدْقاً [لأنهُ تعالى][2] سَمَّى نَعِيمَها حسنةً وخَيراً وصَلاحاً ونَحْوَهُ. فلا جائزٌ أنْ تُذَمَّ الحسنةُ والخَيرُ، بل حَقُّ الذمِّ على أهلِها لأنهمُ[3] اغْترّوا بها، وصَيَّروها في غَيرِ ما صُيِّرَتْ، وجُعِلَتْ، لِغَفْلَتِهِمْ عمّا جُعِلَتْ لهُ[4] وصَرْفِهِمْ إياها إلى غَيرِ الذي صُرِفَتْ[وجُعِلَتْ لَهُ][5].

وعلى ذلكَ لا يجوزُ ذَمُّ الغِنَى والسَّعَةِ والصحةِ والسلامةِ لأنَّ ذلكَ كلَّهُ نِعَمٌ مِنَ اللهِ، أنْعَمَها على الناسِ فيجبُ أنْ يَنظروا إلى ما عليهِمْ للهِ مِنَ الشكرِ في ذلكَ، فَيُؤَدُّوهُ، وكذلكَ العِزُّ والثناءُ الحسنُ ونَحْوُهُ، لا يَجبُ أنْ يُذَمَّ شيءٌ منْ ذلكَ، بل يُذَمُّ مَنْ لم يَعْرِفْ أنَّ العِزَّ فيمَ؟ إنما في طاعةِ اللهِ والعبادةِ لهُ، لا في مَعاصِيهِ.

فهؤلاءِ سَمَّوا مَعْصِيةَ اللهِ عِزًّا لِجَهْلِهِمْ في العِزِّ.

وكذلكَ الثناءُ الحَسَنُ يَجبُ أنْ يَحْمَدَ [المرءُ][6] ربَّهُ، ويَشْكُرَ لهُ في ما يَسْتُرُ على الخَلْقِ فضائِحَهُ ومساوِئَهُ، حينَ يُثْنوا عليهِ ما لو بَدا ذلكَ منهُ [وأظهرَهُ لم يَهْرُبوا][7] منهُ فَضْلاً أنْ يُثْنوا عليهِ، ويَحْمَدوهُ. فيجبُ أنْ يَشْكُرَ [المرءُ][8] ربَّهُ، ويُثْنِيَ [عليهِ لأنه سَتَرَ عليهِ][9] مَعاصيَهُ وفضائِحَهُ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الغَرورُ بِفَتْحِ الغَينِ، هو الشيطانُ؛ يقولُ: لا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الشيطانُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وُجوهاً:

أحَدُها: لا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ أي بكرمِهِ وجُودِهِ؛ يقولُ: إنهُ كريمٌ وجَوادٌ غَفورٌ، يَتَجاوَزُ عنكُمْ، ويَعْفو عنكمْ معاصِيَكُمْ، ومَساوِئَكُمْ.

والثاني: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي بِغناهُ؛ يقولُ إنهُ غنيٌّ، ما بِهِ حاجَةٌ إلى عبادَتِكُمْ إيّاهُ في ما أمَرَكُمْ بِهِ، ونَهاكُمْ عنهُ.

والثالثُ: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي لا يَغُرَّنَّكُمْ عنْ طاعةِ اللهِ وعبادتِهِ، فَتَعْصُوهُ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: الباءُ مكانُ عنْ كقولِهِ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي عنها؛ إذْ لا يُشْرَبُ بالعينِ، وإنما يُشْرَبُ عنها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ ما يَدْعو الشيطانُ الخَلْقَ إليهِ في الظاهرِ يُخَرِّجُ مُخْرَجَ الشفقةِ والنصيحةِ كما يَدْعو الأولياءُ، لأنهُ يَدْعوهُمْ إلى قضاءِ شَهَواتِهِمْ ولَذّاتِهِمْ وما تَهْوَى أنفسُهُمْ، وإنْ كانَ يَضْمُرُ، ويَقْصِدُ بِهِ هلاكَهُمْ.

ألا تَرَى أنه[10] كيفَ أظهرَ لآدمَ وحواءَ مِنَ الشفقةِ لهما[11] والنصيحةِ حينَ قالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠ و٢١] ونَحْوَهُ؟ وكانَ قَصْدُهُ بذلكَ ما ذَكَرَ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠] هذا كانَ يَضْمُرُ، ويَقْصِدُ في دعائِهِ إيّاهما إلى التناوُلِ مِنْ تلكَ الشجرةِ التي نهاهُما ربُّهما [عنهُ][12] فَعَلَى ذلكَ في ما يَدْعو الناسَ بِهِ إلى قضاءِ شَهَواتِهِمْ وحاجاتِهِمْ في الظاهرِ، فهو يَقْصِدُ بذلكَ هلاكَهُمْ لِمُخالفتِهِمُ المَولَى ما يُظْهِرُ، ويُبدي لهمْ.

لذلكَ قالَ: إنهُ عدوٌّ لكمْ، ليسَ بِوَليٍّ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي كونوا عنْ دعائِهِ وأمْرِهِ على حَذَرٍ كما يَحْذَرُ المرءُ دُعاءَ عَدُوِّهِ.

---

(١) في الأصل وم: غير ما جعلت. (٢) في الأصل وم: لأنها. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: هي. (٥) في الأصل وم: وجعلهم بها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وأظهر لهربوا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: انها. (١١) في الأصل وم: لهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

[وقولُهُ تعالى][1] ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ قال بعضُهُمْ: أهلَ طاعتِهِ. وقالَ القُتَبيُّ وأبو عوسَجَةَ: حِزْبُهُ أنصارُهُ والحِزْبُ الأنصارُ. [وقال بعضُهُمْ: جُندُهُ][2] وقالَ بعضُهُمْ: حِزْبُهُ وُلاتُهُ الذينَ يَتولّاهُمْ، ويَتَوَلَّونَهُ، وكلُّهُ واحدٌ.

ثم بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ خصَّ[3] حِزْبَهُ بالدعاءِ لهمْ لِما أنَّ حِزْبَهُ هُمُ[4] المُجيبونَ لهُ والمُطيعونَ. فأمّا غيرُ حِزْبِهِ فلا يُجيبونَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] وكانَ يُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ومَنْ لم يَتَّبِعِ الذِّكْرَ. لكنْ خَصَّ بإنذارِهِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ لِما أنَّ مُتَّبِعَ الذِّكْرِ، هو المُنْتَفِعُ بهِ دونَ مَنْ لم يَتَّبِعْ. لِذلكَ خَصَّهُ[5]، واللهُ أعلَمُ.

فَعَلَى ذلكَ ما خَصَّ بدعائِهِ/ ٤٣٩ ـ ب/ حِزْبَهُ لأنَّ حِزْبَهُ هُمُ المُجيبونَ لهُ والمُطيعونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قَصَدَ بِدعائِهِ حِزْبَهُ إلى ما يَدْعوهمْ ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وإلّا لو كانَ أظْهَرَ لهمُ الدعاءَ إلى عذابِ[6] السَّعيرِ ما أجابوهُ، ولا أطاعوهُ. ولكنْ دعاهمْ إلى أعمالٍ تُوجِبُ لهمُ السَّعيرَ، أو لِيكونَ لهمْ عذابُ السَّعيرِ [كقولِهِ: [﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]][7].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهو ظاهرٌ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ قولُهُ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِما عَمِلوا مِنْ غيرِ الصالحاتِ بَعدَ إيمانِهِمْ، أو مَغْفِرَةٌ لذنوبِهِمْ في الإيمانِ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لإيمانِهِمْ وأعمالِهِمُ الصالحاتِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ ليسَ لهذا الحَرْفِ في ذا المَوضِعِ جوابٌ. فجائزٌ أنْ يكونَ جوابُهُ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ على التقديمِ لهُ، كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أفَمَنْ زُيِّنَ لهُ سوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حسناً، فلا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهِمْ حَسَراتٍ، فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ.

[ويَحْتَمِلُ][8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فَلَزِمَهُ كَمَنْ قُبِّحَ لهُ، فانْتَهى عنهُ؟ ليسا بِسَواءٍ كقولِهِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ذُكِرَ أنَّ قولَهُ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ نَزَلَ في عُمَرَ بْنِ الخطابِ، وقولَهُ: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في أبي جَهْلٍ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، وأنْ يكونَ ما ذَكَرْنا [9] بَدْءاً على التقديمِ والتأخيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ مِنَ الضلالِ [والهُدى][10]؛ يُضِلُّ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ، ويَهْدي مَنْ عَلِمَ منهُ أنه يَختارُ الهُدَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وَجهَينِ:

أحَدُهما][11]: أي لا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهِمْ حَسَراتٍ إشفاقاً على ما يَنْزِلُ بهمْ بِتَرْكِهِمُ الإيمانَ لأنَّ رسولَ اللهِ كادَ يُهْلِكُ نفسَهُ إشفاقاً عليهِمْ، فَنَهاهُ عَنْ ذلكَ[12].

والثاني: على تخفيفِ الحُزْنِ عليهِ ودفعِهِ عنهُ وتَسْلِيَتِهِ إياهُ لأنهُ كانَ يَشْتَدُّ بهِ الحزنُ لِمكانِ كُفرِهِمْ وتكذيبِهِمْ إياهُ وتركِهِمُ الإيمانَ بهِ، ليسَ على النَّهْيِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ في ما تَقَدَّمَ مِقْدارَ ما حَفِظْنا فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ اللهَ تعالى على عِلْمٍ بِصَنيعِهِمْ؛ أنْشَأَهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ بما يكونُ منهم.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: لكنه. (٤) من م، في الأصل: هو. (٥) في الأصل وم: خص. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أصحاب. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ذكر (١٠) في الأصل وم: إلى الهدى. (١١) في الأصل وم: وجوها أحدها. (١٢) أدرج بعدها في الأصل: كقوله وقوله.

والثاني: ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فلا تُكافِئْهُمْ، ولا تَشْتَغِلَنَّ بشيءٍ ممّا يكونُ منهمْ، ولكنْ فَوِّضْ ذلكَ إلى اللهِ، وأَسْلِمْ إليهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي كذلكَ نُحيي المَوتَى، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنْ كانَ يُرِيدُ القوةَ والمَنَعَةَ بِعِبادةِ الأصنامِ ومَنْ عَبَدوا دونَهُ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فَبِعِبادةِ اللهِ وطاعتِهِ [تلكَ العِزَّةُ][1] في الدنيا والآخِرةِ، أي فَمِنْ عندِهِ اطْلُبوا ذلكَ [وهو كقولِهِ][2]: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] أي مِنْ عندِهِ اطْلُبوا ذلكَ في الدنيا والآخِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أي العِزَّ والتَّعَزُّزَ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فباللهِ يكونُ عِزُّ الدنيا والآخِرَةِ [لا][3] بالأصنامِ التي عَبَدْتُموها. وقد كانَ منهُمْ بعبادتِهِمُ الأصنامَ طَلَبُ الأمْرَينِ: طَلَبُ العِزِّ كقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] وطَلَبُ القوةِ والمَنَعَةِ كقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] فأخْبَرَ أنَّ ذلكَ إنما يكونُ باللهِ وبطاعتِهِ. فَمِنْ عندِهِ اطْلُبُوا لا مِنْ عندِ مَنْ تَعبُدونَ دونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ قائلونَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هو الوَعْدُ الحَسَنُ ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ هو إنجازُ ما وَعَدَ مِنَ[4] الوَعْدِ الحَسَنِ، وَوَفَى ذلكَ[5].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هو كلمةُ التوحيدِ وشهادةُ الإخلاصِ ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي إخلاصُ التوحيدِ للهِ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ الذي تَكَلَّمَ بهِ. فَعَلَى هذا التأويلِ[6] يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ إليهِ ما لَمْ يُخلِصْ ذلكَ للهِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هو كلمةُ التوحيد على ما ذَكَرْنا ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي يَرْفَعُ اللهُ العَمَلَ الصالحَ لصاحِبِهِ؛ يَعْني لصاحبِ الكلامِ الطَّيِّبِ. فَعَلَى هذا التأويلِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ إليهِ دونَ العَمَلِ الصالحِ.

وبعضُ أهلِ التأويلِ [يقولونَ: يَرْفَعُ كلامُ][7] التوحيدِ الطَّيِّبُ العَمَلَ الصالحَ إلى اللهِ، وبهِ يَتَقَبَّلُ الأعمالَ الصالحةَ.

وظاهرُ الآيةِ أنْ يكونَ العَمَلُ الصالحُ، هو الذي يَرْفَعُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ، لكنَّ الوجهَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ، ما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ.

وبعضُهُمْ يقولُ: إنَّ العَمَلَ الصالحَ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: الذينَ يَعْمَلونَ السَّيِّئاتِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ مَكْرِهِمُ السَّيِّئاتِ، هو مَكْرُهُمْ برسولِ اللهِ وأذاهُمْ إياهُ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

ويَمْكُرُ اللهُ بهمْ في الدنيا بالهلاكِ والقَتْلِ، وفي الآخِرَةِ بالعذابِ الشديدِ الذي قالَ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخِرَةِ ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي هو يَهْلِكُ، مِنَ البَوارِ، وهو الهَلاكُ، وهو قَتْلُهُمْ ببَدْرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ خَلَقَكُمْ أي قَدَّرَكُمْ مع كَثْرَتِكُمْ مِنْ أوَّلِ أمرِكُمْ إلى آخِرِ ما تَنْتَهونَ إليهِ مِنَ الترابِ الذي خَلَقَ آدَمَ منهُ، إذِ الخَلْقُ في اللغةِ التقديرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي قَدَّرَكُمْ أيضاً مع كَثْرَتِكُمْ وعِظَمِكُمْ مِنْ تلكَ النُّطْفَةِ [يُخْبِرُ عن علمِهِ وتدبيرِهِ في تقديرِهِ إيّانا

---

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عند الله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في م: أي إذا أنجز ما وعده. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: الانجاز الوعد الحسن وعد. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: يرفع الكلام.

معَ كثْرَتِنا مِنْ ذلكَ الترابِ ومِنْ تِلْكَ النطفةِ][1] وإنْ لم نكُنْ نحنُ على ما نحنُ عليهِ مِنْ ذلكَ الترابِ والنطفةِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

[ويَحْتَمِلُ][2] أنْ تكونَ إضافَتُهُ إيانا إلى ذلكَ الترابِ والماءِ، وإنْ كانَ ذلكَ أصلَنا ومَبادِئَ أمورِنا، وكانَ المَقصودُ بِخَلْقِ ذلكَ الترابِ والماءِ أصلَ[3] هذا الخَلْقِ، هو[4] العاقبةُ.

وقد تُذْكَرُ، وتُضافُ العواقبُ إلى المَبادِئِ، وتُنْسَبُ إليها، إذا كانَ المقصودُ مِنَ المَبادِئِ العواقبَ. ولهُ نظائرُ ووجوهٌ[5] كثيرةٌ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي خَلَقَكُمْ مِنْ ذلكَ ذَكَراً وأُنثى، لِيَسْكُنَ بعضُكُمْ[6] إلى بعضٍ، أو جَعَلَكُمْ أزواجاً أصنافاً. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: واللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نفسٍ واحدةٍ، ثم جَعَلَكُمْ أزواجاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما تَحْمِلُ مِنْ أُنثى مِنْ أوّلِ ما تَحْمِلُ إلى آخِرِ ما تَنْتَهُونَ إليهِ إلّا بِعِلْمِهِ السابقِ. وكذلكَ لا تَضَعُ كلُّ حاملٍ مِنْ أوّلِ ما تَضَعُ إلى آخِرِ ما تَنْتَهُونَ إليهِ إلّا بِعِلْمِهِ السابقِ أنها تَحْمِلُ كذا في وَقْتِ كذا مِنْ كذا وأنها تَضَعُ كذا في وَقْتِ كذا. يَخْبِرُ عن علمِهِ السابقِ مِنْ أوّلِ مُنْشَئِهِمْ إلى آخِرِ ما يكونونَ، ويَنْتَهونَ إليهِ أنهُ كانَ كلُّهُ بذلكَ التقديرِ الذي كانَ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي ما يُطَوَّلُ مِنْ عُمُرٍ، وإنْ طالَ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي ما نُقِصَ، وقُصِّرَ مِنْ ذلكَ / ٤٤٠ ـ أ/ ولا[7] يُطَوَّلُ إلّا في كتابٍ، أي إلّا كانَ ذلكَ كلُّهُ في الكتابِ مُبَيَّناً هكذا مُطَوَّلاً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي مَنْ كَثُرَ عُمُرُهُ، وطالَ، أو قَلَّ عُمُرُهُ، فهو يُعَمَّرُ إلى أجَلِهِ الذي كُتِبَ لهُ.

ثم قالَ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ كلَّ يومٍ وكلَّ ساعةٍ حتى يَنْتَهِيَ إلى آخِرِ أجلِهِ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ في اللَّوحِ المَحفوظِ مكتوبٌ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَهُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. قالَ صاحبُ هذا [القولِ][8] إنَّ كتابَ الآجالِ حينَ كتبَهُ اللهُ في اللوحِ المحفوظِ على اللهِ هَيِّنٌ.

وقالَ آخرُ قريباً مِنْ هذا في قولِهِ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ في جَرْيِ الليلِ والنهارِ والساعاتِ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى كَتَبَ لكلِّ نَسَمَةٍ عُمْراً تَنْتَهي إليهِ. فإذا أجْرَى عليها الليلَ والنهارَ أنْقَصَ ذلكَ عُمُرَها، حتى [يَبْلُغَ][9] ذلكَ أجلَها. فَمَنْ قُضِيَ لهُ أنْ يُعَمَّرَ حتى يُدْرِكَهُ الكِبَرُ، أو عُمِّرَ دونَ ذلكَ، فهو بالغٌ ذلكَ الأجلَ الذي [قُضِيَ لهُ، وكانَ ذلكَ][10] في كتابٍ يَنْتَهونَ إليهِ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقولُ قائلٌ: إنَّ حِفْظَ ذلكَ على اللهِ بِغَيرِ كتابٍ يَسيرٌ هَيِّنٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إنَّ عِلْمَ ما ذَكَرَ وتَقْديرَهُ مِنْ أوّلِ ما أنْشَأَهُمْ وتَغْييرَ أحوالِهِمْ إلى آخِرِ ما يكونونَ، ويَنْتَهونَ إليهِ، يَسيرٌ، أي لا يَخْفَى عليهِ [شيءٌ][12].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فيهِ وجوهٌ مِنَ المُعْتَبَرِ:

أحَدُها: يذكُرُ ألّا يَسْتَوِيَ في الحكمةِ الخَبيثُ مِنَ الرجالِ والطَّيِّبُ منهمْ كما لا يَسْتَوي المالحُ مِنَ الماءِ والأجاجُ، والعَذْبُ منهُ والسائغُ، وقدِ اسْتَوَى الطَّيِّبُ مِنَ الرجالِ والخَبيثُ في مَنافِعِ الدنيا ومَأْكَلاتِها. وفي الحكمةِ التَّفريقُ بَينَهما والتَّمْييزُ. دَلَّ أنَّ هنالكَ داراً تُمَيَّزُ بينَهما، وتُفَرِّقُ، إذ قد يُسْتَوَى في منافِعِ [الدنيا][13] وحُطامِها. وفي الحكمةِ التَّفريقُ والتَّمْييزُ لا الجَمْعُ والاسْتِواءُ. وذلكَ يَدُلُّ على البعثِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: والأصل. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: جهة. (٦) في الأصل وم: بعضه. (٧) من م، في الأصل: ومن. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: فيهِ أنَّ المُنْشَأَ مِنَ الأشياءِ في هذهِ الدنيا والمخلوقَ لم يُنْشِئْهُما اللهُ تعالى لِحاجةِ نفسِهِ، ولكنْ لِحوائجِ الخَلْقِ ومَنافِعِهِمْ وما يكونُ لهمُ العِبْرَةُ في ذلكَ؛ إذْ مَنْ أنشأَ شيئاً لِحاجةِ نفسِهِ أنشأَ ألَذَّ الأشياءِ وأحلاها وأنفَعَها لهُ لا مُرًّا مالحاً أُجاجاً ما لا يَنْتَفِعُ بهِ.

يُخْبِرُ عَنْ غِناهُ عمّا أنشأَ مِنَ الأشياءِ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يُنْشِئْها، لحوائجِ نفسِهِ، ولكنْ لِما ذَكَرْنا.

وهو على المعتزلةِ في قولِهِمْ: إنهُ لم يَخْلُقْ شيئاً، لا يُنْتَفَعُ بهِ، وإنهُ لا يَفْعَلُ إلا[1] ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ؛ إذْ قد أنشأَ ماءً أُجاجاً مالحاً، لا يُنْتَفَعُ بهِ، ليكونَ لهمُ العِبْرَةُ في ذلكَ.

والثالثُ: فيهِ تَرْغيبٌ في إيمانِ الخَبيثِ الكافِرِ، ودَفْعُ الإياسِ مِنْ توحيدِهِ[2]، وقَطْعُ الرجاءِ عنْ [عَودِهِ إلى الكُفْرِ حينَ][3] أخبَرَ عمّا يأكلونَ مِنَ الماءِ المالحِ الأُجاجِ والعَذْبِ السائغِ جميعاً اللحمَ الطَّرِيَّ [ما حَقُّ][4] مثلِهِ إذا أُلْقِيَ فيهِ أو في مِثْلِهِ اللحمُ الطَّرِيُّ أنْ يَفْسُدَ[5] مِنْ ساعَتِهِ. ويُذَكِّرُهُمْ أيضاً عنْ قدرتِهِ: أنَّ مَنْ قَدَرَ على حِفْظِ ما ذَكَرَ مِنَ اللحمِ الطَّرِيِّ في الماءِ الذي لا يُقْدَرُ على الدُّنُوِّ منهُ والقُرْبِ [مِنَ الخَوضِ فيهِ والذَّوقِ منهُ][6] فَضلاً أنْ يكونَ فيهِ حِفْظُ ما ذَكَرَ مِنَ الإفسادِ؛ فَمَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

والرابعُ: يَذْكُرُ نِعْمَةُ التي أنْعَمَها عليهِمْ حينَ[7] قالَ: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يَذْكُرُ عِظَمَ نِعَمِهِ وقُدْرَتَهُ حينَ[8] جَعَلَ البحارَ مُسَخَّرَةً مُذَلَّلَةً، يَقْدِرونَ على اسْتِخراجِ ما فيها مِنَ الحِلَى والجواهِرِ والوصولِ إلى المَنافِعِ التي هي وراءَ البِحارِ وقَطْعِها بِسُفُنٍ أنْشأَها لهمْ، وأجْراها في الماءِ.

بلِ الأُعْجوبَةُ في إجراءِ السُّفُنِ بالرِّياحِ في المياهِ الراكدةِ الساكنةِ أعْظَمُ وأكْثَرُ مِنْ جَرَيانِها على جَرْيَةِ الماءِ لأنها في الماءِ الجاري لا تَجْري إلّا على الوجهِ الذي يجري الماءُ، وفي البحارِ تجري بريحٍ واحدةٍ مِنَ الأسْفَلِ إلى الأعْلَى ومِنَ الأعْلَى إلى الأسْفَلِ حيثُ شاءَ[9]. دلَّ أنَّ الأُعْجوبَةَ في هذا أكْثَرُ وأعظَمُ. ومَنْ مَلَكَ هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

[ويَحْتَمِلُ][10] أنْ يكونَ المَثَلُ الذي ذَكَرَ في البَحْرَيْنِ: أحَدُهما عذبٌ ماؤُهُ [والآخَرُ][11] أُجاجٌ ماؤُهُ، يكونُ لِلْعَمَلِ الصالحِ، وهو التوحيدُ، ولِلْعَمَلِ السَّيِّءِ، وهو الكُفْرُ؛ يقولُ[12]: كما لا يَسْتَوي في الفَضْلِ الماءُ العذبُ والماءُ المالحُ، فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوي العَمَلُ الصالحُ والعَمَلُ السَّيِّءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قالَ بعضُهُم: مَواخِرَ تَجرِيانِ؛ إحداهما مُقْبِلَةٌ، والأُخرَى مُدْبِرَةٌ بريحٍ واحدةٍ، وتَسْتَقْبِلُ إحداهما الأُخرَى. وقالَ بعضُهُمْ: المَواخِرُ هي التي تَشُقُّ الماءَ، وتَقْطَعُهُ؛ مِنْ مَخَرَ يَمْخُرُ، وقد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ ما يُصابُ بالأسبابِ والمَكاسِبِ إنما هو فَضْلُ اللهِ، إذ قد يَكْتَسِبُ [المرءُ، ولا يكونُ لهُ منهُ سَبَبٌ][13] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يَذْكُرُ هذا لأهلِ مكةَ لإنكارِهِمُ الصانعَ وإنكارِهِمُ البَعْثَ وإنكارِهِمُ الرسُلَ لأنهمْ كانوا فِرَقاً ثلاثاً[14]: منهُمْ مَنْ يُنْكِرُ الصانعَ والتوحيدَ، ومنهُمْ مَنْ يُنْكِرُ البَعْثَ، ومنهُمْ مَنْ يُنْكِرُ الرسُلَ.

ففي الآيةِ دلالةُ إثباتِ الصانعِ وتوحيدِهِ، وفيها دلالةُ البَعْثِ والإنشاءِ بَعْدَ المَوتِ، وفيها دلالةُ إثباتِ الرسالةِ.

أمّا دلالةُ إثباتِ الصانعِ والوَحْدانيّةِ [ففي][15] اتِّساقِ الليلِ والنهارِ والشمسِ والقمرِ وما ذَكَرَ وجَرَيانِها وجَرَيانِ الأمورِ

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: بهم. (٢) في الأصل وم: توحيدهم. (٣) في الأصل وم: عودهم إليه حيث. (٤) في الأصل وم: مما حقق. (٥) في الأصل وم: يفيد. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: شاؤوا. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: بقوله. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا يكون منه شيء. (١٤) في الأصل وم: ثلاثة. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

كلّها على سَنَنٍ واحدٍ وميزانٍ واحدٍ وقَدْرٍ واحدٍ مِنْ أوّلِ ما كانَ إلى آخِرِ ما يكونُ مِنْ غَيرِ زيادةٍ أو نُقصانٍ يدخُلُ فيهِ [أو تقديمٍ أو تأخيرٍ يكونُ فيه][١] يدُلُّ على أنَّ لِذلكَ كلِّهِ صانعاً مُدبِّراً، أنشأ، ودَبَّرَ كلَّ شيءٍ على ما كانَ، وحَفِظَهُ[٢] كلَّهُ على ميزانٍ واحدٍ، إذْ لو كانَ [كلُّ واحدٍ منها][٣] بنفسِهِ لكانَ لا يجري على حدٍّ واحدٍ، بل يَتَفاضَلُ [على غَيرِهِ][٤] وكذلكَ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لكانَ يَتقدَّمُ، ويتأخَّرُ، ويَتغيَّرُ، ويَمْتَنِعُ، ويَذهَبُ [بعضُها][٥] رأساً على ما يكونُ فِعْلُ العَدَدِ مِنَ الملوكِ؛ إنَّ ما أرادَ [هذا نفاهُ الآخَرُ][٦] ومَنَعَهُ، وما أرادَ هذا نَفْيَهُ وإبطالَهُ أرادَ الآخَرُ إثباتَهُ، وذلكَ مَعْروفٌ فيهِمْ: مِنْ مُخالفةِ بعضِهِمْ[٧] بعضاً. فَدَلَّ اتِّساقُ ما ذَكَرْنا وجَرَيانُهُ على تدبيرٍ واحدٍ أنهُ فِعْلُ واحدٍ وتدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ، وباللهِ القوةُ.

ودَلَّ ذهابُ الليلِ وتَلَفُهُ بِكُلِّيَّتِهِ حتى لا يَبْقَى لهُ أثَرٌ، وكذلكَ ذهابُ ضَوءِ النهارِ ونورِهِ، وكذلكَ الشمسُ والقمرُ، وإتيانُ الآخَرِ بَعْدَ تَلَفِهِ أنهُ بَعْثٌ، إذْ لو لم يَكُنْ بعثٌ [كانَ تدبيرُ ذلكَ][٨] كلِّهِ لَعِباً باطلاً، وأنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على الإحياءِ بَعْدَ الموتِ، وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

فإنْ ثَبَتَ ما ذَكَرْنا لا يَحْتَمِلُ أنْ [يَتْرُكَ اللهُ تعالى عبادَهُ][٩] سُدًى، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ[١٠]، ولا يَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ. فلابُدَّ مِنْ رسولٍ يأمُرُ، ويَنْهَى، ويُخْبِرُ عمّا لهمْ وعليهِمْ.

[وفي الآيةِ][١١] أنَّ مُدبِّرَ ذلكَ كلِّهِ عليمٌ حكيمٌ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾][١٢] يُخبِرُ أنَّ الذي فَعَلَ ذلكَ كلَّهُ هو ربُّكُمُ الذي لهُ المُلْكُ؛ يقولُ: الذي فَعَلَ هذا كُلَّهُ ربُّكُمْ لا الأصنامُ التي عَبَدْتُمْ دونَهُ، وسَمَّيتُموها آلهةً. فكيفَ صَرَفْتُمُ العبادةَ إليها والألوهيَّةَ؟ وما تَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ لا يَمْلِكونَ ما ذَكَرَ حينَ[١٣] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ يُسَفِّهُ أحلامَهُمْ في عبادةِ مَنْ عَبَدوا دونَهُ على علمٍ منهمْ أنهمْ [لا][١٤] يَمْلِكونَ ما ذَكَرَ، وصَرْفِهِمُ العبادةَ عَنِ اللهِ على عِلْمٍ منهمْ أنَّ ذلكَ كلَّهُ مِنَ اللهِ. وهو المالكُ لذلكَ.

الآية ١٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾][١٥] / ٤٤٠ ـ ب/ يُخبِرُ عن عَجْزِ مَنْ [عَبَدوهُمْ حينَ][١٦] قالَ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ على حقيقةِ الدعاءِ ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ حقيقةً ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي لو سَمِعوا دُعاءَكُمْ ما يَمْلِكونَ إجابَتَكُمْ في دَفْعِ ضُرٍّ وسوءٍ ولا في جَرِّ نَفْعٍ.

[ويَحْتَمِلُ][١٧] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي تَعبدوهُمْ ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي لا يُجيبوكُمْ إلى ما تَقْصِدونَ بعبادَتِكُمْ إياهُمْ، وإنْ تقولوا ما قَبِلوا ذلكَ عنكُمْ ولا نَفَعَكُمْ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يُنْكِرونَ يومَ القيامةِ أنْ يكونوا [شُركاءَكُمْ، أو أمَروكُمْ][١٨] بذلكَ كقولِهِ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] وقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية [سبأ: ٤٠ و ٤١] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا يُنَبِّئُكَ أحدٌ مثلَ الذي أنْبَأَكَ الخَبيرُ في الصِّدْقِ والحقِّ.

[ويَحْتَمِلُ][١٩] أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا يكونُ نَبأُ أحدٍ مِثْلَ نَبَإِ الخَبيرِ، فاعْمَلْ بهِ، وأقْبِلْ عليهِ، ولا تُقْبِلْ على نَبَإِ غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ وجهانِ مِنَ اللُّطفِ:

أحَدُهما: يُتْلِفُ [أحَدَهما][٢٠] حتى يُذْهِبَ أثَرَهُ، ويأتي بالآخَرِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وحفظ. (٣) في الأصل وم: ذلك. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الآخر نفيه. (٧) في الأصل وم: بعض. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يتركهم. (١٠) في الأصل وم: ينهى. (١١) في الأصل وم: وفيه. (١٢) في الأصل وم: ثم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم. ثم. (١٦) في الأصل وم: عبدوه حيث. (١٧) في الأصل وم: أو. (١٨) في الأصل وم: شركاءهم أو أمروهم. (١٩) في الأصل وم: أو (٢٠) ساقطة من الأصل وم.

[والثاني][1]: يزيدُ في هذا، ويُنْقِصُ مِنَ الآخر، ويُدْخِلُ مِنْ ساعاتِ هذا في ساعاتِ الآخَرِ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الثَّنَوِيَّةِ في قولِهِمْ: إنَّ مُنْشِئَ الخيرِ غَيرُ مُنْشِئِ [الشَّرِّ][2] وقولِهِمْ[3]: إنَّ النورَ مِنْ مُنْشِئِ الخَيرِ، والظلْمَةَ مِنْ مُنْشِئِ الشَّرِّ. فلو كانَ ما ذَكَروا لكانَ إذا ذهبَ النورُ وجاءتِ الظُّلْمَةُ صارَتْ هي الغالبةَ[4]، والنورُ [هو المَغْلوبَ][5] في يَدِها. وكذلكَ النورُ إذا جاءَ، وذَهَبَتِ الظُّلْمَةُ، صارَتْ هي مقهورَةً مَغْلوبةً في يدِ النورِ، والنورُ هو الغالبَ عليها. فإذا صارَ مَغْلوباً مَقْهوراً في يدِ صاحِبِهِ يجيءُ ألّا يَقْدِرُ على اسْتِنْقاذِ نفسِهِ مِنْ يَدِهِ أبداً على ما يكونُ مِنْ عادةِ الأعداءِ إذا غَلَبَ بعضُهُمْ بعضاً، وقَهَرَ بَعْضُهُمْ بعضاً أنْ يُهْلِكَ [عَدُوَّهُ][6] ويَتَخلَّصَ منهُ. فإذا لم يكُنْ، ولكنْ جاءَ كلٌّ منهما في وقتِهِ بعدَ ذهابِ [أثَرِ الآخَرِ][7] على التقديرِ الذي ذَكَرْنا، دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ وتَدبيرُ واحدٍ، لا تدبيرُ عددٍ. وباللهِ الحَولُ والقوةُ.

والقُتَبِيُّ يقولُ: القِطْميرُ هو الفُوفَةُ التي تكونُ فيها النُّواةُ. وأبو عوسَجَةَ يقولُ: هو القِشْرَةُ الرفيعةُ التي تكونُ بَينَ لحمِ الثمرةِ وبَينَ نَواتِها، واحِدُهُ وجَمْعُهُ سَواءٌ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فيهِ وجوهٌ مِنَ الدَّلالةِ:

أحَدُها: أنهُ إنما أمَرَكُمْ، ونَهاكُمْ، وامْتَحَنَكُمْ بأنواعِ المِحَنِ لِحاجَتِكُمْ وفَقرِكُمْ إليهِ لا لحاجةٍ وفَقرٍ لهُ في ذلكَ. فإنِ ائْتَمَرْتُموهُ، وأطَعْتُموهُ، فإلى أنفسِكُمْ تَرْجِعُ مَنْفَعَةُ ذلكَ، وإنْ عَصَيْتُمْ فَعَلى أنفسِكُمْ يَلْحَقُ ضَرَرُ ذلكَ كقولِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

والثاني: يقولُ: تَعْلَمونَ أنَّ فَقرَكُمْ وحاجَتَكُمْ إلى اللهِ لا إلى الأصنامِ التي تَعْبُدونَها، واتَّخَذْتُموها آلهةً، فكيفَ صَرَفْتُمُ العبادةَ والشُّكرَ إلى مَنْ تَعْلَمونَ أنكمْ [لا][8] تَحتاجونَ إليهِ، ولا تَفْتَقِرونَ؟

والثالثُ: يأمُرُهُمْ بقَطعِ أطماعِهِمْ مِنَ الخَلْقِ لأنهُ خاطَبَ الكُلَّ، وأخبرَهُمْ[9] أنكُمْ جميعاً فقراءُ إلى اللهِ الطامعَ والمُطْموعَ فيهِ، فاقْطَعوا طَمَعَكُمْ ورجاءَكُمْ عَنِ الخَلْقِ، واطْمَعوا ذلكَ مِنَ اللهِ فإنهُ ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ والخَلْقُ جميعاً فُقَراءُ إليهِ، يُؤيسُهُمْ مِنَ الطَّمَعِ والرجاءِ مِنَ الخلقِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يُخْبِرُ عنْ غِناهُ وقُدْرَتِهِ لو شاءَ أذهَبَكُمْ [لِتَعْلَموا أنهُ لم][10] يُنْشِئْكُمْ، ولا أمَرَكُمْ، ولا نَهاكُمْ لِحاجةِ نفسِهِ ولا لِمَنْفَعَةٍ لهُ، ولكنْ لِحاجةِ أنفسِكُمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما: لا يَعِزُّ، ولا يَثْقُلُ عليهِ ذهابُكمْ وفناؤُكمْ لِحاجةِ نفسِهِ، فذهابُكُمْ وفناؤُكُمْ وبَقاؤُكُمْ عليهِ واحدٌ.

والثاني: لا يَصْعُبُ عليهِ، ولا يَعِزُّ إذهابُكُمْ وإحداثُكُمْ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، يُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ كأنَّ هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٢] يُؤْيِسُهُمْ لِيَقْطَعوا أطماعَهُمْ يومئذٍ عَنْ تناصُرِ بعضِهِمْ بَعْضاً وتَحَمُّلِ بعضِهِمْ مُؤَنَ بعضٍ وشفاعةِ بعضِهِمْ لبعضٍ على ما كانوا يَفْعَلونَ في الدنيا، كانَ يَنْصُرُ بعضُهُمْ بعضاً في الدنيا إذا أصابَهُمْ شيءٌ، ويَفْدي بعضُهُمْ بعضاً، ويَشْفَعُ بعضُهُمْ لبَعْضٍ.

كانوا يَحْتالونَ مثلَ هذهِ الحِيَلِ في الدنيا لِيَدْفَعوا عنِ المُتَّصِلينَ بهمُ الضَّرَرَ. فأخْبَرَ أنْ ليسَ لهمْ ذلكَ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] ومثلُهُ[11] كثيرٌ؛ يُؤيِسُهُمْ مِنْ أنْ يكونَ لهمْ في الآخرةِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ويقولون. (٤) في الأصل وم: المغلوبة. (٥) في الأصل وم: هي المغلوبة. (٦) في الأصل وم: ولا. (٧) في الأصل وم: أثره. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وأخبر. (١٠) في الأصل وم: لتعلمون أنه. (١١) الواو ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: إنما يَنْتَفِعُ بالإنذارِ الذين يَخْشَونَ ربَّهُمْ بالغيبِ. فأمّا [مَنْ][1] لا يَخْشَى ربَّهُ فإنهُ لا يَنْتَفِعُ بهِ. ولا[2] كانَ مُنْذِرَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ومَنْ لم يَتَّبِعْ ومَنْ خَشِيَ ربَّهُ ومَنْ لم يَخْشَ؟.

والثاني: كأنهُ يقولُ: إنكَ تُنْذِرُ غيرَ الذي اتَّبَعَ الذِّكْرَ وغيرَ الذي خَشِيَ ربَّهُ، فإنما يَتَّبِعُ إنذارَكَ، ويقْبَلُهُ الذي خَشِيَ ربَّهُ، واتَّبَعَ ذِكْرَهُ[3]، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي مَنْ عَمِلَ خيراً فإنما يَعْمَلُ لنفسِهِ، أو مَنْ جاءَ بالتوحيدِ والأعمالِ الصالحةِ فإنما يُصْلِحُ أمْرَهُ، وعَمَلُهُ يُثابُ عليهِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ موضعٍ فائدةَ ذِكْرِ المصيرِ إليهِ في ذلكَ اليومِ، وإنْ كانوا صائرينَ إليهِ في كلِّ وقْتٍ.

الآيات ١٩ ـ ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ضَرْبُ هذا المِثْلِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: شَبَّهَ الأصنامَ التي يَعْبُدونها بالأعْمَى والظُّلْمَةِ والمَيتةِ والحَرورِ حقيقةً[4] لأنها كذلكَ عُمْيانٌ، مَوتَى، ولا نورَ فيها؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ تعلمونَ الذينَ تَعْبُدونَ مِنَ دونَ اللهِ عُمْياناً، ولا بَصَرَ لهمْ، ولا نورَ، ولا حياةَ، ولا شيءَ مِنْ ذلكَ، وأنَّ اللهَ هو البصيرُ، ومنهُ يكونُ كلُّ خيرٍ ونَفعٍ فكيفَ اختَرْتُمْ عبادةَ مَنْ هذا سبيلُهُ على عبادةِ اللهِ تعالى؟ وباللهِ الهدايةُ والعصمةُ.

والثاني: شَبَّهَ أولئكَ الكَفَرَةَ بالعُمْيانِ والظُّلْمَةِ والمَوتِ وما ذَكَرَ، والمؤمنَ بالبصيرِ والنورِ والظِّلِّ والحياةِ، ليسَ على إرادةِ حقيقةِ البَصَرِ والحياةِ وما ذَكَرَ لأنَّ لهمْ بَصَراً يُبْصِرونَ، وهمْ أحياءٌ، فيقولونَ: نحنُ بُصَراءُ وأحياءٌ، وأنتمُ العُمْيانُ والأمواتُ وما ذَكَرَ، لكنْ شَبَّهَهُمْ بالعُميانِ والمَوتَى لأنهُ لا حُجَّةَ لهمْ ولا بُرْهانَ على عبادتِهِمُ الأصنامَ، وهمْ يَعْلَمونَ أنهُ لا حُجَّةَ لهمْ ولا بُرْهانَ على ذلكَ مِن كتابٍ أو رسولٍ أو نَحْوِهِ، إنما هو هَوًى، يَهْوَوْنَ ذلكَ.

وللمؤمِنِينَ في عبادتِهِمُ اللهَ حُجَّةٌ وبُرْهانٌ. فَمَنْ كانَ لهُ حُجَّةٌ في عبادتِهِ فهو بَصيرٌ، حيٌّ، نورٌ. ومن ليسَ لهُ ذلكَ فهو أعْمَى مَيْتٌ.

والثالثُ: يَذْكُرُ هذا دلالةً على البَعْثِ لأنهمْ يَعْلَمونَ أنَّ الخَلْقَ ليسُوا[5] كُلُّهُمْ على حَدٍّ واحدٍ وحالةٍ واحدةٍ، بل فيهمُ العُمْيانُ والبُصراءُ، وفيهمُ الأحياءُ والأمواتُ، وفيهمْ ما ذَكَر. وقدِ استَوَوا جميعاً / ٤٤١ ـ أ/ في مَنافِعِ هذهِ الدنيا. وفي الحكمةِ التفريقُ بَينَهُمْ لا الجَمْعُ، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى سِوَى هذهِ تُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ، إذْ في الحكمةِ والعقلِ التفريقُ لا الجَمْعُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [دلَّ قولُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ على أنَّ قولَهُ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾][6] إنما أرادَ بهِ الكافِرَ. ثم أخْبَرَ أنَّ رسولَهُ لا يُسْمِعُهُ[7] لِما لا يَقْدِرُ على ذلكَ، وليسَ عندَهُ ذلكَ؛ إذْ لو كانَ [الهُدَى][8] بياناً مُبَيِّناً أو دُعاءً على ما تقولُهُ المعتزلةُ لكانَ يُسْمِعُ، ويُبَيِّنُ، ويَقْدِرُ على ذلكَ.

فإنْ لم يَقْدِرْ رسولُ اللهِ على ذلكَ دلَّ أنَّ عندَ اللهِ [لُطْفاً وشيئاً][9] لم يُعْطِهِمْ. فإذا أعطاهُمْ ذلكَ اهْتَدَوا، وآمَنوا، وكذلكَ هذا في قولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ولو كانَ [الهُدَى][10] بياناً على ما تقولُهُ المعتزلةُ لَهَدَى مَنْ أحَبَّ، وقد أحبَّ فلم يَهْتَدِ، دلَّ أنَّ عندَ اللهِ [شيئاً لم يعطِهِ، ولو][11] أعْطَى ذلكَ لاهْتَدَى ولم يكُنْ ذلك عندَ رسولِهِ، وهو التوفيقُ والعصمةُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والا. (٣) من م، في الأصل: ذكر. (٤) في الأصل وم: وحقيقة. (٥) في الأصل وم: ليس. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يسمع. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: لطف وشيء. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: شيء ولم أعطى.

وهذا يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ قد أعْطى كلَّ كافرٍ ما بهِ يَهْتَدي، لكنهُ لم يَهْتَدِ. ثم لا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ على القَسْرِ والقَهْرِ، دلَّ أنهُ لا يَحْتَمِلُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ليسَ عليكَ إلّا الإنذارُ باللسانِ كقولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] وأنتَ لا تُؤاخَذُ بِتَرْكِهِمْ قبولَ الإنذارِ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية: [الأنعام: ٥٢] وقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآية [النور: ٥٤].

[والثاني][١]: الإنذارُ بالسيفِ بأمْرِهِ إيّاهُ بالقتالِ معهمْ حتى يؤمنوا. وإنْ كانَ على هذا فهو يَحْتَمِلُ النسخَ، يؤمَرُ بالقتالِ في وَقْتٍ [ولا يُؤمَرُ في وَقْتٍ][٢]. وأمّا النِّذارةُ باللسانِ فهي[٣] لا تَحْتَمِلُ النسخَ أبدا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالتوحيدِ، أي أرسلْناكَ لِتَدْعُوَ الناسَ إلى توحيدِ اللهِ، أو أرسلْناكَ بالحقِّ الذي لِلهِ عليهِمْ وما لِبَعْضٍ على بَعْضٍ، أو أرسلْناكَ بالحَقِّ أي لِلحقِّ، وهو البَعْثُ الذي هو كائنٌ، لا مَحالَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً بالجنةِ لِمَنْ آمَنَ، وأجابَكَ، ونذيراً بالنارِ لِمَنْ عَصاهُ، وخالَفَ أمْرَهُ، وتَرَكَ إجابَتَكَ. هذا يدلُّ على أنهُ لم يُرِدْ في قولِهِ: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] أنهُ نذيرٌ خاصّةً، ليسَ بِبَشيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ [منْ][٤] أصنافِ الخَلْقِ على اختِلافِ جواهِرِهِمْ وأجناسِهِمْ[٥] إلا وقد خَلا لهمْ نذيرٌ، يأمُرُ، وينْهى، ويَمْنَعُ، ويُبيحُ، كقولِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ الآية [الأنعام: ٣٨] أخبَرَ أنَّ الخَلْقَ على اختِلافِ أصنافِهِمْ وجواهِرِهِمْ أُمَمٌ أمثالُ[٦] البَشَرِ، يَتَحمّلونَ ما يَتَحَمَّلُ البَشَرُ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والنِّذارةِ والبِشارةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ راجعٌ إلى الجنِّ والإنسِ خاصّةً، ليسَ إلى الكُلِّ، لأنهما هما المَخصوصانِ بالخِطابِ والنُّطْقِ والعَقْلِ وغَيرِ ذلكَ. وفيهما ظَهَرَ بَعْثُ الرسُلِ والنُّذُرِ، ولم يَظْهَرْ ذلكَ في غَيرِهِما. فكأنهُ قالَ: وإنْ مِنْ أُمَّةٍ مِنْ هذينِ [الجَوهَرَينِ][٧] مِنَ القُرونِ إلّا خَلا فيهما نذيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ يُعَزِّي رسولَهُ، ويُصَبِّرُهُ على تكذيبِ قومِهِ إيّاهُ؛ يقولُ: لَستَ أنتَ بأوَّلِ مُكَذَّبٍ مِنَ الرسلِ، بل كَذَّبَ إخوانَكَ الذينَ مِنْ قَبْلُ بَعْدَ ما جاؤوا بالبَيِّناتِ وبالزُّبُرِ، أي بالكُتُبِ المُنيرةِ مع ما جاؤوهُمْ بذلكَ، فكذَّبوهُمْ، فَصَبروا على تكذيبِهِمْ. فاصْبِرْ أنتَ على تكذيبِ قومِكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي ثم أخذْتُ الذينَ كَذَّبوا رُسُلَهُمْ بالتكذيبِ، فآخُذُ قومَكَ على تكذيبِهِمْ إيّاكَ أيضاً. يَذْكُرُ هذا لهُ لِيُصَبِّرَهُ على ذلكَ، ويَنْفِيَ حُزْنَهُ على تكذيبِهِمْ إيّاهُ، أو يَذْكُرُ هذا زَجْراً لقومِهِ عنْ تكذيبِهِمْ إيّاهُ [لئلا يَنْزِلَ][٨] بهِمْ مِنَ العذابِ ما نَزَلَ بأولئكَ بالتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فكيفَ كان إنكاري؟ وقالَ بعضُهُمْ: عذابي؟

ودلَّ قولُهُ: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [على أنَّ][٩] قولَهُ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] أي منيرُ السمواتِ [والأرضِ][١٠] بما سَمّى الكتابَ في غَيرِ آيةٍ[١١] مِنَ القرآنِ نوراً، هو نورٌ بما يُنيرُ القلوبَ والصدورَ.

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وأصنافهم. (٦) في الأصل وم: أمثالهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فينزل. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: آي.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ، فيهِ فوائدُ مِنَ الحكمةِ:

أحَدُها: أنهُ جَعَلَ ﷻ، طَبْعَ الماءِ مِمّا يلائِمُ، ويُوافِقُ طِباعَ هذهِ الثمراتِ على اخْتِلافِ جواهِرِها وألوانِها حتى تكونَ حياةُ كلِّ شيءٍ منها وقِوامُهُ بهذا الماءِ. وكذلكَ جَعَلَ طبعَ هذا الماءِ ملائماً مُوافِقاً طِباعَ جميعِ الخلائقِ مِنَ البَشَرِ والدوابِّ والطيرِ والوَحْشِ وجميعِ الحيوانِ على اخْتِلافِ جواهِرِهِمْ وأصنافِهِمْ وغِذائهِمْ حتى صارَ هو غذاءً وحياةً لهمْ وقِياماً بهِ لِيُعْلِمَ أنَّ مَنْ مَلَكَ هذا، وقَدَرَ [على][1] توفيقِ هذا على اخْتِلافِ ما ذَكَرْنا مِنَ الجواهرِ والأغذيةِ وتدبيرِهِ، لا يُعْجِزُهُ إنشاءُ شيءٍ مِنْ لا شيءٍ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

وفي ذلكَ دلالةُ البعثِ: أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ وتدبيرُهُ وعِلْمُهُ هذا المَبْلَغَ، لا يُعْجِزُهُ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

والثاني: أنهُ أنشأَ ما ذَكَرَ مِنَ مُخْتَلفِ الأشياءِ والجواهرِ بهذا الماءِ، وجَعَلَهُ سَبَباً لحياةِ ما ذَكَرَ مِنَ البَشَرِ والدَّوابِّ وغَيرِهِ مِنْ غَيرِ أنْ يكونَ في ذلكَ الماءِ الذي أنشأَ ذلكَ منهُ، وجَعَلَهُ سبباً لحياتِهِمْ مِنْ أثَرِ ذلكَ فيهِ أو مِنْ جِنْسِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يكُنْ إنشاءُ هذهِ الأشياءِ بهذا الماءِ ولا جَعْلُهُ سبباً لها على الاِسْتِعانةِ بهِ والتقويةِ، بل إعلاماً لِلْخَلْقِ أسبابَ مطالبِ الغِذاءِ والفَضْلَ لهمْ. إذْ لو كانَ على الاِسْتِعانةِ وجَعْلِهِ سَبَباً لهُ في إنشاءِ ذلكَ لكانَ تكَوُّنُ تلكَ الأشياءِ المُنْشَأةِ [مُشاكِلاً للماءِ مُشابِهاً][2] له. دلَّ أنهُ جَعَلَ ذلكَ سَبَباً لِلْخَلْقِ في الوصولِ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ الأغذيةِ لهمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَرَوا أرزاقَهُمْ مِنْ تلكَ الأسبابِ والمكاسِبِ، ولكنْ مِنْ فَضْلِ اللهِ.

والثالثُ: [أنهُ][3] أنشأَ هذهِ الفواكهَ والثمراتِ مُخْتَلِفَةً ألوانُها وطُعومُها ممّا عَلِمَ مِنَ البَشَرِ مِنَ المَلالةِ والسآمةِ مِنْ نوعٍ واحدٍ ولونٍ واحدٍ لِيُتِمَّ نِعَمَهُ عليهِمْ لِيَسْتأدِيَ بذلكَ الشُّكْرَ عليها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أنشأَ الجبالَ أيضاً مُخْتَلِفَةً مِنْ بِيضٍ وحُمْرٍ وغَرابيبَ كما أنْشَأَ الثمراتِ والدَّوابَّ والحيوانَ كُلَّها مُخْتَلِفَةً.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ وَصْفٌ، وَصَفَها بالسَّوادِ لِلطُّرُقِ التي أنشأَها في الجبالِ.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ كاخْتِلافِ الجبالِ والثمارِ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمعُ غِرْبيبٍ، وهو الشديدُ السَّوادِ؛ يُقالُ: أسودُ غِرْبيبٌ، وهو [ما قالَ][6] القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ. ورجلٌ غِرْبيبُ الشَّعْرِ أي أسودُ الشَّعْرِ؛ ومأخَذُهُ مِنَ الغرابِ لأنهُ أسودُ، والجُدَدُ الخُطوطُ والطَّرائقُ في الجبالِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجُدَّةُ [الخُطَّةُ، والجُدَدُ][7] جمعُ الخُطوطِ؛ يُقالُ: جَدَدْتُ أي خَطَطْتُ؛ يُقالُ: ثوبٌ جديدٌ، وثيابٌ جُدُدٌ [﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾][8] أي طرائقُ مُخْتَلِفَةٌ ألوانُها / ٤٤١ ـ ب/ بعضُها بِيضٌ، وبعضُها غرابيبُ، وهي سودٌ.

يُذَكِّرُهُ[9] قُدْرَتَهُ وتَدْبيرَهُ أنَّ الجبالَ مع غِلْظَتِها وشدتِها وارْتِفاعِها جَعَلَها بحيثُ يَتَطَرَّقُ منها في صعودِها وهُبوطِها، فَمَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. أو يُذَكِّرُهُ نِعَمَهُ عليهِمْ حينَ[10] سَخَّرَها لهمْ لِيَقْضُوا فيها حوائِجَهُمْ في ما بَعُدَ عنهمْ، وصَعُبَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنَّ الذي يَحِقُّ على العالمِ باللهِ أنْ يَخْشاهُ لِما يَعْلَمُ مِنْ سُلْطانِهِ وهَيْبَتِهِ وقُدْرَتِهِ وجَلالِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مشاكلة للماء مشابهة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وكذلك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: والخطة الجدد. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يذكر. (١٠) في الأصل وم: حيث.

والثاني: أنَّ العالِمَ بالبعثِ، هو(١) المؤمنُ بهِ، وهو يَخْشَى مُخالَفَةَ اللهِ في أوامِرِهِ ونواهِيهِ لِما يَعْلَمُ مِنْ نَقْمَتِهِ وعذابِهِ مَنْ خالَفَهُ، وعَصَى أمْرَهُ، فأمّا مَنْ لم يَعْلَمْ بالبَعْثِ، ولم يؤمِنْ بهِ، فلا يخافُهُ؛ كقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] وقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] ونَحْوُهُ.

[والثالثُ](٢): أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُا﴾ عِبادَهُ مِنْ جملةِ المؤمنينَ. يقولُ: واللهُ أعلَمُ: إنما يَخشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ المؤمنونَ بهِ المُصدِّقونَ عذابَهُ ونَقْمَتَهُ. فأمّا مَنْ لم يُؤمِنْ بهِ فلا يَخافُهُ كما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥و..] إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِّ مؤمنٍ، ويكونُ الصَّبّارُ والشَّكورُ كِنايةً عنِ المؤمنِ. فَعَلَى ذلكَ هذا مُحتَمَلٌ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: على التَّقديمِ والتَّأخيرِ: [إنَّ أشَدَّ](٣) الناسِ للهِ خَشيَةً أعْلَمُهُمْ باللهِ.

والخَشْيَةُ قالَ الحَسَنُ: هي الخَوفُ الدائمُ اللازمُ في القَلْبِ غَيرُ مُفارقٍ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: العزيزُ المُنتَقِمُ مِنْ أعدائِهِ، والغَفورُ لذنوبِ المؤمنِينَ.

وقال بعضُهُمْ: ﴿عَزِيزٌ﴾ في مُلكِهِ، ومَنْ دونَهُ ذليلٌ ﴿غَفُورٌ﴾ سَتورٌ على ذنوبِ المؤمنينِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ يَحتَمِلُ مِنْ تلاوةِ الكتابِ ههنا ما ذكَرَ في آيةٍ أُخرىَ حينَ قالَ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] وأقاموا فيها مِنَ الأمْرِ بالصلاةِ والأمْرِ بالزكاةِ.

[ويَحتَمِلُ](٤) أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ﴾ أي يَتَّبِعُونَ الكتابَ في ما فيهِ ممّا لهمْ ومِمّا عليهِمْ، يَتَّبعونَهُ(٥) كُلَّهُ مِنَ الإقدامِ على الحلالِ والاجْتِنابِ عنِ الحرامِ. والمُنْتَفِعونَ بكتابِ اللهِ همُ الذينَ اتَّبَعوا ما فيهِ مِنْ إقامةِ الصلاةِ [والإنفاقِ مِمّا](٦) رُزِقوا.

فأمّا مَنْ تَلا، ولم يَتَّبِعْ ما فيهِ، فكأنهُ لم يَتْلُ، وهو كما نَفَى عنهمْ هذهِ الحواسَّ مِنَ البَصَرِ والسَّمْعِ [والنُّطْقِ وغَيرِها](٧) لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بها، وإنْ كانَتْ لهمْ تلكَ الحواسُّ حقيقةً، وأثْبَتَها للمؤمنِ لِما انْتَفَعَ بها، وإنْ لم تكُنْ لهمْ حقيقةً. فَعَلَى ذلكَ يَحتَمِلُ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في كلِّ حالٍ وكُلِّ وَقتٍ، لا يَترُكونَ الإنفاقَ على كلِّ حالٍ كقولِهِ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣ و١٣٤] أي يُنْفِقونَ على كلِّ حالٍ.

ويَحتَمِلُ(٨): ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي يَتَصدَّقونَ الصدقةَ ظاهراً وباطناً أي ما ظَهَرَ للناسِ، وعَلِموا بهِ، وما خَفِيَ عنهُمْ، واسْتَتَرَ، لِما قَصَدوا لها بها وَجهَ اللهِ لا مُراآةَ الخَلْقِ. فَمَنْ قَصْدُهُ بالخيراتِ وجهَ اللهِ لا مُراآةَ الخَلْقِ فَعِلْمُهُمْ بهِ وجَهلُهُمْ سَواءٌ لا يَمتَنِعُ عنْ ذلكَ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ سَمَّى ما يَبْذُلُ العبدُ للهِ تِجارةً، وإن كانَ ذلكَ لهُ في الحقيقةِ لُطفاً منهُ وإحساناً

الآية ٣٠ وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ إيفاءِ الأجرِ لهمْ على أعمالِهِمْ حينَ قالَ: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ وذلكَ ليسَ في الحقيقةِ أجراً لِما يَستَوجِبونَ الأجرَ قِبَلَهُ بتلكَ الأعمالِ لِما عليهِمْ مِنَ الشُّكرِ في ما أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ حتى يَتَضرَّعوا(٩) عندَ شُكرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ فيكونَ(١٠) ذلكَ أجراً لهمْ. لكنهُ، عَزَّ، وعلا، بِفَضلِهِ وإنعامِهِ وَعَدَ لهمُ الثوابَ والأجرَ على إحسانِهِمْ وأعمالِهِمُ الصالحاتِ إفضالاً منهُ، وسَمَّى ذلكَ تجارةً، كأنْ ليسَ ذلكَ لهُ في الحقيقةِ، ترغيباً منهُ الخَلْقَ على ذلكَ وتحريضاً لهم في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل: أي، في م: أي أشد. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: يتبعون. (٦) في الأصل وم: وانفاق ما. (٧) في الأصل وم: واللسان وغيره. (٨) في الأصل وم: أو يحتمل. (٩) في الأصل وم: وحتى يتضرعون. (١٠) في الأصل وم: حتى يكون.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ذلكَ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿غَفُورٌ﴾ أي سَتورٌ لِمساوئِهِمْ ﴿شَكُورٌ﴾ أي مُظهِرٌ لحسناتِهِمْ بإدخالِ إياهُمُ الجنة لِيَعْلَمَ [كلٌّ][(٢)] أحدٍ أنهُ كانَ مُحسِناً لا مُسيئاً، أو ﴿غَفُورٌ﴾ يَتجاوزُ عن مَساوِئِهِمْ ﴿شَكُورٌ﴾ يَقْبَلُ اليَسيرَ مِنَ العَمَلِ القليلَ منهمْ، يَجْزيهِمْ على ذلكَ الجَزيلَ مِنَ الثوابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: أي لنْ تَكْسُدَ، يُقالُ: بارَتِ التجارةُ تَبورُ، فهي بائرةٌ، إذا كَسَدَتْ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ مِنَ الإيفاءِ؛ يُقالُ: أوفَيتُهُ حقَّهُ، أي أعطيتُهُ [إياهُ][(٣)] كلَّهُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمدُ ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآنُ ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مُوافِقاً للكُتُبِ التي قَبْلَهُ.

ثم يكونُ وِفاقُهُ إيَاها بأحدِ شَيئَينِ: إمّا في الأخبارِ والأنباءِ؛ أي تُوافِقُ الأنباءُ والأخبارُ التي في القرآنِ أنباءَ الكتبِ المُتَقَدِّمةِ وأخبارَها، ويُصَدِّقُ بعضُها بعضاً. فكذلكَ كانتِ الكتبُ كلُّها داعيةً إلى توحيدِ اللهِ والعبادةِ لهُ والطاعةِ.

[وإمّا في][(٤)] الأحكامِ. فإنْ كانَتِ المُوافَقةُ في الأحكامِ ففيها الناسخُ والمَنسوخُ.

ألا تَرَى أنَّ في القرآنِ ناسخاً ومنسوخاً؟ ثم أخبَرَ أنهُ لو كان مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. ولو كانَ الناسخُ والمَنسوخُ مُخْتَلِفاً[(٥)] في الحقيقةِ لكانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ على ما أخبَرَ. دلَّ أنَّ بَيْنَهما وِفاقاً[(٦)]، ليسَ باختلافٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ محمداً يُصَدِّقُ ما قبلَهُ مِنَ الكتبِ والرسلِ، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ جميعَ الكتبِ والرسلِ إنما تدعو الخَلْقَ إلى توحيدِ اللهِ وعِبادتِهِ

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي لَخَبيرٌ بَصيرٌ بما بهِ مصالحُهُمْ، أو ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي على علمٍ وبَصيرةٍ منهُ بتكذيبِ القومِ رسُلَهُمْ بعثَ الرسُلِ إليهِمْ، لا عنْ جَهْلٍ منهُ بذلكَ. وذلكَ، لا يُخْرِجُهُ عنِ الحكمةِ كما قالَ بعضُ الملاحدةِ أنْ ليسَ بحكيمٍ مَنْ بَعَثَ الرسُلَ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ويَرُدُّ رسالَتَهُ. فهكذا لو كانَ بَعْثُ الرسُلِ لِحاجةِ المرسِلِ، ولِمنفَعَةٍ يكونُ إرسالُهُ وبعثُهُ [الرسُلَ][(٧)] إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يكذِّبُهُ، ويَرُدُّ رسالَتَهُ.

فأمّا اللهُ ﷻ فيَتعالى عن إرسالِ الرسُلِ لحاجةٍ لهُ أو لِمَنْفَعَةٍ، بل لحاجةِ المبعوثِ إليهِ والمُرْسَلِ، لم يَخْرُجْ علمُهُ بردِّهِ وتكذيبِهِ عنِ الحكمةِ. والتوفيقُ باللهِ.

[ويَحْتَمِلُ][(٨)] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يُخَرَّجُ على الوَعيدِ، أي عالمٌ بأحوالِهِمْ وأفعالِهِمْ ليكونوا أبداً على حَذَرٍ ومُراقبةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ هو مِمَّنْ أخبَرَ أنهُ اصْطَفاهُ للهُدَى مِنْ مُتَّبِعِي محمدٍ، وهمْ أصحابُ الكبائرِ في قولِ المعتزلةِ[(٩)]، وقالَ بعضُهُمْ: همْ أصحابُ الصغائرِ، [وهو قولُ بعضِ الخوارجِ][(١٠)] وقالَ بعضُهُمْ: همْ أصحابُ الكبائرِ والصغائرِ جميعاً. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو في الناسِ جميعا؛ المُتَّبِعُ لهُ، وغيرُ المُتَّبِعِ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو المُنافقُ الذي أظهَرَ المُوافَقَةَ لِرسولِهِ، وأضمَرَ الخِلافَ لهُ، وقالَ بعضُهُمْ: همُ اليهودُ والنَّصارى، فقد آمَنوا بهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، فلَمّا بُعِثَ كَفَروا بهِ، وقالَ بعضُهُمْ: همُ المُشْرِكونَ، وقد أقْسَموا أنهمْ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] فهؤلاءِ / ٤٤٢ ـ أ/ كُلُّهُمْ في النارِ. وما ذَكَرَ مِنَ الاصْطفاءِ والاختيارِ على قولِ هؤلاءِ يكونُ لرسولِ اللهِ حينَ بعَثَهُ[(١١)] إليهِمْ لِيَدعُوَهُمْ إلى توحيدِ اللهِ.

---

(١) و(٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: خلافاً. (٦) في الأصل وم: وفاق. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بعض. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بعث.

والأشبهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ مُتَّبِعي الرسولِ ما رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ أبي الدَّرداءِ ﷺ، إنْ ثَبَتَ، [أنهُ][1] قالَ: تلا رسولُ اللهِ ﷺ وسلَّمَ هذهِ الآيةَ، فقالَ: «أمّا السابقُ بالخَيراتِ فيدخلُ الجنةَ بِغَيرِ حسابٍ، وأمّا المُقْتَصِدُ فَيُحاسَبُ حِساباً يسيراً، ثم يدخُلُ الجنةَ، أمّا الظالمُ لنفسِهِ فَيُحْبَسُ حتى يَظُنَّ أنهُ لنْ يَنْجُوَ، ثم تنالُهُ الرحمةُ، فيدخُلُ الجنةَ، ثم قالَ رسولُ اللهِ: وهمُ الذينَ قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] [بنحوه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٢/١٣٧] وكذلكَ رُوِيَ عنْ أنَسٍ وعائشةَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فإنْ ثَبَتَ عنهُ فهو تأويلُ الآيةِ.

وتفسيرُ الظالمِ: مِنْ أهلِ التوحيدِ والمِلَّةِ. [وتفسيرُ المُقْتَصِدِ ما][2] قالَ بعضُهُمْ: هو الذي يَخْلِطُ عملاً صالحاً بعملٍ سَيِّءٍ كقولِهِ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] وقالَ بعضُهُمْ: هو الذي يقومُ بأداءِ الفرائضِ والأركانِ، وأما غَيرُهُ فلا.

والسابقُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ كلِّها، لا تقصيرَ منهِ ولا نُقصانَ.

[والثاني][3]: ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فيه تقصيرٌ ونُقصانٌ.

وقد ذَكَرْنا هؤلاءِ الفِرَقَ الثلاثةَ في غَيرِ مَوضعٍ: [قالَ في مَوضعٍ][4]: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية ثم قالَ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [وقالَ][5]: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٠ و١٠٢ و١٠٦]. فالذينَ اعترَفوا بذنوبِهِمْ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ والآخرونَ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾. وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ و١١ و١٢] وقالَ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧ و٢٨] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [الواقعة: ٤٠] وقالَ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١].

ففي ظاهرِ هذا أنَّ أصحابَ الشمالِ المُكَذِّبونَ حينَ ذَكَرَ في آخِرِ السورةِ الفِرَقَ الثلاثةَ حينَ [قالَ][6]: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٢]. ففي ظاهرِ هذا أنَّ الظالمَ لنفسِهِ هو المُكَذِّبُ والكافرُ في قولِهِ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١] في ظاهرِ ما ذَكَرَ في سورةِ التوبةِ أنهُ مِنْ أهلِ التوحيدِ حينَ[7] قالَ: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ﴾ يَحْتَمِلُ بِعِلْمِ اللهِ، ويَحْتَمِلُ بِمَشيئَةِ اللهِ، وقيلَ: بأمرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: هذا الذي أورَثْناهُمْ مِنَ الكتابِ هو الفَضلُ الكبيرُ كقولِهِ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] أو يقولُ: إدخالُهُمُ الجنةَ فَضلٌ منهُ كبيرٌ.

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قالَ: إنَّ سابِقَنا سابقٌ، وإنَّ مُقْتَصِدَنا ناجٍ، وإنَّ ظالِمَنا مغفورٌ لهُ.

وقالَ عثمانُ بْنُ عفانَ ﷺ: ألا إنّ سابِقَنا أهلُ الجهادِ منّا، وإنّ مُقْتَصِدَنا أهلُ حَضَرِنا، وإنَّ ظالِمَنا أهلُ بَدْوِنا.

وابنُ عباسٍ ﷺ يقولُ: الظالمُ لنفسِهِ كافرٌ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][9] قالَ: الظالمُ لنفسِهِ المُنافِقُ، وهو هالكٌ، أمّا السابقُ والمُقْتَصِدُ فقد نَجَيا.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ذَكَرَ التَّحَلِّيَ فيها بالذهبِ واللؤلؤِ ولِبْسِ الحريرِ[وليسَ للرجالِ رَغْبَةٌ في هذهِ الدنيا في التَّحَلِّي بذلكَ ولا لِبْسَ الحريرِ][10] اللهمَّ إلا أنْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والمقتصد. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

يكونَ للعربِ رَغْبَةٌ في ما ذَكَرَ، فَخَرَجَ الوَعْدُ لهمْ بذلكَ، والترغيبُ في ذلكَ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الخِيامِ فيها والقِبابِ والغُرُفاتِ، وتلكَ أشياءُ تُسْتَعْمَلُ في حالِ الضرورةِ في الأسْفارِ وعندَ عَدَمِ [وجودِ][1] غيرِهِ مِنَ المنازِلِ والغُرَفِ عندَ ضِيقِ المَكانِ.

فأمّا في حالِ الاخْتيارِ ووجودِ غَيرِهِ فلا. لكنهُ خَرَّجَ ذلكَ لِما لهمْ في ذلكَ مِنْ فَضلِ رَغْبَةٍ.

ألا تَرَى أنهمْ قالوا: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؟ [الزخرف: ٥٣] ذَكَروا ذلك لِما لِذلكَ عندَهُمْ فَضلُ قَدْرٍ ومَنْزِلةٌ ورغْبَةٌ في ذلكَ، أو ذَكَرَ[2] هذا لهمْ في الجنةِ؛ أعني الذهبَ والفضةَ والحريرَ، وما ذَكَرَ ليسَ على أنَّ هذا ممّا يُشاهَدُ بحالِهِ، أو يُماثِلُهُ في الجوهرِ على التحقيقِ سوَى مُوافَقةِ الاسْمِ لِما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ فيها؛ يعني في الجنةِ «ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [البخاري ٣٢٤٤] [على ما][3] ذَكَرَ أيضاً أنَّ ما في الجنةِ لا يُشْبِهُ ما في الدنيا، ولا يُوافِقُهُ إلّا في الاسْمِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال بعضُهُمْ: إنما يقولُ هذا الظالمُ لنفسِهِ [الذي ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾][4] إنهمْ يُحْبَسونَ على الصراطِ حَبْساً طويلاً، أو يُحاسَبونَ حساباً شديداً، فيطولُ حُزْنُهُمْ بذلكَ، ثم يُؤْذَنُ لهمْ بالدخولِ في الجنةِ. فعند ذلكَ [يقولونَ ذلكَ][5] ويَحْمَدونَ ربَّهُمْ على إذهابِ ذلكَ الحَزَنِ عنهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ يقولُ كلُّ مُسْلمٍ إذا دَخَلَ الجنةَ لِما يَخافُ كلُّ مُسْلِمٍ في الدنيا، ويَحْزَنُ على تَبِعاتِهِ ومَساوِئِهِ لِما لا يَدْري إلى ماذا يكونُ مَصيرُهُ ومَرْجِعُهُ؟ وأينَ مُقامُهُ في الآخِرةِ؟ فلّما أُدْخِلَ الجنةَ أَمِنَ ما كانَ يَخافُهُ في الدنيا، ويَحْزَنُ عليهِ، وسَلِمَ مِنْ تلكَ الأخطارِ، حَمِدَ ربَّهُ عندَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ الحمدُ إنما يكونُ منهمْ لمّا ذَهبَ عنهمْ غَمُّ العيشِ والخُبْزِ الذي كانَ لهمْ في الدنيا؛ إذْ كلُّ أحدٍ يهتمُّ لعيشِهِ في الدنيا. فلّما دَخَلَ الجنةَ ذهبَ ذلكَ عنهُ، فعندَ ذلكَ يَحْمَدُ ربَّهُ.

وقال بعضُهُمْ: يَحْمَدونَ ربَّهُمْ لِما يأمَنونَ الموتَ عندَ ذلكَ. وذُكِرَ في الخَبَرِ «أنهُ يُؤْتَى بالموتِ يومَ القيامةِ على صورةِ كبشٍ فَيُذْبَحُ بينَ أيديهِمْ، فعندَ ذلكَ يأمَنونَ الموتَ» [بنحوه البخاري ٤٧٣٠] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ لِمساوِئِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهمْ ما يَسْتَوجِبونَ المَغْفِرَةَ ﴿شَكُورٌ﴾ لِحسناتِهِمْ حينَ[6] قَبِلَها منهمْ، وأعطاهُمُ الثوابَ.

وقالَ أهلُ [التأويلِ][7]: ﴿لَغَفُورٌ﴾ لِذنوبِهِمْ ﴿شَكُورٌ﴾ يعطيهِمُ الجزاءَ الجزيلَ بالعَمَلِ القليلِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سَمَّى الجنةَ][8] دارَ المُقامةِ لِما [لا][9] يُتَمَنَّى التَّحَوُّلُ منها ولا الانْتِقالُ ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ليسَ مِنْ صاحبِ نعمةٍ في هذهِ الدنيا، وإنْ عَظُمَتْ إلّا وهو يَمَلُّ منها، ويَسْأَمُ، ويَتَمَنَّى التَّحَوُّلَ منها والانْتِقالَ. وكذلكَ ليسَ مِنْ لَذَّةٍ وإنْ حَلَّتْ في هذهِ الدنيا إلّا وهي تُعْقَبُ بآفةٍ. فأخبَرَ أنَّ نعيمَ [الآخِرةِ][10] ولَذّاتِها ممّا لا يُتَمَنَّى، ولا يُبْتَغَى التَّحَوُّلُ منها، ولا لَذَّتُها [تَعْقُبُها آفةٌ؛ فلا تَعَبَ][11] ولا إعياءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وذلكَ أنَّ مَنْ حَلَّ بِقرابَتِهِ وبالمتَّصلينَ بشيءٍ في هذهِ الدنيا مِنْ آفاتِها يَهْتَمُّ لِذلكَ، ويَتَكَلَّفُ دفْعَ ذلكَ عنهمْ. فأخْبَرَ أنهمْ إذا حَلّوا في دارِ المُقامةِ لا يَهِيبُهُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يذكر. (٣) في م: على ما ذكرنا وما. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: تعقب آفة ولا تعباً ولا إعياء.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠] شكَرَ لهمْ ما كانَ [منهمْ إليهِ][(١)] وغفَرَ لهمْ ما كانَ منهمْ مِنْ ذَنْبٍ. وفي حديثٍ رُفِعَ إلى رسولِ الله ﷺ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال: «شكَرَ اللهُ للمؤمنِ اليسيرَ مِنَ الحَسَناتِ، وغَفَرَ لهُ الذنوبَ العِظامَ».

والنَّصَبُ الأذى. ويُقالُ: اللُّغُبُ واللُّغوبُ التعبُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموتِ ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ فَيَسْتَريحوا مِنْ عَذابِها ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾/ ٤٤٢ ـ ب/ نَقْضُ قولِ الجَهْمِ وأبي الهُذَيلِ المُعْتَزِلِيِّ:

أمّا قولُ الجَهْمِ فهو[(٢)] انْقِطاعُ العذابِ عَنْ أهلِ النارِ. فأخبَرَ اللهُ أنهُ لا يُخَفِّفُ عنهمُ العذابَ. فلو كانَ يَحْتَمِلُ الانْقِطاعَ لاَحْتَمَلَ التخفيفَ. فإذا أخبَرَ أنهُ لا يَخفِّفُ عنهمْ. دلَّ أنهُ لا يَنْقَطِعُ. وكذلكَ قولُ مالكٍ لهمْ ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] لمّا طلبوا التخفيفَ ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

وأمّا أبو[(٣)] الهُذَيلِ فإنهُ يقولُ: إنَّ العذابَ قد يَفْتُرُ على أهلِ النارِ، ويَصيرُ بحالٍ لو أرادَ اللهُ أنْ يزيدَ في عذابِهِمْ شيئاً ما قَدَرَ عليهِ، وكذلكَ يقولُ في لَذّاتِ أهلِ الجنةِ: إنها تَصيرُ بحالةٍ، وتَبْلُغُ مَبْلَغاً لو أرادَ اللهُ أنْ يزيدَ لهمْ شيئاً منها ما قَدَرَ عليهِ. فظاهرُ الآيةِ، [يُكَذِّبُهُ، ويَرُدُّ قولَهُ حينَ][(٤)] قالَ: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ لِنِعَمِه وجاحدٍ وَحْدانيّتَهُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَصيحونَ فيها. وقالَ بعضُهُمْ: الاصْطِراخُ: الاسْتِغاثَةُ، أي يَسْتَغيثونَ. واصْطِراخُهُمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

يَفْزَعونَ أوّلاً إلى كُبرائِهِمُ الذينَ اتَّبَعوهُمْ في الدنيا، يَطْلُبونَ منهمْ دفعَ بعضِ ما هُمْ فيهِ مِنَ العذابِ والتخفيفِ عنهمْ حينَ[(٥)] قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فأجابوا لهمْ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقالوا[(٦)] في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ الآية [غافر: ٤٨].

فلمّا أيِسُوا، وانْقَطَعَ رجاؤُهُمْ بالفَرَجِ مِنْ عندِهِمْ، فَزِعوا عندَ ذلكَ إلى خَزَنَةِ جهنَّمَ، [وقالوا][(٧)]: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٤٩ و٥٠].

فلمّا أيِسُوا منهمْ، وانْقَطَعَ رجاؤُهُمْ، فَزِعوا إلى مالكٍ يطلبونَ منهُ أنْ يَسْأَلَ ربَّهُ لِيَقْضِيَ عليهمْ بالمَوتِ، حينَ[(٨)] قالَ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فلّما أيِسُوا سألوا ربَّهُمُ الإخراجَ عنها لِيَعْملوا غيرَ الذي عَمِلوا[(٩)] ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاحتجَّ عليهمْ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ فيها مِنَ العُمْرِ مِثْلَ العُمر الذي يَتَّعِظُ فيهِ مَنْ يَتَّعِظُ؟ فهلّا اتَّعَظْتُمْ فيهِ ما اتَّعَظَ مَنِ اتَّعَظَ فيهِ، وقد أعْمَرْناكُمْ مِثْلَ ما أعْمَرْنا أولئكَ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

[وقولُهُ تعالى][(١٠)]: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: جاءَكُمُ الرسولُ، أنْذَرَكُمْ هذا، فقد كَذَّبْتُموهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي الشَّيبُ؛ ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي قد رأيتُمْ، وعايَنْتُمْ تَغْييرَ الأحوالِ في أنفسِكُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنْ حالِ الصِّغَرِ إلى الكِبَرِ مِنَ الشبابِ إلى المَشيبِ، والرَّدُّ إلى أرذَلِ العُمرِ فَهَلّا اتَّعَظْتُمْ بهِ كما اتَّعَظَ أولئكَ ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

---

(١) في الأصل وم: منه إليهم. (٢) في الأصل وم: لأنه يقول. (٣) في الأصل وم: على قول أبي. (٤) في الأصل وم: يكذبهم ويرد قولهم حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: حيث قالوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: حين قالوا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الوَعيدِ والتَّخويفِ، أي هو عالمٌ بالأشياءِ التي لم يَمْتَحِنْها بِمِحَنٍ، ولا أمرَها بأمورٍ، ولا نَهاها[1] بِمَناهٍ فالذينَ امْتَحَنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، وأمَرَهُمْ بأوامِرَ، ونَهاهُمْ[2] بِمَناهٍ أحَقُّ أنْ يكونَ عالِماً بهِمْ.

والثاني: أنهُ على عِلْمٍ بما يكونُ مِنْ خَلْقِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ، خَلَقَهُمْ، وبَعَثَ إليهِمُ الرسلَ، مِنَ التكذيبِ لهمْ والرَّدِّ عليهِمْ لا عَنْ سَهْوٍ وجَهْلٍ بِما يكونُ منهمْ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما بَعَثَ إليهِمْ [الرسُلَ لِحاجةِ أنفسِ المَبْعوثِ إليهِمْ][3] ولِمَنْفَعَةٍ لهمْ في ذلكَ لا لِحاجةِ المُرْسِلِ والباعِثِ ولِمَنْفَعَةٍ لهُ.

لِذلكَ خُرِّجَ البَعْثُ إليهِمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ للرسالةِ على الحكمةِ.

وفي الشاهِدِ [دليلٌ][4] على السَّفَهِ لأنَّ في الشاهِدِ إنما يَبْعَثُ الرسُلَ إلى مَنْ يَبْعَثُ لحاجةِ نفسِهِ ولِمَنْفَعَةٍ لهُ في ذلكَ، فَخُرِّجَ البَعْثُ إليهِمْ على عِلْمٍ منهُ بالتكذيبِ والرَّدِّ عليهِ سَفَهاً وباطلاً، ومِنَ اللهِ حكمةً وحقًّا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وكانَ ذاتُ الصدورِ، هُمُ البَشَرُ؛ خَصَّهُمْ بِعِلْمِ ما يكونُ منهمْ لأنهمْ أهلُ تَمْييزٍ وبَصَرٍ وامْتِحانٍ، فَيُخَرَّجُ ذلكَ مُخرَجَ الوَعيدِ لهمْ والتحذيرِ.

وأمّا غيرُهُمْ مِنَ الدَّوابِّ ونَحْوِها فلا مِحْنَةَ عليهِمْ، ولا تَمْييزَ لَهُمْ، لذلكَ خَصَّ هؤلاءِ بذلكَ، إذْ كانَ عالماً بالكُلِّ بذاتِ الصدورِ وغيرِ ذاتِ الصدورِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فإنْ كانَ المُخاطَبونَ بهِ أصحابَ رسولِ اللهِ وأُمَّتَهُ، فَيُخبِرُ أنهُ جَعَلَهُمْ خلائفَ مَنْ [تَقَدَّمَ منهمْ مِنَ القرونِ][5] والأمَمِ الماضيَةِ بَعْدِ ما أُهْلِكوا، أوِ اسْتُؤْصِلوا.

وإنْ كانَ المُخاطبونَ بهِ بني آدمَ كُلَّهُمْ فَيُخْبِرُ أنكُمْ خلائفُ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ مِنَ الجِنِّ والملائكةِ، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ الجِنَّ كانوا سُكانَ الأرضِ قَبْلَ بَني آدَمَ، فَجَعَلَهُمْ[6] خلائفَ الجِنِّ.

ثم للحكمةِ[7] في جَعْلِ بعضٍ خلائفَ الجِنِّ وإنشاءِ قَرْنٍ بعدَ فَناءِ آخَرَ، وإفناءِ آخَرَ بعدَ إنشاءِ آخَرَ وجوهٌ.

أحَدُها: أنْ يَعرِفوا أنهُ إنما أنْشَأهُمْ لعاقبةٍ تُقْصَدُ، وتُتَأمَّلُ، حينَ[8] أنشأ قَرْناً، ثم أفناهُمْ، ثم أنْشَأ غيرَهُمْ، ولم يكُنْ في إنشائِهِمْ إلّا هذا، [ما][9] كانَ إنشاؤهُ إيّاهُمْ للفناءِ، إذْ مَنْ بَنَى في الشاهدِ بِناءً لِلْنَّقْضِ والفَناءِ لا لِعاقبةٍ تُقْصَدُ بهِ كانَ في بنائِهِ عابثاً سفيهاً. فَعَلَى ذلكَ إنشاءُ هؤلاءِ في هذهِ الدنيا، لو لم يكُنْ لِعاقبةٍ، كانَ الإنشاءُ لِلْفَناءِ، وذلكَ عَبَثٌ غيرُ حكمةٍ.

والثاني: أنْ يَعْرِفوا أنَّ الدنيا ليستْ هي بدارِ القرارِ والمُقامِ، إنما هي مَجْعولةٌ زاداً للآخرةِ وبُلْغَةً إليها ومَسْلَكاً لها ومَنْزِلاً يُنْزَلُ فيها، ثم يُرْتَحَلُ، كالمَنازلِ المجعولةِ لِلنُّزولِ فيها في الأسفارِ والتَّزَوُّدِ منها ثم الارْتِحالِ لا لِلْمُقامِ فيها.

فَعَلَى ذلكَ الدنيا جُعِلَتْ لِما ذَكَرْنا لئلّا يَطْمَئِنّوا إليها، ولا يَرْكُنوا إليها، ويَعْملوا عَمَلَ مَنْ يُريدُ الارْتِحالَ لا عَمَلَ المُقيمِ فيها.

والثالثُ: أنْ يَعرِفوا أنَّ الآلامَ التي جُعِلَتْ فيها واللذاتِ، ليستْ بدائمةٍ أبداً، بل على شَرَفِ الزَّوالِ والتَّحَوُّلِ، لأنَّ في الحياةِ لَذَّةً، وفي الموتِ ألَماً. فلا دامَتِ اللذَّةُ والألَمُ، لأنهُ أحْيَى قَرْناً، ثم أفناهُمْ، ثم أحْيَى قَرْناً آخَرَ وأفْناهُمْ. فلا دامَتِ اللذةُ ولا الآلامُ. ولكنِ انْقَضَينا لِيَعْلَموا أنهما لا يَدومانِ أبداً، ولكنْ يزولانِ.

والرابعُ: أنْ يَعْتَبِروا بِمَنْ تَقَدَّمَ منهمْ مِنَ القرونِ أنهُ على ماذا يكونُ الثناءُ الحَسَنُ، ويَبْقَى الأثَرُ والذِّكْرُ الجَميلُ؟ وبأيِّ عَمِلٍ يَنْقَطِعُ؟ ويَفْنَى ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: نهاهم. (٢) في الأصل وم: ونهى. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: الأرض فإن كان المخاطبون. (٦) في الأصل وم: فجعلوا. (٧) في الأصل وم: وجه الحكمة. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم.

فَمَنْ كانَ مِنْ مُتَّبِعي الرسُلِ ودُعاةِ الخَيرِ والتوحيدِ والطاعةِ، فَيَبْقى لهُ أثرُ الخَيرِ والثناءُ الحَسَنُ والذِّكْرُ الجَميلُ. ومَنْ كانَ منْ أتباعِ أهلِ الكُفرِ والشَّرِّ لم يَبْقَ لهمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ لِيَعْلَموا بالذي يُبْقِي لهمُ الثناءَ الحَسَنَ، ويُعْقِبُ لهمُ الذِّكْرَ، لا الذي يَقْطَعُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي عليهِ ضَررُ كُفرِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ الآيةَ، أي لا يزيدُ كُفرُهُمْ باللهِ وبرسولِهِ وعبادَتِهِمُ الأصنامَ إلّا مَقْتاً وخَساراً لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَها رَجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ يومَ القيامةِ ورَجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ[١] عبادَتُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لا يزيدُ ذلكَ لهمْ إلّا مَقْتاً مِنْ ربِّهِمْ وخَساراً.

[ويَحتَمِلُ أنْ][٢] تكونَ أعمالُهُمُ التي عَمِلوا في هذهِ الدنيا مِنْ صِلَةِ الأرحامِ والقُرَبِ التي رَجَوا منها الرِّبْحَ والنَّفْعَ في الآخِرَةِ، لا يزيدُ ذلكَ لهمْ: ﴿إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ واللهُ اعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظاهِرُ قولِهِ ﴿أَرُونِى﴾ /٤٤٣ ـ أ/ أمْرٌ لكنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الإعجازِ: أي [يَعْجَزُ، ولا][٣] يَقْدِرُ ما تَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ ولا اشْتِراكَهُ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ولا إنزالَ كتابٍ مِنَ السماءِ لِيأمُرَهُمْ بذلكَ، بلِ اللهُ هو الخالقُ لِذلكَ كلِّهِ، وهو القادرُ عليهِ، فكيفَ صَرَفْتُمُ العِبادةَ عنهُ والألوهيَّةَ إلى مَنْ هو عاجزٌ عنْ ذلكَ كلِّهِ؟

والثاني: على التَّنْبيهِ والتَّعْييرِ لهمْ والتَّسْفيهِ لأحلامِهِمْ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ الأصنامَ التي تَعبُدونَها دونَ اللهِ، وتُسَمُّونَها آلهةً، لم يَخْلُقوا شيئاً ممّا ذَكَرَ ولا لهمْ شِرْكٌ في ذلكَ، ولا لَكُمْ كتابٌ يُبيحُ لكُمْ ذلكَ، ويَأْذَنُ لكُمْ، وتَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو الفاعلُ لذلكَ كلِّهِ حينَ قالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ولا لهمْ كتابٌ في ذلكَ لأنَّ الكتابَ جِهَةُ [وصولِ الرسولِ إليهِ][٤]، وأنتُمْ لا تؤمِنونَ بالرسولِ، فكيفَ عَبَدْتُموها؟ وتركتُمْ عبادةَ مَنْ تَعْلَمونَ أنهُ الفاعلُ لِذلكَ والقادرُ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَحتَمِلُ جواهِرَ الأرضِ نفسَها، ويَحتَمِلُ الخارجَ منها ممّا بهِ مَعاشُهُمْ وقِوامُهُمْ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يَحتَمِلُ في جَواهِرِها، ويَحتَمِلُ ما يَنْزِلُ منها ممّا بهِ مَعاشُهُمْ وأرزاقُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي على حُجَّةٍ وبَيانٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ يَحتَمِلُ وعدُهُمُ الذي ذَكَرَ [بعضُهُمْ لبعضٍ][٥] ما قالَهُ القادةُ منهمْ والرؤساءُ للأتباعِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [وقالوا][٦]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وما لَبَسوا همْ على الأتباعِ مِنْ أمرِ[٧] الكتابِ والرسولِ: أنهُ[٨] ساحِرٌ، كذّابٌ، وأنهُ مُفْتَرٍ، وأمثالَ ذلكَ مِمّا يكْثُرُ عَدَدُهُ. فذلكَ كلُّهُ منهمْ تَغْريرٌ للأتباعِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾

يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فإنْ كانَ على هذا، فيقولُ: تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ، هو رافعُ السمواتِ والأرضِ، والمُمْسِكُ لهما، والمانعُ أنْ تَزولا عَنْ مكانِهِما، لا يَقْدِرُ أحدٌ على إعادَتِهِما ولا إمساكِهِما سِواهُ. فكيفَ تَعْبدونَ مَنْ لا يمْلِكُ ذلكَ؟

[ويَحتَمِلُ][٩] أنْ يكونَ ذلكَ قولَهُ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية [مريم: ٩٠] كادَتْ تَتَفطَّرُ[١٠]،

---

(١) في الأصل وم: تقرب. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل: لا يعجز أو، في م: لا يعجز. (٤) في الأصل وم: وصوله إليه الرسول.
(٥) في الأصل وم: لبعضهم بعضا. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل: أم. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: أو.
(١٠) في الأصل وم: أن يتفطرن.

وتنشقُّ، حينَ قالوا: للهِ ولدٌ، ولهُ شريكٌ. فإذا قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦و..] كادَتَا تَزولانِ[1] مِنْ مكانِهما، وتَسْقُطُ عليهِمْ بعظيمِ ما قالوا في اللهِ، سُبْحانَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على الصِّلَةِ بشيءٍ ممّا ذَكَرْنا، ولكنْ على الابْتِداءِ. فإنْ كانَ على الابْتِداءِ، فهو يُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ حينَ[2] رَفَعَ السماءَ، وأمْسَكَها في الهواءِ مَعَ غِلَظِها وشِدَّتِها بِلا عَمَدٍ مِنْ تَحْتُ ولا شيءٍ مِنْ فَوقُ، يَمْنَعُها عنِ الانْحِدارِ والزَّوالِ عنْ مكانِها والإقرارِ على ذلكَ والتَّقْريرِ.

وفي الشاهِدِ أنْ ليسَ في وُسْعِ أحدٍ مِنَ الخَلائِقِ إمساكُ الشيءِ في الهواءِ ولا إقامتُهُ إلّا بأحدِ هذينِ السَّبَبَيْنِ إمّا مِنْ تَحْتُ وإمّا مِنْ فَوقُ. وكذلكَ الأرضُ حيثُ دَحاها، وبَسَطَها على الماءِ، ومِنْ طَبْعِها التَّسَرُّبُ والتَّسَفُّلُ في الماءِ لا القرارُ عليهِ حيثُ لا يُحْفَرُ مكانٌ منها إلّا ويَخْرُجُ منهُ الماءُ. فَدَلَّ تقريرُ الأرضِ على الماءِ، وإمساكُ السماءِ في الهواءِ بلا شيءٍ يُقِرُّهما، ويَمْنَعُها عنِ التَّسْفيلِ والانْحِدارِ، أنهُ الواحدُ القادرُ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿حَلِيمًا﴾ حينَ[3] لم يُرْسِلِ السمواتِ عليهِمْ بِعَظيمِ فِرْيَتِهِمْ على اللهِ والقولِ فيهِ بما لا يليقُ بهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] وحين[4] لم يَجْعَلْ عقوبَتَهُمْ في الدنيا ﴿غَفُورًا﴾ حينَ[5] سَتَرَ عليهِمْ ذلكَ، ولم يَفْضَحْهُمْ في الدنيا، واللهُ اعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ هو قَسَمُهُمْ باللهِ، ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنَّ العَرَبَ كانَ مِنْ عادتِهِمْ أنهمْ كانوا يَحْلِفونَ بالآباءِ والطَّواغيتِ، لا يَحْلِفونَ باللهِ إلّا في ما عَظُمَ أمْرُهُ، وجَلَّ قَدْرُهُ، تأكيداً لِذلكَ كانَ قَسَمُهُمْ باللهِ جَهْدَ إيمانِهِمْ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ قيلَ: رسولٌ ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ فيهِ دلالةٌ أنهمْ قد وَقَعَتْ لهمُ الحاجةُ، ومَسَّتْهُمُ الضرورةُ إلى رسولٍ، يُبَيِّنُ لهمْ أمْرَ الدينِ وما مصالِحُهُمْ؟ وما لهمْ؟ وما عليهِمْ؟ حينَ[6] أقْسَموا، وعاهَدوهُ أنهمْ لو جاءَهُمْ نذيرٌ لَاتَّبَعوهُ، واقْتَدَوا بِهِ. ثم تَرَكُهُمْ لذلكَ العَهْدِ لِما لم يَرَوهُ أهلاً لِذلكَ، لِما كانَ هو دونَهُمْ في أمْرِ الدنيا، اسْتِكْباراً منهُمْ عليهِ، ولِذلكَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وإنْ تَرَكوا اتِّباعَهُمْ، نَقَضوا عَهْدَهُمْ لَمّا رأَوا مذاهبَ الناسِ مُخْتَلِفةً، فَظَنّوا أنَّ الاخْتِلافَ يرفَعُ مَنْ بَيْنَهُمْ بهِ. فإنْ لم يَرْتَفِعْ تَرَكوا اتِّباعَهُ، أو لِمَعْنىً آخَرَ لا نَعْلَمُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ قال بَعْضُهُمْ: يَعْنونَ اليهودَ والنصارى.

وجائزٌ أنْ يكونوا أرادوا بذلكَ الأممَ جميعاً، لكنهم لم يَرَوُا الحقَّ إلّا لواحدةٍ منها، فقالوا: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ واللهُ اعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ يَحْتَمِلُ مَكْرُهُمْ ما مَكروهُ[7] برسولِ اللهِ مِنْ أنواعِ المَكْرِ حينَ هَمُّوا بقتلِهِ وإخراجِهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

ويَحْتَمِلُ أيضاً ما ذُكِرَ أنهُ لَمّا خَرَجَ، ودَعا الناسَ إلى توحيدِ اللهِ أقْعَدوا على الطرقِ والمَراصِدِ ناساً يقولونَ لِمَنْ قَصَدَ رسولَ: إنهُ ساحرٌ، وإنهُ كذّابٌ، وإنهُ مجنونٌ؛ يَصُدّونَ الناسَ بذلكَ عنهُ، فذلكَ كَيدُهُمْ ومَكْرُهُمْ بهِ. وقد كانَ منهم برسولِ اللهِ مِنْ أنواعِ المَكْرِ سِوَى ذلكَ ممّا لا يُحْصَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ هو في الدنيا مِنْ أنواعِ العذابِ والقتلِ الذي نَزَلَ بهمْ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في الآخِرةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: ان تزولا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) و(٤) و(٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: مكرهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما يَنْظُرونَ إلّا سُنَّةَ الأوّلِينَ؛ وسُنَّةُ الأوّلينَ، هي الاِسْتِئْصالُ والإهلاكُ عندَ العِنادِ والمُكابَرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ما يَنْظُرونَ بإيمانِهِمْ إلّا سُنَّةَ الأوّلينَ؛ وسُنَّةُ الأوّلينَ الإيمانُ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ، وإنْ كانَ لا يُقْبَلُ، ولا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ وهي الاِسْتِئْصالُ عندَ العِنادِ والمُكابرةِ ﴿تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ وإنِ اخْتَلَفَتْ جِهَةُ الإهلاكِ والاِسْتِئْصالِ كقولِهِ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠] وقولِهِ: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] لا شكَّ أنَّ نَفْسَ القولِ منهمْ مُخْتَلِفٌ في الكُفْرِ، وسَبَبُهُ مُتَفَرِّقٌ.

ثم أَخْبَرَ أنَّ قولَ هؤلاءِ ضاهَا قولَ أولئكَ [وأنَّ قلوبَهُمْ تشابَهَتْ][1] وإنْ كانَ سببُ ذلكَ سُنَّةً، لا تُحَوَّلُ، ولا تُبَدَّلُ، وهي الاِسْتِئْصالُ، وإنْ كانتْ جِهَةُ ذلكَ وسَبَبُهُ مُخْتَلِفاً.

والثاني: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ التي سَنَّ فيهمْ، وحَكَمَ ﴿تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ مَدْفعاً ولا مَرَدّاً، أي لن يَجدوا إلى دَفْعِ ما سَنَّ فيهمْ، وحَكَمَ مِنَ العذابِ والهلاكِ / ٤٤٣ ـ ب/ [مَدْفعاً ولا مَرَدًّا][2] كقولِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١]

والثالثُ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ وهي إيمانُهمُ الذي يؤمنونَ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ وعندَ نُزولِهِ بهمْ ﴿تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي يؤمنونَ لا مَحالَةَ. ولكنْ لا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ في ذلكَ الوَقْتِ.

والرابعُ: إنَّ كلَّ سُنَّةٍ سَنَّ في كلِّ قومٍ وكلِّ أُمَّةٍ، وإنِ اخْتَلَفَتْ، لنْ تَجِدَ لذلكَ تَحْويلاً ولا تَبْديلاً، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: قد ساروا في الأرضِ، ونَظَروا إلى ما حَلَّ بأولئكَ بالتكذيبِ والعِنادِ. لكنْ لم يَتَّعِظوا بهم، ولم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ.

والثاني: على الأمْرِ: أنْ سِيروا في الأرضِ، وانْظُروا ما الذي نَزَلَ بأولئكَ، واتَّعِظوا بهم، وامْتَنِعوا عن مِثْلِ صَنيعِهِمْ.

والثالثُ: أنهمْ، وإنْ ساروا في الأرضِ، ونَظَروا في آثارِهِمْ، لم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي إنهمْ كانوا أكْثَرَ عدداً وأشدَّ قوةً وبَطْشاً منكُمْ، ثم لم يُمَكِّنْ لهمْ دَفْعَ ما نَزَلَ بهمْ، وحَلَّ. فأنتمْ يا أهلَ مكةَ مع قِلَّةِ عَدَدِكُمْ وضَعْفِكُمْ لا تقدِرونَ على دَفْعِ ذلكَ عن أنفسِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الإعجازُ في الشاهدِ يكونُ بوجهَيْنِ:

أحدُهما: الاِمْتِناعُ؛ يقولُ: لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يمتنِعَ عنهُ ومِنْ عذابِهِ.

والثاني: القَهْرُ والغَلَبَةُ؛ يقولُ: لا يُسْبَقُ منهُ بالقَهْرِ والغَلَبَةِ. بل هو القاهِرُ والغالِبُ على خَلْقِهِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ مِنَ المَعاصي والمَساوِئِ ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي على ظَهْرِ الأرضِ. وَوَجْهُهُ اكْتِفاءٌ بِما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الأرض، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] أي عَلِمَ الناسُ، وفَهِموا مِنْ ذِكْرِ الظَّهْرِ ظَهْرَ الأرضِ لِما على ظَهْرِ الأرضِ يُكْتَسَبُ ما يُكْتَسَبُ.

ثم قولُهُ: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُرادُ بالدابَّةِ المُمْتَحَنونَ المُمَيَّزونَ، وهم بَنو آدمَ خاصَّةً، لأنهمْ أهلُ اكتِسابٍ وإخراجٍ؛ إذْ قد ذَكَرَ الإهلاكَ بِما يَكْتَسِبونَ، وهُمْ أهلُ الاِكْتِسابِ دونَ غيرِهِمْ مِنَ الدَّوابِّ.

---

(١) في الأصل وم: وشابهت قلوب بعضهم بعضا. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا ردا.

وقال بعضُهُمْ: [المرادُ][1] كلُّ دابَّةٍ مِنَ البَشَرِ [لا غيرِهِ][2] لأنَّ غَيْرَهُ مِنَ الدَّوابِّ إنما أُنشِئَ لِلْبَشرِ وحَوائِجِهِمْ لا لِحاجةِ الدَّوابِّ[3] أو لِمَنفَعَةٍ لها حينَ[4] قالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقالَ[5]: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

فإذا كانَ غَيرُهُ مِنَ الأشياءِ مُنشَأً لهُمْ، فإذا أُهلِكوا هم أُهلِكَ ما كانَ مُنشَأً لِحَوائِجِهِمْ ولِمَنافِعِهِمْ، ولا يكونُ إهلاكُ ما ذَكَرْنا مِنَ الدَّوابِّ خُروجاً عنِ الحكمةِ كما[6] تقولُ الثَّنَوِيَّةُ: إنهُ ليسَ مِنْ فِعْلِ الحكيمِ الأمْرُ بذبحِ أسْلَمِ الدَّوابِّ والاِنْتِفاعِ بِلَحْمِها. قيلَ: هكذا إذا كانَتْ تلكَ مُنْشَأَةً لأنفُسِها ولِمَنافِعِها. فأمّا إذا كانَ ما ذَكَرْنا أنها مُنشَأَةٌ لنا ولِمَنافِعِنا فجائزٌ الاِنْتِفاعُ بها مَرَّةً بِعينِها ومَرَّةً بِلَحْمِها، ولا يكونُ فِعْلُ ذلكَ ولا الأمْرُ بهِ غَيرَ حكمةٍ.

ثم الفَرْقُ بينَ إباحةِ الاِنْتِفاعِ بِلَحْمِ أسْلَمِ الدوابِّ وحَظْرِ لَحْمِ الضارَّةِ منها والمُضِرَّةِ لأنهُ جَعَلَ حِفْظَ ما ليسَ بضارٍّ ولا مُضِرٍّ إلينا، وعلينا جَعَلَ مُؤْنَتَها والذَّبَّ عنها ودَفْعَ [الضَّرَرِ عنها][7].

فأمّا الضارَّةُ منها والمُضِرَّةُ فهي مُمتَنِعَةٌ بِنَفْسِها مُتَحَمِّلَةٌ مُؤْنَتَها. كذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي لم يُؤاخِذْهُمْ بما كَسَبُوا على ظَهْرِها لمّا جَعَلَ لهمْ مِنَ المُدَّةِ أحَبَّ أنْ يَنْقَضِيَ ذلكَ، ويَفِيَ بما جَعَلَ لهمْ مِنَ المُدَّةِ وما ضَرَبَ لهمْ مِنَ الوقتِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي عنْ بَصيرةٍ وعِلْمٍ بِكَسْبِهِمْ وصَنيعِهِمْ وما يكونُ منهمْ ضَرَبَ لهمُ المُدَّةَ والوقْتَ الذي يَنْتَهُونَ إليهِ، ويَبْلُغونَ آجالَهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ.

بل لم يَزَلْ عالماً بما يكونُ منهمْ. لكنْ لمّا كانَ ضَرَرُ ذلكَ الذي عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ راجعاً إليهمْ أنشَأَهُمْ، وجَعَلَ لهمُ المدةَ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

قال القُتَبِيُّ: ﴿أَسَاوِرَ﴾ [فاطر: ٣٣] جمعُ سِوارٍ، وهو الذي تَجْعَلُهُ المرأةُ في مِعْصَمِها. والنَّصَبُ الشِّدَّةُ والتَّعَبُ، واللُّغوبُ الإعياءُ، لَغَبْتُ بنفسي أَلْغَبُ لُغوباً، فأنا لاغِبٌ، وألْغَبْتُ غيري أي كُلَّفْتُهُ حتى أعْياهُ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ، والاِصْطِراخُ صِياحُ الضَّجِرِ، والمَقْتُ البُغْضُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وغيره. (٣) في الأصل: أنفسنا، في م: أنفسها. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) في الأصل وم: الضر. (٨) ساقطة من الأصل وم.

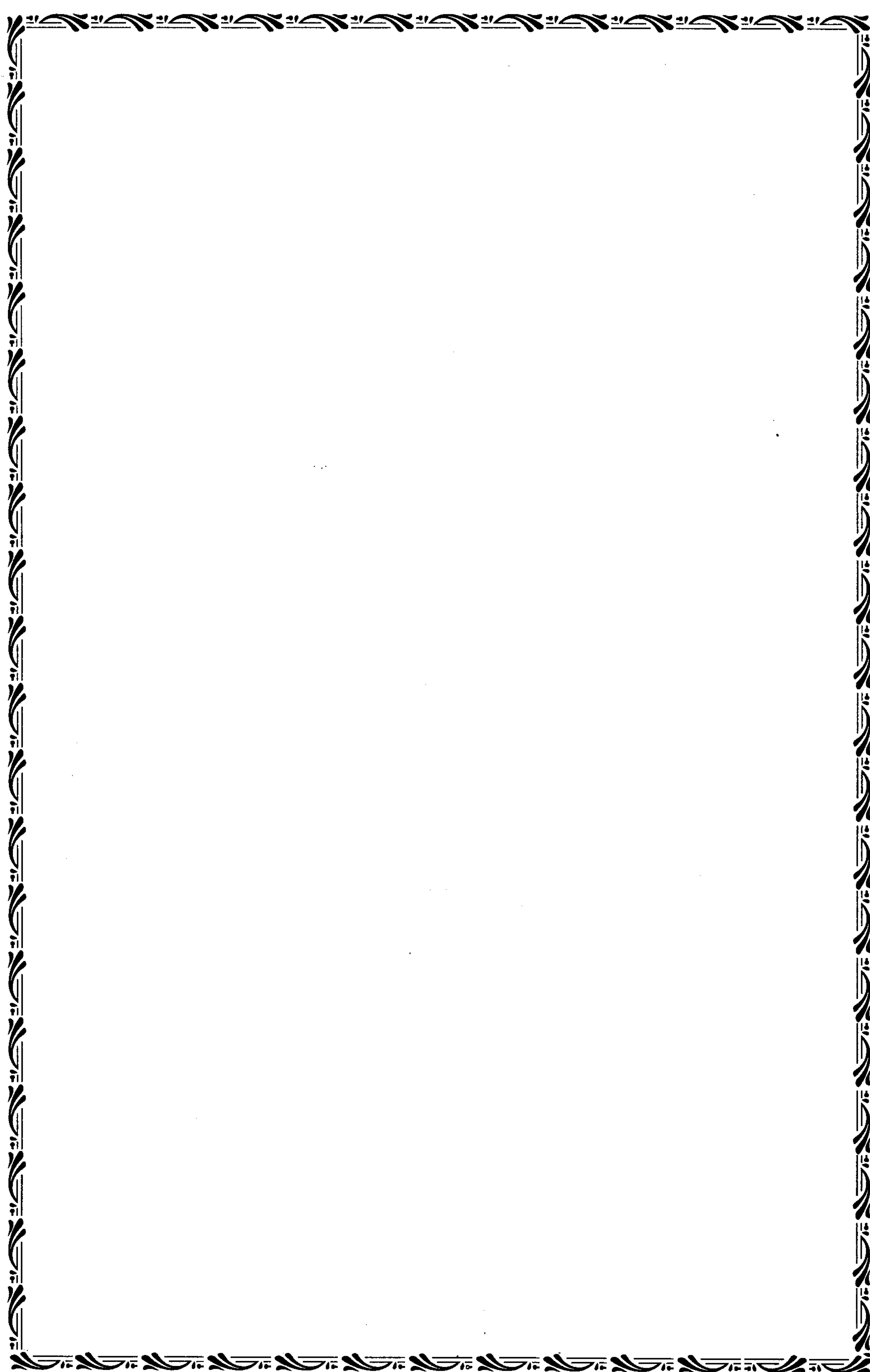

سورة(١) يس

كلها نزلت بمكة(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿يسٓ﴾ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ](٣) قالَ: يا إنسانُ، يَعْني محمداً، أُقسِمُ بهِ، يا محمدُ، إنَّ هذا القرآنَ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ، وهو بِلِسانِ الحَبَشَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: وهو بلسانِ طَيْءٍ

وقتادةُ يقولُ: قَسَمٌ أُقسِمُ بالقرآنِ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ويقولُ: كلُّ حَرْفِ هجاءٍ في القرآنِ، هو مِنْ أسماءِ القرآنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ فَواتحِ السُّوَرِ. وقالَ بعضُهُمْ: [هو مِنَ الفَواتِحِ](٤) يَفْتَتِحُ بها كلامَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: [هو](٥) مِنْ أسماءِ الرَّبِّ.

وعنْ مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ وكَعْبٍ رضي الله عنهما [أنهما](٦) قالا: ﴿يسٓ﴾ قَسَمٌ، أقْسَمَ اللهُ بهِ، يا محمدُ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآيتان: ٣ و٤].

دَلَّ أنَّ الخِطابَ بهِ على إثْرِ قولِهِ: ﴿يسٓ﴾ على أنهُ هو المُرادُ بقولِهِ: ﴿يسٓ﴾ إذْ لا يَسْتَقِيمُ الخِطابُ بقولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلّا على سَبْقِ خِطابٍ لهُ وذِكْرِ اسْمٍ.

وقالَ عِكْرِمَةُ: هو حرفٌ مِنْ حروفِ الهِجاءِ [افْتَتَحَ بهِ السورةَ](٧) كسائرِ حروفِ الهِجاءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ حروفِ الهجاءِ التي أقْسَمَ اللهُ بها بما يَتْلُو تلكَ الحروفَ مِنَ القرآنِ والآياتِ والكتابِ؛ إذْ مِنْ عادةِ العربِ القَسَمُ بكُلِّ ما عَظُمَ خَطَرُهُ، وجَلَّ قَدْرُهُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ أقْسَمَ بالقرآنِ، وهمْ كانوا يُنْكِرونَ القرآنَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ؟ قيلَ: [بوجوهٍ:

أحَدُها:](٨) أنهمْ، وإنْ كانوا يُنْكِرونهُ، فقد عَظُمَ قَدْرُه، وجَلَّ خَطَرُهُ عندَهُمْ بما عَجِزوا عنْ إتيانِ مِثْلِهِ بَعْدَ قَرْعِ أسماعِهِمْ بقولِهِ: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإسراء: ٨٨] ونَحْوِهِ.

والثاني: أقْسَمَ بهِ، وإنْ كانوا يُنْكِرونَهُ، لِما أنَّ قَسَمَهُ بهِ يَحْمِلُهُمْ على السؤالِ عنهُ؛ إذْ كانوا لا يُقْسِمونَ إلّا بما عَظُمَ قَدْرُهُ، وجَلَّ خَطَرُهُ، فيَقولونَ(٩): ما هذا القرآنُ [الذي](١٠) أقْسَمَ ربُّنا بهِ؟

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الآية: ٥] فكأنهُ [جوابٌ](١١) على سؤالٍ خَرَجَ [منهمْ: ما](١٢) هذا؟ إنهُ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

[والثالثُ](١٣): أنْ يكونَ القَسَمُ بهِ وبِغَيرِهِ مِنَ الأشياءِ التي عَظُمَ خَطَرُها عندَهُمْ على إضمارِ القَسَمِ بربِّ هذهِ الأشياءِ وبإلَهِها. هذا على قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ القَسَمَ باللهِ حقيقةً لا بتلكَ الأشياءِ مُسْتَقيمٌ، وعلى قولِ مَنْ يَجْعَلُ(١٤) القَسَمَ بها لا على الإضمارِ وما ذَكَرْنا.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) أدرج بعدها في الأصل: وهي اثنتان وثمانون آية. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فواتح. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الذي افتتح به السور. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: على. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل: يقول أن.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي المُحكَم ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] على ما وَصَفَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ المُحكَمُ بالحلالِ والحَرامِ والوَعْدِ والوَعيدِ مِنْ غَيرِ أنْ يكونَ فيهِ اختِلافٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: / ٤٤٤ ـ أ/ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ لأنهُ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وعَمِلَ بما فيهِ يَصيرُ حكيماً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يَقُلْ: إنكَ لَرسولُ اللهِ، وكِلاهما سَواءٌ، غَيرَ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذينَ آمَنَ[١] بهمْ مَنْ قَبْلَكَ[٢]، وصَدَّقوا بهمْ، زيادةٌ، ليسَتْ[٣] في قولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المستقيمُ القائمُ بالحُجَجِ والبراهينِ، ليسَ بالهَوَى كسائرِ الأديانِ والسُّبُلِ. وقالَ بعضُهُمْ: المستقيمُ: المُسْتَوِي، أي مُسْتَوٍ على [مَعْنًى][٤]: أنَّ مَنْ سَلَكَهُ أفضاهُ إلى اللهِ، وبَلَّغَهُ إلى دارِ السَّلامِ.. وقالَ بعضُهُمْ: المُسْتَقيمُ أي اسْتَقامَ بالحقِّ والعَدْلِ والصدقِ، لا زَيْغَ فيهِ، ولا جَوْرَ، ولا عُدولَ، ولا اعْوِجاجَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ وصْفَ النُّبُوَّةِ والرسالةِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها، ويَحْتَمِلُ وصفَ الدينِ، وذلكَ [قولُ عامَّةِ][٥] أهلِ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي ذلكَ القرآنُ الذي أقْسَمَ بهِ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي مِنْ عندِهِ نَزَلَ، وأُحْكِمَ. سَمَّى نفسَهُ عَزيزاً رَحيماً عظيماً لَطيفاً ظاهراً باطناً أوّلاً آخِراً.

وفي الشاهِدِ مَنْ وُصِفَ بالعِزِّ لا يوصَفُ بالرحمةِ، ومَنْ وُصِفَ بالعَظَمَةِ لا يوصفُ باللَّطافةِ، ومَنْ وُصِفَ بالظاهِرِ لا يُوصَفُ بأنهُ باطِنٌ، ومَنْ وُصِفَ بالأوّلِ لا يُوصَفُ بالآخِرِ لِيُعْلَمَ أنَّ المَعْنَى الذي وُصِفَ بهِ الخَلْقُ غَيرُ الذي وُصِفَ بهِ الرَّبُّ، تبارَكَ، وتعالى، لأنَّ مَنْ وُصِفَ مِنَ الخَلْقِ بواحِدٍ ممّا ذَكَرْنا لم يَسْتَحِقَّ الوصفَ بالآخَرِ. إنَّ ما وُصِفَ بهِ الرَّبُّ، تَبارَكَ، وتعالى، غَيرُ ما وُصِفَ بهِ الخَلْقُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: لِتُنْذِرَ قوماً مِثْلَ الذي أُنْذِرَ آباؤُهُمْ مِنَ الآياتِ التي أقامَها، فلم يَقْبَلوها ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أُمّيّونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي لِتُنْذِرَ قوماً أُمِّيِّينَ، لم يُنْذَرْ آباؤُهُمْ. يقولُ قائلٌ: لم تكُنِ النِّذارةُ لِلأُمِّيِّينَ مِنْ قَبْلُ؛ كأنهُ يقولُ: لِتُنْذِرَ قوماً أُمِّيِّينَ، لم يُنْذَرْ آباؤُهُمُ الأُمِّيُّونَ مِنْ قَبْلُ. كذلكَ قالَ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] وهو كقولِهِ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦] وقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] أي لم نُرْسِلْ إليهِمْ قبلَكَ نذيراً.

وأصْلُهُ أنهُ يُخْبِرُ أنهُ لا تَنْجَعُ في هؤلاءِ النِّذارةُ كما لم تَنْجَعْ في آبائِهِمْ. بل هُمْ غافِلونَ.

ثم الإنذارُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بالنارِ في الآخِرَةِ والتعذيبِ بها، ويَحْتَمِلُ بالآياتِ التي أقامَها في الدنيا والقَتْلِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيلَ: هو قولُهُ لإبليسَ حينَ قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقالَ[٦]: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] أي حَقَّ ذلكَ القولُ، وَوَجَبَ.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ في الذينَ ذَكَرَهُمْ[٧] بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ نَفَراً هَمُّوا بِرَسولِ اللهِ: قَتْلِهِ وأذاهُ، فأهْلَكَهُمُ اللهُ يومَ كذا إلّا واحداً أوِ اثْنَينِ.

---

(١) في الأصل وم: آمنوا. (٢) في الأصل وم: قبل. (٣) في الأصل وم: ليس ذلك. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: عامة قول. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: ذكره.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في جميعِ مُكَذِّبيهِ ورادِّي رسالتِهِ، وَنَاسِ أتباعِهِ، ولا شَكَّ أنَّ أكْثَرَ مَنْ بَعَثَ هو إليهِمْ كانوا كذلكَ لهمْ في الآخرةِ، أو في قومٍ خاصٍّ عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنونَ أبداً. ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِ ذلكَ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ [الآية: ١٠].

ثم في قولِهِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [ص: ٨٥ وهود: ١١٩] وقولِهِ: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية ٧] نَقْضٌ على المعتزلةِ وردٌّ عليهِم لأنهُ وَعَدَ ﷻ أنهُ يملأُ جهنَّمَ بِمَنْ ذَكَرَ، فيقالُ لهمْ: أ أرادَ أنْ يَفِيَ بما وَعَدَ أم لا؟ فإنْ قالوا: لم يُرِدْ، فيقالُ: أرادَ إذَنْ أنْ يُخلِفَ ما وَعَدَ، وذلكَ وَحْشٌ مِنَ القولِ وسَرَفٌ. وإنْ قالوا: أرادَ أنْ يَفِيَ بما وَعَدَ لَزِمَهُمْ أنْ يقولُوا: أرادَ أفعالَهُمُ التي فَعَلُوا، فَيَلْزَمُهُمْ قَوْلُنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ على التَّمْثِيلِ، ويُحْتَمَلُ على التحقيقِ.

فإنْ كانَ على التَّمْثِيلِ فهو وَصْفُهُ إياهُمْ بالبُخْلِ والكَفِّ عنِ الإنفاقِ على الفقراءِ والمساكينِ وأهلِ الحاجةِ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] نَهاهُ عنِ البُخْلِ والكَفِّ عنِ الإنفاقِ كَمَغلولِ اليَدِ، لا يَقْدِرُ على الإنفاقِ، ليسَ على إرادةِ غُلِّ اليَدِ حقيقةً، ولكنْ على تَرْكِ الإنفاقِ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ وَصْفاً لهمْ بالبُخْلِ وتَرْكِ الإنفاقِ عليهِمْ.

وإنْ كانَ على حقيقةِ الغُلِّ [في الأعناقِ][1] فَيَحْتَمِلُ ما قالهُ أهلُ التأويلِ: إنَّ أبا جَهْلٍ، لَعَنَهُ اللهُ، حَلَفَ لَئِنْ رأى محمداً لَيَدْمَغَنَّهُ، فأتاهُ أبو جَهْلٍ، وهو[2] يُصَلِّي، ومعهُ حَجَرٌ، لِيَدْفَعَ بهِ النَّبيَّ ﷺ، فَيَبِسَتْ يَدُهُ إلى عُنُقِهِ، والْتَزَقَ الحَجَرُ بيدِهِ. فلمّا رَجَعَ إلى أصحابِهِ، قالَ رجلٌ: أنا أقْتُلُهُ، فأخَذَ الحَجَرَ، فلمّا دَنا منهُ، طَمَسَ اللهُ بَصَرَهُ، فلم يَرَ النَّبِيَّ ﷺ وسَمِعَ قراءَتَهُ، فَرَجَعَ إلى أصحابِهِ، فلم يُبْصِرْهُمْ حتى نادَوهُ.

الآية ٩ فذلكَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في الآخرةِ إنْ كانَ على التحقيقِ، وهو كقولِهِ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١ و٧٢] وقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ونَحْوُ ذلكَ ممّا ذَكَرَ.

فيكونُ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ سَنَجْعَلُ، وذلكَ[3] جائزٌ في الكلامِ كقولِهِ لِعيسى حينَ[4] قال: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي يقولُ لهُ يومَ القيامةِ، فهو بعيدٌ غيرُ مَقولٍ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [الآيتان: ٨ و٩] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ في الآيةِ[5]، أي سَنَجْعَلُ لهمْ في الآخِرةِ ذلكَ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عَلَى[6] ذلكَ لهمْ في الدنيا[7] مِنْ قَصْدِهِمْ برسولِ اللهِ ما قَصَدوا حتى لم يَجِدوا السبيلَ إليهِ لا مِنْ بَيْنَ يَدَيهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ولا مِنْ جِهَةٍ مِنَ الجهاتِ.

[ويَحْتَمِلُ][8] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ على التَّمْثيلِ، أي جَعَلْنا بَينهُمْ وبَينَ الحقِّ مِنْ أمامُ ومِنْ خَلْفُ، فأغْشَينا أبصارَهُمْ، فلا يُبصِرونَ الحقَّ أبداً. وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ إنَّ الغُلَّ يكونُ طَرَفُهُ في العُنُقِ، وطَرَفُهُ الآخَرُ في اليدِ، فتكونُ اليدُ اليُمْنَى مَغْلولةً إلى العُنُقِ. وعلى ذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابنِ مَسْعودٍ أنهُ قَرَأَ إنا جَعَلْنا في أيمانِهِمْ[9] أغلالاً. وفي بعضِ الحروفِ: في أيديهِمْ[10] أغلالاً.

---

(١) في الأصل وم: والأعناق. (٢) و(٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: الآخرة. (٦) في الأصل وم: فعلى. (٧) من م، في الأصل: الآخرة. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) انظر معجم القراءات القرانية ح٥/١٩٧. (١٠) انظر المرجع السابق والصفحة.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: رافِعو رؤوسِهِمْ إلى السماءِ، لأنهُ كذلكَ يكونُ إذا غُلَّ عُنُقُ المرءِ إلى الذقَنِ لا يَسْتطيعُ أنْ يَنْظُرَ في الأرضِ. ولذلكَ قيلَ للإبلِ إذا شَرِبَتِ الماءَ أقْحَمَتْ، أي رَفَعَتْ رَأسَها.

وقالَ بعضُهُمْ: الإقماحُ، هو غَضُّ البَصَرِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: المُقْمَحُ الذي يُرْفَعُ رأسُهُ، ويُغَضُّ بَصَرُهُ، ويُقالُ: غاضَ طَرْفُهُ بَعْدَ رَفْعِ رأسِهِ، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جُمِعَتْ أيديهِمْ إلى أعناقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قد قُرِئَ[1] بالرَّفْعِ والنَّصْبِ والخَفْضِ جميعاً [فَمَنْ قَرَأها بالرَّفْعِ فهو على الابْتداءِ][2] ومَنْ قَرَأها بالخَفْضِ فهو على النَّعْتِ كقولِهِ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تنزيلِ العزيزِ الرحيمِ. ومَنْ قَرَأ بالنصبِ فَعَلَى القَطْعِ، لأنَّ الكلامَ قد تَمَّ دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ بالغَينِ والعَينِ جميعاً[3]. فَمَنْ قَرَأ بالغَينِ فهو منَ الغِشاوةِ. ومَنْ قَرَأ بالعَينِ فهو من قولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٣٦] وهو مِنَ الإعراضِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وجهانِ منَ الاسْتِدْلالِ على المعتزلةِ: / ٤٤٤ ـ ب/

[أحدُهما][4]: لقولِهِ: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أضافَ إلى نفسِهِ، وإنْ كانَ منهمْ صُنْعٌ.

[والثاني][5] يجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بخلقِ أفعالِهِمْ منهمْ.

الآية ١٠ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾][6].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ ومَنْ لم يَتَّبِعْ ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ومَنْ لم يَخْشَ. أو إنما يَنْتَفِعُ بالذِّكْرِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وخَشِيَ الرحمنَ. فأمّا مَنْ لم يَتَّبِعِ الذِّكْرَ، ولم يَخْشَ الرحمنَ، فلا يَنْتَفِعُ.

[ويَحْتَمِلُ][7] أنْ يكونَ فيهِ إخبارٌ بإنذارِهِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وليسَ فيهِ نَفْيٌ عنْ إنذارِ مَنْ لم يَتَّبِعْ، ولا تخصيصٌ منهُ بالإنذارِ أحَدَ الفريقَيْنِ دونَ الآخَرينَ، واللهُ أعلَمُ.

والذِّكْرُ يَحْتَمِلُ القرآنَ، ويَحْتَمِلُ غَيرَهُ مِنَ الذِّكْرى كقولِهِ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ بالغيبِ بالآثارِ والأخبارِ التي انْتَهَتْ إليهِمْ مِنْ غَيرِ مُشاهدةٍ وَقَعَتْ لهمْ، أو بالغَيبِ بما رَأوْهُ مِنْ آثارِ سلطانِهِ وقدرتِهِ هابوهُ، وخَشُوا عذابَهُ ونَقْمَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ تَحْتَمِلُ البِشارةُ عمّا سَلَفَ مِنَ الذنوبِ والأجرامِ إذا رَجَعوا عنها أو عَنْ تَقْصيرٍ كانَ منهمْ في الفِعْلِ في خِلالِ ذلكَ، وإنِ اعْتَقَدوا في الجملةِ ألّا يُخالفوا ربَّهُمْ في فِعْلٍ ولا في قولٍ، إذْ كلُّ مؤمنٍ يَعْتَقِدُ في أصلِ إيمانِهِ تَرْكَ مُخالفةِ الرَّبِّ في كلِّ الأحوالِ، وإنْ تَخَلَّلَ في بعضِ أحوالِهِ تقْصيرٌ أو مُخالَفَةُ الرَّبِّ بِغَلَبَةِ شَهْوةٍ أو طَمَعٍ في عَفْوِهِ ورَحْمَتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ قيلَ: حَسَنٍ، ويَحْتَمِلُ تَسْمِيَتُهُ كريماً لِما يُكَرَّمُ مَنْ نالَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، يَذْكُرُ هذا ليس في مَوْضِعِ الاحْتِجاجِ عليهِمْ، ولكنْ على أنهُ هو مُحْيِيهِمْ إذا ماتوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ [مِنْ خيرٍ أو][9] شرٍّ في حياتِهِمْ عَمِلوهُ[10] ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ ونكتُبُ أيضاً آثارَهُمْ، وهو ما سَنُّوا مِنْ سُنَّةِ خَيرٍ أو شَرٍّ، فاقْتُدِيَ بهمْ بعدَ موتِهِمْ على ما ذُكِرَ

---

(١) انظر المرجع السابق والصفحة. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرانية ج٥/ ١٩٨. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: وعملوه.

في الخَبَرِ: أنَّ «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يوم القيامةِ مِن غيرِ أنْ يُنْقَصَ مِن أجورِهِمْ شيءٌ. ومَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فَلَهُ وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يوم القيامةِ مِن غَيرِ أنْ يُنْقَصَ مِن أوزارِهِمْ شيءٌ» [مسلم ١٠١٧] وهو كقولِهِ أيضاً: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي خُطاهُمُ التي خَطَوها في الخَيرِ والشَّرِّ. وقالَ قتادةُ: لو كانَ اللهُ مُغْفِلاً شيئاً مِن شأنِكَ يا ابنَ آدمَ أغفَلَ ما تُعْفِي الرياحُ مِنْ هذهِ الآثارِ.

ورُوِيَ على هذا عنِ ابنِ عباسٍ وأبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ [أنهما](١) قالا: «إنَّ الأنصارَ كانتْ منازِلُهُمْ بعيدةً منَ المسجدِ، فأرادا أنْ يَنتقِلوا قريباً مِنَ المَسْجِدِ، فنزَلَ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: إنَّ آثارَكُمْ تُكتَبُ، فلِمَ تنتقِلونَ؟» [الترمذي ٣٢٢٦] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو دليلٌ لِمَنْ يقولُ الآثارَ بالخُطا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي كلُّ [شيءٍ](٢) مِن أعمالِهِمْ مِنْ خَيرٍ وشَرٍّ مُحصىً محفوظٌ ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يَحتَمِلُ: ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في الكتابِ الذي نَكتُبُ [فيهِ](٣) أعمالَهُمْ في الدنيا كقولِهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي بكتابِهِمُ الذي كُتِبَتْ أعمالُهُمْ فيهِ.

ألا ترَى أنهُ قال: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؟ الآية [الإسراء: ٧١] ويَحتَمِلُ ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ في أُمِّ الكتابِ، وهو اللوحُ المَحفوظُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يَحتَمِلُ الأمرُ لِرسولِهِ بضربِ مَثَلِ أصحابِ القريةِ لِقومِهِ وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الخَبَرَ قد كانَ بَلَغَ هؤلاءِ؛ أعني خَبَرَ أصحابِ القريةِ التي بعثَ إليهمُ الرسُلَ وما نَزَلَ بهِمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إيّاهُمْ، إلّا أنهمْ قد نَسُوا ذلكَ، وغَفَلوا عنهُ، فأمَرَهُمْ بالتذكيرِ لهمْ والتَّبيينِ لِيَحْذَروا مِنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ وسوءِ مُعامَلَتِهِمْ رسولَهُمْ.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ لم يكُنْ بَلَغَهُمْ خَبَرُ أولئكَ وما نَزَلَ بهِمْ بسوءِ مُعامَلَتِهِمُ الرسولَ، فأمَرَهُ أنْ يُعلِمَ قومَهُ ذلكَ، ويُبَيِّنَ لهمْ. فَيَسألونَ عنْ ذلكَ أهلَ الكتابِ، فَيُخبِرونَهُمْ بما كانَ في كُتُبِهِمْ، فَيَعْرِفونَ صِدْقَ رسولِ اللهِ في ما يُخْبِرُهُمْ، فيكونونَ في حَذَرٍ مِنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ ومُعامَلَتِهِمُ الرسُلَ.

وعلى ذلكَ تُخَرَّجُ هذهِ الأنباءُ والقِصَصُ المذكورةُ في الكتابِ على هذينِ الوجهَينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ عيسى ابنَ مَرْيَمَ كانَ بَعَثَ إليهِمْ أوّلاً رسولاً، فأتاهُمْ، ودَعاهُمْ إلى التوحيدِ، وأقامَ على ذلكَ حُجَجاً وبَراهينَ، فكَذَّبوهُ، وقالوا: ما نَعْرِفُ ما تقولُ.

ثم بَعَثَ مِنْ بَعْدِهِ رسولَينِ، فقالَ لهما ذلكَ الرسولُ: إنهمْ سَيُكَذِّبونَكُما كما كَذَّبوني قَبْلَكُما، وسَيقولونَ لكما: إذا دَعَوتُماهُمْ إلى التوحيدِ، ماذا تُحْسِنانِ؟

فإنْ قُلْتما: نُبرِئُ الأكْمَهَ والأبرَصَ، قالوا: فينا مَنْ يُحْسِنُ ذلكَ. فإنْ قُلْتُما: نَشفي المريضَ، قالوا: فينا مَنْ يُحْسِنُ ذلكَ ونَحْوَهُ. ولكنْ قولا أنتما: [نَحْنُ](٤) نُحْيِي المَوتَى، وأنا أقولُ لهمْ: إني [لَأُحْسِنُ ذلكَ، وهو](٥) قولُهُ: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قَوَّينا، وشَدَّدْنا بثالثٍ. فَفَعَلوا ذلكَ. فقالوا عندَ ذلكَ: قد تَواسَيتُمْ علينا بهذا الكلامِ، تَوَاطَأْتُمْ، أو كلاماً نَحْوَهُ. فأُخِذوا، وعُذِّبوا، وأُهْلِكوا، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لا أحسن أنا فهو. (٦) في الأصل وم: كلام.

ومِنهمْ مَنْ يقولُ: بَعَثَ أولاً رسولَينِ[١]، فَكَذَّبوهما، فَبَعَثَ بثالثٍ بعدَ ذلكَ ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ أي عَزَّزْنا الرسولَينِ بثالثٍ، أي قَوَّيناهُما.

وقرأ بعضُهُمْ: عَزَزْنا بالتخفيفِ[٢]، أي غَلَبْنا. لكنْ ذُكِرَ أنهمْ قُتِلوا جميعاً، وأُهْلِكوا؛ أعني الرسُلَ، فكيفَ يكونُ الغالبُ مَقْتولاً مُهْلَكاً؟ ويجوزُ أنْ يكونَ المَقْتولُ مُقَوّياً؟ دلَّ أنَّ قراءةَ مَنْ يَقْرَأُ بالتخفيفِ [ضعيفةٌ، والأولى][٣] أقْوى وأقْرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾.

الآية ١٥ [وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ وكذلكَ قولُ أهلِ مكةَ[عنْ رسولِ][٥] اللهِ: إنهُ ساحرٌ، وإنهُ مَجنونٌ، وإنهُ مُفْترٍ مُخْتَلِقٌ وقولُهُمْ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ لمّا أيِسُوا مِنْ إيمانِهِمْ وتَصْديقِهِمْ إياهُمْ فزِعوا إلى اللهِ، وتَضَرَّعوا إليهِ [وقالوا: إنَّ][٦] اللهَ أعلَمُ بما نُطْلِعُكُمْ[٧] بأنا إليكُمْ مُرْسَلونَ بالحُجَجِ والآياتِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي ليسَ علينا مِنْ تَرْكِ إجابَتِكُمْ لنا وَرَدِّ الرسالةِ شيءٌ، إنما ذلكَ عليكمْ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ دلَّ هذا القولُ منهمْ على أنهُ قد نَزَلَ شيءٌ مِنَ العذابِ والشِّدَّةِ حتى تَشاءَموا بهمْ. ذلكَ، ولم تزلْ عادةُ الكَفَرَةِ التَّطَيُّرَ بالرسُلِ عندَ نزولِ البَلاءِ بِهِمْ كقولِهِ: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ [النمل: ٤٧]. وقولِهِ: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ الآية [الأعراف: ١٣١].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: شُؤْمُكُمْ معكُمْ حيثما كُنْتُمْ ما دُمْتُم على ما أنتمْ عليهِ مِنَ العِنادِ والتَّكْذيبِ.

ويَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنَّ القريةَ كانتْ أنطاكيةَ، وأنَّ الذي بَعَثَ هؤلاءِ الرسُلَ عيسى، صَلَواتُ اللهِ عليهمْ أجمَعينَ، ولكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَشاؤُمُكُمْ معكُمْ أينَ كُنْتُمْ؟ وحيثُما كُنْتُمْ ما دُمْتُمْ على ما أنتُم عليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ فلم تَقْبَلوا التذكيرَ، ونَحْوَهُ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ [وهو][٨] أنَّ الذي أصابَكُمْ كانَ مكتوباً في أعناقِكُمْ إنْ وُعِظْتُمْ باللهِ / ٤٤٥ ـ أ/ تَطَيَّرْتُمْ بنا؟ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ هذا الرجلَ يُسَمّى حَبيباً النجارَ، وهو مِنْ إسرائيلَ، كانَ في غارٍ يَتَعَبَّدُ. فلما سَمِعَ بالرسُلِ نَزَلَ، وجاءَ، فقالَ ذلكَ ما قالَ. لكنْ لا ندري مَنْ كانَ؟ وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ اسْمِهِ حاجَةٌ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ رَغْبَتَهُ في الرسُلِ وفي دِينِهِمْ، فَدَعاهُمْ إلى اتِّباعِ الرسُلِ، أو أنْ يكونَ كانَ مؤمناً مُسْلِماً مُخْتَفِياً. فلّما بَلَغَهُ خَبَرُ إهلاكِ الرسُلِ جاءَ يَسْعَى إشفاقاً عليهمْ لئلا يُهْلَكوا؛ أعني الرسُلَ، فقالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: رسولاً. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٥/١٩٩. (٣) في الأصل وم: ضعيف والأول. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: لرسول. (٦) في الأصل وم: أو أن يقولوا. (٧) في الأصل وم: أطلعكم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢١ [وقال:][١] ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي اتّبعوا الهُدَى، والهُدَى ممّا يَجبُ أنْ يُتَّبَعَ، ولا يَسألُكُمْ على اتِّباعِ الهُدَى أجراً، فيَمْنعَكُمُ الأجرُ عنِ اتِّباعِ الهُدَى.

[ويَحتَمِلُ][٢] أنْ يقولَ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ واعلَموا أنهمْ مُهتَدونَ حينَ[٣] لا يَسألونَكُمُ الأجرَ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدنيا ولا العِزِّ؛ إذْ كلُّ مَنْ لا يسألُ هذا فهو مُهتَدٍ[وكلُّ مَهتَدٍ][٤] مُتّبَعٌ، وهذا يَدُلُّ أنَّ طَلَبَ الأجرِ في ذلكَ ممّا يَجعَلُ صاحبَهُ مَعْذوراً في تَرْكِ الإتّباعِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] أي لا يَسألُكُمْ أجراً حتى يَمْنعَكُمْ ثِقَلُ الأجرِ عنْ إجابَتِهِ واتّباعِهِ.

وهذا يَنْقُضُ، ويُبْطِلُ قولَ مَنْ يُبيحُ أخذَ الأجرِ على تَعْليمِ القرآنِ والعِلْمِ لأنهُ إذا كانَ لهُ ألّا يُعَلِّمَ إلّا بالأجرِ كانَ لهُ ألّا يُعَلِّمَ بِكُلِّ أجْرٍ. ففي ذلكَ إبطالُ الدينِ وجَعْلُ الرُّخْصَةِ لهمْ في تَرْكِ ذلكَ، وذلكَ سَمْجٌ قَبيحٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الاحتِجاجِ عليهمْ بَعْدَ سؤالٍ كانَ مِنْ أولئكَ لهُ في الرجوعِ إلى عِبادةِ مَنْ يَعْبُدونَهُ دونَ اللهِ، فقالَ: إنكمْ تَعبُدونَ هذهِ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تُقَرِّبَكُمْ تلكَ إلى اللهِ زُلْفَى، ومالي [لا][٥] أعْبُدُ الذي ترجونَ أنتمُ الزُّلْفَى والقُرْبَةَ منهُ؟

والثاني: على التَّذكيرِ والتَّنبيهِ لهمْ؛ أنتمْ تَعلَمونَ أنَّ الذي فَطَرَنا، وخَلَقَنا، هو المُسْتَحِقُّ لِلعبادةِ، لا مَنْ لم يَفطِرْ، ولم يَخلُقْ، ثم تَعلَمونَ أنَّ اللهَ، هو فَطَرَنا، وخَلَقَنا [لا][٦] الأصنامُ التي تَعبُدونها، ومالي لا أعبدُ الذي فَطَرَنا؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ يقولُ: أأتّخِذُ مِنْ دونِ اللهِ مَعْبوداً؟ لو أرادَ اللهُ بي ضُرّاً لم يَمْلِكْ ذلكَ المعبودُ دَفْعَ ذلكَ عني، ولو نَزَلَ[٧] بي شِدَّةٌ أو بلاءٌ منهُ لم يَقدِرْ [على][٨] استِنقاذي منهُ، ولو طَلَبْتُ منهُ جَرَّ نَفْعٍ لم يَقْدِرْ على جَلْبِهِ إليَّ، وأتْرُكُ عِبادةَ مَنْ أعلَمُ أنَّ ذلكَ منهُ، وهو المالكُ لِذلكَ كلِّهِ: مِنْ جَرِّ نَفْعٍ ودَفْعِ ضُرٍّ وبَلاءٍ؟ وفي الحكمةِ العبادةُ لِمَنْ يَمْلِكُ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي لو فَعَلْتُ ذلكَ فإذَنْ كنتُ في ضلالٍ مُبينٍ. فَذُكِرَ أنهُ لمّا قالَ لهمْ ذلكَ أُمِرَ بِقَتْلِهِ.

الآية ٢٥ فَعِنْدَ ذلكَ قالَ: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي اشْهَدوا لي. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ حقيقةَ السماعِ، أي اسْمعوا قَولي وإيماني: لا يَمْنَعُني عنهُ ما تُخَوِّفونني، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي أُوجِبَتْ لهُ الجنةُ: وأُرِيَ الثوابَ. فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ الآية. ويَحْتَمِلُ دخولُ الجنةِ ما ذَكَرَ للشهداءِ [ﷺ بقولِهِ][٩]: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿فَرِحِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩ و١٧٠] أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ أنْ يُقالَ لهُ في الآخِرَةِ كقولِهِ لِعِيسى ابنِ مَريَمَ: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] وإنما هو أن يُقالَ لهُ يومئذٍ. فَعَلى ذلكَ يَحتَمِلُ الأوّلُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قيلَ: إنهُ[١٠] نَصَحَهُمْ حَيّاً ومَيْتاً، ولم يَتْرُكْ نُصْحَهُمْ لِمكانِ ما عاملوهُ، وفَعَلوا بهِ مِنَ السوءِ وأنواعِ التعذيبِ. ولكنْ تَمَنّى، وقالَ[١١]: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ أي يكونونَ[١٢] يَعْلَمونَ ما [أُعْطِيتُ بالإيمانِ بربي][١٣] والتصديقِ برسُلِهِ لِيُعْطَوا مثلَ ما أُعطِيتُ[١٤].

وهكذا الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ ألّا يَتْرُكَ نُصْحَهُ لِجُمْلَةِ المؤمنينَ، وإنْ لَحِقَهُ منهمْ أذًى أو سُوءٌ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.
(٧) من م، في الأصل: أنزل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أنهم. (١١) في الأصل وم: أي.
(١٢) في الأصل وم: يكونوا. (١٣) في الأصل وم: أعطي هو بالإيمان بربه. (١٤) في الأصل وم: أعطي هو.

وقالَ قتادةُ: ولا يُلْفَى المؤمنُ إلّا ناصحاً، ولا يُلْفَى غاشّاً لِما عايَنَ مِنْ كرامةِ اللهِ ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ تَمَنَّى، واللهُ أعلَمُ، أنْ يَعْلَمَ قومُهُ ذلكَ: اعْلَموا أنَّ أهلَ الإيمانِ لَيسوا بأهلِ غِشٍّ أو بِغالَةِ العِبادةِ. وقالَ: قيلَ لِرُوحِهِ: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فَيَتَمَنَّى رُوحُهُ أنْ يَعْلَموا إلى ما صارَ هو ليؤمنوا بالرسُلِ، ولا يُكَذِّبوهُمْ.

الآية ٢٨ وقولُهُ: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي مِنْ بَعْدِ قَتْلِ هذا الرجلِ ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِنَ الملائكةِ، أي لم نُنْزِلْ على قومِهِ في إهلاكِهِمْ بعدَ صنيعِهِمْ بِمكانِهِمْ وإهلاكِهِمْ إيّاهُ جُنداً مِنَ السماءِ. ولكنْ أُهْلِكوا بصيحةٍ واحدةٍ، أي لم يَفْعَلْ بهمْ كما يَفْعَلُ ملوكُ الأرضِ إذا قُتِلَ رسُلُهُمْ، وأُهْلِكَ أولياؤُهُمْ، يَبْعَثونَ بجنودٍ لاسْتِئصالِ مَنْ فَعَلَ ذلكَ بهمْ، ولكنْ أهْلَكَهُمْ بِصَيْحةٍ واحدةٍ.

الآية ٢٩ ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي قَدْرَ صَيْحةٍ واحدةٍ، أي أُهْلِكوا بِقَدْرِ صَيْحَةٍ واحدةٍ في سُرْعَتِها. ويَحْتَمِلُ الإهلاكُ بالصَّيْحةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ قيلَ مَوتَى مِثْلَ النارِ إذا خَمَدَتْ، وطُفِئَتْ، لا يُسْمَعُ لها صوتٌ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في تَرْكِهِمُ الإيمانَ وتَكْذيبِهِمُ الرسُلَ واسْتِهْزائِهِمْ بهمْ.

والحَسْرَةُ: قالَ بَعضُ أهلِ الأدبِ: الغايةُ مِنَ الندامةِ؛ إذا بَلَغَتِ[1] الندامةُ غايَتَها؛ يُقالُ: حَسْرَةٌ، ويُقالُ: حَصْرَةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الحَسْرَةُ الحُزْنُ والتَّحَزُّنُ والتَّنَدُّمُ، وهو واحدٌ.

ثم قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي يا حَسْرَةَ الرسُلِ على ذلكَ المؤمنِ المقتولِ على الإيمانِ بهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: يا حَسْرَةَ أولئكَ الكَفَرَةِ على أنفُسِهِمْ إذا عايَنوا العذابَ على ما كانَ منهمْ مِنَ الاسْتِهْزاءِ على الرسُلِ كقولِهِ: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١] وقولِهِ: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فإنْ قِيلَ: كيفَ احتَجَّ عليهِمْ بالرجوعِ إليهِمْ، وهُمْ كانوا يُنْكِرونَ البعثَ والرجوعَ بعدَ الموتِ؟ قيلَ[2]: يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ألم يَرَوا؟ أي قد رأى أهلُ مكةَ هلاكَهُمْ في الدنيا، و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أحياءً، فَيُخْبِرونَهمْ أنهمْ بماذا أُهْلِكوا في هذهِ الدنيا، وبماذا عُذِّبوا، [فهلّا][3] يَعْتَبِرونَ، ويَنظرونَ، أنهمْ إنما أُهْلِكوا بتكذيبِ الرسُلِ، فَيَرْتَدِعوا عن ذلكَ.

الآية ٣٢ [بقولِهِ تعالى][4]: ﴿وَإِن كُلٌّ﴾ يعني الأممَ كلَّها؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: وما كُلٌّ ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ في الآخرةِ، أو يقولُ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أبداً حتى يومِ القيامةِ، وهما واحدٌ.

[والثاني][5]: أنْ يكونَ ذلكَ يُخَرَّجُ على إبطالِ قولِ أهلِ التناسُخِ حينَ[6] قالوا: إنَّ الأرواحَ إذا خَرَجتْ مِنْ أبدانِ قومٍ دَخَلتْ في أُخرى، فيقولُ، واللهُ أعلَمُ، رَدًّا عليهِمْ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: إذْ لم يَروا رُوحاً[7]، خَرَجَ مِنْ جَسَدِ هذا، ودَخَلَ في آخَرَ.

[والثالثُ][8]: أنْ يكونَ ذلكَ يُخَرَّجُ على نَقْضِ قولِ قومٍ، وهو ما ذُكِرَ /٤٤٥ ـ ب/ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ سُئِلَ، فقيلَ: إنَّ ناساً يقولونَ إنَّ عليًّا مَبعوثٌ قبلَ يومِ القيامةِ، فقالَ[9]: بئسَ القومُ نحنُ إذنْ كُنّا أنكَحْنا نساءَهُمْ، وقَسَمْنا ميراثَهُمْ، ثم تلا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

و[الرابعُ][10]: أنْ يكونَ على إيجابِ البَعْثِ أنَّ مَنْ كَذَّبَ الرسُلَ ومَنْ صَدَّقَهُمْ ومَنْ عَمِلَ ما يُحْمَدُ عليهِ وما يُذَمُّ،

---

(١) في الأصل وم: انتهت. (٢) في الأصل وم: فهو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: روحها أخبر أنه. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ثم قال. (١٠) في الأصل وم: أو.

قدِ استَوَوا جميعاً في هذهِ الدنيا، فلا بدَّ مِنْ دارٍ أُخرىَ يُمَيَّزُ [فيها بينَ][1] المُصَدِّقِ وبَينَ المُكَذِّبِ وبينَ المحمودِ والمذموم.

يُؤَيِّدُ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿لَدَيْنَا﴾ و﴿عِندَنَا﴾ [ونَحوَهما][2] مِنَ الظروفِ خَصَّها بهذا الإسمِ، وإنْ كانوا في جميعِ الأوقاتِ كذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ المَقصودَ مِنَ إنشاءِ هذهِ تلكَ ومِنْ هذا العالَمِ الفاني ذلكَ العالَمُ الباقي؛ إذْ لو لم تكُنْ تلكَ ولا ذلكَ العالَمُ الباقي لم يَكُنْ إنشاءُ هذهِ حِكْمَةً، لأنهُ يحصُلُ الإنشاءُ والخَلْقُ على الإفناءِ خاصَّةً. وإحداثُ الشيءِ للإفناءِ خاصَّةً لا لعاقبةٍ تُقْصَدُ عَبَثٌ باطلٌ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي آيةُ البعثِ لهمْ ما رَأَوُا الأرضَ المَيْتَةَ في وقتٍ يابسةً، لا نَباتَ فيها، ولا شيءَ، ثم رَأَوها حَيَّةً مُخْضَرَّةً مُتَزَيِّنَةً بأنواعِ النباتِ مُتَلَوِّنَةً بألوانِ الخارجِ منها، فَيُخْبِرُ إنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا لَقادِرٌ على إحياءِ المَوتَى بَعدَ ما بَلِيَتْ أجسادُهمْ، وصاروا رَماداً، وإنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَصْعُبُ عليهِ شيءٌ. فهذهِ آيةٌ ظاهرةٌ على البَعثِ مُشاهَدَةٌ مَحْسوسةٌ.

وفيهِ آيَةٌ يُحتاجُ إلى أنْ يُسْتَخرَجَ منها الحِكْمةُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أنهُ لمّا أخرجَ مِنَ الأرضِ حَبّاً، وجَعَلَ غذاءَهُمْ فيهِ مِنْ غَيرِ أنْ يَسْتَوجِبوا ذلكَ منهُ، دلَّ أنهُ إنما جَعَلَ ذلكَ لِيَمْتَحِنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ على عِلْمٍ منهُ أنَّ منهم مَنْ يَشْكُرُ، ومنهمْ مَنْ يكْفُرُ، وقد سَوَّى بَيْنَهُمْ في هذهِ بينَ الكافرِ منهمْ وبينَ الشاكِرِ، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرى، فيها يَقَعُ التَّمْييزُ بَيْنَهُمْ: الثوابُ للشاكِرِ، والعقابُ للكافرِ، إذْ في الحكمةِ التفريقُ لا الجَمْعُ. وعلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ الجِنانِ لهمْ والنخيلِ والأعنابِ وتَفْجيرِ العُيونِ وغَيرِهِ.

الآيتان ٣٤ و٣٥ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ وما][3] ذَكَرَ في آخِرِهِ: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ربَّ هذهِ النعمِ كلِّها؟

[ويَحتَمِلُ][4] أنْ يكونَ وَجْهُ الدلالةِ فيهِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وهو أنهُ لمّا أنْشأهُمْ، وعَلِمَ ما يَصْلُحُ لهمْ مِنَ الغِذاءِ وما لا يَصْلُحُ لهمْ وما يكونُ لهمْ مِنْ غِذاءٍ وما لا يكونُ قَبْلَ أنْ يُنْشِئَهُمْ، دلَّ أنهُ عالمٌ بذاتِهِ قادرٌ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. أو أنْ يكونَ لمّا أنشأ هذهِ الأشياءَ التي ذَكَرَ لهمْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَتْرُكَهُمْ سُدىً، لا يَمْتَحِنُهُمْ بشيءٍ، ولا يأمُرُهُمْ بشيءٍ، ولا يَنْهَى عنْ شيءٍ. فإنْ ثَبَتَتِ المِحْنَةُ ثَبَتَ البَعثُ، وظَهَرَ الثوابُ والعِقابُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ الفواكِهِ والثمارِ وغَيرِها آيةُ الوَحْدانيَّةِ لهُ والأُلوهيَّةِ، ودلالةُ الجودِ والكَرَمِ لهُ لِيَرْغَبوا فيه، ويَطْمَعوا منهُ، ودلالةُ العَدْلِ لهُ والسلطانِ لِيهابوهُ، ودلالةُ البَعْثِ لِما ذَكَرْنا، ودلالةٌ أنَّ هذهِ النِّعَمَ منهُ لِيَشكُروهُ حينَ[5] قالَ في آخِرِهِ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ الأزواجَ هي التي لها مُقابلٌ مِنَ الأشكالِ والأضدادِ ممّا لِلْخَلْقِ فيهِ وممّا لا صُنْعَ لهمْ فيهِ حينَ[6] قالَ: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ويُسْتَدَلُّ بذلكَ على خَلْقِ أفعالِ العبادِ، وهو ما قالَ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ ومِنَ الأزواجِ ما يكونُ فِعْلاً لهمْ [نحوَ الحركةِ والسكونِ والاجْتِماعِ والافْتِراقِ ونَحْوَ ذلكَ][7] وقد أخبرَ أنهُ خَلَقَ كلَّها. دلَّ أنهُ خالقُ أفعالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾: في ذلكَ آياتٌ مِنْ وجوهٍ

(١) في الأصل وم: بينهما. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث.
(٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

أحدُها: آيةُ القُدْرةِ على البَعْثِ والإحياءِ بعد الموتِ.

والثاني: آيةُ الوَحْدانيَّةِ لهُ والألوهيَّةِ.

والثالثُ: آيةُ العِلْمِ الذاتيِّ لهُ والتدبيرِ الأزليِّ.

أمّا دلالةُ البعثِ فهو ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ ما هو ليلٌ نهاراً ومِنْ جَعْلِ ما هو نهارٌ ليلاً بعدَ ذهابِ أثَرِ هذا بكُلِّيَّتِهِ حتى لا يَبْقى منهُ شيءٌ. ومَجيءُ الآخَرِ وانْتِزاعُ هذا مِنْ هذا، وإدخالُهُ في الآخَرِ، دلالةٌ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ؛ لهُ[1] قدرةٌ ذاتيَّةٌ لا مُكْتَسَبَةٌ مُسْتَفادةٌ.

فَمَنْ قَدَرَ على هذا قادرٌ على الإحياءِ بعدَ الموتِ [إذِ الإحياءُ بعدَ الموتِ][2] ليسَ بأبعدَ ممّا ذَكَرْنا مِنْ جَعْلِ الليلِ نهاراً وجعلِ النهارِ ليلاً.

والأعجوبَةُ في هذا، إنْ لم تَكُنْ أكْثَرَ؛ أعني في جَعْلِ الليلِ نهاراً وجَعْلِ النهارِ ليلاً وإدخالِ أحَدِهما في الآخَرِ، ليسَتْ[3] بدونِ الإحياءِ بَعدَ الموتِ. فإذا كانَ كذلكَ دلَّ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ ليسَ بإقدارٍ مِنْ غَيرِهِ، فلا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وأمّا دلالةُ الوحدانيَّةِ فهي[4] إنشاءُ الدهرِ مِنْ أوّلِ إنشائِهِ إلى آخِرِ ما يَنْتَهي إليهِ، وإجراؤُهُ على مَجْرًى واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ مِنَ الليلِ والنهارِ وإدخالِ هذا في هذا وهذا في هذا [كلُّ هذا][5] دلالةٌ أنهُ فِعْلُ [واحدٍ؛ إذْ لو كانَ فِعْلَ][6] عَدَدٍ لكانَ إذا أتَى أحَدُهما بالليلِ غَلَبَ على الآخَرِ فلا يَقْدِرُ المَغلوبُ على إتيانِ النهارِ بَعدَ ذلكَ وغَلَبَةِ صاحبِهِ وقَهْرِهِ. وكذلكَ مُنْشِئُ النهارِ إذا غَلَبَ مُنْشِئَ الليلِ لَهَمَّ بهِ على إبانةِ[7] بالآخرِ وغَلَبَتِهِ عليهِ، ويَمْنَعُ كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ عنْ إدخالِ شيءٍ ممّا أنْشَأهُ هو في ما أنْشَأَ الآخَرُ. فإذا لم يكُنْ ما ذكَرْنا دلَّ أنهُ واحدٌ، وهو ردٌّ على الثَّنويَّةِ.

وأمّا دلالةُ العِلْمِ الذاتيِّ لهُ والتَّدْبيرِ الأزليِّ فهي[8] إجراءُ الدهرِ مِنْ أوّلِ ما أنْشَأهُ على تقديرِ حاجةِ أهلِهِ؛ أعني حاجةَ أهلِ الدهرِ، وعلى تقديرِ مَنافِعِهِمْ واتِّساقِهِ على أمرٍ واحدٍ على غيرِ تَغَيُّرٍ وتَفاوُتٍ يَقَعُ في ذلكَ أو تفاضُلٍ إلى ما يَنْتَهي إليهِ أو تَنْتَهي حاجَتُهُمْ ومَنافِعُهُمْ. دلَّ أنهُ كانَ، ولم يَزَلْ عالماً بِحَوائِجِهِمْ ومَنافِعِهِمْ حينَ[9] أجرَى الدهرَ على تقديرِ حوائِجِهِمْ وتَدْبيرِ منافِعِهِمْ، وأنَّ لهُ عِلْماً ذاتيّاً وتدبيراً أوّليّاً لا عِلْماً مُكْتَسَباً ومُسْتَفاداً، وأنَّ لهُ القُدْرَةَ والسلطانَ حينَ[10] لم يَقْدِرْ أحدٌ أنْ يَدْفَعَ ظُلْمَةَ الليلِ عن نفسِهِ إذا احتاجَ إلى النهارِ، ولا مَلَكَ دَفْعَ النهارِ إذا وَقَعَتِ الحاجةُ في الليلِ، ولا [قَدَرَ][11] أحدٌ أنْ يأتيَ بأحدِهِما مَكانَ الآخَرِ بل في وَقْتٍ آخَرَ. بل أظْلَمَ الليلُ [على الخلائِقِ][12] كلِّهِمْ، وسَتَرَ عليهِمْ كلَّ شيءٍ، شاؤُوا، أو أبَوا، وأضاءَ لهمُ النهارُ كلَّ مَسْتورٍ عليهِمْ، وأبدَى لهمْ كلَّ مُخْتَلِفٍ، شاؤوا، أو أبَوا.

دَلَّ أنهُ بالقُدْرةِ الذاتيَّةِ كانَ ذلكَ؛ والسُّلْطانُ الذاتيُّ غيرُ[13] مُكْتَسَبٍ مُسْتَفادٍ [والعِلْمُ الذاتيُّ][14] لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ في حالٍ مِنَ الأحوالِ.

وهذا يُبْطِلُ قولَ الفلاسفةِ: إنَّ العقلَ دَرّاكٌ بنفسِهِ كالنارِ: حارَّةٌ بِطَبْعِها، مُحْرِقَةٌ بِذاتها، فلو كانَ يُدْرِكُ بنفسِهِ لكانَ لا جائزٌ أنْ يكونَ [أدْرَكَ ما][15] هنالكَ، أو يَشْتَبِهَ عليهِ شيءٌ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

وإذا حِيلَ بَينَهُ وبَينَ الدَّرْكِ دلَّ أنهُ دَرّاكٌ بِغَيرِهِ، فَيُدْرِكُ على قَدْرِ ما تَجَلَّى لهُ الأمْرُ، وانكشَفَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَسْلَخُ﴾ أي نَنْزِعُ ﴿مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾.

وقولُهُ تعالى: /٤٤٦ ـ أ/ ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخِلونَ في الظُّلْمَةِ؛ يُقالُ: أظْلَمَ فلانٌ إذا دَخَلَ في الظُّلْمَةِ.

---

(١) في الأصل وم: وله. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ليس. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ليلة. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل: الخلائق، في م: والخلائق. (١٣) في الأصل وم: لا. (١٤) في الأصل وم: إذ فاعلم. (١٥) في الأصل وم: ولا درك.

ثم سورةُ ﴿يسٓ﴾ نَزَلَتْ كلُّها بمكةَ [في][(١)] مُحاجَّةِ أهلِ مكةَ في إنكارِهِمُ التوحيدَ وإنكارِهِمُ البعثَ والقدرةَ على الإحياءِ بعد ما صاروا رَماداً وإنكارِهِمُ الرسالةَ. وهُمْ كانوا طَبَقاتٍ على هذهِ المذاهِبِ المُخْتَلِفَةِ: منهمْ مَنْ أنْكرَ التوحيدَ، ومنهمْ مَنْ أنْكرَ البَعْثَ، ومنهمْ مَنْ كانَ يُنْكِرُ الرسالةَ ونَحْوَها.

فَبَيَّنَ اللهُ تعالى في هذهِ السورةِ، وذَكَرَ فيها، الحُجَجَ على مُنْكِري التوحيدِ وعلى مُنْكِري [البَعْثِ وعلى مُنْكِري][(٢)] الرسالةِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ وفيهِ دلالةُ القدرةِ على البَعْثِ على ما بيّنّا في ما تَقَدَّمَ.

وفي قولِهِ: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ دلالةُ الوحدانيةِ لهُ، لأنهُ أخْرَجَ ما ذَكَرَ مِنَ النباتِ والجناتِ الأعنابَ والنخيلَ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنَ الأرضِ مَنافعَ مِنَ السماءِ تَتَّصِلُ بالأرضِ.

فَدَلَّ اتصالُ مَنافعِ السماءِ بِمَنافعِ الأرضِ على بُعدِ ما بَيْنَهما على أنَّ مُنْشِئَهُما ومُدَبِّرَهُما واحدٌ. إذ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَكانَ فيهِ تَدافُعٌ وتَمانُعٌ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِ ذوي العَدَدِ مِنَ التَّغالُبِ والتَّدافُعِ والتَّمانُعِ في العُرْفِ، واللهُ أعلَمُ.

وما ذَكَرَ أيضاً مِنَ الليلِ [والنهارِ][(٣)] على تَضادِّهِما واخْتِلافِهِما في رَأْيِ العَيْنِ وسَلْخِ أحَدِهِما مِنَ الآخَرِ وإدخالِهِ في الآخَرِ دلالةُ الوَحْدانيَّةِ ودلالةُ البعثِ ودلالةُ العِلْمِ الذاتيِّ الأزليِّ.

أمّا دلالةُ الوَحْدانيَّةِ فهي[(٤)] ما جَمَعَ في الليلِ والنهارِ على تَضادِّهِما واخْتِلافِهِما مَنافعَ الخَلْقِ وحوائجَهُمْ، كأنهما شَكْلانِ. فَدَلَّ ذلكَ على أنهما فِعْلُ واحدٍ لا عَدَدٍ [إذْ لو كانَ فِعْلَ عددٍ][(٥)] لَكانَ فيهِ تدافعٌ وتَمانُعٌ على ما ذَكَرْنا مِنْ مَنْعِ كلِّ واحدٍ منهما الآخَرَ ودَفْعِهِ عنْ إنفاذِ أمْرِهِ في ذلكَ واتِّساقِ تدبيرِهِ. فَدَلَّ الدوامُ على ذلكَ واتِّساقُ الأمرِ على سَنَنٍ واحدٍ ومَجْرًى واحدٍ أنهُ فعلُ واحدٍ.

وأمّا[(٦)] دلالةُ البعثِ فما[(٧)] ذَكَرْنا مِنْ إذهابِ أحدِهِما وإقرارِ الآخَرِ بعدَ ذهابِ آثارِ كلِّ واحدٍ منهما بكلِّيَّتِهِ.

ودلَّ إجراؤُهما مَجْرًى واحداً مِنْ أوَّلِ ما أنْشأهُما إلى آخِرِ ما يَنْتَهي ذلكَ، ويَنْتَهي العالَمُ على منافِعِهِمْ وحَوائِجِهِمْ، أنهُ عالمٌ بذاتِهِ مدبِّرٌ بنفسِهِ وأنَّ لهُ عِلْماً ذاتياً وتدبيراً أزليًّا لا مُكْتَسَباً مُسْتَفاداً.

[وأمّا دلالةُ الرسالةِ فإنَّ أهلَ مَكّةَ لم يكونوا يَعرفونَ التوحيدَ، فَعَرَّفَهُمْ، وأتاهُمْ بحُجَجِهِ وبراهينِهِ، دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ][(٨)].

وعلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ جَرَيانِ الشمسِ والقَمَرِ وتَسْخيرِهِما لِمنافِعِ هذا العالَمِ وحوائِجِهِمْ وقَطْعِهِما في يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ مَسيرةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ.

فَدَلَّ ذلكَ كلُّهُ على أنه واحدٌ، لا شريكَ لهُ، قادرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وعالمٌ، مُدَبِّرٌ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

وعلى ذلكَ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] دلالةُ الوَحْدانيَّةِ والقُدْرةِ والعِلْمِ والتدبيرِ مِنْ حيثُ جَعْلُ أطرافِ الأرضِ كلِّها على تَباعُدِ ما بَيْنَها مُتَّصِلةً بِمَنافِعِ الخَلْقِ وحوائِجِهِمْ بأسبابٍ، أنْشأها لهمْ، وعَلَّمَهُمُ [اتِّخاذَ السُّفُنِ][(٩)] لِيَصلوا إلى تلكَ المَنافِعِ والحَوائِجِ. فَدَلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ، إذْ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَكانَ في ذلكَ تَمانُعٌ على ما ذَكَرْنا، وأنهُ عالمٌ بذاتِهِ مُدَبِّرٌ. ولِذلكَ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] أي ذلكَ الذي ذَكَرَ كلُّهُ تقديرُ الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ. والعليمُ الذي لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. وباللهِ القوةُ.

الآية ٣٨ ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وفي بعضِ الحروفِ: والشمسُ تَجْري لا مُسْتَقَرَّ[(١٠)] لها [فَعَلى هذا القولِ أي تَجْري أبداً، لا مُسْتَقَرَّ لها، ولا قَرارَ. ومَنْ قَرَأ ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾][(١١)] أي لِنهايةٍ لها و غايةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فيه. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) أدرجت في الأصل وم قبل تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/٢٠٨. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

ثم اختُلِفَ في تلك النهايةِ؛ فمنهُمْ مَنْ يقولُ: نِهايَتُها وغايَتُها هي[1] ذهابُ هذا العالَمِ وانقِضاؤهُ وتبديلُ عالمٍ آخَرَ كقولِهِ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] وقولِهِ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] فذلكَ نِهايَتُها.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: مُسْتَقَرُّها، هو نُزُولُها[2] في كلِّ يومٍ في مَنْزِلٍ لِما ذَكَرَ أنَّ لها مَنازِلَ[3]، تَنْزِلُ كلَّ يومٍ في مَنْزِلٍ، ثم تَطْلُعُ مِنْ مكانٍ آخَرَ. وكذلكَ قالَ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: نِهايَتُها ما ذُكِرَ في الخَبَرِ أنها إذا غَرَبَتْ تُرْفَعُ إلى السماءِ السابعةِ، فَتَخِرُّ للهِ ساجدةً تحتَ العرشِ، ثم يُؤْذَنُ لها بالطلوعِ؛ ذُكِرَ في الخَبَرِ عنْ نَبِي اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لمّا يَأْذَنُ لها بالطلوعِ والارْتِفاعِ يأتيها جبريلُ بِحُلّةٍ مِنْ ضَوءِ العَرْشِ على مِقدارِ ساعاتِ النهارِ في طُولِهِ في الصيفِ وقِصَرِهِ في الشتاءِ وما بَيْنَ ذلكَ في الخريفِ والربيعِ، فَتَلْبَسُ تلكَ الحُلّةَ كما يَلْبَسُ أحَدُكُمْ ثوبَهُ».

وذُكِرَ في القمرِ كذلك مِنَ الحَبْسِ والسجودِ للهِ. إلّا أنهُ ذُكِرَ فيهِ أنَّ جبريلَ يأتيهِ بِحُلّةٍ مِنْ نورِ العرشِ. وفي بعضِ الأخبارِ بكَفٍّ مِنْ نورِهِ، فَيَلْبَسُ تلكَ الحُلّةَ أو ذلكَ الضوءَ والنورَ كما يَلْبَسُ أحَدُكُمْ ثوبَهُ.

فذلكَ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] ذَكَرَ لِلشَّمْسِ ضِياءً ولِلْقَمَرِ نُوراً كما ذُكِرَ في الخَبَرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: مُسْتَقَرُّها جَرَيانُها في البَحْرِ الذي خَلَقَ اللهُ دونَ السماءِ، بَحْرٌ مَكْفوفٌ جارٍ، فيهِ تَجْري الشمسُ والقَمَرُ والجواري الكُنَّسُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي تَجْري في مكانٍ، وتَسيرُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ العزيزُ: الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ويَعِزُّ مِنْ أنْ يَغْلِبَهُ شيءٌ. والعليمُ: الذي يَعِزُّ مِنْ أنْ يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: العزيزُ الذي أظْهَرَ أثَرَ الذُّلِّ في غيرِهِ، ولا يُرَى أحدٌ إلّا وأثَرُ الذُّلِّ والحاجةِ فيهِ ظاهرٌ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي [قَدَّرْنا لهُ][4]منازِلَ: تَزْدادُ، وتَسْتَوِي، وتَنْتَقِصُ. وكذلكَ جَعَلَ للشمسِ منازلَ أيضاً، تَزْدادُ، وتَنْتَقِصُ، وتَسْتَوِي. لكنْ جَعَلَ منازِلَ القَمَرِ في تَغْييرِهِ في نفسِهِ يَتَغَيَّرُ، ويَزْدادُ، ويَسْتَوِي، ويَنْتَقِصُ.

وأمّا الشمسُ فإنهُ جَعَلَ تَغْييرَها في الزيادةِ والنُّقْصانِ في الأزمنةِ والأوقاتِ. فأما في نفسِها فليسَ فيها تَغْييرٌ ولا نقصانٌ، فهو، واللهُ أعلَمُ، لمّا ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ القَمَرَ سَبَباً للوصولِ إلى معرفةِ الأوقاتِ والحسابِ والحَجِّ بقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وعلى ذلكَ جَعَلَ طُلوعَهُ وغُروبَهُ مُخْتَلِفاً في الليلِ والنهارِ وفي كلِّ وقْتٍ وكلِّ ساعةٍ، وأمّا الشمسُ فإنها في نفسِها على حالةٍ واحدةٍ؛ لا زيادةَ فيها، ولا نُقْصانَ، ولا تَغْييرَ إلّا في الوقتِ الذي تَنْكَسِفُ، وكذلكَ طُلوعُها وغُروبُها في وقْتٍ واحدٍ، لا يَخْتَلِفُ، ولا يَتَغَيَّرُ، إلّا في أزْمِنَتِها وأوقاتِها، فإنهُ يأخُذُ هذا مِنْ هذا، وهذا مِنْ هذا.

وأمّا الأيّامُ فإنهُ لم يَجْعَلْ فيها تَغْييراً، فهي، واللهُ أعلَمُ، لِما يَشْتَدُّ على الناسِ حِفْظُها، ولا جَعَلَها[5] سَبَباً لِتَعْريفِ الأوقاتِ والحسابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ قيلَ: إنهُ عُودُ الكِباسةِ القديمِ الذي قد أتى عليهِ حَوْلٌ، فاسْتَقْوَسَ، ودَقَّ شِبْهَ القَمَرِ آخِرَ ليلةٍ يَطْلُعُ بها[6] أو أوّلَ ليلةٍ. قالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَ القَمَرَ بالعُرْجونِ القديمِ، وهو العِذْقُ اليابسُ المُنْحَني القديمُ الذي أتَى عليهِ الحَوْلُ، وهما واحدٌ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: نزوله. (٣) في الأصل: منزل، في م: منزلا. (٤) في الأصل وم: قدرناه. (٥) في الأصل وم: جعل. (٦) في الأصل وم: به.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ الشمسَ ههنا كِنايةً عن نفسِهِ والقَمَرَ كِنايةً عنِ الليلِ. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ الليلَ والنهارَ على إثرِ ذلكَ [حينَ قالَ][1]: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يُخبِرُ أنهُ لا يُدرِكُ هذا هذا ولا سابقٌ[2] لهذا.

[وجائزٌ أنْ][3] يكونَ ذَكَرَهما كِنايةً عنِ الليلِ والنهارِ، ولكنْ على بَيانِ حقيقةٍ[4] ألّا يُدرِكَ / ٤٤٦ ـ ب/ ضَوءُ هذا هذا [ولا ضَوءُ هذا هذا][5] فَيَغلِبَهُ، ولكنْ يكونُ هذا في وَقتٍ، وهذا في وَقتٍ آخَرَ، لا يَجتمِعانِ في وقتٍ واحدٍ، أو يَذكُرَ أنهُ لا يُغلَبُ[6] هذا على هذا ما دامَ في سُلطانِهِ، ولا هذا على هذا ما دامَ سُلطانُهُ قائماً؛ يُخبِرُ عنْ قُدرَتِهِ وعِلمِهِ وتَدبيرِهِ.

وأمّا قُدرتُهُ فهي[7] وما ذَكَرَ مِنْ تقديرِ الشمسِ والقَمَرِ والليلِ والنهارِ وحِفظِهما حتى لا يَغلِبَ أحَدُ صاحبَهُ، فَيَذهبَ بهِ؛ دلَّ حِفظُهُ إيّاهُما وما ذَكَرَ [مِنْ تقديرِهِ][8] إياهما على ما قَدَّرَ أنهُ إنما كانَ بِقُدرَةٍ ذاتيَّةٍ.

ودَلَّ إجراؤُهُ إياهُما على مَجرًى واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ مُنذُ أنشَأَهُما، وقَدَّرَهُما إلى آخِرِ ما يَنتهِي إليهِ هذا العالَمُ أنهُ كانَ بِعِلمٍ ذاتيٍّ وتدبيرٍ أزَليٍّ لا مُستَفادٍ ولا مُكتَسَبٍ.

وهذا يَنقُضُ على الثَّنَويَّةِ مَذهَبَهُمْ أنَّ مُنشِئَ الظُّلمَةِ غيرُ مُنشِئِ النورِ، لأنهُ لو كانَ اثنَينِ على ما يقولونَ لَكانَ إذ غَلَبَ هذا هذا، وجازَ سلطانُهُ، مَنَعَهُ مِنْ أنْ يأتِيَ الآخَرُ. فإذا لم يَكُنْ دلَّ أنه فِعلُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني الشمسَ والقَمَرَ. قالَ بعضُهُمْ: أي في دَورانِهِ واستِدارَتِهِ يَجرونَ على ما ذَكَرْنا، لا يَمنَعُ هذا هذا. وعلى هذا التأويلِ هو الدورانُ الذي تَدورُ عليهِ الشمسُ والقَمَرُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ تَحتَ السماءِ في الهواءِ بَحرٌ مَكفوفٌ، فيهِ تَطلُعُ الشمسُ، وفيهِ تَغرُبُ. وكذلكَ القمرُ. فإنْ كانَ على هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ على حقيقةِ السباحةِ والعَومَةِ. ويُروَى في ذلكَ خَبَرٌ على ما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبيُّ وأبو عوسَجَةَ: ﴿نَسْلَخُ﴾ أي نُخرِجُ، والعُرجُونُ: عُرجُونُ النخلةِ مِثلُ العُنقودِ مِنَ العِنَبِ، والعراجينُ جماعةٌ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ مِنَ السِّباحةِ.

الآيات ٤١ و٤٢ و٤٣ ثم قولُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ اختُلِفَ في ذلكَ الفُلْكِ:

قالَ بعضُهُمْ: هي السفينةُ [التي حُمِلَ فيها نوحٌ وأتباعُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بهِ السُّفُنَ كلَّها التي يُحمَلُ عليها، ويُركَبُ، والفُلْكُ: يُقالُ: هو واحدٌ وجماعةٌ. فإنْ كانَ المُرادُ بالفُلْكِ السفينةَ المُشارَةَ، وهي سفينةُ][9] نوحٍ كانَ قولُهُ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ غيرَها مِنَ السُّفُنِ [التي اتُّخِذَتْ للركوبِ. وإنْ كانَ المُرادُ بهِ غيرَها مِنَ السُّفُنِ][10] كانَ قولُهُ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إنما هي الأنعامُ التي يركبونَ عليها في المَفاوزِ والبَراري كقولِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] ونَحوَهُ.

ثم إن كانَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ السُّفُنَ كانَ في ذلكَ نَقضُ قولِ المُعتَزِلةِ في قولِهِمْ: أفعالُ العبادِ لَيسَتْ بِمَخلوقةٍ حينَ[11] أخبَرَ أنهُ خَلَقَ السُّفُنَ، والسُّفُنُ إنما تُسَمَّى سُفُناً بعدَ ما اتُّخِذَتْ، ونُحِتَتْ، فأمّا قَبلَ ذلكَ فهي تُسَمَّى خَشَباً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مَعنَيَينِ:

أحَدُهُما: أنّا حَمَلْنا مَنْ أنتمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ في الفُلْكِ المَشحونِ وهُمُ الذينَ حَمَلَهُمْ معَ نوحٍ في سَفينَتِهِ.

---

(١) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (٢) في الأصل وم: سابقا. (٣) من م، في الأصل: وجامعان لا. (٤) من م، في الأصل: حقيقتهما. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يغلبه. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: وتقديره. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: حيث.

والثاني: أنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّةَ قومِكَ في أصلابِ آبائِهِمْ وأرحامِ أمَّهاتِهِمْ في الفُلْكِ، نَسَبَهُمْ إليهِمْ لِما أنهمْ أصْلٌ لهؤلاءِ كقولِهِ: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] وإنما نَسَبَنا إلى آدمَ لأنهُ أصلُنا، وهو المَخْلوقُ مِنَ الترابِ.

فَعَلى ذلكَ هذا. لكنَّ الفائدةَ في التأويلِ الأوَّلِ غَيرُ الفائدةِ في التأويلِ الثاني.

فإنْ[1] كانَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا﴾ مَنْ أنتمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ هذا ففائدتُهُ أنكمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ نَجا منهمْ مِنْ آبائِكمْ، وهُمُ الذينَ آمنوا برسولِهِمْ، وصَدَّقوهُ، لا مَنْ كَذَّبَ بهِ. فكيفَ لا اتَّبَعْتُموهُمْ؟ لأنَّ العَرَبَ مِنْ عادَتِهِمْ أنهمْ لا يَزالونَ مُحْتَجِّينَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وإنْ كانَ المُرادُ المَعْنى الثاني فيقولُ: إنَّ في آبائكُمْ مَنْ قد صَدَّقَ الرسُلَ، وآمَنَ بهِمْ، ومنهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ. فكيفَ اتَّبَعْتُمُ الذين كَذَّبوهُمْ دونَ الذينَ صَدَّقوهُمْ؟

ثم جهةُ الآيةِ في الفلكِ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ موضِعٍ: إمّا في تذكيرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ حينَ[2] سَخَّرَ لهمْ ما في البِحارِ والبَراري حتى يَصِلوا إلى قضاءِ حَوائِجِهِمْ ومَنافِعِهِمْ في الأمكِنَةِ النائِيَةِ البَعيدةِ بالسُّفُنِ التي أنْشَأها لهمْ والأنعامِ التي خَلَقَها لهمْ، [وإمّا في ما][3] يُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وسلطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على تَسْخيرِ هذا وإيصالِ هذا بهذا، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، [وإمّا في ما][4] يُخْبِرُ عنْ وحَدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ، إذْ لو كانَ ذلكَ فِعْلَ عَدَدٍ لامْتَنَعَ، ولم يَتَّصِلْ، ولم يَصِلوا إلى قضاءِ حَوائِجِهِمْ، [وإمّا في ما][5] يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدوها حينَ[6] قالَ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الآية، يُخْبِرُ أنّا لو شِئْنا إغراقَهُمْ لا تَمْلِكُ الأصنامُ التي يَعْبُدونَها الإغاثةَ لهم والاستِنْقاذَ مِنْ ذلكَ كقولِهِ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وكقولِهِ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ مِنْ ربكَ؛ أي لو شاءَ لأهْلَكَهُمْ، واسْتَأْصَلَهُمْ بالعِنادِ والتكذيبِ للرسولِ كما فَعَلَ بأوائِلِهِمْ. لكنْ برحمتِهِ أخَّرَ عنْ هؤلاءِ ذلكَ، وجَعَلَ لهمْ مَتاعاً إلى حينٍ. وذلكَ منهُ رحمةٌ. والذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ عندَ رؤيتِهِمْ بأسَ اللهِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤] [أخبرَ][7] أنهُ لم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ حينَ[8] قالَ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر: ٨٥] ولكنْ يرحَمُ هؤلاءِ لِمكانِ رسولِ اللهِ؛ فَقَبِلَ إيمانَهُمْ عندَ رُؤيَتِهِمْ بأسَ اللهِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الآية دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ لقولِهِمْ في الأصْلَحِ لِما لا يَخْلو إمّا أنْ يكونَ إغراقُهُ إيّاهُمْ أصْلَحَ لهمْ في الدينِ [وإما][9] إبقاؤهُ إيّاهُمْ.

فإنْ كانَ إغراقُهُ إياهُمْ أصْلَحَ لهمْ في الدينِ [فلم يُغْرِقْهُمْ، فقد فَعَلَ بهمْ ما ليسَ ذلكَ بأصْلَحَ لهمْ. وإنْ كانَ إبقاؤهُ إيّاهُمْ أصْلَحَ لهمْ في الدينِ مِنْ إغراقِهِمْ فلا يكونُ ذلكَ رحمةً لأنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ، ولا يَفْعَلَ بهمْ غَيرَهُ. وقد أخْبَرَ أنَّ إبقاءَهُ إيّاهُمْ رَحْمَةٌ منهُ لهمْ، فَدَلَّ أنهُ ليسَ عليهِ حِفْظُ الأصْلَحِ على عبادِهِ في الدينِ][10] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما كانَ مِنْ عُقوباتِ اللهِ ووقائِعِهِ في مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مِنْ عِنادِهِمْ في آياتِهِ وتكذيبِهِمْ رسُلَهُ؛ يقولُ: اتَّقوا ذلكَ، واحْذَروا نُزولَهُ عليكُمْ. فَسَمّى ﴿بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ لأنهُ مَضى بينَ أيديهِمْ ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ مِنْ أمرِ الساعةِ وعَذابِها [سَمّاهُ خَلْفاً لأنهُ لم يَجِئْ][11] بَعْدُ [وما][12] وراءَهُمْ غَيرُ مأتِيٍّ؛ يقولُ: احْذَروا ذلكَ.

وقالَ قائِلونَ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ هو عقوباتُ الآخِرَةِ، هيَ بينَ أيديهِمْ [سَتأتيهِمْ، وسَتَنْزِلُ بهمْ][13] ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما مَضى مِنَ العقوباتِ التي نزلَتْ بمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فصارَ ذلكَ وراءً وخَلْفاً؛ يقولُ: احْذَروا أيضاً ما تَسُنُّونَ أيضاً لِمَنْ بَعْدَكُمْ كقولِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ ما عَمِلَ هو ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ ما سَنَّ لِغَيرِهِ مِنْ بعدِهِ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: سمى خلف لأنه. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ستأتي بهم وستنزل.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي إذا فَعَلْتُمْ ذلكَ اسْتَوجَبْتُمُ الرحمةَ بفضلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، في قومٍ خاصٍّ اعتادوا العِنادَ والمُكابَرَةَ في ردِّ الآياتِ والإعراضِ عنها لمّا كانَ سُؤالُهُمُ الآياتِ [سُؤالَ تَعَنُّتٍ][1] لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ. ولو كانَ سُؤالُهُمْ سُؤالَ اسْتِرْشادٍ لكانَ قد أنْزَلَ لهمْ مِنَ الآياتِ وآتاهُمْ ما يُلْزِمُهُمْ قَبولَها والتَّمَسُّكَ بها.

ثم الإعراضُ والعِنادُ يكون بوجهَينِ:

أحَدُهما: يُعْرِضُ لِما لم يُوقِعْ[2] لهُ التَّرْكُ التأمُّلَ والنظرَ فيها.

والثاني: يُعْرِضُ عنها إعْراضَ عِنادٍ بعدَ التَّحقُّقِ والتَّيقُّنِ/ ٤٤٧ ـ أ/ والعِلْمِ أنها آياتٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ أي صِلُوا[3] الأرحامَ والقَراباتِ على حقيقةِ الإنفاقِ. ويَحْتَمِلُ أنِ اقْبَلوا الإنفاقَ، وهو الزكاةُ كقولِهِ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ و٧] أي لا يَقْبَلونَ الإيتاءَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ بهذا قالتِ المعتزلةُ في قولِهمْ: إنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ إلّا ما هو أصلَحُ لِلْخَلْقِ[4] في الدينِ؛ يقولونَ: لو كانَ الإنفاقُ والرزقُ أصْلَحَ لهم في الدينِ لَرَزَقَهُمُ اللهُ على ما رَزَقَنا.

فَيُقالُ للمعتزلةِ: أمْرُهُ إيّاهُمْ بالإنفاقِ على مَنْ ذَكَرَ لا يَخلو مِنْ أنْ تكونَ النفقةُ لهمْ والرزقُ أصْلَحَ في الدينِ، ثم لم يَرزُقْهُمْ، ولم يُوَسِّعْ عليهِمْ، أو[5] أنْ يكونَ المَنْعُ أصْلَحَ لهمْ، وتَرْكُ الإنفاقِ.

فإنْ كانَ الأوّلَ فقد تَرَكَ فِعْلَ ما هو أصلَحُ في الدينِ. [وإنْ كانَ][6] الثانيَ فقد أمَرَ هؤلاءِ بِفِعْلِ ما هو ليسَ بأصْلَحَ.

فكيفَ ما كانَ ففيه بَيانٌ أنْ ليسَ على اللهِ فِعْلُ[7] الأصلَحِ للخَلْقِ في الدينِ إنما عليهِ ما تُوجِبُهُ الحكمَةُ وحِفْظُ ما يكونُ حكمَةً.

وهؤلاءِ لم يَنْظُروا إلى [ما تُوجِبُهُ][8] الحكمةُ.

وفي الحكمةِ الامْتِحانُ والابْتِلاءُ: هذا بالسَّعَةِ وهذا بالشِّدَّةِ والضِّيقِ. ثم أوجَبَ على مَنْ وَسَّعَ عليهِ في فُضولِ مالِهِ حَقًّا لهذا الفقيرِ والمُضَيَّقِ عليهِ. وبَيَّنَ ذلكَ الحقَّ، وبَيَّنَ قَدْرَهُ وحَدَّهُ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ، وضَيَّقَ على هذا، يَطْلُبُ منهُ الصبرَ على ذلكَ أنْ مَنَعَ هذا حقَّهُ. وإلّا لم يَسْبِقْ مِمَّنْ وسَّعَ عليهِ ما تَسْتَوجِبُهُ تلكَ النعمةُ والسَّعَةُ، ولا مِمَّنْ ضَيَّقَ عليهِ ما يَسْتَوجِبُ ذلكَ. ولكنْ محنةٌ يَمْتَحِنُهُمْ بها: هذا بالشِّدَّةِ والضِّيقِ، وهذا بالسَّعَةِ والكَثْرَةِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أغنياءَ، لا فَقيرَ فيكُمْ، ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ فُقراءَ، لا غَنِيَّ فيكُمْ، ولكنهُ ابْتَلى بعضَكُمْ ببعضٍ لِيَنْظُرَ كيفَ عَطَفَ الغنيُّ؟ وكيفَ صَبَرَ الفقيرُ».

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا كلامُ الكَفَرَةِ للمؤمنينَ. لم يَكْتَفوا بذلكَ القولِ الذي قالوهُ، ولكنْ نَسَبوهُمْ إلى الضلالِ والجهلِ. وقالَ بعضُهُمْ: هذا القولُ مِنَ اللهِ جوابٌ لهمْ لِقولِهِمْ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ليسَ بِصِلَةٍ لِما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ، وكأنهُمْ خُوِّفوا بتَرْكِ الإنفاقِ بالعذابِ، فقالوا عندَ ذلكَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الآية ٤٩ ثم قالَ تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي ما يَنْظُرونَ لإيمانِهِمْ إلّا ذلكَ الوَقْتَ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ:

---

(١) في الأصل: تعنت، في م: تعنتا. (٢) في الأصل وم: يقع. (٣) في الأصل وم: صلة. (٤) في الأصل وم: له. (٥) في الأصل وم: وإما.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: حفظ. (٨) في الأصل وم: توجيه.

إنهمْ إذا بَلغوا ذلكَ الوقتَ، وعايَنوا ذلكَ، فعندَ ذلكَ يؤمنونَ. لكنْ لا يَنْفعُهُمُ الإيمانُ في ذلك الوَقْتِ لِقولِهِ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ يُخبِرُ عن سُرعةِ قِيامِ الساعةِ وغَفْلَةِ أهلِها عنها كقولِهِ: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٢].

وعلى ذلكَ رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ عن نَبيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ](١) قالَ: «تقومُ الساعةُ والرجلانِ يَتبايَعانِ الثوبَ، فلا يَطْويانِهِ حتى تَقومَ الساعةُ» [البخاري ٦٥٠٦].

وعنْ أبي هُريرةَ ﷺ في قولِهِ: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [أنهُ قالَ](٢): «تقومُ الساعةُ والناسُ في أسواقِهِمْ يَحْلِبونَ اللِّقاحَ، ويَذْرَعونَ الثيابَ، ويَتَبايعونَ، وهمْ في حاجاتِهِمْ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٦٢]. وعن الزُّبيرِ بْنِ العَوّامِ ﷺ [أنهُ قالَ](٣): «إنَّ الرجلَينِ لَيَتَبايعانِ إذْ نادىَ مُنادٍ قد قامتِ الساعةُ» [بنحوه الدر المنثور ٧/ ٦٢]. ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي وَصِيَّةً. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ وأُبَيٍّ: أي يَسْتَطيعونَ وَصِيَّةً. وقولُهُ تعالى: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ يحتملُ ما ذَكَرْنا أنَّ الساعةَ تقومُ، وهم على ما كانوا عليهِ مِنَ البِياعاتِ والخُصوماتِ والمُنازَعةِ، وعلى ذلكَ جاءتِ [الأخبارُ](٤).

ويَحْتَمِلُ ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ في الساعةِ والبَعْثِ أنها لا تقومُ، ولا تكونُ، لأنهمْ كانوا [يَخْتَصِمونَ فيها](٥).

ودَلَّ قولُهُ: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أنَّ اسْتِطاعةَ الفِعْلِ أنها لا تَتَقَدَّمُ الفعلَ، لكنها [تُقارِنُهُ، وتُجامِعُهُ](٦)، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ قد ذَكَرْنا القولَ في الصُّورِ في غَيرِ مَوضعٍ واخْتِلافَهُمْ في ذلكَ:

قالَ قائلونَ: الصُّورُ، هو شِبْهُ القَرنِ، يُنْفَخُ فيهِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ [أنهُ قالَ](٧): سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عنِ الصُّورِ، فقالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فيهِ» [الترمذي ٣٢٤٤] فإنْ ثَبَتَ فقد كُفِينا مُؤْنَةَ الاشْتِغالِ بغَيرِهِ.

وقالَ قائلونَ: هو على التمثيلِ لا على التحقيقِ، لكنهُ ذَكَرَ النَّفْخَ لِسُرعةِ أمْرِها وقِيامِها؛ إذْ ليسَ شيءٌ أسْرَعَ نَفاذاً، ولا أخَفَّ مِنَ النَّفْخِ؛ فهو عبارةٌ عنْ سُرْعَتِها ونَفاذِها كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧] وهو قولُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾.

قالَ أهلُ التأويلِ: يُنْفَخُ في الصورِ ثلاثٌ بَينَ كلِّ نَفْخَةٍ ونَفْخَةٍ مُهْلَةُ كذا كذا سنةً يقولونَ: في النَّفْخةِ الأولَى يموتُ(٨) فيها كلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللهُ كقولِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨].

ثم يُنْفَخُ ثانياً، فَيَحْيَوْنَ بها، ويَخْرُجونَ مِنْ قبورِهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

ويُنْفَخُ ثالثاً، فَيَجْتَمِعونَ عندَ ربِّهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

والنَّسْلُ هو سُرْعَةُ الخروجِ أي يُسْرِعونَ.

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: النَّسْلُ هو المَشْيُ ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يَمْشونَ، لكنهُ مَشْيٌ مع سُرْعَةٍ، وهما واحدٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل تقاربها وتجامعها، في م: تقارنها وتجامعه. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: سمعت.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يُنْكِرُ عذابَ القبرِ بهذِهِ الآيةِ. يقولُ: المَرْقَدُ مَوضِعُ الراحةِ، والراقدُ هو الذي يكونُ في راحةٍ. فلو كان لهمْ عذابٌ، أو كانوا في عذابٍ لم يكونوا في رَقْدَةٍ ولا راحةٍ. دلَّ أنهُ لا يكونُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: يكونُ في القَبْرِ عذابٌ، إلّا أنهُمْ لمّا عايَنوا عذابَ الآخِرةِ وأهوالَها صارَ عذابُ القَبْرِ لهم كالرُّقادِ عندَ عذابِ الآخِرَةِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: يَنامونَ نَومَةً قَبْلَ البَعْثِ، ثم يُبْعَثونَ، ومثلَ هذا.

وجائزٌ أنْ تكونَ النفسُ التي تَخْرُجُ عندَ النومِ تلكَ النفسَ في حالِ المَوتِ. فَتَجِدُ تلكَ ألَمَ ذلكَ كما تَجِدُ النفسُ التي تَخْرُجُ مِنَ النائمِ ألَمَ عذابٍ يُصيبُهُ، وتَجِدُ لذةً أيضاً إذا كانَتْ لذَّةٌ. وتَرَى في النومِ أهوالاً وأفزاعاً، وذلكَ مَعْروفٌ. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ يُعَذَّبونَ بما ذَكَرْنا. فإذا بُعِثوا قالوا عند ذلكَ: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ والمَرْقَدُ هو المَوضِعُ الذي يُنامُ فيهِ. أو أنْ يكونوا في عذابٍ؛ أعني في القبورِ. لكنهُمْ إذا عايَنوا عَذابَ الآخِرَةِ، وشاهدوا أهوالَها، هانَ ذلكَ العذابُ الذي كانَ لهمْ في القَبْرِ وسَهُلَ عندَ عذابِ الآخِرَةِ، فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا قولُ الملائكةِ لهمْ عندَ قولِهِمْ: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾. وقالَ بعضُهُمْ: [هو][1] قولُ المؤمنينَ لهمْ عندَ قولِهِمُ الذي قالوا.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ أيضاً قولَ أولئكَ الكَفَرَةِ، يُقِرّونَ بالبَعْثِ/ ٤٤٧ ـ ب/ عندَ مُعايَنَتِهِمُ البَعثَ؛ يقولونَ: هذا الذي وَعَدَ لنا المُرسَلونَ، وقد صَدَقوا في ذلكَ، ونَحْنُ كَذَّبْنا فيهِ. لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ تصديقُهُمْ إياهُمْ بذلكَ في ذلكَ الوَقْتِ، [وهو][2] كإيمانِهِمْ عندَ معايَنَتِهِمْ بأسَ اللهِ، وهو قولُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] فعلى ذلكَ هؤلاءِ. لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يَحْتَمِلُ على حَقيقةِ الصَّيْحةِ؛ يَجْعَلُ اللهُ تَعالى الصَّيْحَةَ عَلَماً لِلإحياءِ والبَعْثِ، لا أنْ تكونَ الصَّيْحَةُ سبباً للإحياءِ والبَعْثِ. ويَحْتَمِلُ لا على حَقيقةِ الصَّيْحَةِ، ولكنْ على قَدْرِ الصَّيْحَةِ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما كانَتْ إلاّ قَدْرَ صَيْحَةٍ واحِدَةٍ، أي البَعْثُ. لكنهُ ذَكَرَ الصَّيْحَةَ لأنَّ الصَّيْحَةَ أسْرَعُ شيءٍ، وأيْسَرُ على الخَلْقِ مِنْ غَيرِهِ على ما ذَكَرْنا في النَّفْخِ في الصورِ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] ذَكَرَ هذا لأنهُ أخَفُّ شيءٍ على الخَلْقِ وأهْوَنُهُ عليهِمْ، فَيُعَبِّرُ بهِ عنهُ، ويُكَنّى بِما ذَكَرَ لِيَعْلَموا خِفَّةَ ذلكَ على اللهِ وسُهولَتَهُ وهَوْنَهُ، وأنهُ ليسَ يَثْقُلُ عليهِ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ذُكِرَ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ في البَعْثِ، فإذا كانَ ذلكَ في البَعْثِ [فيكونُ عندَ][3] ذلكَ إحضارُهُمْ عندَ اللهِ. وأمّا الأوَّلُ فإنما هو في الهَلاكِ والمَوتِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الظُّلْمُ في اللغةِ هو وَضْعُ الشيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: فاليومَ لا تُوضَعُ نفسٌ في غَيرِ مَوْضِعِها في الدنيا. أو يكونُ الظُّلْمُ عبارةً عنِ النُّقصانِ، كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: فاليومَ لا تُنْقصُ نَفْسٌ عما استَوجَبَتْ، بل[4] تُوفَى كقولِهِ: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] [أي لم تَنْقُص منهُ][5] أو يقولُ: فاليومَ لا يُحَمَّلُ على نفسٍ ذنبُ غَيرِها، ولا يوضَعُ عليها وِزْرُ غَيرِها، بل تُجْزَى كلُّ نفسٍ جزاءَ عَمَلِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ يُخْبِرُ، واللهُ أعلَمُ، عنْ شُغُلِ أهلِ الجنةِ؛ إنهمْ وإن

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: و. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فعند. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

كانوا مشغولينَ في النعيمِ فإنَّ ذلكَ الشُّغْلَ يَحْجُبُهُمْ عنْ غَيرِهِمْ منَ الأشياء. وكذلكَ جميعُ الخلائقِ؛ إنهمْ إذا شُغِلوا في شيءٍ حُجِبوا عنْ غَيرِهِ، ومُنِعوا.

فأمّا الله، سبحانَهُ، فَيَتعالى عنْ أنْ يَشْغَلَهُ شيءٌ، أو يَحْجُبَهُ شيءٌ عنْ شيءٍ.

ثم إنَّ الاشْتِغالَ في الدنيا مّما يَضُرُّ أهلَها، ويُؤذي. فأخْبَرَ أنَّ شُغْلَ أهلِ الجنة ممّا لا يَضُرُّهُمْ، ولا يُؤذي حينَ[1] قالَ: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ قيلَ: ناعِمونَ بما هُمْ فيهِ، وقيلَ: مُعْجَبونَ[2] في ذلكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ يَتفكَّهونَ، ويُقالُ لِلمُزاحِ فُكاهةٌ، و﴿فَٰكِهُونَ﴾ أرادَ ذوي فُكاهةٍ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ مِنَ الفُكاهةِ، فَكِهونَ[3] مِنَ السرورِ، والمُفاكَهَةُ المُمازَحَةُ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: شُغُلُهُمْ في افْتِضاضِ العَذارى، وقيلَ: شُغُلُهُمْ في كلِّ نعيمٍ وفي كلِّ كرامةٍ على ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ يُخبِرُ أنَّ أهلَ الجنةِ، وإنْ كانوا لا يُحْجَبونَ عنْ شيءٍ، ولا يُمْنَعونَ شيئاً، فإنهمْ إذا كانوا مع أزواجِهِمْ لا يَقَعُ عليهِمْ بَصَرُ غَيرِهِمْ، فَيُنَغِّصُ ذلكَ [عليهِمْ][4] وهو كما ذَكَرَ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] يُخبِرُ أنهمْ إذا كانوا معَ أزواجِهِمْ لا يَطَّلِعُ عليهمْ غَيرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ. و﴿ظِلَٰلٍ﴾ جمعُ ظِلٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ الاتِّكاءُ على الأرائكِ إنما هو للراحةِ. فَيُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، عنْ غايةِ راحَتِهِمْ ونهايةِ كرامَتِهِمْ، وإلّا ليسَ في الاتِّكاءِ على الأرائكِ فَضْلُ كَرامةٍ ومَنْزِلةٍ، ولكنْ يَذْكُرُ عنْ راحَتِهِمْ وتَنَعُّمِهِمْ كقولِهِ: ﴿فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقالَ القُتَبِيُّ: الأرائكُ: السُّرُرُ في الحِجالِ، واحِدُها أريكةٌ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الأرائكُ الوسائدُ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][5] قالَ: الأريكةُ الحَجَلَةُ، وهي بلغةِ أهلِ اليَمَنِ، يُسَمُّونَ الحَجَلَةَ أريكةً.

الآية ٥٧ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ قيلَ: الفاكهةُ، هي التي تُؤكَلُ على الشَّهْوَةِ لا على الحاجةِ. يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ أهلَ الجنةِ إنما يأكُلونَ ما يَأكُلونَ على الشَّهْوَةِ لا على الحاجةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ قيلَ: ما يَتمَنَّونَ، وقيلَ: ما يَسْألونَ. وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ مِنَ الدَّعْوى، أي يُعْطَونَ جميعَ ما يَدَّعُونَ لأنفسِهِمْ، ليسَ كالدنيا.

وقالَ أبو معاذٍ: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ما يَشْتَهونَ، ويَتَمَنَّونَ في الجنةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحَدُها[7]: يَرُدُّونَ إليهِمْ، أعني الملائكةَ سلامَ اللهِ بِحَقِّ التَّبليغِ إليهِمْ سَلامَ اللهِ نَحْوَ ما يُبَلِّغُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ سَلامَ بعضٍ: أقْرِئْ فلاناً مني السلامَ. فَعَلى ذلكَ يقولونَ: إنَّ اللهَ قد أقْرَأَ عليكُمُ السلامَ.

والثاني: أنْ يُسَلِّمَ عليهمُ الملائكةُ بأمرِ ربِّهِمْ [كقولِهِ][8]: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣و ٢٤].

والثالثُ: أن يكونَ القولُ مِنَ اللهِ وَعْداً بالسلامِ لهمْ فيها مِنْ كلِّ آفةٍ وبلاءٍ، يكونُ في الدنيا كقولِهِ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦] ونَحْوُهُ.

وفي حرفِ أُبَيٍّ وابْنِ مَسْعودٍ: سلاماً قولاً بالنصبِ[9]؛ فهو، واللهُ أعلَمُ، كأنهما يَجْعَلانِ تمامَ الكلامِ في قولِهِ: ﴿يَدَّعُونَ﴾ ثم يَقْطَعانِ[10]: سلاماً قولاً منهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: معجبين. (٣) هذه قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢١٤. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وجهين: أحدهما. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٥/ ٢١٦. (١٠) في الأصل وم: ثم يقطع.

وأمّا قراءةُ هؤلاءِ بِرَفْعِ السلامِ فَمَعْناها، واللهُ أعلَمُ: ولهمْ ما يَدَّعونَ سلامٌ؛ تَمَّ الكلامُ، وقُطِعَ[1] ﴿قَوْلًا مِّن﴾.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ كانَ أهلُ الجنةِ وأهلُ النارِ، يكونونَ مُخْتَلِطينَ، فَيُفَرِّقُ هؤلاءِ [عنْ هؤلاءِ][2] لأنهمْ يكونونَ[3] في الابْتِداءِ مَجموعينَ، ولذلكَ سَمَّى ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧والتغابن: ٩] ويومَ ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، ثم يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ كقولِهِ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ولذلكَ سَمَّى ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١و..].

وأصْلُ قولِهِ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ ليسَ على الأمرِ في الحقيقةِ أنِ افْترقوا، ولكنْ على حقيقةِ التفريقِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وأصْلُ الامْتِيازِ الافْتِراقُ والاعْتِزالُ، وبِهِ يقولُ أبو عَوْسَجَةَ والقُتَبيُّ: إنَّ الامْتِيازَ، هو التَّفَرُّقُ والتَّنَحي.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: عَهْدُ خِلْقَةٍ وبَيِّنَةٍ؛ إذْ قد جَعَلَ اللهُ تعالى في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ بَيِّنَةً[4] تَشْهَدُ على وحدانيتِهِ، وجَعَلَ العبادةَ لهُ، وصَرْفَها[5] عَمَّنْ دونَهُ، فَنَقَضوا ذلكَ العهدَ، وصَرَفوا العبادةَ إلى غيرِهِ والألوهيَّةَ.

والثاني: ما أخَذَ عليهِمْ مِنَ العَهدِ على ألْسُنِ الرسُلِ والأنبياءِ مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ.

والثالثُ: ما جَعَلَ فيهمْ مِنَ الحاجاتِ والشَّهواتِ التي يَحْمِلُهُمْ قَضاؤها مِنْ عندِهِ على صَرْفِ العبادةِ إليهِ والشكرِ لَهُ على نَعْمائِهِ وجَعْلِ الألوهيَّةِ لهُ، ويَمْنَعُهُمْ صَرْفَها إلى غَيرِهِ وجَعْلَها لِمَنْ دونَهُ، فَنَقَضوا ذلكَ كلَّهُ، وتَرَكوهُ.

فإنْ قيلَ: ذَكَرَ عبادةَ الشيطانِ، ولا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبادةِ الشيطانِ، ولا يَعْبُدُهُ، بل كلٌّ يَنْفِرُ[6] عنْ عبادتِهِ، ويَهْرُبُ منهُ [قيلَ: إنَّ هذا][7] يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحَدُهُما: يَحْتَمِلُ أنهُ يُريدُ مِنَ الشيطانِ المَرَدَةَ مِنَ الكَفَرَةِ والأئِمَّةِ منهمْ، الذينَ صَرَفوهُمْ عنْ عبادةِ اللهِ؛ سُمُّوا شيطاناً لِما بَعُدوا عنْ رحمةِ اللهِ، شَطَنَ أي بَعُدَ كقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

والثاني: نَسَبَ تلكَ العبادةَ إلى الشيطانِ، وأضافَها إليهِ، وإنْ كانوا هُمْ لا يَقْصِدونَ بِعبادَتِهِمُ الشيطانَ لِما بأمْرِهِ يَعْبُدونَ [ما يعْبُدونَ][8] مِنَ الأصنامِ، فَنَسَبَ إليهِ بالأمْرِ، أو لِما كانَ منهُ بِدايةُ الأمْرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عداوتُهُ لنا ظاهرةٌ بَيِّنَةٌ في كلِّ شيءٍ حتى في المَأكلِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ كقولِهِ /٤٤٨ ـ أ/ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا﴾ الآيَة [الأعراف: ٢٠] فهو يريدُ أنْ يُوقِعَنا، فهو عَدُوٌّ لنا.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي اعْبُدوني فإنَّ عِبادَتي هي[9] الصراطُ المُسْتَقيمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَضَلَّ﴾ أي أهلكَ، وهو ما أهْلكَ مِنَ القرونِ المُتَقَدِّمَةِ نَحْوَ عادٍ وثمودَ وقروناً غَيرَ ذلكَ، والإضلالُ يكونُ الإهلاكَ في اللغةِ، ويَحْتَمِلُ على حقيقةِ الإضلالِ عنِ الهُدَى. ثم هو يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحدُهُما: إنْ رأيتُمْ، وعَلِمْتُمْ أنهُ قد أهْلَكَ اللهُ خَلْقاً كثيراً بإبليسَ بما ضَلّوا به، واسْتأصَلَهُمْ لذلكَ، فكونوا أنْتُمْ يا معشرَ أهلِ مكةَ على حَذَرٍ منهُ لئلّا يَنْزِلَ بكُمْ كما نَزَلَ بأولئكَ بِضَلالِهِمْ بِهِ، واللهُ أعلَمُ ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ أنهُ فَعَلَ ذلكَ بهِمْ؟ يُخَرَّجُ على التَّعْييرِ والتوبيخِ لهمْ لِتَرْكِ هؤلاءِ والنظرِ في أمْرِ أولئكَ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: يكون. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: ما. (٥) في الأصل وم: ويصرفها. (٦) في الأصل وم: يفر. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكنه. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: هو.

والثاني: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: جُموعاً كثيرةً. وقالَ بعضُهُمْ: خَلْقاً كثيراً. وقالَ بعضُهُمْ أُمماً كثيرةً، وكلُّهُ واحدٌ.

وأصلُهُ مِنْ قولِكَ: جَبَلَهُمْ على كذا، أي طَبَعَهُمْ؛ ويُقرأُ: جُبْلاً وجُبُلًا وجِبْلاً وجِبِلاً بِرَفْعِ الجيمِ وخَفْضِها وتشديدِ اللامِ[1].

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: الجِبِلَّةُ الخِلْقَةُ

الآيتان ٦٣ و٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ادْخُلوها اليومَ بما كُنْتُمْ تكَذِّبونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي نَطْبَعُ على أفواهِهِمْ فلا يَتَكَلَّمونَ ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ كأنهمْ، واللهُ أعلَمُ، لما أنكروا كُفْرَهُمْ وشِرْكَهُمْ وعَمَلَهُمُ الذي عَمِلوهُ في الدنيا كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وأمثالَهُ، عندَ ذلكَ يأذَنُ اللهُ سائرَ جوارحِهِمْ وأركانِهِمْ بالنطقِ والشهادةِ عليهِمْ بما عَمِلوا كقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ الآية [النور: ٢٤] وقولِهِ ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٠]. ثم تَنْطِقُ ألسِنَتُهُمْ حتى يُعاتِبوا الجَوارِحَ في شهادَتِها عليهِمْ بقولِهِ: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وفيهِ أنَّ النطقَ والكلامَ الذي يكونُ مِنَ اللسانِ لا يكونُ، لأنهُ لسانٌ، أو لِنَفْسِ اللسانِ، ولكنْ لِلُطْفٍ يَجْعَلُ اللهُ ذلكَ في اللسانِ، فَيَنْطِقُ. فحينما جَعَلَ ذلكَ اللطفَ والمَعْنَى وفي أيّةِ جارحةٍ ما جَعَلَ نَطَقَتْ، وتكَلَّمَتْ، ولو كانَ النُّطْقُ والكلامُ لِنَفْسِ اللسانِ لكانَ يَجِبُ أنْ يَنْطِقَ لسانُ كلِّ ذي لسانٍ لِما لهُ اللسانُ. فإذا لم يَنْطِقْ دلَّ أنهُ لِلُطْفٍ جَعَلَ ما فيهِ بهِ يَنْطِقُ، ويَتَكَلَّمُ. فحيثما جَعَلَ المَعْنَى واللطفَ نَطَقَ، وتكَلَّمَ. وكذلكَ السمعُ والبَصَرُ وكلُّ جارحةٍ منهُ مِنَ اليَدِ والرجلِ وغيرِهِما، جَعَلَ لُطْفاً ومَعْنًى، بهِ يُسْمَعُ السمعُ، وبهِ يُبْصِرُ البصرُ، وبهِ تأخذُ، وتَقْبِضُ اليدُ، وبهِ تمشي، وتذهَبُ الرجلُ. فأينما جَعَلَ ذلكَ اللطفَ وذلكَ [المَعْنَى كانَ منهُ ذلكَ ما كانَ مِنَ السمعِ والبَصَرِ وغيرِهِ وكذلكَ][2] الأطعمةُ والمياهُ، ليسَ الغِذاءُ في عَيْنِها، ولكنْ في لُطْفٍ، جَعَلَ اللهُ فيها لُطْفاً ومَعْنًى، يَصيرُ ذلكَ غذاءً لهمْ.

الا تَرَى أنَّ عَينَ الطعامِ [لا يَبْقَى في المَعِدَةِ][3] فَيُرْمَى بهِ، ويُنْتَفَعُ بما فيهِ مِنَ الغِذاءِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا﴾ أعْيُنَ الضُّلالِ، [فلم يُبْصِروا][4] الطريقَ، فأنَّى يُبْصِرونَ، وقد فَقَأْنا أعْيُنَهُمْ؟

وقالَ بعضُهُمْ: لو نشاءُ لَحَوَّلْنا أبصارَهُمْ مِنَ الضَّلالةِ إلى الهُدَى. فلو [طَمَسْنا، أي حوَّلْنا الكُفرَ عنهُمْ][5] لاسْتَبَقُوا الصِّراطَ؛ يقولُ: لأبصَروا طريقَ الهُدَى.

ثم قولُهُ[6]: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يقولُ: فَمِنْ أينَ يُبْصِرونَ الهُدَى إنْ لم أُعَمِّ عليهِمْ طريقَ الكُفْرِ؟

الآية ٦٧ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي لأقْعَدْناهُمْ على أرجُلِهِمْ لا يَتَقَدَّمونَ، ولا يَتَأَخَّرونَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على خِلافِ هذا، على التمثيلِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو طَمَسْنا أعْيُنَهُمْ، وأعْمَيناهُمْ، فاسْتَبَقوا الطريقَ ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟ أي لا يُبْصِرونَ الطريقَ. فَعَلَى هذا إذا طَمَسْنا أعْيُنَ القُلوبِ، فأعْمَيناها ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الهُدَى؟ أي لا يُبْصِرونَ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، على

---

(١) في الأصل وم: والتشديد انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ٢١٧. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: يبقى. (٤) في الأصل: فأبصروا، في م: فأبصروا فلم يبصروا. (٥) في الأصل وم: طمست أي حولت الكفر. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) و (٨) ساقطة من الأصل وم.

التمثيلِ: لو حَوَّلْنا ظاهِرَ خِلْقتِهِمْ[1]، وصَيَّرْناها خنازيرَ وقِرَدَةً حتى ذَهَبْنا بِمنافعِ أنفُسِهِمُ الظاهرةِ[2] ﴿فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾. فَعَلَى ذلكَ إذا مَسَخْنا قلوبَهُمْ، وحَوَّلْناها عنْ مَكانِها ما انْتَفَعوا بها كما يُنْتَفِعونَ بظاهِرِ جوارِحِهِمْ[3] على التمثيلِ لا على التحقيقِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ دلالةُ أنَّ للهِ في ذلكَ صُنْعاً، إذْ لو لم يكُنْ في ما يَختارونَ مِنَ الأفعالِ والأعمالِ صُنْعٌ لم يكُنْ [لِتَوَعُّدِهِ إيّاهُمْ][4] على إذهابِ ذلكَ وتَحْويلِهِ عن مَكانِهِ مَعْنًى. فَدَلَّ أنَّ لهُ صُنْعاً في ذلكَ وفِعْلاً.

قالَ الحَسَنُ وقَتادةُ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فَتَرَكْناهُمْ عُمْياً، يَتَرَدَّدونَ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي لأَقْعَدْناهُمْ على أرجُلِهِمْ على ما ذَكَرَ ﴿فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يقولُ: واللهُ أعلَمُ: ما اسْتَطاعوا أنْ يَتَقَدَّموا، ويَتَأَخَّروا.

وابنُ عباسٍ ﷺ يقولُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ أي لو شاءَ غَيَّرَ أعْيُنَ الضُّلّالِ، فلم يُبصِروا الطريقَ، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟ أي كيفَ يُبْصِرونَ؟ أو نَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

ومُقاتِلٌ يقولُ: لو شاءَ طَمَسَ أعْيُنَهُمْ ظاهرةً ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟ أي لا يُبْصِرونَ، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ آنفاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التمثيلِ على ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

ويَحْتَمِلُ على التحقيقِ: أنَّ مَنْ قَدَرَ على الطمْسِ أوِ المَسْخِ وما ذَكَرَ مِنَ النَّكْسِ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ عنِ البَعْثِ وغَيرِهِ؛ إذْ خَلْقُ الإنسانِ لِلطَّمْسِ أو المَسْخِ خاصَّةً لا لعاقِبَةٍ تُقْصَدُ ليسَ بحكمةٍ [فيكونُ فيهِ إثباتُ البَعْثِ][5] أو يَذْكُرُ أنهُ لو شاءَ لَطَمَسَهُمْ، ولَمَسَخَهُمْ، لكنهُ تركَهُمْ، فلم يَطْمِسْهُمْ، ولم يَمْسَخْهُمْ، لِيَبْقَوا في النعمةِ، لِيَشْكُروا نِعمَهُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي نُعَمِّرُهُ حتى يُدْرِكَهُ الهَرَمُ والضَّعْفُ؛ يقولُ: نَرُدُّهُ ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ الأوَّلِ، لا يَعْقِلُ فيهِ كَعَقْلِهِ الأوَّلِ كقولِهِ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ[6] مَنْ فَعَلَ هذا، أو قَدَرَ على هذا، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ويَسْتَأْدي بِهِ شُكْرَهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: المَطْموسُ هو الذي لا يكونُ بَينَ جَفْنَيهِ شَقٌّ ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي فَتَحَوَّزوا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: طَمَسْنا أعيُنَهُمْ، أي أعْمَيناهُمْ، والمَسْخُ هو تَغْييرُ الصُّوَرِ والأبدانِ. وقولُهُ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي نُصَيِّرْهُ ضعيفاً بعد أنْ كانَ قوِيّاً.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ نَزَلَ هذا، واللهُ أعلَمُ عندَ قولِهِمْ: إنهُ شاعرٌ، وإنهُ كذّابٌ. فأخبَرَ ﷺ أنهُ لم يُعَلِّمْهُ الشعرَ تكذيباً لهمْ ورَدّاً عليهِمْ أنهُ شاعرٌ وأنَّ هذا القرآنَ شِعْرٌ؛ جَعَلَ اللهُ عَجْزَ رسولِهِ عنِ القِيامِ بإنشادِ الشعرِ بَعْضَ آياتِهِ، مِنْ آياتِ رسالتِهِ كما جَعَلَ عَجْزَهُ عنْ تِلاوةِ الكتابِ مِنْ قَبْلُ وكتابَتِهِ وخَطِّهِ بِيَمينِهِ آيةً مِنْ آياتِ رسالَتِهِ لِيُعْلِمَ أولئكَ الذينَ قَذَفوهُ بالشِّعْرِ والافْتِراءِ مِنْ نَفْسِهِ والكَذِبِ على اللهِ وبالسِّحْرِ أنهُ إنما أُخْبِرَ عنْ وَحْيٍ مِنَ اللهِ لا ما يقولونَ هُمْ، وهُمْ على يَقينٍ وعِلْمٍ أنهُ ليسَ شاعِراً، ولا ساحِراً، ولا كذّاباً لِما لم يَرَوْهُ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ منهُمْ مِمَّنْ[7] يَعْلَمُ ذلكَ، ولا كانَ عندَهُ مِنْ كُتُبِهِمْ [شيءٌ، ولا أُخِذَ عليهِ][8] كَذِبٌ قَطُّ.

لكنهمْ نَسَبوهُ إلى ما نَسَبوهُ مِنَ الشِّعْرِ والسِّحرِ والكَذِبِ تَعَنُّتاً منهمْ وعِناداً، يُلَبِّسونَ أَمْرَهُ بذلكَ على أتباعِهِمْ وسَفَلَتِهِمْ لئلا تَذْهَبَ رِئاسَتُهُمْ ومَنْفَعَتُهُمْ.

---

(١) من م، في الأصل: خلقهم. (٢) في الأصل وم: ظاهرة. (٣) في الأصل وم: جواهرهم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لتوعدهم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: في. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: منها أخذ ذلك ولا اخذ على، في م: منها أخذَ ذلك على.

وفي قولِهِ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ حينَ[1] أخبَرَ أنهُ لم يُعَلِّمْهُ الشِّعْرَ، وقد أعطَى لهُ جميعَ أسبابِ الشِّعْرِ، وقالَ في [حقّ][2] القرآنِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] إنهُ كانَ مِنَ اللهِ لُطفٌ سِوَى السَّبَبِ في ما أخبَرَ أنهُ قد علَّمَهُ.

دلَّ أنَّ التعليمَ/٤٤٨ ـ ب/ لهُ في ما كانَ منهُ بِلُطفٍ منهُ سِوَى السَّبَبِ لا بنفسِ السَّبَبِ؛ إذْ نفسُ السَّبَبِ قد كانَ لهُ في الأمرَينِ جميعاً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أنْ يُشغَلَ بشيءٍ مِمّا يُتَلَهَّى بِهِ. والشِّعْرُ في الأصلِ إنما جُعِلَ للتَّلَهِّي بِهِ والتَّلَذُّذِ. ولِذلكَ حِيلَ بَيْنَهُ وبَينَ طبْعِهِ على إنْشادِ الشِّعْرِ لِيكونَ أبداً مُشتَغِلاً بما هو حِكْمةٌ وعِلْمٌ وفي ما هو أمرُ اللهِ لا بِما فيهِ التَّلَهِّي واللَّهْوِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هذا القرآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ لِما نَسُوهُ مِنْ أمْرِ اللهِ وَوَعْدِهِ ومِمّا لهمْ ومِمّا عليهمْ؛ يُذَكِّرُهُمْ ما نَسُوهُ، وتَركوهُ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يُبَيِّنُ لهمْ مالَهُمْ وما عليهِمْ، أو يُبَيِّنُ لهمْ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى، أو يُبَيِّنُ لهمْ أنهُ مِنَ اللهِ جاءَ، ومِنْ عندِهِ نَزَلَ، لا مِنْ عندِ المخلوقينَ، أو ذِكْرٌ لأهلِ الكتابِ، يُذَكِّرُهمْ ما[3] نَسُوهُ مِمّا كانَ في كُتُبِهِمْ مِنْ بَعْثِهِ[4] وصِفَتِهِ وما عليهِمُ القيامُ بِهِ، وما ليسَ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ لِمُشرِكي العربِ أنهُ رسولٌ وأنَّ هذا القرآنَ مِنْ عندِهِ جاءَ بِهِ، وكلُّ كُتُبِ اللهِ ذِكْرٌ مُبينٌ ورحمةٌ ونورٌ وشِفاءٌ على ما أخبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنْ كانَ عاقلاً؛ يقولُ: لِيُنْذِرَ بالقرآنِ مَنْ لهُ عقلٌ حيٌّ، فيؤمنَ ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي السَّخْطةُ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في عِلْمِ اللهِ لا يؤمنونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي مؤمناً، لأنَّ اللهَ ـ تبارَكَ ـ سمَّى المؤمنَ حيًّا في غَيرِ آيةٍ والكافرَ مَيْتاً.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي لِتَقَعَ[6] النِّذارةُ، وتَنفعَ مَنْ كانَ حيّاً، أي مؤمناً على ما ذَكَرْنا، وإنْ كانَ يُنْذِرُ الفريقَينِ جميعاً كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية: ١١] هو يُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ومَنْ لم يَتَّبِعِ الذِّكرَ. لكنَّ النِّذارةَ إنما تقَعُ، وتَنفَعُ مَنِ اتَّبعَ الذِّكْرَ، وخَشِيَ الرحمنَ خاصّةً كقولِهِ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. هو يُذَكِّرُهُمْ جميعاً، لكنَّ المَنْفَعَةَ للمؤمنينَ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي مَنْ يطلُبُ بحياتِهِ الفانيةِ الحياةَ الدائمةَ ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ القولُ الذي قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣].

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ أنَّ قولَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ونحوَهُ أنهُ في الظاهِرِ حرفُ استِفْهامٍ، لكنهُ مِنَ اللهِ على الإيجابِ والإلزامِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الخَبَرِ أنْ قد رَأوا ما خَلَقَ مِنَ الأنعامِ وما ذَكَرَ.

والثاني: على الأمرِ بالرُّؤيَةِ[7] والنظرِ في ما ذَكَرَ، أي فَلْيَرَوا.

فإنْ كانَ على الخَبَرِ أنهمْ قد رَأوا ما خَلَقَ اللهُ مِنَ الأنعامِ فهلّا تَفَكَّروا، واعتَبَروا في ما خَلَقَ لهمْ مِنَ الأنعامِ وغَيرِها أنهُ لم يَخْلُقْ لهمْ ذلكَ عَبَثاً باطلاً [ولكنْ لِحِكمةٍ. ولو لم يكُنْ بَعْثٌ على ما يقولونَ همْ كانَ خَلْقُ ذلكَ عَبَثاً باطلاً][8].

[أو يقولُ: إنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ ذلكَ مِنَ الأنعامِ وتَسْخيرِها ما لو تَرَكَها كلَّها؛ لَمْ يُمِتْها لامْتَلأتِ الأرضُ، لا يُحتَمَلُ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ، ولا يَقْدِرَ على البعثِ والإحياءِ بعد الموتِ][9].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: فيما. (٤) في الأصل وم: نعته. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لتنفع. (٧) في الأصل وم: على الرؤية. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.

أو يقولُ[1]: إنَّ مَنْ قَدَرَ على تصويرِ ما ذَكَرَ مِنَ الأنعامِ وغَيرِهُ في الأرحامِ وتركيبِ ما رَكَّبَ فيها مِنَ الأعضاءِ والجوارحِ في الظلماتِ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَخْفَى عليهِ شيءٌ، أو يُعْجِزَهُ، أو يَفْعَلَ ذلكَ على التدبيرِ الذي فَعَلَ بلا حكمةٍ.

أو يذكُرُ أنهُ خَلَقَ لهمْ منَ الأنعامِ، وذَلَّلَها لهمْ، وجَعَلَ لهمْ فيها مِنَ المَنافعِ ما ذَكَرْنا بلا شُكْرٍ يَلْزَمُهُمْ، يَسْتأدي على ذلكَ شُكْرَ ما أنْعمَ عليهِمْ. على هذا لو كانَ على الأمْرِ بالرؤيةِ في ما خَلَقَ والنظرِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ يَحْتمِلُ ما عَمِلَتْ أيدي الخَلْقِ مِنَ الزراعةِ والغَرْسِ وغَيرِ ذلكَ مما يَعْمَلُهُ الخَلْقُ؛ نَسَبَ ذلكَ إلى نفسِهِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ كقولِهِ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقولِهِ: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] أي بِقُوَّتي ونَحْوَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قادرونَ على الانْتِفاعِ بها واسْتِعْمالِها؛ يقولُ الرجلُ في ما لهُ فيهِ حقيقةُ الملكِ: أنا غَيرُ مالكٍ عليهِ، إذا كان غيرَ قادرٍ على الانْتِفاعِ به، ولا مالكٌ على اسْتِعمالِهِ.

وقيلَ: ﴿مَـٰلِكُونَ﴾ أي ضابطونَ قادرونَ على إمْساكِها؛ يقالُ: فلانٌ غيرُ ضابطٍ على إبلِهِ ودابَّتِهِ، وهما واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧٢ و٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ يُخْبِرُ عنْ أنواعِ ما جَعَلَ لهمْ مِنَ الأنعامِ، وأنْعَمَ عليهِمْ لِيَسْتأدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٧٤ و٧٥ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يُخْبِرُ عن سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ بَصَرِهِمْ لاتِّخاذِهِمُ الأصنامَ آلهةً وعبادَتِهِمْ إياها رَجاءَ النَّصْرِ لهمْ وتركِهِمْ عبادةَ اللهِ على وجودِ المَعونةِ والنَّصْرِ منهُ وجَعلِهِ كلَّ شيءٍ لهمْ.

ثم يكونُ رجاؤُهُمْ ذلكَ[2] ما قالوا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [وقالوا][3]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وذلكَ في الآخِرَةِ.

ويَحْتَمِلُ رجاءُ النَّصْرِ لهمْ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ في الدنيا دَفْعَ[4] ما يَنْزِلُ بهمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ثم أخْبَرَ أنَّ الأصنامَ التي يَعْبُدونها وما رَجَوا منها ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ وما رَجَوا مِنْ شَفاعَتِهِمْ والنَّصْرِ لهمْ.

وأخبَرَ أنَّ ما عَبَدوا دونَهُ يَصيرُون أعداءً لهمْ بقولِهِ[5]: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] هذا على تأويلِ بعضِهِمْ مِنْ أهلِ التأويلِ بِجَعْلِ الأصنامِ جُنداً عليهِمْ وأعداءً لهمْ على ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي المُشْركونَ جُندٌ للآلهةِ التي يَعْبُدونها، أي هُمْ يَتَعَصَّبونَ[6] لها، ويقومونَ في دَفْعِ مَنْ هَمَّ بها فَساداً وإهلاكاً؛ أعني أصنامَهُمُ التي كانوا يَعْبُدونها كقولِهِ ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في الآخِرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كانَ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ لرسولِ اللهِ أقوالٌ مُخْتَلِفَةٌ: مَرَّةً كانَ منهُمْ ما ذَكَروا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ومَرَّةً قالوا: إنهُ ساحِرٌ وإنهُ كَذّابٌ وإنهُ شاعرٌ، ومَرَّةً قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] ومَرَّةً قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] ومَرَّةً طَعَنوا فيهِ وفي ما أقامَ مِنَ الحُجَجِ.

---

(١) من م، في الأصل: يقولوا. (٢) في الأصل وم: بذلك. (٣) في الأصل وم: و. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) في الأصل وم: يقيضون.

ولا نَدْري أيَّ قولٍ كانَ منهمْ لهُ؟ فَيَحْزَنَ عليهِ، حتى قالَ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي لا تَحْزَنْ على قولِهِمْ فإنا نَعْلَمُ ما يُسِرّونَ وما يُعْلِنونَ، فَنَحْفَظُ عليهِمْ ذلكَ، ونُكافِئُهُمْ على ذلكَ، أو نَعْلَمُ ما يُسِرّونَ وما يُعْلِنونَ، فَنَنْصُرُكَ عليهِمْ، ونُعينُكَ.

[ويَحْتَمِلُ][(١)] أنْ يكونَ حُزْنُهُ عليهِمْ إشفاقاً عليهِمْ لِما كانَ يعلَمُ نُزولَ العذابِ بهِمْ والهلاكَ لِعنادِهِمْ ومكابرتِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هذا يُخَرَّجُ على الوجهَيْنِ:

[أحَدُهُما: على الخَبَرِ أنْ قد رأى الإنسانُ أنّا قد خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فلا يُفَكِّرُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ الإنسانِ مُبْتَدَأً مِنْ نُطْفَةٍ [غيرُ قادرٍ][(٢)] على إعادتِهِ.

والثاني][(٣)]: على الأمْرِ بالرُّؤيةِ، والنَّظَرِ، أي فَلْيَرَ الإنسانُ، ولْيَنْظُرْ أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ الإنسانِ مُبْتَدَأً مِنْ نُطْفَةٍ قادرٌ[(٤)] على إعادتِهِ أي إعادةُ الشيءِ في الشاهدِ أهْوَنُ، وأيْسَرُ مِنِ ابْتِدائِهِ؛ إذْ قد يُحْتَذَى، ويُصَوَّرُ، بَعدَ ما يَقَعَ البصرُ على الشيءِ، ويُرَى، ولا سبيلَ إلى احْتِذاءِ ما لم يَرَوا ولا تصويرِ ما لم يُعايِنوا.

احْتَجَّ اللهُ عليهِمْ بالشيءِ الظاهرِ الذي يَعْلَمُ كلُّ [واحدٍ][(٥)] أنهُ كذلكَ مِنْ غيرِ تَفَكُّرٍ ولا تأمُّلٍ، والاحْتِجاجُ عليهِمْ بالأشياءِ التي لم يَذْكُرْ أبْلَغُ وأكْثَرُ نَحْوُ خَلْقِ الإنسانِ مِنْ هذهِ النُّطْفَةِ على الصورةِ التي صَوَّرَها، والنَّسَمَةِ التي خَلَقَها فيها ما لوِ اجْتَمَعَ حكماءُ البَشَرِ كلُّهمْ لِيَعْرِفوا[(٦)] كَيفيَّةَ خَلْقِهِ منها مِنْ تركيبِ العَظْمِ والشَّعْرِ والعَينِ والبَصَرِ والسَّمْعِ والعَقْلِ وجميعِ الجوارحِ ما قَدروا /٤٤٩ ـ أ/ على دَرَكِ ذلكَ، أو لوِ اجْتَمَعوا لِيَعْرِفوا[(٧)] كيفيةَ غذائِهِمْ بالأطعمة والأشربَةِ التي جَعَلَها غِذاءً لهمْ، والقُوَّةَ التي بها يَتَقَوَّونَ[(٨)] على كلِّ أمرٍ، أنْ كيفَ قَدَرَ، وقَسَمَ على السواءِ في الجوارحِ كلِّها الموادَّ التي [بها][(٩)] يَنْمُونَ، ويَزيدونَ على الاسْتِواءِ ما لو زادَ في بعضِها مِنْ قِوَى ذلكَ الطعامِ والشرابِ دونَ بعضٍ، يَزدادُ قُوَّةً على بعضٍ، ونَحْوُ ذلكَ منَ العجائبِ، ولا سَبيلَ إلى مَعْرِفةِ ذلكَ البَتَّةَ بَعْدَ طولِ التَّفكُّرِ والتَّأمُّلِ. لكنه احْتَجَّ بالشيءِ الظاهرِ لِيُدْرِكوا بالبديهةِ، ولا يُدْرِكونَ الآخَرَ إلّا بَعدَ التأمُّلِ والتَّدَبُّرِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي جَدِلٌ بَيِّنٌ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ لَمّا ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ لهُ ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما][(١٠)]: أي غَفَلَ عنِ القُدْرَةِ في خَلْقِ نفسِهِ، مالو نَظَرَ، وتَفَكَّرَ، لَعَرَفَ أنهُ قادرٌ على الإعادةِ.

والثاني[(١١)]: غَفَلَ عنِ الحكمةِ في ابْتِداءِ خِلْقَةِ نفسِهِ. ثم يُخَرَّجُ هذا على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ لو نَظَرَ، وتَفَكَّرَ في خَلْقِ[(١٢)] نفسِهِ أنهُ خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم حُوِّلَتِ النطفةُ عَلَقَةً، وحُوِّلَتِ العَلَقَةُ مُضْغَةً، وحُوِّلَتِ المُضْغَةُ خَلْقاً وإنساناً تاماً مُتْقَناً، ثم صُيِّرَ بحيثُ يأخُذُ في النقصانِ بَعدَ ما كانَ تاماً.

ثم مَنْ فَعَلَ هذا في الشاهدِ أنْ يُحْكِمَ الشيءَ، ويُتْقِنَهُ، ويُتَمِّمَهُ، ثم يَهْدِمَهُ بلا عاقبةٍ، يَقْصِدُها[(١٣)]، كانَ غيرَ حكيمٍ. فَعَلى ذلكَ كانَ ما أحْكَمَ اللهُ مِنَ الخَلْقِ، وأتْقَنَهُ، وتَمَّمَهُ، ثم جَعَلَ يُنْقِصُ منهُ، ويُوهِنُهُ. فلو لم يَكُنْ أعادَهُ[(١٤)]، وخَلَقَهُ ثانياً، كانَ خارجاً عنِ الحكمةِ، ولو نَظَرَ في ابْتِداءِ خَلْقِ نفسِهِ لَعَرَفَ أنَّ اللهَ يُعيدُهُ، ويُنْشِئُهُ ثانياً.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: لقادر. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وإن كان. (٤) في الأصل وم: لقادر. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أن يعرفوا. (٧) في الأصل وم: على أن يعرفوا. (٨) من م، في الأصل: ينفرون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وجوها: أحدها. (١١) في الأصل وم: والثالث. (١٢) في الأصل وم: حق. (١٣) في الأصل وم: يقصد به. (١٤) في الأصل وم: إعادته.

والثاني: لو نَظَرَ، وتَفَكَّرَ في ابْتِداءِ خَلْقِ نفسِهِ أنهُ كيفَ دَبَّرَهُ في تلكَ الظلماتِ الثلاثِ، وقَدَّرَهُ على أحْسَنِ تقديرٍ في ذلكَ، فلو نَظَرَ، وتَفَكَّرَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على تدبيرِهِ وتقديرِهِ في الظلماتِ الثلاث على ما دَبَّرَهُ، وقَدَّرَهُ، قادرٌ على إعادتِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي هو أهْوَنُ في عقولِكُمْ وتقديرِكُمْ، أهْوَنُ مِنِ ابْتِدائِهِ.

فإذا قَدَرَ على الابْتِداء فهو على الإعادةِ أقْدَرُ وأمْلَكُ، إنَّ ذلكَ في عقولِكُمْ أهْوَنُ وأيْسَرُ، وإلّا ليسَ في وصفِ اللهِ تعالى أنَّ شيئاً أهْوَنُ عليهِ مِنْ شيءٍ، بل الأشياءُ كلُّها تحتَ قولِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧ و..] مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ أو نونٌ أو شيءٌ مِنْ ذلكَ. لكنهُ عَبَّرَ بهِ لأنهُ أخفُّ الحروفِ[1] على الألْسُنِ وأيْسَرُها[2]، وأقصرُ كلامٍ، وأوجَزُهُ، يُؤَدَّى بهِ المَعْنَى، ويُفْهَمُ منهُ المُرادُ.

والثالثُ: أنهُ خَلَقَ هذهِ الأشياءَ والجواهرَ كلَّها سِوَى البَشَرِ للبَشَرِ ولِمنافِعِهِمْ. فلو لم يكُنْ بَعْثٌ ولا نَشْأةٌ أُخرَى كان خَلْقُ هذهِ الأشياءِ لهمْ عَبَثاً باطلاً.

ويكونُ قولُهُ: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ أي غَفَلَ عنْ بَدْءِ خَلْقِهِ؛ إذْ بَدْءُ خَلْقِهِ إمّا أنْ كانَ مِنْ ماءٍ [وإمّا مِنْ][3] ترابٍ. فَعَلَى ذلكَ إذا أفناهُ يَصيرُ ماءً أو تُراباً، فَيُعيدُهُ منهُ على ما أنْشَأهُ منهُ بَدْءاً.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾.

الآية ٧٩ [وقولِهِ تعالى][4]: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ الباطنيَّةِ وفَسادِ مَذْهَبِهِمْ [بوجهَينِ]:

أحَدُهما: حينَ[5] قالوا: إنَّ إعادةَ الخَلْقِ وإنشاءَهُ، ليسَ على هذهِ البُنْيَةِ والصورةِ التي أنْشَأها بَدْءاً، ولكنْ يُنْشِئُ نَفْساً روحانيَّةً على خِلافِ ما شاهَدوها، وعايَنوها. فالآيةُ تُكذِّبُهُمْ، وتَنْقُضُ قولَهُمْ حينَ[6]: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أخبَرَ أنهُ يُحيي العظامَ التي أنكَروا هِمْ إحياءَها، واسْتَبْعَدوا ذلكَ. وعلى ذلكَ قالَ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

احتَجَّ عليهِمْ بِعِلْمِهِمُ النَّشأةَ الأولَى ولإنكارِهِمْ[7] النشأةَ الأخرَى؛ فلو كانَ [البَدْءُ والإعادةُ][8] على خلافٍ، لم يكُنْ لِلاحْتِجاجِ عليهِمْ بذلكَ مَعْنىً. فَدَلَّ أنهُ يُنْشِئُهُمْ، ويُعيدُهُم على الهَيئَةِ الأولَى.

والثاني: يَنْقُضُ عليهِمْ قولَهُمْ أيضاً حينَ[9] قالوا: يُوصَلُ إلى مَعْرِفةِ ذلكَ مِنَ الذي يُعَلِّمُهُ الرسولُ، ويُخْبِرُهُ دونَ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ والتَّدبُّرِ. فلو كانَ على ما يقولونَ[10] لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ ولا لقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨] ولا لقولِهِ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] مَعْنىً. فَدَلَّ أنهُ قد يُوصَلُ إلى معرفةِ ذلكَ بالتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ كما يُوصَلُ بِخَبَرِ الرسولِ الذي قد أظْهَرَ صدقَهُ لِلخَلْقِ، فَتَلْزَمُهُ الحُجَّةُ في هذا كما تَلْزَمُهُ في ذلكَ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: هو نوعٌ مِنَ الشَّجَرِ، يُقالُ: المَرْخُ، كانوا يُورونَ منهُ النارَ. وقيلَ: هو الزيتونُ الذي يُسْرَجُ منهُ. وتأويلُهُ: أنَّ الشَّجَرَ الأخضَرَ، خُضرَتُهُ إنما تكونُ مِنَ الماءِ، والماءُ تُطْفِئُ النارَ، والنارُ تأكُلُ الحَطَبَ والخَشَبَ. فَمَنْ قَدَرَ على الجَمْعِ بينَ المُتَضادَّينِ وحَفِظَ كلَّ واحدٍ منهما عنْ صاحبِهِ مِمّا السبيلُ منها التَّنافُرُ والتدافُعُ [فهو قادرٌ][11] على البَعْثِ، ولا[12] يُعجِزُهُ شيءٌ.

وقال بعضُهُم: قولُهُ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ هو أنشأَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ [ما

---

(١) في الأصل وم: حروفه. (٢) في الأصل وم: وأيسره. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، في الأصل: يقول. (١١) في الأصل وم: القادر. (١٢) في الأصل وم: وأنه لا.

تَتنزَّهونَ بهِ][1] وتَتَلَذَّذونَ ما دامَ أخضرَ. فإذا أدرَكَ، وبلَغَ، تنتفِعونَ [بِثِمارِهِ وفواكِهِه][2] ثم يَصيرُ حَطَباً، توقدونَ منه[3] النارَ، وتَصطَلونَ. فَمَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرْنا لا يُحتَمَلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ. أو مَنْ فَعَلَ ما ذَكَرَ لا يُحتَمَلُ أنْ يَفعَلَهُ عَبَثاً باطِلاً.

فلو كانَ على ما قالهُ أولئكَ الكَفَرَةُ: أنْ لا بَعْثَ، ولا نُشورَ، كانَ فِعْلُ ذلكَ عَبَثاً باطِلاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ﴾ يذكُرُ، واللهُ أعلَمُ: أوَ ليسَ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ السمواتِ والأرضِ مُبْتَدَأً لا مِنْ شيءٍ ولا أصْلٍ لا يُحتَمَلُ أنْ يُعجِزَهُ إعادةُ الخَلْقِ وبَعْثُهُمْ، أو يقولُ: إنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما فيهما لَقادرٌ على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وخَلْقُ المِثْلِ إعادةٌ، لأنهُ إنما يكون بعدَ هلاكِ الذينَ أنشأهُمْ وبعدَ إماتَتِهِمْ، أو يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ مَعَ بَقائِهِمْ سِواهُمْ. وفي ذلكَ ابْتِداءُ خَلْقٍ وإعادةٌ، فَيُلْزِمُهُمُ الإقرارَ بالبعثِ والقُدْرَةِ على الإعادةِ.

ثم أخبَرَ عَنْ قدرتِهِ فقالَ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو خَلَقَ كلَّ شيءٍ مِنْ جواهِرِ الأشياءِ وأفعالِهِمْ، أو هو الخَلّاقُ في الدنيا والآخِرَةِ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً: يَحتَمِلُ العَليمَ بِبَعْثِهِمْ، أو العَليمَ بِمصالحِهِمْ ومَعاشِهِمْ وما لا يَصْلُحُ، أو العَليمَ بأحوالِهِمْ وأنفسِهِمْ ما ظَهَرَ منهمْ، وما بَطَنَ، وما أَسَرّوا، وأعْلَنوا.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ يَحتَمِلُ إنما حالُهُ ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قد ذَكَرْنا معنى هذهِ الآيةِ في ما تَقَدَّمَ أنَّ كلَّ ما كانَ ويكونُ أبَدَ الآبِدينَ إنما يكونُ بـ ﴿كُن﴾ الذي كانَ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ ونونٌ ﴿فَيَكُونُ﴾ أو شيءٌ مِنْ ذلكَ إنما هو إخبارٌ عنْ سُرْعةِ نفاذِ أمْرِهِ ومشيئتِهِ، أو إخبارٌ عنْ خِفَّةِ ذلكَ عليهِ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما لا يَثْقُلُ عليكُمْ قولُ ﴿كُن﴾ فَعَلى ذلكَ لا يَثْقُلُ على اللهِ ابْتِداءُ خَلْقٍ ولا إعادَتُهُ ولا شيءٌ مِنْ ذلكَ.

ثم نَزَّهَ نفسَهُ، وبرّأها، وذَكَرَ تعاليَهُ عمّا ظَنَّ أولئكَ مِنَ البَعْثِ في خَلْقِ شيءٍ وبُطلانِهِ.

الآية ٨٣ فقالَ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تَعالى، وتَبَرّأَ عنْ أنْ يكونَ خَلْقُهُ على ما ظَنَّ أولئكَ حينَ[5] قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا / ٤٤٩ - ب/ بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]. ذلك ظَنُّ الذينَ كَفَروا، فكانَ ظَنُّهُمْ أنْ لا بَعْثَ، ولا نُشورَ.

ثم أخبَرَ أنهُ لو لم يكُن ذلكَ لكانَ خَلْقُ ما ذَكَرَ عَبثاً باطلاً، فقالَ: [﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾][6] تعالى عَنْ أنْ يَلْحَقَهُ في خَلْقِ شيءٍ عَبَثٌ أو فسادٌ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ الآية [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَ الخَلْقِ لا للرجوعِ إليهِ عَبَثاً باطلاً.

[ويَحتَمِلُ][7] أنْ يقولَ: يَتعالىَ [عنْ][8] أنْ يَثْقُلَ عليهِ إعادةُ الخَلْقِ أوِ ابْتِداؤُهُمْ، أو يَتَعالى عنْ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ القُتَبِيُّ وأبو عوسَجَةَ: ﴿رَمِيمٌ﴾ أي باليةٌ؛ يُقالُ: رَمَّ العظمُ إذا بَلِيَ، فهو رَميمٌ ورِمامٌ كما يُقالُ: رُفاتٌ ورِفاتٌ. وقولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ قالا: أرادَ الزِّنادَ[9] التي تُوري بها الأعرابُ [النارَ][10] مِنْ شَجَرِ المَرْخِ والعَفارِ. والحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ [والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين][11].

(١) يتنزهون بها. (٢) في الأصل وم: بثمارها وفواكهها. (٣) في الأصل وم: منها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: الزنود، في م: الوقود. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من م.

سورة الصافات

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ و٢ و٣ قولُهُ تعالى: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الصافاتُ، هي الطيرُ إذا صَفَّتْ أجْنِحَتَها بينَ السماءِ والأرضِ. وذُكِرَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ [أنهُ](١) قالَ: الصافاتُ والزاجراتُ والتالياتُ، كلُّها(٢) الملائكةُ. قالَ(٣): الصافاتُ؛ اصْطَفَّتِ الملائكةُ صَفًّا لِعبادةِ اللهِ ﷻ وتَسْبيحِهِ. وكذلكَ ذُكِرَ عنِ ابْنِ عباسٍ وغَيرِهِ.

إلّا أنَّ غَيرَهما(٤)، يُفَسِّرُ الزاجراتِ والتالياتِ أيَّ ملائكةٍ هُمْ. ولسْنا نَذْكُرُ عنِ ابْنِ مسعودٍ وابْنِ عباسٍ [هذا](٥) التفسيرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الزاجراتُ هُمُ الملائكةُ الذينَ يَزْجُرونَ السحابَ والأمطارَ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ هُمُ الملائكةُ يَتْلُونَ القرآنَ والوَحْيَ على الرسُلِ والأنبياءِ ﷺ.

وقالَ قتادةُ: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ أقْسَمَ اللهُ ﷻ بِخَلْقٍ مِمَّنْ(٦) خَلَقَ؛ قالَ: الصافاتُ الملائكةُ صفوفاً في السماءِ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ما ذَكَرَ اللهُ في القرآنِ مِنْ زَواجِرَ عَنِ المَعاصي والمَساوِئِ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾قالَ: ما يُتْلَى عليكُمْ في القرآنِ مِنْ أخبارِ الرسُلِ ﷺ وأنباءِ الأُمَمِ التي كانَتْ قبلَكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ هُمُ الملائكةُ الذينَ يُصَلُّونَ للهِ ﷻ صفوفاً على ما ذَكَرَ، ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ هُمُ الملائكةُ المُوكَلونَ بأرزاقِ الخَلْقِ وسَوقِها إليهِمْ سَوقاً ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ هُمُ الملائكةُ المُوكَلونَ بالتسبيحِ والتَّحْميدِ وجميعِ الأذكارِ.

ثم وجهُ القَسَمِ بالملائكةِ الذينَ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، أنه ﷻ قد عَظَّمَ شأنَ الملائكةِ وأمْرَهُمْ في قُلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ حتى قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] وقالوا(٧): ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١] [وَصَفَهُمْ](٨) اللهُ ﷻ أنهمْ ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ الآيةَ[التحريم: ٦] وأنهمْ(٩) ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٦و الأنبياء١٩] وأنهمْ(١٠) ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] الخ.

عَظَّمَ اللهُ ﷻ أمْرَ الملائكةِ ﷺ [وشأنَهُمْ في](١١) قلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ وصِدْقَهُمْ عندَهُمْ.

الآية ٤ لِذلكَ أقْسَمَ بهمْ [دلالةً](١٢) على وحدانيَّتِهِ بقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ على هذا وَقَعَ القَسَمُ. ثم أخبَرَ عَنْ صُنْعِ ذلكَ الواحدِ الذي هو إلهُكُمْ وإلهُ الخَلْقِ جميعاً، وذَكَرَ نَعْتَهُ،

الآية ٥ فقالَ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ يُخْبِرُ عنْ وحدانيَّتِهِ وتَفَرُّدِهِ حينَ(١٣) أنشأَ السمواتِ، وما ذَكَرَ، وجَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ على بُعدِ ما بَينَهما، ومَنافِعَ المَشارِقِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ المَغارِبِ على بُعدِ ما بَينَهما.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل و م: كلهم. (٣) في الأصل وم: قالا. (٤) في الأصل وم: غيره. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل وم: بم. (٧) في الأصل و م: وقولهم. (٨) في الأصل و م: وما وصفهم. (٩) في الأصل و م: و. (١٠) في الأصل و م: وقوله ﷻ. (١١) من م، في الأصل: شأنهم وفي. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث.

ولو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَمَنَعَ بعضٌ اتِّصالَ مَنافعِ بعضٍ ببعضٍ على ما يكونُ مِنْ فِعْلِ ذوي عَدَدٍ وغَلَبَةِ بعضٍ على بعضٍ. فإذْ لم يَمْتنِعْ ذلكَ، بلِ اتَّصَلَ بعضٌ ببعضٍ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ، لا شَريكَ لهُ.

ثم تخصيصُ ذِكْرِ السمواتِ والأرضِ وما ذَكَرَ دونَ غَيرِهِ منَ الخلائقِ لِما عَظَّمَ قَدْرَ السماءِ في قلوبهِمْ لِنُزُولِ ما يَنْزِلُ مِنَ الأمطارِ والبركاتِ وغَيرِها، [وعَظَّمَ قَدْرَ][1] الأرضِ بخروجِ ما يَخْرُجُ منها مِنَ الأنزالِ والأرزاقِ، ولذلكَ يُخَرَّجُ ذِكْرُهما، واللهُ أعلَمُ، في ما ذَكَرَ حينَ[2] قالَ فيهما: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] يُعَظِّمُ قَدْرَهُما في قلوبِهِمْ ودوامَهُما عندَهُمْ[3]، وإنْ كانَتا تَفْنَيانِ، ولا تدومانِ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قالَ أحدُ[4] المعتزلةِ، وهو جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: فإنْ قالَ لنا قائلٌ: [إنَّ المُرادَ][5] مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أنهُ ربُّ أعمالِنا وأفعالِنا، فنقولُ[6] لهُ: إنْ أردْتَ أنهُ ربُّ أعمالِنا وأفعالِنا قَبِلَى.

ثم قالَ: فيقالُ لهمْ: أتقولونَ: إنهُ خالقُ الكُفْرِ وخالقُ الشَّرِّ، وإنْ كانَ يُقالُ في الجملةِ: [إنه][7] خالقُ أفعالِ الخَلْقِ، وربُّ كلِّ شيءٍ، وخالقُ كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ ذِكْرَهُ يُخَرَّجُ على تعظيمِ ذلكَ الشيءِ نَحْوَ ما يقالُ: ربُّ محمدٍ، وربُّ البيتِ، إنما هو تعظيمُ محمدٍ ﷺ، وتعظيمُ ذلكَ البيتِ خاصَّةً.

فَعَلَى ذلكَ وَصْفُنا إياهُ بالجملةِ: أنهُ خالقُ أفعالِ العبادِ وخالقُ كلِّ شيءٍ، يُخَرَّجُ على وصفِ البيتِ بالعظمةِ والجَلالِ وعلى الإشارة [إلى شيءٍ منَ الأشياءِ والتَّنْصيصِ عليهِ][8] على تعظيمِ ذلكَ الشيءِ خاصَّةً.

لِذلكَ جازَ أنْ يوصَفَ أنهُ خالقُ أفعالِ العبادِ لِما ذَكَرْنا أنهُ يُخَرَّجُ على المَدْحِ والتعظيمِ وعلى الإشارةِ على المَذَمَّةِ لهُ وتعظيمِ ذمِّ ذلكَ الشيءِ. لذلكَ افْتَرَقا. واللهُ الموفِّقُ.

ثم يُقالُ لهمْ: قولُكُمْ: إنهُ مالكٌ لها، وليسَ بِخالقٍ، هل يُقالُ لأحدٍ: إنهُ مالكٌ كذا، وما يُنْشِئُ ذلكَ، أو لم[9] يُمَلِّكْهُ؟

فإنْ ثَبَتَ أنهُ مالكُ الأعمالِ والأفعالِ ثَبَتَ أنهُ خالِقُها؛ إذْ لا يُقالُ: [مالكٌ][10] كذا إلّا [لِقُدْرَتِهِ][11] على ذلكَ أو لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ للشمسِ ثلاثَ مئةٍ وسِتِّينَ مَشْرِقاً، تَطْلُعُ كلَّ يومٍ مِنْ كَوَّةٍ. وكذلكَ يقولونَ في المَغاربِ: إنها تَغْرُبُ كلَّ يومٍ في كوَّةٍ. لكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ أرادَ بالمشارقِ والمَغاربِ كلَّ شيءٍ يَشْرُقُ وكلَّ شيءٍ غاربٍ مِنَ الشمسِ والقمرِ والنجومِ والكواكبِ [وعلى ذلكَ][12] يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وأمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ يقولونَ: مَشْرِقُ [الشتاءِ][13] والصيفِ، وكذلكَ مَغْرِبُهُما.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ليسَ أنَّ هذهِ السماءَ التي نَراها، ونُعايِنُها هي سماءُ الدنيا، وغَيرُها سماءُ الآخِرَةِ. ولكنْ سَمّاها سماءَ الدنيا لِدُنُوِّها مِنْ أهلِ الأرضِ وقُرْبِها منهمْ. وأهلُ الأرضِ، همُ الجِنُّ والإنسُ، ولهما جَرَى الخِطابُ في ذلكَ وفي غَيرِهِ.

وعلى ذلكَ قولُ أهلِ التأويلِ: إنها إنما سُمِّيَتِ / ٤٥٠ ـ أ/ السماءَ الدنيا لِدُنُوِّها مِنْ أهلِها ولِقُرْبِها منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ أخبَرَ أنهُ ﷻ زَيَّنَها بزينةِ الكواكبِ، وزَيَّنَ الكواكبَ نفسَها؛ أضافَها إلى نفسِها، وهي الزينةُ لها، لا غَيرُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ قالَ ﷻ: إنا زَيَّنّا السماءَ الدنيا بزينةٍ، وهي الكواكبُ، أو قالَ: إنّا زيَّنّا السماءَ بزينةٍ، فَسُئِلَ: ما هي؟ فقالَ: الكواكبُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: خرج ذكرهما. (٤) في الأصل وم: بعض. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قيل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: التي تبني منها والتخصيص. (٩) في الأصل وم: لتمليك من. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: للقدرة. (١٢) في الأصل وم: وغيرها. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ كقولِهِ[1] ﷻ: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]

الآيتان ٨ و٩ وحِفظُهُ إيّاها ما ذَكَرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

قالَ ابنُ عباسٍ وغيرُهُ: قولُهُ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كانوا يَتَسمَّعُونَ، ولا يَسْمَعونَ. وقالَ بعضُهُمْ: كانوا لا يَسْمَعونَ أخبارَ الملائكةِ وحديثَهُمْ في ما يَتَراجَعونَ في ما بينَهُمْ مِنْ أمرِ اللهِ وهمُ المَلأُ الأعْلَى.

[ومنهُمْ][2] مَنْ يقولُ: إنهمْ كانوا لا يَسْمَعونَ. يَذْهَبُ إلى ما ذَكَرَ في سورةِ الجِنِّ حينَ[3] قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨و٩] أخبروا أنَّ مَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لهُ ما ذَكَرَ. دلَّ أنهمْ كانوا يَتَسمَّعونَ.

فإنْ قيلَ: كيفَ يُوَفَّقُ بينَ هذهِ الآيةِ وبينَ قولِهِ ﷻ ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

الآية ١٠ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [قيلَ:][4] استَثْنَى الخَطْفَةَ، وقالَ هناكَ[5]: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ﴾ كذا [الجن: ٩].

ثم الخَطْفَةُ إمّا[6] أنْ تكونَ على التمثيلِ أي مَوضِعِ الخَطْفِ [وإمّا][7] على حقيقةِ الخَطْفةِ، وهي الاسْتِلابُ والأخذُ على السُّرْعةِ، واللهُ أعلَمُ.

لكنْ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ التي [ذَكَرَها ﷻ في سورةِ الجِنِّ][8]: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الآيتان: ٨ و٩] في المؤمنينَ منهمْ.

ألا تَرَى أنهمْ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؟ [الجن: ١٣]

وأمّا ما ذَكَرَ في سورةِ الصافاتِ فهو في الكفارِ منهمْ والمَرَدَةِ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ مِنَ الشياطينِ الذينَ يَسْتَمِعونَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم [في][9] قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ ثم قولِهِ ﷻ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ لمحمدٍ ﷺ لأنهُ كانَ يُخبِرُهُمْ أنَّ الجِنَّ يَصْعَدونَ إلى السماءِ الدنيا، ويَسْمَعونَ مِنْ أخبارِ الملائكةِ وحديثِهِمْ في ما يَتَراجعونَ في ما بينَهُمْ مِنْ أمْرِ اللهِ في الأرضِ، ثم يُخبِرونَ الكَهَنَةَ بذلكَ، فيُخْبِرُ الكهنةُ أهلَ الأرضِ عنْ ذلكَ أنهُ يكونُ كذا كذا وفي يومِ كذا وكذا، وأنهُ انْقَطَعَ ذلكَ الوَحْيُ، ويُمْنَعونَ. فقالتِ الجنُّ ذلكَ، وأخبَرَهُمْ عنْ أنفسِهِمْ أنهمْ كذلكَ كانوا يَفْعَلونَ، فَصَدَّقوهُ على صنيعِهِمْ.

فإنْ قيلَ: كيفَ صارَ ذلكَ آيةً لهُ، وإنما أُخبِرَ عنْ قولِ الجِنِّ لهمْ، وبهِ ظَهَرَ ذلكَ، ومنهُ عُرِفَ؟ قيلَ: هكذا [كانَ][10] لكنَّ انْقِطاعَ الكَهَنَةِ مِنْ بَعدُ وحديثَهُمْ يدلُّ على أنَّ ذلكَ قد كانَ، ثم انْقَطَعَ ذلكَ بالرسالةِ والوَحْيِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: فإذا وُلِّيَ الملائكةُ حِفْظَ السماءِ وحَرَسَها كيفَ أغْفَلوا ما دُلُّوا مِنْ حِفْظِها وحَرَسِها، وامْتُحِنوا حتى تَمَكَّنَ أولئكَ مِنَ الاسْتِماعِ والاخْتِطافِ وما ذَكَرَ؟ قيلَ: جائزٌ أنْ يَشْتَغِلوا، ويُمْتَحَنوا بأمورٍ أُخَرَ سِوَى ذلكَ، فيُمَكَّنَ ذلكَ لهُمْ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ كانَتْ صِفَةُ الشياطينِ مِنَ الاسْتِماعِ منهمْ والخَطْفِ، وقد بَدَتْ [وعانَتْ ممّا أصابَها][11] مِنْ فِعْلِ ذلكَ مِنَ القَذْفِ والرَّمْيِ والاحْتِراقِ؟ قيلَ: إنَّ الشياطينَ، عادَتُهُمْ طَلَبُ الفِعْلِ في كلِّ وقتٍ؛ فجائزٌ أنْ يكونوا فَعَلُوا ذلكَ لِما كانوا يظنونَ، ويقَعُ عندَهُمْ أنهمْ في غَفْلَةٍ وسَهْوٍ مِنْ أمورِهِمْ، وإنْ كانوا يَعْلَمونَ ما يُصيبُ مِنْ فِعْلِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل و م: و. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل وم: ههنا. (٦) في الأصل و م: إلا. (٧) في الأصل و م: أو. (٨) في الأصل و م: ﷻ. (٩) و(١٠) ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل و م: وعاينت ما أصاب.

ثم جائزٌ أنْ يُستَدَلَّ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ الآية [الجن: ٩] لقولِ علمائِنا في مَنْ حلَفَ: ألّا يُكلِّمَ فلاناً، فناداهُ مِنْ حيثُ لا يَسْمَعُهُ[١]، لا يَحْنَثُ. وإذا ناداهُ مِنْ حيثُ يَسْمَعُهُ حَنِثَ، وإنْ لم يَسْمَعْهُ لِما ذَكَرَ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ الآية. ومَعْلومٌ أنهمْ كانوا يَقْعُدونَ مِنَ الأرضِ إلى المَلإِ الأعلى لكنْ لا يَسْمَعونَ. ثم لم يَذْكُرْ ذلكَ منهمْ إلّا في المكانِ الذي يُسْمَعُ، دلَّ أنّهُ على ما ذَكَرْنا مِنَ الدلالةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الأشرافُ منهمْ وأهلُ المَنْزِلَةِ والكَرامةِ، ويَحْتَمِلُ الجماعةَ، لأنَّ المَلأَ، هو اسمٌ للشَّيئَيْنِ: للجماعةِ منهمْ، واسْمٌ لأهلِ الشَّرَفِ والمَنْزِلَةِ والكَرامةِ.

ثم لا ندري كيفَ سَماعُ الجِنِّ مِنَ الملائكةِ؟ وما سَبَبُ ذلكَ [إلّا][٢] أنْ تكونَ تلكَ الأخبارُ وما يريدُ اللهُ ﷻ إحداثَهُ في الأرضِ مكتوباً في كتابٍ، يَنْظُرونَ فيهِ، فَيَعْلَمونَهُ، أو يَتَحدَّثَ الملائكةُ في ما بَيْنَهُمْ بذلكَ، فَيَسْتَمِعَ هؤلاءِ منهمْ ذلكَ، أو كيفَ جهةُ سَماعِهِمْ ذلكَ منهمْ، وما يُشْبِهُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ أنَّ الجِنَّ يَفْهَمُ كلامَ الملائكةِ، وإنِ اخْتَلَفَتْ جواهِرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ قيلَ: هي السمواتُ والأرضُ والجبالُ، وقيلَ: [هم][٣] الملائكةُ. وأكثَرُهُمْ قالوا: قولُهُ: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أيِ السمواتُ والأرضُ كقولِهِ: ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [غافر: ٥٧].

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: سَلْهُمْ: أخَلْقُهُمْ[٤] وإعادَتُهُمْ أشَدُّ وأكبَرُ وأعظَمُ؟ وإذا أقْرَرْتُمْ أنتمْ بِقُدْرَتِهِ على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ كيفَ أنْكَرْتُمْ قُدْرَتَهُ على إعادَتِكُمْ بَعْدَ ما مُتُّمْ، وكُنْتُمْ تُراباً ورُفاتاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فَسَلْهُمْ ونَحْوَ ذلكَ ممّا أمَرَ اللهُ ﷻ رسولَهُ ﷺ، أنْ يَسْأَلَهُمْ، ويَسْتَفْتِيَهُمْ. يُخَرَّجُ مِنَ اللهِ ﷻ على وجوهٍ:

أحَدُها: على التَّقْديرِ عندَهُمْ والتَّنْبيهِ لهمْ.

[والثاني][٥]: على التَّعْييرِ لهمْ والتوبيخِ.

[والثالثُ][٦] على التَّعْليمِ [لِلنَّبِيِّ ﷺ جِهَةَ][٧] الحِجاجِ والمُناظَرَةِ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خصومِهِمْ.

وهكذا كلُّ سؤالٍ أوِ اسْتِفْتاءٍ كانَ مِنْ خبيرٍ عَليمٍ لِمَنْ دونَهُ يُخَرَّجُ على هذهِ الوجوهِ. وكلُّ سؤالٍ أوِ اسْتِفْتاءٍ كانَ مِنَ الجُهّالِ بِخَبيرٍ عَليمٍ يُخَرَّجُ على اسْتِرْشادٍ وطلبٍ للصوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ [وقولُهُ][٨]: ﴿سَلْهُمْ﴾ [القلم: ٤٠] [وقولُهُ][٩]: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية: [الزخرف: ٤٥] [وقولُهُ][١٠]: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: ٢١١] [وقولُهُ][١١]: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] [وقولُهُ:][١٢] قلْ كذا. هذا كلُّهُ يُخَرَّجُ على التَّقْديرِ والتَّنْبيهِ وعلى تعليمِ الكُلِّ جِهَةَ[١٣] الحِجاجِ والمُناظَرَةِ لا على الأمرِ؛ لأنهُ لو كانَ الأمرَ لكانَ لا يقولُ ذلكَ المأمورُ بالتبليغِ: سَلْ، ولا تقلْ، ولا شيئاً[١٤] مِنْ ذلكَ، ولكنْ يُبَلِّغُ إليهِ رسالتَهُ وأمْرَهُ أنْ يقولَ لكُمْ: افْعَلوا كذا، ولا تَفْعَلوا. فدلَّ أنَّ ذلكَ الأمرَ للكُلِّ في أمْرِ نَفْسِهِمْ: أنْ قولوا لهمْ، وأنِ افْعَلوا بهِمْ كذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الآية أمَرَهُ أنْ يَسْتَفْتِيَهُمْ، ولم يَذْكُرْ أنهمْ ما أفْتَوهُ، ولا أجابوهُ ولا قالَ: إنهمْ لو أجابوكَ، وأفْتَوكَ بكذا، فقلْ لهمْ كذا، أو أجِبْهُمْ بكذا.

---

(١) في الأصل وم: يسمع. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن خلقهم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: حجة. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: و. (١١) في الأصل و م: و. (١٢) في الأصل و م: و. (١٣) في الأصل و م: حجة. (١٤) في الأصل و م: شيء.

فجائزٌ أنْ يكونَ الجوابُ ما ذَكَرْنا: أنكُمْ لو لم تُشاهِدوا خَلْقَ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وغيرِها سِوَى خَلْقِ أنفسِكُمْ، ثم شاهَدْتُمْ خَلْقَنا؛ أعني ما ذَكَرْنا مِنَ السمواتِ والأرضِ والجبالِ وغيرِها، هل تُنكِرونَ قدرتَهُ على خَلْقِ ما شَهِدْتُمْ، وعايَنْتُمْ أنهُ لم يَخْلُقْها / ٤٥٠ ـ ب/ إلا هو؟ كيفَ أنْكَرْتُمْ قدرتَهُ على خَلْقِ ما شَهِدْتُمْ وعايَنْتُمْ أنهُ لم يَخْلُقْها إلا هو؟ كيفَ أنْكَرْتُمْ قدرتَهُ على إعادَتِكُمْ وبَعْثِكُمْ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ يذكُرُ، واللهُ أعلَمُ، ضَعْفَهُمْ وشِدَّةَ ما خَلَقَ مَنْ سِواهُمْ؛ إنكم تعلَمونَ ضعفَ أنفسِكُمْ وعَجْزَها وشِدَّةَ مَنْ سِواكُمْ وقُوَّتَها وصَلابَتَها [ثم إنها معَ شِدَّتِها وقُوَّتِها وصَلابَتِها][١] أخضَعُ للهِ وأطوَعُ منكُمْ، نَحْوُ ما ذَكَرَ مِنْ طاعَتِها لهُ وخُضوعِها حينَ[٢] قالَ ﷻ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقالَ[٣] ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ونَحْوَ ذلكَ ممّا يَكْثُرُ، واللهُ أعلَمُ.

[ويذكُرُ في قولِهِ][٤] ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ بَدْءَ خَلْقِهِمْ، وأصلَهُ الذي خُلِقوا همْ منهُ: إنكمْ إنما عَرَفْتُمُ ابْتِداءَ خَلْقِكُمْ وأصْلَكُمُ الذي منهُ خُلِقْتُمْ أنهُ تُرابٌ أو طينٌ بإخبارِ الرسلِ وبقولِهِمْ، وأنتمْ يا أهلَ مكة، مِمَّنْ لا يؤمنونَ بالرسلِ، فكيفَ صَدَّقْتُمُ الرسلَ بما أخبَروا عنْ أصلِكُمْ وبَدْءِ خَلْقِكُمْ، ولم تُصَدِّقوهُمْ بما يُخْبِرونَكُمْ مِنْ إعادَتِكُمْ وبَعْثِكُمْ بَعدَ موتِكُمْ؟ فإذْ صَدَّقْتُموهُمْ في ذلكَ لَزِمَكُمُ التصديقُ لهمْ في كلِّ ما يُخْبِرونَ، ويقولونَ، واللهُ أعلَمُ.

أو يقولُ: إنهُ أنشأَ مِنْ تِلْكَ النفسِ الواحدةِ التي خَلَقَها مِنْ تُرابٍ مِنَ الخَلْقِ ما لو تَرَكَهُمْ جميعاً، لم يُفْنِهِمْ، ولم يُمِتْهُمْ، لامْتَلأَتِ الدنيا منها. فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ما تَمْتَلِئُ الدنيا منهُ، مِنْ نفسٍ واحدةٍ، لا يُحْتَمَلُ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ مِنَ البَعْثِ والإعادةِ وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][٥] أنْ يقولَ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾: إنهُ[٦] قد أنشأَ مِنْ تلكَ النفسِ ومِنْ ذلكَ الأصلِ قَرْناً بعد قَرْنٍ؛ بَعدَ إفناءِ كلِّ قَرْنٍ أنشأَ قَرْناً آخَرَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المقصودُ مِنْ إنشائِهِمُ الإنشاءَ ثم الإفناءَ والنَّقْضَ خاصةً، لا عاقبةَ تُقْصَدُ بالإنشاءِ والإفناءِ؛ إذْ في الشاهدِ مَنْ كانَ مَقصودُهُ في البناءِ البناءَ والنَّقْضَ خاصَّةً كانَ غَيرَ حكيمٍ.

فإذا عَرَفْتُمُ اللهَ ﷻ أنهُ حكيمٌ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مُرادُهُ مِنْ إنشائكُمْ وإفنائكُمْ ذلكَ خاصةً، لا غَيرُ. وذلكَ يُزيلُ الحِكْمَةَ، ويُوجِبُ السَّفَهَ. تَعالَى اللهُ عَنْ ذلكَ وعنْ جميعِ ما يَصِفُهُ المَلاحِدَةُ عُلُوّاً كبيراً.

[ويَحْتَمِلُ][٧]: أنْ يقولَ: إنكُمْ عَرَفْتُمْ أنكمْ إنما أنشَأَكُمْ مِنْ تلكَ النفسِ التي أنشَأَها مِنْ تُرابٍ أو طينٍ على اتِّفاقٍ منكُمْ، فإذا مُتُّمْ، وفَنِيتُمْ، صِرْتُمْ تُراباً أو طيناً، فكيفَ أنكَرْتُمْ إعادَتَهُ إياكُمْ مِنْ تُرابٍ أو طينٍ؟ وقد أقْرَرْتُمْ أنَّ أصْلَكُمْ مِنْ تُرابٍ أو طينٍ، واللهُ أعلَمُ، على الوجوهِ التي ذَكَرْنا يجوزُ أنْ يُخَرَّجَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ بالنصبِ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: عَجِبْتَ منهمْ إنكارَهُمْ ما أنْكَروا بَعْدَ كَثْرَةِ قِيامِ الآياتِ والحُجَجِ عليهمْ في ذلكَ، وهم يُنْكِرونَ، ويَسْخَرونَ.

[والثاني][٨]: يقولُ: عَجِبْتَ، ويَسْخَرونَ لِما أنكَ بِزَعْمِهِمْ لِعَظيمِ ما يَنْزِلُ بهمْ مِنَ العذابِ والشدائدِ وما يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنَ الأمورِ المهمةِ، وهم يَسْخَرونَ، واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ][٩]: يقولُ: بل عَجِبْتَ لِما تَدْعوهُمْ أنتَ إلى ما بِهِ نَجاتُهُمْ وفَلاحُهُمْ، وهم يَسْخَرونَ، ونَحْوَ ذلكَ يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ، بما كانَ يُعْجِبُهُ.

وفي بعضِ الحروفِ: بل عَجِبْتُ بالرفعِ[١٠]، وكذلكَ ذُكِرَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ، ﷺ أنهُ كانَ يَقْرَأُ بالرفعِ: بل عَجِبْتُ. فإنْ ثَبَتَ ذلكَ، وصَحَّتْ إضافةُ العَجَبِ إلى اللهِ، فهو في الشاهِدِ، وإنْ كانَ لظهورِ عظيمِ ما قالوا خَفِيًّا عليهمْ مُسْتَتِراً، عندَ ذلكَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: أو أن يذكر لقوله. (٥) في الأصل و م: أو. (٦) و(٧) في الأصل و م: أي. (٨) في الأصل و م: أو. (٩) في الأصل و م: أو. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٢٣١.

يَقَعُ لهمُ العجبُ، فهو في اللهِ ﷻ وإنْ كانَ لا يُحتمَلُ أنْ يَخفَى عليهِ شيءٌ، فذلكَ لِعظيمِ ما كانَ منهمْ مِنَ الإنكارِ مِنْ قدرتِهِ على الإنشاءِ والجُحودِ في ذلكَ، فيكونُ ما ذَكَرَ مِنْ حَرْفِ التَّعَجُّبِ منهُ كنايةً عنِ الإنكارِ والدفعِ لِقَولِهِمْ. وذلكَ كما أضافَ الامتِحانَ إلى نفسِهِ، وإنْ كانَ في الشاهدِ لا يُستعمَلُ إلا في استِظهارِ ما خَفِيَ عليهِمْ، واستَتَرَ منهمْ، فهو مِنَ اللهِ يُخرَّجُ على الأمرِ والنَّهْيِ؛ أعني الامتِحانَ. وإنْ كانَ في الشاهدِ بينَ الخَلْقِ فلا يكونُ إلّا لِما ذَكَرْنا.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ إضافةُ العَجَبِ إلى اللهِ على إرادةِ الإنكارِ منهُ عليهِمْ والدفعِ لِقَولِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ أنكَرَ هذهِ القراءةَ، وقالَ: لا تجوزُ إضافةُ التَّعَجُّبِ إلى اللهِ ﷻ لِما هو لم يَزَلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ، وهو في الشاهدِ إنما يكونُ لظهورِ عظيمٍ مِنَ الأمرِ قد جَهِلوهُ. لكنَّ هذا، وإنْ كانَ في الخَلْقِ ما ذُكِرَ، فهو مِنَ اللهِ على غيرِ ذلكَ على ما ذَكَرْنا مِنْ إضافةِ الامتِحانِ إليهِ والابتِلاءِ، وإنْ كانَ بينَ الخَلْقِ لِما ذَكَرْنا.

وقد ظَهَرَتْ إضافةُ [العَجَبِ][1] إليهِ بقولِهِ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] وهو يُخرَّجُ على الإنكارِ عليهِمْ والرَّدِّ على تعظيمِ إنكارِ ما قالوا، وأنكَروا، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ قالَ في قولِهِ ﷻ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ في ما أضافَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أي عَجِبْتَ مِنْ هذا القرآنِ حينَ أعطاكَ إياهُ، ويَسْخَرُ منهُ أولئكَ الكَفَرَةُ.

ويَحتَمِلُ مَعْنىً [آخرَ][2] وهو أنْ يُقالَ: إنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي جَعَلْتُ ما أنزَلْتُ عليكَ مِنَ القرآنِ والوحيِ أمراً عَجَباً، أو أنْ يُقالَ: كانَ إنكارُهُمْ رسالتَكَ وتكذيبُهُمُ الآياتِ أمراً عَجَباً، وهم يَسْخَرونَ، ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ابْنُ عباسٍ يقولُ: وإذا وُعِظوا لا يَتَّعِظونَ. والمَوعِظَةُ والتذكيرُ واحدٌ. وقتادةُ يقولُ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بالمَوعِظةِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٧١] أي لا يَنْتَفِعونَ بتلكَ الحواسِّ، وإنْ كانتْ لهمْ تلكَ، كَمَنْ لا حاسَّةَ لهُ. فَعَلَى ذلكَ قولُ قتادة.

وجائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ تذكيرِ[3] ما نَسُوا مِنَ الآياتِ والحُجَجِ؛ يقولُ: إنهمْ، وإنْ ذُكِّروا ما نَسُوا مِنَ الآياتِ، غَفَلُوا عنهُ، فلا يَتَذَكَّرونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ هذهِ الآياتُ وأمثالُها ذَكَرَها، واللهُ أعلَمُ، لقومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يُؤْمنونَ أبداً: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾][4] يُخبِرُ عَنْ عِنادِهِمْ ومكابَرَتِهِمُ الآياتِ، ويَذْكُرُ سَفَهَهُمْ.

ثم في ذِكْرِ ما ذَكَرَ مِنْ عِنادِهِم وسَفَهِهِمْ وجَعْلِهِ آياتٍ مِنْ آياتِ القرآنِ تُتْلَى أبداً وجهانِ مِنَ الحِكْمةِ:

أحدُهُما: صَيَّرَ ذلكَ آيةً لِرسالتِهِ ﷺ لأنهُ معلومٌ أنهمْ كانوا على [ما][5] أخبَرَ منهمْ مِنَ العِناد والسَّفَهِ، وعلى ذلكَ خُتِموا، وقُبِضوا. دَلَّ أنهُ باللهِ عَرَف ذلكَ، وبِوَحْيِهِ عَلِمَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، على ما رَأى سَلَفُنا مِنْ سَفَهِ أولئكَ وعِنادِهِمْ وماقاسَوا منهمْ وما لَحِقَ بهمْ مِنَ الأذَى والضَّرَرِ والسُّوءِ لئلّا يَضيقَ صَدْرُنا مِنْ سَفَهِ مَنْ تَسَفَّهَ علينا مِنْ أهلِ الفَسادِ والفِسْقِ، وألّا نَتْرُكَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عنِ المُنكَرِ لِسَفَهِ السفيهِ ولا لأذَى المُؤذي ولا لِسوءِ[6] يُقالُ.

بل يَجِبُ علينا أنْ نَتَأسَّى بِسَلَفِنا، ونَقْتَدِيَ بهمْ، وإذا أصابَنا منهمْ ما أصابَ أولئكَ مِنَ الأذَى والسَّفَهِ، وإنْ عانَدوا، وكابَروا، وظَهَرَ[7] منهمْ كلُّ فِسْقٍ وسُوءٍ على ما فَعَلَ أولئكَ، واحتَمَلوا منهُمْ ما كَرِهوا، نَحمِلُ مِنْ سُفهائنا مثلَهُ، واللهُ أعلَمُ، ولو[8] لم يَكُنْ في ذِكْرِ[9] سَفَهِهِمْ وعِنادِهِمْ ما ذَكَرْنا مِنَ الحِكْمَةِ لَكانَ لا مَعنىً لِذِكْرِ سَفَهِ أولئكَ وعِنادِهِمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: التذكير. (٤) في الأصل و م: إلى آخر ما ذُكر. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل و م: سوء. (٧) في الأصل و م: وظهروا. (٨) في الأصل وم: وإلا. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: من.

وجائزٌ /٤٥١ ـ أ/ أنْ يكونَ الشيءُ سَفَهاً باطلاً في نفسِهِ، ويكونَ حكمةً ودليلاً لِغَيْرِهِ، واللهُ أعلَمُ، على ما قالَ بعضُ الناسِ: إنَّ الكذبَ نفسَهُ، يَحْسَبونَ أنْ يكونَ دليلَ الصِّدْقِ، وكلامَ السَّفَهِ والباطلِ دليلُ الصِّدْقِ والحِكْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي وإذا أُنزِلَ عليهِمْ آيةٌ على سؤالٍ منهمْ يَسْخَرونَ، ويَسْتَهْزِئونَ؛ يُخبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ أنهمْ، وإنْ سَألوا الآياتِ فإنهمْ لا يَسْألونَ سؤالَ اسْتِرشادٍ، ولكنْ سؤالَ عِنادٍ وهُزْءٍ كقولِهِ ﷺ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر: ١٤و١٥] وكقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

الآية ١٥ [وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كانَ هذا تَلْقيناً[(٢)] لأولئكَ الكَفَرَةِ الرُّؤساءِ مِنَ الشيطانِ اللَّعينِ حتى يُمَوِّهوا على أتباعِهِمْ عندما ظَهَرَ، وكثيرٌ مِنَ الآياتِ لِما كانوا يَعْلَمونَ أنْ لا كُلُّ أحدٍ يَعْرِفُ السِّحْرَ، ويَتَهيَّأُ [لهُ][(٣)] إتيانُهُ وفِعْلُهُ، يُلْبِسونَ بذلكَ على أتباعِهِمْ لِتَقَعَ عندَهُمْ أنها السِّحْرُ لا الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

ولو كانَ ذلكَ سِحْراً حقيقةً لكانَ مِنْ آياتِ الرسالةِ. فكيفَ إذا كانَ آيةً [؟ وذلكَ][(٤)] لِما كانوا يَعْلَمونَ أنهُ لم يَخْتَلِفْ إلى أحدٍ مِمَّنْ لهُ مَعْرِفةٌ بالسِّحْرِ قطُّ.

فَدَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ[(٥)] على ما ذَكَرْنا أنَّ ما أنْبَأَ، وأخبَرَ مِنْ أنباءِ الأمَمِ الخاليةِ وأخبارِهِمْ، يَدُلُّ على رسالَتِهِ لِما عَلِموا أنهُ لم يَخْتَلِفْ إلى أحدٍ مِمَّنْ لهُ المَعْرِفةُ بتلكَ الأنباءِ والأخبارِ، ولا نَظَرَ في كُتُبِهِمْ لِيَعْرِفَ ذلكَ.

ثم أخْبَرَ على ما كانَ في كُتُبِهِمْ. دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ وبوحْيٍ منهُ إليهِ عَلِمَ. فَعَلى ذلكَ لو كانَ سحراً فكيفَ إذا كانَتْ آيةً عظيمةً مُعْجِزَةً؟.

وقالَ الزَّجّاجُ: حَرْفُ العجبِ إنما يكونُ عندَ ظهورِ العَجَبِ مِنَ الأمْرِ وغَيْرِ[(٦)] عظيمةٍ. فأمّا ما أُضيفَ إلى اللهِ فهو على الإنكارِ منهُ والرَّدُّ على مَنْ أنْكَرَ عظيماً مِنَ الأمرِ ظاهراً، أو كلامٌ نَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي شديدٌ. وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قيلَ: مُلْتَزِقٍ، وقيلَ: مُلْتَصِقٍ، الذي يَلْتَصِقُ، إذا لُمِسَ. وقولُهُ تعالى: ﴿دُحُورًا﴾ قيلَ: مطروداً، وهو مَطْرودٌ. وقولُهُ تعالى: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ قيلَ: مُضيءٌ، وقيلَ: [هَوَى بِثُقوبِهِ][(٧)]. ثم قولُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَسْخَرونَ، وقالَ بعضُهُم: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يَطْلُبونَ مِنَ أتباعِهِمْ السُّخْرِيَّةَ؛ يعني القادةَ على الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٦ و١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهمْ يقولونَ ذلكَ وما تَقَدَّمَ على العِنادِ والتَّعَنُّتِ وعِلْمٍ منهمْ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً، وإنْ بَيَّنَ لهمْ جِهَةَ الإحياءِ والقُدْرَةِ عليهِمْ. لذلكَ اكْتَفَى بقولِهِ: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهمْ كانوا يقولونَ ذلكَ، ولم يَذْكُرْ شيئاً مِنَ الحِجاجِ سِوى قولِهِ: ﴿نَعَمْ﴾ [وقولِهِ:][(٨)] ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغِرونَ ذَليلونَ كقولِهِ ﷺ ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ يَحْتَمِلُ قَدْرَ زَجْرَةٍ واحدةٍ؛ يُخْبِرُ عنْ سُرْعَةِ قِيامِها ومُرورِها. ويَحْتَمِلُ على حقيقةِ الزَّجْرةِ. لكنْ يُخْبِرُ عنْ خِفَّةِ ذلكَ وهَوْنِهِ عليهِ كقولِهِ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧و..] مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ أو نونٌ أو شيءٌ مِنْ ذلكَ، لكنهُ أخفُّ كلامٍ على الألسنِ، يُؤَدّى بهِ المَعْنَى، ويُفْهَمُ به المُرادُ مِنْ ذلكَ.

فعلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ إخباراً[(٩)] عنْ خِفَّةِ ذلكَ عليهِ وهَوْنِهِ مِنْ غيرِ أنْ جَعَلَ الزجرةَ سَبَبَ الإحياءِ أو سَبَباً مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: تلقين. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل و م. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٦) في الأصل و م: وقيل. (٧) في الأصل: هو وثقويه، في م: هوى بقوته. (٨) من م، في الأصل: قوله. (٩) في الأصل و م: إخبار.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ماذا يُؤْمَرونَ؟ وعَنْ ماذا يُنْهَونَ؟ لأنَّ الذي أصابَهُمْ في الآخِرَةِ إنما كانَ لِتَرْكِهِمُ الأمرَ في الدنيا. فإذا عايَنوا ما كانوا يُوعَدونَ في الدنيا بِتَرْكِهِمُ الأمرَ بِهِ؛ يَنْظُرونَ إلى ماذا يُؤْمَرونَ، ويُنْهَونَ عنهُ؟ واللهُ أعلَمُ، أو يَنْظُرونَ كالمُتَحَوِّزِينَ لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ البعثَ، ويُكَذِّبونَهُ. فإذا عايَنوا تَحَيَّزوا، وتاهوا، وضَجِروا. وهكذا الأمرُ المُتعارَفُ في الخَلْقِ أنَّ مَنْ أنكَرَ شيئاً، أو كَذَّبَهُ، ثم أُخبِرَ بهِ، وأُعلِمَ حتى تيَقَّنَهُ[1]، وتَحقَّقَ عندَهُ ما أنكَرَ تَحَيَّرَ، وزُجِرَ.

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ لمّا أنكَروا ذلكَ في الدنيا، وكَذَّبوهُ، ثم عايَنوا ذلكَ، وتيقَّنوهُ[2]، تَحيَّزوا، وضَجِروا بهِ، يَنظرونَ نَظَرَ المُتَحَيِّزِ الضَّجِرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ هذا كلامٌ: يُقالُ عندَ الوقوعِ في الهلاكِ. وقولُهُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يومُ الحسابِ ويومُ الجزاءِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣].

ويَحتَمِلُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي هذا يومُ الذي يَنْفَعُ كلَّ مَنْ مَعهُ الدينُ دينُهُ. والدينُ المُطلَقُ، هو دينُ اللهِ، وكذلكَ السبيلُ المُطلَقُ، هو سَبيلُ اللهِ، أي ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي هذا يوم الدين الذي يَنْفَعُ مَنْ كانَ معهُ دينُ اللهِ. وكذا السبيلُ المُطلَقُ، هو سَبيلُ اللهِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ قولُهُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي يَومُ القَضاءِ والحُكمِ كقولِهِ[3] ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي يَقضي بَينَهُمْ ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥] واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي يَفصِلُ، ويُفَرِّقُ بَينَهُمْ أي بَينَ الكُفّارِ وأهلِ الإيمانِ وبَينَ الخبيثِ والطَّيِّبِ. كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾ الآية [الأنفال: ٣٧] وقولِهِ: ﴿وَٱمۡتَٰزُوا۟ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] وقولِهِ: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱحۡشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فالزوجُ اسمٌ لِشَكْلِهِ واسمٌ لِضِدِّهِ واسمٌ لهما جميعاً.

يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي أشكالَهُمْ وقُرَناءَهُمْ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ والشياطينِ. يأمُرُ الملائكةَ [أنْ يَجمَعوا][4] بينَ مَنْ كانوا[5] يَجتَمِعونَ في هذهِ الدنيا، ويَسْتَحِبّونَ الاجْتِماعَ معهمْ؛ أنْ يُجمَعوا في عذابِ الآخِرَةِ على ما كانوا يَسْتَحِبّونَ الاجْتِماعَ في الملاهي والطَّرَبِ في هذهِ الدنيا، ويَجتَمِعونَ على ذلكَ.

فَعَلَى ذلكَ تَجمَعُ بَينَ أولئكَ وبَينَ قُرَنائِهِمْ جهنمُ، ويُقرَنُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ في العذابِ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦] وكقولِهِ: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾ ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١و٧٢] ونَحوُهُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ كقولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] ونَحوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قَتادةُ وغيرُهُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يُدانُ بَعضُ الناسِ مِنْ بَعضٍ في المَظالِمِ والحُقوقِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ يَحتَمِلُ الوَقْفُ لِلحسابِ، ويَحتَمِلُ ﴿مَّسۡـُٔولُونَ﴾ أي مُحاسَبونَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][6] قالَ: إنَّ دونَ الحِسابِ يومَ القيامةِ كذا كذا مَوقِفاً، في كلِّ مَوقِفٍ يُوقَفونَ مِقدارَ كذا عاماً، ثم تلا هذهِ الآيةَ.

[ولا][7] يَحتَمِلُ السؤالَ عمّا فَعَلوا، ولكنْ يُسألونَ لماذا فَعَلُوا؟ ويَحتَمِلُ الوقوفُ [ما فَتَنَ][8] بعضُهُمْ بَعضاً

---

(١) في الأصل و م: تيقن به. (٢) في الأصل و م: تيقنوا به. (٣) من م، في الأصل: قوله. (٤) في الأصل: أي يجمع، في م: أن يجمع. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: و. (٨) في الأصل و م: فتنوا إلى.

والـمُـخـاصـمـةَ فـي مـا بَـيـنَـهُـمْ والـمُـراجَـعَـةَ كـقـولِـهِ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ كـذا ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ كـذا [الأعراف: ٣٨و٣٩] على ما أخْبَرَ أنهُ يجري في ما بَينَهُمْ مِنَ الخصومةِ ومُراجَعَةِ القولِ واللائمةِ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي مالَكُمْ لا تُناصَرونَ، أي مالَكُمْ لا تَنصُرُكُمُ الأصنامُ التي عَبَدْتُموها في الدنيا رَجاءَ النَّصرِ والشَّفاعةِ كقولِكُمْ[1]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِكُمْ[2]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

الآية ٢٦ فَيُخبِرُ عنْ إياسِهِمْ مِنْ نَصْرِ ما عَبَدوا على رَجاءِ النَّصْرِ لهمْ والشفاعةِ بقولِهِ[3]: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ /٤٥١ ـ ب/ أي خاضِعونَ، ذليلونَ للهِ لمّا عَلِموا ألّا يكونَ النَّصْرُ والعَونُ إلّا منهُ. فعندَ ذلكَ يَسْتَسْلِمونَ لهُ. وقالَ بعضُهُمْ: يَسْتَسْلِمونَ في عذابِهِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أَقْبَلَتِ الإنْسُ على الجِنِّ. وقالَ بعضُهُمْ: أقْبلَتِ الإنسُ على الشياطينِ.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ قِبَلِ الخيرِ والطاعةِ، فَتَسْهونَنا، وتَشْطونَنا عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ قِبَلِ الدينِ والتوحيدِ مِنْ حيثُ يُحْتَرَسُ، وهو الأوَّلُ، وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ قِبَلِ الحَقِّ[5] ونَحْوِهِ.

الآية ٢٩ فَرَدَّ عليهِمْ أولئكَ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يقولونَ: إنكُمْ[6] تركتُمُ الإيمانَ بأنفسِكُمْ وباختيارِكُمْ، لا إنا مَنَعْناكُمْ مَنْعاً عنهُ.

الآية ٣٠ وقالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي ما كانَ لنا عليكُمْ مِنْ حُجَّةٍ أو برهانٍ أَلْزَمْناكُمْ [بهِ][7] بل أطَعْتُمونا طوعاً، واسْتَجَبْتُم لنا لِما دَعَوناكُمْ.

فهذهِ المُناظرةُ والمُجادَلَةُ في ما بَينَهُمْ كمُناظَرةِ إبليسَ في مَوضعٍ آخَرَ حيثُ قالَ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي دَعَوتُكُمْ بلا[8] حُجَّةٍ ولا برهانٍ فاسْتَجَبْتُمْ لي.

فَعَلى ذلكَ يقولُ هؤلاءِ ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ باختِيارِكُمْ تَرْكُ الإيمانِ بلا سُلطانٍ ولا حُجَّةٍ عليكمْ ومناظرةِ القادةِ معَ الأتباعِ حينَ[9] قالَ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [الأعراف: ٣٩] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي مِنْ جهةِ القُوَّةِ، أي إنكم على الحَقِّ، وإنكمْ مؤمنونَ ونَحْوَ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ لا على حقيقةِ اليمينِ، ولكنْ تأتونَنا من كلِّ جهةٍ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧] أي مِنْ كلِّ جهةٍ لا على حقيقةِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي لم يكُنْ لِاتِّباعِكُمْ إيّانا وطاعتِكُمْ لنا حجةٌ أو برهانٌ أقَمْناهُ عليكُمْ في ما دَعَوناكُمْ إليهِ اتِّباعاً مِنْ غَيرِ أنْ ألْزَمْناكُمْ، فلا تَلومونا، ولكنْ لوموا أنفسَكُمْ ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي بِطُغْيانِكُمْ اتَّبَعْتُمونا لا بِما ذَكَرْتُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا قولَ الأكابرِ منهمْ والمَتبوعينَ لِلأصاغِرِ والأتباعِ منهمْ: أنْ حَقَّ علينا قَولُ ربِّنا. قالَ بعضُهُمْ: أي وَجَبَ علينا وعليكُمْ عذابُ ربِّنا.

---

(١) في الأصل وم: كقوله. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) في الأصل وم: كقوله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: الجن. (٦) في الأصل وم: إن. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: فلا. (٩) في الأصل و م: حيث. (١٠) في الأصل و م: ثم قالوا.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ القولُ الذي أخبَروا أنهُ حَقٌّ عليهِمْ، هو قولُهُ ﷻ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ يَحتَمِلُ أن تكونَ هذهِ المُعاتَبَةُ التي ذُكِرَتْ كانَتْ بينَ الأتباعِ والمَتْبوعينَ مِنَ الإنسِ كقولِهِ ﷻ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ كذا [وكقولِهِ:][(١)] ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ كذا [سبأ: ٣٣و٣٢] وكقولِهِ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ﴾ كذا [الأعراف: ٣٨].

ويُشبِهُ أنْ يكونَ بَينَ الإنسِ والشياطِينِ.

ثم قولُهُ: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ حينَ اختَرْتُمُ الغِوايَةَ والضلالةَ، وعَرَفْتُمْ أنا لَسْنا على الهُدى، ولم نُقِمْ عليكُمُ الحُجَّةَ، فاتَّبَعْتُمونا على عِلْمٍ منكُمْ أنّا على الغِوايَةِ، فأغْوَيناكُمْ حينَئذٍ. والإغواءُ الإضلالُ، والغَوايَةُ الضلالُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أخبَرَ عنهمْ جميعاً: الأتباعُ والمَتْبوعونَ، يَشتَرِكونَ في العذابِ ليسَ أنْ يَشتَرِكوا في نوعٍ مِنَ العذابِ. ولكنْ يُجْمَعونَ جميعاً، ثم لهمُ العذابُ على قَدْرِ عِصيانِهِمْ وجُرْمِهِمْ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: المُجْرِمُ هو الوَثّابُ في المَعصِيَةِ الفادِحُ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي كانوا إذا قيلَ لهمْ: قولوا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا على هذهِ الكلمةِ، ولكنْ يَستَكبِرونَ على أتباعِ القائلينَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ كقولِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وكقولِهِمْ: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] كانوا يأنفونَ، ويَستكبِرونَ على أتباعِ رسولِ اللهِ ﷺ لِذلكَ قالوا ما قالوا.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنِ اسْتِكْبارِهِمُ اسْتِكْباراً على هذهِ الكلمةِ حقيقةً، فَيُخَرَّجُ اسْتِكْبارُهُمْ عليها إنكاراً لهذهِ الكلمةِ وجُحوداً لها بقولِهِمْ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ [وقولُهُ تعالى][(٢)]: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ ثم جَمَعوا في هذا مُتَضادَّينِ، لأنَّ الشاعِرَ، هو الذي [يَبْلُغُ][(٣)] في العلمِ غايَتَهُ، والمجنونَ، هو الذي يَبْلُغُ في الجهلِ غايَتَهُ. ثم جَمَعوا بَيْنَهُما في رسولِ اللهِ ﷺ وكذلك قولُهُمْ: ساحرٌ، ومجنونٌ: الساحرُ، هو الذي يَبْلُغُ في علمِ الأشياءِ غايَتَهُ، والمَجنونُ [هو الذي يَبْلُغُ في الجَهلِ غايَتَهُ][(٤)]. دلَّ أنهمْ إنما يَقولونَ عنْ عنادٍ وتَعَنُّتٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾: ﴿بِالْحَقِّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بالحَقِّ الذي للهِ عليهِمْ وما لبعضِهِمْ على بَعْضٍ.

وأصلُ الحقِّ أنَّ كلَّ ما يُحمَدُ على فِعْلِهِ، هو الحقُّ، وكُلَّ ما يُذَمُّ عليهِ، هو باطلٌ.

[وقولُهُ تعالى][(٥)]: ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ صَدَّقَ إخوانَهُ مِنَ المُرسَلينَ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ هي الطيورُ التي صَفَّتْ بَينَ السماءِ والأرضِ ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ مِنَ الزَّجْرِ؛ يُقالُ: زَجَرْتُ الإبلَ زَجْراً، أي صِحْتُ لهُ، والزَّجْرُ الصياحُ ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ كما تقولُ: تَلَوتُ القرآنَ، أي قَرَأْتُ، وتَلَوْتُ: تَبِعْتُ. والتالي: التابعُ. والقَذْفُ: الرَّمْيُ. يُقْذَفونَ: يُرْمَونَ. ودُحوراً أي مُباعَدَةً؛ دَحَرْتُهُ أي باعَدْتُهُ، وطَرَدْتُهُ. واصبٌ: دائبٌ. وخَطِفَ الخَطْفَةَ، أي اسْتَلَبَ الشيءَ، والخَطْفَةُ الاسْتِلابُ السريعُ. ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي اتَّبَعَهُ ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ الشهابُ: الكوكَبُ، والثاقبُ الشديدُ الضَّوءِ والحَرِّ؛ يُقالُ: ثَقَبَتِ النارُ، أيِ الْتَهَبَتْ، واشتَدَّ حَرُّها، وأثْقَبْتُها أي أوقَدْتُها، وسَخِرْتُ،

---

(١) في الأصل و م: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: في الجهل.
(٥) ساقطة من الأصل وم.

واسْتَسْخَرتُ كقولِهِمْ: وَقَرَ، واسْتوقَرَ، واحدٌ. ويَسْخَرُ بهِ، وسُخْرِيَّةً بالتشديدِ، وسَخَّرتُ فلاناً، أي اسْتَعْمَلْتُهُ بِغَيرِ أجْرٍ.

و﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي قد ذَلّوا، وأعطوا بأيديهِمْ؛ يُقالُ: اسْتَسْلَمَ إذا أعطى بيدِهِ، واسْتَلَمْتُهُ: تَرَكْتُهُ، لم أُغْنِهُ، ولم أنْصُرْهُ.

﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ واشكالَهُمْ؛ تقولُ العربُ: زَوَّجْتُ أي إذا قَرَنْتُ واحداً بآخَرَ، وهُمْ قُرَناؤُهُمْ مِنَ الشياطينِ. [وزوجُ الشيءِ شَكْلُهُ، ويُقالُ لِضِدِّهِ، فهو اسمٌ لهما جميعاً][1]. [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي تَخْدَعونَنا، وتَمْنَعونَنا عنْ طاعةِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ على الإضمارِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قولوا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ: أنهمْ إذا قيلَ لهمْ: اتركوا عبادةَ الأصنامِ، واصْرِفوا عبادَتَكُمْ إلى الإلهِ الذي هو في الحقيقةِ إلهٌ، وهو المالكُ لِجَرِّ النَّفْعِ ولِدَفْعِ الضُّرِّ، وهو اللهُ: جَلَّ، وعَلا. ويَدُلُّ [على هذا][3] قولُهُمْ: ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ أي نَتْرُكُ عبادةَ آلهتِنا لقولِ شاعرٍ مجنونٍ؟ واللهُ أعلَمُ.

ذُكِرَ أنَّ نَفَراً مِنْ رُؤساءِ قريشٍ أتَوا أبا طالبٍ، فقالوا: مايريدُ منا ابْنُ أخيكَ؟ فَدَعا بهِ «فقالَ: ما تريدُ منهمْ يا ابْنَ أخي؟ فقالَ لهُ: يا عَمُّ إنما أريدُ منكُمْ كلمةً تَمْلِكونَ بها العَرَبَ، وتَدينُ لكمْ بها العَجَمُ» [أحمد ١/٢٢٧] / ٤٥٢ ـ أ/ وفي بعضِ القصةِ أنهُ قالَ: «أريدُ منكُمْ كلمةً يَدينُ لكمْ بها العَرَبُ، ويُؤدّي إليكُمْ بها العَجَمُ الجِزْيَةَ. فقالوا: وما هي؟ فقالَ: لا إلهَ إلا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ. فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥] وذُكِرَ أنهمْ قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾؟

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

والآيةُ في مَنْ يُقِرُّ بالصانعِ، ليستْ[4] في مَنْ يُنْكِرُ الصانعَ رأساً مِنْ نَحْوِ الدَّهْرِيَّةِ وغَيرِها، حينَ[5] نَفى الأُلوهيَّةَ لِمَنْ دونَهُ، وأثْبَتَها للهِ ﷻ بقولِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ولو كانَ ذلكَ مع أهلِ الدهرِ لَكانَ لا مَعْنى لِنَفْيِ الأُلوهيَّةِ لِغَيرِهِ، بل يُحتاجُ إلى تَثْبيتِها فَحَسْبُ. فدلَّتِ[6] الآيةُ [على أنها][7] في مَنْ يُقِرُّ بالصانعِ، لكنهُ يُشْرِكُ غَيرَهُ فيها، وهُمْ مُشْرِكو العَرَبِ وغَيرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخبَرَ عنْ رسولِهِ ﷺ وصِدْقِهِ حينَ[8] قالَ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو كلُّ آياتِهِ مِنَ التوحيدِ والإسلامِ والرسالةِ، وكلُّ فِعْلٍ يُحْمَدُ فاعِلُهُ عليهِ، ولا يُذَمُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذينَ كانوا قَبْلَهُ في جميعِ ما جاؤوا بهِ مِنَ الحَقِّ.

الآيات ٣٨ و٣٩ و٤٠ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالتكذيبِ والرَّدِّ لِذلكَ كلِّهِ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم اسْتَثْنى المؤمنينَ حينَ[10] قالَ ﷻ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهمْ لا يَذوقونَ العذابَ الأليمَ. و﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[11] مُسْتَثْنىً مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أو لا يكونُ لهذا حَقُّ الاسْتِثْناءِ مِنَ الأوّلِ. ولكنْ [يكونُ على][12] الابْتِداءِ. وذلكَ[13] جائزٌ في اللغةِ سائغٌ في اللسانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ ثم بَيَّنَ ما أعَدَّ لِلْمُخْلَصينَ، فقالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ يَجْمَعُ بَينَ قولِهِ: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] وبَينَ قولِهِ: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾؟.

قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: يعني المَعْلومَ حينَ يَشْتَهونَهُ يُؤتَونَهُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ للكثيرِ الذي لا يُحْسَبُ، ولا يُعَدُّ لِكَثْرَتِهِ، هو في نفسِهِ مَعْلومٌ مَحْدودٌ[14]، وأنْ يريدَ بالمَعْلومِ أنهُ صارَ ما وُعِدوا في الدنيا لهمْ في الآخِرَةِ مَعْلوماً مَعْروفاً عندَ الوصولِ إليهِ؛ كانَ ذلكَ لهمْ مَوْعوداً، فإذا وَصَلوا إليهِ صار مَعْلوماً مَحْدوداً.

---

(١) أدرجت في الأصل و م بعد: تمنعوننا عن طاعة الله والله أعلَم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل و م: لهذا. (٤) في الأصل و م: ليس. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل و م: فدل. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: حيث. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: حيث. (١١) في الأصل وم: لو كانوا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل و م: محدودا.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي مُعَظَّمونَ مُشَرَّفونَ.

الآيات ٤٣ و٤٤ و٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ﴾ يُخْبِرُ أنَّ لهمْ في الجنةِ ما يَسْتَحِبونَ، ويَخْتارونَ، في الدنيا مِنَ الجلوسِ على السُّرُرِ على المُواجَهَةِ والمُقابَلَةِ والشربِ على ذلكَ. والكاسُ: قيلَ: كلُّ إناءٍ و قَدَحٍ، فيهِ شرابٌ، فهو كأسٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ﴾ المَعينُ: قالَ بعضُهُمْ: هو الجاري، وكأنهُ يُخْبِرُ أنَّ خُمورَ أهلِ الجنةِ تجري في الأنهارِ كقولِهِ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥] وقالَ بعضُهُمْ: المَعينُ، هو الظاهرُ الذي يَقَعُ البَصَرُ عليهِ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠] أي ظاهرٍ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ذُكِرَ أنَّ خُمورَهُمْ في الآخرةِ بيضاءُ، لأنَّ [في][1] البَياضِ يَظْهَرُ كلُّ ما فيهِ مِنَ الأذى والآفةِ، ويُرى. فأمّا في غَيرِهِ مِنَ الألوانِ فإنهُ قَلَّما يَظْهَرُ، وقَلَّما يُرَى إلّا بجهدٍ. أو ذُكِرَ أنها بيضاءُ لأنَّ البَياضَ[2] مِنَ الألوانِ [المُسْتَحْسَنةِ في][3] الطباعِ كلِّها، وهو المُخْتارُ عندَنا.

قالَ الزَّجّاجُ: إنَّ الخَمْرَ لَذَّةٌ للنفسِ الروحانيَّةِ لا للجَسَدانيَّةِ. ألا تَرَى أنَّ الخَمْرَ يَشْرَبُها الناسُ، وتَظْهَرُ كراهةُ ذلكَ في وجوهِهِمْ مِنَ العُبوسَةِ وغيرِها. ثم معَ هذا يَعودونَ، ويَشْرَبونَ. دلَّ أنها لَذَّةٌ لا لهذهِ النفسِ الجَسَدانيَّةِ ولكنْ للنفسِ الروحانيَّةِ، أو كلامٌ نَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ويَنْزِفونَ[4]: بنصبِ الياءِ وكَسْرِ الزايِ، ورَفْعِها ونَصْبِ الزايِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا آفَةَ فيها، ولا ضَرَرَ، ولا أذىً ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ مَنْ قَرَأها يُنْزَفونَ برفعِ الياءِ ونَصْبِ الزايِ فيقولُ: لا تَنْزِفُ الخمرُ عقولَهُمْ، أي لا تَذْهَبُ بها، أي لا يَسْكرونَ كما يُسْكَرُ بِشُرْبِ خمورِ الدنيا. ومَنْ قَرَأها: يَنْزِفونَ [فيقولُ: يُفْنونَ][5] شرابَهُمْ. وتأويلُ هذا[6] الكلام أنَّ أهلَ الدنيا إذا أخذوا في الشُّرْبِ لا يَتْرُكونَ شُرْبَهُمْ إلّا لإحدى[7] الخَلَّتَينِ: إمّا لِذَهابِ عقولِهِمْ، وذلكَ عندَ شدةِ سُكْرِهِمْ، وإمّا لِفَناءِ الشَّرابِ[8]. لإحدَى هاتينِ الخَلَّتَينِ يَتْرُكونَ شُرْبَهُمْ؛ فَيُخْبِرُ أنَّ أهلَ الجنةِ لا تُذْهِبُ عقولَهُمُ الخَمْرُ، ولا يُفْنونَ شرابَهُمْ، ولا كانَ فيها آفةٌ ولا ضَرَرٌ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿مَّعِينٍۭ﴾ ظاهرٍ لا يَتَحَرَّكُ، ويُقالُ: الجاري ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي سُكْرٌ ولا ضَرَرٌ. ولا يكونُ الاغْتِيالُ إلّا مِنَ الخديعةِ. و الغَيلُ في الأولادِ، وهو[9] أنْ تُرْضِعَ المراةُ وَلَدَها، وفي بطنِها آخَرُ. والمَغُولُ[10] المُتَلَوِّنُ. ولِذلكَ[11] سُمِّيَتِ الغُولُ غُولاً لأنها تَتَلَوَّنُ، والغِيلانُ جميعٌ ﴿يُنزَفُونَ﴾ النَّزيفُ[12] السكرانُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا تَغْتالُ عقولَهُمْ، فَتَذْهَبُ بها. يقالُ: الخَمْرُ غَولٌ لِلحِلْمِ، والحَرْبُ غَولٌ للنفوسِ.

والغَولُ: العدوُّ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي لا تَذْهَبُ خمرُهُمْ، وتَنْقَطِعُ، وتَذْهَبُ عقولُهُمْ. والخَمْرُ التي جَعَلَها اللهُ لأهلِ الجنةِ في الآخِرَةِ هي للذي لم يَشْرَبْها في الدنيا، ولم يَتَناولْ منها، ولا تَلَذَّذَ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي غائلةٌ، أي لا يَيْجَعُ منها الراسُ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي لا يَسْكَرونَ؛ تَنْزِفُ عقولَهُمْ، فَتَذهبُ [بها][13].

وفي قولِهِ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بنصبِ اللامِ دلالةٌ أنهُ قد كانَ مِنَ اللهِ ﷻ لُطْفٌ، بهِ استَوجَبُوا الإخلاصَ والخُصوصِيَّةَ. وهو يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: البيضاء. (٣) في الأصل و م: المستحسن. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٣٥.
(٥) في الأصل و م: أي يفنى. (٦) من م، في الأصل: هذه. (٧) من م، في الأصل: لأحد. (٨) في الأصل و م: الشرب. (٩) في الأصل وم: وهي. (١٠) في الأصل و م: والمغلول. (١١) في الأصل و م: وكذلك. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي لا يَنْظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهِنَّ، ومعناهُ [أنَّ اللهَ تعالى جَبَلَ][1] البشرَ على الغَيرةِ؛ فلا يَسْتَحِبُّ الرجالُ أنْ تنظرَ أزواجُهُمْ إلى غَيرِهِمْ، ولا النساءُ أنْ يَنْظُرَ أزواجُهُنَّ إلى غَيرِهِنَّ.

فأخبرَ ﷻ عن أزواجِهِمْ أنهنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهِنَّ حُبّاً لأزواجِهِنَّ وطَلَباً لِمَرْضاتِهِنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: واسعاتُ العُيونِ في الجَمالِ، لأنَّ السَّعَةَ في العَينِ إذا جاوَزَتِ[2] الحدَّ فُحْشٌ، ولا يكونُ فيهِ جَمالٌ، ولكنْ يكونُ فيهِ قُبْحٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عِينٌ﴾أي حِسانُ العُيونِ، والعِينُ جماعةُ العَيناءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي مَسْتورٌ، لا يُصيبُهُ مَطَرٌ ولا ريحٌ ولاغُبارٌ ولا شمسٌ ولا شيءٌ ممّا يُصيبُ في الدنيا كقولِهِ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦و٧٤] واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عِينٌ﴾ أي حِسانُ العُيونِ، العِينُ جماعةُ العَيناءِ، واللهُ أعلَمُ. وقولُهُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي قد خُبِئَ، وكُنَّ مِنَ الحَرِّ والقَرِّ والمَطَرِ، فلم يَتَغَيَّرْ، وهو مثلُ الأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ هو كَبَيضِ النَّعامِ الذي يَكُنُّهُ[3] الريشُ مِنَ الريحِ وغَيرِهِ، فهو أبيضُ إلى الصفرةِ فكأنهُ يَنْزِفُ، فذاكَ المَكْنونُ.

وقالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَهُنَّ بالبَياضِ الذي يكونُ بينَ القِشْرِ وبينَ اللِّحاءِ، وهو أبيضُ شيءٍ يكونُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. لكنَّ فيهِ وَصْفَهُنَّ بالجمالِ والبهاءِ والحبِّ لأزواجِهِنَّ.

وقالَ بعضُهُمْ: البَيضُ المَكْنونُ، وهو المَصونُ، هو وَصْفُهُنَّ بالصَّونِ والصِّيانةِ كقولِهِ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٥٠ و٥١ و٥٢ و٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾][4] ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنَّ رجلَينِ شريكَينِ، كانَ لهما ثمانيةُ آلافِ دينارٍ، [وذُكِرَ أنهما كانا أخوَينِ، وَرِثا ثمانيةَ آلافِ[5] دينارٍ][6] فاقْتَسَما / ٤٥٢ ـ ب/ وذُكِرَ أربعونَ ألفَ درهمٍ.

فَعَمَدَ[7] أحدُهما إلى مالِهِ، فاشْتَرى بِهِ قصوراً وبُستاناً وفُرُشاً وجَوارِيَ ونساءً، فأنْفَقَهُ في أمرِ الدنيا، و عَمَدَ الآخَرُ إلى مالِهِ، فأنْفَقَهُ في طاعةِ اللهِ وطَلَبِ مَرْضاتِهِ، وطَلَبَ بعملِهِ [النِّعْمَةَ][8] الدائمةَ في الآخرةِ، وهذا مؤمنٌ، والآخرُ كافرٌ طاغٍ.

ثم أصابَ الذي [أنفقَ مالَهُ][9] في طاعةِ اللهِ وطَلَبِ مَرضاتِهِ حاجةٌ شديدةٌ، فقالَ: لو أتيتُ صاحبي هذا، [لعلّي أنالُ منهُ مَعْروفاً][10]. فأتاهُ، فَسَألَهُ، فأبَى أنْ يُعطيَهُ شيئاً، وقالَ له: ما شأنُكَ؟ وما فَعَلْتَ بمالِكَ؟ فأخبرَهُ بما فَعَلَهُ بِهِ. فقالَ لهُ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مُحاسَبونَ.

فَرَجَعَ، فَقَضَى لهما أنْ يُوفَيا، فَنَزَلَتْ فيهما﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو المؤمنُ حينَ أدخلَهُ اللهُ الجنةَ ﴿كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعثِ بعدَ الموتِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي لَمُحاسَبونَ.

الآيتان ٥٤ و٥٥ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ كأنهُ قالَ لأصحابِهِ: هل أنتمْ مُطَّلِعونَ في النارِ؟ [لِتَنْظُروا حالَهُ][12]، ثم أخبرَ أنهُ اطَّلعَ ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ذَكَرَ اطِّلاعَهُ، ولم يَذْكُرِ اطِّلاعَ أصحابِهِ. فجائزٌ أنْ يكونَ أخبَرَ عنِ اطِّلاعِ كلِّ واحدٍ منهمْ في نفسِهِ أنهُ اطَّلعَ ﴿فَرَءَاهُ فِى

---

(١) في الأصل و م: جبل الله ﷻ. (٢) في الأصل وم: جاوز. (٣) في الأصل و م: يمكنه. (٤) في الأصل و م: إلى آخر ما. (٥) في م: الف. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل و م: فتعمد. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: أنفقه. (١٠) في الأصل و م: لعله أن ينال منه بمعروف. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل: لنظر ماله، في م، لينظر ما حاله.

﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وَسَطِ الجحيم. وإنْ كانوا جميعاً مُطَّلِعينَ إليهِ فيها، كقولِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الإنشقاق: ٦] وقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الإنفطار: ٦] وإنْ كانَ خاطبَ إنساناً فكأنهُ[1] خاطبَ بهِ كلَّ إنسانٍ في نفسِهِ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أنهُ[2] أخبرَ عنِ اطّلاعِ كلٍّ منهمْ، واللهُ أعلَمُ، وكانوا جميعاً مُطّلِعينَ.

ثم في الآيةِ شَيئانِ[3] عجيبانِ:

أحَدُهُما: ما ذَكَرَ مِنِ اطّلاعِ أهلِ الجنةِ على أهلِ النارِ [أنَّ النارَ][4] تكونُ قريبةً مِنَ الجنةِ حتى يَنْظُرَ بعضُهُمْ إلى بعضٍ [فَيَرَوا كم][5] تكونُ بعيدةً منها. إلّا أنَّ أبصارَ أهلِ الجنةِ تكونُ أبْعَدَ وأبْصَرَ ممّا تكونُ في الدنيا.

فجائزٌ أنْ يَجْعَلَ اللهُ ﷻ أبصارَ أهلِ الآخرةِ أبْصَرَ وأبْعَدَ حتى لا يَمْنَعَهُ بُعدُ المسافةِ والمكانِ عنِ النَّظَرِ والرُّؤيةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أن يُعَرِّفَهُ في النارِ [والنارُ تَحْرُقُهُ، وتُغَيِّرُ][6] وجْهَهُ ولونَهُ وجميعَ أعلامِهِ وسِيماهُ.

لكنْ جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ يُعَرِّفُهُ بأعلامٍ [تُجْعَلُ لهُ][7] فَيَعَرِّفُهُ بتلكَ الأعلامِ، وذلكَ على اللهِ ﷻ يسيرٌ هَيِّنٌ.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: يَجْعَلُ اللهُ ﷻ لأهلِ الجنةِ كُوىً فيها: إذا أرادَ أنْ يَنْظُرَ أحَدُهُمْ إلى مَنْ في النارِ فَتَحَ اللهُ لهُ كَوّةً، يَنْظُرُ إلى مَنْ شاءَ مِنْ مَقْعَدِهِ إلى النارِ، فَيَزدادُ بذلكَ شُكراً، وهو قولُهُ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي في وَسَطِ الجحيمِ كقولِهِ ﷻ ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢] أي وَسَطَهُ.

الآية ٥٦ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي هَمَمْتَ لَتُغْوِيني. وكذا في حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﴿لَتُرْدِينِ﴾ لَتُغْويني.

وقالَ الكِسائيُّ: تاللهِ، و: باللهِ، و: واللهِ، و: اللهِ بِغَيرِ واوٍ لُغاتٌ. يُخْبِرُ أنَّ باللهِ يكونُ على الأسفِ مَرْجِعُها إلى سَفاءٍ: يقولُ: لولا أنَّ اللهَ أنْعَمَ عليَّ بالهُدَى، ولولا أنَّ اللهَ رَحِمَني، فهداني، المَعْنى واحدٌ، يقولُ لهُ: اتْرُكْ دينَكَ، واتْبَعْني.

و﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي لَتُهْلِكُني؛ يُقالُ: رَدَيتُ فلاناً، أي أهْلَكْتُهُ، والرَّدَى الموتُ والهلاكُ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبيِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمَدِينُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لَمُحاسَبونَ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: لَمَجْزِيّونَ. والدينُ الجزاءُ.

وقالَ [بعضُهُمْ][9]: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي مستورٌ، لا يُصيبُهُ غُبارٌ ولا وَسَخٌ، وقولُهُ: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي هَمَمْتَ، وأرَدْتَ أنْ تُهْلِكَني، وتُغْوِيَني، لو أجَبْتُكَ، واتَّبَعْتُكَ، في ما دَعَوتَني إليهِ، وسَألْتَني.

الآية ٥٧ ثم أخْبَرَ أنهُ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معهُ.

وهذا على المعتزلةِ لِقَولِهِمْ: إنَّ عليهِ هِدايةَ كلِّ أحدٍ، ما لو مَنَعَهُ عنهُ كانَ جائراً في منعِ ذلكَ.

وهذا الرجلُ أخْبَرَ أنهُ بنعْمَتِهِ ورَحْمَتِهِ اهْتَدى ما اهْتَدَى، وأنهُ لو لم يكُنْ منهُ إليهِ نعمةٌ لَكانَ مِنَ المُحْضَرينَ فيها. فهو أعرَفُ بربِّهِ مِنَ المعتزلةِ.

وكذلكَ الشيطانُ وجميعُ الكَفَرةِ أعرفُ بنعمةِ ربِّهِمْ مِنَ المعتزلةِ لأنهمْ قالوا: ﴿أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] [وقالوا][10]: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣و٥٣] ومثلُهُ كثيرٌ في القرآنِ.

---

(١) في الأصل و م: فإنما. (٢) في الأصل و م: إنما. (٣) في الأصل و م: سيبان. (٤) في الأصل و م: أنها. (٥) في الأصل و م: فيرون أن. (٦) في الأصل: والنار مما تحرقه وتفنى، في م: ما يحرقه ويفنى. (٧) من م، في الأصل: يجعله. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

إنهمْ جميعاً رَأَوُا الهدايةَ لهمْ منَ اللهِ نعمةً ورحمةً، ولم يُعْطِ الكَفَرَةَ ذلكَ.

والمعتزلةُ يقولونَ: بل هَدَى كلَّ كافرٍ ومشركٍ [لكنهمْ لم يَهْتَدوا][1].

وأهلُ الجنةِ قالوا أيضاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ومثلُهُ كثيرٌ في القرآنِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥٨ و٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ على الإيجابِ والإلزامِ [أي لا نموتُ إذا دَخَلْنا الجنةَ. ويَحْتَمِلُ][2] على الاستِفهامِ وسُؤالِ بعضِهِمْ بعضاً: ألا نموتُ؟ ولا نُعَذَّبُ؟ وإذا لم نَمُتْ، ولم نُعَذَّبْ، فإذنْ كانَ [فَوزُنا][3] فوزاً عظيماً.

وكذلكَ ذَكَرَ أبو مُعاذٍ عنِ الكسائيِّ أنَّ هذا اسْتِفهامُ يَقينٍ، وفي القرآنِ كثيرٌ مثلُهُ. وقالَ قد يكونُ الاسْتِفهامُ على التَّعجيبِ، ويكونُ [على اليَقينِ، ويكونُ على][4] الجهالةِ. ويكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [إلّا بِمَعْنى بعدَ، إذِ المَوتةُ الأُولَى][5] قد مَضَتْ [ولا يُتَصَوَّرُ تَذَوُّقُها][6] ثانياً.

الآيتان ٦٠ و٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي لِمِثْلِ هذهِ العاقبةِ التي أَعْطينا نحنُ، وظَفِرَ بها، يَعْمَلُ العاملونَ، لا لِمِثْلِ ما فيهِ صاحبُهُ الذي في النارِ.

الآية ٦٢ ثم قولُهُ[7] تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ مِنَ المَنزِلِ أو المُقامِ، أيِ المُقامُ الذي نَزَلْنا فيهِ خيرٌ ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾أنْ يكونَ مِنَ الأنزالِ، أي مالَنا مِنَ الطعامِ[8]والمأكلِ والمَشْرَبِ خيرٌ ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟

قالَ بعضُهُمْ، أعني بعضَ الكفارِ لبعضٍ لمّا خُوِّفوا بها: هل تَدْرونَ ما الزَّقومُ؟ هو التمرُ والزُّبْدُ، فقالوا: بهذا الذي يُخَوِّفُنا بهِ محمدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ محمداً يُخَوِّفُنا بِشجرةٍ في النارِ [والنارُ][9] مِنْ طَبْعِها أنْ تُحرِقَ الشجرَ، وتأكلَهُ، فكيفَ تكونُ في النارِ الشجرةُ؟ تكذيباً منهمْ وإنكاراً لها.

الآيات ٦٣ و٦٤ و٦٥ فَبيَّنَ اللهُ ﷻ تلكَ الشجرةَ [وأخبرَ][10] عن حالِها، فقالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أخبرَ أنَّ تلكَ الشجرةَ خَرَجَتْ مِنْ أصلِ الجحيمِ، وأُنْشِئَتْ، والشجرةُ التي أُنشِئَتْ مِنَ النارِ، لا تأكُلُها النارُ، ولا تَحرِقُها، كما تأكلُ غيرَها مِنَ الأشجارِ التي لم تَنْشأْ منها.

ومثلُ هذا جائزٌ أنْ يكونَ الشيءُ الذي يكونُ مَنْشَؤُهُ وبَدْؤُهُ مِنْ[11] شيءٍ، لا يُهْلِكُهُ كونُهُ في ذلكَ [الشيءِ، كالسمكِ][12] الذي يكونُ أصلُ نشوئِهِ في الماءِ، وكذلكَ جميعُ دَوابِّ البحرِ، وإنْ كانَ غيرُها مِنَ الدوابِّ في البَرِّيَّةِ تَهْلِكُ فيها، وتَتْلَفُ.

فَعَلَى ذلكَ الشجرةُ المُنْشَأَةُ [في النارِ، لا تُهْلِكُها][13] النارُ، ولا تَحرِقُها، وإنْ كانَ غيرُها مِنَ الأشجارِ تأكُلُها، وتَحرِقُها، واللهُ أعلَمُ.

والجَحيمُ: قيلَ: هو معظمُ النارِ وغِلَظُها؛ يقالُ: جَحَمْتُ النارَ، أي أعْظَمْتُها؛ يقالُ: نارٌ جَحيمةٌ أي عظيمةٌ

---

(١) في الأصل و م: لكنه لم يهتد. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: ليس. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: عن. (٥) في م: أي بعد موتتنا الأولى إلا بعد إذ موتة الأولى، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: لا يذوقون (٧) في الأصل و م: قال. (٨) في الأصل و م: العظام. (٩) من م، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل و م: و. (١١) أدرج بعدها في الأصل و م: كل. (١٢) في الأصل: السمك، في م: كالسمك. (١٣) في الأصل: منها لا تهلكها، في م: منها لا يهلكه.

وقولُهُ تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ نوعاً مِنَ الحَيَّاتِ يُسَمَّينَ شياطِينَ، لها رؤوسٌ سودٌ، قِباحٌ، له عُرْفٌ كَعَرْفِ الفَرَسِ. وطَلْعُ تلكَ الشجرةِ، وثَمَرَتُها لِقُبْحِها وسَوادِها كرؤوسِ[1] تلكَ الحَيَّاتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو نوعٌ مِنَ/٤٥٣ ـ أ/ النباتِ في الباديةِ يَسْتَقْبِحُهُ الناسُ أشَدَّ الاِسْتِقْباحِ، شَبَّهَ طَلْعَ تلكَ الشجرةِ وثَمَرَتَها بذلكَ النباتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ جبالاً بمكةَ سودٌ قِباحٌ، يَسْتَقْبِحُها أهلُ مكةَ، سَمَّوها شياطينَ، شَبَّهَ ثمارَ تلكَ الشجرةِ و طَلْعَها برؤوسِ تلكَ الجبالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ حقيقةُ [رؤوسِ][2] الشياطينِ، لأنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ الشياطينَ في قلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ فَضْلَ بُغْضٍ وقُبْحٍ و نِفارٍ منها، وإنْ لم يَرَوْها، ولم يُعايِنوها، فَشَبَّهَ طَلْعَ تلكَ الشجرةِ برؤوسِ الشياطينِ لِفَضْلِ إنكارِهِمْ وبُغْضِهِمْ إياها حقيقةً.

وفي ذلكَ آيةٌ عظيمةٌ لرسالتِهِ ﷺ لأنهم لم يَرَوُا الشياطينَ بِبَصَرِهِمْ، ولا عَرَفوهُمْ مُعايَنَةً، وإنما عَرَفُوهُمْ بأخبارِ الرسُلِ ﷺ ممّا اسْتَنْكَروها، واسْتَقْبَحوها، وهمْ لا يؤمنونَ بالرسلِ ﷺ فإذا قَبِلوا أخبارَ رُسُلِ اللهِ فيهمْ لَزِمَهُمْ أنْ يَقْبَلوا قولَهُ في الرسالةِ وفي جميعِ ما أخْبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿فِتۡنَةٗ﴾ يعني بهِ الشجرةَ التي أُنْشِئَتْ مِنْ أصلِ الجَحيمِ، وهي شجرةُ الزَّقُّومِ عذاباً للظالمينَ كقولِهِ: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ أي يُعَذَّبونَ ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ أي عذابَكُمْ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [الذريات: ١٣و١٤].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿جَعَلۡنَٰهَا﴾ أي تلكَ الشجرةَ الزَّقُّومَ ﴿فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ في الدنيا [وجهَينِ:

أحَدُهما: الفتنةُ][3] بها لهمْ هي إنكارُهُمْ إياها مِنَ الجهةِ التي ذَكَروا أنَّ النارَ تَحْرِقُ، وتأكُلُ الشجرَ، فكيفَ يكونُ فيها شجرٌ؟ إنكاراً لها وتكذيباً بها.

والثاني: ما ذَكَرَ بعضُهُمْ: أنَّ الزَّقُّومَ، هو الزُّبْدُ والتمرُ، صارَ ذلكَ فِتْنَةً لِما ذَكَرْنا وسَبَباً لِعذابِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا﴾ أي مِنَ الشجرةِ الزَّقُّومِ، ذَكَرَ أنها ﴿تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ جائزٌ أنْ يُشَدِّدَ اللهُ عليهمُ الجوعَ حتى يأكُلوا منها، فَيَمْلَؤوا[4] بطونَهُمْ منها كقولِهِ: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] وهي الإبلُ التي تملأُ بطونَها مِنَ السّامِ[5]، لا يُغْني ذلكَ الشربُ، وهو الحميمُ ولا يدفَعُ عنهمُ العطشَ الذي يكونُ بهمْ.

فَعَلى ذلكَ ما جَعَلَ طعامَهُمْ مِنْ تلكَ الشجرةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣و٤٤] إنهمْ، وإنْ مَلَؤوا بطونَهُمْ فإنَّ ذلكَ لا يدفَعُ عنهُمُ الجوعَ كقولِهِ: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ [الغاشية: ٧]واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي ثم إنَّ على تلكَ الشجرةِ التي جَعَلَ طعامَهُمْ منها خَلْطاً مِنْ حَميمٍ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي ثم إنَّ مَرَدَّهُمْ، أي ثم إنهمْ يُرَدُّونَ إلى الجحيمِ لا أنهمْ يَرْجِعونَ بأنفسِهِمْ، ولكنْ يُرَدُّونَ فيها كقولِهِ: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [النحل: ٢٩] همْ لا يَدْخُلونَ فيها، ولكنْ يُدْفَعونَ فيها كقولِهِ ﷻ ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

---

(١) في الأصل و م: برؤوس من. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وجهة الغصة. (٤) في الأصل وم: فيملؤون. (٥) في الأصل وم: المسايم، السام: الدقل، وهو أردأ أنواع التمر.

[وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: ثم إنَّ مَقيلَهُمْ لإلَى الجَحيمِ][1] والجَحيمُ، هو معظمُ النارِ على ما ذَكَرْنا؛ يُقالُ: نارٌ جاحمةٌ أي عظيمةٌ.

الآية ٦٩ [وقولُهُ ﷻ][2]: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي وَجَدوا آباءَهُمْ ضالِّينَ.

الآية ٧٠ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فيهِ أنَّ ماذَكَرَ مِنَ العذابِ للأتباعِ منهمْ لا لِلْمَتبوعينَ. ولم يذكُرْ عذابَ المَتبوعينَ في الآيةِ حينَ[4] قالَ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُسْرِعونَ، وهو شِبْهُ الهَرْوَلَةِ والإسراعِ، وهو قولُ القُتَبيِّ وأبي عوسَجَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: يُهْرَعونَ أي يَسْعَونَ، وهما واحدٌ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ولقد ضَلَّ قبلَ قومِكَ يا محمدُ مِنَ الأولينَ أكْثَرُهُمْ مِنَ الأممِ الخاليةِ منْ لَدُنْ آدَمَ، فهلمَّ جرّاً إلى محمدٍ ﷺ وعلى آدَمَ [وعلى][5] مَنْ بَينَهما مِنَ النَّبِيِّينَ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي لقد أرسَلْنا في الذينَ ضَلّوا قبلَ قومِكَ مُنْذِرينَ يُنْذِرونَهُمْ؛ ما مِنْ قومٍ إلّا بُعِثَ إليهِمْ نذيرٌ كما أرسَلْنا إلى قومِكَ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: انْظُرْ كيفَ صَنَعْنا بِمَنْ أنْذَرْنا بالعاقبةِ، فلم يؤمِنْ، ولم يَقْبَلْ، ولم تَنْفَعْهُ النِّذارةُ.

الآية ٧٤ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ اسْتَثْنى المُخْلَصينَ منهمْ، وهمُ الذينَ نَفَعَتْهُمُ النِّذارةُ، وقَبِلوها، فَنَجوا ممّا ذَكَرَ مِنْ عذابِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. ويَحْتَمِلُ أنهُ[7] سَمّاهُمُ المُخْلَصينَ لِما اصْطَفاهُمْ، وأخْلَصَهُمْ لِعبادتِهِ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: حينَ دَعا ربَّهُ، فقالَ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] فكأنهُ دعا ربَّهُ بالهلاكِ على قومِهِ، فأجابَ اللهُ دعاءَهُ، وهو ما قالَ ﷻ ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٥]][8].

ثم [بَيَّنَ اللهُ تعالى][9] أنَّ الرسُلَ ﷺ هم مَخصوصونَ بأمْرَينِ[10] مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ مِنَ الناسِ:

أحَدُهما: أنْ ليسَ لهمُ الدعاءُ على قومِهِمْ بالهلاكِ وسؤالِ العذابِ عليهِمْ إلّا بعدَ مَجيءِ الإذْنِ لهمْ مِنَ اللهِ ﷻ بالدعاءِ عليهِمْ. فَنوحٌ ﷺ إنما دَعا ربَّهُ بإنزالِ الهلاكِ عليهِمْ بالإذْنِ مِنْ ربِّهِ.

والثاني: لم يكُنْ لهمُ الخُروجُ مِنْ بينِ أظْهُرِهِمْ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ إلّا بإذْنٍ مِنَ اللهِ ﷻ على ذلكَ. ولِذلكَ جاءَ العِتابُ لِيونسَ ﷺ والتَّعْييرُ لَمّا خَرَجَ مِنْ بينِهِمْ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ بلا إذْنٍ كانَ مِنْ ربِّهِ حينَ[11] قالَ ﷻ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

هما خَصْلَتانِ[12] لهمْ خاصّةً، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، وأمّا لِغَيرِهِمْ مِنْ أهلِ الدينِ فلهمْ أن يَدْعُوا على الفَجَرَةِ والفَسَقَةِ منهمْ باللَّعْنِ والهلاكِ، فلهمْ أنْ يَفِرّوا منهمْ، وأنْ يَخْرُجوا مِنْ بينِ أظْهُرِهِم لِفِسْقِهِمْ وفُجورِهِمْ، وكانَ هذا يُعَدُّ مِنْ صالحِ الأعمالِ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ وهو الربُّ، تبارَكَ، وتعالى، ذَكَرَ المُجيبينَ على الجماعةِ أنا نَفْعَلُ كذا، وفَعَلْنا كذا، وهو كلامُ الملوكِ في ما بَينَهُمْ.

ثم كلُّ فِعْلٍ، يُضافُ إلى اللهِ تعالى [مِمّا يُنْسَبُ إلى غَيرِهِ في الجملةِ][13] فإنهُ يُزادُ فيهِ شيءٌ[14]، يكونُ فاصلاً بينَهُ[15]

---

(١) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ واللهُ أعلَمُ. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أنهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أمر. (١٠) في الأصل وم: بهما. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: فضلتان. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: فيه غيره أو ينسب. (١٤) في الأصل و م: شيئاً. (١٥) أدرج قبلها في الأصل و م: وذلك.

وبَينَ فِعْلِ غَيرِهِ [دَفْعاً لِوَهْمِ المُشابَهةِ والشَّرِكَةِ عنْ قلوبِ الناسِ كما يُقالُ: إنهُ عالمٌ لا كالعلماءِ ونَحْوَ](١) ما قالَ ﷻ في موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] [ونَحْوَ قولِهِ: [﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]](٢). ممّا يُكْثِرُ ذلكَ، لأنهُ قادرٌ على وفاءِ ما وَعَدَ، وأخْبَرَ، وإنجازِ ذلكَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وغَيرُهُ مِنَ الخلائقِ، لَعَلَّهُمْ لا يَقْدِرونَ على وَفاءِ ذلكَ والقيامِ بإنجازِ ما وَعَدوا. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تَحْتَمِلُ نَجاتُهُ مِنَ الكَرْبِ العظيمِ: هو دعاؤُهُ قومَهُ إلى توحيدِ اللهِ ﷻ سَبْعَ مئةٍ وخمسينَ سنةً وما قاساهُ منهمْ منْ أنواعِ الأذى مِنَ التكذيبِ وغيرِهِ، فأنجاهُ اللهُ مِنْ كَرْبِ ذلكَ حينَ أهْلَكَهُمْ. ويَحْتَمِلُ الكربُ العظيمُ(٣) الهَولَ الشديدَ، وهو الغَرَقُ، أغْرَقَ قومَهُ، وأنجاهُ منهُ. سَمّاهُ عظيماً لِشِدَّةِ ما أصابَهُمْ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي جَعَلْنا ذُرِّيَّةَ نوحٍ ﷺ مِنْ بَينِ سائرِ وَلَدِ آدمَ وذُرِّيّاتِهِمْ، وأهْلَكَ غَيرَهُمْ. ولِذلكَ كانَ بَقِيَ نَسْلُهُ إلى يومِنا هذا، وهَلَكَ نَسْلُ غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧٨ و٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ أنهُ تَرَكَ في الآخِرِينَ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ مِنَ السَّلامِ حينَ(٤) قالَ ﷻ ﴿سَلَٰمٌ / ٤٥٣ ـ ب/ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أبْقَينا [على نوحٍ](٥) السلامَ الحَسَنَ في الآخِرِينَ حتى يُثْنوا عليهِ جميعاً [ويُصَدِّقوهُ، ويقولوا](٦) فيهِ خَيراً وحُسْناً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَهُ بعضُهُمْ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [أي يُسَلِّمُ عليهِ](٧) جميعُ العالَمينَ في جميعِ الأوقاتِ كما سَلَّمَ عيسى على نفسِهِ حينَ(٨) قالَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وما سَلَّمَ [اللهُ تعالى بنفسِهِ](٩) على يَحْيى ﷺ حينَ(١٠) قالَ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

ذَكَرَ السلامَ عليهِما في أوقاتٍ ثلاثةٍ وفي [كلِّ](١١) يومٍ في الأوقاتِ كلِّها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنا هكذا نَجْزي كلَّ مُحْسِنٍ؛ فَجَزاءُ اللهِ بإحسانِهِ إلينا [الثناءُ](١٢) الحَسَنُ في العالمينَ. رَغَّبَ الناسَ في الإحسانِ إمّا إلى الخَلْقِ وإمّا إلى أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و ليسَ في ذِكْرِهِ أنهُ مِنَ المؤمنينَ كثيرُ منفعةٍ لهُ، وهو مِنْ أُولي العَزْمِ مِنَ الرسلِ. لكنْ يَحْتَمِلُ ذِكْرُهُ إياهُ مِنَ المؤمنينَ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَبلَ الرسالةِ أي(١٣) قَبلَ أنْ يُبْعَثَ رسولاً أي لم يَصِرْ مؤمناً قَبلَ الرسالةِ.

والثاني: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بكَ يا محمدُ. يَذْكُرُ هذا لِيُبَشِّرَ بهِ ﷺ نوحٌ ﷺ والرسلُ ﷺ جميعاً، فيؤمِنَ(١٤) بعضُهُمْ ببعضٍ.

والثالث: أنهمْ كلَّهُمْ مِنْ عبادِنا المُحَقِّقينَ المُوقِنينَ بِقلوبِهِمْ(١٥) ما اعْتَقَدوا بلسانِهِمْ(١٦). وهكذا كانَ الرسلُ كلُّهُمْ موقِنينَ ما اعْتَقَدوا، وأعْطَوا بلسانِهِمْ. وهكذا يَعْتَقِدُ كلُّ مؤمنٍ في أصلِ إيمانِهِ واعْتِقادِهِ ألّا يَعْصِيَ ربَّهُ، وألّا يُخالِفَهُ في شيءٍ مِنْ أمورِهِ ونواهيهِ. لكنهُ لا يَفي ما اعْتَقَدَهُ فِعْلاً، بل يَقَعُ ربما في مَعاصيهِ وفي مُخالفةِ أمرِهِ ونَهْيِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٨٢ و٨٣ و٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي إبراهيمُ ﷺ مِنْ شيعةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ يقولُ: على دينِهِ ومنهاجِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ شيعةِ نوحٍ، أي إبراهيمُ مِنْ شيعةِ نوحٍ ﷺ على ما تَقَدَّمَ [مِنْ](١٧) ذِكْرِ نوحٍ ﷺ حينَ(١٨) قالَ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ [الصافات: ٧٥] إلى آخِرِ ذلكَ أنَّ إبراهيمَ

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: نحو، في م: ونحو قوله: عالم لا كالعلماء ونحوه، مدرجة بعد ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويصدقون ويقولون. (٧) في الأصل وم: إليه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل و م. (١٥) في الأصل وم: أي وفاء. (١٦) في الأصل وم: بلسانه. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: حيث.

مِنْ شيعتِهِ: على دينِهِ ومِنْهاجِهِ. [وقال](١): ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مِنْ جميعِ ما يَمْنَعُهُ مِنَ الإجابةِ لربِّهِ في ما دعاهُ والصَّبْرِ على ما امْتَحَنَهُ، وابْتَلاهُ، واللهُ أعلَمُ. وعلى ذلكَ سَمّاهُ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] جميعَ ما أمَرَ بِهِ، وامْتَحَنَ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ في الآخرةِ؛ يقولُ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] أخبَرَ أنهُ في الآخِرَةِ يكونُ مِنَ الصالحينَ وذلكَ سلامةُ قلبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٥ و٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ قد اختلَفَ سؤالُ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، [لأبيهِ وقومِهِ](٢): مَرَّةً قالَ لهمْ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] ومرَّةً قالَ: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥]

ثم ذَكَرَ في غَيرِ [هذينِ المَوضِعَينِ](٣) إجابَتَهُمْ إيّاهُ حينَ(٤) ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] و﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] ولم يذكُرْ ههنا شيئاً، قالوهُ لهُ.

ثم مَعْلومٌ أنهُ لا بهذا اللسانِ أجابوهُ بِما أجابوهُ، ثم ذِكْرُهُ على اخْتِلافِ الألفاظِ والحروفِ لِيُعْلَمَ أنَّ تَغْييرَ الألفاظِ وتبديلَ الحروفِ لا يُغَيِّرُ المَعْنَى. وكذلكَ جميعُ القِصصِ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ، ذَكَرَها(٥) مُكَرَّرَةً مُعادةً مُخْتَلِفَةَ الألفاظِ والحروفِ، والقصةُ واحدةٌ، لِيَدُلَّ أنَّ المأخوذَ والمَقْصودَ مِنَ الكلامِ مَعْناهُ لا لَفْظُهُ وحُروفُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿أَئِفْكًا﴾ أي أكَذِباً تَسْمِيَتُكُمْ(٦) الأصنامَ التي تعبدونَها مِنْ دونِ اللهِ؛ يقولُ: [كَذِبٌ؛ تلكَ](٧) ليسَتْ بآلهةٍ، دونَ اللهِ تَعْبُدونَها(٨). او يقولُ: ﴿أَئِفْكًا﴾ أي أكَذِباً: الآلهةُ التي اتَّخَذْتُموها آلهةً دونَ اللهِ: تريدونَ أنْ تَتَّخِذوا آلهةً، وهو قريبٌ [مِنَ](٩) الأوّلِ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنْ(١٠) يَفْعَلَ بكُمْ إذا اتَّخَذْتُمْ دونَهُ آلهةً، وصَرَفْتُمُ العبادةَ والشكرَ عنهُ إلى مَنْ دونَهُ، وقد تعلمونَ أنهُ هو المُنْعِمُ عليكُمْ هذهِ [النِّعَمَ](١١) وهو أسْدَى إليكُمْ هذا(١٢) الإحسانَ، وهو تعالى، أدّاها إليكُمْ. أو يقولُ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنهُ يَرْحَمُكُمْ، ويَفْعَلُ بكُمْ خيراً في الآخِرَةِ بعدَ تَسْمِيَتِكُمُ الأصنامَ وعِبادَتِكُمْ إياها دونَ اللهِ بعدَ عِلْمِكُمْ أنهُ هو خالِقُكُمْ، وهو سَخَّرَ لكُمْ جميعَ ما في الدنيا، وهو أنْشَأها لكُمْ، فماذا تَظُنّونَ بهِ أنْ يَفْعَلَ بكُم؟ أنْ يَرْحَمَكُمْ، ويَسوقَ إليكمْ خيراً، أي لا تَظُنّوا(١٣) بهِ ذلكَ، ولكنْ ظُنّوا جَزاءَ صَنيعِكُمْ.

الآيتان ٨٨ و٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي سأسْقَمُ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﷻ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] للحالِ. فَعَلَى ذلكَ قَولُ إبراهيمَ ﷺ ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [على حقيقَتِهِ](١٤) وهو صادقٌ؛ إذْ ليسَ مِنَ الخَلْقِ أحدٌ إلّا وبهِ سُقْمٌ ومَرَضٌ، وإنْ قَلَّ. فَعَلَى ذلكَ قولُ إبراهيمَ ﷺ وقولُ مَنْ قالَ: إنَّ إبراهيمَ ﷺ كَذَبَ ثلاثاً:

أحَدُها: هذا ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وذلكَ وحْشٌ مِنَ القولِ سَمْجٌ، لا جائزٌ أنْ يُنْسَبَ الكَذِبُ إلى رسولٍ [مِنْ رُسُلِ اللهِ](١٥) تعالى [أو نبيٍّ](١٦) مِنْ أنبيائِهِ ﷺ ولا(١٧) يَقَعُ قَطُّ في وَجْهٍ مِنَ الوجوهِ.

ويَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنَّ قومَهُ أرادوا أنْ يَخْرُجوا بإبراهيمَ إلى عيدِهِمْ، فَنَظَرَ إبراهيمُ نَظْرَةً في النجومِ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ لِيُخَلِّفوهُ، ويَتْرُكوهُ، لِيُكَسِّرَ أصنامَهُمُ التي يَعْبُدونَها على ما فَعَلَ مِنَ الكَسْرِ والنَّحْتِ.

---

(١) في الأصل و م: وقيل لذكرها. (٢) في الأصل و م: بقوله. (٣) في الأصل و م: هذا الموضع. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل و م: يذكرها. (٦) في الأصل و م: متمسككم. (٧) في الأصل و م: كذباً ذلك. (٨) في الأصل و م: عبادته. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: أي. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل و م: هو. (١٣) في الأصل و م: تظنون. (١٤) ساقطة من الأصل و م. (١٥) في الأصل و م: الله ﷺ. (١٦) في الأصل و م: وهو. (١٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

ويذكُرونَ أنهُ إنما نَظَرَ في النجومِ لأنَّ قومَهُ كانوا يعْلَمونَ[1] بالنجومِ، ويَسْتَعْملونَ علمَ النجوم. فإنْ كانَ ذلكَ فهو، واللهُ أعلَمُ، أرادَ أنْ يُرِيَ مِنْ نفسِهِ المُوافقةَ لهمْ لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ عندَ ذلكَ، وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وقولِهِ ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ [الأنعام: ٧٦و٧٨] ونَحْوِهِ.

قالَ ذلكَ على إظهارِ المُوافقةِ لهمْ مِنْ نفسِهِ، ليكونَ إلزامُ الحُجَّةِ عليهِمْ. والصرفُ عمّا همْ عليهِ أهوَنَ وأيْسَرَ، إذْ هكذا الأمرُ بالمعروفِ في الخَلْقِ: أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يَصْرِفَ آخَرَ عنْ مذهبٍ أو دينٍ لو[2] أظْهَرَ مِنْ نفسِهِ المُوافَقَةَ لهُ [في ذلكَ، ثم رامَ صَرْفَهُ ومَنْعَهُ عنْ ذلكَ كانَ على ذلكَ أقْدَرَ وأمْلَكَ مِنْ أنْ يُرِيَ لهُ المخالَفَةَ][3].

الآية ٩٠ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ أي أعْرَضوا عنهُ ذاهبينَ إلى حاجاتِهِمْ وحيثُ يريدونَ أنْ يذهبوا، واللهُ أعلَمُ][4].

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ أي فَراغَ إلى ما اتَّخذوها[5]، وسَمَّوها آلهةً؛ ذَكَرَ على ما عندَهُمْ وعلى ما اتَّخذوا هُمْ، وإلّا لم يكونوا آلهةً. وكذلكَ قولُ موسى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ [طه: ٩٧] أي انْظُرْ إلى إلهِكَ الذي هو عندَكَ، وإلّا لم يكُنْ هو بإلهٍ[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ كانَ الطعامُ[7] موضوعاً بينَ يديها. لِذلكَ قالَ: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾.

الآية ٩٢ وقالَ[8]: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ بِحوائجِكُمْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ أنهُ مَنْ فَعَلَ بها ما فَعَلَ كقولِهِ: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩و٦٢و٦٣] عنْ مَنْ فَعَلَ بهمْ هذا. سَفَّهَ قومَهُ في عبادتِهِمُ الأصنامَ، وهي لا تأكُلُ، ولا تَنطِقُ، ولا تَمْلِكُ دفعَ مَنْ قَصَدَ بها ضَرَراً. فكيفَ تَطْمَعونَ شفاعتَها لكمْ في الآخِرَةِ، وهي لا تَمْلِكُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ. وهو كقولِهِ: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢و٧٣].

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي مالَ، ورَجَعَ عليهِمْ. وقولُهُ: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ وَفاءً[9] لِيَمينِهِ التي كانَتْ منهُ حينَ[10] قالَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ بالقوةِ. وقد يُعَبَّرُ / ٤٥٤ ـ أ/ باليمينِ عنِ القوةِ كما يُعَبَّرُ باليَدِ عنِ القوةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي باليدِ اليُمْنَى نفسِها[11] على ما يَعْمَلُ المرءُ [أكثرَ][12] أعمالِهِ باليمينِ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ ظاهرُ هذا أنهمْ أقْبَلوا عليهِ وقْتَ ما كَسَرَها، وفَعَلَ بها ما فَعَلَ. لكنْ في آيةٍ أُخرَى ما يدلُّ أنَّ إقبالَهُمْ عليهِ كانَ بعدَ ما خَرَجَ مِنْ عندِها، وغابَ. وكانَ بعدَ ذلكَ بزمانٍ.

ألا تَرَى أنهمْ ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾؟ [الأنبياء: ٥٩و٦٠] ولو كانوا أقبلوا عليه يَزِفّونَ، وهو عندَها حاضرٌ [لم يحتاجوا إلى][13] أنْ يقولوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ بل يقولونَ: إنَّ إبراهيمَ فَعَلَ ذلكَ بها، ولا كانَ لقولِ إبراهيمَ ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] مَعْنىً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَزِفُّونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يمشونَ إليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: يُسْرِعونَ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ.

---

(١) في الأصل و م: يعملون. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أنه إذا. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عليهم ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي ضربهم ضرباً باليمين. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: اتخذتموهم. (٦) في الأصل وم: إله. (٧) في الأصل وم: طعاماً. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) في الأصل و م: مألوفا. (١٠) في الأصل و م: حيث. (١١) في الأصل و م: نفسه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: يحتجوا على.

وأصلُ الزَّفيفِ كأنهُ المشيُ بسرعةٍ على ما يُسْرِعُ في المشيِ المَرءُ إذا أصابَهُ شيءٌ أو فُعِلَ بِهِ أمرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يُسَفِّهُهُمْ بِعبادتِهِمْ ما يَنْحِتونَ بأيديهِمْ، ويَتَّخِذونَها بأنفسِهِمْ على علمٍ منهمْ أنها لا تَمْلِكُ نَفْعاً ولا ضَرّاً. والذي نَحَتَها أولَى بالعبادةِ لهُ: أولَى بالعبادةِ[1] إنْ كانَتْ تجوزُ العبادةُ لِمَنْ دونَهُ مِنْ ذلكَ المَنْحوتِ؛ إذْ هو يَمْلِكُ شيئاً مِنَ النَّفعِ والضَّرِرِ، والمَنْحوتُ لا. فإنْ لم تَعْبُدوا الناحتَ لها والمُتَّخِذَ، وهو أقربُ وأنفعُ، فكيفَ تَعْبُدونَ ذلكَ المنحوتَ الذي لا يَمْلِكُ شيئاً؟ وتَرَكْتُمْ عبادةَ الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ أعمالَكُمْ؟

ثم مِنْ أصحابِنا[2] مَنْ احتَجَّ على المعتزلةِ بهذهِ الآيةِ في خَلْقِ أفعالِ العبادِ؛ يقولونَ: أخبرَ ﷺ عن خَلْقِ أنفسِهِمْ وعن خَلْقِ أعمالِهِمْ حينَ[3] قالَ:

الآية ٩٦ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ لكنهمْ يقولونَ: ليسَ فيهِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِهِمْ[4]. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷺ ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ وهمْ لا يَعبُدونَ النحتَ، إنما يَعْبُدونَ ذلكَ المَنْحوتَ. فَعَلَى ذلكَ لم يَخْلُقْ أفعالَهُمْ وأعمالَهُمْ. ولكنْ خَلَقَ المَعْمولَ نفسَهُ، واللهُ أعلَمُ.

لكنَّ الاحتِجاجَ عليهِمْ مِنْ وجهٍ آخَرَ في ذلكَ كأنهُ أقربُ وأولَى، وهو أنْ صَيَّرَ ذلكَ المَعْمولَ خَلْقاً [لنفسِهِ حينَ[5] أضافَهُ إلى نفسِهِ بقولِهِ][6]: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [أي مَعْمولَكُمْ][7] لأنهمْ إنما يعبدونَ ذلكَ المَعْمولَ: خَلْقَ اللهِ.

دلَّ أنَّ عَمَلَهُمُ الذي عَمِلوا بِهِ مَخلوقٌ. لِذلكَ قُلْنا: إنَّ فيهِ دلالةَ خَلْقِ أعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إنما صارَ التَّوّابُ والمُتَطَهِّرُ [مَحبوبَ اللهِ][8] لِحُبِّهِ التوبةَ والتَّطَهُّرَ، وصارَ المُعْتَدي غيرَ محبوبٍ لِحُبِّهِ[9] الاعْتِداءَ. فَعَلَى ذلكَ: المعمولُ صار مخلوقاً بِخَلْقِهِ عملَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [كأنهُ قالَ بعضُهُمْ لبعضٍ: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾][10] لِيُجْمَعَ فيهِ الحَطَبُ، فتَعْظُمَ فيهِ النارُ، فتَصيرَ جحيماً، ثم ألْقوا إبراهيمَ في الجَحيمِ. والجَحيمُ قد ذُكِرَ أنهُ مُعْظَمُ النارِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أيِ الهالِكينَ. يقولونَ: ما أنْظَرَهُمُ اللهُ بعدَ ذلكَ حتى أهْلَكَهُمْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذاهبٌ إلى ربي بقلبي وعملي ونِيَّتي، وذلكَ في الآخِرةِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أو إلى ما أَذِنَ لي [وقد أمَرَهُ][11] بالهجرةِ إلى مكةَ، أو ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ﴾ ما فيهِ رِضَى ربي أو طاعةُ ربِّي ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَيُنْجيني ممّا رأيتُ مِنْ قومي، وقالَ بعضُهُمْ: سيهديني الطريقَ. وذلكَ جائزٌ قولُ موسى ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] لَمّا تَوَجَّهَ إلى مَدْيَنَ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ قولُ إبراهيمَ ﷺ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي ذاهبٌ إلى أمرِ ربِّي أي مُتَوَجِّهٌ إلى ما أمَرَني ربي أنْ أتَوَجَّهَ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ذلكَ الطريقَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لدينِهِ. وذلكَ مَنْ[12] هاجَرَ مِنَ الخَلْقِ لِيُعَلِّمَ[13] دينَهُ. وقد ذُكِرَ في حرفِ حَفْصَةَ: أني مهاجرٌ إلى ربِّي سَيَهْدِيني، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: من أن يعبد. (٢) من م، في الأصل: أصحاب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الأفعال. (٥) في نسخة الحرم المكي حيث. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لله تعالى بقولكم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل و م: محبوباً. (٩) في الأصل و م: لبغضه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل و م: أي وقد أمر. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أي.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كأنهُ قالَ: ربِّ هَبْ لي غلاماً، واجْعَلْهُ مِنَ الصالِحينَ. دليلُ ذلكَ ما ذَكَرَ لهُ مِنَ البِشارةِ لهُ بالغلامِ على إثْرِ ذلكَ أنَّ سؤالَهُ كانَ سُؤالَ الغلامِ.

ثم فيهِ دليلُ جوازِ سؤالِ الوَلَدِ الذَّكَرِ ربَّهُ. لكنهُ يَسْألُ[1] بشَرْطِ الصلاحِ والطِّيبِ كما سألَ الأنبياءُ: سألَهُ إبراهيمُ ﷺ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقالَ زكريّا ﷺ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] وما ذكَرَهُ، وحكى عنهمْ مدحاً لهمْ وثناءً عليهم حينَ[2] قالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] يجبُ على [كلِّ مَنْ يسألُ ربَّهُ الولَدَ أنْ يَسْألَهُ بهذِهِ][3] الشرائطِ التي سألَها[4] الأنبياءُ ﷺ. فيكونُ سؤالُهُمُ الولَدَ على ذلكَ سؤالاً للهِ ﷻ وما يَصْلُحُ لِقيامِهِ لأمرِهِ وعبادَتِهِ.

فأمّا أنْ يسألَهُ إياهُ لَذَّةً لنفسِهِ وسروراً لهُ في الدنيا فلا.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي هَبْ لنا مِنْ أزواجِنا وذُرِّياتِنا ما تَقَرُّ بهِ أعْيُنُنا.

[والثاني: أي][5] هَبْ لنا مِنْ أزواجِنا مِنَ الوَلَدِ والذُّرِّيَّةِ ما تَقَرُّ بهِ أعْيُنُنا على ماسألَ زكريّا ﷺ حينَ[6] ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

ثم فيهِ دلالةُ أنَّ الولدَ هِبَةُ اللهِ لهمْ وعَطاءٌ لهمْ. ولذلكَ قالَ [زكريّا ﷺ][7]: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [وقالَ ﷻ:][8] ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] وقد ذَكَرْنا[9] هذا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ [أعني المَعْنى الذي بهِ][10] صارَ الولدُ هِبَةً مِنَ اللهِ تعالى.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ يَصيرُ حَليماً إذا بَلَغَ مَبْلَغَ الامْتِحانِ بالأعمالِ والأمْرِ والنَّهْيِ، أي بَشَّرْناهُ بغلامٍ حَليمٍ، يَحْلُمُ في ما امْتُحِنَ إذا بَلَغَ مَبْلَغاً يُمْتَحَنُ فيهِ.

قالَ قتادةُ: إنَّ اللهَ ﷻ لم يذكُرْ أحداً، ولا وَصَفَهُ بالحُلْمِ سِوَى إبراهيمَ وَوَلَدَهُ الذي بَشَّرَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي بَلَغَ بحيثُ يَقْدِرُ أنْ يَسْعى معهُ إلى حيثُ أُمِرَ أنْ يَسْعى، ويَمْشِيَ معهُ، وهي الهجرةُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي بَلَغَ بحيثُ يَعْمَلُ، ويُمْتَحَنُ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقد عرَفَ حُرْمَةَ ذَبْحِ بَني آدمَ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وقُرِئَ بالنصبِ والرفعِ جميعاً[12]، فيهِ دلالةُ أنَّ رُؤيا الأنبياءِ والرسلِ ﷺ على حقٍّ تَخْرُجُ كالأمْرِ المُصَرَّحِ.

ألَا تَرَى أنهُ لمّا قالَ لهُ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقد عرَفَ حُرْمَةَ ذَبْحِ بَني آدمَ وقَتْلَهُمْ قالَ لهُ ولدُهُ ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولو لم يكنْ أمراً لم يَقُلْ: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولا قالَ لهُ إبراهيمُ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقد عرَفَ حُرْمَةَ ذَبْحِ بني آدمَ وقَتْلَهُمُ الذي لا يَسَعُ الإقدامُ عليهِ والعملُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ لأبيهِ: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دلالةُ أنْ لا كلَّ مأمورٍ بأمرٍ مِنَ اللهِ، شاءَ اللهُ أنْ يَفْعَلَ ما أمَرَهُ حينَ[13] أخبَرَ ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(١) في الأصل وم: يسأله. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما يسأله على هذه. (٤) في الأصل وم: سألته. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) من م، في الأصل: ذكر. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: يعني لما. (١١) في الأصل وم: عندنا. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٤٢. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وقد ذَكَرْنا أنَّ إبراهيمَ ﷺ كانَ مأموراً بالذَّبحِ. فإذا أُمِرَ هو بالذَّبحِ أُمِرَ هذا أنْ يَصْبِرَ على الذبحِ، ولا يَجْزَعَ. ثم أخْبَرَ أنهُ يَصْبِرُ إنْ شاءَ اللهُ. دلَّ أنْ لا كلَّ مأمورٍ للهِ بأمرٍ، شاءَ منهُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ [ولكنْ شاءَ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ][1] مِمَّنْ عَلِمَ أنهُ يختارُ ذلكَ الفِعْلَ / ٤٥٤ ـ ب/ ويَفْعَلُهُ، ومَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ لا يَفْعَلُ ذلكَ لا يجوزُ أنْ يَسْألَ[2] ذلكَ منهُ [وعلى ذلكَ][3] قولُ موسى ﷺ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وهذا على المعتزلةِ لِقولِهِمْ: إنَّ اللهَ تعالى إذا أمَرَ أحداً بأمرٍ شاءَ أنْ يَفْعَلَ ما أمَرَهُ بهِ، لكنهُ تركَهُ لمّا لم يَشأْ هوَ، واللهُ أعلَمُ. وقد بيَّنّا فسادَ قولِهِمْ في غَيرِ موضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَسْلَمَا﴾ اسْتَسْلَما لأمرِ اللهِ في ما أمَرَهما: هذا بالذَّبحِ، وهذا بالبَذْلِ والطاعةِ في ذلكَ، أو أسْلَمَ هذا ابنَهُ، وهذا نفسَهُ للهِ ﷻ وأصلُهُ: أسْلَما نفسَيهما لأمرِ اللهِ وإطاعتِهِ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي صَرَعَهُ، وكَبَّهُ على وجهِهِ. فيهِ أنهُ لم يُضجِعْهُ كما يُضجِعُ المرءُ ما يريدُ أنْ يذبَحَهُ مِنَ الشّياهِ وغَيرِها. ولكنهُ أضجَعَهُ على وجهِهِ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما أرادَ أنْ يُنَفِّذَ أمْرَ اللهِ، ويَقْدِرَ على[4] ما أمَرَ بهِ، فَلَعَلَّهُ لو أضجَعَهُ على ما يُضجِعُ غَيرَهُ مِنَ الذَّبحِ نَظَرَ كلُّ واحدٍ منهما إلى وجهِ الآخَرِ، فَيَتَرَحَّمُ هذا بتَرْكِ ذِبْحِهِ، وهذا يَنْظُرُ في وجهِهِ، فَيَجْزَعُ، ويَتْرُكُ طاعَتَهُ.

أو على ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ وَلَدَهُ قالَ لإبراهيمَ ﷺ كذا، فَفَعَلَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٠٤و١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ يجوزُ أنْ يُحْتَجَّ بهذهِ الآية على المُعتزلةِ لِقولِهِمْ: إنَّ اللهَ ﷻ إذا أمرَ أحداً يجوزُ ذلكَ الفعلُ منهُ، وأرادَ أنْ يَفْعَلَ ما أمَرَ بهِ.

ونحنُ نقولُ: يَجوزُ أنْ يُريدَ غيرَ الذي أمرَ بهِ، يريدُ أنْ يكونَ ماعَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ، ويَخْتارُهُ، حينَ[5] قالَ ﷻ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ ولم يكُنْ منهُ بحقيقةِ ذَبحِ الولدِ، وقد أمَرَهُ بِذَبْحِهِ.

فلو كانَ في الأمرِ إرادةُ كونِ ما أمَرَهُ بهِ لكانَ لا يُصَدِّقُهُ في الوفاءِ بالرُّؤيا. ولم يكُنْ ذلكَ منهُ حقيقةً.

لكنهمْ يقولونَ: إنَّ الأمرَ بالذَّبحِ لم يكُنْ إلّا ما كانَ منهُ مِنْ ذَبحِ الكبشِ مِنْ ذلكَ أرادَ، فكانَ ما أرادَ، ومذهَبُهُمُ الاحْتِيالُ لِدَفْعِ ما ذَكَرْنا.

لكنْ نقولُ: إنَّ الأمرَ بالذَّبحِ إنما كانَ بِذَبحِ الولدِ حقيقةً لا بِذَبحِ الكبْشِ. دليلُهُ [في وجهَينِ:

أحَدُهُما:][6] قولُ إبراهيمَ حينَ[7] قالَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقالَ[8] ولَدُهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ لو لم يَجْعَلِ الأمرَ مِنَ اللهِ لهُ بالذَّبحِ أمراً بالذَّبحِ على ذَبحِ الولدِ حقيقةً لَكُنّا نُجَهِّلُهُما في قولِهِما أوامرَ[9] اللهِ وفي تَسْمِيَتِهِما ما يُسَمِّيانِ، فلا نُجَهِّلُهما في ذلكَ. فَدَلَّ أنَّ الأمرَ كانَ على حقيقةِ ذَبحِ الولدِ لا على ذَبحِ الكبشِ على ما يقولونَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ إبراهيمَ وَوَلَدَهُ ﷺ قد مُدِحا، وأُثنِيَ عليهما بالصنيعِ الذي صَنَعا: هذا بإضجاعِهِ إياهُ وهذا بالبذلِ لهُ نفسَهُ لهُ [والطاعةِ لهُ][10] في ذلكَ.

فلو كانَ الأمرُ منهُ لهما لا غَيرَ الإضجاعِ والبذلِ لذلكَ لهُ [لم][11] يكُنْ لهما في ذلكَ الصنيعِ فَضْلُ مدحٍ، ولا فَضْلُ ثناءٍ ومَنْقَبَةٍ؛ إذْ لِأحَدِهما[12] إضجاعُ الولدِ لِذلكَ وللآخَرِ البذلُ لهُ. فإذا مُدِحا، وأُثنِيَ عليهما في صَنيعِهِما الذي صَنَعا، وصارَ لهما مَنْقَبَةٌ عظيمةٌ إلى يومِ القيامةِ حتى سُمِّيَ هذا ذَبيحَ اللهِ وهذا وَفِيَّ اللهِ حينَ[13] قالَ اللهُ ﷻ ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: يشاء. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: الفعل وكذلك.
(٤) أدرج بعدها في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل و م: حيث. (٦) في الأصل و م: وجوه أحدها. (٧) في الأصل و م: حيث. (٨) في الأصل و م: وقول. (٩) في الأصل وم: وأمر. (١٠) و(١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لكل أحد. (١٣) في الأصل وم: حيث.

فلو كانَ الأمرُ بالذَّبحِ ذَبحَ الكبشِ فَداهُ عنهُ؛ إذْ لا يُسمَّى الفداءُ إلّا بعدَ إبدالِ غَيرٍ عنهُ وإقامةِ غَيرٍ مُقامَهُ. دلَّ على ما ذكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

لكنهُ إذا أضجَعَهُ ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ على [ما ذكَرْنا][1] صارا مَمنوعَينِ عنْ ذلكَ الفعلِ غَيرَ تارِكَينِ أمرَ اللهِ ﷻ على [ما][2] ذُكِرَ في القصةِ أنَّ الشَّفْرَةَ قد انقَلَبَتْ عنْ وَجْهِها، فلم تَقْطَعْ. فَمَنْ أُمِرَ بأمرٍ، ثم مُنِعَ عمّا أُمِرَ بهِ، وحِيلَ بينَه وبينَ ما أُمِرَ بهِ، لم يَصِرْ تاركاً للأمرِ، ولا كانَ موصوفاً بالتركِ لهُ. لذلكَ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بهذهِ الآيةِ [في مسائلَ][3] لأصحابِنا:

إحداها: في المرأةِ إذا أسلَمَتْ [نفسَها لزوجِها، ولم يكُنْ هنالكَ][4] ما يَمْنَعُ الزوجَ عنِ الاستِمْتاعِ بها والجماعِ، صارَتْ مُوفيةً مُسلِّمَةً ما على نفسِها إلى زوجِها، فاستَوجَبَتْ بذلكَ كَمالَ الصَّداقِ، ولَزِمَتْها العِدَّةُ؛ إذ لا تَمْلِكُ سِوَى ما فَعَلَتْ، وإنْ لم يُجامِعْها زوجُها.

[والثانيةُ][5] في مَنْ عندَهُ أمانةٌ، إذا سَلَّمَها إلى صاحبِها، وصَيَّرَها بحالٍ يَقْدِرُ على أخذِها وقَبْضِها، يصيرُ مُسَلِّماً خارجاً منها يوماً، وإنْ لم يَقْبِضْها الآخرُ، ولم تَقَعْ في يدِهِ.

[والثالثةُ][6]: في البائعِ إذا سَلَّمَ المَبيعَ إلى المُشْتَري، وخَلَّى بَينَهُ وبَينَ ذلكَ، يصيرُ مسلِّماً إليهِ خارجاً مِنْ ضمانِ ذلكَ وعُهْدَتِهِ، وإنْ لم يَقْبِضْهُ المُشْتَري.

ونَحْوُها[7] مِنَ المسائلِ ممّا يَكْثُرُ إحصاؤُها إذْ ليسَ في وُسْعِهِمْ إلّا ذلكَ المِقدارُ مِنَ الفِعْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ لو كانَ هذا القولُ بعدَ ذَبْحِ الكبشِ، ففيه حُجّةٌ لقولِ أصحابِنا حينَ[8] قالَ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ مَنْ أوجبَ على نفسِهِ ذَبْحَ ولدِهِ يَخْرُجُ منهُ بذَبْحِ الكَبْشِ لِما أخبَرَ أنهُ قد صَدَّقَ الرُّؤيا بِذَبْحِ الكَبْشِ. فَعَلَى ذلكَ يصيرُ هذا مُوجباً على نفسِهِ ذَبْحَ كبشٍ، لا غَيرُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ قولُهُ: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ قَبْلَ ذبْحِ الكَبْشِ بإضجاعِهِ إيّاهُ وإسلامِهِ لذلكَ ففيهِ ما ذكَرْنا أنهُ بَذَلَ تَسْليمَها نفسَهُ منزلةَ إتيانِ غَيرِ ذلكَ، لا أنهُ تَرَكَ ذلكَ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ إنَّ الأمرَ بذبحِ الوَلَدِ الذي أُمِرَ بهِ إبراهيمُ مِحْنَةٌ عظيمةٌ.

ويقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي النعمةُ العظيمةُ أي في الفداءِ الذي فَدَى لإبراهيمَ ﷺ نعمةٌ عظيمةٌ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ وهو الكَبْشُ. قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: سَمّاهُ عظيماً لأنهُ كانَ يَرْعَى في الجنةِ أربعينَ خريفاً. ويقولُ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ الكَبْشُ في نفسِهِ عظيماً.

الآيتان ١٠٨و١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي تَرَكْنا عليهِ في الآخِرِينَ الثناءَ الحَسَنَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ذلكَ السلامَ الذي ذَكَرَ على إثْرِهِ حيثُ قالَ ﷻ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تَرَكَ ذلكَ فينا لِنُسَلِّمَ عليهِ وعلى جميعِ المُرْسَلينَ كقولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠و١٨١] [وكقولِهِ ﷺ][9]: «قد أُمِرْنا أنْ نُثْنِيَ، ونُسَلِّمَ على جميعِ الأنبياءِ والمرسلينَ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٢/١١٦] وكقولِهِ: «اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ» [البخاري ٣٣٧٠] ويكونُ الأنبياءُ ﷺ [يُسَلِّمُ][10] بعضُهُمْ على بعضٍ كما كانَ بعضُهُمْ مِنْ شِيعةِ بعضٍ، أو أنْ يكونَ ذلكَ السلامُ مِنَ اللهِ لهمْ أمْناً مِنْ كلِّ خَوفٍ وسلامةً مِنْ كلِّ خُبْثٍ.

---

(١) في الأصل وم: ذكر. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لمسائل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) و(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل و م: ونحوه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل و م: كقوله. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كذلكَ نَجزي كلَّ مُحسِنٍ أي نَترُكُ لهُ السلامَ والثناءَ الحَسَنَ في الآخِرِينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً:

أحَدُها: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَبْلَ أنْ نُوحِيَ إليهِ وَقَبْلَ أنْ نَبعَثَهُ[1] رسولاً.

[والثاني][2]: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ في قَولٍ وفعْلٍ وفاءَ ما عليهِ.

[والثالثُ][3]: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمحمدٍ ﷺ والأنبياءُ جميعاً بعضُهُمْ يُصَدِّقُ بعضاً، ويؤمِنُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كانَ سألَ ربَّهُ الولدَ بقولِهِ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

فاستَجابَ اللهُ دعاءَهُ، وبَشَّرَهُ بما ذَكَرَ، ثم أخبَرَهُ أنهُ نَبِيٌّ مِنَ الصالِحينَ.

يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ / ٤٥٥ ـ أ/ أي نبيّاً مِنَ السَّلَفِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] أي نَبِيّاً نُصَيِّرُهُ، ونَجعَلُهُ مِنَ الأنبياءِ كقولِهِ ﷻ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦].

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ البِشارةُ في وِلادةِ[4] الولَدِ الذي سألَ ربَّهُ، ويَحْتَمِلُ أنْ بَشَّرَهُ[5] بنُبُوَّتِهِ، أو بَشَّرَهُ[6] بهما بالوِلادةِ وبالنُّبُوَّةِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ البركةُ هي اسْمٌ لكلِّ خَيرٍ لا يَزالُ على الزِّيادةِ والنَّماءِ. وقيلَ: إنَّ البركةَ شيءٌ مِنْ عَطاءٍ[7]، كانَ، لا تَبِعَةَ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أي مؤمنٌ مُصَدِّقٌ ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي كافرٌ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقالَ إبراهيمُ ﵇: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أخبَرَ أنَّ في ذُرِّيَّتِهِ مَنْ لا يَنالُ عَهْدَهُ كما ذَكَرَ ههنا أنَّ في ذُرِّيَّتِهِ مُحْسِناً[8]، وهو مؤمنٌ ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أي كافرٌ ظاهرٌ مُبينٌ.

[ويَحْتَمِلُ][9] أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿مُحْسِنٌ﴾ إلى نفسِهِ، أو ﴿مُحْسِنٌ﴾ إلى الناسِ، وهو إسحاقُ «وما رُوِيَ أنَّ رجلاً سألَهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ: أيُّ الناسِ أكرَمُهُمْ حُسْناً؟ قالَ: يوسفُ صِدِّيقُ اللهِ بْنُ يعقوبَ إسرائيلِ اللهِ بْنِ إسحاقَ ذَبيحِ اللهِ بْنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ» [بنحوه البخاري٣٣٥٣] فهو ذاكَ. وإلّا فلا حاجةَ لنا إلى مَعرِفَةِ ذلكَ أنهُ فُلانُ بْنُ فُلانٍ، إذْ لو كانَ إلى بَيانِ ذلكَ حاجةٌ لَبَيَّنَ، وأزالَ الإشكالَ واختِلافَ الناسِ في ذلكَ. والتكلمُ فيهِ فَضْلٌ، إذ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بالناسِ حاجةٌ إلى معرِفَةِ ذلكَ وبيانِهِ، ثم لا يُبَيِّنُ لهمْ، ولا يُعَرِّفُ ذلكَ. فَدَلَّ تَرْكُ التَّنازُعِ لذلكَ: على أنْ لا حاجةَ لَهمْ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: الذِّبحُ الكَبْشُ واسْمُ ما يُذْبَحُ، والذَّبحُ بِنَصْبِ الذالِ مصدرُ ذَبَحتُ. هذا قولُ القُتَبِيِّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الذَّبحُ بالنصبِ هو الفعلُ، وهما واحدٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الإحسانُ المُبينُ العظيمُ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ المِنَّةِ عليهِما الرسالةَ والنُّبُوَّةَ التي أعطاهما والآياتِ والحُجَجَ التي أعطاهُما، وخَصَّهُما بهما الذي أبْقَى لهما الذِّكْرَ والثناءَ الحَسَنَ عليهما في الآخِرِينَ لِقولِهِ ﷻ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١١٩و١٢٠].

---

(١) في الأصل و م: نبعث. (٢) في الأصل و م: ويحتمل. (٣) في الأصل و م: أو. (٤) في الأصل و م: الولادة. (٥) و(٦) في الأصل و م: بشر لهما. (٧) في الأصل و م: أعطى. (٨) في الأصل و م: محسن. (٩) في الأصل و م: و.

وإنما أوجبَ عليهمْ ذِكْرَ المِنَنِ والنِّعَمِ التي خَصَّهُمْ بها، وفَضَّلَهُمْ منْ بَينِ غيرِهِمْ. وأمّا أنْ يُوجِبُ عليهمْ ذكرَ كلِّ ما مَنَّ عليهِمْ، وأنْعَمَ عليهمْ، فذلكَ ليسَ في وُسْعِ أحدِ القِيامُ بذكرِ جميعِ ما مَنَّ عليهِ، وأنْعَمَ، والشكرَ لها.

وإنما يَجبُ القيامُ بِذِكْرِ ما خُصُّوا بها ظاهراً، وإنْ كانَ بالجملةِ أخَذَ عليهمْ أنْ يَرَوا[1] جَعْلَ النِّعَمِ والمِنَنِ مِنَ اللهِ، جَلَّ، وعَزَّ، فضلاً منهُ وإنعاماً، لاحقاً عليهِ بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ما خُصّوا بها مِنَ الرسالةِ والنُّبوَّةِ والآياتِ والحُجَجِ التي جَعَلَتْ[2] لهمُ الخصوصَ. فأمّا في كلِّ ما مَنَّ عليهمْ مِنْ[3] نِعَمٍ فلا على ماذَكَرْنا أنْ ليسَ في وُسْعِ أحدِ القيامُ بشكرِ كلِّ[4] نِعَمِهِ في عُمُرِهِ، وإنْ طالَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي مِنَ الغَرَقِ. ولكنْ جائزٌ أن يكونَ ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي نَجّاهُمْ منهُ ما ذَكَرَ مِنْ قَتْلِ الرجالِ واسْتِحياءِ النساءِ حينَ[5] قالَ: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٤١] وما استَعْبَدوهمْ، واسْتَخْدَموهُمْ؛ نجّاهُمُ اللهُ مِنْ ذلكَ الذُّلِّ وأنواعِ البلايا والشدائدِ التي كانت عليهمْ كقولِهِ ﷻ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] فأنجاهُمُ اللهُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ، وهو الكَرْبُ العظيمُ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ بالحُجَجِ والآياتِ التي أعطاهُمْ، أو ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ حينَ[6] أنجاهُمْ، وأهْلَكَ فِرْعَونَ والقِبْطَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ التوراةَ. ثم يَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: اسْتَبانَ لكلِّ مَنْ عَقَلَ[7]، ونَظَرَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ، لأنَّ التوراةَ نزلَتْ ظاهراً في الألواحِ ليستْ[8] كالقرآنِ لا يُعرَفُ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ بَعْدَ التأمُّلِ والنَّظَرِ لأنهُ نَزَلَ في الأوقاتِ الخاليةِ التي [لا][9] يَطّلِعُ عليها[10] أحَدٌ سرّاً[11] عَنْ ظَهْرِ القلبِ.

والثاني: اسْتَبانَ لكلِّ مَنْ نَظَرَ فيها ما [لهُ وما عليهِ][12] و ما يُؤْتَى، وما يُتَّقَى.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي مَنْ سَلَكَهُ أمْضاهُ إلى مَقْصودِهِ، وبَلَّغَهُ إلى الصراطِ المستقيمِ لِما بالحُجَجِ والبراهينِ قامَ، لا بِهوَى الأنفُسِ.

الآيتان ١١٩و١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ أبْقَى لهمُ الثناءَ الحَسَنَ في الآخِرِينَ، وهو السلامُ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢١ وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنا كذلكَ نُبْقي، ونَتْرُكُ لكلِّ مُحْسِنٍ الثناءَ الحَسَنَ في الآخِرِينَ كما تَرَكْنا لهؤلاءِ، وهو المَعْروفُ في الناسِ أنَّ كلَّ مُحْسِنٍ صالحٌ، وإنْ ماتَ فإنهُ يُذْكَرُ بالخَيرِ بَعْدَهُ، ويُثْنَى[13] عليهِ بالثناءِ الحَسَنِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحتَمِلُ الوجوهَ التي ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [قبلَ الرسالةِ، و][14] ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمحمدٍ ﷺ و﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ قَولاً وفِعْلاً والقِيامَ بوفاءِ ما وَجَبَ بِعَقْدِ الإيمانِ وعُهْدَتِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذا يَنْقُضُ على الباطنيَّةِ مَذْهَبَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الرسلَ ﷺ سِتَّةٌ: آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ، صلواتُ اللهِ عليهمْ، وما سِواهُمْ أئمَّةٌ. وفي الآيةِ إخبارٌ أنَّ إلياسَ كانَ مِنَ المرسلينَ. هذا كلُّهُ يَنْقُضُ قولَهُمْ، ويَرُدُّ مَذْهَبَهُمْ.

---

(١) في الأصل: سددوا، في م: يردوا. (٢) في الأصل و م: وقعت. (٣) في الأصل وم: كل. (٤) في الأصل وم: أحسن. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: العقل. (٨) في الأصل وم: ليس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عليه. (١١) في الأصل: ستراً، في م: سيرا. (١٢) في الأصل وم: لهم وما عليهم. (١٣) في الأصل وم: ويثنون. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادَةَ [غيرِ اللهِ][1] أو يقولُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الا تَخْشَونَ اللهَ، ولا تخافونَهُ في ترِكِكُمْ عبادَتَهُ واشتِغالِكُم بعبادةِ غيرِهِ. أو ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ نَقْمَةَ اللهِ في مُخالَفَتِكُمْ أمْرَهُ ونَهْيَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ البَعْلُ ههنا الرَّبُّ بلسانِ قومٍ.

وذَكَرَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ سُئِلَ عن قولِهِ ﷻ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قالَ: فقالَ رجلٌ: منْ يَعْرِفُ الآثارَ؟ فقالَ أعرابيٌّ: بَعْلُها، أي ربُّها، فقالَ ابنُ عباسٍ: كفاني الأعرابيُّ جوابَها.

لكنْ لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي ربّاً إلّا أنْ يكونَ ذَكَرَهُ[2] أنهُ بلسانِ قومٍ، فيقولُ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ ربّاً تعلَمونَ أنهُ لا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ عِبادةَ مَنْ تَعلَمونَ أنهُ يَمْلِكُ ذلكَ؟

وقالَ بعضُهُمْ: البَعْلُ السَّيِّدُ ههنا، وكذلكَ يقولُ في قولِهِ: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] سيِّدي.

وقالَ بعضُهُمْ: البَعْلُ هو اسْمُ الصَّنَمِ ههنا، يقولُ: أتَعْبُدونَ صَنَماً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾؟

وأصلُ البَعْلِ الزَّوجُ: كأنهُ يقولُ لهمْ: أتدْعُونَ مَنْ لهُ أزواجٌ وأشكالٌ، وتَذَرونَ مَنْ لا أزواجَ ولا أشكالَ؟ واللهُ المُوفِّقُ.

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما أوَّلُ هذهِ [الآيةِ][3] يمانيٌّ، وآخِرُها مِضريٌّ، وهو قولُهُ: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يُسَمّونَ كلَّ صانعٍ خالقاً. والخَلْقُ هو التَّقْديرُ في اللغةِ، يُضافُ إلى الخَلْقِ على المَجازِ، وإنْ كانَتْ حقيقةُ التقديرِ للهِ ﷻ ذَكَرَ على ما عَبَدَهُمْ /٤٥٥ ـ ب/ لا على حقيقةِ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ، ﷻ ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي أحكَمَ وأتقَنَ على ما ذَكَرَ: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] أي جَعَلَ في كلِّ شيءٍ شهادةَ وَحدانيَّتِهِ[4] وربوبيَّتِهِ، أو ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لِما ذَكَرَ أنهُ خَلَقَهُمْ، وخَلَقَ آباءَهُمُ الأوَّلينَ.

الآية ١٢٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أنهمْ قالوا][5]: مَنْ أحْسَنُ الخالقينَ؟ [فقالَ عندَ][6] ذلكَ ما ذَكَرَ، ونَعَتَهُ ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

الآية ١٢٧ ثم أخبَرَ عنهمْ أنهمْ كَذَّبوهُ معَ ما ذَكَرَ لهمْ، وهو ما قالَ ﷻ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾. ولم يَذْكُرْ في ماذا؟ لكنْ فيهِ بيانٌ أنهمْ إنما يُحْضَرونَ النارَ والعذابَ، لأنَّ أهلَ اللَّذاتِ هُمُ المُحْضَرونَ أنفسُهُمُ العذابَ، يُحْضَرونَ كَرْهاً لا بأنفسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وقولِهِ: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٢] ونَحْوَهُ.

الآية ١٢٨ ثم استثنى العِبادَ المُخْلَصينَ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ منهمْ أنهمْ لا يُحْضَرونَ النارَ.

الآيتان ١٢٩و١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ أبْقى لهمُ الثناءَ الحَسَنَ.

[قرأ بعضُ القراءِ: سلامٌ على آلِ ياسينَ بهمزةٍ مفتوحةٍ ممدودةٍ مكسورةِ اللامِ. وقرأ الباقونَ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ بكسرِ الهمزةِ وسكونِ اللامِ[7]. فلهُ وجهانِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ جمعَ إلياسَ، ومعناهُ سلامٌ على إلياسَ وأمتِهِ المؤمنينَ كقولِهِ: رأيتُ المُحَمَّدينَ، يريدُ محمداً وأمتَهُ.

والثاني: أنْ يكونَ إلْياسُ بلُغَتَينِ: إلْياسُ وإلْياسينُ كما يُقالُ: ميكالُ وميكائيلُ. فيكونُ على هذا الوجهِ السلامُ على إلْياسينَ، فيكونُ مُوافِقاً لِما جاءَ في القرآنِ الكريمِ مِنَ السلامِ على الأنبياءِ والرسلِ وآلِهِمْ.

وعلى القراءةِ الثانيةِ يكونُ السلامُ على آلِ ياسينَ وقومِهِ، فكأنَّ هذه القراءةَ أحقُّ، ومَنْ قرأ على آلِ ياسينَ جَعَلَ الأوَّلَ

---

(١) من م، في الأصل: غيرهم. (٢) في الأصل و م: ذكر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وحدانية الله. (٥) في الأصل وم: وأنه ربهم رب الخلائق فقالوا. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر غريب القرآن على حروف المعجم/ ١٣١و١٣٢ ومعجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٤٦.

اسْماً وياسينَ مضافاً إليهِ، وآلُ الرجلِ أتباعُهُ وقومُهُ. فيكونُ المرادُ منهُ آلَ إلْياسَ، فيكونُ السلامُ على آلِ إلْياسَ، وإنْ لم يَذْكُرْ في ما سَبَقَ مِنَ الأنبياءِ ﷺ السلامَ على آلِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ بالآلِ سائرَ الأنبياءِ، لأنَّ الأنبياءَ بعضُهُمْ مِنْ آلِ بعضٍ، فإنَّ الآلَ، هو الشيعةُ وأهْلُ النصرِ، فيكونُ على هذا التأويلِ السلامُ على جميعِ الأنبياءِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ أنَّهُ قرأ: سلامٌ على آلِ ياسينَ وقالَ: أرادَ بالآلِ: آلَ محمدٍ ﷺ وياسينَ محمداً ﷺ وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿يسٓ﴾ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فَذَكر سائرَ الأنبياءِ في ما تَقَدَّمَ بالسلامِ، وذَكَرَ ههنا محمداً وآلَهُ، واللهُ أعلمُ.

وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ: سلامٌ على إدريسَ وفي بعضِ الحروفِ: إدراسينَ. وقد رُوِيَ أنَّ إلياسَ هو إدريسُ النَّبيُّ ﷺ ولهُ اسْمانِ. وإدراسينُ كأنها لغةٌ في إدريسَ.

وعنِ ابْنِ مسعودٍ أنهُ قرأ: وإنَّ إدريسَ لَمِنَ المُرْسَلينَ مكانَ قولِهِ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الآيات ١٣١ ـ ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يُذَكِّرُ أهلَ مكةَ، ويَعِظُهُمْ بما نَزَلَ بالمُكَذِّبينَ مِنَ الأممِ الماضيةِ مِنَ العذابِ والهلاكِ. إنَّ مَنْ أُهْلِكَ [منهمْ][1] إنما أُهْلِكَ بتكذيبِ الرسلِ وعِنادِهِمْ، ومَنْ نَجا منهمْ إنما نَجا بتَصْديقِهِمْ والإجابةِ لهمْ. وإياكُمْ وتكذيبَ محمدٍ ﷺ فَيَنْزِلُ بكمْ كما نَزَلَ بأولئكَ.

وقولُهُ[2] ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ أي على مَنْ هَلَكَ مِنْ مُكَذِّبي الرسلِ بالليلِ والنهارِ، فتَعلَمونَ إنهمْ لَمِنَ المُرسَلِينَ. هذا يَنْقُضُ على الباطنيَّةِ [أيضاً][3] قولَهُمُ الذي[4] قالوا: إنَّ الرسلَ ليسوا إلّا سِتَّةً. لا يَعُدّونَ يونُسَ ولُوطاً ﷺ منهمْ، فَيُخالفونَ ظاهرَ الآيةِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهمْ يقولونَ: ليسَ مِنَ المُرسَلِينَ، وباللهِ العصمةُ.

الآيتان ١٣٩و١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ذَكَرَ ههنا الأباقَ وفي سورةِ الأنبياءِ الذهابَ، وهو قولُهُ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] فَمِنَ الناسِ مَنْ يَجعَلُ هذا غيرَ الأوَّلِ، يعني [الأباقَ غيرَ الذهابِ][5].

لكنْ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ الأباقَ، وذَكَرَ الذهابَ، وإن كانَ في رأيِ العينِ في ظاهرِ اللفظِ مُخْتَلِفاً. فهما في المَعْنى واحدٌ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ مِنْ قومِهِ بدينِهِ لِيَسْلَمَ لهُ، أو أبَقَ لِخَوفٍ على نفسِهِ مِنْ قومِهِ، أو أبَقَ على ما أوعَدَ قومَهُ مِنْ نزولِ العذابِ بهمْ إذا لم يُؤمِنوا بهِ. وكانَ الرسلُ، صلواتُ اللهِ عليهمْ، يَخرُجونَ مِنْ بينِ أظْهُرِ قومِهِمْ إذا خافوا نزولَ العذابِ بهمْ إلّا يونُسَ خَرَجَ مِنْ بينِهِمْ قَبْلَ أنْ يَأتِيَهُ الإذْنُ مِنَ اللهِ ﷻ بالخروجِ مِنْ بَينِهِمْ.

لذلكَ صارَ وقتٌ، جاءَ العتابُ لهُ والتَّعْييرُ، لِما يقولُهُ عامةُ أهلِ التأويلِ مِنَ الخُرافاتِ التي يَذْكُرونَ، ويَنْسُبونَ إليهِ ما لا يجوزُ نِسْبَةُ ذلكَ إلى أجْهَلِ الناسِ بربِّهِ وأخَسِّهِمْ فضلاً [مِنْ][6] أنْ تَجوزَ نِسْبَةُ ذلكَ إلى نَبِيٍّ مِنْ أنبيائِهِ ورسولٍ مِنْ رسلِهِ.

الآية ١٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ ذُكِرَ في القصةِ أنهُ ﷺ لمّا أبَقَ إلى سفينةٍ، فَرَكِبَها، أرادَ أنْ يَعْبُرَ البحرَ، فَجَعَلَتْ تَكَفَّأُ، وتَقِفُ، وكادَتْ[7] تَغْرَقُ، فقالَ القومُ بعضُهُمْ لبعضٍ: إنَّ فيكمْ رجلاً مُذنباً [ذنباً][8] عظيماً، وكانوا يَعْرِفونَ مِنْ عادتِها مِنْ قَبْلُ [أنها][9] كانتْ إذا رَكِبَها مُذنبٌ [تَفْعَلُ ذلكَ، وتَغْرَقُ][10] وتَسْرُبُ في الماءِ. فلم يَعْرِفوا مَنْ هو ذلكَ [المذنبُ][11] فاسْتَهاموا مِراراً، فَساهَمَ يونُسُ في كلِّ مرةٍ. فلمّا رأى ذلكَ يُونُسُ ﷺ قالَ لهمْ: ياقومُ ألقوني في البحرِ حتى لا تَغْرَقوا جميعاً، فأبَوا، وقالوا: لا نُلْقي [نَبِيّاً][12] مِنْ أنبياءِ اللهِ في البحرِ، فألْقَى هو نفسَهُ فيهِ، ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل و م: وقال. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: اخلى، في م: حتى. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أباقة الذي ذكروا ذهابه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يغرق. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

ثم قولُهُ: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ قالَ [بعضُهُمْ:](١) فكانَ مِنَ المَغْلوبينَ في القُرعَةِ والاسْتِهامِ، أي خَرَجَتِ القُرعَةُ عليهِ، والمُدْحَضُ(٢) هو الذي لا حُجَّةَ لهُ في ما يريدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو مليمٌ، أي مذنبٌ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ المَلامَةِ، أي كانَ يلومُ نفسَهُ في ما صَنَعَ مِنَ الخُروجِ مِنْ بينِهِمْ بلا إذْنٍ مِنَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٤٣و١٤٤ وقولُهُ ﷻ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ لربِّهِ قبلَ ذلكَ ومِنَ المُصلِّينَ لهُ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ [يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾](٣) ولذلكَ قيلَ: مَنْ[عَمِلَ للهِ](٤) تعالى في حالِ الرَّخاءِ نَفَعَهُ اللهُ بذلكَ في حالِ البَلاءِ، ويَرْفَعُهُ إذا عَثَرَ، واللهُ أعلَمُ.

قيلَ في الحكمةِ: إنَّ العملَ الصالحَ يَرْفَعُ صاحبَهُ إذا عَثَرَ، وإذا وَجَدَ مُتَّكأً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ في بطنِ الحوتِ، وهو قولُهُ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ [الأنبياء: ٨٧و٨٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ العَراءُ: قيلَ: هي الأرضُ الصحراءُ التي لا شَجَرَ فيها، ولا نَبَتَ، ولا كُرَّ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: العَراءُ الأرضُ التي لا ظِلَّ فيها، والمُدْحَضُ المَغلوبُ، ومُليمٌ أي أتى أمراً يُلامُ عليهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: العَراءُ هي الأرضُ التي لا يُرَى(٥) فيها شَجَرٌ ولا غَيرُهُ، كأنهُ مِنْ عَرِيَ الشيءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ ذُكِرَ أنَّ الحوتَ لمّا نَبَذَهُ بالعراءِ لم يكُنْ بهِ شَعْرٌ ولا جِلْدٌ ولا ظُفرٌ، ولا شيءٌ، [ويَحْتَمِلُ](٦) سَقيمٌ مِنَ السَّقَمِ، وهو المَرَضُ، أي مريضٌ لِما مسَّهُ ببطنِ الحوتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي شجرةُ القَرْعِ، أنبتَ عليهِ ليأكلَ منهُ، ويَسْتَظِلَّ بها. وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ شجرةٍ تَنْبَسِطُ على وجهِ الأرضِ ممّا تَتَّسِعُ [أطرافُها إذا مُدَّتْ، وأصلُها](٧) واحدٌ، فهو يَقْطينٌ مِنَ البِطِّيخِ والعُرْجونِ وغَيرِهِما. والأشبهُ أنْ تكونَ شَجَرَةَ القَرْعِ لأنها أسْرَعُ الأشجارِ نَبْتاً وامْتِداداً وارْتِفاعاً في السماءِ في مدةٍ لطيفةٍ ووقتٍ قريبٍ، والوُصولُ إلى الانْتِفاعِ بها أكْلاً واسْتِظْلالاً بها ما لا يكونُ مِثْلُ ذلكَ في مِثْلِ تلكَ المدةِ مِنَ الأشجارِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ أنهُ قيلَ: «يارسولَ اللهِ إنكَ لَتُحِبُّ القَرْعَ، قالَ: أجلْ، هي شجرةُ أخي يُونُسَ، وهي تزيدُ في العَقْلِ» [بنحوه البخاري٢٠٩٢].

فهذا يدلُّ إنْ ثَبَتَ أنها كانَتْ شَجَرَةَ القَرْعِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم فيهِ لُطْفٌ مِنَ اللهِ ﷻ حينَ(٨) أنبَتَ عليهِ شجرةً في وقتٍ لطيفٍ، لا يَنْبُتُ مِثْلُها إلّا بعدَ مُدَّةٍ طويلةٍ(٩) ووقتٍ مَديدٍ، وأبقَى عليهِ الضَّعْفَ وقتاً طويلاً ممّا يُرْفَعُ ذلكَ، ويَزولُ في وقتٍ يَسيرٍ في العُرْفِ لِيُذَكِّرَهُ ما أنْعَمَ عليهِ، ويقومُ بِشُكْرِهِ، وهو كما ذَكَرَ في قصةِ صاحبِ موسى الحمارَ حينَ(١٠) قالَ ﷻ: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أبْقَى طعامَهُ وشرابَهُ، وحَفِظَهُ وقتاً طويلاً [فلم يُغَيِّرْ ما](١١) طَبْعُهُ التَّغَيُّرُ في وقتٍ يسيرٍ، وغَيَّرَ ما طَبْعُهُ البقاءُ، لُطْفاً منهُ.

فَعَلَى ذلكَ أنْبَتَ على يُونُسَ شَجَرَةً في وقتٍ لطيفٍ ممّا لا يَنْبُتُ مِثْلُها إلّا في وقتٍ طويلٍ، وأبقى ذلكَ الضعفَ الذي كانَ بهِ والسَّقَمَ ممّا سَبيلُهُ الزَّوالُ والارْتِفاعُ في وقتٍ يَسيرٍ لُطْفاً منهُ لِتَذكيرِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل و م: المدحضين. (٣) في الأصل و م: ما ذكر. (٤) في الأصل وم: عامل الله. (٥) في الأصل وم: يواري. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: أطرافه إذا مد أصله. (٨)في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل و م: لطيفة. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل و م: غير متغيرهما.

الآية ١٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحدُها: ما ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاِسْتِفهامِ إذا أُضيفَ إلى اللهِ فهو على التَّقْريرِ/٤٥٦ ـ أ/ والإيجابِ، ليسَ على حقيقةِ الاِسْتِفْهامِ.

فَعَلَى ذلكَ حرفُ الشَّكِّ: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ بل يزيدونَ، أو يقولُ: ويزيدونَ لِما يَتعالَى عنِ الشَّكِّ.

والثاني: قولُهُ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ حتى يَزيدوا كقولِهِ ﷻ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] أي حتى يُسْلِموا، أو كأنهُ وقتَ ما بَعَثَهُ إليهِمْ كانوا مئةَ ألفٍ، ثم ازدادوا بَعدَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يكونونَ[١] مئةَ ألفٍ، وقولُهُ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عندَ الناسِ. فمعناهُ أنَّ مَنْ نَظَرَ إليهِمْ لا يَظُنُّ دونَ مئةِ ألفٍ، ولكنْ يَظُنُّ مئةَ ألفٍ وزيادةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٨ [وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيلَ: آمنوا بهِ، فلم يُهْلَكوا، ولكنْ أَخَّرَ عنهُمُ العذابَ إلى وقتِ موتِ حَتْفِهِمْ. كقولِهِ[٣] في آيةٍ أخرى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أخبَرَ ههنا أنهُ لم يَنْفَعْ قوماً إيمانُهُمْ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ إلّا قومَ يونُسَ، وكذلكَ ذَكَرَ ﷻ في آيةٍ أُخرى أنهُ لم يَنْفَعِ الإيمانُ عندَ مُعاينةِ العذابِ حينَ قالَ ﷻ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

ثم لا يُدْرَى أنهُ إنما يَقْبَلُ إيمانَ قومِ يُونُسَ لأنهمْ آمَنوا عندَ خُروجِ يُونُسَ ﷺ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ قبلَ أنْ يُقْبِلَ العذابُ عليهِمْ لِما كانوا يَعلمونَ أنَّ الرسولَ متى ما خَرَجَ مِنْ بَينِهِمْ بَعدَ ما أوعَدَهُمْ بالعذابِ أنَّ العذابَ يَنْزِلُ بهِمْ، لا محالةَ، فآمَنوا بهِ [قبلَ أنْ يُعاينوا العذابَ][٤] أو أنْ يكونَ العذابُ قد أقبلَ عليهِمْ، فعايَنوهُ، فعندَ[٥] ذلكَ آمَنوا.

فإنْ كانَ الأوَّلَ فهو بأنهمْ إنما آمَنوا بهِ عندَ خروجِهِ منهمْ، فهو مستقيمٌ؛ قَبِلَ إيمانَهُمْ لأنهمْ لم يؤمِنوا عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ، ولكنْ إنما آمنوا قَبْلَ ذلكَ.

وإنْ كانَ الثانيَ فجائزٌ أنْ يكونَ قَبِلَ إيمانَهُمْ، ونَفَعَهُمْ إيمانُهُمْ، وإنْ عاينوا العذابَ، لِما عَرَفَ، جَلَّ، وعلا، أنَّ إيمانَهُمْ كانَ حقّاً، وهمْ صادقونَ في ذلكَ، مُحَقِّقونَ، لم يكونوا دافعينَ العذابَ عنْ أنفسِهِمْ إلّا بالإيمانِ حقيقةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ الاِسْتِفْتاءُ والسؤالُ يُخَرَّجُ على أربعةِ أوجُهٍ: إنْ كانَ الاِسْتِفْتاءُ والسؤالُ مِنْ عَليمٍ خَبيرٍ لأهلِ الجهلِ فيكونُ تَقْريراً وتَنبيهاً، إذا لم يكونوا أهلَ عنادٍ، وإنْ كانوا أهلَ عنادٍ فهو تسفيهٌ وتوبيخٌ، وإذا كانَ الاِسْتِفْتاءُ مِنْ جاهلٍ مُصَدِّقٍ طالبٍ رشداً[٦] لِعليمٍ خبيرٍ يكونُ اسْتِرْشاداً وطَلَباً للصوابِ، وإذا كانَ مِنْ مُعانِدٍ مُكابِرٍ فهو يُخَرَّجُ على الاِسْتِهْزاءِ بهِ كقولِهِمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] إنما قالوا[٧] ذلكَ اسْتِهْزاءً بهِ.

ثم ما ذَكَرَ مِنَ الاِسْتِفْتاءِ لهؤلاءِ إنما يكونُ تَسْفيهاً منهُ لهمْ في قولِهِمْ: للهِ ﷻ وَلَدٌ، والملائكةُ بناتُ اللهِ، سُبْحانَهُ، ونَحْوَهُ مِنَ الفِرْيَةِ العظيمةِ التي لا فِرْيَةَ أعظَمُ منها، ولا كَذِبَ أكْبَرُ منهُ، لأنَّ دَرْكَ الأشياءِ ومَعْرِفَتَها إنما يكونُ في الشاهِدِ بأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها المُشاهدةُ، والثاني الخَبَرُ، والثالثُ: الاِسْتِدْلالُ بما شاهدوا، وعايَنوا، على ما غابَ عنهمْ.

ثم معلومٌ عندَهمْ أي عندَ هؤلاءِ أنهمْ لم يُشاهدوا اللهَ حتى عَرَفوا الوَلَدَ، ولا كانوا يؤمنونَ بالرسلِ حتى يكونَ عندَهُمْ

---

(١) في الأصل و م: يزيدون. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: وقال. (٤) في الأصل و م: فإن لم يعاينوا. (٥) أدرج قبلها في الأصل و م: عند معاينتهم. (٦) في الأصل و م: رشد. (٧) في الأصل و م: قال.

الخَبَرُ بما قالوا، ونَسَبوا إليهِ مِنَ الوَلَدِ وغَيرِهِ؛ إذِ الخَبَرُ إنما يُوصَلُ إليهمْ[1] بالرسلِ، وهمْ لا يؤمنونَ بهمْ، ولا كانوا شاهدوا ما يَبْتَدِلّونَ [بهِ][2] على ماقالوا فيهِ، ونَسَبوا إليهِ، حتى يَدُلَّهُمْ[3] ذلكَ على ذلكَ.

فَسفَّهَهُمْ في قولِهِمُ الذي قالوا فيهِ وما نسبوا إليهِ أنهمْ كَذَبَةٌ في ذلكَ؛ إذْ أسبابُ العلمِ بالأشياءِ ما ذَكَرْنا، ولم يكُنْ لهمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

الآيات ١٥٠ ـ ١٥٣ ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ وقالَ ﷻ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾؟ يقولُ: أختارُ لنفسي ما تأنفونَ أنتمْ منهُ؟ وتَنْسُبونَ إليكمْ ما تَستَنْكِفونَ أنتمْ عنهُ؟

يُسَفِّهُهُمْ في قولِهِمْ ونِسْبَتِهِمْ إلى اللهِ ما قالوا فيهِ، ونَسَبوا إليهِ إلى آخرِ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ تصبيرُ رسولِ اللهِ على أذاهُمْ وتَرْكِهِمُ الإيمانَ بهِ والاتِّباعَ [لهُ][4] لأنهمْ [معَ عِلْمِهِمْ][5] أنهُ خالِقُهُمْ ورازِقُهُمْ وقديمُ الإحسانِ إليهِمْ قالوا فيهِ ماقالوا.

الآية ١٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي مالَكُمْ تَحكُمونَ بلا حُجَّةٍ ولا عِلْمٍ؟

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ [هذا][6] الحُكْمَ جورٌ وظُلْمٌ؟ كقولِهِ: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢].

الآية ١٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ أي ألكمْ حُجَّةٌ وبَيانٌ على ما تَزْعُمونَ، وتقولونَ في اللهِ، سُبحانَهُ.

الآية ١٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ائْتوا بكتابٍ مِنْ عندِ اللهِ، فيهِ ما تَذْكُرونَ مِنَ الوَلَدِ وغَيرِهِ.

الآية ١٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الجِنَّةَ همُ الملائكةُ لِقولِ أولئكَ الكَفَرَةِ: [إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ][7] وما قالوا في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي علمتِ الجِنُّ الذينَ وَصَفوا لهُ بناتٍ[8] إنهمْ لَمُحْضَرونَ النارَ وعذابَ اللهِ، ويُحاسَبونَ على قولِ مُجاهِدٍ وغَيرِهِ.

[ويَحتَمِلُ الذينَ رَأَوا][9] أولئكَ، أعني الأتباعَ، أنهمْ ملائكةُ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٥٩ و١٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قولُهُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ نَزَّهَ نفسَهُ عمّا وَصَفَهُ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وتَبَرَّأَ مِنْ جميعِ ما قالوا فيهِ. ثم اسْتَثْنَى ﷻ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فلسنا نَدري ما موضِعُ الثُّنْيا هَهنا على إثْرِ ما ذَكَرَ مِنَ التنزيهِ لِنَفْسِهِ. ويَحتَمِلُ الاسْتِثْناءُ وجهَينِ:

أحَدُهما: [﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي مَنْ أخلَصَ منهمْ، وآمَنَ، فإنهُ غيرُ بريءٍ ممّا يَصِفُهُ [هؤلاءِ][10] لِما يجوزُ أنْ يَسْلَمَ منهمْ نَفَرٌ، فَيَصِفونَهُ بما يَليقُ بهِ، لأنَّ المؤمنَ والمُخلِصَ لا يَصِفُ ربَّهُ إلّا بما يليقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: ما][11] قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ اسْتَثْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ النارَ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهمْ لا يُحضَرونَ النارَ والعذابَ على [ما][12] سَبَقَ اسْتِثْناءُ هؤلاءِ الذينَ أخلَصوا مِمَّنْ يُحضَرُ في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ، وهو على التقديمِ والتأخيرِ.

الآيات ١٦١ ـ ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ لِقولِهِ، واللهُ أعلَمُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لا يَمْلِكونَ [أنْ][13] يَفْتِنوهُمْ، وإنْ يُضِلّونَ[14] إلّا مَنْ هو في عِلْمِ اللهِ أنهُ يختارُ

---

(١) في الأصل و م: إليه. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: دلهم. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بنين. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: والذين. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.
(١٤) في الأصل وم: يضلوهم.

الضلالةَ، وما يُصْليهِ النارَ [إلّا][1] على حقِّ المَعْرِفَةِ [لَهُ][2] لا حقيقةِ الإضلالِ. وهو ما ذَكَرَ ﷺ في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] وما أخبر أنه ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ٩٩و١٠٠] واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ[3] ﷺ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلّا مَنْ كُتِبَ عليهِ في اللوحِ أنهُ يَصْلِي الجَحيمَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إلّا مَنْ قَضى اللهُ عليهِ أنْ يَصْلِيَ النارَ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ][5] الجِنَّ الذينَ عُبِدوا [ويَحْتَمِلُ][6] الملائكةَ، ويَحْتَمِلُ الأصنامَ التي عُبِدَتْ؛ إذْ قد يُنْسَبُ إليهِنَّ الإضلالُ لِقولِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ يَحْتَمِلُ هذا منهمْ، أعني الملائكةَ/ ٤٥٦ - ب/ وجْهَيْنِ:

أحَدُهما: قالوا ذلكَ تَبْرِئَةً لأنفسِهِمْ مِنْ أنْ يأمُروا بالعبادةِ لهمْ، أي لم نَتَفَرَّغْ نحنُ لِعبادةِ هؤلاءِ طَرْفَةَ عينٍ، فكيفَ نأمُرُ هؤلاءِ بِعبادَتِنا؟ كقولِهِمْ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١] أي نحنُ في طَلَبِ [الصوابِ][7] ولا شَكَّ، فكيفَ نَتَفَرَّغُ لذلكَ؟.

[والثاني][8]: أنْ يقولوا: إنَّ وِلايَتَكَ التي والَيْتنا شَغَلَتْنا عنْ جميعِ ما ذَكَروا[9]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ أحداً مِنْ عبادي، ما ظَنُّكُمْ هذا الذي تَعْبدونَ إلّا مَنْ تَوَلّاكُمْ بِعَمَلِ أهلِ النارِ.

وذُكِرَ عنْ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ عنِ الحَسَنِ أيضاً أنهما قالا في قولِهِ: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يقولُ: ما أنتُمْ بِمُضِلِّينَ بآلهتِكُمْ أحداً إلّا مَنْ قَدَّرَ أنْ يُصْلَى الجَحيمَ، وهو قريبٌ مما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى][10]: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [مكاناً مَعْلوماً مَحْدوداً][11] لا يَبْرَحُ منهُ، ولا يُفارِقُهُ[12]، ويَحْتَمِلُ ﴿مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي عِبادةٌ مَعْلومةٌ نَحْوَ ما ذَكَرَ حَكيمُ بْنُ حِزامٍ: قالَ [: كنا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: هل تَسْمَعونَ ما أسْمَعُ؟ قُلْنا: يا رسولَ اللهِ ما تَسْمَعُ؟ قالَ: أسْمَعُ أطيطَ السماءِ، وما تُلامُ أنْ تَئِطَّ ما فيها مَوْضِعُ قَدَمٍ إلّا وفيهِ مَلَكٌ راكِعٌ أو ساجِدٌ][13] [الترمذي ٢٣١٢] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٦٥و١٦٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي يُصَلّونَ صفوفاً، لا يُصَلّي أبناءُ آدمَ [إلّا][14] صُفوفاً. ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي قائمونَ صفوفاً وراكعونَ صفوفاً وساجدونَ صفوفاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أي مُصَلّونَ على ما قالَ أهلُ التأويلِ، ويَحْتَمِلُ حقيقةَ التسبيحِ أي يُنَزِّهونَ اللهَ تعالى عمّا تقولُ فيهِ المُلْحِدَةُ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي عابدونَ دائماً وأبداً، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٦٧ و١٦٨ و١٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: إنَّ أهلَ مكةَ كانوا يقولونَ قَبْلَ أنْ يَبْعَثَ محمداً ﷺ: قاتَلَ اللهُ اليهودَ والنصارى، كَذَّبوا أنبياءَهُمْ، لو أنهمْ ذَكَروا أنْباءَ مِنَ الأَوَّلينَ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قد قالوا كذلكَ، وأُكْذِبوا القولَ فيهِ بالقسمِ باللهِ تعالى؛ أخبَرَ اللهُ عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] أي نُفوراً مِنْ رَبِّهِمْ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: لهم، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: يحتمل مدرجة قبل مكاناً. (١١) في الأصل وم: مكان معلوم محدود. (١٢) في الأصل وم: يفارق. (١٣) من الدر المنثور ج٧/ ١٣٦، في الأصل وم: بينما رسول الله ﷺ، ولا مما نحن فيه ولكن أمر آخر. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُوعِدُهُمْ أنْ يَنْزِلَ بهمُ العذابُ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ على ما نَزَلَ بالأوَّلينَ مِنَ العذابِ بِعبادَتِهِمُ الأصنامَ وتكذيبِهِمُ الرسلَ ﷺ فيقولونَ عندَ ذلكَ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي خَبَراً مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ أنهمْ على ماذا أهْلِكوا؟ لو عَلِمْنا أنهمْ أهْلِكوا بما يَذْكُرُ محمدٌ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فَقَصَّ اللهُ تعالى عليهِمْ خَبَرَ الأوَّلينَ أنَّ العذابَ إنما أُنْزِلَ بهِمْ بما ذَكَرَ محمدٌ ﷺ فلم يَقْبَلوا، وكَفَروا بهِ، عِناداً منهمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منهمُ احْتِجاجاً: أنَّ آباءَنا قد عَبَدوا الأصنامَ، فَفَعَلوا ما نحنُ فاعلونَ، ثم لم يَنْزِلْ بهمُ العذابُ. فلو كانَ صَنيعُهُمْ غَيرَ مَرْضِيٍّ عندَ اللهِ تعالى، وإنْ كانوا غَيرَ مأمورينَ بهِ، ما تَرَكَهُمْ على ذلكَ.

وهو كقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الاحْتِجاجِ الباطلِ.

فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُمُ الذي قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي لم يُهْلَكوا بما نَحْنُ فيهِ، [وإنما يَذْكُرُ ذلكَ لِشيءٍ][1] آخَرَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بِنَصْبِ اللامِ على ظاهرِ ما قالوا [ويجيءُ][2] أنْ يكونَ مِنَ المُخْلِصينَ بكسرِ اللامِ[3] أي لو كانَ كذا لَكُنّا[4] نُخْلِصُ لهُ التوحيدَ والعبادةَ. لَكُنّا المُخْلَصينَ أنْ يُخْلِصَنا اللهُ لو كانَ كذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخْبَرَ أنهمْ كَفَروا لمّا آتاهُمُ التِّبيانُ، وأنَّ أولئكَ المُتَقَدِّمينَ إنما أُهْلِكوا لِما ذَكَرَ محمدٌ ﷺ لكنهمْ عانَدوا، وكابَروهُ، وكَفَروا بهِ.

الآية ١٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ علمَ عِيانٍ ومُشاهدةٍ [كما عرَّفَهُمْ][5] عِلْمَ خَبَرٍ بالحجَّةِ والآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٧١ ـ ١٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الرسلَ ﷺ كانوا مَنْصورينَ. لم يُقْتَلْ رسولٌ قطُّ. فإنما قُتِلَ الأنبياءُ ورُسُلُ المرسَلينَ الذينَ يُبَلِّغونَ رسالةَ الرسُلِ إلى قومِهِمْ، ويُخْبِرونَ عنهمْ. فأمّا الرسُلُ أنفسُهُمْ فهمْ لم يُقْتَلوا ولا قُتِلَ أحدٌ منهمْ، عَصَمَهُمُ اللهُ تعالى عنِ الناسِ، وعمّا هَمُّوا بهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ لِما نَصْرُ العاقبةِ لهمْ؛ إذ لم يكُنْ رسولٌ إلّا وقد كانَتِ العاقبةُ لهُ، وإنْ غُلِبَ في الابْتِداءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ بالحُجَجِ والآياتِ والبراهينِ. إنهمْ يَغْلِبونَ بِحُجَجِهِمْ وآياتِهِمْ، ويَرْفعونَ بها الشُّبَهَ والتَّمْويهاتِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَسْتَدِلُّ صاحبُ التأويلِ الأوَّلِ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ وفي بعضِ القراءاتِ: قُتِلَ معهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] أخْبَرَ أنهمْ، وإنْ قُتِلوا، فإنهمْ لم يَهِنوا، ولم يَضْعُفوا. ثم قالَ ﷻ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] ثم أخْبَرَ أنهُ آتاهُمُ اللهُ ذلكَ حينَ[6] قالَ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[7] [آل عمران: ١٤٨] واللهُ أعلَمُ.

دلَّ، وإنْ غُلِبوا، وقُتِلوا، فَهُمُ المَنصورونَ.

ثم قولُهُ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ ذَكَرَ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ بِحرفَينِ، ومَعْناهما واحدٌ على التأكيدِ كقولِهِ: ﷻ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] وقولِهِ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤] وإنْ كانَ الواحدُ [كافياً].

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يخبر. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٣٤. (٤) في الأصل وم: فنحن. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إذ عرفوا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: كذا.

وقولُهُ][1] تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي رُسُلُنا وأتباعُنا وأولياؤُنا، همُ الغالبونَ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ أي لا تُكافِئْهُمْ بأذاهُمْ إياكَ إلى [حينٍ، أي][2] لا تُقاتِلْهُمْ.

فكيفَ ما كانَ ففيهِ وجهانِ مِنَ الدلالةِ[3]:

أحَدُهُما: دليلٌ على رسالتِهِ حينَ أخبَرَ أنهم يكونونَ على الكُفرِ إلى الحينِ الذي ذَكَرَ، ويَهْلِكونَ على ذلكَ حينَ[4] قالَ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

والثاني: فيهِ دليلُ حِفْظِهِ إياهُ وعِصْمَتِهِ ممّا كانوا يَهُمُّونَ بهِ مِنَ القَتْلِ والإهلاكِ حينَ[5] مَنَعَهُ مِنْ مُقاتَلَتِهِمْ، ونَهاهُ عنِ التَّعَرُّضِ لهمْ إلى وقتٍ [مَعْلومٍ على][6] ما كانَ منهمْ مِنَ الهَمِّ بقَتْلِهِ وإهلاكِهِ لو وَجَدوا السبيلَ إليهِ.

فَدَلَّ أنَّ اللهَ ﷻ قد عَصَمَهُ، وحَفِظَهُ عنهمْ حينَ قالَ لهمْ ما قالَ حتى قالَ ﷺ: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كقولِهِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

الآية ١٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ عِياناً ومُشاهدةً. وقالَ بعضُهُمْ: وأَبْصِرْهُمُ العذابَ إذا نَزَلَ بهمْ خَبَراً فَسَوفَ يُبْصِرونَ وُقوعاً. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي عَرِّفْهُمْ أنَّ العَذابَ يَنْزِلُ بهِمْ، فسوفَ يَعْرِفونَ إذا نَزَلَ بهِمْ.

الآية ١٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ دلَّ هذا أنهم كانوا يَسْتَعْجِلونَ نزولَ العذابِ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ. إنما يَسْتَعْجِلونَ العذابَ اسْتِهْزاءً بالرسولِ ﷺ وتكذيباً لهُ في ما يُوعِدُهُمْ أنَّ العذابَ يَنْزِلُ بهِمْ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هو حرفُ التعجيبِ، أي كيفَ يَسْتَعْجِلونَ عذابي؟ ألم يَعْرِفوا قُدْرَتي وسلطاني في إنزالِ العذابِ والإهلاكِ إذا أردتُ تعذيبَ قومٍ وإهلاكَهُمْ، فإني قَدَرْتُ ذلكَ، ومَلَكْتُ عليهِ.

الآية ١٧٧ ثم أخبَرَ أنهُ إذا نَزَلَ العذابُ بساحَتِهِمْ ساءَ صباحُهُمْ حينَ[7] قالَ ﷻ: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ثم قولُهُ ﷻ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ النزولَ بهمْ والوقوعَ عليهمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١] في نزولِهِ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

يَحْتَمِلُ نزولُهُ بساحَتِهِمْ ما ذَكَرْنا مِنْ نزولِهِ بقربِهِمْ وَوُقوعِهِ عليهِمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ساءَ صَباحُهُمْ لأنَّ ذلكَ العذابَ إذا حلَّ بهمْ صَيَّرَهُمْ مَعَذَّبينَ في النارِ أبَدَ الآبِدينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٧٨و١٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هذا قد ذَكَرْنا في ما تقدمَ. وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾. ويقولُ بعضُهُمْ أي انْظُرْ فسوفَ يَنْظرونَ. لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا.

الآيات ١٨٠و١٨١و١٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في هذهِ الأحرفِ الثلاثةِ جميعُ ما بَيَّنَهُ[اللهُ تعالى][8] مِنَ الحَقِّ على الخَلْقِ مِنَ التوحيدِ [والثناءِ الحَسَنِ والحَمْدِ لِنِعَمِهِ][9] وجميعِ ما عليهمْ مِنَ التفويضِ إليهِ في الأمورِ كلِّها وجميعِ ما عليهمْ مِنَ الثناءِ الحَسَنِ والحَمْدِ لهُ وماألزَمَهُمْ مِنَ الثناءِ الحَسَنِ على جميعِ المرسَلينَ.

أمّا حرفُ التوحيدِ[10] فهو قولُهُ تعالى ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَزَّهَ نفسَهُ، وبَرَّأَهُ مِنْ جميعِ ما قالَ الملاحدةُ

---

(١) في الأصل وم: كما في قوله. (٢) في الأصل وم: حيث أو. (٣) في الأصل وم: الدليل. (٤) و(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: على المعلوم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل التنبيه.

فيهِ ممّا لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ والصاحبةِ وغَيرِ ذلكَ. فَيَرْجو[1] أنْ يُثابَ قائلُ هذا ثوابَ كلِّ واصفِ اللهِ ﷻ بالبراءةِ لهُ والتَّنزيهِ عنْ ذلكَ كلِّهِ.

وفي قولِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ وصفٌ بالعِزَّةِ والقُوَّةِ وتفويضِ الأمرِ إليهِ، فَيَرْجو[2] أنْ يُثابَ قائلُ هذا ثوابَ كلِّ واصفٍ للهِ بالعِزَّةِ والقُوَّةِ.

وأمّا الثناءُ الحَسَنُ على المرسَلينَ فهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أمَرَ اللهُ ﷻ عبادَهُ أنْ يُثنوا على المُرسَلينَ جُمْلَةً. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا سَلَّمْتُمْ عليَّ فَسَلِّموا على إخواني المرسَلينَ فإنما أنا رسولٌ مِنَ المُرْسَلينَ» [بنحوه مسلم ٤٠٣].

أمّا الثَّناءُ الحَسَنُ على اللهِ بكلِّ ما أنْعَمَ عليهِمْ، وأحْسَنَ إليهِمْ فهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَيَرْجو[3] أنْ يُثابَ قائلُ هذا وتاليهِ على المَعْرِفَةِ بهِ ممّا فيهِ/ ٤٥٧ ـ أ/ ثوابُ جميعِ القائلينَ بهِ والتالينَ، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ عنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: مَنْ أحبَّ أنْ يَكْتالَ بالمِكْيالِ الأوفَى مِنَ الأجْرِ يومَ القيامةِ فليكُنْ آخِرُ كلامِهِ مِنْ مَجْلِسِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو ربُّ النعمةِ والقوةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي بهِ يَتَعَزَّزُ [كلُّ مَنْ يَتَعَزَّزُ][6] وإليهِ يرجِعُ كلُّ عزيزٍ، وكذلكَ كلُّ مَنْ حَمِدَ، أو أثنَى على شيءٍ فحقيقةُ ذلكَ الحمدِ والثناءِ راجعٌ إليهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ مُرادِهِ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: فيرجى. (٣) في الأصل وم: فيرجى. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

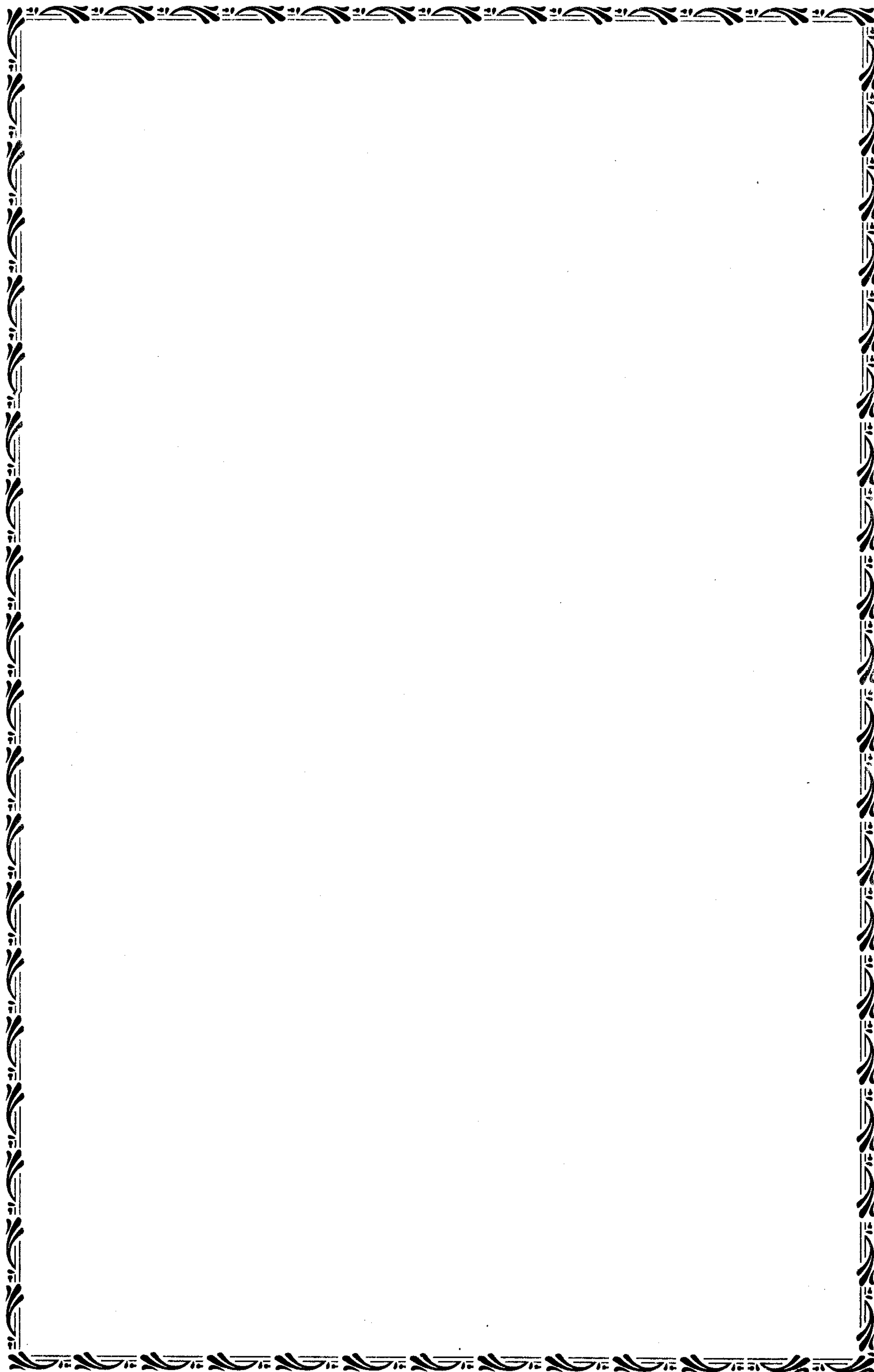

سورة ص

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١: قولُهُ تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿صٓ﴾ إنما[1] هو اسْمُ تلكَ السورةِ التي [فيها ص][2] وكذلكَ قولُهُ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] وكذلكَ الحروفُ[3] المُقَطّعاتُ. ولله أنْ يُسَمّيَ ما شاءَ بما شاءَ وبأيِّ اسْمِ شاءَ. وقالَ بعضُهُمْ: [إنما هو مِنْ أسماءِ الرَّبِّ تعالى. وقالَ بعضُهُمْ: إنما هو مِنْ][4] فَواتِحِ السُّوَرِ، وقد ذَكَرْنا أنَّ تفسيرَهُ ما ذُكِرَ على إثْرِهِ. وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ ما قيلَ في الحروفِ المُقَطَّعَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿صٓ﴾ أي صادِ، أي عارِضْ بالقرآنِ.

قالَ أبو عُبَيدةَ: صادِ مِنَ المُصاداةِ. وقالَ الزَّجّاجُ: صادِ بالقرآنِ، أي قابِلْ بالقرآنِ، وحارِبْ بالقرآنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: صادِ بالقرآنِ، أي نادِ بالقرآنِ، وقيلَ: أقْبِلْ بالقرآنِ، ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو قَسَمٌ، أقْسَمَ بقولِهِ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ وقولُهُ ﷻ: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ يَحتَمِلُ ذا[5] الشرفِ؛ سَمّاهُ ذِكراً لأنَّ كلَّ شريفٍ يُذْكَرُ في كلِّ مَلأٍ مِنَ الخَلْقِ، أو سَمّاهُ ذِكراً لِما يُذَكِّرُهُمْ ما لهمْ وما عليهِمْ وما يُؤْتَى وما يُذَكَّرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ذي البَيانِ.

الآية ٢: وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ «ذُكِرَ أنَّ أبا طالبٍ كانَ مريضاً، فجاءَهُ النَّبيُّ ﷺ يَعودُهُ، وعندَ رأسِهِ مَقْعَدُ رجلٍ، فقامَ أبو جَهْلٍ، فَجَلَسَ فيهِ، وعندَهُ مَلأٌ مِنْ قُرَيشٍ، فَشَكَوُا النَّبيَّ ﷺ إلى أبي طالبٍ، فقالَ: يا ابْنَ أخي ما تريدُ منهمْ؟ قالَ: ياعَمُّ إني أُريدُ منهمْ كلمةً، تَدينُ لهمْ بها العَرَبُ، ويُؤَدّي إليهِمْ بها العَجَمُ الجِزْيَةَ. قالَ: وما هيَ؟ قالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ. فقالَ أبو جَهْلٍ: أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً؟» [أحمد١/ ٢٢٧].

[فتلكَ العِزَّةُ التي ذَكَرَ][6]: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنَعَةٍ مُعانِدينَ مُمْتَنِعينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ في حَمِيَّةٍ واعْتِزازٍ، والحَمِيَّةُ هي التي تَحمِلُ على الخِلافِ والمَعْصِيَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣: [وقولُهُ تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قيلَ][7] في قولِهِ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ بوجهَينِ:

أحَدُهما: إنَّ هذا في كلِّ كافرٍ ومُشْرِكٍ، يُنادي عندَ مَوتِهِ وهلاكِهِ، ويَسْألُ ربَّهُ الرُّجوعَ والعَوْدَ إلى الدنيا لِيُؤْمِنَ كقولِهِ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ [المؤمنون: ٩٩و١٠٠] وكقولِهِ: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الآية [المنافقون: ١٠] ونَحْوُهُ.

---

(١) في الأصل و م: لنا. (٢) في الأصل و م: ذكر. (٣) في الأصل و م: حروف. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: لنا، في م: لنا من أسماء الرب تبارك وتعالى، وقال بعضهم لنا. (٥) في الأصل وم: ذي. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل و م: بذلك أخبرهم العزة الذي ذكر حيث قال. (٧) في الأصل و م: ثم اختلف في موضع القسم مهنا قال بعضهم القسم.

لكنْ لا يَنفعُ ذلكَ النداءُ والغَوثُ والسؤالُ للتأخيرِ على ما أخبَرَ أنهُ إذا ﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤ والنحل: ٦١].

[والثاني][1]: هذا في الجملةِ في الأممِ التي أُهْلِكتْ مِنْ قَبْلُ، واسْتُؤْصِلَتْ بالتكذيبِ والعِنادِ؛ كانوا يُنادونَ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ ووقوعِهِ عليهِمْ، ويَسألونَ الغَوثَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] لكنْ لا يَنفَعُهُمْ إيمانُهُمْ في ذلكَ الوقتِ على ما أخبَرَ اللهُ ﷻ لأنهُ إيمانُ دَفعٍ للعذابِ واضطِرارٍ لا إيمانُ اختيارٍ وتخَوُّفٍ. فهذا [حالُ][2] أهلِ مكةَ إنْ نَزَلَ بهِمْ ما نَزَلَ بأولئكَ، ويَندَمونَ على صُنْعِهِمْ كما نَدِمَ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ هو في الأصل: ولا. فإذا وُصِلَ بـ: حينَ صارَ: ولاتَ؛ كأنهُ تحينُ [واللهُ أعلَمُ][3] وهو قولُ الكِسائيِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: ولاتَ [يَحينُ][4] بالياءِ، وقد قُرِئَ بالتاءِ [تَحينُ][5] والوقفِ عليها [ثم يُبْتَدَأُ][6] قولُهُ ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ وابنُ عباسٍ رضي الله عنه يقولُ: ليسَ بحينِ مَغاثٍ. وقيلَ: ليسَ بحينِ مَغاثٍ. وقيلَ: ليسَ بحينِ يُجزَعُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي مِنْ بَشَرٍ مِثلِهِمْ كقولِهِمْ[7] ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] وقولِهِمْ[8]: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وقولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] كانوا يُنكِرونَ الرسالةَ في البَشَرِ، ويقولونَ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١].

والثاني: ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي مِنْ دونِهِمْ في أمرِ الدنيا لمّا رأَوا أنفسَهُمْ قد ضَلّوا في أمرِ الدنيا دونَهُ.

وقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] لم يَرَوا مَنْ دونَهُمْ في أمرِ الدنيا على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ دلَّ هذا القولُ منهمْ أنهُ قد كانَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ آيةٌ مُعجِزةٌ أتى بها حتى قالوا: ساحرٌ كذّابٌ. عَلِموا أنهُ رسولُ اللهِ لكنهمْ عانَدوا، وأرادوا بقولِهِمْ: ساحرٌ كذّابٌ أنْ يُغروا أتباعَهُمْ عليهِ كما أغرَى فرعونُ قومَهُ على موسى عليه السلام حينَ[9] قالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] وهو عليه السلام لم يُرِدْ أنْ يُخرِجَهُمْ مِنْ أرضِهِمْ، إنما يُريدُ الإسلامَ منهمْ.

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ الرُّؤساءُ عَرَفوا أنهُ ليسَ بساحرٍ، ولكنهُ رسولُ اللهِ ﷺ ولكنْ أرادوا أنْ يُغروا قومَهُمْ وأتباعَهُمْ عليهِ، والْبَسوا أمْرَهُ عليهِمْ لئلا يَتّبِعوهُ.

الآية ٥ وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [هذا القولُ مِنَ الرؤساءِ والمتبوعينَ منهمْ إغراءً عليهِ لِما عَرَفوا][10].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَنِ ٱمْشُوا﴾.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ المَلأَ والأتباعَ أتَوا أبا طالبٍ يَشكونَ رسولَ اللهِ ﷺ في ما يَذْكُرُ آلِهَتَهُمْ بسوءٍ. فلمّا كلّموهُ في ذلكَ لم يَلتَئِمْ أمرُهُمْ في ما طَمِعوا منهُ، ولم يُجِبْهُمْ إلى ما دَعَوهُ إليهِ، وسألُوهُ، فقالَ المَلأُ، وهمْ أشرافُهُمْ للأتباعِ: امشُوا مِنْ عندِهِ، واصبِروا على عبادةِ آلهتِكُمْ.

[ويَحتَمِلُ][11] أنْ يُقالَ: إنَّ المَلأَ قالَ للأتباعِ: أنِ امْشُوا إلى آلهتِكُمْ مِنْ عندِهِ، واصْبِروا على عبادَتِها، أو أنْ يكونَ

---

(١) في الأصل و م: ومنهم من يقول. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: أي والله. (٤) ساقطة من الأصل و م، انظر تفسير الطبري ح٢٣/ ١٢٢. (٥) ساقطة من الأصل و م، انظر تفسير الطبري ح٢٣/ ١٢٢. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: وقوله ﷻ. (٨) في الأصل و م: وقوله عز، وجل. (٩) في الأصل و م: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل و م: أو.

قولُهُمْ لهمْ: أنِ امْشُوا إلى أبي طالبٍ، وقولوا لهُ: كذا، واصْبِروا على كذا، أو أنْ يقولوا: أنِ امْشُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى/٤٥٧ ـ ب/: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ لسْنا ندري ما أرادوا بقولِهِمْ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ فجائزٌ أنْ يكونوا أرادوا بذلكَ أنَّ محمداً ﷺ وإنْ دعاكُمْ إلى تركِ عِبادةِ الأصنامِ لا يَتْرُكُكُمْ كذلكَ، ولكنْ يَدْعوكُمْ إلى عبادةِ غَيرِها، أو يَطْلُبُ منكُمْ أحوالاً أو أشياءَ أرادَ، ولَسْنا نَعْرِفُ ذلكَ: ما أرادوا بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المِلَّةُ الآخِرَةُ، هي مِلَّةُ عيسى ﷺ قالوا ذلكَ لأنَّ النَّصارى اختَلَفُوا في عيسى ﷺ:

منهمْ مَنِ اتَّخذَهُ إلهاً، ومنهُمْ مَنِ اتَّخذَهُ ولداً للهِ ﷻ فيقولونَ: عبادةُ الواحدِ الذي يَدْعو إليهِ محمدٌ ﷺ في المِلَّةِ الآخِرَةِ، وهي النَّصرانيَّةُ؛ إذْ مَنْ صَيَّرَهُ إلهاً[1] ومَنْ قالَ: إنهُ وَلَدُهُ صَيَّرَهُ بحيثُ يَحْتَمِلُ الشريكَ. فيقولونَ: ظَهَرَتْ عبادةُ العَدَدِ في المِلَّةِ الآخِرَةِ، فكيفَ يَمْنَعُنا محمدٌ ﷺ عنْ عبادةِ العَدَدِ، ويَدْعونا إلى عبادةِ الواحدِ؟

فقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ هي الحالُ التي كانوا عليها؛ يقولونَ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ التي نحنُ عليها، وكانَ آباؤُنا عليها لا على عبادةِ الواحدِ، يقولونَ: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ مِنْ عندِ محمدٍ ﷺ

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يَدُلُّ على أنهمْ قد رَأوا أنَّ مَنْ أُنزِلَ عليهِ الذِّكْرُ مِنَ السماءِ، إنما يَنْزِلُ لِفَضلٍ وخُصوصِيَّةٍ. لكنْ إنما رَأَوُا الفَضلَ والخُصوصِيَّةَ لأنفسِهِمْ لِما لهمُ الفَضلُ في الدنيا، فلم يَرَوا ذلكَ لرسولِ اللهِ ﷺ لذلكَ أنْكَروا إنزالَ الذكرِ عليهِ دونَهُمْ، ولذلكَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقالوا[2]: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾.

ثم أخْبَرَ ﷻ أنهمْ شاكّونَ في ذِكْرِهِ حينَ قالوا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾.

وتأويلُ هذا، واللهُ أعلَمُ: أنَّ الشَّكَّ هو الذي لا يُوجِبُ القَطْعَ على شيءٍ، بل يُوجِبُ الوَقْفَ ويُبْطِلُ[3] القطعَ على شيءٍ. فكيفَ قَطَعْتُمْ على الرَّدِّ والإنكارِ دونَ أنْ تَقِفوا فيهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على الإخبارِ عنِ الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ أنهمْ لا [يؤمنونَ حتى][4] يذوقوا العذابَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦و٩٧].

وقالَ مُقاتِلٌ: اللامُ زائدةٌ كأنهُ قالَ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ بل [ما ذاقوا][5] عذابي. يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في رَدِّهِمُ الذِّكْرَ وتكذيبِهِمْ إيّاهُ على الشَّكِّ منهمْ؛ والشَّكُّ يُوجِبُ الوقْفَ في الشيءِ لا القَطْعَ في الردِّ والتكذيبِ لهُ.

ثم فيهِ الدلالةُ على أنَّ الحُجَجَ والبراهينَ قد تُلْزِمُ مَنْ [جَهِلَ الحقيقةَ][6] ولم تَتَحقَّقْ عندَهُ؛ إذا كانَتْ تُنالُ التَّحقُّقَ لها والوقوفَ عليها بالتأمُّلِ والنظرِ فيها، وإنْ كانَتْ لم تَتَحقَّقْ عندَهُ بالبَديهةِ وعندَ قَرْعِها سَمْعَهُ، فهو حُجَّةٌ لِقولِ علمائِنا: إنَّ مَنْ أسْلَمَ في دارِ الإسلامِ، ولم يَعْلَمْ أنَّ عليهِ الشرائعَ والأحكامَ، كانَ مأخوذاً بها غَيرَ مَعْذورٍ في جَهْلِهِ فيها لأنها تُبَيِّنُ ما يُوصِلُ إليها بالسؤالِ والبَحْثِ عنها والفَحْصِ عنها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ قد ذَكَرْنا[7] في ما تَقَدَّمَ أنَّ حَرْفَ الاسْتِفْهامِ مِنَ اللهِ ﷻ يُخَرَّجُ على الإيجابِ والإلزامِ ممّا لو كانَ ذلكَ مِنْ مُسْتَفْهِمٍ حقيقةً، يَتَضَمَّنُ الجوابَ لهُ فقولُهُ[8] ﷻ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ جوابُ لِقَولِهِمْ: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فجوابُهُ لهمْ: ليسَ عندَهُمْ رحمةُ ربِّكَ حتى يَخْتاروا الرسالةَ والنُّبُوَّةَ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: عنه، وفي م: عنده. (٢) في الأصل و م: وقوله. (٣) في الأصل و م: فبطل. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: لما يذوقوا. (٦) في الأصل و م: جهلها. (٧) من م، في الأصل: ذكر. (٨) الفاء ساقطة من الأصل.

لأنفسِهِمْ أو لِمَنْ شاؤوا هُمْ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] كانوا لا يَرَوْنَ وَضْعَ الرسالةِ إلّا في مَنْ كانَتْ لهُ أموالٌ، ولهُ مَنَعَةٌ في الدنيا وفَضْلٌ ومالٌ.

فَيَذْكُرُ أعِنْدَهُمْ[1] خزائنُ رَبِّكَ حتى يَجْعَلوا الرسالةَ والنُّبُوَّةَ في ما شاؤوا، واختاروا؟ لِذلكَ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي لا يَمْلِكونَ قِسْمَةَ ربِّكَ. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] يُخْبِرُ أنهُ[2] على ما لا يَمْلِكونَ يُوسِعُ المَعيشةَ على مَنْ ضَيَّقَ عليهِ، ويَرْفَعُ مَنْ وَضَعَ.

فَعَلَى ذلكَ ليسَ إليهِمُ اختيارُ النُّبُوَّةِ والرسالةِ لِمَنْ شاؤوا، واختاروا. بلِ اختيارُ ذلكَ إلى اللهِ ﷻ وقالوا[3]: إذْ كُنّا أحَقَّ بهذا في الدنيا فَنحنُ أيضاً أحَقُّ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ على ما كُنّا أحَقَّ في الدنيا بالسَّعةِ والفَضْلِ فيها. بل لو عَرَفوا أنَّ ما نالوا مِنَ السَّعةِ في الدنيا وفَضْلِ الأموالِ إنما نالوا ذلكَ بِرَحْمةِ اللهِ وفَضْلِهِ لا بِحَقٍّ كانَ لهم على اللهِ. فلو عَرَفوا [ذلكَ][4] كانوا لا يُنْكِرونَ وضعَ الرسالةِ في مَنِ اختارَ اللهُ ﷻ وَضْعَها في مَنْ شاءَ.

وعلى ذلكَ قولُ المعتزلةِ؛ إنهمْ لا يريدونَ للهِ أنْ يَفْعَلَ بأحدٍ شيئاً إلّا ما هو أصْلَحُ لهُ في الدينِ، وإنهُ لو فَعَلَ ما ليسَ بأصْلَحَ لهُ في الدينِ كانَ جائراً ظالماً، فَيَرَوْنَ حِفْظَ الأصْلَحِ لهُ حقاً كما رَأى أولئكَ الكَفَرَةُ السَّعةَ والأموالَ حَقّاً على اللهِ، فَرَأوا أنفسَهُمْ أحَقَّ أيضاً بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ثم إنَّ المعتزلةَ يقولونَ في ألَمِ الصغارِ: أنْ ليسَ للهِ أنْ يُؤْلِمَهُمْ إلّا بِعِوَضٍ؛ يَجْعَلُ لهمْ بإزاءِ ذلكَ الألمِ عِوَضاً، يَرْضَونَ هم بذلكَ، إذْ جَعَلوا أنفسَهُمْ لهُ حقيقةً حينَ[5] لم يَجْعَلوا للهِ الإيلامَ إلّا بالعِوَضِ، ومَنْ أخَذَ حقّاً لِغَيرٍ، لا يأخُذُهُ إلّا بِبَدَلٍ وعِوَضٍ، يَرْضاهُ ذلكَ الغَيرُ. فهذا تُناقُضٌ في قولِهِمْ: إنَّ على اللهِ حِفْظَ الأصْلَحِ لِلْخَلْقِ في دينِهِمْ حينَ[6] لم يَجْعَلوا لهُ ذلكَ إلّا بِعِوَضٍ يَجْعَلُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

ودلَّ اتِّفاقُ القولِ: إنهُ وَهّابٌ على أنَّ ما يُنالُ مِنْ خَيرٍ أو سَعَةٍ أو فضلٍ إنما يُنالُ برحمةِ وفَضلِ اللهِ لا بِحَقٍّ عليهِ، لأنَّ مَنْ أدّى حقّاً عليهِ لا يُقالُ: إنهُ وَهّابٌ على ما أعطى مَنْ أعْطَى. إنما أعطاهُ تَفَضُّلاً منهُ ورحمةً، لا حقّاً كانَ عليهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو مِثْلُ الأوّلِ، أي ألَهُمْ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ لِيَمْلِكوا ما شاؤوا مِنَ الأمورِ، ويختاروا وضعَ الرسالةِ في مَنْ شاؤوا هُمْ؟ أي ليسَ لهمْ ملكُ السمواتِ والأرضِ فَيَمْلِكوا ما يَذْكُرونَ، ويَختارونَ.

[وإنْ][7] قالوا: بل نَمْلِكُ ذلكَ، وإلينا ذلكَ. فعندَ ذلكَ [قُلْ لهمْ][8]: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في الأسبابِ التي ذَكَرَ. قالَ بعضُهُمْ: السببُ ما بينَ السماءِ والأرضِ، وكذلكَ ما بَينَ كلِّ سماءَينِ سَبَبٌ، والأسبابُ جماعةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الأسبابُ أطرافُ السماءِ. وقالَ بعضُهُمْ: هي الأبوابُ التي في السماءِ تُفْتَحُ لِلْوَحْيِ. ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ إنْ كانوا صادقينَ بأنَّ محمداً ﷺ كذّابٌ، وأنهُ ساحرٌ، وأنهُ اخْتَلَقَهُ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، أي تُفْتَحُ لهُ أبوابُ السماءِ، فَلْيَسْتَمِعوا إلى الوحيِ، حينَ[9] يُوحِي اللهُ ﷻ [إلى][10] النبيِّ ﷺ لِقَولِهِمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧].

[ويَحْتَمِلُ][11] أنْ يكونَ معناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنْ يَرْتَقِيَ[12] مَلَكٌ فَيَنْزِلَ [الوَحْيُ][13]، فَيُخْبِرَ أنَّ محمداً ﷺ كاذبٌ في ما يَدَّعي لقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: حرفُ ما صِلَةٌ[14] كأنهُ قالَ ﷻ جُنْدٌ هنالكَ مَهْزومٌ مِنَ الأحزابِ. وقالَ بعضُهُمْ: جُنْدٌ بل هنالكَ مَهْزومٌ مِنَ الأحزابِ.

---

(١) في الأصل و م: أن عندهم. (٢) في الأصل و م: أنهم. (٣) في الأصل و م: فقالوا. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقال. (٩) في الأصل وم: حتى. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل و م: أو. (١٣) في الأصل و م: يرتقوا. (١٣) و(١٤) أدرج قبلها في الأصل و م: هنالك.

وجائزٌ أنْ يكونَ على تحقيقِ ما فيهِ، أي جُنْدُ ما يَهْزِمُ هنالكَ مِنَ الأحزابِ لا كلُّ الأجنادِ[١] /٤٥٨ ـ أ/ وهو الجُنْدُ الذينَ خَرجوا عليهِ بالمُباهَلَةِ، وهمُ الذينَ قالوا: اللهمَّ انْصُرْ أيَّنا أوصَلُ رَحِماً وأنفَعُ مالاً وأخيَرُ لِلْخَلْقِ. فَغُلِبوا هُمْ، وقُهِروا. وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هو الجُنْدُ [الذينَ قُتِلوا][٢] بِبَدْرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في الآيةِ وجوهٌ ثلاثةٌ مِنَ الدلالةِ:

أحَدُها: الأمْنُ لهُ مِنْ أنْ يَصِلوا إلى قَتْلِهِ وإهلاكِهِ على الآحادِ والإفرادِ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

[والثاني: الأمْنُ][٣] لهُ مِنْ أنْ يَصِلوا إلى قَتْلِهِ وإهلاكِهِ على الجَمْعِ والاجْتِماعِ لهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

[والثالثُ: البِشارةُ][٤] لهُ أنهمْ يُهْزَمونَ في ضَعْفِهِ وقِلَّةِ أعوانِهِ وأنصارِهِ مَعَ كَثْرَةِ هؤلاءِ وعِدَّتِهِمْ.

ففي الوجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْنا دلالةُ رسالتِهِ ﷺ حينَ[٥] أخبَرَ بما ذَكَرَ، فكانَ على ما أخبَرَ. دلَّ أنهُ باللهِ تعالى عَرَفَ ذلكَ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ حينَ تَحَزَّبوا عليهِ قالَ بعضُهُمْ: إنهُ ساحرٌ، وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ كَذّابٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، وإنهُ مجنونٌ على ما تَحَزَّبوا عليهِ، وتَفَرَّقَتْ قلوبُهُمْ فيهِ، وتَلَوَّنَتْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٢ و١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾][٦] أي الفِرَقُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يُذَكِّرُ هؤلاءِ الأحزابَ الذينَ كادوا[٧] لِرسولِ اللهِ ﷺ ويُخْبِرُهُمْ عن صَنيعِهِمْ ومُعامَلَتِهِمُ الرسلَ لوجهَينِ:

أحَدُهُما: كيفيةُ معامَلَةِ الرسلِ ﷺ أولئكَ الكَفَرَةَ مَعَ تكذيبِهِمْ إياهُمْ وسوءِ مُعامَلَتِهِمْ وصَنيعِهِمْ مَعَ الرسلِ وأنواعِ البَلايا التي كانَتْ منهمْ إليهِمْ؛ كيفَ[٨] عامَلوهُمْ، وصَبَروا على أذاهُمْ لِيُعامِلَ هو قومَهُ مثلَ مُعامَلَتِهِمْ قومَهُمْ، ويَصْبِرَ على أذاهُمْ كما صَبَرَ أولئكَ على أذى قومِهِمْ[٩] كقولِهِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثاني: يَذْكُرُ هذا لأهلِ مكةَ، ويُحَذِّرُهُمْ ما نَزَلَ بالأمَمِ المُتَقَدِّمَةِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وعِنادِهِمْ و تَمَرُّدِهِمْ معهمْ، لِيَحْذَروا تكذيبَهُمْ محمداً ﷺ وألّا يُعامِلوهُ كما عامَلَ أولئكَ رسلَهُمْ ﷺ فَيَنْزِلَ بهمْ كما نَزَلَ بأولئكَ مِنَ العذابِ والإهلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][١٠]: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي وَجَبَ عليهِمْ عقابي. لكنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي نَزَلَ بهمُ العذابُ، وَوَقَعَ عليهِمْ، وإلّا كانَ العذابُ واجباً على الكَفَرَةِ [فلا مَعْنَى لِتَخْصيصِهِمْ][١١]

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ إنَّ فرعونَ كانَ إذا غَضِبَ على أحدٍ مِنْ قومِهِ مَدَّهُ بأوتادٍ، فَيُعاقِبُهُ بها، ويُعَذِّبُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أي ذو البِناءِ المُحْكَمِ. وقالَ بعضُهُمْ: كانَتْ لهُ أوتادٌ وأرسانٌ أي حِبالٌ وملاعِبُ، يلاعبُ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يُخْبِرُ ﷻ رسولَهُ ﷺ ويُؤْيِسُهُ مِنْ إيمانِهِمْ،

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: من. (٢) في الأصل و م: الذي قتل. (٣) في الأصل و م: وفيه الأمر. (٤) في الأصل و م: وفيه بشارة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: إلى قوله. (٧) في الأصل و م: كانوا. (٨) أدرج قبلها في الأصل و م: إن. (٩) أدرج بعدها في الأصل و م: مثل معاملتهم قومهم وسوء صنيعهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

أنهمْ لا يُؤمِنونَ إلّا عندَ وقوعِ العذابِ بهمْ حينَ لا يَنفَعُهُمُ الإيمانُ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦و٩٧].

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ سَمَّى نفسَ العذابِ صَيحَةً. وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ صَيحَةً لِما أنَّ العذابَ إذا نَزَلَ بهمْ، ووقَعَ عليهِمْ يَصيحونَ، فَسَمَّى ذلكَ صيحةً لِصِياحِهِمْ، أو أنْ يكونَ ذلكَ إذا نَزَلَ بهِمْ كانَ فيهِ صياحُ وصوتُ الشيءِ الهائلِ العظيمِ الشديدِ إذا هَوَى، وَوَقَعَ، ومالَ إلى الأرضِ، كانَ فيهِ صياحٌ وصوتٌ حتى يُفزِعَ الناسَ منهُ.

فَعَلَى ذلكَ الصيحةُ التي ذَكَرَ يَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قالَ أبو عُبَيدةَ: مَنْ فَتَحَها أرادَ مالَها مِنْ راحةٍ ولا إفاقةٍ؛ كأنَّهُ ذهبَ إلى إفاقةِ المريضِ مِنْ عِلَّتِهِ. ومَنْ ضَمَّها جعَلَها مِنْ فُواقِ الناقةِ، وهو بينَ الحَلْبَتَينِ، ويريدُ: مالَها مِنْ فُواقٍ. أي انْتِظارٍ ومَكْثٍ[1].

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ إذ هي دائمةٌ أبداً، لا تَنْقَطِعُ.

وقالَ الكِسائيُّ: الفَواقُ بالنصبِ والرفعِ لُغَتانِ، وهو مِنْ فُواقِ الناقةِ بينَ الحلبَتَينِ والرضعَتَينِ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي مِنْ مَرَدٍّ ومَرْجِعٍ وقرارٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مَدُّهُ البَصَرَ، يقولُ: هي أقرَبُ مِنْ ذلكَ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٩٩] واللهُ أعلَمُ.

وأصلُ الفَواقِ كأنَّهُ مِنَ العَودِ والرُّجوعِ كَعَودِ اللَّبَنِ إلى الضَّرْعِ بَعْدَما ما حُلِبَ مرَّةً، واللهُ أعلَمُ.

ذُكِرَ عنِ الحَسَنِ في قولِهِ ﷻ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ يقولُ: حادِثِ القرآنَ بقلبِكَ، وهو [مِنْ][2] قولِ العَرَبِ: [صادَيتُ الدابَّةَ إذا كانَتْ صَعْبَةً، فلاطَفْتُها][3] حتى ذَلَّتْ، ولانَتْ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿صٓ﴾ هو أشَدُّ كلامٍ، وهو شِبْهُ قَسَمٍ. قالَ: والصادي في غيرِ هذا الموضِعِ العطشانُ، وقومٌ صادونَ.

ثم اختُلِفَ في مَوضِعِ [جوابِ][4] القسمِ:

قالَ[5] الكسائيُّ: مِنْ [جوابِ][6] القَسَمِ في القرآنِ ما هو ظاهِرٌ، لا يَخْفَى، ومنهُ غامِضٌ:

فَمِنْ ظاهِرِهِ قولُهُ ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ وجوابُهُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٥و١٦و١٩].

ومِنْ غامِضِهِ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ قالَ بعضُ الناسِ: مَوضِعُ جَوابِهِ[7] قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤] [معَ بُعْدِ ما بَينَ هذا الكلامِ وبَينَ القسمِ في أوّلِ السورةِ][8] واللهُ أعلَمُ.

[طالَ كلامُ العلماءِ في جوابِ هذا القسمِ حتى بَلَغَ ما نَصُّوا عليهِ خمسةَ نصوصٍ، كلُّها مُحتَمَلَةٌ إلّا هذا الخامسَ][9] ولكنَّ قَسَمَهُ، واللهُ أعلَمُ، عندي: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ثم اعترَضَ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ومَوضِعُ جوابِهِ][10] ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [مَعْناهُ: لَكَمْ أهلَكْنا، إلّا أنهُ لمّا اعترَضَ بينَهُ وبينَ القَسَمِ قولُهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حَذَفَ لامَ الجوابِ][11] وصارَ قولُهُ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ردّاً عليه وجواباً له وهو غريبٌ ظريفٌ غامضٌ.

وقولُهُ ﷻ ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذي الشَّرَفِ، أي مِنْ أرومَتِهِ شَرَفٌ، وقيلَ: ذي الشَّأنِ. وقيلَ: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ فيهِ ذِكْرُ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى وذِكْرُ مَنْ كانَ قَبْلَهُ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/٢٥٧. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: صادته الدابة إذا كادت منعت فاطعتها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: على ما ذكروا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قسمه. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من معاني القرآن الكريم للفراء ج٢/٣٩٧، في الأصل وم: لا أراه شيئاً طال الكلام وخامسُ القصص ما لا يكون ذلك قسمه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [الآية: ٢] قيلَ: في تكبُّرٍ وتكذيبٍ، وقيلَ: في حَمِيَّةٍ وخِلافٍ، وقيلَ: في غَفْلَةٍ ونحوِهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [الآية: ٣] قالَ بعضُهُمْ: أي هَرَبْتُمْ في غيرِ وَقْتِ الهَرَبِ، ومَناصِ مَهْرَبٍ، وناصَ يَنوصُ نَوصاً، وهو المَنْجى والغَوثُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي لاتَ حينَ مَهْرَبٍ على ما قالَ أبو عَوسَجَةَ. وقالَ: النَّوصُ التأخُّرُ في [كلامِ العَرَبِ][1] والمَنُوصُ المُتَقَدِّمُ.

واصلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ ذلكَ الوَقْتَ ليسَ هو وَقْتَ المَهْرَبِ ولا وَقْتَ المَنْجى ولا وَقْتَ الغَوثِ على ما تَقَدَّمَ غيرُهُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [الآية: ٥] قالَ بعضُهُمْ: عُجابٌ بلغةِ قومٍ: عَجَبٌ.

وقالَ الكسائيُّ: العُجابُ والعُجّابُ والعَجيبُ والعَجَبُ. كلُّها لغاتٌ [والمَعنى واحدٌ][2].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿عُجَابٌ﴾ يُكْثِرُ التَّعَجُّبَ كما يُقالُ: كُبارٌ وكُبّارٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أيِ الأشرافُ منهمْ، وقالوا للأتباعِ على ما ذَكَرْنا ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ إلى أبي طالبٍ، وأنيبوا إلى عبادةِ آلهتِكُمْ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [الآية: ٦] قالَ / ٤٥٨ ـ ب/ بعضُهُمْ: بِقَبولِ إسلامٍ؛ وذلكَ كانَ حينَ أسلَمَ عُمَرُ ﷺ ﴿لَشَيْءٌ﴾ أي لأمْرٌ ﴿يُرَادُ﴾ فَمَشَوا إلى أبي طالبٍ، وقالوا لهُ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ. والقصةُ طويلةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ أي امضوا، وارجِعوا إلى عبادةِ آلهتِكُمْ ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ مِنْ عندِ محمدٍ ﷺ ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ﴾ عبادةِ ﴿آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ بأهلِ مكةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ يَعْنونَ عبادةَ إلهٍ واحدٍ وتَرْكَ عبادةِ آلهةٍ في المِلَّةِ الآخِرةِ.

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: المِلَّةُ الآخِرَةُ النَّصرانيَّةُ واليَهوديَّةُ كِلْتاهُما.

وقالَ بعضُهُمْ: يَعْنونَ بالمِلَّةِ[4] [التي][5] همْ عليها وآباؤُهُمْ؛ يقولونَ: ما سَمِعْنا عبادةَ إلهٍ واحدٍ وتَرْكَ عبادةِ الآلهةِ في الدينِ [الذي][6] نحنُ وآباؤنا عليهِ ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [الآية: ٧] أي ما هذا إلّا اخْتِلاقٌ مِنْ نفسِهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ يَعْنونَ النُّبُوَّةَ والكتابَ والوحيَ، وهو أفْقَرُنا وأصْغَرُنا، ونحنُ أكْبَرُ سِنّاً، وأعظَمُ شَرَفاً.

يقولُ اللهُ ﷻ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ [الآية: ٨] بأنهُ لم يَنْزِلْ [على غَيرِهِ لِما لم][8] يَذُوقُوا عذابي، وهو قولُ مُقاتِلٍ.

ثم قالَ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي أَيَمْلِكونَ[9] نِعْمَةَ ربِّكَ أي أبأيديهِمْ[10] مفاتِحُ الرحمةِ والنُّبُوَّةِ والرسالةِ؟ فَيَضعوها[11] حيثُ شاؤوا، أي ليسَتْ بأيديهِمْ، ولكنَّها بيدِ اللهِ ﴿الْعَزِيزِ﴾ في مُلْكِهِ ﴿الْوَهَّابِ﴾ [الآية: ٩] يَهَبُ النُّبُوَّةَ والرسالةَ لِمَنْ يَشاءُ، ويَضَعُها في مَنْ يَشاءُ.

ثم قالَ: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي ليسَ لهمْ ذلكَ، ولكنَّ اللهَ ﷻ يوحي[12] الرسالةَ لِمَنْ يَشاءُ، ويَخْتارُ لها مَنْ يَشاءُ.

ثم قالَ: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [الآية: ١٠] أيِ الأبوابِ التي في السماءِ؛ إنْ كانوا صادِقينَ بأنَّ محمداً ﷺ اخْتَلَقَهُ مِنْ تِلقاءِ نفسِهِ فَلْيَسْتَمِعوا إلى الوَحْيِ حينَ يُوحي اللهُ إلى النَّبيِّ محمدٍ ﷺ [على ما][13] يقولُ أولئكَ.

---

(١) في الأصل و م: الكلام. (٢) في الأصل وم: واحدة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦)ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقالوا. (٨) في الأصل وم: عليه لما. (٩) في الأصل وم: يحتمل. (١٠) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فيضعونها. (١٢) في الأصل وم: فيوحي. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُم: السَّبَبُ بينَ السماءِ والأرضِ أصْلَبُ مِنَ الحديدِ، وأدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، يَعْرُجُ بِهِ الملائكةُ، وهو المِعْراجُ، يُبْصِرُهُ المَيِّتُ إذا خَرَجَتْ روحُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي فَلْيَصْعَدوا في طَرَفِها، فَيَعْلَموا عِلْمَ ذلكَ: أأُنْزِلَ عليهِمُ الذِّكْرُ أم لم يَنْزِلْ؟ واللهُ أعلَمُ. والارْتِقاءُ الصعودُ.

[ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: ارْتَقوا أنتُمْ][١] السَّبَبَ الذي ارْتَقَى محمدٌ ﷺ وأتُوا بِمِثْلِ الذي أتَى بِهِ محمدٌ، إنهُ ليس برسولٍ، أو أنْ يقولَ: أتُوا أنتمْ بالذي أتَى بِهِ محمدٌ ﷺ مِنَ الدينِ والأسبابِ حتى تَخْتَصّوا بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ كما اخْتَصَّ محمدٌ ﷺ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ [الآية: ١١] قالَ: وَعَدَ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ [أنهُ][٢] سَيَهْزِمُ جُنْدَ المُشْرِكينَ. فقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: جاءَ تأويلُها يومَ بَدْرٍ. وقد ذَكَرْنا تأويلَها في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

والأحزابُ هُمُ الذينَ تَحَزَّبوا عليهِ، أي [تَفَرَّقَ قولُهُمْ فيهِ][٣].

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي كتابَنا، وذلكَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُوعِدُهُمْ انهمْ يُؤْتَونَ كتابَهُمْ بِشِمالِهِمْ، فيهِ أعمالُهُمُ التي عَمِلوها في الدنيا في الآخِرَةِ. فعندَ ذلكَ قالوا لهُ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي كتابَنا الذي تُوعِدُنا انهُ يُعْطَى [إلينا][٤] بِشِمالِنا. قالوا ذلكَ اسْتِهْزاءً بِهِ[٥] وتكذيباً لهُ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي نَصيبَنا وحَظَّنا مِنَ العذابِ الذي تُوعِدُنا بِهِ، وتُحَذِّرُنا يومَ الحِسابِ ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قالوا ذلكَ اسْتِهْزاءً بِهِ وتكذيباً لهُ.

الآية ١٧ ولِذلكَ قالَ لهُ على إثْرِ ذلكَ: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يُصَبِّرُهُ، ويُقَوِّيهِ على ما يقولونَ لِيَصْبِرَ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ ليس على سؤالِ العذابِ والكتابِ الذي حَمَلَهُ عامَّةُ أهلِ التأويلِ عليهِ. ولكنهُ سؤالُ سَعَةٍ[٦] النصيبِ في الدنيا. ويكونُ ذلكَ في قومٍ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ، سألوا ما وُعِدُوا مِنَ النَّعيمِ في الآخِرَةِ والسَّعَةِ في الدنيا. وذلكَ أشْبَهُ لأنهمْ سألوا ربَّهُمْ أنْ يُعَجِّلَ ذلكَ لهمْ.

فلو كانَ على ما يُحَمِّلُهُ أهلُ التأويلِ مِنْ سؤالِ العذابِ والكتابِ على الاسْتِهْزاءِ بالرسولِ والتكذيبِ لهُ لَسألوا الرسولَ ذلكَ، ولم يَسْألوا ربَّهُمْ ذلكَ.

فَدَلَّ على ذلكَ على أنهُ أشْبَهُ وأقربُ، واللهُ أعلَمُ. ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ على ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِمْ: إنهُ ساحرٌ، إنهُ كذابٌ، وإنهُ اخْتَلَقَ هذا القرآنَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ، ونَحْوَهُ. ويُؤَيِّدُ ذلكَ قولُ سعيدِ بْنِ جُبَيرٍ. ذُكِرَتْ[٧] لهمُ الجنةُ، فاسْتَهْوَاهُمْ[٨] ما فيها، فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي نَصيبَنا مِنَ الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ لرسولِهِ ﷺ ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: انِ اذْكُرْ نَبَأَ داوُدَ ونَبَأَ مَنْ ذُكِرَ في هذهِ السورةِ [مِنَ الأنبياءِ ﷺ][٩] كقولِهِ[١٠]: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [الآية: ٤١] [وقولِهِ][١١]: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الآية: ٤٥] ومَنْ ذَكَرَهُمْ ﷺ، وعلى محمدٍ في هذهِ السورةِ. أي اذْكُرْ نَبَأَ داوُدَ ونَبَأَ مَنْ ذَكَرَ في هذهِ السورةِ، لم تكنْ لِتَعْرِفَ أنتَ ولا قومُكَ مِنْ قَبْلِ هذا، لَعَلَّهُمْ يُصَدِّقونَكَ، ويؤمِنونَ بكَ، كقولِهِ ﷻ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

---

(١) في الأصل وم: أو أن يقول ارتقوا أنهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تفرقوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بهم. (٦) في الأصل وم: السعة. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٨) في الأصل وم: فاستهوا. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: من قوله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: قولُهُ ﷻ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أي اذكُرْ صَبْرَ هؤلاءِ على أذى قومِهِمْ وتكذيبِهِمْ إيّاهُمْ لِتَصْبِرَ على أذى قومِكَ وتكذيبِهِمْ إيّاكَ كما صَبَرَ أولئكَ كقولِهِ ﷻ ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثالثُ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ ومنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ، أي اذكُرْ لهمُ المُصَدِّقينَ وما يكونُ لهمْ مِنَ الكراماتِ والثوابِ كما ذَكَرْتَ لهمُ المُكَذِّبينَ وما نَزَلَ مِنَ العذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ، ويُصَدِّقونَكَ، لِيَعْلَموا مَنْ نَجا منهُمْ [بِمَ نَجا؟ ومَنْ هَلَكَ منهُمْ][1] بِمَ هَلَكَ؟ أو لِيَعْلَموا أنَّ في أوائِلِهِمُ المُصَدِّقينَ لهُ والمُؤمنينَ، فكيفَ اتَّبَعْتُمُ المُكَذِّبينَ منهمْ دونَ المُصَدِّقينَ؟ واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ][2]: قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا﴾ أي اذكُرْ جَهْدَ داوُدَ وجَهْدَ مَنْ ذَكَرَ مِنْ هؤلاءِ في العِبادةِ والدينِ. وأمثالُ ذلكَ يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ ذا القُوَّةِ على العبادةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ في أمْرِ اللهِ في أمْرِ الدينِ لأنهُ ألانَ لهُ الحديدَ حتى كانَ يَتَّخِذُ منهُ الدِّرْعَ وغيرَها مِنَ الأسْلِحَةِ، وسَخَّرَ لهُ الطَّيْرَ والجِبالَ حتى كانَتْ تُسَبِّحُ معهُ[3] بالعَشِيِّ والإشراقِ وحتى كانَ يَسْتَعْمِلُ ما اتَّخَذَ [مِنَ][4] الحديدِ في ما[5] شاءَ مِنْ أمْرِ الدينِ مِنَ المُحاربَةِ مع الأعداءِ والدَّرْءِ عن أهلِ الإسلامِ والدَّفْعِ عنهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مُطيعٌ للهِ مُقْبِلٌ على طاعتِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي مُسَبِّحٌ للهِ. ذُكِرَ أنهُ كانَ كثيرَ التسبيحِ، ولِذلكَ[6] قالَ ﷻ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] أي سَبِّحي. هذا يَحْتَمِلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي رَجّاعٌ إلى اللهِ يَرْجِعُ [إليهِ][7] في كلِّ أمْرٍ، وإليهِ يَفْزَعُ في كل نائبةٍ وحادثةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي ذا الإحسانِ والعَمَلِ الصالحِ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ / ٤٥٩ ـ أ/ أي تَوّابٌ.

وقتادةُ يقولُ: ذا القُوَّةِ في العِبادةِ وذا الفِقْهِ في الإسلامِ وذا البَصَرِ في الدينِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿قِطَّنَا﴾ أي كِتابَنا، يُقالُ: قَطَطْتُ، أي كَتَبْتُ، أقُطُّ، قِطّاً، فأنا قاطٌّ، والكِتابُ مَقْطوطٌ، والقَطُّ أيضاً القَطْعُ، يُقالُ: قَطَطْتُ أظفاري، والقَطُّ الدَّهْرُ، ويُقالُ: قَطِي أي حَسْبي، وقَطْكَ أي [حَسْبُكَ][8].

وقالَ القُتَبِيُّ: القِطُّ الصَّحيفةُ المكتوبةُ، وهي الصَّكُّ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ وهو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ ﷻ إنا سخَّرْنا الجبالَ يُسَبِّحْنَ، أخبَرَ أنهُ سَخَّرَ الجبالَ والطيرَ وما ذَكَرَ لِداوُدَ كي يُطِعْنَهُ، ويُسَبِّحْنَ معهُ.

وفيهِ لُطْفٌ مِنَ اللهِ ﷻ في هذهِ الأشياءِ، والخُصوصِيَّةُ لِداوُدَ في ذلكَ حينَ[9] صَيَّرَ الجبالَ والطَّيْرَ بحيثُ يَقِفْنَ وقْتَ تسبيحِ داوُدَ مَعَهُ على ما أخبَرَ ﷻ.

وفيهِ [لُطْفٌ مِنَ][10] اللهِ ﷻ حيثُ صَيَّرَ الجبالَ معَ شِدَّتِها وصَلابَتِها بحيثُ تَعْرِفُ وقتَ تَسبيحِ داوُدَ، وتَعرِفُ تَسْبيحَهُ، وتُسَبِّحُ، وتَلينُ لهُ.

فجائزٌ أنْ يَجْعَلَ قَلْبَ الكافرِ بحيثُ يَلينُ، ويَخْضَعُ للهِ بلطفِهِ، إذْ قلبُهُ ليسَ أشَدَّ قَسْوَةً وصلابَةً مِنَ الجبالِ. فإذا جَعَلَ لُطْفَهُ فيها لانَتْ وخَضَعَتْ. فَعَلى ذلكَ إذا جَعَلَ ذلكَ اللطفَ في قَلْبِ الكافرِ لا يَحْتَمِلُ ألّا يَلينَ، ولا يَخْضَعَ، إذْ هو ليسَ أصْلَبَ وأشَدَّ مِنَ الجبالِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا الخُصوصِيَّةُ لهُ فإنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ بكلٍّ مِنَ الرسلِ خُصوصيَّةً في شيءٍ، لم يَجْعَلْ مثلَ تلكَ الخُصوصِيَّةِ لآخَرَ[11] في ذلكَ الشيءِ بعينِهِ بلطفِهِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: معهم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: وكذلك. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث.
(١٠) في الأصل وم: إن. (١١) في الأصل وم: لأخرى.

وخُصوصِيَّةُ داوُدَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ ما ذَكَرَ لهُ مِنَ الجبالِ والطيرِ والتسبيحِ معهُ وما ذَكَرَ مِنْ إلانَةِ الحديدِ لهُ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ.

وخُصوصِيَّةُ سليمانَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الرياحِ لهُ وحَمْلِها إيّاهُ حيثُ شاءَ إلى ما شاءَ مَسيرَةَ شَهرٍ بِغُدْوَةٍ ومَسيرَةَ شَهرٍ بِعَشِيَّةٍ حيثُ قالَ ﷻ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبإ: ١٢] وما ذَكَرَ مِنْ فَهْمِ نُطْقِ الطيرِ والنُّطْقِ معهُ، وفهمُهُ تَسْبيحَها، ونَحْوُ ذلكَ كثيرٌ.

ومِثلُ هذا ما قد جَعَلَ لرسولِ اللهِ ﷺ حينَ ذُكِرَ أنهُ أخذَ أحجاراً، فَسَبَّحْنَ في يدِهِ حتى سَمِعَ ذلكَ مَنْ حَضَرَهُ، وما ذُكِرَ أنَّ أصابعَهُ يُسَبِّحْنَ، ونَحْوُهُ كثيرٌ.

فَلِكُلٍّ منهمْ خُصوصِيَّةٌ في شيءٍ، ليسَتْ تلكَ لِغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي مَجْموعةً مُسَخَّرَةً، أي سُخِّرَتْ لهُ الطيرُ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كلٌّ لهُ مُطيعٌ، وقالَ بعضُهُمْ: كلٌّ لهُ مُسَبِّحٌ.

فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي مُطيعٌ، فهو يَحْتَمِلُ: مُطيعٌ لِداوُدَ، وإنْ كانَ الأوّابُ، هو المسبِّحُ، فهو لا يَحْتَمِلُ لِداوُدَ، لكنْ للهِ تبارَكَ وتعالى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ [لا][1] على إرادةِ حقيقةِ العَشِيِّ والإشراقِ، ولكنْ على إرادةِ التسبيحِ معهُ في كلِّ وقْتٍ، فيكونُ العَشِيُّ كِنايةً عنِ الليلِ، والإشراقُ كِنايةً عنِ النهارِ. يُخبِرُ أنهنَّ يُسَبِّحْنَ في كلِّ وقتٍ مِنَ الليلِ والنهارِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في العَشِيّاتِ والغَدَواتِ خاصةً كقولِهِ ﷻ لِرسولِهِ ﷺ حينَ[2] قالَ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] واللهُ أعلَمُ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْبيحِ هذهِ الأشياءِ صلاةً؛ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي يُصَلِّينَ للهِ كقولِهِ ﷻ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] دَلَّ أنَّ لها صلاةً، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: تَسْبيحُ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ هو تسبيحُ خِلْقِهِ، لا تَسْبيحُ نُطْقٍ وكلامٍ. لكنْ لو كانَ على هذا لكانَ لا مَعْنَى لِذِكْرِ تَسْبيحِهِنَّ مَعَ داوُدَ ﷺ [بل يكونُ تَسْبيحُهُنَّ][3] مَعَ داوُدَ ﷺ وغيرِهِ في كلِّ وقتٍ. دَلَّ أنهُ على تسبيحِ النُّطْقِ.

وإنْ كانَ على الصلاةِ فهو ألّا تجوزَ الصلاةُ لأحدٍ حتى تُشرِقَ الشمسُ، وتَرتَفِعُ، حينَ[4] ذَكَرَ إشراقَ الشمسِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ حَمَلَ قولَهُ ﷻ ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ على صلاةِ الضُّحى. هل كانَ رسولُ ﷺ [صلّى في بيتِ أمِّ هانئٍ][5]؟ فأخبَرَتْهُ أنهُ فَعَلَ. قالَ ابنُ عباسٍ ﵄: أي صلاةَ الإشراقِ، وهذهِ صلاةُ الإشراقِ؛ يعني صلاةَ الضُّحى، واللهُ أعلَمُ. وسُمِّيَتْ صلاةُ الضُّحى صلاةَ الأوّابينَ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: لأنهُ كانَ يَحْرُسُهُ كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثونَ ألفاً مِنْ بَني إسرائيلَ. لكنْ ليسَ في ما ذَكَروا كثيرُ شَدِّ الملكِ وتَقْوِيَتُهُ، إنما هو وصفُ ضَعْفٍ إلّا أنْ يَعْنُوا بما ذَكَروا كَثْرَةَ أعوانِهِ وأنصارِهِ وفَضْلَ أتباعِهِ وحَواشيهِ. فعندَ ذلكَ يَحْتَمِلُ ما ذَكَروا مِنَ الحَرَسِ[6] والحِفْظِ. فليسَ فيهِ كثيرُ شَدٍّ ولا فَضْلُ مَنْقَبَةٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إذ ذا. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: فعل في بيتها. (٦) من م، في الأصل: الحرث.

وجائزٌ أنْ يكونَ غيرُ هذا أشبهَ لهُ وأَوْلَى بِما ذَكَرَ مُلْكَهُ. وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: شَدُّ مُلْكِهِ بِمَا ذَكَرَ مِنْ إلانَةِ الحديد حتى كانَ يَتَّخِذُ منهُ لِباساً مِنَ الدروعِ وغيرَها مِنْ أسبابِ الحَرْبِ والتأهُّبِ لها، وما يَصْلُحُ للقتالِ ما لم يُعْطَ مِثلَهُ لأحدٍ سواهُ، فَيَنْقَطِعُ بذلكَ طَمَعُ الطامِعينَ لهُمْ في ذلكَ والراغبينَ في مُلْكِهِ، ويأمَنُ هو بذلكَ ذَهابَه. فهو شَدُّ ملكِهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: شَدُّ مُلكِهِ بما ذَكَر مِنْ تَسْخيرِ الجبالِ لهُ والطيرِ والتسبيحِ معهُ وما ذَكَرَ مِنْ طاعةِ هذهِ الأشياء لهُ والخُضوعِ لأمرِهِ. فَمَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ هذا المَبْلَغَ الذي وَصَفَ مِنْ طاعة مَنْ ذَكَرَهُ والتَّسْخيرِ لهُ وعِبادَتِهِ للهِ تعالى، وطاعَتِهِ لربِّهِ في نفسِهِ حينَ[1] قالَ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لم يَقْصِدْ أحدٌ مِنْ ملوكِ الأرضِ قَصْدَهُ، ولا طَمِعَ في زوالِ مُلْكِهِ إليهِ بحالٍ. فهذا أشبَهُ أنْ يَجْعَلَ تأويلَ شدِّ ملكِهِ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، ممّا قالَهُ أهلُ التأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وقولُهُ ﷻ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي النُّبُوَّةَ ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ أي البَيِّنَةَ على المُدَّعي واليمينَ على المُدَّعى عليهِ. لكنْ [ليسَ][2] في ما ذَكَروا مِنْ جَعْلِ البَيِّنَةِ على المُدَّعي وجَعْلِ اليمينِ على المُنْكِرِ كثيرُ مَنْقَبَةٍ وخصوصيَّةٌ إذْ قد أُعْطينا نحنُ مثلَهُ، وقد ذُكِرَ على الخُصوصيَّةِ لهُ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الحكمةِ التي[3] آتاها [لهُ][4] إحكامَ أمرِهِ في ما بَيْنَهُ وبينَ ربِّهِ [في العبادةِ][5] والطاعةِ لهُ في كلِّ وقتٍ على ما وَصَفَهُ حينَ قالَ: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي ذا القوةِ والجَهْدِ في العبادةِ للهِ والطاعةِ له فيهِمْ وإنزالِ كلٍّ منهمْ منزلةً وتأليفِ قلوبِ بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ وجَمْعِهِمْ على دينٍ واحدٍ ومذهبٍ واحدٍ حتى لم يَقَعْ تَنازُعٌ ولا خِلافٌ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ ﷻ ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ أي قَطْعَ الخُصوماتِ في ما بينَهُمْ على التأليفِ والتَّلْطيفِ وإيصالِ كلٍّ إلى حقِّهِ مِنْ غيرِ أنْ يَقَعَ بينهُمْ خُشونَةٌ أو ضِغْنٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما ذَكَرْنا مِنَ القصةِ بينَ الخُصومِ بالبَيِّنَةِ على المُدَّعي واليمينِ على المُنْكِرِ[6] وليسَ في ذلكَ كثيرُ مَنْقَبَةٍ ولا خصوصيَّةٌ. وقالَ بعضُهُمْ هو: أمّا بَعْدُ، وهذا أيضاً ليسَ بشيءٍ.

والأصْلُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، والخِطابُ: هي[7] الخُصومَةُ.

قالَ أبو مُعاذٍ: الخِطابُ كالجِدالِ / ٤٥٩ ـ ب/ والخِصام: يقولُ: خاطَبْتُهُ [خِطاباً][8] ومُخاطَبَةً واحدٌ [كما يقولُ: جادَلْتُهُ جِدالاً][9] ومُجادَلَةً. فكُلُّ فاعَلَهُ [لهُ مَصْدَرانِ][10] فِعالٌ ومُفاعَلَةٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الفَصْلُ القَضاءُ، والخِطابُ الخُصومةُ. يقولُ: خاطَبْتُ الرجلَ، أي خاصَمْتُهُ. والإشراقُ، هو طلوعُ الشمسِ ووقوعُها في كلِّ ناحيةٍ بِنُورِها كقولِهِ ﷻ ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ أنَّ حَرْفَ الاِسْتِفْهامِ مِنَ اللهِ ﷻ يُخَرَّجُ على الإيجابِ أو على التقريرِ والتَّنبيهِ[11]. ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي قد أتاكَ نبأُ الخَصْمِ، فَتَفَكَّرْ فيهِ كيفَ ابْتَلاهُ اللهُ ﷻ و فَتَنَهُ [في][12] ما ذَكَرَ.

والثاني: قولُهُ ﷻ: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ أتاكَ: أُرسِلَ إليكَ نَبَؤُهُ وخَبَرُهُ: أنْ كيفَ ابْتِلاؤُهُ وفِتْنَتُهُ؟ وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أيِ اذْكُرْ ما قَرَّبَهُ هو، أوِ اذْكُرْ مُتَقَرَّبَهُ إيّاهُ، أوِ اذْكُرْ خصومةَ الخَصْمَينِ إليهِ، أوِ اذْكُرْ ما أُعْطِيَ هو مِنَ الحِكْمَةِ والحُكْمِ وفَصْلِ الخِطابِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أنه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: العبادة له أي لله تعالى. (٦) انظر صحيح مسلم: رقم الحديث ١٧١١ . (٧) في الأصل وم: هو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لها جمعان. (١١) من م، في الأصل: والبينة. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ﴾ هو حَرْفُ التوحيدِ والوُحْدانِ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ حرفُ الجماعةِ.

الآية ٢٢ وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ ذَكَرَ بالجماعةِ. وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ بحرفِ الجماعةِ. وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ ثم ذَكَرَ بحرفِ التَّثْنيةِ حيثُ قالَ: ﷻ ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ذَكَرَ بعضَهُ بحرفِ الوُحْدانِ والإفرادِ، وبعضَهُ بحرفِ التَّثْنِيَةِ، وهي قصةٌ واحدةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: أمّا قولُهُ ﷻ: الخَصْمُ فهو مَصْدَرٌ [وهو صِفَةٌ لِلْجَمْعِ، وصِفَةٌ][1] الجَمْعِ والفَرْدِ والتَّثْنِيَةِ واحدٌ.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ و﴿دَخَلُوا۟﴾ و﴿قَالُوا۟﴾ [ونحوُهُ فقد][2] يُقالُ لِلاثْنَيْنِ ذلكَ لأنَّ الاثْنَيْنِ جماعةٌ كقولِهِ ﷻ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] والقلوبُ جماعةٌ، وإنما هما[3] قلبانِ، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، شائعٌ فيها.

وعندَنا جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ دَخلوا عليهِ، و ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ ونَحْوُهُ: إنْ كانَ مع الخَصْمَيْنِ المَلَكَيْنِ ملائكةٌ سِواهُما[4] شُهودٌ على دَعْواهُما وخُصوماتِهِما تَسَوَّروا معهما، ودَخَلوا معهما عليهِ، فلمّا فَزِعَ ﴿مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وإنْ كانَ مَنْ[5] تَخاصَمَ بَيْنَ يديهِ اثنَيْنِ[6] لِما لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولَ داوُدُ لأحدِ الخَصْمَيْنِ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: ٢٤] يَنْسُبُهُ إلى الظُّلْمِ، ويَصِفُهُ بالبَغْيِ بِلا شُهودٍ، يَشْهَدونَ، إلّا أنْ يكونَ مِنَ الآخَرِ إقرارٌ على ما يَدَّعي عليهِ.

فإذا كانَ كذلكَ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا أنهُ كانَ مَعَ المَلَكَيْنِ ملائكةٌ آخَرونَ، وأنَّ حاصِلَ الخُصومةِ لاثْنَيْنِ منهمْ، وفي ما أُضيفُ الفِعْلُ إلى الجماعةِ كانوا جماعةً في التَّسَوُّرِ والدُّخولِ عليهِ [والقولِ لهُ][7]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وفي ما أُضيفَ إلى الاثْنَيْنِ كانَ اثْنانِ في الخُصومةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم فيهِ مِنَ الكلامِ والقولِ حينَ[8] قالا ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

الآية ٢٣ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وقولُهُ: ﴿أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ ونَحْوُهُ مِنَ الكلامِ والقولِ الذي كانَ منهما: كيفَ حَقَّقا ذلكَ، وقَطَعاهُ؟ أنهما خَصْمانِ، ولم يكونا في الحقيقةِ خَصْمَيْنِ، وأنَّ لهذا كذا وكذا نَعْجَةً، ولهذا واحدةً، ولم يكُنْ في الحقيقةِ ذلكَ، وأنَّ هذا بَغَى على هذا، ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الخُصوماتِ التي جَرَتْ بَيْنَهما، ولم يكُنْ ذلكَ كذلكَ في الحقيقةِ، كيفَ قالا ذلكَ، وحَقَّقَناهُ؟ وهمْ ملائكةٌ، والملائكةُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَكْذِبوا قَطُّ، أو يُرْسِلَهُمُ اللهُ لِيَكْذِبوا.

لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، على التَّقريرِ والتَّمَسُّكِ، أي لو كانَ لأحَدِهِما كذا كذا نَعْجَةً وللآخَرِ واحدةٌ، فَغَلَبَ صاحبُ النعاجِ الكثيرةِ على صاحبِ النَّعْجَةِ، فأخَذَها، أليسَ يكونُ ظالماً، أو يكونُ باغياً؟ ليسَ على التحقيقِ، ولكنْ لِما ذَكَرْنا: يُقَدِّرانِ عندَهُ [الزَّلَّةَ، ويُمَثِّلانِ الخطيئةَ][10] إنْ كانَتْ لهُ على ما يقولُهُ أهلُ التأويلِ يُقَدِّرونَهُ. وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى أشياءَ كثيرةً على التقريرِ والتمثيلِ على تقريرِ أشياءَ غَفَلُوا عنها، وسَهَوا فيها، فَعَلَى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ تكونَ خُصومةُ هؤلاءِ الملائكةِ عندَ داوُدَ ﷺ وما كانَ منهمْ مِنَ القولِ والخُصومةِ، لِيَتَقَرَّرَ ما كانَ منهُ مِنَ الهَفْوَةِ والزَّلَّةِ[11]، لِيَعْرِفَ ذلكَ، ويَرْجِعَ عنها، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ طائراً وقعَ بَيْنَ يديهِ قريباً منهُ، فَنَظَرَ إليهِ، وصارَ مُعْجَباً بهِ، فَهَمَّ أنْ يأخُذَهُ، وارْتَفَعَ إلى كَوَّةِ[12] المِحْرابِ، فَصَعِدَ ليأخُذَهُ، فوقَعَ بَصَرُهُ على امرأةٍ، فأعْجَبَتْهُ. فإنَّ هذا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ.

وأمّا قولُهُمْ: أدامَ النَّظَرَ: أمّا هذا فإنهُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ مِنْ[13] داوُدَ أو نَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ ﷺ أنهُ يُديمُ النَّظَرَ إلى ما لا يَحِلُّ النَّظَرُ إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: ومصدر للجمع ومصدر. (٢) في الأصل: قد، في م: ونحوه قد. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: سواهم.
(٥) في الأصل وم: الذي. (٦) في الأصل وم: اثنان. (٧) في الأصل وم: لقول منهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: و.
(١٠) في الأصل: الزلزلة ويمثلا به الخطبة، في م: الزلة ويمثلا به الخطية. (١١) من م، في الأصل: الزلزلة. (١٢) من م، في الأصل: الكوة.
(١٣) في الأصل وم: ميل.

وأمّا الأوّلُ مِنَ الذّهابِ لِطَلَبِ ذلكَ الطائرِ والنَّظَرِ إليهِ: أنهُ مِنْ أينَ؟ وإلى ماذا؟ فذلكَ يُحتَمَلُ أنْ يكونَ، ثم هو يكونُ مَعْذوراً في الصعودِ إلى الكَوّةِ والارْتِفاعِ لِلنَّظَرِ إلى الطائرِ لِما كانتِ الطيورُ قد حُشِرَتْ لهُ، وسُخِّرَتْ في التسبيحِ معهُ والطاعةِ لهُ، فجائزٌ أنْ يكونَ لهُ البَحْثُ والفَحْصُ عنْ حالِ ذلكَ الطائرِ على ما أخبَرَ عنْ سليمانَ حينَ[1] قالَ ﷺ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠].

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ هو في الصُّعودِ إلى الكَوّةِ والارْتِفاعِ إلى ذلكَ مَعْذوراً، لكنْ وَقعَ بَصَرُهُ عليها بِلا[2] قَصْدٍ منهُ، ولا عِلْمٍ بِحالِها، ومالَ[3] قَلْبُهُ إليها لِحُسْنِها وجَمالِها، وذلكَ ما يكونُ بِلا تكَلُّفٍ ولا تَصَنُّعٍ[4]، وذلكَ ممّا لا يَمْلِكُ دفعَهُ نَحْوُ ما كانَ مَيلُ[5] قلبِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى امرأةِ زيدٍ [وَوَعْدُ اللهِ لهُ][6] نِكاحَها حينَ[7] قالَ ﷺ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

[وأمّا][8] ما ذُكِرَ مِنْ بَعْثِ زَوجِها إلى القتالِ لِيُقْتَلَ فهذا أيضاً غيرُ مُحتَمَلٍ، لكنْ يَحتَمِلُ بَعْثُهُ إيّاهُ لِيُجاهِدَ أعداءَ اللهِ، وكانَ ذلكَ فَرْضاً عليهِ، فصارَ مَقْتولاً فيهِ مِنْ غيرِ أنْ يَتَوَهَّمَ منهُ أنهُ قَصَدَ قَتْلَهُ وهلاكَهُ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ عُوتِبَ كلَّ هذا العتابِ حتى بَعَثَ اللهُ[9] الملائكةَ إليهِ بالخُصومةِ عندَهُ والتَّمَسُّكِ بما ذَكَرَ وتقريرِ ذلكَ عندَهُ، ثم أخبَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ بَعْدَ طولِ المُدَّةِ أنْ كانَ معذوراً في ذلكَ غيرَ مُؤاخَذٍ بهِ؟

قيلَ: إنَّ الأنبياءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ أجمَعِينَ، كانوا يُؤاخَذونَ بأدنى شيءٍ كانَ منهُمْ ما لا يُؤاخَذُ غيرُهُمْ بذلكَ، بل يُعَدُّ ذلكَ منهمْ مِنْ أرفَعِ الخِصالِ وأجَلِّها [نَحْوَ][10] ما عُوتِبَ يونُسُ ﷺ في خُروجِهِ مِنْ بَينِ قومِهِ لِيَسْلَمَ دينُهُ أو نفسُهُ. لكنهُ خَرَجَ بلا إذنٍ كانَ لهُ مِنَ اللهِ، فَعُوتِبَ لذلكَ. فَعَلَى ذلكَ داوُدُ ﷺ وإنما فَعَلَ ذلكَ بِلا إذْنٍ مِنَ اللهِ ﷻ واللهُ أعلَمُ.

ثم في بَعْثِ الملائكةِ إليهِ في ما ذُكِرَ وجوهٌ مِنَ الحكمةِ وأنواعٌ مِنَ الفائدةِ:

أحدُها: جوابُ الحُجّابِ والحَرَسِ حينَ دخلوا عليه مِنْ غيرِ البابِ.

والثاني: دفعُ الحُجّابِ عنِ الخصومِ لا على وقتِ حاجةِ نفسِهِ حينَ دَخلوا عليهِ مِنْ غَيرِ البابِ لِلْخُصومةِ بِلا إذْنٍ منهُ.

والثالثُ: قُدْرَةُ [اللهِ على تَصْويرِ الملائكةِ][11] بصورةِ البَشَرِ مَعَ كونِ النفسِ الكثيفةِ ووجودِ [الجسدِ][12] معهمْ. وذلكَ يَرُدُّ على الفلاسفةِ مَذْهَبَهُمْ: أنَّ النفسَ الرّوحانيّةَ خُلِقَتْ مُنْتَشِرَةً مُتَحَرِّكَةً في كلِّ حالٍ، لكنَّ الجَسَدَ الذي [جُعِلَتْ فيهِ يَمْنَعُها][13] عنْ ذلكَ. فإذا نامَ ذلكَ الجَسَدُ، أو ماتَ /٤٦٠ ـ أ/ ذهبَتْ تلكَ النفسُ حيثُ شاءَتْ إلى حاجَتِها.

ألَا تَرَى أنَّ الملائكةَ قد صُوِّروا عليهِ بصورةِ البَشَرِ، واخْتَصَموا إليهِ خُصومةَ البَشَرِ، دلَّ [ذلكَ على أنهُمْ ليسوا][14] على ما وَصَفَهُمْ؟

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: صَعِدوا. وأصْلُ التَّسَوُّرِ هو الدخولُ مِنَ العُلُوِّ والارْتِفاعِ، وهو النزولُ مِنَ السورِ، وهو الحائطُ المُشْرِفُ المرتَفِعُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لِما خافَ دخولَ المَوهِنِ في مُلْكِهِ إذْ دَخَلوا بِلا إذْنٍ مِنْ غَيرِ البابِ، أو خافَ لِما ظَنَّ أنهمْ لصوصٌ مُكابِرونَ، أو لِما عَرَفَ أنهمْ ملائكةٌ جاؤوا بأمرٍ عظيمٍ ونَحْوِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تَجُرْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أعْطِنيها، وقالَ بعضُهُمْ: أكْلَفْتُهُ، أي أعْطَيْتُهُ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ، وقالَ بعضُهُمْ: أي ضُمَّها إليَّ، واجْعَلْني كافِلَها، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: غَلَبَني في الخُصومةِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: فلا. (٣) في الأصل وم: ومالا. (٤) من م، في الأصل: صنع. (٥) في الأصل وم: مثل.
(٦) في الأصل وم: وعد لها. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: إليه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.
(١١) في الأصل وم: الملائكة على التصور. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: جعل فيه يمنعه. (١٤) في الأصل وم: على أنه ليس.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثم استثنى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الذينَ آمَنوا، واعْتَقَدوا في إيمانِهِمُ الأعمالَ الصالحاتِ، فإنهمْ لا يَبْغي[1] بعضُهُمْ على بعضٍ.

ثم أخبَرَ أنَّ مَنْ آمَنَ، واعْتَقَدَ في إيمانِهِ العَمَلَ الصالِحَ، أي مَنِ اتَّقَى مِنَ المؤمنينَ ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وتَرْكُ البَغْيِ قليلٌ منهمْ.

وهذِهِ الآيةُ شديدةٌ صعبةٌ على ما ذَكَرْنا.

وفيهِ أنَّ المؤمنَ الذي اعْتَقَدَ في إيمانِهِ العَمَلَ الصالِحَ، وتركَ [البَغْيَ][2] على غَيرِهِ، قليلٌ في كلِّ زمانٍ ودهرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم فَسَّرَ أهلُ التأويلِ الظَّنَّ ههنا الإيقانَ، أي أيقَنَ، وكأنَّ الإيقانَ، هو عِلْمٌ يُسْتفادُ بالأسبابِ على ما اسْتَفادَ داوُدُ ﷺ عِلْماً بخُصومةِ المَلَكَينِ عندَهُ. ولذلكَ لا يُضافُ الإيقانُ إلى اللهِ؛ أنهُ أيقَنَ كذا، لأنهُ عِلْمٌ يُسْتفادُ بالأسبابِ، وهو عالِمٌ بذاتِهِ لا بسببٍ.

وأمّا العِلْمُ فإنهُ قد يُسْتفادُ بسببٍ وبغيرِهِ، لِذلكَ أُضيفَ إليهِ حَرْفُ العِلْمِ، ولم يُضَفْ حَرْفُ الإيقانِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في ذِكْرِ زَلّاتِ الرسلِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، والأصفياءِ في الكتابِ؟ وهو وَصَفَ نفسَهُ أنهُ غَفورٌ، وأنهُ سَتورٌ، وقد أمَرَنا بالتَّسَتُّرِ على مَنِ ارْتَكَبَ شيئاً مِنْ ذلكَ وبالغُفْرانِ والعَفْوِ، فكيفَ ذَكَرَ هو زَلّاتِ أنبيائِهِ وأصفيائِهِ حتى نَقْرأَ زَلّاتِهِمْ في المَساجدِ والمَكاتِبِ بأعلى صوتٍ إلى يومِ التَّنادي؟ وما الحكمةُ في ذِكْرِ ذلكَ؟

قالَ الشيخُ أبو منصورٍ محمدُ بنُ محمدٍ الفقيهُ ﷺ تُخَرَّجُ زَلّاتُ الأنبياءِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، في القرآنِ وتَرْكُ التَّسَتُّرِ عليهِمْ على وُجوهٍ:

أحَدُها: ذَكَرَها ليكونَ ذلكَ آيةً لرسالةِ محمدٍ ﷺ لأنَّ قلوبَ الخَلْقِ وأنفسَهُمْ [لا][3] تَحْتَمِلُ ذِكْرَ مَساوِئِ الآباءِ والأجدادِ، وكذلكَ لا تَحْتَمِلُ قلوبُهُمْ ذِكْرَ مَساوِئِ أنفسِهِمْ.

فإنْ ذَكَرَ رسولُ اللهِ ﷺ ذلكَ دلَّ على أنهُ أمْرٌ مِنَ اللهِ ﷻ بِذِكْرِ ذلكَ لِيَعْلَمَ الناسُ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأنهُ عن أمْرٍ منه ذَكَرَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ذَكَرَ زَلّاتِهِمْ امْتِحاناً منهُ عبادَهُ أنْ كيفَ يُعاملونَ رُسُلَهُمْ بَعدَ ما عَرَفوا منهُمُ الزَّلّاتِ، وأظْهَرَ عنهُمُ العَثَراتِ، وكيفَ يَنْظُرونَ بعينِ الرحمةِ والرأفةِ. يَمْتَحِنُهُمْ بذلكَ على ما امْتَحَنَهُمْ بسائرِ أنواعِ المِحَنِ.

والثالثُ: ذَكَرَ زَلّاتِهِمْ[4] لِيَعْلَموا؛ أعني الخَلْقَ، كيفَ عامَلوا ربَّهُمْ عندَ ارْتِكابِهِمُ الزَّلّاتِ والعَثَراتِ، فَيُعامِلونَ ربَّهَمْ عندَ ارْتِكابِهِمْ ذلكَ على ما عامَلَهُ الرسلُ بالبكاءِ والتَّضَرُّعِ والفَزَعِ إليهِ والتوبةِ عنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ][5]: ذَكَرَها لِيُعْلَمَ أنَّ ارْتِكابَ الصغائرِ لا يُزيلُ الوَلايةَ [عنهُ][6] ولا يُخرِجُهُ مِنَ الإيمانِ.

وذلكَ على الخَوارِجِ بِقولِهِمْ: إنَّ مَنِ ارْتَكَبَ صَغيرةً أو كَبيرةً خَرَجَ مِنَ الإيمانِ.

[والخامسُ][7]: أن يكونَ ذَكَرَها[8] لِيُعْلَمَ أنَّ الصغيرةَ ليسَتْ بمَغْفورةٍ، ولكنْ لهُ أنْ يُعَذِّبَ عليها.

وليسَ على ما قالتِ المعتزلةُ أنْ ليسَ للهِ أنْ يُعَذِّبَ أحداً على الصغيرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وزَلّاتُ الأنبياءِ ﷺ مِنَ الصغائرِ في [حقِّهِمْ لِقيامِ النَّهْيِ، وإنْ كانَتْ مُباحةً في نفسِها في حقِّ غَيرِهِمْ، وهي تركُ الأفضلِ، ثم خافَ الأنبياءُ ﷺ على ذلكَ][9] فلولا أنهمْ عَرَفوا أنَّ اللهَ تعالى لهُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ عليها، وإلّا لم يَخافوا منها على[10] ما ذَكَرَ منهُمْ.

(١) في الأصل وم: يبغون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: منهم. (٥) في الأصل وم: أو أن يكون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: ذلك. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أوب الناس فخافوا عليها. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كل.

يُذكَرُ عنِ الحَسَنِ أنَّ داوُدَ جَزَّأَ الدهرَ أجزاءً: يوماً لنسائِهِ ويوماً لِعبادةِ ربِّهِ ويوماً [لِلْقضاءِ بَينَ][1] بَني إسرائيلَ ويوماً لِعُبّادِ بَني إسرائيلَ [يُذَكِّرُهُمْ][2] ويُذَكِّرونَهُ، ويُبْكيهِمْ، ويُبْكونَهُ. فلمّا كانَ يومُ بَني إسرائيلَ ذَكَروا، فقالوا: هل يأتي على الإنسانِ يومٌ لا يُصيبُ بِهِ ذنباً؟ فأضمَرَ داوُدُ في نفسِهِ أنهُ يُطيقُ ذلكَ، قالَ: فلمّا كانَ يومُ عبادتِهِ غَلَّقَ أبوابَهُ، وأمَرَ ألّا يدخُلَ عليهِ، أحدٌ، فأكَبَّ على الزَّبورِ يَقرَؤُها، فابْتُلِيَ بما ذَكَروا. قالَ: ولِذلكَ سُمِّيَ أوّاباً، واللهُ أعلَمُ.

وابْنُ عباسٍ وهؤلاءِ قالوا: إنهُ كانَ لهُ تِسْعٌ وتِسْعونَ امرأةً، فكانَ يكونُ عندَ كلِّ امرأةٍ يوماً، فإذا كانَ رأسُ المئةِ يَفرُغُ للعبادةِ. ففي ذلكَ اليومِ أصابَهُ ما أصابَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ ﷻ ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي غالَبَني في الكلامِ، أرادَ إذا تَكَلَّمَ أنْ يكونَ أبْيَنَ مني، وإذا دَعا، ودَعَوتُ [أنْ يكونَ][3] أكْرَمَ مني، أو [إذا][4] ما مِلْتُ يكونُ أعرَضَ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي زَلَّتَهُ التي كانَتْ منهُ وعثرَتَهُ. وما يقولُ أهلُ التأويلِ: ربُّهُ أوحَى إليهِ أني غَفَرْتُ لكَ، لكنْ لابدَّ أنْ يَتَعَلَّقَ بكَ أوريا في رؤوسِ الخلائقِ، ثم أسْتَوهِبُكَ منهُ، وأعَوِّضُ[5] كذا.

فذلكَ ممّا لا يقولُ بهِ، ولا يُعْلَمُ ذلكَ، ولا يَصِحُّ ذلكَ، ولا يَسْتَقيمُ على ما ذَكَرْنا نحنُ: أنه لم يكُنْ منهُ لأوريا ما يَلْحَقُهُ ما يَذْكرونَ، إنما أمَرَهُ بِمُجاهَدَةِ أعداءِ اللهِ، وكانَ لهُ أنْ يأمُرَ. إلّا أنهُ عُوتِبَ لأنَّ الأنبياءَ ﷺ كانوا يُعاتَبونَ بأدْنَى شيءٍ كانَ منهمْ، ويُعَيَّرونَ على ذلكَ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، وقد عَرَفْنا أنهُ كانَ منهُ شيءٌ عُوتِبَ عليهِ، ثم عَلِمْنا أنَّ ربَّهُ غَفَرَ لهُ بقولِهِ ﷻ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

فأمّا ما سِوَى ذلكَ الذي ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ فَلَا نَعْرِفُهُ. فإنْ صَحَّ شيءٌ منهُ فيُقالُ بهِ، وإلّا التَّرْكُ أولَى بهِ وأسْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في باقي عُمُرِهِ ما يُزْلِفُهُ لَدينا، أو يُقَرِّبُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أو أنْ يكونَ لهُ زُلْفَى عندَهُ في الآخِرَةِ، أي لهُ زُلْفَى عندَهُ في الآخِرَةِ أي لهُ كرامَةٌ ومَنْزِلَةٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في جملةِ الأرضِ مِنَ الرسلِ والأنبياءِ والملوكِ وغَيرِهِمْ على الشريفِ والوَضيعِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في الرسلِ خاصّةً.

وكِلا التأويلَينِ يَرْجِعانِ إلى واحدٍ. إلّا أنَّ أحَدَهما يرجِعُ إلى العامّةِ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ثم لم يَنْهَهُ عَنْ هَوَى النَّفْسِ ولكنْ نَهاهُ عنِ اتِّباعِ هَواها؛ إذِ النفسُ قد تَهْوَى في الحُكْمِ بِغَيرِ حقٍّ حينَ[6] قالَ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ لأنَّ النَّفْسَ أُنْشِئَتْ على الهَوَى والمَيلِ إلى اللَّذّاتِ والشَّهَواتِ / ٤٦٠ ـ ب/ وعلى ذلكَ طُبِعَتْ، فيكونُ في هَواها إلى ما تَهْوى مَدْفوعاً غَيرَ مالكٍ ولا قادرٍ على دَفْعِهِ. لِذلكَ لم يَنْهَهُ[7] عنْ هَواها، ولكنْ نَهاهُ عنِ اتِّباعِ هَواها. ويَقْدِرُ على مَنْعِها بالعقلِ ورَدِّها إلى اتِّباعِ الحقِّ. لِذلكَ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذَكَرَ أنهُ لو اتَّبَعَ هَواها، إذا اتَّبَعَهُ المَرْءُ، أضَلَّهُ عنْ سَبيلِهِ. لكنهُ إذا اتَّبَعَهُ في شيءٍ بعدَ شيءٍ يَحْمِلُهُ على الإضلالِ عنْ سَبيلِهِ؛ إذْ مَنْ ضَلَّ عنْ سَبيلِهِ إنما يَضِلُّ لِاتِّباعِهِ هَواهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] أخبَرَ أنَّ مَنِ اتَّخَذَ إلهاً دونَهُ إنما اتَّخَذَهُ بِهَواهُ لا بِحُجَّةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي تَرَكوا الأعمالَ التي تُعْمَلُ لِيومِ الحسابِ، أو ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ أي تَرَكوا الإيمانَ بهِ والإقرارَ، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: لقضاء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو عوض.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ينه.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ الباطلُ هو الفِعْلُ الذي يُذَمُّ عليهِ [فاعِلُهُ](١). والحَقُّ هو الذي يُحْمَدُ عليهِ فاعِلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ لم يَظُنَّ أحدٌ مِنَ الكَفَرَةِ أنَّ اللهَ خَلَقَ شيئاً باطلاً، لكنْ يكونُ خَلْقُ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنَ الأصلِ مَخلوقاً باطلاً على ما عِندَ أولئكَ الكَفَرَةِ وفي حُسْبانِهِمْ؛ لأنَّ عِندَهُمْ أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ بَعدَ ما يَموتونَ(٢).

[وكانَ](٣) خَلْقُ ذلكَ كلِّهِ لو لم يكُنْ بَعْثٌ ولا نُشورٌ خَلْقاً باطلاً لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ لو لم يكُنْ بَعْثٌ لَحَصَلَ إنشاؤُهُ إياهُمْ لِلْفَناءِ خاصَّةً. وإنشاءُ الشيءِ وبناؤُهُ لِلْفَناءِ خاصةً لا لِعاقِبةٍ تُقْصَدُ عَبَثٌ باطلٌ سَفَهٌ كقولِهِ ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] إلى آخِرِ الآيةِ، صَيَّرَ خَلْقَهُ إيَّاهُمْ إذا لم يكُنْ رجوعٌ إليهِ عَبَثاً. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

والثاني: أنهُ لو لم يكُنْ بَعْثٌ لَكانَ خَلْقُهُمْ غَيرَ حكمةٍ، لأنهُ قد جَمَعَهُمْ جميعاً في هذهِ(٤) الدنيا ولَذّاتِها [ولم يُفَرِّقْ بينَ](٥) الوَلِيِّ والعَدُوِّ. وفي الحكمةِ التَّفريقُ والتَّمْييزُ بينَهما. فلو لم تَكُنْ دارٌ أُخرَى لِتُفَرِّقَ بينَهما لكانَ في خَلْقِهِمْ غيرَ حكيمٍ.

ثم يقولُ قَتادَةُ في قولِهِ ﷻ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قولِهِ ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ يقولُ: لم يَذْكُرِ اللهُ ﷻ مِنْ شَأْنِ داوُدَ ﷺ ما ذَكَرَ إلّا أنْ يكونَ داوُدُ قَضَى نَحْبَهُ مِنَ الدنيا على طاعةِ اللهِ والعَمَلِ [بِما يُرْضي اللهَ](٦) والعَدْلِ في ما وَلّاهُ اللهُ ﷻ ولكنَّ اللهَ تعالى وَعَظَ نَبِيَّهُ ﷺ، والمؤمنينَ مَوعِظَةً بَليغَةً شافيَةً، لِيُعْلِمَ [أنَّ مَنْ وَلِّيَ مِنْ هذا الحُكْمِ](٧) شيئاً أنهُ ليسَ بَينَ اللهِ وبَينَ العبادِ سَبَبٌ يُعْطِيهِمْ خيراً، ولا يَدْفَعُ عنهمْ بهِ شَرّاً إلّا بطاعةِ اللهِ والعملِ بما يُرْضِي.

وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي [جَعَلْنا لكَ](٨) الخِلافةَ في ما ذَكَرْنا.

الآية ٢٨ وقولُهُ ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ كانَ ظَنُّهُمْ أنْ لا بَعْثَ ولا نُشورَ.

فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنهُ لو كانَ على ما ظَنَّ أولئكَ الكَفَرَةُ أنْ لا بَعْثَ لكانَ في ذلكَ جَعْلُ الذينَ آمنوا، وعَمِلوا الصالحاتِ في هذهِ الدنيا كالمُفْسِدينَ في الأرضِ، وجَعْلُ المُتَّقينَ كالفُجّارِ؛ إذْ قد سَوَّى بينَهُمْ في هذهِ الدنيا وجَمَعَهُمْ في لَذّاتِ هذهِ الدنيا وشَهَواتِها وفي حَسَناتِها وسَيِّئاتِها. وفي الحكمةِ التفريقُ بَينَهُمْ(٩) والتمييزُ، وقد سَوَّى بَينَهُمْ(١٠) في الدنيا [على](١١) ما ذَكَرْنا مِنْ جَمْعِهِمْ في المِحْنَةِ بالخَيرِ والشَّرِّ.

فلو كانَ على ما ظَنَّ أولئكَ أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ لكانَ ذلكَ جَمْعاً(١٢) وتَسْوِيَةً بينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ. وفي الشاهِدِ مَنْ سَوَّى بَينَ مَنْ عاداهُ وبَينَ مَنْ والاهُ، وجَمَعَ بينَهُمْ في البِرِّ والجَزاءِ كانَ سَفيهاً غَيرَ حكيمٍ.

فَعَلَى ذلكَ اللهُ، سُبْحانَهُ، لو لم يَجْعَلْ داراً أُخرَى يُفَرِّقُ بَينَهُمْ(١٣) فيها كانَ غَيرَ حكيمٍ، إذْ قد سَوَّى بَينَهُمْ(١٤) وجَمَعَ، تعالى اللهُ، ﷻ عما يَقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: يجبُ أنْ يُفَرِّقَ بَينَهُمْ(١٥) في الدارَينِ جميعاً في الدنيا والآخِرَةِ، وقد فَعَلَ حيثُ سَمّى هؤلاءِ ضُلّالاً وهؤلاءِ مؤمنينَ، وخَذَلَ الكُفّارَ، وأذَلَّهُمْ، وَوَفَّقَ المؤمنينَ، وأعَزَّهُمْ، وهو قولُ المعتزلةِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ماتوا. (٣) في الأصل وم: مكان. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: بعثهم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: به. (٧) في الأصل وم: من ولي هذا يحكم. (٨) في الأصل وم: جعلناك. (٩) في الأصل وم: بينهما. (١٠) في الأصل وم: بينهما. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: جمع. (١٣) في الأصل وم: بينهما. (١٤) في الأصل وم: بينهما. (١٥) في الأصل وم: بينهما.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: لا يجبُ ذا في الآخِرةِ لأنَّ الدنيا مِحْنَةٌ وابتِلاءٌ؛ يُمتَحَنُ الفريقانِ جميعاً بالخيرِ مَرّةً والشَّرِّ ثانياً وبالحَسَنةِ تارةً وبالسَّيِّئةِ أُخرى. ما أخبرَ حينَ[1] قالَ ﷻ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وذكَرَ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] أخبرَ ﷻ أنهُ يَمتَحِنُهُمْ، ويَبْتَليهِمْ بالخيرِ والشَّرِّ وبالسَّيِّئةِ والحَسَنةِ، وذلكَ للفريقَينِ جميعاً على ما ذَكَرْنا مِنْ جَمْعِهِ إياهُمْ جميعاً في الحالَينِ. فإنما هي مَجعولةٌ لِلْجزاءِ خاصّةً. فهنالكَ يَقَعُ التفريقُ والتَّمْييزُ بَينَهما لا في ما فيهِ المحنةُ والابْتِلاءُ.

وأمّا قولُهُمْ: إنهُ فَرَّقَ [بَينَهُمْ حينَ][2] سَمّى هؤلاءِ ضُلّالاً وهؤلاءِ مؤمنِينَ، وخَذَلَ هؤلاءِ، ووفَّقَ أولئكَ، فليسَ ذلكَ بتَفريقٍ بَينَهُمْ[3] لأنهُ إنما سَمّاهُمْ ضُلّالاً كَفَرَةً بِفِعْلِهِمُ الذي اختاروهُ، وصَنَعوا [أمراً آثَروهُ على غَيرِهِ][4]. فإنما هو تَسميَةُ فِعْلِهِمْ لا جَزاءٌ [يُجْزَونَ عليهِ][5] واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ دلالةُ لزومِ الحُجّةِ والوَعيدِ على الظَّنِّ والجَهْلِ، وإنْ لم يَتَحقَّقْ لهمُ العِلْمُ بذلكَ [بعدَ أنْ مَكَثوا جُهلاءَ، وقد جَعَلَ][6] لهمْ سَبيلَ الوصولِ إلى معرفةِ ذلكَ.

وإنما لَزِمَهُمْ ذلكَ الوعيدُ والحُجّةِ بِما هُمْ صَنَعوا لِمَعْرِفةِ ذلكَ والعِلْمِ بها لأنهمْ لو تأمّلوا فيهِ، ونَظَروا لَوَقَعَ لهمْ عِلْمُ ذلكَ، لكنهمْ تَرَكوا عِلْمَ ذلكَ، وضَيَّعوهُ[7]، فلم يُعْذَروا في ذلكَ.

وعلى ذلكَ يقولُ في القدرةِ أو مَنْ مُنِعَتْ عنهُ القدرةُ، أو حِيلَ بَينَهُ وبَينَها، كانَ غيرَ مُكلَّفٍ بها ولا مُخاطَباً مَعْذوراً، ومَنْ لم تُمنَعْ عنهُ، ومُكِّنَ [مِنْ][8] ذلكَ، إلّا أنهُ تركَ العَمَلَ بهِ، كانَ مُكلَّفاً بِهِ غَيرَ مَعْذورٍ، لأنهُ هو الذي ضَيَّعَ[9] ذلكَ، وتَرَكَهُ بالاختيارِ، والأوّلُ غيرُ مُضيِّعٍ لها ولا تاركٍ. لِذلكَ أَمِرَ. وذلكَ على المعتزلةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ سَمّاهُ مُباركاً لأنَّ مِنَ اتَّبَعَهُ، وتَمَسَّكَ بهِ، وعَمِلَ بما فيهِ، صارَ شريفاً مذكوراً عندَ الناسِ عظيماً في أعْيُنِهِمْ وقُلوبِهِمْ. وذلكَ [عَمَلُ][10] المبارَكِ؛ أنْ يَنالَ [بهِ][11] كلَّ بِرٍّ وخيرٍ، ويكونُ[12] أبداً على الزِّيادةِ والنَّماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أخبَرَ أنهُ أنزلَهُ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لِيَعْرِفوا ما لَهُمْ وما عليهِمْ وما يُؤتى وما يُتَّقى. إنما يُعْرَفُ ذلكَ بالتَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ. . .

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لِيَتَّعِظَ أولو الألبابِ ممّا فيهِ مِنَ المَواعظِ والآدابِ وغيرِ ذلكَ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أثنى اللهُ ﷻ على داوُدَ وابنِهِ سليمانَ، عليهما الصلاةُ والسلامُ، بالأوبَةِ إليهِ والرجوعِ، وهو ما قالَ ﷻ في داوُدَ ﵇ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] [فَسَّرَ لنا][13] الأوّابَ، وقالَ[14] في سليمانَ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

الآية ٣١ [وقالَ][15]: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

دلَّ ذِكْرُ قولِهِ ﷻ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على إثْرِ قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أنهُ إنما كانَ أوّاباً بالذي ذَكَرَ عنهُ، لأنَّ حَرْفَ: إذْ لا يُذْكَرُ إلّا عَنْ شيءٍ سَبَقَ.

ويُسَمّي ﷻ داوُدَ ﵇ أوّاباً بما ذُكِرَ مِنْ تسبيحِهِ ﴿بِٱلْعَشِىِّ/ ٤٦١ ـ أ/ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] والفَزَعِ إليهِ بما هو بهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: بينهما حيث. (٣) في الأصل وم: بينهما. (٤) في الأصل وم: أو أمراً أثره على غير. (٥) في الأصل وم: يخرجون. (٦) في الأصل وم: أ، مكثوا من العلم وجعل. (٧) في الأصل وم: وصنعوه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وصنع. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فسرنا. (١٤) في الأصل وم: فقال. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ قيلَ: الصافِناتُ، وهي[١] الخيلُ. وقالَ بعضُهُمْ: الصافِناتُ، هنَّ القائماتُ على ثلاثِ قوائِمَ، رافعاتٌ إِحْدَى الرجلَينِ أو إِحْدَى اليَدَينِ، على طرَفِ الحافِرِ. وقالَ بعضُهُمْ: الصافِناتُ، هنَّ القائماتُ لا غيرُ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ تَمَنَّى أنْ يَقومَ لهُ الرجالُ صُفوفاً» أي قياماً «فلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ» [بنحوه الترمذي ٢٧٥٥] أو كلامٌ نَحْوُهُ.

والجيادُ: قيلَ: السِّراعُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ دلَّ ما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الصافناتِ الجِيادِ بالعَشِيِّ على أنّ قولَهُ ﷻ: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ إنما أرادَ بهِ توارِيَ الشمسُ بالحِجابِ، إذْ ليسَ شيءٌ يَتوارى بالحِجابِ في ذلكَ الوقْتِ سِوَى الشمسِ.

ثم قولُهُ: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [يَحتمِلُ وجهَينِ]:

أحَدُهُما: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾][٢] حتى شَغَلَني ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ إذِ المَحَبَّةُ يَجوزُ أنْ يُكَنَّى بها عنِ الإيثارِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ حُبّاً حتى شَغَلَني الخيرُ ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ توارَتِ الشمسُ بالحِجاب على التقديمِ والتأخيرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ يجوزُ أنْ يُكَنّى الخَيرُ عنِ الخَيلِ نفسِهِ على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ. «الخيلُ مَعْقودٌ في نَواصِيها الخَيرُ إلى يومِ القيامةِ» [البخاري: ٣٦٤٤] سَمّى الخيلَ خيراً. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ واللهُ أعلَمُ. وقالَ بعضُهُمْ: صَفوفُها: قيامُها، وبَسْطُها قوائِمَها.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: أي جَعَلَ يَعْقِرُ سُوقَ الخيلِ، ويَضْرِبُ أعناقَها، و السُّوقُ هي جماعةُ الساقِ؛ لمّا شَغَلَتْهُ عنْ ذِكْرِ ربِّهِ، وهي صلاةُ العصرِ، حتى غَفَلَ عنها، فَجَعَلَ يَقْطَعُ سُوقَها[٣]، ويَضْرِبُ أعناقَها كفّارةً عمّا شُغِلَ عنْ ذِكْرِ ربِّهِ.

ثم إنْ ثَبَتَ ما ذَكَروا مِنْ عَقْرِ السُّوقِ [وضَرْبِ][٤] الأعناقِ أنهُ على الحقيقةِ، فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ كانَ ذلكَ في شريعتِهِ جائزاً[٥]، وإنْ كانَ في شريعَتِنا لا يجوزُ، نَحْوُ ما ذُكِرَ عنهُ مِنْ [تَوَعُّدِ الهُدْهُدِ بالتعذيبِ][٦] حينَ تَفَقَّدَهُ، ولم يَجِدْهُ حينَ[٧] قالَ ﷻ ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ الآية[النمل: ٢٠و٢١].

فَمِثْلُهُ: لا يجوزُ تعذيبُ الطيرِ في شَريعَتِنا. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما [ذُكِرَ عنهُ مِنْ عَقْرِ سُوقِ][٨] الخيلِ وضَرْبِ الأعناقِ، لهُ جائزٌ، وإنْ كانَ ذلكَ لا يجوزُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][٩]: أنْ يكونَ ذلكَ منهُ قَبْلَ النَّهْيِ عَنِ القَتْلِ، ثم جاءَ النَّهْيُ عنهُ بعدَ ذلكَ، فَحَرَّمَ[١٠] عليهِ ذلكَ وعلينا جميعاً.

وجائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ على غيرِ حقيقةِ عَقْرِ السُّوقِ وضَرْبِ الأعناقِ. ولكنْ ما ذُكِرَ مِنَ الأعناقِ يكونُ كِنايةً عنِ الذبحِ، وقولُهُ ﷻ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ كِنايةً عنِ التسليمِ إلى الناسِ، أو أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ المَسْحِ بالسُّوقِ والأعناقِ كِنايةً عنْ مَسْحِ وَجهِها ورأسِها بَعْدَ ما رَدُّوها عليهِ[١١] مِنْ غَيرِ أنْ كانَ هنالكَ عَقْرٌ أو ذَبْحٌ أو كَفّارةٌ عمّا غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ ربِّهِ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ساقها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: جائز. (٦) في الأصل: تعذيب، في م: تعذيب الهدهد وغيره. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل: ذكرا من عقر، في م: ذكروا من عقر. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: فخرج. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: والتسليم إلى الناس.

قالَ الحَسنُ: قالَ سليمانُ ﷺ واللهِ لا يَشْغَلُني عَنْ عِبادةِ ربِّي أحدٌ [بَعْدَكِ، وكَسَفَ][1] عراقيبَها، وضَرَبَ أعناقَها.

ثم اخْتُلِفَ في تلكَ الخيلِ التي عُرِضَتْ عليهِ، فَشَغَلَتْهُ عنْ ذِكْرِ اللهِ، فَفَعَلَ ما ذُكِرَ؛ قالَ بعضُهُمْ: إنها خُيولٌ أخرَجَها الشياطينُ مِنْ مُروجِ البَحْرِ لِسُليمانَ ﷺ لها أجْنِحَةٌ تَعْدو، وتطيرُ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ كانَتْ خَيلاً، وَرِثَها عنْ أبيهِ داوُدَ، وكانَ داوُدُ ﷺ أصابَها مِنَ العَمالِقةِ، وقالوا[2]: وما بَقِيَ اليومَ في أيدي الناسِ مِنَ الخَيلِ [فهو نَسْلُ بَقِيَّةِ تلكَ الخيلِ][3] واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ أهلُ دمشقَ مِنَ العربِ وأهلُ نَصيبينَ جَمَعوا جُموعاً لِسُليمانَ ﷺ فأصابَ منهُمْ ألفَ فَرَسٍ غُرّاتٍ، فَعُرِضَتْ عليهِ الخَيلُ حتى شَغَلَتْهُ عنْ ذِكْرِ ربِّهِ، فَفَعَلَ ما ذُكِرَ مِنْ قَطْعِ العَراقيبِ وضَرْبِ الأعناقِ، واللهُ أعلَمُ.

وعَنِ الحَسَنِ في قولِهِ: ﷻ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قولُهُ[4]: كَسَفَ عَراقيبَها، وضَرَبَ أعناقَها، فأبْدَلَهُ اللهُ خَيراً منها وأسْرَعَ [وهي][5] ﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦].

قالَ أبو معاذٍ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ تقولُ العربُ: مَسَحَ عِلاوَتَهُ[6] بالسيفِ مَسْحاً، أي ضَرَبَها.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي فأقبَلَ يَمْسَحُ: يَضْرِبُ سُوقَها وأعناقَها.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَطَفِقَ﴾ أي أخَذَ، وجَعَلَ يَمْسَحُ، أي يقطَعُ [﴿مَسْحًا﴾][7] يُقالُ: مَسَحَ عُنُقَهُ، أي قطعَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يُقالُ: هي القائمةُ على ثلاثِ قوائِمَ، وقد قامَتِ الأُخرَى على طَرَفِ الحافرِ مِنْ يَدٍ كانَ أو رجلٍ. والصافِنُ في كلامِ العربِ: الواقِفُ مِنَ الخَيلِ وغَيرِها على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَقومَ لهُ الرجالُ صُفوفاً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ» [بنحوه الترمذي٢٧٥٥] أي يُديمونَ لهُ القيامَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجِيادُ مِنَ الخَيلِ السِّراعُ، والواحدُ جوادٌ، ورجلٌ جوادٌ، أي سَخِيٌّ، وجَمْعُهُ أجوادٌ، ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي آثَرْتُ الخَيرَ أي المالَ ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: أي ألْهاني ﴿حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي شَغَلَني.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في سَبَبِ فِتْنَةِ سليمانَ ﷺ الذي ذَكَرَ [اللهُ ﷻ أنهُ][8] فَتَنَهُ، وأنهُ ألْقَى على كُرْسِيِّهِ جَسَداً، اخْتِلافاً كثيراً بيِّناً، يطولُ[9] الكِتابُ بِذِكْرِ كلِّ ما ذَكَروا، ولا نَدري أكانَ ذلكَ سَبَبَ افْتِتانِهِ أمْ غَيرُهُ[10]؟ مع عِلْمِنا أنَّ ذلكَ كلَّهُ لم يكُنْ سَبَبَ فِتْنَةٍ، إنْ كانَ، فإنما كانَ [واحداً][11] منها. ولا نَدري ما هو؟ لِذلكَ تَرَكْنا ذِكْرَ ما ذَكَرَ أولئكَ أنهُ كانَ سَبَبَ افْتِتانِهِ. ثم يُخَرَّجُ قولُهُ ﷻ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ على وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ امْتُحِنَ بأمرٍ، فكانَ منهُ في ذلكَ زَلَّةٌ وغَفْلَةٌ. فَعُوتِبَ بما ذَكَرَ، وعُوقِبَ بِنَزْعِ مُلْكِهِ.

والثاني: أنهُ فَتَنَهُ، وامْتَحَنَهُ بِنَزْعِ مُلْكِهِ منهُ لا بِزَلَّةٍ منهُ ولا عَثْرَةٍ، وصَرَفَهُ إلى غَيرِهِ لا بِسَبَبٍ كانَ منهُ وزَلَّةٍ، وجَعَلَهُ[12] لِغَيرِهِ.

ثم إنْ كانَ يَنْزِعُ المُلْكَ منهُ بأدنى سَبَبٍ كانَ منهُ وزلَّةٍ، فَعُوتِبَ، فَلِأنَّ[13] الأنبياءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، كانوا مخصوصِينَ بالعِتابِ والتَّعْييرِ بأدنى شيءٍ يكونُ منهمْ مِمّا يُعَدُّ ذلكَ الذي كانَ منهمْ مِنْ أفْضَلِ الأعمالِ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما عليك ولكن كشف. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غلاف. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أنه ﷻ. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ويجعله. (١٣) الفاء ساقطة من الأصل وم.

ثم كانَ منهمْ مِنَ التَّوبَةِ والتَّضرُّعِ إلى اللهِ ﷻ بالذي كانَ منهمْ لِما عَرَفوا لأنفسِهمُ الخُصوصِيَّةَ لهمْ مِنَ الكراماتِ والفَضائِلِ التي خُصُّوا بها، فرَأوا على أنفسِهِم بِما أُكرِموا مِنْ أنواعِ الكَراماتِ والفَضائِلِ التي خُصُّوا هم بها مِنَ التَّوبَةِ للهِ وفَضْلِ التَّضرُّعِ والابْتِهالِ إلى اللهِ لِما رَأوا ما ارْتَكَبوا كُفراناً لهُ في ما أنْعَمَ عليهِمْ، وأحْسَنَ إليهِمْ، فَضْلُ تَضرُّعٍ [وابْتِهالٌ ما][(١)] لا يَلْزَمُ ذلكَ غَيرَهُمْ في مِثْلِ ما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كُرْسِيُّهُ مُلْكَهُ، فيكونُ ما ذَكَرَ كِنايَةً عنْ نَزْعِ مُلْكِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ إلقاءِ الجَسَدِ على كُرْسِيِّهِ حقيقةَ الكرسِيِّ؛ أَلْقَى عليهِ جَسَداً، يُشْبِهُ جَسَدَ سليمانَ في الجِسْمِيَّةِ لا في العِلْمِ والمَعْرِفَةِ والبَصَرِ وما كانَ فيهِ مِنَ الكَراماتِ كقولِهِ ﷻ: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨] أي عِجْلاً مُجَسَّداً في الجَسَدِيَّةِ لا أنهُ[(٢)] جَسَدُ العِجْلِ المَعْروفِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ / ٤٦١ - ب/ يُشْبِهُ جَسَدَ سُليمانَ في الظاهِرِ في الجَسَدِيَّةِ لا في أنَّ جَسَدَهُ كَجَسَدِ سليمانَ في ما فيهِ مِنَ العِلْمِ والبَصَرِ وغَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ إلى اللهِ تعالى، ورَجَعَ إليهِ بجميعِ أمورِهِ، لأنْ[(٣)] كانَ منهُ زَلَّةٌ وعَثْرَةٌ [فتابَ عليهِ][(٤)].

[والثاني: أي نابَ إلى المُلْكِ، أي رَجَعَ المُلْكُ إليهِ بَعْدَ أنْ كانَ نُزِعَ منهُ][(٥)] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ يَحْتَمِلُ سُؤالُهُ المَغْفِرَةَ عندَ سُؤالِهِ المُلكَ أمْراً في ما بينَهُ وبَينَ ربِّهِ لأنَّ المُلْكَ مِمّا يُتَلَذَّذُ بِهِ، وفيهِ هَوَى النفسِ.

وعلى ذلكَ خَرَجَ سُؤالُ زَكَرِيّا ﷺ لَمّا سألَ ربَّهُ ﷻ الوَلَدَ، سألَ أمْراً بَينَهُ وبَينَ ربِّهِ في ذلكَ، وهو ما قالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]. وكذلكَ خَرَجَ سُؤالُ الأنبياءِ في ما سألوا ممّا فيهِ اللذَّةُ وهَوَى النفسِ مِنَ الوَلَدِ وغَيرِهِ. قَرَنوا في ذلكَ السؤالِ أمْراً بَينَهُمْ وبَينَ ربِّهِمْ. فَعَلَى ذلكَ سُؤالُ سُليمانَ ﷺ المُلْكَ، قَرَنَهُ بالمَغْفِرَةِ في ذلكَ.

ثم يَحْتَمِلُ سُؤالُهُ المَغْفِرَةَ نفسَها عمّا يكونُ منهُ مِنَ التَّقصيرِ في ذلكَ، أو يكونُ سُؤالُهُ المَغْفِرَةَ لا نَفْسَ المَغْفِرَةِ نَحْوَ قولِ نوحٍ ﷺ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] وقولِ هودٍ ﷺ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] لا يَحْتَمِلُ أنْ يَأمُروا قومَهُمْ أنْ قولوا: نَسْتَغْفِرُ اللهَ، لكنْ أمَروهُمْ أنْ يأتوا بالأسبابِ التي بها يَصيرونَ أهلاً لِلْمَغْفِرَةِ، وبها يَسْتَوجِبونَ التَّجاوُزَ. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ سُؤالُ المَغْفِرَةِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ سؤالُ المَغْفِرَةِ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ أرادَ أنْ يَسْتَسْلِمَ لهُ الخَلْقُ في الإجابَةِ إلى ما يَدْعو إليهِ مِنْ وَحْدانِيَّةِ اللهِ تعالى وجَعْلِ العِبادةِ لهُ لِما رَأى أنَّ إجابَةَ الناسِ وإقبالَهُمْ إلى ما عندَهُ مِنَ السَّعَةِ والغِنَى أسْرَعُ ولِقولِهِ أقْبَلُ ورَغْبَتِهِمْ فيهِ أكْثَرُ.

وإذا كانَ ما ذَكَرْنا، وهو مُتَعارَفٌ في ما بَينَهُمْ، أنَّ إجابَتَهُمْ، أعني إجابَةَ الناسِ للملوكِ ولِمَنْ عندَهُ السَّعَةُ والغِنَى أسْرَعُ لهمْ وأطْوَعُ. فكانَ في سؤالِهِ المُلكَ لهُ نَجاةُ الخَلْقِ كلِّهِمْ بما يَسْتَسْلِمونَ لهُ، ويُجيبونَهُ[(٦)] إلى ما يَدْعُوهُمْ إليهِ، فَيَنْجونَ نَجاةً لا هَلاكَ بَعْدَها[(٧)]، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنهُ سألَهُ مُلْكا لا يُنْزَعُ عنهُ بعدَ أنْ نُزِعَ مَرَّةً على ما يقولُ أهلُ التأويلِ.

والثاني: أنهُ سألَ ربَّهُ مُلْكاً لا يكونُ لأحدٍ ما بَقِيَ هو حَيّاً، فيكونُ لهُ آيَةً لِنُبُوَّتِهِ، على أنهُ لِنُبُوَّتِهِ على ما ذَكَرْنا لو كانَ مِثْلُهُ لأحدٍ منهمْ لم يَكُنْ لهُ في ذلكَ آيَةٌ لِنُبُوَّتِهِ.

(١) من م، في الأصل: وابتهاله. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وأناب ورجع وأقبل. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو تاب. (٦) في الأصل وم: ويجيبون. (٧) في الأصل وم: بعده.

والثالثُ: أنهُ سألَهُ مُلْكاً لِيَبْقَى لهُ الذِّكْرُ والثناءُ الحَسَنُ [كقولِهِ ﷺ][(1)]: «اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صَلَّيْتَ [على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمدٍ كما][(2)] بارَكْتَ على إبراهيمَ [وعلى آلِ إبراهيمَ»][(3)] [البخاري ٣٣٧٠] ونَحْوَهُ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ سليمانُ ﷺ أرادَ أنْ يكونَ مَذْكوراً على ألْسُنِ الخَلْقِ بالثَّناءِ الحَسَنِ بالملكِ الذي سألَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ بيَّنَ ما أعطاهُ مِنَ المُلْكِ بما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الريحِ لهُ والجنِّ والشياطينِ وغيرِ ذلكَ ما لم يكُنْ ذلكَ لأحدٍ من ملوكِ الأرْضِ سِواهُ. وهذا يدلُّ على أنَّ تَسْخيرَ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ أنهُ سَخَّرَها لِسُلَيمانَ ﷺ كانَ بِلُطفٍ مِنَ اللهِ ﷻ لا يكونُ ذلكَ [مِنَ الخلائقِ][(4)] إذْ لا يَمْلِكُ أحدٌ مِنَ الخلائقِ تَسْخيرَ[(5)] ما ذَكَرَ مِنَ الخَلْقِ لنفسِهِ، ولو كانَ يَمْلِكُ ذلكَ بالحَيلِ لكانَ يَعْتَني بذلكَ مع العِلْمِ أنَّ كلَّ مَلِكٍ لا يَتْرُكُ لنفسِهِ مِنَ الحَيلِ ما يَزيدُ في[(6)] مُلْكِهِ ويُبْقيهِ إلى ما يَبْقَى هو حيًّا. فإنْ لم يكُنْ دلَّ أنهُ إنما كانَ لِسُلَيمانَ ذلكَ باللهِ لُطْفاً منهُ ليكونَ آيةً مِنْ آياتِ النُّبُوَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ وَصَفَ تلكَ الريحَ باللِّينِ والرَّخْوَةِ في هذا الموضعِ، وقالَ في آيةٍ [أُخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبيا: ٨١] وصفَها بالشِّدَّةِ.

فجائزٌ أنْ تكونَ هي في أصلِ الخِلْقَةِ شديدةً، لكنها صارَتْ لِسُلَيمانَ ﷺ لَيِّنَةً سَهْلَةً، وقالَ قائلونَ: هي وقتُ الحَمْلِ شديدةٌ. لكنها تَصيرُ بالسَّيرِ لَيِّنَةً سَهْلَةً، واللهُ أعلَمُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿عَاصِفَةً﴾ على أعداءِ اللهِ ﴿رُخَآءً﴾ لَيِّنَةً على أوليائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في ما ذُكِرَ مِنْ جَرْيَةِ الريحِ بأمْرِهِ حيثُ أرادَ، وقَصَدَ، لُطْفُ[(7)] اللهِ ﷻ لِسليمانَ حينَ جعلَهُ بحيثُ تَفْهَمُ الريحُ مُرادَهُ، ويَفْهَمُ منها ما أرادتْ حتى كانَ يَسْتَعْمِلُها في ما شاءَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ نُطْقِ الطيرِ وكلامِ النملِ الذي ذَكَرَ، وتَفْهَمُ هي منهُ. فذلكَ كلُّهُ بِلُطْفٍ منهُ ورحمةٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي سَخَّرْنا لهُ الشياطينَ حتى يَسْتَعْمِلَهُمْ في ما شاءَ: بعضَهُمْ في البناءِ، وبعضَهُمْ في الغَوصِ في البَحْرِ لاسْتِخراجِ ما فيهِ مِنَ الأموالِ لِيَتَفَرَّغَ الناسُ لِعبادةِ اللهِ والخدمةِ، لا يكونُ لهمْ شُغْلٌ في البُنْيانِ ولا في مَؤُنَةِ أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ وآخرينَ، لم يُطيعوهُ في ما أمَرَهُمْ مِنَ الأعمالِ في البناءِ والغَوصِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ، جَعَلَهُمْ في الأصفادِ، وهي الأغلالُ، تُجْعَلُ في الأعناقِ لِيَدْفَعَ شَرَّهُمْ وسُوءَهُمْ عنِ الخَلْقِ حينَ[(8)] لم يُطيعوهُ في ما أمَرَهُمْ بالعَمَلِ لِلْخَلْقِ لِيَتَفَرَّغوا للعبادةِ.

وفيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ آيةٍ عجيبةٍ لِسُلَيمانَ ﷺ واللطفِ لهُ حينَ[(9)] مَكَّنَ لهُ من اسْتِعْمالِ ما ذَكَرَ مِنَ الجنِّ والشَّياطينِ والريحِ، وسَخَّرَ لهُ ذلكَ، لِيُعْلَمَ أنهُ إنما قَدَرَ على ذلكَ بِلُطْفٍ منهُ لا بالحَيلِ والأسبابِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هذا في الشياطينِ التي ذَكَرَ أنهُ سَخَّرَها لهُ في العَمَلِ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ في جَعْلِهِ إياهُمْ ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ خَيَّرَهُ بينَ أنْ يَمُنَّ على مَنْ يَشاءُ منهمْ، فَيُخَلِّيَ سبيلَهُ، وبينَ أنْ يُمْسِكَ مَنْ شاءَ منهمْ، فلا يُخَلِّيَ سَبيلَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ التَّخْييرُ في الشياطينِ وفي جميعِ ما أعطاهُ لهُ مِنَ المُلْكِ؛ يقولُ: إنْ شِئْتَ تَمُنُّ، فَتُعْطيهِ مَنْ شِئْتَ، وإنْ شِئْتَ أمْسَكْتَ، فلا تُعْطي أحداً شيئاً، ولا تَبِعَةَ عليكَ في ذلكَ الإعطاءِ ولا في الإمساكِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(1) في الأصل وم: كقولِ الناسِ. (2) في الأصل وم: و. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بالخيل. (5) في الأصل وم: تسخيرها. (6) في الأصل وم: من. (7) أدرج قبلها في الأصل وم: أو أن يكون قوله عز وجل. (8) في الأصل وم: حيث. (9) في الأصل وم: حيث.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على التَّخييرِ. ولكنِ امْتَحنَهُ[1] بالإعطاءِ لقومٍ والمَنْعِ عَنْ قومٍ، فيقولُ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ أي أعْطِ، وابْذُلْ لِمَنْ أُمِرْتَ، وامْتُحِنْتَ بالإعطاءِ مَنْ كانَ أهلاً لذلكَ، وامْسِكْ عَمَّنْ ليسَ هو بأهلٍ لذلكَ، ومَنْ لم تُؤْمَرْ بدفعِهِ إليهِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] أنْ ليسَ على التَّخييرِ، ولكنْ على تَعْذيبِ مَنْ هو أهلٌ للعذابِ مُسْتَحِقٌّ لهُ واتِّخاذِ الحُسْنِ في مَنْ كانَ أهلاً على ما بَيَّنَ في ذلكَ، وأظْهَرَ في الآيةِ حينَ[2] قالَ ﷻ: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٧و٨٨]. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﷻ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقولُ: هذا مُلْكُنا الذي أعطيناكَ، يقولُ: أَعْطِ منهُ ما شِئْتَ، وامْنَعْ منهُ ما شِئْتَ، لاتَبِعَةَ عليكَ فيهِ في الآخِرَةِ، وهو قريبٌ مِمَّا[3] ذَكَرْنا في أحدِ التأويلَينِ.

قالَ قَتادَةُ: احْبِسْ منهمْ مَنْ شِئْتَ في وَثاقِكَ وعذابِكَ، وسَرِّحْ منهمْ مَنْ شِئْتَ، لا حِسابَ عليكَ في ذلكَ. وهو قريبٌ مِمَّا[4] ذَكَرْنا في أحدِ التأويلَينِ.

رَجَعَ أحدُهما إلى الشياطينِ خاصَّةً في الحَبْسِ في العملِ مَنْ شاءَ منهمْ والتسريحِ لِمَنْ شاءَ منهمْ، والآخَرُ إلى كلِّ ما أعطاهُ مِنَ المُلْكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي أعطاهُ لهُ / ٤٦٢ ـ أ/ مِنَ المُلْكِ ما لا يُحِبُّ مَنَ الكَثْرَةِ والعددِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي القُرْبَةُ ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي مَرْجِعاً[5].

هذا يدلُّ على أنَّ ما أعطاهُ مِنَ المُلْكِ لم يَحُطَّهُ عن مَرْتَبَتِهِ، ولم يَنْقُصْ مِنْ قَدْرِهِ عندَ اللهِ لأنهُ إنما سألَهُ المُلْكَ، واللهُ أعلَمُ، لِما[6] ذَكَرْنا مِنْ رغبَتِهِ في نجاةِ الخَلْقِ بسرعةِ[7] إجابَتِهِمْ إياهُ إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ لا رَغْبَةً منهُ في الدنيا ولَذّاتِها وطَلَبِ العِزِّ فيها، ولكنْ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي الأسبابَ التي تُزْلِفُهُ إلى اللهِ، وتُقَرِّبُهُ مِنَ التوفيقِ والعِصْمَةِ والمَعونةِ على الطاعةِ. وذلكَ يكونُ في الدنيا، والأوَّلُ يكونُ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وهذا مِنْ أعظمِ المِنَنِ واللُّطْفِ حينَ[8] أمَّنَهُ مِنْ جميعِ أنواعِ التَّبِعاتِ، يَغْفِرُ لهُ بِغَيرِ حسابٍ، ويُبَشِّرُهُ[9] بالزُّلْفى وحُسْنِ الرُّجْعِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في سَبَبِ فِتْنَةِ سليمانَ ﷺ وفي ذَنْبِهِ:

قالَ بعضُهُمْ: وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَهُ ألّا يَتَزَوَّجَ امْرأةً إلّا مِنْ بَني إسرائيلَ، فَتَزَوَّجَ امرأةً مِنْ غيرِ بني إسرائيلَ، وجَعَلَ لها صَنَماً، فَعُبِدَ في بيتِهِ كذا كذا يوماً، فابْتَلاهُ اللهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ عقوبَةً لهُ على قَدْرِ ما عُبِدَ الصَّنَمُ في بيتِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَتْ فتنةُ سليمانَ ﷺ التي ذَكَرْنا في ناسٍ مِنْ أهلِ الجَرادَةِ امْرأتِهِ، وكانَتْ مِنْ أحبِّ نِسائِهِ إليهِ، وكانَ إذا أرادَ أنْ يُحْدِثَ، أو يدخلَ الخَلاءَ، أعطاها خاتَمَهُ، وإنَّ ناساً مِنْ أهلِها جاؤوا يُخاصِمونَ قوماً إلى سُلَيمانَ. قالوا[10]: وكانَ سُلَيمانُ أحَبَّ أنْ يكونَ الحَقُّ لأهلِ الجَرادَةِ، فَيَقْضِيَ لهمْ، فَعُوتِبَ حينَ لم يَكُنْ هَواهُ فيهِمْ واحداً. وهو قولُ ابْنِ عباسٍ.

وقد ذَكَرْنا نحنُ على أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ نَزْعُ المُلْكِ منهُ وما ذَكَرَ ﷻ فِتْنَتَهُ إياهُ بلا زَلَّةٍ ولا سَبَبٍ: كانَ منهُ ابْتِداءُ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٌ. وذلكَ جائزٌ. وللهِ أنْ يَفْعَلَ ما يَشاءُ بِمَنْ يشاءُ وكيفَ يَشاءُ مِنْ نَزْعِ المُلْكِ وغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿رُخَآءً﴾ أي[11] رِخوَةً لَيِّنَةً، وهو اللَّيِّنُ. يُقالُ: رجلٌ رِخْوٌ أي ضَعيفٌ في عَمَلِهِ، وقومٌ

---

(١) في الأصل وم: امتحن. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: ما. (٥) في الأصل وم: مرجع. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) في الأصل وم: لسرعة. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يسر له. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) في الأصل وم: أو.

رُخاءً. قالا[1]: والرُّخاءُ الساكنُ. ويُقالُ: اسْتَرْخى أي سَكَنَ. وقولُهُ ﷻ: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومثلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] أي لا تُعطِ لِتأخُذَ منَ المكافآتِ أكثرَ ممّا أعطيتَ.

وقالَ الفَرّاءُ: سُمّيَ العطاءُ مَنًّا.

وقولُهُ ﷻ: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي أرادَ: قالَ الأصمعيُّ: العربُ تقولُ: أصابَ الصوابَ، فأخطأَ الجوابَ، أي أرادَ الصوابَ. والأصفادُ: الأغلالُ التي تُشَدُّ بها الأيدي إلى العُنُقِ.

دلَّ قولُ سُلَيمانَ ﷺ ودُعاؤُهُ ربَّهُ باستيهابِهِ المُلْكَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ على أنَّ المُلْكَ الذي أعطاهُ لم يكُنْ حَقًّا عليه؛ إذْ لو كانَ حَقًّا لهُ لكانَ لا يَستوهِبُهُ، ولا يقولُ لهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ ولكنْ يقولُ لهُ: أعطِني حقّي؛ إذْ كلُّ طالبِ حقٍّ لهُ قِبَلَ الآخَرِ لا يُوصَفُ إذا أعطاهُ إيّاهُ أنهُ وَهّابٌ، لكنْ مُؤدّي حقٍّ عليهِ.

ويَدُلُّ هذا أيضاً على أنْ ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصلَحِ في ا لدينِ؛ إذْ لو كانَ عليهِ حِفْظُ الأصلَحِ في الدينِ، وأعطى الآخَرَ، لكانَ لا يَستوهِبُ المُلْكَ، إذْ كانَ المُلْكُ، لهُ أصلَحُ في الدينِ، ولكنْ يقولُ: أعطِني حقّي. فَدَلَّ استيهابُهُ منهُ المُلْكَ على أنْ ليسَ عليهِ حِفْظُ الأصلَحِ في الدينِ، ولا أعطى الأخيرَ، وأنَّ لهُ ألّا يُعطِيَهُ. وإنَّ إعطاءَهُ المُلْكَ لهُ فَضلٌ منهُ ورحمةٌ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: فيهِ تفضيلُ الغِنَى والسَّعَةِ على الفَقْرِ والضيقِ لِما أنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ الغنَى والسَّعَةَ آيةً مِنْ آياتِ النُّبُوَّةِ والرسالةِ، ولم يُرَ الفَقْرُ والضيقُ جَعَلَهُما آيةً من آياتِ النُّبُوَّةِ. فهلّا دلَّ جَعْلُ الغِنَى آيةً مِنْ آياتِ النُّبُوَّةِ على أنهُ أفضلُ مِنَ الفَقْرِ؟

يُقَلْ[2] لهمْ: إنَّ الغِنَى والمُلْكَ إنما جَعَلَهُما آيةً لِرسالةِ[3] نَبِيٍّ واحدٍ، وأكثرُ الأنبياءِ، عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ، كانوا فُقراءَ وأهلَ الحاجةِ والضِّيقِ في أمرِ الدنيا، فهمْ[4] كانوا ما ذَكَرْنا مِنَ الضِّيقِ والفقرِ وقلةِ أعوانِهِمْ وأنصارِهِمْ [ما يَعْدِلُ][5] قِواهُمْ وظَهَرَ ما دَعَوُا الناسَ إلى ما دَعَوا هُمْ، وهو التوحيدُ والإسلامُ مع وجودِ رَغْبَةِ الناسِ في مَنْ عندَهُ السَّعَةُ والغِنَى ونَفاذُ أمْرِهِمْ وقلةِ رَغْبَتِهِمْ في مَنْ عندَهُ الفَقْرُ والضِّيقُ.

فدلَّ اختيارُ أكثرِ الأنبياءِ الحالَ التي تَنْفُرُ طِباعُ الناسِ عنها على الحالِ التي يَرْغَبونَ فيها مَعَ حِرْصِهِمْ ورَغْبَتِهِمْ في الدينِ. على أنَّ الحالَ التي اختاروا هُمْ أفضلُ وأخيَرُ مِنَ الحالِ الأُخرَى، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ قولُهُ ﷻ لِرسولِ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] نهاهُ أن يَمُدَّ عينيهِ إلى ذلكَ، ويختارَهُ. إنما يَمُدُّ، ويَختارُ لِسَعَةِ قومِهِ وأصحابِهِ في أبوابِ الشَّرِّ والخَيرِ، وإنهُ لا يَختارُ، ولا يأخُذُ إلّا ما يَحِلُّ، ويَطيبُ. فَدَلَّ النَّهْيُ عمّا ذَكَرَ على العِلْمِ منهُ ما وَصَفْنا على أنَّ ذلكَ أفضلُ مِنَ الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ثم لا نَدْري ما الذي كانَ مِنَ اللهِ مِنْ تَمْكينِ الشيطانِ عليهِ حتى أضافَ ذلكَ إلى الشيطانِ، وليسَ لَنا أنْ نقولَ: إنَّهُ مُكِّنَ عليهِ كذا، وفَعَلَ كذا في كذا، وفَعَلَ بهِ كذا إلّا أنْ يَثْبُتَ عنِ اللهِ.

ثم وَجْهُ الحِكْمَةِ مِنْ تَمْكينِ الشيطانِ على أوليائِهِ في ما مَكَّنَ في أمْرِ الدينِ لِتُعْلَمَ جِهَةُ الفَضْلِ مِنْ جِهَةِ العَدْلِ، وجِهَةُ الحِلْمِ[6] مِنْ جِهَةِ الرحمةِ، وأنَّ لهُ أنْ يَمْتَحِنَ عبادَهُ بما شاءَ وكيفَ شاءَ مِنْ أنواعِ الشدائدِ والبَلايا على أيدي مَنْ شاءَ بلا أسبابٍ كانَتْ منهمْ، يَسْتَوجِبونَ بها ذلكَ، ولهُ أنْ يَجْتَبِيَ إلى مَنْ شاءَ مِنْ أنواعِ الخَيرِ والنِّعَمِ ابْتِداءً بلا أسبابٍ كانَتْ منهُمْ، يَسْتَوجِبونَ بها ذلكَ.

فَعَلَى ذلكَ بَلاءُ أيوبَ ﷺ والشدائدُ التي أصابَتْهُ؛ جائزٌ أنْ يكونَ بلا سَبَبٍ كانَ منهُ، يَسْتَوجِبُ ذلكَ. ولكنِ ابْتَدَأَهُ امْتِحاناً منهُ إيّاهُ بذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: يقال. (٣) من م، في الأصل: للرسالة. (٤) في الأصل وم: فهما. (٥) في الأصل وم: يعد.
(٦) في الأصل وم: الحكم.

ثم قولُهُ: ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ إنهُ، وإنْ أضافَ إليهِ، فهو في الحقيقةِ مِنَ اللهِ لِما أخبَرَ أنهُ على يَدَيهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] أخبَرَ أنَّ حقيقةَ العذابِ منهُ، وإنْ كانَ على أيديهِمْ يُجري ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: ١٧] أي ما يَمَسُّ الإنسانَ مِنْ ضُرٍّ يكونُ على يَدَيْ آخَرَ، ويكونُ مِنَ اللهِ، ولهُ في ذلكَ صُنْعٌ وفِعْلٌ لا على ما يقولُهُ المُعْتَزِلَةُ: أنْ لا صُنْعَ للهِ في فِعْلِ العبادِ.

وأخبَرَ أنهُ لو أرادَ بأحدٍ ضُرّاً، ومَسَّهُ بذلكَ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ لِذلكَ الضُّرِّ، ولا دافِعَ، وأنهُ لو أرادَ خَيراً بأحدٍ لا رادَّ لِذلكَ الفَضلِ غَيرُهُ. فهو على المُعْتَزِلَةِ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِنُصْبٍ﴾ ونُصْبٍ ونَصَبٍ[١] واحدٌ، وهو تَعَبٌ، وكذلكَ يقولُ القُتَبِيُّ: النُّصْبُ والنَّصَبُ واحدٌ، مِثْلُ حُزْنٍ وحَزَنٍ، وهو العناءُ والتعبُ. وقالَ أبو عُبَيدةَ: النُّصْبُ الشَّرُّ والنَّصْبُ الإعياءُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ أحدَهُما في ما يُصيبُ ظاهرَ جَسَدِهِ، والآخَرَ في ما يُصيبُ باطِنَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ لمّا قالَ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] دعا عندَ ذلكَ أنْ يكشِفَ عنهُ البلايا التي مَسَّتْهُ؛ كأنهُ قالَ: إني مَسَّنيَ الضُّرُّ، فاكْشِفْ ذلكَ عني ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دلَّ على ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤] دلَّ هذا على أنْ قد كانَ منهُ دعاءٌ وسؤالٌ في كَشْفِ[٢] الضُّرِّ عنهُ، فاستَجابَ اللهُ دعاءَهُ.

فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ لمّا ضَرَبَ برِجْلِهِ الأرضَ ورَكَضَها نَبَعَ منها عينانِ: إحداهُما لِلاغْتِسالِ فيها، والأُخرى لِلشُّرْبِ منها؛ فكانَتِ التي لِلشُّرْبِ منها؛ ماؤُها باردٌ على ما يُوافِقُ الشربَ، ويُختارُ ذلكَ، والأخرى / ٤٦٢ ـ ب/ ماؤُها ما يُوافِقُ الاغْتِسالَ، وهو دونَهُ في البُرودةِ[٣] على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ عامَّةً كقولِهِ ﷻ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] وإنما السُّكونُ في ما يَسْكُنُ، وهو الليلُ، والابْتِغاءُ بالنهارِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ العَينُ واحدةً. إلّا أنهُ لمّا اغْتَسَلَ منها [كانَ ماؤُها][٤] ما يوافِقُ [الاغْتِسالَ، ولمّا شَرِبَ منها كانَ ماؤُها ما يُوافِقُ][٥] الشُّرْبَ.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانَ بِهِ البلاءُ بِظاهِرِ الجَسَدِ وبباطِنِهِ؛ فما كانَ بظاهِرِهِ ذَهَبَ بالاغْتِسالِ، وما كانَ بِباطِنِهِ ذَهَبَ بالشُّرْبِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ لِرسولِهِ ﷺ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أي اذْكُرْ صَبْرَهُ على البلاءِ مِنَ اللهِ ﷻ بأنواعِ الشدائدِ والبَلايا، فاصْبِرْ أنتَ إذا ابْتُلِيتَ بِشيءٍ مِنَ البلايا.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ جميعُ ما ذَكَرَ في هذهِ السورةِ، وأمَرَهُ أنْ يَذْكُرَهُمْ بالذي ابْتَلاهُمْ مِنَ الشدائدِ أنْ كيفَ صَبَروا لهُ على ذلكَ. ومَنِ امْتَحَنَهُمْ بالسَّعَةِ والمُلْكِ [أمَرَهُ أنْ يَذْكُرَهُمْ][٦] أنْ كيفَ شَكَروا ربَّهُمْ، وأطاعوهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: وَوَهَبَ لهُ أهلَهُ، أي أحيَى مَنْ هَلَكَ مِنْ أهْلِهِ ومالِهِ، وزادَ لهُ على ذلكَ ضِعْفَهُمْ في الدنيا رَحْمَةً منهُ وفَضْلاً.

والحَسَنُ يقولُ كهذا[٧]: إنهُ أحياهُمْ لهُ بأعيانِهِمْ، وزادَهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قيلَ لهُ: يا أيّوبُ إنَّ أهْلَكَ في الجنةِ، فإنْ شِئْتَ آتيناكَ بهمْ، وإنْ شِئْتَ تَرَكْناهُمْ لكَ في الجنةِ،

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ٢٦٦و٢٦٧. (٢) في الأصل وم: كشفه. (٣) في الأصل وم: النزول. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقول أن اذكر لهم. (٧) في الأصل وم: بهذا.

وعوَّضناكَ مِثْلَهُمْ معهمْ، قالَ: لا بلِ[1] اتْرُكوهُمْ في الجنةِ، فَتُرِكوا لهُ في الجنةِ، وعُوِّضَ مِثْلَهُمْ في الدنيا. ولِلّهِ أنْ يُحْيِيَ مَنْ شاءَ بَعْدَ ما أماتَهُ، ولهُ أنْ يُؤْجِرَ على ذلكَ ما شاءَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؟

دلَّ قولُهُ: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ على أنهُ كَشَفَ الضُّرَّ عن أيوبَ، وأعطاهُ ما أعطاهُ رَحْمَةً منهُ وفَضْلاً ونِعْمَةً؛ كانَ لهُ ألّا يَكْشِفَ الضُّرَّ عنهُ، وألّا يَرُدَّ عليهِ أهلَهُ، ولا يَزيدَ لهُ.

وهو على المعتزلةِ لأنهُ لا يَخْلُو إمّا أنْ يكونَ ما أعْطَى، وردَّ عليهِ، أصلَحَ لهُ، وقد أخْبَرَ أنهُ برحمتِهِ كانَ ذلكَ لهُ وفَضْلٍ منهُ. ولو كانَ عليهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لهُ في الدينِ كانَ في[2] تَرْكِهِ ومَنْعِهِ جائراً عندَهُمْ ظالماً، [وإمّا][3] أنْ يكونَ مَنْعُهُ ذلكَ عنهُ أصْلَحَ لهُ، فأعطاهُ، وتَرَكَ الأصْلَحَ لهُ. فَدَلَّ أنْ ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصْلَحِ في الدينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ذِكْرَى وعِظَةً لِمَنْ يَنْتَفِعُ باللُّبِّ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ التَّضييقُ لِمَقْتٍ منهُ، وسُخْطُهُ لِمَنْ ضَيَّقَ عليهِ، ولا في التوسيعِ رضاً منهُ، ولكنْ مِحْنَتانِ، يَمْتَحِنُ مَنْ يشاءُ بالشِّدَّةِ والبَلاءِ ومنْ شاءَ بالسَّعَةِ والرَّخاءِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ اخْتُلِفَ في السببِ الذي كانَ مِنْ أيوبَ عليه السلام الحَلْفُ بِضَرْبِ امرأتِهِ. ولكنْ لَسْنا نَدْري ما السَّبَبُ الذي حَمَلَهُ على الحَلْفِ بِضَرْبِها؟ ولا حاجةَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ السببِ.

غَيرَ أنّا نَعْلَمُ أنهُ كانَ مِنَ المَحْلوفِ عليهِ مَعْنًى يَسْتَوجِبُ بذلكَ الضَّرْبَ حينَ[4] حَلَفَ هو بالضَّرْبِ، وأمَرَهُ اللهُ ﷻ بالضَّرْبِ.

ثم مَعْلومٌ أنَّ غَضَبَهُ وحَلْفَهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ، ولكنْ للهِ ﷻ ثم الغَضَبُ لا يُخْرِجُ الأنبياءَ عليهم السلام عنْ أيدي أنفسِهِمْ على مَنْ كانَ غَضَبُهُ لِنَفْسِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قُضْبانٌ واغصانٌ ونَحْوُ ذلكَ لأيوبَ خاصةً. وقالَ بعضُهُمْ: هو لهُ وسائِرِ الناسِ: أنَّ مَنْ حَلَفَ أنْ يَضْرِبَ كذا خَشَبَةً أو سُوطاً، فَجَمَعَ قُضْباناً أو أغصاناً، فَضَرَبَ بها، بَرَّ في يمينِهِ. وليسَ في الآيةِ أنهُ ضَرَبَ بِهِ مَرَّةً أو مِراراً حتى يَخْرُجَ بِضَرْبِهِ المرأةَ عنْ يمينِهِ.

ثم الأصلُ عندنا أنَّ مَنْ هَمَّ بِضَرْبِ آخَرَ كانَ بالضاربِ هيئةٌ، وأبداً يُعْرَفُ أنهُ يريدُ الضَّرْبَ، فَيَنْجَرِدُ بالمَضروبِ هيئةٌ وأثَرٌ، وهو التَّألُّمُ. فجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بِهِ تلكَ الهيئةَ والأثَرَ [لا][5] الضَّرْبَ نفسَهُ، ليسَ في يمينِهِ. وإنَّ الأفضلَ فيها تَرْكُ الضَّرْبِ والكفارةُ عنِ الحَنْثِ.

ثم أثْنَى اللهُ ﷻ على أيوبَ عليه السلام فقالَ ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ بما ابْتَلاهُ اللهُ في نفسِهِ وأهلِهِ ومالِهِ ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي راجعٌ إليهِ ﷻ في جميعِ أحوالِهِ: في حالِ الشِّدَّةِ والبَلاءِ وفي حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي اضْرِبْ بها الأرضَ، وكذلكَ رَكْضُ دابَّتَكَ؛ إذا ضَرَبْتَها بِرِجْلِكَ تُسْرِعُ[6]. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ؛ قالَ: والضِّغْثُ مِلْءُ الكفِّ مِنَ الحَشيشِ وغَيرِهِ ومِنْ كلِّ شيءٍ، وأضغاثٌ جميعٌ. وقالَ القُتَبِيُّ: الضِّغْثُ الحِزْمَةُ مِنَ الكَلإِ أو مِنَ العِيدانِ وهو قريبٌ مِنَ الأوَّلِ، وقالَ: المُغْتَسَلُ الماءُ، وهو الغَسولُ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ مِنَ الحِنْثِ. والحِنْثُ في الأصلِ الإثْمُ، وبَرَّتْ يمينُهُ إذا صَدَقَ فيها، ووَفَى.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿وَٱذْكُرْ﴾ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الرسلِ عليهم السلام وأهلِ الصَّفْوَةِ، أي اذْكُرْ هؤلاءِ بما لَقُوا مِنْ أعدائِهِمْ، فَتَسْتَعينَ أنتَ بما تَلْقَى مِنْ أعدائكَ.

أو يقولُ: اذْكُرْ صَبْرَ هؤلاءِ على قومِهِمْ لِتَصْبِرَ أنتَ على أذى قومِكَ، وهو قريبٌ مِنَ الأوَّلِ.

---

(١) في الأصل: على، في م: بلى. (٢) من م، في الأصل: له. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ادرج قبلها في الأصل وم: حتى.

[أو يقولُ: اذْكُرْ خَبَرَ][1] هؤلاءِ في العبادةِ والدينِ لِيَحُثَّكَ، ويُحَرِّضَكَ[2] على الجَهْدِ فيها.

أو يقولُ: اذْكُرِ الأسبابَ التي بها صارَ هؤلاءِ أهلَ صَفْوَةِ اللهِ ومَحَلَّ إحسانِهِ لِيَحْمِلَكَ ذلكَ على طَلَبِ الأسبابِ لِتَصيرَ مِنْ أهلِ صَفْوَةِ اللهِ، ونَحْوَهُ يُحْتَمَلُ.

أو يقولُ: اذْكُرْ هؤلاءِ الصالِحينَ لِتَتَسَلَّى بِذِكْرِهِمْ عنْ بعضِ أمورِكَ وهمومِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قيلَ: أولي الأيدي أولي القوةِ في العبادةِ والبَصَرِ في الدينِ.

ثم معلومٌ أنَّ هؤلاءِ لم يكونوا أهلَ قوةٍ في أنفسِهِمْ، وإنما كانوا أهلَ قوةٍ في العبادةِ في الدينِ لِيُعْلَمَ أنَّ القوةَ في الدينِ غَيرُ القوةِ في النفسِ.

وقيلَ: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوةِ في طاعةِ اللهِ والبَصَرِ في الحَقِّ، وقيلَ: في الفِقْهِ، وقيلَ: أولي الفَهْمِ في كتابِ اللهِ، وهو واحدٌ.

ثم في قولِهِ: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ دلالةٌ أنْ قد يُفْهَمُ بِذِكْرِ الأيدي غَيرُ الجارحةِ وبِذِكْرِ البَصَرِ غيرُ العينِ لأنهُ معلومٌ أنهُ لم يُرِدْ بِذِكْرِ الأيدي الجوارحَ ولا بِذِكْرِ الأبصارِ الأعْيُنَ، ولا فُهِمَ منهُ ذلكَ، ولكنْ فُهِمَ باليَدِ القوةُ وبِذِكْرِ البَصَرِ الفَهْمُ[3]، أو ما فُهِمَ.

فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ونَحْوِهِ الجارحةَ على ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ، ولكِنِ القُوَّةُ أو غَيرُها. لكنْ كَنَّى باليَدِ عنِ القوةِ لِما باليَدِ يُقْوَى، وكَنَّى بالبَصَرِ عَنْ دَرَكِ الأشياءِ حقيقةً لِما بالبَصَرِ تُدْرَكُ الأشياءُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [بخالصةِ النُّبُوَّةِ والرسالةِ وذِكْرِ الدارِ، وألّا يَذْكُروا غَيرَ دارِ الآخِرَةِ.

وأصلُهُ: أنَّ اللهَ ﷻ أخْلَصَهُمْ، وصَفَّاهُمْ، واخْتارَهُمْ لِنَفْسِهِ[4]، وخَصَّهُمْ بها، وجَعَلَ هِمَّتَهُمْ للرغبةِ في الآخِرَةِ والزُّهْدِ في الدنيا واخْتِيارِ ذِكْرِ الآخِرَةِ على ذِكْرِ الدنيا. أو أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾][5] أي شَرَفِ الدارِ حتى[6] صاروا مذكورِينَ مُشَرَّفينَ في الدارِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي هم عندَنا أهلُ صَفْوَةٍ؛ صَفَّاهُمُ اللهُ / ٤٦٣ ـ أ/ ﷻ واختارَهُمْ لنفسِهِ ورسالتِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ اختارَهُمْ على عِلْمِ الرسالةِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿وَٱذْكُرْ﴾ وجوهاً على ما ذَكَرْنا:

[أحدُها: اذْكُرْ][7] صَبْرَ هؤلاءِ على ما لَقُوا مِنْ قومِهِمْ، فَتَسْتَعينَ أنتَ على الصَّبْرِ بما[8] تَلْقَى مِنْ قومِكَ.

[والثاني][9]: اذْكُرْ حُسْنَ معاملةِ هؤلاءِ ربَّهُمْ وحُسْنَ سيرتِهِمْ في ما بَينَ الخَلْقِ لِتُعامِلَ أنتَ ربَّكَ مثلَ معامَلَتِهِمْ ومثلَ سِيرَتِهِمْ.

[والثالثُ][10]: اذْكُرْ هؤلاءِ ومَنْ ذَكَرَ، أي أثْنِ عليهِمْ بِحُسْنِ الثناءِ، واذْكُرْهُمْ بخيرِ ما أثْنَى عليهِمُ اللهُ ﷻ وأمَرَ الناسَ أنْ يُثْنوا عليهِمْ على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ليكونوا أبداً أحياءً بِحُسْنِ الثناءِ والذِّكْرِ.

[والرابعُ][11]: اذْكُرْ هؤلاءِ أنْ كيفَ عامَلَهُمُ اللهُ، واخْتارَهُمْ لِرِسالَتِهِ، وما ذَكَرَ اللهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: اذكر حينئذ، في م: اذكر خبر. (٢) في الأصل وم: ويخرجك. (٣) في الأصل وم: أفهم. (٤) في الأصل: ناساً. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل: و ذكر، في م: وذكرهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: مما. (٩) و (١٠) و (١١) في الأصل وم: أو يقول.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو إلياسُ، وقالَ بعضُهُمْ: هو غيرُهُ، وكانَ ابنَ عمِّ إلياسَ، والله أعلمُ ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ اختُلِفَ فيهِ أيضاً: قال بعضُهُمْ: كانَ إلياسُ في أربعِ مئةِ نَبِيٍّ ﷺ في زمَنِ مَلِكٍ، فَقَتَلَ المَلِكُ ثلاثَ مئةٍ منهمْ. فَكَفَلَ رجلٌ إلياسَ في مئةِ نَبِيٍّ، فَكَفَلَهُمْ، وخَبَّأَهُمْ عندَهُ يُطْعِمُهُمْ، ويَسْقِيهِمْ، حتى خَرَجوا مِنْ عندِهِ. وكانَ الكِفْلُ بِمَنْزِلَةٍ مِنَ المَلِكِ. فلذلكَ سُمِّيَ ذا الكِفْلِ، لأنهُ خَبَّأَهُمْ، وكَفَلَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ ذا الكِفْلِ لأنهُ كَفَلَ للهِ ﷻ [وَوَفَى اللهَ][1] بِهِ، فَسُمِّيَ ذا الكِفْلِ.

وقالَ أبو موسى الأشعَرِيُّ: إنَّ ذَا الكِفْلِ لم يكُنْ نَبِيّاً، ولكنْ كانَ رجلاً صالحاً، تَكَفَّلَ بعملِ رجلٍ صالحٍ عندَ موتِهِ، كانَ يُصَلِّي للهِ ﷻ كلَّ يومٍ مئةَ صلاةٍ، فأحْسَنَ اللهُ عليهِ الثناءَ في كَفالتِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ نَبِيّاً مِنَ الأنبياءِ قالَ لقومِهِ: أيُّكُمْ يَتَكَفَّلُ بتبليغِ ما بُعِثْتُ[2] أنا إلى الناسِ بَعدي لأَضْمَنَ لهُ الجنةَ والدرجَةَ العُلْيا؟ فقالَ شابٌّ: أنا أكْفُلُ التَّبليغَ على ذلكَ، وَوَفَى ما كُفِّلَ، فَسُمِّيَ ذَا الكِفْلِ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ أنهُ لماذا؟ وأنَّ اليَسَعَ كانَ فلاناً سِوى أنْ يُعَرِّفَهُمْ أنهمْ مِنَ الأخيارِ على ما ذَكَرَ اللهُ ﷻ واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ معرفةَ أخبارِ[3] الآحادِ تُوجِبُ عِلْمَ العَمَلِ، ولا تُوجِبُ عِلْمَ الشهادةِ. وليسَ ههنا سِوى الشهادةِ على اللهِ، والتَّرْكُ أولَى..

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي شَرَفٌ، وذِكْرُ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنَ الأخيارِ، لأنهمْ يُذْكَرونَ أبداً بِخَيرٍ وحُسْنِ الثناءِ عليهِمْ بِما كانَ منهمْ مِنْ حُسْنِ السِّيرَةِ والعَمَلِ. فذلكَ شَرَفُهُمْ حينَ[4] صاروا مذكورينَ على ألْسُنِ الناسِ، وهمْ أحزابٌ.

[ويَحتَمِلُ][5] أنْ يكونَ ذِكْرُ هؤلاءِ ذِكْراً[6] وعِظَةً لِمَنْ بَعدَهُمْ، أو ذِكْراً[7] لكَ وعِظَةً لِتَعْرِفَ حُسْنَ مُعامَلةِ الرَّبِّ بهمْ، أو [أنْ يكونَ][8] هذا القرآنُ ذِكْراً[9] وعِظَةً لِمَنْ آمَنَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ جملةُ الاتِّقاءِ هو أنْ تُتَّقَى المَهالكُ، أي اتَّقُوا جميعَ ما يُهْلِكُكُمْ ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي مَرْجِعٍ.

الآية ٥٠ ثم بَيَّنَ حُسْنَ المَرْجِعِ الذي يَرْجِعونَ إليهِ حينَ[10] قالَ ﷻ: ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أي مُقامٍ، يُقالُ: عَدَنَ في مكانِ كذا، أي أقامَ، كأنهُ [قالَ][11]: جَنّاتِ مُقامٍ فيها ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] ولا [غَيرَها أعْلَى مِمّا][12] أخبَرَ اللهُ ﷻ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: عَدْنٌ الذي هو وَسْطُ الشيءِ كأنهُ ذَكَرَ أنَّ الجنةَ عَدْنٌ، كانَتْ وَسْطَ الجَنانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أبوابَ الجنةِ. يُقالُ لهُ: ادْخُلْ أيَّ بابٍ مِنْ أبوابِها شِئْتَ على ما يقولُهُ بعضُ الناسِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ أبوابَ كلِّ أحدٍ منهمْ في الجنةِ، تكونُ مُفَتَّحَةً، لأنَّ الإغلاقَ في[13] الأبوابِ إنما يكونُ في الدنيا إمّا لِخَوفِ السَّرَقِ أو نَظَرِ الناسِ إلى أهلِهِ وحَرَمِهِ وخوفِ نَظَرِ أهلِهِ إلى الناسِ. لِهذا المَعْنَى تُتَّخَذُ الأبوابُ في الدنيا، والغَلْقُ والإغلاقُ دونَهُمْ، وليسَ ذلكَ المَعْنَى في الجنةِ لِما أخبَرَ أنَّ أزواجَهُمْ يَكُنَّ قاصراتِ الطَّرْفِ، لا يَنْظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهِنَّ، ولا يكونُ فيها أبوابٌ لِما ذَكَرْنا أنَّ الأبوابَ إنما تُتَّخَذُ لِخَوفِ السَّرَقِ والنَّظَرِ في حَرَمِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: خوفاً لله. (٢) في الأصل وم: بعث. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: ذكر. (٧) في الأصل وم: ذكر. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: غير أعلى ما. (١٣) في الأصل وم: و.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ وصفُ حالِ اجْتماعِهِمْ [لأنَّ ذلكَ يُدْعَى إليهِ][1] بالفَواكِهِ والشَّرابِ في الدنيا. وأمّا في حالِ الانْفِرادِ فَقَلَّ ما يَدْعُونَ بالشَّرابِ.

ثم فيهِ إخبارٌ أنهمْ يَدْعُونَ في الجنةِ بالفَواكِهِ والشَّرابِ جميعاً. وفي الدنيا العُرْفُ فيهِمْ أنَّ أهلَ الشَّرابِ قَلَّ ما يَجْمَعونَ بينَ الفَواكِهِ والشَّرابِ بوجهَينِ: إمّا لِخَوفِ الضَّرَرِ بهمْ إذا جُمِعَ، أو لِما لا يُوجَدانِ.

وليسَ هذانِ المَعْنَيانِ في الجنةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ كأنَّ ذِكْرَ الكَثْرَةِ كِنايةٌ عنْ أنواعِ الفَواكِهِ وألوانٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ كلِّ نَوعٍ، ليسَ بِعِبارَةٍ عنِ الكَثْرَةِ مِنْ نَوعٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أي طرفُهُنَّ يَقْصُرْنَهُ على أزواجِهِنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غيرِ أزواجِهِنَّ ولا يُرِدْنَ غيرَهُمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿أَتْرَابٌ﴾ قالوا: مُسْتَوِياتُ الأسنانِ، أرادَ أنْ يكونوا جميعاً: الأزواجُ والزوجاتُ على سِنٍّ واحدٍ، أو أنْ يُخْبِرَ أنهمْ جميعاً يكونونَ على حالٍ واحدةٍ، لا يَتَغَيَّرونَ، ولا يَهْرَمونَ، كما يكونُ في الدنيا بعضُهُمْ أكْثَرَ سِناً مِنْ بعضٍ وأضْعَفَ حالاً مِنَ الآخَرِ. ولكنْ لا يَهْرَمونَ، ولا يَكْبَرونَ، ولا يَضْعُفونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ كأنهُ تقولُ لهمُ الملائكةُ: هذا ما تُوعَدونَ أهلَ الجنةِ في القرآنِ.

الآية ٥٤ ثم أتاهُمْ مِنَ اللهِ بِشارةٌ، تُبْقِي لهمْ ذلكَ أبداً، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي انْقِطاعٌ وذهابٌ. نَفِدَ الشيءُ، إذا فَنِيَ، وذَهَبَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا الذي ذَكَرْنا ثَوابُ المُتَّقِينَ، وجَزاءُ تَقْواهُمْ.

الآية ٥٥ ثم بَيَّنَ جَزاءَ الطاغينَ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي لَبِئْسَ المَرْجِعُ.

الآية ٥٦ ثم بَيَّنَ ذلكَ المَرْجِعَ، ماهو؟ فقالَ: ﷻ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي فَبِئْسَ ما مَهَدُوا لأنفسِهِمْ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذَكَرْنا جَزاءُ الطاغينَ. والطُّغيانُ يَرْجِعُ إلى وُجوهٍ. إلّا أنَّ أصلَهُ هو الذي لا يَجْتَنِبُ المَهالِكَ، ولا يَتَّقِيها[2]. والمُتَّقي، هو الذي يَتَّقِي المَهالِكَ، ويَجْتَنِبُها حَقيقةَ التُّقَى. والطُّغيانُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ كأنَّ الملائكةَ يقولونَ[3] إذا أُدْخِلوا جَهَنَّمَ، وأُلْقُوا فيها: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ والحَميمُ، هو الشَّرابُ الذي انْتَهَى حَرُّهُ غايَتَهُ ونِهايَتَهُ. والغَسّاقُ اخْتَلَفوا فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: هو ما يَسيلُ مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ[4] واللَّحْمِ؛ جَعَلَ ذلكَ شرابَهُمْ في النارِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الغَسّاقُ، هو الزَّمْهَريرُ، والزَّمْهَريرُ، هو البَرْدُ الذي بَلَغَ غايَتَهُ ونِهايَتَهُ؛ يَحْرِقُ بِشِدَّةِ بَرْدِهِ كما يَحْرِقُ الحَميمُ الذي بَلَغَ نِهايَتَهُ شِدَّةُ حَرِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ اتَّفَقَ أهلُ التأويلِ، أو أكْثَرُهُمْ، على أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ هو العذابُ؛ كأنهُ يقولُ: وآخَرُ مِنْ شَكْلِ ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ لهمْ.

ثم اخْتَلَفوا في ذلكَ العذابِ الذي قالوا: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قالَ عبدُ اللهِ ابْنُ مسعودٍ ﷺ: هو الزَّمْهَريرُ. ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ ألوانٌ مِنَ العذابِ. وقالَ بعضُهُمْ: زَوجٌ مِنَ العذابِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي قومٌ مِنْ شَكْلِ أولئكَ الذينَ ذَكَرَهُمْ، يُقَرَّبونَ إلى أولئكَ،

---

(١) في الأصل وم: لأنه ذلكَ يدعى. (٢) في الأصل وم: يتقي. (٣) في الأصل وم: يقول لهم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

فَيُجمَعونَ في العذابِ كقولِهِ ﷻ: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ/ ٤٦٣ ـ ب/ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢] أو أنْ يكونَ فوجٌ آخَرُ يَدخُلونَ مِنْ شَكْلِ الأوَّلينَ.

الآية ٥٩ وهو ما ذَكَرَ ﷻ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ يقولُ المَتبوعُ للأتباعِ لمّا أُدخِلوا النارَ وراءَهُمْ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي لا سِعَةَ بهِمْ، وهو مِنَ الرُّحْبِ، وهو السَّعَةُ.

الآية ٦٠ فأجابَهُمُ الأتباعُ: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: قالتِ الخزَنَةُ لِمَنْ في النارِ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ فَيَرُدّونَ على الخزَنَةِ ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ فَيَرُدُّ عليهِمُ القومُ الذينَ اقْتَحموا النارَ بَعْدَهُمْ ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾.

وأصلُ هذا أنَّ هذا منهم لَعْنٌ، يَلْعَنُ بعضُهُمْ بعضاً كقولِهِ[1] ﷻ ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ هذا كقولِهِ ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] هذا قولُ الأتباعِ للقادةِ والرؤساءِ منهمْ، ثم رَدَّتِ القادةُ على الأتباعِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩].

فَعَلَى ذلكَ هذهِ المُناظَرَةُ التي ذُكِرَتْ ههنا بينَ القادةِ والأتباعِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي[2] أنتمْ شَرَعْتُموهُ لنا في الدنيا، وسَنَنْتُموهُ. وكذلكَ قولُهُمْ: ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي مَنْ شَرَعَ لنا هذا وسَنَّ [الدينَ][3] الذي كُنّا عليهِ، وأُمِرْنا بِهِ[4] ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وهو كما ذَكَرَ في سورةِ سَبَإٍ حينَ قالوا: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣] واللهُ أعلَمُ.

قالَ القُتَبِيُّ: الغَسّاقُ ما يَسيلُ مِنْ جلودِ أهلِ النارِ ولُحومِهِمْ مِنَ الصديدِ؛ يُقالُ: غَسَقَتْ منهُ[5]، أي سالَتْ، ويُقالُ: هو البارِدُ المُنْتِنُ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ مِنْ مِثْلِهِ، الشَّكْلُ المِثْلُ، والشَّكْلُ [بِكَسْرِ وفَتْحٍ][6] الشينِ الغَنْجُ، وشَكِلَتِ المرأةُ إذا تَغَنَّجَتْ، والتَّقَحُّمُ الدُّخولُ، واقْتَحَمْتُ، كلُّهُ واحدٌ[7]، وهو الدُّخولُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي لاسَعْدَ بهِمْ، والرَّحيبُ والرَّحْبُ الواسِعُ.

الآيتان ٦٢ و٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ هذا يقولُونَ][8] في الآخِرَةِ في النارِ. هذا لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ وألّا ﴿تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لأنَّ هذهِ السورةَ مكيّةٌ نَزَلَتْ مُحاجَّةً أهلَ مكةَ في إثباتِ التوحيدِ وإثباتِ الرسالةِ [وإثباتِ البعثِ، لأنهمْ كانوا على فِرَقٍ ثلاثٍ: منهمْ مَنْ يُنْكِرُ التوحيدَ، ومنهمْ مَنْ يُنْكِرُ الرسالةَ][9] ومنهمْ من يُنْكِرُ البَعْثَ.

فَذَكَرَ الآيةَ[10] المُتَقَدِّمَةَ لإثباتِ الرسالةِ في ما تَقَدَّمَ، وذَكَرَ حُجَجَ البَعْثِ في هذهِ الآياتِ وحُجَجَ التوحيدِ في آخِرِهِ. ذَكَرَ ذلكَ كلَّهُ لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ، وإنْ أنكَروا ذلكَ لئلا يَقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ عُقوبةَ اللهِ قد تَلْزَمُ، وإنْ لم يَتَحقَّقْ عندَهُ الحَقُّ، ولم يَعْرِفْهُ حقيقةً حينَ[11] أخبَرَ أنهمْ يقولونَ في النارِ ما ذَكَرَ ﷻ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ لأنهُ معلومٌ أنهمْ [لو عَلِموا][12] حقيقةً أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ كانوا [على حقٍّ][13] ما تَرَكوا اتِّباعَهُ، ولا سَخِروا منهمْ.

---

(١) في الأصل وم: لقوله. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: وقوله ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: منه.
(٥) في الأصل وم: عنه. (٦) في الأصل وم: بنصب. (٧) في الأصل وم: واحدة. (٨) في الأصل وم: إلى آخر ما ذكر، ذكر هذا يقول.
(٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: الأنباء. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: لم يعلموا. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و.

وعلى ذلكَ تُخَرَّجُ مُباهَلَةُ أبي جَهْلٍ يومَ بدرٍ حينَ(١) قالَ: اللهمَّ أيُّنا أوصَلُ رَحِماً وأكثَرُ كذا على ما ذَكَرَ فانْظُرْ إليهِ.

ومعلومٌ أنهُ لو كانَ يَعْلَمُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ على حقٍّ لكانَ لا يَجْتَرِئُ على المُباهَلَةِ.

دلَّ أنهُ لم يَعْلَمْ حقيقةَ أنهُ على حقٍّ، فَعُوقِبوا، وإنْ لم يَعْلَموا لِما أمْكَنَ لهمْ مِنَ العِلْمِ والمعرفةِ، لو تأمّلوا، وأحْسَنوا النَّظرَ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنهمْ يَنْظرونَ في النارِ فلا يَرونَ مَنْ كانَ يُخالِفُهُمْ في دينِهِمْ، وهُمْ اصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ الذينَ كانوا يَسْتَهْزِئونَ بهمْ في الدنيا، ويَسْخَرونَ منهمْ. يقولونَ: كُنّا نَسْخَرُ منهمْ في الدنيا، فأينَ هُمْ؟ وما لَنا لا نَراهُمْ؟ أم زاغَتْ عنهُم الأبصارُ، أي حارَتْ، وشُغِلَتْ أبصارُنا، فلا نراهُمْ.

لكنْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونوا يقولونَ على هذا الذي يقولُهُ أهلُ التأويلِ، ولكنْ يقولونَ على التَّلَهُّفِ والتَّنَدُّمِ على ما كانَ منهمْ في الدنيا مِنْ تَرْكِ اتِّباعِهِمْ والسُّخْرِيَةِ منهمْ، قد ظَهَرَ عندَهُمْ أنَّ أولئكَ كانوا على حقٍ؛ أعني رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ، وأنهمْ على باطلٍ.

فلا يُحْتَمَلُ أنْ يقولوا ذلكَ على غَيرِ التَّلَهُّفِ والتَّنَدُّمِ، وقد عَرَفوا بماذا عُذِّبوا، وجُعِلوا في النارِ؛ عَرَفوا أنهمْ يُكَذِّبونَ في النارِ؛ يعني أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ إذْ كانوا على خِلافِ ما كانَ أولئكَ الكَفَرَةُ، واللهُ أعلَمُ.

أو أنْ يقولوا ذلكَ على الاسْتِعانَةِ بهمْ؛ يقولونَ: أينَ أولئكَ الذي كانوا ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ في الدنيا: لَعَلَّهُمْ يَشْفَعونَ لنا، فَيُغيثونَنا؟ يَطْمَعونَ بالنجاةِ إذا اتَّبَعْناهُمْ في ذلكَ الوقتِ أو نَحْوَ ذلكَ كقولِهِ ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] وهذا الذي ذَكَرْنا هو أشْبَهُ بما يقولُهُ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: القَسَمُ بقولِهِ: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [الآية: ١] وَقَعَ على هذا على ما ذَكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: هذا على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ يقولُ: إنَّ ذلكَ الذي ذَكَرَهُ مِنْ [تخاصُمِ أهلِ النارِ كقولِهِمْ](٢): ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [الآية: ٦٠] وقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [الآية: ٦١] وما ذَكَرَ في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي ذلكَ التخاصُمُ الذي ذَكَرَ لَحَقٌّ، أي كائنٌ في ما بَينَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ ليسَ عليَّ ممّا حُمِّلْتُمْ شيءٌ، إنما ذلكَ عليكُمْ، إنما على الإنذارِ لكمْ فقط. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما مِنْ إلهٍ عندَ دُونِهِ بإلهٍ، إنما الإلهُ هو الواحدُ القهّارُ الذي تَفَرَّدَ، وتَوَحَّدَ بربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، قَهَرَ الخَلائِقَ كلَّهُمْ بِقُدْرَتِهِ.

الآية ٦٦ وقولُهُ ﷻ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ يُخْبِرُ عنْ غِناهُ وسُلْطانِهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَعْلَمونَ أنهُ ربُّ السمواتِ والأرضِ ومُنْشِئُهُما ومُنْشِئُ ما بينَهما، فلا يَحْتَمِلُ أنْ ما يأمُرُكُمْ بهِ، وينهاكُمْ عنهُ لحاجةِ نفسِهِ أو لِمَنْفَعَةٍ لهُ، ولكنْ إنما يأمُرُ، ويَنْهى لِمَنْفَعَةِ أنفُسِكُمْ ولِحاجَتِكُمْ، أو يقولُ: تَعْلَمونَ أنهُ هو ربُّكُمْ وربُّ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما، فكيفَ تَعْبُدونَ مَنْ تَعْلَمونَ أنهُ ليسَ بِرَبِّكُمْ، ولا إلهٍ. وإنما الإلهُ ما ذَكَرَ، فَتَتْرُكونَ عبادَتَهُ وطاعَتَهُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي لا يَلْحَقُهُ الذُّلُّ بِذُلِّ أوليائِهِ وخَدَمِهِ، لأنهُ عَزيزٌ بِذاتِهِ، لا بأحدٍ، ليسَ كَملوكِ الأرضِ يَذِلُّونَ، إذا ذَلَّ أولياؤُهُمْ وأتباعُهُمْ، لأنَّ عِزَّهُمْ بأوليائِهِمْ وأتباعِهِمْ. فإذا ذَلُّوا ذَلَّ مَنْ كانَ عِزُّهُ بهمْ.

فأمّا اللهُ ﷻ فهو(٣) عزيزٌ بِذاتِهِ، لا يَلْحَقُهُ الذُّلُّ بِذُلِّ أوليائِهِ ولا هَلاكِهِمْ.

الآيتان ٦٧و٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحدُهما: أنَّ هذا القرآنَ الذي أنْزَلَ على رسولِهِ ﷺ نَبأٌ عظيمٌ، أنتُمْ عنِ التَّفَكُّرِ فيهِ [والنَّظرِ](٤) مُعْرِضونَ، لأنَّ فيهِ ذِكْرَ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث قالوا. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

ما نَزَلَ بالمُكذِّبينَ[1] بالتكذيبِ والعِنادِ، وفيهِ ذِكْرُ مَنْ نَجا منهُمْ [أنهُ][2] بِمَ نَجا؟ وفيهِ[3] ذِكْرُ البَعْثِ وذِكْرُ الجنةِ والنارِ ونَحْوَهُ، وذِكْرُ ما لَهُمْ وما عليهِمْ. فَهُمْ عنِ التَّفكُّرِ فيهِ والنَّظرِ مُعْرِضونَ / ٤٦٤ ـ أ/ ما لو تفكَّروا فيهِ، وتأمَّلوا، لأدركوهُ كلَّهُ، وَ وَصَلوا إلى مَعْرفةِ كلِّ ما فيهِ ممّا ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: قولُهُ ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي البَعْثُ والحَشْرُ هو نَبَأٌ عظيمٌ، أنتم عنِ السَّعْيِ والعَمَلِ لِذلكَ مُعْرِضونَ، تاركونَ. فَمَنْ جَعَلَ تأويلَهُ غَيرَ البَعْثِ والحشرِ يَجْعَلِ الإعراضَ عنِ السَّعْيِ لهُ والعَمَلِ لذلكَ اليومِ. ومَنْ حَمَلَ تأويلَهُ على القرآنِ يَجْعَلِ الإعراضَ عنِ التَّفكُّرِ فيهِ، والنَّظرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٩ و٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اخْتُلِفَ في المَلإِ الأعْلَى:

قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: المَلأُ الأعلَى، همُ الملائكةُ الذينَ تكلّموا في آدمَ ﷺ حينَ قالَ لهمُ الرَّبُّ ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ الآية [البقرة: ٣٠] وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ليسَ على حقيقةِ الخُصومةِ، ولكنْ على التَّكلُّمِ في ذلكَ كقولِهِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ [الطور: ٢٣] كأنها ليستْ على التنازُعِ المعروفِ عندَ الناسِ والخُصومةِ، ولكنْ على اخْتِلافِ الأيدي.

فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ مِنِ اخْتِصامِهِمْ، واللهُ أعلَم. ومَعْناهُ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مِنِ اخْتِصامِ المَلإِ الأعْلَى، وما كانَ منهمْ مِنَ التَّكلُّمِ إلّا أنْ أُوحِيَ إليَّ، فَعَلِمْتُ[4]، وأنما ﴿أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وما كانَ اخْتِصامُهُمْ في الكفاراتِ وفي الدرجاتِ وفي المُنْجِياتِ والمُوبِقاتِ[5] حتى عَلَّمَني اللهُ ذلكَ بالوَحْيِ إليَّ، وأعْلَمَني ذلكَ.

ويَذْكُرونَ «أنَّ الكفّاراتِ، هي إسباغُ الوضوءِ في المَكارِهِ، وبَذْلُ الطعامِ عندَ الضيقِ والشدائدِ» [بنحوه البزار في كشف الأستار: ٢١٢٩] ونَحْوُها ممّا يَطولُ ذِكْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي بالجَمْعِ الأعلى، وهو جَمْعُ يومِ القيامةِ [سَمّاهُ الجَمْعَ][6] الأعلى لأنهُ جَمْعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ مِنَ الفِرَقِ جميعاً؛ أي ما كانَ لي مِنْ عِلْمٍ بذلكَ الجَمْعِ حتى عَلِمْتُ بالوَحْيِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في ذلكَ اليومِ تَقَعُ الخُصوماتُ كقولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] وهو على حقيقةِ الخُصومةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المَلأُ الأعلَى، همُ الأشرافُ مِنْ أولئكَ الكفَرةِ والقادةِ، منهُمُ الذينَ أُهْلِكوا بالتكذيبِ ومَنْ نَجا منهمْ بالتصديقِ، فيقولُ: ما كانَ لي مِنْ عِلْمٍ بهمْ، وما نَزَلَ بهمْ أُوحِيَ إليَّ، فَعَلِمْتُ بالوَحْيِ.

كأنهمْ سألوهُ عنْ ذلكَ. فأخبَرَ أني كنتُ كواحدٍ منكُمْ في ذلكَ حتى عَلِمْتُ ذلكَ بالوحْيِ ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمَرَني ربّي، وأوْحَى إليَّ أنْ أُنْذِرَكُمْ بذلكَ متى[7] أعْلَمُ بالوَحْيِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ لا على القولِ منهُ لهمْ، ولكنْ على الخَبَرِ أنهُ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذَكَرَ الذي خَلَقَ منهُ آدمَ على أوصافٍ مُخْتلِفةٍ؛ مَرّةً ذَكَرَ أنهُ خَلَقَهُ مِنْ طينٍ، ومَرّةً مِنْ تُرابٍ، ومَرّةً مِنْ حَمَإٍ مَسْنونٍ ومَرّةً مِنْ [صَلْصالٍ كالفَخّارِ ومَرّةً مِنْ طينٍ][8] لازِبٍ، وغيرِهِ على اخْتِلافِ ما ذُكِرَ.

---

(١) من م، في الأصل: من التكذيب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وفي. (٤) من م، في الأصل: فقالت. (٥) في الأصل وم: والموثقات. (٦) من م، في الأصل: سماع الجميع. (٧) في الأصل وم: حتى. (٨) في الأصل وم: كالصلصال ومرة كالفخار ومرة، في م؛ كالصلصالِ ومرة كالفخار ومرة.

فجائزٌ أنْ يكونَ كلُّ وصفٍ مِنْ ذلكَ قد كانَ وَصْفاً[١] عَنْ حالٍ؛ كانَ تراباً ثم صارَ ما ذَكَرَ وصْفَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وإضافةُ الروحِ إلى نفسِهِ كإضافةِ خَلْقٍ مِنْ خَلائِقِهِ إليهِ، إذِ الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلائِقِهِ كَسائِرِ الخَلائِقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ لولا صَرْفُ أهلِ التأويلِ سُجودَ الملائكةِ لآدمَ إلى حَقيقةِ السجودِ، لكنا[٢] نَصْرِفُ الأمْرَ بهِ إلى الخُضوعِ لهُ والاستِسْلامِ كما أحْوَجَ الملائكةَ إلى معرفةِ هذهِ الأسماءِ إلى آدمَ، وبهِ عَرَفوها حينَ[٣] قالَ ﷻ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]. لكنْ صَرْفُ أهلِ التأويلِ سُجودَ الملائكةِ إلى حقيقةِ السجودِ لهُ جائزٌ لأنهمْ مُمْتَحَنونَ بالأمرِ والنَّهْيِ، وقد بيَّنّا ذلكَ في ما تقدَّمَ.

ثم اسْتَثْنَى إبليسَ مِنَ الملائكةِ، وأخْبَرَ أنهُ اسْتَكْبَرَ، وأبَى أنْ يَسْجُدَ لهُ حينَ[٤] قالَ ﷻ.

الآيتان ٧٣ و٧٤ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ إبليسَ كانَ مِنَ الملائكةِ، فلمّا أبَى السُّجود، خَذَلَهُ، وَوَكَلَهُ إلى نفسِهِ، وصارَ[٥] كافراً لِيُعْلَمَ أنَّ كلَّ أحدٍ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ، وجَلَّتْ مَنْزِلَتُهُ، يَحْتَمِلُ خلافَ ما هو فيهِ وضِدَّهُ، وأنهُ متى امْتَحَنَهُ بأمرٍ، فَتَرَكَ أمْرَهُ تَكَبُّراً أوِ اسْتِخْفافاً، خذلَهُ[٦]، وَوَكَلَه إلى أمرِهِ ونفسِهِ، فَصارَ كافراً مَخْذولاً حقيراً، لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ وفَزَعٍ إلى اللهِ ﷻ على ما أخْبَرَ عَنْ عِظَمِ قَدْرِ الملائكةِ عندَ اللهِ وجَليلِ مَنْزِلَتِهِمْ عندَهُ، إذا خَذَلَهُمْ، وَوَكَلَهُمْ إلى أنفسِهِمْ صاروا كما صارَ إبليسُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يكفُرُ، أو كانَ بِمَعْنَى صارَ مِنَ الكافرينَ إذْ أبَى السجودَ، واسْتَكْبَرَ، كقولِهِ ﷻ لآدَمَ ﷺ ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ موضعٍ أنَّ تَخْصيصَ إضافةِ الشيءِ الواحدِ إلى اللهِ ﷻ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ تعظيمِ ذلكَ الواحدِ وذلكَ الفَرْدِ كقولِهِ ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣] وقولِهِ[٧]: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]. [وقولِهِ][٨]: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] [وقولِهِ][٩]: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢] وأشباهَ ذلكَ.

وخَصَّ هذهِ الأشياءَ بالإضافةِ إليهِ، وإنْ كانَتِ البِقاعُ كلُّها والخَلْقُ كلُّهُ لهُ، على التعظيمِ [لتلكَ الأشياءِ][١٠].

فَعَلَى ذلكَ تُخَرَّجُ إضافةُ خَلْقِ آدمَ حينَ[١١] قالَ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وإنْ كانَ جميعُ الخلائقِ، هو[١٢] خَلَقَهُمْ، وتُخَرَّجُ كُلِّيَّةُ الأشياءِ إلى اللهِ وكُلِّيَّةُ الخلائقِ مُخْرَجَ تعظيمِ الرَّبِّ والمَدْحِ لهُ نَحْوَ قولِهِ ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] [وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]][١٣] يَخْلُقُ مَنشأَ العالَمِ [ومَبْدأَهُ كقولِهِ][١٤] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠و..] [وقولِهِ][١٥]: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] وغيرَ ذلكَ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿بِيَدَىَّ﴾ قد تَكَلَّفَ أهلُ الكلامِ والتأويلِ إضافةَ اليَدِ إلى اللهِ ﷻ منهمْ مَنْ قالَ [هي][١٦] القُوَّةُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: كذا. لكنَّ التَّكَلُّفَ في ذلكَ فَضْلٌ مع ما قد تُضافُ اليدُ إلى مَنْ لا يَدَ لهُ ولا جارِحَةَ، ولا عُضْوَ نَحْوَ [ما][١٧] قالَ ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] لم يَفْهَمْ أحدٌ بِذِكْرِ اليَدِ لهُ والخَلْفِ[١٨] ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ، وكذلكَ لم يَفْهَمْ ما ذَكَرَ مِنْ مَجيءِ الحقِّ ولا زُهوقِ الباطلِ ما يُفْهَمُ مِنْ مَجيءِ الخَلْقِ وذهابِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]][١٩] وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ مَجيءِ البرهانِ حينَ[٢٠] قالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

(١) في الأصل وم: وصف. (٢) في الأصل وم: وإلا كنا. (٣) و(٤) في الأصل وم: حيث. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وخذله. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لذلك. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) في الأصل: ورزق كل شيء ورزاق، في م: ورزاق. (١٤) في الأصل وم: ومبدأها. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) و(١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: ولا الخلق. (١٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا ذهابهم. (٢٠) في الأصل وم: حيث.

جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧] وقال(١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤] وأمثالُ ذلكَ ممّا يَكْثُرُ عَدُّهُ وإحصاؤُهُ.

لم يَفْهَمْ أحَدٌ مِنَ الخلائِقِ مِنْ مجيءِ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرْنا مَجيءَ الخَلْقِ، ولا فِهِمَ مِنْ ذِكْرِ اليدِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأشياءِ جارحةً ولا عُضواً. فكيفَ يُفْهَمُ مِنْ ذِكْرِ اليدِ ما فَهِمَ مِنَ الخَلْقِ، لولا فسادُ اعْتِقادِهِمْ لربِّهِمْ، والجهلُ بِتَعالِيهِ عنْ مَعْنَى الغَيرِ؟ وإلّا لم يَخْطِرْ ببالِهِ بِذِكْرِ ذلكَ للهِ وإضافتِهِ إليهِ ما يَخْطِرُ ببالِهِمْ مِنَ الخَلْقِ ومَعْنَى الخَلْقِ.

[ويَحتَمِلُ](٢) أنْ يكونَ ذلكَ ذَكَرَ لنفسِهِ وأضافَهُ إليهِ مِنَ اليَدِ وما ذَكَرَ لِما باليَدِ يكونُ [العَمَلُ](٣) في المُشاهَدِ لو احْتَمَلَ كونُ ذلكَ مِنَ الخَلْقِ نَحْوُ ما قالَ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وقالَ(٤): ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ونحوُهُ / ٤٦٤ ـ ب/ ممّا يُعْلَمُ في الحقيقةِ أنَّ ذلكَ لم يكنْ بِكَسْبِ اليدِ(٥) حقيقةً ولا عَمَلِهِ مِنْ نَحْوِ الكُفْرِ ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ.

لكنهُ ذَكَرَ اليدَ لِما باليَدِ يُكْتَسَبُ في الشاهِدِ، وبها تُعْمَلُ أكْثَرُ الأعمالِ والأفعالِ. وأضافَ ذلكَ إليها لِما ذَكَرْنا، وإنْ لم يَكُنْ منها عَمَلٌ حقيقةً.

فَعَلَى ذلكَ إضافةُ اليدِ إلى اللهِ في ما أضافَ على ما كانَ ذلكَ مِنَ الخَلْقِ إنما كانَ باليَدِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما ذُكِرَ مِنِ اسْتِوائِهِ على العرشِ بَعْدَ أنْ ذَكَرْنا فيه ما يَليقُ بِهِ ونَفَيْنا عنهُ ما لا يَليقُ.

وأصلُ ذلكَ أنما عَرَفْنا اللهَ ﷻ مُتعالياً عنْ جميعِ معاني الغَيرِ عَنْ كلِّ صفاتٍ يُوصَفُ بها الغيرُ على ما ذَكَرَ في كتابِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. فإذا كانَ كذلكَ فلا حاجةَ لنا إلى تأويلِ اليدِ وما ذَكَروا أنهُ ما أرادَ بهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، اسْتَكْبَرْتَ للحالِ عندَما أبَيتَ السجودَ لهُ أم كُنْتَ في اعْتِقادِكَ مِنَ العالِينَ؟ أي المُسْتَكْبِرينَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أم صِرتَ مِنَ العالِينَ أي اسْتَكْبَرْتَ، وصِرْتَ مِنَ العالِينَ على ما في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٧٤] أي صارَ مِنَ الكافرينَ.

ثم حرفُ الشَّكِّ والاسْتِفْهامِ مِنَ اللهِ قد ذَكَرْنا أنهُ على الإيجابِ والقَطْعِ؛ كأنهُ قالَ: بلى كُنْتَ في [علمِ](٦) اللهِ أنكَ تَكْفُرُ، أو يقولُ: وصِرتَ مِنَ العالينَ أي مِمَّنْ يَطْلُبُ العُلُوَّ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ظَنَّ إبليسُ، عليهِ لعنةُ اللهِ، أنَّ النارَ، لمّا كانَ مِنْ طَبْعِها الارْتِفاعُ والعُلُوُّ، ومِنْ طَبْعِ الطِّينِ التَّسَفُّلُ والانْحِدارُ، أنَّ الذي طَبْعُهُ الارْتِفاعُ والعُلُوُّ خيرٌ مِنَ الذي طَبْعُهُ التَّسَفُّلُ والانْحِدارُ. لِذلكَ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أو لمّا رأى أنَّ إصلاحَ الأشياءِ كلِّها ونُضْجَها بالنارِ [قالَ ذلكَ](٧).

لكنْ لو نَظَرَ(٨) المَلْعونُ، وحَقَّقَ النَّظَرَ لَعَلِمَ أنَّ الطينَ خَيرٌ مِنَ النارِ لأنهُ مِنَ الأرضِ، والأرضُ كالأصلِ والأمِّ لِغَيرِهِ، لأنَّ الأشياءَ يكونُ إصلاحُها ونُضْجُها بالنارِ؛ أوَّلُ بَدْئِها مِنَ الأرضِ كالابْنِ مِنَ الأمِّ الوالدةِ على غَيرِ ما ذَكَرَ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم كُفْرُهُ بإتيانِهِ السجودَ لهُ لِما لم يَرَ أمْرَ اللهِ لهُ بسجودِ مَنْ هو خيرٌ، وأعْلَى لِمَنْ دونَهُ حِكْمَةً وحَقّاً، فَكَفَّرَهُ لمّا رآهُ أنهُ وَضَعَ الأمْرَ(٩) في غيرِ مَوْضِعِ الأمرِ(١٠) واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي اخْرُجْ مِنَ الجنةِ. وقالَ بعضُهُمْ: [أي اخْرُجْ مِنَ السماءِ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: به. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فقال عند ذلك. (٨) من م، في الأصل: يظن. (٩) و(١٠) في الأصل وم: الأرض.

إلى الأرضِ. وقالَ بعضُهُمْ][1] أي اخرُجْ مِنَ الأرضِ إلى جَزائِرِ البحرِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ، وليسَ لنا أنْ نَتكَلَّفَ القطعَ على القولِ فيهِ إنْ أمَرَهُ بالخروجِ مِنْ كذا، وقد عَرَفَ اللَّعينُ أنهُ [لمّا][2] تَمادى أمرَهُ بالخروجِ منها.

ثم ذَكَرَ مرَّةً: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ ومرَّةً قالَ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] ونَحوَ ذلكَ مِنَ الألفاظِ المختلفةِ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مرَّةً: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] ونَحوَ ذلكَ على الألفاظِ المُختلِفةِ. فذلكَ كلُّهُ يَدُلُّ على أنْ ليسَ على الناسِ حِفْظُ الألفاظِ والحروفِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ في القَصَصِ على اختِلافِ الألفاظِ مُكرَّرةً مُعادةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي لَعينٌ؛ كأنهُ قالَ: فإنكَ لَعينٌ على ألْسُنِ الناسِ، ليسَ يَذْكُرُهُ أحدٌ مِنْ أعدائِهِ وأتباعِهِ وأوليائِهِ إلّا وقد لَعَنَهُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كانَتِ اللعنةُ عليهِ إلى يومِ الدينِ هي[3] خِذْلانَهُ وطَرْدَهُ عن رحمتِهِ ودينِهِ لِما عَلِمَ أنهُ لا يعودُ إلى اختيارِ توحيدِهِ وطاعتِهِ أبداً. وكانَتْ[4] عليهِ لعنتُهُ في الدنيا والآخرةِ؛ فأمّا في الدنيا فما ذَكَرْنا مِنْ خِذْلانِهِ وتَرْكِهِ في الغَيِّ[5]، وأمّا في الآخرةِ فَطَرْدُهُ[6] عن جَنّتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧٩ و٨٠ ثم سألَ ربَّهُ أنْ يَنْظُرَهُ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فأجابَ حينَ[7] قالَ ﷻ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وإنما أنظَرَهُ، واللهُ أعلَمُ [لِما عَلِمَ][8] أنهُ يَختارُ الكُفرَ والخِلافَ لهُ أبداً.

الآية ٨١ ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ هو يومٌ اختُلِفَ فيهِ: [قالَ بعضُهُمْ:][9] الوقتُ المَعْلومُ هو يومُ البَعْثِ إلى ذلكَ أنْظَرَهُ على ما سَبَقَ منهُ السؤالُ على النَّظِرَةِ إلى يومِ البَعْثِ حينَ[10] قالَ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: الوقتُ المَعْلومُ، هو النَّفخةُ الأولَى. وقالَ بعضُهُمْ: لم يُبيِّنْ لهُ ذلكَ الوقتَ، ولذلكَ ذَكَرَ منهُ الخوفَ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] و ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] ولو كانَ بَيَّنَ[11] لهُ الوقتَ المعلومَ لَكانَ لا يَخافُ دونَ ذلكَ الخوفِ. ولكنهُ يأمَنُ. فَدَلَّ خوفُهُ أنهُ لم يُبيِّنْ لهُ ذلكَ، وهو مَعْلومٌ عندَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٢ و٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وقالَ ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أنْ تُغْوِيَهُمْ إلّا مَنْ كانَ في عِلْمِهِ أنهُ يختارُ الغَوايَةَ، ويُؤْثِرُ اتِّباعَهُ، فيكونُ لهُ عليهِ[12] سلطانُ الإغواءِ.

فأمّا مَنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَختارُ الإيمانَ والتوحيدَ فلا سبيلَ [لهُ عليهِ][13] واللهُ أعلَمُ. ثم قالَ بعضُهُمْ: المُخْلِصِينَ[14] للتوحيدِ. فإنْ كانَ ذلكَ فيكونُ قولُهُ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأُهْلِكَنَّهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ مِنْ كلِّ ذنبٍ وكلِّ مَعْصيةٍ. لكنَّ الوَجْهَينِ الأوَّلَينِ أشبَهُ وأقرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ قد قُرِئَ[15] بِنَصْبِهِما جميعاً: فالحَقَّ والحَقَّ أقولُ، وقد قُرِئَ أيضاً برفعِ الأوَّلِ ونَصْبِ الثاني: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾.

فَمَنْ قَرَأَ بالرفعِ [والنصبِ][16] فيكونُ معناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنا الحقُّ والحقَّ أقولُ، أي مني يكونُ الحَقُّ على هذا.

ومَنْ قَرَأَ على النَّصْبِ فهو على التأكيدِ تأكيداً على ما ذَكَرَ على إثْرِهِ؛ كأنهُ يقولُ: أقولُ الحقَّ الحقَّ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: وإلا كان. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العمر. (٦) في الأصل وم: مطرود. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: يبين. (١٢) في الأصل وم: عليهم. (١٣) في الأصل وم: لك عليهم. (١٤) بكسر اللام، وهي قراءة انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٧٥. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٧٥و/ ٢٧٦. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٨٥ وقولُهُ(١) تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ جائزٌ(٢) أنْ يُحتَجَّ بهذِهِ الآيةِ على المُعتزلَةِ؛ فيُقالَ لهمْ: أرادَ اللهُ ﷻ أنْ يُنجِزَ ما وَعَدَ وأنْ يَصْدُقَ خَبَرُهُ الذي أخبَرَ أنهُ كانَ يكونُ، أو لم يُرِدْ أنْ يُنجِزَ ما وَعَدَ، وألّا يَخرُجَ خَبَرُهُ على الصِّدقِ.

فإنْ قالوا: لم يُرِدْ أعظَموا القولَ [فيهِ](٣) لأنهمْ زَعَموا أنهُ أرادَ أنْ يُخلِفَ ما وَعَدَ، وأنْ يَكْذِبَ(٤) في خَبَرِهِ، فذلكَ عظيمُ القولِ حينَ(٥) وَصَفوا ربَّهُمْ بالسَّفَهِ، إذْ مَنْ أرادَ أنْ يُخلِفَ وعدَهُ، وأنْ يَكْذِبَ(٦) في خَبَرِهِ، فهو سفيهٌ على زَعْمِ مَنْ قالَ ذلكَ. وإنْ قالوا: أرادَ أن يُنجِزَ ما وَعَدَ، وأنْ يَصْدُقَ خَبَرُهُ، فيُقالُ لهمْ: أرادوا أنْ يَتَّبِعوا إبليسَ، أو أرادَ أنْ يؤمِنوا، ولا يَتَّبِعوا إبليسَ، فيُقالُ: أرادَ أنْ يَجورَ، ويَظْلِمَ، على زَعمِكُمْ لأنهُ أرادَ أنْ يَملأَ جَهَنَّمَ، ولم يُرِدْ ما يَستَوجِبونَ ذلكَ.

فَدَلَّ على أنَّ اللهَ تعالى أعْلَمُ بما(٧) يكونُ منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: لا أسألُكُمْ على ما أدْعوكُمْ [إليهِ](٨) مِنَ الشَّرَفِ والذِّكْرِ في الدنيا والآخِرَةِ مِنْ أجْرٍ، ولا أحَدَ في الشاهِدِ مِمَّنْ يَبْذُلُ للأجْرِ مِنَ الشرفِ أو الذِّكْرِ، ولا يُعطيهِ ذلكَ إلّا بأجْرٍ. فكيفَ يَتْرُكونَ اتِّباعي، ولا يَقْبَلونَ ذلكَ مني؟

[والثاني](٩): لا أسألُكُمْ على ما أدعوكُمْ إليهِ مِنْ أجرٍ، فيَمْنَعَكُمْ ثِقَلُ ذلكَ الأجْرِ وذلكَ الغُرْمِ عنْ إجابتي كقولِهِ: ﷻ: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] أي لَسْتَ تَسألُهُمْ أجراً حتى يَمنَعَهُمْ ثِقَلُ ذلكَ الغُرْمِ عنِ الإجابَةِ / ٤٦٥ ـ أ/

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: وما أنا مِمَّنْ تَكَلَّفَ ذلكَ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ(١٠)، ولا أمَرْتُكُمْ بما أمَرْتُكُمْ إلّا بالوَحْيِ، والمُتَكَلِّفُ عندَ الناسِ في الظاهِرِ، هو الذي يَفْعَلُ، ويقولُ بلا إذْنٍ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: المُتَكَلِّفُ، هو الذي يَتَكَلَّفُ ما لا يَعنيهِ، ويَفْعَلُ ما [لم](١١) يُؤمَرْ بِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي ما أنا مِنَ المُتَحَمِّلينَ ممّا حُمِّلْتُمْ إذا خالَفْتُموني، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا [القرآنُ وهذا](١٢) النَّبأُ الأعْظَمُ [إلّا](١٣) ذِكْرٌ لِمَنِ انْتَفَعَ بِهِ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ يَحتَمِلُ نَبأَ القرآنِ، ويَحتَمِلُ البَعْثَ والحسابَ، أي تَعْلَمونَ أنَّ ذلكَ حقٌّ بعدَ حينٍ.

ثم ذَكَرَ ﷻ في جَهَنَّمَ أنهُ يَملَؤُها، ولم يَذْكُرْ في الجنةِ أنهُ يَملَؤُها. فجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ المَلْءِ هو أنْ يُضَيِّقَها عليهِمْ، وفي التَّضييقِ زيادةٌ في المَلْءِ، أو أنْ يكونَ في سَعَةِ الجنةِ حكمةٌ، ولا يكونُ ذلكَ في جهنَّمَ، لأنَّ السَّعَةَ تُطلَبُ لِلتَّنَزُّهِ والانْتِشارِ في البساتينِ وغيرِ ذلكَ، وليسَ ذلكَ، في جَهَنَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: وهو يقول. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يكون. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) في الأصل وم: أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو يقول. (١٠) في الأصل وم: نفسي. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

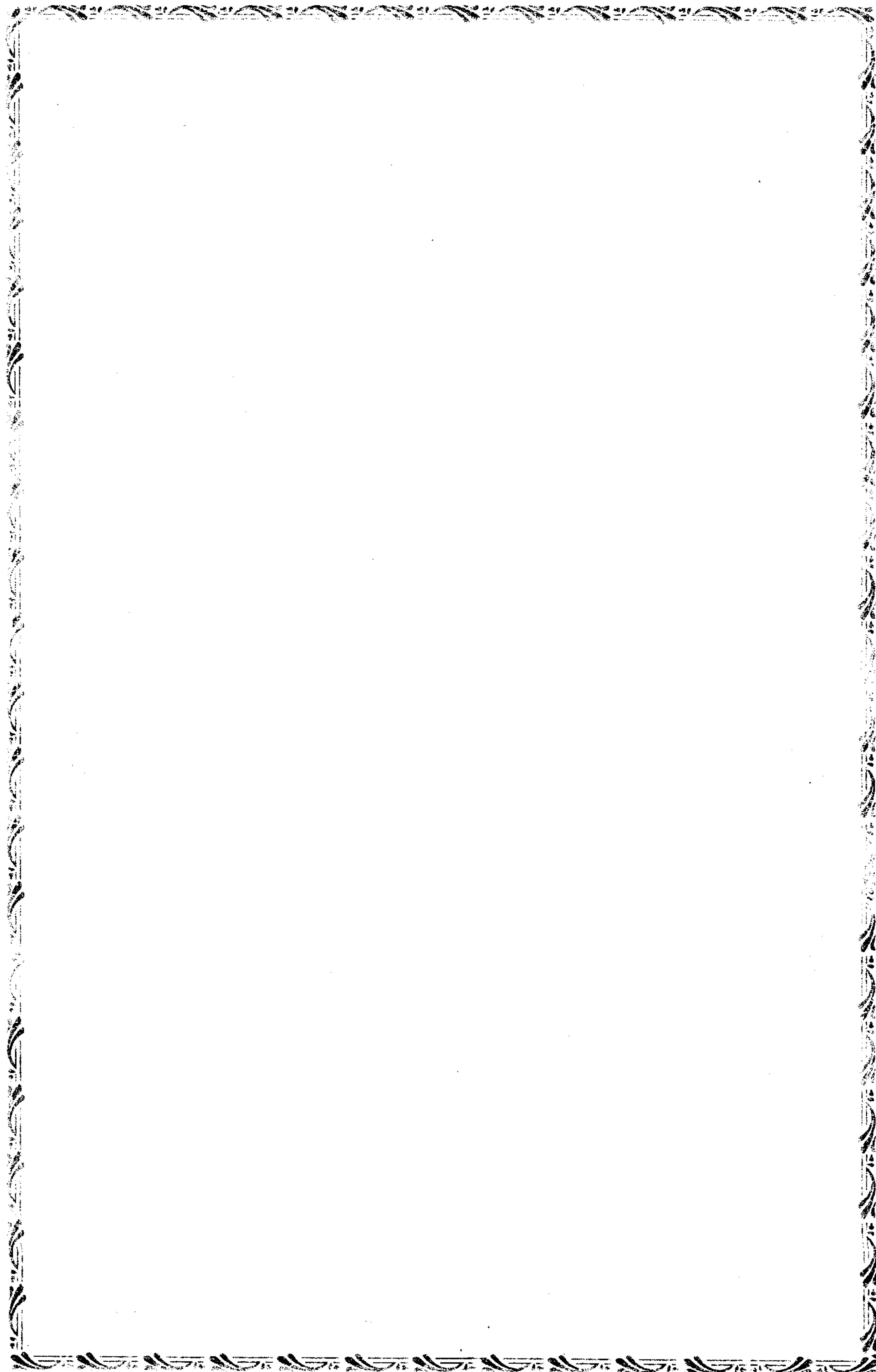

سورة الزمر

[وهي][١] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الكتابَ الذي يَتْلوهُ رسولُنا محمدٌ ﷺ ويَدْعوكُمْ إليهِ، هو تَنزيلٌ مِنْ عندِ اللهِ، كقولِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ [لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣و١٩٤]][٢].

وقولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ على إثْرِ قولِهِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يُخَرَّجُ، واللهُ أعلَمُ [على][٣] أنهُ يَدْعوكُمْ محمدٌ ﷺ إلى اتِّباعِ الكتابِ والطاعةِ [له][٤]، ليسَ لِيَذُلَّ بِهِ، يَطْلُبُ بكُمُ العِزَّ، وضَعْفٍ[٥] في التدبيرِ، فَيَطْلُبُ بكمُ الاسْتِعانَةَ فيهِ؛ لأنهُ عزيزٌ بذاتِهِ، حكيمٌ، لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ أو الضَّعْفُ في التدبيرِ، ولكنْ إنما أمَرَكُم بما أمَرَ، ونهاكُمْ عمّا نَهى لِتَكْتَسِبوا لأنفسِكُمْ، ولِتَنْتَفِعوا بِهِ. فإنَّ[٦] اللهَ سُبْحانَهُ عزيزٌ بذاتِهِ، غَنِيٌّ، حكيمٌ بنفسِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو العزيزُ لأنَّ كلَّ عزيزٍ دونَهُ [يَصيرُ ذليلاً عندَهُ، وعِزّ][٧] مَنْ دونَهُ عندَ عِزِّهِ [يصيرُ][٨] ذُلّاً.

والحكيمُ، هو المُصيبُ في فِعْلِهِ وتدبيرِهِ. وقيلَ: هو الذي وَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: العزيزُ، هو المَنيعُ، وتأويلُ المنيعِ المُمْتَنِعُ عن جميعِ مكايِدِ الخَلْقِ وجميعِ حِيَلِهِمْ بالضَّرَرِ لهُ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحَقِّ الذي للهِ عليكُمْ، وبالحقِّ الذي لِبَعْضِكُمْ على بعضٍ [ويَحْتَمِلُ ما قالَ][٩] أهلُ التأويلِ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي لِلْحَقِّ، أي أنْزَلْناهُ لِلْحقِّ، لم تُنْزِلْهُ عَبَثاً باطلاً لِغَيرِ شيءٍ، ولكنْ أنْزَلْناهُ لِلْحَقِّ لِحُقوقٍ ولأحكامٍ ومِحَنٍ وأُجورٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ إنزالِهِ الكتابَ بالحقِّ ذلكَ [الحقّ][١٠] هو ما أمَرَهُ مِنَ العبادةِ لهُ، أمَرَهُ بوفاءِ ذلكَ الحقِّ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهُما: الأصلُ[١١] في الاعْتِقادِ، أي اعْتَقِدْ جَعْلَ كلِّ عبادةٍ وطاعةٍ للهِ خالصاً، لا تَعْتَقِدْ [أحداً شريكاً][١٢].

والثاني: في المُعامَلَةِ، أي كلُّ عبادةٍ وطاعةٍ اجْعَلْهُ للهِ خالصاً. لا تَجْعَلْ لِغَيرِهِ فيهِ شِرْكاً، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا أهلُ التأويلِ [فقد][١٣] قالوا: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدِ اللهَ ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وتأويلُ هذا: انِ اجْعَلِ الوَحْدانِيَّةَ والأُلوهِيَّةَ للهِ في كلِّ شيءٍ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي ألا للهِ شهادةُ الوَحْدانِيَّةِ والأُلوهِيَّةِ في كلِّ شيءٍ. ويَحْتَمِلُ أيضاً

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الآية. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والضعف. (٦) في الأصل وم: فأما. (٧) في الأصل وم: إذا يصير ذليلاً غيره عز. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو لما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أصل. (١٢) في الأصل وم: أحد شركاء. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

قولُهُ ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي دينُ اللهِ، هو الدينُ الخالِصُ، لأنهُ دينٌ قامَ بالحُجَجِ والبراهينِ. وأمّا غيرُهُ مِنَ الأديانِ، فهو دينٌ [قامَ][1] بِهَوَى النَّفْسِ وأمانيِّها لا بالحُجَجِ والآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ كأنَّ فيهِ [إضماراً: وقالَ][2] الذينَ اتَّخذوا مِنْ دونِهِ أولياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلّا لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفَى، وقالوا في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] عَرَفوا أنَّ ما كانوا يَعْبُدونَ مِنَ الأوثانِ وغَيرِها لَيسوا بآلهةٍ في الحقيقةِ، ولا لَهُمُ الألوهِيَّةُ حقيقةً، وأنَّ حَقيقةَ الألوهِيَّةِ للهِ. لكنهمْ سَمَّوها آلهةً لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَها؛ وكلُّ مَعْبودٍ عندَ العربِ إلهٌ، لأنَّ الإلهَ هو المَعْبودُ، وقد رَأَوا تَسْمِيَةَ كلِّ معبودٍ إلهاً. لذلكَ سَمَّوها آلهةً، وإنْ عَرَفوا أنْ لَيسَتْ لهذهِ الأشياءِ الوهِيَّةٌ حقيقةً، [وأنَّ الألوهيَّةَ][3] للهِ ﷻ ثم إنَّ الذي حَمَلَهُمْ على عِبادةِ ما عَبَدوا مِنْ دونِ اللهِ وجهانِ:

أحَدُهُما: لمّا لم يَرَوا أنفسَهُمْ تَصْلُحُ لِعِبادةِ الإلهِ العظيمِ، أو تَقْدِرُ على القيامِ بِخِدْمَتِهِ عَبَدوا[4] هذهِ الأشياءَ رَجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ عبادةُ هؤلاءِ إلى اللهِ زُلْفَى، وأنْ [يكونَ][5] هؤلاءِ شُفَعاءَهُمْ عندَهُ[6]. وذلكَ ما رَأَوا في ملوكِ الدنيا: أنَّ كلَّ أحدٍ يَجِدُ السبيلَ إلى خِدْمَةِ مَلِكٍ[7]، أو يَقْدِرُ على القِيامِ بَينَ يَدَيهِ والخِدْمَةِ لهُ، يَخْدِمُ[8] مَنِ اتَّصَلَ بالمَلِكِ ومَنْ عَظُمَ قَدْرُهُ ومنزِلَتُهُ عندَ المَلِكِ لِيُقَرِّبَهُ ذلكَ المَخْدومُ لهُ إلى المَلِكِ إذا بَدَتْ لهُ الحاجةُ أو الشَّفاعةُ.

وعلى ذلكَ ما ذُكِرَ في قصةِ فرعونَ أنهُ كانَ اتَّخَذَ لِقَومِهِ أصناماً يَعْبُدونَها مِنْ دونِهِ لِما لم يَرَ كلَّ أحدٍ منهمْ يَصْلُحُ لِخَدْمَتِهِ، وهو ما أغْرَى قومَهُ على موسى حينَ[9] قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ونَحْوُ هذا وجْهٌ.

والثاني: عَبَدُوها[10] لما رأوا آباءَهُمْ قد عَبَدوها، وتُرِكوا على ذلكَ حتى تابوا، فاسْتَدَلّوا بِتَرْكِهِمْ[11] على ذلكَ على أنَّ اللهَ قد كانَ رَضِيَ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ، وأمَرَهُمْ بذلكَ لِقَولِهِمْ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ولِذلكَ قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ/ ٤٦٥ ـ ب/ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقالوا[12]: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

اسْتَدَلّوا بِتَرْكِهِ آباءَهُمْ على ما عَبَدوا مِنَ الأصنامِ على ذلكَ وأنهمْ عنْ أمْرٍ منهُ فَعَلُوا ذلكَ. فَرَدَّ اللهُ ذلكَ عليهِمْ، فقالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يومَ القيامةِ ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في محمدٍ ﷺ لأنهمُ اخْتَلَفوا فيهِ:

فمنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ ساحِرٌ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ شاعرٌ، وإنهُ مجنونٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، ونَحْوَهُ.

فَيُخْبِرُ أنهُ يَحْكُمُ بينهُمْ لِيُبَيِّنَ لهمْ أنَّ ما ذَكَروا [هو هواهُمْ][13] أو يَحْكُمُ بَينَهُمْ أنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها لا تَشْفَعُ لهمْ، وأنَّ عبادَتَهُمْ لا تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى.

وقد بَيَّنَ لهمْ في الدنيا أنَّ محمداً ﷺ ليسَ بشاعرٍ ولا ساحرٍ ولا كذّابٍ على ما قالوا لمّا أنْبَأَهُمْ، وأخْبَرَهُمْ بأخبارٍ، عَرَفوا أنَّ الساحرَ والشاعرَ، لا يَعْرِفُ مِثْلَها، نَحْوَ ما أخْبَرَهُمْ بِنَصْرِ اللهِ إيّاهُ والظَّفَرِ لهُ عليهِمْ، أعني على الأعداءِ، فكانَ على ما أنْبَأَهُمْ. وكذلكَ ما أنْبَأَهُمْ بأنباءٍ وأخبارٍ، عَرَفوا أنهُ صادقٌ في ذلكَ ما لا يُسْتَفادُ مِثْلُها بالسِّحْرِ وبالكهانةِ إلّا بالوَحْيِ مِنَ اللهِ ﷻ لكنهُمْ عانَدوا، وكابَروا.

وكذلكَ بَيَّنَ لهمْ أيضاً ما عَرَفوا أنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها في الدنيا، لا تَمْلِكُ لهمُ الشَّفاعةَ يومَ القيامةِ حينَ[14] ابْتَلاهُمْ بأهْوالٍ وأفزاعٍ: بركوبِ البحارِ والضِّيقِ عليهِمْ، حتى فَزِعوا إلى اللهِ في كشفِ ذلكَ عنهمْ ودَفْعِهِ عنهمْ، لم يَفْزَعوا إلى الأصنامِ التي عَبَدوها، وهو ما قالَ ﷻ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقولُهُ: ﴿وَإِذَا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إضمار يقول والذين. (٣) في الأصل وم: وأن ذلك. (٤) في الأصل وم: فعبدوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عندهم. (٧) في الأصل وم: ملوكها. (٨) في الأصل وم: فيخدم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: عبدوهم. (١١) في الأصل وم: تركهم. (١٢) في الأصل وم: وقولهم. (١٣) في الأصل وم: هواهم. (١٤) في الأصل وم: حيث.

﴿مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ونَحوُ ذلكَ ما ابْتَلاهُمْ بالشدائدِ والبَلايا، عَرَفوا أنَّ مَعْبودَهُمُ الذي عَبَدوهُ، لا يَمْلِكُ دَفْعَ ذلكَ عنهُمْ ولا كَشْفَهُ. وإنما المالكُ لذلكَ، هو اللهُ المَعْبودُ الحَقُّ.

ثم يُناقِضُ قولَهُمْ لأنهمْ كانوا يُنكِرونَ رسالةَ النَّبِيِّينَ بِقَولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] فَيَرَونَ للخشبِ والأشجارِ الألوهِيَّةَ والعبادةَ، فذلكَ تناقُضٌ ظاهِرٌ:

قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي مَقْرِبَةً، فَيَشفَعونَ لنا إلى اللهِ تعالى، وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: لا يَهدي أحداً بالضلالِ والكُفْرِ، ولكنْ إنما يَهْدي بضِدِّ الضَّلالِ والكُفرِ، أو كلامٌ نَحوُهُ.

وقالَ الجُبّائِيُّ: لا يَهدي مَنْ كانَ في الدنيا كاذباً كفّاراً في الآخِرَةِ طريقَ الجنةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ مَنْ ضَلَّهُ قولُهُ[1]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وقولُهُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] كَفّارٌ لِنِعَمِهِ بَصَرفِهِ[2] العِبادَةَ إلى غيرِ المُنْعِمِ.

وقالَ جعفرُ بْنُ حَرْبٍ: إنَّ اللهَ لا يَهدي إلى الزياداتِ [الذي يَكْذِبُ][3]، ويُعْطِي مَنِ اخْتارَ الهُدَى، لأنهُ يقولُ: إنَّ مَنِ اختارَ الهُدى، واهتَدى كانَ عند اللهِ [بلطفِهِ ورحمتِهِ][4]: يُعْطي ذلكَ زياداتٍ على ما كانَ اختارَهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

هذهِ التأويلاتُ كلُّها لِلْمُعْتَزِلَةِ.

وأمّا عندنا فإنَّ قولَهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما:][5] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ﴾ في عِلْمِهِ أنهُ يختارُ الكُفرَ وقتَ اختيارِهِ الكُفْرَ والضَّلالَ، أي لا يوفِّقُهُ للهُدى، ولا يُعينُهُ وقتَ اختيارِهِ الكُفرَ، ولكنهُ يَخذِلُهُ. وكذلكَ يقولُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨ و...] وقولِهِ[6]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧ و..] ونَحوِهِ أي لا يَهْدِيهِمْ وقتَ الكُفرِ والظُّلمِ، واللهُ الموفقُ.

والثاني: لا يَهْدي، أي لا يَخْلُقُ [مِنْ فِعْلِ مَنْ][7] فَعَلَ كُفراً[8] فِعْلَ هُدىً[9]، ولكنْ يَخلُقُ فِعْلَ كُفرٍ. وكذلكَ [لا يَخلُقُ مِنْ فِعلِ مَنْ فَعَلَ هُدًى فِعلَ كُفرٍ][10]، ولكنْ يَخلُقُ كلَّ فِعْلٍ على ما يَفعَلُهُ الفاعِلُ، ويَختارُهُ؛ يَخلُقُ [مِنْ][11] فِعلِ الكافرِ كُفراً، [ومِنْ فِعلِ][12] المُهْتَدي فِعلَ هُدىً يَخلُقُ كلَّ فِعلٍ على ما يَختارُهُ الفاعِلُ، ويَفْعَلُهُ إنْ كانَ هُدىً يَخلُقُهُ هُدىً، وإنْ كانَ كُفراً يَخلُقُهُ كُفراً.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ اللهَ لا يَهدي مَنْ كانَ في عِلْمِهِ أنهُ يَختِمُ بالكفرِ، ويَخرُجُ بهِ مِنَ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ يَحتَمِلُ وجهينِ:

أحَدُهما: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ على رسولِ اللهِ ﷺ.

والثاني: ﴿كَفَّارٌ﴾ لِنِعَمِ اللهِ وكاذِبٌ في القولِ كَفّارٌ في الفِعْلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ظاهِرُ هذا أنَّ إيجادَ الوَلَدِ لهُ مِنَ المُحْتَمَلِ والمُمْكِنِ، ليسَ مِنَ المُمْتَنِعِ. وكذلكَ ظاهرُ قولِهِ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: ١٧] ظاهرُ هذا الذي ذَكَرَ، هو مِنَ المُحْتَمَلِ والمُمْكِنِ [ليسَ مِنَ][13] المُمْتَنِعِ[14].

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: ﷻ. (٢) في الأصل وم: بصرفهم. (٣) في الأصل وم: التي تهدي. (٤) في الأصل وم: لطفاً ورحمة.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: فعل من هو. (٨) في الأصل وم: كفر. (٩) في الأصل وم: هذا.
(١٠) في الأصل وم: فعل من هو فعل هدى. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وفعل. (١٣) في الأصل وم: وكان دون.
(١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: أيضاً.

[لكنْ قولَهُ][1] ﷻ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١] يَدُلُّ[2] على أنَّ إيجادَ الوَلَدِ مِنَ المُمْتَنِعِ والعظيمِ في العقولِ والقلوبِ جميعاً.

ثم قولُهُ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [يَحتمِلُ وجهَين

أحدُهما:][3] أي لو جازَ، أوِ احْتَمَلَ إيجادُ الولدِ على ما تقولونَ أنتمْ، وتتوَهَّمونَ لاصطَفى، واختارَ ممّا يشاءُ هو ليسَ على ما تَختارونَ أنتمْ لهُ، وتشاؤونَ أنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ على ما تَزْعُمونَ؛ إذِ العُرْفُ في الخَلْقِ أنَّ مَنِ اتَّخذَ لنفسِهِ شيئاً إنما اتَّخذَهُ مِنْ أعزِّ الأشياءِ وأرفَعِها وأعظَمِها قَدْراً عندَهُمْ لا مِنْ أخَسِّ الأشياءِ وأذَلِّها. وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] أي [إلى آلهتِهِمُ التي اتَّخذَها][4] أولئكَ آلهةً في الحقيقةِ، ولكنْ سَمّاها بالذي عندَهُمْ، وكذلكَ قولُ موسى ﷺ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] أي انْظُرْ إلى [إلهِكَ][5] الذي اتَّخذْتَهُ إلهاً، سَمّاهُ على ما هو عندَهُ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ على ما في ظُنونِكُمْ وتَوَهُّمِكُمْ أنهُ لوِ اتَّخذَ الوَلَدَ لاختارَ ممّا ذَكَرَ ممّا تقولونَ أنْتُمْ؛ لو احْتَمَلَ ذلكَ على ما في ظَنِّكُمْ وحُسْبانِكُمْ لكانَ ممّا ذَكَرَ.

والثاني: مَبْنَى الإيجادِ راجعٌ إلى البَنِينَ إذْ كانَتِ الكَفَرَةُ يَنْسُبونَهُ إلى أنهمْ بناتُهُ، وإلى أنَّ عيسى ابْنُهُ..

وإنما تُتَّخَذُ الأولادُ، ويُنْسَبونَ، لِيُسْتَنْصَرَ بهِمْ.

فَبَرَّأَ اللهُ ﷻ نفسَهُ عنِ احتمالِ الشَّكْلِ وخوفِ الغَلَبَةِ، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ دَفَعَ ما قالوا فيهِ، وأحالَهُ[6]؛ ذلكَ لِما أخبَرَ أنهُ واحدٌ في الذاتِ. ولو كانَ لهُ ما ذَكَرَ هؤلاءِ مِنَ الوَلَدِ لم يكُنْ واحداً في الذاتِ؛ إذْ كلُّ مُحتمَلِ الوَلَدِ منهُ هو مِنْ شكلِ الوَلَدِ. فإنْ عَرَّفَهُمْ أنهُ واحدٌ لم يَحتَمِلِ الوَلَدَ وما ذَكَروا.

وفي قولِهِ ﷻ: القَهّارُ دلالةُ إحالةِ ذلكَ لأنهُ أخبَرَ أنهُ قَهّارٌ.

والوَلَدُ في الشاهدِ إنما يُتَّخَذُ لأحدِ وجوهٍ: إمّا لِوَحْشَةٍ أصابَتْهُ، فَيَسْتَأْنِسُ، وإمّا لِحاجةٍ تَمَسُّهُ، فيدفَعُ بالوَلَدِ تلكَ، وإمّا لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ، فَيَقْضيها، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذلكَ الوَلَدُ، وإمّا لِوِراثةِ مُلْكِهِ بَعْدَ مَوتِهِ، وهو دائمٌ باقٍ لا يزولُ مُلْكُهُ، وإمّا لِلاسْتِعانةِ بهِ والنُّصْرَةِ على أعدائِهِ. لأحدِ هذهِ الوجوهِ [التي][7] ذَكَرْنا يحتاجُ المرءُ إلى اتِّخاذِ الولدِ [وهو][8] قادرٌ بذاتِهِ، قاهرٌ، غَنِيٌّ، لا يَحْتَمِلُ ما ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحقِّ الذي للهِ عليهِمْ، ولِما /٤٦٦ ـ أ/ لِبَعضٍ على بعضٍ مِنَ الحَقِّ.

[ويَحتَمِلُ][9] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي للحقِّ، وهو البَعْثُ، ما لو لم يكنِ البَعْثُ لكانَ خَلْقُهُما عَبَثاً باطلاً على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] [وقالَ في آيةٍ أُخرى][10]: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحكمةِ، وهو أنْ جَعَلَ في خِلْقةِ كلِّ شيءٍ أثَرَ وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ ما يَعْرِفُ كلٌّ أنهُ فِعْلُهُ، وإنْ لم يُشاهِدْ خَلْقَهُ، وقولُهُ على ما يكونُ ذلكَ في فِعْلِ أحَدٍ مِنَ الخَلائِقِ إثْرَ مَعْرِفةِ فاعِلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ

---

(١) في الأصل وم: كقوله. (٢) في الأصل وم: دلت هذه الآيات. (٣)ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: اتخذ. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: وادخاله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: وقوله تعالى.

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١و. . .] يَذْكُرُ دَلالةَ وَحْدانِيَّتِهِ حيثُ جَعَلَ منافعَ الليلِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ النهارِ، ومنافعَ النهارِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الليلِ على اخْتِلافِهِما وتَناقُضِهِما وتَضادِّهِما لِيُعْلَمَ أنهما فِعْلُ واحِدٍ. وكذلكَ كما جَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ على بُعْدِ ما بَيْنَهما لِيُعْلَمَ أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ، إذْ لو كانَ عَدَداً لامْتَنَعَ ذلكَ؛ إذِ[1] المَعْروفُ مِنْ عادةِ الملوكِ انْفِرادُ كلٍّ بِمُلْكِهِ وسُلْطانِهِ والاسْتِعلاءُ على ما استولى، وقَبْضَ برأسِ الآخَرِ، ونَفاذُ أمرِهِ في سلطانِهِ. فإنْ لم يَمْتَنِعْ ذلكَ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحِدٍ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الشمسِ والقَمَرِ لهمْ ولِمَنافِعِهِمْ وجِرْيَتِهِما في يوم واحِدٍ مَسيرةَ ألفِ عامٍ، أو ما ذَكَرَ مِنْ غيرِ أنْ يَعْرِفَ أحدٌ سَيْرَهُما أنهما يَسيرانِ وقتَ سَيرِهِما إلّا بَعْدَ قَطْعِهِما ذلكَ أنَّ لهما مُنْشِئاً وأنهُ واحدٌ.

ودَلَّ اتِّساقُهُما وجَرَيانُهُما على سَيرٍ واحِدٍ مُنْذُ كانا إلى آخِرِ ما يكونانِ، ويَدورانِ على أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ، عالمٌ، مدبِّرٌ، عَرَفَ حاجةَ [الخَلْقِ][2] إليهما إلى أبَدِ الآبِدِينَ، ومَنافِعَهُمْ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي كلٌّ ممّا ذَكَرَ يَجْري إلى الوقْتِ الذي جُعِلَ لهُ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتأخَّرُ، ولا يَنْقَطِعُ ما كانَ بالخَلْقِ حاجةٌ، واللهُ أعلَمُ.

[ويحتَمِلُ: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يَجْري][3] إلى مَنازِلَ مَعْلومةٍ، لا يُجاوِزُها[4].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ هو العزيزُ بذاتِهِ، لا يَتَعَزَّزُ بما ذَكَروا لهُ مِنَ الأولادِ، ولا بطاعةِ مَنْ أطاعَهُ. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لِمَنْ كانَ أهلاً[5] لِلْمَغْفِرَةِ، ولا تَخْرُجُ مَغْفِرَتُهُ إيّاهُ عنِ الحكمةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أي يُدْخِلُ أحَدَهُما على الآخَرِ كقولِهِ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١و. .] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ أي يُغَشّي أحَدَهُما بالآخَرِ كقولِهِ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وقالَ بعضُهُمْ: يُكَوِّرُ أي يَلُفُّ هذا بهذا، وهو مِنْ كَوْرِ العَمامةِ، ومنهُ قولُهُ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] أي جُمِعَتْ، ولُفَّتْ. وأصلُ التكويرِ اللَّفُّ والجَمْعُ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ظاهِرُ هذا أنهُ خَلَقَنا مِنْ تلكَ[6] النفسِ قبلَ خَلْقِ زَوجِهِ منها، لأنَّ حَرْفَ ثم إنما هو حَرْفُ إتباعٍ وإردافٍ، وحَرْفُ ترتيبٍ، لا حَرْفُ جَمْعٍ.

فإذا كانَ كذلكَ فظاهِرُهُ يُوجِبُ ما ذَكَرْنا. لكنَّ أهلَ التأويلِ اخْتَلَفوا في مَعْنَى ذلكَ وتَفْسيرِهِ:

[مِنْ ذلكَ ما ذُكِرَ عن][7] ابْنِ عباسٍ ﷺ في بعضِ الرواياتِ أنهُ تأوَّلَ[8] في ذلكَ وقالَ: [قالَ][9] ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ كانتْ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أو كلامٌ نحوُ هذا. وعندَنا أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يُخَرَّجُ على ظاهِرِ ما ذَكَرَ، لكنَّ الخَلْقَ هو التَّقْديرُ في اللُّغَةِ؛ كأنهُ قالَ ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي[10] قَدَّرَكُمْ جميعاً على كَثْرَتِكُمْ مِنْ أوَّلِ ما أنْشأكُمْ إلى آخِرِ ما يُنْشِئُكُمْ مِنْ تلكَ النفسِ الواحدةِ، منها قَدَّرَكُمْ[11].

وقولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثم أخرَجْنا منها مِنْ تلكَ النفسِ زَوجَها، وإلّا كانَ تقديرُهُ إيانا منها كانَ قَبْلَ خَلْقِ زوجِها منها، وهو الظاهرُ على ما خُرِّجَ الكلامُ، واللهُ أعلمُ. ثم كانَ منهُ خَلْقُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ظاهِرُ الإنزالِ، هو أنْ يُنْزَلَ مِنْ عُلُوٍّ مُرْتَفِعٍ إلى سُفْلٍ ومُنْحَدِرٍ. لكنَّ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: العدد. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: يجاوزانها. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: له. (٦) في الأصل وم: نفس. (٧) في الأصل وم: ذلك ذكر عن. (٨) في الأصل وم: تأويل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أو كلام أي. (١١) في الأصل وم: قدرنا.

اللغةَ لا تَمتَنِعُ عنِ استِعمالِ لفظِ الإنزالِ لا على حقيقةِ الإنزالِ [مِنْ عُلُوٍّ][(١)] إلى سُفلٍ ؛ يُقالُ: نَزَلَ فلانٌ بأرضٍ أو بمكانِ كذا، وإنْ لم يكُنْ هناكَ منهُ نُزولٌ مِنْ عُلُوٍّ إلى مُنْحَدِرٍ وسُفلٍ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

وأصلُهُ أنَّ كلَّ حَرفٍ مِنْ حروفِ الإنزالِ وغَيرِهِ ممّا أُضيفَ إلى اللهِ ﷻ ممّا يَسْتقيمُ صَرفُهُ إلى خَلقِهِ إنما[(٢)] المرادُ منهُ خَلقُهُ نحوُ قولِهِ ﷻ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف:٢٦] [وقولِهِ][(٣)]: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وغيرُ ذلكَ ممّا يَكثُرُ ذِكرُهُ، فهو خَلقُهُ إياهُ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي خَلَقَ لكمْ مِنَ الأنعامِ ما ذَكَرَ على ما ذَكَرَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨] أي خَلَقَ لكُمْ ما ذَكَرَ. فَعَلَى ذلكَ حَرفُ الإنزالِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ظاهرُ قولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ يَجيءُ أنْ يكونَ على أحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ:

إمّا ألّا يُسمّيَ الأنعامَ، ولا يكونُ إلّا ثمانيةَ[(٤)] الأزواجِ التي ذَكَرَ أنهُ خَلَقَها لنا. فإنْ كانَ على هذا فيكونُ حَرفُ مِنْ ههنا صِلةً، كأنهُ قالَ ﷻ: وأنزَلَ لكمْ أنعاماً، وهي ثمانيةُ أزواجٍ.

[وإمّا][(٥)] أنْ يُسمّيَ كلَّ ما خَلَقَ مِنَ الدوابِّ أنعاماً، إلّا أنهُ لم يُحِلَّ لنا منها إلّا ثمانيةَ[(٦)] الأزواجِ التي ذَكَرَ. فإنْ كانَ هذا فيكونُ حَرفُ مِنْ حَرفَ تَبعيضٍ وتَجزئةٍ.

[وإمّا][(٧)] أنْ يُسمّيَ كلَّ ما خَلَقَ مِنَ الدّوابِّ أنعاماً، إلّا أنهُ لم يُحِلَّ لنا كلَّ شيءٍ منها مِنْ [جَميعِ أنواعِ الانتِفاعِ بها مِنَ الأزواجِ التي ذَكَرَ، فإنهُ قد أحَلَّ لنا كلَّ شيءٍ مِنَ الأصنافِ الثمانيةِ مِنْ لُحومِها وألبانِها وأصوافِها وكلَّ شيءٍ منها. وأمّا ما سِوَى ذلكَ مِنَ الأنعامِ فإنهُ لم يُحِلَّ لنا كلَّ شيءٍ منها مِنَ][(٨)] اللحومِ وغيرِها، ولكنْ أحَلَّ لنا الانتِفاعَ بِظُهورِها مِنْ نحوِ الحَميرِ والبِغالِ وغيرِ ذلكَ ممّا يُشتَهَى، واللهُ أعلَمُ.

ثم ثمانيةُ[(٩)] الأزواجِ التي ذَكَرَ أنهُ[(١٠)] خَلَقَها لنا في هذهِ الآيةِ هي في سورةِ الأنعامِ، وهي قولُهُ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣و١٤٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

فَيُشبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ ثمانيةِ الأزواجِ ما[(١١)] أنزَلَ لنا في سورةِ الزمرِ التي فيها[(١٢)] أحَلَّ لنا كلَّ شيءٍ منها.

وأمّا ما سِوَى ذلكَ فإنهُ إنما أحَلَّ لنا الانتِفاعَ بها ما لم يُحِلَّ لنا أكلَها، لأنهُ ذَكَرَ في سورةِ الأنعامِ الأكلَ[(١٣)] ثم ذَكَرَ على إثرِهِ [ثمانيةَ الأزواجِ هذه][(١٤)]: الإبلَ والبقرَ والمَعزَ والضأنَ حينَ[(١٥)] قالَ ﷻ: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الآية: ١٤٢] ثم قالَ ﷻ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٤٥] إنما هو ممّا ذَكَرَ، أي لا أجِدُ مُحَرَّماً مِنْ هذهِ الأصنافِ إلّا ما ذَكَرَ مِنَ الدَّمِ والمَيتةِ ولحمِ الخِنزيرِ. ثم يُخَرَّجُ [استِثناؤُه لَحمَ][(١٦)] الخِنزيرِ مُخرَجَ استِثناءِ غيرِ جِنسِ المَذكورِ على إضمارِ كونِ ذلكَ الغيرِ فيهِ. وذلكَ غيرُ جائزٍ في الكلامِ كقولِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١] كأنهُ قالَ ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ والاصطِيادُ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ فَعَلَى ذلكَ الأولُ، كأنهُ أضمَرَ فيهِ استِثناءَ لَحمِ الخِنزيرِ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: تَحويلُهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنْ نُطفةٍ إلى عَلَقةٍ ثم إلى مُضغةٍ حتى يَتِمَّ خَلقاً مُستَوياً ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ قيلَ: الرَّحِمُ والبَطنُ والمَشيمةُ، وقيلَ: الظَّهرُ؛ يُخبِرُ عن قدرتِهِ وعلمِهِ وتدبيرِهِ أنهُ حينَ[(١٧)] قَدَرَ على خَلقِ الإنسانِ وكلَّ خَلقٍ في تلكَ الظُّلُماتِ الثلاثِ والتَّسويةِ بينَ كلِّ شيءٍ منهُ مِنَ اليدَينِ

---

(١) من م، في الأصل: منه إلى. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: الثمانية. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: الثمانية. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: الثمانية. (١٠) في الأصل وم: أنها. (١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: هي. (١٣) من م، في الأصل: الأحل. (١٤) في الأصل وم: هذه الثمانية الأزواج. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: استثناء لهم. (١٧) في الأصل وم: حيث.

والرِّجلَينِ والعَينَينِ والأذُنَينِ والسَّمْعَينِ والبَصَرَينِ وقِسمَةِ / ٤٦٦ ـ ب/ الأعضاءِ على السواءِ حتى لا تُزادُ[١] إحدى اليَدَينِ على الأخرَى، وكذلكَ إحدَى الرِّجلَينِ وإحدَى العَينَينِ وإحدَى الشَّفَتَينِ، وكذلكَ كلُّ شيءٍ منهُ في تلكَ النُّطفَةِ مِنَ العَينَينِ واليدَينِ والرِّجلَينِ والبَصَرِ وكلِّ الجَوارِحِ ما لَوِ اجتَمَعَ الحُكَماءُ جميعاً حُكَماءُ البَشَرِ [لا يَعرِفونَ][٢] كونَ شيءٍ مِنَ الجَوارِحِ والنفسِ وتَقديرِها مِن تلكَ النُّطفَةِ وتَصويرِها منها لِيُعلَمَ أنهُ قادرٌ على خَلْقِ الأشياءِ مِنْ لا شيءٍ وبِسَبَبٍ وغَيرِ سَبَبٍ، وما جَعَلَ مِنَ الأسبابِ لِبعضِ الأشياءِ لم يَجعَلْها استِعانَةً منهُ على إنشاءِ ذلكَ، وأنَّ مَن قَدَرَ على تقديرِ ما ذَكَرَ تَصويرَهُ في الظُّلُماتِ التي ذَكَرَ على السَّبيلِ الذي ذَكَرَ فإنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ.

يَحتَجُّ عليهمْ لإنكارِهِمُ البَعثَ وإنكارِهِمْ بَعثَ الرسولِ والحُجَجِ؛ يُخبِرُ أنَّ مَن فَعَلَ ما ذَكَرَ مِن تَغييرِهِمْ مِن حالٍ إلى حالٍ وتحويلِهِمْ مِن صورةٍ إلى صورةٍ أُخرَى أنهُ لا يَفعَلُ ذلكَ لِيَترُكَهُمْ سُدىً لا يَأمُرُهُمْ، ولا يَنهاهُمْ، ولا يَمتَحِنُهُمْ. ثم إذا امتَحَنَهُمْ لا يَحتَمِلُ ألّا يَبعَثَهُمْ لِيَجزِيَ المُسيءَ منهمْ والعاصِيَ جَزاءَ الإساءةِ والعِصيانِ والمُحسِنَ منهمْ والمُطيعَ جَزاءَ الإحسانِ والطاعةِ؛ إذْ قَدْ سَوَّى بَينَهُمْ في هذهِ الدارِ. وفي الحِكمَةِ والعَقلِ التَّفريقُ بَينَهما. فلا بُدَّ مِن دارٍ أُخرَى، يُفرِّقُ بَينَهما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلكُمُ اللهُ الذي ذَكَرَ مِن تقديرِكُمْ وتَصويرِكُمْ في ظلماتِ تلكَ النطفةِ، هو ربُّكُمُ الذي فَعَلَ ذلكَ.

[ويَحتَمِلُ][٣] أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي جميعُ ما ذَكَرَ مِن قولِهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥] وما ذَكَرَ مِن تَسخيرِ الشمسِ والقمرِ وجَرَيانِهِما على سَنَنٍ واحدٍ وعلى قَدْرٍ واحدٍ، وما ذَكَرَ مِن خَلقِنا جميعاً مِن تلكَ النفسِ الواحدةِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، يقولُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي فَعَلَ [ذلكَ][٤] كلَّهُ، هو ربُّكُمْ.

[وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي فأنَّى تَصرِفونَ عبادَتَكُمْ إلى غيرِهِ؟ أو فأنَّى تَصرِفونَ أُلوهِيَّتَهُ ورُبوبيَّتَهُ إلى غيرِهِ؟ وتَجعَلونَ لهُ شُرَكاءَ وأعدالاً، وتَعلَمونَ[٦] أنَّ الذي فَعَلَ ذلكَ كلَّهُ، هو اللهُ الواحدُ الذي، لا شريكَ لهُ، ولا مَثيلَ.

أو يَذكُرُ أنَّ [مَن ذَكَرَ النِّعَمَ][٧] التي أعطاكُمْ، وأسْدَى إليكُمْ، هو ربُّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ، فكيفَ تَصرِفونَ شُكرَها إلى غيرِهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ رُوِيَ عن ابنِ عباسٍ ﵄ أنهُ قالَ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ أي [إنْ تَكفُروا][٨] دينَ الإسلامِ، ولم تُسلِموا، فإنهُ لا يَقبَلُ منكُمْ [ديناً آخَرَ][٩] ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ﴾ أي وإنْ تُسلِموا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يَقبَلْ منكُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقالَ غيرُهُ: أي إنْ تَكفُروا دينَهُ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عن عِبادَتِكُمْ، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ أي تَكفُروا دينَهُ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عن عِبادَتِكُمْ، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ أي تُوَحِّدوهُ ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [وهو قريبٌ][١٠] مِنَ الأوَّلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾ النِّعَمَ التي عَدَّها عليكُمْ في ما تَقَدَّمَ ذِكرُها مِن قولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ. يقولُ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾ هذهِ النِّعَمَ التي عَدَّها عليكُمْ فإنهُ غَنيٌّ عنكُمْ، وإنْ تَشكُروا ما عَدَّ عليكُمْ مِنَ النِّعَمِ يَقبَلْ ذلكَ منكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يزداد. (٢) في الأصل: له يعرفون، في م: لم يعرفوا. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقد تعلمون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: تكفرون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ بَيَّنَ سبيلَ الهدى، ورَغَّبهُمْ إليهِ، وبيَّنَ سبيلَ الضلالِ، وحَذَّرَهُمْ منه، ثم بَيَّنَ أنَّ مَنْ سَلَكَ سَبيلَ الهُدَى فَلَهُ كذا، ومَنْ سَلَكَ سَبيلَ الضَّلالِ فَلَهُ كذا، أو يقولُ: إنَّ مَنْ سَلَكَ سبيلَ الهُدَى يَرْضَ لِنفسِهِ عاقِبَةَ السَّبيلِ الذي سَلَكَ فيهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨و٩] ومَنْ سَلَكَ سبيلَ الضَّلالِ والكُفرِ يَمقُتْ ذلكَ السَّبيلَ في العاقبةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠] أخْبَرَ أنهمْ يَمْقُتونَ أنفسَهُمْ إذا نُودوا، وعَرَفوا أنهمْ أخطؤوا الطريقَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: واللهُ يَكْرَهُ لِعبادِهِ الكُفْرَ، وقولُهُ: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ يَرْضَ عنكُمْ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ أُبَيٍّ وحَفْصَةَ خاصَّةً.

وأصْلُ قولِهِ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ إخبارٌ أنهُ لم يأمُرْكُمْ في ما أمَرَكُمْ بهِ، ولا نَهاكُمْ عمّا نهاكُمْ عنهُ لحاجةِ نفسِهِ أو لِمَنْفَعَةٍ لهُ في ذلكَ. ولكنْ إنما امْتَحَنَكُمْ بما امْتَحَنَكُمْ لحاجةِ أنْفُسِكُمْ ولِمَنْفَعَتِكُمْ ولِدَفْعِ الضَّرَرِ عنكُمْ. وكذلكَ ما أنشأَ مِنَ الأشياءِ لم يُنْشِئْها لِحاجةِ نفسِهِ [أو لِمَنْفَعَةٍ][1] لهُ، ولكنْ إنما أنْشَأَها لكُمْ ولِمَنافِعِكُمْ. وكذلكَ لم يُنْشِئْها لأنفُسِها حتى إذا أتْلَفَ[2] شيئاً عَوَّضَها لها على ما تقولُ المُعتَزِلَةُ: أنْ ليسَ للهِ أنْ يُتْلِفَها إلّا أنْ يُعَوِّضَها بإزاءِ ذلكَ، ولكنْ أنشأَها [وليسَ لهمْ تَعْويضٌ إنْ أتْلَفَ اللهُ][3] شيئاً منها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ[لِوجهَينِ:

أحَدُهُما: جوابُ لِقولِهِمْ حينَ][4] قالَ ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٢] أخْبَرَ أنْ لا أحَدَ يَحْمِلُ وِزرَ آخَرَ[5]، ولكنْ يَحْمِلُ وِزْرَ نفسِهِ.

والثاني: يُخْبِرُ أنَّ أمرَ الآخِرَةِ على خِلافِ أمرِ الدنيا، لأنَّ في الدنيا قد يَحْمِلُ بعضٌ آثامَ بعضٍ، فأمّا في الآخِرَةِ فإنهُ لا يَحْمِلُ أحدٌ وِزرَ آخَرَ[6] ولا آثامَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ خَصَّ البعثَ بالرجوعِ إليهِ مَرَّةً وبالمَصيرِ ثانياً والبُروزِ لهُ ونَحْوِ ذلكَ، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ راجعينَ إليهِ صائرينَ لأنَّ المَقصودَ مِنْ إنشائِهِمْ في هذهِ الدنيا ذلكَ البعثُ، فَخَصَّ لذلكَ الرجوعَ[7] إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في الصدورِ. وعندَنا: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ ما يَصْدُرُ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ. وذَكَرَ ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لأنَّ أصحابَ الصُّدورِ، هُمْ يَصْدُرونَ، ويَظُنّونَ في صدورِهِمْ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أخبَرَ اللهُ الخَلْقَ ما كانَ مِنْ عادةِ الكَفَرَةِ [في غيرِ آيةٍ][8] مِنَ القرآنِ أنهمْ كانوا يُخلِصونَ الدينَ للهِ، ويَتَضَرَّعونَ إليه، إذا مَسَّهُمْ بلاءٌ أو شِدَّةٌ، إذا رَكِبوا البَحْرَ، كانَ لهمْ خَوفُ الهلاكِ في ذلكَ وفَزَعٌ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] وغَيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ وكذلكَ [في][9] كلِّ البلاءِ فَزِعوا إلى اللهِ ﷻ وتَضَرَّعوا إليهِ[10] ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ﴾ [النحل: ٥٤] عادوا إلى ما كانوا مِنْ قَبْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿نَسِيَ﴾ ألا تَمْلِكَ الأصنامُ التي عَبَدوها دَفْعَ ذلكَ عنهُمْ ولا كَشْفَهُ، أو ﴿نَسِيَ﴾ ألّا تنفَعَ شَفاعتُهُمْ إياهُمْ ونَحوَهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] أي نَسُوا ما عَلِموا مِنْ عَجْزِ الأصنامِ ونَحوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ كأنَّ الآيةَ في الرؤساءِ منهُمْ، جَعَلوا [للهِ أنداداً لِيُضِلّوا][11] الناسَ عنْ سبيلِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تلف. (٣) في الأصل وم: لليس ولهم تقرر من أتلف. (٤) في الأصل وم: جوابا لقولهم حيث. (٥) و(٦) في الأصل وم: أخرى. (٧) في الأصل وم: رجوعا. (٨) في الأصل وم: من غير آي. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: وقوله. (١١) في الأصل وم: أندادا ليضل.

يدلُّ على ذلكَ [قولُهُ تعالى][١]: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ لِما عَلِمَ أنهُ يَختِمُ على الكُفرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الحِكْمَةُ في ذِكْرِ[٢] هذا وأمثالِهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ تَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: يُصَبِّرُ رسولَ اللهِ ﷺ على سوءِ معامَلَتِهِمْ إياهُ [لِيَحْلَمَ كما حَلِمَ][٣] عن سوءِ مُعامَلَتِهِمْ، ولم يَستأصِلْهُمْ على إثرِ ذلكَ. وذلكَ أعْظَمُ في العقلِ.

[والثاني][٤]: يُخبِرُ الأواخِرَ عن سوءِ مُعامَلَتِهِمْ ربَّهُمْ لِيَحْذَروا عن مِثْلِ معامَلَتِهِمْ ربَّهُمْ.

[والثالث][٥]: يُخبِرُ /٤٦٧ ـ أ/ عن حِلْمِهِ أنْ كيفَ [حَلِمَ عنهُمْ][٦] فاحْلَمْ أنتَ، واللهُ أعلَمُ.

وقُرِئَ لِيَضِلَّ[٧].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذِهِ الآيةُ صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ يقولُ: الذي تَضَرَّعَ إلى اللهِ، وأخلَصَ دينَهُ لهُ، ونَسِيَ ذلكَ، وتَرَكَهُ إذا خَوَّلَ ذلكَ نِعْمَةً، وجَعَلَ للهِ أنداداً لِيُضِلَّ عن سَبيلِهِ كالذي هو قانتٌ أي مطيعٌ للهِ آناءَ الليلِ والنهارِ، يَحذَرُ عذابَهُ، ويَرْجو رَحْمَتَهُ؟ لَيسا بِسَواءٍ عندكُمْ: الذي أطاعَ اللهَ في جميعِ أوقاتِهِ: حاذِرٌ تقْصيرَهُ، راجٍ[٨] رَحْمَتَهُ بِطاعَتِهِ. والذي عَصَى ربَّهُ، ولم يُطِعْهُ. أنهما لَيسا بِسَواءٍ، ثم رأيتُمْ أنهما قدِ اسْتَوَيا في نِعَمِ هذهِ الدارِ وسَعَتِها وشدائِدِها، وفي الحكمةِ التفريقُ بينَهما، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى يُفَرَّقُ بينَهما فيها: يُثابُ المُحْسِنُ المُطيعُ جزاءَ إحسانِهِ وطاعَتِهِ، ويُعاقَبُ الكافرُ الظالمُ جَزاءَ كُفْرِهِ وظُلْمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ يَجْعَلُ لهذِهِ الآيةِ مُقابِلاً[٩]، لكنهُ يقولُ: مُقابِلُها، ليسَ كالأوَّلِ، ولكنْ لم يذكُرْ لها مُقابِلاً[١٠]، ويقولُ: على ما عَرَفْتُمْ أنهُ لا يَستَوي الذي يَعْلَمُ والذي لا يَعْلَمُ. فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوي الذي أطاعَ ربَّهُ آناءَ الليلِ، وأجْهَدَ نفسَهُ في عبادةِ اللهِ والذي[١١] عَصَى ربَّهُ، وكفَرَ نِعَمَهُ، وقد ظَهَرَ الاستِواءُ بينَهما في هذهِ الدنيا، فلابدَّ مِنَ التَّفريقِ بينَهما في دارٍ أُخرَى.

ولو لم تكُنْ دارٌ أُخرَى، فيها يُفَرِّقُ، ويُميِّزُ، لَكانَ خَلْقُ هذا العالمِ على ما كانَ باطلاً سَفَهاً غَيرَ حكمةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي يَحْذَرُ عذابَ الآخِرَةِ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ أنهُ قَرأَ: يَحْذَرُ عذابَ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ المؤمِنَ يَجِبُ أنْ يكونَ بَينَ الرجاءِ والحَذَرِ؛ يَرْجو رحمَتَهُ لا عَمَلَهُ، ويَحْذَرُ عذابَهُ لِتَقْصيرِهِ في عَمَلِهِ.

ثم الرجاءُ إذا جاوزَ حَدَّهُ يكونُ أمْناً، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] والخَوفُ إذا جاوزَ حَدَّهُ يكونُ إياساً، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ويَجِبُ أنْ يكونَ المؤمِنُ كما ذَكَرَ ﷻ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] [وذَكَرَ][١٢]: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] لا يُجاوِزُ أحدُهُما [حَدَّهُ][١٣].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [أي جَنَّتَهُ على ما سَمَّى اللهُ تعالى الجَنَّةَ رَحْمَةً][١٤] في غَيرِ مَوضِعٍ، لِما بِرَحْمَتِهِ تُنالُ هي، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذلك. (٣) في الأصل وم: كما حكم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حكم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه ثلاث لغات. انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٠. (٨) في الأصل: راجع. (٩) و(١٠) في الأصل وم: مقابل. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ بِمَعْرِفَةِ نِعَمِ اللهِ والقيامِ بِشُكْرِهِ والحَذَرِ مِنْ عِصْيانِهِ وعذابِهِ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بكلِّ ذلكَ؟ جوابُهُ أنْ يُقالَ: لا يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمونَ والذينَ لا يَعْلَمونَ، وهو ما قالَ: ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إنما يَتَذَكَّرُ بمواعِظِ اللهِ أولو العقولِ والبَصَرِ والمَعْرِفَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ساعاتِ الليلِ، وقولُهُ[1]: ﴿قَٰنِتٌ﴾ أي مطيعٌ. وأصْلُ القُنوتِ القِيامُ، وهو القِيامُ في الطاعةِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ دلالةُ جوازِ الإرجاءِ لأنهُ لم يَقْطَعْ على أحَدِهِما دونَ الآخَرِ، وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وفي قولِهِ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي القَطْعِ على أحَدِهِما كُفرٌ على ما ذَكَرْنا في[2] قولِهِ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] [وقولِهِ][3]: ﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] إذِ المُجاوَزَةُ في الخَوفِ إياسٌ، والمُجاوَزَةُ في حَدِّ الرجاءِ أمْنٌ، وقد ذَكَرْنا أنهُ كُفرٌ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وجوهاً:

اتَّقوا سُخْطَ ربِّكُمْ، أوِ اتَّقوا نِقْمَةَ ربِّكُم، أو اتَّقوا مُخالَفَةَ ربِّكُم، ونَحْوَهُ.

وأصلُ التُّقَى ما [بِهِ][4] تَهْلِكونَ، أيِ اتَّقوا مهالِكَكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ لهمْ في الآخِرَةِ.

وجائزٌ أنْ يَكونَ لهمُ الحَسَنَةُ في الدنيا والآخِرَةِ [كقولِهِ تعالى][5]: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١].

ثم تَحْتَمِلُ الحسنةُ وجهاً آخَرَ [هو][6] اسْتِغْفارُ الملائكةِ لهمْ والأنبياءِ ﷺ لأنَّ اللهَ ﷻ امْتَحَنَ ملائكَتَهُ باسْتِغْفارِ المؤمنينَ والمؤمناتِ كقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] وكذلكَ امْتَحَنَ رُسُلَهُ بالاسْتِغْفارِ لِلْمُؤْمِنينَ، وكذلكَ [امْتَحَنَ المؤمنينَ][7]؛ يَسْتَغْفِرُ بعضُهُمْ لبعضٍ ونَحْوَهُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ ذكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ مَنْ آمَنَ منهم بمَكَّةَ كانوا يُظْهِرونَ الموافَقَةَ لأعدائِهِمْ، ويُقيمونَ في ما بَيْنَهُمْ، وكانَتْ لهمْ أسبابُ التَّعَيُّشِ في بَلَدِهِمْ، ولم يَكُنْ لهمْ تلكَ في بَلَدِ غَيرِهِمْ، فخافوا الضَّياعَ، إنْ هم خَرَجوا مِنْ بَلَدِهِمْ، فَيُهاجِروا فيها إلى غَيرِ بَلَدِهِمْ، فَيَمْتَنِعونَ عن ذلكَ.

فجاءَتِ الآيةُ على التَّرَجِّي والإطماعِ لهمْ بِمِثْلِ ذلكَ التَّعَيُّشِ وأسبابِهِ في ذلكَ البَلَدِ، وهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. لم يُعْذَروا في تَرْكِهِمُ الهجرةَ وإظهارِهِمُ الموافقةَ للأعداءِ، ولهم طاقةٌ وَوُسْعُ التَّحَوُّلِ مِنْ بَلَدِهِمْ إلى بَلَدِ غَيرِهِمُ الآمِنِ، لم يَكُنْ بهمْ[9] طاقةُ الخُروجِ مِنْ بَينِهِمْ، وهُمُ[10] الذينَ اسْتَثْناهُمْ، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الآية [النساء: ٩٨] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: من. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: المؤمنون. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: به. (١٠) في الأصل وم: وهو.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بِغيرِ تَبِعَةٍ ولا تَنويهٍ كقولِهِ [ﷺ][1]: «مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ» [البخاري٦٥٣٦].

[ويَحتَمِلُ][2]: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يُحاسَبونَ لِما ليسَ وراءَ تلكَ الدارِ الآخِرَةِ دارٌ أُخرَى يُحاسَبونَ فيها ما أُعطوا في الآخِرَةِ، لَيسَتْ[3] كدارِ الدنيا يُحاسَبونَ[4] ما أُوتوا فيها في الآخِرَةِ وأمّا ما أُعطُوا في الآخِرَةِ فلا يُحاسَبونَ في غيرِها.

ويَحتَمِلُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي غيرَ مُقَدَّرٍ بالحسابِ، ولكنْ [﴿يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم﴾][5] أضعافاً مُضاعَفَةً.

ويَحتَمِلُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بلا نهايةٍ ولا غايةٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الصَّبْرُ، هو حَبْسُ النفسِ إمّا على أداءِ ما أمَرَ اللهُ بِهِ والانْتِهاءِ عمّا نَهَى اللهُ عنهُ [وإمّا][6] حَبْسُها وكَفُّها لاحْتِمالِ[7] ما حَمَلَتْ مِنَ الشدائدِ والمَصائبِ والمُؤَنِ العِظامِ.

احْتَمَلوا ذلكَ، ولم يَجزَعوا، وهو ما ذُكِرَ في غَيرِ آيةٍ[8] مِنَ القرآنِ [كقولِهِ تعالى][9]: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ونَحْوُهُ.

الآيتان ١١ و١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ هذا لِما أنَّ أهلَ مكةَ كانوا يَدْعُونَ رسولَ اللهِ ﷺ إلى دينِهِمْ ودينِ آبائهِمْ، وكانوا يَطْمَعونَ عودَةَ إليهِمْ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ذَكَرَ ههنا أنهُ أُمِرَ أنْ يَعْبُدَ اللهَ مُخلِصاً لهُ الدينَ. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٥٦] وقالَ فيها[10]: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ لو اتَّبَعَ أهواءَهُمْ في ما هُمْ فيهِ يَضِلُّ، وما كانَ مِنَ المُهْتَدينَ.

ذَكَرَ في هذهِ الآياتِ النَّهْيَ وتَرْكَ اتِّباعِ أهواءِهِمْ، ولم يَذْكُرِ الأمرَ فيها بعبادةِ اللهِ تعالى مُخلِصاً لهُ الدينَ.

[ويَحتَمِلُ][11] أنْ يقولَ: إني إذا أمَرْتُكُمْ بعبادةِ اللهِ أُمِرْتُ أنا في نفسي أنْ أعبُدَهُ مُخلِصاً. لَسْتُ أنا كَمَنْ يَأْمُرُ غيرَهُ /٤٦٧ ـ ب/ شيئاً، ولا يأتَمِرُ بنفسِهِ، وهو غيرُ مأمورٍ بذلكَ، وهو ما قالَ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أو يقولَ: لستُ أنا كالملوكِ يأمرونَ أتباعَهُمْ بأشياءَ، ويَسْتَعْمِلونَهُمْ[12] في أمورِهِمْ، ولا[13] يَسْتَعْمِلونَ في تلكَ أنفسَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الخوفُ ههنا، ليسَ هو حقيقةَ الخوفِ، ولكنْ [هو][14] العِلْمُ، كأنهُ قالَ: إني أعلَمُ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فأَيْسَهُمْ باللهِ بالمدينةِ عَنْ عَودِهِ إلى دينِهِمْ وقَطَعَ طَمَعَهُمْ عنهُ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فأمّا ما داموا بمكةَ، فإنهُمْ كانوا طامِعينَ في ذلكَ راجينَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٤ و١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ إنهُ يُخرَجُ هذا الحَرفُ منهُ مُخرَجَ التَّهْديدِ لهمْ والتَّوَعُّدِ، يقولُ: أمّا أنا فإنما أعبُدُ اللهَ الحَقَّ، ولهُ أُخلِصُ ديني، فاعْبُدوا أنتمْ ما شِئْتُمْ، فإنهُ يَجزيكُمْ جزاءَ عِبادَتِكُمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾ الآية [فصلت: ٤٠] وذلكَ معروفٌ في كلامِ الناسِ: يقولُ الرجلُ: اعْمَلْ ما شِئْتَ فإنَّ لكَ الجزاءَ بما[15] تَعْمَلُ على الوعيدِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، لا على الوَعيدِ، ولكنْ يقولُ: قد بَيَّنْتُ لكمْ، وأوضَحْتُ السَّبيلَينِ جميعاً بالآياتِ والحُجَجِ: سَبيلَ النجاةِ الذي إذا سَلَكْتُموهُ نَجَوتُمْ، وهو سَبيلُ اللهِ، وسَبيلَ الهَلاكِ الذي إذا سَلَكْتُموهُ أهْلَكَكُمْ، وهو سَبيلُ الشيطانِ، فإنْ أرَدْتُمُ النجاةَ فاسْلُكوا سَبيلَ كذا، وإنْ أرَدْتُمْ سَبيلَ الهلاكِ فاسْلُكوا كذا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: ليس. (٤) في الأصل وم: يحاسب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: في احتمال. (٨) في الأصل وم: آي. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: في آية أخرى. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: ويستعملون. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: كما.

ثم قولُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كِنايةٌ لِما أمرَهُمْ أنْ يَقُوا أنفسَهُمْ وأهليهِمُ النارَ حينَ[1] قالَ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] لِتكونَ لهمْ أنفسُهُمْ وأهليهِمْ يومَ القيامةِ، ويُسلِّمَ إليهمْ ذلكَ، وقد مَكَّنَ لهمْ ذلكَ. وهَلَكوا، وترَكوا ذلكَ، ولم [يَقُوا أنفسَهُمْ][2] ولا أهليهِمُ النارَ. قالَ عندَ ذلكَ: ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾.

[ويَحتَمِلُ][3] أنهمْ قد أُمِروا بالسَّعْيِ للآخِرَةِ والعَمَلِ لها، ووُعِدُوا إذا سَعَوا لها، وعَمِلوا، النجاةَ في الآخِرَةِ والحياةَ الدائمةَ والأهلَ في الجنةِ. وإذا لم يَسْعَوا لها، ولم يَعْمَلوا خَسِروا أنفسَهُمْ والأهلَ الذينَ وُعِدُوا فيها إذا سَعَوا. وهَلَكَتْ أنفسُهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ألا هنالكَ بيَّنَ لهمْ أنهمْ خَسِروا خُسْراناً مُبيناً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أنْ يكونَ ما كانَ تحتَهُمْ مِنَ النارِ أنْ يُوصَفَ بالمِهادِ لهمْ لا بالظُّلَلِ كقولِهِ ﷺ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ أنهُ جُعِلَ[5]: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

لكنْ جائزٌ أنْ [تكونَ الظُّلَلُ التي][6] تحتَهُمْ، هي ظُلَلٌ لِمَنْ تحتَهُمْ، وهي لأولئكَ الذينَ فوقَهُمْ مِهادٌ، والذينَ ليسَ تحتَهُمْ أحدٌ مِهادٌ أيضاً، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ [للنارِ دَرَكاتٍ وأطباقاً][7] لتكونَ كلُّ طَبَقةٍ لِمَنْ تحتَها ظُلَلاً[8] ولِمَنْ فوقَها مِهاداً[9] على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ﴾ أي[10] ذلكَ الذي ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ المواعيدِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ اتَّقُوا سُخْطَ اللهِ ونِقْمَتَهُ، واتَّقُوا مُخالَفَةَ اللهِ، أوِ اتَّقُوا المَهالِكَ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ اختُلِفَ في الطاغوتِ:

قالَ بعضُهُمْ: هو الشيطانُ، أي اجْتَنَبوا مِنْ أنْ يأتَمِروهُ، [ويُطيعوهُ][11] وقالَ بعضُهُمْ: الطاغوتُ، هُمُ الكَهَنَةُ؛ كانوا يأتونَ الكَهَنَةَ، فيُخبِرونَهُمْ بأمورٍ، فيَعْلَمونَ بقولِهِمْ، ويُصَدِّقونَهُمْ؛ يقولُ: أي اجْتَنِبوا مِنْ أنْ تُطيعوا الكَهَنَةَ في أمْرِهِمْ[12] ونَهْيِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ مَعْبودٍ دونَ اللهِ فهو طاغوتٌ، وهو مِنَ الطُّغْيانِ، وهو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [أي قَبِلوا، ورَجَعوا][13] إلى أمْرِ اللهِ وإلى ما بِهِ طاعَتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢و٦٣و٦٤] لأنهمْ أولياءُ اللهِ، وقولِهِ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

الآية ١٨ [وقولُهُ تعالى][14]: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: الذينَ يَسْتَمِعونَ كلامَ الناسِ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ والحَسَنِ والقَبيحِ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي يَرَوْنَ، ويَحكُمونَ منهُ ما هو خيرٌ وحَسَنٌ، ويَتْرُكونَ ما هو شَرٌّ وقبيحٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَسْتَمِعونَ القرآنَ وكلامَ الناسِ وأحاديثَهُمْ، فيأخُذونَ بالقرآنِ، ويَتَّبِعونَهُ، ويَتْرُكونَ كلامَ الناسِ وأحاديثَهُمْ؛ فهو اتِّباعُ الأحسَنِ منهُ، وهو القرآنُ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَسْتَمِعونَ [القرآنَ][15] وفيهِ الناسِخُ والمَنسوخُ، فيَتَّبِعونَ أحسَنَهُ، أي ناسِخَهُ، ويَعْمَلونَ بهِ، ويَتْرُكونَ مَنسوخَهُ، فلا[16] يَعْمَلونَ بهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يقوها. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قل. (٦) في الأصل وم: يكون الظلل الذي. (٧) في الأصل وم: النار دركات وأطباق. (٨) في الأصل وم: ظلل. (٩) في الأصل وم: مهاد. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: وأطاعوه. (١٢) في الأصل وم: أمورهم. (١٣) في الأصل وم: اقبلوا وارجعوا. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) الفاء ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: يَسْتَمِعونَ إلى القرآنِ، وفيهِ الأمرُ والنَّهيُ، فَيَتَّبِعونَ أمْرَهُ، ويَنْتَهونَ عمّا نَهى عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي يَتَّبِعونَ الحَسَنَ منهُ؛ والأحْسَنُ[1] بِمَعْنَى الحَسَنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قائلونَ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فَيَتَّبِعونَ أحْسَنَ مافي القرآنِ مِنَ الطاعةِ منهُ كقولِهِ: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا؛ أنْ خُذُوا ما فيهِ مِنَ الأمْرِ، واتَّمِروا بهِ، وانْتَهُوا عمّا فيهِ مِنَ المَناهي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي أولئكَ هُمُ المُنْتَفِعونَ بألبابِهِمْ وعقولِهِمْ حينَ[2] اختاروا، وآثَرُوا هِدايَةَ اللهِ، ونَظَروا إليها بالتعظيمِ والإجلالِ، واهْتَدَوا.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى في هذهِ السورةِ أشياءَ، لا تُقَدَّرُ لها أجوبةٌ في الظاهرِ إلّا بالتَّأمُّلِ والاستِدْلالِ على غيرِهِ.

مِنْ ذلكَ ما[3] ذَكَرَ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، (أفمنْ حَقَّ عليهِ العذابُ) كَمَنْ لهُ البُشرى في الآخِرةِ. لأنهُ ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ لِلْمُومِنينَ البُشْرَى حينَ[4] قالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧] على هذا يُخَرَّجُ جوابُهُ: أفَمَنْ وَجَبَ عليهِ العذابُ كَمَنْ وَجَبَتْ لهُ البُشْرَى؟ أو يقولُ: أفَمَنْ حَقَّ وَوَجَبَ عليهِ العذابُ كَمَنْ شَرَحَ صَدْرَهُ الإسلامِ؟ أي ليسَ الذي وجَبَ لهُ العذابُ كالذي شَرَحَ صَدْرَهُ للإسلامِ، أو يقولُ هذا لِنازِلَةٍ، كانَتْ لِرسولِ اللهِ ﷺ لِحِرْصِهِ على إسلامِ قومٍ أحَبَّ أنْ يُسْلِموا، فقالَ هذا لهُ على الإياسِ مِنْ إسلامِهِمْ؛ يقولُ: أفَمَنْ وَجَبَ عليهِ العذابُ؟ أفأنْتَ تُنْقِذُهُ؟ وتُخَلِّصُ[5] مِنَ النارِ مَنْ قَدْ وَجَبَ عليهِ العذابُ؟ وهو ما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وكقولِهِ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] كانَ لا يَقْدِرُ أنْ يُكرِهَهُمْ على الإسلامِ، لكنهُ كانَ يُحِبُّ، ويَحْرِصُ على إسلامِهِمْ، ويَحْزَنُ لِتَرْكِهِمُ الإسلامَ كقولِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] وقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] [وقولِهِ][6]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] ونَحْوُ ذلكَ.

كانَ يَحْزَنُ، وكادَتْ نفسُهُ تَتْلَفُ إشفاقاً عليهِمْ، فيقولُ: أفَمَنْ وَجَبَ، وحَقَّ عليهِ العذابُ، تَقْدِرُ أنْ تُنْقِذَهُ مِنَ النارِ؟ أي لا تَقْدِرُ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ ثم بَيَّنَ الذينَ أُنقِذُوا مِنَ النارِ، وهُمُ الذينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ حينَ[7] قالَ: ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي اتَّقَوا مُخالَفَةَ رَبِّهِمْ ونِقْمَتَهُ.

ثم بَيَّنَ ما أوعَدَ لهمْ في الآخِرةِ، فقالَ ﷻ: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ /٤٦٨ ـ أ/ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ذَكَرَ أنَّ لهمْ غُرَفاً[8] في الجنةِ، والغُرَفُ في الشاهِدِ إنما تُتَّخَذُ لِضِيقِ المكانِ. لكنَّ ذلكَ في الجنةِ ليسَ كذلكَ، ولكنْ لِما كانَ اللهُ ﷻ عَرَفَ مِنْ رغبةِ الناسِ في الدنيا في الارْتِفاعِ والعُلُوِّ والكرامةِ والتَّفْضيلِ على الانْحِدارِ في الأرضِ؛ رَغَّبَهُمْ في الآخِرةِ على ما رَغِبوا، وأحَبُّوا في الدنيا، ولكنْ لأهلِ الجنةِ الدَّرجاتُ، ولأهلِ النارِ الدَّرَكاتُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يُخْبِرُ أنَّ أمْرَ [أهلِ][9] الجنةِ على خلافِ [أمْرِ][10] أهلِ الدنيا؛ إذْ في الدنيا؛ كلُّ ما ارْتَفَعَ، وعلا، مِنَ البُنْيانِ كانَ الماءُ منهُ أبْعَدَ والوصولُ إليهِ أصْعَبَ. فأخْبَرَ أنهمْ، وإنْ كانوا في الغُرَفِ والدَّرجاتِ، فأبصارُهُمْ إنما[11] تَقَعُ على الماءِ، والماءُ لا يَبْعُدُ عنهمْ، ولا يَصْعَبُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذَكَرَ في الغُرَفِ البِناءَ ولا ذَكَرَ في السماءِ أنهُ بَناها، فلم يُفْهَمْ مِنْ بِنائِهِ ما ذَكَرَ ما فُهِمَ مِنْ بناءِ الخَلْقِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وما. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وتخلصه. (٦) في الأصل وم: يحتمل. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: غرف. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: مما.

فكيفَ فُهِمَ مِنْ [مَجيءِ الرَّبِّ][(١)] وغيرِ ذلكَ ما فُهِمَ منْ [مَجيءِ الخَلْقِ وإتيانِهِمْ][(٢)]؟ لولا ما كانَ فيهمْ مِنْ فَسادِ أعتِقادِهِمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ونَحْوُهُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الخَبَرِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي قد رأيتَ.

والثاني: على الأمْرِ: أنْ رَ.

ثم الخِطابُ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ لرسولِ اللهِ ﷺ فهو لكلِّ أحدٍ يَحتَمِلُ النَّظَرَ والتأمُّلَ.

ثم جِهَةُ الحكمةِ المُودَعَةِ فيها مِنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ وجَعْلِهِ يَنابيعَ في الأرضِ. واليَنابيعُ هي العيونُ التي تَخْرُجُ مِنَ الأرضِ والآبارِ التي جُعِلَتْ فيها لِيُعْلَمَ أنَّ المِياهَ الخارجَةَ مِنَ الأرضِ والجاريةَ فيها أصْلُها مِنَ السماءِ، مُنْزَلَةٌ منها، وهي طَهورٌ على ما أخْبَرَ أنهُ أنزَلَ[(٣)] ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، وإنِ اختَلَفَ طَعْمُهُ[(٤)] لاختِلافِ جواهِرِ الأرضِ، ما لم يُخالِطْهُ[(٥)] شيءٌ مِنْ جواهرَ مِنَ القَذارةِ والنَّجاسَةِ وغَيرِها مِنَ الألوانِ التي تُخرِجُهُ[(٦)] عن أنْ يكونَ طهوراً، تُغَيِّرُهُ عن جوهَرِهِ الذي أُنزِلَ مِنَ السماءِ.

ثم جَعَلَ اللهُ ﷻ في شَرْبَةِ ذلكَ الماءِ مَعْنًى ولُطْفاً ما يوافِقُ جميعَ الأشجارِ والنباتِ، وكلَّ خارجٍ مِنَ الأرضِ، وإنِ اختَلَفَتْ جَواهِرُها وألوانُها وطُعومُها[(٧)]، لِيُعلِمَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على جَعْلِ ما جَعَلَ في الماءِ مِنَ اللُّطفِ والمَعْنَى الذي يُوافِقُ كلَّ شيءٍ مِنَ النباتِ والشجرِ، وإنِ اختَلَفَتْ جواهِرُها وألوانُها وطُعومُها[(٨)]، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ شيءٌ. ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

أو يقولُ: إنَّ مَنْ تَكَلَّفَ زَرْعَ الزراعةِ في الأرضِ، وتَحَمَّلَ المُؤَنَ العظامَ إلى أنْ بَلَغَ المَبْلَغَ الذي يَنْتَفِعُ بهِ، ويَنالُ منهُ النَّفْعَ، تَرَكَهُ لم يَنْتَفِعْ بهِ، أليسَ يُوصَفُ بالسَّفَهِ وغَيرِ الحِكْمَةِ؟ فكذلكَ اللهُ، سُبحانَهُ، لمّا أنْشَأكُمْ صِغاراً طِفْلاً، وغَذّاكُمْ بألوانِ الأغذيةِ والأطعمةِ حتى كَبِرْتُمْ، وبَلَغْتُمْ مَبْلَغَ الانْتِفاعِ بكُمْ. ثم أبْلَغَكُمْ بلا عاقِبَةٍ تُقْصَدُ بذلكَ، كانَ غَيرَ حكيمٍ، وقد عَرَفْتُموهُ حكيماً.

فَدَلَّ أنَّ المَقْصودَ في ذلكَ كلِّهِ حتى يكونَ إنشاؤهُ إياكُمْ صِغاراً وتربيتُهُ إياكُمْ بألوانِ الأغذيةِ التي جَعَلَ لكمْ حكمةٌ، وهو البَعْثُ، ما لو لا ذلكَ كانَ سَفَهاً غَيرَ حكمةٍ على ما ذَكَرَ مِنْ إخراجِ الزَّرعِ مِنَ الأرضِ بالماءِ الذي أخْرَجَ، ثم تَرَكَهُ فيها حتى صارَ يابساً، لا يُنْتَفَعُ بهِ كانَ سفيهاً غَيرَ حكيمٍ.

فَعَلَى ذلكَ ما كانَ عندَ أولئكَ الكَفَرَةِ أنْ لا بَعْثَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي في ما يَذْكُرُ مِنْ إنزالِ الماءِ وإدخالِهِ في الأرضِ وإخراجِ ما ذَكَرَ منها بهِ، وما ذَكَرَ مَوعِظَةٌ لأولي الألبابِ، أي لِمَنِ انْتَفَعَ بِلُبِّهِ وعَقْلِهِ لِما ذَكَرْنا، وما ذَكَرَ لأهلِ الجنةِ مِنَ الغُرَفِ وغَيرِ ذلكَ. ثم قالَ ﷻ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠] لأنَّ مَنْ وَعَدَ في الشاهِدِ، ثم أخْلَفَهُ، إنما يُخْلِفُهُ لِحاجَتِهِ أو لِما يبدو لَهُ مِنَ البَدَواتِ، فَيَرْجِعُ عَمّا وَعَدَ، واللهُ تعالَى عنْ ذلكَ كلِّهِ، ولا[(٩)] يُحْتَمَلُ خُلْفُ الوَعْدِ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدْخَلَهُ فيها، وجَعَلَهُ ينابيعَ أي عُيوناً. ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يَيْبَسُ. وقولُهُ: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ مُتَكَسِّراً مِثْلَ الرُّفاتِ والفُتاتِ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ. ويُقالُ: هاجَتِ الأرضُ إذا ابْتَدَأتْ في اليُبْسِ، ﴿حُطَٰمًا﴾ أي مُتَكَسِّراً.

الآية ٢٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فَيُسْلِمُ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي يَجْعَلُ اللهُ في صَدْرِهِ النورَ

---

(١) في الأصل وم: محبته. (٢) في الأصل وم: محبة الخلق وأبنائهم. (٣) في الأصل وم: أنزله. (٤) في الأصل وم: طبعه. (٥) في الأصل وم: يخالط. (٦) في الأصل وم: تخرج. (٧) في الأصل وم: وطعمها. (٨) في الأصل وم: وطعمها. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم.

إذا أسْلَمَ حتى يُبْصِرُ الحَقَّ وحُجَجَهُ وبراهينَهُ بصورةِ الحَقِّ أنهُ حقٌّ، والباطلَ أنهُ باطلٌ وأنهُ تَمْويهٌ؛ يُبْصِرُ كلَّ شيءٍ بذلكَ النورِ على ما هو حقيقةٌ أنهُ حقٌّ وباطلٌ، فيأخُذُ الحَقَّ، ويَعْمَلُ بهِ، ويَتْرُكُ الباطلَ، ويَجْتَنِبُهُ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحتَمِلُ][1] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ يكونُ نورُهُ هو إسلامَهُ الذي هداهُ، شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ بنورِهِ حتى أسْلَمَ، و هو ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ: «سُئِلَ: هل يَنْشَرِحُ الصدْرُ للإسلامِ؟ وكيفَ يَنْشَرِحُ؟ قالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إذا دَخَلَهُ النورُ انْشَرَحَ لذلكَ الصدرُ، وانْفَسَحَ لهُ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٢١٩] أخبَرَ أنَّ النورَ إذا دَخَلَ الصدرَ انْشَرَحَ لذلكَ الصدرُ وانْفَسَحَ لهُ بذلكَ النورِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أيضاً أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ في الدنيا ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ في الآخِرَةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الآيةَ[التحريم: ٨] والذينَ كَفَروا طَبَعَ اللهُ على قُلوبِهِمْ، فَبِظُلْمٍ وبِفِسْقٍ لِما بَقُوا[2] في الظُّلْمَةِ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ الإسلامِ نفسِهِ إذا أسْلَمَ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [أي][3] كتابِ اللهِ، قالَ هذا المؤمنُ بهِ، يأخُذُ [كتابَ اللهِ][4] وإليهِ يَنْتَهي.

«ولمّا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ هلْ لِذلكَ أي لانْشِراحِ الصدْرِ للإسلامِ علامةٌ؟ فقالَ: نعمْ التَّجافي عنْ دارِ الغُرورِ، والإنابَةُ إلى دارِ الخُلودِ، والاسْتِعْدادُ لِلْمَوتِ قَبْلَ حُلولِ الموتِ» [القرطبي في تفسيره: ٧/ ٧٤] فهذا في التحقيقِ ليسَ في المُعامَلَةِ في العملِ، ولكنْ في الاعْتِقادِ، أي يَتَجافَى عنْ دارِ الغُرورِ، ويُنيبُ[5] إلى دارِ الخُلودِ؛ يَتَزَوَّدُ مِنَ الدنيا للآخِرَةِ.

ثم قولُهُ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ على الاسْتِفْهامِ على ما ذُكِرَ، ويَحتَمِلُ ألّا يكونَ على الاسْتِفْهامِ، ولكنْ على الإيجابِ. فإنْ كانَ على هذا [فهوعلى][6] إسقاطِ الألفِ: فَمَنْ ﴿شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ الآيةَ كقولِهِ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فَعَلَى ذلكَ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ على الاسْتِفْهامِ فلا بُدَّ أنْ يكونَ لهُ مُقابِلٌ، يُعْرَفُ ذلكَ بدليلِ أنهُ جَوابُهُ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: جَوابُهُ في قولِهِ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ كأنهُ يقولُ: ليسَ المُنْشَرِحُ صَدْرُهُ بالإسلامِ كالقاسي قَلْبُهُ بالكُفْرِ، وهو قولُ الكِسائيِّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ جوابُهُ ومُقابِلُهُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وهو قولُهُ: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ الآيةَ [الزمر: ١٩] كأنه يقولُ: أفَمَنْ حَقَّ عليهِ العذابُ كَمَنْ شَرَحَ صَدْرَهُ للإسلامِ؟ أي ليسَ مَنْ وَجَبَ عليهِ العذابُ كَمَنْ ﴿شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ، ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أصْدَقَهُ خبراً وأعْدَلَهُ حُكماً، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وَوَصَفَهُ بالصِّدْقِ والعَدْلِ حينَ[7] قالَ ﷻ ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صِدقاً في خَبَرِهِ وعَدْلاً في حُكْمِهِ.

فَعَلَى /٤٦٨ ـ ب/ ذلكَ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ خَبَراً وأعْدَلَهُ حُكماً، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي أتْقَنَهُ وأحْكَمَهُ، وهو مُتْقَنٌ ومُحكَمٌ، وهو على ما وَصَفَهُ بالصِّدْقِ والعَدْلِ في آيةٍ أُخرَى، وقالَ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢] أخبَرَ أنهُ لا يأتي القرآنَ باطلٌ مِنْ بينِ يَدَيهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ؛ وذلكَ لإتْقانِهِ وإحكامِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: بقي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والإنابة. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: حيث.

وهو أحسَنُ الحديثُ لأنَّ مَنْ تأمَّلَهُ، ونظرَ فيهِ، وتفكَّرَ، أنارَ قلبَهُ، وأضاءَ صَدْرَهُ، وهَداهُ سَبيلَ الخَيرِ والحَقِّ، ودَفَعَ عنهُ الوَساوِسَ والشُّبُهاتِ وكلَّ شرٍّ، وأفضاهُ إلى كلِّ خيرٍ وبِرٍّ؛ فهو أحسَنُ الحديثِ، إذْ لا حديثَ يَعْمَلُ ما يَعْمَلُ هو لِما ذَكَرْنا وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ قولُهُ ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي ليسَ يَختَلِفُ، ولا يَتَناقضُ، ليسَ كحديثِ الناسِ وكُتُبِهِمْ ممّا يَختَلِفُ، ويَتَناقضُ حديثُهُمْ وكتابُهُمْ وخاصّةً في ما امْتَدَّ مِنَ الأوقاتِ، وطالَ، وبَعُدَتْ مُدَّتُهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

دلَّ كونُهُ مُتَّفِقاً مُتَشابهاً غيرَ مُختَلِفٍ في حُلولِ نُزولِهِ وتفرُّقِ أوقاتِهِ وتَباعُدِ أيّامِهِ في الإنزالِ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ، ومنهُ جاءَ؛ إذْ لو لم يكُنْ مِنْ عندِهِ لَخَرَجَ مُختَلِفاً مُتناقِضاً على ما يَخْرُجُ حديثُ الناسِ وخَبَرُهُمْ مُختَلِفاً ومُتَناقِضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: سَمّاهُ مَثانيَ لِما يُثَنّي فيهِ أنباءَهُ وقِصَصَهُ مَرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

وأصْلُهُ أنهُ سَمّاهُ مَثانيَ لأنهُ ذَكَرَ فيهِ المَواعِظَ والذِّكْرَى، وكَرَّرَها، في غيرِ موضعٍ لِما لو لمْ يُكرِّرْها لَغَفَلوا عنها، وسَهَوا عنها، لأنَّ الحكيمَ إذا وَعَظَ أحداً عِظَةً، وزَجَرَهُ [عنْ شيءٍ، ثم تَرَكَهُ، لم يَعِظْهُ، ولم يَزْجُرْهُ ثانياً، غَفَلَ عمّا وَعَظَهُ، وزَجَرَهُ][١] وسَهَا عنهُ. وكَرَّرَ ﷻ عليهِمُ المَواعِظَ والزواجِرَ لِيكونوا أبداً مُتَّعِظينَ مُتَذكِّرينَ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لِكَيلا يَغْفُلوا عنها، ولا يَسْهُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عندَ تِلاوةِ آيةِ الرهْبَةِ والخوفِ ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ عندَ تِلاوَةِ آيةِ الرحمةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ لهمْ بجميعِ القرآنِ بما فيهِ مِنَ الرحْمَةِ والرهْبَةِ جميعاً؛ يكونُ فيهما المَوعِظَةُ: تَلِينُ قُلوبُهُمْ، وتَقْشَعِرُّ جُلودُهُمْ، وتَخافُ أنفسُهُمْ، لأنَّ آيةَ الرحْمَةِ ليسَتْ بأحقَّ بِتَلْيينِ القلوبِ مِنْ آيةِ الرَّهْبَةِ، بل آيةُ الرهْبَةِ أحقُّ بذلكَ.

وقَتادةُ يقولُ: كانَتْ جُلودُهُمْ تَقْشَعِرُّ، وعيونُهُمْ تبكي، وقُلوبُهُمْ تَطمَئِنُّ إليهِ، ولا تَذْهَبُ عقولُهُمْ، ولا يُغْشى عليهِمْ كما رَأينا أهلَ البِدَعِ يَفْعَلونَهُ، وإنما ذلكَ مِنَ الشيطانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قد بَيَّنَ سُبُلَ الهُدَى والحقِّ وحُجَجَهُ وبَراهينَهُ، و بَيَّنَ سُبُلَ الضلالَةِ والباطِلِ. فَمَنْ سَلَكَ سبيلَ الهُدَى فَبِتوفيقِهِ سَلَكَ، وبِمَعونَتِهِ اهْتَدَى، ومَنْ سَلَكَ طريقَ الكُفْرِ والباطلِ فَبِخِذْلانِهِ ضَلَّ، وزاغَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أخبَرَ أنَّ مَنْ أضلَّهُ اللهُ فلا هادِيَ لهُ، على ما قالَ في المَعيشَةِ والرِّزْقِ؛ قالَ ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] وقالَ ﷻ: في الضَّرّاءِ والخيرِ حينَ[٢] قالَ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] ذَكَرَ في الضَّلالِ والهُدَى ما ذَكَرَ في الرِّزْقِ والضُّرِّ والخيرِ.

ذَكَرَ[٣] أنَّ للهِ في فِعْلِهِمْ وصُنْعِهِمْ تَدْبيراً، ليسَ على ما تقولُهُ المُعتَزِلَةُ: أنْ لا تَدْبيرَ للهِ في ذلكَ. وأنَّ مَنِ اهْتَدَى فإنما يَهْتدي بنفسِهِ، ومَنْ ضَلَّ، وزاغَ فإنما ذلكَ بنفسِهِ، لا تَدْبيرَ للهِ في ذلكَ فالآيةُ تَنْقُضُ قولَهُمْ ومَذْهَبَهُمْ.

وقَتادةُ يقولُ في قولِهِ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وإنما يَذْكُرُ اللهُ أهلَ الإيمانِ، فكانَتْ تَقْشَعِرُّ بذلكَ جلودُهُمْ، وتَبكي أعيُنُهُمْ، وتَطْمَئِنُّ قلوبُهُمْ، ولا تَذْهَبُ عقولُهُمْ منهُ.

وأمّا أنْ تَضَرُّعَ أحدِهِمْ، فلم يكنْ، وكانَ هذا في أصحابِ البدعِ، ورُبَّما هو مِنَ الشيطانِ.

ولَعَمْري ما كانَ في هذهِ الأمةِ أحدٌ أعْلَمَ مِنْ نَبيِّهِ ﷺ ومَنْ بَعْدِهِ أصحابُهُ الذينَ انْتَخَبَهُمُ اللهُ ﷻ لِصُحْبَةِ النَّبيِّ ﷺ وأصحابُ أصحابِهِ، فَحَدَّثوا أنَّ هذا إنما كانَ في أهلِ البِدَعِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ذلك.

الآية ٢٤ وقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ كأنهُ لم يَذْكُرْ مقابلَ هذا في[1] هذا المَوضِعِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ مُقابِلُهُ ما تقَدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أفَمَنْ جعَلَ لهُ الغُرَفَ أعلَى الغُرَفِ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ كَمَنْ ﴿يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ليسَ هذا كذاكَ، ولا أحَدَ يَتَّقي بوجْهِهِ سوءَ العذابِ. لكنْ يُخرَّجُ ذلكَ على وجوهٍ:

أحَدُها: كنايةٌ عنِ الشُّفَعاءِ وأهلِ النَّصرِ كأنهُ يقولُ: لا يكونُ [لهُ][2] مَنْ يَشْفَعُ، أو يَمْلِكُ دفعَ العذابِ عنهُ[3].

[والثاني: أنْ][4] تكونَ أيديهِمْ مَغلولةً إلى أعناقِهِمْ، فلا يَدَ لهُ يَتَّقي[5] بها سوءَ العذابِ عنْ وجهِهِ، لأنَّ في الشاهِدِ مَنْ أصابَ شيئاً مِنَ العذابِ [يَتَّقي ذلكَ العذابَ][6] عنْ وجهِهِ بِيَدِهِ، فَيُخبِرُ أنْ لا يَدَ لهُ في الآخِرَةِ، يَتَّقي العذابَ بها عنْ وجهِهِ، بل يُصيبُ العذابُ وجْهَهُ، فكانهُ[7] يَتَّقي بهِ.

[والثالثُ][8]: أنْ يكونَ ذَكَرَ الوجْهَ كِنايةً عنْ نفسِهِ، وهو ما ذَكَرْنا: ألَّا يكونَ لهُ مَنْ يَمْلِكُ[9] دَفْعَ العذابِ عنهُ.

[والرابعُ][10]: أنْ يكونَ ذَكَرَ الوجْهَ كِنايةً عنْ قَلبِهِ لِئلّا[11] يَصِلَ وَجَعُ ذلكَ العذابِ إلى قلبِهِ، ولا يملكُ دفعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي ذوقوا جزاءَ ما كُنتُمْ تَكْسِبونَ. [ويَحتَمِلُ][12] ذوقوا ما اخْتَرْتُمْ مِنَ الكَسْبِ، وهذا بما اخْتَرْتُمْ، لأنهُ قد بَيَّنَ لهمُ الكَسْبَينِ جميعاً، وما يكونُ لكلِّ كَسْبٍ في العاقبةِ، فاختاروا همُ الكَسْبَ الذي كانَ عاقِبَتُهُ[13] الذي أصابَهُمْ، فكأنهمُ اختاروا ذلكَ الذي حَلَّ بهمْ باختيارِهِمْ ذلكَ الكَسْبَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لِيُخَوِّفَهُمْ، ويُحَذِّرَهُمْ بِما[14] نَزَلَ بالمُتَقَدِّمينَ بتكذيبِ الرسلِ ﷺ والعِنادِ وحَذَّرَهُمْ[15] رسولُ اللهِ ﷺ بالبعثِ وما يَحُلُّ[16] بهمْ يومَ القيامةِ بذلكَ.

فإذا لم يُصَدِّقوهُ في ما يُحَذِّرُهُمْ بيومِ[17] القيامةِ حَذَّرَهُمْ بالذي انْتَهَى إليهِمُ الخَبَرُ، يعني [خَبَرَ المتقدمينَ مِنْ][18] رسولِ اللهِ ﷺ لِيَحْذَروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي مِنْ حيثُ لا يأمَنونَ العذابَ الذي ينزِلُ بهِمْ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ العذابُ الذي نَزَلَ بهمْ في الدنيا ليسَ هو عذابَ الكُفرِ، إنما هو عذابُ العِنادِ[19] والتَّعَنُّتِ وأفعالٍ فَعَلوها في حالِ الكُفرِ.

[فأمّا عذابُ الكُفرِ][20] فهو في الآخِرَةِ أبَدَ الآبِدينَ خالدينَ مُخَلَّدينَ فيهِ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أي بَيَّنّا للناسِ في هذا القرآنِ مِنْ كلِّ ما يَحتاجونَ إليهِ مِنْ أمْرِ دينِهِمْ ودُنياهُمْ؛ أخبَرَهُمْ مالَهُمْ وما عليهِمْ [وما][21] لبعضِهِمْ على بعضٍ وأمثالَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهُما: لكي يُلْزِمَهُمُ التَّذَكُّرَ والاتِّعاظَ.

---

(١) في الأصل وم: إن. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: عنهم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، في الأصل: ليتقي. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في م: فكأنما. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: أن. (١٢) في الأصل وم: أو يقول. (١٣) في الأصل وم: عاقبة. (١٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: بعد ما حذرهم. (١٦) في الأصل وم: حل. (١٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) من م، في الأصل: الكفر. (٢٠) ساقطة من الأصل وم. (٢١) في الأصل وم: أو.

والثاني: /٤٦٩ ـ أ/ لكي يُبَلِّغَهُمْ ما يَتَذَكَّرونَ، ويَتَّعِظونَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي جَعَلْناهُ قُرآناً عربياً كقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] لكي يَفْقَهوهُ، ويَعْرِفوهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ الآية [إبراهيم: ٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ لا يُخالِفُ الكُتُبَ السالفةَ، بل يُوافِقُها، لأنَّ كُتُبَ اللهِ جاءَتْ كلُّها على الدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ وربوبيَّتِهِ. فكذلكَ القرآنُ، فهو لا يُخالِفُ سائرَ الكتبِ، بل يُوافِقُها.

والثاني: لا عِوَجَ فيهِ لِما لا يُخالِفُ بعضُهُ[1] بعضاً، ولا يُناقِضُ، بل خَرَجَ كلُّهُ مُوافِقاً بعضُهُ بعضاً[2] مُسْتَقيماً على تَباعُدِ نُزولِهِ في الأوقاتِ، وباللهِ التوفيقُ.

واصْلُ[3]: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي ليسَ بمائلٍ ولا زائغٍ عنِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المَهالِكَ أو سُخْطَ اللهِ ونِقْمَتَهُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي لا يَسْتَوِيانِ. يُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ المَثَلِ لِرَجُلَينِ [هو مَثَلٌ للبَشَرِ كلِّهِ المُسْلِمينَ والكافرينَ][4].

ثم يَحْتَمِلُ الرجلُ الذي فيهِ شركاءُ مُتَشاكسونَ، أي يَتَشاكسونَ في نَسَبِهِ؛ أو يَتَشاكَسونَ في المُلْكِ فيهِ؛ يقولُ كلٌّ هو لي، أو في المُلْكِ في قومٍ[5] يَدَّعي كلٌّ أنَّ المُلْكَ لهُ فيهِمْ.

ولا يَثْبُتُ لِواحِدٍ منهمُ المُلْكُ الذي يَدَّعي لِيَطْلُبَ هذا منهُ النَّفَقَةَ، وما يَجِبُ على ذي المُلْكِ مِنْ حقوقِ المُلْكِ، فَيَبْقَى ضائعاً مُتَحَيِّراً [وكذلكَ لا يَثْبُتُ لأحَدٍ فيهمُ المُلْكُ لِقيامِ التَّنازُعِ بَينَهُمْ، فَيَبْقَونَ مُتَحَيِّرينَ ضائعينَ لِعَدَمِ مَنْ لا يَسوسُهُمْ، ويقومُ بأمورِهِمْ][6].

وإنْ كانَ المُلْكُ لرجلٍ واحِدٍ أوِ النَّسَبُ سالماً لهُ يَصِلُ إلى كلِّ [ماهو][7] حقٌّ لهُ، ويكونُ محفوظاً في نفسِهِ معروفاً، فيكونُ مَثَلُ الذي فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ، هو الذي يَعْبُدُ الشيطانَ أوِ الأصنامَ أو هَوَى النفسِ؛ يَدْعُوهُ كلُّ شيطانٍ إلى غَيرِ الذي دَعاهُ[8] الآخَرُ، وكذا الهَوَى يَدْعو صاحبَهُ مَرَّةً إلى كذا ومَرَّةً إلى غَيرِ ذلكَ. فهو كالذي فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ، يَدَّعيهِ[9] هذا وهذا [فَيَبْقَى مُتَحَيِّراً][10].

والذي يَعْبُدُ اللهَ الحقَّ الذي تَثْبُتُ أُلوهِيَّتُهُ بالحُجَجِ والآياتِ كالرجلِ السالمِ الواحِدِ: يكونُ أبداً على حالةٍ واحدةٍ مطيعاً لهُ خالصاً لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي هل يَسْتَوي الرجلُ الذي يَدَّعي فيهِ شُركاءُ مُتَشاكِسونَ والرجلُ الذي يكونُ لرجلٍ واحِدٍ في ما ذَكَرْنا، أي هل يَسْتَوِيانِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾: مَنْ يَعْبُدُ آلهةً شَتَّى مُخْتَلِفَةً، والذي يَعْبُدُ ربّاً واحداً، وهو المؤمِنُ، وقد رَأوا [أنهما قدِ اسْتَوَيا في][11] هذهِ الدنيا، وفي الحكمةِ التفريقُ بَينَهما، وفيهِ دلالةُ البعثِ. وكذلكَ [قالوا][12] في قولِهِ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ [هود: ٢٤] وقدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا.

دلَّ أنَّ هناكَ داراً أُخرَى يُفَرِّقُ بينهم[13]، إذْ في الحكمةِ والعقلِ التفريقُ بَيْنَهُمْ[14]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بعضها. (٢) في الأصل وم: بعضه. (٣) في الأصل وم: وأصله. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: من البشر كله المسلمون والكافرون. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه أو. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: دعا. (٩) في الأصل وم: يدعي. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أنهم قد استووا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) و(١٤) في الأصل وم: بينها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذِكْرُ الحَمْدِ على إثْرِ ذلكَ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: [أمَرَهُمْ أنْ يَحْمَدوا ربَّهُمْ][1] على ما خَصَّهُمْ بالتوحيدِ مِنْ بينِ[2] الكفارِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيدَ ربِّهِمْ.

والثاني: أمَرَهُ أنْ يَحْمَدَ ربَّهُ على [ما][3] جَعَلَهُ سالِماً خالِصاً لَمْ[4] يَجْعَلْ ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي مُخْتَلِطونَ يَتَنازَعونَ، ويَتَناجَونَ، و: رجلاً سالِماً[5]: أي خالِصاً. ومَنْ قرَأ: ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أرادَ سَلِمَ إليهِ، فهو سَلْمٌ [وسِلْمٌ][6].

ثم قولُهُ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] يَحْتَمِلُ الأنبياءَ منهمْ والخواصَّ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ جميعَ المؤمنينَ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: تَقْشَعِرُّ منهُ جلودُ الذينَ يؤمنونَ بربِّهِمْ، ثم تَطْمَئِنُّ جلودُهُمْ وقلوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: ثم تَلينُ[7] جُلودُهُمْ وقلوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ليسَ الضالُّ الذي يَتَّقي النارَ بوجْهِهِ كالمُهْتَدي الذي لا تَصِلُ النارُ إلى وجْهِهِ، لَيسَا بِسَواءٍ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٣٠ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وجهُ ذِكْرِ هذا على إثْرِ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ وقدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا: مَنْ أخْلَصَ نفسَهُ ودينَهُ للهِ، ولِلرَّسولِ ومَنْ جَعَلَ فيهِ [في دينِهِ][9] شُرَكاءَ، ولم يُسَلِّمْ نفسَهُ لهُ، وهو الكافرُ، ثم تموتُ أنتَ، ويموتونَ. فلو لم تَكُنْ دارٌ أُخْرى، يُمَيِّزُ فيها، ويُفَرِّقُ بينَ الذي جَعَلَ نفسَهُ سالِماً للهِ خالِصاً وبَينَ مَنْ لم يَفْعَلْ ذلكَ، لكانَ في ذلكَ اسْتِواءٌ بَينَ مَنْ ذَكَرَ. وفي الحكمةِ أنْ لا اسْتِواءَ بَينَهما. [ويموتُ المُسَلِّمُ][10] نفسَهُ للهِ، ويموتُ الآخَرُ.

دلَّ أنَّ في ذلكَ بَعْثاً، يُثابُ هذا، ويُعاقَبُ الآخَرُ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرَ][11] هذا لِما كانوا يَتَشاءَمونَ برسولِ اللهِ ﷺ ويَتَطَيَّرونَ، في ما يُصيبُهُمْ مِنَ المَصائِبِ والشدائِدِ حتى قالَ ﷻ: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي لا يَخْلُدونَ. فَعَلَى ذلكَ يقولُ ﷻ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أيضاً أي لا يَبْقَونَ هُمْ بَعْدَ مَوتِكَ أبداً، ولكنهمْ يموتونَ.

ولو كانَ ما يُصيبُهُمْ، بل [يصيبُكَ][12] أنتَ على ما يَزْعُمونَ لأخْبَرَ[13] ألّا يُصيبَهُمْ بَعدَ موتِكَ. هذا [لا][14] يُحْتَمَلُ، واللهُ أعلَمُ. [ويَحْتَمِلُ][15] أنْ يقولَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ فَتَصِلُ إلى ما وَعَدَكَ[16] مِنَ الكراماتِ والثوابِ، ويموتونَ هُمْ، فَيَصِلونَ إلى ما أُوعِدوا مِنَ المواعيدِ والعُقوباتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ورُوِيَ عنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][17] قالَ: كُنّا لا نَعْلَمُ ما تَفْسيرُ هذهِ الآيةِ؟ وكُنّا نقولُ: مَنْ يُخاصِمُ؟ فلمّا وقَعَتِ الفتنةُ بَينَ أصحابِ رسولِ اللهِ حتى كَفَحَ بعضُنا وُجوهَ بعضٍ بالسيوفِ، فَعَرَفْتُ أنها نَزَلَتْ فينا.

وذُكِرَ عنِ ابْنِ الزبَيرِ [أنهُ][18] لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ قالَ: «يا رسولَ اللهِ أتُكَرَّرُ علينا الخصومةُ بعدَ الذي كانَ بَينَنا في الدنيا؟ فقالَ: نعمْ، فقالَ: إنَّ الأمرَ إذنْ لَشديدٌ» [الترمذي ٣٢٣٦].

---

(١) في الأصل وم: أن يحمد ربه. (٢) أدرج بعدها في الأصل: أي هذا كهذا وأن يكون مقابله ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: بل. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/١٦. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ينيب. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقد يموتون السالم. (١١) في الأصل وم: أو أن يذكر. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيخبر. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أو. (١٦) في الأصل وم: وعد ذلك. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

ورُوِيَ عنْ بعضِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ، لمَّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ أنهمْ قالوا: كيفَ نَختَصِمُ، ونحنُ إخوانٌ؟ فلما قُتِلَ عثمانُ ظُلْماً وعُدْواناً عَلِموا أنها لهمْ وفيهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم خُصومَتُهُمْ هذهِ يومَ القيامةِ تَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: في المَظالِمِ في الحقوقِ التي كانتْ لبعضٍ [على بعضٍ. والثاني:][1] في الدينِ أو في الدينِ أو في أمرِ الدينِ.

[ويَحتَمِلُ][2] أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ لمّا بلَغَتِ المُحاجَّةُ غايتَها في الدينِ والدنيا، ولم تَنجَعْ فيهِمْ، ولا قَبِلوها، أخبَرَ أنهمْ يَختصِمونَ في ذلكَ يومَ القيامةِ في الوقتِ الذي يُعايِنونَ العذابَ. والعربُ تقولُ: ماتَ يَماتُ، فهو مائتٌ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ يقولُ: لا ظُلْمَ أعظَمُ، ولا أفحَشُ مِمَّا[3] يُكذِّبُ على مَنْ يَتَقلَّبُ في إحسانِهِ، ويَتصرَّفُ في نَعمائِهِ، وأنتمْ مُتَقلِّبونَ في نِعَمِ اللهِ وأنواعِ إحسانِهِ. فلا ظُلْمَ [أعظَمُ][4] ولا أفحَشُ/ ٤٦٩ ـ ب/ مِنْ تكذيبِ خَبَرِهِ وردِّهِ؛ إذْ لا خَبَرَ أصدَقُ مِنْ خَبَرِهِ، ولا حَديثَ أحقُّ مِنْ حديثِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ كأنهُ يقولُ: [أليسَتْ جهَنَّمُ كافيةً][5] للكافرينَ مَثْوىً كقولِهِ ﷻ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ [المجادلة: ٨] أي حَسْبُهُمْ جهَنَّمُ عقوبةً لهمْ بكُفرِهِمْ وتكذيبِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ اختَلَفَ أهلُ التأويلِ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ جبرائيلُ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ محمدٌ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ محمدٌ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أبو بكرٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ محمدٌ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أصحابُهُ جميعاً.

قُلْنا: أهلُ التأويلِ على اختِلافِهِمْ اتَّفَقوا أنَّ الذي جاءَ بهِ جبرائيلُ أو محمدٌ ﷺ هو التوحيدُ.

فإنْ كانَ التأويلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ، وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المُوَحِّدينَ المؤمنينَ، ففيهِ نَقْضُ قولِ الخوارجِ والمعتزلةِ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ، ليسَ بمؤمنٍ، وإنهُ يُخلَّدُ في النارِ، لأنهُ قالَ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ وكلُّ مُرتَكِبِ الكبيرةِ مُصدِّقٌ بالذي جاءَ بهِ جبرائيلُ ومحمدٌ ﷺ.

ثم أخبَرَ أنهمْ ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي اتَّقَوُا الشِّرْكَ، وقالَ لأولئكَ أيضاً: إنهُ يُكفِّرُ عنهمْ ما ارتكَبوا مِنَ المَساوِئِ، وهو قولُهُ: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾.

دَلَّ أنَّ لهمْ مساوِئَ، ثم إنْ شاءَ عَذَّبَ على تلكَ المَساوِئِ وقتاً، ثم أعطاهُمْ ما وَعَدَ. وإنْ شاءَ عَفا عنهمْ، وتجاوَزَ، وأعطاهُمْ ما ذَكَرَ. فكيفَ ما كانَ فَلَهُمْ ما ذَكَرَ، إذْ هُمْ على تَصْديقٍ بما جاءَ محمدٌ ﷺ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: صَدَّقَ بقلبِهِ؛ أي جاءَ بالقولِ وتَصديقِ القلبِ.

والثاني: صَدَّقَ بهِ في المُعاملةِ في اختِيارِ كلِّ ما يَصْلُحُ [واجتِنابِ كلِّ ما][6] لا يُوافِقُ الذي جاءَ بهِ.

وعلى ذلكَ ذُكِرَ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][7] قالَ: يا ابْنَ آدمَ: قُلْتُ: لا إلهَ إلّا اللهُ، فَصَدِّقْها.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو أشَدُّ، لكنهُ، وإنْ لم يُعامِلِ المعاملةَ [التي توافقُ][8] الذي جاءَ بهِ، وهو التوحيدُ، ولم يَجتَنِبْ ما ذَكَرْنا، فإنَّ لهُ ما ذَكَرَ: إمّا بعدَ التَّعذيبِ[9] وإمّا بَعْدَ العَفْوِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: إن، في م: على بعض أن. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أليس جهنم كاف. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: التوحيد.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دلَّ هذا أنَّ ذلكَ الوَعْدَ للجماعةِ، ليسَ لِوَاحِدٍ ولا لِاثنَينِ، وهو لِجميعِ المؤمنينَ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ذَكَرَ نوعَينِ مِنَ العَمَلِ السَّيِّئَ والحَسَنَ. ثم أخبَرَ أنهُ يُكَفِّرُ ﴿عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فَيَحْتمِلُ الأحْسَنُ الحَسَناتِ أنفسَها: يَجزيها، ويُكَفِّرُ السَّيِّئاتِ.

[ويَحتَمِلُ أي يُكَفِّرُ السَّيِّئاتِ أسْوأَها وأعظمَها، ويَجزي بأحسَنِ الحسناتِ وأعظمِها.

فَعَلَى هذا: أحْسَنُ وأسْوَأُ مِنْ نوعِها: أحْسَنُ الحسناتِ وأسْوَأُ السَّيِّئاتِ][1].

وعلى الأوَّلِ مِنْ غَيرِ نَوعِها، أي يُكَفِّرُ السَّيِّئاتِ، ويَجْزي بالحسناتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وعبادَهُ أيضاً. الآيةُ يُحتَجُّ بها على إثباتِ الرسالةِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ١٢٩] وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ونَحوُ ذلكَ، وأمثالُهُ كثيرةٌ وكانَ يَقْرَعُ أسماعَهُمْ بهذهِ[2] الآياتِ التي ذَكَرْنا وغَيرِ ذلكَ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] ثم لم يَقْدِروا على إهلاكِهِ، بل عَصَمَهُ اللهُ مِنْ كَيدِهِمْ ومَكْرِهِمْ على ما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فَبَلَّغَ إليهِمْ ما أُمِرَ تَبليغَهُ مِنْ غَيرِ أنْ قَدَرُوا على ما قَصَدوا بِهِ. وفي ذلكَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ عظيمٌ ودلالةٌ على إثباتِ الرسالةِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وإنْ خُرِّجَ مُخرَجَ الاستِفْهامِ في الظاهرِ، فهو في الحقيقةِ على الإيجابِ والتقريرِ لأنهمْ كانوا يَعْلَمونَ أنَّ اللهَ ﷻ هو الكافي لِخَلْقِهِ.

مِنْ ذلكَ أنهمْ إذا سُئِلوا مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضِ؟ قالوا: اللهُ تعالى، وإذا سُئِلوا مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟ قالوا: اللهُ، ومَنْ أنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً؟ ومَنْ أخرَجَ مِنَ الأرضِ النباتَ؟ قالوا اللهُ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ هو الكافي جميعَ خَلْقِهِ في الدَّفْعِ والذَّبِّ عنهمْ والنَّصْرِ لهمْ. فإذا عَرَفْتُمْ ذلكَ فكيفَ تُخَوِّفونَ رسولَ اللهِ بالذي تُخَوِّفونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: بأهلِ الأرضِ جميعاً؛ يقولونَ لهُ: إنَّ العربَ يَفْعلونَ[3] بكَ كذا، ويَعْمَلونَ بكَ كذا، يُخَوِّفونَهُ بهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانوا يُخَوِّفونَهُ بالأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها أنْ يُصيبَهُ سوءٌ وأذىً مِنْ ناحيَتِها كقولِهِ ﷻ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] وكانَ هذا أشْبَهَ بالآيةِ [التي][4] ذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ، وعَقَّبَهُ بالأصنامِ حينَ[5] قالَ ﷻ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨] هذا يدلُّ أنَّ ما ذَكَرَ مِنْ تَخويفِهِمْ إيَّاهُ إنما كانَ بالأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أخبَرَ أنهُ إذا أرادَ هِدايةَ أحدِكُمْ لم يَمْلِكْ أحدٌ إضلالَهُ، وإذا أرادَ إضلالَ أحدٍ لم يَقْدِرْ أحدٌ على هِدايتِهِ؛ ذَكَرَ في الدينِ أنْ لا أحدَ يَمْلِكُ دَفْعَ مَنْ أرادَ مِنْ هَدْيٍ أو إضلالٍ، ولا مَنْعَهُ عَنْ ذلكَ على ما ذَكَرَ في الرِّزْقِ وأسبابِ العيشِ، وعلى ما ذَكَرَ في الأنفسِ وحِفْظِها أنْ لا أحَدَ يَمْلِكُ دفْعَ ما أرادَ هو. فَعَلَى ذلكَ في الدينِ لأنَّ الذِّكْرَ خَرَجَ في الكلِّ على مَخرَجٍ واحدٍ.

وذلكَ على المعتزلةِ لِقَولِهِمْ: إنَّ اللهَ تعالى قد أرادَ هدايةَ كلِّ أحدٍ ونَصْرَ كلِّ وليٍّ، لكنَّ غَيرَهُ مَنَعَهُ عن ذلكَ، فهو وَحْشٌ مِنَ القولِ سَمْجٌ، وباللهِ العِصْمَةُ والنجاةُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الباء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يفعل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ هو على الإيجابِ والتقريرِ، أي يَعْلَمونَ أنهُ عزيزٌ ذو انْتِقامٍ، أي عزيزٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ذو انْتِقامٍ لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ قد عَلِموا أنْ لا خالقَ سِواهُ، وعَرَفوا أنهُ لا يَمْلِكُ أحَدٌ سِواهُ كَشْفَ ما أرادَ هو مِنَ الضَّرِ ولا إمساكَ ما أرادَ هو مِنَ الضَّرِ ولا إمساكَ ما أرادَ مِنَ الرحمةِ بأحدٍ. ولِذلكَ فَزِعوا إليهِ عندَ نزولِ البلاءِ بهِمْ، ولم يَفْزَعوا [إلى][1] مَنْ عَبَدوهُمْ مِنْ دونِهِ مِنَ الأصنامِ ولا إلى أحدٍ مِنَ الخلائقِ[2].

دلَّ ذلكَ على أنهمْ قد عَرَفوا أنَّ ذلكَ بهِ يُنالُ مِنْ خَيرٍ أو غَيرِهِ. ولِذلكَ فَزِعوا إليهِ عندَ نزولِ البلاءِ بهِمْ، ولم يَفْزَعوا [إليهم. ولِذلكَ احْتَجَّ][3] عليهِمْ بما احْتَجَّ، ولو لم يكونوا عَلِموا بذلكَ لم يكن لِيَحْتَجَّ عليهِمْ بذلكَ، وهمْ بذلكَ مُنْكِرونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في قولِهِ ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ ما ذَكَرْنا مِنَ اللطفِ / ٤٧٠ - أ/ والدلالةِ على إثباتِ الرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على الإياسِ منهُمْ أنهمْ لا يُؤمِنونَ، ولا يُجيبونَ إلى ما دُعُوا إليهِ بعدَ ما أُقيمَ عليهِمُ الحُجَجُ والبراهينُ. كأنهُ يقولُ: أنيبوا أنتمْ إلى دينِكُمْ، واعْمَلوا لهُ، ونُنيبُ نحنُ إلى دينِنا، ونَعْمَلُ لهُ، فسوفَ تَعْلَمونَ أنَّا على الحَقِّ نحنُ أو أنتُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] أي لا أدينُ أنا بِدِينِكُمْ، ولا أنتمْ تدينونَ بِدِينِنا، ولكنْ يَلْزَمُ كلَّ منّا دينُهُ الذي عليهِ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

والثاني: على التَّوبيخِ لهمْ والتَّعْييرِ؛ يقولُ: اعْمَلوا على مكانتِكُمْ أنتمْ مما تَقْدِرونَ مِنَ الكيدِ والمَكْرِ لي، وأنا عاملٌ ذلكَ بمكانَتِكُمْ كقولِهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ تَوبيخِهِمْ وتَعْييرِهِمْ، وفي هذهِ الآيةِ وفي ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ ﷺ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦] واللهُ أعلَمُ.

إلى هذا المَوضِعِ تقريرٌ وتوبيخٌ ومُنابَزَةٌ وإياسٌ. فأمّا الإياسُ فهو لي في قولِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ والتقريرُ في قولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ والمُنابَزَةُ في قولِهِ: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ والتوبيخُ في قولِهِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يُخَرَّجُ على الصلةِ لِقولِهِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ كأنهُ يقولُ: مَنْ أضلَّ اللهُ حتى لا يَعْلَمَ أنَّ اللهَ، هو كافٍ عبدَهُ، وأنَّ ما يُخَوِّفونَ بهِ لا[4] يَقَعُ بهِ خوفٌ، ولا يَلْحَقُ بهِ ضَرَرٌ، فلا هادِيَ لهُ، ومَنْ هداهُ، فَعَرَفَ ذلكَ، فلا مُضِلَّ لهُ عنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ العذابُ الذي يأتيهِ، هو عذابٌ في الدنيا مِنْ نَحْوِ القَتْلِ والتعذيبِ بالذي أُهْلِكَ الأوَّلونَ المُعانِدونَ للرسولِ ﴿يُخْزِيهِ﴾ أي يَفْضَحُهُ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في الآخِرةِ، وهو عذابُ الكُفْرِ. وإلى ذلكَ ذهبَ بعضُ أهلِ التأويلِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ كلُّهُ في الآخِرةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا كأنهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لِتَحْكُمَ بينَ الناسِ بالعَدْلِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١٠٥] فَعَلى ذلكَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الخالقين. (٣) في الأصل: إليه، في م: احتج. (٤) في الأصل وم: ولا.

هذا، ويكونُ قولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ أنشأَ اللهُ ﷻ البَشَرَ دَرّاكاً مُمَيِّزاً بينَ الخبيثِ والطَّيِّبِ وبَينَ الحَسَنِ والقَبيحِ وبَينَ ما لهمْ وما عليهمْ وبينَ السبيلَينِ جميعاً غايةَ البيانِ، وأوضحَ كلَّ سَبيلٍ نِهايةَ الإيضاحِ أنهُ[1] مَنْ سَلَكَهُ إلى ماذا يُفْضيهِ، ويُنْهيهِ.

ثم امْتَحَنَهُمْ في ذلكَ، ومَكَّنَ لهمْ مِنَ السلوكِ في كلِّ أحدٍ مِنَ السَّبيلَينِ بعدَ البَيانِ منهُ أنهُ مَنْ سَلَكَ سبيلَ كذا، ومَنْ سَلَكَ سَبيلَ كذا أفضاهُ إلى كذا امْتِحاناً منهُ.

ثم أخْبَرَ أنهُ في ما امْتَحَنَهُمْ [لم يَمتَحِنْهُمْ][2] لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إليهِ أو لِمَضرَّةٍ تَدْفَعُ عن نفسِهِ. ولكنْ إنما امْتَحَنَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إليهِمْ إذا اخْتاروا تَرْكَ سُلوكِ سَبيلِ الباطلِ، وهو ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيةٍ[3] مِنَ القرآنِ:

أحدُها: هذا [في ما][4] قالَ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾.

والثاني: بما قالَ ﷻ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧] وغَيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي تُبَيِّنُ أنهُ إنما امْتَحَنَهُمْ لِمَنْفَعَةِ أنفُسِهِمْ واكْتِسابِ الخَيرِ الدائمِ لهمْ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ يُخْبِرُ أنْ ليسَ عليكَ إلّا تبليغُ ما أُرْسِلْتَ، وأُمِرْتَ تَبْليغَهُ إليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [الشورى: ٤٨] وقولِهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ﴾ [النور: ٥٤] وقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقولِهِ تعالى: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] والوكيلُ الحفيظُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ. قالَ ابنُ عباسٍ: كلُّ نفسٍ لها سببٌ تَجْري فيهِ؛ فالتي قَضَى عليها الموتَ [في مَنامِهَا يُمْسِكُها، فَيَنْقَطِعُ السببُ، ويُرسِلُ التي لم يَقْضِ الموتَ عليها، فتَجْري في السببِ حتى][5] تَجْرِيَ في الجَسَدِ كلِّهِ. لكنْ لم يُفْهَمْ ممّا ذَكَرَ ابنُ عباسٍ تأويلُ الآيةِ.

وعنْ سعيدِ بْنِ جُبَيرٍ [أنهُ][6] قالَ: يُجْمَعُ بينَ أرواحِ الأحياءِ وبينَ أرواحِ الأمواتِ، فَيَتَعارَفُ منها ما شاءَ اللهُ أنْ يَتَعارَفَ، فَيُمْسِكُ التي قَضَى عليها الموتَ، ويرسِلُ الأخرى إلى أجسادِها. وبهذا أيضاً لم يُفْهَمْ شيءٌ مِنْ تأويلِ الآيةِ.

وقالَ الكَلبيُّ: النائمُ مُتوفًّى حينَ يَرُدُّ اللهُ إليهِ [نفسَهُ][7] فأمّا التي يَتَوَفّاها حينَ موتِها فإنهُ يَقْبِضُ الرُّوحَ والنفسَ جميعاً، ويرسلُ التي يَتَوَفّاها في مَنامِها حتى تَبْلُغَ أجلَها المُسمّى، وهو المَوتُ، ويُقالُ: إنما يَقْبِضُ اللهُ مِنَ النائمِ النفسَ، والروحُ في الجَسَدِ لم تُفارِقْهُ. فإذا قَبَضَ اللهُ الروحَ ذَهَبَتِ النفسُ مع الروحِ. وهذا الذي ذَكَرَ الكَلبيُّ أقْرَبُ إلى تأويلِ الآيةِ مِنَ الذي ذَكَرَ أولئكَ.

وأصلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ جعلَ في الأجسادِ أنفُساً وأرواحاً؛ تَحْيَى الأجسادُ في حالِ نومِها على الهَيْئَةِ التي كانَتْ مِنْ قبلُ، ليسَ بها أثرُ الموتِ، لكنها لا تُدْرِكُ شَيْئاً، ولا تَسْمَعُ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَعْقِلُ شَيْئاً، وبها آثارُ الحياةِ. يَدُلُّنا هذا على أنها في حالِ النومِ قد ذَهَبَ منها، وخَرَجَ ما بِهِ تُدْرِكُ الأشياءَ، وبَقِيَ منها [مابِهِ][8] تَحيَى، وهو الرُّوحُ. فإذا خَرَجَ الرُّوحُ منها، وإنْ كانَتْ لا تُدْرِكُ شيئاً على الهيئةِ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ، دلَّ ذلكَ على أنَّ الذي بهِ تُدْرِكُ الأشياءَ غَيرُ الذي بِهِ يُحْيَى، واللهُ أعلَمُ.

ألا تَرَى أنَّ تلكَ الأنفسَ الدَّرّاكةَ تَبْقَى في حالِ النومِ، حيثُ كانَتْ، تَتَألَّمُ، وتَتَلَذَّذُ، وتَقْضي الشَّهَواتِ، وهي في أقْصَى الدنيا؟ هذا يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم على هذا جائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ عذابِ القبرِ أنهُ إنما يكونُ على تلكَ الأنفسِ الدَّرّاكةِ لا على الرُّوحِ على ما ذَكَرْنا مِنْ تألُّمِها بعدَ خروجِها مِنَ الأجسادِ ومُفارَقَتِها عنها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرجت في الأصل وم: بعد سلكه. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فتجري. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

ثم أضافَ في هذهِ الآيةِ التَّوفّيَ إلى اللهِ، وفي آيةٍ أُخرَى أضافَهُ إلى الرسلِ حينَ[1] قالَ اللهُ ﷻ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ الآية [الأنعام: ٦١] وأضافَهُ مَرَّةً إلى مَلَكِ الموتِ حينَ قالَ ﷻ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

ثم يَحْتَمِلُ إضافةُ التَّوفّي [إلى][2] الرسلِ وإلى مَلَكِ الموتِ وجهَينِ:

أحَدُهُما: وإنْ كانَتْ حقيقةُ التَّوفّي والموتِ باللهِ لِما يَخلُقُ فِعْلَ قَبْضِهِمُ الروحَ منها، ويُشْبِهُ ذلكَ منهمْ، وهو كما ذَكَرَ مِنَ البُشْرَى لهمْ وطمأنينةِ القلوبِ عندَ بعثِهِ إليهمُ الملائكةُ بالإعانةِ لهمْ والنَّصرِ حينَ[3] قالَ ﷻ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] أخبَرَ أنهُ جَعَلَ لهمْ بَعْثَ الملائكةِ بِشارةَ النَّصرِ، وأنَّ حقيقةَ النَّصرِ ليسَتْ إلّا مِنْ عندِ اللهِ.

فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ إضافةِ التَّوفّي إلى الرسلِ لِما يَخلُقُ فِعْلَ قَبْضِهِمُ الرُّوحَ، وكانتْ حقيقةُ ذلكَ للهِ ﷻ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني[4]: البِشارةُ أنْ تكونَ مِنَ اللهِ لُطفٌ في ذلكَ ومَعْنَىً، لا يكونُ ذلكَ منهمْ. لكنهُ لم يُبَيِّنْ ما ذلكَ اللُّطفُ؟ وما ذلكَ المَعْنَى يكونُ منهُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي حينَ خَلَقَ موتَها بِقَبْضِ الروحِ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ لم تُقبَضْ منها الروحُ، يُرْسِلُ إليها النفسَ الدَّرّاكةَ إلى الأجلِ الذي جُعِلَ لها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ جائزٌ /٤٧٠ ـ ب/ أنْ يكونَ مِنَ القَبْضِ أي لِقَبْضِ الأنفسِ. وجائزٌ أنْ يكونَ مِنَ العَدِّ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ العِبَرَ أوِ الأعلامَ أو الحُجَجَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويَعلَمونَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على استِخراجِ تلكَ الأنفسِ الدَّرّاكةِ مِنَ الأجسادِ وإبقائِها على الهيئةِ التي كانَتْ إلى الوقتِ، لا تُدْرِكُ شيئاً، ثم رَدِّها إليها وإعادتِها إلى ما كانَتْ، قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، أو مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ النفسِ الدَّرّاكةِ في الأجسادِ [حتى تدركَ بها، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَعْجَزَ عنْ [إعادتِها إلى][5] الأجسادِ][6] بَعدَ ما بَلِيَتْ، وفَنِيَتْ.

وذاكَ اللطفُ مِنْ هذا أكبَرُ، لأنَّ الناسَ قد يَتَكَلَّفونَ تصويرَ صُوَرِ الأنفسِ ظاهِرةً، ولا أحَدَ يَتَكَلَّفُ تصويرَ نفسٍ دَرّاكةٍ مِنْ غَيرِها واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضعٍ أنَّ حَرفَ الاستِفهامِ والشَّكِّ إذا أُضيفَ إلى اللهِ ﷻ فهو على الإيجابِ والإلزامِ.

ثم قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ هُمُ الملائكةُ الذينَ عَبَدُوهمْ[7].

لكنهُ بعيدٌ، لأنهُ قالَ [في إثْرِ ذلكَ][8]: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ والملائكةُ أهلُ العقلِ والعِلْمِ، وإنهمْ يَمْلِكونَ ذلكَ [إذ جَعَلَهُ لهمْ، ومَلَكوهُ][9]. لكنَّ الآيةَ في الأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ على رَجاءِ أنْ تَشْفَعَ لهمْ، وتُقَرِّبَ عبادتُهُمْ إياها إلى اللهِ زُلْفَى فهي[10] أشبَهُ بالأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها مِنَ الملائكةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: بلِ اتَّخَذوا بعبادةِ مَنْ عَبَدوا مِنْ دونِ اللهِ شُفَعاءَ لأنفسِهِمْ، ولا يكونونَ شُفَعاءَ لهمْ، ولا يَمْلِكونَ ذلكَ، ولا يَعْقِلونَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في م: إعادة. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: عبدوها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: إذا جعل لهم وملكوا. (١٠) في الأصل وم: فهو.

والثاني: بلِ اتَّخذوا لأنفسِهِمْ مِنْ دونِ اللهِ شُفَعاءَ، ولا يَمْلِكُ أحدٌ جَعْلَ الشفاعةِ لأحدٍ دونَ اللهِ إلّا مَنْ جَعَلَ اللهُ لهُ الشفاعةَ. ولا يَجْعَلُ اللهُ لأحدٍ الشفاعةَ إلّا مَنْ كانَ لهُ عندَ اللهِ عهدٌ أو مَنِ ارْتَضَى لهُ الشفاعةَ [كقولِهِ][1]: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧] وقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] يدلُّ على هذا قولُهُ حينَ[2] قالَ: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

الآية ٤٤ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا: هو المالكُ الشفاعةَ جميعاً، لا يَمْلِكُها[4] أحدٌ سِواهُ إلّا مَنْ جَعَلَ اللهُ لهُ الشفاعةَ، وارْتَضاها[5] لهُ.

فأمّا أنْ يَمْلِكَ أحدٌ سِواهُ اتِّخاذَ الشفاعةِ لنفسِهِ أو جَعْلَ الشفاعةِ لأحدٍ[6] فلا، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في البعثِ أو تُرْجَعونَ في ما أعدَّ اللهُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إذا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ توحيدَ اللهِ في القرآنِ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي نَفَرَتْ كقولِهِ ﷻ في بني إسرائيلَ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] وإذا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الذينَ عَبَدوا مَنْ دونَهُ الآلهةَ كقولِهِ في سورةِ النجمِ حينَ[7] قالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩و٢٠] ﴿أَلْقَى الشَّيْطَٰنُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] في فمِهِ: تلكَ الغرانيقُ العُلا، [وإنَّ شفاعَتَها][8] لَتُرْتَجى. ففرِحَ الكفارُ حينَ سَمِعوا أنَّ لها شفاعةً. إلى هذا يذهبُ مُقاتِلٌ وغيرُهُ.

لكنهُ ليسَ كذا، وغيرُ هذا كأنهُ أولَى بهِ وأقربُ؛ وهو أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي إذا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ توحيدَ اللهِ وألوهيَّتَهُ، أو ذَكَرَ هذا أهلُ التوحيدِ، ونَفَوا[9] الألوهيَّةَ مِمَّنْ عَبَدوا دونَهُ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي نَفَرَتْ، وأنكَرَتْ كقولِهِمْ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ وإذا ذَكَرَ أهلُ الكُفْرِ الذينَ عَبَدوا مِنْ دونِهِ عبادَتَهُمْ إيّاها وخَلْوَتَهُمْ بها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويَفْرَحونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أبْغَضَتْ، ونَفَرَتْ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ أنكَرَتْ، وذُعِرَتْ. ويُقالُ في الكلامِ: مالي أراكَ مُشْمَئِزّاً؟ أي مَذعوراً، ويُقالُ: اشْمَأَزَّ المكانُ، أي بَعُدَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ استكبَرَتْ، وكَفَرَتْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ: مُبْدِئَ، ويَحْتَمِلُ: مُبْدِعَ أو خالقَ السمواتِ والأرضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾ ما أشهَدَ الخَلْقَ بعضَهُمْ على بعضٍ، هو عالِمُ ذلكَ كلِّهِ. والغَيْبُ ما غابَ عنِ الخَلْقِ كلِّهِمْ، والشهادةُ ما شَهِدَهُ الخَلْقُ.

[ويَحْتَمِلُ][10] أنْ يكونَ قولُهُ ﴿عَٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾ أي عالِمٌ ما يكونُ أنهُ يكونُ، والشهادةُ ما قد كانَ يَعلمُ ذلكَ كلَّهُ، يعلمُ ما يكونُ أنهُ يكونُ، وما كانَ يَعْلَمُهُ كائناً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في هذهِ الدنيا، فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يملك. (٥) في الأصل وم: وارتضى.
(٦) في الأصل وم: لنفسه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: منها الشفاعة. (٩) في الأصل وم: وهذا. (١٠) في الأصل وم: أو.

أحدُها: ما جَعَلَ اللهُ مِنَ الكتبِ والرسلِ، وبيّنَ لهمْ ما فيها مالهمْ وما عليهمْ.

ثم إنْ كانَ في الآخِرَةِ فجائزٌ ألّا يكونَ يحكمُ بيننا في ما وَسَّعَ علينا الحُكْمَ في الأمرِ في الدنيا، وتَرْتَفِعُ المِحْنَةُ بهِ في الآخِرَةِ مِنْ نَحْوِ الأحكامِ التي سَبيلُ مَعْرِفَتِها الاجتهادُ. ولا يَحْكُمُ بذلكَ بيننا بشيءٍ مِنْ ذلكَ.

وإذا كانَ غيرَ مُوَسَّعٍ علينا في الدنيا تَرْكَ ذلكَ، وهو ممّا لا تَرْتَفِعُ المِحْنَةُ بهِ في الدارَينِ جميعاً مِنْ نَحْوِ التوحيدِ والدينِ، فذلكَ يَحْكُمُ بيننا في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، يَذْكُرُ لِرسولِهِ ﷺ لِيُصَبِّرَهُ على أذاهُم إيّاهُ، وإلّا[1] يُشْفِقَ عليهمْ بما يَنْزِلُ بهمْ في الآخِرَةِ لأنهُ أخبَرَ عنْ عظيمِ ما يَنْزِلُ بهمْ مِنَ العذابِ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] يُخْبِرُ عنْ سوءِ مُعامَلَتِهِمْ رَبَّهُمْ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ يُؤذونَ رسولَهُ ﷺ وأنَّ ذلكَ يَشْتَدُّ عليهِ، ويَشُقُّ، لِيَنْظُرَ أنهمْ كيفَ عامَلوا ربَّهُمْ مِنْ سُوءِ المُعامَلَةِ لِيُصَبِّرَهُ[2] على سوءِ معاملتِهِمْ إيّاهُ، ويَتْرُكَ[3] الرَّحْمَةَ والشفَقَةَ عليهمْ بما يَنْزِلُ بهمْ في الآخِرَةِ مِنْ سوءِ العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: بَدَا لهمْ مِنَ اللهِ مِنْ شهادةِ الجَوارِحِ عليهِمْ والنُّطْقِ ما لم يكونوا يَحْتَسِبونَ ذلكَ.

ولكنْ غيرُ هذا كأنهُ أقربُ؛ بَدَا لهمْ مِنَ الهوانِ والعذابِ لهمْ في الآخِرَةِ ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وهو يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ كانوا يقولونَ: حينَ[4] فَضَّلَنا اللهُ في هذهِ الدنيا بِفُضُولِ الأموالِ / ٤٧١ ـ أ/ والكرامةِ، فَعَلى[5] ذلكَ نكونُ في الآخِرَةِ مُفَضَّلينَ عليهمْ كما كنّا في الدنيا. ولِذلكَ قالوا: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وقالوا[6]: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] ونَحْوَهُ. فَبَدا لهمْ، وظَهَرَ في الآخِرَةِ ما لم يكونوا يَحْتَسِبونَ ما ذَكَرْنا مِنَ الهوانِ لهمْ والعذابِ.

والثاني: كانوا يُنْكِرونَ رسالةَ نَبِيِّنا ﷺ ويقولونَ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقالوا: ﴿أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ الآية [ص: ٨] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الكلامِ كقولِهِمْ أيضاً: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] لا يَرَونَ الرسالةَ تُوضَعُ إلّا في العظيمِ مِنْ أمْرِ الدنيا، فأخْبَرَ أنهُ يُبْدي لهمْ ما [لم][7] يكونوا يَحْتَسِبونَ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما][8]: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظَهَرَ لهمْ جميعُ ما صَنَعوا في الدنيا في الآخِرَةِ حتى حَفِظوها، وذَكَروا ذلكَ كلَّهُ.

والثاني: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ما حَسِبوا حَسَناتٍ سَيِّئاتٍ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][9] أنْ يكونَ ذلكَ في الجزاءِ، أي بَدَا لهمْ، وظَهَرَ، جزاءُ ما كَسَبوا. يَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ كلَّ إنسانٍ [لأنهُ لا كلُّ إنسانٍ يكونُ كما][10] وَصَفَ ﷻ [ولكنْ أُريدَ بهِ][11] إنسانٌ دونَ إنسانٍ، ولا يَجِبُ أنْ يُشارَ إلى واحدٍ أنهُ فلانٌ.

---

(١) في الأصل وم: وأن. (٢) من م، في الأصل وم: ليصبرهم. (٣) في الأصل وم: ولا يترك. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: فعل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولكنه.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ مَسِّ الضُّرِّ بهِ، لا يُشارُ إلى ضُرٍّ [دونَ ضُرٍّ][1] ولكنْ ما أعْلَمَ اللهُ ﷻ رسولَهُ ﷺ أنهُ ماذا؟ لأنَّ ذلكَ يُخَرِّجُ مُخرَجَ الشهادةِ على اللهِ ﷻ والامْتِناعُ عنِ[2] الإشارةِ إليهِ والتَّسْمِيَةِ لهُ أسْلَمُ.

ثم كانَتْ عادةُ أولئكَ الكَفَرَةِ، لَعَنَهُمُ اللهُ، عندَ نزولِ البَلاءِ بهِمْ والشِّدَّةِ الفَزَعَ إلى اللهِ ﷻ وإخلاصَ الدُّعاءِ لهُ. فَبَعْدَ الكَشْفِ عنهمْ ذلكَ والرَّفْعِ العَوْدُ إلى ما كانوا مِنْ قَبْلُ على ما ذَكَرَهُمْ في غَيرِ آيةٍ[3] مِنَ القرآنِ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي أعطيناهُ نِعْمَةً، أو مَلَّكْناهُ نِعْمَةً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: أي][4] على حِيلةٍ مني أعطيتُ ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ﴾ شَرَفٍ ومَنْزِلةٍ عَلِمَهُ اللهُ مني. وقالَ قَتادةُ: على خَيرٍ عَلِمَهُ اللهُ عندي. وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: إنما آتانيهِ اللهُ على عِلْمٍ. وقالَ بعضُهُمْ ما ذَكَرْنا ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ وشرفٍ أعطيتُ ذلكَ.

قالَ اللهُ ﷻ رَدًّا بقولِهِ: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ والفِتْنَةُ المِحْنَةُ التي فيها شِدَّةٌ، أي بل هي محنةٌ، فيها شِدَّةٌ وبلاءٌ. والمِحْنَةُ مِنَ اللهِ بأمْرٍ وبِنَهْيٍ، أي فيها أمرٌ ونَهْيٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها لم تُعْطَ لِفَضْلٍ وشَرَفٍ لهُ أو حِيلةٍ منهُ، ولكنْ[5] لأمْرٍ ونَهْيٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هي[6] ما قالَ هذا الرجلُ حينَ[7] قالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ كانَ مِنْ قارونَ حينَ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

ولم تَزَلِ العادةُ مِنَ الكَفَرَةِ والرؤساءِ منهمْ وأهلِ الثَّرْوَةِ [أنْ يقولوا مِثْلَ][8] هذا الكلامِ والقولِ، وهو ما أخْبَرَ عنْ قومٍ حينَ قالوا: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] و ما قالَ أهلُ مكةَ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥] وغيرَ ذلكَ مِنْ أمثالِ هذا، لم يَزالوا قائلينَ[9] هذا.

ثم أخْبَرَ أنَّ ذلكَ لم يُغْنِهِمْ حينَ[10] قالَ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ما قالُوا: [إنما أُوتيناهُ لِكرامةٍ وفَضْلٍ لنا عندَ اللهِ.

والثاني: ما قالُوا:][11] إنما أُوتينا[12] هذا بِحِيَلٍ مِنْ عندِنا واكْتِسابٍ.

أخْبَرَ أنَّ ذلكَ لم يُغْنِهِمْ عنْ دفعِ عذابِ اللهِ ﷻ [إذا نَزَلَ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ ﷻ][13]: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ يَتَوَعَّدُ أهلَ مكةَ، ويُخَوِّفُهُمْ أنهُ يَنْزِلُ بهِمْ، ويُصيبُهُمْ بِكَسْبِهِمُ الذي يَكْسِبونَ كما نَزَلَ بأولئكَ الأوائلِ بِمِثْلِ كَسْبِهِمْ وصَنيعِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ما هُمْ بِمُعْجِزينَ عمّا [يُريدُ بهِمْ][14] مِنَ الانْتِقامِ منهمْ والتعذيبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لا لِكرامةٍ وفَضْلٍ عندَ اللهِ ولا لِحَقٍّ قِبَلَهُ، ويُضيِّقُ على مَنْ يَشاءُ، لا لِهوانٍ لهُ عندَهُ ولا لِجنايةٍ، ولكنِ امْتِحاناً لهمْ بِمُخْتَلَفِ الأحوالِ؛ يَمْتَحِنُ هذا بالسَّعَةِ لِيَسْتَأْدِيَ منهُ الشُّكْرَ، ويُضيِّقُ على هذا، يطلُبُ منهُ الصَّبْرَ على ذلكَ، أو يَمْتَحِنُ بعضَهُمْ بالسَّعَةِ وبَعْضَهُمْ بالشِّدَّةِ والضيقِ لِيَعْلَموا أنَّ ذلكَ كلَّهُ في يَدِ غَيرِهِمْ لا في أيديهِمْ؛ إذ يَمْتَحِنُهُمْ [بِمُخْتَلِفِ][15] الأحوالِ لِيكونوا أبداً فَزِعينَ إلى اللهِ في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ.

ولو كانَتِ السَّعَةُ والنِّعْمَةُ لِكرامةٍ عندَ اللهِ وفَضْلٍ على ما ظَنَّ أولئكَ لكانَ لا يُحْتَمَلُ ذلكَ بِمُخْتَلَفِ[16] المذهبِ الذي يُناقِضُ بعضُهُ بعضاً، ويُضادُّ بعضُهُ بعضاً، نَحْوَ المُسْلِمِ والكافِرِ، وقد وَسَّعِ على المُسْلِمِ، ووَسَّعَ على الكافِرِ، وقد ضَيَّقَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: على. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: ولكنه. (٦) في الأصل وم: غير. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: قائلون بمثل. (٩) في الأصل وم: قائلون. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: أوتيناه. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: يزيدهم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: مختلفى.

عليهما جميعاً، يَدلُّ أنَّ التوسيعَ [ليسَ][1] لِلْكَرامةِ والمَنزِلَةِ عندَ اللهِ أو لِحَقٍّ عليهِ، ولا التَّضييقُ والتَّقتيرُ لِهوانٍ؛ إذْ لو كانَ لذلكَ لَكانَ لا يَجْمَعُ بَينَ مُتَضادِّي المَذْهَبِ ومُتَناسِبِيهما[2] فإذا جَمَعَ دَلَّ أنهُ [جَمَعَ][3] لِمَعْنَى الامْتِحانِ لا لِما ظَنَّ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في ما ذَكَرَ مِنَ التَّوسيعِ والبَسْطِ والتَّضييقِ والتَّقتيرِ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي لَعِبْرَةً وعِظَةً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يؤمنونَ أنه لم يُوَسِّعْ لِكرامتِهِ عند اللهِ ومنزلتِهِ وفضلِهِ، ولا ضَيَّقَ على مَنْ ضَيَّقَ لِهَوانٍ لهُ عندَهُ ولا جِنايَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في شَأنِ الوَحْشِيِّ [الذي][4] قَتَلَ حَمْزَةَ بْنَ عبدِ المُطَّلِبِ في الجاهليةِ؛ إنهُ أرادَ أنْ يُسْلِمَ[5]، فَذَكَرَ ما كانَ منهُ مِنْ [قَتْلِهِ حَمْزَةَ][6] رضي الله عنه فَظَنَّ أنهُ لا يُقبَلُ منهُ لِعِظَمِ جِنايَتِهِ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ على رسولِ اللهِ ﷺ لِيُنَبِّئَهُ، ويُخْبِرَهُ[7] أنهُ لا يُقبَلُ منهُ بَعْدَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ ناساً قد أصابوا ذنوباً عِظاماً في الجاهليةِ مِنْ نَحْوِ القتلِ والزِّنى وكبائرَ، فأشْفَقوا ألّا يُتابَ عليهِمْ، فأنْزَلَ اللهُ هذهِ الآيَةَ يَدْعوهُمْ إلى التوبَةِ والإسلامِ، وأطْمَعَ لهمُ القَبولَ منهم والتَّجاوُزَ عمّا كانَ منهمْ، وهو كأنهُ أشْبَهُ وأولَى، لأنَّ الوَحْشِيَّ مَنْ كانَ حتى يُنْزِلَ اللهُ الآيَةَ بِشأنِهِ خاصَّةً؟

ثم قولُهُ عز وجل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدُهُما: كأنهُ يقولُ يا عبادي الذينَ جَنَوا على أنفسِهِمْ لا تقنطوا منْ رحمةِ اللهِ][8] فإنَّ قُنوطَكُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وإياسَكُمْ منهُ [أنهُ][9] لا يَغْفِرُ، ولا يَتَجاوَزُ، وذلكَ أعظَمُ وأقْطَعُ إذا رَجَعَ أحَدُهُما إلى نفسِهِ والآخَرُ إلى رحمةِ اللهِ وفَضْلِهِ.

والثاني: يقولُ: إنكمْ، وإنْ أسْرَفْتُمْ في ما ارْتَكَبْتُمْ مِنَ الكبائرِ والفواحشِ، وأعْرَضْتُمْ عنْ أمْرِ اللهِ، فلا تَقْنَطوا مِنْ رحمةِ اللهِ بَعْدَ إذْ تُبْتُمْ عمّا كُنْتُمْ فيهِ، ورَجَعْتُمْ عمّا كانَ منكُمْ في الوقتِ الذي [كانَتْ أنفسُكُمْ في أيديكُمْ يُقْبَلُ ذلكَ منكُمْ، ويُتَجاوَزُ. فأمّا في الوقتِ الذي][10] خَرَجَتْ أنفسُكُمْ منْ أيديكُمْ، فلا يُقْبَلُ ذلكَ منكُمْ، وهو وَقْتُ نزولِ العذابِ [بكُمْ وإشرافِهِ عليكم][11] لأنَّ التوبَةَ في ذلكَ الوقتِ توبَةُ اضْطِرارٍ وتَوبَةُ دَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِكُمْ كقولِهِ عز وجل ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤].

ثم أخْبَرَ أنهُ لا يَنْفَعُهُمُ الإيمانُ في ذلكَ الوقتِ الذي خَرَجَتْ أنفسُهُمْ مِنْ أيديهِمْ حينَ[12] قالَ عز وجل: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لِمَنْ يشاءُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وذُكِرَ عنْ عَلِيِّ بْنِ أبي طالبٍ، كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ، أنهُ قالَ: أرْجَى آيَةٍ في القرآنِ هذهِ الآيَةُ، وذَكَرَ أنَّ سورَةَ الزمرِ كلَّها نَزَلَتْ بمكةَ إلّا هذهِ الآيَةَ فإنها / ٤٧١ ـ ب/ نَزَلَتْ بالمدينةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ الآيَةُ كأنها صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ بَعْدَ إذْ أقْبَلْتُمْ إلى قَبولِ ما دُعيتُمْ إليهِ، ورَجَعْتُمْ عمّا كانَ منكُمْ.

ثم قولُهُ عز وجل ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أنيبوا بقلوبِكُمْ إلى طاعةِ ربِّكُمْ، وأخْلِصوا لهُ تلكَ الطاعةَ، ولا تُشْرِكوا فيها غَيرَهُ. وقيلَ: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أيِ ارْجِعوا إلى ما أمَرَكُمْ ربُّكُمْ ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أي أخْلِصوا لهُ التوحيدَ، أو[13] يقولُ: اجْعَلوا كلَّ شيءٍ منكُمْ لهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ومختلفهما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: الوحشي. (٦) في الأصل: قتل، في م: قتله. (٧) في الأصل وم: وأخبر. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بهم وإشرافه عليهم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: وأن.

وأصلُ الإنابةِ، هو الرجوعُ إلى طاعةِ اللهِ والنُّزوعُ عمّا كانَ عليهِ الإراءةُ؛ يقولُ ﷻ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ الآية [الروم: ٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، على الصلةِ بالأوّلِ أنْ أنيبوا لهُ، وأسلِموا لهُ مِنْ قبلِ أنْ يأتِيَكُمُ العذابُ، فلا تُقبَلُ منكُمُ الإنابةُ والتوبةُ إذا أقبلَ عليكُمُ العذابُ.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: [﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بإنابتِكُمْ إلى اللهِ ﷻ في ذلكَ الوقتِ الذي أقْبَلَ عليكُمُ العذابُ][(٢)] على ما ذَكَرْنا أي لا تُجابونَ في[(٣)] ذلكَ الوقتِ.

والثاني: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بِعبادةِ مَنْ عَبَدْتُموهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ على رَجاءِ أنْ يَشفَعَ لكُمْ، ويَرْفَعَ عنكُمُ العذابَ، أي أنيبوا إلى عِبادةِ اللهِ الحقِّ قَبْلَ نزولِ العذابِ بكُمْ، فإنكمْ إنْ كُنتُمْ على عِبادةِ مَنْ تَعبُدونَ دونَهُ لا تُنصَرونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ يَحتمِلُ وجوهاً:

أحدُها: كأنهُ يقولُ: اتَّبِعوا ما أمَرَكُمْ ربُّكُمْ، وانتَهوا عمّا نَهاكُمْ ربُّكُمْ عنهُ.

والثاني: اتَّبِعوا مافي القرآنِ، وأحِلّوا حَلالَهُ، وحَرِّموا حَرامَهُ، واجتَنِبوهُ؛ يقولُ: اعمَلوا بها، وبادِروا في العملِ بِهِ ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾.

والثالثُ: أنَّ اللهَ ﷻ قد بَيَّنَ السَّبيلَينِ جميعاً الخيرَ والشَّرَّ على الإبلاغِ، فيقولُ: اتَّبِعوا سَبيلَ الخَيرِ منهُ، ولا تَتَّبِعوا سَبيلَ الشَّرِّ. فيكونُ تأويلُ هذا كأنهُ يقولُ: اتَّبِعوا الحَسَنَ منهُ، ولا تَتَّبِعوا غيرَهُ ونَحوَ ذلكَ، وقد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ كأنهُ مَوصولٌ بالأوّلِ؛ يقولُ: لا تُؤَخِّروا الإنابةَ إليهِ والتوبةَ فإنَّ العذابَ لَعَلَّهُ سَيَنْزِلُ بكُمْ في وقتٍ لا تَشْعُرونَ أنتم بهِ، ولا تَقْدِرونَ أنْ تَرْجِعوا إليهِ، وتُنيبوا، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٥٦ و٥٧ و٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [وقولُهُ تعالى][(٤)]: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [وقولُهُ تعالى][(٥)]: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كانَ كلُّ ذلكَ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ﴾ أنْ يقولَ ما ذَكَرَ في وقتٍ لا يَنْفَعُهُ ذلكَ القولُ، ولا يُغنيهِ مِنْ عذابِ اللهِ، ولا يَدْفَعُهُ.

ثم قولُهُ: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: في ذاتِ اللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: ما فَرَّطْتُ، وضَيَّعْتُ مِنْ أمرِ اللهِ، وأمثالَ ذلكَ.

ولَسْنا نَحتاجُ إلى تفسيرِ قولِ ذلكَ الرجلِ الذي كانَ منهُ حتى قالَ ذلكَ، وهو تَضْييعُ توحيدِ اللهِ أو تَضْييعُ حَدِّ اللهِ، أو كانَ منهُ مِنْ تكذيبِ البَعْثِ؛ يَتَأسَّفُ على ما كانَ منهُ مِنْ تَضْييعِ ما ذَكَرْنا مِنْ توحيدِ اللهِ وحُدودِهِ أو كفرانِ نِعَمِهِ أو إنكارِهِ ما ذَكَرْنا مِنَ البَعْثِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ مِنَ القرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ أهلِ توحيدِ اللهِ.

قالَ قَتادَةُ: لم يَكْتَفِ أنْ ضَيَّعَ طاعةَ اللهِ حتى جَعَلَ يَسْخَرُ مِنْ أهلِ طاعتِهِ، وقالَ: هذا قولٌ ضعيفٌ منهم.

وقولُهُ ﷻ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ إلى آخِرِهِ قولٌ ضَعيفٌ منهمْ. جائزٌ ما قالَ: إنَّ كلَّ قولٍ مِنْ ذلكَ قولٌ ضعيفٌ على ما قالَ قَتادَةُ. وجائزٌ أنْ يكونَ كلُّ ذلكَ مِنْ كلِّ كافرٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: من. (٤) و(٥) في الأصل وم: وقيل.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ذلكَ الكافرُ الذي قالَ هذا القولَ أعرفُ بهدايةِ اللهِ مِنَ المعتزلةِ. وكذلكَ ما قالَ أولئكَ الكفَرةُ لأتباعِهِمْ حينَ[1] ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] يقولونَ: لو وَفَّقَنا اللهُ لِلْهدايةِ، وأعطانا الهُدَى لَدَعَوناكُمْ إليهِ. ولكنْ حينَ[2] عَلِمَ مِنّا اخْتيارَ الضَّلالِ والغَوايةِ وتَرْكَ الرَّغْبَةِ إلى الهُدَى والاِسْتِخْفافَ بهِ أَضَلَّنا، وخَذَلَنا، ولم يُوَفِّقْنا.

والمعتزلةُ يقولونَ: بل هداهُمُ اللهُ، وأعطاهُمُ التوفيقَ، لكنهمْ لم يَهْتَدُوا.

فإنْ قيلَ: هذا قولُ أهلِ الكُفرِ، فلا دلالةَ فيهِ لِما يَذْكُرونَ، قيلَ: وإنْ كانَ ذلكَ قولَ الكَفَرةِ، فذلكَ القولُ منهمْ عندَ مُعايَنَةِ العذابِ. فلو كانَ على خِلافِ ما ذَكَروا لكانَ اللهُ يُكَذِّبُهُمْ في ذلكَ كما كَذَّبَهُمْ في أشياءَ حينَ[3] قالوا: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

والأصلُ في الهدايةِ أنَّ عندَ اللهِ لُطْفاً[4]، مَنْ أعطى ذلكَ لاهْتَدَى، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ، ومَنْ حَرَمَ ذلكَ، ولم يُعْطِهِ ضَلَّ، وغَوى، ويكونُ اسْتوجَبَ[5] العذابَ وما ذُكِرَ لِتَرْكِهِ الرغبةَ في ذلكَ والاِسْتِخْفافِ بهِ وتَضْييعِهِ واشْتِغالِهِ بِضِدِّهِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الشِّرْكَ أو المَهالِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي رجوعاً ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قيلَ: مِنَ المُوَحِّدينَ، ويَحْتَمِلُ كلَّ إحسانٍ وطاعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقد كَذَّبَهُ اللهُ ﷻ في قولِهِ هذا حينَ[6] قالَ ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ثم [كَذَّبَهُ في قولِهِ][7] ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وفي قولِهِ[8]: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [حينَ[9]]

الآية ٥٩ قالَ ﷻ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ وبَيَّنْتُ لكَ الهِدايةَ مِنَ الغِوايةِ وسَبيلَ الحَقِّ مِنَ الباطلِ والخيرَ مِنَ الشَّرِّ والكَذِبَ مِنَ الصِّدْقِ، ومَكَّنْتُكَ[10] مِنِ اخْتيارِ الهِدايةِ على الغَوايةِ [ومَكَّنْتُ لكُمْ][11] اخْتيارَ الحَقِّ على الباطلِ والصِّدْقِ على الكذبِ، لكنْ تركْتُمْ ذلكَ، وضَيَّعْتُمْ، واسْتَخْفَفْتُمْ بهِ، واشْتَغَلْتُمْ بِضِدِّ ذلكَ. فإنما جاءَ ذلكَ التَّضْييعُ مِنْ قِبَلِكُمْ لا مِنْ قِبَلِ اللهِ [واللهُ][12] ﷻ قد أتى بالحُجَجِ والآياتِ والبَيانِ في ذلكَ غايةَ ما يَجِبُ أنْ تَرى ما لم يكُنْ لأحدٍ عُذْرٌ في الجهلِ في ذلكَ والتَّرْكِ [لهُ][13]، واللهُ أعلَمُ.

وأكْثَرُ القرآنِ على التذكيرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ إلى آخِرِهِ على إرادةِ [الإنسانِ][14] ومُخاطَبَتِهِ. وقد يُقرأُ بالتأنيثِ على إرادةِ النفسِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها والخَبَرُ عنها.

ويُرْوَى في ذلكَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ قرَأَ بالتأنيثِ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكِ ءَايَٰتِى﴾» [أبو داوود ٣٩٩٠] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ كَذِبُهُمْ على اللهِ تعالى يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: في التوحيدِ حينَ[15] قالوا بالوَلَدِ والشُّرَكاءِ.

[والثاني][16]: ما قالَ ﷻ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وكانَ اللهُ تعالى لم يَأْمُرْهُمْ بذلكَ، فَكَذَبوا على اللهِ ﷻ أنهُ أمَرَهُمْ بذلكَ / ٤٧٢ - أ/.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: وقيل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: لطف. (٥) في الأصل وم: استجاب. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: كذبهم في قولهم. (٨) في الأصل وم: قولهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: ومكنت. (١١) في الأصل وم: ومكن لهم. (١٢) و(١٣) و(١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: ويحتمل.

[والثالث](1): ما قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] [وقالوا](2): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

[والرابعُ](3): أنْ يكونَ كَذِبُهُمْ على اللهِ هو إنكارَهُمُ البعثَ وقولَهُمْ: إنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ على البَعْثِ والإحياءِ بَعدَ الموتِ، ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والمعتزلةُ يقولونَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ﴾ همُ المُجْبِرَةُ؛ فَيَجيءُ أنْ يكونوا همْ أقْرَبَ في كونِهِمْ في وعيدِ هذهِ الآيةِ مِنَ المَجْبِرَةِ، لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يأمُرُ أحداً بشيءٍ إلّا بَعدَ أنْ أعطى جميعَ ما يُعْمَلُ، ويُقْتَضى بهِ، حتى لا يَبْقى عندَهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

[يقولُ المعتزليُّ ذلكَ، ثم يسألُ](4) ربَّهُ المَعونَةَ والعِصْمَةَ. فهو بالسؤالِ كاتمٌ لِما أعطاهُ، وهو كُفرانُ النِّعْمَةِ، لأنهُ يَسْأَلُ ما قد أعطاهُ ربُّهُ، أو يكونُ هازئاً بهِ، لأنهُ يَسألُ على قولِهِمْ ما ذَكَرْنا مِنْ مذهَبِهِمْ، وكلُّ مَنْ يَسأَلُ، يَعْلَمُ أنْ ليسَ عندَهُ ذلكَ، ولا يَمْلِكُ ذلكَ، فهو يَهْزَأُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ على رسولِ اللهِ ﷺ والمُتَكَبِّرُ، هو الذي لا يَرَى لنفسِهِ نظيراً ولا شَكْلاً. ولذلكَ يُوصَفُ اللهُ ﷻ بالكبرياءِ، لأنهُ، لا نَظيرَ لهُ، ولا شَكْلَ، ولا يَجوزُ لِغَيرِهِ، لأنَّ غَيرَهُ ذو(5) أشكالٍ وأمثالٍ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وحَفْصَةَ ﵄ على ما فَرَّطْتُ في ذِكْرِ اللهِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﵁ أيضاً في قولِهِ: بَلَى قد جاءَتْهُ آياتُنا مِنْ قَبْلُ، فَكَذَّبَ، واسْتَكْبَرَ، وكانَ مِنَ الكافرينَ.

والمَثْوَى المُقامُ [قالَ اللهُ تعالى](6): ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥] أي(7) مُقيماً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ﴾ كأنهُ يقولُ ﷻ: لو رأيتَهُمْ(8) يا محمدُ يومَ القيامةِ لَرَحِمْتَهُمْ، وأشْفَقتَ عليهمْ [بما همْ فيهِ](9) وما نَزَلَ بهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ و﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي بالأعمالِ والأسبابِ التي فازوا بها على أشكالِهِمْ.

[والثاني: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي فازوا بها على المَهالكِ](10).

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قولُهُ ﷻ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ بَعدَ المَفازَةِ والنجاةِ، وإلّا قَبْلَ ذلكَ قد يَمَسُّهُمُ السوءُ، وهُمْ(11) يَحْزَنونَ.

وهو على الجَهْمِيَّةِ وعلى أبي الهُذَيلِ العَلّافِ إمامِ المُعْتَزِلَةِ:

أمّا على الجَهْمِيَّةِ فَلِقولِهِمْ(12): إنَّ الجنةَ تَفْنَى، ويَنْقَطِعُ أهلُها ولَذّاتُها. فإذا كانَ ما ذَكَروا مَسَّهُمُ السوءُ والحُزْنُ.

وعلى قولِ أبي الهُذَيلِ أيضاً كذلكَ فَلأنَّهُ(13) يقولُ: إنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ يَصيرونَ بحالٍ حتى إذا أرادَ اللهُ أنْ يَزيدَ لهمْ شيئاً أو لَذَّةً لم يَمْلِكْ ذلكَ. فإنْ كانَ ما ذَكَرَ هو مَسَّهُمُ السوءُ والحُزْنُ أيضاً. فالبَلاءُ على قولِهِ: إنَّ السوءَ والحُزْنَ إنما [هو](14) مَسُّ ربِّ العالَمينَ. فَنَعوذُ باللهِ مِنْ مَقالٍ يَعْقُبُ كُفْراً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على إبطالِ قولِ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: ثم قال ذلك ثم سأل. (٥) في الأصل وم: ذا. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: من ذلك. (٨) في الأصل وم: رأيت. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بها هزأ به. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ولا. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل: لا، في م: لأنه. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ هذهِ الآيةُ تَنقُضُ على المُعتزِلَةِ قولَهُمْ في[1] وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ قولَهُمْ: إنَّ شَيئِيَّةَ الأشياءِ لم تَزَلْ كائنةً، ويقولونَ: إنهُ لم يكُنْ مِنَ اللهِ إلّا إيجادُها. فإذا كانَ ما ذَكَروا لم يكُنْ هو خالقَ شيءٍ به فضلاً عنْ أنْ يكونَ خالقَ كلِّ شيءٍ على ما ذَكَرَ، ووصفَ نفسَهُ بِخَلْقِ كلِّ شيءٍ، فيكونُ قولُهُمْ في التحقيقِ والتحصيلِ قولَ الدَّهْرِيَّةِ والثَّنَوِيَّةِ، لأنَّ الدَّهْرِيَّةَ يقولونَ بِقِدَمِ الطينةِ والهَيُولَى ونَحْوِهِ، ويُنْكِرونَ كَونَ الشيءِ مِنْ لا شيءٍ، وكذلكَ الثَّنَوِيَّةُ يقولونَ بِقِدَمِ النورِ والظُّلْمَةِ، ثم كونِ كلِّ جِنْسٍ مِنْ جِنْسِهِ وكَونِ كلِّ شيءٍ مِنْ أصلِهِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُ المعتزلةِ: إنَّ المَعْدومَ شيءٌ يَرْجِعُ في التحقيقِ إلى ما ذَكَرْنا مِنْ أقاويلِها.

ثم قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُخَرَّجُ على ما ذَكَرَ [مِنَ][2] الربوبيَّةِ والألوهِيَّةِ والوَصْفِ لهُ [مُخرَجَ المدحِ][3] لِما ذَكَرْنا أنَّ إضافةَ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ ﷻ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مَخصوصاً شيئاً دونَ شيءٍ على ما يقولُهُ المعتزلةُ لم يُخَرَّجْ مُخرَجَ المَدْحِ لهُ والتعظيمِ. ثم إنهُ لا شَكَّ أنهُ لو لم يكُنْ خالقَ أفعالِ الخَلْقِ لم يكُنْ خالقاً مِنْ عَشَرَةِ ألفِ شيءٍ. فَدَلَّ أنهُ خالقُ الأشياءِ كلِّها: الأفعالِ والأجسامِ والجواهرِ جميعاً.

فإنْ قيلَ: إنكمْ لا تقولونَ: خالقُ الأنجاسِ والأقذارِ والخنازيرِ، ونَحْوَهُ، فإنما يَرْجِعُ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى خُصوصٍ. قيلَ: إنهُ لا يُقالُ، ولا يُوصَفُ بِخَلْقِ هذهِ الأشياءِ على التَّقْييدِ والتخصيصِ: يا خالقَ الأنجاسِ والأقذارِ وما ذُكِرَ لأنهُ يُخَرِّجُ الوَصْفُ لهُ بذلكَ مُخرَجَ التهجينِ والذَّمِّ. وكانَ في الجملةِ يُوصَفُ بذلكَ، وتَدْخُلُ الأشياءُ كلُّها في ذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُخَرَّجُ مُخرَجَ الامتِداحِ والتَّعْظيمِ لهُ والوَصْفِ بالرُّبوبيَّةِ لهُ والألوهِيَّةِ.

ألَا تَرَى أنهُ لا يُقالُ على التخصيصِ: إنهُ وكيلٌ، وإنْ كانَ في الجملةِ يُقالُ كما ذَكَرْنا ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؟ لأنهُ في الجملةِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ الرُّبوبيَّةِ لهُ والألوهِيَّةِ والوصفِ لهُ بالمَدْحِ وعلى التَّخْصيصِ والإفرادِ وعلى التَّهْجينِ والذَّمِّ. لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ قيلَ: هي المَفاتيحُ، وهي فارِسِيَّةٌ، عُرِّبَتْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لهُ مفاتيحُ جميعِ البركاتِ والخَيراتِ على أهلِ السمواتِ والأرضِ.

يُخبِرُ أنَّ ذلكَ كلَّهُ بيدِهِ، ليسَ بيدِ أحدٍ سِواهُ، منهُ يُطْلَبُ ذلكَ، ومنهُ يُستَفادُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم لم يُفهَمْ ممّا أُضيفَ إليهِ مِنَ المقاليدِ ما يُفهَمُ مِنْ مَقاليدِ الخَلْقِ لو أُضيفَ إليهِمْ. فكيفَ فُهِمَ ممّا أُضيفَ إليهِ مِنْ مَجيءٍ أوِ اسْتِواءٍ وغيرِ ذلكَ ما فُهِمَ ممّا أُضيفَ إلى الخَلْقِ؟ واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ كانَ اللهُ ﷻ جَعَلَ هذهِ الدنيا وما فيها لأهلِها، وبَيَّنَ أحوالَهُمْ، يَتَّجِرونَ بها، ويَشْترونَ بها الآخِرَةَ، ويَتَزَوَّدونَ لها. ولذلكَ قالَ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقالَ[4] ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النساء: ٧٤]. فَمَنْ يَتَزَوَّدْ، ويَجْعَلْها بُلْغَةً إلى الآخِرَةِ يُسَمَّ خاسراً مَغْبوناً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ دَلَّتْ هذهِ الآيةُ على أنَّ سَفَهَ أولئكَ الكَفَرَةِ قد بَلَغَ غايَتَهُ، وجاوَزَ حَدَّهُ، حتى دَعَوا رسولَ اللهِ ﷺ إلى عِبادةِ مَنْ دونَهُ بَعْدَ ما عَرَفوا فضيلةَ الرسالةِ في البَشَرِ وبَعْثَ البَشَرِ رسولاً.

فلولا ما وَقَعَ عندَهُمْ مِنَ الفضيلةِ للرسولِ والخصوصِيَّةِ لهُ، وإلّا لم يُحتَمَلْ أنْ يُنْكِروا وَضْعَها في البَشَرِ وبَعْثَ البَشَرِ رسولاً.

---

(١) في الأصل وم: على. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بالمدح. (٤) في الأصل وم: وقوله.

ثم قد أتاهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ البيانِ والحُجَجِ ما قد قرَّرَ(١) عندَهُمْ آيةَ الرسولِ إليهِمْ.

فَمَعَ ما تقرَّرَ عندَهُمْ ذلكَ دَعَوهُ إلى أنْ يَعْبُدَ غَيرَ اللهِ دونَه، فيكونَ لهمْ. فهذا منهمْ تَناقُضٌ في القولِ وسَفَهٌ حينَ صَيَّروا المُفَضَّلَ والمَخصوصَ بالرسالةِ في العِبادةِ مِنْ دونِهِ كَغَيرِ المُفَضَّلِ والمَخْصوصِ بها، واللهُ أعلَمُ، لِيُعْلَمَ أنهمْ لِسَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ كانوا يَدْعونَهُ إلى عِبادةِ مَنْ [هو](٢) دونَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ سَمَّاهُمْ جَهَلَةً بِما أَمَرُوهُ، ودَعَوهُ إلى عِبادةِ غَيرِ اللهِ. وكذلكَ قالَ موسى ﷺ / ٤٧٢ ـ ب/ لِقومِهِ حينَ سَألوا موسى أنْ يَجْعَلَ لهمْ إلهاً كما لهمْ آلهةٌ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ في التَّسْوِيَةِ بَينَ المُفَضَّلِ والمَخصوصِ [بالرسالةِ وبَينَ مَنْ لم](٣) يُخَصَّ بذلكَ في عِبادةِ غَيرِ اللهِ.

[والثاني](٤): ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ عَنْ هِدايةِ اللهِ وخُصوصيَّتِهِ.

[والثالثُ](٥): ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ عنْ جميعِ نِعَمِهِ وإحسانِهِ حينَ(٦) لم يَذْكُروهُ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهُما: كأنهُ يقولُ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقيلُ لكلِ رسولٍ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ذَكَرَ هذا لِيُعْلِمَ إنَّ الشِّرْكَ لَيُحْبِطُ العملَ، وإنْ أتى بِهِ مَنْ جَلَّ قَدْرُهُ، وعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ عندَهُ.

والثاني: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ﴾ مَنْ كانَ ﴿مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أنتَ ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها: ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لِنِعَمِ اللهِ جميعاً](٧)

[والثاني](٨): ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ للخصوصيَّةِ التي خُصِصْتَ بها.

[والثالثُ](٩): ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ للهدايةِ التي هُديتَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسعودٍ وأُبَيٍّ ﵄: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [أي لهُ ملكُ السمواتِ والأرضِ](١٠) قالَ الكِسائيُّ: مقاليدُ فارسيَّةٌ مُعرَّبَةٌ، وواحِدُ المَقاليدِ إقليدٌ.

وقال بَعضُهُمْ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] قالَ: بلى واللهِ لَيَكْفِيَنَّهُ اللهُ، وبِعزِّهِ ونَصْرِهِ كافٍ عَبْدَهُ. وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ اليهودَ أتَوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا لهُ: إنَّ ربَّكَ على كذا وكذا، وإنَّ السمواتِ على كذا منهُ، والأرضَ على كذا؛ ذَكَروهُ لهُ، وَوَصَفوهُ كما يُوصَفُ الخَلْقُ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قيلَ: ما عَرَفوا اللهَ حَقَّ معرفَتِهِ، ولا عَظَّموهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ.

ويَذْكُرُ أهلُ الكلامِ أنَّ اليهودَ مُشَبِّهَةٌ، ولذلكَ قالوا بالوَلَدِ حينَ(١١) قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فلو لم يكونوا عَرَفوهُ ما يُعْرَفُ بِهِ الخَلْقُ لم يكونوا يقولونَ لهُ بالوَلَدِ كما يقولونَ لِلْخَلْقِ مِنَ الوَلَدِ.

فَدَلَّ ما وَصَفوا لهُ، وذَكَروا لهُ أنهمْ عَرَفوهُ بِمَعْنَى الخَلْقِ. فَتعالى اللهُ عمّا تقولُهُ الملاحدةُ عُلُوّاً كبيراً.

---

(١) في الأصل وم: قدر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: وبين، في م: وبين من لم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: يحتمل، في م: و. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: حيث.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عَرَفوا اللهَ حقَّ مَعرِفَتِهِ، أو ما عَظَّموهُ حقَّ عَظَمَتِهِ ما يَحتَمِلُ وُسْعُ الخَلْقِ، وكذلِكَ لم يَعْرِفوهُ حقَّ مَعْرِفَتِهِ التي يَحْتَمِلُها[١] وُسْعُ البَشَرِ بَيْنَهُمْ.

فأمّا مَعْرِفَتِهِ [أو تَعْظِيمُهُ][٢] حَقَّ عظمتِهِ فما[٣] وَسِعَ الخَلْقَ، وهو لم يُكَلِّفْهُمْ أنْ يَعْرِفوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ][٤] أو يُعَظِّموهُ لأنَهُ لا يَحْتَمِلُ وُسْعُ الخَلْقِ ذلكَ. وإنما كَلَّفَهُمْ ما احْتَمَلَهُ وُسْعُهُمْ.

فالمُشَبِّهَةُ حينَ[٥] وَصَفوهُ كما وَصْفِ الخَلْقِ ومِنْ معانيهِمْ[٦] لم يَعْرِفوهُ المَعْرِفَةَ التي تَحْتَمِلُ وُسْعَ الخَلْقِ وبُنْيَتَهُمْ، ولا عَظَّموهُ العَظَمَةَ التي تَحْتَمِلُ وُسْعَ الخَلْقِ وبِنْيَتَهُمْ.

ثم إنَّ اللهَ، سُبْحانَهُ، جَعَلَ سَبَبَ معرفتِهِ الاسْتِدْلالَ بآثارِ الأفعالِ المَحْسوساتِ. فلا تُفْهَمُ مَعْرِفَتُهُ، ولا تُقَدَّرُ بِمَعْرِفةِ الخَلْقِ وتَقْديرِهِمْ مَعَ ما جَعَلَ اللهُ ﷻ الخَلْقَ على قِسْمَينِ: [قِسْمٍ مِمّا][٧] يُحاطُ بِهِ، وتُدْرَكُ حقيقتُهُ، وهو المَحْسوسُ منهُ والمُدْرَكُ، وقِسْمٍ[٨] مِمّا يُعْرَفُ بآثارِ الأفعالِ والاسْتِدْلالِ بها، وهو غيرُ مَحْسوسٍ مِنْ نَحْوِ العَقْلِ والبَصَرِ والسَّمْعِ والروحِ وغَيرِ ذلكَ.

فإذا لم يُدْرَكْ مِنْ خَلْقِهِ، ولم يُحَطْ بِهِ مِمّا سَبيلُ الاسْتِدْلالِ بآثارِ الأفعالِ لا بالحِسِّ، فالذي أنشأ ذلكَ، وأبْدَعَهُ، أحَقُّ ألّا يُدْرَكَ ولا يُحاطَ بِمَعْرِفَتِهِ ما يُحاطُ، ويُدْرَكُ بالمَحْسوسِ؛ إذِ المُوصِلُ إلى مَعْرِفةِ الاسْتِدْلالِ بآثارِ الأفعالِ بالمَحْسوسِ، واللهُ أعلَمُ.

[وإضافةُ الأمورِ في وجهَينِ:

أحدُهُما:][٩] وكذلكَ ما أضافَ إلى نفسِهِ مِنَ الأحْرُفِ لا يُفْهَمُ منهُ ما لو أُضيفَ ذلكَ إلى الخَلْقِ مِنْ نَحْوِ الاسْتِواءِ والمَجيءِ والإتيانِ ونَحْوِ ذلكَ، ولا يُقَدَّرُ منهُ ما يُقَدَّرُ مِنَ الخَلْقِ على ما لم يُفْهَمْ مِنْ مَجيءِ الحَقِّ و إتيانِهِ ما فُهِمَ مِنْ مَجيءِ الخَلْقِ وإتيانِهِمْ[١٠].

فَعَلَى ذلكَ لا تُفْهَمُ ﴿قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ما يُفْهَمُ مِنْ ذلكَ كُلِّهِ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] كلُّ ما ذُكِرَ مِنَ القَبْضَةِ والطَّيِّ واليَمينِ في ذلكَ ﴿كُن﴾ كافٌ ونونٌ أو شيءٌ مِنْ ذلكَ.

لكنهُ ذَكَرَ ﴿كُن﴾ لأنهُ أخفُّ كلامٍ على الألْسُنِ وأوجَزُ حَرْفٍ يُفْهَمُ منهُ المَعْنى وتَعَدِّيهِ في ما بَينَ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ خاطَبَهُمْ بِما تَعارَفوا في ما بَيْنَهُمْ حقيقةً، وإنْ كانَ ما تَعارَفوا في ما بَيْنَهُمْ منفياً[١١] عنِ اللهِ تعالى نَحْوَ ما ذُكِرَ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] وقولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وقولِهِ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] لِما باليَدِ يُقَدَّمُ، ويُؤَخَّرُ، في الشاهد، وإنْ يكُنْ ما ذَكَرَ عَمَلَ اليدِ، وذَكَرَ بَينَ يَدَي ما ذَكَرَ، وإنْ يكُنْ بينَ يَديهِ، لِما في الشاهِدِ كذلكَ يَتَقَدَّمُ.

فَعَلَى ذلكَ ما أضافَ إلى نفسِهِ مِنْ أحْرُفٍ كانَتْ تلكَ مَنْفِيَّةً عنهُ، لِما في الشاهِدِ بذلكَ يكونُ، واللهُ أعلَمُ.

وأصْلُ ذلكَ أنْ قد بُيِّنَتْ بالتنزيلِ على ما ذُكِرَ مِنْ إضافةِ تلكَ الأحرفِ إلى اللهِ، وثَبَتَتْ بدليلِ السمعِ أنْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وفي[١٢] العقلِ تعاليهِ عنِ الأشباهِ والشركاءِ لَزِمَ القولُ بوقوعِ تلكَ الآياتِ على ما [لا][١٣] تشابُهَ بهِ يَقَعُ بَيْنَهُ وبَينَ الخَلْقِ في الفِعْلِ لا [في][١٤] جهةٍ مِنْ جهاتِ الخَلْقِ؛ إذْ هو مُتعالٍ عَنْ جميعِ جهاتِ الخَلْقِ في حَدِّ الإحداثِ والخَلْقِ، فَيَلْزَمُ الإيمانُ بها على ما نَطَقَ بهِ الكتابُ والتَّنزيهُ[١٥] عنِ التَّشابُهِ، وتَفْويضُ المُرادِ إلى مَنْ جاءَ عنه ذلكَ مَعَ ماتوجدُ الإضافةُ إلى اللهِ ﷻ مِنْ نَحْوِ قولِهِ ﷻ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧] ونَحْوِهِ لا يَحْتَمِلُ فَهْمَ المضافِ منهُ إلى غَيرِهِ.

---

(١) في الأصل وم: يحتمله. (٢) في م: عظموا الله. (٣) الفاء ساقطة من م. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: يعاينوه. (٧) في الأصل وم: قسما منها. (٨) في الأصل وم: وقسما. (٩) في الأصل وم: وكذلك. (١٠) في الأصل وم: ولا إتيانهم. (١١) في الأصل وم: منفي. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: واستهى به.

فكذلكَ ما ذَكَرْنا على إمكانٍ وجوهٍ فيها ينفي مَعْنَى التَّشابُهِ مِنْ ذلكَ ما يُضَمَّنُ فيها مَعانِيَ نَحْوَ قولِهِ ﷻ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ الآيةَ[آل عمران: ١٦٠] [وقولِهِ][١]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] والمَرْجِعُ. [وقولِهِ][٢]: ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥] [وقولِهِ][٣]: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وغيرَ[٤] ذلكَ مِمّا أُضيفَ إلى اللهِ، ولا مَعْنَى لِتَحقيقِهِ في ذلكَ، فَيُضَمَّنُ في ذلكَ [دينَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعيدَهُ][٥] وغيرَ ذلكَ مِنَ الوجوهِ ممّا يَطولُ ذِكْرُهُ، ويَكْثُرُ. فَمِثْلُهُ أمْرُ هذهِ الآياتِ.

والثاني: أنَّ إضافةَ الأمورِ في الشاهدِ إلى الملوكِ وذِكْرِ التَّوَلّي لهمْ، ليسَ يُخَرَّجُ مُخرَجَ تحقيقٍ كما هو ما جَرَى بهِ الذِّكْرُ، ولكنْ على الكِنايةِ والعِبارةِ عن غَيرِهِ، ونَحْوُ ما يُقالُ[٦]: بَلْدَةُ كذا في يَدِ فلانٍ وقَبْضَتِهِ، وأمْرُ كذا في [يَدِ][٧] فلانٍ؛ وإنما يُرادُ بذلكَ قُدرَتُهُ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قَبْضَتِهِ ويَدِهِ ويَمِينِهِ إنما هو الوَصْفُ لهُ بالقوةِ والسلطانِ والقُدْرَةِ على ذلكَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يَحتمِلُ تنزيهَ نفسِهِ عمّا وصَفَهُ المُشَبِّهَةُ، وشَبَّهوهُ بالخَلْقِ أو عمّا أشْرَكَ عَبَدَةُ الأصنامِ اللهَ في العِبادةِ وتَسْمِيَتِهِمْ إيّاها آلهةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ هو على التقديمِ والتأخيرِ، كأنهُ يقولُ: ﷻ: الأرضُ والسمواتُ جميعاً في قَبْضَتِهِ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أهو على حقيقةِ النَّفْخِ أم لا؟

قالَ بعضُهُمْ: ليسَ هنالكَ نَفْخٌ ولا شيءٌ، وإنما ذِكْرُ النَّفْخِ عِبارةٌ / ٤٧٣ ـ أ/ عَنْ خِفَّةِ الأمرِ على اللهِ ﷻ [كقولِهِ][٨]: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] [وقولِهِ][٩]: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ نَفْخاً إنما هو عِبارةٌ عنْ قَدْرِ نَفْخٍ أنهُ يُحْيِي، ويُميتُ على قَدْرِ النفخةِ، لأنها أسْرَعُ شيءٍ في الدنيا[١٠].

وقالَ بعضُهُمْ: هو على حقيقةِ النفخةِ مِنْ غيرِ أنْ كانَتْ سَبَباً للإحياءِ والإماتةِ، ولكنْ على جَعْلِ النَّفْخَةِ عَلَماً وآيةً للإحياءِ والإماتةِ. امْتَحَنَ بذلكَ المَلَكَ الذي كانَ مُوكَلاً بهِ على ما امْتَحَنَ مَلَكَ الموتِ بقبضِ الأرواحِ في أوقاتٍ جُعِلَتْ لهُ.

فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ النَّفْخَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في الصُّورِ أيضاً. قالَ بعضُهُمْ: هو صُوَرُ الخَلْقِ، فيها يُنْفَخُ، وإلى ذلكَ [ذهبَ][١١] جميعُ أهلِ الكلامِ. وقالَ [بعضُهُمْ][١٢]: ليسَ هو صُوَرَ الخَلْقِ، ولكنْ إنما هو قَرْنٌ، لأنهُ قالَ: ﴿ٱلصُّورِ﴾، ولم يَقُلْ: الصُّوَرِ بالتَّثْقيلِ، وإنما ذَكَرَهُ بالتَّخْفيفِ، وهو القَرْنُ. وذَكَرَ صُوَرَ الخَلْقِ بالتَّثْقيلِ صَوَّرَ حينَ[١٣] قالَ: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤ والتغابن: ٣] فَلَسْنا نَدْري أيُّهما يُقالُ جميعاً [الصُّورُ أم][١٤] الصُّوَرُ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التفسيرِ والتأويلِ: الصَّعْقُ الموتُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الصَّعْقُ، هو الغَشَيانُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي مَغْشِيّاً عليهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وإنما يُفاقُ مِنَ الغَشَيانِ، ولا يُفاقُ مِنَ الموتِ؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هُمْ[١٥] جبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ومَلَكُ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تكونُ ثلاثُ نَفْخاتٍ: نَفْخَةٌ تَحْمِلُهُمْ على الفَزَعِ [لِقولِهِ تعالى][١٦]: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ [النمل: ٨٧] ونَفْخَةٌ[١٧] يموتونَ بها. والثالثةُ[١٨] يَحْيَونَ بها.

(١) و(٢) و(٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: في غير. (٥) من نسخة الحرم المكي في الأصل وم: منه ووعد ووعيده. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: هي النفخة. (١١) و(١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: أم لا الصور أو. (١٥) في الأصل وم: هو. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: ثم الأخرى. (١٨) في الأصل وم: والثلاثة.

وعلى هذا يُرْوَى حديثٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «يُنْفَخُ ثلاثٌ»[ابن جرير الطبري في تفسيره: ج٢٤/ ٣٠] ذَكَرَ كما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: نَفْختانِ على ما ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ: بإحداهُما يموتونَ. والثانيةِ يَحْيَونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يَحْتَمِلُ بنورِ الذي أنْشَأهُ اللهُ ﷻ وجَعَلَهُ فيها، وليسَ أنْ يكونَ لِذاتِهِ نورٌ أو شيءٌ يضيءُ، ويكونُ قولُهُ ﷻ: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ كقولِهِ ﷻ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر: ٥٥] بإحسانِ ربِّكَ وآلاءِ ربِّكَ؛ لا يُفْهَمُ منهُ سِوَى النِّعْمَةِ والمَنْشأةِ والآلاءِ المَجْعولةِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ لا يُفْهَمُ منهُ نورُ الذاتِ ولا شَيءٌ مِنْ ذلكَ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي أضاءَتْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أنْشأَ أرضَ الآخِرَةِ أرضاً مُضيئةً مُشْرِقةً لِما أخْبَرَ أنهُ يُبَدِّلُ أرضاً غَيرَ هذهِ حينَ[1] قالَ ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] كانَتْ هذهِ [الأرضُ][2] مُظلِمَةً وتلكَ مُضيئةً على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][3] أنْ يكونَ إشراقُها ارْتِفاعَ سَواتِرِها وظهورَ الحقِّ لهمْ وزوالَ الاشْتِباهِ والالْتِباسِ. وكانتْ أمورُهُمْ في الدنيا مُشْتَبِهَةً مُلْتَبِسَةً. ويُقِرّونَ يومئذٍ جميعاً بالتَّوحيدِ لهُ والأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، وهو على ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦و...] [وقولِهِ ﷻ][4]: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] وقولِهِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] ونَحْوِ ذلكَ.

ذَكَرَ البُروزَ لهُ والرجوعَ إليهِ والمَصيرَ، وإنْ كانوا في الأحوالِ كلِّها [بارزينَ لهُ راجعينَ إليهِ صائرينَ][5]، والمُلْكُ لهُ في الدارَينِ جميعاً. خَصَّ البروزَ والرجوعَ إليهِ والمُلْكَ لهُ لِما يومئذٍ يَظْهَرُ المُحِقُّ لهمْ مِنَ المُبْطِلِ، ويومئذٍ يُقِرّونَ[6] جميعاً بالتوحيدِ لهُ والمُلْكِ.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ إشراقُ الأرضِ وإضاءَتُها لِما تَرْتَفِعُ السواتِرُ يومئذٍ، وتَزولُ الشُّبَهُ، وتَظْهَرُ الحقائقُ، واللهُ أعلَمُ، أو أنْ يكونَ ما ظَهَرَ لكلٍّ ما عملَ في الدنيا مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ، وعَرَفَهُ يومئذٍ، وإنْ كانَ في الدنيا لم يَظْهَرْ، ولم يَعْرِفْ، ما عَمِلَ مِنْ خَيرٍ وشَرٍّ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٠] واللهُ أعلَمُ، أو أنْ تكونَ أرضُ الآخِرَةِ مُضيئةً مُشْرِقَةً لِما لا يُقْضي عليها تعالى، ﷻ وأرضُ الدنيا مُظْلِمَةً بِعِصْيانِ أهلِها الرَّبَّ ﷻ

وذلكَ كما رُوِيَ في الخَبرِ أنَّ الحَجَرَ الأسودَ مِنَ الجنةِ، كذا صارَ أسودَ لِما مَسَّتْهُ أيدي الخاطئينَ العاصينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: بِعَدْلِ ربِّها أي رِضا ربِّها، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] أي بالعَدْلِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ ما ذَكَرَ بنورٍ أنْشأهُ، وجَعَلَهُ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] وقالَ بعضُهُمْ: الكتابُ، هو الحسابُ بما حَفِظَ عليهمْ ولهمْ مِنْ خَيرٍ أو شرٍّ مَحْذورٍ منهُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الكتابُ الذي يُوضَعُ في أيديهِمْ يومئذٍ، فيهِ ما عَمِلوا، يَقْرَؤونَهُ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بارزون له راجعون إليه صائرون. (٦) في الأصل وم: اقروا.

[وقولُهُ ﷻ][(١)]: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ اخْتُلِفَ في الشهداءِ: قالَ بعضُهُمْ: الشهداءُ، هُمُ المُرْسَلونَ؛ يُؤْتى بالنَّبِيِّينَ والمُرْسَلينَ، يَشْهَدونَ عليهِمْ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ الآيةَ[المزمل: ١٥]. وقالَ بعضُهُمْ: الشهداءُ ههنا الملائكةُ والحَفَظَةُ الذينَ يَشْهَدونَ عليهِمْ بأعمالِهِمُ التي عَمِلوها. وقالَ بعضُهُمْ: الشهداءُ، هُمُ الذينَ اسْتُشْهِدوا في هذه الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ من الشهداءِ: هُمُ الجوارِحَ التي تَشْهَدُ عليهِمْ يومئذٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآيةَ[النور: ٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعَدْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُحْمَلُ على أحدٍ ما لم يَعْمَلْ، ولكنْ يُحْمَلُ عليهِ ما عَمِلَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ كافرةٍ ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ مِنْ سوءٍ. فأمّا ما عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ فلا تُوَفّى.

[وكذلكَ تُوَفّى][(٢)] كلُّ نفسٍ مُسْلِمةٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ؛ لا يُنْقَصُ منهُ[(٣)] شيءٌ، وما عَمِلَتْ مِنْ سوءٍ جائزٌ أنْ يُتَجاوَزَ عنها، ويُبَدَّلُ حسناتٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي عالمٌ بما يَفْعَلونَ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ قيلَ: أُمّةً أُمّةً وجماعةً جماعةً كقولِهِ ﷻ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الآيةَ[الأعراف: ٣٨] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ لها أبوابٌ، يَدْخُلونَ فيها، وجائزٌ أنْ تكونَ الأبوابُ المذكورةُ لا على حقيقةِ الأبوابِ، ولكنْ على الجهاتِ والسُّبُلِ التي كانوا فيها، أيِ الدنيا، وعَمِلوا بها؛ يَدْخُلونَ النارَ بتلكَ الجهاتِ والسُّبُلِ التي كانوا في الدنيا، وعَمِلوا بها كما يُقالُ: فُتِحَ على فلانٍ بابُ كذا، ليسَ يُرادُ حقيقةُ البابِ / ٤٧٣ ـ ب/ ولكنْ سبيلُ بابِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي [آياتِ][(٤)] التوحيدِ وحُجَجَهُ، ويَحْتَمِلُ آياتِ البعثِ الذي[(٥)] أنكروهُ. وقالَ[(٦)] بعضُ أهلِ التأويلِ: آياتُ القرآنِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ بالآياتِ ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

وقولُهُ ﷻ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد فَعَلوا ذلكَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي عِدَةُ العذابِ، وهو ما قالَ ﷻ، ووَعَدَ أنهُ يَمْلأُ جهنَّمَ منهمْ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] أي حَقَّ وَعْدُ ذلكَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ كلمةِ العذابِ، هي[(٧)] كلمةَ الشِّرْكِ والكُفرِ؛ أي حَقَّتْ كلمةُ الكُفرِ والشِّرْكِ التي[(٨)] عَلِمْنا؛ سَمّى[(٩)] كلمةَ الكُفرِ كلمةَ العذابِ لِما عُذِّبوا، وعُوقِبوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تأويلُهُ ظاهرٌ.

[قولُهُ: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ مُتَكبِّرينَ][(١٠)] على آياتِهِ وحُجَجِهِ، ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ على رسلِهِ وأنبيائِهِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: منها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: التي. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هذه. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: سموا. (١٠) في الأصل وم: والمتكبرين.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي أضاءَتْ، وأنارَتْ، و﴿زُمَرًا﴾ أي جَماعاتٍ، والواحدةُ زُمْرَةٌ؛ ويُقالُ: تزَمَّرَ القومُ إذا اجْتَمَعوا، زَمَرْتُهُمْ جَمَعْتُهُمْ. وأصلُهُ أنْ يَساقَ كلُّ فريقٍ على ما أحَبّوا، وكانوا في الدنيا جماعةً جماعةً وأُمَّةً أُمَّةً وعلى ما يَجْتَمِعونَ في هذهِ الدنيا: أهلُ الخيرِ [مَعَ أهلِ الخَيرِ وأهلُ الشَّرِّ مَعَ][1] أهلِ الشَّرِّ، ويُسَرُّونَ[2] بالاجْتِماعِ في ذلكَ.

لكنْ أهلَ الخيرِ يُساقونَ إلى الجنةِ على ما كانوا يَجْتَمِعونَ في هذهِ الدنيا مَسْرورينَ، وأهلَ الكُفْرِ يُساقونَ إلى النارِ على ما يَجْتَمِعونَ في هذهِ الدنيا على الشَّرِّ؛ حَزينينَ مُغْتَمِّينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ الشِّرْكَ بربِّهِمْ، أو﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ سُخْطَ ربِّهِمْ ونِقْمَتَهُ، أو ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ المَهالِكَ. وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ ﷻ][3]: ﴿وَسِيقَ﴾ وإنْ كانَ في الظاهِرِ خَبَراً عمّا مَضَى، لكنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الاسْتِقبالِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: اسْتِعْمالُ حَرْفِ الماضي على إرادةِ الاسْتِقْبالِ؛ كأنهُ قالَ: يُساقونَ.

والثاني: [لأنهُ جزاءٌ][4] أمرٍ قد كانَ مَضَى، فقالَ ﷻ: ﴿وَسِيقَ﴾ ذَكَرَهُ[5] بحرْفِ سِيقَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿زُمَرًا﴾ قد ذَكَرْناهُ، أي جماعةً جماعةً وأُمَّةً أُمَّةً على ما كانوا في هذهِ الدنيا يَجْتَمِعونَ على ذلكَ. فَعَلى ذلكَ يُساقونَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ فَتْحُ الأبوابِ لهمْ يَحْتَمِلُ حقيقةَ الأبوابِ، ويَحْتَمِلُ كنايةً عنِ الوجوهِ والسُّبُلِ التي يأتونَها في الدنيا لا على حقيقةِ الأبوابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بَدَأَ الخَزَنَةُ بالسلامِ عليهِمْ. فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ: امْتَحَنَ رسولَهُ بِبَدْءِ السلامِ على مَنْ آمَنَ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٥٤].

ثم يَحْتَمِلُ سلامُ الخَزَنَةِ عليهِمُ السلامةَ[6] والبراءةَ مِنْ جميعِ العُيوبِ والآفاتِ التي في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ فقولُهُ: ﴿طِبْتُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أي صِرْتُمْ طَيِّبينَ، لا تُخْسَوونَ أبداً، وقد بَرِئْتُمْ مِنَ الآفاتِ والعُيوبِ كلِّها، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][7]: طابَ [لكُمُ][8] العيشُ أبداً مِنْ حيثُ ما يَأتيكُمْ بِلا عَناءٍ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ لا[9] شَكَّ أنَّ اللهَ ﷻ إذا وَعَدَ صَدَقَ وَعْدَهُ لكنَّ مَعْنى قولِهِمْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ الحَمْدُ للهِ الذي جَعَلَنا مُسْتَحِقِّينَ وَعْدَهُ، إذْ وَعْدُهُ، لا شَكَّ، أنهُ يَصْدُقُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ قيلَ: أنْزَلَنا الأرضَ، أي الجنةَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ نَرغَبُ فيها، وهُمْ لا يَرْغَبونَ النزولَ في مَنازِلِ غَيرِهِمْ. [ويَحْتَمِلُ][10] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي جميعُ أمكِنَةِ[11] الجنةِ مُخْتارٌ، ليسَ ممّا تَتَخَيَّرُ في الدنيا مكاناً دونَ مكانٍ، لأنَّ جميعَ أمكِنَتِها، ليسَتْ بِمُخْتارَةٍ، فَيَقَعُ فيها الاخْتِيارُ.

فأمّا الجنةُ فجميعُ أمكِنَتِها مُخْتارَةٌ، فلا يَقَعُ هنالكَ اخْتِيارُ مَكانٍ على مَكانٍ، واللهُ أعلَمُ.

وإلّا ظاهرٌ قولِهِ تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ ما [لَنا و ما لغَيرِنا][12] والوجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: وأهل الشر على، في م: على أهل الخير وأهل الشر على. (٢) في الأصل وم: وسرور. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كأنه خبر. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: ولذلك. (٦) في الأصل وم: السلام. (٧) في الأصل وم: أو يقولُ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: مكان. (١٣) في الأصل وم: لهم وما لغيرهم.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٧٥ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [قيلَ: مُحْدِقينَ حولَ العَرْشِ][(١)].

وقولُهُ ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: بِأمْرِ ربِّهِمْ. لكنَّ التَّسبيحَ [عندَنا][(٢)] بِحَمْدِ ربِّهِمْ، هو أنْ يُسَبِّحوا بِثَناءِ ربِّهِمْ وحَمْدِهِ، أي يُبَرِّؤوهُ، ويَنَزِّهوهُ عنْ جميعِ مَعاني الخَلْقِ؛ بِثَناءٍ وحَمْدٍ يَحْمَدونَهُ، ويُثْنونَ عليهِ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ قيلَ: بَينَ الأُمَمِ والرُّسُلِ، وقيلَ: بَينَ الخَلائقِ كلِّهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ[﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بَينَ المؤمنينَ وأعدائِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى][(٣)]: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: فَتَحَ اللهُ نِعَمَهُ في الدنيا بالحَمْدِ لهُ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: ١] وقولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية[الكهف: ١] وغَيرُ ذلكَ منَ الآياتِ، وخَتَمَ نِعَمَهُ في الآخِرَةِ بالحَمدُ لهُ حينَ[(٤)] قالَ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] وقالَ[(٥)] ﷻ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ الطاهرينَ [أجمَعينَ][(٦)].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

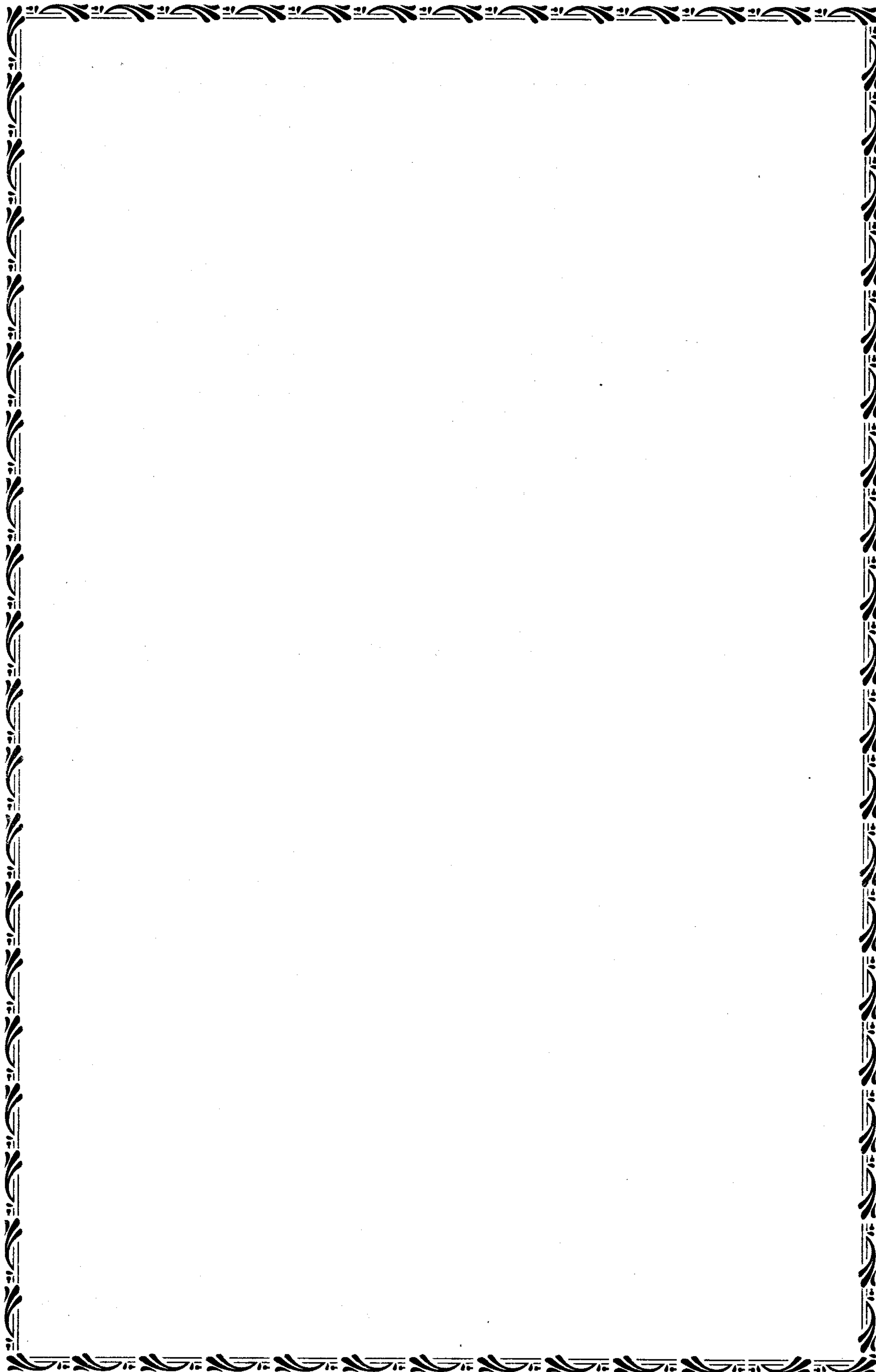

سورة [﴿حمٓ﴾][١] المؤمن

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو هجاءُ اسْمُ الرَّبِّ جَلَّ، وعَلَا، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ وقالَ بعضُهُمْ: فواتِحُ السُّورِ كلِّها. وكذلكَ قالوا[٢] في سائِرِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: أصلُهُ: حَمَّ كقولِ الشاعرِ:

ألَستَ تَرَى أنَّ الذي حَمَّ كائِنٌ ....

أي الذي قَضَى كائنٌ. إلاّ أنهُ [ذَكَرَهُ بالهجاءِ كَمَنْ][٣] ذَكَرَ زيداً بالهجاءِ.

وقد قُلْنا نحنُ: إنَّ تفسيرَ الحروفِ المُقَطَّعَةِ [ما ذُكِرَ على إثْرِها. وقد][٤] ذَكَرْنا أقاويلَ الناسِ واخْتِلافَهُمْ فيها في غَيرِ مَوضِعٍ ما أغنانا عنْ ذِكْرِها في هذا المَوضِعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ قد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ في سورةِ الزمر [الآية: ١] أنهُ ذَكَرَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وههنا ذَكَرَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وهما واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ /٤٧٤ ـ أ/ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ أي مُتَجاوِزِ الذنبِ، وهو في حقِّ المؤمنينَ خاصّةً.

والثاني: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ أي ساتِرِ الذنبِ، وهو يَحْتَمِلُ للكافِرِ والمؤمنِ جميعاً، فإنهُ يَسْتُرُ كثيراً على المؤمنِ والكافِرِ جميعاً في الدنيا، ولم يَفْضَحْهُما، ويَتَجاوَزُ عنِ المؤمنِ خاصّةً في الآخرةِ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ يُخبِرُ أنهُ يَقْبَلُ التوبةَ، وإنْ عَظُمَتِ المَعْصِيَةُ، وجَلَّتِ الذُّنوبُ، وكَثُرَتْ، واللهُ أعلَمُ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّوبُ جَماعةُ التوبةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي لِمَنْ لم يَتُبْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: أي ذي القُدْرَةِ، وقالَ القُتَبِيُّ: ذي التَّفَضُّلِ؛ يُقالُ: طُلْ عليَّ بِرَحْمَتِكَ، أي تَفَضَّلْ. وقَيلَ: ذي السَّعَةِ، وكُلُّهُ قريبٌ بعضُهُ مِنْ بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وَحَّدَ نفسَهُ، وأخبَرَ أنَّ مَصيرَ الخَلْقِ إليهِ في الآخِرَةِ، فَيَجْزيهِمْ بأعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يُجادِلُ في دَفْعِ آياتِ اللهِ والطَّعْنِ في آياتِ اللهِ الذينَ كَفَروا باللهِ، أو كَفَروا بآياتِ اللهِ. وكانَتْ مُجادَلَتُهُمْ ما ذَكَرَ حينَ[٥] قالَ ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] لِيُبْطِلوا[٦] بِهِ الحقَّ.

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أن. (٢) في الأصل و م: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ويبطلوا.

أهلُ الكُفرِ همُ الذينَ كانوا يُجادِلونَ في دفعِ آياتِ اللهِ والطَّعْنِ فيها. فأمّا أهلُ الإيمانِ بها فكانوا يَفرَحونَ بنزولِها، ويَزدادُ لهمْ بذلكَ إيمانٌ كما قالَ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦] وكقولِهِ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ كانوا يَسْتَسلِمونَ لها، ويَقْبَلونَها بالتعظيمِ والتَّبجيلِ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ مَعْلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَغُرُّهُ تَقَلُّبُهُمْ في البلادِ. لكنَّهُ ذَكَرَ الخِطابَ لهُ، وأرادَ بهِ غيرَهُ لِما يَحتَمِلُ أنْ يَظُنَّ قومٌ أنَّ أهلَ الكُفرِ لمّا كانوا في أمنٍ في التَّقلُّبِ في البِلادِ والسَّعَةِ في عَيشِهِمْ، وأنَّ أهلَ الإيمانِ في ضِيقٍ وشِدَّةٍ وخَوفٍ أنَّ أولئكَ على الحقِّ، وهؤلاءِ على الباطِلِ، فجائزٌ أنْ يَظُنَّ ظانٌّ ما ذَكَرْنا.

فأخبَرَ اللهُ ﷻ أنَّ الأمْنَ والسَّعَةَ ليسا[1] بدليلٍ على كَونِ صاحِبِهِما[2] على الحقِّ، ولا الضِّيقُ والشِّدَّةُ بدليلٍ على كَونِ صاحِبِهِما[3] على الباطِلِ؛ لكنْ مِحنَةٌ امْتَحَنَهُمْ مَرَّةً بالسَّعَةِ والأمنِ ومَرَّةً بالضِّيقِ والخَوفِ. دليلُ ذلكَ وجودُ الحالَينِ جميعاً في كلِّ فريقٍ معَ اختِلافِ مذاهِبِهِمْ وتَضادِّ أقاويلِهِمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ أهلَ مكةَ، أي لا يَغرُرْهُمْ تَقَلُّبُهُمْ في البلادِ وأمنُهُمْ وسَعَتُهُمْ بَعْدَما نَزَلَ بأهلِ الآفاقِ والنَّواحي أنهمْ على الحَقِّ وأنَّ ذلكَ يدفَعُ ذلكَ عنهمْ، أو يكونونَ على أمْنٍ لِمكانِ كونِهِمْ بِقُرْبٍ مِنَ البيتِ لِحُرْمَتِهِ وشَرَفِهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ﴾ ذَكَرَ هذا لِتَصبيرِ رسولِهِ على تكذيبِ قومِهِ إيّاهُ بالباطِلِ؛

يقولُ: لَستَ أنتَ بأوّلِ مَنْ جادَلَهُ قومُهُ بباطِلٍ. لم تَزَلِ الأمَمُ المُقَدَّمَةُ يُكَذِّبونَ رسلَهُمْ، ويجادِلونَهُمْ بالباطِلِ، فَصَبروا على ذلكَ، فاصْبِرْ أنتَ على تكذيبِ قومِكَ ومُجادَلَتِهِمْ إياكَ بالباطِلِ كما صَبَرَ أولئكَ كقولِهِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهو[4] ما ذَكَرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾ ما ذَكَرَ. لكنَّ اللهَ تعالى بِفَضْلِهِ عَصَمَ رسلَهُ عمّا هَمَّ أولئكَ الكَفَرَةُ بهمْ مِنَ القَتْلِ والمُجادَلَةِ بالباطِلِ.

وفي ذلكَ آيةٌ مِنْ آياتِ الرسالةِ لهمْ حينَ[5] حَفِظَهُمْ عمّا هَمُّوا بهمْ بِلا أعوانٍ وأنصارٍ كانَ الرُّسُلُ معَ كَثْرَةِ أولئكَ الكَفَرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي كيفَ وَجَدوا عِقابي؟ أليسَ وجَدُوهُ حقّاً على ما وَعَدَ الرُّسُلُ ﷺ أنهُ نازِلٌ بهمْ؟

أو يقولُ: أليسَ وجَدُوهُ أليماً شديداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ما ذَكَرَ [في][6] قولِهِ: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ الآية[الأحزاب/ ٦٢] وقولِهِ: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال/ ٣٨].

ويَحتَمِلُ[7] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ما قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣]. فذلكَ الذي حَقَّ عليهمْ [مِنْ][8] كلمةِ ربِّكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ أنَّ التسبيحَ بِحَمْدِ ربِّهِمْ، هو الثناءُ عليهِ والحَمْدُ لهُ بالتَّبرِئَةِ والتَّنزيهِ عنْ جميعِ أوصافِ الخَلْقِ ومعانيهِمْ عنْ جميعِ ما قالَتِ المُلْحِدَةُ فيهِ.

---

(١) في الأصل و م: ليس. (٢) و(٣) في الأصل وم: صاحبه. (٤) في الأصل و م: وهي. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل و م. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذهِ أرجَى آيةً للمؤمنينَ. والآياتُ التي فيها اسْتِغفارُ الرسلِ للمؤمنينَ مِنْ نَحْوِ قولِ نوحٍ ﷺ حينَ[1] قالَ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨] وقولِ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وما أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يَسْتَغْفِرَ لنفسِهِ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ حينَ[2] قالَ لهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] لأنهُ لا يُحتَمَلُ أنْ يأمُرَ بالاسْتِغْفارِ لهمْ، ثم لا يُجيبُهُ إذا فَعَلَ.

ثم قالَ بعضُ المعتزلةِ: إنَّ قولَهُ ﷻ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إنما هو في الذنوبِ التي ليسَ لهُ أن يُعَذِّبَهُمْ عليها، وهي الصغائرُ، وليس لهُ أنْ يَغْفِرَ لِلْكُفّارِ. ويَسْتَدِلُّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

إنما أمَرَهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ للذي تابَ. فأمّا مَنْ لم يَتُبْ لم يأمُرْهُ بالاسْتِغْفارِ. فيجبُ القولُ بما قُلْنا عَمَلاً بالآيَتينِ.

لكنْ نقولُ نحنُ: إنهُ لو كانَ اسْتِغْفارُهُ لِمَنْ ذَكَرَ خاصّةً لأصحابِ الصغائرِ على ما قالوا يَصيرُ كأنهُ أمَرَ النَّبيَّ ﷺ أنْ يقولَ: اسْتَغْفِرْ لهم، إذْ هُمْ مَغْفورةٌ ذنوبُهُمْ، فَيَجْعَلُ[3] قولَهُمْ على ما ذَكَرْنا. وذلكَ كُفْرٌ وَوَحْشٌ مِنَ القولِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يجيءُ أنْ تكونَ المعتزلةُ والخوارجُ في الظاهرِ أبْعَدَ الخلائقِ عنِ المَعاصي وأقْرَبَهُمْ إلى الطاعاتِ، ونحنُ أقْرَبَ الخلائقِ إلى المَعاصي وأبْعَدَهُمْ عنِ الطاعاتِ لأنهمْ لا يَرَونَ النجاةَ إلا بأعمالِهِمْ، ولا يَرَونها[4] برحمةِ اللهِ ولا بِشَفاعةِ أحدٍ، ولكنْ بأعمالِهِمْ، فَيَجِبُ أنْ يكونوا أبداً مُتَّكِلينَ مُلازمينَ على الطاعاتِ في كلِّ وقتٍ وساعةٍ، لا يَعْصُونَ اللهَ طَرْفَةَ عينٍ.

ونَحْنُ لم نَرَ النجاةَ بالأعمالِ، ولكنْ إنما نَرَى ذلكَ برحمةِ اللهِ تعالى وبِشفاعةِ مَنِ ارْتَضَى شَفاعَتَهُ. فَيَجِبُ أنْ نكونَ مُعْتَمِدينَ على رَحْمَةِ اللهِ وفَضْلِهِ غَيرَ مُشْتَغِلينَ بشيءٍ مِنَ الطاعاتِ.

ثم في الحقيقةِ يَجِبُ أنْ يكونوا هُمْ أقْرَبَ الخَلائِقِ إلى المَعاصي وأبْعَدَهُمْ عنِ الطاعاتِ، ونحنُ ألْزَمُ الخلائقِ بالطاعاتِ وأبْعَدُهُمْ عنِ المَعاصي؛ لأنّا نَرَى عندَ اللهِ لَطائفَ وفَواضِلَ باقيَةً، لم يُعْطِنا [إيّاها][5] ما لو أعطانا ثم يَصْدُرُ منا إلّا الخَيرُ والطاعاتُ، وسَلَّمَنا مِنَ المَعاصي وأنواعِ الشُّرُورِ، وعَصَمَنا. فَيَجِبُ أنْ نكونَ مُتَّكِلينَ على الطاعاتِ لِنَصِلَ إلى تلكَ/ ٤٧٤ ـ ب/ اللَّطائفِ.

وهمْ لا يَرَونَ بَقِيَ عندَهُ شيءٌ مِنَ اللطائفِ، بل يقولونَ: قد أعطانا كلَّ شيءٍ حتى لم يَبْقَ شيءٌ عندَهُ مِنْ مَصالِحِ الدينِ، فَيَجِبُ أنْ يكونوا [على][6] ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُنا: إنَّ اللهَ تعالى يُنَجِّينا بِرَحْمَتِهِ وبِشفاعةِ مَنْ جَعَلَ لهُ الشفاعةَ لا بأعمالِنا.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «لَنْ يدخُلَ أحدٌ الجنةَ إلّا بِرَحْمَةِ اللهِ. قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[مسلم ٢٨١٦/ ٧١ و٢٨١٨/ ٧٦] والمعتزلةُ يقولونَ: لا بل ندخلُ بأعمالِنا وكذلكَ قولُ الخوارجِ.

وأصلُ قولِنا: إنَّ اللهَ ﷻ لنْ يُعَذِّبَ عبادَهُ على جميعِ المَعاصي على الصَّغائرِ والكَبائرِ جميعاً، ولهُ أنْ يَغْفِرَ المعاصيَ سِوَى الشِّرْكِ والكُفْرِ على ما ذَكَرْنا مِنْ دلائلِ الآياتِ وغَيرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً﴾ قولُهُ: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً﴾ فرحمةُ الدنيا يَدخُلُ فيها الكافرُ والمؤمنُ. فأمّا رحمةُ الآخِرَةِ فهي للمؤمنينَ خاصّةً، وهي كما ذَكَرَ في قصةِ موسى ﷺ حينَ[8] قالَ: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦] وقالَ[9]: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل و م: فيحصل. (٤) في الأصل و م: يرون. (٥) و(٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وقوله.

وقولُهُ: ﴿وَعِلْمًا﴾ أي عِلَمَ مَنْ فيها مِنَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهينِ:

أحَدُهما][1]: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عنَ الشِّرْكِ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي دينَكَ، وهو[2] الإسلامُ.

والثاني: أي فاغْفِرْ للذينَ تابوا عنِ الكبائرِ والفواحِشِ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي طاعتَكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ظاهرٌ.

ثم قولُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ لا يمكنُ العملُ بها على قولِ المعتزلةِ لأنَّ رحمةَ اللهِ عندَهُمْ لا تَسَعُ لِذَنْبٍ واحدٍ فإنهُ ليسَ لهُ أنْ يَعْفُو عنهُ. فإنَّ عندَهُمْ أنَّ مَنِ ارْتَكَبَ كبيرةً ليسَ لهُ أنْ يَرْحَمَهُ، ولكنْ يُعاقبُهُ على زَعْمِهِمْ خالداً مُخَلَّداً. وإذا كانَ [هذا][3] قولَهُمْ ومذهَبَهُمْ، فليسَتْ رحمتُهُ بواسعةٍ بزعمِهِمْ.

ثم يقولونَ أيضاً: إنَّ اللهَ تعالى قد هَدَى كلَّ كافرٍ، وأعطاهُ ما يَهْتَدي بهِ، وإنهُ لم يَبْقَ عندَهُ ما يهدي بهِ. فَعَلَى هذا القولِ رحمتُهُ لا تَسَعُ لِهدايةِ كافرٍ. فإذنْ رحمةُ اللهِ تعالى بزعْمِهِمْ على خلافِ ما ذَكَرَ اللهُ تعالى. وَوَصَفَها بالسَّعَةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وأمّا عندَنا فهي[4] ما ذَكَرْنا مِنْ جميعِ الكلِّ في ذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ تلكَ الرحمةَ الدنيويَّةَ أو ما ذَكَرْنا مِنْ كونِ اللطائفِ عندَهُ: مَنْ أعطاها اهْتَدَى، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ الوعدَ كانَ منهُ لِجُملةِ المؤمنينَ، فَسألوهُ[5] أنْ يُدْخِلَ قوماً على الإشارةِ والتَّعْيينِ في جملةِ ذلكَ الوعدِ لِاحتِمالِ خُصوصٍ في الجملةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: سألوهُ أنْ [يُنْجِيَهُمْ عنِ][6] الأسبابِ والأعمالِ التي يَسْتَوجِبونَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يجوزُ أنْ يكونَ الوعدُ لهمْ بالشرطِ الذي سألوهُ، واللهُ تعالى عالمٌ في الأزلِ أنهُ يوجَدُ ذلكَ الشرطُ، وهو سؤالُهُمْ، فيكونُ لهمْ ذلكَ الوعدُ. ومثلُ ذلكَ جائزٌ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] مسؤولاً إنما يُعَذِّبُهُمْ بسؤالِ هؤلاءِ على ذلكَ، كانَ جَرَى تقديرُهُ أنهُ لا يُعَذِّبُهُمْ إذا سألوا، وعَلِمَ أنهمْ سألوا.

وعلى ذلكَ الحديثُ الواردُ: «إنّ الصدقةَ تزيدُ العُمُرَ»[الطبراني في الكبير ١٧/ ٢٢و٢٣ رقمه٣١] جَرَى تقديرُهُ في الأزلِ أنهُ يوجَدُ منهُ الصدقةُ، فيكونُ عمُرُهُ زائداً على ما لو عَلِمَ أنهُ لا يَتَصَدَّقُ. وإنما لا يجوزُ التعليقُ بالشَّرْطِ في حقِّ اللهِ تعالى على نَحْوِ ما يكونُ في حقِّ العبادِ أنْ يُوجَدَ عندَ وجودِ الشرطِ، ولا يُوجَدَ عندَ عَدَمِهِ، ولا عِلْمَ لهمْ بعاقبةِ ذلكَ.

واللهُ تعالى عالمٌ بالعواقبِ، فَمَتَى عَلَّقَ بشرطٍ كانَ ذلكَ منهُ في الأزلِ حكماً على أنْ يُوجَدَ مَعَ ذلكَ الشرطِ مع علمِهِ أنهُ لو لم يَكُنْ ذلكَ الشرطُ كيفَ كانَ؟ واللهُ الموفِّقُ.

أمّا ظاهرُ الآيةِ أنهُ إذا وَعَدَها لهمْ أدخلَهُمْ لا مَحالَةَ فيها، فلا مَعْنَى للسؤالِ في ذلكَ لِما يُخَرَّجُ السؤالُ في مِثْلِهِ مُخْرَجَ السؤالِ في تصديقِ الوَعْدِ والامْتِناعِ عنِ الخُلْفِ. ولكنَّ الآيَةَ تُخَرَّجُ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ الآية سألوهُ أيضاً إدخالَ هؤلاءِ في ذلكَ الوعدِ أيضاً على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل: وجوها أحدها، في م: يحتمل وجوها أحدها. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: فسألوا. (٦) في الأصل وم: يجيبهم على.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا يَحتمِلُ أنهمْ سألوهُ أنْ يَقِيَهُمْ في الآخِرةِ أموراً تَسوؤُهُمْ مِنَ الأهوالِ والأفزاعِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ العذابِ.

ويَحتمِلُ في الدنيا أمرَ الشِّرْكِ وغَيرَهُ. يَدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي ومَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ في الدنيا فقد رَحِمْتَهُ يومئذٍ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية ذَكَرَ أهلَ النارِ [إذا دخَلُوا النارَ][1] وعايَنوا ما أنكَروا مِنَ البَعْثِ والعذابِ يَجعَلُ كلُّ إنسانٍ منهمْ يَمقُتُ نفسَهُ، ويَلومُها، فَيُنادَونَ لَمَقْتُ اللهِ إياكمْ في ما أوجبَ عليكُمْ مِنَ اللَّعْنِ والنِّقْمةِ أكثَرُ مِمّا تَمقُتونَ بهِ أنفسَكُمْ، وأشَدُّ. هذا وجهٌ، [وَوَجهٌ][2] آخَرُ جائزٌ [وهو][3] أنْ يُقالَ لهمْ: إنَّ الواجبَ عليكُمْ أنْ تَرَوا مَقْتَ اللهِ إياكُمْ وقتَ ارْتِكابِكُمُ العِصيانَ وعندَ تعاطيكُمْ ما تَعاطَيْتُمْ أكْبَرَ وأشَدَّ مِنْ مَقْتِكُمُ العذابَ ودخولِكُمُ النارَ، لأنكُمْ إذا رأيتُمْ مَقْتَ اللهِ إيّاكُمْ عندَ ارْتِكابِكُمْ ما ارْتَكَبْتُمْ أنهُ يُنْزِلُ بكُمْ لَزَجَرَكُمْ ومَنَعَكُمْ عنِ ارْتِكابِ ذلكَ وتَعاطيهِ، وحَمَلَكُمْ على إيثارِ ما دُعِيتُمْ إليهِ مِنَ التوحيدِ للهِ تعالى والإيمانِ بهِ، واللهُ تعالى أعلَمُ.

وعلى هذينِ التأويلَينِ يَرْجِعُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

أحَدُهما: أنَّ ذِكْرَ اللهِ تعالى إياكمْ بالرحمةِ والمَغْفِرةِ أكْبَرُ وأعْظَمُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إياهُ وصلاتِكُمْ وعبادتِكُمْ لهُ.

والثاني: أنَّ ذِكْرَ نفسِ نَهْيِ اللهِ تعالى إيّاها عنِ المَعاصي وقتَ ارتِكابِها أكْبَرُ [مِنَ الزَّجْرِ][4] عنها والمَنْعِ مِنَ الصلاةِ نفسِها [وإنْ كانتِ الصلاةُ تَنْهَى عنْ ذلكَ بقولِهِ:][5] ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] لِما أنَّ الصلاةَ منها أعمالٌ تَشْغَلُ عنْ ذِكْرِ النَّهْيِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ مَقَتَ بعضُكُمْ بعضاً كقولِهِ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

[والثاني][6]: يَحتَمِلُ ذلكَ لِقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي يمقُتُ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ لِما كانَ [منها][7] مِنَ العِصيانِ والكُفرِ.

وإنما احْتَمَلَ هذينِ الوجهَينِ لأنَّ المَنْعَ لهمْ مِنْ طاعةِ اللهِ تعالى واتِّباعِ أمْرِهِ ونَهْيِهِ يكونُ بأنفسِهِمْ، ويكونُ مِنْ بعضِهِمْ بعضاً. فيكونُ مُحتَمَلاً لِكِلا الوجهَينِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٦١] وقولِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ولا تُهْلِكوا بعضَكُمْ بعضاً[8] / ٤٧٥ ـ أ/ إذِ الظاهرُ أنَّ المَرْءَ معَ قيامِ عقلِهِ لا يُهْلِكُ نفسَهُ، ولا يُلْقيها في التَّهْلُكةِ، وكذا لا يُسَلِّمُ على نفسِهِ.

ويَحتَمِلُ الظاهرُ أيضاً أنْ يُسَلِّمَ [المَرْءُ][9] على نفسِهِ إذا دَخَلَ البيتَ، ولم يكُنْ فيهِ[10] غيرُهُ.

ولذلكَ نَهَى عنْ إهلاكِ نفسِهِ عندَ شِدةِ الغَضَبِ ونَحْوِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانوا أمواتاً في أصلابِ آبائِهِمْ، فأحياهُمُ اللهُ تعالى في الدنيا. ثم أماتَهُمُ المَوتةَ التي لا بُدَّ منها، ثم أحياهُمْ للبعثِ يومَ القيامةِ. فهما حَياتانِ ومَوتتانِ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ وابْنِ مسعودٍ في ما أرَى.

ويقولونَ: [هو][11] كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٨].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إحدَى المَوتَتَينِ هي التي تَنْقَضي بها آجالُهُمْ، ثم يُحْيِيهِمْ في القبرِ، ثم يُميتُهُمْ، ثم يُحْيِيهِمْ للبعثِ يومَ القيامةِ. فهما موتَتانِ وحَياتانِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: في الرحمن. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إن كانت. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لبعض. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: معه. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وإلى هذا يذهبُ ابنُ الراوَنْديّ[١]، ويَحْتجُّ بهذا على عذابِ القبْرِ، وهو أشبَهُ وأقربُ لأنهم بكونِهِمْ في أصلابِ آبائهِمْ أمواتاً، لا يُقالُ: ﴿أَمَتَّنَا﴾، وهمْ كانوا أمواتاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ يَحْتمِلُ اعْتِرافُهُمْ بذنوبِهِمْ، هو ما أنْكروا في الدنيا قدرةَ اللهِ تعالى على البعثِ والإحياءِ بَعْدَ المَوتِ والعذابِ لهمْ. لمّا عايَنوا ذلكَ، وشاهَدوا، أقرُّوا بِهِ. فإنكارُهُمْ ذلكَ، هو ذَنْبُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ ذنوبُهُمُ التي اعْتَرَفوا بها ما ذَكَرَ في سورةِ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ حينَ قالَ لهمُ الخَزَنَةُ لمّا أُلْقُوا في النارِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الآيتان: ٨و٩] فيكونُ اعْتِرافُهُمْ بذنوبِهِمْ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي ذلكَ المَقْتُ الذي ذَكَرَ والعذابُ الذي نَزَلَ بكم إنما كانَ ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ أي كَفَرْتُمْ بتوحيدِهِ ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ أي توحيدِ اللهِ ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ بِهِ أي تُصَدِّقوا.

هذهِ الآيةُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] فهما بِمَعْنىً واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ قالَ قتادةُ: لمّا خرَجَ أهلُ حَروراءَ قالَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ: مَنْ هؤلاءِ؟ قيلَ المُحكِّمونَ. قالَ قائلٌ: همُ القُرّاءُ، قالَ [ﷺ][٢]: ليسوا بالقُرّاءِ لكنَّهُمُ العَيّابونَ الخَيّابونَ. قالوا: إنهمْ يقولونَ: لا حُكْمَ إلا للهِ، قالَ عليٌّ ﷺ: كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ. وذُكِرَ: عُنِيَ بها باطلٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [قالَ بعضُهُمْ:][٣] هو ما أراهُمْ مُكذِّبي رسُلِهِ ومُصَدِّقيهِمْ مِنْ أوائلِهِمْ حينَ[٤] اسْتأصَلَ هؤلاءِ بتكذيبِهِمْ رسُلَهُ، وأنْجى مُصَدِّقيهِمْ بتصديقِهِمْ إياهُمْ[٥] لِيَحْذَرَ هؤلاءِ مِنْ تكذيبِ رسولِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أراهُمْ آياتِ وحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ وقُدْرتِهِ وسُلْطانِهِ في السمواتِ والأرضِ ما لو تأمَّلوا لَعَرَفوا ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٥] آياتُ وحدانيَّتِهِ. وذُكِرَ أنهمْ يَمُرّونَ عليها، أي يَرَونَها، لكنهمْ يُعْرِضونَ عنها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يا أهلَ مكةَ إذا سافَرْتُمْ رأيْتُمْ آياتِ المُتَقدِّمينَ ومنازِلَهُمْ وهلاكَهُمْ، وهو الأوّلُ بعينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ يُخْبِرُ عنْ آياتِ وحدانيَّتِهِ أنهُ يُنَزِّلُ رزقَهُمْ مِنَ السماءِ، ويُحْيِي[٦] الخَلْقَ، ويَنْقَطِعُ عنِ تنزيلِ الرزقِ مِنَ السماءِ لِيَعْلَموا أنَّ مُنْشِئَ الأرضِ والسماءِ واحدٌ [وأنهُ أوصَلَ][٧] منافعَ السماءِ بمنافعِ الأرضِ على ما يَحْتَمِلُ أنهُ يَذْكُرُ نِعَمَهُ عليهِمْ حينَ[٨] يَعْلَمونَ أنهُ هو الذي أنْزَلَ أرزاقَهُمْ مِنَ السماءِ لا[٩] مَنْ يَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ.

فكيفَ تَصْرِفونَ عبادَتَكُمْ وشُكْرَكُمْ إلى غيرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ وما يَتَذَكَّرُ ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ، ولا يَتأمَّلُها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إليهِ بطاعتِهِ. أو يقولُ لا يَتَذَكَّرُ، ولا يَتَّعِظُ بآياتِهِ ومواعيدِهِ ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إليهِ بالقَبولِ لِأمرِهِ وطاعتِهِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كأنَّ هذا صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآية [الزمر: ٤٥] وصِلَةُ قولِهِ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ

---

(١) في الأصل وم: الرويدي. (٢) في الأصل وم: ﷺ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إياه.
(٦) في الأصل وم: وحيل. (٧) في الأصل وم: حيث اتصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: دون.

كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: ١٢] يقولُ: فادعوا اللهَ يا أصحابَ محمدٍ وأيُّها المؤمنونَ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلكَ، وَوَحِّدوهُ، ولا تُشركوا بهِ شيئاً على ما يُشرِكُ بهِ أهلُ مكةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: رفيعُ السمواتِ دَرَجَةً على دَرَجَةٍ وطَبَقاً على طَبَقٍ على ما رَفَعَها واحدةً على أُخرى.

والثاني: قولُهُ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي دَرَجاتُ أهلِها ومنازِلُهُمُ التي جَعَلَها لهمْ في الآخِرَةِ على تَفْضِيلِ بعضِهِمْ على بعضٍ في الدَّرجاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدرجاتِ ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

أخبَرَ أنهُ فَضَّلَ بعضاً على بعضٍ في الدرجاتِ. فجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ رَفعِ الدَّرجاتِ هو رَفعَ السمواتِ دَرَجةً فَدَرَجةً، فهو إخبارٌ عنْ قُدرَتِهِ وسلطانِهِ أنهُ مَنْ قَدَرَ على رَفعِ السمواتِ في الهواءِ وإقرارِها فيهِ بلا سَبَبٍ مِنْ أسبابِ إمساكِها مِنَ التَّعليقِ بشيءٍ مع ثِقَلِها وغِلَظِها، ولا شيءَ يَقِرُّ في الهواءِ بحيثُ لا يَنْحطُّ، ولا يَتَسَفَّلُ، ولا يَرْتَفِعُ عنْ مكانِهِ[1] بلا سَبَبٍ مِنَ الأسفَلِ والأعلى، لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعجِزَهُ شيءٌ، أو يَخفَى عليهِ شيءٌ، أو يَمْنَعَهُ عما يريدُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ المُرادُ بالدَّرجاتِ التي تُجعَلُ لِأهْلِها في الآخِرَةِ إنما يَسْتوجِبونَها باللهِ تعالى بأعمالٍ، تكونُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ اختُلِفَ فيهِ.

قالَ بعضُهُمْ: هو جبرائيلُ ﷺ ﴿يُلْقِى﴾ أي يُنْزِلُ الوَحْيَ والنُّبوَّةَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ كقولِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ و١٩٤] أخبَرَ أنهُ أمينٌ لِيُعلَمَ أنهُ ليسَ في إنزالِهِ غَلَطٌ ولا شيءٌ ممّا قالَهُ بعضُ الرّوافِضِ أنهُ بُعِثَ إلى فلانٍ، وأدّاهُ إلى غيرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الروحُ ههنا، هو الوَحْيُ والرسالةُ؛ يقولُ: ﴿يُلْقِى﴾ وهو الوَحْيُ على مَنْ يختارُ، ويُصْطَفي مِن عبادِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: يومَ يَلْقَى أهلُ الأرضِ أهلَ السماءِ. وقالَ بعضُهُمْ: يومَ يَلْقَى الآخرون الأوَّلِينَ[2].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: يَلْقَى الإنسانُ عملَه وأفعالَهُ التي عَمِلَها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَتِ الباطِنِيَّةُ: أيْ يومَ تَلْقَى الصُّوَرُ المُتَوَلِّدَةُ مِنَ الأجسادِ بأعمالِ الخَيرِ والشَّرِّ التي كانَتْ لهمْ في الدنيا الصُّوَرَ التي كانَتْ لهمْ روحانيَّةً؛ لأنَّ مِنْ مَذْهَبِهِمْ أنَّ مَنْ ماتَ منهمْ بِحَدَثٍ، ويَتَوَلَّدُ بالأعمالِ التي كانَتْ لهمْ مِنَ الخَيرِ صُورٌ روحانِيَّةٌ؛ تَلْقَى هذهِ الصورةُ الحادثةُ المُتَوَلِّدَةُ مِنَ الأجسادِ [بَعْدَ الموت ويكونُ البعثُ عندَهمْ للأرواحِ، فَتَتَّصِلُ هذهِ الأرواحُ النورانيةُ بالنورِ الصِّرْفِ، ويَسْتَدِلّونَ بقولِهِ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي تَبْرُزُ تلكَ الصورُ الروحانيةُ مِنَ الأجسادِ][3] إذِ الخَلائقُ كُلُّهُمْ في جميعِ الأحوالِ والأوقاتِ بارزونَ ظاهرونَ للهِ تعالى، ثم يكونونَ في وقتٍ مَسْتورينَ/ ٤٧٥ ـ ب/ عنهُ.

ولكنْ هذا فاسدٌ لأنهُ لو كانَ الأمْرُ على ما يقولُهُ الباطِنِيَّةُ لكانَتِ الأنفسُ إذا نامَتْ، وخَرَجَتْ منها الصُّوَرُ الروحانِيَّةُ، فَرَأَتْ رُؤياً، كانَتْ تَراها مُخْتَلِطَةً غَيرَ مُتَحقِّقَةٍ، وفي حالةِ اليَقَظَةِ تَراها مُتَحقِّقَةً غيرَ مُخْتَلِطَةٍ، دلَّ أنَّ الإدراكَ للأجسادِ بواسطةِ الصُّوَرِ الروحانِيَّةِ يجِبُ أنْ يكونَ البعثُ للكلِّ، واللهُ أعلَمُ.

ولكنَّ الوَجْهَ في ذلكَ ما ذَكَرْنا. وأصلُهُ أنهُ سَمَّى ذلكَ اليومَ على ما سَمَّى يومَ الجَمْعِ[4] ويومَ التَّغابُنِ[5] ويومَ الحَشْرِ[6] وغَيرَ ذلكَ. سَمَّى اليومَ على أسماءٍ مختَلِفةٍ: [سَمَّى][7] كلَّ اسمٍ مِنْ تِلْكَ لِمَعْنىً غَيرِ المَعْنَى الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أماكنها. (٢) في الأصل وم: الأولون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الشورى: ٧ والتغابن: ٩. (٥) التغابن: ٩. (٧) الحشر: ٢. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ظاهرونَ، لا شيءَ هنالكَ يَسْتُرُهُمْ، أي تَرْتَفِعُ يومئذٍ جميعُ السَّوَاتِرِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧و١٠٨] أي لا شيءَ يُسْتَرُ فيها؛ يَذْكُرُ هذا لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: تُسْتَرُ الأشياءُ عنِ اللهِ تعالى بالسَّواتِرِ رَدًّا لِقَولِهِمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ سَمَّى ذلكَ اليومَ ممّا يَتَّفِقونَ جميعاً، ويُقِرّونَ بالكلمةِ التي اختَلَفوا في الدنيا فيها، فَيَبْرُزُونَ جميعاً مُتَّفِقينَ مُقِرِّينَ بتلكَ الكلمةِ يومئذٍ، وهي كلمةُ التوحيدِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ سَمّاهُ يومَ البُروزِ والمَصيرِ والرجوعِ وما ذَكَرَ أنَّ المَقصودَ مِنْ إنشاءِ الدنيا وما فيها مِنْ حكمةٍ لِما عَرَفَ أنَّ الإنشاءَ للإفناءِ خاصَّةً ليسَ بحكمةٍ، فَخَصَّ ذلكَ اليومَ بِما ذَكَرْنا، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ بارِزينَ إليهِ ظاهِرينَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ﴾ ظاهرٌ، وهو رَدٌّ لقولِ مَنْ يقولُ: إنَّ شيئاً يُسْتَرُ على اللهِ، تعالى [تعالى اللهُ][(١)] عنْ ذلكَ عُلُوّاً كبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إذا أَهْلَكَ اللهُ تعالى أهلَ الأرضِ وأهلَ السماءِ، فلم يَبْقَ أحدٌ إلّا اللهُ تعالى. فعندَ ذلكَ يقولُ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ فلا يُجيبُهُ أحدٌ فيقولُ هو في نفسِهِ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

لكنَّ هذا بعيدٌ لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ ولا أحَدَ سِواهُ، ويُجيبُ نفسَهُ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لِما لا حِكْمَةَ في ذلكَ أنْ يَسْأَلَ نفسَهُ، ثم يُجيبُها.

لكنَّ الوَجْهَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ إنما يقولُ لهمْ ذلكَ إذا بَعَثَهُمْ، وأحياهُمْ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ فيقولُ الخلائقُ لهُ بأجمعِهِمْ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ يُقِرّونَ لهُ جميعاً يومئذٍ بالمُلْكِ والرّبوبيّةِ، وإنْ كانَ بعضَ الخلائقِ في الدنيا قد نازَعُوهُ في المُلْكِ فيها، وادَّعَوا لأنفسِهِمْ. فَيُقِرّونَ لهُ جميعاً يومئذٍ أنَّ المُلْكَ في الدنيا والآخِرَةِ للهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ﴾ أي مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ أي لا تُجزَى غيرَ ما كَسَبَتْ.

ويَحتَمِلُ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ أي لا نُقْصانَ في الحَسَناتِ التي عَمِلوها، ولا زِيادةَ على السَّيِّئاتِ التي اكْتَسَبوها. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قد ذَكَرْنا هذا أيضاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ سَمّى ذلكَ اليومَ يومَ الآزفةِ لِقُرْبِهِ ودُنُوِّهِ منهُ، وعلى ذلكَ سَمّاهُ [﴿لِغَدٍۖ﴾ [الحشر: ١٨]][(٢)] و﴿قَرِيبًا﴾ [الحشر: ١٥] كقولِهِ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فَعَلَى ذلكَ سَمّاهُ ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ لِدُنُوِّهِ وقُرْبِهِ منهمْ. يُقالُ: أزِفَ فلانٌ إلى فلانٍ، أي قَرُبَ، ودنا منهُ.

ومَعْناهُ: أي أنْذِرْهُمْ بما إليهِ مَرْجِعُ عاقِبَتِهِمْ، ومَصيرُهُمْ، لأنَّ أهلَ العقلِ والتَّمْييزِ إنما يَعْمَلونَ، ويَسْعَونَ للعاقبةِ، وما إليهِ تَرْجِعُ أمورُهُمْ، وهو ذلكَ اليومُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ يُخبِرُ عنْ شِدَّةِ حالِهِمْ وفَزَعِهِمْ في ذلكَ اليومِ؛ ليسَ أنْ تَزولَ قلوبُهُمْ عنْ أمكِنَتِها، وتَرْتَفِعَ إلى الحَناجِرِ حقيقةً، ولكنهُ وَصْفٌ لِشِدَّةِ حالِهِمْ في ذلكَ وكَثْرَةِ خوفِهِمْ وفَزَعِهِمْ وضِيقِ صدورِهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي ضاقَتْ صُدورُهُمْ وقلوبُهُمْ بما حَلَّ بهمْ مِنَ الشدائدِ والأهوالِ، ليسَ أنْ صارتِ الأرضُ في الحقيقةِ مُضَيَّقَةً، لا يَسْعَوْنَ فيها، ولكنْ وَصْفٌ لِضيقِ صدورِهِمْ لِعِظَمِ ما نَزَلَ بهمْ. فَكَنَّى بِضيقِ الأرضِ عنْ صدورِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غداً.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ كونِ القلوبِ لَدَى الحناجِرِ كِنايةً عنْ ضِيقِ صدورِهِمْ لِشِدَّةِ حالِهِمْ وعَظيمِ ما حَلَّ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والحَناجِرُ، هي مَواضِعُ الذَّبحِ مِنَ الشاةِ وغيرِها مِنَ الدَّوابِّ، واحِدَتُها[1] حَنجَرَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الكاظِمُ المَغمومُ الذي يَتَرَدَّدُ حُزنُهُ في جَوفِهِ غَيظاً لِما كانَ منهُ في الدنيا.

وقيلَ: الكاظِمُ [الذي][2] لا يَتَكَلَّمُ، قد كُظِمَ مِنَ الخَوفِ، وقيلَ: الذي لا يَفتَحُ فَمَهُ، وهو قريبٌ بعضُهُمْ منْ بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريبٍ، وقيلَ: الحميمُ هو الذي يهتمُّ لِأمرِ صاحِبِهِ، ويَسْعَى في دَفعِ ما نَزَلَ بهِ مِنَ البلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي يُجابُ؛ يَذْكُرُ ألّا يكونَ لهمْ في الآخِرَةِ قريبٌ، يَهتَمّ لأمْرِهِمْ، ولا شفيعٌ يَشفَعُ لهمْ، فَيُجابُ، كما يكونُ في الدنيا، وكذلكَ قولُهُ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا يكونُ لهمْ شُفَعاءُ تَنفَعُهُمْ، وهو ما قالَ ﷻ في آيةٍ أخرَى: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٥٤].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [الخائنةُ][3] والخِيانةُ واحدةٌ، وهي[4] ما قالَ ﷻ: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ١٣] أي خِيانةٍ[5].

وقالَ بعضُهُمْ: هي النَّظْرَةُ بعدَ النَّظْرَةِ؛ أمّا الأُولَى فليسَ فيها شيءٌ، وأمّا الثانيةُ، فَعَلَيهِ مأثَمُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي ما يَتَكَلَّمُ بهِ المَرءُ، ولم يَعمَلْ [بهِ][6] كلُّ ذلكَ يَعلَمُهُ اللهُ تعالى.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هي التي يَنتَظِرُ بها غَفلَةَ الناسِ، إذا غَفَلوا عنهُ، نَظَرَ إلى ما يَهواهُ، ويُحِبُّهُ ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ هو ما ذُكِرَ ﷻ: ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤. والقصص: ٦٩] يَذْكُرُ هذا لِيكونوا أبداً مُراقِبِينَ أنفسَهُمْ حافظينَ لها عمّا لا يَحِلُّ مِنَ السَّمعِ والبَصَرِ والفؤادِ [لِقولِهِ][7]: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ مِنْ ذلكَ وخوفٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي الحُكْمِ بالحقِّ. والقضاءُ ههنا[8] المذكورُ في الكتابِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: يَقضِي، أي يأمُرُ، كقولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وكقولِهِ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] إذا أمَرَ أمراً. يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي يأمُرُ بالحقِّ.

والثاني: القضاءُ الوَحيُ والخَبَرُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] أي أوحَينا إليهِمْ.

فكأنهُ يقولُ: واللهُ يُوحِي بالحقِّ، ويُخبِرُ بهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ لا يَملِكونَ الوَحيَ ولا الخَبَرَ. فكيفَ اختَرتُمْ عبادَتَهُمْ على عبادةِ مِنْ يُوحِي بالحقِّ، ويُخبِرُ بهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: القضاءُ، هو الخَلْقُ والإنشاءُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي خَلَقَهُنَّ فيكونُ قولُهُ على هذا ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ يَخلُقُ ﴿بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ لا يَخلُقونَ شيئاً، وقد يَعلَمونَ استِحقاقَ العِبادةِ إنما تَجوزُ في الخَلْقِ والإنشاءِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وكقولِهِ تعالى/ ٤٧٦ ـ أ/ ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ﴾ [الرعد: ١٦] يقولُ: خَلْقُ مَنْ يَدعونَ مِنْ دونِهِ كَخَلْقِ اللهِ حتى تَشابَهَ ذلكَ عليهِمْ، فَعَبدوهُمْ؛ إذْ يَعلَمونَ أنَّ مَنْ خَلَقَ ليسَ كَمَنْ لم يَخلُقْ، وقد تَعلَمونَ أنها لم تَخلُقْ شيئاً، فكيفَ عَبَدتُموها؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: واحدها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) من م، في الأصل: خائنة. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من م.

ثم قولُ أهلِ التأويلِ: ﴿يَقْضِى بِالْحَقِّ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][1] أي يَحكُمُ بالحقِّ في الدنيا بالآياتِ والحُجَجِ ما عَرَفَ كلُّ أحدٍ أنها حُجَجٌ وآياتٌ وبراهينُ، والحُكْمُ بما ذَكَرْنا حُكْمٌ بالحقِّ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أي يَحكُمُ بالحقِّ في الآخِرَةِ، وهو الشَّفاعَةُ، أي لا يَجعَلُ الشفاعةَ لِمَنْ يَعبُدونَ على رَجاءِ الشفاعةِ كقولِهِمْ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ولكنْ إنما يَجعَلُ لِمَنِ ارتَضى كقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ للمؤمنينَ[2] أي المُجيبُ، و﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعالِهِمْ.

وجائِزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ يقولُ: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لِما يكونُ منهمْ ظاهراً مِنْ قولٍ أو فِعلٍ، و﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بِما أخفَوا في قُلوبِهِمْ، وتُكِنُّ صُدورُهُمْ؛ يُخبِرُ بهذا لِيكونوا أبداً مُراقِبينَ حافِظِينَ أنفسَهُمْ ما ظَهَرَ [منها][3] وما خَفِيَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ هذا يُخرَّجُ على [وجوهٍ:

أحدُها:][4] ما قالَ الحَسَنُ: إنهمْ لو ساروا، فَنَظروا في آثارِ مَنْ كانَ قَبلَهُمْ مِنْ مُكذِّبي الرسُلِ لكانَ لهمْ في ذلكَ زَجْرٌ ومَنْعٌ عنْ مِثْلِ صَنيعِ أولئكَ.

[والثاني: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: هو على الخَبَرِ، أي لو ساروا في الأرضِ، ونَظَروا في آثارِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ، لكنهمْ لم يَنظُروا نَظَرَ اعتِبارٍ أنهُ لِماذا أصابَهُمْ ما أصابَهُمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ: ما][6] قالَ قائلونَ: هو الإيجابُ والإلزامُ، أي سِيروا في الأرضِ، وانظُروا في آثارِ أولئكَ الذينَ كانوا مِنْ قَبلِ هؤلاءِ كقولِهِ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

ولكنْ نقولُ: ليسَ على حقيقةِ السيرِ في الأرضِ بالأقدامِ ولا نَظَرِ العَينِ والبَصَرِ، ولكنهُ أمرٌ منهُ لهمْ بالتَّفكُّرِ والاعتِبارِ في آثارِ مَنْ كانَ قَبلَهُمْ وإلى ماذا صارَتْ عاقبةُ أمرِهِمْ[7] مِنْ صَنيعِ مُكذِّبي الرسُلِ ومُصَدِّقيهِمْ، لِيَنزَجِروا عنْ مِثْلِ صَنيعِ مُكذِّبيهِمْ، ويَرْغَبوا في مِثْلِ صَنيعِ مُصَدِّقيهِمْ[8]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أشَدَّ أعمالاً في الأرضِ.

وليسَ كما يقولُ بعضُ المعتزلةِ، أي إنهمْ كانوا أشدَّ منهمْ قوةً في الخيراتِ.

فإنْ كانَ ما ذَكَروا[9] فذلكَ ليكونَ أصلَحَ لهمْ. وهذا بعيدٌ سَمِجٌ مِنَ القولِ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا أشدَّ منهمْ قوةً في أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يُخبِرُ أنَّ أولئكَ الذينَ كانوا مِنْ قَبلِ هؤلاءِ كانوا أشدَّ مِنْ هؤلاءِ قوةً وأشدَّ آثاراً في الأرضِ. ثم لم تَمنَعْهُمْ شِدَّةُ قوتِهِمْ في أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ وما ذَكَرَ مِنْ آثارِ الأرضِ، ولم يَدفَعوا عنْ أنفسِهِمْ ما نَزَلَ بهمْ مِنْ عذابِ اللهِ.

فأنتمْ يا أهلَ مكةَ دونَهُمْ في البطشِ والقوةِ، فكيفَ تَمنَعونَ عذابَ اللهِ إذا نَزَلَ بكُمْ، واللهُ أعلَمُ أنَّ أولئكَ قد عَبَدوا الأصنامَ رجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ في الآخِرَةِ، وتُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى كما تَعبُدونَ أنتمْ على رَجاءِ الشفاعةِ لكمْ والتَّقَرُّبِ إليهِ؟.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: للمؤمن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أمر. (٨) من م، في الأصل: مكذبهم. (٩) في الأصل وم: ذكر.

ولو كانت عبادتُهم إيّاها طريقَ الشفاعةِ وسَببَ التّقرُّبِ لكانَ يُغنيهِمْ مِنَ عذابِ اللهِ في الدنيا. وهو كما ادَّعَتِ اليهودُ أنهمْ ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ فقالَ ردّاً عليهِمْ بقولِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] أي في الدنيا لو كُنْتُمْ على ما تزْعُمونَ؟ إذْ لا أحدَ يُهلِكُ، ويُعَذِّبُ وَلَدَهُ وحَبيبَهُ في الدنيا. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يقولُ: ذلكَ العذابُ والإهلاكُ الذي نَزَلَ بهمْ لِما كانَتْ أتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ فَكَفروا، وكذَّبوا الآياتِ والأدلَّةَ التي أتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ أنهمْ رُسُلُ اللهِ إليهِمْ، فأصابَهُمْ ما أصابَهُمْ. كذلكَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ إذا كَذَّبْتُمُ الرسولَ بعدما أتاكُمْ بالبيِّناتِ والأدلّةِ على رسالَتِهِ يَنْزِلُ بكُمْ ما نَزَلَ بأولئكَ بالتكذيبِ والعِنادِ وردِّ الآياتِ والأدلّةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يَحتمِلُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بِحُجَجِنا. وذَكَرْنا [أنَّ الآياتِ تَحتَمِلُ السلطانَ، وأنهما][1] واحدٌ، ويَحْتَمِلُ أنهما مُتَغايِرانِ[2].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ لِيُعلِمَ أنهُ كانَ مَبعوثاً إلى الكُلِّ، لم يُبْعَثْ إلى بعضٍ دونَ بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ دلَّ قولُهُمْ: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ على أنَّ موسى ﷺ قد أتاهُمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ ما عَجِزوا عنْ إتيانِ مِثْلِها والمُقابَلَةِ لها. فخافوا أن يَتْبَعَهُ الناسُ لذلكَ. فَمَوَّهوا بقولِهِمْ: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ على سائرِ الناسِ لئلّا يَتَّبِعوهُ في ما يَدْعو لِما عَرَفَ الناسُ أنَّ السحرَ ليسَ يَعرِفُهُ كلُّ أحدٍ، وأنَّ أكثَرَ الناسِ يَعْجَزونَ عنِ السحرِ، وكانوا يَعْرِفونَ أنَّ السحرَ يكونُ كَذِباً. فَمَوَّهوا بذلكَ القولِ أمرَ موسى ﷺ على أتباعِهِمْ، ونَسَبُوهُ إلى الكذبِ مِنْ غيرِ أنْ ظَهَرَ مِنْ موسى كَذِبٌ قطُّ، وقد كانَ لم يَزَلْ مِنْ فِرعونَ تَمْويهٌ وتَلْبيسٌ على قومِهِ مَخافَةَ أنْ يَتَّبِعوهُ لمّا أتاهُمْ مِنَ الحُجَجِ والأدِلّةِ التي ظَهَرَتْ عندَهُمْ أنها حُجَجٌ وأدِلّةٌ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ[3] تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] وقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] قالَ هذا بَعدَما اتَّبَعَهُ السَّحَرَةُ، وآمَنوا بِهِ لِيُمَوِّهَ بذلكَ أمْرَهُمْ على مَنْ يَتَّبِعُ موسى مِنَ الأتباعِ، وقولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣] وغَيرُ ذلكَ مِنَ التَّمويهاتِ التي كانَتْ منهُ.

فَعَلى ذلكَ هذا القولُ منهمْ حينَ[4] قالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ: إنهُ كَذّابٌ لأنهمُ اعْتادوا عِبادةَ الأصنامِ دونَ اللهِ تعالى. فلمّا جاءَ موسى، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، بما يَمْنَعُهُمْ عنْ عِبادةِ ما اعْتادوا مِنَ العَدَدِ، ودَعاهُمْ إلى عِبادةِ الواحِدِ، قالوا: إنهُ كَذّابٌ، وكذلكَ قالَ[5] أهلُ مكةَ عنْ رسولِنا وسيِّدِنا محمدٍ ﷺ: إنهُ ساحرٌ كَذّابٌ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] سَمَّوهُ كَذّاباً لمّا دَعاهُمْ إلى عِبادةِ الواحِدِ، ومَنَعَهُمْ عنْ عِبادةِ ما اعْتادوا مِنَ العَدَدِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي جاءَهُمْ بالتوحيدِ، وقالَ بعضُهُمْ: أي جاءَهُمْ بالرسالةِ، وكانَ غَيرُ هذا أقْرَبَ: أي فلمّا جاءَهُمْ بما يَظْهَرُ عندَهُمْ مِنَ الحُجَجِ أنها آياتٌ وأنها مِنْ عِندِنا جاءَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ أمَروا[6] أتباعَهُمْ أنْ يَقْتُلوا أبناءَ مَنْ آمَنَ منهمْ لِيَنْزَجِروا بذلكَ عنْ مُتابعةِ موسى لمّا رَأَوا[7] أنَّ ما كانَ مِنَ التَّمْويهاتِ والحِيَلِ لم تَمْنَعْهُمْ عنِ اتِّباعِهِ، بل كانوا يَتَّبِعونَهُ، فَأوعَدوهُمْ[8] بِقَتْلِ الأبناءِ كما كانَ [فرعونُ][9] أمَرَ بِقَتْلِ الأبناءِ عندَما قيلَ لهُ: إنَّ ذَهابَ مُلْكِكَ بِوَلَدٍ يُولَدُ، كذا واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه يحتمل أن الآيات والسلطان. (٢) في الأصل وم: غيران. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) أدرج بعدها في الأصل وم: إنه وكذا. (٦) في الأصل وم: أمر. (٧) في الأصل وم: رأى. (٨) في الأصل وم: فأوعدهم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ لا شكَّ أنَّ كَيْدَهُمْ في الآخرةِ في ضلالٍ، ولكنْ أرادَ كانَ كَيْدُهُمْ في الدنيا ظَهَرَ أنهُ ضلالٌ حينَ[١] لم يَمْنَعْهُمْ [كَيْدُهُمْ وحِيَلُهُمْ وتَمويهاتُهُمْ][٢] عنِ اتِّباعِ موسى ﷺ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾/ ٤٧٦ ـ ب/ قالَ هذا لمّا رأى أنهُ لم يَمْنَعْهُمْ عنِ اتِّباعِ موسى ما ذَكَرَ مِنْ قَتْلِ الأبناءِ. قالَ عندَ ذلكَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [ثم يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾][٣] وجوهاً:

أحدُها: يَحتمِلُ أنهُ هَمَّ فرعونُ أنْ يَقْتُلَ موسى ﷺ فَمَنَعَهُ قومُهُ أوِ المَلأُ مِنْ قومِهِ عنْ قَتْلِهِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

والثاني: يَحتمِلُ أنهُ قالَ مُبتدِئاً مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهمْ مَنْعٌ لهُ عنْ قَتْلِهِ، وهو كما قالَ ربُّنا ﷻ لِرسولِهِ ﷺ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] مِنْ غيرِ أنْ كانَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ مَنْعٌ لهُ عنْ ذلكَ. وهذا في كلامِ العربِ موجودٌ سائغُ التَّكَلُّمِ بهِ على الابتداءِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ مِنْ أحدٍ مَنْعٌ عمّا يريدونَ أنْ يَفْعلوا، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يَحتمِلُ ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي ذَروني ولائِمَتي[٤] في قَتْلِ موسى، أي لا تَلوموني إذا أنا قَتَلْتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ كانَ ذلكَ مِنْ فِرعونَ؛ يقولُ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ يَمْنَعْني عنْ قَتْلِهِ إنْ كانَ صادقاً في ما يَدَّعي مِنَ الرسالةِ لأنَّ مَنْ أرسلَ رسولاً، فَهَمَّ أحدٌ قَتْلَهُ أو الضَّرَرَ بهِ مَنَعَهُ المُرْسِلُ عنْ ذلكَ فَعَلى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يكونُ ذلكَ أمْراً مِنَ اللهِ ﷻ موسى بالدعاءِ على فرعونَ بالهلاكِ لمّا هَمَّ قَتْلَهُ. وعلى ذلكَ الرسُلُ ﷺ قد أذِنَ لهمْ بالدعاءِ على فَراعِنَتِهِمْ ومُعانِدِيهِمْ ومُكابِرِيهِمْ إذا بَلَغوا في العِنادِ غايَتَهُ[٥] والتَّمَرُّدِ نِهايَتَهُ[٦]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ قد كانَ هناكَ تبديلُ الدينِ، فإنهُ قد أظْهَرَ موسى ﷺ دينَ الحقِّ، وآمَنَ [كثيرٌ][٧] مِنْ أتباعِهِ. لكنْ كأنهُ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، بقولِهِ: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي يَذْهَبَ بدينِكُمْ مِنَ الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ذَكَرَ اللعينَ [وقد][٨] سَمّى إظهارَ التوحيدِ في الأرضِ ودينَ الإسلامِ فساداً لِيُعْلِمَ أنَّ كلَّ مُدَّعٍ شيئاً، وإنْ كانَ مُبْطِلاً في دعواهُ؛ فعندَهُ أنهُ على حقٍّ، وأنَّ خَصْمَهُ [على الباطلِ][٩] فلا يُقْبَلُ قولُ أحدٍ إلّا ببرهانٍ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتمِلُ أنَّ فرعونَ اللعينَ أرادَ بقولِهِ: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ قَتْلَ أبنائِهِمْ أي يَقْتُلَ موسى أبناءَكُمْ مُجازاةً لِما قَتَلْتُمْ أنتمْ أبناءَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ على الرسُلِ، لا يؤمِنُ بما يَدعوهُ الرسولُ إلى الإيمانِ بيومِ الحسابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في الظاهرِ، وإلّا لم يكُنْ في الحقيقةِ مِنْ آلِهِ، وإنما مِنْ آلِ موسى وأتباعِهِ حينَ[١٠] آمَنَ بهِ، وتَرَكَ اتِّباعَ فرعونَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: مِنْ آلِهِ أي مِنْ نَسَبِهِ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ كانَ ابْنَ عمِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ إشفاقاً على نفسِهِ، ولا يُظْهِرُ المُوافقةَ لهمْ على ما هُمْ فيهِ، إذْ قَدَرَ على الكِتْمانِ دونَ إظهارِ الموافَقَةِ لهمْ. وعلى ذلكَ المُكْرَهُ على إظهارِ الكُفْرِ إذا قَدَرَ على ألّا يُظْهِرَ ما أُريدَ منهُ مِنْ كلمةِ الكُفْرِ، ولا يَقْبَلُ الامْتِناعَ، لا يَسَعُ لهُ إظهارُ ذلكَ لهمْ. فإنْ لم يَقْدِرْ فحينئذٍ يَسَعُ. فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كيده وحيله وتمويهاته. (٣) في الأصل وم: له. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: غايتهم. (٦) في الأصل وم: نهايتهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: باطل. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فيهِ إخبارٌ أنهُ كانَ يكتُمُ إيمانَهُ إشفاقاً على نفسِهِ، فلمّا خافَ إهلاكَ رسولِ اللهِ موسى ﷺ، فعندَ ذلكَ أظهَرَ ما كانَ يَكتُمُهُ، وإنْ كانَ في إظهارِ ذلكَ إهلاكُ نفسِهِ بعد أنْ يَرْجُوَ نَجاةَ نَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ ﷺ.

وهكذا يجب ألّا يَسَعَ كتمانُ ما كانَ يَكتُمُهُ، وإنْ كانَ في إظهارِ ذلكَ [هلاكُ نفسِهِ ونجاةُ][1] رسولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ تعالى ﷺ بِحُجَجٍ تَدفَعُ الهلاكَ بها عنْ نفسِ ذلكَ الرسولِ.

ولِذلكَ ذُكِرَ عنْ أبي بَكرٍ الصديقِ ﷺ أنَّ أهلَ مكةَ لمّا هَمّوا قَتْلَ رسولِ اللهِ ﷺ وإهلاكَهُ ألْقى أبو بكْرٍ ﷺ نفسَهُ عليهِ، وقالَ ما قالَ.

[وذُكِرَ أنهُ][2] ذلكَ الرجلُ الذي كانَ يَكتُمُ إيمانَهُ حينَ[3] قالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فعندَ ذلكَ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ على رسولِ اللهِ ﷺ ولم يكُنْ نَزَلَ قَبلَ ذلكَ [آيةٌ فيهِ][4] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي جاءَكُمْ مِنَ البَيِّناتِ ما يُبَيِّنُ أنها آياتٌ مِنْ عندِ اللهِ، لا اختِراعاتٌ[5] مِنْ موسى ﷺ ويُبَيِّنُ أنهُ صادقٌ في ما يقولُ، ويَدَّعي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي وإنْ كانَ كاذباً في ما يَدعوكُمْ إليهِ فَعَليهِ كَذِبُهُ، وإنْ كانَ صادقاً في ما يقولُ، ويَدَّعي ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فهو يَعْلَمُ أنهُ صادقٌ في ما يقولُ حقيقةً.

[ولكنْ لمّا][6] كانَ عندَ القومِ احتِمالُ الأمرِ ذُكِرَ على [ما][7] في زَعْمِهِمْ دَفْعاً للقَتْلِ عنْ موسى ﷺ.

ثم الإشكالُ أنهُ قالَ: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ذَكَرَ أنهُ يصيبُهُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُ الرسلُ؛ إذا وَعَدوا شيئاً يُصيبُهُمْ بكمالِهِ. لا يجوزُ أنْ يكونَ خلافَ ما أخبَروا أو دونَ ما ذَكَروا. لكنْ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ كانَ وعدُهُ إيّاهُمْ أنْ يُصيبَهُمُ العذابُ في الدنيا والآخِرَةِ، فيقولُ: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهو ما وَعَدَ لهمْ أنْ يُصيبَهُمْ في الدنيا. وأمّا ما[8] وَعَدَ لهمْ في الآخِرَةِ [فهو][9] يُصيبُهُمْ في وقتٍ آخَرَ، وهو في الآخِرَةِ.

فما أصابَهُمْ في الدنيا فهو ما جَرى الوَعيدُ منهُ لهمْ، لأنَّ الوَعيدَ كانَ منهُ في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحتَمِلُ أنهُ كانَ ﷺ وَعَدَهُمْ بأنواعٍ مِنَ العذابِ، وقد أصابَهُمْ بَعْضُ ذلكَ مِنَ الطوفانِ والجرادِ والقمّلِ والضفادِعِ والدمِ ونَحْوِ ذلكَ. وفي بَعْضِ ما وَعَدَهُمْ، هو هلاكُهُمْ. فكأنهُ يقولُ لهمْ: إنكمْ[10] قد أصابَكُمْ [كثيرٌ][11] مِنْ ذلكَ، فَيُصيبُكُمْ بَعْضُ[12] ما يَعِدُكُمُ الذي فيهِ هلاكُكُمْ مُبالَغَةً في الزجرِ لِما أصابَهُمْ ما وَعَدَ لهمْ مِنْ أنواعِ العذابِ، ولم يكُنْ وَعْدُهُ كَذِباً، فَبَعْضُ ما وَعَدَكُمْ، وهو الهلاكُ، كيفَ يكونُ كَذِباً؟ واللهُ أعلَمُ والموفِّقُ.

والثالثُ: يُرادُ بالبَعْضِ الكُلُّ، لأنهُ أرادَ بهذا البَعْضِ الهلاكَ، وهو البعضُ الأقصى، فيدخُلُ العالي فيهِ لأنهُ إذا أوعَدَ بأنواعٍ مِنَ العذابِ، منها الهلاكُ، وهو[13] البَعْضُ الأقصى، إذْ لا عذابَ في الدنيا بعدَ الهلاكِ، فيكونُ سائرُ أنواعِ العذابِ في الدنيا[14]، قبلَ الهلاكِ. فإذا أُريدَ بهِ هذا البَعْضُ يَدْخُلُ فيهِ ما قَبْلَهُ، ويكونُ ذِكْرُهُ ذِكْرَ الكُلِّ؛ إذْ لا وجودَ لهُ بدونِ سائرِها. لِذلكَ قالَ: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ لا يَهْدي مَنْ هو في عِلْمِهِ أنهُ يُؤثِرُ الإسرافَ والكَذِبَ.

---

(١) في الأصل وم: نجاة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: اختراعا. (٦) من م، في الأصل: لكن ولما. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: من. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إنهم. (١١) في م: كثيراً، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: بعد. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: يكون.

والثاني: لا يَهْدِي مَنْ هو مُختارُ الإسراف والكذبَ وقتَ اختيارِهِ[1] الإسرافَ والكَذِبَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ ذلكَ [بعدَ][2] ما سألوهُ أنْ يَتَّبِعَ دينَهُمْ وما هُمْ فيهِ: إني لو اتَّبَعْتُكُمْ، وأجَبْتُكُمْ، ومَعكُمُ المُلْكُ والحَشَمُ والغَلَبَةُ، وليسَ معي ذلكَ. فإذا جاءَ بأسُ اللهِ وعذابُهُ، فَصِرْتُمْ انتمْ مُمْتَنِعينَ/ ٤٧٧ ـ أ/ عنهُ بما مَعَكُمْ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ بأمْرِهِ [مِنْ][3] عذابِ اللهِ؟

وليسَ معناهُ ذلكَ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ حقيقةً أنَّ ما مَعَهُمْ مِنَ الغَلَبَةِ لا يَمْنَعُ مِنْ عذابِ اللهِ. لكنْ قالَ ذلكَ بِناءً على اعْتِقادِهِمْ إظهاراً للعذابِ عندَهُمْ كيلا يُقْدِموا على قتلِهِ لِصيانةِ حياتِهِ. ومِثْلُ هذا لا بأسَ [بهِ][4] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ على الرِّفْقِ بهِمْ وإظهارِ المُوافقةِ لهمْ في الظاهرِ؛ يقولُ: إنهُ قد جاءَنا مِنَ اللهِ [مِنَ][5] البيِّناتُ ما أوضَحَ الحَقَّ، وبَيَّنَ السَّبيلَ. فإذا رَدَدْنا ذلكَ، وكَذَّبْناهُ[6] جاءَنا بأسُ اللهِ جُمْلَةً وعذابُهُ. فَمَنْ يَمْنَعُنا عنهُ، ويَنْصُرُنا مِنْ عذابِهِ إذا خالَفْنا أمْرَهُ، وتَرَكْنا اتِّباعَ دينِهِ؟ على هذينِ القولَينِ يُخَرَّجُ القولُ فيهِ[7]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ما آمُرُكُمْ إلّا بما رأيتُهُ لنفسي.

وقالَ بعضُهُمْ: ما أختارُ لكمْ إلّا لنفسي ذلكَ. لكنَّ اللعينَ لَنْ يَختارَ لنفسِهِ لأنَّ ما اختارَ لنفسِهِ باطلٌ فاسدٌ، وكَذَبَ اللعينُ أيضاً حينَ[8] قالَ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ما أختارُ لكُمْ إلّا ما أختارُ لنفسي لأنهُ اختارَ لهمْ أنْ يَعْبُدوهُ، ولم يَخْتَرْ لنفسِهِ عبادةَ أولئكَ: أنْ يَعْبُدَهُمْ، فهو كَذِبٌ مِنَ القولِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ بل كانَ يَهْديهِمْ سَبيلَ الغَيِّ.

الآيتان ٣٠ و٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ كأنَّ فيهِ إضماراً؛ يقولُ: إني أخافُ عليكُمْ مِثْلَ يومِ الأحزابِ ويوماً مِثْلَ يومِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ. فهو، واللهُ أعلَمُ، صلةُ قولِهِ في ما تَقَدَّمَ: يا قومِ لكُمُ المُلْكُ اليومَ ظاهرينَ في الأرضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بأسِ اللهِ إنْ جاءَنا؟ وعَظَهُمْ مَرَّةً، واحْتَجَّ عليهِمْ بما جاءَهُمْ موسى بالبيِّناتِ حينَ[9] قالَ: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ وتتركونَ اتِّباعَهُ، وتَتَّبِعونَ رجلاً لم يأتِكُمْ بالبيِّناتِ؟

هذا منهُ احْتِجاجٌ عليهِمْ: أنْ كيفَ تَقْتُلونَ رجلاً، وتتركونَ اتِّباعَهُ بعد ما جاءَكُمْ بالبيِّناتِ مِنْ ربِّكُمْ، وتَتَّبِعونَ مَنْ لا بيِّنَةَ معهُ ولا برهانَ؟ يُسَفِّهُهُمْ في صَنيعِهِمُ الذي أرادوا أنْ يَصْنَعوا بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ووَعَظَهُمْ أيضاً وَعْظاً لَطيفاً، فيهِ رِفْقٌ حينَ[10] قالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ إنْ قَتَلْتُمْ ذلكَ الرجلَ بَعدَ ما جاءَكُمْ بالبيِّناتِ، وتَرَكْتُمُ اتِّباعَهُ، فجاءَكُمْ عذابُ اللهِ، فَمَنْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ ذلكَ العذابِ؟ ويَمْنَعُكُمْ[11] عنهُ إذا قَتَلْتُمْ نَبيَّهُ بِغَيرِ حقٍّ؟

ثم وعَظَهُمْ وَعْظاً بما نَزَلَ بِمُكَذِّبي مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الرسلِ حينَ[12] قالَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ يقولُ: إني أخافُ عليكُمْ أنْ يَنْزِلَ بكُمْ، ويَقَعَ عليكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ بِتَكذيبِكُمُ الرسولَ موسى ﷺ وتَرْكِكُمُ اتِّباعَهُ بعدَ ما جاءَكُمْ بالبيِّناتِ أنهُ رسولٌ، وأنهُ صادقٌ في ما يقولُ، ويَدْعو، كما نَزَلَ، ووَقَعَ مِنَ العذابِ بالأحزابِ الذين كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ بتكذيبِهِمُ الرسلَ واسْتِقْبالِهِمْ إيّاهُمْ بما اسْتَقْبَلوا بعدَ ظهورِ صِدْقِهِمْ عندَهمْ بما تَسْتَقْبِلونَ أنتمْ رسولَكُمْ موسى بعدَ ما ظَهَرَ صدقُهُ عندَكُمْ بالبيِّناتِ التي جاءَكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: اختيارهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وكذبناهم. (٧) في الأصل وم: منه. (٨) و(٩) و(١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من م، في الأصل: ويمنعهم. (١٢) في الأصل وم: حيث.

ثم ما ذَكَرَ مِنَ الأحزابِ فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تفسيرُهُ ما ذَكَرَ على إِثْرِهِ مِنْ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ. ويَحْتَمِلُ سؤالَهُمْ مِنَ الأممِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي مِثْلُ صَنيعِ قومِ نوحٍ ومَنْ ذَكَرَ وفِعْلِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي مِثْلَ عذابِ قومِ نوحٍ ومَنْ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ في هذهِ الآيةِ للمعتزلةِ نوعُ تَعَلُّقٍ؛ يقولونَ، إنَّ اللهَ تعالى قد أرادَ مِنَ العبادِ [أنْ يَفْعلوا][1] ما يَفْعلونَ مِنْ أفعالِ الظُّلْمِ والجَورِ، وقد أخبَرَ اللهُ تعالى أنهُ لا يريدُ ظُلْماً للعبادِ.

ولكنَّ الآيةَ في التحقيقِ عليهِمْ لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] أخبَرَ أنهُ أرادَ ألّا يَجْعَلَ لهمْ حظّاً في الآخِرَةِ، ولولم يُرِدْ منهمْ ما يَسْتَوجِبونَ بِهِ العذابَ، كانَ في تعذيبِهِ[2] إيّاهمْ ظالماً على زعمِهِمْ. دلَّ أنهُ أرادَ بهمْ ما يَسْتَوجِبونَ بِهِ العذابَ، وهو فِعْلُ الظلمِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم تأويلُ الآيةِ يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الإرادةَ، هي صفةُ كلِّ فاعلٍ يَفْعَلُ عنِ اختيارٍ. فكأنهُ قالَ: واللهُ لا يَظْلِمُ عِبادَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

والثاني: فيهِ إخبارٌ أنهُ لا يعاقبُ أحداً بذنبِ غَيرِهِ، ولا يؤاخِذُهُ بجريمةِ غَيرِهِ، ولا يزيدُ على قَدْرِ ما يَسْتَحِقّونَ بِهِ العذابَ، ولا يَنْقُصُهُمْ مِنْ ثوابِ حسناتِهِمْ شيئاً كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها إخبارٌ أنهُ لا يَجْزيهِمْ بأكثَرَ ممّا يَسْتَوجِبونَ، ليسَ على ظَنِّ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٢ و٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ الآية. وَعَظَهُمْ[3] أيضاً بعذابِ الآخرةِ وما يكونُ منهمْ مِنَ الندامةِ بِتَرْكِهِمْ اتّباعَ الرسولِ بعدَ ما وَعَظَهُمْ، وبعذابِ[4] الدنيا وما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ بِصَنيعِهِمْ مِثْلَ صنيعِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ الآية.

ثم قولُهُ: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ فيهِ ثلاثُ لُغاتٍ: إحداها: يومَ التّنادي أي بالياءِ، والثانيةُ بالتَّخفيفِ على حَذْفِ الياءِ [التّنادِ][5] والثالثة: بالتّشديدِ [التّنادّ][6].

فَمَنْ قَرَأها بالتشديدِ[7] فيقولُ: هو من نَدَّ يَنِدُّ نَدّاً إذا مَضى [هائماً على][8] وجهِهِ هارباً فارّاً مِنَ عذابِ اللهِ، إذا عايَنَ العذابَ، وهو مِنْ نَدَّ الإبِلُ وغَيرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ومَنْ قَرَأ بالياءِ، فهو التَّفاعُلُ مِنَ النداءِ، فهو على نداءِ بعضِهِمْ بعضاً يومَ القيامةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ النَّارِ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ونَحْوَهُ.

ومَنْ قَرَأ بِغَيرِ الياءِ فقد حَذَفَ الياءَ كقولِهِ: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] وأصْلُهُ: التّنادِي، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يومَ تُوَلّونَ هاربينَ مِنَ النارِ مُدْبِرينَ عنها كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ما لكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ إذا نَزَلَ بكُمْ مِنْ مانعٍ يَمْنَعُكُمْ مِنْ عذابِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تعذيبهم. (٣) في الأصل وم: وعظيم. (٤) من م، في الأصل: وعذاب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر مختصر في شواذ القرآن ص ١٣٢ والجامع لأحكام القرآن ح١٥/ ٢٩٧. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي جاءَكُمْ يوسفُ مِنْ قَبْلِ موسى ﷺ بالبَيِّناتِ أي بالآياتِ والأدلَّةِ على رسالتِهِ وصِدْقِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا قولُ ذلكَ الرجلِ لقومِهِ؛ يُخْبِرُهُمْ عنْ سَفَهِ أوائِلِهِمْ مِنْ تكذيبِهِمْ يوسفَ بأرضِ مصرَ قَبْلَ موسى، وما كانَ منَ القولِ منهمْ بَعدَ ما ذَهبَ مِنْ بَيْنِهِمْ وردِّهِم آياتِهِ وحُجَجَهُ التي أتاهُمْ بها، وما أخْبَرَ أنهمْ وأوائلَهُمْ لم يَزالوا في شَكٍّ وريبٍ ممّا جاءَتْهُمُ الرسلُ مِنَ الآياتِ والأدلَّةِ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يقولُ: /٤٧٧ ـ ب/ لم تَزَلْ عادتُكُمْ وعادةُ أوئِلِكُمْ هذهِ[1].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ، وإنْ خاطَبَهُمْ بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وقولِهِ: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم﴾ وقولِهِ: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ إنما أرادَ آباءَهُمْ وأوائلَهُمْ لأنَّ يوسفَ ﷺ لم يكُنْ في زَمَنِ هؤلاءِ مَبعوثاً إليهِمْ على ما عاتَبَ الأبناءَ بِصُنْعِ آبائِهِمْ في غيرِ آيةٍ[2] منَ القرآنِ كقولِهِ ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١] وقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٢] وهؤلاءِ لم يَقْتُلوا الأنبياءَ، ولا اتَّخذوا العجلَ، وإنما فَعَلَ ذلكَ آباؤهُمْ وأوائلُهُمْ. ثم جاءَ العِتابُ لهمْ بسوءِ صنيعِ آبائِهِمْ وأوائِلِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

وجائزٌ أنْ يكونَ، وإنْ خاطَبَهُمْ بما ذَكَرَ مِنْ سوءِ الصنيعِ والتكذيبِ إنما يُخْبِرُ عنْ صنيعِ آبائِهِمْ وأوائِلِهِمْ، فَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ مِثْلِ صَنيعِ أولئكَ مِنَ التكذيبِ لهمْ والرَّدِّ لأدِلَّتِهِمْ والقولِ بعدَ ذَهابِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ والكذبِ على اللهِ أنهُ لم يَبْعَثْ رسولاً.

يقولُ: إيّاكُمْ أنْ تُكَذِّبوهُ، وتَرُدُّوا آياتِهِ وحُجَجَهُ، ثم تقولوا: إذا ماتَ موسى لنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رسولاً كما قالَ أوائِلُكُمْ: إذا ماتَ يوسفُ لم يكنْ مِنْ بعدِهِ رسولٌ[3] بقولِهِمْ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ يُشْبِهُ أنْ تُخَرَّجَ الآيةُ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ فقد ذَكَرْنا تأويلَهُ مِنْ وجهَينِ في ما تَقَدَّمَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: آمنوا بِهِ، وأنكَروا رسالةَ غَيرِهِ بَعدَ رسولِهِمْ: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾.

والثاني: أي أنكَروا رسالتَهُ في حالِ حياتِهِ، ولم يُؤمِنوا بهِ. فإذا هَلَكَ أنكَروا أنْ يكونَ هو مَبْعوثاً إليهِمْ رسولاً، فَيُحَذِّرُ أولئكَ ألّا يكونوا كأولئكَ آمَنوا بهِ، وأنكَروا رسالةَ غَيرِهِ مِنَ الرسُلِ بعدَهُ، أو يقولُ: لا تكونوا كأولئكَ يُكَذِّبونَهُ ما دامَ حيّاً، فإذا هَلَكَ يُكَذِّبونَ رسالتَهُ، يُحَذِّرُهُمْ [مِنْ][4] سَفَهِ أوائِلِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي يُجادِلونَ في دَفْعِ آياتِ اللهِ وردِّها بِغَيرِ حُجَّةٍ وسُلْطانٍ أتاهُمْ مِنَ اللهِ أو بِغَيرِ حَجَّةٍ مَكَّن لهمُ الاحتِجاجَ بها، وإلّا كانَ أهلُ الإيمانِ قد يُجادِلونَ فيها حتى إذا ظَهَرَتْ أنها آياتٌ آمَنوا بها، وأقَرُّوا بها.

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا: أي جادَلوا في دَفْعِ آياتِ اللهِ ورَدِّها بِغَيرِ حُجَّةٍ أتاهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هكذا الواجبُ على أهلِ الإيمانِ أنْ يَمْقُتوا مِنَ الأعمالِ ما مَقَتَها اللهُ تعالى، أو يَمْقُتوا مَنْ مَقَتَهُ اللهُ مِنْ أعدائِهِ. وعلى ذلكَ ذُكِرَ أنَّ خَيرَ أعمالِكُمْ حُبُّ ما أحبَّهُ وبُغْضُ ما أبْغَضَهُ اللهُ، أو كلامٌ نَحْوُهُ، وشَرُّ أعمالِكُمْ حُبُّ ما أبْغَضَهُ وبُغْضُ ما أحَبَّهُ اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي هكذا يَطْبَعُ اللهُ على كلِّ قَلْبِ مَنْ جادَلَ في دَفْعِ آياتِ اللهِ وردِّها بِغَيرِ حُجَّةٍ، أي يَطْبَعُ على كلِّ مَنْ تَعَوَّدَ التَّكَبُّرَ والتَّجَبُّرَ على الآياتِ والرسلِ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: هذا. (٢) في الأصل وم: آي. (٣) في الأصل وم: رسولا. (٤) ساقطة من الأصل وم.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ مَنْ هو كذا، و﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [ونَحوُهُ كلُّ][1] حروفِ الاعْتِلالِ بَيَّنَ اللهُ تعالى العِلَلَ التي لها لا يَهْديهِمْ، ويُضِلُّهُمْ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨] [وقولِهِ][2] ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ ونَحوِهِ. أي لا يَهْدي مَنْ كانَ طَبْعُهُ وعادَتُهُ الإسرافَ والكَذِبَ وكُفرانَ النِّعَمِ ودَفْعَ الآياتِ والحُجَجِ بلا حُجَّةٍ وبرهانٍ.

فأمّا مَنْ كانَ طَبْعُهُ وعادَتُهُ غيرَ هذا، لكنْ لِجَهْلٍ جَهِلَ ذلكَ، أو لِما يَتَحقَّقُ عندَهُ لِظَنِّهِ وقِلَّةِ التأمُّلِ ولاشْتِغالِهِ بأمورِ الدنيا، أو لِمَعْنىً مِنَ المعاني، يجوزُ أنْ يَهْدِيَهُ اللهُ تعالى، ويُرْشِدَهُ. على هذا تُخَرَّجُ هذهِ الآياتُ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ ما كانَ مِنْ فِرْعَونَ اللعينِ مِنَ التَّمْويهاتِ والتَّلْبيساتِ على أتباعِهِ في أمرِ موسى ﷺ بعدَ مَعْرِفَتِهِ أنَّ ذلكَ ليسَ لِقَدْحٍ في الآياتِ والحُجَجِ التي أتاهمْ موسى ﷺ [ولكنْ][3] أرادَ أنْ يُمَوِّهَ، ويُلْبِسَ على قومِهِ. فكلُّ مَنْ كانَتْ عادَتُهُ وطَبيعَتُهُ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّمْويهِ والتَّلْبيسِ والمُجادلةِ في دفعِ الآياتِ بلا حُجَّةٍ والتَّكبُّرِ عليها، فلا يَهديهِ اللهُ تعالى، ويَطْبَعُ على قَلْبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٦ و٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ الْأَسْبَٰبَ﴾ ﴿أَسْبَٰبَ السَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ لِلْمُشَبِّهَةِ تَعَلُّقٌ بِظاهرِ هذهِ الآيةِ، يقولونَ: لولا أنَّ موسى ﷺ كانَ ذَكَرَ، وأخبَرَ فرعونَ أنَّ الإلهَ في السماءِ، وإلّا لَمَا أمَرَ فرعونُ هامانَ أنْ يَبْنِيَ لهُ ما يَصْعَدُ بِهِ إلى السماءِ، ويَطَّلِعُ إلى إلهِ موسى على ما قالَ تعالى خَبَراً عنِ اللعينِ.

لكنا نقولُ: لا حُجَّةَ لهمْ، فإنهُ جائزٌ أنْ يكونَ هذا مِنْ بعضِ التَّمْويهاتِ التي كانَتْ منهُ على قومِهِ في أمرِ موسى ﷺ ومِنْ بَعْضِ مَكايِدِهِ التي كانَتْ منهُ بهِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤] وقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١ والشعراء: ٤٩] وقولِهِ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] ونَحْوِ ذلكَ مِنَ التَّمْويهاتِ التي كانَتْ منهُ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿ابْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ الْأَسْبَٰبَ﴾ ﴿أَسْبَٰبَ السَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ تَمْويهٌ منهُ على قومِهِ بموسى. يقولُ: إنَّ موسى إنما يدعو إلى إلهٍ في السماءِ، فهو نَحْوُ إلهٍ، يكونُ في الأرضِ؛ يُمَوِّهُ على الناسِ أمْرَ موسى مِنْ غَيرِ أنْ كانَ مِنْ موسى ذِكْرٌ، أو خَبَرٌ أنَّ اللهَ تعالى في السماءِ على ما كانَتْ منهُ سائرُ التَّمْويهاتِ، وإنْ لم يَكُنْ مِنْ موسى ذِكْرُ تلكَ التَّمْويهاتِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنَّ فرعونَ قالَ ذلكَ لمّا رَأى أنَّ البَرَكاتِ والخَيراتِ تَنْزِلُ مِنَ السماءِ، فَظَنَّ أنهُ في السماءِ.

ثم اخْتُلِفَ في الأسبابِ: قالَ بعضُهُمْ: أسبابُ السمواتِ أبوابُها، وتَحْتَمِلُ أسبابُ السمواتِ، هي الطُّرُقُ التي تَصْعَدُ إلى السماءِ. وحقيقةُ الأسبابِ هي ما يُوصَلُ بها إلى الأشياءِ[4]، يُقْصَدُ إليها. وقد عَلِمَ[5] اللَّعينُ أنهُ لا يَصِلُ إلى ذلكَ بما[6] ذَكَرَ مِنْ بناءِ الصَّرْحِ. لكنهُ أرادَ بذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّمْويهاتِ والتَّلْبيسِ على قومِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ قالَ ههنا: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ بَعدَ ما قَطَعَ القولَ فيهِ: إنهُ كاذبٌ، وإنهُ كذّابٌ لِيُعْلَمَ أنهُ كانَ على حقٍّ، وأنهُ صادقٌ. ولكنهُ يمَوِّهُ بذلكَ على قومِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي زَيَّنَ لهُ الشيطانُ سوءَ عَمَلِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُقالَ: زَيَّنَ لهُ بالأتباعِ وكثرةِ الأموالِ والحَشَمِ؛ الذي أعطى لهُ، زَيَّنَ لهُ سوءَ عَمَلِهِ بالأسبابِ التي أُعْطِيَتْ لهُ، فيكونُ اللهُ تعالى مُزَيِّناً لهُ سوءَ عَمَلِهِ بإعطاءِ الأسبابِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي خَلَقَ في طَبعِهِ أنْ يَرى ذلكَ حَسَناً مُزَيَّناً، وإنْ كانَ قبيحاً في نفسِهِ حقيقةً على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

---

(١) في الأصل وم: ونحو كله. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: الأسباب. (٥) أدرج بعدها في الأصل: إنما ذكر. (٦) في الأصل وم: بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقُرِئ: وَصَدَّ بالفتحِ[1]. فَمَنْ قَرَأَ بالفتحِ فَلَهُ مَعْنَيانِ:

أحدُهما: صَدَّ هو بنفسِهِ صُدوداً. والثاني: صَدَّ هو الناسَ عنْ سَبيلِهِ صَدًّا.

ومَنْ قَرَأَ: ﴿وَصُدَّ﴾ بالضَّمِّ أي [لم][2] يُوَفَّقْ، ولم يُرْشَدْ، لما عُلِمَ منهُ اختيارُ ضِدِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي في خسارٍ. التَّبابُ الخَسارُ؛ يُقالُ في قولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خَسِرَتْ، ويُقالُ: تَبًّا لهُ، أي هلاكاً /٤٧٨ ـ أ/ لهُ، وقيلَ: تَبَّتْ يدا الرجلِ، أي خابَتْ.

الآية ٣٨ ثم أخبرَ عمَّا ذُكِرَ، وَوَعَظَ ذلكَ الرجلُ[3]، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي أُبَيِّنْ لكمْ سبيلَ الرشادِ.

مَرَّةً خَوَّفَهُمْ بما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ بتكذيبِ الرسلِ وتركِ أتباعِهِمْ، ومَرَّةً بَيَّنَ سَفَهَهُمْ في أنفسِهِمْ بسوءِ صَنيعِهِمْ، ومَرَّةً وَعَظَهُمْ، ونَصَحَهُمْ، ودعاهُمْ إلى اتِّباعِهِ لِيُبَيِّنَ لهمْ سَبيلَ الرشادِ، ويَهْدِيَهُمْ إليهِ. وما[4] خافَ على نفسِهِ الهلاكَ بَعْدَ ما أظْهَرَ الإيمانَ، ولم يُبالِ هلاكَ نفسِهِ.

وقالَ الكسائيُّ: الرشادُ والرُّشْدُ والرَّشَدُ ثلاثُ لغاتٍ، ولا يُقْرَأُ ههنا غيرُ الرشادِ.

الآية ٣٩ ثم قالَ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي مَتاعٌ ومنفعةٌ، يَبْلُغُ إلى مُنْتَهَى آجالِكُمْ؛ يَبْلُغُ بهِ العاصي والمطيعُ إلى أجلِهِ. يُخْبِرُ أنها على الانْقِضاءِ والذهابِ عنْ قريبٍ، ويُخْبِرُ أنَّ دارَ الآخِرَةِ، هي دارُ القرارِ ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي تَقِرُّ بأهلِها؛ إنْ كانَ أهلُها أهلَ خيرٍ قَرَّتْ بهمْ خيراً أبداً، لا يزولُ، وإنْ كانَ أهلُها أهلَ شَرٍّ يَقِرُّ بِهِمُ الشَّرُّ أبَدَ الآبدينَ.

الآية ٤٠ ثم أخبرَ عنْ عَدْلِ اللهِ تعالى في أعدائِهِ وفَضْلِهِ في أوليائِهِ حينَ[5] قالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي يَجْزي[6]، ولا يَزيدُ لهمْ على مِثْلِ جِنايَتِهِمْ، لأنَّ المِثْلَ هو العَدْلُ في جميعِ الأشياءِ؛ يُخْبِرُ ألَّا يَزيدَ على قَدْرِ عقوبةِ عَمَلِهِمْ، ولكنْ يَجْزيهِمْ بِمِثْلِهِ.

وأمَّا جزاءُ الحسنةِ فإنَّهُ يزيدُ لهمْ على قَدْرِ ما يَسْتَوجِبونَ فَضْلاً وإحساناً: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

ثم فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ في النارِ أبداً. لو كانَ على ما ذكروا كانَ في ذلكَ تَسْوِيَةٌ بينَ صاحبِ الكبيرةِ وبَيْنَ صاحبِ الشِّرْكِ، فأمَّا أنْ يكونَ نُقصاناً لِصاحبِ الشِّرْكِ عنْ مِثْلِ عقوبَتِهِ أو زيادةً لِصاحبِ الكبيرةِ، وقد أخبرَ أنهُ لا يُجْزَى إلَّا مِثْلَها، فذلكَ خلافُ ظاهرِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ دلَّ هذا على أنَّ العَمَلَ الصالحَ لا يَنْفَعُ، ولا يُجْزى بهِ إلَّا مَنْ كانَ منهُ الإيمانُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يَحْتَمِلُ بِلا تَبِعَةٍ، ويَحْتَمِلُ بِلا تَقْديرٍ وعَدَدٍ، وقد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كأنهُ قالَ: يا قومِ مالي ولكمْ، أدعوكُمْ إلى ما بهِ نجاتُكُمْ، وأنْصَحُ لكمْ، وتَدْعُونَني أنتمْ إلى [ما][7] بهِ هلاكي؟ فَمَتَى يكونُ بَيْنَنا مُوالاةٌ واجْتِماعٌ؟ أي لا يكونُ.

إنما يُذْكَرُ هذا وأمثالُهُ[8] في المواعِظِ [إذا][9] انْتَهَتْ غايَتُها، وبَلَغَتْ نهايَتَها، فلم[10] يَنْجَعْ فيهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الآية [يونس: ٤١].

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٤٧. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: من إله. (٤) في الأصل وم: وإن. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وأمثالها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فلما.

الآية ٤٢ ثم فَسَّرَ ما يَدعوهُمْ إليهِ مِنَ النجاةِ حينَ[1] قالَ: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ هذا منهُ تَفْسِيرُ ما دعاهُم إلى النجاةِ، وبَيانُ ما يَدْعُونهُ إلى الهلاكِ.

ثم قولُهُ: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ قد يُستعمَلُ قولُهُ: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في نَفْيِ العِلْمِ، أي ليسَ ذلكَ، وذلكَ في إثباتِ العلمِ بخلافِهِ وضِدِّهِ؛ يقولُ: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولا كانَ مِنَ الشَّرِيكِ[2] أو يقولُ: تَدعونني لِأكفُرَ باللهِ وأُشرِكَ بهِ ما ليسَ لكُم بهِ عِلْمٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ ثم بَيَّنَ عجزَ ما يَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ وغيرِها، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: بِحَقٍّ ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي لم تَدْعُكُمْ إلى عبادةِ أنفسِها[3]، أيِ الأصنامُ التي عَبَدوها.

والأولُ أشبَهُ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ تلكَ الأصنامَ رجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ. فأخبرَ أنها لا تَشفَعُ بقولِهِ: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي شفاعةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ مَرْجِعَنا إلى ما أعَدَّ اللهُ لنا، أعَدَّ لَكُمُ النارَ، وأعَدَّ ليَ الجَنَّةَ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ والمُقتصِدينَ مِنْ أصحابِ الجنةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي سَتَذْكُرونَ إذا عايَنْتُمْ ما أعَدَّ لكُمْ وأعَدَّ لنا أنَّ ما كُنْتُمْ عليهِ، ودَعَوتُموني إليهِ دُعاةُ إلى الهلاكِ، وما دَعَوتُكُمْ إليهِ، هو دعاةُ إلى الجنةِ، أو يقولُ: سَتَذْكُرونَ ما نَصَحْتُ بدعائي إياكُم إلى ما بهِ نجاتُكُم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: كانهمْ خَوَّفوهُ، وأوعَدوهُ بأنواعِ الوَعيدِ والتَّخويفِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأتَوَكَّلُ عليهِ، فَيَحْفَظُني، ويَدفَعُ شَرَّكُمْ وما تَقْصِدونَ بي، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي عليهِ أتَوَكَّلُ [وبهِ أكِلُ][4] في جَميعِ الأمورِ مِنَ الخَيراتِ والشُّرورِ، وهو الكافي لِذلكَ.

والثالثُ: إظهارُ الحاجةِ إليهِ، والمؤمنُ أبداً يكونُ مُظْهِراً للحاجةِ إلى اللهِ تعالى في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

والرابعُ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا أشتَغِلُ بشيءٍ في أمري، أُصَيِّرُهُ إلى اللهِ تعالى.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا يَصِحُّ تَفويضُ [الأمرِ][5] إلى اللهِ تعالى لأنهمْ يقولونَ: إنَّ عليهِ أنْ يُعْطِيَ جميعَ ما يَحْتاجُ إليهِ المُكَلَّفُ حتى لا يَبْقى عندَهُ مَزيدٌ، وإذا لم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ فليسَ لِتَفويضِ الأمرِ إليهِ مَعْنًى، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ دلَّ هذا على أنهمْ قَصَدوا قَصْدَ المَكْرِ بهِ حينَ[6] أخبَرَ أنهُ وَقاهُ سَيِّئاتِ ما مَكَروا. فجائزٌ أنهمْ[7] هَمُّوا بِقَتْلِهِ. ويَحْتَمِلُ غَيرَهُ.

ثم يَحْتَمِلُ ما وَقاهُ مِنْ مَكْرِهِمْ بما وَقَى موسى ﷺ لمّا أهْلَكَهُمْ، وأنجاهُ مِنْ شَرِّهِمْ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً[8] آخَرَ، لا نُفَسِّرُهُ لأنّا لا نَحتاجُ إليهِ، وإنما حاجاتُنا إلى أنْ نَعْلَمَ أنَّ كلَّ [مَنْ][9] بَذَلَ نفسَهُ للهِ تعالى [وَوَكَلَ أمْرَهُ إليهِ، وَقاهُ اللهُ تعالى][10] وحَفِظَهُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ اسْتَدَلَّ بعضُ الناسِ على عذابِ القبرِ بقولِهِ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وإنما تُعْرَضُ أرواحُهُمْ على النارِ، فَتَتَألَّمُ أجسادُهُمْ في القبورِ لذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل وم: الشرك. (٣) في الأصل وم: نفسها. (٤) في الأصل وم: وأكل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: إن. (٨) في الأصل وم: توجيه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ تُعْرَضُ أرواحُ أهلِ الجنةِ، فَتَلَذُّ بِتلَذُّذِ الأرواحِ بَعدَ أنْ أحدثَ فيها الحياةَ التي [بها][1] يَتَحقَّقُ الألمُ واللذةُ. هذا في القبورِ.

ثم إذا أُدخِلوا النارَ يكونُ لهمْ ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ حينَ[2] قالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ العَرْضِ على النارِ قَبْلَ القيامةِ قَبْلَ أنْ يُدْخَلوا النارَ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢و٢٣و٢٤] يكونُ عرضُهُمْ على النارِ، هو وقتُ وَقْفِهِمْ للسؤالِ وحَبْسِهِمْ لذلكَ. ثم يُدخَلونَ النارَ، فيكونُ لهمُ العذابُ الذي ذُكِرَ، وهو قولُ الحَسَنِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يَحتَمِلُ قَدْرَ غُدُوٍّ وقَدْرَ عَشِيٍّ. فإنْ كانَ التأويلُ في عذابِ القَبرِ يَحْتَمِلُ ما قالَ بعضُهُمْ: أنْ يُقالَ لهمْ: هذا لكُمْ ما دامَتِ الدنيا. ويَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرَهُ على إرادةِ الغُدُوِّ والعَشِيِّ حقيقةَ ذلكَ: كلَّ وقتٍ. لكنْ يَتجَدَّدُ التألُّمُ والوَجَعُ بكلِّ قَدْرِ غُدُوٍّ وقَدْرِ عَشِيٍّ واللهُ أعلَمُ.

وَذُكِرَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ قالَ: جُعِلَتْ أرواحُ آلِ فرعونَ في أجوافِ طُيورٍ سودٍ؛ يُعْرَضونَ على النارِ كلَّ يومٍ مَرَّتَينِ، يُقالُ: يا آلَ فرعونَ هذهِ دارُكُمْ، قالَ عبدُ اللهِ: فذلكَ عَرْضُها فإنْ ثَبَتَ هذا عنِ ابنِ مسعودٍ][3] فهو تفسيرٌ لِما ذُكِرَ مِنَ الغُدُوِّ والعَشِيِّ.

ثم إنْ ثَبَتَ هذا عنهُ فهو سَماعٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ بابٌ لا يُدرَكُ بالتَّدَبُّرِ مَعَ ما رُوِيَ عنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ/ ٤٧٨ ـ ب/ [أنهُ][4] قالَ: إنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قالَ[5]: «إذا ماتَ أحدُكُمْ عُرِضَ عليهِ مَقْعَدُهُ بالغداةِ والعَشِيِّ: إنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ فَمِنَ الجنةِ، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ فَمِنَ النارِ. يُقالُ لهُ: هذا مَقْعَدُكَ حتى يُبْعَثَ إليهِ يومَ القيامةِ» [البخاري: ٣٢٤٠] فإنْ ثَبَتَ هذا، وصَحَّ عنهُ، فهو دليلٌ لِوُجوبِ عذابِ القبرِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يُعَذَّبونَ في الأوقاتِ كلِّها بَعدَ إدخالِهِمْ فيها.

وذِكْرُ الغُدُوِّ والعَشِيِّ يُخَرَّجُ على سُكُونِ النارِ في أوقاتٍ ثم تَلَهُّبِها[6]، كقولِهِ تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في ما ذُكِرَ مِنْ إدخالِ آلِ فرعونَ في أشَدِّ العذابِ والخُصوصيَّةِ لهمْ في ذلكَ مِنْ بينِ غَيرِهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ؟ قيلَ: بوجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ غَيرَ موسى مِنَ الرسلِ ﷺ قد نُسِبوا إلى السحرِ كما نُسِبَ إليهِ موسى، لكنْ لم يَتَبَيَّنْ، ولا تَحقَّقَ لقومِهِمْ براءةُ رسلِهِمْ في ما قَرَفَهُمُ الرؤساءُ والقادةُ منهمْ بالسحرِ والكذبِ بِما وُجِدَ منهمُ التمويهُ على السفلةِ والأتباعِ، وقد تَحقَّقَ لآلِ فرعونَ براءةُ موسى مِمّا قَرَفَهُ فرعونُ بالسحرِ والكذبِ، وتَبَيَّنَ عندَهُمْ صِدقُ ما ادَّعى مِنَ الرسالةِ، وذلكَ مِمّا أقَرَّ بهِ جميعُ سَحَرَةِ فرعونَ أنَّ ما جاءَ بهِ موسى حقٌّ، وما يقولُهُ صدقٌ، وإيمانَهُمْ بموسى ﷺ نهاراً جهاراً، واختاروا القَطْعَ والصَّلْبَ، ولم يَمْتَنِعوا عنْ مُتابَعَتِهِ وما رَأَوا مِنِ انْقِلابِ العصا حَيَّةً تَسْعَى، وتَلَقُّفُ ما صَنَعوا. فيكونُ عنادُهُمْ أشَدَّ ومكابَرَتُهُمْ أكبَرَ. لذلكَ اسْتَحَقّوا أشَدَّ العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ آياتِ موسى ﷺ أكثرُها كانَتْ حِسِّيَّةً، وآياتِ غَيرِهِ عَقْلِيَّةً؛ ومعرفةَ ما كانَ سبيلُهُ الحِسَّ مما لا يَتَمَكَّنُ فيهِ شُبْهَةٌ، وقد تَتَمَكَّنُ الشُّبْهَةُ في ما كانَ سَبيلُهُ العقلُ، فيكونُ عنادُهُمْ أشَدَّ.

وبعدُ فإنهمْ قدِ اتَّبَعُوا فرعونَ لمّا ادَّعى لنفسِهِ مِنَ الألوهِيَّةِ بِلا حُجَّةٍ وبرهانٍ، طَلَبُوا منهُ، وتَرَكوا اتِّباعَ موسى ﷺ بِما

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه. (٦) في الأصل وم: تلهب.

ادّعى مِنَ الرسالةِ بعدَ ما أقامَ على ذلكَ مِنَ البيِّناتِ والحُجَجِ والبراهينِ. فلذلكَ قالَ: جُعِلَتْ أرواحُ آلِ فرعونَ في أجوافِ طيورٍ سودٍ، يُعْرَضونَ على النارِ كلَّ يومٍ مرَّتينِ، يُقالُ: يا آلَ فرعونَ هذه دارُكُمْ.

قالَ عبدُ اللهِ: فذلكَ عَرْضُها. فإنْ ثَبَتَ هذا عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ كانَ لهمْ أشدَّ العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ قد عَلِمَ الضعفاءُ والأتباعُ [أنَّ المَتبوعينَ][1] لا يَمْلِكونَ دفعَ ما همْ فيهِ، لأنهمْ لو كانوا يَمْلِكونَ ذلكَ لَدفعوا عن أنفسِهِمْ، فإذا لم يَمْلِكوا ذلكَ عنْ أنفسِهِمْ فَلَأَلّا يَمْلِكوا دفعَ ذلكَ عنهمْ أحقُّ. لكنهمْ قالوا ذلكَ لهمْ لِيَزْدادوا[2] حَسْرَةً وندامةً، وهو كقولِهِ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

ويَحتَمِلُ أنهمْ إنما قالوا لهمْ ذلكَ لِما قالوا لهمْ في الدنيا: ﴿اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] فيقولونَ لهمْ لذلكَ في الآخِرَةِ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] أي حاملونَ عنّا بعضَ الذي علينا مِنَ العذابِ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الدنيا قالوا ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ مُعذَّبٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ هذا مِنْ أولئكَ الذينَ استَكْبَروا جواباً للضعفاءِ على أحدِ التأويلَينِ ولا يكونُ جواباً للآخَرِ، وهو جوابٌ لِقولِهِمُ الذي قالوا في الدنيا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فيقولونَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ ألّا يزيدَ العذابَ على مِثْلِ السَّيِّئَةِ، وقد حَكَمَ اللهُ تعالى على كلٍّ منها بالمِثْلِ، فلا يزيدُ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ كانَ فَزَعُ الكَفَرَةِ أبداً إلى الخَلْقِ إذا نَزَلَ بهمُ البلاءُ في الدنيا إلّا أنْ يُضْطَرّوا. فعندَ ذلكَ يَفْزَعونَ إلى اللهِ تعالى. فأمّا ما لم يَيْأَسوا منهمْ فلا يَفْزَعونَ إليهِ. فَعَلى ذلكَ يكونُ فَزَعُهُمْ في الآخِرَةِ إلى الخَلْقِ، وهو ما سألوا أهلَ الجنةِ مِنَ الماءِ.

أخبرَ اللهُ تعالى عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ النَّارِ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] فلمّا أيسوا مِنْ ذلكَ عندَ ذلكَ فزِعوا إلى مالكٍ، وهو ما أخبَرَهُ اللهُ تعالى عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] سألوهُ الموتَ فلما أخبَرَهُمْ أنهمْ ماكثونَ. فعندَ ذلكَ فَزِعوا إلى الخَزَنَةِ، وقالوا[3]: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

الآية ٥٠ [فَرَدَّ عليهِمُ الخزنةُ، و][4] ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ فلمّا أيِسوا منهمْ وممّا سألوهُمْ مِنْ تخفيفِ العذابِ عنهمْ، عندَ ذلكَ فزِعوا إلى اللهِ تعالى، وهو قولُهُمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] وقولُهُمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] لم يَفْزَعوا إلى اللهِ تعالى إلّا بَعْدَ ما انْقَطَعَ رجاؤُهُمْ منهمْ، وأيِسوا، وباللهِ العصمةُ والنجاةُ.

وقدِ اسْتُدِلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ مَنْ لا يَرى الحُجَّةَ، فالحُكْمُ يَلْزَمُهُمْ بِمُجَرَّدِ العقلِ دونَ الرسُلِ ﷺ حينَ[5] احتجَّ عليهِمُ الخَزَنَةُ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وردِّهِمُ البيِّناتِ التي أتَتْهُمْ [بها][6] الرسُلُ. واسْتُدِلَّ أيضاً بقولِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وبقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤] وبقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] وغيرِها مِنَ الآياتِ التي فيها أنهُ لا يُعَذِّبُهُمْ إلّا بَعْدَ ما قامَتْ عليهِمُ الحُجَّةُ مِنْ جِهَةِ الرسُلِ، ولَزِمَهُمُ الحكمُ بهمْ. فعندَ ذلكَ يُعَذَّبونَ. لكنَّ تأويلَ الآيةِ يُخَرَّجُ عندَنا على وجهَينِ:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليزداد. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: أنْ يكونَ ذلكَ في قومٍ خاصٍّ: الذينَ لا يَرونَ لُزومَ الحُجَّةِ والحكمِ إلّا مِنْ جهةِ الرسالةِ، فَيُحتَجُّ عليهِمْ بما كانوا يَرونَ بِهِ ليكونَ أقربَ إلى الإلزامِ والحُجَّةِ، وإنْ كانَ يجوزُ أنْ يُحتَجَّ عليهِمْ بما هو حُجَّةٌ، وهمْ لا يَرونَها حُجَّةً، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: إنما ذَكَرَ ذلكَ على المُبالغةِ والنِّهايةِ في الحُجّةِ، وإنْ كانَتِ الحُجَّةِ قد تَلْزَمُهُمْ، والحكمُ قد ثَبَتَ بدونَ ذلكَ، وهو العقلُ لأنَّ إرسالَ الرسُلِ وإقامةَ المُعجِزاتِ أقربُ إلى الوصولِ إلى الحقِّ. وقد أقامَ كِلا الحُجَّتَينِ، فَذَكَرَ[1] أظهَرَ الحُجَّتَينِ ليكونَ أقربَ إلى إظهارِ عِنادِهِمْ. وهذا كما في تعذيبِ الكَفَرَةِ في الدنيا أنهمْ لم يُعَذَّبوا بنفسِ الكفرِ حتى كانَ منهمْ مَعَ الكُفرِ الاسْتِهزاءُ بالرسُلِ والعِنادُ لهمْ وغَيرُ ذلكَ.

وإنما كانوا يَسْتَوجِبونَ العذابَ بنفسِ الكُفرِ / ٤٧٩ ـ أ/ لكنْ تَرَكَ تعذيبَهُمْ حتى يَبْلُغوا النهايةَ والإبلاغَ في التكذيبِ والعِنادِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [فصلت:٧] ذَكَرَ هذا على النهايةِ والإبلاغِ في الجِنايةِ منهمْ. وإنْ كانوا يَسْتَوجِبونَ العذابَ بِجُحودِهِمُ الزكاةَ دونَ جُحودِ البَعثِ أو جُحودِ البَعثِ دونَ جُحودِ الزكاةِ.

فَعَلى ذلكَ الآياتُ التي ذَكَرَها هي على الإبلاغِ والنهايةِ، وإنْ كانَتِ الحُجَّةُ تَلْزَمُهُمْ، والحُكمُ يَثْبُتُ بدونِ الرسُلِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وبعدُ فإنَّ قولَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤] [[دلالةٌ]][2] أنَّ الحجةَ والحكمَ قد لزمَهُمْ بدونِ الرسُلِ، لأنهُ لو لم يَلْزَمْ لكانَ في التعذيبِ ظالماً، لأنهُ يُعَذِّبُ قَبْلَ أنْ يَلْزَمَهُمُ الحكمُ، فَيَصيرُ تقديرُ الآيةِ: ولو أنا ظَلَمْناهمْ ﴿بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾][3] فلا تكونُ ظالماً في ما عَذَّبْتَنا، والظلْمُ مِنَ اللهِ تعالى مُحالٌ، فَيَسْتَحيلُ تقديرُ الآيةِ على هذا الوجهِ.

دلَّ أنَّ التعذيبَ قَبْلَ الرسُلِ عَدْلٌ وحكمةٌ، وليسَ بظلمٍ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وبعدُ فإنَّ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ دلالةٌ أنَّ الحُجَّةَ إنما تَلْزَمُ بالبيِّناتِ لا بِنَفسِ الرسلِ، والبيِّناتُ قد وُجِدَتْ، وسَبَبَ المَعْرفَةِ وطريقَها، وهو العقلُ، قائمٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ ليسَ على الأمرِ بالدعاءِ، ولكنَّ مَعْناهُ: إنكُمْ، وإنْ دَعَوتُمْ فلا تنفعُكُمْ دعوتُكُمْ كقولِهِ: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤] أي هلاكاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يَحتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ النصرِ للرسُلِ والمؤمنينَ وجوهاً:

أحدُها: أنْ يَنْصُرَهُمْ في الدنيا بالحُجَجِ والآياتِ التي أعطاهُمْ في الدينِ حتى يَدْفَعوا[4] بها تَسْويلاتِ الشيطانِ وتَمْويهاتِ السحرةِ وتَقَلُّبَهُمْ[5]، ويَعْلوا على الكلِّ. هذا في الدنيا، وفي الآخِرَةِ أيضاً يَنْصُرُهُمْ بما تَشْهَدُ لهمْ عليهمُ الملائكةُ والجَوارحُ بالتكذيبِ للرسُلِ والمؤمنينَ وأنهمْ دَعَوهُمْ إلى التوحيدِ والإيمانِ لكنهمْ كَذَّبوهُمْ، وكَفَروا بما دَعَوهُمْ إليهِ. فذلكَ نَصْرُهُ إياهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَنْصُرُهُمْ بما يَجْعَلُ لهمُ العواقبَ وآخِرَ الأمرِ لهُ، وإنْ كانَ في الابْتِداءِ قد يكونُ عليهِمْ. وعلى ذلكَ لم يُذْكَرْ عنْ أحدٍ منَ الرسُلِ إلّا وقد كانَتْ عاقبةُ الأمرِ لهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] فهذا النصرُ، هو النصرُ في الأبدانِ، والأوّلُ، هو نَصْرٌ في الدينِ. ولكنْ إنْ كانَ هو نَصْراً في الأبدانِ فهو نَصْرٌ، يرجعُ إلى الدينِ لِما يقومُ الدينُ بسلامةِ الأبدانِ، ويَتَحَقَّقُ بهِ عِزِ المُسلِمينَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والثالثُ: ذَكَرَ نَصْرَهُمْ لمّا أعطاهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ في الدنيا والسَّعَةِ فيها، وهو يَذْكُرُ للرسُلِ والمؤمنينَ نَصْراً ونِعْمَةً ومعونَةً.

---

(١) في الأصل وم: فذكروا. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: يدفع. (٥) في الأصل وم: وتقلبها.

أمّا هي للكَفَرَةِ ففِتْنَةٌ ومِحْنَةٌ، لا غَيرُ، لا يُذْكَرُ باسمِ النصرِ والنِّعْمَةِ؛ إذ هي في حقِّ المُسْلِمينَ وسَبيلُهُ إلى النِّعْمَةِ الأبَدِيَّةِ، وفي حقِّ الكَفَرَةِ إلى العذابِ الأبَدِ، فيكونُ نِقْمَةً في حقِّهِمْ حقيقةً.

ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١و٢] وقالَ: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] ومِحْنَةٌ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: ذَكَرَ أنهُ يَنْصُرُهُمْ، وقد نَرى مؤمناً، قد تَنْقَطِعُ حُجَجُهُ، ويَعْجَزُ عنْ إقامتِها، ونَراهُ مغلوباً، والكافرُ هو الغالبُ، قيلَ عنْ هذا جَوابانِ[1]:

أحَدُهما: مِنْ جَعْلِ العاقبةِ لهُ والغَلَبَةِ والنَّصْرِ في آخِرِ الأمرِ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ وعْدُهُ بالنَّصْرِ لهمْ والظَّفَرِ بالحُجَّةِ بالشريطةِ، وهي القيامُ بوفاءِ ما للهِ عليهِمْ مِنَ الحقِّ في ذلكَ.

فالنَّصْرُ والظَفَرُ بالحُجَّةِ في المُناظَرَةِ أنْ يكونَ يُرْجَى عُمْرَهُ في معرفةِ الحُجَجِ والدلائلِ، وأنْ يكونَ عارفاً بطرقِ النَّظَرِ، ومتى كانَ هذا الشرطُ موجوداً فيكونُ النَّصْرُ لهُ لا مَحالةَ.

وشَرْطُ الظَّفَرِ في المحاربةِ أنْ يكونوا قاصدينَ إعزازَ دينِ اللهِ تعالى دونَ ابْتِغاءِ الدنيا، وكلمتُهُمْ واحدةٌ، ونحوُهُ.

ومتى كانتِ المُحاربةُ بِشرائِطِها يكونُ الظَّفَرُ لِلْمُسْلِمينَ. وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأشهادُ، همُ الملائكةُ، يَكتُبونَ أعمالَ بَني آدمَ، يَشْهَدونَ عليهِمْ بما عَمِلوا مِنَ الأعمالِ. وقالَ بعضُهُمْ: الأشهادُ، همُ الرسُلُ، يَشْهَدونَ عندَ ربِّ العالمِينَ على الكَفَرَةِ بالتكذيبِ والرَّدِّ. وقالَ بعضُهُمْ: تَشْهَدُ عليهِمُ الجَوارِحُ يومئذٍ بما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ ذَكَرَ ههنا ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وذَكَرَ في موضعٍ آخَرَ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] وبينَهُما اخْتِلافٌ مِنْ حيثُ الظاهرُ، لأنَّ القولَ بأنهُ لا تَنْفَعُ مَعْذِرَتُهُمْ بَعدَ وجودِها منهمْ. وقد أخْبَرَ أنهُ لا يُؤْذَنُ لهمْ بالاِعْتِذارِ، لكنهمْ بلا إذنٍ لهمْ فلا يُقْبَلُ اعْتِذارُهُمْ، ولا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ، فيكونُ جميعاً بَينَهما مِنْ هذا الوجهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لو كانَ منهمُ الاِعْتِذارُ، ولا يُقْبَلُ اعْتِذارُهُمْ، لكنْ لم يُؤْذَنوا بالاِعْتِذارِ حتى يَعْتَذِروا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] أي لو كانَ لهمْ شُفعاءُ يَشْفَعونَ لهمْ لكانَتْ تَنْفَعُهُمْ شفاعَتُهُمْ، لا أنْ كانَ لهمْ شُفَعاءُ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي لو كانوا يَعْتَذِرونَ لا يُقْبَلُ اعْتِذارُهُمْ، ولا تَنْفَعُهُمْ مَعْذِرَتُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ الهُدَى ههنا وجوهاً:

أحَدُها: أي آتَيْناهُ التوراةَ، وفيها البَيانُ والدعاءُ إلى الرشدِ، وجميعُ كتبِ اللهِ تعالى فيهِ هُدىً ونورٌ ورَحْمَةٌ.

والثاني: أي آتاهُ التوحيدَ والإسلامَ.

[والثالثُ][2]: آتاهُ النُّبوَّةَ والرسالةَ، وآتاهُ كلَّ ما للهِ عليهِ مِنْ حقٍّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ خاصةً، ويَحْتَمِلُ التوراةَ وسائرَ الكتبِ التي كانَتْ فيهمْ إنْ ذُكِرَ الكتابُ بالألفِ واللامِ، ويَحْتَمِلُ الجنسَ والعَهْدَ، فَيَجوزُ الصَّرْفُ إلى التوراةِ لِمكانِ العهدِ، ويَجوزُ الصَّرْفُ إلى الجميعِ لِمكانِ الجِنْسِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: جوابين. (٢) في الأصل وم: ويحتمل.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنْ لا جميعَ كُتُبِ اللهِ التي أُنزِلَتْ فيهِمْ غُيِّرَتْ، وبُدِّلَتْ، بل فيها[1] ما لم يُغيَّرْ[2]، ولم يُبدَّلْ حينَ[3] قالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿هُدًى﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ جميعَ كتبِ اللهِ تعالى هُدىً مِنَ الضَّلالةِ إلى الرُّشْدِ وبَيانٌ[4] لِما للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضٍ على بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَوْعظةٌ، وقالَ بعضُهُمْ: تفكُّراً لأهلِ اللُّبِّ والعقلِ.

وجائزٌ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي ما ذَكَرَ ما سَبَقَ، أي يُذَكِّرُهُمْ ما نَسُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأنَّ أهلَ اللُّبِّ، همُ الذينَ يَتفكَّرونَ، ويَتأمَّلونَ فيهِ، أو أنَّ أهلَ اللُّبِّ، همُ المُنْتَفِعونَ بالذِّكْرَى. وما ذُكِّروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، وجوهاً.

أحَدُها: [اصْبِرْ على][5] التكذيبِ؛ كانَ يَتأذَّى بِتكذيبِهِمْ / ٤٧٩ ـ ب/ إيّاهُ.

والثاني: [اصْبِرْ على الاسْتِهزاءِ][6] كانَ يَتأذَّى باسْتِهْزائِهِمْ بِهِ.

والثالثُ: [اصْبِرْ على][7] أنواعِ ما يَكيدونَ: مِنْ هَمِّهِمْ بِقَتْلِهِ وضَرْبِهِ وغَيرِ ذلكَ.

والرابعُ[8]: يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أيِ اصْبِرْ على تَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ، ولا يُضجِرَنَّكَ تَكْذيبُهُمْ إيّاكَ، ولا يَمْنَعْكَ ذلكَ عنْ تَبليغِها، واللهُ أعلَمُ.

والخامسُ[9]: اصْبِرْ، ولا تَسْتَعْجِلْ لهمُ العذابَ قَبْلَ مِيقاتِهِ؛ وذلكَ أنَّ الرسلَ ﷺ كانوا لا يَسْتَعْجلونَ العذابَ ما لم يُؤْذَنْ لهمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إنْ كانَ المُرادُ مِنْ وَعْدِهِ نفسَ الوَعْدِ فيكونُ تأويلُهُ: أنَّ وَعْدَ اللهِ صِدْقٌ أي لا يُخلَفُ، ولا يكونُ كَذِباً، لأنَّ خُلْفَ الوَعْدِ في الشاهدِ إنما يكونُ لأحدِ مَعْنَيَيْنِ: إمّا لِعَجْزِهِ عنِ القيامِ بِوفائِهِ، وإمّا لِضَرَرٍ يَخافُ أنْ يَلْحَقَهُ لو قامَ بوفاءِ ما وَعَدَ، واللهُ تعالى بَريءٌ مِنَ المَعْنَيَيْنِ جميعاً، مُتَعالٍ عنْ ذَينِكَ.

وإنْ كانَ المرادُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي مَوعودَ اللهِ، فيكونُ تأويلُهُ إنَّ مَوعودَ اللهِ تعالى لكائنٌ حَقّاً. فَوَعْدُ اللهِ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما. وعلى هذا يُذْكَرُ أمرُ اللهِ تعالى، ويُرادُ بِهِ نفسُ الأمرِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] ويُذْكَرُ، ويُرادُ بِهِ المَفعولُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي ما يكونُ بأمرِهِ مفعولاً، ويكونُ مَوعودُ اللهِ مَفْعولاً، واللهُ أعلَمُ. وكانَ[10] ذِكْرُ الصلاةِ أمرَ اللهِ [أي بأمرِ اللهِ][11].

ثم لسْنا ندري ما كانَ مِنْ وعدِهِ لِرسولِهِ حتى أخْبَرَ أنهُ كائنٌ. فجائزٌ أنْ يكونَ ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ وَعَدَ لهُ أنْ يُعذِّبَ كُفّارَ مكةَ يومَ بدرٍ بالقتلِ وغَيرِ ذلكَ، فَكَذَّبوهُ، وقالوا مُسْتَهْزِئينَ بِهِ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨و...] فقالَ[12]: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ويَحْتَمِلُ غَيرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] باسْتِغفارِهِ إيّاهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ ما يَغْفِرُ لهُ مِنْ أمتِهِ بِشَفاعتِهِ كما ذُكِرَ في الخَبَرِ: «يَغْفِرُ للمؤذِّنِ مَدَّ صوتِهِ» [أحمد ٢/١٣٦] أي يَجْعَلُ لهُ الشفاعةَ إلى حيثُ يَبْلُغُ صوتُهُ.

---

(١) في الأصل وم: فيهم. (٢) في الأصل وم: لغيروا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وبيانا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: والثالث. (٩) في الأصل وم: والرابع. (١٠) في الأصل وم: وما. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ قد ذَكَرْنا التسبيحَ بِحَمْدِ ربِّهِ. ثم جائزٌ أنْ يريدَ بالتسبيحِ نفسَ التسبيحِ. فإنْ كانَ كذلكَ فيكونُ ذكرُ العشيِّ والإبكارِ ليسَ هو ذِكْرَ التوقيتِ لهُ، ولكنْ ذِكْرُ الأوقاتِ كلِّها: الليلِ والنهارِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] ليسَ يريدُ نفسَ الغداةِ والعَشيِّ خاصَّةً دونَ غيرِهما مِنَ الأوقاتِ، بل [هما][1] عبارةٌ عنْ جميعِ الأوقاتِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ آناءَ الليلِ والنهارِ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ المرادُ مِنَ التَّسْبيحِ ههنا الصلاةَ فكأنهُ يقولُ: فَصَلِّ بِحَمْدِ ربِّكَ بالعَشِيِّ والإبكارِ كِنايَةً عنْ صلاةِ النهارِ، أو يكونُ الإبكارُ كِنايَةً عنْ صلاةِ الغداةِ، والعَشِيُّ كِنايَةً عنْ صلاةِ العِشاءِ على ما ذَكَرَهُ بعضُ الناسِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ اليهودَ جادلوا رسولَ اللهِ ﷺ في الدَّجّالِ أنهُ منهمْ، وأنهُ في الطُّولِ كذا، ونَحْوَهُ. وعلى ذلكَ نَسَقوا الآياتِ التي تَتْلو هذهِ الآيةَ.

ولكنْ لسْنا نَدْري بماذا صَرَفوا مُجادَلَتَهُمْ في آياتِ اللهِ إلى المُجادلةِ في الدَّجّالِ إلّا أنْ يَثْبُتَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ بطريقِ التواتُرِ أنَّ المُجادلةَ في الدَّجّالِ، فحينئذٍ يُصْرَفُ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي يُجادِلونَ في دَفْعِ آياتِ اللهِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ أتَتْهُمْ مِنَ اللهِ. وكانَتِ المُجادلةُ في دَفْعِ آياتِ اللهِ مِنْ رؤساءِ الكَفَرةِ وأكابِرِهِمْ؛ كانوا يُمَوِّهونَ بِمُجادَلَتِهِمْ في دَفْعِ آياتِ اللهِ تعالى والطَّعْنِ فيها في أتباعِهِمْ وسَفَلَتِهِمْ لِتَبْقَى لهمُ الرئاسةُ والمَأكَلَةُ التي كانَتْ لهمْ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وغَيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

لم يَزَلِ الأكابرُ منهمْ والرؤساءُ يَطْعَنونَ في آياتِ اللهِ تعالى، ويَدْفَعونَها؛ يريدونَ التَّمْويهَ والتَّلْبيسَ على أتباعِهِمْ وسَفَلَتِهِمْ لِيَبْقَى العِزُّ والشَّرَفُ الذي كانَ لهمْ، ويُبْطِلوا بهِ الحقَّ، ويُطْفِئوا نورَهُ، كقولِهِ ﷻ ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦] وقولِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]. هذا كانَ مُرادُهُمْ مِنْ مُجادَلَتِهِمْ في آياتِ اللهِ والطَّعْنِ فيها.

ثم أخْبَرَ ﷻ أنهمْ يُجادِلونَ، ويَفْعَلونَ ذلكَ تَكَبُّراً منهمْ على آياتِ اللهِ والخُضوعِ لرسلِهِ ﷺ حينَ قالَ ﷻ ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي ما في صدورِهِمْ إلّا كِبْرٌ، أي كِبْرُهُمْ هو الذي حَمَلَهُمْ على المُجادلةِ في آياتِ اللهِ.

ثم الذي حَمَلَهُمْ على الكِبْرِ جَهْلُهُمْ بسببِ العِزِّ والشَّرَفِ؛ ظَنّوا أنَّ العِزَّ والشَّرَفَ إنما يكونُ بالأتباعِ الذينَ يَصْدُرونَ عنْ آرائِهِمْ. ولو عَرَفوا فيمَ يكونُ العِزُّ والشَّرَفُ؟ لكانوا لا يَفْعَلونَ ذلكَ.

إنما العِزُّ والشَّرَفُ في طاعةِ اللهِ ﷻ واتِّباعِ أمرِهِ، ليسَ في اتِّباعِ مَنِ اتَّبَعَهُمْ ولا في الِتمارِ مَنِ التَمَرَهُمْ. ولكنْ في ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخْبَرَ أنهمْ ليسوا ببالِغينَ إلى ما قَصَدوا مِنْ إطفاءِ النورِ الذي أعْطَى المؤمنينَ وإرخاصِ الحقِّ وإبطالِهِ حينَ[2] قالَ ﷻ: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ وقالَ[3]: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أمَرَهُ أنْ يَسْتَعيذَ باللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجّالِ.

لكنْ عندَنا أمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ باللهِ مِنْ مَكائدِ أولئكَ الأكابِرِ والفراعنةِ الذينَ تَوَهَّموا أنْ يَمْكُروا بهِ، ويَكيدوا، أمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ باللهِ مِنْ مَكْرِهِمْ وكَيْدِهِمْ كما أمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الآية [المؤمنون: ٩٧]. وهذا أَوْلَى مِنَ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: حيث.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: لَخَلْقِ السمواتِ والأرضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الدَّجالِ. لكنْ قد ذَكَرْنا بُعْدَ صَرْفِ الآيةِ إلى الدَّجّالِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: الآيةُ نزلَتْ في المُقِرِّينَ[1] بِخَلْقِ السمواتِ والأرضِ [المُنْكِرِينَ البعثَ][2]؛ ويقولُ: إنَّ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ مُبْتَدأً بلا احْتِذاءٍ بِغَيرِ أكْبَرُ وأعظَمُ مِنْ إعادةِ [خَلْقِ][3] الناسِ. فإذا عَرَفْتُمْ أنهُ قَدَرَ على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ مُبْتَدِئاً بِلا احْتِذاءٍ بِغَيرِ كانَتْ[4] قدرتُهُ على إعادةِ الخَلْقِ أهْوَنَ[5]؛ إذْ إعادةُ الشيءِ في عقولِكُمْ أهونُ مِنَ البدايةِ كقولِهِ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فكيفَ أنْكَرْتُمْ قدرتَهُ على البعثِ؟ وقد أقْرَرْتُمْ بقدرتِهِ على خَلْقِ ما ذَكَرَ.

والثاني: أنْ تكونَ الآيةُ نزلَتْ [في المُقِرِّينَ][6] بِخَلْقِ الناسِ[المُنْكِرِينَ خَلْقَ][7] السمواتِ والأرضِ؛ يقولُ: إنَّ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ وإمساكَها في الهواءِ بلا تعليقٍ مِنَ الأعلى ولا عِمادٍ مِنَ الأسفلِ مَعَ غِلَظِها وكثافَتِها أكْبَرُ وأعظَمُ في الدلالةِ على حَدَثِها وخَلْقِها مِنْ خَلْقِ الناسِ، لأنَّ خَلْقَ/ ٤٨٠ ـ أ/ الناسِ إنما يكونُ بالتَّغَيُّرِ والتَّوَلُّدِ مِنْ حالٍ إلى الحالِ الأُخْرَى. فيجوزُ أنْ يُتَوَهَّمَ كونُ ذلكَ وافْتِراقُهُ ثم اجْتِماعُهُ مِنْ بَعْدُ وظُهُورُ ذلكَ منهُ.

وأمّا السماءُ فهي حالةٌ واحدةٌ، فلا يُمْكِنُ تَوَهُّمُ ذلكَ لِما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في نازلةٍ كانَتْ وسببٍ، لَسْنا نحنُ نَعْرِفُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يَسْتَوي مَنْ عَمِيَ عَنْ توحيدِ اللهِ وشُكْرِ نِعَمِهِ ومَنْ عَرَفَ حقَّهُ، وقَبِلَ إحسانَهُ، وقامَ بشُكْرِهِ.

فإذا عَرَفْتُمْ أنهُ لا اسْتِواءَ بينَ هذينِ عندَكُمْ، فاعْرِفوا أنهُ لا يَسْتَوي مَنْ عَمِيَ عَنْ وحدانيّةِ اللهِ وشُكْرِ نِعَمِهِ ومَنْ[8] أبْصَرَ وحدانِيَّتَهُ، وقامَ بِشُكْرِهِ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ يقولُ: إذا عَرَفْتُمْ أنهُ لا يَسْتَوي مَنْ آمَنَ، وصَدَّقَ آخَرَ، وأحسَنَ إليهِ، ومَنْ كَذَّبَهُ، وأساءَ إليهِ. فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوي مَنْ آمَنَ باللهِ وَصَدَّقَهُ، وقابَلَ إحسانَهُ بالشُّكْرِ، ومَنْ كَذَّبَهُ، وأساءَ إليهِ. فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوي مَنْ آمَنَ باللهِ وَصَدَّقَهُ، وقابلَ إحسانَهُ بالشُّكْرِ، ومَنْ كَذَّبَهُ، وكَفَرَ نِعَمَهُ وإحسانَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ حقيقةً: أعْمَى البَصَرِ والبصيرُ نفسُهُ؛ يقولُ: تَعْرِفونَ أنهُ لا يَسْتَوي الأعْمَى أعْمَى البَصَرِ والبَصيرُ نفسُهُ في الدنيا. فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوي مَنْ عَمِيَ عَنْ دينِهِ ومَنْ[9] أبْصَرَ في الآخِرَةِ. وقد عَرَفْتُمْ أنهمْ قدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا؛ أعني المُسيءَ والمُحْسِنَ، والصالحَ والمُفْسِدَ، والمُطيعَ والعاصيَ. وفي الحكمةِ التفريقُ بَيْنَهما.

دلَّ أنَّ هناكَ داراً [أُخْرَى][10] يُفَرِّقُ بَيْنَهما فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أخْبَرَ أنها آتيةٌ، لا مَحالَةَ، وقد ذَكَرْنا أنما صارَ خَلْقُ الدنيا وما فيها حِكْمَةً بالساعةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إنَّ الآيةَ نزلَتْ في أهلِ التوحيدِ. يقولُ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ثم يُخَرَّجُ على الاِسْتِغْفارِ مَرَّةً لِما كانَ منهمْ مِنَ التَّضْييعِ في حقوقِ اللهِ تعالى وما أمَرَهُمْ بِهِ، ونَهاهُمْ عنهُ، والتَّفْريطِ في ذلكَ: اسْتَغْفِروني[11] أغْفِرْ لكُمْ.

---

(١) في الأصل وم: مقرين. (٢) في الأصل وم: منكرين بالبعث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: لكان، في م: أكان. (٥) في الأصل وم: أحق. (٦) في الأصل: مقرين، في م: في مقرين. (٧) في الأصل وم: منكرين بخلق. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: استغفروا.

ويَحتَمِلُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ اطلُبوا مني التوبةَ عن ذلكَ أتُبْ[1] عليكُم، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَتِ الآيةُ في أهلِ الكُفرِ فيكونُ قولُهُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي وَحِّدوني أغفِرْ لكُمْ. ويَحتَمِلُ: اعبدُوني اغفِرْ لكمْ، وهو كقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقد جاءَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الدعاءُ هو العبادةُ ثم قرَأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾» [أبو داوود: ١٤٧٩] وفي بَعْضِ الأخبارِ: «الدعاء مُخُّ العبادةِ» [الترمذي: ٣٣٧١].

وأصلُ هذا أنهُ يَنْظُرُ كلُّ أحدٍ إلى ما ارْتكَبَهُ؛ فإنْ كانَ شيئاً يَستوجِبُ بهِ العقوبةَ كانَ استِغفارُهُ القيامَ بقضاءِ ما تَرَكَهُ وضَيَّعَهُ، والعَزْمَ على ألّا يعودَ إلى ذلكَ أبداً، وإنْ كانَ شيئاً غَيرَ مَعروفٍ، وتَرَكَهُ، يَسْتَغْفِرِ اللهَ تعالى في ذلكَ، ويَطْلُبُ منهُ التَّجاوُزَ والمَغْفِرَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وأصْلُ ذلكَ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] ذَكَرَ الإجابةَ بالشريطةِ، وهي[2] أنهمْ إذا آمنوا بهِ، وأوفَوا بعهدِهِ يُوفِ[3] لهمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ استَدَلَّ بعضُ الناسِ بهذهِ الآيةِ على أنَّ قولَهُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إنما أرادَ بهِ العبادةَ على ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: إنَّ هذهِ السورةَ نَزَلَتْ بمكةَ، وأهلُ مكةَ كانوا يقولونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وفي ظاهرِ ذلكَ أنهمْ لا يَستكبِرونَ عنْ عبادتِهِ، لكنهُمْ لم يَرَوا أنفسَهُمْ أهلاً لعبادةِ اللهِ، فَعَبدوا غيرَهُ دونَهُ، كَمَنْ يُعَظِّمُ، ويَخدِمُ خادماً مِنْ خَدَمِ مَلِكٍ مِنْ مُلوكِ الدنيا، لا يكونُ مُستكبِراً عَنْ خِدمَةِ الملكِ. لكنَّ تأويلَ الآيةِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ عبادَهُ بطاعةِ رسولِهِ والإجابةِ لهُ إلى ما يَدْعوهُمْ. فإذا لم يُجيبوهُ إلى ما يدعوهُمْ إليهِ، ولم يُطيعوهُ استِكباراً منهمْ وتكبُّراً عليهِ صارَ ذلكَ منهمْ كالاستِكبارِ عنْ طاعةِ اللهِ وعنْ عبادتِهِ.

والثاني: أنهمْ، وإنْ كانوا عَبَدوا الأصنامَ رجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ، ولم يَقْصِدوا قَصْدَ الاستِكبارِ عنْ عِبادَتِهِ، فهمْ تَركوا عبادَتَهُ، معَ أنهمْ أُمِروا، وبَلَغَ إليهمْ أمْرُهُ على ألْسُنِ الرسُلِ، فكأنهمُ استَكبَروا عنْ عبادةِ اللهِ تعالى؛ إذْ في الشاهدِ يَخْدِمُ المرءُ بَعْضَ خواصِّ المَلِكِ لِيُقَرِّبَهُ إليهِ، لكنْ إذا أمَرَهُ المَلِكُ أنْ يَخدِمَهُ، وقَرَّبَهُ إلى مجلسِهِ، فامْتَنَعَ، يُقَدَّرُ ذلكَ منهُ استِكباراً، وتَتَبَيَّنُ أنَّ خِدْمَتَهُ لذلكَ ما كانَتْ لِتُقَرِّبَهُ إلى المَلِكِ حينَ[4] قَرَّبَهُ، فلم يَقْرُبْ. ففي الغالبِ كذلكَ. لِذلكَ كانَ استِكباراً منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: وأبو عوسَجَةَ: ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرينَ ذليلينَ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعمَهُ التي أنْعَمَ عليهمْ لِيَستأدِيَ بذلكَ شُكرَهُ حينَ[5] قالَ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ راحةً لأنفسِكُمْ وأبدانِكُمْ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تُبْصِرونَ فيهِ مَعايشَكُمْ وما تَحتاجونَ إليهِ. ثم قولُهُ: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي يُبْصَرُ بهِ وفيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أخبَرَ أنَّ ذلكَ كلَّهُ منهُ فَضلٌ ومِنَّةٌ ورَحمَةٌ، لا باستِحقاقٍ يَستَحِقونَ ذلكَ قِبَلَهُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ يقولُ: ذلكَ الذي صَنَعَ [لكم هذا][6] هو ربُّكُمْ لا الأصنامُ التي تَعبُدونَ مِنْ دونِهِ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هو خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ كلَّ شيءٍ، واحدٌ، لا شريكَ [لهُ][7] ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي أنّى تَصْرِفونَ، وتَعْدِلونَ عنْ عبادتِهِ والقيامِ بشكرِهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أتوب. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: يعرف. (٤) و(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بكم.
(٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٦٣ وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [ينصرفون](١) عنْ عبادتِهِ والقيامِ بشكرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وأصْلُ الإفْكِ الصَّرْفُ كقولِهِ ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي لِتَصرِفَنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ يُذَكِّرُهُمْ عِظَمَ نِعَمِهِ عليهِمْ حينَ(٢) جَعَلَ لهمُ الأرضَ بحيثُ يَقِرُّونَ عليها، ويتَعَيَّشونَ، والسماءَ بِناءً عليهِمْ بحيثُ(٣) لا تَسْقُطُ عليهِمْ، وجَعَلَ مَنافِعَ بعضِها مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ البَعْضِ على [بُعْدِ](٤) ما بَينَهما لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ كلَّهُ صُنْعُ واحِدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ: ﴿فَأَحْسَنَ﴾ أي أحْكَمَ، وأتْقَنَ في الدلالةِ على مَعْرِفةِ وَحْدانِيَّةِ اللهِ تعالى ورُبوبِيَّتِهِ على ما أظْهَرَ في كلِّ شيءٍ مِنَ الدلالةِ على وَحْدانِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ.

والثاني: قولُهُ: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي أحْسَنَ تركيبَها مُنْتَصِباً؛ أقامَها(٥) غيرَ مُنْكَبَّةٍ كسائرِ الصُّوَرِ التي خَلَقَها مُنْكَبَّةً على وَجْهِها.

وقولُهُ تعالى: / ٤٨٠ ـ ب/ ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي رَزَقَكُمْ مِنَ الحَلالِ. لكنَّ الأشْبَهَ أي رَزَقَكُمْ مِنْ أطْيَبِ ما أخْرَجَ مِنَ الأرضِ، لأنَّ اللهَ تعالى أخْرَجَ مِنَ الأرضِ نباتاً مُخْتَلِفاً، جَعَلَ أطْيَبَهُ وألْيَنَهُ رِزْقاً للبشرِ، وسائِرَهُ رِزْقاً للدّوابِّ.

[وقولُهُ تعالى](٦): ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ذلكَ الذي صَنَعَ لكمْ هذا، هو ربُّكُمْ لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ هو الذي لا يموتُ أبداً. لكنَّ هذا مما يَعْرِفُهُ كلُّ أحدٍ.

وأصلُ الحيِّ، هو النهايةُ والغايةُ [في](٧) الثناءِ عليهِ والمَدْحِ [لأنَّ](٨) كلَّ شيءٍ يَبْلُغُ في الانْتِفاعِ بهِ غايتَهُ، يُسَمَّى حَيّاً، نَحْوَ الأرضِ والأشجارِ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو المَعْبودُ في لسانِ العربِ، ويُسَمِّي العربُ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً، كأنهُ يقولُ: لا إلهَ، ولا مَعْبودَ، يَسْتَحِقُّ العبادةَ إلّا هو.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي ادْعُوهُ بإخلاصِ الدينِ لهُ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي اعْبُدوهُ مُخْلِصِينَ لهُ العبادةَ، ولا تُشْرِكوا فيها غيرَهُ مِنْ نَحْوِ ما كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ دونَهُ رجاءَ الشفاعةِ وتَقْريبِهِمْ إليهِ. أخْلِصوا العبادةَ والدينَ. والإخلاصُ هو التَّصْفِيَةُ لهُ.

والثاني: ادْعُوهُ على حقيقةِ الدعاءِ لهُ والتَّسْمِيَةِ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ادْعُوهُ، وسَمُّوهُ إلهاً، لا تَدْعُوا، ولا تُسَمُّوا غيراً إلهاً لأنهمْ كانوا يُسَمُّون، ويَدْعونَ الأصنامَ التي عَبَدوها آلهةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي الحمدُ للهِ، ربٌّ على خَلْقِهِ بما أنْعَمَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى﴾ كانَ الكَفَرَةُ دَعَوا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: قامتها.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لا.

رسولَ اللهِ ﷺ إلى عبادةِ ما عَبَدوا هُمْ مِنَ الأصنامِ، فقالَ: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ عنْ ذلكَ، وهو كما ذَكَرَ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ حينَ[1] قالَ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] وقالَ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧] وغَيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ يَحْتَمِلُ وجهَين:

[أحدُهما][2]: إنْ كانَ المُرادُ مِنَ البيِّناتِ القرآنَ والآياتِ التي نزلَتْ مُعجزةً لهُ وعلى ما قالهُ أهلُ التأويلِ فهو على التأكيدِ والإبلاغِ، وإنْ كانَ النَّهيُ عنْ عبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى والشِّرْكِ باللهِ لازماً [فهو][3] قبلَ مجيءِ الرسُلِ وما أتَوا مِنَ البيِّناتِ على ما تقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ لمّا جاءَني مِنْ ربي العقلُ وما[4] يُعْرَفُ بهِ ذلكَ. ويكونُ قولُهُ: ﴿جَآءَنِيَ﴾ أي ظَهَرَ لي كقولِهِ تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ [الإسراء: ٨١] أي ظَهَرَ الحقُّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أُمِرْتُ أنْ أجْعَلَ الخَلْقَ وكلَّ شيءٍ للهِ سالماً خالصاً، لا أُشْرِكَ فيهِ[5] غَيرَهُ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ يَذْكُرُ لهمُ الوجوهَ التي بها يُوصَلُ إلى معرفةِ شُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ، يقولُ[6]: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خَلَقَ أصْلَكُمْ مِنْ ترابٍ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي خلَقَكُمْ مِنْ نُطْفةٍ، يَذْكُرُ لهمْ هذا لِيُعْلِمَ خَلْقَهُ إياهمْ مِنْ ترابٍ؛ أعني خَلْقَ أصْلِهِمْ ليسَ باسْتِعانةٍ منهُ بذلكَ الترابِ، لأنهُ لو كانَ على الاسْتِعانةِ منهُ لكانَ لا مَعْنَى لِخَلْقِ أنفسِهِمْ مِنَ الماءِ [على الصورةِ التي خَلَقَ مِنْ ترابٍ وعلى جنسِهِ؛ إذْ ليسَ في الماءِ مِنْ آثارِ الترابِ شيءٌ، ولا في الماءِ][7] والنُّطْفةِ مِنْ آثارِ العَلَقةِ شيءٌ، ولا في العَلَقةِ مِنْ آثارِ الطُّفوليَّةِ شيءٌ مِنَ اللحمِ والعظمِ والجلدِ والشعرِ وغَيرِ ذلكَ؛ ليسَ في الترابِ مَعْنَى الماءِ، ولا في الماءِ مَعْنَى الترابِ.

ولو كانَ على الاسْتِعانةِ بذلكَ لَكانَ المَخلوقُ مِنْ أحدِهِما لا يكونُ مِثْلَ المَخْلوقِ مِنَ الآخَرِ في تركيبِهِ وتَصويرِهِ، وهما يَخْتَلِفانِ في نَفْسَيهِما.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَقَلُّبِهِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ وتَبديلِهِ مِنْ نَوعٍ إلى نوعٍ، وليسَ في كلِّ حالٍ تَقَلَّبَ إليها مِنَ الحالِ التي كانَتْ شيءٌ، ولا مِنْ شِبْهِها، لِيُعْلَمَ أنَّ كلَّ ذلكَ إنما كانَ بِقُدْرةٍ ذاتيَّةٍ وعِلْمٍ ذاتيٍّ وتَدْبيرٍ ذاتيٍّ[8] لا باسْتِعانةِ شيءٍ ممّا ذَكَرَ ولا سَبَبٍ لهُ في ذلكَ. ولكنْ كانَ بِمَعْنًى جَعَلَ فيهِ؛ كانَ ذلكَ كذلكَ بوجودِ ذلكَ المَعْنَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي تَبْلُغوا حتى يَشْتَدَّ كلُّ شيءٍ منهُ مِنَ البُنْيَةِ والعقلِ وغَيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي منكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلِ أنْ يَبْلُغَ شيخاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي لِتَبْلُغوا الأجلَ الذي جُعِلَ لَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تَعْقِلونَ ما بَيَّنَ لكُمْ وذَكَرَ لكُمْ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي هو الذي يَخْلُقُ حياةَ كلِّ شيءٍ، ويَخْلُقُ موتَ كلِّ شيءٍ.

وعلى قولِ المعتزلةِ يجوزُ أنْ يُسَمَّى كلُّ عبدٍ مُحْيِياً مُميتاً لِقولِهِمْ: إنَّ القتيلَ ليسَ بميِّتٍ بأجَلِهِ، بل يُمِيتُهُ القاتلُ، وقولِهِمْ: إنَّ المُتَوَلِّداتِ مِنَ الفِعْلِ، هي[9] فِعْلُ ذلكَ الفاعلِ. فَعَلَى قولِهِمْ هذا يجوزُ تَسْمِيةُ كلِّ أحدٍ مُحْيِياً مُميتاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فإنما يُتَرْجِمُ بقولِهِ: ﴿كُن﴾ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهُ كافٌ ونونٌ. فذلكَ تكوينُهُ، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ولم. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: كذلك. (٩) في الأصل وم: هو.

وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ على الإبلاغِ.

الآية ٦٩ [وقولُهُ ﷻ:](١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو حقيقةُ الرُّؤيَةِ والنَّظَرِ.

ويَحتَمِلُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألَمْ تَعْلَمْ؛ معناهُ: ألمْ تَعْلَمْ سَفَهَ الذينَ يُجادلونَ في آياتِ اللهِ أو جَهْلَ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي في دَفْعِ آياتِ اللهِ بِغَيرِ سلطانٍ أتاهُمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي أيُّ حُجَّةٍ تَصْرِفُهُمْ؟ أي صَرَفَتْهُمْ عن آياتِ اللهِ، أو مَنْ أينَ يُصْرفونَ؟ ويُعْرِضونَ عنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ ما تَقَرَّرَ عندَهُمْ أنها آياتُ اللهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي أتاهُمُ الرسُلُ، وكَذَّبوا بما أرْسَلْنا، أي كَذَّبوا أيضاً بما أمَرَهُمُ الرسُلُ بالوَحْيِ مِنْ غَيرِ كتابٍ؛ إذِ الوَحيُ نوعانِ: مَتْلُوٌّ وغَيرُ مَتْلُوٍّ، فلم يكُنْ قولُهُ ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ تفسيراً للكتابِ.

وعلى التأويلِ الأوّلِ قولُهُ: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي الكتابِ فيكونُ تفسيراً لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ لهمْ، أي سوفَ يَعْلَمونَ عِلْمَ عِيانٍ بَعْدَ ما عَلِموا عِلْمَ خَبَرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧١ و٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ ذُكِرَ أنَّ في السلاسلِ ثلاثَ لغاتٍ: الرَّفْعَ والنَّصْبَ والخَفْضَ(٢)؛ فَمَنْ رَفَعَها يقولُ مَعْناهُ: إذْ جُعِلَ الأغلالُ والسلاسِلُ في أعناقِهِمْ، يُسْحَبونَ بها في الحميمِ. ومَنْ قالَ بالخَفْضِ فتأويلُهُ: إذِ الأغلالُ في أعناقِهِمْ، أي تُجْعَلُ الأغلالُ في السلاسِلِ، فَيُسْحَبونَ بها في الحميمِ. ومَنْ قالَ بالنَّصْبِ فكأنهُ(٣) قرَأَ: إذِ الأغلالُ في أعناقِهِمْ والسلاسِلَ يَسْحَبونَ [في الحَميمِ، أي يَسْحَبونَ](٤) السلاسِلَ في الحَميمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُسْجَرُونَ﴾ أي يُجَرّونَ، والحَميمُ قد مَرَّ تأويلُهُ، وهو ماءٌ يُشْرَبُ منهُ، قد انْتَهى حَرُّهُ غايتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يُوقَدونَ. ذَكَرَ ما يُسْقَونَ فيها، وهو الحَميمُ، وذَكَرَ ما يُحْرَقونَ بهِ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي يُجَرّونَ، وصَرْفُهُ: سَحَبَ يَسْحَبُ سَحْباً، أي يَجُرُّ. وقولُهُ: ﴿يُسْجَرُونَ﴾ أي يُوقَدونَ بهِمْ، يقالُ: سَجَرْتُ /٤٨١ ـ أ/ أي أوقَدْتُ فيهِ، وصَرْفُهُ: سَجَرَ يَسْجُرُ سَجْراً.

الآيتان ٧٣ و٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظاهرُ هذهِ الآيَةِ أنَّ هذا القولَ لهمْ بَعْدَ ما دَخَلوا النارَ لأنهُ ذَكَرَهُ على إثْرِ قولِهِ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ فظاهِرُها أنَّ قولَهُ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بَعْدَ دخولِهِمُ النارَ.

وظاهرُ قولِهِ بَعدَ هذا مُتَّصِلٌ بهِ ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦] على أنَّ ذلكَ القولَ إنما يُقالُ لهمْ قَبْلَ أنْ يدخُلوا النارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ هذا القولُ منهمْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على إنكارِهِمْ وجُحودِهِمْ عبادةَ الأصنامِ التي عَبَدوها في الدنيا، وأشْرَكوها إيّاهُ في أُلوهيَّتِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٢٣] بقولِهِ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٩٦] أنْكَروا ما كانَ منهمْ، وأقْسَموا على ذلكَ.

وهذا يدلُّ على أنَّ الآيَةَ لا تَضْطَرُّ أهلَها إلى قبولِ الآياتِ والتَّصْديقِ لها لأنهمْ أنْكَروا أنْ يكونوا مُشْرِكينَ بَعْدَ ما عايَنوا العذابَ، وظَهَرَ لهمْ خَطَؤُهُمْ وكونُهُمْ على الباطلِ، ثم لم يَمْنَعْهُمْ ما عايَنوا مِنَ الكَذِبِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/٥٧و٥٨. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: قولُهُ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ ليسَ على الإنكارِ والجُحودِ، ولكنْ لِما رَأَوا أنَّ عبادَتَهُمُ الأصنامَ لم تَنْفَعْهُمْ يومئذٍ، ولم تُغْنِهِمْ عمّا نَزَلَ بهِمْ، فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أيِ الذي كنا نَعْبُدُهُ في الدنيا، كانَ باطلاً، لم يَكُ شيئاً حينَ لم يَنْفَعْنا ذلكَ في هذا اليومِ.

فإنْ كانَ تأويلُ الآيةِ هذا فهذا يدلُّ على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بعدَ ما دَخَلوا النارَ.

وإنْ كانَ تأويلُهُ الأوّلَ على الإنكارِ والجحودِ فذلكَ يدلُّ على أنَّ ذلكَ القولَ قبلَ أنْ يَدْخُلوا النارَ حينَ تَشْهَدُ عليهِمُ الجوارحُ، وذلكَ يُقَرِّرُ قولَهُ: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي هكذا يُضِلُّ اللهُ مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الكُفْرِ والضّلالِ يُضِلُّهُ، وهو كقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] أي إذْ عَلِمَ منهمُ اختيارَ الانْصِرافِ صَرَفَهُمْ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] أي إذْ عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَختارونَ الزَّيْغَ أزاغَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي ذلكَ جَزَيْتُكُمْ في النارِ بما كُنْتُمْ تُسَرُّونَ في الدنيا بالباطلِ؛ إذْ هُمْ كانوا كذلكَ في الدنيا يَفْرَحونَ، ويُسَرُّونَ على كونِهِمْ على الباطلِ. وقيلَ: يَفرحونَ أي يَبْطَرونَ. لكنْ هو على الفرحِ والرضا بِما اختاروا لأنفسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي وبِما كُنْتُمْ تَتَكَبَّرونَ، كذلكَ كانوا يُسَرُّونَ، ويَرْضَونَ بكونِهِمْ على الباطلِ، ويَتَكبَّرونَ بذلكَ على رسولِ اللهِ ﷺ والمؤمنينَ. والمَرَحُ التَّكَبُّرُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] أي تَكَبُّراً.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الآية، وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ قد ذَكَرْنا هذا أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ كأنهُ قالَ: يَتَوَقَّعُ رسولُ اللهِ ﷺ نزولَ ما وَعَدَ لهمْ، ويَخْطُرُ ذلكَ ببالِهِ، ويَطْمَعُ بذلكَ، فَنَهاهُ عنْ تَوَقُّعِ نزولِ العذابِ الذي وَعَدَ لِلْكَفَرَةِ في الوقتِ الذي يَطْمَعُ فيهِ وعنِ الخَطَرِ ببالِهِ النصرِ لهُ وإهلاكِ أولئك في الوقتِ الذي يَتَوَقَّعُ.

كأنهُ يقولُ: إنْ شِئْنا أريناكَ بعضَ الذي نَعِدُهُمْ، وإنْ شِئْنا تَوَفَّيناكَ، ولم نُرِكَ شيئاً. وهو ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ، أو يتوبَ عليهِمْ، أو يُعَذِّبَهُمْ.

وإلا ظاهرُ قولِهِ: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ حَرْفُ شَكٍّ، لا يُحْتَمَلُ مِنَ اللهِ تعالى؛ إذْ هو يَعْلَمُ أنهُ يُفْعَلُ ذا، أو لا يُفْعَلُ، أو يكونُ [ذا، أو لا يكونُ][(١)].

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَطْمَعُ نزولَ ما وَعَدَ، ويُحَدِّثُ نفسَهُ بذلكَ، فيقولُ لهُ: ليسَ ذلكَ إليكَ، إنما ذلكَ إلينا ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: هذهِ الآيةُ مِنَ المَكتومِ لأنَّ ظاهِرَها[(٢)] شَكٌّ.

وفي الآيةِ دلالةُ الرسالةِ لأنها خَرَجَتْ مَخْرَجَ العِتابِ للنَّبِيِّ ﷺ والتوبيخِ لهُ.

ثم أظْهَرَ ذلكَ على الناسِ، والسَّبيلُ في مِثْلِهِ في عُرْفِ الناسِ الإخفاءُ والإسرارُ عنِ الناسِ، فَدَلَّ أنهُ إنما أظْهَرَ عليهِمُ الأمْرَ بالتبليغِ. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨] إذِ المَرْءُ لا يُظْهِرُ مِثْلَ ذلكَ مِنْ غَيرِ أمرٍ وتكليفٍ مِمَّنْ وَجَبَتْ عليهِ طاعَتُهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ظاهره.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يقولُ: لستَ أنتَ بأوّلِ رسولٍ أُرْسِلْتَ إليهِمْ، فاستَبْعَدوكَ وانْكَروكَ، وكَذَّبوكَ، بل قد أُرْسِلَ إلى الأمَمِ السالفةِ رُسُلٌ مِثْلَ ما أُرْسِلْتَ أنتَ إلى هؤلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ في الآيةِ دلالةُ أنّا لم نُؤخَذْ بِمَعْرِفةِ أعيُنِ الرسلِ وأساميهِمْ على التَّعيينِ كما أنّا لا نُؤخَذُ بالإيمانِ باللهِ تعالى [بجميعِ ما جاءَ منهُ على التَّفصيلِ والتَّعيينِ بأساميهِمْ لكنْ على الجملةِ.

وعلى هذا قُلْنا إنَّ الإيمانَ برسولٍ واحدٍ إيمانٌ بجميعِ الرسلِ؛ إذْ لم يُؤخَذْ منهُ الإنكارُ لِغَيرِهِ على الجملةِ والتَّعيينِ، وكذلكَ الإيمانُ باللهِ تعالى][1] إيمانٌ بالرسُلِ جميعاً، لأنَّ الإيمانَ باللهِ إيمانٌ بأمْرِهِ ونَهيِهِ، فيكونُ إيماناً بِمَنْ جاءَ الأمرُ والنَّهيُ على يَدِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كأنهمْ سالوهُ أنْ ياتِيَ بآيةٍ بَعْدَ آيةٍ على إثْرِ آيةٍ أُخرى، فقالَ عندَ سؤالِهِمْ ذلكَ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ليسَ لرسولٍ أنْ ياتِيَ بالآيةِ على شَهْوَتِهِ أو على شَهْوَةِ السائلِ.

وهذهِ الآيةُ تدلُّ على نَقْضِ قولِ الباطِنيّةِ؛ فإنهمْ يَقولونَ: إنَّ أنفُسَ الرسُلِ جَواهِرُ روحانيّةٌ يأتونَ [بالآياتِ حينَ يشاؤونَ][2] مِنْ غَيرِ إذْنٍ مِنَ اللهِ تعالى ومِنْ غَيرِ سؤالٍ عنها إياهُمْ[3] في وقتِ الإتيانِ.

ولو كانَ الأمْرُ على ما قالوا لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مَعْنىً، وإنهُ مخالفٌ للآيةِ، فإنَّ فيها إخباراً أنهُ لا يأتي الرسُلُ بالآياتِ إلّا بإذْنٍ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي إذا جاءَ الأمرُ بعذابِ اللهِ، وإذا جاءَ الأمرُ بِمَوعودِ اللهِ، يُعَبِّرُ بالأمْرِ عنِ المَوعودِ الذي أُوعِدوا، وقد ذَكَرْنا مَعْنى الخُسْرانِ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ذَكَّرَهُمْ بهذهِ الآيةِ وبالآيةِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها [نِعَمَهُ][4] بوجهَينِ:

أحدُهما: يُذَكِّرُهُمُ النِّعَمَ[5] التي أنْعَمَها عليهِمْ حينَ[6] قالَ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] مِنْ فضلِهِ، وقالَ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤] ثم قالَ ههنا: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ذَكَّرَهُمْ أوّلاً بَدْءَ إنشائِهِمْ [حينَ قالَ][7]: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وفيهِ دلالةُ وَحْدانيَّتِهِ وعِلْمِهِ وتَدْبيرِهِ وقدرتِهِ. ثم ذَكَّرَهُمْ [نِعْمَةً][8] مِنْ بَعْدِ نِعْمَةٍ إلى آخِرِهِ لِيَسْتادِيَ بذلكَ شُكْرَهُ وحَمْدَهُ على ذلكَ. هذا وجهٌ.

والثاني: يُذَكِّرُهُمْ أنهُ إنما أنشأَ هذهِ الأشياءَ التي ذَكَرَها، وعدَّها / ٤٨١ ـ ب/ عليهِمْ للبَشَرِ، لم يُنْشِئْها لأنفسِها، كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: قد أنشَأْتُ هذهِ الأشياءَ لكمْ، تَنْتَفِعونَ بها، وتَسْتَعْمِلونها كيفَ شِئْتُمْ. فما بالُكُمْ أشَدُّ إنكاراً وكُفراً بالنِّعْمَةِ مِنْ غَيرِكُمْ مِنَ العالَمِ؟ وسائرُ العالَمِ أشَدُّ خُضوعاً واسْتِسْلاماً لِنِعَمِهِ والقِيامِ بِشُكْرِها لهُ.

ثم في الآيةِ نَقْضُ قولِ المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: ليسَ للهِ تعالى أنْ يؤلِمَ طِفْلاً [وأنْ يُحرِّمَ نعمةً][9] إلّا بِعِوَضٍ يُعَوِّضُها. ثم لا شَكَّ أنَّ ما سَخَّرَ مِنَ الأنعامِ والدوابِّ للبَشَرِ، ومَكَّنَ لهمُ اسْتِعْمالَها والانْتِفاعَ بها أنواعَ المَنافِعِ أنها تتأذّى، وتَتألَّمُ بذلكَ. فَيَجِبُ على قولِهِمْ ألّا يكونَ للهِ تعالى أنْ يُؤلِمَ إلّا بِعِوَضٍ، تَرْضَى بِهِ هذهِ الأشياءُ؛ إذْ هكذا حُكْمُ كلِّ مَجْعولٍ بِعِوَضٍ أنْ يُشتَرَطَ رِضا أربابِها في العِوَضِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بها الآية حيث شاؤوا. (٣) في الأصل وم: إياه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: النعمة. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ونعما.

وإذا لم تكنْ هذهِ الأشياءُ مِنْ أهلِ الرِّضا [يجوزُ ألّا يَجِبُ][1] التعويضُ. فَدَلَّ أنَّ ذلكَ بناءٌ على ما قُلْنا مِنْ أنَّ الأصلَحَ ليسَ بواجبٍ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم جَعَلَ مَنافِعَها مُخْتَلِفَةً منها الركوبُ ومنها الأكلُ وغَيرُ ذلكَ مِنَ الإنْتِفاعِ بصوفِها وَوَبَرِها، وما أعْطى لهمْ أيضاً مِنَ السُّفُنِ يركبونَ بها البِحارَ لِيَصِلوا إلى حوائِجِهِمْ في الأمصارِ التي بَعُدَتْ منهم، ونَأَتْ، فَضْلاً منهُ ومِنَّةً.

الآية ٨٠ فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنهُ أراهُمْ آياتِ وحدانِيَّتِهِ والوهيَّتِهِ، وأراهُمْ آياتِ نِعَمِهِ وإحسانِهِ إليهِمْ ونَحْوَها. يقولُ: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أراكُمْ [إياها][2] تُنْكِرونَها [وتقولونَ:][3] إنها ليسَتْ مِنَ اللهِ تعالى؟

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قد ذَكَرْنا مَعْناهُ في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي كانوا أكْثَرَ عدداً منكُمْ وأشَدَّ في القوةِ والبَطْشِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أكْثَرَ أعمالاً منكُمْ، ثم كانتْ عاقِبَتُهُمُ الهلاكَ والإستئصالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يقولُ: لم يُغْنِ عنهمْ كَثْرَةُ العَدَدِ والحَشَمِ والأموالِ، ولا قوةُ الأبدانِ في دفعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ. فأنتمْ يا أهلَ مكةَ أحَقُّ ألّا تَقْدِروا على دفعِ العذابِ عنْ أنفسِكُمْ إذا نَزَلَ بكُمْ مع ضَعْفِكُمْ وقِلَّةِ عَدَدِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم﴾][4] وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي فَرِحوا بما عندَهُمْ أنهُ عِلْمٌ، وليسَ هو في الحقيقةِ عِلْمٌ. لكنْ عندَهُمْ أنَّ ذلكَ عِلْمٌ، وهو كقولِهِ: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] أي انْظُرْ إلى إلهِكَ الذي هو عندَكَ إلهٌ، وإلّا لم يكُنْ ذلكَ عندَ موسى ﷺ إلهاً. ولكنْ ذَكَرَ على ما عندَ ذلكَ الرجلِ للتعريفِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي بما عندَهُمْ أنهُ عِلْمٌ، وإنْ لم يكُنْ في الحقيقةِ عِلْماً، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حقيقةِ العِلْمِ، وذلكَ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ قد كانَ مِنْ أهلِ الكتابِ الإيمانُ بما عندَهُمْ مِنَ الكتابِ، وهو في الحقيقةِ عِلْمٌ، لا شَكَّ فيهِ، لكنهمْ لمّا كَذَّبوا غَيرَهُ مِنَ الكتبِ والعلومِ، وكَفَروا بها لم يَنْفَعْهُمْ إيمانُهُمْ بما عندَهُمْ مِنَ العِلْمِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ٩١] كانَ إيمانُهُمْ بما أُنْزِلَ إليهمْ حقاً[5]، لكنهمْ لمّا كَفَروا بغيرِهِ أبطَلَ ذلكَ الكُفْرُ إيمانَهُمْ بالذي أُنْزِلَ إليهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يَحيقُ بهِمُ العذابُ بما كانوا يَسْتَهْزِئونَ بالرسلِ[6].

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَيْنِ:

[أحَدُهما:][7] أنْ يكونَ هذا القولُ منهمْ وما ذَكَرَ مِنَ الإيمانِ منهمْ إذا رَأوا بأسَ اللهِ بَعْدَ وفاتِهِمْ في قُبورِهِمْ أي عذابَ اللهِ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهذا يدلُّ على عذابِ القبرِ لِمَنْ شاءَ اللهُ تعالى في حقِّهِ العذابَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ منهمْ في حياتِهِمْ حينَ رَأَوا بأسَ اللهِ في الدنيا آمَنوا بما ذَكَروا.

---

(١) في الأصل وم: بحيث ألّا يجوز. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حق. (٦) الباء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يحتمل.

فإنْ كانَ ذلكَ في الحياةِ فلم يَنْفَعْهُمْ إيمانُهُمْ لمّا رأَوا بأسَنا، وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ هذا في سورةِ يونسَ[1] على الاسْتِقْصاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:][2] ألّا يُقْبَلَ الإيمانُ عندَ رؤيةِ بأسِ اللهِ ومُعايَنَةِ عذابِهِ.

والثاني: كذلكَ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ مِنَ التعذيبِ والانْتِقامِ مِنْ مُكذِّبي الرسلِ في الدنيا واسْتِئصالِهِمْ. يُخَوِّفُ أهلَ مكةَ بِما أنْزَلَ إليهِمْ[3] لِيَحْذَروا مِثْلَ صنيعِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي خَسِرَ عندَ ذلكَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

(١) في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ إلى قوله ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [الآيتان: ٥٠و٥١]. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إليك.

[سورة ﴿حمٓ﴾ فصلت

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ظاهرُ هذا أنَّ تفسيرَ ﴿حمٓ﴾ هو قولُهُ: ﴿تَنزِيلٌ﴾ و﴿حمٓ﴾ خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ مُقدَّرٍ ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأً ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ١ و: ٢].

والأصلُ في الحَواميمِ[2] وسائرِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ أنها تَبعَثُ سامِعَها على التَّفَكُّرِ والتَّأمُّلِ، لأنهُ لا يَفهَمُها وقتَ قَرْعِها[3] السَّمْعَ حتى يَتأمَّلَ، ويَتفكَّرَ فيها، لأنها كلامٌ، لم[4] يَسمعوهُ قبلَ ذلكَ، فَيَحمِلَهُمْ ذلكَ على الاِستِماعِ والتَّفَكُّرِ فيها والنَّظَرِ، فَيَقَعَ ما هو المَقصودُ مِنَ الخِطابِ في سَماعِهِمْ، ويَعْرِفوا وجْهَ الإعجازِ، فَيَتَوصَّلوا بذلكَ إلى الحقِّ. وقد ذَكَرْنا في الحروفِ المُقَطَّعةِ وجوهاً في ما تَقَدَّمَ.

ثم ذَكَرَ ههنا رحمَتَهُ ورأفَتَهُ لِيُرَغِّبَهُمْ في ما يَرْحَمُهُمْ، ويَرْأفُ بهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وذَكَرَ في السورةِ الأولَى عِزَّهُ وقُدرَتَهُ / ٤٨٢ ـ أ/ وسُلْطانَهُ وعِلْمَهُ لِيَحْذَروا مُخالَفَتَهُ وعِصْيانَهُ ظاهراً وباطناً حينَ[5] قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ لِيَطْلُبوا العِزَّ مِنْ عندِهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي بُيِّنَتْ [ما][6] فيهِ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ ومالهِمْ وما عليهِمْ وما يُؤْتَى وما يُتَّقَى ونَحْوَهُ.

وعندَنا يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي فُرِّقَتْ كلُّ آيةٍ مِنَ الأُخرَى: مِنْ نحوِ آيةِ التوحيدِ، فَرَّقَتْ مِنْ آيةِ الرسالةِ، وفُرِّقَتْ آيةُ البَعْثِ مِنْ غَيرِها.

والثاني: يَحتَمِلُ التفريقُ في الإنزالِ، أي فُرِّقَتْ آياتُهُ في الإنزالِ؛ لم يَجمَعْ بينَها في الإنزالِ، ولكنْ فَرَّقَها[7] في أوقاتٍ مُتَباعِدَةٍ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بُيِّنَتْ على غَيرِ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، وهو أنْ بُيِّنَتْ آياتُهُ بالحُجَجِ والبراهينِ حتى يُعْلَمَ أنها آياتٌ مِنَ اللهِ تعالى:

وقولُهُ تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ أي أنْزَلَهُ بلسانٍ يَعْلَمونَهُ، ويَفْهَمونَهُ، لا بِلِسانٍ لا يَعْلَمونَهُ، ولا يَفْهَمونَهُ، أي أنْزَلَهُ بِلِسانِهِمْ.

ويَحتَمِلُ ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ أي يَنْتَفِعونَ بِعِلْمِهِمْ، أي [جَعَلَ][8] إنزالَهُ لِقَومٍ يَنْتَفِعونَ. فأمّا مَنْ لم يَنْتَفِعْ بهِ فلم يَجْعَلِ الإنزالَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حواميم، (٣) من م، في الأصل: وقوعها. (٤) في الأصل وم: لا. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فرق. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ رضي الله عنه: قرآناً عربياً لِقومٍ يَعْقِلونَ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ البِشارةُ والنِّذارةُ، هي ما تكونُ في العاقبةِ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، أو يُقالُ: البِشارةُ، هي الدعاءُ إلى ما يوجِبُ لهمْ مِنَ الحَسَناتِ والخَيراتِ في العاقبةِ، والنِّذارةُ، هي الزجْرُ عمّا يوجِبُ لهمْ مِنَ السَّيِّئاتِ والمَكروهاتِ في العاقبةِ. فصارَ مَعْنى الآيةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُرسِلَ داعياً إلى الحَسَناتِ وزاجراً عنِ السَّيِّئاتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ إعراضُهُمْ عنهُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أعْرَضوا عنِ التَّفَكُّرِ فيهِ والتَّأَمُّلِ.

والثاني: أعْرَضوا عنِ اتِّباعِهِ بَعدَ ما تأمّلوا فيهِ، وتفَكَّروا، وتَبيَّنوا[1] أنهُ حقٌّ وأنهُ مِنَ اللهِ تعالى. لكنهمْ تَرَكوا اتِّباعَهُ عِناداً منهمْ ومُكابَرَةً حَذَراً مِنْ ذهابِ الرئاسةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يُجيبونَ على كلِّ ما ذَكَرْناهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ لا شَكَّ أنَّ قلوبَهُمْ على ما ذَكَروا أنها في أكِنَّةٍ، وفي آذانِهِمْ وَقْراً، لأنهُ ذَكَرَ جَلَّ، وعَلا، أنهُ جَعَلَ على قلوبِهِمْ أكِنَّةً وفي آذانِهِمْ وَقْراً حينَ[2] قالَ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥و...] على ما أخْبَرَوا أنَّ قلوبَهُمْ في أكِنَّةٍ وأغْطِيَةٍ[3]، وفي آذانِهِمْ وَقْراً، لا يَفْقَهونَ ما يُدْعَونَ إليهِ، ولا يَسْمَعونَ ذلكَ، وإنْ كانوا يَفْقَهونَ غَيرَهُ، ويَسْمَعونَ، لأنهمْ كذلكَ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ إنْ ثَبَتَ ما ذَكَرَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ أنَّ ثوباً رَفَعوا في ما بَينَهُمْ وبَينَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: كُنْ أنتَ يا محمدُ في جانبٍ، ونكونُ نحنُ في جانبٍ آخَرَ، ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ، فهو ذلكَ، وإلّا احْتَمَلَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ هو ما حَجَبَتْهُمْ ظُلْمَةُ الكُفرِ، وغَطَّتْهُمْ، عنْ فَهمِ ما دُعُوا إليهِ وعِلْمِ ما دَعاهُمْ إليهِ محمدٌ[4] ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: اعْمَلْ أنتَ بدينِكَ فإنّنا عامِلونَ بدينِنا كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

والثاني: فاعْمَلْ أنتَ في كَيدِنا فإنا عامِلونَ [في كَيدِكُمْ والمَكْرِ بكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ أنْ يقولوا: اعْمَلْ أنتَ لإلهِكَ فإنّنا عامِلونَ][5]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ [وقولُهُ ﷻ:][6] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا الحرفُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: كأنهُ يقولُ لهمْ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أفْهَمُ، وأعْقِلُ [ما][7] ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ واسْمَعُ ذلكَ. فأنتمْ في قولِكُمْ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ لا عُذْرَ لكمْ في ذلكَ لأنهُ إنما يَحْجُبُكُمْ عنْ ذلكَ، ويُغَطّي قلوبَكُمْ عنْ فَهمِ ذلكَ، الكُفْرُ الذي أنتمْ عليهِ والضلالُ الذي أنتمْ فيهِ. فاتْرُكوا ذلكَ حتى تَفْهَموا، وتَعْقِلوا، ما تُدْعَونَ إليهِ، وتُؤْمَرونَ بهِ كما أفْهَمُ أنا، واعْقِلُ، إذْ ﴿أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي إنما ﴿أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أُمِرْتُ أنْ أُبَلِّغَكُمْ[8] ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ وإلّا لو [لم أومَرْ][9] بتبليغِ الرسالةِ إليكُمْ إنما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ لكُنْتُ أتْرُكُكُمْ وما أنتمْ عليهِ لِقولِكُمْ[10]: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: وأعرضوا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وغطاء. (٤) من م، في الأصل: وعلم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أبلغ إليكم. (٩) في الأصل وم: أمر. (١٠) في الأصل وم: كقولكم.

على هذَين الوجْهَين تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ قالَ بعضُهُم: أي فاستقيموا إليهِ بالطاعةِ. وقيلَ: أي استقيموا إلى ما دَعاكُمْ إليهِ مِنَ التوحيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ أي انتَهُوا عمّا أنتمْ عليهِ مِنَ الكُفْرِ والضلالِ لِيَغْفِرَ لكُمْ ما كانَ منكُمْ في حالِ الكُفْرِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويَحْتَمِلُ: أي كونوا على حالٍ بحيثُ يَقْبَلُ اسْتِغفارَكُمْ وطَلَبَ تَجاوُزِكُمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ والإشكالُ أنهُ لماذا خصَّ المُشْرِكَ الذي لم يُؤْتِ الزكاةَ، ويُنْكِرُ الآخِرَةَ بالوَيلِ، وقد يَلْحَقُ الوَيلُ بالمُشْرِكِ آتى الزكاةَ، أو لم يُؤْتِ، آمَنَ بالآخرةِ، أو كَفَرَ بها.

فنقولُ: قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: مَعْناهُ ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الذينَ لا يؤمِنونَ بإيتاءِ الزكاةِ، ولا يؤمِنونَ بالآخِرَةِ، وخَصَّهُمْ بِذِكْرِ جُحودِ الزكاةِ لِما كانَ سببُ كُفْرِهِمْ مُخْتَلِفاً:

منهمْ [مَنْ][1] كانَ سببُ كُفْرِهِ بُخلَهُ في المالِ وشُحَّهُ، حَمَلَهُ ذلكَ على إنكارِ الزكاةِ والامْتِناعِ عنِ الإتيانِ.

ومنهمْ مَنْ كانَ كُفْرُهُ إنكارَ جَزاءِ الأعمالِ، حَمَلَهُ ذلكَ على إنكارِ الآخِرَةِ.

ومنهمْ مَنْ كانَ سببُ كُفْرِهِ الخضوعَ لِمَنْ دونَهُ أو مِثْلِهِ في أمرِ الدنيا، حَمَلَهُ ذلكَ على إنكارِ الرسالةِ والجُحودِ لها.

وغيرُ ذلكَ مِنَ الأسبابِ التي حَمَلَتْهُمْ على الكُفْرِ والضلالةِ، وهي مُخْتَلِفَةٌ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا على زكاةِ الأموالِ ولكنْ على زكاةِ الأنفسِ، كأنهُ يقولُ: ووَيلٌ لِلْمُشركينَ الذينَ لا يَعْمَلونَ، ولا يَسْعَونَ في ما بِهِ تَزْكو أنفسُهُمْ، ويَشْرُفُ ذِكْرُها، وتَصْلُحُ أعمالُهُمْ بهِ، ولا يُجْزَونَ[2] بهِ في الآخِرَةِ، أي وَيلٌ لِمَنْ لا يَعْمَلُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وهذانِ الوجهانِ جوابُ عَمَّنْ تَعَلَّقَ بظاهرِ هذهِ الآيةِ.

على أنَّ الكفارَ يُخاطَبونَ بالشرائعِ حينَ[3] أُلحِقَ الوعيدُ بهمْ بِتَرْكِ إيتاءِ الزكاةِ، والزكاةُ مِنَ الشرائعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي غَيرُ مَقطوعٍ، وذلكَ في الآخِرَةِ؟

وقالَ بعضُهُمْ: أي غَيرُ مَحْسوبٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي غَيرُ مُمْتَنٍّ عليهِمْ، وذلكَ في الآخِرَةِ أيضاً، ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ يُزادُ لهمْ في الآخِرَةِ على قَدْرِ أعمالِهِمْ، ولا يُمَنُّ عليهِمْ بتلكَ الزيادةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي غَيرُ مَنقوصٍ ولا مَمْنوعٍ. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ مَنْ كانَ يَعْمَلُ في حالِ شَبابِهِ وقوتِهِ الصالحاتِ و الطاعاتِ، ثم كَبِرَ، وعَجِزَ عنْ إتيانِها فإنهُ[4] لا يُمْنَعُ، ولا يُنْقَصُ منهُ الأجرُ الذي كانَ يُجْرى عليهِ، ويُكْتَبُ لهُ في حالِ شبابِهِ وقوتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ / ٤٨٢ ـ ب/ تأويلُ هذهِ الآيةِ كما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ الآية[البقرة: ٢٨] وهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: كيفَ تُنْكِرونَ وَحْدانيّتَه، وتَكْفُرونَهُ، وهو الذي أحياكُمْ، لا الأصنامُ التي تَعْبُدُنَها؟

والثاني: [كيفَ][5] تُنْكِرونَ قُدْرَةَ اللهِ في البَعْثِ، وقد رأيتُمْ قدرَتَهُ في ابْتِداءِ[6] إنشائكُمْ وتَقْليبِكُمْ منْ حالٍ إلى حالٍ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في م: ما. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ابتدائه.

والثالثُ: كيفَ تَكْفُرونَ برسولِهِ، وقد خَلَقَكُمُ اللهُ تعالى، وامْتَحَنَكُمْ بأنواعِ المِحَنِ، وكلَّفَكُمْ[١]، وأمَرَكُمْ بأوامِرَ ونَواهٍ ما لو لم يَكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ [يقومُ بها][٢] لا يُمْكِنُكُمُ القِيامُ بأكثَرِها، وكانَ خَلْقُهُ إياكمْ عَبَثاً؟

فَعَلَى هذهِ الوجوهِ يُخَرَّجُ [قولُهُ][٣]: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الآية؟.

[أحدُها][٤]: أإنَّكُمْ لتكفُرونَ، وحدانيَّةَ اللهِ، وقد خلقَ الأرضَ في يومينِ وما ذكَرَ؟.

والثاني: أإنكمْ لَتَكْفُرونَ، وتُنْكِرونَ قدرَتَهُ على البعثِ، وقد خَلَقَ الأرضَ في يومَينِ على [بُعْدِ][٥] أطرافِها وَسَعَتِها؟ فكيفَ تُنْكِرونَ قُدرَتَهُ على البَعْثِ، وقد رأيتُمْ قُدرَتَهُ على خَلْقِ ما ذَكَرَ؟

والثالثُ: أإنَّكُمْ لَتَكْفُرونَ نِعَمَ[٦] اللهِ التي أنْعَمَها عليكُمْ مِنْ خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنَ الأرضِ وغَيرِها وما أنعمَ عليكمْ مِنْ بعثِ الرسولِ ﷺ فكيفَ تصْرِفونَ شكرَها إلى غيرِ الذي لم يَفْعَلْ ذلكَ لكمْ؟ وتُنْكِرونَ رسالةَ رسولِهِ؟ ولا بُدَّ مِنْ رسولٍ، يُرْسَلُ إليكُمْ، وذلكَ مِنْ أعظمِ النِّعَمِ وأجَلِّها.

ويُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ على هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا:

أحَدُها: في إنكارِ وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ.

والثاني: في إنكارِ قُدرَتِهِ على البَعْثِ.

والثالثُ: في إنكارِهِمْ رسالةَ الرسولِ وصَرْفِهِمْ شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيْرِهِ بِعِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ.

ثم الحِكْمةُ في خَلْقِ الأرضِ وجَعْلِهِ الحَدَّ الذي ذَكَرَهُ يومَينِ، وإنْ كانَ قادراً على خَلْقِ كلِّ شيٍ بِلا تَحْديدٍ ولا تَوقيتٍ [ما قالَ][٧] بعضُهُمْ: فيهِ تَعْريفُهُ الخَلْقَ وتعليمُهُمُ[٨] الأناةَ في الأمورِ وتَرْكَ الاِسْتِعْجالِ فيها.

والأصلُ في ذلكَ عندَنا أنَّ اللهَ، جلَّ، وعلا، جَعَلَ أمْرَ الدنيا وأمْرَ هذا العالَمِ على التَّحْديدِ والتَّقْليبِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ نَحْوَ ما ذَكَرَ مِنْ تَقْليبِهِ وتَغْييرِهِ مِنْ حالِ النطفةِ إلى حالِ العَلَقَهِ ومِنْ حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المُضْغَةِ ومِنْ حالِ المُضْغَةِ إلى حالِ تَرْكيبِ الجَوارحِ ثم إلى إنسانٍ ثم [مِنْ][٩] تلكَ الحالِ إلى أنْ يَكْبُرَ؛ يُقَلِّبُهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخْرَى.

وكذلكَ أمْرُ الدنيا وما فيها مِنَ الفواكِهِ والنباتِ وغَيرِ ذلكَ، يُنْشِئُها، ويُحْدِثُها في كلِّ عامٍ، وإنْ كان لو شاءَ لأحْدَثَها في عامٍ واحدٍ أو ساعةٍ واحدةٍ، وأبْقاها إلى آخِرِ الأبَدِ.

لكنْ لم يَفْعَلْ ذلكَ لِما بَنَى هذا العالَمَ على الفَناءِ والفَسادِ يَضْرِبانِ هذهِ الأحوالَ عليها على الأصلِ والوَضْعِ.

ولذلكَ رَكَّبَ فيهِمُ المَرَضَ والسُّقْمَ والسلامةَ والصِّحَّةَ، وبَنَى أمْرَ الآخِرَةِ على البقاءِ والدوامِ.

فَعَلَى ذلكَ أمْرُ[١٠] التَّحْديدِ في خَلْقِ الأرضِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُقالَ: جَعَلَ التَّحْديدَ والتَّقْديرَ لأنها دارُ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٍ. والاِبْتِلاءُ إنما يَقَعُ على التَّوقيتِ والتَّقْديرِ في أوقاتٍ مُتَبايِنَةٍ وأسبابٍ مُخْتَلِفَةٍ.

فأمّا الآخِرَةُ فلا مِحْنَةَ فيها، ولا بَلِيَّةَ، فهي على الدَّوامِ والبَقاءِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جَعَلَ في الأرضِ جبالاً أرْسَى بها الأرضَ، وأثْبَتَها، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ الأرضَ كانَتْ على الماءِ، وكادَتْ تَميدُ بأهلِها[لولا أنهُ][١١] أرساها بالجبالِ، وأقَرَّها بها.

وفيهِ نوعُ تَعْليقِها[١٢] لأنهُ مَعْلومٌ أنَّ الجبالَ التي [أثْبَتَ][١٣] بها الأرضَ [وأقَرَّها بها][١٤] كانَتْ تزيدُ في ثِقَلِ الأرضِ:

---

(١) من م، في الأصل: وكلفهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: نعمة. (٧) في الأصل وم: فقال. (٨) في الأصل وم: والتعليم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: من. (١١) في الأصل وم: لكنه. (١٢) في الأصل وم: وها. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: وأقربها.

فالسيلُ فيهِ التَّرَسُّبُ في الماءِ والانْحِدارُ فيهِ، لا الإثباتُ بها والإقرارُ. لكنهُ جَعَلَ الجبالَ سَبَبَ إثباتِ الأرضِ وإقرارِها تعليماً منهُ الخَلْقَ تَعْليقَ الأشياءِ بَعْضِها ببعضٍ وتَعليقَها بالأسبابِ مِنْ غيرِ أنْ تكونَ الأسبابُ معونةً له على ذلكَ. ولو شاءَ أثبَتَها، وأرساها بلا سببٍ ولا شيءٍ عَلَّقَهُ بها[1]. لكنهُ عَلَّقَ الأشياءَ بالأشياءِ والأسبابِ لِما ذَكَرْنا مِنْ تَعليمِ الخَلْقِ تَعليقَ[2] الأشياءِ بالأسبابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي في الجبالِ؛ فقد جَعَلَ اللهُ تعالى فيها البَرَكاتِ الكثيرةَ: منها المياهُ تَخْرُجُ منها، ومنها العُيونُ، ومنها الذهبُ والفضةُ وغيرُهما، ومنها الثمارُ والأشجارُ التي يُنْتَفَعُ بها وأنواعُ النباتِ التي تَصْلُحُ للأدويةِ وغيرُ ذلكَ مِنَ المَنافِعِ التي يَكْثُرُ عَدُّها وإحصاؤُها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي في الأرضِ [فقد جَعَلَ اللهُ، تعالى، في الأرضِ][3] البركاتِ الكثيرةَ مِنَ المياهِ التي تَخْرُجُ منها وأنواعِ النباتِ والثمارِ وغيرِ ذلكَ مِمّا بها قِوامُ الخَلْقِ جميعاً وغذاؤُهم مِنَ البَشَرِ والدَّوابِّ، واللهُ أعلَمُ.

والبركةُ، هي اسْمُ كلِّ خيرٍ يكونُ أبداً على الزيادةِ والنَّماءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي قَدَّرَ في الأرضِ أقواتَ أهلِها وأرزاقَهُم في أربعةِ أيامٍ سَواءً للسائلينَ.

قالَ الزَّجّاجُ في قولِهِ: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ثلاثُ لغاتٍ: بالنَّصْبِ والرَّفْعِ والخَفْضِ:

فَمَنْ خَفَضَهُ: سَواءٍ للسائلينَ صَيَّرَهُ صِفَةً ونَعْتاً للأيامِ، كأنهُ قالَ: في أربعةِ أيامٍ سَواءٍ للسائلينَ، أي مُسْتَوِياتٍ، ليسَ بعضُها أطوَلَ مِنْ بَعْضٍ.

ومَنْ قَرَأَهُ بالنَّصْبِ ﴿سَواءً﴾ صَيَّرَهُ مَصْدَراً أي سَواءً وتَسْوِيَةً.

ومَنْ قَرَأَهُ بالرَّفْعِ [سَواءٌ][4] صَيَّرَهُ على الابْتِداءِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، أي تلكَ الأقواتُ التي قَدَّرَها سَواءٌ لِلْمُحتاجينَ، أي كِفايَةٌ لهمْ على قَدْرِ حاجَتِهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: مَنْ سَأَلَ عنْ ذلكَ وَجَدَهُ كما قالَ اللهُ، تعالى، ويقولُ ابْنُ عباسٍ ﷺ: وأنا مِنَ السائلينَ. فكانَ قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ ما ذَكَرْنا أي كِفايَةً للسائلينَ المُحْتاجينَ على السَّواءِ.
وقالَ بَعْضُهُمْ: عَدْلاً للسائِلِينَ.

والعَدْلُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: العَدْلُ الذي يُناقِضُ الجَورَ، أي عَدْلٌ للسائلينَ، أي ليسَ يَجورُ.

والثاني: عَدْلاً للسائلينَ، أي سَواءً؛ يقولُ لِمَنْ يَشاءُ الرِّزْقَ مِنَ السائِلينَ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لِمَنْ يَسْأَلُ عَنْ خَلْقِهِ ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ للسائِلينَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ مَقاديمِ الكلامِ. يقولُ: قَدَّرَ فيها أقواتَها سَواءً في أربعةِ أيامٍ للسائلينَ. تلكَ الأوقاتُ والأرزاقُ سَواءٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في هذا مَسْألتانِ:

إحداهُما: في تكوينِ الخَلْقِ وإحداثِهِ [والثانيةُ][6] ما ذَكَرَ مِنْ تَقْديرِ الأقواتِ في الأوقاتِ.

فَعِنْدَنا أنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ مُكَوِّناً مُحدِثاً، وما[7] كانَ، ويكونُ، إلى آخِرِ الأبدِ إنما يكونُ بِتكوينٍ كانَ منهُ [في الأزلِ][8] لا بِتَكوينٍ يَحْدُثُ منهُ في كلِّ وقتٍ يَحْدُثُ المُكَوَّنُ والخَلْقُ.

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: تعليم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٦٤.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وإن. (٨) في الأصل وم: وفي الأول.

والأصلُ في ذلكَ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ إذا أُضيفَتِ الأوقاتُ إلى فِعْلِها، فتكوينُ التوقيتِ للخَلْقِ؛ أعني لِلْمَفعولِ، لا لِفِعْلِهِ لِما ذَكَرْنا أنهُ لا حاجةَ تَقَعُ لهُ في المعونةِ بشيءٍ ممّا ذَكَرَ مِنَ التَّوقيتِ، وإنما ذَكَرَ ذلكَ لئلّا يُتَوَهَّمَ قِدَمُ المَفعولِ والخَلْقِ، ولِيُعْلَمَ أنهُ مُحْدَثٌ.

مسألةٌ أخرى في ذِكْرِ التَّحديدِ والتَّوقيتِ في خَلْقِ ما ذَكَرَ لِحِكْمَةٍ، جَعَلَ في ذلكَ مِنْ غَيرِ أنْ يَصْعُبَ عليهِ خَلْقُ ذلكَ /٤٨٣ ـ أ/ في ساعةٍ أو طَرْفَةِ عينٍ؛ إذِ المَعْنَى في خَلْقِ ما ذَكَرَ في أيامٍ وأوقاتٍ؛ ذِكْرُ ذلكَ [في طَرْفَةِ][1] عينٍ موجودٌ على السَّواءِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ بذاتِهِ قادرٌ بذاتِهِ، لهُ قُدْرَةٌ ذاتيَّةٌ وعِلْمٌ ذاتيٌّ لا مُستفادٌ فالأوقاتُ إنما يَحتاجُ إليها مَنْ كانَ يعملُ بقدرةٍ مُستفادةٍ وعلمٍ مُسْتَفادٍ اسْتِعانةً لهُ بذلكَ.

فأمّا اللهُ ﷻ فما[2] يكونُ منهُ إنما يكونُ بِقُدْرةٍ ذاتيَّةٍ وعِلْمٍ ذاتيٍّ، لا حاجةَ تَقَعُ [لهُ][3] إلى الاِسْتِعانةِ بشيءٍ مِنْ ذلكَ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا ثَمَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أربعةُ الأيامُ التي ذَكَرَ، هي مع خَلْقِ الأرضِ، يَومانِ لِخَلْقِ الأرضِ ويَومانِ لِتَقديرِ الأقواتِ لِأهلِها والأرزاقِ، فتكونُ أربعةً.

ثم ذَكَرَ لِخَلْقِ السمواتِ يومَينِ؛ فإذا جُمِعَتْ تكونُ ستةَ أيامٍ، وهي[4] ما ذَكَرَ في [آياتٍ أُخَرَ][5] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣ و...] فكانَ تمامُ ذلكَ في ستةِ أيامٍ في غَيرِ موضعٍ[6].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما[7]: ثم اسْتوتِ المَنافِعُ والأقواتُ التي قَدَّرَها في الأرضِ، وجَعَلَ مَعايِشَ أهلِها بالسماءِ، لأنهُ جَعَلَ مَنافعَ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ السماءِ، ما لولا السماءُ لم تَسْتَوِ مَنافعُ الأرضِ وما قَدَّرَ لهمْ فيها. فَبالسماءِ اسْتَوَى ذلكَ لهمْ، أي تَمَّ ذلكَ[8]، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ثم اسْتَوَى الهواءُ والجَوُّ الذي بَينَ الأرضِ والسماءِ إلى السماءِ، ما لولا ذلكَ الهواءُ لم يَسْتَوِ [ذلكَ][9] لأنَّ السماءَ لو كانَتْ مُلْتَزِقَةً بالأرضِ، لا هواءَ بَينَهما لكانَتْ لا تُخرِجُ ما جَعَلَ في الأرضِ مِنَ الأقواتِ والمَعايِشِ. فبالهواءِ اسْتَوَى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهُمْ مَنْ يَصْرِفُ الاِسْتِواءَ إلى اللهِ ﷻ ومَعْنَى ذلكَ اسْتَوَى أمْرُهُ ومُلْكُهُ بِخَلْقِ السماءِ، واسْتَوَى المقصودُ بِخَلْقِ الأرضِ وأهلِها وما فيها بِخَلْقِ السماءِ.

وأمّا التأويلانِ اللذانِ ذَكَرْناهما فَيَتَوَجَّهانِ[10] إلى غَيرِ ذلكَ [وجهَينِ][11]:

أحَدُهما: يَرْجِعُ[12] إلى اسْتِواءِ الهواءِ. والثاني: [يَرْجِعُ][13] إلى اسْتِواءٍ في الأرضِ.

وعلى هذا يُخَرَّجُ ما سُئِلَ ابْنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما عنهُ[14]: رُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ ابْنَ عبّاسٍ رضي الله عنهما فقالَ: قرأتُ آيتَينِ إحداهُما تُخالِفُ الأُخرى، فقالَ لهُ: مِنْ قِبَلِ رأيِكَ أُتيتَ؟ ما هما؟ فقالَ ذلكَ السائلُ: قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ٩ إلى ١١] وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ إلى ٣٠]

فَمُرادُ السائِلِ أنَّ ظاهرَ الآيةِ الأُولَى أنهُ خَلَقَ الأرضَ قَبْلَ خَلْقِ السماءِ، وفي ظاهِرِ الآيةِ الثانيةِ أنهُ خَلَقَ السماءَ، ثم خَلَقَ الأرضَ. فقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما خَلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السماءَ، فَدَحا الأرضَ بعدَ ما خَلَقَ السماءَ، واللهُ أعلَمُ؛ أرادَ بهِ بَسْطَ الأرضِ بعدَ خَلْقِ السماءِ، فأمّا خَلْقُ أصلِ الأرضِ [فهو][15] قَبْلَ خَلْقِ السماءِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: آية أخرى. (٦) يونس: ٣، هود: ٧، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: بذلك. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: رجع. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: عندنا. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

وعندنا أنْ ليسَ [في][1] ظاهرِ هاتَينِ الآيتَينِ مُخالَفةٌ، ولا فيهِ بَيانُ أنهُ خَلَقَ الأرضَ قَبْلَ السماءِ، ولا هذا بَعْدَ هذا، لأنهُ ذَكَرَ ههنا أنهُ ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ثم قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ٩ و١١] ذِكْرُ الإسْتِواءِ إلى السماءِ ليسَ فيهِ أنهُ خَلَقَها بَعْدَ خَلْقِ الأرضِ، بل فيهِ أنهُ[2] اسْتَوَى إليها بَعْدَ خَلْقِها، وليسَ فيهِ إثباتُ خَلْقِها قَبْلَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ بعضُهُمْ: دلَّ قولُهُ: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي شِبْهُ الدُّخانِ، لا حقيقةُ الدُّخانِ، ومنهُ خَلَقَ السماءَ والأرضَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿ٱئْتِيَا﴾ أعطِيا ما جَعَلْتُ[3] فيكما مِنَ المَنافِعِ والأقواتِ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ أنهُ على التَّكْوينِ والتَّسْخيرِ خِلْقَةً، أي أنْشَاهما، وخَلَقَهُما على إخراجِ ما فيهما مِنَ المنافعِ والأقواتِ والأرزاقِ التي جَعَلَ فيهما، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الطَّوعِ والكَرْهِ لا قولاً منهُ لهما وأمْراً، لكنهُ طَبَعَهُما، وأنْشَاهما كذلكَ على حقيقةِ القَولِ والأمْرِ منهُ لهما نَحْوَ ما ذَكَرَ لكلِّ شيءٍ مِنَ الجبالِ وغَيرِها أنهُ يُسَبِّحُ للهِ تعالى على الوجهَينِ.

لكنْ شَرَطَ خَلْقَ الحياةِ التي لا بُدَّ منها لِلنُّطْقِ والسَّماعِ[4]. فَعَلَى ذلكَ ههنا.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي ائْتِيا عِبادتي ومَعْرِفَتي؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى حينَ خَلَقَهُما عَرَضَ عليهما الطاعةَ والشَّهْوةَ واللَّذّاتِ على الثوابِ والعقابِ ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] فهذا الإباءُ، [والطاعةُ هي طاعةُ][5] الخِلْقَةِ والتكوينِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي خَلَقَهُنَّ في يومَينِ؛ هو مَوصولٌ بقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [الآية: ٩] وكذلكَ بقولِهِ[6] تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [الآية: ١٠] وقد ذَكَرْنا الوجوهَ في ذلكَ.

ثم الأُعْجوبةُ في خَلْقِ السمواتِ ورَفْعِها أعظَمُ وأكبَرُ مِنْ خَلْقِ الأرضِ، وقد ذَكَرَ في خَلْقِ السمواتِ مِنَ الوقْتِ مِثْلَ الوقْتِ الذي ذَكَرَ في الأرضِ، وهو يومانِ لِيُعْلَمَ أنَّ الوقْتَ الذي ذَكَرَ في ذلكَ ليسَ لِما يَتَعَذَّرُ عليهِ ذلكَ، ويَصْعُبُ بدونِ ذلكَ الوقتِ، ولكنْ لِحِكْمَةٍ جَعَلَها في ذلكَ، لم يُطْلِعِ الخَلْقَ على ذلكَ، أو كانتِ الحِكْمَةُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ وهُمُ الملائكةُ الذينَ جَعَلَهُمْ أهلاً لها. وقالَ بعضُهُمْ: أي أمَرَ كلَّ أهلِ سماءٍ أمْرَها، وامْتَحَنَهُمْ بِمِحْنَةٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هو ممّا أمَرَ بِهِ، وأرادَ، وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي بالكواكِبِ، وقولُهُ: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي دنَتْ منكُمْ، هي مُقابِلُ القُصْوَى، مِنَ الدُّنُوِّ، ليسَ أنَّ هذهِ السماءَ التي نَراها، ونُشاهِدُها مُزَيَّنَةً بالكواكبِ، هي سماءُ الدنيا فانيةٌ، وغَيرُها مِنَ السماءِ الآخِرَةِ، لا تَفْنَى، بل كُلُّها تفْنَى، هذهِ وغَيرُها بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقولِهِ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] فهي[7] كلُّهُنَّ دُنْيَوِيّاتٌ فانِياتٌ. دَلَّ أنَّ قولَهُ: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي التي دَنَتْ منكُمْ، وهي مُقابِلُ القُصْوَى لا مُقابِلُ الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي حَفِظْناها [وجعلْناها][8] مَحفوظَةً بما ذَكَرَ مِنْ أنْ يَسْتَرِقَ الشياطينُ والجِنُّ أسماعَهُمْ إلى خَبَرِ السماءِ وما يَتَحَدَّثُ بهِ الملائكةُ في ما بَينَهُمْ، فَيُلْقونَ ذلكَ على أسماعِ أهلِ الأرضِ على ما كانوا يَفْعَلونَ مِنْ قَبْلُ، أي حَفِظْناها بالكواكِبِ التي جَعَلَ فيها لِتَرْمِيَهُمُ الكواكبُ، وتَقْذِفَهُمْ، لِيكونَ سماعُ ذلكَ مِنْ جِهَةِ الوَحْيِ عَنْ لِسانِ الرسولِ ﷺ دونَ إلقاءِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إنما. (٣) في الأصل وم: جعل. (٤) في الأصل وم: والسماء. (٥) في الأصل وم: والإعطاء هو إعطاء. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) ساقطة من الأصل، في م: وحفظنا.

مَنْ ذَكَرَ، وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حينَ[1] قالَ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الآية [الصافات: ٦و٧و٨].

[والثاني][2]: ﴿وَحِفْظًا﴾ أي حَفِظْناها على ما هي حتى لا تَسْقُطَ على الخَلْقِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] وقولِهِ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ يقولُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذَكَرَ كلُّهُ، وصَنَعَ، هو ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي تَقديرُ مَنْ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي تَقديرُ مَنْ لهُ العِزُّ الذاتيُّ والعِلْمُ الأزَلِيُّ، لا أنهُ قَدَّرَ ذلكَ، وصَنَعَ، لِيَسْتَفيدَ بذلكَ العِزَّ والعِلْمَ؛ إذْ هو عزيزٌ بذاتِهِ، وعليمٌ /٤٨٣ ـ ب/ بذاتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ كانَتْ مَعْروفَةً عندَهُمْ، ظاهرةً أنها نزلَتْ بهِمْ. دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أنَّ صاعقةَ عادٍ [وثمودَ][3] كانَتْ مَعْروفةً عندَهُمْ ظاهرةً أنها نَزَلَتْ بهِمْ لِتَكْذيبِهِمُ الرسلَ وتَرْكِهِمْ إجابَتَهُمْ إلى ما دُعُوا إليهِ حينَ[4] خَوَّفَ هؤلاءِ بذلكَ؛ كأنهُ يقولُ: أنْذَرْتُكُمْ بِتَكْذيبِكُمْ إيّايَ وتركِكُمْ إجابتي إلى ما دَعَوْتُكُمْ إليهِ بالذي نَزَلَ بِعادٍ وثمودَ وتكذيبِهِمُ الرسولَ الذي أُرسِلَ إليهِمْ وتركِهِمُ الإجابةَ إلى ما دُعُوا إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ لم يُرِدْ بهِ عَينَ عذابِ أولئكَ ومِثْلَهُ في رَأْيِ العَينِ، ولكنْ مِثْلَهُ في الهلاكِ والاِسْتِئْصالِ.

ألا تَرَى أنَّ عذابَ عادٍ وثمودَ مختلفانِ[5] في رأيِ العينِ عذابُ عادٍ خِلافُ عَذابِ ثَمودَ، وهما[6] في المعنى واحدٌ. فَعلَى ذلكَ ما أوعَدَ هؤلاءِ بِمِثْلِ عَذابِ عادٍ وثمودَ، لم يُرِدْ مِثْلَهُ في رَأْيِ العَينِ، ولكنْ في المَعْنَى، وهو كما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] وقولِهِ تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠] لم يُرِدِ التَّشابُهَ والمُضاهاةَ على أنَّ نفسَ القولِ منهُمْ، وأنَّ الكلامَ كانَ واحداً، بل كانَ سَبَبُ كُفْرِهِمْ مُخْتَلِفاً، وقولُ هؤلاءِ خِلافَ قولِ أولئكَ، وما كانَ مِنْ هذا الفريقِ خِلافَ ما كانَ مِنَ الفريقِ الآخَرِ.

لكنْ ما كانَ التكذيبُ منْ هؤلاءِ لهُ كالتكذيبِ مِنْ أولئكَ، والرَّدُّ لهُ مِنْ هؤلاءِ كَهُوَ مِنْ أولئكَ في أنْ كانَ كُفراً واحداً سَواءً.

فَمِنْ هذهِ الجِهَةِ وَصَفَ قلوبَهُمْ بالتَّشابُهِ وأقوالَهُمْ بالمُضاهَاةِ. وهذا يدلُّ على أنَّ الاِسْتِواءَ مِنْ جِهَةٍ واحدةٍ يُوجِبُ التَّشابُهَ والتَّماثُلَ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ بِنَبَإِ مَنْ كانَ [قَبْلَهُمْ][7] ونَبَإِ مَنْ كانَ بَعْدَهُمْ أنهم جميعاً قالوا لقومِهِمْ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

والثاني: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ بالوعيدِ والتَّخويفِ بعذابٍ يَنْزِلُ بهِمْ ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي مِنْ حَيثُ يَرَونَهُ، ويَعْلَمونَهُ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي مِنْ حيثُ لا يَرَونَهُ، ولا يَعْلَمونَهُ. وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧و٩٨] ونَحْوُهُ.

وقيلَ: يَبْعَثُ اللهُ الرسلَ قَبْلَهُمْ وبَعْدَهُمْ بالذي ذَكَرَ، وهو الدعاءُ إلى التوحيدِ للهِ وجَعْلِ العِبادةِ له، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: مختلفا. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ هذا القولُ منهُمْ يُناقِضُ قولَهُمْ وتَكْذيبَهُمُ الرسلَ وإنكارَهُمْ رسالةَ البَشَرِ وطَمَعَهُمْ رسالةَ الملائكةِ [لوجهَينِ:

أحَدُهما:][(١)] لأنهمْ ما عَرَفوا الملائكةَ، ولا عايَنوهُمْ[(٢)]. فإنما عَرَفوا الملائكةَ، وعَلِموا بِمكانِهِمْ بِرُسُلِ البَشَرِ، فكيف أنْكَروا رسالَتَهُمْ مع ما لو كانَ الرسُلُ إليهمُ الملائكةَ، لم يَعْرِفوا أنهمْ ملائكةٌ إلّا بِقولِهِمْ لِما لم تَتَقَدَّمْ لهمُ المعرفةُ بالملائكةِ. [فهذا][(٣)] يُناقِضُ إنكارَهُمُ الرُّسُلَ مِنَ البَشَرِ.

والثاني: ما قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قد أقَرُّوا رسالَتَهُمْ حينَ[(٤)] قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لأنهمْ لم يقولوا: إنّا بِما جِئْتُمْ بِهِ إلينا كافرونَ، ولكنْ قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. فذلكَ مِمّا يُناقِضُ قولَهُمْ، ويَرُدُّ تكذيبَهُمْ، أعني قولَهُمْ: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ تَعَنُّتاً وعِناداً، وإلّا قد عَلِموا أنهمْ رُسُلُ اللهِ، فَيُناقِضونَ [بذلكَ ما][(٥)] قالوا على التَّعَنُّتِ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ جائزٌ أنْ يكونَ اسْتِكْبارُهُمْ في الأرضِ بِغَيرِ الحقِّ على أهلِ الأرضِ بما ذَكَروا مِنْ فَضلِ القوةِ لهمْ وشِدَّتِها مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] فهمْ ذَكَروا ذلكَ. فجائزٌ أنْ يكونَ اسْتِكْبارُهُمْ على أهلِ الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ لِشِدَّةِ بَطْشِهِمْ وقوتِهِمْ على غَيرِهِمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ اسْتِكْبارُهُمْ [على الرسُلِ][(٦)] وأتباعِ الرسُلِ، فلم يَرَوا أنفسَهُمْ أنْ يَجْعَلوها تَحْتَ تدبيرِ الرسلِ وأمْرِهِمْ وأنْ يَخْضَعوا لهم، ويَسْتَسْلِموا لِما دَعَوهُمْ إليهِ ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ هذا اسْتِفهامٌ على طريقِ التقريرِ؛ معناهُ: قَدِّروا، واعْلَموا أنَّ اللهَ الذي خَلَقَكُمْ[(٧)] هو أشَدُّ قُوَّةً. والرسُلُ لم يكونوا يُوعِدونَهُمْ، ويُخَوِّفونَهُمْ بِقُوى أنفسِهِمْ ولا بِعذابٍ يكونُ منهمْ حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ولكنْ إنما كانوا يُوعِدونَهُمْ، ويُخَوِّفونَهُمْ بِعذابٍ يَنْزِلُ مِنْ عندِ اللهِ، وبِقوتِهِ وسُلْطانِهِ يُوعِدونَهُمْ، وقد عَرَفوا قُوَّتَهُ وسُلْطانَهُ.

لِذلكَ قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ دلَّ هذا على أنهمْ قد كَذَّبوا هوداً، وأنْكَروا آياتِهِ، وكذلكَ قولُهُمْ: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] وأنهُ قد أتاهُمْ بآياتِ رسالتِهِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ ذَكَرَ ما أهْلَكَهُمْ مِنَ العذابِ، وهو الريحُ الصَّرْصَرُ الباردةُ. كذا قالَ أبو عَوسَجةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ وهو ما ذَكَرَ في سورةِ الحاقةِ حيثُ قالَ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦و٧] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِها: قالَ بعضُهُمْ: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مَشْؤوماتٍ نَكِداتٍ، وهو قولُ القُتَبِيِّ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ أي شِدادٍ. وقيلَ ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مِنَ النَّحْسِ، يُقالُ: نَحِسَ فلانٌ[(٨)]. والنَّحْسُ الغبارُ في الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي عذاباً يُذِلُّهُمْ، ويَفْضَحُهُمْ عندَ الخَلْقِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ عليهمْ أذَلُّ وأفْضَحُ وأشَدُّ مِنْ عذابِ الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ لا يُنْصَرونَ بِقُوَّتِهِمُ التي كانَتْ لهمْ، [واعْتَمَدوا عليها بِقَولِهِمْ][(٩)]: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ويَحْتَمِلُ لا يُنْصَرونَ بالأصنامِ التي عَبَدوها على رَجاءِ النَّصْرِ لهمْ والشفاعةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عاينوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: بما. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: خلقهم. (٨) في الأصل وم: مؤمنا. (٩) في الأصل وم: واعتمدت عليهم بقوتهم.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الهدايةِ لهمْ حقيقةَ الهُدَى، وهو التوفيقُ، وحقيقةِ خَلْقِ الاهْتِداءِ فيهِمْ، فصاروا مُهْتَدينَ، وهو ما سَألوا مِنَ الآيةِ، وهي الناقةُ. فلمّا أتاهمْ ما سَألوا آمَنوا بهِ، وصَدَّقوهُ، ثم كَفَروا بهِ بعدَ ذلكَ، وكَذَّبوهُ، وعَقَروا الناقةَ على ما ذَكَرَ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي بَيَّنّا لهمْ غايةَ ما يَتَبَيَّنُ الحقُّ مِنَ الباطلِ بما يَعْرِفُهُ كلُّ ذي لُبٍّ وعقلٍ أنها آيةٌ وأنها مِنَ اللهِ تعالى حينَ جاءَتْهُمُ الآيةُ التي سألوها على الإشارةِ والتَّعْيينِ، وهي الناقةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الكُفرَ على الهُدَى، واختاروا ما بهِ يَعْمَونَ على ما يُبَيِّنُ لهمْ.

ثم أخبرَ عمّا نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ باختيارِهِمُ العَمَى على الهُدَى، وهو ما قالَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي عذابٍ يُهانُونَ فيهِ، وهو مِنَ الهَوانِ والإذلالِ. وكلُّ عذابِ اللهِ صاعقةٌ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي نَجَّينا الذينَ اختاروا الهُدَى على العَمَى، وكانوا يَتَّقونَ اختيارَ العَمَى على الهُدَى.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي يُجمَعُ، الحَشْرُ الجَمْعُ، يُجْعلونَ في النارِ، وهو كقولِهِ ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُساقونَ / ٤٨٤ ـ أ/ كقولِهِ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] وقالَ بعضُهُمْ: يُوزَعونَ أي يُدْفَعونَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] والوَزْعُ الدَّفْعُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يُحْبَسونَ، أي يُحْبَسُ أوّلُهُمْ على آخِرِهِمْ حتى إذا اجْتَمَعوا جميعاً فعندَ ذلكَ يُجْعَلونَ في النارِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كأنهمْ يوقَفونَ، ويُحْبَسونَ في مكانٍ، فَيُعايِنونَ النارَ، فَيُسْألونَ عمّا كانوا يَعْمَلونَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] فيُنْكِرونَ ما كانَ منهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولِهِ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [غافر: ٧٤] فعندَ ذلكَ يُنْطِقُ اللهُ جوارِحَهُمْ، فَتَشْهَدُ عليهمْ بما عَمِلوا وما كانَ منهمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَجُلُودُهُم﴾ كِنايةٌ عنِ الفُروجِ، وهو قولُ الحَسَنِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إذ لا كلُّ شيءٍ [يَنْطِقُ؛ ذَكَروا كلَّ شيءٍ][1] وأرادوا بهِ الخاصَّ لا العامَّ، واللهُ أعلَمُ. وكانَ غيرُ هذا أقرَبَ: يقولونَ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يَعْصونَ اللهَ تعالى [به][2] وهو [الذي يُنْطِقُ][3] الأشياءَ التي بها عَصَوا ربَّهُمْ، وهي الأصنامُ التي عَبَدوها وغيرُها ممّا عَبَدوا دونَ اللهِ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[4] وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الفرقان: ١٧] وقولِهِ: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وما ذَكَرَ مِنْ أخبارِ الأرضِ وحَديثِها بما عَمِلوا عليها بقولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] وغيرِ ذلكِ مِنَ الآياتِ التي فيها بَيانُ أنهُ يُنْطِقُ اللهُ تعالى الأشياءَ التي عَبَدوها، وعَصَوا بها ربَّهُمْ. فَعَلَى ذلكَ يُنْطِقُ اللهُ الجوارحَ التي بها عَصَوا ربَّهُمْ، فَتَشْهَدُ عليهمْ بجميعِ ما كانَ منهمْ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: أي ما كُنْتُمْ تَعْلَمونَ، وتَسْتَيْقِنونَ ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الظَّنُّ ههنا على هذا التأويلِ حقيقةُ الظَّنِّ أو الجَهْلِ، أي ولكنْ جهِلْتُمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ما ينطق الله. (٤) في الأصل وم: نحشرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح ٤/ ٢٧٧.

فلو كانَ تأويلُ الآيةِ ما ذَكَرَ هؤلاءِ ففيهِ دلالةٌ أنَّ العذابَ قد يَلْزَمُ، ويَجِبُ، وإنْ جهِلَ [المَرْءُ][1] ذلكَ، ولم يَتحقَّقْ عندَهُ العلمُ به بحيثُ إمكانُ الوصولِ إلى عِلْمِ ذلكَ ومعرفتِهِ بالنظرِ والتأمُّلِ والتفكُّرِ بِغَيرِ ذلكَ مِنَ الأسبابِ. لكنهُ تَرَكَ التأمُّلَ فيهِ، فلم يَعْلَمْ ذلكَ، فلم يُعْذَرْ بِجَهْلِهِ. وهكذا الحُكْمُ أنَّ مَنْ مُكِّنَ لهُ العِلْمُ وأسبابُ المعرفةِ، فلم يَتكلَّفْ معرفتَهُ، لم يُعْذَرْ في جَهْلِهِ.

ولهذا قالَ أبو حنيفةَ في الأطفالِ: أنْ لا عِلْمَ لي لهمْ لِما لا يُعْلَمُ أنهمْ قد بَلَغوا المَبْلَغَ الذي يُدرِكُونَ الأشياءَ بالتأمُّلِ والتَّفكُّرِ أم لا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي كُنْتُمْ لا تَقْدِرونَ[2] أنْ تَسْتَتِروا مِنْ سَمْعِكُمْ ولا أبصارِكُمْ ولا جُلودِكُمْ، فأحدٌ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَسْتَتِرَ مِنْ نفسِهِ إذا عَمِلَ شيئاً، فذلكَ ظَنُّكُمُ الذي ﴿ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ في السِّرِّ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي وذلكُمْ جهلُكُمْ على ما ظَنَنْتُمْ[3] بأنَّ اللهَ تعالى لا يَعْلَمُ ذلكَ، وهو لا يَخْفَى عليهِ خافيةٌ. فَظَنُّكُمْ ذلكَ أرداكُمْ، أي أغواكُمْ، وأضَلَّكُمْ عنِ الهُدَى.

وقالَ قتادةُ: يا ابْنَ آدمَ إنَّ عليكَ لَشهوداً غَيرَ مُبْهَمَةٍ مِنْ يَديكَ، فَراقِبْهُمْ، اتَّقِ اللهِ في سِرِّ أمْرِكَ وعَلانِيَتِكَ فإنهُ لا تَخْفَى عليهِ خافيةٌ: الظُّلْمَةُ عندَهُ ضَوءٌ والسِّرُّ عندَهُ عِلانِيَةٌ، ومَنِ اسْتَطاعَ أنْ يموتَ، وهو باللهِ حَسَنُ الظَّنِّ، فَلْيَفْعَلْ، ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ. ثم قالَ: الظَّنُّ ظَنَّانِ: ظَنٌّ مُنجٍ، وظَنٌّ مُرْدٍ؛ فأمّا المُنجي فقولُهُ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] وما قالَ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقه: ٢٠].

وأمّا الظَّنُّ المُرْدي فقولُهُ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] وقولُهُ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] ونَحْوُهُ.

وقالَ[4]: وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ، ويُحدِّثُ ذلكَ عن ربِّهِ: «عبدي أنا عندَ ظَنِّكَ بي وأنا مَعَكَ إذا دَعَوتَني» [الحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٧].

وقالَ الحَسَنُ: إنما عَمِلَ الناسُ على قَدْرِ ظُنونِهِمْ بربِّهِمْ. فأمّا المؤمنُ فأحْسَنَ بربِّهِ الظَّنَّ، فأحْسَنَ العَمَلَ، وأمّا الكافرُ والمُنافِقُ فأساءَا الظَّنَّ، فأساءَا العَمَلَ، ثم تَلاَ قولَهُ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآيةَ، وقالَ: الجلودُ كِنايةٌ عنِ الفُروجِ. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وما كُنْتُمْ تَخْشَونَ، وفي حَرْفِ أُبَيٍّ وابْنِ مَسْعودٍ: ولكنْ زَعَمْتُمْ أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كذا، وكذا في حرفِهِما: فذلكُمْ زعمُكُمُ الذي زَعَمْتُمْ، والزَّعْمُ في كلامِ العربِ الكَذِبُ، وفيهِ يُسْتَعْمَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أهْلَكَكُمْ، والرَّدَى الهَلاكُ. وقيلَ: أوردوا[5] المَهالكَ. ويَحْتَمِلُ ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أي أغواكُمْ، وأضَلَّكُمْ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ[6]:

أحدُهما: أي فإنْ يَصْبِروا على ما همْ عليهِ مِنَ الأعمالِ إلى أنْ خُتِموا بهِ فالنارُ مَثْوىً لهمْ في الآخِرَةِ.

والثاني: أي فإنْ يَصْبِروا في الآخِرَةِ فالنارُ مَثْوىً لهمْ، أي لا يَنْفَعُهُمُ الصبرُ على ذلكَ، ولا يكونُ الصبرُ سببَ الفَرَجِ عنْ ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: خَبَراً عنهمْ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] فيكونُ أحدُ التأويلَينِ في الدنيا، والثاني في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: وإنْ يَسْتقيلوا ما كانَ منهمْ فَما هُمْ مِنَ المُقالِينَ، أي [لايُقالُ][7] ذلكَ منهمْ، ولا يُرْضَى عنهمْ، وإنِ اسْتَرْضَوا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تقتدرون. (٣) في الأصل وم: صنعتم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أورد. (٦) في الأصل وم: الوجهين. (٧) في الأصل وم: أتقال.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ الآية [الزخرف: ٣٦] ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾: قالَ بعضُهُمْ: هَيَّأنا لهمْ في الدنيا قُرَناءَ مِنَ الشياطينِ وغيرِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: أي مَكَّنّا للشياطينِ حتى يَقْذِفوا في قلوبِهِمْ مِنَ الوَساوِسِ وغيرِها، أو كلامٌ نَحْوُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: أي خَلَّينا بينَهُمْ وبينَ الشياطينِ يَعْملونَ[1] بهِمْ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حَسَّنوا لهمُ التكذيبَ بالآخرةِ والحسابَ والثوابَ والعِقابَ، أي ألْبَسوا[2] ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حَسَّنوا لهمْ أمْرَ الدنيا وأنها دائمةٌ باقيةٌ.

وقيلَ: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ما يُريدونَ أنْ يَعْمَلوا مِنْ بَعْدُ.

وقيلَ[3]: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما عَمِلوا بأنفسِهِمْ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما سَنُّوا لِغَيرِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يَحْتَمِلُ: وَجَبَ عليهِمُ القولُ بالعذابِ والسخطِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي مَعَ أممٍ، وذلكَ جائزٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ أي منْ هؤلاءِ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ مِنَ الأمَمِ الخاليةِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي لا تَسْمَعوا أنتمْ بأنفسِكُمْ ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ لِئلا تُسْمَعَ منهُ قراءَتُهُ ولا صوتُهُ. دلَّ هذا القولُ على أنهم قد عَرَفوا أنهُ حُجَّةٌ، وأنهُ منْ عندِ اللهِ جاءَ، وأنَّ مَنْ سَمِعَ ذلكَ أذْعَنَ لهُ، وأطاعَ[4]، إذا لم يُكابِرْ عقلَهُ. ولهذا قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ لئلا يُذْعَنَ [لهُ][5] ولا يُطاعَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ بالمُكاءِ والتَّصْدِيَةِ، وكانوا يَفْعلونَ ذلكَ لِيَخْلِطوا عليهِ صلاتَهُ وقراءَتَهُ، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بالمُكاءِ والتَّصْدِيةِ / ٤٨٤ ـ ب/ [﴿تَغْلِبُونَ﴾ كقولِهِ][6] ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لَنُذيقَنَّ الذين كفروا، وداموا على الكفرِ حتى ماتوا على ذلكَ. فأمّا منْ كَفَرَ في وقتٍ، ثم تركَ ذلكَ، وأسْلَمَ فليسَ له ذلكَ.

ثم مِنَ الناسِ منْ يقولُ: إنَّ قولَهُ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أرادَ بهِ في الدنيا وقولَهُ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لهمْ محاسِنُ في الدنيا. لكنَّ تلكَ المحاسنَ تَبْطُلُ، ولا يُجْزَونَ بها شيئاً، وإنما يُجْزَونَ على المساوِئِ التي عَمِلوها في الدنيا، لأنّ المحاسِنَ إنما تَثْبُتُ، وتَبْقى، ويُسْتَوجَبُ بها الجزاءُ إذا أتوا بالإيمانِ والتوحيدِ، فإذا لم يأتوا به لم يَنْتَفِعوا بتلكَ المَحاسِنِ، ولم يُجْزَوا بها.

وقد ذَكَرَ للمؤمنينَ مُقابِلَ ذلكَ أنهُ[7] يُكَفِّرُ عنهم سَيِّئاتِهِمْ، ويَجْزيهِمْ[8] بأحسنِ ما كانوا يَعْملونَ، وهو قولُهُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] وقولُهُ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وَعَدَ المؤمنِينَ تكفيرَ المساوئِ التي عَمِلوا في الدنيا والجزاءَ لهمْ بالمحاسِنِ التي عَمِلوها، وأوعَدَ[9] الكافرينَ إسقاطَ محاسِنِهِمْ والجزاءَ على مَساوِئِهِمْ لما لم يأتوا بالإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ ذلكَ في الآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل: يعلموا، في م: علموا. (٢) في الأصل وم: ليس. (٣) في الأصل وم: والثالث. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لقوله. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: يجزوا. (٩) في الأصل وم: ووعد.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ قولُهُ: ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي دارُ البقاءِ؛ يَبْقَونَ فيها أبداً، فيكونُ اسماً للجنةِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في الجنةِ دارٌ وموضِعٌ، يُسَمَّى دارَ الخُلْدِ، فيكونُ اسْمَ مَوضعٍ خاصٍّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذي أضلَّهُمْ مِنَ الجنِّ هو إبليسُ، لأنهُ أوَّلُ مَنْ عَصى اللهَ تعالى، وسَنَّ لهمْ ذلكَ، ومِنَ الإنسِ وَلَدُ آدمَ الذي قَتَلَ أخاهُ، لأنهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ.

ولكنْ عندَنا أنهمْ سألوا أنْ يُرِيَهُمُ [اللَّذَينِ أضلاهُمْ][1]: كُلَّ جِنِّيٍّ، يُوَسْوِسُ، ويَقْذِفُ في قلوبِهِمُ الوَساوِسَ والمَساوِئَ، وكلَّ إنسِيٍّ، يَدْعوهُمْ ظاهراً إلى الضلالِ. وهكذا كلُّ ضالٍّ وكافرٍ، إنما كانَ ذلكَ الضلالُ والكُفْرُ لِوساوِسَ مِنْ جِنِّيٍّ أو تَلْقينٍ مِنْ إنسِيٍّ بِلِسانِهِ، سَألوا اللهَ تعالى أنْ يَجْعَلَهُمْ ظاهِرينَ، فَيَجْعَلوهُمْ تحتَ أقدامِهِمْ لِما يكونُ العذابُ في كلِّ ما كانَ أسْفَلَ أشَدَّ.

لِذلكَ سألوا ذلكَ، وهو ما سَألوا ربَّهُمْ زيادةَ العذابِ لهمْ في أيِّ حينٍ[2] قال: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقولِهِ [في آيةٍ أُخرى][3]: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١] فَعلَى ذلكَ سؤالُ هؤلاءِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ رُوِيَ عنْ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ﷺ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ [أنهُ][4] قالَ: «أُمَّتي أُمَّتي؛ لأنَّ اليهودَ قالوا: ربُّنا اللهُ، ثم قالوا: عُزيرٌ ابْنُ اللهِ، وأنَّ النصارى قالوا: ربُّنا اللهُ، ثم قالوا: المَسيحُ ابْنُ اللهِ، وإنَّ أُمَّتي قالوا: ربُّنا اللهُ، ولم يُشْرِكوا بهِ أحداً».

فإنْ ثَبَتَ ذلكَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعَنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ فهو تفسيرُ الاِسْتِقامةِ التي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ في الإخلاصِ العملِ لهُ والقيامِ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداءِ الفرائضِ والشّرائعِ والحدودِ.

وقيلَ: [قولُهُ][5] ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ في الطاعاتِ لهُ والاِسْتِقامةِ [يَحْتَمِلُ][6] وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: في الاِعْتِقادِ: اعْتَقَدوا ألا يَعْصُوهُ، ويَجْتَنِبوا جميعَ ما يُخالِفُ أمْرَهُ ونَهْيَهُ.

والثاني: اسْتَقاموا في اجْتِنابِ ما أعْطَوا بِلِسانِهِمْ: أنهُ ربُّنا اللهُ، وقاموا بوفاءِ ما أعْطَوا بلسانِهِمْ قولاً وفِعْلاً.

والثالثُ: قاموا في جميعِ الأعمالِ مُخْلِصِينَ للهِ تعالى، لم يُشْرِكوا فيها [أحداً ولا أعْطَوا][7] لأحدٍ نَصيباً مِنَ المُراآةِ غَيرِها، بل [جَعَلوهُ][8] خالصاً للهِ تعالى سالِماً، واللهُ أعلَمُ بما أرادَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ عند قَبْضِهِمُ الأرواحَ في الدنيا يُبَشِّرونَهُمْ[9] بما ذَكَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: تقولُ لهمُ الملائكةُ يومَ القِيامةِ عندَ مُعايَنَتِهِمُ الأهوالَ والأفزاعَ لِتَسْكُنَ بذلكَ قُلوبُهُمْ عندَ تلكَ الأهوالِ والشدائدِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي لا تَخافوا ما أمامَكُمْ، ولا تَحْزَنوا على ما خَلَّفْتُمْ مِنَ الأهلِ والأولادِ. وقيلَ: لا تَخافوا ما تُقْدِمونَ عليهِ مِنَ الموتِ وأمرِ الآخرةِ، ولا تَحْزَنوا على ما خَلَّفْتُمْ[10] مِنْ أهلٍ أو دينٍ. وقالَ بعضُهُمْ: لا تَخافوا مِنَ العذابِ، ولا تَحْزَنوا على فَوتِ ما وُعِدْتُمْ مِنَ النعيمِ، فإنها دائمةٌ، لا تَفوتُ، ولا تَنْقَطِعُ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ على ألْسُنِ الأنبياءِ والرسُلِ ﷺ فَمَنْ قالَ: إنَّ البِشارةَ التي ذَكَرَ في الدنيا عندَ قَبْضِ الأرواحِ، وقد[11] ذُكِرَ في الخَبَرِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ» [مسلم

---

(١) في الأصل وم: الذي أضلهم. (٢) في الأصل وم: أخرى حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: أحد. (٨) في الأصل وم: يبشر لهم. (٩) في الأصل وم: يبشر لهم. (١٠) في الأصل وم: خلفتموا. (١١) في الأصل وم: فلما.

٢٩٥٦] لأنَّ المؤمنَ، تُرَى لهُ الجنةُ، ويُبَشَّرُ بها في ذلكَ الوقتِ، فتَصيرُ الدنيا لهُ سِجناً لِما عايَنَ ممّا هُيِّئَ لهُ، وجُعِلَ لهُ الثوابُ، والكافرَ لِما أُرِيَ[1] لهُ مكانَهُ في النارِ، أو بُشِّرَ به[2] في ذلكَ الوقتِ، صارَتْ لهُ الدنيا جنةً.

وعلى ذلكَ قولُهُ ﷺ «مَنْ أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحَبَّ لِقاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ لِقاءَهُ» [البخاري: ٦٥٠٧و٦٥٠٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هذا يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا القولُ مِنَ الذينَ بَشّروهُمْ بِما بَشّروا؛ يقولونَ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

[والثاني: يُشبِهُ أن يكونَ][3] ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى، وإنْ كانَ المذكورُ على إثْرِ البِشارةِ الملائكةَ، وذلك كَقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥٠و٥١].

ثم إنْ ذلكَ كانَ مِنَ اللهِ ﷻ فيكونُ تأويلُهُ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ في عِصمَتِكُمْ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وأولَى بكُمْ في الآخِرَةِ في المَعونَةِ. أو يقولُ: نَحْنُ أولَى بكمْ في النَّصرِ والتَّوفيقِ في الدنيا والجزاءِ والثوابِ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ ذلكَ مِنَ أولئكَ الذينَ بَشَّروهُمْ فيقولونَ[4]: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالصُّحْبةِ، فكذلكَ نكونُ في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي لَكُمْ ما تَرْغَبُ فيه أنفُسُكُمْ، وتَتوقُ إليهِ.

[والثاني][5]: لَكُمْ فيها ما تَتَلَذَّذُ بِهِ أنفُسُكُمْ، وتَتَنَعَّمُ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ قيلَ: ما تَتَمَنَّونَ، وتَسألونَ، أو يقولُ: ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ مِنَ الدَّعْوَى.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نُزُلًا﴾ أي رِزقاً / ٤٨٥ ـ أ/ ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ وهو مِنَ الأنزالِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نُزُلًا﴾ أي إنزالاً في المَنْزِلِ ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ كأنهُ يقولُ: ومَنْ أحسَنُ مَذهباً وسِيرَةً ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى توحيدِ اللهِ ودينِهِ، أو دَعا إلى المَعروفِ، ونَهَى[6] عنِ المُنكَرِ، أي دَعا غَيرَهُ إلى ذلكَ، وعَمِلَ بنفسِهِ.

وهذا الحَرفُ يَجمَعُ جميعَ الخَيراتِ والطاعاتِ.

فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ على ما ذَكَرْنا مِنَ المذاهبِ والسِّيرةِ فكأنهُ يقولُ: ومَنْ أحكَمُ وأتقَنُ مَذهباً وسِيرَةً مِمَّنْ ذَكَرَ؟

وإنْ كانَ على حقيقةِ القولِ فيكونُ قولُهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي ومَنْ أصدَقُ قولاً مِمَّنْ قالَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنهُ][7] اختارَ الانتِسابَ إلى الإسلامِ مِنْ بَينِ غَيرِهِ مِنَ الأديانِ والمذاهبِ، وقد أبَى سائرُ الفِرَقِ الانتِسابَ إلى الإسلامِ سِوَى أهلِ الإسلامِ.

---

(١) في الأصل وم: رأى. (٢) في الأصل وم: له. (٣) في الأصل وم: وجائز أن. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) في الأصل وم: والنهي. (٧) في الأصل وم: أي.

والثاني: انْتَسَبَ إلى ما خَصَّ اللهُ ﷺ تَسْمِيَتَهُمْ به، وهو الإسلامُ كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] وقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]

وقالَ في حقِّ إبراهيمَ عليه السلام ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

ويكونُ اسْمُ المؤمِنِ خاصّاً لأهلِ الحقِّ؛ فإنَّ اليهودَ والنصارى سَمَّوا أنفسَهُمْ مؤمنينَ، ولا يَمْتَنِعون عن إطلاقِ اسمِ المؤمنِ، ويَمْتَنِعونَ عن إطلاقِ اسمِ المُسْلِمِ.

ولهذا يُقالُ: دارُ الإسلامِ، ولا يُقالُ دارُ الإيمانِ وإنْ كانَ الإسلامُ والإيمانُ واحداً لِاخْتِصاصِ هذا الِاسمِ بهؤلاءِ، واللهُ أعلمُ.

[والثالث:][(١)] أنهُ اخْتارَ النسبةَ إلى الإسلامِ، وغَيرُهُ[(٢)] مِنَ الناسِ انْتَسَبوا إلى ما هُمْ مِنَ العِزِّ في الدنيا والشَّرفِ فيها وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأسبابِ التي كانَتْ لهمْ في الدنيا.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو رسولُ اللهِ ﷺ وقالَ بعضُهُمْ: همُ المُؤَذِّنونَ، وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الأخبارُ أنها نَزَلَتْ في المُؤَذِّنينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في كلِّ مؤمنٍ دَعَا الخَلْقَ إلى طاعةِ اللهِ تعالى ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بنفسِهِ، واللهُ أعلمُ.

وعنِ الحَسَنِ أنهُ تَلاَ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وقالَ[(٣)]: هذا صفوةُ اللهِ، هذا خِيرَةُ اللهِ، هذا أحبُّ أهلِ الأرضِ إلى اللهِ تعالى: أجابَ في دَعْوَتِهِ، ودَعَا الناسَ إلى ما أجابَ اللهَ فيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في إجابَتِهِ ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بربِّهِمْ[(٤)]، هذا خليفةُ اللهِ تعالى.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ قيلَ: ﴿وَلَا﴾ الأخيرةُ ههنا زائدةٌ، كأنهُ قالَ: ولا تَسْتَوي الحَسَنَةُ والسَّيِّئَةُ. وقد يُزادُ حَرْف: لا في الكلامِ، وقد يُنْقَصُ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ وقولُهُ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ كلُّ واحدٍ منهما مَوصولٌ بالآخَرِ؛ يقولُ: لا تَسْتَوي الحَسَنَةُ والسَّيِّئَةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهما مَقطوعاً مِنَ الآخَرِ على الِابْتِداءِ.

فإنْ كانَ أحدُهُما موصولاً بالآخَرِ فيقولُ[(٥)]: لا تَسْتَوي الحَسَنَةُ والسَّيِّئَةُ في جَلْبِ حُبِّ القلوبِ والِّلينِ والعطفِ لها، بلِ الحَسَنَةُ تَجْلُبُ حُبَّ القلوبِ، بل هما مُخْتَلِفانِ مُتَفَرِّقانِ، فادْفَعْ سَيِّئَتَهُمْ بالحسنةِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونا جميعاً على الِابْتِداءِ، لا اتِّصالَ لِأحدِهِما بالآخَرِ، فإنْ كانا[(٦)] على الِابْتِداءِ فَمَعْناهما[(٧)]، واللهُ أعلَمُ. إنكمْ تَعْلَمونَ بعقولِكُمْ أنْ [لا اسْتِواءَ][(٨)] بَينَ المُحْسِنِ والمُسيءِ، كذا [لا اسْتِواءَ][(٩)] بَينَهما في الحكمةِ. وقد رأيتُمْ أنهما قدِ اسْتَوَيَا في هذهِ الدنيا في جميعِ مَنافِعِها ولَذّاتِها، وجُمِعَ بَينَهما في هذهِ، وفي الحكمةِ والعقلِ التفريقُ بَينَهما.

دلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرَى تُفَرِّقُ بَينَهما في الجَزاءِ والثوابِ فيها، واللهُ أعلَمُ. وهو ما ذَكَرَ[(١٠)] في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥و٣٦] وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي لا نَجْعَلُ هذا كهذا في هذهِ الحياةِ. فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ هناكَ داراً أُخرَى، فيها يَقَعُ ذلكَ التَّمْييزُ والتَّفْريقُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ صَرَفَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ ذلكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وإلى أبي جَهْلٍ، لَعَنَهُ اللهُ، أنهُ أمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يَدْفَعَ سَيِّئَةَ أبي جَهْلٍ بالحَسَنَةِ.

---

(١) في الأصل وم: أو يقال. (٢) في الأصل وم: وغيرهم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بربه. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: فمعناه. (٨) من م، في الأصل: الاستواء. (٩) من م، في الأصل: الاستواء. (١٠) في الأصل وم: ذكرنا.

لكنَّ هذا لا يُحتَمَلُ، لأنهُ لم يَذكُرْ أنَّ أبا جَهْلٍ صارَ لِرسولِ اللهِ ﷺ كما ذَكَرَ حينَ[1] قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ بل دامَتْ عداوتُهُ إيّاهُ إلى أنْ خَرَجَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ يومَ بَدْرٍ، وأغرَى الناسَ عليهِ، فَرَجَعَ ذلكَ الإغراءُ[2] إليهِ، فَقُتِلَ في ذلكَ اليومِ، فَدَلَّ أنهُ لا وَجهَ لِصَرْفِ الآيةِ إلى هذا.

ثم يُخرَجُ قولُهُ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ على وجهَينِ:

أحدُهما: ادْفَعْ سَيِّئتَهُمْ في حادثِ الوَقْتِ بِحَسَنَةٍ، تكونُ منكَ إليهِمْ، أي إذا أحْسَنْتَ إليهِمْ كَفّوا هُمْ عنِ الإساءةِ إليكَ في حادثِ الوَقْتِ، واللهُ أعلَمُ. فيكونُ قولُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والثاني: أي ادْفَعْ سَيِّئتَهُمْ بالعَفْوِ والصَّفْحِ عنهمْ، واصْفَحْ. فإذا فَعَلْتَ ذلكَ يَصيرُ ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي لا [يُعاديكَ][3] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أمْرِ اللهِ تعالى والقيامِ بجميعِ أمورِهِ، أو يقولُ: لا يُعْطَى، ولا يُؤتَى المُعامَلةَ التي ذَكَرَ، ولا يُوَفَّقُ لذلكَ، إلّا مَنْ عَزَمَ على الصَّبْرِ على ما أمَرَ اللهُ تعالى، وصَبَرَ[4] على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يقولُ: ولا يُعْطَى هذهِ المُعاملةَ التي ذَكَرَ مِنَ الدَّفْعِ بالحَسَنَةِ والصَّفْحِ عنِ المُجْرِمِ إلّا مَنْ كانَ لهُ حَظٌّ ونَصيبٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: جائزٌ أنْ تكونَ الاسْتِعاذةُ التي ذَكَرَ، هي مُباشَرَةُ الأسبابِ التي بها يَدفَعُ نَزْغَ الشيطانِ ووَساوِسَهُ. أمَرَهُ أنْ يأتِيَ بالأسبابِ التي تَتَهَيَّأُ لهُ، أنْ يدفَعَ بها نَزَغاتِهِ وهَمَزاتِهِ. وهذا الاسْتِغفارُ الذي أمَرَ بهِ ليسَ، هو أمْرٌ بِمُباشَرَةِ أسبابٍ، تَقَعُ، وتَجِبُ لهمُ المَغْفِرةُ بها. فَعَلَى ذلكَ الاسْتِعاذةُ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ أمْرُهُ بالاسْتِعاذةِ إيّاهُ أمْراً لهُ بسؤالِ لُطْفٍ مِنْ عندِ اللهِ، يَدْفَعُ بهِ نَزَغاتِهِ وهَمَزاتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا تَصِحُّ الاسْتِعاذةُ منهُ، لأنهمْ يقولونَ: إنهُ قد أعْطَى كُلّاً ما بهِ يَدْفَعُ نَزَغاتِهِ وهَمَزاتِهِ حتى لم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ، يَمْلِكُ إعطاءَهُ إيّاهُمْ مِنَ اللُّطْفِ وغيرِهِ، واللهُ الهادي.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الشمْسَ والقَمَرَ آيتانِ مِنْ آياتِ ألوهِيَّتِهِ تعالى ووَحْدانِيَّتِهِ كالليلِ والنهارِ: إنهما آيتانِ من آياتِ اللهِ. فإذا لم تَعْبُدوا الليلَ والنهارَ فكيفَ عَبَدْتُمُ الشمْسَ والقَمَرَ؟ واللهُ أعلَمُ.

أو يقولُ: إنَّ الشمْسَ والقَمَرَ آيتانِ مِنْ آياتِ اللهِ تعالى؛ سَخَّرَهُما[5] لِمَنافِعِ الخَلْقِ كالليلِ والنهارِ مُسَخَّرَيْنِ[6] / ٤٨٥ ـ ب/ لِلخَلْقِ [ومنافعُ الشمسِ والقمرِ][7] التي جَعَلَ لِلخَلْقِ، إنْ لم تكنْ أكثرَ لم تكنْ دونَ منافِعِ الشمسِ والقَمَرِ. فإذا لم تَعْبُدوا الليلَ والنهارَ فكيفَ عَبَدْتُمْ هاتَينِ؟ يَذْكُرُ هذا لأنَّ منهمْ مَنْ كانَ يَعْبُدُ الشمسَ، ومنهمْ مَنْ كانَ يَعْبُدُ القَمَرَ ونَحْوَهُ، يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ بِعِبادةِ غيرِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي اسْجُدوا للهِ الذي أنْشَأ هذهِ الأشياءَ، وسَخَّرَها لكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إنْ كُنْتُمْ بِعِبادتِكُمْ هذهِ الأشياءَ تَقْصِدونَ القُرْبَةَ عندَ اللهِ تعالى، أو إنْ كُنْتُمْ بِعِبادتِكُمْ هذهِ الأشياءَ إيّاهُ تُريدونَ، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ هذهِ الأشياءَ دونَ اللهِ تعالى رجاءَ القُرْبَةِ عندَهُ والزُّلْفَى بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] يقولُ: إنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَقْصِدونَ بِعِبادةِ هذهِ الأشياءِ، فاسْجُدوا لهُ، واعْبُدوا، لِما أمَرَكُمْ بالسجودِ لهُ والعِبادةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: الإعزاز. (٣) في الأصل وم: يعاد ذلك. (٤) في الأصل وم: والصبر. (٥) في الأصل وم: سخرها. (٦) في الأصل وم: مسخرات. (٧) في الأصل وم: والمنافع.

الآية ٣٨ [وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنْ لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ الاسْتِكْبارِ على اللهِ. ثم يُخَرِّجُ ذلكَ على وَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ قد أُمِروا بطاعةِ الرسلِ ﷺ فاسْتَكْبَروا على الائتِمارِ لهمْ لمّا دَعَوهمْ إليهِ، فيصيرُ اسْتِكْبارُهُمْ عليهِ كالاسْتِكْبارِ[(٢)] على اللهِ تعالى.

والثاني: لما تَرَكوا عبادةَ اللهِ تعالى [وقد][(٣)] جَعَلَ في أنفسِهِمْ دلالةَ العبادةِ للهِ تعالى، فإذا تَرَكوا العبادةَ للهِ تعالى فقد تَرَكوا الائتِمارَ بأمْرِهِ، لم يَعْتَقِدوا الائتِمارَ لذلكَ الأمرِ، فيكونُ [ذلك][(٤)] اسْتِكباراً عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: إنِ][(٥)] اسْتَكْبَرَ هؤلاءِ على عبادةِ اللهِ تعالى، فأوحَشَكَ ذلكَ، فاذْكُرْ مَنْ عندَهُ مِنَ الملائكةِ ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ حتى تَسْتَأْنِسَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ. وهو كقولِهِ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠] كانَ مُسْتَوحِشاً باسْتِهزائِهِمْ بهِ، فَذَكَرَ لهُ اسْتِهزاءَ أولئكَ بإخوانِهِ لِيَقِلَّ ذلكَ فيهِ ويَعْلَمَ[(٦)] أنهُ ليسَ أوَّلَ مَنِ اسْتُهْزِئَ بهِ. فهذا مِثْلُهُ.

والثاني: وإنِ اسْتَكْبَرَ هؤلاءِ على عبادةِ اللهِ، وقد عَبَدوا الملائكةَ والأصنامَ وغيرَهمْ، فالذينَ عندَ ربِّهِمْ ممَّنْ عَبَدَهُمْ هؤلاءِ لم يَسْتَكْبِروا، بل هُمْ مُسَبِّحونَ ﴿لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ وهو كقولِهِ[(٧)] تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] يقولُ: لنْ يَسْتَنْكِفَ هؤلاءِ عنْ أنْ يكونوا عبيداً للهِ، فالمَسيحُ ومَنْ ذَكَرَ لم يَسْتَنْكِفوا عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ يُخبِرُ أنهمْ لا يَسْأمونَ عنْ عبادتِهِ كما يَسْأمُ البَشَرُ أحياناً عنْ عبادتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ كقولِهِ[(٨)] في ما تَقَدَّمَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] في ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ آياتِ وَحْدانيَّتِهِ وآياتِ قدرتِهِ وعِلْمِهِ وتدبيرِهِ وآياتِ حكمتِهِ.

أمّا آياتُ وحدانيَّتِهِ في الليلِ والنهارِ والشمسِ والقمرِ [فهي أنها][(٩)] إذا كانَ سلطانُ أحدِهِما [على][(١٠)] ليلٍ أو نهارٍ أو شمسٍ أو قمرٍ لم يَمْنَعْ عنْ كونِ الآخرِ، ولو كانَ ذلكَ فِعْلَ عَدَدٍ لكانَ مَنَعَ الآخَرَ عنْ إتيانِ ما يذهبُ بسلطانِهِ.

فإذا لم يكُنْ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ، ودَلَّ جَرَيانُ ما ذَكَرَ مِنَ الليلِ والنهارِ والشمسِ والقَمَرِ على سِياقٍ واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ مُذْ كانا إلى آخِرِ ما يكونانِ[(١١)] على أنَّ مُنْشِئَهما عليمٌ مُدَبِّرٌ، عِلْمُهُ[(١٢)] ذاتيٌّ، وتدبيرُهُ[(١٣)] ذاتيٌّ، ليسَ بِمُسْتَفادٍ، ولا مُكْتَسَبٍ، ودلَّ سَيرُهما وجَرَيانُهُما في يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ مَسيرةَ كذا وكذا عاماً على أنَّ مُنْشِئَهُما قادرٌ، لهُ قدرةٌ ذاتيةٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، إذِ القُدْرَةُ المُسْتَفادَةُ والمُكْتَسَبَةُ لا تَبْلُغُ ذلكَ، وكذلكَ في إحياءِ الأرضِ بَعدَ موتِها وإخراجِ النباتِ منها.

دلالةُ ذلكَ كلِّهِ مِنْ دلالةِ الوَحْدانيَّةِ ودلالةُ العِلْمِ الذاتيِّ والحكمةِ والتدبيرِ، لأنهُ لمّا أحياها بَعدَ موتِها، وأماتَها بَعدَ إحيائِهِ إيّاها دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ لا عَدَدٍ [لأنهُ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ][(١٤)] لَكانَ إذا أحْيى هذا مَنَعَ الآخَرُ عنِ الإماتةِ، وكذا إذا أماتَ هذا مَنَعَ الآخَرُ عنِ الإحياءِ على ما يكونُ مِنْ فِعْلِ ذي عَدَدٍ مِنْ ملوكِ الأرضِ فإذا لم يمنَعْ ذلكَ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ. ودَلَّ جَرَيانُ ذلكَ كلِّهِ في كلِّ عامٍ على مَجْرىً واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ وعلى مقدارٍ واحدٍ مِنَ النباتِ وغيرِهِ على أنهُ كانَ بِعِلْمٍ ذاتيٍّ وحكمةٍ ذاتيَّةٍ.

ودَلَّتِ القُدْرةُ على إحيائِها بَعدَ موتِها وإماتَتِها بَعدَ حياتِها أنَّ لهُ قُدرةً ذاتيَّةً، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ مِنَ البعثِ وغيرِهِ ثم جَعَلَ،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: كاستكبار. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقول والله أعلم فإن. (٦) في الأصل وم: لما علم. (٧) من م، في الأصل: قوله. (٨) في الأصل وم: الآية وقال. (٩) في الأصل وم: هو أنه. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: يكون. (١٢) في الأصل وم: علم. (١٣) في الأصل وم: وتدبير. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

جَلَّ، وعَلَا، في الماءِ مَعْنىً يُوافِقُ ذلكَ المَعْنَى جميعَ النباتِ الخارجَ مِنَ الأرضِ على اختِلافِ [أجناسِهِ وجواهِرِهِ][1] حتى تكونَ حياةُ كلِّ شيءٍ مِنْ ذلكَ بهِ. إنَّ ذلكَ كانَ كذلكَ بلطفٍ منهُ، لا يَبْلُغُهُ فَهْمُ البَشَرِ ولا علمُهُمْ. ثم ذلكَ النباتُ مَعَ لينِهِ وضَعْفِهِ ورِقَّتِهِ يَشُقُّ تلكَ الأرضَ مَعَ شِدَّتِها وصَلابَتِها، ويَخْرُجُ منها ما لا يُتَوَهَّمُ خروجُ أشدِّ الأشياءِ منها بِفِعْلِ أحدٍ سِواهُ [دَلَّ][2] ذلكَ على قُدْرَتِهِ ولُطْفِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي مَيْتَةً خَشِنَةً ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي تَحَرَّكَتْ بِنباتِها [﴿وَرَبَتْ﴾ أي صارَتْ][3] حَيَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي تربو، وتزيدُ بما[4] عليها مِنَ النباتِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ بالنباتِ ﴿وَرَبَتْ﴾ عَلَتْ، وانْتَفَخَتْ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي فَرِحَتْ ﴿وَرَبَتْ﴾ مِنَ الزيادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ هو ما ذَكَرْنا: أنَّ الذي مَلَكَ، وقَدَرَ، على إحيائِها قادرٌ على إحياءِ المَوتى بَعدَ موتِهِمْ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قرأ بعضُهُمْ ﴿يُلْحِدُونَ﴾ برفعِ الياءِ، وقرأ بعضُهُمْ بِنَصْبِها[5].

فمنْ قرأ بالرفعِ فتأويلُهُ[6]: إنَّ الذينَ يَميلونَ عنْ قَبولِ آياتِنا. قالَ أبو عَوسَجَةَ: الإلحادُ المَيلُ، وأخْذُ اللَّحْدِ مِنْ هذا.

ومَنْ قرأ بالنصبِ فيقولُ[7]: يَعْلَمونَ في آياتِنا أنَّ الذينَ يَعْمَلونَ في دفعِ آياتِنا وإبطالِها ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [هذا][8] وعيدٌ منهُ لهمْ؛ يقولُ[9]: ﴿لَا يَخْفَوْنَ﴾ هُمْ وما يَفْعَلونَ ﴿عَلَيْنَآ﴾ فَنَجْزِيَهُمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةً لآيتَينِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُما:

إحداهُما: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية [فصلت: ٣٠] هذهِ في المؤمنينَ، وقالَ في الكافرينَ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية [فصلت: ٢٧].

والآيةُ[10] الثانيةُ: قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤] يقولُ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ بأعمالِ السوءِ ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ مِنْ ذلكَ بأعمالِهِ الحَسَنَةِ؟ أي تَعْلَمونَ[11] أنَّ مَنْ يُلْقَى في الآخِرَةِ في النارِ ليسَ كالذي يأتي آمِناً مِنْ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهُما: على التَّخْييرِ، لأنهُ جَلَّ، وعَلَا، بَيَّنَ السَّبيلَينِ/ ٤٨٦ ـ أ/ جميعاً على المُبالغةِ بياناً شافياً واضحاً، وبَيَّنَ عاقبةَ كلِّ سَبيلٍ؛ مَنْ سَلَكَهُ إلى ماذا يُفْضِي؟ ثم قالَ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أي اسْلُكُوا أيَّ سَبيلٍ شِئْتُمْ؛ فإنْ سَلَكْتُمْ طريقَ كذا فَلَكُمْ كذا، وإنْ سَلَكْتُمْ طريقَ كذا [فَلَكُمْ كذا][12] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: على الوعيدِ، وكذا قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ على الوعيدِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ سَمَّى القرآنَ ذِكْراً، لأنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بما فيهِ صارَ مَذْكوراً شَريفاً، أو سَمَّاهُ ذِكْراً لِما يَذْكُرُ لهمْ ما نَسُوا مِنْ أحكامِ اللهِ. أو يُذَكِّرُهُمْ ما للهِ عليهمْ مِنْ حقٍّ وما لِبَعْضٍ [على بَعْضٍ][13].

---

(١) في الأصل وم: أجناسها وجواهرها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وتزينت وصارت. (٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ٧٤. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: يقولون. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: تعملون. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي عزيزٌ، لا يُبَدِّلُهُ جُحودُ الجاحدينَ ولا تكذيبُ المُكَذِّبينَ، أو يقولُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ عندَ اللهِ تعالى أكْرَمَ بِهِ محمداً ﷺ [أو][(٢)] ﴿عَزِيزٌ﴾ يُعِزُّ مَنِ اتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بِهِ، كما ذَكَرْنا أنهُ يُشَرِّفُ مَنِ اتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بِما فيهِ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي لا يَنْزِلُ كتابٌ مِنْ بَعْدِهِ، يُكَذِّبُهُ، أو يُبْطِلُهُ، ولا [نَزَلَ][(٣)] قَبْلَهُ كتابٌ يُكَذِّبُهُ، أو يُبْطِلُهُ، بل خَرَجَ مُوافِقاً لِما قَبْلَهُ مِنَ الكتبِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي إبليسُ، لا يَسْتَطيعُ أنْ يُبْطِلَ منهُ حقاً، أو يُحِقَّ منهُ باطلاً، أو يَنْقُصَ منهُ حقاً، أو يَزيدَ فيهِ باطلاً، بل هو على ما ذَكَرَ[(٤)]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقالَ بعضُهُمْ: ما ذَكَرْنا: لا تُكَذِّبُهُ الكتبُ التي كانَتْ قَبْلَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي لا يَجيءُ مِنْ بَعدِهِ كتابٌ يُكَذِّبُهُ. ومَعْنى هذا أنهمْ كانوا يَرُدُّونَ ذلكَ، ويَدْفَعونَهُ، وليسَتْ لهمْ حُجَّةٌ مِنَ اللهِ في رَدِّهِمْ إيَّاهُ ولا في دَفْعِهِ، بل يدفَعونَهُ بلا حُجَّةٍ ولا برهانٍ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ][(٥)] قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ إنَّ اللهَ ﷻ حَفِظَهُ مِنَ الشيطانِ، فلا يزيدُ فيهِ باطلاً، ولا يَنْقُصُ منهُ حقاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ على أنَّ كلَّ [ما][(٦)] أُضيفَ إلى اللهِ تعالى مِنَ اليَدَينِ والخَلْفِ، لا يُفْهَمُ منهُ بِذِكْرِ اليَدَينِ الجارِحتانِ أو بِذِكْرِ الخَلْفِ [الظهرُ؛ إذِ القرآنُ لا جارحةَ لهُ، ولا ظَهْرَ حقيقةً، وقد أُضيفَ الخَلْفُ][(٧)] واليَدانِ [إليهِ][(٨)] بقولِهِ: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فَعَلَى ذلكَ ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى مِنَ اليَدينِ ومِنَ الخَلْفِ[(٩)] لا يُفْهَمُ [منهُ اليَدانِ والخَلْفُ][(١٠)] حقيقةَ الجارِحَتينِ [والظَّهْرِ][(١١)] واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هذا القرآنُ هو ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الحَكيمُ، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في تَدْبيرِهِ وحُكْمِهِ؛ والحَميدُ، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الذَّمُّ في فِعْلِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ لم يَخْرُجْ لهُ جوابٌ في هذا المَوضِعِ. ثم قالَ بعضُهُمْ: جوابُهُ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى بعدَ هذا، وهو قولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وقالَ بعضُهُمْ: بل جوابُهُ ما ذَكَرَ في ﴿حمٓ﴾ المؤمن حيثُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [الآية: ٢٤].

الآية ٤٣ [وقولُهُ تعالى][(١٢)]: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يُعَزّي النَّبِيَّ، ويُصَبِّرُهُ على ما كانوا يقولونَ: إنهُ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤ وغافر: ٢٤] وإنهُ[(١٣)] ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢] وإنهُ ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩و٥٢] وإنهُ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وإنهُ ﴿مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١] وغَيرَ ذلكَ مِنْ أنواعِ الأذى.

كانوا يُؤذونَهُ، وكانَ يَشْتَدُّ عليهِ ذلكَ، ويَثْقُلُ، لأنهُ كانَ[(١٤)] يدعوهُمْ إلى ما بِهِ نَجاتُهُمْ، وهمْ كانوا يَسْتَقْبِلونَهُ بما ذَكَرَ. فقالَ اللهُ تعالى عندَ ذلكَ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ مِنَ التكذيبِ والنِّسْبَةِ إلى السِّحْرِ والجُنونِ وغَيرِ ذلكَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٣٥].

ويَحْتَمِلُ أنهُ إنما ذَكَرَ ذلكَ لهُ لِيَتَسَلّى بِهِ عنْ بعضِ ما يَلْحَقُهُ مِنَ الضَّجَرِ والوَحْشَةِ بالذي قالوا فيه بما عَلِمَ أنهُ ليسَ بأوَّلِ مُكَذَّبٍ مِنَ الرُّسُلِ، ولا بأوَّلِ مَنْ تَأذَّى في ذاتِ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ذكرنا. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بين يديه.
(١٠) في الأصل وم: اليدان. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: كانوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، على الابْتِداءِ[1]: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لو تابوا، ورَجَعوا عَنْ ذلكَ، أو يقولُ، واللهُ أعلَمُ، على الصِّلَةِ لِقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي إنهُ: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يَغْفِرُ لهمْ ما كانَ منهمْ مِنَ التكذيبِ لكَ والتكذيبِ للقرآنِ لو تابوا، ورَجَعوا، وصَدَّقوا ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ إنْ لم يَتوبوا، ويَثْبُتوا على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

أو يَذْكُرُ هذا: أي ليسَ إليكَ مُكافأتُهُمْ ومُجازاتُهُمْ بِما كانَ منهمْ، إنما ذلكَ إلينا؛ إنْ شِئْتُ غَفَرْتُ لهمْ إذا رَجَعوا عنهُ، وإنْ شِئْتُ عاقَبْتُهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقالَ، في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨و١٩٩].

وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

يَذْكُرُ في هذهِ الآياتِ كلِّها سَفَهَ أهلِ مكةَ وشِدَّةَ تَعَنُّتِهِمْ؛ يقولُ: لو نَزَّلْنا عليكَ الكتابَ جملةً في قِرْطاسٍ بحيثُ يَرَونَ نُزولَهُ مِنَ السَّماءِ، ويُعاينونَهُ، لَقالوا: ما هذا إلّا سِحْرٌ مُبينٌ، ويقولُ أيضاً، واللهُ أعلَمُ: ولو نَزَّلْنا هذا القرآنَ على بعضِ الأعْجَمِيِّينَ بِلسانِ [العَرَبِ][2] ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم﴾ أي على أهلِ مكةَ بِلسانِ العربِ بحيثُ يَفْهَمونَ ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٩] لأنَّ قراءةَ الأعْجَمِيِّ إيّاهُ بِلسانِ العربِ أكْبَرُ في الآيةِ وأعظَمُ في الأُعْجوبةِ مِنْ قراءةِ العربيِّ بِلسانِ العربيّةِ، أي قراءةَ كلِّ أحدٍ شيئاً بِغَيرِ اللسانِ الذي، هو لسانُهُ، أكْبَرُ في الآيةِ وأعظَمُ في الأُعجوبةِ مِنَ القراءةِ بلسانٍ، هو لسانُهُ.

يقولُ: لو نَزَّلْناهُ[3] على مَنْ لِسانُهُ لسانُ العجمِ، والقرآنُ عربيٌّ، فَقَرَأ الأعْجَمِيُّ ذلكَ على أهلِ مكةَ بلسانِ العربِ، وهو أكْبَرُ أُعْجوبةً وأعْظَمُ في الآيةِ، لَكانوا لا يؤمنونَ بهِ.

فَعَلَى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ وعايَنوا نزولَ ذلكَ على محمدٍ ﷺ، وفَهِمَهُ، وأدّاهُ، وقَرَأهُ عليهِمْ بلسانِ العربِ ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ﴾ يَعنونَ القرآنَ ﴿وَعَرَبِيٌّ﴾ أي محمدٌ ﷺ.

يقولونَ: القرآنُ أعْجَمِيٌّ، ومحمدٌ عربيٌّ؟ كيفَ يكونُ هذا؟ أي لا يكونُ هذا، ويُكَذِّبونَهُ، ولا يؤمنونَ بهِ. وذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ أداءَهُ بلسانٍ، ليسَ ذلكَ لسانَهُ، وقراءتَهُ بِغَيرِ ذلكَ اللسانِ أكْثَرُ في جَعْلِهِ آيةً وأعْظَمُ في الأُعجوبةِ؛ إذْ يَكْمُنُ[4] الِاخْتِلافُ مِنْ نفسِهِ باللسانِ الذي هو لسانُهُ، ومَوهومٌ ذلكَ، وغَيرُ مَوهومٍ، ذلكَ إذا لم يكُنْ ذلكَ لسانَهُ. يُخْبِرُ عن سَفَهِهِمْ وشدةِ عِنادِهِمْ في تكذيبِهِمْ محمداً ﷺ وما جاءَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ أحياناً يدخلُ على رجلٍ أعجميٍّ يقالُ لهُ: أبو فُكَيْهَةَ، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ بلسانٍ أعجميٍّ لَقالَ كُفّارُ مكةَ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ بالعربيةِ، أي بُيِّنَتْ حتى يَفْقَهَها، ويُعَلِّمَها ما يقولُ محمدٌ ﷺ ولَقالوا: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ﴾ أُنزِلَ القرآنُ[5] ومحمدٌ عربيٌّ؟ فأنزَلَهُ عَرَبِيّاً لِيَفْقَهوهُ، فلا يكونُ لهمُ الِاعْتِلالُ والِاحْتِجاجُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ حتى يَفْقَهَها أعجميُّ القرآنِ وعَرَبِيُّ اللِّسانِ[6].

وقالَ أبو مُعاذٍ: يكونُ مَعْنَى هذا أنَّ اللهَ تعالى يَسْتَفْهِمُ: ﴿قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ على رجلٍ عربيٍّ؟ فلا يفهمونهُ[7]؟ فتكونُ الحُجّةُ عليهِمْ[8] بذلكَ. وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾: اسْتِفهامٌ مِنْ قريشٍ: يكونُ مَعْناهُ لو أنزَلْناهُ قرآناً / ٤٨٦ ـ ب/ أعجمياً على رجلٍ عربيٍّ لَقالوا: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟ كيفَ يَفْهَمُ هذا؟ وكيفَ يَعْقِلُهُ؟

---

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يمكن، ولعل ما أثبتنا أفضل.
(٥) أدرج قبلها في الأصل وم: عليه. (٦) في الأصل وم: الرجل. (٧) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لهم.

لكنّا قد ذَكَرْنا أنَّ هذا في الدلالةِ أكثَرُ، وفي الأُعجوبةِ أعظَمُ، والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أُنزلَتْ عربيّةً مُفَصَّلَةً: لِلآيِ كانَ التفصيلُ بِلسانِ العربِ.

لكنْ لسْنا نَدْري ما يريدُ بهذا الكلامِ أنَّ التفصيلَ بِلسانِ العربِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي هلّا فُرِّقَتْ آياتُهُ حتى جُعِلَ مِنْ كلِّ لسانٍ: مِنْ لسانِ العَجَمِ ولسانِ العربِ حتى يَفهَمَها أهلُ كلِّ لسانٍ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنهُ لو أنْزلَهُ بِلسانِ العجمِ لَكانَ قرآناً، وأنَّ اختِلافَ اللسانِ لا يُغَيِّرُهُ، ولا يُحَوِّلُهُ عنْ أنْ يكونَ قرآناً، واللهُ أعلَمُ، فيكونُ دليلاً لِقولِ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنهُ إذا قرأَهُ [المرءُ][1] بالفارسيةِ في صَلاتِهِ تَجوزُ [صَلاتُهُ][2] واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وصفَ اللهُ تعالى هذا القرآنَ بالشفاءِ والرحمةِ والهُدَى، وسَمّاهُ مَرّةً عزيزاً [بقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] ومَرّةً كريماً بقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] ومَرّةً مجيداً بقولِهِ ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١ والبروج: ٢١] ومَرّةً حكيماً بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨ ولقمان: ٢ ويس: ٢][4] ونَحْوَهُ.

فهو هُدىً مِنَ الضلالةِ والحَيرةِ والشَّكِّ وكلِّ شُبْهَةٍ، وشِفاءٌ لكلِّ داءٍ وسُقْمٍ يكونُ في الدينِ والأنفسِ جميعاً. هو شِفاءٌ لذلكَ كلِّهِ، وهو هدىً. ثم يَحْتَمِلُ الهُدَى وجهَيْنِ في هذا المَوضِعَ:

أحَدُهما: هو هُدىً لكلِّ ضَلالةٍ، أي دُعاءٌ إلى الذي يُضادُّ الضَّلالَ.

والثاني: هُدىً، أي جُعِلَ بَياناً لكلِّ حيرَةٍ وشَكٍّ وشُبْهَةٍ؛ مَنِ اتَّبَعَهُ، وقَبِلَهُ، ونَظَرَ إليهِ بِعَينِ التعظيمِ والتبجيلِ دعاهُ إلى سَبيلِهِ ودينِهِ، ويُخْرِجُهُ مِنَ الضلالِ، ويكونُ بَياناً لكلِّ مَنْ فيهِ الحَيرَةُ والشَّكُّ والشُّبْهَةُ، ويُخْلي لهُ الطريقَ، ويُوضِحُ لهُ السَّبيلَ، ويُخْرِجُهُ مِنَ الشُّبُهاتِ.

فهو للمؤمنينَ الهُدى والشِّفاءُ، لأنهمْ قَبِلوهُ، واتَّبعوهُ، وتكَفَّلوا العَمَلَ بما فيهِ.

وأمّا الكَفَرَةُ فهو عليهِمْ عَمىً وحَيرَةٌ وشَكٌّ، لأنهمْ لم يَتَقَبَّلوهُ، ولم يَتَّبِعوهُ، ونَظَروا إليهِ بالاستِخفافِ والهوانِ، ونَبَذوهُ وراءَ ظُهورِهِمْ، فلم يُبْصِروا ما فيهِ، فصارَ[5] لهمْ عَمىً وما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ. ولِذلكَ قالَ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

سَمّاهُمْ غَيَبَةً، وإنْ كانوا بأنفسِهِمْ حُضوراً، وسَمّاهُمْ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠ والروم: ٥٢] وإنْ كانوا في الحقيقةِ أحياءً، وسَمّاهُمْ صُمّاً وبُكماً وعُمْياً [البقرة: ١٨و١٧١] وإنْ كانَتْ لهمْ هذهِ الجوارحُ [في الحقيقةِ لِما لم يَنْتَفِعوا بهذهِ الجوارحِ][6] بالذي جُعِلَتْ هذهِ الجوارحُ لهُ، وأُنشِئَتْ، فَنَفاها عنهمْ لِيُعْلَمَ أنَّ المَقْصودَ بإنشاءِ هذهِ الجوارحِ والأنفسِ لا نَفْسُ هذهِ الجوارحِ والأنْفُسِ ولكنْ طَلَبُ ما غابَ عنها، وخَفِيَ، إذْ أنفسُهُمْ في الحقيقةِ كانَتْ شُهوداً وحُضوراً.

سَمّاهُمْ غَيَبَةً[7] وسَمّاهُمْ مَوتَى وعُمْياً وما ذُكِرَ لِيُعْلَمَ أنها إنما جُعِلَتْ لِيَكْتَسِبوا بها الحياةَ الدائمةَ والبَصَرَ الدائمَ وما ذُكِرَ مِنْ كلِّ شيءٍ مِنَ السَّمعِ وغيرِهِ. وكذلكَ هذهِ النِّعَمُ التي جُعِلَتْ لِيَكْتَسِبوا بها النِّعَمَ الدائمةَ، فإذا لم يَسْتَعْمِلوها في ما جُعِلَتْ صاروا كما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي عَمُوا عنهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي في الآخِرَةِ جَزاءً بِما نَسُوهُ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥و١٢٦].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كريماً مجيداً حكيماً. (٥) في الأصل: صار، في م: فهو صار. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: وأحياء وبصراء.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [عِبارةٌ عَنْ قِلَّةِ أفهامِهِمْ؛ يُقالُ للرجلِ الذي لا يَفْهَمُ: أنتَ تُنادَى مِنْ مكانٍ بعيدٍ][1] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنّا قد آتينا موسى الكتابَ ما عَرَفوا أنهُ إنما نَزَلَ مِنْ عندِ اللهِ تعالى حينَ[2] شاهدوا نُزولَهُ جُمْلةً. ومع أنهمْ عَرَفوا ذلكَ اختَلَفوا فيهِ حتى كَذَّبَهُ بعضُهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو أنْزَلْنا القرآنَ عليكَ أعجميّاً، فأدّيتَهُ إليهِمْ بِلِسانِكَ العربيِّ، لَكَذَّبوكَ، ولا يُصَدِّقونَكَ، وإنْ كانَ ذلكَ في الدلالةِ أكثَرَ في الأعجوبةِ، وأعظَمَ، على ما فَعَلَ قومُ موسى بالكتابِ الذي أُنزِلَ على موسى ﷺ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وتعَنُّتَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ ظاهِرُ هذهِ الآيةِ على أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ المِنَّةِ والرحمةِ في تأخيرِ العذابِ، إنما هو لِقَومِ موسى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لكنَّ أهلَ التأويلِ قد أجْمَعوا على صَرْفِ هذهِ المِنَّةِ والرحمةِ في تأخيرِ العذابِ إلى هذهِ الأمةِ، وكذا فيهِمْ ظَهَرَتِ المِنَّةُ في العَفْوِ عنِ الإهلاكِ في الدنيا دونَ سائِرِ الأممِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ظاهِرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ اسْتِدلالٌ واحتِجاجٌ لأهلِ الإلحادِ، لأنَّ مِثْلَ هذا في الشاهِدِ إنما يُقالُ لأحدِ مَعْنَيَيْنِ. إمّا لِجَهْلٍ بالعَواقِبِ وإمّا لِعَجْزٍ عنْ وفاءِ ما وَعَدَ.

لكنَّ اللهَ، يَتَعالَى عَنِ الوَصْفِ بالجَهْلِ بِعَواقِبِ الأمورِ والوَصْفِ بالعَجْزِ عنْ شيءٍ، بما أقامَ مِنَ الآياتِ والبَراهينِ على العِلْمِ والقُدْرَةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ تَحْتَمِلُ الكلمةُ الحُجّةَ كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] أي لِحُجَجِ ربِّي. وتكونُ الكلمةُ منهُ الدينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [التوبة: ٤٠] ونَحْوَهُ.

وقيلَ: الكلمةُ هي الساعةُ التي[3] أخَّرَ عذابَ هذهِ الأمّةِ [إليها][4] فقالَ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الكلمةُ ههنا ما سَبَقَ مِنَ المِنَّةِ لهذهِ الأمّةِ ألّا يُعَذِّبَها وقْتَ اسْتِحْقاقِهِمُ العذابَ، أو سَبَقَ منهُ المِنَّةُ والرحمةُ بتأخيرِ الهلاكِ عنْ وقتِ اكْتِسابِهِمْ أسبابَ الهلاكِ.

وهذا على المعتزلةِ والخوارجِ لقولِهِمْ: أنْ ليسَ للهِ أنْ يَعْفُوَ، أو يُؤَخِّرَ العذابَ عَمَّنْ وَجَبَ عليهِ، أوِ اسْتَحَقَّهُ، أو كلامٌ نَحْوُهُ حينَ[5] مَنَّ، ورَحِمَ هذهِ الأمةَ بتأخيرِ العذابِ إلى وقْتٍ. ولو لم يَسْتَحِقّوا العذابَ، لم يكنْ لِذِكْرِ المِنَّةِ في ذلكَ مَعْنىً[6]، وهو كما قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ يُخْبِرُ ﷻ أنهُ إنما امْتَحَنَهُمْ في ما امْتَحَنَهُمْ لا لِمنافِعَ يَجُرُّها[7] إلى نفسِهِ أو لِمَضارَّ يَدْفَعُها[8] عنْ نفسِهِ. ولكنهُ إنما امْتَحَنَهُمْ، وأمَرَهُمْ، ونَهاهُمْ لِمَنافِعَ يَكْتَسِبونَها[9] لأنفسِهِمْ ولِمَضارَّ [يَدْفَعونَها عنْ أنفسِهِمْ][10]. وليسَ كملوكِ الأرضِ؛ إنهمْ يَمْتَحِنونَ الخَلْقَ، ويأمرونَ، ويَنْهَوْنَ، ويَسْتَعْمِلونَهُمْ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِمَضارَّ يَدْفَعونَها عنْ أنفسِهِمْ.

فأمّا اللهُ ﷻ فإنما يَمْتَحِنُ الخلائقَ لِمَنافِعَ يَجُرّونَ إلى أنفسِهِمْ ولِمَضارَّ يَدْفَعونَها[11] عنْ أنفسِهِمْ؛ فَلَهُمْ مَنافِعُ ذلكَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: هي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: المعنى. (٧) في الأصل وم: فيه يجر. (٨) في الأصل وم: تدفع. (٩) في الأصل وم: يكتسبون. (١٠) في الأصل: يدفعون بذلك عن، في م: يدفعون بذلك عن أنفسهم. (١١) في الأصل وم: يكتسبون به.

الإمتِحانِ والأمرِ والنَّهْيِ، وعليهمْ حُصولُ مَنافِعِ ذلكَ الإمتِحانِ والأمرِ والنَّهْيِ، وعليهِمْ حُصولُ ضَرَرِ ذلكَ. فَلأَنفُسِهِمْ يَعْمَلونَ ما يَعْمَلونَ مِنَ الخَيرِ والطاعةِ، وعليهِمْ يَعْمَلونَ ما يَعْمَلونَ مِنَ الشَّرِّ.

ولذلكَ قالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ قد بَيَّنَ السَّبيلَينِ جميعاً بياناً شافياً، وأقامَ لكلِّ ذلكَ حُجَجاً وبراهينَ، وبيَّنَ أنَّ مَنْ سَلَكَ سَبيلَ كذا أفضاهُ إلى كذا في العاقبةِ: إمّا [إلى][1] نَعيمٍ دائمٍ وسُرورٍ دائمٍ، وإمّا [إلى][2] عذابٍ دائمٍ وشَرٍّ دائمٍ. فَمَنْ سَلَكَ السَّبيلَ الذي عاقِبَتُهُ النارُ والخِزْيُ فَمِنْ قِبَلِ نفسِهِ اختارَ ذلكَ، وهو الذي أوقَعَ نفسَهُ في ذلكَ. ومَنْ سَلَكَ السَّبيلَ الذي جَعَلَ اللهُ عاقِبَتَهُ الجنةَ والنِّعَمَ الدائمةَ فيهِ، واختارَهُ، وَصَلَ [إلى ذلكَ][3].

فهو تفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أجمَعَ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى، وصدَّقَ رسُلَهُ ﷺ مِنْ أهلِ السماءِ وأهلِ الأرضِ أنْ ليسَ /٤٨٧ ـ أ/ عندَهُمْ عِلْمٌ بوقْتِ الساعةِ، فإنَّ ذلكَ خَفِيٌّ عليهِمْ، لا يَعْلَمونَهُ، وإنَّ عِلْمَ ذلكَ عندَ اللهِ، وهو ما قالَ ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٨٧ والنازعات: ٤٢] غَيرَ الباطِنِيَّةِ والرَّوافِضِ فإنَّ عِلْمَ ذلكَ عندَهُمْ على مَذْهَبِهِمْ وفي زَعمِهِمْ.

أمّا الرَّوافِضُ فإنهمْ يَعُدّونَ الأئِمّةَ، ويقولونَ: إنَّ الساعةَ على إمامِ كذا وفي زمانِ كذا.

وأمّا الباطِنِيَّةُ فيقولونَ: إنَّ اسْمَ الساعةِ والقيامةِ ونَحْوَ ذلكَ إنما هو اسْمُ قائمِ الزمانِ، وإنهُ [فلانٌ][4] فَعَلَى قولِهِمْ يَظْهَرُ وقتُ قِيامِها، فهو خِلافُ ما ذُكِرَ في الكتابِ وما أجْمَعَ عليهِ أهلُ السماءِ والأرضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[5] جائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ إخراجِ الثمراتِ[6] مِنَ الأكمامِ وما ذُكِرَ مِنْ حَمْلِ الأُنثى وَوَضعِها هو[7] موصولٌ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فإنْ كانَ على ذلكَ فَمَعْناهُ: لا يَعْلَمُ [ذلكَ][8] كلَّهُ إلّا هو، لا يَعْلَمُ [أحدٌ][9] وقتَ خروجِها ولا حَدَّها وأنها تَخْرُجُ أو لا، وكذلكَ الوَلَدُ لا يَعْلَمُ [أحدٌ][10] كيفيَّةَ عُلوقِهِ ولا وَقتَهُ ولا مِقدارَهُ وأنهُ يَعْلَقُ أو لا. عِلْمُ ذلكَ إلى اللهِ تعالى كَعِلْمِ الساعةِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ على الإبْتِداءِ ليسَ على الصِّلَةِ بالساعةِ، ولكنْ موصولاً بِما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ . . . ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت ٣٧ و٣٨ و٣٩] إلى ما ذُكِرَ. فَعَلَى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ:

ومِنْ آياتِ الوهِيَّتِهِ وَوَحدانِيَّتِهِ وآياتِ قدرتِهِ وعِلْمِهِ وتدبيرِهِ أنْ تَخْرُجَ الثمراتُ مِنْ أكمامِها، ومِنْ آياتِهِ أنْ تَحْمِلَ الأُنثى، وتَضَعَ[11].

إنَّ اللهَ تعالى أنشأَ تلكَ الثمراتِ[12] في الأكمامِ وكذا الولدَ في البَطْنِ في حُجُبٍ وسَواتِرَ، وربّاهُ في تلكَ الحُجُبِ والسواتِرِ، وغَذّاهُ بأغذيةٍ، ودَفَعَ عنهُ جميعَ الأذى مِنَ البَرْدِ والحَرِّ وجميعَ ما يُؤذيهِ لِضَعْفِهِ ولَطافَتِهِ لُطْفاً منهُ ورحْمَةً، وصَوَّرَهُ في تلكَ الحُجُبِ والسواتِرِ بأحسَنِ صورةٍ لِتُعْلَمَ الوهِيَّتُهُ وَوَحدانِيَّتُهُ وأنَّ لهُ علماً ذاتياً وقُدْرَةً ذاتِيَّةً أزلِيَّةً لا مُكْتَسَباً مُسْتَفاداً؛ إذِ العِلْمُ المُسْتَفادُ والقدرةُ المُسْتَفادةُ لا تَبْلُغُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي المَواضِعِ التي كانَتْ فيهِ مُسْتَتِرَةً، وغِلافُ كلِّ شيءٍ كُمُّهُ، وإنما قيلَ: كُمُّ القميصِ [منهُ][13].

---

(١) و(٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ثمرة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٧٧. (٦) في الأصل وم: الثمرة. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) و(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وتضعه. (١٢) في الأصل وم: الثمر. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أكمامُها أغطيَتُها[1] التي تكونُ فيها قَبلَ أنْ تَشَقَّقَ عنها، والتَّفَتُّقُ: التَّشَقُّقُ، يُقالُ: تَفَتَّقَتِ الأكمامُ عنِ الثمرةِ أي تَشَقَّقَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ يَذْكُرُ لَهُمْ، ويُخبِرُ عمّا يُسألونَ يومَ القيامةِ وما يكونُ مِنْ جوابِهِمْ لذلكَ السؤالِ لَعَلَّهُمْ يَمتنِعونَ عنْ ذلكَ، ويَحذَرونَهُ. يقولُ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ الذينَ تَزْعُمونَ أنهمْ شركائي في الدنيا؟ أو اينَ الذينَ [كُنتُمْ][2] تَعبُدونَ في الدنيا، وتَزعُمونَ أنها آلهةٌ، وأنهمْ[3] شُفَعاؤكُمْ عندي؟ وإلّا لا يَحتَمِلُ أنْ يقولَ لهمُ الرَّبُّ، جَلَّ، وعَلا: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ ولا شريكَ لهُ، ولا إلهَ غيرُهُ، ولكنْ ماذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أسمَعْناكَ، وقيلَ: أعْلَمْناكَ.

والأشبَهُ أنْ يكونَ مَعْنَى ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أخبَرْناكَ؛ إذِ اللهُ تعالى كانَ عالماً بذلكَ؛ وإعلامُ العالِمِ لا يَتحقَّقُ، أمّا الإخبارُ للعالِمِ عنِ الشَّيءِ فَيَتحقَّقُ بما عَلِمَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في ذلكَ: أنهُ قولُ ممَّا[4] قالَ بعضُهُمْ: هو قولُ أولئكَ الكَفَرَةِ الذينَ يُؤذِنونَ يومئذٍ؛ يقولونَ: أخبَرْناكَ أنْ لم يكُنْ منا أحدٌ شهيداً بذلكَ، أو يقولونَ بالشريكِ: [إنَّ ما لهمْ][5] سِواكَ؛ يُخرَجُ على الإنكارِ والجُحودِ والكَذِبِ أنهمْ لم يَقولوا ذلكَ، ولم يَفعَلوا، وهو كما ذَكَرَ عنهمْ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٢٢ ويونس: ٢٨] فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أنكَروا ما كانَ منهمْ مِنَ الإشراكِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ أي لم نُشرِكْ بكَ أحداً، ولم نَتَّخِذْ مِنْ ذلكَ إلهاً، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ هذا مِنْ قولِ الأصنامِ والذينَ عَبدوهُمْ مِنْ دونِ اللهِ في الدنيا؛ يقولونَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ على عبادةِ أولئكَ إيّانا، ولا أمَرْناهُمْ بذلكَ. وهو كقولِهِمْ[6]: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وقولِهِمْ: ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [غافر: ٧٤] أخبَروا أنهمْ كانوا غافِلينَ عنْ عِبادَتِهِمْ إيّاهُمْ وأنهمْ ما أمَروهُمْ بها. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ أي أخبَرْناكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ على هذا التأويلِ هو ما ذَكَروا ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] واللهُ تعالى أعلَمُ.

ثم إنَّ الكَفَرَةَ في يومِ القيامةِ مَرَّةً أنكَروا عِبادَتَهُمْ غيرَ اللهِ، وأحياناً أقَرّوا بها [ولم يَتبَرَّؤوا][7] منها، ومَرَّةً سألوا الرجوعَ إلى المِحْنَةِ والرَّدَّ إلى الدنيا على اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ في ذلكَ اليومِ؛ إذْ لا تكونُ هذهِ الأسئلةُ المُختَلِفَةُ في وقتٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ هو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى حينَ[8] قيلَ لهمْ: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] وذلكَ أنهمْ كانوا يَعبُدونَ الأصنامَ في الدنيا رجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ في الآخِرَةِ، وتُقرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى، فلمّا أيِسُوا ما رَجَوا منها، وطَمِعوا ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي مَهرَبٍ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١].

هاتانِ الآيتانِ في ظاهِرِ المَخرَجِ إحداهُما مُخالِفَةٌ للأخرَى، لأنهُ ذَكَرَ في إحداهُما الإياسَ والقُنوطَ إذا مَسَّتْهُ الشِّدَّةُ والبَلاءُ، ومِنْ طِباعِ الخَلْقِ والعُرْفِ فيهمْ أنهمْ [إذا][9] أيِسوا، وقَنِطوا، لا يَدْعونَ ولا يَسألونَ، بل يَترُكونَ سؤالَهُمْ، وإذا طَمِعوا، ورَجَوا، عندَ ذلكَ سألوا ودَعَوا. هذا هو العُرْفُ فيهمْ.

---

(١) في الأصل وم: غطاؤها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وأنها. (٤) في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: أوماله.
(٦) في الأصل وم: قوله. (٧) في الأصل وم: وتبرؤوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم.

فَدَلَّ أنَّ بَينَهما مُخالَفَةً مِن حيثُ الظاهرُ. لكنْ نقولُ: إنَّ الآيَةَ تُخرَّجُ على وجوهٍ:

[أحَدُها](١): يَحتَمِلُ أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الآيَتَينِ في إنسانٍ بِعَينِهِ، يُشارُ إليهِ سِوَى الآخرِ: كانَتْ عبادةُ أحَدِهِما على الإياسِ والقُنوطِ مِنَ الخَيرِ وتَرْكِ الدعاءِ والسؤالِ، وكانَتْ عِبادةُ الآخَرِ [على](٢) الدعاءِ والتَّضَرُّعِ إليهِ والسؤالِ عن كشفِ ذلكَ عنهُ.

فأخبَرَ، جَلَّ، وعلا، رسولَهُ ﷺ ما أضمَرَ كلُّ واحدٍ منهما: في نَفْسِ أحَدِهِما الإياسُ والقُنوطُ [وفي نفسِ](٣) الآخَرِ الدعاءُ والسؤالُ والطَّمَعُ في الخَيرِ لِيكونَ لهُ عليهِمْ دلالةُ الرسالةِ وآيةُ النُّبُوَّةِ؛ إذ أنبَأَ عن ضميرِ كلِّ واحدٍ منهما ومافي نفسِهِ لِيُعلَمَ أنهُ رسولٌ، وإنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ، جَلَّ، وعَلا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ الكَفَرَةَ كانوا فِرَقاً، وكانوا على مذاهبَ شَتَّى مُختَلِفَةٍ.

فِرْقَةٌ كانَتْ تَطمَئِنُّ في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ، وتَيْأَسُ، وتَتَقَلَّبُ في حالِ البَلاءِ والشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ الآية [الحج: ١١].

وفِرْقَةٌ كانَتْ تَفزَعُ إلى اللهِ، وتُقْبِلُ إليهِ عندَ إصابةِ الشِّدَّةِ والبلاءِ، وتُعرِضُ عنهُ عندَ كَشْفِ ذلكَ عنهمْ وتَوسيعِ النِّعَمِ عليهِمْ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] ونَحْوُهُ كثيرٌ في القرآنِ.

وفِرْقَةٌ كانَتْ(٤) في الحالَينِ /٤٨٧ ـ ب/ جميعاً على الإعراضِ عنهُ وتركِ الإقبالِ إليهِ والطاعةِ لهُ؛ لا يَفزَعونَ، ولا يُقبِلونَ لا في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ ولا في حالِ البَلاءِ والشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وفِرْقَةٌ كانَتْ تَرَى الحَسَنَةَ والخَيرَ مِنْ أنفسِهِمْ، وإذا صارَتْ سَيِّئَةٌ وشِدَّةٌ تَطَيَّروا بالرسلِ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

وإذا كانَتِ الكَفَرَةُ على هذهِ المذاهِبِ المختلفةِ، وكانَتْ أجناساً شَتَّى فتكونُ كلُّ آيةٍ منها في جِنْسٍ غيرِ الجِنْسِ الآخَرِ وفي أهلِ مَذْهَبٍ غيرِ أهلِ مَذْهَبٍ آخَرَ.

فأمّا المُسْلِمونَ فيكونونَ في الحالَينِ جميعاً على التوحيدِ والإقبالِ على اللهِ تعالى في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ وفي حالِ البلاءِ والشِّدَّةِ، وهو على ما اسْتَثْناهُمُ اللهُ تعالى عندَ ذِكْرِ الكَفَرَةِ حينَ(٥) قالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١٠و١١] وقالَ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر ١ ـ ٣] وأمثالَ ذلكَ مِنَ الآياتِ. وصَفَهُمْ ﷻ بالثباتِ والقَرارِ على دينِهِمْ في الأحوالِ كلِّها، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الآيَتَينِ على ما ذَكَرَ إخباراً(٦) عمّا طُبِعَ عليهِ البَشَرُ؛ أُنشِئَ البَشَرُ، وطُبِعَ على الرغبةِ في الخَيرِ والسَّعَةِ والنِّفارِ عنِ الشِّدَّةِ والبَلاءِ والكَراهَةِ لهُ. فهذا إخبارٌ عمّا طُبِعوا عليهِ، وأُنشِئوا، ليسَ على حقيقةِ إظهارِ ذلكَ منهمْ قولاً أو فِعْلاً على ما طُبِعَ كلُّ إنسانٍ راغباً حَرّاصاً في السَّعَةِ والرخاءِ، وإنهُ ما ذَكَرَ لا يَسأَمُ مِن دُعاءِ الخَيرِ كارهاً نافراً عنِ البلاءِ والشِّدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿هَٰذَا لِى﴾ أي [ما](٧) أعطانيهِ مِنْ خيرٍ، عَلِمَهُ مني.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: إخبار. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا يَتَطَيَّرونَ بالرسُلِ عندَ البلاءِ والشِّدَّةِ، والسَّعَةُ يَرَونَها منْ أنفسِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كانوا يُنْكِرونَ البَعْثَ والجزاءَ لِما عَمِلوا في الدنيا، ثم يقولونَ: لَئِنْ كانَ يذكُرُ محمدٌ مِنَ البَعثِ والجزاءِ للأعمالِ والجنةِ فإنَّ[2] لنا دونَهُمْ، وهو قولُهُمْ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي إنْ رُجِعْتُ إلى ربي على ما يقولُهُ محمدٌ ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ وهو على ما قالوا في الدنيا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] لِما رَأَوُا السَّعَةَ لأنفسِهِمْ في الدنيا دونَ المؤمنينَ. فَعَلَى ذلكَ في الآخِرَةِ قالوا: لنا دونَهُمْ، واللهُ الهادي.

ثم أخبَرَ تعالى عمّا يَنْزِلُ بهمْ بأعمالِهِمْ في الآخِرَةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي نُنَبِّئُهُمْ بِخَبَرِ ما عَمِلوا، لأنَّ ذلكَ منهمْ تَمَنِّياً وتَشبيهاً بِمَنْ يذيقُهُمُ العذابَ الغليظَ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنْ دُعائِهِمْ وسؤالِهِمُ الخيرَ وطَمَعِهِمْ بذلكَ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي تباعَدَ عمّا أُمِرَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثيرُ الدعاءِ، لا يَمَلُّ، ولا يَسْأَمُ، وكذا قالَ القُتَبِيُّ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ يقولُ: إنْ كانَ هذا القرآنُ مِنْ عندِ اللهِ، ثم كَفَرْتُمْ بهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الابتداءِ ليسَ بجوابٍ لقولِهِ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ ويكونُ كأنْ لم يُذْكَرْ جوابُ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ لِما عَرَفوا أنَّ مَنْ عانَدَ، وعادَى ما كانَ مِنَ اللهِ: ما[3] يُعْمَلُ بهمْ؟ وما يُصْنَعُ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦و٨٧] لم يُذْكَرْ لهُ جوابٌ لِما عَرَفوا أنَّ مَنْ عَبَدوا دونَ اللهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ أنهُ إفكٌ، وأنهُ كذبٌ، وليسَ بإلهٍ: ماذا[4] يُفْعَلُ بهمْ. فلم يُذْكَرْ لهذا جوابٌ لِمَعْرِفَتِهِمْ ما يُفْعَلُ بهمْ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ يجوزُ إنْ لم يُذْكَرْ لهُ جوابٌ لِما عَرَفوا أنهُ ما يُفْعَلُ بهمْ؟ وما يَسْتَوجِبونَ منهُ بما عانَدوهُ، وعادَوهُ، بعدَ مَعْرِفَتِهِمْ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ، ثم كَفَروا بهِ، واللهُ أعلَمُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ فإذا كَفَرْتُمْ بهِ ضَلَلْتُمْ، فَمَنْ ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾؟ أي في خِلافٍ.

وبَعدُ فيكونُ جوابُهُ كأنهُ قالَ: لا أحدَ أضَلُّ مِمَّنْ عَرَفَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ، ثم خالَفَهُ، وتَباعَدَ عنهُ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] أي لا أحدَ أظلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِباً. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي نُريهِمْ عذابَنا الذي نَزَلَ بالأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ مِنْ بلاءِ عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ؛ كانوا يَمُرّونَ عليها، ويَعرِفونَ أنهُ لماذا أنْزَلَ بهمْ ذلكَ: فهو[5] لِتَكذيبِهِمُ الرسُلَ وعِنادِهِمْ، ونُريهِمْ عذابَنا أيضاً في أنفسِهِمْ ببدرٍ حينَ[6] قُتِلَ فراعِنَتُهُمْ يومئذٍ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يقولُ: إنَّ القرآنَ، هو الحقُّ مِنَ اللهِ لأنَّ فيهِ الإخبارَ عنْ عذابِ[7] الذينَ كَذَّبوا محمداً ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ هو ظهورُ محمدٍ ﷺ على البلادِ والقُرَى النائيةِ، وفَتْحُها عليهِ ﴿وَفِىٓ

(١) في الأصل وم: قالوا. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إنه. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أن الله. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: العذاب.

أَنفُسِهِمْ﴾ أي فَتْحُ مكةَ، وظُهُورُهُ عليهِمْ على ما وَعَدَ لهُ ربُّهُ، جَلَّ، وعَلا، مِنَ النَّصْرِ لهُ وفَتْحِ البلادِ والقُرَى. فيكونُ هذانِ التأويلانِ آيةَ رسالتِهِ ونُبوَّتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ آياتِ وحدانيَّتِهِ وألوهِيَّتِهِ: أمّا في الآفاقِ [ففي وجهَينِ:

أحَدُهما: ما][1] جَعَلَ مَنافِعَ البلادِ النائيةِ والقُرى المُتباعِدَةِ مُتَّصِلَةً بِمنافِعِ أنفسِهِمْ ومَنافِعِ البلادِ القريبةِ، ومَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمنافِعِ الأرضِ على بُعدِ ما بَينَهما لِيُعْلَمَ أنهُ تدبيرُ واحدٍ وفِعْلُ فَرْدٍ لا عَدَدٍ.

[والثاني:][2] أنْ تكونَ آياتُهُ في الآفاقِ رَفْعَ السماءِ مَعَ غِلَظِها وكَثافَتِها وسَعَتِها بلا سَبَبٍ ولا تَعْليقٍ مِنْ أعلاها ولا عِمادٍ.

[وأمّا][3] في أنفسِهِمْ فما[4] حَوَّلَهُمْ، وقَلَّبَهُمْ في الأرحامِ مِنْ حالِ النُّطْفةِ إلى حالِ العَلَقةِ ومِنْ حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المُضْغَةِ ثم [مِنْ][5] حالِ المُضْغَةِ إلى حالِ الإنسانِ والتصويرِ والتركيبِ إلى آخرِ ما يَنْتَهي إليهِ أمْرُهُ لِيُعْلَمَ أنهُ صُنْعُ واحدٍ وتدبيرُ فردٍ، لا تدبيرَ لأحدٍ سِواهُ في ذلكَ.

فهذانِ التأويلانِ في آيةِ الألوهِيَّةِ والوَحْدانيَّةِ. والأوّلانِ في إثباتِ الرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شاهداً أنهُ على ما تقولُ أنتَ؟ أو يقولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ ناصراً ومُعيناً؟ أو يكونُ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾ أي أوَ لم يَكْفِهِمْ ما جاءَ مِنْ عندِ اللهِ مِنَ البيِّناتِ والقرآنِ كقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية؟ [العنكبوت: ٥١] فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ هذا.

ويَحْتَمِلُ: أوَ لم يَكْفِهِمْ آيةً على رسالتِكَ وآيةً على وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى ما جاءَ مِنْ عندِ اللهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي ألا شَكُّهُمْ /٤٨٨ ـ أ/ ومِرْيَتُهُمْ[6] في البعثِ، هو الذي حَمَلَهُمْ على تكذيبِ ما جاءَ مِنْ عندِ اللهِ وإنكارِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وما. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، في الأصل: وفي مريتهم.

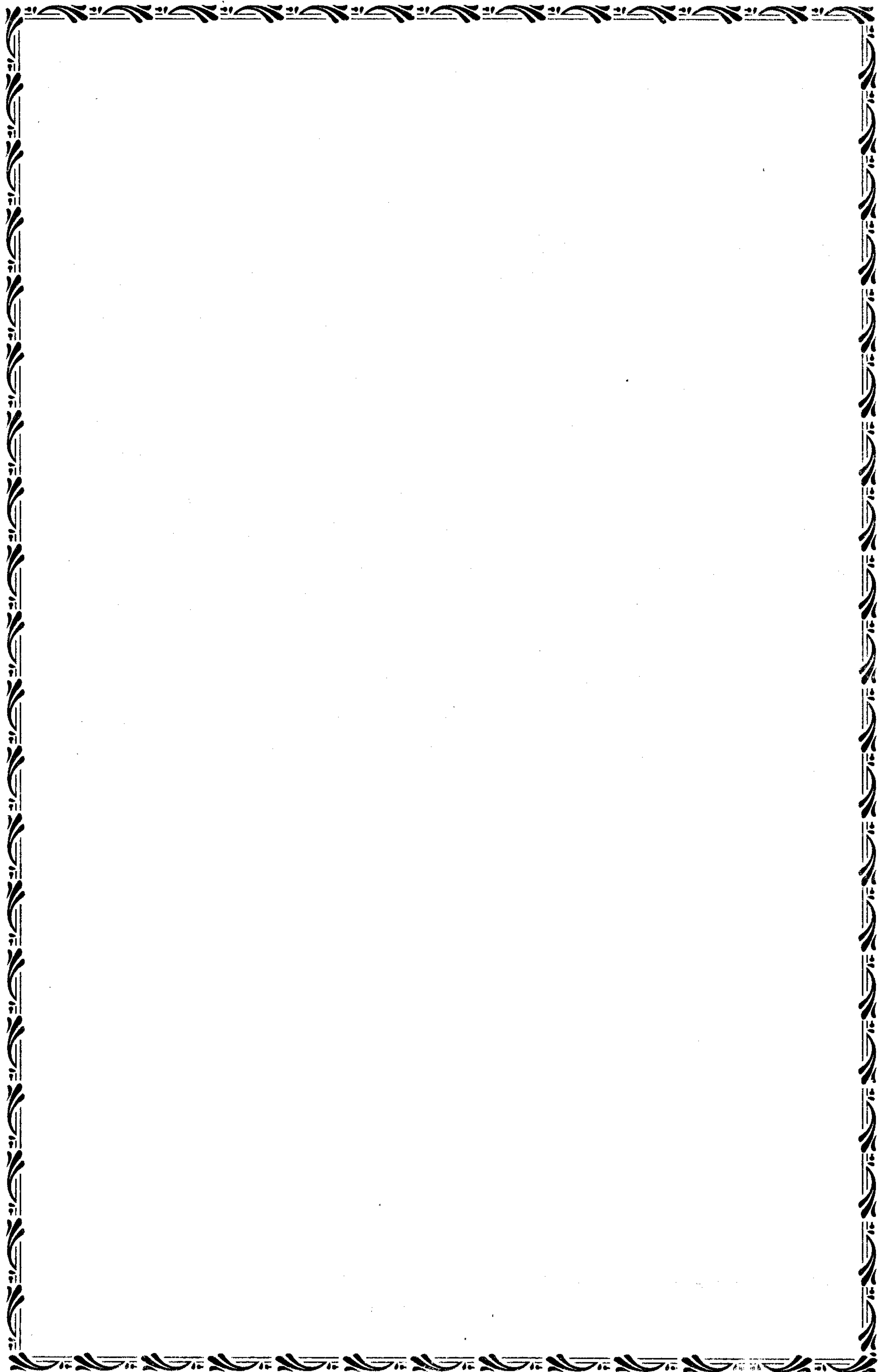

سورة[1] ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾

مكية إلّا الآيات ١و٢و٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾، قالَ بعضُهُمْ: ﴿حمٓ﴾ هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، وقيلَ: هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ القرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حمٓ﴾ أي قَضَى ما هو كائنٌ، وقد ضَعَّفَ هذا القولَ ابْنُ عباسٍ ﷺ.

والصحيحُ مِنَ الأقوالِ أنَّ ﴿حمٓ﴾ خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ، و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [[خبرٌ ثانٍ][2] ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ للكتابِ، والتقديرُ: هذا ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾][3] مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١و٢].

وقالَ بعضُهُمْ في ﴿عٓسٓقٓ﴾: العَينُ عبارةٌ عنْ عذابِهِ، والسِّينُ عنِ المَسْخِ، والقافُ كنايةٌ عنِ القَذْفِ، يقولُ أصحابُ[4] هذا القولِ: تَخرُجُ عَينٌ مِنَ الأرضِ، فيها عذابٌ، ويُمْسَخُ رجلٌ في هذهِ الأمةِ بالباديةِ، فَيَقْذِفُهُ الناسُ بالحجارةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: وهو قولُ ابْنِ عباسٍ: حمسق على إسقاطِ حرفِ العَينِ، ثم يقولُ: السِّينُ كلُّ فِرْقةٍ تكونُ، والقافُ[5] كلُّ جماعةٍ تكونُ، وذَكَرَ [أنهُ][6] كانَ يُعْلِمُ عليَّ بْنَ أبي طالبٍ، كَرَّمَ اللهُ وجْهَهُ، حسابَ العَينِ.

وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ ﷺ: حمسق بِطَرْحِ[7] العينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: العَينُ عبارةٌ عنِ العذابِ، والسِّينُ عبارةٌ عنْ: سيكونُ ذلكَ [والقافُ عبارةٌ عنِ الوقوعِ، أي قَضَى ما سَيكونُ ذلكَ][8] واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ عنْ جَعْفَرِ بْنِ محمدِ بْنِ عليٍّ ﷺ: [أنهُ][9] قالَ: العَينُ عبارةٌ عنِ العذابِ والسِّينُ عبارةٌ عنْ: سيكونُ، ولم يُفَسِّرِ القافَ، وقالَ: عَجَبٌ، أو كلامٌ نَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: العَينُ عبارةٌ عنْ عِلْمِهِ، والسِّينُ السَّلامُ، والقافُ عبارةٌ عنِ القُدْرَةِ، وكذا مُحْتَمَلٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ كلُّ حرفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ عبارةً عنْ صفةٍ مِنْ صفاتِهِ أوِ اسْمٍ مِنْ أسمائِهِ على عادةِ العربِ: [الإكْتِفاءِ بحَرْفٍ][10] عنْ جميعِ الكلمةِ: فالحاءُ عبارةٌ عنْ حِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، والميمُ عبارةٌ عنْ مُلْكِهِ ومَجْدِهِ، والعينُ عبارةٌ عنْ عِلْمِهِ، والسِّينُ عبارةٌ عنْ سَنائِهِ وسُؤْدُدِهِ، والقافُ عبارةٌ عنْ قُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ، ويكونُ كلُّ حرفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ عبارةً عنِ اسْمٍ مِنْ أسمائِهِ أو صفةٍ مِنْ صفاتِهِ، وعبارةً عنْ حُكْمٍ مِنْ أحكامِهِ.

وهذا الذي ذَكَرْنا كلُّهُ على الإمكانِ والاِحتِمالِ، لا يَسَعُ أنْ يُحَقِّقَ فيهِ التَّفْسيرُ أنهُ كذا، وأنهُ أرادَ كذا، لأنهُ مِنَ التَّشابهِ، وأنهُ مِنَ السِّرِّ الذي لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى عليهِ أحداً إلّا رُسُلَهُ ﷺ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي كما أوحَى إليكَ فقد أوحَى إلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ مِثْلَهُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر أن (٢) في م: خبره. (٣) من م، ساقطة من الأصل (٤) في الأصل وم: صاحب (٥) في الأصل وم: و الكاف (٦) ساقطة من الأصل وم (٧) من م، في الأصل: طرح. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بالاكتفاء عن حرف عبارة.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي كما أوحَينا إليكَ بسورةِ ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ بِعَينِها فقد أوحَينا بِعَينِ هذهِ الحروفِ إلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ، وهي ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: كما أوحَينا إليك ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ أوحَينا إلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرسُلِ بمَعْنى ذلكَ.

وعن ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ليسَ نَبِيٌّ إلّا وقد أُوحِيَ إليهِ بـ ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ كما أُوحِيَ إلى النّبيِّ ﷺ وهو على ما ذَكَرْنا.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُخَرَّجُ ذِكْرُ هذا في هذا المَوضِعِ على وجوهٍ:

[أحدُها:][1] أي ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شُهودٌ على أُلوهِيَّتِهِ ووَحدانيَّتِهِ.

والثاني: أنَّ ما في السمواتِ والأرضِ وما فيها، لهُ دلالاتُ وَحدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ.

والثالثُ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي كُلُّهُمْ عَبيدُهُ ومُلْكُهُ، فلا يَحْتَمِلُ أن يَتَّخِذَ مِنْ مُلْكِهِ وعَبيدِهِ ما ذَكَروا مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ والصاحبةِ وما قالوا؛ إذْ لا أحَدَ يَتَّخِذُ مِنْ عَبيدِهِ ومُلْكِهِ ما ذَكَروا من الوَلَدِ والشريكِ والصاحبةِ. فَعَلَى ذلكَ يَتَعالى اللهُ عنْ أنْ يكونَ لهُ في مُلْكِهِ ما ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ العُلُوُّ والعَظَمَةُ في الشاهِدِ يكونانِ[2] منْ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: العُلُوُّ عبارةٌ عنِ القَهْرِ والغَلَبَةِ؛ يُقالُ: فلانٌ عالٍ، أي غالبٌ وقاهرٌ، والعَظَمَةُ عبارةٌ عنِ القُدْرَةِ والمَنْزِلَةِ ونَفاذِ الأمرِ.

والثاني: يكونُ العُلُوُّ عبارةً عنِ الكِبْرِياءِ والسُّؤْدُدِ، وكذلكَ العَظَمَةُ.

والثالثُ: العُلُوُّ يكونُ عبارةً عنِ الارْتِفاعِ في المكانِ، والعَظَمَةُ عَظَمَةً في البَدَنِ والنَّفْسِ، وهذا ممّا لا يكونُ فيهِ كَثيرُ[3] منقبةٍ وقَدْرٍ، ولا شيءَ مِنْ ذلكَ، ولا يزيدُ ذلكَ في صاحبِهِ رِفْعَةً ولا مَرْتَبَةً، واللهُ يَتَعالى عنِ الوصفِ بهذا.

فإنما رَجَعَ الوصفُ لهُ بالعُلُوِّ والعَظَمَةِ إلى الوجهَينِ الأوّلَينِ: السلطانِ والقُدْرَةِ ونَفاذِ الأمرِ والمَشيئةِ والكبرياءِ والغَلَبَةِ.

فأمّا ما رَجَعَ إلى الارْتِفاعِ في الأمكنةِ والعَظَمَةِ في البَدَنِ فهو صفةُ الخَلْقِ[4]، وهمُ المَوصوفونَ بذلكَ، تعالى اللهُ ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ لِذنوبِ أهلِ الأرضِ وفَسادِهِمْ وعِظَمِ ما قالتِ الملاحِدةُ في اللهِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ والصاحبةِ، كادَتْ تَتَشَقَّقُ لِذلكَ، وتتساقَطُ، كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١].

بيَّنَ في هذهِ الآيةِ أنها كادَتْ تَتَفَطَّرُ، وتَنْشَقُّ لماذا؟ وهو دَعْواهُمْ للرحمنِ ولداً. فلِذلكَ يَحْتَمِلُ ههنا هذا المَعْنى، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: كادَتْ تَنْشَقُّ لبكاءِ أهلِها عليها وإشفاقِكَ ورحمتِكَ[5] على أهلِ الأرضِ.

ويَحْتَمِلُ تكادُ تَنْشَقُّ لِعظمةِ الرَّبِّ وجَلالِهِ وعِظَمِ سلطانِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] أخبَرَ أنهُ لو جَعَلَ في الجبالِ والأرضِ والسماءِ مِنَ المَعْنى والتَّمْييزِ ما جَعَلَ في البَشَرِ لكانَتْ هذهِ الأشياءُ بالوصفِ الذي ذَكَرَ مِنَ الخُضوعِ[6] لربها، وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تكون. (٣) في الأصل وم: كثرة. (٤) في الأصل وم: المخلوق. (٥) في الأصل وم: و رحمة.
(٦) من م، في الأصل: الخصوص.

يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] يُخبِرُ عنْ شِدَّةِ خُضوعِ هذهِ الأشياءِ وخُشوعِها لربِّها وتَذَلُّلِها لهُ وعِنادِ الكَفَرَةِ واسْتِكْبارِهِمْ وقِلَّةِ خُضوعِهِمْ وخُشوعِهِمْ لربِّهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ لِكَثْرَةِ أهلِها وازْدِحامِهِمْ فيها وعبادتِهِمْ لربِّهِمْ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عن النَّبِيِّ ﷺ: «أطَّتِ السماءُ وحَقَّ لها أنْ تَئِطَّ ما مِنْ مَوضعِ قَدَمٍ فيها إلّا ومَلَكٌ فيها ساجدٌ أو راكعٌ أو قائمٌ، يُسَبِّحُ اللهَ تعالى، ويُصَلِّي لهُ» [الترمذي ٢٣١٢] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ ما ذَكَرَ مِنْ تَفَطُّرِ السماءِ لِعِظَمِ ما يقولُ الملاحِدَةُ فيهِ مِنَ الشريكِ والوَلَدِ والصاحبةِ حينَ[1] قالَ على إثْرِهِ: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي الملائكةُ يُنَزِّهونَهُ، ويُبَرِّئونَهُ، عمّا يقولونَ فيهِ، ويُثْنونَ عليهِ بالثناءِ الذي يَليقُ بهِ/ ٤٨٨ ـ ب/ ويَصِفونَهُ بما هو أهلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ امْتَحَنَهُمْ، جَلَّ، وعلا، بالتَّسْبيحِ لهُ والثناءِ عليهِ والاِسْتِغْفارِ لأهلِ الأرضِ [على][2] ما ذُكِرَ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: إنَّ قولَهُ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَنسوخٌ بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ [غافر: ٧] لأنَّ الأولَ عامٌّ لجميعِ أهلِ الأرضِ، والثانيَ خاصٌّ. لكنَّ هذا بعيدٌ مُحالٌ: أنْ يَستَغفِرَ الملائكةُ، ويَطْلُبوا التَّجاوُزَ مِنْ ربِّهِم لِمَنْ يَقولُ لهُ بالشريكِ والوَلَدِ والصاحبةِ.

وإذا كانَ كذلكَ كانَ اسْتِغْفارُهُمْ يَرْجِعُ إلى المؤمِنينَ خاصّةً على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وبقولِهِ: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] فكانَ المُرادُ منهُ العُمومَ، ثم صارَ مَنسوخاً بِوُرودِ الخاصِّ مُتَراخِياً، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنْ كانَ اسْتِغْفارُهُمْ لجملةِ أهلِ الأرضِ على ما يقولونَ فهو عبارةٌ عنْ طَلَبِ السببِ الذي بهِ تَقَعُ لهمُ المَغْفِرَةُ، وهو التوبةُ عنِ الشركِ، والتوحيدُ. فيكونُ هذا سؤالَ التوحيدِ والهدايةِ لِتَقَعَ المَغْفِرَةُ لهمْ بذلكَ التَّجاوزِ، ويَصيروا لذلكَ [أهلاً][3].

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ ﷺ لأبيهِ أنهُ سُؤالُ وطَلَبُ السببِ الذي بهِ تَقَعُ المَغْفِرَةُ، وأنْ يَجْعَلَهُ أهلاً لذلكَ.

وكذلكَ أمْرُ الرسُلِ ﷺ قومَهُمْ بالاِسْتِغْفارِ رَبَّهُمْ، وهو ما قالَ هودٌ ﷺ: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] وقولُ نوحٍ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] لا يُحتَمَلُ أنْ يقولوا لهمُ: اطْلُبوا، واسألوا رَبَّكُمُ السببَ الذي بهِ تَقَعُ المَغْفِرَةُ لكُمْ، وهو التوبةُ عمّا هُمْ فيهِ، واخْتيارُ الهدايةِ والرُّشْدِ لأنفسِهِمْ ليكونوا لذلكَ أهلاً.

فَعَلَى ذلكَ يُخَرَّجُ اسْتِغْفارُ الملائكةِ إنْ كانَ لِجُمْلَةِ أهلِ الأرضِ على ما يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ.

وعلى هذا لا حاجةَ إلى النَّسْخِ، ولا يَحْتَمِلُهُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ الأصنامَ التي عبَدوها دونَ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يُخبِرُ أنهُ لا عنْ غَفْلَةٍ وجَهلٍ منهُ يَعْمَلونَ ما يَعْمَلونَ، ولكنهُ حفيظٌ عليهِمْ وعلى أعمالِهِمْ، لكنهُ يُؤَخِّرُ ذلكَ عنهمْ لِحِكْمَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لا تُؤاخَذُ أنتَ بِمكانِهِمْ كقولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي بِمُسَلَّطٍ عليهمْ ولا حفيظٍ. إنما أنتَ رسولٌ. فَعَلَيكَ البلاغُ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى:٤٨] وقولِهِ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة:٩٩] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ ليكونَ أقربَ إلى الفَهمِ، وأولَى أنْ يكونَ حُجَّةً عليهِمْ، وأبْلَغَ في الحِجاجِ لأنهُ ذَكَرَ فيهِ الأنباءَ السالفةَ والأخبارَ المُتَقدِّمَةَ باللسانِ العربيِّ غيرِ لسانِ تلكَ الأنباءِ ومنْ غيرِ أنْ يَخْتَلِفَ إلى أحدٍ مِنْ أهلِ ذلكَ اللسانِ [ولوِ اختَلَفَ][1] لَتَوَهَّمَ العِلْمُ منهمْ بلسانِهِمْ والنَّقْلُ بلسانِهِ[2] نفسِهِ. فَدَلَّ أنهُ إنما عَرَفَ [ذلكَ][3] باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي لِيُنْذِرَ أهلَ أمِّ القُرى وأهلَ مَنْ حولَها مِنَ القُرى. ثم تَحْتَمِلُ تَسْمِيةُ مكةَ أمَّ القُرى وجوهاً ثلاثةً:

أحَدُها: سَمّاها أمَّ القُرى لِما منها دُحِيَتْ سائرُ الأرضِينَ والقُرى.

والثاني: سَمّاها أمَّ القُرى لأنها أوّلُ بيتٍ وُضِعَ للناسِ، وأوّلُ بِناءٍ بُنِيَ في الأرضِ، فَسَمّاها لِذلكَ أمَّ القُرى، واللهُ أعلَمُ

والثالثُ: سَمّاها أمَّ القُرى لِما على الناسِ أنْ يَؤُمّوها، ويَقْصِدوها بالزيارةِ، ولأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أوّلَ ما بُعِثَ رسولاً [بُعِثَ][4] فيها، فإليها يُؤَمُّ، ويُقْصَدُ، بالدعوةِ أوّلَ ما[5] يُؤَمُّ، ويُقْصَدُ. ثم مِنْ بَعدِ ذلكَ يُؤَمُّ إلى سائرِ القُرى والبلدانِ، ويُقْصَدُ، والأمُّ القَصْدُ، ومنهُ أُخِذَ التَّيَمُّمُ. ولذلكَ سَمّاها أمَّ القُرى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ أي وتُنْذِرَ بيومِ الجَمْعِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ أي تُنْذِرَ بالقرآنِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ قد بَيَّنَ اللهُ تعالى السَّبيلَينِ جميعاً على الإبلاغِ، وبَيَّنَ عاقبةَ كلِّ سبيلٍ إلى ماذا يُفْضي مَنْ سَلَكَها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يُخْبِرُ أنَّ عندَهُ مِنَ اللطائفِ والقدرةِ ما لو شاءَ لَجَعَلَهُمْ جميعاً أمّةً واحدةً وعلى دينٍ واحدٍ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾ الآية [الزخرف:٣٣] فلو جَعَلَ ذلكَ لأهلِ التوحيدِ لكانوا جميعاً [على دينِ الإسلامِ على ما أخْبَرَ على أنهُ لو كانَ ذلكَ معَ أهلِ الكُفرِ لكانوا جميعاً][6] أهلَ كُفرٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ لا[7] يحتملُ مَشيئةَ الجَبْرِ والقَسْرِ على ما يقولُهُ المعتزلةُ لوجوهٍ:

أحدُها: لِما يكونُ الإيمانُ في حالِ الجَبْرِ والقَهْرِ لأنهُ لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ، ولا اختيارَ لهمْ.

والثاني: أنَّ كلَّ أحدٍ بِشهادةِ الخِلْقةِ مؤمنٌ موحِّدٌ للهِ تعالى. ثم لم يَصيروا بذلكَ مؤمِنينَ. فَعَلَى ذلكَ بالجَبْرِ والقَهْرِ؛ إذْ في الحالَينِ ليسَ فعلَ المؤمنِ إنما هو فِعْلُ غيرِهِ. فَدَلَّ أنهُ أرادَ أنْ يُشاءَ منهمْ ما يكونونَ[8] مختارينَ في الإيمانِ لا مَجْبورينَ.

والثالثُ: أنَّ الإيمانَ بالجَبْرِ والقَهْرِ ممّا لا يَعْرِفُهُ الناسُ، ولا يُطْلَقُ عليهِ اسْمُ الإيمانِ في العُرْفِ، وقد وَعَدَهُمُ الإيمانَ، وجَعَلَ الدينَ واحداً. وهذا عندَ التَّعارُفِ يَنْصَرِفُ إلى ما يوجدُ منهمْ عنْ طَوعٍ واختيارٍ لا بالجَبْرِ والقَهْرِ، فتكونُ الآيةُ مُنْصرِفَةً إلى المَعْهودِ عندَ الناسِ على ما هو الأصلُ في الكلامِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وعندَنا أرادَ بهِ مَشيئةَ الاختيارِ، وأخْبَرَ أنَّ عندَهُ مِنَ اللطائفِ ما لو أعطَى الكُلَّ لآمَنوا جميعاً عنِ اختيارٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بلسان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: مما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: يكون.

لكنهُ لم يُعْطِهِمْ، ولم يَشَأْ، لِما عَلِمَ منهمْ أنهمْ لا يَرْغَبونَ فيهِ، ولا يَخْتارونَ ذلكَ. ولكنْ إنما يَخْتارونَ ضِدَّ ذلكَ ونَقيضَهُ. لِذلكَ لم يَشَأْ لهمْ، وإنما يَشاءُ لِمَنْ عَلِمَ أنهُ يَختارُ ذلكَ فضلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ يُخبِرُ أنَّ [مَنْ][1] أعطى ذلكَ يُعْطيهِ رحمةً منهُ وفَضْلاً، لا أنهمْ يَسْتوجِبونَ ذلكَ منهُ، ويَسْتَحِقُّونَ عليهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى سَمَّى الإيمانَ مَرَّةً رحمةً بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ ومَرَّةً سَمّاهُ مِنَّةً بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ١١] وبقولِهِ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾ الآية [الحجرات: ١٧] فلو كانَ الإيمانُ يقومُ بالذي يكونُ الكُفْرُ مِنَ القُدْرَةِ، ولم يكُنْ مِنَ اللهِ تعالى إلى المؤمنينَ إلّا وقد كانَ مثلُهُ إلى الكافرِ على ما يقولُهُ المعتزلةُ: إنَّ الإيمانَ إنما يكونُ بالذي يكونُ الكُفْرُ، لم يكُنْ لِتَسْمِيَتِهِ هذا نِعْمةً ورَحْمةً وتَسْمِيَةِ الكُفْرِ ضِدَّهُ مَعْنىً، واللهُ الموفِّقُ.

وبَعْدُ فإنهُ لو كانَ على ما يقولُهُ المعتزلةُ لكانَ ما ذَكَرَ مِنَ النِّعْمَةِ والمِنَّةِ والرحمةِ، إنما يكونُ بالخَلْقِ منهمْ لا باللهِ تعالى ومِنْهُ.

دلَّ أنَّ عندَهُ لَطائفَ، مَنْ أعْطَى تلكَ اللطائفَ آمَنَ، واهْتَدَى، ومَنْ لم يُعْطِ إياها لم يُؤمِنْ، وقد أعطى المؤمنَ تلكَ، ولم يُعْطِ الكافرَ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ الموفِّقُ.

ثم في تَخْصيصِ أُمِّ القُرَى ومَنْ حَوْلَها بالنِّذارةِ وجوهٌ:

[أحدُها: ما][2] ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى أنهُ نذيرٌ للعالَمينَ جميعاً بقولِهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] فإذا كانَ مَبْعوثاً إلى جميعِ العالَمِ لا إلى بعضٍ دونَ بعضٍ كما كانَ / ٤٨٩ ـ أ/ بَعْثُ[3] الأنبياءِ ﷺ فلا بدَّ أنْ يكونَ لِتَخْصيصِ أُمِّ القُرَى ومَنْ حولَها مَعْنىً وحِكْمَةٌ.

[والثاني: ما][4] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لأهلِ مكةَ طَمَعٌ في شَفاعتِهِ، وإنْ لم يَتَّبِعوهُ، إمّا بِحَقِّ القرابةِ والاتِّصالِ وإمّا بِحَقِّ الأيادي، ولِمَنْ[5] حولَهُمْ بِحَقِّ الجِوارِ. فَذَكَرَ تَخْصيصَهُمْ بالإنذارِ بيومِ الجمعِ حتى يَزولَ طَمَعُهُمْ بدونِ الاتِّباعِ. والنُّزوعُ[6] عنِ الشِّرْكِ إذ ذلكَ [لا يزولُ][7] بمطلقِ الإنذارِ لِما عندَهُمْ، وفي[8] زَعمِهِمْ أنَّ المُرادَ في ذلكَ غَيْرُهُمْ لِما لهُمْ مِنْ زيادةِ سَبَبِ الوَسيلةِ معهُ.

والثالثُ[9]: أنْ يُنْذِرَ هؤلاءِ ومَنْ ذَكَرَ شِفاهاً ومَنْ بَعُدَ منهمْ خبراً، أو [أنهُ][10] خصَّ هؤلاءِ بِحَقِّ البدايةِ ثم الأقْرَبَ[11] فالأقربَ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لهمْ مِنْ وليٍّ يَشْفَعُ ولا نصيرٍ يَنْصُرُ، ويَمْنَعُهُمْ مِنْ عذابٍ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي أرباباً. واللهُ هو الوليُّ، أي هو الرَّبُّ ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وقد عَرَفوا أنَّ الإحياءَ إنما يكونُ باللهِ تعالى لا بالأصنامِ التي عَبَدوها، وإنْ كانوا يُنْكِرونَ البَعْثَ والإحياءَ بَعدَ الموتِ فلو عَرَفوا أنهُ [لو][12] كانَ إنما باللهِ تعالى لا بالأصنامِ التي عَبَدوا دونَهُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ظاهرٌ قد تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: في القرآنِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: بعض. (٤) في الأصل وم: أحدها لما. (٥) في الأصل وم: ومن. (٦) من م، في الأصل: و التزول. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و الثاني. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالأقرب. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: في رسولِ اللهِ ﷺ.

والثالثُ: في الدينِ.

فإنْ كانَ اختِلافُهُمْ في القرآنِ فقولُهُ: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في ما أقامَ مِنَ الحُجَجِ والبراهينِ أنهُ مِنَ اللهِ، ومِنْ عندِهِ جاءَ حينَ[1] عَجِزوا عنْ إتيانِ مثلِهِ أو مُقابلةِ شيءٍ يُوازيهِ.

وإنْ كانَ اختِلافُهُمْ في رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ رسولٌ][2] أوليسَ برسولٍ، فقد أقامَ مِنَ الدلائلِ والبراهينِ ما يَدُلُّ على رسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ سَمْعِيّاتٍ وعَقْلِيّاتٍ ما لا يَتَعَرَّضُ لِرَدِّها إلّا مَنْ كابَرَ عَقْلَهُ، وعانَدَ لُبَّهُ.

وكذلكَ لو كانَ اختِلافُهُمْ في الدينِ فقد أقامَ ما يَعْلَمُ كلُّ ذي عَقْلٍ ولُبٍّ أنهُ هو الصوابُ، وأنَّ غيرَهُ مِنَ الأديانِ ليسَ بِحَقٍّ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى كتابِ اللهِ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] أي إلى كتابِ اللهِ.

لكنَّ هذا لا يَصِحُّ لأنَّ قولَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إنما هو في المؤمنينَ إذا وَقَعَ بينَهُمْ الاختِلافُ في شيءٍ مِنَ الأحكامِ يُرَدُّ ذلكَ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنما هو مُحاجَّةُ الكَفَرَةِ، فهو في غيرِ ذلكَ المَعْنَى، إذْ هُمْ لا يَعْتَقِدونَ كونَهُ حُجَّةً، وإنما يُرْجَعُ إلى دليلٍ آخَرَ عَقْلِيٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي ذلكَ الذي يَفْعَلُ هذا هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كلِّ أمري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ بالطاعةِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اختِلافُهُمْ الذي ذَكَرَ، هو اختِلافُهُمْ في اللهِ تعالى كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٦]

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي ذلكُمُ الذي اختَلَفْتُمْ فيهِ هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليهِ اعْتَمَدْتُ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي إليهِ أرجِعُ.

الآية ١١ ثم نَعَتَهُ، فقالَ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١ و...] وفي مَوضعٍ آخَرَ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١ و...] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧].

قالَ بعضُ الباطِنِيَّةِ: المُبْدِعُ هو الذي يُنْشِئُ الأشياءَ لا مِنْ شيءٍ. والخالقُ هو الذي يُنْشِئُ الشيءَ مِنْ شيءٍ ومِنْ لا شيءٍ. والفاطرُ هو الذي يُنْشِئُ مِنْ شيءٍ، أو نَحْوُهُ مِنَ الكلامِ.

وعندَنا أنَّ هذهِ الأسماءَ، وإنِ اختَلَفَتْ ألفاظُها، وافْتَرَقَ اشتِقاقُها ومَآخذُها، فهيَ في المعاني واحدةٌ. والإبداعُ[3] هو الإنشاءُ بِلا احتِذاءٍ سَبَقَ، والخَلْقُ هو الإنشاءُ والتقديرُ. لكنَّ غيرَهُ لا يجوزُ أنْ يُسَمّى خالقاً لأنهُ لا يَقدِرُ على تقديرِ شيءٍ إلّا على شاهدٍ عايَنَهُ، ورآهُ. والفاطرُ كأنهُ مأخوذٌ مِنَ الشَّقِّ، يُشَقُّ الشيءُ، ويَخرُجُ منهُ أشياءُ. كُلُّهُ خَلْقٌ، وفاعِلُهُ خالقٌ على الحقيقةِ، وهو اللهُ تعالى، وباللهِ القوةُ والتوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها][4]: أي جعلَ مِنْ نفسِ آدمَ وحواءَ ﷺ أزواجاً نَسَبَنا جميعاً [إليهما، لأنهما الأصلُ، وإنّا جميعاً][5] إنما كنا مِن ذلكَ الأصلِ، وهو كَنِسْبَتِهِ إيّانا إلى الترابِ بقولِهِ: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠و٠٠] وإنما خَلَقَ أصْلَنا مِنَ الترابِ، لكنهُ نَسَبَنا إليهِ لِما منهُ كُنّا جميعاً.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي مِنْ نفسِ آدمَ وحوّاء، ونَسَبَنا إليهما لِما منهما كنّا جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: جَعَلَ بعضَكُمْ مِنْ بعضٍ أزواجاً أي حلائلَ، أي خَلَقَ الإناثَ من الرجالِ والرجالَ من الإناثِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ الآية [الروم: ٢١].

والثالثُ: أي جَعَلَ لكُمْ مِنْ مِثْلِ خَلْقِكُمْ أزواجاً أي أصنافاً وأشكالاً، جَعَلَ الخَلْقَ[١] كلَّهُ ذا أشكالٍ وأمثالٍ وذا أزواجٍ.

وكذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنهُ جَعَلَ الأنعامَ أيضاً ذاتَ أزواجٍ وأشكالٍ.

والثاني: جَعَلَ منها الذكورَ والإناثَ أيضاً كما جَعَلَ مِنَ البَشَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ والمُرادُ بقولِهِ ﴿فِيهِ﴾: أنَّ الهاءَ كنايةٌ عنْ ماذا؟ قالَ بعضُهُمْ ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يُكثِّرُكُمْ، وقيلَ: يُنْشِئُكُمْ ﴿فِيهِ﴾ وقيلَ: يَرْزُقُكُمْ ﴿فِيهِ﴾ ويُعَمِّرُكُمْ، وقيلَ: يَخْلُقُكُمْ.

وأمّا قولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ [فقد][٢] قالَ بعضُهُمْ: يجيءُ قولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ أي فيها كنايةٌ عنِ الأنعامِ. وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ ويَذْرَؤُكُمْ فيها أي في الأنعامِ لِما جَعَلَ لِلْبَشَرِ فيها مِنْ أنواعِ المَنافِعِ.

وأمّا مَنْ قَرَأَ ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ بِغَيرِ الألفِ فهو يَجْعَلُهُ كنايةً عنِ العالَمِ. كأنهُ يقولُ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يَخلُقُكُمْ في العالَمِ، ويُكثِّرُكُمْ فيهِ، ويُعَيِّشُكُمْ، ويُعَمِّرُكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يُكثِّرُكُمْ في هذا التزويجِ الذي جَعَلَ بَينَكُمْ، أي يُكثِّرُكُمْ بسببِ هذا التزويجِ [ولولا هذا التزويجُ][٣] لم يكثرِ الناسُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ كنايةً عنِ التدبيرِ؛ يقولُ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يَخلُقُكُمْ فيهِ نَسْلاً بَعْدَ نَسْلٍ كقولِهِ تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ٧٩] وهو قولُ القُتَبِيِّ وأبي[٤] عَوسَجَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الآية: يَستَدِلُّ بعضُ أهلِ التشبيهِ بأنَّ لهُ مَثَلاً بقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يقولونَ: لو لم يكُنْ لهُ مِثْلٌ لم يَذْكُرْ كافَ التشبيهِ حينَ[٥] قالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لكنْ نَفَى مِثْلِيَّةَ الأشياءِ عنْ مِثْلِهِ، فيكونُ فيهِ إثباتُ مِثْلٍ لهُ، لا يُشْبِهُ سائرَ الأشياءِ سِواهُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وعندَنا قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليسَ مِثْلُهُ شيءٌ، والكافُ قد تُزادُ في الكلامِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ليسَ كَهُوَ شيءٌ، والعربُ قد تُقيمُ المَثَلَ مُقامَ النَّفْسِ. وأصْلُهُ أنَّ الخَلْقَ ذو أعدادٍ، وكلُّ ذي عَدَدٍ لهُ أشكالٌ وأمثالٌ مِنْ حيثُ العَدَدُ.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ الخَلْقَ، وإنْ كانوا ذَوي[٦] أمثالٍ وأشكالٍ وأشباهٍ فليسَ يُشْبِهُ بعضُهُمْ بعضاً مِنْ جميعِ الوجوهِ وكلِّ الجِهاتِ. ولكنْ إنما يُشْبِهُ بعضُهُمْ بعضاً [بِوَجْهٍ مِنَ الوجوهِ][٧] أو بصفةٍ أو بِجِهَةٍ أو بِنَفْسٍ، ثم صارَ بعضُهُمْ أمثالاً لبعضٍ وأشباهاً بتلكَ الجِهَةِ وبذلكَ الوَصْفِ.

فَدَلَّ أنَّ اللهَ تعالى ليسَ يُشْبِهُ الخَلْقَ، ولا لهُ مِثالٌ منهُمْ بِوَجْهٍ مِنَ الوجوهِ، ولا لهُ شَبيهٌ منهُمْ: لا ما يَرْجِعُ إلى النَّفْسِ [ولا ما يَرْجِعُ إلى الصفةِ][٨] وهو يَتَعالى عنْ جميعِ مَعاني الخَلْقِ وصِفاتِهِم.

---

(١) في الأصل وم: الخلائق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و أبو. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ذا. (٧) في الأصل وم: من جميع الوجوه أو بوجه. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

ودلَّ قولُهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ أنهُ شيءٌ لأنهُ نَفَى عن نفسِهِ المِثْلِيَّةَ، ولم يَنْفِ الشَّيْئِيَّةَ.

لكنْ يُقالُ: /٤٨٩ ـ ب/ شيءٌ لا كالأشياءِ، يُنْفي عنهُ شِبْهَ الأشياءِ. والشيءُ إثباتٌ، وفي الإثباتِ توحيدٌ. ولو لم يكُنْ شيئاً لكانَ يقولُ: ليسَ هو شيئاً[1]. دَلَّ أنه ما ذَكَرَ.

وقولُهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ذُكِرَ في غيرِ موضعٍ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المنافقون: ٧] وقولِهِ ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [المؤمنين: ٨٨ ويس: ٨٣] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ فيها ذِكْرُ المفاتِحِ والمقاليدِ والخزائنِ التي أضافَها إلى نفسِهِ.

ثم لم يَفْهَمِ الخَلْقُ مِنَ المفاتِحِ المُضافةِ والمقاليدِ والخزائنِ ما يُفْهَمُ لو أُضيف إلى الخَلْقِ، بل فَهِموا مِنَ المفاتِحِ المُضافةِ إلى الخَلْقِ والمقاليدِ المَنْسوبةِ إليهِمْ مَعْنىً، لم يَفْهَموا ذلكَ المَعْنَى مِنَ المفاتِحِ والمقاليدِ المُضافةِ إلى اللهِ تعالى، فما يَنْبَغي أنْ يَفْهَموا[3] مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقولِهِ تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ [ص: ٧٥] ونَحْوِ ذلكَ ما يَفْهَمونَهُ مِنَ اليَدِ المُضافةِ إلى الخَلْقِ، لكنهُ ذَكَرَ المفاتِحَ والمقاليدَ، وأضافَها إلى نفسِهِ، لأنَّ كلَّ مَحْجوبٍ ومَسْتورٍ عنِ الخَلْقِ في ما بَيْنَهُمْ إنما يُوصِلُهُمْ إلى ذلكَ المَحْجوبِ والمَسْتورِ عنهمْ بالمفاتِحِ والمقاليدِ التي ذَكَرَ.

فَعَلَى ذلكَ ما أضافَ إلى نفسِهِ مِنَ اليَدِ وغَيرِها لِما باليَدِ يُبْسَطُ في الشاهِدِ، وبها يُمْنَعُ، وبها يُكْتَسَبُ، ويُفْعَلُ ما يُفْعَلُ، فأضافَ إلى نفسِهِ ما بهِ يكونُ في الشاهِدِ مِنَ الفِعْلِ والبَسْطِ والمَنْعِ كِنايَةً عنْ هذهِ الأفعالِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ لأنَّ الرزقَ المذكورَ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وهو المطرُ.

والثاني: الأملاكُ التي يَكْتَسِبونَ.

والثالث: المَنافِعُ التي جَعَلَ لهمْ.

ثم الإشكالُ أنَّ الأملاكَ التي تكونُ لهمْ والمَنافعَ التي يَنْتَفِعونَ بها، وجُعِلَتْ لهمْ، إنما تكونُ بأسبابٍ واكْتِسابٍ منهمْ، ثم أضافَ ذلكَ في البَسْطِ والتَّقْتيرِ حينَ[4] قالَ: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾. دلَّ أنَّ للهِ تعالى في ذلكَ صُنْعاً وتدبيراً، وهو أنْ خَلَقَ اكْتِسابَهُمْ وأسبابَهُمْ التي بها يوصَلُ إليهِمُ الرزقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تَقَدَّمَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ الدينُ [الذي][5] يُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ، الجزاءُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣] أي يوم الجزاءِ، أو يُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ الحُكْمُ كقولِهِ تعالى خَبَراً عنْ يوسفَ ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في حُكْمِ المَلِكِ، ويُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ المذهبُ والمُعْتَقَدُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فكانَ المَعْنَى مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ هو المذهبُ، وما يُعْتَقَدُ.

وقد ذَكَرَ الدينَ مُعَرَّفاً بالألفِ واللامِ، وإنهُ للجِنْسِ، فيكونُ كأنهُ قالَ: شَرَعَ لكُمْ مِنَ الأديانِ جملةَ الدينَ الذي وَصّى بهِ نوحاً ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ، وهو التوحيدُ للهِ تعالى والعبادةُ لهُ، والأنبياءُ والرسُلُ جميعاً إنما بُعِثوا للدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ وجَعْلِ العبادةِ لهُ، وإنِ اخْتَلَفَتْ شرائِعُهُمْ وأحكامُهُمْ، وذلكَ قولُهُ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) في الأصل وم: شيء. (٢) في الأصل وم: و قال. (٣) في الأصل وم: يفهموه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ويَجْعَلُ ﴿مِّنَ﴾ صِلَةً زائدةً فيهِ، أي شَرَعَ لكُمُ الدينَ الذي ﴿وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ ومَنْ ذَكَرَ، والوجْهُ فيه ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: [ما][1] معنَى تخصيصِ نوحٍ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ ﷺ والكلُّ بُعِثوا للدُّعاءِ إلى هذا الدينِ، وقد وَصَّى الكلَّ بهذا الدينِ؟ فنقولُ [ما][2] قالَ بعضُهُمْ: إنما خَصَّ نوحاً ومَنْ ذَكَرَ بهذا لأنَّ التَّحْليلَ والتَّحْريمَ لم يَكُنْ قَبْلَ زمنِ نوحٍ ﷺ وإنما جاءَ ذلكَ في زمنِ نوحٍ، لِذلكَ خَصَّ نوحاً بما ذَكَرَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هؤلاءِ لا على تَخْصيصِهِمْ بذلكَ مِنْ بينِ الأنبياءِ، ولكنْ ذَكَرَ بعضاً ههنا، وتَرَكَ ذِكْرَ البعضِ ليسَ أنهُ شَرَعَ لهُ ما وَصَّى بهِ نوحاً ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ، ولم يَشْرَعْ لهُ ما وَصَّى بهِ غيرَهُمْ، بل شَرَعَ ما وَصَّى بهِ هؤلاءِ وغَيرَهُمْ مِنَ الدينِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ذَكَرَ بعضَ هؤلاءِ وغيرَهُمْ، ثم أمَرَهُ أنْ يَقْتديَ بما هُمْ عليهِ.

دلَّ أنَّ ذِكْرَ البعضِ في موضعٍ ليسَ للتَّخْصيصِ كما ذَكَرَ البعضَ في مَوضعٍ آخَرَ والكلَّ في مَوضعٍ آخَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ تخصيصُ هؤلاءِ بالذكرِ لِمَعْنىً لم يُطْلِعْنا اللهُ على ذلكَ كما خَصَّ إبراهيمَ بالصلاةِ عليهِ على ما أمَرَنا بهِ النبيُّ ﷺ كقولِهِ: «كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ» [البخاري ٣٣٧٠ ومسلم ٤٠٥] لِمَعْنىً لم يُطْلِعْنا على ذلكَ. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي في عبادةِ اللهِ تعالى، أي اعبُدوهُ جميعاً.

والثاني: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي الدينِ الذي ذَكَرَ، وهو التوحيدُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عَظُمَ عليهِمْ دعاؤُكُمْ إلى التوحيدِ وعبادةُ اللهِ وحدَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا يَنْقُضُ على المعتزلةِ لأنهُ تعالى أخبَرَ أنهُ يَجْتَبي إليهِ مَنْ يَشاءُ. ولو كانَ على ما يقولُهُ المعتزلةُ: إنهُ قد أعطى الكافرَ جميعَ ما أعطى المؤمنَ، فالمؤمنُ حينَ[3] صارَ مُجْتَبىً مُصْطَفىً مُختاراً إنما كانَ مما[4] يفعلهُ لأمرِ اللهِ تعالى. وقد أخبَرَ أنهُ هو يَجْتَبي مَنْ يشاءُ، وهو يهديهِ، فَبَطَلَ قولُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي هو يهدي مَنْ يطلُبُ منهُ ما بهِ يكونُ الهُدى، وهو التوفيقُ، أي مَنْ[5] لم يَطْلُبْ منهُ ذلكَ، ولم يَسْألْ، فإنه لا يَهْديهِ[6] ولا يُوفِّقُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ تفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَجْتَبي للهدايةِ مَنْ يُنيبُ إليهِ. فأمّا مَنْ لم يُنِبْ إليهِ فلا يَجْتَبيهِ للهدايةِ. لكنَّ المرادَ مِنَ الهدايةِ ههنا ليسَ هُدَى البيانِ لأنَّ هُدَى البيانِ قد كانَ عامّاً لِمَنْ أنابَ إليهِ، ومَنْ لم يُنِبْ. ولكنَّ الهُدَى ههنا هو هُدَى الرَّحْمةِ وهُدَى النِّعْمَةِ والمِنَّةِ.

سَمّى التوحيدَ والإيمانَ مَرَّةً رحمةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨] وسمّاهُ نِعْمَةً كقولِهِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وسَمّاهُ مِنّةً كقولِهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وسَمّاه نوراً كقولِهِ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. فلِذلكَ قُلْنا: إنَّ الهُدَى المذكورَ ههنا ليسَ هو هُدَى البيانِ، ولكنْ سِواهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أي أنهمْ تَفَرَّقوا في رسولِ اللهِ محمدٍ، عليهِ أفْضَلُ الصلاةِ، بَعْدَ ما جاءَهُمُ العلمُ في كُتُبِهِمْ أنهُ رسولٌ لِما كانوا يَجْحَدونَ بَعْثَهُ وصِفَتَهُ في كُتُبِهِمْ. لكنهمُ اخْتَلَفوا، وتَفَرَّقوا، فآمَنَ بعضُهُمْ بهِ على [ما وَجَدُوا][7] في كتبِهِمْ، وكَفَرَ بعضٌ، وحَرَّفوا ما في كُتُبِهِمْ مِنْ بَعْثِهِ وصفتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: منه. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) في الأصل وم: يهدي به. (٧) في الأصل: وجده، في م: ما وجده.

والثاني: أي تَفرّقوا في ما جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ مِنَ الدينِ إلّا مِنْ بعدِ ما جاءَهُمُ العلمُ أنّ الذي جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ هو الذي وَصّى بِهِ نوحاً ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ ﷺ.

[والثالثُ][1]: أي ما تَفرّقوا في الإيمانِ بالرسُلِ والكفرِ بهِمْ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ / ٤٩٠ ـ أ/ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنهمْ على الحقّ وأنهمْ رسلُ اللهِ مبعوثونَ إليهِمْ، فَتَفرّقوا، فآمَنوا بالبعضِ وكَفَرُوا بالبعضِ ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

[والرابعُ][2]: أي ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنّ الفرقةَ ضلالةٌ وهلاكٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يَحتَمِلُ حَسَداً بَينَهم لِما قِيلَ: إنهمْ كانوا مؤمنينَ بِهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ لما وجدوا بَعْثَهُ وصِفَتَهُ في كُتُبِهِمْ ظَنّاً منهمْ أنهُ سَيُبْعَثُ[3] منهمْ. فلمّا بُعِثَ مِنْ غَيرِهِمْ حَسَدوهُ، وكَفَروا بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي عُدواناً وظُلْماً يكونُ في ما بَينَهُمْ ذلكَ التَفرّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخيرِ العذابِ عنهمْ إلى وقْتٍ، وإلّا كانَتِ الكلمةُ منهُ في تَعجيلِ العذابِ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي إنّ الذينَ أُعطوا الكتابَ مِنْ بعدِ الرسُلِ الذينَ ذَكَرَ ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ أخبَرَ أنهمْ كانوا في شَكٍّ بما جاءَ بِهِ الرسُلُ، لكنهمْ لم يُعذَروا في شَكِّهِمْ لِما تركوا النَّظَرَ و التَّفَكُّرَ في ذلكَ. ولو نَظَروا في ذلكَ وتَفَكّروا فيهِ، لَوَقَعَ ذلكَ لهمْ، وبانَ الحقُّ، فلم يُعذَروا في ذلكَ لأنهُ منهمْ كانَ ذلكَ الشَّكُّ والرَّيبُ. ولو تفَكّروا، ونَظَروا لَتَجَلّى لهمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾:

عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ: [أنهُ قالَ][4] أي فبهذا القرآنِ الذي أُنزِلَ إليكَ فادْعُ. وكذا قالَ قتادةُ: فبهذا القرآنِ فادْعُ. وقيلَ: فَلِذلكَ وَعَدَ أنْ يُنْزِلَ عليكَ، فادْعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي وإلى ذلكَ الكتابِ فادْعُ. وقيلَ: فإلى التوحيدِ الذي بُعِثَ الرسُلُ إلى الدعاءِ إليهِ فادْعُ، أي ادْعُ إلى التوحيدِ الذي لأجلِهِ بُعِثَ الرسُلُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ دليلٌ على أنهُ كانَ قد سَبَقَ لهُ الأمرُ بالإسْتِقامةِ.

ثم يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الإسْتِقامةِ التي أمَرَ بها، هو تبليغُ الرسالةِ إليهِمْ. ويَحتَمِلُ العبادةَ لهُ والطاعةَ، ويَحتَمِلُ الإسْتِقامةَ في التوحيدِ لهُ ودعاءَ الخَلْقِ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ أي في تَرْكِ الدعاءِ إلى التوحيدِ؛ إذْ هو هَوَى الكَفَرَةِ أنْ يَتْرُكَ هو الدعاءَ إلى التوحيدِ.

ويَحتَمِلُ أنه نَهى عنْ إجابتِهِ إياهُمْ في ما دَعَوا هم؛ إذ هَوَى الكَفَرَةِ أنْ يُجيبَهُمْ في ما دَعَوا هم إليهِ مِنَ الشِّرْكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أمَرَهُ بأنْ يُخبِرَ بأنهُ مؤمنٌ بجميعِ الكتبِ التي أنزَلَ اللهُ لِيُوافِقوهُ في الإيمانِ بجميعِ الكتبِ [لأنّ][5] أولئكَ الكَفَرةَ كانوا يؤمنونَ ببعضِ الكتبِ، ويكفُرون ببعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ أي أنْ أكونَ عَدْلاً في ما بَينَكُمْ، أي يُسَوّي بَينَهمْ، ثم نَعَتَ الذي كانَ يدعوهُمْ إلى [توحيدِهِ، بقولِهِ][6] وهو قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ هذا يَخرُجُ على وجهَينِ:

---

(١) و(٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: بعث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: التوحيد وهو قوله.

أحدُهما: على المُنابذَةِ كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وإنما يُقالُ هذا بَعدَ ما تَبلُغُ[1] الحُجَجُ غايَتَها، والحِجاجُ نهايَتَهُ، فلم يَنجَعْ ذلكَ فيهِمْ، وأيِسَ[2] منهمْ.

والثاني: يقولُ: إنّا لا نُؤاخَذُ بأعمالِكُمْ، ولا أنتمْ تُؤاخَذونَ بأعمالِنا [كقولِهِ تعالى][3] ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونَحوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا حُجَّةَ بَقِيَتْ في ما ادَّعيتُ، ودَعَوتُكُمْ إليهِ إلّا وقد أقَمْتُها عليكُمْ، أي لم تَبْقَ حُجَّةٌ في ذلكَ إلّا وقد أقَمْتُها. ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا﴾ أي لا حُجَّةَ ولا خُصومةَ بَينَنا بَعدَ ما بَلَغَ الأمرُ ما بَلَغَ.

ثم قالَ: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ في الآخرةِ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ أهلَ الكُفرِ قالوا للمؤمنينَ: إنَّ دينَكُمُ الإسلامُ إنما كانَ مادامَ مُحمَّدٌ بينَ أظهُرِكُمْ، ومادامَ حيًّا، فإذا ماتَ فتَصيرونَ أنتمْ ومَنْ تَبِعَ الإسلامَ إلى دينِنا، أو كلامٌ نحوُهُ. فَنَزَلَ لقولِهِمْ ذا قولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ اليهودَ قَدِموا على رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا للمؤمنينَ: إنَّ دينَنا أفضَلُ مِنْ دينِكُمْ لأنهُ دينُ الأنبياءِ ﷺ فَنَزلَتِ الآيةُ فيهِمْ بقولِهِمْ هذا:

أي دينُنا أفضَلُ لأنهُ دينُ الأنبياءِ، فقالَ: حُجَّتُهُمْ داحضةٌ، أي هكذا: إذا كانوا على دينِ الأنبياءِ، وهو الإسلامُ.

فأمّا إذا تَرَكوا دينَ الإسلامِ، وتَمَسَّكوا باليهوديةِ، واختاروها فلَيسَتْ بأفضَلَ، ولاشيءَ دونَها.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ قُريشاً قالوا: كيفَ نَعبُدُ مَنْ لم نَرَهُ، ولم نُعايِنْهُ أنهُ ممَّ هو؟ وكيفَ هو؟ أو كلامٌ نَحوُهُ فنزلَتْ ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأنَّ التوحيدَ ومعرفةَ اللهِ تعالى إنما تكونُ بالدلائلِ والآياتِ في الدنيا عنْ غَيبٍ ليسَ بالمُعايَنَةِ والمُشاهَدَةِ ونزولِ الامتِحانِ.

ثم يَحتَمِلُ[4] أنْ يكونَ نُزولُ الآيةِ لِقولٍ كانَ مِنْ أولئكَ على ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على غَيرِ ذلكَ، ومَعناهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ في دَفعِ آياتِ اللهِ ورَدِّها. ويَحتَمِلُ في دَفعِ توحيدِ اللهِ وألوهيَّتِهِ ﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ بِحَقِّ الخِلْقَةِ أنهُ واحدٌ وأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ بِما في كُتُبِهِمْ مِنَ الإيمانِ بها وبِما فيها مِنْ نُعوتِ رسولِ اللهِ ﷺ وصفاتِهِ.

ثم أخبَرَ أنَّ حُجَّتَهُمْ داحضةٌ عندَ ربِّهِمْ[5] يومَ القيامةِ أي باطلةٌ غَيرُ مقبولةٍ أو[6] في الدنيا بِما أقامَ اللهُ تعالى مِنْ حُجَجِ التوحيدِ، فأبطَلَ حُجَجَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بيانُ الجزاءِ لهمْ في الآخرةِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي للهِ عليهِمْ، أو ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لبعضِهِمْ على بعضٍ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي بالعَدلِ في الأحكامِ[7]. جَعَلَ الميزانَ كِنايةً عنِ العَدْلِ، أي هو طريقُ العدلِ وسَبَبُهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وقولِهِ تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي ﴿صِدْقًا﴾ في ما فيهِ مِنَ النَّبَإِ والخَبَرِ ﴿وَعَدْلًا﴾ في الحُكمِ في ما بَينَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: انتهت. (٢) في الأصل وم: وأيسوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: احتمل. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: هذا يخرج على هذين يحتمل أي حجتهم داحضة. (٦) في الأصل وم: ويحتمل أي حجتهم داحضة. (٧) في الأصل وم: الأرحام.

[ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱلْمِيزَانَۗ﴾ أنْ يكونَ عَطْفاً](١) على الكتابِ، وهو الظاهرُ، والمُرادُ منهُ العَدْلُ، فَيَصيرُ تقديرُ الآيةِ، واللهُ اعلَمُ، الذي أنْزَلَ الكتابَ بالحقِّ، وأنزَلَ العَدْلَ في ما بَينَ الخَلْقِ، أو أنْزَلَ العَدْلَ في الأحكامِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ عَطْفاً على الحقِّ، فَيَصيرَ تقديرُهُ: أنْزَلَ الكتابَ بالحقِّ وبالعَدْلِ في الأحكامِ وفي ما بَينَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى أحداً على العِلْمِ بوقتِ الساعةِ على ما ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ﴾ كانَ اسْتِعْجالُهُمْ بها اسْتِهزاءً منهُمْ وتكذيباً / ٤٩٠ ـ ب/ لها(٢) أنها كائنةٌ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُوعِدُهُمْ بها، ويُخبِرُ أنها كائنةٌ، فكانوا يَستَعْجِلونَ اسْتِعجالَ تكذيبٍ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ لأنَّ لأهلِ(٣) الإيمانِ والتوحيدِ زَلّاتٍ ومَساوِئَ، لم يَتَبَيَّنْ لهمُ التجاوزُ عنها والعَفْوُ عنها، فيكونونَ(٤) أبداً خائفينَ مُشْفِقينَ بتلكَ الزّلاتِ والمَساوِئِ وما يكونُ فيها مِنَ الأهوالِ والأفزاعِ. فأمّا أهلُ الكُفْرِ منهمْ، لا يؤمنونَ بها، ولا يُصَدِّقونَ أنها كائنةٌ، فلا يَخافونَها وما فيها مِنَ الأهوالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ قولُهُ: ﴿يُمَارُونَ﴾ يَحتَمِلُ يُجادِلونَ، ويُخاصِمونَ فيها أنها ليسَتْ بكائنةٍ، ويَحتَمِلُ ﴿يُمَارُونَ﴾ في الرِّيبَةِ، وهو الرَّيْبُ والشَّكُّ، أي يَشُكّونَ فيها.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ قالَ: إنَّ الآيةَ، وإنْ جاءَتْ مَجيئاً عامّاً فهي خاصّةٌ للمؤمنينَ: هو لطيفٌ أي بارٌّ بالمؤمنينَ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ الآيةَ للفريقَينِ جميعاً . للكافرِ والمؤمنِ.

فأمّا في الآخِرَةِ فهو رحيمٌ بارٌّ بالمؤمنينَ خاصّةً.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ [رحيماً بارّاً](٥) بالفريقَينِ. أمّا في حقِّ المؤمنينَ فلا(٦) شَكَّ أنهُ بارٌّ رحيمٌ بهمْ، وأمّا الكَفَرَةُ [فهو](٧) بارٌّ في حقِّهِمْ حينَ(٨) أخَّرَ عنهمُ العذابَ في الدنيا.

ثم في حقِّ المِحْنَةِ يجوزُ أنْ يوصفَ بالرحمةِ في الفريقَينِ جميعاً [على](٩) ما ذكَرْنا.

فإنْ قيلَ: إنهُ وَصَفَ [نَفْسَهُ](١٠) بالحِلْمِ والرحمةِ، وقد أخبَرَ أنهُ يُعَذِّبُهُمْ في الآخِرَةِ. قيلَ: إنهُ وإنْ عَذَّبَهُمْ فانَّ ذلكَ لا يُخرِجُهُ عنِ الحِلْمِ والرحمةِ، لأنهُ لوتَرَكَ تعذيبَهُمْ يكونُ سفيهاً لأنهمْ قدِ استَحَقّوا بالكُفْرِ التعذيبَ أبداً، وليسَ في التعذيبِ خُروجٌ عنِ الرحمةِ والحِلْمِ، بل في تَرْكِ التعذيبِ سَفَهٌ وخُروجٌ عنِ الحكمةِ . لذلكَ كانَ ما ذكَرْنا، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ قد ذكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٦والعنكبوت: ٦٢] تأويلَهُ ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ لا يَقْوَى بشيءٍ ممّا أمَرَهُمْ بهِ، وامْتَحَنَهُمْ، ولا يَعِزُّ بذلكَ، لأنهُ قويٌّ بذاتِهِ عزيزٌ بنفسِهِ.

والثاني: ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ في الانْتِقامِ والانْتِصارِ منْ أعدائِهِ لأوليائِهِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَلْحَقُهُ الذُّلُّ في تَرْكِ الطاعةِ والائتِمارِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قوله تعالى يحتمل أن يكون. (٢) في الأصل وم: لهم. (٣) في الأصل وم: أهل. (٤) في الأصل وم: فيكون. (٥) في الأصل وم: رحيم بار. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧)ساقطة من الأصل وم. (٨)في الأصل وم: حين. (٩) ساقطة من الأصل وم . (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى الدنيا مَزارِعَ أهلِها، ما زَرعوا فيها حَصَدوا ذلكَ في الآخِرَةِ؛ إنْ زَرَعوا خيراً حَسَناً حَصَدوا خيراً ونَعيماً في الآخِرَةِ، وإنْ زَرَعوا شَرًّا وسُوءاً حَصَدوا في الآخِرَةِ شَرًّا وعذاباً دائماً.

وكذلكَ صَيَّرَها مَتْجَرَةً يَتْجُرونَ فيها، فإنْ تَجَرُوا خيراً وحَسَناً رَبِحوا في الآخرةِ، وإنْ تَجَرُوا شَرًّا وسُوءاً خَسِروا في الآخِرَةِ.

وكذلكَ صَيَّرَها مَسْلَكاً إلى الآخِرَةِ، والآخِرَةَ غايَةً لها، فإنْ سَلَكوا سبيلَ الخَيرِ وما أُمِروا بِهِ أفْضى بهِمْ ذلكَ إلى الخَيرِ والنعيمِ الدائمِ والسرورِ، وإنْ سَلَكوا سَبيلَ الشَّرِّ وما نُهوا عنهُ أفْضى بهِمْ إلى العذابِ الدائمِ والحُزْنِ الدائمِ [وهو][1] ما ذَكَرَ في غَيرِ آيةٍ[2] مِنَ القرآنِ كقولِهِ[3] تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ الآيـة [البـقرة: ٢٠٧] وقـولِـهِ تـعـالـى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الآيـة [البقرة: ١٦و١٧٥] وقولِهِ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦] وقولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية [الإسراء: ١٨] ونَحْوُ ذلكَ كثيرٌ.

على هذا بُنِيَ أمرُ الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي مَنْ كانَ يُريدُ بِمَحاسِنِهِ في الدنيا وخَيراتِهِ ثوابَ الآخِرَةِ نَزِدْ لهُ في الدنيا والآخِرَةِ: أمّا في الدنيا فهو[4] التوفيقُ على الطاعاتِ والزيادةُ لهُ والنَّماءُ، وأمّا في الآخِرَةِ فالنعيمُ الدائمُ والسرورُ الدائمُ.

والثاني: أي مَنْ كانَ عَمِلَ للآخِرَةِ، وسَعَى لها نَزِدْ لهُ ما ذَكَرَ مِنَ المَحاسِنِ. وتكونُ الإرادةُ ههنا صِفةً لكلِّ فاعلٍ كقولِهِ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]وهي لا تكونُ بدونِ الفِعْلِ. فكانَ ذِكْرُها ذِكْراً للفعلِ ضَرورةً، فكانَ المُرادُ منها الإرادةَ معَ الفِعلِ. فلذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ على وجهَينِ:

أحدُهما: مَنْ كانَ يريدُ مَحاسِنَ الدنيا وسَعَتَها نُؤتِهِ منها، ونُوَسِّعْ عليهِ.

والثاني: مَنْ كانَ يريدُ الدنيا، أي مَنْ عَمِلَ للدنيا، وسَعَى لها نُؤتِهِ منها وما عَمِلَ لها ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أم لهمْ آلِهةٌ دوني شَرَعوا لهمْ، أي سَنُّوا ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يَعنونَ بالشركاءِ الأصنامَ التي عَبَدوها.

لكنْ عَلِموا أنَّ الأصنامَ لم يَشْرَعوا لهمْ مِنَ الدينِ شيئاً، إلّا أنْ يُقالَ: إنهُ أضافَ ذلكَ إلى الأصنامِ لِما هُمْ شَرَعوا لأنفسِهِمْ عبادَتَها، فأضيفَ إليها ذلكَ.

وهو كقولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وإنهنَّ لم يُضْلِلْنَ أحداً، لكنهُ أضافَ إليهنَّ الإضلالَ لِما بِهِنَّ ضَلّوا، فأضافَ إليهنَّ الإضلالَ على التَّسْبيبِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ ذلكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ غَيرُهُ أولَى بذلكَ، وهو أنَّ القادةَ والرؤساءَ هُمُ الذينَ أضَلُّوا الأتباعَ، وشَرَعوا ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي ما لم يأمُرْ بِهِ اللهُ. وهُمْ كذلكَ كانوا يَفْعَلونَ: يَشْرَعونَ للأتباعِ ديناً مِنْ ذاتِ أنفسِهِمْ بلا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ، فَيَتَّبِعونَهُمْ[5] بِهِ، والرسلُ ﷺ قد أتَوا بالدينِ بالحُجَجِ والبراهينِ مِنَ اللهِ تعالى، فلم يَتَّبِعوهُمْ، ويقولونَ: إنهمْ بَشَرٌ، ويَتَّبِعونَ بَشَراً بلا حُجَّةٍ ولا برهانٍ، يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في ما ذَكَرَ، فكانَ المُرادُ مِنَ الشركاءِ، هُمُ الرؤساءُ والقادةُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي عَمِلَ للآخِرَةِ، يقالُ: فلانٌ يَحْرُثُ للدنيا، أي يَعْمَلُ لها، ويَجْمَعُ المالَ. ومنهُ قولُ ابنِ عُمَرَ ﷺ: (احْرُثْ لِدُنْياكَ كأنكَ تعيشُ أبداً، واعْمَلْ لآخرتِكَ كأنكَ تموتُ غداً) ومنهُ

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: آي. (٣) في الأصل وم: من قوله. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيتبعون.

سُمّيَ الرجلُ حارثاً، و﴿شَرَعُوا لَهُم﴾ أي ابْتَدَعوا، وسَنُّوا، كذلكَ في قولِهِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣] أي ابْتَدَعَ، وسَنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: الحُكْمُ، كأنهُ يقولُ: لولا أنَّ اللهَ تعالى حَكَمَ في هذهِ الآيةِ بتأخيرِ العذابِ إلى يومِ القيامةِ، وهو ما ذَكَرَ أنهُ بَعَثَ رسولَهُ ﷺ رحمةً لهمْ بقولِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والثاني: الفَصْلُ البَيانُ، تأويلُهُ: لولا ما وَعَدَ في الدنيا أنهُ يَفْصِلُ بينَهُمْ، ويُبَيِّنُ، في الآخِرَةِ بما ذَكَرَ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨] ونَحْوِهِ/ ٤٩١ ـ أ/.

وقيلَ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاءُ السابقُ أنَّ الجزاءَ يومَ القيامةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ذَكَرَ إشفاقَ الكَفَرَةِ والظَّلَمَةِ وخَوفَهُمْ في الآخِرَةِ وإشفاقَ المؤمِنينَ وخوفَهُمْ في الدنيا. فمَنْ خافَ عقوبَتَهُ في الدنيا أمَّنَهُ اللهُ مِنْ خَوفِ الآخرةِ، ومَنِ اسْتَهْزَأَ بعذابِ اللهِ في الدنيا خَوَّفَهُ في الآخِرَةِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ ﷺ: «لا يَجْمَعُ اللهُ على أحدٍ خَوفَينِ خَوفَ الدنيا وخَوفَ الآخِرَةِ؛ مَنْ خافَهُ في الدنيا أمِنَ في الآخِرَةِ، ومَنْ لم يَخَفْ في الدنيا خافَ في الآخِرَةِ» [بنحوه ابن حبان٦٤٠] ثم أخبَرَ ما للمؤمنينَ في الآخِرَةِ، وهو قولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذَكَرَ ما لكلِّ فريقٍ بما كَسَبُوا في الدنيا.

قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: الروضةُ البستانُ، وقالَ الكسائيُّ: الروضةُ العُشْبُ حولَ الغَرْزِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أخبَرَ أنَّ ما يعطي لهمْ في الآخِرَةِ، [هو الفَضْلُ][1] منهُ لا أنهمْ يَسْتَوجِبونَ ذلكَ، وسَمّاهُ كبيراً لأنهُ دائمٌ، لا يَنْقَطِعُ أبداً.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قولُهُ: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ أي الذي ذَكَرَ مِنَ الفَضلِ الكبيرِ، وَوَعَدَ أنهُ يُعطيهِمْ، يُبَشِّرُ اللهُ تعالى بهِ مَنْ ذَكَرَ مِنْ عبادِهِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: قالتِ الأنصارُ: إنا فَعَلْنا، وفَعَلْنا كذا، فكأنهمُ افْتَخَروا، وقالوا: لنا الفَضلُ عليكُم، فَبَلَغَ ذلكَ النَّبِيَّ ﷺ فأتاهُمْ، فقالَ: «يا مَعْشَرَ الأنصارِ ألَمْ تكونوا أذِلَّةً، فأعَزَّكُمُ اللهُ تعالى؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: ألم تكونوا فُقَراءَ فأغناكُمُ اللهُ تعالى؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ. قالَ: أفلا تُجيبونَني؟ قالوا: ما تقولُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ألا تقولونَ: ألم يُخْرِجْكَ قومُكَ، فآويناكَ؟ أوَلَمْ يُكَذِّبوكَ فَلَصَدَّقْناكَ؟ أوَلم يَخْذِلوكَ، فَنَصَرْناكَ؟ فمازالَ يقولُ حتى جَثَوا على الرُّكَبِ، وقالوا: أموالُنا وما في أيدينا لِلهِ ورسولِهِ، الفَضْلُ لرسولِهِ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾» [أحمد: ٣/ ٥٧]

لكنْ ذُكِرَ في الخَبَرِ مالا يليقُ[2] بالأنصارِ: أنْ يَظُنّوا ذلكَ برسولِ اللهِ، وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ فَخْرِهِمْ وقولِهِمْ: لنا الفضلُ علَيكُمْ. هذا لا يُحْتَمَلُ منهمْ. فَدَلَّ أنَّ الحديثَ غيرُ صحيحٍ، أوِ الزيادةَ التي لا تُحْتَمَلُ، واللهُ أعلَمُ.

وفي بعضِ الأخبارِ أنَّ الأنصارَ ﭫ قالوا: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تَنوبُهُ النوائبُ مِنَ القرابةِ وغيرِهِمْ، فتَعالَوا حتى نَجْمَعَ لهُ شيئاً مِنْ أموالِنا شيئاً فَيَسْتَعينَ بهِ على ما ينوبُهُ مِنَ الحقوقِ، فَفَعلوا، ثم أتَوا بهِ، فقالوا: إنكَ قد تَنوبُكَ نوائبُ وحقوقٌ، وليسَتْ عندَكَ لها سَعَةٌ، فأتيناكَ بشيءٍ تَسْتَعينُ بهِ على ما يَنوبُكَ مِنَ النَّفَقَةِ في أهلِكَ والنازلينَ بكَ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

[ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾][3] على وجوهٍ:

---

(١) في الأصل وم: والفضل. (٢) ادرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

أحدُها: يقولُ: لا أسألُكُمْ على ما أبلِّغُكُمْ مِنَ الرسالةِ، وأدعوكُمْ إلى الإيمانِ باللهِ تعالى ربي إلّا صِلَةَ أرحامِكُمْ وقرابَتِكُمْ، أي لا أسألُكُمْ على تبليغِ الرسالةِ إليكُمْ [وما][1] أدعوكُمْ إليهِ أجراً إلّا أنْ تَصِلوا قراباتِكُمْ وأرحامَكُمْ. فتَدُلُّ الآيةُ على وجوبِ صِلَةِ الأرحامِ.

[والثاني][2]: أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا ردًّا لقولِ أولئكَ الكَفَرَةِ حينَ[3] قالوا: إنَّ محمداً جاءَ بِقَطْعِ الأرحامِ وتفريقِ القُرْباتِ حتى فَرَّقَ بينَ [مَنْ][4] أجابَهُ إلى ما دَعاهُ إليهِ وبَينَ مَنْ لم يُجِبْهُ مِنَ الوالدِ والولَدِ والزَّوجِ والزوجةِ ونَحْوِ ذلكَ. فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولا أدعوكمْ إلى قَطعِ الأرحامِ والقراباتِ، بل ما أطلبُ منكم إلّا صلةَ الأرحامِ بما دعوتُكُمْ إليهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: لا أسألُكُمْ على ما أدعوكُمْ إليهِ أجراً، أو لا أقْبَلُهُ منكُمْ إنْ أعطيتُموني إلّا أنْ تَصِلوني بحقِّ القرابةِ والرحمِ التي بيني وبينكُمْ، فأقْبَلَهُ منكُمْ، وقد كانَ بَينَهُ وبينَهُمْ قراباتٌ ورَحِمٌ.

ويَحتَمِلُ ما قالَ الحَسَنُ[5]: واللهِ ما كانَ نَبِيُّ اللهِ تعالى يَسألُ على هذا القرآنِ أجراً، ولكنهُ أمَرَ أنْ يَتَقرَّبوا إلى اللهِ تعالى بطاعتِهِ وحبِّ كتابِهِ. فكانَ مَعْنى الآيةِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إلّا التَّقرُّبَ إلى اللهِ تعالى والتَّوَدُّدَ بالعملِ الصالحِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلّا أنْ تَوَدّوني لأجلِ قرابَتي كما تَوَدُّونَ لِقرابَتِكُمْ، وتُواصِلونَ بها. ليسَ هذا الذي جِئتُ بهِ يَقْطَعُ ذلكَ عني، ولستُ أبْتَغي على الذي جِئتُ بهِ أجراً آخُذُهُ منكُمْ على ذلكَ.

وقالَ قتادةُ: إنّ اللهَ تعالى أمَرَ محمداً ﷺ ألّا يَسألَ على هذا القرآنِ والتَّبليغِ ﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلّا أنْ يَصِلوا ما بَينَهُ وبينَهُمْ مِنَ القرابةِ، وكلُّ بُطونِ قريشٍ بَينَهُ وبينَهُمْ قرابةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: إلّا أنْ تَوَدُّوا قرابَتي.

وقالَ بعضُهُمْ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنْ لم تَتَّبِعوني إلى ما أدعُوكُمْ إليهِ، وآمُرُكُمْ به، فاحْفَظوني في قرابتي.

وأصلُهُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ هو كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الِاقْتِرافُ الِاكْتِسابُ والمُقارفةُ المُعاشَرَةُ، وقُرِفَ فلانٌ، فهو مَقروفٌ أي اتُّهِمَ بشيءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قولُهُ: ﴿غَفُورٌ﴾ أي يَغْفِرُ لهمْ، وإنْ لم يُحَقِّقوا التوبةَ والرجوعَ سِرًّا وعَلانِيَةً، ولم يَستَوجِبوا الغُفرانَ والعفوَ، وقولُهُ: ﴿شَكُورٌ﴾ أي يُشكَرُ، ويَقْبَلُ منهمُ الشكرَ، وإنْ لم يُحَقِّقوا لهُ الشكرَ، ولم يَسْتَحِقُّوا قبولَهُ فَضلاً منهُ ونعمةً، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿غَفُورٌ﴾ للذنوبِ ﴿شَكُورٌ﴾ للحسناتِ، يُضاعِفُها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي بل يقولونَ: افْتَرَى محمدٌ على اللهِ كَذِباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بالصبرِ حتى لا تَجِدَ مَشَقَّةَ اسْتِهْزائِهِمْ بكَ ولا غُصَّةَ بتكذيبِهِمْ إياكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي يُنْسِكَ، فلا تُبَلِّغْهُ إليهِمْ، فلا يَسْتَهْزِئوا بكَ، ولا يُكَذِّبوكَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

وعندَنا أنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: فقال.

أحدُهما: ما ذَكَرْنا بَدْءاً: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ بالصبرِ حتى لا تَجِدَ مَشقّةَ الاسْتِهزاءِ ولا غصّةَ التكذيبِ.

والثاني: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ كما خَتَمَ على قلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ حتى لا تَفْهَمَ، ولا تَعْقِلَ الحقَّ مِنَ الباطلِ كما فَعَلَ بأولئكَ.

يُذَكِّرُهُ إحسانَهُ إليهِ وفضلَهُ بما أكْرَمَهُ بأنواعِ الكَراماتِ التي أكْرَمَهُ بها لِيَشكُرَ ربَّهُ على ذلكَ، ويَرْحَمَ على أولئكَ بما خَتَمَ على قلوبِهِمْ وما يَنْزِلُ بهِمْ مِنْ أنواعِ العذابِ.

وعلى ذلكَ بَلَغَ أمْرُهُ ﷺ مِنَ الرحمةِ والشَّفَقَةِ عليهِمْ ما ذَكَرَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ الآية [الكهف: ٦] وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] كادَتْ نفسُهُ تَهْلَكُ إشفاقاً عليهِمْ ورحمةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي يُظْهِرُ، ويُظَفِّرُ أهلَ الحقِّ على أهلِ الباطلِ، ويَنْصُرُهُمْ، حتى يَصيرَ أهلُ الحقِّ ظاهرينَ قاهرينَ على أهلِ الباطلِ. فذلكَ مَحْوُ الباطلِ وإحقاقُ الحقِّ.

والثاني: يُحِقُّ الحقَّ بالحُجَجِ والبراهينِ حتى يَعْرِفَ كلُّ أحدٍ / ٤٩١ ـ ب/ الحقَّ مِنَ الباطلِ بالحُجَجِ التي أقامَها إذا تأمَّلَ فيها حَقَّ التأمُّلِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي براهينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي عليمٌ بما في الصدورِ، ولكنَّ قولَهُ: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عبارةٌ عمَّنْ لهُ الصدورُ عنِ الرأيِ والتدبيرِ، وهمُ البَشَرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ لا أحَدَ يُحَقِّقُ التوبةَ لأنَّ تَحقيقَ التوبةِ هو أنْ يَهْرُبَ، ويَفِرَّ ممّا استَوْجَبَ بهِ النارَ كَهَرَبِهِ مِنَ النارِ لو كانَ فيها وفرارِهِ منها لو وَجَدَ مَهْرَباً، ولا أحَدَ يَهْرُبُ مِنَ الذنبِ ويَفِرُّ منهُ كَهَرَبِهِ وفرارِهِ مِنَ النارِ لو كانَ فيها. لكنَّ اللهَ بفضلِهِ وكَرَمِهِ يَقْبَلُ ذلكَ منهُ، وإنْ لم تَكُنِ التوبةُ منهُ على الحدِّ الذي ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي يَقْبَلُ حسناتِهِمْ وخيراتِهِمْ ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يُكَفِّرُ عنْ سيِّئاتِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ [الأحقاف: ١٦] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ هذا وعيدٌ؛ يُخبِرُ رسولَهُ ﷺ أنهُ يعلَمُ ما يَفْعَلونَ سِرًّا وعلانيَةً وأنهُ عنْ علْمٍ بما يكونُ منهمُ امْتَحَنَهُمْ، وأمَرَهُمْ، ونَهاهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يجيبُ الذينَ آمنوا بما يَدعونَ، ويَسألونَ ربَّهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] أي يُجيبُهُمْ على الذي ذَكَرَ في الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ أي يَزيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [وهو قولُهُ ﷺ:][(١)] «ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ[(٢)]» [البخاري ٣٢٤٤ ومسلم ٢٨٢٤]، وهي الجنةُ، وذلكَ زيادةٌ مِنْ فَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ في حقِّ الكَفَرَةِ: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الآيةَ نزلَتْ في أهلِ الصُّفَّةِ، تَمَنَّوا أنْ تكونَ لهمُ الدنيا. فإنْ كانَتْ فيهِمْ فكأنَّهُ طَيَّبَ عليهِمُ الضيقَ والقَتْرَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: امرئ مسلم.

وقال بعضُهُمْ: ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي يَتَقَلَّبونَ مِنْ لِباسٍ إلى لِباسٍ ومِنْ مَرْكَبٍ إلى مَرْكَبٍ. ولكنْ ليسَ في ذلكَ كثيرُ بَغْيٍ، فلا يَصِحُّ صَرْفُ التأويلِ إليهِ.

ثم عندَنا يُخَرَّجُ ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ مُخْرَجَ الإمْتِنانِ والإفضالِ؛ ولهُ أنْ يَبْسُطَ عليهِمْ، وإنْ عَلِمَ منهُمُ البَغْيَ. ألا تَرَى أنهُ لو لم يُوَسِّعْ على فرعَونَ [لكانَ][1] لا يَدَّعي الألوهيَّةَ؟ لكنهُ مَنَّ على بعضِ المؤمنينَ، فضَيَّقَ عليهِمْ حتى لا يَبْغُوا، فَيُلْزِمُهُمْ بذلكَ القيامَ بِشُكْرِ ما مَنَّ عليهِمْ، وأنْعَمَ بالتَّضييقِ حتى لا يَبْغُوا.

وكذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ: مَنْعُ اللهِ عطاءٌ.

وفي ما ذَكَرْنا جوابُ عمَّنْ تَعَلَّقَ بظاهرِ الآيةِ على أنَّ الأصلَحَ [واجبُ حينَ][2] قالَ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ بَيِّنٌ أنَّ الأصلَحَ ألّا يَبْسُطَ لأنّا نقولُ: قد بَسَطَ لكثيرٍ[3] مِنَ الفراعنةِ والكَفَرةِ، فَبَغَوا. لكنْ ذَكَرَ هذا لِبيانِ المِنَّةِ والإنعامِ بالتَّقتيرِ والتَّضييقِ في حقِّ البعضِ حتى لا يَبْغُوا، واللهُ أعلَمُ.

ثم البَغْيُ، هو التَّعَدّي على حدِّ اللهِ الذي حَدَّ لهمْ، والمجاوَزَةُ عنهُ. ولكنْ لا نُفَسِّرُ الحَدَّ[4] الذي يُسَمَّى التَّعَدّي عنهُ بَغْياً لِما لا يُعْلَمُ ما هو.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعنَى قولِهِ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أنهُ لو بَسَطَ عليهِمْ، ووسَّعَ، لَزِمَهُمُ الشُّكْرُ، والبَسْطُ وكَثْرةُ المالِ تَشْغَلُهُمْ، وتَمْنَعُهُمْ عنِ القيامِ بِشُكْرِهِ وما أوجَبَ عليهِمْ مِنَ الفرائضِ والأحكامِ. ولكنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ما لا يَشْغَلُهُمْ، ولا يَمْنَعُهُمْ عنِ القيامِ بالذي يُلْزِمُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ قد تَقَدَّمَ تأويلُهُ. ثم حاصلُ [تأويلِ الآيةِ][5] يرجِعُ إلى [وجهَينِ:

أحدُهُما][6]: إلى أهلِ الكُفْرِ، إنهُ لو وَسَّعَ عليهِمْ، وبَسَطَ، لَبَغَوا في الأرضِ، أي صاروا كُلُّهُمْ أهلَ كُفْرٍ وضَلالٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣].

والثاني: يَتَوَجَّهُ إلى خاصٍّ مِنَ المؤمنينَ لِما عَلِمَ منهمْ أنهُ لو بَسَطَ عليهِمْ، وَوَسَّعَ لَبَغَوا في الأرضِ.

فَضَيَّقَ عليهِمْ، وقَتَّرَ، امْتِناناً منهُ وفَضْلاً لئلا يَبْغُوا، وهو ما ذَكَرْنا في أحدِ تأويلِ[7] قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أنهُ إنْ كانَ على حقيقةٍ، لهُ خَلْقُهُمْ، فهو في الذينَ [عَلِمَ][8] منهمْ أنهُمْ يَعْبُدونَهُ، لا محالَةَ يَعْبُدونَهُ على ما ذَكَرْنا.

فأمّا الذينَ يَعْلَمُ أنهمْ لا يَعْبُدونَهُ فلا[9] يَحتَمِلُ أنْ يَخْلُقَهُمْ [للعبادةِ لكنْ يَخْلُقُهُمْ][10] لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ يرجِعُ إلى قومٍ خاصٍّ، يَعْلَمُ اللهُ تعالى منهمْ أنهُ لو بَسَطَ عليهِمْ، ووسَّعَ عليهِمْ لَبَغَوا في الأرضِ، فَيُضَيِّقُ عليهِمْ فَضْلاً منهُ ومِنَّةً، فَيُلْزِمُهُمُ القيامَ بِشُكْرِ ذلكَ لهُ، و اللهُ أعلَمُ.

أو يَرْجِعُ ذلكَ إلى جملةِ الخَلْقِ مِنْ مؤمنٍ وكافرٍ [يَعْلَمُ اللهُ تعالى][11] أنهُ لو وَسَّعَ، وبَسَطَ على الكلِّ لَصاروا جميعاً ملوكاً. ومِنْ عادةِ الملوكِ وطباعِهِمُ البَغْيُ والغَلَبَةُ على مَنْ نازَعَهُمْ في مُلْكِهِمْ ومَمْلَكَتِهِمْ. وفي ذلكَ التَّفاني والفَسادُ، فوسَّعَ على بعضِهِمْ، وبَسَطَ، وضَيَّقَ على بَعضٍ، لئلا يَبْغِيَ بَعضٌ على بَعضٍ؛ إذْ في ذلكَ تَفانٍ وفسادٌ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي مِنْ رحمتِهِ أو مِنَ الأصنامِ التي عَبَدوها رجاءَ الغَوثِ والشفاعةِ لهمْ والزُّلْفَى عندَ اللهِ، قَنَطوا ما رَجَوا منها كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: واجباً حيث. (٣) في الأصل وم: كثيرا. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٥) في الأصل وم: تأويلها. (٦) في الأصل وم: وجوه ثلاثة أحدها. (٧) في الأصل وم: تأويله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم.

ثم سَمّى المَطَرَ رحمةً أي غَيثاً لِيُعْلَمَ أنَّ لهُ أنْ يُمسِكَ عنهمْ، ويُمسِكَهُمْ على الحالِ الأولَى في القَحْطِ والضيقِ؛ إذْ لو كانَ عليهِ إرسالُهُ، ولم يكُنْ لهُ إمساكُهُ، لم يُسَمِّهِ رحمةً ولا غَوثاً لأنَّ مَنْ عليهِ فِعْلُ شيءٍ لم يُوصَفْ بالفضلِ والرحمةِ، فهو على المعتزلةِ في الأصْلَحِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾ هو الربُّ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ هو المُسْتَحِقُّ للحمدِ، أوِ ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾ هو الحافظُ لهمْ وَوَلِيُّ كلِّ نعمةٍ أعطاهُمْ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ آياتِ ربوبيَّتِهِ وتوحيدِهِ خَلْقُ السمواتِ والأرضِ وما ذَكَرَ، أو مِنْ آياتِ حكمتِهِ وعلمِهِ وتدبيرِهِ خَلْقُ ما ذَكَرَ، أو مِنْ آياتِ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ ما ذَكَرَ، أو مِنْ آياتِ إحسانِهِ ونِعَمِهِ وأياديهِ ما ذَكَرَ. وقد بيَّنّا وَجْهَ كلِّ ذلكَ ودلالَتَهُ على قَدْرِ فَهْمِنا منهُ في ما تَقَدَّمَ.

ثم اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي في الأرضِ خاصةً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وهي اسْمٌ لِما يَدِبُّ؟ وأهلُ السماءِ ملائكةٌ، ولهمُ الطيرانُ دونَ الدَّبيبِ، وهو كقولِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنهما يَخْرُجُ مِنْ أحَدِهِما.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِيهِمَا﴾ أي في السماءِ / ٤٩٢ ـ أ/ الملائكةُ، وفي الأرضِ الدوابُّ، لكنهُ سَمّى أهلَ السماءِ بِاسْمِ ما في الأرضِ مِنَ الدوابِّ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: ذِكْرُ شَيئَينِ بِاسْمِ أحدِهِما كقولِهِ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] والكنايةُ ترجِعُ إلى الصلاةِ لَفظاً. والمُرادُ ما سَبَقَ مِنَ الصبرِ والصلاةِ. وكذا قولُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ كنّى عنِ التجارةِ وأرادَ كليهِما، ونَحْوُ ذلكَ. هذا ثم قولُهُ ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ قالوا: أي يَنْشُرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ جَمْعِهِمْ بَعْثَهُمْ وإحياءَهُم ﴿قَدِيرٌ﴾ على ذلكَ كما هو قديرٌ على ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ المُصيبةِ التي تُصيبُهُمُ المُصيبةَ التي تَعُمُّ الخَلْقَ جميعاً مِمَّنْ كانَ منهمُ الزَّلَّةُ وما ذَكَرَ مِنْ كَسْبِ اليَدِ ومِمَّنْ لم يكُنْ منهمْ كسبُ اليدِ مِنَ الزَّلَةِ والمَعْصِيةِ مِنْ نَحْوِ الجَدْبِ والقَحطِ وغَلَبَةِ الأعداءِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ التي تَعُمُّ الخلائقَ مِمَّنْ كانَ منهمُ الجِنايةُ ومِمَّنْ لم يكُنْ مِنَ الصِّغارِ والدَّوابِّ والأبرارِ والأخيارِ.

ويكونُ ما أصابَ مِمَّنْ كانَ ذلكَ منهُ، واسْتوجَبَهُ تَنْبيهاً لهمْ ومَوعظَةً أو كَفّارةً لِما كانَ منهمْ مِنْ كَسْبِ اليدِ وما أصابَ ذلكَ مِمَّنْ لم يكنْ منهمْ ذلكَ مِنَ الصِّغارِ والأخيارِ، فذلكَ في الحكمةِ. وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يُصيبُ ذلكَ لهمُ ابتِلاءً بشيءٍ سَبَقَ منهمْ لِيُعْلَمَ أنَّ ما يُعْطيهِمْ مِنَ السلامةِ والصحةِ والحَسَناتِ والخَيراتِ كانَ فضلاً منهُ، وهمْ عبيدُهُ وإماؤهُ ومُلْكُهُ، إنْ شاءَ أهْلَكَهُمْ، وإنْ شاءَ أبقاهُمْ.

[والثاني][١]: يَفْعَلُ بهمْ ما ذَكَرَ، وإنْ لم يَسْبِقْ منهمْ ما ذَكَرَ مِنْ كَسْبِ اليدِ والزَّلَّةِ لِيعوضَ، يُعَوِّضُهُمْ في الآخِرَةِ.

وكيفَ ما كانَ فهو غَيرُ خارجٍ عنِ الحكمةِ، [ولا يُلامُ للتعويضِ لأنهُ][٢] جائزٌ مُمْكِنٌ، لكنْ ليسَ بواجبٍ، لا محالةَ، التَّعْويضُ خِلافاً للمعتزلةِ فإنهُ[٣] عندَهُمْ واجبٌ، وباللهِ العِصْمةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ المصيبةِ التي تصيبُهُمْ بِكَسْبِ اليَدِ أنْ يريدَ كلًّا في نفسِهِ، يُصيبُهُ بما سَبَقَ منهُ مِنْ شيءٍ ارْتَكَبَهُ، واكْتَسَبَهُ. فالسبيلُ فيهِ أنْ ينظُرَ كلٌّ في نفسِهِ ما الذي سَبَقَ منهُ حتى أصابَهُ ما أصابَ، فَيُراجِعَ نفسَهُ عنْ ذلكَ، ويتوبَ إلى اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: أو أن. (٢) في الأصل وم: والا يلام للتعويض. (٣) في الأصل وم: فإن.

ثم يُخَرِّجُ ذلكَ لهمْ إمّا تنبيهاً وزَجْراً عنِ المُعاوَدَةِ إلى مِثْلِهِ وإمّا تكْفيراً وتَمْحيصاً لِما كانَ منهمْ، ولَزِمَهُمُ الشكْرُ على ذلكَ.

وقد رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يقولُ: «لا يُصيبُ ابْنَ آدمَ خَدْشُ عودٍ ولا عَثْرَةُ قدمٍ ولا اخْتِلاجُ عِرْقٍ إلّا بذنْبٍ، وما يَعْفو اللهُ عنهُ أكْثَرُ» [السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٣٥٤] وعلى قولِ المعتزلةِ: ليسَ اللهُ تعالى في إعطائهِمُ الخَيراتِ والحَسناتِ والسَّعَةَ مُحْسِناً مُفَضِّلاً مُنْعِماً لأنَّ مَنْ أخذَ شيئاً بِعِوَضٍ لا يوصَفُ بالإفضالِ والإنعامِ [بوجهَينِ:

أحَدُهما: لقد][1] سَمّى نفسَهُ بذلكَ مُحْسِناً مُنْعِماً فيكونُ ما قالوا خلافَ ذلكَ.

والثاني: إنْ كانَ يُعَوِّضُ على ما يقولونَ يَجِبُ أنْ يُعَوِّضَهُمْ عِوَضاً، يَرْضَونَ بذلكَ العِوَضِ، ويكونُ ذلكَ العِوَضُ مِثْلَ ما أخَذَ منهمْ، وهمْ لا يَشْتَرِطونَ ذلكَ.

دَلَّ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ لهمْ ما ذَكَرْنا.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ الخَلْقَ كلَّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ولكلِّ ذي مُلْكٍ أنْ يَفْعَلَ في مُلْكِهِ ما شاءَ، لا لائِمَةَ عليهِ إنْ كانَ لهُ حقيقةُ المُلْكِ. فَعَلى ذلكَ اللهُ ﷻ إذْ لهُ حقيقةُ ملكِ الأشياءِ لَهُ[2] أنْ يَفْعَلَ ما يشاءُ بلا عِوَضٍ ولا بَدَلٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ ليسَ أحدٌ يصيبُهُ شيءٌ مِنَ الشدةِ والبلاءِ إلّا ويكونُ في ذلكَ عَفْوٌ منهُ، جلَّ جلالُهُ، لأنهُ ما مِنْ ألمٍ إلّا ويُتَوَهَّمُ زيادةُ الألمِ في ذلكَ. فيكونُ منعُ تلكَ الزيادةِ عنهُ عَفْواً منهُ وفَضْلاً.

وكذلكَ[3] هذا في هلاكِ كلِّ شيءٍ، مِنْ حقوقِهِ ما يَقِلُّ، ويَكْثُرُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي لا بكلِّ زَلَّةٍ يكونُ مُؤاخِذَهُمْ[4] بها، بل يؤاخِذُهُمْ ببعضٍ، ويَتَجاوَزُ عنهمْ [في بعضٍ][5] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يقولُ: لا تَقْدِرونَ الهَرَبَ ممّا يُريدُ أنْ يُصيبَكُمْ بِزَلّاتِكُمْ وما يريدُ أنْ يَفْعَلَ بكمْ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ يَنْصُرُكُمْ، ويَمْنَعُكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ تَحْتَمِلُ آياتُهُ ما ذَكَرْنا مِنْ آياتِ وحدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ وآياتِ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ وآياتِ عِلْمِهِ وتدبيرِهِ وحكمتِهِ وآياتِ نِعَمِهِ وإحسانِهِ، وهو ما جَعَلَ اللهُ ﷻ في سِرِّيَّةِ الخَشَبِ في السُّفُنِ مَعْنًى لوِ اجْتَمَعَ حكماءُ البَشَرِ لِيَعْرِفوا ذلكَ المَعْنَى واللُّطْفَ الذي جَعَلَ في الخَشَبِ ما قَدَروا على [إدراكِ ذلكَ][6] المَعْنَى واللُّطفِ المجعولِ فيها وما جَعَلَ مِنْ طَبْعِها السكونَ على وجهِ الماءِ والقرارَ عليهِ معَ ثِقَلِها وغِلَظِها، وإنْ كانَ بدونِ ذلكَ الثِّقَلِ والعِظَمِ بكثيرٍ مِنْ غيرِ جوهرِ الخشبِ ممّا يَتَسَرَّبُ في الأرضِ، ويَنْحَدِرُ. وكذلكَ ممّا يُحْمَلُ في السفنِ مِنَ الأحمالِ العظيمةِ الثقيلةِ ممّا طَبْعُ كلٍّ مِنْ ذلكَ الحِمْلِ أنْ يَتَسَرَّبَ، ويَنْحَدِرَ في الماءِ، لو لم تكُنِ السفُنُ وما ذُكِرَ مِنَ الخَشَبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: كالجبالِ في البحارِ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: الأعلامُ الجبالُ، واحِدُها عَلَمٌ. ومَعْنَى هذا الكلامِ هو ما ذَكَرَ مِنْ مَيْدِ الأرضِ بأهلِها والتَّسَرُّبِ في الماءِ، ثم أرْساها، وأثْبَتَها بالجبالِ، وطَبْعُ الجبالِ التَّسَرُّبُ والانْحِدارُ في الماءِ، فَيَجيءُ أنْ يَزيدَ في التَّسَرُّبِ والانْحِدارِ في الماءِ، لا أنْ يُثْبِتَها، ويُقِرَّها على وجهِ الماءِ. لكنْ بلطفِهِ ومَنِّهِ أقَرَّ بها الأرضَ، وأثْبَتَها[7]، ومَنَعَ بها[8] التَّسَرُّبَ والانْحِدارَ والمَيْدَ بأهلِها.

فَعَلى ذلكَ السفنُ في البحارِ تَسْتَقِرُّ على الماءِ، ولا تَنْحَدِرُ، كالجبالِ معَ الأرضِ [في][9] القرارِ على الماءِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وقد. (٢) في الأصل وم: فله. (٣) في الأصل وم: ولذلك. (٤) في الأصل وم: يواخذ. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: إدراكه وذلك. (٧) في الأصل وم: ولا يثبتها. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: عن. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ مَعْنًى آخَرَ، وهو الأعلامُ نفسُها، وهو أنْ جَعَلَ السفُنَ سَبَباً وطريقاً للوصولِ إلى مَنافعَ بَعُدَتْ منهمْ، وصَعُبَتْ عليهمْ. فإذا حُمِلَ فيها الأحمالُ مِنْ بلدٍ إلى آخَرَ ومِنْ مكانٍ إلى مكانٍ يُسَرُّ أهلُ المَحْمولِ إليهِمْ بتلكَ الأحمالِ والسفُنِ إذا رَأَوها في البحارِ تَحْمِلُ إليهمْ [سِلَعاً يَتْجُرونَ][1] بها ومَنافعَ تَصِلُ لهمْ.

وكذلكَ يُسَرُّ أهلُ المَحْمولِ عنهمْ إذا رَأَوها راجعةً إليهمْ سالمةً لِما يَحْصُلُ لهمْ مِنَ المَنافِعِ[2] والأغراضِ بها، فتكونُ السفُنُ أعلاماً وأدلّةً لهمْ على الأغراضِ والمَنافِعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ يذكُرُ فضلَهُ ومِنّتَهُ بِما أجْرى هذهِ السفُنَ في البحارِ التي ذَكَرَ، فأخبَرَ أنهُ لو شاءَ لأمْسَكَها ومَنَعَها عنِ الجَرَيانِ. ثم صَيَّرَ الريحَ نوعَينِ:

أحَدُهما: طَيِّبَةٌ تَجْري بها السفُنُ، والأُخرى عاصفةٌ شديدةٌ، تَهْلَكُ بها السفُنُ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ الآية [يونس: ٢٢].

ثم في ذلكَ خِلالٌ ثلاثٌ تَدُلُّ على أنَّ الريحَ ليستْ تُجْري السفُنَ، وتَهُبُّ بِطَبْعِها ونفْسِها، ولكنْ باللهِ تعالى:

أحَدُها: أنهُ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ نوعاً منها طَيِّبَةً تُجْري السفُنَ، والأُخرى عاصفةً تُهْلِكُ السفُنَ، وتَهيجُ الأمواجَ.

والثانيةُ[3]: ما ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ أخبَرَ أنهُ لو شاءَ لأسْكَنَ الريحَ/ ٤٩٢ ـ ب/ فَتَبْقَيْنَ رَواكِدَ على ظهرِ الماءِ. فَدَلَّ أنهُ هو المُجْري لها حينَ[4] كانَ هو المُسْكِنَ.

والثالثةُ[5]: أنَّ الفِعْلَ[6] الطَّبيعِيَّ على سَنَنٍ واحدٍ كالحرارةِ في النارِ والبرودةِ في الثلجِ، وأمثالُ ذلكَ [كثيرةٌ][7] ولو كانَ جَرَيانُ الريحِ وهُبوبُها بنفْسِها وطَبْعِها لكانَتْ لا تَسْكُنُ في حالٍ، ولا تكونُ مَرَّةً طَيِّبَةً سالِمَةً ومَرَّةً شديدةً عاصفةً مُهْلِكَةً. دلَّ أنَّ ذلكَ كانَ باللهِ تعالى لا بالطبْعِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: سَمّى المؤمنَ صَبوراً شَكوراً. والثاني: [سَمّى][8] مَنْ صَبَرَ على ما أصابَ مِنَ الشدائدِ والمصائبِ التي ذَكَرَ صَبوراً ومَنْ شَكَرَ ما ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ في السفُنِ وغَيْرِها شَكوراً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: أي وقوفاً[9]، وصَرْفُهُ: رَكَدَ يَرْكُدُ رَكْداً ورُكوداً.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما ذَكَرَ مِنَ السُّفُنِ الجَواري في البَحْرِ حينَ[10] قالَ: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ يقولُ إنْ شاءَ أسْكَنَ الريحَ التي بها تَجْري السُّفُنُ في البحارِ، فَتَبْقَيْنَ رَواكِدَ في الماءِ، وإنْ شاءَ أرسَلَ ريحاً عاصِفَةً شديدةً، فَيُهْلِكُنَ، يعني السفُنَ، وأرادَ أهلَ السفنِ بِما كانَ منهمْ.

يُخْبِرُ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ ما ذَكَرَ مِنَ الإهلاكِ في البحرِ والإبقاءِ فيهِ. لكنهُ بِفَضْلِهِ يُنْجي مَنْ أَنْجى، وأخْرَجَ سالماً، واللهُ أعلَمُ.

وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾ أي يُهْلِكُ أهلَ السفنِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ من قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] فيكونُ ما يصيبُهُمْ مِنَ المُصيبةِ ما بَلَغَتِ النفسُ أو ممّا تَبْلُغُ النفسُ، فيكونُ كلُّ ذلكَ لهمْ مِنْ كَسْبِ أيديهِمْ على ما ذَكَرَ.

ثم أخبَرَ أنهُ يَعْفو عنْ كثيرٍ ممّا كَسَبَتْ أيديهِمْ ممّا يَسْتَوْجِبونَ الإهلاكَ، ويَتَجاوزُ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لسعة يرجون. (٢) في الأصل وم: الأيمان. (٣) في الأصل وم: والثاني. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: والثالث. (٦) في الأصل وم: فعل. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقوف. (١٠) في الأصل وم: حيث.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ المُجادَلَةُ في آياتِهِ تُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنْ يُجادِلوهُ في تقديرِ أحكامِ اللهِ تعالى وفَهمِ ما ضُمِّنَ فيها؛ وذلكَ ممدوحٌ محمودٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢] فهذهِ المُجادَلةُ والمِراءُ المَذكورُ في هذا محمودٌ.

والمُجادَلةُ الثانيةُ هي المُجادَلةُ في دَفْعِ أحكامِ آياتِ اللهِ عنْ فَهمِ ما ضُمِّنَ [فيها][1] وهي مذمومةٌ. وما ذُكِرَ هاهنا في دفعِ آياتِ اللهِ والمَنْعِ عنْ فَهمِ ما فيها.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنَّ اللهَ تعالى أعْطَى مَنْ أعْطَى هذهِ النِّعَمَ واللذاتِ في هذهِ الدنيا لِيَكْتَسِبوا بها نِعْمَةً دائمةً ولذَّةً باقيةً وكذلكَ ما أعطاهُمْ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الحواسِّ لِيَكْتَسِبوا بها ما يدومُ، ويَبْقى.

فَمَنِ اسْتَعْمَلَ ما أعطاهُ مِنَ الأموالِ واللذاتِ ممّا ذَكَرْنا في غَيرِ ما أُمِرَ بهِ، وجُعِلَ، سُمِّيَ خاسراً عابثاً. وكذلكَ مَنِ اسْتَعْمَلَ ما أعطاهُ مِنَ الحواسِّ في غَيرِ ما جُعِلَتْ، وأُمِرَ بِاسْتِعمالِها يُسَمَّ أصَمَّ أبْكَمَ أعْمَى.

وكذلكَ النفسُ إذا المرءُ [لم][2] يَكْتَسِبْ بها حياةً دائمةً سُمِّيَ مَيِّتاً، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][3] أنْ يُقالَ: إنهمْ ما أُعْطوا في هذهِ الدنيا مِنَ اللذاتِ والمُتْعَةِ إلّا تَرْغيباً في ما أبْقَى عندَهُ، وَوَعَدَهُمْ في الآخِرَةِ. وكذلكَ ما امْتُحِنوا مِنَ الشدائدِ والمَصائبِ إلّا تَحْذيراً وتَرْهيباً عمّا أوعَدَهُمْ، وخَوَّفَهُمْ في الآخِرَةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي تَتَمَتَّعونَ بهِ، فَيَفْنَى، ويَزولُ عنْ سريعٍ، وما أبْقَى، ولم يُؤْتِكُمْ، هو الباقي الدائمُ.

ثم بَيَّنَ أنَّ ما أبْقَى عندَهُ لِمَنْ [نَعَتَهُمْ][4] بقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ آمَنوا بأنَّ لهُ[5] الدنيا والآخِرَةَ وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمرَ وأنهُ بريءٌ عنْ جميعِ مَعاني الخَلْقِ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يُوكِلونَ أمورَهم إلى رَبِّهِمْ، هو مَفْزَعُهُمْ، ومُعْتَمَدُهُمْ؛ لا يَفْزَعونَ إلى أحدٍ سِواهُ، ولا يَعْتَمِدونَ غَيرَهُ في جميعِ أحوالِهِمْ.

الآية ٣٧ ثم نَعَتَهُمْ أيضاً بما ذَكَرَ مِنَ الاجْتِنابِ عنِ الكبائرِ والفواحشِ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ هي الفَواحشُ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هي كبائرُ الإثمِ، كلُّ واحدٍ منهما في مَعْنَى الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أنواعٌ: ما بها يَصيرُ المرءُ مُشْرِكاً، وهي كبائرُ الشِّرْكِ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هي التي تُوجِبُ الحدودَ في الدنيا.

وقيلَ: الكبيرةُ ما يَكْبُرُ، ويَعْظُمُ مِنَ الذنبِ، والفاحشةُ ما يَفْحُشُ مِنَ العَمَلِ، وقد ذَكَرْنا وجوهاً في ذلكَ في ما تَقَدَّمَ في سورةِ النساءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي إذا غَضِبوا هم ممّا يَرْجِعُ إلى الأموالِ و الأنفسِ وأمرِ الدنيا يَغْفِرونَ، ويَتَجاوَزونَ عنْ ذلكَ.

فأمّا ما يَرْجِعُ ذلكَ الغضبُ إلى أمرِ الدينِ فإنهُ لا يَسَعُ المَغْفِرَةَ عنْ ذلكَ [ولكنْ][6] يَجِبُ الرجوعُ والتوبةُ إلى اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أجابوا إلى رَبِّهِمْ ما دَعاهُم رَبُّهُمْ. وقد دعاهُمْ إلى دارِ السلامِ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم . (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: لهم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل.

لكنْ جَعَلَ لإجابَتِهِمْ شرائِطَ وأعلاماً؛ فَمَنْ وَفَى بها اسْتَوْجَبَ المَوعودَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٤٠] [وقولِهِ][1]: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

فَعَلَى ذلكَ عَلَّمَ إجابَتَهُمْ لربِّهِمْ وشَرْطَها ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ الأنصارَ كانوا يَتَشاوَرونَ في ما بَينَهُمْ، ورسولُ اللهِ ﷺ عنهمْ غائبٌ، فَنَزَلَ هذا مَدْحاً لهمْ على فِعْلِهِمْ.

وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ أنهُ تَلا هذهِ الآيةَ وقولَهُ[2]: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فقالَ[3]: واللهِ ما تَشاوَرَ قومٌ قَطُّ إلّا هداهُمُ اللهُ تعالى لأفضَلِ ما بِحَضْرَتِهِمْ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يُشاوِرَ صَحابَتَهُ حينَ[4] قالَ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقالَ الحَسَنُ: ما تَشاوَرَ قومٌ في أمرٍ إلّا هداهُمُ اللهُ لأفضَلِ ما بِحَضْرَتِهِمْ، لأنَّ المُشاوَرَةَ اجْتِماعُ العقولِ والأذهانِ. وإذا اجْتَمَعَتْ كانَتْ إلى اسْتِدْراكِ الحقِّ والصوابِ أسْرَعَ وأبْلَغَ مِمّا انْفَرَدَ كلُّ عقلٍ بنفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي يَتَشاورونَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ صَيَّرَ المُنْتَصِرَ مِنَ الباغي والغافرَ لِمَظْلَمَةٍ مِنْ ظُلْمِهِ جميعاً في الذينَ اسْتَجابوا لربِّهِمْ إلى ما دعاهُمْ إليهِ، والمُنْتَصِرُ مُسْتَوفي حقٍّ جُعِلَ لهُ، والغافرُ تاركُ الحقِّ. لكنْ إذْ جَعَلَ لهُ الاِسْتيفاءَ دَخَلَ في ما ذَكَرَ مِنَ المُسْتَجيبينَ للهِ تعالى. لكنَّ تاركَ الحقِّ أفضلُ مِنْ مُسْتَوفي الحقِّ.

وعلى ذلكَ حثَّ اللهُ تعالى رسولَهُ [على العَفْوِ][5] عنِ المَظْلَمَةِ وتركِ الانْتِصارِ والمكافأةِ. وأخبَرَ أنهُ مِنْ عَزْمِ الأمورِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] راجعاً[7] إلى الأذى باللسانِ مِنْ نَحْوِ الشَّتيمةِ والسَّبِّ والذي لا يَتْرُكُ[8] في النفسِ/ ٤٩٣ ـ أ/ أثراً حَثَّهُمْ على المَغْفِرَةِ والعفوِ، ومَدَحَهُمْ على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ راجعٌ إلى ما يُؤَثِّرُ في النفسِ والأبدانِ تأثيراً مِنَ الجِراحاتِ وغَيرِها[9]، حَثَّهُمْ على العَفْوِ في ما يَرْجِعُ إلى الأذى باللسانِ وألّا يُكافِئوهُمْ على ذلك.

وفي ما رَجَعَ إلى الأنفسِ والأبدانِ جَعَلَ لهمُ الاِسْتيفاءَ والاِنْتِصارَ، وإنْ كانَ تَرْكُ الاِسْتيفاءِ والعَفْوِ عنِ الكُلِّ أفْضَلَ على ما قالَ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ سَمّى الثانيةَ سَيِّئَةً، وإنْ لم تكُنْ في الحقيقةِ سَيِّئَةً لأنها جزاءُ السَّيِّئَةِ، فَسَمّاها باسْمِ الأولى، أو سَمّاها سَيِّئَةً لأنهُ لو لم تكُنِ الأولى كانَتِ السَّيِّئَةُ ثانيةً أيضاً، فَسَمّاها على ما هو في نفسِها مِنْ بابِ الإضرارِ والضَّرَرِ سَيِّئَةً في نفسِهِ، وإنْ كانَ حَسَناً لِغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ سَمّاها بِما ذَكَرَ لاِخْتِلافِ الأحوالِ: هي عندَ الذي يَقْبِضُ منهُ، ويُجازي بها سَيِّئَةٌ، وتلكَ الحالُ عندَهُ سَيِّئَةٌ، وهي كقولِهِ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] سَمّى حالةَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ سَيِّئَةً، لأنها عندَهُمْ سَيِّئَةٌ، وحالةَ السَّعةِ والرخاءِ حَسَنَةً، لأنها عندَهُمْ حَسَنَةٌ، وإنْ لم تكُنْ تلكَ الحالُ في الحقيقةِ سَيِّئَةً. لكنهُ سَمّاها سَيِّئَةً على ما عندَهُم.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنهُ سَمّى الثانيةَ سَيِّئَةً لِما هي عندَ المفعولِ بهِ سَيِّئَةٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم . (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في م: بالعفو، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: راجع. (٨) في الأصل وم: يؤثر. (٩) في الأصل وم: وغيرهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ، وإنْ جَعَلَ لهمْ حَقَّ الإسْتيفاءِ و الإنْتِصارِ، العَفْوُ عنْ ذلكَ، أفضلُ.

ثم فيهِ دلالةُ ألّا يُجْمَعَ بَيْنَ العَفْوِ وأخذِ البَدَلِ إذا لم يكُنْ مِنَ الآخرِ الرِّضا بذلكَ لأنهُ قالَ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أخْبَرَ أنهُ إذا عفا عنهُ يكونُ أجْرُهُ على اللهِ، فليسَ لهُ أنْ يأخُذَ مِنَ المَعْفُوِّ عنهُ شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

فهو يَنْقُضُ على مَنْ يقولُ بأنهُ يأخذُ البَدَلَ مِنَ الجاني شاءَ أو أبى، وأنْ يَعْفُوَ عنهُ، ويأخذَ البدلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ لأنهُ لا يحبُّ الظُّلْمَ، والظُّلْمُ هو وضعُ الشيءِ في غَيرِ موضِعِهِ. فَمَنْ أخذَ ما ليسَ لهُ أخذُهُ، فهو ظالِمٌ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي أولئكَ ما عليهِمْ مِنْ تَبِعَةٍ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ إنما الحُجَّةُ والتَّبِعَةُ على الذينَ يَظْلِمونَ الناسَ ابْتِداءً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي يأخذونَ مِنَ الناسِ ما ليسَ لهمْ أنْ يأخُذوا، فالتَّبِعَةُ والحُجَّةُ عليهِمْ. فأمّا مَنْ يأخُذُ حَقّاً، وَجَبَ لهُ، واسْتَوفاهُ، فلا تَبِعَةَ عليهِ، ولا حُجَّةَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ ويُفْسِدونَ في الأرضِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي مَنْ صَبَرَ على الأذى والمَظْلَمَةِ، وعَفا عنها، وتَجاوَزَ، فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ، أي ذلكَ مِنْ تَحقيقِ الأمورِ وإحكامِها[1].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ أي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ لِما آثَرَ وِلايةَ الشيطانِ فلا[2] وليَّ لهُ سِواهُ بَعْدَهُ يُرْشِدُهُ، وهو كما قالَ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] أخْبَرَ أنَّ سلطانَ الشيطانِ على مَنْ[3] يَتَوَلّاهُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي هلْ إلى رجوعِ الدنيا مِنْ سبيلٍ؛ يقولونَ: يسألونَ ربَّهُم الرجوعَ إلى الدنيا.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ سؤالُهُمْ الرجوعَ إلى المِحْنَةِ التي امْتُحِنوا في الدنيا قَبْلَ مَوتِهِمْ، أي سألوا أنْ يُكَلِّفَهُمْ، ويَمْتَحِنَهُمْ في الآخِرَةِ لِيُظْهِروا الطاعةَ للهِ تعالى في أوامِرِهِ ونواهيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يُعْرَضونَ على النارِ قَبْلَ أنْ يَدْخُلوها كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ الآية [الفجر: ٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ لأنَّ اللهَ تعالى أذَلَّهُمْ في الآخرةِ بما اختاروا في الدنيا مِنْ سُوءِ صَنيعِهِمْ، وأعْطَوا أنفسَهُمْ شَهَواتِهِمْ ومُناهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ نَظَرِهِمْ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] لِشِدَّةِ[4] هَولِهِمْ وَفَزَعِهِمْ في ذلكَ اليومِ لا يَرْفَعونَ رؤوسَهُمْ، ولا يَنْظُرونَ إلى مَوضِعٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي لا يَنْظُرونَ إلى الناسِ، ولا يُقْبِلونَ بوجوهِهِمْ إليهِمْ إلّا نَظَرَ التَّلَصُّصِ والتَّغَفُّلِ حياءً منهمْ لِسُوءِ فِعالِهِمْ. وهكذا المَعْروفُ في الناسِ، لأنَّ مَنْ صَنَعَ إلى آخَرَ سُوءاً لا يَتَهَيّأُ لهُ رَفْعُ الطَّرْفِ إليهِ مُتَّصِلاً إلّا على التَّلَصُّصِ منهُ والتَّغَفُّلِ. فَعَلى ذلكَ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وإحكامه. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: هو الشدة.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهمْ يُحشَرونَ عُمْياً، فلا يَرَونَ بأعيُنِهِم، إنما يَرَونَ بقلوبِهِمْ، وهو الطَّرْفُ الخَفِيُّ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي قد غَضُّوا أبصارَهُمْ مِنَ الذُّلِّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي يَنْظُرونَ نَظَراً مُستَقيماً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ الآيةَ يُخَرَّجُ ما ذَكَرَ مِنْ خُسرانِ أنفسِهِمْ وأهليهِمْ على وجوهٍ:

أحَدُها: ما ذَكَرَ بقولِهِ تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] أمَرَ بأنْ يَقُوا أنفسَهُمْ وأهليهِمُ النارَ؛ فهمْ حينَ[1] لم يَقُوا ما ذَكَرَ مِنَ الأنفسِ والأهلِ خَسِروا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ أي خَسِروا بسببِ أنفسِهِمْ وبسببِ أهليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨] لِما يَتَعامَلونَ أموراً بسببِ الأموالِ والأولادِ والأزواجِ؛ هي فِتنَةٌ لهمْ وكقولِهِ: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ [التغابن: ١٤] فقد يَخْسَرُ الرجلُ، ويَصيرُ مُؤاخَذاً بسببِ هؤلاءِ.

والثالثُ: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ خُسرانُهُمْ أنفسَهُمْ وأهليهِمْ ما قالَ[2]: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦] وقولُهُ: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: ٥٠] خَسِرَ ما كانَ رَجا، وطَمِعَ أنهُ لهُ عندَ ربِّهِ في الآخِرَةِ الحُسْنَى. على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ليسَ مِنْ أحدٍ مِنْ كافرٍ ومسلِمٍ إلّا ولَهُ أهلٌ ومَنْزِلٌ في الجنةِ، فإنْ أطاعَ اللهَ تعالى أتى مَنْزِلَهُ وأهلَهُ، وإنْ عَصاهُ خَسِرَ نفسَهُ وأهلَهُ ومَنْزِلَهُ في الجنةِ، وَوَرِثَهُ المؤمنونَ عنهُ.

لكنْ لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ مع عِلمِهِ أنهُ يموتُ كافراً أنْ يَجعَلَ لهُ الأهلَ والمَنزِلَ في الجنةِ، اللهمّ إلّا أنْ يَفعَلَ ذلكَ ليكونَ لهمْ حَسرةٌ على ذلكَ وغَيظٌ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ما كانَ للأصنامِ التي عَبَدوها دونَ اللهِ تعالى وِلايةُ النَّصْرِ لهمْ وقُدْرَةُ دَفْعِ العذابِ عنهمْ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونها في الدنيا رَجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ في الآخِرَةِ، وأنْ تُزلِفَهُمْ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أن ليسَ لها وِلايةُ النَّصْرِ على ما رَجَوا، وطَمِعوا مِنْ عِبادتِها الشفاعةَ لهمْ والدفعَ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ أي ما كانَ للرؤساءِ الذينَ اتَّخذوهُمْ في الدنيا أرباباً وِلايةُ النَّصْرِ لهمْ، لأنهمْ لا يَملِكون دفعَ ذلكَ عنْ أنفسِهِمْ، فكيفَ يَملِكون دفعَ ما نَزَلَ بأتباعِهِمْ؟ يُخبِرُ أنْ ليسَ لهمْ وِلايةُ دفعِ العذابِ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾ /٤٩٣ ـ ب/ أي مِنْ حُجّةٍ، أي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ فلا حُجّةَ لهُ أنْ يقولَ: إنكَ أضلَلْتني، لأنهُ إنما يُضِلُّهُ لِما يَختارُهُ، ويُؤثِرُهُ[بوجهَينِ:

أحَدُهما: الأصلُ][3] لا أحَدَ يَفعَلُ ما يَفعَلُ مِنَ المَعاصي وقتَ فِعلِهِ لأنَّ اللهَ تعالى قَضَى لهُ ذلكَ، أو أرادَهُ، أو قَدَّرَهُ، وقَضاهُ. إنما يَفعَلُهُ لِغَرَضٍ [لهُ][4] وهَواهُ، لم يَكنْ لهُ الاحتِجاجُ عليهِ بذلكَ، وباللهِ العصمةُ.

والثاني: أنهُ ليسَ لهُ حُجّةٌ عليهِ بذلكَ لأنهُ يَعْلَمُ أنهُ لو خُيِّرَ بَينَ ما يريدُ أنْ يَختارَهُ، ويؤثِرَهُ، وبينَ ضِدِّ ذلكَ لكانَ يَختارُ ذلكَ على ضِدِّهِ، ويَختارُ تَحصيلَهُ، ويُؤْثِرُهُ على تَرْكِ ذلكَ، فكيفَ تكونُ [لهُ][5] حُجّةٌ بذلكَ؟ واللهُ الموفّقُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾ أي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ تعالى فما لهُ إلى الهُدَى مِنْ سَبيلٍ، أي ليسَ لهُ سبيلٌ. ولكنْ عليهِ السبيلُ، أي لا يَملِكُ أحدٌ إرشادَهُ. ويَحتَمِلُ أي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ فما لهُ مِنْ سبيلٍ أي ليسَ له سبيلٌ، ولكنْ عليهِ السبيلُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: والأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي أجيبوا لهُ، وقد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية هذا يُخَرَّج على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أجيبوا لهُ مِنْ قَبْلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا يَمْلِكُ أحدٌ رَدَّ ذلكَ اليوم إذا أتاهُمْ لأنهُ هو اليومُ الذي يُجزَى فيهِ الخَلائقُ، وفيهِ أهوالٌ وأفزاعٌ. يقولُ: لا أحدَ يملِكُ رَدَّ ذلكَ اليومِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أي أجيبوا مِنْ قَبْلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا مَرَدَّ لِما يَنْزِلُ فيهِ بهمْ مِنَ العذابِ والعِقابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ هذا أيضاً يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ إنما كانوا يَعْبدونَ الأصنامَ في الدنيا لِتكونَ لهمْ شُفَعاءَ ومَلْجأً، يَلْتَجِئونَ إليها. يقولُ: ما لكُمْ [إلى][(١)] أولئكَ الأصنامِ مَلْجأٌ تَلْتَجِئونَ إليهِ[(٢)]، بل تكونونَ كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤و...] وقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٨] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ما لهمْ مِنْ حِيَلٍ يَحتالونَ بها لِدَفعِ[(٣)] ما نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ على ما يكونُ في الدنيا مِنْ حِيَلٍ يَحتالونَ [بها لِدَفعِ][(٤)] ما نَزَلَ بهمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ، وباللهِ النجاةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ هذا أيضاً يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي لا يَمْلِكونَ أنْ يُنكِروا على اللهِ تعالى ما يَفْعَلُ بهمْ لأنهُ إنما يَفْعَلُ بهمْ ذلكَ بِما كَسَبَتْ أيديهِمْ، فلا يَقْدِرونَ على إنكارِ ذلكَ على اللهِ تعالى.

والثاني: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي ما لكُمْ مِنْ تَغْييرٍ، أي ما يَمْلِكونَ دَفْعَ ذلكَ عنْ أنفسِهِمْ ولا مَنْعَهُ وتَغْييرَهُ

وقيلَ: لا يَمْلِكونَ أنْ يَمْنَعوا اللهَ تعالى عمّا يُريدُ أنْ يَفْعَلَ بهمْ، وهو ما ذَكَرْنا.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي إنْ تَوَلَّوا عنْ إجابتِكَ إلى ما تَدْعوهُمْ إليهِ ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يَحْتَمِلُ أي فما أرْسَلْناكَ أنْ تَحْفَظَ عليهمْ أفعالَهُمْ وأعمالَهُمْ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ما عليكَ إلّا التبليغُ، إنما حِفْظُ أعمالِهِمْ وأفعالِهِمْ على الملائكةِ الذينَ جُعِلوا حُفّاظاً عليهِمْ، وهُمُ الكرامُ الكاتبونَ.

والثاني: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ يَحْتَمِلُ فما أرْسَلْناكَ أنْ تَمْنَعَهُمْ عمّا يَفْعلونَ حسًّا، إنما عليكَ البلاغُ فَحَسْبُ وبَيانُ الحقِّ، وأنتَ غيرُ مُؤاخَذٍ بما يَفْعَلونَ، وهو كقولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونَحْوَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ إنْ كانَ هذا في المُسْلِمِ فيكونُ قولُهُ: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي رَضِيَ بها، وسُرَّ بها. وإنْ كانَ في الكافرِ فيكونُ لهُ فَرَحٌ بها، أي بَطِرَ بها، وأشِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ هذا أيضاً إنْ كانَ في المُسْلِمِ فإنهُ إذا أصابَهُ شِدَّةٌ أو بلاءٌ يَنْسَى ما كانَ إليهِ مِنَ اللهِ تعالى مِنَ النُّعْمَى، فَجَعَلَ يَشْكو ما أصابَهُ، فهو كَفورٌ لِلنِّعَمِ التي كانَتْ لهُ مِنْ قَبْلِ ذلكَ. وإنْ كانَ في الكافرِ فهو ظاهرٌ أنهُ كفورٌ لِنِعَمِهِ وإحسانِهِ أجْمَعَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُخْبِرُ أنهُ بما يأمُرُهُمْ، ويَنْهاهُمْ، وبما يَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، ليسَ يأمُرُهُمْ [ولا يَنْهاهُمْ، ولا يَمْتَحِنُهُمْ لِحاجةٍ][(٥)] نفسِهِ في جَرِّ مَنْفَعَةٍ واستِفادةِ خيرٍ أو دَفعِ مَضَرَّةٍ أو بلاءٍ؛ إذْ لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضِ. ولكنْ إنما يأمُرُهُمْ، ويَنْهاهُمْ، ويَمْتَحِنُهُمْ لحاجةِ أنفسِهِمْ في إصلاحِها وفَكاكِها[(٦)] ونَجاتِها مِنَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إليها. (٣) اللام ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: دفع. (٥) في الأصل وم: لا نهى ولا يمتحن بحاجة. (٦) من م، في الأصل: ونكاحها.

المَهالكِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] يُخبِرُ بما ذَكَرَ أنهُ غَنِيٌّ، لا يَنفَعُهُ إيمانُ مؤمنٍ، ولا يزيدُ في مُلكِهِ، ولا يَضُرُّهُ كُفرُ كافرٍ، ولا يُنقِصُ مِنْ مُلكِهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦] ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ [يشاءُ](١) لهُ المُلْكُ في الدنيا، وهو يَنزِعُ مِمَّنْ يَشاءُ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]. وفيهِ نَقْضُ [قولِ](٢) المعتزلةِ في خَلْقِ أفعالٍ منهمْ وإنكارِهِمْ أنْ يكونَ فِعْلَ اللهِ تعالى مَخافةَ وقوعِ الشِّرْكِ في ذلكَ بينَهُمْ وبَينَ اللهِ تعالى، فيكونُ ذلكَ فِعْلَ اللهِ تعالى وفِعْلَ العبدِ؛ إذْ هو تفسيرُ الشِّرْكةِ في الشاهدِ، فيُقالُ لهمْ: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] أَخبَرَ أنْ ليسَ لهُ شريكٌ في المُلْكِ. وقد رأينا الملوكَ في الدنيا.

ثم لم يُوجِبْ مُلْكَ الشِّرْكَةِ في مُلْكِهِ لاختلافِ المَعْنَى والجِهاتِ؛ إذْ حقيقةُ المُلْكِ لهُ، ولِغيرِهِ ليسَتْ حقيقةً(٣)، إنما لهُ مُلْكُ الانتفاعِ لا على الإطلاقِ.

فَعَلَى ذلكَ أفعالُ العبادِ [تكونُ خَلْقَ اللهِ تعالى وكَسْباً لهمْ، ولا يُوجِبُ ذلكَ شِرْكاً فيهِ على ما لم يُوجِبْ ما ذَكَرْنا مِنَ المُلْكِ لهمْ شِرْكاً بَينَهُمْ وبَينَ اللهِ تعالى، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ هو أيضاً على المعتزلةِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ يَخلُقُ ما يشاءُ، وهمْ يقولونَ بأنَّ جميعَ الخيراتِ ممّا شاءَ اللهُ، ثم لا يَجْعَلونَ ما فَعَلَ العبادُ](٤) مِنَ الخيراتِ خَلْقاً للهِ تعالى. فيكونُ على قولِهِمْ غيرَ خالقٍ لأكثرِ الأشياءِ ممّا شاءَ. وهذا لأنَّ قولَهُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إمّا أنْ يُخرَّجَ على الوصفِ بالرّبوبيّةِ للهِ تعالى والألوهيّةِ [وإمّا](٥) على وَجهِ الوَعْدِ والخَبَرِ(٦) بأنهُ يَخلُقُ ما يَشاءُ.

فإنْ كانَ على الوصفِ لهُ بالرُّبوبيّةِ، فلا يكونُ ذلكَ وصفَ الرّبوبيّةِ؛ إذْ لا يكونُ خالقاً لِجُزْءٍ مِنْ عشرةِ آلافٍ مِنَ الأشياءِ التي شاءَ أنْ يَخلُقَها.

وإنْ كانَ على الوَعْدِ والخَبَرِ فيَخرُجُ الخَبَرُ كَذِباً على قولِهِمْ. فنعوذُ باللهِ تعالى مِنَ السَّرَفِ في القولِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يُخبِرُ تعالى أنَّ الأولادَ جميعاً مِنَ الذكورِ والإناثِ مَواهِبُ اللهِ تعالى وهداياهُ، فيَجِبُ أنْ يَقبَلوها منهُ قَبولَ الهدايا والهِباتِ على الشُّكرِ لهُ والمِنّةِ. ثم بدأ بذِكْرِ الإناثِ ثم بالذكورِ لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ إذا وُلِدَ لهُ الإناثُ يَعُدُّ ذلكَ(٧) مصيبةً، ويَثْقُلُ عليهِ. وعلى ذلكَ ما أخبَرَ مِنَ الكَفَرةِ أنهمْ إذا بُشِّروا بالأنثى ظَلَّتْ وجوهُهُمْ مُسْوَدّةً كقولِهِ(٨) تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] يُخبِرُ عنْ ثِقَلِ ذلكَ عليهم وغَيظِهِمْ على ذلكَ. فَبَدَأَ بذكرِ ذلكَ لئلا يَعُدَّ أهلُ الإسلامِ الأولادَ(٩) الإناثَ مصيبةً وبلاءً على ما عَدَّها الكفرةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ التزويجُ هو الجَمْعُ بَينَ الشَّكلَينِ والمُتماثِلَينِ في الحقيقةِ. وقد يُسمّى التَّزويجُ بينَ المُتضادَّينِ مَجازاً، واللهُ أعلَمُ. فيكونُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي يَقْرُنُ، ويَجمَعُ بينَ الإناثِ والذكورِ، فيَهَبُ لهُ مِنَ النوعَينِ جميعاً حالةً واحدةً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي يَجعَلُ بعضَهُمْ بَنينَ [وبعضَهُمْ](١٠) بناتٍ. تقولُ العربُ: زَوَّجتُ [أهلي](١١) إذا قَرَنْتُ بعضَهُمْ(١٢) ببعضٍ، وزَوَّجتُ الكبارَ بالصغارِ / ٤٩٤ ـ أ/ إذا قَرَنْتُ كبيراً بِصَغيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ والعقيمُ مِنَ النساءِ التي لا تَلِدُ، وهي لا تُوصَفُ بالبركةِ. ويُقالُ: إنها ليسَتْ مُبارَكةً، لا يُرْغَبُ فيها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: الملك. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: هو الخبر. (٧) أدرجت في الأصل وم بعد: ويثقل. (٨) في الأصل وم: بقوله. (٩) في الأصل وم: أولاد. (١٠) من م، في الأصل: و. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: بعضها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾: ﴿عَلِيمٌ﴾ بإنشاءِ الأولادِ [مِنَ الذكورِ][(١)] والإناثِ في الرَّحِمِ ﴿قَدِيرٌ﴾ على ذلكَ، أو ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحِ الخَلْقِ ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يُعْجِزُه شيءٌ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ كانَ هذا إنما ذُكِرَ، وأخبَرَ عنْ نازلةٍ أو سؤالٍ كانَ عنْ كيفيّةِ الرسالةِ؟ وهلِ الرسُلُ ﷺ يَرَونَ ربَّهُمْ، ويُشاهِدونَهُ، ويُشافِهونَهُ؟ فأخبَرَ أنهُ ليسَ مِنَ البَشَرِ مَنْ يُكَلِّمُهُ إلا بالطُّرُقِ الثلاثةِ التي ذَكَرَها، والسؤالُ وَقَعَ عنِ الرُّؤيَةِ في الدنيا. فيكونُ الجوابُ بناءً على السؤالِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ ما يُرَى في المَنامِ. ورُؤْيا الأنبياءِ ﷺ حقيقةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ نحوُ ما كَلَّمَ موسى ﷺ ألقَى في مسامِعِهِ صوتاً مَخلوقاً على ما شاءَ، وكيفَ [شاءَ][(٢)] مِنْ غيرِ كانَ ثَمَّ ثالثٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي يُرْسِلُ مَلَكاً، يُخْبِرُهُ عنِ اللهِ تعالى.

وطُرُقُ الوصولِ إلى معرفةِ ذلكَ في الدنيا الوجوهُ التي ذَكَرْنا: إمّا الإلهامُ وإمّا الإلقاءُ في المَسامِعِ وإمّا رسولٌ يُرْسَلُ، فَيُخْبِرُ عنْ أمرِهِ وكلامِهِ.

فأمّا أنْ يَحْتَمِلَ وُسْعُ أحدٍ رؤيَتَهُ أو [مُشافَهَتَهُ أو مُعايَنَتَهُ][(٣)] في الدنيا فلا، واللهُ الموفِّقُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحُجُبُ نفسُها هي حقيقةُ الحُجُبِ. وقالَ بعضُهُمْ: الحِجابُ هو عَجْزُهُمْ عنِ احْتِمالِ رؤيتِهِ لأنَّ اللهَ أنْشَأهُمْ على بِنْيَةٍ وخِلْقَةٍ، لا تقومُ أنفسُهُمُ القيامَ لِذلكَ على ما أخبَرَ ﷻ حينَ[(٤)] قالَ لِموسى ﷺ: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] [أي][(٥)] فإنِ احْتَمَلْتَ[(٦)] ذلكَ فاحْتَمِلْ ما سألْتَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ [دلالةٌ][(٧)] أنَّ اللهَ تعالى يكونُ مُكَلِّماً للبَشَرِ بالرسولِ، وإنْ لم يُشافِهْهُ المرسِلُ، وكانَ ذلكَ تَسْمِيةً بطريقِ المجازِ، إذْ لم يكنْ في الحقيقةِ كلامُ الرسولِ كلامَ المرسِلِ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] لا يكونُ ما يُسْمَعُ مِنَ الرسولِ ﷺ كلامَ اللهِ حقيقةً وكذا ما يُقالُ: سَمِعْتُ[(٨)] مِنْ فلانةٍ قولَ فلانٍ أو حديثَ فلانٍ، كلُّهُ على المَجازِ، ليسَ على التحقيقِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سببُ نزولِ قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآيةَ قولَ أولئكَ الكَفَرَةِ حينَ[(٩)] أخبَرَ اللهُ تعالى [عنهم][(١٠)] بقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] وقولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] سألوا أنْ يَرَوا ربَّهُمْ جَهاراً، فقد حُجِبوا عنْ رؤيةِ اللهِ تعالى في الدنيا والآخرةِ حينَ[(١١)] قالَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وسألوا أنْ يُخْبِرَهُمْ شِفاهاً، فأخبَرَ أنهُ لا يُكَلِّمُ أحداً شِفاهاً، ولكنْ يُكَلِّمُ بما ذَكَرَ مِنَ الأوجهِ الثلاثةِ حينَ[(١٢)] قالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ ردّاً عليهم. فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ طريقَ تكليمِهِ الخَلْقَ في الدنيا هذهِ الوجوهُ التي ذَكَرْنا، وقد كَلَّمَ البشرَ مِنْ هذهِ [السُّبُلِ والطرقِ][(١٣)] التي ذَكَرَ حينَ[(١٤)] قالَ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] أخبَرَ أنهُ أنزَلَ إليهِمْ ما ذَكَرَ كما أنزَلَ على الرسولِ، وحينَ[(١٥)] قالَ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [التوبة: ٦] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ ممّا يكونُ كأنهُ قد كَلَّمَهُمْ بما ذَكَرَ كما كَلَّمَ الرسُلَ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرَ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة في الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يشافهه أو يعاينه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: احتمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: سمع. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: السبيل والطريق. (١٤) و(١٥) في الأصل وم: حيث.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ كأنهُ يقولُ: هكذا أوحَينا إليكَ[1] بالوجوهِ والطرقِ التي ذَكَرْنا كما أوحَينا إلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿رُوحًا﴾ جبريلَ بأمْرِنا. وقالَ بعضُهُمْ: أي أوحَينا إليكَ أمْراً مِنْ أمْرِنا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي الكتابَ الذي أنْزَلَهُ [إليهِ، وأوجَبَهُ عليهِ][2] سَمّاهُ رُوحاً لأنهُ يُحْيِي بهِ الدينَ، ويكونُ بهِ حياةُ الدينِ، وتَحْيَى بهِ الأبدانُ، وهو حياةُ الذِّكْرِ والشَّرَفِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] حياةَ الذِّكْرِ والشَّرَفِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أمّا الكتابُ فإنهُ لا شَكَّ أنهُ لا يَدْرِيهِ، ولا يَعْلَمُهُ، حتى أدراهُ، وأعْلَمَهُ، وأمّا الإيمانُ حينَ[3] أخْبَرَ أنهُ لا يَدْريهِ فهو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما كُنْتَ تَدْري ما الإيمانُ في حقِّ اللسانِ، أو ما كُنْتَ تَدْري ما الإيمانُ في حقِّ الإيمانِ، أو ما كُنْتَ تَدْري ما الإيمانُ في حقِّ قَدْرِهِ ومَحَلِّهِ ومَنْزِلَتِهِ عندَ اللهِ تعالى.

فإنْ كانَ المُرادُ في حقِّ اللسانِ فهو ظاهرٌ أنهُ كانَ[4] لا يَدْري في حقِّ ابْتِداءِ الأمْرِ أنَّ الإيمانَ، هو التصديقُ والتوحيدُ، أو ما هو؟ وهو مَعْروفٌ أنهُ كانَ لا يَدْريهِ في حقِّ اللسانِ حتى أدراهُ، وأعْلَمَهُ أنهُ ماذا؟

وكذلكَ جميعُ أهلِ اللسانِ لا عِلْمَ [لهمْ بذلكَ][5] حتى عَلَّمَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ فنَزَلَ [جبريلُ][6] وسألَ النَّبِيَّ ﷺ ما الإيمانُ؟ وما الإسلامُ؟ على صورةِ أعرابيٍّ حتى قالَ النَّبِيُّ ﷺ: إنَّ هذا كانَ جبريلَ، نَزَلَ لِيُعَلِّمَكُمْ مَعالِمَ دينِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ [المُرادُ][7] في حقِّ فِعْلِ الإيمانِ ومُباشَرَةِ رُكْنِهِ فهو إذا كانَ غَيرَ قادرٍ على فِعْلِهِ وإتْيانِهِ على حَدِّهِ، وكانَ لا يَدْريهِ، ولا[8] لا يَدْري بهِ، فإنهُ لا يوصَفُ بالجهلِ بهِ. ألَا تَرَى أنَّ الصغارَ لا يَدْرونَ، ولا يُقالُ: إنهمْ جَهَلَةٌ؟ وإنما يُوصَفُ بالجَهْلِ مَنْ مَلَكَ الفِكْرَ[9] والنَّظَرَ وأسبابَ العِلْمِ، ثم تَرَكَ ذلكَ. فعندَ ذلكَ يُوصَفُ بالجَهْلِ.

فأمّا مَنْ لم يَمْلِكْ ذلكَ، ولم يَبْلُغْ ذلكَ المَبْلَغَ، فإنهُ لا يوصَفُ بالجَهْلِ. ألَا تَرَى أنهُ يُقالُ للأعراضِ و الأشياءِ: إنها لا تَدْري، ولا تُوصَفُ بالجَهْلِ؟ فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يوصَفَ، ويُقالُ: إنهُ كانَ لا يَدْري، ولا يوصَفُ، ولا يُقالُ: إنهُ كانَ جاهلاً بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ألَا تَرَى أن الولَدَ في النَّظَرِ لا يُوصَفُ بأنَّ لهُ سَمْعاً وبَصَراً ونَحْوَهُ لأنهُ ليسَ بِمَحَلٍّ للسماعِ والبَصَرِ [أو نَحْوِهِ، فإذا][10] أُخرِجَ منهُ عندَ ذلكَ يُجْعَلُ لهُ مِنَ السماعِ والبَصَرِ؟ وهو ما ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [النحل: ٧٨] عندَما مَكَّنَ لهمْ ذلكَ.

وإنْ كانَ لا يَدْري في حقِّ المَحَلِّ والمَنْزِلَةِ والقَدْرِ فهو هكذا كانَ لا يَدْري ما مَحَلُّ الإيمانِ وقَدْرُهُ عندَ اللهِ تعالى حتى أدراهُ، وأعْلَمَهُ مَحَلَّهُ ومَنْزِلَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ فإنْ كانَ المُرادُ هو الإيمانَ فهو نورٌ بالحُجَجِ والبرهانِ، وهو كما ذَكَرَ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وإنْ كانَ المُرادُ هو الكتابَ فهو نورٌ لِما يَرْفَعُ جميعَ حُجُبِ القُلوبِ وسَواتِرِها عَمَّنِ[11] اتَّبَعَهُ، ونَظَرَ إليهِ بِعَينِ التَّعظيمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَخْتارُهُ [شاءَ][12] أنْ يَهْدِيَهُ.

---

(١) في الأصل وم: إلى الرسل الذين من قبلك. (٢) في الأصل وم: عليه وأوجبه إليه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: كما.
(٥) في الأصل وم: لذلك. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لكنه لا.
(٩) في الأصل وم: الفكرة. (١٠) في الأصل: أو نحوه، في م: فإذا. (١١) في الأصل وم: من. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

ثم قولُهُ: ﴿بِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ القرآنَ، ويَحْتَمِلُ الإيمانَ نفسَهُ، أي يَجْعَلُهُ بالإيمانِ مَهْدِيّاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قولُهُ: ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ يَحتَمِلُ لَتَدْعو أولئك أو لَتَدينُ لهمُ الصراطَ المُسْتَقيمَ.

الآية ٥٣ ثم فَسَّرَهُ بقولِهِ تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ / ٤٩٤ ـ ب/ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لم يُفْهَمْ مِنْ صِراطِ اللهِ ما يُفْهَمُ مِنْ صِراطِ الخَلْقِ أو صِراطِ فلانٍ. فكيفَ يُفْهَمُ مِنْ مَجيئِهِ أو إتيانِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ مَجيءِ الخَلْقِ أو إتيانِهِ؟

فهذا يدلُّ أنْ لا كلَّ ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى يُفْهَمُ ما يُفْهَمُ ممّا يكونُ مِنَ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يَحْتَمِلُ إلى اللهِ يَرْجِعُ تدبيرُ الأمورِ. ويَحْتَمِلُ ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ في الآخِرَةِ، وهو البَعْثُ [واللهُ أعلَمُ][1].

(١) من م، ساقطة من الأصل.

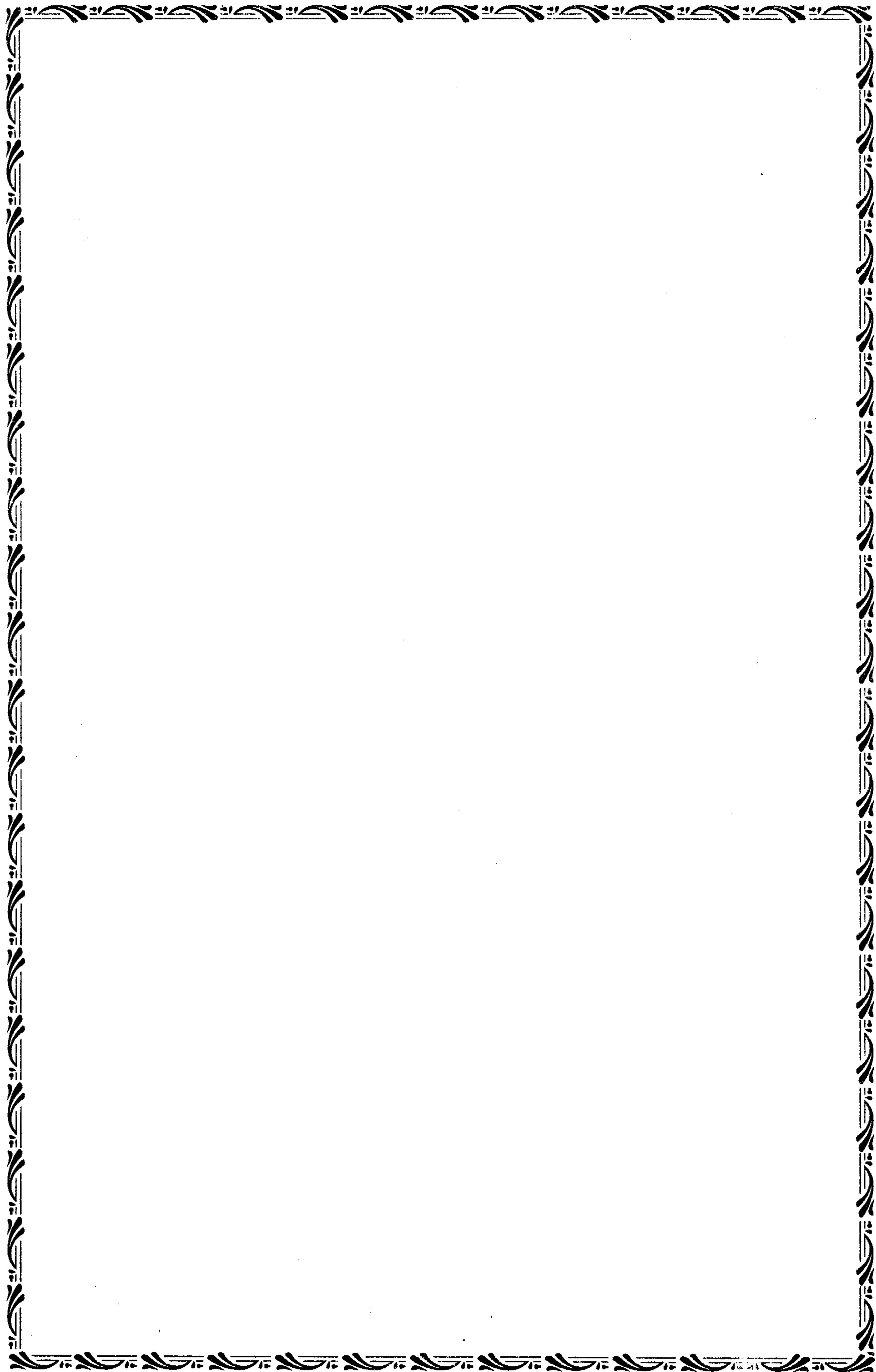

سورة الزخرف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ قالَ قَتادةُ: هو اسْمُ السورةِ. وقالَ غَيرُهُ ﴿حمٓ﴾ قَضى ما هو كائنٌ، وقد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ قالَ قَتادةُ: مُبينٌ بَرَكَتَهُ وهُداهُ ورُشْدَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: مُبِينٌ [ما][2] بينَ الحَلالِ والحرامِ وما[3] يُؤْتَى وما يُتَّقى. وقالَ بعضُهُمْ: مُبينٌ [ما][4] بَينَ الحقِّ والباطلِ.

وهو عندَنا مُبينٌ بأنهُ مِنَ اللهِ تعالى، ليسَ هو مِنْ تأليفِ البشرِ ولا مِنْ توليدِهِمْ، ولكنهُ مِنَ اللهِ تعالى حينَ[5] عَجِزوا عنْ إتيانِ مِثْلِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: جَعَلْنا ذلكَ الكتابَ ﴿عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وقيلَ: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي أنزَلْناهُ ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ وقيلَ: ﴿جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي سَمّيناهُ ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ ليسَ أنْ جَعَلْناهُ قرآناً، ولكنْ مَعْناهُ: جَعَلْناهُ عربياً، أي نَظَمْناهُ بالعربيةِ لِتَعْقِلُوا، وسَمّيناهُ قرآناً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أي أنزَلْناهُ عَرَبياً على رَجاءِ أنْ تَعْقِلوا.

والثاني: أنزَلْناه عَرَبياً لِتَعْقِلوهُ؛ وذلكَ يرجِعُ إلى قومٍ مَخصوصِينَ، قد عَقَلوهُ، وفَهِموهُ؛ إذْ لم يَعْقِلوهُ جميعاً. ولا يُتَصوَّرُ أنْ يُنْزِلَهُ لِتَعْقِلوهُ، ولا تَعْقِلوهُ، فإنَّ ما أرادَ اللهُ تعالى يكونُ، لا مَحالَةَ، وما فَعَلَ يَنْفَعِلُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

والثالثُ: أنزَلْناهُ عَرَبياً لكي نُلْزِمَهُمْ أنْ يَعْقِلوهُ، ويَتَّبِعوهُ، لِيَزولَ عُذْرُهُمْ والاحْتِجاجُ على اللهِ تعالى أنهُ كانَ على غيرِ لسانِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُ: لعلَّ في جميعِ القرآنِ أنهُ للتحقيقِ إذا كانَ مِنَ اللهِ تعالى.

فإنْ قيلَ: فَعَلَى التأويلِ الأخيرِ كيفَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩و...] لا يَسْتَقيمُ أنْ يقالَ: لِكي يُلْزِمَكُمْ أنْ تُفْلِحوا؟ قيلَ: مَعْناهُ لِكي يُلْزِمَكُمُ السببَ الذي بِهِ تُفْلِحونَ، وهو مباشَرَةُ الإيمانِ والطاعاتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يَرجِعُ إلى وجهَينِ:

أحدُهما: أيِ القرآنُ في أصلِ الكتابِ، ومنهُ القولُ، وهو اللوحُ المحفوظُ، وأمُّ الشيءِ أصْلُهُ، ويُسَمّي أمَّ القُرى مكةَ لهذا.

والثاني: أيِ القرآنُ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ، فإنَّ الأُمَّهاتِ سُمِّيَتْ أمهاتٍ لِتَقَدُّمِها على الوَلَدِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨و١٩].

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: ذكر ان سورة الزخرف كلها مكية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: أي هو أعلىَ الكتبِ وأحكَمُها وأعدَلُها.

وقالَ بعضُهُمْ: وصفَ كتابَهُ بالعَظَمةِ والمَنْزِلةِ والشَّرفِ عندَهُ. وقولُهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ يَحْتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿حَكِيمٌ﴾ بمعنى مُحْكَمٍ كقولِهِ تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] أي بالحُجَجِ والبراهينِ.

والثاني: سَمّاهُ حكيماً لِما جَعَلَ فيهِ مِنَ الحكمةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ اخْتُلِفَ في الذِّكْرِ؛ قالَ بعضُهُمْ: القرآنُ. وقالَ بعضُهُمْ: الرسولُ. وقالَ بعضُهُمْ: العذابُ والعقوبةُ.

واخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أفَنَتْرُكُ، ونَذَرُ الذِّكْرَ سُدًى ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي ألِأنكُمْ[(١)] كذا ولأجلِ أنكُمْ كذا؟ وقالَ بعضُهُمْ: أفَنَتْرُكُ الوَحْيَ، لا نأمُرُكُمْ بشيءٍ، ولا نَنْهاكُمْ عن شيءٍ، ولا نُرْسِلُ إليكُمْ رسولاً؟ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أي أفَنَذْهَبُ عنكُمْ بهذا القرآنِ سُدًى لا تُسْألونَ، ولا تُعاقَبونَ على تكذيبِكُمْ إياهُ؟ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ﴾ أي أفَنُمْسِكُ عنكُمْ فلا نُذَكِّرُكُمْ ﴿صَفْحًا﴾ أي إعراضاً، وهو قولُ القُتَبيِّ؛ يقولُ: صَفَحْتُ عن فلانٍ، أي أعْرَضْتُ عنهُ. وأصلُ ذلكَ أنكَ تُوليهِ صَفْحَتَكَ، يقالُ: ضَرَبْتُ، وأضرَبْتُ عن فلانٍ، أي [أمْسَكْتُ عنهُ][(٢)].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أي نَسْكُتُ، ضَرَبْتُ، وأضرَبْتُ، أي سَكَتُّ، وقولُهُ: ﴿صَفْحًا﴾ أي رَدّاً، يُقالُ: سَألني فلانٌ حاجةً، فَصَفَحْتُهُ صَفحاً، أي رَدَدْتُهُ، واللهُ أعلَمُ. وبَعْضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

ثم الأصلُ عندَنا أنَّ الذِّكْرَ يَحْتَمِلُ ما قالوا فيهِ مِنَ المَعاني الثلاثةِ: القرآنَ والرسولَ والعذابَ. لكنْ لا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أن يُخَرَّجُ على الاِبْتِداءِ على غيرِ تَقَدُّمِ النوازلِ لأنهُ لا يُبْتَدأُ بِمِثْلِهِ.

ثم النوازلُ تَحْتَمِلُ إنْ كانَ منهمْ قولٌ يقولونَ: يا محمدُ لو كانَ ما تقولُهُ أنتَ: إنهُ مِنْ عندِ اللهِ، وإنكَ رسولُهُ، فكيفَ أنْزَلَ الكتابَ، أو أرسَلَ الرسولَ على عِلْمٍ منهُ أنا نُكَذِّبُهُ[(٣)]، ونَرُدُّهُ، ولا نقبلُهُ؟ وما[(٤)] عُلِمَ مِنَ الملوكِ في الشاهدِ [أنْ تُكَذَّبَ الرسُلُ][(٥)]، ولا تُقْبَلُ، ولا[(٦)] تُبْعَثُ، فكيفَ بَعَثَكَ رسولاً إلينا؟ أو إنْ أنْزَلَهُ عليكَ، أو بَعَثَكَ رسولاً، فكذَّبْناهُ، وكَذَّبْناكَ، ورَدَدْناهُ، ورَدَدْناكَ، فلا يرفعُهُ، ويَرْفَعُكَ دونَ تركِهِ فينا؟

فيقولُ اللهُ، تبارَكَ، وتعالى، جواباً لهمْ ورَدّاً لِقولِهِمْ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ يقولُ: إنا لا نَتْرُكُكُمْ سُدًى، وإنْ عَلِمْنا منكُمُ التكذيبَ والرَّدَّ للرسولِ والوَحْيِ، ولا يَمْنَعُنا ذلكَ عن إنْزالِهِ إليكُمْ وتركِهِ فيكُمْ، ولا يَحْمِلُنا ذلكَ على رَفْعِهِ مِنْ بَيْنِكُمْ، بل نأمُرُكُمْ، ونَنْهاكُمْ، وإنْ كُنْتُمْ تُكَذِّبونَهُ، ولا تَقْبَلونَهُ.

وهذا لِما ذَكَرْنا أنَّ حرفَ الاِسْتِفهامِ مِنَ اللهِ تعالى يُخَرَّجُ على الإيجابِ والتحقيقِ. وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أي لا نَتْرُكُ إنزالَهُ وإرسالَهُ، وإنْ عَلِمْنا منكُمُ التكذيبَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقولِهِ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] أي لا يُتْرَكُ سُدًى، ولا تَحْسَبوا[(٧)] أنا إنما خَلَقْناكمْ عَبَثاً.

فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ فإنْ كانَ الذِّكْرُ هو القرآنَ، أو الرسولَ، فالتأويلُ أنهُ، وإنْ عَلِمَ منكُمُ الرَّدَّ والتكذيبَ فلا يَمْنَعُهُ ذلكَ عنْ / ٤٩٥ ـ أ/ إنزالِهِ عليكُمْ وبعثِهِ رسولاً إليكُمْ [وإنْ أنكَرْتموهُ، وكَذَّبْتُموهُ][(٨)] ورَدَدْتُموهُ، فلا يَحْمِلُنا[(٩)] ذلكَ على رفعِهِ مِنْ بَيْنِكُمْ بِشِرْكِكُمْ وكُفْرِكُمْ، وهو كما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦و٧] أي إنا، وإنْ عَلِمْنا مِنْ أوائِلِكُمْ تكذيبَ[(١٠)] الرسلِ والكتابِ، فلا[(١١)] يَمْنَعُنا ذلكَ عنْ إنزالِهِ [عليكُمْ وبعثِهِ إليكم][(١٢)].

---

(١) همزة الاستفهام ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أمسكته. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ومن. (٥) في الأصل وم: أنه يكذب رسوله. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تحسبون. (٨) في الأصل وم: وأنكرتم وإن كذبتموه. (٩) في الأصل وم: نحمله. (١٠) في الأصل وم: التكذيب. (١١) في الأصل وم: وما. (١٢) في الأصل وم: عليهم وبعثهم إليهم.

فَعَلَى ذَلِكَ أنتمْ، وإنْ عَلِمْنا منكمْ تكذيبَ الرسولِ وكتابِهِ فلا يَمْنَعُنا ذلكَ عن إرسالِهِ وإنزالِهِ لِنُلْزِمَكُمُ الحجةَ.

أو لعلَّ فيكُمْ مَنْ يُصَدِّقُهُ، ويؤمِنُ بِهِ، أو غَيرَكُمْ يُؤمِنُ بِهِ، ويُصَدِّقُهُ، وإنْ كَذَّبْتُمْ أنتمْ.

هذا إنْ كانَ تأويلُ الذِّكْرِ رسولاً أو كتاباً.

وإنْ كانَ تأويلُ الذِّكْرِ العذابَ فَيَصيرُ كأنهُ يقولُ: أفنَتْرُكُ تعذيبَكُمْ، أو نُمْسِكُ عنهُ، ولا نُعاقِبُكُمْ، وأنتمْ قومٌ مُسْرِفونَ أي مُشْرِكونَ على ما ذُكِرَ على إثْرِهِ حينَ[1] قالَ: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي قوةً؟ مَعْناهُ عَذَّبْناهُمْ بالتكذيبِ مع شِدَّةِ بَطْشِهِمْ وقوتِهِمْ، وأنتمْ دونَهُمْ لا تُعَذَّبونَ؟ بل تُعَذَّبونَ، واللهُ أعلمُ.

وعَنْ قَتادةَ [أنهُ][2] يقولُ: لو أنَّ هذا القرآنَ رُفِعَ حينَ رَدَّهُ أوائلُ هذهِ الأمةِ، فَهَلَكوا، لَرَدَّهُ اللهُ بِفَضْلِهِ ورحمتِهِ، وكَرَّرَهُ[3] عليهِمْ، ودعاهُمْ إليهِ كذا كذا سنةً وما شاءَ اللهُ تعالى.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][4] قالَ: لم يَبْعَثِ اللهُ تعالى نَبِيّاً إلا أنْزَلَ عليهِ كتاباً، فإنْ قَبِلَهُ قومُهُ، وإلّا رُفِعَ. فذلكَ قولُهُ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ لا تَقْبلونَهُ، فَتَقْبَلُهُ قلوبٌ بقيَّةٌ، فيقولونَ[5]: قَبِلْناهُ ربَّنا قَبِلْناهُ. لو لم يَفْعَلوا ذلكَ رُفِعَ، ولم يُتْرَكْ على الأرضِ منهُ شيءٌ.

ثم القراءةُ العامةُ ﴿أَن كُنتُمْ﴾ منصوبةٌ بالألِفِ بِمَعْنى إذْ كُنتُمْ، ويُقْرَأُ أيضاً: إنْ كُنتُمْ مكسورةً[6] على أنهُ الشرطُ ومَعْناهُ: لا نَتْرُكُ، ولا نُمْسِكُ عنْ إنزالِهِ، وإنْ كُنتُمْ قوماً مُسْرِفينَ مُشْرِكينَ.

الآيتان ٦ و ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فيهِ دعاءُ الرسولِ ﷺ إلى الصَّبْرِ بِما يُعامِلُهُ قومُهُ حينَ[7] ذَكَرَ لهُ أنَّ ما أرسلَ مِنَ الرسلِ الذينَ كانوا قبلَهُ عامَلَهُمْ قومُهُمْ مِنَ الاِسْتِهْزاءِ بهِمْ والأذى لهمْ مثلَ مُعاملةِ قومِكَ إياكَ، فَصَبَروا على ذلكَ، فاصْبِرْ أنتَ على أذى قومِكَ إياكَ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وفيهِ أنهُ يُرسِلُ الرسولَ، وإنْ عَلِمَ منهمْ أنهمْ يُكَذِّبونَهُ، وكذا يُنْزِلُ الكتابَ، وإنْ عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَرُدّونَهُ، ولا يَقْبلونَهُ، لأنهُ ليسَ يُرْسِلُ الرسُلَ، ولا يُنْزِلُ الكتبَ لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ ولا لِدَفْعِ المَضَرَّةِ عنْ نفسِهِ، ولكنْ إنما يُرْسِلُ، ويُنْزِلُ لِمَنْفَعَتِهِمْ ولِدَفْعِ المَضَرَّةِ عنْ أنفسِهِمْ، فَسَواءٌ عليهِ إنْ قَبِلوهُ، أو رَدّوهُ، وليسَ كَملوكِ الأرضِ إذا أرسَلوا رسولاً أو كتاباً إلى ما يَعْلَمونَ أنهمْ يُكَذِّبونَ رسُلَهُمْ، ويَرُدّون كُتُبَهُمْ[8]، يكونونَ سُفَهاءَ لأنهمْ إنما يُرْسِلونَ لِحاجةِ أنفسِهِمْ ولدفْعِ المَضَرَّةِ. فحينَ[9] لم يحصُلْ غَرَضُهُمْ، بل لَحِقَهُمْ[10] بذلكَ ضَرَرٌ وزيادةُ ضِدٍّ لهُ واسْتِخفافٌ لم يكنْ ذلكَ حكمةً، بل كانَ[11] سَفَهاً.

فأمّا اللهُ ﷻ إذا لم يُرْسِلْ، ويُنْزِلْ لِجَرِّ النَّفْعِ ودفعِ الضَّررِ، بل لإلزامِ الحجّةِ وإزالةِ العُذْرِ ونَحْوِ ذلكَ، [فذلكَ حكمةٌ أيضاً][12]، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيهِ تحذيرُ أولئكَ الكَفَرَةِ أنْ يُنْزِلَ بهِمْ بتكذيبِهِمُ الرسولَ وسُوءِ مُعاملتِهِمْ إياهُ كما أنْزَلَ[13] بأولئكَ المُتَقَدِّمينَ بتكذيبِ الرسلِ وسُوءِ معامَلَتِهِمْ إياهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أهلَكْنا مَنْ كانَ أشَدَّ قوةً وبطشاً مِنْ هؤلاءِ، ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمُ الامْتِناعُ [مع شدَّةِ][14] قوتِهِمْ وبطشِهِمْ عمّا نَزَلَ بهِمْ مِنَ العذابِ. فَعَلَى ذلِكَ لو نَزَلَ بهؤلاءِ لم يَتَهَيَّأْ لهمُ الاِمْتِناعُ مَعَ ضَعْفِهِمْ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ وصْفَ ذلكَ العذابِ الذي نَزَلَ بهِمْ أي ذلكَ العذابُ ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لكنه. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فقالوا. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٠١. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: كتابهم. (٩) في الأصل وم: فحيث. (١٠) في الأصل وم: يلحقهم. (١١) في الأصل وم: يكون. (١٢) في الأصل وم: كان حكمة. (١٣) في الأصل وم: ينزل. (١٤) في الأصل وم: لشدة.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي صارَ عذابُ الأوّلِينَ عِبْرَةً وعِظَةً ومَثَلاً لِلْمُتَأخّرينَ كقولِهِ: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

والثاني: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي مَضَى عذابُ الأوّلِينَ، وهو عذابُ الاسْتِئْصالِ، فلا يُعَذَّبُ هذهِ الأمّةَ بِمِثْلِ عذابِهِمْ لِفضيلَةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ. وبَرَكَتِهِ ورَحْمَتِهِ، وهو لِما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] بِفَضْلِهِ ورحمتِهِ أبْقَى هذهِ الأمّةَ إلى يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في قولِهِمْ وجوابِهِمْ أنَّ اللهَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ دلالةٌ أنهمْ قد عَرَفوا أنهُ رسولٌ، لكنْ كَذَّبوهُ عِناداً ومُكابَرَةً لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا لا يؤمنونَ بالرسلِ، ويَزْعُمونَ[1] أنا عَرَفْنا أنَّ اللهَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بقولِهِمْ، لا يُنْكِرونَ[2] رسالَتَهُ خاصةً، بل يُنْكِرونَ الرسلَ أجْمَعَ.

ثم هُمْ ما عَرَفوا أنَّ اللهَ، هو خَلَقَ السمواتِ والأرضَ إلّا بالرسُلِ، إذْ هُمْ ليسوا مِنَ الذينَ عادَتُهُمُ الاسْتِدْلالُ والنَّظَرُ في الدلائلِ لِيَعْرِفوا اللهَ تعالى بالدلائلِ العقليّةِ. والظاهرُ في العَوامِّ جملةُ المعرفةِ بالدلائلِ السمعيّةِ، فكانَ الظاهرُ هذا أنَّ معرفَتَهُمْ أنَّ اللهَ، خَلَقَ السمواتِ والأرضَ لقولِ الرسلِ ﷺ لكنهمْ كَذَّبوهُم[3]، ولم يُصَدِّقوهُمْ[4] عِناداً منهمْ ومكابَرَةً، وما بهِ عَرَفوا سائرَ الرسلِ مِنَ المُعْجِزاتِ موجودٌ ومُعايَنٌ لهمْ في حقِّ رسولِنا ﷺ لابدَّ أنْ يَعْرِفوهُ رسولاً، لكنهمْ كَذَّبوهُ عِناداً. فَدَلَّ أنَّ قولَهُمْ هذا دليلٌ على معرفتِهِمْ برسالتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم تَمامُ الاحْتِجاجِ بهذا أنْ يُقالَ لهمْ: قد عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ، هو خالقُ السمواتِ والأرضِ، فَهَلّا عَرَفْتُمْ أنهُ لم يَخْلُقْهُما[5] عبثاً باطلاً؟ إذْ لو كانَ على ما يَزْعُمونَ أنْ لا رُسُلَ، ولا بَعْثَ، ولا حِسابَ، ولا ثوابَ، ولا عقابَ، يكونُ خَلْقُهُ إياها[6] عبثاً باطلاً. فكانَ إقرارُهُمْ بِخَلْقِهِ إياها[7] إقراراً بِخَلْقِهِ على وجهِ الحكمةِ، ولَنْ يَخْرُجَ خَلْقُهُ على الحكمةِ إلّا بالإقرارِ بالرسُلِ والبَعْثِ والثوابِ والعقابِ على ما عَرَّفَ غيرَ مَرّةٍ.

أو أنْ يُقالَ: فإذا عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ تعالى، هو خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما ذَكَرَ إلى آخِرِهِ، فكيفَ أنْكَرْتُمْ قُدْرَتَهُ على البَعْثِ والإعادةِ بَعْدَ الموتِ؟ والأعجوبَةُ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ أعظَمُ وأكْثَرُ مِنَ الأعجوبةِ في بَعْثِكُمْ وإعادَتِكُمْ. فكيفَ أنْكَرْتُمْ ما هو أقلُّ في القُدْرةِ والأعجوبةِ؟ واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا على سبيلِ النَّعْتِ والوصفِ للهِ تعالى ﷻ صِلَةً لقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي وَصَفَهُ أنهُ جَعَلَ الأرضَ كذا، وأنْزَلَ كذا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ [بقولِهِ][8]: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ / ٤٩٥ ـ ب/ عنِ الأرضِ وما ذَكَرَ بهِ مِنْ جَعْلِها مَهْداً ومِنْ جَعْلِهِ[9] لهمْ فيها سُبُلاً قالوا[10]: اللهُ جَعَلَ ذلكَ على ما قالوا في السمواتِ والأرضِ.

وفيهِ وجوهٌ مِنَ الدّلالةِ:

أحَدُها: يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةَ عليهمْ حينَ[11] جَعَلَ هذهِ الأرضَ بحيثُ يَمْهَدونَها، ويَفْتَرِشونَها، ويَنْتَفِعونَ بها بأنواعِ المَنافِعِ، وبحيثُ مَكَّنَ لهمُ الوصولَ إلى حوائِجِهِمُ التي فَرَّقَها في الأمكنةِ المُتباعِدَةِ بِما جَعَلَ لهمْ فيها سُبُلاً وطُرُقاً، يَسْلُكونَ فيها لِيَصِلوا إلى الحَوائجِ التي فُرِّقَتْ في البلدانِ المُتَباعِدَةِ ما لولا جَعْلُهُ فيها السُّبُلَ والطُّرُقَ التي جَعَلَ ما قَدَروا السلوكَ فيها، ولا عَرَفوا أنهمْ مِنْ أيِّ جهةٍ يَصِلونَ إلى حَوائِجِهِمُ التي فُرِّقَتْ، فَيُلْزِمُهُمْ بما ذَكَرَ القيامَ بشكْرِهِ على تلكَ النِّعَمِ.

---

(١) في الأصل وم: حتى يزعمون. (٢) في الأصل وم: وينكروا. (٣) في الأصل وم: كذبوه. (٤) في الأصل وم: يصدقوه. (٥) في الأصل وم: يجعلهما. (٦) و(٧) في الأصل وم: إياهما. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: جعل. (١٠) في الأصل وم: فقالوا. (١١) في الأصل وم: حيث.

والثاني[1]: دلالةُ حكمتِهِ لِيَدُلَّهُمْ أنهُ إنما جَعَلَ لهمْ ما ذَكَرَ لِحِكْمَتِهِ، ولم يَجْعَلْها عَبَثاً باطلاً [فَيُلْزِمَهُمُ الشكرَ حينَ][2] فَرَّقَ حوائجَهُمْ في أمكنةٍ مُتَباعِدَةٍ، ثم مَكَّنَ لهمُ الوصولَ إليها، لِيَعْلَموا[3] أنَّ الذي مَلَكَ أنفُسَهُمْ، هو مالكُ أطرافِ الأرضِ؛ إذْ لو كانَ هذا غَيرَ مالكٍ ذلكَ لَمَنَعَهُمْ عنِ الوصولِ إلى حوائجِهِمْ.

والثالثُ[4]: دلالةُ قدرتِهِ حينَ[5] جعلَ لهمْ في الأرضِ ما ذَكَرَ مِنَ التَّسْخيرِ لهمْ حتى [يَتظاهروا فيها، ويَفْتَرِشونَها][6] ويَسْلُكوا فيها السبلَ التي جَعَلَها لهمْ إلى حيثُ أرادوها، وقَصَدوها، ومَكَّنَ لهمْ لِيَعْلَموا[7] أنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ في ما ذَكَرَ مِنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ ونَشْرِهِ في الأرضِ وإنباتِ النباتِ فيها بذلكَ الماءِ دلالةٌ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فإنهُ أنْزَلَ الماءَ مِنَ السماءِ ليكونَ في الأرضِ أنواعُ النِّعَمِ التي ذَكَرَ، ويَجْعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ على بُعدِ ما بَينَهما لِيَعْلَموا عِظَمَ نِعَمِهِ عليهِمْ ولِيَعْلَموا أنَّ مالِكَها واحدٌ وما جَعَلَ في الماءِ مِنَ المَعْنى واللُّطفِ ما يُوافِقُ جميعَ النباتِ والثمارِ على اختِلافِ أجناسِها وجَواهِرِها [لِيَعْلَموا أنَّ مَنْ][8] قدرَ على إحياءِ الأرضِ بذلكَ المَعْنَى الذي جَعَلَ في الماءِ مُوافَقَتَهُ جميعَ النباتِ والثمارِ على اخْتِلافِ جَواهِرِها وأجناسِها، لا يُحْتَمَلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ مِنْ بَعْثٍ أو غيرِهِ؛ إذِ الأُعجوبةُ في ما ذَكَرَ مِنْ إحياءِ الأرضِ بذلكَ الماءِ ومُوافَقَةِ المَعْنَى المَجْعولِ[9] في الماءِ جميعَ ما ذَكَرَ أعْظَمُ وأكثَرُ مِنَ البَعْثِ لأنهُ إعادةٌ، وذلكَ ابْتِداءٌ.

فَمَنْ مَلَكَ، وقَدَرَ على ما ذَكَرَ مِنَ الإحياءِ فهو على البَعْثِ أقْدَرُ وأمْلَكُ. ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي تُبْعَثونَ واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ جائزٌ أنْ يَدخُلَ في ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الأزواجِ كلِّها جميعُ ما يكونُ لها أزواجٌ مِنْ مُقابلاتٍ وأشكالٍ؛ إذِ التَّزاوجُ قد يَقَعُ، ويُسْتَعْمَلُ في الأضدادِ والأشكالِ مِنَ الأفعالِ والجواهرِ مِنَ الكُفْرِ والإيمانِ والطاعةِ والمَعْصِيَةِ، فيكونُ في ذلكَ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العبادِ؛ إذْ أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ الأزواجَ كلَّها، وبَينَ هذهِ الأفعالِ ازْدِواجٌ، وإنْ كانَتْ مُتَضادَّةً مُتَقابلةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ: أنهُ فَرَّقَ حوائجَ الخَلْقِ في أمكِنَةٍ بعيدةٍ، وبَينَهُمْ وبينَ أمكِنَةِ حوائجهِمْ مَفاوِزُ وقِيافٍ وبحارٌ، فَجَعَلَ لهمْ في المَفاوِزِ أنعاماً يركبونَها لِيَصِلوا إلى حوائجِهِمْ وفي البحارِ سُفُناً لِيَرْكبوها لِيَصِلوا إلى حوائِجِهِمُ التي في البحارِ.

يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَها، ويُذَكِّرُهُمْ قُدْرَتَهُ: أنَّ مَنْ مَلَكَ هذا، وقَدَرَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ جَعَلَ ظُهورَهُ بحيثُ يَسْتَوُونَ عليها، ويَقِرّونَ. وكانَ لهُ أنْ يَجْعَلَ ظهورَها بحيثُ لا يَسْتَوُونَ عليها، ولا يَقِرّونَ، وهذا مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ثم نعمتُهُ تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

[أحَدُها: ما][10] ذَلَّلَ لهمْ مِنَ الأنعامِ، وسَخَّرَها لهمْ بِقُوَّتِها وشِدَّتِها.

[والثاني: ما][11] جَعَلَ لهمْ أن يَسْتَعْمِلوا الدوابَّ، وهي تَتَألَّمُ، وتَتَلَذَّذُ كما يَتألَّمونَ، ويَتَلَذَّذونَ.

[والثالثُ:][12] جَعَلَها مَنْفَعَةً لهمْ، لا أنْ جُعِلوا لها.

---

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) في الأصل وم: فيلزم حيث. (٣) في الأصل وم: ليعلم. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ظهورها ويفترشونها. (٧) في الأصل وم: ليعلم. (٨) في الأصل وم: ليعلم أن. (٩) من م، في الأصل: المجهول. (١٠) في الأصل: لما، في م: ما. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: ثم.

[والرابعُ :][1] أنْ تكونَ نِعْمَتُهُ التي أمَرَهُمْ أنْ يذكُروها الإسلامَ والتوحيدَ، ويقولوا[2]: الحمدُ للهِ الذي هدانا للإسلامِ ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

[والخامسُ: أنْ][3] يأمُرَهمْ أنْ يَذْكروا ما أنْشأَ لهمْ مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُطيقينَ. يُقالُ: أنا لك مُقْرِنٌ أي مُطيقٌ، ويُقالُ: أنا مُقْرِنٌ لهذا العملِ أي قَوِيٌّ عليهِ.

وأصْلُ هذا التأويلِ أنَّ الدوابَّ والأنعامَ في أنفسِها أشَدُّ وأكْثَرُ قوةً وأعظَمُها مِنَ البشرِ. لكنَّ اللهَ تعالى بفضلِهِ ومَنِّهِ عَلَّمَ الإنسانَ الحِيَلَ حتى قَدَرَ على اسْتِعْمالِ الدوابِّ والأنعامِ معَ قُوَّتِها وشِدَّتِها حيثُ شاؤوا وفي ما شاؤوا، وسَخَّرَها لهمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي لم يَجْعَلْنا مِنْ قَرْنِ الدوابِّ ومِنْ قَرْنِها بحيثُ نُسْتَعْمَلُ لما تُسْتَعْمَلُ الدوابُّ، وتُرْكَبُ على الظهورِ، أي لم يَجْعَلْنا مِنْ قَرْنِ الدوابِّ ومِنْ أشكالِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها[4]: البَعْثَ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ.

[والثاني :][5] أنّا إلى ما جَعَلَ لنا ربُّنا مِنَ الوصولِ إلى حوائجِنا لَمُنْقَلِبونَ بها وراجعونَ، واللهُ أعلَمُ.

[والثالث][6]: أنّا إلى أوطانِنا ومنازِلِنا راجِعونَ بها ما لولا هي لم يَتَهَيَّأْ لنا الرجوعُ إلى ذلكَ ولا الوصولُ إلى ما جَعَلَ لنا مِنَ الحوائجِ التي فُرِّقَتْ في الأمكنةِ المُتباعدةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ قالَ عامةُ أهْلِ التأويلِ: إنَّ[7] الكَفَرَةَ جَعَلوا للهِ تعالى مِنْ عبادِهِ أُنثَى أي بِنتاً.

وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿جُزْءًا﴾ أي بِنتاً، وقالَ: إنَّ الجُزْءَ عندَ بعضِ العربِ البِنْتُ لأنَّ الكَفَرَةَ قدِ اخْتَلَفَ أنواعُ كُفْرِهِمْ، وهم مُخْتَلِفونَ في كُفْرِهِمْ.

تقولُ الثَّنَوِيَّةُ بالإثْنَيْنِ؛ يقولونَ عنِ اللهِ تعالى: هو خالِقُ الخَيراتِ، وخالقُ الشُّرُورِ غَيرُهُ على حَسَبِ ما اخْتَلَفوا في ذلكَ الغَيرِ ما هو؟

فهولاءِ الثَّنَوِيَّةُ جَعَلوا للهِ تعالى مِنْ عبادِهِ جُزْءاً، وهو الخَيراتُ، ولم يَجْعَلوا[8] لهُ الجُزْءَ الآخَرَ.

ومُشْرِكو العَرَبِ جَعَلوا لهُ في ما رَزَقَهُمْ جُزْءاً[9] وجُزْءاً لِشُرَكائِهِمْ حينَ[10] قالَ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فهؤلاءِ جَعَلوا لهُ جُزْءاً ممّا رَزَقَهُمْ، وهو الظاهرُ، وفريقٌ آخَرُ جَعَلوا لهُ جُزْءاً مِنْ عبادِهِ، وهو الإناثُ، ولم يَجْعَلوا للهِ البَنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] فَجَعَلوا[11] الجُزْءَ لهُ على ما ذَكَرَ[12] أهْلُ التأويلِ، وصَرَفوهُ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي كَفورٌ لِنِعَمِهِ مُبينٌ أي يُبَيِّنُ كُفرانَهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ هو على الإضمارِ، كأنهُ يقولُ: أمْ يقولونَ: اتَّخَذَ ممّا يَخْلُقُ بناتٍ لنفسِهِ ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ٦٢].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (٥) و(٦) في الأصل وم: يحتمل و. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: يجعل. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: ولله تعالى. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: فجعل. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: ما أظهره مما ذكره.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ أي قالوا: بل اتَّخذَ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾.

يذكُرُ في هذهِ الآياتِ سَفَهَ أهْلِ مكةَ وشدةَ تَعَنُّتِهِمْ لأنهم قومٌ لا يؤمِنونَ بالرسلِ وما ذَكَروا مِنِ اتِّخاذِ الولدِ وما ادَّعوا بأنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ وما أقَرّوا حينَ سُئلوا: مَنْ خَلَقَ /٤٩٦ ـ أ/ السمواتِ والأرضَ؟ أنَّ اللهَ، هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ ممّا لا سَبيلَ إلى مَعْرِفةِ ما قالوا، وادَّعَوا إلّا بالرسلِ، وهُمْ يُنْكِرونَ الرسلَ. فكيفَ ادَّعوا ما ادَّعوا؟ وهُمْ يُنْكِرونَ خَبَرَهُمْ لأنَّ مَنِ ادَّعَى وَلَدَ الغائبِ، لا يُعْلِمُهُ إلّا بِخَبَرٍ صادقٍ. وكذلكَ مَعْرِفةُ الملائكةِ إنما هو بِخَبَرٍ يأتيهِمْ. ثم هُمْ يُنْكِرونَ الأخبارَ والرسلَ، فَيَتَناقَضُ دَعْواهُمْ، ويَضْمَحِلُّ، على ما ذَكَرْنا[1].

الآية ١٧ ثم أخْبَرَ عنهمْ ما يُظْهِرونَ مِنَ الحزنِ عندَما يُولَدُ لهمْ مِنَ الإناثِ وما يَلْحَقُهُمْ مِنَ الكَراهةِ في ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي شَبَهاً بالخَلْقِ، وإنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: بما جَعَلوا لهُ ولداً، والوَلَدُ، هو شبيهُ الوالدِ، فكانَ إثباتُ الولدِ إثباتَ المَثَلِ والشَّبيهِ.

والثاني: في إثباتِ الوَلَدِ لهُ إثباتُ المُشابَهةِ بينَهُ وبينَ جميعِ الخَلْقِ، لأنَّ الخَلْقَ لا يَخْلو: إمّا أنْ يكونَ مولوداً مِنْ آخَرَ، ويولَدُ منهُ آخَرُ، وإمّا أنْ يكونَ له شريكٌ في ما يَمْلِكُهُ، وإمّا[2] يكونَ هو شريكَ غَيرِهِ، فيكونُ البعضُ شبيهاً بالبعضِ.

فَمَنْ أثبتَ للهِ شَريكاً وَوَلَداً فقدْ جَعَلَهُ شَبيهاً بالخَلْقِ. ولهذا بَيَّنَ اللهُ تعالى مِنَ الولدِ والشَّريكِ تَبَرِّياً واحداً بقولِهِ تعالى: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] نَفى الولَدَ والشَّريكَ عنْ نفسِهِ نَفْياً واحداً وبراءةً واحدةً، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تَفسيراً لقولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ وعلى ذلكَ قولُ أهْلِ التأويلِ: إنهمْ جَعَلوا هذهِ تفسيراً لِلأُولَى.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على التَّفسيرِ لِلأُولَى، ولكنْ على الابْتِداءِ في قومٍ آخَرينَ سواهُمْ على ما ذَكَرْنا نحنُ مِنَ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ: هي الأصنامُ التي عَبَدوها: حَلَّوها، وزَيَّنوها بأنواعِ الزينةِ والحَلْيِ، واللهُ أعلَمُ. ولو حُلِّيَ بالحَلْيِ، وزُيِّنَ بالزينةِ، وهو لا يملكُ نَفْعاً ولا ضَرّاً ولا تَكَلُّماً ولا خصومةً ولا شيئاً مِنْ ذلكَ، ولا يُلْتَفَتُ إليهِ، ولا يُكْتَرَثُ لهُ، لولا تلكَ الحَلْيُ والزينةُ التي بها في جعلِ العبادةِ لهُ كَمَنْ منهُ خَلَقَ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما مِنَ المَنافِعِ، أي ليسَ هذا بِسَواءٍ.

لذلكَ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في اختيارِهِمُ الأصنامَ التي هذا وَصْفُها في العبادةِ على عبادةِ اللهِ تعالى الذي منهُ كلُّ شيءٍ. يُصَبِّرُ رسولَهُ ﷺ على أذاهُمْ وتكذيبِهِمْ إياهُ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ معهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ هي الإناثُ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الأُنْثى ضعيفٌ قليلُ الحيلةِ، وهي عندَ الخصومةِ والمُجاوَزةِ غيرُ بَيِّنٍ، يَصِفُ عَجْزَهُنَّ وضَعْفَهُنَّ ونُقْصانَهُنَّ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كيفَ نَسَبوا إلى اللهِ ﷻ ما هو أضْعَفُ وأعْجَزُ في ما ذَكَرَ، وقد اتَّقَوا هُمْ منها، واختاروا لأنفسِهِمْ ما هو أكْمَلُ وأقْوَى، وهُمُ الذكورُ؟ وهو صِلَةُ قولِهِ ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وكلُّ حرفٍ ممّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ ونَحْوِ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يَرْجِعَ إلى مَعْنًى آخَرَ غيرِ المَعْنَى في ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ، وكلُّ حرفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ يَرْجِعُ إلى فريقٍ غَيرِ الفريقِ الآخَرِ لأنهمْ كانوا في المذاهبِ مُخْتَلِفينَ مُتَفَرِّقينَ، وجائزٌ أنْ يَرْجِعَ الكلُّ إلى مَعْنًى واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: ذكر. (٢) في الأصل وم: و.

وفي هذهِ الآياتِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ مِنْ تَصْبيرِ رسولِ اللهِ ﷺ على أذى القومِ ومِنْ بَيانِ سَفَهِ أولئكَ ومِنَ التَّحذيرِ مِمّا تَأخَّرَ منهمْ[1]، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي يُرَى في الحَلْيِ، وهي البناتُ، يريدُ جَعْلَهُمْ بناتِ اللهِ تعالى، وهُمْ إذا كانَ لأحدِهِمْ بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أي حزينٌ. والخِصامُ جمعُ خصيمٍ ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي غيرُ مبينِ الحُجَّةَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي يُنْشأُ كما يُقالُ: نَشأَ الصَّبيُّ يَنْشَأُ، أي يَشِبُّ، ويرتَعُ، والخِصامُ المُخاصمةُ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ واللهُ أعلَمُ: نَبتَ، ويُقرأُ: ﴿يُنَشَّؤُا﴾ بالتشديدِ، ويُنْشَأُ بالتخفيفِ، وهما لغتانِ، وقرأَ بعضُهُمْ: يَنْشأُ[2] في الحِلْيَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ سَفَّهَهُمْ في جَعْلِهِمْ عبادَ الرحمنِ إناثاً، وقد جَعَلَ اللهُ مِنْ عبادِهِ إناثاً؟ لماذا عاتَبَهُمْ على ذلكَ؟ قيلَ عنْ هذا وجهانِ[3]:

أحَدُهما: إنما سَفَّهَهُمْ، وعاتَبَهُمْ، لِشهادتِهِمْ على اللهِ ﷻ أنهُ جَعَلَ الملائكةَ إناثاً، وهُمْ [لم][4] يُشاهِدوها، ولا يؤمنونَ بالرسُلِ ﷺ حتى يَقَعَ لهمُ العِلْمُ والخَبَرُ بذلكَ بقولِ الرسولِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: إنَّ اللهَ تعالى وصفَ ملائكتَهُ بأنهمْ لا يَفْتُرونَ عنْ عبادتِهِ، وأنهمْ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وأنهمْ مطيعونَ للهِ تعالى على الدوامِ بحيثُ لا يَرِدُ منهمْ عصيانٌ طَرْفَةَ عَينٍ على ما نَطَقَ بذلكَ الكتابُ. فهمْ إذا قالوا: إنهمْ إناثٌ وَصَفوهُمْ بالضَّعْفِ والعَجزِ، فلا يَتَهيَّأُ لهنَّ القيامُ بِما ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ وقولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل: ٥٧] وقولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] ليسَ على حقيقةِ الجَعْلِ، ولكنْ على الوصفِ لهُ والقولِ، أي قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وَوَصفوا لهمْ بما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ تَعَلَّقَ المعتزلةُ بظاهرِ هذهِ الآيةِ في أنَّ اللهَ تعالى لم يَشَإِ الكُفْرَ مِنَ الكافرِ وإنما شاءَ الإيمانَ، فإنَّ الكُفّارَ ادَّعَوا أنَّ اللهَ تعالى شاءَ منهمُ الكُفْرَ وما شاءَ منهمْ تركَ عبادةِ الأصنامِ حينَ[5] قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي لو شاءَ منا تَرْكَ عبادةِ الأصنامِ لَتَرَكْناها، ولكنْ شاءَ منّا عبادةَ الأصنامِ، واللهُ تعالى رَدَّ عليهمْ قولَهُمْ واعتِقادَهُمْ، فقالَ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هُمْ إلّا يُكَذِّبونَ.

وعندَنا الآيةُ تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهمْ في قولِهِمْ: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ صَدَقَةٌ، فإنَّ مَعْناهُ لو شاءَ منهمْ تَرْكَهُمْ عبادَةَ الأصنامِ ما عَبَدوها، ولكنْ شاءَ أنْ يَعْبُدوها، فَعَبَدوها، فيكونُ هذا منهمْ إخباراً عنِ المُخْبَرِ بهِ على ما هو، فيكونُ صِدْقاً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنما سَمّاهُمْ كذلكَ لِما قالتِ المعتزلةُ: إنهمُ ادَّعَوا، وأخبَروا أنَّ الكُفْرَ بِمَشيئةِ اللهِ تعالى، وأنهُ شاءَ منهمُ الكُفْرَ والإيمانَ، فاللهُ تعالى شاءَ منهمُ الإيمانَ دونَ الكُفْرِ، فقد أخبَروا على خِلافِ المُخْبَرِ بهِ، فيكونونَ كاذبينَ.

ويَحْتَمِلُ أنهمْ قالوا ذلكَ، وفي قلوبِهِمْ خلافُ[6] ما أخبَروا، وهو أنَّ الكُفْرَ ليسَ مِمّا شاءَ اللهُ تعالى، وإنما شاءَ

---

(١) من م، في الأصل: منها. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/١٠٤ و/١٠٥. (٣) في الأصل وم: وجهين. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بخلاف.

الإيمانَ كما تقولُهُ المعتزلةُ. ولكنْ يقولونَ ذلكَ ردّاً على المسلمينَ الذينَ يدعونَهُمْ إلى الإيمانِ والرّدْعِ عنِ الكُفْرِ: إنهُ إذا كانَ شاءَ منا الكُفْرَ دونَ الإيمانِ كيفَ نُؤمِنُ، ونَتْرُكُ الكُفْرَ والإخبارَ عمّا هو بهِ، وإنْ كانَ صدقاً؟ ولكنْ إذا كانَ في قَلْبِ المُخبِرِ واعْتِقادِهِ خِلافُ ذلكَ، فيكونُ الإخبارُ في نفسِهِ صِدْقاً. لكنْ مِنْ حيثُ أنهُ إخبارٌ عمّا في الضميرِ يكونُ كَذِباً.

وهذا كقولِ اللهِ تعالى /٤٩٦ ـ ب/: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وهُمْ في قولِهِمْ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صَدَقَةٌ، لكنّهمْ[١] في إخبارِهِمْ عمّا في ضَميرِهِمْ كَذَبَةٌ لِما لا يُوافِقُ ظاهرُ كلامِهِمْ حقيقةَ ما في قلوبِهِمْ، فَيَرْجِعُ تكذيبُ اللهِ تعالى إياهمْ لِكَذِبِ قلوبِهِمْ، وإنْ كانوا في نفسِ قولِهِمْ: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صَدَقَةً.

وإذا احْتَمَلَ الوجهَينِ فلا تكونُ الآيةُ حُجّةً لهمْ معَ الاحتِمالِ. وعلى الوَجْهَينِ جميعاً يكونونَ كاذِبينَ. لِذلكَ قالَ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهمْ، وإنْ كانوا صادقينَ في ذلكَ، فهمْ بما قالوا ذلكَ على الاسْتِهْزاءِ والسُّخْرِيَةِ لا على الجَدِّ، فيكونُ قَصْدُهُمْ[٢] تلبيسَ الصدقِ على الناسِ وردَّهُ كقولِهِ ﷺ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] وهذا القولُ مِنْ هذا الإنسانِ حَقٌّ وصِدْقٌ، لكنْ إنما قالَ ذلكَ اسْتِهْزاءً منهُ وإنكاراً لِلبَعْثِ.

ألاَ تَرَى أنَّ اللهَ تعالى، وَعَظَهُ على ذلكَ، وذَكَّرَهُ، حينَ[٣] قالَ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]؟ فَعَلَى ذلِكَ قولُ أولئكَ وإنْ كانَ في الظاهرِ صِدْقاً، فهمْ إنما قالوا ذلكَ اسْتِهْزاءً وسُخْرِيَةً على سَبيلِ الإنكارِ وتَلْبيسِ الحقِّ، فيكونُ إخباراً مِنْ ذلكَ الوجْهِ ولهذا الغَرَضِ خَرْصاً وكَذِباً، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: غَرَضُهُمْ بذلكَ الاحْتِجاجُ على المسلمينَ في تَوَعُّدِهِمْ بالعذابِ بِسببِ العِنادِ والكُفْرِ: أنْ كيفَ عَذَّبَ، وإنّا إنما باشَرْنا الكُفْرَ بِمَشيئتِهِ، ولو شاءَ أنْ نَتْرُكَ العبادةَ للأصنامِ تَرَكْنا. فإذا كانَ شاءَ منّا الكُفْرَ حتى كَفَرْنا، لماذا عاقَبْنا؟.

فأبْطَلَ احْتِجاجَهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي هُمْ جاهلونَ في الاحْتِجاجِ بهذا كاذبونَ في أنهمْ باشَروا الكُفْرَ بِسببِ مَشيئةِ اللهِ تعالى منهمُ[٤] الكفرَ. ولكنْ لِسوءِ اخْتيارِهِمْ وأسبابٍ حاملةٍ لهمْ على ذلكَ.

وأصْلُهُ أنْ لا أحدَ مِنَ العُصاةِ والفَسَقَةِ والكَفَرَةِ يَفْعَلُ، وعندَهُ أنَّ اللهَ لو شاءَ ذلكَ منهمْ، فإذا كانَ وقْتُ فعلِهِ لا يَفْعَلُ [ما يَفْعَلُ][٥] لأنَّ اللهَ تعالى شاءَ ذلكَ منهُ لم يكُنْ [لهُ][٦] هذا الاحْتِجاجُ والقولُ بما[٧] قالوا، واللهُ الموفِّقُ.

والرابعُ: يَحْتَمِلُ أنهمْ يقولونَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ وقولُهُمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] لو[٨] أمَرَنا اللهُ تعالى بِتَرْكِ عبادَتِنا أولئكَ الأصنامَ ما عَبَدْناهُمْ، لكنْ أمَرَنا أنْ نَعْبُدَهُمْ.

كانوا يَدَّعُونَ أنما يَعْبدونَ لأمرٍ مِنَ اللهِ تعالى كقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وأرادوا بالمَشيئةِ الرِّضا؛ يقولونَ: لولا أنَّ اللهَ تعالى قد رَضِيَ بذلكَ عنّا وعنْ آبائنا، وإلّا ما تَرَكَنا وإيّاهُمْ[٩] على ذلكَ. فاسْتَدلّوا بِتَرْكِهِمْ على ما اختاروا على أنَّ اللهَ تعالى قد رَضِيَ بذلكَ عنهمْ.

فَرَدَّ اللهُ ﷻ بقولِهِ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وبقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ الآيةَ [الأعراف: ٢٨] وقد ذَكَرْنا على الاسْتِقْصاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٤٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي لم يُؤتِهِمْ كتاباً ليكونَ لهمُ العِلْمُ بذلكَ؛ يُسَفِّهُهُمْ في قولِهِمْ لأنهمْ قومٌ لا يؤمِنونَ بالرسلِ والكتبِ، وتلكَ أسبابُ العِلْمِ، وليسَتْ لهمْ تلكَ الأسبابُ لِما لا يؤمِنونَ بها، ولا يُصَدِّقونَ.

---

(١) في الأصل وم: لكن. (٢) في الأصل وم: قصده. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: إياهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: إنما. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٩) في الأصل: هم، في م: وهم.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ إنهمْ قومٌ يُنكِرونَ [الرسلَ][1] ويُكذِّبونَهُمْ بِعِلَّةِ أنهمْ بَشَرٌ، ثم اقْتَدَوا بآبائِهِمْ، واتَّبعوهُمْ، وهُمْ بَشَرٌ أيضاً. فهذا تَناقُضٌ في القولِ؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وتَناقُضَهُمْ في القولِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ على ما قالَ هؤلاءِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

إنهُ ليسَ بَبديعٍ مِنْ هؤلاءِ بل قالَ أوائِلُهُمْ لرسُلِهِمْ على قالَ قومُكَ؛ يُصَبِّرُهُ ﷺ ويُعَزِّيهِ، ويَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في اتِّباعِهِمْ إياهُمْ واقتِدائِهِمْ بهِمْ، وهُمْ بَشَرٌ، فيقولُ: فإذا كُنتُمْ لا مَحالَةَ تَتَّبِعونَ[2] البَشَرَ، فاتَّبِعوا أمْرَ [مَنْ][3] هُمْ أهْدَى مِنْ آبائِكُمْ، وهُمُ الرسلُ.

الآية ٢٤ وهو ما قالَ ﷺ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ﴾ عندَ ذلكَ ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ عِناداً وتَعَنُّتاً منهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَٰلَ﴾ يا محمدُ ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ مِنَ الدينِ أفَتَتَّبِعوني في ما جِئْتُكُمْ؟ فَرَدُّوا عليهِ، وقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا وعيدٌ. ثم قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يقولُ: هو رجوعٌ إلى ذِكْرِ الأممِ الخاليةِ. فقالَ: فانْتَقَمْنا منهمْ بالعذابِ الذي نَزَلَ[4].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يَحْتَمِلُ مُكَذِّبي الرسلِ، ويَحْتَمِلُ مُكَذِّبي العذابِ.

الآيتان ٢٦ و٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ والإشكالُ أنهُ ﷺ تَبَرَّأَ مِنْ عبادةِ جميعِ ما يَعْبُدونَ، واسْتَثْنى عبادةَ الذي فَطَرَهُ، وهو اللهُ تعالى، وهُمْ لا يَعبدونَ الذي فَطَرَهُ، فكيفَ يَسْتَثْني مِنْ جملةِ عبادةِ مَنْ يَعْبُدونَ، والاسْتِثْناءُ مِنْ جِنْسِ المُسْتَثْنَى منهُ؟

فيقولُ بعضُهُمْ: إنهُ تَبَرَّأَ مِنْ عبادةِ مَنْ عَبَدوا، واسْتَثْنى عبادةَ مَنْ فَطَرَهُ لأنَّ فيهِمْ مَنْ عَبَدَ الذي فَطَرَهُ[5] اللهُ تعالى. فلو تَبَرَّأَ مِنْ عبادةِ جميعِ ما يَعبدونَ على الإطلاقِ لصارَ مُتَبَرِّئاً مِنْ عبادةِ اللهِ تعالى. لِذلكَ اسْتَثْنى عبادةَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

لكنَّ الإشكالَ أنهُ لم يَظْهَرْ أنَّ في قومِهِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ تعالى، وهو الذي فَطَرَهُ، وخَلَقَهُ. فَما مَعْنَى الاسْتِثْناءِ؟

فيقالُ: إنْ لم يكُنْ في قومِهِ مَنْ يَعْبُدُ الذي فَطَرَهُ فكانَ في آبائِهِمْ وأوائِلِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ تعالى، ولا وقوفَ لهُ على ذلكَ، فَيَصيرُ مُتَبَرِّئاً مِنْ ذلكَ لو تَبَرَّؤوا مِمَّنْ يَعْبُدونَ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اسْتَثْنى الذي فَطَرَهُ لأنهمْ يَعبدونَ هذهِ الأصنامَ والأوثانَ دونَ اللهِ تعالى رجاءَ أنْ تَشْفَعَ لهمْ، فَتُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفى لِقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فَرَجَعَ اسْتِثْناؤُهُ إلى حقيقةِ الذينَ قَصَدوا بالعبادةِ، وهو الذي فَطَرَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا اسْتِثْناءً مُنْقَطِعاً، وهو الاسْتِثْناءُ بِخلافِ الجِنْسِ بِمَعْنًى. لكنَّ مَعْناهُ: أني بَراءٌ ممّا تَعْبُدونَ، ولكنْ أعبُدُ الذي فَطَرَني، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] [وقولِهِ تعالى][6]: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ﴾ [النساء: ٢٩] أي ولكنْ تجارةٌ عنْ تَراضٍ لأنهُ لا يجوزُ أنْ تُسْتَثْنى التجارةُ عَنْ تراضٍ مِنَ الباطلِ، ولا السلامُ مِنَ اللَّغْوِ. ونَحْوُ ذلكَ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ذُكِرَ أنَّ هذا الحرفَ ﴿بَرَآءٌ﴾ على ميزانٍ واحدٍ في الوُحْدانِ/ ٤٩٧ ـ أ/ والتَّثْنِيَةِ والجَمْعِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: تتبعونه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وذلك جائز. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ سَيُثَبِّتني على الهُدَى.

والثاني: أي فإنهُ سَيَهْديني في حادثِ الوقتِ، والهُدَى ممّا يَتَجَدَّدُ، فيَنْصَرِفُ إلى إرادةِ حقيقةِ الهُدَى.

فَعَلَى هذينِ الوجهَينِ يُخَرَّجُ على التوفيقِ على الهُدَى والعِصمَةِ عَنْ ضِدِّهِ في المُسْتَقْبَلِ.

ولا يَحْتَمِلُ أنْ يُريدَ بهذا الهُدَى البيانَ بأنْ يقولَ: فإنهُ سَيُبَيِّنُ لي لأنهُ قد بيّنَ لهُ جميعَ ما تَقَعُ لهُ الحاجةُ إليهِ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يَسْألَ البيانَ، ولا يَحْتَمِلُ الأمرَ أيضاً، فإنهُ قد تَقَدَّمَ الأمرُ بهِ، ويرجعُ إلى حقيقةِ الهُدَى أو إلى التوفيقِ والعصمةِ.

ويكونُ في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ عندَ اللهِ تعالى لُطفاً، وهو مَنْ أعطَى ذلكَ يَصيرُ مُهْتَدِياً، وأنهُ لم يُعْطِ الكَفَرَةَ ذلكَ، ولو أعطاهُمْ لآمَنوا.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: الكلمةُ الباقيةُ هي كلمةُ الهدايةِ والتوحيدِ، فإنهُ سألَ أنْ يَجْعَلَ ما وَجَدَ منهُ مِنَ التَّبَرّي مِنْ غيرِ اللهِ تعالى وتحقيقِ عبادةِ اللهِ تعالى بقولِهِ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ[1] مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ كلمةً باقيةً، واللهُ أعلَمُ، كلمةَ التوحيدِ. فإنَّ قولَهُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نَفْيُ غيرِ اللهِ، وقولَهُ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إثباتُ الألوهيَّةِ للهِ تعالى. وذلكَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤].

وأجابَ اللهُ تعالى سؤالَهُ في دعائِهِ، فلم يَزَلْ في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وعَقِبِهِ مَنْ يَقولُها. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

والثاني: الكلمةُ الباقيةُ هي كلمةُ الدعوةِ إلى الهُدَى والتوحيدِ، وهي عبارةٌ عن إبقاءِ النُّبُوَّةِ والخِلافةِ في ذُرِّيَّتِهِ إلى يومِ القيامةِ، وهي[2] ما ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

أخْبَرَ أنَّ الظالمَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ لا يَنالُ عهدَهُ. فأمّا مَنْ لم يكنْ ظالماً فإنهُ يَنالُ عهدَهُ، وقد اسْتَجابَ اللهُ دعاءَهُ، فلم تَزَلِ الدعوةُ في ذُرِّيَّتِهِ والنُّبُوَّةُ في خُلَفائِهِمْ إلى يومِ القيامةِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أخبَرَ أنهُ متَّعَهُمْ وآباءَهُمْ في مكانٍ لا نباتَ فيهِ، ولا زَرْعَ، ولا ماءَ. سَخَّرَ الناسَ، وحَمَلَهُمْ على أنْ يَحْمِلوا إليهمُ الطعامَ والأغذيةَ وأنواعَ الفواكِهِ مِنَ الأمكنةِ البعيدةِ، ويَجْلُبوا إليهمْ ما ذَكَرْنا مِنْ تَمْتيعِهِمْ إياهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآنُ ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي محمدٌ ﷺ بيّنَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ تعالى جاءَ، وأنهُ رسولُهُ ﷺ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لم تَزَلْ تلكَ[3] عادةَ رُؤساءِ الكَفَرَةِ والأشرافِ منهُمْ والمتكلّمِ بهذِهِ الكلمةِ عندَ نُزولِ الآياتِ والمُعْجِزاتِ، يريدونَ بذلكَ التمويهَ على أتباعِهِمْ والتَّلْبيسَ. فَعَلَى ذلِكَ قولُ هؤلاءِ ﴿هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ظَنَّ هؤلاءِ أنهُ لمّا وُسِّعَ عليهمُ الدنيا، وأُنْعِمَ عليهِمْ، وأُعْطِيَ لهمُ الأموالَ، إنما أُعْطوا ذلكَ، ووُسِّعَ عليهِمْ، لِكرامةٍ لهمْ عندَ اللهِ وفَضْلٍ وقَدْرٍ لَديهِ. ومَنْ ضُيِّقَ عليهِ الدنيا، ولم يُعْطَ ذلكَ، إنما ضُيِّقَ عليهِ، ومُنِعَ لِهوانٍ لهُ عندَهُ. فقالوا [عندَ][4] ادّعاءِ محمدٍ ﷺ الرسالةَ ونزولِ القرآنِ عليهِ مِنَ اللهِ تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ظَنّوا أنَّ مَنْ عَظُمَ قدرُهُ ومَنْزِلَتُهُ عندَ الخَلْقِ بما وُسِّعَ عليهِ، وأُعْطِيَ مِنَ الأموالِ، هو عندَ اللهِ كذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: بريءٌ، وهي قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/١٠٨. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: كانت. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

قالوا[1]: لو كانَ ما يقولُ محمدٌ حقّاً: إنَّ هذا القرآنَ إنما أُنزِلَ مِنْ عندِ اللهِ هلّا أُنزِلَ على رجلٍ مِنَ القريتَيْنِ عظيمٍ؟ فأخبرَ ﷻ أنهُ لم يُوَسِّعِ الدنيا على مَنْ وَسَّعَ لِفَضْلِ مَنْزِلَتِهِ وقَدْرِهِ عندَهُ، [وضَيَّقَ][2] على مَنْ ضيقَ لِهوانٍ لَهُ عندَهُ. لكنْ رُبَّ مُضَيَّقٍ عليهِ مُكَرَّمٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، ورُبَّ مُوَسَّعٍ عليهِ يكونُ مُهاناً عندَهُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ وهو يُخرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: أي أنهمْ لا يَمْلِكونَ قِسْمَها على تدبيرِ ما أُنشِئوا وعلى تقديرِ ما خُلِقوا، وهي ما ذَكَرَ مِنَ المعَاشِ وأسبابِ الرزقِ مِنَ التوسيعِ والتفضيلِ. فالذي لم يُجعَلْ إليهِمْ في ذلكَ شيءٌ مِنْ تدبيرِهِ وتقديرِهِ أحقُّ وأولى ألّا يَمْلِكوا قِسْمَةَ ذلكَ بينَهُمْ واختيارَهُ، وهو النُّبُوَّةُ والرسالةُ وَوَضْعُها حيثُ شاءَ، وهذا أحدُ التأويلَيْنِ.

[والثاني][3]: قولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ دلالةٌ في خَلْقِ أفعالِ الخَلْقِ، لأنَّ التَّضْييقَ[4] والتَّوسيعَ في الرزقِ والمعيشةِ إنما يكونُ باكتسابٍ يكونُ منهمْ وأسبابٍ جُعِلَتْ لهمْ.

ثم [في إخبارِهِ][5] أنهُ هو يَقْسِمُ ذلكَ دَليلٌ[6] على أنهُ هو مُنْشِئُ أكسابِهِمْ وخالقُ أفعالِهِمْ وأنَّ لهُ في ذلكَ تدبيراً، لأنا نَرى مَنْ هو أعلَمُ وأقدَرُ على أسبابِ الرزقِ كانتِ الدنيا عليهِ أضيَقَ، ومَنْ دونَهُ في تلكَ الأسبابِ والاكتِسابِ كانَتْ عليهِ أوسَعَ.

دَلَّ [ذلكَ][7] على أنهُ [لو كانَتْ][8] على تدبيرِهِمْ خاصّةً لكانَتْ تكونُ هي أوسَعَ على مَنْ هو أجْمَعُ لأسبابِها واكْتِسابِها وأقدَرُ على ذلكَ، وتكونُ [أضيقَ][9] على مَنْ ليستْ لهُ تلكَ الأسبابُ.

ثم قالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ للخروجِ عنْ هذا الإلزامِ: إنما[10] وَسَّعَ على مَنْ وَسَّعَ لأنَّ التَّوسيعَ لهُ أصْلَحُ وأخيَرُ، وضَيَّقَ على مَنْ ضَيَّقَ لأنَّ التَّضْييقَ لهُ أصْلَحُ وأخيَرُ في الدينِ.

فيقالُ: لو كانَ التَّوسيعُ والتَّضْييقُ لأجلِ الأصلَحِ لهمْ في الدينِ والأخيَرِ لم يَكُنْ ما ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ بعضٍ على بعضٍ وتَفْضيلِ بعضٍ على بعضٍ في الرزقِ مَعْنًى، وقد أخبرَ أنهُ رَفَعَ بعضَهُمْ على بعضٍ درجاتٍ. ولو كانَ الكُلُّ في ذلكَ سَواءً لا يكونُ لبعضٍ على بعضٍ في ذلكَ فَضْلٌ ولا درجةٌ، ولأنهُ لو كانوا على ما يقولونَ هُمْ: إنهُ يُعْطي كُلّاً ما هو الأصلَحُ في الدينِ وأخيَرُ لهمْ في ذلكَ، فهؤلاءِ الفراعنةُ منهمُ والرؤساءُ لو لم يكُنْ لهمْ تلكَ السَّعَةُ وتلكَ الأموالُ لكانَ لا يَتَهَيَّأُ لهمْ فِعْلُ ما فَعَلوا ومَنْعُ الناسِ عنِ اتِّباعِ رُسُلِ اللهِ ﷺ.

وعلى ذلكَ فرعونُ إنما ادَّعى لنفسِهِ الألوهيَّةَ بما أُعطِيَ لهُ مِنَ المُلْكِ والسَّعَةِ ما لو لم يكُنْ لهُ ذلكَ لم يَدَّعِ ذلكَ، وكانَ ذلكَ أصلَحَ [لهُ][11] في الدينِ. فَدَلَّ أنَّ اللهَ تعالى قد يَتْرُكُ ما هو الأصلحُ لهُمْ في الدينِ، وأنْ ليسَ عليهِ حِفْظُ الأصلحِ لهمْ في الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سِخْرِيّاً: بكسرِ السينِ[12] الاسْتِهْزاءُ. وتأويلُهُ: أنهُ عليمٌ منهمْ أنَّ بعضَهُمْ يَسْتَهزِئُ ببعضٍ، ويَهْزأُ بعضُهُمْ [مِنْ بعضٍ][13] أعطى ذلكَ لهمْ ليكونَ منهمْ ما عَلِمَ منهمْ مِنَ الهُزْءِ والسخريةِ، لا أنْ يكونَ يرفَعُ بعضَهُمْ على بعضٍ ليأمُرَ بما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي النُّبُوَّةُ أي ما اخْتارَ لِرسولِ[14] اللهِ ﷺ مِنَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ خيرٌ ممّا يَجْمَعُ أولئكَ الكَفَرَةُ.

ويَحْتَمِلُ ما يدعوهُمْ محمدٌ ﷺ ويَخْتارُ لهمْ مِنَ التوحيدِ والدينِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هُمْ مِنَ الأموالِ.

ويَحْتَمِلُ ما وَعَدَ لأهلِ الإيمانِ مِنَ الثوابِ والكَرامةِ بإيمانِهِمْ، وهو / ٤٩٧ ـ ب/ الجنةُ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: ثم. (٤) في الأصل وم: التفضيل. (٥) في الأصل وم: أخبر. (٦) في الأصل وم: دل ذلك. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: فقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ١١١. (١٣) في الأصل وم: بعضاً. (١٤) اللام ساقطة من الأصل وم.

الآيات ٣٣ و٣٤ و٣٥ وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي لولا أنْ يَصيرَ الناسُ كلُّهُم على [مِلّةٍ][1] واحدةٍ، وهو دينُ الكُفرِ، وإلّا لَجعَلْنا لِلْكُفّارِ ما ذَكَرْنا.

وفي[2] الآيةِ دلالةُ التّزهيدِ في الدنيا لأنهُ ذَكَرَ أنهُ أعْطى الكفارَ ما ذَكَرَ لولا رعايةُ قلوبِ ضَعَفَةِ المؤمنينَ حتى لا يتحولوا إلى دينِ الكُفرِ. فَما مَتَعَ الكافرَ ما مَتَعَ إنما مَتَعَ بسببِ المؤمنِ، فَيَجبُ أنْ يَزْهَدَ فيها.

وفي الآيةِ دلالةُ جودِهِ وكَرَمِهِ حينَ[3] لم يَمْنَعْ مَنْ عادَى أولياءَهُ عَنْ[4] نعيمِ الدنيا. وفي الشاهدِ أنَّ مَنْ عادَى آخَرَ يَمْنَعُهُ ذلكَ مِنَ الفَضْلِ والمالِ.

وفيها دلالةُ هَوانِ الدنيا على اللهِ على ما ذَكَرَ أهْلُ التأويلِ؛ إذْ لو كانَ لها عندَهُ خَطَرٌ وقَدْرٌ لم يُعْطِ الكافرَ منها جَناحَ بعوضةٍ أو جَناحَ ذُبابةٍ. فَدَلَّ ذلكَ على هَوانِها على اللهِ تعالى.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ حينَ[5] قالوا: ليسَ على اللهِ أنْ يَفْعَلَ بِعِبادِهِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ، لأنهُ أخْبَرَ تعالى. أنهُ لولا ما يَخْتارُ أهْلُ الإيمانِ الكُفْرَ والدخولَ فيهِ، وإلّا جَعَلَ لأهلِ الكُفرِ ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ النِّعَم. فلو كانَ الأصلَحُ واجباً في الدنيا لكانَ يَجبُ أنْ يُعْطِيَ لأهلِ [الإيمانِ][6] مِثْلَ ذلكَ الذي ذَكَرَ أنهُ لو أعطى لأهلِ الكُفْرِ، فيكونونَ جميعاً أهلَ كُفرٍ. وإذا أعْطى ذلكَ لأهلِ الإيمانِ لا يكونونَ جميعاً [أهلَ الإيمانِ][7] وهو الأصلَحُ في الدينِ، ومع ذلكَ لم يُعْطِ. دلَّ أنهُ ليسَ على اللهِ تعالى حِفْظُ الأصلحِ لهمْ في الدينِ ولا حِفْظُ الأخيرِ، واللهُ الموفِّقُ.

والأصلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية أنهمْ خُيِّروا في هذهِ الدنيا [بينَ][8] أنْ يَخْتاروا النِّعَمَ الدائمةَ واللذةَ [الباقيةَ وبينَ أنْ يَخْتاروا اللذةَ][9] الفانيةَ والنِّعْمَةَ الزائلةَ المُنْقَطِعَةَ.

فَمَنِ اخْتارَ، وآثَرَ النِّعَمَ الدائمةَ واللذةَ الباقيةَ على النِّعْمَةِ الزائلةِ واللذةِ [الفانيةِ][10] ضَيَّقَ عليهِ النِّعَمَ الزائلةَ واللذةَ الفانيةَ لِما آثَرَ، واخْتارَ الباقيةَ على الفانيةِ. ومَنْ آثَرَ الفانيةَ الزائلةَ على الباقيةِ الدائمةِ وَسَّعَ عليهِ الفانيةَ لِما اخْتارَ، وآثَرَ، وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية [الإسراء: ١٨و١٩] بَيَّنَ لكلٍّ ما اخْتارَ، وآثَرَ مِنَ النِّعَمِ الفانيةِ والدائمةِ، وذَكَرَ الفضةَ والذهبَ، وإنْ كانَتْ أشياءُ أُخَرُ، قد تكونُ أرفَعَ وأعظَمَ قدراً منها، لأنَّ هذينِ هما أعَزُّ الأشياءِ عندَهُمْ، وبهما يوصَلُ إلى كلِّ رفيعٍ وعظيمٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ السُّقُفِ والمَعارجِ وما ذَكَرَ مِنَ الزُّخْرُفِ هو رَدُّ ما قالَهُ فرعونُ في حقِّ موسى ﷺ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ[11] مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] أي لِخَساسَةِ الدنيا وهَوانِها لم يُعْطِ الأولياءَ والأخيارَ مِنْ عبادِهِ. ولولا ما يكونُ مِنْ تَرْكِ أهلِ الإيمانِ وإلّا لكانَ في حقِّ كلِّ كافرٍ سُئِلَ ما فَعَلَ في حقِّ فرعونَ وأمثالِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي كلُّ ما ذَكَرَ ليسَ إلّا مَتاعَ الحياةِ الدنيا أعْطى مَنْ آثَرَهُ[12] على نعيمِ الآخِرةِ، والعاقبةُ لِلْمُتَّقينَ لِما[13] اخْتاروها على غَيرِها، واللهُ المُسْتَعانُ.

قالَ القُتَبِيُّ: المَعارجُ، يقالُ: عَرَجَ أي صَعِدَ، ومنهُ المِعْراجُ لأنهُ سَبَبٌ إلى السماءِ، أي[14] طرقٌ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يَعْلُونَ؛ ظَهَرْتُ على البيتِ إذا عَلَوتُ سَطْحَهُ، والزخرفُ: الذهبُ. وكذا قولُ أبي عَوسَجَةَ: المَعارجُ المَصاعِدُ، والمِعْراجُ المِصْعَدُ، والزُّخْرُفُ كلُّ شيءٍ حَسَنٍ، والزَّخْرَفَةُ التَّحْسينُ والتَّزْيينُ. وهذا أشْبَهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: عاداه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: لأهل. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: اساور. انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/١١٩. (١٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: كما. (١٤) في الأصل وم: أو.

ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: ٢٤] أي زينتها وحسنها، والسَّقفُ هو سماءُ البيتِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَعْشُ﴾ أي يُعْرِضْ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَعْشُ﴾ أي يَعْمَ بَصَرُهُ، ويَضْعُفْ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي يَعْمَ عنهُ، ولا يَقْبَلْهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: عَشِيَ يَعْشَى مِنْ عَمَى البَصَرِ وضَعْفِهِ، وعَشا يَعْشو مِنَ الإعراضِ.

وقالَ أبو عُبيدَةَ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي يَظْلَمْ بَصَرُهُ. وقالَ الفَرّاءُ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي يُعْرِضْ عنهُ، ومَنْ يَعْشَ بنصبِ[1] الشينِ أي يَعْمَ عنهُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: يَعْشُ أي يُجاوِزْ، وإنْ شِئتَ جَعَلْتَهُ مِنَ العَشا، وهو ظُلْمَةُ البصرِ، وإنْ شئتَ جَعَلْتَهُ مِنَ التَّعاشي، وهو التَّعامي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ القرآنُ، ويَحْتَمِلُ التوحيدَ والإيمانَ، ويَحْتَمِلُ رسولَ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نُقَيِّضْ﴾ نُقَدِّرْ، والتَّقْييضُ التَّقديرُ؛ يقالُ: قَيَّضَ اللهُ لكَ خيراً أي قَدَّرَهُ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نُقَيِّضْ﴾ أي نُهَيِّئْ ﴿لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ ونَضُمُّ إليهِ ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ مَنْ آثَرَ معصيةَ اللهِ، واختارَها على طاعتِهِ، وكانَتْ لَذَّتُهُ وشَهْوَتُهُ في ذلكَ، فالشيطانُ حينَ اختارَ معصيةَ اللهِ على طاعتِهِ، صارَتْ لَذَّتُهُ في ذلكَ.

وعلى ذلكَ مِنِ اتَّبَعَهُ في ما دعاهُ، وأجابَهُ إلى ما دعاهُ، وصارَتْ لَذَّتُهُ في ذلكَ، قارَبَهُ، ولازَمَهُ في ذلكَ ليكونا جميعاً في الدنيا والآخِرَةِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢].

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السبيلُ المُطْلَقُ، هو سبيلُ اللهِ، والدينُ المُطْلَقُ، هو دينُ اللهِ، والكتابُ المُطْلَقُ، هو كتابُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كانوا يَحْسَبونَ أنهمْ مُهْتَدونَ، لأنَّ الشياطينَ كانوا يُزَيِّنونَ لهمْ، ويقولونَ: إنَّ الذي أنتمْ عليهِ، هو دينُ آبائكُمْ وأجدادِكُمْ، ولو كانوا على باطلٍ لا على حقٍّ ما تُرِكوا على ذلكَ، ولكنْ أُهْلِكوا، واسْتُؤْصِلوا. فإذْ لم يُهْلَكوا، وتُرِكوا على ذلكَ، ظَهَرَ أنهمْ كانوا على الحقِّ والهُدَى.

كانوا يُمَوِّهونَ لهمْ، ويُزَيِّنونَ، ذلكَ[2]، وظَنّوا أنهمْ على الهُدَى كما يقولُ لهمُ الشيطانُ، واللهُ الهادي.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أيِ الكافرُ وقرينُهُ في الآخِرَةِ ﴿قَالَ﴾ الكافرُ ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ في الآخِرَةِ يا ليتَ كانَ بَيني وبينَكَ في الدنيا بُعْدُ المَشْرِقَينِ حتى لم أكُنْ أراكَ، ولم أتْبَعْكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ في الآخِرَةِ.

ثم قولُهُ: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما بَينَ مَشْرِقِ الصيفِ إلى مَشْرِقِ الشتاءِ. وقالَ بعضُهُمْ: يَحْتَمِلُ [أنْ يكونَ][3] بُعْدَ المَشْرِقِ عنِ[4] المَغْرِبِ، لكنْ ذَكَرَ باسمِ أحدِهما كما يُقالُ: [عُمَرانِ وأسْوَدانِ][5] سَمّاهُما باسْمِ واحِدِهما، لأنَّ الأسودَ منهما واحدٌ، وهي الحَيَّةُ دونَ العَقْرَبِ. والمُرادُ مِنْ عُمَرَينِ: أبو بكرٍ وعُمَرُ. فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ حينَ[6] ألْجَأهُ، وألقاهُ في النارِ والإهلاكِ لِما ذَكَرْناهُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا يَنْفَعُكُمْ في الآخِرَةِ الاعْتِذارُ ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أنفُسَكُمْ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ظاهرٌ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١١٣. (٢) في الأصل وم: كذلك. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: عمرين وأسودين. (٦) في الأصل وم: حيث.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ ولا تَمْلِكُ هداية /٤٩٨ ـ أ/ ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ثم مَعْلومٌ أنهُ لم يُرِدْ بالهُدَى هدايةَ البَيانِ ولا إسماعَ الآذانِ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَمْلِكُ ذلكَ كلَّهُ، وهو فِعْلُ رسولِ اللهِ ﷺ ولكنهُ أرادَ الهدايةَ التي لا يَمْلِكُ إلّا هو، والإسماعَ [الذي][1] لا يَمْلِكُ غيرُهُ، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ والرُّشْدُ الذي إذا أعْطَى مَنْ أعْطَى اهْتَدَى.

يَذْكُرُ عَجْزَ رسولِ اللهِ ﷺ عنْ ذلكَ.

وهو على المعتزلةِ لأنهُ أخبَرَ أنَّ عندَهُ لطائفَ وأشياءَ لم يُعْطِها كلَّ أحدٍ، إنما أعْطَى بَعْضَها دونَ بعضٍ. فَمَنْ أعطاهُ تلكَ اللطائفَ اهْتَدَى، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ التوفيقِ والعصمةِ.

وعلى قولِهِمْ: ليسَ عندَ اللهِ شيءٌ يَمْلِكُ بهِ هدايَتَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: قد أعْطَى كلَّ كافرٍ ما لو أرادَ الكافرُ أنْ يَهْتَدِيَ يَصيرُ مُهْتَدِياً بذلكَ، ولم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ يَمْلِكُ بذلكَ هدايَتَهُمْ.

فَعَلَى قولِهِمْ: عَجْزُهُ تعالى عنْ ذلكَ كَعَجْزِ رسولِ اللهِ عنْ ذلكَ. وهو إنما ذَكَرَ ذلكَ إعلاماً أنهُ هو المالكُ لذلكَ دونَ عبادِهِ.

ومَعْلومٌ أنهُ إنما ذَكَرَ على الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ لهُ [واللهُ الموفِّقُ][2].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ إنما ذَكَرَهُ لإياسِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ إيمانِ قومٍ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يُؤمنونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٤١ و٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ فيهِ دلالةُ مَنْعِ رسولِ اللهِ ﷺ عنْ سؤالِ إنزالِ العذابِ المَوعودِ لهمْ عليهِمْ. ثم المَنْعُ فيهِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: النَّهْيُ عنْ سؤالِ بَيانِ الوقتِ أنْ يَسْألَهُ متى يُنْزِلُهُ عليهِمْ؟

والثاني: النَّهْيُ عنِ اسْتِعْجالِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] كأنهُ يقولُ: ليسَ ذلكَ [إليكَ إنما ذلكَ][3] إلى أنْ شِئْتُ أنْزَلْتُ في حياتِكَ، وأرَيتُكَ ذلكَ، وإنْ شِئْتُ أمَتُّكَ، ولم أُرِكَ شيئاً منْ ذلكَ، وهو كما قالَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

وقالَ قَتادَةُ في ذلكَ: إنَّ اللهَ تعالى أذهَبَ نَبيَّهُ ﷺ وأبْقَى النِّقْمَةَ بَعْدَهُ، ولم يُرِهِ في أُمَّتِهِ إلّا الذي يُقِرُّ بهِ عينَهُ. وليسَ نَبيٌّ أو رسولٌ إلّا وقد رَأى في أُمَّتِهِ العقوبةَ غَيرَ نَبيِّكُمْ، عافاهُ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، ولا أراهُ إلّا ما يُقِرُّ بِهِ عينَهُ.

وقالَ: وذُكِرَ لنا أنَّ نَبيَّ اللهِ ﷺ أُرِيَ الذي تَلْقَى أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فمازالَ مُنْقَبِضاً، ما اسْتَشاطَ ضَحِكاً حتى لَحِقَ باللهِ تعالى.

وقالَ الحَسَنُ قريباً مِنْ قولِ قَتادةَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ قالَ: أكْرَمَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ ألّا يُرِيَهُ في أُمَّتِهِ ما يَكْرَهُ، ورَفَعَهُ اللهُ تعالى، وبَقِيَتِ النِّقْمَةُ.

الآية ٤٣ [وقولُهُ][4] ﷻ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الوَحْيُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: القرآنُ، وهو الظاهرُ مِنَ الوَحْيِ إليهِ.

والثاني: وَحْيُ بيانٍ، يبيِّنُ للناسِ ما لَهمْ وما للهِ عليهِمْ وما لِبعضِهِمْ على بعضٍ على لسانِ المَلَكِ جبريلَ أو غَيرِهِ على ما أرادَ اللهُ تعالى.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: والموفق الموفق. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

والثالث: وَحْيُ إلهامٍ وإفهامٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وما أراهُ اللهُ تعالى، هو ما أَلْهَمَهُ، وأفهَمَهُ أَمْرَهُ ﷺ بالتَّمَسُّكِ على أنواعِ ما أوحَى إليهِ: ما هو قرآنٌ، وما هو بَيانٌ، وما هو إفهامٌ، وأراهُ، وأمَّنَهُ [عن][1] أنْ يَزيغَ، أو يَزِلَّ، أو يَعْدِلَ عنِ الصوابِ.

في ذلك كلِّهِ إنكَ لو تَمَسَّكتَ بجميعِ ما أُوحِيَ إليكَ كنتَ على صراطٍ مُستقيمٍ حينَ[2] قالَ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وجائزٌ أنْ يكونَ المرادُ بالذِّكْرِ جميعَ ما أُوحِيَ إليهِ. فإنَّ قولَهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ لكِنايةٌ عَنْ قولِهِ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي جميعُ ما أُوحِيَ إليهِ شَرَفٌ لهُ ولقومِهِ لِما اختَصَّهُ، واختارَهُ بذلكَ مِنْ بينِ غَيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الذِّكْرِ حقيقةَ الذِّكْرِ، أي ما أُوحِيَ إليهِ ذِكْرٌ لهُ ولقومِهِ؛ يُذَكِّرُهُمْ ما للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ شُكْرَ ما أُوحِيَ إليكَ وأنْ يَصيرَ ما أُوحِيَ إليكَ ذِكْراً لكَ ولقومِكَ وعنِ القيامِ بِشُكْرِ ذلكَ.

ويَحتَمِلُ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ القيامَ بأداءِ[3] جميعِ القرآنِ وفي ما أُوحِيَ إليهِ.

ويَحتَمِلُ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ مَنْ كذَّبَهُ على ما يقولُ بعضُ أهْلِ التأويلِ؟

[ويَحتَمِلُ][4]: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أشكرتمْ تلكَ النِّعْمَةَ أم لا؟

ويَحتَمِلُ: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يومَ القيامةِ عنِ القرآنِ: هل عَمِلْتُمْ بما فيهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ والإشكالُ أنَّ ما كانَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ آياتِ صِدْقِهِ أظهَرَهُ مِنْ أمْرِهِ أنْ يَسْأَلَ أهلَ[5] الكتابِ؛ إذْ آياتُ صدقِهِ مُعجِزاتٌ عَجِزَتِ الكَفَرَةُ عنْ إتيانِ مِثْلِها.

وليسَ مع مَنْ أمَرَهُ بالسؤالِ عنْ ذلكَ آياتُ المُعجِزاتِ. فما مَعْنَى سؤالِ[6] أهلِ الكتابِ عنْ ذلكَ؟

فنقولُ: مِنْ أمْرِهِ ﷺ إيَّاهُ بالسؤالِ عنهمْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يسألُهُمْ سؤالَ توبيخٍ وتَعْيِيرٍ وسؤالَ تَقْريرٍ وتَنْبيهٍ: هل أتَى رسولٌ مِنَ الرسلِ ﷺ الذينَ أرسل مِنْ قبلِكَ أو كتابٌ بالأمْرِ بعبادةِ غَيرِ اللهِ؟ فَيُقِرّونَ جميعاً أنهُ لم يأتِ رسولٌ بإباحةِ ذلكَ، ولا أُمِرَ أحدٌ منهمْ بذلكَ.

والثاني: أنَّ هذا أمرٌ لغيرِهِ أنْ يَسْأَلَهُمْ، وإنْ كانَ ظاهرُ الأمرِ والخِطابِ لهُ لِما ذَكَرْنا أنَّ أدلَّةَ صدقِهِ ظَهَرَتْ[7] مِنْ دلالةِ صِدْقِ [أولئكَ][8] وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧و...] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ[9] ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤و...] إذْ مَعْلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَشُكُّ، ولا يَمْتَري في شيءٍ مِنْ ذلكَ. فَرَجَعَ الخطابُ إلى غَيرِ ما ذَكَرَ[10].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية أي لو سَألْتَهُمْ عنْ ذلكَ لقالوا جميعاً: لم يرسِلْ بأمْرٍ بعبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

وحكايةٌ عن هذا[11]: سَمِعْتُ مفسِّراً بِبُخارَى يقولُ: نزلَتْ هذهِ الآيةُ ليلةَ المعراجِ، ورسولُ اللهِ ﷺ لمّا دَخَلَ بيتَ المقدسِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تأول. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: من أمر. (٦) في الأصل وم: السؤال عن. (٧) في الأصل وم: ظهر. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: ذكرنا. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: وليس من نسخة الأصل.

رأى الرسلَ والأنبياءَ ﷺ مجتمعينَ، ثم تقدَّمَ، وصلَّى بهمْ ركعتَينِ، فقامَ جبرائيلُ ﷺ مِنَ الصفِّ، وقالَ: يا محمدُ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ قد ذَكَرْنا آياتِ موسى ﷺ التي أتى بها في غيرِ مَوضِعٍ، وفيها(١) الأمْرُ بتبليغِ الرسالةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفيهِ أنَّ التَّقِيَّةَ لا تَسَعُ للرسلِ ﷺ في تَرْكِ تبليغِ الرسالةِ، وإنْ خافوا على أنفسِهِمُ الهلاكَ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ هكذا عادةُ الفراعنةِ والرؤساءِ مِنَ الكَفَرةِ أنهمْ إذا أتاهُمُ الرسلَ بالآياتِ ضَحِكوا منهمْ، واستَهزَؤوا بهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ الآية [المطففين: ٢٩].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ كلَّ /٤٩٨ ـ ب/ آيةٍ تأخَّرتْ عنِ الآيةِ الأُخرى، فهيَ أعظمُ وأكبَرُ مِنَ التي تَقَدَّمَتْ نَحْوُ ما كانَ منهمْ مِنَ الاسْتِغاثةِ حينَ(٢) قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] ثم هو ممّا أراهُمْ مِنَ الآياتِ قَبْلَ ذلكَ أعظمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ كانتِ اليدُ أعظمَ وأكبَرَ مِنَ العَصا لأنَّ العَصا قد تَتَهَيَّأُ للسَّحرةِ تَمْويهاً، وتحويلُها مِنْ جنسِ العَصا في جَوهَرِها إلى غَيرِ الجَواهِرِ، ولم يَتَهَيَّأْ لهمْ تحويلُ اليدِ عنْ جوهرِ اليدِ، وقد كانَ ذلكَ لموسى. دلَّ أنَّ آيةَ اليدِ أكبَرُ مِنْ آيةِ العَصا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا ليسَ على تحقيقِ جَعْلِ آيةٍ أكبَرَ وأعظَمَ مِنْ آيةِ العَصا. ولكنْ وصفُ الكلِّ بالعِظَمِ والكِبَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] ليسَ على إثباتِ القُرْبِ في أحَدِهِما دونَ الآخرِ. ولكنْ وصفُ قُرْبِ كلِّ واحدٍ منهما مِنَ الآخرِ على السؤالِ، وكما يُقالُ في العُرْفِ: إنَّ أفراسَ فلانٍ، كلُّ واحدٍ أغدَى مِنَ الآخرِ، وإنَّ أصحابَ فلانٍ، كلُّ واحدٍ أفضَلُ مِنَ الآخرِ، وإنهُ لا يُرادُ بذلكَ الترجيحُ، ولكنْ إثباتُ الخَبَرِ على السؤالِ.

فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وصفٌ لهما جميعاً بالكِبَرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذِكْرُ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ وغيرِ ذلكَ مِنْ أمثالِهِ لرسولِ اللهِ ﷺ لِيُصَبِّرَهُ على أذَى قومِهِ وأنواعِ ما كانوا يَسْتَقْبِلونَ مِنَ الاسْتِهزاءِ بهِ وبأتباعِهِ والضَّحِكِ بما أتاهُمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ على رسالتِهِ. وعلى ذلكَ ما قالَ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] أخبَرَ أنهُ إنما قصَّ عليهِ أنباءَ الرسلِ المُتَقَدِّمَةِ لِتَسْلِيَةِ فؤادِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ والإشكالُ أنهمْ كيفَ يُسَمّونَهُ ساحراً، وكانوا يَطْلبونَ منهُ أنْ يدعُوَ ربَّهُ، ويَسْألَ، حتى يَكْشِفَ عنهمُ العذابَ؟

رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ:](٣) سَمَّوهُ ساحراً لأنَّ الساحرَ عندَهُمْ، هو العالِمُ المُعَظَّمُ الذي بَلَغَ في العِلْمِ غايَتَهُ ونهايَتَهُ، لِذلكَ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا يَسْألونَهُ، ويَطلُبونَ منهُ أنْ يدعُوَ ربَّهُ لِيَكْشِفَ عنهمُ العذابَ، ثم يُسَمّونَهُ ساحراً، ويَعْنونَ بهِ سِحراً لِلْكَذِبِ والباطلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ مقاتلٌ: إنهمْ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ قالَ لهمْ موسى ﷺ كيفَ أدعو ربّي لِيَكْشِفَ عنكُمْ ما يَنْزِلُ بكمْ، وقد تُسَمّونني ساحراً، فَرَجَعوا عنْ ذلكَ، فقالوا ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ على ما ذُكِرَ في سورةِ الأعرافِ(٤)، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) هو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية: ١٣٤].

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سَمَّوهُ ساحراً على ما كانَ عندَهُمْ أنهُ ساحرٌ، فيقولونَ: إنكَ ساحرٌ إلّا أنْ تدعُوَ ربَّكَ، فَيَكْشِفَ عنا الرِّجْزَ، فعندَ ذلكَ نَعْلَمُ أنكَ لستَ بساحرٍ وأنكَ رسولٌ، فنُؤمِنُ بكَ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ عندَهمْ أنَّ اليدَ البيضاءَ والعصا وما أتى بهِ موسى ممّا يَبْلُغُ السحرَ إلى تَغْييرِ ذلكَ عنْ جوهَرِهِ، ويُستفادُ بالسحرِ مثلُهُ. لكنْ سألوا منهُ أنْ يَسْأَلَ ربَّهُ ما ذَكَروا لِما عَلِموا أنَّ إجابةَ الدعاءِ في ما دعا لا يكونُ لساحرٍ، ولا يُجابُ إلّا للرسولِ والذي على الحقِّ. فإذا أجابَكَ إلى ما سَأَلْتَ آمَنّا بكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا قالوا ذلكَ على حقيقةِ إرادةِ السحرِ على التّناقُضِ والتَّمْويهِ على الأتباعِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٣٢] فبالآيةِ لا يَسْحَرُهُمْ بها، لأنَّ الآيةَ هي التي [لها حقيقةٌ، ودوامُ السحرِ هو الذي][1] لا حقيقةَ لهُ، ولا دوامَ لهُ. فإذا كانَتْ آيةٌ لا يَسْحَرُهُمْ بها، ولا تَكونُ عَجْزاً، وإذا كانَ سحراً لا تَكونُ آيةً، فكانَتْ عامةُ أقوالِهِمْ خَرَجَتْ على التناقضِ على ما ذَكَرْنا في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ. فَعَلَى ذلِكَ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ قد كانَ اللهُ ﷻ عاهدَ موسى ﵇ لئنْ آمنوا كَشَفْنا عنهمُ العذاب. فلما دَعاهُ[2]، وكَشَفَ عنهمُ العذابَ لم يؤمِنوا، واللهُ أعلَمُ.

ويُشبهُ أنْ يكونَ عهدُهُ إليهِ ما جَعَلَهُ نَبِيّاً، واختصَّهُ لِرسالتِهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ على الإضمارِ؛ كأنهمْ قالوا: ادْعُ لنا ربَّكَ بما عَهِدَ كلُّ واحدٍ منّا عندكَ لئنْ كَشَفْتَ عنا العذابَ إننا لَمُهْتَدونَ، وهو قولُهُ تعالى في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

الآية ٥٠ ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؟ أي يَنْقُضونَ ما عَهِدوا، وعَهْدُهُمْ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقولُ اللعينُ هذا مُقابِلَ ما ادّعَى موسى ﵇ مِنَ الرسالةِ، يُمَوِّهُ بذلكَ على قومِهِ وأتباعِهِ، أي لئنْ كانَ اللهُ أرسَلَ رسولاً فأنا أحقُّ وأولَى بالرسالةِ مِنْ موسى.

الآية ٥٢ ولِذلكَ قالَ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضَعيفٌ لا مالَ لهُ، ولا حَشَمَ، ولا تَبَعَ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حُجَّتَهُ. وكذلكَ قالَ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الآية: ٥٣] كما أُلقِيَ عليّ وكما أعطاني مِنَ المالِ والذهبِ.

أو يقولُ: إنَّ مَنْ كانَ لهُ رسولٌ يُكْرِمُهُ بأنواعِ الكراماتِ، ويَبْذُلُ لهُ أموالاً. فإذا لم يُؤْتِهِ شيئاً مِنْ ذلكَ فليسَ برسولٍ. أو يقولُ: إنهُ لو كانَ رسولاً كما يقولُ لألْقَى اللهُ عليهِ مِنَ الأساورةِ ما أَلْقيتُ أنا على أتباعي وحَشَمي، ونَحْوَهُ.

وكانَ فرعونُ لا يزالُ يُمَوِّهُ أمْرَ موسى ﵇ على قومِهِ؛ مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] ومنهُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١و. . .] ونَحْوُ ذلكَ هذا. فَعَلَى ذلِكَ هذا منهُ تَمْويهٌ على قومِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي لا يَكادُ يُبَيِّنُ حُجَّتَهُ لِما في لسانِهِ عُقْدَةٌ ورِتَّةٌ؛ يقولُ: [هو][3] عَيِيُّ اللسانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ فرعونَ لا يَعْني ذلكَ، لأنَّ اللهَ تعالى قد أذْهَبَ تلكَ العُقْدَةَ والرُّتّةَ التي في لسانِهِ حينَ دعا، وسألَ ربَّهُ بقولِهِ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧و٢٨] وقد أجابَ اللهُ دعاءَهُ حينَ[4] قالَ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] ولكنْ أرادَ، واللهُ أعلَمُ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حجتَهُ، أي ليستْ تأتي حُجَّتُهُ، تأخذُ القلوبَ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ قالَ: أما أنا خيرٌ منهُ؟

وقالَ أهْلُ التأويلِ: قولُهُ: [﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾][(1)] أنا خيرٌ منهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ موصولاً بقولِ فرعونَ حينَ[(2)] قالَ: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أنا خيرٌ منهُ بأنَّ لي ملكَ مِصْرَ، وليسَ لموسى ﷺ ذلكَ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ هذا القولُ منهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ: إنْ كانَ موسى يَدَّعي المُلْكَ في الدنيا، ويَطْلُبُهُ فهلاّ أُلقِيَ عليهِ أساورُ مِنْ ذَهَبٍ كما يُلْقَى على الملوكِ مِنَ الأساوِرِ والتاجِ وغَيرِ ذلكَ. وإنْ كانَ يَدَّعي الرسالةَ / ٤٩٩ ـ أ/ بنفسِهِ فهلّا كانَ معهُ الملائكةُ مُقْتَرِنينَ؟ ولا يزالُ الكَفَرَةُ يطلبونَ مِنَ الرسلِ الآياتِ على وجوهٍ، يَتَمَنَّونَهُ[(3)]، ويَشْتَهُونَ. فأخْبَرَ أنَّ الآياتِ ليسَتْ تأتي على ما يَتَمَنَّوْنَ، ويَشْتَهُونَ، ولكنْ [على][(4)] ما أرادَ اللهُ تعالى.

والثاني: يَجْمَعُ الأمرَينِ جميعاً، فيقولُ: إنهُ يَدَّعي الرسالةَ، والرسولُ مُعَظَّمٌ عندَ المُرسِلِ، فيقولُ: إنْ كانَ ما يقولُ حقّاً فهلّا أُلقِيَ عليهِ الأساوِرُ تعظيماً لهُ؟ وهلّا كانَ معهُ الملائكةُ مُقْتَرِنينَ تعظيماً لهُ وإجلالاً؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي هلّا سُوِّرَ لأنَّ الرجلَ منهمْ إذا ارْتَفَعَ فيهمْ سَوَّرُوهُ، أو جاءَ معهُ الملائكةُ مُصَدِّقِينَ لهُ بالرسالةِ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: أساوِرُ وأسْوِرَةٌ جَمْعُ السِّوارِ، ورجلٌ إسْوارٌ أي رامٍ، وقومٌ أساوِرَةٌ، وإنما سُمِّيَ الرامي إسواراً لأنهُ إذا أجادَ الرَّمْيَ جُعِلَ في يَدِهِ سِوارٌ مِنْ ذَهَبٍ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي فاسْتَخَفَّ بقومِهِ، واسْتَرْذَلَهُمْ، فأطاعوهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي اسْتَرْذَلَهُمْ، واستَفَزَّهُمْ بالخروجِ على أتباعِ موسى وطَلَبِهِ، فأطاعوهُ؛ وذلكَ أنهُ أمَرَهُمْ بالخروجِ معهُ[(5)] في طَلَبِ موسى لمّا خَرَجَ مِنْ عندِهِ[(6)] نَحْوَ البَحْرِ، فأطاعوهُ في ذلكَ، وخَرَجوا مَعَهُ في طلبِهِ حتى أصابَهُمْ ما أصابَهُمْ. وكانَ هذا أشْبَهَ وأقْرَبَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي فلما عَمِلوا الأعمالَ التي اسْتَوجَبوا لها الغَضَبَ انْتَقَمْنا منهمْ على ذلكَ، لأنّ ظاهِرَ قولِهِ: ﴿ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي أغْضَبونا. وصِفَةُ الغَضَبِ على الحدوثِ للهِ تعالى لا تَجوزُ، فكانَ المُرادُ منهُ ظهورَ أثَرِ الغَضَبِ واسْتِيجابَ[(7)] العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغْضَبوا[(8)] أولياءَنا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي سَلَّطنا عليهمْ بدعاءِ أولئكَ الأولياءِ، لِنَنْتَقِمَ منهمْ بسببِ إغضابِهِمْ أولياءَنا، وهو كقولِهِ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي يُخادِعونَ أولياءَ اللهِ. فَعَلَى ذلِكَ هذا.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: جَعَلْناهُمْ في العقوبةِ سَلَفاً للمتأخِّرينَ ومثلاً للمؤمنينَ أي عِبْرَةً لهمْ، وهو كقولِهِ: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

والثاني: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ في العِظَةِ والانْزِجارِ لهمْ لِيَمْتَنِعوا عنْ مِثْلِ ما فَعَلوا خوفاً مِنَ الوقوعِ في ما وَقَعوا، واللهُ أعلَمُ.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) في الأصل وم: حيث. (3) في الأصل وم: يتمنون هم. (4) من م، ساقطة من الأصل. (5) في الأصل وم: معهم. (6) في الأصل وم: عندهم. (7) الواو ساقطة من الأصل وم. (8) في الأصل وم: أغضبونا.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ بالرفعِ والنصبِ[1] وهو مِنَ التَّقَدُّمِ، أي جَعَلْناهُمْ قُدُماً؛ تَقَدَّموا، مثلُ خَشَبٍ وخُشُبٍ وثَمَرٍ وثُمُرٍ.

وكذلكَ يقولُ أبو عوسَجَةَ، وقالَ: السَّلَفُ الخيراتُ والجميعُ سُلُوفٌ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ اختُلِفَ في ما ذُكِرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ لِعيسى ابنِ مريمَ عليه السلام.

قالَ بعضُهُمْ: لَمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قالَ[2] أولئكَ الكَفَرَةُ الذينَ كانوا يعبدونَ الأصنامَ: إنَّ عيسى عُبِدَ دونَهُ، وعُزَيرٌ والملائكةُ يُعْبَدونَ دونَهُ، فهؤلاءِ جميعاً في النارِ إذنْ لأنهمْ عُبِدوا دونَهُ، فإنْ كانَ هؤلاءِ في النارِ فقد رَضِينا أنْ نكونَ معهمْ، وهمْ مَعَنا.

الآية ٥٨ وهو ما ذَكَروا على إثرِهِ: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ﴾ يَعْنونَ بقولِهِمْ: ﴿هُوَ﴾ عيسى عليه السلام فذلكَ منهمْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: لئنْ جازَ أنْ يُعَذَّبَ عيسى عليه السلام ومَنْ عُبِدَ مِنْ هؤلاءِ دونَ اللهِ في النارِ رَضِينا أنْ تُعَذَّبَ آلهتُنا في النارِ؛ إذْ همْ ليسوا بخَيرٍ مِنْ عيسى عليه السلام وهؤلاءِ الذينَ عُبِدوا دونَ اللهِ مِنَ الملائكةِ وغَيرِهِمْ.

والثاني: يقولونَ: إنْ كانَ عيسى يُعَذَّبُ في النارِ لِما عُبِدَ دونَهُ فآلهتُنا التي نَعْبُدها دونَهُ خَيرٌ منهُ[3]، فلا تُعَذَّبُ لأنها خَيرٌ.

فأحَدُ التأويلَينِ يرجِعُ إلى أنهمْ يقولونَ: لو جازَ، وصَلَحَ أنْ يُعَذَّبَ كلُّ معبودٍ دونَهُ جازَ أنْ تُعَذَّبَ الأصنامُ التي نَعْبُدها نحنُ.

والثاني: يقولونَ: إنْ كانَ يُعَذَّبُ عيسى وغَيرُهُ الذينَ عُبِدوا دونَهُ، فالأصنامُ التي نَعْبُدها نحنُ لا تُعَذَّبُ لأنها خَيرٌ مِنْ أولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

فنقولُ: إنما يكونُ لهمْ هذا الاِحْتِجاجُ بالآيةِ أنْ لو كانَتِ الأصنامُ إنما تُحْرَقُ في النارِ تعذيباً لها؛ أعني الأصنامَ. فأمّا إذا كانتِ الأصنامُ إنما تُحرَقُ بالنارِ تعذيباً لِمَنْ عَبَدوها وعقوبةً لِمَنِ اتَّخَذَها أرباباً دونَ اللهِ فلا.

وإنما تُحرَقُ الأصنامُ التي اتَّخذوها مِنَ الحجارةِ والحديدِ والصُّفرِ لِزيادةِ تعذيبِ العَبَدَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] معَ أنهُ لا جِنايَةَ مِنَ الأصنامِ، ولا ضَرَرَ لها بالإحراقِ، فكيفَ يُحرَقُ عيسى ومَنْ عُبِدَ دونَهُ مِنَ الملائكةِ، وفي إحراقِهِمْ تعذيبُهُمْ؛ إذْ همْ يَتَضَرَّرونَ بها، ولا جِنايَةَ منهمْ؟

فإذا كانَ إدخالُ الأصنامِ التي عَبَدوها وإحراقُها في النارِ لِتعذيبِ أولئكَ الذينَ عَبَدوها فلا مَعْنًى لتلكَ الخُصومةِ والمُجادَلةِ التي كانَتْ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ في الآيةِ بَياناً على أنَّ الذي ذُكِرَ مِنْ جَعْلِ المَعْبودِ حَصَباً للنارِ راجعٌ إلى عُبّادِ الأصنامِ والأوثانِ دونَ غَيرِها، لأنهُ خاطبَ أهلَ مكةَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨] وأهلُ مكةَ كانوا لا يعبدونَ إلّا الأصنامَ والأوثانَ لا عيسى ولا غَيرَهُ من البَشَرِ والملائكةِ، فذلكَ لهمْ ولكلِّ عابدِ الأصنامَ دونَ غيرِهِمْ مِنَ المعْبودينَ استدلالٌ[4] بهمْ، واللهُ أعلَمُ.

على أنَّ في الآيةِ بَياناً أيضاً إنْ لم يَرْجِعْ إلى ما ذَكروا مِنْ عيسى وغَيرِهِ فإنهُ قالَ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وكلمةُ ﴿مَا﴾ تُستَعْمَلُ في غَيرِ العقلاءِ مِنَ الجمادِ وغَيرِهِ[5] لا في ذوي[6] العقولِ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٢٠. (٢) في الأصل وم: فقال:. (٣) في الأصل وم: منهم. (٤) في الأصل وم: استدلالاً. (٥) في الأصل وم: وغيرها. (٦) في الأصل وم: ذوات.

وعلى أنَّ في الآيةِ بياناً مِنْ وَجْهٍ آخَرَ أيضاً على أنهمْ غَيرُ مُرادينَ بها فإنهُ استثنى، وخَصَّ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. أخبَرَ أنَّ مَنْ سَبقَتْ منهُ الحُسْنَى يكونُ مُبْعداً عنها، ولا شَكَّ أنَّ عيسى والملائكةَ ﷺ قد سَبقَتْ لهمْ منهُ الحُسْنَى، فلا يُحْتَمَلُ صَرْفُ تلكَ الآيةِ إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨] إلى كلِّ مَنْ منهُ الأمرُ بالعبادةِ لهمْ والدعاءِ إلى ذلكَ، وهُمُ الشياطينُ لأنَّ مَنْ عَبَدَ دونَ اللهِ أحداً فإنما يَعْبُدُهُ بأمرِ الشياطينِ ودُعائِهِ إليهِمْ.

فأمّا مَنْ كانَ يَتَبَرَّأُ مِنَ الأمرِ لهمْ بذلكَ وعبادتِهِمْ لهُ فلا يَحْتَمِلُ. وذلكَ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[1] وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧] وقولِ[2] إبراهيمَ لأبيهِ: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ، لكنْ مَنْ عَبَدَ شيئاً دونَ اللهِ فإنما [يَعْبُدُهُ بأمرِ][3] الشيطانِ، فإذا عَبَدَهُ بأمْرِهِ فكأنهُ [عَبَدَ الشيطانَ][4] وما ذَكَرْنا يُبطِلُ مُجادلةَ الكفارِ في ما خاصَموا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ضَرْبُ المَثَلِ لعيسى ﷺ هو أنَّ اللهَ تعالى لمّا ذَكَرَ عيسى ﷺ في القرآنِ قالَ مُشْرِكو العَرَبِ مِنْ قُرَيشٍ لمحمدٍ ﷺ: ما أرَدْتَ بِذِكْرِ عيسى؟ قالَ: . . . وقالوا: إنما يريدُ محمدٌ أنْ نُحِبَّهُ كما أحَبَّ النّصارَى عيسى، وعَبَدَتْهُ ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ فلا يَصْنَعُ محمدٌ ذلكَ بآلهتِنا. فاللهُ[5] لهمْ خَيرٌ مِنْ عيسى وما قالوا. فقالَ: اللهُ تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي إلّا ليُجادِلوكَ بالباطِلِ، وهو قولُ قتادةَ.

ويَحْتَمِلُ/ ٤٩٩ ـ ب/ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ بابْنِ مريمَ ﷺ مِنْ قومِهِ؛ أعني عيسى لأمرِ قومِ محمدٍ ﷺ وذلكَ أنَّ قومَهُ قدِ اختَلَفوا فيهِ:

فمنهُمْ مَنْ قالَ: إنهُ إلهٌ وإنهُ ربٌّ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ ابْنُ الإلهِ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ وأمَّهُ إلهانِ، ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الاختِلافِ الذي كانَ بَيْنَهمْ فيه. فيكونُ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ قالَ قومُهُ على ما ذَكَروا فيهِ.

ثم قولُهُ[6]: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يُعْرِضونَ عنْ عيسى، ويَضِجّونَ[7] على ما ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

[ويَحْتَمِلُ][8] أنْ يَكُفَّ، ويُمْسِكَ عنْ بيانِ ذِكْرِ المثلِ الذي ذَكَرَ في الآيةِ لما لا حاجةَ إلى ذلكَ، وهو شيءٌ ذَكَرَهُ أولئكَ الكَفَرَةُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قُرِئَ برَفْعِ[9] الصادِ وكَسْرِها. قالَ القُتَبيُّ وأبو عَوْسَجَةَ: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بالكَسْرِ يَضِجّونَ بالكَسْرِ، والتَّصْدِيةُ منهُ، وهو التصفيقُ. ومَنْ قرأ بالرفْعِ يقولُ: يَعْدِلونَ، ويُعْرِضونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ هو يُخَرَّجُ على الوجهَينِ اللّذينِ ذَكَرْناهما، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي عِبْرَةً وآيةً لبني إسرائيلَ لِما كانَ، هو مولودٌ مِنْ غَيرِ والدٍ ولِما كانَ يُحْيي المَوتَى، ويُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ، وما كانَ منهُ مِنْ تكليمِهِ الناسَ، وهو في المَهْدِ، وغَيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي خُصَّ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي لو نشاءُ لَجَعَلْنا مِنْ جوهرِكُمْ وجنسِكُمْ ملائكةً لِيُعْلَمَ أنَّ إنشاءَ الملائكةِ مِنَ النورِ على ما ذُكِرَ ليسَ ذلكَ منهُ استِعانةً بذلكَ النورِ لإنشاءِ الملائكةِ منهُ [لأنهُ][10] قادرٌ بذاتِهِ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ؛ يُنْشِئُ ما يَشاءُ ممّا شاءَ، وكيفَ شاءَ.

---

(١) في الأصل وم: نحشرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ٢٧٧. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل: يعبدون، في م: يعبد بأمر. (٤) في الأصل وم: عبده هذا. (٥) في الأصل وم: فهو الله. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) من م، في الأصل: وهو يضجون. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ١٢١. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أي لو نشاءُ لَجَعَلْنا الملائكةَ بدلاً منكُمْ نُهْلِكُكُمْ، ونُبَدِّلُ مكانَكُمْ ملائكةً، لا يَعْصُونَ، ولا يُخالفونَ، ولا يَفْتُرُونَ عنِ العبادةِ، ولا يَسْتَحْسِرونَ.

لكنْ لم يَفْعَلْ ذلكَ لِما ليسَ في عِصْيانِ مَنْ عَصاهُ ولا مُخالفةِ مَنْ خالَفَهُ لهُ ضَررٌ، ولا بطاعةِ مَنْ أطاعَهُ، واتِّبَاعِ أمْرِهِ ونَهْيِهِ نَفْعٌ، ولا أنْشَأَ هذا العالَمَ والخَلْقَ لحاجةِ نفسِهِ ولا امْتَحَنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ ولا لِمَضَرَّةٍ يَدْفَعُ بذلكَ عن نفسِهِ، ولكنْ أنْشَأَهُمْ، وامْتَحَنَهُمْ لحاجةِ أنفسِهِمْ.

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ إنشاءُ ما يَعْلَمُ أنهُ يَعْصيهِ، ولا يُطيعُهُ حِكْمةً وفِعْلُ مَنْ يَعْلَمُ في الشاهِدِ أنهُ يَضُرُّهُ، ولا يَنْفَعُهُ سَفَهاً[1] لأنهُ إنما يَفْعَلُ ما يَفْعَلُ لحاجةِ نفسِهِ، فصارَ فعلُهُ معَ علمِهِ ما ذَكَرْنا، يكونُ سَفَهاً، فافْتَرَقَ الأمرانِ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم قولُهُ: ﴿مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: [أي يَخْلُفُ][2] الملائكةُ بعضُهُمْ بعضاً قَرْنا عن قَرْنٍ بالتّناسُلِ والتّوالُدِ كالبَشَرِ يَخْلُفُ بعضٌ بعضاً قَرْناً عن قَرْنٍ بالتّناسُلِ والتّوالُدِ؛ إذْ ليسَ في الملائكةِ تَوالُدٌ وتَناسُلٌ.

والثاني: ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي يكونونَ خَلَفاً وبَدَلاً عنكُمْ بَعْدَ هلاكِكُمْ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ ولَعَلَمٌ للساعةِ، كلاهما قد قُرِئَ[3]. ثم اختُلِفَ في ذلكَ.

فمنهمْ مَنْ يقولُ: هو عيسى يكونُ نزولُهُ مِنَ السماءِ عَلَماً للساعةِ وآيةً لها، فيكونُ على هذا هو صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كأنهُ قد قالَ: وجَعَلْناهُ مَثَلاً أي آيةً وعِبْرةً لهمْ على ما ذَكَرْنا، وجَعَلْناهُ أيضاً عَلَماً للساعةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: إنهُ لَعَلَمٌ للساعةِ: أي محمدٌ ﷺ وما أُنْزِلَ عليهِ مِنَ القرآنِ عَلَمٌ للساعةِ لأنهُ بِهِ خَتَمَ النُّبُوَّةَ والرسالةَ، وقالَ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتَينِ» [البخاري ٦٥٠٣] وأشارَ إلى إصْبَعَينِ منْ يَدِهِ، وإنما بَعَثَهُ اللهُ تعالى [عندَ قُرْبِ الساعةِ، فهو عَلَمٌ للساعةِ][4] عندَ مَنْ قَرَأَ لَعَلَمٌ للساعةِ بالتثقيلِ؛ فَمَعناهُ العلامةُ لها والدليلُ عليها.

ومَنْ قَرَأَ: ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ بالجزمِ فَمَعناهُ يُعْلَمُ بِهِ قُرْبُ الساعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي لا تَشُكُّنَّ بالساعةِ فإنها كائنةٌ، لا مَحالةَ. وعلى ذلكَ يقولونَ في بعضِ التأويلاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨] أي أعلامُها أي محمدٌ، عليهِ أفضلُ الصلاةِ وأكْمَلُ التَّحِياتِ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

فإنْ كانَ قولُهُ: وإنهُ لَعَلَمٌ للساعةِ، هو محمدٌ ﷺ فكأنهُ قالَ ﷺ: أنا عَلَمٌ للساعةِ، وقريبٌ منها فاتَّبِعوني.

وإنْ كانَ [قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾][5] عيسى، على نَبِيِّنا وعليهِ السلامُ، فيقولُ[6]: إنهُ عِلْمٌ للساعةِ، وآيةٌ لها فاتَّبِعوني قَبْلَ أنْ يُخْرَجَ، ويُنْزَلَ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ عنِ الإيمانِ بالساعةِ وكونِها ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ويَحْتَمِلُ لا يَصُدَّنَّكُمْ عنْ محمدٍ وعنِ الصِّراطِ المُسْتَقيمِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عداوَتَهُ إياكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ الآية قالَ أهلُ التأويلِ: بَيِّناتُهُ، هي ما كانَ يأتي بِهِ مِنْ نَحْوِ إحياءِ المَوتَى وبراءةِ الأكْمَهِ والأبْرَصِ وإنْباءِ ما يأكلونَ، ويَدَّخِرونَ ونَحْوِ ذلكَ.

والأصلُ في آياتِ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ أنها كانتْ مِنْ وجوهٍ ثلاثةٍ تُلْزِمُهُمُ التصديقَ بهمْ:

---

(١) في الأصل وم: سفه. (٢) من م، في الأصل: يختلف. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ١٢٢ و١٢٣. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أحدُها: ما يأتونَ [بهِ مِنْ](١) كلِّ شيءٍ، صَغُرَ، أو عَظُمَ؛ دلالةُ ذلكَ ما يَعْلَمُ كلُّ ذي لبٍّ وعقلٍ أنَّ ذلكَ حكمةٌ وحقٌّ(٢)، عليهِمُ اتِّباعُهُمْ في ذلكَ، وهو توحيدُ اللهِ تعالى وتنزيهُهُ عمّا [لا](٣) يليقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: كانَتْ في أنفسِهِمْ وأحوالِهِمُ التي كانوا عليها بيِّناتٌ تُلْزِمُهُمْ تَصديقَهُمْ، وهو أنهمْ لَبِثوا بَينَ أظهُرِهِمْ، وكانوا فيهِمْ طولَ عُمُرِهِمْ، فلمْ يُؤخَذْ عليهِمْ كَذِبٌ قَطُّ، ولا ظَهَرَ منهمْ ما يَرْجِعُ إلى دناءةِ الأخلاقِ ولا شيءٍ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ما كانوا يأتونَ مِنَ الأفعالِ المُعجِزَةِ عنْ تَوَهُّمِ العبادِ والمُعتادِ مِنْ فِعْلِهِمْ [لِيُلْزِمَ كلَّ مُنصِفٍ](٤) قبولَها. فَعَلى هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا كانَتْ آياتُ الرسلِ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحكمةُ ههنا هي الإنجيلُ. وقد ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى الكتابَ والحكمةَ حينَ(٥) قالَ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ الكلُّ واحداً، وجائزٌ أنْ يكونَ الكتابُ ما يُكتَبُ، ويُتلَى، والحكمةُ ما أُودِعَ في المَتْلُوِّ والمكتوبِ مِنَ المَعْنَى، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الحكمةُ راجعةً إلى كلِّ ما يوجبُ العقلُ القولَ به وفِعْلَهُ(٦)، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي أُبَيِّنُ لكمْ كلَّ الذي تَختَلِفونَ فيهِ، إذْ لا يجوزُ أنْ يُبَيِّنَ بعضاً، ويَتْرُكَ [بيانَ بعضٍ](٧) وقد يُذكَرُ البعضُ، ويُرادُ بهِ الكلُّ، نَحْوُ ما يُقالُ في كثيرٍ مِنَ المواضعِ: الخِطابُ للرسولِ ﷺ والمُرادُ بذلكَ أُمَّتُهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ مِنَ البعضِ، هو البعضُ نفسُهُ لا الكلُّ. ثم يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أي أُبَيِّنُ لكمْ بعضَ ما تَختَلِفونَ فيهِ، فيأتيكُمْ رسولٌ مِنْ بَعدي، ويُبَيِّنُ لكمْ باقيَ ذلكَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ، لأنهُ لم يَقُلْ: أُبَيِّنُ لكمْ بعضَ ما اختَلَفْتُمْ فيهِ، ولكنْ قالَ: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فهو في الظاهرِ على الاستِقْبالِ.

والثاني: يقولُ: أُبَيِّنُ لكمُ أصولَ(٨) ما تَقْدِرونَ على استِخراجِ الفروعِ مِنْ تلكَ الأصولِ، واللهُ أعلَمُ. /٥٠٠ ـ أ/

والثالثُ: يقولُ: أُبَيِّنُ لكمُ الذي تَختَلِفونَ فيهِ، وهو يرجِعُ إلى أمرِ الدينِ دونَ الراجعِ إلى أمرِ المَعاشِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في ما آمُرُكُمْ بهِ، وأدعوكُمْ إليهِ، وأنهاكُمْ عنهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يقولُ: اتَّقوا مهالِكَكُمْ، والزَموا ما بهِ نَجاتُكُمْ، وأطيعوني في ذلكَ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ذَكَرَ هذا لِيَعْلَموا أنهُ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ عندَ اللهِ، وجَلَّتْ مَنزِلَتُهُ عندَهُ، فإنهُ [لم](٩) يَخرُجْ عنِ العُبودةِ، وإنهُ عندَ اللهِ ليسَ بإلهٍ، ولا ابنٍ لهُ على ما زَعَمَ أولئكَ الكَفَرَةُ، واللهُ الهادي.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ حَرْفُ ﴿مِنْ﴾ صِلَةً زائدةً، ومَعناهُ: اختَلَفَ الأحزابُ بَينَهُمْ. والاختِلافُ في ما بَينَهُمْ في عيسى أمرٌ ظاهرٌ بيِّنٌ(١٠).

والثاني: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أيِ اختَلَفَ الأحزابُ مِنِ اختِراعٍ كانَ منهمْ في ما بَينَهُمْ، أو كلامٌ نَحْوُهُ. ولِذلكَ كانَ باختِراعٍ مِنْ ذاتِ أنفسِهِمْ، لا أنْ كانَ ذلكَ سَماعاً مِنَ الرسلِ ﷺ ولِذلكَ نَهى هذهِ الأُمَّةَ عنِ الاختِلافِ والتَّفرُّقِ حينَ(١١) قالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

(١) في الأصل وم: في. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وعقل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: لا يلزم كل ضعف. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) في الأصل وم: البيان لبعض. (٨) في الأصل وم: الأصول. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م،في الأصل: مبين. (١١) في الأصل وم: حيث.

وقدِ اختَلَفَتْ هذهِ الأمَّةُ بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ حتى قاتَلَهُمْ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ على ذلكَ، واتَّبَعَهُ سائرُ الصحابةِ على ذلكَ حتى قُتِلَ[١] الرجالُ، وسُبِيَ النساءُ والذَّراري، وظَهَرَتْ أيضاً الخوارجُ في زمَنِ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ على ذلكَ حتى اجْتَمَعوا على الوِفاقِ.

وغيرُ ذلكَ مِنَ الاختِلافِ والتَّفرُّقِ الذي كانَ ظَهَرَ، ووَقَعَ في ما بينَهُمْ؛ وكانَ في ذلكَ دلالةُ الرسالةِ لِرسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ ذَكَرَ ﷻ في كتابِهِ أنهُمْ يَختَلِفونَ بَعدَ وفاتِهِ وأنهُمْ يَنقَلِبونَ على أعقابِهِمْ حينَ[٢] قالَ: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٤٤] وقالَ في ارتِدادِهِمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] هذا في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ وقالَ في عليٍّ، كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيةَ [المائدة: ٥٥].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يُقاتِلُ هذا بالتأويلِ كما نُقاتِلُ نحنُ على التنزيلِ» يعني علياً ﷺ.

وقد كانَ كلُّ ما ذَكَرَ مِنَ الاختِلافِ والتَّفرُّقِ والتَّنازُعِ في الدينِ مِنَ الانقِلابِ على الأعقابِ والارْتِدادِ والامْتِناعِ عن إتيانِ الزكاةِ وإتيانِ ما ذَكَرَ مِنْ قومٍ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وغَلَبَةِ حِزْبِ اللهِ وأهلِ توحيدِهِ على أولئكَ.

ففي ذلكَ كلِّهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ؛ إذْ خَرَجَ على ما أخبَرَ ﷺ وذَكَرَ في المُسْتَقْبَلِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ اللهَ بفضلِهِ وبِرَحمَتِهِ رَفَعَ ذلكَ الاختِلافَ والتَّفرُّقَ والتَّنازُعَ مِنْ بينِهِمْ، وجَمَعَهُمْ على أُلْفةٍ وخيرٍ، ولم يَرْفَعْ مِنْ بينِ أولئكَ، فقالَ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ والأحزابُ الفِرَقُ الذينَ تحزَّبوا، أي تفرَّقوا. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هو ظاهرٌ][٣].

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فُجاءةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانِها وقيامِها واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المُوَحِّدينَ. فتكونُ خِلَّةُ أهلِ الكُفرِ في ما بينَهُمْ في الدنيا عَداوةً في الآخرةِ لقولِهِ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وما ذُكِرَ في غيرِ آيةٍ[٤] مِنَ القرآنِ لَعْنُ [بعضِهِمْ][٥] عن بعضٍ وتَبَرُّؤُ بعضِهِمْ[٦] مِنْ بعضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ الآيةَ [البقرة: ١٦٦].

وأمّا خِلَّةُ المُوَحِّدينَ المؤمنينَ في ما بينَهُمْ فهي خِلَّةٌ في الدارَينِ جميعاً. هذا يَحتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استَثْنى خِلَّةَ مَنِ اتَّقى النارَ بنفسِهِ، ووَقى صاحِبَهُ أيضاً ممّا أمَرَهُ بالطاعاتِ للهِ تعالى والقيامِ بالخيراتِ، وزَجَرَهُ عَنْ مَعاصيهِ ومُخالَفَةِ أمرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] أمَرَهُمْ بوقايةِ أنفسِهِمْ وأهليهِمْ[٧] ناراً، وإنما [يَتَّقونَ تلكَ][٨] النارَ بالقيامِ [بالأسبابِ التي أُمِروا بالقيامِ][٩] بها والامْتِناعِ والانْتِهاءِ عمّا نُهوا عنها، وزُجِروا منها.

فكلُّ خِلَّةٍ في ما بينَ المؤمنينَ على هذا الوجهِ فهي خِلَّةٌ ومَوَدَّةٌ في الدارَينِ جميعاً، لا تَصيرُ عداوةً لأنها للهِ تعالى وطَلَبِ مَرْضاتِهِ.

فأمّا الخِلَّةُ التي تكونُ في ما بينَهُمْ للدنيا فهي تَصيرُ عَداوةً أيضاً على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقد رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الأخِلّاءُ أربعةٌ مؤمنانِ وكافرانِ، فماتَ أحدُ المؤمنَينِ، فَسُئِلَ عن خليلِهِ،

---

(١) في الأصل وم: قاتل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: هي ظاهرة. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: بعضكم. (٧) في الأصل وم: وأهليكم. (٨) في الأصل وم: يقون ذلك. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

فقالَ: اللهمَّ لم أرَ خليلاً آمَرَ بمعروفٍ ولا أنْهى عنْ مُنْكَرٍ منهُ. اللهمَّ اهْدِهِ كما هَدَيْتني، وأمِتْهُ على ما أمَتَّني عليهِ. وماتَ أحدُ الكافرِينَ، فَسُئِلَ عنْ خَليلِهِ، فقالَ: اللهمَّ لم أرَ خليلاً آمَرَ بِمُنْكَرٍ ولا أنْهى عنْ مَعْروفٍ منهُ. اللهمَّ أضِلَّهُ كما أضْلَلْتَني، وأمِتْهُ كما أمَتَّني. قالَ: ثم يُبْعَثونَ يومَ القيامةِ، فقالَ: لِيُثْنِ بعضُكُمْ على بعضٍ. فأمّا المؤمنانِ فَيُثْني كلُّ واحدٍ منهما على صاحبِهِ ثَناءً حَسَناً. وأمّا الكافرانِ فَيُثْني كلُّ واحدٍ منهما على الآخَرِ ثَناءً قَبيحاً» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٣٨٨].

وعلى هذا السبيلِ رُوِيَ هذا الحديثُ عنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: (أحِبَّ في اللهِ، وأبْغِضْ في اللهِ، وَوَادَّ في اللهِ، وَوَالِ في اللهِ، فإنما تُنالُ ولايةُ اللهِ في ذلكَ. لا يُنالُ ما عندَ اللهِ إلّا بذلكَ).

وقالَ ﷺ: «ولنْ يَجِدَ عبدٌ طَعْمَ الإيمانِ، وإنْ كَثُرَتْ صلاتُهُ وصيامُهُ وصَدَقَتُهُ حتى يكونَ كذلكَ، وقد صارَتْ عامةُ مؤاخاةِ الناسِ اليومَ على الدنيا. ولكنْ لا تَجْزي عنْ أهلِهِ شيئاً، ثم قرَأ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقرَأ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾» الآية [المجادلة: ٢٢] [عن ابن عمر أبو نعيم في الحلية ١/ ٣١٢] فقولُ ابْنِ عباسٍ يُومِئُ إلى أنَّ كلَّ خِلَّةٍ ومُؤاخاةٍ في ما بينَ المؤمِنينَ للدنيا، فهي تَصيرُ عداوةً في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي لا خَوْفٌ عليكُمْ خوفَ الغِيَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي لا خَوْفٌ عليكُمْ خَوفَ الأحوالِ، أي لا حُزْنَ لهمْ في حالِ كونِهِمْ فيها، ولا لهمْ فيها خَوفٌ غَيرُ ذلكَ ولا زَوالُهُ عليهِمْ، لأنَّ خَوفَ الزّوالِ ممّا يُنَغِّصُ [على][1] صاحبِهِ النعمةَ التي هي لهُ، يُخبِرُ أنَّ ذلكَ دائمٌ باقٍ، لا زوالَ لهُ، ولا فَناءَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ والإشكالُ أنهُ سَمّى[2] المؤمنينَ مُسْلِمينَ بالآياتِ والإيمانِ. والإسلامُ يكونُ باللهِ تعالى، فنقولُ: لأنَّ الإيمانَ هو التصديقُ في اللغةِ، وإنما[3] أنْبَأتِ الآياتُ بِوَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيتِهِ، لأنَّ جهةَ سبيلِ معرفةِ اللهِ تعالى وطريقِ العِلْمِ بهِ إنما هو بالآياتِ والحُجَجِ التي أقامَها على ذلكَ ليسَ مِنْ جهةِ العِيانِ والمُشاهدةِ.

فالإيمانُ بالآياتِ والتَّصْديقُ بها تَصْديقٌ / ٥٠٠ ـ ب/ باللهِ حقيقةً وإيمانٌ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ هذا يُوهِمُ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ مُتَغايِرانِ، لكنَّ هذا مِنْ حيثُ ظاهرُ العبارةِ، فأمّا في الحقيقةِ فهما يَرْجِعانَ إلى مَعْنًى واحدٍ لأنَّ الإسلامَ هو جَعْلُ كلِّ شيءٍ للهِ تعالى سالماً، لا يُشْرَكُ فيهِ غَيرُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] أي خالصاً سالماً، لا حَقَّ لأحدٍ فيهِ سِواهُ. والإيمانُ هو الوصفُ لهُ بالربوبيَّةِ في كلِّ شيءٍ، ومَعْناهُما في الحاصلِ والتحقيقِ يَرْجِعُ إلى مَعْنًى واحدٍ؛ لأنكَ إذا وَصَفْتَهُ بالألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ في كل شيءٍ [كانَ][4] للهِ تعالى سالماً، وإذا جعلتَ كلَّ شيءٍ للهِ تعالى سالماً وَصَفْتَهُ بالألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ في كل شيءٍ. فَدَلَّ أنَّ حاصلَ الإيمانِ والإسلامِ واحدٌ، وإنْ كانا مِنْ حيثُ ظاهرُ العبارةِ مختلفَينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ الأزواجُ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: الأزواجُ المعروفةُ، وهي الأهلُ، لِما وَقَوهُمْ في الدنيا عنِ الأسبابِ التي بها يَسْتَوجِبونَ النارَ كقولِهِ تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

[والثاني][5]: الأزواجُ التي ذَكَرَ القُرَناءُ [والشركاءُ الذينَ][6] أعانوهمْ على الأعمالِ الصالحةِ التي بها نالوا الجنةَ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ههنا قُرَناءَهُمْ وشُرَكاءَهُمْ الذينَ أعانوهُمْ على ذلكَ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: سماهم. (٣) في الأصل و م: بما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ويحتمل.
(٦) في الأصل وم: والأشكال التي.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: أي تُسَرُّونَ، والحَبْرَةُ السرورُ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ أي تُكْرَمونَ، وتُنْعَمونَ، وهو ما ذَكَرْنا، أي ليسَ عليهِمْ خوفُ الزوالِ والفَناءِ، ولا حُزْنُ الحالِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ يَحْتَمِلُ ذِكْرُ الصحافِ مِنَ الذَّهبِ والأكوابِ وجوهاً:

أحَدُها: ذَكَرَ ذلكَ لهمْ في الآخِرَةِ ترغيباً لهمْ فيها وتَحْريضاً لِما يَرْغَبونَ بِمِثْلِ ذلكَ إلى السَّعْيِ للآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنَّ ما ذَكَرَ ذلكَ لأنَّ أهلَ الدنيا كانوا يَتَفاخَرونَ بهذهِ الأشياءِ في الدنيا، فَيُخْبِرُ أنَّ لأوليائِهِ ذلكَ في الآخِرَةِ، وذلكَ دائمٌ، وهذا فانٍ، ولا عِبْرَةَ للفاني، فما مَعْنَى الافْتِخارِ بهِ؟

[والثالثُ][1]: يَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرَ ذلكَ لأنهُ حَرَّمَ عليهِمُ الانْتِفاعَ في الدنيا باسْتِعْمالِ الذهبِ والفضةِ والحريرِ، فأخْبَرَ أنَّ لهمُ الانْتِفاعَ بذلكَ في الآخِرَةِ التي هي دارُ التَّنَعُّمِ.

فأمّا ما سِوَى ذلكَ مِنَ العُرُشِ والأواني فإنهُ لا بأسَ بذلكَ، وهو مُباحٌ في الدارينِ جميعاً.

وأمّا ذِكْرُ الأكوابِ [فيَحْتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحَدُهما: الترغيبُ][2] على ما ذَكَرْنا لأنهمْ يَتَمَنَّونَ، ويَرْغَبونَ فيها في الدنيا.

والثاني: يُخْبِرُ أنْ لا مُؤْنَةَ عليهِمْ في حملِ الأواني ورَفْعِها عندَ الشربِ والأكلِ، ولا يَتَوَلَّونَ ذلكَ بأنفسِهِمْ. لكنِ الخَدَمُ هُمُ الذينَ يَتَوَلَّونَ سَقْيَهُمْ.

الصِّحافُ: جَمْعُ الصَّحْفةِ، وهي القَصْعَةُ التي ليسَتْ بِضَخْمةٍ، والأكوابُ: الأباريقُ التي لا عُرا لها، ولا خَراطيمَ، واحِدُها كوبٌ، ويُقالُ: كيزانٌ، ولا عُرا لها. قالَهُ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ فذلكَ في الجنةِ، ليسَ كنعيمِ الدنيا، لأنَّ في الدنيا قد يَشْتَهي شارِبُها، ولا تَلَذُّ بهِ العيونُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ ذَكَرَ ذلكَ في الآخِرَةِ لِما مُنِعوا، وحُرِموا في الدنيا مِمّا لا يَحِلُّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إنَّ اللهَ ﷻ بِفَضْلِهِ عَوَّدَ عبادَهُ لِما كانَ منهُ مِنَ الإحسانِ والإنعامِ كأنَّ ذلكَ كلَّهُ منهُمْ إليهِ فَضْلٌ منهُ حينَ[3] نَسَبَ الجنةَ التي يُعْطيهِمْ إلى أعمالِهِمْ التي عَمِلوها، وإنْ كانوا لا يَسْتَوجِبونَ الجنةَ وما فيها بالأعمالِ حقيقةً.

لذلكَ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عنْ نبيِّ اللهِ تعالى أنهُ قالَ: «لا يدخلُ الجنةَ أحدٌ إلّا برَحمةِ اللهِ تعالى، قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برحمتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/٧١... و٢٨١٨/٧٦] أخْبَرَ أنْ لا أحدَ يدخُلُ الجنةَ إلّا برحمتِهِ. لكنهُ نَسَبَ الجنةَ التي يعطيهِمْ وما ذَكَرَ مِنَ الثوابِ إلى أعمالِهِمْ فَضْلاً منهُ وإنعاماً.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] ذَكَرَ أنهُ اشْتَرَى أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بالجنةِ [التي][4] يعطيهِمْ. وأنفُسُهُمْ وأموالُهُمْ في الحقيقةِ لهُ، ولا أحدَ يَشْتَري مُلْكَهُ ومالَهُ بمالِ نفسِهِ وملكِهِ. لكنهُ ذَكَرَ ذلكَ شراءً فَضْلاً منهُ، كأنْ لا مُلْكَ لهُ في ذلكَ، ولا حقَّ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الإقراضِ لهُ بقولِهِ: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ [المزمل: ٢٠] ولا أحَدَ يَسْتَقْرِضُ مالَهُ ومُلْكَهُ مِنْ غيرِهِ، لكنهُ عامَلَهُمْ مُعاملةَ مَنْ لا مُلْكَ لهُ في أموالِهِمْ وأنفسِهِمْ بما جَعَلَ لهمْ مِنَ الثوابِ والعِوَضِ.

فَعَلَى ذلِكَ نِسْبَةُ الجنةِ والثوابِ الذي ذَكَرَ لهمْ إلى أعمالِهِمْ إفضالاً منهُ وإنعاماً، وإنْ لم يَسْتَوجبوا ما ذَكَرَ بالأعمالِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: يحتمل وجهين للترغيب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٣ وقولهُ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مثلُ هذا الوعدِ كأنهُ إنما جاءَ لأهلِ مكةَ، فكانَ لا فواكِهَ لهمْ فيها، ولا ثمارَ. يُخْبِرُ أنَّ لكمْ في الجنةِ مِنَ الفواكِهِ الكثيرةِ مالا يَفْنَى، ولا يَنْقَطِعُ ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ما تأكلون، فلا يؤذيكُمْ، ولا يَضرُّكُمْ، وإنْ أكثَرْتُمْ.

ويَحْتَمِلُ أنَّ ما ذَكَرَ لِما عَرَفَ مِنْ رغبةِ الناسِ إلى الفواكِهِ والثمارِ في الدنيا، رَغَّبَهُمْ بها في الآخِرَةِ، وحَثَّهُمْ على دَفْعِ ذلكَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ الإجرامُ هو الكسبُ في اللغةِ، والمُجْرِمُ الكاسبُ، يرجعُ ذلكَ إلى كلِّ كاسبٍ ممّا جَلَّ، أو دَقَّ. إلّا أنَّ الناسَ عَرَفوا مِنَ العذابِ المذكورِ للمجرمِ الخاصِّ، وهو الكافرُ المشرِكُ، فلا يجوزُ صَرْفُهُ إلى كلِّ كاسبٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولهُ تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ يذكُرُ هذا لِيُعْلَمَ أنَّ النارَ، وإنْ أنضجَتْ جلودَهُمْ، وأحرَقَتْهُمْ، لا تُفَتِّرُ التألُّمَ عنهمْ بِنُضْجِ الجلودِ، بل [تزيدُ][1] التَّوَجُّعَ والتَّألُّمَ بعدَ نُضجِ جلودِهِمْ واحْتِراقِها على ما كانَ قَبْلَ النُّضجِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ[2] تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المبلِسُ الآيِسُ. وقالَ بعضُهُمْ: المُبْلِسُ الذليلُ الخاضِعُ.

وقالَ الزَّجاجُ: المُبْلِسُ هو الساكِتُ عنِ الكلامِ، كَمَنْ لا يَرْجو الفَرَحَ مِنْ نُطْقِهِ لأنَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ فإنما يَتَكَلَّمُ لِفَرَحٍ يَرْجو مِنْ نُطْقِهِ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

الآية ٧٦ وقولهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ في التعذيبِ الذي يُعَذَّبونَ ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولكنْ همُ الذينَ ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[3] عبدوا مَنْ لا يَمْلِكُ دفعَ العذابِ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ في تَرْكِ البَيانِ لهمْ[4]، أي لم نَتْرُكْ بَيانَ [ما][5] عليهِمْ ومالَهُمْ، بل بَيَّنّا لهمْ عاقبةَ السَّبيلَينِ جميعاً: أنهُ إلى ذلكَ ذا يُفْضي [وإلى ذلكَ][6] عاقبةُ هذا السبيلِ. ولكنْ همْ ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[7] اختاروا السبيلَ الذي أفضاهمْ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولهُ تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ كأنهمْ يقولونَ: سَلْ رَبَّكَ لِيَقْضِ علينا بالمَوتِ.

يَفْزَعونَ أولاً إلى المؤمنينَ، وهو قولُهُمْ: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] فلما أيِسوا مِنْ ذلكَ يَفْزَعونَ إلى اللهِ تعالى، يَسْألونَ الرجوعَ إلى المِحْنَةِ لِيَعْمَلوا غيرَ الذي عَمِلوا بقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا /٥٠١ ـ أ/ نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فلمّا أيِسوا مِنْ ذلكَ يَفْزَعونَ إلى مالكٍ لِيَسْألَ ربَّهُ لِيَقْضِيَ عليهمْ بالموتِ، فقالَ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ وهو ما قالَ ﷻ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٦].

الآية ٧٨ وقولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ هذا على إثْرِ ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] على إثْرِ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآية [غافر: ٥٠] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ القولانِ جميعاً مِنَ اللهِ تعالى؛ أعني قولَهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقولَهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ واللهُ أعلَمُ. ويكونُ أنْ يكونَ العذابُ جميعاً مِنَ الملائكةِ؛ إذْ جائزٌ إضافةُ الرسلِ إلى الملائكةِ، إذْ هُمْ رُسُلٌ [كقولِ][8] الناسِ: رسولُنا فَعَلَ كذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الحَقُّ كلُّ ما يُحْمَدُ عليهِ، ويَحْمَدُ هو عاقبةَ ذلكَ الفعلِ. والباطلُ كلُّ ما يُذَمُّ عليهِ فاعلُهُ، ويَذُمُّ هو عاقبَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: عليهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

ثم الحقُّ المذكورُ يَحتَمِلُ القرآنَ، ويَحتَمِلُ الحقُّ ما تَرَكوا اتّباعَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ. ويقولونَ: الحقُّ، هو الذي عليهِ آباؤنا ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ثم قالَ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٤] وقالَ ههنا: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي جِئناكُمْ بِما هو أهْدَى وأحَقُّ ممّا عليهِ آباؤكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ وإنما خاطَبَ بِهِ أهْلَ النارِ، وكانوا جميعاً كارِهينَ للحقِّ؟ نقولُ: إنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ أكثَرَهُمْ قد عَرَفوا أنهُ الحقُّ، لكنهمْ كَرِهوا اتّباعَهُ والإنقِيادَ لهُ عِناداً منهمْ ومُكابَرةً بَعدَ ظهورِ الحقِّ عندَهُمْ وتَبَيُّنِهِ لَدَيهِمْ مَخافةَ ذهابِ الرئاسةِ عنهمْ وزوالِ مَأكَلَتِهِمْ، ولم يَظهَرْ لأقَلِّهِمْ، ولم يَعْرِفوهُ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني:][(1)] أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ كراهةِ أكثَرِهِمْ للحقِّ بِحَقِّ الطِّباعِ؛ كانَ في طِباعِ أكثَرِهِمْ كراهةُ ذلكَ الحقِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ إبرامِهِمْ أمراً ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠] إبرامُهُمْ أمراً هو مَكْرُهُمُ الذي مَكَروا برسولِ اللهِ ﷺ في ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ إبرامُهُمُ الذي ذَكَرَ غيرَ ذلكَ، وكيفَ ما كانَ ففيهِ وجهانِ في الدلالةِ:

أحَدُهما: لِيَعْلَموا أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ سميعٌ بما يُبْرِمونَ في ما بَينَهُمْ مِنْ أمرٍ سِرّاً لأنهُ في ظَنِّهِمْ أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ، ولا يَسمَعُ ما يُبْرِمونَ منَ الأمرِ سِرّاً. ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ [الزخرف: ٨٠].

والثاني: فيهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ لأنهمْ أبرَموا ذلكَ الأمرَ في ما بَينَهُمْ سِرّاً، ثم أخبَرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بما أبْرَموا، وأحكَموا مِنَ الأمرِ لِيُعْلِمَ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ يَحتَمِلُ فإنا جازونَ جزاءَ إبرامِهِمْ. ويَحتَمِلُ: ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ أي إلينا يَرْجِعُ تدبيرُ إبرامِهِمُ الأمرَ ومكرُهُمْ جميعاً. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الرعد: ٤٢] على هذينِ الوجهَينِ اللّذينِ ذَكَرْناهما.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ أي بل يَحسَبونَ على ما ذَكَرْنا أنَّ حرفَ الاِسْتِفْهامِ منهُ يُخَرَّجُ على الإيجابِ؛ كأنهُ قالَ: بل يَحْسَبونَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ هذا وعيدٌ وتَنبيهٌ منهُ لهمْ؛ يُخبِرُ أنَّ رسُلَهُ يَكتُبونَ ما يُسِرُّونَ ويُخفونَ مِنَ المُنكَرِ وغَيرِهِ لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ ويَقَظةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ يُخَرَّجُ هذا على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ما كانَ للرحمنِ ولدٌ، أي ليسَ للرحمنِ وَلَدٌ. ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ على هذا التأويلِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما كانَ للرحمنِ ولدٌ فأنا أوّلُ العابدينَ لهُ بالتّعالي والتّنزيهِ عنِ الولدِ.

[والثاني][(2)]: وأنا أوّلُ مَنْ يعبدُ الرحمنَ بالإيمانِ والتصديقِ أنهُ ليسَ لهُ ولدٌ. على هذا أعبدُ اللهَ تعالى.

والثاني: ما كانَ للرحمنِ ولدٌ، وأنا أوّلُ الآنفينَ، وهو مِنْ عَبَدَ يَعْبُدُ أي أنِفَ يأنَفُ، فيكونُ هذا تنزيهَ تَصريحٍ عنِ الولدِ، والأوّلُ تنزيهٌ لهُ بالكِنايةِ.

---

(1) في الأصل وم: ويحتمل. (2) في الأصل وم: أي.

هذا إذا كانَ مَعنَى قولِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ ما كانَ للرحمنِ ولدٌ.

ثم قولُهُ: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يُخرَّجُ على [هذا][1] التأويلِ أيضاً على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي لو كانَ للرحمنِ ولدٌ على زَعمِكُمْ وعلى ما عندَكُمْ فأنا أوَّلُ مَنْ يَتبرَّأُ عن أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، وأدعوكُمْ إلى الرحمنِ الذي لا وَلَدَ لهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] أي أينَ شركائيَ [الذينَ][2] تزعُمونَ أنتمْ أنهمْ شركاءُ؟ وقولِهِ تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] أي انْظُرْ إلى إلٰهِكَ الذي هو في زَعْمِكَ إلهٌ.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يقولَ لهُ: قُلْ: لو كانَ يجوزُ، أو يَحتَمِلُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، فأنا أوَّلُ مَنْ يَعْبُدُهُ[3] على ذلكَ، أو أوَّلُ مَنْ يقولُ بذلكَ. فإذْ لم أقلْ بذلكَ، وأنا رسولُ اللهِ، وظهرَ أنهُ لا يَحْتَمِلُ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤] أي لو كانَ يجوزُ أنْ يريدَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ ولداً لاصطَفَى ممَّنْ عندَهُ وممَّنْ شاءَ لا ممّا هو عندَكُمْ وممّا تَختارونَ أنتمْ. لكنْ لا يَحْتَمِلُ، ولا يجوزُ أنْ يَتَّخِذَ ولداً.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقولُ: كما أني لستُ أوَّلَ مَنْ عبدَ اللهَ فكذلكَ ليسَ للرحمنِ ولدٌ كقولِ الرجلِ: لو كانَ ما يقولُ حقّاً فأنا حمارٌ؛ معناهُ ليسَ الذي تقولُهُ بحقٍّ كما أني لستُ بِحمارٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٢ [ثم][4] نَزَّهَ نفسَهُ عنِ الولدِ وأنهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ حينَ[5] قالَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي ربُّ السمواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ مَنْ فيهِنَّ وربُّ العرشِ.

قالَ أهْلُ التأويلِ: أي ربُّ السريرِ، لكنْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُ العرشِ ههنا السريرَ، فَيُنْسَبَ إلى السريرِ، فيُقالَ: ربُّ السريرِ، ويجوزُ لغيرِهِ أيضاً أنْ يقالَ: ربُّ السريرِ، فَتَثْبُتَ المشاركةُ في النسبةِ بَينَهُ وبَينَ الخَلْقِ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ لذلكَ السريرِ عندَ الخلائقِ مَوقِعاً وقَدْراً عظيماً يليقُ القَسَمُ بهِ، وإنهُ مِنْ أعظمِ المَخْلوقاتِ وأعجبِها فكانَتْ نسبةُ هذا إلى اللهِ ﷻ مِنْ بابِ التعظيمِ والإجلالِ بِمَنْزِلَةِ نسبةِ كلِّ العالَمِ إليهِ، فيكونُ جائزاً[6]، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ تأويلُ العرشِ ههنا[7] المُلْكَ؛ يقولُ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ المُلْكِ عمّا يَصِفونَ. ثم قد بيَّنّا حكمةَ ذِكْرِ السمواتِ والأرضِ على إثْرِ ذِكْرِ الولدِ في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ هذا في الظاهرِ أمْرٌ بِتَركِهِمْ على ما هُمْ عليهِ مِنَ الخَوضِ واللعِبِ وغَيرِهِ، ومثلُ هذا ممّا لا يَليقُ بالحكمةِ؛ إذْ هو حرامٌ في العقلِ. لكنْ يُخرَّجُ على الوعيدِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يُخرَّجَ على تركِ المكافآتِ على ما يَصْنَعونَ مِنَ الاسْتِهزاءِ والأفزاعِ مِنَ الأذَى إلى اليومِ الذي يُلاقُونَ، ويُعايِنونَ العذابَ /٥٠١ ـ ب/ حتى لا تَنْفَعَهُمُ الندامةُ والرجوعُ إلى ذلكَ اليومِ.

وأصْلُ ذلكَ [وجهانِ]:

أحَدُهما[8]: أنَّ اللهَ تعالى قد أوعَدَهُمْ بِمَواعيدَ شَديدةٍ، ووعَظَهُمْ بِمَواعظَ بَليغةٍ، فلم تَنْجَعْ تلكَ المواعيدُ فيهِمْ، ولا نَفَعَهُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

والثاني: قد بيَّنَ ما يُزيلُ عنهمُ الشُّبَهَ وما يُوجِبُ التَّعَلُّقَ بهِ؛ أوضحَ لهمْ طريقَ الحقِّ والهُدَى، فلم يَسْلُكوا مَسْلَكَ طريقِ الحقِّ، فأوعَدَهُمْ بما ذَكَرَ في ذلكِ اليومِ مالا تَنْفَعُهُمْ ندامَتُهُمْ في ذلكَ الوقتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الإلهُ في اللغةِ، هو المَعْبودُ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ تعالى، هو المَعْبودُ في السماءِ، وهو المَعْبودُ في الأرضِ، والأصنامَ التي تَعْبُدونَها أنتمْ لا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: اعبده. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: جائز. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: هو. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَعْبُدُها إلّا أنتم، فكيفَ تَرَكْتُمْ عبادةَ المَعْبودِ الذي هو مَعْبودٌ في السماءِ والأرضِ، واخترْتُمْ عبادةَ مَنْ ليسَ بِمَعبودٍ إلّا بِعِبادتِكُمْ؟

ويَحتمِلُ أنْ يقولَ: تَعْلَمونَ أنتمْ أنَّ اللهَ ﷻ هو إلهٌ في السماءِ والأرضِ، وإلهُ [مَنْ][1] فيهما وما فيهما، وأنهُ خالقُ ذلكَ كلِّهِ لقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥و . . .] والأصنامُ التي تَعْبُدونها لم يَفْعَلوا ذلكَ، ولا يَمْلِكونَ شيئاً مِنْ ذلكَ، فكيفَ اتَّخَذْتُموها آلهةً دونَهُ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ذِكْرُ الحكيمِ والعَليمِ على إثْرِ ذلكَ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: لسؤالِ الثَّنَوِيَّةِ أنَّ اللهَ ﷻ لا يجوزُ أنْ يَبْسُطَ، ويُوَسِّعَ الدنيا على مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُعاديهِ، ويَشْتُمُهُ، ويُعادي أولياءَهُ، ويَشْتُمُهُمْ، لأنَّ في الشاهِدِ مَنْ يَصْنَعُ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُعاديهِ مَعْروفاً، فليسَ بحكيمٍ.

فَعَلَى ذلِكَ يقولونَ: إنَّ ذلكَ ليسَ مِنَ اللهِ تعالى، ولكنهُ مِنْ إلهٍ غيرِهِ سَفيهٍ، لأنهُ وصفَ نفسَهُ بالحكمةِ، وأنهُ يريدُ الحكمةَ.

[والثاني: قولُ][2] البراهمةِ في إنكارِهِمُ الرسالةَ أصلاً؛ يقولونَ: ليسَ مِنَ الحكمةِ بَعْثُ الرسلِ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ويُكَذِّبُ رسلَهُ، ولا يَقْبَلُ شهادتَهُ، بل يَقْتُلُهُ، ويُعاديهِ. لذلكَ يُنْكِرونَ رسالةَ الرسلِ، فأخبَرَ تعالى بقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أنَّ إعطائي إياهمْ ما أعطَيْتُهُمْ وبَعْثي الرسلَ إليهمْ على عِلْمٍ مني بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ والعداوةِ، لا يُخْرِجُني عنِ الحكمةِ، ويُخْرِجُ فاعلَ ذلكَ في الشاهِدِ عنِ الحكمةِ، لأنَّ ملوكَ الأرضِ إنما يرسلونَ الرسلَ، ويَبْعَثونَ الهدايا لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجتِهِمْ. فإذا عَلِموا مِنَ المَبْعوثِ إليهمُ الرسلُ والمَصْنوعِ إليهمُ المعروفُ ما ذَكَرْنا خَرَجَ [ذلكَ][3] عنِ الحكمةِ.

فأمّا اللهُ تعالى إنما بَعَثَ الرسلَ لحاجةِ المَبْعوثِ إليهمْ ولِمَنافِعِ أنفسِهِمْ، فكذلكَ ما يعطيهِمْ مِنَ الدنيا لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ، فلم يَخْرُجْ ذلكَ عنِ الحكمةِ، لأنهُ لا يَضُرُّهُ مُعاداةُ مَنْ عاداهُ، ولا تَنْفَعُهُ مُوالاةُ مَنْ والاهُ. بلْ كلُّ ذلكَ راجعٌ إليهِمْ بل صُنْعُ ما يَصْنَعُ مِنَ المعروفِ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُعاديهِ يكونُ وصفاً لهُ بغايةِ الكرمِ والجودِ.

لذلكَ [كانَ] ما ذَكَرْنا، وبَطَلَ قولُ الثَّنَوِيَّةِ والبراهمةِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قولُهُ: ﴿وَتَبَارَكَ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: أي تعالى، وتعاظَمَ عمّا قالتِ المُلْحِدَةُ فيهِ مِنَ الشريكِ والولدِ والصاحبةِ وغَيرِ ذلكَ مما [لا][4] يليقُ بهِ، ولا يجوزُ، فيكونُ تنزيهاً عنْ جميعِ ما قالوا فيهِ، وهو كَحَرْفِ: سُبْحانَ الذي يكونُ تَنْزيهاً عمّا قالوا فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ بعضُ أهْلِ الأدبِ: تبارَكَ، هو مِنَ البركةِ. لكنَّ بعضَ العلماءِ قالوا: إنَّ هذا التأويلَ لا يَصِحُّ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَتَبَارَكَ﴾ هو مِنْ وقوعِ البركةِ بنفسِهِ، فهو اسمٌ ملازمٌ، ولا يجوزُ أنْ يوصَفَ اللهُ تعالى بوقوعِ البركةِ [عليهِ][5].

لكنْ عندَنا: تَبارَكَ: تَفاعَلَ، والتَّفاعُلُ هو فِعْلُ اثْنَينِ. فجائزٌ نسبةُ البركةِ إليهما على حقيقةِ وقوعِهِما بأحدِهِما، وهو الخَلْقُ للإيصالِ على ما هو الأصلُ في مِثْلِ هذا. ولهُ نظائرُ كثيرةٌ.

وأصلُ تأويلِ: تبارَكَ ما قالَهُ أهْلُ التأويلِ: تعالى، وتَعاظَمَ عنْ جميعِ ما قالتِ المُلْحِدَةُ فيهِ مما لا يَليقُ بهِ مِنَ الولدِ والشريكِ وغَيرِ ذلكَ. لكنْ هو على التأويلِ لا على تحقيقِ الاسْمِ.

فَنَظيرُهُ ما فَسَّروا في قولِهِ: «وتعالى جَدُّكَ» [الترمذي٢٤٣] أي عظمتُكَ. والجَدُّ هو في الحقيقةِ ليسَ اسْمَ العظمةِ، ولكنْ هو خروجُ الأمرِ على ما يريدُ وما يشاءُ. وتَسْمِيَةُ الناسِ في ما بَيْنَهُمْ بالفارسيةِ بختا؛ فَسَّروا الجَدَّ بالعظمةِ لِنَفاذِ مَشيئةِ العظيمِ وخروجِ الأمورِ على ما يريدُهُ، ويَشاؤهُ.

فَعَلَى ذلِكَ تفسيرُهُمْ تبارَكَ بما قالوا: تعالى، وتَعاظَمَ على التأويلِ لا على تحقيقِ الاسْمِ؛ إذْ هو مِنَ البركةِ. لكنْ كلُّ مَنْ بورِكَ فيه صارَ مُتعالياً، فأطلقوا عَلَيه تبارَكَ بِمَعْنى تعالى لا بِمَعْنى حقيقةِ البركةِ، هو الاسْمُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وكقول. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ثم قولُهُ: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيانٌ منهُ وتعليمٌ لِلخَلْقِ ما تجوزُ النسبةُ إليهِ، فقالَ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧و...] وقالَ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦و...] ونَحْوَ ذلكَ، يُبيِّنُ لهمْ أنِ انسُبوا إليهِ [هذا، ولا تَنْسُبوا إليهِ][1] مِنَ الولدِ والشريكِ والصاحبةِ ونَحْوِ ذلكَ لأنَ نسبةَ الأشياءِ بِكُلِّيَّتِها تُخَرَّجُ مُخرجَ الوصفِ لهُ بالعظمةِ والجَلالِ نَحوَ ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقولِهِ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩و...] وقولِهِ: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠و...] وقولِهِ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ونسبةُ خاصِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ تُخَرَّجُ مُخرَجَ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ لتلكَ الأشياءِ، ثم يُنظَرُ بعدَ هذا؛ فإنْ كانتْ تلكَ الأشياءُ الخاصِّيَّةُ ممّا يجوزُ تَعظيمُها نُسِبَتْ إليهِ، وأُضيفَتْ، نَحْوَ قولِهِ[: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥و...]][2] وقولِهِ[3]: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤و...] وقولِهِ: ﴿رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٢١و...] وغيرَ ذلكَ مِنَ الأشياءِ التي يُعَظِّمُها اللهُ تعالى، ويرفَعُ قَدْرَها ومَنْزِلَتَها عندَهُ.

وإنْ كانَتِ الأشياءُ ممّا يُستَقذَرُ، ويُستَقْبَحُ، ويُستَرْذَلُ، فلا تجوزُ النسبةُ إليهِ والإضافةُ لِما ذَكَرْنا أنَّ نسبتَها إليهِ وإضافتَها تُخَرَّجُ مُخرَجَ التعظيمِ لها، وهي ليسَتْ بِمُعَظَّمَةٍ، ولكنها مُستَرْذَلَةٌ، مُستَقْذَرَةٌ، فيكونُ وضعُ الشيءِ في غَيرِ موضِعِهِ، وإنهُ خلافُ الحكمةِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي عندَهُ عِلْمُ ساعةِ الصَّعْقَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٨].

[والثاني][4]: يَحْتَمِلُ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الزلزلةَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

[والثالثُ][5]: يَحتَمِلُ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الفزعَ والهَوْلَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

[والرابعُ][6]: يَحتَمِلُ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامةَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ /٥٠٢ ـ أ/ ونَحوَ ذلكَ واللهُ أعلَمُ.

أخبَرَ أنهُ لم يُطلِعِ اللهُ ﷻ [عِلْمَ][7] حقيقةِ ما ذَكَرَ أحداً مِنْ خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ أنَّ تخصيصَ ذلكَ بالرجوعِ إليهِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ راجعينَ فيهِ إلى اللهِ تعالى صائرِينَ إليهِ:

أحَدُها: لأنَّ المقصودَ مِنْ إنشائهمْ ذلكَ؛ أعني البَعْثَ كي لا يكونَ خَلْقُهُمْ عَبَثاً على ما ذَكَرْنا غَيرَ مَرَّةٍ.

[والثاني][8]: يَحتَمِلُ أنهُ خَصَّ ذلكَ اليومَ بالرجوعِ إليهِ والمَصيرِ والخروجِ لأنهُ يومئذٍ يَخلُصُ خُروجُهُمْ ورجوعُهُمْ إليهِ وانْقِيادُهُمْ لهُ، وقد ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ إنَّ قوماً كانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ رَجاءَ أنْ يكونوا لهمْ شُفَعاءَ لِما عَرَفوا مِنْ خصوصيَّتِهِمْ وفَضْلِهِمْ عندَ اللهِ، وذلكَ معروفٌ في الناسِ أنهمْ يَخْدِمونَ، ويُكْرِمونَ خَواصَّ ملوكِهِمْ رَجاءَ أنْ يَشْفَعَ لهمْ أولئكَ الخواصُّ عندَ الملكِ إذا نَزَلَ بهمْ بلاءٌ، ووقَعَتْ [لهمْ][9] حاجةٌ يوماً مِنَ الدهرِ. فَعَلَى ذلِكَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ كانوا يعبدُونَ الملائكةَ لِما عَرَفوا مِنْ خصوصيَّتِهِمْ وفَضْلِ مَنْزِلَتِهِمْ عندَ اللهِ.

ثم أخبَرَ ﷻ عنِ الملائكةِ أنهمْ لا يَمْلِكونَ الشفاعةَ بقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وهو

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بيت الله. (٣) و(٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و.
(٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

كقولِهِ[1]: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي إلّا لمنْ شَهِدَ بوَحدانيّةِ اللهِ تعالى وألوهيّتِهِ، لا يَشْفَعونَ لأولئكَ، إنما يَشْفعونَ لِمَنْ ذَكَرَ، وإنْ كانَتْ لهمْ خُصوصِيّةٌ عندَ اللهِ لأنَّ اللهَ ﷻ نَهى أولئكَ أنْ يَعْبُدوا الملائكةَ، ويُعَظِّموهُمْ مِنْ جهةِ العبادةِ. لذلكَ لا يَمْلِكونَ الشفاعةَ، فيكونُ مَثَلُ هذا مَثَلَ مَلِكٍ نَهى قومَهُ أنْ يَخدِموا، أو يُعَظِّموا أحداً سِواهُ مِنْ خَواصِّهِ. فإذا فَعَلوا ذلكَ، وخَدَموهُمْ، وتَرَكوا نَهْيَهُ، لا يَمْلِكُ أولئكَ الخواصُّ، ولا يَتَجاسَرونَ على طلبِ الشفاعةِ عندَ الملكِ لأولئكَ الذينَ نهاهُمُ المَلِكُ أنْ يَخدِموهُمْ، ويُعَظِّموهُمْ دونَهُ.

فَعَلى ذلِكَ الملائكةُ لم يَجْعَلْ لهمْ شفاعةً لِأولئكَ الذينَ عبَدوهُمْ دونَهُ إلّا لِمَنْ ذَكَرَ، وهمُ الذينَ شَهِدوا بالحقِّ، وقاموا بعبادةِ اللهِ تعالى فقد أذِنَ لهمْ بالشفاعةِ لأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي لو كانَتْ لهمُ الشفاعةُ لكانَتْ لا تَنْفَعُهُمْ شفاعَتُهُمْ، ليسَ أنْ يكونَ لهمْ شفاعةٌ أو شُفعاءُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٦] وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ الآية [البقرة: ١٢٣].

فَعَلى ذلِكَ يَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي لا تَنفَعُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يَرجِعُ إلى الملائكةِ، فيكونُ كأنهُ يقولُ: ولا يَمْلِكُ الذينَ يَدْعونَ مِنْ دونِهِ الشفاعةَ، وهمْ يعلَمونَ أنهمْ لا يَمْلِكونَ الشفاعةَ.

والثاني: يرجِعُ إلى مَنْ شَهِدَ بالحقِّ، فيكونُ كأنهُ يقولُ: ولا يَمْلِكُ الذينَ يَدْعونَ مِنْ دونِهِ الشفاعةَ إلّا مَنْ شَهِدَ بالحقِّ وهمْ يَعْلَمونَ أنهمْ يَشْهَدونَ بالحقِّ، والشهادةُ بالحَقِّ ما ذَكَرْنا؛ يعني يَشْهَدونَ على وَحْدانيّةِ اللهِ وألوهِيّتِهِ وأنهُ المُسْتَحِقُّ العبادةَ دونَ مَنْ عَبَدُوهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وقالَ في أوّلِ السورةِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

ثم نَعَتَهُ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [الزخرف: ١٠ ـ ١٣].

قد أقرّوا جميعاً أنَّ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وخَلَقَهُمْ وما يحتاجونَ إليهِ، هو اللهُ تعالى، ثم عِلْمُهُمْ وعِرْفانُهُمْ بذلكَ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

يَحْتَمِلُ عِلْمَ حقيقةٍ على التَّسْخيرِ والاضطرارِ بأنْ أنشأَ اللهُ تعالى علماً في قلوبِهِمْ، فَعَلِموا بذلكَ حقيقةً أنَّ اللهَ ﷻ هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ.

ويَحْتَمِلُ عَلِموا عِلْمَ الاستِدلالِ بالتأمُّلِ والنَّظَرِ؛ إذْ مِنْ عادةِ العربِ التأمُّلُ والنَّظَرُ، فَنَظَروا، وتَأمَّلوا، فَعَرَفوا بالاسْتِدلالِ العقليِّ أنهُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يقولُ: فأيُّ شيءٍ يَصْرِفُهُمْ، ويأفِكُهُمْ عنِ القيامِ بوفاءِ ما أُعطَوا بألسنتِهِمْ، وتحقيقِ ما أقرّوا، ونَطَقوا أنَّ اللهَ خالقُ ذلكَ كلِّهِ وأنَّ ذلكَ كلَّهُ منهمْ، وجَعَلَ ذلكَ لِمَنْ يعلَمونَ أنهُ شيءٌ من ذلكَ منهمْ وبعدَ معرفتِهِمْ بذلكَ؛ أعني الأصنامَ التي يَعْبُدونها؟ واللهُ الهادي.

وقالَ أهْلُ التأويلِ: أي فأنّى يُكَذِّبونَ بعدَ عِلْمِهِمْ ومعرفتِهِمْ ذلكَ في تَسْمِيَتِهِمْ معبودَهُمْ إلهاً أو شكرِهِمْ غَيرَ الذي صَنَعَ ذلكَ لهمْ بالعبادةِ لهُ دونَ اللهِ تعالى؟

---

(١) في الأصل وم: قوله.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ قُرِئَ بنصبِ[1] اللامِ وكسرِها: فَمَنْ قَرَأَ بالنصبِ جَعَلَهُ مَعْطوفاً على قولِهِ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الآية: ٨٠] ونَسْمَعُ قِيلَهُ أي قولَهُ الذي عَقَلُوهُ، أي بل نَسْمَعُ ذلكَ كلَّهُ.

ومَنْ قَرَأَ بالكَسْرِ عَطَفَهُ على قولِهِ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الآية: ٨٥] أي عندَهُ عِلْمُ الساعةِ وعِلْمُ ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنهُ على الإضمارِ، أي قيلَ لهمْ: قلْ إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يُصَدِّقونَ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ لأنهُ أخبَرَ أنهمْ لا يؤمنونَ، وقد كانَ على ما أخبَرَ لم يُؤمِنوا. دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ، وعَلِمَهُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أعْرِضْ [عنهمْ][2] ودَعْهُمْ ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي قُلِ الصوابَ والحقَّ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يوماً، فهو وعيدٌ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي سلامٌ عليهمْ. لكنهُ على المؤمنينَ، ليسَ على أولئكَ الكَفَرَةِ فَسَوفَ تَعْلَمون بالتاءِ[3]، يكونُ لو صُرِفَ إلى المؤمنينَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] فيكونُ كأنهُ ﷺ قالَ: فَسَوفَ تَعْلَمونَ أيُّها المؤمنونَ ما يَنْزِلُ بأولئكَ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٣٠. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٣١.

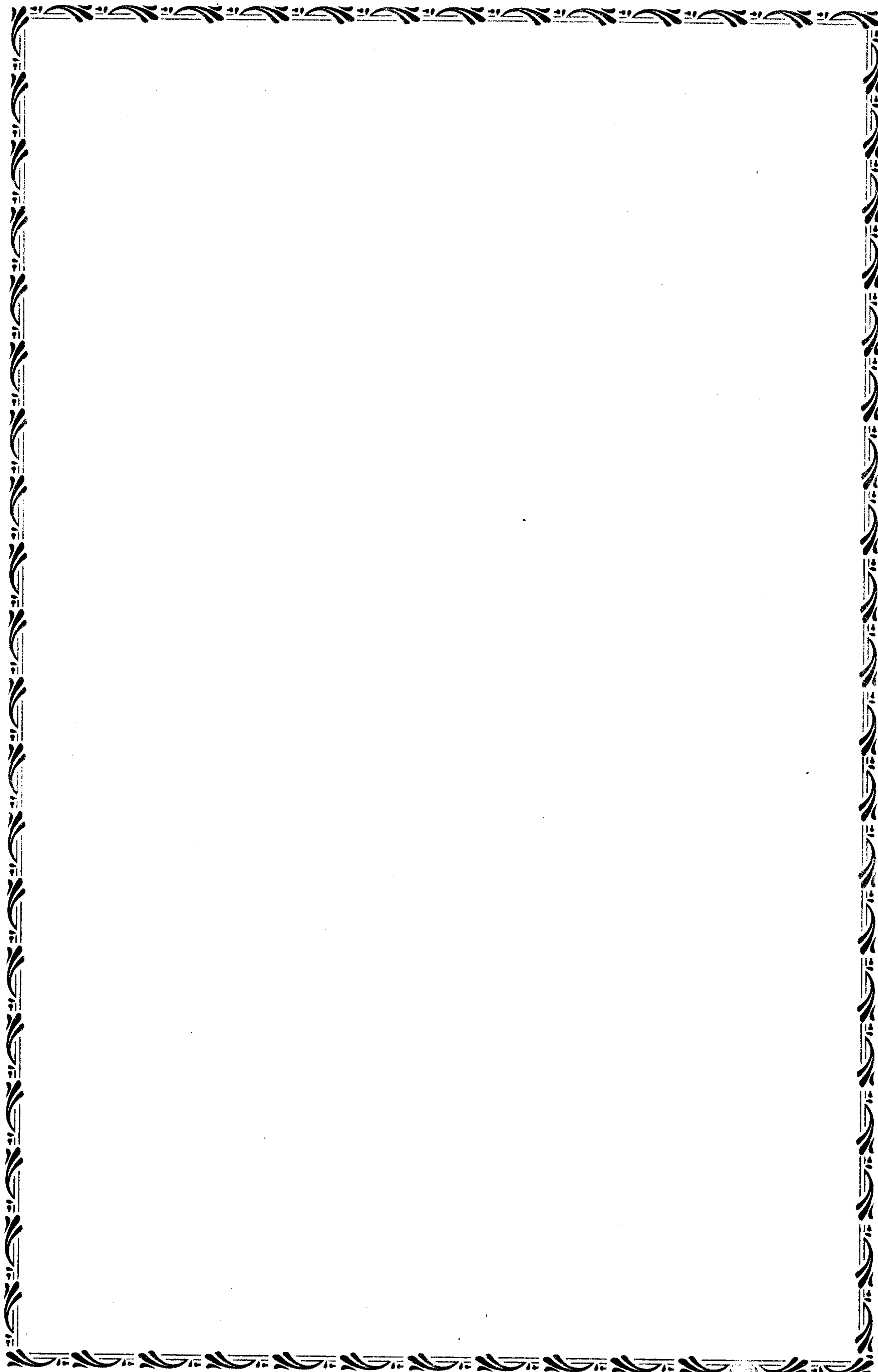

سورة ﴿حمٓ﴾ الدخان

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

[وبِهِ نستعينُ](١)

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قد ذَكَرنا تأويلَهُ فيما تَقَدَّمَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنّا أنْزلنا / ٥٠٢ ـ ب/ الكتابَ أي القرآنَ في ليلةِ القدرِ مِنَ اللوحِ المَحفوظِ إلى السماءِ الدنيا. ثم أُنْزِلَ على النَّبِيِّ ﷺ بالتَّفاريقِ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الهاءُ راجعةً إلى قولِهِ: ﴿حمٓ﴾ أي قَضَى ما هو كائنٌ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويل: إنَّ ما قَضى في كلِّ سنةٍ مِنَ الموتِ والحياةِ والرزقِ ونَحوِ ذلكَ يَنْزِلُ في ليلةِ القدرِ، ونَسْخُهُ(٢) إلى الملائكةِ الذينَ وُكِّلوا على ذلكَ. فهذا يحتَمِلُ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الهاءُ راجعةً إلى ما ضَمَّنَ في قولِهِ ﴿حمٓ﴾ على ما أرادَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنهُ أرادَ بهذا إنزالَ شيءٍ وأمرٍ في ليلةِ القدرِ، عَرَفَهُ(٣) رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ، فَيُخبِرُ أنهُ أنْزَلَ ذلكَ، ولم يُبَيِّنوا لنا ذلكَ لِما لا حاجةَ لنا إلى معرفتِهِ.

وقالتِ الرَّوافِضُ في قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾: إنَّ اللهَ تعالى أنْزَلَ شيئاً على رسولِهِ، يكونُ ذلكَ الشيءُ على رأسِهِ وعلى رؤوسِ الأئِمَّةِ الذينَ يكونونَ بعدَهُ بحيثُ يَرَونَ ذلكَ دونَ غَيرِهِمْ إذا استَقْبَلَهُمْ أمرٌ، أو بدا لهمْ شيءٌ، نَظَروا في ذلكَ الشيءِ، فَعَرفوا(٤) ما احْتاجوا وما يكونُ لهمْ مِنَ الصلاحِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وأمّا عند أهلِ التأويلِ فهو ما ذَكَرْنا راجعٌ إلى ذلكَ الكتابِ المُنْزَلِ على رسولِ اللهِ ﷺ وإلى ما ذَكَرْنا مِنْ تَضمينِ ما ضَمَّنَ في قولِهِ: ﴿حمٓ﴾ وكذلكَ قالوا أيضاً في قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي ليلةُ القدرِ، سَمّاها مُبارَكَةً، وقد سَمّى المطرَ والماءَ المُنْزَلَ مِنَ السماءِ [مُبارَكاً بِقولِهِ](٥) تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩] وكذلكَ الأرزاقُ المُنْزَلَةُ مِنَ السماءِ والمُسْتَخْرَجَةُ مِنَ الأرضِ مُبارَكَةٌ بقولِهِ: ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] والمُبارَكُ هو الذي عندَهُ تُدْرَكُ كلُّ الخيراتِ. والبركةُ هي اسمُ كلِّ خيرٍ يكونُ أبداً على الزيادةِ والنماءِ، فَسَمّى تلكَ الليلةَ مُبارَكَةً لِما جَعَلَ فيها مِنَ الخَيراتِ والبَرَكاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الخَلْقَ إذا أُنْشِئوا، وبَلَغوا المبْلَغَ الذي يَسْتَوجِبونَ الإنذارَ.

ويَحتَمِلُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الخَلْقَ بالرسلِ؛ هذا هو الظاهرُ أنَّ هذا القولَ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ: قالَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ بالقرآنِ بِما أُنْزِلَ على [الرسولِ](٦).

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يَحتَمِلُ أي يُفْصَلُ، ويُبَيَّنُ، كلُّ أمرٍ، هو كائنٌ في ليلةِ القدرِ، [ويَحْتَمِلُ أي يُبَيِّنُ في ليلةِ القدرِ](٧) كلُّ ما يكونُ في تلكَ السنةِ.

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل: ونسخها، في م: نسخها. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كقوله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

ثم قولُهُ: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يَحْتَمِلُ أي كلُّ أمرٍ فيه حكمةٌ.

الآية ٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ يَحْتَمِلُ][1] كلُّ أمرٍ مُحْكَمٍ مُتْقَنٍ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الأمرَ الذي ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿رَحْمَةً﴾ أي ما أنزلَ منَ الكتابِ هو رحمةٌ مِنْ ربِّكَ، ويَحْتَمِلُ، ليلةَ القَدْرِ، أي جَعَلَها رحمةً منهُ، ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ أمرٍ حكيمٍ، هو رحمةٌ منهُ، ويَحْتَمِلُ أي الرسولُ المَبْعوثُ إليهِمْ رحمةٌ منهُ لهمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بأقوالِهِمُ التي أسَرُّوها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالِهِمْ وأعمالِهِمُ التي أخفَوها، وأضمَروها. ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ المجيبُ لِمَنْ دعا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِما يَرْجِعُ إلى مصالِحِهِمْ في دينِهِمْ ودنياهُمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ربُّ الشيءِ، هو مُصْلِحُهُ؛ معناهُ مُصْلِحُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما، وحافظُ ذلكَ كلِّهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مالِكِهِما ومالكِ ما فيهما. ويَحْتَمِلُ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالِقِهِما وخالقِ ما فيهما ومُنْشِئِ ذلكَ كلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا على إتمامِ الآيةِ ومُراعاةِ المقاطِعِ على وجهِها. هذا وأمثالُهُ[2] يُخَرَّجُ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ على إثْرِ قولِهِ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما إنْ كنتُمْ تَعْلَمونَ أنهُ ربُّ ما ذَكَرَ، فيكفَ تَصْرِفونَ العبادةَ واسْمَ الألوهيَّةِ إلى مَنْ ليسَ بِرَبِّ ما ذَكَرَ أنَّ الإيقانَ، هو العِلْمُ بالشيءِ حقيقةً؟

الآية ٨ ثم نَعَتَ الرَّبَّ، فقالَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكأنهُ يقولُ: لا مَعْبودَ يَسْتَحِقُّ العبادةَ سِواهُ، لأنَّ الإلهَ المَعْبودُ عندَ العربِ، يقولُ: لا تَسْتَحِقُّ الأشياءُ التي تَعْبدونَ العبادةَ، إنما المُسْتَحِقُّ لها، هو الذي لا إلهَ غَيرُهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: لا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الألوهيَّةِ إلّا هو لا الأشياءُ التي سَمَّيْتُموها آلهةً.

ثم نَعَتَهُ، فقالَ: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هو يُحْيِي، ويُميتُ، وهو ربُّكُمْ وربُّ آبائِكُمُ الأوَّلينَ. إنَّ مِنْ عادةِ العربِ أنهمْ كانوا يَعبدونَ، ويَخْدِمونَ، شيئاً دونَ اللهِ تعالى رَجاءَ أنْ يَشْفَعَ لهمْ، وتُقَرِّبَهُمْ تلكَ[3] العبادةُ إلى اللهِ تعالى، فيقولُ: إنَّ الذينَ تَعْبُدونَ دونَ اللهِ لا يَقَعُ لهمُ العِلْمُ بعبادتِكُمْ إياها، فاصْرِفوا العبادةَ إلى الذي[4] يَعْلَمُ بِعِبادَتِكُمْ على كلِّ حالٍ، وأخْلِصوا لهُ ذلكَ، ولا تُشْرِكوا غَيرَهُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ في أمرِ القرآنِ، ويَحْتَمِلُ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ في أمرِ الرسولِ ﷺ ونَحْوِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ فيه:

قالَ بعضُهُمْ: ليسَ هو على حقيقةِ الدخانِ، ولكنْ على التمثيلِ والمَجازِ. ثم اخْتُلِفَ في كيفيَّةِ ذلكَ مَعَ اتِّفاقِهِمْ أنهُ قد مَضى ذلكَ، وقد كانَ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِدُخَانٍ﴾ أي بِجَدْبٍ وقَحْطٍ، جَعَلَ الدُّخانَ كِنايَةً عنِ الجَدْبِ لوجوهٍ:

أحَدُها: لِما يُقالُ: إنَّ الجائعَ في القَحْطِ، كانَ يَرَى بَيْنَهُ وبينَ السماءِ والناسِ دُخاناً مِنْ شِدَّةِ الجوعِ كالذي يَشْتَدُّ بِهِ

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) في الأصل وم: وأمثالها. (٣) في الأصل وم: ذلك. (٤) من م، في الأصل: الذين.

العَطَشُ يَرَى السَّرابَ ماءً؛ وذلكَ لأنهُ لما اشْتَدَّ [بهمْ][1] الجوعُ، ضَعُفَتْ أبصارُهُمْ، وغَطّاها الجوعُ، فيكونُ الجوعُ سَبَبَ ترائي الدُّخانِ، فاسْتُعيرَ لهُ.

[والثاني][2]: لأنَّ في سَنَةِ الجَدْبِ تَتَيَبَّسُ الأرضُ، ويَنْقَطِعُ النباتُ، فَيَرْتَفِعُ الغبارُ، ويَصْعَدُ بالريحِ[3]. فَيُشَبَّهُ ذلكَ الغبارُ الذي يَرْتَفِعُ مِنْ يُبْسِ الأرضِ بالدخانِ [ويُسَمَّى بالدخانِ][4]. ولِذلكَ قيلَ: السَّنَةُ غبراءُ، وقيلَ: جوعٌ أغْبَرُ، لأنَّ العربَ ربّما وضَعَتِ الدخانَ مواضِعَ الشَّرِّ إذا علا، فيقولونَ: لو كانَ يَبِسَ أمرٌ ارْتَفَعَ لهُ دخانٌ، وقالوا: إنَّ هذا القَحْطَ الذي جَعَلَ الدخانَ كِنايةً عنهُ، قد كانَ، فإنهُ اشْتَدَّ بهمُ القَحْطُ، وقَلَّتِ الأمطارُ، ويَبِسَتِ الأرضُ، وارتفَعَ الغبارُ، وصَعِدَ بالريحِ كالدخانِ، وضَعُفَتِ الأبصارُ لشدةِ الجوعِ حتى كانوا يَرَوْنَ السماءَ كأنَّها على ما رُوِيَ عَنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: كانَ أحَدُهُمْ يَنْظُرُ إلى السماءِ، فَيَرَى كَهَيْئَةِ الدخانِ /٥٠٣ ـ أ/ مِنْ شِدَّةِ الجوعِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما مَثَلُ الأرضِ يومئذٍ كَمَثَلِ بَيتٍ أُوقِدَ ليسَ فيه خُصاصةٌ.

وعنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: قد مَضَى الدخانُ، وهو سِنونَ كَسِني يوسفَ، فَجَهَدَ الناسُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو على حقيقةِ الدخانِ، وإنهُ لم يَمْضِ بَعْدُ، وكذلكَ رُوِيَ عَنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: الدخانُ لم يَمْضِ بَعْدُ، يأخُذُ المؤمنَ كهيئةِ الزكامِ، ويَنْفُخُ الكافرَ حتى يَنْفَدَ، وكذلكَ قولُ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ والحَسَنِ وغيرِهما.

لكنَّ صَرْفَ الدخانِ المَذْكورِ في الآيةِ على التمثيلِ أشبَهُ لأنَّ الأمرَ إذا اشْتَدَّ، وبَلَغَ نهايَتَهُ، يُشْبِهُ النارَ والدخانَ كقولِهِ: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤] وليسَ هنالكَ نارٌ، لكنْ وَصْفُ شدةِ الحربِ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ تَشبيهُ ما اشْتَدَّ بهمْ مِنَ الجوعِ والجَدْبِ والقَحْطِ بالدخانِ الذي ذَكَرَ. وكذلكَ يصفُ الناسُ الأمرَ إذا اشْتَدَّ؛ يقولونَ: هاجَ الدخانُ، وثارَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ ما ذَكَرَ، وهو عذابٌ أليمٌ على تأويلِ أنهُ ماضٍ كائنٌ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي يَغْشى، فيقولُ الناسُ ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وهو على قولِ مَنْ يقولُ: إنهُ لم يَمْضِ بعدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ أي إنا نُؤمِنُ بكَ في ما تَدْعونا إليهِ لو كَشَفْتَ[5] عنّا العذابَ في مَعْنَى الشرطِ والجزاءِ، وهو كقولِ موسى ﷺ حينَ[6] ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ على الحالِ كأنهمْ قالوا: ربَّنا اكْشِفْ عنّا العذابَ إنا مؤمنونَ لِلحالِ.

الآية ١٣ ثم أخْبَرَ اللهُ ﷻ أنهمْ لا يؤمنونَ، وأنهمْ كَذَبَةٌ في ما قالوا حينَ[7] قالَ تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ يقول[8]: أنّى يَتوبونَ؟ أو مِنْ أينَ تَنْفَعُهُمْ توبَتُهُمْ في ذلكَ بَعْدَ ما خَرَجَتْ أنفسُهُمْ مِنْ أيديهِمْ ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ﴾ قَبْلَ ذلكَ الوقتِ ﴿مُّبِينٞ﴾ أنهُ رسولٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ يَحْتَمِلُ أي أعْرَضوا عمّا جاءَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ من القرآنِ. ويَحْتَمِلُ تَوَلَّوا عمّا دَعاهُمْ إليهِ رسولُ اللهِ ﷺ وأمَرَهُمْ بهِ. ويَحْتَمِلُ تَوَلَّوا عنْ رسولِ اللهِ نفسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ قولُهُمْ: ﴿مُعَلَّمٞ﴾ لأنهمْ يقولونَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقولُهُمْ[9]: ﴿مَّجۡنُونٌ﴾ نَسَبوهُ إلى الجنونِ لِوَجْهَيْنِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: الريح ليبسها. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: كشف. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: يقولون. (٩) في الأصل وم: وقوله.

أحدُهما: ما ذُكِرَ أنهُ إذا نَزَلَ بِهِ الوَحْيُ تَغَيَّرَتْ حالُهُ ولَونُهُ لِثِقَلِ ذلكَ عليهِ، فيقولونَ: بِهِ آفَةٌ وجنونٌ.

والثاني: لَمّا رَأَوهُ قد خاطَرَ بروحِهِ ونفسِهِ لأنهُ خالَفَ الفَراعنةَ منهمْ والأكابرَ الذينَ كانَتْ هِمَّتُهُمُ القَتْلَ والإهلاكَ لِمَنْ خالَفَهُمْ، ودعاهُمْ إلى غَيرِ الذي كانوا عليهِ، نَسَبوهُ[1] إلى الجنونِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنكُمْ عائدونَ إلى[2] مَعاصيكُمْ وكُفرِكُمُ الذي كُنتُمْ فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنكُمْ عائدونَ إلى عذابِ يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ يومُ بَدْرٍ، وهو قولُ ابنِ مسعودٍ ﷺ وقولُ عامَّةِ أهلِ التأويلِ[3]: أشَدُّ مِنَ الدخانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو عذابُ يومِ القيامةِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ والحَسَنِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ولقد فَتَنّا قومَ فرعونَ بموسى قبلَ قومِكَ كما فَتَنّا قومَكَ بكَ. ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ولقد فَتَنّا قومَ فرعونَ بِمِثْلِ الذي فَتَنّا قومَكَ.

ثم افْتِتانُ قومِ فرعونَ بِمِثْلِ الذي فَتَنَ قومَهُ [يَحتَمِلُ][4] وجوهاً:

أحدُها: أنَّ موسى ﷺ قد أتاهُمْ بالبَيِّناتِ المُعجِزاتِ وما لم يَقْدِرْ فرعونُ على مقابَلَةِ تلكَ الآياتِ، وعَجِزوا عنِ الإتيانِ بِمِثْلِها، فَمَهْما أتاهُمْ بذلكَ، وعَرَفوا أنها آياتُ اللهِ تعالى، كَذَّبوها، ورَدّوها، ونَسَبوا موسى إلى السِّحْرِ والكَذِبِ والافْتِراءِ على اللهِ تعالى.

فَعَلى ذلكَ عَمِلَ أهلُ مكةَ برسولِ اللهِ ﷺ وعامَلُوه بالذي عامَلَ أولئكَ موسى مِنَ النسبَةِ إلى السِّحْرِ والجنونِ والكَذِبِ والافْتِراءِ على اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ فرعونَ وقومَهُ: ازْدَرَوا موسى، وحَقَّروهُ، لأنهُ وُلِدَ فيهِمْ كما ازْدَرَى أهلُ مكةَ محمداً ﷺ فقالوا: أنتَ أصْغَرُنا وأفْقَرُنا وأقَلُّنا حيلةً كما قالَ فرعونُ لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ الآية [الشعراء: ١٨].

[والثالث:][6] أنْ يكونَ أهلُ مكةَ سألوا اليهودَ عنِ الأنباءِ التي يَجِدونها في القَتْلِ لِيُحاجّوا بها رسولَ اللهِ ﷺ يَطْلبونَ بذلكَ ظهوراً لِكَذِبٍ مِنْ رسولِ اللهِ في ما كانَ يُخبِرُهم عن الأنباءِ المُتَقَدِّمةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ كانَ جميعُ رسلِ اللهِ ﷺ كِراماً لأنَّ اللهَ تعالى كانَ بَعَثَهُمْ إلى قومٍ جُهّالٍ سُفَهاءَ كانَ لهمُ الركونُ إلى الدنيا والمَيلُ إليها والرغبةُ فيها، فَبَعَثَ إليهِمْ كرامَ الخُلُقِ لِيُذَكِّروا أولئكَ الأقوامَ، وتَتَهَيَّأَ لهمُ [المُعامَلةُ لهمْ][7] والتَّحَمُّلُ منهمْ سوءَ[8] ما كانوا يُعامِلونَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ولذلكَ وَصَفَ رسولَ اللهِ ﷺ بالخُلُقِ العظيمِ حينَ[9] قالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يقولُ: أنْ أرْسِلوا معي بَني إسرائيلَ، وخَلّوا عنهمْ، ولا تَحْبِسوهُمْ، ولا تَسْتَعْبِدوهُمْ، فإنهمْ أحرارٌ.

ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: أرْسِلوا معي بَني إسرائيلَ فإنهم يَرْغَبونَ في إجابَتي إلى ما أدعوهُمْ إليهِ، ويَطمَعونَ في اتِّباعي في ما آمُرُهُمْ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني لكُمْ رسولٌ أمينٌ على الوَحْيِ والرسالةِ. ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: إني كُنتُ أميناً في ما بَينَكُمْ، لا يَظْهَرُ لكُمْ مني خيانةٌ، ولا اطَّلَعْتُمْ على كَذِبٍ قَطُّ. فلماذا تُكَذِّبونَني، وتَنْسِبونني إلى السِّحْرِ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: إذا. (٢) في الأصل وم: وفي. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وقالوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لسوء. (٩) في الأصل وم: حيث.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي وألّا تتكبَّروا، ولا تتعظَّموا على اللهِ تعالى.

لكنْ عندنا معْناهُ: وألّا تتكبَّروا، ولا تتعظَّموا على رسولِ اللهِ، ولا تتعظَّموا على عبادةِ اللهِ وعلى دينِهِ؛ إذْ لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ التكبُّرِ على اللهِ تعالى، وإنْ تَنسُبَ إليهِ فهو على إرادةِ أوليائِهِ أو دينِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي آتيكُمْ بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ أنها مِنَ اللهِ وأني رسولُ اللهِ؛ وهو ما أتاهُمْ مِنَ الآياتِ المُعجِزاتِ والحُجَجِ والبَراهينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ مِنْ موسى ﷺ على ابْتِداءٍ بلا سَبَبٍ، كانَ مِنْ فرعونَ، ولا أمْرٍ، سَبَقَ؛ فكانَ سَبَبُهُ / ٥٠٣ ـ ب/ ونازِلَتُهُ، واللهُ أعلَمُ، هو ما ذُكِرَ في سورةٍ أُخرى حينَ[(١)] قالَ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ الآية [غافر: ٢٦].

لمّا قالَ فرعونُ ذلكَ، وهمَّ أنْ يَقْتُلَ موسى [قالَ له موسى][(٢)] عندَ ذلكَ: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾. في ذلكَ دلالةُ أنهُ آيةٌ من آياتِ اللهِ [آياتِ][(٣)] الرسالةِ لأنهُ [لمّا][(٤)] قالَ فرعونُ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لِيَمْنَعَني عن قَتْلِهِ، فقالَ: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية دَلَّ هذا القولُ على أنهُ عَلِمَ قولَ فرعونَ وقَصْدَهُ بقتلِهِ وتعبيرَهُ بالدعاءِ إلى اللهِ لِيَمْنَعَهُ عن ذلكَ، وعَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى يَعْصِمُهُ عن شَرِّهِ وكيدِهِ متى قالَ ذلكَ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ يقولُ: فإنْ لم تُصدِّقوني في ما أدعوكُمْ إليهِ وآمُرُكُمْ بهِ فاتْرُكوني، فأُصدِّقَ، وأؤمِنَ به، ولا يَضُرُّكُمْ تَصْديقي وإيماني.

وقالَ بعضُهُمْ: أي دَعوني خَفّاقاً جانباً لا عليَّ، ولا لي.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ ولا تقْبلوني.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وهو كقولِهِ حينَ[(٥)] قالَ: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] وكقولِ نوحٍ ﷺ ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ و٦] ونحوَ ذلكَ؛ يقولونَ: يا ربَّنا إنّا قد عامَلْناهُمُ المُعامَلَةَ التي أمَرْتَنا أنْ نُعامِلَهُمْ، واحْتَلْنا الحِيَلَ التي علَّمْتَنا أنْ نَحْتالَ مَعَهُمْ، فلم يَنْجَعْ ذلكَ فيهمْ، ولم[(٦)] يَتْبَعُونا، ولا أجابونا إلى ذلكَ. فَهَلْ مِنْ حِيلَةٍ سِوَى ذلكَ أو معاملةٍ غَيرِ ذلكَ نُعامِلُهُمْ بها، لَعَلَّهُمْ يَتْبعونَنا، ويُجيبونَنا؟

هذا الدعاءُ وهذا القولُ منهمْ يكونُ [بَعْدَ][(٧)] ما أجْهَدوا أنفسَهُمْ في دعائِهِمْ إلى الحقِّ زَماناً طويلاً، ليسَ يَحْتَمِلُ في ابْتِداءِ الأمرِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ كانَ في إخراجِ موسى ﷺ وبَني إسرائيلَ مِنْ بَينِ أظهُرِ أعدائِهِمْ ليلاً مِنْ غيرِ أنْ شَعَرَ، وعَلِمَ أحدٌ مِنْ أعدائِهِمْ بذلكَ، وهُمُ العَدُوُّ [الذينَ ذُكِروا][(٨)] في القصةِ أنهمْ زُهاءُ ستِّ مئةِ ألفٍ، آيةٌ عظيمةٌ عجيبةٌ لموسَى ﷺ على رسالتِهِ، إذْ خُروجُ عَدَدٍ سِتِّينَ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ عَسيرٌ صَعْبٌ، فكيفَ خُروجُ العَدَدِ الذي ذُكِرَ في القصةِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي قومُ فرعونَ يَتْبعونَهُمْ لِيَرُدّوهُمْ إلى الأمرِ الذي كانوا يَسْتَعْمِلونَهُمْ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَحْوِ الاِسْتِخدامِ والاِسْتِعْبادِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: ولا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: الذي ذكر، في م: الذين ذكر.

والثاني: أي يَتْبعونَهُمْ للقتالِ والحربِ لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ أخذوا أموالَهُمْ مِنَ الحُلِيِّ واللِّباسِ، فَخَرَجوا بها. فجائزٌ أنْ يكونَ اتِّباعُهُمْ إيّاهُمْ لِيُقاتلوهُمْ كما يُقاتَلُ الأعداءُ

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ﴾ كادَ موسى ﷺ يَضرِبُ البَحْرَ بعصاهُ[1] لِيَصِلَ الماءُ بعضُهُ ببعضٍ لئلا يَعْبُرَ فرعونُ وقومُهُ، فقالَ لهُ: اتْرُكْهُ كما هو فإنهمْ جُنْدٌ مُغْرَقونَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿رَهْوًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي فارسيةٌ عُرِّبَتْ، أي اتْرُكِ البحرَ [وهو][2] راهٍ.

وقالَ بعضُ أهلِ اللسانِ: ﴿رَهْوًا﴾ أي ساكناً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَهْوًا﴾ أي مُتَّصِلاً، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ. وقالَ أهلُ التأويلِ: رَهْواً أي يابساً، وهو كقولِهِ: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ قد وَعَدَهُمْ، جَلَّ، وعَلَا، أنْ يُغْرِقَ فرعونَ وقومَهُ، فَفَعَلَ.

الآيات ٢٥ ـ ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أي ناعِمينَ وقيلَ: فَرِحينَ[3].

مِنَ الناسِ مَنْ قالَ: إنَّ هذهِ الآيةَ مُخالفةٌ للآيةِ الأُخرَى في ظاهرِ المَخْرَجِ، وهو قولُهُ ﷺ ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [يونس: ٨٨] ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] فإذا كانَتْ قد أجيبَتْ دَعْوَتُهُما في طَمْسِ أعمالِهِمْ، فَطُمِسَتْ، لا مَحالَةَ. فكيفَ ذَكَرَ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآياتِ[4]؟

الآية ٢٨ وما مَعْنى قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾؟

لكنْ عندَنا أنهُ لا مُخالَفَةَ بينَ الآيَتينِ، إذْ جائزٌ أنْ يكون طَمْسُ أموالِهِمُ التي كانَتْ مِنَ الحُلِيِّ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الصامِتِ ونحوِهِ خاصةً.

فأمّا الأموالُ التي كانَتْ لهمْ بالشركةِ مِنْ نحوِ [البساتينِ والزروعِ][5] وأمثالِها فذلكَ لم يَطْمِسْها، ولكنهُ تَركَها على ما هي عليها، لبني إسرائيلَ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي مثلَ ذلكَ ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى [حينَ قالَ][6]: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. فيهِ أنَّ بَني إسرائيلَ قد عادوا إلى مصرَ، ونَزَلوا أوطانَهُمْ ومنازِلَهُمْ وبساتينَهُمْ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي فما بَكَى عليهِمْ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ، بل سُرُّوا بذلكَ، واسْتَبْشَروا بهلاكِهِمْ. فيكونُ ذِكْرُ نفْيِ البكاءِ لإثباتِ ضِدِّهِ، وهو السرورُ والفرحُ، لا لِعَينِهِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ أنْ يُذْكَرَ نَفْيُ الشيءِ، ويُرادُ بهِ إثباتُ ضِدِّهِ لا عينُ النَّفْيِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] ليسَ المُرادُ إثباتَ نَفْيِ الربحِ أي لم تَرْبَحْ فَحَسْبُ، بل المُرادُ إثباتُ الخُسْرانِ والوَضيعَةِ، أي خَسِرَتْ، وَوُضِعَتْ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي ضَحِكَتْ، وسُرَّتْ، واسْتَبْشَرَتْ بهلاكِهِمْ لأنهمْ جميعاً أبْغَضوهُمْ، وعادوهُمْ لِادِّعائِهِمْ ما ادَّعَوا مِنَ الألوهِيَّةِ لِفرعونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ يَحتَمِلُ أنَّ المُرادَ بهِ ما رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «ما مِنْ مؤمنٍ إلّا ولَهُ بابٌ في السماءِ يَصْعَدُ إليهِ عَمَلُهُ الصالحُ، وفي الأرضِ مُصَلًّى يُصَلّي فيهِ، فإذا ماتَ بكى ذلكَ عليهِ كذا كذا يوماً» [بنحوه الترمذي ٣٢٥٥] وليسَ لهمْ ذلكَ، فلا يُبْكَى عليهِمْ.

وجائزٌ أن يكونَ أيضاً قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي لم يَبْقَ لهمْ أحدٌ يبكي عليهِمْ مِنَ الأولادِ

---

(١) في الأصل وم: بعصا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: معجزين. (٤) في الأصل وم: الآية. (٥) في الأصل وم: البستان وزورع. (٦) في الأصل: حيث، في م: حيث قال.

وغَيرِهِمْ لأنهمُ اسْتُؤْصِلوا جميعاً الأولادُ وغَيرُهُمْ، فلم يَبْكِ عليهِمْ أحدٌ. فأمّا سائرُ المَوتى فقد يَبْقَى لهمْ مَنْ يبكي عليهِمْ. لِذلكَ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ بُكاءَ السماءِ إذا عَظُمَ الأمرُ على التمثيلِ مِنْ نَحْوِ موتِ الملوكِ والقادةِ ومَنْ عَظُمَ قدرُهُ عندَهُمْ، فَيُخْبِرُ اللهُ ﷻ أنّ مَوتَ فرعونَ وأتباعِهِ لم يَعْظُمْ على أهلِ السماءِ والأرضِ لِما [لا قَدْرَ لَهُمْ][(1)] عندَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَجّينا بَني إسرائيلَ مِنَ العذابِ الذي نَزَلَ بفرعونَ وقومِهِ، وهو الغَرَقُ في البحرِ؛ [أغْرَقَ][(2)] أولئكَ، ونَجّى هؤلاءِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ أنهُ نَجّاهُمْ مِنَ العذابِ الذي كانوا يُعَذَّبونَ مِنْ نَحْوِ القَتْلِ والاِسْتِخدامِ والاِسْتِعْبادِ وأنواعِ العذابِ الذي كانوا يُعَذِّبونَهُمْ ما داموا بَينَ أظْهُرِهِمْ وفي أيديهِمْ، فَنَجّاهُمْ مِنْ ذلكَ حينَ[(3)] أخرَجَهُمْ مِنْ بَينِ أيديهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وهو أشبهُ بما قالَ: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

الآية ٣١ [وقولُهُ تعالى:][(4)] ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قولُهُ: ﴿عَالِيًا﴾ أي غالباً عليهِمْ قاهراً لهمْ بأنواعِ القَهْرِ الذي كانَ يَقْهَرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي /٥٠٤ ـ أ/ اخْتَرْنا بَني إسرائيلَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يُخَرَّجُ هذا على وجوهٍ:

أحَدُها: أيِ اخْتَرْناهُمْ على عِلْمٍ أي بِسَبَبِ عِلْمٍ، آتيناهُمْ ذلكَ، لم نُؤْتِ ذلكَ غَيرَهُمْ لِيُظْهِرَ فضيلَةَ العِلْمِ على العالَمينَ وشَرَفَهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منّا بأسبابٍ فيهِمْ وأشياءَ، لم تُعْلَمْ تلكَ الأسبابُ والمَعاني في غَيرِهِمْ، بها اسْتَوجَبوا الاِخْتِيارَ على العالَمينَ.

والثالثُ: أيِ اخْتَرْناهُمْ على عِلْمٍ، أي بِسَبَبِ عِلْمٍ أخرَجْنا غَيرَهُمْ إليهِ، فصاروا مُختارِينَ مُفَضَّلينَ بِسَبَبِ تَعليمِهِمْ إياهُمْ ما احْتاجوا إليهِ، أي فيكونُ لهمْ فَضْلُ الأستاذِ على التلميذِ.

وهذا كما يُقالُ[(5)]: إنّ العَرَبَ أفْضَلُ مِنَ المَوالي لأنّ المَواليَ احتاجوا إلى العربِ في معرفةِ لسانِهِمْ ومعرفةِ أشياءَ احْتاجوا إليها، فاسْتَوجَبوا الفضيلَةَ لِحاجَتِهِمْ إليهِمْ، وكذلكَ[(6)] فَضْلُ قريشٍ على سائرِ العربِ لِما احْتاجَتْ سائرُ العَرَبِ إلى قُريشٍ في معرفةِ أشياءَ، لا يَصلونَ إلى ذلكَ إلّا أنهمْ فُضِّلوا على غَيرِهِمْ بِذلكَ[(7)].

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنهُ أحْوَجَ إلى بَني إسرائيلَ غَيرَهُمْ في معرفةِ أشياءَ، فاسْتَوجَبوا بذلك الاِخْتِيارَ والفضيلةَ على غَيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾][(8)] وجهَينِ:

أحَدُهما: أي مِحْنَةٌ بَيِّنَةٌ، وهي أنواعُ ما امْتَحَنَهُمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي نِعَمٌ عظيمةٌ، وهو ما آتاهُمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى وتظليلِ الغَمامِ عليهِمْ وخُروجِ العُيونِ مِنَ الحَجَرِ ومُجاوَزَتِهِمْ مِنَ البَحْرِ وإهلاكِ عَدُوِّهِمْ وغَيرِها[(9)] مِنَ النِّعَمِ التي آتاهُمْ ممّا لا يُحْصَى، وهو ما ذُكِرَ في سورةِ البقرةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] أي نِعْمَةٌ عظيمةٌ مِنْ ربِّكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قدر. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقول.
(٦) في الأصل وم: ولذلك. (٧) في الأصل وم: لذلك. (٨) في الأصل وم: من. (٩) في الأصل وم: وغيرهم.

الآيتان ٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ يقولُ اللهُ تعالى، وهو أعْلَمُ: إنَّ الذي يَحْمِلُ هؤلاءِ على الإنكارِ والكُفرِ بكَ وتَرْكِ الإيمانِ بكَ إنكارُهُمُ البَعْثَ والإحياءَ بَعدَ الموتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٢] فأمّا مَنْ لم يُؤمِنْ بالآخِرةِ لا يُؤمِنْ به، واللهُ أعلَمُ.

وأصْلُهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بُعِثَ لِدُعاءِ الخَلْقِ إلى الزُّهْدِ في هذهِ الدنيا والرغبةِ في الآخِرةِ والقَطْعِ عن جميعِ شَهَوَاتِهِمْ ومُناهُمْ في الدنيا وتأخيرِ ذلكَ إلى الآخِرةِ.

فَمَنْ آمَنَ بالآخِرةِ سَهُلَ عليهِ تَرْكُ ذلِكَ كلِّهِ، وهانَ عليهِ قَطْعُ نفسِهِ عن قضاءِ ذلكَ كلِّهِ. ومَنْ أنْكَرَ الآخِرَةَ وجَحدَها اشْتَدَّ ذلكَ عليهِ، وصَعُبَ حَمْلُهُ ذلكَ على إنكارِها والجُحودِ لهَا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا منهمُ احْتِجاجٌ عليهِ؛ يقولونَ: لو كُنْتَ صادقاً فيما تقولُ: إنهُ بَعْثٌ وإحياءٌ، فَأَحْيِ مَنْ ذُكِرَ، وأرِ آياتٍ بهِمْ.

لكنَّ هذا احْتِجاجٌ باطلٌ لأنَّ الآياتِ والحُجَجَ ليسَتْ تَنزِلُ، وتأتي على [ما][1] تَشتَهي أنفُسُ أولئكَ، ولكنْ تَنزِلُ على [ما][2] تُوجِبُهُ الحكمةُ وعلى ما فيهِ الحُجَّةُ لا على ما يُريدُ المُقامُ عليهِمُ الحُجَّةُ كما في الشاهِدِ أنَّ الواجبَ على المُدَّعي إقامةُ ما هو حُجَّةٌ في ذاتِها لا إقامةُ ما يُريدُ[3] مِنَ المُدَّعَى عليهِ.

والنَّبِيُّ ﷺ قد أتاهمْ مِنَ البَيانِ والحُجَّةِ ما يوجِبُ البَعْثَ والإحياءَ بَعْدَ الموتِ، لو تَأمَّلُوا، ولم يُكابِروا عقولَهُمْ. ويكونُ سؤالُهُمْ منهُ آيةً أُخرَى مَرْدوداً[4] عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى ﷻ قد وَعَدَ البقاءَ لهذهِ الأمةِ إلى يومِ القيامةِ، ولو أعطاهُمْ ما سألوا مِنَ الآياتِ، ثم أنْكَروها، أُهلِكوا، واسْتُؤْصِلوا، إذْ مِنْ سُنَّتِهِ أنَّ كلَّ آيةٍ، أتَتْ، ونَزَلَتْ، على إثْرِ سؤالٍ كانَ منهمْ، ثم أنكروا، كانَ في ذلكَ هلاكٌ وعذابٌ. لِذلكَ لم يُعْطِهِمْ ما سَألوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ليسَ في هذا جوابٌ لقولِهِمْ: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولم يأتِ بجوابِ ذلكَ، وإنما كانَ لأنهمْ لم يَسْتَحِقُّوا الجوابَ لهذا السؤالِ، لأنهمْ سألوا ذلكَ [تَعَنُّتاً وعِناداً][5].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في هذا جوابُ قولِهِمْ وسُؤالِهِمُ الآيةَ المُخْتَرَعةَ.

وفي الآيةِ دلالةٌ على البعثِ أيضاً [في وجهَينِ]:

أمّا الأوَّلُ: فإنهُ[6] أخبَرَ عنْ قومِ تُبَّعٍ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الأُممِ الخاليةِ، كانوا يُنْكِرونَ رسالةَ رسلِهِمْ، ويُكَذِّبونَهُمْ، ويُوعِدُهُمُ الرسلُ بالعذابِ والهلاكِ، فيكذِّبونَهُمْ أيضاً في ما يُوعِدونَ منَ البَعْثِ، فَجاءَهُمُ الهلاكُ، فيقولُ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ومَنْ ذَكَرَ، أي أولئكَ هُمْ أشدُّ قوةً أمْ هؤلاءِ؟ وهُمْ عَلِموا أنَّ أولئك أشدُّ قوةً وبَطْشاً، ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمُ الِامْتِناعُ مِنْ عذابِ اللهِ إذْ نَزَلَ بهمْ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ وإنكارِهِمُ البَعْثَ، فأنتمْ دونَ أولئكَ، فكيفَ يَتَهَيَّأُ لكمُ الِامْتِناعُ مِنَ العذابِ الذي نَزَلَ بِكُمْ؟ وهو كقولِهِ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣].

وإذا لم يَتَهَيَّأْ لهمُ الدفْعُ، ومِنْ سُنَّتِهِ الِاسْتِئصالُ بالتكذيبِ للآياتِ المُخْتَرَعةِ، وقد وَعَدَ البقاءَ لهذهِ الأمةِ إلى يومِ القيامةِ وكونَهُ رَحْمَةً للخَلْقِ. لذلكَ لم يُعْطِهِمُ الآيةَ التي سألوا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا الثاني، وهو أنهُ لمّا أخبَرَ أنَّ تعذيبَ أولئكَ الكَفَرةِ لتكذيبِ الرسلِ وإنكارِ البَعْثِ، فَدَلَّ أنَّ البَعْثَ حقٌّ حتى يَسْتَحِقَّ مُنْكِرُهُ العذابَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ها. (٤) في الأصل وم: مردود. (٥) في الأصل وم: تعنت وعناد. (٦) في الأصل وم: بيان الأول أنه.

وذُكِرَ أنَّ تُبَّعاً كانَ رجلاً صالحاً، وعائشةُ ﵂ تقولُ: لا تَسُبُّوا تُبَّعاً فإنهُ كانَ رجلاً صالحاً، وذُكِرَ أنهُ كانَ رسولاً، وقد ذَكَرْنا نَعْتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] إنَّ الكَفَرَة كانوا لا يُطلِقونَ القولَ، فلا يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَهُما، وخَلَقَ ما بينَهما باطلاً ولَعِباً لكنْ خَلَقَ ذلكَ كلَّهُ على فُتْياهُمْ وظَنِّهِمْ وعلى [ما][1] عندَهُمْ يَصيرُ عَبَثاً باطلاً لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ البعثَ، ويقولونَ: أنْ لا بعْثَ، ولا حِسابَ، ولا ثَوابَ، ولا عِقابَ.

فإذا كانَ فُتْياهُمْ وظَنُّهُمْ أنْ لا بَعْثَ ولا نُشورَ يكونُ خَلْقُهُمْ وخَلْقُ السماءِ والأرضِ وما ذَكَرَ باطلاً لَعِباً لأنَّ المَقصودَ بِخَلْقِ ما ذَكَرَ على زعمِهِمْ لم يَكُنْ إلّا الإفناءَ والإهلاكَ. ومَنْ لم يَقْصِدْ في بنائِهِ إلّا النَّقْضَ في الشاهدِ والإفناءَ في العاقبةِ كانَ في بنائِهِ وقَصْدِهِ سَفيهاً غَيرَ حكيمٍ.

فَعَلَى ذلكَ اللهُ ﷻ في خَلْقِهِ إياهُمْ وإنشائِهِ لهمْ وتحويلِهِ إياهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخرى مِنْ حالِ النُّطْفَةِ إلى حالِ العَلَقةِ إلى حالِ المُضغَةِ إلى حالِ تَصويرِ الإنسانِ ثم إلى [حالِ][2] الكِبَرِ. لو لم يَكُنْ ما ذَكَرْنا مِنَ المَقصودِ سِوى الإفناءِ والإهلاكِ على ما زَعَموا كانَ سَفَهاً باطلاً غَيرَ حكمةٍ لِما ذَكَرْنا مِنْ قَصْدِ مَنْ قَصَدَ في البِناءِ الإفناءَ خاصَّةً لا غَيرَ كانَ في فِعْلِهِ وقَصْدِهِ لاعباً عابثاً سَفيهاً.

ولِذلكَ سَفَّهَ اللهُ تعالى تلكَ المرأةَ التي لم يكُنْ قَصْدُها في غَزْلِها إلّا نَقْضَهُ في العاقبةِ حينَ[3] قالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ الآية [النحل: ٩٢].

فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ الخَلْقِ إذا لم يكنْ بَعثٌ ولا نُشورٌ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرةُ، وظَنّوا، كانَ كذلكَ سَفَهاً غَيرَ حكمةٍ. ولذلكَ قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جَعَلَ خَلْقَهُ إياهم [لا][4] للرجوعِ إليهِ /٥٠٤ ـ ب/ عَبَثاً، واللهُ المُوفِّقُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إلّا لإقامةِ الحقِّ. وقالَ بعضُهُمْ إلّا لأمرٍ كائنٍ مُرادٍ. وأصلُ الحقِّ هو أنْ يُحْمَدَ عليهِ فاعِلُهُ في العاقبةِ، والباطلُ هو ما يُذَمُّ عليهِ فاعلُهُ، وإنما خَلَقَ، جَلَّ، وعلا، ما ذَكَرَ لِيُحْمَدَ على فِعْلِهِ، لا لِيُذَمَّ. ولو لم يَكُنِ القَصْدُ في خَلْقِهِمْ إلّا الإفناءَ والإهلاكَ لكانَ لا يُحْمَدُ عليهِ، ولكنْ يُذَمُّ على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهما لم يُخلَقا باطلاً وعَبَثاً، وهو ما ظَنُّهُم، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سَمَّى يومَ القيامةِ مَرَّةً ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧] ومَرَّةً يومَ ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١ و...] فهو يومُ ﴿ٱلْجَمْعِ﴾ الجَمْعِ لِما يُجمَعُ فيهِ الخلائقَ جميعاً وكذلكَ يومُ ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]. ويومُ الفَصْلِ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنهُ يَفْصِلُ بَينَ أوليائِهِ في دارِ الكرامةِ والمَنْزِلةِ، وهي الجنةُ، وأعدائِهِ في دارِ الهوانِ والعقابِ، وهو[5] ما قال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

[والثاني][6]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يومَ القَضاءِ والحُكمِ، أي يَقْضي، ويَحْكُمُ بَينَ المؤمنينَ والكافرينَ في ما تَنازعوا، واختَلفوا في الدنيا بقولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

ويَحْتَمِلُ أيضاً ما ذَكَرْنا مِنَ الفَصْلِ بينَ الأولياءِ والأعداءِ ما [لو][7] لم يكنْ ذلكَ في الآخرةِ بَينَهُمْ كانَ جامعاً مُسَوِّياً بَينَ الأولياءِ والأعداءِ، وهمُ استَوَوا، واجتَمَعوا في الدنيا في ظاهرِ أحوالِهِمْ. ومَنْ سَوَّى بَينَ وليِّهِ وعَدُوِّهِ كانَ سَفيهاً غيرَ حكيمٍ. دلَّ أنَّ هناكَ داراً أُخرى يَفْصِلُ بَينهما، ويُمَيِّزُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهي. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هذا في الكُفّارِ خاصّةً، يُخبِرُ أنهُ لا وليَّ ينفعُهُم في الآخِرةِ، ولا يُعينُ بعضُهُمْ بعضاً على ما يُعانُ في الدنيا إذا نَزَلَ ببعضٍ منهمْ بلاءٌ وَسَعَةٌ، وهو ما ذُكرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾ الآية [لقمان: ٣٣] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] واللهُ الموفّقُ.

الآية ٤١ ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿مَوْلًى﴾ الأعلى و ﴿مَوْلًى﴾ الأسفلَ على ما يُعينَ بعضُهُمْ بعضاً في الدنيا، ويَحتَمِلُ كلَّ وَليٍّ وقريبٍ؛ يُخبِرُ أنهُ لا قريبَ يملِكُ دَفْعَ ما نَزَلَ بهِ، ولا وَليَّ يَملِكُ نَصرَهُ ومعونَتَهُ، لأنَّ وِلايَتَهُمْ يومئذٍ تَصيرُ عداوةً بقولِهِ ﷻ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] استثنَى المُتّقينَ.

الآية ٤٢ وعلى ذلكَ استثنى في هذهِ الآيةِ أيضاً حينَ[1] قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ ومَنَّ عليهِ، وهداهُ الإيمانَ، ورزَقَهُ التوحيدَ، فإنهُ يكونُ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ شُفَعاءَ وأولياءَ، يَنْصُرُ بعضُهُمْ بعضاً، ويَشْفَعُ بعضُهُمْ لبعضٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ العزيزُ في نَقْمَتِهِ مِنْ أعدائِهِ لأوليائِهِ، الرحيمُ للمؤمنينَ الذينَ استثنَى في الآيةِ حينَ[2] قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾.

الآيتان ٤٣ و٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ ظاهرُ الآيةِ أنها طعامُ كلِّ أثيمٍ دونَ إثمٍ، لأنَّ الإثمَ المُطلَقَ هو الإثمُ مِنْ كلِّ وجهٍ، وهو [صفةُ][3] الكافرِ. فأمّا المؤمنُ المُسْلِمُ فلا[4] يكونُ أثيماً مُطلَقاً مع قِيامِ إيمانِهِ وكثيرِ طاعتِهِ، فلا يكونُ. وصاحبُ الكبيرةِ [يكونُ][5] داخلاً تحتَ الآيةِ.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ[6]: يدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [على أنهُ][7] أتى بَعْضُ الكفارِ بالعَسَلِ والزُّبْدِ، وقالوا لأصحابِهِمْ: تعالَوا نتَزَقَّمْ، فإنَّ محمداً وَعَدَنا بذلكَ لِما كانَ الزَّقومُ، هو الزُّبْدُ والتَّمرُ أوِ العَسَلُ بلغةِ قومٍ مِنَ العربِ، فَنَزَلَ عندَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤و٦٥] أخبَرَ أنها شجرةٌ أُنشِئَتْ مِنَ النارِ لِقولِهِ[8] تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ليسَتْ كسائرِ الأشجارِ.

الآيتان ٤٥ و٤٦ ثم شَبَّهَها بالمُهْلِ بقولِهِ تعالى: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ والمُهْلُ دُرْدِيُّ الزيتِ، ثم يَحْتَمِلُ تَشبيهُها بالمُهْلِ لوجهَينِ[9]:

أحَدُهما: لِالْتِصاقِهِ بالبَدنِ، لأنهُ قيلَ: إنهُ ألصقُ الأشياءِ بالبَدَنِ.

[والثاني][10]: يَحتَمِلُ أنْ يُشبِّهَها بذلكَ لكثرةِ تَلَوُّنِها وتَغَيُّرِها مِنْ حالٍ إلى حالٍ.

ثم الإشكالُ أنهُ ليسَ في أكلِ دُرْدِيِّ الزيتِ فَضلُ شدةٍ وكَثْرَةُ مُؤنَةٍ، فما مَعْنَى التَّشبيهِ بهِ؟

لكنْ نقولُ: إنهُ بَيَّنَ أنَّ ذلكَ المُهْلَ والدُّرديَّ مِنَ النارِ حينَ[11] قالَ: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ ثم الإشكالُ: أنَّ شَجَرَةَ الزَّقومِ كيفَ تكونُ للأثيمِ؟ فَيَحْتَمِلُ ذلكَ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ يَخرُجُ منها شيءٌ، ويسيلُ، فَيَسْقي ذلكَ الكافرَ.

[والثاني][12]: يَحتَمِلُ [أنها تُؤكَلُ][13] كما هي، فَتذوبُ في بَطْنِهِ، فَتَغْلي. فيكونُ ما ذُكِرَ، ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ رَأى فضةً، قد أُذيبَتْ، فقال: هذا المُهْلُ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: أنه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كقولِهِ تعالى. (٩) في الأصل وم: وجهين. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: أنه يأكل.

فجائزٌ أنْ يكونَ على هذا كلُّ شيءٍ يُذابُ، ويَحْرِقُ، فهو المُهْلُ.

والحَميمُ: هو الشيءُ الحارُّ الذي قدِ انْتَهى حَرُّهُ غايَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ هذا ذلكَ بَعْدَ ما أُدْخِلوا في النارِ. لكنْ يَحْتَمِلُ أيضاً أنْ يكونَ ذلكَ في أوّلِ ما يُرادُ أنْ يُدْخَلوا النارَ كقولِهِ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ و٣١] فَعَلَى ذلكَ ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أيِ ادْفَعوهُ إلى سَواءِ الجَحيمِ أي إلى وَسْطِ الجَحيمِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي قودوهُ إلى سَواءِ الجَحيمِ. يُقالُ: جيءَ بِفُلانٍ يُعْتَلُ إلى السلطانِ أي يُجَرُّ، ويُقادُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو السَّوقُ الذي فيهِ شِدَّةٌ وتعنيفٌ، أي سُوقوهُ سَوقاً شديداً عنيفاً. وبَعْضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ. والجَحيمُ، هو مُعْظَمُ النارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي مِنْ شَرابِ الحَميمِ؛ جَعَلَ اللهُ ﷻ لأهلِ النارِ مِنْ ألوانِ الشَّرابِ الحَميمَ والصَّديدَ ونَحْوَهُما مَكانَ ما جَعَلَ لأهلِ الجنةِ مِنْ أنواعِ الشرابِ حينَ[1] قالَ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ الآية [محمد: ١٥].

ثم في الآيةِ أنَّ الفريقَيْنِ جميعاً لا يَتَوَلَّوْنَ شُرْبَها بأنفسِهِمْ، لكنهمْ يُسْقَوْنَ على ما ذَكَرَ في أهلِ الجنةِ في غَيرِ آيةٍ[2] مِنَ القرآنِ حينَ[3] قالَ تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥] وقالَ[4] تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧] ونَحْوُ ذلكَ كثيرٌ.

وقالَ في أهلِ النارِ: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ وقالَ[5]: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] وغيرَ ذلكَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنما يُقالُ هذا لأبي جهلٍ اللَّعينِ، ولهُ ذلكَ العذابُ الذي ذُكِرَ في الآيةِ، وهو المُرادُ بالأثيمِ، كانَ في الدنيا يَفْتَخِرُ ويقولُ: أنا العزيزُ الكريمُ، وليسَ ما بَينَ كذا إلى كذا أعَزُّ مني، وأنا المُتَعَزِّزُ المُتَكَرِّمُ. فَيُقالُ لهُ في الآخِرةِ: ﴿ذُقْ﴾ هذا الذي ذَكَرَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ في الدنيا؛ يُصَغِّرونَهُ، ويُهينونَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في كلِّ كافرٍ يَتَعَزَّزُ في الدنيا، ويَتَكَرَّمُ، وكلِّ رئيسٍ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي ذُقْ فإنكَ لَسْتَ بعزيزٍ ولا كريمٍ.

الآية ٥٠ ثم يُقالُ ذلك لهُ على الهُزْءِ بِهِ ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي لو كُنْتَ عزيزاً كريماً ما دَخَلْتَ النارَ، واللهُ أعلَمُ. /٥٠٥ ـ أ/

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ فيهِ لغتانِ: مُقام بالرفعِ[6] ومَقام بالنصبِ. فَمَنْ قَرَأَ بالنصبِ فهو مَوضِعُ المَقامِ، وهو المَنْزِلُ والمَسْكَنُ، معناهُ: في مَسْكَنٍ أمينٍ: أَمِنوا فيهِ[7] مِنَ الآفاتِ والأوصابِ والأسْقامِ.

ومَنْ قَرَأَ برفعِ الميمِ فهو المَصْدَرُ؛ يَعْني الإقامةَ، أي يُقيمونَ فيها آمنينَ مِنَ الخُروجِ عنها والزوالِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥٢ و٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قالوا: السُّنْدُسُ ما رَقَّ مِنَ الدِّيباجِ، والإسْتَبْرَقُ ما غَلُظَ منهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: آي. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) في الأصل وم: وقوله.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٤٣. (٧) في الأصل وم: فيها.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ اللُّبْسِ لِما رَقَّ منهُ. فأمّا ما غَلُظَ منهُ فإنهُ يُبْسَطُ، وإنْ كانَ ذلكَ اللُّبْسُ فيهما في الظاهرِ يَتَناوَلُ ما رَقَّ منهُ، وما غَلُظَ. فالمُرادُ مِنْ ذِكْرِ اللُّبْسِ يرجعُ إلى ما يُلْبَسُ، وهو الذي يَرِقُّ منهُ، ويَدِقُّ.

وجائزٌ في اللغةِ أنْ يُذْكَرَ الشَّيئانِ باسْمِ أحدِهِما إذا كانَ بَيْنَهُما ازْدِواجٌ في الجملةِ عادةً أو حقيقةً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ إنما ذكَرَهُما جميعاً لِما يكونُ مِنْ رغبةِ الناسِ إليهما جميعاً في الدنيا، فَرَغَّبَهُمْ في الآخِرَةِ، وَوَعَدَ لهُمْ أنْ يكونَ لهمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِحُورٍ﴾ بِبِيضِ الوجوهِ، و﴿عِينٍ﴾ أي حِسانِ الأعيُنِ. وقالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: الحَوَرُ في العَينِ، هو شدةُ سوادِها وبياضُ بَياضِها، ويُقالُ: امرأةٌ حوراءُ، ونِسْوَةٌ حُورٌ، ورَجُلٌ أحْوَرُ، وقومٌ حُورٌ، والعَيناءُ الحَسَنَةُ العَيْنَينِ؛ يقالُ: رجلٌ أعْيَنُ، ورجالٌ عِينٌ، وامرأةٌ عَيناءُ ونِسْوَةٌ عِينٌ، فالجماعةُ على هيئةٍ واحدةٍ في هذا البابِ في المذكرِ والمؤنثِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي ثمارُ الجنةِ وفواكِهُها ليسَ فيها فَسادٌ ولا انْقِطاعٌ، ولا نُقْصانٌ ولا زوالٌ ﴿يَدْعُونَ﴾ يَسْألونَ إذا حَضَروها، ولا يُسْألونَ كما يُسْألونَ في الدنيا: هل بَقِيَ شيءٌ؟ أو هل عندكُمْ شيءٌ مِنَ الفواكِهِ؟ ونَحْوُ ذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ لِثِمارِ الدنيا ما ذَكَرْنا انْقِطاعاً[1] وفَناءً، وليسَ لِثمارِ الجنةِ وفواكِهِها كذلكَ. لِذلكَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِنِ انْقِطاعِ فواكِهِها وثِمارِها وما ذُكِرَ.

[والثاني][2]: ﴿ءَامِنِينَ﴾ فيها في الجنةِ، ليسَ لهمْ خَوفُ الخروجِ عنها والزوالِ، و﴿ءَامِنِينَ﴾ مِنْ جميعِ الآفاتِ التي تكونُ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ والإشكالُ أنهُ نَفَى المَوتَ في الجنةِ، واسْتَثْنَى المَوْتَةَ الأُولَى، وليسَ في الجنةِ مَوتٌ أصلاً. كيفَ يَسْتَثْني المَوْتَةَ الأُولَى؟ وإنَّ ظاهرَ الاسْتِثناءِ أنْ يكونَ مِنْ جنسِ المُسْتَثْنَى منهُ، فَيُوهِمَ أنْ يكونَ في الجنةِ مَوتٌ؟

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ إلّا بِمَعْنَى غيرِ وسِوَى، وفيهِ إضمارٌ كأنهُ [قالَ][3]: لا يذوقونَ فيها أي في الجنةِ المَوتَ سِوَى المَوْتَةِ الأُولَى [التي][4] ذاقوا في الدنيا، لأنَّ المَوْتَةَ الأُولَى [التي][5] ذاقوا هي[6] المَوْتَةُ الأُولَى، لا يُتَصَوَّرُ ذَوقُها ثانياً لو كانَ يكونُ مثلُها، ولأنَّ الجنةَ ليسَتْ مَحَلَّ المَوتِ، فكانَ المُرادُ ما قُلْنا، أي لا يذوقونَ في الجنةِ المَوتَ الذي ذاقوا في الدنيا. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي سِوَى ما قد سلفَ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢]. في ذلكَ الوقتِ على أحدِ التأويلَينِ، واللهُ أعلَمُ.

وعندَنا يُخَرَّجُ تأويلُهُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ إلّا ما ذاقوا مِنَ المَوْتَةِ الأُولَى، لأنهُ ذُكِرَ[7] في الخَبَرِ أنهُ يُؤْتَى بالموتِ يومَ القيامةِ على صورةِ كبشٍ أمْلَحَ أو كذا، فَيُذْبَحُ بينَ أيديهِمْ. فعندَ ذلكَ يأمَنونَ المَوتَ هنالكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يَرَونَهُ ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي رَأوها في الدنيا. تلكَ يَعْرِفونَها، ويَذْكُرونَها. فأمّا سِواها فلا. والذَّوقُ سَبَبُ المَعْرِفةِ، فاسْتُعيرَ للمعرفةِ مَجازاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ليسَ هو تَخْصيصَ وِقايةِ عذابِ الجَحيمِ فحسبُ. بل المُرادُ يَقيهِمُ العذابَ

---

(١) في الأصل وم: انقطاع. (٢) في الأصل وم: ويحتمل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وهي. (٧) في الأصل وم: ذلك.

كلّهُ. لكنّ الجحيمَ مُعظَمُ النارِ فَذكَرَهُ[1] كِنايةً عنِ الكُلِّ فَضلاً منهُ، ليسَ باسْتِحقاقٍ منهمْ بالأعمالِ على ما تقَدّمَ ذِكْرُهُ في غَيرِ مَوضعٍ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الفوزُ بأحدِ شيئَينِ:

أمّا الظّفَرُ فيما[2] يأمُلُ، ويَرجو، فإذا ظَفِرَ بذلكَ يقالُ: فازَ. وأمّا النجاةُ فَمِمّا[3] يَحذَرُ، ويَخافُ؛ إذا حَذِرَ أمراً، يَخافُهُ، فَيَخْلُصُ منْ ذلكَ؛ يقالُ: فأيُّهُما كانَ فهو فَوزٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ جميعُ أمورِ الآخِرَةِ وحالُها سُمّيَ عظيماً مِنَ العذابِ والنّعيم. قالَ اللهُ تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٥] وقال[4] ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥ و...] وقال[5] ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: كأنهُ يقولُ: فإنما أنزَلْنا القرآنَ بلسانِكَ، ويَسَّرْناهُ للذِّكْرِ لِيُلْزِمَهُمُ الشكرَ[6]، لأنهُ أنزَلَهُ بلسانِهِ، ويَسَّرَهُ لِقَومِهِ، لأنهُ لو كانَ مُنزَلاً بِغَيرِ لسانِهِ لم يكُنْ مُيَسَّراً لهمْ للذِّكرِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧] أخبَرَ أنهُ يَسَّرَهُ للذِّكرِ لأنهُ يَسَّرَهُ باللسانِ. ولكنَّ معناهُ ما ذَكَرْنا أنهُ أنزَلَهُ بلسانِهِ، ويَسَّرَهُ للذِّكْرِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ على لسانِكَ كي [تَذْكُرَهُ، وتَحفَظَهُ][7] بلا كتابةٍ ولا نَظَرٍ في كتابٍ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ كانَ ﷺ يَحفَظُ سورةً طويلةً إذا تَلاَ عليهِ جبريلُ ﷺ وقد أَمّنَهُ اللهُ ﷻ مِنَ النِّسيانِ بقولِهِ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

[وقولُهُ][8] ﷻ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يُخَرَّجُ على [وجهَينِ:

أحدُهما:][9] لكي يُلْزِمَهُمُ التذكُّرَ.

[والثاني][10]: لكي يَتَذَكّروا ما[11] قد نَسُوا مِنْ حقِّ اللهِ الذي عليهِمْ لِيَتّعِظوا بِمَواعِظِ اللهِ تعالى.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ على وجهَينِ:

أحدُهما: ارْتَقِبْ ما وَعَدَ اللهُ أنْ يَنْزِلَ بهِمْ مِنَ العذابِ فإنهمْ مُرْتَقِبونَ هلاكَكَ وانقِطاعَكَ ونَحوَهُ.

والثاني: ارْتَقِبْ، ولا تُكافِئْهُمْ، ولا تَدْعُ عليهِمْ بالهَلاكِ فإنهمْ مُرْتَقِبونَ ما ألْقى الشيطانُ في أُمْنِيَّتِهِمْ بأنَّ مُلْكَكَ يَزولُ، وأنهُ يعودُ إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: فَارْتَقِبْهُمْ[12] إنهمْ مُرْتَقِبونَ. والإرْتِقابُ الإنْتِظارُ، واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ][13].

(١) في الأصل وم: فذكروه. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: مما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: التذكير. (٧) في الأصل وم: ذكرته، وحفظته. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وجوه أحدها. (١٠) في الأصل وم: ويحتمل. (١١) في الأصل وم: وإما. (١٢) من م، في الأصل: فارتقب. (١٣) ساقطة من م.

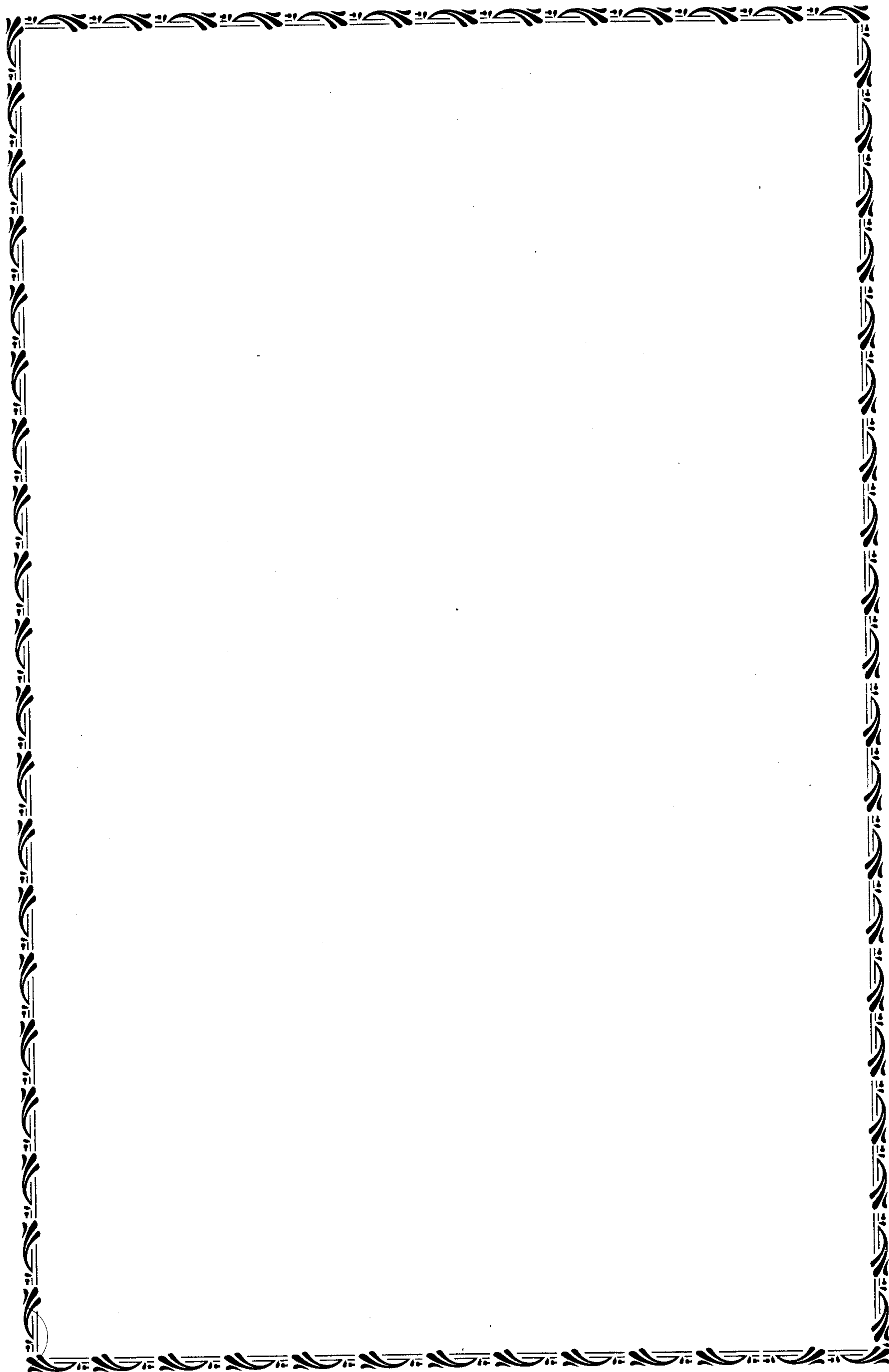

سورة(١) الجاثية

[وهي](٢) مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وقد ذَكَرْنا أيضاً تأويلَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ في غيرِ موضعٍ أيضاً /٥٠٥ ـ ب/ ثم إنما ذَكَرَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ على إثْرِ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنهُ ما أنْزَلَ الكتابَ، وما أمَرَهُمْ، وما نَهاهُمْ، وامْتَحَنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ لِيَتَعَزَّزَ هو بذلكَ، أو يُريدَ لهُ عِزّاً وسُلْطاناً أو قُوَّةً إذا ائْتَمَروهُ، وأطاعوهُ. وإذا خالَفوهُ، ولم يُطيعوهُ في ما أمَرَهُمْ، وارْتَكَبوا ما نَهاهُمْ، يَلْحَقَهُ ذُلٌّ أو نُقْصانٌ في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ.

بل إنما فَعَلَ ذلكَ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ وأنواعِ المِحنِ لِمَنْفَعَةِ [أنفسِ](٣) المُمْتَحَنينَ لِيَتَعَزَّزوا إذا اتَّبعوا أمْرَهُ، وأطاعوهُ، ويَلْحَقَهُمْ ذُلٌّ ونُقْصانٌ إذا تَرَكوا اتِّباعَهُ بِخِلافِ ملوكِ الأرضِ فإنهُ يَزيدُ لهمُ اتِّباعُ مَنِ اتَّبَعَهُمْ عِزّاً وسُلْطاناً وقوةً في ملكِهِمْ، وتَرْكُ أتباعِهِمْ إياهُمْ وارْتِكابُ ما نهاهُمْ عنهُمْ يوجِبُ لهمْ ذُلّاً ونُقْصاناً في مُلْكِهِمْ، لأنَّ المَخْلوقَ كانَ عزيزاً بِغَيرِهِ، فإذا زالَ ذلكَ زالَ عِزُّهُ، وصارَ ذُلّاً.

فأمّا اللهُ ﷻ [فهو](٤) عزيزٌ بذاتِهِ، فلا يَلْحَقُهُ النُّقْصانُ بِمُخالفةِ مَنْ خالَفَهُ، ولا يَزْدادُ عِزَّةً بائْتِمارِ مَنِ ائْتَمَرَهُ.

وهو(٥) الحكيمُ، والحكيمُ الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التدبيرِ. يَذْكُرُ هذا لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ أنشأَ مِنَ الخلائقِ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ يَكْفُرونَ بهِ، ويَعْصونَهُ، لم تَزَلْ عنهُ الحكمةُ، ولا أخْرَجَهُ منها لِما ذَكَرْنا أنهُ لم يُنْشِئْهُمْ لِحاجةٍ لهُ(٦) فيهمْ أو لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إليهِ، ولكنْ لحاجةٍ لهمْ ولِمَنْفَعَةٍ ترجعُ إلى أنفسِهِمْ، ومِثْلُهُ في الشاهدِ يُزيلُ الحكمةَ، ويَدْخُلُ في حَدِّ السَّفَهِ لِما ذَكَرْنا أنهمْ إنما يَفْعَلونَ لِحَوائِجِهِمْ.

فكانَ الفِعْلُ معَ العِلْمِ بأنهُ لا مَنْفَعَةَ لهُ فيهِ، ولا(٧) مَضَرَّةً، لايكونُ حكمةً منهمْ. لذلكَ افْتَرَقَ والغائبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٣و٤و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ونَحْوُ ذلكَ، يُخَرَّجُ ذِكْرُ الآياتِ لهؤلاءِ [على](٨) وجوهٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ لهؤلاءِ آياتٍ على أعدائِهِمْ، يَحْتَجّونَ بها عليهِمْ، فتكونُ هي آياتٍ على أعدائِهِمْ.

والثاني: أنَّ مَنْفَعَةَ هذهِ الآياتِ تُجْعَلُ لهؤلاءِ، وهُمُ المُنْتَفِعونَ بها، أعني مُتَّبِعيها دونَ مَنْ تَرَكَ اتِّباعَها.

والثالثُ: هنَّ آياتٌ لِمَنِ اعْتَقَدَ اتِّباعَ الآياتِ والإيقانَ بها، وهُمُ المؤمنونَ.

فأمّا مَنِ اعْتَقَدَ رَدَّها وتَرْكَ الاتِّباعِ لها فليسَتْ هي آياتٍ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ جِهَةَ الآياتِ في ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ واخْتِلافِ الليلِ والنهارِ وإنزالِ الماءِ مِنَ

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) من م، في الأصل: لهم. (٧) في الأصل وم: بل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

السماءِ وإحياءِ الأرضِ بهِ وإخراجِ ما أخرَجَ منها. في ذلكَ آياتُ هيبَتِهِ وآياتُ وَحدانيَّتِهِ وآياتُ قُدرَتِهِ وسُلطانِهِ وآياتُ عِلمِهِ وتدبيرِهِ وآياتُ حِكْمَتِهِ وغيرُ ذلكَ ما يطولُ الكتابُ بِذِكْرِها، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قولُهُ ﷻ: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى الآياتِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ إنها مِنَ اللهِ تعالى لمّا عَجِزوا عنْ إدراكِ ذلكَ مِنَ الحكمةِ البَشَرِيَّةِ بهِ، فَيَعلمونَ أنها مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو كانوا بالذينَ يَقْبَلونَ حديثاً[١] فلا حديثَ أظهَرُ صِدقاً مِنْ حديثِ اللهِ، ولا أبْيَنُ حقاً فيهِ مِنْ كلامِهِ، لأنهُ آياتٌ مُعجِزاتٌ، عَجِزوا عنْ إتيانِ مثلِهِ.

[والثاني][٢]: وإنْ كانوا بالذينَ لا يَقْبَلونَ حديثاً، فَيَلْحَقُهُمُ السَّفَهُ في ذلكَ، فَيَكْفِي مُؤْنَتَهُمْ، واللهُ الهادي.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفّاكُ هو المَصْروفُ عنِ اتّباعِ ما تُوجِبُ الحكمةُ اتّباعَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الأفّاكُ الكذّابُ، والأثيمُ، هو الذي اعْتادَ الإثمَ، وهو أكثَرُ مِنَ الآثِمِ.

الآية ٨ [ثم][٣] نَعَتَ ذلكَ الأفّاكَ، فقالَ: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ آياتِ وَحدانيَّةِ اللهِ ﷻ وآياتِ رسالةِ رسولِ اللهِ ﷺ ثم أخبَرَ عنْ تَعَنُّتِهِ وعِنادِهِ في آياتِ اللهِ حينَ[٤] قالَ: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ بَعدَ تلاوةِ الآياتِ عليهِ وبَعْدَ معرفَتِهِ وفَهْمِهِ أنها آياتُ اللهِ كما كانَ يُصِرُّ قبلَ ذلكَ لأنها آياتٌ خارجاتٌ عنْ وُسْعِهِمْ، إذْ عَجِزوا عنْ إتيانِ مِثْلِها.

فإذا كانَتْ خارجةً عنِ احْتِمالِ وُسْعِهِمْ، فكذلكَ هي خارجاتٌ عنْ وُسْعِ محمدٍ ﷺ إذْ هو واحدٌ مِنَ البَشَرِ مِثْلُهُمْ، فَعَرَفوا أنهُ إنما قَدَرَ على إتيانِ مِثْلِها باللهِ تعالى بِما أوحَى إليهِ، وأعْلَمَهُ بذلكَ.

[وقولُهُ تعالى:][٥] ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ عِناداً منهُ واسْتِكْباراً.

ثم أوعَدَهُ العذابَ الأليمَ، وهو قولُهُ: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مُؤلِمٍ مُوجِعٍ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي عذابٌ يُهينُهُمْ باسْتِهْزائِهِمْ بالآياتِ.

الآية ١٠ ثم قولُهُ[٦] تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أضافَ جهنَّمَ إلى ورائِهِمْ؛ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ وراءَ الدنيا، كأنهُ قالَ: مِنْ وراءِ هذهِ الدنيا لهمْ جهنَّمُ، لكنهُ أضافَ ذلكَ إليهِمْ لأنهمْ فيها، وهُمْ أهلُها.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مِنْ وراءِ أحوالِهِمُ التي هُمْ عليها جهنَّمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يَحتَمِلُ: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ أي ما عَمِلوا مِنَ القُرَبِ التي عَمِلوها رَجاءَ أنْ يَنفَعَهُمْ ذلكَ في الآخِرَةِ، أو يُقَرِّبَهُمْ ذلكَ إلى اللهِ زُلْفَى؛ يُخبِرُ أنَّ ذلكَ ممّا لا يُغنيهِمْ، ولا يَنفَعُهُمْ في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وَعَدَ لهمْ في كلِّ حالٍ وكلِّ أمرٍ كانَ منهمْ عذاباً غيرَ العذابِ في حالٍ أُخرى، ذكَرَ في الحالِ التي عَبَدوا الأصنامَ دونَهُ، واتَّخذوها أرباباً، العذابَ العظيمَ، وذَكَرَ لهمْ باسْتِهْزائِهِمْ بآياتِ اللهِ العذابَ المُهينَ: عذاباً يُهينُهُمْ، ويُهانونَ في ذلكَ، وذَكَرَ لهمْ بإصرارِهِمْ بما هُمْ عليهِ واسْتِكْبارِهِمْ على آياتِ اللهِ وعلى رسولِهِ العذابَ الأليمَ حتى يكونَ مُقابلَ كلِّ [ما][٧] كانَ منهمْ نوعٌ[٨] مِنَ العذابِ غَيرُ النوعِ الآخَرِ، [وذو صِفَةٍ][٩] غَيرِ الصفةِ الأُخرَى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: قط. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عذاباً. (٩) في الأصل وم: وبصفة.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي بَيانٌ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي عذابٌ مِنْ عذابِ أليمٍ؛ إذِ الرِّجْزُ هو العذابُ؛ كأنهُ فَسَّرَ ذلكَ العذابَ، ووصَفَهُ بالألمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ في تَسْخِيرِ البَحْرِ لهمْ معَ [أهوالِهِ وكثرةِ أمواجِهِ وامتِناعِهِ][1] عَنْ مَنافعِ الخَلْقِ، صَيَّرَهُ[2] بلطفِهِ ورحمتِهِ لهمْ كسائِرِ البِقاعِ في الوصولِ إلى ما فيهِ[3] مِنَ الجواهِرِ واللآلئِ بالغَوصِ فيهِ والخَوضِ والاصْطِيادِ لِما فيهِ مِنْ أنواعِ الصَّيدِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ بِحِيَلٍ عَلَّمَهُمْ، وأسبابٍ جَعَلَ لهمْ حتى يَصِلوا إلى ما فيه مِنْ أنواعِ الجواهرِ والأموالِ النفيسَةِ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾][4] سَخَّرَها لهمْ أيضاً حتى عَبَروا البَحْرَ، ومَرّوا عليهِ بِسُفُنٍ أعطاهُمْ وحِيَلٍ عَلَّمَهُمْ حتى قَدَروا على عُبورِهِ والمُرورِ عليهِ لِيَصِلُوا إلى قَضاءِ حوائِجِهِمُ التي تكونُ في البلدانِ النائيةِ، وهو ما قالَ: ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ يَحْتَمِلُ [ثلاثةَ وجوهٍ:

أحدُها][5]: أنْ يكونَ عبارةً عنْ تكوينِهِ، أي بما كونُهُ وإنشاؤُهُ كذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

والثاني: يَحْتَمِلُ: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بالأمرِ الذي لهُ على العبادِ وسائِرِ خلائقِهِ.

[والثالثُ][6]: يَحْتَمِلُ: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بإذنِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي يُلْزِمَكُمُ الشُّكْرَ بذلكَ، أو ما ذَكَرَ ما فيهِ مِنَ الوجوهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي سَخَّرَ لهمْ ما في السمواتِ مِنَ الملائكةِ والشمسِ/ ٥٠٦ ـ أ/ والقمرِ والنجومِ وغيرِها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الأشجارِ والنباتِ والبهائمِ والدَّوابِّ حتى استَعْمَلوها كلَّها في مَنافِعِهِمْ وحوائِجِهِمْ كما استَعْمَلوا أملاكَهُمُ التي تَحويها أيديهِمْ بِتَسْخيرِ اللهِ تعالى إياهُمْ ذلكَ كلَّهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أي جميعُ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى. أخْبَرَ أنهُ سَخَّرَ جميعَ ما في هذينِ في السمواتِ والأرضِ، ثم أخبَرَ أنَّ ﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد ذَكَرْنا جهةَ الآيةِ في ذلكَ في غَيرِ موضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أمَرَ تعالى ﷻ المؤمنينَ بالعفوِ والصَّفحِ عَمَّنْ أساءَ إليهِمْ، وظَلَمَهُمْ حتى أمَرَهُمْ بالعفوِ والمغفرةِ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ، وأساءَ إليهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ لِيُعْلَمَ عظيمُ مَوقِعِ العفوِ والصَّفحِ عنِ المظلَمَةِ والإساءةِ عندَ اللهِ وما يكونُ لذلكَ مِنَ الثوابِ الجزيلِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ هذهِ الآياتِ إنما نَزَلَتْ بمكةَ، ومَنْ أسْلَمَ مِنْ أهلِ مكةَ بمكةَ كانوا مُسْتَخْفِينَ مَقهورينَ في أيدي الكَفَرَةِ، ثم لا يَتَهَيَّأُ لهمُ الانْتِصارُ منهمْ والانْتِقامُ عنْ مساوِئِهِمْ، وإنما يُؤْمَرُ المَرْءُ بالعَفْوِ عَنْ مَظْلَمَةِ [مَنْ ظَلَمَهُ][7] وأساءَ إليهِ، عندَ مَقْدِرَةِ الانْتِقامِ منهُ والانْتِصارِ.

فأمّا مَنْ لا يكونُ على مَقْدِرَةٍ مِنْ ذلكَ فلا مَعْنَى للأمرِ لهُ بذلكَ، إذْ هو عاجزٌ عنْ ذلكَ، فيكونُ الأمرُ بالعفوِ والصَّفحِ عنهمْ، وإنْ كانَ أهلُ الإسلامِ منهمْ مَقْهورينَ مَغْلوبينَ في أيدي أولئكَ الكَفَرَةِ على ما ذَكَرَ ثَمَّ لوجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ أمَرَهُمْ بذلكَ لِيَتقَرَّبوا بذلكَ إلى اللهِ، ويَجْعَلوا ذلكَ وَسيلةً وقُرْبَةً في ما بَينَهُمْ وبَينَ ربِّهِمْ، وإنْ لم يَكُنْ لهمْ مَقْدِرَةُ الانْتِقامِ والانْتِصارِ منهمْ ليكونَ العَفْوُ عنهمْ بِحَقِّ القُرْبَةِ [لا بحقِّ][8] التَّذَلُّلِ والخُشوعِ؛ إذْ يَعْفو كلٌّ عنِ اخْتيارٍ وطَوعٍ،

---

(١) في الأصل وم: أهوالها وكثرة أمواجها وامتناعها. (٢) في الأصل وم: صيرها. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

ويَصْبِرُ على ذلكَ ابْتِغاءَ وجهِ اللهِ تعالى، ويَتْرُكُ الجَزَعَ في نفسِهِ والمُخاصمةَ، لو قَدَرَ على الِانْتِقامِ، وهو ما أَمَرَ رسولَ اللهِ ﷺ بالهجرةِ إلى المدينةِ بَعْدَما أَخْبَرَهُ أنهمْ يريدونَ أنْ يَقْتُلوهُ أو يُخرِجوهُ حينَ[1] قالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] لِتكونَ الهجرةُ لهُ إلى اللهِ تعالى بِحَقِّ القُرْبةِ لا بِحَقِّ التَّذَلُّلِ بإخراجِهِمْ إياهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يرجِعَ الأمرُ بالعفوِ إلى كلِّ واحدٍ منهمْ في خاصَّةِ نفسِهِ، وقد كانَ مِنَ المسلمينَ منهمْ مَنْ يَقْدِرُ على الِانْتِقامِ والِانْتِصارِ مِنَ الأفرادِ والآحادِ منهمْ، وإنْ لم تكُنْ لهمُ المَقْدِرةُ على الِانْتِقامِ مِنْ جُمْلَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي نِعَمَ اللهِ الدائمةَ التي لا زوالَ لها، ولا انْقِطاعَ، التي وَعَدَها في الآخِرةِ لأهلِ الإيمانِ، وهي[2] ما قالَ في آيةٍ أُخرى في قصةِ موسى. على نَبِيِّنا وعليهِ السلام حينَ[3] قالَ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أي بِنِعَمِ اللهِ تعالى. ألا تَرَى أنَّ موسى عليه السلام فَسَّرَ أيامَ اللهِ بالنِّعْمةِ حينَ[4] قالَ على إثرِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية؟ [إبراهيم: ٦].

والثاني: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ على حقيقةِ الأيامِ لأنهمْ كانوا يَرَوْنَ هذهِ النِّعَمَ والسَّعةَ في الدنيا بِجَهْدِ أنفسِهِمْ وكَدِّهِمْ[5] لا بِما أجْرَى اللهُ تعالى النِّعَمَ إليهِمْ في الأيامِ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي لا يَحْذَرونَ نِقْمَةَ اللهِ وعقوبَتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي لِيَجْزِيَ كلَّ قومٍ بما كَسَبوا مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ؛ يَجْزي مَنْ عَفا عنهمْ جَزاءَ العَفْوِ، ويَجْزي المُحْسِنَ جزاءَ الإحسانِ والمُسيءَ جَزاءَ الإساءةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ يُخبِرُ أنَّ مَنْ عَمِلَ مِنْ خيرٍ فإنما يَعْمَلُ [لِنفسِهِ، ومَنْ عَمِلَ مِنْ سُوءٍ فإنما يَعْمَلُ][6] على نفسِهِ؛ يُخبِرُ أنَّ مَنْ عَمِلَ مِنْ خيرٍ أو صالحٍ فلنفسِهِ سَعَى في الآخِرةِ [ومَنْ عَمِلَ مِنْ شرٍّ فَعَلَى نفسِهِ سَعَى في الآخِرةِ][7] كَمَنْ عَمِلَ في الدنيا مِنَ الأكلِ والشربِ فلنفسِهِ يَعْمَلُ، ومَنْ جَنَى مِنْ جناياتٍ فَعَلَى نفسِهِ جَنَى في الدنيا والآخِرةِ حينَ[8] يُهْلِكُ به نفسَهُ، ويَرْجِعُ إليهِ وبالُ ذلكَ في الدنيا والآخِرةِ. فَعَلَى ذلكَ ما قُلْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم إلى ما وَعَدَكُمْ ربُّكُمْ مِنَ الثوابِ والعقابِ تُرْجَعونَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي التوراةَ. والإشكالُ أنهُ آتى بَني إسرائيلَ جُمْلَةَ كُتُباً كثيرةً؛ أمّا التوراةُ والإنجيلُ والزبورُ فهي[9] كتبٌ قد يَعْرِفونها[10]، وقد يَجوزُ أنْ يكونَ لهمْ كتابٌ غيرُها، فما مَعْنَى ذِكْرِ الكتابِ؟ وما مَعْنَى حَمْلِهِمْ على التوراةِ إلّا أنْ نقولَ: يجوزُ أنْ يريدَ بِذِكْرِ الكتابِ الكتبَ، فإنْ أدخلَ الألفَ واللامَ، فيكونُ لِاسْتِغراقِ الجنسِ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ أرادَ بِهِ التوراةَ كما قالَ أهلُ التأويلِ؛ إذْ قد يجوزُ أنْ يُذْكَرَ اسْمُ العامِّ، ويُرادَ بِهِ الخاصُّ، وهو الواحدُ منهمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ التوراةُ هو الكتابَ الذي فيهِ عامَّةُ الأحكامِ، فإنهُ قيلَ: إنَّ الزَّبورَ [ليسَ][11] فيهِ الحِكَمُ، إنما فيهِ التَّسْبيحُ والتَّحْميدُ. وكذا الإنجيلُ ليسَ فيهِ إلّا أحكامٌ قليلةٌ، فيجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بِهِ التوراةَ لهذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْحُكْمَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي فَهْمَ ما فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالْحُكْمَ﴾ فِقْهَ ما في الكتابِ؛ إذِ الحُكْمُ الظاهرُ داخلٌ تحتَ قولِهِ ﴿الْكِتَابَ﴾ بَيِّنٌ بقولِهِ: ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أنهُ أعطَى لهُ الحُكْمَ الظاهرَ فيهِ والحُكْمَ المُسْتَخْرَجَ منهُ بالِاسْتِنْباطِ والِاجْتِهادِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وكذبهم.
(٦) و(٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعرفها. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتَمِلُ أنْ يُرادَ بالكتابِ هو ما يُتلَى في ما بَينَهُمْ وبينَ ربِّهِمْ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ هو ما أمَرَهُمْ فيهِ أنْ يَحكُموا في ما بَينَ العبادِ، واللهُ أعلَمُ

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إنما ذَكَرَ النُّبُوَّةَ لأنَّ النُّبُوَّةَ كانت ظاهرةً [في][1] بَني إسرائيلَ كذا كذا رسولاً ونبياً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قد كان رِزْقُهُمُ الطَّيِّباتِ ما ذَكَرَ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى، وغَيرُ ذلكَ مِنَ الطَّيِّبات فلا يُحصَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد ذكَرْنا تَفْضيلَهُمْ على العالَمينَ في [غيرِ مَوضِعٍ][2].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي آياتٍ مِنَ الأمرِ. وقيلَ: ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي ما بيَّن لهمْ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ والشُّبَهِ [وأنْباءِ مَنْ][3] كانَ قَبلَهُمْ، واللهُ أعلَمُ. ويَحتَمِلُ ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي بَيانَ ما تَقَعُ الحاجةُ إليهِ مِنَ الأمرِ.

وعندَنا ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي بَيِّناتِ التكوينِ ودلالاتِ لِما جَعَلَ اللهُ في نفسِ كلِّ أحدٍ مِنْ دلالاتِ وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، أو ما أقامَ مِنَ الآياتِ في العالَمِ على التكوينِ يدلُّ على جَعْلِ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ على ما ذكَرْنا مِنْ أمرِ التكوينِ، أي ما اختَلَفوا في صَرْفِ الألوهيَّةِ والوحدانيَّةِ عنِ اللهِ تعالى إلى غَيرِهِ إلا بَعدَ ما جاءَهُمُ العِلْمُ أي الأمرُ [إلا مِنْ بَعْدِ][4] ما بَيَّنَ لهمْ أنَّ الألوهيَّةَ والربوبيَّةَ بالدلالةِ الواضحةِ والحُجَّةِ النيِّرةِ، وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمرَ، إلا أنهُ ذَكَرَ العِلْمَ، وأرادَ بهِ أسبابَ العلمِ ودلالتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمرَ المجيءِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والتحليلِ والتحريمِ وبيانَ ما يُؤتَى وما يُتَّقى وما لَهُمْ وما عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ واختِلافُهُمْ في ما امْتُحِنوا يَتَوجَّهُ إلى وجوهٍ:

أحَدُها: ما اختَلَفوا في ما امْتُحِنوا مِنَ الدينِ أو في ما امْتُحِنوا في اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ والإجابةِ /٥٠٦ ـ ب/ إلى ما يَدْعُوهُمْ إليهِ والطاعةِ لهُ.

[والثاني][5]: اختِلافُهُمُ الذي ذَكَرَ الاختِلافُ في القرآنِ.

[والثالث][6]: في ما امْتُحِنوا مِنَ التحليلِ والتحريمِ.

ثم يُخبِرُ تعالى، جَلَّ، وعلا، أنهمْ ما اختَلَفوا إلا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ العلمُ بالحقِّ في ذلكَ والبَيانِ أنهُ مِنَ اللهِ، وأنَّ ما هُمْ عليهِ باطلٌ مُضمَحِلٌّ.

ثم أخبَرَ أنَّ اختِلافَهُمْ إنما هو لِبَغْيٍ بَينَهُمْ وحَسَدٍ، حَمَلَهُمْ ذلكَ على الاختِلافِ في ما بَينَهُمْ.

ثم أخبَرَ أنهُ ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي يَجزيهِمْ في الآخِرَةِ جزاءَ اختِلافِهِمْ في الدنيا.

[والثاني][7]: ﴿يَقْضِى﴾ أي يَفْصِلُ، ويُبيِّنُ لهمْ يومَ القيامةِ الحقَّ مِنَ الباطلِ والمُحِقَّ والمُبْطِلَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: موضعه. (٣) في الأصل وم: وبنا ما. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ويحتمل. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: أو.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا صلةَ قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ كأنَّهُ يقولُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ وجعَلْنا ذلك شريعةً لكَ، فاتَّبِعْها أنتَ، ولو لم يَتَّبِعوها هُمْ.

والشريعةُ هي المِلَّةُ والمَذْهبُ، وهي ما شَرَعَ فيه، ويَذْهبُ إليهِ. كذلك قالَهُ القُتَبِيُّ، قالَ: شَرَعَ فلانٌ في كذا إذا أخذَ فيهِ، ومنهُ مَشارِعُ الماءِ [وهي][1] الفُرَضُ التي يَشْرَعُ منها الناسُ، والواردةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الشريعةُ السُّنَّةُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخبَرَ أنَّ الذي هُمْ عليه إنما هو هَوَى النفسِ، فقالَ ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [وجهَينِ:

أحدُها:][2] لِما لم يَتأمَّلوا، ويَتفكَّروا [ما لو تأمَّلوا، وتَفكَّروا][3] فيهِ لَعَلِموا، لأنهُ قد ذَكَرَ في أوَّلِ الآيةِ أنهمْ إنما اختَلَفوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ، أي جاءَهُمْ مِنْ دلائِلِ العلمِ ما لو تأمَّلوا، ونَظَروا فيها لَعَلِموا.

والثاني: نَفَى عنهمُ العِلْمَ لِما لم يَنْتَفِعوا بما عَلِموا وما جعَلَ لهمْ مِنَ العِلْمِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لوِ اتَّبَعْتَ أهواءَهُمْ لَنْ يُغْنوا عنكَ مِنَ اللهِ، أي لنْ يُغْنِيَ أولئكَ عنْ دفعِ ما يَنْزِلُ بكَ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ الآيةَ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

ثم أخبَرَ أنَّ الظالمينَ بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ [بقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾][4] يَحتمِلُ ولايةَ الدينِ والمذهبِ، أي بعضُهُمْ يُوالي بعضاً في الدينِ. ويَحتمِلُ غَيرَهُ أي يلي بعضُهُمْ أمرَ بعضٍ في الإعانةِ والنُّصْرةِ، واللهُ أعلَمُ

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يَحتمِلُ أي يلي أمورَ المُتَّقينَ. ويَحتمِلُ ﴿وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي ناصِرُهُمْ ومُعينُهُمْ.

الآية ٢٠ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ سَمّى اللهُ تعالى هذا القرآنَ مَرَّةً بَصائرَ، وهو ما يُبْصَرُ بِهِ، ومَرَّةً هُدًى وبَياناً ورحمةً ونوراً ونَحْوَهُ؛ وهو هكذا، هو هدًى وبَيانٌ ونورٌ وبَصيرةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، ونَظَرَ إليهِ بعينِ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ، وقَبِلَهُ.

ويَحتمِلُ ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ بياناً[6] يُبيِّنُ لهمْ أنهُ مِنَ اللهِ، فَيُبيِّنُ لهمُ الحقَّ مِنَ الباطلِ، ويُبيِّنُ ما لهمْ وما عليهِمْ لِمَنْ ذَكَرَ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: نَفَرٌ مِنَ الكَفَرةِ قالوا، واللهُ أعلَمُ: إنَّ كلَّ ما يقولُهُ محمدٌ مِنَ الثوابِ والنعيمِ في الجنةِ حقّاً، فَنَحْنُ أولَى بذلكَ منهمْ كما كُنّا في نَعيمِ الدنيا ولذّاتِها أولَى منهُمْ، أو لَنُعْطَيَنَّ أفضلَ مما يُعطَون، ولَنُفَضَّلَنَّ عليهِمْ كما فُضِّلْنا في الدنيا. فأنزَلَ اللهُ ﷻ في ذلكَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيةَ.

لكنَّ هذا التأويلَ ضعيفٌ لأنَّ هذا لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ جواباً لِلنازلةِ التي ذَكَرَها أهلُ التأويلِ لأنَّ أولئكَ قالوا: نحنُ أولَى بِما يكونُ في الآخِرةِ مِنَ النَّعيمِ واللَّذّاتِ منهمْ كما كُنّا في الدنيا أولَى، وكما فُضِّلْنا في الدنيا نُفَضَّلُ في الآخرةِ، فلا يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً﴾ جواباً لِما قالوا، وهُمْ إنما قالوا: نحنُ أولَى بذلكَ، ونحنُ نُفَضَّلُ فيها كما فُضِّلْنا في الدنيا.

فإذا كانوا حَسِبوا هُمْ أنهمْ مُفَضَّلونَ على المؤمنينَ في الآخِرةِ دونَ المُساواةِ، كيفَ يُخْبِرُ عنهمْ أنهمْ حَسِبوا التَّساوِيَ، ولا خِلافَ في خَبرِ اللهِ ﷻ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بيان.

لكنَّ الآيةَ عندَنا إنما كانَتْ في مُنكِري البَعْثِ وجاحدِيهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلمُ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً﴾ الآية أي لو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّ أولئك بأنْ لا بَعْثَ ولا نُشورَ كانَ في ذلكَ جَعْلُ الذينَ اجْتَرَحوا السَّيِّئاتِ أي الشِّرْكَ كالذينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصالحاتِ؛ ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ لأنهمْ جميعاً قدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا في لَذّاتِها ونَعيمِها وشدائِدِها وآلامِها.

وفي الحكمةِ والعقلِ التَّفريقُ بَينَهما والتَّمييزُ وإنزالُ كلِّ واحدٍ منهما مَنزِلَتَهُ وما يَسْتَحِقُّهُ: المسيءُ [مِنَ][1] العقوبةِ وجَزاءِ الإساءةِ، والمُحْسِنُ [مِنَ][2] الإحسانِ والإفضالِ وجَزاءِ إحسانِهِ.

فإذا جُمِعَ بَينَهما في هذهِ الدنيا على ما ذَكَرْنا دلَّ أنَّ هناكَ داراً أُخرَى فيها يُفَرِّقُ، ويُمَيِّزُ بَينَهما في حقِّ الثوابِ والعقابِ، واللهُ أعلَمُ

وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] لو كانَ كما ظَنَّ أولئك الكَفَرَةُ أنْ لا بَعْثَ، ولا نُشورَ، كانَ خَلْقُ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما باطلاً على ظَنِّهِمْ.

فلِذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ إذا لم يكُنْ هنالكَ رجوعٌ إليهِ عَبَثاً باطلاً.

فهذا أَوْلَى وأحَقُّ أنْ تُصرَفَ إليهِ الآيةُ. وعلى ذلكَ ما ذُكِرَ في قولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الآية [الأنعام ٥٠ والرعد ١٦] وقولِهِ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] أي لا يَسْتَوِيانِ.

ولو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّ أولئكَ أنْ لا بَعْثَ، ولا نُشورَ، ولا حياةَ، كانَ في ذلكَ اسْتِواءٌ بينَ مَنْ ذَكَرَ، وقد سَوَّى بَينَهمْ في الدنيا، وفي الحكمةِ والعقلِ التَّفريقُ بَينَهما والتَّمْييزُ؛ إذْ لا تَجوزُ التسويةُ بَينَ الوليِّ والعَدُوِّ، وقد سَوَّى بَينَهما [في الدنيا][3] فَعُلِمَ أنَّ المُرادَ بِهِ نَفْيُ الِاسْتِواءِ بَينَهما في دارٍ أُخرَى، واللهُ الموفِّقُ.

ثم اخْتَلَفَ أهلُ الكلامِ في ما يُعْطَى الوَلِيُّ والعَدُوُّ في هذهِ الدنيا مِنَ الصِّحَّةِ والسلامةِ على قولِ أكْثَرِ المُعْتَزِلَةِ: إنَّ اللهَ لا يُعْطي أحداً في الدنيا مِنْ كافرٍ أو مؤمنٍ شيئاً إلّا وهو أصلَحُ لهُ في الدينِ.

ثم على قولِهِمْ: لا يَظْهَرُ عَفْوُ اللهِ تعالى في الآخِرَةِ لأنهمْ يقولُونَ: إنما يَسْتَوجِبونَ الثوابَ والجنةَ بأعمالِهِمْ لا برحمةِ اللهِ تعالى. فإذا عَفا عنِ المُسيءِ فلا يُعْلَمُ أنهُ كانَ مُسْتَحِقّاً [لِذلكَ، أو كانَ العَفْوُ][4] منهُ فَضْلاً.

وعندَنا أنَّ ما أعطاهُمْ إنما يُعْطيهِمْ إفضالاً منهُ ورحمةً، فَيَعْرِفونَ فضلَهُ وإحسانَهُ وعَفْوَهُ.

وأكثَرُ أصحابِنا يقولونَ: إنَّ جميعَ ما أعْطَى الكافرَ في الدنيا فهو شَرٌّ لهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقولِهِ ﷺ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون ٥٥ و٥٦] ونَحْوُ ذلكَ ما يُخْبِرُ أنَّ ما يُعْطي إياهُمْ يكونُ ذلكَ شرّاً لهمْ، وما أعْطَى [المؤمنينَ][5] يكونُ خيراً لهمْ.

ولكنْ عندَنا ليسَ هذا على الإطلاقِ والإرسالِ. ولكنْ ما كانَ توفيقاً منهُ على الخَيراتِ في نفسِها فهو خَيرٌ لهُ[6] / ٥٠٧ ـ أ/ وما كانَ خِذْلاناً فهو شَرٌّ لهُ، وليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصلَحِ لهمْ على ما يقولُهُ المعتزلةُ، ولكنهُ يَفْعَلُ بهمْ ما هو حكمةٌ وعدلٌ كما يَفْعَلُ ما هو إحسانٌ وفَضْلٌ، واللهُ الموفِّقُ.

قال القُتَبيُّ: ﴿ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي اكْتَسَبوها، ومنهُ قيلَ لِكلابِ الصيدِ جوارحُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: كذلك أو يعفو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرجت بعدها العبارة التالية في الأصل وم: أن ما يعطي إياهم يكون ذلك شراً لهم وما أعطى يكون خيراً لهم، ولعل ذلك سهو من الناسخ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحَقِّ لِتُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ.

فلو لم يكنْ جَزاءٌ لِما كَسَبوا في الدنيا في الآخِرَةِ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ: أنْ لا جَزاءَ مِنَ الثوابِ والعقابِ لإنكارِهِمُ البَعْثَ لم يَكُنْ خَلقُهُما بالحقِّ على ما ذَكَرْنا، فَتَبَيَّنَ أنهُ إنما صارَ خَلْقُهُما [حقًّا إذْ][1] كانَ هنالكَ جَزاءٌ. وهذا يدلُّ على أنَّ الآيةَ هي في مُنْكِري البعثِ، ليسَتْ في ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على التَّحْقيقِ على ما قالَهُ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أنهمْ عبدوا كلَّ شيءٍ اسْتَحْسَنوهُ [كانوا إذا اسْتَحْسَنوا شيئاً هَوُوهُ، وعَبَدوهُ، ثم إذا رَأَوا][2] شيئاً آخرَ أحسَنَ منهُ تَرَكوا عبادةَ الأوَّلِ، وعَبَدوا الثانيَ. فتلكَ كانَتْ عادَتُهُمْ، وذلكَ اتِّخاذُ الآلهةِ بِهواهُمْ؛ إذِ الإلهُ، هو المعبودُ عندَهُمْ، وهو التحقيقُ الذي ذَكَرْنا.

والثاني: على التَّمْثيلِ، وهو ما قالَ قَتادةُ: أنهمْ ما هَوُوا شيئاً إلّا رَكِبوهُ، لا يَمْنَعُهُمْ مَخافَةُ اللهِ عمّا هَوُوهُ، ولا تَرْدَعُهُمْ خَشْيَةٌ عمّا اشتَهَوا، فَصَيَّروا هواهُمْ مُتَّبَعاً، فهو كالإلهِ لهمْ، لا يَتَّبِعونَ أمرَ اللهِ، فلا يَكْتَرِثونَ لهُ، أو كلامٌ نَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي أضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ مِنْ ذلكَ الإنسانِ بالطريقِ: الهُدَى والحقِّ، لا أنهُ أضَلَّهُ على خَفاءٍ مِنْ ذلكَ الإنسانِ بالطريقِ الحقِّ وسَبيلِهِ، أي قد بَيَّنَ لهُ السبيلَ والطريقَ الحقَّ.

[والثاني: أي أضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ منهُ، أي][3] أنشأ منهُ فِعْلَ الضلالِ على عِلْمٍ منهُ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي غَطَّى قَلْبَهُ بِما هَوِيَهُ، وجَعَلَ فيه ظُلْمَةً؛ فتلكَ الظُّلْمَةُ وذلكَ الغِطاءُ أوجَبَهُ غِطاءُ السَّمْعِ والبصرِ، وحالَ بَيْنَهُ وبَيْنَ سَماعِ الحُجَجِ والبراهينِ، وصارَتْ ظُلْمَةُ البَصَرِ وغِطاؤُهُ مانعاً لهُ[4] عنِ اكْتِسابِ التَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ.

[والثاني:][5] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما هَوُوهُ مانعاً لهمْ عنِ اكْتِسابِ الحياةِ الدائمةِ ما لو اتَّبَعوا أمرَ اللهِ تعالى وما دعاهُمْ إليهِ كانَتْ لهمْ تلكَ الحياةُ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فما هَوُوهُ، واتَّبَعوهُ، مَنَعَهُمْ عنِ اكْتِسابِ الحياةِ الدائمةِ المُدْعَى إليها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: حقيقةُ الهدايةِ، وهو التوفيقُ والعصمةُ، فكأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: فَمَنْ يَقْدِرُ دونَ اللهِ هدايتَهُ وتوفيقَهُ بعدَ اختيارِهِ الضلالَ؟

والثاني: الهُدَى البَيانُ؛ فكأنهُ يقولُ: فَمَنْ يَقْدِرُ أنْ يأتِيَ بِبَيانٍ أكثَرَ وأبيَنَ مِنْ بعدِ بَيانِ اللهِ تعالى الذي بَيَّنَ لهُ؟ [أي لا][6] أحدَ يَقْدِرُ ذلكَ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تَتَّعِظونَ؟ أو أفلا تَذْكُرونَ بَيانَ اللهِ أو ما بَيَّنَ لهمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

ثم الآيةُ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً، لئلّا يَشْتَغِلَ بهمْ، ولا يَهْتَمَّ لهمْ، ولكنْ يَشْتَغِلُ بِغَيرِهِمْ، ويَقْطَعُ طَمَعَهُ عنْ إيمانِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما قالوا: ما الحياةُ إلّا حياةُ الدنيا. ويَحْتَمِلُ أنهمْ يقولونَ: ما هي: أي لا حياةَ إلّا الحياةُ التي دنَتْ منا.

---

(١) في الأصل وم: إذا. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكنه. (٤) في الأصل وم: لهم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يُخرَّجُ على وجهَين:

أحدُهما: أي نموتُ نحنُ، ويَحْيَى أبناؤُنا وأولادُنا.

والثاني: نموتُ، أي كنّا ميِّتينَ، فَحَيِينا ﴿نَمُوتُ﴾ بِمَعْنى كُنّا أمواتاً ﴿وَنَحْيَا﴾ أي فَصِرْنا أحياءً، ثم لا حياةَ بعدَ تلك الحياةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي ما يُهلِكُنا إلّا مرورُ الأزمنةِ والأوقاتِ أي بسببِ مرورِ الأوقاتِ تَنْتَهي آجالُنا، ونَبْلُغُ إلى الهلاكِ، وكذلكَ قالَ القُتَبيُّ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي إلّا مُرورُ السنِينَ والأيامِ.

والثاني: أي يكونُ الدهرُ عندَهمْ عبارةً عنِ الأبدِ، فكأنهمْ يقولونَ في قولِهِ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وما يُهلِكُ أنفسَنا إلّا لأنَّ أنفسَنا لم تُجعَلْ للأبَدِ ولا للبقاءِ، بل جُعِلَتْ لِلانقِضاءِ والفَناءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][1] ما هُمْ إلّا على ظَنٍّ يَظُنّونَ.

والثاني: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي وما لهمْ بِما قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي على ظَنٍّ يقولونَ ذلكَ لا عَنْ عِلْمٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تُتْلَى عليهمْ آياتُنا في البعثِ والحياةِ بَعدَ الموتِ بيِّناتٍ في ما يُوضِحُ، ويُبيِّنُ لهمُ البعثَ والحياةَ بَعدَ الموتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والإشكالُ أنهُ ذَكَرَ ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ إذْ لم يُعْذَروا، فيقولُ: والحُجَّةُ هي التي إذا أقامَها الإنسانُ، وأتى بها، عُذِرَ في ذلكَ، وما قالوا: لم تَكُنْ حُجّةً إذْ لم يُعْذَروا. فيقولُ: مَعْنى قولِهِ: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ أي ما كانَ احْتِجاجَهُمْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾ كذلكَ. ويقولُ: ما كانوا يَحتَجّونَ إلّا أنْ قالوا كذا.

ثم قولُهُ ﴿ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه دلالةُ ألّا يُلْزَمَ المَسْؤولُ أنْ يأتِيَ بِحُجّةٍ وآيةٍ يَختارُها السائلُ ويَشْتَهيها. لكنْ يُلزِمُهُ أنْ يأتِيَ بما هو حُجّةٌ في نفسِهِ، ويُلزِمُهُ الاتّباعَ بها. فأمّا أنْ يُلزَمَ على ما يَختارُهُ السائلُ أو يَتَمنّى، فلا. وقد آتاهُمُ اللهُ تعالى مِنَ الآياتِ والحُجَجِ ما ألْزَمَهُمُ القولَ بالبعثِ والإقرارِ بهِ.

ثم أخْبَرَ أنَّ اللهَ تعالى هو يُحْيِيكُمْ، ثم يُمِيتُكُمْ، لا الدهرُ الذي قالوا.

الآية ٢٦ وهو قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي يُحْيِيكُمْ في قبورِكُمْ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو يقولُ: اللهُ يُحْيِيكُمْ في ابْتِداءِ الأمرِ، ثم يُمِيتُكُمْ في الدنيا عندَ انْقِضاءِ آجالِكُمْ ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا [يَنْتَفِعونَ بما][2] يَعْلَمونَ لِما تَركوا النَّظَرَ والتأمُّلَ[3] في أسبابِ العلمِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: وللهِ مُلْكُ كلِّ مُلْكٍ في السمواتِ والأرضِ.

[والثاني][4]: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خزائنُ السمواتِ والأرضِ. وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ.

[والثالثُ][5]: ﴿وَلِلَّهِ﴾ حَقيقةُ مُلْكِ السمواتِ والأرضِ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: بالتأمل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو يقول.

فإنْ كانَ التأويلُ، هو الأولُ، فإنَّ لهُ مُلْكَ كلِّ مُلْكٍ في السمواتِ والأرضِ؛ ففيهِ إخبارٌ وإعلامٌ يَمْنَعُ[1] اتِّباعَ أولئكَ الملوكِ والتعظيمَ لهم والإجلالَ والخدمةَ لهمْ بما في أيديهِمْ مِنَ المُلْكِ والسلطانِ وفَضْلِ الأموالِ. بل فيهِ الأمرُ بِصَرْفِ ذلكَ كلِّهِ إلى اللهِ تعالى والقيامِ لهُ بالشكرِ لا لأولئكَ، لأنَّ الذي في أيديهِمْ [للهِ تعالى، وهو الجاعلُ ذلكَ في أيديهِمْ][2] والواضعُ عندَهمْ. فإليهِ يُلْزِمُ صَرْفَ الشكرِ والعبادةِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ تأويلُ / ٥٠٧ ـ ب/ المُلْكِ الخزائنَ ففيهِ قَطْعُ الأطماعِ [عمّا][3] في أيدي الناسِ والأمرُ بِصَرْفِ ذلكَ إلى اللهِ تعالى والرجاءُ منهُ دونَ سِواهُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ الثالثَ: وهو أنَّ حقيقةَ الملكِ للهِ تعالى ففيهِ أنهُ في ما امْتَحَنَهُمْ في الدنيا بأنواعِ المِحَنِ لم يَمْتَحِنْهُمْ لِمَنْفَعَةٍ ترجِعُ إلى نفسِهِ أو لِمَضَرَّةٍ [يدفعُها عنهُ][4]. وكذلكَ ما يُثيبُهُمْ في الآخِرَةِ، ويُعاقِبُهُمْ، ليسَ يفْعَلُ ذلكَ لِمَنْفَعَةٍ كانَتْ لهُ في الدنيا أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ عنهُ. ولكنْ لحكمةٍ أوجَبَتْ ذلكَ لهمْ وعليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ سَمَّى القيامةَ ساعةً، فجائزٌ أنْ يكونَ سَمّاها [ساعةً][5] لسرعةِ قيامِها أو نَفاذِها كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] أو أنْ يكونَ سَمّاها بذلكَ لِما يكونُ حسابُهُمْ وأمرُهُمْ يومَ القيامةِ إنما يكونُ في ساعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أي يومئذٍ يُبَيِّنُ خُسْرانَ المُبْطِلينَ في الدنيا. وعلى ذلكَ يُبَيِّنُ خُسْرانَ كلِّ المشركينَ في تجارةِ الدنيا، إذْ في عَمَلِ [القِسْمةِ عندَهُ][6] يَتَبَيَّنُ خُسْرانُ عملِهِمْ وتجارتِهِمْ.

وأصلُهُ أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الدنيا وما أنْشأَ فيها مِنَ الأموالِ والأملاكِ رؤوسَ أموالِ أهلِها يَتَجِرُونَ، ويَكْتَسِبونَ بها الربحَ في الآخِرةِ، وأنهُ إنما أنْشأَ الدنيا للآخِرَةِ لا أنهُ أنْشأَها لِنَفْسِها، ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآيةَ [التوبة: ١١١] وقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ونَحوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الجُثُوِّ لِلرُّكَبِ في الآخِرَةِ تعريفاً[7] لهمْ وإنباءَ أنهمْ يَخْتَصِمونَ يومَ القيامةِ جاثينَ لِلرُّكَبِ كما يُخْتَصَمُ في الدنيا عندَ الحكامِ والأمراءِ جاثينَ لِلرُّكَبِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ جُثُوَّهُمْ لِما لا تقومُ لهمُ الأقدامُ، أو لا تَحْمِلُهُمْ لِهَوْلِ ذلكَ اليومِ والحَيوقِ فيها، فيكونونَ جاثينَ للركبِ [لا][8] يقومونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [يَحْتَمِلُ ﴿كِتَٰبِهَا﴾][9] كتابَ كلٍّ في نفسِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] ونَحوُهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الذي دُعِيَتْ إليهِ في الدنيا مِنْ نَحْوِ القرآنِ ونَحْوِهِ، فَيُقالُ: يا أهلَ الإنجيلِ، يا أهلَ التوراةِ، ونَحْوُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي إلى حسابِها الذي عَمِلَتْ في الدنيا.

وتفسيرُ ذلكَ ما ذَكَرَ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ الكتابُ الذي أضافَ إلى نفسِهِ، هو القرآنُ الذي كانَ يَنْطِقُ لهمْ بالحقِّ أي بالحقِّ الذي للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ أو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصِّدْقِ بأنهُ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بليغ. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يدفع عنها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عند القسمة. (٧) في الأصل وم: تعريف. (٨) في م: و، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ الكتابُ هو الكتابَ الذي يكونُ لكلٍّ بالانفِرادِ، كَتَبَهُ لهُ الملائكةُ ممّا عَمِلَ[1] مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ:

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الحَفَظَةَ تَكتُبُ أعمالَ[2] بَني آدمَ، ثم يُعارِضونَ ذلكَ بِما في اللوحِ المَحفوظِ المَكتوبِ فيهِ: أنَّ فلاناً يَعمَلُ كذا وكذا، فلا يُزادُ[3] شيءٌ، ولا يُنقَصُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][4] قريباً مِنْ هذا: إنَّ في السماءِ كتاباً، عليهِ ملائكةٌ، والملائكةُ الذينَ مع بَني آدمَ يَستَنسِخونَ مِنْ ذلكَ الكتابِ ما يَعملونَ، ثم قالَ: وهل تكونُ النسخةُ إلّا مِنْ كتابٍ أو شيءٍ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بَعضُهُمْ: مَلَكانِ مُوكَّلانِ بالكتابةِ، يَكْتُبُ كلُّ واحدٍ منهما ما يَعمَلُهُ، فإذا أرادَ أنْ يَصْعَدَ إلى السماءِ، يُعارِضُ[5] كلُّ واحدٍ منهما كتابَهُ الذي كتبَهُ مع كتابِ الآخَرِ، فلا يَتَخطّى حرفاً ممّا كَتَبَ هذا ما كَتَبَ الآخَرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: عَرْضُ كتابِ الناسِ الذي عَمِلوا كلَّ يومٍ أو كلَّ خميسٍ، فَيُنْسَخُ منهُ الخَيرُ والشَّرُّ مِنْ غيرِ أخذٍ مِنْ كتابٍ أو نَحْوِهِ، فإنهُ يجوزُ أنْ يُستَعمَلَ الانتِساخُ في ابتِداءِ الكتابةِ على غَيرِ أخذٍ مِنَ الكتابِ أو غَيرِهِ نَحْوُ أنْ يقولَ الرجلُ: استَنسَختُهُ، أي كَتَبْتُهُ، فيكونُ كأنهُ قالَ: إنّا كنا نَستَنسِخُ، أي نَكتُبُ ما كُنتُمْ تعمَلونَ، ونُثْبِتُهُ عليكُمْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، فَنُخرِجُ لهمْ كُتُبَهُمُ التي فيها أعمالُهُمْ، فكانَتْ عليهمْ حجّةً، وهي التي كَتَبَتْ عليهمُ الحَفَظَةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجاثيةُ، هي التي جَثَتْ، واجتَمَعَتْ، ويقولُ: تَجاثَينا، أي بَرَكْنا على رُكَبِنا.

وقالَ القُتَبِيُّ: جاثيةٌ على الركَبِ؛ يُرادُ بها أنها غَيرُ مُطْمَئِنّةٍ، وقولُهُ تعالى: ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا﴾ إلى حِسابِها، وقولُهُ: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يريدُ أنهمْ يَقرَؤونَهُ، فَيَدُلُّهُمْ، ويُذَكِّرُهُمْ، فكأنهُ يَنطِقُ عليهمْ، وقولُهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي نَكتُبُ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي آمَنوا بجميعِ ما كانَ عليهِ الإيمانُ بهِ والتصديقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي عَمِلوا بما فيهِ صَلاحُهُمْ وما توجِبُهُ الحكمةُ مِنَ العَمَلِ ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في جَنّتِهِ؛ سَمّى الجنةَ رحمةً لأنها تُنالُ برحمتِهِ، ويُدْخَلُ فيها، أو سَمّاها رحمةً لأنها هي النهايةُ والغايةُ التي تُطلَبُ بالرحمةِ، وتُرادُ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفَوزُ، هو الظَّفَرُ بما يُؤمَلُ، ويُرْجى مِنَ العملِ، أو يُقالُ: الفوزُ، هو الفَلاحُ الذي لا خَوفَ بَعْدَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ كأنَّ فيهِ إضماراً[6] لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إنما هو إخبارٌ على المُعايَنةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ خِطابٌ ومُشافَهَةٌ. فليسَ هو مِنْ جوابِ الأوّلِ ولا مِنْ نوعِهِ؛ فكأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ في الدنيا فَيُقالُ لهمْ في الآخِرَةِ إذا طَلَبوا الرجوعَ والإقالةَ والتَّخفيفَ ونَحوَ ذلك: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا؟

ثم تَحتَمِلُ آياتُهُ آياتِ وحدانيّتِهِ وألوهِيّتِهِ أو آياتِ سُلْطانِهِ وقُدْرتِهِ على التعذيبِ أو آياتِ قدرتِه على البعثِ أو آياتِ رسالتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ لا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ الاستِكْبارِ على آياتِ اللهِ، لكنهمْ لمّا كَذَّبوها، ورَدُّوا آياتِهِ، ولم يَعْمَلوا بها، فكأنهمُ استَكْبَروا عليها، وهو كما قالَ: ﴿لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ [يس: ٦٠] ولا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ، لكنهمْ لمّا عَبَدُوا الأصنامَ بأمرِ الشيطانِ فكأنهمْ عَبَدوهُ.

(١) في الأصل وم: عملوا. (٢) من م، في الأصل: أعمالهم. (٣) في الأصل وم: يزيد. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) في الأصل وم: فيعارض. (٦) في الأصل وم: إضمار.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا اسْتَكبَروا على رسلِهِ، فيكونَ اسْتِكْبارُهُمْ على رسلِهِ كأنهمُ اسْتَكبَروا على آياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ قيلَ: المُجْرِمُ، هو الوثّابُ في المَعْصِيةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ كانَ عندَهُمْ فيها رَيبٌ، لكنهمْ لو تأمَّلوا، ونَظَروا في ما أقامَ مِنْ آياتِهِ زالَ عنهمُ الرَّيبُ الذي كانَ لهمْ فيها.

ويَحتَمِلُ أنْ يُقالَ هذا على الإيقانِ إذا كانَ القائلُ بهِ مُوقِناً، وإنْ كانَ الذي يُقالُ لهُ شاكّاً في ذلكَ، والأوّلُ أقربُ وأشبَهُ.

ثم الناسُ رجلانِ في الساعةِ: [أحَدُهما:][1] مُوقِنٌ بها، ومُتَحقِّقٌ، ولكنْ بالعَمَلِ بها والاِسْتِعدادِ لها كالظّانِّ.

والثاني: ظانٌّ /٥٠٨ ـ أ/ بها، شاكٌّ فيها، جاحدٌ لها، ومُكَذِّبٌ ألّا تكونَ.

ثم الإيقانُ بالشيءِ، هو العلمُ بالأسبابِ الظاهرةِ، وقد يدخُلُ في تلكَ الأسبابِ أدْنى شُبْهَةٍ وشكٍّ، لِذلكَ ذُكِرَ فيهِ الظَّنُّ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا العِلْمُ بالشيءِ فقد يكونُ بالسببِ، وقد يكونُ بالتَّجلّي لهُ بلا سببٍ، ولِذلكَ وُصِفَ اللهُ تعالى بالعِلْمِ، ولم يوصَفْ بالإيقانِ، ولا يُقالُ: إنهُ مُوقِنٌ لِما ذَكَرْنا أنَّ أحَدَهما يكونُ بأسبابٍ، والآخَرَ لا، واللهُ أعلَمُ. فَيَتَمكَّنُ في الإيقانِ أدنى شُبْهَةٍ وشكٍّ، وقد تُحمَلُ غالباً الأسبابُ على حقيقيةِ الأعمالِ نَحْوُ المَكْروهِ، على الشَّرِّ يُحمَلُ[2] بما أُوعِدَ بهِ بغالبِ أسبابِهِ ليسَ على الحقيقةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: بَدا لهمْ أنَّ الأعمالَ في الدنيا سَيِّئاتٌ[3] في الآخِرةِ، وتَذَكَّروا سَيِّئاتِ ما عَمِلوا في الدنيا [في الآخِرَةِ][4] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نَزَلَ بهمْ، ووَجَبَ ما كانوا يَسْتَعْجِلونَ مِنَ الرسلِ، وهو العذابُ الذي كانوا يُوعِدونَهُمْ [بهِ][5] لأنهمْ كانوا يَسْتَعجِلونَ ذلكَ اسْتِهْزاءً منهمْ بأنهُ غَيرُ كائنٍ، ولا نازلٌ بهمْ ما كانوا يُوعِدونَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ والإشكالُ أنهمْ كيفَ يُنْسَونَ يومئذٍ؟ لأنهمْ لو كانوا يُنْسَونَ لَسَلِموا مِنَ العذابِ. لكنْ ما ذُكِرَ مِنَ النِّسْيانِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: كَنّى بالنِّسْيانِ عنِ التَّرْكِ، يقولُ: اليومَ نَتْرُكُكُمْ في النارِ وفي العذابِ كما تَرَكْتُمْ أنتمُ العَمَلَ لذلكَ اليومِ والنَّظَرَ فيهِ.

والثاني: على التَّمْثيلِ: نُصَيِّرُكُمْ في النارِ كالشيءِ المَنْسِيِّ، لا يُكْتَرَثُ إليكُمْ، ولا يُلْتَفَتُ، ولا يُعْبَأُ بكُمْ، كما صَيَّرْتُمْ أنتمْ ذلكَ اليومَ كالشيءِ المَنْسِيِّ، لم تَكْتَرِثوا إليهِ، ولم تَعْنُوا له، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى النارَ لهمْ مَأْوًى بإزاءِ كلِّ ما افْتَخَروا [بهِ][6] في الدنيا على رُسُلِ اللهِ ﷺ وأتباعِهِمْ مِنَ المنازِلِ والمراكبِ والملابسِ وغيرِ ذلكَ، وأخبَرَ أنهُ لا ناصِرَ لهمْ، يَمْلِكُ إخراجَهُمْ مِنْ تلكَ النار والمَأْوَى الذي جَعَلَ لهمْ، ولا يَقْدِرُ دَفْعَ ذلكَ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾][7] أخبَرَ أنَّ بعضَ ذلكَ الذي أصابَهُمْ، ونَزَلَ بهمْ، إنما كانَ بِما ذَكَرَ مِنِ اتِّخاذِهِمْ آياتِ اللهِ هُزُواً بها وسَخَراً بالرسلِ ﷺ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يعمل. (٣) في الأصل وم: أنها أسباب. (٤) في الأصل وم: والآخرة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ثم.

ثم آياتُ اللهِ تَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ آياتِ وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ وآياتِ سلطانِهِ وقُدرتِهِ على البَعثِ أو آياتِ رسالةِ الرسولِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقدَّمَ مَعنَى نِسبةِ التَّغريرِ إلى الحياةِ الدنيا وإضافتِهِ إليها، وإنْ لم يكُنْ منها على التحقيقِ تَغريرٌ وخِداعٌ، وهو أنهمْ إنما اغتَرّوا بها، فَنُسِبَ فِعلُ التغريرِ إليها، كأنها هي غرَّتْهُمْ

وقد يُنْسَبُ إلى السببِ الذي بِهِ صارَ ذلك، وإنْ لم يكُنْ منهُ حقيقةُ ذلكَ، نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أي يُبْصَرُ بِهِ، وذلك كثيرٌ في اللغةِ.

أو يُقالُ: إنّ ما كانَ منها، لو كانَ ذلكَ مِمَّنْ يَحتَمِلُ التغريرَ، ويَمْلِكُ ذلكَ، كانَ تغريراً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ يُعاتَبونَ إلى أنْ يُدْخَلوا النارَ: إنكمْ فَعَلْتُمْ كذا، وتَرَكْتُمْ كذا، ولِمَ فَعَلْتُمْ كذا؟ فإذا أُدْخِلوا النارَ يُتْرَكُ العتابُ، ويُجْعَلُ كالشيءِ المَنْسِيِّ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يُسْتَرْجَعونَ إلى ما يَطْلُبونَ مِنَ العَوْدِ والرجوعِ إلى العَمَلِ الصالحِ لقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ الآية [فاطر: ٣٧].

ثم في قولِهِ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ وقولِهِ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ الآية [الكهف: ٥٣] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] دلالةٌ ألّا يَجِبَ أنْ يُفْهَمَ على ظاهِرِ ما خَرَجَ الخِطابُ أنهُ ذُكِرَ الظَّنُّ في المؤمنينَ، والمُرادُ بِهِ الإيقانُ لا ظاهِرُ الظَّنِّ، وذُكِرَ في الكافرينَ الظَّنُّ، وأُريدَ بِهِ الحقيقةُ.

ولا يجوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنَ الظَّنِّ في الفريقَيْنِ مَعْنًى واحدٌ، بل يُفْهَمُ مِنْ هذا غَيرُ الذي فُهِمَ مِنَ الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنَّ جميعَ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ الحمدِ لهُ فإنما ذُكِرَ لأحدِ شَيئَيْنِ:

أحدُهما: لِما يَسْتَحِقُّ مِنَ الثناءِ بِتَعاليهِ على جميعِ مَعاني الخَلْقِ وأوصافِهِمْ.

والثاني: لِما يَسْتَحِقُّ مِنَ الثناءِ عليهِمْ مِنَ النِّعَمِ والإحسانِ الذي منهُ إليهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] وقالَ[1]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] ونَحْوُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وأصلٌ آخَرُ: أنهُ إذا أُضيفَتْ كُلِّيَّةُ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى ففيهِ وصفٌ لهُ بالعَظَمَةِ والجَلالِ، وإذا أُضيفَتْ جُزئيَّةُ الأشياءِ وخاصِّيَّتُها[2]، فإنما فيه تعظيمُ تلكَ الخاصِّيَّةِ المُضافةِ إليهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ إضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ والخاصِّيَّةِ والجُزئِيَّةِ: فيهِ[3] الأمرانِ جميعاً:

فإنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ إضافةُ جُزئيةِ الأشياءِ إليهِ وخاصِّيَّتِها[4]. وقولَهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ، واللهُ أعلَمُ. وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ الرَّبِّ في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: أي ولهُ الوَصْفُ بالكبرياءِ والعظمةِ، وعلى[5] أهلِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ: أنْ يَصِفوهُ بالكبرياءِ والعظمةِ.

[والثاني][6]: مِنْ حقِّهِ على أهلِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ أنْ يَصِفوهُ بالكبرياءِ والعظمةِ والجَلالِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: وخاصيته. (٣) في الأصل وم: ففيه. (٤) في الأصل وم: وخاصيته. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو العزيزُ الذي لا يَلْحَقُهُ الذُّلُّ بِخِلافِ الخَلْقِ ولا بِعِصْيانِهِمْ، أو هو العزيزُ بما بِهِ يَتَعَزَّزُ مَنِ اعْتَزَّ دونَهُ ومَنْ وُصِفَ بِعِزٍّ دونَهُ، فذلكَ راجعٌ في الحقيقةِ إليهِ. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي وَضَعَ كلَّ شيءٍ موضِعَهُ، أو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التدبير. واللهُ الموفِّقُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، [والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلهِ وصحبِهِ أجمعينَ][1].

(١) ساقطة من م.

سورة[1] الأحقاف

[وهي][2] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قد ذكَرْنا تأويلَهُ في ما تقدَّمَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ /٥٠٨ ـ ب/ قولُهُ ﷺ: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينَهما إلّا بالحقِّ الذي صارَ إنشاءُ ذلكَ وخلْقُهُ حكمةً، لأنهُ لو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّ أولئكَ الكَفَرَةُ، وتوَهَّموا بأنْ لا بَعْثَ، ولا جزاءَ مِنْ ثوابٍ أو عقابٍ كانَ إنشاءُ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وخلْقُ ذلكَ كلِّهِ عَبَثاً باطلاً على ما تَقَدَّمَ ذكرُهُ في غيرِ موضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾ [يَحتَمِلُ: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾][3] [وجوهاً:

أحدُها][4]: بِما ألزَمَهُمْ مِنَ النَّظرِ والتَّفكُّرِ في ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما أنشأَ فيهما مِنَ المَنافِعِ، وجَعَلَ ذلكَ لهمْ آيةً، لم يَفْعَلْ ذلكَ كلَّهُ عَبَثاً باطلاً، ولكنْ لِعاقبةٍ تُقْصَدُ ولأمرٍ يُرادُ؛ إذْ عَرَفوا بعقولِهِمْ أنهُ لا يجوزُ خَلْقُ الخَلْقِ على أنْ يُهْمَلوا، ويُتْرَكوا سُدًى، لا يُؤمَرونَ، ولا يُنْهَونَ، ولا يُمْتَحَنونَ[5]، فأعْرَضوا عمّا ألزَمَهُمْ مِنَ النَّظرِ والتَّفكُّرِ في ذلكَ، فهمْ مُعْرِضونَ إعراضَ تَرْكِ النَّظرِ والتَّفكُّرِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: بِما أُنْذِروا بما نَزَلَ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ مُكَذِّبي الرسلِ ﷺ.

[والثالثُ][6]: بِما أُنْذِروا، وأوعَدَهُمْ[7] مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ.

فهمْ مُعْرِضونَ عنْ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ كلُّهُ موصولاً بَعْضُهُ بِبَعضٍ، ويَحتَمِلُ أن يكونَ بَعْضُهُ مَفصولاً عنْ بعضٍ.

فإنْ كانَ على الوَصْلِ فكأنهُ يقولُ: أرَأيتُمْ ما تَعبُدونَ مِنَ الأصنامِ، وتَدْعونَها آلهةً، هل خَلَقوا ممّا [خَلَقَ اللهُ][8] لكُمْ مِنَ المَنافِعِ وممّا بِهِ حياتُكُمْ وقِوامُكُمْ ومَعاشُكُمْ ممّا تُخرِجُ الأرضُ؟ أو هل يُنْزِلونَ لكمْ مِنَ المنافِعِ التي جَعَلَها[9] لكمْ في السماءِ مِنَ الأمطارِ وغيرِها؟ أو هل أتاكُمْ كتابٌ مِنَ عندِ اللهِ، فيهِ أنهُ أمَرَكُمْ بِعبادةِ مَنْ تَعْبُدونَهُ؟

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أوَ جاءَكُمْ مِنَ الحكماءِ الأوّلينَ المُتقدِّمينَ كتابٌ أو قولٌ فيهِ الأمرُ بذلكَ؟

[والثاني: أوِ استَخْرَجْتُمْ][11] مِنَ العلومِ ذلكَ، فَقُلْتُم بِهِ؟

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما أي. (٥) في الأصل وم: يمتحنهم. (٦) في الأصل وم: والثاني. (٧) في الأصل وم: وأوعدلهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: جعل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: واستخرجتم.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الأسبابَ التي تَحمِلُ الناسَ على العبادةِ والخدمةِ لهمْ [في][1] هذهِ الوجوهِ: إمّا مَنافعُ تَتَّصِلُ بهمْ منهمْ مِمّا بهِ قِوامُهُمْ ومَعاشُهُمْ وحياتُهُمْ، وإمّا كتابٌ مِنَ اللهِ تعالى، فيه حُجَّةٌ لهمْ وأمرٌ لهمْ بذلكَ [وإمّا][2] كتابٌ مِنَ الحكماءِ والرسلِ [يأمرونَهُمْ فيهِ][3] وهُمْ قومٌ لا يؤمنونَ بالرسلِ ولا بالكتابِ، وليسَتْ لهمْ علومٌ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنَ العلومِ.

يقولُ: ليسَ لكمْ مِمّا ذَكَرَ مِنَ الأسبابِ والعلومِ بما عَبَدْتُموها، فكيفَ اخترْتُمْ عبادَتَها على عبادةِ مَنْ عَرَفْتُمْ أنَّ ما بهِ قِوامُكُمْ وحياتُكُمْ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ [بَعْضُهُ][4] مَفْصولاً مِنْ بعضٍ فيكونُ كأنهُ يقولُ: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ مِنَ المنافعِ وغيرِها ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ في ما ذُكِرَ. فإنْ قالوا: قد خَلَقوا ما ذُكِرَ، ولهمْ شِرْكٌ في ما ذُكِرَ فَقُلْ لهمْ: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ مِنْ كتبِ الحكماءِ أو العلومِ المُسْتَخْرَجةِ مِنَ العلومِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهمْ خَلَقوا ما ذَكَرْتُمْ، أو لهمْ شِرْكٌ في ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقد عَلِموا أنهمْ لا يَقْدِرونَ أنْ يُرُوهُ[5] ما ذُكِرَ لِما لم يَكُنْ لهمْ مِنْ هذهِ الأسبابِ شيءٌ؛ إذْ هي أسبابُ العِلْمِ، وقد عَجِزوا عنْ ذلكَ كلِّهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أو خاصّةٍ مِنْ عِلْمٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أو بَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمِ أوائِلِهِمْ، وهو قولُ القُتَبِيِّ: أي بَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمٍ، يُؤْثَرُ عنِ الأوَّلِينَ. ويُقْرَأُ: أَثَرَةٍ[6] وأَثارةٍ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا مِنَ الوجهَينِ: أحَدُهما: كتابُ الحكماءِ والرسلِ ﷺ.

والثاني: العلومُ المُسْتَخْرَجَةُ مِنْ سائِرِ العلومِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ هو الخَطُّ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ.

وذُكِرَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «كانَ نَبِيٌّ مِنَ الأنبياءِ ﷺ يَخُطُّ فَمَنْ صادَفَ مثلَ خَطِّهِ عَلِمَ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٤٣٤].

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي قديمٍ مِنْ عِلْمٍ؛ قالَ: ذو[8] الأثارةِ الشَّحْمُ القديمُ. وقيلَ: أثارةٍ مِنْ عِلْمٍ، أي روايةٍ عنِ الأنبياءِ ﷺ.

الآية ٥ ثم ذَكَرَ سَفَهَهُمْ، وبَيَّنَ نِهايةَ تَعَنُّتِهِمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:][9] لأنهُ لا يَمْلِكُ إجابَتَهُ، ولا يَحتَمِلُ ذلكَ.

والثاني: ﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ثم إجابَتُهُ يومَ القيامةِ إجابةٌ باللَّعْنِ والتَّبَرِّي كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقولِهِ ﷺ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وقولِهِ ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ تَبَرِّي بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ ولَعْنِ بعضِهِمْ بعضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لم يَكُنْ منهمْ لهمْ أمرٌ بذلكَ ولا دُعاءٌ ولا شيءٌ مِنْ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ يَصيرُ بعضُهُمْ لبعضٍ أعداءً، يَتَبَرَّؤُونَ منهمْ، ويَلْعَنونَهُمْ، ويَكْفُرونَ بِعِبادَتِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: يأمرون لهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يرونه.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٦١ و/ ١٦٢. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ذا. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أنها منَ اللهِ تعالى، أو ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ تُبيِّنُ ما لهمْ وما عليهمْ[١] وما لبعضٍ على بعضٍ وما للهِ عليهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الحقُّ الذي قالوا: إنهُ سِحْرٌ، هو تلكَ الآياتُ البيِّناتُ التي ذَكَرَ أنها بُيِّنَتْ عليهمْ [لمّا قالوا][٢]: إنها سِحْرٌ.

ودَلَّ قولُهُمْ: إنها سِحْرٌ على أنها كانتْ مُعْجِزاتٍ خارجاتٍ عنْ وُسْعِهِمْ حينَ[٣] نَسَبوها إلى السِّحْرِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ هذا حَرْفُ المُنابَذَةِ؛ يقولُ: إنِ افْتَرَيْتُهُ فلا تَمْلِكونَ أنتمْ دفعَ عقوبةِ ذلكَ الافْتِراءِ عنْ نفسي، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ [هود: ٣٥] يقولُ: عليَّ إثْمُ ذلكَ وجُرْمُهُ. وإنما يُقالُ هذا عندَ انْتِهاءِ الحُجَجِ والبراهينِ غايَتَها حتى لا يُقْطَعَ منهمُ القَبولُ والنُّجْعُ فيهمْ، ويُيْأَسَ منهمْ. فعندَ ذلكَ يُقالُ ذلكَ، ويُنابَذُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي بِما تَخوضونَ فيهِ، يقولُ هذا، ويَذْكُرُ لئلا يقولوا، ولا يَدَّعوا غَفْلَتَهُ عنْ ذلكَ، بل يُذَكِّرُهُمْ أنهُ كانَ عالماً بما يُسِرّونَ، ويُعْلِنونَ.

وقيلَ: ﴿تُفِيضُونَ﴾ مِنْ قولِهِمْ: أفاضوا إذا عَلِموا، وتَحَدَّثوا، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي يَشْهَدونَ في الآخِرَةِ أنهُ قد بَلَّغَ رسالتَهُ.

والثاني: أي كَفَى بهِ شَهيداً بَيْني وبَيْنَكُمْ في الدنيا بِما عَلِمَ ما كانَ منكُمْ مِنَ الشِّرْكِ والتكذيبِ ومنّي مِنَ التبليغِ، فهو شاهدٌ بما كانَ منّي ومنكُمْ في الدنيا منْ سِرٍّ وعلانِيَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذُكِرَ هذا في هذا المَوضِعِ على إثْرِ ما ذُكَرَ مِنْ غايةِ سَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ يقولُ: إنكُمْ وإنْ بَلَغْتُمْ في السَّفَهِ ما بَلَغْتُمْ، فإنكُمْ إذا رَجَعْتُمْ عنْ ذلكَ، وتُبْتُمْ، يَغْفِرُ لكمْ ما كانَ منكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥] إنهُ كانَ على حقيقةِ العبادةِ فهو صِلَةُ قولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية [الأحقاف: ٤] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ومَنْ أضَلُّ /٥٠٩ ـ أ/ مِمَّنْ يَعبُدُ مَنْ لا يَمْلِكُ ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الأرضِ، ولهُ[٤] شريكٌ في السمواتِ ومِمَّنْ[٥] تَرَكَ عبادةَ مَنْ خَلَقَ السمواتِ وخَلَقَ الأرضَ، وشَهِدَ كلُّ شيءٍ لهُ بذلكَ، وأتَى بالحُجَجِ والبراهينِ على ذلكَ، أي لا أحَدَ أضَلُّ مِمَّنْ تَرَكَ عبادةَ مَنْ هذا وَصْفُهُ، وصَرَفَ العبادةَ إلى الذي لا يَمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ على الدعاءِ نفسِهِ فهو صِلَةُ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] أي ومَنْ أضَلُّ مِمَّنْ يَدْعو مَنْ دونَ اللهِ: مَنْ لا يَمْلِكُ إجابتَهُ، ويَسْمَعُ دعاءَهُ، ويَقْدِرُ على قضاءِ ما يَدْعونَ، ويَسْألونَ، أي لا أحَدَ أضَلُّ مِمَّنِ اخْتارَ دعاءَ مَنْ لا يَمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ كلِّهِ. يُسَفِّهُهُمْ في صَنيعِهِمْ واخْتِيارِهِمْ ما اخْتاروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ كانَ هذا إنما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ، لإنكارِ أهلِ مكةَ الرسلَ مِنَ البَشَرِ واسْتِعْظامِهِمْ وَضْعَ الرسالةِ فيهِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي لستُ أنا بأوَّلِ رسولٍ مِنَ البشرِ، بل لم يَزَلِ الرسلُ مِنْ قَبْلُ[٦] مِنَ البشرِ في آفاقِ الأرضِ وأطرافِها، فما بالُكُمْ تُنْكِرونَ رسالتي، وإنْ كنتُ مِنَ البشرِ، وتَسْتَعْظِمونَها، وسائرُ الرسلِ الذينَ مِنْ قَبْلي كانوا مِنَ البشرِ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: مما لهم. (٢) في الأصل وم: قالوا لها. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ولا له. (٥) في الأصل وم: وما ذكر. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: كانت:

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ أي ما أنا بأوّلِهِمْ، قد أُرْسِلَ قبلي. وقالَ القُتَبِيُّ: وما كُنتُ بَدْءاً منهمْ، ولا [أوّلاً][(١)].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُهما: أي ما كنتُ أدري قَبْلَ ذلكَ ما يُفعَلُ بي ولا بكُمْ؛ أُختَصُّ لِلرِّسالةِ، وأُختارُ لها، وأُبعَثُ إليكُمْ، وتُلْزَمونَ أنتمُ اتّباعي والإجابةَ إلى ما أدعوكُمْ، إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ مِنْ إخراجٍ مِنْ بَيْنِ أظهُرِكُمْ وإهلاكِكُمْ كما فُعِلَ بالرسلِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ وأقوامِهِمْ؛ أُمِروا بالخروجِ مِنْ بَيْنِ أظهُرِهِمْ، ثم [ما][(٢)] يَعقُبُ ذلكَ [مِنِ][(٣)] استِئصالِ قومِهِمْ، أي ما أدري أيُفعَلُ بي وبكُمْ ما ذَكَرْنا كما فُعِلَ بِمَنْ تَقَدَّمَنا مِنَ الرسلِ وأقوامِهِمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ مَخافةَ التَّغْيِيرِ عليهِ وتَبْديلِ الحالِ، ولم يَزَلِ الرسلُ ﷺ يَخافونَ تغييرَ الأحوالِ عليهِمْ وذهابَ ما اختَصُّوا هُمْ بِهِ كقولِ إبراهيمَ ﷺ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقولِ[(٤)] شُعيبٍ ﷺ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] وما ذُكِرَ في سورةِ يوسفَ ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ الآية [الآية: ٧٦] وقولِ يوسفَ ﷺ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ١٠١] وقولِ يَعقوبَ ﷺ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنا على طاعتِكَ» [بنحوه أحمد ٢/٤١٨] لم تَزَلْ [كما][(٥)] كانتِ الرسلُ ﷺ على خوفٍ مِنْ تَغْيِيرِ الأحوالِ التي كانوا عليها.

فَعَلى ذلك جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أتُغَيَّرُ عليَّ وعليكُمُ الأحوالُ التي نَحْنُ عليها اليومَ، أم نُتْرَكُ على ذلك؟ وحقيقةُ هذا الكلامِ على الإسْتِقْصاءِ قد مَرَّتْ، واللهُ أعلَمُ.

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ أهلَ مكةَ كانوا يُؤذونَ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، بأنواعِ الأذِيَّةِ، فَشَكَوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ بما كانوا يَلْقَونَ منهمْ، فقالَ: إني لم أُؤْمَرْ بشيءٍ فيهِمْ مِنَ القتالِ وغيرِهِ، فاصْبِروا على ذلكَ، ولكني رأيتُ في المَنامِ أنْ أُهاجِرَ إلى أرضٍ أُخرَى ذاتِ كذا، فاستَبْشَروا بذلكَ، ومَكَثوا بَعْدَ ذلكَ زماناً، لا يَرَونَ شيئاً ممّا ذَكَرَ، فَشَكَوا إليهِ ثانياً بما يَلْقَونَ منهمْ، وقالوا: ما نَرَى ما قُلْتَ لنا مِنَ الخروجِ عنهمْ؟ فقالَ: إنما رأيتُ ذلكَ في المَنامِ، ولم يأتِ بِهِ وَحْيٌ مِنَ السماءِ أيكونُ ذلكَ أم لا؟ أو نَحْوَ ذلكَ مِنَ الكلامِ.

وهذا لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ لأنهُ[(٦)] لا يُظَنُّ بأصحابِهِ ﷺ أنْ يقولوا لهُ: ما نَرَى الذي قُلْتَ لنا مِنَ الخُروجِ عنهمْ، وفي ذلكَ اتّهامُهُ بذلك وتَرْكُ تعظيمِهِ، ولا نَظُنُّ بالنبيِّ ﷺ أنْ يقولَ لهمْ: أنا رأيتُ ذلكَ في المنامِ، ولم يأتِ بِهِ وَحْيٌ مِنَ السماءِ جواباً لِقولِهِمْ، ورؤيا الأنبياءِ ﷺ كالوَحْيِ مِنَ السماءِ. دلَّ أنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ أنْ [يَصِحَّ][(٧)] ويَثْبُتَ، واللهُ أعلَمُ. لكنهُ[(٨)] جائزٌ بعضُ ما ذُكِرَ في القصةِ مِنَ الشكايةِ منهمْ مِنَ الأذَى والوعدِ لهمْ بالخُروجِ مِنْ بَيْنِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. والوجوهُ التي ذَكَرْنا أشبهُ وأقرَبُ إلى العقلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ﴾ الآية. قالَ بعضُهُمْ: إنَّ عبدَ اللهِ بْنَ سَلامٍ آمَنَ برسولِ اللهِ ﷺ وشَهِدَ أنهُ رسولُ اللهِ، وشَهِدَ [بِمِثْلِ ذلكَ][(٩)] ابْنُ يامينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: شَهِدَ ابْنُ يامينَ أوّلاً أنهُ رسولٌ، وآمَنَ بهِ، وصَدَّقَهُ، ثم شَهِدَ بِمِثْلِهِ ابْنُ سَلامٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: أما. (٩) من م، في الأصل: أنه رسول الله.

والأشبهُ في هذا أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ التوراةُ أو موسى عليه السلام على ذلكَ بقولِهِ[1] تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢] شَهِدَ كتابُ رسولِ اللهِ ورسولُهُ ﷺ واللهُ أعلَمُ ولأنَّ عبدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ إنما أسْلَمَ بالمدينةِ وكذلكَ ابْنُ يامينَ، وهذِهِ السورةُ مكيّةٌ. لكنهمْ يقولونَ: هذِهِ السورة مكيّةٌ إلّا هذِهِ الآياتِ الثلاثَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا القولُ مِنَ الأجِلّةِ والرؤساءِ منهمُ الذينَ كانَ منهمْ صِلَةُ الأرحامِ وأنواعُ الخيراتِ والأعمالُ الصالحةِ؛ قالوا: إنّا سَبَقْناهُمْ في الخيراتِ سِوَى ذلكَ. فلو كانَ ذلكَ الذي تَدْعونا إليهِ خيراً ما سَبَقونا إليهِ كما لم يَسْبِقونا إلى سائرِ الخيراتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي وإذْ لم يَهْتَدوا بهِ هُمْ مِنْ بَيْنِنا فَسَيقولونَ: هذا القرآنُ إفكٌ قديمٌ أي كَذِبٌ قديمٌ. فكأنَّ قولَهُمْ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ بِحقِّ الاحتِجاجِ، وقولَهُمْ: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ تكذيبٌ منهمْ وردٌّ لذلكَ.

ثم قولُهُ: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ يقولونَ، واللهُ أعلَمُ: لم يَزَلْ مَنِ ادَّعَى[2] الرسالةَ يَدَّعي على اللهِ ما يَدَّعي محمدٌ ﷺ مِنْ إنزالِ الكُتُبِ عليهمْ وبَعْثِهِ إيّاهُمْ رُسُلاً[3] إلى الناسِ، يُطْلِعونَ الرسالةَ لَهُمْ عليهِمْ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي إماماً يُقْتَدى بهِ ورحْمةً لِمَنِ اتَّبَعَهُ في دَفْعِ العذابِ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ ذَكَرَ ههنا ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ ولم يَذْكُرْ أنهُ مُصَدِّقٌ لماذا؟ لكنْ قد ذَكَرَ في غَيرِ آيةٍ[4] مِنَ القرآنِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَحتَمِلُ أي مُوافِقاً لِما لم يُحرَّفْ، ولم يُغَيَّرْ مِنْ تلكَ الكُتُبِ، لأنَّ تلكَ الكُتُبَ قد حَرَّفوها، وغَيَّروها، ولم يُغَيَّرْ، ولم يُحرَّفْ هذا الكتابُ، وقد حَفِظَهُ اللهُ تعالى ﷻ مِنَ التَّبْديلِ والتَّغْييرِ؛ فهو مُصَدِّقٌ مُوافِقٌ لِما لم يُغَيَّرْ، ولم يُحرَّفْ مِنْ تلكَ الكُتُبِ /٥٠٩ ـ ب/ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنْزَلَهُ بلسانٍ عربيٍّ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يأخُذْهُ محمدٌ ﷺ مِنْ تلكَ الكتبِ لأنَّ تلكَ الكتبَ كانَتْ على غَيرِ لسانِ العربِ، ولسانُهُ عربيٌّ، ولكنْ جاءَ مِنَ اللهِ تعالى بلسانِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فَمَنْ قَرَأَ لِتُنْذِرَ[5] بالتاءِ فتأويلُهُ لِتُنْذِرَ يا محمدُ الذينَ ظَلَموا، ومَنْ قَرَأَ بالياءِ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي لِيُنْذِرَهُمُ القرآنُ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ تفسيرَ النِّذارةِ والبِشارةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ الاسْتِقامةُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على ذلكَ القولِ الذي قالوا. وثَبَتوا على ذلكَ، ولم تَتَغَيَّرْ، ولم تَتَبَدَّلْ حالَتُهُمْ تلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ بحقِّ الوفاءِ بالعملِ بما أعْطَوا بِلِسانِهِمْ وقلوبِهِمْ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الآية ١٤ [وقولُهُ تعالى:][6] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقد ذَكَرْناهُ في غَيرِ مَوضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ جَعَلَ ذلكَ لهمْ جزاءَ أعمالِهِمْ بِفَضلِهِ ورحمتِهِ، لا أنهمْ يَسْتوجِبونَ ذلكَ بِنَفْسِ عَمَلِهِمْ، ولكنْ بالتَّفَضُّلِ والرحمةِ. وذَكَرَ جزاءَهُ الأعمالَ فَضْلاً منهُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ وحَسَناً[7]؛ كأنهُ قالَ: أمَرْنا الإنسانَ أنْ يُحْسِنَ إلى والديهِ فالحَسَنُ هو اسْمُ ما يَقَعُ بهما مِنَ البِرِّ، وهو المَفْعولُ. والإحسانُ هو اسْمُ فِعْلِهِ الذي يَفْعَلُ بهما.

---

(١) في الأصل وم: كقوله. (٢) من م، في الأصل: الدعي. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ابن سلام. (٤) في الأصل وم: آي. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٦٤. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٦٥.

[وقولُهُ تعالى][١]: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي أنها في أوّلِ ما حَمَلَتْهُ [كانَ][٢] حَمْلاً خفيفاً، فلمّا كَبِرَ ﴿أَثْقَلَت﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وهو وَصْفُ الولدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ وذلكَ في الأمِّ لأنها لا تزالُ تَضْعُفُ، وتَهِنُ، مِنْ أوّلِ ما حَمَلَتْ إلى آخِرِ ما وَضَعَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهُما:][٣] في أوّلِ ما تَحْمِلُ تَجِدُ كَراهةً في نفسِها إلى وَقْتِ وَضْعِها.

والثاني: يُشْبِهُ أنْ يكونَ على الجَمْعِ في الأمِّ دونَ الوَلَدِ على اخْتِلافِ الأحوالِ، وهو في الابْتِداءِ يَخِفُّ عليها الحَمْلُ، ويَثْقُلُ ذلكَ عليها إذا دَنَا وقتُ وَضْعِها، وما ذَكَرَ مِنَ الوَهْنِ فهو ما ذَكَرْنا أنها لا تزالُ تَزْدادُ ضَعْفاً فيها وَوَهْناً مِنْ أوّلِ حَمْلِها إلى وَقْتِ وَضْعِها.

وما ذَكَرَ مِنَ الكَراهةِ فهو إذا تَمَّ حَمْلُها شَقَّ ذلكَ عليها، وكذلكَ الوَضْعُ، لا شَكَّ أنَّ ذلكَ يَشُقُّ عليها.

والتأويلُ الأوّلُ على التَّفْريقِ: في حالٍ يَرْجِعُ الوَصْفُ إلى الوَلَدِ، وفي حالٍ إلى الوالدةِ.

[وعلى التأويلِ][٤] الثاني: يَرْجِعُ ذلكَ كلُّهُ[٥] إلى وَصْفِ الأمِّ.

وعلى التأويلَين حَصَلَ التوفيقُ بينَ الآياتِ لِرُجوعِها إلى اخْتِلافِ الأحوالِ، فأمْكَنَ الجَمْعُ بَينَ الكلِّ في أحوالٍ. والاخْتِلافُ إنما يكونُ في حالٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي بمشقّةٍ ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ووضَعَتْهُ بمشَقَّةٍ، ثم وضَعَتْهُ على تمامِ سِتّةِ أشهرٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ نَزَلَتْ في الحَسَنِ والحُسَينِ ﷺ: وَوَضَعَتْهُ على ما ذُكِرَ في المدةِ.

ثم منهمْ مَنْ يقولُ: الآيةُ، وإنْ نَزَلَتْ في نازلةٍ بِعَينِها، لكنْ ما ذَكَرَ مِنَ الحُكْمِ فذلكَ في كلِّ إنسانٍ، وهو أنْ يكونَ الولدُ ثابتَ النَّسَبِ مِنَ الأبِ بهذهِ المدةِ.

فإنهُ يُرْوَى عن عُمَرَ ﷺ أنهُ أُتِيَ بامرأةٍ، وَضَعَتْ في ستةِ أشهُرٍ، فأرادَ أنْ يَرْجُمَها، فقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ اللهَ تعالى قد جَعَلَ لها في كتابِهِ مَخْرَجاً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقالَ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ سِتّةُ أشهرٍ حَمْلُها، ورَضاعُهُ سَنَتانِ[٦]، فأخَذَ بقولِ ابنِ عباسٍ ﷺ ودَرَأَ عنها الرَّجْمَ.

وكذلكَ رُوِيَ عن عثمانَ ﷺ أنهُ أُتِيَ بامرأةٍ وَضَعَتْ لِسِتَّةِ أشهرٍ، فَهَمَّ أنْ يَرْجُمَها، فقالَ لهُ ابنُ عباسٍ ﷺ: أمَا إنّها لو خاصَمَتْكُمْ بكتابِ اللهِ خَصَمَتْكُمْ، ثم تَلاَ هذهِ الآيةَ.

وكذلكَ ذُكِرَ عن عليٍّ ﷺ [أنَّ عثمانَ ﷺ][٧] لمّا أمَرَ برجمِ المرأةِ التي وضَعَتْ لستةِ أشهرٍ سَمِعَ[٨] عليٌّ ﷺ فأتَى عثمانَ ﷺ فقالَ لهُ: ما صَنَعْتَ؟ فقالَ لهُ عثمانُ ﷺ: وهلْ تَلِدُ المرأةُ الولَدَ التامَّ لستةِ أشهرٍ؟ قالَ نعمْ، ثم تَلاَ عليهِ هذه الآيةَ.

فهؤلاءِ الصحابةُ ﷺ قد رَأَوُا الآيةَ في كلِّ امرأةٍ وَضَعَتْ لتلكَ المدةِ في حقِّ ذلكَ الحُكْمِ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: كل. (٦) في الأصل وم: سنتين. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فسمع.

ثم رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][1] قال: إذا [وَضَعَتِ المراةُ لستةِ أشهرٍ][2] أرْضَعَتْهُ حولَين كامِلَين لأنَّ اللهَ تعالى ﷻ يقولُ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وإذا وَضَعَتْ لِسَبْعَةِ أشهرٍ أرْضَعَتْهُ ثلاثةً وعشرينَ شَهراً، وإذا وضعَتْهُ لِتِسْعةِ أشهرٍ أرضَعَتْهُ أحداً وعشرينَ شهراً. فَعَلَى قياسِ هذا جائزٌ أنها [إذا][3] وَضَعَتْهُ لِسَنَتَينِ يكفيهِ[4] رَضَاعُ ستةِ أشهرٍ، يَزدادُ، ويَنْقُصُ على ذلكَ القَدْرِ.

الا تَرَى أنهُ رُوِيَ أنَّ المراةَ التي حَمَلَتْ سَنَتَينِ وَلَدَتْ، وقد نَبَتَتْ لهُ ثَنِيَّتانِ؟ فَمِثْلُ هذا الولدِ لا يَحتاجُ مِنَ الرَّضاعِ ما يَحْتاجُ الذي وُلِدَ لِستةِ أشهرٍ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

ثم إذا احْتَمَلَ النُّقْصانُ عنِ الحَولَينِ لِما ذَكَرْنا جازَتِ الزيادةُ على الحَولَينِ على ما قالَ أبو حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، لأنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الحَولَينِ إنما هو رَضاعُ أقلِّ الحَمْلِ، وهو ستةُ أشهرٍ، لأنَّ الذي وُلِدَ لِستةِ أشهرٍ كانَ إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ أبْعَدَ مِنَ الذي وُلِدَ لِتسعةِ أشهرٍ لِضَعْفِهِ في نفسِهِ، والذي وُلِدَ لِتِسعةِ أشهرٍ فهو إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ أقربُ منهُ، والذي وُلِدَ لِسَنَتَينِ هو أقْرَبُ إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ مِنَ المولودِ لِتِسعةِ أشهرٍ لِضَعْفِهِ في نفسِهِ، والذي وُلِدَ لِتِسعةِ أشهرٍ فهو إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ أقربُ منهُ، والذي وُلِدَ لِسَنَتَينِ هو أقْرَبُ إلى الاغْتِذاءِ بالطعامِ مِنَ المولودِ لِتِسعةِ أشهرٍ لِقُوَّتِهِ وقِلَّةِ حاجتِهِ إلى الغذاءِ باللبنِ.

فإذا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] هو أقلُّ رَضاعٍ، يكونُ، لأنهُ ذَكَرَ للمولودِ لأقلِ الحملِ حينَ[5] قالَ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. ثم قالَ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

فإذا كانَ أقلُّ احْتِمالِ الزيادةِ التي ذَكَرَ أبو حنيفةَ، وهو ستةُ أشهرٍ على السنَتينِ كما يَصيرُ رضاعُ أكثرِ الحملِ ستةَ أشهرٍ، اعْتُبِرَ[6] في البابِ إلى قوةِ الولدِ وضَعْفِهِ واحْتِمالِ الغذاءِ بالطعامِ وعَدَمِ الاحْتِمالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دَلَّتْ هذهِ الآيةُ على أنَّ الآيةَ التي ذَكَرْنا نَزَلَتْ في نازلةٍ حينَ[7] أخْبَرَ أنهُ إذا بَلَغَ ذلك المَبْلَغَ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ﴾ الآية.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ذَكَرَ أوَّلَ ما يَشْتَدُّ عقلُهُ، ويدخُلُ في القوةِ إلى الوقتِ الذي يكونُ على الزيادةِ، فإذا جاوَزَ ذلكَ الوقتَ يأخُذُ في الانْتِقاصِ، وهو أربعونَ سنةً.

وقالَ أهلُ التأويلِ: بلوغُ الأشُدِّ هو ثماني عشرةَ سنةً إلى أربعينَ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُ أوَّلُ وَقْتِ دخولِهِ في الزيادةِ والقوةِ إلى الوقتِ الذي إذا بَلَغَ ذلكَ يأخُذُ بالنُّقصانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ /٥١٠ ـ أ/ على أنَّ على الرجلِ شُكْرَ ما أنْعَمَ على والديهِ وأحْسَنَ إليهِما كما يُلْزِمُهُ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِ لمّا يكونُ بَدْءُ إسلامِ الأولادِ الصغارِ بالوالدَينِ وما لهما مِنَ النِّعَمِ يَصِلُ نَفْعُها إليهِمْ، فَيَلْزَمُهُمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ بالإيمانِ والنِّعَمِ في وَقْتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ هذا على كلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَدْعُوَ بِمِثْلِ هذا الدعاءِ؛ يَسْألُ رَبَّهُ التوفيقَ على عملٍ صالحٍ يَرْضاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ[8]:

أحَدُهما: أي أصْلِحْ لي ذُرِّيَتي، على طَرْحِ حَرْفِ ﴿فِى﴾ منهُ كقولِهِ: ﴿هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] وقولِهِ ﷺ: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِى﴾ [مريم: ٥ و٦] واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ ألْهِمْني.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلةِ لأنهُ سألَ رَبَّهُ أنْ يُوزِعَهُ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِ، ومِنْ قولِهِمْ: أنْ ليسَ على المرءِ الشُّكْرُ إلّا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن يكفي. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: واعتبر. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) سقط الوجه الثاني من الأصل وم ونسخة الحرم المكي.

بَعدَ إعطاءِ جميعِ ما بهِ يَشكُرُ حتى لا يَبْقى عندَهُ مزيدٌ، فيكونُ مِثْلُ هذا الدعاءِ لَعِباً وهُزْءاً، على قولِهِمْ لأنهمْ يَسْألونَ ما يَعْلَمونَ أنْ ليسَ عندَهُ ذلكَ وأنهُ لا يَملِكُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

ومِنْ قولِهِمْ: أنْ ليسَ عندَهُ ما يُغيثُهُمْ، فَيَخْرُجُ دعاؤُهُمْ على ما ذَكَرْنا على مذهبِهِمْ، وباللهِ العصمةُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ كانَ لهمْ أعمالٌ[1] حسناتٌ وسَيئاتٌ، وأخبَرَ أنهُ يَتَقَبَّلُ عنهمْ حسناتِهِمْ، ويَجْزِيهِمْ جَزاءَها، ويَتَجاوزُ عنْ سَيِّئاتِهِمْ، ويُكَفِّرُها، ولا يَجْزِيهِمْ جزاءَها فضلاً منهُ ورحمةً. والمُرادُ مِنَ الأحسنِ الحَسَنُ، ويجوزُ ذلكَ في اللغةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي ذلكَ الذي أخبَرَ، وذَكَرَ أنهُ يَفْعَلُ لهمْ، هو وَعْدُ الصدقِ [الذي يَفي][2] لهمْ، وهو[3] قادرٌ على وفاءِ ما وَعَدَ.

ومَنْ يكونُ منهُ الخُلْفُ في الوَعْدِ في الشاهِدِ إنما يكونُ لأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا لِعَجْزٍ يَمْنَعُهُ عن وفاءِ ما وَعَدَ، [وإمّا لجهلٍ][4] وبَدْوٍ يَبدو لهُ، فَيَرْجِعُ عنْ ذلكَ، [وإمّا لِحاجةٍ][5] واللهُ ﷻ يَتعالى عنْ ذلكَ كلِّهِ للقدرةِ الذاتيّةِ والغِنى الذاتيِّ والعِلْمِ الأزليِّ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. خَرَّجَ أهلُ التأويلِ هذهِ الآيةَ في عبدِ الرحمنِ بْنِ أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ ووالدتُهُ فلانةٌ. والآيةُ الأولى في أبي بكرٍ الصديقِ ووالديهِ، وهي قولُهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ فيقولونَ: إنَّ أبا بكرٍ الصديقَ ﷺ أطاعَ والدَيهِ، وأمَرَ بالإحسانِ إليهما والشُّكْرِ لهما، وسألَ التوفيقَ في الشكرِ لربِّهِ على ما أنْعَمَ عليهِ، وأنْعَمَ على والدَيهِ. وعبدُ الرحمنِ ابنُهُ، قد عَصَى والدَيهِ، وخالفَهُما فيما يَدْعوانِهِ إليهِ، وقالَ لهما قولاً رَدِيّاً حينَ[6] قالَ: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ مِنَ القبرِ، وأُحْيَى ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فلا أراهُمْ بُعِثوا، ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الكلامِ.

إلّا أنَّ هذا لا يَصِحُّ لأنَّ عبدَ الرحمنِ بْنَ أبي بكرٍ الصديقِ مِنْ أجِلَّةِ الصحابةِ ﷺ فالظاهرُ أنهُ لم يكُنْ منهُ هذهِ المُجادَلةُ، ولأنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: إنهُ كانَ قالَ لوالديهِ؛ إنْ كانَ ما تقولونَ حقّاً: أخرِجوا فُلاناً، وذَكَرَ[7] نَفَراً مِنْ أجدادِهِ، فقالَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الآيةَ.

ولا يَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا جوابَ ما تقَدَّمَ مِنَ القولِ لأنهُ في وجوبِ ما ذَكَرَ، وهو اسْتِحْقاقُ العذابِ عليهِمْ، مَنَعَ العَوْدَ والإحياءَ في الدنيا، ولأنهمْ لو كانوا يُعادُونَ لا يَسْقُطُ ذلكَ الذي حَقَّ عليهِمْ، إذْ هُمْ لا يُؤمنونَ.

ألاَ تَرَى أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾؟ [الأنعام: ٢٨].

لكنْ جائزٌ أنْ تكونَ الآيتانِ في رجلَينِ منْ بَنِي آدمَ ﷺ معَ والدَيهما[8]: أطاعَ أحَدُهما والدَيهِ، وأجابَهما إلى ما دَعَواهُ، وأبَى الآخَرُ إجابةَ والدَيهِ إلى ما دَعَواهُ إليهِ، وخالَفَهُما في أمْرِهِما، فاسْتَغاثَ والدا مَنْ عَصاهما، وخالَفَهُما في أمرِهِما، وقالا ما ذُكِرَ في الآيةِ.

وقالَ مَنْ أجابَهُما ما ذُكِرَ، وهو كما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] صَرَفَ أهلُ التأويلِ بأجمعِهِمْ هذهِ الآيةَ إلى آدمَ وزوجتِهِ حواءَ ﷺ.

وقلْنا نحنُ: جائزٌ أنْ يكونَ هذا في كلِّ والدٍ ووالدةٍ؛ يقولانَ ما ذُكِرَ [ويَدْعُوانِ إلى ما ذُكِرَ][9]: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] ما ذَكَرَ مِنَ الصلاحِ كانا ما ذَكَرَ.

---

(١) في الأصل وم: عملان. (٢) في الأصل: الذي: ذلك، في م: يفي ذلك. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو جهل.
(٥) في الأصل وم: أو حاجةٍ. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: والديه. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ تكونَ الآيتانِ اللتانِ ذَكَرْناهما تكونانِ في كلِّ ولدٍ معَ والدَيهِ: مَنْ أجابَ والدَيهِ، ومَنْ عَصاهُما، واللهُ أعلَمُ، فلا تُصْرَفُ الآيةُ إلى مَنْ ذَكَروا إلّا بِبَيانٍ مِنَ اللهِ تعالى على لسانِ رسولِهِ ﷺ أنها في كذا وكذا وفي فلانٍ وفلانٍ على طريقِ التَّواتُرِ. فعندَ ذلكَ يُقالُ ما قالوا.

فأمّا إذا لم تُثْبَتِ النصوصُ والإشارةُ إلى قومٍ بالتواتُرِ فالكَفُّ عنْ ذلكَ أسْلَمُ، واللهُ أعلَمُ.

ودلَّ قولُهُ: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أنَّ وَعْدَ اللهِ لُطفٌ[1]؛ لو أُعْطِيَ ذلكَ لآمَنَ. لذلكَ[2] ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ تعالى [ويأمُرانِهِ بالإيمانِ بقولِهِما][3] ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٨ و١٩ وقولُهُ تعالى: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾][4] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لِيُوَفِّيَهُمْ أجرَ أعمالِهِمْ وجزاءَ أعمالِهِمْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنْقَصونَ مِنْ خيراتِهِمْ، ولا يُزادُ لَهُمْ في سيِّئاتِهِمْ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ﴾ كقولِهِ[5] تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤] وقولِهِ[6] تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] ونحوُها[7].

يُذَكِّرُهُمْ بهذهِ الآياتِ وأمثالِها لِيَعْرِفوا ما كانَ منهمْ، وما اسْتَوجَبوا مِنَ العقوباتِ إنما اسْتَوجَبوا بِما كانَ منهمْ في الدنيا مِنَ التكذيبِ والاسْتِهزاءِ بآياتِهِ لِيَنْزَجِروا عنْ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ التي أُعْطيتُموها في مَنافِعِكُمْ، وأتْلَفْتُموها، ولم تُؤَدُّوا شُكْرَها، ولم تقوموا بِوَفائِها، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي أتْلَفْتُموها، ولم تكتَسِبوها بالطَّيِّباتِ الموعودةِ في الآخِرَةِ والنِّعَمِ الدائمةِ.

فكلُّ ما أعطَى في هذهِ الدنيا مِنَ الأموالِ[8] إنما أعطَى لِيَسْتَعينوا بها على عَمَلِ الآخِرَةِ، ولِيَتَزَوَّدوا لها، ويَجْعَلوها زاداً للآخِرَةِ.

فأمّا إذا جَعَلوها في غيرِ ذلكَ فهو إتلافٌ وجَعْلٌ في غَيرِ ما جُعِلَ؛ وذلكَ وَبالٌ عليهِمْ وحَسْرَةٌ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وكذا ذَكَرَ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: ١١٧] فكلُّ نفقةٍ كانَتْ في غَيرِ ما ذُكِرَ مِنَ الاسْتِعانةِ على زادِ الآخِرَةِ والتَّزَوُّدِ لها فهو للحياةِ الدنيا، وهو لَعِبٌ ولَهْوٌ، وهو ما ذُكِرَ مِنَ الريحِ ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي عذاباً تُهانونَ فيه، ويُهينُكُمْ ذلكَ العذابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ اسْتِكبارَهُمُ الذي ذَكَرَ على الرسلِ [اسْتَكبَروا على الرسلِ][9] فتَرَكوا اتِّباعَهُمْ، فاسْتَكْبَروا على آياتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ والفِسْقُ هو الخُروجُ عنْ أمرِ اللهِ تعالى.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أيِ اذْكُرْ نَبَأَ أخي[10] عادٍ، وهو هودٌ ﷺ بما عامَلَهُ قومُهُ مِنْ سُوءِ المُعامَلَةِ وما قاسَى هو منهمْ لِتَتَسَلَّى بذلكَ بعضَ [ما][11] عامَلَ بِهِ قومُكَ مَعَكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لطفاً. (٢) في الأصل وم: وقوله ﴿وَهُمَا﴾. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ويلك آمن فيقولان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: ونحوهما. (٨) من م، في الأصل: الأعمال. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: أخا. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ واذكُرْ نَبأَ عادٍ / ٥١٠ ـ ب/ بما نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ والاسْتِئصالِ بِتَكذيبِهِمُ الرسلَ والاسْتِكبارِ عليهِمْ والاسْتِهزاءِ بهِمْ لِتُحذِّرَ بهِ قومَكَ في تكذيبِكَ والاسْتِهزاءِ بكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي خَوَّفَ قومَهُ بالأحقافِ. وقدِ اخْتُلِفَ في تأويلِ الأحقافِ:

[قالَ بعضُهُمْ: الأحقافُ][1] هو اسْمُ أرضٍ، خَوَّفَهُمْ بِنزولِ العذابِ هنالكَ. وقالَ بعضُهُمْ: هي جبالٌ مِنْ رملٍ مُسْتَطيلةٌ مُرْتفعةٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الأحقافُ واحدُ حِقْفٍ، وهو الرمْلُ: ما أشْرَفَ مِنْ كُثْبانِهِ، واسْتَطالَ، وانْحَنى.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الأحقافُ رَمْلٌ بِشَحْرِ عُمانَ، وهي مَنازِلُ عادٍ في ما زَعَموا، وشَحْرٌ بِلادُهُ[2]. وقيلَ: الحِقْفُ تَلٌّ مُعْوَجٌّ.

وقالَ بعضُهُمْ: الأحقافُ: الجَبَلُ حينَ [نَضَبَ الماءُ، وبانَ العَرَقُ][3] كأنْ يَنْضُبَ مِنَ المكانِ مِنَ الجَبَلِ، ويَبْقَى أثَرُهُ، ويَنْضُبَ مِنْ مكانٍ أسْفَلَ مِنْ ذلكَ، ويَبْقَى أثَرُهُ دونَ ذلكَ، فتلكَ الأحقافُ.

[وقيلَ: هي][4] جَبَلٌ بالشامِ، وقيلَ: هو المكانُ الذي [كانَتْ فيهِ][5] مَنازِلُ عادٍ ومُقامُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي خَلَتِ الرسلُ مِنْ قَبْلِ هودٍ ومِنْ بَعْدِهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كانَ الخِطابُ بهذا وَقَعَ للكلِّ؛ يقولُ: كانَ[6] الرسلُ ﷺ يُنْذِرونَ[7] أقوامَهُمْ[8] بأنواعِ العذابِ عندَ تكذيبِهِمْ إياهمْ، ولم يَزَلِ الرسلُ ﷺ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ يَدْعُونَ[9] الناسَ إلى عبادةِ اللهِ تعالى، ويَنْهَوْنَهُمْ[10] عنْ عبادةِ غيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ حقيقةَ الخوفِ لمّا لم يَيْأسْ مِنْ إيمانِهِمْ واتِّباعِهِمْ إياهُ. لِذلكَ لم يُقْطَعْ فيهِمُ القولُ بنزولِ العذابِ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الخَوفُ، هو العِلْمُ حقيقةً، أي أعلَمُ أنْ يَنْزِلَ بكُمْ عذابُ يومٍ عظيمٍ إنْ خَتَمْتُمْ على ما أنتمْ عليهِ، وقد يُذْكَرُ الخَوفُ في مَوضعِ العِلْمِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي قالوا لِهودٍ ﷺ أجِئْتَنا لِتَصْرِفَنا عنْ عبادةِ آلهتِنا. وقالَ بعضُهُمْ: لِتَرُدَّنا عنْ عبادةِ آلهتِنا. وقالَ بعضُهُمْ: لِتُكَذِّبَنا في آلهتِنا. والإفكُ الكَذِبُ، وكلُّهُ واحدٌ.

وأصلُ الإفكِ: الصَّرْفُ؛ كأنهمْ قالوا: أجِئْتَنا لِتَصْرِفَنا عنْ عبادةِ آلهتِنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ كانوا يقولونَ ذلكَ اسْتِهزاءً منهمْ، ولم يَزَلِ الكَفَرةُ يَسألونَ، ويَسْتَعْجِلونَ العذابَ الذي كانوا يُوعَدونَ إسْتِهْزاءً بهِمْ وتكذيباً بما كانوا يُوعَدونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية أجابَهُمْ هودٌ ﷺ: إنَّ العِلْمَ بنزولِ العذابِ ووقتِهِ عندَ اللهِ ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ مِنَ الدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ تعالى والنَّهيِ عن عبادةِ غَيرِهِ. أو يقولُ: أبَلِّغُكُمْ ما أُمِرْتُ بهِ مِنَ التبليغِ بنزولِ العذابِ بكمْ، ولستُ أبَلِّغُكُمْ أنهُ متى يَنْزِلُ بكمْ لِما لم أُؤْمَرْ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي تَجْهَلونَ دينَ اللهِ، أو تَجْهَلونَ آياتِ اللهِ وقبولَها، أو تَجْهَلونَ نِعَمَ اللهِ وإحسانَهُ، أو تَجْهَلونَ أمْرَ اللهِ تعالى.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: العارضُ السحابُ،

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تلاوة. (٣) في الأصل وم: نصف المارمان الفرق. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) في الأصل وم: قومهم. (٩) في الأصل وم: دعوا. (١٠) في الأصل وم: وينهوهم.

فقالوا هذا سحابٌ مُمْطِرُنا، وكانَ حقيقةُ العارضِ الريحَ التي فيها عذابٌ أليمٌ ظَنُّوا أنها سحابٌ، ولم تكنْ سحاباً، ولكنْ كانَتْ ريحاً، لكنْ مِنْ ذلكَ الجانبِ كانَ يأتيهمُ السحابُ المُمْطِرُ ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كانَ هودٌ ﷺ قالَ لهمْ: ليسَ هو بِعارضٍ ممطرٍ، ولكنْ هو ما اسْتَعْجَلْتُمْ بهِ منَ العذابِ حينَ[1] قُلْتُمْ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] هو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٢٥ ثم وَصَفَ ذلكَ الريحَ، فقالَ: كما أخبرَ اللهُ تعالى بقولِهِ ﷻ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أُرسِلَتْ، وأُمِرَتْ بِتدميرِهِ، لا تُجاوِزُ أمْرَ ربِّها، ولا تُدَمِّرُ ما لم تُرْسَلْ، وتُؤْمَرْ بِتدميرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ و٤٢]. هذهِ الآيةُ تُفسِّرُ قولَهُ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أتَتْ عليهِ، وأُمِرَتْ بتدميرِهِ. فأمَّا ما لم [تُؤمَرْ][2] بالتدميرِ فلا على ما ذُكِرَ في تلكَ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عندَ مَنْ عايَنَها، وتأمَّلَها، عندَهُ أنها تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ، لا تُبْقِي شيئاً على وجهِ الأرضِ لِشِدَّتِها وقُوَّتِها، لكنها لا تُجاوِزُ أمْرَ ربِّها. ألا تَرى أنها لا تُدَمِّرُ هوداً وأتباعَهُ، وهُمْ فيهِمْ، وبِقُرْبٍ منهُ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي تأتيهِ أسبابُ المَوتِ، وما بِهِ يموتُ لو كانَ فيهِ أمْرُ المَوتِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ عندَ مَنْ عايَنَها، ونَظَرَ في أحوالِها وأهوالِها أنْ لو كانَ لها أمْرٌ بذلكَ، لكنها لم تُجاوِزْ أمْرَ ربِّها. ألا تَرى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾؟ في ظاهِرِ هذهِ الآيةِ أنها قد أبقَتْ مَساكِنَهُمْ، ولم تُدَمِّرْها، وكذلكَ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ لمَّا الْتَجَؤوا إلى مساكِنِهِمْ، وهَرَبوا منها، كانَتْ تدخلُ الريحُ مساكِنَهُمْ، وتُخرِجُهُمْ منها، فتُلْقِيهِمْ في صحارِيهِمْ وأفْنِيَتِهِمْ مَوتَى.

وقالَ بعضُهُمْ: تَنْزِعُ مَفاصِلَهُمْ، وتَقْطَعُها، ثم تُلْقِيهِمْ في أفْنِيَتِهِمْ على ما وَصَفَ، وشَبَّهَهُمْ بأعجازِ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ. فالريحُ التي تَعْمَلُ في إخراجِ أهلِها مِنْ مساكِنِهِمْ وإلقائِهِمْ في الفَيافي؛ لأنْ تَعمَلَ في هدمِ المَساكِنِ والمَنازِلِ أولَى، ومَعَ ذلكَ وكذلكَ إذا عَمِلَتْ في نَزْعِ المَفاصلِ أو قَطْعِها؛ ففي نَقْضِ البُنيانِ والمَساكنِ أولَى. ومَعَ ذلكَ لم تَعْمَلْ في هدمِ مَساكِنِهِمْ. فَدَلَّ ما ذَكَرْنا أنها لم تُجاوِزْ أمْرَ ربِّها في الإهلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الآيةَ: يَحْتَمِلُ لا تُرَى إلّا مَساكِنُهُمْ، إلّا آثارُ مَساكِنِهِمْ.

فَعَلَى أحدِ التأويلَينِ تَرَكَتْ لهمُ المساكنَ، لم تُهْلِكْها. وعلى التأويلِ الآخَرِ تَرَكَتْ آثارَ مَساكِنِهِمْ، فأمّا نفسُ مَساكِنِهِمْ فقد أهْلَكَتْها.

وهذانِ التأويلانِ خَرَجا على ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلَينِ في قولِهِ تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فالأولُ على التأويلِ الأوَّلِ في قولِهِ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أرسِلَتْ، وأُمِرَتْ بِتَدميرِهِ، ولم تُؤمَرْ بِتَدميرِ مساكِنِهِمْ، فَبَقِيَتْ.

والتأويلُ الثاني على التأويلِ الثاني في قولِهِ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عندَ مَنْ عايَنَها، ونَظَرَ إليها، لِشِدَّتِها وقوتِها فتُدَمِّرُ مساكِنَهُمْ أيضاً، فلا تُرَى إلّا آثارُها.

لكنْ سَمّاها مَساكِنَ باسْمِ ما قد كانَ، وإنهُ أمرٌ مُسْتَعْمَلٌ في عُرْفِ لسانِ اللغةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث قال. (٢) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كأنَّ المُجرِمَ، هو الذي يُديمُ اكْتِسابَ الجُرْمِ والإثْمِ، وقالَ بعضُهُمْ: هو الوثّابُ في الجُرْمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ الآية. قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِن﴾ ههنا في مَوضعِ: لم، كأنهُ يقولُ: ولقد مَكّناهُمْ، فيما لم نُمَكِّنْ لكمْ مِنَ القوةِ والشدةِ والعقلِ والبَصيرةِ وغَيرِ ذلكَ. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي قد مَكّنّا عاداً، في ما ذَكَرْنا ما لم نُمَكِّنْ لكمْ يا أهلَ مكةَ في ذلكَ /٥١١ ـ أ/ ثم إذا أتاهُمْ عذابُ اللهِ بِتَكذيبِهِمُ الرسلَ لم يَمْلِكوا دفعَ عذابِهِ.

فأنتمْ حينَ[1] لم يُمَكَّنْ لكمْ ذلكَ أحرَى ألّا تَمْلِكوا دَفْعَ عذابِهِ إذا نَزَلَ بكُمْ بِتكذيبِكُمُ الرسولَ ﷺ

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ حَرْفَ ﴿إِن﴾ صِلَةٌ زائدةٌ، فيكونُ تقديرُ الآيةِ كأنهُ يقولُ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ﴾ ﴿مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ممّا ذَكَرَ مِنَ السمعِ والبَصَرِ والفؤادِ، ثم لم يَمْلِكوا دَفْعَ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ، فأنتمْ لا تَمْلِكونَ أيضاً دفْعَهُ عنْ أنفسِكُمْ، وكانَ لهمْ ما لكمْ ممّا ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفؤادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ على التأويلِ الأوّلِ حينَ[2] ذَكَرْنا أنهمْ مُكّنوا ما لم يُمَكَّنْ هؤلاءِ يكونُ ما ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفؤادِ، لا يُرادُ بهِ أعيانُها حقيقةً، لكنَّ السَّمْعَ يكونُ كِنايةً عنِ العَقْلِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] ذَكَرَ السَّمْعَ، ثم فَسَّرَ بهِ العقلَ، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَأَبْصَٰرًا﴾ أُريدَ بهِ البَصائِرَ. فالبَصَرُ يُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ البَصيرةُ؛ إذْ قد وصَفَهُمُ اللهُ تعالى بذلكَ بقولِهِ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] ويكونُ قولُهُ: ﴿وَأَفْـِٔدَةً﴾ كِنايةً عنِ القِوَى، والفؤادُ يُكَنّى بهِ عنِ القوةِ.

يُخْبِرُ تعالى أنهمْ مُكّنوا مِنَ العَقْلِ والبَصيرةِ والقوةِ ما لم تُمَكّنوا أنتمْ يا أهلَ مكةَ، ثم لم يَقْدِروا على دفعِ عذابِ اللهِ إذا نَزَلَ بهِمْ. فأنتمْ كيفَ تَمْلِكونَ دفعَهُ، وليسَ لكمْ تلكَ الأسبابُ؟

وعلى التأويلِ الثاني كانَ المُرادُ هو حقيقةَ ما ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفؤادِ. فيكونُ معناهُ ما ذَكَرْنا أي لكُمْ هذهِ الأسبابُ مِثْلُ ما لهمْ، ثم هُمْ لم يَقْدِروا على دفعِ ما حَلَّ بهمْ مِنَ العذابِ، فأنتمْ لم تَقْدِروا أيضاً، واللهُ أعلَمُ

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى الذي بهِ[3] نَزَلَ ما نَزَلَ مِنَ العذابِ حينَ[4] قالَ: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وكان اسْتِهْزاؤُهُمْ مَرّةً بما يوعِدُ لهمُ الرسلُ ﷺ بالعذابِ، ومَرّةً كانوا يَسْتَهْزِئونَ بالرسُلِ ﷺ لِما يَدْعونَهُمْ إلى ما دَعَوا، واللهُ أعلَمُ.

ثم [بَيَّنَ][5] عذابَ عادٍ بالريحِ التي وَصَفَها تعالى في سورةِ الحاقةِ، وذَكَرَ فيها، حينَ[6] قالَ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي شديدةٍ عاديةٍ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ الآية [الآيتان: ٦ و٧] وقالَ: في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ خَلَقَ اللهُ تعالى البشرَ على طبعٍ وبِنْيَةٍ وحالٍ يَحْذَرونَ ما يَنْزِلُ بأشكالِهِمْ وأمثالِهِمْ بذنوبٍ ارْتَكَبوها، ويَتّعِظونَ بِغَيرِهِمْ. فكأنهُ يقولُ: احْذَروا صُنْعَ الذينَ أُهْلِكوا[7] حولَكُمْ وبِقُرْبِكُمْ لئلا يَنْزِلَ بكمْ ما نَزَلَ بأولئكَ الذينَ أُهْلِكوا حولَكُمْ لِتَرْتَدِعوا عنْ ذلكَ وألّا تُعامِلوا رسولَهُ كما عامَلَ أولئكَ حتى لا [يَنْزِلَ بكُمْ][8] مثلُ ما نَزَلَ بأولئكَ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وعنادِهِمْ واسْتِهْزائهِمْ بهِمْ. يُحَذِّرُهُمْ ما نَزَلَ بأولئكَ الذين أُهْلِكوا حولَهُمْ لِيَرْتَدِعوا عنْ ذلكَ وألّا يُعامِلوا رسولَهُ ﷺ كما عامَلَ[9] أولئكَ حتى [لا][10] يَنْزِلَ بهِمْ مثلُ ما نَزَلَ بأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: بهم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: ما. (٨) في الأصل وم: يزال بهم. (٩) في الأصل وم: عاملوا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أحَدُهما: أي جَعَلْنا للرسلِ ﷺ آياتٍ أقاموها على أقوامِهِمْ[1] ما تَعَلَّمُهُمْ ذلكَ، وتُخْبِرُهُمْ عنْ صِدْقِهِمْ، فَرَدّوها، وكَذَّبوهُمْ بها. فعندَ ذلكَ أهْلَكْناهُمْ. فَعَلَى ذلكَ جَعَلْنا لمحمدٍ ﷺ مِنَ الآياتِ ما تُعَلِّمُكُمْ يا أهلَ مكةَ وتُخْبِرُكُمْ عنْ صدقِهِ، وتَدُلُّكُمْ على رسالتِهِ، فلا تَرُدّوها حتى لا يَنْزِلَ بكمْ ما نَزَلَ بهمْ، واللهُ أعلَمُ

والثاني: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي نَشَرْنا في الآفاقِ والأطرافِ النائيةِ ما حَلَّ بأولئكَ، ونَزَلَ بهمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وما كانَ منهمْ مِنَ العِنادِ والرَّدِّ ما يَلْزَمُ مَنْ بَلَغَ ذلكَ الخَبَرُ، واتَّصَلَ بهِ ما نَزَلَ بأولئكَ للرجوعِ عنْ مثلِ صَنيعِهِمْ ومثلِ معامَلَتِهِمْ.

فأحدُ التأويلَينِ: يَرْجِعُ إلى انتِشارِ ما نَزَلَ بأولئكَ في الآفاقِ لِيَرْجِعوا عنْ ذلكَ، فَيَصيرَ ذلكَ آيةً لهُ، فَيَحْمِلَهُمْ على الرجوعِ عنْ صنيعِ أولئكَ لِيَرْجِعوا عنْ ذلكَ.

والثاني: إخبارٌ أنهُ جَعَلَ لكلِّ رسولٍ ونَبِيٍّ آيةً على صدقِهِ ودلالةً على رسالتِهِ، أي لم يُهْلِكْهُمْ إلّا بَعْدَ [عَدَمِ][2] لزومِهِمُ التصديقَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يَرْجِعُ إلى اللهِ تعالى. والآخَرُ: يَرْجِعُ إلى الأصنامِ التي عَبَدوها، واتَّخذوها آلهةً.

فأمّا الذي يَرْجِعُ إلى اللهِ تعالى فيقولُ[3]: لولا نَصَرَهُمُ اللهُ، أي هلّا يَنْصُرُهُمُ[4] اللهُ تعالى عندَ نزولِ العذابِ بهمْ، ولا يُهْلِكَهُمْ لو كانَتْ[5] عبادَتُهُمُ الأصنامَ ممّا تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى، ويكونونَ شُفَعاءَ عندَهُ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو كانَ قولُهُمْ[6] حَقًّا: أنَّ ذلكَ ممّا يُقَرِّبُهُمْ[7] إلى اللهِ هلاَ نَصَرَهُمْ[8] اللهُ عندَ نزولِ العذابِ بهمْ[9]؟ فإذْ لم يَنْصُرِ اللهُ تعالى أولئكَ، بل أهْلَكَهُمْ، فاعْلَموا أنهُ ليسَ الأمرُ كما تَوَهَّمْتُمْ، وظَنَنْتُمْ، واللهُ أعلَمُ.

[وأمّا][10] الثاني: فيقولُ[11]، واللهُ أعلَمُ: لو كانَ للأصنامِ التي تَعْبُدونَها شَفاعةٌ عندَ اللهِ تعالى على ما زَعَمْتُمْ هلّا نَصَروا أولئكَ، ودَفَعوا[12] الهلاكَ عنهمْ بِشَفاعتِهِمْ؟ فإذْ لم يَفْعَلوا ذلكَ، ولم يَنْصُروهُمْ، ولم يَدْفَعوا عنهمْ، فَعَلَى ذلك فَلا يَمْلِكونَ دَفْعَ ذلكَ عنكُمْ إذا نَزَلَ بكمْ ما نَزَلَ بأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وتفسيرُ ﴿فَلَوْلَا﴾ ههنا: فَهَلّا. و: هلّا يُسْتَعْمَلُ في الماضي، فيكونُ معناهُ لم يَفْعَلْ، أي لم يَنْصُرْهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي ضَلَّ هؤلاءِ عنها، أو ضَلَّ الأصنامُ عنهمْ، فلم يكنْ لهمْ منهمْ ما طَمِعوا، ورَجَوا بسببِ عبادتِهِمْ إياها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ إفْكُهُمْ وافْتِراؤُهُمْ، هو قولُهُمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي فَرِغَ مِنْ قراءتِهِ ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ النُّذُرَ مِنَ الجِنِّ والرسلِ [وقالَ بعضُهُمْ][13]: النُّذُرَ مِنَ الإنسِ. فإنْ كانَ ما ذُكِرَ فجائزٌ على هذا أنْ يكونَ النَّفَرُ الذي ذَكَرَ أنهُ صَرَفَهُمْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لِيَسْتَمِعوا إلى القرآنِ منهُ، هُمُ النُّذُرُ يَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وفي ظاهرِ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] أنْ قد يكونُ مِنَ الجِنِّ الرسُلُ كما يكونُ مِنَ البشرِ إلّا أنْ يُقالَ: إنهُ قد تُذْكَرُ الآيتانِ، والمُرادُ بِهِ إحداهما، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يَخْرُجُ مِنْ أحَدِهِما، وهو المالحُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قومهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: نصرهم. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: حقكم. (٧) في الأصل وم: يقربكم. (٨) في الأصل وم: نصركم. (٩) في الأصل وم: بكم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ودفع. (١٣) في الأصل وم: و.

ثم يَحْتَمِلُ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي ألْهَمْناهُمْ، وقَذَفْنا في قلوبِهِمْ حتى صاروا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وتَوَجَّهوا إليهِ، يَسْتَمعونَ إلى القرآنِ منهُ.

الآية ٣٠ ويَحْتَمِلُ أنهُ أمَرَهُمْ في الكتبِ التي أُعطوا مَعْرِفَتَها بالتوبةِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، لِيَسْتَمِعوا منهُ إلى القرآنِ لأنهُ قالَ ﷻ على إثْرِهِ خَبَراً عنهمْ: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هذا يدلُّ على أنهمْ قد عَرَفوا الكتبَ قبلَ هذا الكتابِ حينَ[1] ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونوا أُمِروا بتلك الكتبِ باسْتِماعِ هذا الكتابِ والعملِ بهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونوا عَرَفوا بذلكَ لمّا كانوا يَسْتَرِقُونَ / ٥١١ ـ ب/ السَّمْعَ [إذْ يَصْعَدونَ][2] إلى السماءِ، فَيَسْتَمعونَ إلى أخبارِ السماءِ، ثم يَنْزِلونَ، فَيُخْبِرونَ أهلَ الأرضِ بِذلكَ لِيكونَ العلمُ لهمْ بذلكَ مِنَ الوجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْناها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ فيهِ دلالةٌ لزومِ العملِ بِخَبَرِ الواحدِ لأنَّ النفرَ الذي حَضَروا رسولَ اللهِ ﷺ مِنَ الجنِّ سَمِعوا القرآنَ منهُ، وصَدَّقوهُ، كانوا قليلي[3] العَدَدِ لمّا رَجَعوا إلى أقوامِهِمْ، فإنما يَرْجِعُ كلٌّ إلى قومِهِ، وقد يَحْتَمِلُ الاجْتِماعَ والتواصلَ على ذلكَ، ودعا كلٌّ قومَهُ إلى[4] إجابَتِهِ داعيَ اللهِ تعالى، وحَذَّرَهُمْ مُخالَفَتَهُ.

وإنهُ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الإفرادِ والآحادِ دلَّ أنَّ خَبَرَ الواحدِ حُجَّةٌ في حقِّ العملِ، وهو ما قالَ ﷻ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] فكانَ العَمَلُ بِخَبَرِ الآحادِ والإفرادِ ظاهراً مشهوراً في الإنسِ والجِنِّ حينَ[5] ذَكَرَ ما ذَكَرْنا، والْزَمَهُمُ الإجابةَ والحَذَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ الإجابةَ لهُ في الاعْتِقادِ والإيمانِ بهِ، ويَحْتَمِلُ في المُعامَلَةِ في كلِّ أمْرٍ وفي كلِّ شيءٍ.

الآية ٣٢ فكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ في ما دَعاهُ ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ليسَ بِسابِقٍ ولا هاربٍ مِنْ عذابِهِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أنْ ليسَ بِقدرةِ أحدٍ التَّخَلُّصُ مِنْ عذابِهِ بِهَرَبِهِ منهُ والفرارِ عنهُ كما يَقْدِرُ الفرارَ والهَرَبَ بعضٌ مِنْ عذابِ بعضٍ في الدنيا، ربّما. ولذلكَ ما قالَ: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي ليسَ لهُ مِنْ دونِهِ أولياءُ يَنْفَعونَهُ، ويَدْفعونَ العذابَ عنهُ كما يقومُ بعضٌ في دفعِ ما يَلْحَقُهُمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ في الدنيا؛ إذْ ليسَ قولُهُ: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ إذْ لا ولايةَ لهُمْ، إذْ قالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] ولكنْ لا تَنْفَعُ ولايَتُهُمْ يومئذٍ كما لا تَنْفَعُ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي مَنْ لم يُجِبْ داعيَ اللهِ فهمْ في ضلالٍ مُبينٍ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية؛ والإشكالُ ما مَعْنى قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ وهُمْ لم يُشاهدوا خَلْقَهُما؛ ولم يَرَوا؟ لكنْ قالَ بعضُهُمْ: أي أوَلم يُخْبَروا. وقالَ بعضُهُمْ: أوَلَمْ يَعْلَموا؟ أي قد أُخْبِروا، أو عَلِموا ذِكْرَ هذا لأنهمْ كانوا مُقِرِّينَ جميعاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، أي لمّا عَلِموا أنَّ اللهَ ﷻ هو خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، ولم يُضْعِفْهُ خَلْقُ ما ذَكَرَ، ولم يُعْجِزْهُ ذلكَ عنْ تدبيرِ ما يَحْتاجُ ذلكَ إليهِ مِنَ الإمساكِ والقيامِ بِما بهِ قِوامُ ما خَلَقَ فيهنَّ مِنَ الخَلائقِ وإصلاحُهُمْ. فإذْ لم يَعْجَزْ عمّا ذَكَرَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عاجزاً عَنْ إحياءِ المَوتى أو عَنْ شيءٍ البَتَّةَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قليل. (٤) من م، في الأصل: إذا. (٥) في الأصل وم: حيث.

أو يقولُ: حينَ[1] لم يَعْيَ، ولم يَظْهَرْ فيه الضعفُ في خَلْقِ ما ذَكَرَ، ثم لا أَحَدَ يَمْلِكُ أنْ يَعْمَلَ عملاً إلا ويَظْهَرُ منهِ الضعفُ؛ فإذا لم يَعْجَزْ، ولم يَضعُفْ في خَلْقِ ما ذَكَرَ، دلَّ ذلكَ على أنهُ إنما لم يُضعِفْهُ لأنَّ قدرَتَهُ ذاتيَّةٌ. ومَنْ كانَتْ قدرتُهُ ذاتيَّةً لا يُعْجِزُهُ شيءٌ. فأمّا غيرُهُ فإنما يَعْمَلُ بأسبابٍ؛ فَيَقْدِرُ على العمل على قَدْرِ الأسبابِ، ويَعْجِزُ ربمّا عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

أو يقولُ: إذْ قد عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ تعالى، هو خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يَخْلُقَهُما باطلاً عَبَثاً. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا بَدْءاً، أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما بلا احْتِذاءٍ تَقَدَّمَ ولا اسْتِعانَةٍ بِغَيْرٍ. ثم الإمساكُ والقِوامُ على التدبيرِ الذي دبَّرَ إلى آخِرِ الدهرِ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنه قادرٌ بذاتِهِ لا بقدرةٍ مُسْتَفادةٍ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ يقالُ: عَيِيتُ بهذا، أي لم أُحْسِنْهُ، ولم أقْدِرْ عليهِ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ مَرَّةً قيلَ لهمْ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١] ومَرَّةً قيلَ لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ نَقَضَ هذا عليهِمْ يومئذٍ لِيَعْتَرِفوا بالذي كانوا يُنْكِرونَ في الدنيا، لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ في الدنيا الرسلَ والآياتِ، وكانوا يُنْكِرونَ كونَ البَعْثِ وعذابَهُ، فَيُعْرَضونَ على النارِ، فَيُقالُ لهمْ: هذا الذي وُعِدْتُمْ في الدنيا ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فَيَعْتَرِفونَ، ويقولونَ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فيقالُ لهمْ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يُلْزِمُ الرسلَ الصبرَ مِنْ وجوهٍ سِتَّةٍ:

ثلاثةٌ ممّا خُصّوا هم بها، لا يَشْرَكُهُمْ غيرُهُمْ فيها، وثلاثةٌ ممّا يَشْتَرِكُ غيرُهُمْ فيها.

فأمّا الثلاثةُ التي خُصّوا بها:

فإحداها: أنهمْ[2] بُعِثوا لِتبليغِ الرسالةِ إلى الفراعنةِ والأكابرِ والجبابرةِ الذينَ كانَتْ عادتُهُمْ وهَمُّهُمُ القَتْلَ وإهلاكَ مَنْ خالَفَهُمْ، وعَصَى أمرَهُمْ ومَذْهَبَهُمْ، فلم يُعْذَروا[3] في تَرْكِ تبليغِ الرسالةِ إليهمْ معَ ما ذَكَرْنا مِنْ خوفِ الهلاكِ والقَتْلِ. فأمّا غيرُهُمْ مِنَ الناسِ فقد أُبيحَ لهمْ كِتمانُ الدينِ الحقِّ عنهمْ حتى لا يُهْلَكوا.

والثانيةُ[4]: ألْزَمَهُمُ الصَّبْرَ بالمُقامِ بَيْنَ أظْهُرِ قومِهِمْ واحتمالَ ما كانَ يَلْحَقُهُمْ منهم مِنَ الاسْتِهزاءِ بِهِمْ والافْتِراءِ عليهِمْ والتَكْذيبِ لهمْ وأنواعِ الأذى الذي كانَ منهم إلى الرسلِ، لم يَأْذَنْ لهمْ بِمُفارَقَتِهِمْ، لذلكَ قالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] لم يكُنْ منهُ سِوَى الخروجِ مِنْ بَيْنِ قومِهِ لسلامةِ دينِهِ لو لم يَسْلَمْ، ثم أصابَهُ ما أصابَهُ بذلكَ الخروجِ لِما لم يُؤْذَنْ [لهُ][5] بالخروجِ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثةُ[6]: لم يَجْعَلْ لهمُ الدعاءَ على أقوامِهِمْ بالهلاكِ والعذابِ، وإنْ كانَ منهمْ مِنَ التَّمَرُّدِ والتَّعَنُّتِ ما كانَ. فهذهِ الثلاثةُ مِنَ المُعاملةِ ممّا خَصَّ الرسلَ ﷺ بها مِنْ بَيْنِ سائرِ الناسِ.

وأمّا الثلاثةُ [التي][7] يَشْتَرِكُ فيها غيرُهُم:

[فإحداها[8]: أُمِروا بالصبر على ما يُصيبُهُمْ، ويَنْزِلُ [بهمْ][9] مِنَ البلايا والشدائدِ.

والثانيةُ[10]: أُمِروا بالمحافظةِ على العِبادَاتِ [التي][11] جُعِلَتْ عليهِمْ والمحافظةِ [على][12] حدودِها والصبرِ على القيامِ بها.

والثالثةُ[13]: أُمِروا بالصبرِ على تَرْكِ قضاءِ الشَّهوةِ وتَرْكِ إعطاءِ النفسِ هواها.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: هم. (٣) في الأصل وم: يعذر. (٤) في الأصل وم: والثاني. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: والثالث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: أحدها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: والثاني. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: والثالث.

فهذهِ الثلاثةُ لهمْ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رَبِّهِمْ، وهي ممّا يَشْتَرِكُ فيها غيرُهُمْ. والثلاثةُ الأولَى في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الخَلْقِ، وهُمْ قد خُصُّوا بتلكَ الثلاثةِ دونَ غيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: هُمْ نوحٌ وإبراهيمُ ويعقوبُ ويوسفُ وموسى ﷺ وهؤلاءِ عُدُّوا نَفَراً منهمْ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الرسلُ جميعاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ أولُو العَزْمِ مِنَ الرسلِ هُمُ الذينَ كانَ منهمُ الصبرُ على ما ذَكَرْنا مِنَ المُعاملةِ معَ قومِهِمْ.

وقيلَ: أولُو العَزْمِ هُمُ الذين كانوا أبداً المُتَيَقِّظِينَ القائمينَ بأمرِ اللهِ الحافظِينَ لِحدودِهِ، وقالوا في آدمَ ﷺ ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لا تَسْتَعْجِلْ عليهِمْ بالهلاكِ والنِّقْمَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما[1]: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كأنكَ لا تُوعِدُهُمْ بالساعةِ إلّا ساعةً مِنْ نَهارٍ. وهذا[2] يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كأنكَ لا تُوعِدُهُمْ بالعذابِ إلّا ساعةً مِنَ النهارِ. وعذابُ ساعةٍ / ٥١٢ ـ أ/ مِنَ النهارِ ممّا لا يَحْمِلُهُمْ على تَرْكِ قضاءِ شَهَوَاتِهِمْ ومَنْعِ ما هُمْ فيهِ مِنَ الأحوالِ.

والثاني: كأنهمْ إذا عايَنوا عذابَ الآخِرَةِ، وشاهَدوهُ استَقْصَروا المُقامَ في الدنيا؛ كأنهمْ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] استَقْصَروا[3] المُقامَ في الدنيا إذا [ما][4] عايَنوا يومَ القيامةِ وأهوالَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: [مِنَ][5] الإبلاغِ، وقيلَ: البَلاغُ مِنَ البُلْغَةِ، أي زادٌ يُبْلَغُ بهِ السفرُ [حينَ يُرادُ][6]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: لا يُهْلَكُ الهلاكَ الدائمَ المُؤَبَّدَ إلّا القومُ الفاسِقونَ؛ الهلاكُ الذي ليسَ هو بالهلاكِ المُؤَبَّدِ ممّا يُهْلَكُ الفاسِقُ وغيرُ الفاسِقِ؛ إذِ المَوتُ حَقٌّ على الكلِّ، أو يقولُ: لا يُهْلَكُ هلاكَ العذابِ إلّا الفاسقُ. فأمّا الهَلاكُ الذي هو النجاةُ والفَوزُ على شدائدِ الدنيا في ما يَهْلِكُ بهِ الصالحُ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ[7].

(١) لم يذكر الوجه الثاني في الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: اقتصروا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي. (٦) في الأصل وم: حيث يريد. (٧) ساقطة من م.

سورة[1] محمد ﷺ

مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: هُمْ أهلُ مكةَ. والأشبَهُ أنْ تكونَ الآيةُ في كفارِ المدينةِ، وهُمْ أهلُ الكتابِ لأنَّ السورةَ مدنيَّةٌ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ.

لكنْ جائزٌ أنْ تكونَ كما قالَ أهلُ التأويلِ: إنها نَزَلَتْ في كُفّارِ مكةَ لأنَّ هذهِ السورةَ ذُكِرَتْ على إثْرِ خَبَرٍ لهمْ وعُقَيبِ نَبَئِهِمْ في سورةِ الأحقافِ.

ثم [إنْ][2] كانَتِ الآيةُ في كُفّارِ المدينةِ وأهلِ الكتابِ فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمدٍ ﷺ وبما أُنْزِلَ عليهِ ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبْطَلَ إيمانَهُمُ الذي كانَ لهمْ بسائرِ الأنبياءِ وبمحمدٍ ﷺ لأنهمْ كانوا مؤمنينَ به قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ. فلمّا بُعِثَ كَفَروا بهِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: قد أبْطَلَ إيمانَهُمُ الذي كانَ منهمْ قبلَ ذلكَ بما كَفَروا بهِ إذْ بُعِثَ.

وإنْ كانتِ الآيةُ في كُفّارِ مكةَ على ما قالَ أكثرُهُمْ فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَفَروا بمحمدٍ ﷺ وبما أُنْزِلَ عليهِ ﷺ أو كَفَروا بالبعثِ ونحوِ ذلكَ ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبْطَلَ حسناتِهِمُ التي كانَتْ لهمْ في حالِ كُفرِهِمْ مِنْ نَحْوِ الصدقاتِ وصِلَةِ الأرحامِ وفَكِّ الرقابِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ التي كانوا يَتَقَرَّبونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

قد أبْطَلَ أعمالَهُمُ التي كانوا يَتَقَرَّبونَ بها، ويَرَونَها قُرْبَةً عند اللهِ، أو يقولُ: قد أبْطَلَ عبادَتَهُمُ التي كانوا يَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ وغيرِها لِتُقَرِّبَهُمْ عبادَتُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. يقولُ: قد أبْطَلَ ذلكَ، ولم يَكُنْ على ما رَجَوا، وطَمِعوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أي صَدُّوا بأنفسِهِمْ أي أعْرَضوا عنْ سَبيلِ اللهِ على ما ذُكِرَ عنهمْ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي صَدّوا الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ. وقد كانَ منهمُ الأمرانِ جميعاً ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبْطَلَ؛ يُقالُ: ضَلَّ الماءُ في اللبنِ إذا غُلِبَ، فلم يَتَبَيَّنْ.

الآية ٢ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ يقولُ: والذينَ آمَنوا باللهِ وبمحمدٍ ﷺ وآمَنوا بما نُزِّلَ عليهِ، وثَبَتوا على ذلكَ لم يُضِلَّ أعمالَهُمْ، ولم يُبْطِلْ إيمانَهُمُ الذي كانَ منهمْ، بل يُكَفِّرُ سَيِّئاتِهِمُ التي كانتْ منهمْ مِنَ الكفرِ وغيرِهِ مِنَ السَّيِّئاتِ.

أو يقولُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﷺ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وهي[4] الكُفرُ، والمَساوِئُ التي كانتْ لهمْ مِنَ الكُفرِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

إنْ كانتِ الآيةُ في مُؤمِني ومُشْرِكي العربِ وأهلِ مكةَ فيكونُ[5] قولُهُ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الشِّرْكَ والمَساوِئَ التي كانتْ لهمْ في حالِ الكُفرِ.

وإنْ كانتْ في أهلِ الكتابِ فيكونُ قولُهُ: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ في حالِ إيمانِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: يكون.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﷺ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ نُزِّلَ، وكلُّ شيءٍ مِنَ اللهِ تعالى فهو الحقُّ.

والثاني: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهو الصدقُ من ربِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالَهُمْ وشأنَهُمْ في ما كانَ مِنْ قَبْلُ وفي ما بَعْدَهُ.

الآية ٣ ثم أخبَرَ أنَّ الذي أبْطَلَ [أعمالَ أولئكَ][1] الكفَرةِ وما ذَكَرَ، وثبَّتَ الذينَ آمنوا، ولم يُبْطِلْ أعمالَهُمْ وما ذَكَرَ مِنْ إصلاحِ حالِهِمْ، هو ما قالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ يَحتَمِلُ الباطلُ الشيطانَ أو هَوَى النفسِ أو كلَّ باطلٍ؛ وهو الذي يُذَمُّ عليهِ فاعلُهُ ومُتَّبِعُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يقولُ لهؤلاءِ ما ذُكِرَ لاتِّباعِهِمُ الحقَّ وقبولِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي مَثَلَ الذي بَيَّنَ ما لهؤلاءِ وما لهؤلاءِ؛ يُبَيِّنُ ما لكلِّ مُتَّبِعِ الحقِّ ومُتَّبِعِ الباطلِ. وضَرْبُ المَثَلِ هو أنْ يُبَيِّنَ لهمْ ما خَفِيَ، واشْتَبَهَ عليهِمْ، بالذي ظَهَرَ عندَهُمْ، وتَقَرَّرَ، وتَجلَّى لهمْ، ليصيرَ الذي خَفِيَ عليهِمْ، واشْتَبَهَ، ظاهراً مُتَجلِّياً.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ كقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ في القِتالِ والحربِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ في الحربِ والقِتالِ أيضاً؛ يَضْرِبونَ، ويَقْتُلونَ على ما يَظْفَرونَ، ويَقْدِرونَ [على ضربِهِمْ في][3] المَفاصلِ [وغيرِ المَفاصلِ وفي كلِّ موضعٍ، ويكونُ قولُهُ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ في المَفاصِلِ التي ليسَ فيها كَسْرُ عظمٍ ولا شيءٍ مِنْ ذلكَ][4] ولكنْ إبانةٌ مِنَ المَفْصِلِ، واللهُ أعلَمُ، لِما رُوِيَ في الخَبَرِ: «إذا قَتَلْتُمْ فأحْسِنوا القِتْلَ» [بنحوه مسلم ١٩٥٥] وحُسْنُ القَتْلِ أنْ يُضْرَبَ، ويُبانَ مِنَ المَفْصِلِ، واللهُ أعلَمُ.

فَعَلَى هذا جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وتأويلُ قولِهِ: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ وجائزٌ /٥١٢ ـ ب/ أنْ يكونَ لا على التَّقديمِ والتَّأخيرِ والإضمارِ، ولكنْ كلُّ آيةٍ على نَظْمِ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنْ كانَ على ما ذَكَرْنا مِنَ التَّقديمِ والتَّأخيرِ والإضمارِ فيكونُ كأنَّهُ قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فاضربوا الرقابَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ وأسَرْتُموهُمْ ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ لأنَّ الإمامَ بالخِيارِ عندَنا: إذا أخَذَهُمْ، وظَفِرَ بهِمْ، إنْ شاءَ قَتَلَهُمْ، وإنْ شاءَ مَنَّ عليهِمْ، وتَرَكَهُمْ بالجزيةِ لقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [التوبة: ٢٩] ويكونُ قولُهُ: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي هذا في المَنِّ؛ يَسْتَوثِقُهُمْ بالمواثيقِ، وإنْ شاءَ فاداهُمْ.

لكنهمُ اخْتَلَفوا في المُفاداةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: يَفْدونَ بالأموالِ أُسَراءَ المُسْلِمينَ منهمْ، وقالَ بعضُهُمْ: يُفادونَ بالأُسَراءِ منهمْ، ولكنْ لا يجوزُ أنْ يُفادُوا بالأموالِ، وهو قولُنا، وقالَ بعضُهُمْ: لا يُفادُونَ بأُسَراءِ المُسْلِمينَ ولا بالأموالِ، وهو قولُ أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ.

واخْتَلَفوا في قَتْلِ الأُسَراءِ منهمْ؛ قالَ بعضُهُمْ: لا يُقْتَلونَ، ولكنْ يُمَنُّ عليهِمْ، أو يُفادَونَ، وقالَ بعضُهُمْ: الإمامُ بالخِيارِ: إنْ شاءَ قَتَلَهُمْ، وإنْ شاءَ مَنَّ عليهِمْ، وإنْ شاءَ فاداهُمْ بالأُسَراءِ مِنَ المسلمينَ.

أمّا القَتْلُ فَلِما ذَكَرْنا مِنَ الاسْتِدْلالِ بقولِهِ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ولِما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ اسْتَشارَ أبا بكرٍ وعُمَرَ وسائرَ الصحابةِ ﷺ في أُسارَى بَدْرٍ، فأشاروا إلى المَنِّ عليهِمْ والتَّرْكِ، وأشارَ عمرُ إلى القَتْلِ فيهِمْ. وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «لو جاءَتْ مِنَ السماءِ نارٌ ما نَجا منكُمْ إلّا عمرُ» أو كلامٌ نَحْوُهُ.

---

(١) في الأصل وم: أعمالهم لأولئك. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: بهم من. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

[دلّ][1] أنّ الحُكمَ فيهمُ القتلُ، أعني في هؤلاء الذينَ حَكَمَ فيهمْ عمرُ ﷺ بالقتلِ. لِذلكَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «ما نَجا منكُمْ إلّا عمرُ» فَدَلَّ هذا الخَبرُ أنَّ [للإمامِ أنْ][2] يَقْتُلَ أسارَى الشِّرْكِ، ولهُ أنْ يَمُنَّ عليهِمْ بالتَّرْكِ بالجِزْيَةِ في حقِّ أهلِ الكتابِ والعَجَمِ؛ فإنهُ لمّا جازَ لنا في الإبْتِداءِ أنْ نأخُذَ منهمُ الجِزْيَةَ إذا أبَوُا الإسلامَ وتَرْكُهُمْ على ما هُمْ عليهِ. فَعَلَى ذلكَ بَعْدَ الظَّفَرِ بهمْ والقدرةِ عليهِمْ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ يُخالفُ مِنْ حيثُ الظاهرُ لقولِهِ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ونَحْوِ ذلكَ، ولكنْ أمْكَنَ التوفيقُ بَينَ الآيَتَينِ: هذهِ في قومٍ، والأُخرَى في قومٍ آخَرِينَ، أو هذهِ في وقتٍ، والأُخرَى في وقتٍ آخَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: حتى يَخْرُجَ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فعندَ ذلكَ تذهَبُ الحروبُ والقِتالُ، أيِ اقْتُلوهُمْ، وافْعَلوا بهمْ ما ذَكَرَ إلى وقْتِ خُروجِ عيسى ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي حتى يَضَعوا أسلِحَتَهُمْ، ويَتْرُكوا القتالَ.

وقالَ بعضُهُمْ: حتى يَذْهَبَ الكُفرُ والشِّرْكُ، ولا يكونَ الدينُ إلّا دينَ الإسلامِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي مِشْرْكٌ وكُفْرٌ، واللهُ أعلَمُ.

قيلَ: الإثخانُ، هو الغَلَبَةُ والقَهْرُ بالقَتْلِ والجراحِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أكْثَرتُمْ فيهمُ القَتْلَ والجِراحةَ، ويُقالُ في الكلامِ: ضَرَبْتُهُ حتى أثْخَنْتُهُ حتى لا يَقْدِرَ أنْ يَتحرَّكَ. والوَثاقُ ما أوثَقْتَ به كلَّ يَدَيِ الرجلِ أو رِجْلَيهِ؛ يُقالُ: أوثَقْتُهُ، واسْتَوثَقْتُ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ أي أثقالَها، واحِدُها: وِزْرٌ، وهو الثِّقْلُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي يَضَعَ أهلُ الحربِ السلاحَ. وأصلُ الوِزْرِ ما حَمَلْتَهُ، فَسُمِّيَ السلاحُ وِزْراً لأنهُ يُحمَلُ، واللهُ أعلَمُ

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ الذي أمَرَهُم[3] بهِ مِنْ أوَّلِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ إلى قولِهِ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِ بِلا قِتالٍ ولا نَصْبِ الحروبِ في ما بينَهُمْ.

ثم انْتِصارُهُ منهمْ يكونُ مَرَّةً بأنْ يُهلِكَهُمْ إهلاكاً، ويَقْهَرَهُمْ قَهراً، ومَرَّةً يَنْتَصِرُ منهمْ بأنْ يُسَلِّطَ عليهِمْ اضعَفَ خَلْقِهِ وأخَسَّهُمْ، فَيَقْهَرَهُمْ بأضعَفِ خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي يَمْتَحِنَ بعضَكُمْ بِقِتالِ بعضٍ وبأنواعِ المِحَنِ؛ أنشأَ اللهُ ﷻ هذا البَشَرَ في ظاهرِ الأحوالِ بعضَهُمْ مُشابِهاً لبعضٍ غَيرَ مُخالِفٍ بعضُهُمْ بعضاً؛ فإنما يَظْهَرُ الاخْتِلافُ[4] بالإمْتِحانِ بأنواعِ المِحَنِ على اخْتِلافِ الأحوالِ.

فعندَ ذلكَ يَظْهَرُ المُصَدِّقُ مِنَ المُكَذِّبِ والمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ والمُوافِقُ مِنَ المُخالِفِ والمُتَحَقِّقُ مِنَ المُضطرِبِ والمُوقِنُ مِنَ الشاكِّ على ما ذَكَرَ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] [وذَكَرَ][5]: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وذَكَرَ[6]: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وغَيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي ذَكَرَ الاِخْتِلافَ والاِمْتِحانَ[7] فيها باخْتِلافِ الأحوالِ التي عندَ ذلكَ، يَظْهَرُ ما ذَكَرَ مِنَ التَّصْديقِ والتَّكذيبِ والتَّحقيقِ [وغيرِ ذلكَ][8].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أمرتهم. (٤) في الأصل وم: اختلاف. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وامتحان. (٨) في الأصل وم: وغيره.

ثم لو كانَ، جَلَّ، وعلا، انْتَصَرَ لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِ بما ذَكَرْنا بأنْ يَنْصُرَهُمْ على أعدائِهِمْ نَصْراً بلا امْتِحانٍ وكُلْفَةٍ منهُ لأوليائِهِ لكانَ التوحيدُ لهُ والتصديقُ لرسلِهِ بِحَقِّ الاضْطِرارِ لا بِحَقِّ الاخْتِيارِ، لأنهمْ إذا رَأَوا أنهمْ يُسْتَأْصَلونَ، ويُهْلَكونَ إهلاكاً بخِلافِهِمْ إياهُمْ لكانوا لا يُخالِفونَهُمْ، بل يُوافِقونَهُمْ مَخافَةَ الهلاكِ والاِسْتِئْصالِ، فَيَرْتَفِعُ الابْتِلاءُ والامْتِحانُ عنهمْ، فلا يَظْهَرُ المُخْتارُ مِنْ غَيرِهِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا[1] فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَهُزِموا، أو غُلِبوا، أو ضُرِبوا في وقتٍ أو في قِتالٍ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ التي كانَتْ منهمْ مِنَ الجهادِ مع الأعداءِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ التي كانَتْ لهمْ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أو يوفِّقُهُمْ ثانياً مَرَّةً أُخرى للقِتالِ والنَّصرِ لهمْ على أعدائِهِمْ في الدنيا، ويُدْخِلُهُمْ في الآخِرَةِ الجنةَ.

والثاني: أي والذينَ قاتلوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ في الآخِرَةِ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الآخِرَةِ الجنةَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي يُدْخِلُهُمُ الجنةَ التي بَيَّنَها لهمْ في الدنيا، وَوَصَفَها.

وقالَ بعضهم: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ في الآخِرَةِ، حتى يَعْرِفَ كلٌّ مَنْزِلَهُ وأهلَهُ مِنْ غَيرِ أعلامٍ وأدلَّةٍ جُعِلَتْ لهمْ كما يَعْرِفُ كلُّ أحدٍ في الدنيا مَنْزِلَهُ وأهلَهُ وخَدَمَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طَيَّبَها لهمْ؛ يُقالُ: فلانٌ مُعَرَّفٌ أي مُطَيَّبٌ، وطعامٌ مُعَرَّفٌ أي مُطَيَّبٌ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أي إنْ تَنصُروا دينَ اللهِ يَنْصُرْكُمْ، أي إنْ تَنْصُروا أولياءَ اللهِ يَنْصُرْكُمْ على أعدائِكُمْ.

ثم نَصْرُنا دينَ اللهِ وأولياءَهُ يكونُ مَرَّةً بالأنفُسِ والأموالِ بِبَذْلِها في سَبيلِهِ لِابْتِغاءِ وجهِهِ، ومَرَّةً[2] يكونُ بالحُجَجِ والبراهينِ بإقامتِها [على أعدائِنا][3] بما أمَرَنا مِنْ إقامةِ الحُجَجِ والآياتِ.

ثم يكونُ نَصْرُ اللهِ إيّانا مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: بِنَصْرِنا على أعدائِهِ بما يَغْلِبُهُمْ، ويَقْهَرُهُمْ. لكنْ إنْ كانَ هذا فيكونُ في حالٍ دونَ حالٍ وفي وقتٍ دونَ وقتٍ، لا في كلِّ الأحوالِ.

والثاني: يكونُ نَصْرُهُ إيّانا بما يَجْعَلُ العاقبةَ، وإنْ كُنّا غُلِبْنا، وقُهِرْنا في بعضِ الحروبِ والقتالِ، وكانوا هُمُ الغالِبينَ علينا قاهِرينَ لنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ /٥١٣ ـ أ/ يَحْتَمِلُ في الحروبِ والقِتالِ، أو يُثَبِّتُ أقدامَكُمْ[4] في الآخِرَةِ كيلا تَزِلَّ[5]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أي هلاكاً لهمْ، أي مِحْنَةً عندَ الهزيمةِ والقتلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ الهلاكُ. وأصلُ التَّعْسِ العَثْرُ والسُّقوطُ، وهو الهَلاكُ، فَيَرْجِعُ إلى ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ذلكَ الذي ذَكَرَ لهمْ مِنَ التَّعْسِ والهلاكِ وإبطالِ الأعمالِ بأنهمْ تَرَكوا اتِّباعَ ما أنْزَلَ اللهُ على رسولِهِ؛ إذْ كلُّ مَنْ تَرَكَ اتِّباعَ شيءٍ اعْتِقاداً فقد كَرِهَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قاتلوا، انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٨٤. (٢) في الأصل وم: والثاني. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: أقدامهم. (٥) في الأصل وم: تزول.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي كَرِهوا ما أنْزَلَ اللهُ على غَيرِ بَني إسرائيلَ. فإنْ كانَ هذا فالآيةُ في أهلِ الكتابِ لأنهمْ لم يَرَوُا الرسلَ مِنْ غَيرِ بَني إسرائيلَ ولا إنزالَ الكتبِ على أحدٍ منْ غَيرِ بَني إسرائيلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي بِتَرْكِهِمُ اتِّباعَ ما أنْزَلَ اللهُ وقَبولَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أي لو ساروا في الأرضِ لَعَرَفوا ما نَزَلَ بهمْ، وهو تكذِيبُهُمْ للرسلِ وكُفْرُهُمْ بهمْ، ولَعَرَفوا أنَّ مَنْ نَجا منهمْ بماذا نَجا، وهو التَّصْديقُ لهمْ والإيمانُ بهمْ.

والثاني: على الأمْرِ، أي سِيروا في الأرضِ، فانْظُروا ما الذي نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسلِ [والمُسْتَهزِئينَ بهمْ][1] ليكونَ ذلكَ مَزْجَرَةً لهمْ عنْ مِثْلِ مُعامَلَتِهِمُ الرسولَ ﷺ.

والثالثُ: أي قد ساروا في الأرضِ، لكنْ لم يَنْظُروا، ولم يَعْتَبِروا بما نَزَلَ بأولئكَ أنهُ بماذا نَزَلَ بهمْ. ولو تأمَّلوا فيهمْ لكانَ ذلكَ زَجْراً لهمْ عنِ المُعاوَدَةِ إلى مِثْلِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي دَمَّرَ اللهُ عليهِمْ، وللكافرينَ سِوَى هؤلاءِ الكفارِ الذينَ دَمَّرَ اللهُ عليهِمْ أمثالُ ما لهمْ مِنَ الهلاكِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ.

والثاني: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي للكافرينَ مِنْ قومِكَ أمثالُها، وهذا وَعيدٌ لِقومِهِ.

والثالثُ: [أي يكونُ][2] لقومِهِ ولكلِّ كافرٍ أمثالُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ تأويلُهُ: أي ذلكَ الذي ذَكَرَ لهمْ لأجْلِ أنَّ اللهَ ناصرُ الذينَ اتَّبَعوا أمْرَهُ، وآمَنوا بهِ، وصَدَّقوهُ، فَدَفَعَ العذابَ عنهمْ باتِّباعِهِمْ أمرَهُ، وأنَّ [الكافرينَ ليسَ][3] هو بناصرٍ لهمْ لِتَرْكِهِمُ اتِّباعَ أمْرِهِ وتصديقِهِمْ إيّاهُ، فلم يَدْفَعِ العذابَ عنهمْ.

أو يقولُ ﴿ذَلِكَ﴾ أي دَفْعُ العذابِ عن الذينَ آمَنوا لِما أنَّ اللهَ تَوَلّى أمورَهُمْ، وعَصَمَهُمْ، وأنهُ لم يَتَوَلَّ أمورَ الكَفَرَةِ، أي لم يَعْصِمْهُمْ، وخَذَلَهُمْ، وتَرَكَهُمْ على ما اختاروا لِعِلْمِهِ باخْتِيارِهِمْ ما اختاروا مِنَ التكذيبِ، وتَوَلّى المؤمنينَ، وعَصَمَهُمْ لِعِلْمِهِ بما يَختارونَ مِنَ التَّصْديقِ والاتِّباعِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثمَ ذَكَرَ عاقبةَ المؤمنينَ مِنَ الاتِّباعِ لأمرِهِ والتَّصْديقِ لرسلِهِ ﷺ:

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وبَيَّنَ ما لأولئكَ الذينَ اختاروا مِنَ الكُفرِ بهِ والتكذيبِ لرسلِهِ في العاقبةِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي مَأْوَى لهمْ بِما اختاروا، واللهُ أعلَمُ.

وذلكَ أنَّ أهلَ الإيمانِ والتوحيدِ نَظَروا في جميعِ أحوالِهِمْ وأمورِهِمْ إلى ما فيهِ أمرُ اللهِ تعالى وما يُعْقِبُ لهمْ نَفْعاً في العاقبةِ، لم يَنْظُروا إلى ما فيهِ قضاءُ شَهَواتِهِمْ، بلِ اختاروا أمرَ اللهِ على جميعِ ما ذَكَرْنا.

وأولئكَ الكَفَرَةُ لم يَنْظُروا إلى ما فيهِ أمْرُ اللهِ ولا [ما][5] يُوجِبُ لهمْ في العاقبةِ مِنَ النَّفعِ، بلِ اختاروا شَهَواتِهِمْ ومُناهُمْ وما فيهِ هواهُمْ على ما فيهِ أمْرُ اللهِ ونَهْيُهُ.

---

(١) في الأصل وم: ومستهزئيهم. (٢) في الأصل وم: أن يقول. (٣) في الأصل: الكافر ذلك لما يئس، في م: الكافرين ذلك لما يئس. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

فَجَعَلَ للمؤمنينَ في الآخِرَةِ قَضاءَ شَهَواتِهِمُ التي تَرَكوا قَضاءَها في الدنيا، وكَفُّوا أنفُسَهُمْ عنْ مُناها، فكانَ ذلكَ في الجنةِ والبساتينِ التي وَعَدَ لهمْ في الآخِرَةِ.

وجَعَلَ لأولئكَ الكَفَرةِ في الآخِرَةِ مَكانَ ما قَضَوا في الدنيا مِنْ شَهَواتِهِمْ وإعطاءِ أنفسِهِمْ مُناها النارَ وما يُنَغِّصُهُمْ ما أعطوا أنفسَهُمْ في الدنيا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ يَحْتَمِلُ تشبيهُ أولئك الكفَرةِ بالأنعامِ بِوَجهَينِ:

أحَدُهما: يُخْبِرُ أنهمْ يأكلونَ، وهَمُّهُمْ في الأكلِ، ليسَ إلّا الشِّبَعَ وامْتِلاءَ البطنِ وقضاءَ الشهوةِ، لا يَنظرونَ إلى ما أمَرَ اللهُ بهِ، ونَهاهُمْ عنهُ، كالأنعامِ التي ذَكَرَ هَمَّها؛ ليسَ في الأكلِ إلّا الشِّبَعَ وامْتِلاءَ البطنِ وقضاءَ الشهوةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يُخْبِرُ عنهمْ أنهمْ لا يَنْظرونَ في أكلِهِمْ وشُرْبِهِمْ إلى عاقبةٍ ولا إلى وقتٍ ثانٍ، بل نَظَرُهُمْ إلى الحالِ التي هُمْ فيها كالأنعامِ التي ذَكَرَ أنها تأكُلُ، ولا تَنْظُرُ، ولا تَدَّخِرُ شيئاً لوقتٍ ثانٍ، ولا تَتْرُكُ شيئاً ما دامَتْ تَشْتَهي.

فَعَلَى ذلكَ أولئكَ الكَفَرَةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ كانَ سُنَّةُ اللهِ تعالى في الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ أنهُ إذا أخرَجَ الرسلَ ﷺ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ أهلَكَهُمْ؛ فَيُخْبِرُ أنَّ أهلَ مكةَ قدِ اسْتَوجبوا العذابَ، إذْ أخرجَتْ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ، كما اسْتَوجَبَ أولئكَ الكَفَرَةُ.

لكنَّ اللهَ بفضلِهِ ورحمتِهِ أخَّرَ ذلكَ عنهمْ لأنهُ بعثَكَ إليهمْ رحمةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أو أخَّرَ ذلكَ عنهمْ لِما وَعَدَ أنهُ خاتَمُ الأنبياءِ ﷺ لِتَبْقَى شريعَتُهُ ورسالَتُهُ إلى يومِ القيامةِ. ولو أهلَكَهُمْ، واستأصَلَهُمْ على ما فَعَلَ بأولئكَ لانْقَطَعَتْ رسالَتُهُ وشريعَتُهُ، وقد وَعَدَ أنها تَبْقَى، وأنهُ رحمةٌ لهُمْ، وأنهُ لا يُخْلِفُ الميعادَ.

ثم أخبَرَ أنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ أكثَرُ أهلاً وأشَدُّ قُوَّةً وبَطْشاً مِنْ هؤلاءِ، ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمْ دفْعُ ما نَزَلَ بهمْ بِقُوَّتِهِمْ في أنفسِهِمْ وبَطْشِهِمْ، ولا كانَ لهمْ ناصرٌ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ، ولا مانعٌ يَمْنَعُهُمْ عنه. فأنتمْ يا أهلَ مكةَ أولَى أنْ تدفعوا عنْ أنفسِكُمُ العذابَ إذا نَزَلَ بكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾ أضافَ الإخراجَ إلى قومِهِ، وهُمْ لم يَتَوَلَّوا إخراجَهُ بأنفسِهِمْ، بلِ اضطَرّوهُ حتى خَرَجَ هو بنفسِهِ، لكنهُ أضافَ الإخراجَ إليهمْ لأنَّ سَبَبَ خُروجِهِ مِنْ بَينِهِمْ كانَ منهمْ، فكَأنْ قد أخرَجوهُ، وهو كما ذَكَرَ مِنْ إخراجِ الشيطانِ آدمَ وحواءَ ﷺ مِنَ الجنةِ بقولِهِ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا﴾ [البقرة: ٣٦] والشيطانُ لم يَتَوَلَّ إخراجَهُما حقيقةً. لكنْ لِما كانَ منهُ مِنْ أشياءَ؛ حَمَلَهُما[1] ذلكَ على الخروجِ، فكأنهُ وُجِدَ الإخراجُ منهُ.

وأصلُهُ أنَّ الأشياءَ والأفعالَ ربَّما تُنْسَبُ إلى أسبابِها، وإنْ لم [يكُنْ][2] لِتلكَ الأسبابِ حقيقةُ الأفعالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ هو خَبَرٌ مِنَ اللهِ تعالى، أي لا يكونُ لهمْ ناصرٌ، وهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لا يكونُ [لهمْ][3] ناصرٌ في الآخرةِ.

والثاني: على إضمارٍ، أي لم يكنْ لهمْ ناصرٌ وقتَ ما عُذِّبوا في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ لم يَخْرُجْ لهذا الحَرْفِ جوابٌ لِما هُمْ عَرَفوا بالبَديهةِ أنْ ليسَ / ٥١٣ ـ ب/ مَنْ ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ واتَّبَعَ هواهُ، يَعْرِفُ ذلكَ بالبَديهةِ؛ كَمَنْ يقولُ: ليسَ المُحْسِنُ كالمُسيءِ، وليسَ مَنْ يُحْسِنُ كَمَنْ يُسيءُ ونَحْوَ ذلكَ ممّا يَعْرِفُهُ كلُّ أحدٍ، لا يَحْتاجُ إلى بيانٍ وجوابٍ. فَعَلَى ذلكَ هذا. ثم في ذلكَ وجهانِ:

(١) في الأصل وم: حملهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُهما: يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ باختيارِهِمُ اتّباعَ هواهُمْ وما زُيِّنَ لهمْ مِنْ سُوءِ عَمَلِهِمْ على اتّباعِ مَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ وبيانٍ على عِلْمٍ بذلكَ ويَقينٍ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: فيهِ ذِكْرُ دلالةِ البَعْثِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لمّا عَرَفْتُمْ أنَّ مَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ ربِّهِ ليسَ كَمَنْ يَتَّبِعُ هَوَى نفسِهِ، وقدِ اسْتَوَيا في هذهِ الدنيا: انْتَفَعَ هذا كما انْتَفَعَ الآخَرُ، وفي العقولِ لا اسْتِواءَ بَيْنَهما. فدلَّ اسْتِواؤُهما في هذهِ الدارِ على أنَّ هناكَ داراً أُخرَى: ثُمَّ يُفَرِّقُ بينَهما، ويُمَيِّزُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ على حقيقةِ المَثَلِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مِنْ حياتِكُمْ هذهِ، لو كانَتْ جَنّاتُكُمْ في الدنيا على المَثَلِ الذي وَصَفَ في الآيةِ: أليسَ كانَتْ نفسُ كلِّ أحدٍ تَرْغَبُ فيها، وتَحرِصُ على طَلَبِها، لتكونَ تلكَ الجنةُ لهُ، فما بالُكُمْ لا تَرْغَبونَ في تلكَ الجنةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ في الآخِرَةِ، لا تَرْغَبونَ فيها، ولا تَحرِصونَ على طَلَبِها؟ واللهُ أعلَمُ.

ويُخَرَّجُ على هذا التأويلِ قولُهُ تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي ليسَ مَنْ كانَ خالداً في جنةٍ مِنْ جَنّاتِكُمُ التي ما ذَكَرَ وَصْفَها كَمَنْ هو خالدٌ في نارٍ مِنْ نيرانِكُمْ.

والثاني: يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ما ذَكَرَ، فيُخَرَّجُ على الصلةِ لِما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [محمد: ١٢] ثم وَصَفَ الجنةَ التي أخبَرَ أنهُ يُدْخِلُهُمْ فيها، فقالَ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي صِفَتُها ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ مِنْ كذا وكذا... الآيةَ.

وعلى هذا ما ذَكَرَ في آخِرِهِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

ثم وَصَفَ تلكَ النارَ التي أخبَرَ أنها مَثْوًى لهمْ ومَأْوًى لهمْ، فقالَ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ الآيةَ.

والثالثُ: يَذْكُرُ على أنَّ مَنْ وَعَدَ لهُ ما وَعَدَ لِلمُتَّقينَ مِنَ الجنةِ وما فيها مِنَ النِّعَمِ ليسَ كَمَنْ وَعَدَ لهُ النارَ. ألا تَرَى أنهُ، جَلَّ، وعلا، ذَكَرَ في آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ وصفِ الجنةِ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾؟ أي ليسَ هذا كهذا، ولا سَواءَ بَيْنَهما، ولا مُساواةَ.

وهو كقولِهِ تعالى في ما تَقَدَّمَ مِنْ حيثُ ما قالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤] أي ليسَ هذا كهذا.

فعَلَى هذا يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ وَصْفِ الجنةِ وَوَصْفِ النارِ، أي ليسَ مَنْ وَعَدَ لهُ الجنةَ التي وَصَفَها، ونَعَتَها كَمَنْ وَعَدَ لهُ النارَ التي وَصَفُها ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآيةَ؛ يُخبِرُ أنهُ يكونُ في الجنةِ مِنَ المِياهِ والخُمورِ والألبانِ وما ذَكَرَ ليسَ كالتي في الدنيا، لأنَّ المياهَ في الدنيا تَتَغَيَّرُ بأحدِ وجهَينِ: إمّا لِنجاسةٍ وآفةٍ تُصيبُهما. أو لِطولِ الزمانِ والمُكْثِ، فيُخبِرُ أنْ ليسَ في الجنةِ شيءٌ يُغَيِّرُ مِياهَهَا. وكذلكَ اللبنُ في الدنيا يَتَغَيَّرُ، ويَفسُدُ عن قريبٍ إذا تُرِكَ لِما ذُكِرَ، فيُخبِرُ أنَّ ألبانَ الجنةِ لا تَفسُدُ للتركِ، ولا يُصيبُها شيءٌ، فيُفسِدُها، ويُخرِجُها عن طَعْمِ اللبنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يُخبِرُ أنَّ الخُمورَ في الجنةِ ممّا يَتَلَذَّذُ بها أهلُها عندَ الشربِ ليسَتْ كَخُمورِ الدنيا يَتَكَرَّهُها[1] أهلُها عندَ شُربِها، ويَعْبِسونَ وجوهَهُمْ عندَ التناوُلِ منها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي وأنهارٌ مِنْ عسلٍ خُلِقَ، وأُنْشِئَ مُصَفًّى، لا كُدورةَ فيهِ، لا أنهُ كانَ كَدِراً،

---

(١) في الأصل وم: يتكره.

فَصُفِّيَ، أو كانَ خُلِقَ بعضُهُ كَدِراً، وبَعْضُهُ مُصَفًّى، ولكنْ خُلِقَ كلُّهُ مُصَفًّى في الابْتِداءِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] أي خَلَقَها في الابْتِداءِ مرفوعةً لا أنها كانَتْ موضوعةً، ثم رَفَعَها، واللهُ أعلَمُ.

• وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي عَرَفوها في الدنيا، وأرادوها، أو يقولُ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي يريدونَ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي ليسَ مَنْ وَعَدَ لهُ ما ذَكَرَ مِنَ الجنةِ، وهو خالدٌ فيها مُتَنَعِّمٌ بما ذَكَرَ مِنْ ألوانِ الثمارِ والنِّعَمِ ما ذَكَرَ مِنَ المِياهِ والخُمورِ والألبانِ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ وما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ آياتِ رسالةِ رسولِهِ ﷺ وحُجَجَهُ على المُنافقينَ بِصَنيعِهِمْ وما أَسَرُّوا في أنفسِهِمْ مِنَ الخِلافِ والعداوةِ. فأطْلَعَ اللهُ رسولَهُ على ما أَسَرُّوا في أنفسِهِمْ مِنَ الخلافِ لهُ والعَداوةِ، وأضمَروهُ لِيكونَ ذلكَ آيَةً لرسالتِهِ وحجَّتِهِ لِنُبُوَّتِهِ، إذْ عَلِموا أنْ لا أحَدَ يَطَّلِعُ على ما في القلوبِ إلّا اللهُ تعالى.

فإذا أخْبَرَ رسولُ اللهِ لهمْ بما أَسَرّوا، وأضمَروا، عَلِموا أنهُ إنمَا عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى [لِقولِهِ تعالى][(١)]: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] ونَحوِ ذلكَ.

ثم الناسُ في الاسْتِماعِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ تَفَرَّقَ إلى فِرَقٍ ثلاثٍ:

فالمؤمنونَ كانوا يَسْتَمعونَ إليهِ لِلاسْتِرْشادِ واسْتِزادةِ الهُدَى، وهُمْ[(٢)] كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الآيةَ [التوبة: ١٢٤].

[والكَفَرَةُ كانوا يَسْتَمِعونَ إليهِ لِيَقولوا لِأتباعِهِمْ: إنهُ افْتراهُ بنفسِهِ، وإنهُ كذبٌ، وإنهُ سِحْرٌ لِئلّا يَقَعَ في قلوبِ أتباعِهِمْ أنَّ ما جاءَ بِهِ محمدٌ حقٌّ، فيَسْتَمِعوا منهُ، وهُمْ[(٣)] كقولِهِ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١].

والمنافقونَ كانوا يَسْتَمعونَ إليهِ إظهاراً للموافقةِ لهُ لئلا يَتَعَرَّضَ لهمْ في ما أضمَروا، وأَسَرُّوا مِنَ العَداوةِ والخِلافِ][(٤)] [وهُمْ كقولِهِ][(٥)]: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [التوبة: ١٢٥].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي أعطاهُمْ ما اتَّقَوا مُخالَفَةَ أمْرِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي يُوَفِّقُهُمْ ما يَتَّقونَ [مُخالَفَةَ][(٦)] أمْرِهِ مِنْ بَعْدُ في المُسْتأنَفِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي أعطاهُمُ اللهُ ثوابَ أعمالِهِمْ في الآخِرةِ؛ يقولُ: كلُّ ما جاءَ مِنَ اللهِ، وأخَذوا بهِ ﴿زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي أجْرَهُمْ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: وأنْطاهُمْ تَقواهُمْ، أي أعْطاهُمْ، وهي لغةٌ معروفةٌ: أنْطى أي أعْطى، وكذلكَ قَرَأ: إنا أنطيناكَ الكوثَرَ[(٧)] [الكوثر: ١].

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ كأنَّ هذهِ الآيةَ نَزَلَتْ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ إلّا عندَ قيامِ الساعةِ كأنهُ يقولُ: ما يَنْظُرونَ إلّا الساعةَ أنْ تأتِيَهُمْ بَغْتَةً، لكنْ لا يَنْفَعُهُمُ الإيمانُ في ذلكَ الوقتِ كقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقولِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، يُؤْيِسُ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الطَّمَعِ في إيمانِهِمْ قَبْلَ ذلكَ الوقتِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في نسخة الحرم المكي: فهو. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/٢٥٣.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ مَجيءِ أشراطِها، هو رسولُ اللهِ ﷺ لأنهُ خاتِمُ الأنبياءِ، وبهِ خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ. ورُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: «بُعِثْتُ أنا والساعةَ كهاتينِ، وأشارَ إلى إصبَعَينِ، وجَمَعَ بَينَهما» [البخاري ٦٥٠٣].

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو على تَحقيقِ مَجيءِ أشراطِ الساعةِ، أي قد جاءَ أشراطُ الساعةِ حَقيقةً، / ٥١٤ ـ أ/ وتَحقَّقَتْ.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ مَجيءِ أشراطِها، هي الأعلامُ، والشرائطُ التي جُعِلَتْ عَلَماً لِقيامِها مِنْ نَحوِ نُزولِ عيسى وخُروجِ دابةِ الأرضِ وخُروجِ الدَّجّالِ وغيرِ ذلكَ، فقد مَضى بَعْضُ تلكَ الأعلامِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي كانَ قد جاءَ أشراطُها؛ إذْ كل ما هو آتٍ جاءٍ، فكانَ ﴿فَقَدْ جَآءَ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: مِنْ أنّى يَنتَفِعونَ بإيمانِهِمْ في ذلكَ الوقتِ؟ وكيفَ لهمْ مَنفَعةُ الذِّكْرى إذا جاءَتْ؟ والتوبةُ لا تُقبَلُ حينئذٍ.

والثاني: مِنْ أينَ لهمُ الإيمانُ والتوبةُ إذا جاءَتْهُمُ الذِّكْرى؟ أي ما يُذَكِّرُهُمْ في الدنيا قَبْلَ ذلكَ، فلم يُؤمِنوا، ولم يَتذَكَّروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهينِ:

أحدُهما: اعْلَمْ في حادثِ الوقتِ أنهُ لا إلهَ إلّا اللهُ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] ونَحْوُ ذلكَ.

والثاني: يقولُ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فاعلَمْ أنَّ الإلهَ المُستَحِقَّ للعبادةِ والمعبودَ الحقَّ هو الإلهُ الذي لا إلهَ غيرُهُ؛ إذِ الإلهُ عندَ العربِ، هو المَعْبودُ الذي يَستَحِقُّ العبادةَ، هو اللهُ تعالى، لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها دونَهُ، وتَزْعُمونَ أنَّ عبادتَكُمْ إياها تُقرِّبُكُمْ[1] إليهِ زُلفى.

والثالثُ: أمَرَهُ أنْ يُشعِرَ قَلْبَهُ في كلِّ وقتٍ حالَ كلمةِ الإخلاصِ والتوحيدِ لهُ والقولِ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ إنما هو لافْتِتاحِ الكلامِ وابتِدائِهِ على ما يُؤْمَرُ المرءُ أن يَبْتَدِئَ بالدعاءِ لنفسِهِ عندَ أمرِهِ بالدعاءِ لِغَيرِهِ، وكانَتْ حقيقةُ الأمرِ بالدعاءِ للمؤمنينَ والمؤمناتِ دونَ نفسِهِ، ولكنْ أُمِرَ بالدعاءِ لنفسِهِ اسْتِحْباباً، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لهُ ذنبٌ فيأمُرُهُ بالاستِغْفارِ لهُ. لكنْ نحنُ لا نَعلَمُ، وليسَ علينا أنْ نَتكلَّفَ حفظَ ذنوبِ الأنبياءِ ﷺ وذِكْرَها. وكلُّ موهومٍ منهُ الذنبُ يجوزُ أنْ يؤمَرَ بالاسْتِغفارِ كقولِ إبراهيمَ ﷺ حينَ[2] قالَ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

لكنْ [ليستْ ذنوبُ][3] الأنبياءِ وخطاياهُمْ كذنوبِ[4] غيرِهِمْ، فذنبُ غيرِهِمُ ارتِكابُ القبائحِ مِنَ الصغائرِ والكبائرِ، وذنبُهُمْ تَرْكُ الأفضلِ دونَ مُباشرةِ القبيحِ في نفسِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم أرْجى آيةٍ للمؤمنينَ هذهِ الآيةُ، لأنهُ ﷺ أمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يَستَغفِرَ لهمْ، فلا يُحتَمَلُ ألّا يَستَغْفِرَ، وقد أمَرَهُ[5] مولاهُ بالاستِغْفارِ، ثم لا يُحتَمَلُ أيضاً أنهُ إذا استَغْفَرَ لهمْ على ما أمَرَهُ بهِ فلا يُجيبُ لهُ. وكذلكَ دعاءُ سائرِ الأنبياءِ ﷺ نَحوُ دُعاءِ إبراهيمَ[6] ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] [ونَحوُ دُعاءِ نوحٍ][7] ﷺ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[8] [نوح: ٢٨] ونَحْوُ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: تقربون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ليس ذنب. (٤) في الأصل وم: كذنب. (٥) في الأصل وم: أمر. (٦) في الأصل وم: نوح. (٧) في الأصل وم: ونحو ذلك وكذلك دعاء سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلامُ نحو دعاء. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: وقول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

وكذا استِغفارُ الملائكةِ أيضاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] وقولِهِ: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ الآية [غافر: ٧].

هذِهِ الآياتُ أرجَى آياتٍ للمؤمنين، ودَعَواتُ الأنبياءِ ﷺ أفضَلُ وسائلَ، تكونُ إلى اللهِ تعالى، وأعْظَمُ قُرْبٍ عندَهُ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم قولُهُ ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيهِ دلالةُ نَقْضِ المُعْتزلةِ؛ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الصَّغائِرَ مَغْفورةٌ، لا يجوزُ للهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَ عبادَهُ عليها، والكَبائِرَ لا يَحِلُّ لهُ أنْ يَغْفِرَها لهمْ إلّا بالاِسْتِغْفارِ منهمْ والتوبةِ. فهذِهِ الآيةُ، تَنْقُضُ قولَهُمْ ومذهَبَهُمْ، لأنهُ أمَرَ رسولَهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لهمْ: فلا يَخْلُو: إمّا أنْ تكونَ صَغائِرَ، وهيَ مَغْفورةٌ عندَهُمْ؛ فكأنّهُ يقولُ: اللهمَّ لا تَجُرْ، لأنها مَغْفورةٌ، لا يَسَعُ لهُ أنْ يُعَذِّبَ عليها [وإمّا أنْ تكونَ][1] كَبائِرَ، ولا يَحِلُّ لهُ المَغْفِرَةُ عنها، فيكونُ قولُهُ: اللهمَّ اغْفِرْ لهمْ كأنهُ قالَ: اللهمَّ جُرْ، لأنَّ مَغْفِرَتَهُ[2] إيّاهُمْ عنِ الكَبائرِ تكونُ جَوراً وَوَضْعَ الشيءِ في غيرِ مَوضِعِهِ. فكيفَ ما كانَ ففيها نقضُ قولِهِمْ وحُجَّةٌ لقولِنا: إنَّ لهُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ عليها، وإنْ كانَتْ صَغائرَ، ولهُ أنْ يَعْفُوَ عنها، وإنْ كانَتْ كَبائِرَ؛ إذِ المَغْفِرةُ عنِ الذنبِ تكونُ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ في النهارِ ومَثْواكُمْ مِنَ الليلِ، وقيلَ: يَعْلَمُ ما يَتقلَّبونَ بالنهارِ، ويَسْكُنونَ بالليلِ، وهما واحدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ في الدنيا ومَثْواكُمْ في الآخِرَةِ، أي مُقامَكُمْ فيها. وهو يُخَرَّجُ عندَنا على وجوهٍ:

أحَدُها: يَحْتَمِلُ هذا الظَّنَّ قومٌ؛ وتَوَهُّمُهُمْ أنَّ اللهَ تعالى يَجْهَلُ عَواقِبَ الأمورِ حينَ[3] أنْشأَ هذا العالَمَ، فَجَحَدوهُ، وجَحَدوا نِعَمَهُ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يُنْشِئَهُمْ، ويَجْعَلَ لَهُمُ النِّعَمَ، وهو يَعْلَمُ أنهمْ يَجْحَدونَ، ويُنْكِرونَ نِعَمَهُ، لأنَّ مَنْ فَعَلَ هذا في الشاهِدِ فهو عابثٌ غيرُ حكيمٍ.

فَعَلَى ذلكَ هذا على زَعْمِهِمْ، فقالَ تعالى جواباً لهمْ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ: أنْشَأَهُمْ، وخَلَقَهُمْ، لا عَنْ جَهْلٍ على ما ظَنّوا هُمْ. لكنْ ما يَنْبَغي لهمْ أن يَنْسُبوا الجَهْلَ إلى اللهِ تعالى لِجَهْلِهِمْ حَقَّ[4] الحكمةِ في فِعْلِهِ، لأنَّ اللهَ، جلَّ، وعلا، لم يُنْشِئْ هذا العالَمَ لِحاجةٍ لهُ أو لِمنافِعِ نفسِهِ، بلْ إنما أنْشَأهُ لِمنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجَتِهِمْ؛ فإليهِمْ تَرْجِعُ مَنْفَعَةُ الإجابةِ والطاعةِ، وعليهِمْ تكونُ مَضَرَّةُ الجحودِ والرَّدِّ.

فأمّا في الشاهِدِ: فَمَنْ يأمُرُ أحداً أمراً، أو يَنْهَهُ عنْ أمرٍ، أو يُرسِلُ إليهِ رسولاً على عِلْمٍ منهُ بالرَّدِّ والجُحودِ، فهو سفيهٌ غَيرُ حكيمٍ، لأنهُ إنما يَفْعَلُ ما يَفْعَلُ لِحاجةِ نفسِهِ ومَنْفَعةٍ لهُ. فإذا عَلِمَ منهُ الرَّدَّ والإنكارَ فهو غَيرُ حكيمٍ، فافْتَرَقَ الشاهدُ والغائبُ لِافْتِراقِ وجْهِ الحكمةِ، واللهُ الموفِّقُ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي يَعْلَمُ جميعَ أحوالِكُمْ مِنْ حَرَكاتِكُمْ وسُكونِكُمْ وجميعَ تَقَلُّبِكُمْ لِتكونوا أبداً على حَذَرٍ ويَقَظَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ في الدنيا، ويَعْلَمُ إلى ماذا يكونُ مَرْجِعُكُمْ في الآخِرَةِ، أي أنْشأَ كُلّاً على ما عَلِمَ [ما يكونُ منهُ][5] كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقولِهِ[6] تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي أنْشأَ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَخْتارُ الكُفْرَ وعداوتَهُ لِجَهَنَّمَ، وأنْشأَ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَخْتارُ التوحيدَ وولايَتَهُ لِلجنةِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ إنَّ الذين آمنوا كانوا يَتَمَنَّونَ إنزالَ السورةِ، ويقولونَ: هلّا نَزَلَتْ سُورةٌ لِوجوهٍ:

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: مغفرة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: بحق. (٥) في الأصل وم: أنه يكون منهم. (٦) في الأصل وم: وقال.

أحدُها: لِتكونَ السورةُ حُجّةً لهمْ وآيةً على أعدائِهِمْ في الرسالةِ والبَعْثِ والتوحيدِ.

والثاني: كانوا يَسْتَبْعِدونَ بإنزالِ السورةِ أشياءَ، ويَزدادُ لهمْ يَقيناً وتَحقُّقاً في الدينِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾][1] فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ و١٢٥] على ما ذُكِرَ.

والثالثُ: [كانوا][2] يَتمَنَّونَ نُزولَ السورةِ لِيَتبيَّنَ لهمُ المُصدِّقُ مِنَ المُكذِّبِ والمُتحقِّقُ مِنَ المُريبِ.

هذهِ الوجوهُ التي ذَكَرْنا تكونُ لأهلِ الإيمانِ. لِذلكَ يَتمَنَّونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي مُحدَثةٌ / ٥١٤ ـ ب/ والمُحدَثةُ ليستْ بتفسيرٍ لِلمُحكَمةِ إلا أنْ يَعنوا بالمُحدَثِ الناسِخَ، والناسِخُ، هو المُحدَثُ والمُتأخِّرُ نُزولاً، وهو مُحكَمٌ لأنهُ يُلزِمُ العملَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ لولا أُنزِلَتْ سورةٌ مُحدَثةٌ، والوجهُ ما ذَكَرْنا.

والمُحكَمةُ عندَنا على وجهَينِ:

أحدُهما: أي مُحكَمةٌ بالحُجَجِ والبراهينِ. والثاني: لِما أُنزِلَتْ على أيدي قومٍ، وتَداولَتْ في ما بَينَهُمْ، فلم يُغَيِّروهُ، ولم يُبَدِّلوهُ، بل حَفِظوهُ، لِيُعلَمَ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ، ومنهُ نَزَلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ في القِتالِ خِصالاً:

أحدُها: كَثرةُ أهلِ الإسلامِ وكَثرةُ الأموالِ، وإنْ كانَ في ظاهِرِ القِتالِ إفناءُ الأنفسِ والأموالِ؛ لأنهُ قَبْلَ أنْ يُفرَضَ القِتالُ كانَ يَدخُلُ في الإسلامِ واحدٌ، فلمّا فُرِضَ القِتالُ دَخَلَ فيهِ فَوجٌ فَوجٌ على ما أخبَرَ ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢].

والثاني: لِيَتبيَّنَ المُصدِّقُ مِنهُمْ مِنَ المُكذِّبِ لهمْ والمُتحقِّقُ مِنَ المُريبِ، لأنهُ لم يكُنْ لِيَظهَرَ، ويَتبيَّنَ لهمُ المنافِقُ مِنْ غَيرِهِ إلى ذلكَ الوقتِ. فلمّا فُرِضَ القِتالُ عندَ ذلكَ ظَهَرَ وتَبيَّنَ لهمْ أهلُ النِّفاقِ والارْتِيابِ من أهلِ الإيمانِ والتَّصديقِ.

والثالثُ: فيه آيةُ الرسالةِ والبَعْثِ.

وأمّا آيةُ الرسالةِ فلأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا عدداً قليلاً، لا عِدّةَ لهمْ، ولا قُوّةَ أُمِروا بالقِتالِ معَ عددٍ، لا يُحصَونَ، ولهمْ عِدّةٌ وقُوّةٌ، لِيُعلَمَ انهمْ لا بأنفسِهِمْ يُقاتِلونَ، ولكنْ باللهِ تعالى، أو لا يُحتَمَلُ قيامُ أمثالِهِمْ لِأمثالِ أولئكَ معَ كَثرتِهِمْ وقُوّتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا آيةُ البَعْثِ فلِأنَّهُمْ أُمِروا بِقِتالِ[3] أقارِبِهِمْ وأرحامِهِمْ والمُتعلِّقِ بهِمْ، وفي ذلكَ قَطْعُ أرحامِهِمْ وقَطْعُ صِلَةِ قراباتِهِمْ، لِيُعلَمَ أنهمْ إنما يَفعَلونَ هذا بالأمرِ لِعاقبةٍ، تُؤمَّلُ، وتُقصَدُ؛ إذْ لا يُحتَمَلُ فِعْلُ ذلكَ بلا عاقبةٍ تُقصَدُ وبلا شيءٍ يُعتَقَدُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ كانَ أهلُ النِّفاقِ يَكرَهونَ نُزولَ ما يُبيِّنُ لهمْ ما في ضَميرِهِمْ مِنَ النِّفاقِ والارْتِيابِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] وإذا أُنزِلَتِ السورةُ يَزدادُ لهمْ ما ذَكَرَ حينَ[4] قالَ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هذا وعيدٌ لهمْ كقولِهِ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾][5] [القيامة: ٣٤ و٣٥] لكنَّ ظاهِرَهُ ليسَ بِتَوعُّدٍ ولا تَهدُّدٍ، إنما ظاهِرُهُ: أي أحرَى لكُمْ وأولَى أنْ تُطيعوهُ، وأنْ تَقولوا قولاً معروفاً. فإذا تَرَكوا ذلكَ يكونُ وَعيداً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وأما المنافقون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بالقتال. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: الآية.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ.

قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ وعَزَمَ الأمرُ، فَعِنْدَ ذلكَ كانَ مِنَ المُنافِقينَ ما[1] قالَ: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وليسَ في نفسِ ذِكْرِ القِتالِ ما ذَكَرَ مِنْ نَظَرِ المَغْشِيِّ عليهِ مِنَ الموتِ. إنما ذلكَ الوصفُ وتلكَ الحالُ عندَ وجوبِ القِتالِ ولُزومِهِ وتأكيدِهِ عليهِمْ، وذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي وَجَبَ، وفُرِضَ.

فَعِنْدَ ذلكَ يكونُ حالُهُمْ ما ذَكَرَ. فأمّا بِذِكْرِ نفسِ القِتالِ فلا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ هو في الآخِرةِ، أي فإذا تَحقَّقَ، وظَهَرَ ما كانَ أوعَدَ لهمُ الرسولُ ﷺ مِنْ نُزولِ العذابِ بهِمْ في الآخِرةِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ حينَ[3] كانَ لا يَزالُ العذابُ بهِمْ في الآخِرةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ هذهِ الآيةِ:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي فَلَعَلَّكُمْ[4] ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي وُلِّيتُمْ أمرَ هذهِ الأمةِ ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾.

قالَ ابنُ عباسٍ ﵁ قد كانَ هذا، وهُمْ بَنو أُميةَ، وُلُّوا أمْرَ هذهِ الأمةِ، فَفَعلوا ما ذَكَرَ مِنَ الفَسادِ في الأرضِ وقَطْعِ الأرحامِ، وكانَ لهمُ اتِّصالٌ برسولِ اللهِ ﷺ وكانَ منهمْ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيةَ في المُنافِقينَ؛ كانوا يأتونَ رسولَ اللهِ ﷺ ويَسْمَعونَ منهُ ما قالَ، ثم إذا تَوَلَّوا عنهُ كانوا يَسْعَونَ في الأرضِ بالفَسادِ وما ذَكَرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا [وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾][5] ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤ و٢٠٥].

وقالَ بعضُهُمْ: ما نَرى[6] إلّا نَزَلتِ الآيةُ في الحَروريَّةِ، وهُمْ[7] الخوارجُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حينَ[8] قالَ: ﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقدِ انقَلَبوا على ما أخْبَرَهُ[9]، وهو في أهلِ الرِّدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قَتادةُ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي طَواعِيةُ اللهِ ورسولِهِ وقولُ المعروفِ[10] عندَ حقائقِ الأمورِ خَيرٌ لهمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يقولُ: إنْ تَوَلَّيتُمْ عنْ كتابي وطاعتي ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقولُ: كيفَ رأيتُمُ القومَ حينَ تَوَلَّوا عنْ كتابِ اللهِ؟ ألم يَسْفِكوا الدماءَ الحرامَ، وقَطَّعوا الأرحامَ، وعَصَوُا الرحمنَ، وأكلوا المالَ الحرامَ؟

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في الذينَ آمنوا برسولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ فلمّا بُعِثَ كَفَروا بهِ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ اللعنُ هو الطَّرْدُ عنِ الرحمةِ، وهو كقولِهِ لإبليسَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨] أي أنتَ مطرودٌ عنْ رحمتي، وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طَرَدَهُمْ عنْ رحمتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي أصَمَّهُمْ حتى لم يَسْمَعوا سَماعَ الاعْتِبارِ والتَّفَكُّرِ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ حتى لم يَنْظُروا في ما عايَنوا نَظَرَ اعْتِبارٍ وتَفَكُّرٍ ما لو تَفَكَّروا، وتأمّلوا، ونَظَروا نَظَرَ مُعْتَبِرٍ، لأدرَكوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ الآية، فيهِ أنهمْ لو تَدَبَّروا، وتأمَّلوا فيهِ لأدرَكوا ما فيهِ، وفيهِ أيضاً أنهمْ لو تَدَبَّروا العذابَ لَفَتَحَ تلكَ الأقفالَ التي ذَكَرَ أنها عليها، وذَهَبَ بها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: فعليكم. (٥) في الأصل وم: إلى قوله. (٦) في الأصل وم: أراه. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في م: أخبر. (١٠) من م، في الأصل: المعتزلة.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي عليها[1] أقفالُها. ثم يَحْتَمِلُ ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ الظلمةَ التي فيها، وهي ظلمةُ الكُفْرِ، تلكَ الظلمةُ تُغَطّي نورَ البَصَرِ ونورَ السَّمْعِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الأقفالِ، هو[2] كنايةٌ عنِ الطَّبْعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي زَيَّنَ. أضافَ التَّزْيينَ مَرَّةً إلى الشيطانِ ومَرَّةً إلى نَفسِهِ. فما يُفْهَمُ مِنَ الشيطانِ غيرُ الذي يُفْهَمُ مِنْ تَزْيينِ اللهِ تعالى كالإضلالِ المُضافِ إلى اللهِ تعالى والمضافِ إلى الشيطانِ. فالمَفْهومُ مِنْ إضلالِ اللهِ غيرُ المَفْهومِ مِنْ إضلالِ الشيطانِ. فَعَلى ذلكَ التَّزيينُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي أخَّرَهُمْ، وأمْهَلَهُمْ إلى أجلٍ ووقتٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨] أي يُؤَخِّرُهُمْ ليكونَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ الآية جائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في اليهودِ لِما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا آمَنوا بِهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ كقولِهِ. ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم / ٥١٥ ـ أ/ مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ الآية [البقرة: ٨٩] ارْتَدُّوا على أدبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما آمَنوا بِهِ، واتَّبَعوهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في المُنافِقِينَ؛ ارْتَدّوا على أدبارِهِمْ، وأَظْهَروا الخلافَ بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ ما أظْهَروا المُوافقةَ في حياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ فإذا احْتَمَلَ ذلكَ الوجهينِ فلا نُفَسِّرُهُ أنهُ إلى ماذا يَرْجِعُ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ هُمُ المنافقونَ، قالوا لليهودِ: سَنطيعُكُمْ في تكذيبِ محمدٍ والمُظاهرةِ عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ اليهودُ ظاهَروا سائرَ الكَفَرَةِ على محمدٍ ﷺ وأصحابِهِ رضي الله عنهم.

ثم كَراهةُ نزولِ ما أنْزَلَ اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ كانَتْ[3] مِنَ اليهودِ وجميعِ الكَفَرَةِ لقولِهِ تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ هذا يدلُّ على أنهُ لا يُفَسَّرُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ ولا يُشارُ على أنهُ أرادَ كذا، ورَجَعَ إلى كذا، لِما أخْبَرَ اللهُ تعالى أنهُ هو العالِمُ بما أَسَرّوا، ولم يُبَيِّنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٧ و٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ اتِّباعِ سُخْطِ اللهِ ولا كَراهةَ رِضوانِهِ، لكنهمْ لمّا اتَّبَعوا الفِعْلَ الذي كانَ اللهُ يُسْخِطُهُ[4] ذلكَ الفِعْلُ فكأنهمُ اتَّبعوا سُخْطَهُ. وكذلكَ إذا تَرَكوا ما كانَ اللهُ يَرْضاهُ، وكَرِهوهُ، فكأنهمْ كَرِهوا رِضوانَهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ. لكنهمْ لمّا اتَّبَعوهُ في ما يَأْمُرُهُمْ، ويَدعوهُمْ إليهِ، فكأنهمْ عَبَدوهُ، وهو تَسْمِيَةُ الشيءِ باسمِ سَبَبِهِ، واللغةُ غيرُ مُمْتَنِعَةٍ عنْ تَسْمِيَةِ الشيءِ باسْمِ سَبَبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي كانَتْ قَبْلَ ارْتِدادِهِمْ في حالِ اتِّباعِهِمْ إياهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أي أم حَسِبَ المُنافِقونَ أنْ لَنْ يُظْهِرَ اللهُ عداوَتَهُ، وأنْ لنْ يُبْدِيَ اللهُ ما في قلوبِهِمْ مِنَ العَداوةِ؛ جَعَلَ اللهُ، جَلَّ، وعلا، في إظهارِ ما أَسَرَّ أهلُ النِّفاقِ وإبداءِ ما أخْفَوهُ في ما بَيْنَهُمْ آيةً عظيمةً ودلالةً ظاهرةً على رسالةِ رسولِهِ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: على قلوب. (٢) في الأصل وم: هي. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) في الأصل وم: يسخط.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ كأنهُ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: ولو نَشاءُ لأريناكَهُمْ بسيماهُمْ بالنَّظَرِ إليهِمْ بالبديهةِ، ولَتَعرِفَنَّهُمْ أيضاً في لَحْنِ القولِ، أي لو نشاءُ لَجَعلْنا لهمْ أعلاماً في الوجهِ والقولِ لِتَعرِفَهُمْ، ولكنْ لم يَجعَلْ لهمْ، ولكنْ جعَلَ معرفتَهُمْ بأعمالٍ يَعْمَلون، فَيَظْهَرُ نِفاقُهُمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] وقولِهِ [في آيةٍ أُخرى][2]: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وقولِهِ [في آيةٍ أُخرى][3]: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٤٥] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ ممّا يُظْهِرُ نِفاقَهُمْ وخِلافَهُمْ بالأعمالِ التي كانوا يَعْملونَ. فَدَلَّتْ هذهِ الآياتُ على أنهُ كانَ لا يَعْرِفُهُمْ بالسِّيماءِ والنُّطْقِ والقولِ والأجسامِ، وإنما يَعْرِفُهُمْ بأفعالٍ كانوا يَفْعلونَها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي فَحْوَى الكلامِ، فكانَ يَعْرِفُهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ إذا تَكلَّموا. فَيُخَرَّجُ على هذا التّأويلِ قولُهُ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ على الوَقتِ[4]، أي تَعرِفُهُمْ في حادِثِ الوقتِ[5]، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: يُقالُ: رَجلٌ ألحَنُ بِحُجَجِهِ، ويقالُ: لَحَنَ يَلْحَنُ، إذا أخطأَ، لَحْناً، فهو لاحِنٌ، كأنهُ مِنَ العُدولِ والمَيلِ عنِ الحقِّ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي في فَحْوَى كلامِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما، واللهُ أعلَمُ: ما تُسِرُّونَ مِنَ الأعمالِ وتُخْفونَها.

والثاني: على الجملةِ، أي يَعْلَمُ جميعَ أعمالِهِمْ ما أسَرُّوا، وأعلَنوا، يُخَرَّجُ على الوَعيدِ كقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي حتى يَعْلَمَ أولياؤُهُ المُجاهدينَ منكُمْ والصابِرينَ مِنْ غَيرِ المُجاهدِينَ وغَيرِ الصابِرينَ، فيكونُ المُرادُ مِنْ إضافَتِهِ العِلْمَ إلى نفسِهِ عِلْمَ أوليائِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقولِهِ ﷻ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ونَحوُهُ. فالمُرادُ منهُ أولياؤُهُ على أحدِ التأويلاتِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يكونُ المرادُ بالعِلْمِ المَعْلومَ، وذلكَ جائزٌ في اللسانِ واللغةِ؛ يقولُ الناسُ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، أي مَأمورُ اللهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المُوقَنُ بهِ [وقولِهِ تعالى][7]: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [المائدة: ٥] أي بالمؤمَنِ بهِ، ونَحْوُ ذلكَ كثيرٌ.

والثالثُ: أي يَعْلَمُ كائناً ما قد عَلِمَهُ أنهُ سيكونُ؛ إذْ لا يَجوزُ أنْ يوصَفَ هو بِعِلْمِ ما سيكونُ يَعْلَمُهُ كائناً أو بِعِلْمِ ما قد كانَ يَعْلَمُهُ أنه يكونُ كائناً، ولكنْ يُوصَفُ بما قد عَلِمَهُ كائناً أنهُ عَلِمَهُ كائناً أو بِعِلْمِ ما عَلِمَ أنهُ سيكونُ أنهُ يكونُ، لأنهُ يُوجِبُ الجهلَ، ويكونُ التَّغيُّرُ في ذلكَ المَعْلومِ لا في عِلْمِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ونَبْلُو في أخبارِكُمُ التي أخْبَرْتُمْ عنْ أنفسِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤] وقولُهُ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥] إلى آخِرِ ما ذُكِرَ؛ نَبْلُو في تلكَ الأخبارِ التي أخْبَروا عنْ أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الوعد. (٥) في الأصل وم: الوعد.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا ابْتُلوا في قولِهِمُ الذي قالوا، وأعْطَوا بِلِسانِهِمْ حينَ[1] قالوا: آمَنّا كقولِهِ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١و٢] فُتِنوا في ما قالوا، وأخبَروا، أي ابْتُلوا؛ فالفِتْنَةُ والمِحْنَةُ والابْتِلاءُ والبَلاءُ واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي نُظْهِرَ نفاقَكُمْ للمسلمينَ، إذْ كانَ اللهُ تعالى عالماً قَبْلَ أنْ يَبْلُوَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿كَفَرُواْ﴾ أي كَفَروا بِنِعَمِ اللهِ مِنَ الكُفرانِ، أو كَفَروا بِتَوحيدِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَصَدُّواْ﴾ أي أعْرَضوا بأنفسِهِمْ عنْ دينِ اللهِ، ويَحتَمِلُ ﴿وَصَدُّواْ﴾ أي صَرَفوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي عادوهُ، وعاندوهُ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ يَحتَمِلُ لَنْ يَضُرّوا اللهَ بكُفْرانِهِمْ نِعَمَهُ أو بكُفْرِهِمْ بِوَحدانِيَّتِهِ[2]؛ ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ ليسَ يأمُرُ، ويَنْهى لِحاجةِ أنفُسِ أولئكَ ولِمَنافِعِهِمْ. فهمْ بِتَرْكِهِمُ اتِّباعَ أمرِهِ والانْتِهاءَ عنْ نَهْيِهِ ضَرّوا أنفسَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي لَنْ يَضُرّوا أولياءَ اللهِ بما كَفَروا، وصَدُّوهُمْ عنْ سَبيلِهِ، بل ضَرّوا أنفسَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي إنْ تَنْصُروا أولياءَ اللهِ يَنْصُرْكُمْ. /٥١٥ ـ ب/

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يَحتَمِلُ حَبْطُ الأعمالِ بالارْتِدادِ بَعْدَ الإيمانِ وإحداثِ الكُفْرِ بَعْدَ الإسلامِ ويَحتَمِلُ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي كانَتْ لهمْ بالإيمانِ قَبْلَ بعثِهِ ﷺ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي أطيعوا اللهَ في الجهادِ، ولا تُبْطِلوا حَسَناتِكُمْ بالرِّياءِ والسُّمْعَةِ. وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ اتَّقوا اللهَ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

ويَحتَمِلُ ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالارْتِدادِ والكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ. ويَحتَمِلُ أي لا تُبْطِلوا أعمالَكُمْ بالمَنِّ على اللهِ أو على الرسولِ في الإسلامِ، أي تُسْلِمونَ، وتَمُنّونَ[3] على اللهِ أو على رسولِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ﴾ الآية [الحجرات: ١٧].

وقالَ قتادةُ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالرِّياءِ، وقالَ: فَمَنِ اسْتَطاعَ منكُمْ ألّا يُبْطِلَ عملاً صالحاً بعملٍ سَيِّءٍ فَلْيَفْعَلْ؛ إنَّ الشَّرَّ يَنْسَخُ الخيرَ، وإنما صَلاحُ[4] العملِ بِخَواتيمِهِ، فَمَنِ اسْتَطاعَ أنْ يَخْتِمَ بِخَيرٍ فَلْيَفْعَلْ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: ما كُنّا، معشرَ أصحابِ محمدٍ ﷺ نَرى شيئاً يُبْطِلُ أعمالَنا حتى نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ، فَعَلِمْنا ما الذي يُبْطِلُ أعمالَنا الكبائرَ الموجباتِ الفواحشَ، فكُنّا على ذلكَ حتى أنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الآية [النساء: ٤٨] فلما نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ كَفَفْنا عنْ هذا القولِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ هذا[6] ليكونوا أبداً على اليَقَظَةِ والحَذَرِ لئلا تَبْطُلَ أعمالُهُمْ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرونَ كقولِهِ تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وفي حَرْفِ أُبَيٍّ ﷺ ولا تُبْطِلوا إيمانَكُمْ[7].

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ تأويلُها ظاهرٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: بوحدانية الله تعالى. (٣) في الأصل وم: متمنون. (٤) في الأصل وم: ملاك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٧) من م، في الأصل: أعمالكم.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي لا تَضْعُفوا، وتَدْعُوا إلى الصُّلحِ. كذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، وقالَ أبو عوسَجَةَ، السِّلْمُ بكسرِ[١] السينِ: الصُّلحُ، ولا أعرِفُ بِفَتْحِ السينِ ههنا لهُ مَعْنًى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتمُ الغالبونَ؛ فيهِ النَّهْيُ عنِ الدعاءِ إلى الصُّلحِ إذا كانوا هُمُ الأعْلَونَ، أعني أهلَ الإسلامِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

يَحْتَمِلُ ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ بالحُجَجِ والبَراهينِ في كلِّ وقتٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ بالقَهْرِ والغَلَبَةِ في العاقبةِ، أي آخِرُ الأمْرِ لكُمْ.

ويَحْتَمِلُ ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ، لأنهمْ، وإنْ غُلِبوا في الدنيا، وقُتِلوا، كانَتْ لهمُ الآخِرَةُ، وإنْ ظَفِروا بهِمْ، كانَتْ لهمُ الدنيا والأموالُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتمْ أولَى باللهِ منهمْ، وهو ما ذَكَرْنا في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مَعَكُمْ﴾ في النَّصْرِ والغَلَبَةِ، ويَحْتَمِلُ ﴿مَعَكُمْ﴾ في الوَعْدِ الذي وَعَدَ، أي يُنْجِزُ ما وَعَدَ لكمْ في الدنيا، ويَفِي بذلكَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: أي لنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافرينَ عليكُمْ مَظْلَمَةً ولا تَبِعَةً، وهو يَحْتَمِلُ في الدنيا والآخِرَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لنْ يَنْقُصَكُمْ أعمالَكُمْ، وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ؛ يُقالُ: وَتَرَهُ، أي نَقَصَهُ، وقالَ بعضُهُمْ: لَنْ يَظْلِمَكُمْ أعمالَكُمْ؛ يُقالُ: وتَرَني حَقّي، أي بَخَسَنيهِ، كذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، ولكنْ كلاهُما واحدٌ في المَعْنَى، أي لا يَنْقُصُ من أعمالِهِمْ شيئاً، ولا يُظْلَمونَ فيها، ولا يُبْخَسُونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي الحياةُ[٢] الدنيا على ما عندَهُمْ وعلى ما يُقَدِّرونَ لَعِبٌ ولَهْوٌ، لأنهمْ كانوا يقولونَ: أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ [بَعْدَ الموتِ][٣] فَعَلَى ما عندَهمْ تكونُ الحياةُ[٤] الدنيا على ما ذَكَرَ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ سَمّاها لَهْواً ولَعِباً لأنهمْ على ما يَزْعُمونَ أنْشَأها لِلانْقِطاعِ والفَناءِ، لا لِتُكْتَسَبَ بها الحياةُ الدائمةُ في الآخِرَةِ، وإنشاءُ الشيءِ لِلانْقِطاعِ والفَناءِ خاصةً بلا عاقبةٍ تُقْصَدُ يكونُ لَعِباً ولَهْواً.

ثم اللَّعِبُ واللَّهْوُ يجوزُ أنْ يكونا شيئاً واحداً، ويجوزُ أنْ يكونَ أحدُهُما ممّا يُسْتَمْتَعُ بظاهِرِ الأشياءِ، والآخَرُ ممّا يُسْتَمْتَعُ بِباطِنِ الأشياءِ: اللَّعِبُ هو ما يُسْتَمْتَعُ بِظواهِرِ الأشياءِ، واللَّهْوُ هو ما يُتَلَهَّى بِبَواطِنِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي وإنْ تُؤمِنوا بما أُمِرْتُمُ الإيمانَ [بهِ][٥] وتَتَّقُوا عمّا نُهيتُمْ عنْ مُخالفةِ أمْرِهِ ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ بفضلِهِ ورحمتِهِ لأعمالِهمُ التي يَعْمَلونَ لأنفسِهِمْ أجراً؛ إذْ لا أحَدَ يَعْمَلُ لنفسِهِ، ويأخذُ الأجْرَ مِنْ غيرِهِ، لأنهمْ بالأعمالِ يُسْقِطونَ عنْ أنفسِهِمُ التَّكليفَ بالشكرِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى. حينَ[٦] أسْدَى عليهِمُ النِّعَمَ ابْتِداءً. لكنهُ جَعَلَ لأعمالِهِمْ أجراً، كأنهمْ يَعْمَلونَ لهُ ابْتِداءً، وإنْ كانوا عامِلينَ لأنفسِهِمْ حقيقةً، وإليهِ تَرجِعُ مَنافعُ أعمالِهِمْ، ولأنَّ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ في الحقيقةِ للهِ تعالى، فكيفَ يَسْتَحِقُّونَ الأجْرَ على مَولاهُمْ بأعمالِهِمْ؟ وذا كما ذَكَرْنا مِنَ الإقراضِ لهُ والاسْتِدانةِ منهُ، كأنْ لا مُلْكَ لهُ في ذلكَ، وأنْ ليسَ لهُ ذلكَ، وإنْ كانَتْ حقيقةُ أملاكِهِمْ وأنفسِهِمْ للهِ تعالى فضلاً منهُ وكَرَماً. فَعلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ هذا يَخرُجُ على وجهَيْنِ:

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/١٩٧. (٢) في الأصل وم: حياة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حياة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث.

أحدُهما: أي ليس يَسألُكُمُ الإنفاقَ مِنْ أموالِكُمْ، وإنما يَسألُكُمْ مِنْ مالِهِ لِتَستَمْتِعوا بمالِ غَيرِهِ لأنفُسِكُمْ، وتَجعَلوهُ ذُخراً لأنفسِكُمْ غَيرَ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي لو كانَ يَسألُكُمْ مِنْ أموالِكُمْ لَبَخِلْتُمْ، وتَرَكْتُمُ الإنفاقَ منها.

والثاني: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي ولا يَسألُكُمُ الإنفاقَ مِنْ جميعِ أموالِكُمْ، ولكنْ إنما يَسألُكُمُ الإنفاقَ مِنْ طائفةٍ مِنْ أموالِكُمْ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ لو[1] يَسألُكُمْ جميعَ أموالِكُمْ لَحَمَلَكُمْ ذلكَ على البُخلِ وتَرْكِ الإنفاقِ. فإنْ يَسألُكُمُ الإنفاقَ مِنْ جُزءٍ مِنْ أموالِكُمْ فلماذا بَخِلْتُمْ، وتَرَكْتُمُ الإنفاقَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ يُخرَّجُ على [وجهَينِ:

أحدُهما:][2] أنْ يَحمِلَكُمْ على البخلِ لو سألَكُمْ جميعَ [أموالِكُمْ.

والثاني:][3] ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي فَيَجعَلَكُمْ حُفاةً، لا شيءَ يَبْقَى عندَكُمْ. الإحفاءُ أنْ يُؤخَذَ كلُّ شيءٍ عندَهُ، وهو مِنَ الاسْتِئْصالِ، ومنهُ إحفاءُ الشوارِبِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الإحفاءُ شِدَّةُ المسألةِ، أي أنْ يُلِحَّ عليكمْ في ما يُوجِبُهُ في أموالِكُمْ. ﴿تَبْخَلُوا﴾ يُقالُ. أحْفَى في المسألةِ، وألْحَفَ، وألَحَّ، واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي لو أمَرَ بالإنفاقِ مِنْ جميعِ أموالِكُمْ أو مِنْ أموالِكُمْ حقيقةً لَظَهَرَ ذلكَ مِنْ أضغانِكُمُ التي في قلوبِكُمْ لأنَّ ذلكَ الأمْرَ إنما يَجري على ألسُنِ الرسلِ، فَيُوجِبُ[4] ذلكَ إظهارَ ما في قلوبِهِمْ مِنَ الضَّغائِنِ للرسلِ ﷺ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو في المُنافِقينَ، فيكونُ الأمْرُ بالإنفاقِ سَبَبَ إظهارِ نِفاقِهِمْ وضَغائِنِهِمْ وَعداوَتِهِمْ، فكانَ كالأمرِ بالقِتالِ، كأنهُ سَبَبٌ لإظهارِ نفاقِهِمْ.

وإنْ كانَ في المسلمينَ فَيَحتَمِلُ أنهُ قالَ ذلكَ تَحريصاً لهمْ على الإنفاقِ والتَّصدُّقِ، كأنهُ سَبَبُ إخراجِ الضَّغائِنِ والعَداوةِ لِما فيهِ مِنَ التَّحبُّبِ والتَّوَدُّدِ بإيصالِ ما هو مَحبوبٌ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في إظهارِ دينِ اللهِ أو في طاعةِ اللهِ أو في الجهادِ لأنَّ الإنفاقَ في ذلكَ كلِّهِ في سَبيلِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ جعَلَ اللهُ ﷻ /٥١٦ ـ أ/ الإنفاقَ لهمْ حقيقةً إذا أنْفَقوا في ما أمَرَهُمُ اللهُ تعالى بالإنفاقِ في طاعتِهِ، عندَ ذلكَ تَصيرُ تلكَ الأموالُ لهمْ لأنهمْ إذا أنْفَقوا في ما أمَرَ اللهُ تعالى انْتَفَعوا بها في الدنيا، واسْتَمْتَعَتْ انفسُهُمْ، وتَلَذَّذَتْ، وانْتَفَعوا بها في الآخِرَةِ وقْتَ حاجتِهِمْ وفَقْرِهِمْ. بذلكَ تَتَحَقَّقُ لهمْ، وتَحْصُلُ تلكَ الأموالُ.

فأمّا عندَ تَرْكِهِمُ الإنفاقَ في ما أمَرَ بالإنفاقِ والبَذْلِ فلا تُتَحَقَّقُ لهمْ تلكَ الأموالُ المَجعولةُ في أيديهِمْ لأنهُ إمّا أنْ تُجعَلَ لوارِثِهِمْ، أو يَأخُذَها منهمْ بلا سَبَبٍ مِنْ غَيرِ أنْ يَجْعَلَ لهمْ بذلكَ نَفْعٌ يَحصَلُ لهمْ، فيكونُ ما ذَكَرْنا.

فذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، واللهُ أعلَمُ، لما يُهلِكُ نفسَهُ بِتَرْكِ الإنفاقِ منها، فلم يَتَمَتَّعْ، ولم يَنْتَفِعْ بهِ وقْتَ حاجتِهِ إليهِ في الآخِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ عنِ الصدقةِ والإنفاقِ في طاعةِ اللهِ ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقةِ في طاعةِ اللهِ ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ بالجزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي واللهُ الغَنِيُّ عنْ إنفاقِكُمْ وعمّا يَأمُرُكُمْ بالإنفاقِ، وأنتمُ الفقراءُ إلى ما

(١) من م، في الأصل: لم. (٢) في الأصل وم: وجوه أحدها. (٣) في الأصل وم: الأموال ويحتمل. (٤) في الأصل وم: فوجب.

تُنفِقونَ، أي أنتمُ المُنتَفِعونَ بذلكَ الإنفاقِ الذي يأمُرُكُمْ بهِ [لا أنهُ][1] يُرْجِعُ مَنفَعَةَ ذلكَ إليهِ، أو يأمُرُ لِحاجةِ نفسِهِ، ولكنْ إنما يأمُرُكُمْ بذلكَ لحاجَتِكُمْ إليهِ يوماً، واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ عنكُمْ وعمّا في أيديكُمْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إليهِ في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ في جميعِ أحوالِكُمْ وأوقاتِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ عنْ أموالِكُمْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إلى مَغفِرَتِهِ ورِزقِهِ وجَنَّتِهِ ورحمتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ قالَ بعضُهُمْ: قد تَوَلَّوا، وهمْ أهلُ مكةَ، واستَبدَلَ قوماً غَيرَهُمْ[2]، وهُمْ أهلُ المدينةِ. لكنَّ هذا بعيدٌ لأنَّ السورةَ مدنيّةٌ فلا يَحتَمِلُ الخطابُ بهِ لأهلِ مكةَ بقولِهِ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ ومنهمْ مَنْ يقولُ: اللهُ ﷻ أخبَرَ، وَوَعَدَ أهلَ المدينةِ أنهمْ إنْ يَتَوَلَّوا يَستَبدِلْ[3] غيرَهُمْ أطوَعَ منهمْ للهِ تعالى، فلا تَوَلّى[4] هؤلاءِ، ولا استَبدَلَ غيرَهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: هو على وجهَينِ:

أحدُهما: قولُهُ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [أي لم تَتَوَلَّوا، ولم يَستَبدِلْ قوماً غيرَكُمْ][5].

والوَجهُ الآخَرُ: قد تَوَلَّوا، واستَبدَلَ بهمُ النَّخَعَ وأحمَسَ وناساً[6] مِنْ كِندَةَ. والذينَ تَوَلَّوا: حَنظَلَةُ وأسَدٌ وغَطَفانُ وبنو فلانٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟﴾ أي لا يكونوا أمثالَكُمْ في الطاعةِ للهِ تعالى، بل أطوَعَ لهُ وأخضَعَ واللهُ أعلمُ.

وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ «فَضَرَبَ بيدِهِ على فَخِذِ سَلْمانَ الفارسيِّ، وقالَ: والذي نفسي بيدِهِ لو كانَ الدينُ مَنوطاً بالثريّا لَتَناوَلَهُ رجالٌ مِنْ فارس» [الترمذي ٣٢٦١].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رأيتُ غَنَماً سوداءَ، ردفَها غَنَمٌ بيضٌ، فاختَلَطَتْ بها، فَتَعَقَّبْتُ بهنّ جميعاً. قالوا: يا رسولَ اللهِ ﷺ فما أوَّلتَ؟ قالَ: العَجَمُ يَشْرَكونَكُمْ في دِينِكُمْ وأنسابِكُمْ. قالوا: العَجَمُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: نعمْ، لو كانَ الإيمانُ مُعلَّقاً بالثُّريّا لَتَناوَلَهُ رجالٌ مِنَ العَجَمِ، وأسعَدُهُمْ بهِ أهلُ فارسَ» [الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٩٥].

فإنْ ثَبَتَ هذا الخَبَرُ فجائزٌ أنْ يُستَدَلَّ بهِ على جَعْلِ العَجَمِ أكفاءَ العَرَبِ لأنهُ قالَ: «يَشْرُكونَكُمْ في أنسابِكُمْ» فإذا أشرَكوهُمْ في أنسابِهِمْ صاروا أكفاءً لهمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: «يَشْرُكونَكُمْ في أنسابِكُمْ» لأنهمْ يَتَزاوجونَ[7]، فَيَلِدُ منهمْ أولادٌ، فَيَشْرُكونَهُمْ في ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وعنْ أبي هُرَيرةَ ﷺ أنهُ قالَ: «تلا رسولُ اللهِ ﷺ هذهِ الآيةَ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ قالوا: مَنْ هؤلاءِ؟ فَضَرَبَ رسولُ اللهِ ﷺ على مَنكِبِ سَلْمانَ، ثم قالَ: هذا وقومُهُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٦/ ٦٧].

وقالَ في حديثٍ آخَرَ: «والذي نفسي بيدِهِ لو كانَ الإيمانُ مَنوطاً بالثُّريّا لَتَناوَلَهُ رجالٌ مِنْ فارسَ» [الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٩٥] واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

[وصلّى اللهُ تعالى على محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ][8].

---

(١) من م، في الأصل: لك. (٢) في الأصل وم: غيركم. (٣) في الأصل وم: استبدل. (٤) في الأصل وم: تولوا. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وناس. (٧) في الأصل: ينسبون، في م: ينسبونهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

[سورة الفتح

مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو فَتْحُ مكةَ، وقالَ بعضُهُمْ: هو صُلْحُ الحُدَيبيَةِ الذي كانَ بَينَ رسولِ اللهِ ﷺ وبَينَ أهلِ مكةَ حينَ صَدُّوهُمْ عنْ دخولِهِمْ مكةَ، وحالوا بَينَهُ وبَينَ زيارةِ البيتِ، وكانَ لهُ فيها، أعني في قصةِ الحُدَيبيَةِ أمْرانِ وآيَتانِ ظاهرتانِ عظيمتانِ:

إحداهما[2]: أنهُ أصابَهُ، ومَنْ مَعَهُ مِنْ أصحابِهِ عَطَشٌ، فأُتَى بإناءِ ماءٍ، فَنَبَعَ مِنْ ذلكَ الإناءِ مِنَ الماءِ مِقْدارُ ما شَرِبَ منهُ زُهاءُ ألفٍ وخَمْسِ مئةٍ حتّى رُوُوا جميعاً، فتلكَ آيةٌ عظيمةٌ على رسالتِهِ.

والثانيةُ[3]: أخبَرَ بغَلَبَةِ الرومِ الفارسَ، وذلكَ عِلْمُ غَيبٍ، وكانَ كما ذَكَرَ، وأخبَرَ، فَدَلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقصةُ الحُدَيبيَةِ: رُوِيَ عنْ رجلٍ، يُقالُ لهُ: مُجَمِّعُ بْنُ حارِثَةَ [أنهُ][4] قالَ: شَهِدْتُ الحُدَيبيَةَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ فلمّا انْصَرَفَ عنها، صارَ[5] الناسُ يُوجِفونَ الأباعِرَ، فقالَ بعضُ الناسِ لبعضٍ: ما لِلناسِ؟ قالَ: أُوحِيَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: فَخَرَجْنا نُوجِفُ معَ الناسِ حتى وجَدْنا رسولَ اللهِ ﷺ واقفاً عندَ كُراعِ الغَميمِ [وهو][6] اسْمُ مَوضِعٍ. فلما اجْتَمَعَ إليهِ بعضُ ما يريدُ مِنَ الناسِ قَرَأَ عليهِمْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قالَ: قالَ رجلٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ: أوَ فَتْحٌ هو يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: إي والذي نفسي بيدِهِ إنهُ لَفَتْحٌ، قالَ: ثم قُسِمَتِ الحُدَيبيَةُ على ثمانيةَ عَشَرَ سَهْماً، وكانَ الجيشُ ألفاً وخَمْسَ مئةٍ.

وفي بعضِ الأخبارِ أنهُ الصلحُ الذي كانَ بينَ رسولِ اللهِ ﷺ وبَينَ المُشْرِكينَ، ولم نَرَ قِتالاً، ولو رَأَينا[7] لَقاتَلْنا، قالَ: فَنَزَلَتْ سورةُ الفَتْحِ، فأرسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى عُمَرَ ﷺ فَأقْرَأَها إياهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ أفَتْحٌ هو؟ قالَ نعمْ.

وعَنْ عامرٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ بالحُدَيبيَةِ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقالَ رجلٌ: أفَتْحٌ هو؟ قالَ نعمْ.

وعَنْ جابرٍ أنهُ قالَ: ما كُنّا نَعُدُّ الفَتْحَ إلّا يومَ الحُدَيبيَةِ، وكذلكَ رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: نزلَتْ هذهِ الآيةُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بالحُدَيبيَةِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: لم يكنْ في الإسلامِ فَتْحٌ أعظمُ مِنْ صُلْحِ الحُدَيبيَةِ؛ وَضعَتِ الحَرْبُ أوزارَها، وأمِنَ الناسُ كُلُّهُمْ، ودَخَلَ في الإسلامِ في السَّنَتَينِ أكثرُ ممّا كانَ دَخَلَ قُبَيلَ ذلكَ. فلمّا رَجَعَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الحُدَيبيَةِ... وفي الحديثِ طولٌ، تَرَكْنا ذِكْرَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ/ ٥١٦ ـ ب/ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: إنّا قَضينا ذلكَ قضاءً بَيِّناً بالحُجَجِ والبراهينِ على رسالتِكَ ونُبُوَّتِكَ لِيُعْلَمَ أنكَ مُحِقٌّ على ما تَدعو، صادقٌ في قولِكَ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ بما أكْرَمَكَ، وعَظَّمَ أمْرَكَ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ، أي أعطاكَ ذلكَ، وأكْرَمَكَ بهِ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

---

(١) في م: ذكر أن سورة الفتح مدنية، في الأصل: سورة الفتح. (٢) في الأصل وم: أحدهما. (٣) في الأصل وم: والثاني. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: نرى.

والثاني: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ما لم يَطمعْ أحدٌ مِنَ الخَلائِقِ أنهُ يَفتَحُ عليكَ أمثالَ تلكَ الفُتوحِ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

والثالثُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ جميعَ أبوابِ الحِكْمةِ والعُلومِ وجميعَ أبوابِ الخَيراتِ والحَسَناتِ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ بما أكْرَمَكَ مِنَ أبوابِ الحكمةِ والخيراتِ[١].

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: يَرْجِعُ إلى ذَنْبِهِ؛ أخبَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ. ثم لا يَجوزُ لنا أنْ نَبحثَ عنْ ذَنْبِهِ، ونتكلَّفَ أنهُ ما كانَ ذَنْبُهُ، وإيش كانَتْ زلَّتُهُ، لأنَّ البَحثَ عنْ زلَّتِهِ ممّا يُوجِبُ النَّقصَ فيهِ؛ فَمَنْ يَتكلَّفِ البَحثَ عنْ ذلكَ فَيُخافُ عليهِ الكُفرُ. لكنَّ ذَنْبَهُ وذَنْبَ سائرِ الأنبياءِ ﷺ ليسَ نَظيرَ ذَنْبِنا؛ إذْ ذَنْبُهُمْ بِمَنْزِلةِ فِعْلٍ مُباحٍ منّا لكنَّهُمْ نُهُوا عنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أنْ يَغفِرَ ذَنْبَهُ ابْتِداءَ غُفْرانٍ، أي عَصَمَهُ عنْ ذلكَ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، واللهُ أعلَمُ.

والوَجْهُ الثاني: يَرْجِعُ إلى ذُنوبِ أمَّتِهِ، أي لِيَغفِرَ لكَ اللهُ ذُنوبَ أمَّتِكَ، وهو ما يَشفَعُ لأمَّتِه، فَيَغفِرُ لأمَّتِهِ[٢] بِشَفاعتِهِ، وهو كما رُوِيَ في الخَبَرِ «يُغفَرُ لِلمؤذِّنِ مَدُّ صَوتِهِ» [أحمد ٢/ ١٣٦] أي يَجْعَلُ لهُ الشفاعةَ.

فَعَلى ذلك جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ أنْ يَغفِرَ لأمَّتِهِ[٣] بِشَفاعتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يَحتَمِلُ إتمامُ نِعْمَتِهِ عليهِ هو ما ذَكَرْنا منَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ وفَتْحِ ما ذَكَرَ منْ أبوابِ الخَيراتِ والحِكْمَةِ في الدنيا والآخِرَةِ، أو الشَّفاعةُ لهُ في الآخِرَةِ أو إظهارُ دينِهِ [على الأديانِ][٤] كلِّها أو إياسُ أولئكَ الكَفَرةِ عنْ عَودِهِ إلى دينِهِمْ كقولِهِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ يَحتَمِلُ أنْ يَنصُرَكَ نَصراً عَزيزاً بالغَلَبَةِ عليهمْ والقَهرِ والظَّفَرِ لا صُلْحاً ولا مُواعَدَةً.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُ أهلِ التأويلِ: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ لا يُستَذَلُّ، ولا يُستَزَلُّ.

وظاهرُ الآيةِ ليسَ على ذلكَ لأنهُ [قالَهُ على إثْرِ قولِهِ][٥]: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ لأنَّ الخَيراتِ والحَسَناتِ تكونُ سَبَباً لِلْمَغْفِرَةِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الفَتْحِ لهُ والمَغفِرَةِ هذا لا لِما ذَكَرَهُ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُسألُ عنِ الفَتْحِ لِما أقْدَمَ على أسبابِ الفَتْحِ، وهو القِتالُ مع الكَفَرَةِ ونَحْوُ ذلكَ، وذلكَ مِنَ الخَيراتِ التي تكونُ سَبَبَ المَغفِرَةِ. إلّا أنَّ اللهَ تعالى أضافَ الفَتْحَ إلى نفسِهِ [بقولِهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِما أنهُ هو الخالقُ لتلكَ الأسبابِ والمُنْشِئُ لِعَمَلِ الجِهادِ][٦] والقِتالِ معهمْ، اللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الفَتْحِ لهُ هو أنَّ اللهَ جَعَلَ رسولَهُ بحيثُ لا يَخُطُّ بيدِهِ خَطّاً، ولا يكتُبُ كتاباً، ولا يَفْهَمُ كتابةً، وهو ما وَصَفَهُ اللهُ، جَلَّ، وعَلا، بقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] لِدَفعِ ارْتِيابِ المُبْطِلِينَ فيهِ على [ما][٧] ذَكَرَ.

ثم معَ أنهُ جَعَلَهُ هكذا أحْوَجَ جميعَ حُكَماءِ الخَلْقِ إليهِ، وأحْوَجَ أيضاً جميعَ أهلِ الكتبِ السالفةِ إليهِ في مَعْرِفةِ ما ضَمَّنَ كتابَهُ المُنَزَّلَ عليهِ، وجَعَلَهُ رسولاً إليهِمْ، فيكونُ كأنهُ قالَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [النُّبُوَّةَ][٨] والحكمةَ وأنواعَ العلومِ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: يخرج على هذه الوجوه الثالثة والله أعلم. (٢) في الأصل وم: له أي. (٣) في الأصل وم: له أمته. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: قال على أثره. (٦) من نسخة الحرم المكي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

والخيراتِ والحسناتِ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ أي إنما فَتَحَ لكَ ما ذَكَرَ لِيَغْفِرَ لكَ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ مِنَ النُّبوّةِ والحِكْمةِ وإظهارِ دينِهِ على الأديانِ كلِّها ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أعطاهُ ما ذَكَرْنا، وذلكَ كلُّهُ النَّصرُ العَزيزُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي ما تقدَّمَ منْ ذَنْبِ أُمَّتِكَ وما تأخَّرَ مِنْ ذَنْبِهِمْ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ﴾ عليهمْ مِنْ أنواعِ الخَيراتِ والأمْنِ لهمْ والإياسِ لأولئكَ الكَفَرَةِ عنهمْ، ويَهْدِيَهُمْ صِراطاً مُستقيماً، ويَنْصُرَهُمْ نَصْراً عزيزاً؛ أي فَتَحْنا لكَ ما ذَكَرَ ليكونَ لأمّتِكَ ما ذَكَرْنا مِنَ المَغْفِرَةِ لهمْ وإتمامِ النِّعْمةِ والهِدايةِ لهمُ الصِّراطَ المُستقيمَ والنَّصرِ لهمُ النَّصرَ العَزيزَ، أي نَصْراً يُعَزّونَ بهِ في حياتِهِمْ وبَعْدَ وَفاتِهِمْ في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ، جَلَّ، وعَلاَ، امْتَحَنَ رسولَهُ ﷺ في الابْتِداءِ بالخَوفِ حينَ قالَ: «وما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكمْ» [أحمد ١/ ٢٣٧] وَجَدَ النَّبيُّ ﷺ لذلكَ وَجْداً شديداً، ونَزَلَ بَعْدَهُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى آخرِهِ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «نَزَلَتْ عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ ممّا على الأرضِ» [ابن أبي شيبة في المصنف ١٤/ ٥٠١] ثم قَرَأها النَّبيُّ ﷺ فقالوا: هنيئاً مَريئاً لكَ يا نَبيَّ اللهِ قد بَيَّنَ اللهُ لكَ ماذا يَفْعَلُ بكَ، ولم يُبَيِّنْ ماذا يَفْعَلُ بنا، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [الفتح: ٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السَّكينةُ هي كَهَيئةِ الرُّمْحِ لها جَناحانِ، ولها رأسٌ كَرَأسِ الهِرِّ لكنَّ هذا ليسَ بشيءٍ فإنهُ ﷺ قالَ: ﴿أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بحقيقةِ الدينِ، وهو تفسيرُ العِلْمِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ خالقَ العِلْمِ الاسْتِدْلالي ومُنْزِلَهُ ومُنْشِئَهُ، هو اللهُ تعالى، وهُمْ يقولونَ: إنَّ خالقَهُ هو المُسْتَدِلُّ، فيكونُ حُجَّةً عليهِمْ.

قالَ بعضُ المعتزلةِ: إضافةُ إنزالِ السَّكينةِ إلى نفسهِ على سَبيلِ المَجازِ، ليسَ على التحقيقِ كما يُقالُ: فلانٌ أنْزَلَ فلاناً في مَنْزِلِهِ أو مَسْكَنِهِ، وإنْ لم يكُنْ منهُ حقيقةُ إنزالِهِ إيّاهُ في المَنْزِلِ، لكنْ أُضيفَ إليهِ ذلكَ لأنهُ وُجِدَ منهُ، وسَبَبٌ بهِ يَصِلُ ذلكَ إلى نُزولِهِ في مَنْزِلِهِ ومَسْكَنِهِ.

فَعَلى ذلكَ أضافَ إنزالَ السَّكينةِ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ فلا يُقالُ في مِثْلِهِ لأمْرٍ كانَ منهُ أو بِسَبَبٍ: جُعِلَ لهُ ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ وإنما يُقالُ ذلكَ لتحقيقِ إنزالِ ذلكَ ليكونَ ما ذُكِرَ على ما أخبَرَ أنهُ فَتَحَ لِيَغْفِرَ لهُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ما قالَ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ بالتَّفسيرِ على إيمانِهِمْ بالجُمْلةِ.

والثاني: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ بمحمدٍ ﷺ وبكتابِهِ ﴿مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ بِسائِرِ الرسلِ والكُتُبِ التي كانوا آمَنوا بها، وصَدَّقوها. وهذا في أهلِ الكتابِ خاصةً.

والثالثُ: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ في حادِثِ الوَقْتِ ﴿مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ في ما مَضى مِنَ الأوقاتِ.

فإذا وُصِلَ هذا بالأوَّلِ فيكونُ بِحُكْمِ الزيادةِ، وإنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ بِحُكْمِ الابْتِداءِ، إذْ للإيمانِ حقُّ التَّجدُّدِ والحُدوثِ في كلِّ وَقْتٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنْ كانَ نُزولُهُ على إثْرِ قولِ ذلكَ المُنافِقِ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ حينَ[1] قالَ لأصحابِهِ: يَزْعُمُ محمدٌ أنَّ اللهَ قد غَفَرَ لهُ، وأنَّ لهُ / ٥١٧ ـ أ/ على عدوِّهِ [ظَفَراً، وأنهُ يَهْديهِ][2] صِراطاً

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ظفر ويهديه.

مُستقيماً، ويَنْصُرُهُ نَصراً عَزيزاً، هَيهاتَ! هيهاتَ! لقد بَقِيَ لهُ مِنَ العَدُوِّ أكثَرُ وأكثَرُ، فأينَ أهلُ فارسَ والرومِ؟ هُمْ أكثَرُ عَدَداً. فعندَ ذلكَ نَزَلَ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فَمَعْناهُ: أنَّ للهِ جُنودُ السمواتِ والأرضِ؛ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ على مَنْ يَشاءُ، ويَجْعَلُ الأمرَ لِمَنْ يَشاءُ، ليسَ لهمُ التدبيرُ وإنفاذُ الأمرِ على مَنْ شاؤوا، ولكنَّ ذلكَ إلى اللهِ تعالى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢] أي للهِ تدبيرُ مَكْرِهِمْ لا يَنْفُذُ مَكْرُهُمْ إلاّ باللهِ تعالى. فَعَلَى ذلكَ [هذا][1] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عَنْ عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ مِنْ إيثارِهِمْ عَداوَةَ اللهِ على وِلايَتِهِ واختيارِ الخِلافِ لهُ أنشأهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يُنْشِئْهُمْ، ولم يَأْمُرْهُمْ بما أمَرَهُمْ، وامْتَحَنَهُمْ بما امْتَحَنَ لِحاجةِ نفسِهِ أو لِمَنافِعَ تَرْجِعُ إليهِ، ولكنْ لِحاجةِ أولئكَ أو لِمَنافِعِهِمْ.

ولِذلكَ كانَ[2] حكيماً لأنَّ الحَكيمَ هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التدبيرِ. فإذا كانَ إنشاؤُهُ إيّاهُمْ وما أمَرَهُمْ بهِ، ونَهاهُمْ عنهُ، لا لِحاجةٍ لهُ في نفسِهِ ولا مَنْفَعةٍ، ولكنْ لِحاجَتِهِمْ ومَنْفَعَتِهِمْ كانَ حكيماً في إنشائِهِ إياهُمْ، على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ منهمْ مِنْ إيثارِ العَداوَةِ لهُ على وِلايَتِهِ واختيارِ الخِلافِ لهُ والمَعْصيَةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الآية، كانَ هذا صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآية ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى﴾ قلوبِهِمْ ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ وأنزلَ السَّكينةَ أيضاً لِيُدْخِلَهُمْ في ما ذَكَرَ كما ذَكَرَ في رسولِ اللهِ ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ فَتَحَ لهُ لِيَغْفِرَ لهُ. فَعَلَى ذلكَ أنْزَلَ السَّكينَةَ في قلوبِهِمْ لِيَزْدادَ لهمُ الإيمانُ، ولِيُدْخِلَهُمُ الجَنّاتِ[3] التي وَصَفَ. ثم أخْبَرَ أنَّ ذلكَ لهمْ ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا هَلاكَ بَعْدَهُ، ولا تَبِعَةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ذَكَرَ لِلْمُنافقينَ مِنَ العذابِ مُقابِلَ ما ذَكَرَ للمؤمنينَ مِنْ إنزالِ السَّكينةِ عليهِمْ وإدخالِهِمُ الجنةَ.

حَرَمَ هؤلاءِ السَّكينةَ التي ذَكَرَ أنَّ قلوبَ المؤمنينَ بها تَسْكُنُ لِما عَلِمَ أنهمْ يَخْتارونَ عداوَتَهُ، ويُؤْثِرونَ عَداوَةَ أوليائِهِ على وِلايَتِهِمْ، وعَلِمَ مِنَ المؤمنينَ أنهمْ يُؤْثِرونَ وِلايَتَهُ على عَداوتِهِ [وَوِلايَةَ أوليائِهِ][4] على عداوتِهِمْ، فأنْزَلَ السَّكينةَ في قلوبِهِمْ، ولم يُنْزِلْ على أولئكَ، هذا لِيُعْلِمَ أنَّ مَنْ بَلَغَ في الإيمانِ الحَدَّ الذي ذَكَرَ إنما بَلَغَ ذلك باللهِ تعالى وبِفَضْلِهِ وبِرَحْمَتِهِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هُمُ المُنافِقونَ الذينَ ذَكَرَهُمْ في آيةٍ أُخْرَى حينَ[5] قالَ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢] ظَنُّوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَرْجِعُ إلى أهلِهِ، وكذلكَ [المؤمنونَ][6] لا يَرْجِعونَ إلى أهليهِمْ أبداً. ثم أخبَرَ أنَّ ذلكَ الظَّنَّ منهمْ ظَنُّ السَّوءِ. فَيَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ ههنا ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هذا ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هُمُ المُشْرِكونَ.

ثم إنْ كانوا مِنَ المُنافِقِينَ فيكونُ ظَنُّهُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ: ألّا يَرْجِعَ هو وأصحابُهُ إلى أهليهِمْ أبداً.

وإنْ كانوا مِنْ مُكَذِّبي الرسولِ ﷺ فيكونُ ظَنُّهُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ ألّا يُكْرِمَ محمداً ﷺ بالرسالةِ، ولا يُعَظِّمَهُ بالنُّبُوَّةِ؛ لا يَخْتارُهُ، ولا يُؤْثِرُهُ[7] على غيرِهِ مِنَ الناسِ الذي يَخْتارونَهُ[8] هُمْ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فيكونُ ظَنُّهُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ على هذا ألّا يُكْرِمَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ ولا يَخْتارَهُ[9] لِرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: جنات. (٤) من م، في الأصل: وولايته. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٨) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم.

وإنْ كانوا مِنْ مُكَذِّبي البَعْثِ ومُنْكِريهِ فيكونُ ظَنُّهُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ، وهو ألّا يَقْدِرَ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ.

ثم أخْبَرَ أنَّ عليهِمْ دائِرَةَ السَّوءِ الذي ظَنّوا ألّا يَرْجِعَ إلى [أهلِهِ][1] رسولُ اللهِ ﷺ فَصارَ عليهِمْ ما ظَنّوا برسولِ اللهِ ﷺ حينَ[2] تَفَرَّقوا عَنْ أوطانِهِمْ، وهُتِكَتْ أستارُهُمْ، ونَحْوُ ذلكَ.

وإنْ كانوا مِنْ مُكَذِّبي الرسولِ ﷺ أنهُ لا يُرْسِلُهُ فَظَنُّهُمْ كانَ ما ظَنّوا لأنهُ بُعِثَ هو رسولاً، ولم يُبْعَثْ مِنِ اختاروا هُمْ.

وإنْ كانوا مِنْ مُنْكِري البَعْثِ فَعَلَيهِمْ كانَ عذابُ اليومِ، وفيهِ هلاكُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أخْبَرَ ﷻ أنهمُ استَوجَبوا غَضَبَ اللهِ ولَعْنَهُ بالذي كانَ منهمْ مِنْ سُوءِ ظَنِّهِمْ باللهِ ورسولِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ﴾ بذلكَ ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ لهمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ذَكَرَ على إثْرِ ما ذَكَرَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لِيُعْلَمَ أنَّ عِزَّهُ ليسَ بِما ذَكَرَ مِنَ الجنودِ الذينَ لهُ في السمواتِ والأرضِ، ولكنهُ [كانَ][3] عزيزاً بذاتِهِ؛ لهُ العِزُّ الذاتِيُّ الأزَلِيُّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قولُهُ: ﴿شَٰهِدًا﴾ للهِ عمّا للهِ تعالى على عبادِهِ وما[4] لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ فَعَلَى هذا التأويلِ يكونُ قولُهُ ﴿شَٰهِدًا﴾ أي مُبَيِّناً، أي يُبَيِّنُ ما للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ، وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي شاهداً للرسلِ ﷺ بالتَّبليغِ بالإجابةِ لِمَنْ أجابَهُمْ، وشاهداً على مَنْ أبى الإجابَةَ بالإباءِ والرَّدِّ. فَعَلَى هذا التأويلِ يكونُ قولُهُ: ﴿شَٰهِدًا﴾ على حقيقةِ الشهادةِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي أرسلْناكَ شاهداً على أُمَّتِكَ على الأنبياءِ ﷺ بالتَّبليغِ[5] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ البِشارةُ هي بِذِكْرِ عواقِبِ الخَيراتِ والحَسناتِ والإخبارِ عَنْ أحوالِها أنها إلى ماذا يُفْضي أربابُها وعُمّالُها لِيُرَغِّبَهُمْ فيها. والنِّذارةُ بِذِكْرِ عواقِبِ الشرورِ والسَّيِّئاتِ والإخبارِ عَنْ أحوالِها أنها إلى ماذا يُفْضي أربابُها ومُرْتكبوها[6] لِيَزْجُرَهُمْ [عنها][7] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ خاطَبَ بهذا البَشَرَ كلَّهُ. وفي الأوَّلِ خاطبَ رسولَ اللهِ ﷺ كأنهُ يقولُ على الجَمْعِ بينَهما في الخطابِ: أرسَلْناكَ رسولاً شاهداً لِتُؤمِنوا أنتمْ باللهِ ورسولِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الإضمارِ؛ أي ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وقُلْ لهمْ: إنما أُرسِلْتُ ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] معناهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ قُلْ لهمْ ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ. وقُرِئَ بالياءِ[8]، وهي ظاهرةٌ.

ثم الإيمانُ باللهِ تعالى، هو أنْ يُشْهَدَ لهُ بالوَحْدانيَّةِ والألوهيَّةِ وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ في كلِّ شيءٍ وكلِّ أمْرٍ.

والإيمانُ برسولِهِ، هو أنْ يُشْهَدَ لهُ بالصدقِ في كلِّ أمْرٍ وبالعدالةِ لهُ في ما يَحْكُمُ، ويَقْضي، /٥١٧ ـ ب/ ونُصَدِّقُهُ في كلِّ ما يقولُهُ، ونُجيبُهُ في كلِّ ما يَدْعو إليهِ، ونُطيعُهُ في كلِّ أمْرٍ يأمُرُ ربُّهُ، ويَنْهى عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: أي تَنْصُروهُ، وتُعينوهُ، وقالَ بعضُهُمْ: أي تُطيعوهُ، وقالَ بعضُهُمْ: أي تُعَظِّموهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ومن ذكرنا. (٦) في الأصل وم: ومرتكبها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٢٠٢.

فَمَنْ يقولُ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ ليسَ على النَّصرِ والإعانةِ، ولكنْ على التعظيمِ أو على الطاعةِ استَدَلَّ بِما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ذَكَرَ التَّعزيرَ، وعَطَفَ النَّصرَ عليهِ، والمَعْطوفُ غيرُ المَعْطوفِ عليهِ، فَدَلَّ أنهُ غَيرُ النَّصرِ، ولكنْ جائزٌ أنْ يُذكَرَ الشيءُ الواحدُ بِلَفظَينِ مُختلفَينِ، ومَعْناهما واحدٌ على التأكيدِ.

وكذلكَ مَنْ يقولُ بالتعظيمِ فيقولُ: أمَرَهُمْ بِتَعظيمِهِ في الحَرْفَينِ؛ أعني قولَهُ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وذلك جائزٌ في الكلامِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ التَّعزيرُ، هو الطاعةُ لهُ، والتَّوقيرُ، هو التَّعظيمُ، وفي الطاعةِ لهُ تعظيمُهُ، واللهُ أعلَمُ. ومَنْ قالَ بالنَّصرِ والمَعونةِ [فَمُرادُهُ][1] في التَّبليغِ بِتَبليغِ الرسالةِ إلى الخَلْقِ والدَّفعِ عنهُ والذَّبِّ والتَّعظيمِ لهُ في قلبِهِ وجميعِ جَوارِحِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. والتسبيحُ: أجْمَعَ أهلُ التأويلِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ راجعٌ إلى اللهِ تعالى، وكذلكَ ذُكِرَ في بعضِ القراءاتِ: ويُسَبِّحونَ اللهَ بُكْرَةً وأصيلاً؛ والتسبيحُ هو التَّنزيهُ في الأفعالِ والأقوالِ.

فجائزٌ نسبةُ ذلكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ كانَ بَريءَ العيوبِ في أفعالِهِ وأقوالِهِ، لا يدخُلُ في أفعالِهِ وأقوالِهِ عيبٌ.

وإنْ كانَ هو تنزيهاً عنِ الحَدَثِيَّةِ والفَناءِ وآفاتِ كلٍّ في نفسِهِ فذلكَ لا يجوزُ إضافتُهُ ونِسبَتُهُ إلى اللهِ ﷻ فأمّا غَيرُهُ فيجوزُ[2] إضافةُ ذلكَ إليهِ.

وأصلُهُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنْ صَرْفِهِ إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ صَرَفَ أهلُ التأويلِ البُكْرَةَ إلى صلاةِ الفجرِ والأصيلَ إلى صلاةِ المَغْربِ والعِشاءِ.

ولكنْ جائزٌ أنْ تكونَ البُكْرَةُ كِنايةً عنِ النهارِ والأصيلُ كِنايةً وعِبارةً عنِ الليلِ؛ فكأنهُ يقولُ: سَبِّحوا بالليلِ والنهارِ جملةً في كلِّ وقتٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أجْمَعَ أهلُ التأويلِ أو عامَّتُهُمْ على أنَّ المُبايَعَةَ المَذكورةَ في هذهِ الآيةِ، هي البَيعةُ التي كانتْ بالحُدَيبيَةِ؛ بايَعوهُ على ألّا يَفِرّوا إذا لَقُوا عَدُوّاً.

قالَ مَعْقِلُ بْنُ يَسارٍ: لقد رَأيتُني يومَ الشجرةِ والنَّبيُّ ﷺ يُبايِعُ الناسَ، وأنا رافعٌ غُصْناً منْ أغصانِها عنْ رأسِهِ، ونحنُ أربعَ عَشَرةَ مِئةً، أي ألفٌ وأربعُ مِئةِ نَفَرٍ. وقالَ: لم نُبايِعْهُ على الموتِ، ولكنْ بايَعْناهُ على ألّا نَفِرَّ.

وجائزٌ أنْ تكونَ المُبايَعةُ على ألّا يَفِرّوا كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ [الأحزاب: ١٥].

والمُبايَعةُ هي المُعاهَدَةُ. ألا تَرى أنهُ قالَ في الآيةِ[3]: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾؟ ذَكَرَ في أوّلِ الآيةِ المُبايَعَةَ وفي آخِرِها المُعاهدةَ لِيُعلَمَ أنَّ المُبايَعةَ والمُعاهدةَ سَواءٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إضافةُ مُبايَعَتِهِمْ رسولَهُ إلى نفسِهِ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لِما بأمْرِهِ يُبايِعونَهُ.

[والثاني:][4] ذَكَرَ، ونَسَبَ [المُبايَعةَ][5] إلى نفسِهِ لِعظيمِ قَدْرِهِ وجَليلِ مَنْزِلَتِهِ عندَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَدُ اللهِ في جَزاءِ المُبايَعَةِ فوقَ أيديهِمْ في المُبايَعَةِ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي يَدُ اللهِ في الجَزاءِ إذا وَفَوا بالعَهْدِ فوقَ أيديهِمْ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لا يجوز. (٣) في الأصل وم: آية أخرى. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم.

لأنهُ لمّا بايَعوا رسولَ اللهِ ﷺ كانَتْ لهمْ عندَهُ يَدٌ، فَيُخبِرُ أنّ جزاءَ اللهِ الذي[1] يَجْزيهمْ بوفاءِ [تلكَ اليدِ][2] المُبايَعةُ فوقَ أيديهمُ التي لهمْ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ يَدِ اللهِ وإضافَتِها إليهِ، يُريدُ[3] بها رسولَ اللهِ ﷺ كأنهُ يقولُ: يَدُ رسولِ اللهِ ﷺ بِما بايَعوهُ كقولِهِ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية [الحجرات: ١٧] فَيُخبِرُ أنَّ يَدَ رسولِ اللهِ ﷺ فوقَ أيديكُمْ عندَهُ بالمُبايَعَةِ التي بايَعْتُم، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنَّ يَدَ رسولِ اللهِ ﷺ بالمَدِّ والبَسْطِ بالمُبايَعةِ فوقَ أيديهِمْ، أي توفيقُ اللهِ إيّاكُمْ ومَعونَتُهُ على مُبايَعَتِكُمْ رسولَهُ فَوقُ وخيرٌ مِنْ وفائِكُمْ بِبيعَتِهِ وعَهْدِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي يَدُ اللهِ في النَّصْرِ لرسولِهِ فَوقَ أيديهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] حقيقةُ النَّصْرِ إنما تكونُ باللهِ تعالى، ولا قوةَ إلّا باللهِ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: كقولِهِ تعالى جُمْلَةً: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] فَعَلَى ذلكَ مَنْ نكثَ فإنما لهُ جَزاءُ نَكْثِهِ، وهيَ النارُ، ومنْ أوفَى فَلَهُ ما ذُكِرَ مِنْ جَزاءِ الوَفاءِ.

والثاني: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي مَنْ نَكَثَ فَعَلَيهِ ضَرَرُ نَكْثِهِ، وإليهِ يَرْجِعُ ذلكَ الضَّرَرُ لا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهمْ أجمعينَ، لأنَّ اللهَ ﷻ وَعَدَ النَّصْرَ لهُ والظَّفَرَ بأولئكَ. فَمَنْ نكَثَ فإنما يُرْجِعُ ضَرَرَ نَكْثِهِ إليهِ؛ إذِ اللهُ تعالى يَفي لِرسولِهِ ﷺ ما وَعَدَ مِنَ النَّصْرِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ سَمّاهُمْ مُخلَّفينَ، ولم يُخَلِّفْهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ ولا أصحابُهُ، ولكنَّ اللهَ ، تعالى، جَلَّ، وعَلا، خَلَّفَهُمْ عنْ ذلكَ بأنْ أحدَثَ فيهِمْ فِعْلَ التَّخَلُّفِ لِمَا عَلِمَ منهمْ ما كانَ مِنِ اختيارِهِمُ التَّخَلُّفَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦] أي مَنَعَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ المُخَلَّفينَ أنَّ اللهَ ﷻ خَلَّفَهُمْ عنْ ذلكَ، وهُمُ اكْتَسَبوا فِعْلَ التَّخَلُّفِ في أنفسِهِمْ. دلَّ أنَّ خالقَ أفعالِ العِبادِ، هو اللهُ تعالى، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى خَبَراً عنهمْ: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ هذا القولُ منهمْ قولُ اعْتِذارٍ وطَلَبُ العُذْرِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ وقولُهُمْ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ طَلَبوا منهُ الاِسْتِغْفارَ مَعَ إظهارِهِمُ العُذْرَ في التَّخَلُّفِ بقولِهِمْ: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ يقولونَ: وإنْ حَبَسَتْنا أموالُنا وأهلونا لم يَكُنْ لنا التَّخَلُّفُ عنكَ ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ولكنْ مَعَ هذا لم يَقْبَلْ عذرَهُمْ لأنهمْ كانوا لا يُحَقِّقونَ في طَلَبِهِمُ الاِسْتِغْفارَ منهُ لأنهمْ أهلُ نفاقٍ، لا يؤمنونَ برسالتِهِ ولا بالبَعْثِ كي تَنْفَعَهُمُ المَغْفِرَةُ في الآخِرَةِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الآية؟ [المنافقون: ٥] دلَّ هذا الفعلُ منهمْ على أنهمْ كانوا غَيرَ مُحقِّقينَ طَلَبَ الاِسْتِغْفارِ /٥١٨ ـ أ/ منهُ بقولِهِمْ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ حينَ[4] قالَ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يقولونَ بألسنتِهِمْ قولَهُمْ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ما ليسَ حقيقةَ ذلكَ.

ولا جائزٌ أنْ يُصْرَفَ قولُهُمْ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إلى قولِهِمْ: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [لأنهمْ كانوا][5] كاذبينَ في العذرِ، ولكنْ طَلَبوا الاِسْتِغْفارَ حقيقةً. لا يُقالُ هذا لأنهمْ كانوا صادقينَ في أنَّ أموالَهُمْ وأهليهِمْ[6] شَغَلَتْهُمْ عنْ ذلكَ، فلا يُمكِنُ صَرْفُ الآيةِ إلى ذلكَ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاِسْتِفْهامِ مِنَ اللهِ

---

(١) من م، في الأصل: التي. (٢) في الأصل وم: ذلك. (٣) من م، في الأصل: يؤيد. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) في الأصل وم: وأهلوهم.

تعالى يكونُ على الإيجابِ، فَيُنْظَرُ إنْ كانَ ذلكَ السؤالُ مِنْ مُسْتَفْهِمٍ كيفَ يُجابُ لهُ؟ فيكونُ مِنَ اللهِ تعالى على الإيجابِ لا أحَدَ يَمْلِكُ لكمْ نَفْعاً إنْ كانَ اللهُ أرادَ بكمْ ضَرّاً، ولا أحَدَ يَمْلِكُ لكمْ ضَرّاً إنْ كانَ اللهُ أرادَ بكمْ نَفْعاً؛ يُخْبِرُ أنكمْ إنْ تَخَلَّفْتُمْ لِحِفْظِ أموالِكُمْ وأهليكُمْ فإنَّ اللهَ تعالى أرادَ بكمْ ضَرّاً لا تَمْلِكونَ دفعَهُ عنْ أنفسِكُمْ، وإنْ [لم][1] تتخلّفوا، ولكنْ خرَجْتُمْ معهُ، فلا يَمْلِكُ أحدٌ الضَّرَرَ بكمْ، غَيرَ [أنكُمْ لا عُذْرَ لكمْ][2] في التّخلُّفِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

ثم أوعَدَهُمْ، فقالَ: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ أنفسَ المنافقينَ وصَنيعَهُمْ آيةً على رسالةِ رسولِهِ ﷺ في حقِّ المُنافقينَ حينَ كانَ يُطْلِعُ رسولَهُ على جميعِ ما أسَرُّوا في أنفسِهِمْ، وأضمَروا في قلوبِهِمْ لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ، جَلَّ، وعَلا، وجَعَلَ الآيةَ [لهُ][3] في حقِّ غَيرِهِمْ مِنَ الكَفَرةِ مِنْ غَيرِ صَنيعِهِمْ وأنفسِهِمْ حتى عَلِموا بذلكَ أنهُ باللهِ قَدَرَ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أيِ الهزيمةَ ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ظهوراً على عَدُوِّكُمْ وغنيمةً. يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخطابُ بهذا أهلَ الإيمانِ والوَعْظَ لهمْ بذلكَ، لأنَّ أهلَ النِّفاقِ كانوا لا يُصَدِّقونَ رسولَ اللهِ ﷺ ولا يَقْبَلونَ ما يقولُ مِنَ المَواعِظِ وغَيرِهِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ فإنْ قيلَ: ما الذي حَمَلَهُمْ على الظَّنِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ والمؤمنينَ[4] لا يَرجِعونَ إلى أهليهِمْ أبداً إذا كانَ ذلكَ في خُروجِهِمْ إلى الحُدَيبِيَةِ على ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ ذلكَ كانَ في حقِّ خروجِهِمْ إلى الحُدَيبِيَةِ، وكانَ خروجُهُمْ للحجِّ وقضاءِ المناسِكِ لا للقِتالِ والحربِ معهمْ حتى يَقَعَ عندَهُمْ أنهمْ لا يَرْجِعونَ، بل يَهْلِكونَ في ذلكَ، وأهلُ مكةَ لم يكونوا يَمْنَعونَ[5] أحداً مِنْ أهلِ الإيمانِ [مِنْ أنْ][6] يَدْخُلَ مكةَ للحجِّ وقضاءِ المناسِكِ؟

قيلَ: لأنَّ [أهلَ][7] النفاقِ كانوا قد كَتَبوا إلى أهلِ مكةَ، وأعْلَموهمْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ ﷺ خَرجوا إليكُمْ [لا][8] للحجِّ وزيارةِ البيتِ، فقالوا: إنّا لا نَدَعُهُمْ يَدْخُلونَ مكةَ، بل نُقاتِلُهُمْ، ونُحارِبُهُمْ، ولا نَتْرُكُهُمْ يَدْخُلونَها.

فإذا كانَ منهمْ ما ذَكَرْنا فجائزٌ أنْ يكونوا ظَنُّوا ما ذَكَرْنا مِنْ ظَنِّهِمْ. فأمّا على غَيرِ ذلكَ فلا يُحْتَمَلُ معَ اجْتِماعِ أهلِ التأويلِ على أنَّ ذلكَ كانَ في أمْرِ الحُدَيبِيَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ظَنَنْتُمْ برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ ﷺ ظَنَّ السَّوءِ أنهمْ لا يَرْجِعونَ إلى أهليهِمْ.

ويَحْتَمِلُ: ظَنَنْتُمْ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ أنهُ لا يَنْصُرُ رسولَهُ، ولا يُعينُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بُورًا﴾ أي هَلْكَى، أي تصيرونَ قوماً هَلْكَى؛ فيهِ دليلٌ أنهمْ يَموتونَ على نِفاقِهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي فاسدينَ[9] لا خَيرَ فيكُمْ[10]. وكذلكَ يقولُ ابْنُ عباسٍ ﷺ: إنَّ البُورَ هو الفاسِدُ. وقالَ بعضُهُمْ: البُورُ في كلامِ العربِ: لا شيءَ، وقال القُتَبيُّ: البُورُ الهَلْكَى.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ فهو ظاهرٌ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

أحَدُها: وللهِ خَزائنُ السمواتِ والأرضِ، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ كانَ يَقْرَؤُهُ: وللهِ خَزائنُ السمواتِ والأرضِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنه لا عذر له. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: والمؤمنون. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يتبعون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فاسدون. (١٠) في الأصل وم: فيهم.

والثاني: ولله مُلْكُ كلِّ مُلْكٍ في السمواتِ والأرضِ، أي لله حقيقةُ مُلْكِ كلِّ مُلْكٍ في السمواتِ والأرضِ.

والثالثُ: ولله ولايةُ أهلِ السمواتِ والأرضِ وسُلْطانُهُ، أي الوِلايةُ والسلطانُ لهُ على أهلِ السمواتِ والأرضِ. ثم يَحتَمِلُ ذِكْرُهُ هذا وجهَين:

أحدُهما: يُخبِرُ أنهُ في ما يأمُرُهُمْ، وينهاهُمْ، ويَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، بما يأمُرُهُمْ [وينهاهُمْ، ويَمْتَحِنُهُمْ][١] لا لِحاجةِ نفسِهِ ولا لِمَنْفَعةٍ لهُ؛ إذْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، ولا يَحْتَمِلُ مَنْ لهُ مُلْكُ ما ذَكَرَ [أنْ تَقَعَ لهُ الحاجةُ إلى ما ذَكَرَ][٢] أوِ المَنْفَعةُ، لأنهُ غنيٌّ بذاتِهِ، ولكنْ يأمُرُهُمْ، وينهاهُمْ، ويَمْتَحِنُهُمْ بما امْتَحَنَ لِحاجَتِهِمْ ولِمَنْفَعتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يذكُرُ هذا لِيَقطعوا الرجاءَ عما في أيدي الخَلْقِ، ويَصْرِفوا الطَّمَعَ والرجاءَ إلى اللهِ تعالى؛ ومنهُ يَرَونَ كلَّ نَفْعٍ وخَيرٍ، يَصِلُ إليهِمْ، ومنهُ يَخافونَ في كلِّ أمرٍ، فيهِ خوفٌ، لا يَخافونَ سِواهُ، ولا يَطْمَعونَ غيرَهُ، وهو ما أخبَرَ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ولا قُوّةَ إلا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: هو يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ، وهو المالكُ لذلكَ، وهو يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ، أي ليسَ يَمْلِكُ أحدٌ مَغْفِرَةَ ذنوبِ أحدٍ سواهُ ولا تَعذيبَهُ، إنما ذلكَ منهُ، ولهُ مُلْكُ ذلكَ، ولهُ الفِعْلُ دونَ خَلْقِهِ، لِيَصْرِفوا طَمَعَهُمْ ورجاءَهُمْ في كلِّ أمرٍ [إلى اللهِ تعالى، ومنهُ يخافوا][٣] في كلِّ أمرٍ][٤] فيهِ خوفٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي وكانَ اللهُ، ولم[٥] يزلْ، غفوراً رحيماً، لا أنهُ حَدَثَ ذلكَ لهُ بِخَلْقِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ مِنَ الحُدَيبيَةِ؛ خَلَّفَهُمُ اللهُ ﷻ لِما عَلِمَ منهمْ مِنِ اختيارِ التَّخَلُّفِ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ الآية؛ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا صالَحَ أهلَ مكةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، ورَجَعَ، واشْتَدَّ[٦] ذلكَ على أصحابِهِ ﷺ لِما كانوا طَمِعوا دخولَ مكةَ والزيارةَ لِبيتِهِ، بَشَّرَهُ ربُّهُ بفتحِ خَيبَرَ والغَنيمةِ لهمْ.

فعندَ ذلكَ لمّا انْتَهَى إلى المُنافقينَ المُخَلَّفينَ عنِ الحُدَيبيَةِ تلكَ البِشارةُ لهُ بفتحِ خَيبَرَ عليهمْ قالوا: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ فَنُصيبُ مَعَكُمُ الغَنائمَ. وإنما رَغِبوا في اتِّباعِهِمْ لمّا عَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَصْدُقُ في ما يُخبِرُ مِنَ البِشارةِ لهُ والفتحِ والغنيمةِ لهُ بلا مَؤُنَةِ قِتالٍ ولا حَرْبٍ تَقَعُ هنالكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ البِشارةَ بِفَتْحِ خَيبَرَ وجَعْلِهِ غنيمةً لِمَنْ شَهِدَ الحُدَيبيَةَ. فأمّا مَنْ تَخَلَّفَ عنها فليسَ لهُ في ذلكَ مِنْ نصيبٍ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهمْ يُريدونَ أنْ يُبَدِّلوا ما وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنينَ الذينَ شَهِدوا الحُدَيبيَةَ فتحَ خَيبَرَ خاصةً بأنْ يُشْرِكوهمْ فيها. وفي ذلكَ تبديلُ ما وَعَدَ؛ إذْ لم يَشْهَدوا هُمُ الحُدَيبيَةَ، والبِشارةُ بالفَتْحِ لِمَنْ شَهِدَها. فأمّا مَنْ تَخَلَّفَ عنها فلا.

وقالَ /٥١٨ ـ ب/ بعضُهُمْ: تَبديلُ كلامِ اللهِ ما قالَ في سورةِ براءةَ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] فلمّا سألوا الخُروجَ إلى خَيبَرَ والاتِّباعَ لهمْ، وقد نَهاهُمْ عنْ [سؤالِهِمْ][٧] الخُروجَ معهمْ أبداً [كانوا][٨] يُريدونَ أنْ يُبَدِّلوا ذلكَ النَّهْيَ الذي نُهوا في سورةِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾.

فَيَحتَمِلُ الأمْرَينِ جميعاً. كذا ذَكَرَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، وعامّةُ أهلِ التأويلِ.

على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ نَزَلَ في غَزْوَةِ تبوكَ، وإنها بَعْدَ خَيبَرَ. فلم يَكُنْ خروجُهُمْ مع رسولِ اللهِ ﷺ لِخَيبَرَ تَبديلَ النَّهْيِ الذي نُهوا عنِ الخُروجِ معهُ.

---

(١) في الأصل وم: وينهى ويمتحن. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في م: يخافون. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

لكنْ كأنهُ لم يَثْبُتْ عندَهُ نُزولُ الآيةِ في غزوةِ تبوكَ أو وَقَعَ الخطابُ مِنَ الذينَ تَلَقّنوا منهُ، وكَتَبوهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ هو البِشارةُ التي ذَكَرَ لِمَنْ شَهِدَ الحُدَيبيَّةَ. وأمّا مَنْ لم يَشْهَدْ فلا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما ذَكَرَ في سورةِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [الآية: ٨٣] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كانوا يَقيسونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ بأنفسِهِمْ، لأنهمْ إذا أصابوا شيئاً؛ أعني المُنافقينَ، كانوا يَحْسُدونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ وأرادوا ألّا يكونَ[1] لهمْ في ذلكَ نصيبٌ ولا حَظٌّ حَسَداً منهمْ لهمْ. فلما مَنَعَهُمُ المؤمنونَ عنِ الخروجِ إلى خَيبَرَ، وقالوا: إنَّ اللهَ نَهاكُمْ عنْ أنْ تَخْرُجوا معنا، وقد بُشِّروا بالفَتحِ، قالوا عندَ ذلكَ: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ في إصابةِ تلكَ الغَنائِمِ؛ لم يَنْهَنا اللهُ تعالى عنِ الخروجِ معكمْ؛ قاسوا المؤمنينَ بأنفسِهِمْ ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

[قالَ بعضُهُمْ][2] القصةُ: هي الِاستِدْلالُ بِما عَرَفوا، وشَهِدوهُ، على الذي لم يَعْلَموهُ، وغابَ عنهمْ؛ يُخْبِرُ أنَّ هؤلاءِ لا يَعْرِفونَ الِاستِدْلالَ.

وقالَ بعضُهُمْ: القصةُ: هي معرفةُ الشيءِ بنظيرِهِ الدالِّ على غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ وهُمُ الذينَ تَخلَّفوا عنِ الحُدَيبيَّةِ ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على قولِ ابنِ عباسٍ ﷺ ومقاتلٍ: هؤلاءِ[3] هُمْ بَنو حَنيفةَ، وفيهمْ مُسَيلَمةُ الحَنَفِيُّ الكذّابُ، اسْتَقَرَّتْ إليهمُ الأعرابُ بَعْدَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَدَعا[4] أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ إلى قتالِهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ: هُمْ أهلُ فارسَ والرومِ. وقالَ قَتادةُ وغَيرُهُ: دُعُوا إلى قِتالِ هَوازِنَ وثَقيفٍ يومَ حُنَينٍ.

ويُروى عنْ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ ﷺ [أنهُ][5] يقولُ: دُعُوا يومَ حُنَينٍ إلى هَوازِنَ وثَقيفٍ. فمنهمْ مَنْ أحْسَنَ الإجابةَ، ورَغِبَ في الجهادِ، ومنهمْ مَنْ أبَى.

لكنْ ما قالَ قَتادةُ غَيرُ مُحتَمَلٍ، لأنَّ قِتالَ هَوازِنَ وثَقيفٍ يومَ حُنَينٍ، وهو تَوَلّى ذلكَ، وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: : ٨٣] فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَدْعُوَ إلى قِتالِ هؤلاءِ، وهو تَوَلّى قتالَهُمْ، وقد قالَ اللهُ تعالى خَبَراً عنهُ ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣].

فإذا لم يُحْتَمَلْ هذا رَجَعَ التأويلُ إلى ما قالَ ابْنُ عباسٍ ومُقاتلٌ ﷺ: إنهمْ إنما دُعُوا إلى قِتالِ أهلِ اليَمامَةِ، وهمْ بَنو حَنيفةَ [دعا إلى قتالِهِمْ][6] أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ.

لكنْ لو كانَ ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ نزلَ في غزوةِ تبوكَ، وهي بعدَ حُنينٍ، فيكونُ ما قالَهُ قتادةُ مُحْتَمَلاً، واللهُ أعلمُ.

[ويَحتَمِلُ][7] أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] في قومٍ خاصٍّ، وهو ما قالَ ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٦] أي أهلُ الغِنَى والثروةِ. إنما قالَ ذلك لِأولي الطَّولِ الذينَ اسْتأذَنوهُ القعودَ مع القاعدينَ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في أهلِ فارسَ والرومِ على ما قالَ الحَسَنُ، وذلكَ [الفَتْحُ إنما كانَ][8] في زَمنِ عُمَرَ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ مَنْ قَرأها بالألفِ[9] فيكونُ تأويلُهُ: تقاتِلونَهُمْ حتى يُسْلِموا.

---

(١) في الأصل وم: يكونوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهؤلاء. (٤) في الأصل وم: فدعاهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: دعاهم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: إنما فتح. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٢٠٦.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي إنْ تُطيعوا في ما دُعيتُم إلى الجهادِ ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا﴾ ذَكَرَ أنهُ يُؤتيهمْ أجراً حَسَناً لأنَّ توبَتَهُمْ تكونُ في ما كانَ كُفرُهُمْ. وكانَ نِفاقُهُمْ إنما ظَهَرَ بِتَخلُّفِهِمْ عنِ الجِهادِ. فَعَلَى ذلكَ تكونُ توبَتُهُمْ في تحقيقِ الجهادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ في ما دُعيتُمْ إليهِ ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عنِ الحُدَيبِيَةِ وغيرِهِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الآية ١٧ ثم عَذَرَ أهلَ العذرِ منهمْ بقولِهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ كما عَذَرَ أهلَ العُذرِ مِنَ المؤمنينَ بقولِهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ الآية [التوبة: ٩١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنهم إذا تَوَلّوا عادوا إلى ما كانوا.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِما عَزَموا مِنَ الوفاءِ على ما بايَعوا رسولَ اللهِ ﷺ والتَّصديقِ لِذلكَ والتَّحقيقِ لِما عاهدوا مِنَ الوفاءِ. لِذلكَ أخبَرَ اللهُ أنْ قد ﷺ لِذلكَ.

فنحنُ نَستَدِلُّ بِهِ على تَصديقِ ذلكَ وتَحقيقِهِ، وإنْ لم يُخبِرْنا اللهُ تعالى أنهمْ قد عَزَموا على ذلكَ. فيجوزُ لنا أنْ نَشهَدَ أنهمْ قد عَزَموا على الوفاءِ لِذلكَ والتَّصديقِ لهُ.

وقد يكونُ مِنَ الاِستِدلالِ ما تكونُ الشهادةُ لهُ بالحقِّ والصدقِ إذا كانَ في الدلالةِ مِثْلُ ما ذَكَرْنا، اللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا: عَلِمَ ما في قلوبِهِمْ مِنَ العَزْمِ على الوفاءِ والتَّصديقِ لِما أعطَوا بأيديهِمْ مِنْ أنفسِهِمْ.

والثاني: عَلِمَ ما في قلوبِهِمْ مِنَ الخوفِ والخَشيَةِ. وذلكَ يَتَوَجَّهُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ خَشُوا ألّا يَتَهيَّأَ لهمُ القيامُ لأهلِ مكةَ لأنهمْ كانوا مُسْتَعِدِّينَ للحربِ والقِتالِ، وهُمْ كانوا خَرَجوا لِقضاءِ المناسِكِ وزيارةِ البيتِ؛ خَشُوا ألّا يقوموا لهمْ، فلم يَفُوا ما عاهدوا.

والثاني: خَشُوا ألّا يَقْدِروا على وفاءِ ما بايَعوا، وأعطَوا، لأنَّ في ذلكَ مُناصَبَةَ جميعِ أهلِ الأديانِ والمذاهِبِ [العِداءَ][1] واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: عَلِمَ ما في قلوبِهِمْ مِنَ الكراهةِ التي يَذْكُرُها أهلُ التأويلِ. لكنَّ تلكَ الكراهةَ كراهةُ الطبعِ لا كراهةُ الاِختيارِ لأنهمْ طَمِعوا الوصولَ إلى البيتِ، ورَجَوا دخولَها. فلمّا جَرَى الصلحُ بَينَهُمْ على ألّا يَدخُلوا عامَهُمْ ذلكَ، فانْصَرَفوا. فاشْتَدَّ ذلكَ عليهمْ، فكَرِهوا ذلكَ كراهَةَ[2] الطَّبْعِ لا كراهةَ الاِختيارِ. وقد يَكْرَهُ طَبْعُ الإنسانِ شيئاً، والخِيارُ غَيرُهُ كقولِهِ ﷻ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] وكقولِ يوسفَ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [الآية: ٣٣] مَحَبَّةَ الاِختيارِ لا مَحَبَّةَ الطَّبْعِ إلى ما يَدْعونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ /٥١٩ ـ أ/ أي أنْزَلَ عليهمْ ما يَسكُنُ بِهِ قلوبُهُمْ لِما عَلِمَ تحقيقَ الوفاءِ لِمّا بايَعوا رسولَ اللهِ ﷺ وصِدْقَ ما أعطَوا مِنْ أنفسِهِمْ ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ فكانَ ما كانوا يَرْجونَ، ويَطْمَعونَ، مِنْ دخولِ مكةَ وما كَرِهَتْ أنفسُهُمْ مِنَ الرجوعِ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتحُ مكةَ، أو فَتْحُ خَيبَرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٩ ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ اختُلِفَ فيهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: لكن.

منهمْ مَنْ صَرَفَ الفَتْحَ القَرِيبَ المَذْكورَ في الآيةِ إلى فَتْحِ خَيْبَرَ وإلى مَغانِمِ خَيْبَرَ حينَ بُشِّروا بالحُدَيبيَةِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ وجَعْلِ المَغانِمِ لهمْ مكانَ ما مُنِعوا مِنْ دخولِ مكةَ، وحِيلَ بَيْنَهُمْ وبينَ ما قَصدوا في الطَريقِ بَعدَ مُنْصَرَفِهِمْ مِنَ الحُدَيبيَةِ على ما ذُكِرَ في القصةِ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الفَتْحَ إلى مكةَ، لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ بُشِّروا في الطريقِ بَعْدَ انْصِرافِهِمْ مِنَ الحُدَيبيَةِ بفتحِ مكةَ، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ على هذا التأويلِ بِمَعْنَى: يَفْعَلُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] كذلكَ يَعْني: يقولُ لهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ على هذا يَنصرفُ إلى غَيرِهِ مِنَ المَغانِمِ لأنهُ لم يكنْ بمكةَ غنائمُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتوحُ كلُّها التي كانَتْ لرسولِ اللهِ ﷺ ولأُمَّتِهِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾.

وجائزٌ أنْ تكونَ بالكَفَرَةِ جملةً، أي لو قاتَلوكُمْ لَوَلَّوُا الأدبارَ، واللهُ أعلَمُ [وذلكَ

الآيتان ٢١ و٢٢ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾][1].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ﴾ ما سَنَّ في كلِّ أُمَّةٍ مِنْ هلاكٍ، لم يَجْعَلْ مِنْ ذلكَ الهلاكِ في غَيرِها مِنَ الأُمَمِ نَحْوَ ما جَعَلَ هلاكَ قومِ نوحٍ الغَرَقَ، وهلاكَ [قومِ][2] عادٍ بريحٍ صَرْصَرٍ [وهلاكَ قومِ][3] ثَمودَ بالطاغِيَةِ؛ جَعَلَ اللهُ تعالى هلاكَ كلِّ أُمَّةٍ بِنَوعٍ، لم يَجْعَلْ ذلكَ لِغَيرِها [﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾][4] يقولُ: لم يكنْ لذلكَ تبديلٌ إلى غَيرِهِ. وكذلكَ ما جَعَلَ لكلِّ أُمَّةٍ مِنْ هلاكٍ لم يُبَدِّلْ ذلكَ، ولم يَجْعَلْ ذلكَ في غَيرِهِ.

وجائزٌ[5] أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ﴾ أنْ جَعَلَ عاقبةَ الأمْرِ للمؤمنينَ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ مع كَثْرَةِ أولئكَ وقُوَّتِهِمْ وتأهُّبِهِمْ للقتالِ وضَعْفِ هؤلاءِ وقِلَّةِ عددِهِمْ، لأنَّ أولئكَ كانوا خَرَجوا لِلْقِتالِ والحربِ مُسْتَعِدِّينَ لذلكَ مُتَأَهِّبِينَ، وهؤلاءِ كانوا خَرَجوا لِقَضاءِ المناسِكِ وزيارةِ البيتِ، فَكَفَّ أيديَ أولئكَ مَعَ عِدَّتِهِمْ وقوتِهِمْ وكَثْرَتِهِمْ عنْ هؤلاءِ مع ضَعْفِهِمْ وقلَّةِ عددِهِمْ حتى أظْفَرَهُمْ بأولئكَ بِما ذُكِرَ في القصةِ أنَّ المُسْلِمينَ كانوا اشْتَغَلوا بالتَّرامي بالنَّبْلِ والحجارةِ حتى هَزَموهُمْ، وأدخلوهُمْ بَطْنَ مكةَ على ما ذَكَرَ، ثم أظْفَرَهُمْ بهِمْ، وكَفَّ أيديَ هؤلاءِ عنهمْ، وأتَمَّ[6] لهمُ الظَّفَرَ بهمْ لِيَعْلَمَ هؤلاءِ أنَّ التَّدْبيرَ في الأمْرِ إلى اللهِ تعالى دونَهُمْ، ولهُ السُّلْطانُ على الخَلْقِ جميعاً، لا سُلْطانَ لأحَدٍ في سُلْطانِهِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وأمّا ما ذُكِرَ مِنَ الامْتِنانِ فهو ما ذَكَرَ مِنْ كَفِّ أيدي أولئكَ عنْ هؤلاءِ عندَ شدةِ خوفِهِمْ منهمْ وفَزَعِهِمْ بما ذَكَرْنا مِنْ قوةِ أولئكَ وكَثْرَتِهِمْ وضَعْفِ هؤلاءِ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ حتى أظْفَرَهُمْ؛ يَذْكُرُ مِنَّتَهُ عليهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ [بذلكَ][7] شُكْرَهُ، ويَكُفَّ أيديَ هؤلاءِ عنهمْ.

فإنْ قيلَ: ما كَفُّ أيدي أولئكَ عنْ هؤلاءِ مِنَّةٌ ظاهرةٌ، ولكنْ آيةُ مَنِّهِ تكونُ في كَفِّ أيدي المؤمنينَ عنْ أولئكَ الكَفَرَةِ، فَيُقالُ: جائزٌ أنْ يكونَ المَنُّ في كَفِّ أيدي المؤمنينَ عنْ أولئكَ الكَفَرَةِ لِيَسْتَأْدِيَ منهمْ شُكْرَهُ بذلكَ، وهو الإسلامُ، وللهِ تعالى على جميعِ خَلْقِهِ مِنَّةٌ لِيَسْتَأْدِيَ منهمْ شكراً على الكافِرِينَ والمُسْلِمِينَ جميعاً.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ المِنَّةُ في كَفِّ أيدي المؤمنينَ عنْ أولئكَ على المؤمنينَ أيضاً هي[8] ما ذَكَرَ على إثرِهِ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: ويتم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: هو.

مُؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ إنهُ لو لم يَكُفَّ أيدي المؤمنينَ عنهمْ حتى يَتِمَّ لهمُ الظَّفَرُ بهمْ، فَدَخَلُوا مكةَ، وهنالكَ مؤمنونَ، لأصابَهُمْ ما ذَكَرَ مِنَ المَعَرَّةِ وغَيرُهُ، فكانَ في كفِّ أيدي المؤمنِينَ عنْ أولئكَ مِنَّةٌ عظيمةٌ عليهمْ لِما بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ [مِنْ إصابةِ][1] مَنْ فيها مِنَ المؤمنِينَ مِنْ غَيرِ عِلْمٍ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ وهُمْ لم يكونوا في بَطْنِ مكةَ، إنما كانوا بالحُدَيبيَةِ، وبَينَها وبَينَ مكةَ أميالٌ، لكنْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أظْفَرَهُمْ بهِمْ، وقَهَرَهُمْ، وهَزَمَهُمْ، حتى أدْخَلَهُمْ بَطْنَ مكةَ على ما ذُكِرَ أنهمْ هَزَموهُمْ حتى أدخلوهُمْ في بُيوتاتِ مكةَ.

والثاني: ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ أي بِقُرْبِ مكةَ. وجائزٌ أنْ يُكنّيَ ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ أي بِقُرْبِها.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ أيِ الحَرَمِ، والحَرَمُ[2] كلُّهُ مكةُ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ لم يَزَلِ اللهُ تعالى عالماً بأعمالِهِمْ بَصيراً.

وفيهِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِهِمْ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ كَفَّ أيديَ هؤلاءِ عنْ أولئكَ وأيديَ أولئكَ عنْ هؤلاءِ، ثم قالَ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ [بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾][3] لِيُعلِمَ أنَّ لهُ في فِعْلِهِمْ صُنْعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي صَدّوهُمْ عمّا قَصَدوا، وهو الطَّوافُ بالبيتِ والزيارةُ لهُ؛ ذَكَرَ صَدَّهُمْ عنِ المَسْجِدِ الحَرامِ [لِما كانَ الذي قَصَدُهُ، هو في المَسْجِدِ الحرامِ، فإذا صَدّوهُمْ عنِ المَسْجِدِ الحرامِ][4] صَدُّوهُمْ عمّا فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ وقولُهُ: ﴿مَعۡكُوفًا﴾ أي مَحْبوساً، والعُكوفُ، هو الحَبْسُ، ومنهُ سُمّيَ العاكِفُ والمُعْتَكِفُ.

ثم قولُهُ: ﴿مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ مَحِلُّ دَمِ هَدْيِ المُتْعَةِ، هو مكةُ أو مِنًى. فأمّا الحَرَمُ نفسُهُ فليسَ، هو مَحِلَّهُ. فكأنهُ قالَ: وصَدّوا الهَدْيَ عنْ أنْ يَبْلُغَ مَحِلَّ الذي جُعِلَ لِهَدْيِ المُتْعَةِ، وهو مِنًى أو مكةُ، لأنهُ ذُكِرَ في الخَبَرِ أنهُ كانَ ﷺ مُعْتَمِراً، وذُكِرَ أنهُ كانَ مُتَمَتِّعاً.

وفيهِ أنَّ دمَ المُتْعَةِ إنْ مُنِعَ عنْ مَحِلِّهِ سَقَطَ، وخَرَجَ عنْ حُكْمِ المُتْعَةِ، ويعودُ إلى مُلْكِهِ، ولهُ أنْ يَصْرِفَهُ إلى ما شاءَ.

ألا تَرَى أنَّ النَّبيَّ ﷺ [نَحَرَ][5] تلكَ البُدْنَ التي ساقَها عنِ الإحصارِ في الحَرَمِ؟ دَلَّ أنَّ هَدْيَ المُتْعَةِ إذا مُنِعَ عنِ المَحِلِّ سَقَطَ، وخَرَجَ عنْ حُكْمِ المُتْعَةِ. وفيهِ أنَّ دَمَ الإحصارِ لا يجوزُ إراقَتُهُ إلّا في الحَرَمِ؛ إذِ الحُدَيبيَةُ تَجْمَعُ الحِلَّ والحَرَمَ جميعاً عندَنا، فإنما كانَ نَحَرَها في الحَرَمِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ أي تَقْتُلوهُمْ، وتُهْلِكوهُمْ ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي لولا ما فيها؛ أعني في مكةَ مِنْ رجالٍ مؤمنِينَ ونساءٍ مؤمناتٍ لأتَمَّ لكُمُ الظَّفَرَ بهِمْ، ودَخَلْتُمْ عليهِمْ، لكنْ مَنَعَكُمْ مِنْ دخولِكُمْ مكةَ لِما ذَكَرَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: قالَ بعضُهُمْ: لَزِمَكُمُ الدِّيَةُ بِقَتْلِهِمْ، وكذا رُوِيَ عنْ محمدِ بْنِ إسحاقَ، وقالَ بعضُهُمْ: الإثْمُ والذنبُ، أي يصيبُكُمْ منهمُ الإثْمُ بِقَتْلِكُمْ إياهُمْ، وهذا لا يُحْتَمَلُ لأنهمْ إذا قَتَلوهُمْ، وهُمْ لا يَعْلَمونَ، لا يَلْحَقُهُمُ الإثْمُ والذنبُ لأنَّ اللهَ تعالى وَضَعَ الإثْمَ عنّا في ما لا نَعْلَمُهُ، ولم يَضَعْ [عنا][6] طريقَ العِلْمِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٥].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو عالم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وعندنا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحدُهما: أي فَيُصيبكُمْ مِنَ الكَفَرَةِ وأهلِ النِّفاقِ ما يَسُوؤكُمْ بِقَتْلِكُمْ إياهُمْ مِنَ اللائمةِ والتَّعْيِيرِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ القِيلِ والقالِ؛ يقولونَ: إنهمْ قَتَلوا أصحابَهُمْ ومَنْ كان/ ٥١٩ ـ ب/ على دينِهِمْ مِنْ أهلِ الإسلامِ، فَيَجِدونَ بذلكَ سَبيلاً إلى ما ذَكَرْنا، فَيَسوؤُكُمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يُصيبُكُمُ الأسَفُ والحُزْنُ والندامةُ الدائمةُ بِقَتْلِكُمْ أهلَ الإيمانِ وأهلَ الإسلامِ إذا عَلِمْتُمْ أنكمْ قَتَلْتُمْ أصحابَكُمْ وأهلَ دينِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم المُخالفُ لنا تَعَلَّقَ بهذهِ الآيةِ في مسألَتَين:

إحداهُما: في مَنْ أسْلَمَ، ولم يهاجِرْ إلينا أنهُ تَجِبُ الدِّيَةُ في قتلِهِ لقولِهِ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ وهي غُرْمُ الدِّيَةِ.

والثانيةُ: هل يُباحُ الرَّمْيُ إلى حصونِ المُشركينَ إذا كانَ فيها أسارَى المسلمِينَ وأطفالُ المسلمِينَ، وإحراقُ الحصونِ، أو الرَّمْيُ إلى الكفارِ الذينَ تَتَرَّسُوا بأطفالِ المسلمِينَ.

قالَ أبو حَنيفةَ وأبو يوسفَ ومحمدٌ وزُفَرُ والثَّوريُّ: لا بأسَ بِرَمْيِ المُشرِكينَ، وإن كانَ فيهِمْ أسارَى المُسْلِمِينَ وأطفالُهُمْ، ولا بأسَ بأنْ يَحْرِقوا الحِصْنَ، ويَقْصِدوا بِهِ المُشْرِكينَ دونَ المسلمينَ، وكذلكَ إحراقُ سَفينةِ الكفارِ إذا كانَ فيها أسارَى المُسْلِمِينَ.

وقالَ مالكٌ: لا تُحْرَقُ سفينةُ الكُفّارِ إذا كانَ فيها أسارَى المسلمينَ. وقالَ الأوزاعيُّ: إذا تَتَرَّسَ الكفارُ بأطفالِ المسلمِينَ لم يُرْمَوا، ولا يُحْرَقُ الحِصْنُ، ولكنْ لا بأسَ بأنْ يُرْمَى الحِصْنُ بالمَنْجنيقِ ونَحْوِ ذلكَ، وقالَ الشافعيُّ: لا بأسَ بأنْ يُرْمَى الحِصْنُ، وفيهِ أسارَى وأطفالُ المسلمِينَ، ولم يَتَتَرَّسوا بهمْ. فَلَهُ قولانِ.

واحْتَجَّ هؤلاءِ: مَنْ عادَتُهُمْ أنهمْ كانوا يَعْبُدونَ ما يَهْوَونَ، ومالَتْ إليهِمْ أنفسُهُمْ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ وغَيرِها، ويَنْصُرونَ مَنْ عَبَدوها، ويدفَعونَ عنهمْ، فَيَذُبّونَ عنها.

الآية ٢٦ فجائزٌ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ هو نَصْرُهُمْ أولئكَ الأصنامَ وعُبّادَها. والذَّبُّ عنهمْ [حَمِيَّةَ منهمْ][1] حَمِيَّةَ الجاهليةِ، واللهُ أعلَمُ [لِقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ السَّكينةِ التي أخبَرَ أنهُ أنزَلَها على رسولِهِ ومَنْ ذُكِرَ، هو شيءٌ أنْزَلَهُ مِنَ السماءِ لُطْفاً منهُ عليهِمْ حتى سَكَنَتْ لذلكَ قلوبُهُمْ.

وجائزٌ أنْ تكونَ لا على حقيقةِ إنزالِ شيءٍ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، ولكنْ على الإنشاءِ والخَلْقِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ واللهُ أعلَمُ.

ثم السَّكينةُ تَحْتَمِلُ أسباباً، لَدَيها تَسْكُنُ قلوبُهُمْ وأنفسُهُمْ، والأسبابُ تَخْتَلِفُ، وتَحْتَمِلُ أشياءَ أُخَرَ سِوَى ذلكَ، وهو اللطفُ الذي جَعَلَ لهمْ، فَسَكَنَتْ قلوبُهُمْ بذلكَ اللطفِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ يَحْتَمِلُ هذا [وجوهاً]:

أحَدُها][3]: ألْزَمَهُمْ كلمةً، بها يَتَّقونَ النارَ.

[والثاني][4]: تَحْتَمِلُ كلمةُ التَّقْوَى كلمةَ الإخلاصِ وغَيرَها ما يَقيهِمُ النارَ، واللهُ أعلَمُ.

[والثالث][5] يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ إظهارَ كلمةِ التَّقْوَى حتى تَصيرَ ظاهرةً في الخَلْقِ أبداً إلى يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٤) في الأصل وم: ثم.
(٥) في الأصل وم: و.

وقالَ بعضُهُمْ: كلمةُ التَّقوى، هي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وذلكَ أنهُ لمّا كُتِبَ كتابُ الصلحِ في ما بَينَ أهلِ مكةَ وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ كُتِبَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فقالَ الكافرُ[1]: لا ندري ما الرحمنُ الرحيمُ، وتلكَ كلمةُ التَّقوى، واللهُ أعلَمُ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي بتلكَ الكلمةِ، وكانوا أهلاً لها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ كلمةُ الإخلاصِ ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ مِنَ الأُمَمِ السالفةِ ﴿وَأَهْلَهَا﴾ واللهُ أعلَمُ، أو كانوا أحقَّ بها في الإظهارِ في الخَلْقِ والقيامِ بذلكَ، أو كانوا أحقَّ بها في إلزامِها في أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ أي حَقَّقَ اللهُ ﴿رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ التي [أراهُ إياها][2] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالوفاءِ لذلكَ.

ويَحتمِلُ: أي صَيَّرَ النَّبِيَّ ﷺ صادقاً عندهمْ في ما أخبَرَهمْ أنهُ رأى، وجعَلَهُ صادقاً في ذلكَ. والأوَّلُ أشبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الأمْرِ أنِ ادْخُلوا المَسْجِدَ الحَرامَ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ خبَراً كَرُؤيا إبراهيمَ ﷺ حينَ[3] قالَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ﴾ ثم قالَ تعالى، جَلَّ، وعلا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]. دلَّ على أنَّ ما رَأى إبراهيمُ، صلواتُ اللهِ عليهِ، مِنَ الذبحِ، هو أُمِرَ بذلكَ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا فتَخرَّجُ الثُّنيا المَذكورةُ فيهِ على إثرِهِ كأنهُ يقولُ، ادخُلوا المَسْجِدَ الحرامَ مُحلِّقينَ ومُقصِّرينَ، إنْ شاءَ اللهُ تأمَنوا في دخولِكُمْ، وإذا لم تأمَنوا لم يَشأْ أنْ تَدخُلوهُ، واللهُ أعلمُ.

والثاني[4]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ على الوَعْدِ، فتَخرَّجُ الثُّنيا المذكورةُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على التَّبرُّكِ والتَّيمُّنِ كما يُتبَرَّكُ بِذِكْرِ اسمِهِ في فِعْلٍ يُفْعَلُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: على الأمْرِ لكلٍّ في نفسِهِ إذا أخبَرَ غَيرَهُ أنهُ يدخُلُ أنْ يقولَ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ كما يُؤمَرُ بالثُّنيا مَنْ أخبَرَ آخَرَ شيئاً أنهُ يَفْعَلُهُ لِقولِهِ تعالى ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ و٢٤].

ويَحتمِلُ أنْ تُذكَرَ الثُّنيا لأنَّ الوَعْدَ في الظاهِرِ، وإنْ كانَ لِلْجُملَةِ كقولِهِ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ بعضاً[5] منهمْ ليسَ الجُملَةَ لِاحتِمالِ أنْ يموتَ بعضٌ منهمْ ألا يكونَ هو مُراداً بالجُملَةِ، فَذِكْرُ الثُّنيا لئلا يكونَ خُلْفٌ في الوَعْدِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

ثم ما ذُكِرَ مِنْ رؤيا النَّبِيِّ ﷺ وأخبَرَ أنهُ حقَّقَها يَحتمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ دخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ على إثْرِهِ.

فإنْ كانَ ذلكَ فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ هو تفسيرٌ لتلكَ الرُّؤيا، وجائزٌ أنْ تكونَ الرُّؤيا في غَيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ ابْتِداءُ وَعْدٍ وأمْرٍ مِنَ اللهِ تعالى، وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يَحتمِلُ ما ذُكِرَ في هذهِ الآيةِ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ، ويَحتمِلُ غَيرَ هذا أيضاً، وقد أخبَرَ أنهُ حَقَّقَها، وصَدَّقَها، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ يُخبِرُ أنهمْ يدخُلونَ المَسْجِدَ الحَرامَ مُحلِّقينَ ومُقصِّرينَ. ثم يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: في ابْتِداءِ الإحرامِ يُخرَّجُ على التَّزيُّنِ على ما يَتزَيَّنُ المُحْرِمُ في ابْتِداءِ إحرامِهِ مِنْ نَحْوِ التَّطيُّبِ واللِّباسِ والحَلْقِ والتَّقصيرِ ونَحْوِ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ذلك اكتب كذا؟ (٢) في الأصل: أراها، في م: أراها إياه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ويحتمل.
(٥) في الأصل وم: بعض. (٦) في الأصل وم: حيث.

[والثاني][1]: أنهمْ يَدخُلونَ على التَّزيُّنِ في المَسْجِدِ الحَرامِ آمِنينَ مِنَ الكفارِ. فإنْ كانَ على ذلكَ فهو على الثيابِ والطِّيبِ وغَيرِ ذلكَ.

وذُكِرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ مُعْتَمِراً، فَسُمِّيَتْ تلكَ [العُمْرَةُ][2] عُمْرَةَ القَضاءِ عمّا[3] مُنِعَ في عامِ الحُدَيبِيَّةِ، وكانَ مُعْتَمِراً.

وإنْ كانَ حاجاً فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ بَعدَ رجوعِهِمْ مِنْ مِنًى إلى طوافِ الزيارةِ في ذلكَ الوقتِ، ويكونونَ مَحلِّقينَ ومُقَصِّرينَ، واللهُ أعلمُ.

فإنْ قيلَ: ما الحكمةُ في أمرِهِ رسولَهُ ﷺ بالخُروجِ للحجِّ عامَ الحُدَيبِيَّةِ على عِلْمٍ منهُ أنهُ لا يَصِلُ إلى مكةَ، وأنهُ يُحالُ بَيْنَهُ وبَينَ دخولِ مكةَ وقَضاءِ النُّسُكِ، إذْ لا يُحْمَلُ على ذلكَ إلّا بأمْرٍ مِنَ اللهِ تعالى، لَيْسَ هو كَغَيرِهِ مِنَ الناسِ: إنهمْ يَفْعَلونَ أفعالاً بِلا أمرٍ، ثم يُمْنَعونَ، أو يُنْهَونَ عنْ ذلكَ.

فأمّا رسولُ اللهِ ﷺ / ٥٢٠ ـ أ/ فلا يَفْعَلُ شيئاً إلّا عنْ أمْرٍ منهُ لهُ بذلكَ؟

قيلَ: يَحْتَمِلُ أنَّ ما أمَرَهُ بذلكَ معَ عِلْمِهِ بأنهمْ يُمْنَعونَ ذلكَ تعليماً منهُ رسولَهُ وأُمَّتَهُ حُكْمَ الإحصارِ أنَّ مَنْ حُصِرَ عنِ الحجِّ، ومُنِعَ عنْ دخولِ مكةَ لِقضاءِ النُّسُكِ ماذا يَلْزَمُهُ؟ وكيفَ[4] يَخْرُجُ منهُ؟ وللهِ تعالى أنْ يُعَلِّمَ خَلْقَهُ أحكامَ شَريعتِهِ، أو يُخْبِرَهُ بأمْرٍ يأمُرُهُمْ بذلكَ، أو يُخْبِرَ بِخَبَرِهِمْ، ومَرَّةً بِفِعْلِ النَّبيِّ ﷺ يَمْتَحِنُهُمْ بما شاءَ [إذْ][5] لهُ الحُكْمُ والأمْرُ في الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي تدخُلونَ مكةَ آمِنينَ، لا تَخافونَ عَدُوَّكُمْ ولا مَنْعَهُمْ إياكمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي عَلِمَ ما وَعَدَ لكمْ مِنْ فتحِ خَيْبَرَ وغَنائِمِهِ ما لم تَعْلَموا.

[والثاني][6]: أي عَلِمَ ما أرَى رسولَهُ ﷺ مِنَ الرُّؤيا وتحقيقِها ما لم تَعلَموا.

[والثالثُ][7]: أي عَلِمَ في رجوعِكُمْ عنِ الحُدَيبِيَّةِ أشياءَ لم تَعْلَموها أنتمْ مِنْ إظهارِ ما أظْهَرَ مِنْ نِفاقِ أهلِ النِّفاقِ فيهمْ وأهلِ الاضطِرابِ مِنَ المُحقِّقينَ والمُصَدِّقينَ وغَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يقولُ: إنَّ ذلكَ الدخولَ إلى سَنَةٍ، ولم تَعْلَموا أنتمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: جَعَلَ مِنْ قَبْلُ أنْ يَدخُلوا مكةَ فَتْحاً قريباً، أي عاجلاً فَتْحَ خَيْبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ اشْتَدَّ على الناسِ رجوعُهُمْ مِنَ الحُدَيبِيَّةِ [وصَدُّ المشركينَ إياهمْ][8] عمّا صَدُّوا بَعْدَما أخْبَرَهُمُ الرسولُ ﷺ أنهُ رَأى في المَنامِ أنهمْ يدخُلونَ على [ما][9] وَقَعَ عندَهُمْ أنَّ رُؤيا الأنبياءِ عليهم السلام حقٌّ كالوَحْيِ.

لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ مِنَ المسلمينَ، إنما يُحْتَمَلُ مِنَ المُنافقينَ على ذِكْرِ أنهمْ قالوا حينَ نَحَرَ[10] رسولُ اللهِ ﷺ بالحُدَيبِيَّةِ أنَّ [رُؤياهُ حقٌّ][11]، أو كلاماً نَحْوَهُ.

فَدَلَّ هذا [على أنهُ][12] يُحْتَمَلُ مِنَ المُنافقينَ، فأمّا مِنَ المُسلِمينَ فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَقَعَ في قلوبِهِمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ لِما لم يَكُنْ في الآيةِ بيانٌ ولا تَوقيتٌ أنهمْ متى [يَدْخلونَ][13].

ألا تَرَى أنَّ يوسفَ عليه السلام رَأى رُؤيا، وخرجَتْ تلكَ بعدَ أربعينَ سنةً أو أقلَّ أو أكثَرَ؟

---

(١) في الأصل وم: غير. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وثم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) في الأصل وم: وصدهم المشركون. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: يخبر. (١١) في الأصل وم: الرؤيا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَى ذلك لا يُحْتَمَلُ أنْ يَخفَى، إذا لم يكنْ في الوعدِ توقيتٌ، أنهُ يجوزُ أنْ يَتأخَّرَ أو يَتقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في ما ذَكَرْنا مِنْ أمْرِ الحُدَيبِيَةِ وصَدِّ المُشرِكينَ إياهُمْ عنْ دخولِ مكةَ والحَيلولةِ بَينَهُمْ وبَينَ ما قَصَدوا أنهُ لا يُحتَمَلُ أنْ يَخرُجَ رسولُ اللهِ ﷺ لِقَصْدِ الحجِّ وزيارةِ البيتِ معَ أصحابِهِ بِلا أمْرٍ منهُ بذلكَ لِما ذَكَرْنا.

ثم إنْ ثَبَتَ لهُ الأمْرُ بذلك على عِلْمٍ مِنَ اللهِ تعالى أنهُ لا يَصِلُ إلى تَحْصيلِ المأمورِ بهِ وما قَصَدوا مِنْ دخولِ مكةَ زائرينَ وما يكونُ مِنَ المُشرِكينَ مِنَ المَنْعِ لهمْ والصَّدِّ عنْ ذلك وما أرادوا تَحصيلَ ما أمَرَهُمْ بذلكَ، فهذا دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يأمُرُهُمْ، ويُريدُ غَيرَ الذي أمَرَ بهِ، وأنهُ يُريدُ ما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهمُ الذي أمَرَ بهِ، وهو كما أمَرَ إبراهيمَ ﷺ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، ثم كانَتْ حقيقةُ المُرادِ بِذَبْحِ الولَدِ ذَبْحَ الشاةِ أوِ الكَبْشِ. دَلَّ أنَّ الأمرَ بالشيءِ لا يَدُلُّ على أنهُ أرادَ الذي أمَرَ بهِ، بل يُريدُ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ مِنْ خِلافِهِ وضِدِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي أرسَلَهُ بالهُدَى مِنْ كلِّ ضَلالةٍ أو حَيرةٍ، أو أرسَلَهُ بالبَيانِ مِنْ كلِّ عَمًى وشُبْهَةٍ، وهو هذا القرآنُ الذي سَمَّاهُ مَرَّةً هُدًى [ومَرَّةً رحمةً ومَرَّةً نوراً][1] ونَحْوَ ذلكَ، وهو ما وَصَفَهُ ﷺ أنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بهِ فيكونُ ما ذَكَرَ هُدًى مِنْ كلِّ ضلالةٍ وحَيرَةٍ، ونوراً مِنْ كلِّ ظُلْمَةٍ وبَياناً مِنْ كلِّ عَمًى وشُبْهَةٍ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ هو نعتُ الدينِ، وهو الإسلامُ، وهو الدينُ الحقُّ، وسائرُ الأديانِ باطلَةٌ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي دينُ الإلهِ الذي هو الإلهُ الحقُّ، وهو الإلهُ المُستَحِقُّ الألوهيَّةَ، وغَيرُهُ مِنَ الأديانِ دينُ الشيطانِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الإظهارُ، هو الغَلَبةُ، ثم تُخَرَّجُ غَلَبَتُهُ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي غَلَبَ هذا الدينُ على الأديانِ كلِّها بالحُجَجِ والبراهينِ أنهُ حقٌّ وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ. وقد كانَ بِحَمْدِ اللهِ كما ذُكِرَ حتى عَرَفَ أهلُ الأديانِ كلِّها بالحُجَجِ والبراهينِ أنهُ حقٌّ إلّا مَنْ كابَرَ عقْلَهُ، وعانَدَ الحقَّ، أو غَفَلَ عنْ دلائِلِهِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

والثاني: يَغْلِبُ على أهلِ الأديانِ كلِّهِمْ حتى يَصيرَ أهلُ الإسلامِ ظاهِرينَ غالِبينَ مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ. ويَتَوارَى جميعُ أهلِ الأديانِ، ويَخْتَفُونَ. ولكنَّ ذلكَ في وَقْتٍ دونَ وَقْتٍ، وهو الوَقْتُ الذي ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، وهو في وَقْتِ خُروجِ عيسى ﷺ يَصيرُ أهلُ الأديانِ كلُّهُمْ أهلَ دينٍ واحدٍ، وهو الإسلامُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [أي يُظْهِرَ ما يَحتاجُ أهلُ هذا الدينِ كلِّهِ][2] وما يَحْدُثُ لهمْ مِنَ الحاجةِ على الأديانِ كلِّها بِما ضَمَّنَ في القرآنِ مَعانِيَ تَقَعُ الكِفايَةُ بها في الحوادثِ كلِّها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بأنَّ ما جاءَ بهِ سيدُنا محمدٌ ﷺ إنما[3] جاءَ بهِ مِنْ عندِ اللهِ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا فإنما تكونُ هذهِ الشهادةُ في الآخِرَةِ.

والثاني: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بما أنْشأَ لهُ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ شهادةً منهُ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ. وذلكَ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ على تَفْضيلِ محمدٍ ﷺ على غَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﷺ بهذهِ الآيةِ وبِغَيرِها مِنَ الآياتِ؛ يقولُ: لم يَذْكُرْ محمداً ﷺ في القرآنِ إلّا وخاطَبَهُ باسمِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

(١) في الأصل وم: ورحمة ونوراً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أي بما.

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤ و...] [وقولِهِ تعالى](١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١ و....] وقولِهِ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] ونَحْوَ ذلكَ، وسائرُ الأنبياءِ ﷺ إنما خاطَبَهُمْ بأسمائهِمُ التي جُعِلَتْ لهمْ خِلْقَةً دونَ خَتْمِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] و﴿يَٰلُوطُ﴾ [هود: ٨١] و﴿يَٰهَٰرُونُ﴾ [طه: ٩٢] و﴿يَٰهُودُ﴾ [هود: ٥٣] و﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ [الأعراف: ٧٧ و...].

جميعُ منْ ذَكَرَهُمْ [سَواءٌ، إنما ذَكَرَهُمْ](٢) بأسمائهِمُ الموضوعةِ في أصْلِ الخِلْقَةِ، ولم يُحَلَّوا، ولم يُسَمَّوا بأسماءِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ. ولِذلكَ الفَضْلِ جَعَلَ لهُ مِنْ بَيْنِ غيرِهِ(٣).

وكذلكَ يُحْتَجُّ لِتَفْضيلِ أُمَّتِهِ وأصحابِهِ على سائرِ الأُمَمِ حينَ(٤) خاطبَ هذهِ الأمَّةَ بأحْسَنِ الأسماءِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤ و...] وقالَ(٥): ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] وقالَ في سائرِ الأُمَمِ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦] ونَحْوَ ذلكَ.

ومِمّا يَدُلُّ على فَضيلَتِهِمْ قولُهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠] أي كُنْتُمْ خيرَ أمّةٍ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ بِما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. ما وَصَفَهُمْ، ونَعَتَهُمْ، يَرْجِعُ إلى أصحابِهِ على الاجْتِماعِ أي الكُلُّ موصوفونَ بهذهِ الصفاتِ التي ذَكَرَ في الآيةِ، وإنّها كلُّها فيهمْ، وهو كقولِهِ تعالى في صِفَتِهِمْ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أي أشداءُ على الكفارِ، رُحَماءُ على المؤمنينَ، وصَفَهُمْ بذلكَ جُمْلَةً. فَعَلَى ذلكَ ههنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ وَصْفَ بعضِهِمْ دونَ بَعْضٍ، أو وَصْفَ عامَّتِهِمْ. وأمّا الكُلُّ فلا.

وذلكَ نَحْوُ ما رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ / ٥٢٠ ـ ب/ مَسْعودٍ ﷺ حينَ(٦) قالَ: لولا قولُهُ تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢] ما كنّا نَعْرِفُ أحداً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ يريدُ الدنيا. فإنما يكونُ ذلكَ وَصْفَ أمثالِ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ.

ثم قد جَعَلَ اللهُ تعالى الرَّحمةَ والرَّأفةَ نَعْتاً للمؤمنينَ يَرْحَمُ(٧) بعضُهُمْ بَعْضاً. وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ](٨) قالَ: «لا تَدْخلوا الجنةَ حتى تراحَموا، قالوا: كلُّنا يَرْحَمُ وَلَدَهُ، فقالَ: ليس ذلكَ برَحمةٍ، إنما الرحمةُ أنْ يُحِبَّ المرءُ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ ولِوَلَدِهِ» [بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧]، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ورُوِيَ عنِ النُّعْمانِ بْنِ بشيرٍ [أنهُ](٩) قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «المؤمنونَ كلُّهُمْ كرجُلٍ واحدٍ إذا اشْتَكَى منهُ عُضْوٌ تَداعَى لهُ سائرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمّى» [البخاري ٦٠١١]

وليسَ في ما وَصَفَهُمْ بالشِّدَّةِ على الكُفّارِ على أنْ ليسَ لهمْ شَفَقَةٌ عليهمْ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لهُ شَفَقَةٌ عليهمْ حتى كادَتْ تَهْلِكُ نفسُهُ. لِذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقالَ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

فَعَلَى ذلك أصحابُهُ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ.

ثم القِتالُ المَوضوعُ في ما بَيْنَهُمْ رَحْمةٌ في الحقيقةِ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ، ليسَ برَحمةٍ، لأنهُ وُضِعَ لِيَضْطَرَّهُمْ ذلكَ إلى قَبولِ الإسلامِ والتوحيدِ، وفي قَبولِهِمْ ذلك نَجاتُهُمْ.

وأمّا وَصْفُهُمْ بالرَّحمةِ على المؤمنينَ ليسَ فيهِ أنهمْ ليسوا بأشِدّاءَ عليهمْ إذا عايَنوا منهمُ المَناكيرَ والفواحِشَ حتى يَتْرُكوا التَّغْييرَ عليهمْ، بلِ الشَّفَقَةُ لهمْ عليهمْ ما يُغَيِّرونَ عليهِمُ المُنْكَرَ؛ إذْ في ذلك نَجاتُهُمْ، وذلكَ لا يُزيلُ عنهمُ الرَّحمَةَ التي وَصَفَهُمْ بها، بلْ ذلكَ مِنَ الشَّفَقَةِ لهمْ والرَّحمةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: غيرهم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وقوله.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: يتراحم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

ثم نَعَتَهُمْ، وقالَ: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: وَصْفٌ لهمْ بالمُداوَمَةِ في إقامةِ الصَّلَواتِ بالجماعاتِ، وأرادَ بالرُّكوعِ والسُّجودِ الصلاةَ[1] على طريقِ الكِنايةِ.

والثاني: عِبارةٌ عنِ الخُضوعِ لربِّهِمْ والتواضُعِ للمؤمنينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيِ الجَنَّةَ، أي يَبْتَغونَ بكلِّ ما وصَفَهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ والشِّدَّةِ والرُّكوعِ والسُّجودِ الجَنَّةَ. والفَضْلُ يُذْكَرُ عبارةً عنِ الجَنَّةِ في القرآنِ في غَيرِ مَوضعٍ.

وجائزٌ ما ذَكَرَ مِنِ ابْتِغائِهِمُ الفَضْلَ مِنَ اللهِ تعالى ما يَتَعَيَّشونَ بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يَبْتَغونَ ما يَتَعَيَّشونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يَبْتَغونَ مَعيشةً يَتَقَوَّونَ بها على طاعةِ اللهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي رِضاهُ بهِمْ، وهو بِمَعْنَى الفَضْلِ أيضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ وغيرُهُ: أي أثَرُ الخُشوعِ والصلاةِ في وجوهِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الرجلَ إذا ما قامَ مِنَ الليلِ، فأطالَ القِيامَ والسَّهَرَ، تَبَيَّنَ أثَرُ سَهَرِ الليلِ في وجهِهِ إذا أصْبَحَ مِنَ الصُّفْرَةِ وتَغَيُّرِ اللونِ، وذلكَ[2] كلُّهُ في الدنيا.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ الحَسَنِ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ قوماً يَحْسَبُهُمُ الناسُ مَرْضَى، ولكنهمْ لَيسوا بِمَرْضَى» [ابن المبارك في الزهد ص٣١].

قالَ الحَسَنُ: أجْهَدَتْهُمُ العبادةُ. وقالَ قَتادَةُ: أثَرُ الصلاةِ في وجوهِهِمْ، وهو أثَرُ الترابِ. لكنَّ ذلكَ بعيدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يومَ القيامةِ، وهو بياضُ وجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجودِ والوُضوءِ. وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إني أعرِفُ أُمَّتي مِنْ بَينِ غَيرِها مِنَ الأُمَمِ، قيلَ: وكيفَ تَعْرِفُ يا رسولَ اللهِ أُمَّتَكَ مِنْ بَينِ الأُمَمِ؟ فقالَ: أُمَّتي غُرٌّ مُحَجَّلونَ يومَ القيامةِ مِنْ أثَرِ السُّجودِ، ولا يكونُ ذلك لأحدٍ مِنَ الأُمَمِ غَيرِهِمْ» [بنحوه أحمد ٤/ ١٨٩] واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على غَيرِ ذلكَ: يَجْعَلُ اللهُ تعالى في وجوهِهِمْ مِنْ آثارِ العبادةِ لهُ والجَهْدِ فيها مِنَ النورِ والحَلاوَةِ والحُسْنِ ما يُعْرَفونَ أنهمْ أهلُ عِبادةِ اللهِ تعالى وطاعتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ يَحتمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أي شَبَّهَهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ بالآحادِ والإفرادِ؛ فَهُمُ[3] المُختارونَ مِنْ بَينِ غيرِهِمُ الذينَ يُعَظِّمونَهُمُ الأتباعُ والملوكُ، ويُحَلُّونَهُمْ، فما بالُكُمْ لا تُعَظِّمونَ أنتمْ هؤلاءِ، ولا تَتَّبِعونَهُمْ كأولئكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي ذلكَ نَعْتُهُمْ وَوَصْفُهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ، أي على ذلكَ نُعِتوا، وَوُصِفوا، في التوراةِ والإنجيلِ، وقد عَرَفْتُمْ ذلكَ، فهلّا اتَّبَعْتُموهُمْ إذا نُعِتوا، وَوُصِفوا، في القرآنِ؟

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ مَقطوعٌ مَقصورٌ، وهو ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ ثم ابْتَدَأَ، فقالَ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ الآية. وهذا يَحْتَمِلُ، وَوَجْهٌ حَسَنٌ.

وعلى التأويلَينِ ما ذَكَرْنا مِنْ وَصْفِهِمْ كأنهُ في التوراةِ والإنجيلِ جميعاً، ثم نَعَتَهُمْ أيضاً بقولِهِ: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: وكذلك. (٣) في الأصل وم: منهم.

ثم ذَكَرَ نَعْتَ أصحابِهِ ﷺ ولم يَذْكُرْ نَعْتَ رسولِهِ ﷺ وإنما ذَكَرَ نَعْتَهُ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧] ذَكَرَ نَعْتَهُ وصِفَتَهُ في الآيةِ ﷺ ونَعَتَ أصحابَهُ ﷺ بهذهِ السورةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية دلالةُ الرسالةِ لأنهُ أخبرَ أنَّ نَعْتَهُمْ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ كما ذَكَرَ في القرآنِ.

ثم لم يَقُلْ أحدٌ مِن أهلِ الكتبِ المُتَقَدِّمةِ: أنْ ليسَ ذلكَ نَعْتَهُمْ أو شَبَهَهُمْ في تلكَ الكتبِ. ثَبَتَ أنهُ باللهِ عَرَفَ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ الآية شَبَّهَهُمْ بالزَّرعِ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ أحيَوا سَنَنَ الدِّينِ وشَرائِعَهُ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ بَعْدَ ما دَرَسَتْ، وانْقَطَعَ أثَرُها، لأنهُ لم يكُنْ في ما بَيْنَ عيسى ومحمدٍ ﷺ رسولٌ، فقد انْقَرَضَ ذلكَ، واندَرَسَ.

ثم جاءَ محمدٌ ﷺ بَعْدَ دُروسِ ذلكَ وانْقِراضِهِ كالزَّرعِ الذي يَخرُجُ وَحْدَهُ، وهو النَّبْتُ الواحدُ في أوّلِ ما يَخرُجُ، فأعانَهُ أصحابُهُ، وآزَروهُ، كانوا كالوالِيَةِ التي تَنْبُتُ حولَ الساقِ، تُوازِرُ الخَلْفَةَ والنَّبْتَ.

فأمّا ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ فقيلَ: هو محمدٌ ﷺ خَرَجَ وحدَهُ كما خَرَجَ أوّلُ النَّبْتِ وَحْدَهُ.

وأمّا /٥٢١ ـ أ/ الوالِيَةُ التي نَبَتَتْ حَوْلَ الشَّطْءِ، فاجْتَمَعَتْ، فَهُمُ المؤمنونَ، كانوا في قِلَّةٍ كما كانَ أوّلُ الزَّرعِ دقيقاً، ثم زادَ نَبْتُ الزرعِ، فَغَلُظَ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ كما آزَرَ المؤمنونَ بعضُهُمْ بَعضاً حتى اسْتَغْلَظوا، واسْتَوَوا على أمْرِهِمْ كما اسْتَغْلَظَ هذا الزرعُ، واسْتَوَى على سوقِهِ.

ثم اخْتَلَفوا في الشَّطْءِ: قالَ أبو عَوسَجَةَ: هو قَصَبُ الزَّرعِ، أي صارَ لهُ واسِطُ الزَّرعِ، أي صارَ [له][1] وَرَقٌ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي قَوّاهُ، ﴿سُوقِهِۦ﴾ جمعُ ساقٍ.

وقالَ أبو عُبَيدةَ: شَطْءُ الزَّرعِ: فِراخُهُ وصِغارُهُ؛ يُقالُ: قد أشْطَأَ الزَّرعُ، فهو مُشْطِئٌ إذا أفْرَخَ.

وقالَ الفراءُ: ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ سُنْبُلَهُ؛ تُنْبِتُ الحَبَّةُ عشراً وتِسعاً وثمانِيَ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي أعانَهُ، وقَوّاهُ ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي غَلُظَ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمعُ ساقٍ، ومنهُ يُقالُ: قامَ كذا على سوقِهِ، إنما يُرادُ بهِ تناهَى، وبَلَغَ الغايةَ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما أنَّ الزَّرعَ إذا قامَ على السُّوقِ فقدِ اسْتَحْكَمَ، فهذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لِنَبيِّهِ ﷺ أي خَرَجَ وَحْدَهُ، فأيَّدَهُ بأصحابِهِ، فَقَوِيَ، واشْتَدَّ، كما قَوَّى الطاقةَ مِنَ الزَّرعِ بما يُنْبِتُ منها حتى غَلُظَ، وعَظُمَتْ، واسْتَحْكَمَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ هو محمدٌ ﷺ، يُعجِبُ محمداً لِما رأى مِنْ أصحابِهِ والمؤمنِينَ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ذلكَ مِنَ الغَيْظِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ [هُمْ أصحابُ][2] الزَّرعِ إذا كَثُرَتْ جوانِبُهُ وَوالِياتُهُ، ونَبَتَتْ[3] ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي يَغيظَ ذلكَ سائِرَ الزَّرّاعينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: كما يُعْجِبُ الزُّرّاعَ حُسْنُ زَرْعِهِ حينَ يَسْتَوي[4] قائماً على ساقِهِ، فكذلكَ يَغيظُ الكُفّارَ كَثْرَةُ المؤمنينَ واجْتِماعُهُم.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الزُّرّاعُ؛ سُمّوا كُفّاراً لأنهمْ يَكْفُرونَ، أي يَسْتُرونَ البِذْرَ في الأرضِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: هو صاحب. (٣) في الأصل وم: وينبت. (٤) في الأصل وم: يستوي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِنْ بينِ غيرِهِمْ مِنَ الناسِ ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الباطِنيَّةِ والرَّوافِضِ. لَعَنَهُمُ اللهُ. لِقولِهِمْ: إنهمْ بَعْدَ وَفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ كَفَروا، وارْتَدّوا عنِ الإسلامِ جميعاً، أو كلاماً[1] نَحْوَهُ.

في الآيةِ رَدٌّ لِقولِهِمْ لأنهُ وَعَدَ لهمُ المَغْفِرَةَ وما ذَكَرَ مِنَ الأجْرِ العظيمِ.

فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا على ما ذَكَرَ أولئكَ، ثم تكونُ لهمُ المَغْفِرَةُ وما ذَكَرَ مِنَ الأجْرِ العظيمِ.

فَدَلَّ ما ذَكَرَ مِنَ الوَعْدِ لهمْ بالمَغْفِرَةِ والأجْرِ العظيمِ أنهمْ ثَبَتوا على ما كانوا مِنْ قَبْلُ في زمَنِ رسولِ اللهِ ﷺ وفي حياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

والحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمينَ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ الطاهرين.

(١) في الأصل وم: كلام.

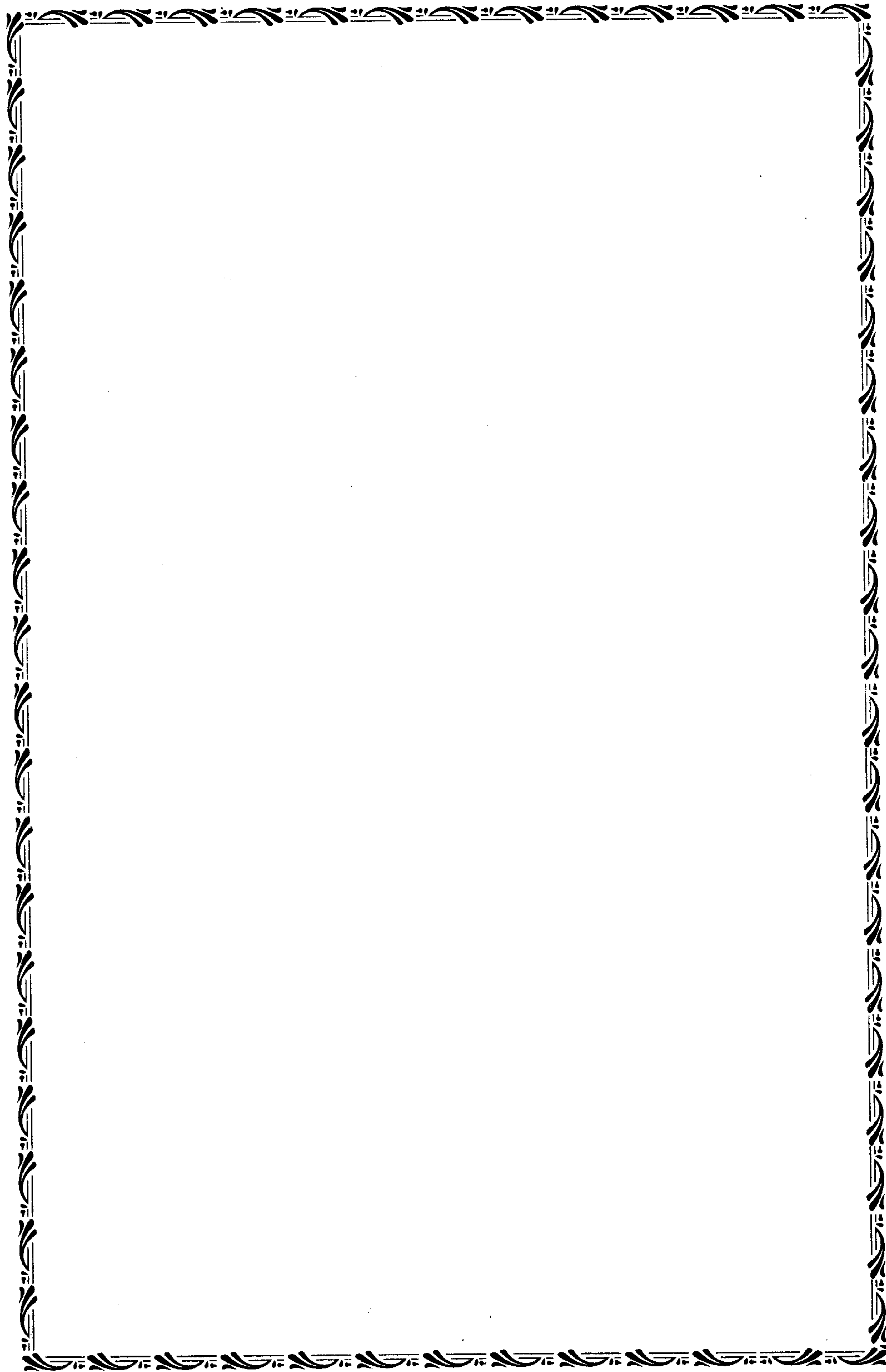

سورة الحجرات

ذكر أنها مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُم: إنَّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما اختَلَفا في شيءٍ، بحَضْرةِ رسولِ اللهِ ﷺ فارْتَفَعَتْ أصواتُهما، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾.

وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لا تَذْبَحوا قَبْلَ ذَبْحِ النَّبيِّ يومَ النَّحْرِ؛ وذلكَ لأنَّ ناساً مِنَ المُسلِمِينَ ذَبَحوا قَبْلَ صلاةِ النَّبيِّ ﷺ يومَ النَّحْرِ.

وقالَ قَتادةُ: ذُكِرَ لنا أنَّ رجالاً كانوا يقولونَ: لو نَزَلَ كذا وكذا، أو صُنِعَ كذا وكذا، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ، وأمَرَهُمْ ألّا يَسْبِقوا نَبِيَّهُ ﷺ بِقَولٍ ولا عَمَلٍ حتى يُبَيِّنَ اللهُ تعالى بَيانَهُ.

وأمثالَ ذلكَ قد قالوا، واللهُ أعلَمُ.

وأصلُ ذلكَ عندَنا مِنْ قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية أي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اعلَموا أنَّ للهِ الخَلْقَ والأمْرَ لا تُقَدِّموا أمْراً ولا قَوْلاً ولا حُكْماً ولا نَهْياً سِوَى ما أمَرَ اللهُ تعالى بهِ ورسولُهُ ﷺ وغَيرَ ما نَهى عنهُ، بلِ اتَّبِعوا أمْرَهُ ونَهْيَهُ، وراقِبوهُ على ما أنْتُمْ بهِ، وأقْرَرْتُمْ، بأنَّ لَهُ الخَلْقَ والأمْرَ، فاحْفَظوا أمْرَهُ ونَهْيَهُ، ولا تُخالِفوهُ، ولا رسولَهُ في شيءٍ مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ.

فهذا يدخُلُ فيهِ كلُّ شيءٍ وكلُّ أمْرٍ مِنَ القَولِ والفِعْلِ والقضاءِ والحُكْمِ والذَّبْحِ وغَيرِ ذلكَ على ما ذَكَرْنا مِنْ إيمانِهِمْ بأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ في الخَلْقِ؛ إذْ مثلُ هذا الخِطابِ لو كانَ لِواحِدٍ خاصٍّ لَكانَ حُكْمُهُ يُلْزِمُ الكُلَّ. وكذلكَ لو كانَ في أمْرٍ واحِدٍ كانَ يدخُلُ في ذلكَ جميعُ الأمورِ. فكيفَ والخِطابُ بذلك عامٌّ مُطْلَقٌ؟ فهو لِلكُلِّ وفي كلِّ الأمورِ، واللهُ الموفِّقُ.

وعلى ذلك ما رُوِيَ عَنْ مَسْروقٍ أنهُ دَخَلَ على عائشةَ رضي الله عنها فأمَرَتِ الجاريةَ أنْ تَسْقِيَهُ، فقالَ: إني صائمٌ، وهو اليومُ الذي يُشَكُّ فيهِ، فقالَتْ لهُ: قد نُهِيَ عَنْ هذا، وقالَتْ قولَهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في صيامٍ ولا غَيرِهِ.

اعْتَبَرَتْ عائشةُ رضي الله عنها عُمومَ الآيةِ في النَّهْيِ عنِ التَّقَدُّمِ بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِهِ ومُخالَفَةِ النَّبِيِّ ﷺ في قولٍ أو فِعْلٍ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ أبي عُبَيدَةَ مُعَمَّرِ بْنِ المُثَنّى [أنهُ](1) قالَ في قولِهِ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لا تَجْعَلوا الأمْرَ والنَّهْيَ دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي اتَّقُوا مُخالَفَةَ أمْرِ اللهِ ونَهْيَهُ قَولاً وفِعْلاً، واتَّقُوا مُخالَفَةَ رسولِهِ في ما يأمُرُكَم بأمْرِ اللهِ [ويَنْهاكُمْ بِنَهْيِهِ](2) وفي كلِّ ما دَعاكُمْ إليهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لِأقوالِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالِكُمْ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ثم لم يَفْهَموا مِمّا ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ / ٥٢١ ـ ب/ الجوارحَ ولا العَدَدَ في اليَدِ كما فَهِموا مِنْ ذلكَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ونهيه.

في الخَلْقِ. فما بالُهُمْ يَفْهَمونَ ذلكَ مِنْ قولِهِ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؟ [ص: ٧٥] أي خَلَقْتُهُ على عِلْمٍ مني بما يكونُ منهُ خِلافٌ أو مَعْصِيَةٌ، لم أخْلُقْهُ عنْ جَهْلٍ بما يكونُ منهُ، وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥ و...] [وقولِهِ تعالى](١): ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣ و...] أي عنْ عِلْمٍ بأحوالِهِمْ وما يكونُ منهمْ؛ أنْشَأهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ بذلكَ. فَعَلَى ذلكَ هذا كما فَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أمْرَ اللهِ ونَهْيَهُ دونَ الجَوارِحِ والعَدَدِ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قولِهِ: ﴿لِبَعْضٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في أبي بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما اخْتَلَفا في شيءٍ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ، فارْتَفَعَتْ أصواتُهُما.

وقالَ بعضُهُمْ: إنها نَزَلَتْ في قومٍ، كانوا إذا سُئِلَ النَّبِيُّ عن شيءٍ قالوا فيهِ قَبْلَ قولِ النَّبِيِّ ﷺ.

وعندَنا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ رَفْعِ الصَّوتِ فوقَ صَوتِ رسولِ اللهِ ﷺ، والجَهْرِ بالقولِ لهُ وما ذُكِرَ مِنَ التَّقَدُّمِ بينَ يَدَيْ رسولِ اللهِ ﷺ في الأمْرِ والنَّهْيِ أنْ يكونَ الخطابُ بذلكَ للذينَ صَحِبوا رسولَ اللهِ ﷺ واتَّبَعوا أمْرَهُ ونَهْيَهُ، إذْ لا يُحْتَمَلُ منهمْ أنْ يَرْفَعوا أصواتَهُمْ فوقَ صوتِهِ، ويَجْهَروا بالقولِ، ويُقَدِّموا بَينَ يديهِ في أمْرٍ ولا نَهْيٍ إلّا عَنْ سَهْوٍ وغَفْلَةٍ أو إذْنٍ منهُ بالمُناظَرَةِ والمُحاوَرَةِ في العِلْمِ.

فعندَ ذلكَ تَرْتَفِعُ أصواتُهُمْ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ أجَلَّ في قلوبِهِمْ وأعظَمَ قَدْراً مِنْ أنْ يَتَجاسَروا التَّقَدُّمَ بَينَ يَدَيهِ بأمْرٍ أو رَفْعِ صَوتٍ أو جَهْرِ القَولِ لهُ. فتكونُ الآيَةُ في أهلِ الشِّرْكِ وفي أهلِ النِّفاقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنْ كانَ الخِطابُ بذلكَ للذينَ آمَنوا فهو على وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ ذلكَ منهُ ابْتِداءُ مِحْنَةٍ امْتَحَنَهُمْ بذلكَ، وأمَرَهُمْ بهِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ مِنَ التَّقَدُّمِ بَينَ يَدَيهِ ورَفْعِ الصوتِ والجَهْرِ لهُ بالقَولِ، ولِلّهِ أنْ يَمْتَحِنَ، ويَأمُرَ، ويَنْهَى مَنْ شاءَ بِما شاءَ ابْتِداءَ امْتِحانٍ منهُ لهمْ [وهو ما ذَكَرْنا](٢) مِنْ نَهْيِ الرسلِ عليهم السلام عنِ الشِّرْكِ والمَعاصي، وإنْ كانوا مَعْصومِينَ عنْ ذلكَ، لأنَّ العِصْمَةَ [لا تَمْنَعُ النَّهْيَ، لأنَّ العِصْمَةَ](٣) إنما تكونُ عِصْمَةً إذا كانَ هناكَ أمرٌ ونَهْيٌ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ النَّهْيِ عنِ التَّقَدُّمِ ورَفْعِ الصَّوتِ والجَهْرِ بالقَولِ، وإنْ لم يكنْ منهمْ شيءٌ ممّا ذَكَرَ ابْتِداءَ مِحْنَةٍ منهُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني](٤): أنهُ خاطَبَ هؤلاءِ الصحابةَ رضي الله عنهم بذلكَ لِيَتَّعِظَ بذلكَ مَنْ يَشْهَدُ مَجْلِسَهُ مِنَ المُنافقِينَ وغَيرِهِمْ مِنَ الكافرينَ، إذْ كانَ يَشْهَدُ مَجْلِسَهُ أهلُ النِّفاقِ وسائرُ الكَفَرَةِ لئلّا يُعامِلوا رسولَ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ مُعامَلَةِ بعضِهِمْ بَعْضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ذَكَرَ هذا لِيَكونوا أبداً مُتَيَقِّظِينَ بَينَ يَدَي رسولِ اللهِ ﷺ حَذِرينَ مُعَظِّمِينَ لهُ في كلِّ وقْتٍ لئلّا يكونَ منهمْ في وقْتٍ مِنَ الأوقاتِ ما يَخْرُجُ مَجْرَى الإسْتِخْفافِ بهِ والتَّهاوُنِ على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، فَيُحْبِطَ ذلكَ أعمالَهُمْ.

إنَّ هذا الصَّنيعَ برسولِ اللهِ ﷺ يُكَفِّرُ صاحبَهُ، ولا يكونُ معذوراً، وإنْ فَعَلَهُ على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، لأنَّ لهمْ(٥) قُدْرَةَ الاِحْتِرازِ وإمكانَ التَّحَذُّرِ، وإنْ كانوا مَعْذورينَ في ما بَينَهُمْ على غَيرِ التَّعَمُّدِ والقَصْدِ، ولا مؤاخَذَةَ لهمْ بِرَفْعِ اللهِ تعالى المُؤاخَذَةَ عنهمْ في ما بينَهُمْ، ولم يَرْفَعْ في حقِّ النَّبِيِّ، عليهِ أفضَلُ الصلواتِ، مَعَ أنَّ الكُلَّ في حَدِّ جوازِ المُؤاخَذَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وذَكَرَ الكَرابيسيُّ، فقالَ: ومِنْ حِكْمَةِ الآيَةِ عندَ قومٍ حُبوطُ الأعمالِ بالكَبائرِ على ما رُوِيَ عنِ الحَسَنِ [أنهُ](٦) قالَ: أما يَشْعُرُ هؤلاءِ الناسُ أنَّ عَمَلاً يُحْبِطُ أعمالاً؟ واللهُ تعالى يقولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: وهم ما ذكر، في م: وهم ما ذكرنا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ويحتمل.
(٥) في الأصل وم: له. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقيلَ: المُرادُ مِنَ الآيةِ أنْ يُنادِيَ بِشُؤْمِ تلكَ المَعْصِيَةِ إلى أنْ يَهونَ عليهِ ارْتِكابُ الكبيرةِ؛ يَسْتَحْقِرُها حتى يَخِفَّ عليهِ الكُفْرُ، فَيَكْفُرَ، فَتَصيرَ المَعْصِيةُ الأولَى، وإنْ قَلَّتْ، سَبَباً لِحُبوطِ ثوابِ أعمالِهِ. فإنَّ أساسَ كلِّ خطيرٍ حقيرٌ.

ونَحنُ نقولُ: إنَّ المَعْصِيَةَ لا تُحْبِطُ الطاعةَ، ولكنْ هي(١) اسْتِخْفافٌ بالنَّبِيِّ ﷺ وذلكَ [كُفْرٌ](٢).

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ دلَّتْ هذهِ الآيةُ أنَّ الآيتينِ اللَّتينِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُما مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وقولِهِ ﷻ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ دلَّتْ هذهِ الآيةُ أنَّ الآيتينِ اللَّتينِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُما مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وقولِهِ ﷻ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ في أهلِ النِّفاقِ.

فأمّا أصحابُهُ الذينَ صَحِبوهُ، وآمَنوا بِهِ، عَرَفوا أنهُ [رسولُ](٣) ربِّ العالَمينَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ منهمْ ما ذُكِرَ مِنْ رَفْعِ الصَّوتِ عندَهُ وجَهْرِ القَولِ بِهِ والنِّداءِ لهُ باسْمِهِ مِنْ بُعْدٍ.

إنما ذلكَ بِهِ فَعَلَ مَنْ ذَكَرْنا مِنْ أهلِ النِّفاقِ والشِّرْكِ.

فأمّا الذينَ آمَنوا بِهِ، وصَدَّقوهُ، وعَرَفوا أنهُ رسولٌ، فلا يُحْتَمَلُ منهمْ سِوَى التَّعْظيمِ والتَّوْقيرِ والتَّشْريفِ لِما عَرَفوا أنَّ نَجاتَهُمْ وشَرَفَهُمْ وعِزَّهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ بِتَعْظيمِهِ وتَوْقيرِهِ، فكيفَ يُحْتَمَلُ منهمْ ذلكَ؟ بل كانوا لا يَتَجاسَرونَ التَّكَلُّمَ بَيْنَ يَدَيهِ فَضْلاً عَنْ أنْ يَرْفَعوا أصواتَهُمْ، أو يُقَدِّموا بَيْنَ يَدَيهِ، أو النِّداءَ مِنْ بُعْدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ هذا وَصْفُ المؤمنينَ؛ امْتَحَنَ اللهُ قلوبَهُمْ لِلتَّقْوَى، فَوَجَدَها صافيةً خالصةً لذلكَ. والاِمْتِحانُ هو التَّصْفِيَةُ والإخلاصُ؛ يُقالُ: امْتُحِنَ الذهبُ، إذا خَلَصَ، وصَفَا، الصافي منهُ والخالصُ مِنْ غَيرِهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا وَصْفُ مَنْ ذَكَرْنا مِنْ أهلِ الشِّرْكِ والنِّفاقِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ نَفَراً مِنَ الأعرابِ جاؤوا، وقالوا: نَنْطَلِقُ إلى هذا الرجلِ؛ يَعْنونَ محمداً ﷺ فإنْ يَكُنْ رسولاً فنحنُ أسْعَدُ الناسِ بِهِ. وإنْ يَكُنْ مَلِكاً نَعِشْ في جَناحِهِ، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَجَعَلوا يُنادونَهُ مِنْ وراءِ الحُجُراتِ: يا محمدُ، فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ.

وقالَ بعضُهُمْ: كان النَّبِيُّ ﷺ سَبَى ذَرارِيَ بَني تَميمٍ ونساءَهُمْ، فَأَتَوا يَطلبونَ منهُ تَخْلِيَةَ سَبيلِ أولئكَ وإعتاقَهُمْ ورَدَّهُمْ إليهِمْ، فَنادَوهُ مِنْ وراءِ الحُجُراتِ، فأعْتَقَ بعضَهُمْ، وفَدَى بَعْضاً، فَنَزَلَتِ الآيةُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لأنَّ ذلكَ أعظَمُ لِقَدْرِهِ وأجَلُّ لِمَنْزِلَتِهِ وأعْرَفُ لِحَقِّهِ وأحْفَظُ لِحُرْمَتِهِ.

ثم قولُهُ: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها](٤): أكْثَرُهُمْ لا يَعْرِفونَ قَدْرَهُ ومَنْزِلَتَهُ، وإنْ كانَ قليلٌ منهمْ يَعْرِفونَ ذلكَ، وهُمُ المؤمنونَ.

والثاني: أكْثَرُهُمْ لا يَنْتَفِعونَ بِما يَعْقِلونَ.

والثالثُ: أكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلونَ أنهُ رسولُهُ، وهُمُ الأتْباعُ والسَّفَلَةُ / ٥٢٢ ـ أ/ مِنَ الكَفَرَةِ، وإنما يَعْرِفُ القليلُ منهمْ، وهُمُ الرُّؤساءُ المُعانِدونَ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

وفي هذه الآيةِ، وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ دلالةٌ على أنْ قد يَلْحَق المَرْءَ حُكْمُ الكُفْرِ، ويَحْبَطُ العملُ إذا خَرَجَ مَخْرَجَ الِاسْتِخْفافِ، وإنْ لم يُعْلَمْ بهِ، ولم يُقْصَدْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ أجمَعَ أهلُ التأويلِ أو عامَّتُهُمْ على أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الوليدِ بنِ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ؛ بَعَثَهُ رسولُ اللهِ ﷺ إلى بَني المُصطَلِقِ وإلى قومٍ سِواهُمْ لِجبايَةِ الصَّدَقاتِ، وكانَ بَينَهُ وبَينَ أولئكَ القومِ عداوةٌ في الجاهليَّةِ، فَخَرَجوا يَتَلَقَّونَهُ، فَخافَهُمْ، فَرَجَعَ، وقالَ: إنَّ القومَ قد مَنَعوا الصَّدَقاتِ، فَبَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ إليهِمْ بَعدَ ذلكَ خالدَ بنَ الوليدِ لِجبايةِ الصَّدَقاتِ، فَوَجَدَهُمْ يُصَلّونَ، ويَعْمَلونَ الطاعاتِ، واجْتَمَعوا، وجَمَعوا لهُ الصَّدَقاتِ: جَبَوها[1]، وسَلَّموها إليهِ، فَرَجَعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بِها، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾.

لكنْ إنْ كانَ ما ذَكَروا، فلم يكُنْ في ذلكَ النَّبَإِ التَّثَبُّتُ لأنَّ الآيةَ نَزَلَتْ بَعْدَ نَبَإِ الرجلِ، وفي الآيةِ الأمْرُ بالتَّثَبُّتِ في نَبَإِ الفاسقِ في ما يَحْدُثُ مِنَ الأمورِ مِنْ بَعْدُ.

فَدَلَّ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ لِبيانِ الحُكمِ في نبَإِ الفاسقِ، واللهُ أعلَمُ، ولأنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ الرجلُ مُنافِقاً، ولم يَأمُرِ اللهُ تعالى بالتَّثَبُّتِ في خَبَرِ المُنافِقِ، ولم يُشَرِّعْ ذلكَ، لأنَّ النِّفاقَ يكونُ في الضميرِ، فلا يَظْهَرُ ذلكَ.

فأما الفِسْقُ فإنهُ يَظْهَرُ، فَأَمَرَنا بالتَّثَبُّتِ فيهِ.

فَدَلَّ أنَّ الآيةَ لم تَنْزِلْ في ذلكَ الرجلِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ مِنَ المُنافِقِ أنْ يُزَوِّرَ على المسلمِينَ مِثْلَ ما ذُكِرَ منهُ. دَلَّ أنَّ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ فيهِ وَهْمٌ.

ثم في الآيةِ دلالةُ قَبولِ خَبَرِ الواحدِ، إذا كانَ عَدْلاً لهُ، لأنهُ لو لم يَقْبَلْ خَبَرَهُ، إذا كانَ عَدْلاً، لم يكُنْ لِذِكْرِ الفِسْقِ فائدةٌ سِوَى الشَّتْمِ، والشَّتْمُ سَفَهٌ، فلا يَجوزُ أنْ يُوصَفَ اللهُ تعالى [بهِ][2].

فَدَلَّ ذِكْرُ الفِسْقِ على أنَّ هذا الحُكْمَ، وهو رَدُّ الشهادةِ، مُخْتَصٌّ باسْمِ الفِسْقِ، وأنَّ العَدْلَ لا يُشارِكُهُ فيهِ حتى [لا يكونَ][3] ذِكْرُ الفِسْقِ سَفَهاً لِما تَعَلَّقَ بهِ بَيانُ حُكْمٍ شَرْعيٍّ، يَخْتَصُّ بالفاسِقِ، ولا يُعْرَفُ ذلكَ دونَ ذِكْرِهِ.

فأمّا مَتَى كانَ الحُكْمُ عامّاً في الفاسِقِ والعَدْلِ عندَ الِانْفِرادِ، فكانَ ذِكْرُ الفاسِقِ معَ شَتْمِهِ، وأنهُ لا يَليقُ بالحِكْمَةِ، فَدَلَّ [على][4] ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ في الظاهِرِ بسببِ تُهْمَةِ الفِسْقِ. فأمّا في الحقيقةِ فإنهُ يجوزُ أنْ نُصيبَ ذلكَ بِخَبَرِ الواحدِ، لكنَّ الأحكامَ وقَبولَ الأخبارِ في ما بَينَ الخَلْقِ لم توضَعْ على الحقائقِ، وإنما وُضِعَتْ على الظَّواهِرِ، وكذلكَ قَبولُ الشهاداتِ والحُكْمُ بها. وجميعُ الشرائعِ التي جُعِلَتْ في الناسِ إنما هو على الظَّواهِرِ مِنَ الأحوالِ والأمورِ[5]. فأمّا على إصابةِ حقيقةِ ذلكَ فلا؛ إذْ قد يجوزُ أنْ يَحْكُمَ الحاكمُ، ويَقْضِيَ بِقَتْلِ إنسانٍ، وتُقْطَعَ يَدُهُ بشهودٍ عندَهُ. لمّا ظَهَرَتْ عندَهُ عدالَتُهُ، ولم تكُنْ في الحقيقةِ كذلكَ.

وعلى ذلكَ قَولُ يَعقوبَ ﷺ لِبَنيهِ، ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤] لم يَأمَنْ عليهِ بِما ظَهَرَ لهُ منهمْ زَلَّةٌ وجِنايَةٌ حينَ طَلَبوا منهُ إرسالَهُ وَلَدَهُ يوسفَ ﷺ في الرَّعْيِ، بل قالَ هنالكَ: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] إنما اعْتَلَّ عليهِمْ، واحتَجَّ بأكلِ الذئبِ، ولم يَتَّهِمْهُمْ فيهِ بما لم يكُنْ ظَهَرَ لهُ منهمْ زَلَّةٌ وجِنايَةٌ. فلمّا ظَهَرَ ذلكَ منهمُ اتَّهَمَهُمْ وأخبَرَ أنهُ لا يَأمَنُ عليهِ بما ظَهَرَ لهُ مِنْ زلَّتِهِمْ، فَدَلَّ أنَّ التُّهْمَةَ سَبَبُ الرَّدِّ وأنهُ يَجِبُ التَّثَبُّتُ لِدَفعِ الجهالةِ مِنْ حيثُ الظاهرُ[6] للحقيقةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وجبوها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: الأموال. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: لا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي نادمينَ بما فَعَلوا على خِلافِ ما كانَ في الظاهِرِ؛ ويَنْدَموا لِما تَرَكوا التَّثبتَ في الخَبَرِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لأَثِمْتُمْ.

مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الإجماعَ ليسَ بِحُجَّةٍ، وقالوا: لو كانَ لإجماعِهِمْ [حُجَّةٌ لكانوا][1] لا يأثَمونَ لو أطاعَهُمْ في كثيرٍ مِنَ الأمْرِ لأنَّ الحَقَّ والصوابَ ممّا لا يُوجِبُ الإثْمَ لِصاحِبِهِ في مَنْ تَبِعَهُ في ذلكَ الصوابِ.

ولكنْ إنْ كانَ لا يُوجِبُ الثوابَ دَلَّ أنهُ ليسَ بِحُجَّةٍ يَجِبُ اتِّباعُهُ. ولكنَّ هذا فاسدٌ لأنَّ الحُجَجَ والبراهينَ لم تَكُنِ انْتَهَتْ يومئذٍ غايَتُها، ولا أَتَتْ على نِهايَتِها.

والإجماعُ الذي هو إجماعُ الحُجَّةِ عندَنا، ويَجِبُ اتِّباعُهُ والانْقِيادُ لهُ، هو إجماعُ مَنِ اسْتَوعَبَ الحُجَجَ والبراهينَ، وأَتى على عامَّتِها أو على الجميعِ، وكانَ الوقتُ وقتَ نزولِ الوَحْيِ، وإنما تَسْتَقِرُّ الأحكامُ بوفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ لِما يَنْقَطِعُ الوَحْيُ، فَيُسْتَدَلُّ على استيعابِ الحُجَجِ ونزولِ جميعِ ما يَحتاجُ الناسُ إليهِ منْ حيثُ الإيداعُ في النصوصِ؛ فَمَتَى اجْتَمَعوا على ذلكَ يكونُ حُجَّةً، ولأنهُ لا إجماعَ تحقيقٍ دونَ رأيِ رسولِ اللهِ ﷺ وإذا وُجِدَ رأيُهُ، اسْتُغْنِيَ عنْ رأيِ الغيرِ لِما كانَ يَنْطِقُ عنِ الحِجا. فإذا لم يَكُنْ وَقْتُ رسولِ اللهِ ﷺ زَمانَ انْعِقادِ الإجماعِ حُجَّةً بَطَلَ اسْتِدْلالُهُمْ بالآيةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها:][2] أُرسِلَ إليكُمْ لِيُزيلَ عنكُمْ إشكالَكُمْ وشُبُهاتِكُمْ، فلا عُذْرَ لكمْ في الكُفْرِ واعْتِراضِ الشُّبَهِ لكُمْ بما تَقْدِرونَ أنْ تَسْألوهُ ما أَشْكَلَ عليكُمْ، واشْتَبَهَ، فَيُخْبِرَكُمْ بذلكَ، فَيُزيلَ الشُّبَهَ عنكُمْ.

والثاني: يَحْتَمِلُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ يُطْلِعُ اللهُ تعالى إياهُ على ما تُضْمِرونَ في أنفسِكُمْ وما تُوَلِّدونَ مِنَ الأخبارِ التي لا أَصْلَ لها، ولا أثَرَ، ما لو ظَهَرَ ذلكَ لافْتَضَحْتُمْ، وهو صِلَةُ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ:][3] يَحْتَمِلُ أنَّ فيكُمْ رسولَ اللهِ تَسْألونَهُ ما أَشْكَلَ عليكُمْ، فَيُخْبِرُكُمْ بالحقِّ والأمرِ على حقيقتِهِ كي لا تُصيبوا[4] قوماً بجهالةٍ، واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ:][5] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فإليهِ الرأيُ والتدبيرُ في الأمورِ، ومِنْ رأيِهِ وتدبيرِهِ يَجِبُ أنْ تُصْدِروا[6] لا عنْ رأيِ أنفسِكُمْ وتدبيرِكُمْ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١] على الوجوهِ التي ذَكَرهما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو يُطيعُكُمْ في ما تَدْعو إليهِ أنفسُكُمْ مِنَ التَّمْويهاتِ والشُّبُهاتِ وهَواها، أو يقولُ: لو يُطيعُكُمْ في الصُّدورِ عنْ رأيِكُمْ وتدبيرِكُمْ في الأمورِ لَعَنِتُّمْ.

ثم قولُهُ[7]: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ هذا في الظاهِرِ كأنهُ[8] غيرُ موصولٍ بقولِهِ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ لأنهُ لا يَليقُ ذلكَ إلّا على الإضمارِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ وإنَّ اللهَ قد أرسَلَهُ إليكُمْ رسولاً، وحَبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ بهِ، وزَيَّنَهُ في قلوبِكُمْ /٥٢٢ ـ ب/ حتى صارَ هو في قلوبِكُمْ أحبَّ مِنْ أنفسِكُمْ ومنْ كلِّ شيءٍ.

فالواجبُ عليكُمْ أنْ تَصْرِفوا الأمْرَ إلى رأيِهِ وتدبيرِهِ، وأنْ تُصْدِروا عنْ رأيِهِ، ولا تَعْتَمِدوا على رَأْيِ أنفُسِكُمْ وتدبيرِكُمْ، واللهُ أعلَمُ

---

(١) في الأصل وم: لكان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من في، الأصل: يقلبوا. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: تصدر. (٧) في الأصل وم: قال. (٨) في الأصل وم: كناية.

ويَحتَمِلُ ألّا تَدعوهُ إلى أنْ يُطيعَكُمْ في ما تَهْوَى بِهِ أنفسُكُمْ ما شَبَّهَتْ بَعْدَ ما حَبَّبَ الإيمانَ بِهِ إليكُمْ، وزَيَّنَهُ في قلوبِكُمْ، وكَرَّهَ إليكُمُ الكُفرَ وما ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ جِهَتِهِ وصِلَةِ هذا بالأوَّلِ.

ثم يَحتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحدُهما: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ الرسولُ ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ اللهُ تعالى ألزَمَكُمْ طاعتَهُ في كلِّ أمْرٍ، فأطيعوهُ، ولا تَطلُبوا منهُ طاعتَهُ إيّاكُمْ في الأمورِ، ولكنْ أطيعوهُ أنتمْ في الأمورِ كلِّها، وقد ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾ والخُروجَ عنْ أمرِهِ ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

والثاني: يُشبِهُ أنْ يكونَ موصولاً بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [1] [الحجرات: ٣].

ثم قولُهُ[2] ﷻ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وحَبَّبَ إليهمُ الإيمانَ، وزَيَّنَهُ في قلوبِهِمْ، وكَرَّهَ إليهمُ الكفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أخبَرَ، وشَهِدَ لهمْ بالرشادِ، وأخبَرَ أنَّ ذلكَ فَضلٌ منهُ إليهمْ ونِعمَةٌ لا بِشيءٍ كانَ منهمُ [اسْتوجَبَ ذلكَ][3].

الآية ٨ فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم قالتِ المعتزلةُ في قولِهِ تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وما ذَكَرَ؛ يقولونَ: لم يُحبِّبِ الإيمانَ إلى هؤلاءِ إلّا وقد حَبَّبَ مِثْلَهُ إلى جميعِ الكفارِ، وكذلكَ لم يُكرِّهِ الكُفرَ إلى هؤلاءِ إلّا وقد كَرَّهَهُ إلى جميعِ الناسِ. لكنَّ المُرادَ [بِتخصيصِ][4] هؤلاءِ بما ذَكَرَ مِنَ التَّحبيبِ إليهمُ الإيمانَ وتكريهِ الكُفرِ، هو اختِصاصُهُمْ بما وَعَدَ مِنَ الثوابِ في الجَزاءِ الجَزيلِ على الإيمانِ والمواعيدِ الشديدةِ، فَحبَّبَهُ، وزَيَّنَهُ في قلوبِهِمْ بما وَعَدَ لهمْ مِنَ الثوابِ، وكَرَّهَ الكُفرَ والعِصيانَ إليهمْ بما أوعَدَ على ذلكَ مِنَ العذابِ العظيمِ.

لكنَّ هذا فاسدٌ لأنهُ ليسَ مؤمنٌ بِهِ صارَ حُبُّ الإيمانِ في قلبِهِ لِما ذَكَروا مِنَ الثوابِ والجَزاءِ، ولا كافرٌ أسْلَمَ حينَ أسْلَمَ يَخطُرُ ثوابُ الإيمانِ في قلبِهِ حتى يكونَ إسلامُهُ لذلكَ، بل كانَ في قلبِهِ بعضُ الإيمانِ قَبْلَ الإسلامِ. فإذا أسْلَمَ وَجَدَ حبَّهُ في قَلْبِهِ وكَراهةَ الكُفرِ لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ بِلُطفٍ مِنَ اللهِ تعالى كانَ عندَهُ، فإذا أعطاهُ صارَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ بَينَ رجلَينِ عَداوةٌ، أي مُنازعةٌ في شيءٍ، فَغَضِبَ قومُ كلِّ رجلٍ حتى كانَ بينَهُمْ خَفْقٌ بالنِّعالِ والأيدي فنَزَلَتِ الآيةُ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ بينَ الأوسِ والخَزرَجِ قِتالٌ بالعُصِيِّ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ بالأمرِ بالصُّلحِ بَينَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قِتالُهُمْ بالعُصِيِّ [والنِّعالِ ونَحْوِها][5].

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ قوماً مِنَ المسلمينَ كانَ بَينَهُمْ تَنازعٌ حتى اضطَرَبوا بالنِّعالِ والأيدي، فأنزَلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ في ذلكَ.

وقالَ قَتادةُ: كانَ بَينَ رجلَينِ حَقٌّ، فَتَدارآ فيهِ، فقالَ أحدُهما: لَآخُذَنَّهُ عُنْوةً لِكَثْرةِ عشيرَتِهِ، وقالَ الآخرُ: بَيني وبَينَكَ رسولُ اللهِ ﷺ فَتنازَعا حتى كانَ بَينَهما ضَرْبٌ بالنِّعالِ والأيدي.

وجائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في ما كانَ بَينَ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وبَينَ الحَروريَّةِ وأهلِ نَهْرَوانَ؛ ذُكِرَ أنَّ علياً رضي الله عنه لَمّا قاتَلَهُمْ قالَ الناسُ: هُمْ مُشرِكونَ؟ فقالَ عليه السلام: مِنَ الشِّرْكِ قد حُسِدوا، فقالوا: فَمُنافِقونَ هُمْ؟ قالَ عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ المُنافقينَ لا يَذْكُرونَ اللهَ إلّا قليلاً، قالوا: فما هُمْ؟ قالَ: هُمْ أناسٌ بَغَوا علينا، فقاتَلونا، فَقاتَلْناهُمْ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾. (٢) في الأصل وم: قال.
(٣) في الأصل وم: استوجبوا بذلك. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والتناصي ونحوهما.

ويَحْتَمِلُ أنهُ كانَ في ما كانَ بَينَ عليٍّ ﷺ وبينَ معاويةَ يومَ الجملِ ويومَ صِفّينَ.

ذُكِرَ عنْ جعفرِ بْنِ محمدٍ عنْ أبيهِ أنَّ علياً ﷺ سَمِعَ رجلاً يقولُ يومَ الجَمَلِ: هُمْ كَفروا، فقالَ: لا تَقُلْ ذلكَ، ولكنْ هؤلاءِ قومٌ بَغَوا علينا، وزَعموا أنا بَغَينا عليهِمْ، فقاتَلْناهُمْ على ذلكَ.

لكنَّ في الآيةِ الأمْرَ بالصُّلْحِ إذا كانَ بَينَهُمْ؛ أعني المؤمنينَ، اقْتِتالٌ بأيِّ شيءٍ كان بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. وكذلكَ أمَرَ في غَيرِ آيةٍ[1] بالصُّلْحِ والإصلاحِ بقولِهِ[2]: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] أي[3] بَينَ المؤمنينَ.

وهذهِ الآيةُ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والخوارجِ، فإنهُ أبْقَى اسْمَ الإيمانِ بَعدَ ما كانَ منهمُ الاقْتِتالُ والبَغْيُ، والقِتالُ والبَغْيُ مع أهلِ الإسلامِ مِنَ الكبائرِ، دلَّ أنَّ الكبيرةَ لا تُخْرِجُ عنِ الإيمانِ، ولا تُوجِبُ الكُفْرَ، واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي فإنْ ظَلَمَتْ إحْدَى الطائفتَينِ، وطَلَبَتْ غَيرَ الحقِّ ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ أي تَظْلِمُ، وتَجورُ ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ حتى ترجِعَ إلى أمْرِ اللهِ وإلى الحقِّ.

أمَرَ بِمَعونةِ الطائفةِ التي لم تَبْغِ والانْتِصارِ لها مِنَ الباغِيَةِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] وَعَدَ ﷻ النَّصْرَ لهمْ. فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ النَّصْرُ الموعودُ في الدنيا، ويَحْتَمِلُ في الآخِرَةِ.

وفي الآيةِ الأمْرُ بِقِتالِ أهلِ البَغْيِ مِنْ غيرِ قَيدٍ بالسيفِ وغَيرِهِ بقولِهِ: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾. لكنْ متى أمْكَنَ رَفْعُ البَغْيِ وكَسْرُ مَنَعَتِهِمْ بِغَيرِ السلاحِ فهو الحقُّ، وهو الواجبُ. لكنْ إذا لم يَنْقَلِعوا عنِ البَغْيِ إلّا بالقِتالِ مَعَ السيفِ فلا بأسَ بهِ.

فإنَّ علياً ﷺ قاتَلَ الفِئَةَ الباغِيَةَ بالسيفِ، ومعهُ كُبَراءُ الصحابةِ ﷺ وأهلُ بَدْرٍ، وكانَ هو مُحِقّاً في قِتالِهِمْ، دلَّ أنّهُ لا بأسَ بِقِتالِهِمْ بالسيفِ.

وبعضُهُمْ قالوا: إنَّ قِتالَ البُغاةِ لا يَجوزُ بالسيفِ، وقالوا: إنَّ سَبَبَ نُزولِ الآيةِ في القِتالِ بالعُصِيِّ والنِّعالِ، ولكنْ لا حُجَّةَ لهمْ فيها، لأنَّ القِتالَ بَينَ الفِئتَينِ، وإنْ كانَ بالنِّعالِ والعُصِيِّ، ولكنْ لم يَصيروا بُغاةً في تلكَ الحالِ، وهو القِتالُ الذي أمَرَ اللهُ تعالى أنْ يُصْلَحَ بَينَهُمْ. وإنما يَصيروا بُغاةً بأنْ لم يُجيبوا إلى الصُّلْحِ، ولم يَقْبَلْ أحدٌ مِنَ الطائفتَينِ الصُّلْحَ. وحينئذٍ أمَرَ بالقِتالِ معهمْ مُطْلَقاً مِنْ غَيرِ قَيدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ ذَكَرَ أنها، وإنْ فاءَتْ، ورجَعَتْ إلى ما أمَرَ اللهُ تعالى بهِ، لا يَتْرُكونَهُما كذلكَ بِغَيرِ صُلْحٍ، ولكنْ أصْلَحوا بَينَهما وألِّفوا حتى يَتَآلَفوا لأنَّ أهلَ الإسلامِ نُدِبوا إلى التآلُفِ بَينَهُمْ والجَمْعِ، وشَرَطَ فيهِ الصلحَ بالعَدْلِ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، يقولُ: إنكُمْ وإنْ رأيتُمْ صلاحَهُمْ في الصُّلْحِ فلا يَحْمِلَنَّكُمْ ذلكَ على الصُّلْحِ الذي ليسَ فيهِ عدلٌ، ولكنْ أصْلِحوا بَينَهُمْ بالعَدْلِ، ولا تُجاوِزوا الحَدَّ. وأكَّدَ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي اعْدِلوا في الصلحِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادِلينَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أمَرَ اللهُ ﷻ بإصلاحِ ذاتِ البَينِ بَينَ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وأمَرَ بالإصلاحِ بينَ الطائفتَينِ مِنَ المؤمنينَ إذا اقْتَتَلوا /٥٢٣ ـ أ/ وتنازَعوا بقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وأمَرَ بالإصلاحِ بينَ الآحادِ والأفرادِ بقولِهِ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لأنَّ الإيمانَ يُوجِبُ التآلُفَ [فإلى التآلُفِ][4] نُدِبوا، وإليهِ دُعُوا، وبهِ مَنَّ اللهِ علينا حينَ[5] قالَ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

---

(١) في الأصل وم: آي. (٢) في الأصل وم: قال يقال. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: كان. (٤) في الأصل: بالتآلف، ساقطة من الأصل.
(٥) في الأصل وم: حيث.

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أمَرَ بالتأليفِ والاجتماعِ، ونَهاهُمْ عنِ التفرّقِ والاختلافِ، وأمَرَ المؤمنينَ جُملَةً أنْ يُصلِحوا ذاتَ بَينِهِمْ إذا وَقَعَ بَينَهُمْ تنازُعٌ واختلافٌ واقتِتالٌ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ استَدَلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ على أنَّ اسْمَ الطائفةِ تقعُ على الواحدِ فَصاعداً، فقالَ: إنهُ ذَكَرَ في أوّلِ الآيةِ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ وقالَ[1] في آخِرِها: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فَدَلَّ أنَّ اسْمَ الطائفةِ يَقَعُ على الواحدِ فَصاعداً، فقالَ: فَيُستَدَلُّ بهذا على أنَّ في قولِهِ ﷺ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] يُرادُ بها الواحدُ، فَيَدُلُّ على لُزومِ خَبَرِ الواحدِ العَدْلِ.

لكنْ عندَنا ما ذَكَرَ أنهُ أمَرَ بإصلاحِ ذاتِ البَينِ بَينَ جُملَتِهِمْ، وأمَرَ بالإصلاحِ بَينَ فَريقَينِ، وأمَرَ بذلكَ بَينَ الآحادِ والأفرادِ. وليسَ في قولِهِ: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ دلالةٌ أنهُ أرادَ بهِ الأخوَينِ، أو ذَكَرَ ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وأرادَ بهِ الاثنَينِ اللّذَينِ كانَ الاقتِتالُ بَينَهما، وفيهما هاجَ القِتالُ بَينَهُمْ.

فأمّا أنْ يكونَ اسْمُ الطائفةِ يَقَعُ على الواحدِ فلا، بل هو في اللغةِ وعُرْفُ اللّسانِ على الجماعةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي اتّقوا مُخالَفَةَ أمْرِ اللهِ لكي تَقَعَ لكُمُ الرحمةُ، أو لكي تَلْزَمَكُمُ الرحمةُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ظاهرُ الآيةِ نَهْيٌ للجماعةِ عن سُخريَّةِ جماعةٍ، لأنَّ السُّخريَّةَ إنما تَقَعُ، وتكونُ في الأغلَبِ بَينَ قَومٍ وقَومٍ، وقَلَّ ما تَقَعُ بَينَ الأفرادِ والآحادِ. فَعَلَى ذلكَ جَرَى النَّهْيُ. ولكنْ يكونُ ذلكَ النَّهْيُ للجماعةِ والأفرادِ والآحادِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم تَحتَمِلُ السُّخريَّةُ المَذكورةُ في الآيةِ وجهَينِ:

أحدُهما: في الأفعالِ؛ يقولُ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ في الأفعالِ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ في النِّيَّةِ في تلكَ الأفعالِ، أو ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي أفعالُهُمْ أخلَصُ عندَ اللهِ مِنْ أفعالِ أولئكَ أو أقرَبُ إلى القَبولِ.

والثاني: السُّخريَّةُ[2] في الخِلْقَةِ، وذلكَ راجعٌ إلى مُنشِئِها لا إليهِمْ، وهُمْ قد رَضُوا بالخِلقَةِ التي أُنْشِئوا عليها، وعَسَى أنْ [يكونوا هُمْ][3] في تلكَ الأحوالِ والأفعالِ التي هُمْ عليها اليومَ.

والثاني: عَسَى أنْ يكونوا هُمْ عندَ اللهِ خَيراً منهمْ في الحالِ كقولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] أخبَرَ أنَّ الأكرَمَ منهمْ عندَ اللهِ تعالى، هو أتقاهُمْ، لا ما افتَخَروا بِما هو أسبابُ الفَخارِ عندَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ذَكَرَ سُخريَّةَ نِساءٍ مِنْ نِساءٍ لأنَّ النساءَ ليسَ لهنَّ اختِلاطٌ مَعَ الرجالِ حتى تَجريَ السُّخريَّةُ بَينَهُمْ، وإنما الاختِلاطُ في الغالبِ بَينَ [أفرادِ][4] الجِنسِ يكونُ. فَعَلَى ذلكَ جَرَى النَّهْيُ [عنِ السُّخريَّةِ][5]، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنهُ خَصَّ هؤلاءِ بهؤلاءِ كما خَصَّ القِصاصَ في قولِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٨] ثم جَمَعَ بَينَ الأحرارِ والعَبيدِ والذكورِ والإناثِ بالمَعنَى الذي جَمَعَهُمْ فيهِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] أبانَ عنِ المَعنَى الذي بهِ وَجَبَ القِصاصُ في ما بَينَهُمْ، فاشتَرَكوا جميعاً في ذلكَ: الأحرارُ والعبيدُ والذكورُ والإناثُ. فَعَلَى ذلكَ ذَكَرَ المَعنَى الذي بهِ نَهاهُمْ عنِ السُّخريَّةِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ فذلكَ المَعنَى يَجمَعُ سُخريَّةَ الرجالِ مِنَ النساءِ وسُخريَّةَ النساءِ مِنَ الرجالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ واللَّمزُ هو الطَّعنُ. ثم منهمْ مَنْ يقولُ: هو الطَّعنُ باللّسانِ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: بالشِّدْقِ والشَّفَةِ، ومنهمْ مَنْ يقولُ بالعَينِ. وحاصِلُهُ هو الطَّعنُ فيهِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: سخرية. (٣) من م، في الأصل: يكون لهم. (٤) ساقطة من الأصل م. (٥) في الأصل وم: بالسخرية.

وقالَ القَتَبِيُّ: اللَّمْزُ، هو العَيبُ، أي لا تَعيبوا، وقالَ أبو عوسَجَةَ: هو شِبْهُ العَيبِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ أي تَذكُروا مَساوِئَ أنفسِكُمْ.

[والثاني:][1] فيهِ الأمرُ بالسَّترِ على أنفسِهِمْ، وألّا يَهتِكوا سِترَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي لا تَدْعُوا بالألقابِ، والنَّبْزُ اللقَبُ؛ يُقالُ: نَبَزتُ فلاناً، أي لَقَّبتُهُ. وفي الحديثِ: «قومٌ نَبْزُهُمُ الرافِضَةُ» أي لَقَبُهُمْ. ولو قالَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ لكانَ كافياً، لكنْ[2] كأنهُ قالَ: ولا تُظهِروا ألقابَهُمْ فَيَسوءَهُمْ ما أظهَرْتُمْ مِنَ اللَّقَبِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما نُهُوا عنْ ذلكَ لأنهمْ [كانوا][3] يُسَمّونَهُمْ بعدَ إسلامِهِمْ بالأفعالِ التي كانوا يَفعَلونَ في حالِ جاهِلِيَّتِهِمْ مِنَ الكُفرِ والفُسوقِ، ويُلَقِّبونَهُمْ بذلكَ، ويقولونَ: يا كافرُ، يا فاسقُ، ونَحوَ ذلكَ دلَّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾.

وجائزٌ [أنهمْ كانوا يُلَقِّبونَ][4] بذلكَ وبِغَيرِهِ مِنَ الألقابِ، فَنُهُوا عنْ أنْ يُسَمُّوهُمْ بِغَيرِ أسمائِهِمُ التي كانَتْ لهمْ، وأنْ يُعَرِّفوا بأسمائِهِمُ التي لهمْ، ونُهُوا عنِ التَّعريفِ بالألقابِ وتَغَيُّرِ الأسبابِ والأسماءِ التي لهمْ إذا كانَ التعريفُ بذلكَ يَسوؤُهُمْ، ويَغيظُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي واضِعونَ الشيءَ في غَيرِ مَوضِعِهِ[5]، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا أي بئسَ النِّسبَةُ إلى الفِسقِ التي كانَتْ، والتَّسمِيَةُ بها بعدَ الإيمانِ إلى الاِسْمِ والفِعْلِ الذي كانَ لهُ ومنهُ قبلَ الإيمانِ، كأنهُ قالَ: لا تُسَمُّوهُمْ بتلكَ بَعدَ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي بئسَ[6] ما اختاروا مِنِ اسْمِ الفِسقِ بَعدَ ما كانَ اختارَ اللهُ اسْمَ الإيمانِ وفِعْلَهُ. فهذا يرجِعُ إلى اختيارِ الفِسقِ بَعدَ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ههنا أسماءُ ثلاثةٌ يجبُ أنْ يُتَعَرَّفَ ما مَحَلُّها؟ وما قَدْرُها؟ وكيفَ أسبابُها؟ أحَدُها: الظَّنُّ، والثاني: الشَّكُّ، والثالثُ: العِلْمُ واليَقينُ.

أمّا الظَّنُّ فكأنَّهُ هو الذي لَهُ ظاهرُ الأسبابِ التي لها خَوفُ الزّوالِ والاِنْتِقالِ.

والشَّكُّ: هو الذي فَقَدَ ظاهِرَ أسبابِهِ، أو لَهُ اسْتِواءُ الأسبابِ ومُقابَلَةُ بعضِها بعضاً؛ فهو المُتَرَدِّدُ بَينَ الحالَينِ، لا يَقِرُّ قلبُهُ على شيءٍ.

واليَقينُ: هو الذي لَهُ الأسبابُ الظاهِرَةُ التي ليسَ لها خَوفُ الزّوالِ والاِنْتِقالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ كأنهُ نَهى أنْ يُحَقِّقَ [القولَ][7] أو العملَ في صاحبِهِ بسوءٍ على ظاهِرِ الأسبابِ التي هي على شَرَفِ الزّوالِ وطَرَفِ الاِنْتِقالِ، يجوزُ أنْ تكونَ غَيرَ مُحَقَّقَةٍ في الأصلِ أو زائلةً، واللهُ أعلَمُ.

ثم في الآيَةِ دليلٌ على أنهُ ليسَ كلُّ ظَنٍّ يُجتَنَبُ عنهُ، ولا كلُّ الظَّنِّ يكونُ إثماً لأنهُ اسْتَثنى منهُ بعضَهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ / ٥٢٣ ـ ب/ ما اسْتَثنَى مِنَ الظَّنِّ، ولا يُؤمَنُ بالاجْتِنابِ عنهُ، هو ما تَغلِبُ عليهِ الأسبابُ، وغالبُ الأسبابِ ربما يَعمَلُ عَمَلَ العِلْمِ واليَقينِ بِحَقِّ المُكرَهِ على شيءٍ يُرَخَّصُ لهُ، ويُباحُ العَمَلُ إذا رَأى مِنْ ظاهِرِ حالِ المَكروهِ أنهُ فاعلٌ بِهِ ما أوعَدَهُ، وإنْ كانَ يجوزُ ألّا يَفعَلَ بِهِ، أو لا يَقدِرَ على ما أوعَدَهُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: لكننا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن يلقبوا. (٥) في الأصل وم: موضع.
(٦) في الأصل وم: تبين. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وعلى ذلكَ موضوعُ عامّةِ الأحكامِ والشّرائعِ بَينَ الخَلْقِ أنها على غالبِ الظّنِّ وُضِعَتْ، ليسَ على التّحقيقِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يَرجِعَ ما استَثنى مِنَ الظّنِّ القليلَ الذي لا إثمَ فيهِ إلى الظّنِّ الحَسَنِ؛ إذْ يجوزُ أنْ يَظُنَّ الإنسانُ الظّنَّ الحَسَنَ، ولا إثمَ فيهِ. إنما الأمْرُ بالاجْتِنابِ إلى الظّنِّ بالسوءِ على غَيرِ تَحقُّقِ أسبابٍ أو غَيرِ تَحقُّقِ غَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ التّجسُّسُ، هو تَكلُّفُ طَلَبِ المَساوِئِ في الناسِ مِنْ غَيرِ أنْ يَظهَرَ منهمْ مِنْ أسبابِها شيءٌ. فَنَهى عنْ تَكلُّفِ طَلَبِ ذلكَ أو عنِ الإظهارِ، وأمَرَ بالسِّترِ.

وبِمِثلِ ذلكَ رُوِيَ في الأخبارِ عنِ النّبيِّ ﷺ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ مَسعودٍ رضي الله عنه أنهُ قيلَ لهُ: هل لكَ في فلانٍ، تَقطُرُ لِحيَتُهُ خمراً؟ فقالَ عبدُ اللهِ بْنُ مَسعودٍ رضي الله عنه: إنْ يَظهَرْ لنا شيءٌ نأخُذْهُ، وإلّا فإنَّ اللهَ تعالى قد نَهانا عنِ التّجسُّسِ، واللهُ أعلَمُ.

وفَرَّقَ بعضُهُمْ بَينَ التّجسُّسِ والتّحسُّسِ، فقالَ بالجيمِ في الشرورِ والمَساوِئِ وبالحاءِ[1] في الخَيرِ وفي ما يُباحُ طَلَبُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغَيبةُ تَرجِعُ إلى وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يُذكَرَ ما فيهِ مِنْ مَساوِئِ الأفعالِ التي سَتَرَها عن أعيُنِ الناسِ ممّا يَكرَهُ إظهارَ ذلكَ عنهُ.

والثاني: [أنْ][2] يُذكَرَ ما فيهِ مِنْ قُبحِ الأحوالِ والأخلاقِ التي لا تَكادُ تَذكُرُ ذلكَ منهُ، أو تَظهَرُ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النّبيِّ ﷺ «أنهُ نَهَى أنْ يَذكُرَ الرجلُ أخاهُ بِما فيهِ مِمّا يَكرَهُ، فقيلَ: إنما كُنّا نَذكُرُهُ بالشيءِ الذي فيهِ لا بما ليسَ فيهِ. قالَ: ذلكَ البُهْتانُ» [بنحوه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ٢٠٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي لا يُحِبُّ أحدُكُمْ أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ بعد موتِهِ، فكأنهُ يقولُ: فإذا لم يُحِبَّ هذا، وكَرِهَهُ، بل يَستَقذِرُهُ كلَّ استِقذارٍ، فالغَيبةُ هي تَناولٌ مِنْ أخيهِ، وهو حيٌّ. فهو في القُبحِ يَبلُغُ التّناولَ منهُ بَعدَ موتِهِ. فإنْ كانَ لا أحدَ يَتَناولُ مِنْ لحمِ أخيهِ بعدَ موتِهِ لا في حالِ اختيارِهِ ولا في حالِ اضطِرارِهِ، فلا تَغْتابوا، ولا تَذكُروا منهُ ما فيه فإنهُ في القبحِ ذلكَ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي اتّقوا اللهَ عمّا نَهاكُمْ عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ لِمَنْ تابَ، أي قابلٌ توبَتَهُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي يُرحَمُ عليهِ، ويَعفو عنهُ، إذا تابَ، واللهُ المُوفِّقُ][3].

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يُخرَّجُ تأويلُ الآيةِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: إنّا خَلَقْناكُمْ جميعاً مِنْ أصلٍ واحدٍ، وهو آدمُ وحواءُ عليهما السلام فيكونونَ جميعاً إخوةً وأخَواتٍ، وليسَ لِبَعضِ الإخوةِ والأخَواتِ الافْتِخارُ والفضيلةُ على بعضٍ بالآباءِ والقبائلِ التي جُعِلَتْ لهمْ؛ إنما القبائلُ وما ذَكَرَ لِلتّعارُفِ، والفضيلةُ والكرامةُ في ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ معاً لو كانَ في ذلكَ فَضيلةٌ وافْتِخارٌ. فالكُلُّ في النِّسبةِ إليهِمْ على السواءِ، فلا مَعْنى لِانْفِرادِ البَعْضِ بالافْتِخارِ.

والثاني: يَحتَمِلُ: إنّا خَلَقْنا كلَّ واحدٍ منكُمْ مِنَ الملوكِ والأتباعِ والحُرِّ والعَبْدِ والذَّكَرِ والأُنثى مِنْ ماءِ الذَّكرِ والأُنثى، فليسَ لأحدٍ على أحدٍ مِنْ تلكَ الجهةِ التي يَفتَخِرونَ بها الافْتِخارُ والفضيلةُ؛ إذْ كانوا جميعاً مِنْ نُطفَةٍ مَذِرَةٍ مُنْتِنَةٍ، تَستَقذِرُها الطباعُ. ذَكَرَ هذا لِيَترُكوا التّفاخُرَ والتّطاوُلَ بالأنسابِ والقبائلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ ثم اختَلَفوا في تأويلِ قولِهِ: ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾:

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٢٢٤. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من م.

قالَ بعضُهُمْ: الشُّعوبُ أكْبَرُ مِنَ القبائلِ، فالشُّعوبُ: همُ الأصولُ، والقبائلُ: هي الأفخاذُ منهمْ؛ فالشُّعوبُ لِلْعَرَبِ والأُمَمِ، والقرونُ لِلْعَجَمِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الشُّعوبُ لِلْعَجَمِ، والقبائلُ للعربِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الشُّعوبُ الضُّروبُ، وهي القبائلُ، والواحدُ شَعْبٌ، والشَّعْبُ الاجْتِماعُ؛ يُقالُ: شَعَبْتُ الإناءَ إذا انْكَسَرَ، فَجَمَعْتُهُ، وأصْلَحْتُهُ، ويُسمّى مَنْ يُصْلِحُ الإناءَ شَعّاباً، والشَّعْبُ: التفريقُ أيضاً، والشُّعوبُ المَنِيَّةُ، ونَحْوُ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي جَعَلَ فيكُمْ هذهِ القَبائلَ لِيَعْرِفَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بالنِّسْبَةِ إلى القبائلِ والأفخاذِ؛ فَيُقالُ: فلانٌ التَّيْمِيُّ، والهاشِمِيُّ، إنَّ كلَّ أحدٍ لا يُعْرَفُ [إلّا][(1)] بأبيهِ وجَدِّهِ.

ثم قالَ ﷺ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ بَيَّنَ اللهُ تعالى بما بِهِ تكونُ الفَضيلةُ والكَرامةُ، وهو التَّقْوى لا في ما يَرَوْنَ، ويَفْتَخِرونَ بذلكَ، وهو النِّسْبةُ إلى الآباءِ والقبائلِ، بل ذلكَ لما ذَكَرَ مِنَ التَّعارُفِ، وهذا لأنَّ التَّقْوى فِعْلُهُ، وهو إتيانُ الطاعاتِ، والاجْتِنابُ عنِ المَعاصي، وذلكَ ممّا يَأتيهِ تَعْظيماً لأمرِ اللهِ تعالى ونَهْيِهِ.

وجائزٌ أنْ يَنالَ بهِ الفَضيلةَ والكرامةَ بِفَضْلِ اللهِ وكَرَمِهِ بناءً على فِعْلِهِ. فأمّا ما لا فِعْلَ لهُ في التَّوَلُّدِ مِنْ آباءٍ كِرامٍ فأنّى يَسْتَحِقُّ الفضلَ بذلكَ لو كانَ افْتِخاراً بما يكونُ للآباءِ بِمُباشَرَتِهِمْ أسبابَ حصولِ الأولادِ لِيُوَحِّدوا اللهَ تعالى، ويَتَمَسَّكوا بطاعتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ على الوَعيدِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ هذهِ الآيةُ، وإنْ خَرَجَتْ على مَخْرَجِ القومِ، ولكنْ أرادَ بها الخاصَّ، وهو بَعْضُ الأعرابِ، إذْ في الإجراءِ على العُمومِ يُؤدّي إلى الكَذِبِ في خَبَرِ اللهِ عنْ ذلكَ، إذْ لا كلُّ الأعرابِ قالوا ذلكَ، ولا كلُّ الأعرابِ يَجِبُ أنْ يُقالَ لهمْ: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ ولكنْ يُقالُ لهمْ: ﴿قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ فهو يَرْجِعُ إلى خاصٍّ مِنَ الأعرابِ، فكأنهُ يَرْجِعُ إلى أهلِ النِّفاقِ منهمْ؛ فإنهمْ آمنوا، ولمّا يُؤمِنوا[(2)]. فلّما أطْلَعَ اللهُ ﷻ رسولَهُ ﷺ أنهمْ لم يُؤمِنوا، ولكنهمُ اسْتَسْلَموا، أو خَضَعوا للمؤمنينَ ظاهراً خوفاً مِنْ مَعَرَّةِ السيفِ وطَمَعاً في ما عندَ المسلمينَ مِنَ الخَيرِ، نَهاهُمْ أنْ يقولوا: آمَنّا إذا لم يكُنْ في قلوبِهِمْ ذلكَ، وأمَرَهُمْ أنْ يَقولوا: أسْلَمْنا؛ ومَعْناهُ ما ذَكَرْنا، أي خَضَعْنا، واسْتَسْلَمْنا، ولِيَرْتَفِعَ عنهمُ السيفُ.

ولا يَصِحُّ الاسْتِدْلالُ بالآيةِ على أنَّ الإسلامَ والإيمانَ مُتَغايِرانِ[(3)]؛ فإنهُ غايَرَ بَينَهما حينَ[(4)] نَهاهُمْ أنْ يقولوا: آمَنّا، وأمَرَهُمْ أنْ يقولوا: أسْلَمْنا. ولو كانَ واحداً لم يَصِحَّ هذا لأنّا نقولُ: لم يُرِدْ بهذا الإسلامَ الذي[(5)] هو الإيمانُ، ولكنْ أرادَ بهِ الاسْتِسْلامَ الذي هو الإيمانُ. والانْقِيادُ الظاهرُ، وهو ما يُسَمّى إيماناً أيضاً مِنْ حيثُ الظاهرُ.

فأمّا حقيقةُ الإيمانِ والإسلامِ [فإنها][(6)] تَرْجِعُ إلى واحدٍ، لأنَّ الإيمانَ هو أنْ يُصَدِّقَ كلَّ شيءٍ في شهادتِهِ على الرُّبوبيَّةِ والوَحْدانيَّةِ للهِ تعالى. والإسلامُ هو أنْ يَجْعَلَ كلَّ شيءٍ للهِ سالماً لا شِرْكَةَ لأحدٍ فيهِ.

فَمَتى اعْتَقَدَ أنَّ كلَّ شيءٍ / ٥٢٤ ـ أ/ في العالمِ للهِ تعالى، وهو الخالقُ لهُ، وكلَّ مَصْنوعٍ شاهدٌ ودليلٌ على صانِعِهِ، فقد صَدَّقَهُ في شهادتِهِ على صانِعِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الإيمانُ ليسَ هو [محسوساً مُرَكَّباً][(7)] يدخُلُ في القَلْبِ أو لا، ولكنَّ معناهُ: بَقِيَ فِعْلُ القَلْبِ، وهو التَّصديقُ؛ كأنهُ قالَ: ولم تُؤمِنْ قلوبُهُمْ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: آمنوا. (٣) في الأصل وم: غيران. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: هو الإسلام. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: محسوس مركب.

ثم هاتانِ الآيتانِ تَنْقُضانِ على الكَرّامِيَّةِ مَذْهَبَهُمْ في أنَّ الإيمانَ لا يكونُ بالقَلْبِ ولكنْ باللِّسانِ والقَولِ؛ فإنَّ أهلَ النِّفاقِ قد قالوا ذلكَ بِلِسانِهِمْ، ثم أخْبَرَ أنهمْ لم يؤمِنوا، وهُمْ يقولونَ: بل قد آمَنوا، فَيُقالُ لهمْ: أنتمْ أعلَمُ [أم][١] اللهُ؟ ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟ [يونس: ٥٩].

وفي هذهِ الآيةِ آيةٌ عظيمة على رسالتِهِ حينَ[٢] قالَ لهُ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ وقد قالَ لهمْ ﷺ ذلكَ، ولم يَتَهَيَّأْ لهمْ إنكارُ ذلكَ القولِ، فَعَرَفوا أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ، ولم يُظْهِروا ما في ضَميرِهِمْ خوفاً مِنَ السيفِ [مِنْ أن يَعْرِفَ][٣] النَّبِيُّ ﷺ واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ جائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ ما ذَكَرَ في سورةِ الفتحِ للمنافقينَ بَعدَ تَخَلُّفِهِمْ عنْ أمْرِ الحُدَيبِيَةِ مع المؤمنينَ حينَ[٤] قالَ: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الآية: ١٦] وما ذَكَرَ مِنْ أمْرِهِمْ في غَيرِ آيةٍ[٥] مِنَ القرآنِ؛ يقولُ: إنْ تُطيعوا اللهَ ورسولَهُ في ما يَدْعوكُمُ الرسولُ ﷺ إلى الخروجِ إلى الجهادِ والقِتالِ بَعدَ تَخَلُّفِكُمْ عنِ الحُدَيبِيَةِ، لا يَنْقُصْكُمْ مِنْ أعمالِكُمُ التي كانَتْ لكمْ شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بَعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لم يَنْقُصْكُمْ مِنْ أعمالِكُمُ التي عَمِلْتُموها مِنْ قَبْلُ، ولم تَضِلَّ[٦] أعمالُكُمُ التي عَمِلْتُمْ مِنْ بَعْدُ، وإنْ عَصَيتُموهُ وتَخَلَّفْتُمْ عنهُ في حياتِهِ لأنهُ قالَ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] قد كانَ نهاهُمْ عنِ الخُروجِ مَعَهُ لِلْغَزْوِ أبداً، فيقولُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بَعدَ وفاتِهِ، وتُجاهِدوا في سَبيلِ اللهِ ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ بل [يَقْبَلُ][٧] ذلكَ منكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في المنافقِينَ، فيكونَ فيهِ وَعْدُ المَغْفِرةِ لِلْمنافقِينَ إذا تابوا، وأطاعوا اللهَ ورسولَهُ كما وَعَدَ المَغْفِرةِ لِجميعِ الكَفَرةِ إذا تابوا عنِ الكُفْرِ بقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

فَعَلَى ذلكَ هذا، وهو كقولِهِ تعالى: [﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ][٨] وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

وقالَ[٩] بعضُهُمْ: هذا في جميعِ المؤمنينَ: إنَّ مَنْ أطاعَ اللهَ ورسولَهُ لا يُنْقِصُكُمْ مِنْ أعمالِكُمْ شيئاً، أي لا يُضَيِّعُ أعمالَكُمْ، بل يُثيبُكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] أي مَنْ عَمِلَ للهِ فلا يَضيعُ، ومَنْ عَمِلَ لِغَيرِهِ فقد يَضيعُ، فلا يَظْفَرُ على ثوابِهِ بشيءٍ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في المؤمنينَ الذينَ أسْلَموا؛ يقولُ: إذا أسْلَمْتُمْ فلا يَنْقُصُكُمْ مِنْ ثوابِ أعمالِكُمْ ما سَبَقَ منكُمْ مِنَ الكُفْرِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ كأنَّ هذا ذُكِرَ مُقابِلَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِ المُنافقِينَ حينَ[١٠] قالَ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ فقالَ لهُ[١١] ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ أنتمْ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاءِ. ثم نَعَتَهُمْ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾. أخْبَرَ أنَّ هؤلاءِ هُمُ الصادقونَ في إيمانِهِمْ، وأنتمْ يا أهلَ النِّفاقِ بما[١٢] أضْمَرْتُمُ الخِلافَ لهُ، ولم تُجاهِدوا معهُ، فَلَسْتُمْ بِصادِقينَ في إيمانِكُمْ. فَجَعَلَ الجهادَ دليلَ ظهورِ الصِّدْقِ في الإيمانِ لأنهُ مِنْ شرائطِ الإيمانِ الذي لا يجوزُ الإيمانُ دونَهُ[١٣].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ليعرف. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: آي. (٦) في الأصل وم: تضلوا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لهم. (١٢) في الأصل وم: بحيث. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: الذي.

ويَحْتَمِلُ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي صَدَّقوا اللهَ ورسولَهُ سِرّاً وعلانيَةً على الحقيقةِ، لا الذينَ أظْهَروا [الإيمانَ][1] ولم تَكُنْ قلوبُهُمْ مُصدِّقَةً لذلك كالمُنافقِينَ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟﴾ أي لم يَشُكّوا في حادثِ الوقْتِ، بل جاهدوا ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إظهاراً لِتحقيقِ الإيمانِ وصِدْقِهِ، ولَيسوا كالمُنافقِينَ الذينَ ارْتابوا، وشَكّوا في إيمانِهِمْ، وتَخلَّفوا عنِ الجهادِ مع رسولِ اللهِ ﷺ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ ثم قولُهُ[2] ﷻ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟ كأنهُ صِلةُ قولِهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ حينَ[3] قالوا بألسِنَتِهِمْ، وليسَ ذلكَ في قلوبِهِمْ. فأخبَرَ أنهُ يَعْلَمُ ما في قلوبِهِمْ مِنَ الإيمانِ والشكِّ والخِلافِ، كأنهمْ حينَ قالَ لهمُ الرسولُ ﷺ: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ فَلَجّوا في ذلكَ، وقالوا: بل آمَنّا؛ ظَنّوا أنهُ إنما قالَ ذلكَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟

يُخبِرُ أنَّ الذي أنْبَأني، وأخبَرَني بذلكَ، هو الذي يَعْلَمُ غَيبَ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وهو بكلِّ شيءٍ مِمّا في القلوبِ مِنَ الصِّدْقِ وغَيرِهِ عليمٌ. فكيفَ تُعَلِمونَ اللهَ بأنكُمْ مؤمنونَ، وهو يَعْلَمُ إنكُمْ لَكاذِبونَ؟

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ الذي حَمَلَهُمْ، وبَعَثَهُمْ على الامْتِنانِ عليهِ بالإيمانِ الذي أتَوا بهِ أنهمْ[4] قومٌ لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ، فَيظُنّونَ أنهمْ إذا أظْهَروا المُوافَقَةَ لم يَلْحَقْهُمْ بِسَبَبِهِ مَؤُنَةُ الخروجِ إلى القِتالِ، أو متى أظْهَروا الإيمانَ يَصيرُ المُسلِمونَ أعواناً لهمْ ونَحْوَ ذلكَ.

هذا الذي ذَكَرْنا ونَحْوُهُ بَعَثَهُمْ، وحَمَلَهُمْ على الامْتِنانِ عليهِ، ولو كانوا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ لَعَرَفوا أنَّ إيمانَهُمْ لأنفسِهِمْ؛ إذْ بِهِ نَجاتُهُمْ، وإليهِمْ يَقَعُ نَفْعُهُ، ليسَ في الإيمانِ للهِ تعالى نَفْعٌ، ولا في تركِهِ ضَرَر. تَعالى عنِ الضَّرَرِ والنَّفْعِ، فيكونُ الامْتِنانُ للهِ تعالى عليهمْ كما قالَ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ نَقْضُ قولِ المعتزلةِ: إنهُ يجبُ على اللهِ تعالى أنْ يَهْدِيَهُمْ لِقولِهِمْ بالأصْلَحِ؛ فإنهُ قالَ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ ولو كانَتْ هدايَتُهُمْ واجبةً عليهِ لا يكونُ لهُ عليهِمْ مِنَّةٌ لأنهُ مُؤَدٍّ ما عليهِ مِنَ الحقِّ. ومَنْ أدّى حقّاً عليهِ لآخَرَ لا يكونُ لهُ الامْتِنانُ على صاحبِ الحقِّ.

وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨] لو كانَتِ الهِدايَةُ عليهِ لا يكونُ في قولِهِ مُفَضِّلاً ولا مُنْعِماً، بل يكونُ لهُ عليهِمُ الامْتِنانُ، ومنهمُ الإفضالُ والإنعامُ لِما عَظَّموهُ، وبَجَّلوهُ بشيءٍ كانَ عليهِ فِعْلُ ذلكَ حقّاً واجباً لهمْ، فَدَلَّ على فَسادِ مَذْهَبِهِمْ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ الهدايَةَ ليستْ هي البَيانَ فَحَسْبُ لِوجهَينِ:

أحَدُهما: لأنَّ هدايةَ البَيانِ مِمّا قد كان في حقِّ الكافِرِ والمُسْلِمِ جميعاً، فلا مَعْنَى لِتَخصيصِ المسلِمينَ بهذهِ المِنَّةِ، ومِثْلُها موجودٌ في حقِّ غَيرِهِمْ.

والثاني: أنَّ البَيِّنَ قد عَمَّ الكافرَ والمُؤْمنَ، وقد أخبَرَ اللهُ تعالى بأنَّ لهُ المِنَّةَ عليهِمْ إنْ كانوا صادِقينَ في إيمانِهِمْ. فلو كانَتِ الهِدايَةُ، هي البيانُ /٥٢٤ ـ ب/ لا غيرُ، لَكانَ لا يُشترَطُ فيهِ شَرْطُ صِدْقِهِمْ لأنَّ مِنَّةَ البَيانِ تَعُمُّ الصادقينَ وغَيرَ الصادِقينَ.

دلَّ أنَّ المُرادَ مِنَ الهدايةِ الإسلامُ حتى تَتَحقَّقَ لهُ المِنَّةُ على الخُصوصِ في حقِّ المُسْلِمينَ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم الهِدايةُ المَذْكورةُ ههنا تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: خَلْقُ فِعْلِ الاهْتِداءِ منهمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: لأنه.

والثاني: التوفيقُ والعِصمَةُ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ﴾ خَلَقَ منكُمُ الاهتِداءَ، أو وَفَّقَكُمْ للإيمانِ، وعَصَمَكُمْ عنْ ضِدِّهِ.

وكذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧] على هذينِ الوجهَينِ: وَفَّقَكُمْ لهُ، وعَصَمَكُمْ عنْ ضِدِّهِ، أو خَلَقَ حُبَّهُ في قلوبِكُمْ، وزَيَّنَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هذا يُخرَّجُ على الوَعيدِ، أي هو بَصيرٌ بما أسَرُّوا، وأعلَنوا، ليكونوا أبداً على يَقَظَةٍ وحَذَرٍ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ. [وصلّى اللهُ على سَيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ][1].

(١) من م، ساقطة من الأصل.

سورة ق

كلها[1] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قٓ﴾ اسْمَ هذهِ السورةِ، وللهِ ﷻ أنْ يُسَمّيَ السُّوَرَ بما شاءَ[2] كما سَمّى كتابَهُ قُرآناً وزَبوراً وتَوراةً وإنجيلاً.

أقْسَمَ بهذهِ السورةِ والقرآنِ جُمْلَةً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ ﴿قٓ﴾ كِنايةً عنْ جميعِ الحروفِ المُقَطَّعةِ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [هي أسماءٌ][3] الحروفِ المُقَطَّعةِ؛ أقْسَمَ بالحروفِ المُقَطَّعةِ والمَجْموعةِ جميعاً.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ ﴿قٓ﴾ اسْمٌ للجَبَلِ المُحيطِ بالأرضِ، وهي مِنْ ياقوتةٍ خَضراءَ أو ياقوتةٍ حَمْراءَ، فَخُضْرَةُ السماءِ مِنْ ذلكَ. أقْسَمَ اللهُ تعالى بهِ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ والأولُ أشْبَهُ، وأقْرَبُ، لأنَّ العربَ لم تَعْرِفْ جَبَلَ قاف، ولم تَعْرِفْ عَظَمَتَهُ.

والقَسَمُ في الأصلِ لِتأكيدِ الخَبَرِ، فإنما يَتَحقَّقُ بما يُعْرَفُ ممّا[4] أُريدَ القَسَمُ في حَقِّهِ.

فإذا لم يُعْرَفْ، ولم يَعْظُمْ ذلكَ في عينِهِ، يُخَرِّجُ القَسَمُ مُخْرَجَ العَبَثِ، تَعالَى اللهُ عنْ ذلكَ.

إلّا أنْ يُقالَ: إنْ يكنْ هذا القسمُ في حقِّ أهلِ الكتابِ فإنهُ قد كانَ لهمْ كتابٌ، يَعْرِفُونَ ذلكَ، وكانَتْ لهمْ رُسُلٌ، قد بَلَّغَهُمْ ذلكَ. وكذا الظاهرُ أنَّ القَسَمَ في حَقِّ العربِ. فَدَلَّ أنَّ الأوَّلَ أشْبَهُ.

ثم هذهِ الحروفُ المُقَطَّعَةُ لم يَظْهَرْ في الأخبارِ تَفْسيرُها عنْ رسولِ اللهِ ﷺ بطريقِ التَّواتُرِ والاِشْتِهارِ، ولم يَثْبُتْ عنِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهمْ أجمعينَ، أنهُمْ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ ذلكَ، فَسَبيلُهُ الوقفُ فيها، لأنهُ معلومٌ ألّا يَقِفَ أحدٌ على المُرادِ بالحروفِ المُقَطَّعةِ إلّا مِنْ جهةِ السَّمْعِ. فلمّا لم يَظْهَرْ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ دلَّ أنهمْ تركوا ذلكَ، وإنما تَرَكوا لِوجوهٍ.

إمّا لأنَّ هذهِ الحروفَ المُقَطَّعةَ كانَتْ بَيانَ أحكامٍ في نوازِلَ عَرَفوها، وتَرَكوا سؤالَها، لِما عَرَفوا تلكَ الأحكامَ والنوازِلَ.

وإمّا أنْ تَرَكوا ذلكَ مِنَ السرائِرِ التي لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى الخَلْقَ على ذلكَ، وهو المُتَشابِهُ الذي يَجِبُ الإيمانُ بِهِ، ولا يُطْلَبُ لهُ تفسيرٌ، وكانَ ذلكَ ممّا اخْتَصَّ الرسولَ ﷺ بِمَعْرِفَتِهِ لقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٧] فلم يَسْألوا منهُ بَيانَ ذلكَ.

وإمّا أنْ كانَ ذلكَ عندَهمْ أسْماءَ السُّوَرِ لِتَعريفِ السُّوَرِ، وأسْماءُ الأعلامِ لا تُطْلَبُ فيها المَعاني، لِذلكَ لم يَسْألوا مَعانِيَها، ولم يَرِدِ التَّعْليمُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ.

كما أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ تَرَكوا سؤالَ التفسيرِ للآياتِ:

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر أن سورة ق. (٢) في الأصل وم: ذكر ق كناية. (٣) في الأصل وم: هو اسم. (٤) في الأصل وم: من.

إمّا لأنّ في وُسْعِهِمُ الوصولُ إلى مَعْرِفةِ ما تَضَمَّنَتْها الآياتُ، وعَرَفوا المُرادَ منها باللِّسانِ، وعَرَفوا مَواقعَ النوازِلِ، فَفَهِموا المُرادَ، فلم يَحْتاجوا إلى السؤالِ.

وإمّا أنْ تَرَكوا لِما أنها تَضَمَّنَتْ أحكاماً، عَرَفوها، وتركوا السؤالَ.

فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذَكَرَ القَسَمَ، ولم يُبَيِّنْ مَوضِعَ [جوابِ](١) القَسَمِ واخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: مَوضِعُ [جوابِ](٢) القَسَمِ في آخرِ السورةِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الآية [١٦].

وقالَ بعضُهُمْ: [في](٣) قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [٣٨].

وقالَ بعضُهُمْ: مَوضِعُ [جوابِ](٤) القَسَمِ قولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [الآية: ٥] أقْسَمَ بقولِهِ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ بأنَّ الكَفَرَةَ في أمْرٍ مَريجٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَوضِعُ [جوابِ](٥) القَسَمِ هو ما [قالَ](٦) ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [الآيتان: ٢ و٣] ذَكَرَ ههنا عَجَبَهُمْ مِنْ شَيْئَيْنِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرَ ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي مِنَ البَشَرِ ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ وهو كقولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقولِهِمْ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] لا يَزالونَ يُنْكِرونَ الرسالةَ في البَشَرِ.

والثاني: مِنَ الإحياءِ بَعدَ الموتِ لِقولِهِمْ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [الآية: ٣] وقد ذَكَرَ في غَيرِ آيةٍ(٧) مِنَ القرآنِ عَجَبَهُمْ وإنكارَهُمُ البَعْثَ بَعدَ الموتِ.

فجائزٌ أن يكونَ مَوضِعُ [جوابِ](٨) القَسَمِ ما عَجِبوا، أو أنكَروا [أنْ يكونَ مِنَ](٩) البَشَرِ رسولٌ، أو يَحْيَوا(١٠) بعدَ الموتِ. أقْسَمَ بما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أنهُ يكونُ ذلكَ رَدّاً لإنكارِهِمْ وتَعَجُّبِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنكارُ الكَفَرَةِ وعَجَبُهُمْ أنْ كيفَ بُعِثَ مِنَ البَشَرِ رسولٌ؟ أو كيفَ لا اختارَ بَعْثَ الرسلِ مِمَّنْ عندَهُ، وهُمُ الملائكةُ؟ وأبداً إنما يُبْعَثُ الرسلُ مِمَّنْ كانَ عندَ المُرْسِلِ، لا مِمَّنْ كانَ [هو مَبْعوثاً](١١) إليهِمْ في الشاهِدِ، لا مَعْنَى، ولا يَنْبَغي لهمْ أنْ يُنْكِروا بَعْثَ الرسولِ مِمَّنْ هو عندَ المَبْعوثِ إليهِمْ، وأنْ يَعْجَبوا مِنْ ذلكَ، لأنَّ بَعْثَ الرسولِ مِنْ جِنسِ المُرْسَلِ إليهِمْ والمَبْعوثِ إليهِمْ في مَعْرِفةِ صِدْقِهِ وحَقيقةِ دَعْواهُ أقْرَبُ مِنْ أنْ يكونَ مِنْ خِلافِ جِنْسِهِمْ، لأنهمْ إنما يَعْرِفونَ رسالَتَهُ بآياتٍ ودلالاتٍ، يُقيمُها على رسالَتِهِ بحيثُ يَخْرُجُ عنْ وُسْعِهِمْ إقامَتُها، ولا يَعْرِفونَ صِدْقَ تلكَ الآياتِ وحقيقَتَها، إذا كانَتْ تلكَ مِنْ غَيرِ جنسِهِمْ بِما لَعَلَّ أنَّ ما أتاهُمْ بهِ، وزَعَمَ أنها آياتٌ، ليسَتْ بآياتٍ، لِما في وُسْعِهِ إتيانُ مِثْلِها، وليسَ في وُسْعِهِمْ ذلكَ لِما أنَّ القِوَى تَخْتَلِفُ عندَ اخْتِلافِ الجِنْسِ.

فَدَلَّ أنَّ بَعْثَ/ ٥٢٥ ـ أ/ الرسولِ مِنْ جِنْسِ المرسَلِ إليهِمْ أحَقُّ وأقْرَبُ إلى مَعْرِفةِ صِدْقِ الآياتِ والمُعْجِزاتِ، واللهُ المُوفِّقُ. ولأنَّ كلَّ ذي نَوعٍ مِنْ نَوعِهِ وكلَّ ذي شَكْلٍ مِنْ شَكْلِهِ أمْيَلُ، وبِهِ(١٢) آنَسُ مِنْ خِلافِ جِنْسِهِ ونوعِهِ، فكانَ الغَرَضُ(١٣)، وهو التأليفُ والإجتِماعُ، في هذا أقْرَبَ إلى الحُصولِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُمْ: هلّا بَعَثَ إلينا الرسُلَ مِمَّنْ هو عندَهُ فاسدٌ، لأنَّ الخَلائقَ جميعاً مِنْ حيثُ العِنْدِ للهِ تعالى واحدٌ، لا يُوصَفُ أحدٌ مِنَ الخَلائقِ أنهُ عندَهُ إلّا مِنْ حيثُ القُرْبُ بِهِ بالطاعةِ لهُ والإئتِمارِ بأمْرِهِ وتَرْكِ الخِلافِ لهُ. فأمّا على ما يوصَفُ المَخْلوقُ عند مَخْلوقٍ فلا؛ إذْ ذاكَ وَصْفُ المُتَمَكِّنِ في المكانِ. تَعالَى اللهُ عنْ ذلكَ عُلُوّاً كبيراً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) و(٤) و(٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: من أن يكون. (١٠) في الأصل وم: يحيون. (١١) في الأصل: هذا مبعوث، في م: هو مبعوث. (١٢) الواو ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: العرش.

فإذا كانَ المُرادُ مِنْ عندِهِ مِنْ حيثُ القُرْبُ بِهِ بالطاعةِ والقيامِ بأمرِهِ ممّا يُثْبِتُ أهليَّةَ الرسالةِ وصلاحَها فذلكَ ممّا لا يوجِبُ الفَضْلَ بَيْنَ البَشَرِ والملائكةِ، بل مِنْ جِهَةِ البَشَرِ أحقُّ لِما هُمْ يَفْعَلونَ عن غَيْبِ الدلائلِ اجْمَعَ دونَ العِيانِ، واللهُ أعلَمُ بِحُجَّتِهِمْ: أنهُ لو أرادَ إخبارَنا، كيف أماتَنا؟ ولا أحَدَ في الشاهِدِ يبني بناءً، فَيَهْدِمُهُ، ويَبْني مِثْلَهُ، فليسَ بشيءٍ، لأنهُ لو لم يكنْ أماتَهُ، ثم أحياهُ، لكانَ الجزاءُ بالأعمالِ يكونُ بِحَضْرَةِ الأفعالِ، بذلكَ يوجِبُ أنْ يكونَ إيمانُهُمْ إيمانَ اضطِرارٍ لا إيمانَ اختِيارٍ وإيثارٍ، لأنَّ مَنْ عايَنَ أنهُ يدخُلُ النارَ، ويُعَذَّبُ فيها أبَدَ الآبدينَ، لا يَعْمَلُ ذلكَ العَمَلَ الذي أوعِدَ بِهِ، بل يَتْرُكُهُ. وكذا مَنْ عايَنَ أنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى، وعَمِلَ طاعةً وعبادةً، يُدْخَلُ الجنةَ، ويُكْرَمُ أبَدَ الآبِدينَ، لا يَعْمَلُ غيرَ ذلكَ العَمَلِ. فَتَرْتَفِعُ المِحْنَةُ، ويكونُ الإيمانُ بِحَقِّ الاضطِرارِ، فأخَّرَ ذلكَ ليكونَ الإيمانُ بِحَقِّ الاختيارِ، حتى يكونَ الإيمانُ بحقِّ الاختيارِ حتى تكونَ لهُ قيمةٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وَصَفَ القرآنَ مَرَّةً بأنهُ كريمٌ ومَرَّةً بأنهُ حكيمٌ ومَرَّةً بأنهُ مَجيدٌ. يَحْتَمِلُ أنما سَمّاهُ بهذِهِ الأسماءِ على مَعْنَى أنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ يَصِرْ مجيداً كريماً حكيماً أي بِمَنْزِلَةِ[1] مَجيدٍ كريمٍ حكيمٍ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذِهِ صفاتُ القرآنِ راجِعةً إلى عَيْنِهِ كما يُقالُ: كلامُ حِكْمَةٍ وكلامُ سَفَهٍ، وإنما يُرادُ بِهِ عَيْنُهُ. فَعَلَى هذا يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَجيدُ الماجدُ والتَّمْجيدُ التَّعْظيمُ، وأمْجَدَتِ الدابةُ مِنَ العَلَفِ إذا أكْثَرَتْ ذلكَ، وأمْجَدَ القومُ إذا أكْثَروا مِنَ الطعامِ والشرابِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي لا يكونُ؛ كَنّوا بالبَعيدِ عمّا لا يكونُ عندهُمْ.

كذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي رَدٌّ؛ يُقالُ: رُجِعَ رَجْعاً إذا رُدَّ، ورَجَعَ رُجوعاً إذا انْصَرَفَ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ظاهِرُ هذا أنْ يكونَ هذا قولَ أولئكَ الكَفَرَةِ؛ قالوا ذلكَ على سَبيلِ الاحتِجاجِ لِما أنْكَروا مِنَ البَعْثِ، أي قد عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ مِنْ لُحومِنا، وتأكُلُ مِنْ أنفسِنا، فأنّى يُحْيِي بَعْدَ ذلكَ، وهو كقولِهِمْ: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ونَحْوُهُ.

لكنَّ أهلَ التأويلِ بأجمعِهِمْ صَرَفوا هذا القولَ إلى اللهِ تعالى أنهُ قالَ ذلكَ جواباً لقولِهِمْ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ فقالَ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي عن عِلْمٍ مِنّا بما تأكُلُ منكُمْ، وينْقُصُ، قُلْنا: إنكُمْ تُبْعَثونَ، وتُحْيَونَ، على علمٍ منا، بذلكَ أخْبَرَكُمُ الرسلُ بالإحياءِ والبعثِ بَعدَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي عندنَا كتابٌ يَحْفظُ أحوالَهُمْ وأفعالَهُمْ وجميعَ ما يكونُ منهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي مع علمي فيهِمْ، هُمْ عندَنا في كتابٍ حفيظٍ.

وقالَ قَتادةُ: ما أكَلَتِ الأرضُ منهمْ، وكانوا تُراباً، ونحنُ عالمونَ، وهُمْ مع عِلْمِنا في كتابٍ حفيظٍ، وهو مثلُ الأوَّلِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي بالقرآنِ، يَحْتَمِلُ أي بمحمدٍ[2] ﷺ وقد كَذَّبوا بهما معاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مُخْتَلِطٍ؛ يُقالُ: مَرِجَ أمْرُ الناسِ، ومَرِجَ الدينُ، وأصلُ المَرَجِ: أنْ يَقْلَقَ الشيءُ، فلا يَسْتَقِرَّ، يُقالُ: مَرِجَ الخاتَمُ في يدي مَرَجاً، إذا قَلِقَ للهُزالِ، أي تَحَرَّكَ. وقيلَ: مُضطَرِبٌ، مُخْتَلِفٌ.

وهكذا كانَ قولُهُمْ مُخْتَلِفاً مُضطَرِباً في القرآنِ والرسولِ جميعاً: قالوا في الرسولِ ﷺ أقوالاً مُضطَرِبةً مُخْتَلِفَةً: مَرَّةً نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ، ومَرَّةً إلى الشِّعْرِ، ومَرَّةً إلى الجُنونِ، ومَرَّةً إلى الافتِراءِ على اللهِ تعالى، وإنهُ يَتَلَقّاهُ مِنْ فلانٍ، ونَحْوَ ذلكَ مِنْ أقوالٍ مُخْتَلِفةٍ مُضطَرِبةٍ في ما يدفَعُ كلُّ واحدٍ مِنْ ذلكَ الآخَرَ.

---

(١) الباء ساقطة من الأصل وم. (٢) الباء ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ قالوا في القرآنِ: مَرَّةً إنهُ سِحْرٌ، ومَرَّةً إنهُ شِعْرٌ، وإنهُ مِنْ أساطيرِ الأولينَ، وإنهُ مُفْتَرًى، وإنهُ اخْتِلاقٌ، وكلُّ ذلكَ ممّا يدفَعُ بَعْضُهُ بَعْضاً. وهذا هو الاضْطِرابُ والاخْتِلافُ والاخْتِلاطُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي ضلالٍ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ الآيةُ؛ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الآياتُ صِلَةَ ما ذَكَرَ مِنْ عَجَبِهِمْ مِنْ بَعْثِ الرسلِ مِنَ البَشَرِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ بقولِهِ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ مُرْتَفِعةً مُلْتَصِقةً بَعْضُها بِبَعْضٍ مُتَّسِقَةً بِلا فُروجٍ ولا عِمادٍ مَعَ صَلابَتِها وكَثافَتِها وغِلَظِها؟

وألَمْ يَنْظُروا إلى الأرضِ كيفَ بَسَطْناها، وألْقينا فيها الجِبالَ الرّواسِيَ أوتاداً لِئَلّا تَميدَ بأهلِها حتى عَرَفوا إنَّ مَنْ قَدَرَ على رفعِ السماءِ بلا عَمَدٍ مَعَ ارْتِفاعِها وغِلَظِها وصَلابَتِها حتى [لا][1] يَنْتَهِيَ أحدٌ إلى طَرَفٍ مِنْ أطرافِها ولا عِلْمِ نِهايَتِها، وجَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ[2] الأرضِ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهما قادرٌ على الإحياءِ بَعْدَ الموتِ، وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وأنَّ مَنْ فَعَلَ هذا لا يَفْعَلُ عَبَثاً باطِلاً، ولكنْ يَفْعَلُهُ عنْ حِكْمةٍ وتَدْبيرٍ؟

ولو كانَ على ما قالوا أنْ لا بَعْثَ، ولا جَزاءَ، كانَ خَلْقُ ذلكَ كلِّهِ عَبَثاً باطِلاً، ويكونُ فِعْلُ ذلكَ فِعْلَ سَفَهٍ، لا فِعْلَ حِكْمةٍ.

فلمّا كانَ فِعْلُ ذلكَ كلِّهِ على التّدْبيرِ الذي ذَكَرَ وعلى الاتِّساقِ الذي جَرَى حُكْمُهُ أنْشَأَ ذلكَ مِنْ غيرِ تفاوُتٍ، دلَّ أنهُ لم يُنْشِئِ الخَلْقَ مِنَ المُكَلَّفينَ لِيَتْرُكَهُمْ سُدًى: لا يأمُرُ، ولا يَنْهى، ولا يَمْتَحِنُ، فيكونَ [خَلْقُهُمْ][3] عَبَثاً، بل لِيَمْتَحِنَهُمْ بالأمرِ والنَّهْيِ، ليكونَ فِعْلُهُ في العقلاءِ على نَهْجِ الحكمةِ كما في غَيرِهِمْ مِنَ الخَلائقِ.

فإذا كانَ كذلكَ فلا بُدَّ مِنْ رسولٍ يُخْبِرُهُمْ، ويُعَلِّمُهُمْ ما لا يَقِفُ عليهِ العقلُ مِنْ كَيفِيَّةِ شُكْرِ المُنْعِمِ ومِقْدارِهِ ووقْتِهِ ونَحْوِ ذلكَ ومُؤَكِّدِ ذلكَ الأمْرِ والنَّهْيِ بالوَعْدِ والوعيدِ.

ثم كانَ لهُ وَضْعُ الرسالةِ في مَنْ شاءَ وفي أيِّ جِنْسٍ شاءَ لأنهُ حكيمٌ عليمٌ، لا يكونُ منهُ الخَطَأُ في التدبيرِ والجَهْلِ بالأصْلَحِ والأوفَقِ بالحِكْمةِ. فَدَلَّ ذلكَ على إثْباتِ الرسالةِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أيِ انْظُروا إلى ما ذَكَرَ. والثاني: قد نَظَروا بأبصارِهِمْ، ولكنْ لم يَنْظُروا نَظَرَ مُعْتَبِرٍ، يَنْظُرُ بِقَلْبِهِ[4]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ قيلَ: مِنْ صُدوعٍ وشُقوقٍ، والواحدُ فَرْجٌ، وهو الموضِعُ / ٥٢٥ ـ ب/ بَينَ الموضِعَينِ والفُرْجَةُ [مُثَلَّثَةً][5] مِنَ الفَرَجِ؛ ومنهُ يُقالُ: فَرَّجْتُ عنهُ الغَمَّ، أي كَشَفْتُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

أخْبَرَ أنكُمْ لم تَرَوا في السماءِ شُقوقاً وفُطوراً، وفي الشاهدِ البناءُ، وإنْ عَظُمَ، وأُحْكِمَ، لا يَخْلو مِنْ نُقصانٍ وشُقوقٍ، تَرِدُ عليه. فإذا لم تَرَوا ذلكَ فهلّا دَلَّكُمْ ذلكَ على أنَّ خالِقَهُ قادرٌ على الكَمالِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ؟

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ اسْمُ الزَّوجِ يَقَعُ على الشَّكْلِ والضِّدِّ، وكلُّ ذي شَكْلٍ، هو ذو ضِدٍّ، والبَهيجُ ما يُبْهِجُ بِهِ أهلَهُ؛ فَمَعناهُ: أنْبَتْنا مِنْ كلِّ زوجٍ ما يُبْهِجُ بِهِ أهلَهُ، وما يُسَرّونَ بذلكَ مِنْ ألوانِ النباتِ، وجواهِرِها.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الباء ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: القلب.
(٥) في الأصل وم: بهما.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ما يُبْهِجُ بِهِ أهلَهُ، أي مِنْ كلِّ جِنْسٍ حَسَنٍ؛ يُقالُ: بَهُجَ يَبْهُجُ بَهاجَةً[1]، فهو بَهيجٌ، أي حَسَنٌ، وأمّا مِنَ السرورِ فَيُقالُ[2]: بَهِجَ يَبْهَجُ بَهَجاً، فهو بَهِيجٌ، أي مسرورٌ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي يُبصِرُ ذلكَ كلُّ عبدٍ منيبٍ، أي مَنْفَعةُ ذلكَ تكونُ لِمَنْ ذَكَرَ، وهو العبدُ المنيبُ إلى اللهِ تعالى والمُقْبِلُ على طاعتِهِ. فأمّا مَنِ اعْتَقَدَ الخِلافَ لهُ فلا.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ لأنهُ يُسْتَعْمَلُ في أمرِ الدينِ والدنيا، [ويُطَهِّرُ بِهِ][3] كلُّ شيءٍ، ويُزَيِّنُ، وبِهِ حياةُ كلِّ شيءٍ ونَماؤهُ. والمُبارَكُ كلُّ خيرٍ يكونُ على النماءِ والزيادةِ في كل وقتٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يقولُ: أنبَتْنا بذلكَ الماءِ المُبارَكِ المُنْزَلِ مِنَ السماءِ جَنّاتٍ أي بساتينَ. والمكانُ الذي جُمِعَ فيهِ كلُّ أنوعِ الشجرِ سُمِّيَ بُستاناً وجنّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي أنبَتَ ذلكَ الماءُ كلَّ حَبٍّ حَصيدٍ؛ فَدَخَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أنواعَ الشجرِ والغَرْسِ والنباتِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ والحَصيدُ، هو الحَبُّ نفسُهُ. لكنْ أضافَ الحبَّ إلى الحَصيدِ. ويجوزُ مِثْلُ هذا كما يُقالُ. صلاةُ الأولَى ومَسْجِدُ الجامعِ، وقالَ بعضُهُمْ: هما مُتَغايِرانِ[4]: الحَبُّ ما يَخْرُجُ منهُ [النباتُ][5] والحَصيدُ ما يُحْصَدُ مِنَ القَصَبِ الذي يَصيرُ نبْتاً، لأنَّ الحَبَّ، لا يُحْصَدُ، وإنما يُحْصَدُ الساقُ منهُ. لِذلكَ أضافَ الحَبَّ إلى الحَصيدِ، وهو ثَمَرُهُ[6]، وقِوامُهُ بِهِ. لِذلكَ أضافَهُ إليه كما يُقالُ: ثَمَرُ الشَّجرةِ ونحوُ ذلكَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ قولُهُ: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي طِوالاً[7]؛ يُقالُ: بَسَقَ الشيءُ بُسوقاً إذا طالَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ أي حوامِلَ؛ يُخْبِرُ اللهُ ﷻ عنْ بَرَكَةِ الماءِ أنهُ بِلُطْفِهِ قد[8] جَعَلَ الماءَ بحيثُ يُظْهِرُ بركَتَهُ ونَماءَهُ وأثَرَهُ على رأسِ النخيلِ، وإنْ طالَ، يسقي الأصلَ [والرأسَ][9] لِما جَعَلَ في سِرِّيَّتِهِ مِنَ البَرَكةِ والمَعْنى ما يُظْهِرُ ذلكَ، ولا تُعْلَمُ حقيقةُ ذلك المَعْنى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي مَنْضودٌ، والطَّلْعُ أوّلُ ما يَخْرُجُ مِنَ النخيلِ، فَيَحْمِلُ، والتَّنضيدُ، هو التّأليفُ والتَّركيبُ، أي يُؤلِّفُ بعضُهُ إلى بعضٍ، ويُرَكِّبُ، ويُسَمّى ذلكَ كُفُرّى، وإذا نَضِجَ استوجبَ الطَّلْعَ، وتَفَرَّقَ، وصارَ رُطَباً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿نَّضِيدٌ﴾ أي مَتَراكِمٌ بَعْضُهُ على بَعْضٍ، والمِيلُ المُتَراكِمُ؛ يُقالُ لهُ: مَنْضودٌ، والتَّنْضيدُ، هو جَعْلُ بَعْضِهِ فوقَ بَعْضٍ، ونَضَدَ الشيءَ بنفسِهِ، فهو نَضيدٌ، وقيلَ: نَضيدٌ أي كثيرٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أخبَرَ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ إنما أنبَتَهُ، وأخرجَهُ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً﴾ أي بالماءِ ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي أحْيَى بالماءِ كلَّ بَلْدَةٍ مَيْتٍ وكلَّ بُقْعَةٍ مَيتَةٍ وكلَّ غَرْسٍ، فَصارَ بِهِ حياةُ كلِّ حيٍّ ونَماءُ كلِّ شيءٍ.

ثم قولُهُ[10] تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي كما قَدَرَ على إحياءِ ما ذَكَرَ مِنَ الأرضِ بَعدَ مَوتِها وإحياءِ النباتِ والغَرْسِ وكلِّ شيءٍ بَعدَ موتِهِ بِذلكَ الماءِ [فَعَلَى ذلكَ هو][11] قادرٌ على إحيائِكُمْ بَعدَ موتِكُمْ وبَعدَ ما صِرْتُمْ تُراباً.

والأعجوبةُ في إحياءِ ما ذَكَرَ كلُّهُ مِنَ الأرضِ والنباتِ والغَرْسِ إنْ لم يَكُنْ أكْثَرَ لم يكُنْ دونَ ما [في][12] إحياءِ الناسِ بَعدَ موتِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: بهجا. (٢) في الأصل وم: فقال. (٣) من م، في الأصل: ويطهره. (٤) في الأصل وم: غيران. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: شجره. (٧) في الأصل وم: طوال. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) في م: فعلى ذلك، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

فإذْ قد عَرَفوا قدرتَهُ في إحياءِ ما ذَكَرَ، وأقرّوا به، كذلكَ لَزِمَهُمْ أنْ يُقِرُّوا بِهِ في إحياءِ كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٢و١٣و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ ذَكَرَ هذهِ الأنباءَ لوجهَينِ:

أحَدُهما: يُصَبِّرُ رسولَهُ ﷺ على أذى قومِهِ وتكذيبِهِمْ إيّاهُ كما صَبَّرَ أولئكَ؛ يقولُ: إنكَ لَسْتَ بأوّلِ رسولٍ، كَذّبَهُ قومُهُ، بل كانَ قبلَكَ رُسُلٌ، كَذّبَهُمْ قومُهُمْ، فَصَبَروا على ذلك، فاصْبِرْ أنتَ أيضاً، وهو كقولِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والثاني: يُحَذِّرُ قومَهُ أنْ يَنْزِلَ بتكذيبِهِمْ إيّاهُ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ بِهِ كما نَزَلَ بِمَنْ ذَكَرَ مِنَ الأقوامِ بِتكذيبِهِمْ وسوءِ مُعامَلَتِهِمْ.

وعلى هذينِ المَعْنَيينِ جَمْعَ ما ذَكَرَ في القرآنِ مِنَ الأنباءِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أصحابُ الرَّسِّ: اختُلِفَ في الرَّسِّ. [قالَ بعضُهُمْ:][1] هو بئرٌ دونَ اليمامةِ، وكانَ عندَها أقوامٌ، كَذَّبوا رسلَهُمْ، فأهلَكَهُمُ اللهُ تعالى. وقيلَ: الرَّسُّ، هو الوادي. وقالَ [بعضُهُمْ][2]: الرَّسُّ، هو خَدٌّ خَدُّوهُ، وجَعَلوا فيهِ النارَ، وأحرَقوا فيها نَبِيَّهُمْ ﷺ. وقالَ بعضُهُمْ: سُمُّوا بذلكَ لأنهمْ رَسُّوا نَبِيَّهُمْ ﷺ في البئرِ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمْ قومُ الرسُلِ الذينَ ذَكَرَهُمْ في سورةِ يس بقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤].

وعنِ الأصَمِّ أنهُ قالَ: الرَّسُّ كلُّ مَوضعٍ، خُدَّ فيهِ، ولِذلكَ سُمِّيَ الخَدُّ خَدّاً لِجَرْيِ الدَّمْعِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ أي قومُ لوطٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قيلَ: إنهُ كانَ رجلاً مُسْلِماً صالحاً، مَدَحَهُ اللهُ تعالى، وذَمَّ قومَهُ، سُمِّيَ تُبَّعاً لِكَثْرَةِ أتباعِهِ. ولا حاجةَ بنا إلى تفسيرِهِ بأنهُ [مَنْ][3] كانَ؟ وما اسْمُهُ؟ كما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ لِما لم يُذْكَرْ في القرآنِ، ولم يَثْبُتْ بالتواتُرِ، فلا نَزيدُ على ذلك القَدْرِ احْتِرازاً عنِ الكَذِبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي أعَجِزنا عن خَلْقٍ؟ أي حينَ[4] لم نَعْجَزْ عنِ الخَلْقِ الأوّلِ، فكيفَ نَسَبونا إلى العَجْزِ عنِ الخَلْقِ الثاني؟.

والثاني: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي أجَهِلْنا، وخَفِيَ علينا تَدبيرُ الخَلْقِ الثاني وابْتِداءُ تَدبيرِ الخَلْقِ الأوّلِ؟ وإنشاؤهُ أشَدُّ عندَكُمْ مِنْ إعادتِهِ، والإعادةُ عندَكمْ أهوَنُ.

فإذا لم نَعْجَزْ عنِ ابْتِداءِ إنشائِهِ، ولم نَجْهَلْ، ولم يَخْفَ علينا الابْتِداءُ، فأنّى نَعْجَزُ عنِ الإعادةِ؟

ثم قالَ بعضُهُمْ: الخَلْقُ الأوّلُ، هو آدمُ ﷺ، وقالَ عامَّتُهُمْ: هو ابْتِداءُ خَلْقِهِمْ، واللهُ أعلَمُ

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هُمْ في شَكٍّ واخْتِلاطٍ مِنْ خَلْقٍ /٥٢٦ ـ أ/ جَديدٍ لمّا تَرَكوا النَّظَرَ في سَبَبِ المعرفةِ لِيَقَعَ عليهمُ العِلْمُ بذلك.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ على عِلْمٍ منّا يُحَدِّثُ بِهِ نفسَهُ مِنْ أنواعِ الحديثِ والوَسْوَسَةِ لا عَنْ جَهْلٍ وخَفاءٍ عنْ ذلكَ. فإنْ هو كَفَّها، وحَبَسَها عمّا تَدْعو بِهِ إليهِ نفسُهُ، وتَهْواهُ، وصَرَفَها[5] إلى ما يَدْعوهُ عَقْلُهُ وذِهْنُهُ، نجا، وفازَ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣] وقولِهِ[6]: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ و٤١].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: ويصرفها. (٦) في الأصل وم: وقال.

وإنْ تركَها حتى تَمادَى في هواها هَلكَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ ﴿وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ و٣٨ و٣٩] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

والثاني: يَذْكُرُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي نحنُ مُطَّلِعونَ على ذلكَ، ليسَ عِلْمُ ذلكَ إلى الحَفَظَةِ، وهُمْ يَتَوَلَّونَ كتابَتَهُ، أي لم يَجْعَلْ ذلكَ إلى أحدٍ، إنما ذلكَ إلى اللهِ تعالى، هو العالمُ بذلكَ، وهو المُطَّلِعُ عليهِ دونَ الملائكةِ، وإنما إلى الملائكةِ ما يَلْفِظُهُ، ويَفْعَلُ بالجوارحِ لِقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] [وقولِهِ في سورةٍ][1] أُخرَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ و١١ و١٢] أخبرَ أنَّ الحفظةَ إنما يَعْلَمونَ ما تَفعلونَ ظاهراً. أمّا ما تُسِرُّونَ في قلوبِكُمْ فاللهُ هو المُطَّلِعُ على ذلكَ، العالمُ، لِتكونوا أبداً على اليَقَظَةِ والحَذَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يُفْهَمُ مِنْ قُرْبِ الربِّ تعالى إلى العبدِ ما يُفْهَمُ مِنْ قُرْبِ العبدِ إلى اللهِ. وإنما يكونُ قُرْبُ العبدِ إلى اللهِ تعالى بالطاعةِ لهُ والقِيامِ بأمرِهِ والانْقِيادِ والخُضوعِ لهُ. هذا هو المَفهومُ مِنْ قُرْبِ العبدِ إلى اللهِ تعالى لا قُرْبُ شيءٍ آخَرَ. فَعَلَى ذلكَ يُفْهَمُ مِنْ قُرْبِ اللهِ تعالى إلى العبدِ الإجابةُ لهُ والنَّصرُ والمَعونةُ والتوفيقُ على الطاعاتِ.

وعلى ذلكَ ما يُقالُ: فلانٌ قريبٌ إلى فلانٍ، لا يَعْنونَ قُرْبَ نفسهِ مِنْ نفسِهِ في المكانِ، ولكنْ يَعْنونَ نَصْرَهُ لهُ ومَعونَتَهُ إياهُ وإجابَتَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ القربَ منهُ كنايةً عنِ العِلْمِ بأحوالِهِ ظاهراً وباطناً، واللهُ أعلَمُ.

وأصلُهُ أنْ تُعْتَبَرَ الأحوالُ في ما ذَكَرَ مِنَ القُرْبِ:

فإنْ كانَ في السؤالِ فالمرادُ أنهُ قريبٌ منهُ بالإجابةِ لهُ، أي يُجيبُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإنْ كانَ في ما يُسِرّونَ، ويُضمِرونَ، فَيُفْهَمُ منَ القُرْبِ في تلكَ الحالةِ العِلْمُ بهِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقولُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يُفْهَمُ منهُ النصرُ والمعونةُ أو العِلْمُ.

فيكونُ قولُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي أعْلَمُ وأولَى بهِ وأحَقُّ مِنْ غيرِهِ في النَّصرِ والمعونةِ وأولَى بهِ في الإجابةِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [عنِ اللهِ ﷻ:][2] «مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ منهُ شِبْرَيْنِ» [بنحوهِ البخاري ٧٥٣٧] على ما ذَكَرْنا مِنْ قُرْبِ الطاعةِ لهُ وقُرْبِ الرَّبِّ إليهِ بالنصرِ والمعونةِ لا قربِ المكانِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عِرْقُ العُنُقِ، والوريدُ العُنُقُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو عِرْقٌ بينَ القَلْبِ والحُلْقومِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو عِرْقُ القَلْبِ، مُعَلَّقٌ بهِ، فإذا قُطِعَ ذلكَ العِرْقُ يموتُ الإنسانُ واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي اذْكُرْ تَلَقِّيَ المُتَلَقِّيَيْنِ، أوِ احْفَظْ تَلَقِّيَ المُتَلَقِّيَيْنِ، وهما المَلَكانِ المُسَلَّطانِ على أعمالِكَ وأقوالِكَ، إذْ يَتَلَقَّيانِ منكَ أعمالَكَ وأقوالَكَ، ويَحْفَظانِ عليكَ، ويَكْتُبانِ.

يَذْكُرُ هذا [ويُخْبِرُهُ أنَّ عليهِ][3] حافظاً ورقيباً، وإنْ كانَ هو تعالى حافظاً لجميعِ [أفعالِهِ وأقوالِهِ][4] عالماً بهِ فَحِفْظُ الملائكةِ وَعَدَمُ ذلكَ بِمَنْزِلةٍ في حقِّ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وقال في آية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويخبرهم أن عليهم. (٤) في الأصل وم: أفعالهم وأقوالهم.

لكنْ يُخرِّجُ الأمرُ للملائكةِ بحِفظِ أعمالِهِ[1] وكتابةِ ذلكَ على وجوهٍ مِنَ الحِكمةِ:

أحَدُها: ليكونَ[2] على حذَرٍ أبداً ممّا [يقولُ، ويَفعَلُ][3] ما يكونُ في الشاهدِ مِنْ عِلمٍ أنَّ عليهِ حافظاً ورقيباً في أمرٍ يكونُ أبداً على حَذَرٍ وخوفٍ مِنْ ذلكَ الأمرِ، وذلكَ أذكَرُ لهُ، وأدعَى إلى الانْتِهاءِ عن ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ إذا عَلِمَ العبدُ أنَّ عليهِ حفيظاً، يَكتبُ ذلكَ عليهِ، وأنهُ يُكلَّفُ تلاوةَ ذلكَ المكتوبِ بَينَ يَدَي اللهِ تعالى يَستَحْيِي[4] مِنْ ذلكَ أشَدَّ الاسْتِحياءِ، ويكونُ[5] ذلكَ أزْجَرَ لهُ، وأبْلَغَ في المَنْعِ.

وإلّا لكانَ[6] إحصاءُ ذلكَ على اللهِ تعالى معَ الكتابِ وغَيرِ الكتابِ سَواءً؛ إذْ هو عالمٌ بذاتِهِ لا بالأسبابِ، وهو تأويلُ [قولِهِ تعالى][7]: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: مِنَ الحِكمةِ امْتِحانُ الملائكةِ بحِفظِ أعمالِ بَني آدمَ وأقوالِهِمْ وكتابةِ ذلكَ، فَيَمْتَحِنُهُمْ لِذلكَ، ويأمُرُهُمْ بهِ، وللهِ أنْ يَمْتَحِنَ الملائكةَ: مَنْ شاءَ منهمْ بالتَّسبيحِ والتَّعظيمِ، ومَنْ شاءَ منهمْ بالرُّكوعِ، ومَنْ شاءَ [منهم][8] بحملِ العَرْشِ والكرسيِّ، ومَنْ شاءَ [منهم][9] بحِفظِ بَني آدمَ، ومَنْ شاءَ منهمْ بِسَوقِ السحابِ وإنزالِ المطرِ ممّا في ذلكَ مَنافِعُ بَني آدمَ.

ويكونُ ذلكَ كلُّهُ بحقِّ العبادةِ لِيُعْلَمَ أنَّ مَنِ امْتَحَنَ منهمْ بالرُّكوعِ والسُّجودِ والتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّهليلِ لم يَمْتَحِنْهُمْ لِمَنافِعَ تَرْجِعُ إليهِ في ذلكَ. ولكنْ يَمْتَحِنُهُمْ بِمِحَنٍ بِما شاءَ وفي ما شاءَ، ويكونُ ذلكَ كلُّهُ عبادةً، وإنِ اختلفَتْ أنواعُهُ.

فَعَلَى ذلكَ أمْرُهُ إياهُمْ بِحِفظِ أعمالِهِمْ وأقوالِهِمْ وكتابتِها، واللهُ أعلَمُ.

والمِحْنَةُ بِحِفظِ تلكَ الأعمالِ والأصواتِ وكتابتِها أشَدُّ مِنْ مِحنَةِ غَيرِهِمْ مِنَ الملائكةِ بالرُّكوعِ والسُّجودِ والقِيامِ أو التَّكبيرِ أو التَّهليلِ ونَحْوِ ذلكَ، ومِنْ مِحْنَةِ بَني آدَمَ مِنْ إقامةِ العِباداتِ والامْتِناعِ عنِ المُحَرَّماتِ ونَحْوِها، إذْ لوِ اجْتَمَعَ الخلائقُ على معرفةِ كَيفيَّةِ عَمَلٍ واحدٍ ما قَدَروا عليه. فَدَلَّ أنَّ هذا التأويلَ مُحْتَمَلٌ.

والثالثُ: وهو أنَّ اللهَ تعالى أخْبَرَهُ[10] بكتابةِ المَلَكَينِ [أعمالَهُ ويقْعودِهما][11] عنِ اليَمينِ والشمالِ مِنْ غَيرِ أنْ رَأى أحدٌ مِنَ البَشَرِ إياهما[12] ولا رَأى كتابَتَهُمْ، ولا سَمِعَ صوتَ كتابَتِهِمْ، وقد أقْدَرَهُمْ على العِلْمِ بِما في ضَمائرِهِمْ وكتابةِ ذلكَ كلِّهِ، وأقْدَرَهُمْ على رُؤيَتِنا، ولم يُقْدِرْنا على رؤيَتِهِمْ، وهمْ أجسامٌ [غيرُ][13] مَرْئِيَّةٍ لِيَعْلَموا بذلكَ قدرةَ اللهِ تعالى على ما شاءَ مِنَ الفِعْلِ وألّا يُقَدِّروا قوةَ كلِّ خَلْقِ اللهِ تعالى بقوةِ أنفسِهِمْ ولا رؤيَةَ غَيرِهِمْ برؤيةِ أنفسِهِمْ، وأنَّ قوةَ الرُّؤيةِ تَخْتَلِفُ باخْتِلافِ الأوقاتِ والأشخاصِ؛ فإنَّ الملائكةَ يَرَونَنا، ولا نَراهُمْ في الدنيا، وإنْ كانوا أجساماً [غيرَ][14] مَرْئِيَّةٍ فَيَرَى[15] بعضُهُمْ بعضاً[16].

ثم أخْبَرَهُ[17]، وقالَ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] أخبرَ أنهُ يَرى ذلكَ الكتابَ في الآخِرةِ، وإنْ كانَ لا يَراهُ في الدنيا، وكذا يَرَى الملائكةَ في الآخِرةِ؛ وهذا لأنَّ هذهِ البِنْيَةَ لا تَحْتَمِلُ أشياءَ لِضَعْفٍ فيها ولِحِجابٍ يكونُ في ذلكَ في الدنيا.

ثم تَحْتَمِلُ أنْ تكونَ في الآخِرةِ أقْوَى في احْتِمالِ ذلكَ، فَتُبْصِرُ في الآخِرةِ.

وفي هذا رَدُّ قولِ المعتزلةِ في إنكارِهِمْ رؤيةَ اللهِ تعالى أنهُ لو كانَ يُرَى لَرُئِيَ في كلِّ مكانٍ على ما تُرى الملائكةُ في الآخِرةِ دونَ الدنيا /٥٢٦ ـ ب/ ونَحْوِ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ رُؤيَةُ اللهِ تعالى.

ثم قراءةُ العامّةِ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ وقراءةُ ابْنِ مسعودٍ رضي الله عنه: إذ يَتَلَقّى المُتَلقِّيانِ عنهُ عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قعيدٌ.

---

(١) في الأصل وم: أعمالهم. (٢) في الأصل وم: ليكونوا. (٣) في الأصل وم: يقولون ويفعلون. (٤) في الأصل وم: فيستحيي. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مكان. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أخبرهم. (١١) في الأصل وم: أعمالهم ويقعودهم. (١٢) في الأصل وم: إيهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث يرى. (١٦) في الأصل وم: لبعض. (١٧) في الأصل وم: أخبر.

فَعَلَى قراءتِهِ يُخرَّجُ تأويلُ الآيةِ على وجهٍ واحدٍ؛ أي يأخُذُ المَلَكانِ عنِ ابنِ آدمَ ما [فَعَلَ، وقالَ، وعلى][1] قراءةِ العامَّةِ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يأخذَ المَلَكانِ عنهُ ما أدَّى إليهِما مِنْ قولٍ أو فعلٍ.

والثاني: أنْ يَتَلَقَّى أحدُ المَلَكَينِ عنِ الآخرِ ما ألقَى إليهِ ذلكَ المَلَكُ على ما رُوِيَ عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صاحبُ اليمينِ أمينٌ على صاحبِ الشمالِ، وإذا عَمِلَ العبدُ سَيِّئةً قالَ لهُ صاحبُ اليمينِ: أمسِكْ، فَيُمسِكُ عنهُ مَبلَغَ ساعاتٍ، فإنِ استَغفَرَ اللهَ لم يَكتُبْها عليهِ، وإنْ لم يَستَغفِرْ كَتَبا سيئةً واحدةً» [الطبراني في الكبير ٧٧٨٧]

ويجوزُ أنْ يكونَ أحدُهما كاتباً دونَ الآخرِ، وإنْ كانا يَتَلَقَّيانِ، ويأخذانِ منهُ ذلكَ لِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حينَ[2] قالَ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ولم يَقرَأْ: قريناهُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ المُتَلَقِّيانِ جميعاً يكتبانِ على ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: كاتبانِ: كاتبٌ عنْ يمينِهِ وكاتبٌ عنْ يَسارِهِ، فَيَكتُبانِ [ما كانَ مِنَ][3] الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، ثم يرفعانِ إلى مَنْ فوقَهما كلَّ إثنينِ وخميسٍ، فَيُثبِتانِ[4] مِنْ ذلكَ [ما كانَ][5] مِنْ ذلكَ مِنْ ثوابٍ أو عِقابٍ، ويُلقِيانِ[6] ما سِوَى ذلكَ.

ورُوِيَ أيضاً عنهُ وعنْ غيرِهِ مِنْ أهلِ التأويلِ أنهما يَكتُبانِ ما كانَ مِنْ خيرٍ وشرٍّ، وما سِوَى ذلكَ فلا.

ولكنَّ ظاهرَ الكتابِ يدلُّ على أنهُ يكتبُ كلَّ شيءٍ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ إلَّا أنْ يُقالَ: المُرادُ ﴿مِن قَوْلٍ﴾ هو سَبَبُ الثوابِ والمَآثمِ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] أي لا يُغادِرُ صغيرةً مِنَ المآثمِ ولا كبيرةً منها إلَّا مُطلَقَ صغائرِ الأشياءِ وكبائرِها. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم جَعْلُ المُتَلَقِّيَينِ اثنَينِ يَحتَمِلُ على ما جَعَلَ في الشهادةِ اثنَينِ في ما بَينَهُمْ في الأحكامِ والحقوقِ يَشهدانِ عليهِ في الآخرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ في ظاهرِ الآيةِ أنَّ الملائكةَ إنما يَكتُبونَ ظاهرَ الأقوالِ والأفعالِ لا [ما][7] في الضمائرِ. لكنهُ غيرُ مُستنكَرٍ في العقولِ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أقدَرَهُمْ على العِلْمِ بما في ضَمائرِهِمْ، فَيَعرِفونَ ذلكَ، ويكتبونَ. ولكنَّ ظاهرَ الآيةِ يُشيرُ إلى ما قُلْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: أرادَ ﴿قَعِيدٌ﴾ مِنْ كلِّ جانبٍ منهما، إلَّا أنهُ اكتَفَى بِذِكْرِ الواحدِ إذْ كانَ دليلاً على الآخرِ. و﴿قَعِيدٌ﴾ بِمَعْنَى: قاعدٍ كما يُقالُ: قديرٌ. وقادرٌ، أو يكونُ بِمَنزِلةِ أكيلٍ وشَريبٍ، أي هو مُؤاكِلٌ ومشارِبٌ: ﴿قَعِيدٌ﴾ أي مُقاعِدٌ. وبهِ قالَ أبو عَوسَجةَ: قَعيدٌ مِنَ المُقاعَدةِ كما يُقالُ: قَعيدي وجَليسي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ الرقيبُ الحَفيظُ والعَتيدُ الحاضِرُ، أي ليسَ بغائبٍ حتى يغيبَ عنهُ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي شِدَّتُهُ. يُخبِرُ أنْ لا بُدَّ أنْ يَنزِلَ بالنفسِ عندَ المَوتِ شِدَّةٌ ومَشَقَّةٌ. ثم الآيةُ تُخرَّجُ عل وجهَينِ:

أحدُهما: ألَّا يُجرَى على ظاهرِ ما في الماضي، أعني لفظةَ ﴿وَجَآءَتْ﴾ أي جاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ على الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ، فوجَدَتْهُمْ غيرَ مُتأهِّبينَ ولا مُستعِدِّينَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَتْ﴾ بِمَعنَى تَجيءُ، وكذلكَ ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [الآية: ٢١] وذلك جائزٌ في اللغةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي مِنْ أهلِ الشَّقاوةِ أو مِنْ أهلِ السَّعادةِ. يقولُ: عندَ ذلكَ يَتَبيَّنُ لهُ، ويَظهَرُ أنهُ مِنْ أهلِ السعادةِ أو مِنْ أهلِ الشَّقاوةِ أو مِنْ أهلِ الجنةِ أو مِنْ أهلِ النارِ.

---

(١) في الأصل وم: فعلوا وقالوا على. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل: ما كان، ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: فيثبتون. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: ويلقون. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وأصلُهُ عندنا أنَّ الحقَّ، هو ما وَعَدَ كلَّ نفسٍ مِنْ خيرٍ وما أوعَدَ كلَّ نفسٍ مِنَ الشَّرِّ؛ إنْ كانَ مؤمناً، وقد وَعَدَ لهُ الجنةَ، فَيَتحقَّقُ لهُ ذلكَ، وإنْ كانَ كافراً، وقد أوعَدَ لهُ النارَ، فَيَتحقَّقُ لهُ ذلكَ.

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الحقِّ ههنا، هو الموتُ نفسُهُ، أخبَرَ انهُ لا بُدَّ مِنَ الموتِ وأنهُ كائنٌ لا محالَةَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] يقولُ: لم يَخلُقِ الخَلْقَ للخلودِ في الدنيا، ولكنْ للآخِرَةِ، فلا بُدَّ مِنَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يَحتَمِلُ وجهَين:

[أحَدُهُما][1]: أي أتاكَ ما كُنتَ تَكرَهُ مَجيئَهُ، وتُنكِرُ، ولم تُؤمِنْ بهِ، وهو البَعْثُ، ويومُ القيامةِ الذي يُنكِرونَهُ، ويَكرَهُونَهُ.

والثاني: يَحتَمِلُ الموتَ نفسَهُ، أي أتاكَ ما كُنتَ تَكرَهُ، وتَفِرُّ منهُ؛ إذْ هُمْ كانوا يَكرَهونَ المَوتَ، ويَفِرّونَ منهُ، فإنهُ [مُلاقيكَ أي يأتيكَ][2] مِنْ حيثُ لا مَفَرَّ لِقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] أي أتاكُم مِنْ حيثُ لا مَفَرَّ لكمْ منهُ[3]. ثم الحَيدُ، هو المَيلُ والكراهةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَيدُ الفِرارُ؛ يُقالُ: حادَ يَحيدُ حَيداً، فهو حائدٌ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ النَّفخَةَ الأولَى، وهي النَّفخَةُ التي يَفزَعُ عندَها أهلُ السمواتِ والأرضِ، فيَموتون.

ويَحتَمِلُ أنْ يُريدَ النَّفخَةَ الثانيةَ التي عندَها البَعْثُ وإدخالُ الأرواحِ في الأجسادِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يُريدَ عندَ ما يوضَعُ كلُّ واحدٍ في القبرِ، وهو أنْ يُسأَلَ على ما جاءَتِ الأخبارُ مِنْ سؤالِ مُنْكَرٍ ونكيرٍ، وذلكَ أيضاً هو يومُ الوَعيدِ في حقِّ ذلكَ الرجلِ وهذا الكافرِ خاصّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي ذلكَ يومُ وقوعِ الوَعيدِ، إذْ يومُ الوَعيدِ الدنيا. فأمّا القيامةُ فهو يَومُ وقوعِ الوَعيدِ وتَحقُّقُهُ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السائقُ الذي يَقبِضُ روحَهُ، والشَّهيدُ الذي يَحفَظُ عَمَلَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: السائقُ هو المَلَكُ الذي يَكتُبُ عليهِ سَيِّئاتِهِ، والشهيدُ هو الذي يَكتُبُ حسناتِهِ. وقيلَ: السائقُ، هو النارُ التي تأتي، تَسوقُ الكَفَرَةَ إلى المَحشَرِ، والشهيدُ، هو عَمَلُهُ الذي عَمِلَ في الدنيا، وقيلَ: السائقُ الكاتبُ والشهيدُ جوارِحُهُ لِقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ الآية [النور: ٢٤].

وأصلُهُ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [الزمر: ٧١]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ [الزمر: ٧٣] ذَكَرَ السَّوقَ في الفريقَينِ، وذَكَرَ في الكَفَرَةِ ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقالَ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ١٩].

فالسائقُ، وهو مَلَكٌ يَسوقُ إلى ما أُمِرَ مِنَ الجنةِ أو النارِ، والشهيدُ، هُمُ الملائكةُ الذينَ يَكتُبونَ علينا[4] الأعمالَ، فَيَشهَدونَ في الآخِرَةِ: إنْ كانَتْ[5] شَرًّا فَشَرٌّ، وإنْ كانَتْ[6] خيراً فَخَيرٌ، واللهُ أعلَمُ بِحَقيقةِ ما أرادَ، وإنْ كانَ ما قالوا مُحتَمَلاً[7]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يقولُ: لقد كُنتَ في الدنيا في غَفْلَةٍ /٥٢٧ ـ أ/ مِنْ هذا [الذي][8] تُعايِنُ، وتُشاهِدُ، أو في غَفْلَةٍ ممّا أُوعِدْتَ مِنَ المواعيدِ والشدائدِ التي عايَنْتَها ﴿فَكَشَفْنَا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ملاقيكم أي يأتيكم. (٣) في الأصل وم: عنده. (٤) من م، في الأصل: لنا. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: فمحتمل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي كَشَفْنا عنكَ الشُّبَهَ التي تَمنَعُ وقوعَ العِلْمِ بهِ والتَّجلّي لهُ ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي ثاقبٌ نَيِّرٌ يُبْصِرُ الحقَّ كقولِهِ تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وقيلَ: ﴿حَدِيدٌ﴾ مِنَ الحِدَّةِ أي نافذٌ، لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، فكأنهُ أرادَ، واللهُ أعلَمُ [بقولِهِ تعالى][1]: إنكَ كنتَ في الدنيا جاهلاً عَنْ هذا اليوم وعَنْ هذهِ الحالِ، والآنَ قد عايَنْتَ ما كُنْتَ عنهُ في غَفلَةٍ، وأيقَنْتَ بهِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ و٧].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي يقولُ المَلَكُ الذي كانَ عليهِ [رقيباً: إنّ][2] كلَّ ما عَمِلَ فهو عندي حاضرٌ مِنْ تكذيبٍ وعَمَلِ السُّوءِ. فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ شهادةُ الحَفَظَةِ عليهِ هذا القولَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلك على السؤالِ للملائكةِ عمّا كَتَبوا، وحَفِظوا؛ يقولُ كلُّ مَلَكٍ: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا الذي عَمِلَ هذا عندي حاضرٌ مَحفوظٌ، إذِ الكتابُ الذي كُتِبَتْ فيهِ أعمالُهُ حاضرٌ.

ثم جائزٌ أنَّ الذي يَكْتُبُ الأعمالَ لكلِّ واحدٍ واحدٌ. على هذا حيثُ قالَ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ولم يَقُلْ قريناهُ، وإنْ كانَ قالَ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] على ما ذَكَرْنا أنهما مَلَكانِ. لكنْ يجوزُ أنْ يَتَوَلّى الكتابةَ واحدٌ، والآخَرُ شاهدٌ.

وجائزٌ أنْ يكونا يَكْتُبانِ جميعاً بقولِهِ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١] لكنهُ ذَكَرَ ههنا بِحَرْفِ التوحيدِ، فقالَ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ لِما يقولُ كلُّ واحدٍ منهما ذلكَ على حِدَةٍ، وهو كما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الخِطابُ بقولِهِ تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ الاثْنَيْنِ على ما هو ظاهرُ الصِّيغَةِ: الذي يَسوقُهُ والذي يَشْهَدُ عليهِ حينَ[3] قالَ: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ كانَ الأمْرُ بذلكَ لهما.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالخِطابِ، هو القَرينُ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾.

لكنْ قالَ: ﴿أَلْقِيَا﴾ لوجْهَيْنِ:

أحَدُهما: ما قيلَ: إنَّ العربَ قد تَذْكُرُ حرفَ التَّثنِيَةِ على إرادةِ الواحدِ والجماعةِ.

والثاني: ما قالَ بعضُهم: إنَّ المُرادَ مِنْ قولِهِ ﴿أَلْقِيَا﴾ أي ألْقِ ألْقِ على التأكيدِ كقولِهِ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] على الوَعيدِ في الذمِّ [وما][4] يُقالُ في المدحِ: بَخٍ بَخٍ، ونَحْوُ ذلكَ على التأكيدِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يَحتَمِلُ كلَّ كفّارٍ لِنِعَمِ اللهِ تعالى حينَ[5] صَرَفَ شكرَها إلى غَيرِهِ، أو كلَّ كفارٍ لتوحيدِ اللهِ وتَسْمِيَةِ غَيرِهِ إلهاً.

والعَنيدُ: قالَ بعضُهُمْ: هو الذي بَلَغَ في الخِلافِ غايَتَهُ، والمُخالفُ أشدَّ الخِلافِ مِنْ عَنِدَ يَعْنُدُ عُنوداً، فهو عاندٌ، وعَنيدٌ بِمَعْنَى عاندٍ. وقيلَ: هو الذي لا يُنْصِفُ مِنْ نفسِهِ.

وقيلَ: هو الذي يُكابِرُ، ويُعانِدُ بَعْدَ ظُهورِ الحقِّ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: مَنّاعٌ عنِ الخيرِ، وهو مَنْعُ غَيرِهِ عنِ التوحيدِ وقَبولِ الحقِّ.

والثاني: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي مَنَعَ ما عندَهُ مِنَ الحقوقِ التي وَجَبَتْ في أموالِهِ ونفسِهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أرادَ بهِ الوليدَ بْنَ المُغيرةِ المَخزوميَّ. لكنَّ هذا عادةُ كلِّ كافرٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ و٢٠ و٢١] فلا مَعْنَى لِتَخصيصِ واحدٍ بهِ.

---

(١) في الأصل: وقوله تعالى، ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: رقيب أي. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ المُعْتَدي مِنَ الِاعْتِداءِ، وهو المُجاوِزُ عنْ حدودِ اللهِ، والمُريبُ مِنَ الرِّيبةِ، وهي[1] الشَّكُّ والفَسادُ؛ فكانَ المُريبُ، هو الذي فيهِ الشَّكُّ والفَسادُ جميعاً.

الآية ٢٦ ثم نَعتَ ذلكَ الإنسانَ فقالَ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ أي وَصَفَ، وذَكَرَ مَعَ اللهِ إلهاً آخرَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] وقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] أي قالوا، وَوَصفوا أنهمْ إناثٌ، وإلّا لا يَمْلِكونَ جَعْلَ ذلكَ حقيقةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ وَصَفَ نارَ جهنمَ بالشدةِ لِما أنهُ، لا انْقِطاعَ لها. وكلُّ عذابٍ يُرْجَى انْقِطاعُهُ في بعضِ الأزمانِ ففيهِ بعضُ الراحةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي قالَ شيطانُهُ الذي أضَلَّهُ، ودَعاهُ إلى ما دَعاهُ، فصارَ قرينَهُ في الآخِرةِ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

ويَحْتَمِلُ ﴿قَرِينُهُۥ﴾ أي رفيقُهُ الذي كانَ معهُ، يَتْبَعُهُ، ويُصْدِرُ عنْ رأيِهِ.

ثم هذا القولُ مِنْ قرينِهِ إنما كانَ بَعْدَ أنْ كانَ منهُ مِنَ الكُفْرِ والشِّرْكِ عنِ اختيارٍ، وقالَ: هذا الذي أضَلَّني، وأطغاني، وهو الذي حَمَلني عليهِ كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] فيقولُ رفيقُهُ: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ وكانَتِ الكَفَرةُ لِحَيرتِهِمْ وقِلَّةِ حيلَتِهِمْ أحياناً يُنْكِرونَ الشِّرْكَ كقولِهِمْ[2]: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[3] [المجادلة: ١٨].

وأحياناً يقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وأحياناً يَلْعَنُ[4] بعضُهُمْ بعضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي ما قَهَرْتُهُ على الضلالِ، ولا لي قوةُ ذلكَ، ولكنِ اتَّبَعَني على ما كنتُ أنا فيهِ، وأطاعَني مِنْ غيرِ أنْ يكونَ مني إكراهٌ وإجبارٌ على ذلكَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لا يُرْجَى [منه][5] الرجوعُ ولا الِانْقِطاعُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ ذلكَ الكافرَ يُكَذِّبُ الحَفَظَةَ بأنهمْ كَتَبوا ما لم يَعْمَلْ، وهُمْ كانوا يكذِبونَ في ذلكَ اليومِ لِخِزْيَتِهِمْ كقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فيقولُ[6] قرينُهُ، وهو الذي يكتُبُ أعمالَهُ: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

لكنَّ هذا فاسدٌ، وهذا القولُ مِنَ الشيطانِ، لا مِنَ الملائكةِ الإطغاءُ والإغواءُ؛ إذْ هُمْ لا يَدَّعونَ على الملائكةِ الإطغاءَ والإغواءَ. ألا تَرَى أنهُ ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾؟ [ق: ٢٨] واخْتِصامُهُمْ مع الشيطانِ كما أخبَرَ ﷺ في غيرِ آيةٍ[7] مِنَ القرآنِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٧ و٢٨ و٢٩] وقالَ[8] تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

فهذهِ الخُصومةُ بينَهُمْ وبينَ قُرنائِهِمْ، وهُمُ الشياطينُ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ خصومَتُهمْ ما ذَكَرَ ما قالَتِ الأتباعُ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم : ثم قال. (٤) هو قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فقال. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) في الأصل وم: وقوله.

﴿ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وما ذَكَرَ مِنْ لَعْنِ بعضِهِمْ على بعضٍ ومِنْ تَبَرِّي بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ. فقالَ اللهُ تعالى ﷻ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي قَدَّمْتُ إليكُمْ مِنَ الوعيدِ في الدنيا، فما انْقَطَعَتْ خُصوماتُكُمْ هذهِ، أي بَيَّنْتُ في الدنيا ما يَلْحَقُ بِمَنْ ضَلَّ بنفسِهِ ومَنْ ضَلَّ بِغَيْرِهِ.

كانَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ يَطْلُبونَ وجهَ الاعتِذارِ بما لا عُذْرَ لهمْ. فلذلكَ يقولُ[1] لهمْ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي أرسَلْتُ إليكُمُ الرسُلَ، مَعَهُمُ الكُتُبُ، وفيها الوعيدُ. فلم تَقْبَلوا ذلكَ كلَّهُ. فإنْ قيلَ: قالَ ههنا: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ /٥٢٧ ـ ب/ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] وبينَ الآيتَينِ مُخالَفَةٌ مِنْ حيثُ الظاهرُ. فما وجْهُ التَّوفيقِ بَينَهما؟ قيلَ: مِنْ وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: ما قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ في أهلِ الكُفْرِ خاصَّةً، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ في أهلِ القِبْلَةِ، وهو في المَظالِمِ التي كانَتْ بَينَهُمْ في الدنيا.

والثاني: ما قالَ بعضُهُمْ: إنَّ إحْدَى الآيتَينِ في مَوضعٍ، فَيُؤْذَنُ لهمْ بالكلامِ فيهِ حتى يكونَ جميعاً بَينَ الآيتَينِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٠ و٤١ و ٤٢] فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثالثُ: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ في الدينِ: في ما بَينَهُمْ وبَينَ ربِّهِمْ [في][2] دَفْعِ عذابِ اللهِ عنْ أنفسِهِمْ، وذلكَ لا يَمْلِكونَ، ولا يَنْتَفِعونَ بهِ. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ في ما بينَ أنفسِهِمْ في المَظالِمِ والغَراماتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما يُبَدَّلُ ما استَحَقَّ كلُّ واحدٍ منكُمْ مِنَ العذابِ والثوابِ ما سَبَقَ مِنّي مِنَ الوَعْدِ والوعيدِ في الدنيا بأنْ أجْعَلَ جَزاءَ الكافرِ الجنةَ وجَزاءَ المؤمنِ النارَ؛ إذْ قد سَبَقَ مِنّي وَعْدي وَوَعيدي بأنْ أجْعَلَ الجنةَ مَثْوَى المؤمنينَ والنارَ مَثْوَى الكافرينَ، فلا يُبَدَّلُ ذلكَ الوَعْدُ والوعيدُ.

والثاني: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ يَحْتَمِلُ أنهُ أرادَ بهِ قولَهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣].

والثالثُ: أي لا يُبَدَّلُ اليومَ ما يَسْتَوجِبُ بهِ الجنةَ والخُلودَ فيها، وهو الإيمانُ عنْ غَيبٍ كما أخْبَرَ تعالى، ﷻ ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] فأمّا الإيمانُ بَعدَ العِيانِ فلا يَنْفَعُ كما أخْبَرَ ﷻ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ الآيةَ [غافر: ٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي في العَقْلِ والحِكْمةِ تَعذيبُ مَنْ أتَى بالكُفْرِ والشِّرْكِ، فيكونُ تَرْكُ تَعذيبِهِ سَفَهاً.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على تَحقيقِ القولِ مِنَ اللهِ تعالى ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وعلى تَحقيقِ القولِ مِنْ جهنَّمَ والإجابةِ لهُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وذلكَ جائزٌ أن يُنْطِقَ اللهُ تعالى جهنَّمَ حتى تُجيبَ لهُ بما ذَكَرَ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ على ما ذَكَرْنا مِنْ شهادةِ الجَوارحِ عليهِمْ والنُّطقِ منها للكلِّ حتى أجابَتِ الجَوارحُ لهمْ لمّا قالوا ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وعلى ذلكَ ما ذَكَرْنا في قولِهِ، جَلَّ، وعلا: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبإ: ١٠] ونَحْوُ ذلكَ، ومِثْلُ هذا غيرُ مُسْتَنْكَرٍ في العقولِ على تقديرِ أحداثِ الحياةِ منها التي هي شَرْطُ النطقِ عنْ عِلْمٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يقال. (٢) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: على التَّمْثيلِ لا على تحقيقِ القولِ: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ وعلى تحقيق الإجابة منها، فتقولُ: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ ولكنَ على التَّمثيلِ لِوجهَينِ:

أحَدُهما: أي أنَّ جهنَّمَ لو كانَتْ بحيثُ تَنْطِقُ، وتَسْمَعُ، وتَعْلَمُ؛ لو قُلْتَ لها: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ يُخْبِرُ عن انْقِيادِ المَخلوقاتِ لهُ والطاعةِ والإجابةِ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﷻ: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأنعام: ٧٠ و...] لا يكونُ مِنَ الدنيا حَقيقةُ التَّغْريرِ قولاً ولا فِعْلاً. ولكنَّ مَعْناهُ أنها بحالٍ مِنَ التَّزيينِ وما فيها مِنَ الشَّهَواتِ لو كانَ لها تَمْييزٌ وعَقْلٌ لَغَرَّتْهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: وصفٌ لها بالعِظَمِ والسعَةِ، وإخبارٌ عن أنها تَحْتَمِلُ المَزيدَ، وإنْ جُمِعَ مِنَ الكَفَرَةِ ما لا يُحْصَى على التَّمْثيلِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١] وكذلك قولُهُ، جَلَّ، وعلا: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ وصفٌ لها بالتَّزيُّنِ والحُسْنِ الظاهرِ ما [لو][1] لم يَتأمَّلِ الناظرُ فيها العاقبةَ لاغْتَرَّ بها مِنْ حُسْنِها وزينَتِها. فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: هل بَقِيَ مِنْ أحَدٍ يُزادُ فيَّ؟ فإني قد امْتَلأتُ، وليسَ فيَّ سَعَةٌ تَحْتَمِلُ غيرَهُ[2].

والثاني: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ هل فيَّ سَعَةٌ عظيمةٌ؟ فهلْ مِنْ زيادةِ خَلْقٍ أمْتَلِئُ بها، لأنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ أنْ يَمْلأَ جَهنَّمَ بقولِهِ: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] فَتَسْأَلُ المَزيدَ مِنْ ربِّها لِتُمْلأَ، واللهُ أعلَمُ بذلك.

وقالَ أهلُ التأويلِ: إنها تَسْألُ الزيادةَ حتى يَضَعَ قدمَهُ فيها، فَتَضيقَ بأهلِها حتى لا يَبْقَى فيها مَدخَلُ رجُلٍ واحِدٍ، وروَوا[3] خبَراً عن أبي هُرَيرةَ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ في ذلكَ.

وإنهُ فاسدٌ، وقولٌ بالتَّشبيهِ، وقد قامتِ الدلائلُ العقليةُ على إبطالِ التَّشبيهِ، فكلُّ خبَرٍ وَرَدَ مُخالِفاً للدلائِلِ العقليةِ يَجِبُ رَدُّهُ لأنهُ[4] مخالِفٌ لِنَصِّ التَّنْزيلِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

ثم هذا القولُ على قولِ المُشَبِّهَةِ على ما تَوَهَّموا مُخالِفٌ لِلْكِتابِ لأنَّ اللهَ ﷻ قال: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ وعندَهُمْ لا تَمْتَلِئُ بهِمْ ما لم يَضَعِ الرحمنُ قدمَهُ فيها.

ثم ذَكَرَ البَلْخِيُّ أنَّ مَدارَ ما ذَكَروا مِنَ الحديثِ على حَمّادِ بْنِ سَلَمَةَ، وكان خَرِفاً مُفَنَّداً في ذلكَ الوقْتِ، لم يَجُزْ أنْ يُؤخَذَ منهُ معَ ما رُوِيَ في خَبَرِ أنسٍ ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قال: «يأتي اللهُ بِبَشَرٍ، فَيَضَعُ في النارِ حتى تَمْتَلِئَ» فهذا يُحْتَمَلُ إلّا ما رَوَوا، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٣١ وقالَ[5] تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي قُرِّبَتْ. وذكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: ٧٣] ذَكَرَ ههنا تَقريبَ الجنةِ إلى أهلِها، وذكَرَ ثَمَّ سَوقَ أهلِ الجنةِ إليها، فَبَينَ الآيتينِ مُخالفةٌ مِنْ حيثُ الظاهرُ. ولكنْ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ أهلَ الجنةِ إذا قُرِّبوا منها بالسوقِ إليها قُرِّبَتْ هي إليهِمْ لأنَّ أحَدَ الشَّيئينِ إذا قُرِّبَ إلى الآخَرِ قُرِّبَ الآخَرُ منهُ، ويَزولُ البُعْدُ بِزَوالِ المَسافةِ، وذلكَ معروفٌ.

والثاني[6]: أنْ يكونَ إخباراً عنِ وَصْفِ الجنةِ أنها بحالٍ تُقَرَّبُ إلى أهلِها، وتُزْلَفُ.

ذَكَرَ في الجنةِ التَّقريبَ وفي النارِ البُروزَ والظُّهورَ بقولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]. فهو، واللهُ أعلَمُ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غيرها. (٣) في الأصل وم: وروي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) في الأصل وم: ويحتمل.

لأنَّ(١) أهلَ النارِ كانوا يَجحَدونَ النارَ، ويُنكِرونها ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ لِيَرَوها، ويَطَّلِعوا عليها، وهو كقولِهِ ﷺ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦].

فأمّا أهلُ التوحيدِ فإنهمْ كانوا يُقِرّونَ بالجنةِ، ولكنْ لا يَرَونَ أنفسَهُمْ مِنْ أهلِها لِما بَدَا(٢) منهمْ مِنَ الخَطايا. والزَّلاّتِ، ويَرَونَها بَعيدةً مِنْ أنفسِهِمْ. فَذَكَرَ اللهُ تعالى التَّقريبَ لهمْ، ووَعَدَهُمْ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها:](٣) أي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منهمْ بل بحيثُ يَرَونَها وقتَ وقوفِهِمْ في القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منهمْ في الدنيا، أي يأتونَها(٤)، ويكونونَ مِنْ أهلِها عنْ قريبٍ لأنَّ كلَّ آتٍ فكأنْ قد أتى، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ(٥): أي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منهمْ في الجنةِ إذا دَخَلوها: الثمارُ(٦) والفواكِهُ، بل قريبٌ منهمْ، يَتناولونَ كيفَ شاؤوا واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ الأوّابُ الرَّجّاعُ، مِنَ الأوبَةِ، وهي الرُّجوعُ. فَمَعْناهُ: لكلِّ رَجّاعٍ إلى اللهِ تعالى في كلِّ وقتٍ، أو رَجّاعٍ إلى أمْرِهِ وطاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَفِيظٍ﴾ أي يَحفَظُ نفسَهُ عنِ المعاصي والزَّلاّتِ سِرّاً وعَلانِيَةً، والحافظُ لِحُدودِهِ في أوامِرِهِ ونَواهيهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾/٥٢٨ ـ أ/ [آل عمران: ١٣٣ و...] وقولِهِ(٧): ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥ و...] إذِ التَّقْوى، هو الائتِمارُ بِما أمَرَ والامْتِناعُ عمّا نَهى، وحَظَرَ، والإحسانُ هو العملُ بجميعِ ما يَحْسُنُ في العقولِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي خافَهُ، وحَذِرَهُ مِمّا أوعَدَ، ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي قَبْلَ أنْ يَرِدَ على ظاهرِ ما ذَكَرَ.

والثاني: أي مَن خَشِيَ الرحمنَ في الدنيا التي هي حالُ غَيبِ الدلائلِ بالمَواعيدِ التي أُوعِدَها، وحَذِرَ منها قَبْلَ أنْ يُعايِنَها، إذْ هو لم يَرَ ذلكَ العذابَ، فَيُصَدِّقَهُ في ما أوعَدَ، وخافَهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي عقوبَتَهُ ونِقْمَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ والمُنيبُ، هو المُقْبِلُ على اللهِ تعالى بجميعِ أوامِرِهِ ونواهيهِ المُطيعُ لهُ في ذلكَ كلِّهِ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:](٨) كأنهُ على الإضمارِ، أي يُقالُ لهمْ: ادخُلوها بسلامِ الملائكةِ أي تُسَلِّمُ الملائكةُ عليهمْ وقتَ دخولِهِمُ الجنةَ كقولِهِ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

والثاني: السلامُ، هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى: فَيُقالُ لهمْ: ادخُلوها باسمِ اللهِ على ما هو الأصلُ في كلِّ خَبَرٍ أنهُ يُبْتَدَأُ باسْمِ اللهِ تعالى امْتِثالاً لحديثِ رسولِ اللهِ ﷺ «كلُّ أمْرٍ ذي بالٍ، لم يُبْدَأْ باسْمِ اللهِ فهو أبْتَرُ» [الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٩٠٢].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي سالِمينَ مِنَ الخَوفِ والحُزنِ، لا آفةَ تُصيبُكُمْ فيها، وهو كقولِهِ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦] مِنَ الخَوفِ والحُزنِ.

ويَحتَمِلُ: أيِ ادخُلوها، ولا كُلْفَةَ عليكُمْ [كما](٩) في الدنيا، ولا أمْرَ، ولا مِحْنَةَ، سِوَى الثّناءِ على اللهِ تعالى والحَمْدِ لهُ

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: بدوت. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: يأتوننا. (٥) في الأصل وم: ويحتمل. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وتَسْليم بعضِكُمْ على بعضٍ، بل تَسْقُطُ عنكُمْ جميعُ المِحَنِ والأوامِرِ التي عليكُمْ في الدنيا؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وكأنهُ لا شيءَ [منَ][1] الذي في الدنيا على أهلِ الإيمانِ إلا[2] الثناءُ على اللهِ تعالى وتَسليمُ بعضِكُمْ على بعضٍ. فَلِذلكَ أُبقِيَ ذلكَ في الجنةِ، وأُسْقِطَ ما وراءَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ يَحْتَمِلُ أي ذلكَ يومُ الخلودِ لأهلِ الجنةِ بالسرورِ والراحةِ ولأهلِ النارِ بالعقوبةِ والعذابِ. ويَحْتَمِلُ أي يومٌ لا انْقِطاعَ لذلكَ الذي وُعِدُوا في الجنةِ، اللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي لهمْ ما يَختارونَ فيها، لا يُجْبَرون، ولا يُكْرَهونَ فيها على شيءٍ، إذِ المَشيئةُ، هي صفةُ كلِّ فاعلٍ مُختارٍ، وإنْ كانتِ المَشيئةُ مَشيئةَ التَّمَنِّي والتَّشَهِّي. فكأنهُ قالَ: لهمْ ما يَتَمَنَّونَ، ويَتَخَيَّرونَ، لِقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] وقولِهِ ﷻ: [﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١]][3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ تأتيهمْ سَحابةٌ، فَتُمْطِرُهُمْ كلَّ ما يَشاؤونَ، وذلكَ هو المزيدُ لهمْ في الجنةِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ تَنْبُتُ لهمْ في الجنةِ شجرةٌ، فَتُقْطِرُ لهمْ كلَّ ما يَشاؤونَ، فذلكَ هو المزيدُ.

لكنْ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: النظرُ إلى رُؤْيةِ الربِّ، جَلَّ، وعَلا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قيلَ: الزيادةُ هي رُؤْيةُ اللهِ تعالى في الجنةِ.

والثاني[4]: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ مِنْ نعيمِها ما لا يَبْلُغُ تَمَنِّيهِمْ وشَهَواتِهِمْ كقولِهِ ﷺ في صفةِ نعيمِ الجنةِ: «ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَرٍ» [البخاري ٣٢٤٤] لأنَّ الأمانيَ والشَّهَواتِ إنما تكونُ لِما سَبَقَ لِجِنْسِهِ مِنَ الذي تَقَعُ عليهِ الرؤيةُ والنظرُ أوِ الخَبَرُ. فأمّا ما لا مَعْرِفَةَ لهُ فلا يُتَمَنَّى، ولا يُشْتَهَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: يقولُ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ لم يَمْلِكوا دَفْعَ ذلكَ عنْ أنفسِهِمْ ولا الانْتِصارَ على ذلكَ، فكيفَ يَمْلِكُ قومُكَ دَفْعَ ما يَنْزِلُ بهمْ لو أصَرُّوا على التكذيبِ؟

والثاني: يقولُ: قد أهْلَكَ الذينَ كانوا قَبْلَ قومِكَ: الذينَ كَذَّبوا رسلَهُمْ، أُهْلِكوا إهلاكَ عُقوبةٍ وتَعْذيبٍ، والذينَ صَدَّقوا أُهْلِكُوا بآجالِهِمْ لا إهلاكَ عُقوبةٍ.

وقد كانوا جميعاً المُصَدِّقينَ والمُكَذِّبينَ سَواءً في هذهِ الدنيا. وفي الحِكْمةِ التفريقُ بينَهُمْ[5]. دَلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرى يُفَرِّقُ بينَهمْ[6]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي صاروا في البلادِ، هل منْ مَفَرٍّ؟

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي طافوا، وتَباعَدوا ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي هل يَجِدونَ مِنَ الموتِ مَحيصاً أي مَفَرّاً؟

ويَحْتَمِلُ أي تَقَلَّبُوا في البلادِ في تجاراتِهِمْ [فلم يَجِدوا][7] مَلْجأً يَرُدُّ بهِ هلاكَهُمْ؛ يُوعِدُ بما ذَكَرَ أهلَ مكةَ أنهمْ لَمْ يَجِدوا مَحيصاً، فكيفَ تَجِدونَ أنتمْ؟

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي عِظَةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. (٤) في الأصل وم: ويشبه.
(٥) و(٦) في الأصل وم: بينهما. (٧) في الأصل وم: فلا يجدون.

والثاني: [إنَّ][1] في ما ذَكَرَ مِنْ إهلاكِ الأُمَمِ الخاليةِ وذهابِ آثارِهِمْ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ لَذِكْرَى لِمَنْ ذَكَرَ.

والثالثُ: إنَّ[2] في ما ذَكَرْنا[3] مِنِ اسْتِواءِ المُحْسِنِ والمُفْسِدِ في هذهِ [الدنيا][4] والصالِحِ والطالِحِ ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أنَّ هنالكَ داراً يُمَيِّزُ فيها بَيْنَهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يَنْتَفِعُ بِهِ في التأمُّلِ والنَّظَرِ، وإنما كَنَّى بالقَلْبِ عنِ العقلِ، لأنَّ الناسَ اخْتَلَفوا [قالَ بعضُهُمْ:][5] إنَّ القَلْبَ مَحَلُّ العقلِ، وقالَ بعضُهُمْ: مَحَلُّهُ الرأسُ، لكنَّ نورَهُ[6] يَصِلُ إلى القَلْبِ، فَيُبْصِرُ القَلْبُ الأشياءَ الغائبةَ بِواسطةِ العقلِ، فلذلكَ كَنَّى بالقَلْبِ عنِ العقلِ لِمُجاوَرةِ بَيْنَهما، وهو شائعٌ في اللغةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي يَسْتَمِعُ، وهو شاهدٌ سَمْعَهُ وقلبَهُ.

وأصْلُهُ أنَّ القَلْبَ جُعِلَ لِلْوَعْيِ والحِفْظِ بَعدَ الإدراكِ والإصابةِ.

ثم أصلُ ما يَقَعُ بِهِ العلمُ والفهمُ شيئانِ:

[أحدُهما][7]: التأمُّلُ والنظرُ في المحسوسِ.

والثاني: أنْ يُلْقَى إليهِ الخبرُ، وهو يَسْتَمِعُ لهُ؛ فكأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يَطْلُبُ الرُّشْدَ والصَّوابَ، ويَنْظُرُ، ويَعِي، ويَحْفَظُ.

[ويَحْتَمِلُ][8]: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي يَسْتَمِعُ لِما[9] أُلْقِيَ عليهِ، وهو شاهدٌ السمعَ والقلبَ، فتكونُ الذكْرَى لِمَنِ اخْتَصَّ بهذينِ أو انْتَفَعَ بهِ هذانِ الصِّنْفانِ بالتأمُّلِ، فَيَرَى بالعقلِ مَحاسِنَ الأشياءِ ومَساوِئَها، أو يَسْتَمِعُ حقيقةَ ذلكَ بالسمعِ، فَيَتَذَكَّرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ قد ذَكَرْنا فيما تَقَدَّمَ تأويلَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ في سِتَّةِ أيامٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي مِنْ إعياءٍ وتَعَبٍ ونَصَبٍ. وفيهِ نَقْضُ قولِ اليهودِ، لَعَنَهُمُ اللهُ: [في الإسْتِراحةِ][10] ونَفْيُ. فَهْمِ[11] المُشَبِّهَةِ في قولِهِ[12]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...] وتَبَيُّنُ المُرادِ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أمّا نَقْضُ قولِ اليهودِ لَعَنَهُمُ اللهُ. فإنهمْ يقولونَ: خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ، ثم اسْتَراحَ في يومِ السبتِ، وهُمْ يَتْرُكونَ العَمَلَ يومَ السبتِ لهذا. فاللهُ ﷻ أخبَرَ أنهُ لم يَمْسَسْهُ بِخلقِ ما ذَكَرَ إعياءٌ ولا لُغوبٌ على ما زَعَمَتِ اليهودُ، لعنَهُمُ اللهُ، فيكونُ ردّاً لِقَولِهِمْ صَريحاً.

وأمّا نَفْيُ فَهمِ[13] المُشَبِّهَةِ فإنهم تَوَهَّموا أنَّ قولَهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على إثْرِ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما في آيةٍ أُخرَى /٥٢٨ ـ ب/ أنَّ ذلكَ للراحةِ، فَشَبَّهوا اللهَ تعالى بالخَلْقِ: أنهمْ إذا فَرَغوا مِنْ أعمالِ عَمِلوها، ثم اسْتَوَوا على شيءٍ، إنما يَسْتَوُونَ للراحةِ، فقالوا بالإسْتِواءِ على العَرْشِ حَقيقةً.

فاللهُ تعالى نَفَى التَّعَبَ عنْ نفسِهِ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ على أنَّ اسْتِواءَهُ ليسَ للراحةِ حتى يُرادَ بِهِ الإسْتِقرارُ كما في الشاهدِ بَينَ الخَلْقِ، وبَيَّنَ تعالِيَهُ وبراءَتَهُ عما تَوَهَّمَتِ المُشَبِّهَةُ، وشَبَّهوهُ بالخَلْقِ.

ويَتَبَيَّنُ بِذِكْرِ الإسْتِواءِ على العَرْشِ بَعْدَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ أنَّ[14] المُرادَ منهُ التَّمامُ، أي تَمَّ مُلْكُهُ بَعْدَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ بِخَلْقِ العرشِ، ويُذْكَرُ الإسْتِواءُ، ويُرادُ بِهِ التَّمامُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ذكروا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: قالوا، في م: بعضهم قالوا. (٦) الهاء ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بما. (١٠) في الأصل وم: مراحاً. (١١) في الأصل وم: انفهام. (١٢) في الأصل وم: قولهم. (١٣) في الأصل وم: إبهام. (١٤) أدرج قبلها في الأصل وم: على.

قالَ أبو عوسَجَةَ: اللُّغوبُ الإعياءُ، يُقالُ: لَغِبَ يَلْغَبُ لُغوباً، فهو لاغِبٌ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ خَلْقَ اللهِ تعالى الأشياءَ لا لِمَنْفَعةٍ لهُ أو حاجةٍ تَقَعُ لهُ ولا بالآلاتِ والأسبابِ التي بها يَقَعُ التَّعَبُ والإعياءُ في الشاهدِ؛ إذِ الإعياءُ إنما يَلْحَقُ مَنْ فِعْلُهُ الحركةُ والانْتِقالُ والسُّكونُ.

فأمّا اللهُ تعالى إنما يَخْلُقُ الأشياءَ بقولِهِ: ﴿كُن﴾ ولا يَلْحَقُهُ شيءٌ منْ ذلكَ. وهو قادرٌ بذاتِهِ فاعلٌ لا بآلةٍ وسَبَبٍ، فأنّى يَقَعُ لهُ الإعياءُ والتَّعَبُ؟ تعالى اللهُ عمّا يقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصْبِرْ على ما يقولونَ فيكَ: إنكَ ساحرٌ وشاعِرٌ ومجنونٌ ونَحْوَهُ؛ فأمَرَهُ بالصَّبْرِ على ذلكَ وألّا يَدْعُوَ عليهِمْ بالهلاكِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ في اللهِ مِنْ مَعاني الخَلْقِ، ولا تُحارِبْهُمْ، ولا تُقاتِلْهُمْ، ولا تَدْعُ عليهِمْ بالهلاكِ. ولكنِ اصْبِرْ فإنَّ اللهَ تعالى يَنْتَقِمُ لكَ.

وإنما أمَرَهُ بالصَّبْرِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ سريعَ الغضبِ للهِ تعالى بِما عايَنَ مِنَ المَناكيرِ، وسَمِعَ، وكذلكَ جميعُ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ لِذلكَ أمَرَهُ بالصَّبْرِ على ما يقولونَ في اللهِ أو فيهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قيلَ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي بالثناءِ على ربِّكَ أي أثْنِ عليهِ بما هو أهلُهُ وما يَليقُ بهِ.

وأهلُ التأويلِ يُفَسِّرونَ التَّسْبيحَ في هذا الموضِعِ وفي غَيْرِهِ مِنَ المَواضِعِ بالصلاةِ؛ فَمَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صَلِّ بأمْرِ ربِّكَ. وإنما صَرَفوا التَّسْبيحَ إلى الصلاةِ لأنَّ الصلاةَ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها وَصْفُ الرَّبِّ تعالى بالتَّعْظيمِ والتَّنْزيهِ والبَراءةِ مِنْ كلِّ عيبٍ قولاً وفِعْلاً، ولأنهُ لمّا [قامَ المرءُ][1] إلى الصلاةِ فقد فارَقَ جميعَ الخَلائِقِ بما هُمْ فيهِ، وكذلكَ إذا جَثا[2] للرُّكوعِ والسُّجودِ فقد[3] فارَقَ جميعَ الخلائِقِ في ما هُمْ فيهِ مِنَ الأمورِ، واعْتَزَلَهُمْ، واشْتَغَلَ بِمُناجاةِ ربِّهِ، جَلَّ، وعلا، فجائزٌ أنْ تكونَ تَسْمِيَتُهُمُ التَّسْبيحَ صلاةً لِهذا.

ويَحْتَمِلُ أنْ سَمَّوْهُ صلاةً لِما أنَّ في الصلاةِ تَسْبيحاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قَبْلَ صلاةِ الفَجْرِ وقَبْلَ غُروبِها. وقالَ بعضُهُمْ: صلاةُ العَصْرِ. وقالَ بعضُهُمْ: صلاةُ العَصْرِ والظُّهْرِ لأنهما جميعاً قَبْلَ غُروبِ الشمسِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: [﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قولُهُ][4]: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هما رَكْعَتانِ بَعْدَ المَغْرِبِ، وجائزٌ مُحْتَمَلٌ أنْ يكونَ ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ما ذُكِرَ في آيةٍ أخرى حينَ[5] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

وتَفَيُّؤُ الظلالِ إنما يكونُ بالنهارِ، وهو تَسْبيحُ الظِّلالِ؛ فَمَعْناهُ: وسَبِّحْهُ وقْتَ أدبارِ سُجودِ تلكَ الظِّلالِ.

والذي أخبَرَ أنهُ يَتَفَيَّؤُ [قالَ:][6] إنَّ تفيُّؤَهُ، هو تَسْبيحُهُ، وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] وإدبارُ النجومِ، هو ذهابُ النجومِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ إي سَبِّحْهُ بَعْدَ ذَهابِ سُجودِ الظِّلالِ. فذلكَ إنما يكونُ بَعدَ ذهابِ الشمسِ وغَيبوبَتِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ كأنَّ هذا صِلَةُ قولِهِ ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وانْتَظِرْ يومَ يُنادي المُنادِي، ولا تُكافِئْهُمْ، ولا تَنْتَقِمْ منهمْ، ولكنِ اصْبِرْ، وانْتَظِرْ ذلكَ اليومَ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: جثنا. (٣) في الأصل: و، ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] أي يومَ يَدْعوهُمُ الداعي إلى شيءٍ، أنكَروهُ.

والثاني: ما ذَكَرَ مِنْ نِداءِ بَعْضٍ لِبَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ الآية [الأعراف: ٤٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] يقولُ ﷺ انتَظِرْ يومَ يُنادَونَ، ويُدْعَونَ إلى ما أنكَروا، ويومَ يُنادي بعضُهُمْ بَعْضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي مِنْ مكانٍ يَسْمَعونَ ما يُنادَونَ، ويُدْعَونَ، ويَعْرِفونَ ما يُرادُ بالدعاءِ، ومَنْ يُرادُ بِهِ: يَنْتَهي ذلكَ الدعاءُ والنداءُ إلى كلٍّ في نفسِهِ حتى يَعْرِفَهُ.

وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ المُناديَ، هو جبريلُ ﷺ يُنادي عندَ بَيتِ المَقْدِسِ بِنِداءٍ يَسْمَعُهُ كلُّ أحدٍ، وبَيتُ المَقْدِسِ أرْفَعُ مكانٍ في الأرضِ، وهو يَقْرُبُ مِنَ السماءِ بكذا كذا ذِراعاً، فهو المكانُ القريبُ.

ولكنَّ هذا لا مَعْنى لهُ، فإنهُ يَسْمَعُ صوتَهُ جميعُ الخلائقِ، وإنْ لم يُقِمْ في ذلكَ المكانِ. وليسَ المُرادُ مِنَ القُرْبِ ما ذَكَرَهُ، ولكنْ على الأسماعِ في أيِّ مَوضعٍ كانوا، ومَنْ يَسْمَعْ شيئاً فذلكَ منهُ قريبٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ الصَّيحةُ النَّفْخةُ أوِ النِّداءُ الذي ذَكَرَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي يَسْتَمعونَ الصَّيحةَ بما أوعَدَهُمُ الرسُلُ مِنَ المَواعيدِ، فَيَتَحَقَّقُ لهمْ ذلكَ في ذلكَ اليومِ.

والثاني[1]: يَحْتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بِتَحَقُّقِ ذلكَ اليومِ، لأنَّ الرسلَ ﷺ قد أخْبَروهُمْ بذلكَ اليوم، وهُمْ أنْكَروهُ، أو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لِبَعْضِهِمْ على بَعضٍ، أي يَسْتَوفي بعضٌ مِنْ بعضٍ ما لهمْ مِنَ الحَقِّ في ذلكَ اليومِ إذْ[2] أُمِروا بأداءِ الحقوقِ في ذلكَ اليومِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ قيل: يومُ الخروجِ مِنْ قبورِهِمْ، وقيل: ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ والبروزِ إلى اللهِ تعالى.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي نُحْيِي المَوتى، ونُميتُ الأحياءَ، أي نحنُ نَمْلِكُ ذلكَ، لا يَمْلِكُ أحدٌ ذلكَ غيرُنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ خَصَّ ذلكَ اليومَ بالمَصيرِ إليهِ، وإنْ كانوا في الأوقاتِ كلِّها صائرينَ إليهِ بما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ في غَيرِ مَوضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ السِّراعِ، هو صفةُ تَشَقُّقِ الأرضِ؛ كأنهُ يقولُ: يوم تَشَقَّقُ سِراعاً لا تَنْتَظِرُ طَرْفةَ عينٍ، ولكنْ تَتَشَقَّقُ أسْرَعَ مِنْ لَمْحَةِ البَصَرِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ وَصْفَ سُرْعةِ خُروجِهِمْ مِنَ الأرضِ؛ يقولُ: يَومَ يُسْرِعونَ بالخروجِ مِنَ الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وغيرُ الحَشْرِ يَسيرٌ على اللهِ تعالى أيضاً؛ ليسَ شيءٌ أيْسَرَ عليهِ مِنْ شيءٍ، لكنْ خَصَّ ذلكَ بالذِّكْرِ، لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ اسْتَبْعَدوا ذلكَ اليومَ، واسْتَعْظَموا كونَهُ، فَخَصَّ ذلكَ اليومَ باليُسْرِ لهذا؛ إذْ وجودُ الأشياءِ كلِّها بالتكوينِ الأزَليِّ، وعَبَّرَ عنْ ذلكَ بِحَرْفِ ﴿كُن﴾ لِمَعْرِفَةِ العِبادِ لا أنَّ التكوينَ الذي بِهِ وجودُ المُكَوَّناتِ مِمّا يُوصَفُ بالحَرْفِ.

وذلكَ يَسْتَوي ابْتِداءُ الخَلْقِ وإعادتُهُ والحَشْرُ وكلُّ شيءٍ، ولا قوةَ إلّا باللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: و.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ / ٥٢٩ ـ أ/ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ يقولُ، والله أعلَمُ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فَنُكافِئُهُمْ. أو يقولُ: عنْ عِلْمٍ بذلكَ نَتْرُكُهُمْ على ذلكَ، ونُمْهِلُهُمْ؛ يُصَبِّرُ رسولَهُ ﷺ على ذلكَ لِيَتَسَلّى بهِ بعضَ ما يُحْزِنُ قلبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنَ الجَبْرِ والقَهْرِ، أي ما أنتَ بقاهرٍ عليهمْ وجَبّارٍ، تُجْبِرُهُمْ على التوحيدِ.

وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ التَّجَبُّرِ والتَّكَبُّرِ، والجبّارُ، هو الذي يَقْتُلُ بلا ذَنْبٍ ولا حَقٍّ.

وقيلَ: أي وما أنتَ بِمُسَلَّطٍ عليهمْ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام: ١٠٧] أي مُسَلَّطاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ، فَعَلَيكَ التَّبْليغُ، وأنا المُجازي لهمْ والمُكافِئُ بما يَفْعَلونَ.

ثم لم يَخُصَّ بالتَّذكيرِ مَنْ يَخافُ الوَعيدَ، لكنْ أمَرَ بتَذْكيرِ الكلِّ لأنَّ[1] مَنْفَعةَ الذِّكْرى تكونُ لِمَنْ يخافُ الوَعيدَ، لا لِمَنْ لا يَخافُ الوَعيدَ. فَلِذلكَ خَصَّهُ بالذِّكْرِ، لكنَّ التَّخصيصَ بالذِّكْرِ لا يكونَ تَخصيصاً بالحُكْمِ ونَفْياً عنْ غَيرِهِ.

فَيَبْطُلُ بهذا مَذْهَبُ مَنِ ادَّعَى ذلكَ. واللهُ أعلَمُ بما أرادَ [واللهُ الموفِّقُ][2].

(١) في الأصل وم: لا أن. (٢) من م، ساقطة من الأصل.

سورة الذاريات

مكية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ ـ ٤ قولُهُ تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ سُئِلَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ عنْ هذهِ الآيةِ، فقالَ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ هي الرياحُ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ هو(٢) السَّحابُ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ هنَّ السُّفُنُ ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ هي الملائكةُ.

وعلى هذا خُرِّجَ تأويلُ عامّةِ أهلِ التأويلِ إلّا ابْنَ مَسْعودٍ ﷺ فإنهُ قالَ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ هي الملائكةُ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ تُصْرَفَ هذهِ الأحرفُ كلُّها مِنَ الذّارياتِ وغيرِها إلى الرياحِ خاصّةً؛ فالذّارياتُ هنَّ يَذْرُونَ الأشياءَ ﴿ذَرْوًا﴾ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ هنَّ يَحْمِلْنَ السحابَ وغيرَها في الآفاقِ.

وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ كلُّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ إلى نوعٍ وجِنْسٍ على ما حَمَلَهُ أهلُ التأويلِ، وصَرَفَهُ إليهِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ذَرَتِ الريحُ، تَذْرو ذَرْواً، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] ومنهُ ذَرَيْتُ البُرَّ، لأنَّ التَّذْرِيَةَ لا تكونُ إلّا بالريحِ، و: تَذَرَّيْتُ أي أشرَفْتُ مِنَ الذُّرْوَةِ، و: ذَرَأَ الرجلُ، يَذْرَأُ ذَرْءاً، فهو أذْرَأُ، أي أشْمَطُ، وشاةٌ ذَرْآءُ إذا كانَ في ذَنَبِها بَياضٌ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ أي سَهْلاً، أي تَجْري السُّفُنُ في المِياهِ جَرْياً سَهْلاً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي هَيِّناً.

ثم ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ همُ الملائكةُ. واختَلَفوا في التَّقْسيمِ: قالَ بعضُهُمْ: أربعةُ أملاكٍ يُقَسِّمونَ الأمورَ: فَجِبْريلُ ﷺ يَنْزِلُ في إنزالِ العذابِ والشدائدِ، وميكائيلُ يَنْزِلُ في إنزالِ النِّعْمَةِ والرَّخاءِ، وإسرافيلُ في نَفْخِ الصورِ، ومَلَكُ الموتِ في قَبْضِ الأرواحِ. فكلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاءِ مُوكَّلٌ في أمرٍ على حِدَةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: همُ الملائكةُ الذينَ يَنْزِلونَ بالوحْيِ: يَأخذُ هذا مِنْ هذا؛ إذْ للهِ تعالى أنْ يُرْسِلَ الوَحْيَ على يَدَي مَنْ يَشاءُ مِنْ ملائكتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في ذِكْرِ هذهِ الأشياءِ مِنَ الرِّياحِ والسُّفُنِ والسَّحابِ والملائكةِ، لماذا؟

قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنما ذَكَرَها على القَسَمِ بها. وقالَ بعضُهُمْ: إنما ذَكَرَها على سَبيلِ تَعْدادِ النِّعَمِ والمَنافِعِ التي جَعَلَها اللهُ تعالى لهمْ، واحتَجَّ هؤلاءِ، وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى نَهانا عنِ القَسَمِ بِغَيرِهِ، فيكفَ يُقْسِمُ(٣) بِغَيرِهِ؟ فيكونُ ذِكْرُ هذهِ الأشياءِ على الامْتِنانِ لا على القَسَمِ.

والقائلونَ بالقَسَمِ اختَلَفوا: فمنهمْ مَنْ يقولُ: القَسَمُ بأعيانِ هذهِ الأشياءِ لِعِظَمِ مَنافعِ الأشياءِ عندَ الخالقِ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ القَسَمَ باللهِ تعالى لا بِغَيرِ هذهِ الأشياءِ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: والذي ذَرَأَ الذارياتِ ذَرْواً، والذي خَلَقَ الحامِلاتِ وِقْراً ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ وقولُهُ تعالى: كقولِهِ تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٣] فيكونُ القَسَمُ بِخالقِ هذِهِ الأشياءِ لا بأنفسِها، وكلُّ واحدٍ مِنَ الوجهَينِ [مُحتَمَلٌ](٤) لأنَّ القَسَمَ خَرَجَ لِرَفْعِ شُبْهَةِ الكَفَرَةِ في

(١) أدرج قبلها في م: ذكر أن سورة الذاريات. (٢) في الأصل وم: هي. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم.

البَعثِ وارْتِيابِهِمْ فيهِ بَعدَ ما أقامَ عليهِمْ حُجَجَ البعثِ وبَراهينَهُ على أنهُ كائنٌ لا مَحالةَ [بحيثُ لو تأمّلوا][(١)]، ونَظَروا فيها لَزالَ[(٢)] ذلكَ الارْتِيابُ.

والقَسَمُ لِتأكيدِ ما وقَعَ عليهِ بِما يكونُ عندَهمْ لهُ حُرْمةٌ وقَدْرٌ وعظمةٌ، فَيَدُلُّهُمْ ذلكَ على تأكيدِ الخَبَرِ المَقْرونِ بالقَسَمِ. فالقَسَمُ مِنَ اللهِ تعالى بِأنهُ خالقُ هذهِ الأشياءِ المَذكورةِ ممّا يَجِلُّ، ويَعْظُمُ عندَ الكَفَرَةِ لِما كانوا يُقْسِمونَ باللهِ تعالى عندَ عِظَمِ الأمورِ كما أخبَرَ تعالى: ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٣ و...] فَيَصْلُحُ لِتأكيدِ ما وَقَعَ عليهِ القَسَمُ.

وكذلكَ القَسَمُ بهذِهِ الأشياءِ يَصْلُحُ مؤكِّداً لِعِظَمِ خَطَرِ هذهِ الأشياءِ عندَهمْ لِما تَجِلُّ مَنافِعُ هذهِ الأشياءِ؛ والعُرْفُ في الناسِ أنهمْ إنما يُقْسِمونَ بالذي عَظُمَ خَطَرُهُ، وجَلَّ قَدْرُهُ عندَهُمْ، فأقْسَمَ اللهُ تعالى بهذِهِ الأشياءِ لمّا عَرَفَ عِظَمَ خَطَرِها وجَليلَ قَدْرِها عندَهمْ:

فَمَنافِعُ الرياحِ مما يَكْثُرُ عَدُّها؛ فقد أهلَكَ بها أقواماً، وبها اسْتَأصَلَهُمْ، وبها تُلْقَحُ الأشجارُ المُثْمِرَةُ وغَيرُها، وبها يُساقُ السحابُ في الآفاقِ للأمطارِ، وبها تَجْري السفُنُ في البحارِ، وغَيرُها مِنَ المَنافِعِ، وبها سَبَبُ حياةِ الحيواناتِ بالنَّفَسِ ودخولُ الريحِ فيهمْ ونَحْوُها في تَذْرِيَةِ الطعامِ بحيثُ لولاها لَتَحَرَّجَ الناسُ في التَّذْرِيَةِ، وفيها آياتٌ.

فإنَّ الريحَ جسمٌ لطيفٌ [لا][(٣)] يُرَى، ولا يُدْرَكُ، لِيُعْلَمَ أنَّ الرُّؤيَةَ لا تُوجِبُ الإحاطةَ والإدراكَ وغَيرَ ذلكَ مِنْ جهةِ الآياتِ على ما تَقَدَّمَ.

وكذلكَ أقْسَمَ بالحاملاتِ وِقْراً، وهو[(٤)] السحابُ الذي فيهِ مَنافِعُ الخَلْقِ مِنْ حَمْلِ الأمطارِ والتَّظليلِ في الحَرِّ ونَحْوِ ذلكَ معَ ما فيهِ مِنَ الآياتِ؛ إذْ هو يُمْسِكُها في الهواءِ حتى[(٥)] لا تَقَعَ بِسَوْقِ الرياحِ مَعَ ما فيهِ مِنَ الحِمْلِ والوِقْرِ.

ثم يُرْسِلُ المطرَ حيثُ أمَرَ؛ إذْ قد يُوجَدُ السحابُ، ولا مَطَرَ. دلَّ أنهُ لم يُرْسِلْ بنفسِهِ بل بالأمْرِ يَرْفَعُ، ويُمْسِكُ، ويُرْسِلُ[(٦)]، /٥٢٩ ـ ب/ وهو في نفسِهِ مُسَخَّرٌ. ولو كانَ عَمَلُهُ بالطبعِ لم يَخْتَلِفْ باخْتِلافِ الأحوالِ.

وفيهِ آياتُ البعثِ؛ إذْ خَلْقُ مِثْلِهِ لا يكونُ إلّا لعاقبةٍ.

وكذلكَ أقْسَمَ بالجارياتِ يُسْراً، وهي السُّفُنُ لِما فيها مِنْ مَنافِعِ الخَلْقِ؛ إذْ لولاها لانْقَطَعَتْ بعضُ المَنافِعِ عنِ الخَلْقِ؛ إذْ ما يَحتاجُ المَرْءُ مِنَ المَنافِعِ لا يوجدُ في مكانٍ واحدٍ، بل خَلَقَها مُتَفَرِّقَةً في أماكنَ؛ فَطريقُ تَحْصيلِ هذهِ المَنافِعِ والحَوائجِ سِيّانِ: الحَمْلُ على ظهورِ الدوابِّ في البَرِّ، وفي السفُنِ في البحارِ مَعَ ما فيها مِنَ الآيةِ العظيمةِ بما جَعَلَها بحيثُ لا تَتَسَفَّلُ في الماءِ مع ثِقَلِ الأحمالِ، بل تَجْري بها الريحُ حيثُ ما شاؤوا بأمْرِ اللهِ تعالى. والملائكةُ، منافِعُهُمْ عظيمةٌ ظاهرةٌ، وعِظَمُ قَدْرِهِمْ وجلالَةُ خَطَرِهِمْ واضِحٌ.

وإذا كانَ كذلكَ، فكانَ القسمُ بهذهِ الأشياءِ لِتأكيدِ الخَبَرِ المُقْسَمِ عليهِ ممّا يُعْقَلُ، وهو مُتَعارَفٌ.

ولا مَعْنَى لقولِ أولئكَ: إنهُ نَهَى عبادَهُ عنِ القَسَمِ بِغَيرِهِ، فكيفَ يُقْسِمُ بنفسِهِ؟ إذْ يجوزُ أنْ يُقْسِمَ هو بشيءٍ، يَنْهانا عنِ القَسَمِ بهِ؛ إذِ القَسَمُ بالشيءِ تَبْجيلُ تلكَ الأشياءِ وتَعظيمُها، وإنها لا تَسْتَحِقُّ التَّعظيمَ بأنفسِها بل باللهِ تعالى، فأمَرَنا بالقَسَمِ باللهِ تعالى؛ إذْ هو المُسْتَحِقُّ لِلتَّعظيمِ بنفسِهِ[(٧)] في الحَقيقةِ، إذ هو خالقُ الأشياءِ كلِّها.

فأمّا القَسَمُ مِنَ اللهِ تعالى بشيءٍ فليسَ لتعظيمِ ذلكَ في نفسِهِ، بل بَيانٌ منهُ قَدْرَ مَنافِعِهِ التي لِلْخَلْقِ فيهِ التي عَظُمَتْ، وجَلَّتْ عندَهُمْ، فيكونُ لِذِكْرِها خَطَرٌ عندَهُمْ.

ثم ذَكَرَ أفعالَ هذهِ الأشياءِ التي أقْسَمَ بها، ولم يَذْكُرْ أنفسَها، والقَسَمُ إنما يكونُ بالأنفسِ لا بالأفعالِ؛ فإمّا أنْ عَرَفَ أولئكَ الكَفَرَةُ أنفسَ هذهِ الأشياءِ بِذِكْرِ أفعالِها وقْتَ قَرَعَ ذِكْرُ هذهِ الأفعالِ سَمْعَهُمْ، وإمّا[(٨)] إذا لم يَعْرِفوا يَسْألونَ عنها وما أُريدَ بها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لزوال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وهي. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: ويرفع. (٧) في الأصل وم: بأنفسها. (٨) في الأصل وم: أو.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا موضعُ [جواب][1] القَسَمِ، أي الجزاءُ لَواقعٌ كائنٌ. وقيلَ: إنَّ المُرادَ مِنَ الدينِ الحِسابُ، أي إنَّ الحِسابَ لَكائنٌ، لا مَحالةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧ و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أقسمَ أيضاً بالسماءِ ذاتِ الحُبُكِ، ومَوضعُ [جوابِ][2] القَسَمِ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄ [في قولِهِ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾][3] [أنهُ][4] قال: حُسْنُها واستِواؤها، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي ذاتِ بُنْيانٍ مُتْقَنٍ مُحكَمٍ. وكلا التأويلَينِ يَرْجِعانِ إلى واحِدٍ؛ فإنَّ حُسْنَ خَلْقِ السماءِ بالإتقانِ والإحكامِ، يقالُ عنِ الحائكِ إذا أحْسَنَ النَّسْجَ، وأحْكَمَهُ، حَبَكَ الثوبَ.

وقالَ الحَسَنُ: حُبِكَتْ بالنجومِ، وحُبِكَت بِحُسْنِ الخُلُقِ. وقالَ بعضُهُمْ: ذاتِ الشِّدَّةِ والاستِواءِ؛ يُقالُ: حَبَكْتُ الحَبْلَ إذا شَدَدْتُ فَتْلَهُ. كذلكَ قالَهُ أبو عُبَيدَةَ، وقالَ القُتَبِيُّ: ذاتِ الحُبُكِ، ذاتِ الطرائقِ، وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ.

ثم هو على ما ذَكَرْنا مِنَ الوجهَينِ: إنَّ القَسَمَ بِعَينِ السماءِ، أو ربِّ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم [قولُهُ ﷻ][5]: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في رسولِ اللهِ ﷺ وفي القرآنِ ما لو كانَ ذلكَ القولُ منكمْ عنْ عِلْمٍ ومعرفةٍ لم يَخرُجْ مُختَلِفاً مُتَناقِضاً [وهو يَحْتَمِلُ وجوهاً]:

أحدُها: أنهمْ[6] قالوا في رسولِ اللهِ ﷺ: إنهُ مجنونٌ، وإنهُ ساحرٌ، وإنهُ شاعرٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، وهذا مُخْتَلِفٌ مُتَناقِضٌ، لأنَّ الساحرَ، هو الذي يَبْلُغُ في معرفةِ الأشياءِ غايَتَها، وكذا الشاعرُ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَبْلُغَ المجنونُ ذلكَ المَبْلَغَ بِحالٍ، فتكونُ نِسْبَتُهُمْ إياهُ إلى هذهِ الجملةِ في حالٍ واحدةٍ تَخرُجُ على التَّناقُضِ.

وكذلكَ قولُهُمْ في القرآنِ: إنهُ أحاديثُ الأوَّلينَ، وإنهُ مُفْتَرًى، والافْتِراءُ خِلافُ الأساطيرِ معَ أنهمْ عَجِزوا عنْ إتيانِ مِثْلِهِ، فيكونُ هذا تَناقُضاً مِنَ القولِ.

فَدَلَّ اختِلافُهُمْ في القولِ فيهما على أنهمْ قالوا ذلكَ عنْ جَهْلٍ لا عنْ عِلْمٍ؛ إذْ لو كانَ [عنْ عِلْمِ ذلكَ لكانَ][7] لا يَخْتَلِفُ، ولا يَتَناقَضُ، وهذا الخطابُ على هذا التأويلِ يكونُ لِلْكَفَرَةِ.

والثاني: إنما قالَ ذلكَ في الدلالةِ على البَعْثِ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أي في عقولِكُمُ الاخْتِلافُ والافْتِراقُ بَينَ المُصْلِحِ والمُفْسِدِ والمُحْسِنِ والمُسيءِ، وقد عَرَفْتُمُ الاسْتِواءَ بَينَهما في هذهِ الدنيا. دلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرَى، فيها يُفَرِّقُ بَينَهما ويُمَيِّزُ. وهذا التأويلُ لا يَختَصُّ بهِ الكافرُ، بل يَعُمُّ الكُلَّ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أي قولٍ مُتَفَرِّقٍ ومَذْهبٍ مُتَناقضٍ؛ فإنهمْ كانوا يَعْبُدونَ أشياءَ على هَواهُمْ؛ فإذا هَوُوا شيئاً آخَرَ تركوا ذلكَ، وعَبَدوا الأخيرَ[8]. وكذلكَ يقولونَ قولاً بلا حُجَّةٍ، ثم يَرْجِعونَ إلى قولٍ آخَرَ، لا ثَباتَ لهمْ على شيءٍ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

والرابعُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أي في أمرِ الآخِرَةِ، لأنَّ منهمْ مَنْ يَدَّعي أنَّ الآخِرَةَ لهمْ، لو كانَتْ، ومنهمْ مَنْ يَدَّعي الشَّرِكَةَ معَ المسلمينَ. فَرَدَّ اللهُ تعالى عليهمْ بقولِهِ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ و٣٦] وقولِهِ[9]: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

والخامسُ: يَحْتَمِلُ أنَّ مواعيدَهُمْ ومنازِلَهُمْ مُخْتَلِفَةٌ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ الناسَ يأتونَ مكةَ مِنَ البُلْدانِ المُخْتَلِفَةِ لِيَتَفَحَّصوا عنْ أخبارِ رسولِ اللهِ ﷺ ويَسْمَعوا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: لأنهم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: غيره. (٩) في الأصل وم: وقال.

كلامَهُ، فكانَ كفارُ مكةَ يَصُدُّونَهُمْ عنهُ، ويقولُ بعضُهُمْ: إنهُ مجنونٌ، وبعضُهُمْ كذّابٌ، وبعضُهُمْ شاعرٌ، وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أي يُصْرَفُ عنِ الحقِّ مَنْ صُرِفَ عنِ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ في العاقبةِ.

والثاني: صُرِفوا عمّا رَجَوا في الآخِرَةِ لمّا صُرِفوا عنِ الحقِّ في الدنيا، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ عبادتُها إلى اللهِ تعالى وأنها شُفَعاؤُهُمْ عندَ اللهِ تعالى؛ يقولُ اللهُ تعالى: صُرِفَ مَنْ رَجا [ذلكَ][1] في الآخِرَةِ لمّا صُرِفَ عنِ الحقِّ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يُصْرَفُ مَنْ طَمِعَ في الآخِرَةِ الشَّرِكَةَ مَعَ المسلمينَ، وادّعى الخُلوصَ، بِما صُرِفَ في الدنيا عنِ الإيمانِ الذي بهِ يَنالُ الآخِرَةَ.

والرابعُ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي عنِ الحقِّ ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي صُرِفَ عنِ الحَقِّ مَنْ صُرِفَ لِقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا۟ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ الآية [التوبة: ١٢٧] وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: الخَرّاصُ الذي يكذِبُ على العَمْدِ.

ولكنْ عندَنا الخَرّاصُ الذي يكذِبُ، ويَقطَعُ على الظَّنِّ، ومنهُ يُقالُ للذي يُقَدِّرُ[2] الشيءَ، ويُفَرِّقُهُ بالظَّنِّ: خَرّاصٌ. فَعَلى ذلك يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿الْخَرَّٰصُونَ﴾.

ثم قولُهُ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحدُهما:][3] حقيقةُ القَتْلِ، وذلكَ يرجِعُ إلى قومٍ خاصٍّ قُتِلوا.

والثاني: ﴿قُتِلَ﴾ أي لُعِنَ، واللَّعْنُ /٥٣٠ ـ أ/ هو الطَّرْدُ، أي طُرِدوا عنْ رحمةِ اللهِ. وإنما سُمِّيَ اللَّعْنُ قَتْلاً لأنَّ القَتْلَ سَبَبُ التَّبعيدِ عنْ مَنافِعِ الحياةِ. وبالقَتْلِ خَرَجَ عنْ أنْ يكونَ مُنْتَفِعاً بها[4]، واللَّعْنُ هو الطَّرْدُ عنْ رَحْمَةِ اللهِ التي بها[5] تَقَعُ، وتَتَحقَّقُ المنافعُ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿الْخَرَّٰصُونَ﴾ الكاذبونَ. وكذا قالَ أهلُ الأدبِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ: قال بعضُهُمْ: أي في غَفْلَةٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أي في غِطاءٍ وغِشاءٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥ و. . .] وقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] أي في غِطاءٍ وغُلُفٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أي في عِمايةٍ في أمرِ الآخرةِ. ولكنَّ الكلَّ يَرْجِعُ إلى معنًى واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَاهُونَ﴾ أي ساهونَ عنِ الحقِّ وعمّا دُعُوا إليه. وقيلَ: ﴿سَاهُونَ﴾ أي غافلونَ. وقيلَ: لا هونَ عنِ التوحيدِ والإيمانِ. وقيلَ: ﴿سَاهُونَ﴾ أي تاركونَ الإيمانَ. وأصلُ السَّهْوِ، هو التَّرْكُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا۟ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تَرَكوا، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ كانوا[6] يسألونَ عنْ يومِ القيامةِ سؤالَ اسْتِهزاءٍ وعِنادٍ لا سؤالَ اسْتِرْشادٍ. لذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الآية: ١٣] ولو كانَ سؤالُهُمْ سؤالَ اسْتِرْشادٍ لكانَ لا يأتيهِمْ ذلكَ الوعيدُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقدم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: به. (٥) من م، في الأصل: به. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: الآية.

الا ترى أنَّ جبريلَ ﷺ أتى رسولَ اللهِ ﷺ وسألَهُ عن الإيمانِ والإسلامِ في حديثٍ طويلٍ، وسألَهُ عنِ الساعةِ، فلم يأتِهِ الوعيدُ؟ فلا ذَمَّ في سؤالِهِ ذلكَ لأنَّ سؤالَهُ سؤالُ اسْتِرشادٍ.

وقومُ موسى ﷺ لمّا سألوا رؤيةَ الربِّ تعالى بقولِهِمْ: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] أُهلِكُوا لأنهمْ سألوا سؤالَ اسْتِهزاءٍ وتَعَنُّتٍ لا سؤالَ اسْتِهزاءٍ.

وأصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ سألوا الرؤيةَ، فَبُشِّروا، وَوُعِدوا في الآخرةِ لِما أنهمْ سألوا سؤالَ اسْتِرشادٍ لا سؤالَ اسْتِهزاءٍ.

فعلى ذلكَ أولئكَ الكفرةُ سألوا عنِ القيامةِ سؤالَ استهزاءٍ: متى تكونُ الساعةُ التي تُوعِدُنا[1] بها؟ ومتى[2] وقتُ العذابِ الذي تُوعِدُنا[3] بهِ؟ لذلكَ قالَ جواباً لهم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الآية: ١٣] واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الحكمَ لا يُبْنى على ظاهرِ المَخْرَجِ؛ فإنهُ لا فَرْقَ بينَ سؤالِ الكفرةِ رسولَ اللهِ ﷺ عن الساعةِ وبينَ سؤالِ جبريلَ ﷺ إياهُ عنِ الساعةِ.

[فالجوابُ لجبريلَ][4] ﷺ «ما المَسْؤولُ بها بأعلمَ منَ السائلِ» [البخاري ٥٠]. ثم الجوابُ للكفرةِ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الآية: ١٣] ثم مَنْ شَهِدَ النوازلَ علمَ المرادَ منَ النازلَتَينِ أنَّ أحدَ السؤالَينِ خَرجَ على الِاسْتِهزاءِ والآخرَ على الِاسْتِرشادِ. فحملوا أحدَ الجوابينِ على إحدَى الحالتَينِ والآخرَ على حالِ الأُخرَى.

دلَّ أنَّ الحكمَ لا يُبْنَى على ظاهرِ المَخْرَجِ. ولكنْ يجبُ النظرُ لِيُعْرَفَ المُرادُ إمّا بسؤالِ[5] مَنْ شَهِدَ النازلةَ وإمّا[6] مِن حيثُ المَعْنَى مُودَعٌ[7] فيهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يُخبِرُهمْ عنِ اليومِ الذي يُفْتَنونَ فيهِ، وقيلَ فيه بوجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي يُبْتَلونَ، ويُمْتَحَنونَ بالشِّدَّةِ والعذابِ.

والفِتْنَةُ، هي المِحْنةُ التي فيها الشِّدَّةُ والبلاءُ، فَسَمَّى العذابَ فِتْنَةً لِما فيهِ مِنَ الشِّدَّةِ.

والثاني[8]: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي يُحْرَقونَ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي ذوقوا العذابَ [الذي][9] فيهِ الشِّدَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي تَسْتَعْجِلونَ في الدنيا، وتَزْعُمونَ أنهُ لا يكونُ في الآخِرَةِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ والإشكالُ كيفَ ذَكَرَ أنَّ المُتَّقِينَ في جَنّاتٍ وعُيونٍ، وهمْ يكونونَ في جَنّاتٍ، ويكونونَ في العُيونِ بِحَيثُ يَرَونَها، وتَقَعُ عليها أبصارُهُمْ، ويَنْتَفِعونَ بها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الدخان: ٥٣] وإنما همْ يَلْبَسونَ السُّنْدُسَ، فأمّا الإِسْتَبْرَقُ فهو البُسُطُ وغَيرُ ذلكَ مِنَ المُنْتَفَعِ[10] بهِ.
فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ كَونِ المُتَّقِينَ في جَنّاتٍ وعُيونٍ؛ يكونونَ في الجنةِ، ويَنْتَفِعونَ بالعيُونِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الذينَ اتَّقَوُا الشِّرْكَ والكُفْرَ، ويَحْتَمِلُ الذينَ اتَّقَوا مُخالَفَةَ اللهِ على الإطلاقِ قَولاً وعَمَلاً واعْتِقاداً، ويَحْتَمِلُ الذينَ اتَّقَوُا المَهالِكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي قابِلِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ في الدنيا مِنَ القدرةِ والقوةِ والمالِ بِحَقِّ اللهِ تعالى والقِيامِ بِشُكْرِهِ والعبادةِ لهُ والِاسْتِعْمالِ في طاعتِهِ. لِذلكَ قالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي قَبِلوا ذلكَ بِحَقِّ الإحسانِ، فاسْتَعْمَلوهما في حَقِّ اللهِ تعالى والقِيامِ بطاعتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: تعدنا. (٢) في الأصل وم: أين. (٣) في الأصل وم: تعدنا. (٤) في الأصل وم: أجاب جبريل. (٥) في الأصل وم: بالسؤال. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: المودع. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الانتفاع.

وعلى هذا التأويلِ كأنهُ على التقديمِ والتأخيرِ: إنَّ المُتَّقينَ في جَنَّاتٍ وعُيونٍ، إنهم كانوا قَبْلَ ذلكَ مُحْسِنينَ، آخذينَ ما آتاهُمْ ربُّهُمْ؛ أي إنما قابَلوا الجنةَ لِما أنهمْ كانوا في الدنيا كذلكَ.

والثاني: ما قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في الآخِرةِ، أي راضينَ بِما أعطاهُمُ اللهُ مِنَ النَّعيمِ في الجنةِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وعلى هذا يُخرَّجُ تأويلُهُمْ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا.

الآيتان ١٧ و١٨ ثم نَعَتَ إحسانَهُمْ، فقالَ ﷻ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ جميعاً: أي يُصلّونَ، وإنما حَملوا [على الصلاةِ][1] لأنَّ الاسْتِغفارَ طَلَبُ المَغفرةِ؛ وذلكَ مَرَّةً بالصلاةِ ومَرَّةً باللِّسانِ ومَرَّةً بِدَفْعِ المالِ، ويَحْتَمِلُ حقيقةَ الاسْتِغْفارِ أيضاً. وإنما مَدَحَهُمْ بذلكَ لأنَّ أرْجى وَقْتٍ لِلاسْتِغْفارِ وَقْتُ السَّحرِ لِما رُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ ﵄ أنهُ قالَ لِنافِعٍ: إذا كانَ وَقْتُ السَّحرِ فأَعْلِمْني بِهِ، فكانَ هو يُصَلّي إلى وَقْتِ السَّحرِ، ثم يَدْعوهُ[2]، ويَسْتَغْفِرُ في ذلكَ الوقتِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيةَ في الزكاةِ. لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ، لأنَّ السورةَ مكيةٌ، ولم تَكُنْ بمكةَ الصدقةُ المَفروضةُ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ السورةَ مكيةٌ إلا هذهِ الآياتِ إنْ ثَبَتَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ الحَقُّ ليسَ هو المَفروضَ، ولكنهُ[3] حقٌّ سِوَى الفَرْضِ.

وقيلَ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في قومٍ خاصٍّ جَعَلوا على أنفسِهِمْ ألّا يَرُدُّوا سائلاً ولا مَحْروماً، ولا يَمْنَعوا أموالَهُمْ مِنْ أحدٍ، فَمدَحَهُمْ بذلكَ. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ الحَقَّ للسائلِ والمَحْرومِ؟ وقد بَيَّنَ مَصارِفَ الزكاةِ الثمانيةَ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠].

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ المَحْرومِ والسائلِ:

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: المَحْرومُ هو الذي لا سَهْمَ لهُ في الغَنيمةِ والفَيْءِ بألّا يَحْضُرَ وَقْتَ قِسْمَةِ الغَنيمةِ، فلا يَنالُ شيئاً منها، ويُحْرَمُ مِنْ ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: المَحْرومُ الذي هَلَكَ زَرْعُهُ وكَرْمُهُ بِبلاءٍ، أصابَهُ، يُحْرَمُ مِنْ ذلكَ كما وصَفَهُ في سورةِ الواقعةِ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الآيتين: ٦٦ و٦٧] فلمّا حُرِموا زَرْعَهُمْ وُصِفوا بذلكَ.

وقيلَ: المَحْرومُ الذي لا يَعْلَمُ حِرْفَةً أو[4] كَسْباً، وهو مُحارَفٌ /٥٣٠ ـ ب/ أيضاً. وقيلَ: المَحرومُ المُتَعَفِّفُ الذي بِهِ فَقْرٌ، لكنهُ لا يَسْألُ الناسَ شيئاً، والسائلُ الطَّوّافُ.

وعندَنا الفقراءُ ثلاثةٌ: السائلُ الذي يَطوفُ، ويَسْألُ الناسَ، والمُعْتَرُّ الذي يَعْتَرُّ الناسَ، ويُظْهِرُ حاجَتَهُ للناسِ، ويَتَعَرَّضُ للسؤالِ، ولا يَسْألُ صريحاً، والمَحْرومُ هو الذي يَسْتُرُ فَقْرَهُ وحاجَتَهُ عنِ الناسِ، لا يَسْألُهُمْ، ولا يَعْتَرُّ[5] لِذلكَ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ سَمّاهُ مَحْروماً بأنهُ[6] حُرِمَ المَكاسِبَ وأسبابَ العيشِ مِنَ التجارةِ والحِرْفَةِ وغيرِهِما.

وجائزٌ أنْ يكونَ لهُ المَكاسبُ والأسبابُ، لكنهُ مَحْرومٌ مِنْ إنزالِ المَكاسِبِ والأرباحِ في التجارةِ؛ يَكْتَسِبُ، ويَعْمَلُ بتلكَ الأسبابِ، لكنهُ مُحارَفٌ، لا يُرْزَقُ منها شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على [وجوهٍ:

أحَدُها][7]: أي في الأرضِ آياتٌ يَنْتَفِعُ بها الموقِنونَ، وهمُ المؤمنونَ الذينَ عَلِموا الآياتِ بِطريقِ الإيقانِ.

[والثاني:][8] يَحْتَمِلُ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ يَعْلَمُ الموقِنونَ حقيقةَ أنها آياتٌ. فأمّا غيرُهُمْ فلا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: عليها. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ولكن. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) من م، في الأصل: يعتبر. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٨) في الأصل وم: و.

[والثالث:][(١)] تَحتَمِلُ آياتُ الأرضِ آياتِ التَّوحيدِ وآياتِ البَعْثِ وآياتِ القُدْرةِ وغَيرَ ذلكَ على ما ذَكَرْنا أنهُ خَلَقَ على وجهِ الأرضِ مِنَ الدوابِّ والأشجارِ وأنواعِ الثمارِ مِنْ غَيرِ أنْ عَرَفَ الخَلْقُ كيفيَّةَ وجودِها وماهِيَّتَها، وأنهُ لم يَخلُقْ مِثْلَها لِلْفناءِ خاصَّةً، فتكون، آياتٍ لِما ذَكَرْنا.

وقيلَ: إنَّ في خَلْقِ الأرضِ آياتٍ، وهو أنْ خَلَقَها، وكانَتْ تميدُ بأهلِها، ثم أرساها بالجبالِ حتى اسْتَقَرَّتْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ صلةُ قولِهِ: ﴿وَفِى ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أي وفي أنفسِكُمْ أيضاً [آياتٌ][(٢)] أفلا يُبصِرونَ؟ أي آياتُ الوَحْدانيّةِ والرُّبوبيَّةِ وآياتُ البَعْثِ وآيةُ وجوبِ الشكرِ والعبادةِ والإمْتِحانِ.

أمّا آياتُ الرُّبوبيَّةِ فهي[(٣)] أنَّ اللهَ أنشأَ هذا البَشَرَ مِنْ نُطفةٍ، ثم قَلَبَ تلكَ النُّطفةَ عَلَقَةً ثم العَلَقَةَ مُضغَةً ثم المُضغَةَ عظاماً ولَحْماً، ثم رَكَّبَ فيها الجَوارحَ ﴿فِى ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر: ٦] ما رَأى الصالحَ لهُ في الِاسْتِواءِ والصِّحَّةِ سَليمةً مِنَ الآفاتِ غَيرَ مُتَفاوِتَةٍ.

فَدَلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ لا عَدَدٍ، وأنَّ لهُ القُدْرةَ الذاتيَّةَ والعِلْمَ الذاتيَّ لا المُسْتَفادَ، وأنَّ ما قَلَّبَهُمْ مِنْ حالٍ [إلى حالٍ][(٤)] وما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ الجَوارحِ التي بها يَقْبِضونَ، وبها يأخُذونَ، وبها يَدْفَعونَ، ويُسَلِّمونَ، وبها يُبْصِرونَ، ويَسْمَعونَ، وبها يَمْشونَ؛ لم يَفْعَلْ بهِمْ لِيَتْرُكَهُمْ سُدًى؛ ويُهْمِلَهُمْ فلا يَمْتَحِنَهُمْ، ولا يَأمُرَهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ، وأنهُ حينَ[(٥)] سَخَّرَ جميعَ الخلائقِ مِنَ السماءِ والأرضِ وما بينَهما، ما سَخَّرَ إلّا لِيَمْتَحِنَهُمْ، ولِيَسْتَأدِيَ منهمْ شكرَ ذلكَ كلِّهِ.

وفيهِ آيةُ البعثِ، لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ منهُ ما ذَكَرْنا، ثم لا يَبْعَثُهُمْ لِيُثابَ المُحْسِنُ منهمْ، ويُعاقَبَ المُسِيءُ، ويُجازَى [كأنهُ لا][(٦)] يَقْدِرُ عليهِ؛ إذْ لو لم يَكُنْ لَكانَ خَلْقُهُ إياهُمْ عَبَثاً باطلاً على ما ذَكَرْنا في غَيرِ موضعٍ.

وقيلَ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ أي في خَلْقِ أنفسِكُمْ ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أنهُ كيفَ سَوَّى أنفسَكُمْ على أحْسَنِ الصُّوَرِ وأحْسَنِ التَّقويمِ بَعْدَ ما كانَ أصْلُها وجَوْهَرُها مِنْ ماءٍ؟ وكذلكَ أصلُ جَواهِرِ الأنعامِ والبهائمِ مِنْ نُطْفَةٍ أيضاً، ثم رَكَّبَها[(٧)] على صُوَرٍ صالحةٍ لِمَنافِعِكُمْ. ورَكَّبَكُمْ على أحسنِ الصُّوَرِ، ثم جَعَلَ فيكمْ مِنَ العَقْلِ والسَّمْعِ والبَصَرِ ما تُدْرَكُ بها حقائقُ الأشياءِ المَحْسوسةِ والمَعاني الحِكْمِيَّةُ لِتَتأمّلوا في ذلكَ كلِّهِ، فتكونَ آيةُ الوَحْدانيَّةِ وآيةُ إلزامِ الشُّكْرِ والعبادةِ لهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي في السماءِ رِزْقُكُمْ وما تُوعَدونَ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ.

وقالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي المَطَرُ الذي يَنْزِلُ منها في الأرضِ، فَيَنْبُتُ فيها بذلكَ المطرِ مِنْ أنواعِ الأرْزاقِ مِنَ الحبوبِ والثمارِ والفواكِهِ وغَيرِها؛ كلُّ ذلكَ، سَبَبُهُ مِنَ السماءِ لِذلكَ أضافَهُ إليها، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا مِنْ أرزاقِنا أنها في السماءِ: المطرُ وجميعُ ما سَخَّرَ لنا فيها مِنَ الشمسِ والقمرِ والملائكةِ حينَ جَعَلَ صلاحَ ما في الأرضِ جميعاً مِنَ الأرْزاقِ والأغذيةِ بتلكَ الأشياءِ التي في السماءِ مِنَ الإنضاجِ بالشمسِ والقمرِ وحِفْظِ الأرزاقِ والأمطارِ بالملائكةِ؛ فإنهمْ جُعِلوا مُوَكَّلينَ مُمْتَحَنينَ، لِذلكَ قالَ تعالى: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات: ٤] هي الملائكةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ كلُّ مَوعودٍ مَرْغوبٌ أو مَرْهوبٌ مِنَ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ أي الساعةُ والقِيامةُ، ويَحْتَمِلُ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ أي جميعُ ما جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: ثم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: كلا. (٧) في الأصل وم: ركبهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يقولَ، واللهُ أعلَمُ: كما أنكمْ لا تَشُكّونَ في ما تَنْطِقونَ، فَعَلَى ذلكَ لا تَشُكّونَ في أمْرِ الساعةِ وقِيامِها وكونِها كما يُقالُ: هذا ظاهرٌ بَيِّنٌ كالنارِ.

وقالَ الزّجّاجُ: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي لَحَقٌّ مِثْلُ حُضورِكمْ ونُطقِكُمْ ومِثْلُ النهارِ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ويَحتمِلُ أنْ يقولَ: إنَّ مَنْ قَدَرَ على إنطاقِ هذهِ الألسنِ وتكليمِها حتى تُفْهَمَ منها حاجتُهُمْ، وهي قطعةٌ، وليسَ فيها شيءٌ مِنْ آثارِ النطقِ والكلامِ؛ إذْ يكونُ مِثْلُهُ للبهائمِ، ثم لا يُفْهَمُ منهُ ذلكَ، ولا يكونُ منهُ النُّطقُ، يَقْدِرُ على البَعْثِ والإعادةِ؛ إنَّ هذا في الأعجوبةِ أكثرُ وأعظمُ منْ ذاكَ. واللهُ أعلَمُ والموفقُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ موضعٍ أنَّ حرفَ الِاسْتِفهامِ مِنَ اللهِ تعالى على الإيجابِ والإلزامِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي قد أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ، فَحاجَّ بِهِ أولئكَ، وخاصِمْ.

والثاني: لم يَأتِكَ بعدُ، ولكنْ سَيَأتيكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ. فإذا أتاكَ بِهِ فَحاجَّ أولئكَ الكَفَرَةَ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ دلَّ أنَّ اسْمَ الضَّيفِ يَقَعُ على مَنْ يُطْعَمُ، ويَتَناوَلَ، وعلى مَنْ لا يُطْعَمُ، ولا يَتَناوَلُ، لأنهُ سَمّى الملائكةُ ضَيفَ إبراهِيمَ، وإنْ لم يُطْعَموا، ولم يكنْ غداؤُهُمُ الطعامَ.

وفيهِ أنَّ الضَّيفَ اسْمٌ يَقَعُ على الواحِدِ[1] والجماعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ سَمّاهُمْ مُكْرَمينَ لأنَّ إبراهيمَ ﷺ كانَ يَخدِمُهُمْ، ويقومُ بينَ أيديهِمْ، وذلكَ، هو الإكرامُ الذي صاروا بِهِ مُكْرَمينَ.

ويَحتمِلُ أنْ سَمّاهُمْ مُكرَمينَ لأنهمْ كانوا أهلَ كَرَمٍ وشَرَفٍ عندَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ كقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٥٢].

ذَكَرَ ههنا سَلامَ الملائكةِ ﷺ، ولم يذكُرْ سلامَ إبراهِيمَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، إنما ذَكَرَ وَجَلَهُ منهمْ، وذَكَرَ في الأوَّلِ سَلامَ الملائكةِ ﷺ وسَلامَ إبراهيمَ ﷺ عليهمْ، وذَكَرَ أنهمْ قومٌ مُنْكَرونَ. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] قالَ بعضُهُمْ: إنما أوجَسَ منهمُ الخِيفةَ لِما خَشِيَ أنْ يكونوا سُرّاقاً لأنهُ كانَ بينَ إبراهيمَ ﷺ وبَينَ الذينَ انْتابوا ما[3] يُعْرَفُ بُعَيدَما يَحتاجُ المُنْتابُ إلى طعامٍ، فإذا امْتَنَعوا عنهُ خافَ أنْ يكونوا [سُرّاقاً][4] إذْ لا يَمْتَنِعُ عنِ التّناوُلِ إلا السُّرّاقُ.

لكنَّ هذا ليسَ بشيءٍ لأنهُ قد كانَ منهمُ السّلامُ / ٥٣١ ـ أ/ والسلامُ أحدُ [علاماتِ الإيمانِ][5] لكنْ يكونُ خوفُهُ بعد ما عَرَفَ أنهمْ ملائكةٌ لِما عَلِمَ أنَّ الملائكةَ ﷺ لا ينزلونَ إلّا لأمْرٍ عظيمٍ: لإهلاكِ قومٍ أو لِتَعذيبِ أمّةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] هذا يَحتمِلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا إخباراً مِنَ اللهِ تعالى أنهمْ قومٌ مُنْكَرونَ، أي غَيرُ مَعروفينَ عندَنا، لم يَعرِفْهُمْ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ قيلَ: راغَ، أي مالَ إلى أهلِهِ على خَفاءٍ مِنْ أضيافِهِ وسِرٍّ منهمْ، ولِذلكَ سُمّيَ الطريقُ المُخْتَفي رائغاً، وهو مِنْ رَوَغانِ الثعلبِ، وقيلَ: زائغاً بالزاي، وقيلَ: راغَ أي رَجَعَ.

---

(١) في الأصل وم: العدد. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: منه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: علامة الأماكن، في م: علامة الأمان.

وذَكَرَ محمدٌ في بعضِ كتبِهِ في زائغةٍ مستطيلةً، وقيلَ: رائعةٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ كقولِهِ في مَوضعٍ آخرَ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود: ٦٩] والحَنيذُ هو المَشْوِيُّ، وقيلَ: هو الذي يُشْوَى في الأرضِ بِغَيرِ تَنُّورٍ، واللهُ أعلَمُ. وقالَ بَعضُهُمْ: الحَنيذُ الذي أُنضِجَ بالحجارةِ، وقيلَ: الحَنيذُ، هو الصغيرُ الذي كانَ غِذاؤُهُ اللَّبَنَ، لا غَيرُ، واللهُ أعلَمُ.

وما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ في قصةِ إبراهيمَ ﷺ أنهُ لمّا قَرَّبَ إليهِمُ العِجْلَ قالوا: لا نأكُلُهُ إلّا بِثَمَنٍ، قالَ: كُلوهُ[1]، وأَدُّوا ثَمَنَهُ[2]، قالوا: وما ثَمَنُهُ؟ قالَ: تُسَمُّونَ اللهَ، تعالى، جَلَّ، وعَلَا، إذا أكَلْتُمْ، وتَحْمَدُونَهُ إذا تَرَكْتُمْ. قالَ: فَنَظَرَ بعضُهُمْ إلى بعضٍ، وقالوا: لهذا اتَّخَذَكَ اللهُ خَليلاً وغَيرَ ذلكَ مِنَ الكلامِ.

فنحنُ لا نَذْكُرُ إلّا قَدْرَ ما ذَكَرَهُ في الكتابِ مَخافةَ أنْ نُدخِلَ الزيادةَ والنُّقصانَ عمّا في كُتُبِهِمْ، ويَجِدَ أهلُ الإلحادِ في ذلكَ مَقالاً[3].

وهذِهِ الأنباءُ إنما ذُكِرَتْ حُجّةً لرسولِ اللهِ ﷺ في إثباتِ الرسالةِ.

فإذا قيلَ في ذلكَ ما يُخافُ أنْ يكونَ في ذلكَ زيادةٌ أو نُقصانٌ عمّا في كُتُبِهِمْ كانَ الإمساكُ والكَفُّ عنهُ أولَى.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ لا لِذلكَ أُرسِلْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَلِيمٖ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي بَشَّروهُ بِغُلامٍ، يَصيرُ عليماً إذا كَبِرَ.

والثاني: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ بِوَلَدٍ ﴿عَلِيمٖ﴾ يُؤتيهِ اللهُ تعالى عِلْماً في بَطْنِ أمِّهِ، أو إذا وُلِدَ [يُؤتيهِ عِلماً][4] في صِغَرِهِ. ولِلّهِ أنْ يُؤتِيَ العِلْمَ مَنْ يَشاءُ في حالِ الصِّغَرِ والكِبَرِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﷻ في عِيسى ﷺ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾؟ [مريم: ١٢].

فَعَلَى ذلكَ الغُلامُ، هو إسحاقُ ﷺ لأنهُ بَيَّنَ في آيةٍ أُخرَى في مَنْ كانَتِ البِشارةُ حينَ[5] قالَ: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢] دلَّ أنَّ البِشارةَ إنما كانَتْ بإسحاقَ.

ثم ذَكَرَ في سورةِ هودٍ ﷺ البِشارةَ لِامْرَأتِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ [الآية: ٧١] وذَكَرَ في هذِهِ السورةِ البِشارةَ لإبراهيمَ ﷺ بقولِهِ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات: ٢٨].

لكنْ جائزٌ أنهُ لمّا بَشَّرَها بالولَدِ بَشَّرَها بالوَلَدِ منهُ، وإذا بَشَّروا[7] إبراهيمَ ﷺ بالولَدِ [بَشَّروهُ بالوَلَدِ][8] منها. فإذا بُشِّرَ أحَدُهما بالوَلَدِ مِنَ الآخَرِ فتكونُ البِشارةُ لهما جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: دَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ إلى أنْ قالَ: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: ٧١ و٧٢] أنَّ إسحاقَ كانَ أكْبَرَ مِنْ إسماعيلَ لأنها لمّا بُشِّرَتْ بالوَلَدِ أخبَرَتْ[9] أنها عجوزٌ وأنها عقيمٌ وأنَّ بَعْلَها شيخٌ. ولو كانَ إسماعيلُ هو الأوَّلَ، وكانَ الآخَرُ على قُرْبٍ منهُ، ليسَ بَينَهما زمانٌ مَديدٌ، لم يَكُنْ يَبْلُغُ إبراهيمُ ﷺ في ذلكَ المقدارِ مِنَ الوقتِ ما يُخْبِرُ عنْ إياسِ الوَلَدِ منهُ.

دَلَّ أنَّ إسحاقَ، هو المُقَدَّمُ، وأنهُ كانَ أكْبَرَ مِنْ إسماعيلَ ﷺ إلّا أنَّ هذا اخْتِلافُ ما عليهِ أهلُ التأويلِ أنَّ إسماعيلَ ﷺ كانَ أكْبَرَ مِنْ إسحاقَ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: قالوه. (٢) ساقطة من م. (٣) في م، في الأصل: مقاماً. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث.
(٧) في الأصل وم: بشر. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أخبر.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ذَكَرَ ههنا الإقبالَ، وقالَ في آيةٍ أُخرَى في سورةِ هودٍ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [الآية: ٧١].

فجائزٌ ألّا يكونَ على حقيقةِ الإقبالِ، ولكنْ لمّا ذَكَرَ فِعْلَها، وهو[1] الصَّرَّةُ وصَكُّ الوجْهِ، ذَكَرَ الإقبالَ. غَيرَ أنْ كانَ منها الإقبالُ مِنَ المكانِ، أي أقْبَلَتْ، فَصَكَّتْ وجْهَها في صَرَّةٍ كما قالَ ﷻ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؟ [الفرقان: ٤٥] أَمَرَ بالرُّؤيةِ والنَّظَرِ إلى الفِعْلِ الذي ذَكَرَ، وهو مَدُّ الظِّلِّ، وإذا ذَكَرَ النفسَ دونَ الفعلِ فالمُرادُ منهُ النَّظَرُ إلى نفسِهِ، لا غَيرُ، واللهُ أعلَمُ. فعلى ذلكَ هذا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي في صَيحةٍ. وقولُهُ ﷻ: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضَرَبَتْ وجْهَها بِيَدِها تَعَجُّباً منها بتلكَ البِشارةِ التي بُشِّرَتْ بالولادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ وكانَتْ كما أخْبَرَتْ عَجوزاً عَقيماً.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي على عِلْمٍ بالحالِ التي أنتِ بُشِّرْتِ بذلكَ لا عنْ جَهْلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي حكيمٌ واضعُ الأمْرِ[2] في مَوضِعِهِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِمصالِحِ الأمورِ وعواقِبِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنُكُمْ؟ ولأيِّ أمرٍ أُرسِلْتُمْ؟ بالبِشارةِ خاصةً أو لأمرٍ آخَرَ أو لهما جَميعاً.

الآية ٣٢ فأجابوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وقالوا[3] في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨ و٥٩] كانَّ الاسْتِثْناءَ ههنا لم يكنْ مَذْكُوراً في خَبَرِ الملائكةِ وإنما ذُكِرَ في الخَبَرِ الذي قالَ إبراهيمُ ﷺ حينَ[4] ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

فَدَلَّ ذِكْرُ الثُّنْيا منهمْ بعد سؤالِ إبراهيمَ ﷺ وإخبارِهِ إيّاهُمْ أنَّ فيها لوطاً أنَّ تأخيرَ البيانِ عنِ الكلامِ جائزٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢ والحجر: ٧٤] أنَّ السِّجِّيلَ ليسَ هو اسْمَ المكانِ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ، ولكنَّ السِّجِّيلَ اسْمُ الطِّينِ على ما ذَكَرَهُ ههنا، وهو طينٌ مطبوخٌ كالآجُرِّ، إلّا أنْ يُقالَ: هو طينٌ حُمِلَ مِنْ مكانٍ يُسَمَّى سِجِّيلاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي مُعَلَّمةً ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ثم الإعلامُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: مُعَلَّمَةٌ مُسَوَّمَةٌ باسْمِ مَنْ تَقَعُ عليهِ، ويَهْلِكُ بها، أي مَكْتوبٌ عليها اسْمُهُ.

والثاني: مُعَلَّمةٌ في نفسِها حتى يَعْلَمَ كلُّ أحدٍ أنها للهلاكِ جاءَتْ، وأنها أُرسِلَتْ لِذلكَ مُخالِفَةً لسائرِ الأحجارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٥ و٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: قولُهُ: ﴿فِيهَا﴾ كِنايةٌ عنْ قريةِ لوطٍ، وقولُهُ: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هو مَنْزِلُ لوطٍ ﷺ دلَّتْ تَسْمِيةُ الملائكةِ ﷺ إيّاهُمْ مُؤمنينَ ومُسْلِمينَ على أنَّ الإسلامَ والإيمانَ واحدٌ، وقد بَيَّنّا جِهَةَ الاتِّحادِ بَينَهما في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي تَرَكْنا في قَرْياتِ لوطٍ ﷺ التي أهْلَكْنا آيةً وعِبْرةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وهي[5]

(١) في الأصل وم: وهي. (٢) في الأصل وم: الولد. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وهو.

ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ و١٣٨] أي إنكم لَتمُرّونَ على أولئكَ الذينَ أُهْلِكُوا، وعُذِّبوا، بالليلِ والنهارِ؛ فَتَعْلَمون[1] أنهم لِمَ[2] أُهْلِكوا؟ ولِمَ[3] عُذِّبوا؟ بالتكذيبِ والعِنادِ.

والذينَ نَجَوا إنما نَجوا بالتَّصْديقِ والإسلامِ؛ وذلكَ آيةٌ[4] لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وقولُهُ[5] تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي يكونُ ذلكَ آيةً لِلّذين يَخافونَ العذابَ الأليمَ، وهُمُ المؤمِنونَ أي هُمُ المُنتَقِمونَ بها.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ في ما ذُكِرَ مِنْ قصةِ موسى ولوطاً وقصةِ إبراهيمَ وقصةِ هودٍ وثمودَ، وهذهِ الأشياءُ تَفسيرٌ لِقولِهِ تعالى:/ ٥٣١ ـ ب/ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. ثم الآياتُ في الأرضِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: في ما خَلَقَ في الأرضِ مِنَ الخَلائقِ.

والثاني: في ما في الأرضِ مِنْ أنباءِ السَّلَفِ وأخبارِهِمْ مِنْ مُكَذِّبي الرسلِ ومُصَدِّقيهِمْ أي في إهلاكِ مَنْ أُهلِكَ مِنْ مُكذِّبيهِمْ ونَجاةِ مَنْ نَجا مِنْ مُصَدِّقيهِمْ آياتٌ لِمَنْ ذَكَرَ.

فهذهِ الأنباءُ والقِصصُ التي ذُكِرَتْ ههنا تفسيرٌ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي فَتَوَلّى هو ورُكْنُهُ، وهُمْ جُنودُهُ وقومُهُ عنِ اتّباعِ موسى ﷺ وما يَدْعوهُمْ إليهِ.

والثاني: أي فَتَوَلّى هو بقوةِ رُكْنِهِ، وهُمْ قومُهُ، أي تَوَلّى عنِ الحَقِّ واتّباعِ موسى ﷺ بقوةِ قومِهِ ومَعونَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ سمّاهُ ساحراً بما أَتى مِنَ الآياتِ المُعْجِزَةِ [إياهُ وقومَهُ لِما][6] يُعْرَفُ وصفُ السِّحرِ على هذا الوجهِ، فَسَمّاهُ بذلكَ، وإنْ أيقَنَ هو أنّ مِثْلَ ذلكَ الفِعْلِ لا يكونُ سِحراً، تَمويهاً على قومِهِ. وسَمّاهُ مَجنوناً لَمّا خاطَرَ بنفسِهِ بِمُخالَفَتِهِ مَعَ عِلْمِهِ أنّ هَمَّهُ القَتْلُ لِمَنْ خالَفَهُ في دينِهِ ومُلْكِهِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ هذا يدلُّ على أنّ تأويلَ قولِهِ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي تَوَلّى هو، وتَوَلّى قَومُهُ وجُنودُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قالَ بعضهم: ﴿مُلِيمٌ﴾ أي يُلامُ عليهِ، وقالَ بعضُهُمْ: أي مَذمومٌ. وقالَ القُتَبِيُّ: هو مُذْنِبٌ.

ثم دلَّ قولُهُ: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ على أنّ للهِ تعالى في أفعالِ العِبادِ صُنْعاً حينَ[7] أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ، وهُمُ الذينَ دَخَلوا في اليَمِّ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ أي في أمْرِ عادٍ بَيِّنَةٌ وآيةٌ وعِبْرَةٌ للمؤمنِينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي أُهْلِكوا بالريحِ.

وقد بَلَغَ مِنْ عُتُوِّهِمْ أنْ قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فأذَلَّهُمُ اللهُ تعالى حتى خَضَعوا لأضْعَفِ شيءٍ، وأخافَهُمْ منهُ، وهي الأصنامُ التي عَبَدوها حتى خَوَّفوا، وقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] وذلكَ غايةُ الذُّلِّ والهَوانِ: أنْ خافوا مِنْ أضْعَفِ شيءٍ وأعْجَزِهِ بَعْدَ ما بَلَغَ مِنْ عُتُوِّهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ أنْ قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وثم. (٣) في الأصل وم: وثم. (٤) في الأصل وم: إنهم. (٥) في الأصل وم: ثم قال.
(٦) في الأصل وم: وقومه إنما. (٧) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ قالَ أبو عوسَجَة: تفسيرُها ما ذُكِرَ في الآيةِ [التاليةِ](١): ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾.

وقالَ غيرُهُ: العَقيمُ، هو الذي لا خيرَ فيهِ، ولا بَرَكةَ، أي عَقِمَتْ عنِ الخيراتِ، ولذلكَ يُقالُ للمرأةِ التي لا تَلِدُ والرجلِ الذي لا يُولَدُ لهُ: العَقيمُ لِما أنهُ ليسَ منهما مَنْفَعَةُ الوَلَدِ ولا بَرَكَتُهُ، فَعَلَى ذلكَ الريحُ العَقيمُ، أي لا مَنْفَعَةَ فيها ولا بَرَكَةَ.

فأمّا للمؤمنينَ فهي نافعةٌ حين(٢) أهلَكَتْ أعداءَهُمْ، ولم تُهْلِكْهُمْ. وفي ذلكَ تَطهيرُ الأرضِ مِن نَجاسةِ الكُفرِ.

وفي الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ» [البخاري ١٠٣٥].

وقيلَ: الريحُ العَقيمُ هي الدبورُ، وهي التي لا تُلْقِحُ الأشجارَ والسحابَ والنباتَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ وأُمِرَتْ هي بإهلاكِهِ، وأُذِنَ لها بذلكَ ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾.

ألا تَرَى أنها أتَتْ على أشياءَ، لم تُهلِكْها، وقد سَلِمَ [هودٌ](٣) ﷺ وقومُهُ مِنَ المؤمنينَ؟ وألا [تَرى](٤) أنهمْ لمّا رَأَوها مِنْ بُعْدٍ ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقالَ هودٌ ﷺ ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] وما ذُكِرَ ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] أخبرَ أنها قد أبقَتْ مساكنَهُمْ، وهو ما ذُكِرَ في [الآيةِ الأخيرةِ](٥) ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ، أُمِرَتْ، وأُذِنَ لها بالتدميرِ لِيُعْلَمَ أنها كانَتْ تَعمَلُ بالأمرِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو ثلاثةُ الأيامِ(٦) التي ذُكِرَتْ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] يُخبِرُ أنْ كانَ قد بَلَغَ [عنْ](٧) عُتُوِّهِمْ أنْ قد أُجِّلُوا ثلاثةَ أيامٍ لِنزولِ العذابِ بهمْ، فلم يَمْنَعْهُمْ ذلكَ عنْ عُتُوِّهِمْ، ولم يَنْجَعْ فيهمُ [الوعيدُ](٨).

وقومُكَ يا محمدُ حينَ(٩) لم يَذكُرْ لِعذابِهِمْ وَقتاً ولا أجلاً أحَقُّ ألّا يَنْجَعَ فيهمْ ما تَوَعَّدَهُمْ بهِ، ولا يَنْفَعُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي عمّا أُمِرُوا بطاعةِ ربِّهِمْ. والعُتُوُّ، هو البلوغُ في البأسِ والقَساوةِ غايَتَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] أي بأساً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ما استَطاعوا مِنَ الانتِصابِ لِعذابِ اللهِ تعالى والقِيامِ لهُ.

والثاني: ما استَطاعوا مِنْ دفعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ لا بأنفسِهِمْ ولا بِغيرِهِمْ ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ بالأنصارِ والأعوانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ هؤلاءِ وإهلاكُهُمْ: آيةٌ بَيِّنَةٌ وحُجَّةٌ للمؤمنينَ على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾ أي خَلَقْناها بقوةٍ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لَقادرونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُوسِعُ الواجِدَ كقولِهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] أي على الواجِدِ المُوسِرِ قَدْرُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ في التدبيرِ تَدبيرِ جميعِ الخَلْقِ [وهو قولُ أبي بكرٍ الأصَمِّ، واللهُ أعلَمُ، ويَحتَمِلُ: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾](١٠) عليهمْ أرزاقَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أيضاً حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: آية أخرى. (٦) في الأصل وم: أيام. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [أي بَسطناها، ومَهَدْناها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾][(١)] لكُمُ الأرض حينَ[(٢)] مَهَدَها لكمْ مَبسوطةً مُفْتَرَشَةً؛ يَجِدونَها كذلكَ ما كانوا، وأينما كانوا مِنْ غَيرِ تكلُّفٍ، ويَسْتَعْمِلونَها كيفَ شاؤوا في أيِّ[(٣)] مَنفَعَةٍ شاؤوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: صِنفَينِ مِنَ الحَيوانِ، فإنهُ خَلَقَهُمْ ذَكَراً وأُنثى، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي لَونَينِ نَحْوَ أبيضَ وأسْوَدَ وأحمَرَ وأصْفَرَ، والأوّلُ قولُ الزّجّاجِ، والثاني قولُ القُتَبِيِّ.

وأصْلُهُ أنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي شَكْلَينِ، فَيُعْلِمُ بعضُهُ بعضاً، أو ضِدَّينِ فَيُناقِضُ بعضُهُ بعضاً، واللهُ ﷻ ليسَ بِذي شَكْلٍ ولا بِذي ضِدٍّ. فَيَدُلُّ ما أنشأ مِنَ الأضدادِ والأشكالِ على وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ.

والثاني: خَلَقَ الأشياءَ [صِنفَينِ][(٤)] مُختلِفَينِ مُتضادَّينِ لِيَدُلَّ على إيجابِ المِحَنِ عليهِمْ مِنْ نَحوِ عُسْرٍ ويُسْرٍ وغِنًى وحاجةٍ وخَيرٍ وشَرٍّ لِيَمْتَحِنَهُمْ على اختِلافِ الأحوالِ وتَضادِّها، فَيُرَغِّبَهُمْ في كلِّ مَرْغوبٍ، ويُحَذِّرَهُمْ عَنْ كلِّ مَحذورٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَذْكُرونَ آياتِ وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، أو تَذْكُرُونَ باختِلافِ الامْتِحانِ البَعْثَ والثوابَ والعِقابَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

قالَ بعضُهُمْ: فَفِرّوا إلى توحيدِ اللهِ مِنَ الشِّرْكِ بهِ، دليلُهُ قولُهُ على إثْرِهِ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو [قولُ][(٥)] أبي بكرٍ الأصَمِّ.

ويَحْتَمِلُ: فَفِرّوا إلى ما دعاكُمُ اللهُ تعالى عمّا نَهاكُمْ عنهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] أي فَفِرّوا إلى الأعمالِ الصالحةِ مِنَ الأعمالِ القبيحةِ.

ويَحْتَمِلُ: فَفِرّوا إلى ما وَعَدَكُمُ اللهُ تعالى مِنَ الثوابِ عمّا أوْعَدَ لكُمْ مِنَ العقابِ/ ٥٣٢ ـ أ/ أي فِرّوا إلى ثَوابِ اللهِ مِنْ نِقْمَتِهِ وعِقابِهِ.

ويَحْتَمِلُ: فَفِرّوا إليهِ في جَميعِ حوائِجِكُمْ، ولا تَطْلُبوا شيئاً مِنْ ذلكَ مِنْ غَيرِهِ، فإنهُ، هو القادرُ عليها حَقيقةً فيكونُ في الآيةِ تَرْغيبٌ في الرجوعِ إليهِ في الحَوائجِ وقَطْعِ الطَّمَعِ عَنْ غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

يَحْتَمِلُ أي نذيرٌ لِمَنْ عَبَدَ دونَهُ، أو سَمّى دونَهُ إلهاً ﴿مُّبِينٌ﴾ آياتِ ألوهيَّتِهِ وَوَحدانيَّتِهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لِما يَقَعُ لكمْ بِهِ النِّذارةُ والبِشارةُ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بما نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسلِ بِتكذيبِهِمْ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تُسَمّوا مَعَ ألوهيَّةِ اللهِ تعالى أحداً[(٦)] دونَ اللهِ إلهاً، أو يقولُ: لا تَعْبُدوا دونَ اللهِ إلهاً آخَرَ أي مَعْبوداً آخَرَ فإنهُ لا يَسْتَحِقُّ دونَ اللهِ أحدٌ العبادةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قد ذكَرْناهُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ لم يَذْكُرْ في هذا الموضعِ القولَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أية. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لأحد.

منهمْ: إنهمْ قالوا للرسولِ ﷺ: إنكَ ساحرٌ أو مَجنونٌ. ولكنْ إنْ لم يكُنْ مَذكوراً في ظاهرِهِ، لكنْ ما ذَكَرَ أنَّ أوائلَهَمْ كانوا يقولونَ لِرُسُلِهِمْ ذلكَ دلالةٌ أنهمْ قد قالوا: إنهُ ساحرٌ وإنهُ مَجنونٌ، حينَ[1] قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ ﷺ على أذاهُمْ بِنِسْبَتِهِمْ إيّاهُ إلى السِّحرِ أو الجُنونِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها الأمْرُ بالصَّبْرِ على أذاهُمْ واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: إنما قالوا: ساحرٌ أو مَجنونٌ لأنَّ السِّحرَ والجُنونَ عندَهُمْ واحدٌ كقولِ فرعونَ لِموسى ﷺ لما أتى بهِ مِنَ الآياتِ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] فلِذلكَ قالوا مَرّةً: ساحرٌ، ومَجنونٌ مَرّةً.

ولكنَّ هذا فاسدٌ؛ فإنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الجُنونُ والسِّحرُ عندَهُمْ واحداً لأنَّ الساحِرَ، هو الذي بَلَغَ في العِلْمِ في كلِّ شيءٍ غايَتَهُ، والمَجْنونَ، هو الذي بَلَغَ في الجَهْلِ غايَتَهُ.

[ونَسَبوا رسُلَهُمْ][2] إلى السِّحرِ [لِما أتَوا][3] لهمْ مِنَ الآياتِ ما عَجزَ الناسُ عنْ إتيانِ مِثْلِها، وقد عَرَفوا هُمْ أنها آياتٌ؛ أعني رؤساءَهُمْ وأئِمّتَهُمْ. لكنْ قالوا: إنها [سِحْرٌ][4] على إرادةِ التَّلْبيسِ على الأتْباعِ والعامّةِ لِما عندَ الناسِ أنْ لا كلَّ أحدٍ يَقْدِرُ على إتيانِ السِّحْرِ، فقالوا: إنهمْ سَحَرَةٌ للرسلِ لهذا.

وإنما نَسَبوهُمْ إلى الجُنونِ لِما أنهمْ خالفوا الفراعنةَ والأكابِرَ الذينَ كانَ هَمُّهُمُ القَتْلَ وإهلاكَ مَنْ خالَفَهُمْ في المَذْهبِ والأمْرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ أي أوصَى أوائِلُهُمْ أواخِرَهُمْ في تَسْمِيَتِهِمُ الرسلَ ﷺ سَحَرةً ومَجانِينَ، وَوافَقَ[5] بعضُهُمْ بعضاً في نِسْبَتِهِمُ الرسلَ ﷺ إلى السِّحرِ والجُنونِ، أي لم يَزَلِ الكَفَرَةُ يقولونَ لرسُلِهِمْ ﷺ: ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ على التمثيلِ لا على حَقيقةِ القولِ منهمْ لِما كانَ اجْتِماعُهُمْ لأجْلِ هذا القولِ في كلِّ وقْتٍ، فصارَ ذلكَ الاجْتِماعُ منهمْ كالتَّواصي مِنْ بعضِهِمْ لِبعضٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ يُخْبِرُ أنهمْ لا عنْ جَهْلٍ وشُبْهَةٍ قالوا: إنهمْ سَحَرَةٌ ولكنْ عنْ طُغْيانٍ وتَعَدّي حَدِّ اللهِ ﷻ والمُجاوَزَةِ لهُ، لأنَّ الطاغِيَ، هو المُجاوِزُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ والمُتَعَدّي عليه.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: لمّا نَزَلَ هذا خافَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ ﷺ أنْ يَنْزِلَ بهمُ العذابُ حتى نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

لكنْ عندَنا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ فأعْرِضْ، ولا تُكافِئْهُمْ بإساءَتِهِمْ إليكَ بِقولِهِمْ: إنهُ ساحرٌ وإنهُ مَجنونٌ، فإنَّ اللهَ تعالى سيَكْفِيَنَّهُمْ عنكَ، ويُجازِيهِمْ مُجازاةَ إساءَتِهِمْ.

والثاني: يأمُرُهُ بالإعراضِ والتَّوَلّي عنهمْ عنْ قومٍ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يؤمنونَ؛ يُؤْيِسُهُ عنْ إيمانِهِمْ، ويقولُ[6]: لا تَشْتَغِلْ بهمْ، فإنهمْ لا يؤمِنونَ لكَ، ولا يُصَدِّقونَكَ، ولكنِ اشْتَغِلْ بمَنْ تَرْجو منهُ الإيمانَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على حقيقةِ الأمرِ، ولكنْ على التَّخْييرِ، أي لكَ أنْ تَتَوَلّى عنهمْ، وتُعْرِضَ، فإنكَ قد بَلَّغْتَ، وأعْذَرْتَ في التَّبْليغِ والدُّعاءِ غايَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ نفيِ الشيءِ إثباتَ مُقابِلِ ذلكَ الشيءِ وضِدِّهِ كقولِهِ: ﴿فَمَا

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ونسبوهم. (٣) في الأصل: إلى أتى، في م: لما أتى. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وإن يوافق. (٦) من م، في الأصل: ويقولون.

رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] [نَفَى عنْ تِجارَتِهِمْ][1] الربحَ، والمُرادُ إثباتُ الخُسْرانِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ بل خَسِرَتْ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ قولُهُ: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ بل بِمَحْمودٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ لأنهُ قد بَلَّغَ الرسالةَ وما أُمِرَ بِتَبْليغِهِ إلى الخَلْقِ، وقالَ بأمْرِهِ، ونَصَحَ خَلْقَهُ، وخَفَضَ جَناحَهُ لهمْ، فيكفَ تُلامُ؟ أي ما أنتَ بالذي تُلامُ على صَنيعِكَ وعلى فِعْلِكَ، وإنْ كانَ بعضُ الناسِ يَلومُكَ، وهمُ الكفارُ.

وفيهِ دلالةُ الحِفْظِ والعِصْمَةِ لهُ عنِ الزَّيغِ والزَّلّاتِ، إذْ لو كانَ بالذي يَحْتَمِلُ الزَّيغَ والزَّلَّةَ لَكانَ يَحْتَمِلُ المَلامَةَ، فَدَلَّ أنهُ لا يَحْتَمِلُ الزَّيغَ والعُدولَ عنِ الحَقِّ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الأمرُ بالتَّذكيرِ للكُلِّ، ثم أخبرَ أنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المؤمِنينَ [لا الكُلَّ، وجائزٌ أنْ يكونَ التَّذكُّرُ للمؤمنينَ][2] فإنَّ مَنْفَعَةَ الذِّكْرى لهمْ ولِمَنْ أنصفَ دونَ المُكابِرينَ المُعانِدينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إنْ كانَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ العبادةِ حَقيقةَ العبادةِ فَيُخَرَّجُ تأويلُهُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: جواباً لِمَنْ لا يَرَى الجِنَّ والإنْسَ يُؤمَرونَ بالعبادةِ، ويُمْتَحَنونَ بها، فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما خَلَقْتُهُمْ على مَعْرِفَةِ المَحاسِنِ والمَساوِئِ والتَّمْييزِ بَينَ ما يُؤتى وما يُتَّقى بما رُكِّبَ فيهِمْ مِنْ أسبابِ التَّمْييزِ والمَعْرِفةِ لِأَتْرُكَهُمْ سُدًى مُهْمَلينَ، بل لِأَمْتَحِنَهُمْ بالعِبادةِ والقِيامِ بِشُكْرِ ما أنْعَمْتُ عليهِمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ؛ إذِ الحكمةُ توجِبُ ذلكَ، وتَدْفَعُ تَرْكَهُمْ سُدًى هَمَلاً واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يُخَرَّجُ جَواباً لِمَنْ يَرَى العبادةَ دونَهُ جائزةً بِقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لم أخْلُقْهُمْ لِعبادةِ غَيري؛ بل[3] لآمُرَهُمْ بعبادتي، لا لآمُرَهُمْ بعبادةِ غَيري كما قالَ بعضُ الكَفَرَةِ بِقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ردّاً ونقضاً لاعْتِقادِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ على حقيقةِ العبادةِ [يَحْتَمِلُ][4] وجهَينِ:

أحدُهما: على حَقيقةِ فِعْلِ العبادةِ، وعلى هذا الوجهِ لم تكنِ الآيةُ محمولاً بها على العمومِ، بل على الخُصوصِ، وهُمْ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ دونَ الكَفَرَةِ منهمْ، فإنهُ لا يجوزُ أنْ يَخْلُقَ الكَفَرَةَ الذينَ عَلِمَ منهم أنهمْ لا يؤمنونَ للعبادةِ؛ إذْ خَلْقُهُ عنِ اخْتِيارٍ وإرادةٍ. فإذا خَلَقَهُمْ، وأرادَ منهمُ العبادةَ، لا بُدَّ أنْ يُوحِّدَ [بَعْضُ][5] منهمْ، وقد عَلِمَ أنهُ لا يُوَحِّدُ، فَيَصيرُ كأنهُ أرادَ تَجْهيلَ نفسِهِ، وهذا[6] مُحالٌ.

فَدَلَّ أنَّ المُرادَ منهُ الخصوصُ، وقد خَصَّ منهُ البعضَ بلا خِلافٍ؛ فإنِ الصغارُ والمجانينُ قد خُصُّوا فإنهُ لا تَتَحقَّقُ منهمُ العبادةُ. فجائزٌ أنْ يَخُصَّ منهُ الكَفَرَةَ الذينَ عَلِمَ منهمْ أنهمْ لا يُؤمنونَ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][7]: يَحْتَمِلُ أنَّ المُرادَ منهُ الأمرُ بالعبادةِ، أي ما خَلَقْتُهُمْ إلا لِآمُرَهُمْ بالعبادةِ والتوحيدِ. وهذا أقربُ إلى العَمَلِ بالعُمومِ؛ فإنهُ يدخلُ فيهِ العقلاءُ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ دونَ الصغارِ والمَجانينِ.

ويجوزُ أنْ يأمُرَ بِشيءٍ / ٥٣٢ ـ ب/ ولا يُريدُ تحصيلَ المأمورِ بهِ وصيرورةَ المأمورِ مُطيعاً لهُ، بل يُريدُ أنْ يَصيرَ عاصياً، فَيَدْخَلَ النارَ بخلافِ ما إذا خَلَقَهُ للعبادةِ وإرادةٍ منهُ، فلا يجوزُ ألّا يُوَحِّدَ، وحَقيقةُ هذا تُعْرَفُ في كتابِ التوحيدِ أنهُ خَلَقَ للإيمانِ والعبادةِ مَنْ عَلِمَ منهُ [أنهُ يَعْبُدُهُ][8] ويَخْتارُ العبادةَ لهُ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وعدا. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: أن يعد.

فأمّا مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الضلالِ والغَوايةِ وصَرْفَ العبادةِ إلى غَيرِهِ فإنهُ خَلَقَهُ على عِلْمٍ منهُ أنهُ يَختارُ، ويَفْعَلُ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩].

وقالَ قائلونَ: لم يُرِدْ بقولِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ حقيقةَ العبادةِ التي هي فِعْلُ العبدِ على وجهِ الاختيارِ، ولكنَّ معناهُ: ما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلّا وقد جَعَلْتُ في كلِّ أحدٍ منهمْ دلالةَ وَحدانيّتي ودلالةَ صَرْفِ العبادةِ إليَّ والقِيامِ بالشُّكرِ لي في ما أنْعَمْتُ عليهمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ ما لو تأمّلوا فيها، ونَظَروا لَدَلَّهُمْ على ما ذَكَرْنا مِنَ العِلْمِ بالوَحْدانيّةِ لي والقِيامِ بالعبادةِ والشُّكرِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى هذا التأويلِ تكونُ الآيةُ عامّةً، لا خُصوصَ فيها، لأنَّ خِلْقَةَ كلِّ أحدٍ منهمْ على أيِّ وصفٍ كانَ دلالةُ ما ذَكَرْنا، واللهُ المُوَفِّقُ.

ويَحتَمِلُ أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلّا على خِلْقَةٍ تَصْلُحُ لِلْمِحْنَةِ بالأمْرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوَعيدِ ولِتَحقيقِ فِعْلِ ذلكَ بما رَكَّبْتُ فيهمُ العقلَ، وجَعَلْتُ مَفاصِلَهُمْ لَيِّنَةً وقابلةَ الأفعالَ، تَصْلُحُ لِلْخِدْمَةِ مِنَ الرُّكوعِ والسُّجودِ والقِيامِ والقُعودِ ونَحْوِها على خِلافِ غَيرِ هؤلاءِ مِنَ المَخلوقاتِ، فإنها خُلِقَتْ على خِلْقَةٍ تَصْلُحُ لِمَنافِعِ المُمْتَحَنينَ لا على وجهٍ يَصْلُحُ لِلْمِحْنَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في العبادةِ خُصوصِيّةُ مَعْنًى، ليسَ ذلكَ في الطاعةِ والخِدْمةِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأفعالِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] حينَ[1] لم يُجزِ العبادةَ لِغَيرِهِ، وأجازَ الطاعةَ والخِدْمةَ والتعظيمَ وغَيرَ ذلكَ مِنَ الأفعالِ [لِرسولِهِ][2] لِقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

دلَّ أنَّ في العبادةِ مَعْنًى ليسَ ذلكَ المَعْنى في غَيرِهِ، لِذلكَ وَقَعَتِ الخُصوصِيّةُ لهُ، ولِذلكَ خَصَّ نفسَهُ بِتَسْمِيَةِ الإلهِ، ولم يُجزِ التَّسْمِيَةَ بهِ لِغَيرِهِ؛ إذِ الإلهُ عندَهُ معبودٌ، فكلُّ معبودٍ عندَهُمْ يُسَمّونَهُ إلهاً، وذلكَ كما خَصَّ نفسَهُ بِتَسْمِيَةِ الرحمنِ، لم يَجْعَلْ تلكَ[3] لِغَيرِهِ، وأجازَ[4] تَسْمِيَةَ غَيرِهِ رحيماً لِما أنَّ في اسْمِ الرحمنِ زيادةَ مَعْنًى ليسَ في الرحيمِ، وكذا خَصَّ نفسَهُ بِتَسْمِيَةِ الخالقِ[5]، ولم يُجزْ هذا الاِسْمَ لِغَيرِهِ لِما أنَّ في الخالقِ مَعْنًى، ليسَ ذلكَ المَعْنى في الفاعلِ وغَيرِهِ، فكذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: ما أريدُ منهمْ أنْ يَرْزُقوا أنفسَهُمْ ولا أنْ يُطْعِموا أحداً مِنْ خَلْقي، إنّما عليَّ رِزْقُهُمْ وإطعامُهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

ويَحتَمِلُ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ إنْ يَرْزُقوا مَنْ لا يقومُ بأسبابِ الرِّزْقِ، وأنْ يُطْعِموهُمْ؛ إنَّ ذلكَ عليَّ، وإنما أُريدُ منهمُ العبادةَ على الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا، لأنهمْ لم يُنْشَؤوا لأولئكَ الذينَ لم تُجْعَلْ لهمُ المَكاسِبُ وأسبابُ الرِّزْقِ مِنَ الدوابِّ، بل هي أُنْشِئَتْ لأجْلِهِمْ رِزْقاً ومُتْعَةً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على الإضمارِ على ما قالَ بعضُهُمْ: أي قُلْ يا محمدُ: ما أُريدُ منكمْ في ما أدعوكُمْ إليهِ مِنْ أجْرٍ، وما أُريدُ أنْ تُطْعِموني، فَيَثْقُلَ عليكمُ الإيمانُ.

ويَحتَمِلُ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [أنْ يكونَ على][6] إخبارٍ أنهُ لم يَخْلُقْهُمْ لِحاجةٍ لهُ في[7] خَلْقِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ والإطعامِ منهمْ لِما أقامَ مِنْ دَلالاتِ تَبْرِئَتِهِ مِنَ الحَوائجِ ومِنَ الرِّزْقِ والطعامِ، وإنما خَلَقَهُمْ للأمرِ والنَّهْيِ والاِمْتِحانِ لِيُرْجِعَ[8] مَنافِعَ ذلكَ [إليهمْ][9] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لذلك. (٤) في الأصل وم: وجاز. (٥) في الأصل وم: خالقاً. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: من. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يرجع. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الأسبابَ التي بها يُرْزَقونَ، ويَصِلونَ إلى الاِنْتِفاعِ بها، هي فعلُ اللهِ تعالى، ولهُ فيها صُنْعٌ؟ صارَ بذلكَ رازقاً، لولا ذلكَ لم يَصِلوا إلى ذلكَ، وإنْ كانَ الخَلْقُ هُمُ الذينَ يَكُدُّونَ[1]، ويَعْمَلونَ تلكَ الأسبابَ والمَكاسِبَ. فإنما[2] أُضيفَ إليهِ الرِّزْقُ لِما أنْشأَ فِعْلَ تلكَ الأسبابِ والمَكاسِبِ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

فيكونُ في هذا دليلٌ على أنَّ للهِ صُنْعاً في أفعالِ العبدِ، وهو الخَلْقُ والإنشاءُ حينَ[3] سَمَّى نفسَهُ رازقاً، وهمْ يُرْزَقونَ بتلكَ المكاسِبِ والأسبابِ أكْثَرِها أو عامَّتِها[4] بأفعالِهِمْ.

دلَّ أنَّ لَهُ فيها صُنْعاً حتى تَصِحَّ إضافةُ ذلكَ إليهِ وتَسْمِيَتُهُ رازقاً، ولا يَجوزُ هذا الاِسْمُ لِغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ إضافةَ الرِّزْقِ إليهِ لأنهُ يَرْزُقُهُمْ بما جَعَلَ في تلكَ الأسبابِ والمكاسِبِ مِنَ اللُّطْفِ لا بأنفسِ[5] الأسبابِ لأنهمْ يَزْرعونَ، ويَطْرَحونَ البذرَ فيها، فَيَهْلِكُ ذلكَ فيها، وكذلكَ يَسْقونَ الأرضَ، ويَهْلِكُ ذلكَ الماءُ فيها.

ثم إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ بِلُطْفِهِ ورَحْمَتِهِ في ذلكَ مِنَ اللُّطْفِ ما يَصيرُ ذلكَ رِزْقاً لهمْ بَعْدَ ذهابِ عَينِهِ والقُوَّةِ التي جَعَلَها فيهِ.

وكذلكَ ما جَعَلَ فيهِ مِنَ الصَّلاحِ والنُّضْجِ والطَّبْخِ وما يَرْجِعُ إلى الإصلاحِ لذلكَ والأكلِ والمَضْغِ والاِبْتِلاعِ ونَحْوِ ذلكَ، ليسَ في ذلكَ إلّا امْتِلاءُ البَطْنِ، وفي ذلكَ فسادٌ، فَجَعَلَ فيهِ مِنَ القُوَّةِ ما يَنْتَشِرُ في البَدَنِ والأطرافِ قُوَّةً، فَتَبْقى[6] بتلكَ القُوَّةِ فيهِ[7] الحياةُ والبَقاءُ لا بِنَفْسِ الرِّزْقِ، وهو ما وَصَفَ اللهُ ﷻ [نفسَهُ بقولِهِ:][8] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ بتلكَ القُوَّةِ يَحْيَونَ، وبها يَبْقَونَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ هو وصفٌ ونَعْتٌ لتلكَ القُوَّةِ، فَيَجوزُ وصْفُ القُوَّةِ بالمَتانَةِ. فأمّا اللهُ ﷻ لا يوصَفُ بِها، ولا يُوصَفُ أنهُ متينٌ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] [وَصَفَ العَرْشَ بالمَجْدِ][9] والعَرْشُ غَيرُهُ.

فَعَلَى ذلكَ القُوَّةُ التي جَعَلَها في ما ذَكَرْنا غَيرَهُ، ويجوزُ أنْ يوصَفَ بما ذَكَرْنا مِنَ المَتانةِ، وهي القُوَّةُ التي لا يَمْلِكُها الخَلْقُ، ولا يُدْرِكونَ ذلكَ اللطفَ الذي جَعَلَ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي ذو البَطْشِ الشديدُ في ما أهْلَكَ الأُمَمَ الخاليةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ فكأنهمُ اسْتَعْجَلوا نُزولَ العذابِ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ على إثْرِ سُؤالِ العذابِ كقولِهِ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي لهمْ نَصيبٌ مِنْ ذلكَ العذابِ مثلُ نَصيبِ أوائلِهِمْ مِنَ العذابِ؛ فيكونُ على التَّمْثيلِ كما يُقالُ: حَذْوُ النَّعْلِ بالنَّعْلِ، وحَذْوُ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، ويقالُ: صاعٌ بِصاعٍ، وكَيلٌ بِكيلٍ، أي يُكالُ عليهِ مِثْلُ ما كيلَ لِغَيرِهِ ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الأمثالِ التي تُضْرَبُ.

فَعَلَى ذلك ما ذَكَرْنا مِنَ الذَّنوبِ، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ ذُكِرَ عنِ الأصَمِّ [أنهُ][10] قالَ: ذَكَرَ الذَّنوبَ، وهو الدَّلْوُ العظيمُ الذي كانوا يَقْتَسِمونَ بِهِ المِياهَ، وكانَ مِنْ عادةِ العَرَبِ أنهمْ يَجْتَمِعونَ، فَيُرْسِلونَ دِلاءَهُمْ في البِئْرِ، فكانَ كلُّ واحدٍ منهمْ يأخُذُ حَظَّهُ ونَصيبَهُ مِنَ الماءِ، فيقولُ لأهلِ مكةَ: لا تَسْتَعْجِلوا فإنَّ لكمْ نَصيباً مِنْ ذلكَ العذابِ كما كانَ لأولئكَ الدِّلاءِ[11] التي تكونُ في البئرِ، فيأخُذُ كلُّ واحدٍ منهمْ نَصيبَهُ.

---

(١) في الأصل وم: يكتبون. (٢) في الأصل وم: فلما. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) عامتهم. (٥) من م، في الأصل: أنفس. (٦) في الأصل وم: فيبقوا. (٧) في الأصل وم: في. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: كالدلاء.

وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: الذَّنوبُ الحَظُّ والنَّصيبُ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﵄ [أنهُ قالَ:][١] سُمِّيَ ذلكَ العذابُ ذَنوباً لِما يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، واللهُ أعلَمُ.

فيقولُ: يَتْبَعُ العذابُ هؤلاءِ كما يَتْبَعُ أولئكَ كالدِّلاءِ يَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي قد يَبْلُغون /٥٣٣ ـ أ/ وفيهِ فلا تَسْتَعْجِلونَ العذابَ، وهو الوقتُ الذي يَسألونَ الرجوعَ كما أخبرَ ﷻ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾][٢] يومُ القِيامةِ، ولكنْ لم يُبَيِّنْ ذلكَ اليومَ ما هو؟ فَيَحْتَمِلُ غَيرَهُ. والوَيلُ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ.

فإنْ قيلَ: كيفَ خَوَّفَ اللهُ، جَلَّ، وعَلَا، هذهِ الأُمَّةَ بما أنْزَلَ على الأُمَمِ الخاليةِ مِنَ الإسْتِئصالِ والإهلاكِ، وقد عَفَا هذهِ الأُمَّةَ عنْ هذا، وأمَّنَهُمْ منهُ؟

قيلَ: إنما خَوَّفَهُمْ بِما ذَكَرَ لأنَّ المَعْنَى الذي اسْتَوجَبَ أولئكَ الإسْتِئصالَ والإهلاكَ بهِ يَحْتَمِلُ أنْ يَتَحَقَّقَ ذلكَ في هؤلاءِ. وقد يَحْتَمِلُ ألَّا يكونَ.

فالتَّخويفُ صحيحٌ لهؤلاءِ بهمْ، وإنما يكونُ مِثْلُ هذا التَّخويفِ في أوَّلِ الأمْرِ، ثم إنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ عَفَا عنهمْ بِفَضْلِ النَّبِيِّ ﷺ ورَحْمَتِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ العَفْوُ لهمْ عنْ ذلكَ بالتَّأخيرِ عنهمْ إلى وقْتٍ، وهو وقْتُ قَبْضِ أرواحِهِمْ وخُروجِهِمْ مِنَ الدنيا، وفي ذلكَ الوقْتِ يُعاقَبونَ بأنواعِ العذابِ، ويَنْزِلُ بهمْ ما نَزَلَ بأولئكَ لا أنهمْ عُفُوا عنْ ذلكَ أصلاً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يَنْزِلُ بهمْ ذلكَ كلُّهُ بِفَضْلٍ منهُ ورَحْمةٍ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

سورة الطور

كلها[1] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ و٢ و٣ قولُهُ تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ ثمّ اختُلِفَ بالقَسَمِ بالطورِ وما ذَكَرَ:

قالَ قائلونَ: القَسَمُ إنما هو بِمُنْشِئِ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ لا بهذهِ الأشياءِ نفسِها؛ إذِ اللهُ تعالى نَهَى الخَلْقَ بأنْ يُقسِموا بِغَيرِهِ، فكيفَ يُقسِمُ بنفسِهِ؟

وقالَ قائلونَ: فَيَجوزُ أنْ يُقسِمَ، جَلَّ، وعَلَا، بِما شاءَ وبِمَنْ شاءَ بالذي عَظُمَ قَدْرُهُ عندَهُمْ، وقد ذَكَرْنا أنَّ الإقسامَ إنما يكونُ بالأشياءِ التي عَظُمَتْ أقدارُها ومَحالُّها عندَ الخَلْقِ، يُقسِمُ بها لِدَفْعِ الشُّبْهَةِ التي تَمْنَعُ وقوعَ العِلْمِ لهمْ بذلكَ والمَعْرِفةِ بالذي اشْتَبَهَ عليهِمْ، والْتَبَسَ، لِيَعْرِفوا أنَّ ذلكَ كائنٌ، لا مَحالَةَ، وأنهُ بالذي اشْتَبَهَ عليهِمْ، والْتَبَسَ، وأنَّهُ حقٌّ بِما لو تَفَكَّروا في تلكَ الأشياءِ، وأمْعَنوا النَّظَرَ فيها على غَيرِ قَسَمٍ لَوَقَعَ لهمُ العِلْمُ بذلكَ، وتَحَقَّقَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ اللهَ ﷻ أقْسَمَ بأشياءَ سِواهُ، وليسَ لِلْخَلْقِ ذلكَ لأنَّ قَسَمَ الخَلْقِ يُخَرَّجُ مُخرجَ الفَزَعِ إليهِ والتَّضَرُّعِ، ولا يجوزُ الفَزَعُ مِنْ سِواهُ والاِسْتِعانَةُ بهِ.

فأمّا القَسَمُ مِنَ اللهِ تعالى حَقيقةً فهو على التَّذْكيرِ والتَّنْبيهِ لِلْخَلْقِ والتأكيدِ ما وَعَدَ لهمْ مِنَ الجَزاءِ. فيجوزُ لهُ القَسَمُ بكلِّ ما يكونُ لهمُ التَّذْكيرُ والتَّنبيهُ والتأكيدُ، وإنْ كانَ بِغَيرِهِ وسِواهُ ممّا لذلكَ خَطَرٌ ومَحَلٌّ عندَ الناسِ وعندَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

وإنَّ[2] القسمَ المَذْكورَ في القرآنِ لإثباتِ صِدْقِ إخْبارِ الرسلِ إليهِمْ وأنهمْ[3] رسلُهُ وأنهمْ إذا فَعَلوا كذا يَنْزِلُ عليهِمْ مِنَ العذابِ كذا لأنَّ أولئكَ الرسلَ[4] لم يُكَذِّبوا اللهَ تعالى في خبرٍ حتى يكونَ قَسَمُهُ لإثباتِ صِدْقِ خَبَرِهِ. وإنما يَتَحَقَّقُ صِدْقُ خَبَرِهِمْ بما أقاموا مِنَ المُعْجِزاتِ والبراهينِ، لكنْ يَتَأكَّدُ بالقَسَمِ، فَيَحْصُلُ ذلكَ بِذِكْرِ ما لَهُ خَطَرٌ ومَحَلٌّ عندَهُمْ.

فأمّا قَسَمُ الخَلْقِ لإثباتِ أصلِ الصِّدْقِ فيجبُ أنْ يُقسِموا بِذِكْرِ ما هو النهايةُ في العظمةِ والقُدْرَةِ في القلوبِ، وهو أسماءُ اللهِ تعالى وصفاتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ القَسَمُ بهذهِ الأشياءِ مِنَ الرسلِ ﷺ فإنْ كانَ كذلكَ فهو على الإضمارِ كأنهمْ أقْسَموا[5] بِمُنْشِئِ الطورِ ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ وما ذَكَرَ إلى آخِرِهِ، إذِ القَسَمُ مِنَ البَشَرِ يكونُ باللهِ ﷻ وصفاتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ واقعاً بالجبالِ كلِّها لِما أنَّ اللهَ ﷻ أنشأَ الأرضَ خَلْقاً تَميدُ بأهلِها، وأرسَى فيها هذهِ الجبالَ، وَوَتَّدَها، حتى اسْتَقَرَّتْ، وسَكَنَتْ، حتى وَصَلَ الخلائِقُ إلى الاِنْتِفاعِ بهذهِ الأرضِ والقرارِ، وصارتْ مِهاداً لهمْ وفراشاً لهمْ على ما ذَكَرَ، يَتَقَلَّبونَ فيها، ويَتَصَرَّفونَ كيفَ شاؤوا، أو أرادوا، وحيثُ أحَبُّوا.

ثم إذا عَرَفوا ذلكَ لَزِمَهُمْ أنْ يَعْرِفوا أنَّ عليهِمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ. فإذا تَرَكوا ذلكَ أَلْزَمَهُمْ عقوبةَ الكُفْرِ وجَزاءَهُ، وأوعَدَ لهمْ ذلكَ، فَيُؤَكِّدُ ما ذَكَرَ مِنَ القَسَمِ وقوعَ ما ذَكَرَ مِنَ العذابِ بهمْ حينَ[6] قالَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧و٨].

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر أن سورة الطور. (٢) في الأصل وم: ولأن. (٣) في الأصل وم: وأنه. (٤) في الأصل وم: الكفرة. (٥) في الأصل وم: قالوا. (٦) في الأصل وم: حيث.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالطورِ، هو جَبَلٌ خاصٌّ، وهو الجَبَلُ الذي كلَّمَ اللهُ ﷻ [مِنْ فوقِهِ][1] موسى ﷺ وأنزَلَ عليهِ التَّوراةَ، وهو طورُ سيناءَ.

وذلكَ الجبلُ ممّا عَظُمَ قَدْرُهُ عندَ بَني إسرائيلَ حتى عَرَفوا قَدْرَهُ وفضلَهُ، فأقسَمَ بذلكَ الجبلِ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الآية: ٧]

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالطورِ [جبالاً خاصّةً][2] وهي الجبالُ التي أوحَى عليها إلى رسلِهِ ﷺ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ: أوحَى اللهُ تعالى إلى موسى ﷺ وإلى عيسى ﷺ في جَبَلِ ساعورٍ، وإلى محمدٍ ﷺ في جبلِ فارانَ، فأقسَمَ بها أنَّ ما وَعَدَ مِنَ العذابِ واقعٌ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ؛ فإنهُ أخبَرَ ﷺ عن أمْكِنةِ الوَحْيِ وفَضْلِ تلكَ الجبالِ؛ ومَعْرِفَةُ ذلكَ إنما هي[3] مِنَ الكتبِ المُتَقدِّمةِ، وهُمْ قد أحاطوا العِلْمَ بأنهُ لم يكنِ اختَلَفَ إلى أحدٍ مِمَّنْ لهُ مَعْرِفةٌ بتلكَ الكتبِ حتى يَعْلَمَ منهُ. فَدَلَّ أنهُ باللهِ ﷻ عَرَفَ أمْكِنةَ الوَحْيِ وفَضْلَ تلكَ الجبالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ يَحتَمِلُ القَسَمُ بجميعِ الكتبِ المُنْزَلَةِ على الأنبياءِ ﷺ إذْ بها يُوصَلُ إلى مَعْرِفةِ آياتِ الرسلِ ﷺ وإلى مَعْرِفةِ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى وإلى أخبارِ السماءِ ومَعْرِفةِ الأحكامِ والحُدودِ وغيرِ ذلكَ مِنْ أحكامٍ مِنْ وُجوهِ الحِكْمةِ؛ أقسَمَ بها ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الآية: ٧] بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنَّ القَسَمَ يَرْجِعُ إلى عَدَدٍ مِنَ الكُتُبِ التوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ والمَعْروفةِ التي عَرَفَ أهلُ الإيمانِ بها حقَّها ونزولَها من السماءِ.

ويَحتَمِلُ أنهُ راجعٌ إلى خاصٍّ مِنَ الكُتبِ، وهو القرآنُ بما عَظُمَ قَدْرُهُ عندَهُمْ لِما يَعْجَزُ البشرُ عن إتيانِ مِثْلِهِ على ما ذَكَرْنا في الطورِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ أنها الكُتُبُ التي تُكْتَبُ فيها أعمالُ بَني آدمَ، ولم يَذْكُروا جِهَةَ القَسَمِ بها، ولستُ أعْرِفُ لهُ وجهاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ أي غيرِ مَطْويٍّ. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الرَّقُّ الورقُ، وقالَ أبو عوسَجَةَ: الرَّقُّ الكتابُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ يَحتَمِلُ البيوتَ كلَّها جُمْلةً، وهي البيوتُ التي جَعَلَ اللهُ تعالى لِلْخَلْقِ يَسْكُنونَ فيها، ويَتَّقونَ بها الحَرَّ / ٥٣٣ ـ ب/ والبردَ، ويأمَنونَ فيها، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ الآية [النحل: ٨٠] ما عَرَفَ كلُّ مَنافِعِها وعِظَمَ نِعْمَةِ اللهِ تعالى عليهِمْ في ذلكَ لِيَستأدِيَ شُكْراً، فأقسَمَ بِما ذَكَرَ إنْ لم يَقُمْ بِوَفاءِ الشُّكْرِ استَوجَبَ العذابَ والعُقوبةَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ القَسَمُ بالبيتِ المَعْمورِ، هو الكعبةُ، وهو مَعْمورٌ، قد عَظَّمَ اللهُ شأنَهُ وأمْرَهُ في قلوبِ الناسِ كافّةً: في قلوبِ الكفارِ والمؤمنينَ جميعاً، حتى كانتْ قريشٌ وسائرُ العربِ يَحُجّونَهُ، ويَزورونَهُ، ويُعَظِّمونَهُ، فأقسَمَ بهِ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ الكثيرِ الأهلِ، وأهلُ التأويلِ يقولونَ: البيتُ المَعْمورُ، هو في السماءِ يَزورُهُ أهلُ السماءِ، ويَطوفونَهُ، لكنَّ القَسَمَ بهِ يَبْعُدُ لِما يَسْبِقْ لهمُ المَعْرِفةُ والمُشاهدةُ بهِ، فكيفَ أقسَمَ بِشيءٍ لم يعرِفوهُ، ولا وَقَعَ لهمُ العِلْمُ بالمشاهدةِ إلا أنْ يُقالَ: إنَّ القَسَمَ بهِ لأهلِ الكتابِ، وذلكَ في كتبِهِمْ، يَعْرِفونَهُ. فأمّا مَنْ لم يَسْبِقْ لهُ الخَبَرُ والمَعْرِفةُ بذلكَ مُشاهدةً فَبَعيدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ هو السماءُ التي رَفَعَها بلا عَمَدٍ يَرَونَهُ مِنْ أسْفَلَ ولا تَعْليقٍ مِنَ الأعْلَى على

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جبال خاص. (٣) في الأصل وم: هو.

بُعدِها مِنَ الأرضِ وسَعَتِها وعَرضِها وشِدّتِها وغِلَظِها لِيُعْلَمَ أنَّ مَن فَعَلَ هذا لا يَفْعَلُهُ لِغيرِ شيءٍ، بل لِيَمْتَحِنَ: يأمُرُ، ويَنْهى، لِيَسْتأدِيَ شُكْرَهُ. فَمَنْ خالَفَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ، وكَفَرَ نِعَمَهُ، وانْتَهَكَ مَحارِمَهُ، اسْتوجَبَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، ولِيُعلَمَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرْنا قادرٌ على كلِّ شيءٍ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، يَذْكُرُ سُلْطانَهُ وقُدرَتَهُ وعَظَمَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قالَ أهلُ الأدبِ: هو البَحْرُ المَلآنُ الحارُّ لأنهُ، جَلَّ، وعلا، مُنْذُ أنشأَهُ حاراً مُمْتَلِئاً عَميقاً، لم يَتَغَيَّرْ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ ولا في حالٍ مِنَ الأحوالِ. بل كانَ على حالةٍ واحدةٍ حارًّا مالحاً مُمْتَلِئاً عَميقاً عريضاً، ليسَ كسائرِ الأنهارِ التي ربَّما تتَغَيَّرُ عَنْ جهتِها مِنْ قِلّةِ الماءِ وسُكونِهِ وغَورِها في الأرضِ وامْتِلائها مِنَ الطينِ وحاجَتِها إلى الحَفْرِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ التَّغَيُّرِ الذي يكونُ بها.

فأمّا البحرُ [فهو][1] على حالةٍ واحدةٍ في الأحوالِ كلِّها.

الآيتان ٧ و٨ أقسَمَ بِهِ [ثم قالَ:][2] ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ بَيَّنَ الوقتَ الذي يَنْزِلُ بهِمُ العذابُ المَوعودُ حينَ قالَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ ودَلَّ أنَّ وقتَ تَعذيبِ هذهِ الأمةِ يومُ القيامةِ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ وصفُ ذلكَ اليومِ بالأهوالِ [والشِّدّةِ لأنهُ تعالى ذَكَرَ أنَّ السماءَ تَمورُ مَوراً، أي تَسْتَديرُ اسْتِدارةً، وتَتَحرَّكُ تَحَرُّكاً، وذَكَرَ سيرَ الجبالِ، وهذهِ الأشياءُ مِنْ أشَدِّ الخلائقِ وأصْلَبِها، فَهَوْلُ ذلكَ اليومِ وشِدَّتُهُ عَمِلَ فيها][3] ما ذَكَرَ مِنَ التَّحَرُّكِ والسَّيرِ والتَّغْييرِ وغَيرِ ذلكَ.

وفيهِ أنَّ هذا العالَمَ كلَّهُ أنشأَهُ بحيثُ يُفْنيهِ، ويُنْشِئُ عالَماً آخرَ لأنهُ ذكَرَ فيهِ التَّغْييرَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ ذَكَرَ[4] مرَّةً سَيْرَها وتَحَرُّكَها حينَ[5] قالَ: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ وذَكَرَ السماءَ وتَحَرُّكَها ومَورَها، وذَكَرَ الأرضَ انْشِقاقَها حينَ[6] قالَ: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْأَرْضُ﴾ [القمر: ٤٦] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقالَ [في آيةٍ أُخرى][7]: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] وقالَ ههنا: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

وكذلكَ قالَ في السماءِ والأرضِ اخْتِلافَ الأحوالِ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فدَلَّ إثباتُ التَّغْييرِ في هذهِ الأشياءِ على هلاكِها كما دَلَّ أنواعُ الأعراضِ والتَّغَيُّرِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ في أهلِها على هلاكِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي المُكَذِّبينَ لِرُسُلِهِمْ ﷺ ويَحتَمِلُ لِتَوحيدِهِ أو لِحُجَجِهِ أو لِلْبعثِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ نَعَتَهُمْ، ووَصَفَ أمْرَهُمْ حينَ[8] قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ والخوضُ هو البَحْثُ عنِ الشيءِ إلاّ أنَّ الخوضَ المُطْلَقَ [ذِكْرُهُ، واسْتِعْمالُهُ][9] في الباطلِ خاصّةً.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي يُدْفَعونَ في النارِ على وجوهِهِمْ.

وقالَ أبو عُبيدةَ: يُدْفَعونَ دَفْعاً في القفاءِ خاصةً.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ هو على الإضمارِ؛ كأنهُ يُقالُ لهمْ: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يُقالُ لهمْ في الآخرةِ لَمّا يُلْقَونَ[10] في النارِ: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ مقابلَ ما قالوا هُمْ لِلْحُجَجِ والبراهينِ في الدنيا: إنها سِحْرٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: و. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ذكروا واستعملوا. (١٠) في الأصل وم: القوا.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يُقالُ لهمْ لَمّا يُدْخَلونَ[2] النارَ: لعلَّ ما أنتُمْ فيهِ، ليسَ بعذابٍ، وإنها ليسَتْ بنارٍ، وأنتُمْ لا تُبْصِرونَ ذلكَ، كما أخبرَ عنهمْ في الدنيا أنهمْ يقولونَ [عن حُجَجِهِ حينَ][3] قالَ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ الآية [الحجر: ١٤و١٥] فقالَ مُقابلَ ذلكَ: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي لَعَلَّكُمْ لا تُبْصِرونَ.

والثاني: يقولُ: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أنَّ هذا يَنْزِلُ بكمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذا كما قالَ إبليسُ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] فعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سَواءٌ عليكُمْ أصَبَرْتُم أو جَزِعْتُمْ فلا يَنْفَعُكُم ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ذلكَ اسْتَوجَبْتُمْ بأعمالِكُمْ، لا أنْ أوجَبْتُ عليكُمْ شيئاً، لم تَسْتَوجِبوهُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ يَحْتَمِلُ في جَنّاتٍ وفي نَعيمٍ، ويَحْتَمِلُ في جَناتٍ، فيها نَعيمٌ، فتكونُ الواوُ بِمَعنى مَعَ أي في جَنّاتٍ مَعَ نَعيمٍ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال بعضُهُمْ: أي ناعِمينَ مُتَنَعِّمينَ، وقالَ بعضُهُمْ: مُعْجَبِينَ، وهما واحدٌ: المُعْجَبُ بهِ، والناعِمُ سَواءٌ لأنهُ إذا كانَ ناعماً مُتَنَعِّماً كانَ مُعْجَباً مَسروراً، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَاكِهِينَ﴾ ناعِمينَ، وفَكِهِينَ[4] مُعْجَبينَ بذلكَ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

ثم ذكَرَ ههنا: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذكَرَ في سورةِ: والذارياتِ: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الآية: ١٦] فالفاكهة ما ذَكَرْنا، وقولُهُ ﷻ: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بالشُّكْرِ منهُ الحَمْدِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: وقاهُمْ أي عَصَمَهُمْ في الدنيا عنِ الأعمالِ التي تُوبِقُهُمْ، وتُهْلِكُهُمْ لو أتَوا بها، وعَمِلوها. فإذا عَصَمَهُمْ عنْ ذلكَ وقاهُمْ عَذابَ الجَحيمِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: وقاهُمْ أي عَفَا عنهمْ في الآخِرَةِ، وصَفَحَ عمّا عَمِلوا مِنَ الأعمالِ الموبِقاتِ في الدنيا ما لولا عَفْوُهُ إياهُمْ لكانَتْ توبِقُهُمْ، ويَسْتَوجِبونَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كأنهُ على الإضمارِ، أي يُقالُ لهمْ عندَما [يُدْخَلونَ الجنةَ، ويُنْزَلونَ][5] منازِلَهُمْ: كُلوا، واشْرَبوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَنِيئًا﴾ أي ليسَ عليهمْ في ذلكَ خَوفُ التَّبِعَةِ ولا خَوفُ حُدوثِ مَكْروهٍ في أنفسِهِمْ ولا آفةٍ، لأنَّ ذلكَ يُنَغِّصُ عليهمْ ذلكَ، ليسَ كما يُؤكَلُ في الدنيا فيهِ خَوفُ التَّبِعَةِ وخَوفُ حُدوثِ المَكْروهِ والآفاتِ في أنفسِهِمْ والضَّرَرِ، فأخْبَرَ أنْ يكونَ لهمْ في الجنةِ ذلكَ لئلا يُنَغِّصَ عليهمْ نِعَمُها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ذكَرَ لهمْ في الجنةِ جميعَ ما تَرْغَبُ إليهِ أنفسُهُمْ في الدنيا، ويَتَمَنَّونَ بها كقولِهِ تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٣و٣٤] وقولِهِ ﷻ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾/ ٥٣٤ ـ أ/ ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣و١٤و١٥و١٦] وأشباهُ ذلكَ ممّا يَكْثُرُ عَدُّهُ ممّا تُحَدِّثُ بهِ أنفسُهُمْ في الدنيا، ورَغَّبَهُمْ فيهِ، لِيَرْغَبوا في طَلَبِها، ولِيَتْرُكوا ما في الدنيا مِنْ ذلكَ، لِيَصْفُوَ لهمْ ذلكَ في الآخرةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ادخلوا. (٣) في الأصل وم: لحججه حيث. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ٢٥٥.
(٥) في الأصل وم: ادخلوا الجنة ونزلوا.

وهذهِ الأحوالُ التي ذَكَرَ، وأخبَرَ أنها[1] تكونُ لهمْ في الآخِرَةِ: مِنَ الاتِّكاءِ على السُّرُرِ والمُقابلةِ في المَجْلِسِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ التي ذَكَرَها في الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الباءُ في ﴿بِحُورٍ﴾ زائدةٌ، مَعْناهُ: وزَوَّجْناهُمْ حورَ العِينِ][2] كما يقالُ: تَزَوَّجتُ بفلانةٍ وفلانةٍ. فَعَلى ذلكَ هذا.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

أحَدُها: ما قالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: أي يَلْحَقُ الأولادُ بإيمانِهِمْ وأعمالِهِمْ دَرَجاتِ الآباءِ والأمَّهاتِ، وإنْ قَصُرَتْ أعمالُ الذُّرِّيَّةِ عنْ أعمالِ الآباءِ والأُمَّهاتِ، لأنَّ الدَّرَجاتِ إنما تكونُ بالأعمالِ؛ فهمْ، وإنْ لم يَبْلُغوا في الأعمالِ مَبْلَغَ آبائِهِمْ، فإنهمْ يَلْحَقونَ بهمْ في الدَّرَجاتِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: ما][3] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الذُّرِّيَّةَ التَقَنُوا الإيمانَ عن آبائِهِمْ وأُمَّهاتِهِمْ، وأخَذوهُ منهمْ، ولم يَبْحَثوا عن حُجَّتِهِ وبُرْهانِهِ حتى يكونَ أخْذُهُمْ وقَبولُهُمْ دونَ[4] البحثِ عنِ الحُجَّةِ والبرهانِ. فهمْ، وإنْ كانوا مُقَلِّدينَ آباءَهُمْ في الإيمانِ مُتَلَقِّينَ منهمْ، فإنهمْ يَلْحَقونَ بآبائهِمْ، وإنْ كانَ الإيمانُ عنِ الحُجةِ أفْضَلَ مِنَ الإيمانِ بالتَّقْليدِ والالْتِقانِ.

[والثالثُ: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الذُّرِّيَّةَ، وإنْ لم يَبْلُغوا مَبْلَغاً يكونُ منهمُ الإيمانُ، فإنهمْ يَلْحَقونَ بآبائهمْ وأمّهاتِهِمْ في إيمانِهِمْ، وإنْ لم يكنْ مِنهمُ الإيمانُ، ولم يأتوا بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ على تأويلِ أبي بكرٍ، أي وما ألَتْنا مِنْ أعمالِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ شيءٍ، أي ما نَقَصْنا أعمالَ آبائِهِمْ في الثوابِ، وإنْ قَصُرَتْ أعمالُهُمْ عنْ أعمالِهِمْ، بل يَبْلُغونَ دَرَجاتِ آبائِهِمْ، ويُوَفَّرونَ كما يُوَفَّرُ على آبائِهِمْ، وتأويلُهُ أبْعَدُ هذهِ التأويلاتِ التي ذَكَرْنا.

وعلى تأويلِ غَيرِهِ أي ما نَقَصْنا مِنْ أعمالِ آبائِهِمْ شيئاً أي أنهمْ، وإنْ بَلَغوا مَبْلَغَ الآباءِ، فإنَّ الآباءَ لا يُنْقَصونَ مِنْ أعمالِهِمْ شيئاً، ذَكَرَ هذا حتى لا يُظَنَّ أنهُ يُنْقَصُ مِنْ ثوابِ آبائِهِمْ، ويُعْطَى لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا صِلَةُ قولِهِ ﷺ: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٦] ﴿كُلُّ ٱمْرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وهو يَرُدُّ قولَ مَنْ يقولُ: إنَّ الرهْنَ لِصاحِبِهِ، لهُ أنْ يَحْلُبَهُ وأنْ يَرْكَبَهُ وأنْ يَنْتَفِعَ بهِ، ثم يَرُدُّ إلى المُرْتَهِنِ، ولو كانَ لهُ هذا لكانَ لا يكونُ رَهْناً، إذْ أخبَرَ أنهُ رَهينٌ أي مَحْبوسٌ، فالرَّهْنُ هو الذي يُحْبَسُ في كلِّ وقتٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ أي أمْدَدْناهمْ فاكهةً [والباءُ في بفاكهةٍ][6] زائدةٌ كما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الآية: ٢٠].

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ إخباراً عن دَوامِها وكَثْرتِها، أي لا تَنْقَطِعُ، ولا تَقِلُّ، وليسَتْ كَفَواكِهِ الدنيا لا توجَدُ في كلِّ وقتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أخبَرَ أنهمْ يأكلونَ جميعَ ما يَشْتَهونَ، ويَجِدونَ ما يَتَمَنَّونَ، ليسَ كالدنيا، رُبّما تَشْتَهي شيئاً لا تَجِدُهُ، وتَجِدُ ما [لا][7] تَشْتَهيهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يَتَعاطَونَ فيها كأساً، ويأخُذُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ كما يكونُ في الدنيا؛ لا يكونُ لكلِّ أحدٍ كأسٌ على حِدَةٍ. وهو كما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كانَ يَغْتَسِلُ مع بَعْضِ أزواجِهِ، وربما تَتَنازَعُ أيديهما.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: عن. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل: الفاكهة، في م: والباء في الفاكهة. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقالَ أبو بكرٍ الكيسانيُّ: الكأسُ هو الخمرُ، وقالَ غيرُهُ: هو الإناءُ المَمْلوءُ مِنَ الخمْرِ، وأمّا الذي لا شرابَ فيهِ فهو الإناءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ بالرَّفعِ والتَّنوينِ. [وقُرِئَ[1]: لا لَغْوَ فيها ولا تأثيمَ][2].

قالَ أبو عُبَيدَةَ: إنهُ خَبَّرَ بأنهُ ليسَ فيها لَغْوٌ ولا تأثيمٌ كما قالَ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] وقُرِيءَ بالنَّصبِ فيهما على التَّنزيهِ، وهو وجهٌ غيرُ مَدْفوعٍ.

وتأويلُ الآيةِ: أي لا يكونُ منهمْ مِنَ اللَّغْوِ ما يُؤثَمُ مِنَ القولِ كما يكونُ في شرابِ الدنيا مِنَ اللَّغْوِ وقَولِ الإثمِ. وقيلَ: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ لأنها أُحِلَّتْ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ يُرغِّبُهُمْ فيها [في ما تَرْغَبُ إليهِ][3] أنفُسُهُمْ في الدنيا مِنَ الخَدَمِ والفواكِهِ والبُسُطِ لِيَطْلُبوها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الكيسانيُّ: يَتَساءلونَ عنِ المَعاصي التي كانَتْ منهمْ في الدنيا، واستَدَلَّ بقولِهِ على إثْرِ هذهِ الآيةِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.

الآية ٢٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾][4] يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِىٓ أَهْلِنَا﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

والثاني: أي كنّا قَبْلُ على أنفسِنا وأهلِنا مُشْفِقينَ أي خائفينَ على ما كانَ مِنّا مِنَ الجِناياتِ والمَعاصي. دليلُهُ[5] قولُهُ تعالى [على إثرِهِ][6]: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٢٨] أي، واللهُ أعلَمُ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ على أنفُسِنا لِجناياتِنا وراجينَ رَحْمَتَهُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٢٨] وَصَفَهُمْ[7] اللهُ تعالى في غيرِ آيةٍ[8] مِنَ القرآنِ بالإشفاقِ والخَشْيَةِ والطَّمعِ والرجاءِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] ونَحْوِ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ قُرِيءَ أنهُ هو البَرُّ بِنَصْبِ[9] الألفِ وخَفْضِهِ. فَمَنْ كَسَرَهُ حَمَلَهُ على الاِبْتِداءِ، أي ربُّنا كذلكَ على كلِّ حالٍ. ومَنْ نَصَبَ أرادَ: يَدْعوهُ ثانياً لأنهُ هو البَرُّ الرحيمُ، أي يَدْعوهُ لأجْلِ أنهُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أنَّ لِلَّهِ أنْ يُعَذِّبَهُمْ بِعَذابِ السَّمومِ، لكنَّهُ بِمَنِّهِ وفَضْلِهِ وقاهُمْ. ولو كانَ عليهِ ذلكَ كما قالتِ المعتزلةُ: لم يَكُنْ لِلْمَنَّةِ مَعْنًى.

الآيتان ٢٨ و٢٩ وقولُهُ تعالى: [﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾][10] ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي بِما أنْعَمَ عليكَ مِنَ النُّبُوَّةِ والقرآنِ لَسْتَ بكاهِنٍ ولا مَجنونٍ. ثم هذا يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحَدُهما: أي إنكَ لم تُقابِلْ نِعْمَةَ ربِّكَ [بما يَجِبُ أنْ تُبْتَلى بِجُنونٍ أو كهانةٍ أو ما ذَكَروا قَبْلُ.

والثاني: أي أنتَ بِنِعْمَةِ ربِّكَ][11] عوفيتَ، وعُصِمْتَ عمّا ذَكَروا مِنَ الجُنونِ والسِّحْرِ وغَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

دلَّتْ هذهِ الآيةُ على أنهمْ قالوا: إنهُ كاهنٌ ومَجْنونٌ. وكذا كانتْ عادةُ أولئكَ؛ إنهمْ يَنْسُبونَ الحُجَجَ عندَ عَجْزِهِمْ عن مُقابَلَتِها إلى السِّحْرِ، والأنباءَ المُتَقَدِّمَةَ إلى الكهانةِ، وخِلافَ رُسُلِهِمْ ﷺ لِقادَتِهِمْ وفَراعِنَتِهِمْ إلى الجُنونِ، والكلامَ المُسْتَمْلَحَ والمُسْتَلَذَّ إلى الشِّعْرِ تَلْبيساً للأمرِ على أتباعِهِمْ. هذهِ كانَتْ عادَتُهُمْ مَعَ العِلْمِ منهمْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ليسَ كذلكَ لِما لم يَخْتَلِفْ إلى أحدٍ مِنَ الكَهَنةِ ولا السَّحَرَةِ، ولا كانَ القرآنُ على نَظْمِ الشِّعْرِ، وعَجِزوا عنْ إتيانِ مِثْلِهِ، وهُمْ عنِ الشِّعْرِ غَيرُ عاجزينَ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد وقوله تعالى. انظر معجم القراءات القرآنية ح٦/ ٢٥٩ . (٣) في الأصل وم: رغب إليهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وصف. (٨) في الأصل وم: أي. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٦/ ٢٦٠. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

الآية ٣٠ ثم لمّا عَجزوا عنْ مُقابَلَةِ ما أتاهُمْ مِنَ الحُجَجِ قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي عنْ قريبٍ يَرْجِعونَ إلى دينِنا وإلى ما نَحْنُ فيهِ، وكانوا يقولونَ للضعفاءِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ: إنَّ محمداً يموتُ، ويَصيرُ الأمرُ لنا، وترجِعونَ إلينا.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي تَرَبَّصوا ذلكَ فإني مُتَرَبِّصٌ ذلكَ بكمْ؛ فكانوا جميعاً أو عامَّتَهُمْ، أعني الذينَ قالوا [عنْ رسولِ][1] اللهِ ﷺ: إنهُ ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أُهْلِكوا قَبْلَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ فَحَلَّ بهمْ ما ظَنّوا برسولِ اللهِ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: رَيْبُ المَنونِ حوادثُ الدهرِ وأوجاعُهُ ومَصائبُهُ، والمَنونُ الدهرُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: رَيْبُ المَنونِ أي المَنِيَّةُ، ورَيْبُها ما يأتي بهِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما:][2] قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ حَرْفَ / ٥٣٤ ـ ب/ أمْ [يُفيدُ تحقيقَ النَّفْيِ، أي][3] لَيْسَتْ لهمْ عقولٌ تأمُرُهُمْ بذلكَ، أي مَنْ يَأمُرُ بهذا فليسَ بعاقلٍ.

والثاني: على سَفَهِ أحلامِهِمْ: أيُّ عقلٍ يأمُرُ بعبادةِ الأصنامِ، ويَنْهَى عن عبادةِ اللهِ تعالى؟ أي لا عَقْلَ يأمُرُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي طاغونَ في ذلكَ، والطُّغْيانُ، هو المُجاوزةُ عنِ الحَدِّ في العداوةِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي يَعْلَمونَ أنكَ لستَ بِمُتَقَوِّلٍ، ولكنْ يَنْسُبونَكَ إلى التَّقَوُّلِ لِتَكذيبِهِمْ بآياتِ اللهِ تعالى، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بالتَّخفيفِ[4] والتَّشديدِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

يقولُ: إنهمْ لا يقولونَ: إنكَ كاذبٌ في ما تقولُ، ولا يَنْسُبونَكَ إلى الكذبِ، ولكنْ إنما يُكَذِّبونَ الآياتِ، ويَعْتَقِدونَ كِذبَها.

فَعَلَى ذلكَ ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ على عِلْمٍ منهمْ أنكَ لم تَتَقَوَّلْ، ولكنِ اعْتَقَدوا تكذيبَ الآياتِ والجُحودِ لها، فيقولونَ: إنكَ تَتَقَوَّلُ.

الآية ٣٤ [وقولُهُ تعالى:][5] ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ بأنَّ محمداً يَتَقَوَّلُ على اللهِ فَلْيَأتوا بِمِثْلِ ما أتى محمدٌ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ وإنْ خُرِّجَ مُخْرَجَ الأمْرِ في الظاهِرِ، فهو في الحقيقةِ ليسَ بأمْرٍ؛ لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُمْ إنْ تابوا بالكَذِبِ والافْتِراءِ. ثم هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: على الإعجازِ عنْ أنْ يَأتوا بِمِثْلِهِ.

والثاني: على التَّوبيخِ والتَّوَعُّدِ على ما قالوا على رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ الافْتِراءِ والتَّقَوُّلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أي أمْ خُلِقوا مِنْ غيرِ أبٍ، ولكنْ ليسَ في ما ذكروا كَثيرُ فائدةٍ لو خُلِقوا مِنْ غيرِ أبٍ إلّا أنْ يُريدوا ذلكَ حتى لم يَعْرِفوا مَنْ خَلَقَهُمْ، ومِمَّنْ خُلِقوا. بل كانَتْ لهمْ آباءٌ عَوَّدوهُمْ، وأعْلَموهُمْ بأنَّ لهمْ خالقاً، وأنهمْ مَخلوقونَ، ولَيسوا بخالِقينَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ. فكيفَ يَتَكَلَّمونَ بما هو سَفَهٌ؟ وكيفَ يُصِرّون عليهِ.

---

(١) في الأصل وم: لرسول. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم، انظر ما ذكره المؤلف في تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ٣]. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢/ ٢٦٥. (٥) في الأصل وم: من قال.

وعندَنا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي يَعْلَمونَ أنهم [لو خُلِقوا مِنْ غَيرِ][1] شيءٍ، أو خُلِقوا مِنْ تُرابٍ ولِغَيرِ مَعْنىً وحِكْمَةٍ لكانَ خَلْقُهُمْ عَبَثاً باطلاً، وهُمْ يَعْلَمونَ أنهمْ لم يُخْلَقوا لَعِباً وباطلاً.

والثاني: يُقالُ: لا يَخْلُو؛ إمّا أنْ يكونوا خُلِقوا مِنْ غَيرِ شيءٍ، وإمّا خُلِقوا مِنْ ترابٍ وماءٍ. فكيفَ ما كانَ، فَدَلَّ أنَّ قُدْرَتَهُ ذاتيَّةٌ لا مُسْتفادةٌ[2]، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي ليسوا هُمْ بخالِقينَ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي يَعْلَمونَ أنهمْ لم يَخْلُقوهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنَّ ما يقولونَ إنما يقولونَ على الظَّنِّ لا على اليَقينِ.

والثاني: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي لا يُصَدِّقونَ؛ وذلكَ في قُوَّةِ عِلْمِ اللهِ تعالى بأنهمْ لا يُؤمِنونَ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا ففيهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ إذْ[3] أخبَرَ عنِ الغَيبِ.

وإنْ كانَ التأويلُ هو الأوّلَ ففيهِ أنَّ جميعَ ما يقولونَ إنما يقولونَ على الظَّنِّ والجَهْلِ لا على اليَقينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ الآية، أي ليسَ عندَهُمْ خزائِنُ ربِّكَ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي لم يَخْلُقوا. فَعَلى ذلكَ هذا، ليسَ عندَهُمْ خزائِنُ ربِّكَ ولا همُ المُصيطِرونَ.

ثم الآيةُ تَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: تَحْتَمِلُ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أيِ الذي مَنَعَهُمْ عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ هو المَنَعَةُ التي عندَهُم، ليسَتْ تلكَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فيكونوا هُمْ لذلكَ أحقَّ بالرسالةِ، أي ليسوا بأحَقَّ.

[والثاني][4]: يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي عِلْمُ الغَيبِ، اطَّلَعوا على ذلك، فَعَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد تَقَوَّلَ على اللهِ تعالى؟ أي ليسَ لهمْ عِلْمُ الغَيبِ.

[والثالثُ][5]: يحتملُ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي عِلْمُ الغَيبِ، ليسَ ذلكَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ بل عندَ[6] رسولِهِ ما يُخْبِرُهُ ربُّهُ، جَلَّ، وعَلا، ليسَ عندَهُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي [ليسوا هُمُ المُسَلَّطينَ][7] على أرزاقِهِمْ ولا أرزاقِ غَيرِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: المُسَيطِرُ[8] الرَّبُّ تعالى؛ يُقالُ: صَيْطَرَ فلانٌ، أي صارَ رَبًّا، وهو قولُ القُتَبيِّ.

وقالَ الزَّجاجُ: المُصَيطِرُ المسَلَّطُ؛ يُقالُ: صَيطَرَ، أي تَسَلَّطَ.

وقالَ أبو بَكْرٍ: المصَيطِرُ الغالبُ القاهرُ. لكنَّ الغَلَبَةَ والقَهْرَ بالحُجَّةِ عليهِمْ. وهذا يُخرَّجُ على المُقابَلَةِ برسولِ اللهِ ﷺ إلى ما ذَكَرَ، ويَحْتَمِلُ على غَيرِ المُقابَلَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أم لهمْ سَبَبٌ وقُوَّةٌ، فَيَصعَدوا السماءَ، فَيَسْتَمِعوا مِنْ أخبارِها، فَيَعْلَموا بذلكَ أنَّ محمداً ﷺ تَقَوَّلَ على الله تعالى؟

والثاني: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾؟ أي لهمْ حُجَّةٌ وبرهانٌ ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أنَّ رسولَ الله ﷺ على ما ذَكَروا؛ فإنْ قالوا: نَعَمْ لنا ذلكَ، فَيُقالَ لهمْ عندَ ذلكَ: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بِحُجَّةٍ بيِّنَةٍ، أي ليسَ لهمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لم يخلقوا الغير. (٢) من م، في الأصل: مستعانة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل ،م: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٧) في الأصل وم: ليس هم المسلطون. (٨) في م: في الأصل: المصيطرون.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ هذا ليسَ مِنْ نَوعِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، لأنَّ ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ ﷺ على المُقابلَةِ، وهذا راجعٌ إلى اللهِ تعالى في الظاهرِ على ما سَبَقَ منهمُ القولُ: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في نِسْبَتِهِمُ البناتِ إلى اللهِ ﷻ وهُمْ يأنَفونَ مِنْ نِسْبَتِهِنَّ إليهِمْ، فَيُسَكِّنُ بذلكَ صَدْرَ رسولِ اللهِ ﷺ ويُصَبِّرُهُ على أذاهُمْ، أي إنهمْ يَتَقَوَّلونَ[1] في ما قالوا، فاصْبِرْ على ما يقولونَ فيكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ إنْ خُرِّجَ ما ذكَرْنا مِنَ المُقابلَةِ برسولِ اللهِ ﷺ [أنْ يكونَ][2] مَعْناهُ: أمْ لرسولِ اللهِ البناتُ ولكُمُ البَنونَ، فَيَتْرُكونَ اتِّباعَهُ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي لَسْتَ تَسْألُهُمْ أجراً على اتِّباعِكَ، فَيَمْنَعُهُمْ ذلكَ عنِ اتِّباعِكَ؛ يَذْكُرُ أنْ ليسَ لهمْ أسبابُ المَنْعِ، وهذهِ أسبابُ المَنْعِ، وإنما امْتَنَعوا عنِ الاتِّباعِ تَعَنُّتاً ومُكابَرَةً.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي عندَهُمْ عِلْمُ الغيبِ، فَيَعْلَمونَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تَقَوَّلَهُ، بل ليسَ عندَهُمْ ذلكَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي يُريدونَ كيداً برسولِ اللهِ ﷺ لكنْ هُمُ المَكيدونَ أي إليهِمْ يرجِعُ ذلكَ الكيدُ الذي أرادوا برسولِ اللهِ ﷺ.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ الكيدُ الذي أخبَرَ ﷻ أنهُ عليهِمْ في الدنيا على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنهمْ قُتِلوا يومَ بَدْرٍ، ويَحْتَمِلُ ذلكَ في الآخِرةِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي أمْ لهمْ إلهٌ يأمُرُهُمْ بالذي يَدَّعون على رسولِ اللهِ ﷺ أي أمْ لهمْ إلهٌ غيرُ اللهِ يَمْنَعُهُم مِنْ عذابِ اللهِ تعالى، أي ليسَ لهمْ. ويَحْتَمِلُ: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يأمُرُهُمْ بالذي يَدَّعونَ على رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ التَّقَوُّلِ على اللهِ تعالى، أو يُطْلِعُهُمْ على ذلكَ، ويَدْفَعُ عنهمْ ما يَنْزِلُ مِنَ السماءِ مِنَ العذابِ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧و٨].

ثم نَزَّهَ نفسَهُ عمّا أشرَكوا بهِ مِنَ الأوثانِ في تَسْمِيَةِ الألوهِيَّةِ واسْتِحْقاقِ العِبادةِ، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ يُخبِرُ عن عِنادِ أولئكَ الرؤساءِ ومكابرَتِهِمْ. وإنما قالوا على التَّعَنُّتِ لا على الاِسْتِرْشادِ. وإنّ هذهِ الآياتِ مِنْ قولِهِ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [الطور: ٣٢ إلى ٤٣] كلُّها مُحاجَّةٌ مَعَ أولئكَ الرؤساءِ المُعانِدينَ/ ٥٣٥ ـ أ/ يُبَيِّنُ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾؛ يقولُ: وإنْ يَرَوا ما يُوعَدونَ مِنْ عذابٍ يَنْزِلُ بهمْ يقولوا لِتَعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ: إنهُ سحابٌ، ليسَ بعذابٍ، وهو كما قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الأنعام: ١١١] يُخبِرُ عنْ عِنادِهِمْ، وكقولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩] لا يؤمنونَ، ويقولونَ ما ذكَرَ: إنهُ ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ تَعَنُّتاً ومُكابَرَةً.

الآية ٤٥ ثم أمَرَ رسولَهُ ﷺ بأنْ يُعْرِضَ عنهمْ وألّا يَشْتَغِلَ بهمْ لِما عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يؤمنونَ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يُؤيِسُ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ إيمانِهِمْ، ويأمُرُهُ بالصَّبْرِ على أذاهُمْ وتَرْكِ المُكافآتِ لهمْ، ويُخبِرُهُ[3] أنهمْ لا يؤمِنونَ إلّا في اليومِ الذي فيهِ يُصْعَقونَ، أي يَموتونَ.

ثم قُرِئَ قولُهُ ﴿يُصْعَقُونَ﴾ بِفَتْحِ الياءِ وضَمِّها[4]. فمنْ قالَ بالنَّصْبِ احْتَجَّ بقولِهِ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] ولم يَقُلْ فَصُعِقَ.

---

(١) في الأصل وم: يقولون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وضمه، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٦/ ٢٦٢.

ثم تَحْتَمِلُ الصَّعْقَةُ التي ذكَرْنا ما ذكَرْنا، أي يَموتونَ، ويَحْتَمِلُ أي تَنزِلُ بهِمُ الشدائدُ والأوجاعُ، ولكنْ لا يَنفَعُهُمُ الإيمانُ في ذلكَ الوقْتِ لأنهُ إيمانُ دَفْعِ العذابِ عن أنفسِهِمْ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ برسولِ اللهِ ﷺ عمّا يَنزِلُ بهِمْ يومئذٍ جَزاءً على كَيدِهِمْ برسولِ اللهِ ﷺ.

ويَحتَمِلُ ألّا تُغْنِيَهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى الأصنامُ التي عَبَدوها رَجاءَ أنْ تَشفَعَ لهمْ، أو تُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى، كما أخبَرَ ﷻ واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي لِمُشركي مكةَ عذابٌ[1] دونَ عذابِ النارِ؛ وهو القَتْلُ بالسيفِ يومَ بَدْرٍ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي لِلْكَفَرَةِ عذابٌ في الدنيا دونَ الذي ذَكَرَ يومَ القيامةِ حينَ[2] قالَ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾.

ثم قولُهُ[3]: لهمْ عذابٌ دونَ ذلكَ، وهو ما داموا كُفّاراً فهمْ في عذابٍ، ويكونونَ[4] في خوفٍ وذُلٍّ وخِزْيٍ. فذلكَ كلُّهُ عذابُ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَنتَفِعونَ بِعِلْمِهِمْ، أو لا يَعْلَمونَ حقيقةَ [العِلْمِ][5] لِما لم يَنْظُروا في أسبابِ العِلْمِ، ولم يَتَفَكَّروا فيها حتى تَمْنَعَهُمْ، وتَزْجُرَهُمْ عن صَنيعِهِمْ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ دلَّ هذا الحَرْفُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد كُلِّفَ أمْراً شديداً شاقّاً عليهِ حتى قالَ لهُ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ إذِ الأمْرُ بالصَّبْرِ لا يكونُ إلّا في أمورٍ شاقَّةٍ شديدةٍ، وكذلكَ[6] قالَ لهُ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أمَرَهُ بالصَّبْرِ على ما كَلَّفَهُ كما صَبَرَ إخوانُهُ على ما لَحِقَهُمْ مِنَ الأمورِ الشاقَّةِ. وما قالَ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] أخْبَرَ أنهُ لو صَبَرَ إنما يَصْبِرُ بِتَوفيقِ اللهِ تعالى إيّاهُ.

[وفيهِ][7] أنهُ إذا صَبَرَ يكونُ صَبْرُهُ لِلّهِ تعالى حتى يَسْهُلَ عليهِ احْتِمالُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما أمَرَ مِنْ تَبْليغِ الرسالةِ إلى الفراعنةِ الذينَ كانَ هَمُّهُمُ القَتْلَ لِمَنْ خالَفَهُمْ، فذلكَ أمرٌ شديدٌ، فأمَرَهُ بالصَّبْرِ على ذلكَ والتَّبليغِ إلى أولئكَ.

والثاني: أمَرَهُ بالصَّبْرِ على أذاهُمْ واسْتِهزائِهِمْ بهِ وتَرْكِ المُكافأةِ لهمْ.

[والثالثُ][8]: يحتملُ أنْ يكونَ الأمْرُ بالصَّبْرِ على الأمورِ التي كانَتْ عليهِ في [خاصِّ نفسِهِ][9] مِنِ احْتِمالِ غُصَّةِ التكذيبِ وحُزْنِهِ على تركِهِمُ التَّوحيدَ والإيمانَ. وإنّما ذلكَ كلُّهُ حُكْمُ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بِمَنْظَرٍ وعِلْمٍ منّا:

فإنْ كانَ الأمْرُ بالصَّبْرِ على القِيامِ بِتَبليغِ الرسالةِ إلى مَنْ ذَكَرْنا فَيُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ مُخْرَجَ وَعْدِ النَّصْرِ والمَعونةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وإنْ كانَ الأمْرُ بالصَّبْرِ على تَرْكِ مُكافَأتِهِمْ أو على القِيامِ بالأمورِ التي في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ تعالى، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: على عِلْمٍ منّا بما يكونُ منهمْ مِنَ التكذيبِ والاِسْتِهزاءِ والأذى كَلَّفْناكَ لا عَنْ جَهْلٍ منّا بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: عذاب. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ولذلك. (٧) في الأصل وم: أو فيه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: خالص نهيه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نَزِّهْهُ عن مَعاني الخَلْقِ وعمّا لا يَليقُ، واذْكُرِ الثناءَ عليهِ بما هو أهْلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من مَجْلِسِكَ أو مِنْ مَقامِكَ أو ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ لِلتَّعَيُّشِ والانْتِشارِ.

فإنْ كانَ المُرادُ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِنْ مَجْلِسِكَ، فيكونُ التَّسْبيحُ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: أنهُ قالَ: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً كَثُرَ فيهِ لَغَطُهُ فَقُلْ قَبْلَ أنْ تقومَ مِنْ مَجْلِسِكَ: سُبْحانَكَ اللهُمَّ وبِحَمْدِكَ، أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا أنتَ أسْتَغْفِرُكَ، وأتوبُ إليكَ، غَفَرَ لهُ ما كانَ في مَجْلِسِهِ ذلكَ» [الترمذي ٣٤٣٣] ولم يَذْكُرِ الآيةَ.

وإنْ كانَ المُرادُ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِنْ مَنامِكَ، فَجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ الصلاةَ، وإنْ كانَ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ الانْتِشارَ والتَّعَيُّشَ، فَيَصيرُ كأنهُ [أمَرَ][1] بالتسبيحِ بالنهارِ في وقْتِ الانْتِشارِ.

الآية ٤٩ وعلى هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي سَبِّحْ بالليلِ في وقْتِ الراحةِ، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: وسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ في الأوقاتِ كلِّها بالليلِ والنهارِ في وقْتِ الراحةِ وفي وقْتِ الانْتِشارِ.

ورَوَى الضَّحّاكُ عن عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في الصلاةِ المَفْروضَةِ قَبْلَ أنْ تُكَبِّرَ: «سُبْحانَكَ اللهمَّ وبِحَمْدِكَ» إلى آخِرِهِ [السيوطي في الدر المنثور ج٧/٦٣٧].

ورَوَى الضَّحّاكُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا دَخَلَ في الصلاةِ قالَ ذلكَ، وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

ورَوَى أبو سعيدٍ وعائشةُ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ إذا افْتَتَحَ الصلاةَ قالَ ذلكَ.

وعَنْ مجاهِدٍ أنهُ قالَ: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِنْ كلِّ مَجْلِسٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هو رَكْعَتا الفَجْرِ، ورُوِيَ[3] عنْ جَماعةٍ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ، وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ مَرْفوعاً أنهُ أراد بإدبارِ النجومِ الركعَتَيْنِ قَبْلَ الفَجْرِ [وبِقولِهِ][4]: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] الركعتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ.

فإنْ ثَبَتَ فهو التأويلُ. فإنْ كانَ على هذا فَيَدُلُّ على تأخيرِ صلاةِ الفَجْرِ لأنَّ إدبارَ النجومِ إنما يكونُ ذهابَها وانْقِضاءَها. وذلكَ لا يكونُ بأوَّلِ وَقْتِ طُلوعِ الفَجْرِ وإنما يكونُ وَقْتَ الإسفارِ، فيكونُ حُجَّةً لنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و.

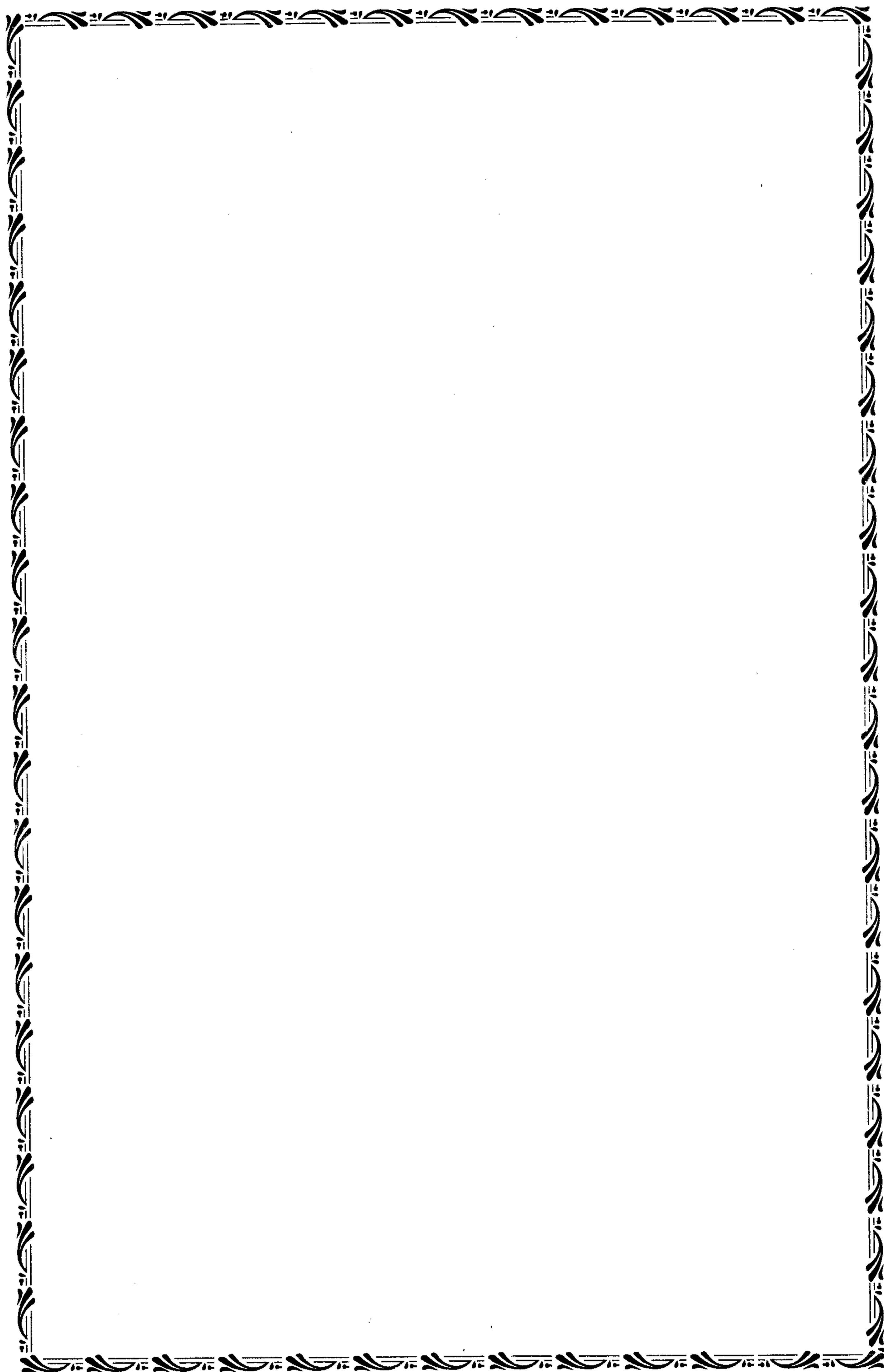

سورة النجم

مكية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قيلَ: المُرادُ هو النجمُ [نفسُهُ؛ فأقْسَمَ بهِ](٢) على أنَّ محمداً ﷺ ما ضَلَّ، وما غَوَى، على ما قالَهُ الكَفَرَةُ / ٥٣٥ ـ ب/ وبهِ يقولُ الأصَمُّ.

وقيلَ: أرادَ بقولِهِ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ نُزولَ القرآنِ نَجْماً فَنَجْماً على التَّفاريقِ؛ أقْسَمَ بالقرآنِ أنهُ لم يَضِلَّ، ولم يَغْوِ.

وقالَ مجاهدٌ: أقْسَمَ بالثُّرَيّا إذا غابَ، والعَرَبُ تُسَمّي الثُّرَيّا، وهي سِتَّةُ أنْجُمٍ ظاهرةٍ، نَجْماً.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ: أقْسَمَ بالنَّجْمِ إذا سَقَطَ في الغَوْرِ، فكأنهُ لم يَخُصَّ الثُّرَيّا دونَ غَيرِها.

فإنْ كانَ التأويلُ هو الأوَّلَ، فهو لِما جَعَلَ اللهُ تعالى لِلنُّجُومِ مَحَلاً في قلوبِ الخَلْقِ وأعلاماً يَسْتَخْرِجونَ بها جميعَ ما يَنْزِلُ بالخَلْقِ وما يكونُ لهمْ مِنَ المَنافِعِ والمَضارِّ مِنْ كَثْرَةِ الإنزالِ والسَّعَةِ والضِّيقِ وما يَنْزِلُ بهمْ مِنَ المصائبِ والشدائدِ وما يكونُ من انْقِلابِ القلوبِ وما جَعَلَ فيها مِنَ المَنافِعِ مِنْ مَعْرِفةِ القِبْلَةِ وطُرُقِ الأمكنةِ النائيةِ ومَعْرِفةِ الأوقاتِ وغيرِها ممّا يَكْثُرُ عَدُّها؛ فأقْسَمَ بِنفسِها أو بالذي أنْشَأَ النُّجُومَ وما جَعَلَ فيها مِنَ المَنافِعِ أنَّ محمداً ﷺ ما ضَلَّ، وما غَوَى.

وإنْ كانَ النَّجْمُ هو النُّجومَ التي أُنْزِلَ القرآنُ فيها نُجوماً على التفاريقِ، فالقَسَمُ بالذي أنْزَلَ القرآنَ على التَّفاريقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي سَقَطَ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥] أي بِمَساقِطِها.

والأشبهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي إذا [سارتْ النُّجومُ سَيراً دائباً](٣) لأنها أبداً تكونُ في السَّيرِ، وفي سَيرِها مَنافعُ الخَلْقِ مِنَ الاهْتِداءِ لِلطُّرُقِ وغيرِها. وإلّا(٤) ليسَ في مَساقِطِ النجومِ وغَيبوبَتِها كثيرُ حِكْمةٍ حتى يُقْسِمَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ما ضَلَّ عمّا نَزَلَ بِهِ القرآنُ وعمّا أُمِرَ بهِ لأنهمْ كانوا يَدَّعونَ عليهِ الضَّلالَ، أنْ خالَفَ دينَهُمْ ودينَ آبائِهِمْ، فقالَ: ما ضَلَّ هو عمّا أُمِرَ بهِ، وما غَوَى.

والثاني: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ إذْ ليسَ بساحِرٍ ولا شاعرٍ لأنهمْ كانوا يقولونَ: إنهُ شاعرٌ وإنهُ ساحرٌ، فقالَ: ليسَ هو كذلكَ، ما ضَلَّ بالسِّحْرِ، وما غَوَى بالشِّعْرِ على ما قالَ ﷻ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] بل رَشَدَ، واهْتَدَى:

الآيات ٣ و٤ و٥ و٦ وهو ما قالَ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ أي ما يَنْطِقُ عَمّا تَهْوَى بهِ نفسُهُ، بل إنما يَنْطِقُ عنِ الوحيِ بقولِهِ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾.

وإلّا جائزٌ أنْ يُصْرَفَ قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ إلى اللهِ تعالى، إذِ اللهُ تعالى قد أضافَ تَعْليمَهُ إلى نفسِهِ بقولِهِ ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١ و ٢].

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر ان سورة النجم (٢) في الأصل وم: نفسها فأقسم بها. (٣) في الأصل وم: صارت سيراً دائماً في سيرها.
(٤) في الأصل وم: وإما.

لكنْ أبانَ بقولِهِ: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ أنَّ المُرادَ غيرُهُ، إذْ هو لا يُوصفُ بأنهُ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ وهو جبرائيلُ ﷺ على ما قالَ أهلُ التأويلِ.

ثم أضافَ التَّعْليمَ مَرّةً إلى جبرائيلَ ﷺ ومَرّةً إلى نفسِهِ: فالإضافةُ إلى جبرائيلَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، لِما منهُ سَمِعَ النَّبيُّ ﷺ وتَلَقَّفَ. والإضافةُ إلى اللهِ تعالى تُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أضافَ إلى نفسِهِ ﷻ لِما أنهُ هو الباعثُ لجبرائيلَ إليهِ والآمِرُ لهُ بالتَّعْليمِ، والخالقُ لِفِعلِ التَّعْليمِ مِنْ جبرائيلَ ﷺ.

والثاني: لِما يكونُ مِنَ اللهِ ﷻ مِنَ اللُّطْفِ الذي يَحْصُلُ بِهِ العِلْمُ عندَ التَّعْليمِ ولهذا يَخْتَلِفُ المُتَعَلِّمونَ في حُصولِ العِلْمِ معَ التَّساوي في التَّعْليمِ لاخْتِلافِهِمْ في آثارِ اللُّطْفِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو إحكامٍ. وأصْلُهُ مِنْ قِوَى الحَبْلِ، وهي طاقَتُهُ، والواحدةُ قُوَّةٌ، وأصْلُ المِرَّةِ الفَتْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ اسْتَوَى أي محمدٌ ﷺ لِنُزولِ الوَحْيِ إليهِ.

وقيلَ: اسْتَوَى أي جبرائيلُ ﷺ على صورتِهِ لِما ذُكِرَ أنهُ ﷺ سألَ ربَّهُ ﷻ أنْ يُرِيَهُ جبرائيلَ ﷺ على صُورتِهِ، فاسْتَوَى جبرائيلُ على صورتِهِ، فَرَآهُ كذلكَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي جبرائيلُ بالأُفُقِ الأعْلَى. ثم يَحْتَمِلُ الأفُقُ الأعلى أُفُقَ السماءِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الأُفُقُ الأعْلَى مَكانَ الملائكةِ ومَسْكَنَهُمْ، فأخبَرَ أنهُ ﷺ رآهُ[١] على صُورتِهِ في مَكانِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأُفُقُ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أرادَ أنْ يَرَى جبرائيلَ ﷺ في صُورتِهِ، فسألَهُ أنْ يُرِيَهُ [نفسَهُ][٢] فقالَ: إنَّ الأرضَ لا تَسَعُني، ولكنِ انْظُرْ إلى الأُفُقِ الأعْلَى، فَنَظَرَ، فَرَآهُ. وفي بعضِ الأخبارِ: أنكَ لا تَقدِرُ أنْ تَراني في صورتي، ولكنِ انْظُرْ إلى الأُفُقِ الأعْلَى ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ النظرِ إلى الأفقِ الأعْلَى لِما أنَّ بَصَرَهُ كانَ لا يَحْتَمِلُ النَّظَرَ إليهِ مِنْ قُرْبٍ؛ ويَحْتَمِلُ ذلكَ مِنَ البُعْدِ، وذلكَ معروفٌ في ما بَيْنَ الخَلْقِ أنَّ الشيءَ إذا كانَ لهُ شُعاعٌ أو نورٌ أو بَياضٌ شديدٌ فإنَّ البَصَرَ لا يَحْتَمِلُ النَّظَرَ إليهِ مِنَ القُرْبِ في أوَّلِ مُلاقاتِهِ، ويَحْتَمِلُ إذا كانَ يَبْعُدُ منهُ.

الآية ٨ وعلى هذا قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ يَحتَمِلُ دنا منهُ جبرائيلُ ﷺ شيئاً بَعْدَ شيءٍ، وقَرُبَ منهُ، كذلكَ يَحْتَمِلُهُ؛ إذْ جُبِلَ الإنسانُ على طبيعةٍ تَحْتَمِلُ الأشياءَ إذا انْتَهَتْ إليهِ على التَّفاريقِ ما لو أتَتْهُ بِدفعَةٍ واحدةٍ في وقْتٍ واحدٍ لَما احْتَمَلَها[٣]؛ كالحَرِّ يأتي الخَلْقَ بَعْدَ شِدَّةِ البَرْدِ شيئاً فَشَيئاً، وكذلكَ البَرْدُ بَعْدَ شِدَّةِ الحَرِّ شيئاً فَشيئاً حتى يَشْتَدَّ ما لو أتَيا بِدَفْعَةٍ واحدةٍ [لَمَا احْتَمَلَهُما][٤].

[فَعَلَى ذلكَ جائزٌ ألّا يَحْتَمِلَ البَصَرُ رُؤْيَةَ الشيءِ بِدَفْعَةٍ واحدةٍ][٥] إذا كانَ قريباً منهُ، ويَحْتَمِلُهُ مِنَ البُعْدِ، ثم يَقْرُبُ، ويَدْنو قليلاً قليلاً، حتى يَحْتَمِلَهُ مِنَ القُرْبِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، أي تَدَلَّى، فَدَنا، لأنهُ يكونُ التَّدَلِّي أوّلاً ثم الدُّنُوُّ منهُ.

ومنهمْ منْ قالَ: بل هو على ما قالَ، وهما سَواءٌ؛ أعني: التَّدَلِّي والدُّنُوُّ بِمَنْزِلَةِ القُرْبِ[٦]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: القابُ هو صدرُ القَوسِ أي كانَ قَدْرَ صَدْرِ القَوسِ مِنَ الوَتَرِ مَرَّتَينِ، وقالَ بعضُهُمْ: أي قَدْرَ قَوسَينِ حَقيقةً.

---

(١) في الأصل وم: رأى. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ادرج بعدها في الأصل وم: كالأنفس. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ادرج بعدها في الأصل وم: والدنو.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿قَابَ﴾ قَدْرَ ﴿قَوْسَيْنِ﴾ عَرَبيَّتَينِ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: القابُ قَدْرُ الطُّولِ، وقيلَ: القَوسُ الذراعُ ههنا، أي كانَ قَدْرُ ما بَينَهما ذِراعَينِ؛ قالَ: والأوَّلُ [أقْرَبُ إليَّ لِما][1] رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: «لَقابُ قوسِ أحدِكُم مِنَ الجنةِ أو مَوضِعُ قَدِّهِ خَيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها» [البخاري ٢٧٩٦] والقِدُّ السَّوطُ.

فنقولُ: أيُّ الوجوهِ كانَ ففيهِ دليلٌ أنهُ لم يكنْ جبرائيلُ ﷺ يَبْعُدُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ بحيثُ لا يُحيطُ بهِ لأنَّ الشَّيءَ إذا بَعُدَ عنِ البَصَرِ يَعرِفُهُ بالاجتِهادِ، ولا يُدرِكُهُ حقيقةً، وكذلكَ إذا قَرُبَ منهُ حتى إذا ماسَّهُ، والتَصَقَ بهِ، قَصُرَ البَصَرُ عنْ إدراكِهِ، وإذا كانَ بَينَ البُعْدِ والقُرْبِ أحاطَ بهِ، وأدركَهُ، فَيُخْبِرُ اللهُ تعالى أنهُ أحاطَ بهِ عِلْماً، وأدركَهُ حَقيقةً، لا أنْ كانَتْ مَعْرِفَتُهُ إياهُ بطريقِ الاجتِهادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: حَرْفُ أو حَرْفُ شَكٍّ. وذلكَ غَيرُ مُحتَمَلٍ مِنَ اللهِ تعالى، ولكنَّ مَعْناهُ على الإيجابِ، أي بل أدنَى.

وقالَ بعضُهُم: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ في اجتِهادِكُم وَوَهْمِكُم، لو نَظَرْتُم إليهما لَقُلتُم: إنهما بالقُرْبِ والدُّنُوِّ قَدْرُ قوسَينِ أو أدنَى.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، أي فأوْحَى جبرائيلُ ما أوحَى إليهِ إلى محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ ﷺ.

والثاني / ٥٣٦ ـ أ / : فأوْحَى اللهُ، جَلَّ، وعَلا، إلى عبدِهِ جبرائيلَ ما أوحَى هو إلى محمدٍ ﷺ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ قُرِئَ ﴿كَذَبَ﴾ مُخَفَّفَ الذالِ ومُشَدَّدَهُ[3]. فَمَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ، أي ما كَذَبَ عبدُهُ في ما رَأى، وقالَ أبو عُبَيدٍ: ما كَذَبَ في رُؤيَتِهُ أي رُؤيَتُهُ قد صَدَقَتْ.

ومنْ قَرَأَ بالتَّشديدِ أي لم يَجْعَلِ الفؤادُ رُؤيَةَ العَينِ كَذِباً.

وعندَنا أي ما رَدَّ الفؤادُ ما رَأى البَصَرُ. وأصلُهُ أنَّ الفؤادَ مِمّا يُوعَى بهِ يكونُ[4] قد وَعَى بهِ، يقولُ: وَعَى ما رَأى، لم يَتْرُكْهُ، ولم يُضَيِّعْهُ. وقيلَ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي ما عَلِمَ. والرُّؤيةُ كنايةٌ عنِ العِلْمِ. لكنْ لو كانَ المُرادُ منهُ العِلْمَ لا يُحتَمَلُ ما ذُكِرَ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [الآية: ١٣] ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يُعَلَّمَ مَرَّتَينِ، وقد[5] ذُكِرَ أنهُ رأى ربَّهُ مَرَّتَينِ، ولا يَحْتَمِلُ العِلْمُ مَرَّتَينِ. فَدَلَّ أنَّ الحَمْلَ على العِلْمِ لا يَصِحُّ.

وأصلُهُ عندنا: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ مِنَ الآياتِ. دليلُهُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الآية: ١٨] وقالَ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [الآية: ١٣].

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ قالَ:][6] رأى عَظَمَةً مِنْ عَظَماتِ[7] اللهِ وأمراً مِنْ أمورِهِ[8]، وعنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: رَأى جبرائيلَ ﷺ على صورَتِهِ مَرَّتَينِ، أي ما كَذَبَ ما رَأى البَصَرُ جبرائيلَ ﷺ ولقد رآهُ أيضاً مَرَّةً أُخرَى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [الآية: ١٤].

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ رأى ربَّهُ على العِيانِ بِعَينِهِ، فهو خِلافُ ما ثَبَتَ مِنْ وَعْدِ الرُّؤيةِ في الآخِرَةِ بالكِتابِ والسُّنَّةِ المُتَواتِرَةِ، ولأنهُ لو رَأى ربَّهُ تعالى على ما قالوا لَكانَ لا يَحتاجُ إلى أنْ يَرَى آياتِهِ الكُبْرَى [الآية: ١٨] لأنَّ رؤيةَ الآياتِ إنما يُحتاجُ إليها عندَما يُعرَفُ الشيءُ عندَ الاجتِهادِ.

فأمّا عندَ المُشاهدةِ وارْتِفاعِ المَوانِعِ فلا حاجةَ يَقَعُ إليها إلّا أنْ يُقالَ بِرُؤيةِ القَلْبِ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ أنهُ سُئِلَ عنْ ذلكَ، فَقيلَ: «هل رأيتَ ربَّكَ؟ فقالَ: رأيتُهُ مَرَّتَينِ بِقَلبي». وفي بعضِ الأخبارِ [أنهُ][9] قالَ: «أمّا بِعَيني فلا، وأمّا بِفؤادي فقد رأيتُهُ مَرَّتَينِ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٦٤٨] ويُفَسِّرونَ رُؤيةَ القَلْبِ بالعِلْمِ، ولكنَّ الإشكالِ عليهِ ما ذَكَرْنا. فإنْ

---

(١) في الأصل: أعجب إلي، في م: اعجب إلي. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٩. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) في الأصل وم: وكذا. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: عظمة. (٨) في الأصل وم: أمره. (٩) في الأصل وم: وارد.

ثَبَتَ الحديثُ فهو على ما كانَ وارداً، لا يُفَسِّرُهُ ذلكَ. وكذلكَ قولُ مَنْ يقولُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [الآيتان: ٨ و٩]: إنهُ دنا مِنْ ربِّهِ قولٌ وَحْشٌ، فيهِ إثباتُ المكانِ والتَّشبيهِ، تعالى اللهُ عنْ ذلكَ.

ولكنَّ المُرادَ ما ذكَرْنا أنَّ رسولَ اللهِ تعالى دنا مِنْ جبرائيلَ ﷺ على ما ذَكَرْنا.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [الآية: ١١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [الآيتان: ١٣ و ١٤] إلى آخِرِهِ ذِكْرُ خُصوصيَّةِ رسولِنا ﷺ مِنْ بَينِ غَيرِهِ مِنَ الخلائِقِ: منها رُؤْيةُ جبرائيلَ ﷺ على صورتِهِ، ورُؤْيةُ الرَّبِّ تعالى بِقَلْبِهِ، إنْ ثَبَتَ الحديثُ عنهُ: وبُلوغُهُ سِدْرَةَ المُنْتَهى، إذْ لم يُذْكَرْ لأحدٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ تعالى أنه بَلَغَ هذا المَبْلَغَ سِواهُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وابْنِ عباسٍ ﷺ أنهما قَرَآ: [أَفَتَمْرونَهُ][1] مَفْتوحةَ التاءِ بِغَيرِ أَلِفٍ. ومَعْناهُ: أفتَجْحَدونَهُ؟ وعنِ الحَسَنِ بالألِفِ مَضمومةَ التاءِ، وقالَ: مَعْناهُ: أفَتُجادِلونَهُ؟ وعَنْ شُرَيحٍ مِثْلُهُ.

قالَ أبو عُبَيدٍ: بالأولَى أنْ يُقْرَأَ بمعنَى الجُحودِ؛ وذلكَ أنَّ المُشْرِكينَ إنما كانَ شأنُهُمُ الجُحودَ في ما يَأتيهِمْ مِنَ الخَبَرِ السَّماوِيِّ، وهو أكْبَرُ مِنَ المُماراةِ والمُجادَلَةِ.

وقيلَ: أفَتَمْرونَهُ؟ أي أتُشَكِّكُونَهُ على ما يَرَى؟

وقالَ أبو بكْرٍ الأصَمُّ: لا تَصِحُّ القراءةُ بِغَيرِ ألفٍ، ولا تأويلُهُ؛ إنما القراءةُ بالألِفِ، وتأويلُهُ: أفَتُجادِلونَهُ؟ ونحنُ نقولُ: إنَّ تأويلَ ما ذُكِرَ مِنَ الجحودِ والقرآنِ صحيحٌ، وتأويلَ مَنْ قالَ: أفَتُجادِلونَهُ على ما يَرَى؟ لا يُحْتَمَلُ، لأنَّ مُجادَلَتَهُمْ لا تكونُ في ما يَرَى، لكنْ يُجادِلونَهُ على ما يُخْبِرُ أنهُ يَرَى[2]؛ إذْ في الخَبَرِ يَقَعُ التَّكْذيبُ، وبِهِ يُجادِلونَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فهو على ما ذَكَرْنا مِنِ اخْتِلافِ الناسِ أنَّ ما أيش هو؟ والله أعلمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ قيلَ: سَمَّى ذلكَ المَوضِعَ سِدْرَةً لِما انْتَهَى إليهِ عِلْمُ الخَلْقِ، فلا يُجاوِزُهُ، وقيلَ: لِما انْتَهَى إليهِ كراماتُ الخَلْقِ، لا تَتَجاوَزُ كراماتُهُمْ عنها، وقيلَ: السِّدْرَةُ الشجرةُ، ويَرْوُونَ في ذلكَ خَبَراً مَرْفوعاً عنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][3] قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رأيتُ جبرائيلَ ﷺ عندَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى، عليهِ كذا كذا مِنْ جَناحٍ» [السيوطي في الدر المنثور ٧/٦٤٩] وقيلَ: سُمِّيَتْ سِدْرَةَ المُنْتَهَى لِما تَنْتَهي إليها أرواحُ الشهداءِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ رَأى جبرائيلَ ﷺ أوّلاً عندَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى مِنَ الأرضِ إمّا بِرَفْعِ الحُجُب عنهُ وإمّا بزيادةِ قُوَّةٍ وضِعَتْ في بَصَرِهِ، ثم رآهُ مَرَّةً أُخرَى هنالكَ أيضاً بَعْدَ ما رُفِعَ ﷺ إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ قُرِئَتْ بِنَصْبِ الجيمِ وخَفْضِهِ:

رُوِيَ أنهُ قيلَ لِسَعْدِ بْنِ أبي وقّاصٍ ﷺ: إنّ فلاناً يَقْرَأُ بالخَفْضِ: عندَها جِنَّةُ المَأوَى، فقالَ سَعْدٌ: ما كذا جَنَّةُ اللهِ، وقَرَأَ بالفتحِ.

وعنِ الأعْمَشِ [أنهُ][4] قالَ: قالَتْ [عائشةُ ﷺ:][5] مَنْ قَرَأَ: جَنَّهُ المَأْوَى [يريدُ جَنَّ عليهِ][6] فأجَنَّهُ اللهُ.

وعنْ أبي العاليةِ [أنهُ][7] قالَ: سَألَني عنها ابْنُ عباسٍ ﷺ فقالَ لي: كيفَ تَقْرَؤُها يا أبا العاليةِ؟ فَقُلْتُ: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ بِفَتْحِ الجيمِ، فقالَ: صَدَقْتَ، وهي مِثْلُ الأُخْرَى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [السجدة: ١٩].

وعَنِ الحَسَنِ أنهُ قَرَأَ: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وقالَ: إنها مِنَ الجَنّاتِ، وتَصْديقُها حديثُ الإسراءِ أنهُ أُرِيَ الجَنَّةَ، وأُدْخِلَها. قالَ: ودلَّتِ الآيةُ أنَّ الجنةَ التي يَأْوي إليها المؤمنونَ في السماءِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٩و١٠. (٢) من م: في الأصل: جرى. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) و(٦) من المحتسب ح٢/ ٢٩٣، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١١، ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: يَغشاها فِراشٌ مِنْ ذهبٍ، وكذا ذُكِرَ في خَبَرٍ مرفوعٍ: «رأيتُها يَغْشاها فِراشٌ مِنْ ذهبٍ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٥٥] ولكنْ لا يُفَسَّرُ ما الذي يَغْشى السِّدْرَةَ، بل يُبْهِمُ كما يُبْهِمُ اللهُ تعالى [فما يُفَسَّرُ][1] إلّا بحديثٍ ثَبَتَ عنْ تُواتُرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ مِنْ أمْرِ اللهِ، ويَرْوُونَ خَبَراً عنْ أنَسِ بْنِ مالكٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لمّا انْتَهيتُ إلى السِّدْرةِ رأيتُ وَرَقَها أمثالَ آذانِ الفِيَلَةِ، ورأيتُ نَبْقَها أمثالَ القِلالِ، فلمّا غَشِيَها مِنْ أمْرِ اللهِ ما غَشِيَها تَحَوَّلَتْ ياقوتاً وزُمُرُّداً» [أحمد ٣/ ١٢٨] إنْ ثَبَتَ هذا الخَبَرُ ففيهِ دليلٌ أنَّ السِّدْرةَ شجرةٌ؛ إذْ ذَكَرَ وَرَقَها، وفيهِ أنَّ الذي يَغْشاها أمرُ اللهِ تعالى.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما إذْ تَغْشَى الملائكةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قالَ أبو بكرٍ: أي ما قَصَرَ البَصَرُ عنِ الحَدِّ الذي أُمِرَ، وجُعِلَ لهُ ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما جاوزَ عنهُ، أو كلامٌ [نَحْوُهُ][2].

ويَحْتَمِلُ: ﴿مَا زَاغَ﴾ أي ما مالَ، وما عَدَلَ يَميناً وشِمالاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما جاوَزَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي ما مالَ ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ مِنَ الارْتِفاعِ، طَغَى الماءُ إذا ارْتَفَعَ يَطْغَى طُغْياناً.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ آياتُ ربِّهِ التي ذَكَرَ أنهُ رَأى جبرائيلَ عليه السلام حينَ[3] رآهُ بصورتِهِ. وكذلكَ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه أنهُ رآهُ بصورتِهِ مرتَينِ[4]. ويَحْتَمِلُ غيرَها[5] مِنَ الآياتِ، ولكنْ لا يُفَسِّرُها، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٩ و٢٠ و٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ يُخرَّجُ تأويلُ[6] [هذا القولِ] على وجوهٍ، وإلّا ليسَ في هذا المَوضعِ لظاهرِ قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ جوابٌ، ولا لِقولِهِ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [الآية: ٢١].

أحدُها: أنْ يقولَ: أهؤلاءِ الذينَ تَعْبُدونَهُمْ مِنَ اللاتِ والعُزّى ومَناةَ أخْبَروكُمْ، وقالوا لكمْ: إنهُ اصْطَفَى لنفسِهِ البناتِ ولكمُ البَنينَ، وإنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ ونَحْوَهُ. أَأَخَذْتُمْ ذلكَ منها؟ أو مِمَّنْ أخَذْتُمْ ذلكَ؟ وأنتمْ قومٌ لا تؤمنونَ بالرسلِ والكتبِ، وقد عَرَفوا أنها لم تُخبِرْهُمْ بذلك، [فَيُذكَرُ][7] بذلكَ سَفَهَهُمْ.

[والثاني: أنْ][8] يقولَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ/ ٥٣٦ ـ ب/ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ التي سَمَّيتُموها آلهةً، وعَبَدْتُموها دونَ اللهِ، ونَسَبْتُمُ البناتِ إليهِ والبنينَ إلى أنفُسِكُمْ. ثم لم يَذْكُرْ جوابَها: أنهُ مَنْ أمَرَهُمْ بذلكَ؟ ومَنِ اخْتارَ لهمْ ذلكَ؟ أو مِمَّنْ أخَذوا ذلكَ؟

ثم قولُهُ[9] تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ الآية [٢٣] كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ إنما سمَّيْتُموها آلهةً، واخْتَرْتُمُ البَنينَ، ولَهُ البناتِ بلا سُلْطانٍ ولا حُجَّةٍ لكمْ؛ إنما هي أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتمْ وآباؤُكُمْ بلا حُجَّةٍ ولا سُلْطانٍ، إنما هو هَوَى النَّفْسِ، والظَّنُّ.

[والثالث][10]: يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أأمَرَتْكُمْ[11] بِصَرْفِ شُكْرِ ما أنْعَمَ اللهُ تعالى عليكُمْ وقَبولِ ما وَهَبَ لكمْ مِنَ البناتِ على ما أخْبَرَ أنهما مِنْ مَواهِبِ اللهِ تعالى بقولِهِ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] وبِرَدِّ مَواهِبِهِ ودَفْنِها حَيّاتٍ ودَسِّها في التراب وبِصَرْفِ العبادةِ إلى غيرِ المُنْعِمِ وقِسْمَةِ البَنينَ لأنفسِكُمْ والبَناتِ لهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وتأويل الآية. (٥) في الأصل وم: غيره. (٦) في الأصل وم: هذه الآية. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: أمركم.

الآية ٢٢ ثم قولُهُ[1] تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي تلكَ قِسْمَةُ جَورٍ وظُلْمٍ، أي صَرْفُ شُكْرِ المُنْعِمِ إلى غَيرِ المُنْعِمِ وتوجيهُ العبادةِ [إلى][2] مَنْ لا يَستَحِقُّهُ وَرَدُّ مواهبِهِ. على هذهِ الوجوهِ يُشْبِهُ أنْ تُخَرَّجَ الآيةُ، وإلّا فلا يُدْرَى ظاهرُها؟وما تأويلُها؟ وما جوابُ هذا الحرفِ؟ اللهُ أعلمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّٰتَ﴾ قَرَأَ مُجاهدٌ [وغيرُهُ][3] مُشَدَّدَ التاءِ، فقالوا: هو رجلٌ كانَ يقومُ على آلهتِهِمْ، ويَلُتُّ لها السَّويقَ بالزيتِ، فَيُطْعِمُهُ الناسَ. وروَى أبو[4] الجوزاءِ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: كانَ يَلُتُّ السَّويقَ للحاجِّ.

ومَنْ قَرَأَ مُخَفَّفَ التاءِ جَعَلوهُ اسْمَ الصَّنَمِ مثلَ العُزَّى ومَناةَ، وهي آلهةٌ كانوا يَعْبُدونَها.

ذَكَرَ قَتادةُ في تفسيرِهِ: كانَ اللّاتُ بالطائفِ، والعُزَّى بِبَطْنِ نَخْلَةَ، ومَناةُ بِقُدَيدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: هي في الأصلِ: ضُيزَى على وَزْنِ فُعْلَى، فَكُسِرَتِ الضادُ للياءِ، وليسَ في النعوتِ فِعْلَى، أي قِسْمَةٌ جائرةٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ أي غَيرُ مُنْصِفةٍ، والضَّأزُ في الأصلِ: الجَورُ، وقالَ أبو عُبَيدةَ: ناقصةٌ.

وقالَ بعضُ الناسِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لمّا[6] تَلا قولَهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ألْقَى الشيطانُ على لسانِهِ: تلكَ الغَرانيقُ العُلا، شَفاعَتُهُنَّ تُرْتَجَى، ومِثْلُهُنَّ لا يُنْسَى، ثم قالَ بعضُهُمْ: الغَرانيقُ العُلا الملائكةُ، وقالَ بعضُهُمْ: الأصنامُ التي يَعْبُدونها على رَجاءِ الشَّفاعةِ لهمْ بقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

لكنْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولَ النَّبِيُّ ﷺ أو يُجْرِيَ على لسانِهِ ما ذَكَروا، واللهُ تعالى قالَ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ إلى ٤٦] ولو جازَ أنْ يُجْرِيَ على لسانِهِ لَتُوُهِّمَ منهُ التَّقَوُّلُ، وذلكَ بعيدٌ. وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ولو جازَ ذلكَ لَجازَ أنْ يُجْرِيَ اللهُ الكَذِبَ على لسانِهِ، فلا يكونُ في مَنْ وَجَدَ مِنَ الحَرَجِ في قضائِهِ ما ذَكَروا، وهو الكُفْرُ. دَلَّ أنَّ ما ذَكَروهُ فاسدٌ. ولو ثَبَتَ ما ذُكِرَ أنهُ جَرَى على لسانِهِ تلكَ الكلماتُ، أو ألْقَى الشيطانُ في فَمِهِ؛ يريدُ بذلكَ الغرانيقَ العُلا، شفاعتُهُنَّ تُرْتَجَى عندَهُمْ وفي زَعْمِهِمْ، وهو كقولِ موسى ﷺ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] أي إلٰهِكَ الذي هو عندَكَ إلهٌ، وإلّا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ موسى ﷺ يُسَمّي العِجلَ إلهاً، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] أي إلى [الآلهةِ التي][7] عندَهُمْ وقولِهِ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢و٧٤] أنها شُرَكائي؛ فقد ذَكَرْنا هذا على التَّمامِ في سورةِ الحجِّ وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآيةَ [الحج: ٥٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما أنْزَلَ اللهُ على تَسْمِيَتِكُمْ الأصنامَ وعبادتِكُمْ إياها ونِسْبَتِكُمُ البَنينَ إلى أنفسِكُمْ والبناتِ إلى اللهِ تعالى مِنْ حُجَّةٍ وبرهانٍ، إنما هو هَوَى النفسِ والظَّنُّ.

وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في قولِهِمْ: الملائكةُ بناتُ اللهِ أو قولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وتَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ آلهةً ظَنّوا أنَّ آباءَهُمْ كانوا على الحَقِّ، واسْتَدَلّوا على حقيقةِ ما كانوا عليهِ مِنَ الدينِ حينَ[8] تَرَكَهُمْ وما اختاروا، ولم يُهْلِكْهُمْ، وقالوا: لو كانوا على باطلٍ ما تَرَكَهُمْ على ذلكَ. واسْتَدَلّوا بذلكَ أيضاً على رِضاهُ منهم بذلكَ وأمْرِهِ إياهُمْ كما أخْبَرَ عنهُمْ بقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]. هذا ظَنُّهُمْ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي يَتَّبِعونَ هَوَى النَّفْسِ؛ فالنفسُ إنما[9] تَعْرِفُ المَنافِعَ الحاضرةَ والمَضارَّ

(١) في الأصل وم: أخبر وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل، انظر مختصر من شواذ القرآن /١٤٧. (٤) في الأصل وم: ابن. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ثم. (٧) في الأصل وم: آلهة. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ما.

الحاضرة؛ فأمّا [ما][1] غابَ عنها فلا تَعْرِفُ، وإنما تَعْرِفُ ذلكَ بالتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ، وهي لا تَعْرِفُ لِما تَكْرَهُ النَّظَر والتَّفَكُّرَ، ولا تَرْغَبُ في الشدائدِ ولا في ما يَثْقُلُ عليها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي جاءَهُمْ مِنْ ربِّهِمْ لو تَفَكَّروا، لَاهْتَدَوا، ولَوِ اتَّبَعوا الحقَّ والهُدَى لَعَرفوهُ.

الآية ٢٤ وقولُه تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي للإنسانِ ما تَمَنَّى. ثم يَحْتَمِلُ تَمَنِّيهِمْ شفاعةَ ما عَبَدوا أو ما اختاروا مِنَ البَنِينَ لأنفسِهِمْ والبَناتِ للهِ تعالى أو ما سَمَّوا، واتَّخذوا الأصنامَ آلِهةً، وما ظَنُّوا على اللهِ، وادَّعَوا أمْرَهُ ورضاهُ في فِعْلِهِمْ وغَيرِ ذلكَ ممّا كانوا يَتَمَنَّونَ.

يقولُ: ليسَ للإنسانِ ما تَمَنَّى أنْ يكونَ لهُ، إنما يكونُ لهُ[ما][2] يَجْعَلُ اللهُ الذي لهُ في الدنيا والآخِرَةِ.

الآية ٢٥ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

الآية ٢٦ وقولُـهُ تـعـالـى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي كَمْ مِنْ مَلَكٍ، لهُ شفاعَتُهُ، وإنْ يَشْفَعُ إلّا لِمَنْ ذَكَرَ.

والثاني: أي كَمْ مِنْ مَلَكٍ في السموات، لا شَفاعةَ لهُ، ولا يَشْفَعُ إلّا لِمَنْ يَشاءُ اللهُ، ويَرْضَى أنْ يَشْفَعَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي ليسَتْ لهمْ شفاعةٌ، تَنْفَعُ لهمْ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: إنما يَشْفَعونَ في الآخِرَةِ لِمَنْ شَفَعوا في الدنيا، واسْتَغْفَروا لهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآية [غافر: ٧] وقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨] وقد ذَكَرْنا[3] في ما تَقَدَّمَ الوجهَ في ذلكَ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ وإنما يُسَمّي ذلكَ قومٌ، وقد أضافَ ذلكَ إلى الكُلِّ في الظاهرِ لأنَّ الذينَ يُسَمُّونَ الملائكةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى [جماعةٌ، فكانَ مَعْناهُ: إنَّ جماعةً مِنَ الذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ يُسَمُّونَ الملائكةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى][4] واللهُ أعلَمُ.

ويَجوزُ أنْ يُذْكَرَ الكُلُّ، ويُرادَ بهِ البعضُ في اللغةِ، ومِثْلُهُ في القرآنِ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لَهُمْ بما يُسَمُّونَ الملائكةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى مِنْ عِلْمٍ، لأنَّ العِلْمَ بِمَعْرِفَةِ الأُنثى مِنَ الذَّكَرِ بطريقَينِ:

أحَدُهما: المُشاهدةُ: [يُشاهَدُ][5] ويُعايَنُ، فَتُعْرَفُ الأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ، وهمْ لم يُشاهدوا الملائكةَ، فكيفَ يَعْرِفونَ ذلكَ؟.

والثاني: خَبَرُ الرسولِ المُؤَيَّدُ بالمُعْجِزَةِ، وهؤلاءِ قومٌ لا يؤمِنونَ بالرسلِ، ولا يَعْرِفونَ[6] بالاسْتِدْلالِ طُرُقَ العِلْمِ الثلاثةَ التي ذَكَرْنا.

فإذَنْ كانَ حَصَلَ قولُهُمْ بلا عِلْمٍ، ولكنْ على الظَّنِّ، وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣] أي ما يَتَّبِعونَ في قولِهِمُ الذي قالوا إلّا الظَّنَّ، ووجهُ ظَنِّهِمْ ما ذَكَرْنا.

ثم أخْبَرَ أنَّ ظَنَّهُمْ ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ذكر. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يعرف.

أحدُهما: أنَّ الظَّنَّ الذي /٥٣٧ ـ أ/ ظَنُّوا لا يَدْفَعُ عنهمْ ما عليهِمْ مِنِ اتِّباعِ الحَقِّ ولُزومِهِ.

والثاني: أنَّ ظَنَّهُمُ الذي ظَنُّوا في الدنيا لا يَدْفَعُ عنهمْ ما لَزِمَهُمْ مِنَ العذابِ في الآخِرةِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: على تَرْكِ مُكافأتِهِمْ، أي [لا][1] تُكافِئْهُمْ لِصَنيعِهِمْ وأذاهُمْ.

والثاني: يُخَرَّجُ على الإياسِ لهُ مِنْ إيمانِهِمْ، أي لا تَشْتَغِلْ بهِمْ، فإنهمْ لا يؤمِنونَ أبداً؛ فهو في قومٍ خاصٍّ؛ عَلِمَ اللهُ ﷻ أنهمْ لا يؤمِنونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ أنهمْ كانوا لا يؤمِنونَ بالآخِرَةِ، فلمْ يُريدوا بِحَسناتِهِمُ التي فَعَلوا إلّا الحياةَ الدنيا، لأنهمْ كانوا يَتَصَدَّقونَ، ويَصلونَ الأرحامَ، لكنْ [لم يُريدوا بذلكَ][2] إلّا ما ذُكِرَ في الحياةِ الدنيا. وجائزٌ أنْ تكونَ الإرادةُ ههنا كِنايةً عنِ العَمَلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لم يَعْمَلْ للآخِرَةِ رأساً؛ يُخْبِرُ عنهُمْ أنهمْ يَعْمَلونَ للدنيا لا لِلآخِرَةِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآيةَ[الإسراء: ١٩] ونَحْوُ ذلكَ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالّا يؤمِنوا بالآخِرَةِ، ولا يَعْمَلوا لها. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي ذلكَ مَبْلَغُ رأيِهِمْ أنَّ الملائكةَ بناتُ[3] اللهِ، وأنها تَشْفَعُ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فَيَجْزيهِ جزاءَ ضَلالِهِ في الآخِرَةِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فَيَجْزيهِ جزاءَ الهُدَى، واللهُ أعلم.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو غَنِيٌّ عن عبادَتِكُمْ، وإنما يأمُرُكُمْ، لِيَجْزِيَكُمْ بأعمالِكُمْ لا لِمَنافِعَ تَرْجِعُ إليهِ.

والثاني: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنما أنشأَ أهلَ السمواتِ والأرضِ لِيَمْتَحِنَهُمْ بالأمْرِ والنَّهْيِ، ثم لِيَجْزِيَ الذينَ أساؤوا جَزاءَ الإساءةِ والذينَ أحْسَنوا جَزاءَ الإحسانِ.

ولو كان على ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ: أنْ لا بَعْثَ، ولا جزاءَ، لَكانَ خَلْقُهُمْ وخَلْقُ ما ذَكَرَ عَبَثاً باطلاً. وفي الحكمةِ التفريقُ بينَ المُسيءِ والمُحْسِنِ، وفي الدنيا تَحَقَّقَتِ التَّسْوِيَةُ بيْنَهما، فَدَلَّ ذلكَ على دارٍ أُخْرَى، يُفَرِّقُ بَيْنَهما فيها.

ثم يَحْتَمِلُ جزاءُ إساءةِ أولئكَ في الدنيا والآخِرَةِ: في الدنيا القَهْرُ والدَّبْرَةُ والهزيمةُ، وفي الآخِرَةِ النارُ، وجَزاءُ المُحْسِنِ في الدنيا النَّصْرُ والظَّفَرُ، وفي الآخِرَةِ الجنةُ.

الآية ٣٢ ثم نَعَتَ ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ وهو التوحيدُ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ ثم يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الكبائرُ ما يَعْرِفُها كلُّ أحَدٍ أنها [كبيرةٌ والفواحشُ[4] ما يَعْرِفُها كلُّ أحدٍ أنها][5] فاحشةٌ، واللَّمَمُ على هذا يَجيءُ أنْ تكونَ [مِنْ][6] تلكَ الكبائرِ والفواحشِ لأنهُ اسْتَثْناها [منها][7] فَيَجِبُ أنْ تكونَ مِنْ جِنْسِها، لكنهُ اسْتَثْناها، وعَفا عنها، لِما يَقَعونَ فيها عَنْ غَفْلَةٍ وسَهْوٍ أو عَنْ غَلَبَةِ شَهْوَةٍ ونَحْوِها، وهو الأشْبَهُ بتأويلِ الآيةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: يريدوا إلا ذلك. (٣) في الأصل وم: آيات. (٤) في م: والفاحشة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم الملكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم الملكي، ساقطة من الأصل وم.

وقال أهلُ التأويلِ: الكبائرُ والفواحشُ هي التي ذُكِرَ لها الحدُّ في الدنيا والعقوبةُ في الآخِرَةِ، واللَّمَمُ [هي][1] التي لم يُذكَرْ لها حَدٌّ ولا عقوبةٌ في الآخِرَةِ.

وعنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: «زِنَى العَينِ النَّظَرُ، وزِنَى الشَّفَتَينِ التَّقبيلُ، وزِنَى اليَدينِ البَطْشُ، وزِنَى الرجلَينِ المَشيُ، ويُصَدِّقُ ذلك ويُكَذِّبُهُ الفَرجُ، فإنْ تَقَدَّمَ فهو زِنًى، وإلّا فهو اللَّمَمُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٦٥] وفي روايةٍ: «إنْ تَقَدَّمَ كانَ زِنًى، وإنْ تأخَّرَ كانَ لَمَماً».

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: ما رأيتُ باللَّمَمِ ممّا قالَ أبو هُرَيرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ على ابْنِ آدمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى، أدْرَكَ ذلكَ، لا مَحالةَ، فزِنَى العَينَينِ النَّظَرُ، وزِنَى اللسانِ النُّطْقُ، والنفسُ تَتَمَنَّى، وتَشتَهي، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ، أو يُكَذِّبُهُ» [مسلم ٢٦٥٧/ ٢١].

وعنْ أبي هُرَيرَةَ أنهُ [قالَ: «هي][3] النَّظْرَةُ والغَمْزَةُ والقُبْلَةُ والمُباشَرَةُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٧/ ٦٦] وعنهُ [أنهُ قالَ:][4] «إنَّ اللَّمَمَ النِّكاحُ» [الطبري ٢٧/ ٦٧] وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: «اللَّمَمُ لَمَمُ الجاهليةِ» [الطبري ٢٧/ ٦٤] [وهو قولُهُ][5] تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ:][6] «هو أنْ يَلُمَّ المَرَّةَ» [الطبري ٢٧/ ٦٧]. وقيلَ: اللَّمَمُ بالخَطيئةِ مِنْ جِهةِ حديثِ النفسِ شيئاً مِنْ غَيرِ عَزْمٍ. وقيلَ: إنَّ اللَّمَمَ هو مُقارَبَةُ الشيءِ مِنْ غَيرِ دخولٍ فيهِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يقولُ:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمّاً ... وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمّا[8]؟

[الترمذي ٣٢٨٤] وقيلَ: اللَّمَمُ: الصغيرُ مِنَ الذنوبِ لِقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [النساء: ٣١].

وقالَ القُتَبيُّ: اللَّمَمُ الصغائرُ مِنَ الذنوبِ، وهي مِنْ ألَمَّ بالشيءِ إذا لم يَتَعَمَّقْ فيهِ، ولم يَلْزَمْهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: اللَّمَمُ ما بَينَ الحَدَّينِ: حَدُّ الدنيا وحَدُّ الآخِرَةِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وذلكَ يَحْتَمِلُ، والأوَّلُ أقْرَبُ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: اللَّمَمُ التي يَتوبُ عنها؛ فإنهمْ إنْ تابوا عنها يَتَجاوَزُ عنهمْ، فهو يَجْعَلُ اللَّمَمَ مِنْ تلكَ الكبائرِ والفواحشِ، لكنهُ يقولُ: إنما استَثْنى لِما يَتوبُ عنها، لِما يقعونَ فيها على السَّهْوِ والغَفْلَةِ أو لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ على حُسْنِ الظَّنِّ بربِّهِ، فَيَغْفِرُ لهُ، أو يَتوبُ عنها، فَيَعْفو عنها.

وعلى تأويلِ أهلِ التأويلِ: اللَّمَمُ ما دونَ الكبائرِ والفواحشِ [وجائزٌ أنْ تكونَ الكبائرُ والفواحشُ][9] التي ذَكَرَ كبائرَ الشِّرْكِ وفواحِشَهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] فتكونُ اللَّمَمُ على هذا ما دونَ الشِّرْكِ، فهي في مشيئةِ اللهِ تعالى إنْ شاءَ عَفا عنها، وإنْ شاءَ عَذَّبَ عليها كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ اي هو أعلَمُ بكمْ وبأحوالِكُمْ ووقوعِكُمْ فيها على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، عَفَا عنكمْ أي عنِ اللَّمَمِ.

وعلى قولِ أبي بكرٍ: إنَّ ربَّكَ واسِعُ المَغْفِرَةِ لِمَنْ تابَ عنها، وهو أعلَمُ بكُمْ بأنكمْ تتوبونَ عنها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كقوله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) اضطربت نسبة هذا البيت بين أبي خراش الهذلي وبين أمية بن أبي الصلت، انظر ديوان ابن أبي الصلت ص/ ١٦١ و/ ٤٩١. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وعندنا ما ذَكَرَ: هو واسعُ المَغْفِرَةِ لِمَنْ شاءَ تابَ عنها، أو لم يَتُبْ. ثم إنْ كانتِ المَغْفِرَةُ هي السِّتْرَ، فهي تَعُمُّ المؤمِنَ والكافرَ في الدنيا، وإنْ كانتِ التَّجاوُزَ فهي للمؤمِنينَ خاصّةً، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ عندَنا هو أعلَمُ بكمْ بأنكمْ تَعْمَلونَ، وتَقَعونَ فيها على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، أو هو أعلَمُ بأحوالِكُمْ وأفعالِكُمْ وما يكونُ منكُمْ، وهو ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ ما لوِ اجْتَمَعَ حُكماءُ البَشَرِ ما أدرَكوا مَعْنى الإنشاءِ[1] في ذلكَ، ولا أدرَكوا مَعْنَى تَصْويرِ اليَدَينِ والعينَينِ وغَيرِها مِنَ الجَوارحِ وقْتَ ما كُنتُمْ أجِنّةً في بطونِ أمهاتِكُمْ.

ثم نِسْبَتُنا إلى الأرضِ بقولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: إمّا لِخَلْقِ أصلِنا مِنَ الأرضِ كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] ونَحْوُهُ، وإمّا[2] لِجَعْلِ أقواتِنا منها لِقولِهِ تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] إذْ لا قِوامَ لنا إلّا بذلكَ الغِذاءِ والقُوتِ الذي يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:][3] في ظاهرِ الآيةِ نَهَى عنِ التَّزْكِيَةِ، وأمَرَ في آيةٍ أُخرَى بالتَّزْكِيَةِ ورَغَّبَ فيها / ٥٣٧ ـ ب/ حينَ[4] قالَ: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١] لكنْ في ما أمَرَ بالتَّزْكِيَةِ أمَرَ بإصلاحِ أنفسِهِمْ في أنفسِهِمْ وتَزْكِيَتِها فِعْلاً، وفي ما نَهَى عنِ التَّزْكِيَةِ نَهَى عَنْ أنْ يَصِفوا أنفسَهُمْ بالتَّزْكِيَةِ والصلاحِ والتُّقَى والبَراءةِ، لَعَلَّ ذلكَ ليسَ بِتَزْكِيَةٍ في الحقيقةِ، أو يكونُ فيهِمْ مِنَ الفَسادِ ما لا يَسْتَحِقُّ التَّزْكِيَةَ والوَصْفَ بالبَراءةِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ اللهَ تعالى لمّا نَهانا عنِ التَّزْكِيَةِ فكيفَ جازَ لنا أنْ نقولَ لأنفسِنا: إنّا مُؤمِنونَ ومُسْلِمونَ، إنَّ ذلكَ مدحٌ وتَزْكِيَةٌ؟

قيلَ: إنهُ[5] أمَرَنا بقولِ الإيمانِ والإسلامِ ابْتِداءً حينَ[6] قالَ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٣٦] وقالَ[7]: ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] ونَحْوَ ذلكَ، ولم يأمُرْ بِمِثْلِهِ ابتداءً في الصلاحِ؛ ونَحْوُهُ بأنْ نقولَ: نحنُ صُلَحاءُ أتقياءُ، فَجازَ ألّا يَمْنَعَ في الإيمانِ، ويَمْنَعَ في غَيرِهِ مِنَ الطاعاتِ.

والثاني: أنْ ليسَ في نفسِ الإيمانِ تَزْكِيَةٌ لأنَّ كلَّ أهْلِ الأديانِ مُؤمِنونَ بِشيءٍ كافِرُونَ بشيءٍ كقولِهِ[8] تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقولِ أولئكَ: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] [وقولِهِ تعالى][9]: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] وفي نفسِ التُّقَى والصّلاحِ تَزْكِيَةٌ.

وقيلَ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تُزَكُّوا أهْلَ دينِكُمْ ومَذْهَبِكُمْ، وذلكَ مُتعارَفٌ في الناسِ أنهمْ يُزَكّونَ أهلَ مَذْهَبِهِمْ، وإنْ كانوا لا يَعْرِفونَ صلاحَهُمْ وتَقواهُمْ، ويَذُمّونَ أهلَ خِلافِهِمْ في مَذْهَبِهِمْ، وإنْ لم يَعْرِفوا منهمُ الشَّرَّ وما بهِ تَجِبُ المَذَمَّةُ. وذلكَ مُحْتَمَلٌ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ نَهَى كلّاً في نفسِهِ أنْ يُزَكّيَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي اتَّقَى مَحارِمَ اللهِ ومَناهِيَهُ، ويَحْتَمِلُ أي اتَّقَى الكُفْرَ باللهِ والشِّرْكَ بِهِ.

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ مَنْ كُبَرِ الكَفَرَةِ وعُظَمائِهِمْ، وأعْطَى قليلاً مِنَ المالِ الضَّعَفَةَ أهلَ الإيمانِ لِيَرْجِعوا عنِ الإيمانِ بِمُحَمَّدٍ والتَّصْديقِ بهِ، ويَكْذِبوا عليهِ ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي قَطَعَ عنهمْ في وقْتٍ أيضاً. وكذا قالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي قَطَعَ، وهو مِنْ كُدْيَةِ الرَّكِيَّةِ، وهي الصلابةُ فيها، إذا بَلَغَها الحافرُ يَئِسَ مِنْ حفرِها[10]، فَقَطَعَ الحَفْرَ.

---

(١) في الأصل وم: الإنسان. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إنا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) في الأصل وم: بقوله. (٩) في الأصل وم: وقولهم. (١٠) من م، في الأصل: حفر.

[والثاني][1]: قيلَ لكلِّ مَنْ طَلَبَ شيئاً، فلم يَبْلُغْ، أو أعطى، فلم يُتَمِّمْ: أَكْدَى. وقالَ أبو عوسَجَةَ: أَكْدَى بَخِلَ، ورجلٌ مُكْدٍ بَخيلٌ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ فهو، واللهُ أعلَمُ ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ فيأمُرُ بتكذيبِ محمدٍ ﷺ ويأذَنُ لهُ بالتَّوَلِّي عنهُ وإعطاءِ المالِ على التَّكذيبِ لهُ؟ أي ليسَ عندَهُ عِلْمُ الغيبِ لأنهمْ قومٌ لا يؤمنونَ بالرسلِ والكُتُبِ وأسبابِ العِلْمِ هذا.

الآيتان ٣٦ و٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ كأنَّ هذا مقطوعٌ منَ الأوَّلِ؛ كانَ أولئكَ الكَفَرَةُ يقولونَ لأتباعِهِمْ: إنّا نَتَحَمَّلُ الظُّلْمَ منكمْ والوِزْرَ فلا تأتُوا محمداً، ولا تُصَدِّقوهُ كقولِهِ تعالى حكايةً عنهمْ ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فقالَ: عندَ ذلكَ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي قد بيَّنّا في صُحُفِهما ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقيلَ: إنما سُمِّيَ وَفِيّاً لأنهُ بَلَّغَ ما أُمِرَ بتَبليغِهِ. وقيلَ: لأنهُ كانَ يُصَلِّي أربعَ رَكَعاتٍ عندَ الضُّحى.

وعلى ذلكَ يَرْوُونَ خَبراً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أتَدْرونَ ما وَفَّى؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ، قالَ: وفَّى بأربعِ ركعاتٍ كان يُصَلِّيهِنَّ منْ أوَّلِ النهارِ، وزَعَمَ أنها صلاةُ الضُّحَى» [الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٧٣] فإنْ ثَبَتَ هذا اكْتُفِيَ عنْ تأويلٍ آخَرَ. وأصْلُهُ أنهُ سَمّاهُ وَفِيّاً لِما قامَ بوفاءِ ما أُمِرَ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيهِ أنَّ هذا في الكتبِ كلِّها في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى وغيرِهما منَ الكتبِ: ألّا يَحْمِلَ أحدٌ وِزْرَ آخَرَ، إنما يَحْمِلُ وِزْرَ نفسِهِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: قالَ [رسولُ اللهِ ﷺ][2]: «لا يُؤْخَذُ الرجلُ بِذَنْبِ غَيرِهِ» [الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٧٢].

وعنْ عُمَرَ وابْنِ أوسٍ [أنهُ][3] قالَ: كانَ الرجلُ يُؤْخَذُ في الجاهليةِ بِذَنْبِ غَيرِهِ حتى نَزَلَتِ الآيةُ..

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي ليسَ على الإنسانِ إلّا ما سَعَى، لأنهُ، جَلَّ، وعلا، يُثيبُ، ويُعطي الزيادةَ على ما سَعَى بِفَضْلِهِ وكرمِهِ كقولِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ونَحْوُ الصغارِ الذينَ لا سَعْيَ لهمْ قد يُعْطيهِمُ الثوابَ بِفَضْلِهِ. وأمّا جزاءُ السَّيِّئَةِ[4] فإنهُ لا يكونُ إلّا بالمِثْلِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وجائزٌ أنْ يكونَ: لهُ بِمَعْنَى عليهِ في اللغةِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيها.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في أولئكَ الكافرينَ الذينَ نَزَلَ فيهمْ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يقولُ: ليسَ لذلكَ الإنسانِ إلّا ما سَعَى.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ وحَرْفُ سَوفَ مِنَ اللهِ ﷻ على التَّحقيقِ والإيجابِ كَحَرْفِ لَعَلَّ وعَسَى، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي يَرَى جزاءَ عملِهِ، لا مَحالَةَ.

الآية ٤١ ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ جَزاءُ الآخِرَةِ على الوفاءِ، لا نُقْصانَ فيهِ، خيراً كانَ، أو شرّاً. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ للكافرِ يُجْزَى جَزاءَ الشِّرْكِ وجميعِ ما يَعْمَلُ مِنَ السوءِ. فأمّا المؤمنُ فإنهُ تُكَفَّرُ سيِّئاتُهُ، ويُجْزَى جَزاءَ الخيراتِ كقولِهِ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦].

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ سَمَّى الآخِرَةَ مُنْتَهًى ومَصيراً ورُجوعاً. ويَحْتَمِلُ أي إلى جَزاءِ ربِّكَ تَنْتَهي.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الشرور.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ بيّنَ اللهُ، جَلّ، وعَلا، قدرتَهُ وسُلْطانَهُ في إنشاءِ أنفسِهِمْ وأحوالِهِمْ وأفعالِهِمْ.

أمّا بيانُ قُدْرتِهِ في أنفسِهِمْ فحينَ قالَ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الآية: ٣٢].

وأمّا بيانُ قُدْرتِهِ في أحوالِهِمْ فما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [الآية: ٤٨] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [الآية: ٤٤].

وأمّا في أفعالِهِمْ فقولُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

يَذْكُرُ قدرتَهُ وسُلْطانَهُ بما ذَكَرَ لِيَعْلَموا أنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الكِنايةِ والاسْتِعارةِ؛ جَعَلَ الضَّحِكَ كِنايةً عنِ السرورِ، والبكاءَ كنايةً عنِ الحُزْنِ. وكذا العُرْفُ في الناسِ أنهُ إذا اشْتَدَّ بهمُ السرورُ ضَحِكوا، وإذا اشْتَدَّ بهمُ الحزنُ بَكَوا.

والثاني: على حقيقةِ الضَّحِكِ والبكاءِ، فهو على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أنشأَهُمْ بحيثُ يَضْحَكونَ، ويَبْكونَ.

والثاني: يَخْلُقُ منهمْ فِعْلَ الضَّحِكِ والبكاءِ؛ فهو أشْبَهُ التأويلَينِ عندَنا.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ قولُهُ: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي جَعَلَهُمْ بحيثُ يَموتونَ وبحيثُ يَحْيَونَ.

والثاني: ﴿أَمَاتَ﴾ بإخراجِ الرُّوحِ[1] ﴿وَأَحْيَا﴾ بإدخالِ الرُّوحِ فيهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] وقولِهِ: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فيَحْتَمِلُ إماتَتَهُمْ في الدنيا وإحياءَهُمْ في الآخِرَةِ. وأصلُ ذلكَ أنهُ يَفْعَلُ بهمْ كلَّ ما ذَكَرْنا.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ اسْمُ الزَّوجِ يَحْتَمِلُ الشَّكْلَ، ويَحْتَمِلُ المُقابِلَ، أي يَجْعَلُ أحَدَهما شكلاً للآخَرِ، وإنْ كانا ضِدَّينِ؛ يقولُ: جَعَلَهُمْ بحيثُ يَتَزاوجونَ، ويَتَشاكَلونَ، أو يَتَقابَلونَ، ويَتَضادُّونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي تُقْذَفُ. قالَ الأصَمُّ: دلَّ قولُهُ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أنها إذا لم تُقْذَفْ [تَصيرُ مَذْياً، وإنما تُقْذَفُ][2] التي تَخْرُجُ على شَهْوةٍ، فأمّا الذي[3] يَخْرُجُ لا على شهوةٍ فإنهُ يكونُ مَذْياً، ولا يُوجِبُ الاغْتِسالَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي في الحِكْمةِ عليهِ النشأةُ الأُخرَى، لأنهُ لو لم تكنِ النَّشأةُ [الأُخرَى كانَتِ النَّشأةُ][4] الأولَى باطلاً عَبَثاً غَيرَ حِكْمةٍ.

أو يقولُ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ /٥٣٨ ـ أ/ لِيُعْلَمَ أنَّ لهُ قُدرةً عليها كما لَهُ القُدْرةُ على الأولَى، لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ كانوا مُقِرّينَ بالأُولَى والقُدْرةِ عليها، ويُنْكِرونَ الأُخرَى، فَيُخْبِرُ أنَّ لهُ القُدْرةَ عليهِما، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي وَسَّعَ عليهِمْ ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي صَيَّرَهُمْ [مِمَّنْ يَقْتَنونَ الخَدَمَ][5] وغيرَها، فيكونُ الإغناءُ، هو التَّوسيعُ بأنواعِ الأموالِ، والإغناءُ هو إعطاءُ القِنْيَةِ مِنَ الخادمِ وما يحتاجُ إليهِ لِلْمِهْنَةِ، فيكونُ في جَعْلِ الخَدَمِ لهُ فَضْلُ حاجةٍ لا غِنًى، وذلكَ دليلٌ على صِحَّةِ مَذْهَبِنا في اسْتِجازَتِهِمْ دفعَ الزكاةِ إلى مَنْ لهُ الخَدَمُ.

---

(١) في الأصل وم: روحهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في م: التي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ما يقتنون من الخدم.

وقيلَ: ﴿أَغْنَىٰ﴾ أي أعطى ما يُغْنيهِ، ويَسْتَغْني بهِ ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي أقْنَعَهُ، وأرضاهُ. وقيلَ على العكسِ: ﴿أَغْنَىٰ﴾ أي أرْضَى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي أخْدمَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي أكْثَرَ، وقالَ: يا ابْنَ آدمَ، هو أغناكَ، وأقْناكَ، أي أعطاكَ الخَدَمَ، على ما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبِيُّ: هو منَ القِنْيَةِ والسَّيبِ، يُقالُ: اقْتَنَيْتُهُ كذا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: هو مِنَ القَنْوِ، قَنَاهُ[1]، أعطاهُ مالاً، يَقْنَى قَنْواً.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ قِيلَ: إنَّ الشِّعْرَى اسْمُ كوكبٍ كانَ يَعْبُدُهُ بعضُ العربِ، فكأنهُمْ ظَنوا أنَّ ما في ذلكَ الكوكبِ منَ الحُسْنِ والجمالِ لِقَدْرٍ لهُ عندَ اللهِ ومَنْزِلةٍ، وأنَّ تدبيرَهُمْ يَرْجِعُ إليهِ، فَعَبَدوهُ لذلكَ.

ويَحتَمِلُ أنهمْ عَبَدوهُ لِمَا [لم][2] يَرَوا لأنفسِهِمْ أهْلِيَّةً لِعبادةِ الربِّ تعالى، فَعَبدوا مَنْ دونَهُ رَجاءَ التَّقَرُّبِ إليهِ على ما يَخدِمُ المرءُ المُتَّصِلِينَ بملوكِ الأرضِ. ولكنَّ هذا فاسدٌ لأنَّ مَنْ خَدَمَ المُتَّصِلِينَ بملوكِ الأرضِ فإنما يَخْدِمونَ[3] لِما لم يَنْبِقْ لهمْ إليهِمْ مِنْ خِدْمةٍ مُتَّصِلَةٍ ولا الإذنِ بِعبادةِ أنفسِهِمْ وخِدْمَتِهِمْ.

فأمّا اللهُ تعالى فقد أمَرَهُمْ بِعبادةِ نفسِهِ، ونَهاهُمْ عنْ عبادةِ غَيرِهِ، فلم يَسَعْ لهمْ بَعدَ الأمْرِ بعبادتِهِ والنَّهْيِ عنْ عِبادةِ غَيرِهِ عبادةُ مَنْ دونَهُ. ذَكَرَ سَفَهَهُمْ في عبادتِهِمُ الشِّعْرَى وأمثالِها، أيِ اعْبُدوا ربَّ الشِّعْرَى فإنَّ ما فيهِ مِنَ الحُسْنِ والجمالِ، هو الذي فَعَلَ، فإليهِ اصْرِفوا العبادةَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ قُرِئَ ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ بإظهارِ التَّنوينِ والهَمْزةِ، وبِغيرِ الهَمْزةِ ولا إظهارِ التنوينِ [أي بإدغامِ التنوينِ في اللّامِ: عادَ اللُّولَى][4] حتى تصيرَ كأنها لامٌ مُثَقَّلَةٌ.

ثم هذا ليسَ نوعَ ما ذَكَرَ مِنْ قَبْلُ، إنما ذَكَرَ هذا لهمْ لِيَنْزَجِروا عنْ صَنيعِهِمْ، أي إذا أهْلَكَ عاداً، وهُمْ أشَدُّ منكُمْ قوةً، وأكْثَرُ عدداً وأموالاً. فلمّا لم يَنْزَجِروا بِمواعِظِ الرَّبِّ تعالى أهْلَكَهُمْ. فَعَلَى ذلِكَ نَفْعَلُ بكُمْ يا أهلَ مكةَ إنْ لم تَتَّعِظوا.

أو إنهُ أهلكَ عاداً فلم يَتَهَيَّأ لهمُ القيامُ بدفعِ عذابِ اللهِ ﷻ معَ قوتِهِمْ، فكيفَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ؟

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: كانوا عادَينِ: أحَدُهُما قومُ هودٍ، وهُمْ[5] أوّلُ، فأُهْلِكوا بالريحِ، وكانَتْ أُخْرَى في زمنِ فارِسَ الأوّلِ. ومنهمْ منْ قالَ: ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ الذينَ أُهْلِكوا مِنْ قَبْلُ مِنَ الأُمَمِ، وأهلُ مكةَ وهؤلاءِ عادٌ أُخْرَى.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أي أهلكَ ثموداً أيضاً. وقولُهُ: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي اسْتَأْصلَهُمْ؛ لم يُبْقِ منهمْ أحداً، أي ما أبْقَى لهمْ نَسْلاً، يُذْكَرونَ بَعْدَ ذلكَ بَعْدَ هلاكِهِمْ ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ إلّا الأنبياءَ والرسلَ ﷺ مِنَ النَّسْلِ، أو ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ لهمْ مِنْ آثارِ الخَبَرِ شيئاً كما أبْقَى للرسلِ ﷺ وأتباعِهِمْ إلى آخِرِ الأبدِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي كانوا أفْحَشَ ظُلْماً وأكثَرَ طُغياناً، لأنَّ نوحاً ﷺ دعاهُمْ إلى توحيدِ اللهِ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] فما زادَهُمْ [دُعاؤُهُ][6] إلّا نفوراً واستِكْباراً على ما أخبَرَ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦].

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ قيلَ: قَرْياتُ لوطٍ ﷺ أي أهْلَكَها أيضاً. وقولُهُ: ﴿أَهْوَىٰ﴾ قيلَ: أي أهْوَى إلى النارِ، وقيلَ: أي أهْوَى مِنَ السماءِ إلى الأرضِ على ما ذُكِرَ أنَّ جبرائيلَ ﷺ رَفَعَها إلى السماءِ، وأرْسَلَها إلى الأرضِ.

---

(١) في الأصل وم: قنى. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: يخدم. (٤) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٢١. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: وهو.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ قيلَ: غَشّاها الحجارةَ بعدَ ذلكَ، فَسَوّاها بالأرضِ. وقيلَ: غَشّى الحجارةَ مُسافِريهِمْ ومَنْ غابَ عنهمْ. وقيلَ: المُؤتَفِكةُ المُكَذِّبةُ مِنَ الأُوَلِ، وهُمُ[1] الكُذُبُ. وقيلَ: ائتَفَكَتْ أي انقَلَبَتْ ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أي غَشّى قَرَياتِ لوطٍ ﷺ مِنَ العذابِ ما غَشّى أولئكَ الذينَ ذَكَرَ مِنْ قَبْلُ مِنْ [قومِ][2] عادٍ ومِنْ قومِ نوحٍ، وهو قولُ القُتَبِيِّ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ: المُؤتَفِكةُ المَخسوفةُ.

الآية ٥٥ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ فظاهرُ هذا وظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣و. . .] مُشكِلٌ لأنهُ ذَكَرَ آلاءَ، ولو عَرَفَ أنها[4] آلاءُ ربِّهِ لَكانَ لا يُكَذِّبُهُ.

لكنْ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

[أحَدُها][5]: على التقديمِ والتأخيرِ والإضمارِ؛ كأنهُ يقولُ: فَبِأيِّ آلاءٍ مِنَ آلاءِ ربِّكُمْ شاهَدْتُموهُ، وعايَنْتُموهُ، تَتَمارَونَ؟ وكذلكَ فَبِأيِّ آلاءِ ربِّكُما الذي أقرَرْتُمْ بِهِ تُكَذِّبوني.

[والثاني][6]: يقولُ: فبأيِّ آلائِهِ وإحسانِهِ تَتَمارَى، فكيفَ أنكَرْتُمْ إحسانَهُ بمحمدٍ ﷺ وكيفَ صَرَفْتُمْ شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيرِهِ.

[والثالثُ][7]: تكونُ الآلاءُ ههنا هيَ الحُجَجَ؛ يقولُ: فَبِأيِّ حُجَّةٍ مِنْ حُجَجِ ربِّكَ تُنكِرُ رسالةَ محمدٍ، عليهِ أفضلُ الصلَواتِ، أو تَتَمارَى فيها، أي لا حُجَّةَ لكَ في تكذيبِكَ إياهُ أو إنكارِكَ رسالتَهُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي الذي يَدعوكم، ويُنَبِّئُكُمْ محمدٌ ﷺ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى التي أنبأها الرُّسُلُ الأوَّلونَ، وأوعَدوا قومَهُمْ. فيكونُ صلةَ قولِهِ ﷻ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [الآية: ٥٠] إلى آخِرِهِ.

وقيلَ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي [محمدٌ ﷺ ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي][8] الرُّسُلِ الأُولَى، وتَمامُ هذا التأويلِ، أي هذا نذيرٌ مِنَ البَشَرِ كالذينِ كانوا مِنْ قَبْلُ.

وقيلَ: هذا الذي يُنْذِرُ محمدٌ ﷺ هو مِنَ النُّذُرِ التي في اللوحِ المَحفوظِ، أي مما يُنْذِرُ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ أي قَرُبَتِ القِيامةُ؛ سَمَّى اللهُ ﷻ القِيامةَ بأسماءٍ مُختَلِفةٍ: مَرّةً الآزفةُ، ومَرّةً الساعةُ، ومَرّةً القِيامةُ؛ فَسَمّاها آزفةً لِقُرْبِها إلى الخَلْقِ ووقوعِها عليهِمْ، وكذلكَ الساعةُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ دَلَّتِ الآيةُ على أنَّ اللهَ تعالى لم يُؤتِ عِلْمَ قيامِ الساعةِ ووقوعِها أحداً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولِلْباطِنيَّةِ أدنى تَعَلُّقٍ في هاتَينِ الآيتَينِ لأنهمْ قالوا: إنَّ الآخِرَةَ للحالِ كائنةٌ، لكنَّها مُختَفِيَةٌ مُستَتِرَةٌ، تُظهَرُ، وتُكشَفُ عندَ فَناءِ هذهِ الأجسامِ وذهابِ هذهِ الأبدانِ. ويَستَدِلّونَ بِقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وبقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ويقولونَ: إنَّ لَفظَ التَّجلّي والكَشْفِ إنما يَستَعمِلونَ في ما هو كائنٌ ثابتٌ، يَظْهَرُ عندَ ارتِفاعِ التَّواتُرِ، لا يُخفيها إلّا في الإنشاءِ ابتِداءً.

ولكنْ عندَنا أنَّ حَرْفَ الكَشْفِ والتَّجلّي يُستَعمَلُ في ابتِداءِ الإحداثِ والإنشاءِ وفي إظهارِ ما كانَ كامناً خافياً. فإذا كانَ كذلكَ بَطَلَ استِدلالُهُمْ بذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣و. . .] هو عالمٌ بما كانَ خَفِيّاً بِحَقِّ الخَلْقِ وما هو شاهِدٌ ظاهرٌ وعالِمٌ بما يكونُ وبما هو كائنٌ للحالِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآيتان ٥٩ و٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ كانوا يعجَبونَ مِنْ أمرَينِ:

أحَدُهما: مِنْ بَعْثِ الرسلِ كقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢].

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

[والثاني][1]: منَ البَعْثِ بَعْدَ ما يفْنونَ، ويبْلَونَ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ الآية [الرعد: ٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ الضَّحْكُ /٥٣٨ ـ ب/ ههنا كِنايةٌ عنِ الاسْتِهزاءِ، ليسَ على حقيقةِ الضَّحْكِ، ويكونُ الضَّحْكُ كِنايةً عنِ السرورِ، أي تُسَرُّونَ على ما أنتمْ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أيضاً ليسَ على حقيقةِ البكاءِ، ولكنْ كِنايةٌ عنِ الحُزْنِ، أي ولا تَحْزَنونَ على ما فَرَطَ منكُمْ مِنَ الأعمالِ وسُوءِ الصَّنيعِ والمعاملاتِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ لاهونَ مُعْرِضونَ. وعَنِ الحَسَنِ وسَعيدِ بْنِ جُبَيرٍ ﴿سَٰمِدُونَ﴾ غافلونَ، وقيلَ: ﴿سَٰمِدُونَ﴾ حَزِنونَ على رسالةِ محمدٍ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، وغائِظونَ على ما أُنزِلَ عليهِ.

وعنْ عِكْرِمةَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [أنهُ][2] قالَ: هو [مِنَ][3] الغناءِ بلغةِ اليَمَنِ؛ يقولُ اليَمانيُّ: اسْمُدْ لنا، أي غَنِّ لنا، قالَ: كانوا إذا سَمِعوا القرآنَ تَغَنَّوا، ولَعِبوا.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا۩﴾ أي اخْضَعوا للهِ، واسْتَسْلِموا لهُ؛ إذِ الأمْرُ بالسُّجودِ عندَ التِّلاوةِ في غَيرِ سُجودِ الصلاةِ أمْرٌ بالخُشوعِ لهُ والاسْتِسْلامِ. والأمْرُ بالسجودِ ههنا التِّلاوةُ للأحاديثِ عنِ النَّبيِّ ﷺ وعنِ الصحابةِ والتابعينَ، رِضْوانُ اللهِ عليهِمْ أجمَعينَ.

رَوَى الأسودُ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قَرَأَ سورةَ النجمِ، فَسَجَدَ فيها، ولم يَبْقَ معهُ أحدٌ إلّا سَجَدَ إلّا شيخٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فإنهُ أخَذَ كَفّاً مِنْ حَصًى، فَرَفَعَهُ إلى جَبْهَتِهِ.

ورَوَى أبو هريرَةَ والمُطَّلِبُ بْنُ أبي وَداعةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سَجَدَ فيها.

ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ وعُثْمانَ ﷺ أنهما سَجَدا فيها، وعَنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: عَزائمُ السُّجودِ أربعٌ: ﴿تَنزِيلُ﴾ السجدة [و﴿حمٓ﴾ السجدة][4] ﴿وَالنَّجْمِ﴾ و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

وما رُوِيَ عنْ زَيدِ بْنِ ثابتٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قَرَأَها، فلم يَسْجُدْ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ التِّلاوةُ واقعةً في وقْتٍ يُكْرَهُ السُّجودُ حِكايةَ فِعْلٍ، لا عُمومَ لهُ، واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ ما أرادَ [والحَمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمَعينَ][5].

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

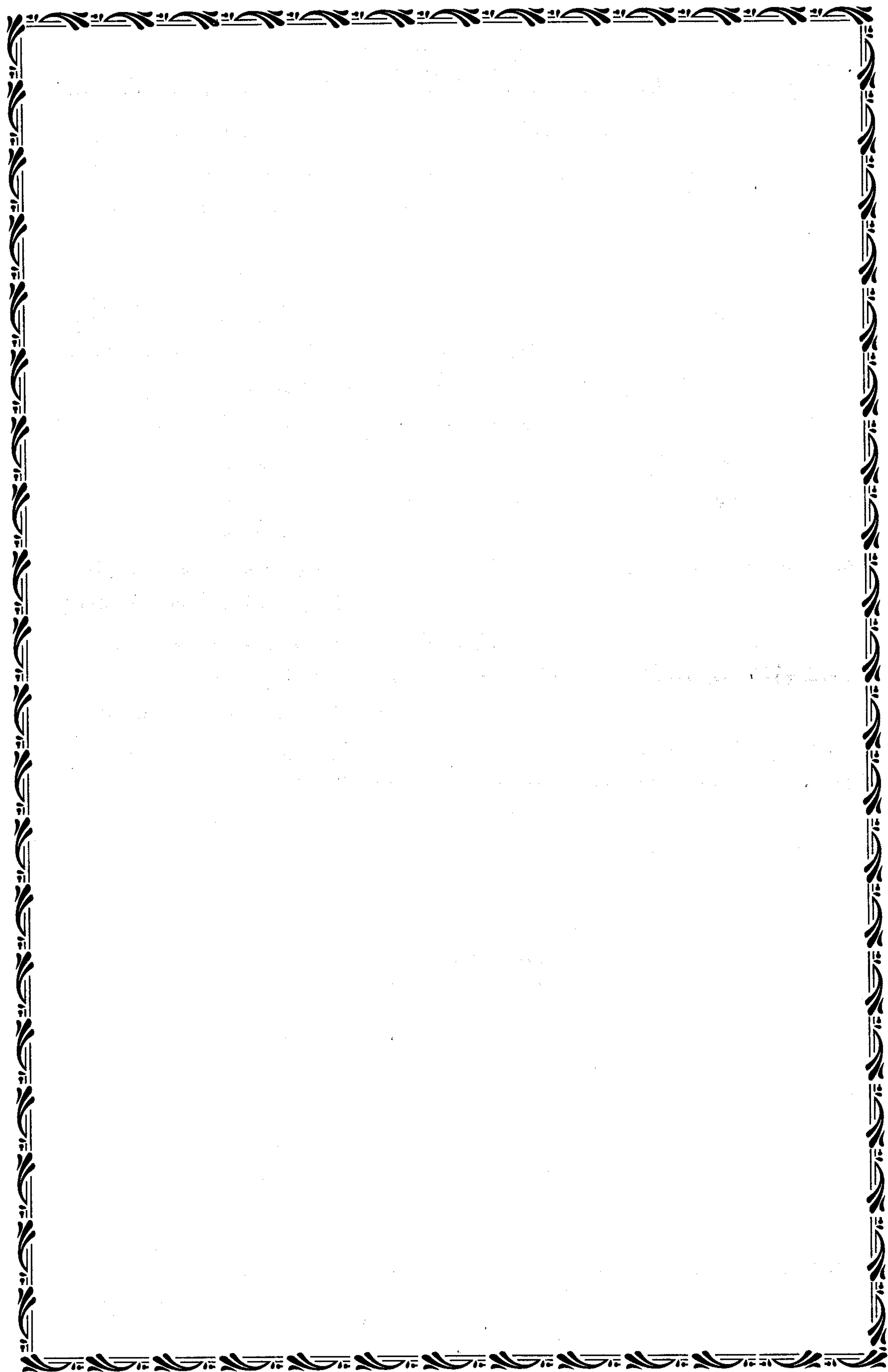

سورة القمر

[﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ هي][1] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي اقْتَرَبَتِ الساعةُ، واقْتَرَبَ انْشِقاقُ القَمَرِ، وقيلَ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ: اقْتَرَبَتِ الساعةُ، وإنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضوا، وإنْ كانَ انْشِقاقُ القمرِ.

فَعَلَى هذينِ التأويلَينِ لم يَكُنِ انشِقاقُ القَمَرِ بَعْدُ، ولكنْ يكونُ في المُسْتَقْبَلِ وعندَ قِيامِ الساعةِ، وهو قولُ أبي بكرٍ الأصمِّ، مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي سَينْشَقُّ القَمَرُ عندَ الساعةِ؛ إذْ لو كانَ قد انْشَقَّ في زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لما خَفِيَ على أهلِ الآفاقِ، ولو كانَ ظاهراً عندَهُم لَتَواتَرَ القولُ[2] بِهِ، إذْ هو أمْرٌ عجيبٌ، والطباعُ جُبِلَتْ على نَشْرِ العجائبِ [واجْمَعَ][3] عامَّةُ أهلِ التأويلِ على أنَّ القَمَرَ قدِ انْشَقَّ، فكانَ ذلكَ مِنْ مُعْجِزاتِهِ ﷺ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: كنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ بِمِنىً، فانشَقَّ القَمَرُ، فَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ منهُ وراءَ الجبلِ، فقالَ ﷺ اشْهَدوا، ورُوِيَ عنْ غَيرِهِ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ وعبدِ اللهِ بن عبّاسٍ رضي الله عنهما وأنَسِ بْنِ مالكٍ وحُذَيفَةَ وجُبَيرِ بْنِ مُطْعَمٍ في جماعةٍ مِنَ الصحابةِ، رِضْوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمَعينَ، أنهمْ رَأَوْا انْشِقاقَ القَمَرِ.

وقولُ أبي بكرٍ لو كانَ لم يَخْفَ، وظَهَرَ، فَيُقالُ لهُ: قد ظَهَرَ، فإنهُ رُوِيَ عنْ غَيرِ واحدٍ مِنَ الصحابةِ رضي الله عنهم، وتَواتَرَ الحديثُ عنِ الخاصِّ والعامِّ، وفَشا الأمْرُ بَينَهُمْ حتى قَلَّ مَنْ يَخْفَى عليهِ سَماعُ هذا الحديثِ.

على أنهُ قد يُطْلَقُ ظاهرُ الكتابِ، وإنما يُكَلَّفُ حِفْظُ ما لم يَنْطِقْ بهِ الكتابُ والعَمَلُ بحقيقةِ اللفظِ واجبٌ؛ وقالَ بعضُهُمْ: يجوزُ أنْ يَسْتُرَهُ اللهُ تعالى عنْ أهلِ الآفاقِ بِغَيمٍ، ويَشْغَلَهُمْ عنْ رؤيتِهِ بِبَعضِ الأمورِ بِضَرْبِ تدبيرٍ ولُطْفٍ منهُ لئلا يَدَّعِيَهُ بعضُ المُلتَبِسينَ في الآفاقِ لنفسِهِ، ويَدَّعِيَ[4] الرسالَةَ كاذباً بناءً على دَعْواهُ أنهُ فَعَلَ ذلكَ، فَيَحْتَمِلُ أنهُ أخفاهُ[5] عن أهلِ الآفاقِ إلّا في حقِّ مَنْ تَظْهَرُ المُعْجِزَةُ عليهِمْ مِنَ الحاضرينَ، والكَفَرَةُ يَكْتُمونَهُ، والصحابةُ الذينَ رَأَوا قد نَقَلوهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ كأنهُ يقولُ: اقْتَرَبَتِ الساعةُ التي يُجْزَونَ فيها، أو الساعةُ التي يُحاسَبونَ فيها.

فإنْ قيلَ: أليسَ رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتَينِ وأشارَ إلى السَّبّابةِ والوُسْطَى» [البخاري: ٦٥٠٣] وقد قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ ولم تَقُمِ الساعةُ بَعْدُ؟

قيلَ: يَحْتَمِلُ أنَّ مُرادَهُ ﷺ أنهُ خَتَمَ النُّبُوَّةَ والرسالَةَ، وتَبْقَى أحكامُهُ وشريعتُهُ إلى وقْتِ قيامِ الساعةِ، وبَقاءُ شريعتِهِ كَبَقائِهِ، فصارَ كأنهُ قالَ: شَريعتي والساعةُ كهاتَينِ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ لمّا كانَ بهِ خَتْمُ النُّبُوَّةِ والشَّريعةِ صارَ بَعْثُهُ ومَجيئُهُ عليه السلام علامةً للساعةِ وآيَةً لها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١] على تأويلِ مَنْ جَعَلَ بَعْثَ الرسولِ عليه السلام عَلَماً وآيَةً للساعةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ ذَكَرَ تَعَنُّتَهُمْ وعِنادَهُمْ أنهمْ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ سألوها ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ فَلَمْ يُرِهِمْ تلكَ، أو مِنْ سُنَّتِهِ أنَّ كلَّ آيةٍ جاءَتْ على إثْرِ السؤالِ، فلم يَقْبَلوها، أُهلِكوا.

---

(١) في الأصل وم: ذكر أن سورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهي. (٢) في الأصل وم: النقل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: وادعى. (٥) في الأصل وم: أخفى.

فإذا كانَ منْ سُنَّتِهِ هذا، وقد وَعَدَ تأخيرَ عذابِ الأُمَّةِ إلى الساعةِ، وعَفا عنهُم التَّعْجيلَ، لم يُرِهِمْ تلكَ الآياتِ المُقْتَرحةَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً﴾ حِسِّيَّةً ﴿يُعْرِضُوا﴾ لأنَّ آياتِ رسولِ اللهِ ﷺ عامَّتها وأكثرَها، كانَتْ عقليَّةً وسَمْعيَّةً، فَيُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وتعَنُّتِهِمْ أنهمْ ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً﴾ حِسِّيَّةً ﴿يُعْرِضُوا﴾ عنها، وهو كقولِهِ ﷻ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا﴾ [الأنعام: ١١١] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ الآية [الحجر: ١٤و١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

منهمْ مَنْ قالَ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ماضٍ لم يَزَلِ الرسُلُ ﷺ كانوا يأتونَ بِمِثْلِهِ مِنَ السِّحْرِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي قَوِيٌّ مأخوذٌ مِنَ المِرَّةِ، وهي القُوَّةُ، وأصلُ المِرَّةِ الفَتْلُ. /٥٣٩ ـ أ/ ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهِبٌ، يذهبُ، ويَتَلاشَى، ولا يَبْقَى.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ كَذَّبوا الرسولَ ﷺ وما أتَى بهِ مِنَ الآيَةِ على الرسالةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بالتوحيدِ ﴿وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ يُخبِرُ أنهمْ إنما كَذَّبوا ما ذَكَرَ باتِّباعِ أهوائِهِمْ لا بحجَّةٍ ولا بُرْهانٍ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي كلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرٌّ بأهلِهِ، إنْ كانَ خيراً فَخَيرٌ، وإنْ كانَ شرّاً فَشَرٌّ. ويَحْتَمِلُ: كلُّ أمْرٍ كائنٍ قارٌّ يَقِرُّ بأهلِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: لكلِّ أمْرٍ وفِعْلٍ حَقيقةٌ ما كانَ: فما كانَ منهُ في الدنيا فَسَيُظْهَرُ، وما كانَ منهُ في الآخرةِ فَسَيُعْرَفُ][1].

الآيتان ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وجاءَتْهُمْ أيضاً حِكْمةٌ بالغةٌ، وهو القرآنُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ معناهُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وفي تلكَ الأنباءِ حِكْمةٌ بالغةٌ.

ثم الأنباءُ التي فيها مُزْدَجَرٌ حِكْمةٌ بالغةٌ، وهي ما ذَكَرَ في هذهِ السورةِ مِنْ أنباءِ عادٍ وثمودَ وقومِ نوحٍ وموسى، فقد جاءَهُمْ أنباءُ هؤلاءِ، وعَرَفوا ما نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ والإهلاكِ، وبِأيِّ شيءٍ نَزَلَ بهمْ، وهو تكذيبُ الرسلِ ﷺ لِيَرْتَدِعوا عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ، فلا يَلْحَقُهُمْ مِثْلُ ما يَلْحقُ أولئكَ، والبالغةُ هي[2] النهايةُ في الأمرِ، يُقالُ بالغٌ في العِلْمِ إذا انْتَهَى في ذلكَ نِهايَتَهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ أمْرٌ مُتَعَظٌ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ أي زاجِرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: قد جاءَ هُمْ ما ذَكَرَ مِنَ الأنباءِ التي فيها مُزْدَجَرٌ وإنذارٌ، فلم يَزْجُرْهُمْ ذلكَ، ولم يَنْفَعْهُمْ، فأنَّى تُغْنِ النُّذُرُ؟ ومِنْ أينَ تَنْفَعُهُمُ النُّذُرُ؟ أي لا تُغْنيهِمْ.

ثم النُّذُرُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ [الرسُلُ][3] ﷺ جَمْعُ نذيرٍ.

والثاني: ما تَقَعُ بهِ النِّذارةُ، وهي الأنباءُ التي أَنْذَرَ الرسُلُ بها، وحَذَّروا بذلكَ.

يقولُ: فما يُغْنيهِمْ قولُ الرسُلِ ولا خَوفُ ما بَلَغَهُمْ مِنَ القِصَصِ التي فيها تَعْذيبُ الكَفَرَةِ بِتَكْذيبِ الرسلِ ﷺ وتَرْكِ اتِّباعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

(١) ساقطة من م. (٢) من م، في الأصل: في. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

أحدُها: قولُهُ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرِضْ عنهمْ، ولا تُكافِئْهُمْ بإساءَتِهِمْ.

والثاني: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي لا تُقابِلْهُمْ، ولا تُجاهِدْهُمْ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو يَحْتَمِلُ النَّسْخَ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، وإنْ كانَ للأوَّلِ فهو لا يَحْتَمِلُ [النَّسْخَ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ][(١)] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي لا تَشْتَغِلْ بهمْ فإنهمْ لا يؤمِنونَ؛ وذلكَ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يُؤمِنونَ؛ يُؤْيِسُ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الطَّمَعِ في إيمانِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي إلى شيءٍ مُنْكَرٍ فَظيعٍ هائلٍ. ويَحْتَمِلُ إلى شيءٍ أنْكَروهُ في الدنيا، وهو الساعةُ، فَيُقِرّونَ في الآخِرَةِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ وقُرِئ: خاشِعةً بالألِفِ[(٢)]؛ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ [قولُهُ:][(٣)] وتصديقُها في قراءةِ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ وصَفَهُمْ بالخُضوعِ في الآخِرَةِ مكانَ اسْتِكْبارِهِمْ في الدنيا، وبالإقرارِ والتَّصْديقِ بالساعةِ مكانَ إنْكارِهِمْ في الدنيا، وبالإجابةِ للداعي مَكانَ رَدِّهِمْ لهُ في الدنيا حينَ[(٤)] قالَ: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [الآية: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: تَشْبيهُهُمْ بالجَرادِ لِحَيرَتِهِمْ، لا يَدْرونَ مِنْ أينَ يأتونَ؟ وإلى أينَ يَصيرونَ؟ كالجَرادِ الذي لا يُدْرَى مِنْ أينَ [أتَى][(٥)]؟ وإلى أينَ [يَذْهبُ][(٦)]؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢].

والثاني: تَشْبيهُهُمْ بالجرادِ لِكَثْرَتِهِمْ وازْدِحامِهِمْ لِما يُحْشَرُ الكُلُّ بِدَفْعةٍ واحدةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي مُسْرِعينَ، وقالَ قَتادَةُ: أي عامِدِينَ.

وقالَ مجاهدٌ: الإهطاعُ السَّيَلانُ، وهو بالفارِسيَّةِ: يويه رفيق.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ ناظرينَ رافِعي رؤوسِهِمْ، وهو قولُ الكَلْبيِّ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: أي مُسْرِعينَ مادِّينَ أعناقَهُمْ، وقيلَ: الإهطاعُ إدامةُ النَّظَرِ إلى الداعي.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩و١٠].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ،: كذَّبَتْ قبلَ قومِكَ قَومُ نوحٍ نوحاً ﷺ وآذَوهُ، فَصَبَرَ على التَّكْذيبِ وأنواعِ الأذَى، ولم يَدْعُ عليهمْ بالهَلاكِ ما لم يَرِدِ الإذْنُ بالدعاءِ عليهمْ بالهلاكِ مِنَ اللهِ تعالى.

فاصْبِرْ أنتَ على تكذيبِ القومِ وأنواعِ الأذَى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمةُ في تكرارِ هذهِ الأشياءِ في القرآنِ، ولم يُكَرِّرْ ما فيهِ مِنَ الأحكامِ؟

قيلَ: إنَّ هذهِ الأنْباءَ والقِصَصَ إنما جاءَتْ لِمُحاجَّةِ أهلِ مكةَ وأمثالِهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ في إثباتِ الرسالةِ والتوحيدِ والبَعْثِ؛ إذْ هُمُ المُنْكِرونَ لهذهِ الأشياءِ، وهُمْ كانوا أهلَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ، وفيهِمْ أيضاً مُسْتَرْشِدونَ، ومِنْ حقِّ المُحاجَّةِ معَ [مَنْ][(٧)] ذَكَرْنا وأمثالِهِمْ أنْ تُعادَ الحُجَّةُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، لَعَلَّهُمْ يَقْبَلونَها في وقْتٍ، وتَنْجَعُ في قلوبِهِمْ، ومِنْ حقِّ المَوعِظَةِ لِلْمُسْتَرْشِدينَ أيضاً أنْ تُكَرَّرَ لِيَتَّعِظُوا[(٨)]. ويَخْتَلِفُ ذلكَ باخْتِلافِ الأحوالِ، وقد ذَكَرْنا فوائدَ تَكْرارِها واقْتِصارِ الأحكامِ في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ نوحاً ﷺ قد دَعَا على قومِهِ بالهَلاكِ، قيلَ: إنما دَعَا على قومِهِ بالهَلاكِ بَعْدَ ما أَيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٣١. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم . (٨) في الأصل وم: ليتعظ.

حينَ[1] قيلَ: إنهُ ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] أمّا رسولُ اللهِ فلمْ يُؤْيِسْهُ مِنْ إيمانِ قومِهِ جُملةً، إنما أياسَهُ[2] مِنْ بعضٍ بطريقِ التَّعْيينِ، وهمْ قومٌ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يُؤمِنونَ، لا مِنَ الكُلِّ. فلِذلكَ لم [يأذَنْ لهُ][3] بالدعاءِ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿فَكَذَّبُوا﴾ في ما ادَّعَى لنفسِهِ الرسالةَ، أو كَذَّبوهُ في ما دَعاهُمْ إليهِ [مِنَ التَّوحيدِ][4] وتوجيهِ الشُّكرِ إلى الواحِدِ القَهّارِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ أي قالوا لِأتباعِهِمْ: إنهُ مَجْنونٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي نوحٌ ﷺ حينَ[5] قالوا لِقومِهِمْ: لا تَتَّبِعوهُ، وزَجَروهُمْ عنهُ بقولِهِمْ: إنهُ مجنونٌ، فهذا منهمْ زَجْرٌ لأتْباعِهِمْ عَنِ اتِّباعِهِ، فصارَ لِذلكَ نوحٌ ﷺ [مُزْدَجَراً عنهُمْ][6].

وقالَ بعضُهُمْ: زَجَروا نوحاً ﷺ أي مَنَعوهُ مِنْ إظهارِ ما آتاهُمْ مِنَ الآياتِ على رسالتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أي مَغْلوبٌ بالسَّفَهِ والمُكابَرةِ وأنواعِ الأذى؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ مَغْلوباً بالحُجَجِ ﴿فَانتَصِرْ﴾ لِعبدِكَ[7] عليهِمْ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ أي مِنْ فَوقُ، لأنَّ ما كانَ فَوقَكَ فهو سماءٌ، فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ مِنَ البَحْرِ المَكْفوفِ الذي ذُكِرَ أنهُ بينَ السماءِ والأرضِ.

الآية ١٢ [بقولِهِ تعالى][8]: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي أنْبَعْنا الماءَ مِنَ الأرضِ، كأنهُ قالَ: [أنزَلْنا الماءَ][9] مِنْ فوقُ، وأنْبَعْنا مِنْ أسْفَلُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ هو حَقيقةُ فَتْحِ السماءِ وإنزالِ الماءِ منها، واللهُ تعالى قادرٌ أنْ يُرسِلَ الماءَ مما[10] يَشاءُ، وكيف [يشاءُ][11] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قيلَ: مُنصَبٌّ. وقالَ أبو عُبَيدٍ: ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ أي كثيرٍ سَريعِ الانْصِبابِ؛ يُقالُ: هَمَرَ الرجُلُ إذا أكْثَرَ منَ الكلامِ، فأسْرَعَ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: انْهَمَرتِ السماءُ، وهَمَرَتْ / ٥٣٩ ـ ب/ أي مَطَرَتْ، فأكْثَرَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ يَذْكُرُ أنَّ الماءَينِ جميعاً: ما أُرسِلَ مِنْ فوقُ[12]، وما أُخرِجَ مِنْ تَحتُ على تَقْديرٍ وتَدْبيرٍ لا جُزافاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠] أي على قَدَرٍ وتَدْبيرٍ مِنَ اللهِ تعالى لكَ في ذلكَ لا على تَقْديرٍ منهُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ فالْتَقَى على أمْرٍ قد قُدِرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي قد قُدِرَ لهمْ أنْ يَغْرَقوا بالماءِ إذْ كَفَروا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ أي اسْتَوَى الماءُ: نِصْفُهُ مِنْ عُيونِ الأرضِ، ونِصْفُهُ مِنَ السماءِ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ وذُكِرَ في حَرْفِ حفصةَ ﷺ: وحَمَلْناهُ وذُرِّيَّتَهُ على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ. ذَكَرَ هٰهنا ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ وذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى السفينةَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] ونَحْوِهِ. فيكونُ ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ تَفْسيرَ السفينةِ.

ولو لم [يَتَقَدَّمْ ذِكْرُ السفينةِ لم][13] يُفْهَمْ مِنْ ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ السفينةُ؛ إذْ ذاتُ الألواحِ قد تَرجِعُ إلى العِمادِ[14] وغَيرِها. لكنْ كانَ تَفْسيرُ السفينةِ بما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يؤيسه. (٣) في الأصل وم: يؤذن. (٤) في الأصل وم: بالتوحيد. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: مزدجر عنه. (٧) في الأصل وم: عبدك. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ممن. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الفوق. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: الإعمار.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَدُسُرٍ﴾ [قالَ أهلُ التأويلِ: الدُّسُرُ][(١)] المَساميرُ التي تُشَدُّ بها السفينةُ. وقيلَ: الدُّسُرُ أضلاعُ السفينةِ. وقيلَ: صَدْرُها.

وقالَ الحَسَنُ: هي السفينةُ لأنها تَدْسُرُ الماءَ بِجُؤْجُئِها. قالَ أبو مُعاذٍ: واحدُ الدُّسُرِ دِسارٌ، وجِماعُ الجُؤْجُؤِ الجآجِئُ، وهي الصدورُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ وتَسْمِيَةِ هذا المَصْنوعِ[(٢)] سفينةً دليلٌ على أنَّ أفعالَ العبادِ مَخْلوقةٌ للهِ تعالى لأنهمُ همُ الذينَ رَكَّبوا السفينةَ. ثم أخْبَرَ أنهُ هو الذي حَمَلَهُمْ. وكذلكَ الخَشَبُ المُجْتَمِعَةُ لا تُسَمَّى سَفينةً، إنما سُمِّيَتْ[(٣)] بهذا الاِسْمِ بَعْدَ الإيجادِ والصَّنْعَةِ المَوجودةِ مِنَ العبادِ. دلَّ أنَّ للهِ في فِعْلِ العبادِ صُنْعاً، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بتقديرِنا وبِحِفْظِنا. وقولُهُ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي حَمَلَ نوحاً[(٤)] وأتباعَهُ في السفينةِ، ونَجّاهُمْ مِنَ الغَرَقِ جَزاءَ ما كَفَرَ بِهِ قومُهُ. كذا قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنهُ إخبارٌ لنوحٍ ﷺ حينَ كَفَرَ بِهِ قومُهُ، فلمْ يؤمِنْ بِهِ قومُهُ.

وقالَ مُجاهدٌ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ باللهِ تعالى، أي الغَرَقُ جَزاؤُهُمْ لِما كَفَروا باللهِ تعالى.

وقالَ أبو مُعاذٍ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ قُرِئ بِنَصْبِ الكافِ[(٥)]؛ وتأويلُ هذهِ القراءةِ أنّ[(٦)] إهلاكَ مَنْ أهْلَكَ مِنْ قومِهِ جَزاءً لِما كَفَروا باللهِ تعالى أو بنوحٍ ﷺ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: تَرَكْنا سفينةَ نوحٍ ﷺ بَيِّنَةً مدةً طويلةً حتى صارتْ آيةً لأواخِرِهِمْ ولِمَنْ بَعْدَهُمْ. وبِهِ يقولُ قتادةُ: قالَ: أبْقَى اللهُ تعالى سفينةَ نوحٍ ﷺ بَيِّنَةً للمسافرينَ منْ أرضِ الجزيرةِ حتى نَظَرَتْ إليها أوائلُ هذهِ الأمةِ، وكمْ مِنْ سفينةٍ كانَتْ بعدَها، فصارَتْ رماداً.

والثاني: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ آثارُ تلكَ السفينةِ وأنباؤُها آيةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ لأنَّ أنباءَها قد بَقِيَتْ في المُتَأخِّرينَ حتى عَرَفوا أنَّ مَنْ نَجا بِمَ[(٧)] نَجا ومَنْ هَلَكَ بِمَ[(٨)] هَلَكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ عنِ الأسْوَدِ[أنهُ] قالَ: قلتُ لعبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أو مُذَّكِرٍ؟ فقالَ: أقْرَأني رسولُ اللهِ ﷺ ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ بالدالِ.

قالَ أبو عُبَيدٍ: وأصْلُهُ في العربيةِ: مُذْتَكِرٌ؛ فإنهُ مِنْ بابِ الاِفْتِعالِ على وَزْنِ مُفْتَعِلٍ، فَثَقُلَ لاِجْتِماعِ الذالِ والتاءِ، فأُدْغِمَ الحرفُ الأوَّلُ، وهو الذالُ، في التاءِ، فانْقَلَبَ دالاً. وهو كقولِهِ: ادَّخَرَ، أصلُهُ: اذْتَخَرَ مِنَ الذُّخْرِ لِما قُلْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ أي هل مِنْ مُتَذكِّرٍ مُتَّعِظٍ يَتَعِظُ بما نَزَلَ بأولئكَ فَيَنْزَجِرُ عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ؟

قالَ قتادةُ: فهلْ مِنْ طالبِ خَيرٍ، فَيُعانَ عليهِ؟

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أليسَ ما وَعَدَهُمْ رُسُلي مِنَ العذابِ بالتكذيبِ صِدْقاً حَقّاً؟ وأُريدَ بقولِهِ: ﴿وَنُذُرِ﴾ أي رُسُلي.

والثاني: أليسَ وَجَدوا عذابي شديداً ونُذُري ما وَقَعَتْ بِهِ النِّذارةُ، وهو العذابُ الذي أُنْذِروا بِهِ. والنُّذُرُ على هذا التأويلِ المُنْذَرُ بِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]. أي مَوعوداً، وإلّا وَعْدُهُ لا يكونُ مَفْعولاً، إذْ هو صفةٌ أزليَّةٌ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: المصنوعة. (٣) في الأصل وم: سمي. (٤) في الأصل: مع نوح، في م: نوح. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٣٤. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: لمن. (٨) في الأصل وم: لمن.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هذا يَحتمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي لِلْحِفظِ، أي صَيَّرْناهُ بحيثُ يَحْفَظُهُ كلُّ أحدٍ مِنْ صغيرٍ وكبيرٍ وكافرٍ ومؤمنٍ، وكلُّ أحدٍ يَتكلَّفُ حِفْظَهُ.

والثاني: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي لِذِكرِ ما نَسُوا مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهِمْ ولِذِكرِ ما أنْبَأَهُمْ فيهِ مِنْ أخبارِ الأوائلِ مِنْ مُصَدِّقيهِمْ ومُكَذِّبيهِمْ[1].

والثالثُ: جائزٌ أن يكونَ لِرسولِ اللهِ ﷺ خاصّةً أي يَسَّرْناه عليهِ حتى حَفِظَهُ، حتى إذا أرادَ أنْ يَذْكُرَ شيئاً منهُ يَذْكُرُهُ في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ أرادَ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦و١٧]. وقولِهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣و١٩٤]. وقولِهِ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦و٧]. أمَّنَهُ مِنْ أنْ يَنساهُ، ومَنَّ عليهِ بالتَّيسيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ على التأويلِ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ، وإنْ يَسَّرْنا القرآنَ لِلْحِفْظِ، ولكنْ لم يُنزِلْهُ لِلحِفظِ، ولكنْ إنما أنزَلَهُ لِيُذْكَرَ ما فيهِ ولِلاتِّعاظِ بهِ، أي فَهَلْ مِنْ مُتَّعِظٍ بهِ.

وعلى التأويلِ الآخَرِ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ خُرِّجَ مُخرجَ الأمرِ، أي اذْكُروا، واتَّعِظوا بما فيهِ مِنَ الأنباءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ذَكَرَ أنباءَ الأوائلِ وما نَزَلَ بهِمْ بالتكذيبِ والعِنادِ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمُ الرسولَ ﷺ وهو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [الآية: ٤] تأويلُ الآيةِ يُخَرَّجُ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذكَرْناهُما.

الآية ١٩

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قيلَ: باردةٌ، وقيلَ: شديدةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ إذِ اسْتَمَرَّ بهمُ العذابُ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] وقيلَ: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي ذاهبٍ على الصغيرِ والكبيرِ، فلم يَبْقَ منهمْ أحدٌ إلّا أهْلَكَتْهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ قالَ: لَمّا اشْتَدَّ بهمُ الريحُ تَنادَوا في ما بَينَهُمْ: البيوتَ [البيوتَ][2] فَدَخلوها، فَدَخَلَتِ الريحُ عليهِمْ، فأخرجَتْهُمْ مِنْ بُيوتِهِمْ، وألْقَتْهُمْ في أفْنِيَتِها[3]، فذلكَ النَّزْعُ.

ومِنهمْ مَنْ قالَ: تَنزِعُ مَفاصِلَهُمْ، فتُلْقيهِمْ كأعجازِ ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ لأنهمْ كانوا أطْوَلَ الخَلْقِ؛ فذُكِرَ أنَّ كلَّ رجلٍ منهمْ كانَ طولُهُ سِتِّينَ ذِراعاً، والنَّخلُ لا يَبْلُغُ ذلكَ المِقْدارَ إلّا بَعْدَ قَطْعِ المَفاصِلِ، فجائزٌ التَّشبيهُ بأعجازِ ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ بَعْدَ انْعِقارِ[4] مَفاصِلِهِمْ، والانْعِقارُ هو الانْقِلاعُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ أي مُنْقَطِعٍ ساقِطٍ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: شَبَّهَهُمْ بأعجازِ النَّخْلِ لِعِظَمِ أعجازِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَهُمْ بأعجازِ النخلِ لِطولِهِمْ، ولكنَّ ذلكَ بَعْدَ نَزْعِ المَفاصِلِ لِما ذَكَرْنا. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ ﵂ تَنزِعُ الناسَ على أعقابِهِمْ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فهو يُخَرَّجُ على ما ذَكَرْناه مِنَ الوجهَينِ.

الآية ٢٢ وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ يَحتَمِلُ الوجهينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهُما:

---

(١) في الأصل وم: مذكر. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم . (٣) في الأصل وم: فنائهم. (٤) في الأصل وم: انتزاع.

أحدُهما: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ أي بالرسُلِ [الذينَ دَعُوهُمْ][1] إلى الإيمانِ باللهِ تعالى.

والثاني: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ بما وَقَعَتْ بِهِ النِّذارةُ التي أخبَرَ بها الرُّسُلُ أنها نازلةٌ واقعةٌ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ لم يَزَلِ الأكابرُ مِنَ الكفَرةِ والرؤساءِ منهم يُلبِسونَ على /٥٤٠ ـ أ/ أتباعِهِمْ بهذا الحرْفِ ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ [وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾][2] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣و٣٤] ونَحْوَ ذلكَ.

وذلكَ تناقُضٌ [في][3] القولِ لأنهمْ كانوا يَنْهَونَ أتباعَهُمْ عنِ اتِّباعِ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ، ويَدْعونَهُمْ إلى اتِّباعِ آبائِهِمْ والاقتِداءِ بهِمْ، وهمْ أيضاً بَشَرٌ، وليسَ مع آبائِهِمْ حُجَجٌ وبَراهينُ، ومعَ الرسُلِ حُجَجٌ وآياتٌ، فيكونُ تناقُضاً في القولِ ومُعارَضَةً فاسِدةً، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السُّعُرُ الجنونُ، أي لو اتَّبَعْنا بَشراً منّا لَكُنّا في ضلالٍ وجُنونٍ، وهو مِنْ سَعْرِ النارِ إذا التَهَبَتْ؛ يُقالُ: ناقةٌ مَسْعورةٌ أي كأنها مَجنونةٌ مِنَ النَّشاطِ، وقيلَ: الضَّلالُ والسُّعُرُ واحدٌ. ويَحْتَمِلُ: أي ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ في الآخِرةِ، والسُّعُرُ مِنَ السَّعيرِ، وهو النارُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا القولُ مِنْ أهلِ مكةَ لرسولِ اللهِ ﷺ كقولِهِ تعالى خَبَراً عنهُمْ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] والذِّكْرُ هو القرآنُ على هذا التأويلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ ثمودَ لصالحٍ ﷺ والقصةُ قصةُ صالحٍ، فهو الأشبَهُ بالتأويلِ.

ولم يَزَلِ الكفَرةُ يُنْكِرونَ تَفَضُّلَ الرسلِ ﷺ على غَيرِهِمْ مِنَ البَشَرِ بالرسالةِ وإنزالِ الذِّكْرِ عليهِمْ مِنْ بَينِهِمْ، ثم يَرَونَ لأنفسِهِمُ الفَضلَ على أولئكَ الرُّسلِ ﷺ إمّا بِفَضْلِ مالٍ[وإمّا][4] بِفَضْلِ نَسَبٍ ورئاسةٍ ونَفاذِ قولٍ بلا سابقةٍ كانَتْ منهمْ ولا تَقْدِمةِ صُنْعٍ. وما يَنْبَغي لهمْ أنْ يُنْكِروا تَفْضِيلَ الرسُلِ بالرسالةِ والنُّبُوّةِ بلا سابِقةٍ كانَتْ منهمْ ولا تَقْدِمةِ صُنْعٍ؛ إذ هي فَضْلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يَشاءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ عنْ مُجاهدٍ أنهُ قَرأَ بِفَتْحِ[5] الشينِ، وقرأ العامّةُ: الأشِرُ بِكَسْرِ الشينِ. قالَ بعضُهُمْ: الأشَرُ بِفَتْحِ الشينِ يَنْشَطُ في الشَّرِّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: وقيلَ: الأشِرُ والأشَرُ هو البَطِرُ كما يُقالُ: حَذِرٌ وحَذَرٌ، وهو المَرِحُ المُتَكَبِّرُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتاءِ[6] جميعاً. فَمَنْ قرأَ بالياءِ احْتَجَّ بقولِهِ: ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [الآية: ٢٧] ولم يَقُلْ لكمْ، ومَنْ قرأ بالتاءِ جَعَلَ الخِطابَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ لِلْكَفَرةِ، أي سَتَعْلَمون غداً عندَ نزولِ العذابِ بكمْ مِنَ الكَذّابُ أنا أو أنتمْ، وهذا وعيدٌ منهُ لهمْ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ يَفْتِنُهُمْ بها، ويَمْتَحِنُهُمْ، لم يُعطِهِمْ مَجّاناً جُزافاً، كقولِهِ ﷻ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقولِهِ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أي فارْتَقِبْهُمْ بما يكونُ منهمْ مِنَ التَّكْذيبِ للناقةِ والعَقْرِ لها. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ هو خطابٌ لرسولِ اللهِ ﷺ في حقِّ أهلِ مكةَ كقولِهِ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أيِ اصْطَبِرْ على أذاهُمْ، ولاتُكافِئْهُمْ، أوِ اصْبِرْ على تبليغِ الرِّسالةِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وفيهِ مِنَ الفوائدِ والدلائِلِ:

---

(١) في الأصل وم: دعتهم. (٢) في الأصل وم: وقوله تعالى. (٣) ساقطة من الأصل وم . (٤) في الأصل وم: أو. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/٣٦. (٦) انظر المرجع السابق وصفحته.

إحداها[1]: أنَّ تلكَ الناقةَ كانَتْ عظيمةً على خِلافِ سائِرِ النوقِ حتى احتاجَتْ هيَ إلى الماءِ مِثْلَ الذي احتاجَتْ إليهِ سائرُ النوقِ وأهلُها حتى قَسَمَ الماءَ بينَها[وبينَهُمْ].

والثانيةُ:][2] أنهُ لا بأسَ بِقِسْمةِ الشِّرْبِ حينَ[3] ذَكَرَ في الآيةِ قِسْمةَ الماءِ [وذَكَرَ][4] في الآيةِ الأُخرَى ﴿شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وهو قِسْمةٌ بالأيامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي كلُّ شِرْبٍ يَحْضُرُهُ مَنْ لهُ شِرْبُ ذلكَ، لا يَحْضُرُهُ غيرُهُ.

والثالثةُ[5]: أنَّ تلكَ الناقةَ، وإنْ كانَتْ آيةً ومعجزةً لهُ، فكانَتْ تَختَلِفُ، وتَشْرَبُ، كسائِرِ النوقِ التي ليسَتْ هي بآياتٍ، وإنْ كانَتْ تُخالِفُ سائرَ النوقِ في عِظَمِها وقَدْرِ عَلَفِها وشِرْبِها.

[والرابعةُ: أنهُ][6] جَعَلَ الماءَ بَينَها وبينَ أولئكَ القومِ بالقِسْمةِ [ولم يجعلِ العَلَفَ بينها وبَينَهُمْ بالقِسمةِ][7] لاشتراكِهِمْ جميعاً في الماءِ؛ أعني البهائمَ والبَشَرَ، وحاجةُ كلٍّ منهمْ إلى الماءِ، فكذا لم يَجْعَلِ النَّباتَ مُشْتَرَكاً بينَها وبَينَ سائرِ البهائمِ لأنَّ في ذلكَ كَثْرةً فلا حاجةَ إلى القسمةِ.

فأمّا في الماءِ في ذلكَ المَوضِعِ فَعَيْرُهُ[8] لِما يَسْقُونَ مِنَ الآبارِ[ولذلكَ جَعَلَ][9] الماءَ بالقِسْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

[والخامسةُ:][10] أنَّ المِياهَ إذا ضاقَتْ قِسْمَتُها بالأجرِ[جازَتْ قِسْمَتُها][11] بالأيامِ مِنْ حيثُ جُعِلَ لها ﴿شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

[والسادسةُ][12]: أنَّ الماءَ، وإنْ كانَ عَيناً، فهو كالمَنْفَعَةِ في جَوازِ قِسْمَتِها بالأيامِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الخِطابُ لِصالحٍ ﷺ أمَرَهُ أنْ يُنْبِئَ قومَهُ ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ وبَينَ الناقةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الخِطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ أمَرَهُ أنْ يُخبِرَ قومَهُ أنَّ الماءَ كانَ قِسْمةً بينَهُمْ وبَينَ الناقةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أضافَ العَقْرَ ههنا إلى واحدٍ، وفي آيةٍ أُخرَى أضافَ إلى الجماعةِ، وهو قولُهُ: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧] وقولُهُ[13] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

فيكونُ ظاهرُ هذهِ الآياتِ على التَّناقُضِ مِنْ حيثُ ذِكْرُ الفَرْدِ والجماعةِ، وفيهِ تناقُضٌ مِن وجْهٍ آخَرَ؛ فإنهُ ذَكَرَ في آيةِ ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧] وقالَ في مَوضعٍ [آخَرَ:] ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

ذَكَرَ الندامةَ، وهي خِلافُ العُتُوِّ، لكنّا نقولُ: لاتَناقُضَ، ولا اختِلافَ عندَ اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ؛ فقولُهُ ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ بهمُ العذابُ، وقولُهُ: ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ إذا نَزَلَ بهمُ العذابُ، والتَّناقُضُ في وقْتٍ واحدٍ، في حالٍ واحدٍ.

وكذلكَ العَقْرُ مِنْ واحدٍ على الحَقيقةِ، ولكنْ إنما أضافَ إلى الجماعةِ لأنهُ عَقَرَ بِمُعاوَنَتِهِمْ، أيِ الواحدُ هو الذي طَعَنَها، ثم اجْتَمَعوا، فَعَقَروا جميعاً، ونَحْوُ ذلكَ، فَثَبَتَ أنهُ لا تَناقُضَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تَناوَلَ ﴿فَعَقَرَ﴾ أي ضَرَبَ عُرْقوبَها أي ساقَها. وقيلَ: العَقْرُ قد يكونُ جُرْحاً، وقد يكونُ قَتْلاً.

---

(١) في الأصل وم: أحدهما. (٢) في الأصل وم: وفيه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وفيه.
(٦) في الأصل وم: ثم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: فلذلك جعلوا، في م: فكذلك جعلوا.
(١٠) في الأصل وم: وفيه. (١١) في الأصل وم: القسم. (١٢) في الأصل وم: وفيه. (١٣) في الأصل وم: وقال.

الآيتان ٣٠ و٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ يَحتَمِلُ أي أرسَلْنا عليهمُ العذابَ قَدْرَ صَيحَةٍ واحدةٍ؛ يُخبِرُ عنْ سُرْعةِ نُزولِ العذابِ ووقوعِهِ عليهِمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ أرسَلَ عليهمُ الصَّيحةَ، وأهلَكَهُمْ، وصاروا كما ذَكَرَ مِنْ هَشيمِ المُحتَظِرِ، وهو قولُهُ[1]: ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾.

قيلَ: الهَشيمُ العظامُ الباليةُ، وقيلَ: كالشيءِ المُتَناثِرِ منَ الحائطِ. وأصلُ الهَشيمِ الانكِسارُ، أي صاروا كالشيءِ المُنكَسِرِ المُجتَمِعِ في مَوضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بِكَسرِ الظاءِ ونَصْبِهِ[2]؛ رُوِيَ النصبُ عنِ الحَسَنِ، قالَ أبو عُبَيدٍ: بالكَسْرِ يُقرَأُ على تأويلِ الإنسانِ المُحتَظِرِ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الهَشيمُ الباقي مِنَ الشَّجرِ، والمُحتَظَرُ الذي يُتَّخَذُ حظيرةً، وقالَ القُتَبِيُّ: الهشيمُ يابِسُ[3] النبتِ الذي يَنْهَشِمُ، أي يَنكَسِرُ، والمُحتَظِرُ بِكَسْرِ الظاءِ صاحبُ الحَظيرةِ لِغَنَمِهِ، وبِفَتْحِ الظاءِ أرادَ الحيطانَ، وهو الحَظيرةُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي يَسَّرْنا القرآنَ لِذِكْرِ ما نَسُوا مِنْ نِعَمِ اللهِ، وأغفَلوا عنها، أو يَسَّرْنا القرآنَ لِذِكْرِ ما أغْفَلوا مِنَ الحُجَجِ والآياتِ، ونَسُوها، أي يَسَّرنا القرآنَ لِذِكْرِ ما نَسُوا مِنَ الأنباءِ وما نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسُلِ ﷺ بالتكذيبِ والعِنادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قد تقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ألَيسَ الذي أُنْذِروا بِهِ وَجَدوا حقّاً؟ وقالَ /٥٤٠ ـ ب/ بعضُهُمْ: أليسَ وجَدوا عذابي ورُسُلي حقّاً. وقد ذَكَرْناهُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي بالرسُلِ ﷺ أو بما تَقَعُ بِهِ النِّذارةُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ على تأويلِ مَنْ يقولُ: إنَّ تلكَ القَرْياتِ قُلِبَتْ بِمَنْ فيها ظَهْراً لِبَطْنٍ على ما ذَكَرْنا في آيَةٍ أُخرى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢ والحجر: ٧٤]. أرسَلَ الحاصِبَ[4] على مَنْ غابَ عنها في البلدانِ، فأهْلَكَهُمْ بها.

يُخَرَّجُ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: قَلَبْناها بِمَنْ فيها، وأرسَلْنا على مَنْ غابَ عنها ﴿حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ حتى تَستَقيمَ الثُّنْيا التي اسْتَثنى، ويكونَ كقولِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] كأنهُ قالَ: أُحِلَّتْ لكمْ بهيمةُ الأنعامِ والصيدُ إلّا ما يُتْلَى عليكُمْ غَيرَ مُحِلِّي الصَّيدِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى[5] تأويلِ مَنْ يقولُ: إنها قُلِبَتْ، ثم أُرسِلَ عليها الحاصِبُ، فالثُّنْيا مُستقيمٌ، فيكونُ هلاكُهُمْ بأمْرَينِ، واسْتِثْناءُ آلِ لوطٍ ﷺ النجاةُ منهما[6] جميعاً، واللهُ أعلَمُ، بقولِهِ[7] تعالى: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي مَنَعْنا عنهمُ العذابَ عندَ السَّحَرِ، فيكونُ فيهِ دلالةٌ أنهُ يكونُ بِمَنعِ العذابِ عنهمْ مُنجِياً لهمْ، وإلّا لم تكُنْ نَجاتُهُمْ عندَ السَّحَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ هلاكُ أولئكَ على لوطٍ وآلِهِ نِعْمةً مِنَ اللهِ تعالى عليهِمْ، فيكونُ عليهِ شُكْرُهُ، فهو جَزاءُ شُكْرِهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هلاكُ أولئكَ وإغراقُهُمْ جَزاءَ ما كُفِرَ بنوحٍ، وذلكَ نِعْمَةٌ على نوحٍ عليه السلام

---

(١) في الأصل وم: كقوله. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٣٨. (٣) في الأصل وم: اليابس. (٤) في الأصل وم: الحاضرين. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: منها. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنْ تكونَ نجاةُ نوحٍ ومَنْ كانَ معهُ نِعْمةً منهُ عليهِمْ، إذْ لهُ أنْ يُهْلِكَ الكلَّ: مَنْ كَفَرَ ومَنْ لم يَكْفُرْ. ألا تَرَى أنهُ يُهْلِكُ الدَّوابَّ والصِّغارَ، وإنْ لم يكُنْ لهمْ مأثَمٌ؟ فإذا كانَ كذلكَ كانَ إبقاءُ مَنْ أبْقَى منهمْ فَضْلاً منهُ ونِعْمةً عليهِمْ، وإلّا لا كُلُّ كُفْرٍ استَوجبَ النجاةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ يُخَرَّجُ على الوجْهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهُما:

أحَدُهما: تَمارَوا بالواقِعِ مِنَ النِّذارةِ.

والثاني: ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي الرُّسُلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي طَلَبوا منهُ التَّخْليَةَ بينَهُمْ وبينَ ضَيفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ ذُكِرَ أنَّ جبرائيلَ ﷺ مَسَحَ جَناحَيهِ على أعيُنِهِمْ، فَعَمُوا، ثم قيلَ لهمْ: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [الآية: ٣٩]

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي نَزَلَ بهِمْ صباحاً بالبُكْرةِ عذابٌ مُستقِرٌّ؛ العذابُ المُستَقِرُّ، هو العذابُ الذي نَزَلَ بهِمْ، ودامَ عليهِمْ، وأهْلَكَهُمْ. وأمّا [طَمْسُ][1] الأعينِ فَقَدِ انقضَى.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ النُّذُرُ ههنا ما وَقَعَتْ بهِ النِّذارةُ.

الآيتان ٤٠ و٤١ وقولُهُ تعالى: [﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾][2] ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ يَحْتَمِلُ ما قالَ مِنَ النُّذُرِ أنهُ جاءَ إلى فرعونَ موسى وهارونُ ﷺ سَمّاهما بِاسْمِ الجَمْعِ، وهو النُّذُرُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ النُّذُرِ التي جاءَتْهُمْ هي ما نَزَلَ مِنْ أنواعِ العذابِ، فيكونُ المُرادُ بالنُّذُرِ ما وَقَعَتْ بهِ النِّذارةُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ يَحْتَمِلُ أنهمْ كَذَّبوا جميعَ الآياتِ التي جاءَهُمْ بها موسى مِنْ آياتِ الألوهِيَّةِ والوَحْدانيَّةِ وآياتِ الرسالةِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ هي جميعَ ما يَدُلُّ على وَحْدانيَّةِ الرَّبِّ وألوهِيَّتِهِ مِنَ الخلائقِ لأنَّ ذلكَ اللعينَ قدِ ادَّعَى الألوهِيَّةَ لنفسِهِ، وجميعُ ما في العالَمِ يَدُلُّ على ألوهِيَّةِ اللهِ تعالى؛ فهو حينَ[3] ادّعاها لِنَفْسِهِ، وصَدَّقَهُ قومُهُ، كَذَّبوا بذلكَ جميعَ الآياتِ التي تَشْهَدُ على ألوهِيَّةِ اللهِ تعالى ووَحْدانيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي أخْذَ عزيزٍ ذليلاً وأخْذَ غالبٍ مَغْلوباً وأخْذَ قادرٍ عاجِزاً وأخْذَ قاهِرٍ مَقْهوراً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ يقولُ اللهُ تعالى، واللهُ أعلَمُ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهلَ مكةَ أقْوَى في دَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ والانْتِصارِ منهُ، إذا نَزَلَ بهِمُ العذابُ منْ أولئكَ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ، أي ليسَ كُفّارُكُمْ أقْدَرَ منهُمْ، بل أولئكَ أكْثَرُ، ثم لم يَقْدِروا القِيامَ بِدَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ ولا الانْتِصارَ منهُ إذا نَزَلَ بهِمْ.

فأنتمْ يا أهلَ مكةَ أضْعَفُ وأقلُّ عدداً أحَقُّ ألّا تَقْدِروا على دَفْعِ العذابِ عنكُمْ، إذا نَزَلَ بكمْ.

أو يقولُ: ليسَ لكمْ براءةٌ في الكتبِ أنَّ العذابَ لنْ يُصيبَكُمْ، إذا نَزَلَ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي بل تقولونَ ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي لا يَنْصُرونكُمْ كَجَمْعِهِمْ هذهِ الآياتِ الثلاثِ على النَّفْيِ والدَّفْعِ: أي ليسَ لهمْ ما يدفعونَ العذابَ عنْ أنفسِهِمْ، وليسَ لهمْ ما يُنْصَرونَ بِهِ، ولا كُفّارُهُمْ خيرٌ مِنْ كُفّارِ أولئكَ في دَفْعِ العذابِ والقُدْرةِ على الانْتِصارِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث.

الآيتان ٤٥ و٤٦ ثم قولُهُ[1] على الابتداءِ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ فيهِ [أدلّةٌ:

أحدُها][2]: أخبرَ أنَّ لهمْ جَمْعاً يُهْزَمُ ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ما ذَكَرَ، وقد كانَ. [وقالَ][3] أهلُ التأويلِ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ هو جَمْعُ أهلِ بَدْرٍ، أخبرَ أنهمْ يُهْزَمونَ ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وقد كانَ ما أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ دلَّ أنهُ عَلِمَ باللهِ تعالى.

والثاني: أخبرَ أنَّ الساعةَ مَوْعِدُ إهلاكِهِمْ واستئصالِهِمْ لا الدنيا بقولِهِ: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ وكانَ كما أخبرَ.

[والثالثُ:][4] دلالةُ إثباتِ الرسالةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي أعظمُ وأشدُّ.

الآية ٤٧ وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ في الدنيا وفي السُّعُرِ في الآخِرَةِ، وهو السَّعيرُ. ويَحْتَمِلُ ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ في هَلاكٍ ﴿وَسُعُرٍ﴾ في حَيرةٍ وجُنونٍ وتِيهٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كأنهُ يقولُ لهُ: قُلْ لهمْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أنْ خَتَموا على ما هُمْ عليهِ ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يُقالُ لهمْ: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي ذوقوا عذابَ سَقَرَ، والسَّقَرُ هو اسمُ النارِ، فَيَصيرُ كأنهُ على الإضمارِ، أي يُقالُ لهمْ: ذوقوا عذابَ النارِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحدُها][5]: على التقديمِ والتأخيرِ، أي إنا قَدَّرْنا[6] كل شيءٍ [خَلَقْناهُ][7]. فيكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢و...].

والثاني[8]: إثباتُ خَلْقِ[9] كُلِّيَّةِ الأشياءِ.

والثالثُ[10]: على ظاهرِ ما جَرَى بِهِ[11] الخطابُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا كلَّ شيءٍ نُقَدِّرُهُ[12]. فإنْ كانَ على هذا فليسَ فيهِ إثباتُ خَلْقِ كُلِّيَّةِ الأشياءِ، ولكنْ فيهِ إثباتُ أنَّ ما خَلَقَهُ بِقَدَرٍ، وإلى هذا التأويلِ يَذْهَبُ المعتزلةُ.

والتأويلُ عندَنا هو الأوَّلُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقولِهِ: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢و...] ويَحْتَمِلُ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وَحَدٍّ يَنْتَهي إليهِ ذلكَ، أو يَبْلُغُ حَدَّهُ، ليسَ كالمخلوقِ، لا يَعْرِفُ أحدٌ قَدْرَ فِعْلِهِ ولا حَدَّهُ الذي يَنْتَهي، ولا يَخْرُجُ فِعْلُ أحدٍ مِنَ المَخْلوقاتِ على ما يُقَدِّرونَ.

فأخبَرَ أنَّ فِعْلَهُ يَخْرُجُ على ما يُقَدِّرُهُ خِلافاً لِفِعْلِ غَيرِهِ، فَيَدُلُّ على أنهُ هو الخالقُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ الأمْرُ في ما بَيْنَ الخَلْقِ على وجهَينِ:

أحدُهما: أمْرُ شأنٍ بالفِعْلِ

والآخَرُ: أمْرُ تكليفٍ لِغَيرٍ

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ إنما هو أمْرُ فِعْلٍ، يُخْبِرُ عنْ سُهولَةِ ذلكَ عليهِ، أي شأنُهُ وفِعْلُهُ يَسيرٌ عليهِ، لا يُعْجِزُهُ /٥٤١ ـ أ/ شيءٌ، ولا يَشْغَلُهُ.

فَعَلَى ذلكَ أمْرُ اللهِ وخَلْقُهُ عليهِ. والواحدُ: ليسَ هو اسْمَ العَدَدِ، وإنْ كانَ الحِسابُ بِهِ يُبْتَدَأُ، فإنما هو اسْمُ التَّوَحُّدِ والتَّفَرُّدِ كما يُقالُ: فلانٌ واحدُ زمانِهِ، لا يُريدونَ مِنْ جِهَةِ العَدَدِ، إذْ لهُ أعدادٌ وأمثالٌ مِنْ جِهَةِ العَدَدِ، ولكنْ إنما يُرادُ بأنهُ المُتَوَحِّدُ في شَأْنِهِ وفِعْلِهِ، ولا نَظيرَ لهُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: دليلان أحدهما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفيه أيضا. (٥) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٦) في الأصل وم: خلقنا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وفيه. (٩) من م، في الأصل: كل. (١٠) في الأصل وم: والثاني. (١١) في الأصل وم: الآية. (١٢) في الأصل وم: يقدر.

فَعلَى ذلكَ تَسْمِيَتُهُ نَفْسَهُ(١) واحداً لِتَفَرُّدِهِ وتَوَحُّدِهِ في الوهيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ، وتَسْمِيَةُ أمْرِهِ واحداً؛ إنَّ فِعْلَهُ وشأنَهُ لا يُشْبِهُ أفعالَ غَيرِهِ، وإنهُ لا نَظيرَ لهُ في ذلكَ، وإنهُ يَسيرٌ عليهِ، لا حاجَةَ لهُ إلى الوقْتِ والآلَةِ وغَيرِ ذلكَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾؟ يُخْبِرُ عن خِفَّةِ ذلكَ عليهِ وسُهولَتِهِ مِنْ حيثُ لا يَثْقُلُ على أحدٍ رَدُّ البَصَرِ ولا لَمْحُهُ. هذا وجْهٌ.

[ووجهٌ ثانٍ](٢) فيهِ إخبارٌ أنه لا يَشْغَلُهُ شيءٌ لأنَّ الناسَ يَشْغَلُهُمْ بعضُ أمورِهِمْ عنْ بعضٍ.

وأهلُ التأويلِ يَصْرِفونَ الآيَةَ إلى الساعةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وهو مُحْتَمَلٌ. فَيُخْبِرُ أنَّ الآخِرَةَ ليسَتْ على تقديرِ أمْرِ الدنيا على إتْباعِ بعضٍ بعضاً وعلى إرْدافِ شيءٍ على شيءٍ وعلى الانتِقالِ والتَّغييرِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ولكنَّ أمْرَ الآخِرَةِ على التَّكَوُّنِ بمَرَّةٍ واحدةٍ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهما: إخوانُكُمْ وأهلُ دينِكُمْ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ ﷺ واذْكُروا أنتمْ يا أهل مكةَ لِئلا تَهْلِكوا بِتكذيبِكُمْ محمداً ﷺ.

والثاني: أي ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ وعَرَفْتُمْ ذلكَ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يَتَذَكَّرُ، ويَتَّعِظُ، ويَعْتَبِرُ به؟ وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: ولقد أهْلَكْنا جِنْسَكُمْ، والحكيمُ لا يَخْلُقُ الخَلْقَ للفَناءِ والهَلاكِ، فاعْلَموا أنهُ أنْشَأكُمْ لِعاقبةٍ.

وفيهِ إثباتُ البَعْثِ، لكنهُ لا تُدْرِكُهُ أفهامُ الكَفَرَةِ وعقولُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ مِنَ التَّكْذيبِ والعِنادِ كانَ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ؛ أي عنْ عِلْمٍ بصنيعِهِمْ وفِعْلِهِمْ أنْشَأهُمْ، وبَعَثَ إليهِمُ الرسُلَ.

وهو رَدٌّ على مَنْ يقولُ: إنهُ لا يَعْلَمُ ما يكونُ منهمْ حتى يكونَ منهمْ ذلكَ، لأنهُ لو كانَ يَعْلَمُ ذلكَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَبْعَثَ الرسلَ ﷺ إليهِمْ، ويأمُرَهُمْ، ويَنْهاهُمْ، وهو يَعْلَمُ أنهمْ يكذِّبونَ رُسُلَهُ، ويُخالِفونَ أمْرَهُ.

فَرَدَّ، وبَيَّنَ أنهُ لم يَزَلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ. وقد بَيَّنّا قَبْلَ هذا أنهُ تعالى بَعَثَ الرسُلَ ﷺ وإنْ عَلِمَ منهمُ التَّكذيبَ والخِلافَ، وذلكَ لأنَّ المَنافِعَ والمَضارَّ راجِعةٌ إليهِمْ دونَهُ، واللهُ أعلَمُ

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في الكُتُبِ التي تَكْتُبُ عليهِمُ الملائكةُ، ويُؤمَرونَ بالقراءةِ في القِيامةِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ هذا أيضاً يُخَرَّجُ على هذينِ الوجْهَينِ:

أحَدُهما: ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ في الكتبِ التي قَبْلَهُمْ.

[والثاني: ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ في كُتُبٍ](٣) الذينَ يُمْلونَ على الحَفَظَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [القمر: ٤٧و٤٨] وقولِهِ(٤) في موضعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤].

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾](٥) اخْتُلِفَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَنَهَرٍ﴾

قيلَ: ﴿وَنَهَرٍ﴾ مِنَ النهارِ، أي هُمْ في ضياءٍ ونورٍ وسُرورٍ، وهو قولُ الأصَمِّ.

وقالَ الفَرّاءُ: النَّهَرُ السَّعَةُ؛ يُقالُ: أنْهَرْتُ الطَّعْنَةَ، أي وَسَّعْتُها.

وقالَ أهلُ التأويلِ: أيِ الأنهارُ.

---

(١) في الأصل وم: إياه. (٢) في الأصل وم: والثاني. (٣) في الأصل وم: أو في. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: ثم.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي مَوعودِ صِدْقٍ؛ كأنهُ كِنايةٌ عنْ راحةٍ وسرورٍ لهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] أخبرَ أنهمْ يَستَريحونَ فيها، أو يَسْكُنونَ، ويَقِرّونَ، لا يُريدونَ التَّحَوُّلَ عنها.

وهو مُقابِلُ ما ذَكَرَ لِلْكُفارِ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] أي يُجَرّونَ وقولِهِ تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] وقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧] يَطْلبونَ الخُروجَ منها، وأخبَرَ أنهمْ يكونونَ أبداً في عَناءٍ وشِدَّةٍ وبَلاءٍ حتى لا يَقِرّ(1) في مكانٍ.

وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] أي لهمْ مَوعودَ صِدْقٍ عندَ ربِّهِمْ، أي تَقِرُّ أقدامُهُمْ في ذلكَ، فيكونُ هو كِنايةً عنِ الثباتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ إنَّ الرَّجُلَ إذا كانَ في فَضلٍ وخَيرٍ يُضافُ بكونِهِ فيهِ إلى اللهِ تعالى نَحْوُ ما يُقالُ: في سَبيلِ اللهِ تعالى، وَوُفودُ اللهِ، وغيرُ ذلكَ مِنَ الأمْكِنةِ التي هي أمْكِنةُ الفَضْلِ والخَيرِ؛ تُضافُ إلى اللهِ، نَحْوُ بيتِ(2) اللهِ ومساجدِ(3) اللهِ لأنها أمْكِنةُ القُرْبِ والفَضْلِ.

فَعلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أضافَ كونَهُمْ في أمْكِنةِ الفَضْلِ والخَيرِ والمنزلةِ إليهِ(4) تعالى لا لأنهُ(5) يوصفُ بِمَكانٍ أو مُقامٍ بل [لأنهُ](6) هو مُمْسِكُ الأمْكِنةَ كلِّها ومُنْشِئُ الأمْكِنةَ بأسْرِها، واللهُ المُوَفِّقُ.

تم بعون الله

المجلد الرابع، ويليه

المجلد الخامس والأخير، وأوله سورة الرحمن

(١) في الأصل وم: يقرون. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]. (٤) في الأصل وم: عند الله. (٥) في الأصل وم: أنه. (٦) ساقطة من الأصل وم.

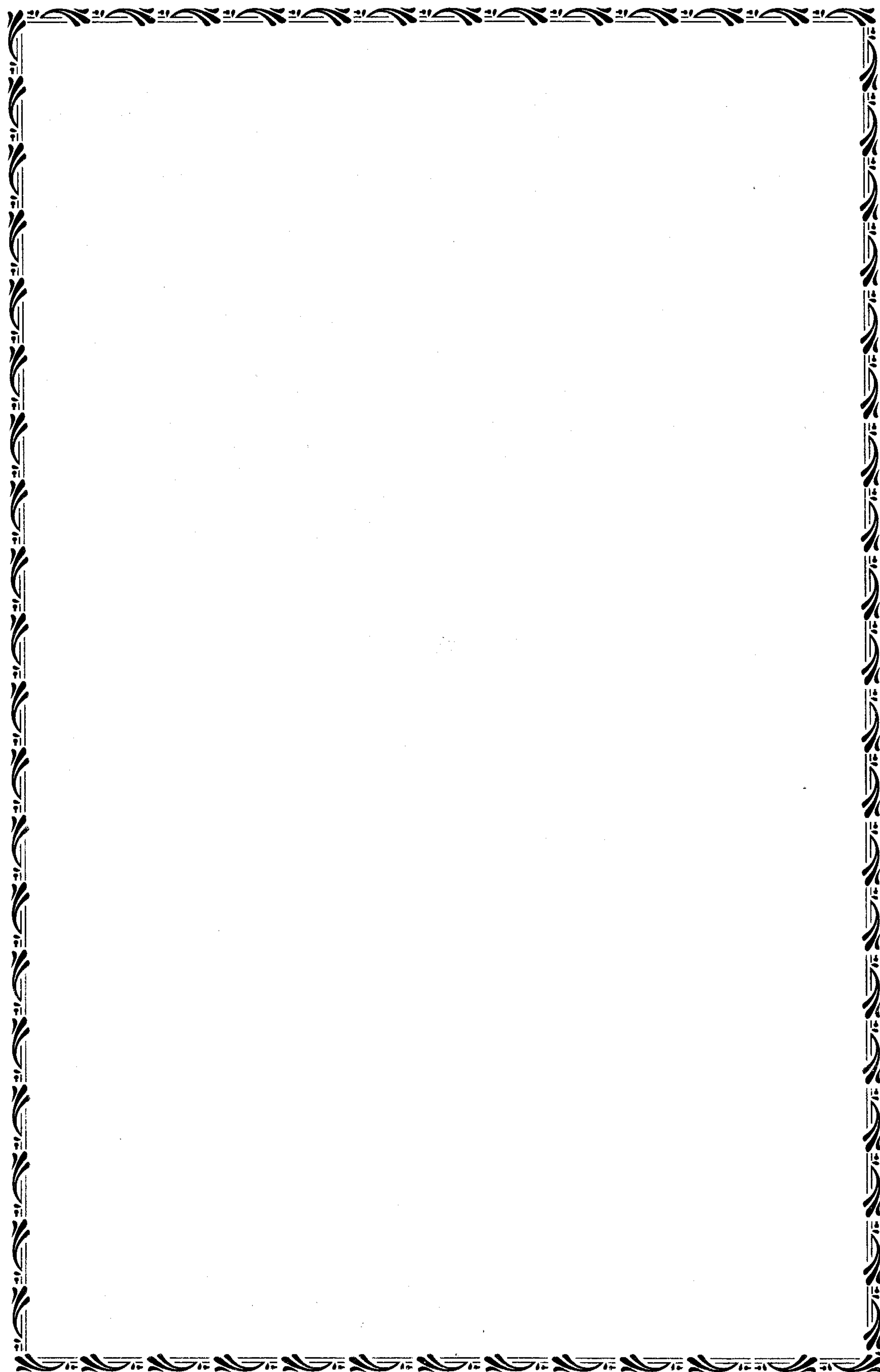

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي

(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الخامس

مؤسسة الرسالة ناشرون

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
مروان رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon
Email:
resalah@resalah.com
Web site:
http://www.resalah.com

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

اللهمَّ

اجْعَلْني ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومنْ يقْرَؤهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة[1] الرحمن

مكية. وقيل: مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قد عَرَفَتِ العَرَبُ، وعَلِمَتْ أنَّ الرحمنَ على مِيزانِ فَعْلانَ مُشتَقٌّ مِنَ الرحمةِ. لكنَّ أحداً مِنَ الخلائقِ لا يَبْلُغُ في الرحمةِ مَبْلَغاً يَستَحِقُّ التَّسمِيَةَ بِهِ رحمانَ. لِذلكَ خَصَّ اللهُ تعالى نَفسَهُ بِتَسمِيَةِ رحمانَ، وإنْ كانَ مُشتَقًّا مِنَ الرحمةِ كالرحيمِ، وجازَ تَسْمِيَةُ غيرِهِ رحيماً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ذَكَرَ أنَّ الرحمنَ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ولَمْ يَذْكُرْ لِمَنْ عَلَّمَهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ أنهُ تَبارَكَ، وتعالى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ رسولَنا ﷺ ثم يُخَرَّجُ ذلكَ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ جبرائيلُ عليه السلام[2] ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥و٦] لكنْ خَرَجَتِ الإضافةُ إلى اللهِ تعالى لِما أنهُ عَلَّمَهُ بأمرِهِ.

والثاني: أضافَ التعليمَ إلى نفسِهِ لِما أنهُ هو الذي أثْبَتَهُ في قَلْبِهِ حتى لا يَنساهُ كقولِهِ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦و١٧] وقولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

والثالثُ: أضافَ إلى نفسِهِ وأنهُ عَلَّمَهُ جبرائيلُ عليه السلام لأنهُ هو الخالقُ لِفِعْلِ التَّعْليمِ مِنْ جبرائيلَ عليه السلام.

الآيتان ٣ و٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ أي آدمَ عليه السلام و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أيِ الأسماءَ التي ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] إذْ لا سَبيلَ إلى مَعْرِفَةِ الأسماءِ إلّا بالتَّلْقِينِ، لَيسَتْ كالأشياءِ التي تُعْرَفُ، وتُدْرَكُ بالاِسْتِدْلالِ.

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ أي خَلَقَ كلَّ إنسانٍ، و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي علَّمَهُ بَيانَ ما يَمتَحِنُهُمْ بِهِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَخْلُقِ الإنسانَ لِيَتْرُكَهُ سُدًى.

ويَحْتَمِلُ علَّمَ كلَّ إنسانٍ ما غابَ عنهُمْ حتى عَرَفوا بما شاهدوا مِنَ اللَّوْنِ والطَّعْمِ واللَّذَّةِ / ٥٤١ ـ ب/ عِلْمَ ما غابَ عنهُمْ مِنْ جِنْسِهِ ولَونِهِ ولَذَّتِهِ اسْتِدلالاً بما شاهدوا.

ويَحْتَمِلُ الاِسْتِدْلالَ بالشاهِدِ على مَعْرِفَةِ اللهِ تعالى، وهو أنهمْ لمّا شاهدوا الإنسانَ[3] مُحْتاجاً عاجزاً مُحاطاً بالحَوائجِ والحوادثِ، عَرَفوا أنَّ لهُ خالقاً قادراً أنْشَأهُ كذلكَ.

ويَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ تَعْليمِ البَيانِ بَيانَ القرآنِ، وذلكَ راجعٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ بَيانَ القرآنِ[4] حتى يُبَيِّنَ للناسِ كلَّ ما يَحتاجونَ إليهِ وما لهمْ وما عليهِمْ.

وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ بعضُهُ إلى النَّبِيِّ ﷺ وهو قولُهُ: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وبعضُهُ إلى آدمَ عليه السلام وهو قولُهُ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ آدمَ، و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ بَيانَ الدنيا والآخِرَةِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: حتى. (٣) في الأصل وم: الأشياء. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: هو.

وجائزٌ أنْ يكونَ خَلَقَ الإنسانَ كلَّ إنسانٍ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ و﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي علَّمَهُ شيئاً مِنْ بَيانِ القرآنِ مِنَ الأحكامِ والشرائعِ ونَحْوِ ذلكَ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي الكلامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: بوجهَينِ:

أحَدُهما: أي يُحْسَبُ بهما عَدَدُ الأوقاتِ والأزمِنةِ، ويُعْرَفُ بهما حسابُ ذلكَ.

والثاني: أي يُحْسَبُ بهما حِسابُ مَنازِلِهما التي يَطْلُعانِ منها، ويَغيبانِ فيها، ومَجارِيهِما التي يَجْرِيانِ فيها، لا يَتجاوَزانِها في شِتاءٍ ولا صَيفٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ جَمْعُ الحِسابِ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ بِحِسابِ منازِلَ لا يَعْدُوانِها.

وفيهِ زيادةُ مَعْنًى: أنَّ اللهَ جَعَلَهما بحيثُ تُعْرَفُ بهما حَقيقةُ أعْيُنِ الأشياءِ لِما جَعَلَ فيهما مِنَ النورِ والضِّياءِ الذي [بِهِ][1] تَتجلَّى لِلْخَلْقِ الأشياءُ المَستورَةُ، فَيُقالُ لِمُنكِري[2] الرسالةِ وتفضيلِ بعضِ البَشَرِ على بعضٍ: أما[3] شاهَدْتُمْ أشياءَ، خُصَّتْ بِفَضْلِ ضِياءٍ وتَجْلِيَةٍ[4]؟ فَلِمَ أنْكَرْتُمْ فَضْلَ بعضِ البَشَرِ بِفَضْلِ بَيانٍ وعِلْمٍ ورِسالةٍ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ : ﴿وَٱلنَّجْمُ [وَٱلشَّجَرُ﴾][5] يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: الكواكبُ، فإنْ كانَ هو المُرادُ فكأنهُ يقولُ: يَسْجُدُ لهُ ما بهِ زينةُ الدنيا وما بهِ زينةُ الأرضِ، وهي الكواكبُ، وهي الأشجارُ.

[والثاني][6]: يَحْتَمِلُ النجمُ كلَّ نَبْتٍ يَنْبُتُ في الأرضِ، لا ساقَ لهُ، والشَّجَرُ هو الذي لهُ ساقٌ؛ كأنهُ يقولُ: يَسْجُدُ لهُ كلُّ ما يَظْهَرُ مِنَ الأرضِ، ويَخْرُجُ: ما ارْتَفَعَ، وعلا، وما لم يرْتَفِعْ.

ثم سُجودُهما يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: سُجودُ خِلْقَةٍ؛ قد جَعَلَ اللهُ تعالى في خِلْقَةِ كلِّ شيءٍ دلالةَ السُّجودِ لهُ والشهادةَ لهُ بالوَحْدانيَّةِ.

والثاني: سُجودُ هذهِ الأشياءِ المَواتِ طاعتُها لهُ عنِ اضْطِرارٍ وتَسْخيرٍ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والثالثُ: سُجودُ حَقيقةٍ؛ يَجْعَلُ اللهُ في سِرِّيَّةِ[7] هذهِ الأشياءِ مَعْنًى تَسْجُدُ[8] بهِ للهِ تعالى، يَعْلَمُهُ هو، ولا يَعْلَمُهُ غَيرُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقالَ بعضُ الناسِ: سُجودُهما هو تَمثيلُ ظِلالِهِما كقولِهِ تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثم لا يَلْزَمُ السُّجودُ بِتلاوةِ هذهِ الآيةِ وأمثالِها ممّا ذَكَرَ [مِنْ][9] سُجودِ المَواتِ وطاعتِها لأنها مَواتٌ، ليسَتْ بأهلِ السجودِ، وإنما سُجودُها عنِ اضْطِرارِ كلِّ مَخْلوقٍ في معناهُ في الدلالةِ على السُّجودِ.

وإنما يَلْزَمُ السُّجودُ بِتِلاوةِ آياتٍ ذُكِرَ فيها سُجودُ مَنْ هو مِنْ أهلِ السُّجودِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أرادَ حقيقةَ الرفعِ، أي رَفَعَها بلا عَمَدٍ مِنَ الأسفَلِ ولا تَعْليقٍ مِنَ الأعلَى، أي أنْشأها كذلكَ مَرْفوعةً، لا أنْ كانَتْ مَوْضوعةً، فَرَفَعَها، وأمْسَكَها كذلكَ لِيُعْلَمَ أنَّ قُدرَتَهُ خِلافُ قُدْرَةِ الخَلْقِ وقُوَّتِهِمْ.

والثاني: ﴿رَفَعَهَا﴾ أي رَفَعَ قَدْرَها ومَنْزِلَتَها في قُلوبِ الخَلْقِ حتى يَرْفَعوا أيديَهُمْ وأبصارَهُمْ إليها عندَ الحاجةِ لِما جَعَلَ لهمْ فيها مِنَ الأرزاقِ والبَرَكاتِ التي تَنْزِلُ مِنَ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في م: بها، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: لمنكر. (٣) في الأصل وم: كما. (٤) في الأصل وم: وتجلي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل: سيرته. (٨) في الأصل وم: يسجدون. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ الذي يَزِنُ الناسُ بهِ الأشياءَ، وبهِ يَتحقَّقُ الإيفاءُ والاِسْتيفاءُ؟ امْتَحَنَهُمْ بذلكَ لِيَعْرِفوا بذلكَ قُبْحَ التَّقْصيرِ في ما أُمِروا بهِ والمُجاوَزَةِ عمّا نُهُوا عنهُ. وذلكَ يَحْتَمِلُ في الأحكامِ والشَّرائعِ والتَّوحيدِ وصَرْفِ الأُلوهِيَّةِ والعبادةِ إلى غَيرِ الذي يَسْتَحِقُّهُ لِيَعْلَموا التَّقْصيرَ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ المُرادُ بالميزانِ أنَّ الأحكامَ التي وُضِعَتْ بَينَ الخَلْقِ والشرائعِ التي جُعِلَتْ عليهِمْ لِيَقوموا بِوَفائِها، ويَنْتَهُوا عنِ التَّقْصيرِ فيها والتَّعَدِّي عنْ حُدودِها.

وقيلَ: الميزانُ العَدْلُ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ أنَّ المَوازينَ ثلاثةٌ:

أحَدُها: العقولُ، وهي التي تُعْرَفُ بها مَحاسِنُ الأشياءِ ومَساوِئُها وقُبْحُ الأشياءِ وحُسْنُها.

والثاني: الميزانُ الذي جُعِلَ بَينَ الخَلْقِ لِإيفاءِ الحقوقِ والاِسْتيفاءِ.

والثالثُ: الذي جُعِلَ في الآخِرَةِ لِيُوفَّى بهِ ثوابُ الأعمالِ وجَزاؤُها، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ أي لا تَنْقِصوا في الميزانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الأمْرُ بإقامةِ الوَزْنِ والإتمامِ في الوَزْنِ: أمْرٌ بالإتمامِ ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ نَهْيٌ عنِ النُّقْصانِ. والأمْرُ بالشيءِ نَهْيٌ عنْ ضِدِّهِ. وههنا جَمَعَ بَينَهما صريحاً تأكيداً لِبابِ الوَزْنِ والميزانِ. ويَحْتَمِلُ الوجوهَ الثلاثةَ التي ذَكَرْنا.

وعنْ قَتادَةَ [أنهُ قالَ][1]: كانَ ابْنُ عباسٍ ﷺ يقولُ: يا مَعْشَرَ المَوالي إنكُمْ قد وُلّيتُمْ أمْرَينِ [بهما][2] هَلَكَ الناسُ، هما[3] المِكْيالُ والمِيزانُ.

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ في المِيزانِ باللِّسانِ أي لِسانِ المِيزانِ.

وقيلَ لِابْنِ عُمَرَ ﷺ: إنَّ أهلَ المدينةِ لا يُوفونَ الكَيلَ، قالَ: وما يَمْنَعُهُمْ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

الآية ١٠ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: الأنامُ][4]: هو كلُّ ذي رُوحٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الأنامُ، هو جَمْعُ الخَلْقِ. ولكنْ عندَنا الأنامُ كأنهُ البَشَرُ لأنهُ[5] أخبَرَ أنَّ الأرضَ أنْشَأها لِلْبَشَرِ، وَوَضَعَها لهمْ، وهو ما ذَكَرَ في مَواضِعَ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩و...] [وقالَ في مَواضِعَ]: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠و...].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ التي أنْشَأها لهمْ في الأرضِ مِنَ الفواكِهِ وأنواعِ الثمارِ والحبوبِ التي جَعَلَها رِزْقاً لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي ذاتُ الغُلُفِ والأغطيةِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ بِرَفْعِ[6] النونِ وكَسْرِها. فَمَنْ كَسَرَها ذهبَ إلى الرَّيحانِ، وهو الرِّزْقُ الذي تُرْزَقونَ مِنَ الحبوبِ والثمارِ، والعَصْفُ: الوَرَقُ، فيكونُ المعنى: والحبُّ ذو الورقِ والرِّزْقِ.

ومَنْ رفَعَها فَعَلَى الاِبْتِداءِ عَطفاً على الحَبِّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: الآية. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/٤٦.

واختلَفوا في تَفسيرِ العَصْفِ والرَّيحانِ: منهمْ مَنْ قالَ: العَصْفُ وَرَقُ الزَّرْعِ مِنَ الحِنْطَةِ والشَّعيرِ وغَيرِهما، وقيلَ: هو التِّبْنُ، وقيلَ: هو أوَّلُ ما يَنْبُتُ مِنَ الزَّرْعِ، وقيلَ: العَصْفُ هو الزَّرْعُ نفسُهُ. ولكنْ أضافَ العَصْفَ إلى الحَبِّ لِما منهُ يَنْشأُ الحَبُّ، ومنهُ يَخْرُجُ.

وأمّا الرَّيحانُ [فقد قيلَ:][1] هو خُضْرَةُ الزَّرْعِ، وقيلَ: هو الذي يُشَمُّ، وقيلَ: هو الرِّزْقُ الذي يُرْزَقونَ مِنَ الحبوبِ والثمارِ.

كذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ الرَّيحانُ هو الحَبُّ، وقالَ القُتَبِيُّ: الرَّيحانُ الرِّزْقُ؛ يُقالُ: اطْلُبْ رَيحانَ اللهِ أي رِزْقَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذا خِطابٌ للجِنِّ والإنسِ، وفيهِ دلالةٌ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ مَبْعوثاً إلى الإنْسِ والجِنِّ/ ٥٤٢ ـ أ/ جميعاً.

أَلَا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وقيلَ: ليسَ أنْ يخاطِبَها جُمْلَةً ولكنْ يُخاطِبُ كلَّ إنسيٍّ وجِنِّيٍّ في نفسِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥] ليسَ أنْ قالَ الفريقانِ جميعاً كونوا هوداً تَهْتَدوا. ولكنْ قالَ اليهودُ: كونوا هوداً تَهْتَدوا، وقالَ النَّصارى: كونوا نَصارى تَهْتَدوا. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عنْ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ [أنهُ][2] قالَ: «خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ على أصحابِهِ، فَقَرأَ سورةَ الرحمنِ مِنْ أوَّلِها، فَسَكَتوا، فقالَ: لقد قَرَأْتُها على الجِنِّ، فكانوا أحْسَنَ مَرْدوداً منكُمْ، كانوا كلَّما قَرَأْتُ عليهِمْ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ مِنْ آلائِكَ رَبَّنا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحمدُ» [الترمذي ٣٢٩١]

ثم في ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ [الآيات: ١٠و١١و...] إلى آخِرِهِ يَذْكُرُ نِعْمَهُ وقُدْرَتَهُ وتَدْبيرَهُ وعِلْمَهُ وَوَحْدانِيَّتَهُ.

أمّا نِعَمُهُ فإنها[3] بَسْطُ الأرضِ لهمْ بما فيها مِنْ أنواعِ الحبوبِ والفواكِهِ التي بها قِوامُهُمْ والعَصْفِ وأنواعِ النباتِ التي بها قِوامُ دوابِّهِمْ. وأمّا بَيانُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ فإنشاءُ هذهِ الفواكِهِ والحبوبِ في أكمامِها ما يُعْجِزُ الخَلْقَ عنْ إحداثِ شيءٍ وفِعْلِهِ في العِلْقِ لِيُعْلِمَ أنَّ صُنْعَهُ وفِعْلَهُ خارجٌ عنِ المُعالَجاتِ والمُمارساتِ التي لا يَتَحقَّقُ معَ الأغطيةِ. فإنَّ قدرتَهُ وفِعْلَهُ غيرُ مَقيسَينِ بأفعالِ الخَلْقِ وقُدْرَتِهِمْ.

كذلكَ الأولادُ في البُطونِ والفِراخُ في البَيضِ وأمثالُها في الظُّلُماتِ لِيُعْلَمَ أنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ. ثم إنشاءُ هذهِ الثمارِ والحبوبِ في الوقتِ الذي لا يُحْتَمَلُ [فيه][4] البردُ والحَرُّ في الأكمامِ مِنْ وراءِ الحُجُبِ، وإمساكُها فيها في حالِ ضَعْفِها، فإذا اشْتَدَّتْ، وقَوِيَتْ، أخْرَجَها في العِلْقِ، في ذلكَ لُطْفٌ منهُ ونِعْمَةٌ عظيمةٌ على خَلْقِهِ. وفيهِ إثباتُ البَعْثِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ هذهِ الأشياءِ قادرٌ على إعادةِ الخَلْقِ.

والثاني: أنهُ لمّا أنْشَأَ لهمْ ما ذَكَرَ، ثم منهمْ مَنْ شَكَرَ هذهِ النِّعَمَ، ومنهمْ مَنْ كَفَرَ، ثم اسْتَوَيا في هذهِ الدنيا. وفي الحكمةِ التفريقُ بَينَهما، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى، فيها يُفَرِّقُ بينَهما.

وفيهِ لُزومُ الامْتِحانِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يُنْشِئَ لهمْ هذهِ النِّعَمَ، ثم يَتْرُكَهُمْ سُدًى لا يَسْتَأدي شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ. ثم مَعْرِفَةُ الشاكِرِ منهمْ والكافِرِ لا تُعْرَفُ إلّا بِمُعَرِّفٍ يُعَرِّفُهُمْ، لأنَّ مقدارَ الشُّكْرِ وكيفِيَّتَهُ لا يُعْرَفانِ[5] بِمُجَرَّدِ العقلِ، فَيَضْطَرُّهُمْ إلى رسولٍ يُخْبِرُهُمْ عنِ اللهِ تعالى ذلكَ، فيكونُ فيهِ إثباتُ الرسالةِ.

ثم في إخْراجِ هذهِ الحبوبِ والفواكِهِ كلِّها في وقتٍ واحدٍ مِنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ على سَنَنٍ واحدٍ في زمانٍ واحدٍ مِنْ غيرِ تَفاوُتٍ دليلٌ على أنَّ عِلْمَهُ وتَدْبيرَهُ أزَلِيّانِ ذاتِيّانِ؛ إذْ لم يَمْنَعْهُ شيءٌ عنْ شيءٍ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: فإنه. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعرف.

ثم اتِّساقُ ذلكَ واتِّصالُ ما ذَكَرَ مِنْ مَنافِعِ الأرضِ بِمَنافِعِ السماءِ مِنْ غَيرِ مَدْخَلٍ مِنْ أحدٍ دليلٌ على وَحْدانِيَّتِهِ؛ إذْ لو كانَ ذلكَ فِعْلَ عَدَدٍ ما جَرَى ذلكَ على سَنَنٍ واحدٍ على ما هو التَّدافُعُ والتَّمانُعُ في الأمْرِ القائمِ بَيْنَ اثْنَيْنِ عندَ الاخْتِلافِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ ذَكَرَ في خَلْقِ الإنسانِ أحوالاً مُخْتَلِفَةً:

مَرَّةً قالَ: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] والترابُ هو الذي لم يُصِبْهُ الماءُ.

ومَرَّةً قالَ: خَلَقَهُ ﴿مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢و٠٠] والطينُ هو [الترابُ][١] الذي أصابَهُ الماءُ، واعْتُجِنَ. ومَرَّةً قالَ: [خَلَقَهُ][٢] ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] واللازِبُ هو الذي يَلْتَصِقُ باليَدِ، ويَلْزَقُهُ، وهو الجِيرُ الخالصُ.

وقالَ مَرَّةً: [خلَقَهُ][٣] ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وهو الذي اسْوَدَّ، وتَغَيَّرَ مِنْ طولِ المُكْثِ.

ومَرَّةً قالَ: [خَلَقَهُ][٤] ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] والصَّلْصالُ هو الذي لهُ صوتٌ إذا حُرِّكَ، وهو مِنْ صَلْصَلَةِ الحديدِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ أي مُنْتِنٍ، يُقالُ: صَلَّ البِئْرُ إذا أنْتَنَ، والفَخَّارُ هو الذي تَكَسَّرَ إذا يَبِسَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الفَخَّارُ الذي طُبِخَ.

فجائزٌ أنْ تكونَ هذهِ الأحوالُ التي ذُكِرَتْ على اخْتِلافِها في ذلكَ الإنسانِ: كانَ في الابْتِداءِ تُراباً، ثم صارَ لازِباً لأنهُ كانَ مِنْ جَيِّدِ الطينِ وحُرِّهِ. ثم صارَ مَسْنوناً مُنْتِناً أسْوَدَ لِطولِ مُكْثِهِ، وصَلْصالاً لِكَثْرَةِ تَرْبِيَتِهِ ولِجَودَتِهِ، يكونُ لهُ صَوتٌ. وتَشْبيهُهُ بالفَخَّارِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: تَكَسُّرُهُ[٥] ويُبْسَهُ: لأنهُ[٦] كانَ ذا جوفٍ كالفَخَّارِ أو لِطولِ المُكْثِ وكَثْرَةِ التَّرْبِيَةِ؛ إذْ طينُ الفَخَّارِ لهُ هذهِ الصفاتُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ الجانُّ[٧] ذُكِرَ انهُ أبو الجِنِّ وأنَّ[٨] لَفْظَةَ ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ الوُحْدانُ، والجِنُّ جماعةٌ.

وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ: الجانُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المارجُ هو لَهَبُ النارِ، صافٍ، لا دُخانَ فيهِ؛ يُقالُ: مَرَجَتِ النارُ، إذا الْتَهَبَتْ، فالمارجُ على هذا النارُ التي فارَقَتِ الحَطَبَ، والْتَهَبَتْ، وارْتَفَعَتْ عنهُ. وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ: المارجُ ههنا اللَّهَبُ مِنْ قولِكَ: مَرَجَ الشيءُ إذا اضْطَرَبَ، ولم يَسْتَقِرَّ.

وعلى ما قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣ والرحمن: ١٩] أي خَلَطَ، وجَمَعَ بَينَهما، يَجيءُ أن يكونَ خَلْقَ الجانِّ مِنْ نارٍ غَيرِ مُنْقَطِعةٍ مِنَ الحَطَبِ ولا خاليةٍ مِنَ الدُّخانِ. وكذا قالَ أبو عُبيدٍ: ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي مِنْ خَلْطٍ مِنَ النارِ.

وعلى تأويلِ مَنْ قالَ في قولِهِ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسَلَ أحَدَهما في الآخَرِ؛ فهو يكونُ مِنْ نارٍ مُنْقَطِعَةٍ مِنَ الحَطَبِ.

وليسَ لنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ حاجةٌ، إنما الحاجةُ إلى مَعْرِفةِ ما أودَعَ مِنَ الحِكْمةِ في ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ آدمَ ﷺ مِنَ الترابِ وخَلْقِ الجانِّ مِنَ النارِ والفائدةِ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

يُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ: أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ الإنسانِ مِنْ ذلكَ الترابِ وإخراجِ جميعِ ما في الدنيا مِنَ الناسِ مِنْ نَفْسٍ [واحدةٍ][٩] لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ ألوانِ النارِ وإخراجِ ما أخْرَجَ منهُ مِنَ النَّسْلِ حتى أخَذَ الدنيا بأسْرِها، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولو[١٠]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لتكسره. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أو. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الآية. (٨) في الأصل وم: وأنه. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ولا ما.

اجْتَمَعَ حُكَماءُ البَشَرِ والجِنِّ [ما][1] أدرَكوا المَعْنَى الذي بِهِ أنشأَ الإنسانَ منهُ، وأخْرَجَ هذا الخَلْقَ منهُ. وفي ذلكَ وَجْهانِ مِنَ الحِكْمَةِ.

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا مِنَ القُدْرَةِ على البَعْثِ

والثاني: أنَّ كلَّ ما ذَكَرَ مِنَ النَّقْلِ والتَّغْيِيرِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ وإخراجِ ما أخْرَجَ منهُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ عَبَثاً باطلاً. ولو لم يَكُنْ بَعْثٌ لَكانَ إنشاءُ هذا الخَلْقِ عَبَثاً باطلاً، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إذا لم تُنْكِروا شيئاً مِنْ آلائِهِ، أنهُ ليسَ منهُ، فما لكُمْ تُنكِرونَ قُدْرَتَهُ على البَعْثِ وغيرِهِ؟.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ كقولِهِ[2] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

ثم دلَّ قولُهُ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ وقولُهُ: ﴿رَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ وذِكْرُ الحَدِّ لهما؛ أعني الشمسَ والقمرَ في الشروقِ والغروبِ على أنهما طَلَعا [حيثُ طَلَعا][3] بأمْرٍ، وغَرَبا حيثُ غَرَبا بأمْرٍ؛ إذْ لو كانَ ذلكَ لا بأمْرٍ لكنْ بأنفسِهِما لَكانا يَطْلُعانِ، ويَغْرُبانِ في جميعِ الأوقاتِ والأطرافِ، ولا يَرْجِعانِ إذا بَلَغا مكاناً، ولا يَزْدادانِ، ولا يَنْقُصانِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ.

الآية ١٨ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][4] هذا كُلُّهُ مُنْشأٌ للبَشَرِ مُسَخَّرٌ لهمْ، فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما بالُ المَجْعولِ لكُمْ أطْوَعُ للهِ تعالى منكمْ حينَ[5] لا يَتَجاوَزُ الحَدَّ الذي جُعِلَ [لهُ، ولا يَتَعَدَّى أمْرَ خالقِهِ][6]؟ وأنتمْ تَتَجاوَزونَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ، وتَتَعَدَّون حدودَهُ.

وفي الآيةِ [﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾][7] دليلٌ على أنَّ تَخصيصَ الشيءِ بالذِّكْرِ لا يَدُلُّ على نَفْيِ ما عداهُ؛ ألا تَرَى أنهُ خَصَّ ربَّ المَشْرِقينِ وربَّ المَغْرِبينِ، ولم يَدُلَّ على انهُ ليسَ بربٍّ ما بينَهما، أو ليسَ بربٍّ ما سِوَى المَشارِقِ والمَغارِبِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قيلَ: جَمَعَ بينَهما، وخَلَطَ. وقيلَ: أحَدُهُما العَذْبُ، والآخَرُ المالحُ. وقيلَ: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي يَتَقابلانِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي بينَ البَحْرَينِ حِجَابٌ وحاجِزٌ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ قيلَ: لا يَخْتَلِطانِ، ولا يَمْتَزِجانِ، ولا يَتَغَيَّرُ طَعْمُ كلِّ واحدٍ منهما.

يُخْبِرُ عنْ لُطْفِهِ في مَنْعِهِما عنِ الاِمْتِزاجِ/ ٥٤٢ ـ ب/ ومِنْ طَبْعِ الماءِ الاِمْتِزاجُ والاِخْتِلاطُ. فَمَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ وقيلَ: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يَتَجاوَزانِ حَدَّ اللهِ تعالى الذي حَدَّ لهما.

ثم اخْتُلِفَ في البَحْرَينِ: قالَ بعضُهُمْ: أحَدُهما: بَحْرُ رومٍ، والآخَرُ: بَحْرُ هِنْدٍ، وبَينَهما بَرْزَخٌ أي مَكانٌ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يَخْتَلِطانِ، وهو قولُ الأصَمِّ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: أحَدُهما: بَحْرُ السماءِ، والآخَرُ: بَحْرُ الأرضِ، كقولِهِ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١و١٢].

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو الهواءُ والأرضُ وسُكّانُ الأرضِ، وهذا أيضاً لُطْفٌ مِنهُ تعالى.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][9]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ثم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: لهم ولا يتعدون أمر خالقهما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾: منهمْ مَنْ قالَ: يَخْرُجانِ[١] مِنَ العَذْبِ والمالحِ جميعاً كما هو ظاهرُ الآيةِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: يَخْرُجانِ مِنَ المالحِ خاصةً دونَ العَذْبِ، وإنْ كانَتِ الإضافةُ إليهما، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟ [الأنعام: ١٣٠] ولم يأتِ مِنَ الجنِّ رسُلٌ، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

ثم قُرِئَ بِنَصْبِ الياءِ ورَفْعِ الياءِ ونَصْبِ الراءِ[٢]؛ فالأوَّلُ على جَعْلِ الفِعْلِ لِغَيرِهما كقولِهِ تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

ثم اخْتُلِفَ في اللُّؤْلُؤِ والمَرْجانِ: منهمْ مَنْ قالَ: اللُّؤْلُؤُ ما عَظُمَ منهُ، والمَرْجانُ ما صَغُرَ مِنَ اللُّؤلؤِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ على العَكْسِ، وأكْثَرُهُمْ على الأوَّلِ. كذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ والحَسَنِ وقتادةَ والضَّحّاكِ. وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَرْجانُ صِغارُ اللُّؤْلُؤِ والواحدةُ مَرجانَةٌ.

وقيلَ: إنَّ المَرْجانَ المُخْتَلِطُ مِنَ الجواهرِ؛ مِنْ قولِهِمْ: مَرَجْتُ أي خَلَطْتُ. وقيلَ: إنهُ ضَرْبٌ خاصٌّ مِنَ الجَوهَرِ مِنَ البَحْرِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: إذا جاءَ القَطْرُ مِنَ السماءِ انْفَتَحَتِ الأصدافُ، فكانَ مِنْ ذلكَ اللُّؤْلُؤُ. وقيلَ: إنما قالَ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وإنما يَخْرُجُ اللُّؤْلُؤُ مِنَ العَذْبِ دونَ المالحِ لأنَ العَذْبَ والمالحَ يَلْتَقِيانِ، فيكونُ العَذْبُ لِقاحاً للمالِحِ كما يُقالُ: يَخْرُجُ الوَلَدُ مِنَ الذَّكَرِ والأُنثى، وإنما تَلِدُهُ الأُنثى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][٣].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [عنْ إبراهيمَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ قَرَأَ: المُنْشِئاتُ][٤] بكسرِ الشينِ[٥]، وفَسَّرَ بعضُ الناسِ المُنْشِئاتُ أي ظاهراتُ السَّيرِ.

وعَنِ الحَسَنِ أنهُ قَرَأها بِفَتْحِ الشينِ. قالَ أبو عُبَيدَةَ: وبها يُقْرَأُ لأنَّ تَفْسيرَها أنها التي رُفِعَ قِلْعُها في البَحْرِ، فهي الآنَ مُقْلَعٌ[٦] بها، فقيلَ: المُنْشَآتُ، وهي المُرْتَفِعاتُ [القُلوعِ][٧] والتي لم [تُرْفَعْ قُلوعُها][٨] فليستْ بِمُنْشَآتٍ. وقيلَ: المَخْلوقاتُ والجَواري هي السُّفُنُ المُنْشَآتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي هي في البحارِ كالجِبالِ في البَراري. قيلَ: وهي الأعلامُ أنفسُها.

ثم في هذهِ الآياتِ التي ذُكِرَتْ وجوهٌ مِنَ الحِكْمَةِ وإثباتِ القُدْرَةِ للهِ عز وجل:

أحَدُها: أنَّ مَنْ قَدَرَ على تَسْخيرِ البحارِ وإنشاءِ ما فيها، وعَلَّمَ إخراجَ ما فيها الآدَمِيَّ واتِّخاذَ السُّفُنِ وإجراءَها في البحارِ لِلْوُصولِ إلى المَنافِعِ التي في البُلْدانِ النائيةِ قادِرٌ على البَعْثِ وغَيرِهِ.

والثاني: أنْ لا سَبيلَ إلى مَعْرِفَةِ ما في البحارِ مِنَ الأموالِ واتِّخاذِ السُّفُنِ وإجرائِها في البحارِ ومَعْرِفَةِ ما وراءَ البحارِ مِنَ البُلْدانِ النائيةِ، وما فيها إلا بِخَبَرِ الرُّسُلِ.

فيقولُ[٩]، واللهُ أعلَمُ: ما بالُكُمْ صَدَّقْتُمْ الرسُلَ والأوائلَ في ما يَرْجِعُ إلى مَنافِعِكُمُ الدُّنْيَوِيَّةِ؟ ولم تُصَدِّقوهُمْ في ما يَرْجِعُ إلى الدينِ والآخِرَةِ مِنَ الوَعيدِ.

أو يقولُ: ما بالُكُمْ لا تُنْكِرونَ شيئاً مِنْ هذهِ النِّعَمِ التي جَعَلَها لكُمْ أنها مِنَ اللهِ تعالى؟ فكيفَ تُنْكِرونَ ما أتاكُمْ بهِ الرسُلُ عليهم السلام؟.

---

(١) في الأصل وم: يخرج. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٤٧. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/٤٩. (٦) في الأصل وم: مقلوع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يرتفع قلعها. (٩) هذا هو الوجه الثالث.

ثم في قولِهِ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ دلالةُ نَقضِ قولِ المعتزلةِ في إنكارِهِمْ خَلْقَ أفعالِ العبادِ؛ فإنهُ أضافَ السُّفُنَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ وقد اتَّخذَها بَنُو آدمَ بأفعالِهِمْ. فلو لم يكُنْ لهُ في أفعالِهِمْ صُنعاً لكانَتِ السُّفُنُ لهمْ لا لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إذا لم تُكذِّبا شيئاً مِنَ آلاءِ ربِّكُما أنهُ مِنَ اللهِ تعالى، ولم تُكذِّبا ما أتاكُمْ مِنَ الأخبارِ في مَنافِعِ الدنيا، فكيفَ تُكذِّبانِ أخبارَ الرسلِ ﷺ بعدَ ما جاؤوا بالآياتِ والحُجَجِ؟.

الآيات ٢٦ و٢٧ و٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][1] يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أي مُلْكُ كلِّ مَنْ في الأرضِ فانٍ، ويَبْقى مُلْكُ ربِّكَ أبداً دائماً.

والثاني[2]: سلطانُ كلِّ مَنْ عليها، أو قُوَّةُ كلِّ مَنْ عليها، وقُدرتُهُ، فانٍ، ويَبْقى سلطانُ ربِّكَ وقُدرتُهُ وربوبيَّتُهُ لِيُعلَمَ أنَّ مُلْكَهُ وسُلْطانَهُ بذاتِهِ لا بالخَلْقِ ولا[3] يكونُ فناؤُهُمْ وذهابُهُمْ يُدْخِلُ نَقْصاً أو وَهْناً في مُلْكِهِ، خِلافُ مُلْكِ ملوكِ الأرضِ وسُلْطانِهِمْ.

[والثالثُ][4]: جائزٌ أنْ يكونَ قالَ هذا على الإياسِ لِلْكَفَرةِ وقَطْعِ الرجاءِ عنْ عبادةِ مَنْ عَبَدوا دونَهُ مِنَ الأصنامِ والمُلوكِ والرؤساءِ ومَنْ[5] يَخْدِمونَهُمْ؛ كأنهُ[6] يقولُ: كلُّ مَنْ عَبَدَ دونَهُ، أو خَدَمَ، أو عَمِلَ، لا لِوَجْهِ اللهِ فَكُلُّهُ فانٍ ذاهبٌ إلا ما عُمِلَ لِوَجْهِ اللهِ فإنهُ باقٍ، واللهُ أعلَمُ.

والباطِنيَّةُ يقولونَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي النفسُ الجَسَدانِيَّةُ، وتَبْقَى النفسُ الروحانِيَّةُ أبداً، لأنهمْ يقولونَ: إذا فَنِيَتْ هذهِ الأجسادُ يُنْشِئُ اللهُ تعالى مِنْ أعمالِهِمُ الصالحاتُ أنْفُساً روحانِيَّةً تَبْقَى أبداً.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي كلُّ ما يُطْلَبُ مِنَ العَمَلِ وغَيرِهِ رِضا اللهِ تعالى، فَكَنَّى بالوجْهِ عنِ الرِّضا. وقولُهُ ﷻ: [﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾][7] يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الخَلْقِ[8] إجلالُ خَلْقِ اللهِ وأمْرِهِ وتَعْظيمُ ذلكَ.

والثاني: [على][9] أنْ يُجِلَّ اللهُ تعالى مَنْ شاءَ مِنْ خَلْقِهِ، أي منهُ إجلالُ مَنْ أجَلَّ في الدنيا وإكرامُ مَنْ أكْرَمَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٩ و٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][10] يُخبِرُ اللهُ ﷻ عنْ فَزَعِ أهلِ السماءِ وأهلِ الأرضِ إليهِ عندَ الإياسِ مِنَ الخَلْقِ وانْقِطاعِ الرجاءِ عنهمْ، وهو يَذْكُرُ أنهُ المَفْزَعُ في الأحوالِ كلِّها ولِلْخَلائقِ كلِّهِمْ، ومنهُ يَسْألونَ الرِّزْقَ والنجاةَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية [الأنعام: ٦٣] وقولُهُ ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٧].

هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الآيتان: ٢٦و٢٧].

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: شأنُهُ وأمْرُهُ باقٍ دائمٌ أبداً وذهابُ الخَلْقِ لا يُدْخِلُ نَقْصاً في شأنِهِ وأمْرِهِ ولا وَهْناً في سُلْطانِهِ ومُلْكِهِ، بل هو في شأنِهِ وأمْرِهِ عندَ فَنائِهِمْ كَهُوَ في حالِ حَياتِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ اليهودَ قالَتْ: إنَّ اللهَ اسْتَراحَ يومَ السبتِ، لا يَقْضي بشيءٍ، ولا يَحْكُمُ، ولا يَأْمُرُ، ولا يَفْعَلُ فِعْلاً، فَنَزَلَتِ الآيةُ عندَ ذلكَ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِنْ إحداثٍ وإفناءٍ وإحياءٍ وإماتةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (٣) في الأصل وم: حتى. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وما. (٦) في الأصل وم: كأنهم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: خلق. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ تعالى إذا وُصِفَ بالأزَلِ يُقالُ: عالمٌ لم يَزَلْ، رازقٌ بذاتِهِ لم يَزَلْ، وإذا ذُكِرَ بأمرٍ وتدبيرٍ مُضافٍ إلى الخَلْقِ يوصَفُ على ذِكْرِ الوقْتِ، فيكونُ الوقْتُ لِلْخَلْقِ لا لَهُ نَحْوَ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ عالماً بجلوسِكَ ههنا أو في هذا الوقْتِ، أي لم يَزَلْ عالماً أينَ تَجْلِسُ الآنَ أو تَجيءُ الآنَ، أو في هذا الوقْتِ.

وإذا وَصَفْتَهُ بالماضي قُلْتَ: لم يَزَلْ عالماً بما كانَ [بالماضي، وبالمُسْتَقْبَلِ][1] لم يَزَلْ عالماً بما يكونُ أنهُ يكونُ في وقتٍ كذا، وبالحالِ لم يَزَلْ عالماً بكونِهِ كائناً للحالِ ونَحْوَ ذلكَ نَفْياً لِوَهْمِ الخَلْقِ أنَّ المَخْلوقَ كيفَ يكونُ في الأوَّلِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ذَكَرَ اليومَ والوقتَ لئلا /٥٤٣ ـ أ/ يُتَوَهَّمَ كَوْنُ الخَلْقِ قديماً، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣١ و٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][2] قُرِئَ ﴿سَنَفْرُغُ﴾ بالنونِ والياءِ[3] وبِرَفْعِ الراءِ في الحالَيْنِ.

قالَ أبو عُبَيدٍ: بالياءِ يَقْرَؤها [حمزةُ والكسائيُّ وغيرُهما][4] كقولِهِ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢٩] ذُكِرَ على المُغايَبَةِ.

فكذلكَ هذا الذي بُنِيَ عليهِ. قالَ الزَّجّاجُ: قولُهُ تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ ليسَ هو الفراغَ عنِ الشُّغْلِ، لكنْ كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ: سَأفْرُغُ لكَ كذا أي سأجْعَلُ لكَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هذا على الوَعيدِ؛ في كلامِ العربِ يقولُ الرجلُ: سَأفْرُغُ لكَ، وإني لَفارِغٌ على الوعيدِ. وقالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: إنَّ الفراغَ ليسَ يُسْتَعْمَلُ في الفراغِ مِنَ الشُّغْلِ خاصةً، لكنْ يُسْتَعْمَلُ لهُ ولِغَيرِهِ مِنْ نَحْوِ إنجازِ ما وَعَدَ، وأوعَدَ، كأنهُ قالَ: سَنُنْجِزُ لكمْ ما أوعَدْتُكُمْ ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾.

وعندَنا أنَّ الفراغَ هو اسْمٌ لِانْقِضاءِ الفِعْلِ وتَمامِهِ لا لِلْفَراغِ مِنَ الشُّغْلِ؛ يُقالُ: فُلانٌ فَرَغَ مِنْ شُغْلِهِ، إذا فَرَغَ مِنْ بِناءِ دارِهِ، إذا أتَمَّهُ، وانْقَضَى ذلكَ.

ألا تَرَى أنهُ، وإنْ فَرَغَ مِنْ شُغْلِ تلكَ الدارِ وذلكَ العملِ، فهو مَشْغولٌ بِغَيرِهِ؟ دلَّ أنهُ ليسَ باسْمٍ لِلْفراغِ مِنَ الشُّغْلِ؛ إذْ لو كانَ اسْماً لِلْفَراغِ مِنَ الشُّغْلِ لا يُوصَفُ بِهِ، وهو مَشْغولٌ بِغَيرِهِ. دلَّ أنهُ اسْمٌ لِلتَّمامِ والانْقِضاءِ. لَكِنْ فَهِمَ الخَلْقُ بعضُهُمْ مِنْ بعضِ الفَراغَ مِنَ الشُّغْلِ لِما أنَّ فِعْلَهُمُ الشيءَ لا يَلْتَئِمُ إلّا بالشُّغْلِ في ذلكَ، فَفُهِمَ ذلكَ مِنْ فِعْلِهِمْ.

فأمّا اللهُ ﷻ حينَ[5] لا يَشْغَلُهُ فِعْلٌ عن فِعْلٍ ولا شيءٌ عن شيءٍ لم يَجُزْ أنْ يُفْهَمَ مِنْ فَراغِهِ مِنَ الشُّغْلِ فَراغُهُ، وباللهِ العِصْمَةُ والتوفيقُ.

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][6] له تأويلانِ:

أحَدُهما: كأنهُ لو مُكِّنَ لكمُ النَّفاذُ مِنْ أقطارِ السمواتِ والأرضِ ونواحيها، فانْفُذوا، فَتَجِدوا هنالكَ، وتَرَوا مِنْ آياتِ مَنْ كذَّبَ بالرسلِ ﷺ وما حَلَّ بهمْ بالتكذيبِ.

ثم قالَ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي لا تَنْفُذونَ، لو مُكِّنَ لكُمْ مِنَ النَّفاذِ، إلا تَجِدونَ حُجَجَ مَنْ أُهْلِكَ منهمْ ظاهرةً أنهُ بِمَ أهْلَكَهُمْ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] أمَرَهُمْ بالسَّيْرِ في الأرضِ والتَّدَبُّرِ في آثارِ مَنْ أُهْلِكَ بماذا أُهْلِكَ مَنْ أُهْلِكَ منهمْ، وبماذا نَجا مَنْ نَجا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: على الإعجازِ أي لا تَسْتَطيعونَ أنْ تَخْرُجوا أو تَنْفُذوا مِنْ أقطارِ السمواتِ والأرضِ. ولو مُكِّنَ لكمْ مِنَ النَّفاذِ والخُروجِ منها لَوَجَدْتُمْ ثَمَّ سُلْطاني وحُجَجي ومُلْكي هنالكَ قائماً، أي لا تَقْدِرونَ على الخروجِ مِنْ سُلْطاني ومُلْكي حيثُما

(١) من م، في الأصل: بالمستقبل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم الآيات القرآنية ج ٧/ ٥٠. (٤) انظر المرجع السابق: الجزء والصفحة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم.

كُنْتُمْ، بل حيثُما سِرْتُمْ وكُنْتُمْ [فأنتمْ][١] في سُلْطاني ومُلْكي، فلا تَتَخَلَّصونَ مِنَ الموتِ والهَلاكِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنعام: ٣٥].

وقالَ الضَّحّاكُ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قد جاءَ أجَلُكُمْ فانْفُذُوا مِنْ أقطارِهِما ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ مني؛ يعني أنهُ لا يُنْجيكُمْ أحدٌ مِنَ الموتِ، وأنتمْ مَيِّتونَ، أي لا تأتونَ قُطْراً مِنْ أقطارِ السمواتِ والأرضِ إلّا تَجِدونَ[٢] هنالكَ سلطانَ اللهِ ومَلَكوتَهُ.

يقولُ: لا تَسْتَطيعونَ فِراراً مِنَ الموتِ ولا مَحيصاً، وإنْ نَفَذْتُمْ مِنْ أقطارِ السمواتِ والأرضِ فَلَنْ تَخرُجوا مِنْ سُلْطاني، وأنا آخُذُكُمْ بالموتِ حيثُ كُنْتُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقالَ بعضُهُمْ: يَبْعَثُ اللهُ تعالى ملائكةً عندَ الحَشْرِ، فَيُحيطونَ بالدنيا، فلا يَسْتَطيعُ شيطانٌ ولا إنسٌ ولا جانٌّ [يكونُ في أقطارِها][٣] أنْ يَخْرُجَ مِنَ الأقطارِ، ولو خَرَجوا كانوا في سُلطانِ اللهِ.

وقيلَ: ﴿إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ أي بِحُجَّةٍ. وقالَ قَتادةُ: إلّا بِمُلْكٍ. وقالَ [بعضُهُمْ][٤]: إلّا بِقُدْرةِ اللهِ تعالى، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٥ ثم أوعَدَهُمْ، فقالَ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ قُرِئَ ﴿شُوَاظٌ﴾ بِضَمِّ الشينِ وكَسْرِها[٥].

ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ بالكَسْرِ وكذا عنْ مُجاهدٍ، وقُرِئَ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بكسرِ السينِ وضَمِّهِ[٦]. فَمَنْ رَفَعَ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ عَطَفَهُ على قولِهِ: ﴿شُوَاظٌ﴾ ومَنْ كَسَرَهُ عَطَفَهُ على قولِهِ: ﴿مِّن نَّارٍ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ الشُّواظِ والنُّحاسِ: عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ النُّحاسُ الدُّخانُ. وقيلَ: الشُّواظُ هو لَهَبُ النارِ، والذي لا دُخانَ فيهِ، والنُّحاسُ هو الدُّخانُ.

وعَنِ الكَلْبيِّ: الشُّواظُ لَهَبُ النارِ، والنُّحاسُ الصُّفْرُ الذي يُذابُ، فَيَذوبُ[٧] بِهِ.

وقيلَ: الشُّواظُ هو الذي فيهِ الدُّخانُ، والنُّحاسُ هو النُّحاسُ المعروفُ، يُذابُ، ويُصَبُّ على رُؤوسِهِمْ.

وقالَ الضَّحّاكُ: الشُّواظُ الدُّخانُ الذي يَخْرُجُ مِنَ اللَّهَبِ، ليسَ بِدُخانِ الحَطَبِ، والنُّحاسُ الصُّفْرُ.

فَمَنْ قَرَأَ بالخَفْضِ فيقولُ: لَهَبٌ مِنْ نارٍ ومِنْ دُخانٍ، ومَنْ قرأَ بالرفعِ، أرادَ بِهِ الصُّفْرَ؛ فيقولُ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ ذائبٌ في النارِ، وقيلَ: النُّحاسُ في القراءتينِ، يَحْتَمِلُ الدُّخانَ، ويَحْتَمِلُ الصُّفْرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ قيلَ: لا تَمْتَنِعانِ مِنْ ذلكَ، ويَحْتَمِلُ أي [لا][٨] ناصِرَ لكما كما يكونُ في الدنيا.

فإنْ قيلَ: إنهُ قد ذَكَرَ في أوّلِ الآياتِ الآلاءَ والنِّعَمَ، فَقَرَنَ بأحدِها ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقدِ انْقَطَعَ ذِكْرُ الآلاءِ ههنا، وذَكَرَ المواعيدَ في هذهِ الآياتِ، فما فائدةُ قِرانِ قولِهِ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بآخِرِها؟ قيلَ: إنَّ الوَعْدَ تَرْغيبٌ، وفي الوَعيدِ تَرْهيباً، فَيُرَغِّبُ في الوَعْدِ، ويُخافُ، ويُرْهَبُ مِنَ الوَعيدِ، فَيَرْتَدِعُ عمّا يُوعَدُ، فيكونُ في ذلكَ نِعْمَةٌ عظيمةٌ؛ إذْ بالوَعْدِ والوَعيدِ تَتِمُّ المِحْنَةُ، وبالمِحْنَةِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ.

الآية ٣٦ لِذلكَ ذَكَرَ على إثْرِ الوعيدِ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الآيتان ٣٧ و٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][٩] يَذْكُرُ تَغَيُّرَ هذا العالَمِ يومئذٍ وهَولَ ذلكَ اليومِ، وهو كما ذَكَرَ مِنْ تَبْديلِ السماءِ حينَ[١٠] قالَ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقالَ[١١]: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وغيرُ[١٢] ذلكَ مِنَ الآياتِ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَغْييرِ الجبالِ في قولِهِ: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقولِهِ: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وقولِهِ: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ونَحْوِ ذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وجدوا. (٣) أدرجت في الأصل وم بعد: بالدنيا. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٥٢. (٦) انظر المرجع السابق والصفحة. (٧) في الأصل وم: فيذوبون. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: وقوله. (١٢) في الأصل وم: في غير.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: شَبَّهَ السماءَ لِكَثْرَةِ تَلَوُّنِها بِفَرْسِ الوردِ؛ يكونُ في الربيعِ بِلَوْنٍ، ثم يَصيرُ إلى لَونٍ آخَرَ ثم إلى آخَرَ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَغْيِيرِ السماءِ وتَلَوُّنِها.

ومنهمْ مَنْ قالَ: شَبَّهَها بالدِّهانِ، وهو الدُّهْنُ، لِلِينِها وضَعْفِها، وهو كما ذَكَرَ في آيَةٍ أُخرى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] و المُهْلُ هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ. لكنَّ التَّشبيهَ بالمُهْلِ إنما يكونُ لِكَثْرَةِ التَّلَوُّنِ لا لِلِّينِ. فيكونُ في هذا التأويلِ نوعُ وَهْيٍ[1]، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ إنما تَحْمَرُّ، وتَذوبُ كالدُّهنِ.

ورُوِيَ أنَّ سَماءَ الدنيا مِنْ حديدٍ، فإذا كانَ يومُ القِيامةِ صارتْ مِنَ الخُضرَةِ إلى الاِحمِرارِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ إذا حُمِيَ بالنارِ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: الدِّهانُ جَمْعُ الدُّهنِ، ويُقالُ: الدِّهانُ الأديمُ الأحْمَرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ: قالَ بعضُهُمْ: أي لا يُسألُ إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ عن ذنبِ غَيرِهِ، إنما يُسألُ عنْ ذنبِ نفسِهِ نَحْوَ ألَّا يُسألَ عمَّنْ أضَلَّ غَيرَهُ عنْ ضَلالِ ذلكَ الغَيرِ، إنَّما يُسألُ الذي أضَلَّهُ عن إضلالِهِ، ويُسألُ الضالُّ عنْ ضَلالِهِ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ الآية [فصلت: ٢٩]

ومنهمْ مَنْ قالَ: لا يُسْألُ بَعْضٌ عنْ بَعْضٍ، أي لا يُسألُ جِنِّيٌّ عنْ ذنبِ إنسيٍّ ولا إنسِيٌّ عنْ ذنبِ جِنِّيٍّ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: لا يُسألونَ سؤالَ اسْتِخْبارٍ واسْتِفْهام /٥٤٣ ـ ب/ أي ماذا[2] فَعَلْتُمْ؟ ولكنْ يُسألونَ لِمَ فَعَلْتُمْ [ما فَعَلْتُمْ][3]؟ يُسألونَ[4] عنِ الحُجَّةِ لا عنْ نفسِ الفِعْلِ، لأنَّ كلَّ ذي مَذْهبٍ ودينٍ إنما يَفْعَلُ لِحُجَّةٍ، تكونُ لهُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: لا يُسألونَ عنْ ذُنوبِهِمْ لِما يكونُ في وجوهِهِمْ مِنَ الأعلامِ مِنَ الاِسْوِدادِ وزُرْقَةِ العُيونِ وغيرِ ذلكَ مِمّا ذُكِرَ في الكتابِ أنها تكونُ لِلْكُفّارِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠] وقولِهِ تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦]. وما ذُكِرَ مِنْ أعلامِ المؤمنينَ كقولِهِ[5] تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢و٢٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

وقالَ بعضُهُمْ: لا يُسألُ الملائكةُ عنِ المُجْرِمينَ لأنهمْ يُعْرَفونَ بِسِيماهُمْ.

الآية ٤٠ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][6].

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى في كتابِهِ لِلْمُجْرِمينَ أعلاماً يُعْرَفونَ بالآخِرَةِ بها على ما ذَكَرَ[7] مِنِ اسْوِدادِ الوجوهِ، وقالَ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨و٩] وقالَ[8]: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧] أي أعقابِها.

فَهُمْ[9]، واللهُ أعلَمُ، تكونُ وجوهُهُمْ في أوَّلِ الأحوالِ خاشِعَةً ثم غَبِرَةً ثم مُسْوَدَّةً، ثم تُطْمَسُ مِنْ نَظَرِ ذلكَ. فَنَعوذُ باللهِ مِنْ تلكَ الأحوالِ التي ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ قيلَ: تُكْسَرُ أضلاعُهُمْ وظُهورُهُمْ، فَتُجْمَعُ أقدامُهُمْ ونَواصيهِمْ، فَيُرْمَى بهمْ في النارِ.

وقالَ بعضُهُمْ: تُغَلُّ أيديهِمْ إلى أعناقِهِمْ، ثم تُجْمَعُ بها[10] نواصيهِمْ وأقدامُهُمْ، ثم يُدْفَعونَ إلى النارِ.

---

(١) في الأصل وم: وها. (٢) في الأصل وم: لماذا. (٣) ادرجت في الأصل وم بعد: ماذا فعلتم. (٤) في الأصل وم: يطلبون. (٥) في الأصل وم: من قوله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ذكرنا. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) في الأصل وم: فهو. (١٠) في الأصل وم: به.

الآية ٤٢ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][(١)].

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي إذا وَقَعوا على الوصفِ [الذي][(٢)] ذَكَرَ، عندَ ذلكَ يُقالُ لهمْ[(٣)]: هذهِ جهنَّمُ التي كُنتُمْ تُكذِّبونَ بها في الدنيا.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي يَطوفونَ بينَ جهنَّمَ وبينَ حميمٍ. فيَجوزُ أنهُ كنَّى بجَهنَّمَ عمّا يأكُلونَ، وهي النارُ، والحَميمِ عمّا يَشرَبونَ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلمُ: يَطوفونَ بينَ ما يأكلونَ وبينَ ما يَشرَبونَ: لا يَشْبَعونَ ممّا يأكلونَ، ولا يُرْوَوْنَ ممّا يَشرَبونَ، بل كلّما أكلوا زادَتْهُمْ جوعاً، وكلّما شربوا زادَتْهُمْ عَطَشاً. والحَميمُ، هو الشرابُ الذي جُعِلَ لهمْ. والآني، هو الذي قد انْتَهى حَرُّهُ غايتَهُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ قالَ في قولِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ على إثْرِ الوَعيدِ إنما يُقالُ لهمْ في الآخِرةِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في الدنيا كقولِهِ ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الزمر: ٧١].

الآيتان ٤٦ و٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][(٤)] ذَكَرَ الخوفَ مِنَ المَقامِ بينَ يَدَي ربِّهِ، ولم يُبيِّنْ خوْفَه ما هو[(٥)]؟ ولا أنهُ إذا خافَهُ ترَكَهُ، أو لا.

فجائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ الخوفِ مِنَ المَقامِ بينَ يَدَي [ربِّهِ][(٦)] ما بيَّنَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾][(٧)] [النازعات: ٤٠ و٤١] [وهو][(٨)] يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: مَنْعُ النَّفسِ عمّا تَهْواهُ.

والثاني: مَنْعُ النَّفْسِ عنْ أنْ تَهْوَى ما نُهِيَتْ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في هذهِ الآيةِ بيانُ ما ذُكِرَ في تلكَ الآيةِ مِنَ الخوفِ مِنَ المَقامِ بينَ يَدَي ربِّهِ، أي خافَ مَقامَ ربِّهِ، وترَكَ ما هَمَّ مِنَ المَعصيةِ، أو ما هَوَتْ نفسُهُ.

ثم لَسْنا نَعْرِفُ ما فائدةُ ذِكْرِ الجنَّتَينِ لهُ؟ ليسَ ذلكَ في ثلاثٍ أو أربعٍ.

قالَ أهلُ التأويلِ: إنما ذَكَرَ جنَّتَينِ لأنَّ الجَناتِ أربعٌ:

جَنَّةُ عَدْنٍ، وفِرْدَوسٌ، وجَنَّةُ المأوى، وجَنَّةُ النعيمِ لِلْمُقرَّبينَ والشهداءِ والصِّدِّيقينَ.

فالجَنَّتانِ الأُخرَيانِ لِمَنْ دونَهُمْ مِنَ المؤمنينَ الذينَ همْ أصحابُ[(٩)] اليَمينِ.

وجائزٌ أنْ يُخَرَّجَ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ بَصَرُهُ إذا نَظَرَ يميناً وشِمالاً لا يَقَعُ إلا على جَنَّتِهِ، لا يَقَعُ على جَنَّةِ غَيرِهِ، وكذلكَ إذا نَظَرَ مِنَ الأعْلَى أو مِنَ الأسْفَلِ لا يَقَعُ إلّا على مُلْكِهِ وجَنَّتِهِ، واللهُ اعلَمُ.

والثاني: أنْ تكونَ لهُ جَنّتانِ: إحدى الجَنَّتَينِ لِتَرْكِ المَساوِئِ، والأُخرَى لإتيانِ المَحاسِنِ.

وذَكَرَ القُتَبيُّ عنِ الفَرّاءِ في قولِهِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قالَ: قد يُسمِّي العربُ الشيءَ الواحِدَ باسْمِ الاثْنَينِ إذا كانَ [في رأسِ الكلامِ أو مَقاطعِهِ][(١٠)] لِتَحقيقِ المُوافقةِ في المَقاطِعِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ ﴿جَنَّتَانِ﴾ لموافَقَةِ مَقاطِعِ الآيةِ، والمُرادُ منهُ جَنَّةٌ واحدةٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: له. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ذا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: لأصحاب. (١٠) في الأصل وم: رؤوس الآية ومقاطعها.

لكنَّ القُتَبِيَّ أنكَرَ عليهِ ذلكَ، وقالَ[1]: إنما يُقالُ ذلكَ إذا انْقطَعَ الكلامُ. فأمّا إذا كانَ الكلامُ غيرَ مُنْقطِعٍ فإنهُ لا يُقالُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم سَمّى البَعْثَ مَقاماً بَينَ يَدَي ربِّهِ. وسَمّاهُ رجوعاً إليهِ وبُروزاً. فهو على وجهَينِ:

أحَدُهما: انهُ سَمّاهُ بِما ذَكَرَ لأنَّ البَعْثَ هو نهايةُ هذا العالَمِ.

والثاني: انهُ سَمّاهُ بذلكَ لأنَ كلَّ أحَدٍ يَظهَرُ في ذلكَ اليوم، لأنَّ الأمْرَ للهِ تعالى، ولأنَّ التَّدْبيرَ لهُ في الدنيا والآخِرةِ، ولأنّهُ[2] لا تَدْبيرَ لِأحَدٍ سِواهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الجَنّتَينِ للسابِقِينَ والشهداءِ ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، وما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الآية: ٦٢] لأصحابِ اليمينِ.

الآيات ٤٨ ـ ٥١ ثم نعَتَ، وَوَصَفَ[3] ما جَعَلَ للسابِقِينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهداءِ ما ذَكَرَ حينَ[4] قالَ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وَوَصَفَ ما جَعَلَ لأصحابِ اليمينِ بقولِهِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][5] قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ ذواتا أغصانٍ. ولكنْ ليسَ في هذا كثيرُ حِكمَةٍ. لكنْ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ مِنَ الفُنونِ، أي فيهما مِنْ كلِّ فَنٍّ وكلِّ نَوعٍ [شَيْءٍ][6].

وقالَ مُقاتلٌ: ذلكَ في الجَنّتَينِ اللّتَينِ جعَلَهُما لأصحابِ اليمينِ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الآية: ٦٤] والمُدهامُّ، هو الذي تَضرِبُ خُضرَتُهُ لِشِدَّتِها[7] إلى السَّوادِ، وهو دونَ الأوّلِ في الوَصْفِ؛ إذا لم يَصِفْهُما بصفةٍ واحدةٍ، وَوَصَفَ تَينِكَ الجَنّتَينِ بالفنونِ، وقالَ في تَينِكَ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقالَ في أصحابِ اليمينِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الآية: ٦٦]

والناضِخُ، هو الذي لا يُتَبيَّنُ جَرَيانُهُ، وَوَصَفَ تَينِكَ بالجَرَيانِ، والنَّضْخُ دونَ الجَرَيانِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ اللّتانِ تفورانِ بالماءِ، والنَّضْحُ دونَ النَّضْخِ، وهو الرَّشُّ. وقالَ في الجَنّتَينِ السابقتَينِ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الآية: ٥٢]أي صِنفانِ أو لونانِ [مِنْ][8] أيِّ شيءٍ كانَ. وقالَ في أصحابِ [اليمينِ][9]: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الآية: ٦٨]: ذَكَرَ أشياءَ مَعْدودةً، وعَمَّ الأشياءَ في تَينِكَ حينَ[10] قالَ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الآية: ٥٢] لِتَفْضيلِ أولئكَ على هؤلاءِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ[11] في كلِّ واحدةٍ حِكْمَةٌ على حِدَةٍ بقولِهِ[12] تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ ما ذَكَرْنا أنَّ منهما مِنْ كلِّ فَنٍّ وكلِّ نوعٍ [شيئاً][13]؛ وإحْدَى العَينَينِ هي العينُ المَعروفةُ المَوعودةُ، والأُخرَى التي لا يَعْرِفونَ، ولا يُوعَدونَ.

الآيتان ٥٢ و٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][14] أي صِنفانِ ولَونانِ على غيرِ تَغيُّرِ [اللَّونِ، ولا فَسادَ][15] يَدْخُلُ في ذلكَ، لأنَّ تَغيُّرَ اللَّونِ في الدنيا، لا يكونُ للفواكِهِ إلّا بَعْدَ دخولِ فسادٍ فيها، يُخبِرُ أنَّ تَغيُّرَ لَونِهِ لا لِفَسادٍ، يَدْخُلُ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنّما ذَكَرَ الزوجَينِ مِنَ الفواكِهِ لِما أنَّ قُلوبَ البَشَرِ قد خُطِرَتْ بأحدِ الزَّوجَينِ وتَمَنِّيَتِهِمْ أنفسَهُمْ، والزَّوجُ الآخَرُ، هو لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالى على عبادِهِ فَضْلاً منهُ إليهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَخْطُرَ على بالِهِمْ، ولا وَقَعَتْ عليهِ أبصارُهُمْ، ولا انْتَهَتْ إليهِ آمالُهُمْ إكراماً لهمْ وإحساناً[16].

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ المُرادُ في هذهِ الآياتِ تَبْيينَ ما لأهلِ الجنةِ، ولكنَّ فيهِ تِبْيانَ فَضْلِ السابِقِينَ على أصحابِ اليَمينِ أنَّ أولئكَ يُعطَونَ مِنَ الفَضْلِ ضِعْفَي ما أُعطِيَ هؤلاءِ، واللهُ أعلَمُ

---

(١) في الأصل وم: وذلك. (٢) في الأصل وم: ولأن. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم لشدته. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: يذكر. (١٢) في الأصل وم: قوله. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: الطعم وللفساد، في م: الطعم ولا فساد. (١٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وامتنانا.

الآيتان ٥٤ و٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][(١)]:

قالَ الفَرّاءُ: يجوزُ أنْ تكونَ البِطانةُ والظِّهارةُ جَميعاً مِنْ شيءٍ واحدٍ ومِنْ جِهَةٍ واحدةٍ. لكنْ سَمّى الجِهَةَ التي تَلي أجْسادَهُمْ بِطانةً والأُخرى ظِهارةً كالسماءِ[(٢)]: إنَّ الجِهَةَ [التي][(٣)] تَلي الملائكةَ، هي بطانَتُهُمْ وظِهارَتُها، وما تَلِينا / ٥٤٤ ـ أ/ ظِهارَتُهُمْ وبِطانَتُهُمْ. وكذلكَ كلُّ شيءٍ، يَلي إنساناً، فهو بِطانةٌ، والجانبُ الذي لا يَليهِ ظِهارةٌ؛ يُقالُ: هذا ظَهْرُ السماءِ للجانِبِ الذي تَراهُ، والآخرُ بَطْنُ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: لا، ولكنْ ذَكَرَ البِطانَةَ مِنْ إستَبْرَقٍ، ولم يَذْكُرِ الظِّهارةَ، والعُرْفُ في الناسِ أنَّ ظِهارةَ فُرُشِهِمْ أنْفَسُ مِنَ البِطانَةِ، والبِطانَةَ دونَ الظِّهارَةِ.

فَعَلى ذلكَ في ذِكْرِ البِطانةِ وَوَصْفِها دلالةٌ أنَّ ظِهارَتها أرْفَعُ وأنفَسُ مِنَ البِطانةِ.

لكنْ ما قالَهُ الفَرّاءُ صحيحٌ، وما ذَكَرَهُ القُتَبِيُّ، هو مِنْ صَنيعِ الناسِ في الدنيا مِنِ اتّخاذِ الظِّهارةِ فَوقَ البِطانةِ لِما لا تَحتَمِلُ أملاكُهُمُ التَّسْوِيَةَ بَينَ ما بَطَنَ وما ظَهَرَ في النَّفاسةِ والرِّفْعَةِ.

فأمّا اللهُ ﷻ فلا نَفادَ لِخَزائِنِهِ، يَفْعَلُ ما يشاءُ، وكيفَ يشاءُ.

وعنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: قد أُخْبِرْتُمْ بالبَطائِنِ، فكيفَ بالظِّهارةِ؟ ثم الإسْتَبْرَقُ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: هو ما غَلُظَ منهُ بِلِسانِ قومٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هو ما دَقَّ، ورَقَّ، واللهُ أعلَمُ. ولا نُفَسِّرُهُ نحنُ أنهُ، ما هو، وكيفَ هو، ولكنْ نَعْلَمُ أنهُ شيءٌ؛، قد وَعَدَ لهمْ رَبُّهُمْ، وهو شيءٌ، تَرْغَبُ فيه أنفسُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا في حقِّ السابِقينَ الذينَ سارَعوا في الخَيراتِ، واسْتَبْطَؤوا[(٤)] ما وَعَدَ لهمْ رَبُّهُمْ بما لم يَرَوا لِطاعاتِهِمْ قيمةً، ويَغْلِبُهُمْ[(٥)] خوفُهُمْ في التَّقْصيرِ في العَمَلِ للهِ تعالى الواجِبِ عليهِمْ[(٦)] وفي أوامِرِهِ ونواهيهِ، فقالَ: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الذي وَعَدَ لكمْ.

وقالَ[(٧)] أهلُ التأويلِ: إنهُ[(٨)] الشجرُ [وإنهُ يَقْتَرِبُ منهمْ][(٩)] حينَ يَتَناوَلُهُ[(١٠)] الرجُلُ كيفَ شاءَ.

لكنْ يَذْكُرُهذا، واللهُ أعلَمُ: أنَّ الجَنَّتَينِ إنْ بَعُدَتا فإنَّ الثِّمارَ منهُمْ دانيةٌ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الجَنَى الحَمْلُ، واجْتَنَتِ الشجرةُ الجَنَى إذا حَمَلَتْ، وأدْرَكَ حَمْلُها.

الآيتان ٥٦ و٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][(١١)] ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي قَصَرْتِ الطَّرْفَ[(١٢)] على أزواجِهِنَّ، ولا يَنْظُرْنَ إلى غيرِهِمْ، ولا تَشْتَهيهِم كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الآية: ٧٢] ذَكَرَ هذا لأنَّ أهلَ الدينِ يكونونَ مِنْ أهلِ غَيرةٍ، لا يُريدونَ أنْ تَنْظُرَ زوجاتُهُمْ[(١٣)] إلى غيرِهِمْ، ولا غَيرَهُمْ يَنْظُرونَ إليهِنَّ. فأخْبَرَ بالآيتَينِ أنهنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهِنَّ، ولا غَيرَهُمْ [يَنْظُرونَ][(١٤)] إليهِنَّ حينَ[(١٥)] وَصَفَهُنَّ بأنهنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ و﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قُرِئَ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ بضمِّ الميمِ[(١٦)] وكَسْرِهِ.

قالَ الفَرّاءُ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يَقْبِضْهُنَّ، والطَّمْثُ النِّكاحُ بالرومِيَّةِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: لم يُجامِعْهُنَّ إنسٌ قبلَهُمْ ولا جانٌّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي لم يَمَسُّهُنَّ [إنسٌ][(١٧)] في التربيةِ كما يُرَبَّى الأولادُ ولا جانٌّ على ما يَمَسُّ الجِنُّ الأولادَ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كالأسماء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: واستيفوا. (٥) في الأصل وم: ويغلبه. (٦) في الأصل وم: عليه. (٧) في الأصل وم: وإن. (٨) في الأصل وم: أي. (٩) في الأصل وم: وإن منهم قربت. (١٠) في الأصل وم: يتناولها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: طرفهن. (١٣) في الأصل وم: أزواجهم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٥٦. (١٧) من م، ساقطة من الأصل.

فَيُفسِدُهُمْ. ولكنهنّ[١] كما وَصَفَ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ إلى ٣٨].

الآيتان ٥٨ و٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][٢] قالَ أهلُ التأويلِ: شَبَّهَهُنَّ بالياقوتِ لِصفائِهِنَّ وبالمَرْجانِ لِبَياضِهِنَّ، وهو كما قالَ[٣]، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٠ و٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][٤] قيلَ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ لهمْ في الآخِرةِ، أي هل جَزاءُ الفِعْلِ[٥] الحَسَنِ في الدنيا إلّا العَطاءُ[٦] الحَسَنُ في الآخِرَةِ، هو الجنةُ.

ولكنَّ غيرَهُ كأنهُ أقربُ، أي: هل جَزاءُ إحسانِ اللهِ تعالى بما أنْعَمَ عليهِمْ في الدنيا إلّا الإحسانُ لهُ بالشُّكرِ والقَبولِ؟ أي [إتيانُ الفِعْلِ][٧] الحَسَنِ، أي هو الشُّكْرُ لهُ وحُسْنُ القَبولِ، لأنهُ ليسَ يَسْتَوجِبُ أحدٌ قِبَلَ اللهِ تعالى بإحسانِهِ في الدنيا جَزاءً في الآخِرَةِ إنما الجَزاءُ لهمْ بِحَقِّ الفَضْلِ والإنعام لا بِحَقِّ اسْتِحْقاقٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ لهمْ[٨] في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

واسْتَدَلَّ أبو يوسفَ ومحمدٌ، رَحِمَهما اللهُ تعالى، بهذِهِ الآيةِ على أنَّ للجِنِّ ثواباً كما للإنْسِ؛ فإنهُ جَرَى الخِطابُ مِنْ أوَّلِ السورةِ إلى آخِرِها للجِنِّ والإنسِ [كقولِهِ تعالى][٩]: لِلْجِنِّ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الآية: ٣٣]. وقولِهِ تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الآية: ٥٦]. فَعَلَى ذلكَ يَشْتَرِكونَ في الوَعْدِ والوَعيدِ.

لكنْ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى، يقولُ: لا ثوابَ لِلْجِنِّ في ذلكَ مِنْ نَحْوِ الفواكِهِ والسُّفُنِ الجَواري. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الثوابِ لهمْ يجوزُ الثوابُ [وليسَ لِلْجِنِّ حُورُ][١٠] العِينِ، واللهُ أعلَمُ، وقد ذَكَرْناهُ في غيرِ مَوضِعٍ.

الآيتان ٦٢ و٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][١١] فإنْ كانَتِ الجَنَّتانِ اللَّتانِ سَبَقَ ذِكْرُهما للسابِقينَ والصِّدِّيقينَ، فهاتانِ اللَّتانِ ذَكَرَهُما ههنا لأصحابِ اليَمينِ على ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي في الفَضْلِ والقَدْرِ والمَنْزِلَةِ لِفَضْلِ أولئكَ على أصحابِ اليَمينِ.

وإنْ كانَتِ الجَنّاتُ جميعاً لكلِّ فريقٍ منهمْ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ في المَكانِ والمَوضِعِ لا في الفَضْلِ والقَدْرِ. فكأنهُ قالَ: مِنْ أيِّ جِهَةٍ وَقَعَ بَصَرُهُمْ يَقَعُ على جَنّاتِهِمْ مِنْ فَوقُ ومِنْ تَحتُ وعَنْ يَمينٍ وشِمالٍ؛ أي يكونونَ وَسَطَ الجَنّاتِ، لا يَحْتاجونَ إلى التَّحويلِ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

الآيتان ٦٤ و٦٥ وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][١٢] على ما ذَكَرْنا [المُدْهامُّ][١٣] هو شديدُ الخُضْرَةِ التي تَضْرِبُ إلى السَّوادِ، ووَصْفُ هاتَينِ دونَ وَصْفِ تَينِكَ الجَنَّتَينِ بقولِهِ تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ على التأويلِ الأوَّلِ.

الآيتان ٦٦ و٦٧ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][١٤] على ما ذَكَرْنا أنهما دونَ الجاريَتَينِ. ولِذلكَ رُوِيَ عنِ الفَرّاءِ [أنهُ][١٥] قالَ: العينانِ تَجْريانِ أفْضَلُ مِنَ النَّضاخَتَينِ بقولِهِ: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ لأنهما تَنْضَخانِ بالخَيرِ والبركةِ لأهلِ الجنةِ. وقيلَ: تَنْضَخانِ بالماءِ وأنواعِ الفواكِهِ. ورُوِيَ عنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ ﷺ أنهُ قالَ: تَنْضَخانِ بالمِسْكِ والعَنْبَرِ كما يَنْضَخُ طَيرُ الماءِ على بيوتِ أهلِ الدنيا.

الآيتان ٦٨ و٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][١٦] مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ لأبي

---

(١) في الأصل وم: ولكنهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قالوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فعل. (٦) في الأصل وم: عطاء. (٧) في الأصل وم: الإتيان فعل. (٨) في الأصل وم: له. (٩) في الأصل: من قوله، في م: من قوله. (١٠) في الأصل وم: وللجن يجوز. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) و(١٣) و(١٤) و(١٥) و(١٦) ساقطة من الأصل وم.

حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ: في مَنْ حَلَفَ لا يأكُلُ فاكهةً، فأكَلَ رُمّاناً، لا يَحْنَثُ في يَمِينِهِ لأنهُ احْتَجَّ بهذهِ الآيةِ في أنَّ الرُّمّانَ والرُّطَبَ ليسَا مِنَ الفاكِهةِ، لأنهُ عَطَفَهما على الفاكهةِ، والشيءُ لا يُعْطَفُ على نفسِهِ، إنما يُعْطَفُ على غَيرِهِ.

هذا هو ظاهرُ الكلامِ إلّا أنْ تقومَ الدلالةُ على أنَّ مُرادَهُ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ مِنْ جِنْسِهِ لِضَرْبٍ مِنَ التعظيمِ أو غَيرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧٠ و٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][1] قيلَ: حِسانُ الخُلُقِ وحِسانُ الوجوهِ، يُقالُ: امرأةٌ خَيْرَةٌ وخَيِّرَةٌ، ونِسْوَةٌ خَيراتٌ، يُقْرَأُ بالتَّثقيلِ والتَّخفيفِ جميعاً[2].

وعنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: لِكُلِّ مؤمنٍ خَيرَةٌ، ولِكُلِّ خَيرَةٍ خَيمةٌ.

الآيتان ٧٢ و٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][3] قيلَ: أي مَحْبوساتٌ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا أنهنَّ يكُنَّ في الخِيامِ، لا يراهُنَّ غَيرُ أزواجِهِنَّ، و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي لا يَصْرِفْنَ بَصَرَهُنَّ إلى غَيرِ أزواجِهِنَّ، ولا يَبْغِينَ غَيرَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٧٤ ـ ٧٧ وقولُهُ تعالى: [﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][4] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][5] هو قراءةُ العامَّةِ بِغَيرِ الألفِ، وعَنْ عاصِمٍ الجَحْدَرِيِّ: رَفارِفَ وعَباقِرِيَّ[6].

قيلَ: الرَّفْرَفُ المَجْلِسُ، وقيلَ المجالِسُ، وقيلَ: الرياضُ الخُضْرُ، وقيلَ: الخيامُ، وقيلَ: هو فضولُ الفُرُشِ والبُسُطِ.

وأما العَبْقَرِيُّ [فقد][7] قيلَ: هو الزَّرابيُّ، وهو بالفارِسِيَّةِ النَّخُّ.

وقالَ أبو عُبيدةَ: العَبْقَرِيُّ: الطَّنافِسُ الثِّخانُ، وقيلَ: لكلِّ شيءٍ مِنَ البُسُطِ عَبْقَرِيٌّ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: العَبْقَرِيُّ في غَيرِ القرآنِ/ ٥٤٤ ـ ب/ ثيابٌ تُتَّخَذُ بِعَبْقَرٍ، وهي بلدةٌ تُنْسَبُ إليها.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: تبارَكَ اسْمُ ربِّكَ مِنْ أنْ يَسْتَحِقَّ غيرُهُ اسْمَهُ. وقولُهُ: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ اسْتَحَقَّ على الخَلْقِ أنْ يُجِلُّوهُ، ويُعَظِّموهُ مِنْ أنْ يُسَمُّوا غَيرَهُ باسْمِهِ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ هو الا[8] يُلْحِقوا بهِ ما لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ وغَيرِهِ.

ثم قيلَ في فائدةِ تكرارِ قولِهِ ﷻ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأيِّ آلاءِ ما في السمواتِ والأرضِ تُكَذِّبانِهِ؟ هي[9] الدلالةُ على وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى والشهادةِ لهُ بأنهُ خالقُهُ ومرسِلٌ [رسلَهُ وما جاؤوا][10] بهِ، وذلكَ أنَّ جَميعَ ما فيهما مِنَ الطعامِ والشرابِ على ما ذَكَرْنا، وذلكَ كما يقولُ الرجلُ لآخرَ، يلومُهُ، ويُعاتِبُهُ: ألم تكنْ جائعاً، فأطْعَمْتُكَ؟ أفَتُنْكِرُ هذا؟ ألم تكنْ ظمآنَ، فَسَقَيْتُكَ؟ أفَتُنْكِرُ هذا؟ ونَحْوَ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ تكونَ فائدةُ التكرارِ غَيرَ هذا، وهي أنهُ خَرَجَ مَخْرَجَ العِظَةِ والتَّذكيرِ، ومِنْ شأنِ المَوعِظَةِ والذِّكْرَى[11] التَّكْرارُ والإعادةُ ليكونَ أنْجَعَ وآخَذَ للقلوبِ وأقربَ إلى القَبولِ، واللهُ أعلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات ج ٧/ ٥٧. (٣) و(٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٥٧ و٥٨. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إن. (٩) في الأصل وم: في. (١٠) في الأصل: رسوله وما جاءت، في م: رسله وما جاءت. (١١) من م، في الأصل: التذكير.

سورة[1] الواقعة

مكية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ هذا ممّا لا يُبْتَدأُ بِهِ الخطابُ، وإنما هو جوابُ سؤالٍ وخطابٍ، لم يُذْكَرْ.

فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المؤمنونَ ذَكَروا كَراماتِهِمُ التي وُعِدوا في الآخِرةِ، فقالَ: لهمْ أولئكَ الكَفَرةُ: متى يكونُ ذلكَ لكمْ؟ فقالوا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ كما يَسْأَلُ الرجلُ: متى يكونُ أمْرُ كذا؟، فيقولُ: إذا كانَ كذا، فهو حرفُ جوابٍ لسؤالِهِ. وعلى هذا يُخَرَّجُ جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنْ هذا النوعِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] ونَحْوِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: إذا وقَعَتِ المَثوبةُ والعقوبةُ فتكونُ الواقعةُ كنايةً عنهما.

وجائزٌ أنْ تكونَ الواقعةُ اسْماً مِنْ أسماءِ البَعْثِ كالقيامةِ والساعةِ وغَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ليسَ لِوَقْعَتِها مَثوبةٌ، ولا تُرَدُّ. ويُقالُ: حُمِلَ عليهِ، فما كَذَبَ، أي فَما رَجَعَ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي هي حقٌّ، ليستْ بِكَذِبٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أي لا يُكَذِّبُ بها أحدٌ إذا وقَعَتْ، ليسَتْ كالآياتِ التي عايَنوها في الدنيا مَعَ ما عَرَفوا أنها آياتٌ كَذَّبوها كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤و١٥] وغيرَ ذلكَ؛ يُكَذِّبونَها مَعَ العِلْمِ بأنها آياتٌ.

يقولُ تعالى: إذا عايَنوا القِيامةَ، يُقِرّونَ بها، ويُصَدِّقونَها، ولا يُكَذِّبونَ بها، كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] غَيرَ الذي كنا نَعْمَلُ ونَحْوَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي ليستِ الأنباءُ والأخبارُ التي جاءتْ على وقوعِها وقيامِها كاذِبَةً، بل هي صادِقَةٌ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَافِضَةٌ﴾ تُسْمِعُ القريبَ ﴿رَّافِعَةٌ﴾ تُسْمِعُ البَعيدَ. وقالَ صاحبُ هذا التأويلِ، إذْ يُفَسِّرُ الواقعةَ: [إنها][3] هي الصَّيحةُ، وتلكَ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَافِضَةٌ﴾ أُناساً في النارِ، و﴿رَّافِعَةٌ﴾ أُناساً في الجنةِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿خَافِضَةٌ﴾ لِمَنْ تكَبَّرَ، وتَعَظَّمَ على الخَلْقِ، [رادَّةً إياهُ][4] و﴿رَّافِعَةٌ﴾ لِمَنْ تواضَعَ للخَلْقِ، وانْقادَ لهُ، وقَبِلَهُ.

وقيلَ: ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأهلِ النارِ في النارِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [القمر: ٤٨] و﴿رَّافِعَةٌ﴾ لأهلِ الجنةِ كقولِهِ تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ يُخَرَّجُ على السؤالِ؛ كأنهمْ لمّا سَمِعوا وَصْفَ القِيامةِ والواقِعةِ مِنَ المؤمنينَ، قالوا[5] عندَ ذلكَ: متى تكونُ الواقعةُ؟ فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فازْلَزَلَتْ حتى تُلْقِيَ ما في بَطْنِها.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وردة. (٥) في الأصل وم: فقالوا.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ قيلَ: فُتِّتَتْ حتى تصيرَ كالدقيقِ، ومنهُ يقالُ للسَّويقِ: المَبْسوسُ، والسَّويقُ يُلَتُّ بِهِ الزيتُ والخِلْطُ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي سُيِّرَتْ تَسْييراً.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ قيلَ: الهباءُ الذي يكونُ فوقَ النارِ إذا خَمَدَتْ، لا يكونُ غيرُهُ ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ أي مُتَفَرِّقاً. وقيلَ: ﴿هَبَآءً﴾ أي تُراباً مُنْتَشِراً. وقيلَ: الهَباءُ المَبْثوثُ هو ما يَسْطَعُ مِنْ سنابِكِ الخَيلِ. وقيلَ: الهَباءُ الغُبارُ الذي تَراهُ في الشمسِ إذا دَخَلَتْ مِنَ الكَوَّةِ.

وفيهِ[1] إخبارٌ عنْ شِدَّةِ ذلكَ اليومِ وهَولِهِ أنهُ يُفْعَلُ بالجبالِ كذا مَعَ صلابَتِها وطاعتِها اللهَ تعالى، فكيفَ يَفْعَلُ بكمْ يا بَني آدَمَ مَعَ ضَعْفِكُمْ وكُفْرِكُمْ ومَعْصِيَتِكُمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي أصنافاً ثلاثةً.

الآيات ٨ ـ ١٠ [والأصنافُ الثلاثةُ][2] ما فَسَّرَ عَقيبَهُ حينَ[3] قالَ: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [وقيلَ: الأصنافُ الثلاثةُ][4] المُكَذِّبونَ والمحسنونَ والسابقونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أصحابُ المَيْمَنَةِ مِنَ اليُمنِ، وأصحابُ المَشْأمةِ مِنَ الشُّؤمِ.

والثاني: [سُمِّيَ هؤلاءِ][5] أصحابَ المَيْمَنَةِ لأنهمْ أصحابُ الطَّيِّباتِ، واليَمينُ هي التي تُسْتَعْمَلُ في الطَّيِّباتِ [وسُمِّيَ][6] الكَفَرَةُ أصحابَ الشِّمالِ لأنهمْ أصحابُ الخَبائثِ، والشِّمالُ تُسْتَعْمَلُ في الخَبائثِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١و...] لأنَّ في كتبِهِمْ طَيِّباتٌ وخَيراتٌ، وفي كُتُبِ الكَفَرَةِ خَبائثُ، فَتُؤتى بشمالِهِمْ.

وقيلَ: سُمُّوا أصحابَ المَيْمَنَةِ والمَشْأمةِ لِما ذَكَرَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧و٨] وقولِهِ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]. فكذا فكلُّ مَنْ أُوتِيَ كتابَهُ بيمينِهِ فهو [مِنْ][7] أصحابِ اليُمْنِ، ومَنْ أُوتِيَ كتابَهُ بشمالِهِ فهو [مِنْ][8] أصحابِ المَشْأمةِ.

وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحَدُهما: السابقونَ في الخَيراتِ، يَسْبِقونَ الناسَ في كلِّ خَيرٍ.

والثاني: السابقونَ في الإجابةِ للهِ ورسولِهِ في ما دعاهُمْ إليهِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ الخطابُ بهِ للناسِ كافَّةً: الأوَّلِينَ والآخِرينَ، فيكونُ الناسُ كُلُّهُمْ أصنافاً ثلاثةً: السابقونَ وأصحابُ اليَمينِ وأصحابُ الشمالِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الخِطابُ بهذهِ الآيةِ لهذهِ الأمَّةِ عامَّةً؛ ففيهِمُ السابقونَ، وفيهمْ أصحابُ اليمينِ، وهُمْ أصحابُ النظرِ في الحُجَجِ والآياتِ والتَّأمُّلِ فيها، وأصحابُ الشمالِ، وهُمُ الكَفَرَةُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ على التَّعَجُّبِ لرسولِ اللهِ ﷺ بما يُكْرِمُهُمْ، أو على التَّعْظيمِ لأولئكَ لِعِظَمِ ما يُعْطيهِمْ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يُخَرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ: على التَّعَجُّبِ والتَّعْظيمِ لِما يَحُلُّ بهم /٥٤٥ ـ أ/ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ يُخَرَّجُ على هذا أيضاً: فلانٌ ما أمْرُ فلانٍ؟ فيقالُ: فلانٌ فلانٌ على تعظيمِ أمْرِهِ وشأنِهِ. فَعَلى ذلِكَ هذا.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: سموا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ يقولُ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في جَعْلِهِمُ الكُفْرَ كلَّهُ مِلَّةً واحدةً: لأنهُ جَعَلَ اللهُ تعالى أهلَ الكُفْرِ على اختِلافِ مذاهبِهِمْ وأديانِهِمْ زَوجاً وأهلَ الإسلامِ زَوجَينِ حينَ جَعَلَ الكلَّ أزواجاً ثلاثةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ وَصفَ التَّقريبِ لهمْ لِمُسابقَتِهِمْ في الخَيراتِ في الدنيا، ويَحتَمِلُ أنهمْ مُقرَّبونَ في الآخِرَةِ بالكراماتِ والمَنزِلةِ لِسَبْقِهِمْ في الخَيراتِ أو في الإجابةِ: والسَّبْقُ فِعْلُهُمْ، والتَّقريبُ بِلطفٍ مِنَ اللهِ تعالى وفَضلٍ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جميعُ الجَنّاتِ نعيمٌ، لأنَّ فيها نعيماً، ولهُ أنْ يُسَمِّيَ واحدةً منها نعيماً والأخرَى عَدْناً والفِرْدَوسَ والمَأوَى لِما لهُ أنْ يُسَمِّيَ ما شاءَ بما شاءَ وكيفَ شاءَ.

الآيتان ١٣و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ اختُلِفَ في ذلكَ.

قالَ بعضُهُمْ: أي ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِمَّنْ شَهِدَ رسولَ اللهِ ﷺ وقَرُبوا منهُ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ مِمَّنْ بَعْدَ من هذِهِ الأمَّةِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ وصُحْبَتِهِ وإدراكِ زمانِهِ، ﴿وَقَلِيلٌ﴾ مِنَ المُقَرَّبينَ ﴿مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهو ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «خَيرُ الناسِ قَرْني ثم الذينَ يَلُونَهُمْ» [البخاري ٢٦٥٢] وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] على ما يَذْكُرُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي جماعةٌ مِنَ المؤمنينَ الذينَ كانوا في الأُمَمِ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي مِنْ هذهِ الأمةِ. وهكذا يكونُ لوِ اجْتَمَعَ أهلُ الإيمانِ مِنْ هذهِ [الأمّةِ][1] مَعَ الأُمَمِ الماضِيةِ يكونُ هؤلاءِ أقلَّ منهمْ.

ويَحتَمِلُ أيضاً أنَّ السابِقِينَ المُقَرَّبينَ مِنَ الأُمَمِ الماضِيَةِ أكثَرُ مِنَ السابِقينَ المُقَرَّبينَ مِنْ هذهِ الأمةِ، لأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام كلَّهُمْ مِنَ الأممِ السالفةِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ لمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وَجَدَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ وَجْداً شديداً، وقالوا: لَنْ يدخُلَ الجنةَ منّا إلا قليلٌ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الآيتان: ٣٩و٤٠] لكنَّ هذا لا يُحتَمَلُ لأنهُ خَبَرٌ، ولا وَرَدَ[2] في الأخبارِ نَسْخٌ، وما قالوهُ فهو نَسْخٌ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ هُمْ أصحابُ اليمينِ مِنَ الأوَّلينَ والآخِرينَ جميعاً، أي جماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ وجماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الآخِرينَ.

ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الأوَّلونَ والآخِرونَ مِنْ هذهِ الأمَّةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الأوَّلونَ مِنَ الأُمَمِ الماضيَةِ والآخِرونَ مِنْ هذهِ الأمَّةِ، وهُمُ المؤمنونَ، وقولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ في المُقَرَّبينَ خاصَّةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ والسُّرُرُ قد تكونُ في الدنيا مَصفوفةً، ولكنْ لا تكونُ مَوضونةً، أي مَنسوجةً، والوَضْنُ هو النَّسْجُ؛ يُخبِرُ أنهُ لا يكونُ بينَ السُّرُرِ في الآخِرَةِ انفِصالٌ ولا فُروجٌ كما يكونُ في الدنيا، لكنها[3] موصولةٌ بعضُها بِبَعْضٍ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي على السُّرُرِ التي ذَكَرَ أنها مَصفوفةٌ مَوضونةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي يُقابِلُ [بعضُهُمْ بعضاً][4] ولا يُعرِضونَ، ولا يَنْظُرُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ بالقَفا كما يَفْعَلُ أصحابُ المَجالسِ في الدنيا؛ يُعْرِضُ بعضُهُمْ عنْ بعضٍ، ويُحقِّرُ بعضُهُمْ بَعْضاً؛ يُخبِرُ أنهمْ يكونونَ[5] في الآخِرَةِ خِلافَ ما في الدنيا بحيثُ لا يَتَأذَّى بَعْضٌ مِنْ بعضٍ بِوَجْهٍ ما.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي[6] إنهمْ يُعْطَونَ في الجنةِ على ما يَسْتَحِبّونَ في الدنيا مِنَ الشَّرَفِ وطَوافِ الوِلْدانِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ السُّرُرِ والفُرُشِ وغيرِ ذلكَ مِنْ انواعِ ما تَرْغَبُ أنْفُسُهُمْ في الدنيا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يرد. (٣) في الأصل وم: لكن. (٤) في الأصل: بعضها، في م: بعضاً. (٥) في الأصل وم: يكون. (٦) في الأصل وم: وفيه.

ثم ذَكَرَ أنهمْ وِلْدانٌ، وإنْ لم يكُنْ في الجنةِ أولادٌ، فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونوا(١) على هيئةِ الوِلْدانِ، وإنْ لم يُولَدُوا..

[والثاني(٢): سُمُّوا وِلْداناً لِوِلادِهِمْ في الدنيا، وإن لم يُولَدوا](٣) في الجنةِ، لأنَّ التوالُدَ في الدنيا لِحاجةِ البَقاءِ، وأهلُ الجنةِ باقونَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي المُقَرَّطونَ، والخُلْدُ: القُرْطُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الخُلودِ كقولِهِ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [التوبة: ١٠٠و...] أي باقينَ(٤). ويُقالُ: مُسَوَّرونَ مِنَ السِّوارِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ هي الكيزانُ المُدَوَّرَةُ الرُّؤوسِ التي لا عُرا لها. والأباريقُ التي لها عُراً وخراطيمُ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الأكوابُ الأقداحَ التي يَشْربونَ بها لأنَّ في الدنيا يكونُ لأهلِ الشرابِ الأباريقُ والأقداحُ؛ يَصُبّونَ مِنَ الأباريقِ في [الأقداحِ، ويَشْرَبونَ منها](٥) لا يَشْرَبونَ مِنَ الأباريقِ. فَعَلَى ذلِكَ وُعِدوا في الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الكأسُ، هو القَدَحُ المَمْلوءُ مِنَ الشرابِ، وأمّا المَعينُ فقالَ بعضُهُمْ: هو الظاهِرُ مِنَ الماءِ الذي يَقَعُ عليهِ البَصَرُ، فَوَعَدَ لأهلِ الجنةِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ الزاي ونَصْبِهِ(٦)، أي لا تُصَدِّعُ(٧) خُمورُهُمْ في الجنةِ رؤوسَهُمْ كما تُصَدِّعُ خُمورُ الدنيا أهلَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قيلَ: بِكَسْرِ الزاي لا يَنْفَدُ شرابُهُمْ، وبالفَتْحِ: لا يَسْكَرونَ؛ أي(٨) إنهُ ليسَ في خُمورِهِمْ الآفةُ التي تكونُ في خُمورِ الدنيا مِنْ ذَهابِ العقلِ والصُّداعِ والنَّفادِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ جميعُ فواكِهِ الجنةِ مُخْتارَةٌ لكنْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ جميعَ فواكِهِها ممّا يَتَخَيَّرونَ.

والثاني: العُرْفُ في الفواكِهِ أنْ تُقَدَّمَ مِنْ أجناسٍ مُخْتَلِفَةٍ وألوانٍ لا مِنْ لَونٍ واحِدٍ ونَوعٍ واحِدٍ، فَيَتَخَيَّرونَ مِنْ أيِّ نَوعٍ اشْتَهَوا، وشاؤوا.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إنَّ أهلَ الجنةِ إنما يَتَناولونَ على الشَّهْوَةِ [لا](٩) على الحاجةِ وسَدِّ الجوعِ، وهو كما ذَكَرَ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

الآيتان ٢٢ و٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ يَحْتَمِلُ تشبيهُ الحُورِ العِينِ باللُّؤلُؤِ وجهَينِ:

أحَدُهما: لِما لا شيءَ أصفَى مِنَ اللُّؤلُؤِ والياقوتِ؛ فَضَرَبَ مَثَلَهُنَّ بذلكَ لِصفائِهِ وبَياضِهِ، وإلّا ما خَطَرُ(١٠) اللُّؤلُؤِ حتى يُشْبِهَ المَوعودَ مِنَ الجنةِ مِنَ الحُورِ(١١) بهِ؟

والثاني: أنَّ لِلُّؤلُؤِ [فَضلاً ومَنْزِلَةً](١٢) عندَ العَرَبِ، وليسَ الخَطَرُ لِغَيرِهِ مِنَ الأشياءِ، فَيُشْبِهُ ضَرْبَ مَثَلِهِنَّ بِهِ لِفَضْلِ خَطَرِ ذلكَ عندَهُمْ، ليسَ ذلكَ لِغَيرِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ٣١] ضَرَبَ مَثَلَ مَنْ يُشْرِكُ باللهِ بالذي خَرَّ مِنَ السماءِ، والشِّرْكُ باللهِ أعظمُ ممّا ذَكَرَ، لكنْ ليسَ شيءٌ أعْظَمَ وأبْعَدَ مِنَ الخَرِّ مِنَ السماءِ السابعةِ(١٣). فَعَلَى ذلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يكون. (٢) في م: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: باقون. (٥) في الأصل وم: القدح، ويشربون منه. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٦٤. (٧) في الأصل وم: يصدعون. (٨) في الأصل وم: فيه. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في م: خص. (١١) في الأصل وم: الحواري. (١٢) في الأصل وم: فضل ومنزلة. (١٣) في الأصل وم: السابع.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إنَّ الله تعالى ذَكَرَ للأعمالِ جزاءً كأنهمْ عَمِلوا لهُ فضلاً منهُمْ[1] وكَرَماً في حقِّ عبادِهِ، وإنْ كانوا في الحقيقةِ عاملِينَ لأنفسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ شرائِهِ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ منهمْ وما ذَكَرَ مِنَ الإقراضِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] وإنْ كانَتْ أنفسُهُمْ وأموالُهُمْ لهُ [ومَعَ أنَّ اللهَ][2] عاملٌ على عبادِهِ في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ [فكأنها ليسَتْ منهُ][3] فَضْلاً وكَرَماً.

فَعَلَى ذلِكَ ذَكَرَ لأعمالِهِمْ جَزاءً كأنها[4] منهمْ إلى اللهِ تعالى [صُنْعاً وإحساناً. وحتى إنْ][5] كانوا عامِلِينَ [لأنفسِهِمْ فَمنافعُ][6] أعمالِهِمْ إليهِمْ بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ هذا يرجِعُ إلى وصْفِ خُمورِ أهلِ الجنةِ، أي ليسَ فيها الآفاتُ التي تكونُ في خُمورِ الدنيا مِنْ ذهابِ العقلِ وقولِ اللَّغْوِ والهَذَيانِ مِثْلُ ما يجري على ألسنتِهِمْ في الدنيا حينَ يَشْرَبونَ[7] الخمورَ وما يَأْثمونَ بِهِ.

وذَكَرَ لهمْ هذهِ الخمورَ في الجنةِ لأنَّ قوماً يَرْغَبونَ فيها، ويَطْلُبونَها بالإمْتِناعِ عَنْ شَبَهِها في الدنيا مِنَ الخُمورِ المُحَرَّمةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا/ ٥٤٥ ـ ب/ سَلَٰمًا﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي إلّا كلاماً، فيهِ سَلامةٌ مِنْ جميعِ الآفاتِ التي ذَكَرَ.

والثاني: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أي يُحَيِّي بعضُهُمْ بعضاً بالسلامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

الآيات ٢٧ ـ ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ أصحابُ اليَمينِ هُمُ المؤمنونَ على ما ذَكَرْنا. ثم اخْتُلِفَ في ذِكْرِ شَجَرِ السِّدْرِ لهمْ وما ذَكَرَ مِنَ الطَّلْحِ وغيرِ ذلكَ:

منهمْ مَنْ قالَ: إنما ذَكَرَ هذا لهمْ لِتَفْضيلِ المُقَرَّبِينَ على أصحابِ اليَمينِ لأنهُ قالَ في المُقَرَّبينَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الآيات: ١٠ ـ ١٢] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ عِظَمِ الكراماتِ التي ذَكَرَ لهمْ، ثم ذَكَرَ لأصحابِ اليَمينِ دونَ ذلكَ لِيُعْلَمَ تَفْضيلُ المُقَرَّبِينَ على أصحابِ اليَمينِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ قوماً مِنَ العربِ يَنْتَفِعونَ بذلكَ لأنَّ لها ثَمَرَةً، لكنْ ليستْ بِمُرَغَّبَةٍ، ولها شَوكٌ؛ فأخبَرَ اللهُ تعالى: أنَّ لهمْ في الجنةِ ذلكَ بلا شَوكٍ ولا أذًى، بل رَغْبَ فيهِ، وهو كما وَعَدَ لهمْ مِنَ الخُمورِ. ثم نَفَى[8] عن خُمورِها الآفاتِ.

فَعَلَى ذلِكَ جائزٌ أنْ يكونَ شَجَرُ السِّدْرِ فيها بِغَيرِ آفاتٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: هو طَلْحٌ مَنْضودٌ مُتراكِمٌ كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠] ذَكَرَ في إحدى الآيَتينِ فَعيلاً[9] وفي الأُخرَى مَفْعولاً[10]، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقيلَ: ﴿وَطَلْحٍ﴾ بالحاءِ: هو الموزُ، وذُكِرَ أنَّ علياً ﷺ سَمِعَ قارئاً يَقْرأُ: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ فقالَ عليٌّ ﷺ: ما شأنُ الطَّلْحِ؟ إنما هو طَلْعٌ، فقيلَ لهُ: إنَّ في المصحفِ: ﴿وَطَلْحٍ﴾ أفلا نُغَيِّرُهُ؟ فقالَ: إنَّ المُصْحَفَ لا يُغَيَّرُ اليومَ. وهذا يُؤَيِّدُ التأويلَ الأوَّلَ.

وقالَ أبو معاذٍ: الطَّلْحُ في كلامِ العربِ شَجَرٌ عِظامٌ كثيرُ الأغصانِ، واحِدُها طَلْحَةٌ، وقالَ: ﴿مَّخْضُودٍ﴾ أي مَقْطوعِ الشَّوكِ، خُلِقَ هنالِكَ هكذا بِلا شَوكٍ. ومنهُ قولُهُ ﷺ في شَجَرِ الحَرَمِ: «لا يُخْضَدُ شَوكُها، ولا يُعْضَدُ شَجَرُها» [البخاري ١١٢].

---

(١) في الأصل وم: منه. (٢) في الأصل وم: وإن كان. (٣) في الأصل وم: كأنها ليست له. (٤) في الأصل وم: كأن. (٥) في الأصل وم: صنع وإحسان وإن. (٦) في الأصل: أنفسهم ومنافع، في م: لأنفسهم ومنافع. (٧) في الأصل وم: شربوا. (٨) من م، في الأصل: نهى. (٩) في الأصل وم: فعيل. (١٠) في الأصل وم: مفعول.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ يَصِفُهُ[1] أنهُ ليسَ فيهِ[2] شمسٌ، يُؤْذِي حَرُّها، ولا بَرْدٌ، يُؤْذِي. بل ظلٌّ لأنَّ الظِّلَّ شيءٌ لطيفٌ، لا أذى فيهِ، ولا [هو شيءٌ يَثْقُلُ][3] على الأبدانِ، بل هو شيءٌ يوافِقُ البَدَنَ، ويَخِفُّ عليهِ.

وقيلَ: ﴿مَّمْدُودٍ﴾ لأنهُ لا شَمْسَ فيهِ[4] فَتَنسَخَهُ. وبالشمسِ يُعْرَفُ الظِّلُّ ههنا، وظِلُّ الآخِرَةِ مَمْدودٌ أبداً.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ قيلَ: جارٍ غَيرِ مُنقَطِعٍ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي مَصْبوبٍ. والأوّلُ كأنهُ أقرَبُ، أي جارٍ أبداً، ليسَ كمِياهِ الدنيا إلّا أنْ يُرادَ بالإنسِكابِ[5] صَبُّهُ مِنَ الأعْلى إلى الأسفَلِ، وذلكَ ممّا رُغِبَ إليهِ في الدنيا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لأصحابِ اليَمينِ، وما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] لِلْمُقَرَّبِينَ[6].

فيكونُ لِلْمُقَرَّبِينَ قولُهُ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ولأصحابِ اليمينِ [قولُهُ تعالى][7]: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧] وكذلك ما ذَكَرَ مِنْ [قولِهِ تعالى][8]: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٥و...] لِلْمُقَرَّبِينَ؛ يكونونَ في العِلِّيِّينَ، وتكونُ الأنهارُ تَحْتَهُمْ، وما يَنْسَكِبُ، ويَنصَبُّ مِنَ الأعْلَى لأصحابِ اليمينِ، لأنهمْ يكونونَ دونَهُمْ في الدرجةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٢ و٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ كانْقِطاعِ فواكِهِ الدنيا؛ يُخْبِرُ أنها لا تَنْقَطِعُ في الجنةِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، وأنها كلما قُطِعَتْ مَرَّةً خَرَجَتْ أُخرَى مَكانَها مُهَيَّئَةً للأكلِ مِنْ غَيرِ أنْ يُحتاجَ فيهِ إلى وقتٍ لِلنُّضجِ كما في الدنيا تَنقَطِعُ مِنْ وقتِ خُروجِها إلى وقتِ نُضجِها، وبَعدَ النُّضجِ والإدراكِ تَنقَطِعُ إلى وقتِ وجودِ حَمْلٍ آخَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا آفةَ بِها فَتَصيرَ[9] مَمْنوعةً كفواكِهِ الدنيا؛ إذْ هي تُمْنَعُ بآفةٍ تُصيبُها.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي لا تُحْبَسُ كما يُمْنَعُ في الدنيا بعضٌ منْ بعضٍ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي مَرْفوعةِ القَدْرِ والمَنْزِلةِ، أو مرفوعةٍ بِنَفْسِها في القِيامةِ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

وقيل: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ النساءُ؛ يُقالُ: امْرَأةٌ فَريشٌ، ونساءٌ فُرُشٌ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ قالَ الأصَمُّ وغَيرُهُ: إنَّ هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الآيتان: ٢٢و٢٣] كأنهُ قالَهُ[10] على إثرِهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: إنهُ لَمّا ذَكَرَ على إثْرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ دلَّ أنَّ الفُرُشَ كِنايةٌ عنِ الأزواجِ؛ إذْ هُنَّ اللواتي[11] تُفْرَشُ، وواحدةُ الفُرُشِ فَريشٌ.

وقيلَ: قدِ اسْتَفْرَشَتِ الناقةُ إذا اشْتَهَتِ الجَمَلَ.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ هذا على صِلَةِ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ إذْ ذَكَرَ قولَهُ[12]: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ على [إثرِ ذِكْرِ][13] المجالِسِ والزوجاتِ، فلا[14] مَعْنَى لِذِكْرِهِنَّ في هذا المَوضِعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي أنشأناهُنَّ في الابتِداءِ على هيئةِ الاسْتِمْتاعِ، ليسَ كَنِساءِ الدنيا، وهو كما ذَكَرْنا في قولِهِ في صِفَةِ الفواكِهِ أنها غَيرُ مَقْطوعةٍ ولا مَمْنوعةٍ، أي أنها تَخْرُجُ أوّلَ ما تَخْرُجُ [مُهَيَّئَةً لِلأكلِ][15] لا كَثِمارِ الدنيا.

---

(١) في الأصل وم: يصف. (٢) في الأصل وم: فيها. (٣) في الأصل وم: شيء أثقل. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) في الأصل وم: بالانصباب. (٦) في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: اللؤلؤ. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٣) في الأصل وم: ذَكَرَ إثر. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: على هيئة الأكل.

الآيات ٣٦ ـ ٤٠ وقولُه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾][1] قيلَ: أي خَلَقْناهُنَّ كذلكَ، ويَكُنَّ أبداً كذلكَ كلّما ذهبَتْ عُذْرَتُهُنَّ عادَتْ، فَيَكُنَّ أبداً على تلكَ اللذةِ لأنهنَّ أُنْشِئْنَ[2] هكذا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ عامّةُ أهْلِ التأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي جَعَلْنا[3] نساءَ الدنيا مِنَ الثَّيِّباتِ والأبكارِ [وخلَقْنا نساءَ الجنةِ][4] خَلْقاً جديداً سِوَى الخَلْقِ الذي كانَ في الدنيا ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ وكُنَّ في الدنيا عَجائِزَ وثَيِّباتٍ.

ورُوِي على ذلكَ خَبَرٌ عنِ النَّبِيِّ ﷺ إنْ ثَبَتَ، أنهُ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ «الثَّيِّبُ والبِكْرُ» [الطبري في تفسيره ٢٧/ ١٨٥]. وفي بعضِ الأخبارِ [أنهُ][5] قالَ: «إنَّ العجوزَ لا تَدْخُلُ الجنةَ» [المرتضى الزبيدي في الإتحاف ٧/ ٤٩٩] في[6] قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

ومَنْ قالَ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ فهنَّ[7] لَسْنَ كَنِساءِ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ بِجَزمِ الراءِ مُخَفَّفَةً [وضمِّها. وكانَ][8] أبو عبيدٍ يَقْرَؤُها بالضَّمِّ لوجهينِ:

أحَدُهما: التَّفْخيمُ، على[9] أنها أقْيَسُ في العربيةِ لأنَّ واحِدَتَها[10] عَروبٌ، وهو مِثْلُ صَبورٍ وصُبُرٍ وشَكورٍ وشُكُرٍ.

وأمّا الوجهُ الآخَرُ التَّخفيفُ فقيلَ في تأويلِهِ: عُرْباً عاشِقاتٍ لأزواجِهِنَّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: العَروبُ المَرِحةُ، وقالَ القُتَبِيُّ: هي المُتَحَبِّبَةُ إلى زَوجِها، وقيلَ: الغَنِجاتُ إلى أزواجِهِنَّ. وقيلَ: إنَّ أهلَ مكةَ يُسَمُّونَها العَرِبَةَ، وأهلَ المدينةِ غَنِجَةً، وأهلَ العراقِ الشَّكِلَةَ.

وقالَ سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ: ﴿عُرُبًا﴾ ضَبِعاتٍ، والضَّبِعاتُ هي التي تَعَرَّضُ للزَّوجِ مِنَ الشَّهْوةِ، ويُقالُ للناقةِ إذا اشْتَهَتِ الضِّرابَ: ضَبِعةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مُسْتَوياتِ الأسنانِ. وقالَ القُتَبِيُّ: التِّرْبُ واللِّدَةُ واحدةٌ، وهو بالفارِسِيَّةِ هَمْراه. وأصلُهُ أنهنَّ اسْتَسْنَنَّ بلا وِلادٍ يَتَقَدَّمُ، ويَتَأَخَّرُ، كما كنَّ يَتَفاضَلْنَ في الأسنانِ، فَصِرْنَ في الآخِرةِ أتراباً. ثم قالَ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ أنهُ يُخَرَّجُ على الوجهَينِ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [عنِ النَّبِيِّ][11] ﷺ أنهُ قالَ: «هما جميعاً مِنْ أُمَّتِي» [الطبري في تفسيره ٢٧/ ١٩١] وكذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ذَكَرَ في أصحابِ اليَمينِ ما ذَكَرَ مِنَ التَّعَجُّبِ، وأخبَرَ عمّا يُكرِمُهُمْ، ويُعطيهِمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ، وذَكَرَ أصحابَ الشمالِ، وذَكَرَ على إثْرِهِ ما أوعَدَ لهمْ مِنَ العذابِ بقولِهِ: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ الآياتِ[12].

ثم ذَكَرَ في أوّلِ السورةِ أصحابَ الميمنةِ والمَشأمةِ، ولم يذكُرْ لهمُ الثوابَ ولا العذابَ؛ وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ في ذِكْرِ المَيْمَنَةِ والمَشأمةِ دلالةً ما لَهُمْ، لأنَّ المَيمَنَةَ مِنَ اليُمْنِ، والمَشأمَةَ مِنَ الشُّؤمِ. ففي ذِكْرِ ذلكَ بيانُ [ما][13] لهمْ مِنَ الكراماتِ وما لأولئكَ مِنَ العقوباتِ.

وليسَ/ ٥٤٦ ـ أ/ في ذِكْرِ اليَمينِ والشمالِ بَيانُ العقابِ، فَذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ لِيُعْرَفَ ما لِكُلِّ فريقٍ مِنَ الجَزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أمسين. (٣) في الأصل وم: خلقنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: ومضمومة وقال، انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٦٧. (٩) في الأصل وم: والثاني. (١٠) في الأصل وم: واحدها. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: الآية. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ قيلَ: السَّمومُ هو فَحِيحُ جَهَنَّمَ، والحَميم هو الذي انْتَهَى حَرُّهُ غايتَهُ. وقيلَ: السَّمومُ هو حَرُّ النارِ، وقيلَ: هو ريحٌ باردةٌ، وقيلَ: ريحٌ حارّةٌ.

وأصلُهُ أنهُ لما أصابَهُمُ السَّمومُ اشْتَدَّ بهمُ العَطَشُ. فعندَ ذلكَ يَشْرَبونَ الحَميمَ رَجاءَ أنْ يَسْكُنَ بهِ عطشُهُمْ، ويَذْهَبَ ذلكَ عنهمْ، فلا يَزدادُ لهمْ بذلكَ إلّا شِدَّةُ عطشٍ على ما كانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ قيلَ: هو دُخانٌ أسْوَدُ، وقالَ بعضُهُمْ: اليَحْمومُ هو مِنَ الحَميمِ، وقالَ أبو بكرٍ: أي ظلٌّ مِنْ بُخارٍ، يَجْعَلُ اليَحْمومَ بُخاراً. ثم الظِّلُّ الذي ذَكَرَ ههنا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هو الظِّلَّ الذي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وقولِهِ: ﴿ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٦]. وقيلَ: هو السُّرادِقُ مِنَ النارِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ لأنهُ مِنَ النارِ ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ لأنهُ لِهَوانِهِمْ ليسَ للكَرامةِ. وقالَ الحَسَنُ وقتادةُ: لا باردِ المَنْزِلِ ولا كريمِ المَنْظَرِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي هذا الجَزاءُ لهمْ لأنهمْ كانوا يقولونَ في الدنيا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبإ: ٣٥] وإنما قالَ ذلكَ مُتْرَفوهُمْ دونَ السَّفَلَةِ والأتباعِ [لِرُسُلِهِ ﷺ][1] ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبإ: ٣٤].

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ اختَلَفوا فيهِ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي على الإثْمِ العظيمِ، وهو الشِّرْكُ. وقيلَ: الحِنْثُ العظيمُ: [الحِنْثُ هو الكبائرُ، والعظيمُ هو الإصرارُ والإدامةُ][2].

وقالَ بعضُهُمْ: يُصِرّونَ على أنفسِهِمْ: يُقْسِمونَ، ويَحْنَثونَ فيهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] أقْسَموا أنهمْ لا يُبْعَثونَ، فَحَنِثوا في ذلكَ، لأنهُ تعالى أخبَرَ أنهمْ يُبْعَثونَ حينَ[3] قالَ: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قَسَمُهُمْ ما ذَكَرَ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وقولَهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] وقد جاءَهُمُ النذيرُ، فلم يكونوا أهدَى، وجاءَتْهُمُ الآياتُ، فلم يؤمِنوا بها، فَحَنِثوا فيها.

فإنْ كانَ قَسَمُهُمْ بأنهمْ لا يُبْعَثونَ حَنِثوا حينَ فَراغِهِمْ مِنَ اليَمينِ لأنهمْ أيِسوا منْ ذلكَ.

وفيهِ دلالةُ صِحَّةِ مَذْهبِ أصحابِنا: إنَّ منْ حَلَفَ يَلْمِسُ السماءَ فإنهُ[4] يَحْنَثُ عندَ فراغِهِ مِنَ اليَمينِ.

الآيتان ٤٧ و٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ قالوا هذا على الاسْتِهْزاءِ والاسْتِبْعادِ لِلْبَعْثِ.

الآيتان ٤٩ و٥٠ ألا تَرَى أنهُ أجابَهُمْ، فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾؟ ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي يَجْمَعُ الأوّلينَ والآخِرينَ في التَّخْليقِ، أي جَمَعَ بينَ الأوّلينَ والآخِرينَ في التخليقِ حينَ[5] خَلَقَ الآخِرينَ على إثْرِ الأوّلينَ، وإلّا لم يكونوا مَخلوقينَ بَعْدُ.

والثاني: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ في الأرضِ أي في القبورِ ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بآياتِ اللهِ الدالّةِ على توحيدِهِ ورسلِهِ والبَعْثِ.

---

(١) في الأصل وم: لقوله تعالى. (٢) في الأصل وم: الكبائر والإصرار هو الإدامة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أنه.
(٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ أخبَرَ أنَّ المُكَذِّبينَ يكونونَ آكلينَ مِنَ الشَّجَرِ الزَّقومِ، فيكونُ كما أخبَرَ.

ثم شجرةُ الزَّقُّومِ هي التي ذَكَرَ أنها ﴿تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤و٦٥]. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ في مَوضِعِهِ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ يُخبِرُ أنْ ليسَ لهمْ ممّا يأكلونَ، ويَشرَبونَ إلّا امْتِلاءُ البُطونِ؛ لا يَدْفَعُ عنهمْ ما يأكلونَ مِنَ الزَّقُّومِ وغَيرِهِ الجوعَ وما يَشْرَبونَ مِنَ الحَميمِ العَطَشَ عنهمْ [بلْ][1] يَزدادُ لهمْ بذلكَ [جوعٌ وعَطَشٌ][2] على ما كانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥٤و٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ قيلَ: الهيمُ هو إبِلٌ يأخُذُ الداءُ، يَشْرَبُ حتى يَمْلأَ البَطْنَ، فلا يُرْوَى أبداً للداءِ الذي فيهِ. فَعَلَى ذلِكَ أهلُ النارِ يَشْرَبونَ، ويأكلونَ، حتى تَمْتَلِئَ بُطونُهُمْ، فلا يُرْوَونَ، ولا يَشْبَعونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: الهيمُ الإبِلُ الذي يَهيمُ في الأرضِ، ولا يَرِدُ الماءَ أياماً، ثم إذا أُورِدَ الماءَ يَشْرَبُ، فَيَمْتَلِئُ بطنُهُ حتى يَهْلَكَ لِامْتِلاءِ البطنِ، وهو قولُ الأصمِّ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي الذينَ ذَكَرَ [هذا][3] غِذاؤهُمْ ورِزقُهُمْ يومَ الدينِ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: لمّا صَدَّقْتُموني ورُسُلي بأنا خَلَقْناكُمْ في الابْتِداءِ، فهلّا صَدَّقْتُمونا ورسُلَنا بأنّا نُعيدُكُمْ تارةً أُخرَى؟ إذِ الأعجوبةُ في ابْتِداءِ الأشياءِ أكثَرُ منها في الإعادةِ، وهو ما قالَ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

والثاني: إنكمْ صَدَّقْتُموهُ ورسلَهُ أنهُ أنشَأكُمْ في بُطونِ أمهاتِكُمْ في الظُّلُماتِ الثلاثِ، ونَقَلَكُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، لا يَحتَمِلُ أنْ يَترُكَكُمْ سُدًى بلا عاقبةٍ، فيكونُ فيهِ إثباتُ البَعْثِ؛ إذْ لولا ذلكَ لَكانَ خَلْقُهُمْ وتحويلُهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ عَبَثاً كما قالَ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥٨ و٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ قد عَلِموا أنهمْ لم يَخلُقوا ما يُمْنونَ، ولا خَلَقوا أنفُسَهُمْ، فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: قد أقرَرْتُمْ أنكُمْ لم تَخلُقوا [ماءَ مَنِيَّتِكُمْ][4] ولا تَمْلِكونَ ذلكَ؛ فقد عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ، هو خالِقُكُمْ وخالقُ ذلكَ كلِّهِ، وهو المالكُ لذلكَ.

فإذا عَرَفْتُمْ ذلكَ، وأنتمْ أهلُ تَمْييزٍ وأكمَلُ عَقْلاً مِنْ غيرِكُمْ، فإذا لم تَمْلِكوا خَلْقَ أنفسِكُمْ فالذينَ هُمْ دونكُمْ أحقُّ [ألّا يَمْلِكوا خَلْقَ أنفسِهِمْ[5]][6] وخَلْقَ ما ذَكَرَ، ثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ، فكيفَ عَبَدْتُمْ غَيرَهُ، وصَرَفْتُمُ الألوهيَّةَ إلى غَيرِهِ؟

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُهما: أنهُ لمّا كانَ هو الذي خَلَقَكُمْ وما ذَكَرَ، ثم قَدَّرَ بَينَكُمُ الموتَ، وفيكُمُ الوَليُّ لهُ والعَدُوُّ، وقد سَوَّى في الدنيا بينَ الوَليِّ والعَدُوِّ، وفي الحِكمَةِ التَّفريقُ بَينَهما، دلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرَى تُفَرِّقُ بينَهما.

والثاني: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي المُعَجَّلَ والمُؤَجَّلَ، أي لم يَجْعَلْ مَوتَ جميعِكُمْ في وقْتٍ واحِدٍ، بل جَعَلَ مُعَجَّلاً ومُؤَجَّلاً في الأصلِ، وقَدَّرَ أنْ تكونَ مُدّةُ أجلِ هذا أكثَرَ مِنْ مُدّةِ أجلِ الآخَرِ.

[والثالثُ: قيلَ][7]: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي سَوَّينا بينَكُمْ في المَوتِ بينَ عزيزِكُمْ وذليلِكُمْ ورفيعِكُمْ ووَضيعِكُمْ، لا يَسلَمُ أحَدٌ منهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جوعاً وعطشاً. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ما أمنيتهم. (٥) في م: أنفسكم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقيل.

ويَحتمِلُ وجهاً آخرَ، هو أَوْلَى، وهو أنهُ لمّا قَدَّرَ بينَكُمُ المَوتَ، وكلُّ واحدٍ يَكْرَهُ الموتَ، ثم لم تَمْلِكوا دفعَ المَوتِ عنْ أنفسِكُمْ، دلَّ أنَّ ههنا قاهراً قادراً يَجِبُ القولُ بوجودِهِ والانْقِيادِ لأوامِرِهِ ونَواهيهِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي وما نحنُ بِمَغلوبينَ في تبديلِ أمثالِكُمْ، أو يقولُ: وما نحنُ بِعاجِزينَ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ تبديلِكُمْ إلى صورةٍ ذميمةٍ قبيحةٍ كصورةِ القِرَدةِ والخنازيرِ ونَحْوِها.

وقيلَ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أيِّ خَلْقٍ شاءَ، وهو أقربُ مِنَ الأوَّلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في ظلماتٍ ثلاثٍ، الذي لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ البَشَرِ ولا تدبيرُ الحكماءِ إلى أنْ يَبْلغوا ما بَلَغوا. فَمَنْ مَلَكَ ذلكَ فلا يُحْتَمَلُ أن يَعْجَزَ عنْ بَعْثٍ أو غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ فهو على ما ذَكَرْنا أنكمْ لمّا عَرَفْتُمْ أنهُ هو الذي أنْشَأَكُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى لا عَنْ أصلٍ سَبَقَ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَعْجَزَ عنِ النشأةِ الآخِرَةِ لأنها مِثْلُ الأُولَى في زَعمِكُمْ أسْهَلُ وأهْوَنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يُخَرَّجُ على ما ذَكَرْنا: هل تَذْكُرونَ وحدانِيَّتَهُ / ٥٤٦ ـ ب/ ورُبوبِيَّتَهُ؟ أو هلّا تَذْكُرونَ أنهُ قادرٌ على البعثِ؟ أو ألَا تَذْكُرونَ أنهُ، هو المُسْتوجِبُ لِشُكْرِ ما أنْعَمَ عليكُمْ؟ أو هلّا تَذْكُرونَ نِعَمَهُ وإحسانَهُ؟ ومِنَ الناسِ مَنْ قالَ: النشأةُ الأولَى ههنا نَشْأةُ آدمَ ﷺ وخَلْقُهُ، أي عَلِمْتُمْ نشأتَهُ لا مِنْ أصلٍ ولا احْتِذاءٍ لِغَيرٍ. فَمَنْ قَدَرَ على ذلكَ فهو على النَّشأةِ الأُخرَى قادرٌ، وعلى تقديرِ وَهْمِكُمْ أقْدَرُ، واللهُ الموفِّقُ.

الآيتان ٦٣و٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][1] جائزٌ أنْ يكونَ هذا صلةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ﴾ تَخْلُقونَ الزرعَ، أم نحنُ الخالِقونَ لهُ؟ فيكونُ فيهِ الذي ذَكَرْنا في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أأنتُمْ جَعَلْتُمُ الحراثةَ بحيثُ يَنْبُتُ أم نحنُ الجاعلونَ بحيثُ يَنْبُتُ؟

الآية ٦٥ ثم قالَ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي يابساً، قالَ أبو عوسَجَةَ: أي مُتَكسِّراً، لِيُذَكِّرَ نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِمْ؛ يقولُ: هو الذي جَعَلَهُ بحيثُ يُنْتَفَعُ [بهِ][2] ويَبْقَى. ولو شاءَ لَجَعَلَهُ بحيثُ لا يُنْتَفَعُ بهِ، أو يُخْبِرُ عنْ قدرتِهِ أنهُ قادرٌ على الإنباتِ وعلى الإهلاكِ. فَعَلَى ذلكَ [هو][3] قادرٌ على الإنشاءِ والإعادةِ.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أأنتم تُنْبِتونَهُ أم نحنُ المُنْبِتونَ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ قيلَ: تَعْجَبونَ، وقيلَ: تَنْدَمونَ، وهي لغةُ عُكْلٍ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: أي صِرْتُمْ تتنعَّمونَ، وتتلذَّذونَ، كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ: لو أخذْتُ مالكَ، أو سَلَبْتُهُ، صِرْتَ غنيّاً، أوِ استغْنَيتَ. ولكنْ لا ندري أيقالُ هذا أم لا؟ فإنْ كانَ يُقالُ ذلكَ فيصيرُ تقديرُهُ كأنهُ يَتَلَذَّذُ بِكَثرةِ ما يَذْكُرُهُ في كلِّ وقتٍ لأنَّ الرجلَ إذا ذَهَبَ مالُهُ لا يزالُ يَذْكُرُهُ كالمُتَلَذِّذِ بهِ والمُتَنَعِّمِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تَتلاوَمونَ، وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: فَصِرْتُمْ تَفَكَّهونَ، وقولُهُ: ﴿فَظَلْتُمْ﴾ يُسْتَعْمَلُ في زمانِ النهارِ دونَ الليلِ.

الآيتان ٦٦و٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي فَظَلْتُمْ تقولونَ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ثم اخْتُلِفَ فيهِ؛ قيلَ: إنّا لَمُعذَّبونَ لِقولِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] وقيلَ: إنّا لَمُذَمُّونَ المُلْقَونَ لِلشَّرِّ، أو نَحْوُ ذلكَ. لكنهُ مِنَ الغُرْمِ الظاهِرِ لأنَّ مُرْتَجَعَهُ خُسْرانٌ في مالِهِ أو هلاكٌ تَلْحَقُهُ الغرامةُ لِما يَحْتاجُ إلى غَيرِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

وأصلُهُ: كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لو جَعَلَهُ حُطاماً يابساً [لا](١) تنتَفِعونَ بهِ ظَلْتُمْ تقولونَ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قيلَ: المَحْرومُ، هو الذي يُنْتَفَى عنهُ المالُ أو ما يَنْتَفِعُ بهِ. وقالَ بعضُهُمْ: مَحْدودونَ، وقيلَ: مُحارَفونَ. لكنَّ المَحْرومَ ظاهرٌ، لا يَحْتاجُ إلى التفسيرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٨و٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ يُذَكِّرُ نِعمَةَ عليهِمْ بما أنْزَلَ إليهِمْ مِنَ الماءِ العَذْبِ، فيَشْرَبونَ.

الآية ٧٠ وأخبَرَ أنهُ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ مالحاً يُهْلِكُ(٢) الأنفسَ، ولا تقومُ بهِ(٣). وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الآية: ٦٥] حتى يَخْرُجَ مِنْ أنْ يكونَ، غذاءً فيهِ لكنْ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ أبْقَى لهمْ ذلكَ أغذيةً وأشربَةً. ولذلكَ قالَ في آخِرِهِ ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي هلّا تشكُرونَ [ما](٤) أنعَمَ عليكُمْ؟

ثم هذهِ الآياتِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ في أفعالِ العبادِ حينَ(٥) قالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الآيتان: ٥٨و٥٩] والإمناءُ، هو فِعْلُ العبدِ؛ إذْ هو دَفْقُ المَنِيِّ. ثم أخبَرَ أنهُ خالقُ ذلكَ حينَ(٦) قالَ: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ وكذلكَ الحِراثةُ والزراعةُ فِعْلُ العبادِ، وأخبَرَ أنهُ خالقُ ذلكَ. وفي(٧) قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الآية: ٦٥] وقولِهِ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ نَقْضُ قولِهِمْ في الأصلَحِ.

فإنهُ يُقالُ لهمْ: إنَّ قولَهُ: ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ فَجَعَلَهُ كذا، ثم لم يَفْعَلْ ذلكَ، فقد تَرَكَ الأصلَحَ، أو يكونُ الأصلَحُ لهمْ في إبقاءِ ذلكَ، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: لو شاءَ لَجَعَلَ ما هو حقٌّ وعدلٌ جَوراً، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ أنْ يَجورَ لَجارَ. فَعَلَى أيِّ الوجهَينِ حُمِلَ كانَ في ذلكَ نَقْضُ مذهبِهِمْ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ [الآية: ٦٠] نَقْضُ قولِهِمْ في أنَّ المَقْتولَ لم يَمُتْ بأجلِهِ، لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ أنهُ قَدَّرَ الموتَ بَينَهُمْ، وعندَهُمْ أنَّ مَنْ قُتِلَ لم يَمُتْ بما قَدَّرَ اللهُ تعالى، ولم يَمُتْ بأجلِهِ، وقد أخبَرَ أنهُ هو قَدَّرَ ذلكَ، وأنهُ لا يُسْبَقُ في ذلكَ لِقولِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

ولو كانَ على ما تقولُهُ المعتزلةُ: يموتُ قَبْلَ أجلِهِ فقد قالوا: إنهُ لم يُقَدِّرْ لهُ الموتُ، وإنَّ القاتلَ قد سَبَقَهُ، ومَنَعَهُ عنْ وفاءِ ما جَعَلَ لهُ مِنَ الأجلِ والبلوغِ إلى ذلكَ الأجلِ الذي جُعِلَ لهُ، وكَذَّبَهُ في خَبَرِهِ أنهُ يَبْلُغُ إلى ذلكَ الأجلِ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِ المُزْنِ:

قالَ عامَّةُ أهْلِ التأويلِ والأدبِ: المُزْنُ، هو السحابُ. وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: المُزْنُ، هو الماءُ العَذْبُ فَعَلَى قولِهِ يكونُ حرفُ ﴿مِنَ﴾ صِلَةً؛ كأنهُ قالَ: أأنتمُ أنزلْتُمُ المُزْنَ؟.

والظاهرُ ما ذهبَ إليهِ أولئكَ أنهُ يُنْزِلُ مِنَ السحابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿تُورُونَ﴾ توقِدونَ. وقالَ بعضُهُمْ: تَقْدَحونَ؛ يُقالُ: قَدَحْتُ النارَ، وأوريْتُها، أي أخرَجْتُها؛ يُقالُ: وَرَتِ النارُ تَرَى وَرْياً، فهي وارِيةٌ، أي أضاءَتْ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ﴾ قيلَ: هي الشجرةُ التي تُجْعَلُ حطباً، وتُوقَدُ بها النارُ، وتُحْرَقُ. وقيلَ: هي الشجرةُ التي فيها النارُ التي تُتَّخَذُ منها الزُّنودُ. والأوَّلُ أقربُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ قالَ بعضُ أهْلِ التأويلِ: أي جَعَلْنا هذهِ النارَ تَذْكِرَةً للنارِ الكُبْرى، وهي نارُ الآخِرَةِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ أي هذهِ النِّعَمَ الحاضرةَ ﴿تَذْكِرَةً﴾ لِلنِّعَمِ المَوعودةِ، أو جَعَلْنا هذهِ الشدائدَ والبلايا في الدنيا تَذْكِرَةً لِما أوعَدْنا(٨) في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: له. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أوعدها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ قالَ بعضُ أهْلِ التأويلِ: أي متاعاً لِلمُسافرينَ؛ خَصَّ المُسافرينَ لِنُزولِهِمُ القِواءَ، وهو القَفْرُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ. وقيلَ: ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ المُسْتَمْتِعينَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: المُقْوي الذي لا زادَ لهُ. وقيلَ: الذي يَقَعُ في أرضٍ قِواءٍ، والقِواءُ [الأرضُ][1] الخاليةُ مِنَ الناسِ.

وقالَ أبو عُبَيدٍ: [لا][2] أرَى الذي لا زادَ لهُ معهُ [أولَى بالنارِ ولا أحْوجَ إليها مِنَ الذي معهُ الزادُ][3] بل صاحبُ الزادِ إليها أحْوَجُ. ويُقالُ: رجلٌ مُقْوٍ إذا كانَتْ معهُ مَطِيَّةٌ قويَّةٌ.

الآية ٧٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾][4].

الآيتان ٧٥ و٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ عن ابنِ مَسْعودٍ وإبراهيمَ أنهما قَرَأا بِمَوقِعِ على الوُحْدانِ[5]. وعنِ الحَسَنِ أنهُ قرأها ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾ على الجَمْعِ، وبهِ أخَذَ أبو عُبَيدٍ، وقالَ: إنَّ بعضَ أهْلِ التأويلِ يَتَأوَّلونَها على مَنازِلِ القرآنِ، وبعضَهُمْ على مَغايِبِ الكواكبِ[6] ومَساقِطِها.

وأيُّ الوَجْهَينِ كانَ فالجَمْعُ فيهِ أولَى مِنَ الوُحْدانِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: إنَّ حَرْفَ لا ههنا صِلَةٌ؛ كأنهُ قالَ: أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النجومِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] ونَحْوُهُ يكونُ على الصِّلَةِ، والزيادةُ على التوكيدِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ على إثْباتِ حَرْفِ لا. لكنهُ جَعَلَ ذِكْرَهُ لِرَدِّ قولٍ كانَ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ ولِدَفْعِ مُنازَعةٍ كانَتْ منهمْ، لكنْ لم يَذْكُرْ ذلكَ لِما كانَتْ مَعْروفةً بَيْنَهُمْ، فَرَدَّ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَلَآ﴾ ثم ابْتَدَأَ القَسَمَ بقولِهِ: ﴿أُقۡسِمُ﴾ كأنهُ قالَ: أُقْسِمُ قَسَماً بِمَواقِعِ النجومِ.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما:

[أحدُهما: ما][7] قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي بمواقعِ نُزولِ القرآنِ نُجوماً:

دليلُهُ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الآيتان: ٧٧و٧٨].

والثاني: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ المَعْروفةِ على ما قالَ بعضُهُمْ.

ثم إنْ كانَ المُرادُ منهُ [مَغايبَ الكواكبِ][8] فالقسمُ بها يكونُ على وجوهٍ:

أحَدُها: لِعِظَمِ مَواقِعِ النجومِ ومَحَلِّها في القلوبِ وجَليلِ قَدْرِها عندَ الناسِ حتى يَجْعَلَها بعضُ/٥٤٧ ـ أ/ المُلْحِدَةِ مُدَبِّرَةَ الخَلْقِ.

[والثاني][9]: لِكَثْرَةِ مَنافِعِ الخَلْقِ بها مِنْ مَعْرِفةِ [الطُّرُقِ][10] بها والسُّبُلِ ومَعْرِفةِ كَثْرَةِ الأنداءِ والمِياهِ ومَعْرِفةِ الأوقاتِ والأزمنةِ وغَيرِها مِمّا يَكْثُرُ ذِكْرُها.

[والثالثُ][11]: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي بِمَساقِطِها؛ وفي ذلكَ إخبارٌ وإنباءٌ عن شدةِ طاعةِ النجومِ وتَسْخيرِهِ إياها لِلْخَلْقِ حتى[12] تَمْلِكَ قَطْعَ مَسيرةِ خَمْسِ مِئةِ [عامٍ][13] بيومٍ وليلةٍ واحدةٍ مالا يُتَوَهَّمُ قَطْعُ ذلكَ مِنْ سِواها مِنْ ذَوي الأرواحِ والأجْنِحَةِ التي هي أسْرَعُ لِقَطْعِ المَسافةِ والوُصولِ إلى مَقاصِدِها، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ أهْلُ التأويلِ بأجمَعِهِمْ: إنَّ القَسَمَ بها مِنَ اللهِ تعالى، وجائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ مِنَ الرسولِ ﷺ لكنْ أضافَ إلى

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٧٣. (٦) في الأصل وم: الكوكب. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: الكوكب. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

نفسِهِ تَعليماً منهُ لرسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُقْسِمَ بربِّ هذهِ الأشياءِ إذا [لم يَقَعِ][1] التَّنازُعُ بَيْنَهُمْ وبينَ رسولِ اللهِ تعالى لِيُقْسِمَ، وإنما وَضَعَ القَسَمَ لتأكيدِ الخَبَرِ عندَ الإنكارِ والتَّنازُعِ في ما بَيْنَهُمْ وبينَ الرسلِ ﷺ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] ليسَ مِنَ الرسولِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الربُّ ﷻ هو المُقْسِمَ، ويقولَ: ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ وظاهِرُهُ[2] أنْ يكونَ الرسولُ هو المُقْسِمَ بها. فَعَلَى ذلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ قالَ: إنَّ الأقسامَ التي جَرَى ذِكْرُها في القرآنِ بالأشياءِ التي ذَكَرَها لو لم يَكُنِ القَسَمُ بها لكانَتْ تلكَ الأشياءُ تُؤكِّدُ، وتُوجِبُ القَسَمَ؛ وتؤكِّدُ أنْ لو وَقَعَ بها القَسَمُ، لأنَّ الأقسامَ فيهِ إنما جَرَى أكْثَرُها في إيجابِ البعثِ والتوحيدِ وإثباتِ الرسالةِ، ونَحْوُها وما جَرَى ذِكْرُها، لو لم يكنِ القَسَمُ لها لكانَ يُوجِبُ ما يُوجِبُ القَسَمَ، لأنَّ في هذهِ الأشياءِ دلالاتٍ على البَعْثِ والتوحيدِ والرسالةِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ على قولِ مَنْ يَجْعَلُ القَسَمَ بالقرآنِ، فهو ظاهرٌ أنْ يقولَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أي الذي أقْسَمَ بهِ، وأنْزَلَهُ نَحْوَ ما هو كريمٌ.

وعلى التأويلِ الذي يَجْعَلُ القَسَمَ بالنجومِ المَعْروفةِ يَجْعَلُ قولَهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ ابْتِداءَ ذِكْرٍ منهُ لهُ.

ثم تَسْمِيَةُ القرآنِ كريماً يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: وَصَفَهُ بالكَرَمِ لِما هو مَحَلٌّ لِقَضاءِ الحوائجِ الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّةِ. وفي العُرْفِ الكريمُ: مَنْ نَصَبَ نفسَهُ وأعَدَّها لِقَضاءِ حوائجِ الخَلْقِ والقِيامِ لإنْجاحِها.

[والثاني][3]: وَصَفَهُ بالكَرَمِ لأنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ كَرُمَ، وشَرُفَ.

[والثالثُ:][4] كريمٌ عندَ اللهِ، عظيمٌ، لذلكَ وَصَفَهُ بالكَرَمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ سَمّاهُ مَكنوناً لأنهُ مَسْتُورٌ عن خَلْقِهِ عندَ اللهِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ يقولُ: لا يَمَسُّ ذلكَ إلّا المُطَهَّرونَ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الملائكةُ الذين يَجْري ذلكَ على أيديهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٥و١٦]. طَهُروا مِنَ الذنوبِ والآثامِ.

وكانَ ذَكَرَ هذا لِيَأْمَنوا مِنْ تَحْريفِ هذا الكتابِ وتبديلِهِ.

الآية ٨٠ وهو ما قالَ على إثْرِهِ: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي إنهُ مكنونٌ عَمَّنْ يُحَرِّفُهُ، ويُبَدِّلُهُ، وإنهُ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ مِنَ الذنوبِ، والتَّحريفُ إثْمٌ وذنبٌ [وإنهُ][5] مِنْ ربِّ العالَمينَ. وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣و١٩٤] وقالَ [في آيةٍ أُخرَى][6]: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

أخبَرَ أنَّ الذي نَزَلَ بهِ مِنَ السماءِ أمينٌ، لا يكونُ منهُ التَّحريفُ ولا التَّبديلُ، وأنهُ قَوِيٌّ، ولا يَقْدِرُ أحدٌ مِنْ جِنٍّ أو إنْسٍ أخْذَهُ مِنْ يدِهِ ولا تَحْريفَهُ.

ثم تَمامُ الأمْنِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وَكَلَ حِفْظَهُ إلى نفسِهِ لا إلى أحدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فصارَ مَحفوظاً مِنَ التَّبديلِ والتَّحريفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أفبهذا القرآنِ أنتمْ كافرونَ؟

الآية ٨٢ [وقولُهُ تعالى:][7] ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ اللهُ تعالى جَعَلَ هذا القرآنَ حياةً للدينِ وقِواماً، والرزقَ حياةً للأبدانِ وما بِهِ قِوامُها، فَكَذَّبوا الأمْرَينِ جميعاً ما بهِ حياةُ الدينِ وحياةُ الأبدانِ جميعاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بظاهره. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ثم يُخَرَّجُ ما ذَكَرَ مِنْ تكذيبِ الرزقِ على وجوهٍ:

أحدُها: ما ذَكَرَ بعضُ الناسِ [مِنْ][1] أهْلِ التأويلِ: إنهمْ كانوا يقولونَ: رُزِقْنا بِنَوءِ كذا؛ كانوا يَنْسُبونَ الرزقَ [إلى][2] ذلكَ النَّوءِ. فهذا يَرُدُّ[3] على قولِ المُنَجِّمَةِ: إنَّ النجومَ هيَ مُدَبِّرَةُ العالَمِ وأرزاقِهِمْ، لا يَجْعَلونَ للهِ في ذلكَ تدبيراً.

وأمّا مَنْ يَنْسُبُ الرزقَ إلى اللهِ تعالى، ويقولُ: رَزَقَنا اللهُ تعالى بِنَوءِ كذا فليسَ في ذلكَ تكذيبُهُ، إنما يُخَرَّجُ ذِكْرُ النَّوءِ [على][4] ذِكْرِ سَبَبٍ مِنَ الأسبابِ التي يَرْزُقُ اللهُ تعالى بها، وكذلكَ مَنْ رَأى الرزقَ مِنَ الأسبابِ خاصَّةً.

وأمّا مَنْ يقولُ: رَزَقَنا اللهُ تعالى بِسَبَبِ كذا فذلكَ جائزٌ القولُ بهِ.

[والثاني: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي تَجْعَلونَ شكرَ الرزقِ التكذيبَ. وبهِ قالَ أبو عُبَيدةَ.

[والثالثُ:][6] جائزٌ أنْ يكونَ تكذيبُهُمُ الرزقَ صَرْفَ تَسْمِيَةِ الألوهِيَّةِ إلى غَيرِ الذي رزقَهُمْ والعبادةِ لِغَيرِ المُسْتَحِقِّ لها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بِئْسما أخَذَ القومُ لأنفسِهِمْ حتى لم يُرْزَقوا مِنْ كتابِ اللهِ تعالى إلّا التَّكْذيبَ؛ يقولُ: صار حَظُّكُمْ مِنَ القرآنِ التَّكْذيبَ، ويَجْعَلُ هذهِ الآيةَ [مَعَ الآيةِ الأولَى][7]: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ في هذهِ الآيةِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ وهو هذا القرآنُ الذي خَصَّكُمْ بِهِ دونَ آبائكمْ، ورَزَقَكُمْ بِهِ ما لم يَرْزُقْ آباءَكُمْ منهُ، ثم جَعَلْتُمْ تُكَذِّبونَ ذلكَ الرزقَ الذي خُصِصْتُمْ بِهِ، ورُزِقْتُمْ، أو كلامٌ مِنْ نَحْوِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]. وقالَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾: هو الذي يُرِي المُوافَقَةَ، ويَحْتالُ في دَفْعِ حُجَّةٍ ما يَلْزَمُهُ، ويَرُدُّ عليهِ، أو كلامٌ يُشْبِهُ معناهُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: مُدْهِنٌ ومُداهِنٌ لُغَتانِ، ثم أصلُ المُداهَنةِ مِنَ المُخادَعةِ؛ يُقالُ: داهَنْتُهُ، وأدْهَنْتُهُ، ثم الفَرْقُ بينَ المُداهَنةِ والمُداراةِ. كأنَّ المُداهَنةَ لِطَمَعٍ لهُ فيهِ: يُخادِعُهُ حتى يَصِلَ إلى ما يَطْمَعُ، والمُداراةُ الشَّفَقَةُ، يُداريهِ إشفاقاً عليهِ لِيَتَحقَّقَ عندَهُ الحقُّ، لِيَسْلَمَ لهُ، وإلّا هما في الظاهرِ واحدٌ، وهما المُلايَنَةُ وخَفْضُ الجَناحِ. لكنَّ الفَرْقَ بَينَهما ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٣ و٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ ليسَ هذا الكلامُ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ. ثم يُشْبِهُ أنْ يكونَ صِلَةَ ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ: لو كانوا عندَنا لَما ماتوا، وما قُتِلوا؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو كانوا عندَكُمْ لم يَموتوا، ولم يُقْتَلوا، على ما زَعَمْتُمْ. فَهَلّا، إذا كانوا عندَكُمْ، فَبَلَغَتِ الأرواحُ الحُلْقومَ [تَقْدِرونَ][8] أنْ تَرْجِعوها، وتَرُدُّوها إلى الأجسادِ التي كانَتْ [فيها][9] لو كُنْتُمْ صادقينَ في قولِكُمْ: لو كانوا عندَنا لَما ماتوا وما قُتِلوا. على هذا جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿تَنظُرُونَ﴾ أي يَنْتَظِرونَ خروجَ الروحِ؛ إنها متى تَخْرُجُ، فلا يَمْلِكونَ رَدَّها إلى حيثُ كانَتْ، ولكنْ يَنْتَظِرونَ خُروجَها متى تَخْرُجُ.

والثاني: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [على حقيقةِ النَّظَرِ، أي تَنْظرونَ][10] إلى سُلْطاني وقُدْرَتي.

وقيلَ: هو مِنَ الانْتِظارِ، أي تَنْتَظرونَ أنْ يَحُلَّ بكمُ الموتُ، [وهو][11] ما ذَكَرْنا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ لأنهمْ كانوا يَعْبدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تَشْفَعَ لهمْ في ضيقِ الحالِ [وإنما

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يخرج. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل: أولى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

يَضيقُ الحالُ][(١)] عليهِمْ والأمرُ[(٢)] عندَ حلولِ الموتِ؛ إذْ لا بَعْثَ عندَهُمْ، فيقولُ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ فَتَشفَعَ لهمُ الأصنامُ التي يَعْبُدونَها، وتَرُدُّ الرُّوحَ[(٣)] إلى المكانِ الذي كانَتْ [فيهِ][(٤)] فإذا لم تَمْلِكْ ذلكَ فكيفَ عَبَدْتُموها؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ قالَ بعضُ أهْلِ التأويلِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي ملائكتي ورُسُلي في ذلكَ الوقتِ أقْرَبُ إليهِ منكُمْ، ولكنْ لا تُبْصِرونَ الملائكةَ /٥٤٧ ـ ب/ لكنْ أضافَ إلى نفسِهِ لِما أنَّ الملائكةَ بأمْرِهِ وتَسْليطِهِ يَعْمَلونَ.

وقيلَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي أولَى بهِ في ذلكَ الوقتِ لِما يَعْلَمُ هو خَطَأهُ، ويَتَبَيَّنُ لهُ الحقُّ في ذلكَ الوقتِ مِنَ الباطلِ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أنتمْ، أي لا تَعْلَمونَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٦ و٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي لو كنتمْ غيرَ مَمْلوكينَ للهِ تعالى على [ما][(٥)] زَعَمْتُمْ تَرجِعونَ الأرواحَ، وتَرُدُّونها إلى الأجسادِ التي كانَتْ فيها. ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أنكمْ غيرُ مَمْلوكينَ. فإذا كنتُمْ عندَكُمْ غيرَ مَمْلوكينَ تكونونَ مالكينَ؛ إذْ ليسَ إلّا المَمْلوكُ والمالكُ. فإذا لم تكونوا مَمْلوكينَ تكونونَ مالِكينَ، فَتَمْلِكونَ رَدَّها إلى ما [كانَتْ][(٦)] فيها. فإذا لم تَمْلِكوا كُنْتُمْ مَمْلوكينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غيرَ مُحاسَبينَ ولا مَجْزِيِّينَ، فَرُدُّوا النَّشأةَ الأولَى، واجْعَلوها بأنفسِكُمْ حتى تكونَ النشأةُ الأولَى حِكْمةً إذْ لم تَمْلِكوا رَدَّ هذهِ الأرواحِ إلى الأنفسِ، أوِ اجْعَلوا النَّشأةَ الأولَى [لِغَيرِ الذي يُكَوِّنُ النَّشأةَ الأخرى حتى تكونَ النَّشأةُ الأولَى][(٧)] حِكْمةً، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٨٨ ـ ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾][(٨)] اخْتُلِفَ في وقْتِ ما ذَكَرَ لِمَنْ ذَكَرَ ذلكَ.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ذلكَ: [﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾][(٩)] [الآيات: ٨٨ ـ ٩١] يُقالُ لِلمؤمنينَ[(١٠)] عندَ الموتِ بِشارةً لهمْ بما يكونُ لهمْ في الجنةِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنما يُقالُ ذلكَ إذا دَخَلَ هؤلاءِ الجنةَ وأولئكَ النارَ؛ أعني الكافرينَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الآيات: ٩٢إلى٩٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ يُقالُ ذلكَ لِلْمُؤمنينَ[(١١)] عندَ رسولِ اللهِ ﷺ في الجنةِ [وهو][(١٢)] وَصْفُ رسولِ اللهِ ﷺ [ومَنْ][(١٣)] عندَهُ في الجنةِ ومَكانِهِمْ لَدَيهِ على ما كانوا في الدنيا: المُقَرَّبونَ عندَهُ ومَكانُهُمْ لَدَيهِ أقْرَبُ مِنْ مكانِ غيرِهِمْ مِنَ المؤمنينَ.

فَعَلَى ذلِكَ يُخبِرُ أنَّ السابِقينَ في الإجابةِ يكونونَ في الآخِرةِ عندَهُ أقْرَبَ. ويكونُ قولُهُ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أي يَسْتَأْنِسُ هو بهِمْ، ويَسْتَأْنِسونَ بهِ، لا يُفارِقونَهُ، ولا يُفارِقُهُمْ، على ما كانوا في الدنيا.

وسائرُ المؤمنينَ يُسَلِّمونَ عليهِ في أوقاتٍ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الآية: ٩١] على ما كانوا يَفْعَلونَ في الدنيا، وهو أقربُ مِنَ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَروا مِنَ البِشارةِ عندَ الموتِ؛ أعني المؤمنينَ والكافرينَ:

في حقِّ المؤمنينَ [قولُهُ تعالى][(١٤)]: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾][(١٥)] [الآيات: ٨٨ ـ ٩١].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأرواح. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إلى آخره. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لهم. (١١) في الأصل وم: لهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: كذا.

وفي حقِّ الكفرةِ [قولُهُ تعالى](١): ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الآيات: ٩٢ـ٩٤].

ويَحتمِلُ [ما](٢) ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ ذلكَ يُقالُ لهمْ بَعدَ ما دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأصحابُ النارِ النارَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ اختُلِفَ في تِلاوَتِهِ [وتأويلِهِ](٣).

أمّا تلاوَتُهُ [فقد](٤) رُوِيَ عنْ عائشةَ رضي الله عنها [أنها](٥) قالَتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقرَأُ هذا الحَرْفَ: فَرُوحٌ وريحانٌ؛ يعني بِضَمِّ(٦) الراءِ، وعنِ الحَسَنِ أنهُ قَرَأها بالضَّمِّ أيضاً، وعَنِ الضَّحّاكِ بفَتْحِ الراءِ، وعليهِ جميعُ القُرّاءِ.

وقالَ أبو عُبَيدٍ: لولا كَراهةُ خِلافِ الأُمّةِ وإلّا ما قَرَأتُها إلّا بالضَّمِّ، ولكنْ لا أجِدُ عليها أحداً، فأَسْتَوحِشُ مِنْ مُفارقةِ الناسِ، ولا يَجْمَعُ اللهُ تعالى أُمّةَ محمدٍ ﷺ على الضلالةِ.

وأمّا تأويلُهُ فَعَلَى قراءةِ الرفعِ عنِ الحَسَنِ [أنهُ](٧) قالَ: الرُّوحُ الرَّحْمةُ، والرَّيحانُ رَيحانُها، وعنْ أبي عُبَيدٍ [أنهُ](٨) قالَ: بالرفعِ هي(٩) الحياةُ والبقاءُ، وعنِ الضَّحّاكِ بالفَتْحِ: الرَّوحُ الاِسْتِراحةُ، والرَّيحانُ الرزقُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرَّوحُ كِنايةٌ عنْ دوامِ النِّعْمةِ والسَّعةِ؛ يُقالُ: فُلانٌ في رَوحٍ إذا كانَ في سَعَةٍ ونِعْمَةٍ، والرَّيحانُ كِنايةٌ عنِ الشَّرَفِ والمَنْزِلةِ؛ يُقالُ: فلانٌ رَيحانيٌّ، وذلكَ لِشَرفِهِ ومَنْزِلَتِهِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: الرَّوحُ الراحةُ، والرَّيحانُ الرزقُ في الجنةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرُّوحُ بالرفعِ مِنَ الرَّحْمةِ، وبالنصبِ الراحةُ، ونحنُ نقولُ: جائزٌ أنْ يكونا جميعاً بالنصبِ والرفعِ مِنَ الرَّحمةِ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(١٠) [يوسف: ٨٧] أي مِنْ رحمتِهِ وقولِهِ(١١) في مَوضعٍ آخَرَ ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ المُقرَّبينَ يكونونَ في الجنةِ في رَحْمَةِ اللهِ ونِعْمَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الآيتان: ٩٠و٩١] يَحتمِلُ ما وَصَفْنا أنَّ أصحابَ اليمينِ يُسَلِّمونَ على النَّبيِّ ﷺ ويُحَيّي بعضُهُمْ بعضاً بالسلامِ.

ويَحتمِلُ ﴿فَسَلَـٰمٌ لَّكَ﴾ [أي السلامةُ لكَ](١٢) منهمْ مِنْ جميعِ الآفاتِ والأذى.

وذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ رضي الله عنه: فسلامٌ إنكَ مِنْ أصحابِ اليَمينِ. فهذا إنْ ثَبَتَ فهو يُخَرَّجُ على البِشارةِ لهُ عندَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: يُسَلِّمُ عليهمُ الملائكةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ يقولُ هذا الذي ذَكَرْنا لِلْمُقَرَّبينَ ولأصحابِ اليمينِ ولِلْمُكَذِّبينَ، هو حَقُّ اليقينِ أي كائنٌ، لا محالَةَ، لا شَكَّ فيهِ. مِثْلُ هذا يُقالُ على التَّأكيدِ وتَحقيقِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ وَوَصْفُهُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: فَسَبِّحْ ربَّكَ باسْمٍ لا يُسَمّى بهِ غَيرُهُ، أي نَزِّهْهُ عنْ جميعِ ما قالَتِ المُلْحِدَةُ فيهِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ وتَسْمِيَةِ مَنْ دونَهُ إلهاً وغَيرِ ذلكَ، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٧٥. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ١٨٩. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

[سورة الحديد](١)

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجوزُ أنْ يُقرأَ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ و: سَبَّحَ اللهَ كما يُقالُ في الكلامِ: شَكَرَ للهِ، وشَكَرَ اللهَ، ونَصَحَ للهِ، ونَصَحَ اللهَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَعْناهُما في الظاهرِ مُخْتَلِفاً، ويَتَّفِقَ في الحَقيقةِ والباطنِ، لأنَّ التَّسبيحَ، هو التَّخليصُ والتَّنزيهُ والتَّبرئةُ. فَمَتَى أُضيفَ الفِعْلُ إلى اللهِ تعالى، وَوَقَعَ عليه، فَيُقالُ: سَبَّحَ اللهَ، فَمَعناهُ أنهُ نَزَّهَهُ، وبَرَّأَهُ عن جميعِ مَعاني الخَلْقِ، وخَلَّصَهُ مِن شَبَهِ المَخْلوقينَ.

وإذا قيلَ: سَبَّحَ للهِ فقد رَفَعَ الفعلَ عنِ الأشياءِ المَخلوقةِ، أي خَلَّصَ الأشياءَ كلَّها [لهُ، وبَرَّأَ صُدُورَها](٢) عن غَيرِهِ.

وإذا وُصِفَ(٣) بأنَّ كلَّ الأشياءِ لهُ، وهو المالكُ لها، وهُمْ عَبيدُهُ، ومَماليكُهُ خاضِعونَ أذِلاءُ، فقد وُصِفَ بالغِنَى ونَفْيِ الحاجةِ عنهُ وأنهُ مُتَبَرِّئٌ عنِ الشَّبَهِ بِمَماليكِهِ ومَخْلوقاتِهِ، فهما جميعاً مِنْ هذا الوجهِ يَنْتَظِمانِ مَعْنًى واحداً.

وإنْ [كانا مُخْتَلِفَينِ في الظاهِرِ](٤) وفي الباطنِ مُؤْتَلِفَينِ(٥)، وإنَّ الإسلامَ، هو/٥٤٨ ـ أ/ أنْ يَجْعَلَ كلَّ شيءٍ مِنَ الخَلْقِ للهِ تعالى خالصاً سالماً لهُ، والإيمانَ، هو التَّصديقُ بالرُّبوبيَّةِ لهُ في كلِّ شيءٍ، فَمَتَى صَدَّقَ للهِ تعالى بالربوبيَّةِ في الخَلْقِ والأمرِ، فقد جَعَلَ الخَلْقَ(٦) سالماً لهُ. فَمَتَى جَعَلَهُ سالماً لهُ فقد صَدَّقَهُ بالربوبيَّةِ، فقدِ اتَّفَقا مِنْ حيثُ المَعْنَى، وإنِ اختَلَفا مِنْ حيثُ الظاهرُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم يَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ التَّسبيحِ، هو تَسبيحُ الخِلْقَةِ؛ تَشْهَدُ لهُ خِلْقَةُ كلِّ شيءٍ بالوَحْدانيَّةِ والألوهيَّةِ. فهذا على خِلْقَةِ الكافرِ والمؤمنِ جميعاً وغيرِهما مِنَ المَخْلوقاتِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ المُمْتَحَنِينَ الذينَ في السمواتِ والأرضِ، ويَرْجِعَ إلى تَسبيحٍ خاصٍّ، وهو تَسبيحُ النُّطْقِ واللِّسانِ عنِ اختيارٍ.

وجائزٌ أنْ يَرْجِعَ إلى كلِّ ذي رُوحٍ، يَجْعَلُ اللهُ تعالى في سِرِّيَّةِ هذهِ الأشياءِ مِنَ التَّسبيحِ لهُ ما يَعْلَمُهُ هو، لا يَعْلَمُهُ غَيرُهُ إلّا بإعلامِ اللهِ تعالى إيّاهُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ هو الذي أفْقَرَ الخَلْقَ، وأحْوَجَهُمْ إليهِ، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ هو المُحْكِمُ للأشياءِ المُتْقِنُ لها.

[والثاني](٧): ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهرُ الغالبُ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ هو العالمُ بالأشياءِ على حقيقتِها.

[والثالث](٨): ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ هو المالكُ كلَّ مُلْكٍ كقولِهِ تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الواضعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

---

(١) في الأصل: ذكر ان سورة الحديد وهي، في م: سورة الحديد وهي. (٢) في الأصل وم: وبرأها. (٣) في الأصل وم: أضيف. (٤) في الأصل وم: كان مختلفان. (٥) في الأصل وم: مؤتلفان. (٦) من م، في الأصل: خلق. (٧) في الأصل و م: أو. (٨) في الأصل و م: أو.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تفسيراً لِقولِهِ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي يَملِكُ أنْ يُحْيِيَ هذا، ويُميتَ غيرَهُ، أو يُحْيِيَ مَنْ شاءَ، ويُميتُ مَنْ شاءَ، أي[1] يَملِكُ إحياءَ مَنْ شاءَ وإماتةَ مَنْ شاءَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنَ الإحياءِ والإماتةِ وغيرِهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ قالتِ الباطِنِيَّةُ: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ مَعْناهُ المُبْدِعُ الأوَّلُ و﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ هو المُبْدِعُ الثاني، و﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ هو الناطقُ، وهو الرسولُ ﷺ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ هو صاحبُ التأويلِ.

يقولونَ: إنَّ [﴿ٱلْأَوَّلُ﴾][2] المُبْدِعُ الأوَّلُ، ثم لِلْمُبْدِعِ الثاني المَعونةُ، فَيَسْتَعينُ بها المُبْدِعُ الأوَّلُ[3] على خَلْقِ هذا العالَمِ وإنشائِهِمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ المُبْدِعَ الثانيَ، هو الذي دَبَّرَ هذا العالَمَ، وأنشأَهُمْ بإعانَتِهِ[4] المُبْدِعُ الأوَّلُ، والناطقُ هو الذي دَبَّرَ الشرائعَ، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ وهو صاحبُ التأويلِ؛ هو الذي يُبَيِّنُ الشرائعَ التي دَبَّرَها الناطقُ، وهو الرسولُ ﷺ.

ولا يَصِفونَ اللهَ تعالى أنهُ[5] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ويقولونَ: لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بهذهِ الأشياءِ لأنَّ الأوَّلِيَّةَ تَنفي الآخِرِيَّةَ، والظاهِرَ يَنْفي الباطِنَ، كلُّ حَرْفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ يُبْطِلُ الآخَرَ في الشاهِدِ.

وجوابُنا: أنَّ ما قُلْتُمْ مِنَ المُبْدِعِ الأوَّلِ والثاني والناطقِ ليسَ بشيءٍ لهُ مَعْنًى على ما ذَكَرْنا في مَوضِعِهِ.

وأمّا عندَنا فإنَّ قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ هي حُروفُ التوحيدِ: هو الأوَّلُ بِذاتِهِ والآخِرُ بِذاتِهِ والظاهِرُ بِذاتِهِ والباطِنُ بذاتِهِ. قالَ هذا لئلّا يُعْلَمَ ولا يُفْهَمَ مِنْ أوَّلِيَّتِهِ أوَّلِيَّةُ غيرِهِ، ولا يُفْهَمَ مِنْ آخِرِيَّتِهِ آخِرِيَّةُ غيرِهِ. فكذلكَ لا يُفْهَمَ مِنْ ظاهِرِيَّتِهِ ظاهِرِيَّةُ غيرِهِ ولا مِنْ باطِنِيَّتِهِ باطِنِيَّةُ غيرِهِ؛ لأنَّ في الشاهِدِ مَنْ كانَ لهُ أوَّلِيَّةٌ لا يكونُ لهُ آخِرِيَّةٌ، ومَنْ كانَ لهُ آخِرِيَّةٌ لا يكونُ لهُ أوَّلِيَّةٌ، وكذلكَ مَنْ كانَ لهُ ظاهِرِيَّةٌ لا يكونُ له باطِنِيَّةٌ، ومَنْ كانَ لهُ باطِنِيَّةٌ لا يكونُ لهُ ظاهِرِيَّةٌ.

فكلُّ حَرْفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ مِمّا يَنْقُضُ الحرفَ الآخَرَ، ويَنْفيهِ في الشاهِدِ؛ فإنما ذَكَرَ هذهِ الأحرفَ لنفسِهِ لِيُعْلَمَ ألّا يُفْهَمَ مِنْ أوَّلِيَّتِهِ أوَّلِيَّةُ الأشياءِ، ولا يُفْهَمَ مِنْ آخِرِيَّتِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ آخِرِيَّةِ الأشياءِ. وكذلكَ ما ذَكَرْنا مِنْ ظاهِرِيَّتِهِ وباطِنِيَّتِهِ.

وهذا كما ذَكَرَ أنهُ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤ و...] و﴿ٱللَّطِيفُ﴾ [الأنعام: ١٠٣ و...] وكلُّ واحدٍ في الشاهِدِ مِمّا يُناقِضُ الآخَرَ، ويَنْفيهِ؛ ما عَظُمَ منهُ لم يَلْطُفْ، وما لَطُفَ لم يَعْظُمْ، لئلّا يُفْهَمَ مِنْ عَظَمَتِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ عَظَمةِ غيرِهِ ولا مِنْ لَطافتِهِ [ما يُفْهَمُ][6] مِنْ لَطافةِ غيرِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي لا ابْتِداءَ لهُ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الذي لا انْتِهاءَ لهُ ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ هو الغالبُ القاهرُ الذي لا يَغْلِبُهُ شيءٌ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي لا تُدْرِكُهُ الأوهامُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي لَهُ أوَّلِيَّةُ الأشياءِ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الذي لهُ آخِرِيَّتُها[7] ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الحُجَجَ والآياتِ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي لا تُدْرِكُهُ الأوهامُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فإنْ كانَ خَلَقَ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما في سِتَّةِ أيامٍ في[8] الأيامِ التي تدورُ عليها أيامُ الدنيا، وهي أيامُ الجُمُعةِ، فإنما خَلَقَ في هذهِ الأيامِ كِيانَ الأشياءِ وأصولَها، لا إنهُ خَلَقَ كُلِّيَّةَ الأشياءِ فيها وما يكونُ أبدَ الآبِدينَ.

فَعَلى هذا التأويلِ يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أيِ اسْتَوَى أمْرُهُ، فَخَلَقَ المُمْتَحَنينَ[9]، وهُمُ البَشَرُ؛ إذِ المَقصودُ بِخَلْقِ هذهِ الأشياءِ كلِّها، هُمُ البَشَرُ، ولهمْ أنشأَ هذهِ الأشياءَ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أيامَ الدنيا التي كلُّ يومٍ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: الثاني. (٤) في الأصل و م: بإعانة. (٥) في الأصل و م أن مدرجة بعد: ولا يصفون. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل وم: آخرية. (٨) في الأصل وم: ستة. (٩) في الأصل و م: الممتحن.

مقدارُهُ ألفُ سنةٍ على ما ذَكَرَهُ في آيةٍ أُخرى [﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]][(١)] فيكونُ ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما خَلْقَ أُصولِ الأشياءِ وكيانِهَا وما يَتَوَلَّدُ منها، بل يَقَعُ ذلكَ على الكُلِّ. فيكونُ على هذا تأويلُ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ البعثَ أي استَوى خَلْقُ ما خَلَقَ وإنشاءُ ما أنشأَ مِنَ العالمِ بالبَعْثِ ما لولا ذلكَ البعثُ لم يَكُنْ إنشاءُ هذا العالَمِ الأوَّلِ حِكْمَةً، والمَقصودُ مِنْ إنشاءِ هذا العالمِ البعثُ. وبهِ يَصيرُ إنشاؤهُ حكمةً، فيكونُ بهِ استِواءُ الأمرِ.

ثم تأويلُ العرشِ يَحتَمِلُ الملكَ [أي][(٢)] استَوى مُلْكُهُ بِخَلْقِ المُمْتَحَنِينَ[(٣)] أو بالبعثِ الذي ذَكَرْنا أوّلاً تفسيرَ[(٤)] ما أرادَ بقولِهِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لأنهُ لا يُعْلَمُ ما أرادَ بهِ إذ قالَ في ذلكَ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أمرَ أنْ يَسألَ [المُمْتَحَنُ][(٥)] بهِ خبيراً، ولم يُرِدْ في ذلكَ أنْ يَسألَ بهِ الخَبيرَ عنهُ، فلا يَسَعُ تَفسيرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:][(٦)] أي كَثْرَةُ ذلكَ وازْدِحامُهُ لا يَلْتَبِسُ عليهِ، ولا يُسْتَرُ عنهُ شيءٌ.

والثاني: يُخْبِرُ أنَّ السماءَ والأرضَ مع ثِقَلِهِما وكثافَتِهِما لا يَستُرانِ، ولا يَحْجُبانِ عليهِ الوالجَ فيهما والخارجَ منهما والنازلَ منهما، ولا يُحيطانِ[(٧)] بذلكَ، لِيُعْلَمَ أنْ لا شيءَ يُحْجَبُ عنهُ، وألّا يَخفى عليهِ شيءٌ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ هذا الحرفُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي عالمٌ بكمْ وبأفعالِكُمْ، ومُحيطٌ بكمْ، وحافظٌ عليكُمْ.

والثاني: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يتوجَّهُ المَعْنى فيهِ لِاخْتِلافِ الأحوالِ؛ يقولُ: إنْ كُنْتُمْ مُحِبّين خاضِعِينَ مُطيعينَ فهو معكُمْ بالنَّصْرِ والمَعونةِ على أعدائكُمْ، وإنْ كنتمْ مُعْرِضِينَ عنهُ مُعانِدينَ فهو معكُمْ بالسلطانِ عليكُمْ والانْتِقامِ منكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ علمَهُ وسُلْطانَهُ وقُدْرتَهُ معكُمْ أينما كُنْتُمْ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ إذا ذُكِرَ، جلَّ، وعلا، بلا ذِكْرِ الخَلْقِ مَعَهُ، ولا ضُمَّ إليهِ أحدٌ سِواهُ يُوصَفُ بالأزَلِ /٥٤٨ ـ ب/ فَيُقالُ: لم يَزَلْ عالِماً قادراً خالقاً بلا ذِكْرِ وقتٍ ولا حَدٍّ ولا شيءٍ مِنَ المكانِ وغيرِهِ. وإذا ذُكِرَ مَعَهُ شيءٌ مِنَ الخَلْقِ يُذْكَرُ على ما عليهِ أحوالُ الخَلْقِ مِنَ الوقتِ والمَكانِ والأحوالِ لِلْخَلْقِ دونَ اللهِ تعالى، فيُقالُ: لم يَزَلْ عالماً لِلْخَلْقِ وقتَ كونِهِمْ، لم يَزَلْ خالقاً للعالَمِ وقتَ كونِهِ حتى لا يُتَوَهَّمَ قِدَمُ المَخْلوقِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الآية [محمد: ٣١] وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] ونَحْوُهُ مِمّا كَثُرَ ذِكْرُهُ كذلكَ على ما عليهِ أحوالُ الخَلْقِ. فَعَلَى هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المُلْكُ إنما يُنْسَبُ بِحَقِّ نَفاذِ المَشيئةِ والأمرِ والولايةِ. فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لهُ نَفاذُ المشيئةِ، ولهُ الولايةُ في السمواتِ والأرضِ [أي على أهلِها لَهُ الأمرُ والسلطانُ][(٨)].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لهُ خَزائنُ السمواتِ والأرضِ، يُعْطي مَنْ يَشاءُ، ويَحْرِمُ مَنْ يَشاءُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: الممتحن. (٤) في الأصل: نفس أنه. (٥) و(٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: الإحاطة. (٨) في الأصل و م: وعلى أهلها له السلطان عليهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى اللهِ يَرْجِعُ تدبيرُ الأمورِ مِنْ إحداثٍ وتكوينٍ وإعطاءٍ وبَذْلٍ ومَنْعٍ وحِرْمانٍ، ليسَ ذلكَ إلى الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى اللهِ تَرْجِعُ أمورُ المُمْتَحنِينَ في الآخِرَةِ مِنَ الحِسابِ والسؤالِ والثوابِ والعِقابِ وغَيرِ ذلكَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ إيلاجُ الشيءِ إنما هو إدخالُهُ فيهِ على إبقاءِ المُدْخَلِ فيهِ. هذا هو المَعْروفُ. لكنْ ما ذُكِرَ ههنا ممنْ إيلاجِ هذا في هذا وهذا [في هذا][1] أنْ جَعَلَ ما كانَ في حالِ الاِسْتِواءِ في حدِّ الليلِ نهاراً، وجَعَلَ ما كانَ في حالِ الاِسْتِواءِ في حدِّ النهارِ ليلاً على إتلافِ كلِّ واحدٍ منهما بالآخَرِ لا على الإبقاءِ. وفي ذلكَ وجهانِ[2] مِنَ الدلالةِ:

أحَدُهما[3]: يدلُّ ذلكَ على أنهُ فِعْلُ واحدٍ عليمٍ، لهُ تَدْبيرٌ، لا فعلُ عددٍ، لا[4] تَدْبيرَ لهُ، لأنهُ لو كانَ فِعْلَ عددٍ لَكانَ لا يجري على سَنَنٍ واحدٍ وتَدْبيرٍ واحدٍ مُنْذُ كانَ إلى أبَدِ الآبِدِينَ، بل يَقَعُ في ذلكَ تَمانُعٌ وتَغالُبٌ، يَمْنَعُ كلُّ واحدٍ [منهما ما][5] لِغَيرِهِ، ويَغْلِبُهُ عليهِ، ولا يُوافِقُهُ في تدبيرِهِ على ما يكونُ في عادةِ الملوكِ على ما قالَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقالَ: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] واللهُ المُوَفِّقُ.

[والثاني][6]: دلالةُ البعثِ، وهو[7] إتيانُ الليلِ بعدَ ذهابِ أثرِ النهارِ وإتيانُ النهارِ بعدَ ذهابِ أثرِ الليلِ، ونَحْوُ ذلكَ على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي عليمٌ بما في الصدورِ. وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: هو عليمٌ بما في صدورِ أربابِ الصدورِ، وهُمُ البشرُ الذينَ لهمُ الصدورُ والتَّدْبيرُ، لأنَّ الصدورَ إنما يُقالُ للذينَ لهمْ تَدْبيرٌ وتَمْييزٌ، وهمُ البشرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإيمانُ باللهِ: هو أنْ يُجْعَلَ[8] ربَّ كلِّ شيءٍ، وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ، والإيمانُ برسولِهِ هو أنْ يُصَدَّقَ[9] في كلِّ ما يُخْبِرُ عنِ اللهِ تعالى وفي كلِّ قولٍ وفِعْلٍ، وأنهُ مُحِقٌّ، ويُعْلَمَ أنهُ بِأمْرِ اللهِ تعالى ونَهْيِهِ يأمُرُ، ويَنْهى، ويَفْعَلُ، لا مِنْ ذاتِ نفسِهِ. هذا الإيمانُ باللهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: وأنفِقوا مِنَ المالِ الذي جَعَلَكُمْ فيهِ خُلَفاءَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ لأنَّ الناسَ يَخْلُفُ بعضُهُمْ بعضاً في هذهِ الأموالِ؛ كأنهُ يقولُ: أنفِقوا مِنَ المالِ الذي جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ قبلَ أنْ يَخلُفَكُمْ مَنْ بَعدَكُمْ كما تَرَكَ الإنفاقَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ؛ إذْ هي إنما أُنْشِئَتْ للإنفاقِ والاِنْتِفاعِ بها لا لِلتَّرْكِ كما هي، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخْبَرَ تعالى بقولِهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أنَّ مَنْ كانَ آمَنَ بهِ، وأنْفَقَ، فَلَهُ أجرٌ كبيرٌ: ما وَعَدَ لهمْ مِنَ الأجرِ على جِهَةِ الإنعامِ منهُ والإفضالِ فوقَ الاِسْتِحقاقِ؛ إذِ المالُ مالُهُ، وهُمْ عبيدُهُ، ولا يَلْزَمُ لِلْعَبْدِ أجرٌ على سَيِّدِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ في ظاهِرِهِ مُتَناقِضٌ، لأنهُ يقولُ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ ولو كانوا لا يُؤمِنونَ باللهِ كيفَ يُقِرّونَ باللهِ وبالرسولِ؟ ويُصَدِّقونَ أنهُ رسولُ اللهِ؟ إذِ التَّصْديقُ بالرسولِ تصديقٌ بالرسُلِ، وهُمْ لا يُؤمِنونَ باللهِ فكيفَ يُصَدِّقونَ الرسولَ؟ لكنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ما لكُمْ لا تُؤمِنونَ بقدرةِ اللهِ على بَعْثِكُمْ وإحيائِكُمْ بعدَ [مَوتِكُمْ، وقد أتاكُمُ الرسولُ][10] ودَعاكُمْ، وأنبَأكُمْ بما يُبَيِّنُ لكمْ مِنْ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ على البعثِ، فما لكُمْ لا تُؤمِنونَ بقُدْرتِهِ؟

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل: دلالة وجوه. (٣) في الأصل و م: أحدها. (٤) في الأصل و م: ولا. (٥) في الأصل وم: ما له معا. (٦) في الأصل و م: وفيه. (٧) الواو ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: يجعله. (٩) في الأصل و م: يصدقه. (١٠) في الأصل و م: موتها قد أتاكم.

على هذا جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا أصنافاً: منهمْ مَنْ يَذْهبُ مذهبَ الدهريّةِ[1]، ومنهمْ مَنْ يَذْهبُ مذهبَ الشِّرْكِ، ومنهمْ مَنْ يُقِرُّ بالتوحيدِ، ويُنْكِرُ البَعْثَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: أيُّ عُذْرٍ لكمْ في تَرْكِكُمُ[2] الإيمانَ باللهِ تعالى؟ والرسولُ دعاكُمْ، وقد أتاكُمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ ما يَدْفَعُ عنكُمُ العُذْرَ، ويُزيحُ عنكمُ الشُّبَهَ، فأيُّ عُذْرٍ لكمْ في تركِكُمُ الإيمانَ بهِ؟ فما لكمْ لا تُؤمِنونَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ قد ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ أنَّ أخذَ الميثاقِ مِنَ اللهِ تعالى يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: على ألسُنِ الرسلِ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ [المائدة: ١٢] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وغَيرُ ذلكَ مِنْ أمثالِهِ.

والثاني: أخذُ الميثاقِ ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ مِنْ شهادةِ الوحدانيّةِ.

والثالثُ: [ما][3] عَهِدَ إليهِمْ حينَ[4] ركَّبَ فيهِمُ العقولَ والأفهامَ، وجَعَلَهُمْ بحيثُ يُمَيِّزونَ ما لهمْ ممّا عليهِمْ في ما لا يُحْتَمَلُ إهمالُ مِثْلِهِمْ وتَرْكُهُمْ سُدًى.

[والرابعُ][5]: ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ مِنْ إخراجِهِمْ مِنْ صُلْبِ آدمَ ﷺ والوجوهُ الأُولَى أقربُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ في أهلِ الكتابِ الذينَ كانوا مؤمنينَ باللهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ [فلمّا بُعِثَ][6] كفَروا بهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ﴾ الذي كُنْتُمْ مؤمِنينَ بهِ [قد أخذَ ميثاقَكُمْ ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾][7].

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في أهلِ النِّفاقِ الذينَ كانوا يُظْهِرونَ الإيمانَ بهِ، ولا يُحقِّقُونَهُ؛ يقولُ: ما لكُمْ لا تُحقِّقونَ الإيمانَ باللهِ، والرسولُ يدعوكُمْ لِتُحقِّقوا الإيمانَ بربِّكُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١] أي لا عُذرَ لكمْ في الكُفرِ باللهِ ورسولِهِ وتركِ الإيمانِ بهما. فعَلَى ذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالآياتِ والحُجَجِ. أو يَذْكُرُ هذا لا على الشَّرْطِ بل عل التأكيدِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لأنهنَّ إذا كُنَّ أذعَنَّ للإيمانِ لم يَحِلَّ ﴿لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ كِتمانُ[8] ما في أرحامِهِنَّ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الآياتُ في الحقيقةِ هي الأعلامُ. لكنْ فُسِّرَتِ الآياتُ بالحُجَجِ /٥٤٩ ـ أ/ لأنَّ الآياتِ حُجَجٌ مِنْ عندِ اللهِ تعالى جاءَتْ، لا أنها مُخْتَقَداتٌ[9] مِنَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ مُوضِحاتٍ أنها مِنْ عندِ اللهِ جاءَتْ لا مِنْ عندِ الخَلْقِ، أو ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أمْرَهُ ونَهْيَهُ وما لَهُمْ وما عليهِمْ وما يُؤْتَى وما يُتَّقَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى مِنَ الإخراجِ فهو على وجهَينِ:

أحَدُهما: على حَقيقةِ الإخراجِ، وهو أنْ [يُوَفِّقَهُمْ للإيمانِ][10] ويُعطِيَهُمُ المَعونةَ والعِصمَةَ، فَيَخْرُجوا[11] مِمّا ذَكَرَ مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ.

والثاني: يُخَرَّجُ على الأمرِ بهِ والدعاءِ إلى الإيمانِ، ليسَ على حَقيقةِ الإخراجِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ في هذهِ الآيةِ.

---

(١) في الأصل و م: الدهر. (٢) في الأصل و م: ترك. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: حيث. (٥) في الأصل و م: ويحتمل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل و م. (٨) أدرج قبلها في الأصل و م: أيضاً. (٩) من م، في الأصل: متعلقات. (١٠) في الأصل وم: يوفق لهم على الإيمان. (١١) في الأصل وم: فيخرجون.

ونظيرُ حقيقةِ الإخراجِ قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وعلى هذا تُخَرَّجُ إضافةُ الهدايةِ إلى اللهِ تعالى [على وجهَينِ:

أحَدُهما:](١) على التوفيقِ وإنشاءِ فِعْلِ الهدايةِ منهمْ.

والثاني: على الدُّعاءِ والبَيانِ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ معناهُ: وإنَّ اللهَ بِمَنْ خَرَجَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النورِ لَرؤوفٌ رحيمٌ، وهو يرجعُ إلى المؤمنينَ خاصّةً.

وجائزٌ أيضاً أنْ يوصفَ بالرحمةِ والرأفةِ على الكُلِّ أي: ﴿بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بما أرسلَ إليكمُ الرسولَ وأنزَلَ عليكُمُ الكتابَ، وإنْ كانَ في أنفسِكُمْ وعقولِكُمْ كفايةٌ على مَعْرفةِ وحدانيّةِ اللهِ تعالى ورُبوبيّتِهِ بدونِ إنزالِ الكتابِ وإرسالِ الرسولِ. لكنْ بفضلِهِ ورحمتِهِ أرسَلَ الرسلَ، وأنْزَلَ الكتبَ ليكونَ ذلكَ أدْعَى لهمْ وأوصَلَ إلى إدراكِ ما يَدْعو إليهِ وأقْرَبَ في دَفْعِ الشُّبَهِ والعُذْرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الخَلْقَ يَفْنَونَ كلُّهُمْ، ويَبْقَى اللهُ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] فَعَلَى هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ما لكُمْ لا تُنفِقونَ في سَبيلِ اللهِ قَبْلَ أنْ يَزولَ مُلْكُكُمْ، ويَصيرَ(٢) ميراثاً للهِ تعالى.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إضافةَ وِراثةِ بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ إليهِ لِما أنهمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ومالُ العبدِ يكونُ لِسيِّدِهِ، فَيَصيرُ كأنهُ يقولُ: ما لَكُمْ ألّا تُنفِقوا لأنفسِكُمْ وما يَرْجِعُ إلى مَنافِعِكُمْ قبلَ أنْ يَصيرَ ذلكَ ميراثاً لِغَيرِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ الآية. قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾ أي لا يَسْتَوِي منكُمْ مَنْ آمنَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ، لأنهُ قَبْلَ الفَتْحِ كانَ على مَنْ آمنَ الهلاكُ وأنواعُ العقوباتِ، لأنَّ الغَلَبَةَ في ذلكَ الوقْتِ كانَتْ لأهلِ الكُفْرِ. لِذلكَ لم يَسْتَوِ مَنْ آمَنَ منهمْ قَبْلَ الفَتْحِ ومَنْ آمَنَ منهمْ بعدَ الفتحِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لو وُزِنَ إيمانُ أبي بَكْرٍ بإيمانِهِمْ لَرَجَحَ» [ابن عَديٍّ في الكامل ٥/ ٣٣٥] لأنَّ إيمانَهُ ﷺ في وقْتِ الخَوفِ على [أنْ](٣) يَبْقَى الإسلامُ، أو لِما يكونُ بإيمانِهِ إيمانُ نَفَرٍ كثيرٍ لأنهُ كانَ رئيسَهُمْ.

وكذلكَ الإنفاقُ في ذلكَ الوقْتِ أفْضَلُ وأعْظَمُ لِما في الإنفاقِ في ذلكَ الوقتِ مَعونةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ ولِمَنْ تابَعَهُ، أو لِما أنَّ الإنفاقَ مِنْ بَعْدِ الفَتْحِ يَقَعُ بِهِ طَمَعُ الوصولِ إلى المَنافِعِ والأبدالِ مِنَ الصدقاتِ والمَغانِمِ. وقَبْلَ الفَتْحِ لم يكنْ ذلكَ المَعْنَى؛ فهو كلُّهُ خالصٌ بلا بَدَلٍ ولا طَمَعٍ كانَ مَعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: لا يَسْتَوي مَنْ هاجَرَ ومَنْ لم يُهاجِرْ، ولا هِجْرَةَ بعدَ الفَتْحِ، فَلِذلكَ رُوِيَ عنهُ ﷺ [أنهُ قالَ:](٤) «لا هِجْرَةَ بعدَ اليومِ، ولكنْ جهادٌ ونِيّةٌ» [البخاري ١٨٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وَعَدَ اللهُ لِكِلا الفَريقَينِ: مَنْ أنْفَقَ قَبْلَ الفَتْحِ وبَعْدَهُ الجنةَ والثوابَ الحَسَنَ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هذه الآيةُ نَزَلَتْ في فَتْحِ الحُدَيبِيَةِ: «قيلَ: يا رسولَ اللهِ أفَتْحٌ هو؟ قالَ: نعمْ فَتْحٌ عظيمٌ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٢٢٠].

وعنْ قَتادةَ [أنهُ قالَ](٥): هو فَتْحُ مكةَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وصار. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فيه تَرْغيبٌ وتَرْهيبٌ في ما يُرْغَبُ فيه ويُرْغَبُ عنهُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ، جلَّ وعلا، عامَلَ عبادَهُ بِكَرَمِهِ وجُودِهِ مُعامَلَةَ مَنْ لا حَقَّ لهُ ولا مُلْكَ في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ لا مُعامَلَةَ مَنْ[1] حقيقةُ أملاكِهِمْ وأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ لهُ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنَ الإقراضِ لهُ وما ذَكَرَ مِنْ شرائِهِ أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ منهمْ بأنَّ لهمُ الجنةَ وما ذَكَرَ لِأعمالِهِمْ مِنَ الأجرِ، وهُمْ عَبيدُهُ، وأعمالُهُمُ التي يَعْمَلونَ لأنفسِهِمْ كأنهمْ عاملونَ لهُ، وما يُمْسِكونَ لأنفُسِهِمْ يَدَّخِرونَها في وقتِ الحاجةِ لهمْ سَمّاهُ قَرْضاً، وما يَكْتَسِبونَ بهِ للحياةِ الدائمةِ والنِّعَمِ الباقيةِ فهمُ المُنْتَفِعونَ بها. ولا أحدَ في الشاهِدِ يَسْتَقْرِضُ مالَ نفسِهِ مِنْ آخَرَ، يَبْذُلُ، ثم يُعْطَى لهُ الأجرُ على ذلكَ. هذا كلُّهُ خارجٌ عن عادةِ الخَلْقِ وطَبْعِهِمْ وصَنيعِهِمْ بعضِهِمْ معَ بعضٍ.

لكنْ عامَلَهُمْ بما يليقُ بكرمِهِ وجودِهِ، وَعَدَ لهمْ بما أمْسَكوا لأنفسِهِمْ أضعافاً مُضاعَفَةً.

ثم جائزٌ تَسْمِيَةُ ما يُمْسِكونَ لوقتِ حاجَتِهِمْ قَرْضاً لئلا يَمُنُّوا على الفُقَراءِ وأهلِ الحاجةِ بما أعْطَوهُمْ منهُ لِما عُرِفَ مِنْ طَبْعِهِمُ الامْتِنانُ عليهمْ أو لِما يدفَعُ عنهمْ مَؤونَةَ حِفْظِ ذلكَ إلى وقتِ حاجَتِهِمْ مِنَ السَّرِقَةِ والغَصْبِ وغيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ ما يُخافُ التَّلَفُ منها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي أجرٌ حَسَنٌ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ تَسْمِيَتُهُ كريماً لِما أنَّ مَنْ نالَهُ يَصيرُ كريماً، أو لِما يُؤَمَّلُ، ويُرْجَى أنْ يكونَ لهمْ ذلكَ.

والكريمُ في الشاهِدِ هو الذي يُرْجَى منهُ كلُّ خيرٍ، ويُؤَمَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ أي كُتُبُهُمُ التي يُعْطَونَ في الآخِرَةِ؛ فإنهُ يُعْطَى كتابُ المُقَرَّبينَ أو السابِقينَ مِنْ أمامِهِمْ وقُدّامِهِمْ، وكتابُ سائرِ المؤمنينَ مِنْ أيمانِهِمْ، وكتابُ أهلِ الشِّرْكِ[2] مِنْ وراءِ ظهورِهِمْ. يُؤَيِّدُهُ حرفُ حَفْصَةَ ﵂: نورُهُمْ يَسْعَى بَينَ أيديهِمْ وفي أيمانِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الآية [الحاقة: ١٩] وجائزٌ أنْ يكونَ نورُ إيمانِهِمْ ودينِهِمُ الذي كانوا عليهِ في الدنيا.

وجائزٌ أنْ يكونَ نورُهُمُ الذي ذَكَرَ كِنايةً عنِ الطريقِ الذي يَسْلُكُ فيهِ السابقونَ يَرَونَ ما أمامَهُمْ، وسائرُ المؤمنينَ عنْ أيمانِهِمْ على ما سَلَكوا في الدنيا، وأهلُ الشِّرْكِ بِشِمالِهِمْ، وأهلُ النِّفاقِ مِنْ ورائِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ كِنايةً عنِ اليُمْنِ[3] والبركةِ لأنَّ[4] الأيمانَ تَنالُ اليُمْنَ والبَرَكاتِ، فَسَمّاها بذلكَ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنهُ يُرْفَعُ لهمْ نورٌ، فَيَمْشونَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ إنما يُقالُ ذلكَ [قَبْلَ][5] دخولِ أهلِ الجنةِ [الجنةَ][6] وأهلِ النارِ النارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لأنهُ لا هلاكَ بَعْدَهُ، ولا تَبِعَةَ، ولا انْقِطاعَ؛ ذلكَ لِذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ليسَ أنْ يَراهُ هو خاصَّةً، لا يَرَى غَيرُهُ ذلكَ، ولكنْ يَرَى ذلكَ جميعُ المؤمنينَ، فَيَبْطُلُ بِهِ قولُ مَنْ جَعَلَ التَّنْصيصَ على الشيءِ دالاًّ على التَّخْصيصِ ونَفْيِ غيرِهِ.

وعنْ قَتادَةَ أنهُ قالَ: ذُكِرَ لنا أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ مِنَ المؤمنينَ /٥٤٩ ـ ب/ مَنْ يُضيءُ نورُهُ مِنَ المدينةِ إلى عَدَنٍ أو إلى صنعاءَ ودونَ ذلكَ حتى إنَّ مِنَ المؤمنينَ مَنْ لا يُضيءُ نورُهُ إلّا مَوضِعَ قَدَمَيهِ، وللناسِ مَنازِلُ بأعمالِهِمْ» [السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٥٢].

(١) من م، في الأصل: في. (٢) من م، في الأصل: المشركين. (٣) من م، في الأصل: اليمين. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: «﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما أفْرَطوا منْ أولادِهِمْ».

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ منهمْ مَنْ قرأ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ أَنظِرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ومنهمْ مَنْ قرَأها[2] مَقْطُوعةً مِنَ أنظَرْتُ.

قالَ أبو عُبَيدةَ: فالِاتِّصالُ أحبُّ إلينا لأنَّ تأويلَها، واللهُ أعلَمُ: انْتَظِرونا؛ يُقالُ منهُ: نَظَرْتُ فلاناً أنْظُرُهُ. وأمّا القراءةُ الأُخرَى فإنها مِنَ التأخيرِ؛ يُقالُ منهُ: أنْظَرْتُ فلاناً أنْظِرُهُ إذا أخَّرْتَهُ، ولا أعرِفُ للتأخيرِ ههنا موضِعاً.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: أنْظَرْتُهُ، ونَظَرْتُهُ، أيِ انْتَظَرْتُهُ؛ يقالُ منهُ: نَظَرَ نَظْرَةً.

ثم الآيةُ دلَّتْ على أنَّ أهلَ النِّفاقِ يكونونَ بِبُعْدٍ مِنَ المؤمنينَ، ولا[3] يَنْتَفِعونَ بنورِ المؤمنينَ. ولكنْ يَرَونَ ذلكَ اليومَ مِنْ بُعْدٍ فيقولونَ[4]: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ولو كانوا بِقُرْبٍ منهمْ، أو يَنْتَفِعونَ بنورِهِمْ لَكانوا لا يَطلُبونَ منهمُ الِانْتِظارَ لهمْ والِاقْتِباسَ منْ نورِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ هذا هو الِاسْتِهزاءُ الذي ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى أنهُ يَسْتَهْزِئُ بهمْ حينَ[5] قالَ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] بقولِهِ: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ هو ذلكَ الِاسْتِهزاءُ.

وقُلْنا نحنُ في قولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يَجْزيهِمْ جزاءَ اسْتِهزائِهِمُ الذي اسْتَهْزَؤوا برسولِ اللهِ ﷺ وبالمؤمنينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ ليسَ على الأمرِ بالرجوعِ إلى وَراءِ والتِماسِ النورِ، ولكنْ على التَّوْبيخِ والتَّعْييرِ، أيِ النورُ إنما يُطلَبُ مِنْ وراءِ هذا اليومِ، أي مِنْ قَبْلِ هذا اليومِ لا يُطْلَبُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

جائزٌ أنْ يكونَ السورُ الذي ذَكَرَ الذي ضُرِبَ بَينَهُمْ ما ذَكَرَ في سورةِ الأعرافِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الآية: ٤٦] السُّورُ هو الأعرافُ الذي ذَكَرَ أنهُ[7] يكونُ حِجاباً بينَ أهلِ النارِ وأهلِ الجنةِ. يُرْفَعُ ذلكَ السورُ بَيْنَهُمْ لئلّا يَنْتَفِعوا بنورِ المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ ليسَ على حقيقةِ البابِ [ولكنْ][8] كِنايةٌ عنِ الطريقِ والسَّبيلِ؛ يَقُولُ: هو طريقٌ وسَبيلٌ مَنْ يأخُذُ ذلكَ السبيلَ أفضاهُ إلى الرّحمةِ. ومَنْ سلكَ ظاهِرَهُ أفضاهُ إلى العَذابِ.

وجائزٌ أنْ يُفْتَحَ مِنَ النارِ إلى الجنةِ بابٌ، فَيَرَونَ ما حَلَّ بهِمْ مِنَ العَذابِ، ويَرَى[9] أهلُ النارِ أهلَ الجنةِ على [ما هُمْ][10] عليهِ مِنَ النعيمِ لِيَزْدادوا[11] حَسْرَةً وندامةً، أو يكونَ اطِّلاعاً لا مِنْ بابٍ ولكنْ مِنَ السورِ والأعرافِ الذي ذَكَرَ، وهو ما قالَ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥].

والِاطِّلاعُ في الظاهِرِ إنما يكونُ مِنْ مكانٍ عالٍ مُرْتَفِعٍ إلى مَوضِعٍ مُنْحَدِرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي يُنادي أهلُ النِّفاقِ المؤمنينَ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا القولُ منهمْ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ تغريرٌ منهمْ للمسلمينَ يومئذٍ كما كانوا يُغَرُّونَهُمْ في الدنيا، وهو ما أخبَرَ عنهمْ [أنهم][12] يَكْذِبونَ في الآخِرةِ كما كانوا في الدنيا حينَ[13] قالَ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] في حَلْفِهِمْ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يُخَرَّجَ على تَغريرِهِمْ إيّاهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قرأ، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٨٣. (٣) في الأصل وم: وأن لا. (٤) في الأصل وم: حيث قالوا. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أنها. (٨) في م: ولكن الباب، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يرون. (١٠) في الأصل: هو، في م: ما هو. (١١) في الأصل وم: ليزداد لهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث.

ثم الإشكالُ والكلامُ قولُ المؤمنينَ: ﴿بَلَىٰ﴾ وقد علِموا أنهمْ لم يكونوا معهمْ، فكيفَ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾؟

فَنَقولُ: جائزٌ أنْ يكونَ جوابُهُمْ خَرَجَ لأولئكَ على ما عَرَفوا مِنْ خَطَئِهِمْ ومُرادِهِمْ، فأجابرهُمْ على ذلكَ، أو أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿بَلَىٰ﴾ أي كُنتُمْ تقولونَ: إنا مَعَكُمْ، ولكنْ لم تكونوا مَعَنا، أو أنْ يَخْرُجَ جوابُهُمْ على ظاهِرِ ما يَرَونَ مِنْ أنفسِهِمُ المُوافَقَةَ دونَ الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: امْتَحَنْتُمْ أنفسَكُمْ في الرجوعِ إلى مَنْ جَعَلَ لكمُ المَنافِعَ والعاقبةَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] أي شدةٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أتَيتُموها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

يَحتَمِلُ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ برسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سيموتُ عنْ قريبٍ، أو أنهُ يرجِعُ عنِ الإسلامِ إلى دينِ أولئكَ الكَفَرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شكَكْتُمْ، وإنْ قامَ لكمْ ما يَدْفَعُ الارْتِيابَ والشَّكَّ عنكُمُ والشُّبَهَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ تَحتَمِلُ الأمانيُّ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا مِنِ اتِّباعِهِمُ المَنافِعَ التي كانوا يَتَوَقَّعونَها، فيكفَ ما كانوا يَتَّبِعونَ غَرَضَهُمْ في ذلكَ.

والثاني: ما تَمَنَّتْ أنفسُهُمْ مِنْ مَوتِ رسولِ اللهِ ﷺ وهلاكِهِ أو عَودِهِ إلى دينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي الأمْرُ بالهلاكِ أو يومُ القيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي غَرَّكُمْ عنْ دينِ اللهِ الشيطانُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتاءِ[1]، وأكثرُهُمْ على الياءِ، ومَعْناهُما واحدٌ، أي لا يكونُ لهمْ فِدْيَةٌ يومَئذٍ، ليسَ أنهُ تكونُ لهمْ فِدْيَةٌ، ولا تُؤخَذُ، أو يقولُ على التَّمْثيلِ أي لو كانَ لهمْ فِدْيَةٌ لكانَتْ لا تُقْبَلُ منهمْ. يُخبِرُ أنَّ أمرَ الآخِرَةِ على خِلافِ ما يكونُ في الدنيا؛ إذْ في الدنيا رُبَّما يُحتالُ لِدَفْعِ البلاءِ بالفِداءِ مَرَّةً وبالشَّفاعةِ ثانياً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تَأْوونَ إليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولَى بكُم وأحَقُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئسَ ما يَصيرونَ إليها.

ثم في الآيةِ نَقْضُ قولِ المعتزلةِ في تَخليدِ أصحابِ الكبائرِ في النارِ، لأنهُ تعالى جَعَلَ الناسَ على ثلاثِ فِرَقٍ، وأنزَلَهُمْ منازِلَ ثلاثةً: المُنافقينَ والكافرينَ كُفْرَ تَصْريحٍ والمؤمنينَ، وجَعَلَ النارَ لأهلِ الكُفْرِ وأهلِ النِّفاقِ، ولم يَجْعَلْها لِغَيرِهِما، وصاحبُ الكبيرةِ، ليسَ هو بِمُنافِقٍ ولا كافرٍ عندَهُمْ.

وكذلكَ ما قَسَّمَ اللهُ تعالى الناسَ أقساماً ثلاثةً: السابقِينَ وأصحابَ اليَمينِ وأصحابَ الشِّمالِ [وأصحابُ الشمالِ][2] هُمُ المُكذِّبونَ، وأصحابُ الكبائرِ ليسوا بِمُكذِّبينَ عندَهُمْ. وهو ما جَعَلَ النارَ إلّا لِلْمُكذِّبينَ:

ألا تَرى أنهُ قالَ في آخرِهِ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾؟ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٤].

جَعَلَ الجنةَ لِلْمُقَرَّبينَ وأصحابِ اليَمينِ والنارَ لِلْمُكذِّبينَ خاصةً، لم يَجْعَلْها لِغَيرِهِمْ. فَمَنْ جَعَلَها لِغَيرِهِمْ فهو مُخالِفٌ لظاهِرِ هذهِ الآياتِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٨٤. (٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وما نَزَلَ قُرِئَ مُخفَّفاً ومُثقَّلاً[1]؛ فَمَنْ شَدَّدَ شَدَّدَ لِما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تعالى، ومَنْ خَفَّفَ جَعَلَ الفِعْلَ للحقِّ.

ثم الآيةُ تَحتمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنها نزلَتْ في المُنافقينَ الذينَ أظهَرُوا الإيمانَ، وأضمَرُوا الكُفْرَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أنَى للذينَ آمَنوا ظاهراً، وأظهَروا المُوافَقَةَ للمؤمنينَ ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي إذا ذُكِرَ اللهُ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآنِ إذا يُتلَى عليهمْ أنْ تَرِقَّ قلوبُهُمْ، وتُؤمِنَ بهِ، لأنهمْ كانوا يَتَربَّصونَ برسولِ اللهِ ﷺ الدَّوائرَ/ ٥٥٠ ـ أ/ ويَطمَعونَ بهلاكِهِ.

أمَّنَ اللهُ تعالى المؤمنينَ مِنْ ذلكَ، والخَوفَ، وآيَسَ أولئكَ ممّا تَربصوا فيهِ مِنْ نزولِ الدوائرِ، فقالَ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ظاهراً ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والقرآنِ، وتَرِقَّ لذلكَ، وتُؤمِنُ بهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ[2] تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ على هذا التأويلِ؛ أي لا تكونوا كأولئكَ الذين تَمادَوا في الضلالِ وقَساوةِ القلوبِ لمّا طالَ عليهمُ الوقتُ، وتَرَكوا النَّظَرَ في الكتبِ.

[والثاني][3]: أنْ تكونَ الآيةُ في أهلِ الكتابِ الذينَ كانوا مؤمنينَ برسولِ اللهِ ﷺ قبلَ أنْ يُبْعَثَ.

فيقولُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُبْعَثَ ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي كتابِهِمْ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو القرآنُ أنْ يُؤمِنوا بهِ كما كانوا آمَنوا بهِ لمّا وَجَدوا بَعْثَهُ في كتابِهِمْ.

ويقولُ[4] تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أي لا تكونوا كالذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أهلِ الكتابِ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي طالَ عليهمْ أنْ يَنْظُروا في كُتُبِهِمْ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بطولِ تَرْكِ نَظَرِهِمْ فيها، واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ][5]: أنْ تكونَ الآيةُ في المؤمنينَ الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ باللهِ ورسولِهِ، وهو مُخَرَّج على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أنَى ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالنَّظَرِ والتأمُّلِ[6] في ذلكَ، فَيَحمِلَهُمْ ذلكَ على خُشوعِ قلوبِهِمْ [كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] جَعَلَ وصفَ المؤمنينَ أنْ تَوجَلَ قلوبُهُمْ][7] عندَ ذِكْرِ اللهِ، ويزدادَ لهمُ الإيمانُ واليَقينُ بالنَّظَرِ فيهِ والتَّفكُّرِ وفَهْمِ ما فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أنَى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن﴾ تُقْطَعَ شَهَواتُهُمْ وأمانِيُّهُمْ في الدنيا، وتَخْشَعَ قلوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي لا تَغْفَلوا عنِ كتابِ اللهِ وذِكْرِهِ، ولا تَتْرُكوا النَّظَرَ فيهِ والتَّفكُّرَ، فَتَغْفَلوا عما فيهِ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تكونوا أنتمْ كَهُمْ، فَتَقْسُوَ قلوبُكُمْ كما قَسَتْ قلوبُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي كثيرٌ مِنْ أولئكَ الذينَ أُوتوا الكتابَ فاسِقونَ لِتَرْكِهِمُ النَّظَرَ في الكتابِ.

وجائزٌ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي المُعانِدونَ، والقليلُ منهمُ المُقَلِّدونَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠ والزخرف: ٧٨] أي مُعاندونَ، وهُمُ الرؤساءُ والقادةُ الذينَ كابَروا رُسُلَ اللهِ، وعانَدوهُمْ إلّا قليلاً[8] منهمُ اتَّبَعُوهُمْ، وقَلَّدُوهُمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ذَكَرَ هذا، ليسَ على أنهمْ لم يكونوا عَلِموا أنَّ اللهَ هو يُحْيِي الأرضَ بعدَ مَوتِها، بل كانوا عالمينَ بذلكَ، لكنهُ ذَكَرَ كما ذَكَرَ لرسولِ اللهِ ﷺ حينَ[9] قالَ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي أشْعِرْ قلبَكَ في كلِّ وقْتٍ وساعةٍ الرُّبوبيَّةَ للهِ تعالى والوَحْدانيَّةَ لهُ.

فَعَلَى هذا يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أشعِروا قلوبَكُمْ في كلِّ وقْتٍ جَعْلَ الألوهيَّةِ والرَّبوبيَّةِ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٨٦. (٢) في الأصل وم: ثم وقوله. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: ثم وقوله. (٥) في الأصل وم: ويحتمل. (٦) من م، في الأصل: والتأويل. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: قليل. (٩) في الأصل وم: حيث.

لله تعالى وصَرْفَ العِبادةِ إليهِ والتّنزيهَ والتّبرئةَ لهُ ممّا لا يَليقُ بهِ [ممّا يُوصَفُ بهِ][(١)] الخَلْقُ؛ إذْ عَلِمْتُمْ أنهُ يُحْيِي الأرضَ بَعْدَ مَوتِها، فاعْلَموا أنهُ يَمْتَحِنُكُمْ بأنواعِ المِحَنِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ إحياءُ ما ذَكَرَ بغَيرِ فائدةٍ وتَرْكُهُمْ سُدًى.

أو يقولُ: قد عَلِمْتُمْ أنّ اللهَ، هو يُحْيِي الأرضَ بَعْدَ مَوتِها، وأنتمْ تَرْغَبونَ في ما أحياهُ اللهُ، وتُصيبونَ منهُ، وتَجْتَهِدونَ في نَيلِ ذلكَ وإصابتِهِ، فاجْتَهِدوا في إصابةِ البركاتِ الدائمةِ في الحياةِ الباقيةِ.

أو يقولُ: لمّا عَلِمْتُمْ أنهُ قادرٌ على إحياءِ الأرضِ بَعْدَ مَوتِها فاعْلَموا أنهُ قادرٌ على البَعْثِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنّ حَرْفَ: لَعَلَّ مِنَ اللهِ تعالى يُخَرَّجُ على الإيجابِ. لكنْ يُخَرَّجُ هٰهنا على التّرَجّي وإطماعِ العَقْلِ للآياتِ والفَهْمِ لها إذا نَظَروا فيها، وتَأمّلوا أنها آياتٌ مِنَ اللهِ تعالى، أو أنْ يَرْجِعَ ذلكَ إلى خاصٍّ مِنَ الناسِ لو خَرَجَ حَرْفُ: لَعَلَّ للإيجابِ دونَ التّرَجّي، وهُمُ الذينَ عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ يَعْقِلونَ أنها آياتٌ، ويُؤْمِنونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ قُرِئَ مُشَدَّدَ الصادِ والدالِ ومُخَفَّفَ الصادِ[(٢)]. فَمَنْ شَدَّدَهُ جَعَلَهُ مِنَ التَّصَدُّقِ: أي المُتَصَدِّقينَ والمُتَصَدِّقاتِ، فأدْغَمَ التاءَ في الصادِ، فصارَ[(٣)] مِثْلَ المُزَّمِّلِ والمُدَّثِّرِ. يُؤَيِّدُ ذلكَ ما ذُكِرَ في حَرْفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ أنهُ قَرَأَهُ بالتاءِ: إنّ المُتَصَدِّقينَ والمُتَصَدِّقاتِ. ومَنْ خَفَّفَهُ جَعَلَهُ[(٤)] مِنَ التّصديقِ والإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ سَمّى المؤمنينَ صِدّيقينَ [والصِّدِّيقُ][(٥)] لا يُقالُ إلّا لِمَنْ يَكْثُرُ منهُ التّصديقُ، وقد يَكْثُرُ مِنْ كلِّ مؤمنٍ التّصديقُ، وإنْ كانَ ما يَأتي بهِ، إنما هو شيءٌ واحدٌ، نَحْوُ أنهُ إذا صَدَّقَ اللهَ صَدَّقَ رسُلَهُ[(٦)] في ما أخبَروا عنِ اللهِ تعالى وفي ما دَعَوا[(٧)] إلى ما دَعَوا، وبَلَّغوا عنِ اللهِ إلى الناسِ، وصَدَّقَ الخلائقَ جميعاً في ما شَهِدوا على وَحْدانيّةِ اللهِ تعالى وأُلوهيّتِهِ مِنْ حيثُ شهادةُ الخِلْقَةِ وشهادةُ الأخبارِ في حقِّ المؤمنينَ. فَتَصديقُهُ يَكْثُرُ، وإنْ كانَ الكلامُ في نفسِهِ يَقِلُّ، وهو كما قُلْنا لأبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في جَوازِ الخُطْبةِ بِتَسْبيحِهِ أو تهليلِهِ: إنها كلمةٌ وَجيزةٌ، لو فُسِّرَتْ، وبُسِطَتْ صارتْ خُطْبةً طويلةً، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنّ أبا بكرٍ ﷺ فُضِّلَ باسْمِ الصِّدّيقِ على غَيرِهِ مِنَ الأُمّةِ، فإذا اسْتَحَقَّ غيرُهُ مِنَ المؤمنينَ هذا الاِسْمَ لم يَخْتَصَّ هو بتلكَ الفَضيلةِ.

قيلَ: إنّ أبا بكرٍ ﷺ سُمّيَ صِدّيقاً، وخُصَّ بهِ مِنْ بَينِ سائرِ الصحابةِ والمؤمنينَ لِمَعْنًى اخْتَصَّ بهِ مِنْ غَيرِهِمْ، وغيرُهُ مِنَ المؤمنينَ [ما][(٨)] سُمّوا صِدّيقينَ مِنْ بينِ سائرِ أهلِ الأرضِ جميعاً إلّا في [مُقابَلَتِهِمْ كَهُوَ ما][(٩)] اخْتَصَّ بهذا الاِسْمِ مِنْ بَينِ سائرِهِمْ إلّا في مُقابَلَةِ النّبيِّ وَسائرِ الأنبياءِ ﷺ هذا هو مَعْنى تَفْضيلِهِ. والفَضْلُ عندَ المُقابَلةِ يكونُ.

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ ذلكَ الاِخْتِصاصُ لهُ لِلاِعْتِقادِ والمُعامَلةِ جميعاً، وسائرُ المؤمنينَ سُمّوا صِدّيقينَ لِلاِعْتِقادِ خاصّةً، ومَنْ وَفّى الأمْرَينِ جميعاً كانَ أفْضَلَ مِمَّنْ وَفّى أمْراً واحداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ جَعَلَ قولَهُ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على الاِبْتِداءِ مَقطوعاً مِنْ قولِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ ومنهمْ مَنْ وَصَلَهُ بهِ.

فَمَنْ قَطَعَهُ عنهُ فإنهُ يقولُ: الشهداءُ هُمُ الرسُلُ لِقولِهِ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؟ [النساء: ٤١] وإخبارِهِ[(١٠)] أنّ لهمْ أجرَهُمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٨٧. (٣) في الأصل وم: فيصير. (٤) في الأصل وم: جعلها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: رسوله. (٧) في الأصل وم: دعواهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: مقابلته كهو.
(١٠) في الأصل وم: ثم أخبر.

ومَنْ قالَ: إنهُ [موصولٌ بالأوّلِ][(١)] ذهبَ إلى أنَّ المؤمنِينَ شُهَداءُ على الناسِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣] سَمّاهُمْ شهداءَ على غَيرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ، واللهُ أعلَمُ.

ولأهلِ الاِعتِزالِ أدنى تَعَلُّقٍ بِظاهِرِ هذهِ الآيةِ؛ وذلكَ أنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى إذا ذَكَرَ المؤمنِينَ على الإطلاقِ ذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ ما وَعَدَ لهمْ مِنَ الكراماتِ والثوابِ الجزيلِ، وإذا ذَكَرَهُمْ معَ جَريمَتِهِمْ ذَكَرَ الوعيدَ لهمْ؛ يَسْتَدِلُّونَ بِذِكْرِ الوَعيدِ على إثْرِ ذلكَ على أنهمْ قد خَرَجَوا مِنَ الإيمانِ.

لكنْ ليسَ لهمْ بذلكَ دليلٌ لأنهُ ذَكَرَ مُقابلَ ما ذَكَرَ للمؤمنينَ مِنَ الكراماتِ لِلْكُفّارِ الجَحيمَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَٰدِ﴾ /٥٥٠ ـ ب/ ففي ظاهِرِ ما ذُكِرَ مِنْ هذهِ الآيةِ ونَحْوِها مِنَ الآياتِ لأهلِ الإلحادِ طَعْنٌ عظيمٌ؛ فإنهمْ يقولونَ: إنْ كانَتِ الحياةُ لَعِباً ولَهْواً فَلِمَ أنْشأها اللهُ لَعِباً ولَهْواً، ولا مُنْشِئَ سِواهُ؟

فَلَهُمْ مَوضِعُ الطَّعْنِ على هذا الوجهِ، ولهمْ دَعْوى التَّناقُضِ أيضاً فيهِ لِما ذُكِرَ في بعضِ الآياتِ، فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] وقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وقالَ في هذهِ الآيةِ وغيرِها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

فنقولُ: إنَّ الآيةَ تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: على التَّقديمِ والتَّأخيرِ معَ الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: اعْلَموا أنَّ مَثَلَ الحياةِ الدنيا وزينَتِها وتفاخُرِها وتكاثُرِها ولَعِبِها ولَهْوِها، أي [ما][(٢)] تَتَزَيَّنونَ بهِ[(٣)]، وتَتَفاخَرونَ بالأولادِ والأموالِ، وتَتَلَهَّوْنَ بهِ[(٤)]، وتَلْعَبونَ ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ ثم يَصيرُ ما ذُكِرَ حتى لا يُنْتَفَعُ بِهِ. فَعَلَى ذلكَ الحياةُ الدنيا.

والثاني: أنما الحياةُ على ما هي عندَكُمْ وعلى ما اتَّخَذْتُموها وعلى ما ظَنَنْتُمْ أنهُ لا بَعْثَ ولا حياةَ بَعْدَهُ، كانَ إنشاؤُها عَبَثاً ولَهْواً؛ إذْ لو كانَ على ما ظَنُّوا لم يكُنْ إنشاؤُها إلّا للإفناءِ والإهلاكِ خاصَّةً، وبناءُ البِناءِ المُحْكَمِ للإفناءِ خاصَّةً عَبَثٌ وسَفَهٌ، ليسَ بِحكمةٍ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] وكانَ ظَنُّهُمْ أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ بَعْدَهُ.

فَعَلَى ما كانَ ظَنُّهُمْ كانَ إنشاؤُها لَعِباً ولَهْواً [وعلى[(٥)] ما كانَ عندَ أهلِ الإلحادِ، هو[(٦)] سَفَهٌ وباطلٌ][(٧)].

فأمّا الحياةُ الدنيا على ما هي عندَ أهلِ التوحيدِ [فهي][(٨)] حِكْمةٌ وحَقٌّ وصوابٌ وقُدرةُ اللهِ تعالى عليهمْ بقولِهِ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

[والثالثُ][(٩)]: جائزٌ أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي لو قوبِلَتْ بالحياةِ الآخِرَةِ لَكانَ عَبَثاً ولَهْواً، لأنَّ الدنيا بُنِيَتْ على الفَناءِ والاِنْقِطاعِ والزَّوالِ عنْ قريبٍ، والآخِرَةُ على الدَّوامِ والبَقاءِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] لأنها باقيةٌ. أو يقولَ: ﴿أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ للدنيا خاصَّةً [لَعِبٌ ولَهْوٌ، أي مَنْ جَعَلَ الحياةَ الدنيا للدنيا خاصَّةً][(١٠)] فتكونُ لَعِباً ولَهْواً، ومَنْ جَعَلَ الحياةَ الدنيا زاداً للآخِرَةِ وبُلْغَةً إليها، فهي[(١١)] ليسَتْ بِلَعِبٍ، وهي[(١٢)] ما قالَ تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧].

أخْبَرَ أنَّ الإنفاقَ للدنيا كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ [وقالَ][(١٣)] في النَّفَقَةِ التي تكونُ في الدنيا لحياةِ الآخرةِ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: موصولة. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: بها. (٥) في الأصل وم: فعلى. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد: وصواب. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وهي. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الإشكالُ أنهُ كيفَ خَصَّ الكُفَّارَ بإعجابِهِمْ بالنباتِ؟ وقد أعْجَبَ النباتُ أهلَ الإيمانِ؟

فنقولُ: لأنَّ الكفارَ يُعْجِبُهُمْ ظاهِرُ ذلكَ النباتِ وما يَرونَ مِنَ النُّزْهةِ، لا يَرَونَ إلى ما ضُمِّنَ في ذلكَ النباتِ، وجُعِلَ فيهِ مِنَ المَنْفَعَةِ في العاقبةِ، لكنْ يَنْظُرونَ إلى ظاهِرِهِ.

وأمّا المؤمِنونَ فإنما[1] يُعْجِبُهُمْ ما في ذلكَ النباتِ مِنَ المَنْفَعَةِ في العاقبةِ، وإلى ذلكَ يكونُ نَظَرُهُمْ لا إلى ظاهِرِهِ، وهو كما شَبَّهَ إنفاقَ الكَفَرَةِ بالريحِ التي فيها صِرٌّ، يُصيبُ حَرْثَ قومٍ لما لا يَقْصِدونَ بإنفاقِهِمْ سِوَى نفسِ الإنفاقِ، وشَبَّهَ نَفَقَةَ أهلِ الإيمانِ بالحبَّةِ التي تُنْبِتُ ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] لِما كانَ مَقْصَدُهُمْ في الإنفاقِ عاقِبَتَهُ لا عينَ الإنفاقِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الكفارِ الزُّرّاعَ، وبهِ فَسَّرَ بعضُ أهلِ الأدبِ، وهو كقولِهِ: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]. فَعَلَى هذا التأويلِ يَرْجِعُ إلى الكُلِّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لهؤلاءِ الذينَ اتَّخَذُوا الدنيا لَعِباً ولَهْواً، وصَيَّروها تفاخُراً وتكاثُراً دونَ أنْ يَتَّخِذوها زاداً وبُلْغَةً إلى الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ فهو للمؤمنينَ الذينَ اتَّخذوا الدنيا للآخِرَةِ، وعَقَلوا الآياتِ التي بَيَّنَها لهمْ لِلنَّظَرِ فيها والتَّفَكُّرِ والتَّأَمُّلِ [فَتَأَمَّلوها، ووَضَعوها مَواضِعَها][2] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هو يُخَرَّجُ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ قالَ إمامُ الهُدَى ﷺ في قولِهِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: إنَّ الحياةَ الدنيا وحُبَّها لنفسِهِ وعلى ما أُنشِئَتْ، وجُعِلَتْ لهُ، حِكْمَةٌ وحقٌّ وسُرورٌ، ليسَتْ بِغُرورٍ، وأمّا اختِيارُها وحُبُّها لِغَيرِهِ واستِعْمالُها لِغَيرِ الذي أُنشِئَتْ، وجُعِلَتْ [فهو][3] غُرورٌ ولَعِبٌ ولَهْوٌ، لأنَّ مَنْ أحَبَّ شيئاً اسْتَكْثَرَ منهُ، وحَبَسَهُ لنفسِهِ[4]، وحَفِظَهُ مِنْ تَلَفِهِ وضَياعِهِ، واسْتَبْقاهُ لوقتِ حاجتِهِ ويومِ فَقْرِهِ. فَعَلَى ذلكَ مَنْ جَمَعَ الدنيا لنفسِهِ، وأحَبَّها، واستَعْمَلَها في ما أُذِنَ لهُ، وأُمِرَ، وهو أنْ يَجْعَلَها زاداً للآخِرَةِ وبُلْغَةً إليها. فإذا عَلِمَ ذلكَ اسْتَكْثَرَ منها عندَ اللهِ لِيومِ فاقَتِهِ.

فَمَنْ أحَبَّها واختارَها لهذا فهو ليسَ بِغُرورٍ ولا لَعِبٍ، بل سُرورٌ وبَهْجَةٌ، ومَنْ طَلَبَها لِغَيرِهِ، واستَعْمَلَها في غَيرِ ما أُنشِئَتْ كانَ غُروراً ولَعِباً على ما ذَكَرَ. فَخَرَجَ قولُهُ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ على ما يَخْتارونَها، ويُحِبُّونها.

وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أنْشَأَ لنا هذهِ النِّعَمَ حينَ[5] قالَ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] يَجِبُ أنْ يُنْظَرَ إلى ذلكَ بالتعظيمِ لها والإجلالِ لا بِعَينِ الاسْتِخْفافِ والهَوانِ.

ألا تَرَى أنَّ مَلِكاً مِنْ مُلوكِ الأرضِ لو أكْرَمَ أحداً بِكرامةٍ، وأهْدَى هَديَّةً، ثم عَلِمَ منهُ الاسْتِخْفافَ بِهَديَّتِهِ، يَسْلُبُ منهُ هديَّتَهُ، ويَسْتَحْقِرُهُ؟

فَعَلَى ذلكَ يجبُ أنْ يَتَلَقَّى نِعَمَ اللهِ تعالى بالتَّعظيمِ والتَّبجيلِ والقَبولِ الحَسَنِ لا على الاسْتِخْفافِ بها والإهانةِ.

ثم الناسُ بَعْدَ هذا رجلانِ: رجلٌ يَرْغَبُ في نِعَمِ الدنيا وجَمْعِها وجَعْلِها عندَ اللهِ ذُخْراً وزاداً لِيومِ فَقْرِهِ وحاجَتِهِ، ورجلٌ زَهِدَ فيها خوفاً لِلتَّقصيرِ في عبادةِ اللهِ تعالى في حقوقِهِ أنْ يَشْتَغِلَ بها، ويَمْنَعَهُ ذلكَ عنْ أداءِ ما عليهِ والاقْتِداءِ برسولِ اللهِ ﷺ في ما أمَرَهُ، ولَهُ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ بِنَبِيِّهِ ﷺ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: فتأملوا ووضعوها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) اللام ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث.

مَنْ تَرَكَ الدنيا وما أنشأَ اللهُ تعالى فيها مِنَ النِّعَمِ استِخفافاً بها وهَواناً فهو الجاهلُ المُستَخِفُّ بِنِعَمِ اللهِ تعالى الغافلُ عمّا أُنشِئَتْ لهُ الدنيا وما فيها.

فهذا والذي طَلَبَ الدنيا للدنيا مَذمومانِ[1]، والذي طَلَبَها لنفسِهِ زاداً للآخِرَةِ والذي زَهِدَ فيها مَحمودانِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما ذُكِرَ أنَّ حُبَّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ وأنَّ مَنْ أحبَّها لِغَيرِهِ أي[2] لِغَيرِ الذي جُعِلَتْ لهُ فيكونُ رأسَ كلِّ خَطيئةٍ. ومَنْ أحبَّها لنفسِهِ، واتَّخَذَها زاداً للآخِرَةِ فهو[3] رأسُ كلِّ حَسَنَةٍ وطاعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يقولُ: اجْعَلوا المُسابَقَةَ في ما بَيْنَكُمْ في مَغْفِرَةِ رَبِّكُمْ إلى جَنَّةٍ لا إلى جَمْعِ الأموالِ والأولادِ. وكانَ أهلُ الكُفرِ جَعَلوا المُسابَقَةَ في الدنيا في جَمْعِ الأموالِ والتَّفاخُرِ والتَّكاثُرِ بها، فيقولُ لأهلِ الإيمانِ: اجْعَلوا أنتمُ المُسابَقَةَ في طَلَبِ مَغْفِرَةِ اللهِ وجَنَّتِهِ[4]، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ: سابِقوا آجالَكُمْ بأعمالِكُمُ التي تُوجِبُ لكمُ المَغفِرَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية ذَكَرَ سَعَةَ الجَنَّةِ لأنَّ العَرْضَ إنما يُذْكَرُ لِسَعَةٍ تكونُ للشيءِ، وقد ذَكَرَ سَعَةَ [لها حينَ][5] قال: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣٤] وقال أيضاً: ﴿وَفِيهَا / ٥٥١ ـ أ/ مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزخرف: ٧١] ونَحْوَ ذلكَ؛ ذَكَرَ ما فيها مِنَ السَّعَةِ وسَعَتَها، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذِكْرُ عَرْضِها ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ليسَ يُخَرَّجُ على التَّحديدِ والتَّقديرِ أنَّ عَرْضَها مِثْلُ عَرْضِ السمواتِ والأرضِ، لكنْ لِما لا شيءَ أوسَعُ في أوهامِ الخَلْقِ ممّا ذَكَرَ، وهو كقولِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: ١٠٧] ذَكَرَ دَوامَها: لا شيءَ أبْقَى وأدوَمَ منها في الأذهانِ، وإلّا كانتا تَفْنَيانِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أنْ تَصيرَ السماءُ والأرضُ جميعاً جَنَّةً لهمْ.

ثم وَصْفُ الجَنَّةِ بالسَّعَةِ ووَصْفُ النارِ بالضِّيقِ حيثُ [قولُهُ تعالى][6]: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣] وذلكَ أنهُ ليسَ في فَضْلِ النارِ على قَدْرِ المَجعولِ عذاباً لم يَصِلْ إلى المُعَذَّبِ بها فائدةٌ، فَضُيِّقَتْ، وفَضْلُ الجنةِ على قَدْرِ الحاجةِ لَذَّةٌ وسُرورٌ ومَنْفَعَةٌ، فَوُسِّعَتْ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخبَرَ أنها ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ والإيمانُ باللهِ تعالى، هو أنْ نُصَدِّقَ كلَّ شيءٍ يَشْهَدُ على وحدانِيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ، والإيمانُ برُسُلِهِ، هو أنْ نُصَدِّقَهُمْ في ما أخبَروا عنِ اللهِ تعالى. وكلُّ صاحبِ كبيرةٍ مُصَدِّقٌ بالذي ذَكَرْنا، هو[7] مؤمنٌ، وذلكَ على المعتزلةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ دلَّتِ الآيةُ أنَّ ما يُعْطي مِنَ الثوابِ لِعَبيدِهِ فَضْلٌ منهُ، وأنَّ ما سَمّاهُ جَزاءً وأجْراً لِسابِقٍ منهُ إليهمْ مِنَ الإحسانِ والنِّعَمِ ما يُصَيِّرُ تلكَ الأفعالَ، وإنْ كَثُرَتْ، شُكْراً لأدنى نِعْمَةٍ، وإنْ طالَ عُمُرُهُ، فكيفَ يَسْتَوجِبُ الجزاءَ والثوابَ على تلكَ الأعمالِ؟ [ولكنْ بِفَضْلِهِ ورحمتِهِ يَجْعَلُ لتلكَ الأعمالِ][8] ثواباً وجَزاءً، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أي ذَكَرَها في كتابٍ، كانَ ذلكَ الكتابُ قَبْلَ أنْ [نَبْرَأَ تلكَ][9] المصائبَ، أي نَخْلُقَها؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ كونُ أنفُسِ تلكَ المصائبِ في الكتابِ قَبْلَ خَلْقِها، فَدَلَّ أنهُ على كَوْنِ ذِكْرِ المَصائبِ فيهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [الإسراء: ٦٠] [ليسَتْ عَيْنَ تلكَ الشجرةِ في القرآنِ][10] ولكنْ ذَكَرَها فيهِ.

---

(١) في الأصل وم: مأمونان. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: فهي. (٤) الواو ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فيها حيث.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: نبرأها تلك.
(١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ في الخَبرِ أنهُ نَهَى أنْ يُسافَرَ بالقرآنِ إلى أرضِ العَدُوِّ، أي نَهَى أنْ يُسافَرَ بالذي كُتِبَ فيهِ القرآنُ، وإلّا لم يكُنْ عَينَ القرآنِ في ذلكَ المُصْحَفِ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ المصائبِ، وذلكَ يُخَرَّجُ على المجازِ دونَ الحقيقةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: مِنْ قَبْلِ أنْ نَخْلُقَ تلكَ المَصائبَ، ومنهُ مَنْ قالَ: مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأَ تلكَ الأنفسَ والأرضَ، والأوّلُ أظْهَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَين:

[أحَدُهما: أنّ][1] كثرَةَ ما يُصيبُ الخَلْقَ في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ يَسيرٌ على اللهِ غَيرُ شديدٍ، ليسَ كملوكِ الأرضِ لأنّ ما يصيبُ حَشَمَهُمْ وخَدَمَهُمْ مِنَ المَصائبِ يَشْتَدُّ عليهِمْ لِما أنَّ قِوامَهُمْ بِحَشَمِهِمْ وخَدَمِهِمْ، ولهمْ مَنافِعُ. فَيُخْبِرُ اللهُ تعالى بهذا أنْ ليسَ لهُ في بَقاءِ الخَلْقِ مَنْفَعَةٌ، ولا في ذهابِهِمْ وفَنائِهِمْ ضَرَرٌ، فذلكَ يكونُ عليهِ يسيرٌ.

والثاني: أنّ كتابةَ ما لم يكُنْ بَعْدُ، ولم يُخلَقْ، وعِلْمَهُ قَبْلَ كونِهِ، على اللهِ يَسيرٌ هَيِّنٌ؛ يُخبِرُ أنه عالمٌ في الأزلِ بِكَونِ الأشياءِ في أوقاتِها، لا يَصْعُبُ عليهِ شيءٌ، ولا يَشْتَدُّ عليهِ العِلْمُ بها قَبْلَ كَونِها وقَبْلَ ظهورِها كما يَشْتَدُّ على الخَلْقِ، ويَصْعُبُ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العبادِ لأنَّ اسْمَ المَصائبِ، يَقَعُ على ما لِلْخَلْقِ فيهِ صُنْعٌ كما يَقَعُ على ما لا صُنْعَ لهمْ فيها.

ثم إضافةُ[2] اللهِ تعالى خَلْقَها إلى أنْفُسِها مُطْلَقاً بقولِهِ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ دَلَّتْ أنَّ أفعالَ العبادِ مَخْلُوقَةٌ للهِ تعالى.

ألا تَرى أنَّ اللهَ تعالى سَمّى ما يُصيبُ بأيدي الخَلْقِ مُصيبةً، فقالَ: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾؟

قالتِ المُعْتَزِلَةُ: يقالُ: أصابَنا كذا [في ما][3] لا صُنْعَ لِلْخَلْقِ [في ذلكَ. فأمّا في ما [فيهِ][4] صُنْعٌ لِلْخَلْقِ][5] فَيُقالُ[6]: أصِبْنا بكُمْ.

هذا فاسدٌ؛ فإنهُ جائزٌ أنْ يُقالَ في كلِّ ما أصابَكَ: أُصِبْتَهُ، وما [أصابَتْكَ إصابَتُهُ][7] لأنهُ إذا أصابَكَ شيءٌ فقد أُصِبْتَهُ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى في طِباعِ الخَلْقِ الحُزْنَ والأسَى على ما فاتَهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ، ويَنْزِلُ بهِمْ [مِنَ][8] البلاءِ والشِّدَّةِ، والفَرَحَ والسُّرورَ بما يَنالونَ مِنَ النِّعْمَةِ. هذا هو المُنْشَأُ والمَجعولُ في طِباعِهِمْ.

ثم يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ بالنَّهْيِ عنِ الأسَى والحُزْنِ بِفَوتِ النِّعْمَةِ وعنِ الفَرَحِ والسرورِ عندَ إصابتِها على وجوهٍ:

أحَدُها: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لئلا تَسْتَكْثِروا مِنَ الأسَى والحُزْنِ على ما فاتَكُمْ، فَيَحْمِلَكُمْ ذلكَ على الشَّكْوَى مِنَ اللهِ تعالى ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ أي لا تَسْتَكْثِروا الفَرَحَ والسرورَ حتى يَحْمِلَكُمْ ذلكَ على الطُّغيانِ والعُدْوانِ.

ومِثْلُهُ ذُكِرَ في الخَبَرِ: «أعوذُ باللهِ مِنَ الفَقْرِ والنَّسيءِ والغِنَى المُطْغِي» [بمعناه الترمذي ٢٣٠٦] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: لِكَيلا يَشْغَلَكُمُ الأسَى والحُزْنُ على ما فاتَكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ حتى يَفوتَكُمْ أضعافُ ذلكَ، وهو ما وَعَدَ لهمْ مِنَ الثوابِ إذا صَبَروا كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] وقولِهِ[9] تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: أضاف. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يقال. (٧) في الأصل وم: أصبته أصابتك. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ثم قال.

يقولُ: لا يَشغَلْكُمُ الجَزَعُ وتَرْكُ الصَّبرِ عمّا[1] وَعَد لكمْ مِنَ الصلاةِ والرحمةِ والاهتِداءِ، ولِذلكَ قيلَ: الجَزَعُ في المُصيبةِ أعظَمُ المُصيبَتَينِ، ويَقولُ أيضاً: ولا يَشغَلْكُمْ شِدّةُ الفَرَحِ والسرورِ بما آتاكُمْ عنِ الشُّكرِ حتى تَفوتَكُمُ الزيادةُ على ذلكَ، لأنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ الزيادةَ على النِّعْمةِ إذا شُكِرَ بقولِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يقولُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ولكنِ انْظُروا إلى ما كانَ مِنكُمْ مِنَ الجريمةِ حتى فاتَكُمْ ذلكَ حينَ[2] قالَ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] يقولُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ولكنِ انْظُروا إلى تَفريطِكُمْ في جَنْبِ اللهِ، وارْجِعوا عنْ ذلكَ، ولِذلكَ يقولُ: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ولكنِ انْظُروا إلى إحسانِ اللهِ الذي كانَ إليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ولكنِ انْظُروا إلى ما امْتَحَنَكُمْ بِهِ وابْتَلاكُمْ؛ إذْ هو امْتَحَنَ بَعْضاً بالشدائدِ والبَلايا، وأمَرَهُمْ بالصَّبْرِ على ذلكَ، وبَعْضاً بالسَّعَةِ والرَّخاءِ، وأمَرَهُمْ بالشُّكرِ على ذلكَ، فاصْبِروا، ولا تَجْزَعوا إنْ فاتَتْكُمُ النِّعَمُ، وأصابَتْكُمُ المَصائبُ، واشكُروا لهُ، ولا تفْرَحوا عندَ النِّعَمِ فرحاً، يكونُ بَطَراً وأشَراً.

أو يقولُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ فإنَّ الذي أُخِذَ منكُمْ لم يكُنْ في الحَقيقةِ لكُمْ، إنما هو لِغَيرِكُمْ، ومَنْ كانَ عندَهُ مالٌ لآخَرَ، فيأْخُذُهُ، فلا يَجِبُ أنْ يَحْزَنَ على ذلك ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ قُرِئَ مَمْدوداً ومَقْصوراً[3]. فَمَنْ مَدَّهُ رَدَّ الفِعْلَ إلى اللهِ تعالى، ومَنْ قَصَرَهُ جَعَلَ الفِعْلَ لِذلكَ الشيءِ لِمُوافَقةِ قولِهِ ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ولم يَقُلْ أفاتَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ولكنْ يُحِبُّ ضِدَّ ذلكَ وخِلافَ[4] المُخْتالِ المُتَكَبِّرِ، فَيُحِبُّ المُتَواضِعَ الخاضِعَ؛ والفَخورُ، هو الذي يَفْتَخِرُ بما أنعَمَ اللهُ تعالى عليهِ وعلى الناسِ، ويُحِبُّ الشكُورَ الذي يَشْكُرُ على نِعَمِهِ بالتَّوسيعِ على عبادِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا كلُّهُ وَصْفَ الكفارِ؛ كأنهُ يقولُ: لا يُحِبُّ كلَّ كَفّارٍ لِقولِهِ[5] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥ و...] أي يُحِبُّ المؤمِنَ، لأنَّ المؤمنَ، يكونُ صَبّاراً على المَصائبِ/ ٥٥١ـب/ شَكوراً لِنَعْمائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وتفسيراً[6] لهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٦ و٧] كأنَّ قولَهُ تعالى: الذينَ يَحمِلونَ العرشَ مَفْصولاً مِنَ الأوَّلِ. وكذلكَ هذا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ بُخْلِهِمْ في آيةٍ أُخرى، فقالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] بَخِلوا بالإنفاقِ على المؤمنينَ، أو بَخِلوا بالإنفاقِ على أتباعِهِمْ لِيَبْقَى الكَرَمُ والرئاسةُ عليهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ ذلكَ نَزَلَ في الرؤساءِ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ بَخِلوا بِبَيانِ بَعْثِ[7] محمدٍ ﷺ الذي كانَ في كُتُبِهِمْ، وأمَروا أمثالَهُمْ وأشكالَهُمْ بِكِتْمانِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي ومَنْ يُعْرِضْ عنْ ذلكَ فاللهُ هو الغَنِيُّ الحميدُ؛ الغَنِيُّ عنْ عبادَتِكُمْ وعمّا دَعاكُمْ إليهِ؛ إذْ لم يَدْعُكُمْ إلى ما دعاكُمْ لِحاجَةِ نفسِهِ؛ إذ هو الغَنِيُّ بذاتِهِ، الحَميدُ بِفِعالِهِ، أي بما عَلِمَ منكُمْ مِنَ الرَّدِّ لرسالتِهِ، لا يَخْرُجُ فِعْلُهُ مِنْ أنْ يكونَ مَحْموداً، ولا يَصيرُ لِفِعْلِهِ إلى أعدائِهِ بما صَنَعَ غيرَ حميدٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ وجوهٌ أيضاً:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: على ما. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٨٨. (٤) في الأصل وم: وخلافه. (٥) في الأصل وم: كقوله يحب. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: صفة.

أحدُها: أنّ المصائبَ ربّما تَجري على أيدي الناسِ، وتُصيبُهُمْ منهمْ، فقالَ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ما جَرى على أيدي الناسِ لئلّا يَزولَ، فَيَحمِلَهُمْ ذلكَ على العداوةِ والبَغضاءِ، ولكنْ يَرونَ ذلكَ مكتوباً عليهِمْ مِنَ اللهِ تعالى وكذلكَ ما ذَكَرَ في ما يُؤتيهِمْ مِنَ النِّعَمِ على أيدي الخَلْقِ، فلا يُزالُ ذلكَ منهمْ فَيَشغَلَهُمْ عنِ القِيامِ بِشُكْرِ الرَّبِّ، جَلَّ، وعلا، ولكنْ يَزولُ مِنْ فَضْلِ اللهِ تعالى ومَنِّهِ، فَيَشكرونَهُ.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ النَّهيُ عنِ الحُزنِ أمراً بالفَرَحِ، أي لا تأسَوا على ما فاتَكُمْ، ولكنِ افْرَحوا بما لَعَلَّ الذي فاتَكُمْ لو لم يَفُتْكُمْ لكانَ يَشغَلُكُمْ][1] عنِ القيامِ بِحُقوقِ اللهِ تعالى وأداءِ ما عليكمْ[2] مِنَ الفرائضِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أمرٌ بالحُزنِ، وقد يُذكَرُ [نفيُ][3] الشيءِ، ويُرادُ بهِ إثباتُ ضِدِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] أي خَسِرتْ تِجارتُهُمْ. ويَنبَغي أنْ تُتَلَقّى نِعَمُ اللهِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: بِحُسْنِ القَبولِ لها والتَّعظيمِ والشُّكرِ لِلْمُنْعِمِ إذْ أغناهُ بذلكَ عنِ النَّظَرِ بما في أيدي الناسِ ودَفْعِ الحاجةِ، وذلكَ مِنْ أعظمِ [النِّعَمِ][4].

والثاني: بالخوفِ[5] لِما لَعَلَّهُ فَعَلَ ذلكَ بهِ استِدراجاً وامْتِحاناً، إذِ الأموالُ ربّما تكونُ فِتنةً وبَلاءً، أو تَشغَلُهُ عن أداءِ ما عَلَيهِ، إذْ كانَ سَبَبَ استِدراجِهِ وبَلائِهِ، فأُخِذَ منهُ، أو لما يَحصُلُ[6] بذهابِهِ إلى أداءِ الفرائضِ مِنَ العباداتِ، وكانَ ذلكَ يَمنَعُهُ، ويُحزِنُهُ مِنْ وجهَينِ أيضاً:

أحَدُهما: لِما لَعَلَّ قُوتَهُ يَحوجُهُ إلى ما في أيدي الناسِ، وكانَ غَنيّاً عنهمْ.

[والثاني][7]: لِما لَعَلَّ ذلكَ عقوبةٌ لِتَفريطٍ كانَ منهُ كقولِهِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] واللهُ أعلَمُ.

ثم أضافَ ما نالوا مِنَ النِّعَمِ إلى نفسِهِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ولم يُضِفْ ما فاتَهُمْ إلى نَفْسِهِ، وهو كما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وهو ما ذَكَرْنا أنهُ جائزٌ أنْ يكونَ ما يَفوتُهُمْ مِنَ النِّعَمِ بِاكْتِسابٍ وبسببٍ كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أرسَلْنا ما يُبَيِّنُ، ويُوَضِّحُ أنهمْ رسُلُ اللهِ، وأنَّ تلكَ الآياتِ التي أتَوا بها مِنْ عِندِ اللهِ لا باختِراعٍ مِنْ عِندِهِمْ لما هي خارجةٌ عنْ وُسْعِ البَشَرِ.

والثاني: ما يُبَيِّنُ صِدْقَ الرسُلِ في خَبَرِهِمْ وعَدْلِهِمْ في حُكْمِهِمْ، أو يُبَيِّنُ ما لهمْ وما علَيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ كقولِهِ في آيةٍ أُخرى ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

ثم يَحتَمِلُ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ الموازينَ المَعروفةَ التي بها تُستَوفى الحُقوقُ في ما بَينَ الناسِ وبها تُوفّى وبها تُحفَظُ حُقوقُ الأموالِ التي بَينَهُمْ وحُدودُها. فإنْ كانَ المُرادُ هذا فكأنهُ قالَ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الذي بهِ يُحفَظُ الدينُ وحُدودُهُ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ الذي بهِ تُحفَظُ حُدودُ الأموالِ، لا يُزادُ على الحقِّ، ولا يُنْقَصُ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بالميزانِ الحكمةَ إذْ ذَكَرَهُ على إثْرِ الكتابِ كقولِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ٤٨] كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ والحِكمَةَ؛ فيكونُ الكتابُ بهِ[9] تُحفَظُ حُدودُ الأفعالِ والأقوالِ، وتكونَ الحكمةُ ما يَقومُ الناسُ بها بالقِسْطِ.

---

(١) في الأصل وم: فاتهم لو لم يفتهم لكان يشغلهم. (٢) في الأصل وم: عليهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يخاف. (٦) في الأصل وم: يصل. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: بها.

أو[١] أنْ تكونَ الحكمةُ ما أودعَ في الكتابِ مِنَ المَعاني.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: إنهما[٢] واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْزَلَ ما ذَكَرَ مِنَ الكِتابِ والميزانِ لِيُلْزِمَ الناسَ بالقيامِ بالعدلِ، وقد ألْزَمَهُمْ ذلكَ بما أنْزَلَ عليهِمْ مِنَ الكتابِ والميزانِ، وبيَّنَ الحُدودَ.

والثاني: أنْزَلَ ما ذَكَرَ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ على وجودِ القيامِ بالعَدْلِ.

فإنْ كانَ المُرادُ منهُ الوجودَ فهو راجعٌ إلى خاصٍّ مِنَ الناسِ. وإنْ كانَ على الإلزامِ فهو راجعٌ إلى الكلِّ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وإنْ كانَ [المرادُ][٣] على وجودِ العبادةِ فهو يرجِعُ إلى خاصٍّ مِنَ الناسِ.

وإنْ كانَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي لآمُرَهُمْ، وأُلزِمَهُمْ، هو للكلِّ؛ فإنهُ قد خَلَقَهُمْ لِيأمُرَهُمْ، ويُلزِمَهُمْ، وقد أمَرَهمْ، وألْزَمَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى ذِكْرَ الحديدِ بما جَعَلَ فيهِ مِنَ البَأسِ مِنْ بَينِ غَيرِهِ مِنَ الأشياءِ، وإنْ كانَ يُشارِكُهُ غَيرُهُ في احْتِمالِ الأذى والضَّرَرِ بهِ، ما يُطْعَنُ بهِ، فَيَنفُذُ، ويُضرَبُ بهِ، ويُستَعمَلُ في الحروبِ والقِتالِ [بوجهَينِ:][٤]

أحَدُهما: أنهُ هو الكافِلُ[٥] في الظَّفَرِ والنَّفاذِ والجُرْحِ، وإنْ كانَ يَتحقَّقُ مِنْ غَيرِهِ. ولذلكَ اعتادَهُ الناسُ آلةً للقتالِ والحربِ فيكونُ البأسُ فيهِ أشدَّ.

والثاني: لِما يُختَصُّ بهِ باتِّخاذِ الدِّرْعِ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] لهذا خَصَّ الحديدَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى في الحديدِ مَنافِعَ، ليسَتْ تلكَ في غَيرِهِ، وهو ما يُتَّخَذُ منهُ ما يُخرَزُ بهِ، ويُخاطُ مِنَ الخِفافِ وغَيرِهِ مِمّا لا يُحتَمَلُ هذا النوعُ لِغَيرِهِ.

وكذلكَ حوائجُ الخَلْقِ، لا تقومُ في سائرِ أنواعِ الحِرَفِ والأعمالِ مِنَ التجارةِ والزراعةِ والبِناءِ وغيرِها.

وفيهِ خصوصِيَّةٌ في حقِّ المِحَنِ، وهو ما يَظْهَرُ عندَ فَرْضِ القِتالِ [مِنْ][٦] صِدْقِ إيمانِ المُحقِّقِ ونِفاقِ في المُرْتابِ بقولِهِ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ونَحْوِ ذلكَ.

فَظهورُ[٧] الصادقِ مِنَ الكاذبِ في الحروبِ، وإنما ذلكَ بالحديدِ، فصارَ مَخصوصاً في حَقِّ المِحْنَةِ، وغيرُها مِنَ المَنافِعِ حَقٌّ لا يُلْتَامُ أمرٌ مِنْ أمورِ المَعاشِ إلّا بهِ. فلِذلكَ[٨] خُصَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: أنْزَلَ مِنَ السماءِ المِطْرَقَةَ والعَلاةَ والكَلْبَتَينِ.

وعِنْدنا ليسَ على حَقيقةِ الإنزالِ مِنَ السماءِ كذلكَ، ومَعْنى[٩] قولِهِ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي خلَقْنا كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] أي خَلَقَها وقولِهِ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا / ٥٥٢ ـ أ/ يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] ومَعْلومٌ أنهُ لم يُنْزِلِ اللِّباسَ على ما هو عليهِن ولكنَّ مَعْناهُ خَلَقَهُ لباساً لكُمْ. كذلكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ يَحتَمِلُ ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي دينَهُ، أو أرادَ بإضافةِ النَّصْرِ إلى نفسِهِ نَصْرَ رسولِهِ محمدٍ وسائرِ رُسُلِهِ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: إنها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الكامل.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فظهر. (٨) من م، في الأصل: فذلك. (٩) في الأصل وم: ومعناه.

ثم نَصْرُ الرسُلِ مَرّةً يكونُ بِتَبْليغِ ما أُمِرُوا إلى قومِهِمْ؛ يَنْصُرونَهُمْ. هذا يُحْتَمَلُ، وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ إضافةِ النَّصْرِ إليهِ نَصْرَ أنفسِهِمْ ودينِهِمْ؛ إذْ هُمُ المُنْتَفِعونَ بذلكَ، ولهمْ يَحْصُلُ ذلكَ النَّفْعُ وتلكَ المَعونَةُ، لكنَّهُ بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ سَمّى ذلكَ نَصْرَهُ، وأضافَهُ إلى نفسِهِ على ما جَعَلَ لأعمالِهِمُ التي يَعْمَلونَها لأنفسِهِمْ ثواباً، وذَكَرَ لهمْ على ذلكَ أجراً؛ كأنهمْ عامِلونَ لهُ، وهُمُ المُنْتَفِعونَ بها المُحْتاجونَ إليها.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما عَمِلوا لأنفسِهِمْ سَمّاهُ نَصْراً، وإنْ كانَ النَّصْرُ لهمْ، وإنهُ ناصرُ الكُلِّ حينَ[1] قالَ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] أخْبَرَ أنهُ إذا نَصَرَهُمْ لا غالِبَ لهمْ سِواهُ، وإذا خَذَلَهُمْ لا ناصِرَ لهمْ دونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: لِيَعْلَمَ مَنْ قَدْ عَلِمَ أنهُ يَنْصُرُ ناصِراً، ولِيَعْلَمَ مَنْ قَدْ عَلِمَ بالغَيبِ أنهُ يكونُ كائناً شاهداً، والتَّغْييبُ على المَعلومِ لا على العِلْمِ.

والثاني: يُريدُ بالمَعْلومِ العِلْمَ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: ذِكْرُ العِلْمِ والفِعْلِ على إرادةِ المَعلومِ والمَفْعولِ نَحْوُ ما يُقالُ: الصلاةُ [أمْرُ اللهِ][2] أي بأمْرِ اللهِ، لأنَّ الصلاةَ، لا تكونُ أمْرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ذَكَرَ هذا لِيُعْلِمَ أنهُ لم يأمُرْ في ما أمَرَهُمْ مِنَ القِتالِ والنَّصْرِ لِحاجةِ نفسِهِ، ولا استَعْمَلَهُمْ في ما استَعْمَلَ مِنَ النَّصْرِ والمَعونةِ لنفسِهِ، ولا أنهُ[3] يَكْتَسِبُ بذلكَ العِزَّ لِنفسِهِ.

أخْبَرَ أنهُ قويٌّ بنفسِهِ، عزيزٌ بذاتِهِ. ولكنْ إنما أمَرَهُمْ بما أمَرَ، واسْتَعْمَلَهُمْ في ما استَعْمَلَ لِنَصْرِ أنفسِهِمْ ولِقُوَّتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وإنما ذَكَرَ نوحاً وإبراهيمَ، واللهُ أعلَمُ، لِما أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ في ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ والكتابَ، وإلّا فقد أرسَلَ الرسلَ بِجُمْلَتِهِمْ في قولِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الآية: ٢٥] فَدَخَلَ نوحٌ وإبراهيمُ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

ثم ذَكَرَ أنَّ منهم مَنِ اهْتَدَى أي مِنْ قومِهِمْ، وكثيرٌ منهمْ فَسَقُوا بقولِهِ: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يُخبِرُ رسولَهُ ﷺ أنهُ قد كانَ في قومِهِمْ مَنِ اتَّبَعَهُمْ، فصاروا مُهْتَدينَ، ومنهمْ مَنْ تَرَكَ اتِّباعَهُمْ، وخَرَجوا عَنْ أمرِ اللهِ، فصاروا فاسِقينَ؛ يُصَبِّرُهُ، ويُسَكِّنُ قَلْبَهُ على ما كانَ في قومِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرسلِ مِنَ المُجيبينَ لرسُلِهِ والتاركينَ للإجابةِ كقومِكَ، أي لستَ أنت بأوَّلِ مَنْ كُذِّبَ، ورُدَّ قولُهُ تَعَنُّتاً وعِناداً، واللهُ الهادي.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ في ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ والكتابَ، وبَعَثَ منهمْ رسُلاً، ذَكَرَ في الآيةِ الأولى أنهُ جَعَلَ في ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ والكتابَ، ولم يَذْكُرِ الرسالةَ، وذَكَرَ في هذهِ الآيةِ الرسالةَ فيهِمْ وفي ذُرِّيَّتِهِمْ، أي أرسَلْنا رسولاً على إثْرِ رسولٍ، وأتْبَعْنا بعضَهُمْ بعضاً، مِنْ قَفا يَقْفو، ثم ذَكَرَ أنهُ قَفَّى بِعيسى ابْنِ مَرْيَمَ، لأنَّ عيسى ﷺ مِنْ أولادِ إسحاقَ ﷺ فَبَعَثَ محمداً ﷺ مِنْ بَعْدِهِ، وهو مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ ﷺ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتْبَعْنا، ويقالُ: قَفَيْتُ فلاناً، أي عَيَّنْتُهُ، وسَمَّيْتُهُ، وقَفَوْتُهُ أقْفوهُ قَفْواً ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ واقْتَفَيتُ بِهِ، أي لَزِمْتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وَصَفَ اللهُ تعالى الذينَ اتَّبَعوا الرسلَ، وآمَنوا بهمْ بالرحمةِ والرأفةِ في ما بينَهُمْ، وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أن.

وقالَ [في آيةٍ أخرى:](١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقالَ [في آيةٍ أخرى:](٢) ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ونحوَ ذلكَ؛ وذلكَ لأنَّ السببَ الذي جَمَعَهُمْ واحدٌ، وهو التوحيدُ والإسلامُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ وقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ العداوةِ والبَغْضاءِ ما وَقَعَ، وسببُ الجَمْعِ قائمٌ، حتى اسْتَحَلَّ بعضُهُمْ قِتالَ بعضٍ مِنْ نَحْوِ الخوارجِ والمعتزلةِ؟

قِيلَ: إنما وَقَعَ ذلكَ في ما بَيْنَهُمْ، وإنْ كانَ سببُ الجمعِ قائماً، لِما كانَتِ الأُلْفَةُ والرَّأْفَةُ بِلُطْفٍ مِنَ اللهِ تعالى، وقد زالَ ذلكَ اللطفُ، وارْتَفَعَ، وحَدَثَ بَيْنَهُمْ ما حَدَثَ.

أو نقولُ: إنَّ الخوارجَ قد أحدَثوا مِنْ أنفسِهِمْ أشياءَ حتى سَمَّوُا المُسْلمينَ كَفَرَةً بما ارْتَكَبوا مِنَ الكبائرِ حتى نَصَبوا القِتالَ والحَرْبَ معهمْ، وكذلكَ المعتزلةُ سَمَّوا أصحابَ الكبائرِ فَسَقَةً وفَجَرَةً، وأنزلوهُمْ بَيْنَ الكُفْرِ والإيمانِ. ومَنْ سَمّى آخَرَ كافراً أو فاسقاً فلا شكَّ أنْ يَحدُثَ بينَهما عداوةٌ وتَباغُضٌ. فما حَدَثَ بَيننا وبَينَهُمْ مِنَ العداوةِ بِتَسْمِيَتِهِمْ إيّانا فَسَقَةً وفَجَرَةً وكَفَرَةً بارْتِكابِ الكبائرِ، وإنْ كانَ السببُ الذي جَمَعَهُمْ قائماً عندَنا، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا﴾ الآيةَ؛ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ الفترةَ التي كانَتْ بَيْنَ عيسى ومحمدٍ ﷺ، كانَ على بَني إسرائيلَ ملوكٌ غَيَّروا التوراةَ والإنجيلَ، وبَقِيَ منهمْ أُناسٌ مؤمنونَ بِعيسى عليه السلام ويَعْمَلونَ بما في الكُتُبِ، فَهَمَّ أولئكَ الملوكُ أنْ يَقْتُلوهُمْ لإبائِهِمُ اتِّباعَهُمْ والعَوْدَ إلى مذهبِهِمْ، فَخَرَجوا مِنْ بَغْيِهِمْ، فَتَرَهَّبوا رجاءَ أنْ يَتَخَلَّصوا منهمْ.

فذلكَ قولُهُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا﴾ أي [ما](٣) فَرَضْنا عليهِمْ تلكَ الرَّهْبانيَّةَ، ولم نأمُرْهُمْ بها، ولكنْ فُرِضَ عليهِمْ وكُتِبَ في الجملةِ ابْتِغاءُ رضوانِ اللهِ تعالى، فابْتَدَعوا تلكَ الرَّهْبانيةَ رَجاءَ أنْ يكونَ فيها رضوانُ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أخبَرَ أنهمُ ابْتَدَعوا شيئاً لم يُكْتَبْ عليهِمْ، ثم ذَكَرَ أنهمْ لم يَرْعَوهُ(٤) حَقَّ رِعايَتِهِ؛ ذَمَّهُمْ لِتَرْكِهِمُ الرِّعايَةَ لِما ابْتَدَعوهُ؛ ففيهِ دلالةٌ أنَّ مَنِ افْتَتَحَ قُرْبَةً، لم تُفْرَضْ عليهِ مِنْ صلاةٍ أو صومٍ أو نَحْوِ [ذلكَ](٥) ثم لم يَقُمْ [بِوَفائِها وإتمامِها](٦) لَحِقَهُ ذَمٌّ كما لَحِقَ هؤلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أخبَرَ أنَّ الذينَ آمَنوا، وثَبَتوا على الإيمانِ، يُؤْتيهِمْ أجرَهُمْ، أي يُوجِبُ لهمْ ﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي كافرونَ. كذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ رضي الله عنه وكثيرٌ منهمْ كافرونَ.

وذُكِرَ أنَّ بعضاً منهمْ بَعْدَما تَرَهَّبوا اشْتَدَّ عليهِمُ التَّرَهُّبُ، فَعادوا، ورَجَعوا، وَدَخَلوا في دينِ أولئكَ الملوكِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أي العبادةَ، يعني الخوفَ، و﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ الابْتِداعُ أنْ تَفْعَلَ شيئاً، لم يُفْعَلْ قَبْلَكَ، يقالُ منهُ: ابْتَدَعْتُ، وابْتَدَعْتُ أيضاً. وقيلَ: الرهبانيَّةُ: اسْمٌ مَبْنِيٌّ مِنَ الرَّهْبَةِ لما [فَضَلَ عنِ المقدارِ، وأفرطَ](٧) فيهِ، وهو ما نَهى اللهُ تعالى عنهُ بقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١ والمائدة: ٧٧] ويقالُ: دينُ اللهِ بينَ المُقَصِّرِ والغالي، وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما أمَرْناهُمْ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ: يا أيُّها الذينَ آمَنوا بِعيسى عليه السلام /٥٥٢ ـ ب/ ابْنِ مريمَ: آمِنوا بمحمدٍ ﷺ ولكنَّ هذا ضعيفٌ، لأنَّ الإيمانَ برسولٍ مِنَ(٨) الرسلِ إيمانٌ بجميعِ الرسلِ عليهم السلام.

وتأويلُ الآيةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسلِ جُمْلَةً على غَيرِ الإشارةِ. والتَّفسيرُ آمِنوا برسولِ اللهِ محمدٍ ﷺ على

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بوفائه وإتمامه. (٧) من تفسير غريب القرآن ص: ٤٥٤. (٨) من م، في الأصل: الله.

الإشارةِ به، لأنَّ الإيمانَ بالرسلِ على غَيرِ الإشارةِ أمرٌ سَهلٌ، وإنما يَصعُبُ الإيمانُ به، ويَشتَدُّ بالإشارةِ إلى واحدٍ لأنهُ لمّا آمَنَ بالمُشارِ إليهِ لَزِمَهُ اتّباعُ أمرِهِ ونَهيِهِ، ويَلزَمُهُ مُوالاةُ مَنْ والاهُ، واتَّبَعَهُ، ويَلزَمُهُ مُعاداةُ مَنْ عاداهُ، وخالفَهُ في أمرِهِ ونَهيِهِ وتَرْكِ اتِّباعِهِ، وإنْ كانَ لهُ ابْناً أو أباً أو جَدّاً، وكانَ يَجِبُ أنْ يكونَ أحبَّ الناسِ إليهِ وأقربَهُ[1] وأبَرَّهُ.

فهذِهِ معاملةُ الرسولِ الذي آمَنَ بهِ على الإشارةِ إليهِ، وإنها تَشتَدُّ، وتَصعُبُ. وأمّا عندَ الإجمالِ والإرسالِ فأمرٌ سهلٌ، إنما فيهِ تَصديقُ كلِّ صادقٍ وتكذيبُ كلِّ كاذبٍ. وكلُّ الناسِ قدِ اعْتَقَدوا في الأصلِ تَصديقَ الصادقِ وتكذيبَ الكاذبِ، وليسَ في الإجمالِ والإرسالِ إلّا ذلكَ.

وأمّا عندَ التَّعْيينِ فيوجبُ الإمتِحانَ، وبهِ يَظهَرُ نِفاقُ المُنافِقينَ وتَحقيقُ المؤمِنينَ المُحقِّقينَ. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩ و٣٠] ظهر نِفاقُهُم لَمّا أمِرُوا بالجهادِ والخروجِ معهُ على الإشارةِ إليهِ، وقولُهُ[2] تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة ٧٥ و٧٦] وقد وَعدوا في الجملةِ أنهُ لو أعطاهُمْ كذا مِنْ فَضلِهِ ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، فلمّا أُوتُوا ذلكَ، وأُمِروا بإخراجِهِ أبَوا إخراجَ ذلكَ عندَ الإشارةِ إليهِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالرسُلِ جُمْلَةً آمِنوا بهذا الرسولِ المُشارِ إليهِ لِما يَصْعُبُ الأمْرُ ولِما يَلْزَمُ في ذلكَ مُعاداةُ مَنْ خالَفَهُ، وتَرْكَ اتِّباعَهُ، وإنْ كانَ أقْرَبَ الخلائقِ إليهِ.

وكذلكَ عامَلَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أقارِبَهُمْ وأرحامَهُمْ لمّا آمنوا برسولِ اللهِ ﷺ وصارَ عندَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ أحبَّ إليهِمْ مِنْ أنفسِهِمْ وآبائِهِمْ وأولادِهِمْ، وعادَوا جميعَ أقارِبِهِمُ الذينَ خالَفوا رسولَ اللهِ ﷺ وتَرَكوا اتِّباعَهُ.

وفي ذلكَ آيةٌ عظيمةٌ، ولِذلكَ فَضلُ إيمانِ مَنْ آمَنَ في أوّلِ خُروجِهِ على إيمانِ مَنْ تأخَّرَ منهمْ عنْ ذلكَ الوقتِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ قولُهُ: ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي يُوجِبُ لكمْ ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي أجرَينِ أجرَ الإيمانِ بالرسلِ كلِّهِمْ على الإجمالِ وأجرَ الإيمانِ بالرُّسلِ على الإشارةِ والتَّفصيلِ.

ذَكَرَ ههنا ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٤].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ مرَّتَينِ، وقولُهُ: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ كِفْلَينِ، فيكونُ أحدُهما تَفسيراً للآخرِ.

ثم ذَكَرَ ههنا الأجرَ لهمْ مِنْ رحمتِهِ، وذَكَرَ هنالكَ الأجرَ مُطلَقاً لِيُعلِمَ أنَّ ما ذَكَرَ لأعمالِهِمْ مِنَ الأجرِ، إنما هو فَضلٌ منهُ ورحمةٌ لا استِحقاقٌ[3] على ما ذَكَرْنا، واللهُ المُوفِّقُ.

ثم يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الأجرِ مرَّتَينِ: يكونُ مَرّةً في الدنيا وأُخرى[4] في الآخِرةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ الآية [النحل: ٣٠] أي[5] لهمْ في الدنيا حَسَنةٌ وفي الآخِرةِ حَسَنةٌ، واللهُ أعلمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الأجرِ مرَّتَينِ وَعداً[6] في الآخِرةِ، ويكونَ قولُهُ: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ أي كِفْلَينِ أي ضِعْفَينِ كقولِهِ: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

ثم قولُهُ: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ قالَ أكثَرُ أهلِ التأويلِ: أي أجرَينِ. وقالَ بعضُهُمْ: حَظَّينِ ونَصيبَينِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ سَمّاهُ كِفلاً لأنهُ كَفَلَهُ. ألا تَرَى أنَّ ذا الكِفلِ ذُكِرَ أنهُ[7] سُمِّيَ بهِ لأنهُ كانَ يَكْفُلُ لِفلانٍ؟ فَعَلَى ذلكَ جائزٌ تَسْمِيَةُ هذا كِفلاً لأنهُ يُكفَلُ بهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: وأقرب. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) في الأصل وم: استحقاقاً. (٤) في الأصل وم: والأخرى. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: يكون. (٧) في الأصل وم: أنما.

أحدُهما: النورُ كِنايةٌ عمّا يُبْصَرُ بِهِ، ويُتَّضَحُ، والمَشْيُ كِنايةٌ عنِ الأمورِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَجْعَلُ ما تُبْصِرونَ بِهِ السبيلَ، وتَتَّضِحُ لكمُ الأمورُ، وتزولُ عنكُمُ الشُّبَهُ، فيكونُ المَشْيُ كنايةً عنِ الأمورِ، والنورُ كنايةً عنِ البَصَرِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي لا سَواءٌ، وهو كنايةٌ عمّا ذَكَرْنا، ليسَ بِتصريحٍ.

والثاني: على حَقيقةِ إرادةِ المَشْيِ وحَقيقةِ النورِ؛ وذلكَ يكونُ في الآخِرَةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ الآية [التحريم: ٨].

وقالَ أهلُ التأويلِ: النورُ ههنا القرآنُ، أي أعطاكُمْ قُرْآناً يُفْضي بكمْ إلى سَبيلِ الخَيْرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الغُفرانُ مِنَ السَّتْرِ، كأنهُ يقولُ: يَسْتُرُ عليكُمْ مَساوِئَكُمْ بَيْنَكُمْ، لأنَّ ذِكْرَ المَساوِئِ يُنَغِّصُهُمُ النِّعَمَ، ويَحْمِلُهُمْ على الحَياءِ مِنْ رَبِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يَرْحَمُهُمْ، ويُخَلِّدُهُمْ في جَنَّتِهِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أجمعَ أهلُ التأويلِ واللغةِ أنَّ حَرْفَ: لا زيادةٌ ههنا وَصِلَةٌ، أي لِيَعْلَمَ أهلُ الكتابِ. وقد يُزادُ في الكلامِ حَرْفُ: لا، ويَسْقُطُ[1] بِحَقِّ الصِّلَةِ، يَعْرِفُ ذلكَ أهلُ الحِكْمَةِ والفِقْهِ كقولِهِ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] ليس يُبَيِّنُ لنا أنْ نَضِلَّ، ولكنْ يُبَيِّنُ لنا لِنَعْلَمَ، ونَهْتَدِيَ، فعرفَ الحُكَماءُ والفُقَهاءُ أنَّ كلمةَ: لا أُسْقِطَتْ ههنا. فَعَلَى ذلكَ عَرَفوا أنَّ حَرْفَ: لا ههنا في قولِهِ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ زيادةٌ، مَعْناه: لِيَعْلَمَ ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ على غَيرِ تَقَدُّمٍ كانَ منهمْ حتى خَرَجَ هذا جواباً لهمْ عنْ ذلكَ.

ولكنْ يَذْكُرُ شيئاً، يُشْبِهُ أنْ يكونَ الذي ذَكَرَ، هو جوابُ ذلكَ الذي كانَ منهمْ، وهو أنهمْ كانوا أهلَ كتابٍ وأهلَ عِلْمٍ بالكتابِ، يَرَوْنَ لأنفسِهِمْ فَضْلاً على غَيرِهِمْ وخُصوصيَّةً لَيستْ لِغَيرِهِمْ عندَهُمْ.

فلما بَعَثَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ رسولاً إليهِمْ وإلى الناسِ كافةً، وأنزَلَ عليهِ كتاباً، وهو أمينٌ عندَهُمْ، وذَكَرَ في كتابِهِ ما كانَ في كُتُبِهِمْ، وأمَرَهُمْ باتِّباعِهِ والانقيادِ لهُ والطاعةِ، وأحْوَجَهُمْ جميعاً إليهِ وإلى ما في كتابِهِ أنْكَروا فَضْلَ اللهِ عليهِ وإحسانَهُ إليهِ، فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي يُفَضِّلُ مَنْ يَشاءُ على مَنْ يَشاءُ، ليسَ ذلكَ إليهِمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ في أنَّ اللهَ تعالى قد أعطى كلَّ إنسانٍ[2] ما يَقْدِرُ على الوصولِ إلى جَميعِ فضائلِهِ وإحسانِهِ، وقد أخبرَ لِيَعْلَموا أنهمْ لا يَقْدِرونَ على شيءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ، والمعتزلةُ يقولونَ: بل يَقْدِرونَ؛ فهذا خلافٌ لظاهرِ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أيضاً دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ مِنْ جِهةٍ أُخْرَى، وهو أنهُ ذَكَرَ المَشيئةَ في ما هو حقُّهُ فَضْلٌ، وما هو حَقُّهُ عَدْلٌ حينَ[3] قالَ: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ولم يَذْكُرِ المشيئةَ في ما هو حَقُّهُ عَدْلٌ وما هو حقُّهُ ظُلْمٌ وجَورٌ، بل أطْلَقَ القولَ في ذلكَ فقالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقالَ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ؛ نَفَى أنْ يُلْحِقَ أحداً[4] منهُ الظلمَ والجورَ لِيُعْلِمَ أنَّ فِعْلَ الهُدَى منهُ يَصِلُ إلى مَنْ هَداهُ، وأرْشَدَهُ، والإضلالَ منهُ /٥٥٣ ـ أ/ عَدْلٌ. وكذلكَ قالَ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨] أي [مَنْ][5] نالَ الهُدَى والرُّشْدَ إنما نالَهُ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ، ومَنْ ضَلَّ فذلكَ عَدْلٌ منهُ؛ ولذلكَ قالَ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] واللهُ الهادي [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][6].

---

(١) من م، في الأصل: ولا يسقط. (٢) في الأصل وم: شيء. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أحد. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م.

سورة المجادلة

[وهي مكية](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ قالَ جماعةٌ مِنْ أهلِ التَّفْسيرِ: إنها نَزَلَتْ في أوسِ بْنِ الصامتِ أخي عبادةَ بْنِ الصامتِ وامْرأتِهِ، غَيْرَ أنهمُ اختَلَفوا في اسْمِ امْرأتِهِ.

وقال ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما: كانَ اسْمُها خولةَ. وعَنْ عائشةَ رضي الله عنها أنها كانَتْ خُوَيْلَةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنها كانَتْ تُسَمَّى خُوَيْلَةَ على تَصْغيرِ خَولَةَ. ورُوِيَ في بعضِ الرواياتِ أنهُ كانَ سببُ هذا القولِ مِنْ أوسٍ لزوجتِهِ لمّا دعاها ليلةً إلى فراشِهِ، وكانتِ امْرأتُهُ بحيثُ لا يَحِلُّ لهُ التَّمَتُّعُ بها، فأبَتْ عليهِ، وأرادَتْ أنْ تَخْرُجَ مِنَ البيتِ [فقالَ لها: إنْ خَرَجْتِ مِنَ البيتِ](٢) فأنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، فَخَرَجَتْ، فلما أصبَحَتْ قالَ لها زَوجُها: ما أراكِ إلّا حَرُمْتِ عليَّ، قالَتْ: واللهِ ما ذَكَرْتَ لي إلّا طلاقاً، قالَ: فَأْتي رسولَ اللهِ ﷺ واسأليهِ، فإني أستَحْيي أنْ أسألَهُ عن هذا، فأتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ وأخبَرَتْهُ، فَنَزَلَتْ فيها هذهِ الآيةُ.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ أوّلَ مَنْ ظاهَرَ امرأتَهُ أوسٌ، وكانَ بهِ لَمَمٌ، فقالَ في بعضِ هِجْرانِهِ ذلكَ القولَ. وهذا يَرويهِ محمدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ، لكنهُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ أرادَ باللَّمَمِ الجُنونَ، لأنَّ المَجْنونَ لو طَلَّقَ امرأتَهُ لا يَقَعُ الطلاقُ فَضْلاً عَنْ أن يكونَ ظِهارُهُ ظِهاراً.

وتأويلُ قولِهِ: كانَ بهِ لَمَمٌ، أي فَضْلُ غَضَبٍ وشِدَّةٍ، فكأنهُ لم يكُنْ بهِ حِلْمٌ.

ثم اخْتَلَفَتِ الرواياتُ في شأنِها وشأنِ زَوجِها؛ منهُمْ مَنْ رَوَى، وهو محمدُ بْنُ كَعْبٍ [القُرَظِيُّ](٣) أنها أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ وقالَتْ: إنَّ أوساً أبا وَلَدي وابْنَ عمّي وأحبُّ الناسِ إليَّ قد قالَ كلمةً، والذي أنْزَلَ عليكَ الكتابَ ما ذَكَرَ طلاقاً، قالَ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ، قالَتْ: يا رسولَ اللهِ لا تَقُلْ ذلكَ، ما ذَكَرَ طلاقاً، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» وكَرَّرَتِ المرأةُ ذلكَ، ورادَّتْ(٤) رسولَ اللهِ ﷺ ثم قالَتْ: اللهمَّ إني أشكو إليكَ شِدَّةَ وَجْدي بهِ وما يَشُقُّ عليَّ مِنْ فِراقِهِ، اللهمَّ أنزِلْ على نَبِيِّكَ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾» [الآية: ٤]، [أبو داوود: ٢٢١٤ وابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٨/ ٤ والسيوطي في الدر المنثور: ٨/ ٧٢].

وفي بعضِ الأخبارِ [التي](٥) رَواها الكلبيُّ «أنها أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ إنَّ زوجي أوسَ بْنَ الصامتِ تَزَوَّجني يومَ تَزَوَّجني، وأنا شابّةٌ ذاتُ أهلٍ كثيرٍ ومالٍ كثيرٍ، فأكَلَ شبابي حتى إذا كَبِرَتْ عندهُ سِنّي، وذهبَ أهلي، وتَفَرَّقَ مالي، وضَعُفْتُ، جَعَلَني عليهِ كَظَهْرِ أمِّهِ، ثم تَرَكَني إلى غيرِ شيءٍ، وقد نَدِمَ، ونَدِمْتُ، فهلْ مِنْ شيءٍ، يَجْمَعُني وإياهُ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ ﷺ: أطَلَّقَكِ؟ قالَتْ: لا، قالَ: ما أُمِرْتُ في شأنِكِ بِشيءٍ، أُبَيِّنُهُ لكِ، فَرَفَعَتْ يَدَيها إلى السماءِ، تدعوهُ، وتَتَضَرَّعُ إليهِ أنْ يُنْزِلَ إليهِ بَيانَ أمْرِها، ثم خَرَجَتْ مِنْ عندِهِ، وأتَتْ زَوجَها، فَنَزَلَ جبريلُ عليه السلام بهذهِ الآيةِ» [السيوطي في الدر المنثور: ٨/ ٧٢ و٧٣].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وترد. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنها أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَتْ: إنَّ زَوجي أوسَ بْنَ الصامتِ، تَزَوَّجني، وإني شابَّةٌ ذاتُ مالٍ وأهلٍ حتى إذا أكَلَ مالي، وأفْنى شبابي، وكَبِرَتْ سِنّي، ورَقَّ عظمي، وباءَ أهلي، جَعَلَني عليه كَظَهْرِ أمِّهِ، ولي منهُ صِبْيانٌ، إنْ أنا وَكَلْتُهُمْ إليهِ ضاعوا، وإنْ ضَمَمْتُهُمْ إلى نفسي جاعوا. فقالَ النبيُّ ﷺ اغرُبي؛ فَلَعَلَّكِ الظالمةُ لزوجكِ، فقالَتْ: يا أمينَ اللهِ في أرضِهِ إنهُ لَظالِمٌ لي، فقالَ: اذهبي فإنَّ فيكُنَّ الضعفَ والعَجْزَ، قيلَ[1]: فَجَعَلَتْ تُجادِلُهُ، فلمّا رأتْ أنهُ لا يَرْفَعُ بِها رأساً، ولا تَجِدُ عندَهُ مَخْرَجاً خَرَجَتْ، ورَفَعَتْ طَرْفَها إلى السماءِ، تَشكو إلى اللهِ صُنْعَ زوجِها بها، وقالَتْ: اللهمَّ إني أتَيتُ أمينَكَ في أرضِكَ، فلم يَرْفَعْ بي رأساً، فَتَوَلَّ اليومَ حاجَتي، وارحَمْ ضَعْفي وقِلَّةَ حيلَتي، فلم تَصِلْ إلى مَنْزِلِها حتى هَبَطَ جبريلُ، صلواتُ اللهِ عليهِ، بالوَحْيِ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فَدعا أوساً زوجَها، فقالَ: ما الذي حَمَلَكَ على [ما][2] صَنَعْتَ بِخَولةَ، وقد أنْزَلَ اللهُ فيها ما أنْزَلَ؟ وبَعَثَ إليها، ورحَّبَ بها، فقالَ: يا رسولَ اللهِ عَمَلُ الشيطانِ، فهلْ مِنْ أمرٍ يَجْمَعُني اللهُ وإياها؟ قالَ: نعمْ، ثم تلا عليهمْ آيةَ الظِّهارِ[3] إلى آخرِها.

ثم بَيْنَ هذهِ الرواياتِ اخْتِلافٌ: ذُكِرَ في روايةِ القُرَظِيِّ: أنهُ قالَ ﷺ «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» وفي رو[illegible]قالَ لها: «ما أُمِرْتُ في شأنِكِ مِنْ شيءٍ».

لكنهُ يُمكِنُ التوفيقُ بَينَ الخَبَرَينِ [بوجهَينِ:

أحَدُهما: هو][4] أنَّ قولَهُ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» على ما كانَ أهلُ الجاهليةِ يَرونَهُ مُحرَّماً؛ وقالَ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ مِنْ ذا الوجهِ. لكنهُ لم يَنْزِلْ عليَّ شيءٌ في بَيانِ هذا، فإنْ يَنْزِلْ شيءٌ في بَيانِ هذا أُبَيِّنْهُ لكِ».

والثاني: أنْ ليسَ في قولِهِ: «ما أراكِ» إثباتُ حُرْمةٍ، بل هو قولٌ على الظَّنِّ بما قد كانَ الناسُ يَعْرِفونَهُ بَينَهُمْ، لِذلكَ حَرُمَهُ.

فيجوزُ أنْ يُرادَ التقريرُ على ذلكَ أو تَرِدُ لهذهِ الحادثةِ الحُرْمةُ بالوَحْيِ، فَتَوَقَّفَ في الجوابِ مَعَ الإشارةِ لها بالامْتِناعِ عنِ الزوجِ احْتياطاً لبابِ الحُرْمةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ بعضَ الفقهاءِ ذَكَرَ الاختِلافَ بَينَ السَّلَفِ في حكمِ الظِّهارِ قَبْلَ نزولِ الآيةِ:

عنْ عِكْرِمةَ أنهُ قالَ: كانَتِ النساءُ تُحَرَّمُ بالظِّهارِ حتى أنْزَلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ، وكانَ طلاقاً قبلَ نزولِ الآيةِ، فَجَعَلَهُ اللهُ تعالى بهذهِ الآيةِ ظِهاراً.

وعنْ أبي قِلابةَ وغَيرِهِ [أنهما قالا:][5] كانَ طلاقُهُمْ في الجاهليةِ الإيلاءَ والظِّهارَ.

وعنْ أبي هُرَيرةَ ﷺ أنهُ قالَ: كانَ طلاقُ أهلِ الجاهليةِ الظِّهارَ.

ثم جَعَلَ [هذهِ الحُرْمَةَ][6] تَرْتَفِعُ، وتزولُ، بالكفارةِ التي أوجبَ.

وعنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: كانَ الظِّهارُ أشَدَّ الطلاقِ وأحْرَمَ الحرامِ، إذا ظاهرَ مِنِ امْرَأتِهِ لم تَرْجِعْ إليهِ أبداً.

والأشبَهُ أنهُ لا يكونُ طلاقاً في الإسلامِ، لو كانَ يكونُ في الجاهليةِ، وأنهُ يكونُ مُوجباً حُرْمةً، لا تَرْتَفِعُ أبداً، كما قالَ الحَسَنُ فإنهُ ذَكَرَ في حديثِ خولةَ أنَّ زوجَها لمّا قالَ لها: ما أراكِ إلّا وقد حُرِمْتِ عليَّ، قالَتْ: واللهِ ما ذَكَرَ لي طلاقاً، ولو كانَ الظِّهارُ طلاقاً لَعَرَفَتْهُ، وكذلكَ لمّا أخْبَرَتْ رسولَ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، فقالَ ﷺ: «ما أراكِ / ٥٥٣ ـ ب/ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» قالَتْ: يا رسولَ اللهِ: لا تَقُلْ ذاكَ ما ذَكَرَ طلاقاً، ولم يَرُدَّ عليها اعْتِقادَها في أنَّ الظِّهارَ طلاقٌ.

وكذلكَ ما رُوِيَ في روايةٍ أُخرى في حديثٍ طويلٍ: جَعَلَني عليهِ كَظَهْرِ أمِّهِ، ثم تَرَكَني إلى غَيرِ شيءٍ، فهل مِنْ شيءٍ يَجْمَعُني وإياهُ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ ﷺ: «أطَلَّقَكِ»؟ قالَتْ: لا، قالَ: «ما أُمِرْتُ في شأنِكِ مِنْ شيءٍ» ولو كانَ الظِّهارُ طلاقاً

(١) في الأصل وم: قال. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: الكفار. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لهذه الأمة.

بعدَ الإسلام قَبْلَ نزولِ هذهِ الآيةِ لمَا قالَ لها: «أطلَّقَكِ»؟ بَعْدَ ما قالَتْ: جَعَلَني عليهِ كَظَهْرِ أُمِّهِ. ولَما قالَ: «ما أُمِرْتُ في شأنِكِ مِنْ شيءٍ» وحُكْمُ شَريعتِهِ أنهُ طلاقٌ مزيلٌ لِلْمُلْكِ، دلَّ [أنهُ الأشبهُ، وهو][1] يُقَرِّرُ ما قُلْنا: إنهُ ذُكِرَ في حديثِ خَولَةَ وأوسٍ أنهُ أوَّلُ مَنْ ظاهَرَ في الإسلامِ، فكيفَ يكونُ طلاقاً؟

فإنْ قيلَ: [أليسَ][2] النَّبيُّ ﷺ قالَ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» والحُرْمَةُ التي لا تَرْفَعُ النِّكاحَ بالظِّهارِ إنما تَثْبُتُ بعدَ نزولِ الآيةِ، والآيةُ نزلَتْ بعدَ هذا القولِ في أوسِ بْنِ الصامتِ، فَدَلَّ أنَّ مُرادَهُ تحريمُ الطلاقِ. فهذا يَدُلُّ على أنَّ هذا الحكمَ كانَ ثابتاً في شريعتِهِ قبلَ نزولِ آيةِ الظِّهارِ بِوَحْيٍ غَيرِ مَتْلُوٍّ، [وأنهُ][3] كانَ قبلَ ذلكَ في حكمِ الجاهليةِ.

فكذلكَ ذلكَ الزوجُ لمّا قالَ للمرأةِ أيضاً: ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليَّ، دَلَّ على أنهُ كانَ طلاقاً قَبْلَ نُزولِ الآيةِ.

هذا حُجَّةٌ عليكُمْ؛ فإنهُ لو كانَ المُرادُ بقولِهِ ﷺ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» إثباتَ الحُرْمَةِ فيهِ بالظِّهارِ بكونِهِ طلاقاً، فكيفَ يحكُمُ عليها بالحُرْمَةِ بالظِّهارِ بعدَ حُكْمِهِ بالطلاقِ بذلكَ القولِ بعينِهِ في شخصٍ بعينِهِ؟ وقد صَحَّ في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا أوساً وامرأتَهُ للكفارةِ، وأبْقى النِّكاحَ بَينَهما.

لو كانَ ذلكَ طلاقاً، وأثبتَ حُكْمَهُ [لَما نَسَخَ][4] بالآيةِ حُكْمَهُ إلى حُكْمٍ آخَرَ، فَظَهَرَ ذلكَ في المُسْتَقْبَلِ لا في الماضي، دلَّ أنَّ هذا حُجَّةٌ عليهِمْ[5]، ولكنْ إنما قالَ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» للوَجْهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قِيلَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَحْكُمْ بالطلاقِ في حقِّها معَ أنَّ الظِّهارَ كانَ طلاقاً بطريقِ القَطْعِ، بل قالَ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» على طريقِ الظَّنِّ، لأنهُ جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى قد أعْلَمَهُ أنهُ سَيَنْسَخُ[6] حُكْمَ هذا القَولِ، ويَنْقُلُهُ مِنَ الطلاقِ إلى تَحْريمِ المُتْعَةِ، فلم يَقْطَعِ القَولَ فيهِ حتى نَزَلَتِ الآيةُ.

قيلَ: لو كانَ ذلكَ حُكْماً ثابتاً مُقَرَّراً في حُكْمِ شريعَتِهِ لم يَمْتَنِعِ النَّبيُّ ﷺ عنِ العَمَلِ والحُكْمِ بذلكَ ما لم يَنْزِلْ عليهِ الناسخُ، وإنْ أُعْلِمَ أنهُ سَيُنْسَخُ لأنهُ يجبُ عليهِ العَمَلُ بما أُنزِلَ عليهِ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وإذا وَرَدَ الناسخُ بِخِلافِهِ يكونُ عَمَلُهُ في المُسْتَقْبَلِ لا في ما مَضى، وإنما يَسْتَقيمُ هذا على ما قُلْنا: إنَّ الظِّهارَ قبلَ الآيةِ لا حُكْمَ لهُ في الإسلامِ، وكانَ مُحَرَّماً في الجاهليَّةِ. فَمَتى وُجِدَ هذا السببُ، ووَقَعَتْ هذهِ الحادثةُ، أمَرَها بالاجْتِنابِ عنِ الزَّوجِ احْتياطاً حتى تَنْزِلَ الآيةُ، فَيَظْهَرَ أنَّ حُكْمَهُ ما هو مِنْ حينِ وجودِهِ؛ إذْ يجوزُ أنْ يريدَ اللهُ تعالى بهذا هذا الحُكْمَ، وإنْ كانَ لا عِلْمَ لِلْمُظاهِرِ بهِ، إذا كان بحيثُ يمكنُهُ الوُصولُ إلى العِلْمِ بهِ عندَ الحاجةِ إلى العملِ بهِ. والحُكْمُ كالنَّصِّ الذي وَرَدَ مُجْمَلاً في إيجابِ [حُكْمٍ][7].

ثم وَرَدَ البَيانُ مُتأخِّراً، والنَّصُّ العامُّ الذي يَتأخَّرُ بيانُهُ على خِلافِ ظاهرِهِ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي سَمِعَ قولَها ومُجادَلَتَها في زَوجِها ومُجادَلَتَها مع رسولِ اللهِ في سؤالِها إيّاهُ عمّا ابْتُلِيَتْ بقولِ زوجِها لها: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمي. المجادلةُ هي المُخاصمةُ، وهي المُحاوَرَةُ، وكانَتْ مُجادَلَتُها في زوجِها أنْ قالَتْ: واللهِ ما ذَكَرْتَ طلاقاً حينَ قالَ لها بَعْدَ ما قالَ لها إنْ خَرَجْتِ مِنَ الدارِ فأنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، وخَرَجَتْ: ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليَّ.

وأمّا مُجادَلَتُها معَ النَّبيِّ ﷺ ومُحاوَرَتُها، فهي[8] قولُها: لا تَقُلْ ذلكَ، وقولُ رسولِ اللهِ ﷺ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» فهذهِ مُحاوَرَتُهُما.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: المُحاوَرَةُ هي المُراجَعَةُ في الكلامِ، وهما يُرادّانِ[9] الكلامَ، ويُراجِعانِهِ، ويُكَرِّرانِهِ، وهو ما ذُكِرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يُكَرِّرُ قولَهُ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» وهي تُرَدِّدُ، وتُكَرِّرُ قولَها: لا تَقُلْ ذلكَ يا رسولَ اللهِ فإنهُ ما ذَكَرَ طلاقاً. ولكنْ هذا قريبٌ مِنَ الأوَّلِ.

---

(١) في الأصل وم: الأشبه هذا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: إنما ينسخ. (٥) في الأصل وم: عليه. (٦) في الأصل وم: ينسخ. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يرددان.

وقالَ بعضُ أهلِ اللغةِ: ﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي كلامَكُما، والتَّحاوُرُ الكلامِ بَينَ اثنَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحدُهما: أنْ تَشتكيَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لكنَّ اللهَ تعالى أضافَ [الشَّكوى][1] إلى نفسِهِ، لأنَّ مُرادَها أنْ تَنزِلَ آيةٌ مِنَ اللهِ تعالى على رسولِهِ ﷺ بالفَرَجِ عنها.

والثاني: أنَّ شَكْواها إلى اللهِ تعالى وتَضرُّعَها، قد كانَ حينَ[2] لم تَجِدِ الفَرَجَ والمَخرَجَ في ما قالَ لها رسولُ اللهِ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» فاشتَكَتْ إلى اللهِ تعالى [ودَعَتْ، وتَضرَّعَتْ، حتى أنْزَلَ اللهُ تعالى][3] على رسولِهِ الآيةَ فيها، وجاءَتِ الرُّخصةُ لها بالاجتِماعِ بعدَ التَّكفيرِ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي يَسمَعُ لها بِما أجابَ، وأغاثَ بالفَرَجِ والمَخرَجِ عمّا اشتَكَتْ إليهِ، ويَسمَعُ لِرسولِ اللهِ ﷺ بما أبانَ ما ظَهَرَ لهُ مِنَ الحُكمِ في الحادثةِ التي اشتَبَهَتْ عليهِ، وأشكَلَ وَجهُ الحُكمِ [عليهِ][4] في ذلكَ.

ثم اختَلَفَتِ الأخبارُ في أمرِهِما أيضاً [حينَ دعا زَوجَها][5] رسولُ اللهِ ﷺ وأخبَرَهُ بالآيةِ التي نَزَلَتْ في أمرِهِما.

ذُكِرَ في حديثِ القُرَظِيِّ: «لمّا نَزَلَتِ الآيةُ دعا زَوجَها أوساً، فقالَ لهُ: اعتِقْ رَقَبَةً، قالَ: ما عندي رَقَبَةٌ أُعتِقُها، قالَ: فَصُمْ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ، قالَ: ما أستَطيعُ يا رسولَ اللهِ، إني لأصومُ يوماً واحداً، فَيَشُقُّ ذلكَ عليَّ، فكيفَ أصومُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ؟ قالَ: فأطعِمْ سِتِّينَ مِسكيناً، قالَ: [أمّا هذا فَنَعَمْ، قالَ: فأطعِمْ سِتِّينَ مسكيناً، قالَ:][6] فأمسَكَها».

وفي روايةٍ أُخرى ذَكَرَها الكَلبيُّ: «لَمّا نَزَلَتْ رُخصَتُهُما أرسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى زَوجِها أوسِ بْنِ الصامتِ، فاتاهُ، فقالَ: وَيْحَكَ ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ، وقُلْتَ؟ قالَ: الشيطانُ يا رسولَ اللهِ، فهلْ مِنْ رُخصةٍ تَجمَعُني وإيّاها؟ قالَ: نعمْ، وقرأَ عليهِ هذهِ الآياتِ الأربَعَةَ، وقالَ لهُ: هل تَستَطيعُ أنْ تُعتِقَ رَقَبَةً؟ قالَ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، إنَّ المالَ لقليلٌ، وإنَّ العِيالَ لَكثيرةٌ، وإنَّ الرِّقابَ لَغاليةٌ، قالَ: فهل تَستَطيعُ أنْ تصومَ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ؟ قالَ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، لولا أني آكُلُ في اليومِ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ لَكَلَّ بَصَري، ولَظَنَنْتُ أني سأموتُ، قالَ: فهل تَستَطيعُ أنْ تُطعِمَ سِتِّينَ مِسكيناً؟ قالَ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ إلّا أنْ تُعينَني بِصَدَقةٍ، فأعانَهُ رسولُ اللهِ ﷺ بِخَمسةَ عَشَرَ صاعاً، وأخرَجَ أوسٌ مِنْ عندِهِ خَمسَةَ عَشَرَ صاعاً، تَصَدَّقَ به على سِتِّينَ مِسكيناً، فَجَمَعَ اللهُ بَينَهُ وبَينَ أهلِهِ» [أبو داوود: ٢٢١٤ وابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٨/ ٤ والسيوطي في الدر المنثور: ٨/ ٧٢].

وذُكِرَ في خَبَرٍ آخَرَ «أنَّ رجلاً كانَ ظاهَرَ مِنِ امرأتِهِ، وكانَ هو بِصَومٍ، فواقَعَ امرأتَهُ في وقْتِ الصومِ، فأتى رسولَ اللهِ ﷺ فأخبَرَهُ بذلكَ، فعابَهُ رسولُ اللهِ ﷺ / ٥٥٤ ـ أ/ على فِعلِهِ ثم أمَرَهُ بأنْ يُكَفِّرَ بما وَصَفْنا مِنَ الكَفّاراتِ، فقالَ [في][7] كلٍّ واحدةٍ منها: لا أستطيعُ، قالَ: فأمَرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يأتيَ [إلى][8] مَوْضِعِ كذا إلى أبي زُرَيقٍ، ويأخُذَ منهُ وُسْقاً مِنَ التَّمرِ، فَيُعطِيَ سِتِّينَ مِسكيناً كلَّ مِسكينٍ صاعاً، والباقي يُنفِقُهُ على عِيالِهِ» [أبو داوود ٢٢١٣].

وذُكِرَ[9] في الإطعامِ في خَبَرٍ: لا أستَطيعُ، وفي خَبَرٍ أنهُ قالَ: أمّا هذا فَنَعَمْ، وفي حديثٍ آخَرَ: لا إلّا أنْ تُعينَني بصدقةٍ؛ فَيُشبِهُ أنْ يكونَ هذا القولُ منهُ: أمّا هذا فَنَعَمْ بعدَ ما وَعَدَهُ رسولُ اللهِ ﷺ بالإعانةِ أو بإعطاءِ الكُلِّ، فَتُخَرَّجَ الأخبارُ على الوِفاقِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الأخبارِ دليلٌ على أنَّ الكَفّارةَ إذا لَزِمَ فيها طعامٌ فَمِنَ الحِنطةِ نِصفُ صاعٍ، وفيهِ ودليلٌ أنَّ نصفَ صاعٍ مِنَ الحِنطةِ طعامُ مِسكينٍ، وأنهُ يجوزُ مِن صَدَقةِ الفِطرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ قُرِئَ يَظَّهَّرونَ مُشدَّدةَ الظاءِ بِغَيرِ ألفٍ، وهو في الأصلِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث دعا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم.

يَتَظَهَّرونَ، فأُدغِمَتِ التاءُ في الظاءِ، وشُدِّدَتْ، وقُرِئَ يَظَّاهَرونَ[1] بِفَتْحِ الياءِ وتَشديدِ الظاءِ بألفٍ، وهو في الأصلِ: يَتَظاهَرونَ، فأُدغِمَتِ التاءُ في الظاءِ، وشُدِّدَتْ، وقُرِئَ أيضاً يُظاهِرونَ بضمِّ الياءِ وتَخفيفِ الظاءِ بألفٍ مِنْ ظاهَرَ يُظاهِرُ مُظاهَرةً، والمَعْنَى واحدٌ في ما اختُلِفَ مِنْ قِراءاتِهِمْ؛ يُقالُ: ظاهَرَ الرجلُ مِنِ امْرَأتِهِ، ويُظاهِرُ منها، وتظاهَرَ، وتَظَهَّرَ منها بِمَعْنًى واحدٍ، وهو أنْ يقولَ لها: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي.

وقالَ القُتَبِيُّ: يُظاهِرونَ، أي يُحَرِّمونَ تَحريمَ ظُهورِ الأمهاتِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: يُظاهِرونَ هذهِ يمينٌ أنْ يقولَ الرجلُ لِامْرَأتِهِ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمي، وأمّا يَظّاهَرونَ فَمِنَ[2] التَّظاهُرِ، وهو التَّعاوُنُ، أي تَعاوَنوا، ولكنْ هو خلافُ ما تَضَمَّنَتْهُ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الظِّهارُ كانَ عندَ ذلكَ القومِ ظاهراً، وهو ما رَوَينا في الأخبارِ أنَّ امْرأةَ أوسِ ابْنِ الصامتِ لمّا هَمَّتْ أنْ تَخرُجَ مِنَ الدارِ قالَ لها: إنْ خَرَجْتِ منَ الدارِ فأنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، وكذلكَ هذهِ الدلالةُ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، والظِّهارُ أُخِذَ اسْمُهُ مِنَ الظَّهْرِ، وكذلكَ في ما عَرَفَهُ المُسلِمونَ في ما بَينَهُمْ هذا اللفظُ، وهو قولُهُ: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أمّي.

أمّا ظاهِرُ الآيةِ فَيوجِبُ أنْ يكونَ الظِّهارُ في ما يقولُ: أنتِ علي كأمّي، وهو قولُهُ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ ذَكَرَ الأمّهاتِ، ولم يَذْكُرْ ظهرَ الأمّهاتِ، فصارَ ظاهِرُ الآيةِ يُوجِبُ هذا.

وبهذا احْتَجَّ محمدُ بْنُ الحَسَنِ لِمَذْهَبِهِ في مَنْ قالَ لِامْرأتِهِ: أنتِ عليَّ كأمّي؛ قالَ يكونُ ظِهاراً مِنْ غيرِ نيَّةٍ.

وأمّا أبو حَنيفَةَ، رَحْمةُ اللهِ عليهِ، فإنهُ قالَ: لا يكونُ مُظاهِراً إلّا [أنْ][3] يَنْوِيَ بذلكَ الحُرْمَةَ، فإنْ نَوَى بِهِ كانَ؛ وذهبَ في ذلكَ إلى ما رُوِيَ في الأخبارِ ذلكَ الحَرْفُ؛ أعني قولَهُ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، وإنما نزلَتِ الآيةُ في مَنْ قالَ ذلكَ القولَ، فلا يَحِلُّ لنا أنْ نَصْرِفَهُ إلى غيرِهِ إلّا بدليلٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي ما هُنَّ لهمْ كأُمّهاتِهِمْ لأنهُ تعالى [قالَ:][4] ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ على سَبيلِ الرَّدِّ لِما أخْبَرَ تعالى عنهمْ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ أي قالوا لِنسائهمْ: أنتُنَّ علينا كظهورِ أمّهاتِنا، وقولِهِ تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ في الظاهِرِ يكونُ ردّاً لِقولِ مَنْ قالوا لِنسائِهِمْ: أنتُنَّ[5] كأمّهاتِنا لا لِمَنْ قالوا: أنتُنَّ[6] كأمّهاتِنا أو كظهورِ أمّهاتِنا، فَيَحْتَمِلُ بذلكَ القولِ أنَّ مُرادَ اللهِ تعالى بقولِهِ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي كأمّهاتِهِمْ.

ولكنَّ الإشكالَ أنهُ إذا صارَ تقديرُ الآيةِ: ما هُنَّ كأمّهاتِهِمْ؛ فما مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾: أنهمْ كانوا يَدَّعونَ التَّشبيهَ بالأمّهاتِ، واللهُ تعالى نَفَى ما ادَّعَوا مِنَ التَّشبيهِ في ما مَضَى لِبيانِ حَقيقةِ الأمّهاتِ، وهنَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ، وهُمْ يَعْرِفونَ ذلكَ، ولا يُنْكِرونَهُ، ولا يَدَّعونَ في نسائِهِمْ أنهنَّ أمّهاتُهُمْ حَقيقةً حتى يَرُدَّ عليهمْ[7] دَعْواهُمْ بقولِهِ: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾.

وإشكالٌ آخرُ: أنهُ قالَ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾ وظاهِرُ هذا القولِ منهمْ ليسَ بقولِ الزُّورِ ولا المُنْكَرِ، إذْ ليسَ [قولُهُمْ ذلكَ][8]: ظَهْرُكِ كَظَهْرِ أمّي، أو أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي أو كأمّي إلّا التَّشبيهَ، وهي [تَعْلَمُ أنَّ][9] ظَهْرَها كَظَهْرِ أمّهاتٍ في الهيئةِ والخِلْقَةِ، والتَّشبيهُ لا يَقْتَضي العُمومَ، فما مَعْنَى تَسْمِيَتِهِمْ تَشبيهَ المرأةِ بالأمِّ مُنْكَراً وزُوراً.

وإشكالٌ آخرُ: أنهُ قد سَمّى اللهُ تعالى غَيرَ الأمّهاتِ اللائي وَلَدْنَهُمْ أمّهاتٍ لهمْ؛ فإنهُ قالَ في نِساءِ النَّبيِّ ﷺ ورَضِيَ عنهنَّ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقالَ في النساءِ اللاتي يُرْضِعْنَ أولادَ الغَيرِ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ولم يَلِدْنَهُمْ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٩٧ و /٩٨. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: إنهن. (٧) في الأصل وم: عليه. (٨) في الأصل وم: ذلك قولهم. (٩) في الأصل وم: لعلها فإن.

فنقولُ، وباللهِ التوفيقُ: إنهمْ كانوا يُريدونَ أنْ يُوجِبوا في نِسائِهِمْ حقوقاً وأحكاماً ما كانَتْ في أُمَّهاتِهِمْ، لم يكُنْ لهمْ إيجابُ ذلكَ؛ فإنهمْ كانوا يُشَبِّهونَ النساءَ بالأمّهاتِ، ولم يُريدوا بذلكَ التَّشبيهِ مِنْ حيثُ الصورةُ أو الخِلْقةُ، ولكنْ [يُريدونَ][1] بذلكَ التَّشبيهِ [التَّشبيهَ][2] في الحرمةِ.

وحُرْمَةُ النساءِ في الأصْلِ غَيرُ حرمةِ الأمَّهاتِ؛ فإنَّ الأمَّ حرامٌ الاِسْتِمْتاعُ بها على التَّأبيدِ، لكنْ يُباحُ للرجلِ أنْ يدخُلَ على أُمِّهِ، ويَخْدِمَها، ويُسافرَ بها، ويُباحُ [لهُ][3] النظرُ والمَسُّ والإركابُ والإنزالُ والخَلْوَةُ بها والمُقامُ مَعَها.

والمرأةُ متى حُرِّمَتْ بالطلاقِ بالثلاثِ أو بالبَينونةِ لا يَثْبُتُ شيءٌ مِنْ هذهِ الحقوقِ.

والمُشابَهَةُ بَينَ الشيئَينِ، إنْ كانَتْ لا تَقْتَضي التَّساوِيَ بَينَهما مِنْ كلِّ وجْهٍ، ولكنْ تَقْتَضي المساواةُ بَيْنَهما في وجهٍ مِنَ الوجوهِ على الكمالِ، فإنَّ الذاتَ في الشاهدِ إذا قامَ بهِ العِلْمُ يُسَمَّى عالِماً، واللهُ تعالى يُسَمَّى عالِماً، ولا يُوجِبُ التَّشْبيهَ لِانْعِدامِ التَّماثُلِ بينَ العالِمَينِ والتَّساوِي مِنْ كلِّ وجهٍ، فلم يَعُدْ مُشابِهاً، تعالى اللهُ عنْ ذلكَ. فَدَلَّ أنَّ هؤلاءِ بِتَشبيهِهِمُ النساءَ بأمهاتِهِمْ أرادوا أنْ يَجْعَلوا حُرْمَةَ نِسائِهِمْ كَحُرْمَةِ أُمَّهاتِهِمْ، ويوجِبونَ فِيهِنَّ حقوقاً وأحكاماً كحقوقِهِنَّ وأحكامِهِنَّ حتى تُباحَ لهمُ المُعامَلَةُ مَعَ نسائِهِمْ ما تُباحُ مَعَ أُمَّهاتِهِمْ، ويَحْرُمَ ما يَحْرُمُ معهنَّ، ويكونَ احْتِرامُهُنَّ كاحْتِرامِهِنَّ، واللهُ تعالى لم يَجْعَلْ ذلكَ، ونَهاهُمْ عنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي كأُمَّهاتِهِمْ في هذهِ الحرمةِ التي يُريدونَ إثباتَها.

وإنهُ لم يَجْعَلْ لِنسائِهِمْ حُرْمَةَ أُمَّهاتِهِمُ اللائي وَلَدْنَهُمْ، فما بالُهُمْ يَخْتَرِعونَ مِنْ أنفسِهِمْ شيئاً لم أجْعَلْهُ، ولم أُشَرِّعْهُ؟ فَرَدَّ صَنيعَهُمْ بهذا.

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ إنما كَذَّبَهُمْ بما قالوا مِنْ إيجابِ تلكَ الحقوقِ والأحكامِ على أنفُسِهِمْ في نِسائِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ جَعَلَ اللهُ تعالى ذلكَ؛ أي ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ في إيجابِ الحقوقِ فيهنَّ كما في الأمهاتِ وتَشبيهِهِمْ أياهُنَّ بالأمَّهاتِ في الأحكامِ والحقوقِ والحرمةِ، وإنْ كانَ كلامُهُمْ وقولُهُمْ مِنْ حيثُ ظاهرُ التشبيهِ ليسَ بِمُنكَرٍ ولا بِزُورٍ.

وهذا كقولِهِ تعالى في وصفِ المُنافِقينَ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وهؤلاءِ المُنافِقونَ في ما قالوا في الظاهرِ كانوا صَدَقَةً، ولكنْ لمّا كانَ قَصْدُهُمْ غَيرَ ذلكَ، وكانَ في قلوبِهِمْ إيجابُ شيءٍ غَيرِ ما أظْهَروا / ٥٥٤ ـ ب/ أسماهُمْ كَذَبةً، فكذلكَ هؤلاءِ المُظاهرونَ لمّا أرادوا إيجابَ حُكْمٍ لم يُجْعَلْ لهمْ ذلكَ سَمّى قولَهُمْ مُنْكراً وزُوراً.

والمُنْكَرُ هو الذي لا يُعْرَفُ في الشريعةِ، والزُّورُ هو الكَذِبُ، فَنَهاهُمُ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ.

وأمّا قولُهُمْ: إنَّ اللهَ تعالى قد سَمّى غَيرَ اللائي يَلِدْنَهُمْ أُمّهاتٍ مِنْ نساءِ النَّبيِّ ﷺ والمُرْضِعاتِ، منهمْ مَنْ قالَ: جائزٌ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ مُتَقَدِّمةً على قولِهِ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] وقولِهِ[4]: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦] فلم يَكُنْ في ذلكَ الوقتِ أُمّهاتٌ مِنْ رَضاعٍ، ثم كانَتْ مِنْ بَعْدُ، فيكونُ الإخبارُ بهذا مُقَيَّداً بذلكَ الوقْتِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٤٥] لم يَجِدْ في ذلكَ الوقْتِ، ثم وَجَدَ مِنْ بَعْدِ ذلكَ غَيرَهُ مُحَرَّماً. فَعَلى ذلكَ هذا.

وقيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ في قومٍ خاصٍّ وَقبيلةٍ خاصّةٍ، لم يكُنْ لهمْ أُمّهاتٌ مِنْ إرضاعٍ، فيكونُ الإخبارُ أنَّ أمّهاتِهِمْ ليسَتْ إلّا اللائي وَلَدْنَهُمْ صِدْقاً.

ولكنَّ هذا تكلُّفٌ لأنَّ قولَهُ: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ أي إنَّ هذهِ الحقوقَ والأحكامَ التي يُوجِبونَ ليسَتْ تَثْبُتُ إلّا في الأمّهاتِ اللائي يَلِدْنَهُمْ، أو مَنْ كانَتْ في مَعْناهُنَّ، وصِرْنَ أمثالَهُنَّ شَرْعاً، يَجْعَلُهُنَّ[5] اللهُ تعالى كأزواجِ النَّبيِّ ﷺ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ومن قوله. (٥) في الأصل وم: يجعل.

والأمّهاتِ بسببِ الرَّضاعِ، واللهُ تعالى لم يَجْعَلْ لِنسائِهِمْ تلكَ الحقوقَ، ولا أَلْحَقَهُنَّ بالأمَّهاتِ، فيكونُ تَشْبيهُهُنَّ بهنَّ في هذهِ الحقوقِ مُنْكَراً مِنَ القولِ وزُوراً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ اختُلِفَ في حُكْمِ الظِّهارِ ما هو؟ وفي تأويلِ العَودِ:

عنْ طاوُوسٍ قولانِ: في قولٍ: قالَ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ الوَطْءِ، فإذا حَنِثَ فَعَلَيهِ الكَفَّارةُ، وهذا تأويلٌ بعيدٌ مُخالِفٌ للنَّصِّ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ وإنما الذي ذهبَ إليهِ حُكْمُ الإيلاءِ أنهُ إذا وَطِئَ تَجِبُ الكَفّارَةُ، فأمّا في الظِّهارِ فَتَجِبُ الكفَّارةُ قَبْلَ الوَطْءِ. وفي [قولٍ: قالَ][1] إذا تَكَلَّمَ بالظِّهارِ، تَجِبُ عليهِ الكفارةُ، ولم يُشْتَرَطْ معها[2] عليهِ شيءٌ آخَرُ.

وعَنْ مالكٍ أنهُ إذا ظاهَرَ مِنِ امْرَأتِهِ، ثم أَجْمَعَ، وعَزَمَ على إمساكِها وإصابَتِها، وحَنِثَ، عليهِ الكفّارةُ، حتى إذا طَلَّقَها، أو ماتَتِ المرأةُ بَعْدَ العَزْمِ على الإمساكِ والإصابةِ أو بَعْدَ الإصابةِ بَقِيَ وجوبُ الكفّارةِ عليهِ، وإنْ لم يُجْمِعْ على إمساكِها حتى ماتَتْ، تَسْقُطُ الكفّارةُ، وكذلكَ إذا طَلَّقَها.

لكنهُ إذا تَزَوَّجَها بَعْدَ ذلكَ، لم يُمْسِكْها حتى يُكَفِّرَ، فيكونُ العَودُ، هو إمساكُها[3] لِيَطَأَها.

وعَنِ الحَسَنِ أنَّ العَودَ، هو العَزْمُ على الجماعِ، حتى إذا عَزَمَ على جِماعِها تَجِبُ الكَفّارةُ، وإنْ أرادَ تَرْكَها بَعْدَ ذلكَ.

وقالَ عثمانُ البَتِّيُّ في مَنْ ظاهَرَ مِنِ امْرَأتِهِ، ثم طَلَّقَها قَبْلَ أنْ يَطَأها، قالَ: أرى عليهِ الكفارةَ، راجَعَها، أو لم يُراجِعْها، وإنْ ماتَتْ لم يَرْتَفِعِ الظِّهارُ والكَفّارةُ، ولا يَرِثُ حتى يُكَفِّرَ.

وقالَ الشافِعِيُّ: العَودُ، هو الإمساكُ، والكفّارةُ تَجِبُ بهِ، وحُكْمُ الظِّهارِ، وهو تَحريمُ المُتْعَةِ، حتى إذا أمْكَنَهُ أنْ يُطَلِّقَها بَعْدَ الظِّهارِ، ولم يُطَلِّقْ، وأمْسَكَها ساعةً لِيَطأَها فقد وجَبَتْ عليهِ الكَفّارةُ، عاشَتْ [أو ماتَتْ، وإذا عاشَتْ][4] طَلَّقَها، أو لم يُطَلِّقْها، راجَعَها أو لم[5] وإذا طَلَّقَها عَقيبَ الظِّهارِ بلا فَصْلٍ، يُبْطِلُ الظِّهارَ، ولا تَجِبُ الكفارةُ إلّا بِعَزْمِ إمساكِ المرأةِ.

وقالَ بعضُ المتأخرينَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي يَعودونَ إلى القَولِ الأوّلِ، فَيُكَرِّرونَ ذلكَ القولَ، وعندَهُمْ لا يكونُ الرجلُ مُظاهِراً حتى يقولَ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمي مَرَّتَينِ.

وأمّا عندَنا فَحُكْمُ الظِّهارِ، هو تَحْريمٌ مُؤَقَّتٌ بالكَفّارةِ، ولا يَرْفَعُهُ[6] إلّا الكفارةُ. هكذا رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: إذا قالَ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي لا[7] تَحِلُّ لهُ حتى يُكَفِّرَ.

وعندَنا لا تَجِبُ الكفارةُ بنفسِ الظِّهارِ، وإنما الظِّهارُ يُوجِبُ الحُرْمَةَ، لا غَيرُ، وإنما تَجِبُ [الكفارةُ][8] بالعَودِ، حتى إنها إذا ماتَتْ لا تَجِبُ عليهِ الكَفّارةُ إذِ ارْتَفَعَ المَعْنَى الذي يُوجِبُ[9]، وهو اسْتِباحةُ الوَطْءِ، وكذلكَ إذا طَلَّقَها بائناً أو ثلاثاً لا تَجِبُ الكَفّارةُ لهذا. حتى إذا عادَتْ إليهِ بالتَّزَوُّجِ، وأقْدَمَ على اسْتِباحةِ الوَطْءِ، تَجِبُ الكفارةُ.

وهو عندَ أصحابِنا أنْ يَجْعَلَ المرأةَ على الحالةِ الأولَى، ويُحَلِّلَها على نفسِهِ على ما كانَ عليهِ، ويَسْتَبيحَ وَطْأها. فإذا أرادَ أنْ يُحَلِّلَها على نَفْسِهِ، ويَسْتَبيحَها، ويُقْدِمَ عليهِ [يَجِبُ عليهِ][10] أنْ يُكَفِّرَ.

ولا تَزولُ الحُرْمةُ عندَنا إلّا بالكفارةِ؛ فالتكْفيرُ سَبَبُ الحِلِّ. كذا ذَكَرَ العَمِّيُّ في تأويلِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي يَعودونَ

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: معه. (٣) من م، في الأصل: الإصابة بقي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: لا. (٦) في الأصل وم: يرفعها. (٧) في الأصل وم: لم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يجب. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

بِفَسْخِ ما قالوا ونَقْضِ ذلكَ، واسْتَدَلَّ بما ذُكِرَ عنِ الأصمعيِّ أنَّ أعرابيّاً تكلَّمَ بينَ يديهِ بأنهُ كانَ شيءٌ بَيننا[1]، ثم نعودُ إليهِ، قالَ لهُ الأصمعيُّ: ما أردْتَ بهِ؟ فقالَ: أنْ[2] أنقُضَهُ، وأفسَخَهُ.

فهذا يدلُّ على أنَّ المُرادَ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ [أنْ يَعودوا][3] إلى اسْتِحْلالِ ما حَرَّموا [ويَنقُضوا ذلكَ، ويَرُدّوا][4] الحِلَّ إلى الحالةِ الأولى، إلّا أنَّ ظاهِرَهُ العَودُ إلى القولِ بقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾.

ولكنْ أرادَ بِهِ المَقولَ بِهِ والثابتَ بِهِ، وهو الحرمةُ؛ كأنهُ قالَ: ثم يعودونَ لِما حَرَّموا بالقولِ، فَيَستَبيحونَهُ. ويجوزُ أنْ يُذكَرَ الفعلُ، ويُرادَ بهِ المَفعولُ كقولِهِ ﷺ: «العائدُ في هِبَتِهِ كالكلبِ يعودُ في قَيْئِهِ» [البخاري ٢٦٢١]. وإنما هو عائدٌ في المَوهوبِ وقَولِ[5] اللهِ تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المُوقَنُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: العَودُ الذي تَجِبُ [بهِ][6] الكفارةُ، هو العَزْمُ على اسْتِباحةِ الوَطْءِ والقَصْدُ على تَحليلِها على نفسِهِ وإعادةُ الحِلِّ إلى الحالةِ الأولى، ثم الإقدامُ على الوَطْءِ أو مُباشَرَةُ نفسِ الوَطْءِ.

فإنْ كانَ المُرادُ، هو الأوَّلُ، فيَجِبُ أنْ يقولوا: توجَبُ الكفّارةُ بنفسِ العَزْمِ على الاسْتِباحةِ والتحليلِ كما قالَ مالكٌ، رَحمةُ اللهِ عليهِ، والحَسَنُ: رَحمةُ اللهِ عليه.

وإنْ كانَ المُرادُ إيقاعَ الوَطْءِ فَيَجِبُ أنْ يقولوا: إنهُ لا تَجِبُ الكفارةُ إلّا بَعْدَ الوَطْءِ كما قالَهُ قومٌ، وهو خِلافُ الآيةِ وخِلافُ قولِكُمْ.

قيلَ: يعني بذلكَ أنهُ[7] الإقدامُ على اسْتِباحةِ الوَطْءِ والاشْتِغالِ بإقامتِهِ، فَيُقَدِّمُ التَّكفيرَ، ثم يَفْعَلُهُ. أمّا لا يَجِبُ بِمُجَرَّدِ العَزْمِ ولا بَعْدَ تَحقُّقِ الفِعْلِ، وهذا لأنهُ إذا ظاهَرَ حَرُمَتِ المرأةُ عليهِ بسببِ فِعْلِهِ يَجِبُ عليهِ توفيرُ حَقِّها في الجِماعِ إنْ كانَتْ بِكراً في الحُكْمِ حتى يُجْبَرَ عليهِ[8].

وإنْ كانَتْ ثَيِّباً، وقد وَطِئَها مَرَّةً، فَيَجِبُ عليهِ في ما بَيْنَهُ وبينَ اللهِ تعالى إيصالُ ذلكَ إليها.

وعندَ بعضِ أصحابِنا يُجْبَرُ في الحكمِ أيضاً على ذلكَ. فإذا أقدمَ على ذلكَ يَجِبُ عليهِ تَحْصيلُ الكَفّارةِ لِيَتَوَصَّلَ إلى إقامةِ ذلكَ الواجِبِ عليهِ مِنَ الجِماعِ؛ إذْ لا يَحِلُّ ذلكَ بدونِ الكَفّارةِ.

وهذا كالوضوءِ في بابِ الصلاةِ؛ ليسَ بِفَرْضٍ مَقْصودٍ بنفسِهِ. لكنْ يَجِبُ لإقامةِ الصلاةِ؛ إذْ لا تَجوزُ الصلاةُ بدونِ الطهارةِ. فإذا أقْدَمَ على الصلاةِ يَجِبُ / ٥٥٥ ـ أ/ عليهِ تَحْصيلُ الوضوءِ لِيَتمَكَّنَ مِنْ أداءِ ما عليهِ، ولا يَجِبُ بنفسِ الإرادةِ، ولا يَجِبُ بنفسِ الحَدَثِ، حتى يَجِبَ الوضوءُ ما لم يدخُلْ وقتُ الصلاةِ، ويَقُمْ[9] إليها.

وكذلكَ المرأةُ إذا حاضَتْ بَعدَ الوقْتِ حتى سَقَطَتْ عنها الصلاةُ يَسْقُطُ الوضوءُ.

فَعَلَى ذلكَ هذا يَجِبُ عندَ الإقدامِ على إقامةِ هذا الواجِبِ، وهو الوَطْءُ، والظِّهارُ شرطٌ. ولهذا إذا ماتَتِ المرأةُ تَسْقُطُ الكفارةُ لانْعِدامِ ما هو المَقْصودُ بالإقامةِ، وهو الوَطْءُ. وكذلكَ إذا طَلَّقَها ثلاثاً أو بائناً. لكنْ إذا عادَتْ إليهِ تَلْزَمُهُ الكفارةُ إذا أقدَمَ على الوَطْءِ، ولم يَبْطُلِ الظِّهارُ لاحْتِمالِ حصولِ العَودِ[10]، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ وجْهاً آخَرَ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ الآية هذا خَبَرٌ عنْ ظِهارِ القومِ الذينَ كانوا يُظاهِرونَ في جاهِلِيَّتِهِم، أي ظاهَروا في ذلك الوقْتِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي لو قالوا ذلكَ القولَ بعدَ إسلامِهِمْ فَعَلَيهِمْ ما ذُكِرَ، إذِ الظِّهارُ كانَ ظاهِراً في الجاهليةِ، مَنْ عادَ إلى ذلكَ القولِ، ورَجَعَ إليهِ وقْتَ إسلامِهِ، فَعَلَيهِ ما ذُكِرَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥].

(١) في الأصل وم: بنا. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: أي يعودون. (٤) في الأصل وم: وينقضون ذلك ويردون. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: وهذا. (٩) في الأصل وم: ويقوم. (١٠) في الأصل وم: العرض.

فهذا يَرْجِعُ إلى فِعْلِ ذلكَ مَرَّةً وإلى اسْتِحْلالِ ما حَرَّمَ اللهُ ثانياً، وإنْ عادَ إلى الفِعْلِ الأوَّلِ لا مِنْ وجْهِ الاسْتِحْلالِ، فَيَنْتَقِمُ اللهُ منهُ بالغرامةِ عليهِ. وإنْ عادَ إلى الاسْتِحْلالِ فَيَنْتَقِمُ اللهُ منهُ بالعذابِ.

وكذلكَ مِثْلُ هذا في آيةِ الرِّبا حينَ[1] قالَ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي عادَ إلى ما كانَ يَفْعَلُهُ قَبْلَ الإسلامِ، فكذلكَ هذا العَودُ إلى الظِّهارِ.

على هذا التَّقْريرِ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ عندَنا[2]، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨] أي كانوا يَتَناجَونَ في الجاهليةِ، فنهاهُمُ اللهُ تعالى عنِ العَودِ إلى ما كانوا عليهِ.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

لكنْ على هذا التأويلِ الإقدامُ على الوَطْءِ سبباً لِوجوبِ الكفارةِ لم يَثْبُتْ بهذا النَّصِّ. إنما فيهِ أنَّ الظِّهارَ يوجِبُ تحريماً مُوَقَّتاً بالكفارةِ. وكذلكَ الأحاديثُ التي ذَكَرْنا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمَرَ أوساً بالكفارةِ حينَ ظاهَرَ مِنْ زَوجِهِ[3]، وإنما يُعْرَفُ مِنْ حيثُ الدلالةُ، فإنهُ لمّا كانَ التحريمُ مُوَقَّتاً بالكفارةِ، وتكونُ رافعةً لهُ، فإنما يَجِبُ الرفعُ بالإقدامِ عليهِ لا بسببٍ سابقٍ موجِبٍ للتحريمِ، لأنَّ رافعَ الحُرْمَةِ [لا يَجِبُ][4] في ما يوجِبُ الحُرْمَةَ كما ذَكَرْنا في الوضوءِ أنهُ لا يَجِبُ ما يَحْدُثُ الذي هو رافعٌ للطهارةِ، ولكنْ لِما يُوجِبُ على المُكَلَّفِ الصلاةَ بالطهارةِ، ويَجِبُ عليهِ الوضوءُ بالإقدامِ على الصلاةِ التي لا تَجوزُ بدونِهِ. فكذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُ مَنْ جَعَلَ العَودَ، هو العَزْمُ على إمساكِ النِّكاحِ والبَقاءِ عليهِ، فاسدٌ؛ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ أوجَبَ الكفارةَ على أوسِ بْنِ الصامتِ حينَ ظاهَرَ مِنْ زوجِهِ[5]، ولم يَسْأَلْهُ الإمساكَ والبقاءَ عل النكاحِ، ولأنَّ تفسيرَ العَودِ الإمساكُ لا يَسْتَقيمُ، لأنهُ لم يُعْرَفْ في الأصلِ إمساكُ المرأةِ عَوداً عليها ولا إمساكُ شيءٍ مِنَ الأشياءِ يَتَكَلَّمُ بالعَودِ إليهِ، فيكونُ هذا خِلافَ اللغةِ.

ولِما ذَكَرْنا [أنَّ العودَ][6] إلى الشيءِ، هو الرجوعُ إلى ما كانَ عليهِ فَيَقْتَضي انْعِدامَهُ وزوالَهُ حتى يَتَحَقَّقَ العَودُ؛ إذِ العَودُ، هو وجودٌ ثانٍ. وهذا إنما يَتَحَقَّقُ في ما قُلْنا مِنَ الجَزاءِ لأنهُ قد يُبَدِّلُ بالحُرْمَةِ.

فأمّا العَقْدُ [فإنهُ][7] قائمٌ، لم يَزَلْ بالظِّهارِ، فكيفَ يَعودُ إلى العقدِ، فلا يكونُ البقاءُ على العقدِ وإمساكُ المرأةِ بالنِّكاحِ عَوداً؟ ولأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ يَقْتَضي التَّراخِيَ.

ومَنْ جَعَلَ العودَ، هو الإمساكُ والبقاءُ على النِّكاحِ، فقد جَعَلَهُ عائداً عَقيبَ القولِ بلا تَراخٍ، وذلكَ خِلافُ ظاهِرِ الآيةِ.

وقولُ مَنْ جَعَلَ العَودَ، هو العَزيمةُ على الوَطْءِ، فلا مَعْنَى لهُ، لأنَّ مُوجِبَ الظِّهارِ، هو تَحريمُ الوَطْءِ لا تَحريمُ العَزْمِ على الوَطْءِ، وإنْ كانَتِ العزيمةُ على المَحْظورِ مَحْظورةً لِكونِهِ وسيلةً إلى المَحْظورِ، فيكونُ العَودُ، هو الرجوعُ إلى ما يَقْوَى بهِ مَقصوداً لا وَسيلةً إلى حَسَبِ الأوَّلِ، ولأنهُ لا حَظَّ للعزيمةِ في حقِّ تَعَلُّقِ الأحكامِ في سائِرِ الأصولِ.

ألا تَرَى أنَّ سائرَ العُقودِ والتَّحريمِ لا يَتَعَلَّقُ بالعزيمةِ، فلا اعْتِبارَ بها، وقد قالَ النَّبِيُّ ﷺ «إنَّ اللهَ تعالى عَفا عن أُمَّتي ما حَدَّثَتْ بهِ نفسَها: ما لم يَتَكَلَّموا بهِ، ويَعْمَلوا»؟ [الطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٦٣٦].

وقولُ مَنْ جَعَلَ العَودَ تَكرارَ القولِ الأوَّلِ فاسدٌ أيضاً، وإنْ كانَ ظاهرُ اللفظِ يَحْتَمِلُ، وهو العَودُ إلى القولِ الأوَّلِ لأنهُ خِلافُ الإجماعِ وخِلافُ أصولِ الشرعِ.

أمّا خِلافُ الإجماعِ فإنَّ السلفَ والخَلَفَ أجْمَعوا أنَّ هذا ليسَ بِوارِدٍ[8] عنِ الأئمةِ، فيكونُ قائلُهُ خارجاً عنِ الإجماعِ. وأمّا مُخالفةُ الأصولِ فَلأنَّ الحِلَّ والحُرْمَةَ إنما يَتَعَلَّقُ وجوبُهما بِابْتِداءِ القولِ [لا][9] بِتَكْرارِهِ في جميعِ الأصولِ مِنَ البَيانِ عدا النِّكاحَ والطَّلاقَ والعِتاقَ والإجاراتِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: عند. (٣) في الأصل وم: زوجها. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: زوجها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بمراد. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

فلما كانَ الأصلُ هذا في سائرِ الأسبابِ، والمُظاهِرُ يوجبُ الحرمةَ بقولِهِ، دلَّ أنَّ الموجِبَ هو القولُ الأوَّلُ دونَ الثاني، فيكونُ تعليقُ الحُرْمةِ بِتَكرارِ المُوجِبِ مُخالفةً لسائرِ الأصولِ.

وبهذا يَبْطُلُ قولُ الشافِعيِّ في أنهُ يُعَلِّقُ الحُرْمَةَ بِتَكرارِ الرضعاتِ لا بِرَضْعَةٍ واحدةٍ، واللهُ أعلَمُ.

ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمرَ بالكفارةِ في حقِّ أوسٍ، ولم يَسْألْهُ عن تَكْرارِ القولِ، ولما لم يَسْألْ دَلَّ أنَّ الحُكْمَ غيرُ مُتعَلِّقٍ بالتَّكْرارِ.

وما قالَهُ الشافِعيُّ: إنهُ إذا طَلَّقَها بعدَ الظِّهارِ بلا فَصْلٍ فلا كَفّارةَ عليهِ، وإنْ لَبِثَ ساعةً، ثم طَلَّقَها، كَفَّرَ؛ راجَعَها، أو لم يُراجِعْها، أو ماتَتْ، قولٌ تَفَرَّدَ بهِ، لأنَّ طاوُوساً أوجَبَ عليهِ الكَفّارةَ طَلَّقَها، أو أمسَكَها، وسائرُ التابِعينَ قالوا: إنْ ماتَتْ، أو طَلَّقَها، ولم يُراجِعْها، فلا كَفّارةَ عليهِ، ولم يَفْصِلوا بينَ أنْ يُطَلِّقَها على إثْرِ [الظِّهارِ بأيِّ][1] فَصْلٍ أو بعدَ ذلكَ بساعةٍ، فيكونُ الشافعيُّ بهذا القولِ مُخالِفاً للسَّلَفِ فلا يُعْتَبَرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ ظاهِرُهُ أنْ يكونَ الوَطْءُ مَحْظوراً عليهِ قَبْلَ الكَفّارةِ لأنهُ جَعَلَ الحُرْمةَ مُوَقَّتَةً بالكَفّارةِ، وإذا وَطِئَ يَسْقُطُ الظِّهارُ والكَفّارةُ لأنَّ كِلاهُما تَعَلَّقَ بشرطٍ أو بِوَقْتٍ، فَمَتَى فاتَ الوقتُ، أو عُدِمَ الشَّرْطُ، لم تَجِبْ لذلكَ النَّصِّ، واحْتِيجَ إلى دلالةٍ أُخرى في إيجابِ مِثْلِهِ في الوقْتِ الثاني.

إلّا أنهُ قد ثَبَتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً ظاهَرَ مِن امْرأتِهِ، فَوَطِئَها، ثم سألَ النَّبيَّ ﷺ فقالَ لهُ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، ولا تَعُدْ حتى تُكَفِّرَ، فصارَ التحريمُ الذي بَعْدَ الوَطْءِ، عَرَفْناهُ بالسُّنَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يرجِعُ إلى وجهَينِ: مَرَّةً إلى اسْمِ الرقَبَةِ وَمَرَّةً بما يَسْتَحِقُّ حكْمَ الرقَبةِ؛ فإنْ كانَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ الرقَبَةِ اسْمَ الرقَبَةِ نفسِها. فيجيءُ أنْ يجوزَ كلُّ ما يَقَعُ عليهِ اسْمُ الرقَبَةِ صغيراً كانَ، أو كبيراً، كافراً أو مُسْلِماً، مَقْطوعَ الرجلَينِ، أو أعْمَى، أو كيفَ ما كانَ.

وبِشْرٌ المَرِّيسيُّ يذهبُ إلى هذا، ويخبِرُ: كيفَ ما كانَتِ الرقَبَةُ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ الرقَبَةِ / ٥٥٥ ـ ب/ ما يَسْتَحِقُّ حُكْمَ الرقَبَةِ، فَيَجيءُ ألّا يجوزَ إعتاقُ رقَبةٍ، فيها أدْنَى نُقْصانٍ؛ إذِ الأصلُ في العَبيدِ والإماءِ في ما دونَ النَّفْسِ [لا][2] يوجبُ نُقْصاناً في كلِّ نفسٍ، فَيَجيءُ ألّا يجوزَ أنْ يَصيرَ مُعْتِقاً بَعْضَ الرقَبَةِ لا كلِّها.

ثم الدليلُ على أنَّ النُّقصانَ الحالَّ في ما دونَ النفسِ في الرِّقابِ جُعِلَ كالنُّقْصانِ الحالِّ في النفسِ؛ إذِ العبدُ إذا قُطِعَتْ يدُهُ، أو فُقِئَتْ عينُهُ، يُشْتَرَى بِنِصْفِ ما كانَ يُشْتَرَى وقْتَ [قِيامِ][3] القِيمةِ، فصارَ النُّقْصانُ في ما دونَ النفسِ كَتَلَفِ نِصفِ القِيمةِ على العبدِ، وإنْ لم يكنْ ذلكَ منْ نفسِهِ النِّصْفَ، فَتجيءُ على هذا ألّا يجوزَ، إذا كانَ فيهِ أدنى النُّقْصانِ؛ إذِ الحُكْمُ في ما دونَ النفسِ في العَبيدِ حُكْمُ لا نفسٍ، وحُكْمُ الجِنايةِ عليهِمْ مَحْمولٌ على حكْمِ كَمالِ النفسِ.

لكنْ هذانِ التأويلانِ في الآيةِ لا يَصِحّانِ. .

وأمّا الجوابُ عنِ الفَصْلِ الثاني [فهو][4] أنَّ النُّقصانَ الحالَّ في بعضِ الرقَبَةِ كالحالِّ في كلِّها [وأنّ][5] ذلكَ النُّقصانَ يَرْتَفِعُ بالعِتْقِ، وإنْ كانَ وقْتَ قيامِ الرِّقِّ بِحُكْمِ النُّقصانِ لِما يَصيرُ رَقَبَةً لهُ حُكْمُ الكمالِ بالعِتْقِ؛ إذا صارَ هو مُنْتَفِعاً بالعِتْقِ، إذِ العِتْقُ؛ إذا صارَ هو مُنْتَفِعاً بالعِتْقِ؛ إذِ العِتْقُ جَبْرُ النُّقْصانِ الذي كانَ فيهِ، فَتَسْلَمُ لهُ الرَّقَبةُ كاملةً مِنْ حيثُ المَعْنَى، فيجوزُ كما إذا أعْتَقَ الرقَبَةَ السليمةَ.

والدليلُ أنهُ لو جيءَ عليهِ بَعدَ ما عَتَقَ لم يَنْقُصْ منْ دِينِهِ شيءٌ، وإنْ كانَ ذلكَ النُّقصانُ في نفسِهِ وقْتَ العُبوديَّةِ والرِّقِّ، وثَبَتَ بهذا أنهُ في حقِّ نفسِهِ كاملُ النفسِ، وإنما كانَ ذلكَ النقصُ لِحَقِّ المَولَى في قيمتِهِ وقْتَ العُبودةِ؛ إذْ هو لو كانَ مَنْقوصاً في حقِّ نفسِهِ لارْتَفَعَ عنهُ ذلكَ النُّقصانُ في حكْمِ الرقَبَةِ. دلَّ أنَّ إعتاقَهُ جائزٌ.

(١) في الأصل وم: الطلاق بلا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أن في.

والأصلُ في ما أوجبَ اللهُ تعالى مِنْ هذهِ الكفارةِ لِيُكَفِّرَ بها ما ارْتَكَبَ مِنَ المآثِمِ ولما ارْتَكَبَ مِنَ الشَّهَواتِ التي حُظِرَ عليهِ ارْتِكابُها لِيَتألَّمَ بهذِهِ الكفّارةِ زَجْراً عنِ العَودِ إليها، أنْ يَنْظُرَ في هذهِ الكفّارةِ. فإنْ كَفَّرَ بشيءٍ، لا تتألَّمُ به نفسُهُ، ولا تَفْجَعُ عندَها، فلا تجوزُ تلكَ الكَفّارةُ، وإنْ كانَ بالذي يَفْجَعُهُ[1]، ويؤلِمُهُ، فيجوزُ.

ثم ما يَصِلُ إليهِ منَ الألمِ في إعتاقِهِ وجهانِ:

أحَدُهما: أنهُ إذا تأمَّلَ ذَهابَ مَنافعِ ذلكَ المملوكِ عنهُ بما كانَ، هو يَصْلُحُ لخدمَتِهِ، يتألَّمُ لذلكَ، ويَتَفَجَّعُ.

والثاني: لمّا تأمَّلَ منهُ النفعَ في العاقبةِ، وإنْ لم يكنْ للحالِ يَنْتَفِعُ بهِ، فيَتألَّمُ أيضاً بذهابِ تلكَ المَنْفَعَةِ المُوَقَّتَةِ.

فكُلُّ مَنْ كانَ بسبيلٍ[2] مِنْ هذينِ الوجهَينِ جازَ عِتْقُهُ عنِ الكفّارةِ، وإلّا فلا، واللهُ أعلَمُ.

ثم لا يجوزُ إعتاقُ الأعْمَى والمُقْعَدِ ومَقْطوعِ اليَدَينِ ونَحْوِ ذلكَ عنِ الكفارةِ، ويُخَرَّجُ على الكلامَينِ:

أمّا على الأوّلِ فإنهُ[3]، وإنِ ارْتَفَعَ النَّقْصُ الحاصلُ في نفسِهِ بسببِ العُبودةِ عندَ وجودِ الإعتاقِ قائماً لا يجوزُ لا للنُّقصانِ، ولكنْ لأنهُ يَصيرُ مُعْتَقاً بِبَدَلٍ، والإعتاقُ بِبَدَلٍ لا يجوزُ عنِ الكفارةِ، وإنْ كانَتِ الرقَبَةُ بِصفةِ الكمالِ.

ومَعْنى قولِنا: إنهُ يَصيرُ مُعْتَقاً بِبَدَلٍ أنهُ ما دامَ في مُلْكِهِ على تلكَ الحالِ فإنَّ مؤْنَتَهُ تَلْحَقُهُ، وبالإعتاقِ تَسْقُطُ مَؤُنَتُهُ عن نفسِهِ، وتَلْحَقُ تلكَ المَؤُنَةُ المسلمينَ، فلم تَجُزْ عنِ الكَفّارةِ لِهذا.

وأمّا على الثاني فلا يَلْزَمُ على الوجهَينِ جميعاً.

أمّا على الأوّلِ فلأنهُ لا يَفْجَعُ، ولا تَتألَّمُ لهُ نفسُهُ بإعتاقِ مثلِهِ لِما ليسَ لهُ مَنْفَعةٌ للخدمةِ، فيَتألَّمَ لِفَوتِها. وعلى الثاني فَلِما[4] ليسَ لهُ مَنْفعةٌ تُؤمَلُ في الحالِ، فيَتألَّمَ بذلكَ أيضاً.

ولا يُلْزَمُ الصغيرُ على هذا العُذْرِ أنهُ ليسَ لهُ مَنْفَعةُ الخدمةِ، ونَفَقَتُهُ عليهِ أيضاً، ومع ذلكَ يجوزُ إعتاقُهُ عنِ التَّكفيرِ؛ لأنّا نقولُ: إنما يُنْفَقُ على الصغيرِ لِما تُؤمَلُ مَنْفَعَتُهُ في العاقبةِ، والناسُ إنما يُرَبُّونَ الصغارَ والصغائرَ؛ ويُنْفِقونَ عليهِمْ لِيَنْتَفِعوا بإيمانِها وإعتاقِها في العواقبِ، فلم يَصِرْ عِتْقُهُ مِنْ هذا الوجهِ بِبَدَلٍ، والتَّألُّمُ بِعِتْقِهِ مَوجودٌ.

وحَسْبُ ما كانَ في الكبيرِ أو الأكبرِ[5] والأعْوَرِ ومَقْطوعِ إحْدَى اليَدينِ أو إحْدَى الرِّجْلَينِ يجوزُ عنِ الكفّارةِ، فإنهُ يُمكِنُهُ الاكْتِسابُ، فَيَتألَّمُ مولاهُ بإعتاقِهِ لِما فيهِ ذهابُ مَنْفَعَتِهِ، فَيَصْلُحُ أنْ يكونَ كفّارةً لِما ارْتَكَبَ مِنَ الشهوةِ ولِما وَصَفْنا مِنْ غَيرِ ذلكَ النُّقصانِ، وارْتِفاعُهُ بالعِتْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ عنِ الشافِعيِّ أنهُ لا يُجيزُ عِتْقَ الرقَبَةِ الكافِرةِ عنِ الكَفّارةِ؛ واحْتَجَّ بِما ذَكَرَ اللهُ تعالى في كَفّارةِ قَتْلِ الرقَبَةِ المؤمنةِ، فكذلكَ في كَفّارةِ الظِّهارِ؛ إذْ هما كَفّارتانِ.

ولكنْ نحنُ نقولُ: هذا على أصلِ مَذْهبِهِ [خَطأٌ لأنَّ مَذْهَبَهُ][6] يَعُمُّ كلَّ رَقَبَةٍ في دارِ الدنيا.

والأصلُ في ذلكَ عندَنا أنَّ اللهَ تعالى لم يَذْكُرْ في كَفّارةِ الظِّهارِ الرقَبَةَ المؤمنةَ، فلا يجوزُ أنْ نوجِبَ ما ذَكَرَهُ في كَفّارةِ الضِّدِّ ههنا.

والدليلُ عليهِ أنهُ ذَكَرَ في تلكَ الآيَةِ الأشياءَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢] وذَكَرَ الدِّيَةَ، ثم ذِكْرُ الدِّيَةِ في آيةِ القَتْلِ لم يُوجِبْ على المُظاهِرِ إذا تَرَكَ ذِكْرَها في آيةِ الظِّهارِ، ومثلُهُ في القرآنِ كثيرٌ.

وأيضاً إنَّ أحقَّ ما يجوزُ في الكَفّارةِ إعتاقُ الرقَبَةِ الكافِرةِ، وذلكَ لِما أنَّ المُسْلِمَ قد يَتألَّمُ بإعتاقِ الرقَبَةِ الكافِرةِ ولا

---

(١) في الأصل وم: يلحقه. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يسأل. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أكثر. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

يَتألَّمُ بإعتاقِ المسلمةِ لِما يأتي طبعُهُ الإحسانَ إلى الكافرِ، ولا يَتأتّى بمثلِهِ إلى المُسلِمِ، وقد وصَفْنا أنَّ الكَفارةَ لِلتَّألُّمِ بإخراجِ ما أمَرَ بإخراجِهِ عنْ ملكِهِ معَ ما في القرآنِ دليلٌ على جوازِ اصْطِناعِ المَعروفِ إليهِمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ [وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ][1] وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٠ و٢٧١].

وذُكِرَ في القصةِ أنَّ بعضَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا قدِ امْتَنَعوا عنِ الإنفاقِ على أقربائهِمْ، لَمّا أبَوُا الإسلامَ، فَنَزلَتْ [فيهِمْ][2] هذهِ الآيةُ، فهذا يُبَيِّنُ ذلكَ أنَّ في الاصْطِناعِ إليهِمْ وإعتاقِهِمْ تكفيراً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ فتأويلُهُ عندَ أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، عِتْقٌ[3]، لا مَسيسَ فيهِ، لأنَّ عندَهُ الإعتاقَ يَحتمِلُ التَّجزيءَ: أنهُ يُعتِقُ نِصفَهُ ثم النِّصفَ الآخَرَ، فَيَشترِطُ أنْ يُعتِقَ النِّصفَينِ جميعاً قَبلَ المَسيسِ. حتى لو مَسَّها في ما بينَ ذلكَ يَلزَمُهُ اسْتِئنافُ العِتقِ.

الآية ٤ وعلى هذا التأويلِ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي صومُ شهرَينِ، لا مَسيسَ فيهِ، حتى لو واقَعَها في وقتٍ لم يُتِمَّ صَومَ شهرَينِ بَعْدُ، يَلزَمُهُ الاسْتِئنافُ، وكانَ مَعْناهُ: لا مَسيسَ في خلالِ الكَفّارةِ. فَمَتى وجَدَ المَسيسَ في وقتٍ لم يُتِمَّ الكفّارةَ بَعْدُ يَلزَمُهُ الاسْتِئنافُ.

وتأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ عند أبي يوسفَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنْ يُعتِقَ قبلَ وقْتِ المَسيسِ، ويصومَ كذلكَ، ويقولُ: إنَّ الآيةَ خرجَتْ لِبيانِ وقْتِ التكفيرِ فيهِ، حتى إذا جامعَ امْرأتَهُ في صَومِ الظِّهارِ أنهُ لا يَسْتأنِفُ الصومَ، بل يصومُ الباقيَ، إذْ قد فاتَ عنْ وقتِهِ، فصارَ قاضياً عمّا عليهِ، وليسَ بعدَ الجِماعِ وقْتٌ لذلكَ الصومِ، بل يكونُ ذلكَ على القضاءِ، فَيَجوزُ مُتَفرِّقاً ومُتَتابِعاً /٥٥٦ ـ أ/ كَصومِ شَهرِ رَمَضانَ لِما تَعَيَّنَ لهُ وقتُ الأداءِ، ثم فاتَ الوقْتُ لا يَجِبُ مُتَتابعاً، بل يجوزُ مُتفرِّقاً كذا.

هذا، ولا يَتَصَوَّرُ المسألةَ في الإعتاقِ لأنهُ لا يَتَجزَّأُ عندَهُ، ولا خِلافَ أنهُ إذا جامعَ بعدَما أطعَمَ ثلاثينَ مسكيناً أنهُ لا يَلزَمُهُ اسْتِئنافُ الطعامِ، ولا خِلافَ أنهُ إذا جامعَ امرأتَهُ قَبلَ الكفارةِ لا يَلزَمُهُ شيءٌ سِوَى التوبَةِ والاسْتِغفارِ في قولِهِ [عندَ][4] عامةِ الفقهاءِ، وعندَ بعضِهِمْ يَلزَمُهُ كَفَّارتانِ [وعند أبي][5] يوسفَ، رحمةُ اللهِ تعالى عليهِ، ما ذَكَرْنا: قد رَأى بعضَها في الوقتِ، وبعضَها في غَيرِ الوقْتِ أولَى مِنْ أداءِ الكلِّ بَعْدَ الوقْتِ، ولهذا المَعْنَى في الطعامِ كذلكَ.

ولأبي حَنيفةَ، رَحْمةُ اللهِ عليهِ، أنَّ الظِّهارَ ليسَ يُوجِبُ الكَفّارةَ، ولكنْ يُوجِبُ حُرْمَةً، لا تَرْتَفِعُ إلّا بالكَفّارةِ، ولا يُؤمَرُ هو بالكَفّارةِ مَقْصوداً، ولكنْ إذا أرادَ الاسْتِمْتاعَ بها يقالُ لهُ: ليسَ لكَ ذلكَ إلّا بالكَفّارةِ. فإذا كانَ كذلكَ، فإذا أدّى بعضَها، ثم [ماسَّها، ثم][6] أدّى البَقِيَّةَ، لم يَصْبِرْ ما أدّى بعدَ المُماسَّةِ، فضاعَفَ الوقْتَ الذي قَبلَ المُماسَّةِ.

فإذا لم يَصْبِرْ قضاءً عنْ ذلكَ جُعِلَ كالنَّصِّ؛ إنما جاءَ في هذهِ الحالةِ «أنْ حَرِّروا رقبةً قَبْلَ أنْ تماسُّوا ثانياً، وصوموا شَهْرَينِ مُتَتابِعَينِ إذا أرَدْتُمُ العَودَ إليها» [بنحوه أبو داوود ٢٢١٣] ولذلكَ قالَ ﷺ لِلْمُظاهِرِ الذي جامعَ امْرأتَهُ: «اسْتَغْفِرِ اللهَ، ولا تَعُدْ حتى تُكَفِّرَ» [الزمخشري في الكشاف ٦/ ٦٠].

لكنْ يدخُلُ على هذا أمْرُ الطعامِ: أنهُ إذا أطْعَمَ بعضَ الطعامِ، ثم ماسَّها، لم يَلزَمْهُ الاسْتِئنافُ[7]، والعبارةُ التي ذَكَرْناها توجِبُ الاسْتِئنافَ. ولكنْ يُسْتَحْسَنُ في الطعامِ لأنَّ الطعامَ وقَعَ في الأصل مُتَفرِّقاً؛ إذْ لو أطْعَمَ بعضَهُ للحالِ وبعضَهُ بعدَ سنةٍ فإنهُ جائزٌ مِنْ ذي الجِهةِ، لكنْ يدخُلُ عليهِ الإعتاقُ عندَ أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، فإنهُ إذا أعْتَقَ بعضَهُ للحالِ وبعضَهُ بعدَ سنةٍ يجوزُ أيضاً، ومعَ ذلكَ إذا وجَدَ في ما بَينَ ذلكَ يَلزَمُهُ الاسْتِئنافُ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال أيضاً بعد ذلك. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أي عتقا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لأبي. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: الاستقبال.

وما ذهبَ إليهِ أبو يوسفَ، رَحْمةُ اللهِ عليهِ، مِنْ حَمْلِ الآيةِ على بَيانِ الوقتِ لا يَصِحُّ، لأنّا [لو][(١)] حَمَلْنا تأويلَ الآيةِ نفسِها[(٢)] على الوقتِ لا فائدةَ تَقَعُ في الآيةِ لأنَّ معرفةَ وقْتِ ذلكَ ثابتةٌ بدلالةِ العقلِ، وذلكَ أنْ قد عَلِمْنا إيجابَ [الحُرْمَةِ][(٣)] بالظِّهارِ، وعَلِمْنا أنَّ تلكَ الحُرْمَةَ لا تَرْتَفِعُ [إلّا][(٤)] بالكفّارةِ، فصارَ وقْتُ الحِلِّ يُذْكَرُ لِلْحُرْمَةِ مَعْلوماً، ولذلكَ هذا في جميعِ الحُرُماتِ مِنَ الطلاقِ وغَيرِهِ أنهُ لا يَرْتَفِعُ إلّا بِسَبَبِ رَفْعِهِ.

فلو حُمِلَ تأويلُ الآيةِ على بَيانِ الوقْتِ لم يُفِدْ شيئاً، ولو حُمِلَ على بَيانِ إخلاءِ الكفارةِ على المَسيسِ وعلى نَفْيِ المَسيسِ في خِلالِ الكَفّارةِ يُفيدُ فائدةً جديدةً. فيكونُ هذا التأويلُ أحَقَّ وأولى.

ثم في الآيةِ دلالةٌ بأنْ ليسَ ذلكَ على بَيانِ الوقْتِ، هو قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ ثم ذَكَرَ في العِتْقِ والصومِ تَرْكَ المُماسّةِ، ولم يَذْكُرْ ذلكَ في الإطعامِ، ولو كانَ ذلكَ على جَعْلِ الوقْتِ لهُ لكانَ يَذْكُرُ فيهِ المُماسّةَ، إذِ الكَفّارةُ إذا كانَتْ عنْ شيءٍ واحدٍ، لا تَختَلِفُ فيهِ أوقاتُها، بل يكونُ وقْتُها واحداً. ولا يُقالُ: إنما لم يُذْكَرِ الوقتُ في الإطعامِ لأنَّ ذِكْرَهُ في العِتْقِ والصومِ ذِكْرُهُ في الإطعامِ، لأنهُ مِنْ أنواعِ هذه الكَفّارةِ، فَذِكْرُ الوقْتِ في بعضٍ يكونُ ذِكْرَهُ في الباقي.

فإذا أدّى بعضَهُ في الوقْتِ وبعضَهُ في غَيرِ الوقْتِ كانَ أولَى مِنْ أنْ يُؤدِّيَ الكلَّ في غَيرِ الوقْتِ، لأنا نقولُ: ذِكْرُهُ في العِتْقِ والصومِ لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ بَياناً في الإطعامِ، لأنَّ البَيانَ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

بَيانُ نِهايةٍ وبَيانُ كِفايةٍ وبَيانُ تَفْصيلٍ.

فأمّا بَيانُ الكِفايةِ فهو[(٥)] أنْ يَكْتَفِيَ بِبَيانِ الواحدِ والقليلِ عنِ الكُلِّ لِيُعْرَفَ ذلكَ بالاجْتِهادِ والقِياسِ على نظائِرِهِ، فَيَدُلُّ ذلكَ على مَعْنًى مُودَعٍ[(٦)] فيهِ، وأنهُ مَحَلُّ الاجْتِهادِ والتَّعليلِ.

وأمّا بَيانُ النهايةِ فهو أنْ يُبَيِّنَ الكُلَّ على المبالغةِ حتى لا يَبْقَى لِلاجْتِهادِ فيهِ مَوضِعٌ.

وأمّا بَيانُ التَّفْصيلِ فهو[(٧)] الذي يُبَيِّنُ في أكْثَرِهِ، ولا يَبْلُغُ بهِ نِهايَتَهُ. فهو في ما يُبَيِّنُ لا يَتَعَدّى إلى غَيرِهِ؛ إذْ لو كانَ فيهِ مَعْنًى مُودَعٌ[(٨)] يَجْمَعُ الكُلَّ لم يَكُنْ لِذِكْرِ الزائدِ عليهِ وتَرْكِ بَعْضِهِ مَعْنًى.

وههنا بَيانُ تَفْصيلٍ دونَ كِفايةٍ، إذْ لم[(٩)] يَكْتَفِ بِذِكْرِهِ في واحدٍ، ولا هو بَيانُ نهايةٍ، إذْ لم يُنْهِ البَيانَ في الكلِّ، فهو بَيانُ التَّفْصيلِ الذي ذَكَرْنا أنهُ يُقِرُّ[(١٠)] في المَذْكورِ، ولا يَتَعَدّى إلى غَيرِهِ، ولو كانَ ذَكَرَ ذلكَ لِبَيانِ الوقْتِ لاكْتَفَى بِذِكْرِهِ في الواحِدِ عنِ الكُلِّ على المُبالغةِ

فلمّا ذَكَرَ على بَيانِ التَّفْصيلِ دلَّ أنهُ ليسَ لِبَيانِ الوقْتِ، ولكنْ لِنَفْيِ المَسيسِ خِلالَ الصومِ والعِتْقِ المَذْكورَيْنِ دونَ الطعامِ الذي لم يُذْكَرْ فيه، ويُبَيِّنُ أنَّ إخلاءَ الصومِ والعِتْقِ مِنَ المَسيسِ حُكْمٌ عَرَفْناهُ بالنَّصِّ غَيرَ مَعْقولِ المَعْنَى، فلا يَتَعَدّى عنهُ إلى غَيرِهِ.

ويكونُ مثالُهُ ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية [النساء: ٩٢] على ما عُرِفَ في مَوضِعِهِ.

والحاصلُ في المسألةِ طريقانِ: أحدُهما: بِحَقِّ القِياسِ، والآخَرُ بِحَقِّ الاحْتياطِ.

أمّا القياسُ فما[(١١)] ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ لإخلاءِ الصومِ مِنَ المسيسِ [ونَفْيِ المَسيسِ][(١٢)] عنْ خِلالِ الكفّارةِ. لكنْ إنما ذَكَرَهُ في الإعتاقِ والصومِ دونَ الإطعامِ. فَدَلَّنا ذلكَ على أنهُ بَيانُ تَفْصيلٍ، فيكونُ دليلاً على قَصْرِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرجت في الأصل وم: بعد الوقت. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: موعود. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: مودعا. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: لو. (١٠) من م، في الأصل: يقرأ. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من م.

الحُكْمِ على المَنصوصِ ومَنْعِ التَّعْدِيَةِ إلى غَيرِهِ لِما هو عُلِمَ أنَّ العقولَ تُقصِّرُ عن إدراكِ ذلك المَعْنى، فَجَعَلَ[1] نَفْيَ المَسيسِ عنْ خِلالِ الصومِ والعِتْقِ واجباً بالنَّصِّ حتى لا تكونَ كَفّارةً بِدونِهِ، ولم يَجْعَلْ في بابِ الإطعامِ شَرْطاً.

وأمّا طريقُ الاحْتِياطِ، وهو أنهُ لمّا احْتَمَلَ أنْ يكونَ لِبَيانِ الوقْتِ ولِنَفْيِ المَسيسِ عنْ خلالِ الصوم فَأُخِذَ فيهِ بالاحْتِياطِ، وفي الإطعامِ أُخِذَ بالقِياسِ لِما أنهُ لم يُذْكَرْ فيهِ المَسيسَ، وذِكْرُهُ في الصومِ والعِتْقِ لم يكنْ بَيانَ كِفايَةٍ حتى يكونَ ذِكْرُهُ ذِكْراً في الطعامِ، بل هو بَيانُ تَفْصيلٍ، وأنَّ حُكْمَهُ القَصْرُ على المَنصوصِ دونَ التَّعَدّي، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةٌ لِصِحّةِ مذهبِ أبي حَنيفةَ، رَحْمَةُ اللهِ عليهِ، في أنَّ العِتْقَ يَحْتَمِلُ التَّجْزِئةَ، وهو أنْ يُعْتِقَ بعضَهُ، ويُبْقِيَ الباقيَ بحالِهِ، ثم يُعْتِقَهُ بأوقاتٍ بعدَهُ؛ إذْ قالَ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي تَحْريرُ رَقَبةٍ لا مُماسَّةَ في التَّكْفيرِ.

ولو كانَ بعضُ العِتْقِ يوجِبُ عِتْقَ الكُلِّ لَكانَ لا يُفيدُ قولُهُ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ ألّا يَقَعَ العِتْقُ إلّا قَبْلَ المُماسَّةِ. فلما قالَ دلَّ أنهُ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، ألّا تَمَسّوهُنَّ عندما أعْتَقْتُمْ بعضَهُ، ولم تُعْتِقوا الكلَّ حتى يَكْمُلَ، ويَتِمَّ فيهِ الإعتاقُ، ولهذا قالَ: إنهُ يَلْزَمُهُ الاسْتِئنافُ في العِتْقِ كما في الصومِ.

فَدَلَّ أنَّ الإعتاقَ مُتَجزِّئٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم جَعَلَ الكَفّارةَ فيهِ ما ذَكَرْنا، ولم يَجْعَلِ الكَفّارةَ فيهِ التوبةَ والاسْتِغْفارَ فقط لِوَجْهَينِ

أحَدُهما: أنهُ لو جَعَلَ توبَتَهُ بِهِ لَكانَ لا يَظْهَرُ ذلكَ، وأنهُ أمْرٌ بَينَهُ وبينَ المرأةِ، فلا يُدْرَى أنْ تابَ، أو لم يَتُبْ، ورُبّما يُظْهِرُ التوبةَ بالقَولِ، وإنهُ لم يَتُبْ حقيقةً بقلبِهِ، فَتَتَّهِمُهُ المرأةُ. فَجَعَلَ التوبةَ فيهِ أمراً ظاهراً تُعْرَفُ بهِ تَوبَتُهُ دَفْعاً لِلتُّهَمَةِ عنهُ وتَسْكيناً لِقَلْبِ المرأةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الاسْتِمْتاعَ /٥٥٦ ـ ب/ في النِّكاحِ نِعْمَةً عظيمةً، فَتَشبيهُها بالمُحَرَّمِ الذي تَتَأبَّدُ حُرْمَتُهُ أمْرٌ فَظيعٌ، فلم يَجْعَلْ لهُ الخُروجَ منهُ شيئاً[2] لا يَثْقُلُ عليهِ، فَيُقْدِمَ ثانياً وثالثاً لِخِفَّةِ أمْرِهِ عليهِ، بل جَعَلَ ما يَتَألَّمُ عليهِ، ويَشْتَدُّ عليهِ زَجْراً لهُ عنْ مثلِهِ في المُسْتَقْبَلِ ولِغَيرِهِ كما في الزِّنَى وغَيرِهِ مِنَ الأجرامِ.

ثم لم يَجْعَلْ تلكَ اليَمينَ لِلاسْتِمْتاعِ خاصّةً، ولا[3] أُبيحَ لهمْ ذلك، ولا جَعَلَ لهنَّ قِبَلَ الساداتِ حقَّ الاسْتِمْتاعِ، فلم يَصِرْ تَشبيهُهُنَّ بِمَنْ ذَكَرَ كُفْرانَ نِعْمةٍ ولا إبطالَ حقٍّ لهنَّ قِبَلَ مَواليهِنَّ، لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: إنَّ الظِّهارَ كانَ طلاقَ قومٍ، فأُبْدِلَ إلى تحريمِ المُتْعَةِ، ولم يكُنْ للإماءِ حَظٌّ مِنَ الظِّهارِ[4]، وهو الطلاقُ، ولم يكُنْ لهنَّ مِنَ الذي صاروا[5] إليهِ، ولكنْ إنْ ثَبَتَ هذا كانَ طلاقاً، يُوجِبُ حُرْمَةً، لا تَرْتَفِعُ أبداً، لا طلاقاً يُوجِبُ حُرْمةً تَرْتَفِعُ بالنِّكاحِ [على][6] ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

والإماءُ[7] لم يكنْ لهنَّ حظٌّ مِنْ هذا التَّحْريمِ لِعدمِ قُصورِ مُلْكِ النكاحِ مع مُلْكِ اليمينِ، فإمّا لهنَّ حَظٌّ مِنَ الحُرْمةِ المُؤبَّدَةِ بالمَحْرَمِيَّةِ؛ فإنْ كانَتْ تلكَ الحُرْمَةُ، هي الأصلُ، وهنَّ أصلٌ لها مع قِيامِ مُلْكِ اليَمينِ، يَكُنْ أهلاً لِما يَنْتَقِلُ إليهِ مِنَ الحُرْمَةِ المُؤقَّتَةِ. دلَّ أنَّ الطريقَ ما قُلْنا، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ جوازُ تأخيرِ البَيانِ لأنَّ ذلكَ الرجلَ لمّا ظاهَرَ مِنِ امْرأتِهِ [اشْتَدَّتْ بِهِ][8] الحاجةُ إلى مَعْرِفةِ ما يَجِبُ مِنَ الأحكامِ، ثم تأخَّرَ نُزولُ بَيانِ ما يَجِبُ بَعْدَ طَلَبِهِ[9] مِنْ عندِ رسولِ اللهِ ﷺ بَيانَ الحُكْمِ. فَدَلَّ أنَّ البَيانَ قد يجوزُ أنْ يَتأخَّرَ عنْ وقْتِ قَرْعِ الخِطابِ السَّمْعَ.

وهذا أولَى لأنَّ في الأوّلِ قد ظَهَرَتِ الحاجةُ، واشْتَدَّتْ لِوُقوعِ النازلةِ، وفي نُزولِ العامِّ الذي أُريدَ بِهِ المَخْصوصُ لا. وكذلكَ على هذا ما نَزَلَ مِنْ أحكامِ الإيلاءِ والقاذفِ زوجَتَهُ بَعْدَ وقوعِ النازلةِ بأوقاتٍ دليلٌ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فجعلنا. (٢) في الأصل وم: شيء. (٣) في الأصل وم: وإن. (٤) في الأصل وم: الطلاق. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ينقل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: والأمة. (٨) في الأصل وم: اشتد بهم. (٩) في الأصل وم: طلبهم.

ثم جَعَلَ صيامَ شَهْرَينِ بَدَلاً عنِ العِتْقِ في كَفّارةِ الظِّهارِ والقَتْلِ وكَفّارةِ الإفطارِ في شَهْرِ رمضانَ، وجَعَلَ في كَفّارةِ اليَمينِ صومَ ثلاثةِ أيامٍ بَدَلاً عنِ العِتْقِ، وقد ذَكَرْنا الوجْهَ في ذلكَ في ما تقدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ذَكَرَ صاحبُ الواضح أنّ قولَهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي بذلكَ أُمِرْتُم، ونُهيتُم ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾.

ولكنْ عندَنا تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآية [المجادلة: ١] يقولُ: أخبرَكمْ بما كانَ ذلكَ منكُمْ في السِّرِّ، وأطلَعَكُمْ على ذلكَ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لِتُصدِّقوا، وتَعْلَموا أنه لا يَخْفَى على اللهِ مِنْ أعمالِكُمْ شيءٌ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي الفرَجَ والمَخرَجَ عمّا امْتُحِنْتُمْ[1] بهِ مِنَ الحُرْمةِ وما اشْتَدَّ عليكُمْ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لِما فَرَّجَ عنكُمْ بالخُروجِ بِما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ القولُ المُنْكَرُ والزُّورُ الذي قُلْتُمْ، وأعْلَمَكُمْ أنهُ مُنكَرٌ وزُورٌ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيُخرِجُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ على الأمْرِ بالشُّكْرِ لهُ ما أنْعَمَ عليهِمْ، وجَعَلَ لهمْ مِنَ الفَرَجِ والمَخرَجِ عمّا امْتُحِنوا بأدائها.

وهكذا العباداتُ التي أُمِروا بها، أُمِروا لإحْدَى ثلاثِ خِلالٍ: إمّا لِحَقِّ الشُّكْرِ بِما أنْعَمَ عليهِمْ، وإمّا[2] لِتَسْليمِ الأمْرِ لهُ والخُضوعِ، وإمّا[3] لِحَقِّ الاسْتِغْفارِ والتَّكفيرِ بِما سَبَقَ مِنَ التَّفْريطِ والتَّقْصيرِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ على غَيرِ هذا، أي أنْزَلَ ذلكَ الذي أنْزَلَ لِتؤمِنوا، أي لِتُجَدِّدوا الإيمانَ باللهِ تعالى ورسولِهِ في كلِّ وقْتٍ وكلِّ ساعةٍ؛ إذْ يَلْزَمُ الناسَ إحداثُ الإيمانِ وتَجديدُهُ لإحْداثِ الرُّخَصِ والعَزائمِ التي تَجَدَّدَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ قيلَ: أي الذي افْتَرَضَهُ اللهُ عليكُمْ مِنَ الأحكامِ.

وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي مَوانِعُ اللهِ وحُجَجُهُ، ولذلكَ سُمِّيَ الحاجبُ حَدّاداً لأنهُ يَمْنَعُ الناسَ منهُ.

وعندَنا قولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي زواجِرُ اللهِ وموانِعُهُ على مَعْنَى أنهُ يَمْنَعُ هذا عنِ الدخولِ في حَدِّ الآخَرِ؛ يَمْنَعُ الباطلَ عنِ الدخولِ في حَدِّ الحَقِّ والاخْتِلاطِ [بهِ][4].

وفي الآيةِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العَبدِ لأنهُ أضافَ الحدودَ، وهي الطاعاتُ، إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: وإنها أفعالُ العبادِ؛ دلَّ [أنّ][5] أفعالَ العِبادِ كلَّها مَخلوقةُ اللهِ تعالى، وإنّما خَصَّ الطاعاتِ [بإضافتِها إلى نفسِهِ][6] مَعَ أنَّ جميعَ الأفعالِ: خَلْقُهُ إياها [تَبجيلٌ وتعظيمٌ][7] لها كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] أضافَها إلى نفسِهِ تَبْجيلاً وتَعْظيماً لها.

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُ مَنْ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] مِنْ نفسي، وكيفَ أُظهِرُها لكُمْ[8]؟ إنهُ أرادَ بهذهِ الإضافةِ تَبْجيلاً وتعظيماً لأمرِ الساعةِ [فكأنهُ يقولُ: إنما لم أُظْهِرْ أمْرَ الساعةِ][9] لذلكَ الخَلْقِ الذي هو بهذهِ المنزلةِ، فكيفَ أُعلِنُها لكُمْ؟ أي لا أفعَلُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي للكافرينَ باللهِ وبِحُدودِهِ عذابٌ أليمٌ في الآخِرةِ، لأنَّ عذابَ الكُفْرِ إنما يكونُ في الآخِرةِ عذاباً دائماً، لا انْقِضاءَ لهُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: المُحادُّ، هو الذي يَجْعَلُ نفسَهُ في حَدٍّ

---

(١) في الأصل وم: امتحنهم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: بالإضافة إلى نفسها. (٧) في الأصل وم: تبجيلاً وتعظيماً. (٨) فهذا القول: من نفسي، وكيف أظهرها؟ هو قراءة عبد الله ابن مسعود، انظر معجم القراءات القرآنيةج٤/ ٧٥. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

غيرِ الذي أمَرَهُ اللهُ ورسولُهُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] أي يكونونَ في شِقٍّ غيرِ الشِقِّ الذي عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: حَدَدْتُهُ عَنْ طريقِهِ، أي عَدَلْتُهُ عنهُ، وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرَ ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يُمانِعونَ الناسَ، ويَزْجُرونَهُمْ عنِ الطريقِ لئلا يأتوا محمداً ﷺ ويَتَّبِعوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قيلَ: غُلِبوا، ورُدّوا بِغَيرِ حاجَتِهِمْ كما غُلِبَ، ورُدَّ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِمْ. وقيلَ: أُهْلِكوا كما أُهْلِكَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وقيلَ: أُخْزوا كما أُخْزِيَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وكلُّهُ قريبٌ بَعْضُه مِنْ بعضٍ. ثم يُخَرَّجُ تأويلُهُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي كُبِتَ هؤلاءِ الذينَ مَنَعوا الناسَ عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ أهلِ مكةَ كما كُبِتَ مَنْ قَبْلَهُمْ.

[والثاني: أي][(١)] كُبِتَ هؤلاءِ الذينَ مَنَعوا الناسَ عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينةِ كما كُبِتَ الذينَ مانَعُوهُمْ عنهُ بمكةَ لأنَّ هذهِ السورةَ مَدنيَّةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي آياتٍ تُبَيِّنُ حدودَ اللهِ مِنْ غيرِ حدودِهِ، أو آياتٍ[(٢)] تُبَيِّنُ الحقَّ مِنَ الباطلِ والرسولَ مِنْ غيرِهِ والمُحادَّ مِنْ غيرِ المُحادِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي للكافرينَ [بذلكَ كلِّهِ][(٣)] عذابٌ يُهينُهُمْ كما أهانوا المؤمنينَ.

الآية ٦ [وقولُهُ ﷻ:][(٤)] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي الأوَّلينَ والآخِرينَ والمُحادِّينَ والمُوافِقينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي يَبْعَثُهُمُ اللهُ جميعاً، فَيُنَبِّئُهُمْ بما عَمِلوا مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، أحْصَى اللهُ ما عَمِلوا، وإنْ طالَ ذلكَ، أو كَثُرَ، ونَسُواهُمْ تلكَ الأعمالَ. خَرَجَ هذا على الوَعيدِ.

وفيهِ دلالةُ رسالتِهِ؛ إذْ أخْبَرَ أنَّ اللهَ تعالى، يُحْصي ذلكَ عليهِمْ، وأنهمْ [إنْ][(٥)] نَسُوا، فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ أنْ يُنْكِروا عليهِ أنهمْ لم يَنْسُوا. دلَّ أنهُ باللهِ عَلِمَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي على كلِّ شيءٍ مِنَ الإحصاءِ والحِفْظِ وغيرِ ذلكَ شهيدٌ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فإنْ كانَ هذا الخِطابُ /٥٥٧ ـ أ/ لِرسولِ اللهِ ﷺ فيكونُ فيهِ [وجهانِ:

أحَدُهما:][(٦)] دلالةُ رسالتِهِ، إذْ أطْلَعَهُ على ما أسَرُّوا في ما بَيْنَهُمْ مِنَ المَكْرِ برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، وتَناجَوا بَيْنَهُمْ مِنَ الكَيدِ والخِداعِ؛ أطْلَعَ اللهُ رسولَهُ ﷺ [لِيُعْلِمَ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَ ذلكَ][(٧)].

والثاني[(٨)]: بِشارةٌ لهُ بالنَّصْرِ والمَعونةِ، وهو كقولِهِ تعالى لِموسى وهارونَ ﷺ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أي أسْمَعُ ما يقولُ لكما، وما يُجيبُ [وأرى ماذا][(٩)] قَصَدَ بكما، وادْفَعُ عنكُما ما قَصَدَ بكما، فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرَ لهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فَيُطْلِعَكَ على ما هَمُّوا بكَ، وأسَرّوا فيكَ، فَيَنْصُرَكَ، ويَدْفَعَ عنكَ كيدَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الخطابُ ليسَ لرسولِ اللهِ ﷺ خاصةً، ولكنْ لكلٍّ في نفسِهِ، فَيَصيرَ كأنهُ قالَ: ألَمْ تَرَ إلى عجائبِ ما أنْشأَ مِنَ السمواتِ والأرضِ قَبْلَ إنشاءِ أهلِهِما؟ فإذا رأيتَ عجائبَ ما أنْشأَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وأهلِهِما، وعَلِمْتَ ذلكَ، فاعلَمْ أنهُ بما يكونُ مِنْ نَجْواهُمْ في ما ذَكَرَ عالمٌ، فَيَخْرُجُ على التَّنبيهِ والزَّجْرِ عنِ الإسرارِ والنَّجْوَى.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ ونحوُهُ، يَجِبُ أنْ

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: كله، في م: كلهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: والثالث. (٩) في الأصل وم: إذ أرى إذا.

يُنظَرَ إلى المُقدَّمِ مِنَ الكلامِ، فيُصْرفَ قولُهُ: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ إلى ذلكَ نَحْوُ قولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [النحل: ١٢٨] وقولِهِ[1]: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ونَحْوُهُ يكونُ مَعَهُمْ في التوفيقِ والمَعونةِ والنَّصْرِ.

فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ في النَّجْوى وما أَسَرُّوا في ما بَينَهُمْ، أي شاهِدٌ مَعَهُمْ حافظٌ عليهِمْ، يدفَعُ عنكُمْ كَيدَهُمْ ومَكْرَهُمْ، ويَنْصُرُكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يُنَبِّئُهُمْ بما عَمِلوا، وأسَرُّوا مِنَ الكَيدِ يومَ القِيامةِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ هذا الخطابُ لِرسولِ اللهِ ﷺ يقولُ: اعْلَمْ أنَّ الذينَ نُهُوا عنِ النَّجْوى، ثم يَعودونَ لِما نُهُوا عنهُ.. الآيةَ:

فيهِ[2] دلالةُ إثباتِ الرسالةِ لأنهُ أخبَرَ أنهمْ عادوا إلى ما نُهُوا عنهُ، وهو النَّجْوى. ومعلومٌ أنهمْ لا يَعودونَ إلى ما نُهُوا عنهُ بِحَضْرةِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ولكنْ عندَ غَيبةٍ منهمْ، دلَّ أنهُ باللهِ عَلِمَ.

ثم اخْتُلِفَ في سببِ تلكَ النَّجْوى؛ قالَ بعضُهُمْ: إنهُ كانَ بينَ اليهودِ وبينَ النَّبيِّ ﷺ مُوادَعةٌ، فإذا [رأوا رجلاً][3] مِنَ المُسْلمينَ وَحْدَهُ، يَتَناجونَ بَينَهُمْ[4]، يظُنُّ المسلمُ أنهمْ يَتَناجونَ بقتلِهِ أو بما يَكْرَهُ، فيَتْرُكُ الطريقَ مِنَ المخافةِ، فبَلَغَ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ فنَهاهُمْ عنِ النَّجْوى، فلم يَنْتَهوا، وعادوا إلى النَّجْوى، فنَزَلَ ما ذَكَرَ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا إذا خَرَجوا مِنْ عندِ رسولِ اللهِ ﷺ قامَ أناسٌ مِنَ اليهودِ وأناسٌ مِنَ المنافِقينَ يَتَناجَونَ في ما بَينَهُمْ دونَ المؤمنينَ، ويَنْظرونَ نَحْوَ واحدٍ منهمْ، فإذا رآهمْ يَنْظُرونَ نَحْوَهُ، قالَ: ما أظُنُّ هؤلاءِ إلّا وقد بَلَغَهُمْ خَبَرُ أقربائي الذينَ بَعَثَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ في السرايا مِنْ قَتْلٍ أو موتٍ، فيَقَعُ في قَلْبِهِ مِنْ ذلكَ ما يُحْزِنُهُ، فلا يَزالُ كذلكَ حتى تَقْدَمَ جَمْعَةٌ مِنْ تلكَ السَّرِيَّةِ.

لكنَّ الأَولى عندَنا السكوتُ عنْ ذِكْرِ هذا وأمثالِهِ، لأنهُ خَرَّجَ مُخرَجَ الاِحتِجاجِ، وجعَلَهُ آيةً عليهِمْ. فيجوزُ أنْ يكونَ على خلافِ ما ذَكَرَ، فيُوجِبُ الكَذِبَ في الخَبَرِ، فالإمساكُ عنهُ أحقُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ ذُكِرَ أنهمْ كانوا إذا أتَوا رسولَ اللهِ ﷺ يقولونَ: السامُ عليكَ يا محمدُ، فيُجيبُهُمُ النَّبيُّ ﷺ ويَرُدُّ عليهِمْ، ويقولُ: «وعليكُمْ».

ففيهِ دلالةُ رسالتِهِ لأنهمْ حَيَّوهُ سِرّاً منهُ، فأطْلَعَهُ اللهُ تعالى على ما أسَرُّوا، وكذلكَ ما قالَ: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هَلّا يُعَذِّبُنا اللهُ بما نقولُ في السِّرِّ، فيهِ دلالةُ الرسالةِ، لأنهُ معلومٌ أنهمْ قالوا ذلكَ سِرّاً في أنفسِهِمْ، فأطْلَعَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ على ما في أنفسِهِمْ، ففيهِ أنهُ باللهِ تعالى عَرَفَ.

وقولُهُ تعالى خَبَراً عنهمْ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ لهمْ وعيدٌ بالتَّعذيبِ لأجلِ التناجي الذي [كانَ][5] منهمْ. فلمّا تأخَّرَ ذلكَ عنهمْ قالوا عندَ ذلكَ: إنهُ لو كانَ رسولاً على ما يقولُهُ لَعَذَّبَنا على ما قالَ، ووَعَدَ. لكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنْ كانَ لهمُ العذابُ، لم يُبَيِّنْ متى يُعَذَّبونَ، فعَذابُهُمْ ما ذَكَرَ حينَ[6] قالَ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ إنما قالوا ذلكَ عندَ رَدِّ رسولِ اللهِ ﷺ بما حَيَّوهُ حينَ قالَ: وعليكُمْ. يقولونَ: إنهُ دعا علينا بقولِهِ: «وعليكُمْ». فإنْ كانَ رسولاً لأُجيبَ دعاؤُهُ الذي دعا علَينا. لكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَدْعُ عليهِمْ، إنما رَدَّ قولَهُمْ عليهِمْ رَدّاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ إنَّ أهلَ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: وفيه. (٣) في الأصل وم: رجل. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: بقتله. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث.

التأويلِ صَرَفوا الآيةَ إلى المُنافقينَ. وعندنا يَحْتَمِلُ صَرْفُ النَّهْيِ إلى المؤمنِينَ عنِ التَّناجي بِمِثْلِ ما تَنَاجَى أولئكَ، أي لا تَتَناجَوا أنتمْ يا أهلَ الإيمانِ فيهِمْ بالإثمِ والعُدْوانِ كما يَتَناجَونَ فيكُمْ.

يقولُ: لا تُجازوهُمْ بالذي فَعَلُوا هُمْ بكمْ، ولكنْ تَناجَوا فيهِمْ بالبِرِّ والتَّقْوى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢] نَهَى المؤمنِينَ أن يُجازوهُمْ جزاءَ الاِعْتِداءِ الذي كانَ منهمْ مِنْ صَدِّهِمْ عنِ المسجدِ الحَرامِ، بل أمَرَهُمْ [بالتعاونِ][1] على البِرِّ والتَّقْوى؛ فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في المؤمنينَ حقيقةً على الاِبْتِداءِ نَهْيٌ منهُ لهمْ؛ يقولُ ﴿إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟﴾ في ما يُؤْثِمُكُمْ، ويَحْمِلُكُمْ على العدوانِ على المُجاوَزةِ عنِ الحدِّ ومَعْصِيةِ الرسولِ في ما يأمُرُكُمْ، ويَنْهاكُمْ، ﴿وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.

[البِرُّ][2] يَحْتَمِلُ كلَّ أنواعِ الخَيرِ. وأمّا التَّقْوى فهو كلُّ ما يَقُونَ بِهِ أنفُسَهُمْ مِنَ النارِ، [وقد][3] تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا الخطابُ لهمْ؛ أعني المؤمنينَ والكافرينَ الذينَ يُقِرّونَ بالحَشْرِ لأنَّ أهلَ الكتابِ وبعضَ المشركينَ يُقِرّونَ بالبعثِ، وبعضُ المشركينَ يُنْكِرونَ مَعَ الدَّهْرِيَّةِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي نَجْوى الذين كانوا يَتناجَونَ بالإثمِ والعدوانِ ومَعْصيةِ الرسولِ؛ ليسَ كلُّ نَجْوى على ظاهرِ ما يَخْرُجُ الخطابُ عامّاً، ولكنْ يَرْجِعُ إلى [أمْرِ][4] النَّجْوى الذي نُهُوا عنهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ معناهُ ابْتِداءَ النَّجْوى في الشَّرِّ مِن الشيطانِ، وهو ما ذُكِرَ في بعضِ القصةِ: أنَّ اللهَ تعالى لمّا خَلَقَ آدمَ ﷺ قالَ إبليسُ للملائكةِ: أرأيتُمْ إنْ فَضَّلَ هو عليكُمْ ما تَصنعونَ؟ فأجابوهُ بما أجابوا. /٥٥٧ ـ ب/ فقالَ هو: إنْ فُضِّلْتُ عليهِ لأُهْلِكَنَّهُ، وإنْ فُضِّلَ هو عليَّ لأُعادِيَنَّهُ، فقد جاءَهُمْ في أمْرِ آدمَ ﷺ بالشَّرِّ فكانَ أوَّلُ النَّجْوى في الشَّرِّ مِنَ الشيطانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لولا أنَّ الشيطانَ في حالِ الحُزْنِ[5]، يكونُ أمْلَكَ على فَسادِهِمْ وإخراجِهِمْ مِنْ أمْرِ اللهِ تعالى وإدخالِهِمْ في نَهْيِهِ، وإلّا لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مَعْنًى.

فَدَلَّ أنهُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ في حالِ الحُزْنِ والغَضَبِ أمْلَكُ وأقْدَرُ مِنْ حالِ السُّرورِ والسَّعَةِ. لكنهُ بما يَدْعوهُ إلى اللذاتِ، ويُمَنِّيهِ أشياءَ، كانَ قَصْدُهُ مِنْ ذلكَ أنْ يُوقِعَهُ في الضِّيقِ والشِّدَّةِ لِما هو عليهِ أقْدَرُ في تلكَ الحالِ.

ولِذلكَ قالَ لآدمَ وحَوّاءَ ﷺ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] تَلَقّاهُما[6] بالغُرورِ الذي ذَكَرَ، ومَنّاهُما[7] بما ذَكَرَ، وكانَ قَصْدُهُ مِنْ ذلكَ إبداءَ عَوراتِهِما وإيقاعَهُما في الضِّيقِ والبَلاءِ حينَ[8] قالَ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ الآية [طه: ١٢١] مَكَّنَ اللهُ تعالى إبليسَ مِنَ الشَّرِّ بالذي ذَكَرْنا، ولم يُمَكِّنْ لهُ مِنْ إفسادِ الطعامِ واللباسِ والأشربةِ ونَحْوِ ذلكَ، وهو دونَ الأوَّلِ، وذاكَ أكْثَرُ. لكنَّ هذا في الضَّرَرِ الدُّنياوِيِّ أكْثَرُ، فلم يُمَكِّنْهُ مِنْ إفسادِ هذهِ الأشياءِ تَفَضُّلاً منهُ وإحساناً إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليسوا بضارِّينَ في ما يَتَناجَونَ مِنَ الكَيدِ بهِمْ والمَكْرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في دَفْعِ مَنْ قَصَدَ الكَيدَ بهِمْ والمَكْرَ والهلاكَ. وعليهِ يَتَوَكَّلونَ في النَّصْرِ لهمْ والمَعونةِ على أعدائِهِمْ والتَّوفيقِ لهمْ في كلِّ خَيرٍ. وكلُّ هذا وصفُ المؤمنينَ.

وأمّا المعتزلةُ فهمْ بِمَعْزِلٍ عنْ هذهِ الآيةِ، وكذلكَ المؤمنونَ على قولِهِمْ غَيرُ مُتَوَكِّلينَ على اللهِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ قد أعْطَى كُلّاً مِنَ النَّصْرِ والمَعونةِ ما يَنْتَصِرُ على أعدائِهِ، ويَنْتَقِمُ منهمْ حتى [لم يَبْقَ][9] عندَهُ مَزيدٌ لِما يَنْصُرُهُمْ، ويُعينُهُم على شيءٍ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يحزن. (٦) في الأصل وم: تلقاهم (٧) في الأصل وم: ومناهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لا يبقى.

فعلى قولِهِمْ: لا يَقَعُ للمؤمنينَ في التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى شيءٌ فليسَ عندَهُ ما يَنْصُرُهُمْ ولا ما يُعينُهُمْ، فعلى ماذا يَتَوكَّلونَ عليهِ على قولِهِمْ إذْ لم [يُعْطِهِمْ][1] ما ذَكَرْنا؟

ومِنْ قولِهِمْ: أنَّ على الله تعالى أنْ يُعْطِيَ مِنَ المعونةِ والتوفيقِ حتى لا يَبْقَى عندَهُ مزيدٌ حتى لو مَنَعَ شيئاً مِنْ ذلكَ لم يُعْطِهِمْ يكونُ جائراً. ثم إذا أعطاهُمْ ما ذَكَروا لا يَهْتَدونَ، ولا يَنْتَصِرونَ.

واللهُ تعالى قالَ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقالَ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨] فَدَلَّ أنَّ ما قالوا مُخالِفٌ للكتابِ.

ثم اخْتَلَفوا في اشْتِقاقِ النَّجْوَى: منهمْ مَنْ قالَ: هو مِنَ النَّجْوَةِ، وهو المكانُ العالي المرتفعُ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يقومونَ في مكانٍ مرتفعٍ، فَيَتَحدَّثونَ فيهِ، لِيَرَوا مَنْ قَصَدَهُمْ، فَيَتَفرَّقوا، أو كلامٌ هذا معناهُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: التَّناجي التَّحاكي بما ذَكَروا، فيكونُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ إذا تَحاكَيْتُمْ ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا﴾ فلا تَتَحاكَوا بِما ذَكَرَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: التَّناجي مِنَ التَّشاوُرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيةَ: يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ﴾ أي إذا قيلَ لكمْ: تأخَّروا في المجالسِ فَتأخَّروا ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي ارْتَفِعوا، وتقدَّموا، فيكونُ قولُهُ: ﴿تَفَسَّحُواْ﴾ إذا كانَ الحضورُ أوَّلاً هُمُ الذينَ هَمُّهُمُ السماعُ والعَمَلُ بهِ دونَ الأخذِ والتَّفَقُّهِ فيه، قيلَ لهمْ: تأخَّروا حتى يَقْرُبَ مَنْ يَصيرُ إماماً للناسِ وفَقيهاً لهمْ.

وإذا كانَ الحضورُ همُ الذينَ، هَمُّهُمُ التَّفَقُّهُ، وهُمُ الأئِمَّةُ، ثم جاءَ بَعْدَ ذلكَ مَنْ كانَ هَمُّهُمُ السماعُ والعَمَلُ بهِ، قيلَ للذينَ تَقَدَّموا أوَّلاً: ارْتَفِعوا، أو تَقَدَّموا، حتى يَسْمَعَ مَنْ حَضَرَ بَعْدَكُمْ قولَ النَّبِيِّ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهُ إذا كانَ في المَجْلِسِ أدْنَى سَعَةٍ أو فُسحةٍ ما يُمَكِّنُ تَمْكينَ غَيرِهِ مِنَ التَّحريكِ والتَّفَسُّحِ دونَ القِيامِ يُقالُ لهمْ: تَفَسَّحوا، وإذا لم يُمَكِّنْ ذلكَ إلّا بالقِيامِ قِيلَ لهمْ: قوموا، وارْتَفِعوا، وتَقَدَّموا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ في القَبْرِ.

[والثاني][2]: في الآخِرَةِ في الجنةِ.

[والثالثُ][3]: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ في المَجْلِسِ، وهو فُسْحَةٌ للقَلْبِ وتوسِعَةٌ للعِلْمِ والحُكْمِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ أي في القتالِ والحربِ ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي إذا قيلَ: انْهَروا إلى العَدُوِّ، فانْهَروا. قالَ قتادةُ: أي إذا دُعِيتُمْ إلى خيرٍ أو صلاةٍ فأجيبوا. وقالَ غَيرُهُ: إلى كلِّ خَيرٍ مِنْ قتالِ عدوٍّ أو أمْرٍ بِمَعْروفٍ أو نَهْيٍ عنِ المُنْكَرِ أو حقٍّ كائناً ما كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أخبَرَ أنهُ يَرْفَعُ اللهُ الذينَ أُوتوا العِلْمَ مِنَ المؤمنينَ على الذينَ لم يُؤْتَوا العلمَ درجاتٍ لِفَضْلِ العِلْمِ على سائرِ العِباداتِ مِنَ الجهادِ وغَيرِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةِ الجهادِ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥]؟ جَعَلَ للمجاهدينَ على القاعدينَ فَضْلَ درجةٍ، وللذينَ أُوتوا العِلْمَ على الذينَ لم يُؤْتَوا درجاتٍ لِيُعْلِمَ فَضْلَ العِلْمِ على غَيرِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟﴾ [التوبة: ١٢٢] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُجْلِسُ قوماً عندَ مَجْلِسِهِ[1] لِيَتَفَقَّهوا في الدينِ، ويَبْعَثُ قوماً سَرايا حتى إذا رَجَعَتِ السَّرايا أَنْذَرَهُمُ الذينَ تَفَقَّهوا في الدينِ، وتَعَلَّموا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

فإذا كانَ التأويلُ هذا ففيهِ دلالةُ فَضيلةِ العِلْمِ على الجهادِ حتى أحْوَجَ أولئكَ إليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ يَنْفِرُ مِنْ كلِّ قومٍ طائفةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدينِ، فإذا رَجَعوا إلى قومِهِمْ أنْذَروا قومَهُمْ.

وقالَ قتادةُ: إنَّ بالعِلْمِ لأهلِهِ فَضيلةً، وإنَّ لهُ على أهلِهِ حقّاً، ولَعَمْري الحَقُّ عليكَ أيها العالِمُ أفضَلُ، واللهُ يُعْطي كلّاً مِنْ فَضْلِ فَضْلِهِ.

وقالَ قتادةُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟﴾ إنهمْ كانوا إذا رَأَوا أخاً لهمْ مُقْبِلاً يَضَنّونَ بِمَجالِسِهِمْ عند رسولِ اللهِ ﷺ فأمَرَ اللهُ تعالى أنْ يَفْسَحَ بعضُهُمْ لِبعضٍ.

وقالَ مُقاتلٌ: أقْبَلَ نَفَرٌ مِنَ الأنصارِ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً، فَسَلَّموا على نَبِيِّ اللهِ ﷺ ومَنْ حَولَهُ، فَرَدُّوا السلامَ، وضَنُّوا بِمجلِسِهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ فلم يُوَسِّعوا لهمْ فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ: قُمْ يا فلانُ [ويا فلانُ][2] مِنَ الذينَ لم يَشْهَدوا بدراً، [مِنَ المنافقينَ][3] فنزلتْ هذهِ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ مُناجاةِ الرسولِ ﷺ على وجوهٍ، والناسُ في مُناجاتِهِ طبقاتٌ:

أحَدُهُمْ: يُناجيهِ مُسْتَرْشِداً في أمرِ الدينِ وما يَنْزِلُ بِهِ مِنَ النوازِلِ.

والآخَرُ: يُناجيهِ افْتِخاراً بِهِ على غَيرِهِ مِنَ الناسِ ومُباهاةً منهُ لِيُعْلِمَ أنَّ لهُ خصوصِيَّةً عندَ رسولِ اللهِ ﷺ وفضلاً لهُ عندَهُ، وهو صنيعُ المنافقينَ.

والفريقُ الثالثُ: يُناجونَهُ لِيُسَمِّعوا الناسَ الكذبَ، ويُسَمِّعوهُمْ غيرَ الذي سَمِعوا كقولِهِ تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١] وهُمُ اليهودُ، وصَنيعُهُمْ ما ذُكِرَ.

فجائزٌ أنْ تُخَرَّجَ المُناجاةُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ على الوجوهِ /٥٥٨ ـ أ/ التي ذَكَرْنا.

ثم ما ذُكِرَ مِنْ تقديمِ الصَّدَقةِ على المناجاةِ تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أمَرَ بِتقديمِ الصَّدَقةِ لِعِظَمِ قَدْرِ رسولِ اللهِ ﷺ والخُصوصِيَّةُ لهُ تَظْهَرُ بتلكَ الصَّدَقةِ، ويَصيرُ أهلاً لِلْمُناجاةِ بها، وهو كالطهارةِ التي جَعَلَها سَبباً لِلْوُصولِ إلى مُناجاةِ الرَّبِّ ﷻ.

والثاني: لَمّا خَصَّهُمْ بِمُناجاةِ الرسولِ ﷺ وجَعَلَهُمْ أهلاً لها أمَرَهُمْ بِتَقديمِ الصدقةِ شُكْراً لهُ منهُ بذلكَ.

والثالثُ: جائزٌ أنْ يكونَ أمَرَهُمْ بِتقديمِ الصَّدَقةِ امْتِحاناً منهُ إياهُمْ لِيُظْهِرَ حقيقةَ أمْرِهِمْ، وهو ما جَعَلَ الأمْرَ بالجهادِ سَبباً لظهورِ نِفاقِهِمْ وارْتِيابِهِمْ في الأمْرِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمْرُ بالصدقةِ لأهلِ المُناجاةِ على الذينَ كانَتْ لهمْ حَوائجُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فَيَمْنَعوهُ عن قضاءِ حاجاتِهِمْ بالمُناجاةِ؛ أمَرَهُمْ بالصِّلَةِ لأولئكَ تَطْييباً لِقلوبِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي إنَّ تَقديمَ الصدقةِ أطْهَرُ لِقُلوبِهِمْ من تَرْكِ الصَّدَقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا الأمْرُ لأهلِ الغِنَى دونَ الفَقْرِ حتى قالَ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟﴾ ما تتصدَّقون بهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: نفسه. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: قبلكم في ذلك المنافقون.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: أي أبَخِلْتُمْ بها أهلَ المَيْسرَةِ ﴿أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي تَجاوزَ عنكُمْ إذْ لم تفعَلوا ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي إذا لم تَصَدَّقوا تلكَ الصدقةَ فأْتوا زكاةَ أموالِكُمْ. قالَ أهلُ التأويلِ: نَسَخَ ما أُمِروا بهِ مِنَ الصَّدَقةِ عندَ المُناجاةِ بما ذَكَرَ مِنْ إقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا وعيدٌ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ دلالةُ قَبولِ خَبَرِ الواحدِ لأنهُ يُناجيهِ، ولا يَعْلَمُ بهِ غَيرُهُ، دَلَّ أنهُ يَقْبَلُ إذا أخبَرَ بهِ غَيرُهُ.

وفيهِ أنْ لا كلُّ مناجاةٍ تكونُ مِنَ الشيطانِ؛ إنَّ النَّبِيَّ ﷺ ناجى مَنْ ذَكَرَ، فَدَلَّ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَٰنِ﴾ [الآية: ١٠] مَصْروفٌ إلى ما سَبَقَ ذِكْرُهُ.

وفيهِ ألّا يُفْهَمَ مِنْ ذِكْرِ اليَدِ الجارحةُ، لا محالَةَ؛ فإنهُ قالَ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾ وليسَ لِلنَّجوى يَدٌ، ولا لِـ: بَينَ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [فصلت: ٤٢] ولم يُشْكِلْ على أحدٍ أنهُ لم يُرِدْ باليَدِ الجارحةَ ههنا، فكيفَ فُهِمَ في ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى في قولِهِ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «الصدقةُ تقَعُ في يدِ الرحمنِ الجارحةِ» لولا فَسادُ اعْتِقادِهِمْ في اللهِ تعالى وتَشْبيهُهُمْ إياهُ بالخَلْقِ؟

وقالَ قتادةُ: أكْثَروا النَّجوى مع رسولِ اللهِ ﷺ فَمَنَعَهُمُ اللهُ تعالى عنهُ، فقالَ: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ الآية.

وعنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: أنا أوَّلُ مَنْ عَمِلَ بها، تَصَدَّقْتُ بكذا، ثم نَزَلَتِ الرُّخصةُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يَذْكُرُ سَفَهَ المُنافِقينَ لرسولِ اللهِ ﷺ لِيَتَوَلَّيهِمْ قوماً غَضِبَ اللهُ عليهِمْ على ما عَلِمَ منهمْ أنَّ اللهَ تعالى قد غَضِبَ عليهِمْ، لكنهمْ تَوَلَّوْهُمْ طَمَعاً منهمْ في أموالِهِمْ وفي ما كانَ عندَهُمْ مِنَ السَّعَةِ وفَضْلِ الدنيا.

ثم أخبَرَ أنهمْ لَيسوا منكُمْ، ولا أنتمْ منهمْ، أي على دينِهِمْ، أي أولئكَ اليهودُ، لكنهُمْ يَتَوَلَّونَهُمْ[1] طَمَعاً في ما عندَهُمْ مِنْ فَضْلِ الدنيا ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كأنهُ قِيلَ لهمْ: لِمَ تَوَلَّيتُمْ قوماً غَضِبَ اللهُ عليهِمْ؟ فَحَلَفوا أنهمْ[2] لم يَتَوَلَّوهُمْ، فأخبَرَ أنهمْ كاذبونَ في حَلْفِهِمْ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهمْ تَوَلَّوْا اليهودَ سِرّاً مِنَ المؤمنينَ، وحَلَفوا كَذِباً، فأخبَرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بِتَوليَتِهِمْ وكَذِبِهِمْ في الحَلْفِ. دَلَّ أنهُ ﷺ عَرَفَ ذلكَ بالوَحْيِ.

الآية ١٥ ثم أخبَرَ ما أعَدَّ لهمْ في الآخِرةِ بِتَوليَتِهِمْ أولئكَ وحَلْفِهِمْ بالكَذِبِ، فقالَ: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ساؤوا إلى أنفسِهِمْ بِعَمَلِهِمُ الذي عَمِلوا في الدنيا.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي حَلْفَهُمُ الذي حَلَفوا أنهمْ لم يَتَوَلَّوا أُولئكَ اليهودَ جُنَّةً ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ صَدُّوا أنفسَهُمْ عنْ سَبيلِ اللهِ، أو صَدُّوا الناسَ عنْ سبيلِهِ بما ذَكَرَ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يُهانونَ في ذلكَ العذابِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يُخبِرُ أنَّ أموالَهُمُ التي لأجلِها تَوَلَّوْا اليهودَ، وعانَدوا المؤمنينَ، لا تُغنيهِمْ تلكَ الأموالُ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً إذا نَزَلَ بهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: يتولونه. (٢) في الأصل وم: أنه.

الآية ١٨ ثم أخبَرَ عن شِدَّةِ سَفَهِهِمْ أنهمْ يَحْلِفونَ في الآخِرَةِ كما يَحْلِفونَ لكُمْ في الدنيا بقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

ثم فيهِ أنَّ الآيَةَ لا تَضْطَرُّ أحداً إلى الإيمانِ بهِ والتوحيدِ، لأنهُ [لا آيةَ][1] أعظَمُ مِنْ قِيامِ الساعةِ. ثم لم يَمْنَعْهُمْ ذلكَ عنِ الكذِبِ والكُفرِ بهِ، ولا اضْطَرَّهُمْ إلى الإيمانِ بهِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] في الدنيا.

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] أنهمْ يؤمنونَ إذا شاءَ اللهُ، ولا يُؤمِنونَ وإنْ نَزَّلْنا عليهمُ الآياتِ التي ذَكَرَ، ولا آيَةَ أعظَمُ ممَّا ذَكَرَ مِنْ إنزالِ الملائكةِ وإحياءِ المَوتَى وتكْليمِهِمْ أنهمْ على الباطِلِ، وأنَّ الحقَّ هو الذي دعا رسولُ اللهِ ﷺ إليهِ.

دلَّ هذا كلُّهُ أنَّ الآيَةَ لا تَضْطَرُّ أحداً[2] إلى الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ [أي غَلَبَهُمْ][3] الشيطانُ. وقالَ مُقاتِلٌ: أي أحاطَ بهمْ. وقالَ الزَّجاجُ والقُتَبِيُّ: أيِ اسْتَولَى عليهِمْ؛ وذلكَ كلُّهُ راجعٌ إلى مَعْنًى واحدٍ.

وفيهِ أنَّ الشيطانَ قد تَسَلَّطَ عليهِمْ حتى تَغَلَّبَ عليهِمْ بإجابَتِهِمْ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ مِنْ مُعاداةِ اللهِ ورسولِهِ والمؤمنينَ. ولكنَّ سُلْطانَهُ على ما ذَكَرَ، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] فَعَلَيهِمْ إذا عَمِلوا بما أرادَ، وأجابوهُ إلى ما دَعا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أي أنْساهُمْ عَظَمَةَ اللهِ أو نِعَمَ اللهِ وإحسانَهُ أو شُكْرَ نِعَمِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ الحِزبُ هو جَمْعُ الفِرَقِ، تَحزَّبوا أي تَفرَّقوا، فَحِزْبُهُ هو جُنْدُهُ كما قالَ أهلُ التأويلِ لأنهمْ يَصيرونَ فِرَقاً، ثم يَجْتَمِعونَ، فيكونونَ[4] جُنْداً لهُ، وجُنْدُ الرجلِ، هُمُ الذينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ في ما شاءَ مِنَ القِتالِ وغَيرِهِ، ويَصْدُرونَ[5] لِرَأيِهِ. فَعَلَى ذلك أولئكَ الكفَرَةُ، هُمْ جُنْدُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهُ مَنَّاهُمْ في الدنيا، وأمَّلَهُمْ تأميلاً في ما اتَّبَعوهُ، فلم يَصِلوا /٥٥٨ ـ ب/ إلى شيءٍ مِنْ ذلكَ. وفي الآخِرَةِ بقولِهِ: أنْ لا بَعْثَ، ولا جنةَ، ولا نارَ، فَلَهُمْ فيها عذابٌ، فَخَسِروا الدارَينِ جميعاً.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ قيلَ: في الأسفَلِينَ، وقيلَ: في المَهْزومينَ، وقيلَ: في الآخِرينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وأمّا في الدنيا فَرُبما يكونونَ همُ الغالبينَ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: ذلك في الدارَينِ جميعاً هُمُ الأذِلّاءُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي قَضى اللهُ لأغلِبَنَّ. ثم قالَ بعضُهُمْ: لَيَغْلِبَنَّ محمدٌ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] وفَعَلَ ذلكَ.

وجائزٌ أن يكونَ المُرادُ منهُ جُمْلَةَ رسلِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١].

ثم الغَلَبَةُ قد تكونُ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: بالحُجَجِ والبراهينِ، وما مِنْ رسولٍ إلّا وقد غَلَبَ على خُصَمائِهِ بالحُجَّةِ.

والثاني: بالقِتالِ والحربِ، وكانَتِ العاقبةُ للرسلِ عليهم السلام لِما لم يُذْكَرْ أنهُ قُتِلَ رسولُ اللهِ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: الآية. (٢) في الأصل وم: أهلها. (٣) من م، في الأصل: عليهم. (٤) في الأصل وم: ويكون. (٥) في الأصل وم: ويصدون.

وإضافةُ الغَلَبَةِ إلى نفسِهِ على إرادةِ الرسلِ أولياءَهُ على [ما][1] ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَويٌّ بذاتِهِ، لأنهُ تكونُ قوةُ[2] مَنْ دونَهُ [بهِ][3] وكذلكَ كلُّ مَنْ دونَهُ بِتَكْوينِهِ، أو تكونُ فيهِ بشارةٌ لأوليائِهِ أنهُ قويٌّ عزيزٌ بِذاتِهِ، أنهُ يَنْصُرُهُمْ على أعدائِهِمْ، ويقْرُهُمْ[4].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية: قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَتْ في حاطِبِ بْنِ أبي بَلْتَعَةَ لأنهُ كانَ كَتَبَ إلى أهلِ مكةَ أنَّ رسولَ اللهِ، يَقْصِدُ إليكُمْ، فَخُذوا حِذْرَكُمْ، وكانَ لهُ بمكةَ أهلٌ، فأرادَ أنْ يكونَ لهُ عندَهُمْ يَدٌ، فَشَعَرَ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: ما حَمَلَكَ على هذا؟ فقالَ ما ذَكَرْنا، فَنَزَلَتِ الآيةُ.

فإذا كانَ نُزولُها فيهِ على ما ذَكَروا فهي في براءَتِهِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ لم يَرْجِعْ عنِ الإيمانِ والتَّصديقِ لِرسولِ اللهِ ﷺ وأنهُ لا يعودُ إلى مِثْلِهِ بَعْدَ ذلكَ أبداً.

والثاني: أنهُ لم يَقْصِدْ بِصَنيعِهِ مُوادَّتَهُمْ، ولكنْ قَصَدَ إلقاءَ المَوَدَّةِ إليهِمْ لِيَقَعَ عندَهُمْ أنهُ وادَّهُمْ، وهو في الحقيقةِ يُلْقِي المَوَدَّةَ، وقد يكونُ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَتِ الآيةُ في غَيرِ حاطبٍ فهي بالمؤمنينَ الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ باللهِ تعالى، وثَبَتوا عليهِ، لأنَّ أهلَ الإيمانِ كانوا أصنافاً ثلاثةً:

صِنفٌ مُحقِّقونَ الإيمانَ مُظْهِرونَ القِتالَ معَ أعدائِهِمْ، وصِنفٌ منهمْ، لا يَقْدِرونَ على إظهارِ ذلكَ والمُناصَبَةِ معهمْ، ولكنْ يَتْبَعونَ الأقوياءَ منهمْ، والصنفُ الثالثُ[5] مُتَرَدِّدونَ، يُوادُّونَ الكَفَرَةَ في السِّرِّ، ويُظْهِرونَ المُوافقةَ للمؤمنينَ.

فَجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي الذينَ يُحَقِّقونَ الإيمانَ باللهِ تعالى ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ولكنْ إنما يُوادُّونَ مَنْ لم يُحَقِّقِ الإيمانَ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ عنْ إثباتِ الإيمانِ في قلوبِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي أثْبَتَ في قلوبِهِمُ الإيمانَ، فلا يَرْجِعونَ عنهُ.

وفيهِ أنَّ الإيمانَ، مَوضِعُهُ القَلْبُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: ما كانَ للقومِ يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ يُوادُّوا مَنْ حادَّ اللهَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ قيلَ: أيَّدَهُمْ بنورِ الإيمانِ الذي أثْبَتَ في قلوبِهِمْ. وأخْبَرَ ﷻ أنهُ أثْبَتَ المؤمنينَ على الإيمانِ، فقالَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقالَ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقيلَ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي برحمةٍ منهُ.

ثم وصفَ حالَهُمْ وثوابَهُمْ في الآخِرَةِ، فقالَ: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أي جُنْدُ اللهِ على ما ذَكَرْنا أنهمْ يأتَمِرونَ بأمرِهِ، ويُقاتِلونَ أعداءَهُ، ويُوالُونَ أولياءَهُ، فهمْ جُنْدُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قيلَ: همُ الناجونَ، وقيلَ: الباقونَ في نِعَمِ اللهِ تعالى [واللهُ أعلَمُ بالصواب][6].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قوته. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: ويقررهم، في م: ويقهرهم. (٥) من م، في الأصل: الثاني. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

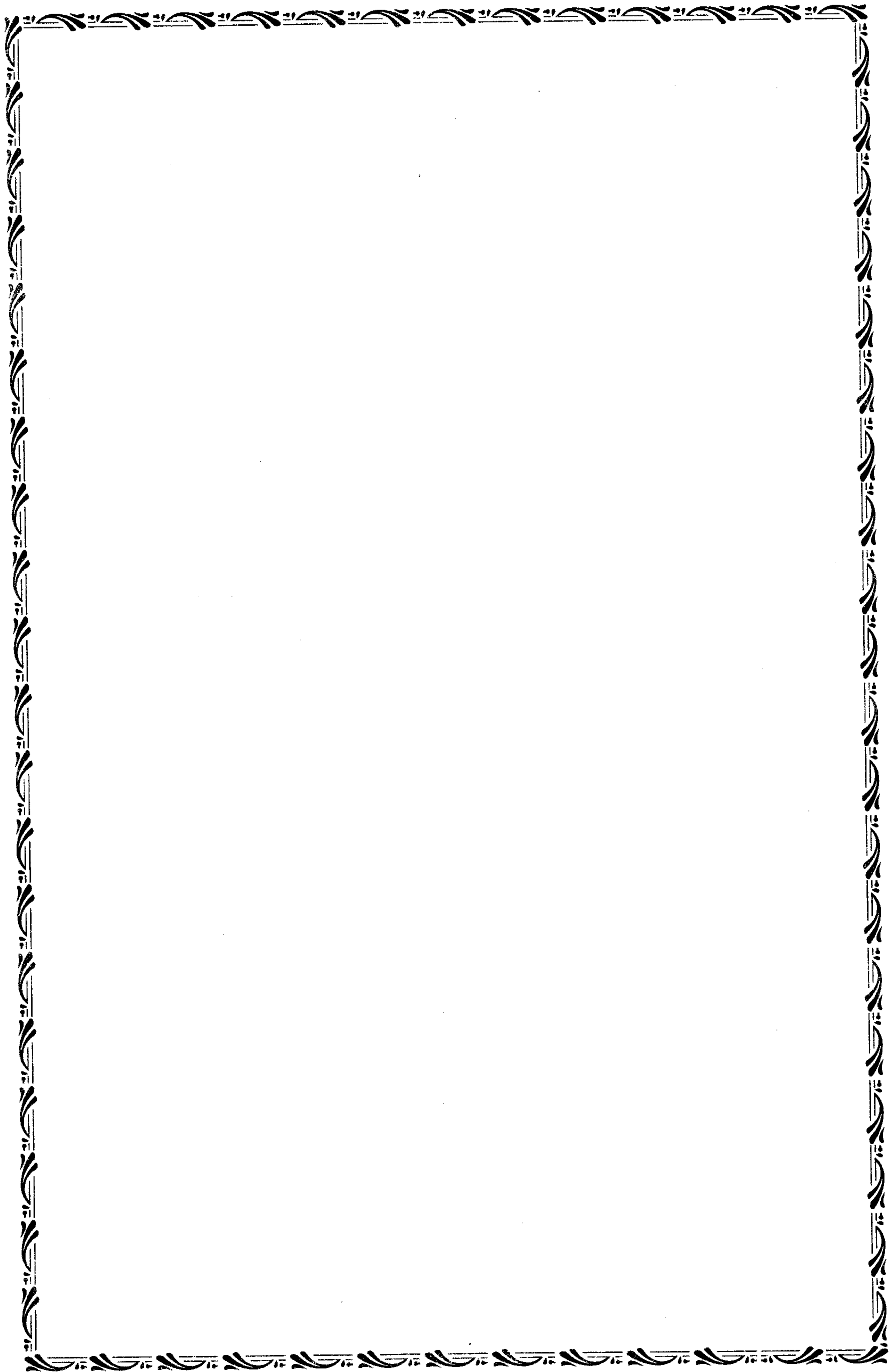

سورة الحشر

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قد سَبَقَ تأويلُ التسبيحِ وبيانُ وجوهِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيزُ، هو الغالِبُ القاهِرُ، وقيلَ: هو العزيزُ حينَ[2] جَعَلَ في كلِّ شيءٍ مِنْ خَلْقِهِ أثَرَ الذُّلِّ والحاجةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لهُ مَعْنَيانِ[3]: مَعْنَى الإحكامِ ومَعْنَى الحِكْمَةِ:

فأمّا مَعْنَى الإحكامِ، فهو أنهُ أحْكَمَ الأشياءَ على اخْتِلافِها وتَضادِّها حينَ[4] تَشْهَدُ لهُ بالوَحْدانيّةِ.

[وأمّا مَعْنَى الحِكْمَةِ، فهو أنهُ][5] وَضَعَ الأشياءَ مَواضِعَها، وخَلَقَ للأشياءِ مَواضِعَ.

ثم الأصولُ التي تَتَوَلَّدُ منها هذهِ الأشياءُ والأفعالُ ثلاثةٌ: الكِياناتُ والطبائعُ والعقولُ:

أمّا الكِياناتُ فَنَحْوُ النُّطْفَةِ [إنهُ خَلَقَها][6] بحيثُ تَصْلُحُ أنْ يكونَ منها البَشَرُ، إذا اتَّصَلَتْ بها مَوادُّها، ونَحْوُ الماءِ؛ إنهُ جَعَلَهُ بحيثُ يَحْيَى بهِ كلُّ شيءٍ، وبحيثُ يَصْلُحُ بهِ كلُّ شيءٍ. والطبائعُ خَلَقَها[7] في البشرِ، وهي ما يَميلونَ بها إلى المَحاسِنِ والمَنافِعِ، ويَحْذرونَ مِنَ المَساوِئِ والمَضارِّ. والعقولُ خَلَقَها لِيُدْرِكوا بها[8] العواقِبَ.

ثم إنهُ عَلَّمَهُمُ الوجوهَ التي تَتَوَلَّدُ منها الأشياءُ، فهو حكيمٌ حينَ[9] خَلَقَ الأصولَ التي وَصَفْنا، وعَلَّمَ عبادَهُ الأسبابَ التي بها يُولَدونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾ [قيلَ:][10] هُمْ بَنو قُرَيظةَ، وقالَ جماعةٌ[11] مِنَ المُفَسّرينَ: هُمْ بنو النَّضيرِ، وهو أقْرَبُ.

ثم المَعْنَى / ٥٥٩ ـ أ/ في إضافةِ الإخراجِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ اضْطَرَّهُمْ إلى الخروجِ، فَنَسَبَ الإخراجَ إليهِ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [التوبة: ٤٠].

والثاني: أنهُ خَلَقَ الخروجَ مِنْ ديارِهِمْ منهمْ، فأُضيفَ إليهِ بِحُكْمِ الخَلْقِ.

ثم الأصلُ في إضافةِ الفِعْلِ إلى اللهِ تعالى أنهُ يَجوزُ أنْ يُضافَ إليهِ على التَّحْقيقِ وعلى التَّسْبيبِ. فأمّا [إضافةُ الفِعْلِ إلى][12] الخَلْقِ فَلِما يُضافُ الفِعْلُ إليهِمْ على جهةِ التَّسْبيبِ لا على التَّمْكينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾ اخْتَلَفوا فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: أوَّلُ الحَشْرِ الجَلاءُ إلى الشامِ، والحَشْرُ الثاني: حَشْرُ القيامةِ. وقالَ بعضُهُمْ: أوَّلُ الحَشْرِ، هو حَشْرُ أهلِ الكتابِ وجَلاؤُهُمْ مِنْ جزيرةِ العربِ، والحَشْرُ الثاني حينَ أجلاهُمْ عُمَرُ رضي الله عنه إلى الشام.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: معنيين. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وحكيم وم: وحكيم حيث. (٦) في الأصل وم: أنها. (٧) في الأصل وم: خلق. (٨) من م، في الأصل: به. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: غيره. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ أي ما ظَنَنْتُمْ أيُّها المؤمنونَ أنْ تَنْتَصِروا منهمْ فضلاً عَنْ أنْ يَخْرُجوا مِنْ ديارِهِمْ، ولكنَّ ذلكَ مِنْ لُطْفِ اللهِ ومِنَّتِهِ عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَتَوَهَّمَ أحدٌ هذا. والمعنى في ذلكَ عندَنا وجهانِ، واللهُ أعلَمُ.

أحدُهما: أنهم ظَنُّوا أنَّ اللهَ تعالى حينَ[1] آتاهُمُ القوةَ والحصونَ لا يَبْلُغُ بهمْ حُكْمُهُ المَبْلَغَ الذي يَخْرُجونَ مِنْ ديارِهِمْ لأنهمْ كانوا أهلَ الكتابِ، وكانوا يَزْعُمونَ أنهمْ أولَى باللهِ مِنْ غيرِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ويكونُ قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي باللهِ وبأمْرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي بأمْرِ اللهِ. فَعَلَى ذلكَ [﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾][2] ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بأمْرِ اللهِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

والثاني: أنهمْ[3] ظَنُّوا أنَّ حصونَهُمْ وقُوَّتَهُمْ تَمْنَعُهُمْ مِنْ أولياءِ اللهِ أنْ يَظْهَروا عليهمْ أو مِنْ دينِ اللهِ أنْ يَظْهَرَ فيهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ يعني أنهُ قَذَفَ في قلوبِهِمُ الرُّعْبَ مِنْ حيثُ لم يَحْتَسِبِ المؤمنُ ولا الكافرُ، لأنَّ المسلمينَ لم يَظُنّوا أنْ يَقْهَروهُمْ، ويَغْلِبوهُمْ معَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ وكَثْرَةِ عَدَدِ أولئكَ.

وكذا لم يَحْتَسِبِ الكَفَرَةُ أنهمْ معَ قوتِهِمْ وقوةِ حُصونِهِمْ يُقْهَرونَ، ويُغْلَبونَ، حتى مَنَّ اللهُ تعالى على المؤمنينَ. فإنَّ قَذْفَ الرعبِ في قلوبِ الكَفَرَةِ، ذلكَ لُطْفٌ عظيمٌ مِنَ اللهِ تعالى إلى المؤمنينَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ في ما خُرِّجَ هذا المُخْرَجُ مِنْ نَحْوِ قولِهِ ﷻ ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] ومِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ومِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة ٢١٠] وما يُشاكِلُهُ أنْ يَحْمِلَهُ على إحدَى مَعانٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنْ يكونَ[4] المُرادُ إتيانَ آثارِ فِعْلِ اللهِ تعالى؛ ويجوزُ أنْ يُضافَ إليهِ سَبيلُ إضافةِ حقيقةِ العملِ كما يُقالُ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنها ليسَتْ بِعَينِ أمْرِ اللهِ، لكنها أثَرُ أمْرِ اللهِ تعالى، وكذلكَ يُقالُ: المَطَرُ رَحْمَةُ اللهِ تعالى؛ يعني أثَرَ رَحْمتِهِ. فكذلكَ إذا نزلَ بهمْ آثارُ حُكْمِ اللهِ تعالى وتدبيرِهِ وفعلِهِ، وهي العذابُ جازَ أنْ تُضافَ [إليهِ آثارُ][5] حقيقةِ الفعلِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يُقالَ: إنَّ ما كانَ مِنْ هذهِ الأفعالِ موصولاً بصلةٍ فإنهُ يجوزُ أنْ يُرادَ منهُ تلكَ الصلةُ، وإنما نَتَكَلَّمُ بإضافةِ[6] هذا الفعلِ إليهِ مَجازاً على ما اعتادَ الناسُ مِنْ أفعالِهِمْ إذا أرادوا[7] أنْ يأتوها بأنفسِهِمْ.

وشرحُ ذلكَ وبيانُهُ أنهُ قالَ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وكذلكَ ما أشْبَهَهُ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ومِنْ [نَحْوِ][8] قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩ وفصلت: ١١] أيِ اسْتوى تدبيرُهُ مِنْ حيثُ وَصَلَ مَنافِعَ الأرضِ بِمَنافِعِ السماءِ، وكذلكَ ما أشْبَهَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يقولُ: إنَّ هذهِ أسماءٌ مُشْتَرَكةُ المَعْنَى. وما كانَ سبيلُهُ هذا السبيلَ جازَ أنْ يُضافَ إلى اللهِ تعالى على مَعْنًى ليسَ يَقَعُ فيهِ الاشْتِراكُ بالمَخلوقينَ.

ألا تَرَى أنهُ يُقالُ: جاءَ الليلُ، وذهبَ النهارُ ونَحْوُ ذلكَ على مَعْنَى الظُّهورِ ونَحْوِهِ؟

وقولُهُ تعالى ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الملكَ لِلْمسلمينَ في أموالِ أهل الحربِ، ليسَ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يحفظونه. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) من نسخة الحرم المكي، في م: إضافة، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: بالإضافةِ. (٧) في الأصل وم: أردوها. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَقَعُ بِمُجَرَّدِ الغَلَبةِ ما لم يَكُنْ ثَمَّ أَسْرٌ لأنهُ أخبَرَ أنَّ المؤمنينَ كانوا يُخربونَ بيوتَهُمْ؛ أضافَ المُلْكَ إلى الكَفَرةِ معَ أنَّ الغَلَبةَ للمسلمينَ. فإنكُمْ إذا اعتَبَرْتُمْ عَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ مَنَّ عليكُمْ حينَ[1] أخرَجَ الكفارَ مِنْ ديارِهِمْ؛ فإنهُ لم يكُنْ ذلكَ بقوَّتِكُمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المَعْنَى فيهِ ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ مِنْ أهلِ الكُفّارِ فإنَّ ذلكَ يَدُلُّكُمْ، ويُعَرِّفُكُمْ، أنَّ اتِّفاقَكُمْ على النُّفْرَةِ على النَّبيِّ ﷺ لا يُغْنيكُمْ كما لم يُغْنِ هؤلاءِ الذينَ خَرَجوا إلى مكةَ، واتَّفَقوا معَ المُشْرِكينَ، ثم لم يُغْنِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ في اللَّوحِ المحفوظِ ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقَتْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ قالَ هذا في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنهمْ يَموتونَ على الكُفرِ، وما رُوِيَ أنَّ أحداً منهمْ ماتَ على الإسلامِ فيكونُ فيهِ دلالةٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُخبِرُ ذلكَ بالوَحْيِ والتَّنزيلِ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يَحتَمِلُ أوجهاً ثلاثةً[2]:

أحدُها: أنْ يكونَ[3] هذا العذابُ في الآخِرَةِ بسببِ أنهمْ شاقّوا اللهَ ورسولَهُ. ثم المُشاقَّةُ والمُعاداةُ والمُحادَّةُ والمُضادَّةُ بمنزلةٍ واحدةٍ، وذلكَ كلُّهُ بِمَعْنى المُعاداةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ؛ ووجهُهُ أنْ يقولَ: إنَّ اللهَ شديدُ العقابِ لِمَنْ يُشاقِقُ اللهَ ورسولَهُ، ويكونَ فيهِ إضمارٌ؛ كأنهُ يقولُ: إنَّ عقوبتَهُ لِمَنْ يُشاقِقُ اللهَ ورسولَهُ شديدةٌ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وما ذُكِرَ أنَّ اليهودَ نادَوُا المسلمينَ أنكُمْ تَزْعُمونَ أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفسادَ، وأنتمْ تُفْسِدونَ بِقَطْعِ النخيلِ، لا يَحْتَمِلُ هذا.

قالَ اللهُ تعالى قَبْلَ [ذلكَ][4]: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإذا كانَتْ أنفسُهُمْ تَسْخى بِتَخريبِ البيوتِ فما بالُها لا تَسْخَى بِقَطْعِ الأشجارِ؟

ومَعلومٌ أنهُ لا يُؤَمَّلُ في البيوتِ مَنْفَعَةٌ بعد تَخريبِها، وقد يُؤَمَّلُ في النخيلِ مَنافعُ بَعدَ قَطعِها. ولكنْ إنْ كانَ يَصِحُّ ذلكَ الخَبَرُ فتأويلُهُ عندنا أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ المُسْلِمونَ خَوَّفوهُمْ بالقَتْلِ، فقالوا على إثْرِ ذلكَ: إنكُمْ إذا قَتَلْتُمونا صارتْ هذهِ النَّخْلُ مُلْكاً لكُمْ، فكيفَ تُفْسِدونَ أملاكَكُمْ؟.

ثم في إذنِ اللهِ بِقَطْعِ النخيلِ أوجهٌ[5] مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: أنْ يكونَ فيهِ بَيانٌ أنَّ مُقاتَلَةَ المُسْلِمينَ إياهُمْ لم تَكُنْ لِرَغْبةٍ في أموالِهِمْ بل لِيَسْتَسْلِموا للهِ ولرسولِهِ ويَخْضَعوا لِدينِهِ.

والوجهُ الثاني: أنَّ حُرْمَةَ هذهِ الأموالِ إنما هي لِحُرْمَةِ أربابِها، وأُبيحَ قَتْلُهُمْ وإتلافُهُمْ، فما ظَنُّكَ بأموالِهِمْ؟

والوجهُ الثالثُ: أنَّ اللهَ ﷻ كَتَبَ عليهمُ الجلاءَ، ومَعْلومٌ أنَّ أنفسَهُمْ بالجلاءِ إذا خُرِّبَتْ بيوتُهُمْ، وقُطِعَتْ أشجارُهُمْ أسْخَى منهُ إذا بَقِيَتْ؛ لِيَقْطَعَ طَمَعُ مَنْ أُجلِيَ عنِ المُقامِ. فَأَذِنَ اللهُ تعالى في قطعِ النَّخيلِ إتماماً / ٥٥٩ ـ ب/ لِما كَتَبَ عليهمْ مِنَ الجلاءِ، واللهُ أعلَمُ.

[والوجهُ][6] الرابعُ: أنَّ هؤلاءِ كانوا أئمةَ اليهودِ والتَّحريفِ والتَّبديلِ للتوراةِ، إنما وَقَعَ منهمْ رغبةٌ في الدنيا وسَعَتِها، فأذِنَ اللهُ تعالى في قَطعِ النخيلِ عقوبةً لهمْ وخِزْياً مِنَ الوجهِ الذي وَقَعَ لهُ التَّبديلُ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إنْ كانَ المُرادُ منهُ العِلْمَ فوجهُهُ أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بالقَطْعِ والتَّرْكِ جميعاً، وإنْ كانَ المُرادُ منهُ المَشيئةَ فهو أنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ الأمْرَيْنِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) لم يذكر المؤلف أبو منصور إلا وجهاً واحداً. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أوجهاً. (٦) ساقطة من الأصل وم.

واللِّينَةُ اللَّونُ مِنَ النخيلِ كما تقولُ: قُوتٌ وقِيتَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لِيكونَ كَبْتاً وغَيظاً للفاسِقِينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ قالَ: حَقُّ هذهِ الآيةِ أنْ تكونَ مُؤخَّرَةً، وأنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ مُتقدِّماً[١] لوجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ ذَكَرَ فيهِ الواوَ، والواوُ لا يُبْتَدَأُ بها إلّا في القَسَمِ.

والثاني: أنّ قولَهُ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ [والواوُ][٢] حرفُ كِنايةٍ، والكِنايةُ لا بُدَّ لها مِنْ مَعْرِفةٍ، تُعْطَفُ عليها، فَيَرْجِعُ إليها. فلذلكَ قُلْنا: إنّ حَقَّهُ التّأخيرُ، وحقّ الثانيةِ التّقديمُ. وعلى ذلكَ قراءةُ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ.

وإذا كانَ كذلكَ فوجْهُهُ أنّ الذي وجَبَ صَرْفُهُ إلى الأصنافِ إنما هو الخُمُسُ، وأوجبَ ههنا مِنْ كلِّ الغَنيمةِ، فأبانَ بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أنه إنما تُصْرَفُ هذهِ أربعةُ[٣] الأخماسِ إلى النَّبيِّ ﷺ دونَهُمْ لهذا المَعْنَى أنهمْ لم يُوجِفوا عليهِ مِنْ خَيلٍ ولا رِكابٍ؛ أشارَ إلى أنّ اسْتِحْقاقَهُمْ أربعةُ[٤] الأخماسِ بسببِ إيجافِ الخَيلِ والرِّكابِ.

وإنْ كانَتِ القراءةُ على ما يُتْلَى للحالِ، ليسَتْ على التّقديمِ والتّأخيرِ فإنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

وإنْ كانَ بِناءً على ذلكَ اسْتَقامَ أنْ يُذْكَرَ بِحَرْفِ الواوِ [وهو][٥] حَرْفُ الكِنايةِ.

قالَ ﷺ: المنافقونَ[٦] وأهلُ الضَّعْفِ مِنَ المؤمنينَ الذينَ آمنوا بالتّقليدِ يَظُنّونَ في هذا المَوضِعِ أنْ كيفَ خَصَّ هذهِ الغنيمةَ قرابَتَهُ والمهاجرينَ الذينَ هاجَروا إليهِ؟ وكيفَ آثَرَ بها نفسَهُ؟ والجوابُ عَنْ هذا أنّ هؤلاءِ الأصنافَ قومُ عامّةِ المُسْلِمينَ، تَحَمَّلَ مَؤونَتَهُمْ لولا هذهِ الغنيمةُ.

ومعلومٌ أنّ أنفُسَ المسلمينَ بِبَذْلِ ما عليهِمْ مِنْ تلكَ الأمانةِ أسْخَى منهُ لو صُرِفَ إلى كلِّ واحدٍ منهمْ على الإشارةِ إليهِ مِنْ مُلْكِهِ الخاصِّ.

وعلى هذهِ العِبارةِ تَجْري مسائلُ لنا:

أحَدُها: ما رُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ أنهُ جَعَلَ العَقْلَ على أهلِ الديوانِ لأنّ ذلكَ يُخْرَجُ مُخْرَجَ المَؤونةِ.

ومعلومٌ أنّ المَؤونةَ على عامّتِهِمْ، فَبَذْلُ ما رَجَعَ مِنْ هذا الحقِّ إلى تلكَ العامّةِ أسْهَلُ عليهِمْ، لو صُرِفَ إلى خاصّتِهِمْ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ [الممتحنة: ١١].

ومَعْلومٌ أنّ مَنْعَ تلكَ الزوجةِ عنْ أنْ يُذْهَبَ إلى الحربِ بشيءٍ مِنْ مالِ زَوجِها كانَ واجباً على العامةِ، وكذلكَ المسلمونَ إذا أصابوا غنيمةً، وفيها مالُ مُسْلِمٍ، قد غَلَبَ عليها المشركونَ[٧]، أنهُ ما دامَ المُلْكُ للعامّةِ، ولم يُقَسَّمْ، يُرَدُّ عليهِ مِنْ غيرِ بَدَلٍ. وإذا قَسَّموا، واخْتَصَّ كلُّ واحدٍ بِمُلْكِهِ لم يَأخُذْهُ إلّا بِبَدَلٍ، فكذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ الفقيهُ، رَحِمةُ اللهِ عليهِ: والذي يَجِبُ مِنْ جِهةِ العُرْفِ والشريعةِ أنْ يكونَ تَحَمُّلُ مُؤنةِ رسولِ اللهِ ﷺ على أُمّتِهِ. أمّا مِنْ جِهةِ العُرْفِ فهو أنّ مَنْ عَمِلَ لِغَيرِهِ كانَتْ مُؤْنَتُهُ على ذلكَ العَوْلِ لهُ، وكذلكَ مِنْ جِهةِ الشريعةِ.

ومعلومٌ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقومُ بأمورِ أمّتِهِ في أمورِ دنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ. وإذا كانَ الأمْرُ على ما ذَكَرْنا [كانَ][٨] أولَى ما يُجْعَلُ لرسولِ اللهِ ﷺ هو مالُ العامّةِ، وذلكَ هو الفَيءُ. هذا لوِ اخْتَصَّهُ النَّبيُّ ﷺ لنفسِهِ. فكيفَ وقد قَسَّمَهُ بَينَ الفقراءِ وأهلِ الحاجةِ، ولم يُوجِدْهُ لِنَفْسِهِ؟

---

(١) في الأصل وم: متقدمة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأربعة. (٤) في الأصل وم: الأربعة. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: المنافقين. (٧) من م، في الأصل: المشركين. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

ووجهٌ آخرُ في هذا ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أُحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي» [البخاري ٣٣٥] وقالَ: «نُصِرْتُ بالرعبِ مَسيرَةَ شَهرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] فلوِ اختصَّ ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ جازَ لهُ بما قالَ، ولكنَّ اللهَ جَعَلَ الفَيءَ لهُ بَينَ مَنْ كانَ تَحمُّلُ مُؤْنَتِهِمْ على المسلمِينَ لولا هذا الفيءُ كي تكونَ المِنَّةُ لهُ على أمتِهِ ولئلا يكونَ لأحدٍ منْ أمَّتِهِ عندَهُ ﷺ يَدٌ ولا صَنيعةٌ، واللهُ أعلَمُ.

ووجهٌ آخرُ: أنهُ لم يُؤْذَنْ لرسولِ اللهِ ﷺ في كَسْبِ شيءٍ منَ الدنيا وفُضولِها حتى يَصْطَنِعَ مِنْ فُضولِها بالمعروفِ، فَجَعَلَ اللهُ لهُ الفَيءَ لِيَكْتَسِبَ بِهِ الفضائلَ والمعروفَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ ﷺ: «نُصِرْتُ بالرعبِ مَسيرَةَ شَهرَينِ» دلالةٌ أنَّ ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ، وأعطاهُ، فهو لهُ خاصَّةً، يَصْنَعُ بِهِ ما شاءَ، ويُفَرِّقُهُ في مَنْ شاءَ.

والقولُ عندَ أصحابِنا في الإمامِ إذا أعطاهُ أهلُ الحَرْبِ أنْ يُشرِكَ[1] فيهِ قومُهُ لأنَّ هِبَةَ الأئِمَّةِ إنما هي لقومِهِمْ، وكانَتْ هِبَةُ رسولِ اللهِ ﷺ بما نُصِرَ بالرُّعبِ، فجازَ أنْ يَختَصَّ لنفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني رَدَّ اللهِ على رسولِهِ مِنْ مُلْكِ الكَفَرَةِ، أو ما أعطَى اللهُ رسولَهُ مِنْ مُلْكِ الكَفَرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ [أهلُ][2] القُرَى قد أعطَوهُ، أو يكونُ هذا[3] بِشارةً لرسولِ اللهِ ﷺ في فَتحِ القُرَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ الظاهِرَ مِنْ هذهِ الآيةِ أنْ يكونَ المُرادُ منها قرابَةَ رسولِ اللهِ ﷺ.

وأمّا في قولِهِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] فَقَرابةُ رسولِ اللهِ ﷺ إنما تَدْخُلُ في هذهِ الآيةِ بالتأويلِ. وذلكَ أنَّ المَفهومَ مِنْ ذِكرِ القرابةِ إنما هو قرابةُ المُخاطَبِينَ في الآيةِ.

ومَعْلومٌ أنَّ الخِطابَ في القِسْمَةِ إنما هو لِلْمُغْتَنِمينَ، وفي قولِهِ ﷻ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ إنما هو يُفْهَمُ منهُ قرابةُ الرسولِ ﷺ وأمّا سَهْمُ ذي القُرْبَى فإنَّ أصحابَنا يَسْلُكونَ في ذلكَ مذهَبَينِ:

منهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ هذا الحقَّ في الأصلِ لِلْمُحتاجينَ مِنَ القرابةِ لوجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. كانَ المُرادُ منهُ مُنْصَرِفاً إلى المُحتاجينَ، فكذلكَ في القرابةِ[4].

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الخُمُسَ كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ يَصِلُ بهِ قرابَتَهُ. فلمّا قُبِضَ ﷺ انْقَطَعَ ذلكَ الحَقُّ لِوجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ ﷺ: «إنا معاشِرَ/ ٥٦٠ ـ أ/ الأنبياءِ لا نُورَثُ؛ ما تَرَكْنا صَدَقةٌ» [بنحوه النسائي ٧/ ١٣٢ والتمهيد ٨/ ١٧٥].

والثاني: أنهمْ إنما كانوا يَستَوجِبونَهُ برسولِ اللهِ ﷺ فإذا قُبِضَ انْقَطَعَ ذلكَ الحقُّ على سبيلِ انْقِطاعِ الحقوقِ عن أصحابِها[5] عندَ وفاتِهِمْ.

ثم الفائدةُ في مَنْعِ ما كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ عنِ الوِراثةِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَسْتَعْمِلُ نفسَهُ في شيءٍ مِنْ لَذّاتِ الدنيا وشَهَواتِها، وكانَ قائماً للهِ تعالى خالصاً. فإذا كانَ كذلكَ جازَ أن تكونَ حقيقةُ المُلْكِ فيهِ لِمَولاهُ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: اليسَتِ[6] الأملاكُ كلُّها للهِ تعالى؟ قيلَ لهمْ: نعمْ غَيرَ أنَّ الإضافةَ قد تكونُ خصوصيةَ حالٍ كقولِهِ تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] [وقولِهِ تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٦]][7].

---

(١) في الأصل وم: يشترك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هذه. (٤) لم يذكر المؤلف الوجه الثاني. (٥) في الأصل وم: أصحابنا. (٦) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وبيت الله.

ووجهٌ آخَرُ ما كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ محبوسٌ عليهِ إلى يوم القيامةِ. ألا ترَى أنَّ زَوجاتِهِ مَحْبوساتٌ عليهِ، لا يَحْلِلْنَ لأحدٍ بَعدَهُ؟ ونُبُوَّتَهُ عليهِ لم تَتَحوَّلْ بَعدَهُ إلى غيرِهِ؟ جازَ أيضاً أنْ تُوَقَّفَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

ومَعلومٌ أنَّ ما كانَ مَوقوفاً فَسبيلُهُ التَّصَدُّقُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ له مَعْنَيانِ:

أحَدُهما: أنهُ لو لم يُبَيِّنْ هذهِ المواضِعَ لَكانَ ذلكَ الخُمُسُ الذي كانَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ يَخلُفُهُ فيهِ الخُلَفاءُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيَتداوَلُهُ الأغنياءُ بَينَهُمْ.

ومَعْنًى آخَرُ: لو فُرِّقَ هذا بَينَ الفقيرِ والغَنِيِّ لَكانَ حينَ يَقَعُ هذا في [يدِ الغنيِّ][1] كانَ يَكْسِبُ[2] بِهِ فُضولَ الدنيا، وأمّا الفقيرُ فأوّلُ [ما][3] يَقَعُ في يَدِهِ يَسْتَمْتِعُ بهِ في مَنافعِ [نفسِهِ][4] فلذلكَ فُرِّقَ في الفقراءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الدُّولةُ، هي اسمٌ للذي يَدولُ بَينَ الناسِ، والدَّولَةُ واحدةٌ، وهي فَعْلَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ يعني ما أعطاكُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ هذهِ الغَنيمةِ فَخذوهُ، ولا تَظُنّوا بِهِ ظَنّاً مكروهاً ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ ليسَ [نَهْيَ][5] زَجْرٍ وشريعةٍ، ولكنْ نَهْيُ مَنْعٍ، وما مُنِعَ مِنكُمْ مِنْ هذا الفيءِ فانتَهُوا عنهُ.

وعلى قراءةِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَى الأمرِ ومَعْنَى الإعطاءِ، أي ما آتاكُمْ مِنَ الدنيا فَخُذوهُ، وما نهاكُمْ مِنَ الدنيا عنهُ؛ يعني زَجَرَكُمْ عنهُ.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: ويَرْوي[6] عامّةُ الفقهاءِ [ما يَحْتَجّونَ][7] بهذهِ الآيةِ في مَوضعٍ معَ لَفظِ الإيتاءِ، وليسَ يُوجِبُ ظاهرُهُ هذا؛ إذِ الإيتاءُ هو الإعطاءُ والتَّمْليكُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣ و. .] ولكنَّ وَجهَ الاحتِجاجِ بهِ أنَّ اللهَ تعالى لمّا أمرَنا بأخذِ مَعروفِهِ ﷺ وإنْ كانَ في أخذِ المَعْروفِ مِنْ غَيرِهِ ﷺ خِيارٌ، فَلأَنْ الزامَنا[8] الأخذَ بأمرِهِ والاتِّباعَ لهُ أحرَى وأولَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا يُؤَكِّدُ ما ذَكَرَ مِنِ اتِّباعِ أمْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، وما يَنْسُقُ عليهِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية: ٩] وقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ [الآية: ١٠] الآيات. ظاهرُ هذا يَقْتَضي إيجابَ حقٍّ لهمْ، لأنهُ إذا قيلَ لِفلانٍ، لم يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ يُقالَ: كذا وكذا. وإذا كانَ كذلكَ لم يكُنْ بُدٌّ مِنْ حقٍّ يُذْكَرُ لهُمْ، ولا يَحْتَمِلُ أيضاً أنْ يُخْفِيَ اللهُ تعالى عِلْمَ ذلكَ الحَقِّ الذي أوجَبَ لهذهِ الأصنافِ عنْ خَلْقِهِ، فالسبيلُ في ذلكَ مِنْ جِهَةِ التأويلِ عندَنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنْ جوابِ: لِمَنْ؟ فقالَ[9]: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الرسولُ ﷺ سَأَلَ رَبَّهُ، جَلَّ، وعَلا، [عنْ][10] جوابِهِ: لِمَنْ؟ فأخبَرَ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

ثم إنهُ يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ الحَقُّ ما وُظِّفَ مِنَ الخَراجِ على أهلِ القريةِ إذا فُتِحَتْ، وهو ما رُوِيَ عنْ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ﷺ أنهُ قالَ لِعَلِيٍّ وابْنِ مَسْعودٍ ﷺ حينَ فَتَحَ سَوادَ الكوفةِ: إني [كُنْتُ سأَسْتَشيرُكُمْ][11] في أمْرٍ قد أغناني اللهُ تعالى عَنْ مَشُورَتِكُمْ حينَ تَلَوتُ هذهِ الآيةَ، ثم تَلا قولَهُ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ثم قالَ: لِهؤلاءِ خاصّةً، وتَلا قولَهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ثم قالَ: ليسَ هؤلاءِ خاصّةً، وتَلا قولَهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾.

ورُوِيَ أنَّ بِلالاً قالَ لهُ: اقْسِمْ بينَنا كما قَسَمَ رسولُ اللهِ ﷺ خَيبَرَ بَينَ أهلِ العَسْكَرِ، وقالَ: اللهمَّ اكْفِني بِلالاً وأهلَهُ. ثم قالَ عُمَرُ ﷺ: لو قَسَمْتُها بينَكُمْ لَتَرَكْتُ آخِرَ عِصابةٍ في الإسلامِ لم تُصِبْ مِنْ هذهِ.

---

(١) في الأصل وم: بيده. (٢) في الأصل وم: يكتب. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ويرى. (٧) في الأصل: يجتمعون، في م: يحتجون. (٨) في الأصل وم: يلزمنا. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أستشيركم.

وأخبرَ اللهُ تعالى [رسولَهُ](١) بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أنهمْ شُرَكاءُ هؤلاءِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ عُمَرُ ﷺ حينَ تَلَا هذهِ الآياتِ تَذَكَّرَ خَبَراً أَخْبَرَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ لِيُعْلِمَ(٢) أنَّ الحَقَّ الذي أوجَبَ اللهُ تعالى لهؤلاءِ ذلكَ.

أو يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى بِلُطْفِهِ أَلْهَمَهُ وعَلِيّاً وابْنَ مَسْعودٍ ﷺ لأنهُ رُوِيَ أنهما أشارا عليهِ بذلكَ.

ولِذلكَ قالَ أصحابُنا: إنَّ الإمامَ إذا فَتَحَ قريةً مِنْ قُرَى أهلِ الحَرْبِ، فهو فيها بالخِيارِ؛ إنْ شاءَ قَسَمَها بينَ أهلِها، وَوَظَّفَ عليهمُ الخَراجَ، وإنْ شاءَ قَسَمَها بَيْنَ أهلِ العَسْكرِ. وإنما كانَ ذلكَ لأنَّ المَقْصودَ مِنَ المُقاتَلَةِ أحدُ مَعْنَيينِ.

إمّا تَوسيعُ أمكنةِ الإسلامِ [خوفاً](٣) أنْ تَضيقَ [وإمّا تَضييقُ](٤) المكانِ بهمْ [لِيَسْتَسْلِمَ أهلُ القُرَى](٥) لدينِ اللهِ، وينْقادوا لأمرِهِ(٦)، ويَنْظُروا في حُجَجِهِ [فلا تَصيرُ](٧) مُقاتَلَتُهُمْ عُقوبةً لِكُفْرِهِمْ(٨)، بل لِما وَصَفْنا مِنَ المَعْنَى، وهذا المَعْنَى قد يُسْتَفادُ إذا وُظِّفَ(٩) عليهمُ الخراجُ.

ولو فَهِمَ بلالٌ ﷺ المَعْنَى الذي لأجلِهِ(١٠) قَسَمَ رسولُ اللهِ ﷺ خَيبَرَ بَينَهُمْ لم يَقِسْ أَمْرَ سَوادِ الكوفةِ عليهِ.

والمَعْنَى مِنْ قِسْمَتِهِ ﷺ خَيبَرَ بَيْنَهُمْ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، هو أنَّ المسلمينَ لمّا صُدّوا عنِ الحُدَيْبِيَةِ بَشَّرَهُمُ اللهُ بِفَتْحٍ قريبٍ عِوَضاً عمّا نالَهُمْ في ما أصابَهُمْ.

وأمّا سَوادُ الكوفةِ فلم يكُنْ فيها شيءٌ مِنْ هذا المَعْنَى، فلم يَجُزْ أنْ يكونَ أمْرُهُ مَقيساً عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ المُجاهِدينَ المُقاطِعينَ لأسبابِ عيشِهِمْ مِنَ الأموالِ والديارِ، أي لهمْ هذا الحقُّ الذي سَبَقَ وصفُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ لم يُخْرِجوهُمْ مِنْ ديارِهِمْ في الحقيقةِ، ولكنهمْ ضَيَّقوا عليهمْ حتى خَرَجوا، فإذَنْ أُضيفَ الإخراجُ [إليهمْ إذْ](١١) كانوا أسباباً في خُروجِهِمْ. وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: ٣٦].

فإبليسُ لم يَتَوَلَّ إخراجَهُما مِنَ الجنةِ، ولكنهُ حَرَّضَهُما على سَبَبِ خُروجِهِما(١٢)، فلم يَسْتَقِرّا بعدَهُ في ذلكَ المكانِ، فأُضيفَ الفِعْلُ إليهِ.

وقد وَصَفْنا هذهِ الأفعالَ إذا أُضيفَتْ إلى العِبادِ فإنما المَعْنَى: ذلكَ بأسبابٍ(١٣) تكونُ منهمْ، لا حَقيقةُ تلكَ الأفعالِ. وما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى مِنْ ذلكَ فهو يَحْتَمِلُ الأمْرَينِ جميعاً: الحقيقةَ والسببَ في ذلكَ؛ لأجلِ أنَّ العبدَ لا يُمْكِنُهُ أنْ يُقْدِرَ آخَرَ على فِعْلٍ في وَقْتِ فِعْلِهِ إلّا على السببِ. فأمّا ربُّ العالَمينَ فإنهُ قادرٌ على إقدارِ العبدِ على فِعْلٍ وَقْتَ فِعْلِه. فلذلكَ قُلْنا: إنهُ يجوزُ أنْ تُرادَ حقيقةُ الفِعْلِ في ما يُضافُ إلى اللهِ تعالى، وهو المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ يدلُّ على أنها كانَتْ لهمْ بمكةَ ديارٌ وأموالٌ ثم معَ هذا لم يُرْوَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ /٥٦٠ ـ ب/ رَدُّ شيءٍ مِنْ ديارِهِمْ عليهمْ بَعْدَ فَتْحِ مكةَ، ولا تَضْمينُ أولئكَ شيئاً مِنْ أموالِهِمْ لِيُعْلَمَ أنَّ أهلَ الحربِ إذا غَلَبوا على أموالِ المُسْلِمينَ مَلَكوها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني أنهمْ هاجَروا لدينِهِمْ، وانْقَطعوا عنْ أسبابِ عَيشِهِمْ مِنَ الأموالِ يَبْتَغونَ الرزقَ مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ دلَّ أنَّ هذا الحقَّ لِلمجاهدينَ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهينَ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيعلم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو يضيق. (٥) في الأصل وم: ليستسلموا. (٦) في الأصل وم: الأمر. (٧) في الأصل وم: وليست. (٨) في الأصل وم: كفرهم. (٩) في الأصل وم: وظفت. (١٠) في الأصل وم: لأجل. (١١) في الأصل وم: إذا. (١٢) في الأصل وم: إتيانه. (١٣) الباء ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: يَنصُرونَ رسولَ اللهِ ﷺ وذِكْرُ ﴿ٱللَّهَ﴾ صِلَةٌ.

والثاني: يَنصُرون دينَ اللهِ، ويُطيعونَ رسولَهُ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ يعني الذينَ أظهَروا صِدْقَ الإيمانِ مِن قلوبِهِمْ بِهِجْرَتِهِمْ وسَعْيِهِمْ إلى ما يُزْلِفُهُمْ إلى اللهِ تعالى، ويُقَرِّبُهُمْ[1] إليهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ يعني الذينَ اتَّخذوا دياراً واسعةً تَسَعُهُمْ والمُهاجرينَ، وهُمُ الأنصارُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أي آمَنوا قَبْلَ هجرةِ هؤلاءِ لكي يأمَنَ هؤلاءِ المهاجرينَ مَنْ أحَبَّهُمْ، ولا يخافونَ شَرَّهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني مِنْ قَبْلِ الهجرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني أنَّ اللهَ تعالى ألْقَى مَحَبَّتَهُ [في قلوبِهِم][2] حتى أنْزَلوا المُهاجرينَ دِيارَهُمْ، وأنفَقوا عليهِمْ أموالَهُمْ ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا قَسَّمَ خيبَرَ بينَ المُهاجرينَ، وتَرَكَ الأنصارَ، ولم[3] يُقْسِمْ بينَهُمْ، لم يَجِدِ الأنصارُ في قُلوبِهِمْ حاجةً ممّا أعْطَى المُهاجرينَ؛ يعني أنَّ اللهَ تعالى أغنَى قلوبَهُمْ حتى لا يُفَكِّروا في حاجةٍ ولا فَقْرٍ البَتَّةَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المعنَى مِنَ الحاجةِ ههنا الغِلَّ والحَسَدَ؛ يعني أنَّ اللهَ تعالى طَهَّرَ قلوبَهُمْ حتى لم يجدوا في صدورِهِمْ حاجةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يُؤثِرونَ على أنفسِهِمْ في أملاكِهِمْ أنهمْ لا يَجِدونَ بما يَبْذُلونَ مِنْ حاجةٍ مِمّا يَمْلِكونَ، ويُؤثِرونَ المُهاجرينَ على أنفسِهِمْ، ولو كانَ بهِمْ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ في طَبْعِ البَشَرِ مَحَبَّةَ المَحاسِنِ والمَنافِعِ والطَّلَبِ لها ويُبْغَضَ المَساوِئِ والمَضارِّ والهَرَبَ عنها. ثم إنهُ امْتَحَنَهُمْ بالإنفاقِ ممّا يُحِبّونَ وحَمْلِ النفسِ على ما يَكْرَهونَ طَلَباً لِنَجاتِهِمْ وتَوَصُّلاً إلى ثوابِهِمْ. ثم تكونُ وقايةُ الأنفسِ مِنَ الشُّحِّ بوجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَمُنَّ اللهُ على عبدِهِ لِيَصيرَ ما هو غائبٌ عنهُ مِنَ الثوابِ في الأجلِ كالشاهدِ، فيُخَفِّفَ عليهِ الإنفاقَ ممّا يُحِبُّ، ويَصيرَ ذلكَ كالطَّبْعِ لهُ.

والثاني: يُوَفِّقُهُ اللهُ تعالى، ويَعْصِمُهُ، ويُلْهِمُهُ تَعظيمَ أمْرِهِ ونَهْيِهِ حتى يَقْهرَ نفسَهُ، ويَحْمِلَها على الإئتِمارِ بأمْرِ اللهِ تعالى والإنْتِهاءِ عمّا نَهَى عنهُ، وإنْ كانَ طَبْعُها على خِلافِ ذلكَ.

ثم إضافةُ الوقايةِ إلى نفسِهِ تَدُلُّ على أنهُ قد بَقِيَ في خزائنِهِ شيءٌ، لم يُؤتِهِ عبدَهُ حتى يَصِفَ نفسَهُ بأنهُ بَقِيَ عندَهُ شُحُّ نفسِهِ، ولولا ذلكَ لم يكُنْ لِوَعْدِهِ بِوِقايةِ نفسِهِ عنْ شُحِّها مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يعني الباقونَ في النعيمِ، والفلاحُ في الحقيقةِ، هو البقاءُ في النَّعيمِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية؛ قد عَلِمَ اللهُ تعالى أنهُ قد يكونُ في أُمَّةِ محمدٍ ﷺ مَنْ يَلْعَنُ سَلَفَهُ حتى أمَرَهُمْ بالاسْتِغْفارِ لهمْ.

وفيهِ دلالةٌ على فَسادِ قولِ الرَّوافِضِ والخوارجِ والمعتزلةِ:

لأنَّ الروافِضَ من قولِهِمْ: إنَّ القومَ لما وَلَّوْا الخلافةَ أبا بكرٍ ﷺ كَفَروا، ومِنْ قولِ الخوارجِ: إنَّ علياً ﷺ كَفَرَ بِقِتالِهِ مُعاويةَ وأصحابَهُ. فقالتِ المعتزلةُ: إنَّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الحَقِّ في القِتالِ خَرَجَ عنِ الإيمانِ.

ولو كانَ ما ارْتَكبوا مِنَ الزَّلاتِ، يُكَفِّرُهُمْ، ويُخْرِجُهُمْ عنِ الإيمانِ لم يكُنْ لِلاسْتِغْفارِ لهمْ مَعْنىً، لأنَّ اللهَ تعالى نَهَى

---

(١) في الأصل وم: ويقرب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم.

عنِ الاسْتِغفارِ للمشركينَ. فإذَنْ أذِنَ ههنا بالاسْتِغْفارِ ليُبيِّنَ[1] بهذا أنَّ ما ارْتكَبوا مِنَ الذنوبِ لم يُخرِجْهُمْ مِنَ الإيمانِ، ولأنهُ أبْقى الأخوَّةَ في ما بَينَهُمْ معَ عِلْمِنا أنهُ لم يكُنْ بَينَ الآخَرينَ والأوَّلِينَ أُخوَّةٌ إلّا في الدينِ، فلولا أنهمْ كانوا مؤمنينَ لم يكُنْ لإبْقاءِ الأخوَّةِ مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ، ولأنهُ قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولو كانَ ذلكَ يُخرِجُهُمْ مِنَ الإيمانِ لم يكُنْ لهذا الدعاءِ مَعْنًى، لأنَّ الواجبَ أنْ يكونَ في قلوبِ المؤمنينَ عداوةٌ للكفارِ ومَقْتُهمْ.

فلمّا نَدَبَ، جَلَّ ثَناؤُهُ، في هذهِ الآيةِ إلى نَفْيِ الغِلِّ والحَسَدِ عنْ قُلوبِهِمْ بِتلكَ الدعوةِ ثَبَتَ أنهمْ كانوا مؤمِنينَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في الأمرِ بالاسْتِغْفارِ دلالةُ أنهمْ كانَتْ منهمْ ذنوبٌ يَسْتوجِبونَ بها العقوبةَ لولا فَضْلُ اللهِ ومَغْفِرَتُهُ، وإنْ كانوا في ما يَتعاطَونَهُ مُجْتهِدينَ لِيُعْلَمَ أنهُ ليسَ كلُّ مجتهِدٍ مُصيباً[2].

ثم قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَعني عداوةً؛ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ المؤمنينَ الذين سَبَقوهُمْ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في كلِّ المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرحمةُ مِنَ اللهِ تعالى فَضْلٌ منهُ على عبادِهِ وإحسانٌ إليهِمْ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] [إذْ أخبَرَ][3] أنَّ رَحْمَتَهُ هِبَةٌ منهُ وإحسانٌ إلى عبدِهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

ثم الاسْتِغْفارُ في حالِ الحياةِ لهُ مَعْنيانِ:

أحَدُهما: طَلَبُ السببِ الذي إنْ جاءَهُ اسْتوجَبَ المَغْفِرَةَ.

والثاني: حقيقةُ المَغْفِرَةِ.

وفي حالِ الوفاةِ ليسَ إلّا طَلَبَ عَينِ المَغْفِرَةِ.

فلمّا نَدَبَ، جَلَّ، وعلا، إلى الاسْتِغْفارِ لهمْ بَعْدَ وفاتِهِمْ، وحالُ الاسْتِغْفارِ بَعْدَ الوفاةِ على ما وَصَفْنا لا يَتَوجَّهُ إلّا على حقيقةِ المَغْفِرَةِ، ثَبَتَ أنَّ ذنوبَهُمْ لم تُخرِجْهُمْ [مِنَ الإيمانِ][4] لأنهُ لو كانَ مِنْ حُكمِهِ، جَلَّ ثَناؤُهُ، ألّا تَحِلَّ مَغْفِرَتُهُمْ، إذا ارْتكَبوا الكبيرةَ، لم يَكُنْ في الأمرِ بالاسْتِغْفارِ لهمْ حِكْمةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: إنهُ ليسَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ما يَدُلُّ على أنهُ يَجْعَلُ في قلوبِهِمْ [غِلّاً][5] لأنهُ إذا قيلَ: لا تَفْعَلْ بفلانٍ[6] شيئاً لم يُفْهَمْ بِهِ أنهُ يَفْعَلُهُ إذا أحَبَّ.

ولكنْ يُجابُ عنْ هذا أنهُ ذَكَرَ اللهُ تعالى نصّاً في آيةٍ أُخرَى ما يَدُلُّ على جَعْلِ العداوةِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

فإنْ قالَ: تأويلُهُ أنهُ أغرَى[7] بَينَهمُ العداوةَ[8] لا أنهُ جعَلَها، قُلْنا: غَيرُ مُحْتَمَلٍ أنْ يَخلُقَ اللهُ تعالى العداوةَ في قلوبِهِمْ مِنْ غَيرِ فِعْلٍ، يكونُ منهمْ بها. وإنْ كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنهُ يَخْلُقُ هذهِ الأشياءَ وقْتَ فِعْلِ العبدِ لها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ هذهِ الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ حُجَّةَ رسالةِ محمدٍ ﷺ على المُنافقينَ في أنفسِهِمْ، لأنهمْ قالوا هذا القولَ سِرّاً منهمْ إلى أهلِ الكتابِ، لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُظْهِروا مِثْلَ هذا القولِ بَينَ يَدَيِ المؤمنينَ، ولا كانَ الكفارُ يُخْبِرونَ بهذا أحداً مِنَ المؤمنينَ.

فلمّا أخْبَرَ ما قالَ المنافقونَ ثَبَتَ أنهُ ما عَلِمَهُ إلّا عنِ الوَحْيِ والتَّنْزيلِ / ٥٦١ ـ أ/ وذلكَ عِلْمُ نُبُوَّتِهِ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) اللام ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مصيب. (٣) في الأصل وم: فأخبر. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فلاناً. (٧) في الأصل وم: إلى. (٨) في الأصل وم: وبينها.

أحَدُهما: أنهُ يجوزُ أنْ يكونوا قالوا لهمْ هذا على أنْ يكونوا(١) أتباعَهُمْ في القتالِ.

والثاني: أنهمْ قالوا ذلكَ لأهلِ الكتابِ على حُسْبانٍ منهمْ أنَّ الرسولَ ﷺ إذا عَلِمَ بِحالِ هؤلاءِ لم يُخرِجْهُمْ مِنَ المدينةِ خَوفاً أنْ يُقالَ: أخرَجَ أصحابَهُ، وإذا لم يُخرِجْ أولئكَ لم يُخرِجْ أهلَ الكتابِ، ولم يُقاتِلوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يعني لا نُنْظِرُ أحداً فيكُمْ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ يَجوزُ(٢) أنْ يكونوا وَعَدوا نَصْرَهُمْ وهمْ(٣) في قُرًى مُحَصَّنَةٍ. ثم أخبَرَ أنهمْ، وإنْ نَصَروهُمْ، ثم انْهَزَموا، هَرَبوا، وانصَرَفوا(٤) وتَوَلَّوا، ولم يَنْصُروهُمْ بعدَ ذلكَ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ولِقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ يَشْهَدُ عليهمْ بالكَذِبِ، والكَذِبُ إنما يدخُلُ في الأخبارِ؟ وقولُهُمُ الذي قالوا إنما هو وعدٌ منهمْ، فَحَقُّهُ أنْ يُقالَ: إنهمْ لَمُخلِفو الوَعْدِ.

وبِمِثْلِ هذهِ الآيةِ يَحتَجُّ الخوارجُ في تَكفيرِ مَنْ أذْنَبَ ذَنْباً؛ وذلكَ أنهمْ يقولونَ: إنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى فقدِ اعْتَقَدَ ألّا يَعْصِيَهُ، فإذا عصاهُ تَبيَّنَ بِعِصيانِهِ كَذِبٌ في اعْتِقادِهِ، فَكَفَرَ لهذا المَعْنى.

ومِنْ جوابِنا عَنْ هذا: أنَّ قولَ المُنافِقينَ لأهلِ الكتابِ إخبارٌ منهمْ عنْ مُوالاتِهِمْ إياهُمْ، فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهمْ كاذبونَ في ما أخبَروا عنِ المُوالاةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ في هذهِ الآيةِ حُجَّةُ رسالتِهِ على الفَريقَينِ جميعاً؛ وذلكَ أنَّ هذا خَبَرٌ عنِ الغائبِ؛ وذلكَ لا يوصِلُ إلى عِلْمِهِ إلّا بالتعليمِ، ولم يكُنِ النَّبيُّ ﷺ اختلَفَ إلى أحدٍ يُخبِرُهُ، ولمْ(٥) يَلْتَمِسْ شيئاً منْ أحدٍ مِنَ البَشَرِ. فإذا أخبَرَ عمّا يَحدُثُ وعمّا هو غائبٌ ثَبَتَ أنهُ ما قالَ إلّا عنِ الرسالةِ والوَحْيِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: ويجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى ذَكَّرَ المؤمنينَ بهذهِ الآياتِ على ما لَقِيَ الرسولُ ﷺ مِمَّنْ كانَ الواجبُ على ما عليهِ كانَتْ عادتُهُمُ الإحسانَ إليهِ؛ وذلكَ أنهُ كانَ مِنْ عادةِ العربِ المَعونَةُ والنُّصْرَةُ لِمَنْ قارَبَهُمْ في النسبِ والقبيلةِ، وإنْ كانَ ظالماً.

ثم إنَّ اللهَ ﷻ أرسلَ محمداً ﷺ مِنْ بينِ أظْهُرِهِمْ مِنْ قريشٍ، فأظْهَروا لهُ مِنَ العداوةِ ما أظْهَروا حتى هَمُّوا بقتلِهِ، وجَعَلَ محمداً ﷺ حينَ أرسلَهُ حُجَّةً يُظْهِرُ لليهودِ والنصارى وجميعِ أهلِ ما ذُكِرَ في كتابِهِمْ مِنْ بَعْثِهِ وصِفَتِهِ، فَقابَلوهُ بذلكَ ما قابَلوا مِنْ سوءِ الصنيعِ وإظهارِ العَداوةِ. وكانَ هذا كلُّهُ، واللهُ أعلَمُ، حُجَّةً وعلامةً يُعْلَمُ بها أنَّ رسالتَهُ ﷺ [لم](٦) تَظْهَرْ بِمُعاونةِ أحدٍ بل بِنَصْرِ اللهِ وفضلِهِ وتأييدِهِ، واللهُ المُستَعانُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ رهبةُ هؤلاءِ في صدورِهِمْ على التحقيقِ، ويجوزُ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ.

فأمّا وَجْهُ التَّمْثيلِ فهو ما قالَ: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] فأخبَرَ أنهمْ يَعْتَذِرونَ إليهمْ بالحَلْفِ، فيجوزُ أنْ تكونَ معامَلَتُهُمْ هذهِ [في](٧) التمثيلِ معامَلَةَ مَنْ يَرْهَبُهُمْ. فَسَمّى ذلكَ رَهْبَةً في صدورِهِمْ(٨). وهذا نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢ و٣] يَعني: جَمَعَ مالَهُ [جَمْعَ مَنْ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ﴾](٩) ﴿أَخْلَدَهُ﴾ فكذلكَ الأوَّلُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ على التَّحْقيقِ، ولذلكَ أوجُهٌ(١٠) مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: أنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوالاةَ لِكلِّ فريقٍ، وكانَ عندَهُمْ أنَّ اللهَ تعالى وَلِيُّ أحَدِ الفريقَينِ لا مَحالَةَ، وإذا نَجا

---

(١) في الأصل وم: يتكبر. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل وم: نصروا. (٥) في الأصل وم: ولا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: قلوبهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: أوجهاً.

أحَدُ الفَريقَينِ نَجَوا هُمْ. فكأنهمْ على هذا التأويلِ كانوا يَرْهَبونَ الخَلْقَ جميعاً، لا [يَخُصُّ بها][١] المؤمنونَ، وكانوا لا يرهَبونَ اللهَ لأنهمْ أمِنوا ناحِيَتَهُ مِنَ الوجهِ الذي وصَفْنا.

[والثاني][٢]: يجوزُ أنْ تكونَ رهبَتُهُمْ مِنَ المؤمنينَ خاصَّةً؛ وذلكَ أنَّ أهلَ النِّفاقِ إنما كانوا مِنْ أحدِ الصِّنفَينِ:

إمّا إنْ كانوا دَهْرِيَّةً، فنافَقوا، وإمّا إنْ كانوا أهلَ كتابٍ، فنَافَقوا.

فإذا كانوا دَهْرِيَّةً فكانوا لا يَرْهَبونَ اللهَ تعالى لِما كانوا غَيرَ مُقِرِّينَ بالصانعِ، وإنْ كانوا أهلَ كتابٍ فإنهمْ قَدْ أمِنوا أيضاً لِما كانوا يُضيفونَ مِنْ قولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وإذا سَقَطَتِ الرَّهْبةُ مِنْ كِلا الجانِبَينِ مِنَ اللهِ تعالى حَصَلَتِ الرَّهْبةُ مِنَ المؤمنينَ خاصَّةً، واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ][٣] يجوزُ أنْ يكونَ تفسيرُ قولِهِ: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وذلكَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ لا يَفْقَهونَ أنَّ البَلايا التي في الدنيا ونَعيمَها تذكيرٌ بِبلايا الآخِرَةِ ونَعيمِها، وكانوا يَرَونَ أنها جُعِلَتْ لأنفسِها؛ وإذا كانَ هذا وَهْمَهُمْ وحُسْبانَهُمْ لم يَرْهَبوا مِنَ اللهِ تعالى.

والثاني: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ مِنَ الوَعْدِ والوَعيدِ، بل كانَتْ رَهْبَتُهُمْ مِمَّنْ كانوا يَأْمُلونَ منهمُ المَنافِعَ، ويَحْذَرونَ مَضارَّهُمْ، فلا يَرْهَبونَ مِنَ اللهِ تعالى.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: إنهُ لا أحَدَ مِنْ أهلِ الإسلامِ إلّا ورَهْبَتُهُ مِنَ الناسِ أشَدُّ مِنْ رَهْبَتِهِ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنكَ تَرَى الرجلَ يَمْتَنِعُ عنِ الزَّلَّةِ عندَ اطِّلاعِ الناسِ عليهِ ما لا يَمْتَنِعُ عنْ كثيرٍ مِنَ الزَّلاتِ في ما بَينَهُ وبَينَ اللهِ تعالى. والجوابُ عنْ هذا [في وَجْهَينِ][٤]:

أحَدُهما: أنهُ ليسَ بإزاءِ الخوفِ مِنَ الإنسانِ رجاءٌ يَرْجُوهُ، وبإزاءِ رَهْبَتِهِ مِنَ اللهِ تعالى رجاءٌ يَرْجُوهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وإحسانِهِ. فَيَجوزُ أنْ يكونَ الرجاءُ مِنْ رَهْبَةِ اللهِ ورَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ [لا][٥] يَغْلِبُ عليهِ، فَيَقْتَرِفُ الذنوبَ، ويَرْتَكِبُها[٦].

والوجْهُ الثاني: إذا كانَ في ما يَرْتَكِبُهُ مِنَ الذنوبِ شِرْكٌ[٧] فليسَ يهابُهُمْ، وإنما خَوفُهُ مِنْ قومٍ، فيهمْ سِمَةُ الصَّلاحِ وأمارةُ النَّصْرِ لِدينِ اللهِ تعالى، ليسَ مِنْ نفسِ المَخْلوقينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ قولُهُ: ﴿جَمِيعًا﴾ أي لا يُقاتِلُكُمْ أهلُ النِّفاقِ وأهلُ الكتابِ جميعاً معاً، وإنهمْ لَيسوا بِفاعِلينَ ما وَعَدوا لأهلِ الكتابِ مِنَ النَّصْرِ والقتالِ.

[واحتَمَلَ أنْ يكونَ هذا اسْتِثْناءً عنِ القتالِ][٨] واحتَمَلَ أنْ يكونَ اسْتِثْناءً عنِ الوَعْدِ الذي وَعَدوا لأهلِ الكتابِ. فإنْ كانَ عنِ القِتالِ فهو يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ لا يُقاتِلونَ إلّا أنْ يكونوا في قُرًى وحُصونٍ أو مِنْ وراءِ جُدُرٍ، لا يَعْلَمُ بهمْ أهلُ الإسلامِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ مِنَ الوَجْهِ الثاني فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحَدُهما: أنهمْ لا يُوفُونَ ما وَعَدوا مِنَ النَّصْرِ في القتالِ لأهلِ الكتابِ، ولكنهمْ يَلْتَجِئونَ إلى قُرًى مُحَصَّنَةٍ.

ألا تَرَى ما أخْبَرَ اللهُ تعالى فيهمْ في ناحيةِ المسلمينَ: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؟ [الأحزاب: ٢٠] فأخبَرَ أنهمْ قد أظْهَروا المُوالاةَ للمسلمينَ كما أظْهَروا لأهلِ الكتابِ إلى أنْ جاءَ القتالُ: الْتَجَؤوا إلى مكانٍ، يَسْتَمِعونَ مِنْ أخبارِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ النَّحْوِ يجوزُ أنْ يكونَ أهلُ الكتابِ.

والوَجْهُ الثاني: أنهمْ لا يُقاتِلونَ، ولكنهمْ يَدْخُلونَ في قُرًى مُحَصَّنَةٍ، يَتَرَبَّصونَ لِمَنْ يكونُ الظَّفَرُ والعاقبةُ كما أخبَرَ عنهمْ

---

(١) في الأصل وم: أن يختص به. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: وجهان. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ويرتكبه. (٧) في الأصل وم: شركاً. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ / ٥٦١ ـ ب/ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] فأخبرَ اللهُ تعالى أنهمْ يَتَربَّصونَ العاقبةَ، فالتَجؤوا همْ إلى قُرًى مُحصَّنةٍ؛ يجوزُ أنْ يكونَ بهذا التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يقولَ: ﴿بَأْسُهُم﴾ يعني قوتُهُمْ ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ ما لم يَرَوا [عِداءً ظاهراً][1].

[والثاني][2]: يقولُ: ﴿بَأْسُهُم﴾ شديدٌ ما دامَ القِتالُ بَينَهُمْ، لأنهُ ليسَ فيهمْ مَنْ أُكرِمَ [بالنَّصْرِ][3] بالرُّعْبِ مَسيرةَ شهرَينِ[4]. فإذا أُكرِمَ بالرُّعْبِ هذا المِقْدارَ مِنَ المَسيرِ فلا يُحْرَمُ ذلكَ في أهلِ قَرْيَتِهِ.

وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنَّ التأويلَ ما وَصَفْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ لأنَّ هِمَّةَ المُنافقِينَ سلامةُ الأنفُسِ وراحةُ الأبدانِ، وهِمَّةَ أهلِ الكتابِ الذَّبُّ عنِ المَذْهَبِ والسَّعْيُ في إقامتِهِ.

فإذا اختَلَفَتْ هِمَّتُهُمْ ومَقاصِدُهُمْ تَشَتَّتَتْ قلوبُهُمْ؛ وذلكَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] يعني في الهِمَمِ والقلوبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ يَحتَمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ.

أحَدُها: أنهمْ لا يَعْقِلونَ حَقَّ الوَعْدِ والوَعيدِ.

والثاني: أنهمْ لا يَنْتَفِعونَ بما يَعْقِلونَ.

والثالثُ: أنهمْ لا يَعْقِلونَ لِمَنْ تكونُ لهُ العاقبةُ.

وقد وَصَفْنا أنَّ عادَتَهُمْ التَّربُّصُ لِمَنْ يكونُ الظَّفَرُ والعاقِبَةُ؛ فإذا شُبِّهَتْ عليهمُ العاقبةُ، ولم يَفْعَلوها، لم يُوالُوا واحداً مِنَ الفَريقَينِ في الظاهرِ والباطِنِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ الآية. يجوزُ أنْ يكونَ في هذا إضمارُ مَثَلٍ آخَرَ؛ كأنهُ يقولُ: مَثَلُ هؤلاءِ الكفارِ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١]. يعني مَثَلُ محمدٍ ﷺ كَمَثَلِ هؤلاءِ الكفارِ على إضمارِ مَثَلٍ آخَرَ.

ثم التَّمْثيلُ وكَيفِيَّتُهُ يَحتَمِلُ أوجهاً ثلاثةً:

أحَدُها: أنْ يقولَ: مَثَلُ هؤلاءِ الكفارِ الذينَ أساؤوا [صُحْبَةَ][5] رسولِهِ كَمَثَلِ الكفارِ الذينَ أساؤوا [صُحْبَةَ][6] الرسُلِ مِنْ قَبْلِهِ؛ كانَ قريباً أنْ ذاقوا وَبالَ أمْرِهِمْ.

والوجهُ الثاني: أنْ يقولَ: مَثَلُ أهلِ المدينةِ مِنَ الكفارِ حينَ هَمُّوا بإخراجِ الرسولِ مِنَ المدينةِ كَمَثَلِ أهلِ مكةَ حينَ أخرَجوا الرسولَ ﷺ مِنْ مكةَ، وكانَ قريباً حِينَ ذاقوا وَبالَ أمْرِهِمْ مِنَ الأسْرِ والقَتْلِ.

والدليلُ على أنَّ كُفَّارَ المدينةِ هَمُّوا بإخراجِ الرسولِ ﷺ قولُهُ[7] تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء: ٧٦].

[والوجهُ الثالثُ:][8] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ تَخصيصاً لِقَريةٍ أو قَبيلةٍ؛ ووجهُ ذلكَ أنْ يقولَ: مَثَلُ بَني قُرَيظةَ كَمَثَلِ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وهُمْ بَنو[9] النَّضيرِ، وإنْ كانوا قريباً أنْ ذاقوا وَبالَ أمْرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أعداء ظاهرة. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى قوله «نصرت بالرعب مسيرة شهرين» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦]. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: وقوله. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: بني.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا إخبارٌ أنهمْ يَموتونَ على الكُفرِ، وفيهِ دلالةُ رسالتِهِ ﷺ حينَ[1] أخبرَ عنِ الغَيبِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ فكذلكَ المُنافِقونَ يُظْهِرونَ المُوالاةَ والنصرَ، فإذا جاءَ القِتالُ امْتَنَعُوا، وتَبرَّؤوا منهمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ في الآخِرةِ حينَ[2] يقولُ: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويجوزُ أنْ يكونَ في الدنيا، وهو قولُهُ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الأصلُ إذا ذُكِرَتْ حالٌ بينَ العبدِ وبَينَ سَيِّدِهِ لم يَكُنْ بدٌّ مِنْ إضمارٍ يدخُلُ في ذلكَ.

مثالُهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [النحل: ١٢٨] يَعني أنهُ معهمْ في النَّصرِ والمَعونَةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] في التَّوفيقِ والوِلايةِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَتَّقِيَ اللهَ حتى يكونَ مَعَهُمْ في التَّقْوى؛ إذْ ظاهِرُ اللَّفْظِ يَقْتَضي هذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] أي في الصِّدْقِ.

وإذا ثَبَتَ فيهِ الإضمارُ كانَ الوجْهُ في ذلكَ أحدَ معانٍ:

إمّا أنْ يقولَ: اتَّقُوا حقَّ اللهِ تعالى: أنْ تُضَيِّعوهُ، أوِ: اتَّقُوا حَدَّهُ أنْ تَعَدَّوهُ، وتُبْطِلوهُ، أو: اتَّقُوا سُخْطَهُ، أوِ اتَّقُوا الأسبابَ التي تَسْتَوجِبونَ بها مَقْتَ اللهِ تعالى.

ويَحتَمِلُ أنْ يُرادَ مِنَ التَّقْوى في هذهِ الآيةِ أوامِرُهُ ونَواهِيهُ على ما وَصَفْنا أنَّ التَّقْوى إذا أُطْلِقَ جازَ أنْ يُرادَ بِهِ الأوامرُ والنَّواهي، وإذا ذُكِرَ مُقابَلَةَ أمْرٍ كانَ المَعْنَى منه أوامِرَهُ ونَواهِيَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ قالَ: مَنْ عَمِلَ بِما أُمِرَ في هذهِ الآيةِ سَلِمَ مِنْ تَبِعاتِ الآخِرَةِ، لأنهُ إذا شَعَرَ قَلْبُهُ وقتَ فِعْلِهِ أنَّ الذي يَفْعَلُهُ تَقْدِمَةٌ لِغَدٍ امْتَنَعَ عنِ ارْتِكابِ ما يَجِبُ أنْ يَسْتَحْيِيَ منهُ، أو يَحْزَنَ عليهِ في ذلكَ الوقتِ، وأتَى بما يُسَرُّ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنَى الآيةِ على النَّظَرِ لِما قَدَّمَتْهُ نفسُهُ لِلْغدِ؛ وذلكَ أنهُ إذا تَذَكَّرَ، فَنَظَرَ في ما قَدَّمَتْ نفسُهُ لِلغَدِ؛ وذلكَ أنهُ دَعاهُ إلى أحَدِ أمْرَينِ: إمّا إلى التوبةِ عنِ السَّيِّئَةِ التي قَدَّمَها، وإمّا[3] إلى الشُّكْرِ على الحسنةِ التي يَتَعاطاها. وكلُّ ذلكَ منهُ زيادةٌ في الخَيرِ، فكانَ الواجبُ ألّا يَغْفَلَ المَرْءُ عَنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على المُسْتَأنَفِ مِنَ الأفعالِ أنهُ يَنْظُرُ في ما يُرِيدُ أنْ يُقَدِّمَهُ لِغَدٍ؛ فإنْ كانَتْ عاقِبَتُهُ الهلاكَ انْتَهى عنهُ، وإنْ كانَتْ عاقِبَتُهُ النجاةَ مَضى إليهِ، وأتَى بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ الاتِّقاءَ عنْ تَرْكِ النَّظَرِ لِما تُقَدِّمُهُ نفسٌ لِغَدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ذِكْرُ قولِهِ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ مَرَّةً أُخرى، والآيةُ واحدةٌ، يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الأوَّلِ: أنِ اتَّقُوا مُخالَفَةَ اللهِ في أوامِرِهِ ونواهيهِ، ومِنَ[4] الثاني: [أنِ][5] اتَّقُوا سُخْطَ اللهِ وعُقوبَتَهُ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: وفي. (٥) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنهُ خُرِّجَ على[1] التَّكرارِ على ما جَرَتِ العادةُ في الكلامِ في التَّكريرِ عندَ الوعيدِ على التَّأكيدِ كقولِهِ تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤ و٣٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيهِ تَحريضٌ على المُراقبةِ والتَّيَقُّظِ وَقْتَ فِعْلِهِ[2]، لأنَّ مَنْ عَلِمَ وَقْتَ فِعْلِهِ أنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على ما يَرْتَكِبُهُ مِنَ الذنوبِ، ويَقْرَبُهُ مِنَ الشرورِ، امْتَنَعَ عنها، [وَزَجَرَ نفسَهُ][3].

وقالوا: في قولِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَعيدٌ في[4] أربعةِ أوجُهٍ:

أحَدُها: في قولِهِ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ والثاني: في قولِهِ تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ والثالثُ: في قولِهِ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [والرابعُ: في قولِهِ تعالى:][5] ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذِكْرُ هذهِ المواعيدِ [في الكَفَرَةِ خَرَجَ بعدَ][6] ما خاطَبَ المؤمنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فكانَ الوعيدُ في المؤمنينَ أكْثَرَ مِنَ الوعيدِ في الكَفَرَةِ. لكنَّ المؤمنينَ تَوَعَّدَهُمْ عن ما هي مُعَدَّةٌ للكافرينَ لئلا يَعْمَلوا عملاً / ٥٦٢ ـ أ/ يَسْتَوجِبونَ بهِ[7] ما أُعِدَّ للكافرينَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

ثم إنَّ اللهَ تعالى سَمَّى الآخِرَةَ باسْمِ الغَدِ لِسُرْعَةِ مَجيئِهِ، وسَمَّى الدنيا بالأمْسِ لِسُرْعَةِ فَنائِها، وهو كقولِهِ ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] فَيُذَكِّرُهُمْ، ويَعِظُهُمْ بهذهِ الآيةِ لِيَتَفَكَّرَ كُلُّ أحدٍ في نفسِهِ ما بِهِ خُلِقَ: لِلْعَبَثِ؟ أمْ خُلِقَ لأمْرٍ عظيمٍ على ما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ قالَ بعضُ المُفَسِّرينَ: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي نَسُوا العَمَلَ للهِ، والنِّسيانُ، هو التَّرْكُ، أي تَرَكوا العَمَلَ الواجِبَ للهِ تعالى ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي خَذَلَهُمُ اللهُ تعالى بما نَسُوا.

ثم الوجهُ عندَنا في الآيةِ أنْ[8] ليسَ أحدٌ مِنَ البَشَرِ يَعْمَلُ عملاً إلا، وهو يَأْمُلُ بذلكَ نَفْعاً لِنَفْسِهِ؛ إذْ مَنْ لا يَعْمَلُ لِلنَّفْعِ فهو غائبٌ في الشاهِدِ في ذلكَ العَمَلِ.

فهؤلاءِ لمّا لم يَأْتَمِروا بأمْرِ اللهِ تعالى، ولم يُطيعوا، وتَرَكوا العَمَلَ [لَهُ، صارَ][9] تَرْكُهُمُ العَمَلَ للهِ، والعَمَلُ لهُ، عملاً[10] لأنفسِهِمْ؛ فكأنهُ قالَ: نَسُوا [أنفُسَهُمْ، فصاروا][11] مَنْسِيِّينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي خَلَقَ فِعْلَ النِّسيانِ والتَّرْكِ فيهِمْ، أضافَ اخْتيارَ النِّسيانِ إليهِمْ، ثم أضافَ الإنساءَ إلى نفسِهِ، وأثْبَتَ فِعْلَهُ فيهِ، وليسَ هذا على أنْ تَقَدَّمَ منهمْ فِعْلُ النِّسيانِ، ثم هو أنْساهُمْ بَعْدَ ذلكَ، لكنْ على خَلْقِ ذلكَ فيهمْ وقْتَ ما اخْتاروا ذلكَ الفِعْلَ، وهو كقولِهِمْ: هداهُ اللهُ تعالى، فاهْتَدَى، واهْتَدَى، فَهَداهُ اللهُ. فذلكَ كلُّهُ في وقتٍ واحِدٍ.

فكذلكَ هذا في الخِذْلانِ والنِّسيانِ لمّا اختارَ هو فِعْلَ النِّسيانِ خَلَقَ اللهُ تعالى ذلك النِّسيانَ فيهِ كما خَلَقَ الهِدايةَ والكُفْرَ [فيهِ][12] عندَ اخْتيارِهِ. ولا يجوزُ أنْ يُحْمَلَ ذلكَ على تَقَدُّمِ بعضٍ على بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ إذْ قولُهُ تعالى: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ في قولِهِ ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ إذِ العَمَلُ للهِ، هو العَمَلُ لأنفُسِهِمْ [والعَمَلُ لأنفسِهِمْ][13] هو العَمَلُ للذي أُريدَ بهِ وَجْهُ اللهِ.

فَلِذلكَ قُلْنا: إنَّ كلَّ واحدٍ منهما لِما في الآخِرَةِ.

---

(١) من م، في الأصل: عن. (٢) من م، في الأصل: فعل. (٣) في الأصل وم: وازدجر. (٤) في الأصل وم: من. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: خرج، في م: خرج بعد. (٧) في الأصل وم: بذلك. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) من م، في الأصل: لصار. (١٠) في الأصل وم: عمل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنهمْ لمّا تَرَكوا طاعةَ اللهِ، خَذَلَهُمُ[١] اللهُ تعالى بِتَرْكِهِمْ أمْرَ اللهِ وتَرْكِهِمْ[٢] أنفُسَهُمْ لهمْ، ولم يُوَفِّقْهُمْ للخيراتِ والطاعاتِ، وهذا مِنْ أشَدِّ العقوباتِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ أنْ يُجازِيَهُمْ في الآخِرةِ جَزاءَ ما عَمِلوا بأنْ تَرَكَهُمْ في الآخِرةِ في العذابِ الدائِمِ، فيكونُ ذلكَ جَزاءً لهمْ بِما عَمِلوا في الدنيا وبِما تركوا [مِنَ الإيمانِ][٣] باللهِ تعالى.

وهذانِ التأويلانِ يَرْجِعانِ إلى ما ذَكَرَ مِنَ الخِذْلانِ في ما فَعَلوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فالفِسْقُ، هو الخُروجُ عنْ أمْرِ اللهِ تعالى.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أيِ الناجونَ، والفَوزُ هو الظَّفَرُ بالحاجةِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ألّا يَسْتَوُوا في الدنيا، أو ألّا يَسْتَوُوا في الآخِرةِ.

فإنْ كانَ على الأوَّلِ فَمَعْناهُ: لا يَسْتَوِي عَمَلُ أهلِ الجنةِ [في الدنيا][٤] في العقولِ وعَمَلُ[٥] أهلِ [النارِ][٦] بالذي تَسْتَقْبِحُهُ العقولُ.

وأمّا أفعالُ أهلِ الجنةِ [فهي][٧] الداعيةُ إليها بالتي تَسْتَحْسِنُها العقولُ، لأنَّ عَمَلَ هؤلاءِ بالذي ظَهَرَ بالبراهينِ والحُجَجِ، وليسَ لِعَمَلِ أولئكَ بَراهينُ. وما أُقيمَ بالبراهينِ والحُجَجِ فهو في العقولِ أحْسَنُ مِنَ الذي لا بُرْهانَ عليهِ، وكذلكَ كلُّ عَمَلٍ يَسْتَحِقُّ صاحبُهُ عليهِ الثوابَ فهو في العقولِ مُسْتَحْسَنٌ، وما يَسْتَحِقُّ صاحبُهُ عليهِ العقابَ فهو في العقولِ مُسْتَقْبَحٌ، فلم يَسْتَوِيا.

وأمّا الوجهُ الثاني: فلا يَسْتَوِي جَزاءُ أهلِ النارِ وجزاءُ أهلِ الجنةِ؛ إذْ في الجنةِ النعيمُ الدائمُ، وفي النارِ الشِّدَّةُ والنِّقْمَةُ الدائمةُ فلم يَسْتَوِيا؛ يُذَكِّرُهُمُ اللهُ تعالى هذا لِيَنْتَهُوا عنْ غَفْلَتِهِمْ، ويَعْمَلُوا للهِ تعالى، حتى يَسْتَوجِبوا بهِ[٨] الثوابَ في الآخِرةِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية: اخْتَلَفَ الناسُ في تأويلِ هذهِ الآيةِ على التَّمْثيلِ، وهي على التَّنبيهِ والتَّذكيرِ، وذهبوا في ذلكَ إلى أنَّ العَرَبَ إذا اسْتَقْبَلَهُمْ أمرٌ، وأرادوا أنْ يَصِفوهُ بالعِظَمِ والشِّدَّةِ، كانوا يَضْرِبونَ الأمثالَ بما يُعَظِّمُ ذلكَ عندَهُمْ وصْفُهُ، لم يكونوا[٩] يُريدونَ بهِ الحقيقةَ في ذلكَ، وهو كقولِهِمْ عندَ شِدَّةِ الأمْرِ: أظْلَمَ عليَّ ما بَينَ السماءِ والأرضِ، وكقولِهِمْ: ضاقَتْ عليَّ الأرضُ بِرُحْبِها، وكما وَصَفَ اللهُ تعالى مِنْ أمْرِ لوطٍ ﵇: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧].

فهذا القولُ مِنَ العَرَبِ إنما كانَ على التَّمْثيلِ في ما يُريدونَ أنْ يَصِفوا الشيءَ [بهِ][١٠] فغايَتُهُ لا على الحَقيقةِ، لأنهُ معلومٌ أنَّ الدنيا عليهِ كما كانَتْ لم تَتَغَيَّرْ، وكذلكَ لم يُظْلِمْ عليهِ ذلكَ. لكنهمْ تكلَّموا على التَّمْثيلِ مِنْ شِدَّةِ ما نَزَلَ بهمْ مِنَ الأمْرِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ: لو كانَتْ هذهِ الحُجَجُ أُنْزِلَتْ على جَبَلٍ معَ صلابَتِهِ وشِدَّتِهِ لَخَضَعَ للهِ تعالى، وانْصَدَعَ مِنْ خَشْيَتِهِ على وجهِ التَّمْثيلِ. لكنَّ قلوبَ هؤلاءِ أقْسى منهُ حينَ[١١] لم تَخْضَعْ، ولم تَخْشَعْ.

وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] إذِ الحِجارةُ قد تكونُ فيها مَنافِعُ نَحْوُ خُروجِ الماءِ

---

(١) في الأصل وم: فخذلهم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بها. (٩) في الأصل وم: يكن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث.

وغيرِهِ. فأمّا قلوبُ هؤلاءِ الكَفَرَةِ فَليسَ فيها شيءٌ مِنَ المَنافِعِ، بل هي قاسِيَةٌ، لا تَخْشَعُ، ولا تَتَصَدَّعُ. وعلى ذلكَ حَمَلوا قولَهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ [مريم: ٩٠] على التَّمْثيلِ ليسَ على حقيقةِ ذلكَ.

وقالَ قائلونَ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [إنهُ على][1] حقيقةِ ذلكَ الفِعْلِ منهُ، وهو الانْصِداعُ والخُشوعُ، وكذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ [مريم: ٩٠].

فَمعناهُ: لو كانَ نزولُ هذا القرآنِ وما فيهِ مِنَ الأحكامِ والأماناتِ التي أوجَبَ على البَشَرِ على الجبلِ، وكانَ هو بحيثُ يَمْلِكُ قَبولَ ذلكَ باخْتِيارِهِ لِقيامِ شرائطِهِ لكانَ هو يَفْزَعُ، ويَخْضَعُ، ويَتَصَدَّعُ، مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تعالى، وكانَ لا يَقْبَلُ مَخافَةَ ألّا يُمْكِنَهُ أداءُ ما لَزِمَ بِنُزولِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] فيقولُ: مَعْناهُ: لو أنْزَلْنا هذهِ الأماناتِ التي في هذا القرآنِ ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا﴾ إذِ الأماناتُ التي في هذا القرآنِ ممّا قد تَلْزَمُ المَرْءَ [ولا يُمكِنُهُ][2] أداؤها كلُّها، لأنَّ الأماناتِ ممّا يَكْثُرُ عَدُّها فَضلاً عنْ [ألّا يُمكِنَهُ][3] أداؤُها.

فَعَلَى هذا التأويلِ يُخَرَّجُ على حقيقةِ التَّصَدُّعِ: أنْ لو أُنْزِلَ عليهِ مع عَظَمَتِهِ وصلابَتِهِ [لَانْصَدَعَ. فَعَلَى هذا تَنْبيهٌ لِلْخَلْقِ وتذكيرٌ لهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: في هذهِ الآيةِ يُذَكِّرُ الرسولَ ﷺ مِنَّتَهُ عليهِ وعلى جميعِ الرسلِ: لولا فَضْلُ اللهِ ومِنَّتُهُ على الرسلِ لكانَ لا يُطيقُ][4] أحدٌ مِنَ الرسلِ حَمْلَ ما في الكُتُبِ ولا أداءَ ما فرضَ [اللهُ عليهمْ مِنْ أداءِ الرسالةِ، لكنهُ مَنَّ عليهمْ أنْ يَسَّرَ عليهمْ ذلكَ حتى قاموا بذلكَ كلِّهِ، فهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] [وقولِهِ في مَواضِعَ أُخَرَ][5] ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[6] [القمر: ١٧ و...] فَيُسِّرَ عليهمْ، وثَقُلَ العملُ بما فيهِ؛ فيقولونَ: كذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ لِثِقَلِ ما فيهِ[7]. لكنهُ [مَنَّ][8] عليكَ، ويَسَّرَ ذِكْرَهُ عليكَ، ووَفَّقَكَ بِتَبليغِ ما فيهِ إلى أهلِهِ.

وقالَ قائلونَ: إنَّ اللهَ تعالى لمّا أرادَ أنْ يُنْزِلَ التوراةَ على موسى ﷺ وكانَتْ في لوحٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ حمراءَ أمَرَ الملائكةَ أنْ يَحمِلوها، فلم يُطيقوا حَمْلَها، ثم أمَرَهُمْ أنْ يَحمِلوا كلَّ حَرْفٍ منها، فلم يُطيقوا ذلكَ، فَخَفَّفَ اللهُ تعالى على موسى ﷺ حتى حَمَلَ ذلكَ.

فكذلكَ ذُكِرَ ذلكَ في عيسى وداوودَ ﷺ ثم خَفَّفَ اللهُ تعالى ذلكَ على الأنبياءِ/ ٥٦٢ ـ ب/ ﷺ.

فكأنهُ يقولُ لرسولِهِ ﷺ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا﴾ كذا، لكنهُ خَفَّفَ ذلكَ عليكَ كما خَفَّفَ على الأنبياءِ مِنْ قبلِكَ. وإليهِ يَذْهَبُ الكلبيُّ.

ولكنْ إنْ صَحَّ هذا الخَبَرُ فإنَّ ذلكَ الثِّقَلَ لم يَكُنْ في تلكَ الكتابةِ التي في الألواحِ، لكنَّ ذلكَ في ما يَلْزَمُهُمْ مِنَ العَمَلِ بذلكَ مِنْ أداءِ الأماناتِ وغيرِها، لأنهُ تعالى أخبَرَ أنهُ لو كانَ أنْزَلَ ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢].

ثم كانَتِ هذهِ الألواحُ التي احْتَمَلَتْها الأرضُ، وأمْكَنَ لِموسى ﷺ [حَمْلُها][9] فكذلكَ هذا القرآنُ كلُّهُ والتوراةُ والإنجيلُ والزبورُ ممّا قد يَحْتَمِلُ [ذلكَ][10] حقيقةً، ويُمْكِنُ كتابتُهُ في [قَلْبِ تلكَ][11] الألواحِ ثَبَتَ أنَّ المُرادَ مِنْ ذِكْرِهِ، ليسَ هو الحروفَ إنْ كانَ على ما فيهِ مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ وأداءِ الأماناتِ واتِّقاءِ اللهِ حَقَّ تُقاتِهِ لا على نفسِ تلكَ الألواحِ.

وهذا الذي ذَكَرْنا هو تأويلُ القوةِ في نزولِ هذهِ الآيةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لا يمكن. (٣) في الأصل وم: إن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في نسخة الحرم المكي: وقال في موضع آخر. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فيها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قلبك.

فأمّا إني لا عِلْمَ لي بحقيقةِ تأويلِ هذهِ الآيةِ، ولولا أنَّ في الآيةِ تذكيراً وتنبيهاً، لكنّا نقولُ: هي مِنَ التَّشابُهِ المَكْتومِ الذي لا يُفَسَّرُ. لكنهُ لمّا خُرِّجَ مُخرَجَ التَّذْكيرِ واسْتِيداءِ شُكْرِ ما سَهَّلَ علينا قراءَتَهُ احْتَجْنا إلى تأويلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هو ظاهرٌ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ قولَهُ: ﴿هُوَ﴾ مِنْ أرْفَعِ أسماءِ اللهِ تعالى، وذَكَرَ بعضُ أهلِ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يَدْعو بقولِهِ: «يا هُوَ يا مَنْ لا هُوَ إلّا هُوَ» وتأويلُ هذا الكلامِ أنَّ كلَّ شيءٍ، بِهَوِيَّتِهِ كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنهُ عالمٌ بما غابَ عنِ الخَلْقِ وبما شَهِدوا.

والثاني: [أنهُ عالمٌ][1] بما قد كانَ وبما يكونُ.

والثالثُ: أنهُ عليمٌ بما قد كان وبِكيفيَّتِهِ أنْ كيفَ يكونُ إذا كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيها اسْمانِ مُشْتقّانِ مِنَ الرحمةِ.

وفي هذهِ الآيةِ بَيانُ وجوهٍ أربعةٍ:

أحَدُها: فيهِ بَيانُ التوحيدِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اسْمُ المَعْبودِ أنَّ كُلَّ معبودٍ دونَهُ باطلٌ.

والثاني: أنَّ فيه تَنْبيهاً وتَحْذيراً بأنْ يَتَذَكَّرَ الإنسانُ في جميعِ أحوالِهِ اطِّلاعَ اللهِ تعالى عليهِ وعِلْمَهُ فيهِ، وذلكَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

والثالثُ: فيه تَرْغيبٌ في رَحْمَتِهِ وإخبارٌ لهمْ أنَّ كلَّ نِعْمةٍ لهمْ في الدنيا والآخِرَةِ مِنَ اللهِ تعالى؛ إذْ في قولِهِ ﷻ ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الآية ٢٣ والرابعُ: ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ الآية: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ مِنَ المُلْكِ، أي مُلْكُ كلِّ شيءٍ لهُ، ليسَ لأحدٍ سِواهُ حقيقةُ الملكِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

[أحدُهما: ما][3] قالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ هو المُبارِكُ، والبَرَكةُ اسْمُ كلِّ خَيرٍ، أي منهُ جميعُ الخَيراتِ. لكنْ لا يجوزُ أنْ يُقالَ للهِ تعالى: يا مُبارِكُ، وإنْ كانَ المَعْنَى منهُ يُؤدّي إلى أنْ يُؤتَى منهُ كلُّ خَيرٍ، لأنهُ لا يُعْرَفُ في أسمائِهِ هذا بالنَّقْلِ. وعلينا أنْ نَسْكُتَ عنْ تَسْمِيَتِهِ بما لم يُسَمِّ نفسَهُ بذلكَ. لِذلكَ قُلْنا: إنهُ لا يجوزُ التَّسَمّي بالمُبارِكِ، واللهُ الموفِّقُ.

والثاني: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ هو الطاهرُ؛ يعني هو مُقَدَّسٌ عمّا قالتِ المَلاحِدَةُ والكَفَرَةُ فيهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ؛ منهمْ مَنْ قالَ: سَمّى نفسَهُ سَلاماً لِما هو سالمٌ مِنَ الآفاتِ، وغَيرُهُ مِنَ المَخْلوقينَ لا يَسْلَمونَ مِنْ حُلولِ الآفاتِ بهِمْ.

وقالَ آخَرونَ: سَمّى نفسَهُ سَلاماً لِما سَلِمَ المؤمنونَ مِنْ عذابِهِ، والتأويلُ الأوَّلُ أقربُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ اخْتَلَفَ الناسُ في تأويلِهِ؛ قالَ قائلونَ: هو الأمانُ، أي يُؤَمِّنُ المُؤمِنينَ مِنَ العذابِ، ولا يُمَكِّنُ لأحدٍ أنْ يُؤَمِّنَ أحداً مِنْ عذابِهِ.

وقالَ قائلونَ: أصْلُهُ مِنَ الإيمانِ، وهو التَّصْديقُ. ثم ذلكَ يَتَوَجَّهُ إلى وجهَينِ:

أحَدُهما: أي مُصَدِّقُ القولِ بما وعَدَ المُؤمِنينَ الجنةَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ هو المُصَدِّقُ لِما قالَ المُؤمِنونَ المُصَدِّقونَ مِنْ تَصْديقِهِمْ، فَيُصَدِّقُهُمْ بما قالوا.

ومِنَ الناسِ مَنْ قالَ سَمّى نفسَهُ بما أخْبَرَ أنَّ هذا القرآنَ لِما بَيْنَ يديهِ مُصَدِّقٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ أيضاً؛ قالَ قائلونَ: هو المُسَلِّطُ. وقالَ قائلونَ: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ هو الشاهدُ.

فَمَنْ قالَ بالأوّلِ فإنهُ يذهبُ إلى أنَّ أصلَ ذلكَ مِنَ المُؤَيمِنِ، وهو مِنَ الأمانةِ، وإلى هذا التأويلِ يذهبُ القُتَبِيُّ، أي أمينٌ[1] في كلِّ ما يقولُ وفي كلِّ ما يَفْعَلُ، أي لا يَجُورُ.

ومَنْ قالَ بأنهُ، هو المُسَلِّطُ [فإنهُ يذهبُ إلى أنّ][2] أصلَهُ مِنْ هَيمَنَ يُهَيمِنُ، أي سَلَّطَ يُسَلِّطُ، وسُئِلَ[3] عنْ تأويلِ المُسَلِّطِ، فقالَ: هو كالظاهِرِ؛ إذْ قَهَرَ العبادَ كلَّهُمْ، وهُمْ مُلْكٌ لهُ.

ومَنْ فَسَّرَهُ بالشاهِدِ فإنهُ يَحْتَمِلُ تأويلَيْنِ:

أحَدُهما: أي شاهدٌ على أفعالِ العبادِ مِنْ حيثُ لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ.

والثاني: أي شاهدٌ بما أنزلَ على رسولِهِ بالصدقِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي شاهداً عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي ما مِنْ عزيزٍ دونهُ إلّا وهو ذليلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحَدُهما: سَمّى نَفسَهُ الجبّارَ لأنهُ هو المُجْبِرُ لكلِّ كبيرٍ.

[والثاني: ما قالَ] قائلونَ: سَمّى نفسَهُ [﴿ٱلْجَبَّارُ﴾][4] لِجَبَروتِهِ وعظمتِهِ، ولا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَتَسَمّى بذلكَ الاِسْمِ إلّا هو، أيِ اللهُ تعالى، وتَجَبَّرَ عنْ أنْ يكونَ لهُ أمثالٌ وأشكالٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ مِنَ الكِبْرياءِ والعظمةِ، هذا الاِسْمُ لا يليقُ لِغَيرِهِ، لأنَّ الخَلْقَ، بعضُهُمْ لبعضٍ أكفاءٌ في الخِلْقةِ، فلا فَضْلَ لأحدٍ على آخرَ. فلمّا اسْتَوَوا لم يَجُزْ لأحدٍ على آخَرَ التَّكَبُّرُ، فصارَ الحَقُّ في ذلكَ للهِ تعالى.

والتَّكَبُّرُ على الآخرِ هو الاِرْتفاعُ. والأصلُ فيهِ واحدٌ؛ وهو ألّا يَرَى لنفسِهِ شكلاً، واللهُ أعلَمُ.

إنما سَمّى نفسَهُ مُتَكَبِّراً؛ إذْ هو المُتَكَبِّرُ بذاتِهِ، لم يكُنْ تَكَبُّرُهُ بِغَيرِهِ. فلذلكَ قُلْنا: إنهُ لا يَسْتَحِقُّ أحدٌ مِنَ الخَلائقِ التَّكَبُّرَ إلّا اللهُ تعالى؛ إذْ لم يكُنْ أحدٌ شَكْلاً ولا ضِدّاً ولا نِدّاً. وأمّا غيرُهُ مِنَ الخَلائقِ فكلُّ واحدٍ منهمْ بالذي لهُ شَكْلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيهِ تَنْزيهٌ للهِ تعالى عمّا قالَتْ فيهِ المُلْحِدَةُ، فهذا اسْمٌ سَمّى بهِ نفسَهُ، وأمَرَ الملائكةَ والأنبياءَ والمؤمنينَ أنْ يقولوا ذلكَ.

ومَعْنى قولِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي مَعاذَ اللهِ أنْ يكونَ ذلكَ على ما قالَتِ الكَفَرَةُ.

وسَمّى نفسَهُ جَبّاراً لِما أنهُ يَجْبُرُ الأشياءَ، فَيَجعَلُها على ما يَشاءُ، وهو كقولِهِ: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] [فَيَخْلُقُ الأشياءَ على ما يُريدُهُ][5] لا على ما يُريدُهُ غيرُهُ.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى: إنّ اللهَ تعالى يَتَعالى بِمَعانٍ خَمْسَةٍ[6]:

أحَدُها: تَعاليهِ عنِ الظُّلْمِ والجَورِ وجميعِ ما لا يَليقُ [بهِ][7].

والثاني: تَعاليهِ على الأشياءِ كلِّها بِقَهْرِهِ إياها وتَصْريفِهِ إياها على ما يَشاءُ، أي ليسَ أحَدٌ، يَقْهَرُهُ، بل يَقْهَرُ الخَلائقَ.

والثالثُ: تَعاليهِ عنْ [أنْ][8] تَمَسَّهُ الحاجةُ والآفةُ. وكُلُّ مَنْ دونَهُ، لا يَخْلُو عنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: أميناً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: على ما يريده الأشياء. (٦) في الأصل وم: أربعة. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم.

والرابعُ: تعاليهِ عمّا قالَ الظالمونَ فيهِ منَ الوَلَدِ والأضدادِ والأشكالِ والأندادِ.

[والخامسُ)[١]: تَعاليهِ عنْ جميعِ السُّوءِ الذي يُصيبُ الخَلْقَ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ فالخالقُ والبارئُ واحدٌ، ويُقالُ: بَرَأَ أي خَلَقَ، والبَرِيَّةُ هي الخَلْقُ، ويقالُ: سُمِّيَتِ البَرِيَّةُ بَرِيَّةً [لأنها خُلِقَتْ][٢] مِنَ الترابِ؛ إذِ البَرَى، هو الترابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ /٥٦٣ ـ أ/ هو الذي يُعطي كلَّ شيءٍ صُورتَهُ، فَيُصَوِّرُهُ على ما هو، فالتَّصويرُ، هو بَيانُ المَحْدُودِ، وهو قولُ الناسِ: صَوَّرْتُ الأمْرَ عندَ فلانٍ، أي بَيَّنْتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الأمثالُ العُلا، وهي الصفاتُ، إذِ المَثَلُ[٣] يَرْجِعُ إلى وجهَينِ:

إلى الصفةِ مَرَّةً، وإلى التَّشْبيهِ ثانياً. فإذا رَجَعَ إلى [الصفةِ فإنهُ يَرْجِعُ إلى][٤] حقيقةِ ذلكَ [المَثَلِ][٥] وإنْ رَجَعَ إلى التَّشْبيهِ فإنهُ لا يرجعُ إلى حقيقةِ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الصفاتُ العُلا، أي لا يُسَمَّى بذلكَ إلا هو؛ إذْ يُقالُ لِغيرِهِ: الرَّبُّ لا[٦] الرحمنُ ولا المالكُ إلّا أنْ يُضافَ ذلكَ إلى الشيءِ. فأمّا التَّصْريحُ فلا يُطْلَقُ ذلكَ إلّا لهُ، جَلَّ، وعلا.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ، أي لا شَبيهَ لهُ في أسمائِهِ، ولا يُشْرِكُهُ أحدٌ في تلكَ الأسماءِ، بل هي خاصَّتُهُ. واللهُ المُسْتَعانُ.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: لأنه خلق. (٣) في الأصل وم: الصفة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ولا.

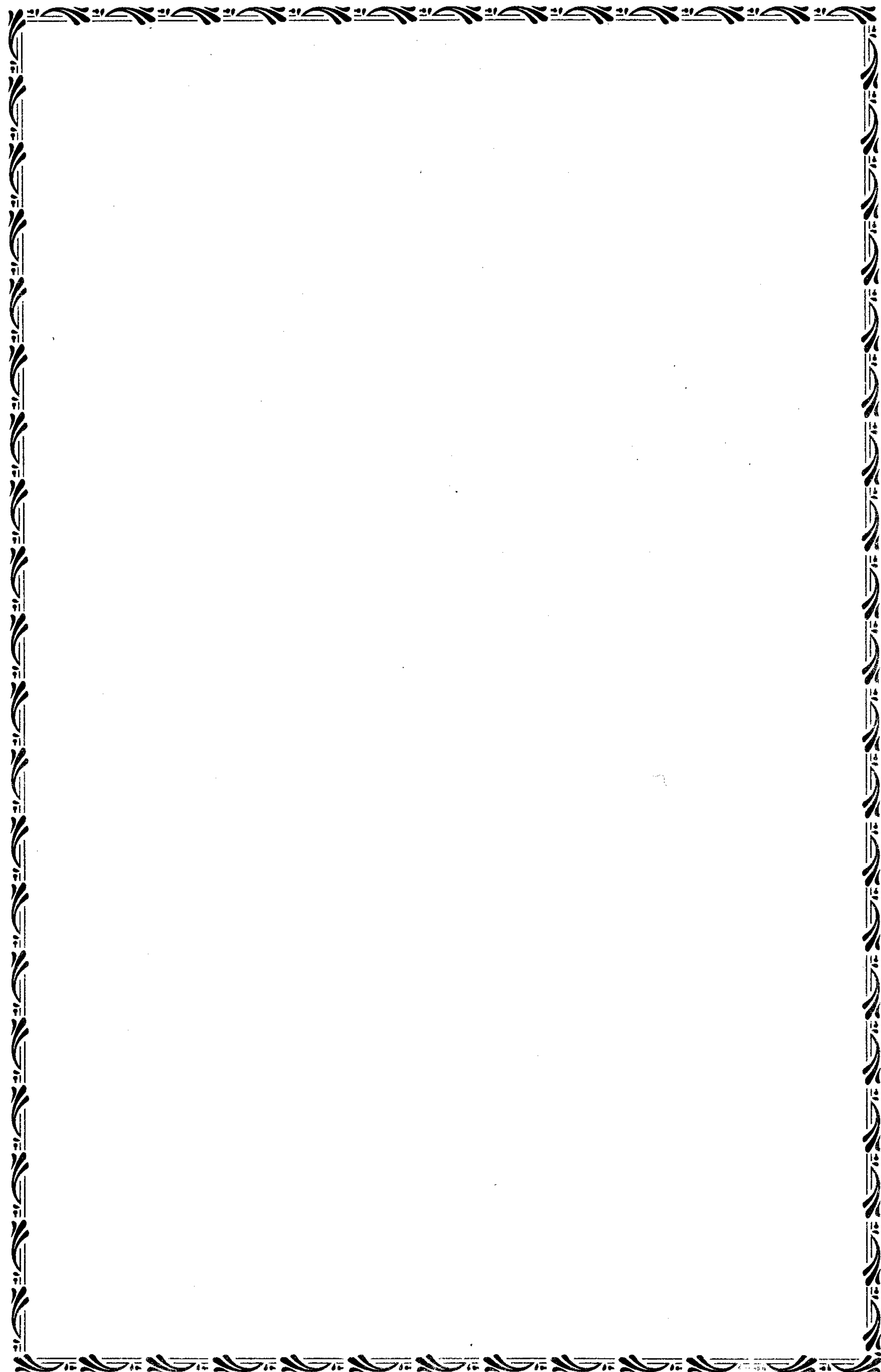

سورة الممتحنة

[مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ هذهِ الآيةُ وما أشبهَها مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [التحريم: ٦] وفي كلِّ ما ذَكَرَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤ و...] دلالةٌ واضحةٌ أنَّ الإيمانَ ذو حَدٍّ، وأنهُ ليسَ كما قالَتِ الحَشْويَّةُ[2] والمعتزلةُ وأصحابُ الحديثِ: إنَّ الطاعاتِ كلَّها إيمانٌ. ووَجْهُ ذلكَ أنَّ كُلًّا في نفسِهِ قد فَهِمَ مِنْ هذهِ الآيةِ أنهُ مُخْتَمَلٌ لهذا الخطابِ وأنهُ لازمٌ لهُ، فَثَبَتَ أنهُ ذو حَدٍّ في نفسِهِ، وهو التَّصديقُ في القلبِ، وغيرُهُ مِنَ الطاعاتِ شَرائعُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وفي ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وما أشبَهَهُ[3] مِنَ الآيِ دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ ما يُشاهَدُ، وليسَ كما قالَ النَّظّامُ: إنَّ الإنسانَ إنما هو جسمٌ آخَرُ لطيفٌ في هذا الإنسانِ، ولا كما قالَ الناشي: إنَّ الإنسانَ إنما هو جوهَرٌ بسيطٌ في هذا الإنسانِ.

ووَجْهُ ذلكَ أنهُ ليسَ كلُّ أحدٍ، يَعْلَمُ أنَّ في نفسِهِ جَوهراً بسيطاً أو جسماً آخَرَ، فيهِ لُطْفٌ.

وقد فَهِمَ الكُلُّ مِنْ هذهِ الآياتِ أنهُ مُخْتَمَلٌ لِلْخِطاب بها. فَثَبَتَ بما وصَفْنا أنَّ الإنسانَ هو ما يُشاهَدُ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ ما يُفْهَمُ مِنْ هذهِ الآياتِ مِنْ عمومٍ أو خُصوصٍ ليسَ يُفْهَمُ بِظاهِرِ الخِطابِ ولكنْ بما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ؛ فإنْ أوجَبَتْ عُمومَها أجْرَوها على عُمومِها، وإنْ أوجَبَتْ تَخْصيصَها أجْرَوها على ذلكَ.

والذي يدلُّ على ما وصَفْنا أنهُ قالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وهذا مُخْرَجُهُ في الظاهرِ على العُمومِ، ولكنهُ لمّا قالَ: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ ومَعْلومٌ أنَّ الذي كانَ يُلْقي بالمَوَدَّةِ خاصٌّ[4] لا كلُّ المؤمنينَ، فكانَ يجبُ أنْ يكونَ مَجْراها على الخُصوصِ لِما بَيَّنَ إليهمْ في سِياقِ هذهِ الآيةِ. ولكنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ تَعْميمَ هذهِ الآيةِ، لأنهُ لو قالَ لواحدٍ: لا تَتَّخِذْ عَدُوِّي وعَدُوَّكَ[5] أولياءَ كانَ هذا الخِطابُ لازماً للكُلِّ بما توجِبُهُ الحِكْمَةُ مِنْ أنهُ إذا عُلِمَ مِنْ أحدٍ عداوَتُهُ ألّا يَتَّخِذَهُ وَلِيّاً[6].

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ خُرِّجَ مُخْرَجَ العُمومِ في الظاهرِ، ولكنَّ الذينَ أخرَجوهُ إنما كانوا[7] أهلَ مكةَ خاصّةً دونَ سائرِ الكَفَرةِ.

فهذا يُبَيِّنُ أنَّ[8] ما أُجْرِيَ مُجْرَى العُمومِ، لم يَجْرِ بِظاهِرِ اللفظِ، ولكنْ لِما تُوجِبُ الحِكْمَةُ والدليلُ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الجمعة: ٩] ليسَ أنَّ السَّعْيَ إنما فُرِضَ يومَ الجمعةِ لِتَخْصيصِهِ بالذِّكْرِ، ولكنْ لِما أنَّ النداءَ في يومِ الجمعةِ إلى ذِكْرَينِ وفي غَيرِهِ مِنَ الأيامِ إلى ذِكْرٍ واحدٍ ولأجلِ أنَّ النداءَ المُضَيَّقَ في يومِ الجمعةِ، هو النداءُ الأوَّلُ وفي غَيرِهِ مِنَ الأيامِ هو النداءُ الثاني.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الحشرية بالراء. وقد أدرجت كلمة الحشوية في تفسير الآية ٨٦ من سورة الإسراء في الورقة ٣٠٨ ب من الأصل. انظر ح٣/ ١٩٠. (٣) في الأصل وم: أشبهها. (٤) في الأصل وم: خاصاً. (٥) في الأصل وم: عدوكم. (٦) من م، في الأصل أولياء. (٧) في الأصل وم: كان. (٨) من م: في الأصل: أول.

فإذا جازَ أنْ يكونَ فَرضَ السَّعْيَ في يومِ الجمعةِ إنما هو لهذَينِ المَعْنَيَينِ ثَبَتَ أنَّ التخصيصَ ليسَ بظاهِرِ اللفظِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ رسالتِهِ ﷺ وذلكَ أنَّ قولَهُ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أنَّ ذلكَ الرجلَ، لم يُطْلِعْ على سِرِّهِ أحداً، وقد أطْلَعَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ حينَ[1] أخبَرَهُمْ بالكتابِ، فَثَبَتَ أنَّ عِلْمَهُ بالوَحْيِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختلَفوا في مَنْ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ؛ فقالَ الحَسَنُ: إنها نَزَلَتْ في أهلِ النِّفاقِ، وقالَ غَيرُهُ مِنْ عامّةِ المُفَسِّرينَ: إنها نزلَتْ في حاطِبِ بْنِ بَلْتَعَةَ، وهذا أشْبَهُ التأويلَينِ[2] بالصوابِ، وأقْرَبُ إلى الحَقِّ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فقد أخبَرَ أنَّ الكَفَرةَ عَدُوٌّ لهمْ. ولو كانَتِ الآيةُ في أهلِ النِّفاقِ لم يكُنِ الكَفَرةُ عَدُوّاً لهمْ، بل كانوا أولياءَ، فَثَبَتَ أنَّ المُرادَ منهُ المؤمنونَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ ذلكَ الذنبَ الذي ارْتَكَبَ ذلكَ الرجُلُ لم يُخرِجْهُ مِنَ الوِلايةِ لأنهُ قالَ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ولو كانَ ذلكَ الذنبُ يُكَفِّرُهُ، ويُخرِجُهُ مِنَ الإيمانِ، لم يكُنْ ذلكَ الكافرُ عَدُوّاً لهُ، بل يكونُ وَلِيّاً لهُ بقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩]. ولأجْلِ أنهُ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سَمّاهُ مؤمناً.

والدليلُ أنَّ ذلكَ الذنبَ كانَ كبيرةً أنهُ أخبَرَهُمْ بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جَهَّزَهُمْ لِلْقِتالِ، وفي ما أخبَرَ أمْرٌ بأنْ يَسْتَعِدّوا لِقِتالِ النَّبِيِّ ﷺ وحَرْبِهِ، ولا شَكَّ[3] أنَّ مَنْ أمَرَ بِقِتالِ رسولِ اللهِ ﷺ كانَ مُرْتَكِبَ كبيرةٍ، وإذا كانَ كذلكَ، وقد أدْخَلَهُ اللهُ تعالى في جملةِ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى﴾ وبما وصَفْناهُ مِنَ الدليلِ ثَبَتَ أنَّ الكبيرةَ، لا تُكَفِّرُهُ، ولا تُغَيِّرُ اسْمَ الإيمانِ عنهُ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم في ما نَهانا أنْ نَتَّخِذَ عَدُوَّنا وعَدُوَّهُ أولياءَ دلالةٌ أنْ ليسَ في الحِكْمةِ اتِّخاذُ الولايةِ معَ الأعداءِ.

ثم مِنْ قولِ المعتزلةِ أنَّ اللهَ تعالى أرادَ مِنْ جميعِ عبادِهِ أنْ يؤمِنوا، وإذا أرادَ أنْ يؤمِنوا، فقد أرادَ أنْ يُوالِيَهُمْ معَ عِلْمِهِ أنهمْ يَخْتارونَ عَداوَتَهُ، فكأنهمْ وَصَفوا اللهَ بما يُخرِجُهُ مِنَ الحِكْمةِ، ويُدْخِلُهُ في السَّفَهِ والجَهْلِ بالعواقِبِ، وذلكَ كلُّهُ مَنْفِيٌّ عنِ اللهِ ﷻ والمعتزلةُ في ما وَصَفوا فَجَرةٌ فَسَقةٌ، ويُخشَى أنْ يكونوا كَفَرةً، واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي بِما كُتِبَ في الكتابِ. /٥٦٣ ـ ب/

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في مَنْ هاجَرَ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ، وهو أقْرَبُ التأويلَينِ، لأنَّ حاطباً، إنما كانَ هاجَرَ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ، وفيهِ نَزَلَتِ الآيةُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ حينَ أرادُوا الجهادَ إلى مكةَ، واللهُ أعلَمُ، أيَّ ذلكَ كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي هو ﴿أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ مِنْ كِتْبَةِ الكتابِ إلى أهلِ مكةَ ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ بما أظْهَرْتُمْ مِنَ العُذْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي مِنِ اتِّخاذِ الوِلايةِ معَ أعدائِهِ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ في الاعْتِقادِ، أي مَنِ اعتَقَدَ ذلكَ، وفي الفِعْلِ أي لم يَعْتَقِدْهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ التزامُ مُراقبةِ اللهِ تعالى في السِّرِّ والعلانيةِ وتَحْذيرٌ منهُ[4] لِيَجْمَعوا بينَ السِّرِّ والعَلانِيَةِ، وتخويفٌ لهمْ مِنْ أنْ يُطْلِعَ رسولَهُ ﷺ على سرائِرِهِمْ كما أطْلَعَهُ على أمْرِ الكتابِ إلى أهلِ مكةَ.

ثم في الآيةِ أعظَمُ شيءٍ في زَجْرِهِمْ ونَهْيِهِمْ عنِ المَعاصي، وذلكَ أنهُ لمّا أطْلَعَهُ على جميعِ ما يَتَعاطَونَهُ مِنَ الذنوبِ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: التأويل. (٣) في الأصل وم: يشكل. (٤) في الأصل وم: له.

سِرّاً وعلانيَةً، فإذا عَلِموا أنَّ الرسولَ ﷺ يَعْلَمُ مِنْ سِرِّهِمْ ما يَعْلَمُ مِنْ علانِيَتِهِمْ بِما يُطْلِعُهُ اللهُ عليهِ يَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الانْتِهاءِ عنِ المَعاصي في السِّرِّ والعلانِيَةِ، وعلى الإجابةِ إلى ما يَدْعُوهُمْ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ فوَجْهُ ذلكَ وتأويلُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ أنهُ لما رآهُمْ رَغِبوا في أموالِهِمْ ومَوَدَّتِهِمْ رغبةً منهمْ في الكُفرِ أنْ يَحفَظوا أولادَهُمْ وأموالَهُمْ أخبَرَهُمْ أنْ كيفَ يَرْغَبونَ في حِفْظِهِمْ، وهُمْ لو قَدَروا عليكُمْ، وظَفِروا بكُمْ، قَتَلوكُمْ، وآذَوكُمْ بالسِنَتِهِمْ، فكأنهُ يقولُ: كيفَ تُوالوهُمْ مِنْ حيثُ تُسِرُّونَ إليهِمْ بالمَوَدَّةِ، وهُمْ لو ظَفِروا بكمْ قَتَلوكُمْ، وكانوا لكمْ أعداءً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني أنهمْ يَوَدُّونَ أنْ تَكفُروا، ومع ما يَوَدُّونَ أنْ تَكفُروا، لو قَدَروا عليكُمْ قَتَلوكُمْ. فَمَنْ كانَتْ حالُهُمْ منكُمْ مِثْلَ هذا فكيفَ تَطمَعونَ أنْ يَحفَظوا أولادَكُمْ وأموالَكُمْ؟

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ لهُ وَجْهانِ:

أحَدُهما: أنْ كيفَ تُوالونَ الكَفَرَةَ لِمكانِ أولادِكُمْ وأرحامِكُمْ، وهُمْ لا يَنْفَعونَكُمْ يومَ القِيامةِ؟

والثاني: أنَّ أرحامَكُمْ لا تَنْفَعُكُمْ، ولا تَشْفَعُ لكُمْ يومَ القيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [لهُ وَجْهانِ أيضاً:

أحَدُهما:][1] أي يَفْصِلُ بينَكُمْ وبَينَ أرحامِكُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و٣٥].

والثاني: أي يَفْصِلُ بَينَكُمْ وبَينَ أرحامِكُمْ لِاخْتِلافِ أعمالِكُمْ، فَنَزَّلَ كلَّ واحِدٍ منكُمْ مُنْزَلَ عَمَلِهِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. الأصلُ في أنباءِ المُتَقَدِّمينَ أنها عِبَرٌ لهذهِ الأمةِ. فما ذَكَرَ منها في المؤمنينَ مِنَ الأُمَمِ الماضِيَةِ فهو تَخويفٌ لِكَفَرةِ هذهِ الأُمّةِ لِئلّا يَصْنَعوا مِثْلَ صَنيعِهِمْ، فَيَسْتَوجِبوا مِنَ النَّقْمَةِ مِثْلَ ما استَوجَبَ أولئكَ. وما كانَ منها في حقِّ الرسلِ ﷺ فهو في حقِّ التَّسَلّي لِرسولِنا وسَيِّدِنا ﷺ عنْ بعضِ ما مَسَّهُ.

واصلٌ آخَرُ: أنَّ الخِطابَ قد يَلْزَمُ المُخاطَبَ مَرّةً بما يُخاطَبُ في نفسِهِ ومَرَّةً بما يُؤمَرُ بالِاقْتِداءِ بِغَيرِهِ، إذا كانَ ذلكَ الغَيرُ، لم يَفْعَلْ ما فَعَلَهُ إلّا عنْ أمْرٍ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى أمَرَ المؤمنينَ مِنْ هذهِ الأمّةِ الاقْتِداءَ بإبراهيمَ ﷺ ومَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنينَ، وأخبَرَهُمْ عن معامَلَتِهِمْ إياهُمْ وتَرْكِهِمْ مُوالاتَهُمْ، فكأنهُ قالَ: اتْرُكوا مُوالاةَ الكَفَرةِ والإسرارَ إليهِمْ بالمَوَدَّةِ ما داموا على كُفْرِهِمْ كما فَعَلَهُ إبراهيمُ ﷺ ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فنابَذوهُمْ، ولم يُوالوهُمْ. فافْعَلوا كفِعْلِهِمْ ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

فكأنهُ قالَ[2]: اقْتَدوا بهمْ إلّا بما قالَ إبراهيمُ لأبيهِ: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يعني لا تَسْتَغْفِروا لِلْمُشركينَ مِثْلَ ما استَغْفَرَ إبراهيمُ ﷺ لأبيهِ المُشرِكِ، لأنكمْ لا تَعْلَمونَ المَعْنَى الذي لهُ استَغْفَرَ إبراهيمُ ﷺ لأبيهِ.

ثم اخْتَلَفوا في المَعْنَى الذي لهُ استَغْفَرَ إبراهيمُ لأبيهِ؛ فقالَ أبو بكرٍ: إنهُ كانَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، وَعَدَ أنْ يَستَغْفِرَ لأبيهِ، ورَأى أنَّ إيجابَ الوَعْدِ لازِمٌ عليهِ، فاستَغْفَرَ لهذا المَعْنَى.

[وقالَ][3] الحَسَنُ: إنهُ إنما استَغْفَرَ لهُ لِوقْتِ تَوبَتِهِ لا في حالِ الشِّرْكِ، لأنهُ لا يَتَوَهَّمُ أنهُ [لم يَعْلَمْ أنهُ][4] لا يَحِلُّ لهُ أنْ يَستَغْفِرَ لِلْمُشرِكينَ. ومَنْ عَلِمَ أنهُ يَحِلُّ لهُ لم يكُنْ مُسْلِماً مُؤمِناً. فَثَبَتَ أنهُ إنما استَغْفَرَ لِوَقْتِ إسلامِهِ.

وعندَنا الِاستِغْفارُ طَلَبُ المَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ تعالى على وجهَينِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) من م، في الأصل: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُهما: مَغْفِرَةُ رَحمةٍ وفَضْلٍ وكَرَمٍ.

والثاني: أنْ يُوَفِّقَهُ لِلسَّبَبِ الذي إذا جاءَ بِهِ غَفَرَ لهُ. ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؟ [نوح: ١٠] أي السببُ الذي إذا جِئتُمْ بِهِ غَفَرَ لكمْ. وإذا كانَ كذلكَ جازَ أنْ يكونَ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ على هذا الوَجْهِ: أنْ يكونَ طَلَبَ مِنَ اللهِ تعالى التَّوفيقَ لهُ بالسببِ الذي إذا جاءَ بِهِ غَفَرَ لهُ؛ وذلكَ مستقيمٌ، ولكنهُ لمّا تَبَيَّنَ أنهُ لا يُوَفِّقُهُ لذلكِ السببِ تبرّأَ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي لا أملِكُ أنْ أدفَعَ عنكَ عذابَ اللهِ مِنْ شيءٍ، أو لا أملِكُ أنْ أهْدِيَكَ دونَ أنْ يَهْدِيَكَ اللهُ.

[ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؟ [القصص: ٥٦]][1].

وكأنهُ قالَ: سَواءٌ أنْ أدعُوَ لكَ بالتَّوفيقِ لِلْهِدايةِ [أم ألا أدعُوَ لكَ][2] لا أملِكُ لكَ مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ شيءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا عندَ المُنابذةِ وإظهارِ العَداوةِ معَ الكَفَرةِ؛ يعني عليكَ مُعْتَمَدُنا في النَّصْرِ على أعدائِنا عندَ قِلَّةِ عَدَدِنا وكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، وإليكَ مَرْجِعُنا ومَفْزَعُنا، وإليكَ المَصيرُ إذا قُبِضْنا.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ذَكَرَ أهلُ التَّفسيرِ أنَّ تأويلَ هذهِ الآيةِ يَخرُجُ على ثلاثةِ أوجهٍ:

أحَدُها: أي [لا][3] تُسَلِّطْ علينا أعداءَنا، فَيَظُنُّوا أنهمْ على حَقٍّ، ونحنُ على باطلٍ.

[والثاني:][4]لا تُنْزِلْ علينا العذابَ دونَهُمْ، فَيَظُنُّوا أنهم على حقٍّ، ونحنُ على باطلٍ.

[والثالثُ:][5] لا تُوَسِّعْ عليهمُ الدنيا، وتُضَيِّقْها[6] علينا، فَيَظُنُّوا أنهمْ على حقٍّ، ونحنُ على باطلٍ.

ولو كانَ التأويلُ هو الثاني لكانَ يجيءُ على هذا أنْ يكونَ الواجبُ على العُدُولِ مِنْ هذهِ الأمةِ أنْ يَسألوا اللهَ تعالى العافيةَ لئلا يَتَوَهَّمَ فُسّاقُهُمْ أنهمْ على الحقِّ.

ولكنَّ الجوابَ عنْ هذا أنَّ الفُسّاقَ مِنْ هذهِ الأمّةِ قد عَلِموا أنَّ الذي هُمْ فيهِ مِنَ الفِسْقِ مَحْظورٌ.

وأمّا الكَفَرَةُ فإنَّ عندَهُمْ أنَّ ما يَدينونَ بِهِ مِنَ الكُفرِ حقٌّ، فإذا سُلِّطوا على المؤمنينَ تَوَهَّموا أنَّ الذي حَسِبوهُ حقاً حَقٌّ.

وأمّا الفَسَقَةُ مِنْ هذهِ الأمّةِ إذا عَلِموا أنَّ الفِسْقَ مَنْهِيٌّ عنهُ مَحْظورٌ فلا يَقَعُ لهمْ هذا الحُسْبانُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المَعْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ يعني عذاباً أي سَبَباً يُعذَّبُ بِهِ الكَفَرةُ كما قالَ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وكانَ تأويلُهُ أنَّ إيتاءَ السببِ الذي يَسْتوجِبُ ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ فكذلكَ الأولُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني المُنتَقِمَ مِنْ أعدائِهِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ / ٥٦٤ ـ أ/ ٱلْءَاخِرَ﴾ يعني لقد كانتْ لكمْ في إبراهيمَ والذينَ مَعَهُ قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ تَحْسُنونَ بها إذا اقْتَدَيْتُمْ بهمْ، وأطَعْتُموهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

أحَدُهما: أي لِمَنْ كانَ يَرجو ثوابَ اللهِ تعالى.

والثاني: [أي لِمَنْ][7] يؤمِنُ بالبَعْثِ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ أمْرَ البَعْثِ في كتابِهِ بِصِفاتٍ مُخْتَلِفَةٍ:

مَرَّةً أضافَهُ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] وكانَ المَعْنَى منهُ البَعْثَ، ومَرَّةً وَصَفَهُ بِصِفَةٍ

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: وتضيق. (٧) في الأصل وم: أن.

أُخرَى، وإنْ كانَ المُرَادُ الثوابَ، ففيهِ أنَّ الراجيَ في الحقيقةِ، هو الطالبُ لِما يَرْجوهُ بالأسبابِ التي يَرْجو الوصولَ بها إلى ما دُعِيَ، وأُرجِيَ. والخائفُ في الحقيقةِ، هو الهاربُ عمّا حُذِّرَ، والمُنْتَهي عمّا نُهِيَ عنهُ، وحُظِرَ.

فإنْ مَنِ اعْتَمَدَ على مُجَرَّدِ الرجاءِ والخوفِ دونَ التَّمَسُّكِ بسببِها فهو مُتَمَنٍّ على اللهِ تعالى:

والدليلُ على تأييدِ ما نقولُ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] أفلا تَراهُ كيفَ حَقَّقَ مَعْنى الرجاءِ بالمُجاهدةِ في سَبيلِ اللهِ والعملِ بطاعتِهِ، واللهُ أعلمُ.

وإنْ كانَ [مُعْتَمِداً][1] على البَعْثِ فكذلكَ أيضاً لأنهُ إذا هَرَبَ عمّا نُهِيَ عنهُ، وطَلَبَ لِما أُمِرَ بهِ، فقد تَبَيَّنَ أنهُ يُوالي مَنْ يَقْضي مُوالاتُهُ إلى ثوابِ اللهِ ورَحْمَتِهِ وأنهُ يُعادي مَنْ يَقْضي عاقِبَةُ مُوالاتِهِ إلى نَقْمَةِ اللهِ وعذابِهِ.

ومعلومٌ أنهُ لا يَفْعَلُ ذلكَ إلّا مَنْ يُؤمنُ بالبَعْثِ فإنما يُوالي مَنْ رَجا منهُ مَنْفَعَةَ الدنيا، ويَهْرُبُ عَمَّنْ يَضُرُّهُ في هذهِ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعني مَنْ يَتَوَلَّ عن طاعةِ اللهِ في ما أَمَرَهُ منَ الاقْتِداءِ بهِمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ يعني ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ طاعةِ الخَلْقِ لِيُعْلَمَ أنهُ[2] ما أمَرَهُمْ بهِ لم يأمُرْهُمْ لِحاجةٍ لهُ في طاعتِهِمْ أو لِمَنْفَعةٍ تَرْجِعُ إليهِ، بل هو ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كلِّ ذلكَ. وإنما أمَرَهُمْ لِحاجَتِهِمْ إلى ذلكَ ولِما عَلِمَ أنَّ مَنافِعَ طاعَتِهِمْ ترجِعُ إليهِمْ خاصَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لهُ مَعْنَيانِ. . مَعْنى الحامِدِ ومَعْنى المحمودِ.

فإنْ كانَ المُرادُ منهُ المَحْمودَ ففيهِ أنَّ اللهَ تعالى يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ مِنْ خَلْقِهِ بما أنْعَمَ عليهِمْ.

وإنْ كانَ المُرادُ الحامدَ فَمَعْناهُ أنَّ اللهَ يَحْمَدُ الخَلْقَ، ويَشْكُرُهُمْ حينَ[3] يَجْزيهِمْ بالكثيرِ منَ الثوابِ عنِ القليلِ مِنَ الأعمالِ، أو يُثْني عليهِمْ بأعمالِهِمْ، فهو حميدٌ مِنْ هذينِ المَعْنَيَيْنِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إنَّ اللهَ تعالى أمَرَ المؤمنينَ بِمُعاداةِ الكَفَرَةِ ومُنابَذَتِهِمْ وتَرْكِ مُوالاتِهِمْ ماداموا كُفّاراً، ثم وَعَدَ أنْ يَجْعَلَ بَيْنَنا وبينَهُمْ مَوَدَّةً إذا آمنوا، فكانَ هذا مِنْ أعظمِ الدلائلِ[4] على أنَّ الخَلْقَ عندَ اللهِ تعالى في كلِّ حالٍ على ما هُمْ عليهِ في أحوالِهِمْ، وليسَ كما قالَ بعضُ الجُهّالِ: [إنَّ مَنْ][5] يؤمِنُ في وقْتٍ مِنَ الأوقاتِ فهو عندَ اللهِ مُؤمِنٌ في حالِ كُفْرِهِ، وهذا خِلافُ وَصْفِ اللهِ تعالى في هذهِ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم المعتزلةُ قد خالَفوا هذهِ الآياتِ، وعانَدوها، على قولِهِمْ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ مِنْ قولِهِمْ: إنْ كانَ على خِلافِ مَذْهَبِهِمْ، فهو عَدُوُّهُمْ، ولا شَكَّ أنهمْ يُوالونَهُ، ويُصافونَهُ، وقد نَهَى اللهُ تعالى عنْ هذا، فهذا [أحَدُ الخِلافاتِ][6].

والثاني: أنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ أنْ يَجْعَلَ بيننا وبَيْنَهُمْ مَوَدَّةً. ومِنْ قولِهِمْ: أنهُ لا يَقْدِرُ على شيءٍ مِنْ أفعالِ الخَلْقِ، فكانَ اللهُ تعالى على قولِهِمْ وَعَدَ ما لا يَقْدِرُ عليهِ، وهذا لا يَليقُ بِأسْفَهِ الخَلْقِ، فكيفَ بربِّ العالَمينَ؟ فَثَبَتَ أنهمْ عانَدوا هذهِ الآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

وخِلافٌ ثالثٌ: أنَّ اللهَ ﷻ وَصَفَ نفسَهُ بالقُدْرَةِ [بقولِهِ:][7] ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ ومِنْ قولِهِمْ: أنهُ ليسَ يَقْدِرُ على شيءٍ مِنْ أفعالِ الخَلْقِ. فأيُّ خِلافٍ أشْهَرُ مِنْ هذا وأظْهَرُ؟ واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النَّهْيُ في الإقساطِ لأنَّ الإقساطَ، هو العَدْلُ، وليسَ يَنْهَى عنِ العَدْلِ إلى مَنْ[8] كانَ وَلِيّاً أو عَدُوّاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: حتى. (٤) في الأصل وم: الدليل. (٥) في الأصل وم: إنه. (٦) في الأصل وم: احدى الخلافين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ما.

ألَا ترَى إلى قولِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؟ [المائدة: ٨] فقد أخبرَ أنهُ لا يُحِلُّ لهمْ[1] تَرْكَ العَدْلِ لِمكانِ العَداوةِ. وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ المُرادُ مِنْ هذا النَّهْيِ وغَيرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾.

ثم الذي لم يَنْهَ عنهُ خِلافُ ما نَهَى في الظاهرِ لأنهُ قالَ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾.

الآية ٩ وقالَ في ما نَهَى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الآية ٩].

ومَعْلومٌ أنهُ قد يجوزُ أنْ نَبَرَّ مَنْ لا يجوزُ ألَا نَتولاهُ. ألَا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؟ [لقمان: ١٥].

ثم نَهَى عنْ تَوَلّي الكفارِ بقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ولكنهُ لمّا جازَ أنْ يَجْتَمِعَ في نفسٍ واحدةٍ البِرُّ وتَرْكُ التَّوَلّي، فكذلكَ جازَ أنْ تُؤمَرَ بالبِرِّ وتُنْهَى[2] عنِ التَّوْلِيَةِ[3] مَعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ منهُ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ﴾ بل يأمُرُكُم، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: يُرَخِّصُ لكمْ كقولِهِ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] ومَعْناهُ بل خَسِرَتْ، وإنْ كانَ، قد يَجوزُ أنْ تكونَ التجارةُ إذا لم تَرْبَحْ، لا تَخْسَرُ، فكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ بل يأمُرُكُمْ أنْ تَبَرّوهُمْ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بل يُرَخِّصُ لكُمْ أنْ تبَرّوهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتَلَفُوا في مَنْ أمَرَ بِبِرِّهِمْ، ونَهَى [عنْ تَرْكِهِمْ][4] فقالَ بعضُهُمْ: هُمُ المُسْتَضْعَفونَ مِنْ أهلِ مكةَ الذين آمنوا في السِّرِّ، وخَشُوا [إظهارَ إيمانِهِمْ][5] مِنَ المُشْرِكينَ، فأمَرَ اللهُ تعالى المؤمنِينَ بالمدينةِ أن يَبَرُّوهُمْ بالكتابِ إليهِمْ، لِيَحْتالوا في قيادِ أنفسِهِمْ، لأنَّ المُشْرِكينَ مِنْ أهلِ مكةَ إذا عَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ظَهَرَ لِقتالِهِمْ كانَ يجوزُ أنْ يُخْشَى على أولئكَ المؤمنِينَ المُسْتَضْعَفينَ، فأمَرَ هؤلاءِ أنْ يَبَرّوهُمْ بالكِتابِ إليهِمْ، لِيَتأهَّبوا في أنفسِهِمْ، ويَحْتالوا لِما يُخْشَى عليهِمْ مِنَ المُشْرِكينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا في الذينَ كانَ بَيْنَهُمْ وبَينَ رسولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ وذِمَّةٌ، فأمَرَ المؤمنينَ أنْ يَبَرُّوا أولئكَ في إبقاءِ عهودِهِمْ إلى مُدَّتِهِمْ، ونهاهُمْ عنْ أنْ يَتَوَلَّوا مَنْ قاتَلَهُمْ، ونَقَضَ عهدَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: [هذا][6] في النساءِ والوِلدانِ مِنَ المشركينَ، أمَرَ المؤمنينَ أنْ يَبَرُّوهُمْ بِتَرْكِ القتالِ وألّا يَتَوَلَّوا مَنْ قاتَلَهُمْ. مِنْ جُمْلَةِ الرجالِ مِنَ المُشْرِكينَ.

ثم قالَ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ في الاعْتِقادِ ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ في حقِّ الاعْتِقادِ، أو مَنْ يَتَوَلَّهُمْ في الأفعالِ ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ في حقِّ الأفعالِ كما وَصَفْنا في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾ المَعْنَى عندَنا، واللهُ أعلَمُ: إذا جاءَكُمُ المؤمناتُ يعني قائلاتٍ: إنهنَّ مؤمناتٌ، فامْتَحِنوهُنَّ، لأنهُ لو [ما][7] كانَ على حقيقةِ الإيمانِ لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ مَعْنًى. فلما أمَرَ بالامْتِحانِ ثَبَتَ أنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ ما وَصَفْنا بَديئاً. ومِثْلُ هذا ما قالَ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وكانَ المَعْنَى منهُ: مَنْ تَكَلَّمَ بالكُفْرِ ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ فكذلكَ يجوزُ أن يكونَ المَعْنَى مِنَ الأوَّلِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ المُفَسِّرينَ ذَكَروا وَصْفَ امْتِحانِهِنَّ: يَحْلِفْنَ باللهِ ما أخْرَجَهُنَّ مِنْ دارِهِنَّ بُغْضُ أزواجِهِنَّ، أو يَحْلِفْنَ أنهنَّ ما أرَدْنَ / ٥٦٤ - ب/ بِخُروجِهِنَّ أرضاً سِوَى أرضِهِنَّ، وإنما أرَدْنَ بذلكَ الإسلامَ، وهذا تأويلٌ فاسدٌ؛ وذلكَ أنها إذا أسْلَمَتْ كانَ

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: ممن تنهى. (٣) في الأصل وم: التولي. (٤) في الأصل وم: توليهم. (٥) في الأصل وم: إظهاره.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الحقُّ عليها في دينِها أنْ تَبْغُضَ زوجَها الكافرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فكيفَ يجوزُ أنْ تكونَ صفةُ امْتِحانِهِنَّ ما ذَكَروا، وحُكْمُ الشريعةِ والدينِ يُوجِبُ ما كُنَّ يَفْعَلْنَهُ؟ فكذلكَ قُلْنا: إنَّ هذا التأويلَ الذي ذَكَرَهُ بعضُ المُفَسِّرينَ في وصفِ الامْتِحانِ غَيرُ مُستقيمٍ.

ويجوزُ أنْ يكونَ تأويلُ امْتِحانِهِنَّ على وجْهَينِ:

أحدُهما: أنْ يُسْتَوصَفْنَ عنِ الإيمانِ ما هو؟ فإذا أخبَرْنَ عنْ حقيقةِ الإيمانِ عُلِمَ أنهنَّ مؤمناتٌ.

والثاني: [أنْ][1] يُعْرَضَ عليهِنَّ ما على المؤمناتِ في إيمانِهِنَّ كما قالَ تعالى: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] فإذا قَبِلْنَ ذلكَ كلَّهُ [كانَ][2] ذلكَ امْتِحانُهُنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الذي كُلِّفَ بِهِ المؤمنونَ مِنِ امْتِحانِهِنَّ في الظاهرِ، وأنَّ الحقيقةَ إنَّما يَعْلَمُها ربُّ العالَمينَ.

وهذا يُبَيِّنُ أنَّ العِلْمَ عِلْمانِ: عِلْمُ العملِ، وعِلْمُ الشهادةِ.

فَعِلْمُ العملِ ما يَعْلَمُهُ الخَلْقُ في الظاهرِ، فَيَعْمَلونَ[3] بهِ. وعِلْمُ الشهادةِ ما يجوزُ أنْ يُشْهَدَ على اللهِ بهِ؛ وذلكَ إنما يوصَلُ إليهِ، وذلكَ بما يُطْلِعُهُمُ اللهُ عليهِ نصّاً: إمّا بكتابٍ أو بِسُنَّةٍ مُتَواتِرَةٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ.

وعِلْمُ العملِ هو الذي يَنْساغُ فيهِ الاجْتِهادُ نَحْوُ خَبَرِ الآحادِ وجِهَةِ القياسِ وغَيرُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صالَحَ عامَ الحُدَيبِيَّةِ مُشْركي أهلِ مكةَ على أنَّ مَنْ أتاهُ مِنْ أهلِ مكةَ فهو عليهِ[4] رَدُّهُ، ومَنْ أتى مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فهو لهمْ، وغَيرُ ذلكَ. وكَتَبَ بذلكَ كتاباً، وهو بالحُدَيبِيَّةِ.

فلما فَرَغَ مِنَ الكتابِ إذْ أتَتْ سُبَيعةُ [بنتُ الحارثِ الأسْلَمِيَّةُ][5] مُسْلِمَةً، فجاءَ زوجُها إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ رُدَّ عليَّ امْرَأتي، فإنكَ قد شَرَطْتَ لنا ذلكَ، وهذهِ طِينةُ كتابِكَ، لم تَجِفَّ بَعْدُ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ يقولُ: لا تَرُدُّوهُنَّ إلى أزواجِهِنَّ ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ يقولُ: لا يَحِلُّ نِكاحُ مُؤْمِنَةٍ لكافرٍ ولا نِكاحُ كافرٍ لِمُؤْمِنَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ يقولُ: أعْطُوا زَوجَها الكافرَ ما أنْفَقَ عليها على ما كانَ جَرى مِنَ الصلحِ بَينَهُمْ وبينَ المُسْلِمينَ أنَّ [مَنْ خَرَجْنَ][6] مِنْ نساءِ أهلِ مكةَ إلى المدينةِ مؤمناتٍ[7] لا تُرْجِعوهُنَّ إلى الكفارِ، وأعْطُوا أزواجَهُنَّ[8] ما أنْفَقوا.

ثم معلومٌ أنهُ كانَ يؤخَذُ بإعطاءِ الصَّداقِ وإيتاءِ ما أنْفَقَ غيرَ الذي أخذَ الصَّداقَ. ولكنْ كانَ يؤخَذُ بهِ مَنْ كانَ مِنْ جِنْسِهِ على ما ذَكَرْنا نظائِرَهُ في ما تَقَدَّمَ.

ولذلكَ قالَ أصحابُنا: إنَّ أهلَ الإسلامِ يأخذونَ مِنْ تُجارِ أهلِ الحربِ مُجازاةً لِما يأخُذُهُ أهلُ الحربِ مِنْ تُجارِ المسلمينَ، وإنما يؤخَذُ ذلكَ مِمَّنْ كانَ مِنْ جنسِهِ، وإنْ كانَ ذلك غَيرَ الذي أُخِذَ منهُ.

وعلى ذلكَ يقولُ: إنَّ المِحْنَةَ قد يجوزُ أنْ تَسْتَوِيَ على البَرِّ والفاجِرِ، وأنَّ ما يَنْزِلُ بالآدَمِيِّ مِنَ المِحَنِ يجوزُ ألّا يكونَ حَقّاً لِما تَعاطَى مِنَ الذنوبِ والسَّيِّئاتِ، لأنَّ للهِ تعالى أنْ يَمْتَحِنَ عبدَهُ في هذهِ الدنيا مُبْتَدَأً. وأمّا في الآخِرَةِ فلا يُؤاخَذُ فيها أحدٌ بذنبِ آخَرَ، بل يُجْزَى كلٌّ بعملِهِ: إنْ شراً فَشرٌّ، وإنْ خيراً فَخيرٌ[9]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فيعلمون. (٤) في الأصل وم: عليهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ما خرج. (٧) في الأصل وم: لم. (٨) في الأصل وم: أزواجهم. (٩) من م، في الأصل: فخيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يقولُ: لا إِثْمَ عليكُمْ؛ يعني المسلمينَ أنْ تتزوَّجوهُنَّ إذا آتيتُموهُنَّ مُهورَهُنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنَّ زينبَ بِنْتَ رسولِ اللهِ ﷺ أسْلَمَتْ قَبْلَ زوجِها، ثم أسْلَمَ بَعْدَ ذلكَ زوجُها، فَرَدَّها رسولُ اللهِ ﷺ بالنِّكاحِ الأوَّلِ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ [قولُهُ:][1] ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فلما نَزَلَ[2] كانَ إذا أسْلَمَ الزوجُ، وخَرَجَ إلى دارِ الإسلامِ، انْقَطَعَتِ العِصْمَةُ بَيْنَهُ وبَيْنَ امْرأتِهِ. وكذلكَ المرأةُ إذا خَرَجَتْ وبَقِيَ الزَّوجُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي بِعَقْدِ الكوافِرِ؛ فَمَنْ كانَتْ لهُ امرأةٌ بمكةَ كافرةٌ فلا يُعيدَنَّ المرأةَ الكافرةَ، فإنها ليسَتْ بامرأةٍ لهُ، وقد انْقَطَعَتِ العصمةُ بَيْنَهما.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ حَظَرَ علينا الامْتِناعَ والكَفَّ والإمساكَ عن نكاحِ المُهاجِرَةِ لأجلِ زوجِها الحَرْبِيِّ وعِصْمَتِهِ، والعِصْمَةُ المَنْعُ، والكوافرُ يجوزُ أنْ يَتَناوَلَ الرجالَ، وظاهِرُهُ في هذا الموضِعِ للرجالِ لأنهُ في ذِكْرِ المُهاجراتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ يقولُ: إذا لَحِقَتِ امْرأةُ المسلِمِ بكفارِ مكةَ فاسْألوا مَهْرَها مِنْ أهلِ مكةَ، ورُدّوهُ[3] إلى زَوجِها ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ يقولُ: إنْ جاءتِ امرأةٌ مِنْ أهلِ مكةَ مهاجرةٌ إليكمْ فَرُدّوا على زوجِها المُشْرِكِ ما أعطاها مِنَ المَهْرِ، وذلكَ مِنْ أجلِ العَهْدِ الذي كانَ بَيْنَ أهلِ مكةَ مهاجرةٌ إليكمْ فَرُدّوا على زوجِها المُشْرِكِ ما أعطاها مِنَ المَهْرِ، وذلكَ مِنْ أجلِ العَهْدِ الذي كانَ بَيْنَ أهلِ مكةَ وبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يقولُ: هذا هو حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَينَكُمْ، يقولُ: هذا هو حُكْمُ اللهِ بينَ المُسلِمينَ والكفارِ مِنْ أهلِ العَهْدِ مِنْ أهلِ مكةَ في أنْ يَرُدَّ بعضُهُمْ على بعضٍ النَّفَقَةَ، أي المَهْرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي في ما حَكَمَ بينَ المسلِمينَ وأهلِ العهدِ ما ذَكَرْنا مِنَ الحُكْمِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ يقولُ: إنْ لَحِقَتِ امرأةٌ مؤمنةٌ بكفارِ مكةَ مِنْ أهلِ الحربِ مِمَّنْ ليسَ بَيْنَكُمْ وبينَهُمْ عهدٌ، ولها زوجٌ عندكُمْ مُسْلِمٌ ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فأعْقَبَكُمْ مالاً مِنَ الغنيمةِ ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ مِنَ المَهْرِ ممّا أَصَبْتُمْ مِنَ الغَنيمةِ قَبْلَ القِسْمَةِ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ما فَرَضَ عليكُمْ مِنْ هذا ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي مُصَدِّقونَ، فلا تَنْقُصوهُ، واللهُ أعلَمُ.

وهكذا رُوِيَ [عن][4] مَسْروقٍ، رحمةُ اللهِ عليهِ، وعنِ الزُّهْرِيِّ أنهُ قالَ: مِنْ حُكْمِ اللهِ تعالى أنْ يَسْألَ المسلمونَ مِنَ الكفارِ مَهْرَ المرأةِ المسلمةِ إذا صارتْ إليهِمْ، ويَسْألَ الكفارُ مِنَ المُسْلِمينَ مَهْرَ مَنْ صارتْ إلينا مِنْ نِسائِهِمْ مُسْلِمَةً، فأقَرَّ المؤمنونَ بِحُكْمِ اللهِ تعالى، وأبى المُشْرِكونَ أنْ يُقِرّوا بذلكَ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ فأمَرَ اللهُ تعالى المُسلِمينَ إذا ذهبَتِ امرأةٌ مسلمةٌ، ولها زوجٌ إلى الكفارِ أنْ يَرُدّوا إلى زوجِها ما أعطاها مِنَ المَهْرِ مِنْ صَداقٍ كانَ في أيديهِمْ ممّا يُريدونَ أنْ يَرُدّوا إلى المُشْرِكينَ بِمُهاجَرَةِ امرأةٍ مسلمةٍ إليهِمْ[5]، وإنْ لم يكُنْ في أيديهِمْ صَداقٌ، وَجَبَ رَدُّهُ على أهلِ الحربِ [وتعويضُهُ مِنْ غَنيمَةٍ أصابوها][6]. وأصلُ هذا، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ﴾ مما أنْفَقْتُمْ على أزواجِكُمْ، ثم ظَفِرْتُمْ على أعدائِكُمْ، وغَنِمْتُمْ ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ / ٥٦٥ ـ أ/ أَزْوَٰجُهُم﴾ ما فاتَ عنهمْ ﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾ فكأنهُ يقولُ: واسألوا أولئكَ الذينَ ذَهَبتْ نِساؤُكُمْ إليهمْ ما أنْفَقْتُمْ. فإنْ سألْتُمْ، ولم يُعطوكُمْ شيئاً، وفاتكُمْ ذلكَ مِنْ ذلكَ الوجهِ، ثم قاتَلْتُموهُمْ، وغَنِمْتُمْ، فأعْطوا الذينَ فاتَ عنهمْ أزواجُهُمْ ما أنْفَقوا.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: اِعْلَمْ بأنَّ هذهِ الآياتِ[7]، تَنْتَظِمُ أحكاماً:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: نزلت. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إلينا.
(٦) في الأصل: فوضوهم من غنيمته أصبتموها، في م: فعوضوهم من غنيمة أصبتموها. (٧) في الأصل وم: الآية.

أحدُها: جوازُ الاجتهادِ والعملُ بالعلمِ الظاهرِ، فإنهُ قالَ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ أي بالاجتهادِ والامتحانِ ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وهذا حُكْمٌ مَبْنيٌّ على العِلْمِ الظاهرِ، دلَّ أنَّ العَمَلَ به جائزٌ.

[والوجهُ][1] الثاني: أنَّ أحَدَ الزَّوجَينِ إذا أسْلَمَ في دارٍ واحدةٍ: إمّا دارِ الإسلامِ [وإمّا][2] دارِ الحَرْبِ، هل تَقَعُ الفُرْقَةُ بنفسِ الإسلامِ أو بانْضِمامِ شيءٍ آخَرَ إليهِ؟

قالَ بِشْرٌ المَرِّيسِيُّ: إنَّ الفُرْقَةَ تَقَعُ للحالِ مِنْ غيرِ انْضِمامِ شيءٍ آخَرَ إليهِ.

وقالَ الشافعيُّ: إنْ كانَتِ المرأةُ مَدْخولاً بها لم تَقَعِ الفُرْقَةُ حتى تَحيضَ ثلاثَ حِيَضٍ، وإذا كانَتْ غيرَ مدخولٍ بها وقَعَتِ الفُرْقَةُ للحالِ.

وقالَ أصحابُنا: إذا كانا في دارِ الحربِ، فأسْلَمَ أحَدُهما لم تَقَعِ الفُرْقَةُ حتى تَحيضَ ثلاثَ [حِيَضٍ][3]، وإذا كانا في دارِ الإسلامِ ذِمِّيَّينِ، فأسْلَمَ أحدُهما، لم تَقَعِ الفُرْقَةُ حتى يَعْرِضَ السلطانُ الإسلامَ على الآخَرِ؛ فإذا عَرَضَ عليهِ الإسلامَ، فأبى، فَرَّقَ بينَها.

فأمّا بِشْرٌ [فقدِ][4] احتجَّ بظاهرِ قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فقد أخبَرَ أنهُ لا يَحِلُّ منهما لِصاحِبِهِ، ولم يَذْكُرْ شيئاً آخَرَ، فلا يُقْرَنُ بهِ شيءٌ آخَرُ.

وأمّا أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، فإنهمُ احتَجُّوا، وقالوا: إنَّ الفُرْقَةَ لا تَقَعُ بنفسِ الإسلامِ بقولِهِ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فلو كانتِ الفُرْقَةُ واقعةً بمجرَّدِ الإيمانِ لم يكُنْ لِلامْتِحانِ مَعْنًى. فلما لم يَذْكُرِ الحُرْمَةَ إلّا بالامْتِحانِ ثَبَتَ أنَّ الفُرْقَةَ لا تَقَعُ بِمُجَرَّدِ الإيمانِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مثالُ هذا قولَهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] وحَرَّمَ ذلكَ على المؤمنينَ، ثم قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النور: ٦] فلو كانَ الزِّنى يُوجِبُ الحُرْمَةَ لم يكُنْ هو رامياً للزوجةِ، بل إذا قالَ لها: زَنَيتِ، فكأنهُ قالَ: لم يكُنْ بيني وبينَكِ نِكاحٌ.

فلما ثَبَتَ رَمْيُ الزوجاتِ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ ثَبَتَ أنَّ الزِّنى لا يُوجِبُ حُرْمَتَها عليهِ. فكذلكَ الإيمانُ بِمُجَرَّدِهِ لو كانَ يُحَرِّمُها على الأزواجِ لم يكُنْ للأمرِ بالامْتِحانِ مَعْنًى.

فلما أمَرَ بالامْتِحانِ على إيمانِها بَعْدَ أنْ أظْهَرَتْ في نفسِها الإيمانَ ثَبَتَ أنَّ الحُرْمَةَ لا تَقَعُ بنفسِ الإيمانِ حتى يَنْضَمَّ إليهِ شيءٌ آخرُ، وتَبَيَّنَ أنَّ العَمَلَ بِظاهرِ الآيةِ غَيرُ ممكنٍ؛ إذْ لا يُجرَى على إطلاقِها، واللهُ أعلَمُ.

ودليلٌ ثانٍ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ أسْلَموا، ثم أسْلَمَ نِساؤُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ لم يُرْوَ عن أحدٍ منهمْ أنهُ جَدَّدَ النِّكاحَ. ولو كانتِ الفُرْقَةُ تَقَعُ بِنَفْسِ الإسلامِ مِنْ أحدِ الزوجَينِ لكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أولَى بتجديدِ النكاحِ. ثَبَتَ أنَّ الفُرْقَةَ لا تَقَعُ بِمُجَرَّدِ الإسلامِ، واللهُ أعلَمُ.

والوجهُ الثالثُ: ما رُوِيَ عنِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمَعينَ، على اختِلافِ الأسبابِ باختِلافِ الدارَينِ ونَحْوِهِ: رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهما على النكاحِ حتى تَحيضَ المرأةُ ثلاثَ حِيَضٍ إذا كانا في دارِ الحربِ.

وعنْ عليٍّ رضي الله عنه أنهما على النِّكاحِ ماداما في الهجرةِ.

وعنْ عُمَرَ رضي الله عنه أنهما إذا كانا في دارِ الإسلامِ، فأسْلَمَ أحَدُهما فهما على النِّكاحِ حتى يَعْرِضَ السلطانُ الإسلامَ على الآخَرِ.

فهؤلاءِ قد ثَبَتَ عنهمْ أنَّ الفُرْقَةَ لا تَقَعُ بنفسِ الإسلامِ إلّا[5] أنْ يُضافَ شيءٌ آخَرُ.

ولم يَثْبُتْ عنْ غَيرِهِمْ خِلافُ ذلكَ، فيكونُ إجْماعاً. فلذلكَ أخَذَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، بقولِهِم، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: والثاني. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إلى.

[والوجهُ الرابعُ][1]: أنّ أحدَ الزوجَينِ إذا خَرَجَ إلى دارِ الإسلامِ مُهاجراً، وبَقِيَ الآخَرُ في دارِ الحربِ، تَقَعُ الفُرْقَةُ بَينَهما عندَنا.

وعندَ الشافِعِيّ لا تَقَعُ الفُرْقَةُ بِتَبايُنِ الدارَينِ؛ قالَ: لأنَّ المُسْلِمَ إذا دَخَلَ بأمانٍ لم يَبْطُلْ نِكاحُ امرأتِهِ، وكذلكَ لو دَخَلَ حَرْبيٌّ إلينا بأمانٍ لم تَقَعِ الفُرْقَةُ بينَهُ وبَينَ زوجتِهِ. وكذلكَ لو أسْلَمَ الزوجانِ في دارِ الحربِ، ثم خَرَجَ أحَدُهما إلى دارِ الإسلامِ، لم تَقَعِ الفُرْقَةُ، فَعُلِمَ أنهُ لا يَعْتَبِرُ باخْتِلافِ الدارينِ في إيجابِ الفُرْقَةِ.

ولكنْ عندنا ليسَ مَعْنَى اخْتِلافِ الدارَينِ ما ذَكَرَ، إنما مَعْناهُ أنْ يكونَ أحَدُهُما مِنْ أهلِ دارِ الإسلامِ: إمّا بالإسلامِ [وإمّا][2] بالذِّمَّةِ، والآخَرُ مِنْ أهلِ دارِ الحرب، فيكونُ حَرْبِيّاً كافراً.

فأمّا إذا كانا مُسْلِمَينِ فهما مِنْ أهلِ دارٍ واحدةٍ، وإنْ كانَ أحدُهما مقيماً في دارِ الحربِ والآخَرُ في دارِ الإسلام.

وفي هذهِ الآيةِ دَلالاتٌ[3] على ما قُلْنا مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ولو كانَتِ الزوجيَّةُ باقيةً بَعْدَ التَّبايُنِ لكانَ الزَّوجُ أولى [بها وبانَ][4] تكونَ معهُ، فلا مَعْنَى لِلنَّهْيِ عنِ الرَّجْعِ إلى الزَّوجِ الكافرِ. وكذا قالَ ﷻ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أثبتَ الحُرْمَةَ بينَ المهاجراتِ وأزواجِهِنَّ، ولا يُتَصَوَّرُ بَقاءُ النكاحِ في غَيرِ مَحَلِّ الحِلِّ، وكانَ معناهُ تحريمَ الاِسْتِمتاعِ.

ولكنَّ النِّكاحَ لمّالم يَكُنِ المَقصودُ بِهِ إلّا الاِسْتِمتاعَ، وما هذا مِنْ آثارِهِ، فكانَ في تحريمِ الاِسْتِمْتاعِ تحريمُ النكاحِ.

وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ دليلٌ عليهِ أيضاً، فإنهُ أمْرٌ بردِّ مَهْرِهِنَّ إلى الزّوجِ، ولو كانتِ الزوجيَّةُ باقيةً لَما اسْتَحَقَّ الزوجُ اسْتِرْدادَ المَهْرِ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَسْتَحِقَّ البِضعَ وبَدَلَهُ.

وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ولو كانَ نكاحُ الأَوّلِ باقياً لَما جازَ لِلمُسْلِمِ في دارِ الإسلامِ أنْ يَتزوَّجَها.

وكذا قولُهُ[5] تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ نهانا عَنِ الإمساكِ والاِمْتِناعِ عِنْ تَزْويجِها لأجلِ عِصمةِ الزوجِ الكافرِ وحُرْمَتِهِ. دلَّ أنَّ الحُرْمَةَ تقعُ بالتَّبايُنِ.

ودليلٌ آخَرُ مِنْ جهةِ المعقولِ على ما ذَكَرْنا، وهو أنهمْ أجمعوا أنها إذا سُبِيَتْ وقْتَ الفُرْقَةِ حتى يَحِلَّ للسّابي وَطْءُ المَسْبِيَّةِ بَعْدَ الاِسْتِبراءِ، فإمّا أنْ تَقَعَ الفُرْقَةُ بإسلامها، وقد اتَّفَقَ الجمهورُ مِنَ الفقهاءِ، رحمهمُ اللهُ، على ألّا تَقَعَ الفُرْقَةُ بنفسِ الإسلامِ، إذا كانَ بعدَ الدخولِ ما لم يَنْضَمَّ إليهِ شيءٌ آخَرُ، وبحدوثِ المُلْكِ للسّابي، ومَعْلومٌ أنَّ المُلْكَ لا يَمْنَعُ النكاحَ.

ألا تَرَى أنهُ يجوزُ ابْتِداءُ العَقْدِ على المَمْلوكِ؟ ولهذا إذا بيعتِ الجاريةُ لم تَقَعِ الفُرْقَةُ، وإنْ وَجَدتِ المُلْكَ فيها لِلْمُشْتَري، وكذلكَ إذا ماتَ رجلٌ، وخَلَّفَ أمةً مَنْكوحةً ثَبَتَ المُلْكُ فيها للوارثِ، ولا يَبْطُلُ النكاحُ.

وإذا لم تَثْبُتِ الفُرْقَةُ بهذينِ الوجهَينِ لم يَبْقَ إلّا تَبايُنُ الدارَينِ.

فَدَلَّ أنَّ سَبَبَ الفُرْقَةِ هو تَبايُنُ الدارَينِ في المَسْبِيَّةِ، والتَبايُنَ موجودٌ في المَهاجِرةِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنِ احْتَجّوا بما رُوِيَ عنْ عِكْرِمةَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ قالَ: رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ بِنْتَهُ زينبَ على أبي العاصِ بْنِ الربيعِ بالنّكاحِ الأَوَّلِ بعدَ سِنِينَ، وقد كانَتْ زينبُ هاجَرَتْ إلى المدينةِ، وبَقِيَ زوجُها / ٥٦٥ ـ ب/ مُشْرِكاً بمكةَ، ثم ردَّها عليهِ بالنكاحِ الأَوَّلِ.

فَدَلَّ أنَّ اخْتِلافَ الدارَينِ لا يُوجِبُ الفُرْقَةَ.

---

(١) في الأصل وم: والثالث. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: دلالة. (٤) من م، في الأصل: بهما أو بان. (٥) في الأصل وم: قال.

فنقولُ لهم[1]: لا يَصِحُّ الاحْتِجاجُ بهِ مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ رَدَّها بَعْدَ سِتِّ سِنينَ بالنكاحِ الأوَّلِ، ولا خِلافَ بينَ الفقهاءِ [أنها][2] لا تُرَدُّ إلى الزوجِ بالعَقْدِ الأوَّلِ بعد انْقِضاءِ ثلاثِ حِيَضٍ. ومَعْلومٌ أنهُ ليسَ في العادةِ ألّا يكونَ ثلاثُ حِيَضٍ في سِتِّ سِنينَ، فَسَقَطَ الاحْتِجاجُ بهِ.

والثاني: أنهُ رُوِيَ عنْ عِكْرِمَةَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ في اليهوديةِ، تُسْلِمُ قَبْلَ زوجِها: إنها أمْلَكُ لِنَفْسِها، فكانَ مِنْ مذهبِهِ: أنَّ الفُرْقَةَ وقَعَتْ بإسلامِها، والراوي متى عَمِلَ بِخِلافِ ما رَوَى دلَّ على انْتِساخِ ذلكَ، إذْ لا يُظَنُّ بهِ أنهُ خالفَ رسولَ اللهِ ﷺ.

والثالثُ: أنَّ عَمْرَ بْنَ شُعَيبٍ رَوَى عنْ أبيهِ عنْ جَدِّهِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ بِنْتَهُ زينبَ ﷺ على أبي العاصِّ بِنِكاحٍ ثانٍ، فَوَقَعَ التَّعارضُ بينَ الحديثَينِ، فَبَطَلَ احْتِجاجُهُمْ[3] بالحديثِ.

ثم التَّرجيحُ لِما رَوَينا لأنَّ في ما رَواهُ إخْبارٌ عنْ كونِها زوجةً لهُ بَعدَ ما أسلَمَ الزوجُ، ولم يُعْلَمْ حدوثُ عَقْدٍ ثانٍ.

وفي حديثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيبٍ [أمْرانِ:

أحَدُهما:][4] إخبارٌ عنْ حُدوثِ عَقْدٍ ثانٍ بَعْدَ إسلامِهِ [فيكونُ أولَى مِنَ الأوَّلِ لأنَّ الأوَّلَ إخبارٌ عنْ حدوثِ عقدٍ ثانٍ بعدَ إسلامِهِ][5].

والثاني: إخْبارٌ عنْ مَعْنَى حادثٍ عَلِمَهُ، وهذا كما رَجَّحْنا حديثَ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ مَيمونةَ، وهو مُحْرِمٌ على حديثِ يَزيدِ [بْنِ][6] الأصَمِّ أنهُ تَزَوَّجَها وهو حَلالٌ، لأنَّ في حديثِ ابْنِ عباسٍ ﷺ إخْباراً عنْ حالةٍ حادثةٍ، والخَبَرَ الآخَرَ عنْ ظاهرِ الأمْرِ الأوَّلِ.

وبحديثِ بُرَيدةَ أنهُ كانَ زَوجُها حُرّاً حتى أُعْتِقَتْ[7].

وبِرِوايةِ[8] مَنْ رَوَى أنهُ كانَ عبداً يكونُ[9] الأوَّلُ أولَى لإخبارِهِ عنْ حالٍ حادثةٍ، وفي [الثاني][10] إخبارٌ عَنْ ظاهرِ الحالِ، ويكونُ[11] الأوَّلُ أولَى، فكذلكَ هذا.

والرابعُ: أنَّ المُهاجِرَةَ، لا عِدَّةَ عليها عندَ أبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، وعلى قولِهِما: عليها العِدَّةُ.

وهذهِ الآيةُ دليلُ أبي حنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، مِنْ وجوهٍ؟ فإنهُ ﷻ قالَ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ نَهَى عنِ الرَّدِّ إلى الزَّوجِ الأوَّلِ، ولو كانَتْ عليها العِدَّةُ لَكانَ للزَّوجِ أنْ يَرُدَّها إلى مَسْكَنِهِ البعيدِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] كيفَ أمَرَ الأزواجَ بإسكانِهِنَّ في بُيوتِهِمْ ما دُمْنَ في عِدَّتِهِنَّ؟

فأمّا ما قالَ ههنا: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [فقد][12] دلَّ على [أنهُ][13] لا عِدَّةَ عليها، وكذا [ما][14] قالَ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فأباحَ نِكاحَها مُطلقاً مِنْ غَيرِ ذِكْرِ العِدَّةِ وما[15] قالَ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

ولو كانَتِ العِدَّةُ عليها واجبةً لَكانَتِ [العِصْمَةُ][16] باقيةً لِقَولِهِ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ألا تَراهُ كيفَ جَعَلَ العِدَّةَ في حَقِّهِ؟ وإذا كانَ لِلزَّوجِ عليها حقٌّ كانَتْ هي في عِصْمَتِهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ يُوجِبُ قَطْعَ العِصْمَةِ.

---

(١) في الأصل وم: له. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: احتجاجه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: اعتقد. (٨) في الأصل: وروايته، في م: ورواية. (٩) من م، في الأصل: يجوز. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وكان. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وكذا. (١٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

فلَما كانَ في إيجابِ العِدَّةِ إبقاءُ العِصمةِ بَينهما، ونَهى اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، قَطعْناها[1]، وأسْقطْنا العِدَّةَ عنها، واللهُ أعلَمُ. ولأنهمْ أجْمعوا أنها إذا سُبِيَتْ وقَعتِ الفُرْقةُ، وسَقَطتِ العِدَّةُ، والمُلْكُ ليسَ بسببٍ لإسقاطِ العِدَّةِ، ولكنهُ سببٌ لِنَقْضِ العِدَّةِ، فلمّا سَقَطتِ العِدَّةُ عندَ السَّبْيِ والمُهاجَرَةِ، والسَّبْيُ لا يوجِبُ الإسقاطَ، دلَّ سُقوطُ العِدَّةِ لاخْتِلافِ الدارَيْنِ، واللهُ أعلَمُ.

والخامسُ: فيهِ دليلٌ على أنَّ الكتابَ يجوزُ أنْ يُنْسَخَ حُكْمُهُ بِتَرْكِ الناسِ العملَ؛ فإنَّ [في][2] قولِهِ: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ وقولِهِ: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ الحُكمَ مَتْروكٌ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ في تَرْكِهِ كتابٌ أو سُنَّةٌ.

ولكنَّ الناسَ لمّا أجْمَعوا على تَرْكِهِ، وهذا وأمثالُهُ في حُكمٍ عُرْفِيٍّ، ثُبوتُهُ على المَخصوصِ لِمَعْنًى، ثم يَنْعَدِمُ المَعْنى؛ فأمّا ما لا يُعْقَلُ [معناهُ، فَيَجبُ][3] العَمَلُ بالكتابِ، ولا يُتْرَكُ بِتَرْكِ الناسِ، ولا يجوزُ لهمُ الإجماعُ على تَرْكِهِ، ولا يَتحقَّقُ الإجماعُ على ذلكَ، وبعضُ أصحابِنا قالوا: إنهُ صارَ مَنْسوخاً بقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وبقولِهِ ﷺ: «لا يَحِلُّ مالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلّا مِنْ طِيبةٍ مِنْ نفسِهِ» [أحمد ٥/ ٧٢] واللهُ أعلَمُ.

والسادسُ: في قولِهِ تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ دلالةٌ على أنهُ سَوّى في الحُكْمِ بينَ أموالِنا وأموالِهِمْ. ثم الإجماعُ جَرَى على أنّا إذا غَلَبْنا على أموالِ أهلِ الحربِ مَلَكْناها، فكذلكَ إذا غَلَبوا على أموالِنا يَجبُ أنْ يَمْلِكوها.

وفي ما أوجَبَ مِنَ الحُرْمةِ إذا جاءتِ النسوةُ إلينا مؤمناتٍ مُهاجراتٍ دلالةٌ على أنَّ الأحكامَ في الأنفسِ مُخْتَلِفَةٌ. وعلى هذا ما خَلَّفَ كلُّ واحدٍ منهمْ مِنَ المالِ في الدارِ التي هاجَرَ منها إلى أُخرَى أنهُ يَصيرُ فَيْئاً لِما لم يُرْوَ عنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ لمّا فَتَحَ مَكةَ أنْ يكونَ تَفَحَّصَ عنْ شيءٍ منْ تلكَ الأموالِ التي كانتْ مُخْتَلِفَةً حينَ هاجَروا إلى المدينةِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ ذلكَ لِلتَّوارُثِ، أو لِما ذَكَرْنا أنها تكونُ فَيْئاً لهمْ.

ومَعْلومٌ أنَّ التوارثَ بينَ أهلِ الإسلامِ وأهلِ الكُفْرِ مُنْقَطِعٌ. وإذا بَطَلَ وَجْهُ التَّوارُثِ ثَبَتَ الوجهُ الآخَرُ، واللهُ أعلَمُ.

والسابعُ: في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ دلالةٌ على وجوبِ العَدْلِ بينَ الأعداءِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨] وقولِهِ[4] تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ [المائدة: ٢] وقولِهِ[5] تعالى ههنا: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ سَوّى بينَ أموالِنا وأموالِهِمْ، وهو العَدْلُ؛ فكأنهُ يقولُ: ذلكَ أمْرٌ في العَدْلِ بَينكُمْ وبَينَ أعدائِكُمْ ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ لكي إذا عَلِموا أنَّ العَداوةَ لا تَحْمِلُهُمْ على تَرْكِ العَدْلِ حَمَلَهُمْ ذلكَ على التَّألفِ والتَّعطُّفِ، واعْلَموا إذا تَرَكْتُمْ شَهواتِكُمْ، وأنفَقْتُمُ العَدْلَ والتَّسْويَةَ فليسَ ذلكَ مِنْ عِندِكُمْ، ولكنْ مِنْ عِندِ اللهِ تعالى؛ فكأنهُ قالَ: ذلكَ الذي أمَرَ مِنَ العَدْلِ، وجَعَلَهُ سَبَباً يُرَغِّبُ أعداءَكُمْ في الإسلامِ، ويَحْمِلُهُمْ على التَّألفِ ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

[وقولُهُ تعالى:][6] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعني بما أمَرَ مِنَ العَدْلِ والتسويةِ ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التَّدْبيرِ. فدلَّ أنَّ العَدْلَ واجبٌ بَينَهمْ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والثامنُ: في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ النساءَ إذا ارْتَدَدْنَ لم يُقْتَلْنَ، فإنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ويُثْبِتُ أنهمْ إذا لم يَعْلَموهُنَّ مؤمناتٍ أرْجَعوهُنَّ إلى الكفارِ لِما كانَ جَرَى بَينَهُمْ مِنَ الصُّلْحِ.

ومَعْلومٌ أنهنَّ إذا رَجَعْنَ إلى الكفارِ بَعْدَما أظْهَرْنَ الإيمانَ كُنَّ مُرْتَدّاتٍ، ولو كانَتِ المُرْتَدَّةُ تُقْتَلُ لَكانَ إذا ظَهَرَ ذلكَ عندَهُمْ قَتَلوها، ولم يُرْجِعوها إلى الكُفّارِ، فلما ثَبَتَ بما وَصَفْنا أنهمْ كانوا يَصْرِفونَ النساءَ إليهِمْ معَ عِلْمِهِمْ أنهنَّ مُرْتَدّاتٌ، ثَبَتَ أنَّ المُرْتَدَّةَ لا تُقْتَلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فقطعناها. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: معنا ويجب، في م: معناه ويجب. (٤) في الأصل وم: وقال.
(٥) في الأصل وم: وقال. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية: المُبايَعَةُ والهِجْرةُ كانَتا واجِبَتَينِ في عهدِ النَّبيِّ ﷺ ومَعْناهُما اليومَ واجبٌ أيضاً:

وذلكَ أنَّ الهِجْرةَ إنما كانَتْ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ: لِما كانَ أحَدُهُمْ إذا أسْلَمَ يخافُ على نفسِهِ مِنْ فَسادِ الدينِ بالكَفَرةِ أنْ لو أقامَ بَينَ [أظْهُرِهِمْ][1] وكانَ أيضاً يَحتاجُ إلى عِلْمِ الشرائعِ والأحكامِ، وإنما ارْتَفَعتِ الهِجْرةُ اليومَ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ. فأمّا واحدٌ مِنْ أهلِ الحربِ إذا أسْلَمَ / ٥٦٦ ـ أ/ وخَشِيَ على نفسِهِ فَسادَ الدينِ بالكَفَرةِ أنْ لو أقامَ بينَ أظْهُرِهم، فالواجبُ عليهِ أنْ يُهاجِرَ منها إلى دارِ الإسلامِ لِيَأمَنَ مِنْ فَسادِ دينِهِ، ويَحْصُلَ على عِلْمِ الشرائعِ.

وأمّا المُبايَعَةُ فإنَّ مَعْناها في النساءِ تَرْغيبُ الكَفَرةِ في الإسلامِ، وفي الرجالِ حَمْلُ الكَفَرةِ على الإسلامِ؛ وذلكَ أنَّ الذي أمَرَ بهِ النساءَ مِنَ المُبايَعَةِ مِنْ مَكارِمِ الأخلاقِ ومَحاسِنِ الأفعالِ. والكَفَرةُ إذا عَلِموا أنَّ هذا يُؤمَرُ فيهِ بِمَحاسِنِ الأمورِ رَغَّبَهُمْ ذلكَ في الإسلامِ

والذي أمَرَ بهِ الرجالَ إنما هو مِنْ جهةِ النصرِ والمُجاهدةِ مع النَّبيِّ ﷺ وهذا يُظْهِرُ الإسلامَ، ويُبيِّنُهُ[2].

وهذانِ المَعْنَيانِ على كلٍّ في نفسِهِ في زمانِنا هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يَتَوَجَّهُ إلى الاعْتِقادِ والمُعاملةِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عنِ الخيانةِ في الأموالِ كافةً والنُّقصانِ عنِ العبادةِ جملةً لأنهُ يُقالُ: أسْرَقُ السارقِ: مَنْ سَرَقَ مِنْ صَلاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حَقيقةِ الزِّنى وعلى دَواعيهِ على ما رُوِيَ مِنْ قولِهِ ﷺ: «اليدانِ تَزْنيانِ والعينانِ تَزْنيانِ والرجلانِ تَزْنيانِ والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ» [مسلم ٢٦٥٧/ ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ نَهْياً عنِ النَّميمةِ [ويجوزُ أنْ يكونَ نَهْياً][3] عنْ إلحاقِ الولدِ بأزواجِهِنَّ، وهُنَّ يَعْلَمْنَ أنهُ مِنَ الزِّنى. وهكذا رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾؟ كأنهُ[4] أمَرَهُنَّ أنْ يَنْتَهِينَ عنْ هذهِ المَناهي وأن يَتْبَعْنَ أمْرَهُ.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١٠٤ و...] يجوزُ أنْ يكونَ هذا كنايةً عنِ الأمرِ لأنهُ بَيَّنَ النَّواهِيَ والمَناكيرَ، ثم قالَ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ لم يَقُلْ ههنا: امْتَحِنوهُنَّ كما قالَ في المُهاجراتِ.

ومَعْنى ذلكَ عندَنا [في وَجْهَينِ][5]:

أحَدُهما: أنهُ قد تَبَيَّنَ ههنا وجهُ الامْتِحانِ بقولِهِ: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ فاسْتَغْنى عن ذِكْرِ الامْتِحانِ.

والوجهُ الثاني: أنَّ المُهاجراتِ إنما كُنَّ يأتينَ مِنْ دارِ الحربِ، ولم يَكُنَّ عَلِمْنَ الشرائعَ، فاحْتَجْنَ إلى الامْتِحانِ.

وأمّا هؤلاءِ فَكُنَّ[6] في دارِ الإسلامِ، وقد عَلِمْنَ شَرائِعَهُ، فلم يَذْكُرِ الامْتِحانَ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الكبائرَ لا تُخرِجُ[7] مِنَ الإيمانِ لأنهُ يُعْلَمُ أنَّ الاسْتِغْفارَ لِما يَجيءُ منهنَّ مِنْ تَضْييعِ هذهِ الحدودِ، ولو خَرَجْنَ بِتَضْييعِها مِنَ الإيمانِ لم يَأمُرِ النَّبيَّ ﷺ بالاسْتِغْفارِ لهنَّ، لأنَّ الاسْتِغْفارَ طَلَبُ المَغْفِرةِ، ويَسْتَحيلُ أنْ يُطْلَبَ منهُ مَغْفِرةُ مَنْ ليسَ لهُ غُفْرانُهُ. فَدَلَّ ما وَصَفْنا أنَّ ارْتِكابَ الكبائرِ لا يُخرِجُ صاحبَهُ مِنَ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ويبين. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فكأنه.
(٥) في الأصل وم: وجهان. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تخرجن.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كانَ[1] الله ﷻ أمَرَنا أنْ نَغْضَبَ على مَنْ غَضِبَ هو عليهِ، وأنْ نُعادِيَ مَنْ عاداهُ، ونُوالِيَ مَنْ والاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ لهُ[2] تأويلانِ:

أحَدُهما: أنَّ اليهودَ غيَّروا بَعْثَ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ وحَرَّفوهُ في التوراةِ، وكانَ في التوراةِ أنَّ الله تعالى آيَسَهُمْ مِنْ ثوابِهِ في الآخِرَةِ ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أنْ يُبْعَثوا.

[والثاني][3]: يجوزُ أنْ يكونَ معناهُ: يَيْأسُ هؤلاءِ مِنْ رحمةِ اللهِ كما يَئِسَ الكفارُ الذين هُمْ في القبورِ مِنْ رَحْمةِ اللهِ.

(١) في الأصل وم: فكان. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الآية. (٣) في الأصل وم: و.

سورة الصف

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ هـهنا: ﴿سَبَّحَ﴾ وقالَ في مَواضعَ[2] أُخَرَ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ [الجمعة: ١ والتغابن: ١ و. .] لِيُعلِمَ أنَّ ﴿يُسَبِّحُ﴾ غيرُ مُنقطِعٍ، وأنهُ قد سَبَّحَ حينَ كانَ، ويُسَبِّحُ إلى أنْ يكونَ.

وفيهِ تَسْفيهُ أولئك الكَفَرةِ المُتَمَرِّدَةِ؛ وذلكَ أنَّ التَّسبيحَ والثَّناءَ في الشاهدِ إنما يَرجِعانِ إلى المُسَبِّحِ والمُثْنَى لأنهُ لا يُثْنَى إلّا على مَنِ استحَقَّ الثناءَ، ولا يُسَبَّحُ إلّا منْ يَستَحِقُّهُ. فإنما تسبيحُ المُسَبِّحِ وثَناؤُهُ خُضوعٌ لهُ، وتَقَرُّبٌ إليهِ؛ وذلكَ يزيدُهُ شرَفاً ونُبلاً. فكأنَّ اللهَ ﷻ أخبَرَ أنهُ خَضَعَ [لهُ][3] تعالى، واستَسْلَمَ لهُ، وأتَى بما فيهِ شَرَفٌ لهُ، وزَينٌ، وتَقَرُّبٌ إلى ربِّهِ، إلّا الكَفَرةَ فإنهمْ تَرَكوا التَّسبيحَ للهِ تعالى مع ما فيهِ مِنْ نُبْلِهِمْ وشَرَفِهِمْ وزينَتِهِمْ، واللهُ الموفِّقُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ذَكَرَ سَفَهَهُمْ أيضاً مِنْ وجهٍ آخرَ، وهو أنهُ لو كانَ للهِ تعالى بِتَسْبيحِ شيءٍ مِنَ الخَلائقِ حاجةٌ لكانَ في تَسْبيحِ مَنْ ذَكَرَ كِفايةٌ وغِنًى عنْ تَسْبيحِ الكَفَرةِ، ولكنهمْ تَرَكوا التَّسبيحَ، واللهُ تعالى غَنِيٌّ عنهمْ وعنْ تَسْبيحِهِمْ، فما تَرَكوهُ إلّا لِسَفَهِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يَدُلُّ على أنهُ عَزيزٌ في ذاتِهِ، وإنْ تَرَكَ [الكَفَرةُ التَّسبيحَ][4] إياهُ لا يُذِلُّهُ، بل هو عزيزٌ منيعٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني حكيمٌ حينَ[5] جَعَلَ في الأشياءِ المُتَضادَّةِ عَلَمَ رُبوبيَّتِهِ وآيةَ وحدانيَّتِهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذهِ الآيةُ في أهلِ النفاقِ في القِتالِ، [لأنهمْ تَمَنَّوُا القِتالَ][6] فلمّا أمَرَهُمُ اللهُ تعالى بهِ قالوا ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ [النساء: ٧٧] فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي لم تَعِدُونَ ما لا تَفُونَ بهِ؟

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنها في بعضِ المؤمنينَ في القِتالِ أيضاً، وإنها على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، ووَجْهُ ذلكَ أنهمُ أحبُّوا أنْ يَعْمَلوا أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى، [فأنزَلَ اللهُ تعالى قولَهُ:][7] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الصف: ١٠] وقولَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] فلم يَفُوا بما وَعَدوا، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ويجوزُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ في كلِّ مؤمنٍ لأنهُ قدِ اعتَقَدَ كلُّ مَنْ آمَنَ بإيمانِهِ الوفاءَ بما وَعَدَهُ مِنَ الطاعةِ للهِ تعالى والاستِسْلامِ لهُ والخُضوعِ. فلمّا لم يَفِ بما وَعَدَ خِيفَ عليهِ /٥٦٦ ـ ب/ في كلِّ زَلَّةٍ أنْ يَدْخُلَ في هذهِ الآيةِ، وليسَ أحدٌ مِنَ المؤمنينَ قد وَفَى بما وَعَدَ كلِّهِ، والواجبُ عليهِ أنْ يَتوبَ مِنْ ذلكَ توبةً بليغةً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المَقتُ البُغْضُ، ومَنِ استَوجَبَ مَقْتَ اللهِ لَزِمَهُ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: موضع. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: التسبيح من الكفرة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

العِقابُ، لا مَحالةَ. ولكنهُ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في مَنِ [اعتَقَدَ تَرْكَ الوفاءِ بما وَعَدَ، واستِحْلالَ ما نَهاهُ اللهُ تعالى، فَيَستَوجِبُ مَقتَ اللهِ تعالى ونِقْمَتَهُ، لا مَحالةَ][١] وإنْ كانَ في مَنْ ثَبَتَ على اعتِقادِهِ، وزَلَّ في أفعالِهِ، فالواجبُ أنْ يُقيمَ الذنوبَ، فَيَلْزَمُهُ الخوفُ على مَراتِبِها ودَرَجاتِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ليسَ فيهِ أنَّ اللهَ، لا يُحِبُّ المُبارَزةَ لأنَّ الجِهادَ والقِتالَ على المُبارِزِ أشَدُّ؛ وذلكَ أنهُ إذا كانَ في الصَّفِّ أعانَهُ على القِتالِ غيرُهُ، فكانَ أمْنُهُ على نفسِهِ في الصَّفِّ أكثَرَ. وأمّا المُبارِزُ، فإنهُ وحْدَهُ، ليسَ لهُ مُعينٌ، فإنْ ظَفِرَ على صاحِبِهِ، وإلّا هَلَكَ، والخوفُ عليهِ في ذلكَ أشَدُّ، فَيَجِبُ أنْ تكونَ المِحْنةُ فيهِ أكثَرَ.

ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى، عَلَّمَهُمْ بهذِهِ الآيةِ كَيفيَّةَ القِتالِ لِيَستَعينَ بعضُهُمْ بِبَعضٍ ولِتكونَ كلمتُهُمْ واحدةً لأنهمْ إذا تفَرَّقوا اختَلَفَتْ آراؤُهُمْ، فَيُخشى عليهمُ الهَزيمةُ والإدبارُ، وإذا كانَتْ آراؤُهُمْ مُتَّفِقَةً وكلِمَتُهُمْ واحدةً وشَوكَتُهُمْ واحدةً، وذلكَ في القِتالِ زيادةُ نُصرةِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ضَرْبُ هذا المَثَلِ لِلثَّباتِ، يَعْني: إذا اصطَفّوا ثَبَتوا كالبُنيانِ المَرصوصِ الذي[٢] تكونُ ثابِتَةً مُستَقِرَّةً، لا يَنْتَقِضُ بأدنى شيءٍ.

ومنهمْ مَنْ ضَرَبَ هذا المَثَلَ لأنْ تكونَ كلمتُهُمْ واحدةً، ويُعينَ بعضُهُمْ بعضاً.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ للأمرَينِ جميعاً، لأنهمْ إذا ثَبَتوا أعانَ بعضُهُمْ بعضاً، وكانَتْ كلمتُهُمْ واحدةً، وإذا كانَتْ كلمتُهُمْ واحدةً كانَ ذلكَ أدْعَى إلى الثباتِ وأقْرَبَ إليهِ. فَلِذلكَ قُلْنا: إنهُ يجوزُ للأمْرَينِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم المحبَّةُ تَحتَمِلُ وجهَينِ: أحَدُهما: [الرِّضا][٣] عنِ الخَلْقِ، والثاني: الثَّناءُ عليهمْ بما يَفْعَلونَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: تَنْبيهٌ لهمْ وإعلامٌ عن مُعامَلَةٍ اعتادُوها في ما بينَهُمْ مِنْ غيرِ أنْ يَعلَموا فيها أذًى لموسى ﷺ نَحْوُ أنْ قالَ في حقِّ رسولِنا ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]

فَيجوزُ أنْ يكونوا، لا يُعِدّونَ تلكَ المُعاملةَ أذًى لِموسى ﷺ ولا يَعْلَمونَها، فأخبَرَهُمْ أنها تُؤذيهِ لِيَنتَهوا عَنْ ذلكَ.

والثاني: أنهُ يجوزُ أنْ يكونوا عَلِموا أنَّ ذلكَ يُؤذيهِ، ولكنهمْ عانَدوهُ، وكابَروهُ، فَيُخبِرُهُمْ أنْ كيفَ ﴿تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقد عَلِموا أنَّ حقَّ رُسُلِ الملوكِ التَّعْظيمُ والتَّبْجيلُ، فكيفَ رسولُ ربِّ العالمينَ؟ فأخبَرَهُمْ أنهمْ يُؤذونَهُ شِكايةً منهمْ إليهمْ.

ثم اختَلَفوا في الأذى؛ فقالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى ﷺ كانَ لا يَكْشِفُ عنْ نفسِهِ، فآذَوهُ بأنْ قالوا: إنَّ في بَدَنِهِ آفةً ومَكْروهاً، وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى ﷺ ذهبَ مع هارونَ ﷺ إلى جَبَلٍ، فَقُبِضَ هارونَ في ذلكَ الجبلِ، فآذَوهُ بأنْ قالوا: قَتَلَ موسى أخاهُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: كانوا يُؤذونَهُ بِألسِنَتِهِمْ حينَ[٤] قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقالوا[٥]: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقالوا[٦]: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١].

ولكنَّ الوجهَ ألّا يُشارَ إلى شيءٍ بعينِهِ.

فإنْ كانَ التأويلُ، هو الوَجْهُ الأوَّلُ: أنهمْ آذَوهُ مِنْ غيرِ أنْ يَعلَموا أنَّ ذلكَ يُؤذيهِ فلا[٧] يُصْرَفُ إليهِ شيءٌ مِنْ هذهِ الأوجُهِ الثلاثةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: التي. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: ويقولهم. (٦) في الأصل وم: ويقولهم. (٧) في الأصل وم: ألا.

وإنْ كانَ على الوَجْهِ الثاني فكذلكَ، وإنْ كانَ على الوَجْهِ الثالثِ فجائزٌ[١] أنْ يُصْرَفَ إليهِ أيُّ الوجوهِ منها، واللهُ أعلَمُ.

ثم حَقُّ هذهِ في رسولِ اللهِ ﷺ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ بَنو إسرائيلَ آذَوا رسولَ اللهِ ﷺ فَذَكَّرَهُ اللهُ تعالى أمْرَ موسى ﷺ وإيذائِهِمْ إياهُ ليكونَ فيهِ تَصْبيرٌ[٢] لِرسولِ اللهِ ﷺ وتسكينٌ[٣] لِقَلْبِهِ.

[والثاني: أنهُ][٤] يجوزُ أنْ يكونَ هذا تَحْذيراً لأصحابِهِ عنْ أنْ يَرْتَكِبوا ما يُخافُ أنْ يكونَ فيهِ أذاهُ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ يَعْني خَلَقَ فِعْلَ الزَّيغِ في قلوبِهِمْ، يَعْني خَذَلَهُمُ اللهُ، وَوَكَلَهُمْ إلى أنفُسِهِمْ.

قالتِ المعتزلةُ مُحتَجِّينَ علينا[٥]: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] ذَكَرَ أنهُ إنما يُضِلُّهُ بَعْدَ ما فَسَقَ، وأنتُمْ تقولونَ: إنهُ يُضِلُّهُ، وهو يَهْدي.

قُلْنا: إنَّ هذا تَمْويهٌ علينا؛ وذلكَ أنا نقولُ: إنَّ اللهَ يُضِلُّهُ لِوَقْتِ اختيارِهِ الضَّلالَ، ويُزيغُهُ لِوَقْتِ اختيارِهِ الزَّيغَ، وإذا كانَ كذلكَ لم يَلْزَمْ ما قالتِ المعتزلةُ معَ أنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى يُضِلُّهُ بَعدَ ضَلالَتِهِ بنفسِهِ عُقوبةً لهُ، ويَزيدُهُ هُدًى بَعدَ اهْتِدائِهِ ثواباً لهُ، ولا يَسْتقيمُ ذلكَ[٦]، لأنهُ قد نَراهُ في الشاهِدِ يَكْفُرُ بَعْدَ إيمانِهِ، ويُؤمِنُ بعدَ كُفْرِهِ. وإذا كَفَرَ بَعدَ ما كانَ مؤمناً؛ وذلكَ وَقْتُ يَزيدُهُ اللهُ تعالى ثواباً لإيمانِهِ المُتَقَدِّمِ.

فإذا كَفَرَ، فكانتْ هدايةُ اللهِ تعالى سَبَباً لِكُفْرِهِ [المُتَقَدِّمِ][٧] أو إذا آمَنَ مِنْ بَعْدِ ما كانَ كافراً وقْتَ عقوبَتِهِ بالكُفْرِ، فكانَتْ عُقوبةُ اللهِ تعالى بالكُفْرِ على الكُفْرِ المُتَقَدِّمِ، كانَ سَبَباً للإيمانِ، وهذا كلامٌ مُسْتَقْبَحٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني الذينَ عَلِمَ اللهُ منهُمْ أنهمْ يَخْتارونَ الظُّلْمَ والكُفْرَ، فلا يَتوبونَ منهُ، ولا يَنْقَلِعونَ، فلا يَهْدي أولئكَ.

وأمّا مَنْ عَلِمَ منهمْ أنهُ يَتوبُ، ويُسْلِمُ، فإنهُ يَهْديهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ قولُهُ: ﴿مُّصَدِّقًا﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: أنْ يقولَ: جِئتُ إليكُمْ بالبَعْثِ [الذي وُصِفَ][٨] في التوراةِ أو ﴿مُّصَدِّقًا﴾ [ما][٩] في التوراة وبِكُتُبِ اللهِ تعالى لِيُعْلِمَ أنَّ الرسُلَ كانَ يَلْزَمُهُمْ بالكتبِ المُتَقَدِّمَةِ والرسُلِ جميعاً كما يُلْزِمُ ذلكَ أمَّتَهُمْ، أو يقولُ: ﴿مُّصَدِّقًا﴾ يعني آمُرُكُمْ بِعبادةِ اللهِ ﷻ وتوحيدِهِ كما أُمِرْتُمْ بهِ في التوراةِ لِيُعْلِمَ أنَّ الرسلَ كان دينُهُمْ واحداً، وأنَّهمْ كلَّهُمْ يَدْعونَ إلى التوحيدِ وعبادةِ الرحمنِ.

وأمّا الشرائعُ فقد يجوزُ اخْتِلافُها، ولا يَدُلُّ على اخْتِلافِ في الدينِ، لأنَّ الشرائعَ قد تَخْتَلِفُ في رسولٍ واحدٍ، ولا تَخْتَلِفُ في دينِهِ، فكذلكَ الرسُلُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني مُبَشِّراً برسولٍ، يُصَدِّقُ بالتوراةِ على مِثْلِ تَصْديقي، فكأنهُ قيلَ لهُ: [ما][١٠] اسْمُهُ؟ فقالَ: اسْمُهُ أحمدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذي جاءَهُمْ عيسى ﷺ وقالَ بعضُهُمْ: محمدٌ ﷺ وقد جاؤُوا جميعاً. وقولُهُ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالبيِّناتِ التي تُبيِّنُ أنَّ الذي جاءَ بِهِ إنما جاءَ مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أو ساحرٌ[١١] مُبينٌ. واخْتَلَفوا في مَنْ قيلَ لهُ: هذا؛ قالَ بعضُهُمْ: هو عيسى ﷺ وقالَ بعضُهُمْ: هو محمدٌ ﷺ وقد قالوا: لهما جميعاً.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تصبيراً. (٣) في الأصل وم: وتسكيناً. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، في الأصل: عليها. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كذلك. (٧) من نسخة الحرم المكي: ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: التي وصفت. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/١٣٨.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا قولُ أكابِرِ الكَفَرَةِ لِلضُّعَفاءِ منهمْ، وذلكَ أنهمْ لم يَجِدوا سَبَباً لِلتَّمويهِ سِوَى أنْ نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ، وهذا يَدُلُّ أنهُ جاءَهُمْ بالآياتِ المُعْجِزَةِ حينَ[1] نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ، وقالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنّا /٥٦٧ - أ/ لا نَعْلَمُ السِّحْرَ.

ولو كانَ الذي جاءَهُمْ بهِ سِحراً كانَ حُجَّةً عليهِمْ لأنهمْ قد عَلِموا أنَّ الرُّسلَ لم يَختَلِفوا إلى السَّحَرَةِ، ولم يَتَعَلَّموا منهمْ، وكانَ لا يَتَهَيَّأُ لهمُ اختِراعُهُ مِنْ تِلْقاءِ أنفسِهِمْ؛ فلو كانَ سحراً كانَ حُجَّةً عليهِمْ، لأنهمْ قد عَلِموا ما ذَكَرْنا، وإنَّ[2] اللهَ تعالى بَرَّأَهُ، ونَزَّهَهُ، مِنَ السِّحْرِ بِقولِهِ[3] تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الآية: ٨] نورُ اللهِ، يعني دينَ اللهِ وكتابَ اللهِ ورُسُلَ اللهِ، وقولُهُ ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ليسَتْ عندَهُمْ حُجَّةٌ ولا مَعْنًى، يَدْفعونَ بهِ هذا النورَ سِوى أنْ يقولوا بألسنَتِهِمْ: هذا سحرٌ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي ومَنْ أوحَشُ ظُلْماً أو أقبَحُ مِمَّنْ بَلَغَ افتِراؤهُ المَبْلَغَ الذي يَفْتَري على اللهِ الكَذِبَ؟ لأنهمْ قد عَلِموا أنَّ الذي نالوهُ باللهِ، ثم كَفَروا بهِ، وكَذَّبوا على اللهِ وعلى رسولِهِ.

أو يقولُ: لا أحَدَ أظْلَمُ مِمَّنْ يَفْتَري على اللهِ الكَذِبَ؛ وذلكَ أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ كلامُ استفهامٍ، ومَعْلومٌ أنَّ اللهَ تعالى لا يَسْتَفْهِمُ أحداً، وإذا كانَ كذلكَ كانَ حقُّ كلِّ ما خُرِّجَ مُخرجَ الاستِفْهامِ أنْ يُنْظَرَ إلى جوابِهِ لو كانَ يَستَفهِمُ لِيُفْهَمَ منهُ مَعْنَى قولِ ربِّ العالَمينَ.

وإنما المَفهومُ مِنْ جوابِ مَنْ يُسْتَفْهَمُ عنْ مِثْلِ هذا أنْ يقولَ: لا أحدَ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ، واللهُ يَدْعو إلى الإسلامِ، وهو أنْ يَجْعَلَ الأشياءَ كلَّها سالِمَةً لهُ؛ فهو إذْ عَلِمَ أنَّ ما نالَهُ مِنْ نِعْمةٍ فإنما نالَهُ باللهِ تعالى، وعِلْمَ الأشياءِ كلَّها للهِ تعالى، فكيفَ افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ، وهو يَعْلَمُ [ذلكَ كلَّهُ][4]؟ فإذا عَلِمَ هذا فلا أحَدَ أظْلَمُ منهُ حينَ[5] افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ لهُ أوجهٌ:

أحَدُها: بالحُجَجِ والبراهينِ.

والثاني: بِنَصرِ أهلِهِ وغَلَبَتِهِمْ[6].

والثالثُ: بإظهارِهِ في الأماكنِ كلِّها.

فإنْ كانَ على النصرِ والغَلَبَةِ فقد كانَ حتى كانَ المشركونَ[7] في خَوفٍ، والمسلمونَ في أمنٍ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾؟ [الرعد: ٣١] وإلى ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «نُصِرْتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرينِ»؟ [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦].

وإنْ كانَ بالحُجَجِ فقد [كانَ][8] أيضاً لأنهمْ عَجِزوا عنْ أنْ يأتُوا بما يُشْبِهُ أنْ يكونَ مَثَلاً لهُ فَضْلاً عنْ أنْ يأتوا بِمِثْلِهِ. فَدَلَّ أنهُ قد أتَمَّ نورَهُ بالنصرِ والغَلَبَةِ والبراهينِ والحُجَجِ.

وإنْ كانَ المُرادُ منهُ إظهارَهُ فإنهُ يُرْجى أنْ يُظْهِرَهُ على ما رُوِيَ أنهُ إذا نَزَلَ عيسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، لم يَبْقَ على وجهِ الأرضِ إلّا دينُ الإسلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ ليسَ فيهِ أنه كانَ بهِ شيءٌ مِنَ الكَدَرِ، فَصَفّاهُ، ولكنْ على ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلِ، فكذلكَ: لا يَجِبُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] أنهُ كانَ ناقصاً، فأكْمَلَهُ بالشَّرائعِ، ولكنهُ على هذهِ الوجوهِ؛ يَعْني أظْهَرَ الدينَ بالشَّرائِعِ التي وصَفْناها مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ولكن. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وغلبته. (٧) في الأصل وم: المشركين. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وقالَ حينَ ذَكَرَ الإظهارَ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الآية: ٩] لأنَّ هؤلاءِ كَفَروا بالرسولِ والكتابِ [وكذلكَ بنعَمِ][1] اللهِ تعالى فقالَ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأولئكَ أشركُوا بهِ في التوحيدِ، فقالَ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يَعْني بما اتَّبعوهُ اهْتَدَوا بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لهُ أوجهٌ ثلاثةٌ.

أحَدُها: أنْ يَجْعَلَ الحقَّ كِنايةً عنِ اللهِ تعالى؛ فكأنهُ قالَ: ودينِ اللهِ[2].

والثاني: أنْ يَجْعَلَ الحقَّ نَعْتاً للدينِ؛ فكأنهُ قالَ: [ودينِ اللهِ][3] الذي هو الحقُّ مِنْ سائرِ الأديانِ.

والثالثُ: أنْ يقولَ: [ودينِ اللهِ][4] الذي يَحِقُّ على كلِّ أحدٍ قَبولُهُ والانْقِيادُ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: أنْ يقولَ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ يعني يُظْهِرَ رسولَهُ ﷺ على كلِّ ما يَحْتاجُ في هذا الدينِ مِنَ النَّوازِلِ، فيكونُ فيهِ بَيانُ أنَّ ما جاءَ عنهُ ﷺ في هذهِ النَّوازِلِ إنما هو بالوَحْيِ وبما أظْهَرَهُ اللهُ تعالى عليهِ.

ويَحْتَمِلُ إظهارَ هذا الدينِ في الأماكِنِ كلِّها[5]، والدينُ، هو الخُضوعُ والاسْتِسْلامُ للهِ تعالى. فَحَقيقَتُهُ أنْ يَجْعَلَ الأشياءَ كلَّها سالِمةً لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: ويَقْتَضي هذا ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [قولَ][6] المعتزلةِ، لأنَّ إتمامَ نورهِ إنْ كانَ بالحُجَجِ أو بالنَّصْرِ والغَلَبَةِ أو بإظهارِهِ في الأماكِنِ كلِّها فإنما يكونُ بأفعالِ العِبادِ، ثم أضافَهُ[7] اللهُ تعالى إلى نفسِهِ، فَثَبَتَ أنَّ للهِ تعالى في أفعالِ العبادِ صُنْعاً وتَدْبيراً.

وإنْ كانَتْ أفعالُهُمْ كلُّها مخلوقةً للهِ فلا[8] تَخْرُجُ عن تَدْبيرِهِ ومَشيئَتِهِ، واللهُ المُسْتعانُ.

الآيتان ١٠ و١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإيمانُ باللهِ: أنْ يُؤمَنَ بأنهُ الواحدُ الأحدُ الصَّمَدُ الفَرْدُ الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ و٤] ويُؤمَنَ بأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ، وأنهُ قادرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وعليمٌ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، وحكيمٌ، لا يَخْرُجُ خَلْقُهُ الأشياءَ المُخْتَلِفَةَ مِنَ السَّرّاءِ والضَّراءِ والظُّلْمةِ والنُّورِ والمَرَضِ والصِّحَّةِ عنِ الحِكْمةِ[9]، وأنهُ ليسَ كما قالتِ الثَّنَوِيَّةُ: إنهُ خالقُ الظُّلْمَةِ والشَّرِّ والقَبيحِ غيرُ خالقِ النورَ، بل يُعْلِمُهُمْ[10] أنهُ خالقُ كلِّ شيءٍ؛ سَواءٌ مِنْ ظُلْمةٍ ونورٍ وشَرٍّ وخَيرٍ وسُقْمٍ وصِحَّةٍ، لا على شَبيهٍ [كما][11] قالتِ المَجوسُ: إنَّ اللهَ تعالى غَفَلَ غَفْلَةً، فَتَوَلَّدَ منهُ الشيطانُ، بل هو لا يَغْفُلُ عن شيءٍ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، ولا على ما قالتِ النَّصارَى حينَ[12] شَبَّهوهُ بالخَلْقِ حتى أجازوا أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، ولا على ما قالَتِ القَدَرِيَّةُ: إنهُ لا يُقَدِّرُ شيئاً مِنَ الشَّرِّ والسُّقْمِ ولا الوَجَعِ، ولا على ما قالتِ المعتزلةُ: إنهُ ليسَ لهُ في أفعالِ [العبادِ][13] صُنْعٌ وتدبيرٌ، بل يَعْلَمُهُ عليماً بكلِّ شيءٍ قديراً[14] على كلِّ شيءٍ مُتَعالياً على كلِّ شيءٍ مِنْ مَعاني الخَلْقِ مُتَنَزِّهاً عن كلِّ آفةٍ وحاجةٍ وعَيبٍ. فهذا هو الإيمانُ باللهِ تعالى عندَنا، واللهُ أعلَمُ.

والإيمانُ بالرسُلِ: أنْ يُؤمَنَ بأنَّ ما جاءَ بهِ ﷺ هو حقٌّ وصِدْقٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا على وجْهَينِ:

أحَدُهما: أنْ تُقاتِلوا أعداءَ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وذلك نعم. (٢) من م، في الأصل: الحق. (٣) في الأصل وم: والدين. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أضاف. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل حكمه، في م: حكمته. (١٠) في الأصل وم: وذلك نعم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: قدير.

والثاني: أنْ تُجاهِدوا في طاعةِ اللهِ وفي ما دَعَا إليهِ مِنْ عبادَتِهِ.

والجهادُ، يَنْصَرِفُ إلى أنواعٍ أربعةٍ: جِهادٌ في سَبيلِ اللهِ بِمُقابَلَةِ أعدائِهِ والاسْتِقْصاءِ في طاعتِهِ، وجِهادٌ في ما بَينَ يَدَيهِ وبَينَ نفسِهِ؛ أنْ يُجاهِدَ [العبدُ][1] في قَهْرِها ومَنْعِها عَنْ لَذّاتِها وشَهَواتِها وعمّا يَعْلَمُ أنهُ يُهْلِكُها، ويُرْديها، وجِهادٌ في ما بَينَهُ وبَينَ الخَلْقِ، وهو ألّا[2] يَدَعَ الطَّمَعَ فيهِمْ، ولا[3] يُشْفِقَ عليهِمْ، ولا يَرْحَمَهُمْ، ولا يَرْجُوَهُمْ، ولا يَخافَهُمْ[4]، وجِهادٌ في ما بَينَهُ وبَينَ الدنيا، وهو أنْ يَتَّخِذَهُ زاداً لِمَعادِهِ أو مَرَمَّةً لِمَعاشِهِ، ولا يَأْخُذَ منها ما يَضُرُّهُ في عُقْباهُ. وكلُّ هذهِ الأنواعِ تَسْتَقيمُ أنْ نُسَمِّيَها جِهاداً في سَبيلِ اللهِ.

ثم إنَّ هذهِ الآيَةَ تَنْتَظِمُ مسائلَ ثلاثةً[5]:

إحداها[6]: أنْ كيفَ أمَرَهُمْ بالإيمانِ بعدَ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؟

والثانيةُ[7]: أنْ كيفَ تُرْجَى لهُ النجاةُ إذا آمَنَ باللهِ ورسولِهِ، ولم يُجاهِدْ في سَبيلِ اللهِ، وقد عُلِّقَ بالكُلِّ؟

والثالثةُ[8]: أنْ كيفَ يُخافُ عليهِ العذابُ إذا آمَنَ باللهِ ورسولِهِ، وجاهَدَ في سَبيلِ اللهِ، وأتى بالكبيرةِ معَ قولِهِ: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟

أمّا الجوابُ عنِ المسألةِ الأولى فإنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ / ٥٦٧ ـ ب/ المُرادُ مِنْ هذهِ الآيةِ أهلَ النِّفاقِ، فيكونُ المَعْنى مِنْ قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في الظاهرِ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي تُصَدِّقونَ بِقلوبِكُمْ.

ويجوزُ أنْ يكونَ في أهلِ الكتابِ أيضاً؛ فكأنهُ قالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالكتبِ المُتَقَدِّمةِ آمِنوا باللهِ وبمحمدٍ ﷺ وبهذا الكتابِ إذا كانَ في الكفارِ.

فأمّا إذا كانَ في المؤمنينَ فيجوزُ[9] أنْ يكونَ أمْرُهُ[10] بالإيمانِ بَعدَ ما آمنوا بِمَعْنى الثَّباتِ عليهِ أو الزِّيادةِ وبِحَقِّ التَّجَدُّدِ، لأنَّ[11] الإيمانَ في حادثِ الأوقاتِ لهُ أسماءٌ ثلاثةٌ: الزِّيادةُ والثَّباتُ والتَّجَدُّدُ، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذا النوعَ في كِتابِهِ مَرَّةً باسْمِ الزِّيادةِ حينَ[12] قالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] ومَرَّةً باسْمِ الثَّباتِ بقولِهِ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] ومَرَّةً [باسْمِ][13] الإيمانِ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

فإذا كانَ على الزِّيادةِ والثَّباتِ فذلكَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ وذلكَ أنَّ الزِّيادةَ والثَّباتَ، هما اسْمانِ، يُطْلَقانِ على فِعْلٍ دائمٍ، وفِعْلُ الإيمانِ مُنْقَضٍ.

ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى بِلُطْفِهِ جَعَلَ المُنْقَضِيَ كالدائمِ، فَيَخْرُجَ هذا الفِعْلُ مَخْرَجَ الزِّيادةِ والثَّباتِ، واللهُ أعلَمُ.

وإذا كانَ على التَّجَدُّدِ في الأوقاتِ الحادثةِ [فذلكَ][14] مُسْتَقيمٌ؛ وذلكَ لأنَّ المرءَ مَنْهِيٌّ عنِ الكُفْرِ في كلِّ وقتٍ يأتي عليهِ [فهو][15] إذا أتى بالإيمانِ في ذلكَ الوَقْتِ انْتَهى عنِ الكُفْرِ، فصارَ لإيمانِهِ حُكْمُ التَّجَدُّدِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الاعْتِقادَ.

وإذا كانَ المُرادُ منهُ ذلكَ، وأتى بما أُمِرَ مِنَ الاعْتِقادِ بهذهِ الأمورِ، ولكنهُ لم يَفِ بالفِعْلِ، فهو في رَجاءٍ مِنَ النجاةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يَعْني ذلكَ الذي أمَرْتُكُمْ بهِ مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى ورسولِهِ والجهادِ في سَبيلِهِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ أن تَتَّبِعوا أهواءَكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يَعْني إنْ كُنْتُمْ تَعلَمونَ عِياناً؛ يُعْلِمُهُمْ أنَّ ذلكَ خَيرٌ لهمْ[16].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: وأن. (٤) في الأصل وم: يخافوهم. (٥) في الأصل وم: ثلاثاً. (٦) في الأصل وم: أحدها. (٧) في الأصل وم: والثاني. (٨) في الأصل وم: والثالث. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: أن، في م: وأن. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: لكم.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ يعني ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بتلك النجاةِ ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ يجوزُ أنْ يكونَ رغَّبَهُمْ في هذهِ الآيةِ بِما أمَرَهُمْ بِتَرْكِها؛ وذلكَ أنهُ أمَرَهُمْ بِمُفارقةِ مساكِنِهِمْ وإنْفاقِ أموالِهِمْ والجِهادِ[1] بأنفسِهِمْ.

ثم أخبَرَ أنهمْ إذا فَعَلوا ذلكَ آتاهُمْ مَكانَ كُلِّ ما فاتَ عنهمْ خيراً[2] منها مَكانَ ما أفْنَوا مِنْ حَياتِهِمْ وأنفسِهِمْ يُؤتيهِمْ حياةً دائمةً باقيةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني ذلك الثَّوابُ الدّائمُ، هو الفوزُ العَظيمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ فكأنهُ يقولُ: يُعطيكُمُ اللهُ بتلكَ التجارةِ التي دَلَّكُمْ عليها ما ذَكَرَ مِنَ الثَّوابِ في الآجِلِ ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على أعدائِكُمْ وفتْحُ البلادِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بهما. وقد فَعَلَ اللهُ تعالى ذلكَ لهمْ[3].

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ هذا كلامٌ، يُورِثُ شُبْهَةً في القَلْبِ: أنْ كيفَ قالَ: ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ واللهُ تعالى، لا يُخافُ حتى يَسْتَنْصِرَ عليهِ غَيرَهُ؟ ولكنَّ السَّبيلَ في كَشْفِ هذهِ الغُمَّةِ عنِ القلوبِ، هو أنَّ المَعْنى في هذا وفي قولِهِ ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] وقد وَصَفْنا في ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ ما يَصِلونَ بهِ أرحامَهُمْ، ويَتَصَدَّقونَ بهِ على الفقراءِ، كأنهمْ أقْرَضوا اللهَ كَرَماً منهُ وفَضْلاً ولُطْفاً. فكذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جَعَلَ ما يَنْصُرونَ بهِ دينَهُ أو رسولَهُ نَصْرَ اللهِ تعالى.

وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] والمَعْنى في هذا: إنْ تَنْصُروا دينَ اللهِ يَنْصُرْكُمْ، أو إنْ تَنْصُروا رسولَ اللهِ ﷺ أو إنْ تَنْصُروا الحَقَّ، واللهُ أعلَمُ أيَّ ذلكَ كانَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ: أيِ اجْعَلوا ما تَنْصُرونَ بهِ دينَكُمْ للهِ تعالى ولِوَجْهِهِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [أيِ][4] اجْعَلوا ذلكَ للهِ تعالى ولِوَجْهِهِ الكريمِ.

ولا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ في هذهِ الآيةِ إضمارٌ: إمّا في الابْتِداءِ [وإمّا][5] في الانْتِهاءِ حتى تَسْتَقيمَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ كأنهُ يقولُ: قُلْ للذينَ ﴿ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أو يكونُ مَعْناهُ وإضمارُهُ في حقِّ الإجابةِ؛ أي أجيبوا اللهَ ورسولَهُ، وكونوا أنصاراً لهُ كما أجابَ قومُ عيسى بقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

[والحَوارِيّونَ: الناصِرونَ الواقونَ][6] دينَهُمْ عنِ الشُّبْهَةِ، وهُمْ قومٌ كانوا خِيرَةَ عيسى ﷺ وخاصَّتَهُ حينَ[7] دعاهُمْ إلى دينِهِ، فأجابوهُ، وآمَنوا بهِ، ووَقَوا[8] دينَهُمْ عنْ كلِّ شُبْهَةٍ وآفةٍ وعَيبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في حياةِ عيسى ﷺ حينَ اتَّبَعَهُ الحَوارِيّونَ، ثم دَعا بَعْدَ ذلكَ قومَهُ إلى دينِهِ، فآمَنَتْ طائفةٌ ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبَراهينِ والحُجَجِ على الطائفةِ الذينَ كَفَروا، فأصْبَحوا ظاهِرِينَ على أعدائِهِمْ بالحُجَجِ والبَراهينِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ [ذلكَ][9] بَعْدَ وَفاةِ عيسى ﷺ حينَ اخْتَلَفوا في ماهِيَّتِهِ:

فمنهمْ مَنْ قالَ: هوَ اللهُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: هوَ ابْنُ اللهِ، فَكَفَرَتْ بهِ هذهِ الطائفةُ، وآمَنَتْ بِهِ طائفةٌ أُخْرَى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ حينَ وَقَعَ لهمْ قِتالٌ، فَنُصِروا عليهِمْ، وظَفِروا، واللهُ أعلَمُ.

تَمَّتِ السُّورةُ بِحَمْدِ اللهِ وحُسْنِ تَوفيقِهِ، والحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.

---

(١) من م، في الأصل: بالجهاد. (٢) في الأصل وم: خير. (٣) في الأصل وم: بهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) في الأصل وم: والحواريون المنصورين المتقون. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وتقوا. (٩) ساقطة من الأصل وم.

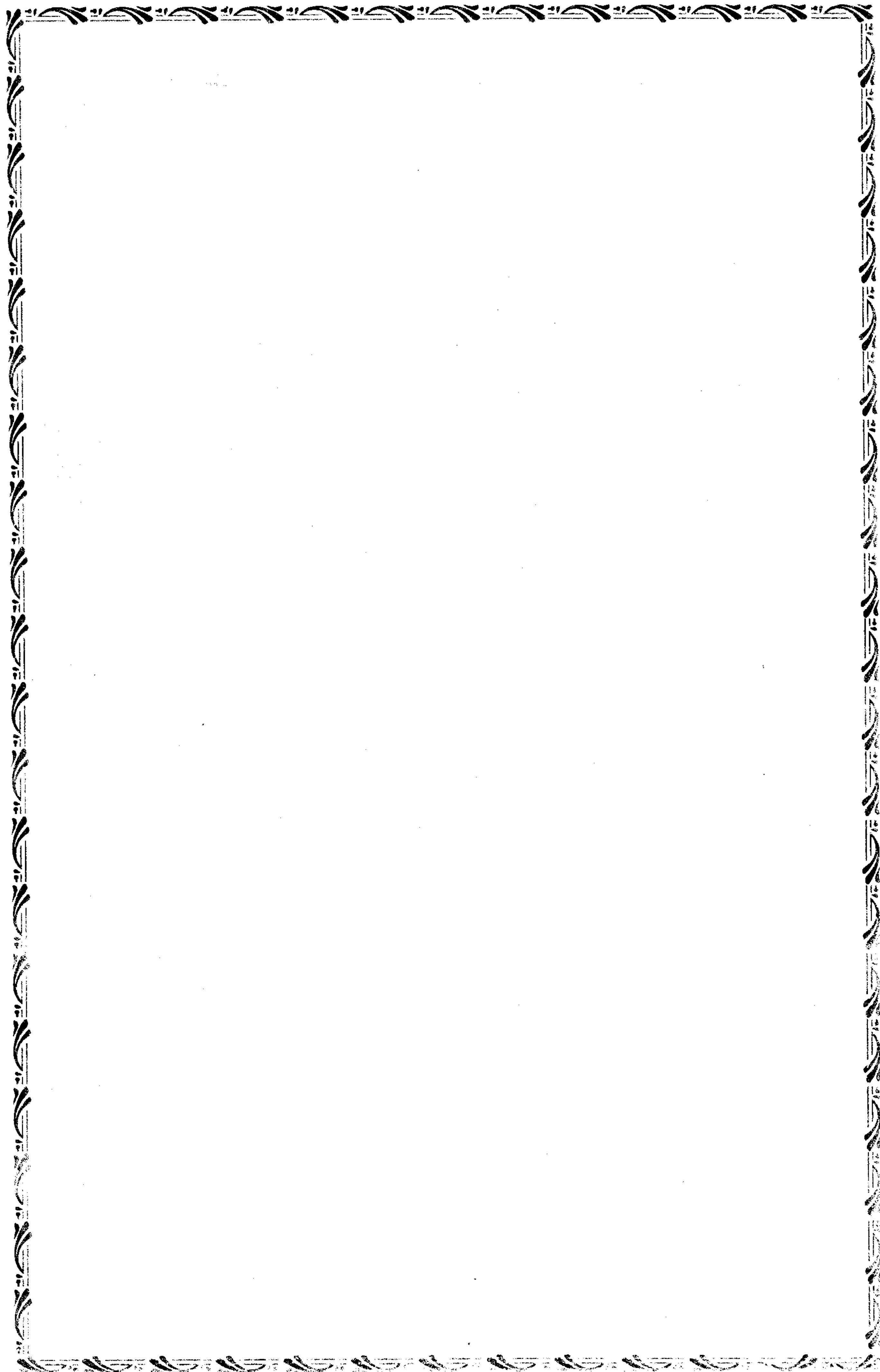

سورة الجمعة

وهي كلها مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ولم يَقُلْ: يُسَبِّحُ اللهَ؛ وقد جَرَتِ [العادةُ][1] في الناسِ التَّسْبيحَ بالألِفِ كقولِهِمْ: سُبْحانَ اللهِ، وسُبْحانَ ربيَ العظيمِ. فكانَ حقُّ هذا القولِ على ما جَرَتْ بهِ العادةُ في اللسانِ أنْ يقولَ: يُسَبِّحُ اللهَ ما في السمواتِ وما في الأرض.

ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ هذا مِنْ نَوعِ ما يَجْري فيهِ اللَّفظانِ جميعاً كما يُقالُ: شَكَرَهُ، وشَكَرَ لهُ، ونَصَحَهُ، ونَصَحَ لهُ والتَّسْبيحُ يَحْتَمِلُ أوجهاً ثلاثةً:

أحَدُها: تَسْبيحُ الخِلْقَةِ: أنكَ إذا نَظَرْتَ إلى كلِّ شيءٍ على الإشارةِ إليهِ والتَّعْيينِ دَلَّكَ جَوهَرُهُ وخِلْقَتُهُ على /٥٦٨ ـ أ/ وَحْدانِيَّةِ اللهِ تعالى وعلى تَعاليهِ عنِ الأشياءِ وبَراءَتِهِ مِنْ جميعِ العُيوبِ والآفاتِ، فَذَلِّكَ من كلِّ شيءٍ تَسْبيحُهُ.

والثاني: تسبيحُ المعرفةِ؛ ووجهُ ذلكَ أنْ يَجْعَلَ اللهُ تعالى بِلطفِهِ في كلِّ شيءٍ حَقيقةَ المَعْرفةِ لِيَعْرِفَ اللهَ، وَيُنَزِّهَ[2] وإنْ كانَ لا تَبْلُغُهُ عقولُنا.

ألا تَرَى إلى قولِهِ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؟ [الإسراء: ٤٤].

ولكنْ عندَنا بواسطةِ إحداثِ نوعِ حياةٍ فيهِ؛ إذِ المَعْرفةُ بدونِ الحياةِ، لا تَتَحقَّقُ.

والوجهُ الثالثُ: هو أنْ يكونَ التَّسْبيحُ تَسْبيحَ ضَرورةٍ وتَلْقينٍ؛ ووجهُهُ أنَّ اللهَ تعالى يُجْري التَّسْبيحَ على ذلكَ الجوهرِ مِنْ غَيرِ أنْ تكونَ لهُ حَقيقةُ المَعْرفةِ كما أظْهَرَ مِنْ آياتِهِ وأعلامِهِ على عَصا موسى، وكما أجْرَى السفينةَ على وَجْهِ الماءِ، وإنْ لم يكنْ لهما حَقيقةُ المَعْرفةِ، وذلكَ تسبيحُ كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ يَعْني المَلِكَ الذي لهُ مُلْكُ الملوكِ، والذي لهُ المُلْكُ في الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحَدُهما: الطاهرُ مِنْ كُلِّ عَيبٍ وآفةٍ وحاجةٍ، والطاهرُ ممَّا يَحْتَمِلُهُ غَيرُهُ.

والثاني: المُبارِكُ؛ يَعْني بهِ تُنالُ كلُّ بَرَكةٍ وخَيرٍ، ويجوزُ أنْ يُجْمَعَ في المباركِ مَعْنى التَّنْزيهِ مِنَ العُيوبِ ومَعْنى البَرَكةِ، لأنكَ إذا [وَصَفْتَهُ بالبَرَكةِ فقد][3] وَصَفْتَهُ بالبَراءةِ مِنْ كلِّ عيبٍ، وأضَفْتَ إليهِ كلَّ بَرَكةٍ ويُمْنٍ.

كما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ قولَهُ [ﷺ][4]: «سُبْحانَ اللهِ نِصْفُ الميزانِ، والحَمْدُ للهِ مِلْءُ الميزانِ...» [أحمد ٤/ ٢٦٠].

وكانَ معناهما عندَنا: أنَّ قولَهُ: «سُبْحانَ اللهِ» يَخْتَصُّ بِتَبْرِئَتِهِ مِنَ العُيوبِ، «والحمدُ للهِ» يَنْتَظِمُ مَعْنَى التَّنْزيهِ مِنَ العُيوبِ ومَعْنى إضافةِ النِّعَمِ كلِّها إليهِ. فإذا كانَ فيه هذانِ المَعْنَيانِ جميعاً جازَ أنْ يَمْتَلِئَ بهِ الميزانُ. ولمّا اخْتَصَّ: «سُبْحانَ اللهِ» بِتَطْهيرِهِ مِنَ العُيوبِ، ولم يَتَعَدَّهُ إلى غَيرِهِ أخذَ نِصْفَ الميزانِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وينزهه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ هذا الاختِلافُ في تأويلِ قولِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ يعني الغالبَ القاهرَ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، أو يجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ مُقابِلَ الذليلِ [والذليلُ][1] يَنتَظِمُ كلَّ فَقْرٍ وحاجةٍ وضَعْفٍ، فالواجبُ أنْ يَنتَظِمَ العزيزُ، إذا كانَ ضِدّاً لهُ ومُقابِلاً كلَّ شَرَفٍ ومَكْرُمَةٍ وغِنًى وقُوَّةٍ، واللهُ الموفِّقُ.

و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ قالوا: هو الذي يَضَعُ الأشياءَ مواضِعَها؛ فاللهُ تعالى حكيمٌ حينَ[2] وَضَعَ الأشياءَ مَواضِعَها التي جَعَلَها اللهُ مَواضِعَ لها، أوِ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ هو الذي لا يَلحَقُهُ الخَطأُ في التَّدبيرِ، وهو مَعنَى المُصيبِ أيضاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ احتَجَّ أهلُ الكتابِ علينا أنَّ اللهَ تعالى إنما بَعَثَ محمداً رسولاً إلى الأُمِّيِّينَ خاصَّةً بهذهِ الآيةِ، وفَهِموا منها تَخصيصَ الأُمِّيِّينَ بإرسالِ الرسولِ إليهِمْ، فَيَقتَضي نَفْيَهُ عنْ غَيرِهِمْ.

ولكنْ نقولُ: لا يَجبُ أنْ يُفْهَمَ مِنَ الآيةِ نَفْيَ ما ذَكَرَ في ظاهِرِها بل يُفْهَمُ منها ظاهِرُها دونَ النَّفْيِ، والتَّخصيصُ بالذِّكْرِ لا يُحتَمَلُ لأنهُ إذا حُمِلَ التَّخصيصُ بالذِّكْرِ على نَفْيِ غَيرِهِ أدَّى إلى ما لا يَستَقيمُ، ولا يَحِلُّ.

ألَا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾؟ [العنكبوت: ٤٨] حينَ[3] لم يُفْهَمْ أنهُ لم يَخُطَّهُ بيمينِهِ إنْ كانَ خَطَّهُ بِشمالِهِ، ولا مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ أنهُ كانَ يُتْلَى عليهِ.

ولكنَّ المَعنَى مِنْ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ بَعَثَ رسولَهُ أمِّيّاً في قومٍ أُمِّيِّينَ، لا يَعلَمونَ الحِكْمةَ وماهِيَّتَها، وجَعَلَ ذلكَ آيةً لِرسالتِهِ وحُجَّةً لِنُبُوَّتِهِ، لأنهُ إذا كانَ أُمِّيّاً، لا يكتبُ، ولا يَقرأُ الكتبَ، ثم أتاهُمْ [بالكتابِ مُؤَلَّفاً مَنظوماً][4] يُوافِقُ كتبَ أهلِ الكتابِ، دَلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ بالوَحْيِ، وأنهُ لم يَختَلِقْهُ مِنْ عندِ نفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الدليلُ على أنهُ كانَ رسولاً إليهِمْ جميعاً قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] وما رُوِيَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسودِ» [مسلم/ ٥٢١] يعني إلى الإنسِ والجِنِّ، ولأجلِ أنهُ لمّا بُعِثَ إلى طائفةٍ لِيَدْعُوَهُمْ إلى طاعةِ اللهِ تعالى وعبادتِهِ عُلِمَ أنهُ رسولٌ إلى غَيرِهِمْ؛ إذْ لم يكُنْ لهمْ رسولٌ آخَرُ، لأنَّ الطائفةَ الأُخرَى إنْ لم يَكُنْ رسولٌ آخَرُ، واحتاجوا إلى مَعْرفةِ الأمْرِ والنَّهْيِ وإلى طاعةِ الرحمنِ حاجةَ الطائفةِ التي بُعِثَ إليهِمْ، دَلَّ أنهُ رسولٌ إليهِمْ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ مَعْناهُ أنهُ بَعَثَ ﷺ في قومٍ أُمِّيِّينَ، لا يَعْرِفونَ عبادةَ اللهِ، ولا يَقرَؤونَ الكتابَ، بل كانَتْ عبادَتُهُمْ عبادةَ الأصنامِ.

وقيلَ في تأويلِ الأُمِّيِّينَ: همُ الذينَ لم يُؤمِنوا بالكتبِ. ولكنَّ هذا فسادٌ، لأنَّ اللهَ تعالى سَمَّى نَبِيَّهُ ﷺ أُمِّيّاً بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقيلَ: سَمّاهُمْ أُمِّيِّينَ لأنهمْ لا يَقرَؤونَ عنِ الكتابِ، ولا يَكْتُبونَ على الأعَمِّ الأغلَبِ، وإنْ كانَ فيهِمُ القليلُ مِمَّنْ يَقرأُ، ويَكْتُبُ، ومِنْ هذا سُمِّيَ النَّبِيُّ ﷺ أُمِّيّاً لأنه كانَ لا يَكْتُبُ، ولا يَقرأُ عنْ كتابٍ، ولم يَعلَمْ ذلكَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ قالَ:][5] «الشهرُ كذا، وأشارَ بأصابعِهِ» [مسلم ١٠٨٠/١٣] وقالَ: «إنما نحنُ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَحسُبُ ولا نَكتُبُ» [البخاري ١٩١٣].

وقالَ الزَّجّاجُ: الأُمِّيُّ، هو الذي لا يُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ، ولم يَتَعَلَّمْ، ويكونُ على ما سَقَطَ مِنْ أُمِّهِ، فَنُسِبَ إلى حالِ وِلادتِهِ التي سَقَطَ مِنْ أُمِّهِ، لأنَّ ذلكَ إنما يكونُ بالتَّعليمِ دونَ الحالِ التي يَجْري عليها المَولودُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و(٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الكتاب مؤلف منظوم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ثم وجهُ الحِكْمَةِ في جَعْلِ النُّبُوَّةِ في الأُمِّيِّ أنْ يكونَ ذلكَ سببَ مَعْرِفةِ نُبُوَّتِهِ وعلامةَ رسالتِهِ بحيثُ يُعْلَمُ أنهُ ما اخترَعَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ، إذْ لم يَعْرِفِ الكتابةَ والقراءةَ، ولا اختلَفَ إلى أحدٍ لِيَتَعَلَّمَ منهُ.

ثم أحْوَجَ جميعَ الحكماءِ إلى حكمتِهِ، وجميعَ أهلِ الكتابِ إلى مَعْرِفةِ كتابِهِ لِحُسْنِ نَظْمِهِ وتأليفِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما نالَهُ بالوحْيِ والرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الآياتُ الأعلامُ؛ فكأنهُ يقولُ: يَتْلو عليهمْ في كتابِهِ أعلاماً تُبَيِّنُ رسالَتَهُ، وتُظْهِرُ نُبُوَّتَهُ. أو يجوزُ أنْ تكونَ الآياتُ الحلالَ والحرامَ وما أشْبَهَهما[1] أوِ الآياتُ: الحُجَجَ التي يُسْتَظْهَرُ بها الحَقُّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُصْلِحُهُمْ؛ يعني يَدْعوهُمْ إلى اتّباعِ ما يَصيرونَ أزكياءَ أتقياءَ.

ويجوزُ [أنْ يكونَ][2] مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يُطَهِّرُهُمْ مِنْ خُبْثِ الشِّرْكِ وخُبْثِ الأخلاقِ وخُبْثِ الأقوالِ والأفعالِ[3]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ اختلَفوا فيهِ: قالَ الحَسَنُ: هذا كلامٌ: مُثَنَّى الكتابِ والحكمةِ، واحدٌ. وقالَ أبو بكرٍ: الكتابُ ما يُتْلَى مِنَ الآياتِ، والحِكْمةُ هي الفرائضُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحِكْمةُ، هي السُّنَّةُ، لأنهُ كانَ يَتْلو عليهِمْ آياتِهِ، ويُعَلِّمُهُمْ سُنَّتَهُ إمّا بِلُطْفٍ[4] مِنَ اللهِ تعالى وإلهامِهِ إياهُ [وإمّا][5] بالوَحْيِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: الكتابُ ما يُتْلَى مِنَ الآياتِ نَصّاً، والحِكْمةُ ما أُودِعَ فيها مِنَ المعاني: أيَّ ذلكَ كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنهمْ كانوا عنِ الكتابِ والحِكْمةِ لَفي ضَلالٍ بَيِّنٍ ظاهرٍ، لأنهمْ كانوا مُشْركينَ عَبَدَةَ الأصنامِ، ليسَ عندَهمْ كتابٌ، ولا يَعْرِفونَ الحِكْمةَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في الشِّرْكِ وعِبادةِ الأصنامِ، فَدَعاهُمُ الرسولُ ﷺ إلى توحيدِهِ وتَرْكِ ما هُمْ فيهِ مِنْ عِبادةِ الأصنامِ.

قالَ الفقيهُ، رَحْمةُ اللهِ عليه: وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى إذْ جَعَلَهُمْ أتقياءَ أزكياءَ عُلَماءَ بَعْدَ /٥٦٨ - ب/ ما كانوا أُمِّيِّينَ جُهّالاً سُفهاءَ، آيةٌ ودلالةٌ على حَقِّيَّةِ دينِهِ ﷺ على سائرِ الأديانِ حينَ[6] لم يَكُنْ أهلُها كذلكَ، ويكونُ فيهِ ترغيبٌ[7] للآخَرينَ لِيَصيروا عُلَماءَ حُكَماءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا تعليماً مِنَ اللهِ تعالى، أنهُ جَعَلَهُمْ عُلَماءَ بَعْدَ ما كانوا جُهَلاءَ وحُكَماءَ بَعْدَ ما كانوا سُفَهاءَ وأزكياءَ بَعْدَ ما كانوا أنجاساً وأقذاراً عَبَدَةَ الأوثانِ، وذلكَ مِنْ لُطْفِ اللهِ تعالى.

ثم الأصلُ أنَّ ما أُضيفَ مِنْ هذهِ الأفعالِ إلى اللهِ تعالى، فهو على حقيقةِ الوجودِ، وما أُضيفَ إلى الرسولِ ﷺ فهو على الأسبابِ؛ وذلكَ أنهُ لا يجوزُ أنْ يُعَلِّمَ اللهُ تعالى أحداً، فلا يَصيرُ عالماً، لأنَّ تَعْليمَهُ خَلْقُ العِلْمِ في المَحَلِّ الذي أرادَ، وخَلَقَ[8]، يكونُ لا مَحالَةَ.

فأمّا [ما][9] يجوزُ أنْ يُعَلِّمَهُ البَشَرُ، فلا يَتَعَلَّمُهُ، لأنَّ تَعْليمَهُ بِسَبَبٍ، لأنهُ ليسَ لهُ قُدْرةُ الخَلْقِ والإيجادِ، فَثَبَتَ أنهُ على جِهَةِ السببِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ فإنْ كانَ مَعْناهُ الخَفْضَ، فهو مَنسوقٌ على قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وفي الآخَرينَ: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ فيكونُ فيهِ إخبارٌ أنَّ رسالتَهُ تَبْقَى إلى آخِرِ الدَّهرِ، وإنْ كانَ مَعْناهُ النَّصْبَ فهو منسوقٌ على قولِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فيكونُ فيهِ بِشارةٌ أنهُ يكونُ في الآخَرينَ علماءُ أتْقياءُ حُكَماءُ كما كانَ في هؤلاءِ.

---

(١) في الأصل وم: أشبهه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من م. (٤) من م، في الأصل: بلطفه. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ترغيباً. (٨) أدرج قبلها في م: وما أراد. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في [أهلِ][1] النِّفاقِ، فيكونُ معناهُ: هو الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رسولاً، فَيصيرونَ علماءَ حُكَماءَ مؤمنينَ على الحقيقةِ في الظاهرِ والباطنِ، وآخرينَ مِنْ هؤلاءِ الأُمِّيِّينَ في الظاهرِ لمّا يَلْحَقوا بهمْ في الباطنِ. والتّأويلُ الأوّلُ أصَحُّ وأقْرَبُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ حينَ[2] جَعَلَ في كلِّ واحدٍ مِنَ البَشَرِ أثَرَ الذُّلِّ بهِ والفَقْرِ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمْرِهِ حينَ[3] أمَرَهُمْ بالحِكْمةِ، أوِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيرِهِ حينَ[4] خَلَقَ الأشياءَ المُتَضادَّةَ مِنْ نَحْوِ النورِ والظُّلْمةِ والليلِ والنهارِ لأنهُ وَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوْضِعَهُ، لم يَخْلُطْ ظُلْمَةً بنورٍ ولا نوراً بِظُلْمَةٍ ولا ليلاً بنهارٍ ولا نهاراً بليلٍ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعني ذلكَ الفضلُ النُّبُوَّةُ والرسالةُ ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعني يَخْلُقُ مِنَ البَشَرِ مَنْ يَصْلُحُ لِلنُّبُوّةِ والرسالةِ، أو ذلكَ الفَضْلُ مِنْ تَعْليمِ الكتابِ والحِكْمَةِ ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وفيهِ دلالةٌ على كَذِبِ قولِ المعتزلةِ، لأنَّ مِنْ قولِهِمْ: أنَّ اللهَ لا يُؤتي أحداً بفضلٍ، بل حَقٌّ عليهِ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ. فإنْ كانَ هذا على اللهِ فِعْلُهُ كانَ ذلكَ حقّاً يَقْضيهِ، ومَنْ قَضى حقًّا فليسَ يُوصَفُ[5] بالفَضْلِ، وقد وَصَفَ اللهُ تعالى نفسَهُ بالفضلِ، فَثَبَتَ بهذا كَذِبُ قولِهِمْ، واللهُ الموفّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ذو الفَضْلِ العظيمِ في الدنيا حينَ[6] تَفَضَّلَ عليهِمْ بالكتابِ والحِكْمةِ بَعْدَ ما كانوا جُهّالاً. أو يجوزُ أنْ يكونَ هذا في الآخِرةِ: أنَّ اللهَ يَجْزيهِمْ عنْ أعمالِهِمُ الجنةَ فَضْلاً منهُ عليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى:][7] ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ هو الدائمُ الباقي، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لهُ أوجُهٌ مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا كنايةً عنِ العملِ؛ يَعْني حُمِّلوا العملَ بما في التوراةِ، فلم يَعْمَلوا بهِ[8].

والثاني: أنْ يقولَ: ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ يَعْني لم يَحْمِلوها إلى مَنْ أُمِروا بِحَمْلِها إليهِمْ على ما أُمِروا، لأنهمْ حَرَّفوا، وبَدَّلوا.

[والثالثُ][9]: يجوزُ أنْ يكونَ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ كَذَّبوا بالتوراةِ، وتَلَقَّوها بالعِنادِ والتَّكْذيبِ، فلم يَنْتَفِعوا بها، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الحِمارِ، يَحْمِلُ كُتُباً، لا يَعْلَمُ قَدْرَها وخَطَرَها كما قالَ ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ لأنهمْ، وإنْ عَرَفوا التوراةَ، فحينَ لم يُعَظِّموها حقَّ تَعْظيمِها، وكَذَّبوا بما فيها، كانوا كأنهمْ لا يَعْرِفونَ قَدْرَها وخَطَرَها، فصارَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ الكتبَ، لا يَعْلَمُ قَدْرَها وخَطَرَها.

وهذا التأويلُ أقربُ، لأنهُ قالَ في سِياقِ هذهِ الآيةِ: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فَثَبَتَ أنَّ المَعْنى مِنَ الأوّلِ التكذيبُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: ثم معلومٌ أنَّ هذا التَّكْذيبَ والتَّحْريفَ إنما كانَ مِنْ عَمَلِ كُبَرائِهِمْ ورُؤَسائِهِمْ، فأخْبَرَ أنهمْ كَذَّبوا، ولم يَعرِفوا قَدْرَها حينَ كَذَبوا لِيَزْجروا مَنْفَعَتَهُمْ عن أتباعِهِمْ، وبَيَّنَ أنَّ رُؤَساءَهُمْ ليسوا مِمَّنْ يَسْتَحِقّونَ الأتباعَ.

وفيهِ أيضاً زَجْرٌ لِلْمُسْلمينَ أنْ يَسْتَخِفّوا كتابَ اللهِ [وألّا يَعْمَلوا][10] بما فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنْ يقولَ: بِئسَ النَّعْتُ والصِّفةُ صِفةُ الذينَ بَلَغَ كَذِبُهُمْ مَبْلَغاً كَذَبوا على اللهِ، لأنَّ الكاذبَ في الميعادِ مَوصوفٌ بالشَّرِّ. إذا بَلَغَ كَذِبُهُ مَبْلَغاً، يُكَذِّبُ على اللهِ تعالى، عُلِمَ أنهُ في النهايةِ في الشَّرِّ؛ وكأنهُ يقولُ: صفةُ الذين كَذَبوا على اللهِ في الغايةِ مِنَ الشَّرِّ والقُبْحِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و(٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: فكيف. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بها. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: والعمل.

[والثاني][1]: يقولُ ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنّ اللهَ تعالى ضَرَبَ أمثالَ المُشْرِكينَ بكلِّ ما يُسْتَخْبَثُ، ويُسْتَقْبَحُ، وضَرَبَ أمثالَ المؤمنينَ بكلِّ حُسْنٍ وطِيبٍ؛ فقالَ: المَثَلُ يعني السُّنّةَ التي هي سُنّةُ اللهِ تعالى [ومَثَلُ المُكَذِّبينَ][2] بآياتِهِ: سُنّةُ قُبْحٍ.

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةُ أنّ اللهَ تعالى، يَخْلُقُ القبيحَ والحَسَنَ والخبيثَ والطَّيِّبَ جميعاً، لأنّ قولَهُ: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ وذلك المَثَلُ الذي شَبَّهَهُمْ بهِ ممّا خَلَقَهُ، وقد سَمّاهُ: بِئساً، فَثَبَتَ أنّ اللهَ تعالى قد خَلَقَ الخبيثَ والطَّيِّبَ والقبيحَ والحَسَنَ.

وعندَ المعتزلةِ لم يَخْلُقْ إلّا الحَسَنَ، فتكونُ الآيةُ حُجّةً عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحدُهما: أنهُ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لِوَقْتِ اختيارِهِمُ الظُّلْمَ والفِسْقَ، أو لا يَهْديهِمْ بِظُلْمِهِمُ الآياتِ ومُكابرَتِهِمْ وعِنادِهِمْ إيّاها، فهو لا يَهْدي هؤلاءِ.

[والثاني:][3] أمّا مَنْ ظَلَمَ عنْ جَهْلٍ أو فِسْقٍ، ثم اسْتَرْشَدَ، فإنهُ يهديهِ، ويُرْشِدُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ كقولِهِ[4] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

فكانَ في هذا بيانٌ أنّ مَنْ كانَ مِنْ أوليائِهِ فَلَهُ الدارُ الآخِرَةُ عندَ اللهِ خالصةٌ، ومَنْ كانَتْ لهُ الدارُ الآخِرَةُ فهو مِنْ أوليائِهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ما لهما جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم المُباهَلَةُ في المُتَعارَفِ إنما هي المُحاجّةُ في بلوغِ العِنادِ والتَّمَرُّدِ غايَتَهُ؛ فكأنهُ لمّا قُرِّرَتْ عندَهُمْ جميعُ الحُجَجِ، فلم يَقْبَلوها، أمَرَهُ بالمُباهلةِ، فلم[5] يُباهِلْهُ اليهودُ والنّصارى، لأنهُ يجوزُ أنْ قد كانَتْ[6] في كتابِهِمْ هذا، وإنّ[7] المُباهَلَةَ مِنْ غايةِ المُحادّةِ، وإنّ مَنْ باهَلَ نَزَلَ عليهِ العذابُ واللعنةُ إن لم يكُنْ مُحِقّاً. فكذلِكَ امْتَنَعوا مِنَ المُباهَلَةِ.

وأمّا العربُ مِنَ المُشْرِكينَ فلم يكُنْ لهمْ كتابٌ يَعْرِفونَ بهِ حُكْمَ المُباهَلَةِ، فَباهَلوا؛ وذلكَ أنهُ رُوِيَ أنّ أبا جَهْلٍ كانَ يقولُ: اللهمّ انصُرْ أحَبَّنا إليكَ وأقْرانا لِلضَّيفِ وأوصَلَنا لِلرَّحِمِ، فَنَصَرَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ فأبو جَهْلٍ باهَلَهُ لأنهُ لم يكُنْ لهُ كتابٌ، ولم يُباهِلْهُ اليهودُ والنّصارى لِما كانَتْ لهمْ كتبٌ عَرَفوا فيها حُكْمَ المُباهَلَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذه /٥٦٩ ـ أ/ الآيةُ تَدُلُّ على رسالةِ رسولِنا ﷺ لأنهُ لو كانَ يقولُهُ مِنْ نفسِهِ، لكانوا[8] يُبادِرونَ، فَيَتَمَنَّوْنَ المَوتَ للحالِ، لِيَظْهَرَ كَذِبُهُ فيه. فلمّا أخبَرَ أنهمْ[9] لا يَتَمَنَّوْنَهُ أبداً، ولم يَتَمَنَّوْهُ، تَبَيَّنَ أنهُ قالَ مِنَ الوَحْيِ، وأنهمْ عَلِموا ذلك حتى امْتَنَعوا عنِ التَّمَنّي خَوفَ الهلاكِ على أنفسِهِمْ لِعِلْمِهِمْ أنهمْ لو تَمَنَّوا لَماتوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي مِنْ تَحْريفِ التوراةِ والإنجيلِ، لأنّ قولَ النّصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] لَمْ يَكُنْ في الإنجيلِ، وقولُ اليهودِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١] لم يَكُنْ في التوراةِ، ولكنهمْ غَيَّروا، وبَدَّلوا، فلا يَتَمَنَّوْنَ المَوتَ بما قَدَّمَتْ أيديهِمْ مِنْ تَحْريفِ هذهِ الآياتِ وتَبديلِها، وتَغْييرِ نَعْتِ محمدٍ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني ﴿عَلِيمٌ﴾ بِظُلْمِهِمُ الآياتِ وعِنادِهِمْ لها ومُكابرَتِهِمْ إيّاها.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي المَوتَ الذي تَفِرّونَ منهُ بما قَدَّمَتْ أيديكُمْ مِنْ

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: به المكذبين. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) من م، في الأصل: فلا.
(٦) في الأصل وم: كان. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكاذبون. (٩) في الأصل وم: أنه.

تَحريفِ التوراةِ والإنجيلِ ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ﴾ يَلْقاكُمْ، لا مَحالَةَ، وإنْ فَرَرْتُمْ منهُ، فيكونُ فيهِ تَذكيرُهُمْ، إنْ رَجَعوا عمّا يَهْرُبونَ منهُ، يعني المَوتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعني إلى عالِمِ ما أشهَدْتُمُ الخَلْقَ مِنَ التوراةِ والإنجيلِ وعالِمِ ما غَيَّبْتُمْ عنِ الخَلْقِ مِنْ نَعْتِ محمدٍ ﷺ وغيرِ ذلكَ، أو إلى عالِمِ ما غَيَّبْتُمْ في أنفسِكُمْ، وأسرَرْتُمْ مِنْ تكذيبِكُمْ بمحمدٍ ﷺ وما أشهَدْتُمْ عليهِ ضَعَفَتَكُمْ وأتباعَكُمْ مِنْ نَهْيِكُمْ إيّاهُمْ عنِ اتّباعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إمّا عِياناً تَقْرَؤونَهُ في كتابِكُمْ يومَ القيامةِ، أو يُنَبِّئُكُمْ ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بالجَزاءِ: إنْ خيراً فَخيرٌ، وإنْ شَرّاً فَشرٌّ، واللهُ المُستعانُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ هذا السَّعْيُ يَحتَمِلُ الوجهَينِ [التاليَينِ][1]:

أحَدُهما: أنْ أقبِلوا على العَمَلِ الذي أُمِرْتُمْ بهِ، وامْضُوا فيهِ.

والثاني: أنِ[2] اسْعَوا في المَشْيِ، وأسرِعوا، لأنَّ السَّعْيَ في المَشْيِ، هوَ السُّرْعَةُ فيهِ، والسَّعْيَ في الأعمالِ، هوَ الإقبالُ عليها والمُبادَرَةُ إليها.

فإذا كانَ المُرادُ مِنْ هذا السَّعْيِ في المَشْيِ فَخُروجُ الآيةِ مَخرَجَ التَّرهيبِ والتَّضييقِ؛ ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ كيفَ أمَرَكَ بِتَرْكِ البَيعِ، وقد يُمكِنُ البَيعُ في حالِ المَشْيِ؟ وإلى قولِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كيفَ أمَرَ بالانتِشارِ في الأرضِ بَعْدَ الفراغِ مِنَ الفريضةِ دونَ أنْ يَذْكُرَ هنالكَ شيئاً مِنْ أدائِها؟

ولو كانَ المُرادُ منْهُ التَّرغيبَ لكانَ يأمُرُهُ بالعَدْوِ[3] إليها.

فَدَلَّتْ هذهِ المعاني أنْ تُخرَجَ الآيةُ على التَّرهيبِ والتَّضييقِ، وإنْ كانَ السَّعْيُ في سائرِ الصلاةِ المَفروضةِ غيرَ مَندوبٍ إليهِ على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا أتيتُمُ الصلاةَ فَأتُوها وأنتُمْ تَمشونَ، ولا تأتُوها، وأنتمْ تَسْعَونَ، عليكُمْ بالسَّكينةِ والوَقارِ، وما أدرَكْتُمْ فَصلُّوا، وما فاتَكُمْ فاقْضُوا» [النسائي: ٢/ ١١٥] فاختَصَّ بالجُمُعةِ بهِ لِما ذَكَرْنا مِنَ التَّضييقِ ههنا والتوسيعِ في سائرِ الصلواتِ.

ولكنَّ الأشبَهَ أنَّ المُرادَ منَ السَّعْيِ، هو الإقبالُ على أدائِها والتأهُّبُ لها والمُبادرةُ إليها، والسَّعْيُ مُستَعْمَلٌ في هذا؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [الإسراء: ١٩] وقالَ[4]: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ و٤٠] وإنما أرادَ العَمَلَ، وكذلكَ رُوِيَ عن عُمَرَ وابنِ مَسعودٍ وأُبَيٍّ وابنِ الزُّبيرِ رضي الله عنهم أنهمْ قرَؤوا: فامْضوا[5] إلى ذِكْرِ اللهِ، حتى قالَ عبدُ اللهِ [بْنُ مَسْعودٍ][6]: لو كانَتِ القراءةُ ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ لَسَعَيْتُ، ولو سَقَطَ ردائي، لم ألْتَفِتْ إليهِ خَوفاً مِنْ تَضييعِ حَقِّها.

فذلكَ يدلُّ على أنَّ التأويلَ الأوَّلَ عندَهُمْ على الإقبالِ والمُبادَرَةِ إليها دونَ السُّرْعةِ والمَشْيِ؛ ولأنَّ هذا مُوافِقٌ لسائرِ الصَّلَواتِ في أنَّ العَدْوَ غيرُ مُستَحَبٍّ، والحديثَ الواردَ في السَّكينةِ والوقارِ مُطْلَقٌ، ليسَ فيهِ فَصْلٌ بينَ الجُمُعةِ وغيرِها، وعليهِ إجماعُ الفُقَهاءِ أنهُ يَمشي إلى الجُمُعَةِ على هَيئَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ قالَ بعضُ الناسِ: إنهُ إذا باعَ في وقتِ الجُمُعةِ لم يَجُزْ بَيعُهُ لهذهِ الآيةِ. وعندَنا أنَّ البيعَ جائزٌ، لكنهُ مكروهٌ، والذي يَدُلُّ على جوازِهِ أنَّ النَّهْيَ عنِ البَيعِ في هذهِ الآيةِ ليسَ لِمكانِ البَيعِ، ولكن لِمكانِ الجُمُعَةِ. فالفسادُ إذا وَرَدَ فإنّما يَرِدُ في الجُمُعةِ لا في البَيعِ، لأنهُ إذا باعَ في الصلاةِ، فالبَيعُ يُفْسِدُ الصلاةَ، لأنَّ الصلاةَ تُفْسِدُ البَيعَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بالعدل. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) انظر إلى معجم القراءات القرآنية ج٧/١٤٧. (٦) ساقطة من الأصل وم.

ولأنَّ الأصلَ عندَنا أنَّ كلَّ عقدٍ نُهِيَ [عنهُ][1] لأجلِ غَيرِهِ؛ فالنُّقصانُ إذا وَرَدَ مِنَ النَّهيِ فإنما يَرِدُ في ذلكَ الغَيرِ لا في العَقْدِ.

وعلى هذا ما رُوِيَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «المُحْرِمُ لا يَنْكِحُ ولا يُنْكَحُ» [مسلم ١٤٠٩] لأنَّ النَّهيَ عنِ النِّكاحِ إنما هو لِمَكانِ الإحرامِ لا لِمكانِ النِّكاحِ، ولِذلِكَ يقولُ بجوازِ نِكاحِ المُحرِمِ وبفسادِ الحَجِّ إذا جامَعَ بذلكَ النِّكاحِ، لأنَّ النَّهيَ إذا لم يكُنْ لِنَفْسِ العَقْدِ لم يَسْتَقِمْ فَسادُ العَقْدِ، والنَّهيُ ليسَ مِنْ أجْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى الجُمُعةِ ولا لها. دلَّ أنَّ قبلَ الجمعةِ ذِكْراً[2]، يَجِبُ الاستِماعُ إليهِ والسَّعْيُ إليهِ. فَدَلَّ هذا على فَرضيَّةِ الخُطْبَةِ. ولَمّا ثَبَتَ أنَّ المَعْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أنَّ المُرادَ مِنَ الذِّكرِ الخُطبَةُ، ثم أمَرَ بِتَرْكِ البَيعِ للسَّعْيِ إلى هذا الذِّكرِ والاستِماعِ لهُ، ثَبَتَ أنَّ الكلامَ في وقتِ الخُطبَةِ مكروهٌ، وفي وقتِ خُروجِ الإمامِ للخُطْبَةِ مَكروهٌ أيضاً لأنَّ البَيعَ في ذلكَ الوقتِ مَكروهٌ، والبَيعَ كلامٌ، فَيَدُلُّ على كراهِيَةِ كلِّ كلامٍ، فَتَدُلُّ صِحَّةُ مَذهَبِ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في أنْ يَلْزَمَ السكوتَ إذا خَرَجَ الإمامُ حتى يَفْرَغَ مِنَ الصلاةِ.

وعلى ذلكَ وَرَدَ الحديثُ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ مَنْ أتَى الجُمُعَةَ، ثم صلَّى ما شاءَ أنْ يُصَلِّيَ، ثم إذا خَرَجَ الإمامُ سَكَتَ إلى أنْ يَفْرَغَ مِنْ صلاتِهِ، كانَ ذلكَ كَفّارةً لهُ مِنَ الجُمُعةِ إلى الجُمُعةِ وزيادةَ ثلاثةِ أيامٍ بعدَهُ» [بنحوه أحمد ٣/ ٣٩] فلمّا ألْزَمَهُ السكوتَ مِنْ حينِ يَخْرُجُ الإمامُ إلى أنْ يَفْرَغَ مِنَ الصلاةِ، ثَبَتَ أنَّ الكلامَ في ذلكَ الوقتِ مَكروهٌ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على كَذِبِ مَنْ قالَ: إنَّ الصلاةَ إنما تُفْتَرَضُ في آخِرِ الوقتِ، وإنَّ مَنْ أدَّى فَرْضاً في أوَّلِ الوقتِ فإنما يُؤَدِّي تَطَوُّعاً، لأنهُ أمَرَهُ بالسَّعْيِ، وفَرَضَهُ عليهِ ﴿إِذَا نُودِيَ﴾.

ومَعْلومٌ أنهُ إذا تَهَيَّأَ للإمامِ تأخيرُ الصلاةِ في ذلكَ الوقتِ، وقد فُرِضَ عليهِ معَ ذلكَ، فَدَلَّ هذا على كَذِبِ مَقالَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وأقْبَحُ مِنْ هذا أنهمْ قالوا: إنَّ الصلواتِ مَفروضاتٌ على الكَفَرَةِ في حالِ كُفْرِهِمْ وعلى المسلمينَ تَطَوُّعٌ، مع أنهُ يَجيءُ على قولِهِمْ: إنهُ ليسَ أحدٌ مِنَ الأُمَّةِ أدّى فَرْضاً البَتَّةَ، لأنهُ لم يُذْكَرْ عنْ أحدٍ منهمْ أنهُ فَرَّطَ في أداءِ الصلاةِ حينَ خافَ خُروجَ وَقْتِها. فهذا قولٌ قبيحٌ، يَجِبُ أنْ يُسْتَتابَ عنهُ صاحِبُهُ وعَنْ أمثالِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الجُمُعَةَ، لا تَجِبُ على مَنْ بَعُدَ مِنَ الإمامِ بِفَرْسَخَينِ، لأنهُ أُمِرَ بالسَّعْيِ بَعدَ النداءِ. ومَنْ بَعُدَ فَرسَخَينِ، فقد يَخْرُجُ وقتُ الجُمُعةِ، ولا يُدْرِكُها، فَثَبَتَ أنه على ما دُونَهُ، وهو أنْ يكونَ في أحدِ الأمصارِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الوقتُ الذي نَهَى عنِ البَيعِ فيهِ يومَ الجُمُعةِ عنْ مَسْروقٍ وجماعةٍ: هو وقتُ الزَّوالِ إلى أنْ يَفْرَغَ الإمامُ مِنَ الجُمُعةِ.

وعنْ مُجاهدٍ والزُّهْرِيِّ أنهُ يَنْهَى عنِ البَيعِ بعدَ النداءِ عَمَلاً بِظاهِرِ الآيةِ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ والأوَّلُ أشْبَهُ، لأنهُ إنما يجبُ الحُضورُ إلى الجمعةِ عندَ دخولِ الوقتِ، وهو زَوالُ الشَّمسِ، وإنْ تأخَّرَ النِّداءُ، ولأنَّ النِّداءَ قَبْلَ الزَّوالِ غَيرُ مُعْتَبَرٍ فكانَ وجودُهُ / ٥٦٩ ـ ب/ وعَدَمُهُ سَواءً.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: خَرَجَ هذا في الظاهِرِ مَخْرَجَ الأمرِ، ولكنهُ في حُكْمِ الإباحةِ عندَنا، لأنَّ هذا أمْرٌ خَرَجَ على إثْرِ الحَظْرِ، والأصلُ الجَمْعُ عليهِ عندَهُمْ أنَّ كلَّ أمْرٍ خَرَجَ على إثْرِ الحَظْرِ فهو في حُكْمِ الإباحةِ، وما خَرَجَ مَخْرَجَ الإباحةِ فإنَّ الحُكْمَ فيهِ يُنْصَرِفُ على تَصَرُّفِ الأحوالِ.

فإنْ كانتِ الحالةُ تُوجِبُ فَرْضاً[3] كانَ فَرْضاً، وإنْ كانَتْ تُوجِبُ واجباً فواجبٌ، وإنْ أدَباً فأدَبٌ.

والدليلُ على أنَّ كلَّ أمْرٍ خَرَجَ على إثْرِ حَظْرٍ، فهو في حقِّ الإباحةِ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: فرضه.

وقولُهُ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ولم يكُنْ ذلكَ محمولاً على الأمرِ الحَتْمِ الذي لا يَجوزُ تَرْكُهُ، ولكنْ على إباحةِ الاصْطِيادِ، أي اصْطادوا إنْ شِئْتُم، وأْتوهُنَّ إنْ أرَدْتُم. فكذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ المَعْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إنْ أرَدْتُم أو إنْ شِئْتُم، واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ يعني التجارةَ والكَسْبَ؛ كانَ البَيْعُ كأنهُ يَنْتَظِمُ ابْتِغاءَ فَضْلِ اللهِ، لكنْ قالَ في ما خَرَجَ [مَخْرَجَ][1] الإذنِ والإطلاقِ: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وقالَ في ما نَهَى عَنْ ذلكَ: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ وإنْ كانَ المُرادُ منهما جميعاً البَيْعَ، لأنهُ كانَ يَقْبُحُ أنْ يقولَ: وذَروا ابْتِغاءَ فَضْلِ اللهِ، ولأنَّ ابْتِغاءَ الفَضْلِ يَتَضَمَّنُ البَيْعَ وغَيْرَهُ، فلا يَسْتَقيمُ أنْ يُقالَ: وذَروا ابْتِغاءَ فَضْلِ اللهِ، فقالَ ههنا: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ لِيَلْحَقَهُ النَّهْيُ خاصَّةً.

وأمّا الإطلاقُ والإذْنُ فإنهُ يَسْتَقيمُ في البَيْعِ وغَيْرِهِ، فقالَ: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: اذْكُروا اللهَ كثيراً بألسِنَتِكُمْ وقلوبِكُمْ.

والثاني: اذْكُروا اللهَ بالإقبالِ على الطاعاتِ التي فيها تَحَقُّقُ ذِكْرُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لهُ أوجُهٌ:

أحَدُها: على رَجاءِ الفَلاحِ. والثاني: أي لكي تُفْلِحوا. والثالثُ: على قَطْعِ وُجوبِ الفَلاحِ إذا فَعَلَ ذلكَ بما قالوا: إنَّ لَعَلَّ وعسى مِنَ اللهِ واجبٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ التِّجارةُ واللَّهْوُ لا يُرَيانِ في الحقيقةِ، وإنما يُرَى اللّاهي والتّاجِرُ، ولكنهُ ذَكَرَ فيهِ الرُّؤْيَةَ لِقُرْبِ اللَّهْوِ مِنَ اللّاهي والتِّجارةِ مِنَ التّاجِرِ كما قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وكما يُقالُ: سَمِعْتُ كلامَ فلانٍ، والكلامُ، ليسَ بِمَسْموعٍ في الحقيقةِ، وإنما المَسْموعُ في ذلكَ الصوتُ الذي يُفْهَمُ بِهِ كلامُهُ، ولكنْ أطْلَقَ لَفْظَ السَّماعِ في ذلكَ لِتَقارُبِهِما، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ المَعْنَى مِنْ هذا، واللهُ أعلَمُ، ليسَ الرُّؤْيَةَ، وإنما المَعْنَى منهُ عندَنا كأنهُ قالَ: وإذا عَلِموا، وذلكَ أنهمْ كانوا لا يَرَونَ التِّجارةَ، ولكنْ يُنْهَى إليهِمْ خَبَرُها، فَيَعْلَمونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ ولم يقلْ إليهما، وقد ذَكَرَ شَيئَيْنِ، ولم يُلْحِقْ ما بَعْدَهما مِنَ الكِنايةِ بهما، بل بأحَدِهما، ويجوزُ مِثْلُ ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤] ولم يَقُلْ: ولا يُنْفِقونَهما لِرَجْعِ الكِنايةِ إلى جميعِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، وكما قالَ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقد رجَعَتِ الكِنايةُ إلى أحَدِ المَذْكورَينِ لا إليهما. وكذلكَ هذا.

وهذا لأنَّ المَقْصودَ مِنْ خُروجِهِمْ إنما كانَ، هو التِّجارةُ دونَ اللَّهْوِ، ولكنهمْ إنما يَعْلَمون ما يُجْلَبُ إليهِمْ بذلكَ اللَّهْوِ؛ فجازَ أنْ يكونَ ذَكَرَ اللَّهْوَ لهذا المَعْنَى، وإنما المَقْصودُ مِنْ ذلكَ التِّجارةُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ فَذَكَرَ حَقَّ الإنفاقِ في ما كانَ الإنفاقُ منهُ أيْسَرَ وأسْهَلَ في المُتَعارَفِ، وكذلكَ الفضةُ، وإنْ كانَ الحَقُّ واجباً فيها جميعاً لِمالٍ[2] المَقْصودِ، وهو الصَّرْفُ إلى الفقراءِ. فَعَلَى ذلكَ ههنا.

وأمّا المَعْنَى منهُ عندنا إنما خَصَّ الصلاةَ برجوعِ الكِنايةِ إليها لأنها ثَقُلَتْ على اليهودِ، لأنَّ القِبْلَةَ كانَتْ أوّلاً إلى بيتِ المَقْدِسِ، فلمّا حُوِّلَتْ إلى الكَعْبةِ ثَقُلَتِ الصلاةُ إلى الكَعْبةِ على الكفارِ، فقالَ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يعني الصلاةَ إلى الكَعْبةِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ جازَ أنْ يَنْفِرَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ وهو في الخُطْبةِ إلى اللَّهْوِ والتِّجارةِ مَعَ جلالِ قَدْرِهِم وتَعْظيمِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ؟ وكذلكَ السؤالُ عَنْ ضَحِكِهِمْ حينَ دَخَلَ الأعمى المَسْجِدَ، فَوَقَعَ في بِئْرٍ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: لما أن.

والجوابُ عنْ هذا أنَّ القومَ كانوا حَدِيثي عَهْدٍ بالإسلامِ، وكانوا مِنْ سُوقَةِ القومِ ومِنْ سِفْلَتِها، ولم يكونوا عَرَفوا حَقَّ الخِطابِ وحَقَّ الخُطْبَةِ عليهِمْ، فكانَتْ تلكَ تجارةً يَأْمُلونَ منها مَنافِعَ، لو لم يُبادِروا إليها ذَهَبَتْ منهمْ. فإنما[1] نَفَروا مِنَ المَسْجِدِ جَهْلاً منهمْ بِحَقِّ الخُطْبَةِ والخطابِ.

وبعدُ فإنهمْ لم يكونوا منْ أجِلَّةِ القومِ، ولا صَحِبوا أجِلَّتَهُمْ، لِيَعْرِفوا حَقَّ الخُطْبَةِ والمخاطِبِ، فانْفَلَتَتْ منهمُ الزَّلَّةُ ومِنْ مِثْلِهِمْ[2].

فأمّا الذينَ كانوا مِنْ أجِلَّةِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، ومِنْ عُلَمائهمْ، فلمْ يَنْفِرْ أحدٌ منهمْ، وكذلكَ أمْرُ الضَّحِكِ أيضاً يجوزُ أنْ يكونَ مَنْ ضَحِكَ مِنْ أتباعِ القومِ ومِنْ سِفْلَتِهِمْ، ولم يكونوا مِنَ الأجِلَّةِ والنُّجباءِ، ولا يُسْتَنْكَرُ مِنْ مِثْلِ أولئكَ هذا الصَّنيعُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: والمَعْنَى مِنْ تَرْكِ النَّبيِّ ﷺ نَهْيَهُمْ عنِ الخروجِ وجْهانِ:

أحَدُهما: أنَّ الكلامَ كانَ مُحرَّماً وقْتَ الخُطْبَةِ، فلم يَنْهَهُمْ لِلنَّهْيِ عنِ الكلامِ في ذلكَ الوَقْتِ.

والثاني: يجوزُ أنْ يكونوا أسْرَعوا الخُروجَ، فلمْ يَبْلُغْهُمْ نَهْيُهُ، أو لم يَنْهَهُمْ لِما عَلِمَ أنهمْ لم يَسْمَعوا، واللهُ أعلَمُ.

وفي الخَبَرِ أنهُ «عَدَّ الذينَ ثَبَتُوا معَهُ بَعْدَ ما فَرَغَ مِنَ الصلاةِ، فوجَدَهُمُ اثْنَي عَشَرَ رجلاً، فقالَ: لو لَحِقَ آخِرُكُمْ بأوَّلِكُمْ لاضْطَرَمَ الوادي ناراً» أيِ المدينةُ [السيوطي في الدر المنثور ٨/ ١٦٥].

ففي هذا دلالةٌ على أنَّ الجُمُعَةَ، تقامُ بدونِ الأربَعينَ، لأنهُ ﷺ جَمَّعَ باثْنَي عَشَرَ رجلاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ الخَطيبَ[3]، إنما يكونُ قائماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾ قالَ إمامُ الهُدَى: ولولا هذا لَكانَ[4] يُعْلَمُ أنَّ ما عندَ اللهِ خَيرٌ مِنَ اللهوِ ومِنَ التِّجارةِ. ولكنَّ المَعْنَى مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الدنيا كلَّها مَتْجَرٌ، وأنَّ أهلَها فيها تُجّارٌ: إمّا تِجارَةَ الدنيا [وإمّا][5] تِجارَةَ الآخِرَةِ؛ لأنَّ الطاعةَ والعِبادةَ في الاعْتِبارِ كأنها تِجارةٌ، لأنها[6] تُكْتَسَبُ بها مَنافِعُ الآخِرَةِ، وتِجارةُ الدنيا [تُكْتَسَبُ بها][7] مَنافِعُ الدنيا.

فقالَ: التِّجارةُ التي عندَ اللهِ في طاعتِهِ واكْتِسابِ مَنافِعِ الآخِرَةِ خَيرٌ مِنَ اللَّهْوِ ومِنَ التجارةِ التي تُكْتَسَبُ بها مَنافِعُ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: كأنهُ قالَ: اتَّقوا اللهَ فإنكمْ إذا اتَّقَيْتُموهُ اكْتَسَبْتُمْ بهِ المَنافِعَ في الرزقِ وغَيرِهِ، والتِّجارةُ الدُّنْيَوِيَّةُ لا يُكْتَسَبُ بها إلّا مَنافِعُ [الدنيا][8].

ألا تَرَى إلى [قولِهِ تعالى][9]: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؟ [الطلاق: ٢ و٣] وقولِهِ[10] تعالى في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾؟ [الطلاق: ٥].

فإذا كانَ التَّقْوَى يُسْتَفادُ بِهِ الرزقُ والبِرُّ في الأمورِ وكَفّارةُ الذنوبِ، والتِّجارةُ لا يُكْتَسَبُ بها إلّا مَتاعُ الدنيا، فَرَغَّبَهُمْ في ما فيهِ جُمْلَةُ المَنافِعِ، وهو التَّقْوَى لِيَمْكُثوا إلى النَّبِيِّ ﷺ فيقولُ: رَغَّبْتُكُمْ في ما يُكْسِبُكُمْ جُمْلَةَ المَنافِعِ، إنِ اتَّقَيْتُمْ، ومَكَثْتُمْ عندَ النَّبِيِّ ﷺ [فهو][11] خيرٌ مِنَ اللَّهوِ ومِنَ التِّجارةِ التي تُكْسِبُكُمْ مَنْفَعَةً واحدةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ليسَ يَقْتَضي ذِكْرُ هذا أنَّ هناكَ رازِقاً آخَرَ لِيكونَ هو / ٥٧٠ ـ أ/ خَيرَهُمْ. ولكنَّ المَعْنَى مِنْ هذا في قولِهِ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقولِهِ[12]: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]. لأنهُ

(١) من م، في الأصل: فلما. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: هذه. (٣) في الأصل وم: الخطبة. (٤) في الأصل وم: قد كان. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: لأنه. (٧) من م، في الأصل: تكتسبه. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: و.

كانَ هو خَيرَ الرازقينَ، وأحْسَنَ الخالقينَ، وأحْكَمَ الحاكمينَ، لأنهُ لا يَحْكُمُ إلّا عَدْلاً، ولا يَخْلُقُ إلّا ما فيهِ حِكْمةٌ. فكذلك قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

وجائزٌ أنْ يُضافَ الرزقُ والخَلْقُ والحُكْمُ إلى العَبيدِ مَجازاً، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ مِمَّنْ يَرْزُقُكُمْ، لأنَّ غيرَهُ مِنَ الخَلْقِ إنما يَرْزُقُ غَيرَهُ مِنْ رِزْقِهِ، ويَعْدِلُ بِحُكْمِهِ، ويَفْعَلُ بِتوفيقِهِ وتَسْديدِهِ، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ الذينَ يُرْزَقونَ مِنْ رِزْقِهِ، واللهُ أعلَمُ.

سورة(١) المنافقون

مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ اختلفوا في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿نَشْهَدُ﴾:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿نَشْهَدُ﴾ يَعْني نُقسِمُ، ونَحلِفُ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نَشْهَدُ﴾ على ابْتِداءِ الشهادةِ.

فَمَنْ حَمَلَهُ على القَسَمِ قَرَأَ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [الآية: ٢] يعني حَلْفَهُمْ، ومَنْ حَمَلَهُ على الشهادةِ ابْتِداءً قَرَأَ اتَّخذوا إيمانَهُمْ(٢) جُنَّةً، يَعْني تَصْديقَهُمْ، ليسَ أنها قراءةٌ واحدةٌ، فَقُرِئَتْ بِلَفْظَيْنِ، ولكنهما كانا جميعاً، فَقُرِئَتْ بالمَعْنَيَيْنِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ والإشكالُ أنْ كيفَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ وهُمْ إنما ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾؟ ومَعْلومٌ أنَّ هذا القولَ منهمْ صِدْقٌ، ولكنَّ المَعْنَى مِنْ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنهُمْ طُعِنوا في ما أظْهَروا مِنَ الخِلافِ والتكذيبِ عندَ غَيرِ رسولِ اللهِ، فَحَسِبوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ اطَّلَعَ على صَنيعِهِمْ، فأتَوا رسولَ اللهِ ﷺ يَعْتَذِرونَ إليهِ، ويقولونَ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وإنَّ ما بَلَغَكَ مِنّا مِنَ القولِ كَذِبٌ، وما قُلْناهُ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهمْ كاذبونَ في ما أخبَروا أنهمْ ما قالوهُ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾؟ [التوبة: ٧٤].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: إنّا نَشْهَدُ في قلوبِنا إنكَ لَرسولُ اللهِ كما نُظْهِرُهُ بألْسِنَتِنا، فأخبَرَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ما يَشْهَدونَ بالإيمانِ في قلوبِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ(٣) أنْ يكونَ المَعْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿نَشْهَدُ﴾ أي نَعْلَمُ برسالتِكَ في قلوبِنا ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ما أخبَروا أنهمْ يَعْلَمونَ رسالتَهُ في قلوبِهِمْ، وقد كانَ لَزِمَهُمُ العِلْمُ برسالتِهِ مِنْ جهةِ الآياتِ والحُجَجِ، ولكنْ تَعامَوا عنْ ذلكَ العِلْمِ استِخْفافاً منهمْ وتَعَنُّتاً، فَصارَ ذلكَ العِلْمُ كالجهلِ الحَقيقيِّ.

ثم أخبَرَهُمُ اللهُ عنْ أنفسِهِمْ وضَمائِرِهِمْ أنهمْ يَعْلَمونَ، وأخبَرَ رسولَهُ(٤) أنهمْ كاذبونَ: أنهمْ يَعْلَمونَ برسالتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الواجبُ أنْ يُعْلَمَ ما الذي أحْوَجَهُمْ إلى أنْ ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وقد كانَ كثيرٌ مِنَ المؤمنينَ يَلْقَونَ رسولَ اللهِ ﷺ ولا يقولونَ(٥) ذلكَ، فكيفَ قالَ المُنافِقونَ ذلكَ؟

فمَعْناهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ حينَ(٦) اعْتادوا مُخادَعةَ اللهِ ورسولَهُ امْتَحَنَهُمُ اللهُ تعالى بهذهِ المَقالةِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونوا جَرَوا على عادتِهِمْ أنهمْ إذا لَقُوا المُسْلِمينَ ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ ﴿وَإِذَا [خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ](٧) قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وإذا لَقُوا رسولَ اللهِ ﷺ ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على عادتِهِمْ في كلِّ مَجْلِسٍ(٨) بما يَليقُ بهِ وبِمَذْهَبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٥١. (٣) في الأصل وم: ويعلم. (٤) في الأصل وم: رسول الله.
(٥) من م، في الأصل: يقول. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: لقوا المشركين. (٨) في الأصل وم: جنس.

ويجوزُ أنْ يكونوا يَخافونَ أنْ قد بَلَغَ رسولَ اللهِ ﷺ خلافُهُمْ وتكذيبُهُمْ، فكانوا إذا لَقُوهُ ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ اعْتِذاراً مِنْ ذلكَ الخِلافِ لو بَلَغَهُ.

ألَا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؟ [المنافقون: ٤] كانوا يَحْسَبونَ مِنْ سُوءِ ما يُضْمِرونَ في قلوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ أنَّ كلَّ مَنْ كَلَّمَ رسولَ اللهِ ﷺ فإنما يُكَلِّمُهُ[1] بِسَبَبِهِمْ، فكذلك الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ ههنا: ﴿نَشْهَدُ﴾ ولم يَقُلْ نَشْهَدُ باللهِ، لأنَّ المَعْنَى مِنْ هذا الحَلْفُ، والحَلْفُ مِنَ المؤمنينَ في المُتَعارَفِ إنما يكونُ باللهِ تعالى. فلذلكَ أَجْزَأَ بقولِهِ: ﴿نَشْهَدُ﴾ عنْ قولِهِ: باللهِ؛ فيكونُ هذا دليلاً لقولِ أصحابِنا: إنَّ قولَهُ ﴿نَشْهَدُ﴾ يكونُ يَميناً حينَ[2] ذُكِرَ ههنا بطريقِ القَسَمِ، والمَعْنَى ما أُشيرَ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحَدُهما: صَدُّوا أي أعْرَضوا بأنفسِهِمْ عنْ طاعةِ اللهِ والإيمانِ برسولِهِ.

والثاني: صَدُّوا[3] الضَّعَفَةَ عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ وعنِ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بِئْسَ ما كانوا يَعْمَلونَ مِنَ الإعراضِ عنِ الآياتِ والحُجَجِ حينَ[4] آثَروا الكُفْرَ على الإيمانِ.

ويَحْتَمِلُ: بِئْسَ ما كانوا يَصْنَعونَ مِنْ صَدِّ الضَّعَفَةِ والأتباعِ عنِ الإيمانِ برسولِ اللهِ ﷺ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ لهُ تأويلانِ:

أحَدُهما: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بلسانِهِمْ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بقلوبِهِمْ.

والثاني: على حقيقةِ الإيمانِ والكُفْرِ؛ وذلكَ أنهمْ لمّا رَأَوا قِلَّةَ المُسْلِمينَ وضَعْفَهُمْ في أنفسِهِمْ يومَ بَدْرٍ، ثم رأَوْهُمْ مَعَ هذهِ القِلَّةِ والضَّعْفِ غَلَبوا على الكُفّارِ مَعَ كَثْرَتِهِمْ آمَنوا برسولِ اللهِ ﷺ ورَأَوا أنهمْ لا يُغْلَبونَ أبداً.

ثم إنَّ المُسْلِمينَ لمّا غُلِبوا يومَ أُحُدٍ، وأصابَهُمْ [ما أصابَهُمْ][5] اضْطَرَبوا في إيمانِهِمْ، وشَكُّوا، وكَفَروا؛ وذلكَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١]. فكذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ السبَبَ الذي تَوَلَّدَ منهُ نِفاقُهُمْ وحَلْفُهُمْ وقولُهُمْ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [وقولُهُ][6] ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

وجائزٌ أنهُ لم يَكُنْ منهمْ حَقيقةُ إيمانٍ ولا كُفْرٍ، ولكنهمْ كانوا أقواماً هِمَّتُهُمُ الدنيا وسَعَتُها، وكانوا يكونونَ مَعَ مَنْ تكونُ معهُ الدنيا: إنْ رَأَوها[7] مَعَ المؤمنينَ أظْهَروا مِنْ أنفسِهِمْ أنهمْ مؤمنونَ، وإنْ رَأَوها[8] مَعَ الكُفّارِ أظْهَروا أنهمْ كُفّارٌ، لا أنْ يكونَ منهمْ حقيقةُ إيمانٍ أو كُفْرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الطَّبْعُ يجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عنْ سَتْرٍ وظُلْمةٍ على قلوبِهِمْ، فلا يَرَونَ بهِ الحقَّ وحُجَجَهُ.

قالَ: ويجوزُ أنْ يَجْعَلَ اللهُ الكُفْرَ ظُلْمةً في القَلْبِ لا يُبْصِرونَ بهِ الحُجَجَ والآياتِ، أو يَجْعَلَ الكُفْرَ كِنّاً على [قَلْبِ الفَرْدِ][9] لِيَضيقَ، فلا يَرَى مِنْ بَعدِ ذلكَ مَنافِعَهُ ومَضارَّهُ إلّا مِنْ ذلكَ الوَجْهِ، فَيَكْفُرُ وبما كانَ. فذلكَ مَعْنَى الطَّبْعِ؛ يَعْني أنَّ اشْتِغالَهُمْ بالكُفْرِ وكَسْبَهُمْ إيّاهُ غَطّى قلوبَهُمْ، وسَتَرَها عنْ أنْ يُبْصِروا الحَقَّ وحُجَجَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يكلمهم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: رأوا. (٨) في الأصل وم: رأوا. (٩) في الأصل وم: قلبه.

قالَ الفقيهُ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إنّ المنافقينَ لم يَجيبُوا بأجمعِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وإنما جاءَ بعضُهُمْ / ٥٧٠ ـ ب/ وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿نَشْهَدُ﴾ في بعضِ التأويلاتِ: نُقْسِمُ، والقسمُ ليسَ مِنْ فِعْلِ الأتباعِ والسِّفْلَةِ، وإنما ذلكَ مِنْ فِعْلِ الأجلّةِ والرؤساءِ. فَدَلَّ أنهُ إنما تَعاطَى هذا الفِعْلَ بعضُ المُنافقينَ.

ثم ذَكَرَ اللهُ تعالى ذلكَ البَعْضَ بِلَفْظِ الكُلِّ، فَعُلِمَ أنهُ ليسَ كلُّ ما خَرَجَ في الظاهِرِ مَخْرَجَ العُمومِ يَتَناوَلُ كلَّ مَنْ دَخَلَ تحتَ ذلكَ الاِسْمِ، ولكنهُ يُنْظَرُ في مَعْنَى اللفْظِ وحقيقتِهِ.

فإنْ كانَ الدليلُ يُوجِبُ تَعْميمَهُ أُجْرِيَ على عُمومِهِ، وإنْ كانَ يُوجِبُ تَخْصيصَهُ أُجْرِيَ على خُصوصِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: أي لا يَفْقَهونَ، لأنهمْ[1] طُبِعَ على قُلوبِهِمْ، وإلّا لم يُعْرِضوا عنِ الحقِّ والآياتِ؛ وذلكَ أنهمْ يَظُنّونَ أنهمْ على الحقِّ، وجَعَلوا جميعَ هِمَّتِهِمْ في المَنافِعِ والمَضارِّ الدُّنْيَوِيّةِ، وإلّا لو فَقِهوا أنَّ للهِ تعالى داراً أُخرَى يُجازَوْنَ فيها بأعمالِهِمْ لَعَلِموا أنهُ لا بُدَّ مِنْ دينٍ يَدينونَ بهِ، ولم يَنْظُروا إلى مَنافِعِهِمْ ومَضارِّهِمْ، واللهُ المُستَعانُ.

ويَحْتَمِلُ أي لا يَفْقَهونَ عنِ اللهِ تعالى أنهُ تَعَبَّدَهُمْ، وأمَرَهُمْ بطاعةِ رسولِ اللهِ واتِّباعِهِ.

ويَحْتَمِلُ أي لا يَفْقَهونَ أنهمْ يَتَعَبَّدونَ، وأنَّ للهِ داراً أُخرَى، يَسْأَلُهُمْ عمّا فَعَلوا، ويُجازيهِمْ على جميعِ ذلكَ.

ثم قالَ ههنا: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولم يَقُلْ: لا يَعْلَمونَ، لأنَّ الفِقْهَ إنما هو الذي يُعْرَفُ بهِ الشيءُ بالشيءِ فأخبَرَ أنهمْ لا يَعْرِفونَ الآخِرَةَ بالدنيا.

وقالَ ابنُ سُرَيجٍ: الفِقْهُ، هو مَعْرِفَةُ الشيءِ بِمَعْناهُ الدالِّ على نَظيرِهِ.

وعندَنا: أنَّ الفِقْهَ، هو مَعْرِفَةُ الشيءِ بِمَعْناهُ الدالِّ على غَيرِهِ؛ كانَ ذلكَ نَظيراً لهُ أو لم يكُنْ، لأنَّ مَنْ عَرَفَ الخَلْقَ بِمَعْناهُمْ دلَّهُ ذلكَ على مَعْرِفَةِ الصانعِ. ومَنْ عَرَفَ الدنيا دَلَّهُ ذلكَ على مَعْرِفَةِ الآخِرَةِ، وليسا بِنَظيرَينِ.

ثم بَيْنَ الفِقْهِ والعِلْمِ فَصْلٌ مِنْ وجْهٍ، وإنْ كانا[2] جميعاً في الحقيقةِ، يَرْجِعانِ إلى مَعْنًى واحدٍ؛ لأنَّ العِلْمَ إنما يُجَلّي الشيءَ لهُ، وظهورُهُ بنفسِهِ، والفِقْهُ يُعْرَفُ بِغَيرِهِ اسْتِدْلالاً. ولذلكَ جازَ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بِتَجَلّي الأشياءِ لهُ، ولم يَجُزْ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ فقيهٌ، لأنهُ لا يَعْرِفُ الأشياءَ بالاِسْتِدْلالِ، واللهُ الموفِّقُ.

والحِكْمَةُ وَضْعُ الأشياءِ مَواضِعَها، والإيقانُ إنما هو يَتَوَلَّدُ عن ظهورِ الأسبابِ، ولذلكَ جازَ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ، ولم يَجُزْ أنْ يُقالَ: إنهُ موقِنٌ، واللهُ المُستَعانُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ في هذا بيانُ أنَّ اللهَ تعالى قد كانَ آتاهُمْ حُسْنَ الصورةِ وحُسْنَ البَيانِ، وأنهُ قد آتاهُمُ العِلْمَ لأنَّ حُسْنَ البَيانِ، لا يكادُ يكونُ إلّا عن عِلْمٍ. فكانَ اللهُ تعالى ذَكَرَ نِعَمَهُ التي آتاهُمْ؛ وإنهمْ لم يَشْكُروا نِعَمَهُ، وأساؤوا صُحْبَتَها؛ فكأنهُ يقولُ: كيفَ ترجو منهمْ حُسْنَ الصُّحْبةِ لكَ، وإنهمْ لم يُحْسِنوا صُحْبَةَ نِعَمِهِ ربِّ العالمينَ؟

فيكونُ بعضُ التَّسَلّي لِما أَهَمَّ رسولَ اللهِ ﷺ مِنْ سُوءِ صَنيعِهِمْ بهِ وإعراضِهِمْ عنِ اتِّباعِهِ وطاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ يعني وإنْ يقولوا تَحْسَبْ قولَهُمْ حقّاً، فَتَسْمَعْ لقولِهِمْ لِتَقَبَّلَهُ. ويَحْتَمِلُ أي[3] تَسْمَعْ لقولِهِمْ لِما يُعْجِبُكَ قولُهُمْ، أو تَسْمَعْ لقولِهِمْ على ما كانَتْ عادَتُهُ ﷺ في كلِّ مَنْ كَلَّمَهُ أنه لا يُغَيِّرُ عليهِ، ولا يَقْطَعُ عليهِ كلامَهُ حتى يَفْرَغَ منهُ، ثم يَقْبَلُهُ[4] إنْ كانَ مِمّا يَجِبُ قَبولُهُ [أو يُغَيِّرُهُ][5] على صاحبِهِ [أو يَرُدُّهُ][6] إنْ كانَ مُسْتَحِقاً لِلتَّغْييرِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لأنه. (٢) من م، في الأصل: كان. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: قبله. (٥) في الأصل وم: وغير. (٦) في الأصل وم: ورده.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ يقولُ: إنهمْ في ما يكونُ مِنْ جانبِهِمْ وناحيَتِهِمْ مِنْ حُسْنِ الصورةِ والبَيانِ بحيثُ يُعْجِبُكَ، وفي ما تُلْقي إليهِمْ مِنَ الحقِّ والدينِ والحكمةِ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا يَنْجَعُ فيهِمُ الحقُّ، ولا يَقْبَلونَهُ كالخُشُبِ المُسَنَّدَةِ.

ويَحتَمِلُ [أنْ يكونَ][1] هذا تَمْثيلاً بالخُشُبِ مِنْ حيثُ [أنَّ الخُشُبَ المُسَنَّدَةَ][2] في الظاهِرِ، هي الخُشُبُ اليابسةُ التي لا أجوافَ لها، فَيُوضَعَ فيها شيءٌ، فكذلكَ المنافقون، كأنهمْ لا أجوافَ [لهمْ تُوضَعُ فيها][3] الحِكْمةُ والدينُ والحقُّ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعناهُ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ مِنْ حيثُ أنَّ الخُشُبَ المُسَنَّدَةَ، ليسَ لها أسماعٌ ولا أبصارٌ ولا قلوبٌ، فكذلكَ المنافقونَ، كأنهمْ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ مِنْ ناحيةِ الحقِّ وقَبولِهِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحَدُها:][4] يَحسَبونَ كلَّ صَيحةٍ سَمِعوها كَلِمةً تَهْتِكُ عليهِمْ سِتْرَهُمْ، وتَفْضَحُهُمْ[5].

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] [حيثُ أخبَرَ][6] أنهمْ كانوا يَحْسَبونَ فَضيحتَهُمْ وهَتْكَ أستارِهِمْ الإطِّلاعَ[7] على ما في قلوبِهِمْ؟ فكذلكَ يَحْسَبونَ أنَّ مَنْ كَلَّمَ رسولَ اللهِ ﷺ فإنما يُكَلِّمُهُ[8] بما يهتِكُ أستارَهُمْ، ويَفْضَحُهُمْ، واللهُ المُسْتَعانُ.

والثاني[9]: أنْ يكونَ ذلكَ في الحربِ؛ أنهمْ كلَّما سَمِعوا صَيْحَةً، خافوا أنْ يكونَ فيها[10] هلاكُهُمْ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوافقةَ لكلِّ فريقٍ على حِدَةٍ؛ وإذا وافَقوا هذا الفريقَ صاروا حَرْباً للفريقِ الآخرِ، وإذا وافَقوا الآخَرَ صاروا حرباً لهؤلاءِ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهمْ يَحسَبونَ مِنْ كلِّ صَيحةٍ، سَمِعوها، أنْ يكونَ ذلكَ سبباً لِهلاكِهِمْ.

والثالثُ:[11] أنْ يكونَ اللهُ تعالى عاقَبَهُمْ بالخوفِ الدائمِ لِتأميلِهِمُ الأمْنَ مِنْ وجْهٍ، لم يُؤْذَنوا فيهِ؛ وذلكَ لِما وَصَفْنا أنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوافقةَ لكلِّ رجاءِ أمْنِهِمْ، وكانَتْ جميعُ مَقاصِدِهِمْ في ذلكَ تحصيلَ مَنافعِ الدنيا دونَ الديانةِ بدينٍ مِنَ الأديانِ، وذلكَ غيرُ مأذونٍ فيهِ. فلما آثَروا ذلكَ، واختاروهُ مِنْ غيرِ أنْ يُؤْذَنَ لهمْ عاقَبَهُمْ بالخوفِ الدائمِ إمّا مِنَ الإفْتِضاحِ والإطِّلاعِ على ما في قلوبِهِمْ [وإمّا][12] مِنِ الهلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ لهُ أوجُهٌ مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: أنْ يقولَ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ يعني أنهمْ أدنَى عَدُوٍّ لكمْ ﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ في جميعِ أحوالِهِمْ في [المَطْعَمِ والمَشْرَبِ وغيرِهِ لأنَّ الحَذَرَ مِمَّنْ قَرُبَ مِنَ الأعداءِ، ودَنا، أوجَبُ مِمَّنْ بَعُدَ.

[والثاني:][13] احْذَرْهُمْ أنْ تُطْلِعَهُمْ على سِرٍّ في ما يَرَونَ، وتُضْمِرُهُ مِنَ الجهادِ والحربِ، فَيَحتالونَ على إهلاكِكَ][14] أو يُطْلِعونَ الكَفَرَةَ على سِرِّكَ.

[والثالثُ:][15] احْذَرْهُمْ أنْ تَقْبَلَ منهمْ قولاً، يقولونَ عنْ أصحابِكَ لأنهمْ يُغْرونَ أصحابَكَ عليكَ، فاحْذَرْهُمْ أنْ تَقْبَلَ قولَهُمْ على أصحابِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني لَعَنَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ لهُ تأويلانِ:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لها يوضع فيهم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فأخبر. (٧) في الأصل وم: والاطلاع. (٨) في الأصل وم: يكلم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: فيه. (١١) في الأصل وم: ويحتمل. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في م: أو. (١٤) من م، في الأصل: المطمع. (١٥) في الأصل وم: أو.

أحدُهما: أنْ يقولَ: أيُّ سببٍ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ بكَ وطاعتِكَ، وقد أتيتَهُمْ بالآياتِ والحُجَجِ في اطِّلاعِكَ على سَرائِرِهِمْ، وذلكَ لا يكونُ إلّا عنِ الوَحْيِ.

[والثاني: أنْ][1] يقولَ: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني أنّى يُكذِّبونَ تقليداً أولئكَ الكَفَرَةَ مِنْ غيرِ أنْ يَظْهَرَ لهمْ في ذلكَ آيةٌ وحُجّةٌ، ولا يُقلِّدونَ البرهانَ والحُجّةَ، فيَتّبعونَكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ ظاهرُ هذهِ الآيةِ أنَّ هذا القولَ منهُ إنما كانَ لِجُملَةِ المُنافِقينَ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

ورُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلَتْ في عبدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلولٍ المُنافقِ لأنهُ رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ كلّما قامَ يومَ الجمعةِ قامَ عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلولٍ في ناحيةِ المسجدِ، وقالَ: هذا رسولُ اللهِ، فَوَقِّروهُ، وعَظِّموهُ، حتى نَزَلَتْ هذهِ السورةُ، فقالَ بِمِثْلِ مَقالَتِهِ، فقالَ لهُ عُمَرُ ﷺ: اجْلِسْ يا كافرُ، فإنَّ اللهَ تعالى قد فَضَحَكَ، قالَ: فَخَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ قَبْلَ أنْ يُصَلِّيَ الجمعةَ، فاسْتَقْبَلَهُ بعضُ القومِ، فسألوهُ عَنْ خُروجِهِ مِنَ المَسْجِدِ قَبْلَ أداءِ الجمعةِ، فأخبرَهُمْ عنِ القصةِ، فقالوا: ارجِعْ إلى رسولِ اللهِ، وسَلْهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لكَ، فَلَوَى رأسَهُ، وقالَ: ما لي إلى اسْتِغْفارِهِ حاجةٌ.

ورُوِيَ أنهُ لمّا قالَ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] ثم أرادَ دخولَ المدينةِ مِنْ بَعْدِ هذهِ المَقالةِ، فَحَبَسَهُ ابنُهُ، وقالَ: لا أدَعُكَ تَدْخُلُها مالم تُقِرَّ أنكَ الأذلُّ وأنَّ رسولَ اللهِ، هو الأعزُّ، فَبَلَغَ ذلكَ رسولَ اللهِ/ ٥٧١ ـ أ/ ﷺ فأمَرَهُ أنْ يُخَلِّيَ عنْ أبيهِ، ثم قالَ لَهُ: إنكَ أولى لكَ أنْ تُسَمّى عبدَ اللهِ مِنْ أبيكَ، فَسُمِّيَ مِنْ بَعْدِ ذلكَ عبدَ اللهِ، وكانَ يُسمّى حُباباً.

فهذانِ الخَبَرانِ يَدُلّانِ على أنَّ هذهِ الآيةَ، إنما نَزَلَتْ في واحدٍ منهما[2]، وظاهرُها يدلُّ على [أنَّ][3] ذلكَ كانَ في جُملَةِ المُنافقينَ.

ولكنَّ الوجهَ في ذلكَ، كانَ عندنا، واللهُ أعلَمُ: أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ اعْتِقادُ جُمْلَتِهِمْ على ذلكَ، فَذَكَرَهُمُ اللهُ تعالى [جُمْلَةً][4] لِاعْتِقادِهِمْ عليهِ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا أقواماً، لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ. والاِسْتِغْفارُ إنما هو طَلَبُ المَغْفِرَةِ؛ وذلكَ إنما يَتَحَقَّقُ في الآخِرَةِ. فإذا كانَ على هذا أصلُ اعْتِقادِهِمْ جُملةً ذَكَرَهُمُ اللهُ تعالى على ذلكَ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] كانَ عندَهُمْ أنَّ اللهَ تعالى إنما آتاهُمُ العِزَّ والغِنى والشَّرَفَ والفَضيلةَ لهمْ على محمدٍ ﷺ فكانوا يُنْكِرونَ عليهِ مِنْ ذلكَ الوجْهِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى بما ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ أنبأَ أنهُ قد كانَ آتاهُمْ جميعَ ما بهِ العِزُّ والشَّرَفُ في الدنيا لِيَمْتَحِنَهُمْ بِحقوقِ هذهِ النِّعَمِ وتعظيمِها وشُكْرِها، وأنهمْ بَلَغوا في ذلكَ غايةَ ما عليهِ عَمَلُ الكَفَرةِ في سُوءِ الصُّنْعِ بالنِّعَمِ؛ وذلكَ أنهُ لمّا قالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [الآية: ٤] دلَّ أنهُ كانَ آتاهُمْ حُسْنَ الصورةِ وحُسْنَ البيانِ، ولمّا قالَ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [الآية: ٧] دلَّ أنهُ قد كانَ آتاهُمُ الغِنى، ولمّا قالَ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] دلَّ أنهُ قد كانَ آتاهُمُ العِزَّ والشَّرَفَ.

ومَعْلومٌ أنَّ هذهِ الأسبابَ التي وصَفْنا، هي أسبابُ العِزِّ والشَّرَفِ في الظاهِرِ.

ثم أخبَرَ أنهمْ تَرَكوا شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ في تعظيمِ الحقِّ وأداءِ شُكْرِهِ، وأنهمْ بَلَغوا في الباطنِ في كلِّ شيءٍ مِنْ ذلكَ غايَتَهُ في سوءِ الصُّنْعِ، لأنهُ دلَّ بقولِهِ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا﴾ [الآية: ٧] على غايةِ البخلِ حينَ[5] امْتَنَعَ عنِ الإنفاقِ بنفسِهِ، وأمَرَ[6] غيرَهُ ألّا يُنْفِقَ أيضاً، وذلكَ في غايةِ البخلِ، ولمّا قالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [الآية: ٤] دلَّ أنهمْ كانوا في الغَفْلَةِ عنْ ذِكْرِ اللهِ وقَبولِ المَوعظةِ غايَتَهُ، ولمّا قالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ دلَّ أنهمْ كانوا في الاِسْتِخْفافِ بهِ حينَ[7] تَرَكوا الإنصافَ، وأخذوا سَبيلَ الاِعْتِسافِ والاِسْتِكْبارِ عليهِ غايَتَهُ، ولمّا قالَ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] دلَّ أنهمْ كانوا في سُوءِ السَّريرةِ غايَتَهُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: منهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وأمره. (٧) في الأصل وم: حيث.

قالَ: ويجوزُ أنْ يَقَعَ كلُّ ذلكَ منهمْ لِوجهَينِ:

أحدُهما: أنهمْ رَأوا ذلكَ حقّاً لهمْ على اللهِ تعالى آتاهُمْ.

[والثاني: أنهمْ رَأوا][1] أنَّ اللهَ تعالى آتاهُمْ ذلكَ تفضيلاً لهمْ على غَيرِهِمْ، فكانوا يَتَكَبَّرونَ، ويَتَعَظَّمونَ على غَيرِهِمْ، ويَسْتَخِفّونَ برسولِ اللهِ ﷺ لِذلكَ الوجْهِ، ولم يَتَأمّلوا، ولم يَتَفَكّروا، لِيَتَبَيَّنَ لهمْ أنَّ اللهَ تعالى آتاهُمْ جميعَ تلكَ النِّعَمِ مِحْنةً عليهِمْ، تَعَبُّدَهُمْ بأداءِ شُكْرِها وتَعظيمِ حقِّها. وذلكَ مَعْنى، لا يَفْقَهونَ، أي لا يَتَأمّلونَ النَّظَرَ في هذهِ النِّعَمِ؛ وذلكَ أنَّهُ لو لم يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ كانَ يُلْزِمُهُمْ أنْ يَتَأمّلوا في ما أُوتوا مِنَ النِّعَمِ، ويَنْظُروا، فإذا تَفَكّروا في ذلكَ، ولم يَجدوا لهمْ عندَ اللهِ صُنْعاً استَوجَبوا بهِ عندَهُ مُكافآتٍ لذلكَ، ولا لهمْ فَضْلٌ يُفَضِّلُهُمُ اللهُ بهِ[2] على غَيرِهِمْ، فكانَ يَتَبَيَّنُ لهمْ أنَّ اللهَ تعالى إنما أعطاهُمْ هذهِ النِّعَمَ مِحْنَةً لِيَتَعَبَّدَهُمْ بأداءِ شُكْرِها.

ولِذلكَ وقَعَ الفَضْلُ في ما بينَ العِلْمِ والفِقْهِ أنَّ ما كانَ حقَّهُ التأمُّلَ والنَّظَرَ فَحَقُّ اللفظِ فيهِ أنْ يُقالَ: يَفْقَهونَ، ولا يَفْقَهونَ، وما كانَ حقُّ العِلْمِ السماعَ والخَبَرَ أُطْلِقَ فيهِ لَفْظُ العِلْمِ.

ولِذلكَ قالَ عندَ العِزَّةِ والغَلَبَةِ والنَّصْرِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٨] لأنهمْ لم يكونوا يَعْلَمونَ النَّصْرَ والغَلَبَةَ، لو لم يكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: رأيتَهُمْ يَصُدّونَ عنْ طاعتِكَ واتِّباعِكَ.

والثاني: يَصُدُّونَ ضَعَفَتَهُمْ عنِ اتِّباعِكَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما: أنهمْ][3] لم يَعُدّوا ذلكَ زَلَّةً وذَنْباً لأنهُ كانَ عندَهُمْ أنهمْ على الحقِّ.

والثاني: ما قُلْنا: إنهمْ كانوا لا يُؤمنونَ بالآخِرَةِ، والمَغْفِرَةُ إنما تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، ويَتَحقَّقُ ذلكَ في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ على ذلكَ أيضاً؛ إنهُ لا يَغْفِرُ أَسْتَغْفَرْتَ أمْ لم تَسْتَغْفِرْ.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: ورسولُ اللهِ ﷺ كانَ لا يَسْتَغْفِرُ لِلْمُنافِقينَ بَعْدَ ما ظَهَرَ عندَهُ نِفاقُهُمْ، ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ هذا قَبْلَ نِفاقِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ما داموا على النِّفاقِ، ولم يتوبوا عنهُ.

والثاني: أنْ يقولَ: ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ في قوم، عَلِمَ اللهُ منهمْ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً، فقالَ في أولئكَ: ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وكذلكَ هذا في قولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فيهِ أنَّ اللهَ تعالى، يَمْلِكُ هدايةً وراءَ هدايةِ البَيانِ، لأنَّ مَنْ لم يَمْلِكْ شيئاً لم يَسْتَقِمْ أنْ يُوصَفَ بالتَّعْظيمِ: أنهُ، لا يَفْعَلُ، لأنهُ يَعْلَمُ إذا لم يَقْدِرْ، ولم يَمْلِكْ، لا يَفْعَلُ. وإنما يُوصَفُ بهذا مَنْ يَمْلِكُ ذلكَ، ولكنْ لا يَفْعَلُ.

فلو لم يَقْدِرْ خَلْقَ فِعْلِ الاهْتِداءِ في مَنْ أرادَ لم يُوصَفْ بأنهُ لا يَهْدي الفاسِقينَ. فَدَلَّ أنهُ يَمْلِكُ هدايةَ البَيانِ، وهو خَلْقُ الاهْتِداءِ في مَنْ عَلِمَ منهُ ذلكَ، واللهُ الموفقُ.

وقالَ أبو بكرٍ: مَعْنى قولِهِ: ﴿لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يَهْديهِمْ لِفِسْقِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: بها. (٣) في الأصل وم: لأنهم.

وقالتِ المعتزلةُ: أي لا يُسَمِّيهِمْ مُهْتَدينَ، إذا فَسَقُوا، أو ضَلُّوا.

وأيُّهما كانَ، فهو مُحالٌ، لأنَّ مَنْ هَدَى ضالاً لِضَلالَتِهِ فهو سفيهٌ؛ فكأنهُ يقولُ: لا يَسْفَهُ، ومَنْ سَمَّى الضالَّ مُهْتَدِياً فهو كاذبٌ؛ فكأنهُ قالَ: لا يَكْذِبُ، وهما جميعاً غيرُ مُسْتقيم، لأنا نَعْلَمُ أنهُ لا يَسْفَهُ، ولا يَكْذِبُ. فَثَبَتَ أنَّ في مُلْكِهِ هدايةً، يَهْدي بها مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ سِوَى هدايةِ البَيانِ. وإذا ثَبَتَ ما وَصَفْنا أنَّ في مُلْكِهِ هدايةَ البَيانِ ثَبَتَ أنَّ لهُ فيها مَشيئةً؛ لأنَّ مَنْ مَلَكَ شيئاً، لم يَجُزْ أن تُقطَعَ عنهُ مَشيئَتُهُ. فلذلكَ قُلْنا: إنَّ اللهَ تعالى، يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ مَنْ[1] عَلِمَ أنهُ يُؤْثِرُ الكُفْرَ، ويَخْتارُهُ على الهُدَى، ويَهْدي مَنْ يَشاءُ مَنْ[2] عَلِمَ أنهُ يُؤْثِرُ الهُدَى على الضلالةِ، فَيَهْديهِ لِذلكَ، ويُوَفِّقُهُ، ويُسَدِّدُهُ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ قد وَصَفْنا أنَّ هذا مِنْ غايةِ بُخْلِهِمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ دلالةٌ أنهمْ أرادوا إطفاءَ هذا النورِ وإخفاءَهُ، فأبى اللهُ تعالى إلّا إظْهارَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَبْسُطُها على المنافقينَ لِيَمْتَحِنَهُمْ بالإنفاقِ على المؤمنينَ.

أو ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُضَيِّقُها على المؤمنينَ لِيَمْتَحِنَهُمْ بالصَّبْرِ في حالِ الضِّيقِ.

أو يجوزُ أنْ يكونَ هذا بِشارةً للمؤمنينَ بأنَّ اللهَ تعالى، يُوَسِّعُ عليهمُ الدنيا بَعْدَ ما ضاقَتْ، وقد جَعَلَ حينَ فَتَحَ لهمُ الفُتوحَ، وآتاهُمُ الغَلَبَةَ على أعدائِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ الأعَزُّ: قد يَحْتَمِلُ مَعانِيَ:

أحَدُها: الأغْلَبُ الأقْهَرُ على مِثالِ قولِهِ تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أي غَلَبَني في الخُصومةِ.

والثاني: الأقْوَى والأشَدُّ على مِثالِ قولِهِ ﷻ: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والثالثُ: الأعْلَى والأجَلُّ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإنْ كانَ على الأعْلَى والأجَلِّ فذلكَ أنَّ المؤمنينَ أعْلَى وأجَلُّ /٥٧١ ـ ب/ لأنهمُ اتَّبَعوا الحِكْمَةَ بالحُجَجِ، والكُفّارَ اتَّبَعوا أهواءَهُمْ. وإنْ كانَ على الأغْلَبِ والأقْهَرِ فذلكَ للمؤمنينَ بالغَلَبَةِ والنُّصْرَةِ على أعدائِهِمْ.

وإنْ كانَ على القُوَّةِ والشِّدَّةِ فقد كانَ ذلكَ للمؤمنينَ، لأنهُ لو لم يُوجَدْ ذلكَ للمؤمنينَ لم يكُنْ أهلُ النِّفاقِ يُظْهِرونَ الوِفاقَ للمؤمنينَ. ولكنهمْ لمّا رَأَوُا القُوَّةَ والشِّدَّةَ للمؤمنينَ مَرَّةً ولِلْكُفّارِ أُخرَى أظْهَروا المُوافَقَةَ لِلْفَريقَيْنِ جميعاً. ولِذلكَ قالَ ذلكَ المُنافِقُ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ لأنهُ لمّا رَأَى العِزَّةَ والشِّدَّةَ لِلْكافرينَ يومَ أُحُدٍ تَوَهَّمَ أنهمْ يَغْلِبونَهُمْ أبداً، فأظْهَرَ النِّفاقَ، وقالَ عندَ ذلكَ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

فمنهمْ مَنْ قالَ: هذهِ الآيةُ في المُنافقينَ، ومنهمْ مَنْ قالَ: في المؤمنينَ.

فإنْ كانَتْ في المُنافقينَ فكأنهُ يقولُ: يا أيُّها الذينَ أظْهَرْتُمْ بِلِسانِكُمُ الإيمانَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وإنْ كانَتْ في المؤمنينَ فكأنهُ قالَ: يا أيُّها الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

ثم اخْتَلَفوا في مَعْنَى الذِّكْرِ: فمنهمْ مَنْ قالَ: مَعْناهُ القرآنُ على مِثالِ قولِهِ: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟﴾ [الطلاق: ١٠ و١١] يعني قرآناً ورسولاً، ومنهمْ مَنْ قالَ: مَعْنَى الذِّكْرِ التوحيدُ.

فإنْ كانَ تأويلُهُ القرآنَ فهو يَتَوَجَّهُ إلى المنافقينَ والمؤمنينَ جميعاً.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: لمن.

فإنْ كانَ في المُنافقِينَ فكأنهُ قالَ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ عنِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ في القرآنِ، لأنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أموراً، تُظْهِرُ [سَرائِرَكُمْ وما يَظْهَرُ عندَكُمْ][1] أنَّ الرسولَ، لا يَخْتَلِقُهُ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، وأنهُ إنما يقولُهُ بالوَحْيِ. فكأنهُ يقولُ: إذا تأمَّلْتُمُ النَّظرَ في القرآنِ حَمَلَكُمْ ذلكَ على التَّحقيقِ في الإيمانِ، فلا يَحْمِلُكُمْ حبُّ المالِ والوَلَدِ على تَرْكِ التَّأمُّلِ في القرآنِ لأنكُمْ إذا نَظَرْتُمْ فيهِ، وتأمَّلْتُمْ، حَصلْتُمْ منهُ على تحقيقِ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ في المؤمنينَ فَمَعْناهُ ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ عنِ النَّظرِ في القرآنِ فإنكُمْ إذا نَظَرْتُمْ فيهِ صِرْتُمْ مِنْ أهلِهِ، وجَلَّ قَدْرُكُمْ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنَ الذِّكْرِ التوحيدَ فهو راجعٌ إلى الناسِ كافَّةً.

فأمّا المؤمنونَ فكأنهُ حَذَّرَهُمْ مِنْ حُبِّ المالِ والوَلَدِ أنْ تَحْمِلَهُمْ غايةُ حُبِّهما على أن يَنْسَوا وَحدانِيَّةَ اللهِ والإيمانَ بالرسُلِ والبَعْثِ؛ فكأنهُ يقولُ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ كما ألْهَتْ[2] الكَفَرَةَ، فَيُحَذِّرُهُمْ عنْ أنْ يَقَعوا في الهلاكِ مِنْ حُبِّهما[3] كما قالَ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] يعني اتَّقُوا الذي يُفْضي بكمْ إلى النارِ المُعَدَّةِ للكافرينَ. فكذلكَ الأوَّلُ.

[وأمّا المنافقونَ][4] فكأنهُ قالَ: لا يَحْمِلُكُمْ حبُّ المالِ والوَلَدِ أنْ تَتْرُكوا حقيقةَ الإيمانِ والتَّوحيدِ لهُ والطاعةِ لرسولِهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فَعَلَى ما ذَكَرْنا مِنَ التَّأويلَينِ في إنكارِ البَعْثِ والتَّوحيدِ ظاهرٌ، وإنْ كانَ في المؤمنينَ فَمَعْنَى الخَسارِ[5] الخوفُ مِنْ أنْ يَقَعَ بِهِ الوَعيدُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ يجوزُ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فَيَمْنَعَكُمْ ذلكَ عنِ الإنفاقِ؛ فإنكمْ إذا امتَنَعْتُمْ عنِ الإنفاقِ ازْدادَ حُبُّكُمْ، فَتَنْسَونَ وَحدانِيَّةَ اللهِ تعالى وطاعةَ رسولِهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

قالَ بعضُهُمْ: تَمَنَّى الرَّجْعَةَ لِما رأى مِنَ الهلاكِ والعذابِ حينَ[6] تركَ الحقوقَ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: لو كانَ ثَمَّ خَيرٌ لم يَتَمَنَّ الرَّجْعَةَ[7].

ولكنَّ المَعْنَى في ذلكَ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهُ يَتَمَنَّى الرُّجوعَ لِيَتَصَدَّقَ، ليسَ الإنفاقَ خاصَّةً، ولكنْ لِيَتَصَدَّقَ، ولِيكونَ مِنَ الصالحينَ أي المُوَحِّدينَ. وذلكَ مُسْتَقيمٌ أنْ يُقالَ: إذا تَرَكَ التَّوحيدَ، فَنَزَلَ بِهِ الموتُ فإنهُ[8] يَتَمَنَّى الرُّجوعَ لِما يَرَى مِنَ الهَلاكِ والعُقوبةِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ المَعْنَى في هذا إنْ كانتِ الآيةُ في المؤمنينَ المُوَحِّدينَ أنهمْ يَتَمَنَّونَ الرُّجوعَ حياءً مِنْ ربِّهِمْ لِما ارْتَكَبوا مِنَ الزَّلّاتِ، وتَرَكوا ما اسْتَوجَبوا[9] مِنَ الحَسَناتِ، وقَصَّروا في ما فَرَضَ اللهُ تعالى عليهِمْ مِنَ العباداتِ؛ وحَقٌّ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ ربِّهِ إذا لَقِيَهُ بما تَرَكَ مِنْ حقوقِهِ التي ألْزَمَها عليهِ والأسبابِ الواجبةِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ ليسَ يَحْتَمِلُ تأخيرُ اللهِ تعالى أجَلَهُ إذا جاءَ، لأنهُ لو أخَّرَهُ دلَّ أنهُ مَدَّ لهُ في أجَلِهِ، ومَنْ مَدَّ لهُ في أمْرٍ فذلكَ دليلُ الجَهْلِ بالعَواقِبِ، ولا يُوصَفُ ربُّ العالَمينَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِنْ أعمالِكُمْ سِرِّكُمْ وعَلانِيَتِكُمْ، واللهُ أعلَمُ بِحَقيقةِ ما أرادَ.

---

(١) في الأصل وم: سرائرهم ما يظهر عندهم. (٢) في الأصل وم: ألهى. (٣) في الأصل: أحبه، في م: حبه. (٤) في الأصل وم: وإن كان في المنافقين. (٥) من م، في الأصل: الحساب. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: الكفرة. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يستوجبوا.

سورة(١) التغابن

مدنية(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةُ. والتّسبيحُ يَحتَمِلُ أوجُهاً ثلاثةً، وقد سَبَقَ ذِكْرُهُ(٣).

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهما](٤): يَحتَمِلُ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ الولايَةَ والسلطانَ.

والثاني: يقولُ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يَعني مُلْكَ كلِّ الملوكِ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦] فأخبرَ أنَّ مُلْكَ الملوكِ كلَّها لهُ، وأنَّ مَنِ استَفادَ المُلْكَ فإنما يَستَفيدُهُ باللهِ تعالى وبامْتِنانِهِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَحتَمِلُ أوجُهاً ثلاثةً مِنَ التأويلِ:

أحدُها: أنْ يقولَ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَعني لَهُ الثناءُ الحَسَنُ بِصِفاتِهِ العُلَا وسِماتِهِ الحُسْنَى.

والوجهُ الثاني: أنْ يقولَ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَعني حَمْدَ كلِّ مَنْ يَحمَدُ؛ فَحقيقةُ ذلكَ الحَمْدِ لهُ بما أحسَنَ إلى عبادِهِ، وأنْعَمَ عليهِمْ؛ وذلكَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١ و...] أي الحمدُ والثّناءُ الحَسَنُ للهِ تعالى على إحْسانِهِ إلينا وإنْعامِهِ علينا.

والثالثُ: أنْ يَجْعَلَ مَعْنَى الحَمْدِ مَعْنَى الشُّكْرِ، لأنَّ الحَمْدَ قد يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ الشُّكْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنَى(٥) ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حُجَّةً(٦) على المعتزلةِ، لأنَّ اللهَ تعالى، لا يزالُ يَمْدَحُ نفسَهُ بأنهُ بَصيرٌ عَليمٌ، وأنهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، وأقَرَّتِ المعتزلةُ بأنهُ بَصيرٌ عَليمٌ، وأبَتِ الإقرارَ(٧) بأنهُ قديرٌ على فِعْلِ العِبادِ أو على إصلاحِ أحدٍ مِنَ العبادِ، وهذا خِلافُ ما مَدَحَ اللهُ تعالى نَفْسَهُ بِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: فمنكُمْ مَنْ يَدينُ بِدينِ الكُفْرِ، ومنكم مَنْ يَدينُ بِدينِ الإيمانِ. ودَلَّ هذا على أنَّ المَعْصِيَةَ والطاعةَ يَجْتَمِعانِ في دينٍ واحدٍ، وأنَّ المَعْصِيَةَ [لا تُخرِجُهُ مِنْ دينِهِ، لأنَّ المَعْصِيَةَ](٨) لم يَرْتَكِبْها تَدَيُّناً بها ولكنْ لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ أو غَضَبٍ عليهِ.

وأمّا الكُفْرُ والإيمانُ فإنهُ يأتي بهما المَرْءُ اخْتِياراً، ويَتَدَيَّنُ / ٥٧٢ - أ/ بالكُفْرِ والإيمانِ لِما عندَهُ أنهُ حقٌّ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنْ ليسَ بَيْنَ الكُفْرِ والإيمانِ مَنْزِلَةٌ ثالثةٌ، وليسَ كما قالَتِ المعتزلةُ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ بينَ الكُفْرِ والإيمانِ، واللهُ تعالى قَسَّمَ الناسَ نِصْفَيْنِ: فمنهمْ مَنْ خَلَقَهُ كافراً، ومنهمْ مَنْ خَلَقَهُ مؤمناً، ولم يَجْعَلْ في ما بَينَهما مَنْزِلَةً ثالثةً، فلا يَجِبُ أنْ تُجْعَلَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وفيهِ أيضاً وجهٌ لطيفٌ سِوَى ما ذَكَرْنا، وهو أنَّ كلَّ واحدٍ في الدنيا مؤمنٌ وكافرٌ في الحقيقةِ، لأنَّ مَنْ كانَ مؤمناً فهو

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر. (٢) أدرج قبلها في الأصل: وهي. (٣) من م، في الأصل: ذكر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: معناه. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: وهو. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

كافرٌ بالطاغوتِ، ومَنْ كانَ كافراً باللهِ فهو مؤمِنٌ بالطاغوتِ. فإذا كان كذلكَ وَجَبَ أنْ يُبْحثَ عَنْ مَعْنَى قولِهِ: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

ومَعْناهُ عندَنا أنَّ الحقيقةَ، وإنْ كانَتْ كذلكَ، فالإيمانُ إذا ذُكِرَ مُطْلَقاً لم يُفْهَمْ منهُ [إلّا][1] الإيمانُ باللهِ تعالى، والكُفْرَ إذا أُطْلِقَ أيضاً لم يُفْهَمْ منهُ إلّا الكُفْرَ باللهِ تعالى. وإذا كانَ كذلكَ جازَ أنْ يكونَ لَفْظُ الكتابِ خارجاً على ما عليهِ المَعْهودُ مِنَ المُتعارَفِ المُعْتادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في الأزلِ بما يَعْمَلُهُ العِبادُ، وإنهُ ليسَ كما قالَ بعضُ الناسِ: إنهُ[2] لا يَعْلَمُ فِعْلَ العبدِ إلّا وقتَ فِعْلِهِ، واحتَجُّوا في ذلكَ أنّا لو قُلْنا: إنّ اللهَ تعالى بَصيرٌ في الأزلِ بما يَفْعَلُهُ لكانَ قولاً بما لا يَسْتقيمُ في المَعْقولِ. ألَا تَرَى أنا لا نَرَى في الشاهدِ مَنْ بَنَى بناءً، يَعْلَمُ أنهُ يَضُرُّهُ، أو يَشْتَري عبداً، يَعْلَمُ أنهُ يعادِيهِ؟ فكذا لا يَسْتَقيمُ أنْ يُقالَ: إنّ اللهَ خَلَقَ عبداً، قد كانَ يَعْلَمُ مِنْ قَبْلُ أنهُ إذا خَلَقَهُ عاداهُ.

والجوابُ عنْ هذا الذي وصَفَهُ غَيرُ مُستَقيمٍ في الشاهدِ لأنَّ مَنافِعَ ما يَفْعَلُهُ العِبادُ ومَضارَّهُمْ تَرْجِعُ إلى أنفسِهِمْ، وليسَ مِنَ العَقْلِ أنْ يَفْعَلَ المرءُ فِعْلاً، يَعْلَمُ أنهُ يَضُرُّهُ.

وأمّا ربُّ العالمينَ فإنهُ لا يَرْجِعُ شيءٌ مِنَ المَنافِعِ والمَضارِّ إليهِ، فجازَ أنْ يَخْلُقَ خَلْقاً، يَعْلَمُ أنهُ يَخْتارُ عَداوَتَهُ لِيَظْهَرَ عندَ الخَلْقِ أنهُ لا يَرْجِعُ شيءٌ مِنَ المَنافِعِ والمَضارِّ إليه بَعْدَ أنْ يكونَ في الحِكْمةِ ذلكَ، والله أعلَمُ.

ثم في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥ و . . . .] [وقولِهِ][3]: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣ و . . .] [وقولِهِ][4]: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢ و . . .] [وقولِهِ][5]: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبإ: ٢١ و . . .] إلزامُ المراقبةِ والتَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ وبَيانُ التَّرْغيبِ والتَّرْهيبِ، لأنهُ إذا عَلِمَ المَرْءُ أنَّ عليهِ في كلِّ ما يَفْعَلُهُ رقيباً[6] يَتَيَقَّظُ، ولا[7] يَفْعَلُ إلّا ما يَرْضَى بِهِ ربُّهُ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قد وَصَفْنا أنَّ الحَقَّ إذا جَرَى ذِكْرُهُ، يُصْرَفُ في كلِّ شيءٍ إلى [ما][8] هو الَّيَقُ بهِ، فإذا ذُكِرَ في الأخبارِ أُريدَ [بِهِ][9] الصِّدْقُ، وإذا ذُكِرَ في الأحكامِ أُريدَ بِهِ العَدْلُ، وإذا ذُكِرَ في الأقوالِ أُريدَ بِهِ الإصابةُ.

فلمّا قالَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ههنا أرادَ[10] بِهِ الحِكْمةَ؛ كأنهُ يقولُ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بالحِكْمةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَعْني للحقِّ، وهو البَعْثُ، فَكأنهمْ عَنَوا بِهِ أنَّ اللهَ تعالى لم يَخْلُقْها عَبَثاً، بل [خَلَقَها للمَعادِ][11].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما: أحْسَنَ أي أتْقَنَ، وأحْكَمَ، ومَعْنَى ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى خَصَّ صُوَرَ بَني آدمَ في الِاسْتِدْلالِ بِوَحدانِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ في أنْ جَعَلَ في أنفسِهِمْ حَقيقةَ المَعْرِفةِ والِاسْتِدْلالَ بأنفسِهِمْ على وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى.

وأمّا غَيرُهُمْ مِنَ الصُّوَرِ فإنما يَقَعُ الِاسْتِدْلالُ لِغَيرِها بها، ليسَ لنفسِ تلكَ الصُّوَرِ حَقيقةُ المَعْرفةِ والِاسْتِدْلالُ بِوَحدانيَّةِ. ولِذلكَ كانَ خَلْقُ صُوَرِ بَني آدمَ أتْقَنَ وأحْكَمَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يُصْرَفَ الحُسْنُ إلى حُسْنِ المَنْظَرِ؛ ومَعْنَى ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ بَني آدمَ على صورةٍ، لا بُدَّ مِنْ أنْ تكونَ صُورَتُهُمْ مِثْلَ صورةِ غَيرِهِمْ مِنَ الخَلائِقِ، فَثَبَتَ أنَّ صورَتَهُمْ في المَنْظَرِ أحْسَنُ صورةٍ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إن. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: رقيب. (٧) في الأصل وم: ولم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: فكان. (١١) في الأصل وم: خلق للعباد.

فذلكَ مَعنى قولِهِ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يَعني البَعثَ. وأضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لأنهُ هو النهايةُ والمَقصودُ في خَلْقِهِم.

ولمّا لم يَفهَمْ أحدٌ مِنْ قولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ مَعنى الانْتِقالِ والتَّحَوُّلِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، مِنْ حيثُ أنهُ يضافُ إلى اللهِ تعالى، لأنَّ هذا فِعْلٌ يكونُ باثْنَينِ، فإنَّ مَنْ صارَ إلى شيءٍ صارَ ذلكَ إليهِ مِثْلَ المُلاقاةِ والإتيانِ ونَحْوَ ذلكَ، فلمّا لم يُفْهَمْ منهُ الانْتِقالُ لم يَنْبَغِ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] مَعنى الانْتِقالِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ في إخبارِهِ عنْ عِلْمِهِ بذلكَ كلِّهِ إيجابُ المُراقبةِ والتَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ والمُحافظةِ على ما أمَرَهُ اللهُ تعالى، ونَهاهُ. وفي هذا إخبارٌ أنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على ما تُضمِرونَ مُخفٍ عليكُمْ جميعَ ما تُظْهِرونَ، فاحْذَروا أنْ تَرْتكبوا ما فيه سُخْطُهُ في الحالَينِ جميعاً، واللهُ المُستَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: أي بِما في الصُّدورِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ بالأنفسِ التي لها الصُّدورُ، وكلُّ مَنْ كانَ ذا فِكْرِهُ وتدبيرِهُ[1] فإنهُ يُسَمّى [مِنْ][2] ذاتِ الصُّدورِ.

ومَعناهُ أنَّ التّدبيرَ إنما يَصْدُرُ عنْ ذلكَ الموضعِ، ويَرْجِعُ إليهِ، وكلُّ بَني آدمَ خُصّوا بهذا المَعنى. فلِذلكَ ذُكِرَ هذا فيهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فَتَأويلُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أي قد أتاكُمْ نَبَأُ الذينَ كَفروا مِنْ قَبْلُ وما نَزَلَ بهِمْ حينَ كَفَروا، وعانَدوا. ومَعنى ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد حَذَّرَهُمْ بما يكونُ في الآخِرةِ مِنَ ألوانِ العذابِ، فلم يَتَّعِظوا لِما لم يكونوا يُؤمنونَ بالبَعْثِ. فلمّا لم يَنْجَعْ فيهِمْ ذلكَ حَذَّرَهُمْ بِعُقوباتٍ تَنْزِلُ بهِمْ لو لم يَنْتَهوا عمّا هُمْ فيهِ مِنَ الطُّغيانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [أي شِدَّةَ أمْرِهِمْ][3] ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عاقبةَ أمْرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيهِ إخبارٌ أنَّ ما نَزَلَ بهِمْ مِنَ العذابِ في الدنيا، لم يُكَفِّرْ عنهمْ ذنبَ الكُفْرِ، وأنَّ عذابَ الدنيا إنما كانَ جَزاءَ شِرْكِهِمْ[4] في الكُفْرِ، وأنهُ يُعَذِّبُهُمْ في الآخِرَةِ عذابَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ فكأنهُ يريدُ بقولِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي تلكَ العقوباتُ التي نَزَلَتْ بالأُمَمِ الماضيةِ إنما كانَ سَبَبُها أنَّ رسُلَهُمْ ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ وكانَ قولُهُمْ: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ تَلْقِينَ إبليسَ حينَ[5] لَقَّنَهُمْ مُخالفةَ الرسولِ وتَكذيبَهُ، وأنكُمْ لوِ احْتَجْتُمْ إلى طاعتِهِ فَفيكُمْ مَنْ هو أعظمُ ففيكُمْ مَنْ هو أعظَمُ منهُ درجةً وأكْبَرُ مَنْزِلَةً.

فإذا لم تُطيعوهُ، فيكفَ تُطيعونَ بَشراً مثلَكُمْ؟ وهذا كلُّهُ عِنادٌ وخَطَأٌ؛ وذلكَ أنهمْ قد كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ تقليداً منهُمُ البَشَرَ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾؟ [الزخرف: ٢٣].

ومَعْلومٌ أنَّ جَعْلَ الصَّنَمِ[6] معبوداً بقولِهِ: ﴿أَبَشَرٌ﴾ تَقليداً لهُ أكْبَرُ وأعظَمُ مِنْ تَصْديقِ البَشَرِ أنهُ رسولٌ مِنْ عندِ اللهِ عندَ قيامِ الدليلِ المُعْجِزِ.

فإذا اسْتَجازوا تَقْليدَ البَشَرِ في ذلكَ، فكيفَ لا اسْتَجازوا تَصْديقَ الرسولِ في ما يَدْعوهُمْ إلى تَرْشيدِ اللهِ وطاعتِهِ في ما يَرْجِعُ إليهِمْ مِنَ المَنافعِ والمَضارِّ؟ ولكنهمْ كانوا قوماً سُفَهاءَ، فاتَّبَعوا سَفَهَهُمْ وعِنادَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ قولُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠ و...] وكيفَ يكونُ سِحراً، وقد آتاهُمْ بآياتٍ أعْجَزَتْهُمْ، وأعْجَزَتِ السَّحَرَةَ أنْ يأتوا بِمِثْلِها؟ ولكنهُمْ عانَدوا، فلم يَجِدوا حيلةً سِوَى أنْ قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: شرهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: الأصنام.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ/ ٥٧٢ ـ ب/ وَتَوَلَّواْ﴾ أي كَفَروا بالرسلِ ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ أعْرَضوا عنْ طاعةِ رسولِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ لم يُسْمَعْ مِنَ أحدٍ مِنَ المُتَكَلِّمينَ، يقولُ: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ على الابْتِداءِ إلّا ما ذَكَرَ في ظاهرِ هذهِ الآيةِ.

والقولُ في الاسْتِغْناءِ في ما يُريدُ بِهِ الإخبارَ جائزٌ نَحْوُ قولِكَ: اللهُ مُسْتَغْنٍ، فأمّا أنْ تَبْتَدِئَ، فتقولَ: اسْتَغْنَى اللهُ في ما فيهِ شَكٌّ وريْبٌ فإنَّهُ[1] لا يجوزُ البِدايةُ بِهِ.

وقد غَلِطَ بعضُ المفسِّرينَ حينَ[2] قالوا: اسْتَغْنَى اللهُ بطاعةِ مَنْ أطاعَهُ عَنْ مَعْصِيَةِ مَنْ عَصاهُ، لأنَّ اللهَ تعالى لم يَمْتَحِنْ عبادَهُ بالطاعةِ والمَعْصِيةِ لِمَنافِعَ يَأمُلُها، أو مَضَرَّةٍ، يَخْشاها، ويَخافُها، بل هو مُسْتَغْنٍ بذاتِهِ عنْ ذلكَ مِنَ الأزَلِ، واللهُ أعلَمُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ في هذا الإضمارُ؛ يعني: واسْتَغْنَى الرسولُ عن طاعتِهِمْ باللهِ تعالى، أو يُصْرَفَ الاسْتِغْناءُ إلى الإخبارِ عنْ ذاتِهِ أنهُ مُسْتَغْنٍ بذاتِهِ في الأزلِ، لا تَمَسُّهُ حاجةٌ، وأنهُ لا يَنْصُرُهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، ولا يَنْفَعُهُ إيمانُ مَنْ آمَنَ، بل إنما يَحْصُلُ ذلكَ كلُّهُ لِلْمُمْتَحَنِ بهما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ قد وَصَفْنا مَعْنَى الغَنِيِّ. وأمّا الحميدُ فَيَحْتَمِلُ[3] وجْهَينِ:

أحَدُهما: يعني المحمودَ أي المُسْتَحِقَّ لِلْحَمْدِ بذاتِهِ؛ إذْ يَسْتَحِقُّ كلُّ أحدٍ الحَمْدَ على ما يُحْسِنُ[4].

[والثاني][5]: يَحْتَمِلُ مَعْنَى الحميدِ مَعْنَى[6] الحامدِ؛ وَوَجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى يَحْمَدُ محاسِنَ الخَلْقِ وآثارَ أفعالِهِمْ، وأنَّ حقيقةَ تلكَ الأفعالِ مِنْ جهةِ التَّوفيقِ والتَّسْديدِ إنما كانَتْ بِهِ، وذلكَ غايةُ [الكرمِ][7].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ قولُهُ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ هذا تعليماً لِرسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُعَلِّمَهُ القَسَمَ تأكيداً لِما كانَ يُخْبِرُ عنِ البَعْثِ، وكذلكَ جميعُ ما ذَكَرَ مِنَ القَسَمِ في القرآنِ يجوزُ أنْ يكونَ على هذا المَعْنَى، لأنَّ القَسَمَ إنما يكونُ لِنَفْيِ تُهَمَةٍ تَمَكَّنَتْ، واللهُ تعالى لا يُتَّهَمُ في خَبَرِهِ، والرسولُ، هو الذي كانوا يَتَّهِمونَهُ[8] في ما يُخْبِرُ لِما لم تَثْبُتْ عندَهُمْ رسالَتُهُ لِعَدَمِ تأمُّلِهِمْ في دلائِلِهِ. فَعَلَّمَهُ القَسَمَ تأكيداً لِما يُخْبِرُ، ونَفْياً لِلتُّهَمَةِ عمّا يقولُ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: أنهُ][9] يجوزُ أنْ يكونَ هذا قَسَماً مُقابِلاً لِما أقْسَمَ بِهِ الكَفَرَةُ في أمْرِ البَعْثِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ أمْرَ البَعْثِ على اللهِ يَسيرٌ هَيِّنٌ، لأنهمْ أنْكَروا البَعْثَ بعدَ ما صاروا تُراباً، وأخْبَرَ أنَّ بَعْثَهُمْ وإعادَتَهُمْ بَعْدَ أنْ صاروا تُراباً، فأخْبَرَ، جَلَّ، وعلا، أنَّ ذلكَ على اللهِ يَسيرٌ.

والوجهُ الثاني: مِنَ التأويلِ: أنْ يَذْكُرَ ما عَمِلوا مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ، وأحْصَى[10] عليهِمْ كلَّ سِرٍّ وعَلانِيَةٍ وكلَّ صغيرٍ وكبيرٍ لِيُعايِنوا ذلكَ في كُتُبِهِمْ، ويَعْلَموا تَحقيقَها ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ ما نَزَلَ مِنَ العقوبةِ بالأُمَمِ الماضيةِ، وأنَّ ذلكَ إنما نَزَلَ بهمْ لِكُفْرِهِمْ باللهِ تعالى وتكذيبِهِمُ الرسُلَ، فآمِنوا أنتمْ باللهِ ورسولِهِ لئلا يَنْزِلَ بكمْ ما نَزَلَ بهِمْ مِنَ البَأسِ والعُقوبةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: إليه. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج قبلها في الأصل: لا. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: وأحصاه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [النورُ هو][١] القرآنُ، ويجوزُ أنْ يكونَ سَمّاهُ نوراً لأنهُ يُبْصَرُ [بهِ][٢] حقيقةُ المذاهبِ في الطاعةِ والمعصيةِ والإحسانِ والإساءةِ والإيمانِ والكُفرِ كما يُبْصَرُ بنورِ النهارِ حقيقةُ الأشياءِ مِنْ جَيِّدِها ورَدِيِّها، كذلكَ يُبْصَرُ بهذا مَنافعُ الطاعةِ ومَضارُّ المَعْصِيَةِ، فَسَمّاهُ[٣] نوراً مِنْ هذا الوجْهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تُسِرّونَ وما تُعْلِنونَ، فَراقِبوهُ، وحافِظوهُ في الحالَيْنِ جميعاً.

وفي هذا بيانٌ أنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بما يَعْمَلُهُ العبادُ مِنَ الأزلِ وبما يكونُ منهمْ، وأنهُ ليسَ كما وَصَفَهُ بعضُ الجُهّالِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٩: وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [ذلكَ اليومُ][٤] في الحقيقةِ يومُ جَمْعٍ وتفريقٍ[٥]، وهو أيضاً في الحَقيقةِ يومُ تَغابُنٍ وتَرابُحٍ، وإنْ ذَكَرَ أحدَهما: [دليلُ][٦] ذلكَ ما ذُكِرَ في غَيرِها مِنَ الآياتِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾؟ [الشورى: ٧] وإلى ما ذُكِرَ في عَقيبِ قولِهِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [وهو][٧] قولُهُ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهذا هو مَعْنَى التَّرابُحِ، ولكنهُ، جَلَّ ثَناؤُهُ، يجوزُ أنهُ اكْتَفَى بِذِكْرِ أحَدِهما عنِ الآخَرِ. ثم الغَبْنُ يُذْكَرُ في التِّجاراتِ.

والأصلُ في ذلكَ عندَنا أنَّ كلَّ سليمِ طَبْعُهُ، لا يَخْلُو مِنْ عَمَلٍ، وعَمَلُهُ لا يَخْلُو مِنْ إحدَى ثلاثةِ أوجُهٍ: إمّا أن يكونَ في مُباحٍ [وإمّا][٨] أمْرٍ [وإما][٩] نَهْيٍ.

ومَعْلومٌ أنَّ مِنِ اسْتَعْمَلَ المُباحَ فهو يَسْتَعينُ بهِ في إقامةِ الأمرِ؛ إذْ لا بُدَّ مِنَ البَقاءِ لإقامةِ الأمرِ، وذلكَ باسْتِعْمالِ المُباحِ والاشْتِغالِ بأسبابِهِ، فكأنهُ في إقامةِ ذلكَ الأمرِ، فَحقيقتُهُ تَرْجِعُ إلى [أنَّ][١٠] الأعمالَ في الحَقيقةِ تَنْصَرِفُ إلى نوعَينِ: إلى أمرٍ ونَهْيٍ.

ومَعْلومٌ أنَّ مَنْ كانَ في أمْرٍ فهو تارِكٌ لِما نُهِيَ عنهُ، ومَنْ كانَ في نَهْيٍ فهو تارِكٌ لِما أُمِرَ بهِ.

والتجارةُ في الحقيقةِ هي أنْ [يُؤْخَذَ شيءٌ][١١] بِتَرْكِ شيءٍ آخَرَ. وإذا تَحَقَّقَ مَعْنَى التجارةِ في أعمالِ بَني آدمَ أُطْلِقَ لها لَفْظُ التجارةِ.

قالَ: والدنيا لها ثلاثةُ أسماءٍ: المَتْجَرُ، والمَزْرَعُ، والمَسْلَكُ. وقد وصَفْنا مَعْنَى التجارةِ.

وأمّا مَعْنَى المَزْرَعِ فَلأجْلِ أنَّ كلَّ مَنْ يَعْمَلُ في الدنيا فإنما يَعْمَلُ لِعاقبةٍ، ولا بُدَّ أنْ تكونَ عاقبتُهُ خيراً أو شَرّاً؛ فكلُّ مَنْ كانَتْ عاقبتُهُ الخَيرَ فهو زارعٌ للخَيرِ، ومَنْ كانَتْ عاقبتُهُ الشَّرَّ [فهو زارعٌ للشَّرِّ][١٢] واللهُ أعلَمُ.

وأمّا مَعْنَى المَسْلَكِ والطريقِ فَلأجْلِ أنَّ الخَلْقَ لم يُخْلَقوا في هذهِ الدنيا لِيَقِرُّوا فيها، وإنما خُلِقوا لأحَدِ أمْرَيْنِ: إمّا لِلثوابِ [وإمّا][١٣] لِلْعِقابِ؛ فكلُّ مَنْ عَمِلَ عملاً، يُفْضي بهِ إلى الثوابِ والجنةِ [فكأنهُ يَسْلُكُ طريقَ الجنةِ][١٤] وكلُّ مَنْ عَمِلَ عملاً يُفْضي بهِ إلى النارِ فكأنهُ يَسْلُكُ طريقَ النارِ، ولِذلكَ سُمِّيَتْ[١٥] مَسْلَكاً وطريقاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم التَّغابُنُ عندَنا يجوزُ أنْ يكونَ مَعْناهُ أنَّ أهلَ الكُفرِ يُغْبَنونَ في أهْلِيهِمْ وأموالِهِمْ في الآخِرةِ، لأنهمْ كانوا يَتَعاوَنونَ بهمْ في الدنيا، فَحَسِبوا أنهمْ يكونونَ كذلكَ في الآخِرةِ. فإذا لم يَجِدوا، وصارَ[١٦] بعضُهُمْ يَلْعَنُ بعضاً، غَبَنوا ما كانوا يَأمُلونَ منهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ لكلِّ كافرٍ في الجنةِ قصراً وبَيتاً وأهلاً، فإذا صاروا إلى النارِ وَرِثَ المؤمِنُ أهلَهُ وقَصْرَهُ الذي كانَ لهُ في الجنةِ، فهذا هو التَّغابُنُ

---

(١) من م، في الأصل: التوراة و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فسمى. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والفريق. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: من. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: يأخذ شيئاً. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: سمي. (١٦) في الأصل وم: وصاروا.

ولكنَّ هذا غيرُ صحيحٍ عندنا لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَبْنِيَ اللهُ تعالى للكافِرِ في الجنةِ بيتاً مع عِلْمِهِ أنهُ لا يأتيهِ، لأنَّ هذا فِعْلُ مَنْ لا يَعْلَمُ العَواقِبَ ومَنْ هو عابثٌ في فِعْلِهِ، جَلَّ اللهُ تعالى عن مِثْلِ هذا الوصفِ، إلا أنْ يُحْمَلَ على الوعْدِ إنْ ثَبَتَ الخَبَرُ، أي إنْ أسلَمَ الكافرُ كانَ لهُ ذلكَ المَنْزِلُ في الجنةِ. وإنِ ارْتَدَّ المُسْلِمُ عنِ الإسلامِ كانَ لهُ ذلكَ المَنْزِلُ في النارِ، وهو عالمٌ أنَّ عاقبةَ أمْرِهِ إزاءَ[1] الكُفْرِ أو الإسلامِ وأنَّ مأواهُ النارُ أوِ الجنةُ، وحُكْمُهُ على ما عَلِمَ، وأرادَ.

ولكنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بما كانَ وما يكونُ وبما لا يكونُ: أي لو كانَ، أي لو كانَ كيفَ يكونُ، فأخبَرَ على ذلكَ، وإلّا لم يَصِحَّ لِما ذَكَرْنا مِنَ المَعْنَى، واللهُ الموفِّقُ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ إنما سَمّاهُ يومَ التَّغابُنِ لأنَّ الدنيا جُعِلَتْ أسواقاً، والأحوالَ التي تكونُ لهمْ رُؤوسَ الأموالِ، والأعمالَ التي يَعْملونَ فيها، ويَكْتَسِبونَ، تجارةً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] ثم قالَ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الصف: ١١] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآية [التوبة: ١١١] وقالَ [في موضِعَينِ آخرَينِ][2] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦ و١٧٥] وقالَ [في آيةٍ أُخرَى][3]: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦].

فإذا كانَتِ الدنيا مَتْجَرَةً، والآخِرَةُ هي التي تُقْسَمُ فيها الأرباحُ، ففي[4] ذلكَ يَقَعُ الربحُ / ٥٧٣ ـ أ/ [والخُسْرانُ، ويَظْهَرُ الغَبْنُ والفَضْلُ والنُّقْصانُ والزِّيادةُ، واللهُ أعلَمُ.

وسَمّاهُ يومَ التَّغابُنِ لِما يَظْهَرُ لهمْ في ذلكَ أنهمْ خَسِروا، أو رَبِحوا، فلا يَظْهَرُ لهمْ ذلكَ في الدنيا، ثم بَيَّنَ العَمَلَ الذي يُرْبِحُ][5] عليهِ والعَمَلَ الذي يُخْسَرُ بهِ والتجارةَ التي يُوصَلُ بها إلى الأرباحِ والتي يَلْحَقُ بها الخُسْرانُ، وهو ما قالَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآيـة، وقـالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآية [المائدة: ١٠ و... والتغابن: ١٠].

وقولُهُ تعالى: تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يَعْني ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [على ما جاءَتْ][6] بهِ الرسلُ وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ، ويُؤْمِنُ بالرسلِ والبَعْثِ، فذلكَ هو الإيمانُ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يَعْني ويَعْمَلُ في إيمانِهِ صالحاً إلى أنْ يموتَ[7].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآية؛ يَعْني كَفَروا بوَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى وبِقُدْرتِهِ، وكَذَّبوا بآياتِهِ أي بحُجَجِهِ، أو كَذَّبوا بالبَعْثِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يَعْني بأمْرِ اللهِ، وهو قولُ الحَسَنِ. وقالَ بعضُهُم: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني بِعِلْمِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني بِمَشيئةِ اللهِ. ولكلٍّ مِنْ ذلكَ وجْهٌ.

فأمّا مَنْ قالَ: بأمْرِ اللهِ، فَمَعناهُ وحُجَّتُهُ أنَّ هذهِ المصائبَ كلَّها عُقوباتٌ. ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؟ [الشورى: ٣٠].

ومَعْلومٌ أنَّ جزاءَ ما كَسَبَتْ يدُهُ عُقوبةٌ لهُ؛ والتَّعْذيبُ والعُقوبةُ إنما يكونُ بأمْرِ اللهِ، فلذلكَ قالَ: مَعْنَى قولِهِ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمْرِ اللهِ.

ولكنْ عندَنا هذا يَرْجِعُ إلى ما يُصيبُهُمْ مِنْ أيدي الخَلْقِ كقولِهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ٥٢] ونَحْوُ ذلكَ، وهذهِ المَصائبُ لا تَحْتَمِلُ الأمْرَ مِنَ اللهِ تعالى.

ومَنْ قالَ: بِعِلْمِ اللهِ فوجْهُ ذلكَ أنَّ هذهِ المَصائبَ فيها إهلاكُ العبيدِ، وفي الشاهدِ أنهُ لا يُحِبُّ أحدٌ أنْ يَعْلَمَ بما فيهِ

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بماذا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ويعمل صالحا وت. (٧) من م، في الأصل: يكون.

هلاكُ عَبيدِهِ وخَدَمِهِ، فأخبَرَ ﷻ أنَّ هذهِ المَصائبَ، وإن كانَ فيها[1] هلاكُ عَبيدِهِ، فإنما يكونُ ذلكَ بِعِلْمِهِ، وأنَّ هلاكَهُمْ، لا يَضُرُّهُ، ولا يُنْقِصُ مُلْكَهُ، لأنَّ اللهَ ﷻ أنْشأَ ما أنْشأَ مِنَ الخَلائقِ لحاجةٍ لهمْ ولِمَنْفَعةٍ تَرْجِعُ إليهِمْ ومَضَرَّةٍ تَلْحَقُهُمْ. فَحُلولُ ما يَحُلُّ بهمْ مِنَ المَصائبِ لا يَضُرُّهُ، ولا يَنْفَعُهُ، لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

ومَنْ قالَ: بِمَشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ فوجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ، وأوعَدَ، ولا مَحالةَ، يريدُ مِنْ عَبيدِهِ ما يكونُ بِوَعيدِهِ عادلاً، وأنْ يَضَعَ وَعْدَهُ مَوضِعَهُ. وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنهُ يريدُ مِنْ كلِّ أحدٍ ما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهُ، لأنهُ إذا خَلَقَ النارَ، وأوعَدَ عليها، فلو أرادَ مِنْ كلِّ منهمُ الطاعةَ لَكانَ إذا أحْرَقَ بالنارِ أحْرَقَ مَنْ أرادَ منهُ الطاعةَ، فدخَلَ في حدِّ الجَورِ، ولو كانَ يريدُ مِنْ كلِّ منهمُ المَعْصِيَةَ لَكانَ إذا أنْجزَ وعْدَهُ، وأدْخلَهُ الجنةَ، كانَ يَضَعُ ثوابَهُ في غَيرِ مَوضِعِهِ، ويَخرُجُ عنْ حَدِّ الحِكْمةِ، وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنهُ أرادَ مِنْ كلِّ ما عَلِمَ أنهُ يَخْتارُهُ، ويكونُ منهُ، لِيَخرُجَ فِعْلُهُ عنِ الحِكْمةِ، واللهُ الموفِّقُ.

ونحنُ نقولُ: قد ذَكَرَ اللهُ تعالى الإذْنَ في مَواضِعَ مُخْتَلِفةٍ، ولكلٍّ مِنْ ذلكَ وَجْهٌ غيرُ وَجْهِ صاحِبِهِ، فالواجِبُ أنْ يُصْرَفَ في كلِّ مَوضِعٍ إلى ما يَليقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما][2] قالَ أبو بكرٍ: أي مَنْ آمَنَ بِما شاهَدَ مِنَ التَّدْبيرِ يَهْدِهِ اللهُ تعالى لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ دَبَّرَ هذا التَّدْبيرَ هو الذي ابْتَلاهُ بهذهِ المصيبةِ.

[والثاني][3]: يجوزُ أنْ يكونَ تأويلُهُ على وجهٍ آخَرَ، وهو أنْ يقولَ: مَنْ يؤمِنْ باللهِ أنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ يَهْدِ قَلْبَهُ لِيَسْكُنَ، ويَعْلَمَ أنَّ اللهَ أولى بهِ، فَيَسْتَرْجِعَ عندَ ذلكَ. وذلكَ تأويلُ مَنْ قَرَأ: يَهْدَأ قَلْبُهُ[4]، أي يَسْكُنُ، مِنَ الهَدْءِ، وهو السكونُ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ[5]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِنَ[6] الهدايةِ، وإنْ خَرَجَتْ على لَفْظِ الإحداثِ [فليسَ على الإحداثِ][7] ولكنَّ مَعْناهُ: أنَّ إيمانَهُ [باللهِ تعالى إنما كانَ بِهدايةٍ منهُ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ الإيمانُ][8] مُتقدِّماً والهدايةُ مُتأخِّرةً. ولكنْ حينَ هداهُ آمَنَ بِما هداهُ، وهذا على ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فهذا خَرَجَ في الظاهرِ على لَفْظِ [الهدايةِ][9] ولكنهُ في الحقيقةِ ليسَ عليهِ، ولكنْ على مَعْنَى أنهمْ لمّا آمَنوا أخْرَجَهُمْ بالإيمانِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النورِ بعدَ الإيمانِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ][10]: يجوزُ أنْ يكونَ تأويلُهُ أنَّ اللهَ تعالى يَهْدي قلبَهُ، أي يتوبُ عليهِ مِنَ الزَّلاتِ عندَ الموتِ على ما قالَ تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

وقيلَ: فيه لغاتٌ أربَعَةٌ: بِنَصْبِ الياءِ والباءِ جميعاً: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ويُهْدَ قَلْبُهُ: بِرَفْعِ الياءِ والباءِ، ونَهْدِ قَلْبَهُ، أي يَهْتَدِ، ويَهْدأ قلبُهُ مِنَ السُّكونِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأصلُ في الأسماءِ المُشْتَرَكةِ إذا أضيفَ شيءٌ منها إلى اللهِ تعالى فَحَقُّ التَّخْصيصِ في الإضافةِ إليهِ أنْ يُضافَ بِحَقِّ الكُلِّيّاتِ ليكونَ فَرْقاً بينَهُ وبينَ العِبادِ، فيقالُ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ويقالُ في الخَلْقِ: فلانٌ عليمٌ بكذا على الخُصوصِ، ولِيُعْلَمَ أنَّ العَبيدَ إنما يَعْلَمونَ بِعِلْمِهِ. وكذلكَ[11] في قولِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وهذا على المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ ﷻ ليسَ بقديرٍ على كثيرٍ مِنَ الأشياءِ، فكأنهمْ أشْرَكوا في اسْمِ القدرةِ غيرَهُ لأنهُ لا أحَدَ مِنَ الخَلْقِ إلّا ولَهُ جُزْءٌ مِنَ القُدْرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: فيه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٦١. (٥) في الأصل وم: والثاني. (٦) في الأصل وم: هذه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: هذا.

فلو قُلنا: إنَّ اللهَ تعالى يَقْدِرُ على بعضٍ، ولا يَقْدِرُ على بعضٍ، لَسَوَّينا بَينَهُ وبَينَ خَلْقِهِ، وشَبَّهْناهُ بهِمْ، وجَلَّ اللهُ ﷻ عن مِثْلِ هذا الوصفِ، واللهُ المُستعانُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني أطيعوا اللهَ في ما تَعَبَّدَكُمْ، وأطيعوا الرسولَ في ما أخْبَرَ عنْهُ، أو أطيعوا اللهَ في ما أمَرَكُمْ، وأطيعوا الرسولَ في ما دَعاكُمْ إليهِ، وهذا كلُّهُ واحدٌ إلّا التَّعَبُّدَ فإنَّهُ لا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى الرسولِ، وما سِواهُ مِنَ الأمْرِ والدعاءِ والإخبارِ فهو جائزٌ أنْ يُضافَ إليهِ ﷻ وإلى الرسولِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يَعْني تَوَلَّيْتُمْ عنْ إجابةِ الرسولِ إلى ما دعاكُمْ إليهِ وعَنْ طاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فيهِ بَيانُ أنَّ تَوَلِّيَهُمْ عنْ إجابتِكُمْ وكُفْرَهُمْ بهِ لا يُوجِبُ تَقْصيراً في التَّبليغِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [التغابن: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ [الآية: ٢] وقولِهِ تعالى: [(١)] ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [الآية: ٤].

ثم قولُهُ(٢) تعالى: ﴿اللَّهُ﴾ الذي لهُ الأوصافُ التي تَقَدَّمَتْ هو الذي ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا مَعْبُودَ إلّا هو، وأنَّ مَعْبودَهُمْ ليسَ يجوزُ أنْ يكونَ مَعْبوداً لِتَعَرِّيهِ عنْ هذهِ الأوصافِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيهِ بَيانُ أنَّ مُعْتَمَدَ المؤمنينَ على اللهِ تعالى، وإنْ قَلَّتْ أعوانُهُمْ وأنصارُهُمْ، وأنهمْ لَيسوا كالمُنافقينَ والكَفَرَةِ حينَ(٣) تَرَكوا اتِّباعَ المؤمنينَ لِما رَأَوا مِنْ قِلَّةِ الاتباعِ والأعوانِ لهمْ.

وأخْبَرَ أنَّ المؤمنينَ بِخِلافِ تلكَ الصفةِ، وأنَّ ثِقَتَهُمْ واعْتِمادَهُمْ على اللهِ تعالى [ليسَ على](٤) كَثْرَةِ الأنصارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على تَحقيقِ العَداوَةِ [ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على فِعْلِ العَداوَةِ. فإنْ كانَ على تَحقيقِ العَداوَةِ](٥) فهو يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: عَداوَةٌ ظاهرةٌ، وهي عَداوَةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ؛ وذلكَ أنهُ كانَ في ذلكَ الزمانِ يُسْلِمُ الرجلُ، ويَبْقى وَلَدُهُ وزَوجَتُهُ على الكُفْرِ، فَعَلَّمَهُمُ اللهُ تعالى صُحْبَةَ الأولادِ والزوجاتِ أنهمْ(٦) إذا دَعَوكُمْ إلى الكُفْرِ والشِّرْكِ فاحْذَروهُمْ أنْ تُطيعوهُمْ ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عنْ عُقوبَتِهِمْ على ما دَعَوكُمْ إليهِ ﴿وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم ذَكَرَ اللهُ ﷻ في صُحْبَةِ الأولادِ والزَّوجاتِ، إذا كانوا كُفّاراً، العَفْوَ والصَّفْحَ، ولم يَذْكُرْ ذلكَ في الوالِدَينِ / ٥٧٣ ـ ب/ المُشْرِكَينِ، ولكنهُ أمَرَهُ أنْ يُصاحِبَهُما ﴿فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

فوجْهُ ذلكَ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهُ يُجْري سُلْطانَهُ وغَلَبَتَهُ وقَهْرَهُ على زَوجَتِهِ وَوَلَدِهِ.

فأمَرَهُ ههنا بالعَفْوِ والصَّفْحِ، وأمّا في الوالِدَينِ فليسَ يُجْري لهُ عليهما السلطانَ والقَهْرَ والغَلَبَةَ، فلا مَعْنى للأمْرِ بالعَفْوِ عنهما، لكنهُ أمَرَ أنْ يُصاحِبَهُما ﴿فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وألّا يُطيعَهُما في ما أمَراهُ مِنَ المُنْكَرِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني:](٧) يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ العَداوَةُ عَداوَةً مَسْتورَةً، وهي عَداوَةُ النِّفاقِ، فكأنهُ قالَ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ وأنتمْ لا تَشْعُرونَ ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عَنْ جِنايَتِهِمْ، ولم تُؤذوهُمْ عليها ﴿وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ألا تَرى إلى ما حَذَّرَ اللهُ المؤمنينَ مِنْ أهلِ النِّفاقِ مع أنهمْ مِنَ الضَّعْفِ والفَشَلِ كما أخْبَرَ ﷻ عنهمْ بقولِهِ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ

---

(١) في الأصل وم: و﴿عَلِيمٌ﴾. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أنه. (٧) في الأصل وم: و.

﴿صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾؟ [المنافقون: ٤] فكذلكَ الأزواجُ والأولادُ، وإنْ كانوا تحتَ قَهرِهِ وغَلَبَتِهِ، أمَرَهُ بالحَذَرِ منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على فِعْلِ العَداوةِ، ليسَ أنهمْ أعداءٌ في الحَقيقةِ؛ وذلكَ أنهمْ في المُتعارَفِ والمُعْتادِ يَدْعُونَ الآباءَ إلى البُخْلِ والمَنْعِ عنِ الإنفاقِ على غَيرِهِمْ، ويَشتَدُّ عليهِمْ صُنْعُ أبيهِمْ مِنَ الإحسانِ والبِرِّ في حقِّ الناسِ، ويَكرَهونَ ذلكَ [وهذا][1] في الظاهرِ فِعْلُ العداوةِ[2]، فيجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى عَلَّمَ صُحْبَةَ هؤلاءِ أنَّ ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾ مَنْ يُظْهِرُ فِعْلَ العَداوةِ ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أنْ يَمتَنِعوا عنْ وُجوهِ الإحسانِ والتَّبرُّعِ بقولِهِمْ ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عنْ صَنيعِهِمْ بكُمْ ﴿وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ المَفتونُ، هو المُولَعُ بالشَّيءِ العاشِقُ لهُ، فكأنهُ قالَ: إنما أموالُكُمْ وأولادُكُمْ مَعشوقُكُمْ، فلا يَحمِلْكُمْ حُبُّهُمْ على أنْ تَترُكوا ابْتِغاءَ الأجرِ العظيمِ عندَ اللهِ تعالى.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعناهُ أنَّ اللهَ تعالى لم يَخلُقِ الأزواجَ والأولادَ لكمْ مَجاناً، بل إنما خَلَقَهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ، ويَمتَحِنَكُمْ أنْ كيفَ تُعامِلونَ اللهَ تعالى في ما أمَرَكُمْ بهِ، ونَهاكُمْ عنْ حُبِّهِمْ.

ثم أخبَرَ أنَّ اللهَ ﴿عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لِيَتَحمَّلوا المَؤُنَةَ العظيمةَ في أوامِرِهِ ونَواهيهِ عندَ حُبِّهِمُ الأولادَ والأموالَ. وهذا مَعْنَى ما قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الأزواجَ والأولادَ كانوا يَتَعلَّقونَ بهمْ، ويقولونَ: نُنْشِدُكَ باللهِ ألّا[3] تَذَرَنا، وتُضَيِّعَنا إذا أرادَ الرجلُ أنْ يُهاجِرَ إلى المدينةِ.

والأشْبَهُ ألّا يكونَ هذا، لأنَّ هذهِ الآيةَ نَزَلَتْ بالمدينةِ، وأفعالُهُمْ هذهِ إنما كانَتْ بمكةَ إلّا أنْ يكونوا كَتبوا إليهِمْ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَسَخَتْ هذهِ الآيةُ قولَهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] حينَ[4] أمَرَ هَهنا بالاتِّقاءِ على قَدْرِ الاسْتِطاعةِ، وثَمَّ بِخِلافِهِ.

ولكنَّ هذا لا يَستَقيمُ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ لا يُرادُ بهِ الاتِّقاءُ في ما لا يَستَطيعونَ لا فَوقَ الطاقةِ والاسْتِطاعةِ. لكنهُ إنْ كانَ [فَوَجْهُهُ أنْ][5] ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وإنْ هَلَكَتْ فيهِ طاقَتُكُمْ، لأنهُ أمَرَهُمْ بِتَقْوَى، تَهلِكُ بها[6] طاقَتُهُمْ على ما قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ [النساء: ٦٦] ولو كَتَبَ عليهِمْ أنْ يَقْتُلوا أنفسَهُمْ جازَ، ولكنهُ [أمَرَ أنْ][7] تَهلِكَ طاقَتُهُمْ فيهِ. فكذلكَ الأوَّلُ. ثم قالَ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ تَخفيفاً عليهِمْ وتَيسيراً، واللهُ أعلَمُ.

ولكنَّ الكلامَ في أنْ كيفَ قالَ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يَكُنْ يُتَّقَى لولا هذهِ الآيةُ إلّا ما يُستَطاعُ[8].

ولكنَّ مَعناهُ، واللهُ أعلَمُ، على جِهَةِ البِشارةِ أنكُمْ إذا قَصَدْتُمْ قَصْدَ التَّقْوَى آتاكُمُ اللهُ الاسْتِطاعةَ في تَقْواهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ و٦ و٧].

وهذهِ الآيةُ على المعتزلةِ، لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الاسْتِطاعةَ تَتَقدَّمُ الفِعْلَ، وهي تزولُ عنِ الفاعلِ، وتَتَقدَّمُ على الفِعْلِ. ولو كانَ كذلكَ كانَ يَجعَلُ قولَهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ اسْتِطاعةً، زالَتْ عنهمْ، وكذلكَ قولُهُ، جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣ و...] زالَتْ عنهمْ. وهذا[9] مُستَحيلٌ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: العدو. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فوجهان. (٦) في الأصل وم: به. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: استطعنا. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم.

والذي يُؤيِّدُ قولَنا قولُهُ، جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤] والحاجةُ إلى هذهِ الاستِطاعةِ تَقَعُ عندَ أداءِ البَدَلِ عنِ الأصلِ.

فأمّا قبلَ ذلكَ، إنْ كانَ مُستطيعاً أو غيرَ مُستطيعٍ، فهو سَواءٌ: قولُهُ تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي[1] اسمَعوا إلى ما أمَرَكُمُ اللهُ تعالى بهِ ورسولُهُ، و[2] قولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ بِمَعْنى أجيبوا لِما أمَرَكُمُ اللهُ تعالى بهِ وإلى ما دَعاكُمُ اللهُ ورسولُهُ لِقولِهِ ﷺ[3]: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [أبو داوود ١١٨٠] أي أجابَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي وأنفِقوا ممّا رُزِقْتُمْ [يَكُنْ][4] خيراً لكُمْ مِنْ أنْ تُدْعَوا للإجابةِ لِما أمَرَكُمْ، والإنفاقُ ممّا رَزَقَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ قالَ سُفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: أي ومَنْ يُوقَ ظُلْمَ نفسِهِ، والشُّحُّ: الظُّلْمُ؛ أضافَ الوِقايةَ إلى نفسِهِ لِيُعْلَمَ أنَّ مَنِ اتَّقاهُ فإنما اتَّقاهُ بِما وَقاهُ اللهُ تعالى بِلُطْفِهِ وكَرَمِهِ.

ألا تَرى إلى [قولِهِ تعالى][5]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾؟ [التحريم: ٦] كيفَ علَّمَهُمْ ذلكَ التَّقْوى بقولِهِ: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١ و...] لِيُعْلَمَ أنَّ جميعَ أفعالِ العِبادِ إنما تقومُ، وتَصِحُّ بِتَدْبيرِ اللهِ تعالى وتَوفيقِهِ وتَسْديدِهِ وتَقْديرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيهِ أوجُهٌ مِنَ الدّلالةِ:

أحَدُها: أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ لم يُبَيِّنْ فاعلَهُ، ففيهِ بيانُ أنَّ في سُلْطانِ اللهِ ومُلْكِهِ ما يَقي بهِ شُحَّ عبدِهِ، وأنهُ إذا وَقاهُ شُحَّ نفسِهِ أفْلَحَ. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] إخبارٌ أنَّ مَنْ يَنْصُرْهُ اللهُ فلا يُغْلَبُ.

وقد يُرى في الشاهدِ مَنْ لا يُوقَى شُحَّ نفسِهِ البَتَّةَ، ومَنْ قد يُوقَى شُحَّ نفسِهِ، ولا يُفْلِحُ، ويُرى مَنْ يُجاهدُ أعداءَهُ، فَيُغْلَبُ مع ما وَعَدَهُ، وأخبَرَهُ[6] أنهُ هو الغالبُ وأنهُ لا يُغْلَبُ؛ فلا بُدَّ [في][7] ذلكَ مِنْ أحَدِ وُجوهٍ[8]:

إمّا أنْ لم يكنْ للهِ تعالى النُّصْرَةُ في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ كما ادَّعى فهو كاذبٌ في ما ادَّعى.

وإمّا أنْ آتاهُ مِنَ القُوَّةِ ما يَقي بهِ شُحَّ نفسِهِ، فلمْ يُفْلِحْ، فصارَ كاذباً في خَبَرِهِ.

وإمّا أنْ كانَتِ المعتزلةُ في ما زَعَموا أنَّ اللهَ تعالى، قد آتى عبدَهُ جميعَ ما يَقي بهِ شُحَّ نفسِهِ حتى لم يَبْقَ في خزائنِهِ شيءٌ، يُؤتيهِ لِيَقِيَ بهِ شُحَّ نفسِهِ، كَذَبَةً.

وإذا لم يكنْ بُدٌّ مِنْ نِسْبَةِ الكَذِبِ إلى اللهِ تعالى أو إلى المعتزلةِ كانتِ المعتزلةُ أولَى أن يُنسَبوا إلى الكذبِ مِنْ ربِّ العالَمينَ في ما أخْبَروا، وإنَّ[9] اللهَ تعالى في ما أخْبَرَ صادقٌ، وإنَّ[10] في مُلْكِهِ وسلطانِهِ ما لم يُؤتِ عبدَهُ لِيَقِيَ بهِ شُحَّ نفسِهِ، واللهُ المُستعانُ.

[والثاني][11]: دلالةٌ على إبطالِ قولِ مَنْ قالَ: إنَّ على الكَفَرةِ أداءَ هذهِ العباداتِ والحقوقِ واجِبَةٌ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ[12] في هذهِ الآيةِ أنَّ مَنْ وُقِيَ شُحَّ نفسِهِ، وأدَّى ما وَجَبَ عليهِ مِنْ هذهِ الحقوقِ، فقد أفْلَحَ.

وقد نَرَى الكافرَ في الشاهدِ يُوقَى شُحَّ نفسِهِ، ويُؤدّي حقوقَ أموالِهِ، ويَسْخو بمالِهِ على الناسِ، ولا يُفْلِحُ، ولو كانَ [يَرَى أنَّ][13] عليهِ هذهِ الحقوقَ واجبةً لَكانَ يَحْصُلُ لهُ الفَلاحُ.

فَثَبَتَ أنهُ ليسَ عليهِ أداؤُها، وإنما عليهِ قَبولُها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل إذ. (٢) في الأصل وم: أو يكون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وأخبر. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجهين. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وفيه. (١٢) في الأصل وم: أوعد. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

[والثالث: دلالةٌ](١) أنَّ صاحبَ الكبيرةِ، قد يُرجَى لهُ الفلاحُ، وإنْ لم يَتُبْ على الكبيرةِ [حتى](٢) ماتَ، لأنّا قد نَرَى صاحبَ الكبيرةِ قد يُوقَى شُحَّ نفسِهِ، وقد وَعَدَ اللهُ ﷻ أنَّ مَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فهو مِنَ المُفْلِحينَ / ٥٧٤ ـ أ/ فإذا كانَ صاحبُ الكبيرةِ قد يُوقَى شُحَّ نفسِهِ، فقد ثَبَتَ أنهُ يُرْجَى [لهُ](٣) الفلاحُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ يَتَوَلَّدُ مِنْ هذهِ الآياتِ ظنونٌ فاسدةٌ:

أحَدُها: ظَنُّ اليهودِ حينَ(٤) ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وذلكَ أنهمْ لمّا سَمِعوا أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] والاستِقراضُ في الشاهدِ يَدُلُّ على الحاجةِ إلى ما يُسْتَقرَضُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة: ١١١] والشِّراءُ يَدُلُّ على حاجةٍ في المُشْتَرَى.

[والثاني: حينَ](٥) استَعْمَلَ عَبيدَهُ في الأعمالِ ثم قالَ: ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ورَأَوا أنَّ مَنْ يَسْتَعْمِلُ آخَرَ، فإنما يَسْتَعْمِلُهُ في عَمَلٍ، تَرْجِعُ مَنْفَعَتُهُ عليهِ، ويَحْتاجُ إلى عملِهِ، ظَنُّوا بذلكَ أنَّ اللهَ فقيرٌ، وأنهُ مُحتاجٌ.

[والثالثُ:](٦)ظَنَّتِ المعتزلةُ أنَّ أنفسَ العَبيدِ وأملاكَهُمْ مُلْكٌ لهمْ حقيقةً، ليسَ للهِ في شيءٍ مِنْ ذلكَ مُلْكٌ ولا تَدْبيرٌ، قالوا: وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى اسْتَقْرَضَ مِنْ عَبيدِهِ، والمَرْءُ في الشاهدِ لا يَسْتَقْرِضُ [مِنْ](٧) مُلْكِ نفسِهِ، فلمّا اسْتَقْرَضَ، واسْتَباعَ، دلَّ أنَّ هذهِ الأملاكَ(٨)، كانَتْ مُلْكاً لهمْ حقيقةً.

والذي يدلُّ على أنَّ قولَ المعتزلةِ على ما وصَفْنا أنَّ قولَهُمْ: أنْ ليسَ للهِ تعالى أنْ يُمْرِضَ أحداً، ولا يُؤْلِمَ دابَّةً إلّا بِعِوَضٍ، ولم يَمْلُكْ شيئاً إلّا بِعِوَضٍ وبَدَلٍ، يُبَيِّنُ(٩) أنهُ لا يَمْلِكُهُ، فَثَبَتَ على أنَّ عندَهُمْ أنهُ لا يَمْلِكُ حقيقةً، وأنَّ حَقيقةَ المُلْكِ فيهِ لِلْعَبيدِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ظَنُّ اليهودِ والمعتزلةِ جميعاً إنما تَوَلَّدَ مِنْ قولِهِمْ: أنْ ليسَ للهِ تعالى أنْ يَفْعَلَ بِعَبيدِهِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ في دينِهِمْ، فذهَبتِ اليهودُ إلى أنَّ هذا لمّا كانَ حقّاً على اللهِ تعالى أنْ يَفْعَلَهُ، لا مَحالةَ، حتى إذا لم يَفْعَلْهُ، يكونُ جائراً(١٠). ومنْ كانَ مأجوراً بحقٍّ أو بشيءٍ يَفْعَلُهُ، ففيهِ بَيانٌ أنَّ حقيقةَ ذلكَ الفِعْلِ لِغَيرِهِ حتى أُخِذَ بهِ، لا مَحالةَ.

لِذلكَ قُلْنا: إنَّ ظُنونَهُمْ تَوَلَّدَتْ عنِ القولِ بالأصْلَحِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

وأمّا الحكماءُ وأهلُ العَقْلِ ومَنِ انْتَفَعَ بِعَقْلِهِ حَمَلَ هذهِ الآياتِ مِنَ اللهِ تعالى على نِهايةِ الكَرَمِ وغايةِ الغِنَى، لأنَّ اللهَ تعالى أعْطَى عَبْدَهُ، ثم اسْتَقْرَضَ منهُ ذلكَ الذي أعطاهُ لِيَصيرَ ذلكَ العطاءُ بِبَدَلِهِ الدائمِ، وهو النَّعيمُ في الآخِرَةِ.

ومَعْلومٌ أنَّ مَنْ أرادَ دوامَ إعطاءِ مَنْ أعطاهُ فهو في غايةِ الكَرَمِ، وكذا اشْتَرَى منهُ حياةً فانيةً لِيُعْطِيَ لهُ حياةً دائمةً، وهذا مِنْ غايةِ الجودِ.

ومَنِ اسْتَعْمَلَ عَبيدَهُ في عَمَلٍ، يُوصَفُ بأنهُ جوادٌ سَخِيٌّ، ويَشْرُفُ بهِ، ويَكْرُمُ، ثم وَعَدَ لهُ على [ما](١١) فيهِ أجراً دائماً، دَلَّ على غِناهُ، فَثَبَتَ أنهُ أرادَ بهذهِ الآياتِ أنْ يُعَلِّمَنا غايةَ كرمِهِ وغايةَ جودِهِ ونِهايةَ غِناهُ، وأنَّ جودَهُ وكَرَمَهُ ممّا لا تُدْرِكُهُ عقولُنا، واللهُ المُسْتَعانُ.

والذي يَدُلُّ على غايةِ كَرَمِهِ وغايةِ جودِهِ أنْ جَعَلَ ما نَتَصَدَّقُ بهِ على فُقَرائنا وما نَصِلُ بهِ أرحامَنا قَرْضاً على نفسِهِ، وَوَعَدَ الأجْرَ بِعَمَلٍ يَعْمَلُهُ العَبدُ لِنَفسِهِ، وعلى عَمَلٍ، على العَبْدِ فِعْلُهُ، لا مَحالةَ. ولا شَكَّ أنَّ ذلكَ مِنْ غايةِ الجودِ والكَرَمِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: القَرْضُ: هو القَطْعُ؛ كأنهُ قالَ: اقْطعوا شيئاً مِنْ أموالِكُمْ للهِ

---

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وحيث. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الآيات. (٩) في الأصل وم: بعوض اثنين. (١٠) في الأصل: جائزاً. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

قَطعاً حَسَناً. وقالَ بعضُهُمْ: أقْرِضوا اللهَ؛ أيِ اجْعَلوا ما تَتَصَدَّقونَ بِهِ مِمّا فَضَلَ عنْ حاجَاتِكُمْ على فُقَرائكُمْ قَرْضاً حَسَناً على اللهِ تعالى يُؤْتِكُمْ أجْرَهُ عندَ حاجَتِكُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ يعني يُضاعِفُ[1] ما يُعْطيكُمْ في الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ الذي تُكْرَمونَ بِهِ بما شَرُفْتُمْ بِهِ، وتَزَيَّنْتُمْ في الدنيا بالتَّصَدُّقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ يَعْني ﴿شَكُورٌ﴾ حينَ[2] شَكَرَ لكُمْ على ما أعْطَيتُموهُ شيئاً، هو أعطاكُمْ [إيّاهُ][3] وقولُهُ: ﴿حَلِيمٌ﴾ وَصْفُ نَفْسِهِ بالحِلْمِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا يَتَحَقَّقُ هذا الوصفُ لأنهمْ يقولونَ: إنهُ إذا أُوجِبَتِ العقوبةُ فليسَ للهِ تعالى أن يُؤَخِّرَها تَفَضُّلاً منهُ، وإنهُ في ما أَخَّرَها كانَ ذلكَ حقّاً عليهِ حينَ[4] رَأى الأصْلَحَ في تأخيرِها.

ومَعلومٌ أنَّ [مَنْ][5] أدّى حَقّاً عليهِ لم يُوصَفْ بالحِلْمِ، ولكنهُ يُقالُ: إنهُ يَتَّقي الجَورَ، والحَليمُ مَنْ يَحْلُمُ عن عُقوبةٍ لَزِمَتْ، فَيُؤَخِّرُها، ويَتْرُكُها، ويَعْفو عنْ صاحبِها، فَيُوصَفُ بالحِلْمِ في هذا الموضِعِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعني: عالمٌ ما غابَ مِنْ أفعالِ الخَلْقِ عنِ الملائكةِ، وعالمٌ ما شَهِدوا مِنْ أفعالِهِمْ، وعالمٌ بما غابَ عنِ العبادِ وبما شَهِدَهُ العِبادُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في تَدْبيرِهِ.

ثم المُعْتادُ في القرآنِ أنهُ يَذْكُرُ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ بَعْدَ ذِكْرِهِ خَلْقَ الكَفَرَةِ لِيُعْلَمَ أنَّ فَسادَهُمْ، لا يُوجِبُ وَهْناً في حِكْمَتِهِ وتَدْبيرِهِ، ولا يُبْطِلُ عِزَّهُ وسُلْطانَهُ، لأنَّ مَنْ صَنَعَ إلى آخَرَ شيئاً يَعْلَمُ أنهُ يُفْسِدُهُ[6] دلَّ ذلكَ على جَهْلِهِ بالتَّدْبيرِ، وإذا اسْتَعْمَلَ عبدَهُ بما يُهْلِكُهُ دلَّ على ذُلِّهِ.

فأخبَرَ بعدَ [ذِكْرِهِ][7] خَلْقَ الكَفَرَةِ أنهُ عزيزٌ لِيُعْلَمَ أنَّ كُفْرَهُمْ، لا يُوجِبُ نَقْصاً في عِزِّهِ، ولا يُدْخِلُ ذُلّاً عليهِ، وأنَّ فَسادَهُمْ لا يُخْرِجُهُ عنِ الحِكْمةِ. واللهُ المُسْتَعانُ.

---

(١) من م، في الأصل: يضاعفه. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يفسد. (٧) ساقطة من الأصل وم.

سورة الطلاق

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فإنهُ يُخرَّجُ على الإضمارِ، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ يقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأُمَّتِكَ: إذا أرَدْتُمْ أنْ تُطلِّقوا نِساءَكُم فَطلِّقوهُنَّ لِعدَّتِهِنَّ.

والدليلُ على أنهُ هكذا فإنهُ يُخرِّجُ الخطابَ بَعْدَهُ للجماعةِ حينَ[1] قالَ: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أو خاطبَ بِهِ النَّبيَّ ﷺ والمُرادُ أُمَّتُهُ، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أمرٌ بالطلاقِ لِلْعِدَّةِ، ولم يُبيِّنْ أنَّ الطلاقَ لِلْعِدَّةِ كيفَ يكونُ، وذُكِرَ في بعضِ القِراءاتِ: فَطلِّقوهُنَّ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ[2].

ثم تَرْكُ بيانِ ذلكَ لا يَخلو: إمّا أنْ يكونَ الرسولُ ﷺ قد بيَّنَ ذلكَ لهمْ، فَعَرَفوا ذلكَ، فلم يُبيِّنْ ذلكَ في الآيةِ. [وإمّا أن][3] جَعَلَ بَيانَ مَعرِفةِ ذلكَ إليهمْ لِيَعْرِفوا بالاجْتِهادِ.

ثم قولُهُ: لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ يَحْتَمِلُ أوّلَ عِدَّتِهِنَّ، وهو الحَيضُ، مِنَ المُقابَلَةِ:

فَمَنْ يقولُ: الاِعْتِدادُ بالإطهارِ يَجْعَلُ القُبُلَ كنايةً عنْ أوّلِ الطُّهرِ، ومَنْ يقولُها بالحَيضِ يَجْعَلُ القُبُلَ ما يُقابِلُ العِدَّةَ، وهو الحيضُ.

ثمّ لنا أنْ نَنْظُرَ أيُّ التأويلَينِ أقْرَبُ، وقد أجْمَعوا أنَّ لهُ أنْ يُطلِّقَها في آخِرِ الطُّهْرِ إذا لم يُجامِعْها / ٥٧٤ ـ ب/ فيهِ. دلَّ أنَّ تأويلَ القُبُلِ ما يُقابِلُ العِدَّةَ أحقُّ، وهو الحَيضُ، والاِعْتِدادُ بهِ أولَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ يُخرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ:

أحَدُهما: احْفَظوا الحقوقَ والأحكامَ التي تَجِبُ في العِدَّةِ، فأدُّوها.

والثاني: احْفَظوا نفسَ ما تَعْتَدُّونَ بِهِ، وهو عَدَدُ الحِيَضِ الذي بِهِ[4] تَعْتَدُّونَ، لا أنْ يُزادَ، ولا يُنْقَصَ.

ثم جَعَلَ الإحصاءَ إلى الأزواجِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ هُمُ الذينَ يُلْزِمُهُمُ الحقوقَ والمُؤَنَ.

والثاني: لهمْ نَفْعُ تَحصينِ الأولادِ في العِدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ على صحةِ مَسْأَلةٍ لأصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في مَنْ حَلَفَ: لا يَدْخُلُ بَيتَ فلانٍ، فَدَخَلَ [بيتاً][5] هو فيهِ بإعارةٍ أو إجارةٍ: إنه يَحْنَثُ، وَوَجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أضافَ البيوتَ إليهنَّ، وإنْ كانَتْ حقيقةُ المُلْكِ للأزواجِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٦٥. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: بها. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

ألا ترى إلى قولِهِ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] ثم قولِهِ[1]: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾؟ فَدَلَّ قولُهُ: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أنهُ أرادَ بهِ البيوتَ التي أسْكَنَهُنَّ الأزواجُ فيها. وإذا صَحَّتْ هذهِ الإضافةُ دلَّ على صحةِ المذهبِ.

وقالَ الشافعيُّ في مَنْ حلَفَ: لا يَدْخُلُ مَسْكَنَ فلانٍ، فَدَخَلَ مَسْكناً [هو][2] فيهِ بإعارةٍ: إنهُ يَحْنَثُ. وقالَ في مَنْ حلَفَ: لا يدخلُ بيتَ فلانٍ [فَدَخَلَ][3]: إنهُ لا يَحْنَثُ، واحتَجَّ في المَسْكَنِ أنهُ إنما حَنِثَ لأنهُ وَجَدَ حقيقةَ السُّكْنَى مِنَ المَحْلوفِ عليهِ.

فإنْ كانَ هذا هو الدليلَ على الحِنْثِ فالواجبُ عليهِ أنْ يَحْنَثَ [في البيتِ][4] لوجودِ البَيتوتةِ على حِنْثِهِ[5] في المَسْكَنِ لِوُجودِ السُّكْنَى.

وبَعْدُ فإنَّ الحِنْثَ أقْرَبُ في البيتِ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَ البيوتَ إليهِنَّ في كتابِهِ، وإنْ كُنَّ يَبِتْنَ فيها بإعارةٍ، ولم يوجَدْ في السُّكْنَى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ومُبَيَّنَةٍ، قُرِئا[6] جميعاً. فمنهمْ مَنْ حَمَلَ الاستثناءَ، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّآ﴾ على قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ وصَرَفَهُ [إليهِ، ومنهُمْ مَنْ صَرَفَهُ][7] إلى قولِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ ولكلٍّ مِنْ ذلكَ وجهانِ:

فأمّا مَنْ حَمَلَهُ على قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ فإنهُ جعَلَهُ استثناءً، ولِلاستثناءِ وجهانِ:

أحَدُهما: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي بِزِنًى يَزْنِينَ، فَتُخْرِجوهُنَّ لإقامةِ الحَدِّ عليهِنَّ.

[والثاني][8]: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن﴾ يَظْهَرَ منهنَّ بَذاءَةُ اللِّسانِ على أهلِ أزواجِهِنَّ، فَتُخْرِجوهُنَّ لِمكانِ البَذاءةِ التي في ألسِنَتِهِنَّ[9].

ومَنْ حَمَلَهُ على قولِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ فإنهُ يَجْعَلُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِلَّآ﴾ على مَعْنى: لكنْ كما قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] أي لا يَسْمَعونَ فيها لَغْواً لكنْ سلاماً، إذْ لا يَحْتَمِلُ استثناءَ السلامِ مِنَ اللَّغْوِ لِما ليسَ في جُمْلَةِ اللَّغْوِ سَلامٌ، فَيُستَثنَى منهُ، فكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ فكأنهُ قالَ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ ولكنْ إذا خَرَجْنَ فَخُروجُهُنَّ فاحشةٌ.

ويَدُلُّ هذا على أنَّ النَّهْيَ لِنَفسِ الخروجِ لا لِلانتِقالِ.

ووجهٌ آخَرُ في ذلكَ، وهو ألّا يَخْرُجْنَ إلّا أنْ يأتينَ بِفاحشةٍ، فإنهنَّ إذا خَرَجْنَ يُخْشَى عليهِنَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحشةٍ كما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «أيما عبدٍ تَزَوَّجَ بِغَيرِ إذْنِ مولاهُ فهو عاهرٌ» [الترمذي ١١١١] لِما[10] كانَ المَعْنَى مِنْ ذلكَ أنهُ إذا تَزَوَّجَ، فَوَطِئَ، فهو عاهرٌ، ولكنْ نَهْيٌ عنِ النِّكاحِ لأنهُ يُخْشَى عليهِ في النِّكاحِ أنْ يَطَأَها، فَيَصيرَ عاهراً، لا أنْ يكونَ نَفْسُ التَّزَوُّجِ منهُ زِنًى.

فكذلكَ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ فيكونُ النَّهْيُ لا عَنْ نَفْسِ الخروجِ، ولكنْ لكونِهِ سبباً لِلْفاحشةِ في الجُمْلةِ وطريقاً إليهِ.

وقولُهُ[11] ﷻ: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ فمنْ قَرَأَ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ بالخفضِ فَمَعْناهُ أنَّ نَفْسَ الفاحشةِ إذا تَفَكَّرَ فيها المَرْءُ، ونَظَرَ، تَبَيَّنَ لهُ أنها فاحشةٌ. ومَنْ قَرَأَ: مُبَيَّنَةٍ بالفتحِ عَنَى بهِ أنها مُبَيَّنَةٌ بالبراهينِ والحُجَجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الحُدودُ المَوانِعُ والنَّواهي، لا تَحِلُّ مُجاوَزَتُها، ومِنْ ذلكَ سُمِّيَ الحَدّادُ حَدّاداً لأنهُ يَمْنَعُ تحديدُهُ كلَّ أنواعِ أمْتِعَتِهِ أنْ تُجاوِزَ حَدَّها الذي جَعَلَهُ لها.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في م: ما. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٦٥. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل: نسائهن، في م: لسانهن. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) من م، في الأصل: ثم قال.

والحَدُّ في الحقيقةِ، هو النِّهايةُ التي يُنْتَهَى إليها، فلا تُجاوزُ. وإذا كانَ كذلكَ كانَ الخِيارُ إلى صاحبِ التَّأويلِ؛ فإنْ شاءَ حَمَلَهُ على الحَدِّ بَينَ الطاعةِ والمَعْصِيَةِ أو ما بَينَ الحلالِ والحرامِ حينَ[1] ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ أنواعاً مِنَ النَّهْيِ، فَسَمَّى ذلكَ كلَّهُ حُدوداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي ضَرَّ نفسَهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ المَعْنَى منهُ: أي إنْ جاوَزَ هذا الحَدَّ الذي جَعَلَهُ اللهُ تعالى فقد وضَعَ نفسَهُ مكاناً لم يَضَعْهُ فيهِ رَبُّهُ.

والظُّلْمُ في الحقيقةِ وَضْعُ الشيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

والتأويلُ الآخَرُ أنَّ مَنْ جاوزَ مَوانِعَ اللهِ ونَواهِيَهُ فقد ظَلَمَ نفسَهُ؛ دلَّ بهذا على أنَّ مَنافِعَ هذهِ النَّواهي ومَضارَّها، لا تَرْجِعُ إلى اللهِ بل [تَرْجِعُ إلى][2] نَفْسِ المُمْتَحَنِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي لا يُطَلِّقُ، فإنهُ إذا طَلَّقَ لا يَدْري، لَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بَعْدَ ذلكَ نَدامةً على [ما][3] سَبَقَ مِنْ فِعْلِهِ أو رَغْبةً فيها، فيكونُ فيهِ دلالةُ النَّهْيِ عنْ نَفْسِ الطلاقِ. وقد بَيَّنَّا كَراهةَ نَفْسِ الطلاقِ في الحِكْمةِ في أنهُ ليسَ مِنْ نَوعِ ما يُتَقَرَّبُ بهِ، فيكونُ فيهِ زيادةٌ في القُرْبةِ ولا مِمّا يُسْتَمْتَعُ بهِ، فيكونُ فيهِ زيادةٌ في الاِسْتِمْتاعِ. بلِ المَقصودُ منهُ التَّأديبُ والمَخْلَصُ.

وفي الواحدةِ كفايةٌ عمّا زادَ عليها، فكانَ في هذهِ الآيةِ دلالةُ النَّهْيِ عنْ نَفْسِ الطلاقِ وعنِ الزِّيادةِ على الواحدةِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: فإنْ كانَ تأويلُ قولِهِ ﷻ: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ هو الرَّغْبةُ فيها أوِ النَّدامةُ على ما سَبَقَ فإنهُ دلالةٌ على إبطالِ قولِ المعتزلةِ، لأنَّ الرَّغْبةَ والنَّدامةَ جميعاً مِنْ فِعْلِ العِبادِ، واللهُ تعالى قد أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ بقولِهِ: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنَّ للهِ تعالى في إحداثِ أفعالِ العِبادِ صُنْعاً وتَدْبيراً، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أصحابُ الشافِعِيِّ: إنَّ قولَهُ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ يَدُلُّ على تَعْليمِ الوقْتِ في الطلاقِ دونَ العَدَدِ؛ فَلَهُ أنْ يُطَلِّقَها في الوقْتِ أيَّ عَدَدٍ كانَ.

ولا يَسْتَقيمُ ذلكَ لأنَّ التأويلَ إنما يَسْتَقيمُ على أحدِ وجهَينِ:

إمّا على ما جَرَى بهِ التَّفاهُمُ في العِباداتِ بَينَ العِبادِ، وإمّا [على][4] ما جَرَى بهِ التَّفاهُمُ في حقِّ الحِكْمةِ.

وليسَ يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ بالعَدَدِ الثَّلاثِ على واحدٍ مِنَ الوَجْهَينِ اللَّذينِ وَصَفْناهُما.

ألا تَرَى أنَّ مَنْ قالَ لآخَرَ: طَلِّقْتُ[5] امْرأتي لم يَجُزْ لهُ أنْ يُطَلِّقَها ثلاثاً إلّا أنْ يكونَ نَوَى ثلاثاً؟ فَثَبَتَ أنهُ لا يُفْهَمُ بهِ في عبارةِ اللفظِ الثَّلاثُ.

وأمّا وَجْهُ الحِكْمةِ فَلِما ذَكَرْنا أنَّ الطلاقَ ليسَ ممّا يُتَقَرَّبُ بهِ، فَيُرَغَّبُ[6] في الاِسْتِكْثارِ زِيادةً في القُرْبةِ، ولا ممّا يُسْتَمْتَعُ [بهِ][7] فيُسْتَكْثَرُ منهُ زيادةً في الاِنْتِفاعِ. وإنما المُرادُ منهُ التَّأديبُ والمَخْلَصُ. وما كانَ مَخْرَجُهُ هذا المَخْرَجَ كانَ في حَدِّ الرُّخْصَةِ، وما خَرَجَ مَخْرَجَ الرُّخَصِ لم يُتَعَدَّ[8] بهِ عمّا وَقَعتْ بهِ الرُّخصةُ. وإذا ثَبَتَ ما وَصَفْنا ثَبَتَ أنهُ لا يجوزُ الفَهْمُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الثلاثِ، والتَّعْليمُ[9] في العَدَدِ الَّيَقِ بهِ مِنَ الوقْتِ، لأنهُ لا ضَرَرَ، يَلْحَقُهُ في تَعَدِّيهِ عنِ الوقْتِ المَجْعولِ فيهِ الطَّلاقُ، ولا شَكَّ أنهُ يَلْحَقُهُ الضَّرَرُ في تَعَدِّيهِ في العَدَدِ والزيادةِ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وممّا يَدُلُّ على أنَّ المُرادَ مِنْ قولِهِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ ليسَ عَدَدَ الثلاثِ قولُهُ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ/ ٥٧٥ ـ أ/ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الآية: ٢] ولا شَكَّ أنهُ إذا وَقَعَ عليها ثلاثاً لم يَمْلِكْ إمساكَها.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: رجع. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: طلق. (٦) في الأصل وم: فرغب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يعتد. (٩) في الأصل وم: في التعليم.

ومعلومٌ أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ الطلاقُ المُتقدِّمُ مِنْ قولِهِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ ولو كانَ المُرادُ عَدَدَ الثلاثِ لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فيهِ فوائدُ شتَّى، وأدلَّةٌ مُتفرِّقةٌ مِنَ الفِقهِ والأحكامِ.

أحَدُها: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ والمَعْرُوفُ إليها في المُتعارَفِ مِنْ نَوعِ الفِعْلِ أظْهَرُ مِنْ نَوعِ القولِ، لأنهُ إنما يُحسِنُ إليها استِمتاعاً وإنفاقاً ونَحْوَ ذلكَ، فذلكَ نَوعُهُ نَوعُ الفِعْلِ، فَثَبَتَ أنَّ حقيقةَ الإمساكِ بالمَعْروفِ في الأفعالِ. فلذلِكَ قُلْنا: إنهُ إذا راجَعَها [بالفِعْلِ يكونُ مُراجِعاً][1].

فإنْ قيلَ: أليسَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ والإشهادُ على الفِعْلِ غَيرُ صحيحٍ؟

فَجَوابُهُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ ومَعْلومٌ أنَّ هذا لو كانَ يَحضُرُهُ الشُّهودُ لم يَكُنْ للإشهادِ مَعْنًى، بل إذا سَمِعوا ذلكَ صاروا شهوداً شَهِدوا، أو لم يَشْهَدوا.

وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنَّ المَعْنَى مِنْ هذا الإشهادِ على الإمساكِ المُتقدِّمِ، وذلكَ في الأفعالِ مُستقيمٌ، واللهُ أعلَمُ.

ووجهٌ آخَرُ، وهو أنَّ كلَّ عَهْدٍ استَقامَ بِغَيرِ شُهودٍ، جَرَى فيهِ الأمْرُ بالإشهادِ نَحْوُ قولِهِ: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكلُّ ما جُعِلَ فيهِ الشهودُ شَرْطاً لِقِوامِ العَقْدِ، جَرَى الذِّكْرُ فيهِ [لا يَثْبُتُ][2] إلّا بِشُهودٍ نَحْوُ قولِهِ ﷺ[3]: «لا نِكاحَ إلّا بِشُهودٍ» [نصب الراية ٣/ ١٦٧] فلمّا جَرَى الذِّكْرُ في هذهِ الآيةِ بالأمْرِ بالإشهادِ وبقولِهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ثَبَتَ أنهُ [لا][4] يَستَقيمُ من غَيرِ شهودٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ دليلٌ على أنَّ المُرادَ مِنَ الأقراءِ[5] الحَيضُ، فإنهُ ذُكِرَ نَوعُ هذا في كتابِ اللهِ في مَواضِعَ:

قالَ اللهُ تعالى في مَوضِعٍ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وقالَ في هذا المَوضِعِ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

ومَعْلومٌ أنَّ المَعانِيَ بهذهِ الألفاظِ مُختلِفةٌ، وإنِ اتَّفقَتْ مَخارِجُها، واختِلافُها أنْ يكونَ المُرادُ بِبُلوغِ الأجَلِ في أحدِ النَّوعَينِ على التَّمامِ وانقِضاءِ الأجَلِ، والثاني على الإشرافِ عليهِ.

وأحَقُّ ما يكونُ في حَقِّ الإشرافِ على البُلوغِ، هو ما يَرجِعُ إلى الأزواجِ، لأنهُ قد كانَ لهمْ حَقُّ الإمساكِ قَبْلَ انقِضاءِ الأجلِ، وهمْ أحَقُّ بهنَّ[6] ما لم يَتِمَّ بُلوغُ الأجَلِ لا بَعْدَهُ.

وإذا ثَبَتَ أنَّ المَعْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ في هذا المَوضِعِ، هو الإشرافُ على البُلوغِ والقُرْبُ مِنِ انقِضاءِ الأجلِ دونَ التّمامِ ثَبَتَ الأقراءُ أنهُ[7] الحَيضُ، لأنهُ لو كانَ المُرادُ منهُ الأطهارُ لَم يُعرَفْ إشرافُ الأجَلِ على البُلوغِ، لأنهُ لا نِهايةَ لأكثَرِ الطُّهْرِ.

وأمّا الحَيضُ فإنهُ لهُ غايةٌ مَعْلومةٌ، لأنَّ أيامَها، لا تَخلو: إمّا أنْ تكونَ عَشرةً أو دونَ العَشَرةِ. فإنْ كانَتْ عَشَرةً فَتُعرَفُ بالعَدِّ، وإنْ كانَتْ دونَ العَشرةِ فإنَّ دَمَها إذا انقَطَعَ راجَعَها قَبْلَ أنْ تَغتَسِلَ، وذلكَ وقْتُ إشرافِ أجَلِها على البلوغِ.

والأطهارُ لا يَتَحقَّقُ فيها المَعْنَى الذي وصَفْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ ههنا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فَدَلَّ الأمْرُ بالإمساكِ في الظاهِرِ أنها مادامَتْ في العِدَّةِ فهي على مُلْكِهِ. وقالَ في

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: لا، ساقطة من م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: في. (٦) في الأصل وم: بهم. (٧) في الأصل وم: هو.

مَوضعٍ آخرَ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فَدَلَّ على أنهُ قد وَقَعَ شيءٌ مِنَ الزَّوالِ حتى أَمَرَهُ بِرَدِّها، فيكونُ حُجَّةً للشافِعِيِّ في أنَّ الطلاقَ الرَّجْعِيَّ يُحَرِّمُ الوَطْءَ.

ولكنَّ المَعْنَى عندَنا في هذا، واللهُ أعلَمُ، أنّا قد عَرَفْنا بقولِهِ: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بَعْدَ وجودِ الطلاقِ المُتَقَدِّمِ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ الفُرْقَةَ للحالِ، ولكنَّ مَعْناهُ: اترُكوهُنَّ حتى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ، فَتُفارِقوهُنَّ.

فَثَبَتَ أنهُ قد وَقَعَ شيءٌ مِنْ شُبْهَةِ الفِراقِ بالطلاقِ، وهو أنْ صارَ الفِراقُ مُسْتَحِقّاً لازماً حالَ انْقِضاءِ العِدَّةِ، فيكونُ لهُ عَرَضُ الوجودِ للحالِ، فقالَ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ على إبقائهنَّ على أصلِ المُلْكِ، وقالَ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لِرَفْعِ تلكَ الشُّبْهَةِ الواقعةِ بالطلاقِ.

وهذا على سَبيلِ ما قالَ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ و٢٢٧] وكانَ الفَيْءُ هو الرجوعَ.

ومَعْلومٌ أنهُ لم يَقَعْ[1] بالإيلاءِ شيءٌ مِنَ الفُرْقةِ، ولكنْ لمّا كانَ الإيلاءُ مُوجِباً لِلْبينونةِ في العُقْبى أوجَبَ في الحالِ شُبْهَةَ الفُرقةِ، وهو: اسْتِحْقاقُ الزَّوالِ، فَذَكَرَ الفَيْءَ لِرَفْعِ تلكَ الشُّبْهَةِ، فكانَ تَرْكُها منهُ لا يُفيءُ إليها عَزْمٌ منهُ على الطلاقِ، فكذلكَ الأوَّلُ.

والمَعروفُ إذا صَنَعَ لكَ إنسانٌ صَنيعةً، فَعَرَفْتَها، واسْتَحْسَنْتَها، فهو معروفٌ، وما دَفَعْتَهُ، وأنْكَرْتَهُ فليسَ بِمَعْروفٍ، أو هو الذي عَرَّفَنا اللهُ تعالى مِنَ المُراجَعَةِ والمُفارَقةِ.

ثم المَعروفُ في الحقيقةِ ما تَطْمَئِنُّ إليهِ القلوبُ، وتَسْكُنُ[2] عندَهُ الأنفسُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ دَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أنْ قد يكونُ مِنّا فُسّاقٌ، وأنَّ الفِسْقَ لا يُخْرِجُ[3]، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فَثَبَتَ أنْ قد يكونُ منّا مَنْ لا يُرْضَى، وأنَّ خُروجَهُ مِمَّنْ يُرْضَى لا يُخْرِجُهُ مِنَ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ حينَ[4] أضافَها إلى نفسِهِ؛ هو أنهُ لا بُدَّ مِنَ الشهادةِ مِنْ نَفْعٍ يَقَعُ لأحدِ الخَصْمَيْنِ وضَرَرٍ يَرْجِعُ إلى الآخَرِ، فكأنهُ قالَ: لا يَنْظُرْ أحدٌ إلى رِضا مَنْ تَنْفَعُهُ الشهادةُ وإلى سُخْطِ مَنْ تَضُرُّهُ، ولكنِ اجْعَلوها للهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ المَوعِظةُ، وإنْ كانَتْ لِمَنْ يُؤمِنُ، فالمَعْنى في هذا: ذلكُمْ يَتَّعِظُ بما ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ كما كانَ المَعْنى مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] أي إنما يَنْتَفِعُ بالإنذارِ مَنْ يَتَّبِعُ الذِّكْرَ، وكما كانَ في قولِهِ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١] أي يَنْتَفِعونَ بِتِلاوَتِهِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي بما أمَرَ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ لِلْعِدَّةِ والنَّهْيِ عنْ إخراجِهِنَّ مِنَ البُيوتِ والإنْفاقِ ونَحْوِهِ، أي يأخُذُ بما أمَرَ بِهِ، ونَهى عنهُ في هذهِ الآياتِ ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ قد بَيَّنّا أنَّ التَّقْوى إذا ذُكِرَ مُفْرَداً انْتَظَمَ الأوامِرَ والنَّواهِيَ، وإذا ذُكِرَ مَعَهُ البِرُّ والإحسانُ صُرِفَ التَّقْوى إلى مَعْنًى، والبِرُّ إلى مَعْنًى.

وذُكِرَ في هذا المَوضِعِ مُفْرَداً، فجازَ أنْ يَنْتَظِمَ الأوامِرَ والنواهِيَ. ثم جازَ أنْ يكونَ المَعْنى مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في ما بَيَّنَ لهُ مِنَ الحُدودِ، فلم يُضَيِّعْهُ ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ في ما لم يُبَيِّنْ لهُ وفي ما اشْتَبَهَ مِنَ الحَدِّ، أو يَجوزُ أنْ يكونَ المَعْنى مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي جاهَدَ في ما أمَرَهُ، ونَهاهُ ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ في أنْ يَهْدِيَهُ، ويُبَيِّنَ لهُ السبيلَ.

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: شيء. (٢) في الأصل وم: وتشكر. (٣) في الأصل وم: يخرجه. (٤) في الأصل وم: حيث.

ألا ترى إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾؟ [العنكبوت: ٦٩].

قال: ويجوزُ أنْ ينالَ مَنْ يَلْزَمُ التقْوى خيرَ الدنيا والآخرةِ، لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ التقْوى وما يَليهِ بألفاظٍ مُخْتَلِفةٍ، فقالَ في موضعٍ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤] وفي موضعٍ آخَرَ: ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٥] وفي موضعٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] أي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [في][1] النُّصْرةِ/ ٥٧٥-ب/ والمَعونةِ والتوفيقِ والعِصْمةِ. ومَنْ نَصَرَهُ اللهُ فلا يَغْلِبُهُ أحدٌ، ومَنْ يَعْصِمْهُ اللهُ فلا يُضِلُّهُ أحدٌ. وإذا نالَ هاتَينِ الخَصْلتَينِ فقد نالَ خيرَ الدنيا والآخرةِ.

أو يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يعني يَتَّقِ عِقابَهُ ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ مِنَ الشِّدّةِ في الدنيا ومِنْ سَكَراتِ الموتِ وغَمَراتِهِ ومِنْ شَدائدِ الآخرةِ وأهوالِها.

ويجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في مَكاسِبِهِ ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ مِنَ الشُّبَهِ والحُرُماتِ، فَيَسْلَمُ منها.

ويجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في ما بَيَّنَ لهُ مِنَ الحُدودِ في هذهِ الآياتِ المُتقدِّمةِ، فَحَفِظَها في صُحْبةِ النساءِ على ما أمَرَ بهِ ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ ممّا أهَمَّهُ مِنْ ناحيتِهِنَّ ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾.

يجوزُ أنْ يكونَ هذا في ما بَيَّنَ لهُ مِنَ الحدودِ إذا حَفِظَها أنْ يَرْزُقَهُ ما وَصَفْنا مِنَ المرأةِ والمالِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ هذا في جميعِ الأمورِ مِنَ المُكاتبةِ والتِّجاراتِ لأنَّ التُّجّارَ يَظُنّونَ أنهمْ إنما يُرْزَقونَ الفَضْلَ والرِّبْحَ لما يُدْخِلونَ فيها مِنَ الشُّبَهِ والحُرُماتِ وأنها إذا نُقِّيَتْ مِنْ تِجاراتِهِمْ تلكَ الشُّبَهُ والحُرُماتُ رَزَقَهُمْ مِنْ حيثُ لم يَحْتَسِبوا.

أو يجوزُ أنْ يكونَ[2] هذا خِطاباً لِلْكَفَرةِ، وذلكَ أنهمْ كانوا يَخافونَ أنهمْ إذا آمَنوا بالرسولِ ﷺ حُرِموا مِنَ الرزقِ، وابْتُلُوا بالضيقِ.

ألا ترى إلى قولِهِ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ الآية؟ [القصص: ٥٧] فكأنَّ اللهَ تعالى أمَّنَهُمْ ممّا يَخافونَ بسببِ الإسلامِ، وأخبَرَهُمْ أنهمْ إذا وَحَّدوا اللهَ تعالى، وآمَنوا برسولِهِ، رَزَقَهُمُ اللهُ مِنْ حيثُ لم يَحْتَسِبوا، ووَسَّعَ عليهمُ الرِّزْقَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: أي مَنْ يَعْتَمِدْهُ في كلِّ نائبةٍ، ويُفَوِّضْ إليهِ كلَّ نازلةٍ. والوكيلُ، هو المَوكولُ إليهِ الأمورُ. وقيلَ: الوكيلُ، هو الحافظُ، فكأنهُ قالَ: ومَنْ يَعْتَمِدْ على اللهِ في ما نابَهُ كَفَى بهِ وكيلاً مَوكولاً إليهِ أمْرُهُ، وكَفَى بهِ حافظاً وناصراً ومُعيناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ أي في ما أخبَرَ مِنْ حُكْمِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعيدِهِ أنْ يَنْزِلَ بهمْ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ أي مَبَلِّغُ ما أمَرَ رسولَهُ بِتَبْليغِهِ إلى آخرِ عِصْيانِهِ، يكونُ مِنْ أُمَّتِهِ في [تَسْخيرِهِمْ لِيَصيرَ ما][3] كانَ الرسولُ بَلَّغَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿لِكُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِنْ أعمالِ العبادِ ﴿قَدۡرٗا﴾ ثواباً في الآخرةِ.

والوجهُ عندَنا ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ﴾ ممّا كانَ، ويكونُ إلى يومِ القيامةِ مِنْ حَسَنٍ وقَبيحٍ في الحِكْمةِ ﴿قَدۡرٗا﴾. ألا تَرى إلى أفعالِ العِبادِ أنها كيفَ تَخْرُجُ عنْ تدبيرِهِمْ مِنْ زمانٍ ومكانٍ ونَحوِ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنَّ اللهَ تعالى، هو الذي قَدَّرَ ذلكَ المَكانَ والزمانَ والفِعْلَ حتى خَرَجَ فِعْلُ هذا العبدِ عنْ تَقْديرِهِ الذي قَدَّرَهُ، واللهُ أعلمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ وجهٌ آخَرُ، وهو أنهُ لو جَعَلَ جميعَ الرِّزْقِ مِنْ حَيثُ لا يَحْتَسِبُ جازَ، لأنَّ الرزقَ في الحَقيقةِ، هو الذي يُتَقَوّى بهِ، وليسَ ذلكَ في عَينِ الأكلِ والشُّرْبِ، ولكنْ في ما يَتَفَرَّقُ مِنْ قُوّةِ الطعامِ والشرابِ في الأعضاءِ؛ وذلكَ باللُّطْفِ مِنَ اللهِ تعالى. فَثَبَتَ أنَّ قُوّةَ الأكلِ والشُّرْبِ إنما تَصِلُ إلى الأعضاءِ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبُهُ الإنسانُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يكونوا. (٣) في الأصل: تسخر ليصيروا، في م: تسخيرهم ليصيروا.

ثم ليسَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ لهُ تخصيصٌ، أي مَن لا يَتَّقِهِ لا يَرزُقُهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، لأنّا قد نَرى في الشاهدِ مَنْ يَرزُقُهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، اتّقاهُ، أو لم يَتَّقِهِ. فَثَبَتَ أنَّ فائدةَ التَّخصيصِ ليسَتْ تَعني غيرَ المَقصودِ، ولكنَّ فائدةَ تَخصيصِ المُتَّقي بالذكْرِ، هي[1] أنهُ يَرزُقُهُ مِن حيثُ يَطيبُ لهُ، ولا يُلامُ عليهِ، وليسَ ذلكَ في غَيرِ المُتَّقي، واللهُ المُستَعانُ.

ثم ليسَ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ما يَدُلُّ على تَرْكِ الأسبابِ. ولكنْ لمّا رَأى الناسَ يَفزَعُ بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ، ويَستَغيثُ بعضُهُمْ ببعضٍ، أمَرَهُمْ أنْ يَجعَلوا المَقصَدَ والمَفزَعَ إلى اللهِ تعالى، وأنْ يُصَيِّروا هذهِ الأسبابَ كُلَّها مِحْنَةً عليهِمْ، لا أنْ يَرَوا أرزاقَهُمْ مَقصودةً مُتَعلِّقةً بها.

ألَا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؟ [الجمعة: ١٠] كيفَ أمَرَ بإدراكِ فَضلِهِ مِن تلكَ التجارةِ، فَثَبَتَ أنَّ هذهِ المَكاسِبَ كلَّها أسبابٌ، بها يَتَوَصَّلونَ إلى فَضْلِ اللهِ تعالى، وأنَّ المَقصَدَ والمَفزَعَ فيها إلى اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختَلَفوا في العِدَّةِ: فَمِنهُمْ مَنْ قالَ: هي اسْتِبْراءُ الرَّحِمِ، ومنهُمْ مَنْ قالَ: هي عِبادةٌ تَتْبَعُ النِّكاحَ الذي اسْتُوفِيَ فيهِ المَقصودُ بالنِّكاحِ. وهذا القولُ عندَنا أصْوَبُ [لِوَجْهَينِ]:

أحَدُهُما[2]: أنَّ الاِسْتِبْراءَ واجِبٌ في حقِّ السُّنَّةِ والأدبِ قَبْلَ الطلاقِ؛ فإنَّ مَنْ أرادَ أنْ يُطَلِّقَ امْرأتَهُ فالواجِبُ عليهِ أنْ يَستَبْرِئَها بِحَيضةٍ، ثم يُطَلِّقَها. وأمّا العِدَّةُ فإنها لا تَجِبُ إلّا بَعْدَ الطلاقِ. فَثَبَتَ أنها على ما ذَكَرْنا مِنَ العِبادةِ التي تَتْبَعُ النِّكاحَ الذي اسْتُوفِيَ فيهِ المَقصودُ أنَّ الاِسْتِبْراءَ واجِبٌ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][3]: أنَّ العِدَّةَ لو كانتِ اسْتِبْراءً لَكانَتْ تَكْتَفي بالحَيضةِ الواحِدةِ، فلمّا قُرِنَتْ بالعَدَدِ، وفي الواحدةِ مَندوحةٌ إلى سِواها في حقِّ الاِسْتِبْراءِ، ثَبَتَ أنها على الوَجْهِ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ المُرادَ مِنَ الأقراءِ الحَيضُ؛ وذلكَ لأنَّ الأصلَ عندَنا في الأصولِ أنَّ الشيءَ متى ذُكِرَ بِاسْمٍ مُشتَرَكٍ، ثم جَرى البَيانُ لهُ عندَ ذِكْرِ البَدَلِ باسْمٍ خاصٍّ دلَّ على أنَّ المُرادَ مِنَ الاِسْمِ المُشتَرَكِ هذا الاِسْمُ الخاصُّ المَذكُورُ عندَ البَدَلِ.

ألَا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾؟ [المائدة: ٦] وكانَ اسْمُ الغَسْلِ مُشتَرَكاً يَتَناوَلُ الماءَ وكلَّ مائعٍ. فلمّا قالَ عندَ ذِكْرِ البَدَلِ: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ [المائدة: ٦] تَبَيَّنَ أنَّ المرادَ مِنْ ذلكَ الاِسْمِ المُشتَرَكِ هو هذا الاِسْمُ الخاصُّ المذكورُ عندَ البَدَلِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ اختَلَفوا في قولِهِ: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أنهُ أُريدَ بِهِ إنِ ارْتَبْتُمْ في حَيضِهِنَّ أو في عِدَّتِهِنَّ.

وعندَنا الاِرْتِيابُ في عِدَّتِهِنَّ لأنهُ لو كانَ المُرادُ منهُ الاِرْتِيابُ في حَيضِهِنَّ لَكانَ مِن حقِّ الكلامِ أنْ يقولَ: إنِ ارْتَبْنَ، أو يقولَ: واللّائي ارْتَبْنَ لِيكونَ مَنسوقاً على قولِهِ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ﴾ فلمّا قالَ: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ ثَبَتَ أنَّ المُرادَ إنِ ارْتَبْتُمْ في عِدَّةِ[4] الآيِساتِ والصغيراتِ، فَهِيَ ثلاثةُ أشهرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ولأنَّ المُرْتابةَ إذا رَأتِ الحَيْضَ ارْتَفَعَ رَيبُها، وصارَتْ عِدَّتُها بالحِيَضِ، وخَرَجَتْ مِنَ العِدَّةِ بالشُّهورِ.

وأمّا الآيِسةُ والصغيرةُ فإنهُ لا يُتَوَهَّمُ [عليهما ارْتِفاعُ الرِّيَبِ][5] فتكونُ عِدَّتُهُما بالأشْهُرِ.

فلذلكَ قُلْنا إنَّ هذا الاِرْتِيابَ في عِدَّةِ الآيِساتِ والصغيراتِ.

ثم قولُ أصحابِنا: إنَّ الرجلَ إذا طَلَّقَ امرأتَهُ الآيِسةَ أو الصغيرةَ أو الحامِلَ لِلسُّنَّةِ يُطَلِّقُها متى شاءَ، وليسَ لهُ وَقْتٌ مُعيَّنٌ في طلاقِها لِلسُّنَّةِ، وإنما كانَ كذلكَ لأنّا قد وَصَفْنا في قولِهِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّ المُرادَ منهُ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: لأوجه أحدها. (٣) في الأصل وم: ومعنى آخر. (٤) في الأصل وم: هذه. (٥) في الأصل وم: عليها ارتفاع الإياس والصغيرة فإنه لا يتوهم عليها.

ومَعْلومٌ أنَّ عِدَّةَ التي تَرَى الحيضَ أحَدُ شَيئينِ: إمّا الدَّمُ ولم تَعْتَبِرَ ما يُقابِلُها، وهو الطُّهْرُ، مِنَ العِدَّةِ [وإمّا الأطهارُ، ولم][1] تَعْتَبِرْ ما يُقابِلُها، وهو الحَيضُ، مِنَ العِدَّةِ.

وإذا كانَ كذلكَ لم يكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ يكونَ ههنا شيءٌ، يُقابِلُ عِدَّتَها، فَثَبَتَ فيهِ مَعْنَى قُبُلِ عِدَّتِها، فَيُجعَلُ ذلكَ الطُّهرُ.

وأمّا الآيِسَةُ والصغيرةُ والحاملُ فجميعُ أيّامِها مِنْ عِدَّتِها، وهو ثلاثةُ / ٥٧٦ ـ أ/ أشْهُرٍ، وليسَ في أيّامِها شيءٌ [مِنْ][2] عِدَّتِها، فلذلكَ قُلْنا: إنَّ لهُ أنْ يُطلِّقَها في أيِّ وقتٍ شاءَ، وكذا لهُ أنْ يُطَلِّقَ الحاملَ التي مِنْ ذواتِ الأقراءِ، وذلكَ لأنهُ إنما نُهِيَ عندَنا عنِ الطلاقِ على إثْرِ الجِماعِ في التي تَحيضُ لِتَوَهُّمِ أنْ يكونَ الجِماعُ أحْبَلَها، فإذا طَلَّقَها، ثم أرادَ نَفْيَ الحَبَلِ في العِدَّةِ لم يَتَهَيَّأْ لهُ ذلكَ.

وأمّا الآيِسةُ والصغيرةُ والحاملُ فليسَ فيهنَّ هذا التَّوَهُّمُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم هذهِ العِدَّةُ، وإنْ ذُكِرَتْ في هذهِ السورةِ على إثْرِ الطلاقِ الواحدِ، فكأنَّها في التَّطليقاتِ الثَّلاثِ، لأنَّ هذهِ العِدَّةَ التي ذَكَرَ اللهُ تعالى في سورةِ البقرةِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [الآية: ٢٢٨] ولأنهُ ذَكَرَها ههنا ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الآية: ١] على الإجمالِ، وذَكَرَها ثَمَّ على التَّفسيرِ. فإذا أُلْحِقَ[3] التَّفسيرُ بالمُجْمَلِ يَصيرُ في المَعْنَى والحُكْمِ كأنهُ واحدٌ.

ومَعْلومٌ أنَّ تلكَ في الواحدةِ والثَّلاثِ، ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وقولُهُ: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ هي التَّطليقةُ الثالثةُ؟ وإذا كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنا ثَبَتَ أنَّ لِلْمَرْءِ أنْ يُطَلِّقَ امرأتَهُ الحاملَ للسُّنَّةِ ثلاثاً.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ [فيهِ][4] أوجُهٌ مِنَ الفِقْهِ:

أحَدُها: أنهُ لمّا قالَ: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ دلَّ أنهُ ألْزَمَهُنَّ السُّكونَ في بيوتِهِنَّ التي كُنَّ فيها في حالِ قِيامِ النِّكاحِ، فيكونُ دليلاً في قَولِ أصحابِنا: إنهُ ليسَ للزوجِ أنْ يُسْكِنَها معهُ في بيتِهِ الذي هو فيهِ، بل يَتْرُكُها في ذلك المَسْكَنِ، ويَنْتَقِلُ هو بنفسِهِ، إنْ كانَ يُريدُ الانتِقالَ. يُصَحِّحُ هذا قولُهُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ [الطلاق: ٦] فلما دَخَلَ حَرْفُ ﴿مِن﴾ هذهِ الآيةَ دلَّ أنَّ الواجبَ على الزوجِ أنْ يُسْكِنَها في بيتٍ مِنْ بُيوتِهِ، ولا يدخُلُ عليها في ذلكَ البيتِ إلى أنْ تَنْقَضِيَ العِدَّةُ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: أنَّ][5] المَعْنَى عندَنا في قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ لِتَحصينِ مائِكُمْ، ولا يَخْرُجْنَ خَوفاً مِنْ وَطْءِ غَيرِ الأزواجِ واشْتِباهِ النَّسَبِ لو حَبِلْنَ. وإذا كانَ نَهَى عنْ إخراجِها وخُروجِها مِنَ البيتِ لهذا المَعْنَى لم يَكُنْ بُدٌّ مِنْ إيجابِ النَّفَقَةِ عليها لأنها إنما تَكْتَسِبُ نَفَقَتَها بالخُروجِ [فإذا نُهِيَتْ عنِ الخروجِ][6] لِتَحصينِ مائِهِ لم يُحْتَمَلْ أنْ تكونَ النَّفَقَةُ على غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: مَنْ شاءَ باهَلْتُهُ؛ إنَّ قولَهُ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نَزَلَ بعدَ قولِهِ في سورةِ البقرةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [الآية: ٢٣٤] وجَعَلَ عِدَّةَ الحامِلِ بِوَضعِ الحَمْلِ، ولا يُعْتَبَرُ أبْعَدُ الأجلَينِ.

لكنْ إنْ كانَ ابنُ مسعودٍ ﷺ لا يُباهِلُ، ويقولُ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ لا يجوزُ أنْ يدخُلَ في قولِهِ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وذلكَ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ إنما ذَكَرَهُ في عِدَّةِ الطلاقِ، وعِدَّةُ الطلاقِ لا تَتَضَمَّنُ عِدَّةَ الوفاةِ، إذا كانَتْ في الحَيضِ لم تَدْخُلْ عِدَّةُ الطلاقِ في عِدَّةِ الوفاةِ.

---

(١) في الأصل وم: وكذلك من جعل عدتها بالإظهار لم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: التحقق. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

ألا ترى أنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأتَهُ، وهي حاملٌ مِمَّنْ تَحيضُ، ثم ماتَ عنها زوجُها قَبْلَ انْقِضاءِ عِدَّتِها لم تدخلْ عِدَّةُ الوفاةِ في الحِيَضِ الثلاثِ، بلِ الحِيَضُ [هي][1] التي تدخُلُ في عِدَّةِ الوفاةِ، وتُؤْمَرُ بأنْ تَعْتَدَّ بأبْعَدِ الأجَلَينِ؟ فكذلكَ أمْرُ الحامِلِ.

وإذا اشْتَبَهَ[2] الحالُ أُمِرَتْ فيهِ بالاحْتِياطِ أنْ تَعْتَدَّ بأبْعَدِ الأجَلَينِ ولأنَّ عِدَّةَ الوفاةِ لم تَلْزَمْ لِوَطْءٍ مُتَقَدِّمٍ. ألا تَرَى أنها قد تَلْزَمُ مَنْ لم يكنْ زَوجُها مِنْ أهلِ الوَطْءِ؟ وأمّا عِدَّةُ الحَبَلِ والحَيضِ إنما لَزِمَتْ لِوَطْءٍ مُتَقَدِّمٍ. وإذا [لم][3] تَكُنْ عِدَّةُ الوفاةِ مِنْ جِنْسِ العِدَّةِ بالحَبَلِ، لم تدخُلْ عِدَّةُ الحَبَلِ، فلا يُوجَبُ فيهِ الاحْتِياطُ؛ وذلكَ في الاعْتِدادِ بأبْعَدِ الأجَلَينِ.

ثم التَّخصيصُ بِذِكْرِ الإنفاقِ على الحوامِلِ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بِمَعْنَى أنها في الحقيقةِ لا تدخُلُ في قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ لأنّا قد وَصَفْنا أنها نُهِيَتْ [عنِ الخروجِ][4] لِتَحْصينِ ماءِ الزوجِ، وإذا مَضَتْ تِسْعَةُ أشْهرٍ فقد خَرَجَتْ عنِ التَّحصينِ، فكانَ الوَجْهُ أنْ تَسْقُطَ النَّفَقَةُ بعدَ التِّسْعةِ.

لكنَّ اللهَ تعالى حثَّ على الإنفاقِ في جميعِ المدةِ لأنها، لا مَحالةَ، إنما أُبْقِيَتْ في هذهِ المدةِ لِوَطْئِهِ المُتَقَدِّمِ. فلذلكَ حثَّ اللهُ تعالى على الإنفاقِ على الحوامِلِ في ما يَقَعُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا ابنُ مَسْعودٍ ﷺ فإنهُ يَجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ عندَهُ مُبْتَدأً خِطابٍ، ليسَ بِمَعْطوفٍ على قولِهِ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ لأنّا نَعْلَمُ أنهُ لا يَجوزُ أنْ يَقَعَ الارْتِيابُ في مَنْ تَحْتَمِلُ القُروءَ؛ وذلكَ لأنَّ الأشْهُرَ في الآيِساتِ إنما أُقيمَتْ مُقامَ الأقراءِ في ذاتِ الحَيضِ، وإذا كانَتِ الحامِلُ مِمَّنْ تَحْتَمِلُ القُرْءَ لم يَجُزْ أنْ يَقَعَ لهمْ شَكٌّ في عِدَّتِها لِيَسْألوا عنْ عِدَّتِها. وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنهُ خِطابٌ مُبْتَدأً، وإذا كانَ خِطاباً مُبْتَدأً تَناوَلَ العِدَّةَ كلَّها.

وممّا يَدُلُّ على أنهُ مُبْتَدأُ خِطابٍ ما رُوِيَ في خَبَرِ سُبَيعةَ بنتِ الحارثِ الأسْلَمِيَّةِ: أنها وضَعَتْ بعدَ وفاةِ زوجِها بِخَمْسةٍ وعشرينَ ليلةً، فأمَرَها رسولُ اللهِ ﷺ أنْ تَتَزَوَّجَ. فَدَلَّتْ إباحَتُهُ النِّكاحَ قَبْلَ مُضِيِّ أربعةِ أشهُرٍ وعَشَرةٍ على أنَّ عِدَّةَ الحامِلِ تَنْقَضي بوضْعِ الحَمْلِ في جميعِ الأحوالِ.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ الحامِلَ إذا وضَعَتْ أحدَ الوَلَدَينِ انْقَضَتْ عِدَّتُها، واحتَجَّ بقولِهِ: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولم يَقُلْ أحمالَهُنَّ. ولكنْ لا يَسْتَقيمُ ما قالَهُ لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ قُرِئَ في بعضِ القراءاتِ أنْ يَضَعْنَ أحمالَهُنَّ[5].

والثاني: أنهُ قالَ: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولم يَقُلْ: يَلِدْنَ، بل عَلَّقَ بِوَضْعِ حَمْلِهِنَّ، والحَمْلُ اسْمٌ لِجَميعِ ما في بَطْنِهِنَّ، ولو كانَ كما قالَهُ لكانَتْ عِدَّتُهُنَّ بوضعِ بعضِ حَمْلِهِنَّ، واللهُ تعالى جَعَلَ أجَلَهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ فقد وَصَفْنا أنَّ التَّقْوى إذا ذُكِرَ مُطْلَقاً مُفْرداً يَتَناوَلُ الأوامِرَ والنَّواهِيَ؛ فكأنهُ قالَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أوامِرِهِ [خَوفاً مِنْ][6] أنْ يُضَيِّعَها أو في نواهيهِ أنْ يَرْتَكِبَها ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ لهُ وجْهانِ:

أحَدُهما: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ في نَفْسِ التَّقْوى أنْ يُيَسِّرَهُ عليهِ كما قالَ في قولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ و٦ و٧] يَعْني نُيَسِّرُ عليهِ فِعْلَ التَّقْوى والطاعةِ. فكذلكَ الأوَّلُ.

[والثاني][7]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في جميعِ الأمورِ: في المَكاسِبِ والتِّجاراتِ وغيرِها: أنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ مِنَ الحرامِ يَسَّرَ اللهُ عليهِ الحلالَ، ومَنِ اتَّقَى اللهَ في الشُّبَهِ يَسَّرَ عليهِ في المُباحِ، ومَنِ اتَّقَى اللهَ في تجارتِهِ [رَزَقَهُ][8] ما يَرْجو مِنَ الرِّبْحِ، ويأمُلُهُ، وكذلكَ جميعُ الأمورِ على هذا السبيلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أثبت. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج١٦٧/٧. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي ذلكَ التَّقْوَى ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾.

[والثاني][1]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ في المُراجَعَةِ والإشهادِ والطلاقِ والعِدَّةِ وغيرِ ذلكَ أنها، وإنْ خَرَجَتْ في الظاهِرِ مَخْرَجَ الخَبَرِ، فإنها كلُّها أمْرُ اللهِ تعالى، أنْزَلَهُ إليكُمْ، فاتَّبِعوها، وخُذوا بأمْرِهِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ هذا يَدُلُّ على ما وَصَفْنا أنَّ التَّقْوى إذا ذُكِرَ مُفْرَداً انْتَظَمَ الأمْرَ والنَّهْيَ جميعاً.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقالَ ههنا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فَجَعَلَ التَّقْوى مُكَفِّرَةً لِلسَّيِّئاتِ. فلولا أنَّ في التَّقْوَى أعظَمَ الحَسَناتِ لم يَكُنْ لِقولِهِ: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ في قراءةِ ابنِ مسعودٍ[2]: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾، وأنفِقوا عليهِنَّ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ قراءةُ عُمَرَ / ٥٧٦ ـ ب/ ﷺ هذهِ أيضاً.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: لا نَدَعُ كتابَ ربِّنا وسُنَّةَ نَبِيِّنا لِقولِ امْرأةٍ لا نَدري أصَدَقَتْ، أم كَذَبَتْ؟ فالكتابُ هذا، والسُّنَّةُ: يجوزُ أنْ يكونَ سَمِعَها منْ رسولِ اللهِ ﷺ في ذلكَ. أو يجوزُ أنْ تكونَ عندَ عُمَرَ ﷺ في هذا تِلاوَةٌ، قد رُفِعَتْ عَيْنُها، وبَقِيَ حُكْمُها، لِذلكَ قالَ: لا نَدَعُ كتابَ ربِّنا.

ألا تَرَى [إلى ما][3] قالَ عُمَرُ ﷺ في أمْرِ الزِّنَى: سيَأتي [على الناسِ][4] زمانٌ يقولونَ: لا نَجِدُ الرَّجْمَ في كتابِ اللهِ، وإنّا كُنّا نَتْلُو مِنْ قَبْلُ في سورةِ الأحزابِ: إنَّ الشَّيْخَ والشيخَةَ إذا زَنَيا فارْجُموهُما نَكالاً مِنَ اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ، فقد رُفِعَتِ التلاوةُ، وبَقِيَ حُكْمُها؟

فكذلكَ في أمْرِ النَّفَقَةِ يجوزُ أنْ تكونَ التِّلاوَةُ مَرْفوعةً، وحُكْمُها باقياً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ [ﷺ][5]: لا نَدَعُ كتابَ ربِّنا: [في][6] الخبرِ دَلالَةٌ أنَّ الكتابَ قد يُنْسَخُ بالسُّنَّةِ، لأنَّ عمرَ ﷺ إنما احْتَجَّ في امْتِناعِهِ عنْ تَرْكِ كتابِ ربِّهِ لقولِ امْرأةٍ، لم نَدْرِ أصَدَقَتْ أم كَذَبَتْ. ولولا أنَّ الكتابَ قد يُنْسَخُ بالسُّنَّةِ، وإلّا لم يَكُنْ لِاحْتِجاجِهِ[7] بقولِهِ: لا نَدَعُ كتابَ ربِّنا لِقولِ امْرأةٍ، لا نَدري أصَدَقَتْ، أم كَذَبَتْ، مَعْنًى. بل كانَ يقولُ: لا نَدَعُ كتابَ ربِّنا بالسُّنَّةِ. فلمّا قالَ: لا نَدَعُ كتابَ ربِّنا لِقولِ امْرأةٍ، لا نَدري أصَدَقَتْ، أم كَذَبَتْ، دلَّ أنَّ السُّنَّةَ قد تَنْسَخُ الكتابَ، واللهُ أعلَمُ.

ورَوَى أبو بكرٍ الأصَمُّ أنَّ فاطمةَ بنتَ قَيسٍ لما أنْكَرَ عليها عُمَرُ ﷺ حَديثَها، تَرَكَتْ رِوايَتَها إلى زَمَنِ مَرْوانَ، فلما اسْتُخْلِفَ مَرْوانُ جَعَلَتْ تَرْوي حديثَها، فأُخْبِرَ بِذلكَ مَرْوانُ، فَدَعاها، فَرَوَتْ هذا الحديثَ، فقالَ لها مَرْوانُ على ما كانَ يقولُ لها عُمَرُ ﷺ وقالَتْ لهُ: أينَ كتابُ ربِّنا؟ فَتَلَا عليها قولَهُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وأنْفِقوا عليهِنَّ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ فقالَتْ: كيفَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في المُطَلَّقَةِ ثلاثاً؟ واللهُ يقولُ في هذهِ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] ومَعْنَى الإمساكِ في المُطَلَّقَةِ مَعْدومٌ، فَأُفْحِمَ مَرْوانُ. ولو فَهِمَ مروانُ ما فَهِمَهُ غيرُهُ لم يُفْحَمْ؛ وذلكَ أنَّ هذهِ العِدَّةَ المذكورةَ في هذهِ الآياتِ إنما هي مَكانُ قولِهِ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ولا فَرْقَ هناكَ بَينَ التطليقةِ الواحِدَةِ والثلاثِ.

وإذا كانَ المذكورُ في هذهِ العِدَّةِ مَكانَ تلكَ، فالمذكورُ في النَّفَقَةِ في هذهِ كالمذكورةِ في تلكَ الآياتِ [وليسَ في تلكَ

(١) في الأصل وم: و. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية: ج/١٦٨. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: احتجاجه.

الآيةِ](١) فَرْقٌ بينَ الثلاثِ والواحدةِ، فلِذلكَ قُلْنا: في كتابِ اللهِ تعالى دلالةُ إيجابِ النَّفقةِ في المَبْتوتةِ والمُطلَّقةِ ثلاثاً، واللهُ أعلَمُ، ويكونُ حُجّةً على الشافِعِيِّ.

وممّا يَدُلُّ عليهِ، وهو أنهُ لِما استُدِلَّ بِذِكْرِ الإنفاقِ في قولِهِ: ﴿فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ على وجوبِ الإسكانِ والنَّهيِ عنِ الإخراجِ معَ تَوَهُّمِ الإنفاقِ دونَ الإسكانِ، فَلَأَنْ يُستَدَلَّ بِذِكْرِ الإسكانِ على الإنفاقِ، ولا يكونُ الإسكانُ إلّا بالإنفاقِ لِاتِّصالِهِ بِهِ، أحرَى، فصارَ قولُهُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ دليلاً على وجوبِ الإنفاقِ. وإنما قُلْنا: إنَّ الإنفاقَ مُتَّصِلٌ بالإسكانِ لأنهُ نَهى عنْ إخراجِها مِنْ بيتِهِ، وأمَرَ بإسكانِها، فلا يَحتَمِلُ ألّا يُؤمَرَ بالإنفاقِ لأنَّ في ذلكَ [تَضْييقاً عليها وتَعْسيراً](٢).

ألا تَرَى أنها إنما تَكْتَسِبُ النَّفقةَ بالخروجِ، فإذا نُهِيَ الزَّوجُ عنْ إخراجِها، ونُهِيَتْ هي عن الخروجِ، لم تَصِلْ إلى نَفَقَتِها إلّا بالزَّوجِ ضَرورةً، واللهُ أعلَمُ؟.

ولِأجْلِ أنّا نَظَرْنا أنَّ النَّفقةَ في الحامِلِ للحَمْلِ أو العِدّةِ، فوجَدْنا أنها لو كانَتْ واجِبةً للحَمْلِ، لم يَجِبْ إذا كانَ حَمْلُها بحيثُ لو وضَعَتْهُ لم يُلْزَمْ نَفَقَتُهُ عليهِ. وقد وَجَدْنا هذا الحكْمَ نَحْوَ حُرٌّ يَتزَوَّجُ أمَةَ رجلٍ بإذْنِ سَيِّدِها، فوَلَدَتْ ولدٌ: أنَّ نَفَقَةَ الولدِ على السيِّدِ، وكانَ يَجِبُ عليهِ مادامَ في بَطْنِ أُمِّهِ، فلمّا استَقامَ وجوبُ النَّفَقَةِ على الزوجِ مادامَتْ حاملاً، وإنْ كانَ بحيثُ لو وضَعَتْهُ لم تَلْزَمْهُ نَفَقَتُهُ. ثَبَتَ أنَّ النَّفَقَةَ في الحامِلِ لِمكانِ العِدّةِ لا لِلْحَبَلِ. والعِدّةُ في الحائلِ والحامِلِ واحدةٌ، فكذلكَ كانَ حُكْمُها واحداً، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ عندَنا ما وَصَفْنا أنَّ النَّفَقَةَ إنما وجَبَتْ لِاستِمْتاعِهِ المُتَقَدِّمِ. فإذا كانَتْ محبوسةً لِاستِمْتاعِهِ السابقِ أوجبَتِ النَّفقةُ عليهِ. وإذا كانَتْ مَحْبوسةً لا بهذا الحقِّ لم يكُنْ عليهِ النَّفقةُ، واللهُ أعلَمُ.

ولأنَّ في قولِهِ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ إضمارَ النَّفَقةِ، كأنهُ يقولُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وأنفِقوا عليهِنَّ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ لأنهُ لولا هذا الإضمارُ لم يَكُنْ لِقولِهِ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ على الظاهرِ مَعْنًى، لأنه لمّا قالَ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ عُلِمَ أنهُ جَعَلَ الإسكانَ عليهِمْ. ومَنْ كانَ عليهِ الإسكانُ فإنما يكونُ مِنْ وُجْدِهِ. فلم يكُنْ في قولِهِ: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ إلّا إعلامُ ما عَلِمْناهُ. وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنَّ في قولِهِ: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [إضماراً(٣) يَستَقيمُ عليهِ المَعْنى في قولِهِ: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾](٤) وليسَ بينَ القراءتَينِ اختِلافٌ، ولكنَّ إحداهما خَرَجَتْ على الإجمالِ، والثانيةَ على التَّفسيرِ على ما قُرِئَ في قولِهِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] [فاقْطَعوا أيمانَهما](٥) ولم يُحمَلْ ذلكَ على الاختِلافِ، بل حُمِلَتْ إحداهما على الإجمالِ، والثانيةُ على التَّفسيرِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ، مع ما إنْ لم يَثْبُتِ اللفظُ في قراءةِ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﵁ فتأويلُهُ(٦) أنْ يكونَ مِنْ خَبَرِ الآحادِ.

ومَعلومٌ أنَّ خَبَرَ ابْنِ مَسْعودٍ ﵁ وإنْ كانَ مِنْ خَبَرِ الآحادِ في ما يُسْنِدُهُ إلى الرسولِ ﷺ مَقْبولٌ. أو لمّا وَجَبَ قَبولُ خَبَرِ أبي هريرةَ ﵁ معَ ما قيلَ فيهِ منَ الضَّعفِ، فَلَأَنْ يُقْبَلَ خَبَرُ ابْنِ مَسْعودٍ ﵁ معَ فَضْلِهِ وَوَرَعِهِ وكَثْرةِ مُصاحبَتِهِ(٧) معَ النَّبِيِّ ﷺ وتَبَحُّرِهِ في الفِقْهِ أولَى. ومَنْ هَجَرَ قراءةَ ابْنِ مسعودٍ ﵁ خِيفَ عليهِ الزَّلَّةُ.

ألا تَرَى إلى ما رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﵄ أنهُ سألَ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: ما تَعُدّونَ آخِرَ القراءةِ؟ قالوا: قراءةَ زيدِ بْنِ ثابتٍ ﵁ قالَ: كلّا، كانَ يُعْرَضُ القرآنُ على رسولِ اللهِ ﷺ كلَّ عامٍ مَرّةً، وعُرِضَ عليهِ في العامِ الذي قُبِضَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ مَرّتَينِ، وقد شَهِدَهما جميعاً ابْنُ مسعودٍ ﵁ وإذا كانَ ابْنُ مسعودٍ، قراءتُهُ آخِرُ القراءاتِ، وهو الذي شُهِدَ عليهِ قراءةُ القرآنِ على رسولِ اللهِ ﷺ آخِرَ مَرّةٍ لم يَنْبَغِ أنْ يُعْرَضَ عنْ قراءتِهِ، وتُهْجَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ دلالةٌ أنهُ إنما يُسْكِنُها في جُزْءٍ مِنْ أجزاءِ مَسْكَنِهِ لا في المَوضِعِ الذي يَسْكُنُهُ هو، لأنَّ حَرْفَ ﴿مِنْ﴾ لِلتَّجزِئةِ والتَّبعيضِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تضييق عليها وتعسيره. (٣) في م: إضمار. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فإيمانهما، وهي قراءة ابن مسعود، انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/٢٠٨. (٦) في الأصل وم: فأوله. (٧) في الأصل وم: صحبته.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ مِنَ التأويلِ:

أحَدُهما: أي لا تُضارّوهُنَّ في الإنفاقِ، فتُضَيِّقوا عليهِنَّ النَّفَقَةَ، فيَخرُجنَ.

[والثاني:][1] لا تُضارّوهُنَّ في المَسكَنِ، فتَدخُلوا عليهِنَّ مِن غَيرِ استِئذانٍ، فيَضيقُ عليهِنَّ المسكَنُ، فيَخرُجنَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ دلَّ الأمرُ بالإنفاقِ على النَّهيِ عنِ الإخراجِ كما دلَّ النَّهيُ عنِ الإخراجِ على وجوبِ الإنفاقِ.

ثم التَّخصيصُ بِذِكرِ الإنفاقِ على الحاملِ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ لِمَعنًى أنها في الحقيقةِ لم تدخُلْ في قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ لأنّا قد وَصَفْنا أنها نُهِيَتْ [عنِ الخروجِ][2] لِتُحصِّنَ ماءَ الزوجِ، وإذا مَضَتْ تِسعَةُ أشهرٍ فقد خَرَجَتْ عنِ التَّحصينِ، فكانَ الواجبُ أنْ تَسقُطَ النَّفَقَةُ / ٥٧٧ ـ أ/ بَعدَ التِّسعةِ، قد ذَكَرنا هذا المَعنى في ما تَقَدَّمَ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الفائدةُ في تَخصيصِ الحواملِ بالإنفاقِ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهُ لولا هذهِ الآيةُ لكانَتِ الحواملُ يَخرُجنَ عنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ وعنْ قولِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، لأنَّ الأزواجَ لهمْ أنْ يَحتَجّوا عليهِنَّ أنَّ حرمةَ النِّكاحِ في ذواتِ الأحمالِ ليسَتْ لِحَقِّ الأزواجِ، ولكنْ لِحَقِّ ما في بَطنِها مِنَ الوَلَدِ[3].

ألَا تَرى أنهُ يَحرُمُ عليها النِّكاحُ مِنْ غَيرِهِ، وقد قُلنا: إنَّ النَّفَقَةَ إنما أُوجِبَتْ في غَيرِ الحوامِلِ لأنهنَّ يُحبَسْنَ عنْ نِكاحِ الأجانبِ بِحَقِّ الأزواجِ؟ فإذا كانَ الحَبسُ في الحواملِ لا لِحَقِّ الأزواجِ جازَ أنْ يكونَ حُجَّةً لهمْ في إسقاطِ النَّفَقَةِ عنهمْ. وإذا كانَتْ كذلكَ حَثَّ اللهُ لهمْ في الإنفاقِ على الحواملِ ما لم يَضَعنَ حَملَهُنَّ، لأنَّ ذلكَ الحَملَ مِنْ أثَرِ استِمتاعِهِمُ المُتَقَدِّمِ. ففائدةُ تَخصيصِ ذِكرِ الحواملِ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ هذا يَتَضَمَّنُ أوجهاً مِنْ أدِلَّةِ الفِقهِ:

أحَدُها: أنهُ قالَ: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يُثبِتُ أنَّ الإرضاعَ كانَ بإجارةٍ، وأنهُ إذا استأجَرَها لِتُرضِعَ وَلَدَهُ منها بعدَ المُفارَقةِ جازَتِ الإجارةُ، وحَلَّ لها أخذُ الأجرِ، وأنهُ [لو][4] استأجَرَ امرأتَهُ في صُلبِ النِّكاحِ على إرضاعِ ولدِهِ منها لم يَجُزْ، ولم يَكُنْ لها أخذُ الأجرِ لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ بَدَلَ الرَّضاعِ في صُلبِ النِّكاحِ بِلَفظِ الرزقِ بقولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فإذا سَمّى ما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى رزقاً أجراً لم يكُنْ أجراً، وكانَ بِحَقِ الرِّزقِ والكِسوَةِ، فلذلكَ لم تَجُزِ الإجارةُ في صُلبِ النِّكاحِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][5]: قولُهُ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ اللبَنَ، وإنْ خُلِقَ لِمَكانِ الولدِ، فهو مِلْكٌ لها، ولولا ذلكَ لم يكنْ لها أنْ تأخُذَ الأجرةَ على لبَنٍ ليسَ لها فيهِ مِلْكٌ.

[والثالثُ][6]: فيهِ دليلٌ على أنَّ حقَّ الإرضاعِ والنَّفَقةِ على الأزواجِ في حقِّ الأولادِ، وحقَّ الإمساكِ والحضانةِ والكفالةِ على الزوجاتِ، ولولا ذلكَ لكانَ لها بعضُ الأجرِ، ثَبَتَ أنَّ حقَّ الإرضاعِ على الأزواجِ، وعلى الزوجاتِ الكفالةُ والإمساكُ، واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ][7]: لأجلِ أنّا لو جَعَلنا اللبَنَ مِلكاً للولدِ مَخلوقاً لهُ، وجَعَلنا النَّفَقَةَ على الأمِّ مِنْ مالِ نفسِها لكانَتْ نفقَتُها تُغني، ولا يَتَهَيَّأُ لها كَسْبُ النفقةِ لِاشتِغالِها بالإرضاعِ [تَجوعُ]، وتَهلِكُ، ويذهَبُ لَبَنُها، فيَبطُلُ الرَّضاعُ[8] وإذا كانَ إيجابُ الرَّضاعِ عليها يُسقِطُ [عنهُ][9] مِنْ حيثُ يُرادُ جُعلُ النَّفَقةِ، أسقَطناهُ[10] عنها، وجَعَلنا مِلْكَ اللبَنِ [لها][11] لِتَأخُذَ الأجرَ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: الولدان. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ثم.
(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فاسقطناه.
(١١) ساقطة من الأصل وم.

[والخامسُ][1]: في هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الأجْرَ إنما يَجبُ بعدَ استيفاءِ المنافعِ، فإنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ إنما أوجَبَ الإيتاءَ بعدَ الإرضاعِ.

[والسادسُ][2]: في قولِهِ: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإرضاعَ إنما هو بإجارةٍ قد سَبَقَتْ. لِذلكَ قالَ أصحابُنا: إنَّ الأُجرَةَ إنما تَجبُ عندَ استيفاءِ العَمَلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: أنْ يقولَ: ﴿وَأْتَمِرُوا۟﴾ يعني تَشاوَرُوا في إرضاعِهِ إذا تعاسَرَتْ هي.

والثاني: ﴿وَأْتَمِرُوا۟﴾ أي اعْمَلوا بأمْرِ مَنْ جَعَلَ اللهُ تعالى إليه الأمرَ بالمعروفِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ يعني إذا تَنازَعْتُمْ في الرَّضاعِ، وأبَتِ الأمُّ أنْ تُرْضِعَهُ، فاطْلُبوا أُخْرَى، تُرْضِعُهُ عندَها.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي مَنْ وُسِّعَ عليهِ في الرِّزْقِ فَلْيُنْفِقْ نَفَقَةً واسعةً ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ يَعْني ضُيِّقَ عليهِ، و﴿قُدِرَ عَلَيْهِ﴾ ههنا بِمَعْنى ضُيِّقَ عليهِ، وهو كما قالَ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي فظنَّ أنْ لَنْ نُضَيِّقَ عليهِ، وكذلكَ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦ و. . .] يَعْني ويُضَيِّقُ عليهِ؛ أي مَنْ ضَيِّقَ عليهِ فَلْيُنْفِقْ نَفَقَةً صغيرةً. فذلكَ قولُهُ: ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فهو يدلُّ على أنَّ العبادَ ما اكْتَسَبوا مِنَ الأموالِ، فهي كلُّها ممّا آتاهُمُ اللهُ تعالى، وأنَّ للهِ تعالى في أفعالِ العبادِ وفي ما يَكْتَسِبونَهُ مِنَ الأموالِ صُنْعاً وتَدْبيراً، لأنهُ لولا ذلكَ لكانَ يجوزُ أنْ يُكَلِّفَهُمُ[3] اللهُ تعالى [بالنَّفَقةِ][4] وإنْ لم يُؤْتِها لهمْ إذا كانَ في قُدْرتِهِمْ[5] أنْ يَكْتَسِبوا[6] ممّا لم يُؤتِهِمُ[7] اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ هذا دليلٌ على أنهُ إذا عَجِزَ عن نَفَقةِ امرأتِهِ لم يُفَرَّقْ بَينَها وبَينَهُ، لأنهُ إذا فَرَّقَ بَينَهما لم تَصِلْ إلى زَوجٍ يُنْفِقُ عليها للحالِ، بل تَحْتاجُ فيهِ إلى انْقِضاءِ العِدَّةِ.

وقد يُتَوَهَّمُ في خلالِ ذلكَ أنْ يُوسِرَ الزَّوجُ لأنَّ إنجازَ وَعْدِ اللهِ تعالى في اليَسارِ بَعْدَ العُسْرِ أقْرَبُ مِن قُدْرَتِها [على الحصولِ][8] على زَوجٍ، يُنْفِقُ عليها. وليسَ هذهِ كالأمَةِ، لأنهُ إذا باعَ الأمَةَ دَخَلَتْ في مُلْكِ الآخرِ، يُنْفِقُ عليها، واللهُ أعلَمُ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وَعْداً لِجميعِ الأُمَّةِ: أنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بالعُسْرِ يَتْبَعُهُ اليُسْرُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ خِطاباً لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ كانوا في عُسْرٍ وضِيقِ عَيشٍ، فَوَعَدَهُمُ اللهُ بعدَ ذلكَ العُسْرِ الذي كانوا فيهِ يُسْراً.

وقد أنْجَزَ اللهُ تعالى الوَعْدَ حيثُ فَتَحَ لهمُ الفُتوحَ، ونَصَرَهُمْ على أعدائِهِمْ، وغَنِموا أموالَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ وَصَفَ اللهُ تعالى القَريةَ بالعُتُوِّ. ومَعْلومٌ أنها لا تَعْتُو، ولكنَّ المرادُ منهُ أنْ عَتا أهلُها عن أمرِ ربِّهِمْ.

وقد يجوزُ أنْ يُكَنَّى بالمكانِ عنِ الأهلِ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] يعني اسْألْ أهلَ القريةِ. وفي هذا دلالةٌ أنَّ ما خَرَجَ مَخْرَجَ الكنايةِ في الحقيقةِ لم يكُنْ كَذِباً، وإنْ كانَ في ظاهرِهِ تَراءَى أنهُ كَذِبٌ.

ألا تَرَى قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾؟ [ص: ٢٣] ومَعْلومٌ أنهُ لم يكُنْ هناكَ نَعجاتٌ[9]، ولكنْ كِنايةٌ عنِ النساءِ، فَخَرَجَ على الصِّدْقِ في الحقيقةِ كِنايةً أنَّ هذا أخي لهُ تِسْعٌ وتِسْعونَ امرأةً، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: يكلفه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قدرته. (٦) في الأصل وم: يكتسب. (٧) في الأصل وم: يؤته. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نعجة.

والعُتُوُّ النِّهايةُ في الاِسْتِكْبارِ؛ ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ لهُ أوجهٌ مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: يقول: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ أي بَلَغوا في الكُفْرِ والعُتُوِّ والاِسْتِكبارِ مَبْلَغاً صاروا مِنْ أهلِ الحسابِ الشديدِ والعذابِ المُنْكَرِ.

[والثاني][١]: يَجْعَلُ ما ذَكَرَ اللهُ تعالى مِنْ نُزولِ النِّقْمةِ بالأُمَمِ الماضيةِ لِعُتُوِّهِمْ واسْتِكبارِهِمْ حِساباً شديداً لهذهِ الأُمَّةِ لِيَتَذَكَّروا، ويَتَّعِظوا.

[والثالثُ][٢]: يكونُ مَعْناهُ: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ أي سَتُحاسَبُ حساباً شديداً في الآخِرةِ كما كانَ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] بِمَعْنَى: وإذْ يقولُ اللهُ، فكذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وَوَجْهُ نزولِ هذهِ الآياتِ أنْ يكونَ لهُ مَعْنَيانِ:

أحَدُهما: تَخويفُ أُمَّةِ محمدٍ ﷺ والكَفَرةِ مِنْ أهلِ مكةَ بما نَزَلَ بالأُمَمِ الخاليةِ حينَ تَرَكوا اتِّباعَ رُسُلِهِمْ والإيمانَ بهِمْ، واسْتَكْبَروا في أنفسِهِمْ، وعَتَوا، لكي يَنْتَهِيَ أهلُ قَرْيَتِهِ ﷺ عمّا هُمْ فيهِ مِنَ الكُفْرِ والعُتُوِّ، ويَحْذَروا الوقوعَ فيهِ في حادثِ الأوقاتِ.

[والثاني][٣]: يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ تَسْكيناً لِقَلْبِ رسولِ اللهِ ﷺ وتَهْويناً عليه في ما يَلْقَى مِنْ أمْرِ قومِهِ وعِصْيانِهِمْ وعُتُوِّهِمْ، ولِيُعْلَمَ ما لَقِيَتِ الرسلُ المُتَقَدِّمةُ مِنْ أُمَمِهِمْ حتى بَلَغَ كُفْرُهُمْ واسْتِكْبارُهُمُ المَبْلَغَ الذي وَقَعَ اليأسُ مِنْ إيمانِهِمْ حتى أنْزَلَ اللهُ تعالى بهِمْ ما أنْزَلَ مِنَ النِّقَمِ والعقوبةِ.

ويجوزُ أنْ تكونَ هذهِ [الآياتُ][٤] مِحْنَةً امْتَحَنَ بها رسولَهُ لِتُعْلَمَ شَفَقَتُهُ على أُمَّتِهِ في تركِ الدعاءِ /٥٧٧ ـ ب/ عليهِمْ بالإهلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي شِدَّةَ أمْرِها أو نِقْمةَ أمْرِها أوعُقوبةَ كُفْرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي عاقِبةُ عُتُوِّها خَساراً في الآخِرةِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فاتَّقوا اللهَ يا مَنْ تَدَّعونَ أنَّ [لَكُمْ ألباباً][٥] فاتَّقوهُ عنْ أنْ تكْفُروا بهِ وبرسولِهِ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ خِطابَ اللهِ إنما يَتَناولُ العقلاءَ منهمْ، وأنَّ مَنْ لا عَقْلَ لهُ فلا خِطابَ عليهِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿رَّسُولًا﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: أنْ يَجْعَلَ الذِّكْرَ والرسولَ [كلمةً واحدةً][٦]، فيقولَ ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ وهو الرسولُ. وإنما سَمّاهُ ذِكْراً لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ شَرُفَ، وصارَ مذكوراً.

[والثاني][٧]: سَمّاهُ ذِكْراً لأنهُ يُذَكِّرُهُمُ الصالحَ والضارَّ وما يَرْجِعُ إلى دينِهِمْ وعُقْباهُمْ.

[والثاني][٨]: يجوزُ أنْ يكونَ فيهِ إضمارٌ، وقولُهُ تعالى: أنْ يقولَ: أنْزَلَ اللهُ إليكمْ رسولاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ [بالخَفْضِ والنَّصْبِ][٩].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لهم لباً. (٦) في الأصل وم: وله واحداً. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: و. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: فمعناه أنها تبين الحلال والحرام والأمر والنهي، وأدرج بعد: والنصب: الآيات الأعلام والحجج، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٧٠.

فَمَنْ قرَأَ ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بالخفضِ فمَعْناهُ أنها تُبيِّنُ الحلالَ والحرامَ والأمرَ والنَّهيَ.

ومَنْ قرَأَ بالنَّصبِ فكأنهُ يريدُ أنَّ الله تعالى أوضحَ آياتِهِ، وبيَّنها، حتى إنَّ مَنْ تفكَّرَ فيها وفي جوهَرِها عَلِمَ أنَّها مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وإذا كانَ هذا هكذا فَحَقُّ هذا الكلامِ أنْ يقولَ: لِيُخرجَ الذينَ آمنوا[1] مِنَ الظُّلُماتِ إلى النورِ، ولكنْ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ لِيُخرِجَ الذينَ يؤمِنونَ على ما جازَ أنْ يُرادَ مِنَ الماضي المُستَقْبَلُ. كقولِهِ[2] تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي وإذْ يقولُ اللهُ: يا عيسى ابنَ مريمَ جازَ، أنْ يُرادَ مِنَ المُستَقْبَلِ الماضي. وهذا سائغٌ في اللغةِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: لِيُخرِجَ الذينَ آمَنوا مِنْ ظُلُماتٍ، تَحْدُثُ لهمْ بَعْدَ إيمانِهِمْ، إلى النورِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَعْني الذينَ وحَّدوا اللهَ تعالى، وعَظَّموهُ، وبَجَّلوهُ [ونَزَّهوهُ][3] مِنْ مَعاني الشُّبَهِ، وَوَصَفوهُ بالتعالي عنِ العُيوبِ والآفاتِ، وعَمِلوا في إيمانِهِمْ صالحاً، إذْ[4] خافوهُ، ورَجَوهُ بإيمانِهِمْ؛ وذلكَ عَمَلُهُمُ الصالحُ في الإيمانِ، وذلكَ مَعْنى قولِهِ ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] ومَعْنى ذلكَ الكَسْبِ مِنَ التَّعْظيمِ والتَّبْجيلِ والرجاءِ والخَوفِ في نَفْسِ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في أداءِ الفرائضِ التي افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي طاعةً في الدنيا وثواباً في الآخِرَةِ. وذلكَ مَعْنى قولِهِ ﷻ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ مَنْ نالَ الإيمانَ فإنما نالَهُ بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ، لأنهُ لولا ذلكَ[5] لم يكُنْ لِيَمُنَّ اللهُ تعالى عليهِ بذلكَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: منهمْ مَنْ قالَ: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ أي طِباقاً مِثْلَ السمواتِ: بعضُها طَبَقاً فوقَ بعضٍ. وبعضُهُمْ مَنْ قالَ: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ يَعْني سَبْعَ جَزائرَ على مِثْلِ ما قالَ: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] فكذلكَ خلَقَ سَبْعَ جزائرَ. ومنهمْ مَنْ قالَ: خَلَقَ هذهِ الأرضَ التي نُشاهِدُها على حَدِّ السَّماءِ ومِقْدارِها، والسِّتُّ مِنْ وراءِ هذهِ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وليسَ بِنا إلى تَعَرُّفِ ماهِيَّتِها وكَيفيَّتِها وعَدَدِها حاجةٌ لأنهُ ليسَ في تعريفِها حُكْمٌ يَتَعَلَّقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحدُهما: يَتَنَزَّلُ الوَحْيُ بينَهُنَّ، وما يُنَزِّلُ اللهُ تعالى مِنَ الكتبِ والرسلِ بَيْنَهُنَّ. ومَعْناهُ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ أمَّةَ محمدٍ ﷺ أنهمْ لم يُخَصُّوا بِمِحْنَةِ الرسلِ والكتبِ والوَحْيِ، بل كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ مُمْتَحَنٌ بذلكَ.

والثاني: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يعني التَّكوينَ. ووجهُ ذلكَ أنهُ لا يَخلو مكانٌ في السمواتِ والأرضِ في كلِّ وقتٍ مِنْ كونٍ، يُكَوِّنُهُ اللهُ تعالى، أو مُحْدَثٍ يُحْدِثُهُ، وذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فَيجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ في قولِهِ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أمْرَ تكوينٍ. ومَعْناهُ ما وَصَفْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لكي تَعْلَموا إذا تَفَكَّرْتُمْ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما جرى مِنَ التدبيرِ فيهما أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هذا المَبْلَغَ كانَتْ قُدْرَتُهُ ذاتِيَّةً، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ عمّا أرادَهُ. أو يدلُّ هذا التَّدْبيرُ أنهُ خَرَجَ عنْ عالِمٍ، لا يَخْفى عليهِ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

---

(١) في الأصل وم: كفروا. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: هكذا.

أحَدُها: أنَّ اللهَ تعالى على خَلْقِ فِعْلِ كلِّ فاعلٍ مِنْ خَلائقِهِ قديرٌ. ووجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد كانَ أعْلَمَهُمْ بِخَلْقِ السمواتِ والأرَضِينَ بقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ فلمّا قالَ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لم يكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ يكونَ هذا في غَيرِ خَلْقِ السمواتِ والأرَضِينَ. فَثَبَتَ أنَّ فيهِ دلالةَ قُدْرَتِهِ على خَلْقِ فِعْلِ كلِّ مَخْلوقٍ، لأنهُ لما بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ وتَدْبيرُهُ في السمواتِ والأرَضِينَ معَ عِظَمِ أمْرِهِما وشأنِهِما ومعَ عَجْزِ البَشَرِ عنْ تدبيرِ مِثْلِهِما، فَلأنْ تَبْلُغَ قُدْرَتُهُ في ما يَقَعُ فيهِ تدبيرُ البَشَرِ، وهو أفعالُهُمْ أحقُّ، واللهُ المستعانُ.

ووجْهٌ آخَرُ أنْ يقولَ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما وَعَدَ، وأوعَدَ، قديرٌ، أو على كلِّ شيءٍ مِنْ مَنافِعِ العبادِ ومَضارِّهِمْ قديرٌ.

وعلى قولِ [المعتزلةِ][1]: إنَّ اللهَ، لا يَقْدِرُ على فِعْلِ بعوضةٍ فَما فوقَها، ولا يَقْدِرُ على إصلاحِ أحدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وإنْ نَفَدَ جميعُ خَزائِنِهِ، وإنَّ مَنْ صَلَحَ فإنما يَصْلُحُ بنفسِهِ ومَنْ فَسَدَ [فإنما يَفْسُدُ][2] بنفسِهِ.

وهذا اخْتِلافُ ما وَصَفَهُ اللهُ تعالى بهِ نفسَهُ مِنْ أنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَۢا﴾ يَعْني أنَّ عِلْمَهُ، لا يَشُذُّ عَنْ شيءٍ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ مِنَ الفِعْلِ والأمْرِ وغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل.

سورة التحريم

وهي مدنية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾ هذا في الظاهرِ فَظيعٌ بأنْ يُحَرِّمَ رسولُ اللهِ ﷺ ما أحلَّ اللهُ لهُ.

ومَنْ قالَ بأنهُ حَرَّمَ ما أحَلَّ اللهُ لهُ فقد قالَ أمْراً مُنْكَراً، ولوِ اعْتَقَدَ ذلكَ كانَ كُفْراً منهُ؛ إذْ مَنْ حَرَّمَ ما أحَلَّ اللهُ تعالى كانَ كافِراً، ومَنْ كانَ اعْتِقادُهُ في رسولِ اللهِ ﷺ هذا، فهو كافرٌ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: دلَّتْ هذهِ الآيةُ /٥٧٨ ـ أ/ على أنْ ليسَ لأحدٍ أنْ يُحَرِّمَ ما أحَلَّ اللهُ تعالى، لأنَّ اللهَ تعالى مَنَعَ رسولَهُ عنْ ذلكَ.

لكنَّ الأمْرَ عندَنا ليسَ على ما ظَنَّهُ أبو بكرٍ ولا على [ما](٢) سَبَقَ إليهِ وَهْمُ بعضِ الجُهّالِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حَرَّمَ شيئاً، أحَلَّهُ اللهُ تعالى. ومَنْ تَوَهَّمَ هذا برسولِ اللهِ ﷺ فقد حَكَمَ على رسولِ اللهِ ﷺ بالكُفْرِ.

وتأويلُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، على وجْهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ تحريمَ ما أحَلَّ اللهُ تعالى، هو أنْ يَعْتَقِدَ تَحْريمَ المُحَلَّلِ وتَحليلَ المُحَرَّمِ في ما حَرَّمَ اللهُ تعالى مُطلَقاً. فَمَنِ اعْتَقَدَ تَحْريمَهُ حُكِمَ عليهِ بالكفرِ، ورسولُ اللهِ ﷺ لم يَعْتَقِدْ تَحريمَ ما أحَلَّ اللهُ؛ إذْ لم يَرَ جِماعَها عليه مُحَرَّماً، بلِ امْتَنَعَ عنِ الانْتِفاعِ بها باليَمينِ. والحُرْمَةُ التي تَثْبُتُ بسببِ اليَمينِ، لم تَكُنْ مِنْ فِعْلِ الآدَمِيِّ، وإنْ ثَبَتَتْ بِمُباشَرَةِ السببِ منهُ كالتحريمِ بالطلاقِ وبِغَيرِهِ مِنَ الأسبابِ؛ فإنما تَثْبُتُ مِنَ اللهِ تعالى عَقيبَ مُباشرةِ الأسبابِ مِنَ العبادِ وكسائرِ الأحكامِ كيفَ وإنَّهُ باليَمينِ لا تَثْبُتُ حُرْمَةُ نفسِ الفِعْلِ، وإنما المُحَرَّمُ مَنْ تَرَكَ تعظيمَ اللهِ تعالى الواجبَ بسببِ اليَمينِ. وهذا لا يُعَدُّ تحريمَ الحَلالِ وتَحْليلَ الحَرامِ، [لو أرادَ](٣) بالتَّحْريمِ مَنْعَ النفسِ عنْ ذلكَ مَعَ اعْتِقادِهِ بكونِهِ حلالاً أنْ يكونَ قَصَدَ بهِ قَصْدَ تحريمِ عينِهِ.

وقد يَمْتَنِعُ المَرْءُ عنْ تَناوُلِ الحَلالِ لِغَرَضٍ لهُ في ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] ولم [يُرِدْ بهِ](٤) تَحْريمَ عينِهِ ولا التَّحْريمَ الشَّرْعِيَّ؛ إذِ الصَّبِيُّ ليسَ مِنْ أهلِهِ، وإنما أُريدَ بهِ امْتِناعُهُ مِنَ الارْتِضاعِ إلّا مِنْ ثَدْيِ أُمِّهِ. فَعَلَى ذلكَ ههنا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ نُدِبَ إلى حُسْنِ العِشْرَةِ مَعَ أزواجِهِ إلى الشَّفَقَةِ [عليهنَّ، فَبَلَغَ في حُسْنِ العِشْرَةِ والصُّحْبَةِ مَبْلَغاً، امْتَنَعَ](٥) عنِ الانْتِفاعِ بما أحَلَّ اللهُ لهُ، وأباحَ لهُ التَّلَذُّذَ بِهِ، يَبْتَغي بهِ حُسْنَ عِشْرَتِهِنَّ، ويَطْلُبُ بهِ مَرْضاتَهُنَّ.

فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ أي لا تَبْلُغَنَّ بكَ الشفقةُ عليهنَّ وحُسْنُ العِشْرَةِ مَعَهُنَّ مَبْلَغاً، تَمْتَنِعُ عنِ الانْتِفاعِ بما أحَلَّ اللهُ لكَ، فَيُخَرَّجُ هذا مُخْرَجَ تَخْفيفِ المُؤونةِ على رسولِ اللهِ ﷺ في حُسْنِ العِشْرَةِ مَعَهُنَّ لا مُخْرَجَ النَّهْيِ

---

(١) من م، في الأصل: مكية. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أو أريد. (٤) في الأصل وم: يرد. (٥) من م، في الأصل: ما أحل الله لك أي لا يبلغن بك الشفقة عليهن وحسن العشرة معهن مبلغ يمتنع.

والعِتابِ عنِ الزَّلَّةِ. وهو كقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] [فرسولُ اللهِ ﷺ كانَ بَلَغَ مِنْ شَفَقَتِهِ على أولئكَ الذين تَخَلَّفوا عنِ الإيمانِ مَبْلَغاً كادَتْ نفسهُ تَهلِكُ فيها، فكانَ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾][1] تَخفيفُ الأمرِ عليهِ.

وكذلكَ قولُهُ[2]: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ليسَ في الحقيقةِ نَهْيٌ عنِ السخاءِ على النِّهايةِ، ولكنْ تَخفيفُ الأمرِ عليهِ أنْ ليسَ عليكَ الإسرافُ في السخاءِ والنهايةُ في ذلكَ بحيثُ لم تُبْقِ لِنَفْسِكَ وعِيالِكَ شيئاً، وتُؤثِرُ غيرَكَ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ خارجٌ مَخْرَجَ تَخفيفٍ عليهِ في حُسْنِ العِشْرَةِ لا مَخْرَجَ النَّهْيِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في سَبَبِ التَّحريمِ: [فمنهُمْ][3] مَنْ ذَكَرَ أنَّ حفصةَ ﵂ زارَتْ أهلَها، والنَّبِيُّ ﵇ في بيتِ حَفْصَةَ، فجاءَتْ أُمُّ إبراهيمَ ماريةُ القِبْطِيَّةُ حتى دَخَلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ فواقَعَها، فجاءَتْ حَفصةُ ﵂ [وهما][4] نائمانِ، فَرَجَعَتْ إلى بيتِ أهلِها، فَمَكَثَتْ عامةَ الليلِ. وقالَتْ حَفْصةُ في آخِرِ هذا الخبرِ: ما رأيتَ لي حُرْمةً، وعَرَفْتَ لي حقّاً، فقالَ لها ﵇: اكْتُمي عليَّ هذا، وهيَ عليَّ حرامٌ. فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ.

ومنهمْ مَنْ يَذْكُرُ [أنه][5] كانَ يومُ عائشةَ ﵂ [فانْطَلَقَتْ حَفصةُ إلى عائشةَ، وأطْلَعَتْها على ما رأتْ][6] فَغَضِبَتْ عائشةُ ﵂، فلم تَزَلْ بِنَبِيِّ اللهِ حتى حَرَّمَها، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ.

[وقالَ عِكْرِمةُ: نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ][7] في امرأةٍ يُقالُ لها: أمُّ شريكٍ ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ﷺ فلم يَقْبَلْ رسولُ اللهِ ﷺ طَلَباً مَرْضاةَ أزواجِهِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الذي حَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﵇ كانَ عَسَلاً، كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَشربُهُ عندَ بعضِ النساءِ، فقالَتِ امرأةٌ مِنْ نسائِهِ لصاحِبَتِها: إذا جاءَكِ النَّبِيُّ ﷺ فقولي لهُ: ما ريحُ المَغافيرِ فيكَ؟ فقالَتْ لِلنَّبِيِّ، فَحَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ فنزلَتْ هذهِ الآيةُ.

وليسَ لنا إلى تَعَرُّفِ السببِ الذي وقَعَ التحريمُ بِهِ ولا إلى تَعْيينِ الشيءِ الذي حَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ حاجةٌ. ولكنّا نَعْلَمُ أنَّ الأمرَ الذي كانَ؛ فهو جَرَى بَينَهُ وبَينَ زوجتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غَفورٌ لِما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ، لو كانَ، أو يكونُ، ﴿رَّحِيمٌ﴾ حينَ[8] لم يُعاقِبْكَ بما اجْتَرَأْتَ مِنَ الإقدامِ على اليمينِ لا بِإذْنٍ سَبَقَ مِنَ اللهِ لكَ فيهِ، أو ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عليكَ وعلى [زَوجَتَيكَ إنْ تُبْتُمْ، ولم تَعودوا إلى صَنيعِكُمْ][9] أو ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بما خَفَّفَ عليكَ مِنْ مَؤونةِ العِشْرَةِ، ولم يَحْمِلْ عليكَ ما حَمَلْتَ على نفسِكَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [اختُلِفَ فيهِ أيضاً][10]: فمنهُمْ مَنْ يحملُ هذا على ابْتداءِ الخِطابِ، ويَصْرِفُ المُرادَ إلى غَيرِ رسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد كانَ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ، فلم يكُنْ يَحتاجُ إلى التَّكفيرِ لإزالةِ المآثِمِ.

ولكنْ نحنُ نقولُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وإنْ كانَ هذا تَحِلَّةً، فهو وأُمَّتُهُ في أحكامِ الشرائعِ مأخوذونَ، ويكونُ على هذا مَغْفِرةُ زَلّاتِهِ: ما تَقَدَّمَ [منها][11] وما تأخَّرَ بِمُباشَرَةِ أسبابِها مِنَ التوبةِ والكَفّارةِ ونَحْوِ ذلكَ. فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ مُنْصرِفاً إلى النَّبِيِّ وأُمَّتِهِ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ رسولُ [اللهِ قَصَدَ][12] إلى التَّحريمِ؛ أعني مَنَعَ نفسَهُ عنِ الانْتِفاعِ بهذا معَ اعْتِقادِ الحِلِّ لا إلى اليمينِ، فَجَعَلَ اللهُ تعالى ذلكَ منهُ يَميناً، فيكونُ فيهِ دلالةٌ على أنَّ التَّحريمَ يَمينٌ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فاطلعت حفصة على رسول الله ﷺ وجاريته مارية فأمرها رسول الله أن تكتم عليه فأخبرت حفصة بما رأت عائشة. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: زوجتك إن تابتا، ولم تعودا إلى صنيعهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

ولهذا قالَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ: إنَّ مَنْ قالَ لِامرأتِهِ: أنتِ حَرامٌ عليَّ، ولا نِيَّةَ لهُ، فهو يَمينٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أفْصَحَ بالحَلْفِ، فَكَنّى عنهُ باليَمينِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ على قراءةِ العامةِ. وفي بعضِ القراءاتِ: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾ كفّارةَ[1] ﴿أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

وَوَجهُ الفَرضِ فيهِ أنَّ الأُمَمَ مِن قَبْلُ، لم يُؤذَنْ لهمْ بالحِنْثِ في اليَمينِ، ولا أنْ يَحُلّوا منها بالكَفّارةِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾؟ [ص: ٤٤] فلم يأذَنْ لهُ بالحِنْثِ، وأباحَ لهُ الضَّرْبَ، ثم أباحَ بهذهِ الآيةِ حِلَّ اليَمينِ بالحِنْثِ والكَفّارةِ، فَنَسَبَ الحِلَّ إلى الكَفّارةِ [مَرَّةً][2] ومَرَّةً إلى إحلالِها بِنَفْسِها مِن جِهَةِ الحِنْثِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي وَسَّعَ عليكُمْ، وأحَلَّ لكمْ ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

ففي هذا أنَّ كلَّ ما ذُكِرَ فيه: ﴿كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٠، و١٢١] أي فُرِضَ لكمْ فهو مَوضِعُ الإباحةِ والتَّوَسُّعِ وما ذُكِرَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فهو على الإيجابِ والإلزامِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] وذلكَ كلُّهُ في مَوضِعِ الوجوبِ.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] مَعْناهُ أباحَ لكُمُ الدخولَ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولَى بكُمْ في ما امْتَحَنَكُمْ مِنَ الكَفّارةِ وغَيرِها، أو أولَى بكُمْ في نَصْرِكُمْ /٥٧٨ ـ ب/ والدَّفْعِ عنكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي العليمُ بِمَصالِحِكُمْ أو مَقاصِدِكُمْ، أو بما تُسِرّونَ وما تُعْلِنونَ، أو بما كانَ ويكونُ، الحكيمُ هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطَأُ في التَّدْبيرِ، أو حكيمٌ بما حَكَمَ عليكُمْ مِنْ تَحِلَّةِ الأيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ: ﴿الْعَلِيمُ﴾ إلزامُ المُراقبةِ والمُحافَظةِ ودعائِهِ إلى التَّبَصُّرِ والتَّيَقُّظِ في كلِّ ما يَتَعاطاهُ المرءُ مِنَ الأفعالِ، ويأتي بهِ مِنَ الأقوالِ.

وفي قولِهِ: ﴿الْحَكِيمُ﴾ دعاءٌ إلى التَّسْليمِ بِحُكْمِ اللهِ تعالى؛ إذِ الحكيمُ لا يَحْكُمُ على أحدٍ إلّا بِما فيهِ حِكْمةٌ وفائدةٌ، فَألْزَمَهُ[3] تسليمَ النفسِ بِعِلْمِهِ[4] على وجهِ الحِكْمةِ فيهِ أو جَهْلِهِ.

ثم الأصلُ بَعْدَ هذا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُبيحَ لهُ نِكاحُ التِّسْعِ، وأُمِرَ بأنْ يُحْسِنَ صُحْبَتَهُنَّ، ويَبْتَغِيَ مَرضاتَهُنَّ. والمَرْءُ يَعْسُرُ عليهِ صُحْبةُ الأربعِ بِحُسْنِ العِشْرةِ، ويَتَعَذَّرُ عليهِ القيامُ بِمَرْضاتِهِنَّ جميعاً، فيكفَ إذا امْتُحِنَ بِصُحْبَةِ التِّسْعِ؟

فَكانتِ المِحْنَةُ على رسولِ اللهِ ﷺ في أمْرِ النساءِ أعْسَرَ منهُ على غَيرِهِ، وأُمِرَ مَعَ هذا أيضاً بِمعاملةِ الخَلْقِ مَعَ اختِلافِ هِمَمِهِمْ وأطوارِهِمْ بأحسَنِ المُعامَلةِ، ولكنَّ اللهَ تعالى لَمّا امْتَحَنَهُ بما ذكَرْنا[5] آتاهُ مِنَ الأخلاقِ والشمائِلِ المَرْضِيَّةِ ما خَفَّفَ بها عليهِ هذهِ المِحْنةَ، وسَهَّلَ عليهِ المُعاملةَ مَعَ الجُمْلةِ، وآتاهُ مِنَ القوةِ ما مَلَكَ بها حفظَ حقوقِهِنَّ وإرضاءَ جُمْلَتِهِنَّ حتى بَلَغَ في حُسْنِ العِشْرَةِ وابْتِغاءِ المَرضاةِ ما عُوتِبَ عليهِ، وبَلَغَ مِنْ جَهْدِهِ في الإسلامِ إلى أنْ [قالَ ﷺ][6]: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] وبَلَغَ في الشَّفَقةِ والرحمةِ على الأمةِ حتى [قالَ لهُ ﷺ][7]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وكانَ مِنْ عظيمِ خُلُقِهِ بما جاوزَ خَلْقَهُ قُوّةُ نفسِهِ [حتى كادَتْ][8] نفسُهُ تَهْلِكُ فيهِ، ثم في قيامِهِ ﷺ بوفاءِ حقوقِ التِّسْعِ وإرضائِهِنَّ دلالةُ نُبُوَّتِهِ ورسالتِهِ، لأنَّ الناسَ إنما يَقْوَونَ على الجِماعِ بِما يُصيبونَ مِنَ الأطعمةِ والأغذيةِ، ثم هُمْ مَعَ إصابتِهِمْ

(١) انظر معجم القراءات ج٧/ ١٧٥. (٢) في الأصل وم: فلزمه. (٣) في الأصل وم: فلزمه. (٤) في الأصل وم: بحكمه. (٥) من م، في الأصل: ذكره. (٦) في الأصل وم: قيل. (٧) في الأصل وم: قيل له. (٨) في الأصل وم: فكادت.

فضولَ الأطعمةِ والأشياءَ اللذيذةَ يَفْتُرونَ عن إيفاءِ حقوقِهِنَّ. وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ آثرَ الزُّهدَ في الدنيا وقِلَّةَ رغبتِهِ في مطاعِمِها ومَشارِبِها، وكانَ مع ذلكَ يَفِي بحقوقِهِنَّ. فَعُلِمَ بهذا أنهُ إنما وَصَلَ إلى ما ذَكَرْنا بما قَوّاهُ اللهُ عليهِ، وأقْدَرَهُ، لا بالحِيَلِ والأسبابِ.

ثم أزواجُ رسولِ اللهِ ﷺ امْتُحِنَّ بالقِيامِ بوفاءِ حقِّ رسولِ اللهِ ﷺ وأنْ يَنْظُرْنَ إليهِ بِعَينِ التَّبجيلِ والتَّعظيمِ، فكانتِ المِحْنَةُ عليهِنَّ أشَدَّ مِنَ المِحْنةِ على غَيرِهِنَّ مِنَ النساءِ مع أزواجِهِنَّ، لأنَّ المرأةَ قَلَّما تَسْلَمُ مِن رفعِ صوتِها على صوتِ زوجِها، إذا لم تكُنْ لهُ امرأةٌ سواها. فكيفَ إذا كانَتْ معها أُخرَى؟

ثم هنَّ لو رَفَعْنَ أصواتَهُنَّ على صوتِ رسولِ اللهِ أوجَبَ ذلكَ إحباطَ عَمَلِهِنَّ على ما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] فلا يجوزُ أنْ يُمْتَحَنَّ بهذهِ الكُلْفَةِ الشديدةِ والمحنةِ العظيمةِ إلّا بما شَرَحَ اللهُ صدورَهُنَّ ويفَسِّحِ قلوبَهُنَّ لإحتِمالِ ذلِكَ.

ثم المِحْنةُ علينا بَعْدَ هذا أشَدُّ مِنَ المِحْنتَينِ اللتَينِ ذَكَرْناهما لأنّا امْتُحِنّا بِمَعْرِفةِ ما تَضَمَّنَتْهُ الآيةُ والإعْتِقادِ بذلكَ، وهي قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] فالذي علينا مِنَ المحنةِ أنْ نَصْرِفَ الأمْرَ على وَجْهٍ لا يَلْحَقُ برسولِ اللهِ ﷺ تَنَقُّصٌ، فَنَسْلَمَ مِنَ المؤاخذةِ.

فجائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى ما ذَكَرْنا مِنْ تَخفيفِ الأمرِ على رسولِ اللهِ ﷺ فتكونَ الآيةُ في مَوضِعِ تَخفيفِ الأمرِ عليه، ليسَ في مَوضِعِ النَّهْيِ، وإنْ خَرَجَتْ مَخرَجَ النَّهْيِ في الظاهِرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ العِتابُ لِمكانِ ماريةَ [إنْ كانَتْ][1] قصةُ التحريمِ من أجلِها، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا أُذِنَ لهُ بإمساكِ ماريةَ، ولم يُنْدَبْ إلى تزويجِها لِتَصِلَ إلى قَضاءِ شَهْوَتِها مِنْ قِبَلِ الأزواجِ، فإنما يُتَوَصَّلُ إلى تَسكينِ شَهْوَتِها برسولِ اللهِ ﷺ ثم بِتَحريمِها على نفسِهِ لم يُمْنَعْ عنها الحَقُّ؛ إذِ الأمةُ، لا حَظَّ لها في القَسْمِ، فَيَلْحَقُهُ العِتابُ مِنْ هذهِ الجهةِ.

ولكنْ لمّا كانَ لها فيهِ مَطْمَعٌ، وهو بالتَّحريمِ قَطَعَ طَمَعَها [قالَ لهُ ﷻ][2]: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] أي لِمَ تَمْنَعُ نفسَكَ عنْ قَضاءِ شَهْوَةٍ أباحَ اللهُ لها قَضاءَ تلكَ الشَّهْوَةِ، فيكونُ في العتابِ دعاءٌ لهُ إلى أنْ يَعْمَلَ بأخيَرِ الوَجْهَينِ. وأخيَرُهما أنْ يوصِلَها إلى ما طَمِعَتْ منهُ لا أنْ يَقْطَعَ طَمَعَها عنهُ، وإنْ لم يَكُنْ لها في ما طَمِعَتْ حَقٌّ، واللهُ أعلَمُ.

والمِحْنَةُ الثانيةُ علينا ألّا نَنْسُبَ إلى أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ ما تَكْرَهُ أنفسُنا نِسبَةَ مِثْلِهِ إلى الأمهاتِ، لأنَّ لأزواجِهِ علينا حقَّ الأمهاتِ. فإنْ أمْكَنَنا أنْ نُخرِجَ مِنْ أمرِهِنَّ وجهاً، يَسْلَمُ [مِنْ][3] تَنَقُّصِهِنَّ، فَعَلْنا، وإلّا أمسَكْنا عن ذِكْرِهِ خَشْيَةَ التَّنَقُّصِ وتَرْكِ التَّبجيلِ والتَّعظيمِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؟ [النور: ١٢] وهكذا الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ ألّا يَظُنَّ بأزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ [وألّا يَرْضَى][4] عنهنَّ إلّا خيراً، وألّا [يَنْظُرَ إليهِنَّ][5] إلّا بِعَينِ التَّعظيمِ، وقولِهِ[6] أيضاً: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؟ [النور: ١٦].

وإذا كانَ هذا حَقُّهُنَّ علينا فلا يَجِبُ أنْ نَذْكُرَ زَلَّتَهُنَّ: كانتْ كَيتَ وكَيتَ بما يُتَوَهَّمُ أنْ تكونَ زَلَّتُهُنَّ دونَ الذي خَطَرَ على بالِنا، فنكونَ قد أعظَمْنا القولَ فيهِنَّ، فَيُصيبَنا مِنْ ذلكَ عذابٌ عظيمٌ كما قالَ ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

ولِقائلٍ أنْ يقولَ في قولِهِ: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] مِنْ أيِّ وجهٍ صارَ بُهْتاناً عظيماً، ونساءُ رسولِ اللهِ ﷺ لم يَكُنَّ مَعصوماتٍ، بل كانَ يُتَوَهَّمُ منهنَّ الصُّنْعُ الذي رُمِينَ بهِ؟

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: فقيل لها، في م: فقيل له. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ويرضى. (٥) من م، في الأصل: ينظرون. (٦) في الأصل وم: وقال.

فَجوابُهُ أنَّ أزواجَهُ كُنَّ بالمَحَلِّ الذي كُنَّ ابتُلِينَ بِزَلَّةٍ سِرّاً وجَهراً، أطْلَعَ اللهُ تعالى على ذلكَ نَبِيَّهُ ﷺ.

ألا تَرى أنَّ إحداهنَّ لمّا أفشَتْ سِرَّ رسولِ اللهِ ﷺ إلى أُخرى أطْلَعَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ على ذلكَ؟ وإذا كانَ لا يَستُرُ عليهنَّ هذا القَدْرَ مِنَ الزَّلَّةِ فكيفَ يَستُرُ عليهنَّ فِعلَ الزِّنى منهنَّ؟ فلو وُجِدَ مِنَ التي رُمِيَتْ فِعلُ الزِّنى لكانَ يَسبِقُ الإطلاعُ مِنَ اللهِ تعالى لرسولِهِ ﷺ قَبلَ أنْ يَجرِيَ بِهِ التَّحادُثُ على ألْسُنِ الخَلْقِ. فإذا لم يَسبِقْ أوجَبَ ذلكَ المَعنى براءةَ ساحتِها عمّا رُمِيَتْ بِهِ، وصارَ الرامي لها بِهِ قائلاً بالبُهتانِ والزُّورِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ جوازِ العَمَلِ بالاجتِهادِ لِرسولِ اللهِ ﷺ إلّا بإذنٍ سَبَقَ مِنَ اللهِ تعالى: إذْ لو كانَ الإذنُ سابقاً لَما عُوتِبَ عليهِ.

ثم قد ذَكَرْنا [أنهُ][1] لم يُعاتَبْ لِزَلَّةٍ ارتَكَبَها حتى يكونَ فيهِ مَنْعٌ عنِ العَمَلِ بالاجتِهادِ، وإنما عُوتِبَ لِمكانِ ما حَمَلَ على نفسِهِ مِنْ فَضْلِ المَؤُنَةِ في العِشْرَةِ.

ثم الأصلُ أنَّ الإماءَ، لا حَظَّ لهنَّ في القَسْمِ، وليسَ لهنَّ مِنَ الآثامِ ما يكونُ مِثْلُهُ في الحرائرِ حتى كانَ يُقسِمُ لها، فيُؤَدّي فيهِ حقَّها. وقد أُذِنَ لهُ في إمساكِها وألّا يَتزوَّجَها، فلا يَجوزُ ألّا يُؤمَرَ بتزويجِها ثم هو لا يُسكِنُ شَهوَتَها، ثم هو إنما يَصِلُ إلى قَضاءِ وَطَرِها وتَسْكينِ / ٥٧٩ ـ أ/ شَهوَتِها في نَوبةِ ذلكَ اليومِ لِزَوجةٍ مِن زَوجاتِهِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أكرَمَهُ أنْ يُسكِنَ شَهوَتَها، ويأتِيَها مِنْ حيثُ لا يَعلَمُهُ أزواجُهُ بذلكَ، ثم أطْلَعَ بعضَ نِسائِهِ على فِعلِهِ لِيَعلَمْنَ أنَّ المِحْنَةَ عليهنَّ بَعدَ[2] العِلْمِ وقَبلَ العِلْمِ واحدةٌ، وأنَّ عليهنَّ أنْ يُعَظِّمْنَ رسولَ اللهِ ﷺ وألّا يَحمِلْنَ العَنْوَةَ على الاستِقبالِ لهُ بالمَكروهِ والنَّظَرِ إليهِ بالتَّنَقُّصِ؛ إذْ لم يكُنْ عليهنَّ في ما يأتي تلكَ الأمَةَ في أيامِهنَّ تَقصيرٌ في حقِّهنَّ؛ إذْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أُعطِيَ مِنَ القُوَّةِ في الجِماعِ ما يَطوفُ على جُملَةِ نسائِهِ في ليلةٍ واحدةٍ.

وأمّا ما ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ كَفَّ نفسَهُ عنْ شُرْبِ العَسَلِ، فذلكَ يَحتَمِلُ أيضاً، ولكنْ ما ذُكِرَ مِنْ تحريمِ ماريةَ أمكَنُ؛ لأنهُ لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ لِرسولِ اللهِ ﷺ في شُرْبِ العَسَلِ مِنَ الرغبةِ ما يُدخِلُ على نسائِهِ المكروهَ لأجلِهِ، وجائزٌ أنْ يَلحَقَهُنَّ في استِمتاعِهِ بأمَتِهِ مكروهٌ، فيَحمِلُهُنَّ ذلكَ على ما ذَكَرَ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [دَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾][3] أنهُ قد طَلَبَ منها إسرارَ ذلكَ الحديثِ الذي أسَرَّ إليها. وليسَ بنا حاجةٌ إلى تَعَرُّفِ الحديثِ الذي أسَرَّ إليها.

وفيهِ دلالةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنما عَلِمَ بإفشائِها سِرَّهُ إلى صاحِبَتِها باللهِ تعالى، وهو قولُهُ: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ فقولُهُ: ﴿عَرَّفَ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[4].

فَمَنْ قرأهُ بالتَّشديدِ فهو على أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عَرَّفَها بعضَ ما أنْبَأتْ مِنَ القِصَّةِ التي أسَرَّ إليها، ولم يُعَرِّفْها البعضَ، لأنهُ لم يكُنِ القَصْدُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُخبِرَها بذلكَ النَّبإِ الذي أسَرَّتْ [بهِ][5] إليها، وإنما كانَ المَقصودُ منهُ تَنبيهَها بما أظهَرَتْ مِنَ السِّرِّ، وأفشَتْ إلى صاحبتِها لِتَنزَجِرَ عنِ المُعاوَدَةِ إلى مِثْلِهِ، والبعضُ مِنْ ذلكَ، يُعلِمُها [بهِ عما][6] يَعلَمُ الكُلَّ، فلم يكُنْ إلى إظهارِ الكلِّ حاجةٌ.

وذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لها: ألم أقُلْ لكِ، وسَكَتَ عليهِ، وفي هذا آيةُ رسالتِهِ ومَنْعِهنَّ عنْ إسرارِ ما يَحتَشِمْنَ عنْ إبداءِ مِثْلِهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ فإنهنَّ، إنْ فَعَلْنَ ذلكَ، أظهَرَ اللهُ تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ ذلكَ، فَيَعلَمُ ما يُسرِرْنَ.

ومَنْ قرأ: عَرَفَ بالتَّخفيفِ فهو يَحمِلُهُ على الجَزاءِ، فيقولُ: عَرَفَ بعضَهُ أنْ يَجزِيَ عنْ بعضِ ما استَوجَبَهُ بإفشاءِ السِّرِّ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل: من. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٧٥. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما.

وأعرَضَ عنْ بعضِ الجزاءِ؛ يقولُ الرجلُ لآخرَ: عَرَفَ حقِّي، فَعَرَفْتُ لهُ حَقَّهُ، أو عَرَفْتَ حقي، فَسَأعْرِفُ حقَّكَ، أي أقومُ بجزاءِ ذلكَ.

وذُكِرَ في الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ طَلَّقَ حَفصةَ تَطليقةً، ثم نَزَلَ جبرائيلُ ﷺ فقالَ لهُ: راجِعْها، فإنها صَوّامةٌ، وإنها لَزَوجَتُكَ في الجنةِ. فجائزٌ أنْ يكونَ طلاقُهُ إياها جزاءً لِبَعْضِ صَنيعِها.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يَختارُ إحدَى القِراءتَينِ على الأُخرَى، فَيَقْرأُ إحداهُما، ويَرْغَبُ عنِ الأُخرَى، وذلكَ ممّا لا يَحِلُّ لأنَّ الأمرَينِ جميعاً، قد وُجِدا، وهو الجزاءُ والتَّعريفُ، فَجَمَعَ اللهُ تعالى الأمْرَينِ جميعاً في آيةٍ واحدةٍ، وفَصَلَ بينَ الأمرَينِ بالإعرابِ. فليسَ لأحدٍ أنْ يُؤثِرَ إحدَى القِراءتَينِ على الأُخرَى.

وهذا كقولِهِ تعالى في قصةِ موسى ﷺ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ و: عَلِمْتُ[1] [الإسراء: ١٠٢] وقد عَلِمَ موسى ﷺ وعَلِمَ فرعونُ، فقد كانَ الأمرانِ جميعاً، فَجَمَعَ اللهُ تعالى بينَ الأمرينِ في آيةٍ واحدةٍ، فلا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَقْرأَ بأحدِ الوجهَينِ، ويَمْتَنِعَ عنِ الوجهِ الآخَرِ.

فكذلكَ هذا في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ و: ربُّنا باعَدَ[2] بينَ أسفارنا [سبإ: ١٩] فَمَنْ قَرَأَ: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ حَمَلَهُ على الدعاءِ، ومَنْ قَرَأَ: باعَدَ حَمَلَهُ على الإخبارِ، وقد كانَ الأمرانِ جميعاً: الدعاءُ والإخبارُ، فليسَ لأحدٍ أنْ يُؤثِرَ أحدَهما على الآخَرِ، فَعَلَى ذلكَ الحُكمُ في قولِهِ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ واللهُ أعلمُ.

وقد وَصَفْنا تأويلَ قولِهِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ثم فيهما ما يَدْعو الإنسانَ إلى المُراقبةِ والتَّيَقُّظِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ في هذه الآية دلالةُ أنَّ الحديثَ الذي أُفْشِيَ كانَ بينَ زوجَتَينِ لِقولِهِ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ كانَ أسَرَّ النَّبِيُّ ﷺ إلى إحداهُما، ومَنَعَها أنْ تُفْشِيَ إلى الأُخرَى، فأفْشَتْ.

لكنّا لا نَعْلَمُ أنَّ ذلكَ الحديثَ كانَ [ماذا؟ لكنهُ كانَ][3] منهما ما يُجوِّزُ أنْ تُعاتَبا، وتُدْعَيا إلى التوبةِ لقولِهِ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وإنْ خَفِيَ علينا.

ثم إنْ عَرَفْنا أنَّ اللهَ جَعَلَ عقوبَتَهُنَّ وتأديبَهُنَّ أشَدَّ مِنَ العقوبةِ على غَيرِهِنَّ بقولِهِ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] فيجوزُ أنْ يُنْدَبْنَ إلى التوبةِ بأدنَى زَلَّةٍ، حَقُّها التجاوُزُ عن غَيرِهِنَّ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن﴾ زيادةً في الكلامِ، وحقُّهُ الحذفُ، فيكونُ مَعْناهُ: تُوبا إلى اللهِ فقد صَغَتْ قلوبُكُما، ويوقَفُ عليهِ، ثم يُبْدَأُ بقولِهِ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ حَقُّهُ الإثباتَ، فلا يكونُ حرفُ ﴿إِن﴾ زيادةً، ويكونُ مَعْناهُ: إنْ تتوبا إلى اللهِ، وإلّا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيكونُ الجزاءُ فيهِ مضمراً.

وجائزٌ أنْ يكونَ جزاءُ صَنيعِهِنَّ أنْ يُطلِّقَهُنَّ، فكأنهُ قالَ: إنْ تتوبا إلى اللهِ وإلا طَلَّقَكُنَّ، فيكونُ في هذا أنهُ حَبَّبَ رسولَ اللهِ ﷺ إليهِنَّ حتى اشْتَدَّ عليهِنَّ الطلاقُ، وخَرَجَ الطلاقُ مَخرَجَ العقوبةِ لهنَّ على صَنيعِهِنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالَتْ عنِ الحقِّ الذي لرسولِ اللهِ ﷺ عليكما، وحَقُّ الرسولِ ﷺ حقٌّ عظيمٌ، يَرِدُ فيهِ العِتابُ بأدنَى تَقْصيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ هذا في الظاهرِ مُعاتَبةٌ، فَيَنْبَغي أنْ يُذكَرَ على المُخاطبةِ، فيُقالَ: إنْ تظاهَرْتُما عليهِ كما قالَ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قيلَ: جائزٌ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تابَتا، ورجَعَتا على إرادةِ المُعاتَبةِ، وإنْ كانَ اللفظُ لَفْظَ المُخاطبةِ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٤٠. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٥٥. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

ولكنَّ الصحيحَ أنَّ قولَهُ: ﴿وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ على المُخاطبةِ، مَعْناهُ: وإنْ تَتَظاهرا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ حقٌّ هذا أنْ نَقِفَ عليهِ، ثم نقولَ: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ حتى لا يُتَوَهَّمَ أنَّ غيرَ اللهِ مَولاهُ.

ثم ذِكْرُ هذا أبلَغُ[1] في التَّهْويلِ، وإلّا كانَ[2] مِنْ هؤلاءِ المذكورينَ يَكْفي لأزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ وكذلكَ في ذِكْرِ عقوبتِهِنَّ، إذا وَجَدَ منهنَّ الخِلافَ بقولِهِ: ﴿يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

والأصلُ أنَّ المُبالَغَةَ في التَّاديبِ ممّا يُعينُ المُؤدَّبَ على حِفْظِ الحُدودِ. وكذلكَ المُجاوزةُ في حَدِّ العقوبةِ مَعونةٌ لهُ في تأديبِ النفسِ حتى يَمْلِكَ حِفْظَ نفسِهِ عمّا تدعو إليه نفسُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيلَ: أبو بكرٍ وعُمَرُ ﵄ وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا طَلَّقَ حَفْصةَ دخَلَ عليها عُمَرُ ﵁ فقالَ: لو عَلِمَ اللهُ تعالى في آلِ عُمَرَ خَيراً ما طَلَّقَكِ رسولُ اللهِ ﷺ فنَزَلَ جِبْريلُ ﵇ /٥٧٩ ـ ب/ على رسولِ اللهِ ﷺ يأمُرُهُ بِمُراجَعَتِها، وذكَرَ أنها صَوّامَةٌ قَوّامةٌ. فجائزٌ أنْ تكونَ حَفْصةُ ﵂ تصومُ النهارَ، وتقومُ الليلَ في غَيرِ نَوبَتِها، فلا يَعْلَمُ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ فأطْلَعَهُ جبريلُ ﵇ على ذلكَ.

ورُوِيَ عن أبي أُمامةَ ﵁ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: ﴿وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكرٍ وعُمَرُ ﵄ وقيلَ: هُمُ الأنبياءُ والرسُلُ ﵈.

وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: ﴿وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَنْ لم يُسِرَّ نِفاقاً، ولا أظهَرَ فِسْقاً، ثم خَصَّ مِنَ المؤمنينَ الصالِحينَ منهمْ، ولم يَعُمَّ جُمْلَةَ المؤمنينَ.

فهذا، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ لو ذَكَرَ المؤمنينَ على الإجمالِ لَدَخَلَتْ فيهِ الزّوجتانِ اللّتانِ تظاهَرَتا، لأنَّ إصغاءَ القلبِ، لا يُخرِجُهُما عنْ أنْ تكونا مِنْ جملةِ المؤمنينَ، ولأنهُ ذَكَرَ هذا في مَوضِعِ المَعونةِ في أمرِ الدينِ ﴿وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هُمُ الذينَ يقومونَ بالمَعوناتِ في أمْرِ الدينِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ وعلى قولِ المعتزلةِ: لا يَمْلِكُ أنْ يُبْدِلَ خيراً منهنَّ؛ إذْ لا يَقْدِرُ على أنْ يَجعَلَ في أحدٍ خَيراً على قولِهِمْ، ولا يَمْلِكُ أنْ يُبْدِلَهُ أزواجاً لأنهُ لا يَقْدِرُ على زَعْمِهِمْ على أنْ يَجْعَلَ واحدةً[3] مِنَ النِّسْوانِ زَوجةً لأحدٍ [مِنَ الرجالِ][4] وإنما المَشيئةُ والاختيارُ إلى المُتَزَوِّجِ والمُتَزَوِّجةِ، والفِعْلُ منهما.

وعلى قولِنا: يَمْلِكُ أنْ يَجْعَلَ الخَيرَ لِمَنْ شاءَ، ولهُ أنْ يَجْعَلَ مِنَ النِّسْوانِ زوجةً لِمَنْ شاءَ مِنَ الرجالِ.

فهذه الآيةُ تَشْهَدُ بالصدقِ لِمَقالَتِنا، وتَرُدُّ على المعتزلةِ قولَهُمْ لأنهُ جَعَلَ الإبدالَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿يُبْدِلَهُۥٓ﴾ وعلى قولِهِمْ: لا يَمْلِكُ أنْ يَفِيَ بما وَعَدَ.

ثم في هذهِ الآيةِ إباحةُ الإبدالِ وإباحةُ الطلاقِ لرسولِ اللهِ ﷺ.

وفي قولِهِ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢] حَظْرُ الإبدالِ. فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ مُقدَّماً، وقولُهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ مُتأخِراً، فيصيرَ ما تَقَدَّمَ مَنسوخاً بهذهِ الآيةِ، والذي[5] يدلُّ على صِحّةِ هذا ما رُوِيَ عنْ عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: ما خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الدنيا حتى أُحِلَّتْ لهُ النساءُ، فَثَبَتَ أنَّ الحَظْرَ، كانَ مُتَقَدِّماً.

ثم وَرَدَتِ الإباحةُ مِنْ بَعْدُ، فَحُمِلَ الإبدالُ[6] على التَّناسُخِ لِيَرْتَفِعَ التَّناقُضُ مِنْ بَينِهما.

وجائزٌ أنْ يكونَ حُظِرَ عليهِ الإبدالُ إذا قَصَدَ بالطلاقِ قَصْدَ الإبدالِ بما أعْجَبَهُ مِنَ الحُسْنِ كما قالَ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ

---

(١) في الأصل وم: إبلاغ. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: أحداً. (٤) في الأصل: من ، ساقطة من الأصل. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الإيثار.

حُسْنُهُنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢] فإذا كانَ قَصْدُهُ مِنَ الطلاقِ الإبدالَ كانَ ذلكَ محظوراً عليهِ، وإنْ لم يَقْصِدْ بالطلاقِ قَصْدَ الإبدالِ، ولكنْ يَقْصِدُ بهِ قَصْدَ المُجازاةِ لِلْخِلافِ الذي ظَهَرَ، أُبيحَ لهُ ذلكَ بقولِهِ[1] تعالى: ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا﴾ مِنَ المُطلَّقةِ، وهو ليسَ يَقْصِدُ بالطلاقِ في قولِهِ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ قَصْدَ الإبدالِ. وإذا كانَ كذلكَ سَلِمَتِ الآيتانِ مِنَ التّناقُضِ.

وذُكِرَ عنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ أنهُ سُئِلَ، فقيلَ: أكانَ يَحِلُّ لرسولِ اللهِ ﷺ إبدالُ امْرأةٍ بامْرأةٍ؟ فقالَ: بَلَى، فَسُئِلَ عنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٢] فقالَ: هذا مُنْصَرِفٌ إلى مَنْ هُنَّ مِنْ وراءِ المُسَمَّياتِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ [ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ][2] وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ذَكَرَ بناتِ العمِّ وبناتِ الخالِ والأجنبيّاتِ، وحَظَرَ عليهِ مَنْ سِواهُنَّ مِنَ المَحارمِ، فيكونُ فيهِ إبانةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد كانَ حُظِرَ عليه تَزَوُّجُ[3] مَحارِمِهِ مِنْ ذَوي الرَّحِمِ كما حُظِرَ على غَيرِهِ؛ إذْ هو مَوضِعُ الإشكالِ: أنهُ لمّا حَلَّ لهُ زيادةٌ على الأربعِ يُحِلُّ لهُ ذواتِ الأرحامِ مِنَ المَحارِمِ، فأزالَ الإشكالَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ جائزٌ أنْ يكنَّ خيراً منهنَّ لِلرّسولِ ﷺ لا أنْ يكُنَّ خيراً في أنفسِهِنَّ لأنهُ قالَ: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

ألا تَرَى إلى ما ذُكِرَ أن جبريلَ ﷺ قالَ لرسولِ اللهِ ﷺ: راجِعْ حَفصةَ فإنها صَوّامةٌ قَوّامةٌ؟

والذي يدلُّ على هذا أيضاً قولُهُ تعالى: في آخرِ هذهِ الآيةِ: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وقد وُجِدَتْ هاتانِ الصِّفَتانِ في أزواجِهِ، فَثَبَتَ أنَّ مَعْناهُ ما ذَكَرْنا.

وجائزٌ أنْ يَكُنَّ خيراً منهنَّ أيضاً في أنفسِهِنَّ مِنْ حيثُ الجمالُ أو النَّسَبُ ونَحْوُ ذلكَ، أو يَصِرْنَ خيراً منهنَّ لِما يَتْرُكْنَ الخِلافَ لرسولِ اللهِ ﷺ ولا يَتَظاهَرْنَ عليهِ، ويَكُنَّ هؤلاءِ دونَهُنَّ إذا الْتَزَمْنَ الخِلافَ، ودُمْنَ على التظاهُرِ. فأمّا إذا أمْسَكْنَ عنِ الخِلافِ، وتُبْنَ عمّا سَبَقَ مِنَ الخِلافِ فهنَّ وغيرُهُنَّ بِمَحَلٍّ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ قد بَيَّنّا أنَّ كلَّ مُسلِمٍ مُؤمِنٌ في التَّحصيلِ، لأنَّ مَعْنَى الإسلامِ والإيمانِ واحدٌ؛ إذِ الإسلامُ هو أنْ تَجْعَلَ لِلّهِ تعالى الأشياءَ كلَّها خالصةً سالمةً، لا تُشْرِكُ فيها غَيرَهُ. والإيمانُ التَّصديقُ، وهو أنْ تُصَدِّقَ أنَّ اللهَ تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ، وإذا صَدَّقْتَ أنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ فقد جَعَلْتَ الأشياءَ كلَّها لهُ سالمةً، أو تُصَدِّقَ كُلّاً بما يَشْهَدُ للهِ تعالى بالربوبيّةِ بِجَوهرِهِ. فَثَبَتَ أنَّ كلَّ واحدٍ منّا يَقْتَضي ما يَقْتَضيهِ الآخَرُ مِنَ المَعْنَى. فإذا ذُكِرَ أحَدُهما بالإفرادِ ففي ذِكْرِهِ ذِكْرُ الآخَرِ، وإذا جُمِعا في الذكرِ صُرِفَ هذا إلى وَجْهٍ [وهذا إلى وَجْهٍ][4] وهكذا كما ذَكَرْنا في التَّقْوَى أنهُ يَقْتَضي مَعْنَى الإحسانِ إذا ذُكِرَ مُفْرَداً، لأنَّ التَّقْوَى هو أنْ يُتَّقَى مِنَ المَهالِكِ، والاتِّقاءُ مِنَ المَهالكِ يَقَعُ باكْتِسابِ المَحاسِنِ، وإذا ذُكِرا معاً صُرِفَ التَّقْوَى [إلى الاتِّقاءِ مِنَ الكُفْرِ][5] والإحسانُ إلى فِعْلِ الخيراتِ.

ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يُؤمِنُ مَنْ لم يأمَنْ جارُهُ بَوائِقَهُ» [البخاري ٦٠١٦] وقالَ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الناسُ مِنْ لسانِهِ ويَدِهِ» [البخاري ١٠] فَصُرِفَ هذا إلى وَجْهٍ [وهذا إلى وَجْهٍ][6] وهما في التَّحْصيلِ واحدٌ، لأنهمْ إذا أَمِنوا بوائقَهُ فقد سَلِموا مِنْ لسانِهِ ويدِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ قيلَ: مُطيعاتٍ، وقيلَ: القائماتُ بالليالي للصلاةِ، وهذا أشْبَهُ، لأنهُ ذَكَرَ السائحاتِ بَعدَ هذا، والسائحاتُ الصائماتُ، وذَكَرَ الصيامَ بالنهارِ، فيكونُ تأويلُ القانتاتِ راجعاً إلى قيامِ الليلِ ليكونَ فيهِ إحياءُ الليلِ والنهارِ بالعِبادةِ. ولذلكَ قالَ جبريلُ، صلواتُ اللهِ تعالى عليه، وسلَّم، في وَصْفِ حَفصةَ ﷺ: إنها صوّامةٌ قوّامةٌ، أي صَوّامةٌ بالنهارِ وقوّامةٌ بالليلِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم الله. (٢) في الأصل وم: إلى قوله. (٣) في الأصل وم: تزويج. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: الاتقاء الكفر. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وذُكِرَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنْ أفضلِ الأعمالِ، فقالَ: «طولُ القُنوتِ» [مسلم ٧٥٦/ ١٦٥] وهو القِيامُ بالليلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ هذهِ اللاتي لا يُصِرْنَ على الذنبِ، بل يَفْزَعْنَ إلى اللهِ تعالى بالتوبةِ والتَّضرُّعِ إذا ابْتُلِينَ بالخطيئةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ ذَكَرَ أبو بكرٍ أنَّ العابدَ لا يُسَمَّى عابداً حتى يَتَطوَّعَ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنهنَّ يَقُمْنَ بأداءِ الفرائضِ، ويَتَطوَّعْنَ معَ ذلكَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: كلُّ عبادةٍ في القرآنِ فهو توحيدٌ، والعابداتُ المُوَحِّداتُ. فالمُوَحِّدُ هو الذي يُصَدِّقُ أنَّ خالقَ الخَلْقِ كلِّهِ واحدٌ، لا شريكَ لهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ العابدُ مُوَحِّداً لأنهُ يَعْمَلُ للهِ خالصاً، لا يُشْرِكُ في عبادتِهِ أحداً، فيكونُ فيها مَعْنَى التَّوحيدِ / ٥٨٠ ـ أ/ لكنْ مِنْ حيثُ الفِعْلُ. فيكونُ أحدُ التوحيدَينِ: بالقَبولِ، والثاني: بالمُعامَلةِ والفِعْلِ. وقيلَ: العابدُ هو الذي يُؤدِّي الفَرائِضَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ هو الذي يَسيحُ في الأرضِ بِغَيرِ زادٍ، فَسُمِّي الصائمُ سائحاً لِما كَفَّ نفسَهُ عنِ التَّناوُلِ مِنَ الزادِ. فقولُهُ: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي صائماتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ لم يُرِدْ بهذا أنْ يُنْشِئَ نِسْوَةً أبكاراً وثَيِّباتٍ، ولكنَّ مَعْناهُ أنْ يُبْدِلَهُ مَنْ كُنَّ بهذا الوَصْفِ.

ثم جَمَعَ بَيْنَ الثَّيِّباتِ والأبكارِ لأنَّ الثَّيِّباتِ ممّا تَقِلُّ رغبةُ الخَلْقِ فيهنَّ، ويَنْفُرُ عنهُ الطَّبْعُ، فَجَمَعَ بَيْنَهُما في مَوضِعِ الامْتِنانِ على الرسولِ ﷺ لئلا يَصْرِفوا كلَّ الرغبةِ إلى الأبكارِ، بل يَتَزَوَّجوا الثَّيِّباتِ كما يَتَزَوَّجونَ الأبكارَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: قُوا أنفسَكُمْ في ما تَدْعو أنفسُكُمْ إليهِ، لأنَّ الأنفسَ تَأمُرُهُمْ بالسُّوءِ، وتَدْعوهُمْ إليهِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التّغابن: ١٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي قُوها عنِ الطريقِ الذي إذا سَلَكْتُموهُ أفْضَى بكُمْ إلى النارِ، وقُوا أهليكُمْ أيضاً عنْ ذلكَ الطريقِ، وذلكَ يكونُ بالعملِ لأنَّ العَمَلَ على ضَرْبَينِ: عَمَلٌ يُفْضي بصاحبِهِ إلى الجنةِ، وعَمَلٌ يُفْضي بِهِ إلى النارِ، فيكونُ التَّقْوى في هذا الوَجْهِ راجعاً إلى الأعمالِ، وفي الوَجْهِ الأوَّلِ إلى الأنفسِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ باكْتِسابِ الأسبابِ التي هي أسبابُ النجاةِ مِنَ العَطَبِ والهلاكِ ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ في أنْ تُعَلِّموهُمُ الأسبابَ التي هي أسبابُ الخَلاصِ مِنَ النارِ.

وقالَ مجاهدٌ: تأويلُهُ ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ولْيَتَّقِ أهلوكُمْ، النارَ.

ثم عَلَّمَنا وجْهَ الاتِّقاءِ بقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] قالَ: منّا التَّضَرُّعُ إليهِ والفَزَعُ لَدَيهِ ليكونَ هو بِفَضْلِهِ يَقِي عنا النارَ لِما عُلِمَ أنها لا تَصِلُ إلينا بِقُوى أنفسِنا وحِيَلِنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فهذا على المُبالغةِ في وصفِ شِدَّةِ النارِ.

وأخبَرَ أنَّ شِدَّتَها، تَنْتَهي إلى هذا؛ في أنْ صَيَّرَ الناسَ وَقوداً، وكذلكَ الحجارةُ، والناسُ والحجارةُ لا يَنْفَدانِ في النارِ، لأنَّ النارَ إذا عَمِلَتْ في الإنسانِ حَرَقَتْهُ، ولم تُنْفِذْهُ، فلا يَصيرُ وقوداً، وكذلكَ إذا أصابَتِ الحجارةَ رَضَّتْها، ولَشَّتْها، فيكونُ فيهِ تَبْيينُ شِدَّتِها إبلاغاً في الزَّجْرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالحجارةِ التي اتَّخذوها أصناماً، يَعْبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ، فكانوا يَعْبُدونَها لِتَنْصُرَهُمْ، وتَدْفَعَ عنهمُ العذابَ كما قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١و٨٢] أي يَصيرُ عذاباً عليهِمْ، وهُمْ رَجَوا أنْ يكونَ سَبَباً لِخَلاصِهِمْ، فَصارَتْ عليهمْ ضِدّاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا وصفَهُمْ أنهمْ خُلِقوا غِلاظاً شِداداً، وجائزٌ أنْ يكونوا أشِدّاءَ على الكفارِ وأعداءِ اللهِ تعالى رُحَماءَ على أوليائِهِ.

ألا ترى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؟ [النحل: ٥٠ والتحريم: ٦] تَتبيَّنُ[1] أنَّ اشتِدادَهُمْ بِمَكانِ الأمرِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وصَفَهُمْ بالشِّدَّةِ على الكفارِ وبالرحمةِ على المؤمنينَ.

فجائزٌ أنْ يكونَ الملائكةُ كذلكَ في الآخِرَةِ، وهذا دلالةٌ أنَّ الملائكةَ امْتُحِنوا بالأمرِ والنَّهْيِ في الآخِرَةِ، لأنَّ ملائكةَ الرحمةِ امْتُحِنوا بإيتاءِ التُّحَفِ والكَراماتِ إلى أهلِ الجنةِ، وملائكةَ العذابِ امْتُحِنوا بِتَعْذيبِ أهلِ النارِ بالغِلْظَةِ عليهِمْ والشِّدَّةِ، وإذا أُمِرَ كلٌّ مِنَ الفريقَيْنِ بما ذَكَرْنا فقد نُهِيَ عنْ تَرْكِهِ.

قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ لم يَذْكُرِ اللهُ تعالى أهلَ الصلاةِ ولا أَلْحَقَ بهمُ الوَعيدَ؛ فهمْ يَقْطعونَ الوعيدَ عَمَّنْ أَلْحَقَ اللهُ تعالى بهمُ الوعيدَ، وهُمُ المؤمنونَ، ويُلْزِمونَهُ على مَنْ لم يَجْرِ ذِكْرُهُ في القرآنِ، ولا أُلْحِقَ بِهِ الوعيدُ. وهذا تَحريفُ الكتابِ وقَلْبُ القصةِ.

ولأنهُ صارَ مِنْ أهلِ الصلاةِ بإيمانِهِ، إذْ لولا إيمانُهُ لَمَا كانَ هو مِنْ أهلِ الصلاةِ. [ولَمَّا أَلْحَقوا الوعيدَ بأهلِ الصلاةِ][2] فقد أَلْحَقوهُ بأهلِ الإيمانِ، فلم يَبْقَ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ إلَّا سُوءُ الخُلُقِ، وإلَّا فلا مَعْنَى لِقَلْبِهِ عن أهلِ الإيمانِ وإلحاقِهِ بأهلِ الصلاةِ، وأهلُ الصلاةِ، همْ أهلُ الإيمانِ.

ثم الوعيدُ على قولِهِمْ إنما يَلْزَمُ أهلَ الإيمانِ في وقْتِ خُروجِهِمْ مِنَ الإيمانِ، ونحنُ نقولُ في الوَعيدِ المذكورِ في أهلِ الإيمانِ: إنهُ يجوزُ أنْ يَلْحَقَهُمْ وقْتَ إيمانِهِمْ، بل يُعَذِّبُهُمُ اللهُ تعالى بإجرامِهِمْ، ويَحْتَمِلُ أنْ يَقَعَ لهمُ الوعيدُ إذا خَرَجوا مِنَ الإيمانِ، وهُمْ يَقْطعونَ الوعيدَ مِنْ أحدِ الوجهَيْنِ، ويَجْعَلونَهُ على الوَجْهِ الآخَرِ. ونحنُ نُلْزِمُهُمُ الوعيدَ إذا خَرَجوا مِنَ الإيمانِ، ولا يُبْقَى الوعيدُ على مَنْ لم يَخْرُجْ بَعدُ مِنْ إيمانِهِ. فَصِرْنا نحنُ أَشَدَّ اسْتِعمالاً لِما يَقْتَضيهِ ظاهرُ الآياتِ منهمْ، فصارَ العُمومُ حُجَّةً عليهِم، لا علينا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ ليسَ في هذا نَفْيُ قَبولِ العُذْرِ، لو كانَ لهمْ عُذْرٌ. ولكنَّ اعْتِذارَهُمْ، هو الندمُ عما كانوا فيهِ والإنابةُ إلى اللهِ تعالى والتوبةُ إليهِ. وليسَ ذلكَ وقْتَ قَبولِ التوبةِ، لأنَّ ذلكَ الوقْتَ هو وقْتُ خُروجِ مُلْكِ أنفسِهِمْ عنْ أنفسِهِمْ، فلا يُقْبَلُ في ذلكَ الوقْتِ إيمانٌ ولا عَمَلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَعْني أنَّ عَمَلَكُمُ السُّوءَ هو الذي أَلْزَمَكُمُ العذابَ في الحكمةِ، فَتُجْزَوْنَ بِعَمَلِكُمْ، ولَسْتُمْ تُجْزَوْنَ لِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إلينا أو بما حَمَلْتُمْ مِنْ أوزارِ الغَيْرِ، ولكنْ بأعمالِكُمُ الخَبيثَةِ التي في الحكمةِ التَّعذيبُ عليها. وفي هذا دلالةُ نَفْيِ العذابِ عنْ أطفالِ المشركينَ، لأنهُ لم يوجَدْ منهمْ عَمَلٌ، فَيُجْزَوْا بِعَمَلِهِمْ، ولا يجوزُ أنْ يُعَذَّبوا بذنوبِ آبائِهِمْ لأنهُ أخبَرَ أنَّ كُلًّا يُجْزَى بِعَمَلِهِ لا بِعَمَلِ غَيْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ ففي هذهِ الآيةِ إلزامُ التوبةِ على بَقاءِ اسْمِ الإيمانِ، لأنهُ أَلْزَمَهُمُ التوبةَ بَعدَ أنْ سَمَّاهُمْ مؤمنينَ.

وأخبَرَ أنهُ يُكَفِّرُ عنهمْ سَيِّئاتِهِمْ بالتوبةِ.

ومَذْهَبُ الاِعْتِزالِ أنَّ الصغائرَ مَغْفورةٌ لأربابِها إذا اجْتَنَبوا الكبائرَ، فلا يَحتاجونَ إلى التوبةِ عنها.

فإذا كانَ كذلكَ فالآيةُ في الكبائرِ عندَهُمْ، والكبائرُ يَخْرُجُ أهلُها على قولِهِمْ مِنَ الإيمانِ، واللهُ تعالى[3] قد أبْقَى لهمُ اسْمَ الإيمانِ. فَمَنْ أزالَ عنهمُ الاِسْمَ فقد خالَفَ نَصَّ القرآنِ، وإنْ زَعَموا أنَّ الآيةَ في الصغائرِ ففيهِ دلالةٌ على أنَّ للهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَ على الصغائرِ، وأنها غَيْرُ مَغْفورةٍ حتى وقَعَتْ لهمُ الحاجةُ إلى التوبةِ وطَلَبِ المَغْفِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: فبين. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أعلم.

وقالَ أيضاً في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فأمّا أنْ يكونوا أُمِروا بالتوبةِ عنِ الصغائرِ فيكونُ فيهِ دلالةُ بَقائِهِمْ على الإيمانِ، وكذلكَ قالَ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩] / ٥٨٠ ـ ب/ وإنْ كانَ اسْتِغْفارُهُ هذا على الصغائرِ ففيهِ دلالةٌ أنها مَغْفورةٌ لِحاجَتِهِ إلى طَلَبِ المَغْفِرَةِ.

ولو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّتِ المعتزلةُ لكانَ سؤالُهُ المَغْفِرَةَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ الاسْتِهزاءِ بربِّ العالَمينَ لأنهُ يَطْلُبُ منهُ ما لا يَمْلِكُ، وذلكَ في الشاهدِ هُزْءٌ بهِ واسْتِخْفافٌ بالمَسْؤولِ.

وإنْ كانَ في الكبائرِ ففيهِ دلالةُ بَقائِهِمْ وثَباتِهِمْ على الإيمانِ لأنهُ قالَ: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ قُرِئَ بِنَصْبِ النونِ وضَمِّها[1] نُصوحاً، والضَّمُّ يُخَرَّجُ مُخرَجَ المصدرِ والنَّصوحُ بالفتحِ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ البَعْثِ للتوبةِ، والفَعولُ مِنَ الأفعالِ هو اسْمٌ لِلْمُبالغةِ في الأمرِ، فكأنهُ يقولُ: توبوا تَوبةً، تَناهَتْ في نُصْحِها، والمُبالَغةُ في النُّصْحِ أنْ يكونَ صادقاً في توبتِهِ.

وعلامةُ الصِّدْقِ أنْ يكونَ نادماً بِقَلْبِهِ عمّا فَعَلَ عازماً على ألّا يَرْجِعَ إليهِ، وأنْ يَقْلَعَ يديهِ عمّا كانتْ فيهِ مِنَ المعاصي، وأنْ يَسْتَغْفِرَ اللهَ بلسانِهِ، فَيَسْتَعْمِلَ كلَّ جَسَدِهِ في الندمِ والانْقِلاعِ كما اسْتَعْمَلَ سائرَهُ في التَّلَذُّذِ في المآثمِ. فذلكَ هو المُبالغةُ في النُّصحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ بالتوبةِ. ففي هذا إبانةُ أنَّ مِنَ السَّيِّئاتِ سَيِّئاتٍ لا تُكَفَّرُ إلّا بالتوبةِ، ومنها ما يُكَفَّرُ باجْتِنابِ الكبائرِ بقولِهِ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١] لا أنْ تُكَفَّرَ كلُّها بالاجْتِنابِ عنِ الكبائرِ كما زَعَمتِ المعتزلةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وقد مَرَّ بَيانُ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ وللمعتزلةِ بهذهِ الآيةِ تَعَلُّقٌ، وهو أنْ قالوا: إنَّ اللهَ تعالى أخبرَ أنهُ لا يُخْزِي النَّبيَّ والمؤمنينَ، والإخزاءُ بالعذابِ؛ فقد وَعَدَ ألّا يُعَذِّبَ الذينَ آمنوا. ولو كانَ أصحابُ الكبائرِ مؤمنينَ لم يَخِفْ عليهِمُ العذابُ، إذْ قد وَعَدَ ألّا يُخْزِيَ المؤمنينَ. ومِنْ قولِهِمْ[2]: أنهُ يُخافُ عليهِمُ العقابُ، ثَبَتَ[3] أنهمْ ليسوا بمؤمنينَ.

ولكنْ نقولُ: إنهُ بهذا السؤالِ يَلْزَمُهُمْ مِنَ الوجهِ الذي أرادوا إلزامَ خُصومِهِمْ لأنَّ في الآيةِ وَعْداً بألّا يُخْزِيَ الذينَ آمنوا مَعَهُ، وهُمْ مُقِرّونَ أنَّ أهلَ الكبائرِ مِمَّنْ قد آمَنوا. ولكنهُمْ بَعدَ ارْتِكابِهِمُ الكبائرَ ليسوا بمؤمنينَ.

والآيةُ لم تَنْطِقْ بِنَفْيِ الإخزاءِ عنِ المؤمنينَ، لأنهُ لم يَقُلْ: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ والمؤمنينَ، وإنما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ وهمْ يَقْطَعونَ القولَ بإخزاءِ مَنْ قد آمَنَ، فصاروا هُمُ المَحْجوجينَ بهذهِ الآيةِ [ثم حقُّ هذهِ الآيةِ][4] عندَنا أنْ نَقِفَ على قولِهِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أي لا يُخْزيهِ اللهُ تعالى في أنْ يَرُدَّ شَفاعَتَهُ، أو يُعَذِّبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ ابْتِداءُ كلامٍ وخَبَرُهُ: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

أو لا يُخْزي الذينَ آمنوا بعدَ شَفاعةِ النَّبيِّ ﷺ.

ويَحْتَمِلُ أنَّ الإخزاءَ، هو الفضيحةُ، أي لا يَفْضَحُهُمْ يومَ القيامةِ بَينَ أيدي الكُفّارِ.

ويجوزُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ على وجهٍ لا يَقِفُ عليهِ[5] الكَفَرَةُ، والخِزْيُ هو الفَضيحةُ وهَتْكُ السِّتْرِ، ولا يُفْعَلُ ذلكَ بالمؤمنينَ بِفَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/١٧٨. (٢) في الأصل وم: قولكم. (٣) في الأصل وم: فثبت. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: عليهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ إذا مَشَوا ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ عندَ الحسابِ، لأنهمْ يُؤتَونَ الكتابَ بأيمانِهِم، وفيهِ نورٌ وخيرٌ، أو يَسْعَى النورُ ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ في مَوضِعِ وَضْعِ الأقدامِ ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ لأنَّ ذلكَ طريقُهُمْ، وشِمالَهُمْ طريقُ الكَفَرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ فجائزٌ أنْ يقولوا[١] هذا عندَ انْطِفاءِ نورِ المُنافقينَ، فَيَخافونَ انْقِطاعَ ذلكَ النورِ عنهمْ أيضاً، أو يقولوا هذا عندَ ضَعْفِ النورِ، فَيَسْألونَهُ الإتمامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قيلَ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيفِ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بإقامةِ الحدودِ عليهِمْ؛ وذلكَ أنَّ المُنافقينَ، هُمُ الذينَ كانوا يرتكبونَ المآثِمَ التي أوجَبَ فيها الحدودَ، ففيهِمْ نَزَلَتِ الحدودُ.

وأمّا أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ فقد عُصِموا عنِ المآثِمِ التي لها الحدودُ.

وقالَتِ الباطِنيَّةُ في قولِهِ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي جاهدِ الكفارَ والمُنافِقينَ بالقِتالِ، فكانَ مأموراً بالقِتالِ معَ الفَريقَينِ جميعاً، ولكنهُ اشْتَغَلَ بِقِتالِ أهلِ الكُفرِ، ولم يَتَفَرَّغْ لِقتالِ أهلِ النِّفاقِ، فقاتَلَهُمْ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ.

وما ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لأصحابِهِ حينَ رأى عَلِيّاً ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ: إنَّ خاصفَ نَعْلِهِ يُقاتِلُ على التأويلِ كما نُقاتِلُ نحنُ على التَّنزيلِ، وقِتالُهُ على التأويلِ قِتالُ أهلِ النِّفاقِ.

فإنْ كانَ الأمرُ على ما ذَكَروا مِنَ القِتالِ فأبو بكرٍ ﷺ هو الذي تَوَلَّى قِتالَ أهلِ النِّفاقِ لا عَلِيٌّ ﷺ لأنهُ ذُكِرَ أنَّ العَرَبَ ارْتَدَّتْ بَعْدَ ما قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ فقاتَلَهُمْ أبو بكرٍ ﷺ. وارْتِدادُهُمْ يَدُلُّ على أنهمْ لم يكونوا مُحَقِّقينَ في إيمانِهِمْ، إذْ لو كانوا كذلكَ لم يَرْجِعوا، بل كانوا مُنافِقينَ.

وأما الذينَ قاتَلَهُمْ عليٌّ ﷺ فلم يكونوا مُنافقينَ، بل كانوا يَدْعونَ علياً ﷺ إلى أنْ يَحْكُمَ بكتابِ اللهِ تعالى. والمنافقُ هو الذي يُظْهِرُ في نفسِهِ أنهُ يَعْمَلُ بِحُكْمِ اللهِ تعالى، ثم يُسِرُّهُ بِخِلافِ حُكْمِهِ، لا أنْ يدعوَ إلى العملِ بِحُكْمِ اللهِ تعالى. وهذهِ السِّمَةُ ظَهَرَتْ في الذينَ قاتَلَهُمْ أبو بكرٍ ﷺ دونَ الذينَ قاتَلَهُمْ عليٌّ ﷺ.

ثم مجاهَدَتُهُ ﷺ في تَقْريرِ الحجَّةِ في قلوبِ الكَفَرَةِ والمُنافقينَ والزامِها عليهِمْ، وذلكَ يكونُ مَرَّةً بالسيفِ ومَرَّةً بإلزامِها باللِّسانِ.

وَوَجْهُ إلزامِ الحُجَّةِ بالسيفِ ما ذَكَرْنا أنَّ غَلَبَتَهُ على الأعداءِ مع [كَثْرَتِهِمْ وقُوَّةِ شوكَتِهِمْ][٢] وقِلَّةِ أنصارِ رسولِ اللهِ ﷺ تُظْهِرُ لهمْ نَصْرَ اللهِ إيّاهُ وكَونَهُ على الحقِّ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الإيمانِ باللهِ تعالى.

فإذا كانَ كذلكَ فقولُهُ تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في إلزامِ الحُجَّةِ، وإنْ كانوا في مَوضعِ أمنٍ فَمُجاهَدَتُهُمْ في إلزامِ الحُجَّةِ عليهِمْ مِنْ جِهَةِ القولِ، وإنْ كانوا في مَوضعِ المُحاربةِ والقِتالِ فَمُجاهَدَتُهُمْ في قِتالِهِمْ، وقد كانَ مِنَ المُنافقينَ [مَنْ][٣] قد لَحِقَ بالكَفَرَةِ، وذَبَّ عنهمْ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؟ [النساء: ٨٨] فَمَنْ لَحِقَ بهمْ قاتَلَهُمْ معَ الكَفَرَةِ، ومَنْ لم يَلْحَقْ بهمْ ألْزَمَهُمُ الحُجَّةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أيِ اشْدُدْ عليهِمْ، والتَّشديدُ عليهِمُ أنْ يُسَفِّهَ أحلامَهُمْ، ويَهْتِكَ أستارَهُمْ، وهو أنْ يُبَيِّنَ لهمْ ما هُمْ عليهِ مِنَ النِّفاقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قد تَقَدَّمَ ذِكْرُ هذا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ دلالةُ فَضيلةِ نَبِيِّنا ﷺ على مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الأنبياءِ والرسُلِ ﷺ لأنهُ ذَكَرَ موسى ﷺ في التوراةِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه: ١١ و...] [وعيسى][٤] في الإنجيل: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥ والمائدة:

---

(١) من م، في الأصل: يقول. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كثرة شوكتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و.

١١٦] وفي مُخاطباتِ آدَمَ ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣ و...] فَسمَّى كلَّ نَبِيٍّ باسْمِهِ سِوَى نَبِيِّنا ﷺ فإنهُ ذَكَرَهُ، وخاطَبَهُ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤ و...] [وقولِهِ][1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١ و٦٧].

وبالنُّبُوَّةِ والرسالةِ اسْتَحقَّ الفضيلةَ، فَذَكَرَهُ باسْمِ فَضْلِهِ، وخاطَبَهُ بِهِ، وذَكَرَ غَيرَهُ مِنَ الأنبياءِ عليهم السلام باسْمِ شَخْصِهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا المَثَلُ لِمكانِ الكَفَرَةِ الذينَ لهمْ برسولِ /٥٨١ ـ أ/ اللهِ ﷺ اتِّصالٌ مِنْ حُرْمَةِ القَرابةِ، فكانوا يَطْمَعونَ منهُ الشَّفاعةَ في الآخِرَةِ، إنْ كانَ الأمرُ على ما ذُكِرَ محمدٌ ﷺ لأنهمْ عَرَفوهُ بالشَّفَقةِ والرَّحْمةِ على الخَلْقِ جُمْلَةً. فكيفَ يَدَعُ شَفَقَتَهُ ورَحْمَتَهُ على قَرابَتِهِ، وهو يَراهُمْ يَتَرَدَّدونَ في الهلاكِ؟ فَبَيَّنَ لهمْ شَأنَ امْرَأةِ نوحٍ وامْرَأةِ لوطٍ ما كانَ بَينَهما وبَينَ نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام مِنَ الاِتِّصالِ لئلّا يَغْتَرّوا باتِّصالِهِمْ بالنَّبِيِّ ﷺ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا في بَدْءِ الإسلامِ في الوقْتِ الذي يَنْفَرِدُ الآباءُ بالإسلامِ دونَ الأبناءِ، والأبناءُ دونَ الآباءِ، فيكونُ المَثَلُ لِمكانِ أولئكَ الذينَ الْتَزَموا، وداموا عليهِ، ولم يَتَّبِعوا آباءَهُمْ أو أبْناءَهُمْ، فيقولُ: لا يَنْفَعُ مَنْ دامَ على الكُفْرِ إسلامُ [مَنْ أسْلَمَ][2] منهمْ، وإنْ كانَ بَينَهما قُرْبٌ مِنْ جِهَةِ الأُبُوَّةِ والنُّبُوَّةِ لأنَّ رحمةَ الإنسانِ وشَفَقَتَهُ على زَوجَتِهِ أكثرُ مِنْ شَفَقَتِهِ على ما ذَكَرْنا. وكذلكَ الاِتِّصالُ.

فإذا لم يَنْفَعْهُما إسلامُ زَوجَيهِما، فكذلكَ لا يَنْفَعُ أولئكَ الذينَ داموا على الكُفْرِ إسلامُ مَنْ أسْلَمَ مِنْ آبائِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا المَثَلُ لِمكانِ أهلِ النِّفاقِ في ما أظْهَروا مُوافقةَ المؤمنِينَ، وأسَرّوا الخِلافَ لهُ، فَيُخْبِرُ أنهُ لا يَنْفَعُهُمْ إظهارُ مُوافَقَتِهِمْ في الدينِ إذا كانوا على خِلافِهِ في التَّحقيقِ كما لا يَنْفَعُ زَوجَتَي نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام إظهارُ المُوافقةِ منهما لِزَوجَيهِما[3] إذا كانتا على خِلافِهِما في السِّرِّ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: في هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ صلاحَ الصالحِ، لا يَنْفَعُ الطالحَ كما لا يَنْفَعُ صَلاحُ نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام الزَّوجَتَينِ إذا كانتا في نفسَيهِما فاسِدَتَينِ. وأرادَ بهذا النَّفْيِ الشَّفاعةَ لأهلِ الكبائرِ.

وليسَ كما ذَكَرَ، لأنَّ هذا المَثَلَ ضَرَبَهُ للكافرِ لا للعُصاةِ؛ إذْ لم يَقُلْ: ضَرَبَ اللهُ مثلاً للذينَ عَصَوا، فليسَ لهُ تَعَلُّقٌ في هذهِ الآيةِ.

ثم قد نَجِدُ[4] صلاحَ الصالحِ في الشاهِدِ يَنْفَعُ الطالحَ، وإنْ لم يَنْفَعِ الكافرَ، لأنَّ المَرْءَ قد يكونُ لهُ زوجةٌ طالحةٌ، تَمْتَنِعُ عنْ كثيرٍ مِنَ الشَّرِّ لِمكانِ زَوجِها مِنْ أهلِ الصلاحِ والبِرِّ. وكذلكَ الولدُ، يَنْفَعُهُ صلاحُ والدَيهِ في الدنيا، إذْ بِخَشْيَتِهِما يَنْتَهي عنْ كثيرٍ مِنَ المَناهي بِصلاحِهِما، فقد نَفَعَهُ صلاحُ والدَيهِ، ونَفَعَها صَلاحُ زوجِها. فجائزٌ أنْ يَنْتَفِعَ الطالحُ أيضاً في الآخِرَةِ بِصلاحِ الصالِحينَ.

وأمّا الكافرُ فهو لم يَمْتَنِعْ عنِ الخِلافِ بِمكانِ[5] أبَوَيهِ ولا بِمَكانِ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ، فلم يَنْفَعْهُ إسلامُ أبويهِ ولا صلاحُهُما في الدنيا، فكذلكَ لا يَنْفَعُهُ في الآخرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي فَخانَتاهُما في الدينِ.

ومنهمْ مَنْ يذكُرُ أنَّ خِيانةَ امرأةِ نوحٍ، هي[6] أنْ أخبَرَتْ قومَهُ بجنونِ زوجِها، وكانَتْ خِيانةُ امرأةِ لوطٍ، هي أنْ أخبَرَتْ قومَ لوطٍ بشأنِ أضيافِهِ.

ولكنْ إنْ كانَ هذا صحيحاً فهو يرجِعُ إلى الأوّلِ، لأنَّ الذي حَمَلَ كلَّ واحدةٍ منهما على الإخبارِ بما أخبَرَتْ مُوافَقَتُها أولئكَ القومَ وخِلافُها لِزوجِها في الدينِ، فلا يَجِبُ أنْ يُشْهَدَ بهذا إلّا بِتَواتُرٍ [إنْ][7] جاءَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لزوجته. (٤) من م، في الأصل: يحذف. (٥) في الأصل وم: بما كان. (٦) في الأصل وم: هو. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وذَكَرَ بعضُهُمْ أنهما زَنَتا، فَخِيانَتُهما زناهما، وذا غيرُ ثابتٍ، لأنَّ الأنبياءَ ﷺ عُصِموا عمّا يُرجِعُ العارَ والشَّينَ إليهِمْ، والزّوجُ يُعَيَّرُ بِزِناءِ زوجتِهِ وفراشِهِ، وفيهِ[1] تَوَهُّمُ التُّهَمَةِ في أولادِهِمْ. فَدَلَّ أنَّ هذا[2] التأويلَ غيرُ صحيحٍ، وحاجَتُنا إلى وجودِ الخيانةِ منهما دونَ التفسيرِ، ولا يَجِبُ أنْ يُشْهَدَ بهذا إلّا بِتَواتُرٍ جاءَ مِنْ يَدَيِ الحُجَّةِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما:][3] وجهُ ضَرْبِ المثلِ بها، هو أنْ يُعْلِمَ المَقهورَ تحتَ أيدي الكَفَرَةِ أنْ لا عُذْرَ لهُ في التَّخَلُّفِ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى؛ إذْ كانتِ امرأةُ فِرعونَ مَقهورَةً تحتَ يديهِ، وكانَتْ بَينَ ظَهْرانَي الظَّلَمَةِ، ولم يَمْنَعْها ذلكَ مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى ومِنَ التَّصديقِ برسولِهِ موسى ﷺ.

والثاني: أنها لم تُشاهِدْ مِنْ زَوجِها ومِنَ القومِ بَينَ ظَهْرانَيهِمْ سِوَى الكُفْرِ باللهِ تعالى.

ثم اللهُ تعالى بِلُطْفِهِ أَلْهَمَها الإيمانَ بهِ، فآمَنَتْ.

وكانَتِ امرأةُ نوحٍ [ﷺ تحتَ نوحٍ][4] ولم تُشاهِدْ منهُ سِوَى الطاعةِ والعِبادةِ لربِّهِ، جَلَّ، وعلا، ثم لم يَنْفَعْها إيمانُهُ وعبادتُهُ، لِيُعْلَمَ أنهُ لا يَنْفَعُ أحداً إسلامُ أحدٍ، ولا يَضُرُّهُ كُفْرُ غيرِهِ، إنما يَصيرُ مؤمناً بِفِعْلِ نفسِهِ [ويَصيرُ][5] كافراً بِفِعْلِ نفسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ وهي لم تُرِدْ بقولِها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ بِقيامِ الوَجْهِ الذي عَرَفَتْ بِبِناءِ زَوجِها وغيرِهِ مِنَ الخَلائقِ، وإنما أرادَتْ بقولِها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أيِ اخْلُقْ لي بَيتاً في الجنةِ.

وكذلكَ لم يَفْهَمْ أحدٌ [مِنَ المُشَبِّهَةِ][6] مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] ما فَهِمَ الخَلْقُ مِنَ النَّفْخِ في الأشياءِ، وإنما فَهِموا منهُ[7] الخَلْقَ والإنشاءَ.

فما بالُ المُشَبِّهَةِ فَهِموا مِنْ قولِهِ تعالى: [﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...]][8] ما فَهِموا مِنَ الاستِواءِ المُضافِ إلى الخَلْقِ؟ لولا ضَعْفُ اعْتِقادِهِمْ وجَهْلُهُمْ بِصانِعِهِمْ في التحقيقِ.

ثم الأصلُ أنْ تَنْظُرَ إلى الأسماءِ التي هي أسماءُ الأفعالِ المُشْتَرَكَةِ في ما بينَ الخَلْقِ، إذا أُضيفَ شيءٌ منها إلى اللهِ تعالى، فَتَعْرِضَها على الأسماءِ التي هي أسماءُ الأفعالِ المَخصوصةُ للهِ تعالى، فما أُريدَ بالاسْمِ المَخصوصِ مِنْ ذلكَ، فذلكَ المَعْنى هو المُرادُ بالاسْمِ المُشْتَرَكِ.

فالاسْمُ المَخصوصُ بِفِعْلِ اللهِ تعالى هو الخَلْقُ؛ إذْ لا أحدَ يُسَمّي أحداً مِنَ الخلائقِ خالقاً [وإنما يَفْهَمُ مِنْ قولِهِ][9]: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أيِ اخْلُقْ لي، ويَفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ الخَلْقَ والإنشاءَ.

والذي يُبَيِّنُ أنَّ الأسماءَ المَخصوصةَ [لا][10] يُفْهَمُ منها ما يُفْهَمُ [مِنَ الأُخرى][11] قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] ومَعْناهُ: هو الذي خَلَقَ سَيْرَكُمْ في البَرِّ والبَحْرِ، وقولُهُ[12] تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون: ٨٠] أي يَخْلُقُ المَوتَ والحياةَ، وقولُهُ[13] ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَخْلُقُ الضلالَ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨] أي يَخْلُقُ هِدايَتَهُ.

ومَنْ حَمَلَ الأمرَ على ما ذَكَرْنا سَلِمَ مِنَ الشُّبَهِ كلِّها وَوِسْواسِ الشيطانِ، وسَلِمَ مِنَ التَّشبيهِ، واللهُ الموفقُ.

---

(١) من م، في الأصل: وفي. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: صلاح. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: به. (٨) في م: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩ وفصلت: ١١]. (٩) في الأصل وم: فيفهم بقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالأخرى. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال.

وفي هذا دلالةُ إيمانِها بالبَعْثِ والحِساب.

ثم مِنَ الجائزِ أنْ تكونَ وصَلَتْ إلى عِلْمِ البَعْثِ والحسابِ بالتَّلْقِينِ أو بِنَظَرِها وتفَكُّرِها في الحُجَجِ والبراهينِ.

وذَكَرَ أهلُ التفسيرِ أنها قالتْ ذلكَ عندَما عَذَّبَها فِرعونُ، واختَلَفوا في صِفَةِ العذابِ مِنْ أوجُهٍ؛ وحقُّ مِثْلِهِ الإمساكُ عنهُ [وألّا نَشْتَغِلَ بِتَفْسيرِهِ][1] لِما يُتَوَهَّمُ مِنْ وقوعِ زِيادةٍ فيهِ[2] أو نُقْصانٍ على العَدَدِ الذي بُيِّنَ في الكتُبِ المُتَقَدِّمةِ.

وهذهِ الأشياءُ جُعِلَتْ حُجَجاً لرسالةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ على أهلِ الكتابِ [لِما وَجَدوها موافِقَةً للأنباءِ التي ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ، وإذا وَقَعَ فيها زيادةٌ أو نُقْصانٌ وجَدوا فيهِ مَوضِعَ الطَّعْنِ في رسالتِهِ. فَلِهذا المَعْنَى ما يَجِبُ تركُ الخَوضِ فيها][3] والإعراضُ عنْ ذِكْرِها.

وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ وغَيرِهِ أنهُ ما مِنْ مُؤمِنٍ ولا كافرٍ إلّا وبُنِيَ لهُ بَيتٌ في الجنةِ. فإنْ ماتَ على الإسلامِ سَكَنَ البيتَ، وإنْ قُبِضَ كافراً [أورِثَهُ غَيرُهُ][4].

وهذا لا يُحْتَمَلُ لأنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ أنهُ يموتُ على الكُفْرِ فكيفَ[5] يَبْني له ذلك كيلا يسكُنَهُ؟ ومَنْ بَنَى لِنَفْسِهِ في الشاهِدِ، وهو يَعْلَمُ أنهُ لا يَسْكُنُهُ صارَ عابثاً في فِعْلِهِ، وجَلَّ اللهُ تعالى عنْ أنْ يوصَفَ بالعَبَثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي نَجِّني مِنْ شَرِّ فِرْعونَ وجنودِهِ ومِنْ عَمَلِهِ أي مِنْ كُفْرِهِ؛ فيكونُ قولُها ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ﴾ راجعاً إلى نفسِهِ، والآخرُ [راجعاً][6] إلى عَمَلِهِ ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ راجعاً إلى قومِهِ.

فسألتِ النجاةَ منهمْ جملةً / ٥٨١ ـ ب/ لِما كانوا يَمْنَعونَها عنْ عبادةِ اللهِ تعالى، فكانتْ تَخافُ ناحيَتَهُمْ، ولا تَأمَنُ، وتَخافُ منهمْ، فَسَألتِ النجاةَ منهمْ لِتَصِلَ إلى عبادةِ ربِّها.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ فأخبَرَ عنها بإحصانِها فَرْجَها، وذلكَ بالأسبابِ، وهي ما اتَّخَذَتْ بَينَ نفسِها وبَينَ الناسِ جَميعاً حِجاباً لئلا يَقَعَ بَصَرُ الناسِ عليها، ولا يَقَعَ بَصَرُها عليهِمْ، فَتَصِلَ بِهِ إلى تَحصينِ فَرْجِها.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وهُمْ إذا غَضُّوا أبصارَهُمْ وَصَلوا إلى حِفْظِ الفُروجِ؛ ففي الحِجابِ غَضُّ البَصَرِ [وفي غَضِّ البَصَرِ][7] وصولٌ إلى حِفْظِ الفَرْجِ وإحصانِهِ، وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وتَطهيرُهُ إيّاها في أنهُ طَهَّرَها مِنَ الفواحشِ والزِّنَى. فأضافَ الإحصانَ إليها في الآيةِ الأُولَى، وأضافَ التطهيرَ ههنا إلى نفسِهِ؛ فَوَجْهُ إضافةِ الإحصانِ إليها ما ذَكَرْنا أنها تَكَلَّفَتِ الأسبابَ التي هي أسبابُ الموانِعِ لِلزِّنَى الدَّواعي إلى الإحصانِ، وأضافَ إلى نفسِهِ التَّطهيرَ لأنَّ وقوعَ ذلك وحصولَهُ[8] كانَ بِهِ؛ ففيهِ دلالةٌ أنَّ كلَّ فِعْلٍ مِنْ أفعالِ العبادِ لا يَخلو مِنْ أنْ يكونَ للهِ تعالى فيهِ صُنْعٌ وتدبيرٌ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي خَلَقْنا فيهِ ما بهِ تَحْيَى الصُّوَرُ والأبدانُ. وقولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ أي في [فَرْجِها، كقولِهِ][10] في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] أي في نفسِها[11] عيسى ﷺ والنفسُ مؤنثٌ.

---

(١) في الأصل وم: ولا نشتغل بتفسيرها. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فهو. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عيسى وقال. (١١) في الأصل وم: نفس.

ثم تَشْبيهُهُ [الخَلْقَ][١] بالنَّفْخ لأنَّ الرُّوحَ إذا خُلِقَ [في الجَسَدِ انْتَشرَ فيهِ][٢] كالريحِ إذا نُفِخَتْ في شيءٍ انْتَشرَتْ فيهِ[٣]، أو [تَشْبيهُهُ الخَلْقَ][٤] بالنَّفْخ لِسُرعةِ دخولِهِ [في ما][٥] نُفِخَ فيهِ كالريحِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ جائزٌ[٦] أنْ تكونَ الكلماتُ التي بُشِّرَتْ بها مريمُ هي[٧] قولَهُ تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥] فَصَدَّقَتْ بِجُمْلَتِها [وأنها][٨] مِنْ عندِ اللهِ، لا شيءَ، ألْقى إليها الشيطانُ.

أو ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي بِحُجَجِ ربِّها وبَراهينِهِ [كقولِهِ تعالى][٩]: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [يونس: ٨٢] أي بِحُجَجِهِ وأدلَّتِهِ.

ثم تكونُ الحُجَجُ حُجَجَ البعثِ أو حُجَجَ الرسالةِ أوِ الوَحْدانيَّةِ، أي يكونُ قولُهُ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي بالكلماتِ التي يُسْتَعاذُ بها مِنَ الشرورِ؛ فَصَدَّقَتْ أنها تُعيذُ مَنْ تَعَوَّذَ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ وقُرِئَ وكتابِهِ[١٠]؛ وفي تَصْديقِها بالكتابِ تصديقٌ منها بالكُتُبِ لأنَّ مَنْ آمَنَ بكتابٍ مِنْ كُتُبِ اللهِ فقد آمَنَ بِسائرِ كُتبِهِ لأنها يُوافقُ بعضُها بعضاً، ومَنْ آمَنَ بكُتُبِهِ فقد آمَنَ بكلِّ كتابٍ لهُ على الإشارةِ إليهِ، فَثَبَتَ أنَّ في الإيمانِ بكتابٍ إيماناً[١١] بسائرِ الكُتُبِ فكلٌّ واحدةٍ[١٢] مِنَ القراءتَينِ تَقْتَضي مَعْنَى القراءةِ الأُخرَى؛ فإنَّ قولَهُ: بكتابِهِ أي بالإنجيلِ، وقولَهُ: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ أي بالإنجيلِ وسائرِ الكُتُبِ المُتَقَدِّمةِ المُنْزَلَةِ مِنْ عندِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ قِيلَ: مِنَ المُصَلِّينَ، لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وإذا وُصِفَتْ[١٣] وَصْفَ الصلاةِ، فالْتَزَمَتْ هذا الأمْرَ، صارَتْ مِنَ القانِتينَ. وقيلَ: أي مِنَ المُطيعينَ لربِّها، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وصلَّى اللهُ على سَيِّدنا محمدٍ ﷺ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيه انتشر في الجسد. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: والتشبيه. (٥) من م، في الأصل: فيها. (٦) في الأصل وم: فجائز. (٧) في الأصل وم: من. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٨٠. (١١) في الأصل وم: إيمان. (١٢) من م، في الأصل: واحد. (١٣) في الأصل وم: وصف.

سورة الملك

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ قيلَ: تعالى، وتعاظَمَ، وتَبارَكَ: تفاعَلَ، مِنَ البركةِ كِنايةٌ عنْ نَفْيِ كلِّ عيبٍ. قال ﷻ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩] أي ماءً، لا كُدُورَةَ فيهِ، ولا قَذَرَ، بل هو ماءٌ مُطَهَّرٌ مِنْ كلِّ آفةٍ وغيرِهِ.

فَمَعْنَى قولِهِ: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي تعالى عنْ أنْ يكونَ لهُ شَبيهٌ وعديلٌ، وتعاظَمَ عمّا قالتْ فيهِ المُلْحِدةُ وعَنْ أنْ تَلْحَقَهُ المَعايِبُ والآفاتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي الذي لهُ مُلْكُ المُلْكِ، لأنهُ قالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] أي الذي لهُ المُلْكُ. فَذَكَرَ اليدَ ههنا مكانَ المالِكِ هناكَ، فامْتُدِحَ، جَلَّ، وعَلا، بمُلْكِ المُلْكِ وكونِه مالكاً لهُ.

والمعتزلةُ يقولونَ: إنَّ مُلْكَ مُلْكِ الكَفَرَةِ ليسَ لهُ، وإنهُ لا يُؤتَى المُلْكُ للكافِرِ، ويقولونَ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إنَّ الذي آتاهُ اللهُ المُلْكَ، هو إبراهيمُ ﷺ والهاءُ تَنْصَرِفُ إليهِ، لا إلى الذي حاجَّهُ.

وإذا لم يَجْعَلوا مُلْكَ مُلْكِ الكَفَرَةِ في يدِهِ لم يَصِرْ مُمْتَدَحاً بما ذَكَرْنا لأنهُ يكونُ في يدِهِ بعضُ المُلْكِ لا كُلُّهُ. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وعلى قولِهِمْ يَصيرُ المُلْكُ في يدِ مَنْ لا يَشاءُ لأنهُ لا يَشاءُ المُلْكَ للكافِرِ، ومَعَ ذلكَ يوجدُ فيهِمُ المُلْكُ.

ثم ما ينبغي لهمْ أنْ يَقْطعوا القولَ بأنَّ اللهَ تعالى لا يُؤتي المُلْكَ للكافِرِ، بل عليهِمْ [أنْ يقولوا:][1] إنْ كانَ إيتاءُ المُلْكِ أصلَحَ لهمْ آتاهُمْ، وإنْ كانَ شَرّاً لم يُؤْتِهِمْ؛ إذْ منْ مَذْهبِهِمْ أنَّ [اللهَ تعالى][2] لا يَفْعَلُ بعبدِهِ إلّا ما هو الأصْلَحُ لهُ في الدينِ والدنيا في حقِّهِ.

فهذا جملةُ اعْتِقادِهِمْ، ثم هُمْ لا يَعْرِفونَ الوَجْهَ الذي لهُ صارَ أصلَحَ في كلِّ شيءٍ على الإشارةِ إليهِ، لأنهمْ يقولونَ: في إبقاءِ إبليسَ اللعينِ إلى اليومِ المَعْلومِ صلاحٌ، وإنْ كُنّا لا نَعْرِفُ الوَجْهَ الذي لهُ صارَ أصْلَحَ؛ وإفناءُ الأنبياءِ والرسُلِ ﷺ كانَ أصْلَحَ، وإنْ لم نَعْرِفْ مِنْ أيِّ وَجْهٍ صارَ أصْلَحَ.

فَلْيَقولوا ههنا: إنَّ إيتاءَ المُلْكِ، إنْ كانَ أصْلَحَ لهمْ لم يكُنْ لهُ ألّا يؤتِيَهُمْ، وإنْ كانَ شَرّاً فَعَلَيهِ ألّا يُؤتِيَهُمْ، لا أنْ يَجْعَلوا الأمْرَ على النَّفْيِ.

ثم المُلْكُ اسْمٌ عامٌّ، وهو عبارةٌ عنْ نَفاذِ التَّدبيرِ والسُّلْطانِ والوِلايةِ. والمُلْكُ هو أنْ يكونَ للمالكِ خاصّةً في الشيءِ، لا يَتَناوَلُ مِنْ ذلكَ الشيءِ إلّا بإذْنِهِ. وقدْ يكونُ المَرْءُ مالكاً، وليسَ بِمَلِكٍ، وقد يكونُ المَرْءُ مَلِكاً، وليسَ بمالكٍ. فكلُّ واحدٍ مِنَ الوَجْهَينِ يَقْتَضي مَعْنًى غَيرَ ما يَقْتَضيهِ الآخَرُ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الملك.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي مُلْكُ كلِّ مَلِكٍ مِنْ أهلِ الأرضِ بيدِهِ، لأنهُ إنْ شاءَ أبْقَى لهُ المُلْكَ، وإنْ شاءَ نَزَعَهُ. فما مِنْ مَلِكٍ في دارِ الدنيا إلّا ومُلْكُهُ في الحقيقةِ للهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ امْتَدَحَ[1] نفسَهُ، تعالى، بأنهُ على ما يشاءُ قديرٌ وذلكَ مِنْ أوصافِ ربوبيَّتِهِ أيضاً.

ومِنْ قولِ المعتزلةِ أنهُ على أكثرِ الأشياءِ غَيرُ قديرٍ، لأنهمْ يَجعلونَ المَعدومَ شيئاً، فَشَيْئِيَّةُ الأشياءِ [كانَتْ بأنفسِها][2] لا بإنشاءِ اللهِ تعالى، ويَجعلونَ ظهورَها باللهِ تعالى فقط.

وإذا كانَ كذلكَ فهو لم يَصِرْ قادراً على شَيْئِيَّةِ الأشياءِ. وكذلكَ يَنْفُونَ الخَلْقَ والقُدْرةَ على أفعالِ العبادِ.

ومِنْ قولِهِمْ أيضاً أنَّ أقدارَ / ٥٨٢ ـ أ/ العَبْدِ بِيَدِ اللهِ تعالى، وإذا أقْدَرَ عبداً مِنْ عَبيدِهِ على الهدايةِ خرجَتِ القُدْرةُ [مِنْ يدِهِ، فَتَصيرُ هذهِ القُدْرةُ][3] مُسْتفادةً لا ذاتيّةً. وإذا كانَ كذلكَ فقد نَفَوا عنهُ القُدْرةَ عنْ أكثرِ الأشياءِ، فلا يَصيرُ هو قادراً على شيءٍ، وإنما هو قادرٌ على البعضِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي خلَقَكُمْ أمواتاً: نُطْفةً وعَلَقةً ومُضْغَةً، ثم أحياكُمْ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾.

وقالَ غَيرُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ لِيَجزيَكُمْ بَعْدَهُ ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ بها، واسْتَدَلَّ بقولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] فَصَرفَ المِحْنَةَ إلى الحالةِ التي أنْشأَهُمْ على وجْهِ الأرضِ، وهي حالةُ الحياةِ. ثم أخْبَرَ بَعْدَ ذلكَ أنهُ يَجْعَلُهُمْ صَعيداً جُرُزاً بَعدَ الإبْتِلاءِ بقولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨].

وعندَنا أنهُ خَلَقَهُما جميعاً لِلإبْتِلاءِ لأنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ الموتَ على غايةِ ما تَكْرَهُهُ الأنفسُ، وتَنْفُرُ عنهُ، وخَلَقَ الحياةَ على غايةِ ما تَتَلَذَّذُ بهِ الأنفسُ، وتَرْغَبُ فيها، والمِحنَةُ[4] في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ. فَثَبَتَ أنَّ خَلْقَ الموتِ [مِحْنةٌ][5] فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ كأنهُ يقولُ: خلَقَ الموتَ مُرْهِباً، وخَلَقَ الحياةَ مُرْغِبَةً ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أرهَبُ مِنَ الشَّرِّ وأرغَبُ في الخيرِ.

ثم الموتُ ممّا لا مَهْرَبَ منهُ لأحدٍ ولا مَخْلَصَ لِمَخلوقٍ، وكذلكَ الحياةُ، وإنْ كانَتْ مِنْ أرغَبِ الأشياءِ إلى الأنفسِ، فليستْ هي بحيثُ يُتَهَيَّأُ للمرءِ أنْ يزيدَ منها بالطلبِ ولا ممّا يوجَدُ بالكدِّ والسَّعْيِ، فصارتْ هي مُرْغِبَةً في الحياةِ الدائمةِ، وهي نعيمُ الآخِرةِ [وصارَ الموتُ][6] مُرْهِباً مِنَ الموتِ الدائمِ، والموتُ الدائمُ هو العذابُ الدائمُ الذي لا يَنْقَطِعُ كما قالَ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي لا تَنقضي عنهُ الآلامُ والأوجاعُ، بل يَبْقَى فيها أبداً.

وإذا ثَبَتَ أنَّ الموتَ صارَ مُرْهِباً مِنَ العذابِ الدائمِ، والحياةَ صارتْ مُرْغِبةً في مِثْلِها، فيقومُ يَطْلُبُها[7].

وَوَجَبَ القولُ بالبعثِ أيضاً؛ إذ الراغبُ إنما يَصِلُ إلى ما يَرْغَبُ فيهِ بالبعثِ، والآخَرُ إنما يصيرُ إلى العذابِ الدائمِ بالبعثِ.

وفيهِ إيجابُ القولِ بالرسالةِ، لأنهُ إذا ثَبَتَتِ الرَّغْبَةُ في المَوعودِ مِنَ الثوابِ والرَّهْبَةُ مِنَ العذابِ، وهما جميعاً غائبانِ، فاحتيجَ إلى مَنْ يُظهِرُهما، ويُخبِرُ عنهما، فلم يكنْ بدٌّ مِنْ رسولٍ، يُخْبِرُهُمْ، ويُحْضِرُ عِلْمَهُ لهمْ.

ثم الأصلُ في قولِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنهُ يَحْسُنُ عملُهُ بِحُسْنِ رغبَتِهِ، ويَسوءُ عملُهُ بِسوءِ رغْبَتِهِ ورَهْبَتِهِ. فَخَلَقَ الحياةَ والموتَ لِيَتَفَكَّرَ[8] فيهما المرءُ، ويَعْتَبِرَ بهما. فَمَنْ حَسُنَتْ رَغْبَتُهُ ورَهْبَتُهُ حَسُنَ عملُهُ، ومَنْ لم يَتَفَكَّرْ فيهما، ولم يعْتَبِرْ بهما ساءَ عَمَلُهُ.

---

(١) في الأصل: فامتحن، في م: فامتدح. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وصارت. (٧) في الأصل وم: يطلبه. (٨) من نسخة الحرم المكي، في وم: ليبلوكم.

فالموتُ والحياةُ أُنشِئا مُرَغِّبَينِ ومُرَهِّبَينِ، وكذلكَ الدنيا وما فيها أُنشِئتْ دلالةً على طريقِ الآخِرَةِ:

فالسَّمْعُ يدلُّ على السَّمْعِ، والبَصَرُ على البَصَرِ، وآلامُها تدُلُّ على آلامِ الآخِرَةِ، ونَعيمُها دليلٌ على نَعيمِ الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيهِ دليلٌ على إضمارِ قولِهِ: وأيُّكُمْ أسْوَءُ عملاً على مُقابلةِ الأوَّلِ، إلّا أنهُ اكْتَفى بذكْرِ أحدِ المُتقابِلَينِ عنِ الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قالَ قائلٌ كيفَ أضافَ الِابْتِلاءَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ والِابْتِلاءُ في الشاهِدِ لِاسْتِظهارِ ما خَفِيَ ولِاسْتِحضارِ ما غابَ، واللهُ تعالى لا يغيبُ عنهُ شيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ أمرٌ، فكيفَ أُضيفَ إليهِ الِابْتِلاءُ؟

فجوابُهُ [في وجهَينِ:

أحَدُهما:][1] أنْ يقولَ: إنَّ الِابْتِلاءَ في الحقيقةِ كِنايةٌ عمّا بهِ ظُهورُ الشيءِ وبُروزُهُ، فاسْتُعمِلَ الِابْتِلاءُ في كلِّ ما [فيهِ][2] ظهورُ الأمْرِ، وإنْ كانَ الذي ظَهَرَ مِنَ الأمرِ عندَ المُبْتَلَى ظاهراً، وهذا كما أُضيفَ الِاسْتِدْراجُ والمَكْرُ إلى اللهِ تعالى لوجودِ مَعْنَى المَكْرِ والِاسْتِدْراجِ فيهِ، وإنْ [لم يَكُنِ][3] المَقصودُ مِنْ ذلكَ المَكْرَ والِاسْتِدْراجَ.

وفي الشاهِدِ أنْ تُحسِنَ إلى عَدُوٍّ لِيَقَعَ عندَهُ أنكَ تَرَكْتَ عداوَتَهُ، فَيَغْتَرَّ بإحسانِكَ إليهِ، ثم تأخُذَهُ مِنْ وجهِ أمْنِهِ ومِنْ حيثُ لا يَشْعُرُ. هذا هو مَعْنَى المَكْرِ في الشاهِدِ، وقد وُجِدَ الإحسانُ مِنَ اللهِ تعالى إلى أعدائِهِ، ووجِدَ منهمُ الِاغْتِرارُ بالنِّعَمِ، وَوَقَعَ عندَهُمْ أنهمْ مِنْ جُمْلَةِ أوليائِهِ، ثم أتاهُمُ العذابُ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرونَ، فَوُجِدَ مَعْنَى المَكْرِ، وإنْ لم يَقْصِدْ بإحسانِهِ إليهِمُ المَكْرَ بهم.

والثاني: مَنْ أمَرَ في الشاهِدِ فإنما يَأمُرُ لِمَنْفَعةٍ تَصِلُ إليهِ، وإذا نَهَى عنْ شيءٍ فإنما يَنْهَى لِنَفْيِ مَضَرَّةٍ تَصِلُ إليهِ. واللهُ تعالى لم يَأمُرِ الخَلْقَ، ولم يَنْهَهُمْ لِمَنْفَعةٍ يَجْلُبُها إلى نفسِهِ أو لِمَضَرَّةٍ يَدْفَعُها عن نفسِهِ، وإنما أمَرَهُمْ، ونَهاهُمْ لِمَنافِعَ تَرْجِعُ إليهِمْ ومَضارَّ تَلْحَقُهُمْ. ثم أُضيفَ [الأمْرُ][4] والنَّهْيُ، وإنْ كانَ لا مَنْفَعَةَ لهُ ولا مَضَرَّةَ عليهِ. فلذلكَ ابْتَلَى خَلْقَهُ لِيُظْهِرَ لِلْمُبْتلي عداوتَهُ وولايَتَهُ، وأضافَ الِابْتِلاءَ إلى نفسِهِ، وإنْ كانَ هو مُسْتَغْنياً عنِ الِابْتِلاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ فيهِ إبانةٌ أنهُ لم يَبْتَلِنا لِمَنْفَعَةٍ أو أمرٍ يَرْجِعُ إليهِ أو لِذُلٍّ يُدْفَعُ عنهُ، ولكنْ لِعِزٍّ يُحْرِزُهُ المُمْتَحَنُ إذا أحْسَنَ العَمَلَ وذنوبٍ تُغْفَرُ لهُ، وتُسْتَرُ عليهِ؛ وهو عزيزٌ بذاتِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي القَوِيُّ على الِانْتِقامِ مِمَّنْ ساءَ عَمَلُهُ، واخْتارَ عداوَتَهُ ﴿الْغَفُورُ﴾ السَّتورُ على مَنْ حَسُنَ عملُهُ، يَسْتُرُ عليهِ [ذنبَهُ، ويَجْزيهِ بِحُسْنِ عَمَلِهِ][5] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ إيجابُ القولِ بِتَصديقِ ما يأتي بهِ الرسلُ مِنَ الخَبَرِ، وقد ثَبَتَ وجودُ هذا القولِ على ألسُنِ الرسلِ، فَلَزِمَنا القولُ في السمواتِ: إنها سَبْعٌ، وإنْ لم تُشاهَدْ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ لِيَبْلُوَ أهلَها أيُّهُمْ أحسَنُ عملاً، لأنهُ بَيَّنَ أنهُ لم يَخْلُقِ السمواتِ والأرضينَ باطلاً.

ثم السمواتُ بأنفُسِها لا تُمْتَحَنُ، وإنما يُمْتَحَنُ أهلُها، لكنه اقْتَضَى ذِكْرُ السمواتِ ذِكْرَ أهلِها، واقْتَضَى ذِكْرُ الأرضينَ ذِكْرَ أهلِها، فأخْبَرَ بِذِكْرِ الأرضِ عنْ ذِكْرِ أهلِها وبِذِكْرِ السمواتِ عنْ ذِكْرِ أهلِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أي انْظُرْ في خَلْقِ الرحمنِ هل تَرَى فيهِ مِنْ تَفاوُتٍ أو فُطورٍ؛ فإنكَ إنْ رأيتَ فيهِ فُطوراً ظَنَنْتَ في مُدَبِّرِهِ عَدَداً، وإنْ رأيتَ فيهِ تَفاوُتاً ظَنَنْتَ في مُنْشِئِهِ سَفَهاً؛ فإنكَ إذا رأيتَ فيهِ فُطوراً أو شُقوقاً

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

رأيتَ فيهِ تمانُعاً وتدافُعاً، وفي حُصولِ التَّمانُعِ والتَّدافُعِ [حُصولُ العَدَدِ، لأنَّ التَّدافُعَ والتَّمانُعَ(١)](٢) إنما يقَعُ عندَ ثباتِ العَدَدِ، لأنَّ ما يبني هذا يَهْدِمُهُ الآخَرُ، ويَنْقُضُهُ. فعندَ ذلكَ يَقَعُ التَّدافُعُ.

وإذا لم تَرَ فيهِ فُطوراً أو شُقوقاً، بل تَراهُ مُنَسَّقاً مُجْتَمِعاً دلَّ على وحدانيَّتِهِ وقُدْرَتِهِ وسلطانِهِ، وذلكَ التَّفاوُتُ يدلُّ على السَّفَهِ ونَفْيِ الحِكْمَةِ، وارْتِفاعُ التَّفاوُتِ يَدُلُّ على حِكْمَتِهِ وعَجيبِ تَدْبيرِهِ، فيكونُ في ارْتِفاعِ الفُطورِ والتَّفاوُتِ إثباتُ القولِ بالوحدانيَّةِ وإيجابُ القولِ بالبَعْثِ مِنْ حيثُ ثَبَتَتْ حِكْمَتُهُ، وفي نَفْيِ القولِ بالبَعْثِ زوالُ الحِكْمَةِ.

وفيهِ إيجابُ المِحْنَةِ والابْتِلاءِ، لأنَّ العَدَدَ إذا ثَبَتَ كانَ لِلْمُمْتَحَنِ ألا يَعْمَلَ حتى يَتَبَيَّنَ لهُ الغالبُ مِنَ المَغْلوبِ، فلا يَضيعَ عَمَلُهُ، أو يَشْتَغِلَ كلٌّ بإقامةِ سلطانِه ونَفاذِ تدبيرِهِ، فلا يَتَضَرَّعَ لِلألَمِ بالمِحْنَةِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾؟ [المؤمنون: ٩١] قيلَ: يذهبُ كلُّ واحدٍ منهمْ بالجزءِ الذي خَلَقَهُ، فَتَظْهَرُ [فُطورٌ](٣) وشُقوقٌ، لأنَّ ما خَلَقَ هذا يَمْتازُ عنِ الذي خَلَقَهُ الآخَرُ.

فارْتِفاعُ الفُطورِ يَدُلُّ على وحدانيَّةِ الصانعِ، جلَّ جلالُهُ.

وقيلَ في قولِهِ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ /٥٨٢ ـ ب/ أي مِنْ حيثُ الدلالةُ على وحدانيَّةِ الربِّ تعالى أو مِنْ حيثُ الحِكْمَةُ والمَصْلَحةُ.

فالخلائقُ كلُّها في المَعاني التي ذَكَرْناها غيرُ مُتَفاوِتةٍ، لا أنْ تكونَ الأشياءُ المُحْدَثَةُ غيرَ مُتَفاوِتَةٍ في أنفسِها، لأنَّ بينَ السمواتِ والأرضِينَ تَفاوُتٌ، وكذلكَ بينَ الحياةِ والموتِ تَفاوتٌ، ولكنَّ مَنافعَ السماءِ مُتَّصِلَةٌ بِمَنافِعِ الأرضِ، ومَنافعَ أهلِ الأرضِ مُتَّصِلَةٌ بالأرضِ، وقِوامُهُمْ ومَعاشُهُمْ بِما يَخْرُجُ منها.

وكُلُّ ذلكَ يَدُلُّ على وحدانيَّتِهِ وعلى حكمتِهِ ولَطائفِ تدبيرِهِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا على رُجوعِ بَصَرِ الوجهِ، وجائزٌ أنْ يكونَ على رُجوعِ بَصَرِ القَلْبِ، أو يكونَ [رُجوعُ](٤) أحدِهِما على بَصَرِ الوَجْهِ، والثاني على بَصَرِ القَلْبِ.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ على بَصَرِ القَلْبِ، لأنهُ قد سَبَقَ منهُ النَّظَرُ إلى السمواتِ والأرضِينَ بِبَصَرِ الوجهِ، وسَبَقَ منهُ العِلْمُ مِنْ حيثُ النَّظَرُ أنهُ لا تَفاوُتَ فيها ولا فُطورَ، فَدَعاهُ إلى أنْ يَنْظُرَ بِبَصَرِ القلبِ، لِيَدُلَّهُ ذلكَ على المعاني، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] وقولِهِ(٥) تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩] ولم يُرِدْ بهِ السيرَ بالأقدامِ؛ إذْ قد سَبَقَ منهمُ السيرُ فيها، ولكنَّ مَعْناهُ: أوَلَمْ يَتَفَكَّروا في عَواقِبِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ مُكَذِّبي الرسُلِ: أنهمْ بأيِّ سببٍ أُهْلِكوا، ولأيِّ ذَنْبٍ عوقِبوا، واسْتُؤْصِلوا؟

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ الآيةَ: منهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الكَرَّةَ ههنا كِنايةٌ عنْ مَرَّةٍ بَعْدَ مَرَّةٍ، ليسَتْ على تَثْبيتِ العَدَدِ؛ فكأنهُ يكونُ أبداً مُعْتَبِراً ناظِراً في خَلْقِ الرحمنِ. وإلى هذا يَذْهَبُ الحسنُ والأصَمُّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ مَرَّتينِ، ولكنْ [على](٦) اخْتِلافِ الوَقْتَينِ، فتكونَ إحْدَى النَّظْرَتَينِ بالليلِ [وثانِيَتُهُما بالنهارِ، لأنهُ بالليلِ آياتٌ، وبالنهارِ](٧) آياتٌ سِواها، وثُبوتُ كلِّ شيءٍ يَدُلُّ على وحدانيَّتِهِ وعجيبِ حكمتِهِ ونَفاذِ قُدْرتِهِ وسُلْطانِهِ، أو تكونَ النَّظْرةُ الأولَى بِبَصَرِ الوَجْهِ، والنَّظْرةُ الثانيةُ بِبَصَرِ القَلْبِ، لأنهُ إذا نَظَرَ النَّظْرَةَ الأولى بِبَصَرِ وجهِهِ، فَرَأى ما فيهِ مِنَ العجائبِ أشْعَرَ قلبَهُ ما رَأى، فَيَنْظُرُ فيهِ مَرَّةً أُخرى بِبَصَرِ القَلْبِ لِيَتَأكَّدَ ذلكَ، ويَتَقَرَّرَ

---

(١) في م: والتناقض. (٢) من م، في الأصل: والتناقض. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقال.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، في م: وثانيتهما بالنهار لأنه لا يرى بالليل آيات وبالنهار، في الأصل: بالنهار.

ويجوزُ أنْ تكونَ النَّظْرَتانِ جميعاً بِبَصَرِ الوَجْهِ لأنهُ [لا][1] يَسْتَوعِبُ النَّظَرَ بالجملةِ في المَرَّةِ الأولَى، فينْظُرُ مَرَّةً أُخرَى لِيُدْرِكَ ما غاب عنهُ في المَرَّةِ الأُولَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَاسِئًا﴾ أي صاغراً مُسْتَسْلِماً مُعْتَرِفاً بالقصورِ عنْ دَرْكِ كُنْهِ سُلْطانِهِ والإحاطةِ بِعظَمَتِهِ وجلالِهِ ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي مُنْقَطِعٌ عنْ دَرْكِ بلوغِ حِكْمَتِهِ ونفاذِ أمرِهِ.

ثم الأشْبَهُ أنْ يكونَ المُرادُ بهذا الخِطابِ المُكَذِّبينَ بالبعثِ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وإنْ كانَ الخِطابُ مُتَوجِّهاً إليهِ في الظاهرِ، لأنهُ إنما أرادَ بالنَّظَرِ في خَلْقِ اللهِ تعالى لِيَتَقَرَّرَ عندهُ عَظَمةُ اللهِ تعالى وسُلْطانُهُ وعجيبُ حِكْمَتِهِ ونَفاذُ تدبيرِهِ، ورسولُ اللهِ ﷺ قد كانَ تَقَرَّرَ عندَهُ عِلْمُ ذلكَ كلِّهِ، فلم يكُنْ يَحتاجُ إلى النَّظَرِ في ما ذَكَرَ لِيَتَقَرَّرَ، فَصُرِفَ إلى المُكَذِّبينَ بالبَعْثِ، فأُمِروا بالنَّظَرِ في ما ذَكَرَ لِيَتَقَرَّرَ عندَهُمْ سُلْطانُهُ ونَفاذُ تدبيرِهِ وأنهُ ليس بالذي يُعْجِزُهُ أمرٌ، وأنَّ قُدْرَتَهُ ليستْ بِمُقَدَّرةٍ بِقِوَى البشرِ، وهُمْ كانوا يُنْكِرونَ البعثَ والإحياءَ على تقديرِ الأمورِ بِقِوَى أنفسِهِمْ. فإذا نَظَروا في هذهِ الأشياءِ، وعرفوا فيها لَطائفَ وحِكَماً، لا تُدْرِكُها عقولُهُمْ، وقُوَّةً، لا تَبْلُغُها حِيَلُهُمْ، أدّى ذلكَ إلى رَفْعِ الإشكالِ عنهمْ وإزاحةِ الرِّيَبِ الذي اعْتَراهُمْ في أمْرِ البَعْثِ، فَيَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ سَمّاها سماءَ الدنيا لِدُنُوِّها إلى المُخاطَبينَ المُمْتَحَنينَ لا أنْ تكونَ السماءُ الثانيةُ سماءَ الآخِرَةِ. والذي يَدُلُّ على صِحَّةِ ما ذَكَرْنا أنَّ مُقابِلَ الدنيا ليسَتْ هي الآخِرَةَ، بل مُقابِلُها الأولَى، ومُقابِلُ الدنيا القُصْوَى، فَثَبَتَ أنْ ليسَ فيها تَبْيِيتُ أنَّ السماءَ الثانيةَ هي سماءُ الآخِرَةِ.

والمَصابيحُ هي النجومُ، فَذَكَّرَ عِبادَهُ عَظيمَ ما أودَعَ مِنَ النَّعيمِ في النجومِ عليهِمْ، فَجَعَلَ فيها ثلاثةَ أوجُهٍ مِنَ النَّعيمِ:

إحداها: أنهُ جَعَلَها زينةً لِلنّاظرينَ كما قالَ تعالى: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

ثم هذه الزينةُ إنما تَظْهَرُ عندما تَخفَى على الناظرينَ زينةُ الأرضِ، وذلكَ في ظُلْمةِ الليالي، فأبْدَلَ اللهُ لهمْ زينةً في السماءِ مَكانَ الزينةِ التي أنشأها في الأرضِ، وفَضَّلَ هذهِ الزينةَ على سائرِها، لأنَّ سائرَها لا يَظْهَرُ إلّا بالدُّنُوِّ إليها والقُرْبِ منها، ثم جَعَلَ هذهِ الزينةَ بحيثُ تَظْهَرُ، فَتُرَى مِنَ البُعْدِ، فَثَبَتَ أنَّ لها فَضْلاً وشَرَفاً على زينةِ الأرضِ.

والنعمةُ الثانيةُ: ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] فَجَعَلَها هُدًى مِنْ ظلماتٍ أحوالٍ تَقَعُ، فَيَسْلَمُ بها المَرْءُ مِنَ الوقوعِ في المهالكِ.

والنعمةُ الثالثةُ: ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] وفي جَعْلِها رجوماً للشياطينِ رَفْعُ الإشْتِباهِ عنِ الخَلْقِ وإخراجُهُمْ مِنْ ظلماتِ الأفعالِ إلى النورِ؛ وذلكَ أنَّ الشياطينَ كانوا يَصْعَدونَ إلى السماءِ، فَيَستَمِعونَ إلى الأخبارِ التي يَتَحادثُ بها أهلُ السماءِ في ما بَيْنَهُمْ ممّا يُرادُ بأهلِ الأرضِ، فَيَسْتَرِقونَ السَّمْعَ منهمْ، فيأتونَ بها أهلَ الأرضِ، ويُلْقونَها إلى أهلِ الأرضِ بَعْدَ ما يَخْلِطونَها بأكاذيبَ مِنْ عندِ أنفسِهِمْ، فَيُشَبِّهونَ على الخلائقِ، ويُضِلُّونَهُمْ بذلكَ عنْ سبيلِ اللهِ تعالى، فَمَلأَ السماءَ بالحَرَسِ والشُّهُبِ لِيَدْفعوا الشياطينَ عنِ اسْتِراقِ السَّمْعِ لِيكونَ تبليغُ الأخبارِ إلى أهلِ الأرضِ بِمَنْ يُؤمَنُ عليهِ [مِنَ][2] الكَذِبِ، وهو الرسولُ ﷺ، فَتَسْلَمَ تلكَ الأخبارُ مِنَ التَّخاليطِ والشُّبَهِ، فَيَسْلَمَ الناسُ مِنَ الوقوعِ في الظلماتِ.

ثم يكونُ في جَعْلِ النجومِ زينةَ السماءِ أنَّ أهلَ السماءِ قدِ ابْتُلُوا أيُّهُمْ أحسَنُ عَمَلاً كما ابْتُلِيَ بهِ أهلُ الأرضِ. ألا تَرَى إلى ما ذَكَرَ في أهلِ الأرضِ في قولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ [الكهف: ٧] فأخبرَ أنَّ الزينةَ لِلامْتِحانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيهِ أنهمْ، وإنْ عُذِّبوا بالنيرانِ التي جُعِلَتْ في النجومِ الرُّجومَ لا تدفَعُ عنهمْ ما اسْتَوجَبوا مِنَ العذابِ الدائمِ، بل قد أعَدَّ لهمْ عذابَ السعيرِ كما أعَدَّ لِغَيرِهِمْ مِنَ الشياطينِ وأهلِ الكُفْرِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فالمَصيرُ هو الطريقُ، أي فبئسَ الطريقُ طريقُ مَنْ سَلَكَهُ أفْضَى بهِ إلى عذابِ السَّعيرِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ والشهيقُ الصوتُ المُنْكَرُ. مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي لجهنَّمَ، ومنهمْ مَنْ جَعَلَ الشهيقَ مِنْ أهلِها. وقد يجوزُ أنْ يُذْكَرَ المكانُ، والمُرادُ منهُ الأهلُ كما قالَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] وكِلا الأمْرَينِ يَحْتَمِلُ عندَنا.

ولا يُحتاجُ إلى معرفةِ ذلكَ لأنَّ الصوتَ المُنْكَرَ أمْرٌ ظاهِرٌ مِمَّنْ لا يَعْقِلُ الصوتَ [كَهُوَ مِمَّنْ يَعْقِلُ، فليسَ الذي يَعْقِلُ الصوتَ][1] أوْلَى أنْ يُجْعَلَ الفِعْلُ لهُ مِنَ الذي لا يَعْقِلُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تَغْلي[2]. ثم النارُ بِنفسِها لا تَغْلي، وإنما تَغْلي بالذي يُجْعَلُ فيها، ففيهِ أنَّ طعامَهُمْ وشرابَهُمْ في النارِ، فَتَغْلِي النارُ بطعامِهِمْ وشرابِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا كِنايةً عنِ الخَزَنةِ. وجائزٌ أنْ يكونَ هذا وَصْفَ النارِ، ولله[3] تعالى أنْ يَجْعَلَ في جهنمَ وفي ما شاءَ مِنَ الأصواتِ / ٥٨٣ ـ أ/ ما تُعْرَفُ فيهِ عَظَمتُهُ وجلالُهُ، فَيَغْضَبُ لهُ على أعدائِهِ غَضَباً، يكادُ يَتَقَطَّعُ في نَفْسِهِ، ويَسْلَمُ لأوليائِهِ[4].

ثم في ذِكْرِ غَضَبِها تذكيرٌ أنَّ مِنْ حقِّ اللهِ تعالى على أوليائِهِ أنْ يَغْضَبوا لهُ على أعدائِهِ غَضَبَ جهنَّمَ، بل جهنَّمُ أبْعَدُ مِنْ أن تُمْتَحَنَ بذلكَ مِنّا.

ثم هي بَلَغَتْ مِنَ الغضبِ على أعداءِ اللهِ مَبْلَغاً كادَتْ تَتَقَطَّعُ [في نفسِها][5].

فالأولياءُ أحقُّ أنْ يوجَدَ منهمْ مِنَ الشِّدَّةِ على الأعداءِ؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقولُهُ[6] تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهكذا الحقُّ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يكونَ على هذا الوصفِ.

وفيهِ حِكْمةٌ أُخرَى، وهي[7] أنهُ ذَكَرَ شِدَّةَ النارِ على أهلِها لئلّا يقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يُنْذِرُكُمْ لِقاءَ يومِكُمْ هذا.

الآية ٩ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ وهذا هو إخبارٌ عنْ نهايةِ أمْرِهِمْ وآخِرِ شأنِهِمْ؛ وذلكَ أنهمْ فَزِعوا في الآخِرَةِ إلى اليَمينِ بالكَذِبِ، فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] رَجاءَ أنْ يَنْفَعَهُمْ ذلكَ في الآخرةِ كما كانَتْ تَنْفَعُهُمْ في الدنيا، فلمّا أُلْقُوا فيها أيْقَنوا أنَّ أيمانَهُمْ لا تَدْفَعُ عنهمُ العذابَ، وفَزِعوا إلى الاعْتِرافِ والصدقِ رَجاءَ أنْ يَتَخَلَّصوا مِنَ العذابِ، فقالوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ يُنْذِرُنا بِلِقاءِ هذا اليومِ ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ بالذي كانُ يُنْذِرُنا النُّذُرُ ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ ممّا يُنْذِرونَنا بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ القائلُ لهم بهذا هُمُ الخَزَنَةُ، وهذا خِطابٌ في الدنيا ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ اعْتِرافٌ منهمْ بأنهمْ قد سَمِعوا، وعَقَلوا، وقولُهُ ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ ليسَ هو على نَفْيِ السَّمْعِ والعقلِ، إذْ قد أقَرّوا أنهم سَمِعُوا، وإنما هو على

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تغاظى. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: من أوليائه. (٥) في الأصل وم: بنفسها. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) ساقطة من الأصل وم.

نَفْيِ الاِنْتِفاعِ بما سَمِعوا، أو عَقَلوا؛ لأنَّ الاِنْتِفاعَ بالمَسْموعِ، هو الإجابةُ لِما سُمِعَ، والاِنْتِفاعَ بالعقلِ أنْ يُقامَ[1] بِوَفاءِ ما عُقِلَ. وهُمْ لم يُجيبوا لِما سَمِعوا، ولم يَقوموا بِوَفاءِ ما عَقَلوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ في الدنيا كما نَسْمَعُ الآنَ، أو كُنّا نَعْقِلُ[2] [كما نَعْقِلُ] الآنَ ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾ وهذا غَيرُ مُسْتَقيمٍ لأنَّ تلكَ الدارَ، ليسَتْ بِدارِ إسماعٍ وإفهامٍ، وإنما المَعْنى ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾ أي بُعْداً على مَعْنَى الدعاءِ عليهِمْ، وقيلَ: السُّحْقُ: وادٍ في جهنَّمَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [يَحْتَمِلُ][3] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ عذابَ ربِّهِمْ، والعذابُ عنهمْ غائبٌ؛ فأهلُ الإسلامِ يَخْشَونَ عذابَ اللهِ، وهو غائبٌ عنهمْ، والكَفَرةُ لا يَخْشَونَهُ إلّا أنْ يُعايِنوهُ[4].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يَخْشَونَ اللهَ تعالى أنْ يُعَذِّبَهُمْ، أو يَخْشَونَهُ[5] في ما أوعَدَهُمْ.

ثم الأصلُ أنَّ ما مِنْ مُؤمِنٍ بالبَعْثِ سِوَى المعتزلةِ إلّا وهو يَخْشَى اللهَ تعالى. لكنهمْ يَتَفاوَتونَ في الخَشْيَةِ.

ثم الخَشْيَةُ تَقْتَضي الرَّجاءَ، والخَوفُ ليسَ كالآخَرِ، والإياسُ الذي لا يَقْتَضي كلَّ واحدٍ منهما إلّا وَجْهاً واحداً.

وإذا كانَتِ الخَشْيَةُ تَقْتَضي ما ذَكَرْنا فكلُّ مؤمنٍ يَخافُ عذابَ اللهِ تعالى لِما رَأى مِنْ كثرةِ نِعَمِ اللهِ تعالى وغَفْلَتِهِ عن حقوقِ تلكَ النِّعَمِ، لأنَّ مِنْ حقِّها أنْ يَشْكُرَ اللهَ تعالى عليها، وقد عَرَفَ كلُّ مؤمنٍ تقصيرَهُ في أداءِ الشُّكرِ وتفريطَهُ في قضاءِ الحقوقِ فيَرْجو رَحْمَتَهُ لِما عَرَفَ مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وعَرَفَهُ مُفَضِّلاً عَفُوّاً غَفوراً. لكنْ فيهِمْ تَفاوُتٌ في الخَشْيَةِ والرَّهْبَةِ.

فَمَنْ كانَ أذْكَرَ[6] لِغَفْلَتِهِ فهو لِعقوبتِهِ أكثرُ خَشْيَةً، ومَنْ كانَ أقَلَّ ذِكْراً لِغَفْلَتِهِ فهو أقلُّ خَشْيَةً، فَيَتَفاوتونَ على تَفاوُتِهِمْ في الذِّكْرِ، وهو كالموتِ الذي يَرْهَبُهُ الناسُ جميعاً، ويَتَيَقَّنونَ بِحُلولِهِ، لكنهمْ يَتَفاوتونَ في ذلكَ؛ فَمَنْ كانَ لهُ أكْثَرُ ذِكْراً كانَ أبْلَغَ في التَّيَقُّظِ وأكْثَرَ رَهْبَةً، ومَنْ كانَ أغْفَلَ عنْ ذِكْرِهِ فهو أقَلُّ رَهْبَةً.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ جَعَلْتُمْ كلَّ مؤمنٍ خائفاً راجياً، والراجي، هو الذي يَطْلُبُ، والخائِفُ، هو الذي يَهْرُبُ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجا شيئاً يَعْلَمُ أنهُ لا وُصولَ إليهِ إلّا بأعمالٍ وأسبابٍ، فهو يقومُ بتلكَ الأعمالِ بغايةِ ما يَحْمِلُهُ وُسْعُهُ لِيَصِلَ إلى مأمولِهِ، وإذا لم يكنْ راجياً في الحقيقةِ، بل كانَ مُتَمَنِّياً. وكذلكَ مَنْ خافَ حقيقةَ الخَوفِ، وعَلِمَ أنَّ المَخوفَ نازلٌ بهِ إنْ لم يَهْرُبْ ممّا يخافُهُ أشَدَّ الهَرَبِ.

ثم كثيرٌ مِنَ المؤمنينَ تَراهُمْ مُقَصِّرينَ في الأعمالِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى بلوغِ الآمالِ، ولا يَهْرُبونَ ممّا يُخافُ منهُ أشَدَّ الهَرَبِ وغايةَ الخَوفِ، فكيفَ وَصَفْتُمْ كلَّ مؤمنٍ بالخَوفِ والرَّجاءِ، وكثيرٌ منهمْ لا يَتَحَقَّقُ فيهِمْ هذا الوصفُ؟

واسْتُدِلَّ على صحةِ ما ذُكِرَ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] فالراجي رَحْمةَ اللهِ مَنْ دَأَبَ في طاعتِهِ، وقولِهِ[7] تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فقيلَ: يا رسولَ اللهِ أهُمُ الذينَ يَزْنونَ، ويَسْرِقونَ؟ فقالَ: بل هُمُ الذينَ يَصومونَ، ويُصَلّونَ ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ وقولِهِ[8] تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فجوابُهُ أنَّ المؤمنَ ليسَ يَرَى كلَّ خَلاصِهِ مِنَ العذابِ وأمْنَهُ مِنَ العقابِ بِعَمَلِهِ حتى إذا وَجَدَ التَّقْصيرَ في العَمَلِ أظْهَرَ ذلكَ المَعْنَى فَسادُ الرَّجاءِ والخَوفِ، وإنما يَتَوَقَّعُ خلاصَهُ بِعَفْوِ اللهِ تعالى، ويرجو رَحْمَتَهُ بكرمِهِ وجودِهِ؛ لِذلكَ لم يُوجِبِ التَّقْصيرُ في العمل إبطالَ الرَّجاءِ والخَوفِ. هذا إذا كانَ غَيرَ مُعْتَزِليِّ المذهبِ، ولم يَكُنْ مِنَ الخَوارجِ.

أمّا إذا كانَ الراجي والخائفُ أحدَ هذينِ فَتَقْصيرُهُ في العملِ يَدُلُّ على فَسادِ الرَّجاءِ والخَوفِ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما، ليسَ يَرَى لنفسِهِ شفيعاً إلّا عَمَلَهُ، بهِ يَنْجو، وبهِ يهلِكُ. فإذا لم يُبالِغْ في الطَّلَبِ مِنْ جهةِ العملِ، ولم يُبالِغْ في الهَرَبِ مِنَ الخَوفِ بالعَمَلِ ظَهَرَ أنهُ ليسَ بِراجٍ، ولكنهُ مُتَمَنٍّ، ويَتَبَيَّنُ أنهُ غيرُ خائفٍ في الحقيقةِ.

---

(١) في الأصل وم: يقوم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أن يخشوه. (٦) في الأصل وم: إذا ذكر. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: وقال.

ثم المعتزلةُ، لا يَخافونَ اللهَ تعالى، ولا يَرْجونَ رحمَتَهُ في الحقيقةِ، لأنهمْ يَزْعُمونَ أنَّ العبدَ إذا ارْتَكَبَ الكَبيرةَ فليسَ للهِ تعالى ألّا يُعَذِّبَهُ عليها وأنْ يَغْفِرَها لهُ، وإذا اجْتَنَبَ الكَبيرةَ اسْتَوجَبَ المَغْفِرَةَ. وإنِ ارْتَكَبَ الصغائرَ ليسَ للهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَهُ عليها.

والقائلُ بهذا غَيرُ راجٍ رحمةَ اللهِ تعالى ولا خائفٍ مِنْ عذابِهِ، وإنما يَقَعُ الخَوفُ والرجاءُ مِنْ عندِ نفسِهِ لأنَّ الزَّلَّةَ التي اسْتَوجَبَ بها العذابَ، هو الذي اكْتَسَبَها، ولو لم يَعْمَلْها لم يُعَذَّبْ، وفازَ بالنجاةِ، فَصارَ رجاؤُهُ وخلاصُهُ بِعَمَلِهِ لا بِرَحْمةِ اللهِ تعالى وفَضْلِهِ، ولا بذلكَ وَصْفُ اللهِ تعالى وفَضْلُهُ، ولا بذلكَ وَصْفُ اللهِ تعالى المؤمنينَ في كتابِهِ. ولأنَّ اللهَ تعالى أثْنى على الذينَ يَدْعونَهُ خَوفاً ورَغَباً ورَهَباً.

وعلى قولِ أهلِ الاعْتِزالِ لا يَدْعُو أحدٌ ربَّهُ على الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والخَوفِ والطَّمَعِ، لأنَّ الداعِيَ إنْ كانَ صاحبَ كبيرةٍ فهو في ما يَدْعو اللهَ تعالى لِيَغْفِرَ لهُ إنما يَدْعُو لِيجورَ عليهِ؛ إذْ لا يَسَعُهُ أنْ يَغْفِرَ لهُ، ولا [أنْ][1] يُعَذِّبَ عليهِ. فَدُعاؤُهُ بالمَغْفِرَةِ مَعناهُ يَقْتَضي [أنْ يَجورَ عليهِ][2] وذلكَ عظيمٌ.

وإنْ كانَ صاحبَ صغيرةٍ فهو في ما يَطْلُبُ المَغْفِرَةَ منهُ تعالى يَسْأَلُهُ ألّا يَجورَ عليهِ لأنهُ ليسَ لهُ أنْ يُعَذِّبَ على الصغائرِ على مذهبِهِ /٥٨٣ ـ ب/ ولو عَذَّبَ صارَ بهِ جائراً.

فإذا خافَ عذابَهُ حتى إذا فَزِعَ إلى الدعاءِ خافَ جَورَهُ، ومَنْ لم يَأْمَنْ مِنْ ربِّهِ الجَورَ، بل خافَ ذلكَ منهُ، فهو لم يَعْرِفْ ربَّهُ حقيقةَ المَعْرِفةِ.

وكذلكَ مَنْ دعا اللهَ تعالى لِيَجورَ عليهِ فقد دعا إلى أنْ يُسَفِّهَ، والسفيهُ لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ إلهاً. فَثَبَتَ أنَّ الداعيَ على الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ غَيرُ مَمْدوحٍ عندَهُمْ ولا هو مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الثناءَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي مَنْ يَرْجو اللهَ تعالى، ويَخافُهُ، فَلَهُ مَغْفِرَةٌ لذنوبِهِ وأجرٌ كبيرٌ، وهو الجنةُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهذهِ الآيةُ، كأنها في إلزامِ الوَعيدِ؛ يقولُ: إنهُ عالمٌ بالأنفسِ التي فيها الصدورُ بما يُضْمِرونَ فيها، ويُودِعونَ، ويَكْتُمونَ، وبما يُخْبِرونَ عمّا أودَعوا، ويُظْهِرونَ.

والصدرُ، هو ساحةُ القَلْبِ سُمِّيَ صَدْراً لأنَّ الآراءَ تَصْدُرُ عنها، فهو عالِمٌ بالأنفسِ التي لها الصدورُ بما يَصْدُرُ عنْ آرائِهِم، وعالِمٌ بما يُضْمَرُ فيها مِنَ الأسرارِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ تأويلُهُ عندَ أهلِ الإسلامِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مِمّا أسَرُّوا، وجَهَروا؟ و﴿مَنْ﴾ راجعٌ إلى اللهِ تعالى دونَ الخَلْقِ، كأنهُ يقولُ: ألا يَعْلَمُ الخالقُ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وفيهِ إثباتُ خَلْقِ الأفعالِ والأقوالِ وخَلْقُ الشَّرِّ، فيكونُ حُجَّةً لنا على المعتزلةِ في خَلْقِ أفعالِ العبادِ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حربٍ وأبو بكرٍ الأصَمُّ: إنَّ حَرْفَ ﴿مَنْ﴾ لا يَرْجِعُ إلى اللهِ تعالى، وإنما يَرْجِعُ إلى الخَلْقِ، فكأنهُ يقولُ: ألا يَعْلَمُ اللهُ مَنْ خَلَقَ على إضمارِ اسْمِ اللهِ تعالى؟ فاحْتالا بهذهِ الحيلةِ لِنَفْيِ الخَلْقِ عنِ الأفعالِ لأنَّ حَرْفَ ﴿مَنْ﴾ يَرْجِعُ إلى الأنفسِ دونَ الأفعالِ والأقوالِ.

وذلكَ فاسدٌ لأنَّ الآيةَ في مَوضِعِ الوعيدِ. ولو كانَ قولُهُ: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ راجعاً إلى الأنفسِ لَزالَ مَوضِعُ الوَعيدِ؛ إذْ ليسَ في خَلْقِ الأنفسِ وعِلْمِ اللهِ بها إثباتُ العِلْمِ بأفعالٍ وُجِدَتْ منهمْ، ولا في خَلْقِ الأنفسِ إيجابُ الوَعيدِ بالأفعالِ.

ولأنهُ لو لم يكُنِ اللهُ تعالى خالقاً لِما يَجْهَرُ بهِ العبدُ ولِما يُخْفيهِ لم يَكُنْ لِيُحْتَجَّ بهِ على عملِهِ، إذْ قد يجوزُ جوازُ الجَهْلِ لِغَيرِ الذي يَفْعَلُهُ، فلا يجوزُ أنْ يُحْتَجَّ عليهمْ بِفِعْلِ غَيرِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن جر على.

ولأنهُ ليسَ في إثباتِ العِلْمِ بِخَلْقِ الأنفسِ إثباتُ العِلْمِ بِما أسَرُّوا، وجَهَروا، كما لم يكُنْ عندَ المعتزلةِ في إيجابِ الخَلْقِ لنفسِ الإنسانِ إيجابُ الخَلْقِ لأفعالِهِمْ.

ومَعْلومٌ بأنَّ الآيةَ في تحقيقِ العلمِ بما أسَرُّوا، وجَهَروا، لأنَّ قولَهُ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مذكورٌ على إثْرِ قولِهِ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ وقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عليمٌ بِما تُسِرّونَ وما تَجْهَرونَ، فَثَبَتَ أنَّ الخَلْقَ راجعٌ إلى ما أسَرُّوا، وجَهَروا.

ثم إنَّ الناسَ على اختلافِهِمْ اتَّفقوا أنَّ كلَّ واقعٍ بالطَّبْعِ والضرورةِ مَخْلوقُ اللهِ تعالى. وإنما اخْتَلَفوا في الواقعِ بِكَسْبِ العبدِ؛ فمنهمْ مَنْ أثبَتَ فيهِ الخَلْقَ، وهو قولُ أهلِ الهُدَى، ومنهمْ مَنْ أبَى القولَ بِخَلْقِهِ.

ثم المَرْءُ لا يَتَهَيَّأُ لهُ استِعْمالُ اليدِ إلّا في الوَجْهِ[1] الذي جُعِلَ في طَبْعِ اليَدِ احْتِمالُ ذلكَ المَعْنَى[2] ولا يَتَهَيَّأُ لهُ أنْ يَسْتَعْمِلَها[3] في الوجهِ الذي لم يُجْعَلْ في طَبْعِها احْتِمالُ ذلكَ؛ لأنهُ لو أرادَ أنْ يَرَى بِيَدَيهِ، أو يَسْمَعَ بهما، لم يَمْلِكْ ذلكَ. فَثَبَتَ أنهُ مَلَكَ اسْتِعْمالَها في القَبْضِ والأخْذِ والتَّسْليمِ بما جُعِلَ في طَبْعِها اسْتِعْمالُ ذلكَ، وإذا كانَ كذلكَ فقد ثَبَتَ الخَلْقُ في ما يَعْمَلُ بيديهِ، وفي ما يَرَى بِعَيْنَيهِ، ويَسْمَعُ بأذنَيهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ في تَدْبيرِهِ؛ إذْ دَبَّرَ لسانَ الإنسانِ على ما إذا اسْتَعْمَلَهُ يَخْرُجُ منه الكلامُ. ولو أرادَ أحَدٌ أنْ يَتَعَرَّفَ المَعْنى الذي بهِ صَلَحَ النُّطْقُ لم يَقِفْ عليهِ.

ودَبَّرَ قَلْبَهُ على أنْ يُصَوِّرَ ما وَقَعَ فيهِ مِنَ الخَيالِ، فَيُؤَدِّيَهُ بلسانِهِ، ودَبَّرَهُ على وَجْهٍ يَصْلُحُ أنْ يُوعَى الأسرارَ والودائعَ مِنْ وجْهٍ لو أرادَ الخلائقُ أنْ يَتَعَرَّفوا الوجْهَ الذي صَلَحَ القَلْبُ أنْ يكونَ مُصَوِّراً وحافظاً ومَعْدِناً للأسرارِ لم يَقِفوا عليهِ

وقيلَ: ﴿اللَّطِيفُ﴾ هو الذي لا يَعْزُبُ عنهُ عِلْمُ ما جَلَّ، ودَقَّ. وقيلَ: ﴿اللَّطِيفُ﴾ بِعبادِهِ في الإحسانِ إليهِمْ والإنعامِ عليهِمْ ﴿الْخَبِيرُ﴾ بما فيه مصالِحُهُمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ الآية؛ وإذا ذَلَّلَ لكُمُ الأرضَ لِتَمْشوا في مَناكِبِها، وتأكُلوا مِنْ رزقِهِ، فلا يجوزُ أنْ يكونَ خَلْقُهُ عَبَثاً باطلاً، فلا بُدَّ مِنَ الرجوعِ إليهِ لِيَسْألَكُمْ عمّ لهُ خَلَقَ؟ أو فيمَ خَلَقَ؟ أو لِمَ تقوّلوا[4]؟

وذلكَ أنَّ المَرْءَ في الشاهدِ إذا أعْطَى إنساناً مالاً لِيَسْتَعْمِلَهُ في وجهةٍ مِنَ الجهاتِ فلا بُدَّ مِنْ أنْ يَرْجِعَ إليهِ، فَيَسْألَهُ هلِ اسْتَعْمَلَهُ في الذي أذِنَ لهُ فيهِ، أم لا؟

وإذا ثَبَتَ أنهُ لم يَخْلُقْها عَبَثاً باطلاً، وإنما خُلِقَتْ لِلْمِحْنَةِ فلا بُدَّ مِنْ أنْ يُنْشَروا إليهِ، لِيُخْبِروهُ عمّا بَلاهُمْ بهِ، وامْتَحَنَهُمْ.

ثم احْتَمَلَ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الآية: ٢] وقولِهِ تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الآية: ٣].

فَخَلَقَ [تلكَ السمواتِ][5] كلَّها لِيَمْتَحِنَ أهلَها بها. فَعَلَى ذلكَ خَلَقَ الأرضَ ذلولاً لِيَبْلُوَكُمْ بها. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الآية: ٣].

فأمَرَ هناكَ بالنَّظَرِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ: هل تَرَى فيه تَفاوُتاً أو فُطوراً؟ لِيَتَبَيَّنَ عندَهُ إذا لم يَرَ فيهِ تَفاوُتاً ولا فُطوراً وَحْدانِيَّةُ الرَّبِّ وقُدْرَتُهُ وسُلْطانُهُ وحِكْمَتُهُ، فأمَرَهُمْ أيضاً بالمَسيرِ في الأرضِ والمَشْيِ في مَناكِبِها، وهي أطرافُها، هل يَرَوْنَ فيها فُطوراً وتَفاوُتاً؟ فإذا لم يَرَوا فيها شيئاً مِنْ ذلكَ تَقَرَّرَ عندَهُمْ جميعُ ما ذَكَرْنا مِنَ الحِكْمةِ هناكَ.

---

(١) في الأصل وم: العمل. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العمل. (٣) في الأصل وم: العمل. (٤) في الأصل وم: يستعمله. (٤) في الأصل وم: تقوا.
(٥) في الأصل وم: ذلك.

فهو في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ موجودٌ، ولأنهُ ذَكَّرَهُمْ لطيفَ تدبيرِهِ في خَلْقِ الأرضِ وما لَهُ على الخَلْقِ مِنْ عظيمِ النِّعْمةِ في حقِّهِ، وهو انهُ قَدَّرَ لهمْ فيها أرزاقَهُمْ إلى حيثُ يَمْشونَ فيها، وهَيَّأَ لهمُ الرزقَ هناكَ، لا[1] يَحْتَمِلُ انْ يُذَلِّلَ لهمُ الأرضَ، فَيضْرِبوا[2] فيها حينَ[3] شاؤوا، ويَسْتَخْرِجوا[4] منها أقواتَهُمْ[5] أينما تَصَرَّفوا، عَبَثاً باطلاً. بل لا بُدَّ أنْ يَسْتَأْدِيَكُمْ شُكْرَ ما[6] أنْعَمَ عليكُمْ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ هذهِ الآيةُ في مَوضِعِ المُحاجَّةِ على [مُنكِري البعثِ في وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ][7] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إذا أنْكَرْتُمُ البعثَ، وقد عَرَفْتُمُ الفَرْقَ بينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ وبينَ المُطيعِ والعاصي، فكيفَ أمِنْتُمْ عذابَهُ في الدنيا أنْ يَنْزِلَ بكُمْ مِنْ فوقِ رؤوسِكُمْ ومِنْ تحتِ أرجُلِكُمْ؟ أو قد عَصَيْتُموهُ، وعادَيْتُموهُ بتَكْذيبِكُمْ رسولَهُ واخْتيارِكُمْ عبادَةَ غيرِهِ، فكيفَ أمِنْتُمْ نُزولَ عذابِهِ عليكُمْ في حالتِكُمْ هذهِ، وأنتمْ لا تُقِرّونَ بالآخِرَةِ لِيَتَأَخَّرَ عنكُمُ العذابُ؟

ثم قولُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ أي قد أمِنْتُمْ.

والثاني: أنكمْ كيفَ أمِنْتُمْ عذابَ اللهِ تعالى، وأنتمْ تُنْكِرونَ البعثَ لِتَكونَ المحنةُ في الدنيا لِلْجزاءِ في الآخِرَةِ؟ وهُمْ يَرونَ المِحْنَةَ في الدنيا لأنهمْ كانوا يَزْعُمونَ أنَّ مَنْ وُسِّعَ عليهِ النعيمُ في الدنيا فإنما وُسِّعَ جزاءً لِعَمَلِهِ، ومَنْ ضُيِّقَ عليهِ العيشُ فإنما ضُيِّقَ عُقوبةً لهُ بما أساءَ مِنْ عَمَلِهِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ و١٦].

فكانوا يُعِدّونَ التَّضْيِيقَ والتَّوسيعَ في الدنيا جَزاءً لِصَنيعِهِمْ، وكانوا يُقِرّونَ بالمِحْنَةِ في الدنيا.

والمِحْنَةُ تكونُ مِنَ الرجاءِ والخَوفِ، وقد رَجَوْتُمْ إنزالَ الرزقِ عليكُمْ مِنَ السماءِ، ورَجَوْتُمْ أنْ يُخْرِجَ لكمْ مِنَ الأرضِ ما تَتَعَيَّشونَ بهِ، وتُرْزَقونَ منهُ، فكيفَ لا تَحْذَرونَ نزولَ العذابِ عليكُمْ مِنَ السماءِ أو إتْيانَهُ مِنَ الأرضِ كما رَجَوْتُمُ النَّفْعَ منهما / ٥٨٤ ـ أ/ جميعاً.

والثالثُ: أنكمْ إذا أنْكَرْتُمُ الرسولَ، وجَحَدْتُموهُ، وقدِ انْتَهى إليكُمْ حالُ مَنْ سَبَقَكُمْ مِنْ مُكَذِّبي الرسُلِ، كيفَ عُذِّبوا، واسْتُؤْصِلوا؟ فمنهُمْ مَنْ أُهلِكَ بإمطارِ الحجارةِ عليهِ مِنَ السماءِ، ومنهمْ مَنْ أُهْلِكَ بالخَسْفِ بالأرضِ، فكيفَ أمِنْتُمْ أنتمْ أنْ يَنْزِلَ عليكُمْ ما نَزَلَ بهمْ، وقد أُوجِدْتُمْ أنتمْ، وتعاطَيْتُمْ ما تَعاطاهُ الذينَ أُهْلِكوا مِنَ التَّكذيبِ؟

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أرادَ [بـ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾][8] نفسَهُ؛ أخْبَرَ أنهُ إلهُ السماءِ لا على تَثْبيتِ أنهُ في الأرضِ سِواهُ وعلى النَّفْيِ أنْ يكونَ [هو][9] إلهَ الأرضِ، بل هو في السماءِ إلهٌ وفي الأرضِ إلهٌ. هذا كقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ليسَ فيهِ أنَّ النَّجْوى إذا كانَتْ بَينَ اثْنَينِ فهو لا يكونُ ثالِثَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي آمِنْتُمْ مَنْ في السماءِ مُلْكُهُ وسُلْطانُهُ؟ ولم يَرَوا أحداً انْتَهى مُلْكُهُ إلى السماءِ، فكيفَ تأمَنونَ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ السماءَ في مُعاداتِكُمْ إياهُ، وأنتمْ لا تَجْتَرِئونَ على مُعاداةِ مَلِكٍ مِنْ ملوكِ الأرضِ الذي يُجاوِزُ مُلْكُهُ الأرضَ [تَنْبيهاً منهُ وتخويفاً][10] مِنْ سُلْطانِهِ، فيكفَ تأمَنونَ عذابَ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ قيلَ: تَهْوي في الأرضِ أبداً إلى أسْفَلِ السافِلينَ. وقيلَ: تمورُ بأهلِها بِقَعْرِها على ما كانَتْ مِنْ قَبْلُ تمورُ على ظَهْرِها قبلَ أنْ تُوَتَّدَ بالجبالِ.

---

(١) في الأصل وم: ولا. (٢) في الأصل وم: فيضربون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ويستخرجون. (٥) في الأصل وم: أقواتها. (٦) من م، في الأصل: الذين. (٧) في الأصل: منكر البعث كأنه، في م: منكري البعث كأنه. (٨) في الأصل وم: بعلى. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: تنبيه منه وخوفاً.

الآية ١٧ [وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾][١] والحاصِبُ الحجارةُ:

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي سَتَعلَمونَ حالَ نُذُري الذينَ أنْذَروكُمْ بالعذابِ أنهمْ كانوا مُحِقِّينَ فيهِ، ولم يكونوا كاذبينَ كما زَعَمْتُم. أو سَتَعلَمونَ ما أنْذَرْتُكُمْ بِهِ إذا وَقَعَ العذابُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يُذَكِّرُهُمْ حالَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ المُكَذِّبينَ وما حَلَّ بهِمْ لِيَرْتَدِعوا عنِ التَّكذيبِ، فلا يَحِلُّ بهِمْ ما حَلَّ بأولئكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيفَ كانَ إنكاري عليهِمْ؟ أليسَ وَجَدوهُ شديداً وحقّاً؟

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ قيلَ: ﴿صَافَّاتٍ﴾ بأجْنِحَتِها لا يَتَحرَّكُ منها شيءٌ ﴿وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا﴾ اللهُ تعالى في الحالَينِ جميعاً؟ أعْني القَبْضَ والبَسْطَ، كقولِهِ[٢] في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩] أي لآياتٍ للمؤمنِينَ على الكَفَرَةِ.

وهكذا شأنُ الآياتِ: أنها جُعِلَتْ آياتٍ للمؤمنِينَ والأولياءِ على الكَفَرةِ والأعداءِ، لأنَّ الكَفَرةَ تَصِلُ إليهِمُ الآياتُ على ألسنِ الرسُلِ والأنبياءِ والأولياءِ، فَجُعِلَتِ الآياتُ آياتٍ للمؤمِنينَ لِيَحْتَجُّوا بها على أهلِ الكُفْرِ.

ثم الهواءُ ليسَ بمكانٍ يُمْسِكُ ما عليهِ مِنَ الأشياءِ مِثْلَ السماءِ والأرضِ في ما أُنْشِئَتا على حَدِّ يُمْسِكانِ الأشياءَ، وتَقِرُّ عليهِما الخلائقُ. وإذا كانَ كذلك فإنَّ اللهَ تعالى بلطفِهِ أمسَكَ الطيرَ وَقْتَ طَيَرانِها وَوَقْتَ قَبْضِها في الهواءِ. ومَنْ قَدَرَ على إمساكِ الطَيرِ معَ وَقْفِهِ وتَقْريرِهِ في مَكانٍ، لا تَقِرُّ فيهِ الأشياءُ، قادرٌ على ما يشاءُ.

ثم في هذهِ الآيةِ أنَّ للهِ تعالى في أفعالِ الطَّيرِ صُنْعاً وتَدْبيراً على ما يَشاءُ لأنَّ الفِعْلَ الذي يُوجَدُ مِنَ الطائرِ الطَّيَرانُ، إذا طارَ، والوقوفُ، إذا قَبَضَ، ثم أضافَ فِعْلَ الإمساكِ وَكُلَّ ذلكَ إلى نفسِهِ.

وذَكَرَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ في قولِهِ: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] أنَّ الإمساكَ كنايةٌ عنِ التعليمِ وعِبارةٌ عنهُ، لأنهُ قد يُعَبَّرُ بالإمساكِ عنِ التَّعْليمِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ في ما يُعَلِّمُهُ الرِّمايةَ: أمْسَكْتُ على يدِهِ حتى رَمَى، فَيُريدُ بهِ أي تَوَلَّيتُ تَعْليمَهُ الرِّمايةَ. فقولُهُ: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي ما يُعَلِّمُ إمساكَهُنَّ وقتَ الطَّيَرانِ إلّا اللهُ تعالى، وكذلكَ وقتَ القَبْضِ.

والجوابُ عنْ هذا أنَّ القائلَ يقولُ: أمْسَكْتُ على يدِهِ حتى رَمَى؛ إنما يُستَحَبُّ[٣] إطلاقُ اللفظِ[٤] نفسِهِ إذا وُجِدَ منهُ فِعْلُ الإمساكِ في وقتِ ما هَمَّ الرامي بالرَّمْيِ، وإذا لم يوجَدْ منهُ في ذلكَ الوقتِ فِعْلُ الإمساكِ لم يَسْتَقِمْ أنْ يقولَ: أمْسَكْتُ على يدِهِ، وإنْ كانَ هو الذي عَلَّمَهُ الرَّمْيَ.

ألا تَرَى أنَّ مَنْ عَلَّمَ آخَرَ الخِياطةَ حتى اهْتَدَى الخِياطةَ إذا خاطَ ثوباً لم [يُسْتَحَبَّ مِنْ][٥] أستاذِهِ أنْ يقولَ: أنا الذي خِطْتُهُ؟ وإنْ كانَ هو الذي عَلَّمَهُ الخِياطةَ، وكذلكَ مَنْ بَنَى بِناءً لم يَسْتَقِمْ مِنْ أستاذِهِ أنْ يُضيفَ فعلَ البناءِ إلى نفسِهِ، فيقولَ: أنا الذي بَنَيْتُهُ، ويُريدُ بِهِ أنا الذي عَلَّمْتُهُ، وإذا لم يَستَقِمْ هذا بَطَلَ أنْ يُضافَ فِعْلُ الإمساكِ إلى اللهِ تعالى، ولا فِعْلَ لهُ في ذلكَ سِوَى التَّعْليمِ.

فلو كانَتِ الإضافةُ إليهِ مِنْ حيثُ التَّعْليمُ لَجازَ أنْ يُنْسَبَ إليهِ فِعْلُ الخياطةِ وفِعْلُ البِناءِ والحِياكةِ، فَيُقالَ: خائطٌ وبانٍ وحائكٌ لأنهُ هو الذي عَلَّمَ. فإذا بَطَلَ أنْ يُنْسَبَ إليهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأفعالِ، وإنْ كانَ هو الذي عَلَّمَ الخَلْقَ، بَطَلَ أنْ يُنْسَبَ إليهِ فِعْلُ الإمساكِ، مِنْ حيثُ التَّعْليمُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

واحتَجَّ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ أيضاً في نَفْيِ الفِعْلِ عنِ اللهِ تعالى، فقالَ: إنَّ اللهَ تعالى لم يَقُلْ: ما خَلَقَ طَيَرانَهُنَّ إلّا اللهُ، ولا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: يستخبر. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: يستخبر.

خَلَقَ القَبْضَ إلا اللهُ، وإنما قالَ: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لَثَبَتَ أنْ لا صُنْعَ لهُ في الإمساكِ، وبانَ أنَّ الذي أضيفَ إليهِ مِنَ الإمساكِ هو على الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا.

فالجوابُ عنْ هذا أنَّ الأُمَّةَ فَهِمَتْ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ما يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ما خَلَقَ طَيَرانَهُنَّ وقَبْضَهُنَّ إلّا اللهُ؛ إذْ هو يَقْتَضي ما يَقْتَضيهِ ذِكْرُ الخَلْقِ. وإذا كانَ كذلكَ فلا فَرْقَ بينَ أنْ يُضيفَ الخَلْقَ [إلى][1] نفسِهِ وبَيْنَ أنْ يُضيفَ فعلَ الإمساكِ.

ثم لو ذَكَرَ الخَلْقَ مكانَ الإمساكِ أمْكَنَ جَعْفَرَ أنْ يَتَأَوَّلَ في الخَلْقِ ما تأوَّلَ في الإمساكِ، فيقولُ: مَعْنى قولِهِ: خَلَقَ طَيَرانَهُنَّ، أي عَلَّمَ طَيَرانَهُنَّ، وقَوّاهُنَّ على الأسبابِ التي [بها][2] تطيرُ، فلا[3] يَتَهَيَّأُ للهِ تعالى على قولِهِ: أنْ يُثْبِتَ لِخَلْقِهِ، ويُقَرِّرَ عندَهُمْ خَلْقَ شيءٍ مِنَ الأشياءِ.

ثم الأصلُ أنَّ الآياتِ المذكورةَ في القرآنِ إنما ذُكِرَتْ[4] لإثباتِ أوجُهٍ خمسةٍ:

أحدُها: في تَثْبيتِ القدرةِ على البعثِ، وهي لا تُثْبِتُ القدرةَ، ولا تُوجِبُ القولَ بالبَعْثِ على قولِ المعتزلةِ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى احْتَجَّ في تَثْبيتِ القُدْرَةِ على البَعْثِ بِقُدْرَتِهِ على ابْتِداءِ الخَلْقِ، فقالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] وقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فاحْتَجَّ بالابْتِداءِ على الإعادةِ عندَهُمْ لأنَّهُمْ نَفَوا خَلْقَ الأفعالِ عنِ اللهِ تعالى مع إقرارِهِمْ أنَّ اللهَ تعالى، هو الذي ابْتَدَأَ الخلائقَ، وهو الذي أنشأَهُمْ، ولم يكُنْ في إثباتِ القُدْرةِ على خَلْقِ الأعيانِ إثباتُ قُدْرَةٍ منهُ على خَلْقِ الأفعالِ، وإنْ كانَ خَلْقُ الأفعالِ دونَ خَلْقِ الأنفسِ، فكيفَ ذَكَرَ قُدرَتَهُ على ابْتِداءِ الخَلْقِ [في أفعالِ العبادِ][5] على تَثْبيتِ القُدْرةِ على الإعادةِ، وإنْ كانَ أمْرُ الإعادةِ أيْسَرَ مِنَ الابْتِداءِ مَعَ أنَّ آثارَ الخَلْقِ في أفعالِ العبادِ وإثباتَ التَّدْبيرِ فيها أوجَدُ منْهُ في أمْرِ البعثِ؛ وذلكَ أنكَ تَجِدُ مِنَ الأفعالِ أفعالاً، هي مُؤْذِيَةٌ لأهلِها مُتْعِبَةٌ مؤلِمةٌ؟ ومَعْلومٌ بأنَّ قَصْدَ أربابِها أنْ يَتَلَذَّذوا، ويَتَمَتَّعوا بها، فَثَبَتَ أنَّ لِغَيْرِهِمْ تدبيراً وصُنْعاً حتى صارَتْ كذلكَ.

ولأنهُ يوجدُ في أفعالِهِمْ أحوالٌ، لا تَبْلُغُها أوهامُهُمْ، ولا تُقَدِّرُها عقولُهُمْ، لأنَّ الفِعْلَ يأخُذُ مِنَ الجَوِّ والمَكانِ والوقْتِ ما لا تُقَدِّرُهُ الأوهامُ، ولا تَبْلُغُها العُقولُ، فَثَبَتَ أنَّ لِغَيْرِ فيهِ صُنْعاً وتدبيراً.

ولأنَّ فِعْلَهُ يَخْرُجُ على قَبيحٍ وحَسَنٍ لا يَبْلُغُ / ٥٨٤ - ب/ عِلْمُ فاعِلِهِ أنهُ يَبْلُغُ في الحُسْنِ والقُبْحِ ذلكَ المَبْلَغَ، ويَنْتَهي في الحُسْنِ مَبْلَغاً، لو أرادَ أنْ يَخْرُجَ على ذلكَ الحَدِّ في المَرَّةِ الثانيةِ لم يَخْرُجْ كذلكَ.

فكلُّ ما ذَكَرْنا يُبَيِّنُ أنَّ جميعَ أفعالِهِمْ على ما هي عليها، ليسَتْ لهمْ، ثم معَ ذلكَ أنْكَروا أنْ تكونَ الأفعالُ مِنْ جِهَةِ الخَلْقِ للهِ تعالى، ولم يَظْهَرْ شيءٌ منْ أماراتِ البعثِ، ولا وُجِدَ فيهِ التدبيرُ، فصارتِ الكَفَرَةُ في إنكارِهِمْ أمْرَ البَعْثِ أعذَرَ مِنَ المعتزلةِ في إنكارِهِمْ خَلْقَ الأفعالِ.

ولم يوجِبوا[6] القولَ بالقُدْرةِ على ابْتِداءِ الخَلْقِ قولاً بالقُدْرةِ على إنشاءِ البَعْثِ والإعادةِ بَعْدَ الإفناءِ. فَثَبَتَ أنْ ليسَ في الآياتِ التي جَعَلَها اللهُ تعالى دلالةُ إثباتِ البعثِ على قولِهِمْ.

والوجهُ الثاني: تَثْبيتُ الوَحْدانِيَّةِ وجَعْلُ دليلِ وحدانِيَّةِ تَوَحُّدِهِ بِخَلْقِ الأشياءِ وتَفَرُّدِهِ بإنشائها.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ [الرعد: ١٦] وقولِهِ[7]: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾؟ [المؤمنون: ٩١].

وعلى المعتزلةِ هو غيرُ مُتَوَحِّدٍ بِخَلْقِ الأشياءِ، بل أكثرُ خَلْقِ الأشياءِ كانَ بالعِبادِ لا باللهِ تعالى. وإذا لم يُوجَدْ منهُ التوحيدُ والتَّفَرُّدُ بِخَلْقِ الأشياءِ ارْتَفَعَ وجهُ الاسْتِدْلالِ مِنْ هذا الوَجْهِ على معرفةِ الصانعِ وَوَحْدانِيَّةِ الربِّ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فلان. (٤) من م، في الأصل: ذكر. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يوجب. (٧) في الأصل وم: وقال.

وإذا كانَ كذلكَ لم تَثْبُتْ وَحْدانيَّةُ اللهِ تعالى على قولِهِمْ مِنَ الوجْهِ الذي جَعَلَهُ دليلَ الإثباتِ.

والوجهُ الثالثُ، وهو أنَّ الآياتِ ذُكِرَتْ في إثباتِ حكمةِ اللهِ تعالى وجَعْلِ دليلِ حِكْمَتِهِ خَلْقَ السمواتِ والأرَضِينَ بما شاهَدْنا وغَيرِها[1] مِنَ الأشياءِ. ونحنُ إنما عَرَفْنا خَلْقَ السمواتِ والأرَضِينَ [شاهَدْناها مُجْتَمِعةً][2] والاجْتِماعُ حادثٌ فيها[3]، وما لا يَنْفَكُّ عنِ الحادثِ فهو حادثٌ، والحادثُ لا بُدَّ لهُ مِنْ مُحْدِثٍ، ولولا ذلكَ لم نَعْرِفْهُ، ولا يَثْبُتُ لنا خَلْقُها[4].

وعلى قولِ المعتزلةِ الجَمْعُ والتَّفْريقُ لا يَدُلُّ على الخَلْقِ، لأنَّ كلَّ مَنْ لهُ القُوَّةُ يَقْدِرُ على جَمْعِ الأشياءِ وتفريقِها، والاجْتِماعُ والتَّفريقُ فِعْلُ الجامعِ والمُفَرِّقِ لقولِهِمْ بالمُتَوَلِّداتِ؛ فَمَنِ اسْتَحْكَمَتْ قُوَّتُهُ أمكَنَهُ جمعُ الأشياءِ القَوِيَّةِ، ومَنْ ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ جَمَعَ على قَدْرِ ما تَنْتَهي إليهِ قُوَّتُهُ.

وإذا كانَ كذلكَ لم يَتَبَيَّنْ عندَ الخَلائِقِ على قولِهِمْ أنَّ اللهَ تعالى، هو الذي خَلَقَ السمواتِ والأرَضِينَ؛ إذْ خَلْقُها[5] لا يُعْرَفُ إلّا مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا، وذلكَ ممّا لا يَجوزُ إلّا باللهِ تعالى [بوجهَينِ:

أحَدُهما][6] أنْ يكونَ اللهُ تعالى أقْدَرَ مَلَكاً مِنْ ملائكتِهِ، وقَوّاهُ على خَلْقِ السمواتِ والأرَضِينَ. وإذا كانَ كذلكَ لم يَظْهَرْ بما ذَكَرْنا أنَّ اللهَ تعالى هو الخالقُ لها[7]، فَبَطَلَ أنْ يكونَ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِينَ وفي خَلْقِ سائرِ الأشياءِ دلالةُ حِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ وَوَحْدانِيَّتِهِ، وقد جَعَلَ اللهُ تعالى خَلْقَها[8] دلالةً لهذِهِ الأوجهِ التي ذَكَرْناها.

والثاني: أنهُ جَعَلَ إتقانَ الأشياءِ وإحكامَها عَلَماً لِحِكْمَتِهِ، وقد يَقَعُ الاتِّفاقُ والإحكامُ للأشياءِ لا بِهِ، ثم لم يَجْعلِ اللهُ لِشيءٍ ممّا أتْقَنَ، وأحكَمَ عَلَماً يَتَمَيَّزُ مِنْ بَينِ ما أتْقَنَهُ غيرُهُ، وأحْكَمَهُ، فصارَ الإتقانُ والإحكامُ غيرَ دالٍّ على حِكْمَتِهِ، بل صارَ دليلاً على عَجْزِهِ وضَعْفِهِ حينَ[9] لم يَتَهَيَّأْ لهُ تَمْييزُ ما صارَ بِهِ مُتْقَناً وما بِغَيرِهِ صارَ كذلكَ.

ولأنَّ الحكمةَ، هي وَضْعُ الشيءِ في موضِعِهِ وتَبْيينُ مالَهُ ممّا ليسَ لهُ. ومِنْ قولِهِمْ أنَّ اللهَ تعالى أعْطَى الكافرَ قوةَ الإيمانِ، ولم يبقَ في خزائِنِهِ ما جَعَلَ سبباً يُتَوَصَّلُ بِهِ إلى الإيمانِ إلّا وقد أعطاهُ مع عِلْمِهِ أنهُ لا يُؤمِنُ بِهِ. وهذا مِنْ أعظَمِ الجهلِ وأبْيَنِ السَّفَهِ في الشاهِدِ، لأنَّ المَرْءَ إذا قامَ بِسَقْيِ أرضٍ وعِمارتِها بالكِرابِ والثُّناءِ، وألقى البِذْرَ فيها، مع عِلْمِهِ أنها لا تُنْبِتُ شيئاً عُدَّ ذلكَ منهُ سَفَهاً وجَهْلاً، والسَّفيهُ لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ إلهاً حكيماً، وقالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وعلى قولِ المعتزلةِ قد خَلَقَ غَيرُهُ الحياةَ والموتَ جميعاً، لأنَّ القتيلَ مَيِّتٌ بالاتِّفاقِ. ثم لا يَجْعَلُ أهلُ الاعتِزالِ للهِ تعالى في موتِهِ صُنْعاً، ويَزْعُمونَ أنهُ ماتَ قَبْلَ أجَلِهِ، فإذا قَدَرَ غَيرُهُ على الإماتةِ، ويَقْدِرُ أيضاً على الإحياءِ بالأسبابِ، لأنهُ يَسْقي الأرضَ والزرعَ، ويكونُ في سَقْيِهِ إحياؤُها، فلم يَنْفَرِدْ هو بخَلْقِ الموتِ ولا بالحياةِ على قولِهِمْ، بل يَشْرَكُهُ غَيرُهُ في خَلْقِ الأشياءِ، فَيَبْطُلُ امْتِداحُهُ على قولِهِمْ نفسَهُ بأنهُ خالقُ الأشياءِ.

والوجهُ الرابعُ: أنهُ احْتَجَّ بِعِلْمِهِ بأفعالِ الخَلْقِ بِخَلْقِهِ تلكَ الأفعالَ، وذلكَ بقولِهِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وهُمْ قد نَفَوُا الخَلْقَ عنِ الأفعالِ، وإذا انْتَفَى لم يَقَعْ لهُ بها عِلْمٌ، وصارتِ الآياتُ التي فيها إثباتُ العِلمِ لا تُثْبِتُ عِلْماً على قولِهِمْ، ويكونُ [فيها كَذِبٌ][10] في الخَبَرِ. تعالى اللهُ عنْ ذلكَ.

والوجهُ الخامسُ: أنهُ سَمّى نفسَهُ مُحْسِناً مُنْعِماً، وأثْبَتَ إحسانَهُ وإنعامَهُ بآياتٍ احْتَجَّ بها على خَلْقِهِ؛ ما مِنْ نِعمةٍ أنْعَمَ بها [على][11] العبادِ إلّا وقد كانوا مُسْتَوجِبِينَ على اللهِ تعالى، فَيصيرُ اللهُ تعالى بإعطائِهِمْ ذلكَ قاضياً ما عليهِ مِنَ الحقِّ بالنعمةِ. ومَنْ قَضَى آخَرَ حَقّاً[12] كانَ عليهِ لم يَصِرْ بِهِ مُنْعِماً مُفَضِّلاً، وإنما صارَ قاضِيَ حقٍّ، فصارتِ الآياتُ التي فيها إثباتُ النِّعَمِ غيرَ مُبَيِّنةٍ على قولِهِمْ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

---

(١) في الأصل وم: وغيرهما. (٢) في الأصل وم: شاهدناهما مجتمعين. (٣) في الأصل وم: فيهما. (٤) في الأصل وم: خلقهما. (٥) في الأصل وم: خلقهما. (٦) في الأصل وم: وجائز. (٧) في الأصل وم: لهما. (٨) في الأصل وم: خلقهما. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وجائز. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي بكلِّ شيءٍ، لَطُفَ، أوجَلَّ، أوِ اسْتَتَرَ، أو ظَهَرَ، أوِ اخْتَلَطَ بِغَيرِهِ، أو تَمَيَّزَ، فهو بَصيرٌ؛ يُبْلِغُهُ إلى أجَلِهِ الذي ضَرَبَ لهُ، ويأتيهِ بالرِّزْقِ الذي قَدَّرَ لهُ، أو بَصيرٌ بأفعالِ الخَلْقِ ما كانَ، وما يكونُ، لأنهُ ذَكَرَهُ[1] على إثْرِ ذِكْرِ الأفعالِ، وهو قولُهُ: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الآيتان: ١٣ و١٤].

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ تَرْهيبٌ وتَرْغيبٌ وإلزامُ المُراقبةِ والتَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧] وقولِهِ[2]: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩ و. . .] لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ عليهِ حافظاً ورقيباً يَعْلَمُ بكلِّ شيءٍ يَتَعاطاهُ، فهو لا يَتَعاطى إلّا المَحْمودَ مِنَ الفِعالِ والمَرْضِيَّ عنها.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ فهذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ وقولِهِ: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ [الآيتان: ١٦ و١٧] يقولُ[3]: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ إذا خَسَفَ بكُمُ الأرضَ، وأرسلَ عليكُمْ حاصباً مِنَ السماءِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، فيكونُ معناهُ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ دونِ الرحمنِ يَنْصُرُكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ إنْ حَلَّ بكُمْ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ يدفَعُ عنكُمُ العذابَ مِنْ دونِ اللهِ إذا حَلَّ بكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالجُنْدِ آلهتُهُمُ التي كانوا يَعْبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ تعالى، فكانوا يَعْبُدونَها لِتَنْصُرَهُمْ، ويَعِزّوا بها، كقولِهِ[4] تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] وقولِهِ[5] تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤].

ثم هُمْ قد عَلِموا أنها لا تقومُ بِنَصْرِهِمْ، ولا تدفَعُ الذُّلَّ عنهمْ، فَيَعِزّوا بها، لأنهمْ كانوا يَفْزَعونَ إلى اللهِ تعالى عندما تَحِلُّ بهمُ الشدائدُ والذُّلُّ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] ويَتْرُكونَ الفَزَعَ إلى آلهتِهِمْ لِعِلْمِهِمْ أنها لا تُعِزُّهُمْ، ولا تَنْصُرُهُمْ. فَذَكَّرَهُمْ في حالةِ الأمْنِ [ما][6] قد عَرَفوا وقوعَهُ في حالةِ الخوفِ لِيَنْقَلِعوا عنْ عبادةِ الأصنامِ، ويُقْبِلوا على ربِّ الأنامِ لِيَدْفَعَ / ٥٨٥ ـ أ/ عنهمُ الشدائدَ والأهوالَ والآلامَ إذا حَلَّتْ بهمْ مِنْ خاصٍّ أو عامٍّ، ويقومَ بِعِزِّهِمْ إذا لَحِقَهُمُ الذُّلُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أيِ اغْتَرّوا في عبادَتِهِمْ آلهتَهُمْ لِتَقومَ بِنَصْرِهِمْ وعِزِّهِمْ مَعَ ما عَلِموا أنها لا تَدْفَعُ عنهمْ شِدَّةً، ولا تُحَصِّلُ لهمْ عِزّاً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ﴾ هُمْ كانوا يرجونَ رِزْقَهُمْ مِنَ السماءِ والأرضِ، فيقولُ: مَنِ الذي يَرْزُقُكُمْ إنْ لم يرسِلْ عليكُمْ مِنَ السماءِ مطراً، ولا ذَلَّلَ لكُمُ الأرضَ للنبتِ؟ وقد عَلِموا أيضاً أنْ لا رازِقَ لهمْ غَيرُ اللهِ تعالى، لأنهمْ يَفْزَعونَ إليهِ بالسؤالِ للرزقِ عندما يُبْلَونَ بالقَحْطِ والجُدوبَةِ، فَذَكَّرَهُمْ في حالِ السَّعَةِ ما لَهُ عليهِمْ مِنْ عظيمِ النِّعْمَةِ في تَوسيعِ الرزقِ عليهِم لِيَشْكُروهُ، ولا يَكْفُروهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ فالعاتي هو المارِدُ الشديدُ السَّفَهِ؛ فكأنَّهُ يقولُ: لَجُوا، وعَتَوا عَنْ قَبولِ الحقِّ، وتَمادَوا في طُغْيانِهِمْ، ولم يَتَذَكَّروا، ولم يُراقِبوا اللهَ تعالى، ولم يَشْكُروا لهُ، بَعُدوا عَنْ قَبولِ ذلكَ كُلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وقولُهُ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ يُخَرَّجانِ[7] على أوجُهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: على التَّخْويفِ والتَّهْويلِ.

والثاني: على التَّنْبيهِ والتَّذْكيرِ وتَسْفيهِ أحلامِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: ذكر. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: ثم قال. (٤) في الأصل وم: قال الله. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يخرج.

والثالثُ: على البِشارةِ لرسولِ اللهِ ﷺ بالنَّصرِ لهُ وبإجابةِ دعوَتِهِ أهلَ الكُفرِ.

فوجهُ التَّنبيهِ والتَّذكيرِ وتَسفيهِ الأحلامِ ما ذَكَرْنا أنهمْ قومٌ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ لِتَنصُرَهُمْ، وتُعِزَّهُمْ في الدنيا، ولِيَبْتَغُوا الرزقَ مِنْ عِنْدِها، إذْ هُمْ كانوا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ لِيَطْلُبوا بِعِبادَتِها عِزَّ الآخِرَةِ والنَّصرَ فيها، وإنما كانوا يَطْمَعونَ بذلكَ منها في الدنيا.

ثم هُمْ في الدنيا [كانوا ذا نَزَلَتْ بهمُ الشِّدَّةُ والفَزَعُ تَضَرَّعوا إلى اللهِ تعالى كما قالَ اللهُ تعالى:][(١)] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ولم يكونوا يَفْزَعونَ إلى أصنامِهِمْ، فكيفَ اتَّخذوها جنداً لِتَنصُرَهُمْ عندَ النوائبِ، وقد أحاطَ علمُهُمْ أنها لا تَنْصُرُهُمْ، ولا تُغْني عنهمْ مِنْ عذابِ الدنيا شيئاً؟

فيكونُ فيهِ تَسفيهُ أحلامِهِمْ، وتنبيهٌ مِنْ عذابِ اللهِ، لِيَمْنَعَهُمْ ذلكَ عنْ عِبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، ويَدْعُوَهُمْ إلى عِبادةِ مَنْ يَمْلِكُ دَفْعَ الشدائدِ عنهمْ إذا حَلَّتْ بهمْ.

وأمّا وَجهُ التَّخويفِ فهو أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ قيلَ لهمْ هذا عندَما ابْتُلوا بالشدائدِ وضيقِ العيشِ، فيقولُ لهمْ: اسْتَنصِروا مِنَ آلهتِكُمْ، واسْألوا الرزقَ مِنْ عِنْدِهِمْ[(٢)]، هل يَمْلِكونَ لكمْ رزقاً، أو يَدْفَعونَ عنكمْ ذُلّاً، وهل يَقْوَوْنَ على نَصْرِكُمْ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ فيهِ بِشارةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ بالنَّصرِ لهُ وبإجابةِ دَعْوَتِهِ. وقد وَجَدَ النَّصرَ لأنهُ غَلَبَ عليهمْ يومَ فَتْحِ مكةَ، ولم يَتَهَيَّأْ لأهلِها أنْ يَنتَصِروا، بل غُلِبوا، وقُهِروا، وفازَ رسولُ اللهِ ﷺ بالغَلَبَةِ والقَهْرِ حتى اسْتَكانوا، ولانوا، وتَضَرَّعوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ في ذلكَ حتى دَعَا لهمْ.

وابْتُلوا أيضاً بالقَحْطِ والسِّنينَ [فَدَعَا لهمْ][(٣)] رسولُ اللهِ ﷺ بالسَّعَةِ حتى رَفَعَ اللهُ عنهمُ القَحْطَ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها:][(٤)] في هذهِ الآيةِ تذكيرٌ وتنبيهٌ وتخويفٌ وتهويلٌ وتعريفُ حالٍ، هي خِلافُ ما هُمْ عليها في الحالِ.

[والثاني][(٥)] ذِكْرُ الصراطِ في الذي يمشي مُكِبّاً، هو على الإضمارِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ﴾ غَيرِ الصِّراطِ ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيكونُ هذا [تَذكيراً وتَنبيهاً وتَسفيهاً][(٦)] لأحلامِهِمْ، لأنَّ الذينَ آثَروا الإيمانَ، وسَلَكوا طريقَهُ، فإنما سَلَكوه[(٧)] بالحُجَجِ والبراهينِ. والذينَ آثَروا الكُفرَ آثَروهُ مِن غَيرِ حُجَّةٍ، بل حَيرَتُهُمْ وسَفَهُهُمْ هما[(٨)] اللذانِ دَعَواهُمْ إلى الْتِزامِ الكُفرِ والتَّدَيُّنِ بهِ. ومَنْ آثَرَ الحَيرَةَ والعَمَى على الهُدَى والرشادِ فهو سَفيهٌ.

[والثالثُ][(٩)] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ أي أهْدَى طريقاً ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ وحَقُّ هذا الكلامِ أنْ يُقالَ: بلِ الذي مَشَى على صِراطٍ مُسْتقيمٍ، هو الأهْدَى مِنَ الذي يَختارُ الطريقَ المُعْوَجَّ الزائغَ عَنِ الرَّشادِ.

فيكونُ في الوجهِ الأوّلِ مَعْنَى التَّخويفِ والتَّنبيهِ جميعاً، وفي الوجهِ الثاني تذكيرٌ وتَنْبيهٌ، وقولُنا بأنَّ فيهِ تعريفَ حالٍ خلافَ الحالِ التي همْ عليها: إنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ، أعني بهِ أهلَ الإسلامِ وأهلَ الكُفرِ، يَزْعُمُ أنهُ[(١٠)] على الهُدَى، والفَريقَ الآخَرَ على الضلالِ.

وإذا اتَّفقَتِ الدَّعاوَى على تضليلِ أحدِ الفريقَينِ، فلا[(١١)] بُدَّ أنْ يكونَ جَزاءُ الضالِّ[(١٢)] غَيرَ جَزاءِ المُهْتَدي، وجَزاءُ الوَلِيِّ غَيرَ جَزاءِ العَدُوِّ.

ثم الدنيا[(١٣)] على الفريقَينِ على جِهَةٍ واحدةٍ فلا بُدَّ مِنْ تَثْبيتِ دارٍ أُخرَى والقولِ بها للجَزاءِ، فيكونُ فيما ذَكَروا إيجابُ القولِ بالبعثِ والإقرارُ بهِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: عندنا، في م: عندها. (٣) في الأصل وم: بدعاء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) في الأصل وم: تذكير وتنبيه وتسفيه. (٧) في الأصل وم: وسلكوا. (٨) في الأصل وم: ههنا. (٩) في الأصل وم: وجائز. (١٠) في الأصل وم: أنهم. (١١) في الأصل وم: ثم لا. (١٢) في الأصل وم: الضلال. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: ثم.

فهذا الذي ذَكَرْنا يُعَرِّفُهُما حالَ خِلافُ الحالةِ التي هم عليها لأنَّ الذي يمشي مُكِبّاً على غَيرِ الطريقِ، هو الأعمى الذي لا يُبْصِرُ، والمُقْعَدَ الذي لا يَقْوَى على المَشْيِ، والذي يمشي سَوِيّاً على صِراطٍ مستقيمٍ، هو الذي ليسَتْ بهِ زَمانَةٌ، ولا بهِ عَمًى، يَمْنَعُهُ عنِ الصِّراطِ.

فيكونُ قولُهُ: ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ هو الأعمَى، والذي ﴿يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو السَّميعُ البصيرُ، فيكونُ مَعناهُ ما قالَ في سورةِ هودٍ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ [الآية: ٢٤].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾هذهِ الآيةُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الآية: ٢] وصِلَةُ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الآية: ٣] وقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الآية: ١٥]

ثم ذِكْرُ الإنشاءِ وجَعْلِ السَّمْعِ والأبصارِ والأفئدةِ تذكيرٌ بِقُوَّتِهِ[1] وسُلْطانِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وآلائِهِ وتعاليهِ عنِ الأشباهِ والأمثالِ.

فَوَجْهُ تذكيرِ القُوَّةِ والسُّلْطانِ والعِلْمِ والحِكْمةِ ما يوصَفُ بَعْدَ هذا، ويُذْكَرُ في سورةِ المرسلاتِ وفي سورةِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ وسَنَذْكُرُ طَرَفاً مِنْ ذلكَ هنالك[2] بِعونِ اللهِ وتوفيقِهِ، فنقولُ: إنَّ اللهَ تعالى أنْشَأَنا في أظْلَمِ مكانٍ وأضيَقِ مَوضعٍ بحيثُ لا يَنْتَهي إليهِ تدبيرُ البشرِ وعلومُهُمْ وحكمتُهُمْ وقِواهُمْ لأنَّ عِلْمَ الخَلْقِ لا يَجِدُ نفاذاً في الظلماتِ، وكذلكَ حِكْمَتُهُمْ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى أنْشَأَنا في تلكَ الظلماتِ كيفَ شاءَ، وأجْرَى سُلْطانَهُ وتدبيرَهُ على ذلكَ الشيءِ لِيُعْلَمَ بهِ أنَّ عِلْمَهُ بالخَفِيّاتِ مِنَ الأمورِ كَعِلْمِهِ بما ظَهَرَ منها، وتَعْرِفَ الخلائقُ أنهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، فَيَدْعُوَهُمْ ذلكَ إلى المُراقبةِ في كلِّ ما يُسِرّونَ، وما يُعْلِنونَ، ويُوجِبُ ما ذَكَرْنا مِنْ تقديرِ قُوَّتِهِ وعِلْمِهِ وسُلْطانِهِ بِقِوَى البشرِ وعلومِهِمْ وسُلْطانِهِمْ، فيكونُ فيهِ انْفِتاحٌ عنِ الشُّبَهِ التي اعْتَرَتْ مُنْكِري البعثِ في أمْرِ البعثِ، ويَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ بهِ إذا أمْعَنوا النَّظَرَ فيهِ، ويَعْلَمونَ[3] أنَّ مَنْ بَلَغَتْ حِكْمَتُهُ ما ذَكَرْنا لا يجوزُ أنْ يَخْلُقَهُمْ سُدًى، لا يُخاطِبُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ، بل يَتْرُكُهُمْ هَمَلاً.

وأمّا وجهُ تَعاليهِ عنِ الأشباهِ والأشكالِ [فهو أنَّ][4] إنشاءَ الخَلْقِ في أظْلَمِ مكانٍ وأضيَقِ مَكانٍ، فيهِ إبانةُ أنهُ لا يُوصَفُ بالكَوْنِ في ذلكَ المكانِ الذي ظَهَرَ فيهِ آثارُ فِعْلِهِ لأنهُ في وقتِ ما خلقَ عَمْراً في بَطْنِ أمِّهِ فقد خَلَقَ زيداً في ذلكَ الوقتِ في بَطْنِ أمِّهِ [وخَلَقَ الخلائِقَ][5] في بُطونِ الأنعامِ والسباعِ وبطونِ بَناتِ آدمَ، وأنشأَ النَّبْتَ في الأرَضِينَ في ذلكَ الوقتِ. / ٥٨٥ ـ ب/

ولو كانَ يوصَفُ بالكَوْنِ في مَكانِ الفِعْلِ لكانَ إذا أخَذَ في خَلْقِ هذا لا يَخْلُقُ في ذلكَ [الوقتِ][6] في أقطارِ الأرضِ أمثالَهُ مِنَ الخلائقِ. فدَلَّ أنَّ الفعلَ ليسَ بِتَحْصيلٍ منهُ بشهودِهِ المكانَ الذي ظَهَرَ فيهِ فِعْلُهُ، وإنما يكونُ بما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وأمّا سائِرُ الفَعَلَةِ فهم لا يَتَمَكَّنونَ مِنَ الفِعْلِ إلّا بشهودِهِمْ مكانَ الفِعْلِ.

فهذا الذي ذَكَرْناهُ يَنْفي عنهُ شَبَهَ الخَلْقِ، ويوجِبُ تَعالِيَهُ عنِ الأشكالِ، وفيهِ تَذْكيرُ نِعَمِهِ ومِنَنِهِ على خَلْقِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِ هذا: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؟ ولو لم يَكُنْ مُنْعِماً لم يَكُنْ يَسْتَأدي منهمُ الشُّكْرَ.

ووجهُ النِّعْمةِ، هو أنهُ قَدَّرَهُ في تلكَ الظُّلُماتِ، وصانَهُ مِنَ الآفاتِ ومِنْ كلِّ أنواعِ الأذَى، وغَذّاهُ في ذلكَ المَوضعِ بما شاءَ مِنَ الأغذيةِ، وسَتَرَهُ عن أبصارِ الناظرينَ، وغَيَّبَهُ عن أعيُنِهِمْ، لأنهُ في تلكَ الحالِ بالمَحَلِّ الذي يُسْتَعافُ، ويُسْتَقْذَرُ منهُ، ولا يُمْكِنُ أنْ يُدْفَعَ عنهُ المَعْنَى الذي وقَعَتْ بهِ الاسْتِعافةُ والاسْتِقْذارُ بالتَّطْهيرِ، وأنْشأَ لهُ السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ لِيَصِلَ بها إلى أنواعِ العلومِ والمَصالِحِ، فَلَزِمَهُمْ أنْ يَقوموا بِشُكْرِ ذلكَ.

---

(١) الباء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ههنا. (٣) في الأصل وم: وليعلموا. (٤) في الأصل وم: هو أنه. (٥) في الأصل وم: وخلائق. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وفي ما ذَكَرْنا نَقْضُ قولِ المعتزلةِ لأنهمْ يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ تعالى لو جَعَلَهُمْ على غيرِ الوجهِ الذي ظَهَرَ لكانَ جائراً، لأنَّ مِنْ مذهبِهِمْ أنهُ لا يَفْعَلُ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ. وإذا كانَ خَلْقُهُمْ، هو الأصلَحُ، ومِنْ شَرْعِهِ فِعْلُ الأصْلَحِ، فإذا هو صارَ قاضِيَ حقٍّ، وليسَ لِقاضي الحقِّ على المُقْضَى مَوضِعُ مِنَّةٍ، ولا مِنَّةٌ بمكانِهِ، ولا نِعْمَةٌ يَلْزَمُها شُكْرُها لهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي جَعَلَ لكمُ السَّمْعَ لِتَسْمَعوا ما غابَ عنكُمْ، ونأى، فَتَعْرِفوهُ بالسَّمْعِ، وأنْشأ لكُمُ الإبصارَ لِتُبْصِروا بهِ ما حَضَرَ مِنَ الأشياءِ، وتعرِفوا منها ما يَنْفَعُكُمْ وما يَضُرُّكُمْ وما خَبُثَ منها وما طابَ، وأنْشأ لكُمْ أفئدةً، تُدْرِكونَ بها حقائقَ الأشياءِ ومَبادِئَ الأمورِ ومآلَها وما حَلَّ منها وما حَرُمَ.

ثم خَصَّ هذهِ الأشياءَ الثلاثةَ بالذكرِ لِما فيها يُتَوَصَّلُ إلى العلومِ ومَعْرِفةِ الأشياءِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] ومَعْناهُ: أنهُ أنْشأ لكُمْ هذهِ الأشياءَ لِتَهْتَدوا بِها، وتَصِلوا بها إلى أنواعِ العلومِ. فَثَبَتَ أنَّ هذهِ الأشياءَ هي التي يُتَوَصَّلُ بها إلى العِلْمِ والحِكْمةِ وإلى ما بهِ المَصْلَحةُ والمَنْفَعَةُ. ولِذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

[فلو لم][1] يَقَعْ بها الوصولُ إلى عِلْمِ الأشياءِ [لكانَتْ لا تُخْتَصُّ][2] بالسؤالِ عنها.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جَمَعَ في هذهِ الآيةِ خَبَرَيْنِ:

أحَدُهُما: ممّا قد تُنُوزِعَ فيهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فإنَّ بعضَ الكَفَرةِ يُنْكِرونَ الحَشْرَ والبَعْثَ.

والثاني: ممّا لم يَقَعْ فيهِ التَّنازُعُ، وهو قولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ ابْتِداءَ الخَلْقِ دلالةَ القُدْرةِ على الإعادةِ بقولِهِ[3]: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾][4] [يس: ٧٨ و٧٩].

وإذا جَعَلَ الابْتِداءَ دليلَ الإعادةِ لَزِمَهُمْ أنْ يَسْتَدِلّوا بهِ، فهو وإنْ ذَكَرَهُ على وجهِ الاحْتِجاجِ ففيهِ مَوضِعُ الاحْتِجاجِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيهِ إخبارٌ أنهُ خَلَقَهُمْ في الأرضِ لِيُشاهِدَ بعضُهُمْ خَلْقَ بعضٍ في الابْتِداءِ، فَيَعْلَموا أنهمْ لم يكونوا على الحالةِ التي هُمْ عليها للحالِ، بل كانوا نُطَفاً وعَلَقاً وأطفالاً إلى أنْ انْتَهَوا إلى الحالةِ التي [هُمْ][5] عليها.

فإذا تَقَرَّرَ عندَهُمْ أمْرُ الابْتِداءِ أوجَبَ لهمْ ذلكَ عِلْماً بالقُدْرةِ على الإعادةِ. ويكونُ قولُهُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنْشأكُمْ، وجَعَلَ لكمْ مساكِنَ في الأرضِ، بَسَطَها لكُمْ، لِتَنْتَفِعوا بها، وجَعَلَها لكُمْ كِفايةً[6]، فيكونُ فيهِ تذكيرُ النِّعْمةِ والقُدْرةِ والسُّلْطانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ أي كَثَّرَكُمْ مِنْ أصلٍ واحدٍ كما قالَ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

ومَعلومٌ أنَّ الخَلْقَ على كَثْرَتِهِمْ لم يكونوا في نفسٍ واحدةٍ، ومَنْ قَدَرَ على [خَلْقِ][7] الأنفُسِ مِنْ نفسٍ واحدةٍ قادرٌ على إعادةِ ما سَبَقَ كونُهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فقولُهُمْ هذا خارجٌ مَخْرَجَ الاسْتِهْزاءِ والاسْتِخْفافِ برسولِ اللهِ ﷺ فأمَرَ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يُجيبَهُمْ بالجوابِ الذي يَليقُ [صُدورُهُ][8] مِنَ الحُكَماءِ، ولم يأذَنْ لهُ أنْ يُجازِيَهُمْ باسْتِخفافِهِمْ إيّاهُ اسْتِخْفافاً مثلَهُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فلم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكن لا يخص. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كفاتا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٦ فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يُبيِّنُ لهمْ أنهُ لا يُنْذِرُهُمْ إلّا بالذي أمَرَهُ بهِ، ولا يُبَلِّغُ إليهمْ إلّا ما قد أُنْزِلَ إليهِ، وأمَرَهُ بتَبليغِهِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ نُبُوَّتِهِ وآيةُ رسالتِهِ، لأنهُ لو لم يكُنْ رسولاً كما زَعَموا، وكانَ مُخْتَلِقاً مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ لكانَ يُمْكِنُهُ أنْ يُحيلَ ذلكَ إلى وقتٍ، لا يَظْهَرُ غَلَطُهُ فيهِ ولا كَذِبُهُ لديهِمْ، وهو أنْ يُحيلَهُ إلى وقتٍ لا يعيشُ إلى مِثْلِ ذلكَ الوقتِ، فإذْ لم يَفْعَلْ، بل قالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ دَلَّهُمْ ذلكَ على رسالتِهِ، وأنه إذا كانَ رسولاً لم يَكُنْ لهُ أنْ يزيدَ في الرسالةِ ولا أنْ يَتَكَلَّفَ مِنْ عندِهِ فيها زيادةً كما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] أنَّ فيهِ ما يُقَدِّرُ رسالتَهُ عندَهُمْ مِنَ الوجْهِ الذي يَذْكُرُ في تلكَ السورةِ إنْ شاء اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي لا أزيدُ في الإنذارِ على القَدْرِ الذي أُمِرْتُ بهِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي رَأَوا الذي وُعِدوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿زُلْفَةً﴾ أي قَريبةً. ثم أنَّثَ الزُّلْفَةَ لِما أريد بها الأحوالَ التي تكونُ في ذلكَ اليوم مِنَ الأهوالِ والشدائدِ، ويكونُ قولُهُ: ﴿رَأَوْهُ﴾ كِنايةً عنْ ذلكَ اليومِ؛ فَذَكَّرَ اليومَ لأنَّ اليومَ مُذَكَّرٌ، وجَعَلَ الزُّلْفَةَ بِلَفْظِ التأنيثِ لأنها كِنايةٌ عنِ الأهوالِ التي تكونُ في ذلكَ اليوم.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿زُلْفَةً﴾ رَأَوا تلكَ الأهوالَ والشدائدَ قَريبةً مِنَ الأوقاتِ التي وُعِدوا فيها، فَعَلِموا أنها كانَتْ قريبةً منهمْ، وإنْ كانوا يَسْتَبْعِدونَها في ذلكَ اليوم، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وقولِهِ[1]: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكذلكَ إذا رَأَوا شدائدَ ذلكَ اليومِ وأهوالَهُ عَلِموا أنَّ الوقتَ الذي كانَ يُوعِدُهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ كانَ قريباً منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فَـ ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ مِنْ ساءَتْ، أي ساءَتْ وجوهُهُمْ، و قَبُحَتْ وجوهُهُمْ بِتَغَيُّرِ ألوانِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: مَعْناهُ تَمْنَعونَ، وتَدْفعونَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي دَفْعاً.

وليسَ الأمْرُ كما ذَكَرَهُ لأنهُ لو كانَ مِنَ الدَّفْعِ أوِ المَنْعِ لكانَ حَقُّهُ أنْ يُشَدَّدَ العَينَ لا الدالَ كما شُدِّدتْ في قولِهِ: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ فإذا شُدِّدَتِ الدالُ دونَ العينِ ثَبَتَ أنَّ اشْتِقاقَهُ /٥٨٦ ـ أ/ ليسَ مِنَ الدَّعِّ ولكنهُ منَ الإدِّعاءِ؛ إذِ الدالُ هي المُشَدَّدَةُ.

فتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي هذا الوقتُ الذي كُنْتُمْ تُكَذِّبونَ رسولَ اللهِ ﷺ وتَدَّعونَ عليهِ أنهُ كاذبٌ في الأخبارِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَدَّعُونَ﴾ أي تَدْعُونَ[2]، وقد يُسْتَعْمَلُ الإدِّعاءُ مكانَ الدعوةِ كما يقالُ: ذَكَرَ واذَّكَرَ وخبرَ واختَبَرَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ في حِكْمةِ اللهِ مَشيئةَ المَغْفِرَةِ والعَفْوِ[3] لِمَنِ ارْتَكَبَ غيرَ الكُفْرِ مِنَ الزَّلّاتِ، وإيجابَ العقابِ على مَنِ اعْتَقَدَ الكُفْرَ، والتَزَمَهُ، وأنْ ليسَ في الحِكْمةِ عَفْوُ مِثْلِهِ مِنَ العُقوبةِ لأنهُ قالَ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأثْبَتَ فيهِ إخبارَ الإهلاكِ ومَشيئةَ الرَّحْمةِ والمَغْفِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) وهي قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٩١. (٣) في الأصل وم: والعقاب.

ومَعْلومٌ بأنهُ يُهْلِكُ ومَنْ مَعَهُ، أو يَرْحَمُ، عندما يُبْتَلَى بالزَّلَاتِ، وكذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦] فَجَعَلَ لنفسِهِ مَشيئةَ المَغْفِرةِ لِمَنْ يَتَوَقَّى الكُفْرَ، وحَكَمَ بإيجابِ العِقابِ على مَنْ أشْرَكَ بِهِ.

والذي يَدُلُّ على أنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ ما ذَكَرْنا أنَّ الكُفْرَ لنفسِهِ قبيحٌ لا يَحْتَمِلُ الإطلاقَ ورَفْعَ الحُرْمَةِ لِما فيهِ مِنَ السَّفَهِ، لأنَّ مَنْ رَضِيَ بِشَتْمِ نفسِهِ فهو سَفيهٌ، فَعَلَى ذلكَ عُقوبَتُهُ، لا تَحْتَمِلُ في الحِكْمَةِ رَفْعَها والعَفْوَ عنها، أو لِما كانَ الكُفْرُ لا يَحْتَمِلُ الإباحةَ ورَفْعَ العُقوبةِ، والإنفضالُ بالمَغْفِرَةِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ الإباحةِ، كذلكَ لم يَجُزِ القولُ فيهِ بالمَغْفِرَةِ والعَفْوِ، وسائرُ المَآثِمِ جائزٌ رَفْعُ الحُرْمَةِ عنها.

ولأنَّ الكافرَ اخْتارَ عداوةَ اللهِ تعالى وكُفْرانَ نِعَمِهِ، والذي اعْتَقَدَ الإسلامَ اخْتارَ وِلايَتَهُ، والحِكْمَةُ تُوجِبُ التَّفْرِقةَ بينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ، وفي العَفْوِ عنهُ وإكرامِهِ بالإحسانِ تَسْوِيَةٌ بينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ، وفي ذلكَ تَضْييعُ الحِكْمَةِ، ولأنَّ الكافرَ في نفسِهِ [يَظُنُّ أنهُ][1] على الحَقِّ والصوابِ، وغيرَهُ على الباطلِ والضلالِ، وأنهُ غَيرُ مُسْتَوجِبِ العذابَ، يَدُلُّ على ذلكَ حكايةٌ عن أهلِ الكُفْرِ إذْ[2] قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

فاللهُ تعالى إذا أنْعَمَ عليهِ بالعَفْوِ، وتَطَوَّلَ عليهِ بالإحسانِ لم يَقَعْ ذلكَ عندَهُ مَوقِعَ التَّجاوُزِ والغُفْرانِ، بل يَقَعُ عندَهُ أنهُ إنما أحْسَنَ إليهِ لِاسْتِجابةِ الإحسانِ، وعَفا عنهُ لِما يَسْبِقُ منهُ ما يَسْتَوجِبُ به العقابَ.

وإذا كانَ كذلكَ أدّى ذلكَ إلى تَضْيِيعِ الإحسانِ وتَضْيِيعِ العَفْوِ وإبطالِ النِّعْمةِ.

فَثَبَتَ أنَّ الحكمةَ لا تُوجِبُ العَفْوَ عنِ الكافرِ، إذْ يَحْصُلُ العَفْوُ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

وأمّا أهلُ الإسلامِ الذينَ سَبَقَتْ منهمُ الأجرامُ فقد عَلِموا أنَّ الذي سَبَقَ منهمْ زَلّاتٌ ومآثمُ، وأنَّ العذابَ قد لَزِمَهُمْ، وأنهمْ مُسْتَوجِبونَ العقابَ. فإذا عَفا عنهمْ عَلِموا أنهمْ إنما نالوا العَفْوَ بِفَضْلِ اللهِ تعالى، فَيَقَعُ الإحسانُ موقِعَهُ.

ولأنَّ مَنْ أحْسَنَ إلى عَدُوِّهِ في الشاهدِ، لم يَقْصِدْ إحسانَهُ إليهِ قَصْدَ اسْتِدْراجِهِ والمَكْرِ بِهِ، فهو إنما يُحْسِنُ إليهِ لِما يَخافُ ناحِيَتَهُ، ويُخْرِجُ فِعْلَهُ مُخْرَجَ التَّذَلُّلِ لهُ.

فلو لم يُؤاخِذِ اللهُ الكافرَ بِما تَعاطَى مِنَ الكُفْرِ، بل أحْسَنَ إليهِ مِنْ غَيرِ تَبِعَةٍ عليهِ، خَرَجَ عَفْوُهُ وإحسانُهُ إليهِ مَخْرَجَ الخَوفِ وإظهارَ التَّذَلُّلِ، واللهُ تعالى يَجِلُّ عنْ هذينِ الوجهَينِ.

فَثَبَتَ أنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ القولَ بالتَّخْليدِ، وتَمْنَعُ القولَ بالعَفْوِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ دلالةٌ أنَّ لِلّهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَ على الصغائرِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ معَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الأنبياءِ ﷺ قد عُصِموا عنِ ارْتِكابِ الكبائرِ، فلا يجوزُ أنْ يرتكِبوا الكبائرَ، فَيُهْلَكوا لأجْلِها.

فَثَبَتَ أنهمْ لو أُهْلِكوا [لأهلِكوا][3] بالصغائرِ. فلو لم يكُنْ لِلّهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَ أهلَ الصغائرِ لَصارَ هو بإهلاكِهِ إيّاهُ بِمَنْ مَعَهُ جائراً ظالماً، وجَلَّ اللهُ تعالى عنِ الوَصْفِ بالجَورِ، وقالَ تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

ثم الحَقُّ أنْ يُقالَ: إنَّ جميعَ الخوارجِ والمعتزلةِ لا يجوزُ أنْ يَغْفِرَ اللهُ تعالى لهمْ بارْتِكابِهِمُ الكبائرَ [وإنما هو الرَّجاءُ الذي][4] ذَكَرْنا لِغَيرِهِمْ مِنْ مُنْتَحِلي الإسلامِ، لأنهمْ يقولونَ: لا يجوزُ أنْ يَغْفِرَ اللهُ تعالى لأهلِ الكبائرِ، ولا أنْ يَطَوَّلَ عليهمْ بالعفوِ، بل حَقُّ أمثالِهِمْ أنْ يَخْلُدوا في النارِ أبَدَ الآبدِينَ.

وإذا كانَ هذا هو الحُكْمَ فيهمْ، ولهُ تعالى إنْ غَفَرَ لهمْ، ومَنَّ عليهمْ بالعَفْوِ، وَقَعَ عندَهُمْ أنهُ إنّما عَفا عنهمْ لأنَّ الذي ارْتَكبوا مِنَ المآثِمِ لم تَكُنْ كبائرَ، بل كانَتْ صغائرَ؛ إذْ لا تَجوزُ المَغْفِرَةُ عنِ الكبائرِ، فَيَحْصُلُ العَفْوُ في غَيرِ مَوضِعِهِ والإحسانُ في غَيرِ مَوقِعِهِ.

---

(١) في الأصل وم: إنه يظن. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وأمّا غيرُهُم مِنْ مُنتَحِلي الإسلامِ فهمْ يَرجونَ عَفْوَهُ وسَعَةَ رَحمَتِهِ في كلِّ أيامِهِمْ. فإذا تَفَضَّلَ عليهمْ بالمَغفِرَةِ وَقَعَ العَفْوُ عندَهُمْ موقِعَهُ، فلا يكونُ فيهِ تَضييعُ الإحسانِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ بِما سَبَقَ مِنَ الأجرامِ والزَّلاتِ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بِما سَبَقَ مِنَ الإيمانِ بهِ والإنقيادِ لأمرِهِ والخُضوعِ لطاعتِهِ ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مِنْ عذابِهِ، ولم يَسْبِقْ منهمْ إلى ربِّهِمْ حَسَنَةٌ يُرْحَمونَ لأجلِها ولا طاعةٌ يَستَوجِبونَ الغُفْرانَ بها؟ أو فَمَنْ يُجيرُهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى إنْ حَلَّ بهمْ؟ فكأنهُ قيلَ له: قُلْ لهمْ هذا لأنهمْ كانوا يَعْبدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تَنْصُرَهُمْ مِنَ العذابِ الأليمِ. فيقولُ: لا تُجيرُهُمْ تلكَ الأصنامُ مِنَ العذابِ الأليمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: إنَّ الذي خَلَقَ المَوتَ والحياةَ وسَبْعَ سمواتٍ طِباقاً، وجَعَلَ الأرضَ ذَلولاً، ويَعْلَمُ السِّرَّ والجَهْرَ، هو الرحمنُ. فيكونُ فيهِ إنباءُ أنَّ خالقَ السمواتِ والأرضِ وخالقَ الموتِ والحياةِ وخالقَ أفعالِ العبادِ وأفعالِ الطيرِ، هو الرحمنُ، جَلَّ جَلالُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي آمَنّا أنهُ خالقُ ما ذَكَرْنا، وأنهُ المُتَعالي عنِ الأشباهِ والأمثالِ، والبَريءُ مِنْ كلِّ العُيوبِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿هُوَ﴾ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى على ما ذُكِرَ في سورةِ الإخلاصِ، فيكونُ ﴿هُوَ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ اسْمَينِ مِنْ أسمائِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ خَوَّفَهُ المشركونَ بأنواعٍ مِنَ المَخاوِفِ، فقيلَ لهُ: قُلْ ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي اعْتَمَدْنا؛ هو الذي يَدْفَعُ عنا شَرَّكُمْ، ويَنْصُرُنا عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونوا نَسَبوهُ أيضاً إلى الضلالِ، وادَّعَوا أنهمْ على الهُدَى، ولم يَنْظُروا في آياتِ اللهِ تعالى لِيَتَيَقَّنوا بها مَنِ المُهْتَدي منهمْ؟ ومَنِ الضالُّ؟ فقالَ: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إذا جاءَكُمْ بأسُ اللهِ تعالى، وذلكَ عندَ الموتِ أو في الآخِرَةِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ فيقولُ أيضاً: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ إذا أصْبَحَ ماؤُكُمْ غوراً. والمَعينُ هو الماءُ الذي تَقَعُ عليهِ العينُ، ويَراهُ البَصَرُ [واللهُ أعلَمُ. وصلّى اللهُ تعالى على سيدنا محمدٍ ﷺ][1] / ٥٨٦ - ب/.

(١) ساقطة من م.

/٥٨٦ ـ ب/ سورة[(١)] ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ﴿نٓۚ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: هو الحوتُ كقولِهِ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء: ٨٧] فَنَسَبَهُ إلى النونِ، وهو الحوتُ، ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾؟ [الصافات: ١٤٢].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: النونُ هو الدَّواةُ، فتأويلُهُ هذا على جِهَةِ المُوافَقَةِ لأنهُ ذَكَرَ القَلَمَ وما يُسْطَرُ بِهِ، فلم يَبْقَ ههنا سِوَى الدَّواةِ، فَحَمَلَهُ على الدَّواةِ على المُوافَقَةِ لا أنْ يكونَ فيهِ مَعْنىً يَدُلُّ على إرادةِ الدَّواةِ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هي فارسيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ: النونُ كُنْ أي اصْنَعْ ما شِئْتَ؛ يُقالُ هذا عندَ الإياسِ؛ إذِ المرءُ إذا أيِسَ مِنْ آخَرَ قالَ لهُ: اصْنَعْ ما شِئْتَ إذَنْ[(٢)].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو مِنَ الحروفِ المُقَطَّعةِ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ، هو المرادُ، لأنهُ ذَكَرَ القَلَمَ ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ على إثْرِهِ، وإنما يُكْتَبُ بالقَلَمِ، وتُسْطَرُ الحروفُ المُعْجَمَةُ. فأخبَرَ تعالى عَظيمَ صُنْعِهِ ولُطْفِهِ بإنشائِهِ هذهِ الحروفَ وخَلْقَهُ القَلَمَ وما يُسْطَرُ [بهِ حينَ][(٣)] يُوصَلُ بها إلى تَعَرُّفِ الحِكْمةِ وكلِّ ما تكونُ بهِ المَصْلَحَةُ مِنَ الدينِ والدُّنيا. بل جَعَلَ قِوامَ الدينِ والدنيا بها.

ومنهمْ مَنْ يَجْعَلُ كلَّ حرفٍ مِنَ الحروفِ المُعْجَمَةِ اسماً مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، أوِ افْتِتاحَ اسمٍ مِنْ أسمائِهِ.

وكذلكَ يُرْوَى عنْ بعضِ الصحابة رضي الله عنهم أنهُ قالَ ذلكَ.

فإنْ كانَ النونُ اسماً مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، فالقَسَمُ بهِ قَسَمٌ باللهِ تعالى. وإنْ كانَ على غيرِهِ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْناها، فالقَسَمُ جارٍ بما بهِ قِوامُ سائرِ الخَلْقِ ومَصالحُهُمْ. وقد ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ تأكيدُ ما يُقصَدُ مِنَ الأمرِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ فَمَوضِعُ القَسَمِ هذا: أقْسَمَ بما ذَكَرَ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

أحدُها: أنَّ نِعْمةَ ربِّكَ حَفِظَتْكَ مِنَ الجُنونِ؛ نَفَى عنهُ الجُنونَ بقولِهِ: ﴿مَآ أَنتَ﴾ بما أنْعَمَ اللهُ عليكَ ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ وهذا كما يُقالُ: ما أنتَ يا محمدُ بِحَمْدِ اللهِ بِمَجْنونٍ، يُرادُ بهِ نَفْيُ الجُنونِ.

والثاني: أنكَ لَسْتَ مِمَّنْ خَدَعَتْهُ النِّعْمةُ، واغْتَرَّ بها، حتى شَغَلَتْهُ عنِ العَمَلِ بمالَهُ [وما][(٤)] عليهِ.

والمَجْنونُ بالنِّعْمةِ هو الذي غَرَّتْهُ النِّعَمُ، وألْهَتْهُ عنِ التَّزَوُّدِ لِلْمَعادِ.

[والثالثُ][(٥)] ما أنتَ بغافلٍ عنْ نِعْمَةِ ربِّكَ، بل تَذْكُرُها، وتَشْكُرُ اللهَ عليها.

والمجنونُ مَنْ غَفَلَ عنِ النِّعْمةِ، وأعْرَضَ عنْ شُكْرِها.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: عليه حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو.

[والرابعُ: أنَّ][(١)] الكَفَرَةَ كانوا يَنْسُبونَهُ إلى الجُنونِ: إمّا لِما كانَ [يَغْشاهُ بِثِقَلِ][(٢)] الوَحْيِ، فكانوا يَنْسُبونَهُ بهذا [إلى الجُنونِ][(٣)] وإمّا لمّا رَأَوا أنهُ خاطَرَ بنَفسِهِ وروحِهِ حينَ[(٤)] خالَفَ أهلَ الأرضِ، وفيها الجَبابِرةُ والفراعنةُ، وانْتَصَبَ لِمُعاداتِهِمْ. ومَنْ قامَ بِخِلافِ مَنْ لا طاقةَ لهُ مَعَهُ، وانْتَصَبَ لِمُعاداتِهِ، فذلكَ منهُ في الشاهِدِ جُنونٌ. فأجابَ اللهُ تعالى لِلفَريقَينِ جميعاً:

أمّا الأوَّلُ فبقولِهِ[(٥)]: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] أي كيفَ تَنْسُبونَهُ إلى الجُنونِ، وعندَ الإفاقةِ مِنْ تلكَ الغَشْيَةِ يأتيكُمْ[(٦)] بِحِكمةٍ ومَوعظةٍ، يَعجَزُ حُكماءُ الجِنِّ والإنسِ عن إتيانِ مِثْلِها[(٧)]، وليسَ ذلكَ مِنْ عِلْمِ المجانينِ ولا ممّا يُمكِنُ تَحصيلُهُ في حالِ الجُنونِ، لأنَّ المَجْنونَ إذا أفاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ تَكَلَّمَ بكلامٍ، لا يُعبَأُ بِمِثْلِهِ، ولا يُكتَرَثُ.

وأجابَ لِمَنْ كانَ نَسَبَهُ إلى الجنونِ لمّا [رَأَوهُ][(٨)] خاطَرَ بروحِهِ ونفسِهِ بقولِهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

فأخبَرَ أنَّ الذي حَمَلَهُ على المُخاطَرةِ بِروحِهِ وجَسَدِهِ، هو أنهُ مأمورٌ بالتَّبليغِ والنِّذارةِ؛ فهو يقومُ بِما أُمِرَ، وإنْ أدّى ذلكَ إلى إتلافِ النفسِ.

ثم بِحَمْدِ اللهِ لم يَتَهَيَّأْ للفراعنةِ أنْ يَقْتُلوهُ، ولا تَمَكَّنوا مِنَ المَكْرِ بهِ، بل أظْفَرَهُ اللهُ تعالى عليهمْ حتى قَتَلَهُمْ، ورَدَّ كَيدَهُمْ في نُحورِهِمْ، فصارَ الوَجْهُ الذي اسْتَدَلّوا بهِ على جُنونِهِ آيةَ رسالتِهِ ودلالةَ نُبُوَّتِهِ، واللهُ الهادي.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي لا يَمُنُّ عليكَ المِنَّةَ التي تُؤذيكَ، ولكنْ يَمُنُّ عليكَ مِنَّةَ رحمةٍ وكَرامةٍ، والمَنُّ المُؤذي كما ذَكَرَ ﷻ: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [بالبقرة: ٢٦٤].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي غَيرَ مَقطوعٍ، أي أجرُكَ غَيرُ مُقدَّرٍ بالأعمالِ حتى تُجزَى بِقَدْرِ الأعمالِ، فإذا انْقَطَعَتِ الأعمالُ انْقَطَعَ الأجرُ، وانْقَرَضَ، بل يَتَتابَعُ عليكَ، ويَدُرُّ. يُقالُ في الكلامِ: مَنَنْتُ الحَبْلَ، أي قَطَعْتُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي غَيرَ مَحسوبٍ، أي لا نَحسُبُ عليكَ النِّعَمَ، فَتَقْتَضي نفيَ الحسابِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ خُلُقُهُ العظيمُ القرآنُ، ومَعْناهُ: أدَبُهُ القرآنُ، وذلكَ كقولِهِ تعال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦ وفصلت: ٣٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

فأخْذُهُ العَفْوَ، وأمْرُهُ بالعُرْفِ، وإعراضُهُ عنِ الجاهِلينَ، ودفْعُهُ السَّيِّئَةَ بالتي هي أحسَنُ، وخَفْضُهُ الجَناحَ للمؤمنينَ مِنْ أعظمِ الخُلُقِ. وتَخَلَّقَ بهذا كلِّهِ بِما أدَّبَهُ القرآنُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الخُلُقُ العظيمُ هو الإسلامُ، والإسلامُ، هو الاِسْتِسْلامُ والاِنْقِيادُ لأمرِ اللهِ تعالى وقدِ اسْتَسْلَمَ لذلكَ، وسَلِمَ الناسُ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ ومِنْ كلِّ أنواعِ الأذَى، وذلكَ مِنْ أعظمِ الخُلُقِ.

والأصلُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كُلِّفَ مُعامَلةَ أعداءِ اللهِ تعالى ومُعامَلَةَ أولياءِ اللهِ وأنصارِهِ، وكُلِّفَ أنْ يَرْفُضَ الدنيا، ويَتَزَهَّدُ فيها، وكُلِّفَ مُعامَلَةَ الصغيرِ والكبيرِ والعالِمِ والجاهِلِ والجِنِّ والإنسِ، وكُلِّفَ مُعامَلَةَ نِسائِهِ.

ومَنْ كُلِّفَ المُعامَلةَ مع هؤلاءِ لم يَقُمْ لها إلّا بِخُلُقٍ عظيمٍ، فَرَزَقَهُ اللهُ تعالى خُلُقاً عظيماً حتى احْتَمَلَ المُعامَلَةَ، وقامَ مَعَهُمْ بِحُسْنِ العِشْرَةِ، وحتى عوتِبَ على عظيمِ خُلُقِهِ بقولِهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] وبقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١].

---

(١) في الأصل وم: ثم. (٢) في الأصل وم: يغشي الثقل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يأتيهم. (٧) في الأصل وم: مثله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦] وقالَ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

فالذي حَمَلَهُ على هذهِ المَشَقَّةِ والكُلْفَةِ العظيمةِ حُسْنُ خُلُقِهِ وفَضْلُ شَفَقَتِهِ ورَحْمَتِهِ؛ فَعِظَمُ خُلُقِهِ أنَّ خُلُقَهُ جاوزَ قِوَى نفسِهِ حتى ضَعُفَتْ نفسُهُ عنِ احتِمالِهِ، وكادتْ تهلكُ فيهِ. وغيرُهُ مِنَ الخلائقِ تُقصِّرُ أخلاقُهُمْ عن قِوَى أنفسِهِمْ، ويَحتَمِلُ إضعافَ ما هم عليهِ مِنَ الخُلُقِ، وتَضيقُ أخلاقُهُمْ عنْ ذلكَ، فهذا الذي ذكَرْنا هو النهايةُ في العِظَمِ. وباللهِ التوفيقُ.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ قالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: المَفْتونُ في هذا الموضِعِ هو المَفْتونُ بِضلالَتِهِ المُعْجَبُ بِخَطَئِهِ المَشْغوفُ بِجَهلِهِ.

وقالَ الحسنُ: المَفْتونُ هو الذي مَتَعَهُ الشيطانُ، وقيلَ: المَفْتونُ مَنْ بهِ الفِتْنَةُ كما يُقالُ: فلانٌ لا مَعْقولَ لهُ، أي ليسَ لهُ عقلٌ. وقيلَ: المَفْتونُ المُعَذَّبُ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يُعَذَّبونَ، فكأنهُ يقولُ: أيُّكُمُ المُعَذَّبُ، وأيُّكُمُ الضالُّ إنْ حُمِلَ على ما ذَكَرَ الحَسَنُ، وأيُّكُمُ المُغْتَرُّ إنْ كانَ مَعْناهُ على ما ذَكَروا أنَّ المَفْتونَ مِنَ الفِتْنةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ نَسَبوهُ على الاغْتِرارِ في ما كانَ يَدَّعي مِنَ الرسالةِ، ويَزْعُمونَ أنهُ مُغْتَرٌّ بها، ويَغُرُّ بها غَيرَهُ كما قالَ المُنافقونَ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وحَقُّ هذا عندَنا ألّا نَتكَلَّفَ تفسيرَهُ، لأنهُ قالَ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ فَذكر هذا جواباً عمّا وَقَعَتْ فيهِ الخُصومةُ، فكانوا يَزْعُمونَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو المَفْتونُ، ورسولُ / ٥٨٧ ـ أ/ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ أنهمْ همُ المَفْتونونَ، فَخَرَجَ هذا جواباً عنْ تلكَ الخُصومةِ أنهمْ وأنتَ سَتُبْصِرونَ.

وقد وَقَعَتِ الخصوماتُ مِنْ أوجُهٍ: فَمَرَّةً كانوا يَدَّعونَ بأنهُ ساحرٌ، ومَرَّةً يَدَّعونَ بأنهُ مَجنونٌ، ومَرَّةً [يَدَّعونَ][1] بأنهُ ضالٌّ، ومَرَّةً [يَدَّعونَ][2] بأنهُ مُغْتَرٌّ، وغيرَها مِنَ الوجوهِ.

فإذا ثَبَتَ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في حَقِّ الجوابِ؛ فَمَنْ[3] لم يَعْلَمْ بأنَّ الخُصومةَ فيمَ كانَتْ لم يَعْلَمْ إلى ماذا يَصْرِفُ الجوابَ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشبِهُ أنْ تكونَ الخصومةُ [هي][4] الواقعةَ في الضَّلالِ والهُدى، فكانوا يَدَّعونَ أنهمْ على الهُدى وأنهمْ باللهِ أحقُّ وإليهِ أقْرَبُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ورسولُ اللهِ ﷺ يَدَّعي أنهمْ على الضلالِ وأنهُ على دينِ الحَقِّ والهُدى.

يَدُلُّ على ذلكَ ذِكْرُ الضَّلالِ والهُدى بَعْدَ ذِكْرِ المَفْتونِ:

الآية ٧ وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

ثم هذهِ الآياتُ كأنها نَزَلَتْ جَواباً مِنَ اللهِ تعالى عمّا كانَ يَحِقُّ لِمِثْلِهِ الجوابُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

ولكنَّ اللهَ تعالى لمّا امْتَحَنَ رسولَهُ ﷺ بالعَفْوِ والإعراضِ عنِ المُكافأةِ بالجوابِ تَوَلّى اللهُ تعالى الجَوابَ عنهُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي قد تعلمونَ أنَّ ربَّكُمْ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وسَنُبَيِّنُ لكمْ ذلكَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ كقولِهِ[5] في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

ليسَ في قولِهِ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أمرٌ منَ اللهِ تعالى بأنْ يُطيعَ المُصدِّقينَ: فَمَنْ صَدَّقَهُ، وآمَنَ بهِ لا يجوزُ أن يَتَقَدَّمَ بينَ يَديهِ، فَيَأمُرَهُ، أو ينهاهُ عنْ أمْرٍ، ويَدعُوَهُ إلى الطاعةِ، بل يَنْظُرُ إلى أمْرِ رسولِ اللهِ ﷺ ونَهْيِهِ، فيأتَمِرُ بأمْرِهِ، ويُطيعُهُ في ما يَدْعوهُ إليهِ.

وأمّا مَنْ كَذَّبَهُ فقد يَدْعوهُ إلى طاعتِهِ، فَخَصَّ ذِكْرَ المُكَذِّبِ عندَما نهاهُ عنْ طاعتِهِ، لأنَّ الدعاءَ إلى الطاعةِ يوجَدُ لا مِنَ المُصدِّقِ دونَ أنْ يَتَضَمَّنَ قولُهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أمْراً بطاعةِ المُصَدِّقِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقال.

[الإسراء: ٣١] فليسَ فيهِ أنهُ إذا لم يَخشَ الإملاقَ يَسَعُهُ قَتْلُهُ، ولكنهُ خصَّ تلكَ الحالةَ لأنَّ تلكَ الحالةَ هي التي كانَتْ تَحملُهُمْ إلى القَتْلِ، ولم يكونوا يُقْدِمونَ على القَتْلِ عندَ الأمْنِ مِنَ الإملاقِ.

وفي هذا دلالةُ إبطالِ قولِ مَنْ قالَ: إنَّ تَخصيصَ الشيءِ بالذكْرِ يَدُلُّ على أنَّ الحُكْمَ في ما غايَرَهُ بِخلافِهِ والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ همُ المكذبونَ بآياتِ اللهِ تعالى أو بِوَحْدانيَّتِهِ أو بِرُسُلِهِ أو بالبَعْثِ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ هذا الأمْرُ منهمْ في أوّلِ الأحوالِ، فكانوا يَطْمَعونَ مِنْ رسولِ اللهِ الإجابةَ لهمْ في ما يَدْعونَ إليهِ؛ إذْ كانوا يَرْجونَ منهُ الموافقةَ لهمْ بما يَبْذُلونَ لهُ مِنَ المالِ، فيكونُ النَّهْيُ راجعاً إلى ذلكَ الوقْتِ.

فأمّا بَعْدَ ما ظَهَرَتْ منهُ الصلابةُ والتَّشْميرُ لأمرِ اللهِ تعالى فلا يَحْتَمِلُ أنْ يُطيعَهُمْ، أو يَخافَ منهمْ[1] ذلكَ، فَيُنْهَى عنهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ دعاؤُهُمْ رسولَ اللهِ ﷺ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ فَيُدْهِنونَ، والمُداهنةُ هي المُلاطَفةُ والمُلايَنةُ في القولِ.

ثم رسولُ اللهِ ﷺ كانَ يَذْكُرُ آلهتَهُمْ بسوءٍ، ويُسَفِّهُهُمْ بِعِبادَتِهِمْ إياها، ويُسَفِّهُ أحلامَهُمْ، ويُجَهِّلُهُمْ، وهمْ لم يكونوا يَجدونَ في رسولِ اللهِ ﷺ مَطْعناً، فكانوا يَنْسُبونَهُ إلى الكَذِبِ مَرَّةً وإلى الجُنونِ ثانياً وإلى السِّحْرِ ثالثاً، وكانوا يَتَّخِذونَهُ هُزُواً إذا رَأَوهُ، فكانوا يَطْعَنونَ فيهِ مِنْ هذهِ الأوجُهِ بإزاءِ ما كان رسولُ اللهِ ﷺ يُسَفِّهُهُمْ، ويَذْكُرُ آلهتَهُمْ بسوءٍ معَ علمِهِمْ أنهُ ليسَ بكذّابٍ ولا ساحرٍ ولا كاهنٍ.

ألّا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فأخبَرَ تعالى أنهمْ ليسوا يُكَذِّبونَهُ لِما وَقَفوا منهُ على الكَذِبِ، بل كانوا عَرَفوهُ بالأمانةِ والصِّدْقِ، ولم يكونوا وَقَفوا منهُ على كَذِبٍ قطُّ، وإنما الذي حَمَلَهُمْ على التَّكذيبِ واتِّخاذِهِمْ إيّاهُ هُزُواً ذِكْرُهُ[2] آلهتَهُمْ بسوءٍ، ولذلكَ[3] قالَ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] فكانَتْ مُعامَلَتُهُمْ هذهِ مُجازاةً لرسولِ اللهِ ﷺ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ يُخَرَّجُ على هذا، إنْ شاءَ اللهُ تعالى، هو أنكَ لو تَرَكْتَ ذِكْرَ آلهتِهِمْ بسوءٍ، ولم تُسَفِّهْ أحلامَهُمْ، لامْتَنَعوا أيضاً عمّا عليهِ مِنْ نِسْبَتِهِمْ إياكَ إلى الجُنونِ والسِّحْرِ والكَذِبِ وغيرِ ذلكَ. ولكنهُ كانَ يَذْكُرُهُمْ، وهو في ذلكَ بِحَقٍّ، وهُمْ كانوا يَذْكُرونَهُ بما قالوا بالباطلِ والزُّورِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ في ما يَدْعونَكَ إلى المُداهَنةِ.

ثم هُمْ لو داهَنوا كانوا في مُداهَنَتِهِمْ مُحِقِّينَ، فإنْ تَرَكوا ذلكَ فقد تَرَكوا الحقَّ الذي كانَ عليهِمْ.

ورسولُ اللهِ ﷺ لو داهَنَهُمْ لم يكنْ في مُداهَنَتِهِمْ مُحِقّاً. فلِذلكَ نُهِيَ عنِ المُداهنةِ. وقالَ بعضُ المُفَسِّرينَ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي لو ترفُضُ ما أنتَ عليهِ مِنَ الدِّينِ. وهذا لا يَسْتَقيمُ لأنهُ إذا رَفَضَ ما هو عليهِ مِنَ الدِّينِ كَفَرَ، وهُمْ لو تَرَكوا ما هُمْ عليهِ صاروا مُسلِمينَ، فَيَبْقَى بينَهُمُ الاختِلافُ الذي لأجْلِهِ[4] دَعَوا إلى المُداهَنة، وَوَدُّوها.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ قيلَ: إنَّ هذهِ الآياتِ نَزَلَتْ في واحدٍ، يُشارُ إليهِ، وهو الوليدُ بْنُ المُغيرةِ المَخزوميُّ. وفي ما يُشارُ إلى واحدٍ لا يُطلَقُ فيهِ لَفْظَةُ ﴿كُلَّ﴾ فَيُقالُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ والحَلّافُ المَهينُ ليسَ إلا الواحدَ. ولكنَّ مَعْناهُ: لا تُطِعْ هذا وكلَّ مِنْ يُوجَدُ فيه هذهِ الصفةُ.

ثم ذِكْرُ المَرْءِ بقولِهِ: ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [الآيات: ١٠ و١١ و١٢]. يُخَرَّجُ مُخرَجَ الهجاءِ والشَّتْمِ في الشاهدِ، لأنَّ ذِكْرَ المَرْءِ بما هو عليهِ مِنِ ارْتِكابِ الفَواحِشِ والمَساوِئِ تَهْجينٌ لهُ وشَتْمٌ. وجَلَّ اللهُ ورسولُهُ أنْ يَقْصِدوا إلى شَتْمِ إنسانٍ.

فالآيةُ ليسَتْ في تَثْبيتِ فواحشِهِ، وإنما هي في مَوضعِ التَّوبيخِ والزَّجْرِ عنِ اتِّباعِ مِثْلِهِ؛ وذلكَ أنهُ كانَ مِنْ رُؤساءِ الكَفَرةِ

---

(١) في الأصل وم: منه. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وكذلك. (٤) زيد بعدها في الأصل وم: ما.

وممّنْ بُسِطَتْ عليهِ الدنيا، فكانَ القومُ يَتْبَعونَهُ، ويَنْقادونَ لهُ في ما يَدْعوهُمْ إلى الصَّدِّ عنْ سَبيلِ اللهِ، فَذَكَرَ اللهُ تعالى فيهِ هذهِ الأشياءَ، وأظهَرَها لِلْخَلْقِ لِيَزْهَدَهُمْ عنِ اتّباعِهِ؛ إذْ كلُّ مَنْ كانَتْ فيهِ هذهِ الأحوالُ لم تَسْنَحْ نفسُ عاقلٍ لِاتّباعِهِ، ولا احْتَمَلَ طَبْعُهُ طاعةَ مِثْلِهِ، فلا يَتَمَكَّنُ مِنْ صَدِّ الناسِ عنْ سَبيلِ اللهِ تعالى، فكانَ في ذِكْرِهِ العُيوبَ التي ذَكَرَها [زَجْرُ الناسِ عَنْ طاعتِهِ][1] فَذَكَرَها لإثباتِ هذا الوجهِ لا أنْ تكونَ فائدتُها على تَحْصيلِ الشَّتْمِ والهجاءِ.

وكذلكَ ذَكَرَ أبا لَهَبٍ بالتَّبِّ والخَسارِ وما هو عليهِ مِنَ الفواحِشِ لِيَزْجُرَ الناسَ عنِ اتّباعِهِ.

وفي هذهِ دلالةُ نُبُوّةِ محمدٍ ﷺ مِنَ الوجهِ الذي يُذْكَرُ في سورةِ: ﴿تَبَّتْ﴾ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

ثم قيلَ: المَهينُ مِنَ المَهانةِ، ومِنَ المِهْنَةِ، ومِنَ الوَهْنِ، وهو الضَّعْفُ.

الآيتان ١١ و١٢ ثم قولُهُ تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ اسْتَوجَبَ المَهانةَ لِكونِهِ [هَمّازاً مَشّاءً][2] بالنّميمِ وبِمَنْعِهِ الخيرَ واعْتِدائِهِ، فيكونُ هذا كلُّهُ تَفْسيرَ المَهينِ. فإنْ كانَ هكذا فقولُهُ: ﴿مَّهِينٍ﴾ مِنَ المَهانةِ هَهنا.

ثم [لا][3] يجوزُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ، يُخشى عليهِ طاعتُهُ ومَنْ، هذا وَصْفُهُ، وأنْ يَميلَ إليهِ قلبُهُ، ولكنَّ النَّهْيَ لِمَكانِ غَيرِهِ، وإنْ كانَ هو المُشارَ / ٥٨٧ ـ ب/ إليهِ بالذِّكْرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ تَمامَ الكلامِ، ويكونُ قولُهُ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ على الابْتِداءِ. فكأنهُ يقولُ: لا تُطِعْ كلَّ حَلّافٍ مَهينٍ هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنميمٍ وكلَّ مُعْتَدٍ أثيمٍ وكلَّ عُتُلٍّ زَنيمٍ.

وتَفْسيرُ الهُمَزَةِ يُذْكَرُ في سورةِ الهُمَزَةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، والمَشّاءُ بالنَّميمِ هو الذي يَسْعَى في الفُرْقَةِ بَينَ الإخوانِ، ويقومُ في ما بَينَهُمْ بالقَطيعةِ.

والمَنّاعُ لِلْخَيرِ: قالَ بعضُهُمْ: إنهُ كانَ يَمْنَعُ أهلَ الآفاقِ مَنْ كانَ بِحَضْرَتِهِ عنِ اتّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ ونقولُ: إنهُ ضالٌّ مُضِلٌّ، فقيلَ: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لهذا.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهُ كانَ يَمْنَعُ وَلَدَهُ مِنَ الاخْتِلافِ إلى مَجْلِسِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَنْعُهُ لِلْخَيرِ، هو امْتِناعُهُ عنْ أداءِ حقوقِ اللهِ تعالى الواجبةِ في مالِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي مُعْتَدٍ حُدودَ اللهِ، أو ظالمٍ لنفسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَثِيمٍ﴾ الأثيمُ، هو المُرْتَكِبُ لِما يَأثَمُ بهِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ العُتُلُّ: الفَظُّ الغَليظُ والشَّديدُ الظَّلومُ، وقيلَ: هو الفاحشُ اللئيمُ الضَّريبةِ.

وقالَ مجاهدٌ: العُتُلُّ الشديدُ الأشِرُ أبِيُّ الخُلُقِ؛ قد رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، أنهُ قالَ: «لا يَدْخُلُ الجنةَ جَوّاظٌ ولا جَعْظَرِيٌّ ولا العُتُلُّ الزَّنيمُ، فقالَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ: يا رسولَ اللهِ، وما الجَوّاظُ والجَعْظَرِيُّ والعُتُلُّ الزَّنيمُ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أمّا الجَوّاظُ فالذي جَمَعَ، ومَنَعَ، تَدْعوهُ ﴿لَظَىٰ﴾ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥ و١٦] وأمّا الجَعْظَرِيُّ فالفَظُّ الغَليظُ، قالَ تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وأمّا العُتُلُّ الزَّنيمُ فهو الشديدُ الخَلْقِ الرَّحيبُ الجَوفِ المُصَحَّحُ الأكولُ الشَّروبُ الواجدُ لِلطّعامِ والشرابِ الظَّلومُ للناسِ. وأمّا الزَّنيمُ فهو الدَّعِيُّ المُلْتَصِقُ بالقومِ المُلْحَقُ في النَّسَبِ» [أبو داوود: ٤٨٠١].

واسْتَدَلّوا على ذلكَ بقولِ الشاعرِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: هماز ههنا. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

زَنيمٌ ليس يُعرَفُ مَنْ أبوهُ   بَغِيُّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لئيمِ

وبقولِ آخرَ:

زَنيمٌ تَداعاهُ الرجالُ زِيادةً   [كما زِيدَ][1] في عَرْضِ الأديمِ الأكارعُ

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ كانَ بِهِ زَنَمةٌ في أصلِ أُذُنِهِ يُعرَفُ بها. ومنهمْ مَنْ يقولُ: الزَّنيمُ، هو العَلَمُ في الشرِّ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: إذا كانَ تأويلُ العُتُلِّ ما ذُكِرَ في الخبَرِ، ومَعْنَى الزَّنيمِ الدَّعِيّ، أو ما ذُكِرَ مِنَ العلامةِ، فكيفَ عُيِّرَ بهذهِ الأشياءِ، ولم يكُنْ لهُ في ذلكَ صُنْعٌ، والمَرْءُ إنما يُعَيَّرُ بمالهُ فيهِ صُنْعٌ لا بما صُنِعَ لهُ فيهِ؟ فَيُجابُ عن هذا مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا أنَّ ذِكْرَهُ بِما فيهِ مِنَ العُيوبِ، ليسَ لمكانِ المذكورِ نفسِهِ، ولكنْ لِزَجْرِ الناسِ عنِ اتِّباعِهِ، لأنَّ مَنِ اشْتَمَلَ على العُيوبِ التي ذَكَرَها، وكانَ معَ ذلكَ عُتُلّاً زَنيماً، فأنفُسُ الخَلْقِ تأبَى عنِ اتِّباعِهِ ففائدةُ تَعْييرِهِ [بِما أضفَى عليها ما ذَكَرْنا مِنَ الحِكْمةِ لا تَخْييرِهِ][2].

والثاني: أنَّ ذِكْرَ أصلِهِ كِنايةٌ عنْ سُوءِ فِعْلِهِ لِيُعْلَمَ أنَّ خُبثَ الأصلِ يَدْعو الإنسانَ إلى تَعاطي الأفعالِ الذَّميمةِ، وصِحَّةَ الأصلِ وحَسَبَهُ ونقاوَتَهُ تَدْعو صاحِبَهُ إلى مَحاسِنِ الأخلاقِ وإلى الأفعالِ المَرْضِيةِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ يُخبِرُ أنَّ مَنْ يَتَّبِعُهُ يَتَّبِعُهُ لِكَثْرةِ أموالِهِ وبَنيهِ؛ وذلكَ أنَّ كَثْرَةَ المالِ للإنسانِ مِنْ أحدٍ ما يَسْتَدْعي قلوبَ الخَلْقِ على تَعْظيمِهِ، فذَكَرَ ما فيهِ مِنَ العيوبِ والمَساوِئِ لئلا يَسْتَمِيلَ قلوبَ الضَّعَفَةِ إلى نفسِهِ بمالِهِ، فيقولُ: كيفَ يَتَّبِعونَهُ، وهو بهذا الوصفِ الذي وَصَفَهُ اللهُ تعالى.

الآية ١٥ ثم أخبَرَ عنْ مُعامَلَتِهِ رسولَ اللهِ ﷺ بقولِهِ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وإنْ كانَ عامّاً بظاهِرِهِ، لكنْ لم يُرِدْ بهِ العمومَ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ليسَ في كل الآياتِ، وإنما هو في الآياتِ التي هي في حقِّ الإخبارِ عنِ الأممِ السالفةِ.

وأمّا إذا تُلِيَتْ عليهِ الآياتُ التي فيها دلالةُ إثباتِ الرسالةِ ودلالةُ التوحيدِ ودلالةُ البعثِ، فقولُهُ فيها ما قالَ في سورةِ المدثرِ: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [الآيتان: ٢٤ و٢٥] وهذا دليلٌ على ألّا يَجِبَ اعتقادُ ظاهِرِ العمومِ ما لم يُعْلَمْ بيقينٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ قيلَ: سِيماءُ[3] لا تُفارقُهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ جَعَلَ هذا في الدنيا لكي يَعْلَمَهُ، ويَذْكُرَهُ مَنْ رآهُ، فَيَجْتَنِبَ صُحْبَتَهُ، فهو سِيماءُ[4] مِنْ هذا الوجهِ، فَيُخَرَّجُ هذا مُخْرَجَ العقوبةِ لِشِدَّةِ تَعَنُّتِهِ على رسولِ اللهِ ﷺ وعظيمِ لَواهُ لهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا في الآخرةِ، فَيَجْعَلَ اللهُ تعالى عَلَماً في أنفِهِ عَلَماً، يُتَبَيَّنُ بهِ، ويَمْتازُ مِنْ غيرِه يومَ القيامةِ زِيادةً لهُ في العُقوبةِ كما جَعَلَ لآكِلي ﴿ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ خُرْطومُهُ خصوصاً مِنْ بينِ الكَفَرَةِ، فَنَحْشُرُهُ، ولا أنفَ لهُ، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ سائرَ الكَفَرَةِ يُحْشَرونَ يومَ القيامةِ بُكماً وعُمْياً وصُمّاً، ولم يَذْكُرْ في أنوفِهِمْ شيئاً.

فجائزٌ أنْ يكونَ يُحشَرُ، ولا أنفَ [لهُ][5] وذلكَ هو النِهايةُ في القُبْحِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ أهلُ مكةَ ابْتُلوا بالإحسانِ إلى اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ كما ابْتَلَى أصحابَ الجنةِ بالإحسانِ على المساكينِ، فَحَلَّ بهمْ مِنَ البَلاءِ ما ذَكَرَ لامْتِناعِهِمْ عنِ الائتِمارِ؛ فَذَكَرَ أهْلَ مكة أنهمْ إنِ امْتَنَعوا عنِ الإحسانِ إلى اتِّباعِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: شيئا. (٤) في الأصل وم: شيئا. (٥) ساقطة من الأصل وم.

محمدٍ ﷺ،حلَّ بهمْ ما حَلَّ بأولئكَ، وقد وجَدَ منهمُ الإمْتِناعَ، فابْتُلُوا بِسنِينَ كَسِنِي يوسفَ حتى اضطُرّوا إلى أكلِ الجِيَفِ والأقذارِ. ثم إنَّ أصحابَ الجنة لمّا مَسَّهُمُ العذابُ، وأيقَنوا بِهِ أنابوا إلى اللهِ، وانْقَلَعوا عنْ مَساوِئِهِمْ، فتابَ اللهُ عليهِمْ، ورَفَعَ البلاءَ عنهمْ، وأهلَ مكةَ تَمادَوا في غَيِّهِمْ، ولم يَتوبوا، فانْتَقَمَ اللهُ منهمْ بالقَتْلِ يومَ بَدْرٍ في الدنيا، وسَيُورِدُهمْ[1] إلى العذابِ في الآخِرَةِ.

[والثاني][2]: جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى لمّا أعَزَّهُمْ، وشَرَّفَهُمْ، وصَرَفَ وجوهَ الخَلْقِ إليهِمْ، امْتَحَنَهُمْ بِتَبْجيلِ رسولِ اللهِ ﷺ وتَعْظيمِهِ. فلمّا أساؤوا صُحْبَتَهُ عاقَبَهُمْ بِما ذَكَرْنا، وَوَسَّعَ على أصحابِ الجنةِ، فامْتَحَنَهُمْ بِما وَسَّعَ عليهِمْ بأنْ يُوَسِّعوا على غَيرِهِمْ، فلمّا امْتَنَعوا عنْ ذلكَ عُوقِبوا بِزوالِ النِّعْمَةِ عنهمْ، وعُوقِبَ هؤلاءِ بِزَوالِ العِزِّ عنهمْ، وأذاقَهُمْ ﴿ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ فقولُهُ: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي لأيِّ وَقْتٍ يُنْسَبُ إلى الصَّباحِ، وذلكَ يكونُ في آخِرِ الليلِ كما يقالُ: مُمْسِينَ لأوَّلِ وقْتٍ يُنْسَبُ إلى المساءِ.

وإذا كانَ كذلكَ فالإنْصِرامُ يَقَعُ بالليلِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾؟ [الآية: ٢٤] وهُمْ لا يَمْلِكونَ بَعْدَ مُضِيِّ الليلِ مَنْعَ المساكينِ عنِ الدخولِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ قِيلَ: أي لا يقولونَ: إنْ شاءَ اللهُ، وقيلَ: لا يقولونَ: سُبْحانَ اللهِ.

فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنَّ التَّسْبيحَ كانَ مُسْتَعْمَلاً في مَوضِعِ الإسْتِثْناءِ، وقد يجوزُ أنْ يُؤَدِّيَ مَعْنَى الإسْتِثْناءِ، لأنَّ في تَسبيحِ[3] الرَّبِّ تعالى وفي الإسْتِثْناءِ مَعْنَى التَّنزيهِ، ولأنَّ فيهِ إقراراً أنَّ اللهَ تعالى هو المُغَيِّرُ للأشياءِ والمُعَدِّلُ لها.

ثم أصحابُ الجنةِ بِقَسَمِهِمْ قَصَدوا قَصْداً يَلْحَقُهُمُ العِصيانُ فيهِ، وكانَ عَهْدُهُمُ الذي عاهَدوا عليهِ مَعْصِيةً، وعوتِبوا بِتَرْكِهِمُ الإسْتِثْناءِ.

ففيهِ دلالةٌ أنَّ اللهَ تعالى يُوصَفُ بالمَشيئةِ لِفِعْلِ العاصي مِمَّنْ يعلَمُ أنهُ يَختارُها /٥٨٨ ـ أ/ لأنهُ لو لم يوصَفْ بِهِ لم يكنْ لِمُعاتَبَتِهِ إياهُمْ بِتَرْكِهِمُ الإسْتِثْناءَ مَعْنىً؛ إذْ لا يجوزُ اسْتِعمالُ الإسْتِثْناءِ في ما لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بِهِ الرَّبُّ ﷻ.

ألا تَرَى [أنهُ][4] لا يَسْتَقيمُ أنْ يُقالَ: إنْ شاءَ اللهُ جازَ، وإنْ لم يَشَأْ لم يَجُزْ، وإنْ شاءَ ضَلَّ، وإنْ يَشَأْ لم يَضِلَّ، وإنْ شاءَ أكَلَ، وإنْ شاءَ لم يأكُلْ.

فلو لم يوصَفْ أيضاً بإضلالِ منْ يَعْلَمُ منهُ أنهُ يُؤثِرُ الضلالَ لم يَجُزْ أنْ يُلاموا على تركِ الإسْتِثْناءِ، ولا مَدْخَلَ لِلإسْتِثْناءِ فيهِ.

والذي فيهِ يَدُلُّ على صحبةِ ما ذَكَرْنا قولُهُ تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] فَتَبَيَّنَ أنهُ يَشاءُ إضلالَ مَنْ ذَكَرْنا.

وفيهِ [دلالةٌ][5] أنَّ خَلْقَ الشيءِ غَيرُ ذلكَ الشيءِ، لأنهُ يَسْتَقيمُ أنْ يُوصَفَ اللهُ تعالى بالإضلالِ ولا يجوزُ أنْ يوصَفَ بالضَّلالِ. وإنْ كانَ الإضلالُ خُلْقاً لهُ، ويُوصَفُ أنهُ المُحْيِي والمُمِيتُ، فلا يَسْتَقيمُ أنْ يُقالَ: إنْ شاءَ حَيِيَ، وإنْ شاءَ ماتَ، وإنْ كانَ هو الذي خَلَقَهُما.

ثم ليسَ في قولِهِ: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ إبانةُ أنَّ قَسَمَهُمْ كانَ بماذا.

فإذا كانَ بِغَيرِ اللهِ تعالى ففيهِ إبانةُ أنَّ القَسَمَ قد يكونُ بِغَيرِ اللهِ تعالى، وإنْ كانَ قَسَمُهُمْ باللهِ تعالى ففيهِ حُجَّةٌ لأبي يوسفَ على أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُما اللهُ تعالى، أنَّ اليَمينَ إذا كانَتْ مُوَقَّتَةً فإنَّ هَلاكَ الشيءِ المَحلوفِ بها قَبْلَ مُضِيِّ وقْتِها، لا

(١) في الأصل وك: وسيردهم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: تنزيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

يُسْقِطُ اليمينَ، بل تَبْقَى بِحالِها، وتُلْزِمُ على صاحِبِها حُكْمَ الحِنْثِ إذا مَضَى وقتُها، لأنَّ الثَّمَرَ الذي حَلَفوا على صَرْمِهِ قد هَلَكَ قبلَ الوقتِ الذي أُوجِبَ فيهِ الصَّرْمُ.

فلو كانَتِ اليمينُ تَسْقُطُ عنهمْ بِهلاكِ الثَّمَرِ لم يكونوا يَحْتاجونَ إلى الاسْتِثْناءِ، لأنَّ الحاجةَ لإسْقاطِ المؤْنَةِ التي تَلْزَمُهُمْ بالحِنْثِ في اليَمينِ.

فلو كانَ هَلاكُ الثَّمَرِ مُسْقِطاً لِلْيَمينِ ومؤْنَةِ الحِنْثِ لاسْتَغْنَوا عنِ الاسْتِثْناءِ.

فلمّا لَحِقَتْهُمُ اللائمةُ بِتَرْكِهِمُ الاسْتِثْناءِ دلَّ أنَّ المؤْنَةَ تَبْقَى عليهِمْ إذا غَرَبَتْ عنِ الاسْتِثْناءِ، وإنْ كانَتْ مُوَقَّتَةً.

ولكنْ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، يُسْقِطُ عنهُ اليَمينَ بهلاكِ الشيءِ المَحْلوفِ عليهِ، إذا كانَتْ يَمينُهُ باللهِ تعالى، ولا يُسْقِطُها إذا كانَتْ بشيءٍ مِنَ القُرَبِ والطاعاتِ، أعني النَّذْبَ. وليسَ في الآيةِ إبانةُ أنَّ يَمينَهُمْ كانتْ باللهِ تعالى، فجائزٌ أنْ تكونَ يَمينُهُمْ بشيءٍ مِنَ القُرَبِ، فَبَقِيَتْ عليهِمْ، ولأنهُ عاتَبَهُمْ على تَرْكِ الاسْتِثْناءِ لِعَزْمِهِمْ على المَعْصِيةِ، والاسْتِثْناءُ يُسْقِطُ العَزيمةَ، لأنَّ مَنْ عَزَمَ على المَعْصيةِ، وقالَ فيهِ: إنْ شاءَ اللهُ، لم يَصِرْ آثِماً بِمَقالَتِهِ، ولا صارَ عازماً على المَعْصيَةِ، وأبو حَنيفةَ ليسَ يُخْرِجُهُ عنِ المَعْصِيةِ في اليَمينِ المُوَقَّتةِ إذا عُقِدَتْ على أمْرٍ مِنْ أمورِ المَعْصيةِ.

والذي يَدُلُّ على أنَّ العتابَ في تَرْكِ الاسْتِثناءِ للوجْهِ الذي ذَكَرْنا أنهُ لم يُذْكَرْ في شيءٍ مِنَ الأخبارِ، ولا ذُكِرَ في الكتابِ أنَّ أحداً منهمْ أُمِرَ بالتَّكْفيرِ.

ولو كانَ الحِنْثُ لازماً لكانوا يُلامونَ على تَرْكِ التَّكْفيرِ أيضاً كما لَحِقَتْهُمُ اللائمةُ بِتَرْكِ الاسْتِثْناءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾: ﴿طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ قيلَ: عذابٌ من ربِّكَ، وسُمِّيَ طائفاً لأنهُ أتاهُمْ بالليلِ، وكلُّ آتٍ بالليلِ فهو طائفٌ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قيلَ: أيِ الجَنَّةُ كأنها صُرِمَتْ، وهُمْ أصْبَحوا لِيَصْرِموها.

الآيات ٢١ ـ ٢٣ وقولُهُ تعالى: [﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾][1] ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ قيلَ: يَتَسارُّونَ في ما بينَهُمْ. فيجوزُ أنْ تكونَ مُسارَّتُهُمْ كانَتْ في الأمْرِ بالإسراعِ في المَشْيِ، لئلا يَشْعُرَ بهمُ المساكينُ، أو [أنْ][2] يتعَجَّلوا في الخروجِ والمَشْيِ قَبْلَ الوقتِ الذي يُصْبِحُ فيهِ المساكينُ.

الآيتان ٢٤ و٢٥ وقولُهُ تعالى: [﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾][3] ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ اسْمَ جَنَّتِهِمْ كانَ حَرْداً، وقيلَ: غَدَوا على أمْرٍ قدِ اسْتَثْنَوهُ في ما بَيْنَهُمْ.

وقالَ الزَّجّاجُ: الحَرْدُ لهُ أوجُهٌ ثلاثةٌ:

أحَدُها: القَصْدُ، واسْتَدَلَّ عليه بقولِ الشاعرِ:

وجاءَ سَيْلٌ كانَ مِنْ أمْرِ اللهِ ... يَحْرِدُ حَرْدَ [الجَنَّةِ المُغِلَّةِ][4]

أي يَقْصِدُ قَصْدَها.

والثاني: هو المَنْعُ؛ يقالُ: حارَدَتِ السَّنَةُ أي قَحَطَتْ، وذهَبَتْ بَرَكَتُها.

والثالثُ: الغَضَبُ: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي غَضَبٍ على الفقراءِ. وقولُهُ ﴿قَادِرِينَ﴾ عليها في أنفسِهِمْ.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّ في هذهِ الآيةِ دلالةَ تَقَدُّمِ القُدْرةِ على الفِعْلِ لأنهُ أثْبَتَ لهمُ القُدْرةَ قبلَ الفِعْلِ. ولكنَّ هذهِ القدرةَ ليسَتْ في قُدْرةِ الأفعالِ، وإنما هي قُدْرةُ الأسبابِ والأحوالِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل. وم. (٤) في الأصل وم: الحية المحتلة. انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج٥/٢٠٧ ثم انظر اللسان.

الآيتان ٢٦ و٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي قد ضَلَلْنا الطريقَ. فكان عندَهُمْ أنهمْ قدْ ضَلّوا الطريقَ. ولذلكَ لم يَتَوصّلوا إلى ثِمارِها [ثم][1] ظَهَرَ لهمْ أنهمْ لم يَضِلّوا الطريقَ، بل حُرِموا بَرَكَةَ الثمارِ بِجِنايتِهِمُ التي جَنَوها [﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾][2] فتَذَكَّروا صَنيعَهُمْ، ونَدِموا على ذلكَ، فأقبلوا بالاِسْتِكانةِ والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ تعالى، فتابَ عليهِمْ.

فَلَعَلَّ الذي قالَ [إنَّ قولَهُ تعالى][3]: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يُخَرِّجُ على هذا، وهو أنّا بَلَونا أصحابَ الجنةِ، فَتَذَكَّروا، فَرَفَعَ عنهمُ العذابَ، ولم يَتَذَكَّرْ أهلُ مكةَ، فَحَلَّ عليهِمُ العذابُ يومَ بَدْرٍ، كما قالَ: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعْدَلُهُمْ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾.

جائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: لولا تُصَلّونَ الفجرَ، ثم تَخْرُجونَ، وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ[4] لولا تَسْتَثْنونَ، وقد ذَكَرْنا أنَّ في الاِسْتِثْناءِ مَعْنَى التَّسبيحِ لأنَّ فيهِ إقراراً بأنَّ الأمورَ كلَّها تَنْفُذُ بمشيئةِ اللهِ تعالى، وأنهُ هو المُغَيِّرُ والمُبَدِّلُ دونَ أحدٍ سِواهُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فهذا منهمْ توحيدٌ وتَبرِئةٌ.

وفي قولِهِ: ﴿كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعْتِرافٌ بما ارْتَكَبوا مِنَ الذنوبِ وإنابةٌ إلى اللهِ.

الآيتان ٣٠ و٣١ وتمامُ التوبةِ منهمْ في قولِهِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾.

وذَكَرَ المُفَسِّرونَ في قولِهِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي أقْبَلَ بعضُهُمْ على بعضٍ باللَّومِ؛ يقولُ: أنتَ أمَرْتَنا أنْ نَصْرِمَها ليلاً، وقالَ هذا لهذا: بل هو عَمَلُكَ أنتَ.

وهذا لا مَعْنَى لهُ لأنَّ هذا يُوجِبُ تَبرِئةَ كلِّ واحدٍ منهمْ مِنِ ارْتِكابِ الذنوبِ، وقد سَبَقَ منهمُ الإقرارُ بالذنبِ بقولِهِمْ[5]: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وبقولِهِمْ: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ فكيفَ يُبَرِّئونَ أنفسَهُمْ مِنَ الذنوبِ، وقد اعْتَرَفوا، فهذا تأويلٌ لا مَعْنَى لهُ.

بل مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ على إدخالِ كلٍّ منهمْ نفسَهُ في ذلكَ اللَّومِ، ، أو أقْبَلَ كلُّ واحدٍ منهمْ باللائمةِ على نفسِهِ حتى يكونَ هذا مُوافِقاً لقولِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ في هذا تَمامُ التوبةِ؛ ففيهِ أنهمْ أظْهَروا الندامةَ على نَسَقٍ منهمْ مِنْ أوجهٍ ثلاثةٍ: مَرَّةً بما وَصَفوا أنفسَهُمْ بالظلمِ، ومَرَّةً بما لاموا أنفسَهُمْ، ومَرَّةً بما وَصَفوا [أنفسَهُمْ][6] بالطغيانِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ أي يُبْدِلَنا خيراً منها إذا تُبْنا، وأنَبْنا إلى رَبِّنا، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَتَوَقَّعوا خيراً منها، وهُمْ مُصِرّونَ على ذنوبِهِمْ؛ إذْ قد عَرَفوا أنهمْ إنما حُرِموا بَرَكَةَ الثمارِ بما ارْتَكَبوا مِنَ الذنوبِ، فَثَبَتَ أنَّ مَعْناهُ ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في الآخِرَةِ؛ يقولونَ: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ في الآخِرَةِ إذا تُبْنا، وأنَبْنا إلى رَبِّنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ إلى ما عندَ ربِّنا مِنَ العطايا والمِنَنِ لَراغِبونَ، أو إلى ما وَعَدَ رُبنا لِلتائبينَ مِنَ الذنوبِ لَراغِبونَ /٥٨٨ ـ ب/.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ كأنهُ يُخاطِبُ أهلَ مكةَ أنْ كذلكَ العذابُ في الدنيا في أنْ يأخُذَ أهلَهُ مَنْ كانوا أو كما أخَذَ أصحابَ الجنةِ عندَ الأمنِ إذْ كانَ عندَهُمْ أنهمْ يَقْدِرونَ على صَرْمِ تلكَ الثمارِ، ولا يَفوتُهُمْ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: بمعناه. (٥) في الأصل وم: بقوله. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ففي هذا إيجابُ العذابِ على مَنْ[1] لم يَعْلَمْ بالعذابِ، ولم يُؤمِنْ بِهِ، لأنهمْ لم يُؤمِنوا بعذابِ الآخِرَةِ، ولا عَلِموا بِهِ.

ثم أوجَبَ لهمُ العذابَ، وإنْ لم يَعْلَموا، ولم يُعْذَروا بالجهلِ لأنهمْ قد وقَفوا على السببِ الذي لو تَفَكَّروا لَعَلِموا بالعذابِ ولأيقَنوا بِهِ.

وفي هذا حُجَّةٌ أنْ لا عُذْرَ لِمَنْ تَخَلَّفَ عنِ التوحيدِ والإيمانِ باللهِ تعالى، وإنْ جَهِلَ إلّا أنْ يكونَ جَهْلُهُ جَهْلَ خِلْقَةٍ لأنَّ الذي [أفْضى][2] بِهِ إلى الجهلِ هو التَّقْصيرُ في الطَّلَبِ، وإلّا لو لم يُقَصِّرْ في الطَّلَبِ لَوَجَد مَنْ يَدُلُّهُ على مَعْرِفَةِ الصانِعِ وَوَحدانِيَّةِ الرَّبِّ تعالى.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وفيهِ تَرْغيبٌ لِمَنْ لَزِمَ التَّقْوى، وهو الإسلامُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أفَنَجْعَلُ مَنْ جَعَلَ كلَّ شيءٍ سِوَى اللهِ تعالى لِلَّهِ سالماً، لا يُشْرِكُ فيهِ أحداً كالذي أجْرَمَ، فَجَعَلَ في كلِّ شيءٍ سالمٍ لهُ شِرْكاً في العبادةِ والتَّسْمِيةِ، وبَيَّنَ[3] اللهُ تعالى أنهُ وَلِيُّ المؤمنينَ وعَدُوُّ المُجْرِمينَ؟.

فنقولُ: أفَئِنْ زَعَمَ أعدائي أنْ أُسَوِّيَ بَيْنَهُمْ وبينِ الأحباءِ والجَمْعِ بَيْنَهُمْ فلا[4] نَفْعَلُ ذلكَ لأنَّ [فيهِ][5] تَضْييعَ الحِكْمَةِ، لأنَّ الحِكْمَةَ توجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ العَدُوِّ والوَلِيِّ، وفي الجَمْعِ بَيْنَهما تَضْييعُها.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ في أن أجْعَلَ عَدُوِّي بِمَنْزِلَةِ وَلِيِّي وَوَلِيِّي بِمَنْزِلَةِ عَدُوِّي؟

أو أيُّ شيءٍ حَمَلَكُمْ على حُكْمِكُمْ [هذا، ولم يأتِكُمْ][6] بهذا الحُكْمِ كتابٌ، ولا مَعْقولٌ يُوجِبُ ذلكَ؟ فكيفَ تَطْمَعونَ ذلكَ؟ أو كيفَ تَحْكُمونَ بالجَورِ على ربِّكُمْ؟ لأنَّ مِنَ الجَورِ أنْ يُجْمَعَ بينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ في دارِ الكرامةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يَسْتَقيمُ إنْ يَجْعَلَ هذا جواباً للفريقَينِ: لِمَنْ[7] يُنْكِرُ البَعْثَ ولِمَنْ[8] يَزْعُمُ انهُ شريكُ أهلِ الإسلامِ في الآخِرَةِ في ما يُكْرَمونَ مِنَ النَّعيمِ.

فَمَنْ أنْكَرَ البعثَ فالاحتجاجُ عليهِ بهذهِ الآيةِ، وهو[9] أنَّ [فِعلَ التَّسوِيةِ][10] يُوجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الوليِّ وبَيْنَ العَدُوِّ [وبَيْنَ الشَّكورِ وبَيْنَ الكَفورِ][11] فأنتمْ إذا أنْكَرْتُمُ البَعْثَ فقد زَعَمْتُمْ على اللهِ أنهُ يَجْعَلُ المسلمِينَ كالمُجْرِمينَ والكَفورَ كالشَّكورِ والعَدُوَّ كالوَلِيِّ. ومَنْ فَعَلَ هذا فهو سَفيهٌ، لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ حكيماً.

ففي إنكارِ البعثِ تَحقيقُ السَّفَهِ وإثباتُ الجَورِ، ومِنَ[12] الجَورِ أنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الوليِّ وبَيْنَ العَدُوِّ في الجَزاءِ، ومَنِ ادَّعى الوجْهَ الآخَرَ، وهو التَّسْوِيَةُ بينَ الفَريقَينِ لِما تَساوَيا في مَنافِعِ الدنيا ومَضارِّها وفي لَذّاتِها وشَدائِدِها وبَلِيّاتِها [فهو سفيهٌ جائرٌ][13] فعلى ذلكَ يكونُ أمْرُهُمْ في الآخِرَةِ.

فَجوابُهُمْ في ذلكَ أنَّ الدنيا، هي دارٌ يَظْهَرُ فيها العَدُوُّ مِنَ الوليِّ والشَّكورُ مِنَ الكَفورِ، والآخِرَةَ دارُ جَزاءِ العَداوةِ والوِلايةِ.

فجائزٌ أنْ يَقَعَ في ما فيهِ ظُهورُ الوِلايةِ والعَداوةِ اتِّفاقٌ، ولا يجوزُ وُقوعُ الاتِّفاقِ في ما فيهِ الجَزاءُ لِعَداوةٍ سَبَقَتْ ولِوِلايَةٍ سَبَقَتْ، والحِكْمَةُ تُوجِبُ التَّفْرِقةَ بَيْنَ الجَزاءَينِ، فلا يجوزُ أنْ يُجْعَلَ المُسْلِمُ فيهِ كالمُجْرِمِ لِما فيهِ مِنْ تَضْييعِ الحِكْمَةِ، وليسَ قَبْلَ المِحْنةِ مَعنًى يُوجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَهما [في دارِ المِحْنةِ، فجائزٌ أنْ يَقَعَ بَيْنَهما][14] الاتِّفاقُ في ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: ما. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو بين. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: لم. (٨) في الأصل وم: ولم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم.
(١٠) في الأصل وم: الفعل. (١١) في الأصل وم: والشكور. (١٢) في الأصل وم: لأن من. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في م: في المحنة فجائز أن يقع بينهما، ساقطة من الأصل.

ولأنهُ لو كانَ تَفَرُّقٌ بَينَهما في الدنيا لكانَتِ المِحنَةُ تَخرُجُ عنْ حَدِّها، والدنيا هي دارُ المِحْنةِ، وإنما قُلنا: إنَّ فيهِ إخراجَ المِحْنَةِ عنْ حَدِّها لأنَّ المِحنَةَ تكونُ على الرَّجاءِ والخوفِ والرَّغْبةِ والرَّهْبةِ.

فلو فُرِّقَ بَينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ في الدنيا، فَوُسِّعَ على الأولياءِ، وضُيِّقَ على الأعداءِ، لَوَقَعَ اخْتِيارُ وَجْهِ الوِلايةِ على الضرورةِ، لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنهُ يُضَيَّقُ عليهِ إذا اختارَ وَجْهَ العَداوةِ، وتَعَجَّلَ عليهِ العذابَ، تَرَكَ ذلكَ الوجْهَ، ومالَ إلى الولايةِ، فَيَرْتَفِعُ وجْهُ المِحنَةِ.

فَلِذلكَ جازَ أنْ يُجمَعَ بَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ في دارِ المِحنَةِ لِيَبْقَى وجْهُ الحكمةِ، بِحالِهِ، ولم يَجُزْ أنْ يُجمَعَ بَينَهما في الآخِرَةِ لأنها دارُ جَزاءٍ. والعَقْلُ يوجِبُ تَفْرِقةَ جَزائِهما، واللهُ المُوفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ في أحْكَمِ الحُكَماءِ بالسَّفَهِ حينَ[1] تزْعُمونَ، أنهُ يَجمَعُ بَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ في الجَزاءِ، وذلكَ مِنْ أعلامِ السَّفَهِ؟ أو كيفَ تَحكمونَ في أحكَمِ الحاكمينَ وأعْدَلِ العادِلينَ بالجَورِ، إذْ تَزْعُمونَ أنهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الفريقَينِ في دارِ الكرامةِ، ومِنَ الجَورِ أنْ يُجْمَعَ[2] بَينَهما؟ وهُمْ كانوا يُقِرّونَ أنَّ اللهَ تعالى أحكَمُ الحاكِمينَ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ فَحاجَّهُمْ أوّلاً بما تُوجِبُهُ الحِكْمةُ، وهو أنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ الحِكمةَ تُوجِبُ التَّفْرِقةَ بَينَهما، فإنْ كُنتُمْ تَدَّعونَ الجَمْعَ في ما بَينَهما بالحِكْمةِ، فأنتمْ تَعْلَمونَ أنَّ الحِكْمةَ تُوجِبُ التَّفْرِقةَ بَينَهما، وإنْ كُنتُمْ تَعْلَمونَ[3] ذلكَ مِنْ كتابٍ، فأيُّ كتابٍ مِنْ عندِ اللهِ جاءَكُمْ، يُوجِبُ التَّسْوِيَةَ بَينَكُمْ وبَينَ الأولياءِ؟ وأيُّ رسولٍ أخبَرَكُمْ أنكُمْ تُساوُونَ الأولياءَ في نَعيمِ الآخِرَةِ؟

ثم وَجْهُ المُحاجَّةِ بالكتابِ، هو أنَّ مُشرِكي العَرَبِ لم يكونوا يُؤمِنونَ بالكتابِ ولا بالرسُلِ، ولو كانوا يؤمِنونَ بهما لكانوا يَقْدِرونَ أنْ يقولوا: إنَّ لنا كتابًا دَرَسْناهُ، فَوَجَدْنا فيهِ ما نَذْكُرُ، ونَدَّعي، ورسولُنا[4] قد أخبَرَنا بذلكَ. ولكنهمْ إذا كانوا لا يُؤمنونَ بهما صارَ هذا الوجْهُ الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى حُجَّةً لازمةً عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي في ذلكَ الكتابِ تَجِدونَ أنَّ لكمْ فيهِ ما[5] تَخَيَّرونَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ وهذا أيضاً صِلةُ الأوّلِ أي هل شَهِدْتُمْ اللهَ تعالى أقْسَمَ لكمْ أنهُ هكذا كما تَحْكُمونَ. وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤] فَأَخَذَهُمْ بالمُقايَسةِ أوّلاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] فلمّا لم يَتَهَيَّأْ لهمْ تَثْبيتُ ذلكَ بالقياسِ والمَعقولِ احْتَجَّ عليهِمْ بقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقد عَرَفوا أنهمْ لم يَشْهَدوا، وما ادَّعَوهُ[6]، لاثَباتَ لهُ إلّا مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرَها.

وإذا لم يُثْبِتوا بشيءٍ مِنْ ذلكَ تَبَيَّنَ عندَهُمْ فَسادُ دَعْواهُمْ.

فهذا أيضاً مِثْلُهُ، وهو أنهُ سَألَهُمْ عنْ إيرادِ الحُجَّةِ إمّا مِنْ جِهَةِ الحكمةِ [وإمّا مِنْ][7] جهةِ الكتابِ [وإمّا][8] مِنْ جهةِ الشهادةِ. فإذا لم يَثْبُتْ لهمْ واحدٌ مِنْ هذهِ الأوجُهِ فَبِأيِّ وجْهٍ يَشْهَدونَ على اللهِ أنهُ يَفْعَلُ ذلكَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ أي وَكيدةٌ، أو بُلِّغَتْ إليكمْ عنِ اللهِ تعالى؟

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ يقولُ: إنهمْ تَعَنَّتوا معَ ذلكَ كلِّهِ في أنْ يُداوِموا على دَعْواهُمْ مِنْ غيرِ حُجَّةٍ، تَشْهَدُ لهمْ، فَسَلْهُمْ، أي طالِبْهُمْ[9] بالزَّعيمِ، أي مَنْ يَكْفُلُ لهمْ أنَّ الأمْرَ كما يَزْعُمونَ؟

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي شُرَكاءُ يَشْفَعونَ لهمْ يومَ القيامةِ؟ وقالَ بعضُهُمْ: أم لهمْ شُهداءُ مِمَّنْ عندَهُمْ كتابٌ، يَشْهَدونَ لهمْ بِما يذكُرونَ؟

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يقع. (٣) في الأصل وم: تدعون. (٤) في الأصل وم: ورسول. (٥) في الأصل وم: لما.
(٦) من م، في الأصل: ادعوهم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم أو. (٩) في الأصل وم: أطلبهم.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي يُكْشَفُ عنْ مَوضعِ الوعيدِ بالشدائدِ والأهوالِ. والسّاقُ الشِّدَّةُ، وسُمِّيَتِ الساقُ ساقاً لأنَّ الناسِ شِدَّتُهُمْ في سوقِهِمْ؛ إذْ بها يَحْمِلونَ الأحمالَ، فَكَنّى بالساقِ عنِ الشِّدَّةِ.

وقيلَ أيضاً: إنهمْ كانوا إذا ابْتُلُوا / ٥٨٩ ـ أ/ بِشِدَّةٍ وبَلاءٍ كَشَفوا عنْ سوقِهِمْ، فَكَنّى بِذِكْرِهِ عنِ الشِّدَّةِ، لا أنْ يُرادَ بِذِكْرِ الساقِ تَحْقيقُ الساقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على دُعاءِ الحالِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على دُعاءِ الأمْرِ.

فأمّا دُعاءُ الحالِ فهو أنَّ [مِنْ][1] عاداتِ الخَلْقِ أنهُ إذا اشتَدَّ بهمُ الأمْرُ، وضاقَ، فَزِعوا إلى السجود.

فجائزٌ أنْ يكونَ ما حَلَّ بهمْ مِنَ الأحوالِ والشدائِدِ يَدْعوهُمْ إلى السجودِ، فَيَهُمّونَ بذلكَ، فلا يَسْتَطيعونَ، فيكونَ قولُهُ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [أي يَدْعُوهُمُ الحالُ إلى السجودِ][2] فهذا دُعاءُ الحالِ.

وجائزٌ أنْ يُؤْمَروا[3] بالسُّجودِ، ويُمْتَحَنوا بهِ.

ثم أنْ كانَ التأويلُ على الأمْرِ فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ [ذلكَ يومَ القيامةِ، وجائزٌ أنْ يكونَ][4] وقتَ الموتِ، وإنْ كانَ على دعاءِ الحالِ فذلكَ يكونُ عندَ الموتِ.

ثم الأمْرُ بالسُّجودِ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ على حقيقةِ الفِعْلِ.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ على الاِسْتِسْلامِ والخُضوعِ؛ إذِ السُّجودُ في الحقيقةِ، هو الخُضوعُ والاِسْتِسلامُ، وكلُّ سُجودٍ ذُكِرَ في القرآنِ، وأُريدَ بهِ عَينُ السُّجودِ، فَلَيسَ يَجِبُ بِتِلاوَتِهِ السجودُ. وكلُّ ما أُريدَ بهِ الاِسْتِسلامُ والخضوعُ فهو الذي يَجِبُ بِتِلاوَتِهِ السُّجودُ.

ثم إنْ ذُكِرَ في أهلِ الكُفْرِ فإنما يُرادُ منهمُ الاِسْتِسْلامُ بالاِعْتِقادِ ليسَ بِعَينِ الفِعْلِ.

وأهلُ الإسلامِ قد وُجِدَ منهمُ الاِسْتِسْلامُ بالاِعْتِقادِ، فَيَلْزَمُهُمْ أنْ يَسْتَسْلِموا مِنْ جِهَةِ الفِعْلِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ هذا لَمّا عايَنَ الشَّدائدَ والأفزاعَ، اسْتَسْلَمَ للهِ تعالى، وخضَعَ لهُ، فلم يَقْبَلْ ذلكَ منهُ، لأنَّ تلكَ الدارَ دارُ جَزاءٍ وليسَتْ بدارِ مِحْنةٍ.

والثاني: أنَّ السُّجودَ، هو بَذْلُ النفسِ لِما طُلِبَ منهُ طائعاً. وإذا أشْرَفَ المرءُ على الموتِ طُلِبَ منهُ في ذلكَ الوقتِ بَذْلُ روحِهِ لِما يُعْلَمُ أنَّ مَصيرَهُ إذا قُبِضَ إلى العذابِ كما قالَ ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ، ومَنْ أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقاءَهُ» [البخاري: ٦٥٠٧ و٦٥٠٨].

فَسُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ، عنْ ذلكَ، فقالَ: ذلكَ عندَ الموتَ، فهو لِما يَرى مِنَ المَكْروهِ [الذي][5] يَحُلُّ بهِ بَعْدَ الموتِ يَكْرَهُ قَبْضَ روحِهِ.

فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إنْ كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ عندَ الموتِ على ذلكَ.

والمؤمِنُ إذا رَأى ما أُعِدَّ لهُ مِنَ الكَراماتِ وَدَّ لو تُقْبَضُ رُوحُهُ سريعاً لِيَصِلَ إلى الكَراماتِ.

وإنْ كانَ هذا بعدَ البعثِ، ،وأُريدَ مِنَ السُّجودِ تَحقيقُهُ، ففيهِ تذكيرٌ لهمْ أنهمْ لم يكونوا يُمْتَحَنونَ في الدنيا بالسُّجودِ لِمَنْفَعةٍ، تَصِلُ إلى اللهِ تعالى، أو لِحاجةٍ لهُ إلى ذلكَ، وإنما امْتُحِنوا بالسُّجودِ لِمكانِ أنفسِهِمْ؛ إذْ لو كانَ الاِمْتِحانُ لِمَنْفَعةٍ، يَنالُها[6] اللهُ تعالى لَما كانوا يُمْنَعونَ عنهُ في القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: يؤمر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ينال.

وقال كثيرٌ من أهلِ الكلامِ: لا يجوزُ أنْ يَمْتَحِنَهُمْ اللهُ تعالى بعدَ البعثِ بالسُّجودِ، إذْ تلكَ الدارُ ليسَتْ بدارِ مِحْنةٍ، وإنما الأمْرُ بالسُّجودِ يُخرَّجُ مُخرَّجَ التوبيخِ.

وكذلكَ زعَمَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ أنَّ هذا على التَّوبيخِ، يُقالُ للرجلِ إذا كانَ مُكْثِراً، فَذَهَبَ مالُهُ، ولم يُؤدِّ الزكاةَ [ولم يَحُجَّ في حالِ يُسْرٍ][1] حُجَّ [وابْذُلِ الآنَ. وذاكَ][2] الآنَ، ليسَ يُرادُ به أنْ أوجِدِ الفِعْلَ، ولكنْ يُرادُ بهِ تذكيرُهُ وتوبيخُهُ. فهذا الذي قالوهُ مُحتمَلٌ.

ويُحتَمَلُ أنْ يُمتَحَنوا بالسجودِ للوجوهِ التي ذَكَرْنا، وهو أن يَظْهَرَ عندَ المُمْتَحَنينَ أنَّ مَنافعَ سُجودِهِمْ راجعةٌ إليهِمْ لا إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ للأشغالِ التي حَلَّتْ بهِمْ والأفزاعِ التي ابْتُلوا[3] بها.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ ففيهِ أنَّ الفرائضَ إنما تَجِبُ عندَ سلامةِ الأسبابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الحديثُ، هو القرآنُ، وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ البعثُ، وهو الغالبُ أنْ يكونَ، هو المُرادُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالَ القُتَبيُّ: الاِسْتِدْراجُ، هو الأدْنى مِنَ المَهْلَكَةِ دَرَجةً فَدَرَجةً حتى يَهْلِكَ. وقيلَ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي نُنْعِمُ عليهِمْ، ونُنْسيهِمْ شُكْرَها بالإملاءِ، ونُنْزِلُ بهِمُ العذابَ والهلاكَ أمْرٌ ما كانَ[4].

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ والأصل أنَّ الكيدَ والمَكْرَ والاِسْتِدراجَ، يَقْتَضي مَعْنىً واحداً، وهو أنْ يأخُذَ مِنْ وجهِ أمْنِهِ، ويُراقِبَ وُجوهَ هَلاكِهِ، وهو يُسْتَعْمَلُ في الخَلْقِ على وجهٍ يُذَمُّ أهْلُهُ.

فهو يُضافُ إلى اللهِ تعالى، ليسَ على جَعْلِ ذلكَ اسْماً لَهُ، إذْ لا يجوزُ لهُ أنْ يُسَمّى ماكراً كايِداً مُسْتَدرِجاً، وإنما يُضافُ إليهِ في حقِّ الجزاءِ باسْمِ مالَهُ الجَزاءُ كما يُسَمّى جَزاءُ السَّيِّئةِ سَيِّئةً، وإنْ لم يَكُنِ الجَزاءُ سَيِّئةً وكما سُمِّيَ جَزاءُ الاِعتِداءِ اعْتِداءً، فكذلكَ سُمِّيَ جَزاءُ الكَيدِ كَيداً على هذا المَعْنى، لا أنْ يكونَ ذلكَ منهُ كيداً في الحقيقةِ.

أو يقولُ: إنَّ الذَّمَّ إنما يَلْحَقُ الماكرَ والكايِدَ إذا اسْتَعْمَلَهُ في وَلِيِّهِ وصَفِيِّهِ. فأمّا إذا مَكَرَ بِعَدُوِّهِ، وكادَ بهِ، فذلكَ ممّا لا بأسَ بهِ، ولا يُذَمُّ عليهِ فاعلُهُ.

وما أُضيفَ مِنَ الكَيدِ إلى اللهِ تعالى فذلكَ حالٌ بأعدائِهِ ليسَ بأوليائِهِ، فلم يَكُنْ فيهِ إلحاقُ مَعْنًى مَكْروهٍ باللهِ تعالى.

ثم الأصلُ أنْ يُنْظَرَ في الفِعْلِ لِماذا؟ أأُضيفَ إلى اللهِ تعالى بِحَقيقةٍ أم بِمَجازٍ؟

فإنْ كانَتِ الإضافةُ بحقِّ المَجازِ فلا يُجْعَلُ ذلكَ اسْماً لهُ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: هو كاتبٌ نافخُ روحٍ، ولا كائدٌ، ولا ماكرٌ، إذْ لا يَتَحقَّقُ ذلكَ منهُ.

وما كانَتْ إضافتُهُ لأجلِ التَّحقيقِ فإنهُ يَسْتَقيمُ أنْ يُسَمّى بهِ، لأنهُ يَسْتَقيمُ أنْ نُسَمِّيَهُ مُنْعِماً مُفْضِلاً خالقاً رَحْماناً، إذِ الإنعامُ والإفضالُ في الخَلْقِ موجودٌ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَتِينٌ﴾ أي قَوِيٌّ ثابتٌ. فقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي كَيدي لِأوليائي على أعدائي ثابتٌ، ليسَ كَكَيدِ الأعداءِ، لأنَّ كَيدَ الأعداءِ بِكَيدِ الشيطانِ، وكَيدَ ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والأصلُ أنَّ الكَيدَ الذي أُضيفَ إلى اللهِ تعالى حقٌّ، والحقُّ قويٌّ ثابتٌ، لا مَدْفَعَ لهُ، وكَيدَ الشيطانِ باطلٌ، وليسَ للباطلِ قَرارٌ، بل هو كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

---

(١) في م: يحج في حال يسر.، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وزل.، في م وزل.. (٣) في الأصل وم: ابتلى.
(٤) في الأصل وم: كانوا.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ الأصلُ أنَّ الرسلَ ﷺ لم يكونوا يَدعُونَ الخَلْقَ إلى ما يَستَثْقِلُهُ عَقلٌ أو طَبْعٌ، بل كانوا يَدْعونَ إلى ما يَخِفُّ، ويَسْهُلُ على الطَّبْعِ والعَقْلِ الإجابةُ لهُ لأنهمْ يدعونَهُمْ إلى التوحيدِ، وهُمْ كانوا يَعْبُدونَ غَيرَ واحدٍ مِنَ الآلهةِ وعبادةُ الواحدِ أيْسَرُ مِنْ عِبادةِ عَدَدٍ، وكانوا يدعونَهُمْ إلى الصِّدْقِ وإلى مكارمِ الأخلاقِ [والإجابةُ][1] بِمِثْلِهِ أمْرٌ يَسيرٌ. فيقولُ: أحَمَلْتَ عليهمْ ذلكَ حتى تَرَكوا الإجابة مع تَيسيرِهِ عليهمْ، فَيَخْرُجُ ذِكْرُ هذا مُخْرَجَ تَسْفيهِ أحلامِهِمْ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحَدُها: أنّ عندَهُمْ عِلْمَ الغَيبِ بالذي[2] ادَّعَوا أنّا نَجْعَلُ المُسْلِمينَ كالمُجْرِمينَ؛ وذلكَ مكتوبٌ عندَهُمْ، أو عندَ سَلَفِهِمْ عِلْمَ الغَيبِ، فَوَجَدوهُ في كُتُبِهِمْ، ويَعْلَمُ بهِ خَلَفُهُمْ، فَيُخاصِمونكَ بهِ.

[والثاني][3]: هِمْ قومٌ لم يكونوا يُؤمنونَ بالكتبِ ولا بالرسلِ، فكيفَ يُخاصِمونَكَ، ويُكَذِّبونَكَ في ما تُخْبِرُهُمْ، وإنما يُوصَلُ إلى التكذيبِ بما يَثْبُتُ مِنَ العِلْمِ بِخِلافِهِ، ويَتَأيَّدُ بأحَدِ الوجْهَينِ اللَّذينَ ذَكَرْناهما.

[والثالثُ][4] يكونُ هذا في مَوضعِ الاِحْتِجاجِ عليهمْ حينَ زَعموا أنّا نَعْبُدُ الأصنامَ ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويكونوا لنا شُفَعاءَ.

فما الذي حَمَلَهُمْ على هذهِ[5] الدَّعْوى؟/ ٥٨٩ ـ ب/ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

[والرابع][6]: أنْ يكونَ القومُ قد ألْزَموا أنفسَهُمُ الدُّنْيويَّةَ بِدينِ اللهِ، وأقَرّوا لهُ بالألوهِيَّةِ، وذلكَ يُلْزِمُهُمُ العَمَلَ بما فيهِ تَبجيلُ اللهِ تعالى وما بهِ يَشْكُرُ الخَلائقُ، وذلكَ لا يُعْرَفُ إلّا بالرُّسلِ ﷺ فقد عَرَفوا حاجةَ أنفسِهِمْ إلى مَنْ يُعَلِّمُهُمْ عِلْمَ الغَيبِ. فما لَهُمُ امْتَنعوا عنِ الإجابةِ لرسولِ اللهِ ﷺ مع حاجتِهِمْ إليهِ؟ أمْ[7] عندَهُمْ عِلْمُ الغيبِ، فَيَسْتَغْنونَ بهِ عنِ الرسولِ ﷺ؟

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إنَّ حِكمَ اللهِ تعالى في الرسلِ ثَلاثٌ:

أحَدُها: ألّا يَدْعُوا على قومِهِمْ بالهَلاكِ، وإنِ اشْتَدَّ أذاهُمْ مِنْ ناحِيَتِهِمْ حتى يُؤْذَنَ لهمْ.

والثاني: ألّا يُفارقوا قومَهُمْ، وإنِ اشْتَدَّ بهمُ البلاءُ، إلّا بإذنٍ مِنَ اللهِ تعالى.

والثالثُ: ألّا يُقَصِّروا في التَّبْليغِ، وإنْ خافوا على أنفسِهِمْ.

ثم وراءَ هذا عليهمْ أمْرانِ:

أحَدُهما: أُمِروا ألّا يَغْضَبوا إلا لِلّهِ تعالى.

والثاني: ألّا يَحْزَنوا لِمكانِ أنفُسِهِم إذا آذاهُمْ قومُهُمْ، بل يَحْزَنوا لِمكانِ أولئكَ القومِ إشفاقاً عليهمْ منهُ ورَحْمَةً بِما يَحُلُّ مِنَ العَذابِ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ فهذا هو حُكْمُ ربِّهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لا تُجازِهِمْ بِصَنيعِهِمْ، وتَسْتَعْجِلْ[8] عليهمْ، بلِ اصْبِرْ لِحُكْمِ ربكَ بما حَكَمَ عليهمْ مِنَ العذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: ما][9] قيلَ: نادَى على قومِهِ بالدعاءِ عليهِمْ بالهلاكِ. لكنهُ لم يَظْهَرْ دعاؤُهُ على قومِهِ عندَنا، وإنما ظَهَرَتْ منهُ المُفارقةُ والمُغاضَبَةُ على قومِهِ بقولِهِ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] ولم يَكُنْ لهُ أنْ يُفارِقَهُمْ، فيقولُ: اصْبِرْ بما حَكَمَ عليكَ ربُّكَ مِنْ تَرْكِ المُفارقةِ عنْ قومِكَ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ الذي فارَقَ قومَهُ قَبْلَ مَجيءِ الإذْنِ لهُ مِنَ اللهِ تعالى.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل بالدعاء. (٣) في الأصل وم: ثم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: هذا. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: إنما. (٨) في الأصل وم: واستعمل. (٩) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنَّ يونُسَ ﷺ لم يَصْبِرْ على أذى قومِهِ، بل فارَقَهُمْ حتى ابْتُلِيَ بِبَطْنِ الحوتِ، ثم فَزِعَ بالدعاءِ إلى اللهِ تعالى لِيُخَلِّصَهُ مِنْ بَطْنِهِ.

فيقولُ: عليكَ الصَّبْرَ معَ قومِكَ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ حينَ[1] لم يَصْبِرْ مع قومِهِ، فابْتُلِيَ بِما ذَكَرَ حتى احْتاجَ إلى أنْ يُنادِيَ ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فَتُبْتَلى أنتَ أيضاً بِمِثْلِ ما ابْتُلِيَ هو بِهِ.

ثم لا يَجوزُ أنْ تَلْحَقَهُ اللائمةُ، ويُعاتَبَ على ما دَعا في بَطْنِ الحوتِ، لأنَّ ذلكَ عذابٌ ابْتُلِيَ بِهِ، ولا يَنْبَغي للمرءِ أنْ يَصْبِرَ على العذابِ بل عليهِ أنْ يَبْتَهِلَ إلى اللهِ تعالى لِيَكْشِفَ عنهُ.

وإنما لِحَقَتْهُ اللائمةُ بِمُفارَقَتِهِ قومَهُ ولِتَرْكِهِ الصَّبْرَ معهمْ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ نِعْمَةٌ مِنْ ربِّكَ هي[2] ما وَفَّقَهُ لِلتَّوبةِ والإنابةِ وما قَبِلَ منهُ تَوبَتَهُ، وكانَ لهُ ألّا يَقْبَلَها؛ إذْ هو إنما أتَى ربَّهُ بالتَّوبةِ بعد أنْ صارَ إلى تلكَ المَضائقِ، وابْتُلِيَ بالشدائدِ، وجاءَهُ بأسُ اللهِ.

ومِنْ حِكَمِهِ أنهُ لا يَقْبَلُ التوبَةَ بعدَ نُزولِ العذابِ والشِّدَّةِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾؟ [غافر: ٨٤ و٨٥] فإذا قَبِلَ توبَتَهُ كانَ فيهِ عظيمُ نِعْمةٍ مِنَ اللهِ تعالى عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ هو المكانُ الخالي. فلو لم يَتُبْ إلى اللهِ تعالى لَكانَ يَلْبَثُ ﴿فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤].

ثم نُبِذَ بَعد ذلكَ ﴿بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لكنَّ الله تعالى تَفَضَّلَ عليهِ بِقَبولِ توبَتِهِ ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] مُحْمومٌ.

فقولُهُ تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لو عاقَبَهُ بالنَّبْذِ. ولكنْ إنما نُبِذَ بالعَراءِ بَعْدَ قَبولِ التوبةِ، فلم يَصِرْ مَذْموماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فَنِعْمتُهُ عليهِ كانَتْ مِنْ ثلاثةِ أوجُهٍ:

أحَدُها: في تَذكيرِ الزَّلَّةِ، وذلكَ كانَ بالْتِقامِ الحوتِ إيّاهُ، وكانَ عندَهُ مُفارَقَتُهُ قومَهُ لم تَكُنْ زلَّةً، لأنهُ إنما فارَقَهُمْ لأنَّ قومَهُ كانوا[3] لهُ أعداءً في الدينِ، فَفارَقَهُمْ لِيَنْجُوَ منهمْ، ولِيَسْلَمَ لهُ دينُهُ، ولا يَسْمَعَ المَكْروهَ في اللهِ تعالى.

والثاني: أنَّ في مُفارَقَتِهِ إيّاهُمْ [تَخويفاً منهُ][4] لهمْ وتَهْويلاً[5] لأنَّ القومَ كانَ لا يُفارِقُهُمْ نَبِيُّهُمْ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ إلّا عندَما يريدُ [اللهُ][6] أنْ يُنْزِلَ بهمُ العذابَ، وذلكَ ممّا يَدعوهُمْ إلى الانْقِلاعِ عمّا هُمْ فيهِ، ويَدْعوهُمْ إلى الفَزَعِ إلى اللهِ تعالى.

[والثالثُ][7]: مَنْ خَوَّفَ آخَرَ بأمْرٍ، فيكونُ فيهِ دُعاؤهُ إلى الهُدَى، كانَ مَحْموداً مُصيباً.

ولأنَّ مفارَقَتَهُ إياهُمْ هي التي دَعَتْهُمْ إلى الإسلامِ، فأسْلَموا، قالَ[8]: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ومَنْ كانَتْ مُفارَقَتُهُ لهذهِ الأوجهِ التي ذَكَرْنا لم تُعَدَّ مُفارَقَتُهُ زَلَّةً، بل عُدَّتْ مِنْ أفْضَلِ شمائِلِهِ ولكنْ لَحِقَتْهُ اللائمةُ معَ هذا كلِّهِ لِما ذَكَرْنا أنَّ الرسُلَ لا يَسَعُهُمْ أنْ يُفارِقوا قومَهُمْ، وإنِ اشْتَدَّ عليهمُ الأذَى مِنْ جِهَتِهِمْ إلّا بَعدَ وجودِ الإذْنِ مِنَ اللهِ تعالى، وكانَتْ مُفارَقَتُهُ تلكَ بِغَيرِ إذْنٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم كانَ في ظَنِّهِ أنْ ليسَتْ تلكَ المفارَقةُ زلَّةً. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؟ [الأنبياء: ٨٧] قيلَ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) أدرج قبلها في الأصل: ما. (٤) في الأصل وم: تخويف منهم. (٥) في الأصل وم: وتهويل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: لقوله.

في التأويلِ: أنْ لنْ نُضَيِّقَ عليهِ. وقيلَ: أنْ لنْ نُعاقِبَهُ. فلولا أنَّ عندَهُ أنَّ تلكَ المُفارقةَ ليسَتْ بزلَّةٍ، وإلّا كانَ لا يَظُنُّ، فَتَبيَّنَ عندَهُ بالتِقامِ الحوتِ إيّاهُ وبما أفْضَى إليهِ منَ الشدائدِ أنَّ تلكَ زلَّةٌ منهُ. وتَذْكيرُ الزَّلَّةِ مِنْ إحْدَى النِّعَمِ.

والنِّعمةُ الثانيةُ والثالثةُ: ما ذَكَرْناهما مِنْ تَوفيقِ اللهِ تعالى إيّاهُ بالتوبةِ وإكرامِهِ عليهِ بِقَبولِها. ومِنْ حِكَمِهِ ألّا يَقْبَلَ التوبةَ مِمَّنْ جاءَهُ بأسُ اللهِ، وأحاطَ بهِ العذابُ، وهو إنما فَزِعَ إلى التوبةِ بَعْدَ ما عايَنَ العذابَ، وجاءَهُ بأسُ اللهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ حُكْمُهُ هذا في الكَفَرةِ، ليسَ في المؤمنينَ، لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾. [الأنعام: ١٥٨] ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ سَبَقَ منهُ الإيمانُ قَبْلَ أنْ تأتِيَهُ آياتُ ربِّهِ، أو سَبَقَ منهُ كَسْبُ الخيرِ مِنْ بَعْدِ الإيمانِ فإنَّ إيمانَهُ في ذلكَ الوقتِ يَنْفَعُهُ، وقالَ في أهلِ الكُفْرِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر: ٨٤و ٨٥]، فهذا حُكْمُهُ في أهلِ الشِّرْكِ وقولُهُ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وقالَ في المؤمنينَ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]. فَثَبَتَ أنَّ ما ذَكَرْنا مِنَ الحُكْمِ هو حُكْمُهُ في أهلِ الكُفْرِ ليسَ في أهلِ الإيمانِ. والعقلُ يَدُلُّ على هذا. وذلكَ أنَّ المؤمنَ قد عَلِمَ أنَّ الذي سَبَقَ منهُ زَلَّةٌ وارْتِكابُ مَعْصِيةٍ، فهو ليسَ يَحْتاجُ على إثباتِ آياتٍ، فَيَتَنَبَّهَ على أنَّ الذي فَعَلَهُ زَلَّةٌ. فجائزٌ أنْ تُقْبَلَ منهُ التوبةُ في ذلكَ الوقتِ كما تُقْبَلُ منهُ [قَبْلَ][1] تلكَ الحالةِ.

وأمّا الكافرُ فَعِنْدَهُ أنَّ ما سَبَقَ منهُ لم يكُنْ زلَّةً ومَعْصِيَةً، فَيَحْتاجُ إلى آياتٍ تُنَبِّهُهُ [إلى الرجوعِ][2] عَنْ غَفْلَتِهِ، وتُذَكِّرُهُ أنَّ الذي فَعَلَهُ مَعْصيةٌ، فأُنْزِلَ بهِ البأساءُ والشِّدَّةُ. فذلكَ يَمْنَعُهُ عنِ [النَّظَرِ][3] والتَّدَبُّرِ، فلا يكونُ إيمانُهُ عَنْ تَحقُّقٍ ويَقينٍ، فلا يَنْفَعُهُ.

[وأمّا المؤمنُ فإنهُ][4] يَفْزَعُ إلى التوبةِ والإيمانِ ليدفعَ عنْ نفسِهِ البأساءَ، لا لِيَدومَ عليهِ لو كُشِفَ عنهُ العذابُ كما قالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] فلهذا لا يَنْفَعُهُ إيمانُهُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ قومَ يونُسَ ﷺ / ٥٩٠ ـ أ/ قد نَفَعَهُمْ إيمانُهُمْ، وهُمْ آمَنوا بَعْدَ ما أيْقَنوا بالعذابِ فَجوابُهُ مِنْ [وجوهٍ: أحَدُها:][5] أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ عذابُهُمْ مَوعوداً، ولم يَكُنْ مُشاهَداً مَرْئِيّاً.

[والثاني:][6] جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ عَلِمَ صِدْقَهُمْ في إيمانِهِمْ، لو مَكَّنوا، فَكَشَفَ عنهمُ العذابَ لِما كانوا مُتَحقِّقينَ، وغَيرُهُمْ كانَ يَفْزَعُ إلى الإيمانِ لِيَكْشِفَ عنهُ العذابَ، ثم يَعودُ إلى كُفْرِهِ، فلم يُقْبَلْ منهُ.

[والثالثُ][7]: جائزٌ أنْ يكونَ مِنْ حِكَمِ اللهِ تعالى ألّا يَقْبَلَ مِنْ أحدٍ التوبةَ إذا حلَّ بهِ العذابُ، ولكنهُ يَقْبَلُها مِنَ المؤمنينَ إفضالاً وإنعاماً، ولا يَتَفَضَّلُ على الكافرينَ الذينَ آثَروا الدنيا على الدينِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: ليسَتْ للهِ تعالى [على العبدِ][8] نِعْمةٌ، ولا على أحدٍ منْ أهلِ الإسلامِ، لأنَّ مِنْ قولِهِمْ:

إنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ مِنْ كافرٍ أنهُ يُسْلِمُ يوماً مِنَ الدَّهْرِ، وإنْ كانَ بَعْدَ ألفِ سنةٍ، فليسَ لهُ أنْ يُميتَهُ قَبْلَ أنْ يُسْلِمَ، وعليهِ أنْ يُوَفِّقَهُ للتوبةِ، وعليهِ أنْ يَقْبَلَ منهُ التوبةَ.

فإذا كانَ هذا كلُّهُ حقّاً عليهِ للعبدِ لم يكُنْ لهُ مَوضِعُ نِعْمةٍ عليهِ في قَبولِ التوبةِ، لأنَّ مَنْ قَضَى حَقّاً عليهِ، وأوصلَهُ إلى حقِّهِ، لم يُعَدَّ ذلكَ منهُ إنعاماً، فلا يكونُ لقولِهِ: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مَعْنىً، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] ولو كانتِ الهِدايةُ واجبةً عليهِ لم يكُنْ لهُ عليهِمْ مَوضعُ امْتِنانٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والثاني أنه. (٥) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اختارَهُ، واصطفاهُ للرسالةِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾؟ [الصافات: ١٤٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فهذا وَصْفُ كلِّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ في الآخِرَةِ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: هذا على التَّحقيقِ، وصَرْفُ ذلكَ إلى قومٍ بأعيانهمْ قد عُرِفوا بِخُبْثِ الأعينُ وحلولِ الآفاتِ بِمَنْ يَعينونَهُ[1] مِنْ أهلِ الشَّرَفِ والتَّبجيلِ.

ثم اللهُ تعالى بِفَضْلِهِ عَصَمَ رسولَهُ ﷺ فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ أنْ يَعينوهُ، فكانَ فيهِ تَقريرُ رسالتِهِ وآيةُ نُبُوَّتِهِ عندَ أولئكَ الكَفَرَةِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنهمْ كانوا يَعُدُّونَ رسولَ اللهِ ﷺ مِنَ المجانينِ، ويقولونَ: إنهُ لَمَجْنونٌ، والمَجْنونُ لا يُعانُ، وإنما يُعانُ أهلُ الشَّرَفِ والحِجَى وذَوُو الأحلامِ والنُّهَى، فما أنْكَرْتَ أنهُ سَلِمَ مِنَ الآفاتِ حتى يُقْصَدَ إليهِ بالعينِ.

فجوابُهُ أنهمْ وإنْ كانوا يَعُدُّونَهُ منْ جُمْلةِ المجانينِ فإنهمْ سَمِعوا منهُ ذِكْراً عَجَباً، وهو القرآنُ. ومَنْ أُعطِيَ مِثْلُ ذلكَ الذِّكْرِ والشَّرَفِ فهو مما يُقْصَدُ إليهِ بالحسدِ، فكانوا يَعينونَهُ لِذلكَ المَعْنَى. ثم لم يَضُرُّهُ كَيدُهُمْ، ولا نَفَذَتْ فيهِ حِيَلُهُمْ، فأوجَبَ فيهِ ذلكَ: يُنَبِّئُهُمْ أنهُ رسولٌ مِنَ اللهِ تعالى.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على التَّمْثيلِ لا على التَّحْقيقِ، فيقولُ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لِشِدَّةِ بُغْضِهِمْ وعداوَتِهِمْ إياكَ ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ كما يُقالُ: نَظَرَ إليَّ فلانٌ نَظَراً، وكادَ يَقْتُلُني، فيقولُهُ على التمثيلِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ أي يُسْقِطونَكَ، ويَصْرَعونَكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ وهو القرآنُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ قد وصَفْنا أنهمْ لأيِّ مَعْنىً كانوا يَنْسُبونَهُ إلى الجنونِ، وذَكَرْنا ما يُرَدُّ عليهمْ، ويَنْفي عنهمُ الرَّيْبَ والإشكالَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ، هو القرآنُ، وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ إذْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُما جميعاً، إذْ كلُّ واحدٍ منهما ذُكِرَ بِذِكْرِ ما لِلْخَلْقِ وما على الخَلْقِ، وما تَنْتَهي إليهِ عُواقِبُهُمْ، وبِذِكْرِ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: يعينه.

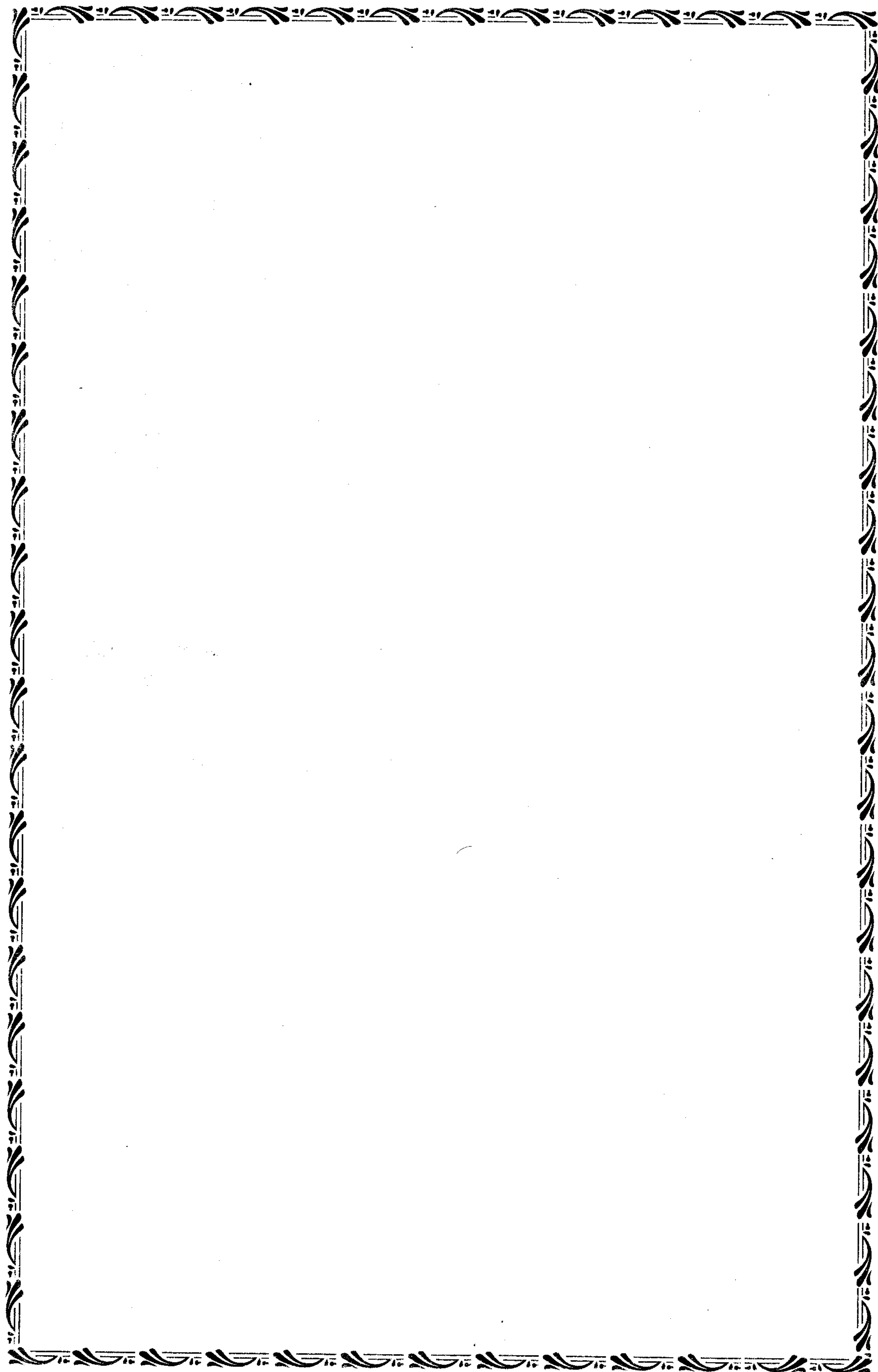

سورة الحاقة

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ قد ذكَرْنا أنَّ يومَ القيامةِ سُمِّيَ بأسماءِ النَّوازِلِ التي تكونُ مِنَ البَلايا والشَّدائدِ لِيَقَعَ بها التَّخويفُ والتَّهويلُ، وليسَ في تَبْيينِ وقتِهِ ولا في ذِكْرِ عينِهِ تَرْهيبٌ ولا تَرْغيبٌ.

فَذِكْرُ ذلكَ اليومِ بالأسبابِ التي هي أسبابُ الزَّجْرِ والرَّدْعِ: فقولُهُ تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ أي حَقَّتْ لكلِّ عاملٍ عَمَلَهُ، ويَحِقُّ لكلِّ ذي حقٍّ حَقُّهُ؛ فإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ اسْتَوْجَبَها، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ دَخَلَها.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ هي النازلةُ التي لا تُرْفَعُ أبداً، وهي[2] ما يَنْزِلُ بالخَلْقِ مِنَ الجزاءِ وأنواعِ ما وُعِدوا بهِ يومَ القيامةِ. وقيلَ: هي الواجبةُ مِثْلُ قولِهِ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ [هود: ٨] أي وَجَبَ، ونَزَلَ بهِمْ.

والأصلُ أنَّ القيامةَ. سُمِّيَتْ بالأحوالِ التي يُبْتَلَى الخَلْقُ بها مِنْ نحوِ: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١] و: ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] و: ﴿التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]و: ﴿الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣] ونَحْوِ ذلكَ مِمّا جاءَ في القرآنِ أُخِذَتْ أسماؤُها مِنْ أحوالِ ما يُبْتَلَى الخَلْقُ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ فهو تَعْظيمُ أمرِ ذلكَ اليومِ كما يُقالُ: فُلانٌ، ما فُلانٌ؟ إذا وُصِفَ بالغايةِ في القوةِ والسَّخاوَةِ أو نَحْوِهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ فهو تَعْظيمُ أمْرِ ذلكَ اليومِ أيضاً، أو ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ أي لم تَكُنْ تَدْري، فأدراكَ اللهُ تعالى، لأنهُ لم يكُنْ خَبَرُ القيامةِ [في][3] عِلْمِكَ ولا عِلْمِ قومِكَ. لكنَّ اللهَ تعالى أطْلَعَكَ عليهِ لأنَّ قومَكَ[4] كانوا مُنْكِري البعثِ، ولم يكُنْ عندَهُمْ مِنْ خَبَرِهِ شيءٌ؛ ذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ لمّا ذَكَرَ لهمْ مِنْ دلائلِ البعثِ التي حُجَجُهُ تُدْرِكُها العقولُ والحِكْمةُ مِنْ إحالةِ التَّسْوِيَةِ بينَ الفاجِرِ والبَرِّ والمُطيعِ والعاصي، وأنهُ لا يجوزُ كونُ هذا العالمِ عَبَثاً باطلاً، والدلائلِ الأُخَرِ التي لا يأتي عليها الإحصاءُ، فلمّا لم يُقْنِعْهُمْ ذلكَ، ولم يَتَفَكَّروا في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، ولا اعْتَبَروا بالآياتِ، احْتَجَّ عليهِمْ بما لَقِيَ مِنْ سَلَفِهِمْ مِنْ مُكَذِّبي البعثِ ومُنْكِري الرسلِ حينَ[5] اسْتَأْصَلَهُمْ، فلم يَبْقَ منهم سَلَفٌ ولا خَلَفَ عنهمْ خَلَفٌ ليكونَ ذلكَ أبْلَغَ في الإنذارِ:

الآية ٤ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ذَكَّرَهُمْ بما حَلَّ بِثَمودَ وعادٍ وما أصابَهُمْ بِتَكْذيبِهِمُ الرسلَ.

يقولُ: سَيُصيبُكُمْ بِتَكذيبِكُمْ محمداً ﷺ في ما يُخبِرُكُمْ مِنَ الأنباءِ عنِ اللهِ تعالى كما أصابَ[6] ثموداً وعاداً بِتَكذيبِهِمْ رُسُلَهُمْ، لِيَنْتَهوا عنْ تكذيبِهِ.

أو يُخْبِرُهُمْ أنَّ ثموداً وعاداً كَذَّبوا رسُلَهُمْ حتى صاروا إلى الهلاكِ، فَنَدِموا[7] على ما سَبَقَ مِنْ تكذيبِهِمْ، فَسَتَنْدَمونَ أيضاً إنْ دُمْتُمْ على تكذيبِكُمْ محمداً ﷺ في ما يأتيكُمْ مِنَ الأنباءِ بَعْدَ / ٥٩٠ ـ ب/ موتِكُمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: و هو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قومه. (٥) في الأصلِ وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: يصيبهم ما. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم.

ثم ذَكَرَ لهمْ نبأَ عادٍ وثمودَ وما [1] كانوا مُكَذِّبينَ بتلكَ الأنباءِ لِئَلا يَبْقى لهمْ يومَ القيامةِ حُجَّةٌ، فيقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولأنهمْ لو بَحثوا عنْ عِلْمِ ذلكَ لكانَتْ هذهِ الآياتُ والأنباءُ تُحقِّقُ لهمْ ذلكَ. فقد وَقَعَتْ هذهِ الآياتُ مَوقِعَ الحِجاجِ؛ لولا إغفالُهُمْ وإعراضُهُمْ عنها، فانْقَطَعَ عُذْرُهُمْ، ولَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ لِأنَّ [2] تركُوا الإيمانَ بها.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ [القارعة: ١ و٢ و٣] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا مُخاطبةَ كلِّ مُكَذِّبٍ بالبَعْثِ، لا مُخاطبةَ الرسولِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ [الإنفطار: ٦] الذي إنهُ خِطابٌ لِمَنْ يَغترُّ بالدنيا لا لِرسولِ الله ﷺ تعالى، وجائزٌ أنْ يكونَ يُخاطِبُ بهِ رسولَه ﷺ، فإنْ صُرِفَ الخطابُ إلى رسولِ الله ﷺ اقْتَضى مَعْنًى غيرَ ما يَقْتَضيهِ لو أُريدَ بالخِطابِ المُكَذِّبونَ.

والأصلُ أنَّ قولَ القائلِ: فلانٌ وما فلانٌ؟ يُوجِبُ اجْتِذابَ الأسماعِ، ويَسْتَدْعي السامعَ لِلْبَحْثِ في الشاهِدِ، لأنهُ إنما يُذْكَرُ فلانٌ بهذا لِأعجوبةٍ فيهِ أو لِعِظَمِ أمْرِهِ، فيَسْتَبْحِثُ عنْ ذلكَ لِيوقِعَهُ على تلكَ الأعجوبةِ التي فيهِ.

فإنْ كانَ الخِطابُ لِلْمُكَذِّبينَ دعاهُمْ ذلكَ إلى تَعَرُّفِ ما فيهِ مِنَ الأعجوبةِ والتَّعظيمِ. وفي قولِهِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مُبالغةٌ في التَّعَجُّبِ، وإذا نَظروا فيهِ، وفَهِموهُ، دَعاهُمْ ذلكَ إلى الإيمانِ بهِ، فصارَتِ الآيةُ في مَوضِعِ الإغراءِ واجْتِذابِ الأسماعِ.

وإنْ كانَ الخِطابُ في رسولِ الله ﷺ، فتأويلُهُ أنَّ المُكَذِّبينَ يُؤذونَهُ، ويَمْكُرونَ بهِ، فَيَتَأذّى بهِمْ، ويَشْتَدُّ ذلكَ عليهِ، فَذَكَرَ ما يَنْزِلُ بهمْ مِنَ العذابِ، ويَحِقُّ عليهِمْ، فيكونُ فيهِ بعضُ التَّسَلّي عمّا أصابَهُ [مِنَ] [3] الأذى مِنْ ناحِيَتِهِمْ، أو ذَكَرَهُ، أنَّ العذابَ يَحِقُّ عليهِمْ، فلا يَحْزَنُ بصنيعِهِمْ، بل يَحْمِلُهُ ذلكَ على الشَّفَقَةِ عليهِمْ والرحمةِ لهمْ.

وقيلَ: إنْ كانَ الخِطابُ في المُكَذِّبينَ ففيهِ تَخويفٌ لأهلِ مكةَ وتَهويلٌ أنهمْ إنْ كَذَّبوا رسولَهُمْ في ما يُخْبِرُهُمْ مِنْ أمْرِ البعثِ نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ ما نَزَلَ بِعادٍ وثَمودَ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ، وقد عَرَفَ أهلُ مكةَ ما نَزَلَ بأولئكَ.

وإنْ كانَ الخِطابُ في رسولِ الله ﷺ ففي ذِكْرِ نَبَإِ عادٍ وثَمودَ ما يَدْعوهُ إلى الصَّبْرِ على أذاهُمْ، ويكونُ لهُ بعضُ التَّسَلّي [بأنهُ يُخبِرُهُ] [4] أنكَ لستَ بأوّلِ رسولٍ كُذِّبَ، بل شَرِكَكَ الرسلُ مِنْ قَبْلُ، وابْتُلوا بالتكذيبِ.

الآيتان ٥ و٦ ثم بَيَّنَ ما نَزَلَ بعادٍ وثمودَ بالتكذيبِ بالقارعةِ، وهو قولُهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾] [5] فالطاغِيَةُ والعاتيةُ والرابيةُ [الآية: ١٠] يُمْكِنُ أنْ تَجْعَلَ هذا كلَّهُ صفةً للعذابِ الذي نزلَ بهمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ صِفَةَ الأحوالِ التي سَبَقَتْ منهمْ، وكانوا عليها. فإنْ كانَ هذا صِفَةَ العذابِ فالطُّغيانُ عبارةٌ عنِ الشِّدَّةِ، والطاغي، هو العاتي الشَّديدُ، لا يُراقِبُ، ولا يَتَّقي. فَوَصفَ العذابَ الذي أرسَلَهُ عليهمْ أنهُ لم يُبْقِ منهمْ أحداً، بلِ اسْتَأْصَلَهُمْ، وأهْلَكَهُمْ بِجُملَتِهِمْ.

وقيلَ: ذلكَ العذابُ، هو ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [6] وقيلَ: ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ [7] وسُمِّيَ طاغيةً، ولم يَقُلْ: طاغٍ لهذا. وقيلَ: اشْتُقَّ هذا الاسْمُ للعذابِ مِنْ أفعالِ مَنْ عُذِّبَ بهِ، ليسَ أنها طاغيةٌ، لكنْ أُخِذَ اسْمُهُ مِنْ فِعْلِ القومِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وقولِهِ [8] تعالى: ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وإنما ذُكِرَ كُلُّهُ جَزاءَ سَيِّئاتِهِمْ.

وقيلَ: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي بِطُغيانِهِمْ وذنوبِهِمُ التي سَلَفَتْ منهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١].

ويَحْتَمِلُ: أنْ يكونَ هذا صفةً لأحوالِهِمُ التي كانوا عليها مِنْ شدةِ التَّمَرُّدِ والعُتُوِّ؛ ومِنْ طُغيانِهِمُ التكذيبُ بالحاقةِ والقارعةِ. ففيهِ تَخويفٌ لأهلِ مكةَ أنهُ سَيُهْلِكُهُمْ إنْ لم يَهْتَدوا عنِ التكذيبِ كما أهْلَكَ أولئكَ.

---

(١) في الأصل وم: وأن. (٢) في الأصل وم: وإن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لأنه نحو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) [البقرة: ٥٥و. . .]. (٧) هود: ٦٧ و. . (٨) في الأصل وم: وقال.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: الريحُ الصَّرْصَرُ هي الصَّيِّتَةُ، وهي التي لها صَوتٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هي الريحُ الباردةُ الشديدةُ البَرْدِ كقولِهِ: ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ﴾ الآيةِ [آل عمران: ١١٧] والصِّرُّ البَرْدُ[1]، والصَّرْصَرُ المُكَرَّرُ منهُ، فَوَصَفَها لِدَوامِها وتكرُّرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ فتأويلُها على ما ذَكَرْنا في الطاغيةِ. وذَكَرَ الكَلْبِيُّ وغيرُهُ أنها سُمِّيَتْ عاتِيَةً لأنها عَتَتْ على الخُزّانِ فلمْ يُطيقوها. وهذا لا يُسْتَقيمُ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يُوكَّلَ الخُزّانُ على حِفْظِها، ثم لا يَتَمَكَّنونَ مِنَ الحِفْظِ حتى تَعْتُوَ عليهِمْ إلّا أنْ يُقالَ: إنهمْ لم[2] يُوكَّلُوا بِحِفْظِها في ذلكَ الوقتِ. فأمّا إذا أُوكِلوا بِحِفْظِها، ثم لا يُجْعَلُ لهمْ إلى حِفْظِها سَبيلٌ، فهذا مُسْتَحيلٌ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ وقولُهُ: ﴿سَخَّرَهَا﴾ قِيلَ: أرسَلَها، وقيلَ: أدامَها عليهِمْ، وقيلَ: التَّسخيرُ التَّذليلُ، أي ذَلَّلَها، فَصَيَّرَها، بحيثُ لا تَمْتَنِعُ عنِ المُرورِ عليهِمْ في الوَجْهِ الذي جَعَلَها عليهِمْ، وأطاعَتْهُ في الوَجْهِ الذي أرسَلَها.

وإنما أرسَلَ الريحَ على أبدانِهِمْ خاصةً، لم[3] تُهْلِكْ شيئاً مِنْ مَساكِنِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] والريحُ إذا عُمِلَتْ على الأبدانِ [فهي على البُنْيانِ][4] أكثَرُ. لكنَّ اللهَ تعالى لم يَأْمُرْها بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فيهِ تَبْيينُ أنَّ الأيامَ لم تكُنْ على عَدَدِ اللَّيالي، ولو كانَتا[5] على عَدَدٍ واحدٍ لَكانَ في ذِكْرِ أحدِ العَدَدينِ ذِكْرُ العَدَدِ الآخَرِ، لأنَّ تَسْمِيَةَ اللَّيالي تَسْمِيَةُ الأيامِ، وتَسْمِيَةَ الأيامِ تَسْمِيَةُ الليالي.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في قصةِ زَكَرِيّا: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾؟ [مريم: ١٠] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حُسُومًا﴾ قيلَ: مُتَتابِعةً دائمةً، وقيلَ: قَطْعاً قَطْعاً مِنَ الحَسْمِ؛ يُقالُ: حَسَمَتِ الريحُ كلَّ شيءٍ مَرَّتْ بِهِ حَسْماً، أي قَطَعَتْهُ، وقيلَ: مَشْؤوماتٍ حينَ[6] انقطَعَتْ بَرَكَتُها عنهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي إنكَ لو أدْرَكْتَهُمْ، وشَهِدْتَهُمْ، وعايَنْتَهُمْ. لَرَأيتَهُمْ ﴿صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. وقالَ بعضُهُمْ: ألا تَرَى الأعضاءَ المُتَفَرِّقَةَ: كلُّ قِطْعةٍ منها كأنها عَجُزُ نَخْلَةٍ؟ إذا كانوا هُمْ أعظَمَ في أنفسِهِمْ مِنْ أعجازِ النَّخلِ [فَيَنْصَرِفُ تأويلُهُ][7] إلى الأعضاءِ المُتَبايِنَةِ.

ثم ذَكَرَ النَّخلَ هنا بالتأنيثِ، فقالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ وَوَصَفَهُ[8] في سورةِ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ بِصِفَةِ التَّذكيرِ، فقالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] لأنَّ النَّخلَ يُذَكَّرُ، ويُؤَنَّثُ. كذا قالهُ الزَّجّاجُ.

وقيلَ: النَّخلُ يُذَكَّرُ على كلِّ حالٍ. لكنَّ قولَهُ: ﴿خَاوِيَةٍ﴾ صِفةٌ للأعجازِ لا صِفَةُ النَّخلِ، والأعجازُ جماعةٌ، والجماعةُ مؤنثةٌ، والنَّخلُ واحدٌ، فَيُذَكَّرُ. وليسَ كذلكَ؛ لأنَّ الخاويَةَ صِفَةُ النَّخلِ.

ألا تَرَى عندَ الوَصْلِ يُذْكَرُ بالخَفْضِ لا بالرَّفعِ؟ ولأنَّ النَّخلَ اسمُ جَمْعٍ، يُقالُ: نَخْلَةٌ ونَخْلٌ كما يُقالُ: شَجَرَةٌ وشَجَرٌ، وثَمَرَةٌ وثَمَرٌ، ونَحْوُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَاوِيَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي باليَةٍ، وقيلَ: خاوِيَةٌ[9] أي ساقِطةٌ كقولِهِ تعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي ساقِطةٌ على قَوائِمِها. وقيلَ: أي خاليةٌ، فوصَفَها بالخَلاءِ لأنها اقْتُلِعَتْ مِنْ أصْلِها حتى خَلا ذلكَ المكانُ منها. وأعجازُ النَّخلِ أُصولُهُ.

---

(١) في الأصل وم: البارد. (٢) في الأصل وم: لو. (٣) من م، في الأصل: لمن. (٤) من م، في الأصل: فهو على الاليتيان. (٥) في الأصل وم: كانا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: فيضرب تأويل. (٨) في الأصل: وصف، في م: ووصف. (٩) في الأصل وم: الخاوية.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ فيهِ أنهُ لم يَبْقَ لهمْ نَسْلٌ يُذْكَرونَ / ٥٩١ ـ أ/ بهِمْ، بل أُهلِكوا بأجمَعِهِمْ، وانقَطَعَ عنهمُ الذِّكْرُ إلّا بالسوءِ، وإلّا كانَ يُرَى لهمْ باقيةٌ.

ففيهِ أنهمُ اسْتُؤصِلوا، وعَمَّ العذابُ الكبيرَ والصغيرَ، يُخَوِّفُ أهلَ مكةَ بِما يُخْبِرُهُمْ عمّا فَعَلَ بأولئكَ.

وفيهِ إخبارٌ أنهمْ عُذِّبوا بِعذابٍ، لا رَحْمَةَ فيهِ، وهكذا سُنَّةُ اللهِ تعالى في مُكَذِّبي الرسلِ مِنْ قَبْلُ؛ وجَعَلَ تعذيبَ هذهِ الأمةِ أنْ يُجاهدوا، ويُقاتِلوا، والنساءُ لا يُقاتِلْنَ، بل يُسْبَيْنَ رجاءَ أنْ يُسْلِمْنَ. فَعَلَى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا جوابَ قولِهِمْ: إنَّ محمداً صُنْبورٌ، أي ليسَ لهُ ولدٌ، يُبْقِي نَسْلَهُ أو ذِكْرَهُ، وأخبَرَ تعالى أنَّ كثرةَ الأولادِ، لا تُغْني مِنَ اللهِ شيئاً، إذْ قد كانَتْ لهمْ أهالِيَ وأولاداً، فأُهلِكوا عن آخِرِهِمْ، وانقَطَعَ التَّناسُلُ منهمْ، لِيَعْلَموا أنهُ قد يَبْقَى ذِكْرُ مَنْ أطاعَ اللهَ ورسولَهُ، كانَ ثَمَّ أولادٌ أو لم يَكُنْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ القافِ وفَتْحِ الباءِ، وقُرِئَ بِنَصْبِ القافِ وجَزْمِ الباءِ.

فتأويلُ القراءةِ الأولَى: أي جاءَ فِرْعَونُ ومَنْ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ وأتباعِهِ، وقِبَلَهُ مَنْ كانَ مِنْ أهلِ القُرَى التي بِقُرْبِ القُرَى. وقد رُوِيَ في الشاذِّ في بعضِ الحروفِ: وجاءَ فِرْعَونُ ومَنْ دونَهُ[1]. وجائزٌ [أن يكونُوا[2] مِنْ أتباعِ فِرْعَونَ، وجائزٌ ألّا يكونوا][3].

وتأويلُ القراءةِ الثانيةِ: أي جاءَ فِرْعَونُ ومَنْ كانَ مُقَدَّماً عليهِ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ قيلَ: قُرَياتُ لوطٍ ائْتَفَكَتْ على أهلِها، أي انْقَلَبَتْ عليهِمْ بما عَصَتْ رُسُلَها، وقيلَ: المُؤْتَفِكُ الذي يَأْتَفِكُ مِنَ الصِّدْقِ إلى الكذبِ ومِنَ الحَقِّ إلى الباطلِ ومِنَ العدلِ إلى الجَوْرِ.

فَمَنْ قَرَأَ: وَمَنْ قِبَلَهُ بخَفْضِ القافِ، كانَ قولُهُ: جاءَ فِرْعَونُ ومَنْ قِبَلَهُ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ واقعاً كلُّهُ على العِصْيانِ لِموسى ﷺ والمرادُ مِنَ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ كلُّ مَنِ ائْتَفَكَ مِنَ الحقِّ إلى الباطلِ دونَ أهلِ قُرَياتِ لوطٍ لأنهمْ كانوا قبلَ زمانِ موسى بكثيرٍ.

ومَنْ قَرَأَ: ومَنْ قَبْلَهُ بِنصبِ القافِ، كانَ قولُهُ: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ واقعاً على رسولِ كلِّ فريقٍ؛ كأنهُ قالَ: أي عَصَتْ كلُّ أمةٍ رسولَها. وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قومَ لوطٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالخطايا والشِّرْكِ. وذَكَرَ أبو مُعاذٍ عنْ مجاهدٍ في تفسيرِ الخاطئةِ الشِّرْكَ والكُفْرَ، وأنكَرَ ذلكَ، واحْتَجَّ بأنَّ اللهَ تعالى لم يَذْكُرْ مِنْ قومِ لوطٍ كُفْراً وشِرْكاً في كتابِهِ إنما ذَكَرَ رُكونَهُمْ إلى الفاحشةِ، وبها أُهلِكوا؛ إذ[4] لم يَنْزِعوا، ولم يَتوبوا.

قالَ: ولو كانوا مُشْرِكينَ لم يَقُلْ لهمْ لوطٌ. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] أراد بذلكَ الإنكاحَ، والكافرُ لا يَصِحُّ لهُ نِكاحُ المُسْلِمةِ.

وليسَ كما زَعَمَ، بل كانوا أهلَ شِرْكٍ وكُفْرٍ باللهِ تعالى. ألا تَرَى إلى قولِهِ في ما حكَى عنْ قومِ لوطٍ مِنْ قولِهِمْ[5] ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾؟ [الشعراء: ١٦٧] فإخراجُ الرسلِ مِنْ أماكِنِها مِنْ صنيعِ أهلِ الكُفْرِ، وقولِهِمْ[6] في موضعٍ آخَرَ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] فطابَتْ أنفسُهُمْ بإخراجِ لوطٍ ﷺ مِنْ قُراهُمْ. ومَنْ فَعَلَ هذا لم يُشَكَّ في كُفْرِهِ.

وقالَ في قصةِ لوطٍ أيضاً: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥و٣٦] فَثَبَتَ أنهمْ كانوا كُفّاراً.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/٢٠٦. (٢) في م: يكون. (٣) من م، في الأصل: ألا يكون. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) في الأصل وم: وقال.

ثم لِقائلٍ أنْ يقولَ في قولِهِ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أخبَرَ أنهُ جاءَ فِرْعونُ إلى موسى، وعَصاهُ: كيفَ ذَكَرَ مَجيءَ فِرْعونَ إلى موسى، ولم يوجَدْ منهُ المَجيءُ إلى الرسولِ، بل الرسولُ هو الذي جاءَهُ، فَعَصاهُ فِرْعَونُ، لا أنَّ فِرْعونَ أتاهُ، فاستَقْبَلَهُ بالعِصْيانِ؟ قيلَ: [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما[1]: أنَّ كلَّ مَنْ أتى آخَرَ، وجاءَهُ، فقد أتاهُ الآخرُ، ومَنْ قَرُبَ [إلى آخرَ فقد قَرُبَ][2] الآخَرُ إليهِ، لأنَّ المجيءَ فِعْلٌ مُشتَرَكٌ، لأنهُ اسْمُ الالْتِقاءِ، وإنما يَقَعُ الالْتِقاء بهما جميعاً، ليسَ بأحدِهما، فَلِذلكَ اسْتَقامَ منْ إضافةِ المَجيءِ إلى فِرْعونَ.

وعلى هذا تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قُرِّبَتْ، وأهلُها الذين يَقْرُبونَ إليها في الحَقيقةِ. ولكنهمْ إذا قَرُبوا إليها، فقد قَرُبَتْ هي إليهِمْ، فأُضيفَ إليها التَّقريبُ.

لهذهِ العبارةِ يمكنُ أنْ يَتأوَّلَ قولَهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي أتاهُ الخَلْقُ لا أنْ يكونَ هو الذي يأتيهِمْ لأنهُ قالَ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤] وقالَ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨و..].

وقال[3]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠و..] فأخبَرَ أنَّ الخَلْقَ هُمُ الذينَ يأتونَهُ، ويَرْجِعونَ إليهِ، ولكنْ يُنْسَبُ[4] المَجيءُ والإتيانُ إلى اللهِ تعالى، لأنهمْ إذا أتَوهُ فكأنهُ قد أتاهُمْ مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا دونَ أنْ يكونَ فيهِ إثباتُ الانْتِقالِ في اللهِ تعالى.

والثاني: أنَّ اسْمَ المَجيءِ، وإنْ أُطْلِقَ، واسْتُعْمِلَ في المَجيءِ إلى مكانٍ، فقد يُسْتَعْمَلُ أيضاً في المَوضِعِ الذي ليسَ فيهِ حَرَكةٌ ولا انْتِقالٌ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ومَعْناهُ: ظَهَرَ الحَقُّ، ليسَ أنَّ الحَقَّ كانَ في مَوضعٍ، فانْتَقَلَ عنهُ إلى غَيرِهِ، فأمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ أي كَذَّبَ بما أُنزِلَ على موسى ﷺ وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ بالخاطئةِ، فيكونُ المَجيءُ مَصْروفاً إلى الخَطايا، وهذا التأويلُ أمْلَكُ بِظاهرِ الآيةِ، لأنهُ قالَ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي جاؤوا بالخَطايا.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي عاليةً أي[5] عَلَتْ أبدانَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ أنَّ عقوبَتَهُمْ رَبَتْ على الأخذِ، أي زادَتْ على الأخذِ، لأنها أخذَتْ أبدانَهُمْ، وأهْلَكَتْها، ثم رُدَّتْ أرواحُهُمْ إلى جَهَنَّمَ، فَتُعْرَضُ عليها غُدُوًّا وعَشِيّاً. فذلكَ هو الزيادةُ على الأخذِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي طَغَى على الخُزّانِ، لأنَّ الخُزّانَ يُرْسِلُونَ القَطْرَ بالكَيلِ والوَزْنِ والقَدْرِ المَعْلومِ [وقد][6] ذَكَرَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١] أي مُنْصَبٌّ، فيكونُ تأويلُهُ: إنَّ اللهَ تعالى لم يُمَكِّنْهُمْ حِفظَ القَطْرِ في ذلكَ الوقتِ، فَطَغَى عليهِمْ لهذا المَعْنَى. وإلا لو لَزِموا حِفْظَهُ في ذلكَ الوقتِ لَكانَ الماءُ لا يَطْغَى عليهِمْ على ما ذَكَرْنا أنهُ لا يَجوزُ أنْ يُؤْمَروا بِحِفْظِهِ، ولا يَمْلِكونَ حِفْظَهُ.

وجائزٌ أنْ يكون طَغَى أي طَغَى على الذينَ أُهْلِكوا مِنْ مُكَذِّبي نوحٍ ﷺ وقد وصَفْنا تأويلَ الطاغي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [قد ذَكَرَ][7] أنهُ ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ ولم نكنْ نحنُ يومئذٍ فَنُحْمَلَ، والخطابُ للذينَ كانوا في زمنِ النَّبيِّ ﷺ وإنما كانَ؛ لأنَّ بِنَجاةِ أولئكَ المَحْمولينَ نَجاةُ ذُرِّيَّتِهِمْ، وبهلاكِ أولئكَ فَناءُ ذُرِّيَّتِهِمْ، فكأنهُ قد حَمَلَهُمْ بِحَمْلِ أولئكَ لمّا حَصَلَ لهمُ النجاةُ بِحَمْلِهِمْ، أو أضافَ إليهِمْ لأنهُ قَدَّرَ كونَهُمْ مِنْ آبائِهِمْ، فكأنهمْ حُمِلوا تَقْديراً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] ومَعْناهُ: أنْزَلْنا عليكُمْ ما قَدَّرْنا كَوْنَ اللباسِ منهُ، وهو

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: يسبب. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وك: فذكر.

المطرُ، فإذا أنزَلَ المَطرَ الذي قَدَّرَ كونَ اللِّباسِ منهُ، وهو المطرُ، فكأنهُ أنزَلَ اللباسَ، وكقولِهِ[1] ﷻ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] ونحنُ لم نُخلَقْ مِنَ الترابِ الذي أصْلُنا منهُ، فكأنا خُلِقنا منهُ. فَعَلَى ذلكَ [هذا][2]:

وإنْ لم نكُنْ مَحمولينَ في السفينةِ، فقد حُمِلَ أصْلُنا لِنكونَ نحنُ مِنْ ذلكَ الأصلِ، فكأنّا قد حُمِلْنا فيها، إذْ كُنّا في إرادةِ اللهِ تعالى مِنَ الكائنينَ، واللهُ أعلَمُ.

أو ذَكَرَ ذلكَ مِنّةً مِنْهُ على الأبناءِ بِصنيعِهِ بالآباءِ لِيُعْلَمَ أنَّ على الأبناءِ شُكْرَ ما أحْسَنَ إلى آبائِهِمْ وأجدادِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فوجهُ التَّذْكيرِ فيهِ أنَّ أهلَ مكةَ أبَوا إجابَةَ الرسولِ، وقالوا: / ٥٩١ ـ ب/ ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فَذَكَّرَهُمْ أنهمْ أولادُ مَنْ حُمِلوا معَ نوحٍ ﷺ في السفينةِ، وهُمْ إنما اسْتوجَبوا النجاةَ، وشَرُفوا في الدارَينِ جميعاً باتِّباعِهِمُ الرسلَ. فما لكُمْ لا تتَّبِعونَهُمْ في تَصديقِ الرسلِ دونَ أنْ تتّبِعوا المُكذِّبينَ للرسلِ؛ يُذَكِّرُهُمْ كَذِبَهُمْ في قولِهِمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢و: ٢٣] بل قد وجَدْتُمْ آباءَكُمْ على خِلافِ ما أنتمْ عليهِ، وتَعْلَمونَ[3] أنَّ آباءَكُمْ همُ الذينَ اتَّبعوا نوحاً، فَنَجَوا، وهمُ المؤمِنونَ دونَ الكَفَرَةِ.

ووجهٌ آخَرُ: أنهُ ذَكَّرَهُمْ أحوالَ المُكذِّبينَ وإلى ماذا آلَ أمْرُهُمْ مِنَ الغَرَقِ والهَلاكِ، فيكونُ فيهِ تَخويفُ مَنْ كَذَّبَ مِنْ أهلِ مكةَ رسولَ اللهِ ﷺ فصارتِ تلكَ الجاريةُ.

وفي السفينةِ مَوعِظةٌ، وتَذْكِرَةٌ، تُذَكِّرُهُمْ عواقِبَ المُصَدِّقينَ بالرسلِ والمُكذِّبينَ بهمْ، أو تُذَكِّرُهُمْ[4] عظيمَ نِعَمِهِ على آبائِهِمُ الذينَ حُمِلوا في السفينةِ لِيَسْتأْدِيَ منهمْ شُكْرَ ذلكَ.

وقال بعضُهُمْ: كمْ مِنْ سفينةٍ قد هَلَكَتْ منذُ ذلكَ الوقتِ، وهي قائمةٌ في موضعِ كذا عِبرَةً وتَذْكِرَةً، ثم التَّذْكِرَةُ تَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يُرادَ بها الآيةُ والعِبْرَةُ، أي جَعَلْنا لكمْ ذلكَ لِتَعْتَبِروا، وتكونَ آيَةً لكُمْ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدْرتِهِ كقولِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

والثاني: أي جَعَلْنا تلكَ الأنباءَ تَذْكِرَةً لكمْ، أي جَعَلْناها قرآناً تقرَؤونَها، وتَذْكُرونَها إلى آخِرِ الأبَدِ، فَتَشْكُرونَ اللهَ تعالى على ما صَنَعَ إليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ يُقالُ: وَعَى الشيءَ إذا حَفِظَهُ، وأوعاهُ إذا حَفِظَهُ بإناءٍ أو غَيرِهِ، أي تحفَظُها أُذُنٌ حافظةٌ، فأضافَ الوَعْيَ والحِفْظَ إلى الأُذُنِ، والأُذُنُ لا تَعي، بل تَسْمَعُ، ثم يَعيهِ القلبُ، ولكنْ نُسِبَ الوَعْيُ إلى الأُذُنِ لأنهُ يُوصَلُ إلى الوَعْيِ مِنْ جهة الأُذُنِ؛ إذ بالسَّمْعِ يُوعَى، والسَّمْعُ مِنْ عَمَلِ الأُذُنِ، ثم يَقَعُ المَسموعُ في ما فيهِ يُوعَى، وهو القلبُ، فَنُسِبَ الوَعْيُ إلى السَّمْعِ لِما يَتَطرَّقُ بهِ إلى الوَعْيِ كما ذَكَرْنا مِنْ إضافةِ اللِّباسِ إلى [ما][5] منهُ قَدْرُ اللِّباسِ، وهو المطرُ، وأُضيفَ خَلْقُنا إلى الترابِ لأنَّ أصلَ ما منهُ قَدْرُ خَلْقِنا، هو الترابُ، وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَجْعَلُ للقلوبِ آذاناً بها تَعي، وأبصاراً بها تُبْصِرُ، فيُضيفُ الوَعْيَ إلى آذانِ القلوبِ، ليسَ إلى آذانِ الرؤوسِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي عَقَلَتْ عنِ اللهِ تعالى، وانْتَفَعَتْ بما سَمِعَتْ مِنْ كتابِهِ، وهي أُذُنُ المؤمنِ. فأمّا أُذُنُ الكافرِ فإنها تَسْمَعُ، وتَقْذِفُ، ولا تَعي لِما يَحْصُلُ لهمُ الانْتِفاعُ بهِ. ألا تَرى أنهُ وَصَفَ آذانَهُمْ بالصَّمَمِ لِما لم يَنْتَفِعوا بالمَسْموعِ؟ وكذلكَ قالَ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] جَعَلَ تركَهُمُ الانْتِفاعَ بهِ نَبْذاً. فَعَلَى ذلكَ جَعَلَ الانْتِفاعَ بهِ وَعْياً، وكذلكَ المُتَعارَفُ في الخَلْقِ أنهمْ إذا أرادوا الانْتِفاعَ بِعِلْمٍ أو بِشيءٍ اجْتَهدوا في [وَعْيِهِ وحِفْظِهِ][6].

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة ن الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وقد تعلمون. (٤) في الأصل وم: ذكرهم.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وعيها وحفظها.

الآيات ١٣و١٤و١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ فكأنهم سألوا متى تكون الواقعة والحاقّة والقارعة؟

فأخبَرَ عنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾.

فجوابُهُمْ في قولِهِ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ثم بيّنّا أنَّ الأسئلةَ كلَّها خرَجَتْ عنِ الأحوالِ التي تكونُ في ذلكَ الوقتِ لِما لا فائدةَ لهمْ في تَبْيِينِ وَقْتِهِ، ولا حاجةَ إلى مَعْرِفَتِهِ. وإنما الفائدةُ في تَبْيِينِ أحوالِهِ لِما يَقَعُ بها التَّرْغيبُ والتَّرْهيبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فجازَ[1] أنْ يكونَ على حَقيقةِ النَّفْخِ، واحْتَمَلَ أنْ يكونَ على [قَدْرِ][2] نفخةٍ واحدةٍ، فتكونُ فائدتُهُ ذِكْرَ سهولةِ أمرِ البَعْثِ على اللهِ تعالى، لأنَّ قَدْرَ النَّفْخَةِ مِمّا يَسْهُلُ على المَرْءِ في الشاهدِ، ولا يَتَعَذَّرُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ النَّفْخَ لِما أنَّ الرُّوحَ يَدْخُلُ في أجسادِهِمْ، ويَنْتَشِرُ فيها، وذلكَ عَمَلُ النَّفْخِ، لأنَّ الريحَ إذا نُفِخَتْ في وعاءٍ سَرَتْ فيهِ، وانْتَشَرَتْ، فَكَنّى عنْ دخولِ الرُّوحِ في الأجسادِ[3] بالنَّفْخِ، إذْ ذلكَ عَمَلُهُ، وكَنّى بالنَّفْخِ عنْ خُروجِ الرُّوحِ مِنَ الأجسادِ لِهذا. وعلى هذا تأويلُ قولِهِ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] ليسَ على حَقيقةِ النَّفْخِ، ولكنْ على عَمَلِ الرُّوحِ فيها عَمَلَ النَّفْخِ، فقيلَ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى الصُّورِ﴾ قيلَ: هو القَرْنُ، يُنْفَخُ فيهِ النَّفْخَةُ الأولى، فَيَصْعَقُ ﴿مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ﴾ ثم يُنْفَخُ فيهِ مَرَّةً ﴿أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: أي نُفِخَ الرُّوحُ في صُوَرِ الخَلْقِ. لكنْ جميعُ الصورةِ الصُّوَرُ بِنَصْبِ الواوِ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ جَمْعُ الصُّورةِ، لكنْ يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى جَعَلَ نَفْخَ الصُّورِ سَبَباً لإفنائِهِمْ وإحيائِهِمْ، لا أنهُ يُعْجِزُهُ شيءٌ عنِ الإفناءِ والإحياءِ ما لم يُنْفَخْ في الصُّورِ، لكنهُ جَعَلَهُ سبباً لِنوعِ الحِكْمةِ والمَصْلَحةِ أو لِمِحْنَةِ المَلَكِ والابْتِلاءِ على ما عُرِفَ مِنْ أنواعِ المِحَنِ في الملائكةِ مِنْ إنزالِ الأمطارِ وتَسْييرِ السَّحابِ وجَعْلِهِمُ المُوكَّلينَ على أعمالِ بَني آدمَ وغَيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ كُسِرَتا كَسْرَةً واحدةً، وقيلَ: هُدِمَتا هَدْمَةً واحدةً. وقالَ بعضُهُم: زُلْزِلَتا زَلْزَلَةً واحدةً؛ فكأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: تَتَزَلْزَلُ الأرضُ، فَتَقْذِفُ ما في بَطْنِها مِنَ الغُسولِ، وتُخْرِجُ ما فيها مِنَ الجواهِرِ التي ليسَتْ منها بتلكَ الدَّكَّةِ [وتُخْرِجُ][4] أُصولَ الجبالِ منها، ثم يَجْعَلُهُ اللهُ تعالى ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، ثم يُعْمِلُ عليهِ الريحَ، فَيَجْعَلُهُ ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ويُريهِ مِنْ لِينِهِ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩ والقارعة: ٥]. ثم يَسيرُ مثلَ السحابِ، فَيَقَعُ في شِعابِ الأرضِ والأوديةِ والأماكنِ المختلِفَةِ، فَتصيرُ الأرضُ كما قالَ تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ و١٠٧].

وهكذا الريحُ إذا عَمِلَتْ على شيءٍ [تقعُ عليهِ][5] تُفَرِّقُهُ في النَّواحي، وتُسَوّي بهِ الشقوقَ، وتَبْسُطُهُ على وجهِ الأرضِ.

وقولُهُ ﷻ ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ﴾ ليسَ أنها تُحْمَلُ مِنْ مكانٍ، ولكنْ تُدخَلُ هذهِ في هذهِ، وتُضْرَبُ على هذهِ بالدَّكَّةِ، فَتَصيرُ كأنها حُمِلَتْ لِذلكَ.

وإذا كانَ كذلكَ فقد وقعتِ الواقعةُ يومئذٍ. وهذا على اخْتِلافِ الأوقاتِ لِيكونَ مَعْنى الآياتِ التي جاءَتْ في الجبالِ على السَّواءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ في آياتٍ أُخَرَ بيانٌ آخَرُ: بيانُ تَقْديمِ فَناءِ الجبالِ قَبْلَ الأرضِ بقولِهِ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥ و١٠٦] أي يَذَرُ الأرضَ قاعاً صفصفاً وغيرِهِ[6] مِنَ الآياتِ مِمّا يَدُلُّ على تَقْديمِ فَناءِ الجبالِ قَبْلَها.

---

(١) في الأصل وم: فجائز. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الجسد. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: ويقع: في م: ويقع عليه. (٦) في الأصل وم: وغيرها.

فأمّا أنْ يكونَ مَعْنَى تَبْديلِ الأرضِ تَغْييرَها عنِ الحالةِ التي هي عليها اليومَ مِن انْهِدامِ البُنْيانِ واسْتِواءِ الأوديةِ وإزالةِ الجبالِ على ما جاءَ في الأخبارِ، فَسُمّيَ لِذلك تَبْديلاً كما يُقالُ لِمَنْ تَغَيَّرَ عنِ الحالةِ الحَسَنَةِ إلى غَيرِها: تَبَدَّلْتَ، يُرادُ أي تَغَيَّرْتَ عنْ حالتِكَ.

فَعَلَى ذلكَ مَعْنَى الآيةِ؛ أي تَتَكسَّرُ[1] الجبالُ، وتَتَغَيَّرُ حالةُ الأرضِ في دفعةٍ واحدةٍ. أو يكونُ في الآيةِ إخبارٌ عنْ شدةِ الفَزَعِ في ذلكَ اليوم: أنْ بِدَكّةٍ واحدةٍ تَفْنَى الجبالُ، وإنْ كانَ إفناءُ الجبالِ قَبْلَ إفناءِ الأرضِ، ليسَ أنهما تَفْنَيانِ جميعاً بدفعةٍ واحدةٍ / ٥٩٢ ـ أ/ لكنْ بالدكّةِ الواحدةِ تَهْلِكُ الجبالُ والأرضُ، فيكونُ المُرادُ بَيانَ شِدَّةِ اليومِ وهَولِهِ لا بَيانَ ترتيبِ فَناءِ الأرضِ [البعضِ][2] على البعضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وهو على الحسابِ والجزاءِ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦] وأُدْخِلَتِ الهاءُ في أسماءِ القيامةِ تَعْظِيماً لِشأنِها.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تفَرَّقَتْ، وهكذا الشيءُ إذا انْشَقَّ، تَفَرَّقَ، وتَناثَرَ، وبِهِ يَظْهَرُ الشَّقُّ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الشَّقُّ كِنايةً عنِ اللِّينِ، أي تَلينُ بعدَ [صَلابَتِها، وتَصيرُ][3] ذليلةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي ضعيفةٌ بَعدما كانَتْ تُنْسَبُ إلى الصَّلابةِ. ويدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وإنما يُطْوَى الشيءُ في الشاهدِ بعدَ ما كانَ يَلينُ في نفسِهِ.

وجائزٌ أنْ تَنْشَقَّ السماءُ لِيَزولَ أهلُها، فلا يَبْقَى فيها إلّا الملائكةُ الذينَ على أطرافِها، ثم تَنْضَمُّ، فَيَتَبَيَّنُ الطَّيُّ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ انْشِقاقَها وانْفِطارَها وانْفِتاحَها تَهْويلاً لِلْخَلْقِ مِنَ الوجْهِ الذي ذَكَرْنا في ما قَبْلُ.

وجائزٌ أن يكونَ للسمواتِ أبوابٌ[4]، فَتُفْتَحَ أبوابُها، فيكونَ انْشِقاقُها وانْفِطارُها فَتْحَ أبوابِها.

وجائزٌ أن يكونَ الشَّقُّ ليسَ فَتْحَ الأبوابِ لأنهُ ذَكَرَ هذا في مَوضِعِ التَّهويلِ، وليسَ في فتحِ أبوابِها كثيرُ تَهْويلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي ضعيفةٌ مُسْتَرْخِيةٌ. وقيلَ: الوَهْيُ الخَرْقُ، وهو يَحْتَمِلُ لأنها إذا انْشَقَّتِ انْخَرَقَتْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ الأرجاءُ النَّواحي والأطرافُ، وهي أطرافُ السمواتِ ونَواحيها، واحدُ الأرجاءِ رَجًا مَقْصورٌ، ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أُريدَ بها الملائكةُ؛ أخْبَرَ أنهمْ على أطرافِ السمواتِ ونَواحيها، فَيَحْتَمِلُ أنهمْ وُكِلوا، وامْتُحِنوا بِحِفْظِها بَعدَ الشَّقِّ لئلا تَسْقُطَ على أهلِ الأرضِ.

وجائزٌ أنْ يَجْعَلَ أطرافَها وجوانِبَها لِبَعضِ الملائكةِ، فَتُفْتَحَ أبوابُ السماءِ، فَيَنْزِلَ الملائكةُ، كانَ مسكَنُهُمْ عندَها إلى الأرضِ كما قالَ تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ويَبْقَى الملائكةُ الذينَ كانَ مَسْكَنُهُمْ في أرجائِها أمْرَ رَبِّهِمْ.

ثم المَلَكُ ليسَ يَحْتاجُ إلى مكانٍ يَقَرُّ فيهِ، وإنْ جُعِلَتِ السماءُ مَسْكناً لهمْ، لأنَّ الملائكةَ يَنزِلونَ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ ويَقَرّونَ على الهواءِ مِنْ غَيرِ أنْ يكونَ في الهواءِ مَقَرٌّ.

[وجائزٌ أنهُ][5] يُبيِّنُ أنها لا تَتَفَرَّقُ كلَّ التَّفَرُّقِ، ولكنَّ وَسْطَها يَنْشَقُّ لِما ذَكَرْنا، [ويَبْقى][6] الباقي بِحالِهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ على ما يَمُرُّ بِهِ في السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الملائكةُ بالنَّفْخةِ الأولَى يَصْعَقونَ إلّا الثمانيةَ الذينَ يَحْمِلونَ العرشَ كما قالَ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فيكونُ هؤلاءِ الثمانيةُ مِنَ الذينَ اسْتُثْنُوا، فلا يَصْعَقونَ، فهمْ يَحْمِلونَ العرشَ، فتكونُ أمْكِنَتُهُمْ على أرجاءِ السمواتِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾.

---

(١) في الأصل وم: انكسرت. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: صعوبتها. (٤) في الأصل وم: أبواباً.
(٥) في الأصل وم: والثالث. (٦) في الأصل وم: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بِهِ ثمانيةَ أملاكٍ، وجائزٌ أنْ يكونَ ثمانيةَ أصنافٍ مِنَ الملائكةِ كما ذُكِرَ في التفسيرِ، وجائزٌ أنْ يكونَ هؤلاءِ الثمانيةُ يَهْلِكونَ، ثم يَحْيَونَ قَبْلَ أنْ يَحْيَا سائرُ الخَلْقِ، فَيَحمِلونَ ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ﴾[1] على أكتافِهِمْ، وإذا بَعَثَ اللهُ تعالى الخلائقَ رَأَوُا العرشَ على أكتافِهِمْ.

والعرشُ، هو سريرُ المُلْكِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ نورٍ كما ذُكِرَ في الخَبَرِ: «أنَّ عينَ الشمسِ إذا أرادَتْ أنْ تَطْلُعَ فإنَّ جبريلَ عليه السلام يأتي العَرشَ، فيأخذُ كَفّاً مِنْ ضِيائِهِ، ثم يُلْبِسُ الشمسَ كما يَلْبَسُ أحدُكُمْ قميصَهُ، وإذا أرادَ القمرُ أنْ يَطْلُعَ أخذَ جبريلُ عليه السلام كفًّا مِنْ نورِ العَرْشِ، فَيُلْبِسُ القمرَ كما يَلْبَسُ أحدُكُمْ قميصَهُ».

فجائزٌ أنْ يكونَ العَرْشُ مِنَ الضِّياءِ والنّورِ. ثم أجَلُّ الأشياءِ وأعظَمُها في أعْيُنِ الخَلْقِ الضِّياءُ والنورُ، وإليهما يَنْتَهي الرَّغْبُ، فيكونُ في ذِكْرِ العَرْشِ ذِكْرُ عظيمِ مُلْكِ الرَّبِّ، جَلَّ جلالُهُ.

ثم إنَّ كلَّ مَلِكٍ في الشاهِدِ يَتَّخِذُ لنفسِهِ عرشاً، يَتَفاوَتُ ذلكَ على مِقْدارِ مُلْكِهِمْ وسُلْطانِهِمْ، لا لِيَجْعَلَ ذلكَ مَسْكناً لنفسِهِ. فإذا لم يُتَوَهَّمْ مِنَ الخَلْقِ أنهمْ يَتَّخِذونَ ذلكَ لِمَقاعِدِهِمْ ومَجالِسِهِمْ، فَلأَنْ لا يُتَوَهَّمَ ذلكَ مِنَ اللهِ أَوْلَى.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ أي تُعْرَضونَ على أعمالِكُمْ، فلا تَخْفَى عليكُمْ خافيةٌ، أي تُظْهَرُ لكمْ في ذلكَ اليومِ، وتَصيرُ بارزةً[2] في ذلكَ اليومِ كما قالَ تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي تُظْهَرُ لهمْ سَرائرُهُمْ، حتى يَعْرِفوها، ولا يَخْفَى عليهمْ شيءٌ منها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ أي على اللهِ تعالى. ولكنْ كُلُّ مَنِ ادَّعَى إخفاءَ شيءٍ مِنْ أمْرِهِ على اللهِ [وظَنَّ أنَّ اللهَ تعالى][3] لا يَطَّلِعُ عليهِ، فَسَيَعْلَمُ في ذلكَ اليومِ أنهُ لا تَخْفَى عليهِ خافيةٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ليسَ فيهِ أنَّ المُلْكَ كانَ لِغَيْرِهِ.

ولكنَّ بعضَ الناسِ كانوا يَدَّعونَ الإشراكَ في المُلْكِ في الدنيا، فيَتْرُكونَ في ذلكَ اليومِ دَعْواهُمْ، ويَتَيَقَّنونَ أنهُ هو المُنفَرِدُ بالمُلْكِ، وعلى [ذلكَ][4] قولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [إبراهيم: ٢١].

ولم يكونوا بِمُخْتَفِينَ عنهُ قَبْلَ ذلكَ، بل كانوا لهُ في كلِّ وقْتٍ بارزينَ. ولكنْ مَنْ أنكَرَ ادِّعاءَ الإخفاءِ في الدنيا يُدْعَ في ذلكَ اليومِ، ويُقِرَّ بالبروزِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

ثم رُوِيَ في الخَبَرِ «أنَّ العَرْضاتِ ثلاثٌ: عَرْضَتانِ فيهما خُصوماتٌ ومَعاذيرُ» أي يَخْتَصِمونَ، ويَتَنازَعونَ، فإذا ظَهَرَ ذلكَ جَعَلوا يَعْتَذِرونَ، ويَسْألونَ ربَّهُمُ العَفْوَ والصَّفْحَ عنْ خُصومِهِمْ، «والعَرْضَةُ الثالثةُ عندَ تَطايُرِ الصُّحُفِ» [الترمذي: ٢٤٢٥].

ومَعْنَى قولِهِ: ﴿تُعۡرَضُونَ﴾، أي يُعْرَضُ الخَلْقُ بعضُهُمْ على بعضٍ حتى لا يَخْفَى على أحدٍ خَصْمُهُ، أو تُعْرَضُ أعمالُهُمْ حتى يَذْكُرَ [كلٌّ][5] واحدٍ صَنيعَهُ، وكلُّ خَصْمٍ خُصومَتَهُ، فكأنهمْ قد نَسُوا ذلكَ مِنْ كَثْرَةِ الفَزَعِ وشِدَّةِ الأهوالِ. لكنَّ اللهَ تعالى يُطْلِعُهُمْ على ذلكَ حتى يَذْكُروا ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ظاهرُ ما جَرَى بهِ الخطابُ في القرآنِ يُوجِبُ أنْ يُرْحَمَ المؤمنونَ جميعاً، فلا يُعَذَّبوا[6] في الآخِرَةِ، ويُعَذَّبَ الكافرونَ، ولا يُرْحَموا[7]، لأنهُ قَسَّمَ الخَلْقَ يومَ القيامةِ صِنْفَينِ: فَجَعَلَ صِنْفاً منهمْ أهلَ اليمينِ، وصِنْفاً أهلَ الشِّمالِ، ثم وَصَفَ كلَّ واحدٍ مِنَ الصِّنْفَينِ بأعلامٍ ثلاثةٍ:

فَذَكَرَ مَرَّةً أنهُ يَخِفُّ ميزانُهُمْ بقولِهِ: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٩و..] وذَكَرَ مَرَّةً أنَّ وجوهَهُمْ تَسْوَدُّ، وذَكَرَ مَرَّةً أنهمْ يُعْطَونَ كِتابَهُمْ بِشِمالِهِمْ. فهذهِ الأعلامُ ذَكَرَها في أحدِ الصِّنْفَينِ.

---

(١) في الأصل وم: ربها. (٢) في الأصل وم: بارز. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: يعذبون. (٧) في الأصل وم: يرحمون.

وذَكَرَ[1] الصِّنْفَ الثانيَ، وَوَصَفَهُمْ بأعلامٍ ثلاثةٍ: بِبَياضِ الوُجوهِ وبِثِقَلِ الميزانِ وبإعطاءِ الكِتابِ بأيمانِهِمْ.

ثم في ما فيهِ سَوادُ الوجوهِ ذَكَرَ فيهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وكذلكَ حينَ ذَكَرَ خِفَّةَ الميزانِ ذَكَرَ في آخِرِهِ ما يُبَيِّنُ أنَّ الذينَ خَفَّتْ مَوازِينُهُمْ هُمُ الكَفَرَةُ لأنهُ قالَ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

وذَكَرَ في إعطاءِ الكتابِ بِشمالِهِ[2] ما يُبَيِّنُ أنهُ مِنْ أهلِ الكُفرِ لأنهُ قالَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣و ٣٤].

فَثَبَتَ أنَّ الوعيدَ المُطْلَقَ ذُكِرَ في أهلِ الكُفرِ، وكذلكَ قالَ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ/ ٥٩٢ ـ ب/ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ولم يَقُلْ أُعِدَّتْ لِلْخَلقِ، وقالَ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فَثَبَتَ أنَّ أهلَ النارِ همُ الكُفّارُ.

ثم المؤمنونَ قد يَعْتَرِضَ منهمْ زَلّاتٌ ومَآثِمُ في هذهِ الدنيا، والكفارُ تُؤخَذُ منهمُ المَحاسنُ فيها، ولكنَّ أهلَ الكُفرِ يُجزَونَ جَزاءَ حَسَناتِهِمْ لأنهمْ لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ. وإذا لم يُؤمِنوا بها لم يَقَعْ سَعْيُهُمْ لها، وأمْكَنَ أنْ يكونَ المؤمنُ يُجْعَلُ لهُ العقابُ بِسَيِّئاتِهِ في الدنيا، فَتَخلُصُ لهُ الحَسناتُ في الآخِرَةِ، فَيُجْزَى بها، وجائزٌ أنْ تُكَفَّرَ سَيِّئاتُهُ بالحَسَناتِ التي تُؤخَذُ منهُ لأنَّ المحاسِنَ جُعِلَتْ سَبباً لِتَكفيرِ المَساوِئِ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وإذا كُفِّرَتْ سَيِّئاتُهُ في الدنيا لم يُعَذَّبْ بها في الآخِرَةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يُعَذِّبُهُمْ بِقَدْرِ ذُنوبِهِمْ، ثم يَعفو عنهمْ بِحَسَناتِهِمُ التي سَبَقَتْ منهمْ مِنَ الإيمانِ وغَيرِ ذلكَ.

فكلُّ مؤمنٍ في الحقيقةِ آخِرُهُ الجنةُ، ويَثْقُلُ ميزانُهُ، ويَبْيَضُّ وجهُهُ، ويُعْطَى كِتابُهُ بِيَمينِهِ. [ثم][3] يجوزُ أنْ يكونَ الذي يُعاقَب بذنوبِهِ مِنْ أهلِ الإيمانِ، يعاقَبُ بها[4] قَبْلَ أنْ يُعطى كتابُهُ بيمينِهِ، ويَثْقُلَ ميزانُهُ، وقَبلَ أنْ يَبْيَضَّ وجهُهُ لم يكُنْ مُسْوَدَّ الوجْهِ[5]، ولكنْ على ما عليهِ في الدنيا.

ثم متى عُفِيَ عنهُ في الخَبَرِ «أنَّ الناسَ يُعْرَضونَ يومَ القِيامةِ ثلاثَ عَرَضاتٍ فأمّا عَرْضتانِ ففيهما خُصوماتٌ ومَعاذيرُ، وأمّا العَرْضَةُ الثالثةُ فَتَطايَرُ الصُّحُفُ في الأيدي» [الترمذي: ٢٤٢٥].

فيجوزُ أنْ يكونَ تعذيبُهُ قَبْلَ العَرْضَةِ الثالثةِ، ثم يُعْطَى كتابُهُ في العَرْضةِ الثالثةِ بِيَمينِهِ، فَتَظْهَرُ لهُ أعلامُ السعادةِ إذْ ذاكَ.

فإذا ثَبَتَ أنَّ الوعيدَ المُطْلَقَ إنما جاءَ في أهلِ الكُفرِ لم يَلْحَقْ أهلَ الكبائرِ مِنْ أهلِ الإيمانِ بهمْ في الحكْمِ، بل وَجَبَ الوَقْفُ في حالِهِمْ كما قالَ أصحابُنا، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿هَآؤُمُ﴾ تعالَوا، وقال بعضُهُمْ: هو بِمَعْنَى هاكُمْ، أي خُذوا، فأُبْدِلَتِ الهمزةُ مَكانَ الكافِ.

فظاهرُ الآيةِ أنَّ المُعْطَى لهُ الكتابُ يقولُ: هذا؛ يَدْعو الخَلْقَ، ويُناوِلُهُمُ الكتابَ اسْتِبْشاراً وحُبوراً، فَبَشَّرَهُمْ بِعَفوِ اللهِ تعالى عنهُ ورحمتِهِ عليهِ.

ولكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفوا التأويلَ إلى المُعْطِي، فقالوا: هو الذي يقولُ هذا، فكانَ الذي يقولُ: كُتِبَ الكتابُ في الدنيا، مِنَ المَلَكِ، وهو الذي يُعطي الكتابَ إلى المكتوبِ إليهِ، ويقولُ: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي خُذوا وَاقْرَؤوا ما كَتَبْتُ لكُمْ وعليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ فإنْ حَمَلْتَهُ على حَقيقةِ الظَّنِّ فهو يُخَرَّجُ على ثلاثةِ أوجُهٍ:

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وذكر فيه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: به. (٥) في الأصل وم: الوجوه.

أحدُها: أني ظَنَنْتُ في الدنيا أني أُلاقي الحسابَ الشديدَ في ما سَبَقَ مِنْ سَيِّئاتي، وأُآخَذُ بها، وأُجازَى عليها، وظَنَنْتُ الساعةَ ألّا أنجُوَ مِنْ ذُنوبي لِفَزَعِ هذا اليومِ، فوجَدْتُ سَيِّئاتي قد غُفِرَتْ، وخطايايَ كُفِّرَتْ عني، فيكونُ قولُهُ منهُ هذا شُكراً للهِ تعالى وإظهاراً لِمِنَّتِهِ.

والثاني: أني تَرَكْتُ [دارَ الدنيا، وقد](١) عَرَضَتْ ليَ الحوادثُ مِنَ الزَّلّاتِ والهَفَواتِ، وظَنَنْتُ(٢) أني أُلاقي اللهَ تعالى بها، فأمسَكْتُ عنها، وانْزَجَرْتُ عنْ إتيانِها، فيكونُ إخباراً عَنْ بَيانِ سببِ ذلكَ.

والثالثُ: أني تَفَكَّرْتُ في أمري، فَظَنَنْتُ أنَّ مِثْلي لا يُتْرَكُ سُدىً هَمَلاً، فأدّى ظَنّي إلى اليقينِ، فآمَنْتُ، وصَدَّقْتُ الرسلَ، فإنما نَجَوْتُ بأوّلِ ظَنّي وفِكْرَتي.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الظَّنَّ إلى اليَقينِ والعِلْمِ، فقالَ: مَعْنى قولِهِ: ﴿ظَنَنتُ﴾ أي تَيَقَّنْتُ، وعَلِمْتُ.

والأصلُ أنَّ كلَّ يقينٍ حَدَثَ في الأمورِ المُسْتَتِرَةِ والعلومِ الخَفِيَّةِ فإنما يَتَوَلَّدُ ذلكَ عنْ ظَنٍّ، يَسْبِقُ، فَيَحْمِلُهُ ذلكَ الظَّنُّ على النَّظَرِ فيهِ والبحثِ عنْ حالِهِ حتى يُفْضِيَ بهِ إلى الوقوفِ على ما اسْتَتَرَ منهُ، فَيَصيرَ الخَفِيُّ جَلِيّاً، فيكونَ سَبَبَ بُلوغِهِ إلى اليَقينِ والإحاطةِ [ذلكَ الظَّنُّ](٣) الذي سَبَقَ منهُ.

فجائزٌ أنْ يُسَمّى ذلكَ يَقيناً مَرَّةً على الحقيقةِ، وظَنّاً ثانياً على المَجازِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الآية: ١٢] أنَّ الأُذُنَ لا تَعي شيئاً، بل تَسْمَعُ، ولكنهُ لمّا يُوصَلُ إلى الوَعْيِ بالأُذُنِ صارتِ الأُذُنُ سَبَباً للإيصالِ إلى الوَعْيِ، وأضافَ الوَعْيَ إليها.

فَعَلى ذلكَ ظُنونُهُمْ في الابْتِداءِ إذا بَلَّغَتْهُمْ إلى اليَقينِ والعِلْمِ سَمَّوا يَقينَهُمْ وعِلْمَهُمْ ظَنّاً مَرَّةً ويَقيناً ثانياً. ألا تَرى أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] وقالَ في مَوضعٍ آخرَ: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]؟ فَجَعَلَهُمْ مَرَّةً ظانِّينَ ومَرَّةً مُوقِنينَ في ما كانَ طريقُهُ البحثَ وإعمالَ الفِكْرِ.

وبهذا لا يَجوزُ أنْ يوصَفَ اللهُ تعالى بالإيقانِ في أمْرٍ مِنَ الأمورِ، لأنَّ الأشياءَ لهُ بارزةٌ ظاهِرةٌ؛ إذْ هو مُنْشِئُها وخالِقُها، فلا يَخْفَى عليهِ شيءٌ منها، فَيَحْتاجَ إلى البحثِ عنها والنَّظَرِ فيها، واللهُ المُوَفِّقُ.

ويقولُ: إنَّ الأمورَ التي سَبيلُ دَرْكِها الاجْتِهادُ، لا يَخْلُو شيءٌ منها مِنِ اعْتِراضِ وَساوِسَ وخواطِرَ فيها، فتلكَ الوَساوِسُ والخَواطِرُ تُفْضي بِصاحِبِها إلى الجنونِ، فاسْتَجازوا إطلاقَ الظَّنِّ فيها لِما لا يَخْلُو منهُ، واسْتَجازوا إطلاقَ اليَقينِ لِما غَلَبَ عليها دلالاتُ اليَقينِ والإحاطةِ.

ألا تَرى أنَّ [مَنْ](٤) يُهَدَّدُ بالوعدِ الشديدِ أو بالقتلِ على أنْ يَكْفُرَ باللهِ تعالى أُبيحَ لهُ أنْ يُجْرِيَ كلمةَ الكُفْرِ على لِسانِهِ، وجُعِلَ كالمؤمنِ(٥) بإحلالِ العذابِ مِنَ المُكْرِهِ، لو(٦) امْتَنَعَ عنِ الإجابةِ إلى ما دَعاهُ، وإنْ لم يُتَيَقَّنْ بأنهُ يُفْعَلُ بهِ، لا مَحالةَ، ما أُوعِدَ بهِ، لأنهُ يجوزُ ألّا يُمَكَّنَ مِنْ ذلكَ، ويجوزُ ألّا يُبْقَى إلى ذلكَ الوقتِ؟

ثم وُسِّعَ لهُ فِعْلُ ذلكَ بأكْبَرِ الرأيِ وغَلَبَةِ الظَّنِّ، وحلَّ ذلكَ مَحَلَّ الإحاطةِ واليَقينِ. فَعَلَى ذلكَ ههنا لمّا غَلَبَتْ دلالاتُ اليَقينِ والصِّدْقِ جازَ إطلاقُ لفظةِ اليَقينِ عليهِ.

فأمّا الأشياءُ التي تُدْرَكُ بالحواسِّ والمُشاهَداتِ فلا سَبيلَ إلى تَسْمِيَةِ مِثْلِهِ ظَنّاً لِما يَحْتَمِلُ اعْتِراضَ الشُّبْهَةِ فيها، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي في حياةٍ راضِيَةٍ؛ يُقالُ: عاشَ، وحَيِيَ، بمَعْنًى واحدٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بِمَعْنى مَرْضِيَّةٍ، معناهُ أنَّ نفسَهُ في حياةٍ تَرْضَى بها كقولِهِ: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي مدفوقٍ، ومِثْلُهُ في الكلامِ كثيرٌ.

---

(١) في الأصل وم: في دار الدنيا إذا. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كالموقن. (٦) في الأصل: ولو.

ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ نفسَ الجنةِ قد رَضِيَت بأهلِها، وأظهَرَتْ رضاها بهِمْ كما وَصَفَ الجَحيمَ بالسُّخطِ والتَّغَيُّظِ على أهلِها. وجائزٌ مِثْلُهُ في الجنةِ رِضاً واستِبْشاراً؛ إذْ على مَعْنَى أنَّ الجنةَ تُظْهِرُ لهمْ مِنْ أنواعِ الكراماتِ والخَيراتِ ما لو كانَ ذلكَ منْ ذي العقلِ يكونُ ذلكَ دليلَ الرِّضا كما يُضافُ الغرورُ إلى الدنيا، وهيَ أنها تُظْهِرُ مِنْ نفسِها ما لو كانَ ذلكَ مِمَّنْ يَمْلِكُ التَّغريرَ يكونُ ذلكَ غُروراً مِنْ نفسِها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُرْتَفِعةٌ على ما يُسْتَحَبُّ في الدنيا مِنَ الجِنانِ: في رَبْوةٍ مِنَ الأرضِ مرتَفِعةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الجنةُ اسْمٌ لِرَوضةٍ ذاتِ أشجارٍ، فكأنهُ يَصِفُ أشجارَها بالارْتِفاعِ والطُّولِ والمَنْظَرِ، وذلكَ أشهَى إلى أربابِها، وهذا ما قالَ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الآية: ٢٣] مِنْ غَيرِ ذِكْرِ الأشجارِ، لأنَّ ذِكْرَ الجنةِ اقْتَضَى ذِكْرَ الأشجارِ.

[وقالَ بعضُهُمْ][1]: يكونُ مَعْنَى العاليةِ عَظَمةَ القَدْرِ والخَطَرِ: مرتفعةٌ. وقد يوصفُ الشيءُ الرفيعُ بالعُلوِّ/ ٥٩٣ ـ أ/ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ ثم قولُهُ تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي في القُطوفِ مُتَدانيةٌ مِنْ أهلِها لِمَنْ يُريدُ قَطْفَها وبَعيدةٌ لِمَنْ لا يُريدُ قَطْفَها. وقيلَ: دانيةٌ يَنالُها القاعِدُ كما يَنالُها القائمُ. وقيلَ: ثِمارُها دانيةٌ أي لا يَرُدُّ أيديَهُمْ بُعْدٌ ولا شَوكٌ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ تأويلُهُ أنْ يُقالَ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: إنما جَعَلْتُمْ أيامَكُمُ الخاليةَ سَلَفاً [في أيامِ الدنيا][2]، وسَلَفُ الرجلِ][3] لآخَرَ، هو أنْ يُعْطيَهُ قَرْضاً لِيأخُذَ مِثْلَهُ وقتَ الحاجةِ إليهِ، أو يُسَلِّمَ الرجلُ رأسَ مالِهِ في الأشياءِ التي يأمُلُ منها الرِّبحَ؛ فكأنهُ يُماري نفسَهُ بِجَعْلِها سَلَفاً ورأسَ مالٍ ليأخُذَ ربحَ ما باعَ في الآخِرةِ، فذلكَ هو الإسلافُ، أو يَجْعَلَ عَمَلَهُ للآخِرةِ رأسَ مالِهِ وما رُزِقَ مِنَ الأموالِ، يُنْفِقُها في سَبيلِ اللهِ، ويَجْعَلُ ذلكَ رأسَ مالِهِ.

وذُكِرَ عنْ وَكيعٍ أنهُ قالَ: بَلَغَنا أنَّ الذينَ أسْلَفوا الصومَ أي أنهمْ صاموا في الدنيا، وتركوا الطعامَ والشرابَ، فأثابَهُمُ اللهُ في الآخِرةِ، فقالَ[4]: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ الإيتاءُ بالشمالِ أحدُ أعلامِ الشَّقاءِ؛ يَتَمَنَّى ألّا يُؤْتَى بما فيهِ عِلْمُ شَقائِهِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ يقولُ هذا في الوقتِ الذي قَرَأَ، ورأى فيهِ[5] خِلافَ ما كانَ يَظُنُّ في الدنيا، ويَحْسَبُ، لأنهُ كانَ يَحْسَبُ أنهُ في الدنيا أحسَنُ صُنْعاً مِنَ الذينَ آمنوا، وأنهُ أقْرَبُ مَنْزِلةً إلى اللهِ تعالى كما قالَ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فَظَهَرَ لهُ بِقراءتِهِ الكتابَ أنهُ لم يكُنْ على [ما][6] حَسِبَ، بل قد أساءَ صُنْعَهُ، فَوَدَّ عندَ ذلكَ ألّا يَعْرِفَ ما حسابُهُ لئلا تُظْهَرَ مَساوِئُهُ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ يَتَمَنّى أنهُ تُرِكَ مَيْتاً، ولم يَحْيَ حتى كانَ لا يَرَى الحسابَ؛ ولا يَعْرِفُهُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي ياليتَ المِيتةَ الأولَى كانَتْ دائمةً عليَّ. وقالَ بعضُهُمْ: يا ليتَ النَّفخةَ الأخيرةَ، كانَتْ تَقْضي بالموتِ والهَلاكِ، لم تكُنْ مِحْنةً باعثةً، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قتادةُ: تَمَنَّوُا الموتَ، ولم يكُنْ شيءٌ في الدنيا أكْرَهَ إليهِمْ منهُ، ثم الموتُ عليهِمْ مَقْضِيٌّ، وليسَ بِقاضٍ، فَحَقُّهُ أنْ يقولَ: يا ليتَها كانَتْ مَقْضِيَّةً. ولكنَّ هذهِ اللفظةَ يَذْكُرُها الناسُ في كلِّ مكروهٍ مِنَ الأمورِ.

ألا تَرَى أنَّ الناسَ يَدْعونَ اللهَ تعالى بأنْ يَصْرِفَ عنهمْ قَضاءَ السُّوءِ؟ وليسَ بِقَضاءِ اللهِ، بل هو مَقْضِيُّهُ. فَخَرَجَ القولُ على ما تعارَفوا. وهذا كما يُقالُ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، وليسَتْ هي بأمْرِهِ، ولكنَّ تأويلَهُ أنها بأمْرِه ما تُقامُ، فَسُمِّيَ أيضاً قَضاءَ اللهِ، وهو في الحَقيقةِ مَقْضِيُّهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في م: الآخرة. (٣) من نسخة الحرم المكي وم، في الأصل: لرجل. (٤) في الأصل وم: فقلوا. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ في الأصلِ أنَّ الكَفَرَةَ كانوا يَفتَخِرونَ بكثْرَةِ أموالِهِمْ [وأولادِهِمْ][1] فيقولونَ: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥] فيَزْعُمونَ أنَّ اللهَ تعالى بِما آتاهُمْ مِنَ الأموالِ يدفَعونَ عنْ أنفسِهِمُ العذابَ بأموالِهِمْ، إنْ[2] حلَّ بهِمْ، فيَتَبَيَّنُ لهمْ في ذلكَ الوقْتِ أنها لا تُغْني عنهمْ شيئاً، فيقولُ كلُّ واحدٍ منهمْ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ ذُكِرَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﵄ أنهُ قالَ: كلُّ سلطانٍ في القرآنِ فهو حُجَّةٌ.

والأصلُ أنَّ كلَّ كافرٍ كانَ يَحتَجُّ في الدنيا لِنفسِهِ بِحُجَجٍ باطلةٍ: فَمَرَّةً يقولُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤و١٨٦]، ويقولُ مَرَّةً: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧] ومَرَّةً يقولُ: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ [النمل: ١٣و..] ومَرَّةً يقولُ: ﴿مَجۡنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] وغيرَ ذلكَ، فَيصيرُ يقولُ: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ أي هَلَكَتْ تلكَ الحُجَجُ التي كنّا نَتَشبَّثُ بها، واضمَحلَّتْ، وظَنَنّا أنها حُجَجٌ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: السلطانُ هو القَدْرُ والشَّرَفُ، أي ذهبَ ذلكَ كلُّهُ. وقيلَ: أي هَلَكَ عني تَكَبُّري وسُلْطاني على الأنبياءِ في الدنيا وتَرْكُ الاكْتِراثِ إليهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بِهِ أنَّ السلطانَ الذي كانَ لي على نفسي في الدنيا قد انقطَعَ لأنهُ كانَ يَمْلِكُ اسْتِعمالَهُ[3] في أمرِ مَرْضاةِ اللهِ، فيقولُ: قد انقَطَعَ ذلكَ السلطانُ لأني لا أملِكُ اسْتِعمالَهُ[4] في ما أَسْتَوجِبُ بِهِ مَرْضاةَ الربِّ، لأنهُ يُسْلِمُ، فلا يَقْبَلُ منهُ إسلامَهُ.

ثم يجوزُ أنْ تكونَ الهاءاتُ في هذهِ الخِطاباتِ[5] على مَعْنَى الإشاراتِ إلى الأنفسِ أو على تأكيدِ الأمرِ والمُبالغةِ كالمُتشابِهِ، أو كأنهمْ يُنادونَ أنفسَهُمْ بذلكَ. وقد تدخُلُ الهاءُ في النداءِ كقولِهِ: يا ربّاهُ، ويا سَيِّداهُ. وجائزٌ أنْ يكونَ [لِلْوَقْفِ وإتمامِ][6] الكلامِ، وأهلُ النحوِ يُسَمُّونَها[7] هاءَ الاسْتِراحةِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ كقولِهِ[8] في موضعٍ آخَرَ: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧] وهو السَّوقُ إلى الحَتْفِ وكقولِهِ[9] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم: ٨٦] فكأنهمْ، واللهُ أعلمُ، مُغَلُّونَ بَدْءَ الأمرِ بالأغلالِ لأنَّ الناسَ في الدنيا يَجْتَهِدونَ كلَّ الجَهْدِ في دَفْعِ[10] العذابِ بأيديهِمْ.

فأخْبَرَ أنَّ أيديَهُمْ تُغَلُّ في الآخِرَةِ؛ فلا يَتَهيَّأُ لهمْ دَفْعُ ما يَحُلُّ مِنَ العذابِ، فيكونُ ذلكَ أشَدَّ عليهِمْ، ويكونُ حالُهُمْ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الزمر: ٢٤] فتُغَلُّ يداهُ كي لا يَتَّقِيَ النارَ بوجهِهِ.

ثم يُدْخَلونَ[11] في السلاسلِ، فَيُجَرّونَ، ويُسْحبونَ، ويُساقونَ، على وُجوهِهِمْ على اخْتِلافِ أحوالِ القيامةِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي أدخِلوهُ، يُقالُ: لَحْمٌ مُصَلًّى، أي مَشْوِيٌّ؛ فجائزٌ أنْ يُؤْمَرَ، فَيُشْوَى في الجَحيمِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ فَذَكَرَ أوّلاً أنهمْ يُغَلّونَ، ثم يُصَلَّونَ الجحيمَ، ثم يُسَلْسَلونَ إذْ ذاكَ، وحقُّ مِثْلِهِ أنْ يُسَلْسَلَ، ثم يُمَدُّ إلى جهنَّمَ.

ولكنهُ يُشْبِهُ أنْ يكونوا أوّلاً يُحشَرونَ، ثم يُساقونَ إلى نارِ جهنمَ بقولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: ٧١] أو إذا وَرَدُوها هَمّوا أنْ يَفِرّوا منها، فَيُسَلْسَلونَ إذْ ذاكَ، ويُسْحَبونَ في النارِ حينَئِذٍ، فلا يَتَهيَّأُ لهمُ الهربُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ففيهِ بَيانُ السببِ الذي لأجْلِهِ اسْتَوجَبوا هذا العقابَ، وهو أنهمْ كانوا لا يُؤْمِنونَ باللهِ العظيمِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: فيقولون. (٣) في الأصل وم: استعمالها. (٤) في الأصل وم: استعمالها. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: الخطيئات. (٦) في الأصل: الوقت واحمام، في م: الوقف واتمام. (٧) في الأصل وم: يسمونه. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل: موضع، في م: منع. (١١) في الأصل وم: يدخل.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ لا يؤمنُ بِوَحْدانيَّتِهِ، أو لا يؤمِنُ بإرسالِ الرسُلِ، أو كانَ لا يؤمِنُ بالبعثِ. وإلّا فهمْ يؤمنونَ باللهِ، ولكنْ مَنْ لم يكُنْ مؤمناً بالرسُلِ والبعثِ فهو غيرُ مؤمنٍ في الحقيقةِ، لأنَّ الإلهَ الحقَّ هو الذي أرسلَ الرسلَ، ويَقْدِرُ على البعثِ، والكافرُ لا يُثْبِتُ لهُ قدرةَ البعثِ، ولا يَراهُ[1] أرسلَ الرسلَ، فصارَ لا يؤمنَ باللهِ العظيمِ في الحقيقةِ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ إخبارٌ أنهُ كانَ لا يؤمنَ بالبعثِ، لأنَّ المؤمنين[2] ليسَوا يَطلُبونَ مِنَ المساكينِ الجَزاءِ لِما يُطعِمونَهُمْ، وإنما يُطعِمونَهُمْ لِوَجْهِ اللهِ ورَجاءِ الثوابِ في الآخِرةِ.

والكافرُ غَيرُ مؤمنٍ بالجَزاءِ لِيَحْمِلَهُ ذلكَ على الإطعامِ، وليسَ هو بِكسْبٍ، يَرْغَبُ فيهِ، مِنْ مَكاسِبِ الدنيا، فكأنهُ يقولُ: إنَّ الذي أفْضَى بهِ إلى النارِ تَرْكُهُ الإيمانَ باللهِ تعالى أو بالبعثِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ إثباتَ السُّخْريةِ مِنَ الذي تَرَكَ [حَضَّ أهلِهِ على الإطعامِ][3] كقولِهِ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] يقولُ: كيفَ نُطْعِمُهُ[4]، ومَنْ بيدِهِ خَزائنُ السمواتِ والأرضِ، لا يُطْعِمُهُ؟ فلو كانَ أهلاً للإطعامِ لَكانَ الأولَى بأنْ[5] يُطْعِمَهُ اللهُ تعالى.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريبٌ يرجو منهُ. وهو كقولِهِ تعالى: /٥٩٣ ـ ب/ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فليسَ لهُ قريبٌ، يرجوهُ، أو يَنْفَعُهُ ذلكَ الحَميمُ، وقد كانَ لهُ في الدنيا حميمٌ، يَنْتَفِعُ بهِ، ويَرْجو منهُ

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ كقولِهِ تعالى في موضعٍ آخَرَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] وقولِهِ تعالى في موضعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١ و٥٢] والزَّقُّومُ غَيرُ الضَّريعِ.

فهذا، واللهُ أعلَمُ، أنَّ في جهنَّمَ دَرَكاتٍ؛ فأهلُ دَرَكةٍ منها، لا يَجدونَ غَيرَ الغِسْلينِ، وأهلُ دَرَكةٍ منها، طعامُهُمْ الزَّقُّومُ، ليسَ لهمْ غَيرُهُ، وإلّا لو لم يُحْمَلِ الأمرُ على [هذا][6] لأَوجَبَ ما ذَكَرْناهُ اخْتِلافاً، فَيُخَرَّجُ أنْ يكونَ مِنْ عندِ اللهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ثم يجوزُ أنْ يكونَ قَدْرُ كلِّ أهلِ دَرَكةٍ ما تُوجِبُهُ الحِكْمةُ أنْ يكونَ طعامُهُمْ. فَعلَى ما كانوا يَفْتَخِرونَ في هذهِ الدنيا بالأطعمةِ على مَنْ دونَهُمْ، ويُهينونَ مَنْ لم يكُنْ عندَهُ ذلكَ الطعامُ، جَعَلَ اللهُ تعالى لهمْ مِنْ ذلكَ الوجهِ طعاماً في الجَحيمِ، يُهانونَ بهِ.

وقالَ الحسنُ: إنَّ القرآنَ كلَّهُ كسورةٍ واحدةٍ، والسورةَ كأنها آيةٌ واحدةٌ، فكأنهُ جَمَعَ بَينَ هذهِ الأشياءِ كلِّها في آيةٍ واحدةٍ، فليسَ لهمْ طعامٌ إلّا مِنْ غِسْلينٍ، وليسَ لهمْ طعامٌ إلّا مِنْ ضريعٍ ومِنْ زَقّومٍ. وإذا حُمِلَ على ما ذَكَرَ ارْتَفَعَ تَوَهُّمُ التَّناقُضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا[7] اسماً لشَيءٍ مِنَ الأشياءِ التي يُعَذَّبُ بها أهلُ النارِ، لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى الخَلْقَ على عِلْمِ ذلكَ ومَعْرِفَتِهِ، وقد ذَكَرَ أساميَ في الآخِرةِ، ليسَ لِلْخَلْقِ بِمَعْرِفَتِها عَهْدٌ.

ألا تَرَى أنَّ الزَّقّومَ ليسَ باسْمٍ لِشَيءٍ يُسْتَقْبَحُ، ويُسْتَفْظَعُ في الدنيا، ثم جَعَلَهُ اللهُ تعالى اسماً لِلشَّيءِ المُسْتَبْشَعِ الكريهِ في الآخِرةِ، وقالَ: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨] والسَّلْسَبيلُ غَيرُ مَعْروفٍ في ما بَينَ أهلِ اللسانِ؟.

وقالَ بعضُهُمْ: الغِسْلينُ ما يَسيلُ مِنْ جُلودِ أهلِ النارِ إذا عُذِّبوا، وذلكَ هو الصَّديدُ والقَيحُ.

---

(١) من م، في الأصل: يراد. (٢) في الأصل وم: الناس. (٣) في الأصل وم: المحض على أهله بالإطعام. (٤) في الأصل وم: أطعمه. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: هذه.

وجائزٌ أنْ يكونَ إذا اشْتَدَّ حَرُّهُمُ استغاثوا إلى اللهِ تعالى، وطَلَبوا منهُ يَرْجونَ أنْ يَرْفَعَ عنهمُ الحرَّ، فَيَصُبُّ عليهمْ ما يزيدُ في عذابِهِمْ، فَيُسَمَّى ما يَزولُ عنهمْ غِسْليناً، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ وهُمُ الذينَ قالَ [فيهِمْ][1]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الآيتين: ٣٣ و٣٤].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ لا يَجوزُ أنْ تكونَ السِّلْسِلةُ تَفْضُلُ عنْ أبدانِهِمْ، فتأخُذُ فَضْلَ مكانٍ مِنْ جهنَّمَ، لأنهُ تعالى وَعَدَ أنْ يَمْلأَ ﴿جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩و السجدة: ١٣] ولو كانتْ تلكَ السِّلْسِلةُ آخِذةً فَضْلَ مكانٍ لَكانَ لا يَقَعُ الامْتِلاءُ بالجِنَّةِ والناسِ أجمعينَ فقط [وإنما][2] يُؤدِّي إلى خُلْفِ الوَعْدِ، واللهُ ﷻ لا يُخْلِفُ الميعادَ.

ولكنْ إنْ كانتْ تلكَ السِّلْسِلةُ أطْوَلَ مِنْ أبدانِهِمْ فهي تذكيرٌ لأهلِها[3] لِيَقَعَ لهمْ بها فَضْلُ تَضْييقٍ وغَمٍّ. فأمّا أنْ تَفْضُلَ عنْ ابدانِهِمْ، فلا يُحْتَمَلُ.

وذُكِرَ عنْ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ﷺ أنهُ قالَ: حاسِبوا أنفسَكُمْ قَبْلَ أنْ تُحاسَبوا فإنهُ أهْوَنُ، أو قالَ: أيْسَرُ عليكُمْ، وَزِنوا أنفسَكُمْ قبلَ أنْ تُوزَنوا، وتَجَهَّزوا لِلعَرْضِ الأكبرِ يومَ القيامةِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الآية: ١٨].

وعنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: إنَّ المؤمنَ قَوّامٌ نفسِهِ للهِ تعالى، وإنما خَفَّ الحِسابُ يومَ القيامةِ على قومٍ، حاسَبوا أنفسَهُمْ في الدنيا، وإنما شَقَّ الحسابُ يومَ القيامةِ على قومٍ أخَذوا هذا الأمرَ مِنْ غَيرِ مُحاسَبةٍ، إنَّ المؤمنَ يَفْجَؤُهُ الشيءُ، فيقولُ: واللهِ لأنّي أشْتَهيكَ، وإنكَ لَمِنْ حاجَتي، ولكنْ واللهِ مالي مِنْ صِلَةٍ إليكَ، هيهاتَ، حيلَ بيني وبَيْنَكَ. ويَفْرُطُ منهُ الشيءُ، فَيَرْجِعُ إلى نفسِهِ، فيقولُ: ما أرَدْتُ هذا، مالي ولهذا؟ واللهِ لا أعودُ لهذا، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

إن المؤمنينَ قومٌ أوثَقَهُمُ العذابُ، وحالَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ هَلَكَتِهِمْ أنَّ المؤمنَ أسيرٌ في الدنيا، يَسْعَى في فَكاكِ نفسِهِ، لا يَأمَنُ شيئاً حتى يَلْقَى اللهَ، يَعْلَمُ أنهُ مأخوذٌ عليهِ في سَمْعِهِ وبَصَرِهِ ولِسانِهِ وجَوارِحِهِ كلِّها، فَمُحاسَبَةُ النفسِ أنْ يَنْظُرَ في كلِّ فِعْلٍ يُريدُ أنْ يُقْدِمَ عليهِ إلى عاقِبَتِهِ.

فإنْ كانَ رُشْداً أمضاهُ، وأنْفَذَهُ، وإنْ كانَ غَيًّا انْتَهى عنهُ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إذا أرَدْتَ أمراً فَتَدَبَّرْ عاقِبَتَهُ، فإنْ كانَ رُشْداً فامْضِهِ وإنْ كانَ غَيًّا فانْتَهِ عنهُ» [الزبيدي في الإتحاف ١٠/ ٩٣ وعزاه لابن المبارك في الزهد].

وقالَ في خَبَرٍ آخَرَ: «إنَّ المؤمنَ وَقّافٌ وَزّانٌ» وَوَزْنُهُ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ الأوَّلِ مِنَ النَّظَرِ في العواقبِ؛ فإذا نَظَرَ في العاقبةِ، ورَأَى الرُّشْدَ في إنفاذِهِ، فقد وَزَنَهُ، وإذا رَأَى خِلافَ الرُّشْدِ انْتَهى عنهُ، ولم يُقْدِمْ عليهِ. فذلكَ وَقْفُهُ. فهذا الذي ذَكَرْنا مُحاسَبَةُ المرءِ نفسَهُ في ما يَرومُ مِنَ الأمورِ ومُحاسبةُ نفسِهِ في الأفعالِ التي ارْتَكَبَها، وأمْضاها، أن يَنْظُرَ؛ فإنْ كانَ ارتكَبَ مُحَرَّماً تابَ عنهُ، واسْتَغْفَرَ اللهَ تعالى، لَعَلَّهُ بِفَضْلِهِ يَمُنُّ عليهِ بالمَغْفِرَةِ، وإنْ كانَ فِعْلاً مَرْضِيّاً حَمِدَ اللهَ تعالى، وسألَهُ التوفيقَ بِمِثْلِهِ.

فهذِهِ هي محاسَبَةُ العبدِ لنفسِهِ في ما ارْتَكَبَ مِنَ الأفعالِ.

الآيتان ٣٨ و٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ قَدْ وَصَفْنا أنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وأنفسِكُمْ مِنَ الأسماعِ والأبصارِ والقلوبِ والعقولِ، أو ما تُبْصِرونَ مِنَ الخلائقِ مِمَّنْ حَضَرَكُمْ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ مِنَ الخلائقِ إنْ غابَ عنكُمْ.

فيكونُ القَسَمُ بما تُبْصِرُ وما لا تُبْصِرُ قَسَماً[4] بالخلائقِ أجْمَعَ، لأنَّ جملةَ الخَلائقِ على هذينِ الوجهَينِ: فَصِنفٌ يُرَى، وصِنْفٌ لا يُرَى. وقد ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ مِنَ اللهِ ﷻ لتأكيدِ ما يَقْصِدُ إليهِ مِمّا يُعْرَفُ بالتَّدَبُّرِ والتَّأمُّلِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢)ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: على اهلها. (٤) في الأصل وم: قسم.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي الذي تَسْمَعونَهُ منهُ تَسْمَعونَ مِنْ رسولٍ كريم.

ثم ذَكَرَ ههنا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فَذَكَرَ ههنا كلامَ اللهِ، وذَكَرَ في الآيةِ الأولى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فأمّا [ما][1] أضيفَ إلى الرسولِ فهو مِنْ حيثُ بُلوغُنا إليهِ مِنْ جِهَةِ الرسولِ لا بأمْرِ غَيرِهِ وصَلْنا إليهِ.

وأُضيفَ إلى اللهِ تعالى لأنَّ مَجيئَهُ ومَرْوِيَّهُ [مِنْ عندِهِ][2] وأُضيفَ إلى الرسولِ لأنَّ ظهورَهُ في حَقِّنا كانَ بِهِ.

وهذا كما أُضيفَ ما وَعاهُ القَلْبُ إلى الأُذُنِ بقولِهِ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الآية: ١٢] لأنهُ إنما يُوصَلُ إلى الوَعيِ بالأُذُنِ.

فَعَلَى ذلكَ أُضيفَ القولُ إلى الرسولِ مِنْ حيثُ كانَ سَماعُ الخَلقِ مِنْ جهةِ الرسولِ ﷺ ثم الأصلُ أنَّ الكلامَ والقولَ لا يُسْمَعانِ، وإنما المَسْموعُ منهما الصوتُ الذي يُعْرَفُ بالكلامِ، والقولُ يَدُلُّ عليهِ، لا أنْ يكونَ كلامُهُ في الحَقيقةِ صوتَهُ، فَيُنْسَبُ أيضاً هذا القرآن إلى كلامِ اللهِ تعالى لِما يَدُلُّ على كلامِهِ لا أنْ يكونَ المَسْموعُ في الحَقيقةِ، هو كلامُهُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ أتاكُم بِهِ لقولٍ تَلَقّاهُ مِنْ عندِ اللهِ الرسولُ الكريمُ، فَيُذَكِّرُهُمْ هذا لِيُؤمِّنَهُمْ مِنْ تَخليطٍ يَقَعونَ فيهِ مِنَ الشّياطينِ وغيرِهِمْ مِنَ الأعداءِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ الرسولُ الكريمُ، هو جبريلُ، كما قالَ تعالى في سورةِ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ و٢٠].

ويَحْتَمِلُ: أنْ يكونَ الرسولُ الكريمُ، هو /٥٩٤ ـ أ/ محمدٌ ﷺ. والأشْبَهُ أنْ يكونَ، هو المُرادُ، لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ رسالتَهُ، ولم يكونوا يقولونَ في جبريلَ عليه السلام شيئاً.

الآيتان ٤١ و٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي إنَّ هذا القرآنَ لَقولُ رسولٍ كريم، ليسَ بقولِ شاعرٍ ولا بقولِ كاهنٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وقولُهُ[3]: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: فَبِقليلٍ ما تُؤمنونَ، وبِقليلٍ ما تَذَكَّرونَ مِمّا جاءَكُم بِهِ الرسولُ.

والقليلُ الذي آمنوا بِهِ، وتَذَكَّروا فيهِ، هو الذي كانَ راجعاً إلى مَنافِعِهِمْ.

فأمّا الذي كان عليهِمْ فهمْ لم يُؤمِنوا بِهِ، ولا تَذَكَّروا فيهِ.

وإذا كانَ تأويلُهُ ما ذَكَرْنا فانْتِصابُ القَليلِ لا يَنْزِعُ حَرْفَ الخافضِ، وفي الحَقيقةِ انتِصابُهُ لِكونِهِ مَصْدراً، وهو المفعولُ المُطْلَقُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أضافَ القَليلَ إلى قولِ الكاهنِ والشاعرِ[4]، وتأويلُهُ: أنَّ الأمْرَ[5] لو كانَ على ما يَزْعُمونَ بأنهُ قولُ كاهنٍ وقولُ شاعرٍ[6] فما بالُكُمْ لا تُصَدِّقونَ بالقَليلِ منهُ؟ وتَعْلَمونَ أنَّ الشاعرَ[7]، وإنْ كانَ الغالبُ عليهِ الكذبَ في ما يأتي، فقد يَصْدُقُ في القَليلِ منهُ؟ وكذلكَ الكاهنُ، فما بالُكُمْ لا تُصَدِّقونَ بالقَليلِ منهُ؟ وأنتمْ تَعْلَمونَ أنهُ صادقٌ.

فإنْ كانَ على هذا فهو في مَوضِعِ إيجابِ الحقِّ عليهِمْ أنْ يُصَدِّقوهُ[8]، وإنْ كانَ على التأويلِ الأوّلِ ففيهِ إضمارٌ أنهمْ لا يُؤمِنونَ إلّا بالقَليلِ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالتَّنْزيلُ في الحَقيقةِ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُسْمَعَ لأنهُ إخبارٌ عنْ فِعلِهِ، وإنما الذي يُسْمَعُ منهُ المُنَزَّلُ على رسولِ اللهِ ﷺ ثم أضافَ إلى نفسِهِ التَّنْزيلَ لِيُعْلَمَ أنَّ هذهِ الأخبارَ، وهي[9] قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: والساحر. (٥) في الأصل وم: الأمور. (٦) في الأصل وم: ساحر. (٧) في الأصل وم: الساحر. (٨) من م، في الأصل: يصدقون. (٩) في الأصل وم: وهو.

﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقولُهُ تعالى ﷻ ﴿تَنزِيلٌ﴾ خَرَجَ على المَجازِ ليسَ على التَّحقيقِ، لأنَّ التَّنزِيلَ، هو إنزالُهُ، فَسُمِّيَ تَنْزيلاً لأنهُ هو الذي كَلَّفَهُ الإنزالَ، لا أنْ يكونَ، هو الذي تَوَلّى الإنزالَ، وإنْ كانَ، هو خالقُهُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ فهذا على ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الآيتان: ٤٠ و٤١] وعليه وقوعُ القسمِ، وهو مَوضِعُهُ، فكأنهُ يقولُ: إنَّ الذي تلَقَّاهُ مِنْ عندِهِ رسولٌ كريمٌ، وما هو بِقولٍ، تَلَقّاهُ مِنْ كاهنٍ أو شاعرٍ[1]، ولا بِقولٍ تَقَوَّلَهُ علينا ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الآيتان: ٤٥ و٤٦].

ويَحتَمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنَّ الذي يَسْمَعونَ منهُ رسولٌ كريمٌ، وليسَ بشاعرٍ ولا كاهنٍ ولا مُتَقَوِّلٍ، لأنهمْ كانوا مَرَّةً يَنْسُبونَهُ إلى الكَهانةِ ومَرَّةً إلى السِّحرِ ومَرَّةً أنهُ تَقَوَّلَهُ على اللهِ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ يُبيِّنُ أنَّ عذابَ اللهِ بأخَصِّ عبادِهِ أسْرَعُ وقوعاً، إذا هُمْ خالَفوهُ، وزَلّوا، منهُ بأعدائِهِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ فَتَبَيَّنَ أنهُ لو وُجِدَ منهُ شيءٌ ممّا قالوا لأَخَذَهُ[2] على المكانِ؟

ألا تَرَى إلى آدمَ ﷺ وما حَلَّ بهِ عندَما ابْتُلِيَ بالزَّلَّةِ والخِلافِ؟ وكذلكَ يونسَ ﷺ وما عُوقِبَ بهِ على إثرِ الزَّلَّةِ؟ وهذا لأنَّ عذابَ الأولياءِ يَخرُجُ مُخرَجَ التَّنبيهِ والتَّذكيرِ والاسْتِدعاءِ إلى ما كانوا عليهِ مِنَ الطاعةِ والانْقِيادِ قَبْلَ ارْتِكابِهِمُ الزَّلَّةَ. ولا كذلكَ عذابُ الأعداءِ [إذْ أخَرَ][3] عذابَهُمْ إلى اليومِ الذي يَدومُ عليهِمْ فيهِ العذابُ.

وفيهِ وجهٌ آخَرُ، وهو أنَّ الذي سَمِعْتُموهُ[4] منهُ لو كانَ سِحراً أو شِعْراً أو كَهانةً أو تَقَوُّلاً[5] لَكانَ لا يُمْهِلُهُ اللهُ تعالى، بل يُؤاخِذُهُ على [ما كانَ منهُ][6] مِنْ غيرِ عَجْزٍ[7] كما قالَ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الآية ٤٧] فإمهالُهُ دلَّ على أنَّ الأمْرَ ليسَ كما قالوا، بل هو ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٤٣].

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ فأخذُ اللهِ تعالى عذابُهُ وعُقوبَتُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأنعام: ٤٢] وقولِهِ ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ أي بالقُوَّةِ، أي لا يُعْجِزُنا[8] منهُ شيءٌ، ولا يَفوتُنا عذابُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠ والمعارج: ٤١] أي لا يُعْجِزُنا ما عندَهُ مِنَ الشَّرَفِ والقُوَّةِ مِنْ أنْ نُؤاخِذَهُ، ونُنْزِلَ عليهِ النِّقْمَةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اليمينُ صِلةَ القولِ لا على تَحقيقِ اليَدِ، فَذِكْرُ اليمينِ لأنَّ التَّأديبَ في الشاهدِ والأخذِ، يَقَعُ بها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] فأضافَ التَّقديمَ إلى اليَدِ لا على تَحقيقِ اليَدِ؛ إذْ يجوزُ ألّا يكونَ لِيَدَيهِ بِما قَدَّمَ صُنْعٌ، لكنْ لِما كانَ التَّقديمُ في الشاهدِ يَقَعُ بالأيدي. فَذُكِرَتِ اليَدانِ على ذلكَ لا على تَحقيقِ الفِعْلِ بهما. فكذلكَ يَجوزُ أنْ تكونَ اليمينُ ذُكِرَتْ لِما بها يَقَعُ الأخذُ والتَّأديبُ في الشاهدِ، وإنْ لم يكُنْ هنالكَ يَمينٌ، واللهُ أعلَمُ.

واليمينُ القُوَّةُ، وسُمِّيَتِ اليمينُ يَميناً لأنَّ قُدْرَةَ الرجلِ تكونُ فيها، وسُمِّيَ مُلْكُ الرِّقابِ مُلْكَ يَمينٍ لأنَّ مُلْكَ اليمينِ يُكْتَسَبُ بالقهرِ والغَلَبَةِ، وإنما يَصِلُ المَرْءُ إلى القَهْرِ والغَلَبَةِ بالقُوَّةِ، فَسُمِّيَ مُلْكَ يَمينٍ لهذا، لا أنْ يُرادَ بِذِكْرِ اليَمينِ تَحقيقُ اليَمينِ؛ إذِ اليَدُ لا تَمْلِكُ شيئاً حتى يُضافُ إليها، فكذلكَ في ما أُضيفَ مِنَ اليَمينِ إلى اللهِ تعالى، فالمرادُ منهُ القُوَّةُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [قيلَ: الوَتينُ][9] عِرقٌ في القَلْبِ، وقيلَ: حَبْلٌ في القَلْبِ، وقيلَ: هو العِرْقُ الذي إذا قُطِعَ ماتَ صاحِبُهُ، وهو عِرْقٌ مُتَّصِلٌ بالظَّهْرِ، فكأنهُ قالَ: نُعَذِّبُهُ عذاباً، لا بَقاءَ لهُ معَ ذلكَ العذابِ، وهذا

---

(١) في الأصل وم: ساحر. (٢) من م، في الأصل: لأخذناه. (٣) في الأصل وم: فأخر. (٤) في الأصل وم: سمعتم. (٥) في الأصل وم: تقولة. (٦) في الأصل وم: المكان. (٧) في الأصل وم: أن عجزوا. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يعجزه ما. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

مِنْ أعظَمِ آياتِ الرسلِ[١] في أنهمْ متى زَلُّوا أُخِذُوا على [ما كانَ منهمْ][٢]، ويكونُ فيهِ أمانُ الخَلْقِ مِنْ إحداثِ التَّغْيِيرِ والتَّبديلِ مِنَ الرسلِ لأنهمْ لو غَيَّروا لَعُذِّبوا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِنْهُ﴾ زيادةً في الكلامِ، وحقُّهُ الإسقاطُ، ويكونُ مَعْناهُ: لأخَذْناهُ باليَمينِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ لأخَذْنا مِنْ تَقَوُّلِهِ وسِحْرِهِ وكهانَتِهِ باليَمينِ؛ فإنْ كانَ على هذا فَحَقُّهُ الإثباتُ، وليسَ بِصِلَةٍ زائِدَةٍ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ ففي هذا يَأسٌ منهُ لأولئكَ الكَفَرَةِ لأنهمْ كانوا يَطْعمونَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ اتِّباعَهُمْ ومُوافَقَتَهُمْ على مِلَّتِهِمْ، فأخبَرَ أنه لو أجابَهُمْ[٣] لَقَطَعَ منهُ وَتينَهُ، وأخَذَهُ، لا يَمْلِكونَ مَنْعَ ذلكَ عنهُ ولا دَفْعَهُ، ولم يَكُنْ أحدٌ يَنْصُرُهُ عندَ ذلكَ، أو يَحْجُزُهُ عنا. وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ و٧٤ و٧٥].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فالمُتَّقونَ همُ المُوَحِّدونَ؛ فَسَمّاهُمْ مَرَّةً مُتَّقِينَ ومَرَّةً صابِرينَ ومَرَّةً شاكِرينَ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] وهو تَذْكِرَةٌ لأنهُ يُذَكِّرُهُمُ الوَعْدَ والوَعيدَ وما يُتَّقَى وما يُؤْتَى وغيرَ ذلكَ. فهو تَذْكِرَةٌ؛ يعني القرآنَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي بآياتي ورسُلي، ثم نُمْهِلُكُمْ[٤]، فهو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الآية: ٤٤] فَبَيَّنَ أنهُ معَ كَذِبِهِمْ بآياتِهِ ورسلِهِ يُمْهِلُهُمْ، ولا يَعْجَلُ عليهمْ بالعقوبةِ، ولو وَجَدَ التَّقَوُّلَ مِنَ الرسولِ لَكانَ يَسْتَأْصِلُهُ، ويَقْطَعُ وَتينَهُ.

فهو على ما ذَكَرْنا أنَّ عذابَهُ على خَواصِّ عبادِهِ أسْرَعُ وقوعاً، إذا خالَفوا، منهُ بأعدائِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ [قولُهُ ﷻ][٥] ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ همُ المُنافقونَ لأنهمْ كانوا يُظْهِرونَ/ ٥٩٤ ـ ب/ المُوافَقَةَ لِرسولِ اللهِ ﷺ بألسنَتِهِمْ، ويُخالفونَهُ، ويُكَذِّبونَهُ، بِقُلوبِهِمْ، فيكونُ هذا التأويلُ راجعاً إلى أهلِ النِّفاقِ.

والتأويلُ الأوَّلُ إلى أهلِ الكُفْرِ الذينَ أظْهَروا التكذيبَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي القرآنُ[٦] حَسْرَةٌ عليهمْ يومَ القيامةِ لأنهُ شافعٌ مُشَفَّعٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بما فيهِ، وما حَلٌ مُصَدَّقٌ، ولِمَنْ نَبَذَهُ وراءَ ظَهْرِهِ، ولم يَعْمَلْ بهِ فهو حَسْرَةٌ عليهمْ، لأنهُ يُخاصِمُهُمْ، فَيَخْصِمُهُمْ، ويَشْهَدُ عليهمْ، فَيَصْدُقُ [في][٧] شهادَتُهُ، ويَذْكُرونَ يومَ القيامةِ معامَلَتَهُمْ بالقرآنِ، فَيَنْدَمونَ عليهِ، ويَزيدُهُمْ حَسْرَةً لأنهمْ إذا يُتْلَى عليهِمُ القرآنُ في الدنيا ازْدادوا عندَ تِلاوَتِهِ ضَلالاً وكُفْراً، وازْدادوا بهِ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ كما قالَ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وهو ليسَ بِسَبَبٍ لِازْدِيادِ الرجْسِ، ولكنَّهُمْ كانوا يُحْدِثونَ زيادةَ تكذيبٍ وضلالٍ عندَ التِّلاوةِ، فأُضيفَتِ الزيادةُ إلى القرآنِ، إذْ كانَ القرآنُ، هو الذي يَحْمِلُهُمْ على زيادةِ التكذيبِ.

فهذهِ المُعاملةُ تَزيدُهُمْ حَسْرَةً يومَ القيامةِ، فأُضيفَتْ إلى القرآنِ، إذْ كانَ القرآنُ هو الذي عندَهُ [ما][٨] وقعوا فيهِ كما أُضيفَ الرِّجْسُ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ والأصلُ أنَّ الحَقَّ اسْمٌ لِما يُحْمَدُ عليهِ، فَحَقُّهُ أنْ تَنْظُرَ في ما تُسْتَعْمَلُ هذهِ اللفظةُ، فتَصْرِفَها إلى أحدِ الوجوهِ:

فإذا اسْتُعْمِلَتْ في الأخبارِ أُريدَ بها الصِّدْقُ نَحْوَ أنْ يُقالَ: هذا خَبَرٌ حقٌّ أي صِدْقٌ. وإذا اسْتُعْمِلَتْ في الحُكْمِ أُريدَ بها العدلُ. وإذا اسْتُعْمِلَتْ في الأقوالِ والأفعالِ أُريدَ بها الإضافةُ.

---

(١) في الأصل وم: الرسالة. (٢) في الأصل وم: المكان. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أجابوه. (٤) من م، في الأصل: يهلككم.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: العذاب. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي صِدْقٌ، ويَقينٌ أنهُ مِنْ ربِّ العالَمينَ. فهو صِلَةُ قولِهِ ﷻ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٤٣].

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قيلَ: صَلِّ، وقيلَ: اذْكُرْهُ بالِاسْمِ الذي إذا سَمَّيت كانَ تَسْبيحاً أي تَنزيهاً عنْ كلِّ ما قالَتْ فيهِ المَلاحِدَةُ، وما نَسَبَتْ إليهِ، ممّا لا يَليقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ[1].

(١) في م: الهادي، وعليه التكلان.

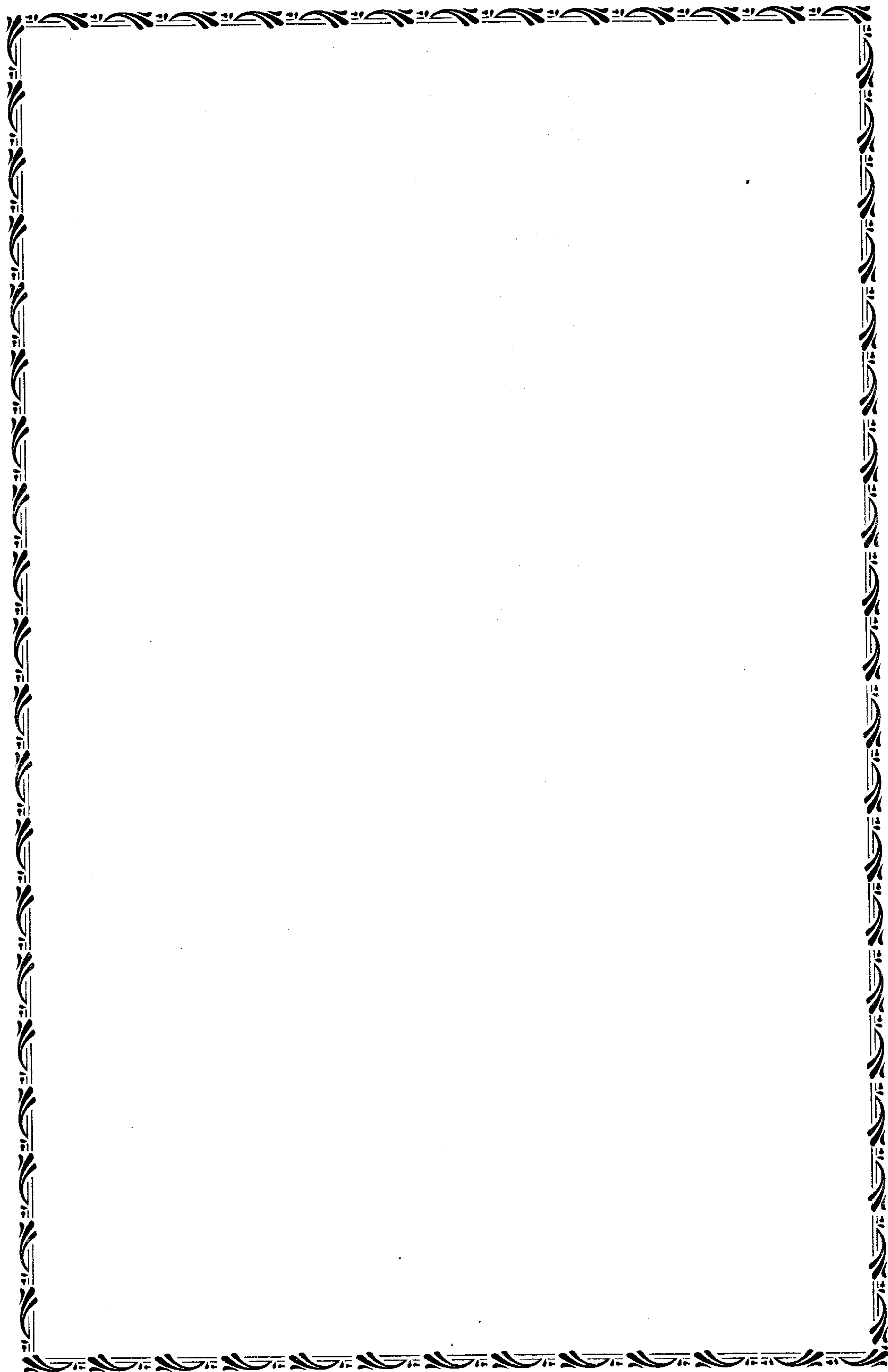

سورة المعارج

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ قُرِئَ بتسكينِ الألفِ،[2] ومَعْناهُ: سالَ وادٍ بعذابٍ واقعٍ، أي جَرَى وادٍ بعذابٍ واجبٍ.

والقراءةُ العامةُ بالهمزةِ مِنَ السؤالِ؛ وتأويلُهُ على سُؤالِ القوم العذابَ بقولِهِمْ: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦].

وقيلَ: هو النَّضْرُ بْنُ الحارثِ سأَلَ ذلكَ، فَقُتِلَ يومَ بَدْرٍ بَعْدَ أَسْرٍ. هكذا قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ، ولكنْ عندَنا أنَّ هذا، وإنْ كانَ في الظاهرِ خارجاً مَخرَجَ السؤالِ، لكنْ لم يكُنْ سؤالُهُ هذا لِيُنْزِلَ بِهِ العذابَ في التَّحْقيقِ، وإنما هذا منهُ على جِهَةِ الِاسْتِبْعادِ بالعذابِ والِاسْتِهْزاءِ برسولِ اللهِ ﷺ.

والذي حَمَلَهُمْ على الِاسْتِبْعادِ والإنكارِ، هو انهُ كانَ [عِندَ][3] أهلِ مكةَ أنهُ لو كانَ فيهِمْ نَبِيٌّ لكانوا هُمْ أحقَّ بالنُّبُوَّةِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ لأنهمْ همُ الذينَ [بُسِطَتْ لهمُ الدنيا، وهُمُ الذينَ][4] لهمْ نَفاذُ الكلامِ في البلادِ، ورسولُ اللهِ ﷺ لم تُبْسَطْ لهُ الدنيا، ولا كانَ لكلامِهِ في ما بَيْنَهُمْ نفاذٌ، فَيَظُنُّونَ بهذا أنهمْ أقْرَبُ مَنْزِلَةً عندَ اللهِ تعالى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لأنهُ لا يَسْتَقيمُ في العقلِ أنْ يَصِلَ الوَلِيُّ إلى عَدُوهِ، ويُحْسِنَ إليهِ[5]، ويَدَعَ صِلَةَ وَلِيِّهِ، ويُخْفيَها[6].

فهذا الظَّنُّ الذي ذَكَرْنا هو الذي حَمَلَهُمْ على تكذيبِ رسولِ اللهِ ﷺ في ما يُخْبِرُهُمْ مِنْ حُلولِ العذابِ بالتَّكذيبِ، وعلى الِاسْتِهْزاءِ بِهِ. فكانَ سؤالُ السائلِ على جهةِ [اسْتِبْعادِ إمكانِ العذابِ][7] لا أنْ كانوا مُقِرِّينَ[8] بِهِ، ثم اسْتَعْجَلوهُ.

وذُكِرَ أنَّ أبا جَهْلٍ قالَ يومَ [بَدرٍ][9]: اللهمَّ انْصُرْ أبَرَّنا قَسَماً وأوصَلَنا رَحِماً وأقْرانا للضَّيفِ.

فكانَ يَدْعو بهذا لِما عندَهُ انهُ أشْرَفُ حالاً وأعْلَى مَنْزِلةً عندَ اللهِ ﷻ [مِنْ محمدٍ ﷺ وأتباعِهِ. ومَنْ كانَ هذا شأنُهُ فهو وَلِيُّ الإمَّعَةِ. وقالَ اللهُ تعالى][10]: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولو لم يكُنْ عندَهُمْ انهمْ أقْرَبُ مَنْزِلةً وأحقُّ أنْ يكونوا أولياءَ، وإلّا لم يكونوا يَجْتَرِئونَ أنْ يَسألوا بهذا.

فهذِهِ الشبهةُ التي ذَكَرْناها [هي][11] التي أورَثَتْ لهمْ ما ذَكَرْنا مِنَ الظَّنِّ حتى زَعَموا أنهمْ أحقُّ بالرسالةِ.

وظَنُّهُمْ هذا يَتَوَلَّدُ مِنْ إبليسَ؛ وذلكَ أنَّ إبليسَ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢] فَظَنَّ أنَّ أمرَ الفاضلِ لِلْمَفضولِ بالسُّجودِ في الخُضوعِ لهُ خارجٌ عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ، فَصارَ إلى ما صارَ إليهِ مِنَ الخِزْيِ واللَّعْنِ.

فكذلكَ هؤلاءِ لمّا رَأَوا [ما رَأَوا][12] مِنْ نَفاذِ كَلِمَتِهِمْ وَسَعَتِهِمْ في الدنيا ظَنُّوا أنهمْ أقْرَبُ إلى اللهِ تعالى؛ إذِ التَّوَسُّعُ عندَهُمْ دلالةُ الوِلايةِ والقُرْبِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٢١٦. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: عليه. (٦) في الأصل وم: ويخفوه. (٧) في الأصل وم: الاستبعاد والامكان للعذاب. (٨) من م، في الأصل: مقرنين. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ثم سَفَهُهُمْ، هو الذي حَمَلَهُمْ على التَّكَبُّرِ على رسولِ اللهِ ﷺ وتَرْكِ الخضوعِ، وإلّا لو أَعْطَوا النَّصَفَةَ مِنْ أنفسِهِمْ لَكانَ يجبُ أنْ يكونوا هُمْ أطوَعَ خَلْقِ اللهِ تعالى، لأنَّ الواجبَ على مَنْ كَثُرَتْ عليهِ النِّعَمُ مِنْ آخَرَ أنْ يكونَ هو أشكَرَ لِلنِّعَمِ وأطوَعَ لهُ في ما يَدْعوهُ إليهِ مِنَ الذي قَلَّتْ نِعَمُهُ عليهِ.

فإذا كانوا مُقِرِّينَ أنَّ نِعَمَ اللهِ عليهِمْ أكثَرُ وإحسانَهُ إليهِمْ أوفَرُ أوجبَ ما ذَكَرُوا أنْ يكونوا هُمْ ألزَمَ لطاعتِهِ وآخَذَ لِما يأمُرُ بهِ. وكذلكَ إبليسُ اللعينُ إذا رَأَى لِنَفْسِهِ فَضْلاً، واستوجَبَ[1] ذلكَ بما أنعَمَ اللهُ عليهِ كانَ الحقُّ عليهِ أنْ يَتَسارَعَ إلى طاعتِهِ، ويَنْقادَ لِما أمَرَهُ بهِ، لا أنْ يُظْهِرَ الخِلافَ مِنْ نفسِهِ وتَرْكَ الائتِمارِ بأمْرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي هو واقِعٌ بهِمْ لا محالةَ في عِلْمِ اللهِ تعالى، أو واقِعٌ بِمَعْنَى سَيَقَعُ كما يُقالُ: قابلٌ أي سيُقْبَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فَحَقُّهُ أنْ يقولَ: على الكافرينَ، ولكنَّ اللامَ مِنْ حُروفِ الإضافةِ والخَفْضِ، وحروفُ الإضافةِ ممّا يُستَبْدَلُ بعضُها ببعضٍ، فَجَعَلَ اللامَ بَدَلاً عن على.

وإنْ كانَ قولُهُ: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ فَمَعْناهُ أنْ ليسَ على الكافرينَ دافعٌ لعذابِ اللهِ ﷻ بل واقعٌ بهِمْ، لا مَحالةَ، فأُبْدِلَتِ اللامُ فكانَ عنْ لأنهما جميعاً مِنْ حُروفِ الخَفْضِ. / ٥٩٥ ـ أ/

وقد يُدْفَعُ العذابُ عنِ المسلمينَ مِنْ وجوهٍ: إمّا بِرَحْمةِ اللهِ تعالى، وإمّا[2] بِشفاعةِ الرسلِ والأخيارِ، وإمّا بِحَسَناتٍ[3] سَبَقَتْ منهمْ، فوجَبَ تكفيرُ سَيِّئاتِهِمْ.

فأمّا الكفّارُ فلا تَنالُهُمْ رَحْمَتُهُ، ولا شفاعةُ أحدٍ مِنَ الخلائقِ، وليستْ لهمْ حَسَناتٌ تُكَفِّرُ سَيِّئاتِهِمْ، فليسَ لهمْ ما يَدْفَعُ العذابَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: إنَّ الذينَ ظَنُّوا أنهُ يَنْصُرُهُمْ عندَ النوائبِ وحُلولِ الشدائدِ، لا يَقومُ بِنَصْرِهِمْ ولا يَشْفَعُ لهمْ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ على رجاءِ أنْ يَشْفَعوا لهم، ويُقَرِّبوا إلى اللهِ تعالى.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي ذلكَ العذابُ لهمْ مِنَ اللهِ ذي المعارجِ كقولِهِ تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ أيِ الذي لهُ العَرْشُ.

واختَلَفوا في المَعارِجِ: قالَ بعضُهُمْ: هي[4] المَصاعِدُ، وهي السمواتُ، وسَمّاهُنَّ مَصاعِدَ، لأنَّ بعضَها أصعَدُ مِنْ بعضٍ وأرفَعُ، ولو قالَ: ذي المَسافِلِ كانَ مستقيماً، واقْتَضى [قولُهُ ما يقتَضي][5] ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ لأنَّ بعضَها إذا كانَ أصْعَدَ [فإنَّ][6] الذي تَحْتَها أهبَطُ وأسْفَلُ. ولكنْ ذَكَرَ المَصاعِدَ لأنَّ هذا أعلَى في الوَصْفِ.

ثم في ذِكْرِ هذا عِظَمُ نِعَمِهِ وإحسانِهِ على خَلْقِهِ حينَ[7] خَلَقَ السمواتِ مَسْكَناً لأهلِها، وخَلَقَ الأرضَ مَسْكَناً حتى إذا عَرَفوا هذا عَرَفوا أنَّ لهُ أنْ يُفَضِّلَ بَعْضاً على بَعْضٍ، ولَهُ أنْ يَصْطَفِيَ مَنْ يَشاءُ مِنَ الناسِ للرسالةِ، ويَخْتَصَّ بها، وذَكَّرَهُمْ أيضاً حكمَتَهُ وعِلْمَهُ وقدرتَهُ وسُلْطانَهُ أنهُ حينَ[8] وَضَعَ سماءً[على سماءٍ][9] وخَلَقَهُنَّ طِباقاً مِنْ غيرِ عَمَدٍ تحتَها، تُمْسِكُها أو علائقَ مِنْ فوقِها، تَرْبِطُها، يُبَيِّنُ[10] أنهُ يُمْسِكُها بِحِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ. فيكونُ في ذِكْرِ كلِّ وجهٍ في ما ذَكَرْنا إزالةُ الشُّبْهَةِ التي اعْتَرَضَتْ لهمْ في أمْرِ البعثِ والرسالةِ، وإيضاحٌ بأنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرْنا قادرٌ على الإعادةِ بعدَ الإفناءِ.

وقولُهُ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ المَعالي: أيِ الذي لهُ العُلُوُّ والرِّفْعَةُ كما قُلْنا في قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي لا أحَدَ يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ في الحَقيقةِ، وما حُمِدَ أحَدٌ إلّا وذلكَ في الحَقيقةِ للهِ تعالى لأنهُ بهِ استَفادَهُ.

---

(١) في الأصل وم: وإنما استوجب. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: الحسنات. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) في الأصل وم: ما يقتضي قوله. (٦) في الأصل وم: و. (٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: فتبين.

فَعَلى ذلكَ قولُنا: لهُ العُلُوُّ والرفعةُ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما:](١) أي ليسَ أحدٌ يَسْتَفيدُ العُلُوَّ والكرامةَ إلّا وحَقيقةُ ذلكَ للهِ تعالى، لأنهُ اسْتَفادَهُ بِهِ.

والثاني: أي هو الموصوفُ بالعُلُوِّ والجَلالِ عمّا يَقَعُ عليهِ أوهامُ الخَلْقِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿تَعْرُجُ﴾ ليسَ عنْ هبوطٍ: يُصْعَدُ، ويُعْرَجُ. لكنْ أنْشَأهُمْ كذلكَ مَعْروجينَ كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦] أي أنْشَأهُمْ كذلكَ، وقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] [ليسَتْ أنها كانَتْ](٢) في مَوضِعٍ مُنْحطٍّ، فَرَفَعَها، لكنهُ كذلكَ خَلَقَها مَرفوعةً.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي أنْشأهُمْ؛ كذلكَ اسْتَعْمَلَهُمْ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

ووجهٌ آخَرُ، هو الأشْبَهُ بالآيةِ، وهو ما قالوا: إنَّ الملائكةَ تَعْرُجُ إليهِ أي إلى المَوْضِعِ الذي عنهُ أرسَلَهُمْ إلى أنواعِ الأمورِ في يومٍ، لو قُدِّرَ ذلكَ العُروجُ بِعُروجِ البَشَرِ وسَيرِهِمْ لَكانَ مِقدارَ خَمسينَ ألفَ سنةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الوقتُ وَقْتَ تقديرِ عُروجِ الملائكةِ وصُعودِهِمْ، وهو أنَّ البعضَ منهمْ(٣) يَنْزِلُ، ثم يَعْرُجُ في يومٍ واحدٍ، مِقْدارُ ذلكَ المَسيرِ ألفُ عامٍ، والبَعْضَ منهمْ يَنْزِلُ، ويَعْرُجُ في يومٍ واحدٍ مَسيرةَ خمسينَ ألفَ سنةٍ.

فيكونُ في هذا إبانةُ أنْ ليسَ [أهلُ](٤) سماءٍ أحَقَّ أنْ يدورَ عليهمْ تدبيرُ أهلِ الأرضِ مِنْ أهلِ سماءٍ، بل يَنْزِلُ أهلُ سماءٍ إلى الأرضِ مَرّةً لِما يُرادُ مِنْ تدبيرٍ، ويَنْزِلُ أهلُ سماءٍ أُخرى بِتَدْبيرٍ آخَرَ.

ثم أيُّ [أهلِ](٥) سماءٍ يُرْسَلُ، فهو يَصْعَدُ إلى تلكَ السماءِ بيومٍ واحدٍ، إنْ أُرسِلَ مِنَ السماءِ السابعةِ أو السادسةِ أو الأولَى، فهو يَصْعَدُ إليها في ذلكَ اليومِ، فيكونُ في هذا تَبيينُ قُوَّةِ بعضِ الملائكةِ على بعضٍ: أنَّ فيهمْ مَنْ يَسيرُ مَسيرةَ خمسينَ ألفَ سنةٍ في يومٍ واحدٍ، وفيهمْ [مَنْ](٦) يَسيرُ مَسيرةَ ألفِ سنةٍ، ومَنْ قَدَرَ على أنْ يَخْلُقَ في خَلْقٍ مِنْ خلائقِهِ مِنَ القوةِ ما يَقْطَعُ هذهِ المسافةَ في يومٍ واحدٍ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

فيكونُ في ذِكْرِ هذا تَحقيقُ كونِ ما بِهِ هُوِّلوا مِنَ القِيامةِ والبعثِ.

وجائزٌ(٧) أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ راجعاً إلى يومِ القِيامةِ؛ فَذَكَرَ في مَوضعٍ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] وذَكَرَ ههنا: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

فالأصلُ أنَّ ذلكَ اليومَ ليسَ بذي حَدٍّ، ولا لهُ غايةٌ، يَنْتَهي إليهِ، يُخْبَرُ فيهِ عنِ الحدِّ؛ فهو يُخَرَّجُ مُخرَجَ تعظيمِ ذلكَ اليومِ لِيَقَعَ بِهِ التَّهويلُ والتَّفزيعُ، فَبِأيِّ شيءٍ يَعْظُمُ ذِكْرُهُ في القلوبِ يُذْكَرُ بالخلودِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] ومَرَّةً قالَ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبإ: ٢٣] ومَرَّةً قالَ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ومَرَّةً قالَ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] إذ هذهِ الأشياءُ ممّا تَعْظُمُ في القلوبِ، وكذلكَ الألفُ، هي عظيمةٌ في القُلوبِ.

فإذا كانَتْ هذهِ الأشياءُ يَعْظُمُ ذِكْرُها في القلوبِ فَذِكْرُ الشيءِ الواحدِ مِنَ الجُمْلَةِ، أو ذِكْرُ الأشياءِ يَقْتَضي مَعْنىً واحداً.

ومنهمْ مَنْ يَصرِفُ الألفَ إلى تَقديرِ عُروجِ الخَلائقِ إلى السماءِ في ذلكَ اليومِ، ويَصْرِفُ قولَهُ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ إلى تقديرِ المُقامِ للحِسابِ قبلَ أنْ يُدْخَلوا النارَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ على ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التَّفسيرِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى لو جَعَلَ حِسابَ الخَلْقِ يومئذٍ إلى الخَلْقِ، فَتَكَلَّفوا أنْ يَفْرَغوا مِنْ حسابِهِمْ لَنْ يَفْرَغوا منهُ إلّا في مِقْدارِ خَمْسينَ ألفَ سنةٍ. لكنَّ اللهَ تعالى بِلُطْفِهِ يُحاسِبُهُمْ حساباً، يَفْرَغُ(٨) منهُ في أدنَى وقتٍ حتى يَصيرَ [أهلُ](٩) الجنةِ إلى الجنةِ وأهلُ النارِ إلى النارِ على ما جاءَ في الأخبارِ، وذلكَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليس أنه كان. (٣) أدرجت في الأصل وم بعد ينزل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يفرغون. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

قولُهُ ﷻ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] أنْ كيفَ قَدَّرَ ذلكَ بصُعودِنا، ونحنُ لم نتَمكَّنْ مِنَ الصعودِ، ولم نُنشأْ على ما في طَبْعِنا إنشاءُ الصعودِ حتى نَنْظُرَ أنهُ ألفُ سنةٍ أو أقلُّ أو أكثرُ؟

وجوابُهُ أنْ يُقالَ: إنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ لو بَسَطَ ما بَينَ السماءِ والأرضِ، فصارَ بحيثُ يُمْكِنُ السَّيرُ عليهِ، لم نَقْطَعْ ذلكَ السَّيرَ إذا احتَجْنا إلى قَطْعِهِ إلّا بألفِ سنةٍ ممّا نَعُدُّ[1].

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ أنْ لو جُعِلَ إلى السماءِ باباً، وفُتِحَ، وظَلَلْنا نَعْرُجُ إليها، لم نَتَوصَّلْ إليها إلّا في ألفِ عامٍ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ قيلَ: الصَّبْرُ الجميلُ، هو صَبْرٌ، لا جَزَعَ فيهِ. والصَّبْرُ الذي لا جَزَعَ فيهِ، هو أنْ يَصبِرَ [المرءُ][2] صَبْراً، لا تَرى عليهِ أثرَ الصَّبْرِ، بألّا يَظْهَرَ في وجْهِهِ كَراهَتُهُ وعبوسُهُ، وهو أنْ يَنْظُرَ إلى مَنْ رآهُ[3] بِعَينِ الرِّضا والشَّفَقةِ، ليسَ السُّخطِ والكَراهةِ. والصَّبْرُ الجميلُ ألّا يُكافِئَهُمْ، ولا يَدَعَ شَفَقَتَهُ ورَحْمَتَهُ عليهِمْ بما يُؤذونَهُ.

وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ كذلكَ مُشْفِقاً [عليهِمْ][4] رحيماً بهِمْ حتى بَلَغَتْ شَفَقَتُهُ ورَحْمتُهُ وحُزنُهُ على كُفّارِ قومِهِ مَبْلَغاً، كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ فيها كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] / ٥٩٥ - ب/ وقالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦].

فالرسلُ ﷺ كانوا إذا أُوذُوا لم يكونوا يَتحزَّنونَ لِمَكانِ أنفسِهِمْ بما أُوذوا، بل كانوا يَحْزَنونَ [بما كانَ][5] مِنْ ذنوبِهِمْ خوفاً مِنْ أنْ يَحُلَّ بهِمُ الهَلاكُ والبَوارُ بإيذائِهِمْ [وهمْ][6] رسلُ اللهِ تعالى، وإشفاقُهُمْ على قومِهِمْ، هو الذي كانَ يُحزِنُهُمْ [ليسَ سُوءُ][7] صَنيعِهِمْ ومُعامَلَتِهِمْ معهُمْ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي بعيداً أنْ يكونَ، فيكونُ على النَّفْيِ والإنكارِ، وقد تُستَعْمَلُ هذهِ الحروفُ في مَوضِعِ النَّفْيِ؛ يقولُ الرجلُ في المُناظرةِ لِصاحبِهِ: أبْعَدْتَ في القولِ، وإذا أجابَ بشيءٍ، لا ثَباتَ لهُ، ولا صِحَّةَ؛ فَيُريدُ بقولِهِ: أبْعَدْتَ النَّفْيَ، أي ليسَ كما تقولُ. وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ومَعْناهُ على نَفْيِ النداءِ، أي لا يُنادَونَ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَعِيدًا﴾ أي مُسْتَبْعَداً كونُهُ، فَبَعُدَ عنْ أوهامِهِمْ حتى أنكروهُ.

الآية ٧ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي قريباً كونُهُ إنْ كانَ مَعْنى قولِهِ: ﴿بَعِيدًا﴾ أي بَعيداً كونُهُ، و﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي كائناً، وقد قَرُبَ وَقْتُ وُقوعِ ذلكَ بهِمْ. وكلُّ ما هو كائنٌ، فهو قَريبٌ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾][9] فكأنهمْ سَألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الوقتِ الذي وُعِدوا أنْ يَقَعَ بهِمُ العذابُ: متى وقتُهُ؟ فنَزَلَتْ [هاتانِ الآيتانِ][10] ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾][11] وقيلَ: المُهْلُ: عَكَرُ الزيتِ، وهو دُرْدِيُّهُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ هذا على التَّحقيقِ، وهو أنها تَتَغَيَّرُ في ذلكَ اليومِ مِنْ لَونٍ إلى لَونٍ، فَتَحْمَرُّ مَرَّةً، وتَصْفَرُّ أُخرى لِشِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ، فَتكونُ كَدُرْدِيِّ الزيتِ لِيناً ولَوناً مُتَغَيِّراً مِنْ حالٍ إلى حالٍ.

وجائزٌ ألّا يَحُلَّ بها التَّغَيُّرُ، ولكنْ شِدَّةُ ما يَنْزِلُ بالمَرْءِ مِنَ الهَولِ والفَزَعِ تُضْعِفُ بَصَرَهُ حتى يَرَى السماءَ على خِلافِ اللونِ الذي هي عليهِ، وهو كما تَرَى المَرْءَ إذا حلَّ بهِ الضَّعْفُ والمرضُ في الشاهدِ، وَجَدَ[12] طَعْمَ الأشياءِ على خِلافِ ما هي عليها. فيكونُ في ذِكْرِ هذا تَهْويلٌ وتَفْزيعٌ.

إنَّ هَولَ ذلكَ اليومِ شديدٌ، لا تقومُ لِهَولِهِ[13] السمواتُ والأرَضُونَ معَ صَلابَتِها وغِلَظِها في نفسِها، فكيفَ يقومُ لِهَولِهِ[14] الآدميُّ المَوصوفُ بالضَّعْفِ واللِّينِ؟

---

(١) في الأصل وم: تعدون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: إراده. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بمكان.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: ليس سواء، في م: لسوء. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: هذه الآية.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ووجه. (١٣) في الأصل وم: لهولها. (١٤) في الأصل وم: لهولتها.

وجائزٌ على ما ذَكَرْنا [أنها تَصيرُ شَبيهةً](١) بالمُهْلِ لِلِينِها ورَخوتِها، وأنها تَلينُ، وترْخو، مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ حتى تصيرَ السماءُ كالمُهْلِ والجبالُ كالعِهْنِ، فيكونُ في هذا تَهْويلٌ لِيَرْجِعوا عمّا هُمْ فيهِ، ويُقْبِلوا على عبادةِ اللهِ تعالى، ويَتَسارَعوا إلى طاعتِهِ.

وتأويلُ العِهْنِ وَوَجْهُ تَشْبيهِ الجبالِ بها، يُذْكَرُ بعدَ هذا في قولِهِ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قُرئَ بِرَفْعِ الياءِ ونَصْبِها(٢).

فَمَنْ يَرْفَعِ الياءَ فتأويلُهُ أي لا يُطْلَبُ حَميمٌ مِنْ حَميمٍ، ولا يُؤْخَذُ بِمَكانِهِ كما يُفْعَلُ مثلُهُ في الدنيا لأنَّ ذلكَ اليومَ هو يومُ العدلِ، وليسَ مِنَ العَدْلِ أنْ يُؤْخَذَ الغَيرُ بذنبِ الغَيرِ.

ومَنْ قَرَأَهُ بالنصبِ فتأويلُهُ ألّا يَسْأَلَ حَميمٌ حميماً مِنْ شِدّةِ ذلكَ اليومِ وهَولِهِ النُّصْرَةَ والشفاعةَ، ولا يَسْأَلُ عنْ حالِهِ بما حَلَّ بِهِ مِنَ الشُّغْلِ في نفسِهِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ: يُعَرَّفُ بعضُهُمْ عن بعضٍ: أنَّ هذا أبوكَ وابْنُكَ وحَميمُكَ، إذْ لا يَعْرِفُهُ إلّا بالتَّعريفِ لِما حَلَّ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الهَولِ والفَزَعِ. ثم إذا عُرِّفوا لا يَسْأَلونهمْ، بلْ يَفِرُّ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و...] الآيات(٣). أو يكونُ مَعْناهُ أنْ يُبَصَّروا ما سَبَقَ منهمْ مِنَ الذنوبِ والأجرامِ، فَيَعْرِفوها، وتَصيرَ لهمْ حاضِرَةً.

الآيات ١٢ ـ ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ففي هذا أنهُ يَسْتَقْبِلُهُمْ في ذلكَ اليومِ هَولٌ وفَزَعٌ لم يَكُنْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ في الدنيا، ولا كانَ خَطَرَ ببالِهِمْ ذلكَ، لأنَّ المَرْءَ لا يَبْلُغُ بِهِ الهَولُ في الدنيا مَبْلَغاً يَوَدُّ أنْ يَفْتَدِيَ بهِ بِبَنيهِ وصاحبَتِهِ وأخيهِ وأقرِبائِهِ وجميعِ مَنْ في الأرضِ.

فيكونُ فيهِ إخبارٌ عنْ شِدّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ لِيَحْمِلَ الناسَ على الإنابةِ إلى اللهِ تعالى والانْتِهاءِ(٤) عمّا هُمْ عليهِ.

ثم بَدَأَ بِذِكْرِ البَنينَ والأقْرَبينَ، وانْتَهى بالأبْعَدينَ. وحَقُّ هذا أنْ يَبْدَأَ بالأبْعَدِينَ، ثم يَخْتِمُ بِذِكْرِ الأقْرَبينَ(٥)، لأنَّ المَرْءَ قد تَسْخو نفسُهُ بِفِداءِ الأبْعَدينَ. ويَضِنُّ(٦) بِبَذْلِ الأقربينَ فِداءً.

فإذا سَخَتْ أنفسُهُمْ في ذلكَ اليوم بِفِداءِ البَنينَ والأقْرَبينَ فَلَأَنْ تَسْخُوَ بِفِداءِ الأبْعَدينَ أحَقُّ وإذا كانَ كذلكَ فَغايَتُهُ التَّهويلُ والتَّفْزيعُ: أنْ يَبْدَأَ بِذِكْرِ الأقارِبِ، فكيفَ يَبْدَأُ بِذِكْرِ الأقْرَبينَ؟

فَجوابُهُ مِنْ وجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ إنما يَتَوَصَّلُ إلى فِداءِ أهلِ الأرضِ، إذا كانَ لهُ عليهِمْ مُلْكٌ، وكانوا بأجْمَعِهِمْ لهُ. وإذا كانوا جميعاً لهُ مُلْكاً كانَتْ شَفَقَتُهُ على مُلْكِهِ وأولادِهِ واحدةً، أو أكْثَرَ، فكما يَضِنُّ(٧) بِبَذْلِ أولادِهِ، وأنْ يكونوا عنهُ فِداءً، فكذلكَ يَضِنُّ(٨) بالأباعِدِ إذا كانوا جميعاً مُلْكاً لهُ. فلذلكَ اسْتَقامَ أنْ يَبْدَأَ بِذِكْرِ الأقْرَبينَ قَبْلَ الأبْعَدِينَ؛ إذْ كلُّ ذلكَ يَسْتَوي في التَّهويلِ والتَّفْزيعِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني](٩): جائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ الأقْرَبينَ وذِكْرُ أهلِ الأرضِ ليسَ على جِهَةِ الأولى، ولكنَّهُ ذَكَرَ الآحادَ ثم ذَكَرَ الجماعةَ لِيَعلَموا ألّا يَنْفَعَهُمُ الفِداءُ في ذلكَ اليومِ، وأنَّ الذينَ[لو](١٠) وَدُّوا الفِداءَ لِيَتَخَلَّصوا مِنْ عذابِ اللهِ تعالى، لاشْتَدَّ(١١) عليهِمْ، ما فَدَوا، وإنْ كانَ ذلكَ مِلْءَ الأرضِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه يصير شبيهاً. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٢٠. (٣) في الأصل وم: الآية. (٤) في الأصل وم: وانتهاء.
(٥) في الأصل وم: الأبعدين. (٦) في الأصل وم: ويظن. (٧) في الأصل وم: يظن. (٨) في الأصل وم: يظن. (٩) في الأصل وم: و.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لا يشتد.

الآية ١٥ ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ رَدٌّ وتَنبيهٌ ألا يُنجِيَهُ ذلكَ اليومُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ فاللَّظى[1] اسْمٌ مِنْ أسماءِ النارِ، والشَّوَى: قيلَ: هي مَكارِمُ خَلْقِهِ، وقيلَ: هي القوائمُ والأطرافُ، وقيلَ: هي الجُلودُ.

والأصلُ أنَّ نارَ جهنَّمَ [تَعْمَلُ بأصحابِها][2] كلَّ قَبيحٍ وكلَّ مُستَبْشَعٍ وكلَّ مُستَفْظَعٍ. فإنْ شِئْتَ صَرَفْتَ ذلكَ إلى الأرجُلِ، وإنْ شِئْتَ إلى الجُلودِ، وإنْ شِئْتَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ، لأنَّ التَّقبيحَ في كلِّ ذلكَ موجودٌ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] فقيلَ [في تأويلِ][3] المُطَهَّرَةِ وجوهٌ:

أحَدُها: أنهنَّ مُطَهَّراتٌ مِنَ العُيوبِ والآفاتِ. وجُمْلَتُهُ أنهُ ما مِنْ شيءٍ يُستَحْسَنُ، ويُستَقْبَحُ مِنْ خُلُقٍ أو نَفْسٍ أو معاملةٍ إلّا وهنَّ مُطَهَّراتٌ مِنْ ذلكَ، وما مِنْ شيءٍ يُستَبْشَعُ، ويُستَفْظَعُ إلّا وذلكَ في أهلِ النارِ موجودٌ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الدعاءُ منها على التَّحقيقِ، وهو أنْ يَجعَلَ اللهُ بلُطفِهِ[4] لِساناً، تَدْعو بهِ، أو يَخْلُقَ فيها الكلامَ مِنْ غَيرِ لسانٍ، فتقولَ: إليَّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على التمثيلِ، وهو أنها لا تَدَعُ أحداً يَفِرُّ عنها، ويَتَخَلَّصُ مِنْ عذابِها، فكأنها دَعَتْهُ إلى نفسِها.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ أي مَنْ كانَ أدْبَرَ في الدنيا عَنْ طاعةِ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عنِ الإجابةِ لرسلِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]. أي أعْرَضَ، أو أدْبَرَ عنْ توحيدِهِ، وتَوَلّى عنِ النَّظَرِ في حجتِهِ وفي ما جاءَ مِنْ عندِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَدْبَرَ﴾ أي أدْبَرَ عنْ طاعةِ اللهِ ﷻ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي تَوَلّى الشيطانَ، مِنَ الولايةِ، وجائزٌ أن يكونَ أدْبَرَ في جَهنَّمَ /٥٩٦ ـ أ/ فَيُدبِرُ رجاءَ أنْ يَفِرَّ عنها، ويَتولّى [وكذا لا][5] تَدَعُهُ النارُ لِيَفِرَّ عنها، بل تَغشاهُ عنِ الإعراضِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

ولكنَّ هذا أقْرَبُ[6] مِنَ الأوّلِ لأنَّ مَنْ تَوَلّى عنْ ذِكْرِ اللهِ فقد تَوَلّى الشيطانَ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ يُخبِرُ بقولِهِ: ﴿وَجَمَعَ﴾ على ما جُبِلَ عليهِ مِنْ شدةِ الحِرْصِ على الدنيا، فيكونُ الجَمْعُ كِنايةً عنِ الحِرْصِ، فَبَلَغَ بهِ هذا الحِرْصُ مَبْلَغاً أنْساهُ ذِكْرَ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ فيهِ بَيانُ صِفَتِهِ في ما عليهِ مِنَ النهايةِ في البخلِ، فيكونُ الإيعاءُ كِنايةً عنِ البخلِ حتى لم يُؤَدِّ حقَّ اللهِ تعالى في مالِهِ، أو لم يَقُمْ بِشُكرِ اللهِ تعالى مِنَ النِّعَمِ، أو بَلَغَ بهِ البخلُ مَبْلَغاً، مَنَعَهُ ذلكَ عنْ قَبولِ حقِّ اللهِ تعالى في مالِهِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِ الهَلوعِ مِنْ وجوهٍ، وكلٌّ يَرْجِعُ إلى مَعْنىً واحدٍ: فقالَ بعضُهُمْ: الطامعُ في اللذاتِ، الطالبُ لها، والكارهُ للأثقالِ، الهاربُ منها. وقيلَ: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي على حُبِّ ما يَتَلَذَّذُ بهِ والقيامِ[7] بطلبِهِ وبُغْضِ ما يَتألَّمُ بهِ والهَرَبِ عنهُ.

ومنهم مَنْ يقولُ: الهَلوعُ الضَّجورُ، وهو مُوافقٌ للتأويلِ الأوّلِ، لأنَ الذي يَحمِلُهُ على الضَّجَرِ، هو ما يصيبُهُ مِنَ الألَمِ، فَيَضْجَرُ لذلكَ، أو يَضْجَرُ مِنْ حقِّ اللهِ تعالى.

الآيتان ٢٠ و٢١ ومنهمْ مَنْ يقولُ: تَفسيرُ ما ذَكَرَ على[8] إثْرِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وهذا أيضاً مثلُ الأوّلِ لأنَّ الذي مَنَعَهُ [عنِ الخيرِ][9] شِدَّةُ حُبِّهِ إيّاهُ، والذي حَمَلَهُ على الجَزَعِ ما مَسَّهُ مِنَ الضُّرِّ والشَّرِّ، فَجَزِعَتْ نفسُهُ لذلكَ، لأنها أُنشِئَتْ نافرةَ الضُّرِّ ومُبْغِضَةً لهُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: الآية. (٢) في الأصل: بعمل أصحابها قبيح، في م: بعمل على أصحابها قبيح. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: باللطف. (٥) في الأصل وم: كذلك. (٦) في الأصل وم: قريب. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٩) في الأصل وم: على المنع.

وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] أي لا يَسْخو على إخراجِ ما في يديهِ.

ففي هذهِ الآياتِ أنبأَ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ على هذهِ الأحوالِ: قَتوراً عَجولاً هَلوعاً. فلما أُنشِئَ على حبِّ ما يَنفَعُهُ وبُغضِ ما يَكرَهُهُ، ويَتألَّمُ بهِ، عَلِمَ أنهُ[1] خُلِقَ على هذهِ لِلْمِحنَةِ. فَمَنْ تفَكَّرَ[2] في ما وَعَدَ اللهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ لِمَنْ قامَ بوفاءِ ما أمَرَهُ بهِ حَمَلَهُ ذلكَ على التسارُعِ في الخيراتِ [وترْكِ][3] ما يُحِبُّهُ في الدنيا، يَسْأَلُ الموعودَ في الآخِرَةِ؛ إذْ هو في الأصلِ أُنشِئَ مُحِبًّا لِما يَتَلَذَّذُ [بهِ][4]. ومَنْ تَذكَّرَ ما أُوعِدَ مِنَ العذابِ بِما يُعْطي نفسَهُ مِنَ الشَّهَواتِ مِنْ مَعاصي اللهِ تعالى وبِما يَمْنَعُ مِنْ حقوقِ اللهِ تعالى الواجبةِ في مالِهِ سَهُلَ عليهِ تَرْكُ الشَّهَواتِ، وخَفَّ عليهِ بَذْلُ ما طُلِبَ منهُ لئلا يَحُلَّ بهِ ما يُنَغِّصُ عيشَهُ مِنَ الآلامِ والمكارِهِ.

والأصلُ أنَّ الإنسانَ، وإنْ كانَ مَطبوعاً على هذهِ الأخلاقِ الذميمةِ مِنَ البُخْلِ والإقتارِ والعَجَلَةِ، وجُبِلَ عليها، فقد مَلَكَ رياضةَ نفسِهِ[5]، ويُمْكِنُهُ أنْ يَستَخرِجَها مِنْ تلكَ الطباعِ الذميمةِ إلى أضْدادِها مِنَ الأخلاقِ الحميدةِ والشمائلِ المَرضِيَّةِ، فَلَزِمَهُ القيامُ بذلكَ.

ألا تَرَى أنه يَتَهَيَّأُ لهُ أنْ يقومَ بِرياضةِ الدوابِّ والسِّباعِ، فَيُخرِجَها بالرياضةِ عن طِباعِها التي أُنشِئَتْ عليها مِنَ النِّفارِ عنِ الخَلْقِ والاِمْتِناعِ عنِ الاِنْقِيادِ حتى تَصيرَ مُنقادةً لِلْخَلْقِ ذليلةً لهمْ، فَيَتَهَيَّأُ لهمُ الاِسْتِمْتاعُ والتَّوَصُّلُ إلى مَنافِعِها؟

فكذلكَ الإنسانُ إذا قامَ بِرياضةِ نفسِهِ أمكَنَهُ أنْ يُخرِجَها عن خِلقَتِها، فَتَصيرَ مُطيعةً لهُ، فَيَخِفَّ عليها بَذْلُ ما يُطلَبُ منها، ويَسْهُلَ عليها تَحَمُّلُ ما كانَ يَشْتَدُّ عليها.

ثم الأصلُ أنَّ المرءَ، وإنْ جُبِلَ على حبِّ ما يَتَلَذَّذُ بهِ وبُغْضِ ما يَتألَّمُ، ويَتَوَجَّعُ، فقد جُبِلَ أيضاً على تَرْكِ ما هو فيهِ مِنَ اللَّذَّةِ لِلَذَّةٍ هي أعظَمُ منها وعلى التَّصَبُّرِ لِاحتمالِ الأذى والمَكروهِ لِيَتَخَلَّصَ مِمّا هو أعظَمُ مِنْ ذلكَ المَكروهِ والألمِ.

وإذا كانَ كذلكَ فهو إذا قابلَ نَعيمَ الدنيا بِنَعيمِ الآخِرَةِ وأقْرَبَ اللَّذَّتَينِ بأبْعَدِهِما، فَرَأَى لَذَّةَ[6] الآخِرَةِ أعظَمَ وأبقَى، خَفَّ عليهِ تَرْكُ أقْرَبِهِما لأبْعَدِهِما وأقَلِّهِما لأكْثَرِهِما، وإذا قابلَ مَكروهَ الدنيا بِمَكروهِ الآخِرَةِ وعذابِها[7] بعذابِ الآخِرَةِ، فَرَأَى عذابَ الآخِرَةِ أشدَّ وأبقَى، خَفَّ عليهِ تَحَمُّلُ المكارِهِ في الدنيا، فهذا السببُ الذي ذَكَرْنا مِمّا يُتَوَصَّلُ بهِ إلى رياضةِ النفسِ، والذي يدلُّ على أنَّ المَرْءَ قد يَخِفُّ عليهِ تَحَمُّلُ الشدائدِ وتَرْكُ اللَّذّاتِ الحاضِرَةِ لِما يَأْمُلُ مِنَ اللَّذّاتِ الآجِلَةِ أنكَ تَرَى المَرْءَ قد يَهونُ عليهِ الضَّرْبُ في الأرضِ وقَطْعُ الأسفارِ وتَحَمُّلُ المُؤَنِ وركوبُ الأهوالِ والفَظائعِ والاِنْقِطاعُ عنِ اللذاتِ، كالذي يَخْرُجُ للتِّجارةِ مِنْ بَلَدِهِ إلى بلادٍ نائيةٍ لِما يَرْجو مَنَ النَّفْعِ والرِّبْحِ في ذلكَ، فَيَتَحَمَّلُ ما يَمَسُّهُ مِنَ المَكارِهِ والمُؤَنِ لِما يَطْمَعُ مِنْ نَيلِ اللَّذاتِ التي تَرَكَها.

فَعَلَى ذلكَ إذا تفَكَّرَ في نعيمِ الآخِرَةِ، وتفَكَّرَ في عِقابِها سَهُلَ عليهِ تَرْكُ اللَّذّاتِ الحاضِرَةِ، وخَفَّ عليهِ تَحَمُّلُ المَكارِهِ في الدنيا.

ووجهٌ آخَرُ أنهُ لمّا جُبِلَ على حُبِّ اللذاتِ وبُغْضِ المَكارِهِ، أُمِرَ أنْ يَجْعَلَ ما يُحِبُّهُ مِنَ العاجِلِ آجِلاً، فيكونَ شُغْلُهُ أبداً في ما يُوصِلُهُ إلى نعيمِ الآجِلِ، وأُمِرَ أنْ يَجْعَلَ هَرَبَهُ عنِ الآلامِ الآجِلَةِ [عاجلاً][8] فَيَجْتَهِدَ في ما فيهِ التَّخَلُّصُ والنَّجاةُ مِنْ تلكَ الآلامِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٢ و٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: لأنَّ المُصَلِّينَ يقومونَ بِرياضةِ أنفسِهِمْ حتى يَصْرِفوها عنْ خِلْقَتِها التي أُنشِئَتْ عليها، ثم بَيَّنَ أنَّ الذينَ [يقومونَ][9] بِرياضةِ أنفسِهِمْ، هُمُ الذينَ

---

(١) في الأصل وم: أنها. (٢) في الأصل وم: تذكر. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: نفسها. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أنه. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

يقومونَ على صلاتِهِمْ، دُونَ الذينَ يقومونَ على الصلاةِ كُسالى، ولا يُداوِمونَ عليها، ولا يُنفِقونَ مِنْ أموالِهِمْ إلّا عنْ كَراهةٍ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ دَوامُهُمْ عليها في لُزومِ ما عَرَفوها، وهو أنْ يُقيموها في أوقاتِها، ويُحافظوا عليها، دونَ أنْ يكونَ دَوامُهُمْ أنْ يكونوا فيها أبداً.

ألا تَرَى إلى ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى أدْوَمُها، وإنْ قَلَّ»؟ [مسلم ٧٨٣/ ٢١٨] وأرادَ بقولِهِ: «أدْوَمُها» لُزومَها في الوقتِ الذي أوجبَ.

فَعَلَى ذلكَ [﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾][(١)] لا أنْ يكونوا أبداً فيها، لأنهمْ إذا بَقُوا فيها أبداً كَثُرَ ذلكَ منهمْ، فلا يكونُ لقولِهِ: «وإنْ قَلَّ» مَعْنَى فَثَبَتَ أنَّ مَعْنَى الدّوامِ ما وَصَفَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ المُداوَمَةِ، هو أنْ يدومَ على الأحوالِ التي تَليقُ بالصلاةِ عندَ كونِهِ فيها مِنَ الإقبالِ على المُناجاةِ وتَرْكِ الالْتِفاتِ وتَفْريغِ القَلْبِ مِنَ الأشغالِ والوَساوِسِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ هو التَّطَوُّعُ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الآية ٣٤ والأنعام: ٩٢] [هي][(٢)] الفريضةُ[(٣)]. وتصديقُهُ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا إذا صَلَّوا صلاةً داموا عليها، وكانَ ﷺ يقولُ: «خيرُ الأعمالِ أدْوَمُها، وإنْ قَلَّ» [بنحوه مسلم: ٧٨٣/ ٢١٨].

وأصلُهُ: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧و. .] والإقامةُ على الشيءِ، هي الدوامُ عليهِ، لأنهُ إذا فَعَلَ الشيءِ مَرَّةً، ثم تَرَكَهُ، لم يُوصَفْ بالإقامةِ عليهِ.

فقولُهُ: ﴿دَآئِمُونَ﴾ و﴿وَيُقِيمُونَ﴾ [البقرة: ٣و. . .] يَقْتَضي معْنىً واحداً، فيكونُ فيهِ إبانةُ أنَّ الصلاةَ تُلْزِمُ فِعْلَها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وليسَتْ كالفرائضِ التي إذا أُدِّيَتْ مَرَّةً سَقَطَتْ مِنْ نَحْوِ الجِهادِ والحَجِّ.

الآيتان ٢٤ و٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾][(٤)] قيلَ: هو الزكاةُ؛ ذُكِرَ ذلكَ عنْ قَتادةَ.

وقالَ أبو بكرٍ: هذا غيرُ مُحْتَمَلٍ لأنَّ هذهِ الآياتِ مَكيةٌ، وإنما فُرِضَتِ الزكاةُ عليهِمْ بَعْدَ هجرتِهِمْ

ولكنْ ليسَ في ما ذَكَرَهُ دَفْعُ هذا التأويلِ: لأنهُ يجوزُ /٥٩٦ ـ ب/ أنْ تكونَ الزكاةُ، لم تُفرَضْ عليهِمْ لِما لم يكونوا أصحابَ الأموالِ، لأنَّ الزكاةَ لم تكُنْ مَفروضةً في الجملةِ ويَيَّنَ الوُجوبَ إذا اسْتَفادوا الأموالَ.

ألا تَرَى أنَّ الفقيرَ[(٥)] قد يَعْلَمُ إيتاءَ الزكاةِ مِنَ المالِ، وإنْ لم يكُنْ لهُ مالٌ لِيَقومَ بأدائِها إذا صارَ مِنْ أهلِها؟ فقولُهُ تعالى: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي أعْلَمَهُ اللهُ [أنَّ لهُ حقّاً معلوماً][(٦)] في أموالِهِمْ، فَلَزِمَهُمْ إخراجُهُ. ثم بَيَّنَ أنَّ خُروجَهُمْ ممّا لَزِمَهُمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تعالى في أموالِهِمْ بالدفْعِ إلى السائلِ والمحرومِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ الحقُّ المعلومُ، هو حقُّ القرابةِ وغَيرُهُ. ومَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا الحَقَّ غَيرُ الزكاةِ قالوا: إنهمْ كانوا أعْلِموا أنَّ في أموالِهِمْ حَقًّا، فَجَعَلَهُ لِطائفةٍ منها للسائلِ وطائفةٍ لِلْمَحروم. لِذلكَ سَمّاهُ حَقّاً مَعْلوماً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في ذلكَ الوقتِ شيئاً مَعْلوماً مَفْروضاً عليهِمْ في أموالِهِمْ، نَسَخَتْهُ[(٧)] آيةُ الزكاةِ، ولم يَذْكُرْ لنا ذلكَ لِعَدَمِ حاجَتِنا إلى معرفتِهِ.

ثم السائلُ معروفٌ، وهو الذي يَسْألُ، وأمّا المحرومُ فقد رَوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سئلَ عنِ المَحْرومِ، فقالَ: «المَحْرومُ، هو الذي لا يَثْمُرُ[نَخلُهُ، ويَثْمُرُ][(٨)] نَخلُ الناسِ، ولا يَزْكو [زَرْعُهُ، ويَزْكو][(٩)] زَرعُ الناسِ، ولا تَلْبُنُ شاتُهُ، وتَلْبُنُ شاةُ الناسِ» فَعَنَى[(١٠)] بالمحرومِ هذا: أنهُ حُرِمَ بَرَكَةَ مالِهِ.

---

(١) في الأصل وم: على أنفسهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: قال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الفقر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: نسختا، في م: نسختها. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: له. (١٠) في الأصل وم: فعنوا.

وفي هذا الخَبَرِ دليلٌ على أنّ المرءَ، لا يَصيرُ غَنِيّاً بِمُلْكِ النَّخيلِ والأرضِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المحرومُ، هو الذي حِيلَ بَيْنَهُ وبَينَ وجوهِ المَكاسبِ. فَمَنْ كانَ حالُهُ هكذا كانَ علينا أنْ نَتعاهَدَهُ، ونَقومَ بكِفايَتِهِ.

وقالَ الحَسَنُ: المَحْرومُ، هو الذي يَتَعَفَّفُ عنِ السؤالِ، وإنْ هَلَكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو يومُ الجزاءِ ويومُ الحسابِ، فكلُّ مَنْ[1] عَرَفَ الجزاءَ وآمَنَ بهِ لم يَجْزَعْ بما يُصيبُهُ، ولا مَنَعَ الحقَّ الذي طُلِبَ منهُ، ولم يوُصَفْ بأنهُ هَلوعٌ، وإنما الهَلوعُ، هو الذي يُكَذِّبُ بِيومِ الدينِ كما قالَ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١و٢] فأخبرَ أنَّ الذي يَدُعُّ اليتيمَ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: ٣] هو الذي لا يُؤمِنُ بالآخِرَةِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ أي خائفونَ وَجِلونَ، وهمُ الذينَ قالَ [فيهِمْ][2] ﷻ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وسُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ وقيلَ لهُ: أهُمُ الذينَ يَسْرُقونَ، ويَزْنونَ، ويَعْمَلونَ بالمعاصي؟ فقالَ: «لا بل هُمُ الذينَ يَقومونَ، ويُصَلّونَ، ويُؤتونَ الزكاةَ» أو كما قالَ بِلَفظِهِ ﷺ «ووَجَلُهُمْ هو أنهمْ يَخافونَ ألّا تُقْبَلَ منهمْ [حَسَناتُهُمْ]»[3] أو يَخافونَ أنْ يكونوا قَصَّروا عنِ الوفاءِ بِشُكْرِ النِّعَمِ، أو غَفَلوا عنْ شُكْرِ كثيرٍ منها» [زاد المسير ٥/ ٣٢٧].

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ فهذا هو الحَقُّ ألّا يَأمَنَ أحدٌ مِنْ عذابِهِ، وإنْ دَأَبَ في عَمَلِهِ، واجْتَهَدَ في طاعتِهِ لِما [لا][4] يَدري على ماذا يُخْتَمُ أمْرُهُ، أو يَخافُ ألّا يُقْبَلَ منهُ، ويُرَدَّ عليهِ، أو يَخافُ أنْ يكونَ قد قَصَّرَ عنْ شُكْرِ كثيرٍ مِنَ النِّعَمِ، وغَفَلَ عنها.

والأصلُ أنهُ ما مِنْ أحدٍ يَنْظُرُ في أمْرِهِ وحالِهِ إلّا وهو يَرَى على نفسِهِ مِنَ اللهِ تعالى أنْعماً؛ لو أجْهَدَ نفسَهُ لِيقومَ بِشُكْرِ واحدةٍ[5] منها لَقَصَّرَ في ذلكَ، ولم يَتَهَيَّأْ لهُ القِيامُ بوفائِها.

فَمَنْ كانَ هذا وصفُهُ فأنّى يَقَعَ لهُ الأمْنُ مِنْ عذابِهِ؟ ويُؤخَذُ منهُ الوفاءُ بالأسبابِ التي يُؤمِنُ بها؟ إلّا أنْ يكونَ مِنَ الخاسِرينَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ ذَكَرَ حِفْظَ الفَرْجِ، ولم يَذْكُرْ بِمَ يُحْفَظُ؟ وحِفْظُهُ يكونُ بخصالٍ:

أحَدُها: أنْ يَسْكُنَ في قلبِهِ جَلالُ اللهِ وهيبَتُهُ، ويَخْشَى عقابَهُ في المَعادِ.

والثاني: بِما جَعَلَهُ اللهُ ﷻ سَبَباً لِلتَّعَفُّفِ مِنَ النّكاحِ ومُلْكِ اليَمينِ، فَيَمْنَعُهُ ذلكَ عنِ الزِّنَى وحِفْظِ الفَرْجِ.

والثالثُ: [بأنْ][6] يُجيعَ بطنَهُ بالصِّيامِ كما قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لم يَقْدِرْ على الباءِ فَلْيَصُمْ فإنَّ الصومَ لهُ وِجاءٌ» [البخاري ١٩٠٥].

والرابعُ: بما يَتْرُكُ النَّظَرَ إلى النساءِ، ولا يَخْلو بهِنَّ، ويَدَعُ مُجالَسَةَ الفُجّارِ وأهلِ الرِّيبَةِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ لكنا نَعْلَمُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أنهمْ لا يُلامونَ، لأنهمْ قد أباحَ لهمُ الاِسْتِمْتاعَ بِمَنْ مَلَكَتْ أيمانُهُمْ ومَنْ كانَ تَحْتَهُمْ بِمُلْكِ النِّكاحِ، ولا يجوزُ أنْ نُلْحِقَ اللائمةَ باسْتِعْمالِ المُباحِ المُطلَقِ. ولكنَّ فيهِ فوائدَ:

أحَدُها: أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُحَرِّمُ الاِسْتِمْتاعَ بِمُلْكِ النِّكاحِ ومُلْكِ اليَمينِ، فَيُخْبِرُ أنهُمْ عندَ مَنِ اعْتَقَدَ الإيمانَ بالرسلِ غيرُ مَلومينَ، وإنما يُلامُ[7] مَنْ أنْكَرَ الرسالةَ، وهُمُ الثَّنَوِيَّةُ والبَراهِمَةُ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) و(٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: واحد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يلزمهم.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: وإنْ مَنَعوا النساءَ عنِ الجِماعِ بِما هو خَيرٌ لهمْ منَ الصِّيامِ وأنواعِ القُرَبِ، لم تَلْحَقْهُمُ اللائمةُ كما يُلامُ مَنْ يَمْنَعُ آخَرَ عَنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وإذا اسْتَمْتَعوا بِمُلْكِ النِّكاحِ ومُلْكِ اليَمينِ لم يُبْلَوا بالزِّنى، فَتَلْحَقُهُمُ اللائمةُ بذلكَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ العادي: هو الظالمُ في الحقيقةِ، يُقالُ: عَدا فلانٌ على فلانٍ إذا ظَلَمَهُ، فهمْ عادونَ حينَ[1] ظَلَموا أنفسَهُمْ، فوَضَعوها في مَوضِعٍ، لم يُؤذَنْ لهمْ بالوضعِ فيها.

وقالَ الحَسَنُ: همُ العادونَ حينَ[2] عَدَوا مِنَ الحَلالِ إلى الحَرامِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ تَحْريمِ المُتْعةِ لأنهُ أخبَرَ أنَّ مَنِ ابْتَغى وراءَ مُلْكِ اليَمينِ ومُلْكِ النِّكاحِ فهو إذَنْ مِنَ العادِينَ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ فالأماناتُ لها وجهانِ:

أحدُهما: ما ائْتَمَنَ اللهُ ﷻ عبادَهُ على مالَهُ مِنَ الحقوقِ عليهمْ

والثاني: [ما][3] ائْتَمَنَ بعضَهُمْ على الحقوقِ والعهودِ التي تَجْري بَينَ الخَلْقِ مِنَ الذِّمَمِ والنُّذورِ وغَيرِ ذلكَ، فَيَدْخُلُ فيهِ كلُّ أمانةٍ بَينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ وبينَهُ[4] وبَينَ الخَلْقِ، وكلُّ عهدٍ أُخِذَ عليهمْ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] قيلَ في التأويلِ: العُهودُ. ثم بَيَّنَ ذلكَ، فقالَ: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [المائدة: ١٢] والعَهْدَ الذي أعْطَينا للعاهدينَ؛ فكلُّ ذلكَ داخلٌ تحتَ الآيةِ.

وقد يدخُلُ مَعْنَى الأمانةِ في العَهْدِ والعَهْدِ في الأمانةِ، وقد يجوزُ أنْ يَقَعَ بَينهما فَرْقٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي يُقيمونَها للهِ تعالى كقولِهِ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] [أي قائمينَ][5] بالوفاءِ بما عليهِمْ مِنَ الشهادةِ، فيقومونَ لها، أحَبُّوا[6] أمْ كَرِهوا، ضَرَّهُمْ ذلكَ أمْ[7] نَفَعَهُمْ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المُحافظةُ على][8] الصلاةِ إقامَتُها في أوقاتِها بِشَرائِطِها. والذي يَحْمِلُهُمْ على المُحافظةِ على الصلاةِ ما يَخْشَونَ اللهَ تعالى، ولما جُعِلَتْ تكفيراً لِسَيِّئاتِهِمْ يرغبونَ[9] في إقامَتِها تكفيراً عنْ[10] سَيِّئاتِهِمْ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ في الآيةِ إبانةُ أنَّ مَنْ يُكْرَمُ بالجِنانِ هؤلاءِ.

وذُكِرَ عنْ أبي بكرٍ الأصَمِّ أنهُ قالَ: في هذهِ دلالةُ أنَّ مَنْ وَفَى بهذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَها في هذهِ السورةِ مِنَ الإدامةِ على الصلاةِ وإيتاءِ الحَقِّ المَعْلومِ والتصديقِ بِيَومِ الدينِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، فهو الذي يُكْرَمُ بالجنةِ [ويُكْرَمُ][11] الخاطِئُ الذي يَرْجِعُ عنْ خَطيئَتِهِ، ويَتوبُ عنها.

فأمّا [غيرُ هذينِ فهو لا][12] يَسْتَوجِبُ الإكرامَ بالجنةِ. فما ذَكَرَ مِنَ الإكرامِ بالجنةِ لِلصِّنْفَينِ اللَّذَينِ ذَكَرَهما، فهو كما ذَكَرَ.

وأمّا الصِّنْفُ الثالثُ فهمُ الذينَ بُلُوا بالخَطيئاتِ/ ٥٩٧ - أ/ مِنْ أهلِ الإيمانِ، ولم يَتوبوا عنها، فقد تُرْجَى لهمْ هذهِ الكرامةُ بِعَفْوِ اللهِ ﷻ وكَرَمِهِ وجودِهِ.

ومَنْ كانَ هذا وصفَهُ لم يَيْأَسْ مِنْ إحسانِهِ، بل كانَ العَفْوُ منهُ مأمولاً والإحسانُ منهُ مَرْجُوّاً.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وبينهم. (٥) في الأصل وم: أو قائمون. (٦) و(٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: محافظة. (٩) في الأصل وم: فيرغبون. (١٠) في الأصل وم: عنهم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: على غير هذين فهؤلاء.

الآيتان ٣٦ و٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِ الإهطاعِ. فمنهُمْ مَنْ يقولُ: هو الإسراعُ في المَشْيِ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو إدامةُ النَّظرِ.

فَمَنْ حَمَلَهُ على الإسراعِ فَمَعناهُ أنَّ أئِمَّةَ الكُفْرِ كانوا يأتونَ رسولَ اللهِ ﷺ فَيَسْتَمِعونَ القرآنَ منهُ، ثم يُسْرِعونَ إلى أتباعِهِمْ، ويَجْلِسونَ حَلَقاً حَلَقاً، ويُحَرِّفونَ ما يَسْتَمِعونَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ فإنْ كانَ الأمْرُ على هذا فَتَأويلُهُ: ما لهمْ يُسْرِعونَ إليكَ لِيَسْمعوا كلامَكَ، ثم يَتَفرَّقونَ عنِ اليمينِ وعنِ الشِّمالِ، ويُكَذِّبونَكَ نَحْوَ أنْ يقولَ بعضُهُمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠و..] [ويقولوا][1]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥و..] [ويقولوا][2]: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨] ونَحْوَ ذلكَ.

وأمّا المَنْفَعةُ لهمْ في طَعْنِهِمْ عليكَ [فهو اسْتِحْقاقُهُمُ] المَقْتَ والهَلاكَ بذلكَ مِنَ اللهِ تعالى. وما يَرْجونَ بإعراضِهِمْ عنْ تَصديقِكَ بَعْدَ ما رَأَوُا الآياتِ؟

ومَنْ حَمَلَهُ على النَّظرِ فَمَعْناهُ أنهمْ كانوا يَجْلِسونَ مِنْ بَعيدٍ، فَيَنْظُرونَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، ويَطْعَنونَ عليهِ بالسِّحْرِ والافْتِراءِ [وأنهُ][3] مِنْ أساطيرِ الأوّلينَ، ويَمْكُرونَ بِمَنْ[4] يَقْتَدي برسولِ اللهِ ﷺ [وبِمَنْ لا][5] يُعاديهِ مِنَ الكَفَرَةِ.

فإنْ كانَ على هذا فَتَأويلُهُ كأنهُ يقولُ لهمْ: [مالهمْ][6] يَجْلِسونَ مِنَ البُعْدِ ناظرينَ إليكَ، ولا يَدْنونَ منكَ لِيَسْمَعوا ما أُنْزِلَ إليكَ، فَيَنْتَفِعوا بهِ؟ وإنَّهُمْ[7] مُتَفرِّقونَ عنِ اليمينِ وعنِ الشِّمالِ، يَصُدّونَ الناسَ عنْ مَجْلِسِكَ، وقد عَلِموا أنَّ لهمْ إلى مَنْ يُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ حاجةً؛ إذْ ليسَ عندَهُمْ كتابٌ ولا عِلْمٌ بالأنباءِ المُتَقَدِّمةِ لِيَعْلَموا أنكَ جِئْتَ بالعِلْمِ والحِكْمةِ دونَ السِّحْرِ والكَهانةِ.

فإنْ كانَ هذا الوجهُ فالعتابُ[8] لِمكانِ التَّحْريفِ والتَّبْديلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ قولُهُ: ﴿أَيَطْمَعُ﴾ حرفُ اسْتِفْهامٍ، وقد ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاسْتِفْهامِ لِمَنْ[9] لا يَفْهَمُ إيجابٌ.

ثم اخْتُلِفَ في وجْهِ الإيجابِ: فمنهُمْ مَنْ يقولُ: مَعْنَى قولِهِ: ﴿أَيَطْمَعُ﴾ أي لا يَطْمَعُ كلُّ امْرِئٍ بِعبادتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ أنْ يَدْخلوا جنةَ نَعيمٍ، إذ هُمْ مُنْكِرونَ لِلْبَعْثِ والجنةِ والنارِ. ثم معَ هذا يَنْصُرونَ الأصنامَ، ويَعْبُدونَها.

وإنْ كانَ لا طَمَعَ لهمْ في نَصْرِها إلى شيءٍ في العاقبةِ، ولا يَرْجونَ منها العواقبَ، فيكونُ في هذا ترغيبٌ للمؤمنين على القيامِ بِنَصْرِ رسولِ الله ﷺ، لأنهُمْ يَطْمَعونَ نَيلَ الجنةِ والكرامةَ مِنَ اللهِ تعالى والنجاةَ مِنَ النارِ بِنَصْرِهِمْ رسولَ الله ﷺ وبِعبادَتِهِمُ اللهَ تعالى؛ كأنهُ يقولُ: لا تَطْمَعونَ نَيلَ شيءٍ، ولا تَخافونَ مِنْ شيءٍ في العاقبةِ، ثم تَقومونَ بِنَصْرِ الأصنامِ. فأنتمْ أحقُّ بِنَصْرِ رسولِ الله ﷺ، إذْ تَطْمَعونَ نَيلَ الجنةِ والدخولَ فيها بِنَصْرِكُمْ إيّاهُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على إيجابِ الطَّمَعِ، وهو أنهمْ كانوا يَطْمَعونَ دخولَ الجنةِ ونَيلَ نَعيمِها إذا رَجعوا إلى ربهِمْ ظَنًّا منهمْ أنهمْ إذا ساوَوُا المسلمينَ في نَعيمِ الدنيا وسَعَتِها، وكذلكَ يُساوُونَهُمْ في نَعيمِ الآخِرَةِ كما قالَ اللهُ تعالى خَبَراً عنهمْ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

هكذا ظَنُّ الكَفَرَةِ: أنهمْ إنْ رُجِعوا إلى ربِّهِمْ فَيَجِدونَ عندَهُ خيرَ مُنْقَلَبٍ.

الآية ٣٩ فقالَ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ فقولُهُ: ﴿كَلَّآ﴾ على هذا التأويلِ رَدٌّ لاعْتِقادِهِمْ وقَطْعٌ لأطماعِهِمْ؛ فقالَ: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا يَدْخلونَها قَطُّ. ثم اسْتَأنَفَ الكلامَ، فقالَ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: ومن. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: لكنهم. (٨) في الأصل وم: والعتاب. (٩) في الأصل وم: ممن.

وعلى التأويلِ الأوَّلِ: ﴿كَلَّآ﴾ بِمَعْنَى حقاً أنهمْ لا يَطْمَعونَ. ثم اسْتَأْنَفَ بقولِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي [مِنْ][١] تلكَ النُّطفِ، فَيُذَكِّرُهُمْ بهذا عظيمَ نِعَمِهِ وإحسانِهِ إليهمْ: بِما أخرَجَهُمْ منها، ونَقَلَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ حتى صاروا بَشراً سَوِيّاً لِيَعْلَموا أنَّهُ[٢] لا يَتْرُكُهُمْ سُدًى، بل لِيَمْتَحِنَهُمْ، ويَسْتَأْدِيَ منهمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ، فَيوجِبُ ذلكَ تصديقَ الرسلِ.

وفيهِ تذكيرُ بِقُدْرَتِهِ وسلطانِهِ وبَيانُ ضَعْفِ اقْتِدائِهِمْ[٣] لِيَعْلَموا إنَّ مَنْ قدرَ على إنشائِهِمْ لقادرٌ على أنْ يُحْيِيَهُمْ بعدَ ما أفْناهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ الآية؛ ذِكْرُ المَشارقِ والمَغاربِ ذِكْرُ السمواتِ والأرضِ، وفي ذِكْرِهما ذِكْرُ أهلِ السمواتِ والأرَضِينَ، فيكونُ مَعْناهُ: فلا أقسمُ بربِّ الخلائقِ أجمعَ.

ويكونُ حرفُ: لا زائداً في الكلامِ تأكيداً للقَسَمِ على ما يُذْكَرُ، فيكونُ مَعْناهُ: فَلَأُقْسِمُ

ثم حقُّ هذا القَسَمِ أنْ يكونَ[٤] مَكانَ قولِهِ: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ فَلَأُقْسِمُ بي إذا كانَ القَسَمُ مِنَ اللهِ تعالى. هذا هو ظاهرُ الكلامِ في مُتعارَفِ [أهلِ][٥] اللِّسانِ. ولكنْ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهُما][٦]: أنْ يكونَ هذا القَسَمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كأنهُ عَلَّمَهُ أنْ يُقْسِمَ بهِ، ويقولَ لهُ: قُلْ يامحمدُ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾.

[والثاني][٧]: إنْ كانَ هذا قَسَماً مِنَ اللهِ تعالى، فهو مستقيمٌ أيضاً مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُما: على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: فلا أُقْسِمُ بي، وأنا ربُّ المَشارقِ والمَغارِبِ.

والثاني: وإنْ كانَ هذا القَسَمُ مِنَ اللهِ، فَيَسْتَقيمُ[٨] بلفظِ المُغايبةِ كما يَسْتَقيمُ بلفظِ الحاضِرِ، لأنَّ الخَلْقَ كلَّهُ، للهِ شُهودٌ، وليسَ هو شاهدٌ لِلْخَلْقِ، فَيُخَرَّجُ الكلامُ بَيْنَهُمْ على ما يُخاطَبُ الغائبُ [مَرَّةً][٩] ومَرَّةً على الوَجْهِ الذي يُخاطَبُ بِهِ الشاهدُ، ومثلُ هذا مُسْتَعْمَلٌ في مُتعارَفِ [أهلِ][١٠] اللِّسانِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ مَلِكَ السمواتِ والأرَضِينَ ومُدَبِّرَهما واحدٌ، إذْ لو لم يكُنْ [واحداً][١١] لَكانَ لِمَلِكِ[١٢] السماءِ أنْ يَمْنَعَ الشمسَ والقَمَرَ والكواكبَ مِنْ إيصالِ النَّفْعِ إلى أهلِ الأرضِ، ويكونُ لِمَلِكِ الأرضِ أنْ يَمْنَعَ مَلِكَ السماءِ مِنَ الإغرابِ في الأرضِ.

ثم الذي يَشْرُقُ، ويَغْرُبُ منذُ خُلِقَ يَجْري على ما جَرَى عليهِ التَّدْبيرُ جَرْياً واحداً، لم يَقَعْ فيهِ تَغْييرٌ ولا تبديلٌ. ولو كانَ للهِ تعالى شَريكٌ لَكانَ لا بدَّ مِنْ وُقوعِ التَّغْييرِ فيهِ[١٣].

فَثَبَتَ أنَّ تَدْبيرَ السمواتِ والأرضينَ وتَدْبيرَ سُلْطانِهِما راجعٌ إلى الواحدِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا مَوضِعُ [جوابِ][١٤] القَسَمِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ أنْ يُبَدِّلَ الخيرَ منهمْ، فَيَجْعَلَ مَكانَ [الشَّرِّ خيراً][١٥] كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وقد فَعَلَ ذلكَ لأنهمْ أسْلَموا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ به ﴿أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم هذا يُخَرَّجُ على [وجوهٍ:

أحَدُها:][١٦] على تَحْقيقِ القُدْرةِ.

والثاني: أنْ يكونَ مَعْنَى القُدْرةِ إرادةَ الفِعْلِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنهم. (٣) في الأصل وم: ابتدائهم. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وجوهها: أحدها. (٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ملك. (١٣) في الأصل وم: فيها. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: ما كانوا من الشر والخير، في م: ما كانوا من الشر خيراً. (١٦) في الأصل وم: وجهين أحدهما.

أمّا الأوّلُ فَعلى وجهَينِ:

أحَدُهما: على مَعْنَى تَخويفِ أهلِ مكةَ، لأنهمْ إنْ لم يَنتَهُوا عنْ ذلكَ يُنْزِلِ اللهُ تعالى مَكانَهُمْ مَنْ هو خَيرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ.

والبَدَلُ لا يكونُ إلّا بَعْدَ المُبْدَلِ منهُ، وقد فَعَلَ اللهُ تعالى ذلكَ بهمْ [إذْ][1] أهْلَكَ/ ٥٩٧ ـ ب/ المُعاندينَ منهمْ، وأبْدَلَ لِرسولِ اللهِ ﷺ أولادَهُمْ والمُهاجرينَ منهمْ والأنصارَ الذينَ آوَوا رسولَ اللهِ ﷺ ونَصَرُوهُ.

والثاني: أنا كنا قادرينَ على أنْ نَجْعَلَ المُرسَلَ إليهمْ خَيراً، إذْ قد عَلِموا مِنْ قُدْرَةِ اللهِ ﷻ، أنهُ[2]، هو الذي خَلَقَهُمْ، وأنْشَأهُمْ. لكنْ إنما أرسَلَ إليهمْ، وأمَرَهُمْ لِحاجاتِ أنفسِهِمْ لا لِنَفْعٍ يَرْجِعُ إليهِ، ليسَ على ما عليهِ مُلوكُ الدنيا، لكنهُ إنما امْتَحَنَهُمْ بالأمرِ لِيَسْعَوا في نَجاةِ أنفسِهِمْ، ونَهاهُمْ لِيَكُفّوا رقابَهُمْ عنِ النارِ، فيكونَ فيهِ تَسكينُ قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ عندَ وَجْدِهِ عليهِمْ حينَ[3] لم يُؤمِنوا.

وأمّا الوجهُ [الثالثُ فأنْ][4] يكونَ مَعْنَى القُدْرةِ إرادةَ الفِعْلِ خاصَّةً؛ إذْ يُكَنّى بالقُدْرةِ [عنِ الفِعْلِ، إذْ هي][5] سَبَبُ الفِعْلِ كالأمرِ المُعْتادِ بَينَ الخَلْقِ؛ يأمُرُ رجلٌ آخَرَ بِفِعلٍ، فيقولُ: لا أسْتَطيعُ، ولا أقدِرُ، أي لا أفْعَلُ. وعلى هذا تأويلُ قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ أي لَفاعِلونَ ما[6] هو خَيرٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ بَدَلاً عنْ هؤلاءِ.

فإنْ كانَ على هذا فيكونُ فيهِ بِشارةٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ أنهُ يَجْعَلُ لهُ أصحاباً يَرْضاهُمْ، ويكونُ فيهِ إخبارُ اللهِ ﷻ لهُ بالنَّصْرِ والغَلَبةِ على المُكَذِّبينَ منهمْ، ويكونُ فيهِ إنباءٌ لِرسولِ اللهُ ﷺ أنهُ لا يَنْفُذُ فيهِ مَكْرُهُمْ، وإنِ اجْتَهَدوا، ويكونُ فيهِ إعلامٌ أنهُ يَنْتَقِمُ منهمْ لهُ، ويُعَذِّبُهُمْ.

وقد فَعَلَ ذلكَ كلَّهُ بِحَمْدِ اللهِ ﷻ واللهُ المُسْتَعانُ حينَ[7] بَدَّلَ على أهلِ مكةَ أهلَ المدينةِ، وكانوا خَيراً منهم لأنَّ أهلَ مكةَ، كانوا عليهِ، وأهلَ المدينةِ كانوا لهُ، فكانوا هُمْ [خَيرَ اللهِ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ والمَسبوقُ المَغْلوبُ؛ فكأنهُ قالَ: لا يَسْبِقُنا أحدٌ، ولا يُعْجِزُنا أحدٌ عنْ ذلكَ، ولا يَفوتُنا ما نُريدُهُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ قالَ أبو بكرٍ: الخائضُ المُتَحَيِّرُ، واللاعبُ الخاطئُ، فقولُهُ: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي دَعْهُمْ في ما هم منْ خطاياهُمْ وتَحَيُّرِهِمْ في دينِهِمْ؛ فكلُّ مَنِ اشْتَغَلَ بما لا يَحتاجُ له فَهو خائضٌ لاعبٌ.

وأصلُهُ أنَّ كلَّ امْرِئٍ، لا عاقِبَةَ لهُ، تُحْمَدُ، فهو [في عَمَلِهِ] لاعبٌ لاهٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦] أي مَنْ يَعْمَلْ في الحياةِ الدنيا للدنيا لا لِلآخِرَةِ، فهو لاعبٌ لاهٍ.

وكأنَّ هذهِ الآيةَ صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [الآية: ٣٦].

أمَرَهُ بألّا يَشْتَغِلَ بأولئكَ، ويُقْبِلَ على مَنْ يَرْجو منهمُ الإيمانَ، أو أمَرَهُ بألّا يَشْتَغِلَ بِمُكافأتِهِمْ بِسوءِ صَنيعِهِمْ، فإنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُ عليهِمْ، ويكافِئُهُمْ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ قد لاقوا ذلكَ اليومَ، وهو يومُ بَدْرٍ، وسَيُلاقونَ اليومَ الثانيَ، وهو يومُ الآخِرَةِ، بِتَرْكِهِمُ الإجابةَ، فَيُسارِعونَ في ذلكَ اليومِ إلى إجابةِ الداعي رَجاءَ أنْ يَتَخَلَّصوا مِنَ العذابِ الذي حقَّ عليهِمْ بِتَرْكِ الإجابةِ. وذلكَ لا يَنْفَعُهُمْ، وإنْ وُجِدَتْ منهمُ التوبةُ والرجوعُ إلى[9] تلكَ الإجابةِ؛ لأنَّ ذلكَ اليومَ ليسَ بيومٍ تَنْفَعُ فيهِ الندامةُ والتوبةُ.

وإنما هو يومٌ تُجْزَى فيهِ كلُّ نفسٍ بِما كَسَبَتْ، وهذا كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإنه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: الثالث أن، في م: الثاني أن. (٥) في الأصل وم: إذ هو. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: خيراً. (٩) في الأصل وم: عن.

فأخبَرَ أنهمْ يَفْزَعونَ إلى الإيمانِ باللهِ تعالى لِما أيْقَنوا أنهمْ إنما حلَّ بهمُ البأسُ بإعراضِهِمْ عنِ الإيمانِ، فَفَزِعوا عندَ إيقانِهِمْ بالعذابِ إلى الإيمانِ رَجاءَ أنْ يَتَخلّصوا مِنَ العذابِ، فلم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، ولم يُغْنِهِمْ مِنْ عذابِ اللهِ شيءٌ؛ إذْ ذلكَ الوقتُ ليسَ بوقتِ قَبولِ التوبةِ. فيكونُ هذا تَحْريضاً [على الإسراعِ][1] إلى إجابةِ الداعي والإيمانِ بما يَدْعو إليهِ قَبْلَ أنْ يُؤْمِنوا إيماناً، لا يَنْفَعُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قُرِئَ بِنَصْبِ النونِ وجَزْمِ الصادِ؛ وهو اسْمُ العَلامةِ كالعَرَضِ وأشباهِهِ. وقُرِئَ بِضَمِّ [فسكونٍ][2] وهو اسْمٌ للضَّمِّ.

فإنْ كانَ على العَلامةِ، فَمَعناهُ أنهمْ يُسارِعونَ في ذلكَ الوقتِ إلى إجابةِ الداعي مُسارَعَةَ مَنْ يُسْرِعُ في هذهِ الدنيا إلى العَرَضِ والعَلامةِ المنصوبةِ. كذا قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ.

وذُكِرَ عنِ الكَلْبيِّ: ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ إلى عَلَمٍ يَسْعَونَ. وقالَ قتادةُ: إلى عَلَمٍ يَسْتَبِقونَ، وعنْ مُجاهِدٍ: إلى عَلَمٍ يَنْطَلِقونَ.

فإنْ كانَ على الثاني فَمَعْناهُ أنهمْ يُسْرِعونَ إلى إجابةِ الداعي في ذلكَ كَسُرْعَتِهِمْ إلى عِبادةِ النُّصْبِ عندَ خَوفِهِمْ فَوتَ عِبادَتِها وعندَ اجْتِماعِ عُبّادِها [عندَما يَبْتَدِرونَ][3] نُصُبَهُمْ حتى يَسْتَلِموها.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ النُّصُبَ برفعِ النونِ والصادِ، هي الأعراضُ التي يَسْتَبِقونَ إليها. ومَنْ تأوَّلَ هذا فهو يَجْعَلُ النُّصُبَ ههنا جمعَ النُّصْبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي يُسْرِعونَ. وقالَ الحسنُ: أي يَرْمُلونَ، وهما واحدٌ، لأنَّ الإسراعَ في الرَّمَلِ موجودٌ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على بَصَرِ الوجوهِ، وَصِفَةُ خُشوعِها ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] فَتخْشَعَ خشوعاً، لا تَمْلِكُ صَرْفَ طَرْفِهِ عنِ الداعي. ففيهِ أنَّ الزَّلَّةَ قد أحاطَتْ بهمْ حتى أثَّرَتْ في الأعيُنِ والوجوهِ وفي كلِّ عُضْوٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على بَصَرِ القلوبِ، وهو أنَّ قلوبَهُمْ تَشْتَغِلُ بإجابةِ الداعي عنْ [أنْ][4] تُبْصِرَ لِنَفْسِها حِيلةً، تَتَخَلَّصُ [بها][5] مِنْ أهوالِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تَعلوهُمْ. والذِّلَّةُ الحالةُ في النفسِ، يَبْدو ظُهورُها[6] مِنَ الأبصارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ وحقُّهُ أنْ يقولَ: هذا اليومُ الذي كانوا يُوعَدونَ، لأنهُ أضافَ إلى اليومِ الذي كانوا يُوعَدونَ في الدنيا. ولكنْ كانوا يُوعَدونَ ذلكَ اليومَ في الدنيا، وذلكَ اليومُ في الوقتِ الذي كانوا يُوعَدونَ غَيرُ موجودٍ، فَيُعَبِّرونَ[7] بِهِ عما يُعَبَّرُ في الغائبِ[8]، واللهُ أعلم. [وصلّى اللهُ على سيدنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ][9].

(١) في الأصل وم: بالإسراع. (٢) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٢٥و/ ٢٢٦. (٣) في الأصل وم: عندهما لو يبتردون. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: ظهوره. (٧) في الأصل وم: فيعتبر. (٨) في الأصل وم: الغالب. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

سورة نوح [عليه السلام](١)

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في ذِكْرِ نَبَإِ نوحٍ ﷺ، دلالةُ رسالتِهِ وآيةُ نُبُوَّتِهِ. إنما ذَكَرْنا أنَّ هذا لم يكُنْ مِنْ عِلْمِهِ ولا عِلْمِ قومِهِ، ولم يَخْتلِفِ النَّبيُّ ﷺ إلى مَنْ عندَهُ عِلْمٌ بهِ، فَتَعَلَّمَهُ منهُ، فَعُلِمَ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَهُ لا بأحدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فيكون فيهِ إلزامُ الحُجَّةِ عليهِمْ.

وفيهِ إعلامُ رسولِ اللهِ ﷺ ما لَقِيَ نوحٌ ﷺ/ ٥٩٨ ـ أ/ مِنْ قومِهِ، لِيُصَبِّرَهُ بذلكَ على أذى قومِهِ؛ إذِ السورةُ مكيّةٌ.

ثم أمَرَهُ بالإنذارِ، ولم يَذْكُرْ معهُ البِشارةَ. فلِذلِكَ(٢) قالَ نوحٌ ﷺ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الآية: ٢] ولم يَقُلْ بشيرٌ، وقد كانَ بَشيراً ونَذيراً.

فجائزٌ أنْ يكونَ اقْتَصَرَ على ذِكْرِ النِّذارةِ لأنَّ في ذِكْرِها ذِكْرَ البِشارةِ؛ وذلكَ أنهمْ إذا استوجَبوا العذابَ، إذا داوَموا على ما هُمْ فيهِ مِنَ الضلالةِ وعبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، فهمْ إذا انْتَهَوا عنْ ذلكَ استَوجَبوا العفوَ ووقوعَ البِشارةِ.

فإذا كانَ ذِكْرُ أحدِ الوجهَينِ يَقْتَضي ذِكْرَ الآخرِ اكْتفَى بِذِكْرِ أحدِهِما عن ذِكْرِ الآخرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ خَصَّ النِّذارةَ بالذِّكْرِ لأنَّ الحالَ كانَتْ حالَ الإنذارِ، لأنهمْ كانوا مُعْرِضِينَ عنْ طاعةِ اللهِ تعالى ومُقْبِلِينَ على عبادةِ غَيرِهِ، فكانوا مُسْتَوجِبينَ لِلنِّذارةِ، ولم يكونوا مِنْ أهلِ البِشارةِ، و إنما يَصيرونَ مِنْ أهْلِها إذا انْتَهَوا عمّا هُمْ عليهِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ إنْ داوَموا على ما هُمْ عليهِ.

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ المَرْءَ إذا أخذَ غَيرَ طريقِ [الهُدَى](٣) فالسبيلُ فيهِ أنْ يُفْسِدَ مذهبَهُ، ثم إذا ظَهَرَ فَسادُهُ عندَهُ أمَرَهُ(٤) باتِّباعِ سَبيلِ الهُدَى، ويُبَيِّنَ لهُ الحُجَجَ والدلائلَ لِيَنْجَعَ فيهِ ذلكَ، ليسَ أنْ يَحْتَجَّ عليهِ بالحُجَجِ [التي](٥) هي حُجَجُ مَذْهَبِ الحقِّ قَبْلَ أنْ يُبَيِّنَ لهُ فَسادَ ما هو فيهِ، فإنَّ ذلكَ لا يَنْجَعُ فيهِ، ولا يَدعوهُ إلى قَبولِ الحقِّ والْتِزامِهِ. بل يُبَيِّنُ لهُ قُبْحَ ما هو فيهِ وفَسادَ ما اعْتَقَدَهُ.

فإذا أبانَ لهُ ذلكَ [فإنهُ](٦) يَحْتاجُ إلى أنْ يَسْأَلَهُ عنْ سَبيلِ الهُدَى فيهِ لِيَعْرِفَهُ بالتَّعْليم.

ثم الأصلُ أنَّ الدنيا هي سَبيلُ الآخِرَةِ؛ والضلالُ سَبيلٌ يُفْضي بِمَنْ سَلَكَهُ إلى العذابِ الدائمِ. والهُدَى سَبيلٌ يُفْضي إلى الثوابِ الدائمِ.

فالنِّذارةُ، هي تَبْيينُ ما تَنْتَهي إليهِ عاقبةُ مَنْ يَلْزَمُ الضلالةَ، والبِشارةُ هي تَبْيينُ ما تنْتهي إليهِ عاقبةُ مَنْ يَلْزَمُ الهُدَى. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: النِّذارةُ، هي أنْ تُبَيِّنَ عُسْرَ ما يَحُلُّ بهِ في العاقبةِ، والبِشارةُ، هي أنْ تُبَيِّنَهُ بما يَصيرُ إليهِ في العاقبةِ مِنَ اليُسْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دلالةٌ أنَّ حُجَّتَهُ، لا تُلْزِمُ الخَلْقَ قبلَ أنْ يأتِيَهُمُ النَّذيرُ فلا يَخافونَ نُزولَ العذابِ بهمْ قَبْلَ أنْ يأتِيَهُمُ النَّذيرُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فكذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أمر له. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

دلَّ أنَّ الحُجَّةَ لازمةٌ عليهِمْ، وأنَّ اللهَ تعالى إنْ يُعَذِّبْهُمْ لِتَرْكِهِمُ التوحيدَ، وإنْ لم يُرسِلْ إليهِم الرُّسلَ فيكونُ تأويلُ قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] على عذابِ الاسْتِئْصالِ في الدنيا، ليسَ على عذابِ الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي مُبينٌ لِما يَقَعُ بِهِ الإنذارُ والتَّخْويفُ، فتكونُ الإبانةُ مُنْصَرِفةً إلى النِّذارةِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الوصفُ راجعاً على نفسِهِ خاصّةً، كأنهُ قالَ: إني نذيرٌ لكمْ مُبينٌ أي إني لم أقُمْ في دعائي إيّاكُمْ إلى عبادةِ اللهِ تعالى وإنذارِكُمْ مِنْ عندِ نفسي، ولكنْ بِما اختَصَّني اللهُ تعالى وَوَلّاني ذلكَ.

ثم الأصلُ في الإنذارِ نَهْيٌ، وفي النَّهْيِ أمرٌ، لكنَّ الإنذارَ يَقْضي نَهْياً وَكيداً، والنَّهْيُ الوَكيدُ يَقْتَضي بالخلافِ أمراً وَكيداً.

وأمّا البِشارةُ، فهي تَقْتَضي الأمرَ الوَكيدَ وغَيرَ الوَكيدِ، لأنهُ يَسْتَوجِبُ البِشارةَ بكلِّ خيرٍ يَفْعَلُهُ، وإنْ كانَ للمرءِ تَرْكُ ذلكَ الخَيرِ بِخَيرٍ آخَرَ يأتي بهِ، فلا يُفْهَمُ بنفسِ البِشارةِ الأمرُ الوَكيدُ، ويُفْهَمُ بِتَصريحِ النِّذارةِ تاكيدُ الوَجْهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما.

وإذا كانَ كذلكَ فَمُطلَقُ البِشارةِ لا يَدُلُّ على تَحقيقِ النِّذارةِ؛ فهي تدلُّ على البِشارةِ، لأنَّ النِّذارةَ على ما هو فيه في الفِعْلِ تُلْزِمُ النَّهْيَ، وإذا انْتُهِيَ عنهُ فقد حَصَلَ العَفْوُ، وفي حُصولِ العَفْوِ ارْتِفاعُ ما خُوِّفَ وذهابُهُ[1].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ فكأنهُ قالَ: أنْذِرْهُمْ على عبادةِ غَيرِ اللهِ، ومُرْهُمْ بعبادةِ [مَنْ يستَحِقُّ العبادةَ، وهو][2] اللهُ تعالى؛ إذِ الأمرُ بالإنذارِ يَقْتَضي النَّهْيَ عمّا عليهِ، وهو يَدْعو إلى خلافِهِ، وبَيَّنَ لهمُ الخِلافَ الذي يَدْعو إليهِ بقولِهِ ﷻ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

وقيلَ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وَحِّدوهُ.

وقالَ [عِكرِمةُ][3]: كلُّ عبادةٍ جَرَى بها الأمرُ في القرآنِ على الإرسالِ فهي مُنْصَرِفةٌ إلى التوحيدِ، فكأنَّ الذي حَمَلَهُ[4] على هذا التأويلِ، هو أنَّ الآياتِ التي فيها أمرٌ بالعبادةِ نَزَلَتْ في أهلِ الكُفْرِ، لأنهُ خاطبَ بقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ولم يُخاطِبْ بقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾. وإذا ثَبَتَ أنها في أهلِ الكُفْرِ، والكافرُ أوَّلُ ما يُؤمَرُ [بهِ التوحيدُ][5] ليسَ يُخاطَبُ بِعبادةٍ آخَرَ[6] سِواهُ، لأنهُ ما لم يأتِ بالتوحيدِ لم يُقْبَلْ منهُ شيءٌ مِنَ العباداتِ، فَجَعَلَ[7] تأويلَ العبادةِ التوحيدَ لهذا [لا لأنْ][8] تكونَ العبادةُ [عبارةً][9] عنِ التوحيدِ خاصّةً، بلِ العبادةُ: يُرادُ بها التوحيدُ مَرَّةً إذا ذُكِرَتْ عُقيبَ الكُفرِ [ومَرَّةً][10] إذا ذُكِرَتْ في أهلِ الإيمانِ، فالعبادةُ منهمْ أنْ يَفُوا بِمُعاملةِ ما اعْتَقَدوهُ بالقولِ وأنْ يُنْجِزوا ما وَعَدوا مِنْ أنفسِهِمْ.

وهذا كما ذَكَرْنا في إقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ أنهما إذا ذُكِرَتا في أهلِ الكفرِ انْصَرَفَ المرادُ مِنْ ذلكَ على الاعْتِقادِ لا إلى الفِعْلِ لأنهمْ ليسوا مِنْ أهلِ الفِعْلِ، وإذا ذُكِرَتا في أهلِ الإسلامِ أُريدَ بالإقامةِ والإيتاءِ إيجادُ الفعلِ.

فكذلكَ الحكمُ في العِبادةِ لقولِهِ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وَحِّدوهُ ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أيِ اتَّقُوا الإشراكَ في عِبادتِهِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما آمُرُكُمْ بهِ مِنْ توحيدِ اللهِ تعالى، وألّا تُشْرِكوا بهِ شيئاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أيِ اتَّقوا المَهالكَ كلَّها، واتَّقوا النارَ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقولِهِ تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: هو، في م: من يستحق العبادة هو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حملهم. (٥) في الأصل وم: بالتوحيد. (٦) في الأصل وم: أخرى. (٧) في الأصل وم: فجعلوا. (٨) في الأصل: إلا أن، في م: لا أن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و.

[وقولُهُ][1] ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ إذا ذُكِرَ على الانفِرادِ ومُرْسَلاً اقْتَضى الانتِهاءَ عمّا فيهِ الهلاكُ، واقْتَضى الأمْرَ بالعِبادةِ والطاعةِ. وإذا جُمِعَ بَينَ العِبادةِ والتَّقْوى كانتِ العِبادةُ انْصَرَفَتْ إلى إتيانِ الأفعالِ، وانْصَرَفَتِ التَّقْوى إلى اتّقاءِ المَهالكِ، وهو كما قُلْنا في البِرِّ والتَّقْوى: إنَّ كلَّ واحدٍ منهما إذا ذُكِرَ مُفْرداً اقْتَضى ما يَقْتَضِيهِ الآخَرُ، وإذا جُمِعا في الذِّكْرِ صُرِفَ أحدُهما إلى جِهةٍ والآخَرُ إلى جِهةٍ أُخْرى، وكذلكَ الإسلامُ والإيمانُ إذا أُفْرِدَ ذِكْرُ[2] أحدِهما، يكونُ مَعْنى كلِّ واحدٍ منهما، هو مَعْنى الآخَرِ، وإذا جُمِعا في الذِّكْرِ صُرِفَ كلُّ واحدٍ منهما إلى جِهتِهِ على حِدَةٍ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي اتَّقوا اللهَ في حقِّهِ أنْ تُضَيِّعوهُ، فهو يَجْمَعُ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى.

ثم الأصلُ أنَّ الطاعةَ قد تكونُ لِمَنْ سِوَى اللهِ، والعبادةَ لا تكونُ إلّا للهِ تعالى. فلذلكَ قالَ عندَ الأمرِ بالعِبادةِ ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فأضافَها إلى اللهِ تعالى، وأضافَ الطاعةَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ففيهِ دلالةُ أنْ ليسَ في الطاعةِ لآخَرَ إشراكُ باللهِ تعالى في الطاعةِ، بلِ اللهُ تعالى جَعَلَ الإشراكَ في الطاعةِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وذَمَّ مَنْ يَعْدِلُ باللهِ تعالى في العِبادةِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فالعِبادةُ كأنَّها تَقْتَضي الخُشوعَ والتَّضَرُّعَ على الرجاءِ والخَوفِ، واللهُ تعالى هو الذي يُرْجَى منهُ، ويُخافُ مِنْ نِقْمَتِهِ. فأمّا الطاعةُ فهي تَقْتَضي فِعْلاً على الأمرِ، لا غَيرُ.

وعلى ذلكَ لمّا صَرَفَتِ الكَفَرةُ الرجاءَ والخَوفَ إلى الأصنامِ بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] سُمُّوا عُبّادَ الأصنامِ. فكلُّ مَنْ يَفْعلِ الفِعلَ/٥٩٨ ـ ب/ على الخوفِ والرَّجاءِ، فذلكَ منهُ عبادةٌ لهُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إنْ صَرَفْتَ قولَهُ: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ إلى اتّقاءِ الشِّرْكِ يَرْجِعْ قولُهُ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إلى ما سَلَفَ مِنَ الذنوبِ في حالةِ الشِّرْكِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وإنْ صَرَفْتَهُ على سائرِ وُجوهِ المَهالكِ رَجَعَ إلى السالفِ وإلى الآنفِ جميعاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. [هود: ١١٤] فيكونُ قولُهُ: ﴿مِّن﴾ صِلَةً على ما ذَكَرَ أهلُ التفسيرِ، ومَعْناهُ: يَغْفِرْ لكمْ ذُنوبَكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِّن﴾ [على][3] التَّحْقيقِ، وليسَ على حقِّ الصِّلَةِ، لأنهُ قد يكونُ مِنَ الذنوبِ [ذنوبٌ][4] يُؤاخَذُ بها بَعْدَ الإسلامِ، وهي التي تكونُ بَينَهُ وبَينَ الخَلْقِ مِنَ القِصاصِ وغَيرِه؛ فالمأثَمُ بالقَتْلِ، وإنْ زالَ عنهُ بالتوبةِ، فإنَّ القِصاصَ لا يُرْفَعُ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أولئكَ القومُ كانوا يَخافونَ على أنفسِهِمُ الإهلاكَ مِنْ قومِهِمْ بإيمانِهِمْ وإجابَتِهِمْ لِنوحٍ ﷺ فَيَخرُجَ قولُهُ: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُخرَجَ الأمانِ لهمْ: أنهمْ بإيمانِهِمْ يَبْقَونَ إلى الأجَلِ الذي ضُرِبَ لهمْ، لو لمْ يُؤْمِنوا؛ إذْ يكونُ مَعْناهُ: أنكمْ إنْ أسْلَمْتُمْ بَقِيتُمْ إلى انْقِضاءِ أجَلِكُمُ[5] المُسَمّى سالمِينَ آمِنِينَ، لا يَتَهَيَّأُ لِعَدُوِّكُمْ أنْ يَمْكُروا بكمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كقولِهِ[6] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي لا يَتأخَّرونَ عنْ آجالِهِمْ، أو لا يُؤَخَّرونَ بما يَطْلُبونَ مِنَ التأخيرِ، فيكونُ في هذا إياسٌ لهمْ أنهمْ لا يُؤَخَّرونَ إذا طَلَبوا التأخيرَ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: بذكر. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: أجالهم، في م أجالكم. (٦) في الأصل وم: وقال.

﴿مِّنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] فأخبَرَ جَلَّ جلالُهُ أنَّ الموتَ إذا أتاهُ طلبَ التأخيرَ لِيُبدِّلَ ما طَلَبَ منهُ البَدَلَ قبلَ ذلكَ مِنَ التَّصدُّقِ والإيمانِ بهِ، فَقَطَعَ عنهمْ طَمعَهُمْ بقولِهِ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١] وبقولِهِ: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وبقولِهِ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.

وهذهِ الآيةُ تَنقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ[١]، لأنهمْ يقولونَ بأنَّ رجلاً لو جاءَ، وقَتَلَ[٢] آخرَ، فإنما قَتَلَهُ قَبْلَ انقِضاءِ أجَلِهِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والأصلُ أنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ أنهُ يُقتَلُ، فإنما يَجعَلُ انقِضاءَ أجَلِهِ بالقَتْلِ ليسَ بغَيرِهِ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَجعلَ انقِضاءَ أجَلِهِ بموتِهِ حَتْفَ أنفِهِ، ثم يَنقُضُ أصلَهُ بِغَيرِ ذلكَ، لأنهُ لو جازَ هذا لأدَّى ذلكَ إلى الجَهْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كُنتُمْ تعلَمونَ ما يَحُلُّ بكمْ مِنَ الندامةِ عندَ انقِضاءِ آجالِكُمْ لكُنتُمْ تَبدِّلونَ للحالِ ما ارتَدَّ منكُمْ لئلَّا يَحُلَّ بكمُ العذابُ، أو يكونُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ﴾ أي أجَلَ العذابِ إذا حَلَّ وَقَعَ، لا مَحالةَ، فلو عَلِموا بِوُقوعِهِ لا مَحالةَ لَارتَدَعوا عنهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منْ نوحٍ ﷺ بعد أنْ أُخبِرَ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

فيكونُ القولُ منهُ قولَ مُعَذِّرٍ: إنهُ لم يُقصِّرْ في دَعوَةِ قومِهِ إلى الإسلامِ، وإنهُ قد دَعاهُمْ إلى الإسلامِ في كلِّ وقتٍ وحالٍ، وإنهُ قد أبْدَى عُذْرَهُ في ذلكَ، وإنما جاءَ التَّفريطُ والتَّعدِّي مَنْ جهةِ قومِهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منهُ على الإشفاقِ والرحمةِ والتَّعرُّضِ لِاسْتِنزالِ اللِّينِ والرحمةِ، لعلَّ اللهَ تعالى بِلُطفِهِ يُلينُ قلوبَهُمْ، فَيَنقادوا للحقِّ، ويَرْغبوا في الإجابةِ لِيَتخلَّصوا مِنَ العذابِ، ويَستوجبوا[٣] المَغفِرَةَ مِنْ ربِّهِمْ. فهو يُخرَّجُ على أحدِ هذينِ الوجهَينِ: إنْ كانَ قَبْلَ الإخبارِ، فهو على التَّعرُّضِ منهُ لِاسْتِنزالِ اللِّينِ والرَّحمةِ، وإنْ كانَ بَعدَهُ فهو على إبداءِ العُذْرِ لا على الدُّعاءِ والرَّجاءِ بأنْ يُلينَ قلوبَهُمْ بِلُطفِهِ، فَيَنقادوا للحقِّ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يُخبِرَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يُؤمنونَ، وهو يَطمَعُ أنْ يُؤمِنوا. ثم قولُهُ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دَعَوتُ في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ مِنَ الليلِ والنهارِ [ما][٤] أمكَنَني فيهِ الدعاءُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أصلُ هذا أنَّ عَداوتَهُمْ كانَتْ قدِ اسْتَبَدَّتْ بنوحٍ ﷺ وكانوا قدِ اسْتَثقَلوهُ، وأبغَضوا كلامَهُ، فَحَدَثَ لهمْ بِبُغضِهِمْ[٥] كلامَهُ واسْتِثقالِهِمْ إيّاهُ مَعْنَى حَمَلَهُمْ على الفِرارِ، فَنَسَبَ ذلكَ إلى الدُّعاءِ؛ لأنَّ حُدوثَ ذلكَ المَعْنَى كانَ عندَ وجودِ الدُّعاءِ، فَنَسَبَهُ[٦] إلى الدُّعاءِ على مَعْنَى المُجاوَرةِ والقُرْبِ لا أنْ يكونَ الدُّعاءُ في الحَقيقةِ سَبَباً لِزيادةِ الفِرارِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] والقرآنُ لم يُجعَلْ سَبَباً لِزيادةِ الرِّجْسِ، ولكنَّهُمْ لما أحدَثوا بُغضاً عندما تُلِيَ عليهِمُ القرآنُ، فَحَدَثَ لهمْ بذلكَ مَعْنَى حَمَلَهُمْ على ذلكَ الوجهِ، فأُضيفَتْ تلكَ الزيادةُ إلى القرآنِ، إذْ عندَ ذلكَ حَدَثَ ذلكَ السَّبَبُ الزائدُ في الرِّجْسِ، فَنُسِبَ إليهِ على مَعْنَى المُجاوَرةِ، وكقولِهِ[٧] تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ [المؤمنون: ١١٠] وهُمْ لم يكونوا ناسِينَ[٨]، بل كانوا ذاكِرينَ[٩]، يَذْكُرونَهُمْ مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ، لكنَّ بُغْضَهُمْ إيّاهُمْ واتِّخاذَهُمْ سِخْرِيًّا أوقَعَ لهمُ النِّسْيانَ، فَنَسَبَ إليهِمُ الإنساءَ[١٠].

فَعَلى ذلكَ لمّا أبغَضوا، واسْتَثقَلوا كلامَهُ ودعاءَهُ أحْدَثَ لهمْ ذلكَ البُغْضُ زيادةَ نِفارٍ وجُحودٍ. ثم سَبَبُ النِّفارِ إلى الدعاءِ الوجهُ الذي ذَكَرْنا لا[١١] أنْ يكونَ الدعاءُ في الحقيقةِ مُنفِّراً[١٢].

---

(١) في الأصل: قوله. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: ليس بغيره. (٣) في م: ويستوجب. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: بغضهم. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: منسيين. (٩) في الأصل وم: مذكورين. (١٠) في الأصل وم: الأشياء. (١١) في الأصل وم: إلا. (١٢) في الأصل وم: منفر.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾. كقولِهِ[1] تعالى في موضعٍ آخَرَ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] فيجوزُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ في ما يدعونَ رُؤساءَهُمْ وأشرافَهُمْ والأجِلَّةَ منهمْ. فإذا دعَوهُمْ رَدُّوا أيديَهُمْ في أفواهِ الأنبياءِ ﷺ وضَرَبوهُمْ على ما ذُكِرَ في الأخبارِ.

وأمّا الأتباعُ والمُقلِّدونَ لهمْ كانوا يَجعَلونَ أصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ، ويُغَطّونَ وجوهَهُمْ ورؤوسَهُمْ كي لا يَسْمَعوا كلامَهُ، فيقَعَ شيءٌ منهُ[2] في قُلوبِهِمْ، لِما حَذَّرَهُمْ رؤساؤُهُمْ منْ ذلكَ.

أو يكونُ هذا في طائفةٍ منهمْ، وهذا في طائفةٍ، إذا كانَ أَيِسَ مِنْ قومٍ، وأقْبَلَ على آخرينَ، فاختَلَفَت مُعاملتُهُمْ معهُ على ما كانَ مِنْ أمرِ نَبيِّنا محمدٍ ﷺ ثم هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على تَحْقيقِ ما ذَكَرْنا لِيُؤْيِسوهُ[3] مِنَ الإجابةِ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ على التمثيلِ، فضَرَبَ مَثَلَهُمْ في تَرْكِهِمُ الإجابةَ مَثَلَ مَنْ جَعَلَ أصابِعَهُ[4] في أُذُنَيهِ، واستَغْشى ثيابَه لئلّا يَسْمَعَ، ولا يُجيبَ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولم يُوجَدْ منهمْ نَبْذٌ، ولكنهمْ أعْرَضوا عنهُ إعراضَ مَنْ نَبَذَهُ وراءَ ظَهْرِهِ. وكذلكَ قولُهُ[5] ﷻ: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] على التمثيلِ، وهو أنهمْ تَرَكوا الإجابةَ /٥٩٩ ـ أ/ إلى ما دُعُوا إليهِ تَرْكَ إجابةِ[6] الذي يَرُدُّ يَدَهُ في فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي صاحوا في وجوهِ الأنبياءِ ﷺ ردّاً عليهِمْ أو مُغالَبةً في الدعاءِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي استَكْبَروا عنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وامْتَنَعوا عنِ الإجابةِ لرسولِهِ ﷺ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ففي هذا إخبارٌ أنهُ دعاهُمْ إلى عبادتِهِ ﷻ في كلِّ وقتٍ، تَهَيَّأَ لهُ مِنْ ليلٍ أو نهارٍ، ولم يُقَصِّرْ فيها، ودعاهُمْ في كلِّ وقتٍ رَجاءَ الإجابةِ منهمْ.

ويَحتَمِلُ: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي إذا بَعُدوا مني، وازْدَحَموا، وكَثُروا، فدَعاهُمْ جِهاراً، لِيُعَلِّمَهُمُ الدعوةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ إذا قَرُبوا منهُ، وقَلُّوا. فلما أدْخَلوا أصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ، واستَغْشَوا ثيابَهُمْ، أعْلَنَ في الدعاءِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ الجَهْرُ والإسرارُ مُنْصَرِفاً إلى الدعوةِ، ويكونَ الجَهْرُ والإسرارُ بالحُجَجِ وإظهارِ البيِّناتِ، وإلى هذا يذهبُ أبو بكرٍ الأصَمُّ..

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ فالاستِغْفارُ طَلَبُ المَغْفِرةِ بما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [الآية: ٣] فيكونُ هذا منهُ أمراً لهمْ بإتيانِ الإيمانِ الذي هو سَبَبُ المَغْفِرةِ، لا أمْراً بسُؤالِ المَغْفِرةِ نَفْسِهِ مِنَ اللهِ تعالى؛ إذِ استِغْفارُ كلِّ قومٍ يَرْجِعُ إلى أحوالِهِمْ:

فإذا كانوا كَفَرَةً فهو إيمانٌ باللهِ تعالى، وإنْ كانوا أصحابَ ذنوبٍ فالتوبةُ إلى اللهِ تعالى ﷻ وإنْ كانوا مُخْلِصينَ، فَمِمّا سَلَفَ مِنْ ذُنوبِهِمْ ممّا يَعْلَمونَها ونَحْوِ ذلكَ.

الآيتان ١١ و١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ فيَحتَمِلُ أنَّ ما قالَ هذا لأنهمْ كانوا في شدةِ عيشٍ وضيقِ حالٍ، فوَعَدَ أنهمْ إنِ انْتَهَوا عنِ الكُفْرِ، وأجابوا إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ غَفَرَ اللهُ لهمْ ذنوبَهُمْ، وأرسَلَ السماءَ عليهِمْ مِدْراراً، فيَتَوسَّعُوا بهِ على ما قالَ بهِ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ اللهَ تعالى قد حَبَسَ عنهمْ

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: منها. (٣) في الأصل وم: ليؤيسهم. (٤) في الأصل وم: إصبعه. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٦) في الأصل وم: الإجابة من.

المَطَرَ، وعَقِمَتْ أرحامُ نِسائِهِمْ، وهَلَكَتْ مواشيهِمْ وجَنّاتُهُمْ لِتَمامِ أربعينَ سنةً، ثم أُهلِكوا بعدَ ذلكَ، وكانوا كلُّهُمْ كُفّاراً، ليسَ فيهِمْ صغيرٌ. ولذلكَ كانَ نوحٌ ﷺ يَعِدُهُمْ.

[ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا خافوا انْقِطاعَ النِّعْمَةِ عنهمْ والإجابةَ وزوالَ السَّعَةِ عنهمْ بالإسلامِ][1] ومِنَ الناسِ مَنْ يَتْرُكُ الإيمانَ خَشْيَةَ هذا، فأخبَرَ ﷻ أنَّ الذي هم فيه مِنْ رَغَدِ العيشِ لا يَنْقَطِعُ عنهمْ بالإسلامِ، بل يُرْسِلُ عليهمُ المَطَرَ مِنَ السماءِ مِدْراراً مُتَتابِعاً، ويُمْدِدْهُمْ[2] بأموالٍ وبَنينَ معَ ما يَجْعَلُ لهمْ مِنَ الجِنانِ والأنهارِ.

لكنْ ذوي[3] الألبابِ والعقلاءَ يَنْظُرونَ[4] إلى حُسْنِ العاقبةِ وما [عليهِ مآلُ الأمرِ][5] دونُ الحالِ، فذلكَ الذي يُرَغِّبُهُمْ[6] فيهِ. ولذلكَ اختَلَفَتْ دعوةُ النبيِّ ﷺ لأُمَّتِهِ [فمنهُمْ][7] مَنْ بَشَّرَهُ بِكَثْرةِ أموالِهِ وبَنيهِ، ومنهمْ مَنْ رَغَّبَهُ في آخِرَتِهِ [بقولِهِ تعالى][8]: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] وقولِهِ[9] تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الآية [آل عمران: ١٥].

ونَظيرُ الأوّلِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والأصلُ أنَّ الرسلَ ﷺ بُعِثوا مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ داعينَ زاجِرينَ مُحْتَجّينَ مُدْحِضينَ؛ فَبِما يَتْلُونَ[10] عليهِمْ مِنْ أنباءِ الأوّلينَ دَخَلَ فيهِ[11] جميعُ الأوجهِ الثلاثةِ، إذِ النِّذارةُ والبِشارةُ مَرَّةً تَقَعُ بالابْتِداءِ ومَرَّةً بما يَنْزِلُ بالمُتَقَدِّمينَ المُصَدِّقينَ منهمْ والمُكَذِّبينَ: أنْ كيفَ كانَتْ عواقِبُ هؤلاءِ وهؤلاءِ.

وكذلكَ الدعاءُ، والرحمةُ تكونُ مَرَّةً بابْتِداءِ الدعاءِ، والزجرُ يكونُ[12] بِذِكْرِ الأُمَمِ السالفةِ وأنَّ الرسُلَ كيفَ كانوا يدعونَهُمْ ثانياً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: تأويلُهُ: كيفَ لا تَرْجونَ للهِ ثواباً، فَتَعْبُدوهُ، فَيُثيبَكُمْ بها؟ وقد عَلِمْتُمْ أنَّ الخيرَ كلَّهُ في يَدِهِ وأنَّ الذينَ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ، لا يَمْلِكونَ لكمْ نَفْعاً، ولا يَدْفَعونَ عنكمْ ضَرّاً، فَجَعَلَ قولَهُ: ﴿وَقَارٗا﴾ مكانَ عبادةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ غيرُهُ: ما لكُمْ لا تَرجونَ لأنفسِكُمْ عندَ اللهِ مَنْزِلةً وشَرَفاً وقَدْراً؟ وقالَ بعضُهُمْ: أي ما لكمْ لا تَخافونَ عَظَمَةَ اللهِ وقُدْرَتَهُ عليكُمْ، فَتَنْتَهوا[13] عمّا نهاكُمْ، وتأتوا[14] ما أمَرَكُمْ بِهِ؟.

وحَمْلُ الرجاءِ على الخَوفِ لِما ذَكَرْنا أنَّ الرجاءَ المُطْلَقَ يَقْتَضي الخَوفَ والرجاءَ جميعاً، وكذلكَ الخوفُ المُطْلَقُ يَقْتَضي الرجاءَ، واللهُ أعلَمُ.

والأشبَهُ بالتأويلِ عندَنا أنَّ الرجاءَ للهِ تعالى على مآلِ الغَضَبِ للهِ والحُبِّ للهِ والبُغْضِ للهِ، أي ما لكُمْ لا تَسْعَونَ سَعْيَ مَنْ يرجو ممّا عندَ اللهِ على الوَقارِ والهَيبةِ بعدَ أنْ شاهدتُمْ مِنَ نِعَمِ الله تعالى وإحسانِهِ إليكُمْ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وتَسْخيرِ الشمسِ والقَمَرِ وما ذَكَرَ مِنْ مِنَنِهِ في الآياتِ التي يَتْلوها؟

وذلكَ أنَّ المرءَ إذا سَعَى لآخَرَ على [غيرِ][15] رجاءٍ، أو لم يَرْجُ أحداً، اسْتُحْقِرَ بهِ.

فألزَمَهُمْ نوحٌ ﷺ سَعْيَ مَنْ يَرْجوهُ على التَّوقيرِ والهَيبةِ على ما عليهِ في الشاهدِ أنَّ الساعيَ للملوكِ والكُبَراءِ على الرجاءِ كيف يكونُ [منهُ توقيرُهُ][16] إياهُمْ وهيبَتُهُمْ لهُ[17] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ فَمَنْ حَمَلَ قولَهُ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾؟ على حَقيقةِ الرجاءِ فتأويلُهُ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: ويمددكم. (٣) في الأصل: ذوو، في م: ذوا. (٤) في الأصل وم: ينظر. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إليه مودة. (٦) في الأصل وم: يرغبه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: يتلوا. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: فيهم. (١٣) في الأصل وم: فتنتهون. (١٤) في الأصل وم: وتأتون. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: منهم توقيرهم. (١٧) في الأصل وم: عليهم.

كيفَ لا ترجونَ أنْ يعظُمَ قدرُكُمْ عندَ اللهِ ﷻ، إذا أجَبْتُمْ إلى ما دَعاكُمْ إليهِ، وفي ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِهِ إيّاهُمْ أطواراً تذكيرٌ لهمْ حُسْنَ صَنيعِهِ لهمْ في ما قَلَّبَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنْ أوّلِ ما أنْشأهُمْ إلى حالِهِمُ التي هُمْ فيها، وكيفَ لا يَرْجونَ إحسانَهُ في حادثِ الأوقاتِ إذا أقْبَلوا على طاعتِهِ، واشْتَغلوا بِعبادتِهِ؟

وإنْ كانَ قولُهُ ﷻ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ على الخوفِ ففي ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ تذكيرُ العَظَمةِ والسلطانِ والقُدْرةِ، وهو انهُ [خَلَقَكُمْ][1] ويَراكُمْ في تلكَ الظُّلُماتِ الثلاثِ، ولم تَخْفَ عليهِ أحوالُكُمْ فيها، بل قَلَّبَكُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ كيفَ شاءَ، فكيفَ تَخفَى عليهِ أفعالُكُمْ في حالِ بُروزِكُمْ وظُهورِكُمْ؟ فيكونَ في ذِكْرِ هذا تَنْبيهٌ أنّ اللهَ تعالى، لا يَخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أعمالِ الخَلْقِ، فَيَدعُوَ ذلكَ إلى المُراقبةِ، ويُلْزِمَ التَّيَقُّظَ والتَّبَصُّرَةَ في كلِّ حالٍ لئلا يَتَعَدَّى [أحدٌ][2] حُدودَ اللهِ، ولا يُضيعَ حقوقَهُ، فَيَحُلَّ بِهِ البَوارُ والهلاكُ.

فإذا حُمِلَ التأويلُ على الرجاءِ كانَ فيهِ تَذْكيرُ عَظيمِ نِعَمِهِ عليهِمْ مِنْ أوّلِ ما أنْشأهُمْ إلى الوقتِ الذي انْتَهَوا إليهِ، فَيَحمِلُهُمْ ذلكَ على طَلَبِ ما يُشرِّفُ قَدْرَهُمْ عندَ اللهِ تعالى، وتُحْمَدُ عاقبتُهُمْ.

وإنْ حَمَلْتَهُ على الخوفِ كانَ فيهِ تَذْكيرُ القُدرةِ والسلطانِ، فَيَحْمِلُهُمْ على المُراقبةِ والاتِّقاءِ في حادثِ الأوقاتِ.

ومَنْ حَمَلَ قولَهُ ﷻ: ﴿وَقَارًا﴾ على العبادةِ فهو يُخَرَّجُ على غَيرِ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما في الخَوفِ والرجاءِ إذا صَرَفَ إليهما التأويلَ؛ كأنهُ يقولُ: إنّ الذي خَلَقَكُمْ أطواراً، قد تَعْلَمونَ أنهُ حكيمٌ [ومَنْ هو حكيمٌ][3] لا يَسْفَهُ [ومَنْ][4] تَرَكَكُمْ سُدًى لا يَأمُرُكُمْ، ولا يَنْهاكُمْ، ولا يَسْتأدي منكُمْ شُكْرَ النِّعَمِ، سَفِهَ. فيكونُ في ذِكْرِ هذا تَرْغيبٌ في العبادةِ وإخلاصِ الطاعةِ، ويكونُ في ذِكْرِ هذا أيضاً تَثْبيتُ الرُّبوبيّةِ وإلزامُ القَولِ/ ٥٩٩ ـ ب/ بالوَحْدانيّةِ، لأنهُ أنْشأهُمْ مِنْ أوّلِ ما أنْشأهُمْ نُطْفةً ثم عَلَقَةً ثم مُضْغَةً إلى أنْ خَلَقَهُمْ بَشَراً سَوِيّاً.

فلو لم يَكُنِ المُدَبِّرُ والمُنْشِئُ واحداً لَكانَ يَعْجَزُ عنْ تَقْليبِهِ مِنْ حالٍ على حالٍ، لأنهُ إذ أرادَ أنْ يُنْشِئَ مِنَ النُّطْفَةِ عَلَقَةً ومِنَ العَلَقةِ مُضْغَةً كانَ للآخَرِ أنْ يَمْنَعَهُ عنْ تَدْبيرِهِ، فلا يَتَهَيّأَ لهُ إنشاءُ عَلَقةٍ ولا مُضْغَةٍ.

فارْتِفاعُ المانعِ دليلٌ على أنْ لا مُدَبِّرَ سِواهُ، ولا خالِقَ غَيرُهُ. فإذا ثَبَتَ [انْفِرادُهُ بِما ذَكَرْنا ثَبَتَ][5] أنهُ هو المُسْتَحِقُّ لِلعبادةِ مِنَ الخَلائقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: مَعْنى قولِهِ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي بِمُخْتَلَفِ الأخلاقِ والصُّوَرِ والألوانِ والألفاظِ والأصواتِ والنِّعَمِ حتى لا تَرَى أحداً يُشْبِهُ آخَرَ بِجميعِ خِلْقَتِهِ. وهذا مِنْ عَظيمِ ما يُسْتَدَلُّ بِهِ على قُدْرةِ اللهِ وحِكْمتِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ قد ذَكَرْنا أنّ قولَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ يَقْتَضي تَذْكيرَ أمرٍ عَرَفوهُ، فأغْفَلوا عنهُ؛ فقد يَقْتَضي تَذْكيرَ أعجوبةٍ، لم يَسْبِقْ مِنَ الخَلائقِ العلمُ بها؛ يقولُ: قد رَأَوا أنهُ خَلَقَ سَبْعَ سمواتٍ طِباقاً بِغَيرِ علائِقَ فَوقَها ولا أعْمِدَةَ تَحْتَها، ومَنْ قَدَرَ على مِثْلِهِ قادرٌ على خَلْقِ كلِّ ما يُريدُ، فيكونُ فيهِ إيجابُ القَبولِ بالبَعْثِ؛ إذْ إعادَتُهُمْ ليسَتْ بأعْسَرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ في تَقْديرِ عقولِكُمْ. ومَنْ قَدَرَ على خَلْقِهِنَّ قادرٌ على البَعْثِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ منهمْ مَنْ يَذْكُرُ أنهُ جَعَلَهُ نوراً في السماءِ الدنيا، وأضافَهُ إلى جُملةِ السمواتِ. وقد يجوزُ أيضاً أنْ يُضافَ الشيءُ إلى العَدَدِ، وإنْ لم يَكُنْ يوجدُ ذلكَ إلا في البعضِ؛ يُقالُ: في سبعِ قبائلَ مَسْجِدٌ واحدٌ، والمَسْجِدُ إذا كانَ واحداً، فهو لا يكونُ في سَبْعِ قبائلَ، وإنما يكونُ في قَبيلةٍ واحدةٍ، ويقالُ: فلانٌ يَتَوارَى في دورِ قومٍ[6]، وهولا يكونُ مُتوارِياً في واحدةٍ منهنَّ، ثم أُضيفَ التَّواري إلى الجملةِ فكذلكَ أضافَ نورَ القَمرِ إلى السمواتِ السَّبْعِ، وإنْ كانَ القمرُ في سماءٍ واحدةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) أدرج في الأصل بعدها: وهو لا يكونُ متواريا في دور قوم.

ومنهم مَنْ ذَكَرَ أنَّ نورَ القَمَرِ قد أحاطَ بجميعِ السمواتِ، وزَعَمَ أنَّ وَجْهَهُ إلى السمواتِ، وظَهْرَهُ إلى أهلِ الأرضِ، ولهذا ما يَعْمَلُ عليهِ السَّواتِرُ مِنَ السحابِ وغيرِها. فأمّا نورُ وَجْهِهِ فإنهُ لا يَسْتُرُهُ شيءٌ مِنَ السَّواتِرِ. لكنَّ هذا إنما يُعْرَفُ بالخَبَرِ. فإنْ صَحَّ عنْ رسولِهِ ﷺ خَبَرٌ فذلكَ حَقٌّ[1]، وإلّا فالإمساكُ عنْ مِثْلِهِ أحَقُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ذَكَرَ السِّراجَ ههنا مكانَ الضوءِ وفي[2] مَوضعٍ آخَرَ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يونس: ٥] فَذَكَرَ في القمرِ النورَ[3] وفي الشمسِ الضِّياءَ لأنَّ القَمَرَ يكونُ في وقتِ الحاجةِ إلى النورِ، وذلكَ في ظلمةِ الليلِ. ثم اللهُ تعالى أنشأَ الليلَ لِيُسْكَنَ فيهِ. لكنْ قد يبدو لِلْخَلائِقِ بالليلِ حَوائجُ يَحْتاجونَ إلى قَضائِها، فَمَنَّ اللهُ تعالى عليهِمْ بنورِ القمرِ لِيَتَوَصَّلوا بنورِهِ إلى قَضاءِ حوائِجِهِمْ، وجَعَلَ الشمسَ ضِياءً لِيَخْتَطِفَ ضَوؤُها نورَ الليلِ، ويَغْلِبَ عليهِ، ولا يَخْتَطِفَ نورُ النهارِ نورَ الشمسِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أضافَ الإنباتَ إلى الأرضِ، ويَرُدُّ ذلكَ إلى الأصلِ الذي خَلَقَ مِنَ الترابِ لِحُدوثِهِ منهُ لا [أنْ][4] يكونَ خَلَقَ الجملةَ مِنَ الترابِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] والذي لنا في السماءِ هو المَطَرُ لا الذي يَرْزُقُ بهِ، ولكنَّ الذي يَرْزُقُ بهِ أصلُ المطرِ، لأنهُ هو الذي يُتَوَصَّلُ بهِ إلى الأرزاقِ.

فكذلكَ الخَلْقُ لمّا كانوا مِنْ نَسْلِ آدَمَ ﵇ وكانَ هو أصلاً لهمْ، أُضيفَ النسلُ إلى الذي حَدَثَ منهُ الأصلُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يَرْجِعُ هذا إلى كلٍّ في نفسِهِ، وذلكَ لأنَّ حياةَ الأبدانِ وقِوامَها بالذي يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ، ويَنْبُتُ منها مِنْ أنواعِ الأغذيةِ؛ فإذا كانَ قِوامُها بما يَنْبُتُ منها فكأنما أنْبَتَنا منها، فاسْتَقامَ أنْ يُضافَ الإنباتُ إليها كما يَسْتَقيمُ أنْ يُضافَ خُروجُ الثمارِ إلى الأرَضينَ، وإنْ كانَ حُدوثُها مِنَ الأشجارِ؛ إذْ قِوامُ الأشجارِ وبَقاؤُها بها، فَنَسَبَ ما يَخْرُجُ منها إلى الأرضِ على التَّقْديرِ الذي ذَكَرْنا.

ففي قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ على التأويلِ الأوَّلِ إثباتُ القُدْرةِ على البَعثِ وإلزامُ الحُجَّةِ على مَنْ يَجْحَدُ كونَهُ انهُ يُذَكِّرُهُمْ قُدْرَتَهُ انهُ أنشأَهُمْ مِنَ الأرضِ، ولم يكونوا شيئاً.

فَمَنْ قَدَرَ على إنشائِهِمْ مِنَ الأرضِ بَعدَ أنْ كانوا تُراباً قادرٌ على أنْ يُعيدَهُمْ إلى الحالةِ التي كانوا عليها مِنْ كونِهِمْ بَشراً سَوِيّاً، وإنْ صاروا عِظاماً رُفاتاً، لأنهمْ كانوا يَزْعُمونَ انْ[5] كيفَ يُعادُونَ[6] خَلْقاً جديداً بَعدَ أنْ صاروا تُراباً؟

فاحْتَجَّ عليهِمْ بأمرِ الابْتِداءِ مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا.

وإنْ كانَ على التأويلِ الثاني ففيهِ تَذْكيرٌ بِنِعَمِهِ أنْ قد أخرَجَ لهمْ مِنَ الأرضِ ما يَتَعَيَّشونَ بهِ، ويُقيمونَ بهِ أوَدَهُمْ، لِيَسْتأدِيَ[7] منهمُ الشُّكرَ. وفيهِ تَذْكيرٌ بقوتِهِ وسُلْطانِهِ لِيُخَوِّفَهُمْ عقابَهُ، فَيَتَّقوا سُخْطَهُ، ويَطْلُبوا مَرْضاتَهُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ فَجَمَعَ بَيْنَ الإعادةِ والإخراجِ بِحَرفِ الجَمْعِ، وجَعَلَ قولَهُ، ﷻ: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ في مَوضِعِ ثم، لأنَّ هذا الإخراجَ يكونُ بعدَ الإعادةِ إلى الأرضِ، فيكونُ في هذا دليلٌ أنَّ أحدَ الحَرفينَ، وهو الواوُ، قد يُسْتَعْمَلُ مكانَ: ثم.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جَعَلَها كالشيءِ المَبْسوطِ الذي يُنْتَفَعُ بِبَسْطِهِ. ولو لم يجْعَلْها كذلكَ لم يَتَوَصَّلوا إلى حوائِجِهِمْ ولا الانْتِفاعِ بها. ففي ذِكْرِ هذا تذكيرٌ باللهِ تعالى [بما][8] عليهِمْ مِنْ عظيمِ المِنَّةِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ قيلَ: الفِجاجُ الطرقُ الواسعةُ، وقيلَ: السُّبُلُ في السهلِ، والفِجاجُ الطرقُ في الجبالِ. وهذا أيضاً مِنْ عظيمِ نِعَمِ اللهِ تعالى على عبادِهِ، لأنَّ اللهَ تعالى قَدَّرَ أرزاقَ الخَلْقِ في البلادِ، فلو لم

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: نورا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: أو. (٦) في الأصل وم: يعادوا. (٧) في الأصل وم: أويستادي. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَجْعَلَ لهمْ في الأرضِ سُبُلاً لم يَجِدوا طريقاً يَسْلُكونَهُ، فيَتوَصَّلونَ بهِ إلى ما بهِ قِوامُ أبدانِهِمْ. فصارتِ الطرقُ المُتَّخَذَةُ لِما يُسْلَكُ بهِ فيها، فَنَصِلُ إلى حوائِجِنا وإلى مَعايِشِنا كالدوابِّ التي سُخِّرَتْ لنا، فَنَتَوَصَّلُ بها إلى حوائِجِنا.

وهذا يُبَيِّنُ لكَ أنَّ مُلْكَ أقطارِ الأرضِ وتدبيرَها يَرْجِعُ إلى الواحدِ القَهّارِ، لأنهُ أحْوَجَ الخَلْقَ إلى الإنسيابِ في البلادِ لإقامةِ أَوَدِهِمْ، وجَعَلَ لهمْ سَبَباً، يَتَوَصَّلونَ إلى ذلكَ. فَثَبَتَ أنَّ مالكَ الأقطارِ واحدٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي عَصَوني بِما أمَرْتُهُمْ بهِ أو في ما دَعَوْتُهُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ المَتْبوعونَ، هُمُ الذينَ كَثُرَتْ أموالُهُمْ وحواشيهِمْ، واسْتَتْبَعوا مَنْ دونَهُمْ، فَتَبِعوهُمْ، ولم يَتْبَعوا نوحاً ﷺ وقد كانَ نوحٌ يدعوهُمْ إلى اتِّباعِهِ، فأخْبَرَ أنهمْ لم يَتْبَعوهُ، وإنما تَبِعوا مَنْ كَثُرَتْ أموالُهُ وأولادُهُ ومَواشِيهِ/ ٦٠٠ ـ أ/ فتكونُ هذهِ الآيةُ في الأتباعِ: أنهمُ اتَّبَعوا أجِلَّتَهُمْ ورؤساءَهُمْ، ليستْ في رؤسائِهِمْ. وما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ في أجِلَّتِهِمْ في دعاءِ نوحٍ ﷺ إياهُمْ إلى التوحيدِ وغيرِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ في الأجِلَّةِ والضَّعَفَةِ جميعاً، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي اتَّبعوا مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ أهلِ الثَّرْوَةِ والغِنَى والذينَ وُسِّعَتْ عليهمُ الدنيا، وبُسِطَتْ لهمْ، ظَنّاً منهمْ أنهمْ أحقُّ باللهِ تعالى وأقربُ إليهِ في المَنْزِلَةِ.

والذي حَمَلَهُمْ على هذا، هو أنهمْ لا يَرَونَ أحداً في الشاهدِ، تَرَكَ صِلَةَ وليِّهِ، وَوَصَلَ عَدُوَّهُ، فَيَرَونَ انهُ إذا بُسِطَتْ على رؤسائِهِمُ الدنيا، وَسَّعَ اللهُ تعالى عليهمْ، وضَيَّقَ على هؤلاءِ لأنَّ[1] أولئكَ أقربُ مَنْزِلَةً وأعلى حالاً، وأنهُمْ همُ الأولياءُ، وهُمْ لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ وثوابِها، فكانوا يَزْعُمونَ أنهُ يُوفِرُ الجزاءَ على الأولياءِ والمُحْسِنينَ في الدنيا، وزَعَموا أنَّ مَنْ وُسِّعَ عليهِ الدنيا، فهو أحَقُّ أنْ يكونَ وليًّا للهِ تعالى حينَ[2] وَصَلَ إليهِ الجَزاءُ فيها. فهذا الظَّنُّ هو الذي حَمَلَهُمْ على الإتِّباعِ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أي بَواراً وهلاكاً لِذلكَ المَتْبوعِ، فكانَتْ تلكَ النِّعَمُ التي ظَنّوا أنهمْ أُكْرِموا بها بِصَنيعِهِمْ سَبَباً لخسارتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ كقولِهِ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

ثم قد بَيَّنّا تأويلَ شِكايَتِهِ إلى اللهِ تعالى مِنْ قومِهِ. فهذهِ الآيةُ وتلكَ الآياتُ في مَعْنَى تأويلِ الشِّكايةِ إلى اللهِ تعالى واحدٌ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ يَمْكُرونَ ما يَمْكُرونَ بالسِنَتِهِمْ حينَ[4] كانوا يَدْعونَهُمْ إلى الكُفْرِ والصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، فَكَنَّى بالمَكْرِ عمّا قالوهُ بألسِنَتِهِمْ، فكانَ ذلكَ مَكْراً كُبّاراً أي قولاً عظيماً.

وجائزٌ أنْ يكونَ على حَقيقةِ المَكْرِ، وهو أنَّ رُؤساءَهُمْ مَكَروا بِأتباعِهِمْ حينَ[5] قالوا: إنَّ هؤلاءِ لو كانوا أحقَّ باللهِ تعالى مِنّا لَكانوا هُمُ الذينَ يُوَسَّعُ عليهِمْ، ويُضَيَّقُ علينا، فإذا وُسِّعَ علينا ثَبَتَ أنّا نحن الأولياءُ والأصفياءُ دونَ غيرِنا. وهذا منهمْ مَكْرٌ عظيمٌ لأنهُ يأخُذُ قلوبَ أولئكَ فَيَصُدُّهُمْ عنْ سَبيلِ اللهِ تعالى.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَكْرُهُمْ ما ذُكِرَ أنهمْ كانوا يأتونَ بأولادِهِمُ الصِّغارِ إلى نوحٍ ﷺ ويقولونَ لهمْ: إياكُمْ[6] واتِّباعَ هذا، فإنهُ ضالٌّ مُضِلٌّ، فكانَ هذا مَكْرَهُمْ بِصِغارِهِمْ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية؛ هذهِ المَقالةُ منهمْ كانَتْ بَعدَ أنِ انْقادَتْ لهمُ الأتباعُ، واتَّبَعَتْهُمْ إلى ما دعوهُمْ إليهِ مِنَ الأصنامِ، فقالوا بَعدَ ذلكَ: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ لأي لا تَذَرُنَّ عِبادَتَها.

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: اتباع. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: إياك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هي أسماءُ الأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الذي بَعَثَهُمْ على عبادةِ الأصنامِ ما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ أنَّ قومَ نوحٍ اتَّخذوا هذهِ الأصنامَ أوَّلَ ما اتَّخذوها على صورةِ رجالٍ عُبّادٍ، كانتْ هذهِ الأسماءُ أسماءَهُمْ، فَسَمَّوُا الأصنامَ بأسماءِ العُبّادِ لِيَعْتَبِروا بها، ويَجْتَهِدوا في العبادةِ إذا نَظَروا إليها.

فلمّا مَضَى ذلكَ القَرْنُ الذي اتَّخذوها [فيهِ][1] عِبْرَةً، وخَلَفَهُمْ قَرْنٌ بَعْدَهُمْ، قالَ لهمُ الشيطانُ: إنَّ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانوا يَعْبُدونَ هذهِ الأصنامَ، فاعْبُدوها[2].

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ جَسَدَ آدمَ ﷺ كانَ عندَ نوحٍ، يَتْرُكُ كلَّ مؤمنٍ في زمانِهِ يدخلُ، فَيَنْظُرُ إلى جَسَدِ آدمَ ﷺ ومَنْ لم يَكُنْ مؤمناً، لم يَدَعْهُ يَنْظُرُ إليهِ. فجاءَ إبليسُ إلى الكفارِ، فقالَ: أيَفْخَرُ نوحٌ ومَنْ آمَنَ بهِ عليكُمْ بِجسدِ آدمَ، وأنتمْ كُلُّكُمْ وَلَدُهُ، فَصَنَعَ لكلِّ قومٍ صَنَماً على صورةِ آدمَ، فكانوا يَعْبُدونَ تلكَ الصورةَ.

ويَحْتَمِلُ[3] أنْ يكونَ الذي بَعَثَهُمْ على ذلكَ، هو أنهمْ لم يَرَوا أنفسَهُمْ تَصْلُحُ لعبادةِ ربِّ العالَمينَ، كما يَرَى هؤلاءِ الذينَ يَخْدِمونَ الأجِلَّةَ في الشاهدِ؛ لا يَطْمَعُ كلُّ واحدٍ منهمْ في خدمةِ الملوكِ، ولا يَرَى نفسَهُ أهلاً لِخِدْمَتِهِمْ، بل يَشْتَغِلُ بِخِدْمةِ مَنْ دونَهُمْ[4] أوّلاً على رَجاءِ أنْ يُقَرِّبَهُ إلى المَلِكِ، فكذلكَ هؤلاءِ حَسِبوا أنهمْ لا يَصْلُحونَ لِخِدمةِ ربِّ العالَمينَ، فكانوا إذا رَأَوا شيئاً حسناً كانوا يَظُنّونَ أنَّ حُسْنَهُ لِمَنْزِلةٍ لهُ عندَ اللهِ، فكانوا يُقْبِلونَ على عبادتِهِ رَجاءَ أنْ يُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ، فَجَعَلوا الأصنامَ على أحسنِ ما قَدَروا عليهِ، ثم اشْتَغَلوا بِخِدمتِها وعبادَتِها رَجاءَ أن تُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ تعالى.

قالَ ﷻ حكايةً عنهمْ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالَ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فجائزٌ أنْ يكونَ هذا الحُسْبانُ، هو الذي حَمَلَهُمْ على عِبادتِها وتعظيمِ شانِها، واللهُ أعلَمُ أيَّ ذلكَ كانَ؟

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ الكُبراءُ أنهمْ أضَلُّوا كثيراً، أي دَعَوا إلى الضلالِ، وزَيَّنوهُ في قلوبِهِمْ، فأضَلُّوا سُفَهاءَهُمْ بذلكَ.

وجائزٌ ان يكونَ أُريدَ بِهِ الأصنامُ، ولكنَّ حقَّهُ، إنْ كانَ على الأصنامِ، أنْ يقولَ: وقد أضْلَلْنَ كثيراً كما قالَ إبراهيمُ ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ولكنَّ الإضلالَ مِنْ فِعْلِ المُمْتَحَنِينَ، والأصنامَ ليستْ لها أفعالٌ، فلما نُسِبَ إليها نِسْبَةَ مَنْ يُوجَدُ[5] منهُ الفِعْلُ أُخْرِجَ الخِطابُ على الوزنِ الذي يُخاطَبُ بهِ مَنْ يُوجَدُ منهُ هذا الفِعْلُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] فأضافَ إلى القريةِ فِعْلَ أهْلِها، والفِعْلُ إذا أُضيفَ [إلى الأهْلِ أُضيفَ][6] بلفظِ التذكيرِ، ثم أُنِّثَ ههنا لإضافةِ فِعْلِ الأهلِ إلى القريةِ[ولو كانتِ القريةُ][7] بحيثُ يكونَ منها الفعلُ لَكانَ الخِطابُ، يرتَفِعُ عنها بِلَفْظِ التأنيثِ لا بِلَفْظِ التَّذْكيرِ. فحينَ[8] أُضيفَ إليها فِعْلُ أهلِها أُنِّثَ كما يُوجِبُ لو كانَ الفعلُ مُتَحَقِّقاً منها.

ثم الأصنامُ لا يَتَحَقَّقُ منها الإضلالُ، ولكنَّ مَعْنَى الإضافةِ ههنا هو أنها أُنْشِئَتْ على هيئةٍ، لو كانتْ تلكَ الهيئةُ مِمَّنْ يُضِلُّ [لأضَلَّتْ هي][9] كما قُلْنا في تأويلِ قولِهِ ﷻ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠و..].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ فهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ بَعْدَ ما بَيَّنَ لهُ ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فإذْ قد عَلِمَ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ لم يَدْعُ لهمْ بالهُدَى، ولكنْ دَعا اللهُ تعالى لِيَزيدَ في إضلالِهِمْ، ويكونُ الإضلالُ عبارةً عنِ الهلاكِ، والضّلالُ الهلاكُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي أهْلَكْنا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم، فعبدوها. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: دونه. (٥) في الأصل وم: يوجه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فحيث. (٩) في الأصل وم: لأضل هو.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ فحذفُ ما ههنا [لأنهُ][1] صِلَةٌ في الكلام، ومعناهُ: بِخطيئاتِهِمْ أو مِنْ خَطيئاتِهِمِ أُغرِقوا، فأُدخِلوا ناراً في الآخرةِ؛ إذْ أُغرِقَتْ أبدانُهُمْ وأجسادُهُمْ، ورُدَّتْ أرواحُهُمْ إلى النارِ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لم يَجِدوا لأنفسِهِمْ بِعبادَتِهِمْ مَنْ عَبَدوا مِنْ دونِ اللهِ تعالى [أنصاراً مِنَ المَعْبودينَ، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ مَنْ يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ لِيُقَرِّبوهُمْ[2]][3] إلى اللهِ، ويكونوا لهمْ شُفَعاءَ وعِزّاً، فلم يَجِدوا الأمْرَ على ما قَدَّروا عندَ أنفسِهِمْ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ قيلَ: تأويلُهُ: لا تَذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافرينَ ساكِنَ دارٍ. وإذا لم يَبْقَ ساكنُ دارٍ، فقد ماتوا جميعاً، فكأنهُ يقولُ: لا تَذَرْ منهمْ أحداً.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ هذا كلامٌ شَنيعٌ في الظاهرِ مِنْ نوحٍ ﷺ لأنهُ خارجٌ مَخْرَجَ الإنكارِ على اللهِ تعالى، لو تَرَكَهُمْ، ولم يُهْلِكْهُمْ. وهذا يُشْبِهُ قولَ[4] / ٦٠٠ ـ ب/ مَنْ قالَ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وهذا أيضاً خارجٌ مَخْرَجَ التَّكَبُّرِ للهِ تعالى: أنهُ لو أبقاهُمْ أدّى ذلك إلى إضلالِ العبادِ، وفيه تَقَدُّمٌ بينَ يَدَيِ اللهِ تعالى؛ وذلكَ عظيمٌ، ولأنهُ ليسَ في شرطِ الألوهيَّةِ إهلاكُ مَنْ عَمَلُهُ الإضلالُ.

ألا تَرَى أنَّ إبليسَ اللعينَ وأتباعَهُ جَلَّ سَعْيُهُما[5] في إضلالِ بَني آدمَ، ثم لم يُهْلَكوا، بل أُبقُوا على الوقتِ المعلومِ؟

ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ دعا عليهمْ بَعْدَ أنْ أَذِنَ لهُ بالدعاءِ عليهمْ بالهلاكِ والبَوارِ، فيكونُ الدعاءُ بالهلاكِ على تَقَدُّمِ الأدبِ.

والأصلُ أنَّ الرسلَ ﷺ بُعِثوا لدعاءِ الخَلْقِ إلى الإسلامِ، وكانوا في دعائِهِمْ راجينَ الإسلامَ خائفينَ عليهمْ بِدوامِهِمْ على الكفرِ. فَبِما قيلَ لنوحٍ ﷺ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وَقَعَ لهُ الإياسُ مِنْ إسلامِ مَنْ تَخَلَّفَ عنِ الإيمانِ، فارْتَفَعَ مَعْنَى الدعاءِ إلى الإسلامِ، فجائزٌ أنْ يُرادَ[6] لهُ الإذنُ بَعْدَ ذلكَ بالدعاءِ عليهمْ بالهلاكِ، فَيَدْعُوَ إذْ ذاكَ.

ثم يكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ خارجٌ مَخْرَجَ الإشفاقِ والرحمةِ على مَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنينَ، وهو أنَّ الذينَ داموا على الكُفرِ، لو أُبقوا خيفَ مِنَ الكَفَرَةِ أنْ يُضِلّوا المؤمنينَ، ويُعيدوهُمْ إلى مِلَّتِهِمْ، فتكونُ شَفَقَتُهُ على المسلمينَ داعيةً إلى الدعاءِ بالهلاكِ[7] على الكَفَرَةِ لئلّا يَتَوَصَّلوا إلى الإضلالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ وقتَ بلوغِهِمُ المِحْنَةَ والابْتِلاءِ؛ فحينئذٍ يوجدُ منهمُ الفجورُ لا [أنْ][8] يَلِدوا فُجّاراً كُفّاراً؛ إذْ لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ الوقتِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] أي نَبْتَلِيهِ لِوَقْتِ [بُلوغِهِ][9] المحنةَ والابْتِلاءَ لا أنْ نَبْتَلِيَ وقتَ ما يشاءُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ الكُفرَ قد يَقَعُ عليهِ اسْمُ الفُجورِ لأنهُ لو خُرِّجَ قولُهُ ﴿كَفَّارًا﴾ مُخْرَجَ التفسيرِ لقولِهِ: ﴿فَاجِرًا﴾ اسْتَقامَ أنْ يَحْمِلَ تأويلَ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤] على الكَفَرَةِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ هكذا الواجبُ على المرءِ في الدعاءِ والاسْتِغْفارِ أنْ يَبْدأَ بنفسِهِ ثم بوالدَيْهِ ثم بالمؤمنينَ.

ثم قولُهُ: ﴿بَيْتِىَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي في سَفينتي، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَيْتِىَ﴾ أي في ديني، فيكونُ البيتُ كِنايةً عنِ الدينِ، وقالَ بعضُهُمْ: إنما هو بَيْتُهُ الذي يسكنُ فيهِ لِما أَطْلَعَهُ اللهُ تعالى أنَّ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مؤمناً لا يعودُ إلى الكُفرِ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: ثم إنَّ أرْجَى الأمورِ للمؤمنينَ في الآخرةِ دعاءُ الأنبياءِ والملائكةِ ﷺ في الدنيا، لأنهمْ إنما يَدْعُونَ بَعدَ الإذنِ لهمْ بالدعاءِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يأذَنَ اللهُ تعالى لهمْ بالدعاءِ، ثم لا يُجيبُ دَعْوَتَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في نسخة الحرم المكي: ليقربهم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فقربهم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بقول. (٥) في الأصل وم: سعيه. (٦) في الأصل وم: يرد. (٧) في الأصل وم: على الهلاكِ، من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: على الهلاك. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: إنَّ نوحاً ﷺ دعا دَعْوَتَينِ: إحداهُما: للمؤمنينَ بالإسْتِغْفارِ والتوبةِ. والثانيةُ: على الكُفّارِ بالبَوارِ والتَّبارِ.

وقد أُجيبَتْ دَعْوتُهُ في ما دَعا على الكَفَرَةِ، فلا يجوزُ أنْ يُجابَ في شرِّ الدَّعْوَتَينِ، ثم لا يُجابَ في خَيرِ الدَّعْوَتَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ قيلَ: كَسْراً وذُلاً وصَغاراً، فإنهُ مُشْتَقٌّ مِنَ التِّبْرِ، وكلُّ مَكْسورٍ يُقالُ: تِبرٌ، فكأنهُ يقولُ: اكْسِرْ مَنَعَةَ الظالمينَ وشوكَتَهُمْ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا، فهو يَقَعُ على جميعِ الظَّلَمةِ: مَنْ كانَ في وقتِهِ ومَنْ بَعْدَهُ.

وقيلَ: التَّبارُ الهَلاكُ، فإنْ كانَ هذا مَعْناهُ فهو على ظالمي زمانِهِ؛ إذْ لا يجوزُ للأنبياءِ ﷺ أنْ يَدْعُوا على قومٍ إلّا أنْ يُؤْذَنَ لهمْ بالدعاءِ عليهمْ. وإنما جاءَ الإذْنُ في حقِّ قومِهِ.

فأمّا في حقِّ غَيرِهِمْ، لم يَثْبُتْ، فلا يجوزُ القولُ فيهِ إلّا بِما تَواتَرَ الخَبَرُ بهِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، [واللهُ أعلَمُ][1].

(١) من م، ساقطة من الأصل.

سورة الجن

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ اختُلِفَ في السببِ الذي كانَ بهِ مجيءُ الجنِّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ.

فمنهُمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ إبليسَ صَعِدَ إلى السماءِ، فوَجَدَها قد مُلِئَتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً، فَتَيَقَّنَ أنْ قد حدثَ في الأرضِ حادثٌ، فَفَرَّقَ جنودَهُ لِيَعْلَمَ عِلْمَ ذلكَ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنَّ الأصنامَ خَرَّتْ لِوُجوهِها حينَ بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ فَعَلِمَ إبليسُ أنهُ حدثَ في الأرضِ خَيرُ حادثٍ حتى خَرَّتْ لهُ الأصنامُ، فَفَرَّقَ جنودَهُ لِيَصِلَ إلى عِلْمِ ذلكَ. ثم مِنَ الناسِ مَنْ يَزْعُمُ أنَّ قصةَ هذهِ السورةِ وقصةَ قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] واحدةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ بأنَّ هؤلاءِ النَّفَرَ الذينَ ذُكِروا في هذهِ السورةِ كانوا مِنْ مُشْرِكي الجنِّ والذينَ ذُكِروا في سورةِ الأحقافِ كانوا مِنْ يَهودِ الجنِّ؛ دليلُهُ أنهُ قالَ في هذهِ السورةِ في ما حَكَى عنِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الآية: ٧] واليهودُ يُقِرّونَ بالبَعْثِ، ولا يُنْكِرونَ، فَثَبَتَ أنهمْ كانوا مِنْ جِنِّ المشركينَ، وقالَ في سورةِ الأحقافِ: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الآية: ٣٠] فَثَبَتَ أنهُ[1] قد كانَ عندَهُمْ عِلْمٌ بالكتابِ المُنْزَلِ على رسولِ اللهِ ﷺ [وكانوا بهِ مُقِرِّينَ، واليهودُ هُمُ الذينَ يؤمنونَ بكتابِ موسى، لا بِغَيرِهِ.[2]

ثم في ما حكَى اللهُ تعالى عنِ الجنِّ مِنْ تَصْديقِهِمْ هذا الكتابَ واسْتِماعِهِمْ ما جَرَى مِنَ المُخاطباتِ في ما بَينَهُمْ فوائدُ:

أحَدُها][3]: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مَبْعوثاً إلى الجِنِّ والإنسِ حتى صَرَفَ الجِنَّ إلى الاِسْتِماعِ إليهِ.

والثانيةُ[4]: أنهمْ لمّا أخذوا القرآنَ مِنْ لسانِهِ قالوا في ما بَينَ القومِ بإنذارِهِمْ، وأعانوهُ في التَّبْليغِ على ما أخْبَرَ ﷻ: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

والثالثةُ[5]: أنَّ أولئكَ النَّفَرَ تَسارعوا إلى الإجابةِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فيكونُ فيهِ تَسْفيهُ قوم رسولِ اللهِ ﷺ الذينَ نَشأَ بَينَ أظْهُرِهِمْ لأنهمْ عَرَفوا رسولَ اللهِ ﷺ في ما بينَهُمْ بالصيانةِ والعدالةِ، ولم يَقِفوا منهُ على كَذِبٍ قَطُّ[6].

وحَقُّ مَنْ يُعْرَفُ /٦٠١ ـ أ/ بالصِّدْقِ، إنْ لم يَصْدُقْ ألّا يُتَسارعَ إلى تكذيبِهِ في ما يأتي مِنَ الأنْباءِ، بل يوقَفُ في حالِهِ إلى أنْ يَتَبَيَّنَ منهُ ما يُظْهِرُ كَذِبَهُ.

وقومُهُ اسْتَقْبَلوهُ بالتكذيبِ، ولم يُعامِلوهُ مُعامَلَةَ مَنْ كانَ معروفاً بالصِّدْقِ والصِّيانةِ.

والجِنُّ الذينَ صَدَّقوهُ لم يكونوا عارفينَ بأحوالِهِ في ما قَبْلُ أنهُ صَدوقٌ أو مِمَّنْ يُرْتابُ في خَبَرِهِ، ثم تَسارَعوا إلى تَصْديقِهِ بِما لاحَتْ لهمُ الحجَّةُ، وثَبَتَتْ عندَهُمْ آيَةُ الرسالةِ، وتَعامَلوا[7] معهُ معامَلَةَ مَنْ عُرِفَ بالصِّدْقِ. فدلَّ أنهمْ كانوا في غايةٍ مِنَ السَّعَةِ.

---

(١) من م، في الأصل: و. (٢) في م: غير. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) من م، في الأصل: فقط. (٧) في الأصل وم: وعاملوا.

والرابعة[١]: دلالةُ رسالتِهِ ﷺ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الآيتان: ١و٢] إلى آخرِ القِصَّةِ في ما بينَهمْ إخبارٌ عن عِلْمِ الغَيبِ، ثَبَتَ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على الإيمانِ بهِ ما عَرَفوا أنهُ أتى بالمُعْجِزِ الذي يُعْجِزُ الخَلْقَ عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ وبما وقَفوا على أحكامِ مَعانيهِ وحُسْنِ تأليفِهِ ونَظْمِهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَشْعُرْ بِمَجيئِهِمْ حتى أُوحِيَ إليهِ أنهُ قد أتاهُ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعونَ إلى ما أُوحِيَ إليهِ، فيكونُ فيهِ دلالةٌ على [فَسادِ قولِ][٢] الباطنيّةِ حينَ[٣] يَزْعُمونَ أنَّ النبيَّ ﷺ قَبِلَ الوَحْيَ بالجَسَدِ الرُّوحانيِّ، لأنهُ لو كانَ كما وَصَفوا لَرَأى الجِنَّ عندَما حَضَروا إليهِ؛ إذِ الجَسَدُ الرُّوحانيُّ ممّا يُبْصِرُ الجِنَّ، ولم يكُنْ يُوحَى إليهِ، فَيَعْرِفَ أنْ قد حَضَرَهُ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ.

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سألَ جبريلَ ﷺ أنْ يراهُ على صورَتِهِ، فقالَ لهُ جبريلُ: إنكَ لا تُطيقُها[٤]، لأنَّ الأرضَ لا تَسَعُني، ولكنِ انْظُرْ إلى أُفُقِ السماءِ. ولو كانَ يأخُذُ الوَحْيَ بالجَسَدِ الرُّوحانيِّ لَكانَ قد رَأى جبريلَ ﷺ على صورتِهِ، فَتَبْطُلُ فائدةُ هذا[٥] السؤالِ. فَثَبَتَ أنَّ الأمرَ ليسَ كما زَعموا، بل كانَ يَقْبَلُهُ بالصورةِ الجَسَدانيةِ وأنهُ كما وَصَفَهُ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الآية [الكهف: ١١٠].

قالَ القُتَبِيُّ: النَّفَرُ ما بَيْنَ الثلاثةِ إلى التِّسْعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: العَجَبُ الغريبُ، وإنما اسْتَغْرَبوا ذلكَ منهُ، لأنهمْ سَمِعوا مِنْ أُمِّيٍّ، لا يعرِفُ الكتابةَ، ولا يَقْرَأُ الكتبَ.

ومنهمْ مَنْ قالَ بأنَّ حُسْنَ تأليفِهِ[٦] ونَظْمِهِ وَوَصْفِهِ، هو الذي حَمَلَهُمْ على التَّعَجُّبِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنما تَعَجَّبوا مِنْ آياتِهِ وحُجَجِهِ، لأنهُ جاءَ في تَثْبيتِ التوحيدِ وإثباتِ الرسالةِ وإثباتِ البعثِ، ولم يكُنْ لهمْ معرفةٌ بالوحدانيةِ، بل كانوا أهلَ شِرْكٍ، ولم يكونوا أهلَ معرفةٍ بالبعثِ والرسالةِ، فكانتِ الآياتُ عَجيبةً حينَ[٧] قَرَّرَتْ عندَهُمْ هذهِ الأوجهَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في هذهِ [الآيةِ][٨] وفي قولِهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إخبارٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَكُنْ يَشْعُرُ بِمَجيئِهِمْ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ لمّا تَلا على أصحابِهِ سورةَ الرحمنِ قالَ لأصحابِهِ: «إنَّ الجِنَّ كانوا أحْسَنَ إجابةً منكُمْ، إني تَلَوْتُ عليهِمْ هذهِ السورةَ، فكانوا يقولونَ: ما بِشيءٍ مِنْ آلائكَ نُكَذِّبُ، ربَّنا، فَلَكَ الحمدُ» [الترمذي ٣٢٩١].

ففي هذا الخَبَرِ أنهُ قد رآهُمْ، وشَعَرَ بِمَجيئِهِمْ، فيكونُ فيهِ إثباتُ الوجهَينِ جميعاً: أنْ قد شَعَرَ مَرَّةً، ولم يَشْعُرْ أُخرى.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ رآهُمْ بِما قَوّى اللهُ ﷻ بَصَرَهُ حتى احْتَمَلَ إدراكَ الجِنِّ، وضَعَّفَ أبصارَ غَيرِهِ عن رُؤْيَتِهِمْ.

ألا تَرى أنَّ أهلَ الجنةِ يَرَوْنَ الملائكةَ عندَما تأتيهِمْ بالتُّحَفِ مِنْ رَبِّهِمْ، فَيُقَوّي ﷻ بَصَرَهُمْ حتى يُعايِنوا الملائكةَ بِجَوهَرِهِمْ، وإنْ ضَعُفَتْ أبصارُهُمْ في الدنيا؟ ففي ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ قَوّى بَصَرَ نَبِيِّهِ ﷺ حتى رَأى الجِنَّ على صورتِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى صَوَّرَ الجِنَّ على صورةِ الإنسِ حتى رَآهُمْ، وشَعَرَ بِمَجيئِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ما ذَكَرْنا مِنَ السَّنَدَينِ في أمرِ مَجيءِ الجِنِّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ في أوّلِ السورةِ مِنْ قولِ أهلِ التأويلِ، لا يَقْطَعُ القولَ بذلكَ، وإنْ كانَ في حدِّ الإمكانِ والجَوازِ، لأنهمْ تَكَلَّفوا اسْتِخْراجَ ذلكَ بالتَّدبيرِ والاجْتِهادِ، وما كانَ سبيلُ معرفتِهِ الاجْتِهادَ لم يَجُزْ أنْ يُقْطَعَ القولُ فيهِ بالشهادةِ.

---

(١) في الأصل وم: وفيه أيضاً. (٢) في الأصل وم: قول فساد. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: تطيقه. (٥) في الأصل وم: هذه. (٦) من م، في الأصل: تأويله. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقد يجوزُ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على المَجيءِ غيرَ ذَينِكَ الوجهَينِ؛ وهو أنْ يكونَ النَّفَرُ مِنْ مُنْذِري الجِنّ لأنهُ ذَكَرَ أنَّ [لِلجِنّ نُذُراً][١] وأنَّ الرسُلَ مِنَ الإنسِ دونَ الجِنّ، فَتَفرَّقوا على رَجاءِ أنْ يَظْفَروا برسولٍ، فَيَتَلَقَّفوا منهُ ما يقومونَ[٢] بِهِ بالنِّذارةِ في ما بَينَ قومِهِمْ؛ إذ كانوا يَصْعَدونَ إلى السماءِ، فَيَسمعونَ الأخبارَ، ويُنْذِرونَ[٣] قومَهُمْ بها. ثم انْقَطَعَ ذلكَ عنهمْ حتى[٤] لم يَجدوا مَسْلَكاً إلى الصعودِ لأنها قد مُلِئَتْ حَرَساً، وعَلِموا أنَّ اللهَ تعالى لا يُبْقيهِمْ حيارَى، ويَقْطَعُ عنهمْ وجهَ المعرفةِ، فَتَفرَّقوا في الأرضِ رَجاءَ أنْ يَظْفَروا بِمَنْ يُزيلُ عنهُمُ الشُّبَهَ، ويُوضِحُ لهمُ الحُجَجَ والبراهينَ، فَوَصَلوا إلى مَقْصودِهِمْ مِنْ جِهَةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ.

ويجوزُ أنْ يكونَ عندهُمْ أنْ لا أحَدَ في الأرضِ مِنْ جِنّيٍّ أو إنْسِيٍّ، يَكْذِبُ على اللهِ كما حَكَى اللهُ تعالى عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية: ٥] فلمّا تَحَقَّقَ عندهُمُ الكَذِبُ خافوا على أنفسِهِمْ أنْ [تُبْتَلَى بِهِ][٥] وأنْ يُشَبَّهَ عليهِمُ الصِّراطُ السَّوِيُّ، فَتَفرَّقوا في الأرضِ على رَجاءِ أنْ يَظْفَروا بِمَنْ يَدُلُّهُمْ على الطريقةِ المُثْلَى حتى وَجَدوا رسولَ اللهِ ﷺ.

ويجوزُ أنْ يكونوا لمّا صَعِدوا إلى السماءِ، فَرَأَوها مَمْلوءةً مِنَ الحَرَسِ والشُّهُبِ، أيْقَنوا أنَّ ذلكَ لِحادثِ خَيرٍ، وخافوا حُلولَ نِقْمَتِهِ بأهلِ الأرضِ فَتَفَرَّقوا في البلادِ لِما لَعَلَّهُمْ يَصِلونَ إلى عِلْمِ ذلكَ.

ثم الذي حقَّقَ كونَ هذا الخَبَرِ، هو أنَّ السماءَ ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الآية: ٨] في حقِّ الكَفَرَةِ وانْقِطاعِ الكَهَنَةِ بَعدَ ذلكَ.

ولو كانَ الأمرُ على خِلافِ هذا لَكانوا لا يَنْقَطِعونَ[٦]، لأنَّ الشياطينَ كانوا يَصْعَدونَ إلى السماءِ، فيأتونَ الكَهَنَةَ بما يَسْمَعونَ مِنَ الأخبارِ، ويُلْقونَها إليهِمْ، [فَيُضِلّونَ][٧] بها الخَلْقَ.

فلو لم يُمْنَعوا عنِ السماءِ لَكانوا لا يَنْقَطِعونَ. ومَنِ ادّعَى الكهانةَ اليومَ فلا يَجِدُ عندَهُ خَبَراً حادثاً سِوَى ما تَلَقَّفوهُ مِنَ السُّنَنِ الرسلِ ﷺ وكانَ أمرُ الشهابِ أمراً ظاهراً عَرَفَتْهُ الكَفَرَةُ في ما بَيْنَهُمْ، فكانَتْ هذهِ حُجَّةً سَماوِيَّةً لرسولِ اللهِ ﷺ مُقَرِّرَةً عندَ الكَفَرَةِ رسالَتَهُ؛ إذْ لم يَدَّعِ أحدٌ منهمْ بكونِ الشهابِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فصارَ انْقِطاعُ الكهنةِ دليلاً على صدقِهِ في مقالَتِهِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي إلى الحقّ على ما ذَكَرْنا بَيانَهُ في سورةِ الأحقافِ في قولِهِ ﷻ ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآية: ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: إنهمْ كانوا مُشْرِكي العربِ، فَتَبرَّؤوا مِنَ الشِّرْكِ بما اسْتَمَعوا، وسَمِعوا القرآنَ بقولِهِمْ: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

وقد يَحْتَمِلُ هذا الذي قالوا، ويَحْتَمِلُ أنهُ لم يَسْبِقْ منهمُ الإشراكُ، بل كانوا مِنْ جملةِ المُوَحِّدينَ، ولكنهمْ أحْدَثوا إيماناً بما سَمِعوا مِنَ القرآنِ، وأحْدَثوا تَبَرِّياً مِنَ الشِّرْكِ، وقد يَتَبَرَّأُ المرءُ مِنَ الشِّرْكِ عندما يَحْدُثُ لهُ زيادةُ إيقانٍ، وإنْ لم يَسْبِقْ منهُ /٦٠١ ـ ب/ الإشراكُ كما قالَ موسى ﷺ ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِ الجَدِّ: فمنهمْ مَنْ يقولُ بأنَّ هذهِ الكلمةَ يُتَكَلَّمُ بها في مَنْ يَظْفَرُ بكلِّ ما يُريدُهُ، فَيوصَفُ بأنهُ ذو جَدٍّ. فجائزٌ أنْ يكونوا أرادوا بهذا أنَّ ربَّنا، هو الظافرُ بكلِّ ما يُريدُهُ، لا يَسْتَقِيلُهُ خِلافُهُ، ولا تَمَسُّهُ حاجةٌ.

وعلى هذا التأويلِ قولُهُ [ﷺ][٨]: «ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ» [البخاري: ٨٤٤] أي مَنْ كانَ لهُ الجَدُّ في الدنيا، فإذا كانَ في تقديرِ اللهِ تعالى خِلافُ ذلكَ، لم يُغْنِهِ ذلكَ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً، وإنْ كانَ هذا، هو المُرادُ، فَمَعْناهُ أنَّ مَنْ هذا

---

(١) في الأصل: الجن نذيراً، في م: من الجن نذيراً. (٢) في الأصل وم: يقوموا. (٣) في الأصل وم: وينذروا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) يبتلوا به. (٦) في الأصل وم: ينقطعوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وَصْفُهُ يَتعالى عنْ أنْ يكونَ لهُ شريكٌ، ويَحتاجَ إلى صاحبةٍ أو إلى اتّخاذِ وَلَدٍ، لأنّ هذهِ الأشياءَ كلَّها أماراتُ الحاجةِ. ومَنْ ظَفِرَ بكلِّ ما يُريدُهُ لم تَقَعْ [لهُ][1] حاجةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الجَدُّ صِلَةً؛ ومَعْناهُ: تَعالى ربُّنا. وجائزٌ أنْ يكونَ الجَدُّ عبارةً عنِ العَظَمَةِ والرِّفْعَةِ؛ يُقالُ: فلانٌ جَدٌّ في قومِهِ إذا عَظُمَ، وشَرُفَ فيهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي غِنَى ربِّنا.

ألّا تَرَى كيفَ ذَكَرَ اللهُ تعالى عندَما نَزَّهَ نفسَهُ عنِ اتّخاذِ الأولادِ بقولِهِ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ الْغَنِىُّ﴾ [يونس: ٦٨] وقد ذَكَرَ اتّخاذَ الولدِ ههنا على إثْرِ قولِهِ ﷻ: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾. ومنهمْ مَنْ يقولُ: تأويلُهُ: مُلْكُ ربِّنا. وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ قوةُ ربِّنا، فَتعالى ربُّنا عنْ كلِّ ما نُسِبَ إليهِ، كانَ فيهِ أيُّ[2] فِعْلٍ لِلرَّزالةِ والتَّسَفُّلِ.

ثم الحقُّ ألّا نَتَكَلَّفَ[3] تفسيرَ قولِهِ: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ ههنا لأنهُ حكايةٌ عنْ مَقالةِ الجِنِّ. فَمُرادُ هذهِ الكلمةِ إنما يُعْرَفُ بأخبارِ الجِنِّ.

ثم الشِّرْكُ في ما جَرَى بهِ الكتابُ على أوجُهٍ أربعةٍ:

مَرَّةً على العِبادةِ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وشِرْكٌ في الخَلْقِ بقولِهِ ﷻ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ﴾ [الرعد: ١٦] وشِرْكٌ في الحكمِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وشِرْكٌ في المُلْكِ بقولِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١و..].

فَثَبَتَ أنّ الشِّرْكَ يَقَعُ مَرَّةً في العِبادةِ ومَرَّةً في العِبادِ ومَرَّةً في المُلْكِ ومَرَّةً في الحُكْمِ.

فهمْ بقولِهِمْ: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ تَبَرَّؤوا مِنَ الشِّرْكِ في هذهِ الأوجهِ الأربعةِ.

ثم إذا كانَ الجَدُّ عبارةً عنِ الذي يَظْفَرُ بكلِّ ما يُريدُهُ، ففيهِ ما يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ، لأنهمْ يَزْعُمونَ أنّ اللهَ تعالى أرادَ مِنْ كلِّ كافرٍ الإيمانَ. فإذا لم يُؤمِنوا فهو غيرُ ظافرٍ بما يُريدُ على قولِهِمْ، ويدخُلُ عليهمُ النَّقْضُ مِنْ وجهٍ آخَرَ، وهو أنّا قد بَيَّنّا أنّ الشِّرْكَ قد يَقَعُ مَرَّةً في الخَلْقِ، وهُمْ يَنْفُونَ خَلْقَ الأفعالِ عنِ اللهِ تعالى. وإذا نَفَوا ذلكَ فقد جَعَلوا لهُ في الخَلْقِ شُرَكاءَ، وقد أخْبَرَ ﷻ أنهُ هو المُتَفَرِّدُ بِخَلْقِ الخَلائقِ.

فَثَبَتَ أنّ الأفعالَ مِنْ حيثُ الخَلْقُ والإنشاءُ مِنَ اللهِ تعالى، ومِنْ جهةِ الكَسْبِ والفِعْلِ لِلْخَلْقِ. فَمِنَ الوجهِ الذي يُضافُ إلى اللهِ تعالى لا يجوزُ أنْ يُضافَ مِنْ ذلكَ الوجهِ إلى الخَلْقِ عندَنا. فلا يَقَعُ في الخَلْقِ تَشابُهٌ، لأنهُ لا يَتَحَقَّقُ مِنَ العبادِ الفعلُ مِنَ الوجهِ [الذي][4] تَحَقَّقَ مِنَ اللهِ تعالى.

[ألّا تَرَى أنهُ يُضافُ الملكُ إلى اللهِ تعالى][5] وإلى الخَلْقِ؟ ثم لا يَقَعُ فيهِ إشراكٌ لأنهُ مِنَ الوجهِ الذي يُضافُ إلى اللهِ تعالى على جهةِ التَّحْقيقِ.

فكذلكَ إضافةُ الأفعالِ إلى اللهِ تعالى وإلى الخَلْقِ، لا يَجِبُ الشِّرْكُ لِاخْتِلافِ الجِهَتَينِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ لأنّ اتّخاذَ الصاحبةِ مِنَ الخَلْقِ لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، وهو مُنْشِئُ الشَّهَواتِ، فلا يجوزُ أنْ يَغْلِبَهُ ما هو خَلَقَهُ، فَيَبْعَثَهُ ذلكَ على اتّخاذِ الصاحبةِ.

وبهذا نَرُدُّ على مَنْ زَعَمَ أنّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، والبَناتُ تَحْدُثُ مِنَ الصاحبةِ، وهو مُتَعالٍ، لم يَتَّخِذْ صاحبةً، فأنّى يكونُ لهُ بَناتٌ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ فالأصلُ أنّ الأولادَ يَرْغَبُ فيهمُ المرءُ لإحدَى خِصالٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إلى. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: نتكلم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) من م، ساقطة من الأصل.

إمّا لِما يَنالُهُ مِنَ الوَحْشَةِ، فَيَطْلُبُ الوَلَدَ لِيَسْتَأْنِسَ بهِمْ، أو يَرغَبُ فيهِمْ لِما حَلَّ بهِ[1] مِنَ الضعفِ، فَيريدُ أنْ يَسْتَنْصِرَهُمْ، أو لِما يَخافُ زوالَ ملكِهِ، فَيَطْلُبُ الولَدَ لِيَأمَنَ مِنْ زَوالِهِ، وجَلَّ اللهُ ﷻ عنْ أنْ تَلْحَقَهُ وحشةٌ أو يصيبَهُ ضَعْفٌ، أو يَخافَ زَوالَ الملكِ.

فإذا كانتِ الطرقُ التي بها يُرغَبُ في اكْتِسابِ الأولادِ مُنْقَطِعةً في حقِّهِ لَزِمَ تَنْزيهُهُ عنِ اتِّخاذِ الأولادِ. ولهذا [في][2] ما ذَكَرَ عندما يَشْتَبِهُ الملاحدةُ في اتِّخاذِ الأولادِ: غِناهُ بقولِهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [يونس:٦٨] أي غَنِيٌّ عنْ كلِّ الوجوهِ التي تَتَوَجَّهُ إلى اتِّخاذِ الأولادِ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ فمنهُمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ سَفيهَهُمْ إبليسُ، وليسَ هذا يرجعُ إلى كلِّ مَنْ يوجَدُ منهُ فِعْلُ السَّفَهِ.

ألا تَرَى أنهُ إذا قيلَ: كانَ يقولُ مُسيئُنا كذا، أو كانَ يقولُ فاسِقُنا كذا، لم يُعْنَ بِهِ فاسقٌ ولا مُسيءٌ واحدٌ على الإساءةِ، بل يُرادُ بِهِ كلُّ معروفٍ بالإساءةِ والفِسْقِ؟.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ ليسَ بِمُقْتَصِرٍ على الواحدِ، بل هو راجعٌ إلى كلِّ مَنْ يوجَدُ منهُ ذلكَ.

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ النَّفَرَ الذينَ استَمَعوا كانوا مؤمنينَ، ولم يكونوا مِنْ أهلِ الكُفْرِ، لأنهمْ لو كانوا أهلَ شِرْكٍ لَكانوا لا يُضيفونَ فِعْلَ السَّفَهِ إلى غَيرِهِمْ، ويُخْرِجونَ أنفسَهُمْ منهُ، وقد وُجِدَ منهمْ فِعْلُ السَّفَهِ، ولو كانوا مُشْرِكينَ أيضاً لَكانوا يقولونَ مَكانَ هذهِ الكلمةِ: وأنّا كُنّا نقولُ على اللهِ شَطَطاً ليكونَ ذلكَ منهُمْ توبةً ورُجوعاً عمّا كانوا فيهِ مِنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ وشُكْراً بِما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ مِنْ عظيمِ النِّعْمَةِ بأنْ هَداهُمْ لِلإيمانِ لا أنْ يُضيفوا ذلكَ إلى سُفَهائِهِمْ. فَثَبَتَ أنهمْ كانوا مؤمنينَ.

والشَّطَطُ الجَورُ، وقالَ بعضُهُمْ: الكَذِبُ، وقالَ بعضُهُمْ: الظُّلْمُ. والشَّطَطُ ههنا الجَورُ، والجَورُ ما أتَوا بهِ مِنَ الفاحِشِ، وهو الشِّرْكُ باللهِ تعالى، وهذا يُبيِّنُ أنَّ الجَورَ قبيحٌ في كلِّ الألسنِ وفي ما بَينَ أهلِ الأديانِ. ألا تَرَى كيفَ سَفَّهوا مَنْ يقولُ على اللهِ تعالى بالجَورِ؟

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ذَكَرَ أبو بكرٍ الأصَمُّ أنهمْ كانوا اعْتَقَدوا أنَّ للهِ تعالى صاحبةً وَولداً لِما سَمِعوا الجِنَّ والإنسَ، يقولونَ ذلكَ، وكانَ عندَهُمْ أنهمْ في ذلكَ صادقونَ. فذلكَ المَعْنَى، هو الذي حَمَلَهُمْ على القولِ بأنَّ للهِ تعالى ولداً وصاحبةً.

فلما ظَهَرَ عندَهُمْ كَذِبُ مَنْ يَدَّعي اتِّخاذَ الولدِ والصاحبةِ تَبَرَّؤوا مِمَّنْ يقولُ ذلكَ. فَثَبَتَ بهذا أنهمْ كانوا أهلَ شِرْكٍ إلى هذا الوقتِ.

فلما استَمَعوا إلى قراءةِ الرسولِ ﷺ ولاحَتْ لهمُ الحُجَجُ، وارْتَفَعَتْ عنهمُ الشُّبْهَةُ، آمنوا بهِ، وتَبَرَّؤوا مِنْ مَقالَتِهِمُ المُتَقَدِّمةِ.

وقد يَحْتَمِلُ غَيرَ ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ مِنَ التأويلِ، وهو أنَّ القومَ[3]: كانوا أُنْشِئوا على الهُدَى والإيمانِ، فكانوا يَظُنّونَ أنَّ الجِنَّ والإنسَ على الهُدَى وأنهمْ لا يكذِبونَ على اللهِ حتى ظَهَرَ عندَهُمْ كَذِبُ الإنسِ والجِنِّ بقولِهِمْ: إنَّ للهِ ولداً وصاحبةً.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: أنّا كنّا نَظُنُّ ألّا تَسْخُوَ نَفْسُ أحدٍ مِنَ المُمْتَحَنينَ بالكَذِبِ على اللهِ بما أراهُمُ اللهُ قُبْحَ الكذبِ، وقَرَّ عندَهُمْ بالحُجَجِ والأدلةِ تَنْزيهُهُ عنِ اتِّخاذِ الأولادِ والصاحبةِ حتى ظَهَرَ عندَهُمْ ذلكَ بِما أظْهَروهُ بألسِنَتِهِمْ.

ثم الذي /٦٠٢ ـ أ/ يدلُّ على أنَّ التأويلَ الذي ذَكَرَهُ أبو بكرٍ ليسَ بِمُحْكَمٍ أنهُ قد كانَ في الجِنِّ والإنسِ مُصَدِّقٌ، يَصِفُ اللهَ تعالى بالتَّنْزيهِ، وقد كانَ فيهِمْ مَنْ يقولُ بالولدِ أو الصاحبةِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ حكايةً عنهمْ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] وإلى قولِهِ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؟ [الجن: ١١].

---

(١) في الأصل وم: بهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: القول.

ولا يَخْتَلِلُ أنْ يَقَعَ عندَهُمْ أنَّ الفريقَينِ جميعاً على الصوابِ، ولكنْ كانَ في ظُنونِهِمْ أنَّ القومَ جميعاً على الهُدَى على ما هُمْ عليهِ. فلمّا تَبَيَّنَ عندَهُمُ الكَذِبُ مِنْ أولئكَ قالوا هذا القولَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وذُكِرَ أنَّ الإنسَ، وهُمْ قومٌ مِنَ[1] العربِ، كانتْ إذا نَزَلَتْ بوادٍ اسْتَجارَتْ بِسَيِّدِ الوادي، وقالَتْ: نعوذُ بِسَيِّدِ هذا الوادي مِنْ سُفَهاءِ قومِهِ.

ثُمّ اخْتُلِفَ بعدَ هذا، فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهمْ كانوا يُجيرُونَهُمْ، ومنهمْ مَنْ زَعَمَ أنهمْ كانوا لا يُجيرُونَهُمْ، وكانَ ذلكَ يزيدُ في رَهَقِ الإنسِ والجِنِّ، وقالوا: الرَّهَقُ الخوفُ والفَرَقُ، كذلكَ رُوِيَ عنْ أبي رَوْقٍ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو الذِّلَّةُ والضَّعْفُ، فكانوا يزدادونَ [ضَعْفاً وذِلَّةً وخَوفاً وفَرَقاً][2] بامْتِناعِهِمْ عنِ الإجارَةِ[3] ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنهمْ كانوا يُجيرونَ مَنِ اسْتَجارَهُمْ. ولكنْ مَعَ هذا كانوا يَفْرَقونَ منهمْ ومِنْ كَيْدِهِمْ في الأماكنِ التي لم تَسْتَجيروا فيها إليهِمْ وفي غَيرِ الأوقاتِ التي وقعَتْ فيها الإجارةُ.

وعلى اخْتِلافِهِمُ اتَّفَقوا أنَّ الجِنَّ هي التي كانَتْ تزيدُ الإنسَ رَهَقاً.

وقيلَ بأنَّ هذا الفعلَ مِنَ الإنسِ، وهو الاسْتِجارةُ بهِمْ، شِرْكٌ لأنَّ اللهَ تعالى، هو المُجيرُ، فكانَ الحقُّ عليهِمْ أنْ يَسْتَجيروا باللهِ تعالى لِيَدْفَعَ عنهمْ مَكايِدَ الجِنِّ ولا يَرَوا لأنفسِهِمْ ناصراً غَيرَ اللهِ، جَلَّ جلالُهُ، فإذا فَزِعوا في الاسْتِجارةِ إلى الجِنِّ فقد رَأَوا غَيرَ اللهِ تعالى، يَقومُ عنهمْ بالذَّبِّ والنَّصرِ، فكانَ ذلكَ منهمْ إشراكاً ولأنَّ الجِنَّ أضعَفُ مِنَ الإنسِ.

ألَا تَرَى أنها تَخْتَفي مِنَ الإنسِ[4]، وتَتَصَوَّرُ بِغَيرِ صورتِها فَرَقاً لئلّا يَشْعُرَ بها، وبَلَغَ مِنْ ضَعْفِها أنها لا تَقْدِرُ على إتلافِ أحدٍ مِنَ البشرِ، ولا تَقْدِرَ على سَلْبِ أموالِهِمْ ولا إفسادِ طَعامِهِمْ وشَرابِهِمْ؟ واسْتِنصارُ القويِّ بالضعيفِ إراءَةُ الذِّلَّةِ، فَيَخْرُجُ تأويلُ مَنْ قالَ بأنَّ الرَّهَقَ، هو الذِّلَّةُ والضَّعْفُ على هذا.

ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنَّ الإنسَ، هي التي كانَتْ تَزيدُ الجِنَّ رَهَقاً، وقالوا: الرَّهَقُ التَّجَبُّرُ والتَّكَبُّرُ، وقيلَ: هو السَّفَهُ والجهلُ والمَأْثَمُ[5].

وقالَ القُتَبِيُّ: هو العَبَثُ في الظُّلْمِ؛ يقالُ: فلانٌ مُرْهَقٌ في دينِهِ إذا كانَ مُفْسِداً.

ووجهُ زيادةِ الرَّهَقِ، هو أنَّ الرؤساءَ مِنَ الجِنِّ، يَرَونَ لأنفسِهِمُ الفَضْلَ على أتباعِهِمْ مِنَ الجِنِّ فَيَتَداخَلُهُمُ الكِبْرُ مِنْ ذلكَ، ويَزْدادونَ بهِ تَجَبُّراً وتَعَظُّماً، فكانَ ذلكَ يَمْنَعُهُمْ عنِ النَّظَرِ في حُجَجِ الرسلِ.

وكذلكَ أكابرُ الكَفَرَةِ مِنَ الإنسِ كانوا يَمْتَنِعونَ عنِ الإجابةِ للرسولِ ﷺ بما يَرَونَ لأنفسِهِمْ مِنَ الفَضْلِ على مَنْ سِواهُمْ.

ألَا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ الآية؟ [الأنعام: ١٢٣].

فَمَنْ زَعَمَ أنَّ الرَّهَقَ الإثمُ أوِ السَّفَهُ أوِ الجَورُ أوِ الظُّلْمُ أوِ العَبَثُ يُرْجِعُهُ[6] كلَّهُ إلى هذا المَعْنَى الذي ذَكَرْنا لأنَّ سَفَهَهُمْ، هو الذي كانَ يَحْمِلُهُمْ على التَّجَبُّرِ والتَّكَبُّرِ لأنهُ كانَ لا يَستعيذُ بهمْ إلّا الجاهلُ السفيهُ، وليسَ في إعاذةِ الجاهلِ مَنْقَبَةٌ لِما يَتَكَبَّرُ لأجلِها، وهمْ بِتَكَبُّرِهِمُ ازدادوا إثماً وبُعْداً مِنْ رحمةِ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونوا نَفَوُا القُدْرَةَ عنِ اللهِ تعالى [على البعثِ][7] لِما لم يُشاهِدوا البعثَ، ورَأَوهُ أمراً خارجاً عنْ طَوقِهِمْ وقِواهُمْ، فَظَنُّوا أنَّ القُدْرةَ لا تَنْتَهي إلى هذا، لا أنْ يكونوا نَفَوا خُروجَ البعثِ عنْ حدِّ الحكمةِ لأنهمْ لو أرادوا بهِ نَفْيَ البعثِ لكانوا يَقْتَصِرونَ على قولِهِمْ: ﴿لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ﴾ تعالى، فلمّا وَصَلوا بهِ الكلامَ الذي يَتَكَلَّمُ بهِ للتأكيدِ، وهو قولُهُ: ﴿أَحَدًا﴾ دلَّ أنهمْ نَفَوُا القُدْرَةَ.

وجائزٌ أنْ يكونوا ظَنّوا ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ لأنهُ أمرٌ خارجٌ عنِ الحكمةِ؛ إذْ ليسَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يُهْلِكَ، ثم يُعادَ، بل إنْ أُريدَ الإبقاءُ فلنْ يُفْنَى حتى لا يُحاجَ[8] إلى الإعادةِ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: الضعف والذلة والخوف. (٣) في الأصل وم: الإعاذة. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الأصل. (٥) في الأصل وم: وهي المأثم. (٦) في الأصل وم: يرجع. (٧) في الأصل وم: بالبعث. (٨) في الأصل وم: يحوج.

ثم هذا الكلامُ ليسَ بحكايةٍ عنِ الجنِّ، بلِ اللهُ تعالى [قالَ][(١)]: إنَّ الجنَّ ظنَّتْ أنْ لا بعثَ كما ظَنَنْتُمْ أنتمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿ظَنَنتُمْ﴾ في الظاهرِ إشارةٌ إلى الإنسِ جملةً مُسْلِمِهِمْ وكافِرِهِمْ. ومَعْلومٌ بأنَّ المسلمينَ لم يكونوا يَظُنّونَ ذلكَ بل قد أيْقَنوا بالبعثِ، ولكنَّ مَعْناهُ أنَّ الكَفَرَةَ مِنَ الجنِّ ظَنَّتْ أنْ لا بعثَ كما ظَنَّتِ الكَفَرَةُ منكُمْ أيُّها الإنسُ في هذهِ الآيةِ إبانةُ أنهمْ كانوا يقولونَ: لا بعثَ بالظَّنِّ، ليسَ بالعِلْمِ.

والذي حَمَلَهُمْ على الظَّنِّ إعراضُهُمْ عنِ السببِ الذي يُوجِبُ القولَ بالبعثِ، وكلٌّ يأنَفُ بالطبعِ أنْ يَلْزَمَ الظنونَ، ففيهِ دعاءٌ وترغيبٌ في النَّظَرِ إلى حُجَجِ البعثِ وتَرْكِ الاعْتِمادِ على الظُّنونِ.

ثم ذَكَرَ النَّحْوِيّونَ أنْ كانَ ابْتِداؤهُ بالكسرِ في هذهِ السورةِ أعْني حَرْفَ ﴿أَنَّ﴾ فهو حكايةٌ عنِ الجنِّ نحوُ قولِهِ: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ وما كانَ فيهِ مِنَ الحكايةِ لا عنِ الجنِّ، فَحَقُّهُ أنْ يُقْرَأَ بالنَّصْبِ، فاخْتاروا النَّصْبَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ﴾ لِما ليسَ هو بحكايةٍ عنْ قولِ الجنِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ لَمْسُهُمُ السماءَ لِيَجِدوا أبوابَها، فَيَدْخُلوا فيها لِلاسْتِماعِ، إذْ أخبارُها ليستْ في جُمْلةِ آفاقِ السماءِ ولا أبوابُها مُحيطةً بِجُمْلةِ السماءِ، فكانوا يَلْمَسونَها لِيَظْفَروا بأبوابِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ مِنْ لَمْسِ أبوابِها لِيَفْتَحوها[(٢)]، فَيَدْخُلوا فيها، فَيَسْتَمِعوا[(٣)] إلى الأخبارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ فجائزٌ أنْ تكونَ بعضُ الأبوابِ مُلِئَتْ مِنَ الحَرَسِ، وبعضُها مِنَ الشُّهُبِ. فإنْ أتَوا إلى الأبوابِ التي مُلِئَتْ مِنَ الحَرَسِ دَفَعَتْهُمُ الحَرَسُ، وطَرَدَتْهُمْ، وإنْ أتَوا إلى الأبوابِ التي مُلِئَتْ بالشُّهُبِ تَبِعَتْهُمُ الشُّهُبُ كما قالَ ﷻ ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ ﴿دُحُورٗا﴾ [الصافات: ٨و٩].

وجائزٌ أنْ تكونَ الأبوابُ كلُّها مَمْلوءةً مِنَ الحَرَسِ والشُّهُبِ جميعاً لأنَّ الحَرَسَ لم يُمْتَحَنوا بالحراسةِ خاصّةً، بلِ امْتُحِنوا [بها وبِغَيرِها][(٤)] مِنَ الأعمالِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ اشْتِغالُهُمْ بِتِلكَ الأعمالِ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الحَرَسِ، فإذا رَأَوا [مَنْ يَسْتَرِقُ][(٥)] السَّمْعَ في وقْتِ شُغْلِهِمْ تَبِعَتْهُمْ [بالشُّهُبِ الثاقبةِ][(٦)] وقَذَفَتْهُمْ عَنْ مُرادِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يَصْعَدَ الجنُّ إلى المكانِ الذي لا يراهُمُ الملائكةُ، ويَسْمَعَ الجنُّ كلامَهُمْ، لأنَّ المَرْءَ قد يَتَكَلَّمُ بكلامٍ فَيَنْتَهي صوتُهُ إلى حيثُ لا يراهُ البَصَرُ، فتكونُ الشُّهُبُ تَحْتَ الحَرَسِ، فَيُقْذَفونَ عنها بالشُّهُبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ / ٦٠٢ ـ ب/ قيلَ: الشِّهابُ مِنَ الكواكبِ، والرَّصَدُ مِنَ الملائكةِ، والأصلُ[(٧)] في ذلكَ أنَّ الجنَّ قد حُبِسوا وقتَ مَبْعَثِ رسولِ اللهِ ﷺ عنْ خَبَرِ السماءِ، وكانوا يَسْتَرِقونَ السَّمْعَ قبلَ ذلكَ، حتى [يَنْقَطِعَ عنِ][(٨)] الكهنةِ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يأتوا بِخَبَرِ السماءِ وقتَ مَبْعَثِ النَّبيِّ ﷺ حتى لا[(٩)] يَخْتَلِطَ أمرُ الكهنةِ بأمرِهِ ﷺ فَحُبِسوا عنِ الصعودِ إلى السماءِ وإتْيانِ الخَبَرِ عنها حتى يَنْقَطِعَ أمرُ الكهنةِ، فجاءَهُمُ الرسولُ بعدَ ذلكَ لِيَعْلَموا أنَّ ذلكَ ليسَ بِكهانةٍ، وإنما هو وَحْيٌ ثابتٌ مِنَ السماءِ؛ إذْ لو كانَ كهانةً كانَ غَيرُهُ لا يُمْنَعُ عنْ مِثْلِهِ كما في سالفِ الأزمانِ.

فهذهِ الآيةُ كأنها[(١٠)] حكايةٌ عنْ قولِ الجنِّ لمّا رَجَعوا إلى قومِهِمْ مُنْذِرينَ، قالوا هذا كلَّهُ لقومِهِمْ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليفتحوا بها. (٣) في الأصل وم: فيستمعون. (٤) في الأصل وم: به وبغيره. (٥) في الأصل وم: استراق. (٦) في الأصل وم: الشهاب الثاقب. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: انقع من. (٩) في الأصل وم: كان. (١٠) في الأصل وم: كأن.

أحدُهما: لا ندري بمَ قُطِعَتْ؟ بالحَرَسِ أم[1] بالشُّهُبِ أخبارُ السماءِ عن أهلِ الأرضِ؟ وحُبِسَ الذينَ يَصْعَدونَ السماءَ عنْ أخبارِ السماءِ ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ ﴿دُحُورٗاۖ﴾ [الصافات: ٨و٩] بأهلِ الأرضِ ﴿أَشَرٌّ﴾[2] وهو إنْزالُ العذابِ عليهِمْ [﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أنْ يُرْسِلَ رسولاً][3] يُرْشِدُهُمْ.

[والثاني][4]: جائزٌ أنْ يكونوا أيقَنوا أنَّ أخبارَ السماءِ إنما انْقَطَعَتْ عنْ أهلِ الأرضِ بما يُرسِلُ إليهِمْ مِنَ الرسلِ[5]، فيكونُ الرسولُ، هو الذي يُخبِرُهُمْ بمالَهُمْ إليهِ مِنْ حاجةٍ، ولكنهمْ لم يَدْروا أنهُ أُريدَ بهمُ الرُّشْدُ بإرسالِ الرسولِ أم[6] الشَّرُّ، لأنهمْ كانوا عَلِموا أنَّ مَنْ آمَنَ بالرسولِ المَبْعوثِ، ونَظَرَ إليهِ بِعَينِ الإسْتِهْداءِ والإسْتِرْشادِ[7]، فقد رَشَدَ، ومَنْ نَظَرَ إليهِ بِعَينِ الإسْتِخْفافِ والإسْتِهْزاءِ اسْتُؤْصِلوا، فلم يَدْروا أيُكَذِّبونَ الرسولَ، فَيَحِلُّ بهمُ الهلاكُ في العاقبةِ أم[8] يُصَدِّقونَ، فَيَرْشُدوا بهِ.

وهذا تَبيينٌ أنَّ العواقبَ في الأشياءِ هيَ المَقْصودةُ، وأنَّ الحكيمَ ما يَفعَلُ مِنَ الأمرِ يَفْعَلُهُ للعواقبِ.

وفي هذا إبانَةٌ أنَّ الجِنَّ مِنَ المُسْلِمينَ، لم يكونوا مُعْتَزِلَةً؛ إذْ مِنْ قولِ المعتزلةِ أنَّ اللهَ تعالى لا يَفْعَلُ بِعبادِهِ إلّا ما هو أصلَحُ لهمْ في الدينِ والدنيا في حقِّهِمْ، والجِنُّ قد أيْقَنوا أنَّ اللهَ تعالى قد يريدُ الشَّرَّ لِمَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُؤْثِرُ فِعْلَ الشَّرِّ على فِعْلِ الخَيرِ، ويُريدُ الخَيرَ لِمَنْ يَعْلَمُ بأنهُ يُؤْثِرُهُ على فِعْلِ الشَّرِّ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ همُ المؤمنونَ، و﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ همُ الكافرونَ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ و﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ ليسَ على الإيمانِ والكُفْرِ، لأنَّ هذا قد ذُكِرَ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ بقولِهِ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾ [الآية: ١٤] ولو كانَ التأويلُ على ما ذَكَروا لكانَ يَقَعُ موقِعَ التَّكرارِ.

ولكنَّ تأويلَهُ عندَنا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي منا مَنْ عُرِفَ بالصَّلاحِ والسَّتْرِ ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ وهُمُ الفَسَقَةُ، فيكونُ فيهِ إبانةُ أنَّ كلَّ أهلِ دينٍ، فيهمُ الصالحُ المَرْضِيُّ، وفيهمُ الفاسِقُ المُفْسِدُ في دينِهِ، كقولِ[9] اللهِ تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾ [النور: ٣٢] ولو لم يكُنْ منّا غيرُ صالحٍ لم يكنْ لاشْتِراطِ الصالحينَ مَعْنًى، وكقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: ٢] فلو لم يكنْ منّا أهلُ فِسْقٍ لم يَقُلْ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ أي أهواءً مُتَفَرِّقَةً، ولم يَذْكُروا الأهواءَ[10] المُتَفَرِّقَةَ في الأصْلَحِ والأدْوَنِ، ذَكَروا ذلكَ عندَ ذِكْرِ الفاسِقِ والصالحِ، لأنَّ أهلَ الأهواءِ، كلٌّ [يَعْتَقِدُ][11] في نَفْسِهِ أنهُ، هو المُحِقُّ، وغَيرُهُ على الباطلِ، وأمّا الفاسِقُ فهو يَعْرِفُ أنهُ يَتَعاطى بِفِسْقِهِ ما لا يَحِلُّ لهُ، ويَرْتَكِبُ ما نُهِيَ عنهُ، وكذلكَ كلُّ مَنْ شاهدَ فِسْقَهُ يَعْرِفُ أنهُ على الباطلِ. فإذا[12] كانَ كذلكَ ظَهَرَ الدُّونُ فيهِ، وظَهَرَ الصالحُ، ولم يَظْهَرْ ذلكَ في اعْتِقادِ المذاهبِ، فلم يَتَكَلَّمْ فيهِ بالدُّونِ والصالحِ.

ثم الطرائِقُ، هي المَذاهِبُ والأهواءُ، والقِدَدُ القِطَعُ؛ يُقالُ: قَدَّهُ[13] أي قَطَعَهُ؛ فمعناهُ أنّا كُنّا على مذاهِبَ مُتَفَرِّقَةٍ وأهواءٍ مُتَشَتِّتَةٍ.

ففي[14] الآيةِ أنَّ في الجِنِّ أهواءً مُتَفَرِّقَةً كما أنَّ ذلكَ في الإنسِ.

والأصلُ أنَّ مَعْرِفَةَ المَذهبِ والدينِ بالفِكْرِ والإجْتِهادِ للتَّوَصُّلِ إلى الحَقِّ، والمجتهِدُ قد يُصيبُ الطريقَ مَرَّةً، ويَزيغُ عنهُ أُخْرَى. فَلِهذا[15] أصابَ البعضُ مِنَ الخلائقِ الطريقَ المُسْتَقيمَ، ومنهمْ مَنْ زاغَ عنهُ، ويُعْلَمُ بهذا أنَّ سَبيلَ الجِنِّ في التَّوحيدِ وسَبيلَ الإنسِ واحدٌ، وهو الفكرُ، ولهُ اجْتِهادٌ، وأنَّ فيهمْ آياتٍ مُتَشابِهَةً كما في الإنسِ إذْ عنِ المُتَشابِهِ يَتَوَلَّدُ الزَّيغُ. لِذلكَ تَفَرَّقوا في أهواءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وأمّا أسبابُ الفِسْقِ مُجْتَمِعَةً فَتُعْرَفُ بالمُعايَنَةِ، فَتَظْهَرُ الأدْوَنَ والأرفَعَ في الدينِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: الشر. (٣) في الأصل وم: أو أريد بهم أن يرسل رسول. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: الرسول. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: والإرشاد. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: في. (١٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ما.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ ذَكَرَ أبو بكرٍ أنهُ على كُفرِهِمْ ظَنُّوا ألّا يُعجِزوا اللهَ تعالى، ولكنَّ أكثرَ أهلِ التأويلِ ذَكَرَ أنَّ الظَّنَّ ههنا في مَوضعِ العِلْمِ، ويُؤَكِّدُ تأويلَهُمْ قراءةُ حفصةَ ﷺ فإنها كانتْ تَقرأُ: وأنّا عَلِمْنا أنْ لنْ نُعجِزَ اللهَ في الأرضِ فَرَرَةً، ولَنْ نَسْبِقَهُ هَرَباً.

فقولُهُ: ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لَنْ نَفوتَهُ، ولا يَتَهَيَّأُ لنا أنْ نُعجِزَ اللهَ بأهلِ الأرضِ عنْ إيصالِ نِقْمَتِهِ وعذابِهِ إلينا.

ويُخَرَّجُ قولُهُ ﴿هَرَبًا﴾[1] على ذلكَ، أي لو فَرَرْنا مِنْ عذابِهِ لن نُعجِزَهُ ألّا يُعذِّبَنا.

والفِرارُ قد يكونُ بدونِ الطَّلَبِ؛ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]. ولم يُرِدْ بهِ الفِرارَ مِنَ الطَّلَبِ.

وأمّا الهَرَبُ فإنهُ لا يكونُ إلّا عنْ طَلَبٍ؛ فكأنهمْ قالوا: لا يَتَهَيَّأُ لنا الفِرارُ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى لِكَثرةِ الأعوانِ والأنصارِ، ولا يُعجِزُ هَرَبُنا عنْ طَلَبٍ، أو يكونُ قولُهُ ﷻ: ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ وإنْ دَخَلْنا تحتَ تُخومِ الأرضينَ، ولنْ نُعجِزَهُ بالهربِ على وجهِ الأرضِ، فيكونُ فيهِ إقرارٌ بأنّا لا نَقدِرُ بالحِيَلِ والأسبابِ أنْ نَحترِزَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى كما يَتَهَيَّأُ الاحْتِرازُ منْ ملوكِ الأرضِ بالحِيَلِ والأسبابِ.

ثم مثلُ هذا الكلامِ يَصْدُرُ عنْ أهلِ الإسلامِ، لأنَّ مِثْلَ هذا الكلامِ إنما يَتَكَلَّمُ بهِ مَنْ يَخافُ نِقْمَةَ اللهِ تعالى عليهِ والذي أيقَنَ بالبعثِ، ويَذْكُرُ مُقامَهُ بينَ يَدَي رَبِّهِ.

وأمّا أهلُ الكُفرِ فلم يُؤمِنوا بالبعثِ حتى يَحمِلَهُمْ خَوفُ العاقبةِ على النَّظَرِ في مِثْلِ هذا.

فَثَبَتَ أنَّ هذهِ المَقالةَ صَدَرَتْ عنْ أهلِ الإسلامِ، ليسَ عنْ أهلِ الكُفرِ [كما ذَكَرَ][2] أبو بكرٍ الأصمُّ أنَّ هذهِ المَقالةَ صَدَرَتْ [عنهمْ][3] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فالهُدَى، هو الدعاءُ إلى الحقِّ، فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لمّا دُعينا إلى الحقِّ، وهو القرآنُ، آمَنّا بهِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠] وقولِهِ[4] تعالى في أوَّلِ السورةِ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾؟ [الجن: ٢].

ويجوزُ[5] أنْ يكونَ الهُدَى، هو الاهْتِداءُ، أي لمّا سَمِعْنا ما بهِ اهْتَدَينا.

وظَنَّ أبو بكرٍ الأصمُّ أنهمْ كانوا كَفَرَةً إلى أنْ سَمِعوا الهُدَى، فآمنوا بهِ؛ لأنهمْ[6] لو كانوا /٦٠٣ ـ أ/ على الهُدَى مِنْ قَبْلُ لَكانَ الإيمانُ منهمْ سابقاً، فلا يكونُ لِقولِهِ ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ وقد آمنوا بهِ مِنْ قَبْلُ، مَعنىً. وليسَ يَثْبُتُ كُفْرُهُمْ بما ذَكَرَ لأنهُ قد يَجوزُ أنْ يكونوا على الإيمانِ، فلمّا[7] سَمِعوا الهُدَى أحْدَثوا إيماناً بهذا الهُدَى على ما سَبَقَ منهمْ مِنَ الإيمانِ بالجملةِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وقولِهِ[8]: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؟ [الفتح: ٤] أي زادوا إيماناً لِتفسيرِ مَعَ ما سَبَقَ منهمْ مِنَ الإيمانِ بالجملةِ [لا][9] أنهمْ لم يكونوا مِنْ قَبْلُ مؤمنينَ، فأحْدَثوهُ للحالِ، وكذلكَ قولُهُمْ[10]: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] [وقد هُدُوا الصراطَ المُستقيمَ][11] ولكنهمْ يُريدونَ بهذا الدعاءِ: أنِ اهْدِنا بالإشارةِ إليهِ والتَّعيينِ الصِّراطَ المستقيمَ على ما هَدَيْتَنا في الجملةِ. فكذلكَ إحداثُهُمُ الإيمانَ بِما سَمِعوا مِنَ الهُدَى، لا يَنفي عنهمُ الإيمانُ في ما سَبَقَ مِنَ الأوقاتِ، بل يجوزُ أنْ يكونوا مؤمنينَ مِنْ قَبْلُ، ثم يُحْدِثوا[12] الإيمانَ بكلِّ أمرٍ يَجيئُهُمْ مِنْ عندِ اللهِ ﷻ ولا يَدُلُّ إيمانُهُمْ بهِ على أنهمْ لم يكونوا مِنْ قبلُ مُسْلِمينَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فررة. (٢) في نسخة الحرم المكي: كما ذكره، في الأصل وم: ذكره. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال الله. (٥) الواو ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: لأنه. (٧) في الأصل وم: فلا. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: يحدثون.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنهُ لا أحَدَ مِنْ أهلِ الإيمانِ مِنْ جِنّيٍّ ولا إنسِيٍّ يَخافُ البَخْسَ والرَّهَقَ مِنَ اللهِ تعالى إلّا المعتزلةَ؛ فإنهمْ يخافونَ ذلكَ لأنهم ليسوا يُخرِجونَ مُرْتَكِبي الكبائرِ، بل[1] يُطْلِقونَ القولَ فيهمْ: إنهمْ يُخَلَّدونَ في النارِ، وفي التَّخليدِ تَخويفُ البَخْسِ والرَّهَقِ، بل فيهِ ما يزيدُ على البَخْسِ، وهو النُّقصانُ، وفي التَّخليدِ ذهابُ مَنْفَعَةِ الإيمانِ ومَنْفَعَةِ الخيراتِ التي سَبَقَتْ منهمْ.

وقالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] والمعتزلةُ تَزْعُمُ أنهُ لو آخَذَهُمْ بالخَطَإِ والنِّسيانِ كانَ جائراً، وقالَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وهم يَزْعُمونَ أنهُ لو أزاغَ قلوبَهُمْ بَعدَ الهُدَى كانَ منهُ جَوراً وظُلْماً؛ فهمْ أبداً على خَوفٍ مِنْ جَورِ ربِّهِمْ، ونحنُ نقولُ: إنهُ لو آخَذَهُمْ بهِ كانَ يكونُ ذلكَ منهُ عَدْلاً، وإذا عَفا عنهمْ كانَ ذلكَ منهُ إنعاماً وإفضالاً.

فنحنُ ندعو اللهَ تعالى، ونَتَضَرَّعُ إليهِ ألّا يُعامِلَنا بِعَدْلِهِ، فَنَهْلِكَ، بل [ندعوهُ أنْ][2] يُعامِلَنا بالإفضالِ والإنعامِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: [مَنِ][3] ارتَكَبَ كبيرةً رُدَّتْ عليهِ حَسَناتُهُ، وصارَ عَدُوّاً للهِ تعالى [وخُلِّدَ][4] في النارِ أبَدَ الآبِدينَ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. وأولَى الحَسَناتِ التي تُسْتَوجَبُ عليها المُضاعفةُ، هي الإيمانُ باللهِ تعالى، فلا يجوزُ أنْ يُخَلَّدَ في النارِ، وتُذْهَبَ عنهُ مَنْفَعَةُ الإيمانِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: البَخْسُ النُّقصانُ، أي لا يُنْقَصُ مِنْ حَسَناتِهِ، والرَّهَقُ الظُّلْمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] ولا يُحْمَلُ عليهِ مِنْ سَيِّئاتٍ ارْتَكَبَها غَيرُهُ:

والثاني: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أي لا تُقْبَلُ حَسَناتُهُ إذا تابَ ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي يُظْلَمُ، فلا تُحْسَبُ لهُ حَسَناتُهُ شيئاً.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ فالقاسطُ الجائرُ العادلُ. ثم [في][5] العَدْلِ ثلاثُ لُغاتٍ؛ يُقالُ: عَدَلَ عنهُ إذا مالَ، وجارَ، وعَدَلَ بهِ إذا جَعَلَ [لهُ][6] شريكاً وعديلاً، وعَدَلَ فيهِ إذا حَكَمَ بالعَدْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ التَّحَرّي والتَّوَخّي، هو القصدُ؛ فكأنهُ يقولُ: قَصَدَ الرُّشْدَ بالإسلامِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: دلَّتِ الآيةُ على أنَّ لِلجِنِّ لَحْماً وَدَماً كما للإنسِ لأنهُ [قالَ في الإنسِ][7]: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤ والتحريم: ٦] فلو لم يكونوا لَحْماً وَدَماً لم يَصيروا لِجَهَنَّمَ حَطَباً.

ولكنَّ هذا لا يدُلُّ [على ذلكَ][8] لأنَّ اللحمَ مِنْ شَأنِهِ أنْ يَحْتَرِقَ، ويَنْتَضِجَ، ولا يَصْلُحُ أنْ يكونَ[9] وقوداً، ولكنَّ اللهَ تعالى باللطفِ صَيَّرَ لُحْمانَ الإنسِ وقوداً، ليسَ أنْ صارَ حَطَباً بما كانَ لَحْماً، فليسَ في الآيةِ دلالةُ ما ذَكَرَ، بل فيهِ أنَّ الجِنَّ امْتُحِنوا بالعبادةِ كما امْتُحِنَ بها الإنسُ، وأنهمْ إذا عَصَوا ربَّهُمُ اسْتَوجَبوا العقابَ مِثْلَ ما يَسْتَوجِبُهُ الإنسُ.

ثم ذُكِرَ عنْ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ قالَ: ليسَ للجنِّ ثوابٌ [وعَلَيهِمُ العقابُ إذا عَصَوا، ومَعْنَى قولِهِ: ليسَ لهمْ ثوابٌ][10] عندَنا: ليسَ يريدُ بهِ أنَّ اللهَ تعالى لا يَرْضَى عنهمْ إذا عَبَدوهُ، ولا تَعْظُمُ منزلَتُهُمْ عندَهُ، ولكنهُ يريدُ بهِ أنَّ الذي وَعَدَ للإنسِ مِنَ المَآكلِ والمَشارِبِ والأزواجِ الحِسانِ والحُورِ في الجنةِ على الخُلودِ، ليسَ لهمْ لأنَّ الوَعْدَ مِنَ اللهِ تعالى بها جَرَى للإنسِ، ولم يَجْرِ الوَعْدُ لِلجِنِّ، ولا ذُكِرَ ذلكَ في شيءٍ مِنَ القرآنِ.

---

(١) في الأص وم: ثم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يكونوا. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

والذي وَعَدَ بِهِ الإنسَ طريقةُ الإفضالِ والإنعام لا أنْ يكونَ ذلكَ حقًّا للإنسِ قِبَلَهُ.

فإذا لم يَجْرِ لهمُ الوَعْدُ بذلكَ لم يَجِبِ القولُ لهمْ بالموعودِ.

وأمّا العقابُ فإنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ التَّعْذيبَ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ، فلا يجوزُ أنْ تكونَ [الحِكْمَةُ][1] تُوجِبُ تَعْذيبَ الكَفَرَةِ، ثم لا يُعَذَّبُ الجنُّ إذا كَفَروا، ولِذلكَ وَجَبَ القولُ بِعقابِهِمْ، ولم يَجِبِ القولُ بالثوابِ، واللهُ الموفقُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

فمنهمْ مَنْ قالَ: طريقةُ الهُدَى، ومنهمْ مَنْ قالَ: طريقةُ الكُفْرِ.

فَمَنْ قالَ: المُرادُ، هو طريقةُ الهُدَى، قالَ: إنَّ الطريقة المَعْروفةَ المَعْهودةَ، هي طريقُ اللهِ تعالى، فعندَ الإطلاقِ تَنْصَرِفُ إليهِ كالدينِ متى ذُكِرَ مُطْلَقاً يَنْصَرِفُ إلى دينِ الحقِّ، وكذلكَ السبيلُ المُطْلَقُ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وهو الإسلامُ. ثم يُخَرَّجُ هذا على وجوهٍ:

أحَدُها: يَنْصَرِفُ إلى الكَفَرَةِ أنهمْ لَوِ اسْتَقاموا على الطريقةِ، أي لو أجابوا إلى ما يُدْعَوْنَ إليهِ مِنَ الهُدَى ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي وَسَّعْنا عليهِمْ، وكَثَّرْنا أموالَهُمْ، ويكونُ ذِكْرُ الماءِ ههنا كِنايةً عنِ السَّعَةِ، لأنَّ سَعَةَ الدنيا كلِّها، تَتَّصِلُ بالماءِ، والماءَ أصلُها. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فأخبَرَ أنَّ رِزْقَ الخَلْقِ مِنَ السماءِ ماءً، وهو المطرُ، وجَعَلَ ذلكَ رِزْقاً؛ إذْ هو أصلُ رِزْقِ الخَلْقِ، فكذلكَ ذَكَرَ الماءَ ههنا كنايةً عنِ السَّعَةِ مِنَ الوجْهِ الذي ذَكَرْنا.

فإنْ كانَ على هذا فيكونُ الخِطابُ راجعاً إلى الوقْتِ الذي كانوا ابْتُلُوا فيهِ بالقَحْطِ والسِّنينَ، فَوَعَدَ لهمْ أنهمْ لو أجابوا إلى ما دُعُوا إليهِ لَرَفَعَ عنهمُ القَحْطَ والسِّنينَ، ولَوَسَّعَ عليهِمْ في الرِّزْقِ، وهو كقولِ[2] نوحٍ وهودٍ وغَيرِهما وَوَعْدِهِمْ أقوامَهُمْ[3] بإرسالِ الأمطارِ وتَكْثيرِ الأموالِ والأولادِ [ونحوِ ذلكَ][4].

ويجوزُ أنْ يكونَ هذا في أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فإنهمْ كانوا في أوّلِ الإسلامِ في ضِيقِ الحالِ وشِدَّةٍ مِنَ العيشِ، وكانوا يَتَفَرَّقونَ في الشِّعابِ والأوديةِ [لِشِدَّةِ][5] ما حَلَّ بهمْ مِنَ الجوعِ لِيُصيبوا مِنْ عَيشِها، وعندَ اشْتِدادِ الحالِ تَخافُ النفسُ مِنْ هَولِها[6] والتَّبديلِ، فَوُعِدُوا السَّعَةَ في العيشِ ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ التي كانوا هُمْ عليها، أي داموا عليها، ولم يُبَدِّلوا الدينَ الحقَّ والهُدَى بالباطلِ كما وَعَدَ لهمُ النَّصْرَ والظَّفَرَ على الأعداءِ مَعَ قِلَّةِ أنصارِهِمْ، إنْ داموا على الإسلامِ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ بعضُهُمْ: إنَّ تأويلَ قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي لو أسْلَمَ أهلُ الأرضِ كلُّهُمْ جميعاً لَوَسَّعْنا عليهِمُ الدنيا، وكَثَّرْنا أموالَهُمْ وأولادَهُمْ، حتى يُفْتَتَنوا فيها، فَيُمْتَحَنوا بِمِحَنٍ شديدةٍ، فَيَتَحَمَّلَ البعضُ منهمْ، فَيَبْقَوا مؤمنينَ، ولا يَتَحَمَّلَ البعضُ، فَيُفْتَتَنوا، ويَعودوا إلى ما كانوا عليهِ مِنَ الكُفْرِ حتى لا يَقَعَ / ٦٠٣ ـ ب/ الخُلْفُ في وَعْدِنا، فإنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ أنْ يَمْلأَ جهنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجْمَعينَ، ولا يجوزُ أنْ يَقَعَ في وَعيدِهِ خُلْفٌ، وهُمْ لوِ اسْتَقاموا على الطريقةِ، ولم يَبْغُوا أدّى ذلكَ إلى خُلْفِ الوعيدِ [لا أنْ][7] يَمْلأَ إذا داموا على الطريقةِ، ولم يَبْغُوا، وتكونُ الحكمةُ في بَغْيِهِمْ أنْ يَعْرِفَ الخَلْقُ أنَّ اللهَ تعالى، لم يَخْلُقْهُمْ لِمَنافِعَ، تَحْصُلُ لهُ، ولكنْ خَلَقَهُمْ لأنفسِهِمْ: إنْ أحْسَنوا أحْسَنوا لأنفسِهِمْ، وإنْ أساؤوا فَعَلَيهِمْ، ولو أبقاهُمْ على الطريقةِ المُسْتَقيمةِ، وظَهَرَتِ المُوالاةُ في الجملةِ لَكانَ يَسْبِقُ إلى الأوهامِ أنهُ إنما خَلَقَهُمْ لِمَنافِعِ نفسِهِ.

وهذا مِنَ اللهِ تعالى بَيانُ عِلْمِهِ بما لا يكونُ: أنْ لو كانَ، كيفَ يكونُ أنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ الإيمانَ مِنَ البعضِ والكُفْرَ مِنَ البعضِ لِلحِكْمَةِ التي ذَكَرْنا وغَيرِها مِمّا لا يَقِفُ على بعضِها الخَلْقُ دونَ البعضِ، وحَكَمَ كذلكَ [الحُكْمَ][8]؟

ثم أخْبَرَ أنهُ لو حَكَمَ بأنْ يَسْتَقيمَ الكُلُّ على طريقةِ الحقِّ، ويُؤْمِنوا، لم يَحْكُمْ على طريقِ الأبدِ في حقٍّ، بل حكمُهُ أنْ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قول. (٣) في الأصل وم: قومهم. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أهلها. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لأنه. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَسْتقيمَ عليها البعضُ إلى مدةٍ، ثم يَترُكَ، ويُبَدِّلَ الحقَّ بالباطِلِ، ويدومَ البعضُ عليها تحقيقاً لِما ذَكَرْنا مِنَ الحُكْمِ، وهو كقولِهِ: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي لو [لم][1] يُفْرَضْ عليهِمُ الجهادُ والخُروجُ إلى القتالِ لَبرزَ الذينَ كُتِبَ عليهمُ القَتلُ، ومُنتَهَى آجالِهِم القتلُ، إلى حَوائجِ أنفسِهِمْ، فَيُقتَلونَ[2] منهُ [بياناً لِحُكْمِهِ][3] الذي يَحْكُمُ أنهُ لو حَكَمَ كيفَ كانَ؟ فكذا هذا.

وأمّا مَنْ قالَ: مَعْناهُ طريقةُ الكُفرِ فهو أنْ يكونَ المُرادُ بالإسْتِقامةِ ههنا الإقامةُ، ولَفْظةُ الإقامةِ يُعَبَّرُ بها عنِ الإقامةِ على الكُفرِ والإسلامِ جميعاً، وتكونَ الطريقةُ ههنا إشارةً إلى الطريقةِ التي كانوا عَرَفوها قبلَ الإسلامِ، وهي الكُفرُ.

وإنْ كانَتِ الطريقةُ إذا أُطْلِقَ ذِكْرُها أُريدَ بها طريقةُ الهُدَى، لأنَّ طريقةَ الكُفرِ، هي التي كانَتْ معروفةً في ما بَينَهُمْ، وكذلكَ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الطريقةَ ههنا طريقةُ الكُفرِ، فقولُهُ تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي وَسَّعْنا عليهِمْ، وكَثَّرْنا أموالَهُمْ، لِيَعْلَموا جُودَ رَبِّهِمْ كيفَ بَسَطَ عليهِمُ الرزقَ معَ اختيارِهِمْ عداوَتَهُ كما بَسَطَ على أوليائِهِ، ولِيَعْلَموا حِلْمَهُ حينَ[4] لم يُؤاخِذْهُمْ بذنوبِهِمْ، ولم يُعَجِّلْ بإنزالِ النِّقْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فالفِتْنةُ المِحْنةُ التي فيها الشِّدَّةُ؛ فإنْ كانَ هذا في أهلِ الكُفرِ ففي بَسْطِ [الرِّزْقِ][5] عليهِمْ مِحنةٌ شديدةٌ لأنَّ ذلكَ يَمْنَعُهُمْ عنِ الخضوعِ والإنْقيادِ لِرسولِ اللهِ ﷺ لِما يَرَونَ[6] مِنَ الفَضْلِ على مَنْ دونَهُمْ في المالِ والسَّعةِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤] [وقولِهِ تعالى][7]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾؟ [الأنعام: ١٢٣].

وإنْ كانَ التأويلُ مُنْصَرِفاً إلى أهلِ الإسلامِ ففي التَّوسيعِ عليهِمْ مِحْنةٌ شديدةٌ، وكذلكَ جميعُ ما امْتُحِنّا بِهِ، فيهِ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] فما مِنْ حالٍ تَعْتَرِضُ الإنسانَ إلا ولَهُ[8] فيها شِدَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ: ومَنْ يُعْرِضْ عنْ طاعةِ رَبِّهِ وعبادتِهِ، أو يُعْرِضْ عنْ توحيدِهِ، أو يُعْرِضْ عنِ القرآنِ، إذْ هو الذِّكْرُ[9]، والإعراضُ ههنا عبارةٌ عنِ الإيثارِ والإختيارِ، أي مَنْ يَختَرْ غيرَ ذِكْرِ اللهِ تعالى على ما ذَكَرَهُ أو طاعةَ غيرِهِ على طاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ على التَّحقيقِ كما ذَكَرَهُ أهلُ التَّفسيرِ أنهم يُكَلَّفونَ الصُّعودَ على جَبَلٍ مِنْ نارٍ، لا يَقْدِرونَ إلّا بَعدَ شِدَّةٍ عظيمةٍ، ثم إذا بَلَغوا أعلاها يُهْوَوْنَ فيها. فذلكَ دأبُهُمْ. وجائزٌ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ، وذلكَ لأنَّ الصُّعودَ أشدُّ مِنَ الهُبوطِ، فيكونُ الصُّعودُ عبارةً عنِ المَشَقَّةِ ههنا: أنْ يَستَقبِلَهُ ما يَشُقُّ عليهِ.

وقيلَ: المَشَقَّةُ التي عليهِ، هي[10] ما يَحُلُّ بِهِ مِنَ العذابِ مُتَتابِعاً عذاباً بَعْدَ عذابٍ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الصُّعودُ المَشَقَّةُ، يُقالُ: يَصْعَدُ عليَّ هذا الأمرُ يَشُقُّ عليَّ.

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: ما يَصْعَدُني أمرُ مايَصْعَدُني خِطْبَةُ النِّكاحِ، أي ما يَشُقُّ عليَّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي ما يُسْجَدُ فيهِ وما يُسْجَدُ بهِ: فما يُسْجَدُ فيهِ، هي[11] البِقاعُ، وما يُسْجَدُ به، هيَ[12] الجوارحُ؛ فكأنهُ يقولُ: إنَّ البقاعَ التي يُسْجَدُ فيها، والأعضاءَ التي يُسْجَدُ بها، للهِ تعالى، لأنهُ، هو الذي خَلَقَها، وأنشأَها، والمَساجِدَ التي بُنِيَتْ فإنما تُبْنَى لِعبادةِ اللهِ تعالى ولِيُدْعَى فيها، فلا تُشْرِكوا غيرَهُ في العبادةِ والدعاءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بالمَساجِدِ المَسْجِدَ[13] الحرامَ؛ رُوِيَ ذلكَ عنِ الضَّحّاكِ وغيرِهِ، فكأنهُ إنما صَرَفَ التأويلَ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ لأنَّ هذهِ السورةَ مكيةٌ، ولم يكُنْ في غيرِها مِنَ البِقاعِ مَساجدُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فيقتلوا. (٣) من م، في الأصل: بيان الحكمة. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يروا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: ولها. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: هو. (١١) في الأصل وم: هو. (١٢) في الأصل وم: هو. (١٣) في الأصل وم: مسجد.

وقالَ بعضُهُمْ: المَساجدُ ههنا البِيَعُ والكنائِسُ لأنَّ البِيَعَ والكنائِسَ بُنِيَتْ لِيُعْبَدَ اللهُ تعالى فيها، فَنَهاهُمْ أنْ يَعْبُدوا فيها غَيرَ اللهِ، فَيُخَرَّجُ هذا مُخْرَجَ الاحتِجاجِ: أنكمْ قد عَلِمْتُمْ أنَّ المساجدَ بُنِيَتْ لِتَعْبُدوا اللهَ فيها فلا تَعْبُدوا فيها غَيرَهُ.

وإذا كانَ اللهُ مُنْشِئَها وخالِقَها دونَ غَيرِهِ فكيفَ تُشرِكونَ معهُ غَيرَهُ في العبادةِ والدعاءِ، وليسَ هو بِمُنْشِئٍ لها؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ على الدعاءِ نفسِهِ، فيكونُ مَعْناهُ ألّا تَدْعوا مَعَ اللهِ أحداً لأنَّ الإلهَ اسْمُ المَعْبودِ؛ كانَ القومُ إذا عَبَدوا شيئاً سَمَّوهُ إلهاً، فيقولُ: لا تَدْعوا معهُ أحداً إلهاً، فإنهُ هو الإلهُ، وهو المُسْتَحِقُّ للعبادةِ مِنْ كلِّ أحدٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالدعاءِ العبادةُ؛ قالَ ﷺ: «الدعاءُ مُخُّ العبادةِ» [الترمذي: ٣٣٧١].

وقالَ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فَجَعَلَ دُعاءَهُمْ إيّاهُ عِبادةً منهمْ لهُ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي لا تُشْرِكوا غَيرَهُ مَعَهُ في العِبادةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنهمْ ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ على جهةِ الرَّغبةِ فيهِ ومُوالاتِهِمْ لهُ؛ فقولُهُ تعالى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي كادَ يَلْتَصِقُ بعضُهُمْ بِبَعْضٍ[1] لِيَتَّصِلوا برسولِ اللهِ ﷺ أو ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي على رسولِ اللهِ ﷺ كادوا يَلْتَصِقونَ بهِ حُبّاً لِما سَمِعوا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ حِرْصاً على حَفْظِ ما سَمِعوا لأنهمْ كانوا مِنْ مُنْذِري الجنِّ، فَحَرَصوا على حِفْظِهِ وَوَعْيِهِ لِيُنْذِروا قومَهُمْ إذا رَجَعوا إليهِمْ، وتَعَجَّبوا مِمّا سَمِعوا لأنهمْ سَمِعوهُ مِنْ مكانٍ لم يَكُنْ مكانَ قراءةِ الكتبِ، وسَمِعوهُ[2] مِنَ الأُمِّيِّ الذي لم يَقْرأْ كتاباً قَطُّ، ولا عَرَفَ المَكْتوبَ، فَتَعَجَّبوا منهُ أشَدَّ التَّعَجُّبِ. واللِّبَدُ الْتِصاقُ الشيءِ بالشيءِ الْتِصاقاً لا يُفْصَلُ بعضُهُ مِنْ بعضٍ، وسُمِّيَ اللِّبْدُ لِبْداً مِنْ هذا لأنَّ الصوفَ يَلْتَصِقُ بعضُهُ بِبَعْضٍ[3] حتى لا يُسْرَدُ[4]. ومنهم مَنْ زَعَمَ أنهمْ فَعَلوا هذا لِشِدَّةِ مُعاداتِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ فيكونُ على هذا مُنْصَرِفاً إلى الكَفَرةِ.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ فَمعناهُ / ٦٠٤ ـ أ/ أي لمّا قامَ محمدٌ ﷺ يُوَحِّدُ اللهَ تعالى، ويَدْعو الخَلْقَ إلى عبادتِهِ وطاعتِهِ، هَمَّ المشركونَ مِنَ الإنسِ والجنِّ، وتَلَبَّدوا على هذا الأمرِ أنْ يُطْفِئوهُ، فأبى اللهُ إلّا أنْ يَنْصُرَهُ، ويُمْضِيَهُ.

وإنْ كانَ هذا مِنْ أهلِ الإسلامِ مِنَ الجنِّ، والدعاءُ راجعٌ إلى العبادةِ، فكأنهُ يقولُ: لمّا قامَ بعبادةِ اللهِ تعالى، وهي الصلاةُ ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ لِشِدَّةِ حِرْصِهِمْ في تَحَفُّظِ ما سَمِعوا وشِدَّةِ حبِّهِمْ لِرسولِ اللهِ ﷺ ولِما سَمِعوا.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ففيهِ إخبارٌ عنْ دينِهِ أنَّ دينَهُ التَّوحيدُ: لا إشراكَ باللهِ تعالى، وإخبارٌ عمّا يَدْعو الخَلْقَ إليهِ؛ وذلكَ تَوحيدُ اللهِ تعالى والقيامُ بِطاعتِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على إثْرِ سُؤالٍ منهُمْ ودَعْوتِهِمْ إلى عبادةِ الأصنامِ على ما ذُكِرَ في الأخبارِ أنهمْ قالوا: إنّا نَعْبُدُ إلهَكَ يوماً، وتَعْبُدُ آلِهَتَنا يوماً، وهو كقولِهِ ﷺ: ﴿۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ الآية [غافر: ٤١و٤٢].

وجائزٌ أنْ يكونَ كلاماً مُبْتَدَأً: يُؤْيِسُهُمْ، ويُقْنِطُهُمْ، ويَقْطَعُ طَمَعَهُمْ على عَودِهِ إلى ما هُمْ عليهِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي ضَرًّا في الدينِ ورَشَداً في الدينِ.

والأصلُ في الأسماءِ المُشتركةِ أنْ يُنْظَرَ إلى [مُقابِلِها، فَيَظْهَرَ[5] مُرادُها بما يُقابِلُها كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] والقاسِطُ الجائرُ، وقد يكونُ غَيرُ الكافِرِ جائراً، ثم صُرِفَ الجَورُ إلى الكُفْرِ، فَيَظْهَرُ مُرادُهُ بِمُقابِلِهِ][6] وهو قولُهُ: ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: إلى بعض. (٢) في الأصل وم: وسمعوا. (٣) في الأصل وم: من بعض. (٤) في الأصل وم: يسر. (٥) في م: فينظر. (٦) من م، في الأصل: مقابله.

والضَّرُّ قد يكونُ في الدينِ وفي المالِ والنفسِ، ولكنهُ لمّا ذَكَرَ قولَهُ: ﴿رَشَدًا﴾ والرُّشْدُ يُتَكَلَّمُ بهِ في الدينِ، عُلِمَ أنَّ قولَهُ: ﴿ضَرًّا﴾ راجعٌ إليهِ أيضاً؛ فكأنهُ يقولُ: لا أملكُ إضلالَكُمْ ولا رُشْدَكُمْ، إنما ذلكَ إلى اللهِ تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الآية [فاطر: ٨].

والمعتزلةُ تَزْعُمُ أنَّ اللهَ تعالى، لا يَمْلِكُ رَشَدَ أحدٍ ولا غَيَّهُ، بل[1] رسولُ اللهِ ﷺ أكبرُ مُلكاً، لأنهُ يملِكُ أنْ يَدْعُوَ الخَلْقَ إلى الهُدَى بنفسِهِ، واللهُ تعالى لا يَمْلِكُ ذلكَ إلّا برسولِهِ. وقالَ ﷻ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٢] وقالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولو كانَ المُرادُ مِنَ الهدايةِ المُضافةِ إلى اللهِ تعالى الدعوةَ والبيانَ لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يهديهِمْ، لأنهُ داعٍ ومُبَيِّنٌ. فَثَبَتَ أنَّ في الهدايةِ مِنَ اللهِ تعالى لُطفاً لا يَبْلُغُهُ تَدْبيرُ البَشَرِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ فكأنهمْ طَلَبوا منهُ تَرْكَ تبليغِ الرسالةِ إلى قومٍ أو كِتْمانَ شيءٍ مِمّا أُمِرَ بإظهارِهِ أو مُحاباةَ أحدٍ مِنَ الأجِلَّةِ، فأمَرَهُ أنْ يُخْبِرَهُمْ أنهُ لا يُجيرُهُ أحدٌ مِنَ اللهِ تعالى، لا يَجِدُ لنفسِهِ مَلْجأً إنْ فَعَلَ ذلكَ سِوَى أنْ يُبَلِّغَ رسالاتِ ربِّهِ، فَيُجيرُهُ مِنْ عذابِهِ، فيكونَ لهُ عندهُ مَلْجأً.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ اسْتِثْناءٌ مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي إني لا أمْلِكُ لكُمْ هدايتَكُمْ وإضلالَكُمْ إلّا ما كُلِّفْتُ لأجلِكُمْ مِنْ تَبْليغِ الرسالةِ.

ومنهمْ مَنْ جَعَلَ هذا اسْتِثْناءً مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ إنْ عَدَلْتُ عنْ أمْرِهِ، ولم[2] أُبَلِّغِ الرسالةَ، فلا يُجيرُني مِنْ عذابِهِ إلا أنْ أبَلِّغَ الرسالةَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وقالَ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] لأنهُ لا يجوزُ أنْ تَقَعَ لهُ الحاجةُ [إلى الإجارةِ][3] مِن عذابِ اللهِ، ولم يَلُحْ[4] منهُ تَقْصيرٌ ولا تَضْييعٌ، يَسْتَوجِبُ بهِ العقابَ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يُمكِنَ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّقْصيرِ في التَّبْليغِ والعُدولِ عمّا كُلِّفَ حتى يَسْتَقيمَ ذِكْرُ الإجارةِ فيهِ.

وذَكَرَ أبو معاذٍ صاحبُ التَّفْسيرِ أنَّ الاسْتِثْناءَ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] ليسَ إلى قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: ٢٢] واسْتَدَلَّ على ذلكَ بقراءةِ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ كانَ يَقرأ: قُلْ إني لا أمْلِكُ لكمْ غَيّاً ولا رَشَداً إلّا بلاغاً مِنَ اللهِ.

وليسَ في ما ذَكَرْنا قَطْعُ الاسْتِثْناءِ على قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرَ. ولأنَّ أكْثَرَ أهلِ التأويلِ أجْمَعوا على صَرْفِ الاسْتِثْناءِ إلى قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ فلا يجوزُ أنْ يُحَمَّلَ قولُهُمْ على الخَطَإِ لِما ذَكَرَهُ أبو معاذٍ. ولِما ذهبوا إليهِ وجهُ الصِّحَّةِ والسَّدادِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ البلاغُ والرسالةُ واحداً، فيكونُ الذي يُبَلِّغُ ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ ويكونُ ذلكَ على التكرارِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ٤٨] قيلَ: إنهما واحدٌ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الرسالةُ نفسَ ما أنْزَلَ اللهُ، وهو الكتابُ، والبلاغُ ما أودَعَ فيهِ مِنَ الحِكْمَةِ والمَعاني.

وكذلكَ قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فالكتابُ هو المُنْزَلُ نفسُهُ، والحِكْمَةُ ما تَضَمَّنَ فيهِ مِنَ المَعاني.

وجائزٌ أنْ يكونَ البلاغُ مِنَ اللهِ تعالى مُنْصَرِفاً إلى حِكَمِهِ ورسالاتِهِ إلى خَبَرِهِ[5]، أو تكونَ رسالاتُهُ حِكْمَهُ والبلاغُ خَبَرَهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ أخبارُهُ ﴿وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أو ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حقَّ اللهِ عليهِمْ ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ بما بهِ مصالِحُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: يا. (٢) من م، في الأصل وم: ولن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في م: يقع. (٥) في الأصل وم: غيره.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ قالوا: لا مَلْجَأَ ومَآلَ ومَوضِعَ، يُمالُ إليهِ، والالتِحادُ الإمالةُ، سُمِّيَ اللَّحْدُ لَحْداً مِنْ هذهِ لأنهُ يمالُ عنْ سَنَنِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ كقولِهِ[1] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقولِهِ[2]: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] وكلُّ مَنِ ارْتَكَبَ المآثِمَ فقد دَخَلَ في حَدِّ العَصْيانِ وإيذاءِ الرسولِ.

ولكنَّ المُرادَ هَهنا: مَنْ يَعْتَقِدُ عِصْيانَ الرسولِ وأذاهُ لأنَّ الله تعالى أضافَ الأذى والعِصْيانَ إلى نفسِهِ، ولا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ أذى اللهِ تعالى، واللهُ ﷻ لا يُؤْذَى، ولكنْ أضافَ أذى الرسولِ وعِصْيانَهُ إلى نفسِهِ، وقد كانوا يَعْتَقِدونَ عِصْيانَهُ وأذاهُ، فَجَعَلَ عِصْيانَهُمْ وأذاهُمْ لرسولِهِ أذىً منهمْ للهِ تعالى وعِصْياناً لهُ، فَثَبَتَ أنَّ هذا في الاعْتِقادِ.

وقالَ ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقالَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] فَجَعَلَ طاعةَ الرسولِ طاعةً لهُ وعِصْيانَ رسولِهِ عِصياناً لهُ، ولأنهُ ذَكَرَ العصيانَ على [إثْرِ][3] تبليغِ الرسالةِ ثَبَتَ[4] أنَّ العِصْيانَ هَهنا في تَرْكِ القَبولِ بما أُنْزِلَ على الرسولِ وفي اعْتِقادِ العِصْيانِ لهُ.

ورُوِيَ عنْ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ قالَ: مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى، ولم يُؤْمِنْ برسولِهِ فهو ليسَ بمؤمنٍ لأنَّ جَهْلَهُ باللهِ تعالى، هو الذي حَمَلَهُ على تَكْذيبِ الرسولِ، لأنَّ الرسولَ ليسَ يَدْعو إلّا إلى ما يُقَرِّبُهُ إلى اللهِ تعالى وإلى ما يُنْجيهِ مِنْ عذابِهِ. فلو كانَ يُحِبُّ اللهَ تعالى، ويُؤْمِنُ بهِ، لكانَ يدعوهُ ذلكَ إلى حبِّ الرسولِ وإلى طاعتِهِ. فَثَبَتَ أنَّ المُكَذِّبَ للرسولِ جاهلٌ بربِّهِ، والمُطيعَ لهُ مطيعٌ للهِ ﷻ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا/ ٦٠٤ ـ ب/ رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ كقولِهِ[5] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في الدنيا والآخِرَةِ جميعاً، ويكونَ ذلكَ راجعاً [إلى][6] يومِ بدرٍ كما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ، إذْ قد ظَهَرَ في ذلكَ اليومِ أنهمْ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أو أضْعَفُ ناصراً.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا في الآخِرَةِ، فإنهمْ يَعْلَمونَ أنهمْ أقلُّ عَدَداً في الآخِرَةِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهمْ يَتَبَرَّأُ مِنْ صاحِبِهِ وناصِرِهِ ومُعينِهِ في الدنيا، ويَصيرُ عَدُوّاً لهُ، فَيَقِلُّ عَدَدُهُمْ، وأمّا في يومِ بَدْرٍ فقد كانوا أكْثَرَ عَدَداً مِنَ المُسْلِمينَ، فلم يُبَيِّنْ لهمْ أنهمْ أقَلُّ في العَدَدِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ يومُ بَدْرٍ يكونُ المسلمونَ أكْثَرَ عَدَداً لأنَّ اللهَ تعالى أمَدَّ المُسْلِمينَ بِملائكتِهِ، فصارَ عَدَدُهُمْ أكْثَرَ في التَّحْقيقِ، وإنْ كانَتِ الكَفَرَةُ في رَأيِ [العَيْنِ][7] أكْثَرَ منهمْ عَدَداً.

ثم يُشْبِهُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ نزلَتْ على إثْرِ تَخويفِ الكَفَرَةِ رسولَ اللهِ ﷺ بكثرةِ عَدَدِهِمْ وقوتِهِمْ في أنفسِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِ المسلمينَ، فَوَعَدَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ بالنَّصْرِ وكثرَةِ العَدَدِ عندَ وقوعِ الحاجةِ إليها، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ فهذا ذَكَرَهُ عندَ ذِكْرِ الوعيدِ، وهو قولُهُ: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الآية: ٢٤] فكأنهمْ سألوهُ: متى تَوَقَّعْتَ هذا الوعيدَ؟ فأُمِرَ أنْ يقولَ: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾.

قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ أنْ ليسَ في بَيانِ وقْتِ الوعيدِ فَضْلٌ يَقَعُ في الوعيدِ، بل إذا لم يُبَيِّنْ وقْتَ الوعيدِ كانَ فيهِ فَضْلُ تَخويفٍ وتَحْذيرٍ، لا يوجَدُ في ما يُبَيِّنُ، لأنهُ إذا بَيَّنَ؛ فإنْ كانَ فيهِ أَمَدٌ سَوَّفَ الناسُ، وأخّروا التوبةَ لِما أَمِنوا

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فثبت. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم.

حُلولَ النِّقْمَةِ بهمْ إلى مَجيءِ ذلكَ اليوم، وإذا لم يُمْهَلوا صاروا إلى الإياسِ، فَيَرْتَفِعَ الخوفُ والرجاءُ، وفيهِ ارتفاعُ المِحْنةِ في الأصلِ بالعملِ على الرجاءِ والخوفِ.

ولأنهُ إذا لم يُبيِّنْ كانوا على الحذرِ والخوفِ، فَيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على التَّسارُعِ في الخيراتِ والانْقِلاعِ عنِ المَساوِئِ، أمَرَهُ[1] أنْ يقولَ هذا [لأنَّ الذي][2] يقولُ هذا عالمٌ بالوقتِ الذي يَقَعُ فيهِ الوعيدُ.

الآيتان ٢٦ و٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الأصلُ [في ما][3] غَيَّبَ اللهُ عنِ الخَلْقِ أنهُ على مَنازِلَ ثلاثةٍ:

أحدُها: قد أعْجَزَ الخَلْقَ عنِ احْتِمالِ الوقوفِ عليهِ بالخِلْقَةِ نَحْوِ الكِياناتِ التي هي أصولُ الأشياءِ؛ لو أرادَ أحدٌ أنْ يَعْرِفَ المَعْنَى الذي صَلَحَ أنْ يكونَ كِياناً لم يَقِفْ عليهِ، ونَحْوِ الماءِ [الذي][4] جَعَلَ حياةً لكلِّ شيءٍ، ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَتَعَرَّفَ المَعْنَى الذي بهِ يَصْلُحُ أنْ يَجْعَلَ حياةً لم يَقِفْ عليهِ. وكذلكَ هذا في كلِّ ما جَعَلَ كِياناً موجوداً.

والثاني: ما مَكَّنَ مَعْرِفَتَهُ وبُلوغَهُ إليهِ بالتأمُّلِ والنَّظَرِ بدونِ معرفةِ السَّمْعِ والأثَرِ نَحْوَ مَعْرِفَةِ الصانعِ ومَعْرِفَةِ وحدانيَّتِهِ.

والثالثُ: هو الذي لم يُعْجِزْهُمْ عنْ إدراكِهِ، ولا مَكَّنَهُمْ مِنَ الوقوفِ عليهِ دونَ خَبَرٍ يَرِدُ. فقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ في هذا والذي مُكِّنوا فيهِ. لكنهُمْ لا يَبْلُغونَهُ إلّا بِمَعونةِ الخَبَرِ؛ وذلكَ نَحْوُ الأشياءِ التي تَرجِعُ إلى مَصالِحِ الخَلْقِ والتي تُوصِلُ إلى مَصالِحِ الأغذيةِ ممّا ظَهَرَ بَيْنَ الخَلْقِ، ولكنها لا تُعْرَفُ إلّا بالسماعِ مِمَّنْ لهُ عِلْمٌ مِنَ الخَلْقِ وانْتِشارِهِ فيهِمْ، وهو بحيثُ لا يَحْتَمِلُ إدراكَهُ بالنظرِ، فَبَيَّنَ أنَّ ذلكَ بالرسولِ. ومتى وُجِدَ ذلكَ مِنْ شَخْصٍ مُشارٍ إليهِ دلَّ ذلكَ على الاخْتِصاصِ لهُ بالرسالةِ.

ثم ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ في هذهِ الآيةِ دلالةَ تكذيبِ المُنَجِّمَةِ، وليسَ كذلكَ لأنَّ فيهِمْ مَنْ يُصَدَّقُ خَبَرُهُ، ويَعْرِفُ المَطالِعَ والمَغارِبَ والمَشارِقَ والكواكِبَ التي بها يَتوالدُ الخَلْقُ والتي يَقَعُ عندَها التَّغَيُّرُ والتَّبَدُّلُ، وذلكَ ممّا لا يُوقَفُ على عِلْمِهِ بالتأمُّلِ والتَّدَبُّرِ، وكذلكَ المُطَبِّبَةُ منهمْ مَنْ يَعْرِفُ طبائعَ النباتِ أنها تَصْلُحُ لِكذا، وهذا يَصْلُحُ لكذا، فَتَقَعُ بهِ المصالِحُ لِلْخَلْقِ.

ومعلومٌ[5] أنَّ هذا منْ نوعِ ما لا يُدْرَكُ بالتأمُّلِ والنَّظَرِ، فَعُلِمَ أنهمْ وَقَفوا على عِلْمِهِ مِنْ جِهَةِ رسولٍ انْقَطَعَ أثَرُهُ، وبَقِيَ عِلْمُهُ في الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي اختارَهُ، واصْطَفاهُ.

والأصلُ أنَّ الرسالةَ تُلْزِمُ خَلْقَ الشهادةِ لهُ بالصدقِ في كلِّ خَبَرٍ وبالعَدْلِ في كلِّ حكمٍ لِقولِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] وبالإصابةِ في كلِّ أمرٍ في ما لم يبلُغْ مَبْلَغاً يُوجِبُ الأمرَ، فهو لا يَخْتَصُّهُ للرسالةِ.

وفي الاخْتِصاصِ نِعْمةٌ عظيمةٌ على الخَلْقِ؛ إذْ بهِ وَصَلَ الخَلْقُ إلى تَعَرُّفِ ما تُبَلِّغُهُمْ إليهِ الحاجةُ في أمرِ مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ ودينِهِمْ ودُنياهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ قيلَ: رَصَداً مِنْ بَينِ يَدَي الرسولِ ومِنْ خَلْفِهِ مِنَ الملائكةِ لِيَمْنَعَ الإنسَ عنِ الرسلِ في مَنْعِهِمْ عنِ التَّبليغِ حتى يُبَلِّغوا. ذُكِرَ هذا عنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ، رَحِمَهُ اللهُ، وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. إنَّ إحاطَتَهُ هي أنْ يَعْصِمَهُ مِنَ الناسِ [مِنْ أنْ يَصِلَ إليهِ مَنْعُ الناسِ][6] إيّاهُ عنْ تبليغِ الرسالةِ.

---

(١) في الأصل وم: فأمر. (٢) في الأصل وم: وإلا والذي بان. (٣) من م، في الأصل: فيها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الملائكةُ جُعِلوا رَصَداً للجنِّ[1] عنِ اسْتِراقِ ما يُوحَى إلى الرسولِ ﷺ وعنْ تَلَقِّيهِ حتى يكونَ الرسولُ هو الذي يُبَلِّغُ إلى الخَلْقِ، ويَشْتَهِرَ ذلكَ بينَ الخَلْقِ أنَّ الرسولَ، هو الذي قامَ بِتَبْليغِهِ إلى الخَلْقِ، لأنهمْ إذا لم يُجْعَلوا رَصَداً [لَكانَ لِلْجِنِّ][2] أنْ يَسْتَرِقوهُ، ويُبَلِّغوهُ، فياتوا بلدةً، لم يَتَيَسَّرْ عندَهُمْ علمُ ذلكَ مِنْ جهةِ الرسولِ، فَيَعرفوا ذلكَ مِنْ عندِ الجنِّ قبلَ أنْ يُبَلِّغَهُمُ الرسولُ، فإذا بَلَّغَ الرسولُ مِنْ بَعْدُ الْتَبَسَ الأمرُ على الذينَ ظَهَرَ فيهِمُ العلمُ مِنْ جهةِ الجنِّ، فَجَعَلَ عليهِمْ رَصَداً حتى يَنْتَشِرَ علمُ ذلكَ مِنْ جهةِ الرسولِ، [فَتَرْتَفِعَ الشُّبَهُ][3]، إذْ يكونُ الرَّصَدُ يَمْنَعُ الجنَّ الذينَ سَمِعوا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُبَلِّغوا قومَهُمْ مِنَ الجنِّ حتى يَنْتَهِيَ الخَبَرُ إليهِمْ مِنْ جهةِ الرسولِ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ إنَّ الملائكةَ كانوا يَرْصُدونَ النَّبيَّ ﷺ فإذا جاءَهُ المَلَكُ قالوا: هذا وَحْيٌ مِنَ اللهِ تعالى، وإذا جاءَهُ الشيطانُ أخْبَروهُ به، ولكنَّ هذا بعيدٌ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَخفَى عليهِ وَحْيُ الشيطانِ مِنْ وَحْيِ جبرائيلَ عليه السلام.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ أي مِنْ بَينِ يَدَي مَنْ يُبَلِّغُ الرسالةَ إلى الرسولِ، وهو المَلَكُ الذي يَنْزِلُ بالوَحْيِ، جَعَلَ مِنْ بَينِ يَدَيهِ ومِنْ خَلفِهِ ملائكةً يَرْصُدونَهُ كي لا يَسْتَلِبَ الشيطانُ منهُ، ويُحْدِثَ فيهِ حَدَثاً مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبديلِ، لِيَعْلَمَ رسولُ اللهِ أنهُ إنما يُبَلِّغُ إليهِ رسالةَ ربِّهِ، وهذا بعيدٌ أيضاً لأنَّ المُبَلِّغَ بالقوةِ يَدْفَعُ[4] أذى الجنِّ عنْ نفسِهِ، وهو أمينٌ لا يَخافُ مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْديلِ حتى يَجْعَلَهُ مُمْتَحَناً بالتَّبْليغِ، والذينَ مَعَهُ مِنَ الرَّصَدِ / ٦٠٥ ـ أ/ امْتُحِنوا بأمورٍ أُخَرَ، لا أنْ جُعِلوا رَصَداً مِنَ الجنِّ.

وجائزٌ أنْ يكونوا أُرسِلوا لِمَكانِ تَعْظيمِ الوَحْيِ وتَشريفِ الرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما][5] قالَ قائلونَ: لِيَعْلَمَ محمدٌ بالرَّصَدِ أنْ قد أبْلَغَ سائرُ الرسلِ رسالاتِ ربِّهِمْ على الوَجْهِ الذي أُمِروا كما أبْلَغَ هو.

والثاني: أنْ يَعْلَمَ كلٌّ في نفسِهِ أنْ قد أبْلَغَ رسالاتِ ربِّنا ولِيَعْلَمَ الأعداءُ أنْ قد أبْلَغَ محمدٌ ﷺ رسالاتِ ربِّهِ على الوَجْهِ الذي أُمِرَ، لم يَقَعْ فيهِ تَغْييرٌ مِنْ شيطانٍ ولا [جِنِّيٍّ] ولا عَدُوٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ أي بما عندَ الرسولِ وبما عندَ الملائكةِ أو بما عندَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ أي أحاطَ بالعِلْمِ الذي][6] هو مَعْدودٌ لا بالعَدَدِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: ١٩] أي ما يُوزَنُ عندَ الخَلْقِ، أو أحاطَ العلمَ بما لَدَى الكَفَرَةِ لا بالرَّصَدِ.

وإنَّ في نَصْبِ الرَّصَدِ مِحْنةً وتكليفاً على الرَّصَدِ لا أنْ يَقَعَ بهِمُ الحِفْظُ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [إلى قولِهِ][7]: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦] فَبَيَّنَ أنَّ النَّصْرَ مِنْ عندِهِ وأنَّ الملائكةَ إنما أُرسِلَتْ لِتَطْمَئِنَّ بها قلوبُ المؤمنينَ، وتَرْكَنَ إليها طباعُهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [أي كلُّ شيءٍ][9] عندَهُ مَعدودٌ ومُحْصىً، لا يَغْفُلُ، جَلَّ جلالُهُ، عنْ معرفةِ عَدَدِهِ، ولا تَعْتَريهِ أحوالٌ، تَعْزُبُ عنهُ[10] فيها علمُ ذلكَ، خِلافاً لِما عليهِ أمْرُ الخَلْقِ، واللهُ الموفِّقُ [وصلّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ][11].

(١) في الأصل وم: من الجن. (٢) في الأصل وم: لكن الجن. (٣) في الأصل وم: فيرتفع التشبيه. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: جن ولا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عنها. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

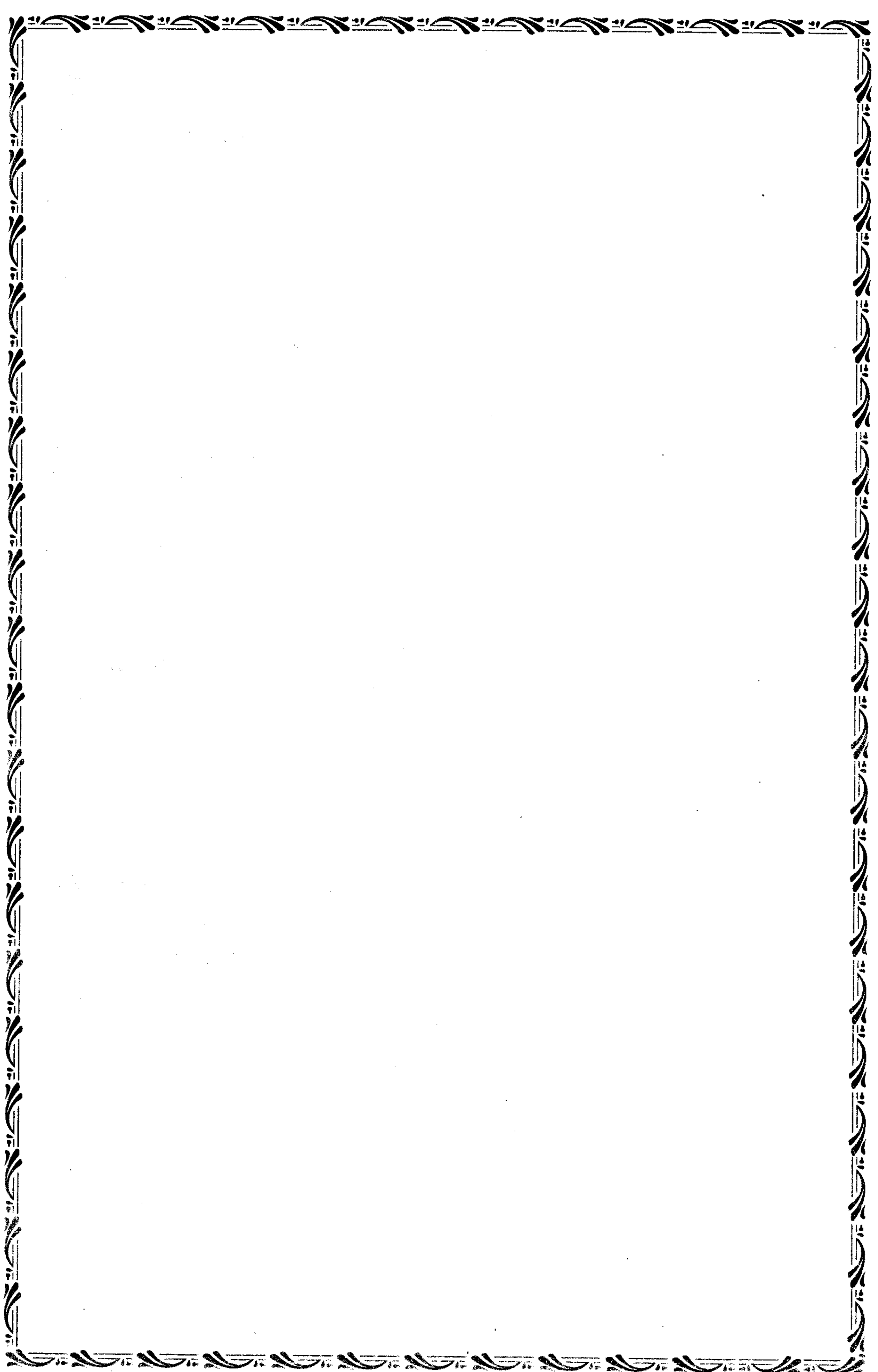

سورة المزمل

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ فالمُزَّمِّلُ والمُدَّثِّرُ يقتضيانِ مَعْنىً واحداً على ما يُذْكَرُ في سورةِ المُدَّثِّرِ.

الآيات ٢ ـ ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا الأمرُ كلُّهُ مُنْصَرِفاً إلى وقتٍ واحدٍ. فإذا صَرَفْتَ إلى وقتٍ واحدٍ: فإمّا أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ مُنْصَرِفاً إلى قولِهِ [﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ وإمّا[2] إلى قولِهِ:][3] ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

فإنْ صَرَفْتَ النُّقصانَ إلى قولِهِ: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ زِدْتَ في الأمرِ بالقيامِ.

وإنْ صَرَفْتَ النُّقصانَ إلى قولِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ فقد زِدْتَ في قولِهِ: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ فإلى أيِّهما صُرِفَ اقْتَضى الزيادةَ في أحدِهما والنقصانَ في الآخَرِ، فَيَتَّفِقُ مَعْناهُما.

وهذا نظيرُ قولِهِ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ [النساء: ١٧٦].

فمنهمْ منْ جَعَلَ الكَلالَةَ اسْماً للمَيِّتِ المَوروثِ عنهُ، ومنهمْ مَنْ أوقَعَ هذا الإسْمَ على الحَيِّ الذي يَرِثُ المَيِّتَ، وأيُّهما كانَ فهو يَقْتَضي مَعْنىً واحداً لأنَّ مَنْزِلةَ الحَيِّ مِنْ مُوَرِّثِهِ ومَنْزِلَةَ المَوْروثِ مِنَ الحيِّ واحدةٌ، لا تَخْتَلِفُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على اخْتِلافِ الأوقاتِ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ، فيكونَ قولُهُ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أمراً بإحياءِ أكثَرِ الليالي، ثم يكونَ في قولِهِ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ تَخْفيفُ الأمرِ عليهِ، فيكونَ فيهِ أنَّ لهُ أنْ يَنْقُصَ عنِ الأكثَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي على المقدارِ الذي أُبيحَ لهُ في النُّقصانِ[4]. وإذا ارْتَفَعَ النَّقْصُ عادَ الأمرُ إلى ما كانَ مأموراً [بِهِ][5] في الإبْتِداءِ.

ثم القليلُ ليسَ باسْمٍ لِأَعْيُنِ الأشياءِ، ولكنهُ منَ الأسماءِ المُضافةِ. فإذا قيلَ[6]: قليلٌ اقْتَضى ذِكْرُهُ تَثْبيتَ ما هو أكثَرُ منهُ حتى [يَصيرَ][7] هذا قليلاً إذا قُوبِلَ بما [هو][8] أكْثَرُ منهُ. فلذلكَ قالوا بأنَّ قولَهُ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ يَقْتَضي أمرَ القيامِ أكثَرَ الليلِ.

ولهذا قالَ أصحابُنا في مَنْ أقَرَّ أنَّ لِفلانٍ عليهِ ألفُ درهمٍ إلّا قليلاً: إنهُ يُلْزِمُهُ أكْثَرَ مِنْ نِصْفِ الألفِ لأنهُ اسْتَثْنى القليلَ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ المُسْتَثْنى منهُ أكْثَرَ مِنَ المُسْتَثْنى حتى يكونَ المُسْتَثْنى قليلاً ممّا[9] اسْتَثْنى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ فالترتيلُ هو التَّبْيينُ في اللغةِ، أي بَيِّنْهُ تَبْييناً. وقيلَ: اقْرَأْهُ حَرْفاً حَرْفاً على التَّقْطيعِ لِما ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُقَطِّعُ القراءةَ.

ولكنْ جائزٌ أنْ يكونَ قَرَأَهُ على التَّقْطيعِ لأنَّ التَّبْيينَ كانَ في تقطيعِهِ، وإنما أمَرَ بالتَّبْيينِ لأنَّ القرآنَ لم يَنْزِلْ لِتُجَوَّدَ قراءَتُهُ فقطْ، لكنهُ لِمَعانٍ ثلاثةٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: الانتقاص. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: كما.

أحدُها: أنْ يَقرأَ لِلحِفظِ والبقاءِ إلى يومِ القيامةِ لئلا يَذهبَ، ولا يُنسَى.

والثاني: أنْ يَقرأَ لِتَذَكُّرِ ما فيهِ وفَهمِ ما أُودِعَ مِنَ الأحكامِ وما لِلهِ عليهِمْ مِنَ الحقوقِ وما لِبَعضِهِمْ على بَعْضٍ.

والثالثُ: أنْ يَقرأَ لِيُعْمَلَ بما فيهِ، ويَتَّعِظَ [المرءُ بِمَواعِظِهِ، ويَجْعلَهُ المُسْلِمونَ][1] إماماً يَتَّبِعونَ أمْرَهُ، ويَنْتَهُونَ عمّا نَهى عنهُ.

فَتَنفيذُ قراءَتِهِ في الصلاةِ يُلزِمُنا هذا كلَّهُ. ولا يُدرَكُ ذلكَ إلّا بالتَّأمُّلِ؛ وذلكَ عندَ قراءَتِهِ على التَرتيلِ.

وهذا الذي ذَكَرْناهُ يُوجِبُ اختيارَ مَنْ يَرَى الوقوفَ في القرآنِ، لأنَّ ذلكَ أدَلُّ على المَعْنَى وأقْرَبُ إلى الأفهامِ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ المُسْتَحَبَّ فيهِ: تَرْكُ الإدغامِ وتَرْكُ الهَمْزِ الفاحشِ، لأنَّ ذلكَ أبْلَغُ في التَّبيينِ.

والأصلُ أنَّ [سامعَ القرآنِ][2] مأمورٌ بالإسْتِماعِ إليهِ، وإذا لَزِمَهُ الإسْتِماعُ، وفي الإسْتِماعِ الوُقوفُ على حُسْنِ نُظُمِهِ وعجيبِ حِكْمَتِهِ والوقوفُ على معانيهِ، لَزِمَ القارئَ تَبيِينُهُ لِيَصِلَ السامعُ إلى مَعْرِفَةِ مَعانيهِ، ويَقِفَ على حُسْنِ نَظْمِهِ وعَجيبِ تأليفِهِ؛ وذلكَ يكونُ أقربَ إلى أفهامِ السامعِ والقارئِ لِما فيهِ مِنْ لَطائفِ المَعاني.

ثم التَّرْتيلُ مُنصَرِفٌ إلى القراءةِ قُرآناً على جهةِ المصدرِ أنَّ ما هو كلامُ اللهِ تعالى لا يُوصَفُ بالتَّرْتيلِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ولم يَقُلْ على مَنْ؟ فجائزٌ أنْ يكونَ الثِّقْلُ راجعاً إلى الكَفَرَةِ، ويكونَ الثقيلُ الأمرَ بالجهادِ لأنهُ اشْتَدَّ على الفريقَينِ جميعاً، وأيِسَ الكفارُ مِنَ المُسْلِمينَ أنْ يَعودوا إلى مِلَّتِهِمْ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٣] وتَخَلَّفَ المنافقونَ[3] عنِ القتالِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ.

فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ثَقِيلًا﴾ على الكَفَرَةِ والمُنافِقينَ، وكذا على أهلِ الكبائرِ ثقيلٌ أيضاً لأنهمْ لم يَتَمَنَّوا أنْ يَنْزِلَ عليهِ الكتابُ.

وأمّا على المُسْلِمينَ فليسَ ثقيلاً[4]، بل هو كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ ذلكَ إلى الرسولِ ﷺ لأنهُ أُمِرَ بِتَبْليغِ الرسالةِ إلى الفَراعِنةِ والخَلْقِ كافةً، وفي القيامِ بالتَّبليغِ إلى الفَراعِنةِ مُخاطرةٌ بالروحِ والجسدِ؛ أمرٌ ثقيلٌ صَعْبٌ جِدّاً، أو يكونَ ذلكَ مُنصَرِفاً إلى قِيامِ الليلِ، فيكونَ مَعْنَى[5] ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي الوفاءَ بما يوجِبُهُ ذلكَ القولُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُنصَرِفاً إلى أتباعِ الرسولِ ﷺ وأنصارِهِ، فيكونَ قولُهُ: ﴿ثَقِيلًا﴾ مِنَ الوجهِ الذي كُلِّفوا القِيامَ بِفرائضِهِ وحِفْظِ حُدودِهِ وتَحْليلِ حَلالِهِ واجْتِنابِ حرامِهِ.

وزَعَمَتِ/ ٦٠٥ ـ ب/ الباطِنيَّةُ بأنَّ القولَ الثقيلَ هو أنْ كُلِّفَ الناطقُ[6]، وهو الرسولُ ﷺ تَفويضَ الأمرِ إلى الأساسِ، وهو البابُ، وكذلكَ الأساسُ، والبابُ هو عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﵁ عندَهُمْ، وهم يُسَمُّونَ الرسُلَ[7] ﵈ نُطَقاً، ويقولونَ بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مأموراً بِتَبْليغِ التَّنزيلِ إلى الخَلْقِ.

فلمّا بَلَّغَ التَّنزيلَ إليهِمْ، واسْتَغْنَوا عنهُ، احتاجوا إلى مَنْ يُعَلِّمُهُمُ التأويلَ، فأُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ بأنْ يُسْنِدَ أمْرَ التأويلِ إلى عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﵁ ليكونَ هو الذي يَتَوَلَّى تَعْليمَ الخَلْقِ تأويلَهُ، فذلكَ[8] هو القولُ الثقيلُ إذا أُمِرَ أنْ يُسْنَدَ إلى غَيرِهِ، فاشْتَدَّ عليه إذْ صارَ غَيْرُهُ وَلِيَّ الأمرِ، وبَقِيَ هو ساكناً لا يَنْطِقُ.

فيُقالُ لهمْ: إنَّ في الأمرِ بإسنادِ الأمرِ إلى مَنْ ذَكَرْتُمْ تَخْفيفَ الأمرِ على رسولِ اللهِ ﷺ، بِزَعْمِكُمْ، لأنَّ مِنْ مَذْهَبِكُمْ أنهُ إذا فُوِّضَ الأمرُ إلى عليٍّ ﵁ قُبِضَ هو ﷺ وصورةُ القَبْضِ عندَكُمْ أنْ تُمَيَّزَ الصورةُ الرُّوحانيَّةُ مِنَ الصورةِ الجَسَدانِيَّةِ التي كانَتْ مُحْتَبَسَةً في الصورةِ الجَسَدانِيَّةِ، ثم تُتْلَفُ الصورةُ الجَسَدانِيَّةُ، وتُبْعَثُ الصورةُ الرُّوحانِيَّةُ النُّورانِيَّةُ إلى دارِ الكرامةِ والحُبورِ. والخلاصُ[9] مِنَ الحبسِ لم يَشْتَدَّ[10] عليهِ، ولم يَثْقُلْ، بل كانَ فيهِ ما يُرَغِّبُهُ إلى التَّفويضِ، ويَدْعُوهُ إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: هو بمواعظه ويجعلونه. (٢) في الأصل وم: السامع في القرآن. (٣) في الأصل وم: المنافقين. (٤) في الأصل وم: ثقيل.
(٥) في الأصل وم: معناه. (٦) من م، في الأصل: الباطن. (٧) من م، في الأصل: الرسول. (٨) في الأصل وم: فكذلك. (٩) في الأصل وم: والإخلاص. (١٠) ادرج بعدها في الأصل وم: ذلك.

ومِنْ مذهب الباطِنيَّةِ أنهمْ لا يُعَلِّمونَ أحداً مَذْهَبَهُمْ إلّا بَعْدَ أنْ يُحَلِّفوهُ بالأيمانِ الغليظةِ، بألّا يُخْبِرَ بِهِ أحداً إشفاقاً على أنفسِهِمْ.

ولو كانَ الأمرُ على ما قَدَّروا أنَّ التَّلَفَ يَرُدُّ إلى الصورةِ الجَسَدانيَّةِ التي هي سببٌ لِحَبْسِ الصورةِ الرُّوحانيَّةِ، وإذا تَلِفَتْ رُدَّتِ الروحانيَّةُ إلى دارٍ فيها كلُّ أنواعِ السُّرورِ. فما الذي يُحْوِجُهُمْ إلى الاسْتِخْلافِ؟ وما بالُهُمْ يُشْفِقونَ على أنفسِهِمْ، وليسَ في إتلافِ أنفسِهِمْ إلّا الخَلاصُ مِنَ الحَبْسِ والوصولُ إلى الكراماتِ.

ومَنْ هذا وصفُه حقَّ عليهِ الموتُ لِيُعلَمَ أنهمْ يُعامِلونَ الخَلْقَ على خِلافِ ما يُوجِبُهُ اعْتِقادُهُمْ.

ولو كانَ ما اعْتَقَدوهُ حَقّاً لَمَا اسْتجازوا مُخالَفَتَهُ.

ولكنَّ الذي دَعاهُمْ إلى ما ذَكَرْنا تسويلُ الشيطانِ وتزيينُهُ في قلوبِهِمْ، وما مَثَلُهُمْ إلّا مَثَلُ اليهودِ الذينَ ادَّعَوا أنَّ الدارَ الآخِرَةَ لهمْ خالِصَةٌ مِنْ دونِ الناسِ، فَقيلَ لهمْ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤] لأنكمْ لا تَصِلونَ إلى الآخِرَةِ إلّا بالموتِ. فإنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ في دَعْواكُمْ فَتَمَنَّوُا الموتَ لِتَصِلوا إليها.

فكانَ في امْتِناعِهِمْ عنِ التَّمَنّي ما يُظْهِرُ كَذِبَهُمْ، ويُبْطِلُ مَقالَتَهُمْ، ويُبَيِّنُ تَمْويهَهُمْ.

فكذلكَ في إشفاقِ هؤلاءِ على أنفسِهِمْ مِنَ الهلاكِ إظهارٌ وإنباءٌ أنهمْ قَصَدوا بِهِ قَصْدَ التَّمْويهِ على الضَّعَفَةِ لِيَصِلوا إلى المأكَلَةِ، ويَتَوَسَّعُوا[1] بِهِ في أمرِ دنياهُمْ[2] مِنْ غَيرِ حُجَّةٍ لهمْ في ذلكَ.

وبهذا الفَصْلِ الذي ذَكَرْنا يُحْتَجُّ على الثَّنَوِيَّةِ؛ فليسَ[3] مِنْ مَذْهَبِهِمْ تحريمُ القَتْلِ والذَّبْحِ [والحقُّ أنْ][4] يُرَى القَتْلُ والذبْحُ مُباحَينِ، لأنَّ مِنْ مَذهبِهِمْ أنَّ العالَمَ إنما هو بأوضاحِ النُّورِ والظُّلْمَةِ، فما مِنْ جُزْءٍ مِنْ أجزاءِ النُّورِ إلّا وهو مَشوبٌ بِجُزْءٍ واحدٍ مِنْ أجزاءِ الظُّلْمَةِ، وكانا مُتبايِنَين، فَغَلَبَتِ الظُّلْمَةُ على النُّورِ، فامْتَزَجَتْ بِهِ، فصارتِ الظُّلْمَةُ مُلابِسةً للنورِ.

ومَعْلومٌ أنَّ في القَتْلِ تَخْليصَ أجزاءِ [النُّورِ مِنْ أجزاءِ الظُّلْمَةِ][5]، لأنَّ في القتلِ إزالةَ السَّمْعِ والبَصَرِ والعقلِ، ومَعْلومٌ بأنَّ السمعَ[6] والبصرَ في هذهِ الأشياءِ، إذْ بها رُؤيةُ الأنوارِ. فإذا امْتازَتْ هذهِ الأشياءُ مِنَ الجَسَدِ، وأُبْقِيَ الجَسَدُ الظُّلُماتيُّ، لا يُبْصِرُ شيئاً، فقد يَتَوَصَّلُ جَوهَرُ النُّورِ إلى حِرْصِهِ ومَقْصودِهِ بالقَتْلِ، وصارَ إلى مَقَرِّهِ.

فإذا كانَ القتلُ يُوصِلُهُ إلى حِرصِهِ، ويُخَلِّصُهُ مِنْ وَثاقِ الظُّلْمةِ وحَبْسِهِ، فقد أحْسَنَ إليهِ بالقَتْلِ والذبحِ، فلا يَجيءُ أنْ يُحَرِّمَ القَتْلَ على مذهبِهِمْ، بل يجبُ أنْ يُمْدَحَ المرءُ على ذلكَ الفعلِ، ويُسْتَصْوَبَ ذلكَ منهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: القولُ الثقيلُ كلامُ اللهِ تعالى، وثِقَلُهُ هو تَبجيلُهُ وتَعْظيمُ حُرْمَتِهِ، ليسَ ككلامِ[7] السفهاءِ الذي[8] لا يُكْتَرَثُ لهُ، ولا يُؤْبَهُ بِهِ.

وقالَ الزَّجّاجُ: الثقيلُ الوَزينُ، أيِ الذي لهُ وَزْنٌ وقَدْرٌ في القلوبِ، الذي يَجبُ أنْ يُعَظَّمَ، ويُوَقَّرَ، وليسَ بالقولِ الذي يُسْتَصْغَرُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ القولُ الثقيلُ، هو الحقُّ على ما رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ «أنَّ الحقَّ ثقيلٌ مُرٌّ، والباطلَ خفيفٌ وَفْرٌ» [طرفه الأول في كشف الخفاء للعجلوني ١١٥٣ وفي تاريخ ابن عساكر ٥/١٣٨].

ورُوِيَ عنْ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ أنهُ قالَ: حَقٌّ لِميزانٍ، لا يُوضَعُ فيهِ إلّا الخَيرُ، أنْ يَثْقُلَ، وحقٌّ لميزانٍ، لا يُوزَنُ [بِهِ][9] إلّا الباطلُ، أنْ يَخِفَّ، فيكونُ ثِقَلُهُ العملَ بما فيهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ القولُ الثقيلُ، هو تَكْليفُ القيامِ عامَّةَ الليلِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وهم سعوا. (٢) من م، في الأصل: دنياه. (٣) في الأصل وم: فإن. (٤) في الأصل وم: وحق من. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: النوراني من حبس الظلمات. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: النور. (٧) في الأصل وم: كلام. (٨) في الأصل وم: الذين. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ قُرِئَ: وِطاءً، و: وَطْأً[١].

فَمَنْ قَرَأَ: وِطاءً بالمَدِّ، فتأويلُهُ مِنَ المُواطأةِ، وهي المُوافقةُ أي مُوافقةُ السَّمْعِ والبَصَرِ والفُؤادِ، لأنَّ القَلْبَ يكونُ أفْرَغَ بالليالي مِنَ الأشغالِ التي تُحَوِّلُ المرءَ عنِ الوصولِ إلى حَقيقةِ دَرْكِ مَعاني الأشياءِ، وكذلكَ السَّمْعُ والبَصَرُ يكونانِ[٢] أحْفَظَ للقرآنِ وأشَدَّ اسْتِدراكاً لِمعانيهِ.

ومَنْ قَرَأَ: وَطْأً، وهو مِنَ الوَطْءِ بالأقدامِ، فتأويلُهُ: أنهُ أشَدُّ على البَدَنِ وأصْعَبُ لأنَّ المَرْءَ قدِ اعْتادَ التَّقَلُّبَ والانْتِشارَ في الأرضِ بالنهارِ، ولم يَعْتَدْ ذلكَ بالليلِ، بل اعْتادَ الراحةَ فيهِ، فإذا[٣] كُلِّفَ القيامَ والانْتِصابَ برجلَيهِ في الوقتِ الذي لم يَعْتَدْ فيه القيامَ كانَ ذلكَ أشَدَّ عليهِ وأصْعَبَ على بدنِهِ. ولأنَّ المرءَ بالنهارِ، ليسَ يَنْتَصِبُ قائماً في مكانٍ واحدٍ، فيَمْكُثُ فيهِ، بل[٤] يَنْتَقِلُ مِنْ مَوضعٍ إلى مَوضعٍ آخَرَ [ولو][٥] كُلِّفَ الانْتِصابَ في مكانٍ [واحدٍ][٦] اشْتَدَّ عليهِ [ذلكَ][٧] ولَحِقَهُ الكَلالُ والعناءُ منه[٨].

ثم أُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يَنْتَصِبَ قائماً، يُصَلّي إلى نِصْفِ الليلِ أو أكْثَرَ، فكانَ في ذلكَ مِحْنَةٌ شديدةٌ وكُلْفَةٌ شاقَّةٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ أنَّ المَرْءَ يسيرُ بالنهارِ يَطْلُبُ[٩] ما يَتَعَيَّشُ [بهِ][١٠] ويَصِلُ إلى ما يَتَمَتَّعُ [بهِ][١١] في أمرِ دنياهُ، ويَنامُ الليلَ طَلَباً للراحةِ وإيثاراً لِلتَّخفيفِ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ مَمْنوعاً عنِ اكتسابِ الأشياءِ التي يَتَوَصَّلُ بها إلى سَعَةِ الدنيا إلّا القَدْرَ [الذي][١٢] يقيمُ بهِ مُهْجَتَهُ، وكذلكَ مُنِعَ عنِ الراحةِ بالليالي، وأُمِرَ بإحياءِ الليلِ إلّا القَدْرَ الذي لا بُدَّ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في الأمرِ بقيامِ الليلِ نوعٌ مِنَ الراحةِ والتخفيفِ؛ وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُلْزِمَ بِتَبْليغِ الرسالةِ إلى الناسِ كافَّةً، فَحُمِّلَ تَبليغَها إليهِمْ بالنهارِ، ورُفِعَتْ عنهُ الكُلْفَةُ بالليلِ، وأُمِرَ بأنْ يَتَفَرَّغَ لعبادةِ ربِّهِ.

وكانَ الأمرُ بالتَّفَرُّغِ للعبادةِ أيْسَرَ مِنَ الأمرِ بِتَبليغِ الرسالةِ لأنَّ في الأمرِ بالتَّبليغِ أمراً بما فيهِ المُخاطرةُ بالروحِ والجَسَدِ، وليسَ في الأمرِ بالانْتِصابِ قائماً أكْثَرَ الليلِ كذلكَ، وإنما فيهِ إيصالُ الوَجَعِ إلى بعضِ أعضائِهِ، فيكونُ فيهِ بعضُ التخفيفِ.

فإنْ قيلَ: /٦٠٦ ـ أ/ على التأويلِ الأوَّلِ: كيفَ خُصَّ رسولُ اللهِ ﷺ في بابِ النِّكاحِ حيثُ أُبيحَ لهُ فَضْلُ العَدَدِ، ولم يُبَحْ لأمتِهِ، وفي ذلكَ تَمَتُّعٌ بِشَهَواتِ الدنيا؟

وجوابُهُ أنْ يُقالَ: إنَّ المَعْنَى الذي بهِ حُظِرَ على غَيرِهِ الزيادةُ على الأربعِ، وقُصِرَ الأمرُ على الأربعِ هو خَوفُ الجَوْرِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾؟ [النساء: ٣].

وإذا كانَ التحريمُ لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرْنا ارْتَفَعَ الحَظْرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ اللهَ تعالى عَصَمَهُ عنِ الجَورِ، ومَكَّنَهُ مِنَ العَدْلِ بَينَ نسائِهِ.

ثم ليسَ في إباحةِ زيادةِ العَدَدِ سِوَى فَضْلِ مِحْنَةٍ وكُلْفَةٍ لرسولِ اللهِ ﷺ كأنهُ إذا أُمِرَ أنْ يقومَ في ما بَيْنَهُنَّ بالعَدْلِ وأنْ يَبْتَغِيَ مَرْضاتَهُنَّ بِحُسْنِ العِشْرَةِ معهنَّ، وإنما يَصِلُ المرءُ إلى الإرضاءِ بالأموالِ، ولم يَتَمَتَّعْ هو مِنَ الدنيا بِمِقدارِ ما يَصِلُ إلى إرضائهِنَّ بالأموالِ، لم يَتَهَيَّأْ لهُ أنْ يُرْضِيَهُنَّ إلّا بِسَعَةِ الأخلاقِ، وإنْ بَيَّنَ لهنَّ [ذلكَ][١٣] إلّا لِتَقَرَّ أعيُنُهُنَّ، ولا يَحْزَنَّ.

فَثَبَتَ أنهُ ليسَ في إباحةِ العددِ فَضْلُ تَمَتُّعٍ، بل فيهِ زيادةُ مِحْنةٍ وابْتِلاءٍ.

وفيهِ أيضاً ما يُحَقِّقُ رسالتَهُ، ويُثْبِتُ نُبُوَّتَهُ، لأنَّ المَرْءَ إنما يَصِلُ إلى توفيرِ الحقوقِ الواجبةِ عليهِ بالنِّكاحِ إذا تَناوَلَ مِنْ فُضولِ الدنيا، وطَعِمَ لَذّاتِها، وأعْطَى النفسَ شَهَواتِها.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٢٥٢. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: كللك. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: من ذلك. (٩) في الأصل وم: من ذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ثم رسولُ اللهِ ﷺ كانَ مَمْنوعاً مِنْ إعطاءِ النفسِ شَهَواتِها، ومع ذلكَ قامَ بإيفاءِ حُقوقِ الزوجاتِ[1]، فثَبَتَ أنهُ باللُّطفِ مِنَ اللهِ تعالى وَصَلَ إلى إيفاءِ حُقوقِهِنَّ، ليسَ بالأسبابِ[2] البشريةِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ الصلاةَ تَشْتَمِلُ على الذِّكْرِ والفِعْلِ جميعاً لأنَّهُ قالَ تعالى: ﴿أَشَدُّ﴾ على البَدَنِ، والشِّدَّةُ[3] تكونُ بالفعلِ، وقالَ: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وذلكَ يَرْجِعُ إلى الذِّكْرِ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ لم يُكلَّفْ تَبْليغَ الرسالةِ بالليالي لأنَّ أعداءَهُ مِنَ الفَراعنةِ، كانَتْ هِمَّتُهُمْ أنْ يَقْتُلوهُ، [أو يَمْكُروا بهِ][4]. ولم يكنْ يَتَهَيَّأُ لهمْ إيصالُ الأذى بهِ لِمَكانِ أتباعِهِ، والليالي، هي أوقاتُ غفلةِ الأتباعِ. [فلو][5] كُلِّفَ التَّبليغَ فيها لَتَمَكَّنوا مِنْ إيصالِ المَكْرِ بهِ، فَوُضِعَ عنهُ التَّبليغُ، وامْتُحِنَ بالقيامِ لعبادةِ ربِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ساعةَ الليلِ؛ وقيلَ: هو مِنْ نَشَأَ يَنْشَأُ، أي نما، فَسُمِّيَتْ ناشئةً، لأنَّ الأوقاتَ تَحْدُثُ، وتَتَرادَفُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المرادُ مِنْ ناشئةِ الليلِ أي ما يوجَدُ مِنَ الأحوالِ في الليلِ مِنَ القيامِ للصلاةِ والاشتغالِ بعبادةِ الربِّ، جلَّ جَلالُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أصْوَبُ كلاماً، والأقْوَمُ، هو المُبالَغَةُ في الوَصْفِ ممّا أُريدَ بالقيامِ. فإنْ أُريدَ بهِ الكلامُ، فَحَقُّهُ أنْ يُصْرَفَ[6] إلى الصِّدْقِ؛ إذِ الأقْوَمُ مِنَ الأخبارِ أصْدَقُها، وإنْ أُريدَ بهِ القيامُ بإيفاءِ ما يَقْتَضيهِ ذلكَ الكلامُ، فَمَعْنى قولِهِ: ﴿وَأَقْوَمُ﴾ أي أبْلَغُ في وفاءِ [ما][7] يُوجِبُهُ القولُ. وإنْ أُريدَ بهِ القراءةُ نفسُها، فهو بالليالي أقْوَمُ قراءةً.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [قالَ أبو بَكْرٍ والزَّجّاجُ: السَّبْحُ السَّعَةُ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ لكَ في النهارِ سَعَةً طويلةً في تَبْليغِ الرسالةِ والقِيامِ بهِ، فَتَفَرَّغْ بالليالي لِعبادةِ ربِّكَ.

وقيلَ: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي فراغاً وَسَعَةً ومُتَقَلَّباً][8] فالسَّبْحُ يُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ الفراغُ، ويُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ المَشْيُ والتَّقَلُّبُ.

وهذا الذي قالوهُ مُحْتَمَلٌ، ولكنْ لا يَجيءُ أنْ يُصْرَفَ تأويلُ الآيةِ إلى الفراغِ والتَّقَلُّبِ إلى حَوائجِ نفسِهِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَكُنْ يَتناوَلُ مِنَ الدنيا إلّا [قَدْرَ ما يُقيمُ بهِ حاجَتَهُ][9] فلا يَحْتاجُ إلى فَضْلِ تَقَلُّبٍ ولا إلى كَثيرِ فَراغٍ لَيَتَوَسَّعَ في أمْرِ دنياهُ، ولكنَّ حقَّهُ أنْ يَنصرِفَ بِقلبِهِ إلى تَبْليغِ الرسالةِ ودعاءِ الخَلْقِ إلى توحيدِ اللهِ تعالى وإلى [ما][10] يَحِقُّ عليهِمْ، فيكونُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تَرخيصٌ لرسولِ اللهِ ﷺ في أنْ يَنْتَصِبَ بالليلِ[11] للقيامِ بَيْنَ يديهِ واجْتزاءِ منهُ بِتَبليغِ الرسالةِ بالنهارِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي اذْكُرْ ربَّكَ، دليلُهُ قولُهُ على إثْرِهِ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [وبالتَّبْتيلِ يَنْقَطِعُ][12] إليهِ لا إلى اسْمِهِ.

ثم ذِكْرُ الرَّبِّ، جَلَّ جَلالُهُ، هو أنْ يَنْظُرَ [المرءُ][13] إلى أحوالِ نفسِهِ [ويَتساءَلَ][14] ما الذي يَلْزَمُهُ مِنَ العبادةِ في تلكَ الحالِ، فيكونُ ذِكْرُ ربِّهِ بإقامةِ تلكَ العبادةِ لا بأنْ يَذْكُرَ اللهَ تعالى بلسانِهِ فقطْ، وهو كقولِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] واستِغْفارُهُمْ أنْ يَأْتَمِروا بما أُمِروا، ويَنْتَهُوا عمّا نُهُوا، لا أنْ يقولوا بألسِنَتِهِمْ: نَسْتَغْفِرُ اللهَ، لأنهمْ وإنْ قالوا: نَسْتَغْفِرُ اللهَ، لم يَقْبَلْ ذلكَ منهمْ إذا كانوا كَفَرَةً. فَثَبَتَ أنَّ اسْتِغْفارَهُمْ أنْ يُجيبوا إلى ما دعاهُمْ إليهِ نوحٌ.

فلِذلكَ ذِكْرُ اللهِ تعالى يَقَعُ بِوَفاءِ ما تُلْزِمُهُمْ حالُ القيامِ بهِ، وذلكَ يكونُ بالأفعالِ مَرَّةً وبالأقوالِ ثانياً.

---

(١) في الأصل وم: الأزواج. (٢) في الأصل وم: بأسباب. (٣) في الأصل وم: وشدته. (٤) في الأصل وم: ويمكروا. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يصرفه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما قدر ما يقيم به بهمة. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالليالي. (١٢) في الأصل وم: التبتيل يقع. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فأمر.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الأمرَ إلى الإسْمِ على ما يُؤَدّيهِ ظاهرُ اللفظِ [إذْ أمرَ](١) بِذِكْرِ اسْمِ الرَّبِّ لِما يَحْصُلُ لهُ مِنَ الفوائدِ بِذِكْرِها؛ لأنَّ مِنْ أسمائِهِ أسماءً تُرَغِّبُهُ في اكْتِسابِ الخَيراتِ والإقبالِ [على عبادةِ الرَّبِّ](٢) ومنها ما يَدْعُو الذاكِرَ إلى الخوفِ والرَّهبةِ، ومنها ما يوقِفُهُ(٣) على عجائبِ حكمتِهِ ولُطْفِ تدبيرِهِ وتَقريرِ سُلْطانِهِ وعظمتِهِ في قلبِهِ، ومنها ما يُحْدِثُ لهُ زيادةَ علمٍ بصيرةٍ، وهي الأسماءُ المُشْتَقَّةُ مِنَ الأفعالِ، وإذا تأمَّلَ فيها عَرَفَ الوجْهَ الذي منهُ اشْتُقَّتْ تلكَ الأسماءُ، فَذِكْرُ أسمائِهِ يُحْدِثُ ما ذَكَرْنا مِنَ الفوائدِ والعلومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ فالتَّبتيلُ، هو الإنْقِطاعُ إلى اللهِ تعالى، وأنْ يَقْطَعَ نفسَهُ عنْ شَهَواتِها، ويَصْرِفَها عنْ لَذّاتِها؛ فكأنهُ قالَ: وتَبَتَّلْ إليهِ، وبَتِّلْ نفسَكَ تَبْتيلاً مِنَ الشَّهواتِ واللَّذّاتِ. ولِذلكَ سُمِّيَتْ مريمُ عليها السلام البَتولَ، لأنها قَطَعَتْ نفسَها عنْ مَنافِعِ الدنيا، وأقْبَلَتْ إلى الآخِرَةِ، وانْقَطَعَتْ إليهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: تأويلُهُ: مَلِكُ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ؛ فَحَقُّهُ أنْ يُقالَ: مالِكُ المَشرِقِ والمَغْرِبِ، لأنهُ هو المالِكُ على التَّحْقيقِ(٤).

وقالَ بعضُهُمْ: هو الرَّبُّ، هو المُصْلِحُ، ثم خَصَّ المَشْرِقَ والمَغْرِبَ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ هو مالِكَهُما ومالكَ الخلائِقِ أجْمَعَ، لأنَّ ذِكْرَ المَشْرِقِ يَقْضي ذِكْرَ السمواتِ والأرَضِينَ [وفي ذِكْرِ السمواتِ والأرَضِينَ](٥) ذِكْرُ أعلى العِلِّيِّينَ وأسفَلِ السافلينَ، لأنهُ إذا نَظَرَ إلى المَشْرِقِ ورأى ما تَطْلُعُ في المَشْرِقِ مِنْ عَينِ الشمسِ، ثم تَجري في أقطارِ السماءِ، وتَقْطَعُ كلَّ يومٍ مَسيرةَ ألفِ عامٍ، ثم ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] فَتَصيرُ إلى أسفلِ السافلينَ، وتَجْري كذلكَ حتى تَصِلَ إلى مَطْلَعِها، ثم تَطْلُعَ هنالكَ.

فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ مُدَبِّرَ السمواتِ والأرَضِينَ ومُنْشِئَهُما واحِدٌ، وأنَّ سُلْطانَهُ في الأرضِ كَسُلْطانِهِ في السماءِ. ويُعْلِمُ أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قدرَتُهُ هذا المَبْلَغَ في أنْ يُسَيِّرَ عينَ الشمسِ في يومٍ واحدٍ مَسيرَةَ ألفِ عامٍ ما يَشْتَدُّ على الخَلْقِ قَطْعُ هذهِ المسافةِ في مُدَدٍ كثيرةٍ، لا يَجوزُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

ودَلَّ [ذلكَ أيضاً](٦) على أنَّ مُلْكَهُ دائمٌ، لا يَنْقَطِعُ، لأنَّ عينَ الشمسِ تَجري في كلِّ يومٍ على ما سُخِّرَتْ، لا تَتَبَدَّلُ، ولا تَتَغَيَّرُ، بِاخْتِلافِ الأزمنةِ والأوقاتِ، وجَعَلَ مَنافعَ أهلِ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافعِ السماءِ.

ولو لم يكُنْ مُدَبِّرُهُما واحداً لَارْتَفَعَ الإتِّصالُ، وانْقَطَعَتْ مَنافِعُ السماءِ عنْ أهلِ الأرضِ.

فكانَ في ذِكْرِ المَشرقِ والمَغْرِبِ دلالةُ /٦٠٦ - ب/ وحدانِيَّتِهِ تعالى وإظهارِ قُوَّتِهِ وسلطانِهِ والوقوفِ على عجائبِ حكمتِهِ ولطائفِ تدبيرِهِ.

ثم تَخْصيصُ ذِكْرِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ دونَ السماءِ والأرضِ، هو، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ هذا أوصَلُ إلى مَعْرِفَةِ التوحيدِ وأسْرَعُ إلى الإدراكِ مِنْ ذِكْرِ السمواتِ والأرضِ، وإنْ كانَ في التدبيرِ في أمرِ السماءِ والأرضِ تَحقيقُ [ذلكَ](٧) وفي قولِهِ ﷺ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي الذي أُمِرْتَ بِذِكْرِهِ، هو: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

وفيهِ تَعْريفُ الوجهِ الذي يَصِلُ إلى مَعْرفةِ رُبوبيَّتِهِ.

[وقولُهُ تعالى](٨): ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبودَ يَسْتَحِقُّ العبادةَ إلا هو، لأنَّ الذي يَحْمِلُ الإنسانَ على عبادةِ المعبودِ الخَوفُ والرجاءُ. وإذا عَرَّفَهُمْ بِذِكْرِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ أنَّ تَدْبيرَ الخَلائِقِ كلِّها راجعٌ(٩) إليهِ، وأنَّهُ هو القاهِرُ عليهِمْ والقادِرُ عليهِمْ، وبيدِهِ الخزائنُ والمَنافِعُ أجْمَعُ، عَلِموا أنهُ هو الإلهُ الحقُّ والربُّ القاهِرُ، وأنَّ مَنْ سِواهُ مَربوبٌ مَقْهورٌ، لا يَمْلِكُ نَفْعاً ولا ضَرّاً، فكيفَ يَسْتوجِبُ العبادةَ والإلهيَّةَ؟

---

(١) في الأصل وم: فأمر. (٢) في الأصل: عبادة، في م: على عبادة. (٣) في الأصل وم: يوقف. (٤) من م، في الأصل: الحقيقة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: راجعة.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ أنْ كِلْ أمورَكَ، كلَّها إلى اللهِ تعالى، حتى يكونَ هو الذي يُدَبِّرُ، ويَحْكُمُ، ولا تَرَى لِنفسِكَ فيها تدبيراً.

والوكيلُ في الشاهدِ، هو الذي يدخُلُ في [أمرِ][1] آخَرَ على جهةِ التَّبَرُّعِ لِيَنْصُرَهُ فيه، ويُعينَهُ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي اطْلُبْ مِنْ عِندِهِ النَّصْرَ والمعونةَ. والمرءُ في الشاهدِ إنما يَفْزَعُ إلى الوكيلِ لِيُزيحَ عنهُ عِلَّةً، ويَقْضيَ عنهُ حوائجَهُ، ويقومَ عنهُ في النوائبِ؛ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: اصْبِرْ على تكذيبِهِمْ إياكَ.

ألا تَرى إلى قولِهِ في سِياقِ الآيةِ: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾؟ [المزمل: ١١] فَثَبَتَ أنهُ دعا إلى الصَّبْرِ على التَّكذيبِ.

وجائزٌ أن يكونَ مُنْصَرِفاً إلى هذا وإلى غَيرِهِ، لأنهمْ كانوا لا يَقْتَصِرونَ على الكَذِبِ، بل كانوا يَنْسُبونَهُ إلى الكَذِبِ [أوّلاً][2] وإلى السِّحْرِ ثانياً وإلى الجُنونِ ثالثاً وإلى أنهُ يَتيمٌ رابعاً، فكانوا يُؤذونَهُ بأنواعِ الأذَى.

فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مُنْصَرِفاً إلى كلِّ ذلكَ.

ثم الأمرُ بالصَّبْرِ يَقَعُ بِخِصالٍ ثلاثٍ:

إحداها[3]: ألّا تُجازِهِمْ على تكذيبِهِمْ إياكَ بِتكذيبِكَ إياهُمْ،

[والثانيةُ: ألّا تَجزَعَ عليهِمْ][4] وفي الجَزَعِ بعضُ التَّسلّي والتَّشَفّي.

[والثالثةُ: ألّا][5] تَدْعوَ عليهمْ بالهلاكِ والتَّبارِ، بلِ اصْبِرْ [على][6] ذلكَ.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ كانَ يَشْتَدُّ عليهِ[7] تكذيبُهُمْ إياهُ حتى كادَ يَتَحَزَّنُ لِذلكَ. والذينَ[8] نَسَبوهُ إلى الكذبِ كانوا مِنْ أعدائِهِ، وليسَ يُسْتَثْقَلُ الكَذِبُ مِنَ العَدُوِّ، لا يُسْتَكْثَرُ منهُ، لأنهُ بما يُعاديهِ، يَعْتَقِدُ أنهُ يُسيءُ إليهِ بجميعِ ما يُمْكِنُهُ وُسْعُهُ، وإنما يُسْتَثْقَلُ الكَذِبُ مِنْ أهلِ الصَّفْوَةِ والمَوَدَّةِ، فكيفَ اسْتَثْقَلَهُ؟ وكيفَ بَلَغَ بِهِ التَّكذيبُ مَبْلَغاً يَحْزَنُ بِهِ حتى يُدْعَى إلى الصَّبْرِ بقولِهِ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٣٣] وبقولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؟ والجوابُ عنْ هذا أنَّ الكَذِبَ والجهلَ ممّا يَسْتَثْقِلُهُما العقلُ والطبعُ جميعاً، وكذلكَ التَّكذيبُ أو التَّجهيلُ أمرٌ ثقيلٌ على الطبعِ والعقلِ جميعاً، حتى إنَّ الكَذّابَ إذا نُسِبَ إلى الكَذِبِ، اشْتَدَّ عليهِ ذلكَ، ولم يَتَحَمَّلْهُ[9]، وكذلكَ الجَهولُ، إذا عُرِفَ بالجهلِ، ثَقُلَ ذلكَ عليهِ.

فإذا كانَ التكذيبُ مُسْتَثْقَلاً[10] في عقولِ الخَلْقِ وطبائِعِهِمْ، وإنْ كانتْ طبائِعُهُمْ مَشوبةً بالآفاتِ، وفي عقولِهِمْ نَقْصٌ، فرسولُ اللهِ ﷺ معَ صفاءِ عَقْلِهِ وسلامةِ طَبْعِهِ مِنَ الآفاتِ أحَقُّ أنْ يَثْقُلَ عليهِ، ويَحْزَنَ لذلكَ.

ثم ما مِنْ إنسانٍ، يُنْسَبُ إلى الكَذِبِ في ما يُحَدِّثُ عنْ نفسِهِ أو عَمَّنْ سِواهُ مِنَ الخلائِقِ مِمَّنْ عَلَتْ رُتْبَتُهُمْ، أوِ انْحَطَّتْ، إلّا وهو يَجِدُ لذلكَ ثِقْلاً، فكيفَ إذا أخْبَرَ عنِ اللهِ تعالى، وكَذَّبَ فيهِ، أليسَ هذا أحقَّ أنْ يَثْقُلَ على القَلْبِ، ويَتَحَزَّنَ لهُ؟

ويجوزُ أنْ يكونَ حَمَلَهُ على الحزنِ شِدَّةُ إشفاقِهِ على المُكَذِّبينَ لأنَّ تكذيبَهُمْ يُفْضي بهِمْ إلى العَطَبِ والهلاكِ، فأشْفَقَ عليهِمْ باشْتِغالِهِمْ بما بِهِ هلاكُهُمْ، وحَزِنَ لذلكَ، أو يكونَ حزنُهُ غَضَباً للهِ تعالى، إذِ الرسُلُ كانوا يَغْضَبونَ للهِ تعالى، ويَشْتَدّونَ على أعدائِهِ.

والجوابُ عنْ قولِهِ[11]: إنَّ المُكَذِّبينَ كانوا مِنْ أعدائِهِ، فكيفَ اشْتَدَّ عليهِ تكذيبُهُمْ، وذلكَ أمرٌ غيرُ مُسْتَبْعَدٍ[12] مِنَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أحدهما. (٤) في الأصل وم: ولا تجزع عليه. (٥) في الأصل وم: أولا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عليهم. (٨) في الأصل وم: والذي. (٩) في الأصل وم: يتحاصل. (١٠) في الأصل وم: مستحقاً. (١١) الضمير عائد على ما سبق: ولقائل أن يقول. (١٢) في الأصل وم: مستبدع.

الأعداء؟ فنقولُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُعامِلُهُمْ مُعاملةَ الوَليِّ معَ وَليِّهِ الصَّفيِّ، ولم يَكُنْ يُعامِلُهُمْ بما يُعامِلُ بِهِ الأعداءَ لأنهُ كانَ يَدْعوهُمْ إلى ما فيهِ نَجاتُهُمْ وشَرَفُهُمْ في أمرِ دنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ. ومَنْ عاملَ آخَرَ مُعاملةَ أقْرَبِ الأصفياءِ معهُ كانَ الحقُّ عليهِمْ أنْ يُجازُوهُ بالإحسانِ. فإذا تَركوا ذلكَ، وقابَلوهُ بالتَّكذيبِ، اشْتَدَّ عليهِ، وحَزِنَ لِذلكَ.

ثم في قولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] إبطالُ قولِ مَنْ قالَ: إنَّ اللهَ تعالى لا يَفْعَلُ بعبدٍ إلّا ما هو أصلَحُ لهُ، لأنّا نَعْلَمُ أنهُ إذا أُذِنَ لِنَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ بالدعاءِ على اسْتِعْجالِ الهلاكِ، واسْتُجيبَ في ما دعا، كانَ فيهِ ما يَحْمِلُ القومَ على الإيمانِ، ويَرْدَعُهُمْ عنِ التَّكذيبِ، لأنهمْ يَخافونَ حُلولَ النِّقْمَةِ عليهِمْ، فَيَتْرُكونَ التَّكذيبَ، ويُقْبِلونَ على الإجابةِ، فيكونُ فيهِ نَجاتُهُمْ مِنَ الهلاكِ وشَرَفُهُمْ في أمرِ دنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ. فإذا لم يُؤذَنْ، دلَّ أنهُ ليسَ مِنْ شَرْطِ اللهِ تعالى أنْ يَفْعَلَ بِعبادِهِ ما هو أصْلَحُ لهمْ.

فإنْ قالَ[1]: كيفَ لم يُؤذَنْ بالدعاءِ عليهِمْ لِيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على الإسلامِ، ويَمْنَعَهُمْ عنِ التكذيبِ؟

قيلَ لهُ: لأنَّ في ما ذَكَرْتَهُ رَفْعَ المِحْنَةِ والابْتِلاءِ، لأنَّ الحُجَّةَ إذْ ذاكَ تَقَعُ مِنْ جهةِ الضرورةِ، لأنهمْ إذا عَلِمُوا أنهمْ يُسْتَأْصَلونَ بالتَّكذيبِ امْتَنَعوا عنهُ، وأجابوا إلى الإسلامِ كَرْهاً، فَتَصيرُ الحُجَجُ اضْطِراريَّةً لا تَمييزيَّةً واختياريَّةً، وحُجَجُ الرسلِ ﷺ اختياريَّةٌ لا ضروريَّةٌ لِما ذَكَرْنا أنها لو جُعِلَتِ اضطراريَّةً لَارْتَفَعَتِ المِحْنَةُ، فَجُعِلَتْ حُجَجُهُمْ مِنْ وجهٍ، تَقَعُ بها الشُّبَهُ لِيُوصَلَ إلى مَعْرِفتِها بالفِكْرِ[2] لئلا تَرْتَفِعَ المِحْنَةُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ أبا حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، ذَكَرَ في كتابِهِ (العالِمُ والمُتَعَلِّمُ) أنَّ إيمانَ الملائكةِ وإيمانَ الرسلِ وإيمانَنا واحدٌ، ثم قالَ: فإذا اسْتَوَيْنا نحنُ والرسلُ في الإيمانِ، فكيفَ صارَ الثوابُ لهمْ أكْمَلَ، وخوفُهُمْ مِنَ اللهِ تعالى أشَدَّ؟

فأجابَ[3] عنْ هذا السؤالِ بأجوبةٍ، وقالَ في جُمْلَةِ ما أجابَ: إنهمْ لوِ ارْتَكَبوا الزَّلّاتِ لَحَلَّ بهمُ العقابُ [عَقيبَ][4] الزَّلَلِ، فَصارَ خوفُهُمْ باللهِ تعالى ألزَمَ في هذهِ الجهةِ.

ولِسائلٍ أنْ يَسْأَلَ على هذا، فيقولَ: فإذَنْ إيمانُهُمْ باللهِ تعالى وتَرْكُهُمُ المعاصيَ ضروريٌّ أو اختياريٌّ؟ فيجابَ عنهُ [بوجهَيْنِ:

أحَدُهما:][5] بأنْ يُقالَ: إنَّ الأنبياءَ ﷺ لم تُبيَّنْ لهمُ العِصمةُ، بل كانوا على خوفٍ مِنْ وقوعِهِمْ في المَهالِكِ. ألا تَرى إلى قولِ إبراهيمَ ﷺ ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟ [إبراهيم: ٣٥].

ولو كانتِ العصمةُ ظاهرةً لكانَ يَسْتَغْني عنِ السؤالِ [بقولِهِ تعالى][6] في قصةِ شُعَيبٍ ﷺ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ /٦٠٧ ـ أ/ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

فَثَبَتَ أنهُ لم تُبيَّنْ لهمُ العصمةُ. ونحنُ إنما شَهِدْنا بالعصمةِ بالوُجودِ، لأنَّ الحكمةَ توجِبُ العِصْمةَ، والرسُلُ ﷺ أُمِروا بِتَبليغِ الرسالةِ، ولم يُؤذَنْ لهمْ بالنَّظَرِ في أمرِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ [مِنَ][7] الرسُلِ لِتَظْهَرَ لهمُ العِصْمَةُ بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ. فَيَثْبُتُ أنهمْ كانوا على الخَوفِ والرجاءِ في فَكاكِ أنفسِهِمْ وفي وقوعِها في المَهالِكِ، وأنَّ إيمانَهُمْ باللهِ تعالى لم يَكُنْ ضروريّاً، بل وَصَلوا إلى مَعْرِفَتِهِ تعالى بالتَّمْييزِ. لِذلكَ عَظُمَتْ دَرَجاتُهُمْ.

والثاني: أنَّ الأنبياءَ ﷺ قد كانَ تَقَرَّرَ في قلوبِهِمْ هيبَةُ اللهِ تعالى وعَظَمَتُهُ، فكانتِ المَعْرِفَةُ هي التي دَعَتْهُمْ إلى الإيمانِ بِهِ، لا خَوفُ حُلولِ العقوبةِ بهمْ لوِ ارْتَكَبوا الزَّلّاتِ.

وأمّا الكفرةُ فلم يَعْرِفوا عَظَمَةَ اللهِ ولا قُدْرَتَهُ ولا سُلْطانَهُ حتى يَحْمِلَهُمْ ذلكَ على الإيمانِ بِهِ.

فلو حَلَّتِ العقوبةُ بهمْ بالتَّكذيبِ لَكانَ الخَوفُ هو الذي يَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ لا غَيرُ، فَيَصيرُ إيمانُهُمْ ضَروريّاً، فلهذا

---

(١) في الأصل وم: قيل. (٢) من م، في الأصل: بالكفر. (٣) لعل المجيب أبو حنيفة أو أبو منصور المؤلف. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) ساقطة من الأصل وم.

لم يُعاقَبوا بالتَّكذيبِ لئلَّا تَرْتَفِعَ المِحْنَةُ، وخُولِفَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ غيرِهِمْ. وهذا كما يقولُ: إنَّ أنباءَ مَنْ[1] تَقَدَّمَ مِنَ الرسلِ حُجَّةٌ لِرسولِهِ ﷺ في إثباتِ نُبُوَّتِهِ، وإنْ كانتْ تلكَ الأنباءُ قد عَرَفَها أهلُ الكتابِ، وأُخْبِروا بها، لأنَّ أهلَ الكتابِ عَرَفوا تلكَ الأنباءَ بالتَّعَلُّمِ والتَّلَقينِ، ولم يَختَلِفْ رسولُ اللهِ ﷺ إلى مَنْ عِندَهُ عِلْمُ تلكَ الأنباءِ، فَعُلِمَ أنَّهُ باللهِ تعالى، عَلِمَ لا بِتَعْليمِ أحدٍ، فَصارَتِ الأنباءُ حُجَجاً لذلكَ، ولم تَصِرْ [بِغَيرِهِ][2] حُجَّةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: اهْجُرْهُمْ وقتَ سَبِّهِمْ ونِسْبَتِهِمْ إياكَ إلى ما لا يَليقُ بكَ، ولا تَعْبأْ بهِمْ، ولا تَكْتَرِثْ إليهِمْ وإلى ما يَتَقَوَّلونَ عليكَ لأنَّ بعضَ ما يَزْجُرُ المُتَقَوِّلَ والسابَّ عمّا هو فيهِ، هو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: أنِ انْقَطِعْ عنهُمُ انْقِطاعاً جميلاً، والِانْقِطاعُ الجميلُ ألّا يَتْرُكَ شَفَقَتَهُ عليهِمْ ولا يَدْعُوَ عليهِمْ بالهلاكِ ولا يَمْتَنِعَ عنْ دعائهِمْ إلى ما فيهِ رُشْدُهُمْ وصلاحُهُمْ، ولِذلكَ قالَ في وقتِ أذاهُمْ: «اللهمَّ اهْدِ قومي فإنهمْ لا يَعلمونَ» [الزبيدي في الإتحاف ٨/ ٢٥٨ وبنحوِهِ البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢١٥].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هَجْرُهُ إياهُمْ هَجْراً جميلاً، وهو ألّا يُكافِئَهُمْ بالسَّيِّئةِ، بل يدفعُ السَّيِّئةَ بالحسنةِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] إذْ ذلكَ أدْعَى لِلْخَلْقِ إلى إجابةِ مَنْ يَفْعَلُ ذلكَ بهِمْ عندَ المعاملةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم [مِنَ][3] الناسِ مَنْ يقولُ بأنَّ هذهِ الآيةَ نَسَخَتْها آيةُ السيفِ، ومنهمْ مَنْ قالَ بأنها لم تُنْسَخْ، وصَرَفوا تأويلَ الآيةِ إلى جهةٍ لا يَعْمَلُ عليها النَّسْخُ؛ وذلكَ أنَّ في قولِهِ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ مَنْعَ المُكافآتِ لأجلِ ما آذَوهُ، ولم يَفْرِضْ عليهِ[4] القتالَ لِيُكافِئَهُمْ بأذاهُمْ، ويَنْتَقِمَ منهمْ[5] بذلكَ، بل رَجَّحَ قتالَهُمْ إلى نُصْرَةِ الدينِ ولِتكونَ كلمةُ اللهِ، هي العُلْيا.

لِذلكَ لم يَكُنْ في آيةِ السيفِ ما يوجِبُ نَسْخَ هذا ولا نَسْخَ العملِ بقولِهِ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والجوابُ[6]: أنهُ ليسَ في قِتالِهِمْ انْتِقامٌ منهمْ، بل فيهِ ما يَدْعُو إلى الإيمانِ باللهِ تعالى ورسولِهِ.

وإذا آمَنوا بذلكَ نَجَوا مِنَ العقابِ، وفازوا بعظيمِ الثوابِ، فَيَصيرُ القِتالُ رَحْمةً لهمْ لا عقوبةً.

ووجهُ جَعْلِهِ رحمةً، هو أنهمْ إذا رَأَوا غَلَبةَ المُسْلِمينَ عليهِمْ معَ قِلَّةِ عددِهِمْ والضَّعْفِ الذي حَلَّ بأبدانِهِمْ لِاشْتِغالِهِمْ بعبادتِهِمْ رَبَّهُمْ وكَثْرَةَ عددِ المُشْرِكينَ معَ قوةِ أبدانِهِمْ أيْقَنوا أنهمْ لم يَنالوا الغَلَبَةَ بالحِيَلِ والأسبابِ، بلِ اللهُ تعالى، هو الذي قَوّاهُم عليهِمْ، وقامَ بِنَصْرِهِمْ؛ وتَقَرَّرَ عندَهُمْ كَونُ أهلِ الإسلامِ على الحقِّ.

وإذا أيقَنوا بالحقِّ [الْتَزَموهُ، فَيُحْرِزونَ][7] بهِ جَزيلَ الثوابِ وكريمَ المآبِ، فصارَ القِتالُ رحمةً لهم، لا أنْ يكونَ عليهِمْ عقوبةً لِسوءِ صَنيعِهِمْ.

وإذا كانَ كذلكَ بَقِيَ العملُ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ثابتاً باقياً.

وبهذا يُجابُ مَنْ سألَ، فقالَ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وفي القِتالِ تَرْكُ الرَّحمةِ، فكيفَ يَفْرِضُهُ[8] عليهِ؟ فَيُقالُ: إنْ ليسَ في القِتالِ تَرْكُ الرَّحمةِ، بل هو مِنْ أبْلَغِ الرَّحمةِ وتَمامِها، إذْ يَحمِلُهُمْ على الإيمانِ وتَرْكِ التَّكْذيبِ، وتَعْلُو منزلَتُهُمْ، ويَشْرُفُ قَدْرُهُمْ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وجوابٌ آخَرُ أنْ يُقالَ: إنَّ الحُجَّةَ في القِتالِ ليسَتْ في القَتْلِ، لأنهمْ إذا خافوا القِتالَ تَرَكوا التَّكْذيبَ، وأقبَلوا على الداعي. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ أنَّ القومَ قَبْلَ أنْ يُفْرَضَ عليهِمُ القِتالُ كانَ يدخُلُ الواحدُ منهمْ بعدَ الواحدِ في هذا الدينِ. فلمّا شُرِعَ القِتالُ جَعَلوا يدخُلونَ فيهِ فَوجاً فَوجاً وقَبيلةً قَبيلةً؟

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: عليهم. (٥) من م، في الأصل منه. (٦) في الأصل وم: وجوابه. (٧) في الأصل وم: التزموا فيحرزوا. (٨) في الأصل وم: يفرض.

ثم إباحةُ القَتْلِ تكونُ بالضرورةِ لأنهمْ إذا عَلِموا [أنهمْ][1] لا يُقْتَلونَ لم يَقَعْ لهمُ الخَوفُ بالقِتالِ، وإذا لم يَخافوا تَرَكوا الإجابةَ، فَشُرِعَ القَتْلُ[2] لِتَحقيقِ الخَوفِ، فلم يكُنْ [فيهِ][3] تَرْكُ الرَّحْمةِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفي إقامةِ القِصاصِ تَلَفُ النفسِ، ليسَ فيهِ إحياءٌ، ولكنَّ وجهَ[4] الإحياءِ فيهِ، هو أنَّ القاتلَ[5] إذا فَكَّرَ [أنهُ][6] قَتَلَ نَفْسَهُ بِقَتْلِ صاحبِهِ رَدَعَهُ ذلكَ عَنِ القَتْلِ، فيكونُ فيهِ إحياءُ النفسِ جميعاً، فَيَصيرُ إيجابُ القِصاصِ سَبَباً للإحياءِ في الحَقيقةِ، وإنْ كانَ في الظاهرِ سَبَباً لِلإتْلافِ.

فكذلكَ هؤلاءِ إذا أيْقَنوا بالقَتْلِ بامْتِناعِهِمْ عنِ الإجابةِ تركوا الامْتِناعَ، وأقْبَلوا على الإجابةِ، فيكونُ موضوعُ القَتْلِ للرَّحمةِ في التَّحقيقِ، وإنْ كانَ في الظاهرِ خارجاً مَخْرَجَ تَرْكِ الرحمةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ فيهِ أنَّ أهلَ الخِصْبَةِ والدَّعةِ، همُ الذينَ اشْتَغَلوا بالتَّكذيبِ، وهمُ الذينَ كانوا يَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ كما قالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وقالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ [سبإ: ٣٤] فَخَصَّ أولي النَّعْمةِ بالذِّكْرِ لهذا.

ثم في قولِهِ: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ إيهامٌ بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سَبَقَ منهُ المَنْعُ، ولم يوجَدْ مِنْ رسولِ اللهِ حَيلولةٌ ومَنْعٌ، ولكنَّ مثلَ هذا الخِطابِ موجودٌ في كتابِ اللهِ في غَيرِ آيةٍ[7] مِنْ كتابِهِ، وهو أنهُ يُخَرَّجُ مُخْرَجاً يُوهِمُ أنَّ هناكَ مُقَدِّمةً، وإنْ لم يكُنْ فيها مُقَدِّمةٌ في التَّحقيقِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] ولم يكُنْ فيهِ تَحقيقُ الوَضْعِ، وإنْ كانَ الرفْعُ يُسْتَعْمَلُ في الشيءِ الموضوعِ. وكانَ تأويلُ الرَّفْعِ ههنا بأنها خُلِقَتْ مَرْفوعةً، وقالَ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] ولم تكُنْ مرفوعةً، فَوَضَعَها، وكانَ مَعْناهُ: أنها خُلِقَتْ موضوعةً.

وقالَ يوسُفُ ﷺ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧] ولم يَسْبِقْ منهُ دخولٌ في دينِ أولئكَ، فيكونُ تاركاً لهُ بعدَ ما دَخَلَ فيهِ.

وقالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ولم يَقْتَضِ قولُهُ ﷻ: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ كونَهُمْ في النورِ فيُخْرِجونَهُمْ منهُ، وإنْ كانَ في الظاهرِ يُؤدِّي ذلكَ.

[فَعَلى ذلكَ][8] قولُهُ: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وإنْ كانَ في الظاهرِ يَقْتَضي حَيلولةً ومَنْعاً.

فليسَ في الحقيقةِ إثباتُ مَنْعٍ، ويُذْكَرُ غَيرُ هذا في سورةِ المُدَّثِّرِ[9].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومَعْناهُ: لا تُجازِهِمْ /٦٠٧ ـ ب/ بِصَنيعِهِمْ، ولا[10] تَسْتَعْجِلْ عليهِمْ بالدعاءِ ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقيلَ في الفَرْقِ بينَ النَّعْمةِ والنِّعْمةِ: إنَّ النَّعْمَةَ ما تُعْطى للعبدِ إرادةَ اسْتِدْراجِهِ فيها وهلاكِهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧] والنِّعْمَةَ هي[11] مِنَّةُ اللهِ تعالى على عبادِهِ تَفَضُّلاً عليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٢ و١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ قالَ ابنُ مَسْعودٍ ﵁: الأنكالُ، هي[12] السلاسلُ والقُيودُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجد. (٥) من م، في الأصل: القتل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) وهو قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [الآية: ١١]. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: هو. (١٢) في الأصل وم: هو.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: الأنكالُ ما يُنَكَّلُ بِهِ، ويُعَيَّرُ بِهِ غيرُهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦] تأويلُهُ: ما بَينَ يَديها مِنْ قُرىً، وما خَلْفَها مِنَ القُرى أيضاً.

فإنْ كانَ على ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ الأصَمُّ فقد يكونُ في الدنيا، ويكونُ مُنْصَرِفاً إلى يوم بَدْرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وكانَ الأوَّلُ أشْبَهَ. والجَحيمُ، هو مُعْظَمُ النارِ.

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةُ نُبُوَّةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ وآيةُ رسالَتِهِ لأنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ فإنَّ لهمْ لَدينا أنكالاً وجَحيماً، وإنما يُنَكَّلونَ، ويُعَذَّبونَ بالجَحيمِ إذا ماتُوا على الكُفْرِ.

ففيهِ إبانَةُ أنهمْ يَموتونَ، وهم كفارٌ. وعلى ذلكَ ماتوا، وخُتِمَ أمْرُهُمْ، ولم يُسْلِمْ منهمْ أحدٌ، فَيَخْرُجُ ما أخبَرَ عنْ غَيبٍ كما أخْبَرَ، وذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا باللهِ تعالى. فَثَبَتَ أنهُ لم يَخْتَرِعْهُ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، بل عَلِمَ باللهِ تعالى، وعِلْمُ الغَيبِ مِنْ أعظَمِ آياتِ رسالَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالذي يُغَصُّ [بِهِ][1] ولا يُقْدَرُ على ابْتِلاعِهِ، ليسَ بطعامٍ في الحقيقةِ. وقالَ: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤] فالحميمُ ليسَ بشرابٍ في التَّحقيقِ، ولكنْ سَمّى الأوَّلَ طعاماً لأنهُ يُمْضَغُ مَضْغَ الطعامِ. والصَّديدُ والحَميمُ يَسيلانَ سَيلَ الشَّرابِ، فَذَكَرَ في الأوَّلِ طعاماً وفي الثاني شراباً لهذا.

ولأنَّ الطعامَ اسْمٌ لِما يُطْعَمُ، فهو مطعومٌ، وإنْ كانَ كريهاً، والحميمُ مَشروبٌ، وإنْ كانَ في نفسِهِ كريهاً.

ثم الأصلُ أنَّ الكَفَرَةَ بِكُفْرِهِمْ تَرَكوا شُكْرَ نِعَمِ اللهِ تعالى وذِكْرَها[2]، وقابَلوها بالكُفْرِ، فأبدَلَ اللهُ تعالى لهمْ في الآخرةِ مَكانَ كلِّ نَعْمَةٍ[3] نِقْمَةً. ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾؟ [الإسراء: ٩٧] فأبدَلَهُمْ مَكانَ البَصَرِ عَمىً ومَكانَ السَّمْعِ صَمَماً لِتَرْكِهِمْ شُكْرَ ما أُنْعِموا مِنَ البَصَرِ والسَّمْعِ واللسانِ، وأبدَلَهُمْ مَكانَ اللِّباسِ قَطِراناً ومَكانَ المراكِبِ السَّحْبَ إلى النارِ على أقدامِهِمْ ووُجوهِهِمْ.

فكذلكَ أبْدَلَهُمْ مَكانَ الطعامِ والشرابِ زَقُّوماً وحَميماً لِتَرْكِهِمْ نِعَمَ اللهِ تعالى.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي رَمْلاً سائلاً. ففيهِ إخبارٌ عنْ شدةِ هَولِ ذلكَ اليومِ لأنَّ الجبالَ مِنْ أصلَبِ الأشياءِ وأشَدِّها في نفسها. ثم يبلُغُ هَولُ ذلكَ اليومِ مَبْلَغاً لا تَحْتَمِلُهُ الجبالُ معَ شِدَّتِها وصلابَتِها.

فإنَّ الإنسانَ الضَّعيفَ المَهينَ أنّى يقومُ لِشِدَّتِهِ وهَولِهِ، فَذَكَّرَهُمْ حالَ ذلكَ لِيَرْتَدِعوا، ويَنْتَهوا عمّاهُمْ عليهِ مِنَ التَّكذيبِ والضلالِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ قولُهُ: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: تأويلُهُ: مُبَيِّناً لكمْ[4] ما للهِ عليكمْ مِنَ الحقِّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي لكمْ وعليكُمْ جميعاً؛ فيكونُ على الكَفَرَةِ شاهداً بقولِهِ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩] ويكونُ للمؤمنينَ شاهداً، وقد يُذْكَرُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويُرادُ بهِ لكمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ لأنهمْ كانوا يَذْبحونَ لها لا عليها، وخَصَّ ذِكْرَ موسى ﷺ وفِرْعَونَ مِنْ بَينِ الجُمْلَةِ.

ففائدةُ ذِكْرِ التَّخصيصِ، هو، واللهُ أعلَمُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مَنْشَؤُهُ بَينَ ظَهْرانَي الذينَ كَذَّبوهُ، ولم يكونوا[5] وقَفوا منهُ على كِذْبَةٍ قطُّ، بل كانوا عَرَفوهُ بالصِّيانةِ والعَدالَةِ، وكانَ بِمَحَلٍّ يَرَونَهُ أهلاً للشهادةِ، فكيفَ يَنْسُبونَهُ إلى الكَذِبِ، ولم يَعْهَدوا ذلكَ منهُ؟ وكذلكَ موسى ﷺ كانَ نَشأ بَينَ ظَهْرانَي أولئكَ الذينَ أُرسِلَ إليهِمْ وكانوا عَرفوهُ بالصِّيانةِ والعَدالةِ، وعَرَفوا أنهُ يَصْلُحُ للشهادةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وذكره. (٣) انظر ما ذكر أبو منصور في الفرق بين النَّعْمَةِ والنِّعمةِ في تفسير الآية ١١. (٤) في الأصل وم: عليكم. (٥) في الأصل وم: يكن.

ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنهم أزْرَوا برسولِ الله ﷺ واستَصْغروهُ اعْتِباراً بما شَهِدوا مِنْ حالِهِ عندَ الصِّغَرِ، إذْ كانَ مَنْشَؤهُ فيهِمْ، فكذلكَ أزْرَوا بموسى ﷺ حينَ[1] بُعِثَ إليهِمْ، واستَخَفُّوا بهِ استِخْفافَهُمْ بهِ في حالةِ الصِّغَرِ حتى قالوا: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] فَنَزَلَ بهِمْ ما نَزَلَ بأولئكَ مِنَ الاستِئصالِ بِتَكْذيبِهِمْ إياهُ وإزرائِهِمْ بهِ، فَذَكَّرَهُمْ حالَ مُكَذِّبي موسى ﷺ وما نَزَلَ بهِمْ مِنْ مَقْتِ اللهِ تعالى بِتَكْذيبِهِمْ وإزرائِهِمْ ليَعْتَبِروا بهِ، فَيَنْقَلِعوا عنِ الإزراءِ لئلا يَحُلَّ بهِمْ ما حلَّ بأولئكَ ولئلا يَغْتَرُّوا بِقِواهُمْ وكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وأموالِهِمْ؛ فإنَّ مُكَذِّبي موسى ﷺ كانوا أكْثَرَ أموالاً وأولاداً وأعداداً وأشَدَّ بَطْشاً فلم يُغْنِهِمْ ذلكَ مِنَ اللهِ شيئاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ حَصَرَ ذِكْرَ موسى ﷺ وفِرْعَونَ، ونَبَأَهُما، لأنَّ خَبَرَهُ كانَ مُنْتَشِراً في ما بَيْنَ أهلِ مكَّةَ، لأنهمْ كانوا خَبَرَةَ اليهودِ والذينَ عندَهُمْ نَبَأُ موسى ﷺ لِيَنْتَهُوا عمّا هُمْ عليهِ مِنَ التَّكْذيبِ، ولأنَّ اللهَ تعالى إذْ يَحْتَجُّ بالحُجَجِ؛ ولَهُ أنْ يَحْتَجَّ عليهِمْ بِحَلِّها، إذْ في ذلكَ قَطْعُ الشُّبَهِ وإزاحةُ العُذْرِ، أو ذَكَّرَهُمْ نَبَأَ موسى ﷺ وقومِهِ لأنَّ العَهْدَ بهِ كانَ أقْرَبَ؛ إذْ قومُهُ كانوا آخِرَ قومٍ اسْتُؤصِلوا في الدنيا.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي شديداً، ومنهُ المَطَرُ الشديدُ، يُسَمَّى الوابِلَ. وقالَ أبو بكرٍ: اسْمٌ لكلِّ مُعْضِلةٍ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ فهو يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحَدُها: أي كيفَ تَتَّقونَ النارَ في الآخِرَةِ إذا سَلَكْتُمْ في الدنيا سَبيلَها، وهو الكُفْرُ، وأنتمْ تَعْلَمونَ أنَّ مَنْ سَلَكَ طريقاً لِشيءٍ، ولا مَنْفَذَ لِذلكَ الطريقِ [إلا إلى] ذلكَ الشيءِ، فإنهُ يَرِدُ عليهِ، لا مَحالَةَ؟.

[والثاني:][2] كيفَ تَتَّقونَ النارَ في الآخِرَةِ وقد تركْتُمُ القِيامَ بما عليكُمْ مِنْ شُكْرِ النِّعَمِ؟

[والثالثُ:][3] كيفَ تَتَّقونَ العذابَ في الآخِرَةِ، وأنتمْ تُدْفَعونَ إليها، وتُضْطَرّونَ بقولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وبقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وبقولِهِ: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧] وقد مُكِّنْتُمْ في الدنيا مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى ومُكِّنْتُمُ الانْتِهاءَ عنِ الكُفْرِ، ثم لم تَنْقَلِعوا عنهُ؟ فأنَّى يَتَهَيَّأُ لكُمُ المَخْلَصُ مِنْ عذابِهِ، وأنتمْ تُدْفَعونَ إليهِ، أو كيفَ تَنْتَفِعونَ بإيمانِكُمْ في الآخِرَةِ، ولم تُؤمِنوا في الدنيا، وقد مُكِّنْتُمْ منهُ؟

والأصلُ أنَّ دارَ الآخِرَةِ ليسَتْ بدارٍ لاسْتِحْداثِ الأسبابِ، وإنما هي دارُ وقوعِ المُسَبَّباتِ. فهمْ إذا لم يَسْتَحْدِثوا الأسبابَ التي جُعِلَتْ لِدَفْعِ العذابِ في الدنيا، لم يُمَكَّنوا مِنِ اسْتِحْداثِها في الآخِرَةِ، فَيَنْتَفِعوا بها /٦٠٨ ـ أ/ ولم يكونوا أهلاً لوقوعِ المُسَبَّباتِ لِما لم يَسْتَحْدِثوا الأسبابَ في الدنيا، وإنما قُلْنا: إنها ليسَتْ بدارِ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٍ لأنَّ المِحْنَةَ لاسْتِظْهارِ الخَفِيّاتِ، والثَّوابُ والعِقابُ قد شوهِدَ، وعويِنَ.

فإذا قيلَ لهُ: إذا فَعَلْتَ كذا دَخَلْتَ النارَ، وهو يُعايِنُ النارَ، ويَراها، فهو يَمْتَنِعُ عنِ الإقدامِ على ذلكَ الفِعْلِ.

وإذا قيلَ لهُ: إذا آمَنْتَ باللهِ أُكْرِمْتَ بالجنةِ، وهو يُشاهِدُ الجنةَ، ويَراها، فهو يُؤمِنُ، لا مَحالةَ، فلا وجهَ لِلابْتِلاءِ في الآخِرَةِ، بل هي دارُ المُسَبَّباتِ، يعني الثوابَ والعِقابَ.

والذي يَدُلُّ على هذا قولُهُ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ فأخبرَ أنهمْ يَشيبونَ لا بِسَبَبِ المَشيبِ، والمَشيبُ في الدنيا لا يوجدُ إلّا بَعْدَ وجودِ سببِهِ، وهو الكِبَرُ، لِيُعْلَمَ أنَّ الدارَ الآخِرَةَ ليسَتْ بدارِ اسْتِحْداثِ الأسبابِ في ما يَسْتَحْدِثونَ مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى، لا يَنْفَعُهُمْ في ذلكَ اليومِ، ولا يَقيهِمْ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا على التَّحْقيقِ، فَشَيْبُ الوِلدانِ لِهَولِ ذلكَ اليومِ وشِدَّةِ هَولِهِ، يُصَيِّرُ الشَّيبَ سُكارى لِشِدَّةِ هَولِهِ كما قالَ: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: الأزلي. (٣) في الأصل وم: أو.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التمثيلِ، فَمَثَّلَهُ بهِ لِعِظَمِ ذلكَ اليومِ وشِدَّةِ هَولِهِ. وقد يجوزُ أنْ يُمَثَّلَ الشيءُ بما يَبْعُدُ عنِ الأوهامِ تَحْقيقُهُ على تَعْظيمِ ذلكَ الشيءِ كقولِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١] فَذَكَرَ هذا على التَّمثيلِ لِعَظيمِ ما قيلَ فيهِ لا على تَحْقيقِ الانفِطارِ والانْشِقاقِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ أنهُ لولا أنَّ اللهَ تعالى بَعَثَهُمْ لِلإبقاءِ وألّا يَتَغَيَّروا ولا يَتفانَوا، و إلّا كانَ هَولُ ذلكَ اليومِ يَبْلُغُ مَبلَغاً يَشيبُ بهِ الولدانُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بما يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً، وهو هَولُ ذلكَ اليومِ وشِدَّةُ فَزَعِهِ، أو مُنْفَطِرٌ بالغَمامِ. وقيلَ: مُنْفَطِرٌ باللهِ أي بِقضائِهِ وحُكْمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ: ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ ولم يَقُلْ مُنْفَطِرَةٌ، والسماءُ مؤنثٌ، فَذَكَرَ الزَّجاجُ أنَّ مَعْنَى قولِهِ: ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي ذاتُ انْفِطارٍ، فَعَبَّرَ بِهِ كما يُعَبَّرُ عنِ الذكورِ كما يُقالُ: امرأةٌ مرضِعٌ، أي ذاتُ إرضاعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أيِ الذي وقَعَ بهِ الوعدُ مَفعولٌ، لا أنْ يكونَ الوَعْدُ هو المَفْعولَ. فكذا قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] والوَعْدُ لا يُؤْتَى بلِ المَوْعودُ هو الذي يُؤتَى، ولكنْ نَسَبَ المَوْعودَ إلى الوَعْدِ لأنهُ مِنْ آثارِهِ. وهذا كما يُقالُ: المَطَرُ رَحمةُ اللهِ أي برحمةِ اللهِ ما أمْطَرَ لا[1] أنْ يكونَ المَطَرُ بِرَحْمتِهِ، ويُقالُ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ [أي بأمرِ اللهِ][2] ما تُقامُ لا أنْ تكونَ أمْرَهُ الذي يُوصفُ بهِ، فكذلكَ المَوعودُ نُسِبَ إلى الوَعْدِ؛ إذْ بالوَعْدِ استَوجَبوا لا أنْ يكونَ الوَعْدُ، هو المَفْعولُ، وهو المَأتِيُّ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ مُنْصَرِفاً إلى الأهوالِ التي ذَكَرَها [فيكونُ ذِكْرُها][3] تَذْكِرَةً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَنْصَرِفَ إلى الرِّسالةِ أي رسالةِ محمدٍ ﷺ ويَحْتَمِلُ [أنْ تكونَ][4] هذهِ السُّوَرُ أوِ الآياتُ كلُّها تذكرةً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إلى ما دَعاهُ إليهِ ربُّهُ؛ وذلكَ يكونُ بالإجابةِ إلى[5] ما دعاهُ إليهِ، أو مَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى ما وَعَدَ لهُ ربُّهُ في الآخرةِ سبيلاً في أنْ يُقْبِلَ على طاعتِهِ، ويَشْغَلَ نفسَهُ بعبادتِهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ قالَ أبو عُبَيدٍ: الصوابُ أنْ يُقرَأَ: ونِصْفِهِ وثُلُثِهِ بالخَفْضِ[6] على مَعْنى إضافةِ أدْنى إليهما؛ فكأنهُ يقولُ: إنَّ ربَّكَ يَعْلَمُ أنكَ تقومُ أدنى مِنْ ثُلُثَيِ الليلِ وأدنى مِنْ نِصْفِهِ [وأدنى مِنْ ثُلُثِهِ][7] وأدنى يكونُ على الزيادةِ والنُّقْصانِ جميعاً، لأنَّ فَضْلَ ما بَيْنَ الثُّلُثِ إلى النِّصْفِ، هو السُّدُسُ. فإذا زادَ على الثُّلُثِ أقَلَّ مِنْ نِصْفِ السُّدُسِ، فهو إلى الثُّلُثِ أدْنَى، وكذلكَ إذا نَقَصَ مِنَ الثُّلُثِ شيئاً قليلاً، فهو إلى الثُّلُثِ قريبٌ، فيكونُ إليهِ أدْنَى.

وكذلكَ الفَضْلُ في ما بَيْنَ النِّصْفِ إلى الثُّلُثَيْنِ، هو السُّدُسُ، فإذا زادَ على النِّصفِ أكثَرَ مِنْ نِصْفِ السُّدُسِ، فهو إلى الثُّلُثَيْنِ[8] أدْنَى، وإذا نَقَصَ مِنْ نِصْفِ السُّدُسِ، فهو إلى النِّصْفِ أدْنَى وأقْرَبُ.

ومنهمْ مَنِ اختارَ النَّصْبَ فيهما، والوجهانِ جميعاً مُحْتَمَلانِ، لأنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ﴾ ليسَ فيهِ إيجابُ حُكْمٍ مُبْتَدَإٍ، وإنما فيهِ إخبارٌ عنِ القيامِ الذي وُجِدَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

فجائزٌ أنْ يكونَ وُجِدَ منهُ ذلكَ كلُّهُ، وهو أنْ يكونَ قريباً مِنَ الثُّلُثَيْنِ وقريباً مِنَ النِّصفِ وأدنى مِنَ الثُّلُثِ على ما ذَكَرَهُ أهلُ المقالةِ الأولى، ويكونَ قد قامَ أدنى مِنْ ثُلُثَيِ الليلِ، وقامَ نِصْفَهُ وثُلُثَهُ وأدنى مِنْ نِصْفِهِ وأدنى مِنْ ثُلُثِهِ، فَذَكَرَ في الثُّلُثَيْنِ الأدْنَى لِما وُجِدَ منهُ الأدْنَى مِنْ جِهةِ الزيادةِ والنُّقْصانِ، ولم تُوجَدْ مُوافَقةُ الثُّلُثَيْنِ.

---

(١) في الأصل وم: وإلا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: في. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٢٥٥. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: الاثنين.

وأخبرَ بالنِّصفِ والثُّلُثِ بالأمْرينِ جميعاً لِوُجودِ المُوافقةِ، وهو أنْ يكونَ قامَ نِصفَ الليلِ، وقامَ ثُلُثَهُ، وقامَ أدنَى مِنَ النِّصفِ وأدنَى مِنَ الثُّلُثِ.

وإذا كانَ هذا كلُّهُ مُحتَمَلاً، لم يَجُزْ أنْ يُدْفَعَ أحدُ الوجهَينِ، ويُتَمَسَّكَ بالوجهِ الآخرِ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فَقُرِئَ بِرَفْعِ[1] التاءِ ونَصْبِهِ جميعاً لِما وُجِدَ الأمرانِ جميعاً؛ وهو أنْ يكونَ موسى ﷺ وفِرعَونُ عَلِمَا [بها][2] أي بالآياتِ جميعاً.

وكذلكَ قولُهُ[3] في سورةِ سَبَإٍ: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [الآية: ١٩] وقُرِئَ رَبُّنا باعَدَ[4] لوجودِ الأمْرينِ جميعاً، وهما[5] الدعاءُ والإجابةُ. فقولُهُ ﷺ: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ دعاءٌ، وقولُهُ: رَبُّنا باعَدَ على الإجابةِ، فَفَرَّقَ بَينَهما بالإعرابِ، فكذلكَ ههنا لِما اسْتقامَ وجودُ الوجهَينِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ استقامَ أنْ يُقرأَ بالنَّصْبِ والخَفضِ جميعاً، ويُفَرِّقُ بَينَهما بالإعرابِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ المَفروضُ مِنَ القِيامِ قَدْرَ ثُلُثِ الليلِ، وتكونَ الزيادةُ [بِحُكمِ النافلةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ][6] كلُّهُ مَفروضاً، وإنْ طالَ، وزادَ على الثُّلُثِ والنِّصفِ والثُّلُثَينِ[7]. فإنْ كانَ [فإنهُ][8] يجوزُ لهُ الاقْتِصارُ على ثُلُثِ الليلِ.

ألا تَرَى أنَّ فَرْضَ الرُّكوعِ والسُّجودِ يُقْضَى[9] بإدراكِ جُزْءٍ منهُ؟ وكذلكَ فرضُ القيامِ [يُقْضَى][10] بالجُزْءِ منهُ.

ثم إنَّ الركوعَ وإنْ طالَ، فهو مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ فَرْضٌ حتى لَوْ أنَّ داخلاً شارَكَهُ في أوَّلِ الركوعِ، ثم رَفَعَ رأسَهُ، وشارَكَهُ ثالثٌ في آخِرِ ركوعِهِ، ثم رَفَعَ رأسَهُ معَ الإمامِ، صارَ [كلٌّ][11] واحدٍ منهمْ مُدْرِكاً لِفَرْضِ الركوعِ، وإنْ كانَ الإمامُ، لَوِ اقْتَصَرَ على جُزْءٍ منهُ، كفاهُ ذلكَ عنْ فَرْضِهِ.

فكذلكَ الفَرضُ لمّا انْصَرَفَ إلى قيامِ الليلِ، فصارَ جميعُ ما يُؤتَى مِنَ القيامِ في الليلِ، وإنْ طالَ، فَرْضاً، وإنْ كانَ قد يجوزُ الاجْتِزاءُ ببعضِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ في هذهِ الآيةِ وفي قولِهِ ﷺ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ فَرْضَ القِيامِ كانَ على النَّبيِّ ﷺ وعلى مَنْ تَبِعَهُ مِنَ المؤمنينَ، وإنْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ هو المَخصوصَ بالخِطابِ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ لأنهُ لو لم يَكُنِ /٦٠٨ ـ ب/ الفَرْضُ شاملاً عليهِمْ لم يكُنْ لقولِهِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ مَعْنىً.

ألا تَرَى أنهُ إذا لم يُفْرَضْ علينا قيامُ الليلِ في يومِنا هذا لم نَحْتَجْ في تَرْكِ القيامِ إلى أنْ يتوبَ اللهُ علينا؟

ثم إنَّ اللهَ تعالى، ذَكَرَ في التَّوبةِ[12] وفي ما فيهِ النَّسْخُ خِطاباً يجمعُ الجميعَ بقولِهِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ وبقولِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [وذَكَرَ][13] في ما فيهِ الأمرُ خِطاباً يَقْتَضي الآحادَ، وهو قولُهُ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [الآيتان ٢و٣] ففي هذا أنهُ قد يجوزُ أنْ يُخاطِبَ النَّبيَّ ﷺ على إدخالِ غيرِهِ فيهِ تَبَعاً لهُ، ولا يجوزُ أنْ يُخاطِبَ غيرَ النَّبيِّ ﷺ ويُرادَ بهِ[14] النَّبيُّ ﷺ في ذِكْرِ الخِطابِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو المَتبوعُ.

فجائزٌ إلحاقُ غَيرِهِ بهِ، وغَيرُهُ لا يكونُ مَتبوعاً حتى يَلْحَقَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ففيهِ أنَّ الليلَ والنهارَ، ليسا يَمْضِيانِ على الجُزافِ، ولكنْ بِتَقديرٍ سَبَقَ مِنَ اللهِ ﷻ وآيةُ ذلكَ ظاهرةٌ[15] لأنهما يَجْرِيانِ مُذْ خُلِقا على تَقْديرٍ واحدٍ، لم يَتَقَدَّما، ولم يَتَأخَّرا، ولم يُنْقَصا، ولم يُزادا، فيكونُ فيهِ إبانةُ أنَّ مُدَبِّرَهما واحدٌ وأنَّ[16] الذي قَدَّرَهما هكذا مَنْ لا يَبيدُ مُلْكُهُ، ولا يَنْفَدُ سُلْطانُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عَلِمَ أنْ لَنْ تُطيقوهُ. قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: هذا لا يَسْتَقيمُ، لأنهُ جائزٌ أنْ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٤٠. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: قال. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ١٥٥. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: يقتضي. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: التورية. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: غير. (١٥) في الأصل وم: ظاهر. (١٦) من م، في الأصل: ولأن.

يُكَلِّفَهُمُ اللهُ تعالى ما لا يُطيقونَهُ. ألَا تَرى إلى قولِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؟ [البقرة: ٢٨٦]. وليسَ في ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ ما يَرْفَعُ هذا التأويلَ لأنهُ يُقالُ: الأمرُ إذا اشْتَدَّ، وتَعَسَّرَ، لا يُطاقُ هذا الأمرُ، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ خارجاً مِنَ الوُسْعِ.

ألَا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾؟ [البقرة: ٢٨٦] وتأويلُهُ: لا تُحَمِّلْنا أمراً يَشْتَدُّ علينا عملُهُ، ليسَ أنهمْ خافوا أنْ يُحَمِّلَهُمْ أمراً لا يَحْتَمِلُهُ وُسْعُهُمْ، فيكونُ قولُهُ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ إنْ كانَ تأويلُهُ: أنْ لنْ تُطيقوهُ، على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي لا تُحَمِّلْنا أمراً يُهْلِكُ طاقَتَنا: لا أنْ يُحَمِّلوا أمراً لا يُطيقونَهُ، ألَا تَرى الإنسانَ يَحْتَمِلُ القَتْلَ؟ ولكنَّ قَتْلَهُ يُهْلِكُ طاقَتَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي اعْصِمْنا مِنَ الشَّهَواتِ واللَّذّاتِ لئِلا نُؤْثِرَها، فنكونَ مُضَيِّعينَ بارْتِكابِها قوةَ الفعلِ الذي تُعَبِّدُنا بهِ، فلا نَصِلُ إلى فِعْلِهِ. وهذهِ، هي القوةُ التي لا تُزايِلُ[1] الفعلَ، بل تُطابِقُهُ. وأمّا الفعلُ الذي هو خارجٌ عنِ احْتِمالِ الوُسْعِ والطاقةِ فذلكَ هو الذي لا يقعُ بِمِثْلِهِ التكليفُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لنْ تُحْصوا حَدَّ[2] ما أَمَرَكُمْ بهِ؛ لو حَدَّ[3] عليكُمْ في أمرٍ بِتَقْديرِ الثُّلُثِ والنِّصْفِ، لم يُمْكِنْكُمْ ذلكَ إلّا بَعدَ جَهْدٍ، فَفَرَضَ عليكُمْ قيامَ الثُّلُثِ مِنَ الليلِ، وجَعَلَ لكمُ الإمكانَ في أنْ تَزيدوا عليهِ، فَيُحيطَ[4] عَمَلَكُمْ بِقيامِ الثُّلُثِ، ولو كانَ على حَدٍّ واحدٍ لم يُمْكِنْكُمْ حِفْظُهُ[5] إلّا بَعدَ شِدَّةٍ وجَهْدٍ، وفي ذلكَ كُلْفَةٌ عَسيرةٌ.

ويُؤَيِّدُ هذا تأويلُ مَنْ قالَ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لَنْ تُطيقوهُ، وتكونَ الطاعةُ عبارةً عنِ التَّعسيرِ واشْتِدادِ الأمرِ.

ثم في الآيةِ دلالةٌ على إباحةِ تَعْليقِ الحُكْمِ بالاسْتِحْسانِ لأنهُ قد فَرَضَ عليهمْ قيامَ ثُلُثِ الليلِ، ولا يُمْكِنُهُمْ تدارُكُ الثُّلُثِ بِتَقْديرِ الإحاطةِ. وإنما يُمْكِنُهُمْ بالتَّقْديرِ الذي يَغْلِبُ على القَلْبِ. فَثَبَتَ أنهُ قد يجوزُ أنْ يكونَ الحُكْمُ مُعْتَبَراً بِما يَقَعُ في القلوبِ، ويَغْلِبُ على الظُّنونِ، والاسْتِحْسانُ ليسَ إلّا تعليقَ الحُكْمِ بما يَغْلِبُ على القلوبِ.

والذي يَدُلُّ على أنَّ الحكمَ يُلازِمُ بِما ذَكَرْنا أنَّ اللهَ تعالى ألْزَمَ الحَدَّ على القاذِفِ وعلى[6] الزاني، ولم يُبَيِّنْ مَبْلَغَ وقوعِ الضربِ فيهِ ولا ما يُضْرَبُ بهِ، فَقَدْرُ ذلكَ بما يَقَعُ في القلوبِ أنَّ مِثْلَ هذا الضَّرْبِ يَصْلُحُ لِمِثْلِ هذهِ الجِنايةِ، وكذلكَ قِيَمُ الأشياءِ والأرُؤُسِ والنَّفَقاتِ وتَسْويةُ المَكاييلِ والمَوازينِ، يُعْتَبَرُ ذلكَ كلُّهُ بِغَلَبَةِ الظُّنونِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ لِشَيءٍ مِنْ ذلكَ أصلٌ تُقَدَّرُ النوازلُ بهِ، وتُنْتَزَعُ منهُ.

فَثَبَتَ أنهُ يجوزُ أنْ يُحْكَمَ بالذي يَغْلِبُ على الظنونِ، وأنَّ المجتهدَ يرجِعُ إلى وجهَينِ: مَرَّةً يَنْظُرُ [في][7] غيرِهِ، فَيَتَمَثَّلُ بهذا، فَيُسَمّي ذلكَ قياساً، ومَرَّةً يَحْكُمُ فيها بما يَغْلِبُ على الظنونِ، فَيُسَمّي ذلكَ اسْتِحْساناً.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ سؤالَ مَنْ يَسْألُ أبا حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنَّ الوِتْرَ لو كانَ لهُ مُشابهةٌ في الفَرْضِ لكانَ لا يُخْتَلَفُ بِعَدَدِهِ سؤالٌ غَيرُ مُسْتقيمٍ، لأنهُ قد فَرَضَ على القومِ أنْ يَقوموا ثُلُثَ الليلِ. وقد أخْبَرَ ﷻ أنهمْ لا يُحْصُونَ حَدَّ ما أمَرَهُمْ بهِ. وإذا لم يُحْصُوا، فلا بُدَّ أنْ يَقَعَ هناكَ زيادةٌ أو نُقْصانٌ. فكذلكَ الوِتْرُ، وإنْ كانَ حَدُّ عَدَدِهِ غَيرَ معروفٍ، وهو لا يُخْرِجُهُ عن حُكْمِ الفَرائضِ، واللهُ أعلَمُ، في قولِهِ ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هو أنَّ اللهَ تعالى وَقَّتَ ما فَرَضَ عليهمْ عَلِمَ أنهمْ لا يُحْصونَهُ، ولكنْ بَيَّنَ هذا لِيَعْلَموا أنَّ اللهَ تعالى إنْ يُكَلِّفْهُمْ إقامةَ العبادةِ إلى وقتٍ لا يَتَهَيَّأُ لهمْ إحاطةُ مَبْلَغِ ذلكَ الوقتِ إلّا بَعدَ جهدٍ لِيَعْرِفوا مِنَّةَ اللهِ عليهمْ إذا أسْقَطَ عنهمْ ذلكَ التَّكْليفَ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿الْـَٔانَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] ولكنْ ذَكَرَ هذا لِيَعْلَموا أنهمْ يُكَلَّفونَ القِيامَ لِلْعُسْرَةِ، وإنْ كانَ بهمْ ضَعْفٌ، لكنْ إذا خَفَّفَ عنهمْ عَرَفوا ما للهِ عليهمْ مِنْ عظيمِ المِنَّةِ.

---

(١) من م، في الأصل: يزال. (٢) في الأصل وم: أخذ. (٣) في الأصل وم: أخذ. (٤) في الأصل وم: فيحبط. (٥) في الأصل وم: حفظ.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة م الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ طائفةٌ منهمُ امْتَنعوا عنِ القيامِ، فتكونَ التَّوبةُ راجعةً إليهِمْ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾؟ فهذا يُبيِّنُ أنهمْ جميعاً لم يقوموا معهُ، وإنما قامَتْ طائفةٌ، فتكونُ التَّوبةُ راجعةً إلى الطائفةِ التي امْتَنَعَتْ عنِ القيامِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ راجعةً إليهِمْ وإلى الذينَ قاموا معهُ، فيكونَ الذينَ قاموا معهُ قَصَّروا القِيامَ عنِ الحَدِّ الذي شَرَطَ عليهِمْ، فافتقَروا إلى التَّوبةِ أيضاً كما افتقَرَ إليها[1] مَنْ تَخلَّفَ عنِ القِيامِ فَتابَ اللهُ عليهِمْ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ قيامَ الليلِ صارَ مَنْسوخاً بهذهِ الآيةِ، ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنَّ النسخَ وَقَعَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الصلاةُ المَفروضةُ، وليسَ بَينَهما فَرقٌ عندَنا. وإنما نُسِخَ بها جميعاً.

وَوَجْهُ النَّسْخِ، هو بالاِقْتِصارِ أنَّ فَرْضَ القيامِ لو كانَ باقياً لكانَ لا يجوزُ لهمْ أنْ يَكْتَفُوا مِنَ القراءةِ بما يَتَيَسَّرُ عليهِمْ لأنهمْ إذا قاموا إلى ثُلُثِ الليلِ لَزِمَهُمْ تبليغُ القراءةِ إلى حدٍّ يَتَعَسَّرُ عليهِمْ، ويَشْتَدُّ.

فإذا أَذِنَ بالاِقْتِصارِ على القَدْرِ الذي تَيَسَّرَ، عُلِمَ أنهُ قد سَقَطَ عنهمْ أنْ يَقوموا ثُلُثَ الليلِ.

ثم هو إذا أقامَ صلاةَ / ٦٠٩ - أ/ المَغرِبِ والعِشاءِ قد قَرَأَ مِنَ القرآنِ ما تَيَسَّرَ عليهِ، فصارَ قاضِياً لِما اقْتَضاهُ قولُه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾.

فَمِنْ هذا الوجهِ اسْتَدَلُّوا بهذهِ الآيةِ على نَسْخِ حُكْمِ القيامِ بالليلِ.

ثم هذهِ القراءةُ يُقيمُها في الصلاةِ، فيكونُ النَّسْخُ واقعاً بهما.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يَزْعُمُ أنَّ فَرْضَ القيامِ سَقَطَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعنْ أُمَّتِهِ، واسْتَدَلَّ بقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] وإنْ كانَ الفَرْضُ عليهِ قائماً لم يكُنِ التَّهَجُّدُ بهِ نافلةً.

ومنهمْ مَنْ زَعَمَ أنهُ لم يَسْقُطْ عنهُ فَرْضُ القيامِ، بل دامَ عليهِ إلى أنْ قُبِضَ ﷺ واحتَجَّ بما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «كُتِبَ عليَّ قيامُ الليلِ، ولم يُكْتَبْ عليكُمْ» ومَعْناهُ: بَقِيَ عليَّ مكتوباً، ورُفِعَ عنكُمْ، إذْ دَلَّلْنا أنَّ القيامَ في الاِبْتِداءِ كانَ عليهِ وعليهِمْ جميعاً.

وقد قالَ بعضُ الناسِ: إنَّ صلاةَ الليلِ، لم تكُنْ فرضاً على أُمَّتِهِ بهذا الحديثِ، وما ذَكَرْناهُ حُجَّةٌ عليهِمْ.

ثم الجوابُ عنِ التَّعلُّقِ [بقولِهِ:][2] ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ مَعْناهُ: غَنيمةٌ لكَ، لا أنْ يكونَ القيامُ منهُ تَطَوُّعاً. ووجهُ صَرْفِهِ إلى الغَنيمةِ، هو[3] أنَّ العبادةَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الشكرِ للهِ تعالى، فَيصيرُ بها مُكْتَسِباً للفضيلةِ، وليسَ يَقَعُ ذلكَ موقِعَ التَّكْفيرِ للسَّيِّئاتِ، لأنهُ تعالى قد غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ، وما تأخَّرَ، فلم يكنْ يَحتاجُ إلى إتيانِ الحسناتِ لِتُكَفِّرَ عنهُ السَّيِّئاتُ. فَثَبَتَ أنَّ الفِعْلَ منهُ يقعُ مَوقِعَ اكْتِسابِهِ الفضيلةَ، فتدومُ لهُ تلكَ الفضيلةُ، ويَسْتَوجِبُ بها جزيلَ الثوابِ، وذلكَ مِنْ أعظَمِ الغَنائمِ.

والذي يدلُّ على أنَّ قولَهُ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الشُّكْرِ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «[أنهُ قامَ][4] حتى تَوَرَّمَتْ قدماهُ، فقيلَ له: يا رسولَ اللهِ ألَمْ يَغْفِرْ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟ فقالَ ﷺ: أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟» [البخاري ١١٣٠ ومسلم ٢٨١٩ و٢٨٢٠].

وأمّا غَيرُهُ فإنَّ الحَسَناتِ منهمْ مُكَفِّرةٌ لِسَيِّئاتِهِمْ ومُطَهِّرةٌ لِزَلَّاتِهِمْ بقولِهِ[5] تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] فهمْ بِحَسناتِهِمْ لم يَصيروا مُكْتَسِبينَ الفضيلةَ في مُسْتَأنَفِ الأوقاتِ، فَيَصيروا فيها مُغْتَنِمينَ، بل رَفَعوا زَلَّاتِهِمْ، وطَهَّروا أنفسَهُمْ مِنَ المآثمِ، فلم تَصِرِ القُرْبةُ منهمْ [نافلةً][6] واللهُ أعلَمُ. فلهذا [ما سَمّى تَهَجُّدَهُ نافلةً][7] لا أنْ يكونَ قيامُهُ نَفْلاً.

---

(١) في الأصل وم: إليهم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قال الله. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فمنهمْ مَنْ زَعَمَ أنَّ هٰذهِ السورةَ كلَّها مكيةٌ، ومنهمْ مَنْ زَعَمَ [أنَّ](١) أوّلَها مكيةٌ، وآخِرَها مدنيةٌ.

ويَحْتَجُّ هؤلاءِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وبقولِهِ تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذلكَ لأنَّ(٢) الجِهادَ فُرِضَ على المسلمينَ بعدَ الهجرةِ إلى المدينةِ، ولم يوجَدْ منهُمُ الضَّرْبُ في الأرضِ في حالِ كونِهِمْ بمكةَ، وفي هذا إخبارٌ عن جهادِ طائفةٍ وعن ضَرْبِ بعضٍ في الأرضِ؛ فَثَبَتَ أنَّ نزولَ هذهِ الآياتِ كانَ(٣) بالمدينةِ. واحْتَجوا أيضاً بقولِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقالوا(٤): إنَّ الزكاةَ إنما فُرِضَتْ عليهمْ بعدَ ما هاجَروا إلى المدينةِ، وفي هذا أمرٌ بإيتاءِ الزكاةِ؛ فَثَبَتَ أنَّ نزولَها كانَ(٥) بالمدينةِ.

وأمّا أوّلُ السورةِ فهو(٦) في مَوضعِ المُحاجَّةِ على أهلِ الشِّرْكِ، ولم يكنْ بالمدينةِ مُشْرِكٌ، بل [كانَ أهلُها](٧) أهلَ كتابٍ.

ومَنْ ذَكَرَ أنها كلَّها مكيةٌ، فهو يَحْمِلُ قولَهُ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الوَعْدِ والبِشارةِ، ليسَ على الإيجابِ والوجوبِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أخبَرَ(٨) أنهُ سيكونُ منهمْ(٩) مَرْضَى لا أنْ كانوا مَرْضَى ذلكَ الوقتَ، فلم يكُنْ في ما ذَكَرَ دلالةُ كونِها مدنيةً.

ثم الآيةُ، إنْ كانتْ على الوعدِ، ففيهِ أنهمْ كانوا في ضيقٍ مِنَ العيشِ، وكانوا مِنَ القولِ(١٠) في خَوفٍ، فيكونُ فيهِ بشارةُ أنهُ يرفَعُ عنهُم الضيقَ بما يضربونَ في الأرضِ، ويُوَسِّعُ عليهمُ العيشَ، وأنهُ يَفْتَحُ لَهُمُ(١١) الفتوحَ، ويُكَثِّرُ أنصارَهُمْ حتى يُقْهِروا العَدُوَّ، ويَقَعَ لهمْ مِنْ ناحِيَتِهِمُ الأمنُ، وقد آلَ الأمرُ إلى ما بُشِّروا بهِ؛ ففيهِ آيةُ رسالتِهِ ﷺ إذْ أخبَرَهُمْ عن عِلْمِ الغيبِ وكانَ الأمرُ على ما أخْبَرَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ في مَوضعِ الاعْتِلالِ؛ إنهُ إنما خَفَّفَ عليهمُ الأمرَ مِنَ الاعْتِذارِ مِنَ المَرضِ والضربِ في الأرضِ والمُجاهدةِ في سَبيلِ اللهِ. والتَّخفيفُ إذْ أوجَبَ العُذْرَ؛ فما لم يُلاقِ العذرُ حالةَ الفِعْلِ لم يُخَفَّفْ، فكيفَ خَفَّفَ عنهمْ قبلَ وقوعِ الأعذارِ؟ ولكنَّ هذهِ الأعذارَ، وإنْ تَخَفَّفَتْ هي، فلا(١٢) تلاقي الفعلَ، بل تَتَقَدَّمُهُ، لأنَّ المُجاهدةَ تكونُ بالنهارِ لا بالليلِ، وكذلكَ الضَّرْبُ في الأرضِ، وقتُهُ النهارُ لا الليلُ، والقيامُ كانَ بالليلِ، ليسَ بالنهارِ، ثم قد وُضِعَ عنهمْ قيامُ الليلِ، وإنْ لم يَكُنِ العذرُ مُلاقِياً القيامَ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يَرْفَعَ عنهمُ القِيامَ بالليلِ، وإنْ [لم](١٣) يأتِ بَعدُ وقتُ المُجاهدةِ، ولا كانَ الضَّرْبُ موجوداً، إذْ ليسَ في ذلكَ كلِّهِ إلّا عَدَمُ مُلاقاةِ العُذْرِ حالةَ القيامِ، وَجْهُ رَفْعِ قيامِ الليلِ عنهمْ بالمُجاهدةِ والضربِ في الأرضِ، وإنْ كانا يَحْصُلانِ بالنهارِ لا بالليلِ، لأنَّ(١٤) المُجاهدةَ بالنهارِ تُضَيِّعُهُمْ، وتُوهِنُ قواهُمْ، فَيَتَعَذَّرُ عليهِمْ قيامُ الليلِ، وكذلكَ الضَّرْبُ في الأرضِ. فَمَنَّ اللهُ تعالى بأنْ رَفَعَ عنهمْ قِيامَ الليلِ، وإنْ لم يوجدْ منهُمْ الاشْتِغالُ بالجهادِ بالليالي، واللهُ أعلَمُ.

ثم الضربُ في الأرضِ يكونُ للتجارةِ ولِغَيرِها مِنَ الوُجوهِ: لِطَلَبِ العِلْمِ وغَيرِهِ مِنَ الأسبابِ، فلا يَحْصُلُ أمرُ الضربِ على التجارةِ خاصّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قالَ أبو بكرٍ في قولِهِ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ دلالةٌ أنَّ هذهِ الآيةَ مدنيةٌ لأنَّ الزكاةَ إنما فُرِضَتْ عليهمْ بالمدينةِ. فإنْ كانَ الأمرُ على ما ذَكَرَ أنَّ فَرَضِيَّتَها نزلَتْ بالمدينةِ، فذلكَ عندَنا مصروفٌ إلى زكاةِ المواشي خاصةً، لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ لم يكُنْ لهمْ بمكةَ سَوائمُ، لأنهمْ كانوا يَخافونَ العَدُوَّ، فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ إسامةُ المواشي.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: كانت. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كانت. (٦) في الأصل وم: فهي. (٧) في الأصل وم: كانوا. (٨) في الأصل وم: فأخبر. (٩) في الأصل وم: منكم. (١٠) في م: القوم. (١١) من م، في الأصل: عليهم. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: هو أن.

وأمّا ما رَجَعَ مِنَ الزكاةِ إلى غَيرِها مِنَ الأموالِ فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ واجبةً عليهِمْ في حالِ كونِهِمْ بمكةَ وبعد مُفارقتِهِمْ إيّاها، ولا يكونُ في الأمرِ بإيتاءِ الزكاةِ دلالةُ نُزولِها بالمدينةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فالقَرْضُ في لغةِ العربِ القَطْعُ، يُقالُ: قَرَضَ الفارُ الجِرابَ أي قَطَعَهُ، فَسُمّيَ القَرْضُ قَرْضاً لهذا لأنهُ يَقْطَعُ ذلكَ القَدْرَ، فَيَجْعَلُهُ للهِ خالصاً، فَسُمّيَ إقراضاً لهذا.

ويجوزُ أنْ يكونَ أضافَ إلى نفسِهِ لئلا يَمُنَّ على الفقيرِ في ما يَتَصَدَّقُ عليهِ؛ إذِ الإقراضُ حَصَلَ في ما بَيْنَهُ وبَينَ ربِّهِ، فَيَصيرُ الفقيرُ مُعاوَناً في تلكَ القربةِ، ولأنَّ المرءَ في الشاهدِ ما يَفْضُلُ عن حاجتِهِ يَدْفَعُهُ إلى مَنْ [يَثِقُ بهِ لِيَسْتَرِدَّهُ][1] منهُ عندَ حاجتِهِ إليهِ، فكذلكَ الصدقةُ أُوجِبَتْ في المالِ الذي يَفْضُلُ عنْ [حاجاتِهِ / ٦٠٩ - ب/ فَيُقْرِضُها][2] للهِ تعالى، فَيَجِدُها مُهَيَّأةً عندَما تَمَسُّهُ الحاجةُ.

ثم المالُ الذي يدفَعُهُ إلى الفقيرِ على جهةِ التَّصدُّقِ، هو مالُ اللهِ تعالى، ثم جَعَلَ اللهُ ذلكَ منهُ إقراضاً لهُ، جَلَّ جَلالُهُ، وأضافَهُ إلى نفسِهِ، فتكونُ الفائدةُ في الإضافةِ إلى نفسِهِ، هي تفضيلُ عملِهِ لِيُرَغِّبَهُ في مثلِ ذلكَ الفِعْلِ على جهةِ التَّكَرُّمِ منهُ، وهو كما سَمّى الثوابَ الذي يَتَفَضَّلُ على عبادِهِ أجراً بقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦و..] ومَنْ عَمِلَ لنفسِهِ لم يَسْتَوجِبِ الأجرَ على غَيرِهِ، وسَمّى الذي يُقْتَلُ شهيداً بائعاً نفسَهُ للهِ تعالى على تَفْضيلٍ وتَرْغيبٍ للعبادِ في مِثلِهِ لقولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ مَعْناهُ: تَجِدوهُ خالصاً لكُمْ، وإلّا فكلُّ شيءٍ تُقَدِّمونَهُ مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ تَجِدونَهُ حاضراً في ذلكَ اليومِ، ولكنَّ الشَّرَّ يكونُ عليهِمْ لِقولِهِ[3] تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وقولِهِ[4] ﷻ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وفي حقِّ الكلامِ أنْ يقولَ: هو خيرٌ لأنَّ ﴿هُوَ﴾ يرفَعُ ما بَعْدَهُ، ولكنَّ ﴿هُوَ﴾ كالفعلِ ههنا، وحقُّهُ الحذفُ، وإذا حُذِفَ انْتَصَبَ الكلامُ، لأنَّ مَعْناهُ: إنَّ الذي تَجِدونَهُ عندَ اللهِ خيراً لكُمْ ممّا خَلَّفْتُمْ، فيكونُ ﴿خَيْرًا﴾ مفعولاً. ثم قولُهُ ﷻ: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

أحَدُها: أنهُ خيرٌ لكمْ وأعظمُ أجراً ممّا خَلَّفْتُمْ لِوَرَثَتِكُمْ، فيكونُ فيهِ أنَّ الذي يُخَلِّفُهُ لِوَرَثَتِهِ، لهُ فيهِ خيرٌ.

ولكنْ ما تَقَدَّمَ، لا خَيرَ لهُ. والذي يدلُّ على أنَّ لهُ في ما يُخَلِّفُهُ لِوَرَثَتِهِ خيراً قولُهُ ﷺ «إنكَ إنْ تَدَعْ وَرَثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِنْ أنْ تَدَعَهُمْ فقراءَ يَتَكَفَّفونَ الناسَ» [البخاري ٢٧٤٢].

والثاني: أنَّ المَرْءَ في الشاهدِ، قد تَسْخو نفسُهُ بِبَذْلِ [مالِهِ لِلأجِلَةِ][5] لِما يأمُلُ منهمْ في[6] المآلِ الثوابَ العاجلَ، فيكونُ في قولِهِ: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ تَرْغيبٌ للعِبادِ في تقديمِ الأموالِ لِوجهِ اللهِ تعالى، لأنهُ إذا رَغِبَتْ أنفسُهُمْ في بَذْلِ الأموالِ للأجِلَةِ طَمَعاً بالمَنافعِ التي تَحْصُلُ لهمْ، كانَ[7] بَذْلُ المالِ لِوجهِ اللهِ تعالى أعظَمَ في الأجرِ؛ فهو أنْ تَقَعَ فيهِ الرغبةُ، ولأنَّ النفسَ قد تَتَحَمَّلُ المَكْروهَ في الشاهدِ لِمَنافعَ تأمُلُها في تأتّي الحالِ. فإذا طَمِعَتْ بما تَبْذُلُ لِوجهِ اللهِ تعالى الثوابَ الجزيلَ والأجرَ العظيمَ خَفَّ عليها تَحَمُّلُ المكروهِ، وتَنالُهُ بالبَذْلِ.

[والثالثُ][8]: يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿وَأَعْظَمَ﴾ بِمَعْنى عَظيمٍ؛ إذْ قد يُسْتَعْمَلُ حرفُ أفْعَلَ في مَوضِعِ فَعيلٍ كما يُقالُ: أكْبَرُ بِمَعْنى كبيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ فالاِسْتِغْفارُ، هو طَلَبُ المَغْفِرَةِ؛ وذلكَ يكونُ باللِّسانِ مَرَّةً وبالأفعالِ ثانياً. فَطَلَبُ

---

(١) في الأصل: شيء ليسترد، في م: يثق ليسترد. (٢) في الأصل: حاجات، فيقرض، في م: حاجات فيقرضها. (٣) في الأصل وم: قال الله.
(٤) في الأصل وم: وقال الله. (٥) في الأصل وم: الأجلة. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: فكان. (٨) في الأصل وم: و.

المَغْفِرَةِ مِنْ جهةِ الفعلِ الذي يَسْتَحِقُّ عليهِ العقابَ، ويُجيبُ إلى ما دُعِيَ إليهِ لقولِهِ[1] تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فَجَعَلَ انْتِهاءَهُمْ عنِ الكُفْرِ ودخولَهُمْ في الإسلامِ سَبَبَ مَغْفِرَتِهِمْ، وقولِهِ[2] ﷺ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وليسَ اسْتِغْفارُهُمْ أنْ يقولوا باللسانِ: اللهمَّ اغْفِرْ لنا، ولكنَّ مَعْناهُ: أنِ انْتَهوا عمّا أنتمْ عليهِ مِنَ الكُفْرِ، وأجيبوا ربَّكُمْ إلى ما دَعاكُمْ إليهِ؛ فهذا هو الاسْتِغْفارُ، وطَلَبُ[3] المَغْفِرَةِ يكونُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ تَسْألَ ربَّكَ التَّجاوُزَ عنْ سَيِّئاتِكَ.

والثاني: أنْ [تَسْألَهُ توفيقَهُ][4] للسببِ الذي إذا [جِئْتَ بهِ، اسْتَوجَبْتَ المَغْفِرَةَ][5].

وعلى هذا التأويلِ يُخَرَّجُ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ عليه السلام لأبيهِ، وهو أنهُ طَلَبَ مِنْ ربِّهِ أنْ يُوَفِّقَهُ لِما فيهِ نَجاتُهُ، وهو الإسلامُ، لا أنْ يَغْفِرَ لهُ معَ دوامِهِ على الكُفْرِ. ألا تَرى أنهُ امْتَنَعَ عنِ الاسْتِغْفارِ لهُ حينَ[6] تَقَرَّرَتْ عندَهُ عداوَتُهُ للهِ تعالى، وعَلِمَ أنهُ لم يُوَفَّقْ لِلسَّببِ الذي يَسْتَوجِبُ بهِ المَغْفِرَةَ بِقولِهِ[7] تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

[فَثَبَتَ أنهُ لم يَطْلُبْ منهُ][8] المَغْفِرَةَ مع دوامِهِ على الكُفْرِ، ولكنْ لِلْوَجهِ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ[9].

(١) في الأصل وم: قال الله. (٢) في الأصل وم: وقال الله. (٣) في الأصل وم: وهو طلب. (٤) في الأصل وم: تسأل حتى يوفقه. (٥) في الأصل وم: جاء به المغفرة استوجب. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: قال الله. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.

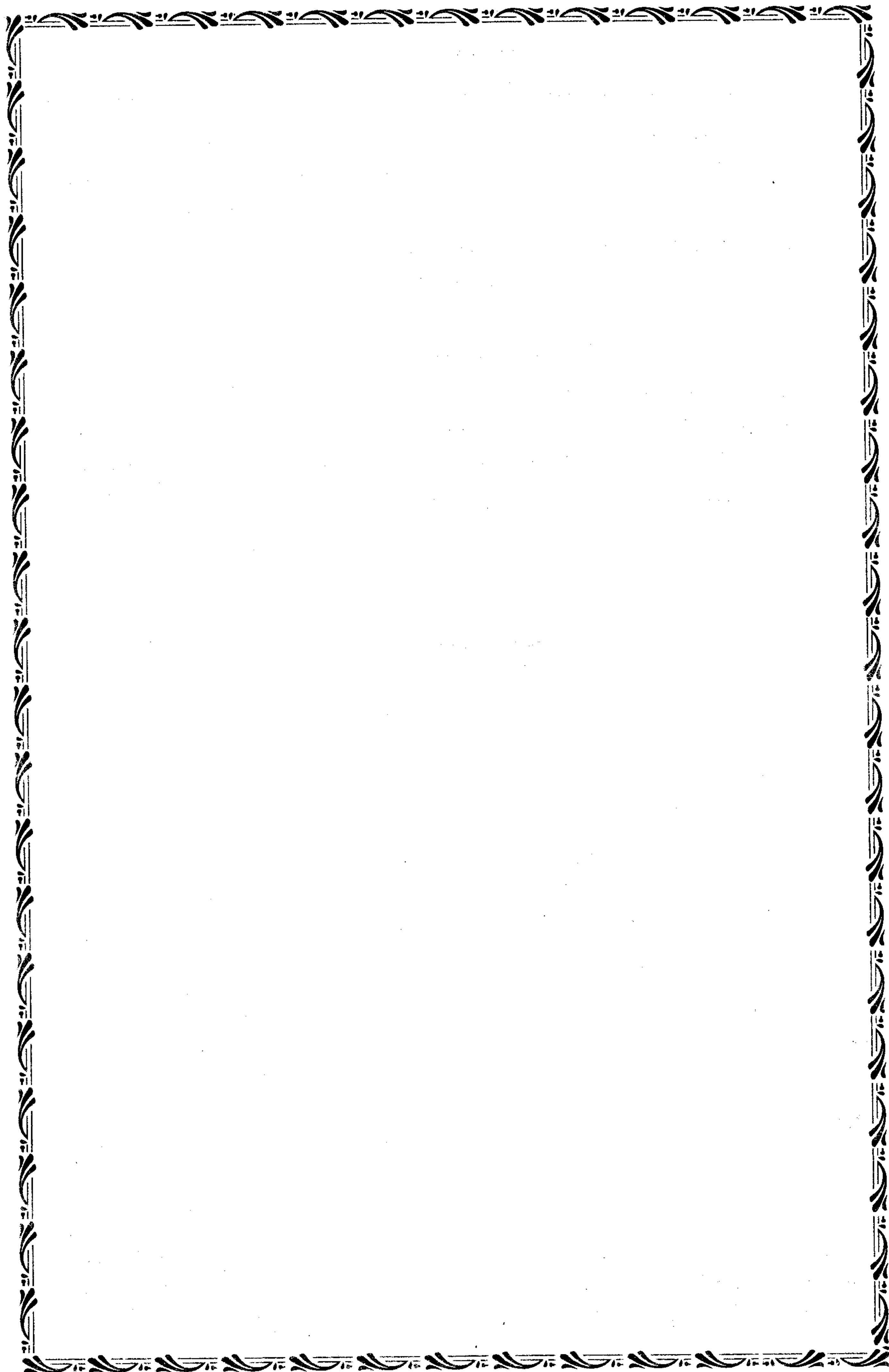

سورة المدثر

[وهي مكية](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ قيلَ: إنَّ الذي حَمَلَ رسولَ اللهِ ﷺ على التَّدَثُّرِ أنهُ كانَ في بعضِ طريقِ مكةَ إذْ سَمِعَ صَوتاً مِنَ السماءِ والأرضِ، فَنَظَرَ عنْ يَمينِهِ وعنْ يَسارِهِ، وأمامَهُ وخَلْفَهُ، فلم يَرَ شيئاً، فَفَرِقَ منهُ، فأتى بَيْتَهُ، وقالَ: زَمِّلوني، فَدَثَّروهُ.

فإنْ صَحَّ ما قالوا، وإلّا لم يَسَعْهُمْ أنْ يَشْهَدوا على رسولِ اللهِ ﷺ فإنَّ الذي حَمَلَهُ على التَّدَثُّرِ ما ذَكَروا مِنَ الفَرَقِ ولأنَّ التَّدَثُّرَ ليسَ ممّا يُسَكِّنُ بِهِ الرَّوعُ الذي يَحُلُّ بصاحِبِهِ مِنَ الصِّياحِ، وذَكَروا أنَّ أوَّلَ ما نَزَلَ مِنَ الوحْيِ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

فإنْ صَحَّ ما ذَكَروا فأوَّلُ ما أُوحِيَ إليهِ، هو الصِّياحُ الذي سَمِعَهُ إذْ كانَ ذلكَ مُتَقَدِّماً على قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وقيلَ: إنَّ كفارَ مكةَ قَذَفوهُ بالسِّحْرِ، وأجْمَعوا رأيَهُمْ على أنْ يَنْسُبوهُ إليهِ، وفَشَا هذا القولُ فيهِمْ لهُ، فأحزَنَهُ ذلكَ، فَدَخَلَ بيتَهُ، وتَدَثَّرَ بِثيابِهِ، فأمَرَهُ اللهُ تعالى ﷺ أنْ يقومَ، فَيُنْذِرَهُمْ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وعلى هذا التأويلِ يكونُ نازلاً قَبْلَ نزولِ هذهِ السورةِ حتى سَمَّوهُ ساحراً لِما رَأَوا منهُ مِنَ الآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ أنَّ موسى، صَلَواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ، قالَ: أتاني ربي مِنْ طورِ سيناءَ، وسَيأتي مِنْ طورِ ساعورا، وسَيَطْلُعُ مِنْ جبلِ فارانَ، فإنْ صَحَّ هذا الخبرُ، فَمَعْنَى قولِهِ: أتاني ربي: أوحَى إليَّ، وقولِهِ: وسَيَأتي مِنْ طورِ ساعورا، هو الوَحْيُ إلى عيسى ﵇ وقولِهِ: وسَيَطْلُعُ مِنْ جَبَلَ فارانَ، وهو القرآنُ الذي أُنْزِلَ على نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ.

وفي هذا الخَبَرِ دلالةٌ أنَّ الأخبارَ التي فيها ذِكْرُ نُزولِ الرَّبِّ في كلِّ ليلةٍ إلى سَماءِ الدنيا، وهو على نزولِ أمْرِهِ إلى ملائكتِهِ أنْ قولوا: هل مِنْ داعٍ، فَيُجابَ؟ هل مِنْ مُسْتَغْفِرٍ، فَيُغْفَرَ لهُ؟

فجائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ في أوَّلِ الوَحْيِ كانَ بِجَبَلِ فارانَ، وهو جبلٌ [مِنْ جبالِ](٢) مكةَ، أو كانَ ذلكَ الجبلُ مَنْسوباً إلى ذلكَ المكانِ.

ثم في قولِهِ/ ٦١٠ ـ أ/ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ تَثْبتُ نُبُوَّةُ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ وآيةُ رسالتِهِ؛ وذلكَ أنَّ تعريفَ المَرْءِ بما عليهِ مِنَ الثِّيابِ ونِسْبَتِهِ إليها(٣) لا يُخْرِجُهُ مُخْرَجَ التَّعْظيمِ والتَّبْجيلِ، وإنما التَّبْجيلُ في ما يُدْعى باسْمِهِ أو بِكُنْيَتِهِ.

فلو كانَ الأمرُ على ما زَعَمَتِ الكَفَرَةُ أنَّ هذا القرآنَ ليسَ مِنْ عندِ اللهِ وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو الذي اخْتَرَعَهُ مِنْ ذاتِ نفسِهِ لكانَ لا يَعْرِفُ نفسَهُ بِثيابِهِ، بل يَعْرِفُها بما فيهِ تَبْجيلُها وتَعْظيمُها، فإذا لم يَفْعَلْ ثَبَتَ أنهُ كانَ رسولاً حقًّا؛ بَلَّغَ الرسالةَ على ما أُوحِيَ إليهِ، وأدّى كما أُمِرَ على ما ذَكَرْنا في الآياتِ التي خُرِّجَتْ مُخْرَجَ المُعاتبةِ لرسولِ اللهِ ﷺ أنَّ فيها تَثْبيتَ رسالتِهِ نحوَ قولِهِ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١و٢] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ نِسْبَتُهُ إلى ثيابِهِ لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنْ لا بأسَ للمرءِ أنْ يَعْرِفَ أخاهُ بِثيابِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: إليه.

وجائزٌ أنْ تكونَ نِسبَتُهُ إلى الثوبِ الذي يَتَدَثَّرُ بِهِ تُخَرَّجُ مُخْرَجَ التَّعْظِيمِ لِذلكَ الثوبِ لِمُوافَقَتِهِ حالَ نُزولِ الوَحْيِ، وهذا لِما ذَكَرْنا أنَّ إضافةَ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى نَحوِ الجُزئياتِ تُخَرَّجُ مُخْرَجَ تَعظيمِ تلكَ الأشياءِ كقولِهِ تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] و﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤] و﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] على تَعْظِيمِ العَرْشِ وتَعظيمِ أمرِ الناقةِ وتَشريفِ المساجدِ، وإضافةَ الأشياءِ إليهِ نَحوِ الكُلِّيَاتِ تُخَرَّجُ مُخْرَجَ [تَعْظيمِ][1] اللهِ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢و. . .] [وقولِهِ][2]: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥].

ثم أذِنَ للمرءِ أنْ يُسَبِّحَ في رُكوعِهِ، فيقول: سبحانَ ربيَ العظيمِ، فَيَخُصَّ نفسَهُ بقولِهِ: ربي، والحقُّ في مِثْلِهِ أنْ يقولَ: سُبْحانَ ربِّنا لِئَلَّا يُخَرَّجَ ذلكَ مُخْرَجَ تَعْظِيمِ النفسِ كقولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢و. . .] وقولِهِ[3]: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥] إذِ الإضافةُ مِنَ الجانبَيْنِ على السَّواءِ في ما ذَكَرْنا، لكنَّ ذلكَ [الذِّكْرَ][4] إذا وافَقَ الحالةَ التي فيها تَعْظِيمُ الربِّ وَوَصْفُهُ بالعُلُوِّ، وهو الرُّكوعُ والسُّجودُ، أُذِنَ لهُ بأنْ يأتيَ بهذا الذِّكْرِ، وإنْ خُرِّجَ ذلكَ مُخْرَجَ تَعْظِيمِ النفسِ، فكذلكَ الثوبُ الذي تَدَثَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ إذْ وافَقَ حالَ نُزولِ الوَحْيِ عَظُمَ شأنُهُ مِنْ ذلكَ الوجهِ، فَنُسِبَ إلى ذلكَ الثوبِ.

ثم المرءُ إنما يَتَدَثَّرُ عندَما يُريدُ أنْ ينامَ أو عندَ طَلَبِ الراحةِ، وليسَتْ تلكَ الحالةُ حالةً، يَستَحِبُّ [المرءُ][5] مُصاحَبَةَ الكُبَراءِ العظامِ في مِثْلِ تلكَ الحالِ [فَضْلًا عنْ أنْ يَصْحَبَ المَلَكَ في مِثْلِ تلكَ الحالِ][6] فيكونُ في هذا دلالةٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَطَّلِعْ على الأوقاتِ التي كانَ يأتي فيها الوحيُ.

وإذْ لم يَعْلَمْ كانَ الأمرُ عليهِ أصعَبَ وأشَدَّ منهُ إذا بُيِّنَ لهُ، لأنهُ إذْ لم يُبَيَّنْ لهُ الزَّمَهُ أنْ يَصونَ نفسَهُ في الحالاتِ كلِّها عنْ أشياءَ يُستَحْيَى معَ مثلِها الخَلْوَةُ بالملائكةِ. ولهذا لم يُبَيِّنْ لأحدٍ مُنْتَهَى عُمُرِهِ ليكونَ أبداً مُستَعِدّاً للموتِ فَرَقاً أنْ يَحُلَّ بِهِ ساعةً بعدَ ساعةٍ، ويكونَ أبداً على خوفٍ وَوَجَلٍ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ خَصَّ النِّذارةَ دونَ البِشارةِ، وقد كانَ هو نَذيراً وبَشيراً.

ففي ذِكْرِ النِّذارةِ ذِكْرُ البِشارةِ، وإنْ أمسَكَ عنها، لأنَّ النِّذارةَ ليسَتْ تَرْجِعُ إلى نفسِ الخَلائقِ، وإنما النِّذارةُ هي تَبْيِينُ عَواقِبِ ما ينتهي إليهِ حالُ مَنِ الْتَزَمَ الفِعْلَ المَذمومَ، فإذا استَوجَبَ النِّذارةَ بالْتِزامِهِ ذلكَ الفعلَ فقدِ استَوجَبَ البِشارةَ في تَرْكِهِ.

فَثَبَتَ أنَّ في النِّذارةِ بِشارةً، وفي البِشارةِ نِذارةً أيضاً. فاقْتَصَرَ بِذِكْرِ إحداهما عن ذِكْرِ الأُخرى، وليسَ في قولِهِ: ﴿قُمْ﴾ إلزامُ قيامٍ، ولكنَّ مَعْناهُ: ﴿قُمْ﴾ في إنذارِ الخَلْقِ وبِشارتِهِمْ على ما يَنْتَهي إليهِ وُسْعُكَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عَظِّمْ. وتَعْظيمُهُ أنْ يُجيبَهُ إلى ما دَعاهُ إليهِ، ويُطيعَهُ في ما أمَرَهُ، وأنْ يَتَحَمَّلَ ما أَلْزَمَهُ عَمَلَهُ. فذلكَ تَعظيمُهُ، لا أنْ يقولَ بلسانِهِ: ياعظيمُ فقط.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: أي عَظِّمْهُ عنِ المَعاني التي [قالَتْ][7] فيهِ المُلْحِدَةُ: منها[8] إنَّ للهِ تعالى وَلَداً، وإنَّ لهُ شريكاً[9]، ونَزِّهْهُ عنها وعَظِّمْ حقَّهُ، واشكُرْ نِعَمَهُ. وهذا كما يقولُ: إنَّ محبَّةَ اللهِ تعالى طاعتُهُ والِائْتِمارُ أوامِرِهِ، لا أنْ تكونَ هي شيءٌ، يَعْتَري في القَلْبِ، فَيَصْعَقُ منهُ المرءُ، ويُغْشَى عليهِ. فكذلكَ تَعظيمُ اللهِ تعالى، يكونُ بالمَعاني التي ذَكَرْنا، لا أنْ يكونَ بالقولِ خاصّةً.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالثيابِ نفسُهُ، وتُجْعَلَ الثيابُ كِنايةً عنها كما ذُكِرَ أنَّ العربَ كانَتْ تقولُ: إذا كانَ الرجلُ، يَنْكُثُ العَهْدَ، وليسَ بذي وفاءٍ: إنهُ لَدَنِسُ الثيابِ، وإذا كانَ لهُ وفاءٌ قالوا: إنهُ لَطاهِرُ الثيابِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: من. (٩) في الأصل وم: شريك.

فإذا كانَ الخطابُ مُتوجِّهاً إلى النفسِ فتأويلُهُ، واللهُ أعلمُ، أنْ طَهِّرْ خُلُقَكَ وأفعالَكَ عمّا تُذَمُّ عليهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ[1] الثيابُ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ مُتوجِّهاً إلى التَّطهيرِ مِنَ النَّجاسةِ وإلى التَّطهيرِ مِنَ الأدناسِ؛ وأمّا التَّطهيرُ مِنَ الأدناسِ فجائزٌ أنْ يُؤمَرَ بهِ النَّبيُّ ﷺ خاصةً لأنهُ كانَ مأموراً بِتَبليغِ الرسالةِ إلى الخَلْقِ، فَنُدِبَ إلى تَطهيرِ ثيابِهِ مِنَ الدَّنَسِ لئلّا يُستَقْذَرَ، بل يُنْظَرَ إليهِ بِعَينِ التَّبجيلِ والعَظَمةِ. وليسَ هذا على تَطهيرِ الثيابِ خاصّةً، بل أُمِرَ أنْ يُطَهِّرَ جميعَ ما يَقَعُ لهُ بهِ التَّمَتُّعُ مِنَ المَأكلِ والمَشرَبِ والمَلْبَسِ وغيرِها، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: لا تَلْبَسِ الثوبَ على فَخرٍ ولا غَدْرٍ، قيلَ: وكانَ الرجلُ إذا كانَ غادراً في الجاهليةِ يُقالُ: إنهُ دَنِسُ الثِّيابِ.

وقالَ الحَسَنُ: خُلُقَكَ فَحَسِّنْ. وقالَ بعضُهُمْ: أي قَصِّرْ ثيابَكَ، ولا تُطَوِّلْها، فَتَبلُغَ أطرافُها [الارضَ، فتُصيبَها][2] النجاسةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فالرُّجزُ اسمٌ للمأثمِ، واسمٌ لِما يُعَذَّبُ عليهِ، فيكونُ مُنصرِفاً إلى ما تَتأذّى بهِ النفسُ، وتَتألَّمُ بهِ النفسُ كالسببِ في أنه[3] اسمٌ لِما تَتأذّى بهِ النفسُ ولِما تَتألَّمُ عليهِ النفسُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبإ: ٥] فالمأثَمُ اسمٌ لِما تَتأذّى بهِ النفسُ، فهو اسمٌ للأمرَينِ: العذابِ وما يُتَألَّمُ بهِ جميعاً.

وصَرَفَ أهلُ التأويلِ الرُّجْزَ إلى المأثَمِ ههنا. وذَكَرَ قتادةُ أنهُ كانَ بمكةَ صَنَمانِ: إسافٌ ونائلةُ، فكانَ مَنْ أتى عليهما مِنَ المشركينَ مَسَحَ وجهَيهما، فأمَرَ اللهُ ﷻ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يُعَيِّرَهُما بقولِهِ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾. وقيلَ أيضاً: إنَّ المشركينَ قالوا للنَّبيِّ ﷺ لو مَسَحْتَ وَجْهَيهِما لكانَ أنْ نُؤمِنَ لكَ ونَتَّبِعَكَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [أي فاهجُرْ][4] عبادةَ الأوثانِ.

وقيلَ: الرُّجْزُ العذابُ. فَجُملَتُهُ تَرجِعُ إلى ما ذَكَرْنا أنهُ اسمٌ للعذابِ ولِما يُعَذَّبُ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قالَ مجاهدٌ والحَسَنُ: تأويلُهُ ألّا تَستكثِرَ عملَكَ فَتَمُنَّ بهِ على ربِّكَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا فالمُرادُ مِنَ الخِطابِ غَيرُ رسولِ اللهِ ﷺ. وإنْ كانَ هو المذكورَ في الخطابِ، إذْ لا يُتَوَهَّمُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ يَمُنُّ على ربِّهِ ولا أنْ يَستَكثِرَ عملَهُ للهِ تعالى لأنَّ هذا النوعَ مِنَ الصنيعِ لا يَفعَلُهُ واحدٌ/ ٦١٠ ـ ب/ مِنَ العَوامِّ الذي خُصَّ بأدْنى خَيرٍ، فكيفَ يُتَوهَّمُ على رسولِ اللهِ ﷺ؟ لأنَّ الامْتِنانَ على اللهِ تعالى مِنْ فِعْلِ المُنافِقينَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ [الحجرات: ١٧].

ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ لهُ، وإنْ كانَ هو مَعصوماً مِنْ ذلكَ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] ونَحْوِهِ. وهذا كما ذَكَرْنا أنَّ العِصْمةَ لا تَمْنَعُ وقوعَ النَّهْيِ، إذِ العِصْمةُ[5] يُنْتَفَعُ بها مَعَ ثَباتِ النَّهْيِ. فإذا لم يَكُنْ فلا فائدةَ في العِصْمةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تُعطِهِ عطيَّةً، تَلْتَمِسُ بها أفْضَلَ منها في الدنيا مِنَ الثوابِ؛ نَهى عنِ اكْتِسابِ الأسبابِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى اسْتِكثارِ المالِ في الدنيا مِنَ التِّجارةِ وغيرِها إلّا القَدْرَ الذي لا بُدَّ لهُ، وتَقَعُ إليهِ الحاجةُ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾؟ [طه: ١٣١] فإذا نُهِيَ عن مَدِّ عَينَيهِ إلى ما مُتِّعوا في اكْتِسابِ المالِ الحقِّ ثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى نَهاهُ عنِ اكْتِسابِ ذلكَ وجَمْعِهِ[6] وجَعَلَ رِزقَهُ ﷺ مِنَ الوجهِ الذي لا تَبْلُغُهُ حِيَلُ البَشَرِ، وهو[7] الفَيءُ والغنيمةُ، ثم هي إمساكُهُ وادِّخارُهُ لنفسِهِ، بل أُمِرَ أنْ يَصْرِفَهُ في أُمَّتِهِ، فقالَ[8] ﷺ: «مالي مِنْ هذا المالِ إلّا الخُمُسُ والخُمُسُ مردودٌ فيكُمْ» [أحمد ٤/١٢٨] لِقولِهِ[9] تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

(١) في الأصل وم: بها. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: على الأرض، فتصيبه. (٣) في الأصل وم: أنها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: وذلك. (٧) في الأصل وم: وهي. (٨) في الأصل وم: بقوله. (٩) في الأصل وم: وقال الله.

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ الآية [الحشر: ٧] وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَدَّخِرُ لِغَدٍ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٦و١٩٧] فَثَبَتَ أنهُ كانَ مَنْهِيّاً عنِ اكْتِسابِ [الأسبابِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى اكْتِسابِ الأموالِ][١] وإلى الجَمْعِ، فَنُهِيَ عنِ العطايا التي يُلْتَمَسُ بها أفضلُ منها في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ففي هذا دُعاءٌ إلى إخلاصِ الصَّبْرِ للهِ تعالى وإلى[٢] الصدقِ فيهِ، وفي قولِهِ ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨و. .] دعاءٌ إلى نفسِ الصَّبْرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا أيضاً على الأمرِ بالصَّبْرِ، فيكونَ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ يقولُ: فاصْبِرْ لربِّكَ، أي اصْبِرْ على ما تُؤذَى، ولا تُجازِهِمْ بِصنيعِهِمْ، فإنَّ اللهَ تعالى، يَكْفُهُمْ [عنكَ][٣] فيكونُ في هذا إبانةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد امْتُحِنَ بالأمورِ التي تَكْرَهُها نفسُهُ، وتَشْتَدُّ عليها، فَدَعاهُ اللهُ تعالى إلى الصَّبْرِ على تَحَمُّلِ المَكارِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ نُقِرَ أي نُفِخَ، والناقورُ الصُّورُ، وهي كلمةُ[٤] كُتُبِ الأوَّلِينَ، ذَكَرَها ههنا: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣] وقالَ في مَواضِعَ[٥]: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٩و. . .] فجائزٌ أنْ يُحْمَلَ هذا كلُّهُ على التَّحقيقِ، فَتَتَحَقَّقُ الصَّيحةُ والزَّجْرَةُ والنَّقْرَةُ، ثم تَعْقُبُها الساعةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على التَّمْثيلِ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ عن سُهولةِ ذلكَ الأمرِ، وهَوْنِهِ على اللهِ تعالى لأنَّ اللَّمْحَةَ [والصَّيحةَ][٦] والزَّجْرَةَ والنَّفْخَةَ والنَّقْرَةَ أمرٌ سهلٌ، لا يَشْتَدُّ على أحدٍ، أو يكونُ على تقْصيرِ الوقْتِ على الذينَ يَنْفُخُ فيهِمُ الرُّوحَ، أي الأرواحُ تُرَدُّ عليهِمْ في قَدْرِ النَّفْخةِ والزَّجْرَةِ والصَّيحَةِ خِلافاً لأمرِ النَّشْأةِ الأولَى، لأنهُ في النَّشْأةِ الأولَى إنما يَنْفُخُ فيهِ الرُّوحَ بعدَ كونِهِ نُطْفَةً في بَطْنِ أمِّهِ أربعينَ يوماً ثم عَلَقَةً ثم مُضْغَةً لِذلكَ القدْرِ مِنَ المدةِ، ثم يَنْفُخُ فيهِ الرُّوحَ بعدَ مُدَدٍ وأوقاتٍ.

وفي النَّشْأةِ الأُخرَى يَنْفُخُ بالقَصْرِ مِنَ المُدَّةِ؛ وذلكَ قَدْرُ النَّفْخَةِ والزَّجْرَةِ والصَّيحةِ واللَّمحةِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنما قُلْنا: إنَّ التأويلَ قد يَتَوَجَّهُ إلى التَّمْثيلِ دونَ التَّحْقيقِ، وإنْ ذُكِرَ في بعضِ الأحاديثِ تَثبيتُ الصُّورِ والناقورِ لأنها مِنْ أخبارِ الآحادِ، وخَبَرُ الآحادِ يُوجِبُ عِلْمَ العَمَلِ؛ ولا يُوجِبُ عِلْمَ الشهادةِ، وفي تَحقيقِ الصُّورِ والناقورِ ليسَ إلّا الشهادةُ. لذلكَ لم يَحْصُلِ الأمرُ على التَّحقيقِ والقَطْعِ لئلا يُقْطَعَ الحُكْمُ على الشهادةِ.

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِذَا﴾ جوابُ سؤالٍ واقعٍ عنْ تَبْيينِ وقتٍ؛ كأنهُ قيلَ لهُ: فاصْبِرْ إلى أنْ يُنْقَرَ في الناقورِ أو يكونُ جَواباً لِقولِهِ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي فأنْذِرْهُمْ عمّا يَحُلُّ بأهلِ الشَّرِّ مِنَ العذابِ بِنَقْرِ الناقورِ، أو جواباً [لقولِهِ][٧]: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أو كانَ السؤالُ واقعاً عنْ أمرٍ لم يُشِرْ إلى ذلكَ الأمرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ذلكَ اليَومُ يومُ رَحْمةٍ للمؤمنينَ، إذْ في ذلكَ اليَومِ يُكْرَمونَ، ويَنالونَ عَظيمَ الدرجاتِ مِنْ ربِّهِمْ. ولكنَّ ﷻ [ذَكَرَ ذلكَ][٨] اليومَ في غَيرِ آيةٍ[٩] مِنْ كتابِهِ والأحوالِ التي تكونُ فيهِ[١٠]؛ وإنْ كانَتْ تلكَ الأحوالُ تَنْزِلُ على غَيرِ المؤمنينَ، فَمَرَّةً سَمّاهُ واقعةً، ومَرَّةً حاقَّةً، وإنما يَقَعُ العذابُ على الكَفَرَةِ، ويَحِقُّ عليهِمْ؛ فلذلكَ سَمّاهُ عَسيراً [وإنْ كانَ هو عَسيراً][١١] على فريقٍ [فهو يَسيرٌ][١٢] على غَيرِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ عَسيراً على الخَلائقِ أجْمَعَ بَعْضُ هَولِ ذلكَ اليومِ؛ يَشْمُلُ الفِرَقَ كلَّها كما قالَ: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: كلما، في م: كلام. (٥) في الأصل وم: موضع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: وكذلك. (٩) في الأصل وم: آي. (١٠) في الأصل وم: فيها. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: يسيراً.

ثم إنَّ المؤمنينَ تُفرَجُ عنهمُ الأهوالُ بما يأتيهِمْ مِنَ البِشاراتِ أوِ الكَراماتِ عَنِ اللهِ تعالى، ويَبْقَى عُسْرُها[١] على أصحابِ النارِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ذُكِرَ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلَتْ في شأنِ الوَليدِ بْنِ المُغيرَةِ.

والأصلُ أنَّ الأنباءَ التي ذُكِرَتْ عنِ الأنبياءِ المُتقدِّمةِ في المخاطباتِ التي جَرَتْ بَينَهُمْ وبَينَ الفراعنةِ، فيها إبانةُ أنها جَرَتْ بَينَهُمْ وبينَ الآحادِ منهمْ؛ وذلكَ أنَّ فِرْعونَ كلِّ نَبيٍّ، كانَ واحداً، وكانَ مَنْ سِواهُ يَصْدُرُ عنْ رأيِهِ، ويَنْتَهي إلى تدبيرِهِ، فكانَ يَسْتَغْني عنْ مُخاطبةِ مَنْ سِواهُ. وقد كَثُرَتْ فَراعنةُ نَبيِّنا ﷺ فكانَ كلُّ واحدٍ منهمْ يَدَّعي الرئاسةَ لنفسِهِ، و يَمْتَنِعُ عنْ مُتابعةِ غَيرِهِ والصُّدورِ عنْ رأيِهِ والانْقيادِ لهُ. منهمْ أبو جَهْلٍ، ومنهمُ الوليدُ بْنُ المَغيرةِ، ومنهمْ أبو لهبٍ، وغيرُهُمْ.

فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَحْتاجُ إلى أنْ يُخاطِبَ كُلاً في نفسِهِ، ومَنِ احتاجَ إلى مُخاطبةِ أقوامٍ وإجابةِ كلِّ واحدٍ بِحِيالِهِ، كانَ الأمرُ عليهِ أصْعَبَ مِنَ الذي احْتاجَ إلى مُخاطبةِ واحدٍ. وهذا أنَّ المِحْنةَ على رسولِنا ﷺ كانَتْ أشَدَّ[٢] ممّا امْتُحِنَ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الرسُلِ ﷺ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ فيهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَمْنَعُهُ عنْ شيءٍ حتى يقولَ لهُ: ذَرْني. ولكنَّ هذا الكلامَ ممّا يُتَكلَّمُ بهِ على الابْتِداءِ على جهةِ إظهارِ القوةِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: خَلِّ بيني وبَينَ فلانٍ، ودَعْني وإيّاهُ[٣] مِنْ غَيرِ أنْ يكونَ سَبَقَ منهُ المَنْعُ، فَيُريدُ بهِ إظهارَ القوةِ مِنْ نفسِهِ أنهُ كافيهِ وقادرٌ على دَفْعِ شَرِّهِ عنْ نفسِهِ.

فيكونُ في قولِهِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ دعاءً مِنَ اللهِ تعالى إيّاهُ إلى ألّا تَتَعرَّضَ لهُ، ولا تُجازِيَهُ بِصنيعِهِ، فإنَّ اللهَ تعالى يَكْفُهُ[٤]، ويَدْفعُ عنكَ شَرَّهُ، أو يكونُ فيهِ نَهْيٌ عنْ أنْ يَدْعُوَ عليهِ بالهلاكِ والثُّبورِ، وتَصْبيرٌ[٥] إلى أنْ يأتِيَهُ أمرُ اللهِ تعالى، فيكونُ في هذا مَسْلاةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ.

وذلكَ أنَّ المُتنازِعَينِ، إذا تَنازَعا في شيءٍ، وحَدَثَ بَينَهما شَرٌّ، فانْتَصَبَ ثالثٌ في نَصْرِ أحدِهِما، خَفَّ الأمرُ على المنصورِ، ويَفْرَحُ لذلكَ، ويَسْلو بهِ.

فإذا كانَ اللهُ تعالى، هو الذي يَقومُ بِنَصْرِ المُصْطَفى ﷺ، [ويكُفُّ عَدُوَّهِ عنهُ][٦] كانَ ذلكَ أكثرَ/ ٦١١ ـ أ/ في التَّسلّي والتَّفْريجِ، فيكونُ في هذا تَمكينٌ مِنَ الصبرِ الذي دعاهُ[٧] إليهِ بقولِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وبقولِهِ[٨]: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الآية [الطور: ٤٨].

وقولُهُ ﷻ: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي خَلَقْتُهُ وحدي، ولم يكُنْ لي في الخَلْقِ ناصرٌ ومُعينٌ ولا مُشيرٌ.

[والثاني][٩]: أنْ يكونَ مَعْناهُ: أي خَلَقْتُهُ وحدي، لا مالَ لهُ، ولا وَلَدَ. فيكونُ في هذا وعيدٌ وتَخويفٌ لذلكَ اللَّعينِ، أي كيفَ لا يَخافُ أنْ يُعادَ إلى الحالةِ التي كانَ[١٠] عليها يومَ خُلِقَ بلا مالٍ ولا ناصرٍ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ قيلَ: ﴿مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي مالاً لا يَنْقَطِعُ، بل يكونُ لهُ مَدَدٌ.

وذُكِرَ عنْ مُجاهِدٍ أنهُ كانَ يَمْلِكُ[١١] ألفَ دينارٍ، وقالَ السُّدِّيُّ: ﴿مَالًا مَّمْدُودًا﴾ قيلَ: أرادَ بهِ ما جَعَلَ لهُ مِنَ الضِّياعِ[١٢] بالطائفِ، ثم [ما تَغْتَلُّ][١٣] في السنةِ مَرَّتَينِ.

ولكنْ عندَنا المالُ المَمدودُ، هو المُتَتابِعُ، لا يَنْقَطِعُ مَدَدُهُ، ولا يَقَعُ تحتَ الإحصاءِ.

(١) في الأصل وم: عسره. (٢) في الأصل وم: أكثر. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يكفيكه. (٥) في الأصل وم: ويصبره.
(٦) في الأصل وم: ويكفيه عن عدوه. (٧) في الأصل وم: دعي. (٨) من م، في الأصل: ويقول. (٩) في الأصل وم: وجائز. (١٠) في الأصل وم: كانت. (١١) في الأصل وم: ذلك. (١٢) في الأصل وم: الصنائع. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي حُضوراً، لا يَغيبونَ، ويكونُ فيهِ وجهانِ مِنَ الحكمةِ:

أحَدُهما: أنَّ مالَهُ كَثُرَ حتى لم يَحتَجْ إلى تَفريقِ أولادِهِ في الجَمْعِ والاكْتِسابِ، بل كانَ يأتيهِ سَهماً، لا يَحتاجُ إلى تكَلُّفِ أسبابِ الجمعِ.

والثاني: أنَّ غايةَ ما يُرادُ، ويُتَمَنّى، ويُلْتَمَسُ مِنَ البَنينَ، وهو أنْ يُستأنَسَ بالنَّظَرِ إليهِمْ، ويُستَعانَ بهِمْ، ويُستَنْصَرَ إذا احتاجوا إلى ذلكَ.

ففيهِ أنهُ قد نالَ مُناهُ، ووَصَلَ إلى ما تَرْغَبُ إليهِ النفوسُ مِنْ كَثْرَةِ الأموالِ والأولادِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ أي بَسَطْتُ لهُ في الدنيا بَسْطاً. وقيلَ: التَّمهيدُ، هو التَّمكينُ.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ طَمَعُهُ مُنْصَرِفاً إلى الزيادةِ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] فحَسِبوا أنهم إذا ساوَوا أهلَ الإيمانِ في الدنيا يُساوُونَهُمْ[1] في الآخِرَةِ، لو كانَتِ[2] الآخِرَةُ [لهمْ][3] حقّاً.

فكذلكَ هذا اللعينُ حَسِبَ أنهُ يُبْسَطُ عليهِ نَعيمُ الآخِرَةِ كما بُسِطَ عليهِ نَعيمُ الدنيا.

فكانَ قولُهُ: ﴿كَلَّآ﴾ ردّاً عليهِ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أعظَمُ الدلالةِ على إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخْبَرَ أنْ ليسَ لهُ نصيبٌ في الآخِرَةِ، وإنما يُحْرَمُ النَّصيبُ إذا خَتَمَ على الكُفْرِ كما قالَ، فكانَ.

وهذا إخبارٌ منهُ عنْ أمرِ الغَيبِ. فَصَدَقَ خَبَرُهُ، وخَرَجَ الأمرُ حقًّا كما قالَ، فَثَبَتَ أنه باللهِ تعالى عَلِمَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ طَمَعُهُ الزيادةَ في الدنيا، فَقَطَعَ عليهِ طَمَعَهُ بقولِهِ: ﴿كَلَّآ﴾.

وذُكِرَ أنَّ مالَهُ بعدَ نُزولِ هذهِ الآيةِ أخَذَ في الانْتِقاصِ إلى أنْ أهْلَكَهُ اللهُ تعالى، ولم يَزِدْهُ[4] شيئاً، فيكونُ في هذا أيضاً [كما][5] في الأوَّلِ مِنْ إثباتِ الرسالةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ في هذا تَصْبيرٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ اللهَ تعالى أكْثَرَ نِعَمَهُ عليهِ. ثم ذلكَ المَلْعونُ مَعَ كَثْرَةِ نِعَمِ اللهِ عليهِ وإحسانِهِ إليهِ عانَدَ، ولم يُطِعْهُ[6] في أوامِرِهِ، فكيفَ تَرجو أنتَ منهُ في مُعامَلَتِهِ إيّاكَ مَعَ مُعامَلَتِكَ إيّاهُ ما[7] يُخالِفُ مُرادَهُ وهَواهُ؟ فيكونُ فيهِ ما يَدْعوهُ إلى الصَّبْرِ.

والعِنادُ، هو مُخالَفَةُ الحقِّ عنْ عِلْمٍ بظُهورِ الحقِّ، فيكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ إنهُ بعدَ عِلْمٍ وإحاطةٍ ويَقينٍ عانَدَ آياتِ اللهِ، وخالَفَ أمْرَ رسولِ اللهِ ﷺ واستَكْبَرَ.

والمكابِرُ، هو الذي يُكابِرُ عقلَهُ، فَيُخالِفُ ما يُثْبِتُهُ عقلُهُ بالأقوالِ والأفعالِ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ إبطالُ قولِ مَنْ قالَ: إنَّ اللهَ تعالى لا يَفْعَلُ بِعبادِهِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ، لأنَّ قولَهُ: ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ لا يَخلو: إمّا أنْ تكونَ الزيادةُ التي كانَ يَطْمَعُها خيراً لهُ، وفي شَرْطِ اللهِ تعالى عندَهُمْ أنْ يَزيدَهُ، وفي قولِهِ: ﴿كَلَّآ﴾ قَطْعُ[8] طَمَعِهِ للزيادةِ، فَيَصيرُ بِحِرْمانِ الزيادةِ عنهُ.

فكيفَ جَعَلَ آيةَ رسالتِهِ مِنَ الوجْهِ الذي هو جَوْرٌ عندَكُمْ، وإنْ كانَ حِرْمانُ الزيادةِ خَيراً لهُ وأصْلَحَ؟

فكيفَ جَعَلَ الحِرمانَ أيضاً عَلَماً لِنُبُوَّتِهِ، وكانَ عليهِ أنْ يَحْرِمَهُ على زَعمِكُمْ؟

وفي قراءةِ عبدِ اللهِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾[9].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ على تَحقيقِ الصُّعُودِ، وهو العَقَبَةُ التي يَشْتَدُّ الصُّعودُ عليها كما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، فَيُكَلِّفُهُ[10] الصعودَ عليها.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يزد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: يطعم. (٧) في الأصل وم: بما. (٨) ساقطة من م. (٩) لم يذكر المؤلف قراءة ابن مسعود. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ؛ وذلكَ أنَّ الصُّعودَ في الشاهدِ ممّا يَشُقُّ على المرءِ الصعودُ، والهبوطَ ممّا يَسْهُلُ على المرءِ الإنْحِدارُ عنهُ.

فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنهُ سَيُصيبُهُ في الآخِرةِ ما يَشْتَدُّ ويَشُقُّ تَحَمُّلُ ذلكَ.

ثم يُقالُ للمعتزلةِ في هذهِ الآيةِ وفي قولِهِ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]: إنَّ في هذا وعيداً مِنَ اللهِ تعالى بأنْ سيُصْلِيهِ سَقَرَ، وسَيُرْهِقُهُ صُعوداً، فأرادَ اللهُ تعالى أنْ يُصَدِّقَ خَبَرَهُ، ويُنْجِزَ وعدَهُ، أو أرادَ أنْ يُكَذِّبَ خَبَرَهُ، ويُخالفَ وعدَهُ.

فإنْ قُلْتُمْ بالثاني فقد نَسَبْتُموهُ إلى الكَذِبِ وإلى خُلْفِ الوَعْدِ. ومَنْ هذا وَصْفُهُ فهو سفيهٌ جاهلٌ، لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ إلهاً.

وإنْ قُلْتُمْ: بَلَى أرادَ أنْ يُصَدِّقَ خَبَرَهُ، ويُنْجِزَ وعدَهُ معَ دوامِهِمْ على الكُفْرِ أو عندَ انْقِلاعِهِمْ عنهُ. فإنْ زَعَمْتُمْ أنهُ إنما أرادَ أنْ يُصْلِيَهُمْ سَقَرَ على الخروجِ مِنَ الكُفْرِ، فهذا منهُ جَورٌ، لأنهُ يُصْليهِ سَقَرَ بشيءٍ لا إرادةَ لهُ فيهِ، وإنْ سَلَّمْتُمْ أنهُ أرادَ إصلاءَهُمْ سَقَرَ إذا داموا على الكُفْرِ، واسْتَقَرُّوا عليه، فقد لَزِمَكُمْ أنْ تقولوا: إنَّ اللهَ تعالى أرادَ بِكُلٍّ[1] أحدٍ ما عَلِمَ أنهُ يَخْتارُهُ، ويكونُ منهُ.

ويُقالُ لهمْ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] ولو كانَ الأمرُ على ما زَعَمْتُمْ أنهُ يريدُ مِنْ كلِّ كافرٍ أنْ يُسْلِمَ، ويُؤمنَ بهِ، ويُريدُ الكافرُ أنْ يَكْفُرَ بهِ، ويُعاديَهُ. فإذنْ قد أرادَ أنْ يكونَ لهُ وليٌّ مِنَ الذُّلِّ لأنهُ يريدُ أنْ يُواليَهُ مَعَ اختيارِهِ الكُفْرَ[2] في مُعاداتِهِ. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ، إنَّ فراعنةَ رسولِ اللهِ ﷺ اعْتَقَدوا مُعانَدَةَ الحقِّ، واعْتَقَدوا صَدَّ الناسِ عنْ سبيلِ اللهِ بأنْ يُطْفِئوا نورَهُ، فأرادوا أنْ يُجْمِعوا على أمرٍ، يَنْسُبونَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ على وجهٍ يَنْفُونَ عنْ أنفسِهِمْ سِمَةَ الجهلِ و تُهَمَةَ الكَذِبِ في ذلكَ على ما ذَكَروا أنَّ الوليدَ جَمَعَ أصحابَهُ، فقالَ: إنّ هذهِ[3] أيامُ المَوسمِ، وإنَّ الناسَ سائلوكُمْ عنْ هذا الرجلِ، فماذا تقولونَ؟

فقالَ بعضُهُمْ: نقولُ: هو شاعرٌ، فقالَ: إنهمْ قد سَمِعوا الشِّعْرَ، وما قولُهُ بقولِ شعرٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: نقولُ: هو كاهنٌ، فقالَ: إنَّ الكهانةَ معروفةٌ عندَ العَرَبِ، وإذا سَمِعوا قولَهُ عَرَفوا أنهُ ليسَ بكاهنٍ، فَيُكَذِّبونَكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: نقولُ: هو كَذّابٌ، فقالَ: إنّا قدِ اخْتَبَرْناهُ فما أخذنا عليهِ كَذْبَةً قَطُّ.

فقالَ بعضُهُمْ: نقولُ: هو مجنونٌ، فقالَ: إذا نَظَروا إليهِ عَلِموا أنهُ ليسَ بمجنونٍ، فأعياهُمْ[4] فَفَكَّرَ في نفسِهِ، وقَدَّرَ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] ما هذا الذي أتى بهِ إلّا سِحْرٌ آثرهُ عنْ غيرِهِ، أي يَرويهِ، فاتَّفَقَتْ كلمتُهُمْ على تَسْمِيَتِهِ ساحراً، وقالوا: الساحرُ يُفَرِّقُ بينَ اثْنَينِ، وقد وُجِدَ منهُ التَّفْريقُ بينَ الآباءِ والأولادِ وبينَ ذوي الأرحامِ [رَجاءَ أنْ][5] يَصِلوا إلى مُرادِهِمْ مِنْ صَدِّ الناسِ عنْ سبيلِ اللهِ تعالى وإطفاءِ نورِهِ مَكْراً منهمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ / ٦١١ ـ ب/ ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣] ووجهُ رُجوعِ المَكْرِ إلى أنفسِهِمْ ذَكَروا فيهِ أوجُهاً:

أحَدُها: رجوعُ المَكْرِ إلى أنفسِهِمْ: أنَّ اللهَ تعالى أظْهَرَ سوءَ صَنيعِهِمْ برسولِ اللهِ ﷺ وجَعَلَهُ آيةً تُتْلَى إلى يومِ القيامةِ، فيكونُ فيهِ ظهورُ كَذِبِهِمْ والحاقُ العارِ بهمْ إلى يومِ التَّنادي وتَواتُرُ[6] اللَّعْنِ.

والثاني: أنَّ الكُبَراءَ إذا اجْتَمَعوا في مكانٍ للتدبيرِ اتَّصَلَ بهمْ أوساطُهُمْ، واخْتَلَطَ بهمْ صغارُهُمْ، فَيَقَعُ بجُمْلَتِهِمُ العلمُ الذي عليهِ التدبيرُ، واتَّفَقَتْ عليهِ الكلمةُ.

---

(١) في الأصل وم: من كل. (٢) في الأصل وم: الكافر. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل وم: فأعيى عليهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وتوارد.

[والثالثُ][(١)]: إذا وَقَفوا على عِلْمِ ذلكَ في الآفاقِ يَقِفُ[(٢)] الناسُ على كَذِبِهِمْ وافتِعالِهِمْ، فَيَتحقَّقُ عندَ ذلكَ جَهْلُهُمْ بِحالِ رسولِ اللهِ ﷺ ويَصيرُ كَذِبُهُمْ شائعاً في الخَلْقِ مِنَ الوجْهِ الذي أرادوا نَفْيَ سِمَةِ الجَهْلِ عن أنفسِهِمْ، ويَتحقَّقُ عندَ الناسِ كَذِبُهُمْ، فلا يَرْكَنونَ إلى قولِهِمْ، ولا يَلْتفِتونَ إلى أخبارِهِمْ عن حالِهِ، إذْ قد تَبيَّنَ جَهْلُهُمْ بحالِهِ، فيكونُ ذلكَ سبباً لِترغيبِ الناسِ إلى الإسلامِ ودُعائِهِمْ إليهِ، ولا[(٣)] يكونُ سبباً لِلصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، فصارَ المَكْرُ راجعاً إليهِمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي فَكَّرَ في الأمرِ الذي أرادَ إحكامَهُ، أو فَكَّرَ في الكلماتِ التي ألْقوها في ما بَيْنَهُمْ: أيُّها أَلْيَقُ برسولِ اللهِ ﷺ فَيَنسُبُها[(٤)] إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرَ﴾ يُخرَّجُ على هذا أيضاً.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لُعِنَ، واللَّعْنُ، هو الإبعادُ عن رحمةِ اللهِ تعالى، وقد ظَهَرَ الإبعادُ لأنَّ مادَّةَ مالِهِ قد انقَطعَتْ في الدنيا، وأخَذَ ما كانَ اجْتَمَعَ عندَهُ في الإنتِقاصِ إلى أنْ أهْلَكَهُ اللهُ تعالى، ثم ساقَهُ إلى النارِ خالداً فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي كيفَ لم يَسْتَحْيِ مِنْ تقديرِهِ الذي قَدَّرَ مِنْ تَسْمِيَةِ رسولِ اللهِ ﷺ ساحراً، وقد عَلِمَ أنهُ في إنشائِهِ ذلكَ الإسْمَ كاذِبٌ؟ أو كيفَ اجْتَرَأَ على اللهِ تعالى، وتَجاسَرَ، وهو يَعْلَمُ أنهُ رسولٌ حقٌّ، فعانَدَ آياتِهِ، واجْتَرَأَ على ذلكَ، ولم يَخَفْ نِقْمَةَ اللهِ ﷻ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لَعَنَهُ مَرَّتَينِ، وقد ظَهَرَ أثَرُ اللعنِ فيهِ في الدنيا والآخِرَةِ جميعاً، لأنَّ اللهَ تعالى فَضَحَهُ بِما أظْهَرَ كَذِبَهُ لِلخلائِقِ، فَبَقِيَ ذلكَ العارُ إلى آخِرِ الأبَدِ، وأبْعَدَهُ مِنْ رحمتِهِ حينَ[(٥)] أخَذَ مالُهُ في الإنتقاصِ، وانقَطعَتْ مادَّةُ مالِهِ، فهذا أثَرُ اللعنةِ في الدنيا، ووَعدَهُ[(٦)] أنْ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [الآية ٢٦] وأنْ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [الآية ١٧] وذلك خِزْيُهُ ولَعْنُهُ في الآخِرَةِ، فَظَهرَتْ إحدى اللَّعْنَتَينِ في الدنيا، وسَتَلْحَقُهُ الثانيةُ في الآخِرَةِ.

الآيتان ٢١و٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ [الذي][(٧)] حملَهُ على العُبوسِ والبُسورِ، هو ما ألْقوا إليهِ مِنَ الكلماتِ، فَعَبَسَ وجهُهُ عليهِمْ لِما في اخْتِلافِهِمْ ظُهورُ كَذِبِهِمْ، أو يكونَ الذي دَخَلَ عليهِ مِنْ شِدَّةِ الغَيظِ في أمرِ رسولِ اللهِ ﷺ أهَمَّهُ، وأحْزَنَهُ، حتى أثَّرَ ذلكَ في وجهِهِ، فَعَبَسَ لذلكَ وجهُهُ.

الآية ٢٣ ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أدْبَرَ عن أولئكَ القومِ الذينَ اجْتَمَعَوا لِلتَّدْبيرِ، واسْتَكْبَروا [عليهِ، أو][(٨)] أدْبَرَ عنْ طاعةِ اللهِ، واسْتَكْبَرَ على رسولِهِ حينَ أعْرَضَ عنهُ، ولم يُجِبْهُ إلى ما دعاهُ إليهِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي هذا الذي أتَى بهِ محمدٌ ممّا يُؤثَرُ مِنْ أفعالِ السِّحْرِ، أو هذا الذي يُخبِرُ [أنهُ][(٩)] أتى بهِ مِنْ عندِ اللهِ هو سِحْرٌ يُؤثَرُ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ. ولكنْ قالَ هذا على علمٍ منهُ أنهُ ليسَ بِسحرٍ.

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: ولو كانَ الذي أتَى بهِ محمدٌ ﷺ سحراً كما قَرَفوهُ بهِ فهو لا يَخْرُجُ مِنْ أنْ يكونَ حُجَّةً لهُ في صِدْقِ مَقالَتِهِ وإثباتِ رسالَتِهِ لأنهُ لا وَجْهَ لِمَعْرِفةِ السِّحْرِ مِنْ طريقِ الرَّأيِ والتَّدْبيرِ، وإنما سَبيلُ الوُصولِ إليهِ التَّلقينُ[(١٠)] والتَّلَقُّفُ عنِ الغَيرِ، وقد عَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ [لم يَتَلَقَّنْ مِنْ أحدٍ][(١١)] ولا وُجِدَ منهُ الإخْتِلافُ إلى مَنْ عندَهُ عِلْمُ ذلكَ، فوقَعَ لَهُمُ الإيقانُ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَ لا بأحدٍ مِنَ الخَلائِقِ، فَيَصيرُ الذي قَرَفوهُ بهِ مِنْ أعظمِ الحُجَجِ[(١٢)].

ولكنَّ اللهَ تعالى طَهَّرَهُ مِنَ السِّحْرِ، ونَزَّهَهُ عن ذلكَ، وأمَرَهُ بِمُعاداةِ السَّحَرَةِ، حتى قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اقْتُلوا كلَّ ساحرٍ وساحرةٍ» [الترمذي ١٤٦٠] وقالَ: «توبةُ الساحرِ ضَرْبَةٌ بالسيفِ» [أحمد ١/ ١٩٠].

ثم الأصلُ أنَّ الساحرَ يُفَرِّقُ بينَ الإثْنَينِ، ويَعْمَلُ سِحْرُهُ في التَّفْريقِ على وجهٍ لا يُوقَفُ على سَبَبِ التَّفْريقِ، وكانَ سببُ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: فيقف. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: فينسب. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عليهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الالتقان. (١١) في الأصل وم: يلتقن أحداً. (١٢) في الأصل وم: الحجة.

تفريقِ رسولِ اللهِ ﷺ ظاهراً لأنهُ يأتيهمْ بالحُجَجِ، فَيَعْلَمُ مَنْ أمْعَنَ النَّظَرَ [فيها صِدْقَهُ في ما يَدَّعي مِنَ الرسالةِ، فيأتَمِرُ بِهِ، ومَنْ تَرَكَ النَّظَرَ فيها، ولم يُعْطِ مِنْ نفسِهِ النَّصَفَةَ، تَرَكَ الإيمانَ، فَيَبْطُلُ أنْ يكونَ التفريقُ كتفريقِ السِّحْرِ، ولأنَّ كُلّاً منهُمْ لو تَفَكَّرَ في ما جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ وأمْعَنَ النظرَ][1] فيهِ حَمَلَهُ ذلكَ على الإيمانِ بِهِ والتَّصْديقِ لِرسالتِهِ، فَيَصيرُ الذي جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ سببَ الاجْتِماعِ والألْفةِ لا أنْ يكونَ سببَ التَّفْريقِ بَيْنَ الأحِبةِ.

ثم الأصلُ أنَّ الساحرَ، بُغْيَتُهُ وقَصْدُهُ مِنْ سِحْرِهِ نَيْلُ الجاهِ عندَ العظماءِ والرؤساءِ واسْتِفادةُ السَّعَةِ في الدنيا، ورسولُ اللهِ ﷺ لم يكُنْ يطْلُبُ بما أتَى بِهِ الجاهَ عندَ الرؤساءِ، بل عاداهُمْ، وأظْهَرَ الخِلافَ، فَدَعا الخَلْقَ إلى الزهادةِ في الدنيا لا إلى الاسْتِكْبارِ فيها، فكيفَ يجوزُ أنْ يُنْسَبَ إلى السِّحْرِ، وقد أتى بما يُضادُّ فِعْلَ السَّحَرَةِ؟

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ قد أعْلَمَ[2] أنهُ ليسَ بقولِ البشرِ لمّا عَجِزَ البَشَرُ عن إتيانِ مِثْلِهِ، وقالَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦] فَثَبَتَ أنهُ على العِلْمِ منهُ بأنها آياتٌ، مُعانِدٌ[3].

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فالسَّقَرُ لونٌ مِنَ العذابِ، وقيلَ: السَّقَرُ، هي الدَّرَكَةُ الخامسةُ، وقيلَ: السَّقَرُ مِنْ أبوابِ [جهنَّمَ][4] ومَعْناهُ: سَأُدْخِلُهُ جهنَّمَ مِنْ [بابٍ مِنْ][5] أبوابِ السَّقَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٧و٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ يَحْتَمِلُ أي لا تُبْقي حياةً يَتَلَذَّذُ بها ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ لا تَذَرُهُ، فَيَسْتَريحَ، بل تُبْقيهِ[6] أبداً في الهلاكِ كما قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. لا تُبْقي لهُ جِلْداً ولا لَحْماً ولا عَظْماً، بل تُنْضِجُ جِلْدَهُ، وتأكُلُ لَحْمَهُ، وتكسِرُ عَظْمَهُ، ولا تَذَرُهُ على تلكَ الحالِ: كَسْرِ العظمِ وأكْلِ اللحمِ ونُضْجِ الجِلْدِ، بل يُعادُ جِلْدُهُ ولَحْمُهُ وعَظْمُهُ، فَتَحْرِقُها كذلكَ أبداً، لا تُبْقي لهُ روحاً، ولا تَذَرُهُ، فَيَرْهَبَ فيها، فَيَتَخَلَّصَ مِنْ عذابِها.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

قيلَ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي مُحْرِقَةٌ لِلْجِلْدِ، فالبَشَرُ الجِلْدُ، فجائزٌ أنْ خَصَّ الجِلْدَ بالتَّلْويحِ لأنَّ الجِلْدَ، مِنَ الإنسانِ هو الظاهرُ؛ فيكونُ ظاهرُ الإحراقِ مؤثِّرٌ فيهِ، فَخَصَّهُ بالذِّكْرِ لهذا كما سَمَّى الإنسانَ إنساناً لِظهورِهِ لكلِّ مَنْ هو مِنْ أهلِ الرؤيةِ، وسَمَّى الجِنَّ جِنّاً لِاسْتِتارِهِ عَمَّنْ ليسَ مِنْ جنسِهِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ [النساء: ٥٦].

وقيلَ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي ظاهرةٌ للبَشَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] أي تُظْهَرُ لهم، وتَلُوحُ، فَيَنْظُرونَ إليها، ويَتَيَقَّنونَ بالعذابِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ لأنَّ النارَ، تأكُلُ جُلودَهُمْ ولُحومَهُمْ، فَتَظْهَرُ عظامُهُمْ، وتَلوحُ عنْ ذلكَ، ثم تُبَدَّلُ جُلوداً ولُحوماً أبداً. على هذا مدارُ أمرِهِمْ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ، مَعَ كلِّ واحدٍ مِنَ الأعوانِ ما لا يُحْصَى، وذُكِرَ أنَّ سِتَّةً منهمْ يَقودونَ الكَفَرَةَ إلى النارِ، وسِتَّةً يَسوقونَهُمْ، وسِتَّةً يَضْرِبونَهُمْ بِمَقامِعِ الحديدِ والنيرانِ، والأخيرُ[7]، هو الخازنُ / ٦١٢ ـ أ/ الأكبرُ، وهو مالكٌ، يأمُرُهُمْ بما أُمِرَ هو بِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في السَّقَرِ تِسْعَةَ عَشَرَ دَرَكاً، وقد سُلِّطَ على كلِّ دَرَكٍ مَلَكٌ؛ وذلكَ أنَّ جهنَّمَ ذاتُ حدٍّ في نفسِها لأنَّ اللهَ تعالى، وَعَدَ أنْ يَمْلأَها مِنَ الجِنَّةِ والناسِ، ولو لم تَرْجِعْ إلى حَدٍّ لكانَ لا يَتَحَقَّقُ امْتِلاؤُها بالقَدْرِ الذي ذَكَرَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُعَذَّبَ فيها بِتِسْعَةَ عشرَ لوناً مِنَ العذابِ، وقد وُكِلَ كلُّ واحدٍ منهمْ أنْ يُعَذِّبَ بِنَوعٍ مِنْ ذلكَ.

والأصلُ أنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ، يُعْلِمُ أنَّ في كلِّ فِعْلٍ مِنْ أفعالِهِ حِكْمَةً [عجيبةً، ولكنْ لا كلُّ حكمةٍ][8] يُوصَلُ إليها بالعقلِ، ويُنْتَهَى إلى مَعْرِفَتِها بالتدبيرِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: علم. (٣) في الأصل وم: عاند. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: تبقي. (٧) في الأصل وم: والآخر. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

ألا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في الماءِ مَعْنًى، يُحْيِي كلَّ شيءٍ؟ ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَتَكَلَّفَ اسْتِخراجَ المَعْنَى الذي بِهِ صَلَحَ أنْ يكونَ طبْعُهُ مُوافِقاً لإحياءِ كلِّ شيءٍ، لا يُمكِنُهُ ذلكَ، وجَعَلَ في الطعامِ ما يُغَذِّي، ويُنَمِّي؟ ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَتَعَرَّفَ المَعْنَى الذي يَقَعُ بِهِ الاغتِذاءُ والإنماءُ لم يَتَدارَكْ، وكذلكَ جَعَلَ في العددِ الذينَ سَمّاهُمْ حكمةً؟ ولكنّا لا نَصِلُ إلى تَعَرُّفِها بعُقولِنا وتدبيرِنا.

وزعَمَتِ الباطِنِيَّةُ أنَّ في ذِكْرِ الأعدادِ التي عليها تركيبُ العالَمِ تَعريفَ الأعدادِ المَجْعولَةِ في الروحانياتِ.

فَيُقالُ لهمْ: مَنْ جَعَلَ الأعدادَ التي [عليها][1] تركيبُ العالَمِ أولَى بأنْ يَعْرِفَ بها الأعدادَ المجعولَةَ في الرُّوحانِيّاتِ مِنْ أنْ يَجْعَلَ الأعدادَ التي في الرُّوحانِيّاتِ على الاسْتِدْراكِ المَجْعولَةَ في الجَسَدانِيّاتِ.

ثم يُسْألونَ عنِ الأعدادِ المجعولةِ في الرُّوحانِيّاتِ: لأيِّ مَعْنًى جُعِلَتْ؟ وأيُّ حِكْمةٍ فيها؟ فليسَ جوابُهُمْ بعدَ هذا إلّا العجزُ والاعْترافُ بالجهلِ، فَلْيُقِرُّوا بالجهلِ مِنَ الابْتِداءِ مِنْ [غيرِ][2] أنْ يَتَكلَّفوا اسْتِخراجَ ما يُوجِبُ مِنْ حقيقةٍ، كانَ فيهِ ظهورُ عَجْزِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والأصلُ عندَنا ما ذَكَرْنا أنَّ أهلَ التّوحيدِ اعْتَقَدوا أنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ وأنهُ لا يجوزُ أنْ يَخْرُجَ فِعْلُهُ عنْ حدِّ الحِكْمَةِ، لأنَّ الذي يَجْعَلُ الإنسانَ يَخْرُجُ[3] عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ في الشاهِدِ أحدُ مَعانٍ ثلاثةٍ: إمّا الجهلُ وإمّا العَجْزُ وإمّا الحاجةُ، واللهُ تعالى عالمٌ لا يَجْهَلُ، وقَويٌّ لا يَلْحَقُهُ عجزٌ عنْ وفاءِ ما وَعَدَ، وغَنِيٌّ لا تَمَسُّهُ حاجةٌ، فانْتَفَتْ عنهُ الأسبابُ التي لَدَيها يَقَعُ الخروجُ عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ.

فَثَبَتَ أنهُ لا يجوزُ أنْ يَخْرُجَ فِعْلُهُ عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ. لكنَّهُمْ إذْ لم يَعْرِفوا الحِكْمَةَ بِعقولِهِمْ، ولم يَتَداركوها بتدبيرِهِمْ ظَنّوا أنهُ لا حِكْمَةَ فيهِ، وأنْكروا أنْ يُضافَ ذلكَ إلى اللهِ تعالى.

فأهلُ الدهرِ أنْكروا البعثَ، وأنكروا الصانِعَ لمّا رأوا أشياءَ في الشاهِدِ، هي في الظاهِرِ خارجةٌ مَخْرَجَ العَبَثِ، وفِعْلُ الحِكْمَةِ لا يَخْرُجُ مَخْرَجَ العَبَثِ، فَنَفَوا بهذا أنْ يكونَ للأشياءِ صانعٌ، ومَنْ بَنَى بِناءً، ثم نَقَضَهُ، ثم أعادَهُ إلى الحالةِ التي كانَ عليها[4] قبلَ النَّقْضِ، لم يكُنْ حكيماً بل كانَ جاهلاً سَفيهاً. فقاسُوا أمْرَ البَعْثِ على ذلكَ، وظَنّوا أنهُ خارجٌ مَخْرَجَ العَبَثِ؛ إذْ ليسَ فيهِ إلّا الإعادةُ إلى الحالةِ التي كانَ عليها قبلَ الموتِ.

وما ذَكَرْنا مِنَ الاعْتِبارِ هو الذي حَمَلَ الثَّنَوِيَّةَ على القولِ بإلَهينِ اثْنَينِ لأنهمْ رأوا في الشاهِدِ خَيراً وشرًّا وصَلاحاً وفساداً وظُلْمَةً ونوراً، ولا يجوزُ أنْ يكونَ جَوهَرُ الظُّلْمَةِ والنورِ واحداً، ولا يجوزُ أيضاً أنْ يكونَ فِعْلُ الحكيمِ يَخْرُجُ على الاخْتِلافِ والتَّناقُضِ، فقد رأوا[5] بهذا أنَّ خالقَ الشرِّ والخيرِ مُخْتَلِفٌ.

وبهذا[6] أنْكَرَتِ المعتزلةُ خَلْقَ أفعالِ العبادِ لأنَّ الفعلَ يكونُ مَرَّةً خيراً ومَرَّةً شراً ومَرَّةً صلاحاً ومَرَّةً فساداً، ولا يجوزُ أنْ يكونَ الشرُّ مضافاً إلى اللهِ تعالى ولا أنْ يكونَ الفسادُ مَنْسوباً إليهِ، فأنكروا أنْ يكونَ للهِ تعالى في أفعالِ العبادِ صُنْعاً.

وأهلُ التوحيدِ سَلَّموا الأمرَ إلى اللهِ تعالى، وفَوَّضوا العِلْمَ إليهِ في كلِّ ما جاءَ عنهُ ﷺ وإنْ لم يَتَدارَكوا ما فيهِ مِنَ الحِكْمَةِ بِعقولِهِمْ لوجودِهِمْ أشياءَ، هي خارجةٌ أنْ يَتَداركوها بِعقولِهِمْ، ويَقِفوا عليها بِعلومِهِمْ كما ذَكَرْنا مِنْ أمرِ الماءِ أنهُ قد جَعَلَ فيهِ مَعْنًى. ذلكَ المَعْنَى يُحْيِي الأشياءَ، ولو أرادوا أنْ يَعْرِفوا ذلكَ المَعْنَى بالعقولِ والآراءِ لم يمكِنْهُمْ ذلكَ. وكذلكَ المَعْنَى[7] في الطعامِ وفي الأشياءِ المَشْروبةِ مَوجودٌ، ثم لم يَجِبْ بهذا إنكارُ المياهِ وسائرِ الأطعمةِ والأشربةِ، وكذلكَ لا يَجِبُ إنكارُ عَددِ[8] الذينَ سَمّاهُمْ مِنَ الملائكةِ ولا إنكارُ البعثِ ولا إنكارُ كلِّ شيءٍ لا يَقِفونَ على حِكْمَتِهِ بعقولِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: على الخروج. (٤) في الأصل وم: عليه. (٥) في الأصل وم: بنوا. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هذا. (٨) في الأصل وم: العدد.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ فلقائلٍ أنْ يقولَ في هذا أمراً[1]: لم يجعلْ أصحابَ النارِ إلّا ملائكةً، لم يوجَدْ فيها إنسيٌّ ولا جِنّيٌّ، فكيفَ قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] وهو لم يَجْعَلْ أصحابَ النارِ إلّا ملائكةً أي: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ يُعَذِّبونَ أهلَها؟ لا أنْ يكونَ الملائكةُ تَمَسُّهُمُ النارُ، ويتأذَّونَ بها؟

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ مَنْ قَرَأَ مكانَ قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [البقرة: ٨٢ و. .] أصحابَ النارِ في صلاتِهِ لا تَفْسُدُ لأنهُ ليسَ في نسبةِ أصحابِ الجنةِ وأصحابِ النارِ إيجابُ عذابٍ عليهِمْ كما لم يكُنْ في قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إيجابُ عذابٍ على الملائكةِ واسْتِحقاقِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وإنما خَصَّهُمْ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ خُلِقوا يَسْخَطونَ، ويَغْضَبونَ للهِ تعالى، ولا يُغْضِبونَ اللهَ تعالى ما أمَرَهُمْ: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠ والتحريم: ٦] لم يَميلوا إلى أحدٍ، ولم يَرْحَموا بما رأوا عليهِ منَ العذابِ في مَعْصيةِ اللهِ وخِلافِهِ. ليسوا على طباعِ الإنسِ والجِنِّ أنَّ قلوبَهُمْ، ربما تَميلُ، وتَرحَمُ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ الرحمةَ.

وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ردٌّ على أولئكَ الكفرةِ الذينَ قالوا: إنا لَنَكْفُ[2] هؤلاءِ العِدَّةَ حينَ سَمِعوا ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فَنَغْلِبُ عليهِمْ، ونَخْرُجُ منَ النارِ، فأخْبَرَ أنهمْ ليسوا برجالٍ أمثالِكُمْ، وإنما هُمْ ملائكةٌ، وَوَصَفَ الملائكةَ. وقد رُوِيَ في الأخبارِ: مِنْ هَولِ خِلْقَتِهِمْ وعِظَمِهِمْ وشِدَّةِ بأسِهِمْ وبَطْشِهِمْ أنَّ[3] لهبَ النيرانِ يَخْرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ وأنَّ بُنْيَتَهُمْ لا تَحْتَمِلُ الحَرْقَ والآلامَ، ليست[4] على ما عليها[5] بِنْيةُ البشَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الفِتْنَةُ قد يُتَكَلَّمُ بها على وجهَيْنِ:

فَتُذْكَرُ الفِتْنَةُ، ويُرادُ بها المِحْنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ، وتُذْكَرُ، ويُرادُ بها العذابُ.

فإنْ كانَ يُرادُ بها العذابُ، فَمَعْناها[6] أنهُ جَعَلَ العَدَدَ الذينَ ذَكَرَهُمْ لِلْكَفَرَةِ، وهو كقولِهِ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يُعَذَّبونَ.

وإنْ كانَ يُرادُ بها المِحْنَةُ فَتَخْرُجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي ما جَعَلْنا ذِكْرَ عَدَدِهِمْ إلّا لافتِتانِ الذينَ كَفَروا، أي [مَنْ عَلِمَ اللهُ تعالى منهمْ أنهُ يَكْفُرُ بآياتِ][7] اللهِ تعالى جَعَلَ ذلكَ سَبَباً لِفِتْنَتِهِ، إذ[8] كانَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنهُ مِمَّنْ يَبْتَغي الفِتْنَةَ.

فأمّا مَنْ عَلِمَ أنهُ يَنْظُرُ في آياتِ اللهِ مُسْتَرْشِداً فلمْ يَزِدْهُ ذلكَ إلّا إيماناً وتَصْديقاً، إذ عَلِموا أنَّ اللهَ تعالى [أرادَ][9] أنْ يَمْتَحِنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، فآمَنوا بِهِ، وسَلَّموا ذلكَ للهِ تعالى.

فيكونُ في جَعْلِ [عِدَّةِ الملائكةِ][10]: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ شِدَّةٌ على الكَفَرَةِ إذ كانَ السَّبَبُ كُفْرَهُمْ، فكذلكَ سَمّى المِحْنَةَ على هذا الوجْهِ فِتْنَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِمَعْنى على الذينَ كَفَروا.

ثم جازَ أنْ يكونَ ذلكَ [على][11] حدوثِ الكُفْرِ، وهو في قومٍ، قد آمَنوا بهِ. فلما سَمِعوا هذا [زَعَموا][12] أنْ لا حِكْمَةَ في هذا العَدَدِ [وليسَ هذا العَدَدُ][13] بِأولَى أنْ يُجْعَلوا أصحابَ النارِ مِنَ[14] العشرينَ ومِنَ الثمانيةَ عَشَرَ، فَكَفَروا بِهِ. وهو كقولِهِ تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وذلكَ على حدوثِ / ٦١٢ ـ ب/ إضلالٍ، لم يكُنْ مِنَ السامِرِيِّ موجوداً [وما كانَ][15] الإضلالُ مُتَقَدِّماً بِغَيرِها.

---

(١) من م، في الأصل: أثراً. (٢) في الأصل وم: لنكفي. (٣) في الأصل وم: وأنّ. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) في الأصل وم: عليه.
(٦) في الأصل وم: فمعناه. (٧) من م، في الأصل: علم. (٨) في الأصل وم: إذا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عدتهم.
(١١) من م، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: في. (١٥) في الأصل وم: لأن.

وجائزٌ أنْ تكونَ فتنتُهُمْ، هي[١] أنهمْ ازدادوا بِذِكْرِ هذا العَدَدِ كُفراً إلى كُفرِهِمْ لأنهمْ نَظَروا إليهِ بِعَينِ الاسْتِخْفافِ والاسْتِهْزاءِ، ولم يَنْظُروا إليهِ بِعَينِ التَّبجيلِ والتَّعْظيمِ، فازْدادوا بذلكَ كُفراً.

[وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ والاسْتيقانُ والزيادةُ واحدٌ، لأنَّ في الاسْتيقانِ زيادةَ إيمانٍ، وفي الزيادةِ [اسْتيقاناً].

فَمَعْنى][٣] ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الذينَ آمَنوا. وَوَجْهُ اسْتيقانِهِمْ أنهمْ يَجِدونَ هذا العَدَدَ مُوافِقاً لِلعددِ الذي في كتابِهِمْ. ويَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الاسْتيقانِ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ تعالى.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُريدَ بهِ أهلَ الكتابِ الذينَ لم يُؤمِنوا إذا وَجَدوا ذلكَ مُوافِقاً لِما في كُتُبِهِمْ، فَيَسْتَيقِنوا أنهُ إنما يُخْبِرُ عنِ اللهِ ﷺ وليَرْفَعَ عنهمُ الارْتِيابَ، ليكونَ أدْعَى لهمْ إلى الإيمانِ بهِ، إنْ أرادَ منهُمُ الإيمانَ، وأقْرَبَ إلى إلزامِ الحُجَّةِ عليهِمْ، إنْ لم [يَرَ منهُمُ الاسْتيقانَ][٤] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ وتصديقاً على ما سَبَقَ منهمْ مِنَ التَّصديقِ بالجملةِ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وفي كلِّ موضعٍ ذُكِرَ فيهِ الزيادةُ في الإيمانِ أنَّ مَعْنَى الزيادةِ فيهِ أنهمْ ازدادوا بالتفسيرِ تصديقاً على تَصْديقِهِمْ بالجملةِ، لأنهمْ إذا وَحَّدوا اللهَ تعالى، وآمَنوا بهِ، فقد أقَرُّوا بأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمرَ كلَّهُ. وفي الإقرارِ بأنَّ لهُ الخَلْقَ إيمانٌ بالرسلِ وتصديقٌ منهمْ[٥] إياهُمْ بجميعِ ما أنْزَلَ عليهِمْ مِنَ الكتبِ منَ اللهِ تعالى.

فصارَ [المرءُ][٦] بإيمانِهِ مُعْتَقِداً للتَّصْديقِ بكلِّ رسولٍ على الإشارةِ إليهِ. فإذا آمَنَ بالرسولِ والكتابِ المُنْزَلِ عليهِ فقد أتَى بزيادةِ تَصْديقٍ على ما وُجِدَ منهُ منَ التَّصديقِ بالجملةِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الزيادةُ مُنْصَرِفةً إلى الثباتِ والاسْتِقامةِ لأنَّ الإيمانَ لهُ حُكْمُ التَّجَدُّدِ [إذِ المؤمِنُ][٧] في كلِّ وقتٍ مأمورٌ[٨] باجْتِنابِ الكُفرِ؛ وإذا اجْتَنَبَ الكُفرَ فقد أتَى بِضِدِّهِ، وهو الإيمانُ [فَثَبَتَ أنَّ الإيمانَ][٩] لهُ حُكْمُ التَّجَدُّدِ في كلِّ وقتٍ.

وإذا كانَ كذلكَ اسْتَقامَ صَرْفُ الزيادةِ إلى الثباتِ والقَرارِ عليهِ. فإنْ شِئْتَ فَسَمِّ الدوامَ على الإيمانِ زيادةً، وإنْ شِئْتَ فَسَمِّهِ اسْتِقْراراً[١٠]، وإنْ شِئْتَ فَسَمِّهِ ثباتاً. وفي الكتابِ ما يُطْلَقُ جوازُ هذا كلِّهِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] فَنَدَبَهُمْ إلى الإيمانِ بعدَ ما آمَنوا، وما ذلكَ إلّا الثباتُ على ما هُمْ عليهِ، وقالَ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] وهو الاسْتِقْرارُ[١١]، وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: ١٠٢] فَجَعَلَ دوامَهُمْ على الإيمانِ واسْتِقْرارَهُمْ[١٢] عليهِ إيماناً.

[وقالَ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وقالَ: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] فأطْلَقَ][١٣] اسْمَ الزيادةِ واسْمَ الثباتِ واسْمَ الإيمانِ.

وإنْ كانتِ الزيادةُ مُنْصَرِفَةً إلى الأعمالِ فهي[١٤] عندَنا على الزيادةِ مِنْ جهةِ الفَضيلةِ والكمالِ لا على[١٥] الزيادةِ [مِنْ جهةِ العَدَدِ][١٦] عينِهِ لأنَّ الشيءَ إذا اسْتَحَقَّ الزيادةَ بِغَيرِهِ فاسْتِحْقاقُهُ يَقَعُ مِنْ جهةِ الفَضيلةِ والكمالِ.

ألا تَرَى إلى قولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «صلاةٌ في مَسْجِدي هذا تَعْدِلُ ألفَ صلاةٍ في ما سواهُ مِنَ المساجِدِ إلّا المسجِدَ الحرامَ»؟ [النسائي ٥/ ٢١٤].

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: استيقان فمعناه. (٤) في الأصل وم: يروا منهم الإيمان. (٥) في الأصل وم: منه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بأمور. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: استيقاناً. (١١) في الأصل وم: الإيمان. (١٢) في الأصل وم: واستقامتهم. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فهو. (١٥) في الأصل وم: إلى. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

ومعلومٌ أنهُ لم يُردْ بهِ التّفاضلَ منْ جهةِ العَدَدِ إذْ هو يأتي بأعيُنِ الأفعالِ التي يَلْزَمُهُ إتيانُها في غَيرِ ذلكَ. فكانتِ الزيادةُ مُنصَرفةً [إلى][1] الكمالِ والفَضْلِ [لا][2] إلى الزيادةِ منْ جهةِ العَدَدِ.

وكذلكَ قالَ [رسولُ اللهِ ﷺ:][3] «صلاةٌ في جماعةٍ تَفْضُلُ على صلاةِ المرءِ وحدَهُ بخمسٍ وعشرينَ درَجةً» [النسائي ٢/ ١٠٤] ولم يُرِدْ بهِ الزيادةَ منْ جهةِ العَدَدِ، وإنما أرادَ بهِ الزيادةَ مِنْ جهةِ الفَضْلِ والكمالِ.

وكذلكَ الزيادةُ التي تَقَعُ للإيمانِ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ إنما هي مِنْ جهةِ الفضيلةِ والشَّرفِ؛ إذِ الأعمالُ ليستْ مِنْ جِنْسِ الإيمانِ؛ إذِ الإيمانُ هو التّصْديقُ، وذلكَ غَيرُ موجودٍ في الأفعالِ. ثَبَتَ أنَّ زيادَتَهُ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرَ دونَ غَيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ في هذا الفصلِ كلامٌ بَيننا وبينَ المعتزلةِ؛ فهمْ يَزْعُمونَ أنَّ تلكَ العِدَّةَ، وهي عِدَّةُ الملائكةِ، جُعِلَتْ مِحْنَةً لأهلِ الإسلامِ وأهلِ الكتابِ وأهلِ الكفرِ ولِلَّذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ ليُؤمنوا بها، ويَسْتَسْلِموا لها لا ليَكْفُرَ بها مَنْ كَفَرَ، ويقولَ: ماذا أرادَ اللهُ بهذا مثلاً؟

ولكنْ لما وَجَدَ منهمْ ذلكَ القولَ نَسَبَ الجَعْلَ إليهِ لا أنْ خُلِقوا لذلكَ الوجهِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] نَسَبَ إليهمُ الإلْتِقاطَ، وإنْ كانَ الإلْتِقاطُ لِغَيرِ ذلكَ الوجهِ.

وكذلكَ قالَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ومعلومٌ أنَّ الإملاءَ لم يكنْ لِإزْدِيادِ الإثمِ، ولكنهمْ لمّا ازْدادوا إثماً نَسَبَ الإملاءَ إليهِ، وإنْ لم يكنِ الإملاءُ لذلكَ الوجْهِ. وكذلكَ يقالُ في الكلامِ السائرِ:

لِدوا لِلْموتِ وابْنُوا لِلْخرابِ [فَكُلُّكُمْ يصيرُ إلى ذَهابِ][4]

ولا [أحَدَ][5] يبني البناءَ للخرابِ، ولكنَّ مَصيرَهُ لمّا كانَ إلى الخرابِ نُسِبَ البناءُ إليهِ، وإنْ لم يكنِ البناءُ لِذلكَ الوجهِ. ويُقالُ: سَرَقَ السارقُ لِتُقْطَعَ يدُهُ. ومعلومٌ بأنهُ ليسَ يسرِقُ للقَطعِ، ولكنْ بِسَرِقَتِهِ [لَزِمَهُ القطعُ ولأجلِها قُطِعَتْ يدُهُ، ونُسِبَ][6] الفعلُ إليهِ، وإنْ كانتِ السرقةُ لِغَيرِ ذلكَ [الوَجْهِ. فكذلكَ][7] العِدَّةُ التي ذُكِرَتْ في الآيةِ جُعِلَتْ فيهِ بجهةٍ واحدةٍ، وهي التي ذَكَرْنا هنالكَ لمّا وَجَدَ مِنَ الكَفَرَةِ ما ذَكَرْنا نَسَبَ الخَلْقَ إلى ذلكَ الوجهِ لا أنْ كانَ الجَعْلُ لذلكَ.

ولكنّا نقولُ: لو كانَ الأمرُ على ما زَعَمُوا أدّى ذلكَ إلى إسقاطِ الرُّبوبيَّةِ؛ إذْ في الحكمةِ: مَنْ عَمِلَ عملاً يُريدُ بهِ غَيرَ الذي يكونُ أوجَبَ ذلكَ جَهلاً بالعواقِبِ، أو جُعِلَ عابثاً في فِعْلِهِ. ومَنْ هذا وَصْفُهُ لم يَصْلُحْ أنْ يكونَ إلهاً، بل يكونُ جاهلاً سَفيهاً.

ألا تَرَى أنَّ مَنْ بَنَى شيئاً، يَعْلَمُ أنهُ لا يكونُ، كانَ ذلكَ منهُ عَبَثاً، وإذا كانَ غيرَ الذي يُريدُهُ، كانَ جاهلاً بهِ؟.

فإمّا ثَبَتَ هذا فنقولُ: لو أرادَ اللهُ مِنَ الكافرينَ غَيرَ الذي كانَ منهُ لكانَ فعلُهُ خارجاً مَخْرَجَ الخَطَإِ والعَبَثِ، فَثَبَتَ أنَّ اللهَ ﷻ شاءَ لكلِّ فريقٍ ما عَلِمَ أنْ يكونَ منهمْ.

فإذا عَلِمَ مَنْ عندَهُ أنهُ يُؤثِرُ الضلالَ على الهُدَى فقد شاءَ لهُ الضلالَ، وإذا عَلِمَ أنهُ يُؤثِرُ فِعْلَ الخَيرِ شاءَ لهُ ذلكَ، وَوَفَّقَهُ، وهداهُ إليهِ.

والجوابُ عنْ قولِهِ ﷻ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فمعناهُ: ليكونَ لهمْ في عِلْمِ اللهِ عَدُوًّا وحَزَناً، لا أنْ كانَ الإلْتِقاطُ منهُ لذلكَ الوجهِ. بل لو عَلِموا أنهُ يَصيرُ لهمْ عَدُوًّا وحَزَناً لم يَلْتَقِطوهُ، ولكنهمْ جَهِلوا ما تَنْتَهي إليهِ العاقبةُ، فالْتَقَطوهُ رجاءَ أنْ يَنْتَفِعوا بهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إنه قول الشاعر أبي العتاهية. انظر أبو العتاهية: أشعاره وأخباره للدكتور شكري فيصل/ ٢٧. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إذا لزمه القطع ولأجلها ما قطع نسب. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

ولا يجوزُ أنْ يَخفَى على اللهِ عواقبُ الأشياءِ، فيكونُ فِعلُهُ في الابْتِداءِ لِغَيرِ ذلكَ الوجهِ.

وقولُهُمْ: لِدوا للموتِ وابْنوا للخرابِ؛ فهذا يُتَكَلَّمُ بِهِ في مَوضِعِ التَّذكيرِ والدُّعاءِ لئلا يَحْرِصَ المرءُ في بناءِ الأبنيةِ، بل يَزْهَدَ عنهُ. ويجوزُ أنْ يُخْفِيَ على اللهِ تعالى أمراً، فَيَخْرُجُ الأمرُ فيهِ مَخْرَجَ التَّذْكيرِ، فَثَبَتَ أنهُ على التَّحقيقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷺ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ والمَثَلُ يُذْكَرُ بِمَعْنَى البيانِ كقولِ القائلِ: أُمَثِّلُ لكَ صورةَ /٦١٣ ـ أ/ كذا؛ يُريدُ: أُبَيِّنُ لَكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ فهذا كلُّهُ تفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ الآية، أي يُضِلُّ بِهِ مَنْ كانَ في عِلْمِهِ أنهُ يَختارُ الضلالَ، واختيارُهُ الضلالَ، هو أنْ يَنْظُرَ في آياتِ اللهِ تعالى بِعَينِ الاسْتِهزاءِ والاسْتِخفافِ. ومَنْ كانَ نَظَرُهُ في آياتِ اللهِ ما ذَكَرْنا أضَلَّهُ اللهُ تعالى، وزادَهُ غَوايةً، ومَنْ نَظَرَ في آياتِ اللهِ بِعَينِ الاسْتِهْداءِ والاسْتِرشادِ، واستَقْبَلَها بالتَّبْجيلِ والتَّعظيمِ لها، وفَّقَهُ اللهُ تعالى، ومَنَّ عليهِ بالهِدايةِ، وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وغيرُ ذلكَ، واللهُ الموفِّقُ.

وقالَتِ المعتزلةُ: قولُهُ تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يُسَمِّيهِ ضالاً، أو يحكُمُ عليهِ بالضلالِ إذا ضَلَّ، لا أنْ يكونَ اللهُ تعالى يُضِلُّهُ، ويشاءُ ضلالَتَهُ.

فَيُقالُ لهمْ: إذا كانَ اللهُ يريدُ أنْ يُؤمِنَ بهِ، وتلكَ إرادَتُهُ في كلِّ أحدٍ عندَكُمْ، فَتَسمِيَتُهُ إياهُ ضالاً وحكمُهُ بالضلالِ، وهو يريدُ أنْ يَهْتَدِيَ، جَورٌ منهُ، وفيهِ تَحقيقُ كَذِبِهِ. جلَّ اللهُ تعالى عَنْ أنْ يَلْحَقَهُ وَصْفُ الجَورِ في فِعْلِهِ، أو يُنْسَبَ إلى الكَذِبِ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: تأويلُهُ: أنَّ اللهَ يَنْصِبُ طريقاً، مَنْ سَلَكَهُ أفضَى بهِ إلى الهِدايةِ، ومَنْ زاغَ عنهُ صارَ إلى الضلالِ، ولا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ مِنَ الخلائقِ أنْ يَنْصِبَ مثلَهُ.

فنقولُ: لو كانَ التأويلُ على ما زَعَمَ لكانَ حقُّهُ أنْ يُقالَ: كذلكَ يُضِلُّ اللهُ ما يشاءُ، ويَهدي ما يشاءُ. فلما قالَ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ و: مَنْ يُعَبَّرُ بهِ عنِ الأشخاصِ العقلاءِ [وما: عَنِ الفرقةِ][1] التي لا تَعْقِلُ. ثَبَتَ أنَّ الذي قالَهُ ليسَ بشيءٍ يُعْتَمَدُ عليهِ.

ثم الأصلُ أنَّ قولَهُ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ، وفيهِ امْتِداحُ الربِّ بالفِعْلِ لِما يُريدُ. فلو لم يكُنْ مريداً منهم لِما قد كانَ، ولم يُرِدْ كونَ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ سَقَطَ الامْتِداحُ، وخَرَجَ عنْ أنْ يكونَ مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ، فَثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى شاءَ لكلِّ فريقٍ ما عَلِمَ أنْ يكونَ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فالجُنودُ، هو اسمٌ للجماعةِ التي يُنْتَقَمُ بها، ويُنْتَصَرُ بها. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ مُنْصَرِفاً إلى الملائكةِ الذينَ، هُمْ أصحابُ النارِ، ليسَ ما جَعَلَهُ مِنْ خَزَنَةِ النارِ عَدَداً قليلاً لِقِلَّةِ جُنودِهِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي [ما يَعْلَمُ][3] مَقاديرَ قِوامِهِمْ وأحوالِهِمْ إلّا اللهُ؛ فمعناهُ لا يَعْلَمُ قوةَ هؤلاءِ الجُنودِ وبَطْشَهُمْ وهيبَتَهُمْ إلّا هو.

ثم يجوزُ أنْ يكونوا[4] سُلِّطوا على تَعْذيبِ أهلِ النارِ على جهةِ الامْتِحانِ للملائكةِ كما امْتَحَنَ بَعضَهُمْ بإيصالِ التُّحَفِ والكراماتِ إلى أهلِ الجنةِ كما امْتَحَنَ بعضَهُمْ في الدنيا بِقَبْضِ الأرواحِ واسْتِنْزالِ الأمطارِ وغيرِ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تَسليطُهُمْ على أهلِ النارِ على جهةِ الثوابِ والجزاءِ لهمْ، لأنهمْ يَتَلَذَّذونَ بما يُعَذِّبونَ أهلَ النارِ، ويَنْتَقِمونَ مِنْ أعداءِ اللهِ تعالى، لأنَّ المرءَ في الشاهدِ إذا وَصَلَ إلى الانْتِقامِ مِنْ عَدُوِّهِ تَلَذَّذَ بهِ، وتَنَعَّمَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷺ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي وما يَعلَمُ كَثْرَةَ جُنودِ ربِّكَ إلا هو.

ويَحتَمِلُ [أنْ يكونَ قولُهُ تعالى][5] ﴿وَمَا يَعْلَمُ﴾ السببَ الذي يَجْعَلُ بهِ الجنودَ يَصْلُحونَ لِلانْتِقامِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو القادرُ

---

(١) في الأصل وم: عن الطريق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: يكون. (٥) ساقطة من الأصل وم.

على أنْ يَجْعَلَ أضعفَ شيءٍ مِنْ خَلْقِهِ جُنداً يَنْتَقِمُ بهِ مِنْ أعدائِهِ كما في قصةِ البعوضِ في زمنِ نمرودَ وغيرِ ذلكَ: مِنْ إرسالِ الطيرِ إلى أصحابِ الفيلِ وإمطارِ الحجارةِ على قومِ لوطٍ ونَحْوِ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي لا يَعْلَمُ ما الذي يَتَّخِذُ اللهُ تعالى جُنداً لِلانْتِقامِ مِنَ الأعداءِ إلّا هو.

ألا تَرَى أنَّ اللهَ ﷻ انْتَقَمَ مِنْ بعضِ الأعداءِ بالغَرَقِ، وهمْ قومُ فِرعونَ وقومُ نوحٍ[1]، وأهْلَكَ بعضاً منهمْ بالرياحِ، واتَّخَذَها جُنداً[2] عليهِمْ، وأهْلَكَ بعضاً منهمْ بالخَسْفِ؟ فيكونُ في هذا إيجابُ المراقبةِ مِنْ حُلولِ النِّقْمَةِ والسَّخْطَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى السَّقَرِ أنها ذِكْرَى للبَشَرِ أي مَوعظةٌ وتذكيرٌ لهمْ ما إليهِ مَرْجِعُ أمورِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى عِدَّةِ الملائكةِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قيلَ: حَقّاً، وقيلَ: هو على الرَّدْعِ والتَّنبيهِ[3].

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ فهذا في مَوضِعِ القسمِ، وقد ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ لتأكيدِ ما قَصَدَ إليهِ بالذِّكْرِ، وإدبارُ الليلِ مَجيءُ النهارِ، فجائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ آخِرِ الليلِ يَقْتَضي ذِكْرَ أوَّلِ النهارِ [وذِكْرُ أوَّلِ النهارِ يَقْتَضي ذِكْرَ النهارِ][4] كلِّهِ. فيكونُ القَسَمُ بها قَسَماً بالليلِ كلِّهِ والنهارِ كلِّهِ.

ثم الليلُ إذا أقبَلَ عَمِلَتْ ظُلْمَتُهُ في سَتْرِ الأشياءِ كلِّها بساعةٍ لطيفةٍ، وكذلكَ النهارُ إذا أقبَلَ عَمِلَ في رفْعِ الظلمةِ عنِ الخلائقِ جُمْلَةً بساعةٍ لطيفةٍ ما لوِ اجْتَهَدَ المرءُ في جميعِ عُمُرِهِ، وإنْ طالَ، في عَدِّ تلكَ الأشياءِ لِيُحيطَ عِلْماً بِجُمْلَتِها لم يَتَمَكَّنْ منهُ.

وإذا كانَ لِلَّيلِ مِنَ السلطانِ ما ذَكَرْنا، ولإقبالِ النهارِ مِنَ الأمرِ ما ذَكَرْنا، وكانَ الذي ذَكَرْنا أمراً مُشاهَداً مُعايَناً، ولو أُريدَ مَعرفةُ ما فيهِ[5] مِنَ الحكمةِ أنهُ لأيِّ مَعْنىً ما صَلَحَ أنْ يكونَ الليلُ ساتراً عن دَرْكِ أعيُنِ الأشياءِ، واسْتقامَ أنْ يكونَ النهارُ مُزيلاً للسَّتْرِ، لم يُقْدَرْ عليهِ، فيكونُ إبانةُ أنهُ لا يَجِبُ إنكارُ كلِّ ما لا يُوصِلُ إلى دَرْكِ الحِكْمَةِ فيهِ بالعقولِ والآراءِ، فيكونُ فيهِ إيجابُ التصديقِ بالأنباءِ التي يأتي بها الرسلُ، وإنْ كانَ فيها ما لا يُوقَفُ على الحكمةِ المجعولةِ فيها بالآراءِ.

وفيهِ أنَّ مُنْشِئَ الليلِ والنهارِ واحدٌ، وأنَّ الخلائقَ بِجُمْلَتِهِمْ تحتَ سلطانِهِ وتدبيرِهِ، يحكُمُ فيهِمْ بما يشاءُ، ويَفْعَلُ ما يريدُ. وجائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ مُنْصَرِفاً إلى الوقتَيْنِ اللَّذينِ، وَقَعَ عليهِما الذِّكْرُ، وهما إدبارُ الليلِ وإسفارُ الصبحِ، فيكونُ فيهما في الأوَّلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْفَرَ﴾ أي أضاءَ، وانْتَشَرَ. وقولُهُ: ﴿أَدْبَرَ﴾ أي ذَهَبَ.

وحُكِيَ عنِ الكِسائيِّ أنهُ قالَ: إنَّ ﴿أَدْبَرَ﴾ لغةٌ قُرَيشيَّةٌ؛ يقولونَ: ذهبَ كالأمسِ الدابرِ أي الذاهبِ، فيقولونَ: دَبَرَ في الأيامِ والشهورِ والسنينَ، ولا يقولونَ في غيرِ ذلكَ، لا يقولونَ: دَبَرَ الرجلُ، ودَبَرَ الأمرُ، ولكنْ يُقالُ: أدْبَرَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: إذا أدْبَرَ، وفي الحروفِ: إذْ دَبَرَ[6]، والمعروفُ إذْ أدْبَرَ كما قُلْنا.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ قيلَ: يعني السَّقَرَ، ثم عذابُ أهلِ النارِ ألوانٌ، وفي جهنمَ دَرَكاتٌ، والسَّقَرُ إحْدَى دَرَكاتِها، إذْ هي لونٌ مِنْ ألوانِ العذابِ، فصارتْ هي مِنْ إحْدَى الكُبَرِ][7].

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ فمنهمْ مَنْ صَرَفَ النِّذارةَ إلى السَّقَرِ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَها إلى الرسولِ ﷺ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأحقاف: ١٢] فمنهمْ مَنْ قَرَأَ بالتاءِ[8]، وصَرَفَها إلى القرآنِ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: عليهم السلام. (٢) في الأصل وم: جنوداً. (٣) في الأصل وم: والتشبيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٢٦٣. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٢٦٣.

ثم الأصلُ أنَّ ما خَرَجَ مَخْرَجَ الأفعالِ مُضافاً إلى الأشياءِ اللاتي ليسَتْ لهنَّ أفعالٌ، فهو يَقْتَضي أمرَين:

أحَدُهما: ذِكْرُ الأفعالِ [التي][١] يَقَعُ لَدَيها ممّا لو لم تكنْ تلكَ الأشياءُ لم تحدثْ تلكَ الأفعالُ[٢] مِنْ غيرِ أنْ تكونَ عِلّةً لها، فَنُسِبَتْ إليها إذْ صارتْ شيئاً لِحدوثِ تلكَ الأفعالِ[٣]، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] والحياةُ الدنيا لا تَغُرُّ أحداً، ولكنهمُ اغْتَرّوا بزينتِها، فَنُسِبَ إليها الغرورُ لِما كانَتْ سبباً لِتغريرِهِمْ.

والثاني: أنها أُنشِئَتْ على هيئةٍ، لو كانَتْ مِنْ أهلِ التغريرِ لكانَتْ تَغُرُّ، فنُسِبَ إليها[٤] الغرورُ لذلكَ.

وقالَ في قصةِ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ وعلى نَبِيِّنا: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] والأصنامُ ليسَتْ ممَّنْ يُنْسَبُ إليها الإضلالُ، لأنها[٥] لا أفعالَ لها، ولكنَّ عُبّادَها لمّا ضَلّوا [بها][٦] نُسِبَ الإضلالُ إليها، وهي أيضاً على صورةٍ، لو كانتْ لها أفعالٌ لكانَ يقعُ منها الإضلالُ: فَنُسِبَ إليها الإضلالُ للوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما.

فكذلكَ النِّذارةُ أُضيفتْ إلى النُّذُرِ ههنا لأنهُ عندَ ذِكْرِها تقعُ النِّذارةُ، فأضيفَتْ إليها كذلكَ، أو خَلَقَهُنَّ على هيئةٍ، لو كانَتْ مِنْ أهلِ النِّذارةِ لكانَتْ نذيرةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قيلَ: هو على التَّهديدِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وذلكَ إنما يكونُ على إثْرِ المُبالغةِ في العِظاتِ والتَّذْكيرِ بِعَواقبِ الأمورِ / ٦١٣ ـ ب/ وقد بالغَ [في][٧] ذلكَ في هذهِ السورةِ، وبَيَّنَ عَواقبَ أمورِ العبادِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قيلَ: أنْ يَتَقدَّمَ إلى طاعةِ اللهِ أو يَتَأخَّرَ عنها[٨] إلى مَعْصِيةِ اللهِ تعالى.

والأصلُ أنَّ المرءَ جُبِلَ على حبِّ [مَنافعِ الخيراتِ لنفسِهِ][٩] وعلى بُغْضِ الشَّرِّ والمَضارِّ. ومَنْ أحبَّ شيئاً طلَبَهُ، ومَنْ أبغَضَ شيئاً اجْتَنَبَهُ، وهَرَبَ منهُ. وإذا طلَبَ [شيئاً][١٠] تقَدَّمَ إليهِ، وإذا هَرَبَ منْ شيءٍ تأخَّرَ عنهُ، فَكَنّى عنِ الطَّلَبِ بالتَّقدُّمِ وعنِ الهَرَبِ بالتَّأخُّرِ.

فقيلَ في تأويلِ قولِهِ ﷻ: ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى طاعةِ اللهِ [أي تُؤَدّي إليهِ المَنافعُ في الآخرةِ، وتُجلَبُ][١١] إليهِ المَحاسنُ [﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنْ طاعتِهِ][١٢] إذ في الإعراضِ عنْ طاعتِهِ إيقاعُ النفسِ في المَهالِكِ وأنواعِ الشرِّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [معناهُ أنْ يَتقدَّمَ، أو يَتَأخَّرَ][١٣] بِتخليقِ اللهِ تعالى فِعْلَ التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ منهُ، فيكونَ فِعْلاً لهُ وكَسْباً لوجودِهِ في حَيِّزِ قدرتِهِ وخَلْقاً للهِ تعالى، فيكونَ مثلَ قولِنا: لا حجَّةَ علينا في إضافةِ التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ إلينا، واللهُ الموفقُ.

الآيات ٣٨ ـ ٤٠ وقولُهُ تعالى: [﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾] ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصحابُ اليَمينِ، همُ الذينَ وصَفَهُمُ اللهُ تعالى في مَوضعٍ آخرَ، في كتابِهِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩، والانشقاق: ٧] فاستَثْنى أصحابَ اليمينِ مِنْ جُملةِ المُرْتَهَنينَ لأنهُ ذَكَرَ الرُّهونَ بلفظٍ يُعَبِّرُ بها عنِ الجمعِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ فاستقامَ اسْتِثْناءُ الجماعةِ منْ تلكَ الجُملةِ أي أصحابُ اليمينِ قد سَبَقَتْ منهمُ الأعمالُ التي يَسْتَوجبونَ بها الإطلاقَ منَ الحبْسِ لأنَّ المُجْرِمينَ صاروا مَرْهونينَ بإجرامِهِمْ، وأصحابَ اليمينِ قدِ اكْتَسَبوا الخَيراتِ، وعَمِلوا الصالحاتِ. والأعمالُ الصالحةُ جَعَلَها اللهُ تعالى مُكَفِّرَةً للمساوئِ والأجرامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

الآيتان ٤١ و٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ فظاهرُ هذا يُؤدّي إلى أنَّ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الأحوال. (٣) في الأصل وم: الأحوال. (٤) في الأصل وم: إليه. (٥) في الأصل وم: لأنه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: عنه، ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: المنافع لنفسه الخيرات. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) و(١٣) من م، ساقطة من الأصل.

التساؤلَ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ بعضِهِمْ بعضاً. وإذا صَدَرَ السؤالُ عنْ بعضِهِمْ بعضاً فحقُّهُ أنْ يُقالَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ لأنَّ أهلَ سَقَرَ لم يَسألوا، بَل سألَ عنهمْ غيرُهُمْ.

ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يَقُلْ: يتساءلُ المُجْرِمونَ؟ فَثَبَتَ أنَّ الظاهرَ يَقْتَضي أنْ يكونَ المُخاطِبونَ غيرَ المُجْرِمينَ. لذلكَ قلْنا: إنَّ حقَّ مثلِهِ أنْ يُقالَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ لكنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿عَنِ﴾ زيادةً في الكلامِ، وحقُّهُ الحَذْفُ والإسقاطُ، وإذا حُذِفَ، ارْتَفَعَ الرَّيبُ والإشكالُ، كأنهُ قالَ: في جناتٍ يسألونَ المُجْرِمينَ، فيكونُ فيهِ تثبيتٌ أنَّ أهلَ سَقَر، همُ الذينَ خوطبوا بالسؤالِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أهلُ الجنةِ، يَسْألُ بعضُهُمْ بعضاً عنْ مكانِ المُجْرِمينَ: أينَ مكانُهُمْ؟ وأينَ هُمْ؟ فَيُطْلَعونَ عليهِمْ، فَيَسْألونَهُمْ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟

الآيات ٤٢ ـ ٤٧ فيقولون إذْ ذاكَ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾][(١)].

ألا ترَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؟ [الصافات: ٥٥] فَثَبَتَ أنهمْ يَطَّلِعونَ على أماكِنِهِمْ. فإذا رَأوهُمْ[(٢)] سالوهُمْ عن ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ فأجابوا بما أخبَرَ اللهُ تعالى عنهمْ بقولِهِ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾][(٣)].

والأصلُ أنَّ الأفعالَ التي يَتَعَلَّقُ جوازُها بالإيمانِ، إذا أُضيفَتْ إلى مَنْ ليسَ منْ أهلِ الإيمانِ أُريدَ بها القَبولُ، وإذا أُضيفَتْ إلى أهلِ الإيمانِ أُريدَ بها أعيُنُ تلكَ الأفعالِ.

والذي يَدُلُّ على هذا، هو أنَّ الكافرَ يُسْلَكُ بهِ إلى سَقَرَ إذا كانَ مُكَذِّباً بيومِ الدينِ، وإنْ أقامَ الصلاةَ، وأطْعَمَ المسكينَ، لم يَنْفَعْهُ ذلكَ حتى يُوجَدَ منهُ الإيمانُ، فَثَبَتَ أنهُ لم يُرِدْ بِذِكْرِ هذهِ الأفعالِ إتيانُ أعيُنِها، وإنما أُريدَ بها القَبولُ والإقرارُ بها.

والذي يَدُلُّ على صحةِ ما ذَكَرْنا قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] فَثَبَتَ أنهمْ جَحَدوا أنْ يكونَ عليهِمْ إطعامٌ، فَدَلَّ أنهُ أُريدَ بذكرِ الإقامةِ قَبولُها لا وُجودُ عَينِها، وعليهِمْ أنْ يَقبلوا إقامةَ الصلاةِ، ويُقِرّوا بإيتاءِ الزكاةِ.

وقد يجوزُ أنْ تُذْكَرَ إقامةُ الصلاةِ وإيتاءُ الزكاةِ، ويُرادَ بهِ القَبولُ كقولِهِ[(٤)] تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ولم يكنْ إيجادُ الإقامةِ وإيجادُ الإيتاءِ مِنْ شَرائطِ التَّخْليَةِ، بل كانَ معناهُ على القَبولِ. فإذا أقَرّوا بالصلاةِ، وقَبِلوا إقامَتَها، وأقَرّوا بالزكاةِ، لَزِمَتْ تَخْليَةُ سبيلِهِمْ، وإنْ لم يوجَدْ منهُمُ الفِعْلُ بعدُ.

فلذلكَ صَلَحَ حَمْلُ التأويلِ على القَبولِ، ولم يُحْمَلْ على وُجودِ حقيقةِ الفِعْلِ لِما ذَكَرْنا هذا إذا ثَبَتَ أنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ مُنْصَرِفٌ إلى الصلاةِ المعروفةِ.

فكيفَ، وقد يجوزُ أنْ يكونَ أُريدَ بالمصلِّينَ المُوَحِّدونَ[(٥)] ههنا لأنَّ أهلَ الصلاةِ، همُ المسلمونَ؟ يُقالُ: اجْمَعَ أهلُ الصلاةِ على هذا، ويُعْنَى بهِ المُسْلِمونَ.

ثم اللهُ ﷻ جَمَعَ في الذِّكْرِ بينَ التكذيبِ بيومِ الدينِ وبينَ تَرْكِ الصلاةِ والإطعامِ[(٦)]، وهذا، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الذي يُقِرُّ بالصلاةِ والإطعامِ وإيتاءِ الزكاةِ، هو الذي يُقِرُّ بيومِ [الدينِ][(٧)] لأنَّ المَرْءَ إنما يَرْغَبُ في فِعْلِ هذهِ الأشياءِ لِما يَطْمَعُ مِنَ المَنافعِ في العَواقِبِ، ويَتَّقي تَرْكَها[(٨)] مَخافَةَ التَّبِعَةِ في العواقِبِ.

---

(١) في الأصل وم: إلى آخر الآية. (٢) في الأصل وم: رأوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال الله. (٥) في الأصل: الموحدين، ساقطة من م. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بتركها.

فإذا لم يُقِرَّ بيومِ [الدينِ][١] لم يَرْجُ المَنافِعَ، ولا خافَ المَضارَّ، فيحمِلُهُ ذلكَ على تَرْكِ الإطعامِ وتَضييعِ الصلاةِ وعلى تَرْكِ إيتاءِ الزكاةِ وعلى جَحْدِها كلِّها وعَدَمِ قَبولِها، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣] لِعَدَمِ رجاءِ العَواقبِ. فإذا لم يَرَ لِفِعْلِهِ عاقبةً لم يَقُمْ بالإنتِصارِ لليَتيمِ، ولا قامَ بإحسانٍ [إلى][٢] المسكينِ، بل تكْذيبُهُ بيَومِ الدينِ يَحْمِلُهُ على الجَورِ على اليتيمِ وتَرْكِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ وتَرْكِ الإطعامِ.

[والثاني][٣]: أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على التكذيبِ بيَومِ الدينِ هذهِ الوظائفَ التي وُضِعَتْ عليهِمْ بالإسلامِ لأنهمْ إذا آمَنوا بيومِ الدينِ لَزِمَهُمْ تَحَمُّلُ هذهِ الأحمالِ مِنْ إقامةِ الأفعالِ: إقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ وإطعامِ المساكينِ وصِيامِ شهرِ رَمَضانَ وغَيرِ ذلكَ مِنَ العباداتِ، فاشتَدَّ عليهِمْ، فتَركوا الإيمانَ بها لئلّا يَلْزَمَهُمْ تَحَمُّلُ هذهِ الأفعالِ التي حملَها أهلُ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ فالخائضُ هو الذي يَخوضُ في الباطلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي حتى أيقَنّا أنّا كُنّا على باطلٍ في ما كُنّا نَخوضُ فيهِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ مَعْناهُ: أنْ لا شَفيعَ لهمْ.

والأصلُ أنَّ الشَّفاعةَ إذا أُضيفَتْ إلى أهلِ الكُفرِ، فَقيلَ: ليسَ لهمْ شُفَعاءُ، أولا تَنْفَعُهُمْ شَفاعةُ الشافعينَ، اقْتَضى نَفْيَ الشَّفاعةِ، أي لا شَفيعَ لهمْ.

وإذا أُضيفَتْ إلى أهلِ الإيمانِ اقْتَضى ثُبوتَ[٤] الإنْتِفاعِ بِشَفاعةِ الشُّفعاءِ، ولم يَقْتَضِ نَفْيَ الشّفاعةِ كما ذَكَرْنا أنَّ الأفعالَ التي يكونُ قِوامُها بالإيمانِ، إذا أُضيفَتْ إلى الكفارِ، فهي تَقْتَضي نَفْيَ القَبولِ، وإذا أُضيفَتْ إلى أهلِ الإيمانِ، فهي تَقْتَضي ثبوتَ[٥] الفِعْلِ.

وقولُنا بأنهُ إذا قيلَ: لا شَفيعَ لهُ، وأُريدَ بهِ أهلُ الإسلامِ، فهو يَقْتَضي ثُبوتَ[٦] الشفاعةِ، فذلكَ يَنْصَرِفُ عندَنا إلى أهلِ الاعْتِزالِ والخوارجِ لأنّا نَرَى أصحابَ الكبائرِ مِنْ أهلِ الإسلامِ مُسْتَوجِبينَ / ٦١٤ ـ أ/ للشفاعةِ، وهمْ يقولونَ: لا يجوزُ في حكْمِ اللهِ تعالى أنْ يَعْفُوَ عنْ أصحابِ الكبائرِ، بل يُخَلِّدُهُمْ في النارِ، لأنَّ اللهَ تعالى أوعَدَ النارَ لِمَنِ ارْتَكَبَ الكبائرَ أنهمْ يُخلَّدونَ فيها، فلا يجوزُ أنْ يَقَعَ في وَعْدِهِ خُلْفٌ، ويَتَحقَّقَ في خَبَرِهِ كَذِبٌ. ولوِ اسْتَوجَبَ الشفاعةَ، ونالوا بها المَغْفرةَ مِنْ ربِّ العِزَّةِ لصارَ في ما وَعَدَ مُخْلِفاً وفي ما أَخْبَرَ كَذوباً.

فَمِثْلُ هؤلاءِ إذا ارْتَكبوا الكبائرَ لا يُرْجَى لهمُ الخَلاصُ بالشفاعةِ أبداً، بل يُحْكَمُ عليهِمْ بالخُلودِ في النارِ، فَيَرْتَفِعُ ما يُثْبِتُ الكَذِبَ، ويَنْتفي ما يوجِبُ خُلْفَ وَعْدٍ. ولأنهمْ لمّا اعْتَقَدوا التَّخليدَ في النارِ لِمَنِ ارْتَكَبَ الكبائرَ وَجَبَ أنْ يكونَ نفيُهُمُ الشفاعةَ بِزَعْمِهِمْ على ذلكَ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩و٣٠] فلا يجوزُ [أنْ يَحُلَّ][٧] عليهِمُ العذابُ، ثم لا يَنالَهُمُ العذابُ إذا بُعِثوا.

ثم احْتَجَّ فريقٌ منهمْ بِنَفْيِ الشفاعةِ في الآخرةِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وبقولِهِ: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وبقولِهِ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وزَعَموا أنَّ شَفيعَ كلِّ امْرِئٍ منهمْ عَمَلُهُ يومئذٍ؛ فَمَنْ حَسُنَ عملُهُ يُجْزَ بهِ، ومَنْ ساءَ عملُهُ حقَّ عليهِ العذابُ، ولم يكنْ لهُ شافعٌ.

ولو وَجَبَ نَفْيُ الشفاعةِ بما ذَكَرَ مِنْ هذهِ الآياتِ الظاهرِ لَوَجَبَ تَحْقيقُها بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجائز. (٤) في الأصل وم: نفي. (٥) في الأصل وم: نفي. (٦) في الأصل وم: نفي. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] إذْ في هاتينِ الآيتينِ أنَّ اللهَ تعالى قد يأذَنُ بالشفاعةِ يومئذٍ للبعضِ، فَثَبَتَ أنَّ ما ذَكَرْتُمْ مِنْ نَفْيِ الشفاعةِ لم يَقْتَضِ نَفْياً على الإطلاقِ، بلِ النَّفْيُ انْصَرَفَ إلى بعضِ الخَلائِقِ، ووجَبَ قَبولُ ثبوتِها لبعضِهِمْ.

ثم جاءتِ الأخبارُ مُفَسِّرَةً على إيجابِ القبولِ بالشفاعةِ لأهلِ الكبائرِ، فَثَبَتَ أنَّ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وقولِهِ: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] مُنْصَرِفٌ إلى أهلِ الكفرِ، وبهِ نقولُ.

ومِنَ المعتزلةِ مَنْ يُحَقِّقُ الشفاعة، ولكنهُ يراها للذينَ يَسْتَوجِبونَ استِغْفارَ الملائكةِ في الدنيا، وهمُ الذينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تعالى في كتابِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

وأمّا أصحابُ الكَبائرِ فإنهمْ لا تَنالُهُمْ شفاعةُ أحدٍ، بل يُخَلَّدونَ في النارِ.

فَيُقالُ لهمْ: فأيُّ مَنْفَعةٍ تَحْصُلُ للذينَ تابوا، واتَّبعوا سبيلَهُ في الشفاعةِ، وهمْ قدِ استَوجَبوا الخَلاصَ بِتَوبَتِهِمْ واتِّباعِهِمْ سَبيلَ الرشادِ.

فإنْ قالوا: مَنْفَعَتُهُمْ بها أنهمْ[1] لِعِظَمِ قَدْرِهِمْ عندَ اللهِ يَسْتَوجِبونَ بها الدَّرجاتِ كما تَرَى المَرْءَ في الشاهِدِ يَذْكُرُ أخاهُ عندَ الملوكِ بِحُسْنِ السيرةِ، ويَذْكُرُهُ بما فيهِ مِنَ المَناقبِ الجميلةِ والمَحاسِنِ، ويَبْتَغي بذلكَ إعلاءَ مَنْزِلَتِهِ وإعظامَ قَدْرِهِ عندَهُمْ لِيُعَظِّموهُ، ويُبَجِّلوهُ.

فكذلكَ الشفعاءُ في الآخرةِ يُثْنونَ عندَ اللهِ تعالى على أوليائِهِ خَيراً لِيَزيدَ في دَرجاتِهِمْ، وتَعْظُمَ مَنْزِلَتُهُمْ عندَ اللهِ تعالى.

والجوابُ أنَّ هذهِ الزيادةَ في الدَّرجاتِ ليسَتْ إلّا إلى الوصولِ إلى فُضولِ الشَّهَواتِ، وفُضولُ الشَّهَواتِ والزيادةُ في اللَّذّاتِ لا تُذْكَرُ في المَنافعِ؛ إذْ لا حاجةَ لهمْ إلى ما هو في حقِّ الفُضولِ مِنَ الشَّهَواتِ، فيكونُ في مِثالِها وَقْعُ الحاجةِ والوصولُ إلى المَنْفَعَةِ.

ومعلومٌ بأنهمْ إنما أُطْمِعوا في الشفاعةِ، وإنما تَحْصُلُ لهمْ بها المَنْفَعةُ، إذا وقَعَتْ إليها الحاجةُ.

وأهلُ الكبائرِ هُمُ الذينَ تَمَسُّهُمُ الحاجةُ إليها. فأمّا الذينَ تابوا، وأنابوا، فقدِ استَغْنَوا عنِ الشَّفاعةِ. لِذلكَ وَجَبَ القولُ بِتَحقيقِ الشَّفاعةِ في أهلِ الكبائرِ.

وأمّا استِدْلالُهُمْ بما ذَكَروا مِنْ أمرِ الشُّهودِ فليسَ بِمُحْكَمٍ منَ القولِ لأنَّ المرءَ إنما يَذْكُرُ أخاهُ بالجميلِ، ويُظْهِرُ ما اشْتَمَلَ عليهِ مِنْ خِلالِ الخَيرِ لِجَهْلِ الملوكِ بحالِهِ في ما هو عليهِ مِنْ جَميلِ الخِصالِ ومَحْمودِ الفِعالِ.

ألا تَرَى أنَّ المَلِكَ إذا كانَ عالماً بِحالِهِ لم يُقَدِّمِ الإنسانَ على الثَّناءِ[2] الجميلِ منهُ؟ فَثَبَتَ أنَّ الذي يَحوجُهُ إلى الثناءِ عليهِ عندَ الملوكِ جَهْلٌ بحالِهِ. ولا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَخْفَى عليهِ حالُ أحدٍ وما هو عليهِ مِنْ ظواهِرِ[3] أمورِهِ وبواطِنِها حتى يَحتاجَ إلى مُعَرِّفٍ يُعَرِّفُهُ.

فَبَطَلَ أنْ تكونَ الشفاعةُ للوجهِ الذي ذكروهُ[4]، وثَبَتَ أنها للوجهِ الذي ذَكَرْناهُ[5].

ثم العَفْوُ والصفحُ عنْ إحلالِ العقوبةِ بِمَنْ هَمّوا أنْ يُعاقِبوهُ بِجريمةٍ سَبَقَتْ منهمْ، ثم الشفاعةُ في ما بَينَ الخَلْقِ أمرٌ معهودٌ، إنما تكونُ عندَ زَلّاتٍ تَسْتَوجِبُ بها العقوبةَ والمَقْتَ، فَيُعْفَى عنْ مُرْتَكِبِها بِشَفاعةِ الأخيارِ وأهلِ الرِّضا. فلا يُنْكَرُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَعْفو عَمَّنِ اسْتَوجَبَ العقابَ بِشفاعةِ الأخيارِ وأهلِ الرِّضا والأبرارِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: مالهمْ مُعْرِضينَ عنْ ذِكْرِ ما لهمْ وعليهمْ وعمّا إليهِ مآبُهُمْ ومُتَقَلَّبُهُمْ؟ وذلكَ يكونُ في الرسولِ وفي القرآنِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يَذْكُرُ للمرءِ مالَهُ وعليهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: البشر. (٣) في الأصل وم: الظواهر. (٤) في الأصل وم: ذكروها. (٥) في الأصل وم: ذكرناها.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: فمالهمْ عمَّا بهِ يَشْرُفُ قَدْرُهُمْ، ويَصيرونَ بهِ مَذْكورينَ في المَلإِ الأعلى مُعْرِضينَ؟ وذلكَ يكونُ في طاعتِهِ والإقبالِ على عبادتِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] مَعْناهُ أنكمْ تَصيرونَ بهِ مذكورينَ، ويَعْظُمُ قدرُكُمْ لوِ اتَّبَعْتُموهُ، ولم تُضَيِّعوا حُرْمَتَهُ.

الآيتان ٥٠ و٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ بِنَصْبِ[1] الفاءِ وخَفْضِهِ. ومَنْ قَرَأَ بِخَفْضِ الفاءِ صَرَفَ الفِعلَ إليها، كأنهُ يقولُ: حُمُرٌ نافرةٌ [ونَفَرَ][2] واسْتَنْفَرَ واحدٌ كما يُقالُ: اسْتَرْقَدَ القومُ أي رَقَدوا.

ومَنْ قَرَأَ بِنَصْبِ الفاءِ فَتأويلُهُ أنهُ فُعِلَ بها ما يَحمِلُها على النِّفارِ، وذلكَ يكونُ بالرَّامي وبالقانِصِ، مِنَ الأُسْدِ كما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ في تأويلِ القَسْوَرَةِ، هي الأُسْدُ والرُّماةُ أو الصَّيَّادونَ، ويُقالُ: هي النُّفْرَةُ، وكانَ هذا تَشبيهاً بالحُمُرِ الوحشيَّةِ التي في طَبْعِها النِّفارُ. وَوَجْهُ التقريبِ، هو أنَّ هؤلاءِ أعْرَضوا عمَّا في الإقبالِ عليهِ نَجاتُهُمْ وتَخَلُّصُهُمْ مِنَ العَطَبِ، ونَفَروا كَنِفارِ الحُمُرِ المُسْتَنْفَرَةِ مِنَ العَطَبِ والهلاكِ.

وفي هذهِ الآيةِ تَبيينُ شِدَّةِ سَفَهِهِمْ وغايةِ جَهْلِهِمْ، لأنَّ الحُمُرَ تَنْفُرُ مِنَ القانِصِ والرامي والأُسْدِ لِتَسْلَمَ مِنَ الهلاكِ والعَطَبِ، وهؤلاءِ الكَفَرَةُ نَفَروا عمَّا فيهِ نَجاتُهُمْ إلى ما فيهِ هلاكُهُمْ وعَطَبُهُمْ، فهمْ أشَرُّ مِنَ الحميرِ وأضَلُّ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ المشركينَ قالوا: يا محمدُ بلَغَنا أنَّ الرجلَ في بَني إسرائيلَ كانَ إذا أذْنَبَ ذَنباً، فأصبَحَ، وَجَدَ صحيفةً على بابِ دارِهِ أو مكتوباً عندَ رأسِهِ: أنكَ أذْنَبْتَ كذا، وزادَ بعضُهُمْ: أنكَ أذْنَبْتَ كذا، وتوبَتُكَ كذا، وسألوا النبيَّ ﷺ أنْ يَجْعَلَهُمْ كذلكَ، فأخبرَ اللهُ تعالى كذلكَ عنهمْ.

الآية ٥٣ ثم آيَسَهُمْ منْ ذلكَ، وقالَ: ﴿كَلَّا﴾ أي لا تَنالونَ ما تَأمُلونَ.

وقالَ قتادةُ: قالوا: يا محمدُ إنْ سَرَّكَ أنْ نَتَّبِعَكَ فَأْتِ كلَّ واحدٍ منا بصحيفةٍ خاصةٍ: إلى فلانِ ابْنِ فلانٍ، تأمُرُنا فيها باتِّباعِكَ.

وقيلَ: سألوا أنْ يُؤْتَوا ببراءةِ عملٍ، ولكنْ لا يجبُ قَطْعُ الأمرِ على واحدٍ / ٦١٤ ـ ب/ مِنْ هذهِ التأويلاتِ؛ بل يُقالُ بها على جهةِ الإمكانِ والاحتِمالِ لأنَّ هؤلاءِ المُفَسِّرينَ لم يُشاهِدوا أولئكَ القومَ الذينَ صَدَرَتْ منهمْ هذهِ الإرادةُ لِيُخْبِروهُمْ ماذا أرادوا بهِ حتى يثبُتَ ما ذَكَروا مِنَ القَصَصِ والأخبارِ، ولا تواتَرَتِ الأخبارُ عنْ ذي الحُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ أنهمْ سألوهُ ذلكَ. لِذلكَ لم يَسْتَقِمْ قَطْعُ الأمرِ على ما ذَكَروا.

وجائزٌ أنْ تكونَ هذهِ الإرادةُ تَحقَّقَتْ في بعضِ الكَفَرَةِ، وهمُ الرؤساءُ منهمْ والأكابرُ، لا أنْ أرادَ كلٌّ في ذاتِ نفسِهِ أنْ يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً. والإرادةُ ههنا عبارةٌ عنِ الطلبِ.

ثم طَلَبُهُمْ ما ذَكَرَ يَتَوَجَّهُ إلى [وجهَينِ:

أحَدُهما][3]: أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ مِنْ عُظَمائِهِمْ ودَّ أنْ يكونَ، هو المخصوصُ بإنزالِ الكتابِ عليهِ كما قالَ تعالى في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فيكونُ في هذا إظهارُ اسْتِكْبارِهِمْ على رسولِ اللهِ ﷺ على جهةِ التَّعَنُّتِ والعِنادِ، فيصيرُ[4] ذلكَ آيةً لهمْ على تحقيقِ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ كما قالَ اللهُ تعالى حكايةً عنهمْ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

ففي هذهِ الآيةِ إبانةُ أنهمْ كانوا يطلبونَ إنزالَ الكتابِ عليهمْ لِيَتَقَرَّرَ لديهمْ رسالةُ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ وكانَ ذلكَ على التَّعَنُّتِ والعِنادِ. وإلَّا لو تَفَكَّروا في حالِهِ أدَّاهُمْ ذلكَ إلى العلمِ برسالتِهِ منْ غيرِ أنْ يَحتاجوا إلى تَثبيتِ رسالتِهِ بكتابٍ، يُنَزَّلُ عليهمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٢٦٥. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أوجه ثلاثة أحدها. (٤) في الأصل وم: ليصير.

[والثاني][1]: أنْ يكونوا رَأوا أكابرَهُمْ أحقَّ بالرسالةِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ وأولَى بإنزالِ الكتابِ عليهِمْ لِما رَأوهُمْ أفضَلَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾؟ [ص: ٨] فأرادوا أنْ يُؤتَوا صُحفاً مُنشَّرَةً لهذا المَعْنَى، إذْ هُمْ أولَى أنْ يُخَصّوا بهذِهِ الفضيلةِ.

وإنما ذَكَرْنا هذِهِ التأويلاتِ في هذِهِ الآيةِ لأنَّ هذِهِ المعانيَ التي ذَكَرْناها قد ظَهَرَت منهمْ بِمَتْلُوِّ القرآنِ، والتأويلاتِ التي ذَكَرَها أهلُ التفسيرِ لا يَتَهَيّأُ تَثبيتُها مِنْ جهةِ الكتابِ ولا مِنْ جهةِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فصارتْ هذِهِ التأويلاتُ أمكَنَ وأملَكَ بالآيةِ مِنْ غيرِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ إنَّ الذي حَمَلَهُمْ على الطلَبِ بأنْ يُؤتَى كلُّ منهمْ صُحُفاً مُنشَّرَةً إعراضُهُمْ عنِ الإيمانِ بالآخِرَةِ، وإلّا لو آمَنوا بها لكانَ إيمانُهُمْ بها يَحْمِلُهُمْ على تَرْكِ العِنادِ والتَّعَنُّتِ وعلى تَرْكِ الجَورِ على رسولِ اللهِ ﷺ ويَدْعوهُمْ إلى الإذعانِ للحقِّ.

الآيتان ٥٤ و٥٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ سيَذْكُرُ مَعْناهُ[3] في سورةِ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾][4] [بقولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [الآيتان: ٥٤و٥٥]][5].

الآية ٥٦ وسيَذْكُرُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في سورةِ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [بقولِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٢٩]][6].

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فأهلُ التأويلِ صَرَفوا قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ إلى اللهِ تعالى، وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى البَشَرِ.

فإنْ كانَ المرادُ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ البَشَرَ فيكونُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ أي الذي يقومُ بالذِّكْرِ؛ ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾؟ [الفتح: ٢٦] فجَعَلَ الذينَ أَلْزَمَهُمْ كلمةَ التَّقْوَى مِنْ أهلِ التَّقْوَى.

وإنْ كانَ المرادُ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ هو[7] اللهُ ﷻ فتأويلُهُ: [أنهُ أهلُ تُقَى][8] الزَّلَّةِ والعَثْرَةِ في حقوقِهِ تعالى.

والوجهُ فيهِ أنَّ المرءَ في الشاهدِ إنما يَتَّقي الزَّلَّةَ والعَثْرَةَ إلى آخَرَ لإحدَى خِصالٍ ثلاثٍ:

إحداها: لِما يَرَى مِنِ افْتِقارِهِ وحاجَتِهِ إليهِ يَتَّقي[9] العَثْرَةَ تَبجيلاً وتَعْظيماً.

[والثانيةُ][10]: لِما يَرَى مِنْ قدرتِهِ وسلطانِهِ على الانْتِقامِ منهُ [يَتَّقي زَلَّتَهُ][11].

[والثالثةُ][12]: لِكَثْرَةِ نِعَمِهِ وأياديهِ [يَتَّقي زلَّتَهُ][13] اسْتِحْياءً منهُ.

وإذا كانتْ هذِهِ الأشياءُ، هي الداعيةُ إلى الاتِّقاءِ، والخلائقُ بأجمعِهِمْ مُفْتَقِرونَ ومُحتاجونَ إلى اللهِ تعالى، ولهُ القُدْرَةُ والسلطانُ عليهِمْ، وهو المُنْعِمُ على كلِّ أحدٍ، فهو أهلٌ أنْ يُعَظَّمَ، ويُوَقَّرَ، وأنْ تُخافَ نِقْمَتُهُ، ويُسْتَحْيَى منهُ. ومَنِ اتُّقِيَ صارَ أهلاً لأنْ يَغْفِرَ.

---

(١) في الأصل وم: وجائز. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في نسخة الحرم المكي: معنى هذه الآية. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أهل أن يتقى. (٩) في الأصل وم: فيتقي. (١٠) في الأصل وم: ويتقي زلته ذلك. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أو يتقي زلته. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أن يكونَ مَعْنَى قولِهِ ﷻ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ أي هو أهلٌ بأنْ يُسْأَلَ عمّا[1] يُتَّقَى منَ النارِ لِقولِهِ[2] تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقولِهِ[3]: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

ثم علَّمَنا وجهَ الاتِّقاءِ بقولِهِ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فَبَيَّنَ أنَّ الاتِّقاءَ أنْ يَفْزَعَ [المرءُ][4] إلى اللهِ تعالى، ويَتَضَرَّعَ إليهِ، لِيَقِيَهُ[5] بفضلِهِ ورحمتِهِ، وقالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

فأمَرَنا، جَلَّ جلالُهُ، بالناصِبَةِ معَ الشيطانِ للمحاربةِ، وأخبَرَ أنَّ محارَبَتَهُ أنْ نَفْزَعَ إلى اللهِ تعالى بالاسْتِعاذَةِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وقولِهِ[6] تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ الآية [المؤمنون: ٩٧].

فهو أهلٌ أنْ يُطْلَبَ منهُ ما يَقِي بهِ، وأهلٌ أنْ يُستعاذَ بهِ لِدَفعِ كَيدِ العَدُوِّ ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي أهلٌ أنْ يُطْلَبَ منهُ المَغْفِرَةُ. جَعَلَنا اللهُ تعالى منْ أهلِ التَّقْوَى والذينَ مَنَّ عليهِمْ بالمَغْفِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو أهلٌ أنْ يُتَّقَى منهُ، وأهلٌ أنْ يَغْفِرَ لِمَنِ اتَّقاهُ. واللهُ المُسْتَعانُ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][7].

(١) في الأصل وم: عنه ما. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل وم: ويقوله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ليقي.
(٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في م: والله أعلم.

سورة [القيامة

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ.

فمنهمْ مَنْ قالَ[2]: أقْسَمَ اللهُ تعالى بيومِ القيامةِ، ولم يُقْسِمْ بالنفسِ اللَّوّامةِ، وذكَرَ ذلكَ عنِ الحَسَنِ، ويكونُ معناهُ: لَأُقْسِمُ بيومِ القِيامةِ، ولا أُقْسِمُ بالنفسِ اللَّوّامةِ.

لكنْ ذُكِرَ عنهُ أنهُ يقولُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ١ و٢ و٣]: إنَّ القسمَ يَقَعُ على البلدِ والوالدِ، وهو آدمُ ﷺ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ على جُملةِ أولادِهِ.

فإذا كانَ القَسَمُ جائزاً بالوالدِ والمَولودِ جميعاً كانتِ النفسُ / ٦١٥ ـ أ/ اللَّوّامةُ داخلةً في جملةِ [الوالدِ والمولودِ][3] وقد أقسمَ بالنفسِ اللَّوّامةِ عندَهُ، فلا مَعْنَى لِلرَّدِّ[4] ههنا.

ثم موقعُ ﴿لَآ﴾ في قولَهُ: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ تأويلُهُ يُذْكَرُ في قولِهِ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ في سورةٍ، يَذْكُرُ [فيها البلدَ.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ][5] أنَّ القَسَمَ وَقَعَ بها جميعاً، وللهِ تعالى أنْ يُقْسِمَ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ.

ثم صَرَفَ بعضُ أهلِ التأويلِ مَعْنَى القَسَمِ إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [الآية: ٣] وجَعَلَهُ مَوضعَ القَسَمِ.

فإنْ كانَ على هذا، فالإشكالُ عليهِ أنْ يقولَ قائلٌ: كيفَ أكَّدَ أمرَ البعثِ وجَمْعَ العظامِ بالقَسَمِ بيومِ القيامةِ، وقد جَرَى مِنَ القولِ الذي احْتَجَّ عليهمْ بهذهِ الآيةِ الإنكارُ بيومِ القيامةِ، فكأنهُ أكَّدَ القَسَمَ بشيءٍ جَرَى بهِ الإنكارُ؟

والجوابُ عنْ هذا مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ القسمُ مُنْصَرِفاً إلى الحكمةِ التي توجبُ القولَ بالبَعْثِ؛ إذْ قد بَيَّنّا في غيرِ موضعٍ أنهُ بالبعثِ ما خَرَجَ خَلْقُ هذا العالَمِ مَخْرَجَ الحكمةِ، ولولا البَعْثُ لكانَ خَلْقُهُ عَبَثاً باطلاً كقولِهِ ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] كأنهُ قالَ: لا أُقْسِمُ بِحكمتِهِ الداعيةِ إلى كونِ القِيامةِ كذا أنْ يكونَ كذا.

[والثاني][6]: جائزٌ أنْ يكونَ القسمُ في الحقيقةِ بالدلائلِ والبراهينِ التي مَنْ تَفَكَّرَ، وأمْعَنَ النَّظَرَ فيها حَمَلَهُ ذلكَ على القولِ بالبَعْثِ.

وإذا كانَ مُحْتَمَلاً صَحَّ القَسَمُ بيومِ القيامةِ وبالنفسِ اللَّوّامةِ، لأنَّ التَّفَكُّرَ بالنفسِ اللَّوّامةِ والاعتِبارِ بها يَدْعو إلى القولِ بالبَعْثِ.

ثم العادةُ جَرَتْ على القَسَمِ بالأشياءِ التي عَظُمَ خَطَرُها، وجَلَّ قَدْرُها في القلوبِ، وجَلالةُ خَطَرِها تكونُ بأحدِ وجهَينِ: إمّا بما كَثُرَتْ منافِعُها، فيكونُ خَطَرُها مُشاهَداً معروفاً [وإمّا][7] بِعِظَمِ خَطَرِها بالدلائلِ والأخبارِ.

---

(١) من م، في الأصل: يذكر فيها القيامة. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: المولود. (٤) في الأصل وم: بالرد. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أو.

فالسمواتُ والأرضونَ قد عَرَفَ الخَلْقُ جَلالةَ أقدارِها بالعِيانِ بِما كَثُرَتْ منافعُ الخَلْقِ بها، وعِظَمُ يومِ القيامةِ بِما جَلَّ خَطَرُهُ في القلوبِ، وثَبَتَ القولُ بكونِهِ بالدلالاتِ والبراهينِ.

ثم قد وَصَفْنا أنَّ اللهَ تعالى أقسمَ بأشياءَ لتأكيدِ ما يُعرَفُ بيانُهُ، ويَجبُ القولُ بِهِ، لولا القسمُ لَما[1] أُمعِنَ النظرُ فيهِ، فأُعْمِلَتْ فيهِ الرَّوِيَّةُ. لذلكَ اسْتقامَ القَسَمُ، واللهُ أعلَمُ.

واختُلِفَ في النفسِ اللَّوَّامةِ: قالَ بعضُهُمْ: النفسُ اللَّوَّامةُ، هي النفسُ الكافرةُ، تلومُ ربَّها في تَضييقِ العيشِ عليها، وتَشْكو ربَّها [مِنَ الفقرِ][2] والإقتارِ عليها معَ كَثْرةِ نِعَمِهِ عليها وإحسانِهِ إليها.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ التأويلَ إلى كلِّ نفسٍ مؤمنةٍ كانتْ أو كافرةً؛ فهي تلومُ غَيرَها لِتَعاطيها أشياءَ قد تعاطَتْ نفسُها مثلَها، وامْتُحِنَتْ بها. والحقُّ على كلِّ أحدٍ ألّا يلومَ أخاهُ بما تَعاطَى فِعْلاً، أتى هو ذلكَ الفعلَ عينَهُ أو مثلَهُ[3]. أنشئَتْ كذلكَ اللَّوّامةُ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ و٢٠].

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا يكونُ في الآخرةِ، والكافرُ إذا أيقَنَ بالعذابِ وما حلَّ بِهِ مِنْ نِقمةِ اللهِ تعالى والذَّمِّ[4] على ما فَرَّطَ في جَنْبِ اللهِ، أدْرَكَتْهُ[5] الحسرةُ، فعندَ ذلكَ يلومُ نفسَهُ.

والمؤمنُ إذا عايَنَ الثوابَ يلومُ نفسَهُ لِمّا أمسَكَ عنِ المعصيةِ، وتابَ، وأطالَ المُقامَ في المحرابِ، وأبصرَ بالعاملينَ بالطاعةِ حسنَ المآبِ، يلومُ[6] نفسَهُ بما شَذَّ منهُ، وغابَ، عندَ كمالِ القوةِ وعُنْفُوانِ الشبابِ، ويقولُ[7]: كيفَ لم أزدَدْ في العملِ لِأزدادَ في الثوابِ؟

ومنهمْ مَنْ خَصَّ الكافرَ في الآخرةِ باللومِ على نفسِهِ، وهذا أظهرُ لأنَّ المسلمَ إذا أُكرِمَ بالثوابِ فشكرُهُ لذلكَ يَشْغَلُهُ عنِ اللومِ على نفسِهِ، فلا يَتَفَرَّغُ لهُ، ولأنَّ اللهَ تعالى يُضاعفُ لهُ مِنَ الحسناتِ، ويُعطيهِ مِنَ الدرجاتِ زيادةً على ما اسْتَوْجَبَهُ بعملِهِ فضلاً وإنعاماً. فكيفَ يلومُ نفسَهُ بتقصيرِها في العملِ، وهو يعلمُ أنَّ ما وَصَلَ إليهِ مِنَ الكراماتِ لم يَنَلْ جملَتَها بعملِهِ بل بِفَضلِ اللهِ تعالى وبكرمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ فقولُهُ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وإنْ خَرَجَ مَخْرَجَ الاسْتِفهامِ في الظاهرِ فليسَ هو بِاسْتِفْهامٍ، ولكنهُ تحقيقُ حُسبانٍ مِنَ الإنسانِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ حَمْلُهُ على الحُسْبانِ، هو أنَّ القُدْرةَ لا تنتهي إلى هذا في أنْ يجمعَ العظامَ، ويُؤلِّفَها[8] بعدَ تَفَتُّتِها وتَلاشِيها، فيدفعُ حُسْبانَهُ هذا بقولِهِ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] فَمَنْ تَفَكَّرَ في النشأةِ الأولى عَلِمَ أنَّ القُدْرةَ تنتهي إلى جمعِ العظامِ بعدَ أنْ صارَتْ رميماً، وأنَّ الذي قَدَرَ على إنشائِها قادرٌ على جمعِها بعدَ تفريقِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ حَسِبَ أنَّ العظامَ لا تُجْمَعُ بعدَ تفريقِها لأنها لو جُمِعَتْ بعدَ التفريقِ لم تَكُنْ تُعْرَفُ بعدَ أنْ وُجِدَتْ مجموعةً. ألا تَرَى أنَّ المَرْءَ في الشاهدِ لا يَقْصِدُ إلى نَقْضِ ما بَنَى لِيُعيدَهُ مرةً أُخرَى إلى الجهةِ المتقدِّمةِ، ومَنْ فَعَلَ ذلكَ [كانَ][9] عابثاً في هدمِهِ، ولم يكنْ حكيماً؟

فإذا كانَ هذا المعنى هو الذي حملَهُ على الحُسْبانِ فجوابُهُ أنْ يقالَ: إنَّ الجَمْعَ الأوَّلَ وقعَ لمكانِ المِحْنَةِ والابْتِلاءِ، والجمعَ بعدَ التفريقِ لمكانِ الجزاءِ. فإنْ كانَ الجمعُ الثاني لِغَيرِ الوجهِ الذي وقَعَ الجمعُ في الابْتِداءِ كانَ صحيحاً مستقيماً، وإنما يَخْرُجُ عنْ حدِّ الحكمةِ إذا لم تكنِ الإعادةُ إلّا للوجهِ الذي وقعَ الابْتِداءُ.

ألا تَرَى أنَّ الذي نَقَضَ بناءَهُ إذا أعادَهُ لا للوجهِ الذي كانَ بَنَى أولَ مرةٍ لم يُنْكَرْ عليهِ؟

وفي ما ذَكَرْنا رَدُّ قولِ الباطنيَّةِ لأنهمْ زَعموا أنَّ هذهِ الأنفسَ تَتَلاشَى، وتَتْلَفُ، فلا تُبْعَثُ، وأنَّ البعثَ يقعُ على النفسِ

---

(١) في الأصل وم: لو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: مثلها. (٤) في الأصل وم: يلم. (٥) في الأصل وم: وأدركته.
(٦) في الأصل وم: والعاصين. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: ويؤلف. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الرُّوحانيّةِ. ولو كانَ كما زَعَموا لم يكُنْ لقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ مَعْنًى، لأنَّ العظامَ لا تُجْمَعُ على قولِهِمْ بعدَ ما صارَتْ رميمةً، فيكونُ الأمرُ إذنْ على ما وَقَعَ في حُسْبانِ هذا[1] الإنسانِ. فلا مَعنَى للرَّدِّ عليهِ بقولِهِ: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [الآية: ٤].

ألَا تَرَى أنَّ الذي حَمَلَهُ على الإنكارِ لجمعِ العظامِ بعدَ تفريقِها هو أنهُ لم يَرَ هذا موجوداً في الشاهدِ؟

ولو كانَ الأمرُ على ما زَعَمَتِ الباطنيةُ لكانَ الإنكارُ مدفوعاً؛ إذْ وجدَ النفسَ الرُّوحانيّةَ مَبعوثةً في الشاهدِ بعدَ تَوَفِّيها، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] فأخبرَ أنَّ الأنفسَ التي أُنْشِئَتْ أوّلَ مَرَّةٍ هي التي تَحْيَى لا غَيرُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [اخْتُلِفَ فيهِ][2]:

فمنهمْ مَنْ حَمَلَ هذهِ الآيةَ على الابْتِداءِ، وزَعَمَ أنهُ ليسَ فيهِ جوابٌ لِما يَقْتَضيهِ قولُهُ ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ قولَهُ: ﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ لقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ فاكْتَفَى بقولِهِ: ﴿بَلَىٰ﴾ بما سَبَقَ منهُ مِنَ الدلالاتِ والحُجَجِ على القولِ بالبعثِ، فاقْتَصَرَ على قولِهِ: ﴿بَلَىٰ﴾ على الوصلِ بما تَقَدَّمَ مِنَ الدلالاتِ.

ومنهمْ مَنْ جَعَلَ جوابَهُ في قولِهِ: ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ يَعني أنَّ تَسْويةَ البَنانِ هو الجَعلُ مِنْ عَظْمٍ واحدٍ مجموعاً غيرَ مُتَفَرِّقٍ مِثْلَ خُفِّ البَعيرِ وحافِرِ الدوابِّ. ووَجْهُ الاسْتِدْلالِ أنهمْ أقرُّوا بأنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُسَوِّيَ البنانَ لَمّا رَأَوْا التسويةَ موجودةً في الدوابِّ، ثم الجمعُ بعدَ التَّفريقِ أظهرُ وُجوداً وأيسَرُ فِعْلاً مِنْ تَسْويةِ البَنانِ.

ألا تَرَى أنَّ المرءَ في الشاهدِ قد يَقدِرُ على التأليفِ والجمعِ بَينَ أشياءَ مُتَفَرِّقةٍ، ويَعْجَزُ عنْ تَسْويةِ البَنانِ؟ فإذا كانتِ التسويةُ أعسَرَ وجوداً مِنَ الجمعِ بعدَ التفريقِ، ثم وصفوا اللهَ تعالى بالقدرةِ على تِسْويَةِ البَنانِ، فكيفَ أنكروا قدرتَهُ على جمعِ العظامِ بعدَ تفريقِها؟ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنّ اللهَ تعالى لَمّا لم يُسَوِّ بَينَ بَنانِ الإنسانِ، وسَوَّى بينَ بَنانِ الدوابِّ، لِيَصِلَ إلى الأخذِ والإعطاءِ وإلى التقديمِ والتأخيرِ والقَبْضِ والبَسْطِ وأنواعِ المَنافِعِ التي خُصَّ بها / ٦١٥ ـ ب/ مِنْ نَحْوِ ما يَمْلِكونَ بالبَنانِ تَسْخيرَ الدوابِّ والأنعامِ: يُعْلِمُ بالتفريقِ بينَ الدوابِّ وبينَهُمْ[3] أنَّ البَشَرَ هُمُ المقصودونَ بالمِحْنَةِ وألّا يَتْرُكَهُمْ سُدىً، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ، ولا يَسْتَأْديهِمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ، وقدِ ائْتَمَرَ البعضُ، وعَصَى البعضُ، ولا[4] بُدَّ مِنْ دارٍ أُخْرَى للمُجازاةِ.

فالنظرُ في هذا يَحْمِلُهُ على القولِ بالبعثِ والجزاءِ. ولأنَّ الاسْتِواءَ يقعُ في الابْتِداءِ، والجمعَ بعدَ التفريقِ يكونُ عندَ الإعادةِ، والعقولَ تَشْهَدُ على أنَّ الإعادةَ أيسرُ مِنْ أمرِ الابْتِداءِ، فإذا لم يَتَعَذَّرْ عليهِ الاسْتِواءُ في الابْتِداءِ، فأنّى تَعْسُرُ عليهِ إعادةُ الجمعِ مع قدرتِهِ على الجمعِ في الابْتِداءِ، ولأنهمْ لَمّا لم يُخْلَقوا مُسْتَوِيي البَنانِ فَلْيَعْلَموا أنَّ في تَرْكِ الاسْتِواءِ حكمةً. ولو كانَ الأمرُ على ما قَدَّروا أنْ [لا][5] بعثَ لكانَ يَخْرُجُ على حدِّ الحكمةِ، فيكونُ في ما ذَكَرَ تَثبيتُ البعثِ والقولُ بالقدرةِ على جمعِ العظامِ بعدَ تَفَرُّقِها وتَفَتُّتِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: يُؤَخِّرُ التوبةَ، ويُقَدِّمُ المَعْصِيةَ، ويقولُ: سوفَ أتوبُ، فيأتيهِ الموتُ على شرِّ حالِهِ. وعندَنا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: جائزٌ أنْ يكونَ ذكرُ الإرادةِ لا على تَحْقيقِها، ولكنْ مَنْ فَعَلَ شيئاً فَعَلَهُ على الإرادةِ والاخْتيارِ، فَكَنّى بالإرادةِ عنِ الفعلِ لأنها تقترنُ بالفعلِ، فيكونُ في ذِكرِها ذِكرُ الفعلِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] ولكنْ خَلْقَها خَرَجَ على الحكمةِ بالبعثِ والجزاءِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: عدة، في م: هذه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: على. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ففي تركِ القولِ بالبعثِ وصفٌ بأنْ خَلَقَهما لِلَّعِبِ والباطلِ، ويُؤدِّي إلى هذا، فيصيرُ كأنهمْ قالوا ذلكَ، وظَنُّوا كذلكَ. فَعَلَى هذا يُحْمَلُ الأمرُ على الظَّنِّ، لا أنْ وُجِدَ منهمُ الظَّنُّ في الحقيقةِ. فكذلكَ إذا فَعَلوا فِعْلَ الفُجورِ، وكانَ فعلُهُمْ على الإرادةِ والاختيارِ، فكأنهمْ أرادوا أن يَفْجُروا أمامَهُ، لا أنْ كانتِ الإرادةُ منهمْ مُتحقِّقةً، والاختيارُ لذلكَ مَقْصوداً.

[والثاني:][1] جائزٌ أنْ يكونَ على تحقيقِ الإرادةِ؛ وذلكَ أنَّ للشَّرِّ والفجورِ سُبُلاً مَنْ سَلَكَها أفضَتْ [به][2] إلى أنْ يَسْتَحِقَّ اسْمَ الفُجورِ، وللخيرِ والهُدَى سُبُلاً مَنْ سَلَكَها أفضَى به[3] الأمرُ إلى أنْ يَسْتَحِقَّ اسْمَ البِرِّ والتَّقْوَى. فإنما صارَ إلى الفجورِ وإلى أنواعِ الشرورِ بِسُلوكِهِ ذلكَ السبيلَ، وصارَ مُريداً مِنْ هذهِ الجهةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَمَامَهُۥ﴾ يَحتمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: في ما بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ، لأنهُ يتركُ الاسْتِهداءَ والاسْتِرْشادَ، ويَمْضي على العادةِ التي عَوَّدَ نفسَهُ علَيها[4] مِنَ الشرورِ والضلالِ.

[والثاني][5]: يحتملُ أنْ يكونَ الأمامُ، هو يومُ القيامةِ، كقولِهِ[6] في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] بعد ذِكرِ ذلكَ اليومِ بالأمامِ والوراءِ جميعاً، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ أي وراءَ الأوقاتِ التي خَلَتْ، ومضَتْ.

فعلى اعْتِبارِ الإضافةِ إلى الأوقاتِ الماضيةِ يكونُ يومُ القيامةِ ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ وعلى اعْتِبارِ الإضافةِ إلى ذلكَ الفاجرِ يكونُ ﴿أَمَامَهُۥ﴾ لأنهُ يكونُ أمامَ هذا الفاجرِ. فبذلكَ اسْتقامَ الوصفُ بالأمامِ والوراءِ جميعاً.

ثم ذَكَرَ الفجورَ، ولم يذكُرِ الكُفْرَ، وإنْ كانَ الإنسانُ الذي يريدُ أنْ يَفْجُرَ أمامَهُ كافراً لأنَّ في ذِكرِ الفجورِ [تَغْييراً وتَشْيِيناً][7] إذْ هو اسْمٌ لِلتَّغْييرِ خاصةً، وليسَ في نفسِ الكفرِ تَغْييرٌ، إذْ كلُّ أحدٍ مؤمناً [كانَ][8] أو كافراً مؤمنٌ بشيءٍ [أو][9] كافرٌ بشيءٍ. فالكافرُ مِنْ حيثُ اسْمُهُ لم يَصِرْ قبيحاً، بل معناهُ ما قَبُحَ، فكانَ الفجورُ أبلغَ في التَّغْييرِ مِنَ الكفرِ، فَسُمِّيَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو بكرٍ: معنَى قولِهِ: [﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي][10] يريدُ أنْ يُعاينَ يومَ القيامةِ، ويُعْلَمَ بهِ أنه متى هو؟ تفسيرُهُ على إثرِهِ؛ [وهو][11] قولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يريدُ أنْ يُعْلِمَهُ بسؤالِهِ: متى هو؟ فأخبرَ أنها تقومُ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [الآيتان: ٧ و٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤالَ تَعَنُّتٍ واسْتِهزاءٍ لِما ذَكَرْنا أنهُ ليسَ في تَعَرُّفِ وقتِ كونِهِ [مَزْجَرٌ ولا مَرْغَبٌ][12]. وإنما يقعُ الزَّجرُ والرَّغْبةُ بتذكيرِ الأحوالِ التي تكونُ في ذلكَ اليوم. فلذلكَ ذَكَرَ الأحوالَ التي تكونُ في ذلكَ اليومِ، ولم يُوقِفْهُمْ على ذلكَ الوقتِ متى يكونُ؟ إذْ ليسَ في معرفةِ وقتِهِ كَثيرُ حُكْمٍ، فَيُجيبَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بجوابِ الحكماءِ لا بجوابِ مِثلِهِمْ.

ثم إنْ كانَ المُرادُ بهِ حالةَ الموتِ فقولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قيلَ: دُهِشَ، وتَحَيَّرَ. ثم اخْتُلِفَ بعدَ هذا؛ فمنهُمْ مَنْ صَرَفَ هذا إلى حالةِ الموتِ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذهِ الأحوالَ تكونُ يومَ القيامةِ.

وإلى أيِّ الحالَينِ صُرِفَ التأويلُ فهو مستقيمٌ، لأنَّ المنكِرَ البعثَ إذا جاءَهُ بأسُ اللهِ تعالى، ورأى ما حَلَّ بهِ مِنَ الأهوالِ أيقَنَ بالبعثِ، وعَلِمَ بهِ.

ثم إنْ كانَ المُرادُ بهِ حالةَ الموتِ، فقولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الآيات: ٧ و٨ و٩]

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: على ذلك. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: تعيير وتشيين. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: مزجرا ولا مرعبا.

يُخَرَّجُ على التمثيلِ، ليسَ على التحقيقِ، لأنَّ بَصَرَهُ إذا دُهِشَ، وتَحَيَّرَ، صارَ بحيثُ لا يَنْتَفِعُ بِبَصَرِ وجهِهِ ولا بِبَصَرِ قلبِهِ، لا يَرَى ضَوءَ القمرِ، فَيَصيرُ القمرُ كالمُنْخَسِفِ، وتصيرُ الشمسُ والقمرُ كالمجموعَينِ، ولا يَرَى ضوءَ الشمسِ ولا نورَ القمرِ، فَيصيرُ النهارُ عليهِ ليلاً والليلُ نهاراً؛ شُغِلَ[١] بما حَلَّ بِهِ مِنَ البلايا والأهوالِ. وهي كما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][٢] قالَ: «الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ، والآخرةُ جنةُ المؤمنِ وسجنُ الكافرِ» [مسلم ٢٩٥٦] وقال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ، ومن أحبَّ لِقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقاءَهُ» [البخاري ٦٥٠٧ و٦٥٠٨ ومسلم ٢٦٨٣].

فَصَرفوا تأويلَ هذينِ الخبَرينِ إلى حالةِ الموتِ؛ وذلكَ أنَّ الكافرَ يُعايِنُ في ذلكَ الوقتِ ما أُعِدَ مِنَ الأهوالِ والشدائدِ فَكَرِهَ مُفارقةَ روحِهِ جَسَدَهُ لئلا يَقَعَ في تلكَ الأهوالِ والشدائدِ، وتصيرَ الدنيا لهُ في ذلكَ الوقت كالجنةِ [لا يُحبُّ][٣] مفارَقَتَها.

والمؤمنُ إذا عايَنَ ما وُعِدَ[٤] مِنَ البِشاراتِ وأنواعِ الكراماتِ أرادَ الخروجَ منَ الدنيا لِيَصِلَ إلى ما أُعِدَّ لهُ، فَتصيرُ الدنيا عليهِ [كالسجنِ][٥] في ذلكَ الوقتِ، فيكونُ هذا كلُّهُ على التمثيلِ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا.

وإنْ كانَ ذلكَ على يومِ القيامةِ على تحقيقِ الخَسْفِ وجمعِ الشمسِ والقمرِ وقولِهِ تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [الآية: ١٠] فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: أي ليسَ لي موضعُ فرارٍ عمّا حلَّ بي، أو يقولَ: إلى أينَ المَفرُّ؟ وإلى مَنْ ألْتجِئُ لأتَخلَّصَ مِنَ العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إذا شَخَصَ البَصَرُ نحوَ الداعي يومَ القيامةِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] فَيَشْخَصُ ببصرِهِ إلى الداعي، لأنهُ قد عَلِمَ أنَّ الذي حلَّ بهِ مِنْ بأسِ اللهِ تعالى هو لِامْتِناعِهِ عنِ الإجابةِ للداعي في هذهِ الدنيا، فَيَتَسارَعُ يومَ القيامةِ في إشخاصِ بصرِهِ إلى الداعي ابْتِداءاً منهُ إلى إجابةِ الداعي.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهبَ ضَوؤُهُ ونورُهُ؛ ففيهِ أنَّ العالَمَ في ذلكَ اليوم يُغَيَّرُ، ويُبَدَّلُ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقولِهِ[٦] تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] وقولِهِ: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥ و١٠٦].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ففيهِ أنَّ سُلْطانَهُما يَذهَبُ فلا يعملانِ عملَهُما بعدَ ذلكَ. ثم مِنَ الناسِ مَنْ زَعَمَ أنهما يُجْمعانِ يومَ القيامةِ كالبَعيرَينِ القَرِيبَينِ أو الثورَينِ القَرِيبَينِ، فَيُلْقَيانِ في النارِ، ويُعَذَّبانِ بها.

وذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ أنكرَ هذا، وقالَ: /٦١٦ ـ أ/ إنهما خَلْقا اللهِ تعالى طائعانِ لهُ ﷻ ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] يَدْأبانِ في طاعةِ اللهِ تعالى. ومَنْ كانَ هذا وصفُهُ فلا يجوزُ أنْ يُعذَّبَ؟

وعندَنا أنَّ إلقاءَهُما، إنْ ثَبتَ، فهما يُلْقَيانِ في النارِ لِيُعَذَّبَ بهما غيرُهما، وهمُ الذينَ عَبَدوهما من دونِ اللهِ تعالى، وذلكَ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآية.

ومعلومٌ بأنَّ الأصنامَ التي عُبِدَتْ مِنْ دونِ اللهِ تعالى، لا تُعَذَّبُ بالنارِ، ولكنَّها تُجعَلُ حَصَباً وناراً يُعَذَّبُ بها مَنْ عَبَدَها. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] ولا يجوزُ أنْ يكونَ الملائكةُ يَمَسُّهُمْ أذى النارِ، بل هُم الذين يُعَذِّبونَ. فَعَلَى ذلكَ الشمسُ والقمرُ، إنْ ثَبتَ أنهما في النارِ، فهما لِيُعَذَّبَ بهما مَنْ عَبَدَهما لا أنْ يُعَذَّبا نَفْساهما، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: شغلا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: له. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقال.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ على طلبِ الحيلةِ أنْ كيفَ أحتالُ إلى أنْ أفِرَّ، أو إلى مَنْ ألتجئُ لأتخلّصَ منْ بأسِ اللهِ وعذابِهِ؟

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي ليسَ لي موضعُ فرارٍ عمّا حلَّ بي لإيقانِهِ أنْ ليسَ لهُ مَفَرٌّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا كُلُّهُ عندَ الموتِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنّ الوَزَرَ، هو الجبَلُ بلُغةِ حِمْيَرَ. وذُكِرَ عنِ الحسنِ [أنهُ][1] قالَ: كانتِ العربُ يُخيفُ بعضُها بعضاً، ويُفْزِعُ[2] بعضُها بعضاً، فكانَ يكونُ الرجلانِ في ماشيَتِهما، فلا يَشْعُرانِ حتى يَرَيا نَواصِيَ الجبَلِ، فيقولُ أحدُهُما لصاحبِهِ: الوَزَرَ، يعني الجبَلَ، فكأنهُ يقولُ: ليسَ لهما إذْ ذاكَ [ما][3] يُفزِعُ، وما[4] يُسلّيَ مِنَ الأحزانِ كما يَتَسَلّى مَنْ يأوي إلى الجبَلِ في الدنيا عنْ بعضِ ما يَحُلُّ بهِ مِنَ الأفزاعِ. وقيلَ: الوَزَرُ المَلْجَأُ.

الآيتان ١٢ و١٣ وقولُهُ تعالى: [﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾][5] ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فتأويلُهُ: أنهُ يُنَبَّأُ مِنْ أوّلِ ما عَمِلَ إلى آخِرِ ما انْتَهَى إليهِ عملُهُ كقولِهِ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ منْ أنواعِ الطاعةِ ﴿وَأَخَّرَ﴾ منْ حقِّ اللهِ تعالى مِنَ اللّوازِمِ التي كانتْ عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: بما أعْلَنَ، وسَتَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ في حياتِهِ منْ أعمالِ ﴿وَأَخَّرَ﴾ ما سَنَّ مِنْ سُنّةٍ، فاستُنَّ [بهِ][6] بعدَ موتِهِ.

وقد ذَكَرْنا أنهُ باللطفِ مِنَ اللهِ تعالى ما لم يَعْلَمْ بالذي قَدَّمَ مِنَ الأعمالِ، وأخَّرَها، فيتذكَّرُ بذلكَ حتى يصيرَ ما كُتِبَ في الكتابِ حَجّةً عليهِ، وإلّا فالمرءُ في هذهِ الدنيا إذا كتبَ كتاباً، ثم أتَتْ عليهِ مُدّةٌ، لم يَتَذَكَّرْ جميعَ ما كَتَبَ فيهِ، ولا وَقَفَ على علمِ ذلكَ.

الآيتان ١٤ و١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: جائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بهذا في الدنيا أنّ الإنسانَ بَصيرٌ بعملِ نفسِهِ، وإنْ جادَلَ عنها أنهُ لم يَفْعَلْ ذلكَ، وأسَرَّ ذلكَ عنِ [الناسِ][7] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي ألْقَى الستورَ بما كَسَبَتْ نفسُهُ، والمِعذارُ هو السِّتْرُ.

والوجهُ الثاني: أنْ يكونَ في الآخرةِ، وهو يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنّ الإنسانَ وإنْ كانَ يعتذِرُ يومَ القيامةِ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولِهِ[8]: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] فَيُقدِمونَ على الحَلْفِ اعتِذاراً منهمْ [على العلمِ منهمْ][9] أنهمْ مُبْطِلونَ في جدالِهِمْ.

والثاني: أنْ يكونَ معنَى البَصيرةِ الشاهدَ أي أنّ الإنسانَ على نفسِهِ [شاهدٌ يومَ القيامةِ بسوءِ أفعالِهِ، وإنْ ألقَى معاذيرَهُ، أي وإنْ][10] شَهِدَتْ عليهِ جوارِحُهُ، وذلكَ نحوُ قولِهِ ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] وقولِهِ تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٠].

فإنْ قيلَ: إنّ الإنسانَ مُذكَّرٌ كيفَ وَصَفَهُ[11] بالبَصيرةِ بلفظةِ التأنيثِ بقولِهِ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ ولم يَقُلْ: بصيرٌ؟ فجوابُهُ مِنْ أوجُهٍ:

أحدُها: ما قيلَ: إنّ الإنسانَ تَسْمِيةُ جنسٍ، فيهِ الجماعةُ، لا أنْ يكونَ تَسْمِيةً للشخصِ الواحدِ فقط. ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١ و٢ و٣] اسْتَثْنَى الذينَ آمَنوا مِنَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويفر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ولا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وصف.

قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ ولا تُستَثنى الجماعةُ مِنَ الواحدِ، وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية [التين: ٤ و٥ و٦] فاستَثنى الذينَ آمنوا مِنَ الإنسانِ، فَثَبَتَ أنَّ الإنسانَ تَسْمِيةُ جنسٍ، والجنسُ جماعةٌ، وتكونُ الجماعةُ مُضمرةً فيهِ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ جماعةَ الناسِ على أنفسِهِمْ بَصيرةٌ، فيكونُ قولُهُ ﴿بَصِيرَةٞ﴾ راجعاً إلى الجماعةِ، واللهُ أعلمُ.

[والثاني][1]: قولُهُ: ﴿بَصِيرَةٞ﴾ وصفٌ للإنسانِ بالغايةِ مِنَ البَصَرِ بكلِّ ما عَمِلَ حتى لا يَغْرُبَ عنهُ شيءٌ، والهاءُ قد تدخلُ في خطابِ المُذكَّرِ عند الوصفِ بالمبالغةِ كقولِكَ: فلانٌ علّامةٌ ونَسّابةٌ وراويةٌ للشعرِ وبالغةٌ في النحوِ.

والثالثُ: أنَّ الإنسانَ تَسْمِيةُ ما يراهُ بجوارِحِهِ كلِّها مِنَ الأيدي والأرجلِ والسمعِ والبصرِ والرأسِ، ونحوُ ذلكَ: نفسٌ أمّارةٌ بالسوءِ، فتصيرُ جوارحُهُ كلُّها بصيرةً أي شاهدةً عليهِ بما قَدَّمَ، وأخَّرَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على الإضمارِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ أي نفسُ الإنسانِ بَصيرةٌ بما عَمِلَتْ.

ثم مِنَ الناسِ من يُثْبِتُ للجوارحِ العِلْمَ بما كَسَبَتْ نفسُهُ حتى تصيرَ شاهدةً عليهِ يومَ القيامةِ لقولِهِ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ولو لم يكنْ لها العلمُ بما قَدَّمَتْ نفسُهُ لا تَشْهَدُ بما لا تَعْلَمُ.

وليسَ الأمرُ عندَنا على ما زَعموا لأنها لو علمَتْ بذلكَ لكانَ صاحبُها يَصِلُ إلى العِلْمِ مِنْ جهتِها.

ألا تَرَى أنَّ القلبَ لمّا ثَبَتَتْ لهُ المعرفةُ وقعَ لصاحبِهِ العلمُ مِنْ جهتِهِ؟ كذلكَ السمْعُ لمّا جُعِلَ منه وقعَ لصاحبِهِ علمُ المسموعِ بهِ، ولمّا كانَ بعينِهِ يُبْصِرُ الأشياءَ كانَ علمُ البصرِ واقعاً مِنْ جهتِها.

فلمّا لم يقعْ لهُ العلمُ بيدَيهِ ولا برجلَيهِ ولا بشيءٍ مِنْ جَوارِحِهِ سِوى القلبِ عَلِمَ أنهُ لا حظَّ لها في المعرفةِ، ولكنْ جُعِلَتْ هي شاهدةً وحجةً يومَ القيامةِ، تَشْهَدُ على صاحبِها بما يُحْدِثُ اللهُ تعالى فيها عِلْماً ضروريّاً بذلكَ، لا أنْ كانَ لها عِلْمٌ بالذي شَهِدَتْ قبلَ ذلكَ كما جُعِلَتْ ناطقةً[2] في ذلكَ الوقتِ، لا أنْ كانَ النطقُ فيها موجوداً مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ هذا كلامٌ مبتدَأٌ مُنفَصِلٌ عنِ الأولِ. وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ جبريلَ ﷺ كانَ إذا أتى نَبيَّ اللهِ ﷺ بالوحيِ كانَ لا يَفرُغُ مِنْ آخرِ الآيةِ حتى يَتْلُوَها[3] نبيُّ اللهِ ﷺ مِنْ[4] أوَّلِها مَخافةَ النِّسيانِ على ما عليهِ عُرْفُ الخَلْقِ أنهمْ إذا أرادوا وَعْيَ الكلامِ وحفظَهُ [كَرَّروهُ بألسنتِهِمْ كي يَضبِطوهُ، ولا يَنْسَوهُ][5] فكانَ النبيُّ ﷺ يفعلُ ذلكَ خَشيةَ النسيانِ. فنُهيَ عنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

وهذا عندَنا ممّا لا يجوزُ أنْ يُشْهَدَ على رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يحرِّكُ لسانَهُ قبلَ مجيءِ هذهِ الآيةِ، ويَتَذَكَّرُهُ مَخافةَ النِّسيانِ إلّا[6] بأخبارٍ متواترةٍ لأنَّ هذا في حقِّ الشهادةِ على رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يَفعَلُ كذلكَ إلّا بتواتُرِ الأخبارِ.

فأمّا إنْ ثَبَتَ بخبرٍ واحدٍ فلا، ولا يقالُ: إنهُ لو لم يَتَقَدَّمْ منهُ التحريكُ لكانَ لا مَعْنًى /٦١٦ ـ ب/ للنهيِ، فإنهُ ليسَ فيهِ ما يُثْبِتُ مقالتَهُمْ، ويُصَحِّحُ تأويلَهُمْ، ويُسَوِّغُ لهمُ الشهادةَ، لأنهُ لا يَستقيمُ في الابتداءِ أنْ يُنْهى، فيُقالَ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ولا تَفْعَلْ كذا، وإنْ لم يَسْبِقْ منهُ ارتكابُ ذلكَ الفعلِ، ولا تقدَّمَ منهُ تَحريكُ لسانِهِ، فَثَبَتَ أنهُ ليسَ في ضِمْنِ هذهِ الآيةِ بيانُ ما ادَّعَوا. هذا إذا ثَبَتَ أنَّ قولَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ وقولَهُ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] على النَّهيِ، وهو يَحتَمِلُ مَعنىً آخرَ غيرَ النَّهيِ، وهو أنْ يكونَ هذا على البِشارةِ لهُ بالكِنايةِ أنْ قد كُفيتَ مَؤونةَ الاستِذكارِ للحِفظِ، وهذا مِنْ عظيمِ آياتِ الرسالةِ أنَّ السورةَ تُلْقَى عليهِ، فَيَحْفَظُها كما هي ممّا يَشْتَدُّ على الناسِ حفظُهُ وقراءتُهُ إلّا أنْ يَتَكَلَّفوا، ويجتهِدوا في ذلكَ، فيُعلَمُ بهذا أنَّ اللهَ ﷻ هو الذي أقدرَهُ على ذلكَ، وجعلَهُ آيةً مِنْ آياتِهِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: وجواب ثان. (٢) في الأصل وم: نطقة. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: كرروها بألسنتهم كي يضبطوها ولا ينسوها. (٦) في الأصل وم: لا.

ثم الأصل أنَّ مَنْ ألقى إلى آخَرَ كلاماً مُتتابِعاً نَظَرَ في ذلكَ الكلامِ، فإنْ كانَ القصدُ منهُ حِفظَ عينِ الكلامِ فإنَّ المُخاطبَ بهِ لا يَنْتَظِرُ فراغَ المتكلِّمِ منْ ذلكَ الكلامِ، بل يَشْتَغِلُ بالْتِقانِهِ وحِفظِهِ ساعةَ ما يُلْقَى إليهِ كمنْ يُنْشِدُ بينَ يدي آخَرَ شعراً، وأرادَ الآخرُ أنْ يَحفَظَ ذلكَ الشعْرَ، ويَعِيَهُ، فهو لا يَنْتَظِرُ فراغَ المُنْشِدِ مِنْ شعرِهِ، بل هو يأخذُ بالْتِقانِهِ في أوَّلِ ما يَسْمَعُ منهُ، إذِ الغَرَضُ مِنَ الأشعارِ حفظُ أعيُنِها لا[1] معانيها.

ألَا تَرَى أنَّ الألفاظَ إذا حُذِفَتْ منها خَرَجَتْ عنْ أنْ تكونَ شعراً؟

وأمّا إذا لم يكنِ القصدُ مِنَ الكلامِ ضبطَ عينِهِ، وإنما أُريدَ بهِ تَفَهُّمُ ما أُودِعَ فيهِ مِنَ المعنَى، فالعادةُ في مثلِهِ الإصغاءُ إلى آخرِ الكلامِ لِيُفْهَمَ معناهُ وما يُرادُ بهِ.

ألَا تَرَى أنَّ مَنْ كتبَ إلى آخرَ كتاباً، وأنَّ المكتوبَ إليهِ يقرأُ الكتابَ منْ أولِهِ إلى آخرِهِ لِيَعْرِفَ مُرادَ الكتابِ لا أنْ يَشْتَغِلَ بضبطِ ما أُودِعَ فيهِ مِنَ الألفاظِ [إذْ ليسَ يُقْصَدُ بالكتابةِ إلى حفظِ الألفاظِ][2]؟

فإذا كانَ المُرادُ يتوجَّهُ مِنَ الكلامِ إلى ما ذَكَرْنا ففي[3] القرآنِ قُصِدَ بهِ الوجهانِ جميعاً: ضَبْطُ حروفِهِ ونَظْمِهِ [وأنْ][4] يُعْرَفَ ما أُودِعَ فيهِ مِنَ المعاني، إذْ صارَ حُجَّةً بنظمِهِ ولفظِهِ والمعاني المَودوعةِ فيهِ.

وقيلَ: لا تَعْجَلْ بتحريكِ [اللسانِ][5] كما يفعلُ مَنْ يريدُ الْتِقانَ الكلامِ الذي يُلْقَى إليهِ، فإنكَ وإنْ أُحوِجْتَ إلى حِفظِ نظمِهِ وحروفِهِ فقد كُفيتَ حفظَهُ بدونِ تحريكِ اللسانِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ نُهِيَ عنْ تحريكِ اللسانِ والمُبادرةِ إلى حفظِهِ قبلَ أنْ يُقْضَى إليهِ بالوَحْيِ لِما فيهِ مِنْ تَرْكِ العظيمِ مِمَّنْ يأتيهِ بالوَحْيِ، فأُمِرَ أنْ يُصْغيَ إليهِ بِسَمعِهِ، ويَسْتَمِعَ إلى آخرِهِ تعظيماً للذي آتاهُ الوَحْيَ وتوقيراً لهُ.

ثم هذه الآيةُ تَنْقُضُ على الباطنيةِ قولَهُمْ [بوجهينِ:

أحدُهما][6]: لأنَّ مِنْ قولِهِمْ أنَّ القرآنَ لم يُنْزَلْ على رسولِ اللهِ ﷺ مُؤلَّفاً مَنظوماً، بل أُنْزِلَ على قلبِهِ كالخيالِ، فَصَوَّرَهُ بقلبِهِ، وألَّفَهُ بلسانِهِ، فأتى بتأليفٍ، عَجِزَ الآخرونَ عنْ أنْ يُؤلِّفوا مثلَهُ.

ونحنُ نقولُ: بل أُنزِلَ هذا القرآنُ مُؤلَّفاً مَنظوماً على رسولِ اللهِ ﷺ ولم يكنِ التأليفُ مِنْ فعلِهِ. والذي يدلُّ على صحةِ مَقالتِنا قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ لأنَّ التأليفَ لو كانَ مِنْ فعلِهِ ﷺ لكانَ لا يوجدُ منهُ تحريكُ اللسانِ وقتَ ما نُزِّلَ عليهِ، لأنهُ إذا كانَ كالخيالِ فهو يحتاجُ أنْ يُصَوِّرَهُ في قلبِهِ، ثم يَصِلُ إلى التأليفِ بعدَ التصويرِ، وتَتَأتَّى لهُ العبارةُ باللسانِ. وإنما يقعُ التحريكُ منْ مُؤلَّفٍ مَنظومٍ. ثَبَتَ أنهُ أُنزِلَ مُؤلَّفاً مَنظوماً.

والثاني: أنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فهذهِ الآيةُ نَفَتْ طَعْنَ أولئكَ الكَفَرَةِ الذينَ يَزْعُمونَ أنَّ هذا ليسَ بقرآنٍ، بل إنما علَّمَهُ فلانٌ، وكانَ لسانُ ذلكَ البَشَرِ أعجمياً، وهذا القرآنُ عربيٌّ. فكيفَ يستقيمُ أنْ يُعَلِّمَهُ ذلكَ البَشَرُ، ولسانُهُ غيرُ هذا اللسانِ؟

ولو كانَ هذا القرآنُ وقتَ ما أُنزِلَ كالخيالِ لكانَ ذلكَ الطعنُ قائماً لأنهُ كانَ يُؤلِّفُهُ، ويَجْمَعُهُ باللسانِ العربيِّ، وإنْ عَلِمَ بالأعجميةِ لَما قَدَرَ أنْ يُؤلِّفَهُ، ويَنْظُمَهُ بعدَ أنْ كانَ خيالاً باللسانِ العربيِّ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ لأنهُ قد سَبَقَ منا الوعدُ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ بإنزالِ هذا القرآنِ وإرسالِ هذا الرسولِ. فعلينا إنجازُ ذلكَ الوعدِ ووفائِهِ، أو علينا في حقِّ الحكمةِ [جمعُهُ][7] لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُمِرَ بتبليغِ الرسالةِ، ولا يَتَهَيَّأُ لهُ ذلكَ إلّا بعدَ أنْ يُجْمَعَ لهُ، فيؤدِّيَهُ إلى الخَلْقِ، ولأنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ في فِعْلِهِ، وفِعْلُهُ مَوصوفٌ بالحكمةِ، وإنْ لم نَعْرِفْ نحنُ وجهَ الحكمةِ في فعلِهِ.

---

(١) في الأصل وم: دون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ثم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ في حقِّ الرحمةِ والرأفةِ على الخَلْقِ لا أنْ يكونَ ذلكَ حقًّا لهمْ قِبَلَهُ تعالى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إلى قولِهِ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٨٦ و٨٧] فأخبرَ أنهُ أبقى القرآنَ، ولم يَذْهبْ بِهِ رحمةً منهُ عبادَهُ وفضلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانَهُ﴾ أي قراءتَهُ وتَسْمِيَتَهُ قرآناً كما قيلَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي جعلْناهُ فُرْقاناً.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ أي جَمَعْناهُ في قلبِكَ، أو جَمَعْنا حُدودَهُ ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ ما أُودِعَ فيهِ مِنَ المَعاني، أو جمعْناهُ بعدَ أنْ فَرَّقْناهُ في التنزيلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ اتِّباعُهُ يكونُ بأوجهٍ: في أنْ يُبَلِّغَهُ إلى الخَلْقِ، ويُعَلِّمَ أُمَّتَهُ، ويَتَّبعَ حلالَهُ، ويَجْتَنِبَ حرامَهُ [وغيرِ ذلكَ][1].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ جائزٌ أن يكونَ قولُهُ: ﴿عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي بَيانَ ما أنْزَلْناهُ مُجْمَلاً، فيكونُ بَيانُهُ في تعريفِ ما هو بحقِّ الإتمامِ وما هو في حقِّ الجوازِ وما هو في حقِّ التَّحْسينِ والتَّزْيينِ، لأنَّ الفرائضَ لها شُعَبٌ وأركانٌ وحَواشٍ، أو نقولُ: فيها فرائضُ ولوازمُ وآدابٌ وأركانٌ على هذا، وفيهِ منعُ تعليقِ الحكمِ بظاهرِ المَخْرَجِ، لأنهُ لو كانَ مُتَعَلِّقاً بِهِ لكانَ البيانُ مُنْقَضِياً بنفسِ المُنَزَّلِ، فلا يَحتاجُ إلى أنْ يُبَيِّنَ.

وفيهِ دلالةُ تأخيرِ البيانِ عنْ وقتِ قَرْعِ[2] الخطابِ السمعَ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي بَيانَ ما هو بحقِّ الكناياتِ والنتائجِ منها، وما هو بحقِّ الأصولِ والفروعِ، وما هو بحقِّ المقصودِ.

فَيُبَيِّنُ لرسولِهِ ﷺ معْنى الأصولِ والكناياتِ لِيَتَعَرَّفَ بِهِ [على][3] فروعِها ونتائجِها، ويُبَيِّنُ لمَنْ بعدَهُ مَنْ جاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، ويهديهِ لذلكَ [كما][4] قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] أو يكونُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ في أنْ يَحفظَكَ، ويَعْصِمَكَ، لِتَتَمَكَّنَ مِنْ تبليغِ ما أُنْزِلَ إليكَ إلى الخَلْقِ، وتُبَيِّنَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

ووجهٌ آخرُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بُعِثَ إلى كلِّ مَنْ كانَ شاهداً مِنَ الخلائقِ إلى يومِ التَّنادي، ثم لم يُمَكَّنْ مِنْ تبليغِ الرسالةِ إلى كلِّ أحدٍ ممّا ذَكَرْنا بنفسِهِ، فكأنهُ ضَمِنَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ التبليغَ إلى الخلائقِ كافَّةً بما شاءَ، جَلَّ جلالُهُ، إمّا بِتَسْخيرِ الرواةِ والحُفّاظِ والعلماءِ لِيُبَلِّغوا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ما أُدِّيَ إليهِمْ، وإمّا[5] بِكونِ قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي بَيانَ المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ والوليِّ مِنَ العَدُوِّ؛ وذلكَ يكونُ يومَ القيامةِ، فَيُعْرَفُ الأولياءُ بما يُحَيَّوْنَ مِنَ الكراماتِ، ويَتَبَيَّنُ الأعداءُ /٦١٧ ـ أ/ والمبطلونَ ما يَحُلُّ بهمْ مِنَ الحسابِ وأنواعِ العذابِ.

الآيتان ٢٠ و٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يقولُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ ومَنْعٌ عما سَبَقَ منهمْ. وفي قولِهِ: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ إبانةُ أنَّ الذي حَمَلَهُمْ على ما هُمْ فيهِ مِنَ الحُسْبانِ أنَّ العِظامَ، لا تُجْمَعُ، وأنَّ البعثَ، ليسَ بشيءٍ، وحُبُّهُمُ[6] العاجلةَ؛ وذلكَ أنهمْ أُولِعوا بالعاجلةِ، وأحَبُّوها حبّاً أنساهُمُ الإيمانَ[7] بالآخرةِ والنظرَ[8] في الحججِ والبراهينِ التي لو أَمْعَنوا النَّظَرَ فيها أدَّتْهُمْ إلى القولِ بالبعثِ، حتى صاروا إلى ألّا يَرْجُوا الآخرةَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية [يونس: ٧].

الآيات ٢٢و٢٣و٢٤و ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [يحتملُ وجوهاً]:

أحدُها[9]: ما تنتهي إليهِ عواقبُ مِنِ التزمَ طاعةَ اللهِ، وآمَنَ بالبعثِ والحسابِ، وبَيانُ ما تَنْتَهي إليهِ عواقبُ مَنْ تَوَلّى عنْ طاعتِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وقوع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن. (٨) في الأصل وم: أو عن النظر. (٩) ساقطة من الأصل وم.

فقولُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بها الأنفسُ، وتكونُ الوجوهُ كِنايةً عنها. والذي يدلُّ على أنهُ أُريدَ بها الأنفسُ لا أعينُها قولُهُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ والوجوهُ لا تظُنُّ ذلكَ، ولا تعلَمُ بهِ. فَثَبَتَ أنَّ ذكرَ الوجوهِ على الكِنايةِ لا أنْ يُريدَ بها أعينَها. فهذا التأويلُ أوفقُ بما يقتضيهِ ظاهرُ اللفظِ. وإنما صَلَحَ أنْ تكونَ الوجوهُ كِنايةً عنِ الأنفسِ؛ وذلكَ أنَّ النفسَ إذا تَلَذَّذَتْ بأمرٍ، ونالَتْ شَهْوَتَها، ظَهَرَ سرورُ ذلكَ في وجهِهِ، وإذا تألَّمَتْ بأمرٍ، واعْتَراها الحزنُ ظَهَرَ أثرُ الحزنِ في وجهِهِ.

فيكونُ في قولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ وصفٌ لهمْ بما همْ عليهِ منْ غايةِ السرورِ بالكراماتِ التي أُكْرِموا بها حتى نَضِرَتْ وجوهُهُمْ بذلكَ.

فإذا ثَبَتَ أنهمْ قد نالوا الكراماتِ، ووصَلوا إلى أنواعِ المَلَذّاتِ، لم يَبْقَ لقولِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ موضعٌ إلّا أنْ يُصْرَفَ إلى حقيقةِ النظرِ، فيكونُ في هذا إثباتُ القولِ بالرؤيةِ.

والثاني: أنَّ الملوكَ الذينَ مِنْ عادَتِهِمُ الاحتِجابُ عنِ الخَلْقِ إذا قرَّبوا إنساناً، لم يَحْتَجِبوا عنهُ، ويكونُ تَرْكُهُمُ[1] الاحتِجابَ آثَرَ إلى ذلكَ الذي أُكرِمَ بالتقريبِ منْ سائرِ ما يُكْرَمُ بهِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يُكْرِمُ أولياءَهُ بالنظرِ إليهِ، ويَتَفَضَّلُ عليهمْ بذلكَ.

[والثالث][2]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُنْصَرِفاً إلى انتِظارِ الثوابِ كما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، فَتَنْتَظِرَ ما يأتيها مِنَ التُّحَفِ والكراماتِ حتى وُصِفوا بنضارةِ الوجوهِ، وجائزٌ أنْ يكونَ بَعْدَ تلكَ الكراماتِ تُحَفُ أُخَرُ، لم تأتِهِمْ بَعْدُ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؟ والبسورُ منْ أدنى أحوالِ التَّغَيُّرِ، وغايةُ التَّغَيُّرِ أنْ تَسْوَدَّ الوجوهُ، وتَكْلَحَ. فإذا لم يَحُلَّ بهؤلاءِ بَعْدُ غايةُ ما أُوعِدوا مِنَ العذابِ، فجائزٌ أنْ يكونَ الذينَ وعَدَ لهُمُ الكراماتِ، بَعْدُ لم يَنْتَهوا إلى أقصاها، ولم ينالوا بَعْدُ أرفَعَها، وإنما أُكرِموا ببعضِها، وهمْ مُنْتَظِرونَ لِما يأتيهِمْ مِنْ بَعْدُ.

[والرابعُ][3]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنْ يَجْعَلَها ناظرةً[4] في ما أُكرِمَتْ إلى اللهِ تعالى، ولا تَرَى ذلكَ الفضلَ مُسْتَوجَباً منْ جهتِها كما قد يَرَى المرءُ في الشاهدِ بعضَ ما خُوِّلَ مِنَ المالِ بِحِيَلِهِ وسَعْيِهِ، واللهُ أعلَمُ.

[والخامسُ][5]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنْ ليسَ كلُّ الكراماتِ في نفسِهِ خاصّةً وإلى ما يَنْتَهي إليهِ نَظَرُهُ، بل يكونُ قَدْرُ[6] ذلكَ كراماتٍ أُخَرَ، فَيَنْصَرِفُ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ إلى ذلكَ.

[والسادسُ: جائزٌ أنْ يكونَ][7]: إلى أمرِ ربِّها ناظرةٌ.

وإذا كانَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُحْتَمِلاً أنْ يُصْرَفَ إلى حقيقةِ النظرِ، ويُصْرَفَ إلى الكراماتِ مِنَ الوجوهِ التي بَيَّنّاها، لم يكنْ لأحدٍ أنْ يَجْعَلَ الأمرَ على الكراماتِ، فَيَنْفِيَ عنهُ حقيقةَ الرؤيةِ للأبدِ، لا بل ظاهرُهُ يُحيلُ القولَ بالرؤيةِ، فيدفعُ هذا التأويلَ بتلكَ الدلائلِ.

فأمّا إذا لم يمكنْهُ إقامةُ الدلائلِ إلى حالةِ الرؤيةِ فليسَ لهُ قطعُ هذا التأويلِ، وصَرْفُ التأويلِ إلى انْتِظارِ الكراماتِ، فتكونُ الآيةُ حُجّةً في جوازِ [الرؤيةِ][8] وإنْ لم تكنْ حُجّةً في الوجوبِ[9]، والخلافُ فيهما واحدٌ.

واحتَجَّ منْ صَرَفَ التأويلَ إلى حقيقةِ الرؤيةِ أنَّ قولَهُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ هو مقابلُ قولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ وقولَهُ: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [لا][10] على فَقْدِ الرؤيةِ، ولكنْ على العقابِ نفسِهِ.

فكذلكَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ليسَ هو على حقيقةِ الرؤيةِ ووجودِها، ولكنْ واقعٌ على الثوابِ نفسِهِ.

وجوابُ هذا الفصلِ مِنْ وجهَيْنِ:

---

(١) في الأصل وم: بركة. (٢) و(٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: نظرها. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في م: بعد. (٧) في الأصل وم: و يحتمل أي. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: الوجوه. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: أنَّ أهلَ العقابِ بَعْدُ لم يَنْزِلْ بهمْ جميعُ ما أُوعِدوا في هذهِ الدنيا مِنَ العقابِ لِما ذَكَرْنا أنَّ نهايةَ العذابِ في تَسَوُّدِ الوجوهِ وتكَلُّحِها، ليسَ في بُسورِها. فلذلكَ استقامَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ على نفسِ العذابِ.

[والثاني: أنَّ][1] أهلَ الجنةِ قد وصَلوا إلى رفيعِ الدرجاتِ وعظيمِ الكراماتِ، فَوُصِفوا[2] بنضارةِ الوجوهِ، فاستقامَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُنْصَرِفاً إلى رفيعِ حقيقةِ النظرِ لا إلى غَيرِهِ مِنَ الكراماتِ.

ولأنَّ الرؤيةَ [مِنْ أعلى الكراماتِ وأرفعِها، وأهلَ العقابِ لم يَنالوا أدنى الكراماتِ، فكيفَ يَتَوَقَّعونَ أرفعَها؟

أمّا أهلُ الجنةِ فهمْ قد نالوا مِنَ النِّعَمِ والكراماتِ ما لا يُحْصَى، فجائزٌ أنْ يُكْرَموا بالرؤيةِ][3] أيضاً.

والأصلُ أنَّ القولَ بالرؤيةِ عندَنا واجبٌ، والنظرَ إليهِ ثابتٌ كما قالَ ﷻ: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٤٠ و...] في غيرِ خَبَرِ النظرِ إلى اللهِ تعالى، وقد قالَ ﷺ: «إنكم سَتَرَونَ ربَّكُمْ يومَ القيامةِ كما تَرَونَ القمرَ ليلةَ البدرِ لا تُضامونَ في رؤيتِهِ» [البخاري ٦٥٧٣ ومسلم ١٨٢/٢٩٩].

وأهلُ التوحيدِ لم يَخْتَلِفوا في صحةِ الأخبارِ التي جاءَتْ في إثباتِ الرؤيةِ. ولكنْ مَنْ نَفَى الرؤيةَ بالبصرِ صَرَفَ الأخبارَ إلى العلمِ؛ وذلكَ غيرُ مستقيمٍ لوجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ البِشارةَ بالرؤيةِ خُصَّ بها أهلُ الجنةِ. ولو كانَ المُرادُ مِنَ الرؤيةِ العلمَ لَارْتَفَعَ الِاخْتِصاصُ.

[والثاني][4]: لأنَّ العلمَ ممّا يقعُ بهِ الاشتراكُ بينَ الفريقَينِ، ولأنَّ كلّاً [منهما][5] يُجْمِعُ على[6] العلمِ باللهِ تعالى في الآخرةِ العلمَ الذي لا يَعْتَرِيهِ الوَسواسُ ولا الرَّيبُ.

والعلمُ الذي لا يَعْتَرِيهِ الوَسواسُ والرَّيبُ هو علمُ الِاسْتِدْلالِ لأنَّ الآياتِ لا يُضْطَرُّ أهلُها إلى الحقيقيِّ. ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأنعام: ١١١] وقولِهِ[7]: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولِهِ[8]: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾؟ [المجادلة: ١٨].

فإذا ثَبَتَ ما ذَكَرْنا فقد صاروا مُثْبِتينَ للرؤيةِ مِنَ [الوجوهِ التي][9] أرادوا نَفْيَها، وثَبَتَتِ الرؤيةُ على نَفْيِ جميعِ معاني الشَّبَهِ عنِ اللهِ تعالى، ولا نَصِفُ الرؤيةَ بالكَيفيَّةِ؛ إذِ الكَيفيَّةُ تكونُ لِذي صورةٍ، وهو يُرَى بلا كيفَ؟ واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الظَّنُّ في مَوضِعِ العِلْمِ ههنا، وجائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ الظَّنِّ؛ وذلكَ أنَّ الظَّنَّ يَتَوَلَّدُ مِنْ ظواهرِ الأشياءِ، فالأسبابُ إذا كَثُرَتْ، وازْدَحَمَتْ، وقعَ بها العِلْمُ، وإذا قَلَّتْ، وخَفِيَتْ، لم يَقَعْ بها عِلْمٌ. فجائزٌ أنْ تكونَ أسبابُ الشَّرِّ أحاطَتْ بهِ مِنْ كلِّ جانبٍ حتى وقعَ اليأسُ مِنَ النجاةِ، وأيقَنَ أنهُ يُفْعَلُ بهِ الشَّرُّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمْرُ[10] بَعْدُ لم يبلُغْ مَبْلَغَ الإياسِ، فَيَتَوَقَّعَ النجاةَ، ولا يَتَيَقَّنَ أنهُ يُفْعَلُ بها فاقرةٌ، بل يكونُ منهُ ظَنٌّ، واللهُ أعلَمُ.

والفاقرةُ: قيلَ: الشَّرُّ والمُنْكَرُ والداهيةُ، وقيلَ: الفقيرُ هو كَسيرُ الظهرِ، والفَقْرُ الكَسْرُ، والفَقارُ عظمٌ في الظهرِ يُكْسَرُ. فكانَ عظمُ الظهرِ يُكْسَرُ في الآخرةِ، ويُسْحَبُ في النارِ على وجهِهِ.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: كانَ هذهِ السورةَ مِنْ أوّلِها إلى /٦١٧ ـ ب/ أخِرِها إلّا آياتٍ منها، وهي[11] قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [الآيات: ٢٠ ـ ٢٥] نزلَتْ في تَبيينِ معاملةِ أحدٍ مِنَ الكفرةِ على الإشارةِ[12] إليهِ مع رسولِ اللهِ ﷺ لِيَشْتَرِكَ في حكمِ مَنْ يُشارِكُهُ في مُعاملتِهِ.

فأمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يُعامِلَهُ، ويَسْتَقْبِلَهُ بالذي [يَحِقُّ][13] على الحكماءِ مُعاملةَ السفهاءِ، ولم يأمُرْهُ أنْ يُعامِلَهُ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: بما وصفوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل: علم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: الوجه الذي. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الأمن. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) من م، في الأصل: الاستتارة. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

[مِثْلَ مُعاملةِ][(١)] السفهاءِ. ويبيِّنَ معامَلَتَهُ في هذهِ السورةِ ليُعْلِمَ أُمَّتَهُ ما لَقِيَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الجَهْدِ والبَلاءِ في إظهارِ دينِ اللهِ تعالى، فيَعْلَموا قَدْرَهُ ومَنْزِلَتَهُ، ويُعَظِّموا دينَ اللهِ تعالى بما نالوهُ سَمْحاً سَهْلاً.

وأمَرَهُ أنْ يعامِلَ [مَنْ][(٢)] معهُ مُعاملةَ مَنْ يَرْجِعُ إلى المَنَعَةِ والشَّرْكَةِ بقولِهِ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [الآيتان: ٣٤ و٣٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ فقولُهُ: ﴿كَلَّآ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنْ يكونَ أُريدَ بِهِ حقًّا.

[والثاني][(٣)]: أنْ يكونَ على الرَّدْعِ والرَّدِّ، أي لا تَفْعَلْ مثلَ هذا فإنكَ سَتَنْدَمُ في الوقتِ الذي قالَ: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ كأنهمْ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ وقتِ نَدَمِهِ، فَبَيَّنَ لهمْ ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [والتراقي][(٤)] هي عُروقُ العُنُقِ. كأنهُ يقولُ حينَ نزولِ النفسِ أي الروحِ عنْ مكانِها، وتَنْتَهي إلى التراقي.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الملائكةُ هُمُ الذينَ يقولونَ هذا؛ يقولُ بعضُهُمْ: مَنْ يَرْقى بروحِهِ: أملائكةُ الرحمةِ أم ملائكةُ العذابِ؟ ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾ يَرْقى أي يَصْعَدُ؟ ومَنْ يَقبِضُ روحَهُ؟.

ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ أهلُهُ: مَنِ الذي يَرْقيهِ فَيَشْفى؟ فيكونَ فيهِ إخبارٌ عمّا حلَّ بِهِ مِنَ الضعفِ والشِّدَّةِ:

إنهُ يمتنعُ عنْ أنْ يقولَ: ادْعوا لي راقياً لَعلّي أُشْفى، فيكونُ أهلُهُ هُمُ الذينَ يقولونَ هذا في ما بَيْنَهُمْ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الظَّنُّ على الإيقانِ ههنا لِما وَقَعَ لهُ اليأسُ مِنَ الحياةِ.

وكذلكَ رُوِيَ في قراءةِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه: وأَيْقَنَ[(٥)] أنهُ الفراقُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ الظَّنِّ لِما لم يقعْ لهُ اليأسُ منْ حياتِهِ بَعْدُ، فهو يأمُلُ بَعْدُ.

الآية ٢٩

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ اخْتَلَفوا في تأويلِهِ: قيلَ: لُفَّتْ ساقاهُ إحداهما على الأخرى، فلا تَفْتَرِقانِ كالْتِفافِ الأشجارِ حتى لا يَجِدُ مَفَرّاً[(٦)] منها ولا هَرَباً. وقيلَ: إنَّ ساقَيْهِ في القيامةِ لَتَضْعُفُ عنْ حملِهِ منْ شِدَّةِ الفَزَعِ. وقيلَ: أُريدَ بالساقِ الشدةُ؛ يُقالُ: قامتِ الحربُ على ساقٍ أي على شدةٍ، أي وُصِلَتْ شِدَّةُ الموتِ بشِدَّةِ الآخِرَةِ، واجتَمَعَتْ شَدائدُ الدنيا معَ شِدَّةِ الآخِرَةِ عليهِ، لأنهُ قد حلَّتْ بِهِ سَكَراتُ الموتِ، ونزلَتْ بِهِ شدائدُ الآخِرَةِ، وذلكَ آخِرُ يومِهِ مِنَ الدنيا وأوَّلُ يومِهِ مِنَ الآخِرَةِ.

وقيلَ: ما مِنْ مَيِّتٍ يموتُ إلّا الْتَفَّتْ ساقاهُ منْ شِدَّةِ ما يُقاسي مِنَ الموتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ مَعْناهُ: أنَّ الملائكةَ يُجَهِّزونَ روحَهُ، وبني آدمَ يُجَهِّزونَ بَدَنَهُ، فذلكَ الْتِفافُ الساقِ بالساقِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي إلى ما وَعَدَ ربُّكَ يومئذٍ يُساقُ إمّا إلى خيرٍ وإمّا إلى شرٍّ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي فلا صَدَّقَ بما جاءَ منْ عندِ اللهِ تعالى مِنَ الأخبارِ، ولا صَدَّقَ رسولَهُ ﷺ ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أُريدَ بِهِ نفسُ الصلاةِ، وذلكَ أنَّ الصلاةَ جيئتْ إلى الأنفسِ كلِّها حتى لا تَرَى أهلَ دينٍ إلّا وقد وَجَبَتْ الصلاةُ عليهِمْ، فيكونُ في قولِهِ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ إبانةُ سَفَهِهِ وجهلِهِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي ولا أَتى بالمعنى الذي لهُ الصلاةُ، وهو الاِسْتِسْلامُ والاِنْقِيادُ للهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: مثله من. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ١١. (٦) في الأصل وم: مفازا.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ولكنْ كَذَّبَ الأخبارَ التي جاءَتْهُ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرَضَ عن طاعةِ اللهِ تعالى.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي يَتَبَختَرُ، ويتَكَبَّرُ؛ وذلكَ أنَّ الإختيالَ والتَّكَبُّرَ إنما يليقُ بِمَنْ أتى بِفعلٍ عَظيمٍ، يَعْجَزُ غيرُهُ عنْ إتيانِ مثلِهِ نَحْوَ أنْ يَهزِمَ جُنداً عظيماً أو يَفْتَحَ كورةً حَصينةً، وهذا الذي تَمَطَّى لم يَفْعَلْ سِوَى أنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ تعالى، وأعرَضَ عنْ طاعتِهِ، وما هذا إلّا فِعْلُ السفهاءِ الحَمْقَى، فأنّى يَليقُ بِمِثْلِهِ التَّمَطّي؟.

الآيتان ٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [فيه وجهانِ:

أحَدُهما:][1] جائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ قيلَ لهُ: قلْ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ قالَ لهُ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وبيَّنَ اللهُ تعالى ذلكَ في كتابِهِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: هذا وَعيدٌ على وَعيدٍ؛ كأنهُ قالَ: وَيلٌ لكَ فَوَيلٌ، ثم وَيلٌ لكَ فَوَيلٌ؛ ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخَذَ بجميعِ ثيابِهِ، وقالَ لهُ هذا، فلم يَتَهَيَّأْ لذلكَ المسكينِ لأنْ يدفَعَ رسولَ اللهِ ﷺ عن نفسِهِ، وكانَ يَفْتَخِرُ بكثرةِ أنصارِهِ أنهُ أعزُّ مَنْ يمشي بينَ الجبلَينِ. فاللهُ تعالى بلطفِهِ أذلَّهُ، وأهانَهُ، حتى لم يَتَهَيَّأْ لهُ الحِراكُ ممّا نَزَلَ بهِ، ولا نَفَعَتْهُ قِواهُ وكثرةُ أتباعِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي لَأجْدَرُ بكَ أنْ تَنظُرَ في ما جاءَ [بهِ][2] محمدٌ ﷺ وفي الذي كانَ عليهِ آباؤُكَ لِيَظهَرَ لكَ الصوابُ منَ الخَطَإِ والحقُّ مِنَ الباطلِ، فَتَتَّبِعَ الصوابَ منْ ذلكَ. فَتَتَجَهَّزَ بهِ شرفَ الدنيا والآخِرةِ، إذْ كانَ يَفْتَخِرُ بِشَرَفِهِ وعِزِّهِ؛ فإنْ أردتَ أنْ يَدومَ لكَ الشَّرَفُ، فالأَولى لكَ أنْ تَنْظُرَ إلى ما ذَكَرْنا، فَتَتَّبِعَ الصوابَ مِنْ ذلكَ.

والثاني: أنَّ العربَ كانتْ عادتُها أنْ تقومَ بِنَصْرِ قبيلتِها، وتَذُبَّ عنها: كانَتْ ظالمةً في ذلكَ أولم تَكُنْ ظالمةً في ذلكَ، ورسولُ اللهِ ﷺ كانَ منْ قبيلةِ أبي جهل. فلو كانَ على غَيرِ حقٍّ عندَهُ كانَ الأَولى بهِ أنْ يَنْصُرَهُ ويُعينَهُ على ما عليهِ عادةُ العربِ، وإنْ كانَ مُحِقًّا فهو أولَى. فَتَرْكُ ما هو أولَى مِنَ النصرِ والحِمايةِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما:][3] جائزٌ أنْ يكونَ هذا الإنسانُ دَهريَّ المذهبِ، فيكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على حقيقةِ الحُسْبانِ لأنهُ يحسَبُ أنْ لا بَعْثَ ولا حساب، وقد كانَ في أهلِ مكةَ مَنْ هو دهريُّ المذهبِ، وإنْ كانَ الخِطابُ في قولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ ليسَ على تحقيقِ الحُسْبانِ. ولكنْ مَعْناهُ: أتَفْعَلُ فِعْلَ مَنْ يُؤذِنُ عنْ أمرٍ كانَ فَعَلَهُ مُوافقاً لِفِعلِ مَنْ يَحْسَبُ أنْ يُتْرَكَ سُدىً؟ كما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥] وهو لا يُريدُ أنْ يكونَ فاجراً في الحقيقةِ، ولكنْ يَفْعَلُ فِعْلَ مَنْ يَعْقُبُ فِعْلَهُ الفجورُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] وليسَ على حقيقةِ الظَّنِّ. ولكنْ إذا لم يَقُلْ بالبعثِ، ولم يؤمِنْ بهِ، فقد وَصفَ أنَّ خَلْقَهُما إذَنْ على باطلٍ، وذلكَ الفعلُ الذي ذَكَرْنا يكونُ في تَرْكِ الإيمانِ بالبعثِ وفي جُمودِ الرسالةِ، لأنَّ المحاسِنَ لا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ لها عَواقِبُ، وكذلكَ المَساوِئُ.

ثم تَمُرُّ هذهِ الدارُ على المُسيءِ والمُحْسِنِ مَرّاً واحداً، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ بعدَها[4] دارٌ أُخرَى، فيها تَتَبَيَّنُ مَرْتَبَةُ المُحْسنِ ومَدارُ[5] المُسيءِ. فَمَنْ[6] لم يؤمِنْ بالبعثِ فهو لم يَجْعَلْ للمَحاسِنِ والمَساوِئِ عواقِبَ، وسَوَّى بينَ مَرْتَبَةِ المُسيءِ ومَرْتَبَةِ المُحْسِنِ، وذلكَ عَبَثٌ.

والثاني: أنَّ مَنْ عَرَفَ أنهُ لم يُخلَقْ عَبَثاً، ولا يُتْرَكُ /٦١٨ ـ أ/ سُدىً فلا بُدَّ لِمِثْلِهِ منْ أنْ يَرْغَبَ، ويَرهَبَ، ويُؤْمَرَ، ويُنْهَى، ولا يَعْرِفُ ذلكَ إلّا بالرسولِ، والضرورةُ أحْوَجَتْ إلى رسولٍ يُبَيِّنُ لهمْ ما يأتونَ وما يَتَّقونَ وما يَرْغَبونَ في مثلِهِ وعمّا يَحْذَرونَ. فَمَنْ أنكَرَ الرسالةَ فقد أهْمَلَ نفسَهُ عنِ المرغوبِ والمرهوبِ وعنِ الأمرِ والنَّهْيِ، وذلكَ حالُ مَنْ خُلِقَ سُدىً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، في الأصل: ومدار. (٦) في الأصل وم: فما.

الآيات ٣٧ و٣٨ و ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ والوجهُ فيهِ أنَّ كلَّ أحدٍ يعلَمُ أنَّ نُشوءَهُ كانَ منْ نُطفةٍ، وتلكَ النُّطفةُ لو رُئِيَتْ موضوعةً على طَبَقٍ، ثم اجتَمَعَ حكماءُ الأرضِ على أنْ يَقْدِروا منها بَشراً سَوِيّاً كما قَدَّرَهُ اللهُ تعالى في تلكَ الظلماتِ لم يَصِلوا إليهِ أبداً، وإنِ اسْتَفْرَغوا جُهودَهُمْ، وأنْفَدوا حِيَلَهُمْ وقواهُمْ، ولو أرادوا أنْ يَتعرَّفوا المَعْنى الذي لِذلكَ المَعْنَى صَلَحَتِ النُّطفةُ على أنْ يُنْشأَ منها العَلَقةُ والمُضْغَةُ إلى أنْ يُنْشأَ بَشَرٌ سَوِيٌّ عليهِ، لَعَلِموا[1] أنَّ منْ بَلَغَتْ قُدرتُهُ هذا، هو أحكَمُ الحاكمينَ.

ولو كانَ الأمرُ على ما زَعموا أنْ لا بَعْثَ لم يَكُنْ هو أحكَمَ الحاكمينَ، بل كانَ واحداً منَ اللاعِبينَ.

ويَتَبيَّنُ ممّا ذكَرْنا أنَّ قُدرتَهُ[2] لا تُوصفُ بالعَجْزِ، ومَنْ زَعَمَ أنَّ قدرتَهُ لا تَنْتَهي إلى البَعْثِ فقد وَصَفَ الربَّ بالعَجْزِ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠ والزمر: ٦٧].

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ فقولُهُ: ﴿أَلَيْسَ﴾ في موضعِ التحقيقِ والتقريرِ، وإنْ كانَ خارجاً مَخرَجَ الاسْتِفهامِ على ما ذكَرْنا أنَّ ما يَخْرُجُ مَخْرَجَ لاستفهامٍ منَ اللهِ تعالى فحقُّهُ أنْ يُصْرَفَ[3] إلى الوجهِ الذي يَقْتضيهِ ذلكَ الخطابُ، إذْ لو كانَ مِنْ مُسْتَفْهِمٍ مِمّنْ قالَ لآخَرَ في الشاهِدِ: أليسَ اللهُ تعالى بقادرٍ على إحياءِ الموتى؟ فحقُّهُ أنْ يقولَ: بلى هو قادرٌ على ذلكَ. وكذلكَ ذُكِرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ حينَ تلا هذهِ الآيةَ: «سُبْحانَكَ فَبَلَى» (أبو داوود ٨٨٤).

فقولُهُ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [أي هو قادرٌ على إحياءِ المَوتى][4] واللهُ المُوَفِّقُ، وإليهِ المُستعينُ، [وصلّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][5].

(١) في الأصل وم: فيعلموا. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: الذي. (٣) في الأصل وم: يصرفه. (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م.

سورة الإنسان

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فـ: ﴿هَلْ﴾، و﴿مَنْ﴾، و﴿لَعَلَّ﴾: منَ اللهِ تعالى واجبٌ، وحقُّهُ أنْ يُنْظَرَ أنْ لو كانَ مثلُ هذا الكلامِ منْ مُسْتَفْهِمٍ ما الذي كانَ يقتضي منَ الجوابِ؟ فإذا قالَ الإنسانُ لآخرَ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف: ٣٧ و...] فجوابُهُ أنْ يقولَ: لا أحدَ أظلمُ منهُ، وإذا قالَ لآخرَ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾ [طه: ٩ و...] فحقُّ المُجيبِ أنْ يقولَ، إنْ كانَ قد أتاهُ حديثُ فلانٍ: فقد أتاني، وإنْ كانَ لم يأتِهِ فحقُّهُ أنْ يَسْأَلَهُ: كيفَ كانَ حديثُهُ لِيَعْرِفَهُ؟ فإنْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد أتاهُ خَبرُ الإنسانِ بِمَعنى قولِهِ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي قد أتى على الإنسان. وإنْ لم يكُنْ أتاهُ فحقُّهُ أنْ يَسْأَلَهُ حتى يُبيِّنَ لهُ. وقيلَ: الإنسانُ آدمُ عليه السلام.

ثم لقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ[2] قالَ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فهو إنْ لم يكُنْ شيئاً في ذلكَ الوقتِ، لم يكُنْ إنساناً؟ وإذا لم يكُنْ إنساناً لم يأتِ عليهِ حينٌ مِنَ الدهرِ، وهو إنسانٌ؟

وإنْ كانَ في ذلكَ الوقتِ مخلوقاً فقد صارَ مذكوراً، وإذا صارَ مذكوراً فقد أتى عليهِ حينٌ مِنَ الدهرِ، وهو مذكورٌ، فما معناهُ؟ قيلَ: فيهِ أوجهٌ:

أحدُها: أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي على ما مِنْهُ الإنسانُ، وهو الأصلُ الذي خُلِقَ منهُ آدمُ عليه السلام وهو الترابُ، فقالَ: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ على الاِسْتِصغارِ لذلكَ الأصْلِ، إذِ الترابُ لا يُذْكَرُ في الأشياءِ المذكورةِ. وإلى هذا يذهبُ أبو بكرٍ الأصمُّ.

والوجهُ الثاني: قيلَ: قد أتىَ على الخَلْقِ حينٌ مِنَ الدهرِ لم يكُنِ الإنسانُ فيهِ شيئاً مذكوراً في تلكَ الخلائقِ.

والوجهُ الثالثُ: قد أتىَ عليهِ حينٌ مِنَ الدهرِ، ولم يكُنْ مذكوراً في المُمْتَحَنينَ، وهذا في كلِّ إنسانٍ، لأنهُ ما لم يَبْلُغْ لم يَجْرِ عليهِ الخطابُ، ولم يكُنْ مذكوراً في المُمْتَحَنينَ.

قالَ اللهُ تعالى: خَلَقَ الخلائقَ لِيَعْبُدوهُ بقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقولُهُ: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إذا صاروا مِنْ أهلِ المِحْنةِ. فإلى أنْ يَبْلُغَ قد أتى عليهِ حينٌ مِنَ الدهرِ لم يكُنْ مذكوراً في جملةِ مَنْ خُلِقوا للعبادةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [فيه وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّ][3] الإنسانَ لم يكُنْ إنساناً في النُّطفةِ ولا في العَلَقةِ ولا في المُضْغةِ، ولكنَّ المَقصودَ من إنشاءِ النُّطفةِ والعَلَقَةِ هذا الإنسانُ، والعَواقِبُ في الأفعالِ هي الأوائلُ في القَصْدِ والمُرادِ. فاسْتَقامَتْ إضافَتُهُ إلى ما ذَكَرْنا لِما رَجَعَ إليهِ القَصْدُ مِنْ إنشائِها.

ورُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا أردْتَ أمراً فَتَدَبَّرْ عاقِبَتَهُ، إنْ كانَ رُشْداً فامْضِهِ وإنْ كانَ غَيّاً فانْتَهِ» [الزبيدي في الإتحاف ١٠/٩٣، وعَزاهُ لابنِ المُباركِ في الزهدِ].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: و.

فاللزومُ النَّظَرُ في العَواقِبِ، فَثَبَتَ أنَّ المَقْصودَ مِنْ فِعْلِ أهلِ التَّمْييزِ العاقبةُ، وإنْ كانَتِ العاقبةُ مَقْصوداً إليها في الِابْتِداءِ. لذلكَ اسْتَقامَتْ إضافةُ الإنسانِ إلى النُّطْفةِ والعَلَقةِ والمُضْغَةِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مُنْصَرِفٌ إلى أولادِ آدمَ، فيكونُ المَعْنى مِنَ الإنسانِ أولادَهُ. ثم ذكَرَ لهمْ ابتِداءَ أحوالِهِمْ وما تَنْتَهي إليهِ عاقِبَتُهُمْ، وهو الموتُ، لِيَتَّعِظوا بهِ، وَيَتَذَكَّروا.

ووجهُ الِاتِّعاظِ، هو أنهمْ إذا عَلِموا ابْتِداءَ أحوالِهِمْ، وعَلِموا ما تَنْتَهي إليهِ عاقبتُهُمْ، عَلِموا في الحالِ التي هُمْ فيها أنَّ أنفسَهُمْ في أبدانِهِمْ ليسَتْ لهمْ، بل [هي][1] عاريةٌ في أبدانِهِمْ؛ إذ لم يكُنْ منهمْ صنعٌ في الِابْتِداءِ، وأمانةٌ، والحقُّ على الأعْيُنِ أنْ تقومَ بحفظِ الأمانةِ ورِعايَتِها وألّا تَخونَ صاحبَها فيها.

فإنْ هو خانَها، ولم يَتَوَلَّ حِفْظَها لَحِقَتْهُ المَسَبَّةُ والمَذَمَّةُ. وإنْ حَفِظَها، ورَعَاها حقَّ رِعايَتِها اسْتَوجَبَ الحمدَ والثناءَ مِنْ صاحِبِها.

والحقُّ على المُسْتَعيرِ أنْ يَتَمَتَّعَ بالعاريةِ، ويَنْتَفِعَ بها إلى الوقتِ الذي أُذِنَ لهُ، وألّا يُضَيِّعَها. فإنْ ضَيَّعَها لَحِقَتْهُ الغَرامةُ والضَّمانُ بِتَضْييعِهِ إيّاها. وكذلكَ إذا عَلِموا أنها /٦١٨ - ب/ في أبدانِهِمْ عاريةٌ وأمانةٌ عَلِموا أنَّ عليهمْ رعايَتَها واسْتِعْمالَها في الوجهِ الذي أُذِنَ لهمْ فيها، فلا[2] تَلْحَقُهُمُ التَّبِعةُ في العاقبةِ، ولا تَلْزَمُهُمُ المَسَبَّةُ والمَذَمَّةُ في ذلكَ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ النَّظَرَ في ابْتِداءِ الخِلْقَةِ إلى ما يَصيرُ عندَ انْقِضاءِ الأمْرِ يَدْعو إلى إيجابِ القولِ بالبعثِ إلى التصديقِ بكلِّ ما يأتي بهِ الرسلُ مِنَ الأخبارِ؛ وذلكَ أنَّ التَّأمُّلَ في ابْتِداءِ الخِلْقَةِ يُظْهِرُ عَجيبَ قدرةِ اللهِ تعالى ولطيفَ حكمتِهِ، ويُعْلِمُ أنَّ الذي بلَغَتْ حكمتُهُ هذا المبلَغَ لا يجوزُ أنْ يقَعَ قَصْدُهُ مِنْ إنشاءِ الخَلْقِ للإفناءِ خاصةً لِخُروجِهِ عنْ حدِّ الحكمةِ، فَيَحْمِلَهُمْ على القولِ بالبعثِ. ولأنَّ النَّظَرَ في ابْتِداءِ الخِلْقَةِ والنَّظَرَ إلى ما يَرْجِعُ إليهِ بعدَ الوفاةِ ممّا يَمْنَعُ الِافْتِخارَ والتَّكَبُّرَ لأنَّ إنشاءَهُ كانَ مِنْ نُطْفَةٍ، يَسْتَقْذِرُها الخلائقُ، ومِنْ عَلَقةٍ ومُضْغةٍ، يَسْتَخْبِثُها كلُّ أحدٍ، وبعدَ المماتِ يَصيرُ جُثَّةً[3] قَذِرَةً.

ومَنْ كانَ هذا شأنُهُ لم يَحْسُنِ التَّكَبُّرُ في مثلِهِ، فكانَ في تذكيرِ أوائلِ الأحوالِ وأواخِرِها موعظةٌ لهمْ لِيَتَّعِظوا، ويَتَبَصَّروا، وتعريفٌ لهمْ أنَّ التَّكَبُّرَ لا يَحْسُنُ مِنْ أمثالِهِمْ، فَيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على التواضعِ وتركِ الِافْتِخارِ والتَّجَبُّرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ والأمشاجُ الأخلاطُ، ثم الأخلاطُ يَقَعُ بوجهَينِ:

أحدُهما: في اخْتِلاطِ ماءِ الرجلِ بماءِ المرأةِ.

والثاني: يقعُ في الأحوالِ، وهي أنَّ النُّطْفةَ إذا حُوِّلَتْ عَلَقَةً، لم تُحَوَّلْ بِدَفْعةٍ واحدةٍ، بل هي تَغْلُظُ شيئاً فَشيئاً حتى إذا تَمَّ غِلَظُها صارَتْ عَلَقةً، وكذلكَ العَلَقةُ يدخلُ فيها التَّغْييرُ شيئاً فَشيئاً حتى إذا تَمَّ التَّغْييرُ فيها حالَتْ مُضْغَةً، فهذا هو الِاخْتِلاطُ في الأحوالِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: الأخلاطُ الطبائعُ الأربعةُ التي عليها جُبِلَ الإنسانُ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الخَلْطَ [إلى][4] الألوانِ، فَذَكَرَ أنَّ ماءَ الرجلِ أبيضُ يُخالِطُهُ حُمْرَةٌ، وماءَ المرأةِ أحمرُ يُخالِطُهُ صُفْرةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بالخيرِ والشَّرِّ والأمرِ والنهيِ. ثم الِابْتِلاءُ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][5] هو الِاسْتِظهارُ لِما خَفِيَ مِنَ الأمورِ، واللهُ تعالى لا يَخْفَى عليهِ أمرٌ، فَيَحتاجُ إلى استظهارِهِ، ولكنْ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ لِيَظْهَرَ لِلْمُبْتَلَى ما كانَ خَفِيّاً عليهِ بِفِعلِهِ وتَرْكِهِ.

وأمّا الخَلْقُ فهمْ يُمْتَحَنونَ، ويُبْتَلَونَ لِيَظْهَرَ لهمْ ما كانَ خَفِيّاً عليهِمْ، فيكونُ الِابْتِلاءُ مُنْصَرِفاً إليهمْ لا إلى المُبْتَلِي والمُمْتَحِنِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: جيفة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنَّ الإِبْتِلاءَ لِما كانَ الإِسْتِظهارُ لِما خَفِيَ مِنَ الأمورِ؛ وذلكَ يكونُ بالأمرِ والنهيِ، فَسُمِّيَ الأمرُ مِنَ اللهِ تعالى والنهيُ لعبادِهِ ابْتِلاءً لِمكانِ الأمرِ والنَّهيِ لا على تحقيقِ مَعْنَى الإِبْتِلاءِ منهُ.

وقالَ الحسنُ: لَمّا صَلَحَ أنْ يُضافَ الإِسْتِخبارُ إلى اللهِ تعالى، وإنْ كانَ هو خبيراً بما اسْتُخْبِرَ، فجائزٌ أنْ يُضافَ إليهِ الإِبْتِلاءُ أيضاً، وإنْ كانَ هو بالذي ابْتَلاهُ عالماً بَصيراً مِنَ العبدِ بعدَ الإِبْتِلاءِ مِنَ الفعلِ [ما][1] كانَ غائباً، فاللهُ يعرِفُهُ شاهداً بِفِعْلِهِ، وقبلَ ذلكَ كانَ يعرِفُهُ غائباً، لأنَّ معرفةَ ما يكونُ أنْ يُعْرَفَ مثلُ كونِهِ غائباً وبعدَ كونِهِ شاهداً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي جَعَلْنا لهُ سَمْعاً، يُمَيِّزُ بينَ ما يُؤدِّي إليهِ سَمْعُهُ، وجَعَلْنا لهُ بَصَراً، يُبْصِرُ بِهِ ما أدّى [إليهِ][2] بَصَرُ الوجهِ لِيَضَعَ كلَّ شيءٍ موضِعَهُ، وذلكَ هو بَصَرُ القلبِ وسَمْعُ القلبِ لأنهُ خَصَّ البَشَرَ بالإِبْتِلاءِ لمكانِ بَصَرِ الباطنِ والسمعِ الباطنِ.

ألَا تَرَى أنَّ البهائمَ لها بَصَرُ الظاهرِ وكذا السمعُ؟ ويَحْتَمِلُ أي جَعَلْناهُ ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، يُبْصِرُ مالَهُ وما عليهِ وما يَنْفَعُهُ وما يَضُرُّهُ، ثم أنشأَ فيهِ السمعَ والبصرَ، ولا يَعْرِفُ كَيفِيَّةَ السمعِ والبصرِ الذي جعلَ فيهِ، ولا ماهِيَّتَهُ ولا مِمَّ هو لُطفاً منهُ لِيَعْلَمَ أنهُ مُنْشِئُ الكَيفيّاتِ والماهِيّاتِ وأنهُ يَتَعالى عنِ الوصفِ لهُ بالكَيفيَّةِ والماهيَّةِ؟

الآية ٣ ثم قالَ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أوجهاً ثلاثةً:

أحَدُها: هَدَيناهُ السبيلَ لإصلاحِ بَدَنِهِ ومعاشِهِ.

[والثاني][3]: هَدَيناهُ السبيلَ الذي يَصِلُ[4] بهِ إلى اسْتِيفاءِ النسلِ والتوالُدِ إلى يومِ التَّنادي.

[والثالثُ][5]: هَدَيناهُ السبيلَ الذي يرجِعُ [إلى][6] إصلاحِ دِينِهِ[7] وأمرِ آخِرَتِهِ[8] بِاكْتِسابِ المَحامدِ والمَحاسنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ إنهُ قد بَيَّنَ لهمُ السبيلَ، وهداهُمْ إليهِ، ثم منهمْ مَنْ يَختارُ الشكرَ، ومنهمْ مَنْ يَختارُ الكُفْرانَ لهُ.

الآية ٤ ثم بَيَّنَ ما أعَدَّ لِلْكفورِ منهمْ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ إنْ كانَ المُرادُ منهُ الطريقَ فكأنهُ قالَ: إنّا بَيَّنّا كِلا الطريقَينِ؛ فإنْ سلكَ طريقَ كذا، واختارَهُ، فيكونُ [شاكراً، وإنْ سَلَكَ طريقَ كذا فيكونُ][9] كفوراً. ثم بَيَّنَ لكلِّ طريقٍ سَلَكَهُ[10] جزاءً وثواباً.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ فيهِ إنباءٌ أنَّ أيديَهُمْ تُغَلُّ، ويُشَدُّونَ بالسلاسلِ، فلا يَتَهَيَّأُ لهمْ أنْ يَتَّقُوا العذابَ عنْ أوجُهِهِمْ.

ثم قُرِئَ سَلاسِلَ[11] لأنها غَيرُ مُنصرِفةٍ، وقُرِئَ سَلاسِلاً، وصَرَفوهُ بِناءً على أنَّ الأسماءَ كلَّها منصرفةٌ إلّا [نوعاً واحداً][12] وقالَ الزَّجّاجُ: السلاسِلُ لا تَنْصَرِفُ [لأنها اسْمٌ][13] لا فِعْلَ لها، لكنْ صَرَفَها ههنا لأنها مِنْ رؤوسِ الآياتِ. وقيلَ: لأنهُ جَعَلَهُ رأسَ الآيةِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الكافورَ شيءٌ أعَدَّهُ اللهُ تعالى لِأهلِ كرامتِهِ، لم يُطْلِعْ عبادَهُ على ذلكَ في الدنيا. ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الكافورَ شيءٌ جَرَى ذِكْرُهُ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ، فَذَكَرَ ذلكَ في القرآنِ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ عينٌ من عيونِ الجنةِ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى الكافورِ المعروفِ.

لكنْ قيلَ: إنهُ كِنايةٌ عنْ طيبِ الشرابِ، وقيلَ: إنهُ كِنايةٌ عنْ بُرودةِ الشرابِ لأنهُ ذُكِرَ أنَّ ذلكَ الشرابَ في طَبْعِهِ

---

(١)و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: يصلون. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: دينهم. (٨) في الأصل وم: آخرتهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: الذي. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٨/ ١٩. (١٢) في الأصل وم: نوع واحد. (١٣) في الأصل وم: لأنه.

كالكافورِ [لأنَّ ألَذَّ][١] الشرابِ عندَ الناسِ الباردُ منهُ، لا أنْ يكونَ في نفسِهِ بارداً، وذَكَروا أنَّ الكأسَ لا تُسَمَّى كأساً حتى يكونَ فيها خمرٌ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [ومَعْنَى ﴿بِهَا﴾][٢] منها، لا أنْ يَقَعَ شُرْبُهُمْ بها، وسُمِّيَتِ العينُ عيناً لِوُقوعِ العينِ [عليها][٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فيه إخبارٌ أنَّ ماءَ العيونِ جاريةٌ يُفَجِّرونَها مِنْ حيثُ شاؤوا.

ثم المرادُ مِنْ ذِكْرِ العبادِ ههنا [أنهمْ][٤] هُمُ الذينَ أطاعوا اللهَ، وقاموا بِوَفاءِ ما عليهِمْ، وهمُ الذينَ قالَ اللهُ تعالى [فيهِمْ][٥]: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ والنَّذْرُ هو العَهْدُ؛ فجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بِهِ الوفاءَ بكلِّ ما أوجَبَ اللهُ تعالى مِنَ الفرائضِ والحقوقِ، فتكونُ فرائضُهُ عَهْدَهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠].

وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بالنَّذْرِ ما أوجَبوا على أنفسِهِمْ مِنَ القُرَبِ سِوَى ما أوجَبَها اللهُ تعالى عليهِمْ. فيكونُ فيهِ إخبارٌ أنهمْ قاموا بأداءِ الفرائضِ، وتقرَّبوا إلى اللهِ تعالى معَ ذلكَ بِقُرَبٍ أُخَرَ، فاسْتَوجَبوا المدحَ بِوَفائِهِمْ بما أوجَبوا على أنفسِهِمْ؛ قالَ ﷻ: ﴿ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] فَلَحِقَهُمُ الذَّمُّ لِما لم يقوموا برعايةِ حقِّهِ، ليسَ بإيجابِهِمْ على / ٦١٩ ـ أ/ أنفسِهِمْ ما لم يُوجِبْهُ اللهُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ قيلَ: اسْتَطارَ شَرُّ ذلكَ اليومِ، فَمَلأَ السمواتِ والأرَضينَ وكلَّ شيءٍ حتى انشَقَّتِ السمواتُ، وتناثَرَتِ النجومُ ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥].

ومعناهُ أنَّ هَولَ ذلكَ اليومِ قد عَمَّ، وفَشا في أهلِ السمواتِ والأرضِ حتى خافوا على أنفسِهِمْ. وقيلَ: سُمِّيَ ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي طويلاً، ويُقالُ: اسْتَطارَ الرجلُ إذا اشْتَدَّ غضبُهُ، واسْتَطارَ الأمرُ أي اشْتَدَّ، فَسُمِّيَ ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي شديداً.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فالحبُّ يَتَوَجَّهُ إلى معانٍ:

يَتَوَجَّهُ إلى الإيثارِ مَرَّةً، وإلى مَيلِ النفسِ ورُكونِ القلبِ أُخرَى، ومَرَّةً يُعَبِّرُ عنِ الشَّهْوَةِ.

فالمُرادُ مِنَ الحُبِّ ههنا الشَّهْوَةُ، فيكونُ قولُهُ ﷻ: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ على شَهْوَتِهِمْ وحاجتِهِمْ إليهِ.

وقيلَ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ في حالِ عِزَّةِ الطعامِ، وقيلَ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ﴾ حبِّهِمْ للحياةِ[٦] وحِرْصِهِمْ عليها، ليسَ أنْ يُطْعِموا عندَ الإياسِ مِنَ الحياةِ على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «أفضلُ الصدقةِ أنْ تَتَصَدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ تأمُلُ العيشَ وتَخْشَى الفقْرَ» [مسلم ١٠٣٢].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ قيلَ: إنهمْ لم يَتَكَلَّموا بهذا اللفظِ أعني: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ الآيةَ. ولكنْ عَلِمَ اللهُ تعالى ذلكَ مِنْ قلوبِهِمْ، فأثْنَى عليهِمْ بذلكَ لِيَرْغَبَ في ذلكَ الراغبونَ.

ألَا تَرَى أنهمْ كانوا يُطْعِمونَ الأسارَى، ولا يُطْمَعُ مِنَ الأسارَى المُجازاةُ والشكرُ، لِيُعْلَمَ أنهمْ لم يَقْصِدوا بِهِ [إلّا][٧] وجهَ اللهِ تعالى والتَّقَرُّبَ إليهِ؟ والمُجازاةُ هي المُكافأةُ لِما أسْدَى إليهِ، والشكرُ هو الثناءُ عليهِ والنَّشْرُ[٨] عنه.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ فمنهمْ مَنْ جعلَ هذا نَعْتاً لذلكَ اليومِ، فيكونُ معناهُ: أنَّ هذا اليومَ، وهو يومُ القيامةِ مِنْ بينِ سائرِ الأيامِ، كالإنسانِ العَبوسِ مِنْ بينِ غيرِهِ.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى الخلائقِ، فيكونُ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي يوماً تَعبُسُ فيهِ وجوهُ الخلائقِ، لا أنْ يكونَ اليومُ نفسُهُ عَبوساً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧ و...] أي يُبْصَرُ فيهِ، وتقولُ العربُ: ما زالَ

---

(١) في الأصل: لأن الذي، في م: لا الذي. (٢) في الأصل وم: ومعناه. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: واليسر.

الطريقُ يَمُرُّ منذُ اليوم على مَعْنَى: يَمُرُّ الناسُ فيه، فَيَرْجِعُ هذا إلى وَصْفِ ما يكونُ عليهِ ذلكَ اليومُ على ما ذَكَرْنا أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ اليومَ بالأحوالِ التي يكونُ عليها حالُ ذلكَ اليوم؛ فَمَرَّةً قالَ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٣٢] ومَرَّةً قالَ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ قيلَ: شديداً، وقيلَ: القَمْطريرُ الذي يَقْبِضُ الوجهَ بالبُسورِ والعُبوسةِ، ويَزْوي ما بينَ العَيْنَينِ، وقيلَ: القَمْطريرُ المُشَدَّدُ[1] على أهلِ النارِ، وقيلَ: القَمْطريرُ هي كلمةٌ مِنْ كتبِ الأوَّلِينَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ فجائزٌ أنْ تكونَ الوِقايةُ مُنْصَرِفةً إلى الموعودِ في ذلكَ [اليومِ][2] مِنَ العقوبةِ والنَّكالِ لا أنْ يكونوا وُقُوا مِنْ هَولِ ذلكَ اليوم، فلا يَرَوْنَ الجَحيمَ ولا أهوالَها.

وجائزٌ أنْ يكونَ وَقاهُمْ عمّا كانوا يَخافونَ مِنَ التَّبِعَةِ لَدَى الحِسابِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] فكأنهمْ يَخافونَ على أنفسِهِمُ المُناقشةَ في الحِسابِ؛ فإذا رَأَوا سَيِّئاتِهِمْ مَغْفورةً وحَسَناتِهِمْ مُتَقَبَّلَةً سُرُّوا بذلكَ، وَوُقُوا شَرَّهُ.

وجائزٌ أنْ يكونوا أُومِنوا مِنْ أهوالِ القيامةِ وأفزاعِها حينَ نُشِروا مِنَ القبورِ، وتَلَقَّتْهُمُ الملائكةُ بالبِشارةِ كما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ فالسرورُ عبارةٌ عنِ انْتِفاءِ الحزنِ عنهمْ، والنَّضْرَةُ أثَرُ كُلِّ نعيمٍ. وقيلَ: نَضْرَةً في وجوهِهِمْ وسُروراً في قلوبِهِمْ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي على الطاعاتِ وصَبَروا عنْ مَعاصي اللهِ ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي جَزاهُمْ جنةً، وجَزاهُمْ حريراً؛ فذكَرَ الحريرَ لأنَّ الجِنانَ إنما تُذْكَرُ في موضعِ التَّطَرُّبِ والتَّنَعُّمِ بالمآكِلِ والمَشارِبِ دونَ التَّنَعُّمِ باللباسِ، فَوَعَدَ لهمْ مِنَ اللباسِ الحريرَ مع ما جَزاهُمُ الجنةَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يُذكَرُ تفسيرُها بعد هذا إنْ شاءَ اللهُ تعالى[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ بل يكونُ ظِلُّها دائماً مَحْدوداً. فجائزٌ أنْ يكونَ المرادُ منهُ أنَّ ضِياءَ الجنةِ ليسَ بالشمسِ، ولكنْ بما خُلِقَتْ مُضيئةً، لأنَّ الشمسَ في الدنيا يَقَعُ بها الضياءُ، فيكونُ ضياءُ النهارِ بالشمسِ، وذَكَرَ أنهمْ لا يَرَونَ فيها الزمْهَريرَ لِيُعْلَمَ أنَّ لَذّاتِ شرابِ الجنةِ وبُرودَتَهُ بالخِلْقةِ لا أنْ تكونَ بُرودتُها بِتَغَيُّرٍ يَقَعُ في الأحوالِ على ما يكونُ عليهِ شرابُ أهلِ الدنيا، أو يكونَ ذكَرَ هذا لِيَعْلَموا أنهمْ لا يُؤْذَونَ بِحَرٍّ ولا بَرْدٍ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ فجائزٌ أنْ يُرادَ أنها دانيةٌ مِنْ هؤلاءِ الذينَ سَبَقَ نعتُهُمْ، وهمُ الأبرارُ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وذُكِرَ أنَّ ظِلالَها دانيةٌ لأنها لو لم تكنْ دانيةً لكانَ لا يَقَعُ لهمْ بها انْتِفاعٌ. وقيلَ: هي ظلالُ غُصونِ الأشجارِ قريبٌ منهمْ لأنَّ للجنةِ نوراً يَتَلألأُ، فيقعُ بالأشجارِ فيها ظِلالٌ كما يَشْتهونَهُ في الدنيا، ليس على ذلكَ شمسٌ ولا قمرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالتَّذْليلِ التَّلْيينُ، أي لُيِّنَتْ، فلا يَرُدُّ أيديَهُمْ عنها شوكٌ. وقيلَ: إنَّ أشجارَها ليسَتْ بِطِوالٍ، لا تُنالُ ثمارُها إلّا بعدَ عَناءٍ وكَدٍّ، بل قريبةٌ منْ أربابِها؛ يقالُ: حائطٌ ذليلٌ إذا لم يكُنْ عالياً في السماءِ، وقيلَ: ذُلِّلَتْ أي سُوِّيَتِ الأشجارُ لا أنْ يتفاوَتَ بعضُها [عنْ بعضٍ][4]؛ يقولُ أهلُ المدينةِ إذا اسْتَوَتْ عُذوقُ النخلةِ تَذَلَّلَتِ النخلةُ، وقيلَ: ذُلِّلَتِ النخلةُ، وقيلَ: ذُلِّلَتْ أي سُخِّرَتْ، والتَّذْليلُ التَّسْخيرُ، فَيَتناوَلونَ منها كيفَ شاؤوا؛ إنْ شاؤوا تَناوَلوها، وهمْ قِيامٌ، وإنْ شاؤوا تَناوَلوها، وهمْ جُلوسٌ أو نِيامٌ على الفُرُشِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تَسْخيرُها على ما ذُكِرَ عنْ بعضِ المُتَقَدِّمينَ أنَّ شجرةَ الجنةِ: عُروقُها مِنْ فوقٍ، وفُروعُها من أسفَلَ، والثمارُ بينَ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: المشدة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في تفسير الآية ٢١. (٤) في الأصل وم: بعضا.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ قيلَ: فتأويلُ الأكوابِ يُذكَرُ في سورةِ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الآية: ١٤]][(1)].

الآية ١٦ ثم أخبرَ أنَّ تلكَ الأكوابَ ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ قيلَ: هي مِنْ فِضَّةٍ، ولها صفاءُ القواريرِ، يُرَى ما فيها مِنَ الشرابِ مِنْ خارجِها لِصَفائِها.

ثم الآنيةُ مِنَ الفِضَّةِ في أعيُنِ أهلِها أرفَعُ وأشرَفُ مِنَ الإناءِ المُتَّخَذِ مِنَ الترابِ، فكذلكَ الصفاءُ الذي يكونُ بالفِضَّةِ أبلَغُ وأرفَعُ في أعيُنِ أهلِها مِنَ الصفاءِ الذي يقَعُ بالقواريرِ: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ على الأصلِ المعهودِ أنهُ لا يَنْصَرِفُ.

وقُرِئَ قولُهُ تعالى: ﴿قَوَارِيرَا۟﴾ على الوقفِ عليهِ[(2)] مُوافقاً لآخِرِ سائِرِ الآياتِ، وقُرِئَ قواريراً بالتنوينِ عندَ الوَصْلِ أيضاً لأنهُ رأسُ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي جُعِلَتْ على قَدْرِ ريِّهِمْ، وقيلَ: يُسْقَوْنَ على القَدْرِ الذي قَدَّرُوهُ على أنفسِهِمْ، وحَدَّثَتْ بهِ أنفسُهُمْ، فلا يُقَدِّرونَ في قلوبِهِمْ مِقداراً إلّا أُتوا بهِ[(3)] على ذلكَ.

الآيتان ١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾][(4)] فمنهمْ مَنْ زَعَمَ أنَّ العَرَبَ إذا أعْجَبَهُمْ شرابٌ نَعَتوهُ، وقالوا: كالزَّنْجبيلَ، فَخَرَجَتِ البِشارَةُ مِنَ الوَجْهِ / ٦١٩ ـ ب/ الذي تَرْغَبُ في مثلِهِ الأنفُسُ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الزَّنْجبيلَ والسَّلْسَبيلَ واحدٌ، وهما اسْمُ العَينِ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ في السَّلْسَبيلِ، أي سَلْ سَبيلاً إلى تلك العَينِ.

وقالَ قتادةُ: أي سَلْسَلَةَ السَّبيلِ، مُسْتَعْذَبٌ ماؤُها، وقيلَ: ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ شديدَ الجَرْيَةِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ذِكْرُ الوِلْدانِ لا أنْ يكونَ فيها وِلادٌ، ولكنهمْ أُنْشِئوا وِلْداناً، فَيُخَلَّدونَ كذلكَ: يَكْبَرونَ، ولا يَهْرَمونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الوِلْدانُ وِلْدانَ الكَفَرَةِ الذينَ ماتوا في الدنيا صِغاراً، فلا يكونُ لهمْ في الجنةِ آباءٌ لِيُرْفَعوا إلى درجةِ الآباءِ، فَيَجْعَلَهُمُ اللهُ تعالى خَدَماً لأهلِ الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ تعالى شَبَّهَ حُسْنَهُمْ بِحُسْنِ اللُّؤْلُؤِ المَنْثورِ؛ إذْ أحْسَنُ ما يكونُ اللُّؤْلُؤُ إذا كانَ مَنْثوراً. فجائزٌ أنْ يكونَ هؤلاءِ الوِلْدانُ فُضِّلوا في الحُسْنِ على سائِرِ الجَواهِرِ التي تكونُ في الجنةِ كما فُضِّلَ الدُّرُّ في الدنيا على سائِرِ الجواهِرِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنهمْ ما لم يَطوفوا، فَمَنْ رآهُمْ حَسِبَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثوراً، وإذا طافوا، وتَحَرَّكوا، فحينئذٍ يُعْلَمونَ أنهمْ وِلْدانٌ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ قيلَ: هما اللذانِ، لا نَعْتَ لهما، ولا وَصْفَ، وقيلَ: المُلْكُ اسْتِئْذانُ الملائكةِ عليهِمْ، وملوكُ الدنيا، وإنْ عَلَتْ زينَتُهُمْ لم يَمْلِكوا الاحتِجابَ مِنْ دخولِ الملائكةِ عليهِمْ بِغَيرِ اسْتِئْذانٍ، والمُلْكُ هو الذي [به][(5)] نفاذُ الأمورِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ النعيمَ والمُلْكَ الكبيرَ على مَعْنى أنهُ لا يَنْقَطِعُ عنهمْ، بل إذا رأيتَهُمْ أبداً رأيتَهُمْ في نعيمٍ ومُلْكٍ كبيرٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بالعالي ما عَلا مِنَ المكانِ الذي هم فيهِ، فَيُخْبِرُ أنَّ في أعلى أماكِنِهِمْ ثيابٌ خُضْرٌ مِنْ سُنْدُسٍ كما هو في المكانِ الذي [هو][(6)] أسْفَلُ مَوضِعِ جلوسِهِمْ، لأنهمْ يكونونَ على الأرائِكِ والحِجالِ[(7)]، فيكونُ ما تحتَ الحِجالِ[(8)] والأرائِكِ مِنَ الأماكنِ ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥ و١٦] ويكونُ عاليها كذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٢٣. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) و(٨) في الأصل وم: الأحجال.

فإنْ كانَ على هذا فلا فَرْقَ بَينَ أنْ يكونَ فَرْشُ ذلكَ المكانِ مِنْ حريرٍ وديباجٍ غليظٍ إنْ أُريدَ بالإسْتَبْرَقِ الديباجُ الغليظُ، وبَينَ أنْ يكونَ مِنْ ديباجٍ رقيقٍ، إذْ كلُّ ذلكَ ممّا يُرْغَبُ في مِثْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ أي أعلَى ثيابِهِمْ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: عالي أنفسِهِمْ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ ومنهمْ مَنْ صَرَفَ السُّنْدُسَ والإسْتَبْرَقَ إلى ما بُسِطَ، لأنَّ الديباجَ الغليظَ ممّا لا تَرْغَبُ الأنفسُ إلى لِبْسِ مِثْلِهِ، فَجَمَعَ بَينَ ما يُلْبَسُ وبَينَ ما يُفْرَشُ، وبَيَّنَ الفِعْلَ في أحدِهما، ولم يَذْكُرْ في الآخَرِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ همُ الوِلْدانُ يطوفونَ مِنْ أعاليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فَبَشَّرَهُمْ بالأساوِرِ مِنَ الفضةِ، لأنَّ الفضةَ مُسْتَحْسَنَةٌ بِنَفْسِها لِبَياضِها، والذهبُ اسْتِحْسانُهُ لِنَدْرَتِهِ وعِزَّتِهِ، ليسَ لنفسِهِ، لأنهُ أصفَرُ، والأعيُنُ لا تَسْتَحْسِنُ هذا اللونَ، فَجَرَتِ البِشارةُ بالفضةِ لا بالذهبِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يُحَلَّى الرجالُ بأسْوِرةٍ مِنَ الفضةِ على ما أُبيحَ لهمُ التَّحَلّي بِخاتمٍ في الدنيا، وتُحَلَّى النساءُ بأساوِرِ الذهبِ على ما أُبيحَ لهنَّ بها في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قيلَ: هو الخمرُ، يَطْهُرُ مِنَ الآفاتِ ومِنْ كلِّ مكروهٍ، ويُطَهِّرُ قلوبَهُمْ مِنَ الغِلِّ، فَيَعْمَلُ ذلكَ الشرابُ في تَطهيرِ الظاهرِ والباطنِ. وشرابُ الدنيا يُطَهِّرُ ظاهرَ البَدَنِ، وباطنُ البَدَنِ يُنَجِّسُهُ[1] الشرابُ.

ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنةِ لَيُعْطَى قوةَ مئةِ رجلٍ في الأكلِ والشرابِ والجِماعِ» فقالَ يهوديٌّ: إنَّ الذي يأكلُ، ويَشْرَبُ تكونُ لهُ الحاجةُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «حاجةُ أحدِهِمْ عَرَقٌ يَفيضُ مِنْ جَسَدِهِ، فَيَضْمُرُ لِذلكَ بطنُهُ» [أحمد ٤/٣٧٦ والنسائي في الكبرى ١١٤٧٨].

والأصلُ أنكَ قد تَرَى الطعامَ الذي يَطْعَمُهُ الإنسانُ في الدنيا تَبْقَى قوتُهُ في البدنِ حتى يظهرَ ذلكَ في كلِّ جارحةٍ مِنْ جوارِحِهِ، وكذلكَ شَهْوَتُهُ تَبْقَى فيها، ثم يَخْرُجُ الثُّفْلُ منها والفَضْلُ..

فجائزٌ أنْ يرفَعَ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ الطعامِ الفَضْلَ الذي يُزايِلُ إليهِ، فيكونُ طعامُهُمْ ذلكَ اللطيفَ الذي يَبْقَى في النفسِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ فجائزٌ أنْ تكونَ هذهِ البِشارةُ خَرَجَتْ لِأهلِها في الدنيا، وجائزٌ أنْ تكونَ لهمْ في الآخِرَةِ: إنَّ هذا الذي أُكْرِمْتُمْ بهِ مِنَ الكراماتِ جزاءٌ لِعَمَلِكُمْ وسَعْيِكُمْ في الدنيا.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ قيلَ: فَرَّقْنا عليكَ القرآنَ تفريقاً. والحِكْمةُ في التفريقِ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى في القرآنِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] فأخبرَ أنَّ في التفريقِ تَثْبيتاً، فيكونُ الناسُ لهُ أوعَى وأعرفَ بِمَواقِعِ النوازِلِ منهُ مِنْ أنْ يُنَزَّلَ جملةً واحدةً.

ثم أضافَ التنزيلَ إلى نفسِهِ ههنا، وأضافَهُ[2] إلى جبرائيلَ ﷺ في قولِهِ ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ و١٩٤] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠ و...] وقالَ في آيةٍ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فأضافَهُ[3] إلى نفسِهِ كقولِهِ[4]: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢] فهذا كلُّهُ على مَجازِ الكلامِ، ليسَ على الحقيقةِ.

فَحَقُّ كلٍّ مِنْ ذلكَ أنْ يُصْرَفَ إلى ما إليهِ وُجِّهَ[5] إلى أنْ يَسْتَجيزَ الناسُ مِنَ التَّعامُلِ في ما بَيْنَهُمْ بذلكَ الكلامِ.

فإذا قيلَ: هذا في اللوحِ فُهِمَ بهِ، وأُريدَ منهُ أنهُ مكتوبٌ فيهِ. [قيلَ: قولُهُ][6] تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ مَعْناهُ: أنهُ حتى يَسْمَعَ كلاماً يَدُلُّهُ على كلامِ اللهِ تعالى، لا أنْ يكونَ ذلكَ كلامَهُ، وأضافَهُ إلى جبرائيلَ ﷺ لأنهُ مِنْ قِبَلِهِ تَلَقّاهُ، لا أنْ يكونَ ذلكَ كلامَ جبرائيلَ ﷺ. ثم قد ذَكَرَ الحكمةَ في إنزالِ القرآنِ مُفَرَّقاً قَبْلَ هذا والفَضْلَ الكافيَ منهُ.

---

(١) في الأصل وم: وينجس. (٢) في الأصل وم: وأضاف. (٣) في الأصل وم: فأضاف. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: أوجه. (٦) في الأصل وم: وقوله.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ التفريقُ لِمكانِ أتباعِ رسولِ اللهِ ﷺ ليس لِمكانِهِ لأنَّ اللهَ تعالى يُيَسِّرُ على نَبِيِّهِ حفظَهُ حتى كانَ يَعِي جميعَ ما يُنْزِلُ إليهِ جبرائيلُ ﷺ بما يَقرأُ عليه مَرَّةً واحدةً، وقالَ[1] لهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] فَضَمِنَ لهُ الحفظَ فَأَمِنَ النِّسيانَ.

فأمّا غَيرُهُ فإنهُ يَشْتَدُّ عليهِ أنْ لو كَلَّفَهُ حِفْظَهُ بدفعةٍ واحدةٍ، فأنزلَهُ[2] مُفَرَّقاً ليكونوا أقدرَ على حفظِهِ. ولهذا كَثُرَ[3] حُفّاظُ القرآنِ في هذهِ الأمةِ [وكَثُرَ قُرّاؤُها][4] وكَثُرَ فُقهاءُ هذهِ الأمةِ، لأنَّ القرآنَ أُنزِلَ مُفَرَّقاً على إِثْرِ النوازِلِ، فَعَرَفوا مَواقِعَ النواسِخِ[5]، فَوَقفوا على مَعْرفةِ ما أودَعَ في الآياتِ لِمَعْرِفَتِهِمْ مَواقِعَ الناسِخِ[6] والمنسوخِ، ولو نُزِّلَ جملةً واحدةً اشْتَبَهَ عليهِمُ الناسخُ والمَنْسوخُ. فأنزلَهُ[7] اللهُ تعالى مُفَرَّقاً ليكونوا يعلمونَ[8] الناسِخَ والمَنْسوخَ واللهُ أعلَمُ.

ولأنهُ إذا أُنْزِلَ مُفَرَّقاً كانوا إليهِ أشْوَقَ وأرغَبَ منهُ إذا نُزِّلَ جملةً واحدةً.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ الآيةَ؟ [محمد: ٢٠] فأخبرَ أنهمْ يَرْغبونَ إلى أنْ تَنَزَّلَ عليهمْ سورةٌ، وإنْ كانوا قد أُنْزِلَتْ إليهمْ سورةٌ مِنْ قبلُ.

وفيهِ أيضاً تَخويفٌ للمنافِقينَ /٦٢٠ ـ أ/ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] فكانَ في إنزالِهِ مُفَرَّقاً ما ذَكَرْنا مِنَ الفوائدِ والمَنافعِ للمؤمنينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ففيه أنهُ ابْتلاهُ بما تَكْرَهُهُ نفسُهُ، ويشْتَدُّ عليها، حتى دعاهُ إلى الصبرِ، لأنَّ المرءَ لا يُدْعَى إلى الصَّبْرِ على النِّعَمِ واللَّذّاتِ، وإنما يُدْعَى إليهِ إذا ابْتُلِيَ بالمكارِهِ والبَلِيّاتِ، وقد صَبَرَ ﷺ على المَكارِهِ لأنهُ أُمِرَ بمُضادَّةِ الجِنِّ والإنسِ، فانْتَصَبَ لهمْ حتى آذَوهُ كلَّ الأذى، وهَمُّوا بِقَتْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ كأنهُ قالَ: ولا تُطِعْ مَنْ دَعاكَ إلى ما دَعاكَ إلى ما تَأْثَمُ فيهِ، أو تكونُ كفوراً، أو لا تُجِبِ الآثِمَ أو الكفورَ إلى ما يَدْعُوانِ[9] إليهِ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي كُنْ ذاكراً لهُ في كلِّ وقتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البُكْرَةُ تَحْتَمِلُ صلاةَ الصبحِ، والأصيلُ يَحْتَمِلُ صلاةَ الظهرِ والعَصْرِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ تَحْتَمِلُ صلاةُ الليلِ النوافلَ إنْ كانَ قولُهُ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ في صلاةِ الفرائضِ، وإنْ لم يكُنْ في ذلكَ فيكونُ كأنهُ قالَ: واذْكُرْ رَبَّكَ في كلِّ وقتٍ: بالليلِ والنهارِ، أو يقولُ: فلْيَكُنِ اسْمُ رَبِّكَ مذكوراً حتى لا تَخْلُوَ ساعةٌ مِنْ هذهِ الساعاتِ إلّا هو مذكورٌ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ حُبُّ العاجلةِ مِمّا طُبِعَ [عليهِ][10] الخَلائقُ لأنَّ كلَّ [مَخلوقٍ][11] طُبِعَ على حبِّ الانْتِفاعِ والتَّمَتُّعِ بالشيءِ، فلا يَلْحَقُهُمُ الذمُّ بِحُبِّ ما طُبِعوا عليه، وأُنْشِئوا. ولكنْ إنما يَلْحَقُ الذَّمُّ مَنْ أحبَّ الدنيا، واختارَها، وآثَرَها على غَيرِ الذي جُعِلَتِ الدنيا [لهُ][12] وأُسِّسَتْ؛ فالدنيا[13] إنما أُسِّسَتْ، وجُعِلَتْ، لِيُكْتَسَبَ بها نَعيمُ الآخِرَةِ والحياةِ الدائمةِ اللذيذةِ.

فَمَنْ أحبَّ لهذا، فهو لا يَلْحَقُهُ بذلكَ ذمٌّ ولا تَعْيِيرٌ، ومَنْ أحبَّها، وآثَرَها لها، واكْتَسَبَها لها، فهو المذمومُ، وأولئكَ كانوا مُخْتَلِفينَ في ذلكَ، لم يكونوا على فَنٍّ واحدٍ، ومنهمْ مَنْ حملَ حُبُّهُ إياها على إنكارِ وَحْدانِيَّتِهِ تعالى وأُلوهِيَّتِهِ، ومنهمْ مَنْ حَمَلَ حُبُّهُ إياها على تَكْذيبِ الرسُلِ والتَّعادي لهمْ ومُكابرةِ الحقِّ، ومنهمْ مَنْ حَمَلَ حُبُّهُ إياها على إنكارِ البعثِ والجزاءِ لِما عَلِموا، ومنهمْ مَنْ حَمَلَ حُبُّهُ الدنيا على التفريقِ بينَ الرسلِ: أنكروا بَعْضاً [وصَدَّقوا بَعْضاً][14] وتولَّدَ مِنْ حبِّهِمْ إيّاها ما

(١) في الأصل وم: وقيل. (٢) في الأصل وم: فأنزل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: النوازل. (٦) في الأصل وم:النوازل. (٧) في الأصل وم: فأنزل. (٨) في الأصل وم: يعلم. (٩) في الأصل وم: يدعون. (١٠) و(١١) و(١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: في الدنيا. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

ذَكَرْنا، فَلَحِقَهُمُ الذَّمُّ لِذلكَ. ولِذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الإنفاقِ في الدنيا حينَ[1] قالَ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧].

فَمَنْ أنفقَ في هذهِ الدنيا لها فتكونُ نَفَقَتُهُ ما ذَكَرَ لأنهُ أنفقَ لِغَيرِ ما جُعِلَتْ لهُ النفقةُ، فكانَ ما ذَكَرَ.

فَعَلَى ذلكَ مَنْ أحبَّ الدنيا، واختارَها للدنيا لا لِاكْتِسابِ ما ذَكَرْنا مِنَ النِّعَمِ اللذيذةِ الدائمةِ والحياةِ الباقيةِ التي لا انْقِطاعَ لها، كانَ على ما ذَكَرَ.

ثم إذا ذُكِرَتِ الدنيا ذُكِرَتِ الآخِرَةُ وراءَها، وإذا ذُكِرَتِ الآخرةُ [وذُكِرَ][2] على إثْرِ ذلكَ الإنسانُ، قيلَ: أمامَهُ؛ لأنَّ الإنسانَ مُقْبِلٌ إليها، فتكونُ تلكَ أمامَهُ وقُدّامَهُ.

وأمّا عندَ ذِكْرِ الآخِرةِ[3] قيلَ: وراءَها، لأنها تَخلُفُها، وكلُّ مَنْ خَلَفَ آخَرَ يكونُ بعدَهُ وَوراءَهُ، لأنهُ يكونُ عندَ فَوتِ الآخَرِ؛ لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ رَجَعَ إلى الاحْتِجاجِ عليهِمْ لِما أنكروا؛ يقولُ: يَعْلَمونَ أنا خَلَقْناهمْ بَدْءاً، ونحنُ شَدَدْنا خِلْقَتَهُمْ، أو نحنُ وصَلْنا جوارِحَهُمُ المُتَفَرِّقةَ ومَفاصِلَهُمُ المُتَشَتِّتةَ بعضَها إلى بعضٍ، ونحنُ نُبَدِّلُ أمثالَهُمْ إنْ شِئْنا. فما بالُهُمْ يُنْكِرونَ قدرَتَنا على البعثِ والإعادةِ بعدَ الموتِ؟

يقولُ: مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وهو على البعثِ أقدَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ يُذْكَرُ بعدَ هذا إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أي هذهِ السورةُ، لأنهُ ذَكَرَ في أوَّلِها ابْتِداءَ إنشائِهِمْ وخَلْقِهِمْ [وفي][4] آخِرِها إعادَتَهُمْ وفي خلالِها[5] جزاءَ صَنيعِهِمُ الذي صَنَعوا، فيكونُ في ذلكَ تذكِرَةٌ لهمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أيِ الأنباءُ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ، أو هذهِ المَواعظُ تذكِرَةٌ لِما لهمْ وما عليهِمْ، وتَذْكِرَةٌ لِما للهِ عليهمْ ولِما لبعضِهِمْ على بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ: قد مكَّنَ كلّاً أنْ يَتَّخِذَ سَبيلا إلى ربِّهِ، أي لا شيءَ يمنَعُهُ عنِ اتِّخاذِ السبيلِ إلى ربِّهِ إذا شاءَ، لكنْ مَنْ لم يَتَّخِذْ [فإنما لم يَتَّخِذْ][6] لأنهُ لم يَشأْ أنْ يَتَّخِذَ سَبيلاً، وإلّا قد مُكِّنَ لهُ ذلكَ.

والثاني: يقولُ: مَنْ شاءَ اتِّخاذَ السبيلِ فَلْيَتَّخِذِ السبيلَ إلى ربِّهِ على ما نَذْكُرُ على الاسْتِقْصاءِ بعدَ هذا، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: مَنْ شاءَ اتِّخاذَ السبيلِ إلى ربِّهِ [فلا يَتَّخِذُهُ][7] إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ السبيلَ إلى ربِّهِ، وعندَ ذلكَ يَتَّخِذُ.

وهذا على المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ لِجميعِ الخلائقِ أنْ يَتَّخِذوا إلى ربِّهِمْ سَبيلاً، لكِنهمْ شاؤوا ألّا يَتَّخِذوا إلى ربِّهِمْ سَبيلاً، فلم يَتَّخِذوا. وقد أخبَرَ أنهم لا يَشاؤونَ اتِّخاذَ السبيلَ إليهِ، ولا يَتَّخِذونَ إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ لهمُ اتِّخاذَ السبيلِ. فعندَ ذلكَ يَتَّخِذونَ ما ذكرَ، ويَشاؤونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ عليماً بِصُنْعِ خَلْقِهِ مِنَ التكذيبِ لهُ والتصديقِ منَ الطاعةِ والمَعْصِيةِ، أي على علمٍ منهُ بِصَنيعِهِمْ؛ أنْشَأَهُمْ، وخَلَقَهُمْ ﴿حَكِيمًا﴾ في فِعْلِهِ ذلكَ وخَلْقِهِ إيّاهُمْ على ما عَلِمَ منهمْ أنْ تكونَ الآيةُ [إلى مَنْ][8] خَلَقَهُمْ، وأنشأَهُمْ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجتِهِمْ لا لِمَنافعَ ترجعُ إليهِ أو لِمَضارَّ تُدْفَعُ عنْ نفسِهِ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: الدنيا. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: خلال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: لا يتخذ. (٨) في الأصل وم: إنما.

فَخَلْقُهُ إياهُمْ وبعثُهُ الرسلَ إليهمْ على عِلْمٍ بما يكونُ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ، لا يَخْرُجُ فِعْلُهُ عنِ الحكمةِ والحقِّ. بل يكونُ حكيماً في ذلكَ.

وأمّا مَنْ يَبعثُ الرسولَ في الشاهدِ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ويَرُدُّ رسالتَهُ وهَدِيَّتَهُ، ويَسْتَخِفُّ بهِ، [وأنهُ سفيهٌ][1] ليسَ بحكيمٍ[2]، لأنهُ إنما يُرسلُ الرسلَ، ويَبْعَثُ هَدِيَّتَهُ لِمَنافعَ تكونُ لهُ[3]، فَعِلْمُهُ بما يكونُ منهُ سَفَهٌ، ليسَ بحكمةٍ، لِذلكَ افْتَرَقا.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ هذا على المعتزلةِ أيضاً لأنهُ يدخِلُ مَنْ يَشاءُ في رحمتِهِ وهمْ يقولونَ: قد شاءَ أنْ يُدخِلَ كُلّاً في رحمتِهِ، لأنهُ شاءَ إيمانَ كلٍّ منهمْ، واللهُ تعالى[4] أخبرَ أنهُ يُدْخِلُ منْ يَشاءُ في رحمتِهِ.

دَلَّ ذلكَ على أنهُ لم يَشأْ أنْ يُدخِلَ في رحمتِهِ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ، ولكنْ إنما شاءَ أنْ يُدْخِلَ في رحمتِهِ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الهُدَى. فأمّا مَنْ عَلِمَ منهُ اخْتِيارَ غَيرِهِ فلا يَحْتَمِلُ أنْ يشاءَ ذلكَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أي وشاءَ أيضاً مَنْ عَلِمَ منهُ الضلالَ أنْ يُعَذِّبَهُ عذاباً أليماً.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ وحفصةَ ﷺ يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ. وهذا الحرفُ تفسيرُ وتأويلُ الآيةِ، وأنْ تكونَ رحمتُهُ ههنا، هو الهُدَى وسَبيلُ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ رحمتُهُ، هو جنَّتُهُ، سَمَّيَتْ رحمةً، لأنهُ برحمتِهِ يدخُلُها[5] أهلُ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ ما أرادَ.

(١) في الأصل وم: سفه. (٢) في الأصل وم: بحكمة. (٣) في الأصل وم: للمرسل. (٤) في الأصل وم: أعلم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: ما.

/٦٢٠ ـ ب/ # سورة المرسلات

[مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ و٢ و٣ و٤ و٥ قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ اختلفوا في تأويلِها:

فمنهمْ مَنْ حَمَلَ تأويلَ [هذا][2] كلِّهِ على الملائكةِ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَها إلى الرياحِ [ومنهمْ مَنْ صرفَ البعضَ إلى الرياحِ][3] والبعضَ إلى الملائكةِ.

وجائزٌ أنْ يُجْعَلَ هذا كلُّهُ في الرياحِ، ويَسْتَقيمُ أنْ يُصْرَفَ كلُّهُ إلى الملائكةِ، ويَسْتقيمُ أنْ يُجْعَلَ البعضُ في الملائكةِ والبعضُ في الرياحِ.

فإنْ كانَ في الرياحِ اسْتقامَ القَسَمُ بها، لأنَّ مِنَ الرياحِ رياحاً، هنَّ مُبَشِّراتٌ برحمتِهِ سابقاتٌ للنِّعَمِ إلى عبادِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦].

ومِنَ الرياحِ رياحٌ، هي مُنْجِياتٌ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] فَجَعَلَها[4] اللهُ تعالى سبباً لِتَسْييرِ السفُنِ في البحارِ كما جَعَلَ الماءَ سَبَباً لذلكَ.

وجَعَلَ منها مُهْلِكاتٍ مُذَكِّراتٍ لِقُوَّتِهِ وسُلْطانِهِ كما قالَ ﷻ: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم﴾ الآية [الإسراء: ٦٩] فهي تميتُهُمْ، وتُهْلِكُهُمْ، مِنْ غَيرِ أنْ يُدْرِكوهُ بأبصارِهِمْ، وإنْ كانتِ الأبصارُ، هي أوَّلُ ما يَقَعُ بها دَرْكُ الأشياءِ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَعْرِفَ الوجهَ الذي له صارتِ المُنْجِياتُ مُنْجِياتٍ، أو يَعْرِفَ الوجهَ الذي لهُ صارتِ الرياحُ مُهْلِكاتٍ أو مُبَشِّراتٍ لم يَقِفْ عليهِ.

فصارتِ الرياحُ مُذَكِّراتٍ لِلنِّعَمِ. وفي تذكيرِ النِّعَمِ إيجابُ القولِ بالبعثِ وبكلِّ ما يُخْبِرُهُمْ [بهِ الرسلُ][5] لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ البعثَ، ورأَوا فيها مِنْ لطائفِ الحكمةِ وعجائبِ التدبيرِ [ما لا يَبْلُغُها تَدْبيرُهُمْ][6] وحكمتُهُمْ، عَلِموا أنَّ الأمرَ غَيرُ مُقَدَّرٍ بعقولِهِمْ ولا بحكمتِهِمْ، فيكونُ في ذِكرِ ما ذَكَرْنا إزاحةُ ما اعْتَرَضَ لهمْ[7] مِنَ الشَّكِّ والشُّبَهِ في أمرِ البعثِ، فأقْسَمَ بها، جَلَّ جلالُهُ، على ما ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ جُعِلَ لتأكيدِ ما يُقْصَدُ إليهِ باليمينِ.

فَرَجَعْنا إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ قيلَ: هي الرياحُ المُبَشِّراتُ، سُمِّيَتْ ﴿عُرْفًا﴾ لأنَّ ما يأتي بهِ مِنَ النِّعَمِ معروفٌ[8]، وقيلَ: العُرْفُ المُتَتابِعُ وسُمِّيَ عُرْفُ الفرسِ عُرْفاً لِتَتابعِ بعضِ الشعرِ على بعضٍ. فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الرياحِ المُبَشِّرةِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿عُرْفًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ يُحْمَلُ على الرياحِ، لكنْ على الرياحِ المُبَشِّراتِ، وهي الرياحُ السهلةُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فجعل. (٥) من م، في الأصل: بالرسل. (٦) من م، في الأصل: هم. (٧) في الأصل وم: له. (٨) في الأصل وم: معروفة.

الخفيفةُ، لأنَّ النَّشرَ مذكورٌ في رياحِ الرحمةِ بقولِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ نُشراً[1] ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] في بعضِ القراءاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ هي الرياحُ الشديدةُ التي تكسِرُ الأشياءَ، وتَقْصِمُها، وهي التي تُرسَلُ للإهلاكِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ هي اسمُ الرياحِ التي لم يَظْهَرْ أنها أُرسِلَتْ للإهلاكِ[2] أو لِلتَّبْشيرِ لأنَّ الرياحَ التي تُرْسَلُ للرحمةِ يَظْهَرُ أثرُ رحمتِها مِنْ ساعتِها مِنْ إرسالِ السحابِ وغَيرِ ذلكَ قَبْلَ أنْ تتتابعَ. وكذلكَ الرياحُ التي هي رياحُ إهلاكٍ يَظْهَرُ عَلَمُ الإهلاكِ مِنْ ساعتِها، وهو أنْ تكونَ قاصفةً شديدةً قَبْلَ أنْ تتتابعَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ يَحْتَمِلُ الرياحَ أيضاً، وإنما سُمِّيَتْ فارقاتٍ لأنها تُفرِّقُ السحابَ، فَيصيرُ البعضُ في أُفُقٍ، والبعضُ في أُفُقٍ آخَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ فجائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى الرياحِ، وإلقاءُ ذِكْرِها ما ذَكَرْنا أنهُ يُظْهِرُ بها النِّعَمَ، وتُتَذَكَّرُ، وتُبَيَّنُ بها النجاةُ، ويَقَعُ ببعضِها الهلاكُ. فذلكَ إلقاءُ ذِكْرِها، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ صُرِفَ الكُلُّ إلى الملائكةِ فَيَحْتَمِلُ أيضاً؛ فقولُهُ ﷺ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ أي الملائكةِ الذينَ [أُرسِلوا بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المنكرِ.

وقولُهُ ﷺ: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ أي الملائكةِ الذينَ][3] يَعْصِفونَ أرواحَ الكفارِ، أي يأخُذونَها على شدةٍ وغضبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بها النَّشَرَةُ[4] مِنَ الملائكةِ، سُمُّوا ناشراتٍ لأنهمْ يَنْشُرونَ الصُّحُفَ، ويَقْرَؤونَها. وجائزٌ أنْ يُرادَ بها الملائكةُ الذين يأخذونَ أرواحَ المؤمنينَ على لينٍ ورِفْقٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ جائزٌ أنْ يُرادَ بها الملائكةُ، وسُمِّيَتْ فارقاتٍ لأنهمْ يُفرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ همُ الملائكةُ الذينَ يُلْقُونَ الذكرَ على ألسُنِ الرسلِ ﷺ.

وإنْ صُرِفَ البعضُ إلى الملائكةِ والبعضُ إلى الرياحِ فمستقيمٌ أيضاً: فتكونُ المرسلاتُ الذينَ أُرسِلوا بالمَعْروفِ والخَيرِ، والعاصفاتُ الريحَ الشديدةَ، والناشراتُ الرياحَ الخفيفةَ السهلةَ، ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هم الملائكةُ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ: أنْ يُرادَ بقولِهِ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ همُ الرسلُ مِنَ البَشَرِ الذينَ بُعِثوا إلى الخَلْقِ، فما مِنْ رسولٍ بُعِثَ إلّا وهو مُرسَلٌ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ.

وكذلكَ جائزٌ أنْ يُرادَ بقولِهِ تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ همُ الرسُلُ لأنهمْ يُفرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطلِ، ويُلْقونَ الذِّكْرَ في مَسامعِ الخَلْقِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ هي الكتبُ المُنْزَلَةُ مِنَ السماءِ لأنها أُرسِلَتْ بالمعروفِ وكلِّ أنواعِ الخَيرِ، وكذا قولُهُ: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ للحقِّ والهُدى، وكذا قولُهُ تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ لأنها تُفرِّقُ بينَ الحقِّ والباطلِ أيضاً، وكذلكَ ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ فإنها سببٌ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي عُذراً مِنَ اللهِ تعالى؛ وهو أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ الرسلَ، وأنزلَ الكُتُبَ، وبَيَّنَ الحُجَجَ، حتى لم يَبْقَ لأحدٍ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ ذلكَ، فهذا هو الإعذارُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ أي أنْذَرَهُمْ، ولم يَعْجَلْ في إهلاكِهِمْ، بل بَيَّنَ لهمْ ما يُتَّقَى، ويُجْتَنَبُ، وما يُنْدَبُ إليهِ، ويُؤْتَى. فهذا هو الإنذارُ على تأويلِ الرياحِ ما ذَكَرْنا أنها مُذَكِّراتٌ نِعَمَ اللهِ ونِقْمَتَهُ، فيكونُ في ذلكَ إيجابُ ذِكْرِ المُنْعِمِ والمُنْتَقِمِ، فيكونُ في ذلكَ إعذارٌ وإنذارٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) هذه قراءة ابن عامر وعبد الله بن مسعود، وللكلمة قراءات أخرى. أما قراءة الباقين فهي ﴿بُشْرًا﴾ انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٣٧١.
(٢) في الأصل وم: للهلاك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: السفرة.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ فهذا موضِعُ [جوابِ][1] القَسَمِ بما ذَكَرَ مِنَ المرسَلاتِ إلى آخِرِها.

ثم كانَ المَوعودُ، هو البعثُ، فمعناهُ: أنَّ الذي يُوعَدونَ بهِ مِنَ البعثِ لَكائنٌ على الجزاءِ والعِقابِ؛ فَتَأويلُهُ: إنَّ ما توعدونَ بِهِ مِنَ العذابِ لَنازِلٌ بكمْ. فتكونُ الآيةُ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يُؤمنونَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ فكأنهُ، واللهُ أعلَمُ، لمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ وقتِ وقوعِهِ: متى يكونُ؟ فَنَزَل: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ فأشارَ إلى الأحوالِ التي يومئذٍ لا إلى نفسِ الوقتِ. فقولُهُ: ﴿طُمِسَتْ﴾ أي ذهبَ ضَوءُها ونورُها، ثمَّ تَناثرَتْ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي انْشقَّتْ.

الآية ١٠ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي قُلِعَتْ مِنْ أصلِها، فَسُوِّيَتْ بالأرضِ.

وقالَ الزَّجّاجُ: نَسَفْتُ الشيءَ، إذا أخَذْتُهُ على سرعةٍ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ وقُرِئَ وُقِّتَتْ[3] وكذلكَ أصلُهُ، لكنَّ الهمزةَ أُبْدِلَتْ مكانَ الواوِ طَلَباً للتخفيفِ، وهو [مِنَ][4] التَّوقيتِ، أي جُمِعَتْ لوقتٍ، وقيلَ: أُحْضِرَتِ الرسلُ لِيَشْهَدَ كلُّ واحدٍ منهمْ على قومِهِ الذينَ بُعِثَ إليهِمْ كما قالَ اللهُ تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ/ ٦٢١ ـ أ/ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وقيلَ: ﴿أُقِّتَتْ﴾ أي وُعِدَ لهمْ بيانُ حقيقةِ ما إليهِ دَعَوا مِنْ وُقوعِ ما أوعَدوا قومَهُمُ الذينَ تَركوا إجابَتَهُمْ مِنَ العذابِ، وَوُعِدَ لهمُ الوصولُ إلى مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى، وأجابَ الرسُلَ في ما دَعَوهُمْ إليهِ مِنَ الثوابِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ فأُجِلَتْ، وأُقِّتَتْ واحدٌ لأنَّ في التَّأجيلِ توقيتاً، وفي التَّوقيتِ تَأجيلاً.

الآية ١٣ ثم بيَّنَ وقتَ حلولِ الأجلِ أجلِ العذابِ بقولِهِ ﷻ: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي لِيَوم الحُكْمِ والقَضاءِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] وقالَ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩].

فجائزٌ أنْ تكونَ الكلمةُ التي سَبَقَتْ منهُ، هو تأخيرُ العذابِ إلى يومِ البعثِ، فَجَعَلَ ذلكَ يومَ الجزاءِ، وذلكَ يكونُ بالمُعايَنةِ، وجَعَلَ هذهِ الدارَ دارَ مِحْنةٍ وابْتِلاءٍ؛ وذلكَ يكونُ بالحُجَجِ والبَيِّناتِ؛ فكأنهُ قالَ: لو لا ما سَبَقَ مِنْ كلمةِ اللهِ تعالى مِنْ تأخيرِ الجزاءِ والعذابِ، وإلّا كانَ العذابُ واقعاً في هذه الدنيا بالتكذيبِ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنَّ اللهَ تعالى أخَّرَ الجزاءَ والعِقابَ الذي يَجْمَعُ فيهِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، وقَدَّرَ في هذهِ الدنيا خَلْقَ هذا البَشَرِ على التَّتابُعِ إلى ذلكَ اليومِ، إذْ ذلكَ اليومُ، هو الذي يُوجَدُ فيهِ الجَمْعُ، واللهُ أعلَمُ.

وسُمِّيَ يومَ الفَصْلِ لهذا: أنهُ يومُ القَضاءِ والحُكْمِ، ولأنهُ اليومُ الذي يَظْهَرُ فيهِ مَثْوَى أهلِ الشَّقاءِ وأهلِ السعادةِ، ويَفْصِلُ بَيْنَ الأولياءِ والأعداءِ، ويَفْصِلُ بَيْنَ الخُصَماءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي لم تَكُنْ تَدْري، فَأَدْراكَ اللهُ تعالى. ذَكَرَ هذا إمّا على التَّعظيمِ والتَّهْويلِ لذلكَ اليومِ [وإمّا][5] على الامْتِنانِ على رسولِهِ ﷺ بإطلاعِهِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وفي هذا دليلٌ على أنَّ الوعيدَ المذكورَ، على الإطلاقِ مُنْصَرِفٌ إلى أهلِ التكذيبِ. ثم لم يَذْكُرْ ما لِلْمُصَدِّقينَ، وحقُّهُ أنْ يُقالَ: طُوبى لِلْمُصَدِّقينَ، لأنَّ حرفَ الوَيلِ يُتَكَلَّمُ بِهِ عندَ الوقوعِ في المَهْلَكَةِ، وحَرْفَ طُوبَى يُتَكَلَّمُ بهِ في مَوضِعِ السرورِ والغِبْطَةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٣٤. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أو.

فإذا ذُكِرَ في أهلِ التكذيبِ حَرْفُ الهلاكِ كانَ مَنْ كانَ بِخِلافِ حالِهِمْ مُسْتَوجِباً للسرورِ، ولكنهُ إنْ لم يُذْكَرْ ههنا فقد ذَكَرَهُ[1] في موضعٍ آخَرَ بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ و٨] وقالَ ﷻ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

الآيات ١٦ و١٧ و١٨ و١٩ [وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][2].

الآية ٢٠ وقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [تقديمٌ وتأخيرٌ][3] فجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِيَدْفَعَ عنهمُ الإشكالَ والرَّيبَ الذي اعْتَرَضَ لهمْ في أمرِ البعثِ، لأنَّ الأعجوبَةَ في الإعادةِ ليسَتْ بأكْثَرَ منَ الأعجوبةِ في الإنشاءِ والابْتِداءِ، فَذَكَرَ ابْتِداءَ خَلْقِهِمْ لِيَنْفِيَ عنهمُ الرَّيبَ في الإعادةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ خَلْقَهُمْ مِنَ الماءِ المَهينِ، وهو الماءُ المُسْتَعافُ المُسْتَقْذَرُ لِيَدَعُوا تَكَبُّرَهُمْ وتَجَبُّرَهُمْ على رسولِ اللهِ ﷺ ويَنْقادوا، ويُجيبوا إلى ما دعاهُمْ إليهِ.

وأخبَرَ أنهُ خَلَقَهُمْ في الظلماتِ التي لا يَنْتَهي إليها تدبيرُ البَشَرِ لِيَعْلَموا أنهُ قادرٌ على ما يَشاءُ، ويَعْرِفوا أنهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، فَحَمْلُهُمْ ذلكَ على المُراقبةِ وعلى التَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ.

الآيتان ٢١ و٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾][4] فالقَرارُ المَكينُ، هو الرَّحِمُ، جَعَلَهُ اللهُ تعالى قَراراً مكيناً يَتَمَكَّنُ فيه الماءُ المَهينُ، فَيَخْلُقُ منهُ عَلَقَةً ومُضْغَةً، ويُقِرُّهُ فيهِ إلى الوقتِ الذي قَدَّرَ اللهُ تعالى الخروجَ منهُ.

الآيتان ٢٣ و٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][5] أي: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي سَوَّينا على ما تُوجِبُ الحِكْمةُ على الوجوهِ التي في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي أَنْعِمْ بهِ مِنْ قادرٍ، فَيَخْرُجُ مَخْرَجَ الآلاءِ والنِّعَمِ، أي إنَّ الذي فَعَلَ بكمْ هذا، هو اللهُ تعالى، لم يَقْدِرْ أحدٌ أنْ يَفْعَلَ بكمْ هذا الفعلَ.

الآيتان ٢٥ و٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[6] [الآيتان: ٢٠ و٢١] فيكونُ في ذكرِ هذا كلِّهِ تَذْكيرُ الآلاءِ والنِّعَمِ وتَذْكيرُ القُدْرةِ والسلطانِ والحِكمةِ.

فوجهُ تذكيرِ النِّعَمِ أنَّ اللهَ تعالى في أوَّلِ ما أنشأَ [أنشأَ][7] نُطفَةً قَذِرةً، وجَعَلَ لها مكاناً يغيبُ عنْ أبصارِ الخَلْقِ، ولم يُفَوِّضْ تَدْبيرَها إلى البَشَرِ، وكذلكَ في الوقتِ الذي أنشأهُ عَلَقَةً ومُضغةً لم يُفَوِّضْ تدبيرَهُ إلى أحدٍ منْ خلائقِهِ، لأنهُ في ذلكَ الوقتِ بحيثُ يُسْتَعافُ، ويُسْتَقْذَرُ، ولا يُدْفَعُ عنهُ المَعْنَى الذي وقعتِ الاسْتِعافةُ والاسْتِقْذارُ بالتطهيرِ، فَجَعَلَ لهُ قراراً مَكيناً يَسْتَتِرُ بهِ عنْ أبصارِ الخَلائقِ.

ثم لمّا أنْشَأهُ نَسَمَةً، وسَوَّى خَلْقَهُ في بَطْنِ أمِّهِ، ألْقَى[8] في قلبِ أبويهِ الرَّأفَةَ والعطفَ ليقوما[9] بتربيتِهِ وإمساكِهِ إلى أنْ يَبْلُغَ مَبْلغاً، يقومُ بتدبيرِ نفسِهِ ومَصالِحِهِ.

ثم جَعَلَ لهُ بعدَ مَماتِهِ أرضاً تكفِتُهُ، وتَضُمُّهُ إلى نفسِها، فَيَسْتَتِرُ بها عنْ أبصارِ الناظرينَ؛ إذْ رَجَعَ بِمَوتِهِ إلى حالةٍ تُسْتَعافُ، وتُسْتَقْذَرُ، ولا تَقْبَلُ التطهيرَ.

فكانَ في ذِكْرِ أوَّلِ أحوالِهِ وإلى ما يَنْتَهي إليهِ تذكيرُ النِّعَمِ لِيَصِلَ إلى أداءِ شُكْرِهِ؛ إذْ جَعَلَ الرَّحِمَ قراراً لهُ في وقتِ كونِهِ نُطْفَةً وعَلَقَةً ومُضْغَةً لِما لا يَعْرِفُ الخلائقُ أنهُ بما يُغَذَّى حتى يَنْمُوَ، ويزيدَ، فرفعَ عنهمْ مَؤونةَ التربيةِ في ذلكَ الوقتِ.

---

(١) في الأصل وم: ذكرها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم: بعد: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم، و﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وألقى. (٩) في الأصل وم: ليقوموا.

ثم إذا صارَ بحيثُ يَعْرِفُ وجهَ غذائِهِ، وعَرَفَ الخَلْقُ المَعْنَى الذي يَعْمَلُ في دفعِ حاجتِهِ، وأخْرَجَهُ مِنْ بطنِ الأُمِّ، وفَوَّضَ تدبيرَهُ إلى أبويهِ.

فهذهِ أوجُهُ تذكيرِ القوةِ والسلطانِ والحِكْمةِ، وهي أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ النطفةَ التي أنشأَ منها النَّسْمةَ بحيثُ تَصْلُحُ أنْ يَنْشأَ منها عَلَقةٌ ومُضْغةٌ. ولو أرادَ الخَلْقُ أنْ يَعْرِفوا المَعْنَى الذي لهُ صَلَحَتِ النطفةُ بأنْ تَنْشأَ منها العَلَقةُ والمُضْغَةُ والعظامُ واللحمُ، ثم يكونُ منها نَسْمةٌ سَوِيَّةٌ، لم يَصِلوا إلى مَعْرِفتِهِ، وإذا تَفَكَّروا في هذا عَلِموا أنَّ حكمتَهُ، ليسَتْ على ما يَنْتَهي علمُ البشرِ، و[قُوَّتَهُ لا][1] تَقْصُرُ على الحدِّ الذي تَنْتَهي إليهِ قِوى البشرِ.

والذي كانَ يَحْمِلُهُمْ على إنكارِ البعثِ بعدَ الإماتةِ تَقْديرُهُمُ الأمورَ على قِوَى أنفسِهِمْ وتَسْوِيَتُها بعقولِهِمْ. فإذا تَدَبَّروا في ابْتِداءِ أحوالِهِمْ، ورَأَوا مِنْ لطائفِ التدبيرِ وعجائبِ الحكمةِ عَلِموا أنَّ الأمرَ ليسَ كما قالوا، وقَدَّروا، فَيَدْعُوهُمْ ذلكَ التصديقُ بكلِّ ما يأتي بهِ الرسُلُ، ويُخْبِرُهُمْ مِنْ أمرِ البعثِ وغيرِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُهُمُ ابْتِداءَ أحوالِهِمْ ونُشوءَهُمْ وإلى ما يَصيرونَ إليهِ [لا يَدْعُهُمْ إلى][2] التَّكَبُّرِ على دينِ اللهِ تعالى، فَيَنْقادوا لهُ بالإجابةِ، ولا يَسْتكبِروا على أحدٍ مِنْ خلائقِهِ، لأنهمْ في ابْتِداءِ أحوالِهِمْ كانوا نُطَفاً[3] يَسْتَقْذِرُها الخلائقُ ثم علقةً ومُضْغَةً، ويَصيرونَ في مُنْتهى الأمرِ جِيَفاً[4] قَذِرةً.

ومَنْ كانَ هذا وصفُهُ، فأنّى يَليقُ بهِ التَّكَبُّرُ على أحدٍ؟

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ تَكْفِتُهُمْ أي تَضُمُّهُمْ، وتَجْمَعُهُمْ، في حياتِهِمْ وبعدَ مَماتِهِمْ. فالانْضِمامُ إليها في حالِ حياتِهِمْ ما جَعَلَ لهمْ مِنَ المساكِنِ فيها والبيوتِ، وجَعَلَ لهمْ بعدَ مَماتِهِمْ مَقابرَ يُدْفَنونَ فيها، أو جَعَلَ مُتَقَلَّبَهُمْ ومثواهُمْ في ظهورِها في حياتِهِم، وجَعَلَ بطْنَها مَأْوىً / ٦٢١ ـ ب/ لهمْ بعدَ وفاتِهِمْ، وجَعَلَها[5] بساطاً لهمْ ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠] وقَدَّرَ لهمْ فيها أوقاتَهُمْ، فَذَكَّرَهُمْ وجوهَ النِّعَمِ في خَلْقِهِ الأرضَ لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ فالرواسي، هي الجبالُ الثابتاتُ في الأرضِ، أثْبَتَها في الأرضِ، لِيَقِرَّ بها، ولا تَميدَ بأهلِها؛ إذْ لو مادَتْ لم يَصِلْ أهلُها إلى ما قَدَّرَ لهمْ مِنَ المَنافعِ، فَذَكَّرَهُمْ بِذِكْرِهِ الجبالَ الرواسِيَ عظيمَ نِعَمِهِ عليهمْ لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ. والشامخاتُ هي الطِّوالُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][6] ولولا إنزالُهُ عليكُمْ لم تكونوا تَصِلونَ إليهِ بِقِواكُمْ وحِيَلِكُمْ.

ثم أنْزَلَهُ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ، ولم يُخْرِجْهُ[7] مِنْ حدِّ العذوبةِ، ولا حَلَّ بهِ التَّغْييرُ بِمُماسَّتِهِ الأرضَ [واخْتِلاطِهِ بها][8]. وهذا مُنْصَرِفٌ إلى الشرابِ. ثم لِغَيْرِ العَذْبِ مِنَ المَنافعِ ما لِلْعَذْبِ [لا إلى][9] الشرابِ خاصَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾[10] [الآية: ١٦] وهمْ قومُ نوحٍ وقومُ عادٍ وثمودَ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [الآية: ١٧] قومَ فرعونَ وقومَ لوطٍ وغيرَهُمْ ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الآيتان: ١٨ و١٩] قيلَ: مُجرمو[11] هذهِ الأمّةِ. ثم اخْتُلِفَ في وقتِ فعلِهِ:

فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنّ هذا الإهلاكَ في الآخِرةِ لقولِهِ ﷻ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]. ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهُ [ما][12] فَعَلَ بهمْ يومَ بدرٍ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ فِعْلَهُ بِمُجْرِمي أُمةِ محمدٍ ﷺ ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرةَ شَهرَينِ» (الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦) أَلْقى اللهُ تعالى في قلوبِهِمُ الرعبَ حتى تَرَكوا الأسبابَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ للمُحاربةِ معَ كَثْرةِ شوكَتِهِمْ وقِلّةِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: ولا قوته. (٢) في الأصل وم: ليدعوا. (٣) في الأصل وم: نطفة. (٤) في الأصل وم: جيفه. (٥) في الأصل وم: وجعل.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يخرج. (٨) في الأصل وم: واختلطت به. (٩) في الأصل وم: إلا. (١٠) انظر إلى ما ذكر في مطلع تأويل الآية ٢٠. (١١) في الأصل وم: مجرمي. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

فهذا فعلُهُ بالمُجْرِمينَ، وفي إلقاءِ الرعبِ ألطفُ آياتِ رسالتِهِ وأَبْيَنُ حُجَّةٍ عليها، إذْ كانَ فيه ما بَيَّنَ لهمْ أنَّ الذي أَقْعَدَهُمْ عنِ القتالِ، وقَذَفَ في قُلوبِهِمُ الرُّعبَ، أمْرٌ سماوِيٌّ، لا غيرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى، وهمْ كانوا يُكَذِّبونَ بالبعثِ وبالعذابِ، لكنْ يُقالُ لهمْ هذا بعدَ البعثِ، فهو مُنْصَرِفٌ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ العذابِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ ذكرَ أنَّ ذلكَ الظِّلَّ دخانٌ يَخْرُجُ منْ جهنَّمَ، فَيَظنونَ أنهُ ظِلٌّ فَيَسْتَظِلّونَ إليهِ رجاءَ أنْ يَنْتَفِعوا بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ أصلُهُ واحداً، ثم تَتَشعبُ منهُ شُعبٌ ثَلاثٌ.

[والثاني][1]: جائزٌ أنْ يكونَ في الأصلِ [ذا شُعَبٍ][2] ثلاثٍ، تأتي كلُّ شُعْبةٍ مِنْ ناحيةٍ، ثم تَجْتَمِعُ، فتصيرُ شيئاً واحداً.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بهِ كما[3] يُنْتَفَعُ بالظِّلِّ في الدنيا، لأنَّ ظلَّ الدنيا يُهْرَبُ إليهِ لِدَفعِ الحَرِّ ولِيُسْكَنَ فيهِ، لأنَّ ظلَّ البيتِ ممّا يُسْكَنُ فيهِ، وظلَّ الشجرِ والحيطانِ لِيُؤْوَى إليهِ، ولِيُتَرَوَّحَ بهِ، وذلكَ الظِّلُّ لا يُغْني عنهمْ في الآخِرةِ في دفعِ الحرارةِ ولا في غيرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونوا هربوا إلى ذلكَ الظِّلِّ مِنَ اللَّهَبِ، فَيُخْبِرُ أنَّ سِتْرَها لا يَمْنَعُ اللَّهَبَ عنْ أنْ يَمَسَّهُمْ إذا انْضَمّوا إلى الظِّلِّ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ ومَفتوحَةَ الصادِ[4]؛ فالقراءةُ المعروفةُ: قيلَ: يرادُ بالقَصْرِ المعروفِ المبنيُّ باللَّبِنِ والخَشَبِ، وقيلَ: يُرادُ بها قصورُ أهلِ الباديةِ، وهي الخِيامُ.

ومَنْ قرأَ بالنصبِ اختَلَفوا في تأويلِهِ: عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ قالَ][5] كالقَصَرِ قَصَرِ النَّخْلِ، والواحدةُ قَصَرةٌ؛ وذلكَ أنَّ النخلةَ تُقْطَعُ قَدْرَ ثلاثةِ أذرُعٍ، وأقْصَرَ وأطْوَلَ يَسْتَوقِدونَ بها في الشتاءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو أصلُ النخلِ المقطوعِ المُنْقَعِرِ مِنَ الأرضِ، وقيلَ: هو أعناقُ النخيلِ، وقيلَ: القَصَرَةُ اسْمُ الخَشَبَةِ التي تُقْطَعُ عليها اللحومُ، وتُكْسَرُ العظامُ، تكونُ لِلْقَصّابينَ.

وعنِ الحسنِ أنهُ قَرَأَ مُخَفَّفَةً كالقَصْرِ غَيرَ أنهُ: فَسَّرَها: أيِ الجَزْلِ منَ الخشبِ، الواحدةُ قَصْرَةٌ كقولِكَ: تَمْرَةٌ وتَمْرٌ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ إخبارٌ عنْ عِظَمِ شَرَرِها وقَدْرِها خِلافاً لما عليهِ الشَّرَرُ في الدنيا، لا يأخُذُ مكاناً، بل يُتَبَيَّنُ، ثم يَنْطَفِئُ، ثم جائزٌ أنْ يكونَ بعضُ شَرَرِها في العِظَمِ كالخيامِ وبعضُها كالقصورِ وبعضُها كأصولِ الأشجارِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قُرِئَ جُمالَةٌ ﴿صُفْرٌ﴾ جماعةُ الجَمَلِ، وقُرِئَ: جِمالاتٌ[6] جمعُ جِمالةٍ، والصُّفْرُ قيلَ: السُّودُ، وإنما سُمِّيَتِ السُّودُ صُفْراً لأنَّ السُّودَ، تَعلوها الصُّفْرَةُ في الإبلِ، فَتُسَمّى بها. وبذلكَ[7] قولُ القائلِ:

تِلْكَ خَيْلي مِنهُ، وتِلْكَ رِكابي ... هُنَّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيبِ[8]

شَبَّهَ الشَّرَرَ بالقَصْرِ، والقَصَرَ بالجُمالةِ، وهي الإبلُ السُّودُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: لا. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/٣٨. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/٣٩. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) قائل هذا البيت الأعشى. انظر ديوانه ص ٢٩.

وقُرِئَ جُمالاتٌ[1] بِرَفعِ الجيمِ، وهي حِبالُ السفنِ، تُمَدُّ، ثم إذا ضُمَّتْ تكونُ كأوساطِ الرجالِ، فَشَبَّهَ [الشَّرَرَ][2] بالحِبالِ المَمْدودةِ الصُّفرِ عندَ الاِمْتِدادِ، وعندَ الاِنْضِمامِ كأوساطِ الرجالِ، فتكونُ كالقَصْرِ.

الآيتان ٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾][3] ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ معناهُ: أنهمْ لا يَنْطِقونَ نُطْقاً يَنْتَفِعونَ بهِ كما لم يكونوا يَنْطِقونَ في الدنيا كلاماً يُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ تعالى، فعامَلَهُمُ [اللهُ تعالى في الآخرةِ حَسْبَ معامَلَتِهِمْ إيّاهُ][4] وهو كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] وقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: لا يَنْطِقونَ في بعضِ المواضِعِ، ويَنْطِقونَ في بعضِها. ويَحْتَمِلُ أي لا يَنْطِقونَ بِحُجَّةٍ، بل يُكَذِّبونَ كقولِهِ: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الآيتان ٣٦ و٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾][5] ليسَ أنهُ لا يَقْبَلُ العذرَ منهمْ إذا أتَوا بهِ، ولكنَّ مَعْناهُ: أنهُ لا عُذْرَ [لهمْ][6] لِيُقْبَلَ منهمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] مَعْناهُ: أنهُ لا شفيعَ لهمْ، لا أنهمْ إذا أتَوا بِشُفَعاءَ لم يَشْفَعْ لهمْ، وإذا لم يكُنْ عذْرٌ [لهمْ فهمْ][7] لا يَعْتَذِرونَ بعُذرٍ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ ففيهِ إخبارٌ أنهُ لا يَخُصُّ بالبعثِ فريقاً دونَ فريقٍ، بل يَجْمَعُ الخلائقَ كلَّهُمْ، ثم يَفْصِلُ بينَهُمْ، فَيُنْزِلُ كُلّاً مَنْزِلَتَهُ التي اسْتَوجَبَها ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]

وقيلَ: هو يومُ الحُكْمِ، فجائزٌ أنْ يكونَ سُمِّيَ بهِ لِما يَخْتَصِمُ فيهِ أهلُ المذاهِبِ، فَيَحْكُمُ فيه بينَ المُحِقِّ وبينَ الذي كانَ على الباطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٩ و٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ يُقالُ لهمْ هذا في الآخِرَةِ: أنْ كيدوا حتى تَنْجوا بأنفسِكُمْ ممّا نَزَلَ بكُمْ، أي إنْ كانتْ لكمْ حِيَلٌ[8] تَحْتالونَ بها، فافعلوا، وهو حَرْفُ التقريعِ والتوبيخِ [يَدُلُّ][9] على نَفْيِ نَفاذِ المَكْرِ والحيلةِ، ليسَ ما عليهِ أمرُ الدنيا أنهمْ يَحْتالونَ، ويَمْكُرونَ بأنواعِ الخِداعِ والتَّمْويهاتِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ قيلَ لكمْ هذا في الدنيا [حينَ][10] أُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُعارِضَهُمْ بهذا، فيقولَ لهمْ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ بِقَتْلي[11] أو إخراجي منْ بينِ أظهُرِكُمْ كما قالَ هودٌ ﷺ: ﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

فَعَجزُهُمْ عنْ ذلكَ يُظْهِرُ لهمْ [صدقَ][12] رسالتِهِ وحُجَّةَ نُبُوَّتِهِ؛ إذْ حرفُ الإغراءِ مِنْ غيرِ أعوانٍ كانوا لهُ ولا جنودٍ مُجَنَّدَةٍ، بل كانَ وحيداً فريداً بينَ ظَهْرانَي قومٍ مُشرِكينَ، ليسَتْ هِمَّتُهُمْ إلّا إطفاءَ هذا النورِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ فالمُتَّقونَ همُ الذينَ اتَّقَوا عذابَ اللهِ تعالى، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] وقالَ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فهذا هو التَّقْوى.

ثم إنَّ أهلَ التوحيدِ أقَرُّوا بالعذابِ، فاجْتَهَدوا في اتِّقائِهِ، فقيلَ لهمْ: انْطَلِقوا إلى ظلالٍ وعيونٍ، وأهلَ النارِ كانوا مُكَذِّبينَ بالعذابِ / ٦٢٢ ـ أ/ فقيلَ لهمْ: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الآية: ٢٩] منَ العذابِ.

ثم أخْبَرَنا بالوجهِ الذي يَقَعُ بهِ الاِتِّقاءُ، فقالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وأمَرَنا بالاِنْتِصابِ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/٣٩. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: الله تعالى، في م: في الآخرة حسب معاملتهم الله تعالى. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: لهم، في م: فهم. (٨) في الأصل وم: حيل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

لِمحاربَتِهِ، ثم علَّمنا وجهَ المُحاربةِ بقولِهِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقولِهِ[1]: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقولِهِ[2]: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فألزَمَنا الفزَعَ إليهِ، وبيَّنَ أنّا لا نَقْوَى على [مُحاربةِ الشيطانِ][3] إلّا بالابْتِهالِ إليهِ والفزَعِ.

ثم يَحتمِلُ أنْ يكونَ الاتِّقاءُ ههنا مُنصَرِفاً إلى التَّصديقِ خاصةً لأنهُ ذَكَرَ الاتِّقاءَ ههنا مُقابلَ التكذيبِ في الأوَّلينَ. وجائزٌ أنْ يكونَ مُنصرِفاً إلى المُصدِّقينَ بالأقوالِ والمُوقِنينَ بالأعمالِ؛ فالمُتَّقي هو الذي اتَّقى إساءةَ صُحْبةِ نِعَمِ اللهِ تعالى، فوقاهُ اللهُ تعالى شَرَّ يومِ القيامةِ مُجازاةً لهُ، والمُحْسِنُ هو الذي أحْسَنَ صُحبةَ نِعَمِهِ، فأحسَنَ اللهُ مُنقَلَبَهُ، وأحلَّهُ بدارِ كرامتِهِ في ظلالٍ وعيونٍ وفواكِهَ، و المُتَّقي هو الذي وَقَى نفسَهُ عنِ الهلاكِ، فَوَقاهُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ، والمُحْسِنُ هو الذي أحْسَنَ إلى نفسِهِ، وهو الذي استَعْمَلَها في طاعةِ اللهِ تعالى [فأحسَنَ][4] إليهِ بما أنْعَمَ عليهِ مِنَ الظِّلالِ والعُيونِ.

ثم أخبَرَ أنهمْ في ظِلالٍ، لأنَّ الظلالَ ممّا تَرْغبُ إليهِ الأنفسُ في الدنيا لأنها تَدْفعُ عنهمْ أذى الحَرِّ والبردِ والمَطَرِ، وهي لا تَحولُ أيضاً [بينَ][5] أذى الرياحِ وغيرَ ذلكَ، وظِلالُ الأشجارِ والحِيطانِ تدفعُ أذى الحَرِّ، وظِلالُ البُنيانِ تَدفعُ أذى الحَرِّ والبردِ والمطرِ، وهي لا تَحولُ أيضاً بينَ المرءِ والأشياءِ عنْ أنْ يُدرِكَ حقائِقَها، فَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ في الظلالِ، ووقعَتْ إليها الرغبةُ في الدنيا، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ وقالَ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣٠ و٣١].

ثم الأنفسُ إذا أوَتْ إلى الظلالِ اشْتَهَتْ أنْ تَتَمَتَّعَ بهِ الأبْصارُ، وأعظمُ ما تَتَلَذَّذُ بهِ الأبصارُ أنْ يكونَ نَظَرُها إلى المياهِ الجاريةِ، فأخبرَ أنهمْ في ظِلالٍ وعيونٍ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي فواكهَ أيضاً. فأخبَرَ أنَّ لهمْ فيها ما تَتَلَذَّذُ بهِ الأبصارُ، وتَتَمَتَّعُ بهِ، وفيها ما تَشْتَهي أنفسُهُمْ، وفيها ما يَدْفَعُ عنْ بعضِهِمُ الأذى.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ لا تَبِعَةَ لكمْ مِنْ جهةِ السؤالِ، ولا تَنْغيصَ، أي لا يؤذيهِمْ ما يأكلونَ، ويَشْرَبونَ؛ فالمَعْنَى هو الذي لا تَبِعَةَ على صاحبِهِ، ولا تَنْغيصَ فيهِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فَسَمَّى المُتَّقي مُحْسِناً لأنهُ بَدَأَ بِذِكْرِ المُتَّقينَ، وذَكَرَ ما أعَدَّ لهمْ، ثم أخبرَ أنهمْ جُزُوا ذلكَ بإحسانِهِمْ، فيكونُ فيهِ دلالةٌ على أنَّ الاتِّقاءَ متى ذُكِرَ على الانْفِرادِ يَقْتضي إتيانَ المحاسِنِ والاتِّقاءَ عنِ المهالِكِ.

الآيات ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ ثم رَجَعَ إلى المُكذِّبينَ، فقالَ: [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][6] ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][7] فهذا بالظاهرِ بالأكلِ والشُّرْبِ، وهو في الحقيقةِ وعيدٌ، وهو أنَّ تَمَتُّعَكُمْ بالأكلِ وغيرِهِ الذي يَمْنَعُكُمْ عنِ النظرِ في الآياتِ قليلٌ؛ عَنْ سريعٍ تُفارِقونَهُ، وتَصيرونَ إلى عذابِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المُجرمَ، هو الوَثّابُ في المَعاصي.

الآيتان ٤٨ و٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][8] أي إذا قالَ لهمُ الرسولُ ﷺ ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ أي اخْضَعوا، واستَسْلِموا للهِ تعالى، امْتَنَعوا عنْ ذلكَ اسْتِكباراً منهمْ على الرسلِ وإعراضاً عنِ النَّظَرِ في حُجَجِ اللهِ تعالى.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فَبِأيِّ حديثٍ يُصَدِّقونَ بعدَ حديثِ اللهِ تعالى الذي لا حديثَ أصْدَقُ منهُ وأقْوَى في الدلالةِ؟.

(١) في الأصل وم: وقال الله. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: محاربته. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على تَسْفيهِ عقولِهِمْ وأحلامِهِمْ، وهو أنهمْ يَمْتَنِعونَ عنِ التَّصديقِ بحديثِ اللهِ تعالى، إذْ لا حديثَ أصْدَقُ منهُ، ثم يُصَدِّقونَ الأحاديثَ الكاذبةَ والأباطيلَ المُزَخْرَفَةَ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ [وصلّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][1].

(١) من م، ساقطة من الأصل.

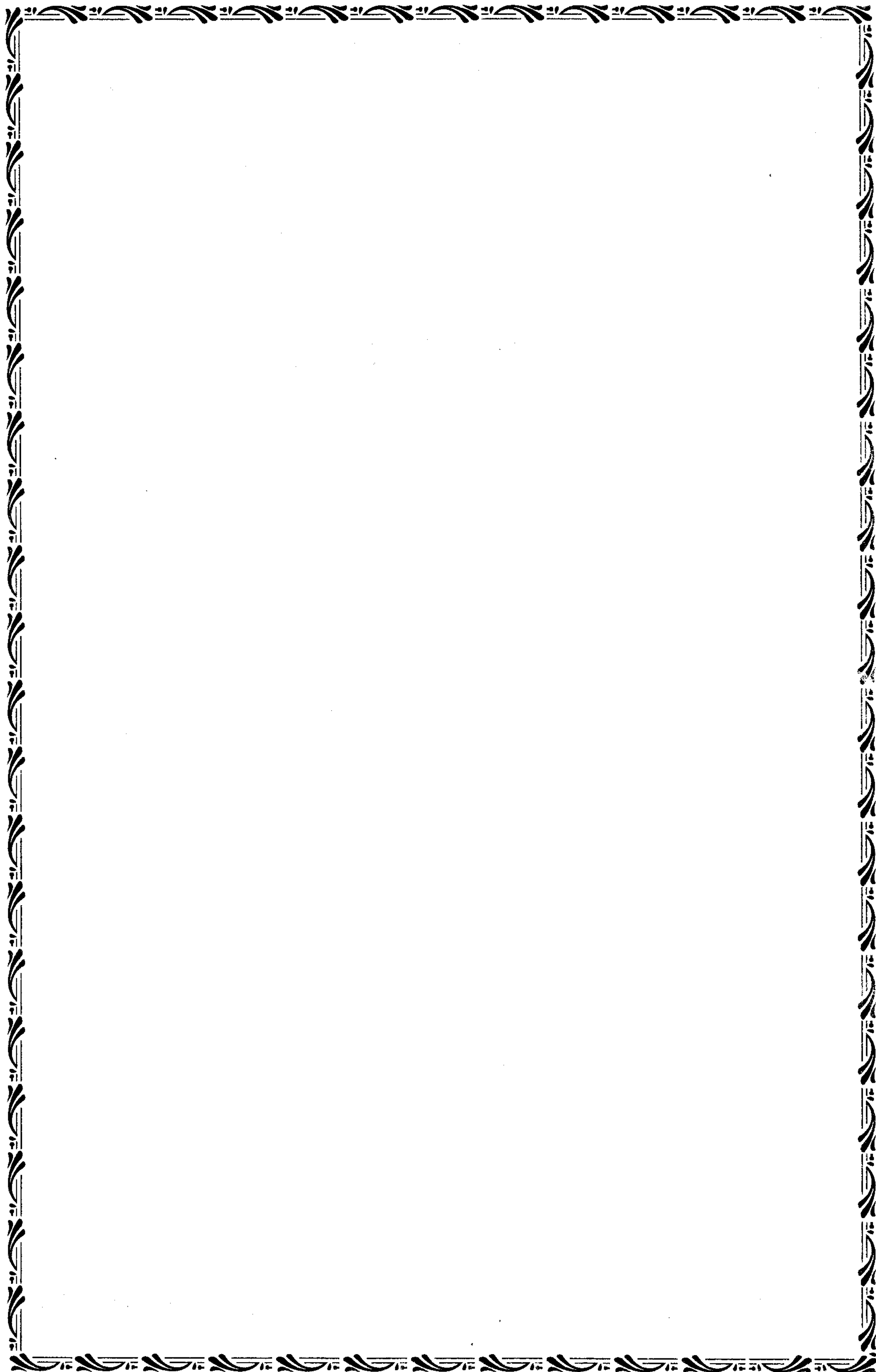

سورة النبإ

[وهي مكية][١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾؟ اختُلِفَ في التّساؤلِ:

فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ التّساؤلَ كانَ عنْ أمرِ النّبيِّ ﷺ سألوا عنْ حالِهِ: أهو نَبيٌّ أمْ ليسَ بِنَبيٍّ؟ ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ التّساؤلَ كانَ عنِ القرآنِ أنهُ منَ اللهِ تعالى؟ ويَتساءَلونَ في ما بينَهُمْ: هل تَقْدِرونَ على إتيانِ مثلِهِ أم لا؟ وجائزٌ أنْ يكونَ التّساؤلُ عنْ أمرِ البعثِ وعنِ التوحيدِ كما قالَ اللهُ تعالى خَبَراً عنهمْ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟ [ص: ٥].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ هذا السؤالُ منْ أهلِ الكُفرِ؛ سألَ بعضُهُمْ بعضاً، واختَلَفوا فيهِ، ولم يَحْصُلوا منِ اختِلافِهِمْ على إصابةِ الحقِّ.

الآية ٣ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾][٢].

الآيتان ٤ و٥ ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾][٣]؟ ولو كانَ فيهِمْ مُصَدِّقٌ لكانَ وَقَعَ لهُ العلمُ في ذلكَ الوقتِ، فلا يَحتاجُ إلى أنْ يُعَلِّمَهُ[٤]، ويُبَيِّنَهُ.

فإنْ كانَ السؤالُ عنْ حالِ الرسولِ ﷺ فوجهُ اختِلافِهِمْ أنَّ بعضَهُمْ يَزْعُمُ أنهُ شاعرٌ، وقالَ بَعضُهُمْ: هو ساحرٌ، وقالَ بَعضُهُمْ: مُفترٍ كَذّابٌ، وادَّعى بعضُهُمْ أنهُ مجنونٌ.

وجائزٌ[٥] أنْ يكونَ السؤالُ مِنَ الكَفَرَةِ للمؤمنينَ، وإنْ كانَ على هذا ما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ؛ فهمْ[٦] بينَ مُصَدِّقٍ ومُكَذِّبٍ؛ يُرادُ بالمُكَذِّبِ الذينَ صَدّوا عنهمُ السؤالَ، ويُرادُ بالمُصَدِّقِ أهلُ الإسلامِ الذينَ سُئِلوا.

ثم لا يجوزُ لأحدٍ تحصيلُ السؤالِ على جهةٍ واحدةٍ والقطعُ عليهِ بالتّوفيقِ المُوجِبِ للعِلْمِ.

الآية ٦ ثم في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ جوابُ عمّا سَبَقَ مِنَ المسائلِ: فإذا كانَ السائلُ عنْ أمرِ الرسالةِ فحقُّهُ أنْ يُحْمَلَ على جهةٍ غيرِ الجهةِ التي يُحْمَلُ[٧] عليها إذا صَرَفَ التّساؤلَ إلى أمرِ البعثِ وإلى أمرِ التوحيدِ أو القرآنِ.

والأصلُ فيه أنَّ اللهَ تعالى بما ذَكَرَ مِنْ مِهادِ الأرضِ وخَلْقِ الأزواجِ ذَكَّرَ عبادَهُ عظيمَ نِعَمِهِ وكَثْرَةَ إحسانِهِ إليهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشُّكرَ. وإذا وَقَعَتْ لهمُ الحاجةُ إلى الشُّكرِ احتاجوا إلى مَنْ يُعَرِّفُهُمْ بما بهِ يُشْكَرُ اللهُ تعالى، وكيفَ يُؤَدّى شُكْرُهُ، إذْ لا يُعرَفُ في كلِّ نعمةٍ وَجْهُ شُكْرِها إلّا بالتوفيقِ، فَيَضْطَرُّهُمْ ذلكَ إلى مَنْ يُبَيِّنُ لهمْ، واحتاجوا إلى مَنْ يُعَرِّفُهُمُ الوَعْدَ والوَعيدَ مَحَلَّ الشُّكرِ[٨] ومَحَلَّ الكُفرِ[٩] ومَحَلَّ الولايةِ[١٠] ومَحَلَّ المُعاداةِ[١١]؛ إذ وَجَدوا هذه الدنيا تَمُنُّ على الأولياءِ وعلى الأعداءِ على حالةٍ واحدةٍ، فاحتاجوا إلى مَنْ يُعَرِّفُهُمُ الوَعْدَ والوَعيدَ، وأوجَبَ ما ذَكَرْنا القولَ بالبعثِ لِيُظْهِرَ بهِ منزلةَ الشَّكورِ والكَفورِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يعلم. (٥) في الأصل وم: وحال. (٦) في الأصل وم: فهو. (٧) في الأصل وم: يحتمل. (٨) في الأصل وم: الشكور. (٩) في الأصل وم: الكفور. (١٠) في الأصل وم: الوالي. (١١) في الأصل وم: المعادي.

وفي ذِكرِ هذه النِّعَمِ أيضاً دلالةُ الوَحْدانيَّةِ لأنَّ الله تعالى مَهَدَ الأرضَ، فَجَعَلَها مُتَمَتَّعاً للخَلْقِ، وأخرَجَ منها ما يَتَعيَّشونَ بهِ، وجَعَلَ /٦٢٢ ـ ب/ سَبَبَ الإخراجِ ما يُنَزِّلُ مِنَ السماءِ مِنَ القَطْرِ، فَجَعَلَ مَنافعَ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافعِ السماءِ.

فلو لم يَكُنْ مُدَبِّرُهما واحداً لانْقَطَعَ الاِتِّصالُ، ثم لو أرادَ أحدٌ أنْ يَعْرِفَ المَعْنَى الذي يَقَعُ لهُ إحياءُ الأشياءِ بالماءِ لم يَصِلْ إليهِ، ولو أرادوا أنْ يَتَدارَكوا الوجْهَ الذي صَلَحَ هذا الطعامُ أنْ يكونَ سبباً لدفْعِ الحاجاتِ وقَطْعِ الشَّهَواتِ لم يَقِفوا عليهِ، فيكونُ في ما ذَكَرْنا إزالةُ الشُّبَهِ والشُّكوكِ التي تَعْتَرِضُ لهمْ في الأمورِ الخارجةِ عنْ تدبيرِهِمْ وقِواهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ [أنَّ][1] هذا وَعيدٌ، وقد ذَكَرْنا أنَّ حرفَ الوعيدِ ممّا يُكَرِّرُهُ العربُ في ما بَيْنَهُمْ للتأكيدِ [كما قالَ][2]: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] وقالَ:[3] ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤و٣٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ على عِلْمِ دلالةٍ، وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ على عِلْمِ المُشاهدةِ والعِيانِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي بِساطاً ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ذَكَرَ أنَّ الأرضَ لمّا خُلِقَتْ ما بَدَتْ لأهلِها، فأرساها اللهُ تعالى بالجبالِ لُطفاً منهُ، لا أنْ جَعَلَها سَبَباً للإرساءِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾؟ [طه: ١٠٥إلى١٠٧] فقد جَعَلْناها[4] في ذلكَ الوقتِ مُسْتَمْسكةً ثابتةً مُسْتَقِرّةً بدونِ الجبالِ، فَثَبَتَ أنها ليسَتْ بسببِ الإرساءِ في التحقيقِ. ويكونُ فيهِ تعريفُ الخَلْقِ وجوهَ الحِيَلِ في الأمورِ إذا تَعَذَّرَ عليهمُ الوصولُ إليها.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قيلَ: ألواناً، فيكونُ في هذا إبطالُ [لِحُكْمِ تقولُهُ القائفةُ][5] لأنهمْ يَسْتَدِلّونَ بالتَّشابهِ في الألوانِ، ويَحْكُمونَ بها. ولو كانَ الأمرُ على ما قَدَّروا لارْتَفَعَ الاِخْتِلافُ في الألوانِ، فيكونُ الخَلْقُ كُلُّهُمْ على لونٍ واحدٍ.

وقيلَ: ﴿أَزْوَاجًا﴾ فِرَقاً شَتَّى لِيَعْرِفَ كلٌّ منهمْ عُنْصُرَهُ ومُنْتَهَى أصلِهِ. وقيلَ: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي جَعَلَ لكلِّ أحدٍ شَكْلاً مِنْ جنسِهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قيلَ: السُّباتُ التَّمَدُّدُ، وقيلَ: السُّباتُ النومُ الذي لا حركةَ فيهِ. ولهذا قيلَ للذي شبيهٌ بالمَيِّتِ: مَسْبوتٌ، وقيلَ: السُّباتُ الراحةُ، ولذلكَ سُمِّيَ [يومُ السَّبتِ سَبْتاً][6] لأنهُ يومُ راحةٍ وتركِ العملِ في بَني إسرائيلَ.

ثم في إنشاءِ النومِ دليلُ سُلْطانِهِ ودخولِ الخَلْقِ بأجمعِهِمْ تحتَ تدبيرِهِ؛ إذْ لا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ الاِحْتِرازُ مِنَ النومِ حتى لا يَعْتَرِيَهُ، بل يَقْهَرُ الجبابرةَ، فَيُذِلُّهُمْ، ولا يُمْكِنُهُمُ الخَلاصُ منهُ بالحِيَلِ والأسبابِ.

ثم النومُ مِنْ أثْقَلِ الأحمالِ وأشَدِّها، ثم إذا زايَلَ الإنسانَ، وعادَ المرءُ إلى حالِ اليَقْظةِ، وجَدَ في نفسِهِ خِفَّةً وراحةً، ومِنْ شأنِ هذا الإنسانِ أنهُ إذا حَمَلَ الحِمْلَ الثقيلَ مَسَّهُ مِنْ ذلكَ فُتورٌ وكَلالٌ، لا يَزولُ عنهُ ساعةَ ما يَضَعُ الحِمْلَ عنْ نفسِهِ، بل يَبْقَى ذلكَ الكَلالُ فيهِ إلى مدةٍ. فَمَنْ تَدَبَّرَ في أمرِ النومِ دلَّهُ على عِظَمِ شأنِهِ وعجائبِ تدبيرِهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ فهذا اللِّباسُ لِباسُ الأعيُنِ، لا غيرُ. ألا تَرَى أنهُ لا يُسْتَغْنَى بِلِباسِ الليلِ عمّا أخَذَ عليهِ مِنَ اللِّباسِ للصلاةِ؟ ولا يَعْمَلُ لِباسُ الليلِ عمّا عَمِلَ اللِّباسُ المعروفُ في دَفْعِ أذَى البَرْدِ والحَرِّ؟

وقالَ بَعْضُهُمْ: اللِّباسُ السَّكَنُ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فكانَ الذي حَمَلَهُمْ على هذا التأويلِ، هو أنَّ تَمامَ السَّكَنِ والراحةِ يقعُ بالنومِ، فَصَرَفوهُ إليهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: كما يقال. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: جعلنا. (٥) في الأصل وم: الحكم يقوله القائف. (٦) في الأصل وم: السبت.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي يُتَعَيَّشُ فيهِ لا أنْ يكونَ نفسُهُ مَعاشاً كما سَمّاهُ ﴿مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧و...] لِما يُبْصَرُ فيهِ لا أنهُ في نفسِهِ مُبْصِرٌ[1].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي السمواتِ، فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيُنَبِّهَهُمْ إلى قدرتِهِ وسلطانِهِ، فيَعرِفوا أنهُ قالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧و...] قادرٌ على ما يَشاءُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ فكانَ السراجُ، هو الشمسُ ههنا، جَعَلَها تَتَوَهَّجُ، وتَتَلألأُ ما بينَ السماءِ والأرضِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ المُعْصِراتِ هي السحابُ التي أُنشِئَ فيها القَطْرُ؛ يقالُ للجاريةِ التي دنَتْ حَيضَتُها: مُعْصِرَةٌ، فَشَبَّهَ السحابَ بِمَعاصِرِ الجواري، وقيلَ: سُمِّيَ السحابُ مُعْصِراً لأنهُ يَعْصِرُ المَطَرَ، وقيلَ: ذواتُ الأعاصيرِ، يعني الرياحَ كقولِهِ: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أي ريحٌ.

وعنِ الحَسَنِ: هي السمواتُ، وقالَ الزَّجّاجُ: المُعْصِرُ، هو الذي قد أتى وقتُ إرسالِ القَطْرِ منهُ كما يُقالُ: مُجْزِرٌ لِما أتى وقتُ جِزارِهِ[2].

ثم في إنزالِ الماءِ مِنَ المُعْصِراتِ تَذْكيرُ النِّعَمِ والقُدْرةِ والحِكمةِ، وكلُّ وجهٍ منْ هذهِ الأوجُهِ الثلاثةِ يوجِبُ القولَ بالبعثِ.

فأمّا وجهُ تَذْكيرِ النِّعَمِ، وهو أنَّ القَطْرَ ينزلُ منَ السماءِ مُتتابِعاً، ثم اللهُ تعالى بلطفِهِ، يمنَعُ اتِّصالَ بعضٍ ببعضٍ والتِصاقَهُ، ويُرسِلُ كلَّ قطرةٍ إلى الأرضِ بِحِيالِها، ويُنْزِلُ بعضَها على إثْرِ بعضٍ، لِيُنْتَفَعَ بهِ[3]. ولوِ التَصَقَ بعضُها، واتَّصَلَ لم يَقُمْ لها شيءٌ، وكانَتْ تصيرُ سبباً للتعذيبِ والإهلاكِ. فَبِفَضلِهِ ورحمتِهِ أنزَلَها مُتتابِعةً لِيَنْتَفِعَ بها الخَلْقُ، ويَتَمَتَّعوا بها.

وفيهِ تذكيرُ القوةِ والحكمةِ لأنهُ أنشأَ السَّحابَ الثِّقالَ، وساقَهُ إلى الموضِعِ الذي قَدَّرَ أنْ يُرْسَلَ القَطْرُ إليهِ[4].

ومعلومٌ أنَّ ذلكَ الإرسالَ ليسَ مِنْ فِعْلِ السحابِ، لأنَّ السحابَ يَمْتَنِعُ عنْ إرسالِ القَطْرِ حتى يَنْتَهِيَ إلى الموضِعِ الذي أُمِرَ بإرسالِ القَطْرِ فيهِ، ولو كانَ ذلكَ [منَ][5] السحابِ نفسِهِ لكانَ أينَ ما مَرَّ يَعْمَلُ في الإرسالِ، ولو كانَ ذا ثُقْبٍ لكانتِ الريحُ متى دَخَلَتْ في الثُّقْبِ أرسلَ السحابُ ما أنشأ فيهِ مِنَ القطرِ.

فإذا لم يوجَدْ ذلكَ بانَ [أنَّ][6] اللهَ تعالى بِحِكْمتِهِ وقُدْرتِهِ ولُطْفِهِ، هو الذي أنشأَ فيهِ ذلكَ، ودبَّرَ إرسالَهُ لا أنْ يكونَ ذلكَ عملَ السحابِ. ولو أرادَ أحدٌ من حُكَماءِ الأرضِ أنْ يَعرِفَ المَعْنَى الذي لهُ صَلَحَ ذلكَ السحابُ أنْ يَسْتَمْسِكَ فيهِ القطرَ، ولا يَسْتَمْسِكَ في مكانٍ آخَرَ، لم يَقِفْ عليهِ. فَذَكَّرَهُمْ لِيَعْلَموا أنَّ حِكْمتَهُ ليسَتْ على الوجهِ الذي يَنْتهي إليهِ حُكْمُ البَشَرِ [وقُدْرَتُهُ غيرُ][7] مُقَدَّرةٍ بِقِوَى البَشَرِ، بل هو قادرٌ على ما يشاءُ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧و...].

وفيهِ أنَّ تدبيرَ السماءِ والأرضِ والهُوِيِّ يَرْجِعُ إلى الواحدِ القَهّارِ؛ إذْ لا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ أنْ يَمْنَعَ القَطْرَ المُرْسَلَ مِنَ السماءِ عنِ الوصولِ إلى المَوضعِ الذي أمَرَ أنْ يَنْتَهِيَ إليهِ. والثَّجّاجُ القَطْرُ المُتَتابِعُ بعضُهُ على إثْرِ بعضٍ، والثَّجُّ الصَّبُّ والإراقةُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ الحَبَّ لأنهُ المَقصودُ مِنْ زراعةِ ما يكونُ لهُ الحَبُّ، فذكَرَهُ لِما إليهِ يَنْتَهي القَصْدُ، ويكونَ ذِكْرُ النباتِ مُنْصَرِفاً إلى ما [لا][8] حبَّ لهُ لأنَّ القَصْدَ منْ زِراعتِهِ النباتُ، لا غَيرُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى شيءٍ واحدٍ لأنَّ الذي فيهِ النباتُ أيضاً.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الجنةَ، هي اسمُ المكانِ المُلْتَفِّ بالأشجارِ، وهي التي اجْتَمَعَتْ فيهِ الأشجارُ.

---

(١) في الأصل وم: مبصراً. (٢) في الأصل وم: جواه. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: هنالك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ولا قدرته. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ فالميقاتُ الميعادُ أي وُعِدَ فيهِ[1] جَمْعُ الأوَّلينَ والآخرينَ صالِحُهُمْ وطالِحُهُمْ صغيرُهُمْ وكبيرُهُمْ، وسُمِّيَ يومُ الفَصْلِ لِما يُفْصَلُ فيهِ بَينَ الأولياءِ وبَينَ الأعداءِ، ويُتَبَيَّنُ فيهِ[2] مَثْوَى الفَريقَينِ جميعاً.

واليومُ ليسَ بِيَومِ فَصْلٍ في الظاهرِ لأنَّ الدنيا تَمُرُّ على الفريقَينِ على حالةٍ واحدةٍ، وإنْ كانَ قد فُصِلَ بَينَهما بالتَّوفيقِ والخِذْلانِ. وقيلَ: يومُ الفَصْلِ يومُ الحُكْمِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ وقد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ قيلَ: أمَّةً [فأمَّةً][3] تأتي أمةُ كلِّ رسولٍ بِحِيالِها. وقيلَ: يُقْرَنُ كلُّ أحدٍ بِشيعتِهِ على ما يَذْكُرُهُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]./ ٦٢٣ ـ أ/

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنها تُفْتَحُ لإنزالِ مَنْ شاءَ اللهُ تعالى منَ الملائكةِ، وتَنْشَقُّ، وتَنْفَطِرُ لشدةِ هَولِ القيامةِ، ومنهمْ منْ قالَ: إنَّ الشَّقَّ والفَتْحَ والانْفِطارَ كُلُّهُ واحدٌ؛ فَذَكَرَ الفَتْحَ لِشِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الكُلُّ يَقْتَضي مَعْنًى واحداً، لأنهُ في ما ذُكِرَ، فيهِ نُزولُ الملائكةِ بقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ شَبَّهَها بالسَّرابِ لِما أنها إذا سُيِّرَتْ لم توجَدْ في المكانِ الذي رآها فيهِ الناظرُ كالسرابِ الذي يُرَى مِنْ بُعْدٍ، إذا رآهُ الناظرُ، فأتاهُ، لم يجدْهُ شيئاً إلّا أنْ تكونَ الجبالُ في الحقيقةِ سَراباً لأنَّ السرابَ هو الذي يُتَراءَى مِنَ البُعدِ أنهُ شيءٌ [وهو][4] لا شيءَ في الحقيقةِ. وأمّا الجبالُ، وإنْ سُيِّرَتْ، فهي في نفسِها شيءٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ منهمْ مَنْ ذَكَرَ أنها كانَتْ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنها تُرْصَدُ على مَنْ حَقَّتْ عليهِ كلمةُ العذابِ، فَتُعَذِّبُهُ، ولا يُمْكِنُهُ الفرارُ عنها. وقيلَ: تَرْصُدُ بِشَهيقِها وزَفيرِها مَنِ اسْتَوجَبَ العذابَ، فَتُعَذِّبُهُ، وتُقَرِّبُ طواغيتَها لهُ وسُخْطَها على مَنْ سَخِطَ اللهُ عليهِ. وقيلَ: مَعْنَى[5] المِرْصادِ أنْ يكونَ مَمَرُّ كلِّ كافرٍ ومؤمنٍ عليها، لكنَّ الكافرَ يَقَعُ فيها، والمؤمنَ يَنْجُو منها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي مَرْجِعاً، والطاغي، هو الذي تَعَدَّى حَدَّ اللهِ تعالى، وضَيَّعَ حقوقَهُ، وكَفَرَ بأنْعُمِهِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ ذَكَرَ الأحقابَ، ولم يُبَيِّنْ مُنْتَهى العددِ، ولو كانَ اللَّبْثُ فيها يَرْجِعُ إلى أمدٍ في حقِّ الكَفَرَةِ لكانَ يأتي عليهِ البَيانُ على مُنْتَهى يوم القيامةِ كقولِهِ[6]: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] وقولِهِ[7]: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فلمّا لم يُبَيِّنْ ثَبَتَ أنهُ لا يَرْجِعُ إلى حدٍّ. وإلى هذا يذهبُ الحَسَنُ.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ مَعْناهُ أنهمْ يَلْبَثونَ ثلاثةَ أحقابٍ، والحُقْبُ ثمانونَ سنةً، يُعَذَّبونَ بِلونٍ آخَرَ منَ العذابِ بَعْدَ ذلكَ، لا أنْ يَنْقَطِعَ عنهمُ العذابُ بَعْدَ مُضِيِّ الأحقابِ، والأحقابُ هي النهايةُ في الأوقاتِ، فَذَكَرَ النهايةَ في الأوقاتِ وما يَكْبُرُ فيها كما قالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] لأنهما هما اللتانِ عُرِفَتا بالدوامِ، فاقْتَضى ذلكَ مَعْنَى الدوامِ. فكذلكَ ذَكَرَ ما هي النهايةُ مِنَ الأوقاتِ، تُعْرَفُ أنهم أبداً فيها يُقيمونَ.

---

(١) في الأصل وم: فيها. (٢) في الأصل وم: فيها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: معناه. (٦) في الأصل وم: بقوله. (٧) في الأصل وم: وقال.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ البردَ، هو النومُ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ معناهُ الرَّوحُ والراحةُ، قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ يَقْطَعُ عنهمُ الحرَّ ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يَقْطَعُ عَطَشَهُمْ.

الآية ٢٥ [وقولُهُ تعالى:][1] ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ فالحميمُ، هو الماءُ الذي انْتَهَى في الحرِّ نهايتَهُ، الغَسّاقُ الزمهريرُ.

قالَ بَعْضُهُمْ: هو ما يَنْفَصِلُ عنْ أبدانِهِمْ مِنَ الصَّديدِ والزُّهومةِ، وهو الوَدَكُ، فَمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الذي يُطْعَمُ[2] بِهِ أهلُ النارِ[3] يُعَذِّبُهُمْ، ولا يَجِدونَ بِهِ مُسْتَمْتَعاً، بل يَصيرُ ذلكَ سَبَبَ إهلاكِهِمْ لا أنْ يَقَعَ[4] لهمْ بذلكَ البردِ راحةٌ [وشفاءٌ لهمْ][5] كما وَصَفَهُمُ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] [بل يَبْقَونَ][6] أبداً في الهلاكِ؛ لا يُقْضَى عليهِمْ، فَيَسْتَريحوا، ولا يَنْقَطِعُ عنهمُ العذابُ، فَيَتَلَذَّذُوا[7] بالحياةِ.

وقيلَ: الغَسّاقُ لَونٌ مِنَ العذابِ، لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى عبادَهُ [عليهِ][8].

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أي وافَقَ جَزاؤُهُمْ أعمالَهُمْ، لا يُنْقَصونَ، ولا يُزادونَ على قَدْرِ ما اسْتَوجبوا، بل يُجْزَونَ مثلَ أعمالِهِمْ. وجائزٌ أنْ يكونَ معناهُ أنَّ جَزاءَهُمْ وافَقَ أعمالَهُمْ في الخُبْثِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهمْ لا يَخافونَهُ، ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على حقيقةِ الرجاءِ، أي لم يكونوا يَرْجُونَ الثوابَ.

والوجهُ أنهمْ كانوا قوماً، لا يُؤْمِنونَ بالبعثِ ولا بالجزاءِ والعذابِ حتى يَخافوا العِقابَ ويَرْجوا الثوابَ.

فإنْ حَمَلْتَهُ على الخَوفِ، فهمْ لم يَخافوهُ لِما لم يُؤْمنوا بِهِ، وكذلكَ إنْ حَمَلْتَهُ على حقيقةِ الرجاءِ، فهمْ لم يكونوا يَرْجُونَ لِما كَذَّبوا بِهِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ فالكِذّابُ والتَّكْذيبُ في لغةِ العربِ واحدٌ، والآياتُ: جائزٌ أنْ يُرادَ بالآياتِ آياتُ البعثِ، ويُرادَ بها آياتُ الوَحْدانيَّةِ وآياتُ الرسالةِ ونَحْوُها.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الإحصاءُ والكتابُ واحداً، وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالإحصاءِ ما أُثْبِتَ في الكتابِ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فالزيادةُ في العذابِ هي[9] دوامُهُ وبَقاؤُهُ، لا أنْ يُزادَ على القَدْرِ الذي كانَ أُعِدَّ لهمْ مِنَ العذابِ، لأنهُ أخبَرَ أنهمْ لا يُجْزَونَ إلّا مِثْلَهُ[10]. فإذا كانَ الذي عُذِّبوا قِبَلَهُ جزاءً لم يَجُزْ أنْ يُزادوا عليهِ، فثبتَ أنَّ الزيادةَ في العذابِ الدَّوامُ والبقاءُ.

وبهذا قالَ أصحابُنا في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] وفي كلِّ ما ذُكِرَ[11] مِنَ الزيادةِ أنهُ على الثباتِ والدوامِ عليهِ، لا أنهُ يَزيدُ، ويَنْقُصُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي مَفازاً عنْ أنواعِ العذابِ التي ذُكِرَتْ في الطاغينَ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ فالحدائقُ هي الأماكنُ التي أحاطتِ الأشجارُ بأطرافِها. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ ظاهرٌ. وقد ذُكِرَ أنهمْ وُعِدوا في الآخِرَةِ كلَّ ما يَقَعُ لهمُ الرغبةُ في الدنيا.

ثم الأصلُ أنَّ هذهِ السورةَ نَزَلَتْ على إثْرِ التَّساؤلِ بقولِهِ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [الآيتان: ١و٢] فجائزٌ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على السؤالِ ما اعْتَرَضَ لهمْ مِنَ الشُّبَهِ أو خَطَرَ بِبالِهِمْ، فسألوا، لِيُبَيِّنَ لهمْ، وتَزولَ عنهمُ الشُّبَهُ، فَذَكَّرَهُمْ عِظَمَ نِعَمِهِ وعجائبَ تدبيرِهِ وقوتَهُ وسلطانَهُ، وَوَعَدَ أنَّ مَنْ أمْعَنَ النَّظَرَ فيها دَلَّهُمْ ذلكَ على بَعْثِهِمْ وإزاحةِ الإشكالِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ينطعم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٤) من م، في الأصل: يقطع. (٥) في الأصل وم: وشفاءهم. (٦) في الأصل وم: فيبقون. (٧) في الأصل وم: فيتلذذون. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: مثلها. (١١) في الأصل وم: ذكرت.

عنهمْ بقولِهِ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [الآيتان: ٤و٥] وبيَّنَ مآبَ مَنِ استقامَ على الصراطِ المُستقيمِ، وسَلَكَ سبيلَهُ، وأخبرَ أنَّ مَنْ لم يُمْعِنِ النَّظَرَ فيها، ولم يُعْطِ النَّصَفَةَ مِنْ نفسِهِ، وضَيَّعَها، فَمصيرُهُ إلى ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [الآيتان: ٢١و٢٢] وسَيَعْلَمُ ذلكَ بقولِهِ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [الآيتان: ٤و٥].

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ قيلَ: الكاعبُ هي التي تَكَعَّبَ ثَدْياها، وذلكَ حينَ تَبْلُغُ أنْ تَحيضَ، وهي ناهدٌ، وهي أشهَى ما يكونُ إلى الرجالِ. والأترابُ المُسْتَوِياتُ في السِّنِّ. ففي هذا إنباءُ أنهنَّ يَكُنَّ أبداً على سِنٍّ واحدٍ، لا يَتَغَيَّرْنَ عنْ تِلْكَ الحالِ، ولا يَهْرَمْنَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قيلَ: مَلْآنَ، وقيلَ: صافياً، وقيلَ: مُتَتابِعاً. فَوَصْفُهُ بالمَلْآنِ لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ الشرابَ، لا يَنْقُصُ ما داموا يَشْرَبونَ خِلافاً لِما عليهِ شرابُ أهلِ الدنيا.

ومَنْ حَمَلَهُ على الصفاءِ فَمَعْناهُ: أنهُ صافٍ مِنَ الآفاتِ والمكروهاتِ[1] التي تكونُ في شرابِ أهلِ الدنيا مِنَ التَّصْديعِ وإذهابِ العقلِ وغَيرِ ذلكَ.

ومَنْ حَمَلَهُ على التَّتابُعِ فَمَعْناهُ: أنَّ ذلكَ الشرابَ، لا يَنْقَطِعُ، ولا يَنْفَدُ، ما داموا في شربِهِ، بل يَتَتابَعُ عليهِمْ، ولا يَحْدُثُ فيهِمْ حالٌ، يَمْنَعُهُمْ عنِ الشُّرْبِ مِنَ السُّكْرِ وغَيرِهِ، فَيَمْتَنِعوا عنْ شُرْبِهِ خِلافاً لِشرابِ أهلِ الدنيا.

ورُوِيَ عنِ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ أنهُ قالَ: كنا إذا استَحْثَثْنا الساقيَ في الجاهليةِ قلْنا: داهِقْ لنا، أي تابِعْ لنا.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ أي لا يَسْمَعونَ فيها ما يَحِقُّ أنْ يُلْغَى، بل يَسْمَعونَ فيها كلَّ خيرٍ. والذي يَحِقُّ أنْ يُلْغَى ما ذَكَروا مِنَ الخُلْفِ/ ٦٢٣ ـ ب/ والباطِلِ والكذبِ، فلا يَسْمَعونَ شيئاً مِنْ ذلكَ كما يُسْمَعُ في أهلِها في الدنيا إذا شَرِبوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿كِذَّابًا﴾ [قُرِئَ بالتخفيفِ؛ فهو إنْ قُرِئَ بالتَّخْفيفِ، فهو مِنَ][2] الكَذِبِ أي لا يَكْذِبونَ، وإنْ قُرِئَ بالتشديدِ فهو مِنَ التكذيبِ، أي لا يُكَذِّبونَ بعضَهُمْ بعضاً كما يوجَدُ في شرابِ أهلِ الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا﴾ في الجنةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿كِذَّابًا﴾ قرأ بعضُهُمْ بالتَّخْفيفِ في المَوضِعَينِ: ههنا وفي ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [الآية: ٢٨] وقرأ [بعضُهُمْ][3] بالتَّشْديدِ في المَوضِعَينِ، وقرأ بعضُ القُرّاءِ بالتَّشْديدِ في الأوَّلِ وبالتَّخْفيفِ في الثاني[4].

وعنِ الكسائيِّ أنهُ قالَ: بالتَّخْفيفِ لُغَةُ مُضَرَ، وبالتَّشْديدِ لغةٌ يمانيةٌ؛ يقولونَ: كَذَّبَهُ تكذيباً وكِذاباً، وخَرَّبَهُ تَخْريباً [وخِراباً][5] ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ قولُهُ: ﴿جَزَاءً﴾ أي جَزاءً جَزاهُمْ، وأعطاهُمْ ﴿عَطَاءً﴾، و ﴿حِسَابًا﴾ حاسَبَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿جَزَاءً﴾ بأعمالِهِمْ أي زادَهُمْ على القَدْرِ الذي استَوجَبوا، قالَ بَعْضُهُمْ: أعطاهُمْ عطاءً كثيراً حتى قالَ واحدٌ منهمْ: حَسْبي حَسْبي. والذي يُؤَيِّدُ هذا التأويلَ ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ كانَ يقرأُ ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حَسَنًا﴾[6].

قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَزَاءً﴾ بأعمالِهِمُ التي كتبَ الحفظةُ، وأحصاها عليهِمْ، وأعطَى عطاءً حساباً أي كثيراً لِما أخفَوا مِنْ أعمالِهِمُ التي لم يَطَّلِعْ عليها ملائكةٌ، فأعطاهُمْ عطاءً بيِّناً ظاهراً، يَعْرِفُهُ الناسُ.

---

(١) في الأصل وم: والمكروه. (٢) في الأصل: قرئ بالتخفيف فهو أن، في م: أن قرئ بالتخفيف فهومن، انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٤٩.
(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٤٨. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حساباً، انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٤٩.

وجائزٌ أنْ يكونَ الجزاءُ عَطاءً مِنْ ربِّهِ، لا أنهُ يَسْتوجِبُ الجزاءَ لِما ذَكَرْنا أنهُ لا أحدَ مِنْ هذا البَشرِ إلّا وقد سَبَقَتْ لهُ مِنَ اللهِ تعالى نِعَمٌ، لو أنْفَذَ جميعَ عُمُرِهِ في أداءِ شُكْرِهِ منها لم يَصِلْ إلى كُنْهِ ما عليهِ مِنَ الشكرِ؛ إذْ مَنْ قامَ بالشُّكْرِ، وَوُفِّقَ عليهِ، زيدَ لهُ أيضاً في النِّعَمِ لِمكانِ الشُّكْرِ. فإذا وَصَلَ إلى جَزاءِ عملِهِ في الدنيا لم يَسْتوجِبْ بهِ المزيدَ، فَثَبَتَ أنَّ الجزاءَ في الآخرةِ بِحَقِّ الإفضالِ مِنَ اللهِ تعالى والإنعامِ لا بحقِّ الاسْتِوجابِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾؟ [النساء: ٦٩] فَسَمّى الكرامةَ إنعاماً، وقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؟ [الحديد: ٢١].

فَجَعَلَ ما آتاهُمْ مِنَ النعيمِ فَضْلاً منهُ، فَثَبَتَ أنَّ الذي جَزاهُمْ بهِ ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي كثيراً.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فالربُّ المالكُ، فَذَكَرَ أنهُ مالكُ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما لِيَعْلَموا أنهُ لم يَمْتَحِنْ أحداً بِعبادتِهِ لِحاجةٍ تَقَعُ لهُ أو لِمَنْفَعةٍ تَصِلُ إليهِ، بل هو الغَنِيُّ، ولهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وأنَّ ما امْتُحِنوا بهِ مِنَ العباداتِ راجعةٌ إلى أنفسِهِمْ إذا وَفَوا بها [كانَ النفعُ راجعاً إليهِمْ][2]، وإذا لم يَقوموا بأدائِها كانَ الضَّرَرُ راجعاً إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بَيَّنَ أنهُ رحمنٌ لِيَرْغَبوا في رحمتِهِ، ويَتَسارَعوا إلى [طَلَبِ][3] مَغْفِرَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ هَيبةً مِنَ اللهِ تعالى وتعظيماً لحقِّهِ، فلا يَمْلِكونَ مِنْ هيبتِهِ [﴿خِطَابًا﴾][4] بالشفاعةِ أو بالخُصومةِ أو بأيِّ شيءٍ كانَ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ اخْتُلِفَ في الرُّوحِ؛ فمنهمْ مَنْ قالَ: هو جبريلُ ﷺ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى أرواحِ المسلمينَ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهمُ الحَفَظةُ على الملائكةِ، يَرَونَ الملائكةَ، ولا يَراهُمُ الناسُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الرُّوحُ الكُتُبَ المُنَزَّلَةَ مِنَ السماءِ كما قالَ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] فتكونُ الكتبُ مُخاصِمَةً مع مَنْ ضَيَّعَ حقَّها، أو نَبَذَها وراءَ ظَهْرِهِ، وشافعاً لمنْ أدّى حقَّها، وعَمِلَ بما فيها.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا مِنَ المكتومِ الذي لا يُفَسَّرُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا مُنْصَرِفاً إلى الشافعِ أي الشافعُ لا يقولُ في ما يَشْفَعُ غيرَ الصوابِ، وما حَلَّ بهِ مِنَ الرَّهبةِ والخوفِ مِنْ هَيبةِ اللهِ تعالى لا يُزيلُهُ عنِ التَّكَلُّمِ بالحقِّ بل اللهُ تعالى يُثَبِّتُهُ على الحقِّ، ويُجْري على لسانِهِ الصوابَ.

قالَ بَعْضُهُمْ: مَعْناهُ: لا يَشْفَعُ إلّا مَنْ قالَ في الدنيا صَواباً، وهو الحقُّ، وقيلَ: مَعْناهُ: أنهُ لا يَنالُ مِنَ الشفاعةِ حَظّاً إلّا مَنْ قالَ في الدنيا الصوابَ؛ والصوابُ أنْ يكونَ مُقيماً في ما دانَ بهِ مِنَ التوحيدِ.

وذَكَرَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ أنهُ مَرَّ بمجنونةٍ، وهي تدعو، فتقولُ: اللهمَّ اجْعَلْني مِنْ أهلِ شفاعةِ محمدٍ ﷺ فقالَ لها: قولي: اللهمَّ اجْعَلْني منْ رُفَقاءِ محمدٍ ﷺ في الجنةِ، فإنَّ شفاعَتَهُ لأهلِ الكبائرِ منْ أمتِهِ.

قالَ ﷺ: وبهذا الفَضْلِ يُعارِضُنا المعتزلةُ، فتقولُ: إذا قُلْتُمْ: اللهمَّ اجْعَلْ لنا مِنْ شَفاعةِ محمدٍ نَصيباً فقد قلتُمْ: اللهمَّ اجْعَلْنا مِمَّنْ يَرْتَكِبُ الكبائرَ؛ إذْ شَفاعتُهُ في زَعْمِكُمْ لأهلِ الكبائرِ.

فالجوابُ عنْ هذا أنَّ الذي ابْتُلِيَ بارْتِكابِ الكبائرِ دونَ الشِّرْكِ إنما يَنالُ بما سَبَقَ منهُ مِنَ الخَيراتِ مِنَ التوحيدِ وتعظيمِهِ ربَّهُ ﷻ فَمَحاسِنُهُ التي سَبَقَتْ منهُ، هي التي تَجْعَلُهُ محلّاً للشفاعةِ، ولولاها ما نالَها.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

فإذا قالَ: اللهمَّ اجْعَلْ لي مِنْ شَفاعةِ نَبِيِّكَ نَصيباً، فهو يقولُ: اللهمَّ وفِّقْني على فِعْلِ الخَيراتِ، واجْعَلْني ممنْ يُعَظِّمُكَ، ويَتقرَّبُ إليكَ بالطاعةِ، حتى أنالَ بها الشَّفاعةَ، لا أنْ يَقْصِدَ بدعائِهِ جَعْلَهُ منْ أهلِ الكبائرِ.

والذي يدُلُّ على صِحَّةِ ما ذَكَرْنا قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣و١٤٤] فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ تَسبيحَهُ أنقَذَهُ[1] مِنْ بطنِ الحوتِ، ولو لم يكنْ مُسبِّحاً لم يَسْتوجِبِ الخَلاصَ. وكذلكَ صاحبُ الكبيرةِ يَسْتوجِبُ الشفاعةَ، ويُرجَى لهُ الخَلاصُ بما سَبَقَ منهُ مِنَ الحسناتِ دونَ أنْ يَسْتوجِبَها لِارْتِكابِ الكبيرةِ.

ثم مِنْ قولِ المعتزلةِ أنهمْ يَرَونَ الصغائرَ مَغفورةً لأربابِها إذا اجْتَنَبوا الكبائرَ، فيُقالُ لهمْ[2]: إنَّ مَنْ دعا اللهَ تعالى، وسألَهُ المَغفِرَةَ، فكأنهُ يدعو، فيقولُ: اللهمَّ ابْتَلِني بالصغائرِ حتى تَغْفِرَها لي.

فإنْ قلتُمْ: إنَّ دعاءَهُ بالمغفرةِ لا يَقْتَضي ما عارَضْناكُمْ بهِ، فقولوا كذلكَ في مَنْ يقولُ: اللهمَّ اجْعَلْ لي مِنْ شَفاعةِ محمدٍ نَصيباً، فإنهُ لا يَقْتَضي أنْ يُجْعَلَ مِنْ أهلِ الكبائرِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ قيلَ: مَعْناهُ ألّا يُقالَ في ذلكَ اليومِ غَيرُ الحقِّ. وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى اليومِ نفسِهِ، فيكونُ معناهُ أنَّ كونَهُ حقّاً يكونُ لا محالةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي مَرْجِعاً. تأويلُهُ: أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ للخَلْقِ سبيلَ الضلالِ والهُدَى، ولم يَصُدَّ[3] أحداً عن سَبيلِ الضلالِ والهُدَى، وبيَّنَ أنَّ مَنْ سَلَكَ سَبيلَ الضلالِ فَمآبُهُ إلى النارِ. ومَنْ سَلَكَ سبيلَ الرشْدِ والهُدَى فَمآبُهُ إلى الجنةِ؛ وذلكَ مآبُهُ إلى اللهِ تعالى واتّخاذُ السبيلِ إليهِ تعالى.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أيِ العذابَ [الذي][4] أوعِدْتُمْ بهِ قريبٌ مَأتاهُ، وإنِ اسْتَبْعَدْتُموهُ في أوهامِكُمْ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الخَلائقِ أجْمَعَ مؤمِنِهِمْ وكافِرِهِمْ. ثم تَخْصيصُ الأيدي بالذِّكْرِ هو أنَّ التَّقديمَ[5] في الشاهدِ يَقَعُ بالأيدي، فأُضيفَ إليها؛ وإنِ احْتَمَلَ ألّا يكونَ للأيدي صُنْعٌ في ما ارْتَكَبَ مِنَ الآثامِ أو في ما فَعَلَ مِنَ الخَيراتِ، وهو كالمطرِ، يُسَمَّى رحمةَ اللهِ، وإنْ لم يكنْ ذلكَ مِنْ أوصافِهِ لأنهُ برحمةٍ منهُ[6] يَنْزِلُ منَ السماءِ /٦٢٤ ـ أ/ وسَمَّى الكلامَ لساناً، وإنْ لم يكُنْ هو لساناً لأنهُ باللسانِ ما يُتَكَلَّمُ، فكذلكَ التَّقديمُ أُضيفَ إلى الأيدي لِما بِها يَقَعُ التقديمُ في الشاهدِ، وإنْ لم يكُنْ للأيدي صُنْعٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ إنَّ هذا التَّمَنّي في الكافرِ دونَ المؤمنِ لأنَّ المؤمنَ يَرَى حَسناتِهِ مُتَقَبَّلَةً وسَيِّئاتِهِ مَغْفورةً، فيأمَنُ من عقابِ اللهِ تعالى، والكافرَ يَرَى نفسَهُ مؤاخَذَةً بالسَّيِّئاتِ، ولا يَرَى لها حَسناتٍ مُتَقَبَّلَةً، فيَتَمَنّى أنْ يكونَ تُراباً لِيَتَخَلَّصَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى.

قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ الوحوشَ تُحْشَرُ، والطُّيورَ كلَّها، ثم يقولُ اللهُ تعالى: كونوا تراباً، فَيَتَمَنَّى الكافرُ في ذلكَ الوقتِ أنْ يكونَ تُراباً، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

(١) ادرج في الأصل وم قبلها: ما. (٢) في الأصل وم: له. (٣) في الأصل وم: يصدوا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: والتأخير. (٦) في الأصل وم: الله ما.

سورة النازعات

[وهي مكية](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ:

فمنهمْ مَنْ حَمَلَ ذلكَ كلَّهُ على الملائكةِ، فقالَ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ همُ الملائكةُ الذينَ يَنْزِعونَ أرواحَ الكفرةِ، ويُغْرِقونَ إغراقاً، أي يُشَدِّدونَ في النَّزْعِ كما يَغْرِقُ النازِعُ في [القوسِ، فَيشتدُّ](٢) عليهِ [النَّزْعُ](٣) شدةَ الأمرِ على الغريقِ، أو تَنْزِعُ أرواحَ الكَفَرَةِ، فَتُغرِقُها(٤) في النارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ قيلَ: أي(٥) تَنْشِطُ أرواحَ الكَفَرَةِ نَشطاً عنيفاً، أي تَنزِعُ ملائكةُ العذابِ أرواحَ الكَفَرَةِ مِنْ أجوافِهِمْ نَزْعاً شديداً. وقيلَ: هذا في حقِّ المؤمنينَ: إنَّ الملائكةَ تَنْشِطُ أرواحَ المؤمنينَ؛ تَحُلُّها حلّاً رفيقاً كما تُنْشَطُ [العُقْدَةُ](٦) مِنَ العِقالِ، فَيُخبِرُ بهذا [عنْ](٧) خِفَّةِ ذلكَ على المؤمنينَ، ويُخْبِرُ بالأوَّلِ [عنْ](٨) شِدَّتِهِ على الكافرينَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ قيلَ: إنَّ الملائكةَ يَسُلُّونَ أرواحَ المُسْلِمينَ سَلّاً رَفيقاً، وقيلَ: الملائكةُ يَسْبَحونَ بينَ السماءِ والأرضِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أي تَسْبِقُ الملائكةُ إلى أرواحِ المؤمنينَ. وقيلَ: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ الملائكةُ الذينَ يَسْبِقونَ بالوَحْيِ إلى الأنبياءِ ﷺ وقيلَ: هُمُ الكَروبيّونَ الذينَ لا يَفْتُرونَ عنْ تسبيحِ ربِّ العالمينَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ هُمُ الملائكةُ المُوكَلونَ بأمورِ الخَلائقِ وأرزاقِهِمْ. ومنهمْ مَنْ صَرَفَ تأويلَ الآياتِ إلى النجومِ [اللاتي يَطْلُعْنَ](٩) منْ مطالعهنَّ لحوائجِ الخَلْقِ ولأمورٍ جُعِلَتْ لها، ويَغْرُبْنَ في مغارِبِهِنَّ، ثم يَنْشَطْنَ إلى مطالِعِهِنَّ، فَيَطْلُعْنَ [منها، أي لا يَطْلُعْنَ](١٠) كَرْهاً بل ناشِطاتٍ لأمرِ اللهِ تعالى إلى ما سُخِّرَتْ لهُ.

[وقولُهُ تعالى:](١١) ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ [الآية: ٣] وتَسْبيحُهنَّ دَوَرانُهُنَّ في الأفقِ لأمورٍ تَخفى(١٢) على الخَلْقِ لِقولِهِ: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣ ويس: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ [الآية: ٤] أي يَسْبِقُ بعضُها بعضاً، أو يَسْبِقْنَ الشياطينَ بالرجمِ والطردِ، لا تَدَعُهُمْ(١٣) يَقْرَبونَ السماءَ، وبهِ قالَ الحَسَنُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ تأويلَ الآياتِ إلى مختلَفِ الأشياءِ، فقالَ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ هي القِسِيُّ تَنْزِعُها ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ هي الأوهاقُ تُنْشَطُ بها الدابةُ، يكونُ منهُ في جهةِ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ هنَّ السُّفُنُ ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ هنَّ الخيلُ ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ هي الملائكةُ. وبهِ قالَ عطاءٌ.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَها إلى أنفسِ المؤمنينَ وأرواحِهِمْ، فقالَ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ هي الأنفسُ التي تَغْرَقُ في الصدرِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: النفوس أو يشتد، في م: القوس أو يشتد. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيغرق. (٥) من م، في الأصل: أن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م: أنهن النجوم اللاتي يطلعن، في الأصل: اللاتي. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: خفي ذلك. (١٣) في الأصل وم: يدعهن.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ حينَ تَنْشِطُ منَ القَدَمينِ. وقيلَ: إنَّ أنفسَ المؤمِنينَ يَنْشَطْنَ إلى الخروجِ عنِ الأبدانِ، إذا عايَنوا ما أُعِدَّ لهمْ مِنَ [الثوابِ][1] في الجنةِ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ هي أرواحُ المؤمِنينَ، سُمِّيَتْ سابحاتٍ لِسُهولةِ الأمرِ عليها كما يَسْهُلُ الخروجُ مِنَ الماءِ لِمَنْ يَعْلَمُ السباحةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أيضاً أرواحُ المؤمِنينَ أيضاً سُمِّيَتْ سابقاتٍ لِما تكادُ تَسْبِقُ، فَتَخْرُجُ قبلَ وقتِها لِما تُعايِنُ مِنْ كَراماتِ اللهِ تعالى وما يُنْشَرُ مِنَ الخيرِ. يُؤَيِّدُ هذا ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ» [مسلم ٢٩٥٦].

وقيلَ ذلكَ عندَ موتِهِ: المؤمنُ إذا حَضَرَهُ الموتُ صارَ في ذلكَ الوقتِ كالمسجونِ الذي يَتَمَنّى الراحةَ والخلاصَ منهُ، لأنهُ [يَرى][2] ما أُعِدَّ لهُ مِنَ الثوابِ، فَتَتَهَوَّعُ نفسُهُ؛ يَوَدُّ لو خَرَجَتْ حتى يَصِلَ إلى ما أُعِدَّ لها مِنَ الكرامةِ. والكافرُ إذا رَأى [ما أُعِدَّ لهُ][3] عندما [يَحْضُرُهُ الموتُ][4] جَعَلَ يَلِيغُ نفسَهُ كراهةَ أنْ تَخْرُجَ، فَتصيرُ الدنيا في ذلكَ الوقتِ كالجنةِ لهُ، فلا[5] يُحِبُّ مُفارَقتَها مِنْ شِدَّةِ ما يَرى مِنْ عذابِ اللهِ تعالى.

وعلى هذا قيلَ في تأويلِ قولِهِ ﷺ: «مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقاءَهُ ومَنْ كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ» [البخاري ٦٥٠٧و٦٥٠٨ ومسلم ٢٦٨٣].

إنَّ ذلكَ عندَ الموتِ. إنَّ المؤمنَ إذا حَضَرَهُ الموتُ، وأُرِيَ ثوابَهُ مِنَ الجنةِ، ودَّ أنْ تَخْرُجَ نفسُهُ، فَيُحِبُّ لِقاءَ اللهِ، ويُحِبُّ اللهُ لِقاءَهُ، والكافرُ يَكْرَهُ في ذلكَ الوقتِ أنْ تَخْرُجَ نفسُهُ، فذلكَ حينَ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ قالوا جميعاً: المُرادُ منها الملائكةُ المُوكَّلونَ بأمورِ الخَلْقِ وأرزاقِهِمْ ونَحْوِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في الذي قَصَدَ إليهِ باليمينِ والقَسَمِ؛ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الذي وَقَعَ عليهِ القَسَمُ قولُهُ ﷺ: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ [الآية: ١٠] على مَعْنى: مَبْعوثينَ، وأنَّ القَسَمَ حَقٌّ؛ فكأنهُ أقسمَ بهذهِ الأشياءِ إنهمْ لَمَبْعوثونَ، وأضمَرَ الجوابَ ههنا لِما دلَّ عليهِ المَعْنى، فاكْتَفى بهِ.

الآيات ٦ و٧ و٨ ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ القَصْدَ مِنَ اليمينِ قولُهُ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ فأقْسَمَ بما ذَكَرَ أنَّ النَّفْخَتينِ كائِنَتانِ: فالنَّفْخةُ الأولَى يموتُ بها الخَلْقُ، والنَّفْخةُ الثانيةُ لإحياءِ المَوتى، والراجفةُ هي النَّفْخةُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ النَّفْخِ، فتكونُ النَّفْخةُ علامةَ الموتِ والحياةِ لا أنْ تكونَ عِلَّةَ الإماتةِ.

ثم اخْتَلَفوا بعد هذا؛ فمنهمْ مَنْ يَحْمِلُهُ على التَّحقيقِ، فَيَزْعُمُ أنَّ النَّفْخةَ الأولَى يَهْلِكُ بها الخَلْقُ، والنَّفْخةَ الثانيةَ يَحْيى بها الخَلْقُ.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ النَّفْخاتِ ثلاثةٌ: الأولَى لِلتَّفْزيعِ والتَّهْويلِ بِقولِهِ[6] تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ الآية [الحج: ١و٢].

والنَّفْخةُ الثانيةُ يَهْلِكُ بها الخَلْقُ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٨].

والنَّفْخةُ الثالثةُ يَحْيى بها الخَلْقُ بِقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا ليسَ على تَحقيقِ النَّفْخِ بل على التَّمْثيلِ، فَمَثَّلَ بهِ إمّا لِخِفَّةِ البعثِ والإحياءِ على اللهِ تعالى، [وإمّا لِسُهولتِهِ][7] بِخِفَّةِ النَّفْخِ على النافخِ، أو مَثَّلَ بهِ لِسرعتِهِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حضر. (٥) في الأصل وم: لمي مالا. (٦) في الأصل وم: قال الله. (٧) في الأصل وم: وسهولته.

وقالوا: الراجفة، هي الزَّلْزلةُ والتَّحرُّكُ/ ٦٢٤ ـ ب/ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وهي الزَّلْزلةُ الأُخرَى.

ثم إنْ كانَ القَسَمُ على إثباتِ البعثِ ففيها ذِكرُ إشارةٍ إلى أحوالِ البعثِ وأفعالِها.

وإنْ كانتْ مُرجِفةً على قولِهِ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ فكأنهم سألوا كيفَ تكونُ القلوبُ في ذلكَ اليومِ؟ فقالَ: تكونُ واجفةً، والواجفةُ الخائفةُ الوَجِلَةُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلةٌ. ووجهُ تخصيصِ الأبصارِ والقلوبِ، واللهُ أعلَمُ، هو أنهُ لا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ استعمالُ قلبِهِ وبَصرِهِ، بل يَحدُثُ للقلوبِ فِكَرٌ وبَدَراتٌ، لا يُمكِنُهُ أنْ يدفَعَ عنها الفِكَرَ، وكذلكَ هذا في البَصَرِ، فَيُخبِرُ أنَّ ما نَزَلَ بهمْ مِنَ الخوفِ والهيبةِ يَمنَعُ القلوبَ والأبصارَ عن عملِها، فلا يَنظُرُ إلى الداعي، ولا يَحدُثُ للقلوبِ فِكَرٌ، بل تكونُ أفئدةُ هؤلاءِ لا تَقِرُّ لشدةِ ما حلَّ بها[1] منَ الخوفِ؛ إنَّ المرءَ إذا حَزَبَهُ[2] أمرٌ، فهو يَعمَلُ أنواعاً مِنَ الحِيَلِ، ويُوقِعُ بَصَرَهُ على شيءٍ فشيءٍ رَجاءَ أنْ يَستَدرِكَ ما فيهِ خَلاصُهُ وسلامتُهُ مِنْ ذلكَ الأمرِ، ثم يَنقَطِعُ عنهُمُ التدبيرُ في ذلكَ اليومِ، فتكونُ قلوبُ هؤلاءِ لا تَقِرُّ في مَوضعٍ، ولا تَقِفُ على تدبيرٍ لِشِدَّةِ ما حَلَّ بهِمْ، وتكونُ الأبصارُ خاشعةً ذليلةً إلى ما يدعو الداعي.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي يقولونَ: أإنّا لَنُرَدُّ إلى ما كُنّا عليهِ في الدنيا ابْتِداءَ الأمرِ خَلْقاً جديداً. يُقالُ: أتى فلانٌ فلاناً، فَرَجَعَ على حافِرتِهِ، يقولُ على [خِلقَتِهِ الأولَى][3] ويُقالُ: النَّقْدُ عندَ الحافرةِ أي عندَ أوَّلِ البَيعِ والكلامِ، فقالوا هذا على جهةِ الإنكارِ بالبعثِ والاستِهزاءِ بهِ.

قالَ أبو بكرٍ: هذا مأخوذٌ منْ حافرِ الدابةِ، وهو أنَّ الفارسَ، يمكنُهُ أنْ يَصرِفَها بِحافِرَتِها إلى الموضِعِ الذي ابْتَدَأَ السيرَ منهُ مِنْ وَراءُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ وناخِرةً[4]، فالناخرةُ الباليةُ التي لم تُفَتَّ بعدُ، والنَّخِرَةُ، هي التي صارَتْ رُفاتاً، ودَرَسَتْ حتى تَنسِفَها الريحُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ قالَ الحَسَنُ وأبو بكرٍ: هذا منهُمْ تكذيبٌ للبعثِ أي لا يكونُ أبداً، وقالَ غَيرُهما: معناهُ: أنْ لو كانَتْ كَرَّةٌ كما يَزْعُمُ المسلمونَ فهي كَرَّةٌ خاسرةٌ على المسلمينَ، لأنهمْ ظَنُّوا إذا كانوا في الدنيا أنْعَمَ حالاً وأرغَدَ عيشاً، وكانَ المسلمونَ في ضيقٍ مِنَ العيشِ وشِدَّةٍ مِنَ الحالِ لنْ يكونوا كذلكَ في الآخِرَةِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾؟ [الكهف: ٣٦] فكانوا يظنونَ أنهمْ بما أنعمَ اللهُ تعالى عليهِمْ إنما أنعمَ لأنهمْ أقربُ منزلةً وأعظمُ درجةً مِنَ المؤمنينَ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يُضَيِّقَ على أوليائِهِ، ويوسِّعَ على أعدائِهِ. فإذا وسَّعَ عليهِمْ ظَنُّوا أنهمْ هُمُ المُفَضَّلونَ في الدنيا والآخِرَةِ، وأنَّ مَنْ خالَفَهُمْ فهمُ الأخسَرونَ.

ومنهمْ مَنْ قَطَعَ هذا الكلامَ عنْ مقالةِ الكَفَرَةِ، وزعَمَ أنَّ هذا الوصفَ راجعٌ إلى الكَفَرَةِ، فقيلَ: ﴿خَاسِرَةٌ﴾ لِما خَسِروا أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ وأهليهِمْ، و﴿خَاسِرَةٌ﴾ أي مُخْسِرَةٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ففيهِ إخبارٌ عنْ سُرْعةِ كونِ ذلكَ الوقتِ وسهولتِهِ على اللهِ تعالى.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ قيلَ: الساهرةُ، هي وَجْهُ الأرضِ. وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهذا أنَّ العيونَ تَسْهَرُ في ذلكَ اليومِ، ولا يَعْتَريها النومُ، بل تكونُ مُهْطِعَةً إلى الداعي ذليلةً.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: قد أتاكَ، فَخَوِّفْهُمْ [بهِ][5].

وقالَ الحسنُ: لم يكنْ أتاهُ، فأتاهُ بهذا [كما يقولُ الرجلُ: هل أتاكَ فعلُ فلانٍ، وهو يريدُ أنْ يُذَكِّرَهُ بهذا][6] فَيُعْلِمَهُ معَ علمِهِ أنهُ لم يكنْ عَلِمَهُ مِنْ قَبْلُ.

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) من م، في الأصل: خرج به. (٣) في الأصل وم: محنته الأول. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٥٦. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقد ذَكَرْنا ما في ذِكْرِ الأنباءِ مِنَ الفوائدِ مِنْ تَثْبيتِ الرسالةِ والتَّخويفِ لِمَنْ أساءَ صحبةَ الرسلِ ﷺ لئلا يَنْزِلَ بهِمْ ما نَزَلَ بفرعونَ وأتباعِهِ حينَ أساؤوا صحبةَ الرسولِ موسى عليه السلام.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قيلَ: ﴿طُوًى﴾ اسمُ ذلكَ الوادي، وقيلَ: سُمّيَ طُوًى لأنهُ بُورِكَ مرَّتَينِ: مَرَّةً حينَ أتاهُ إبراهيمُ عليه السلام، ومَرَّةً بإتيانِ موسى عليه السلام، وذُكِرَ عنِ الزَّجّاجِ أنَّ طِوًى بكسرِ الطاءِ[1] الذي بورِكَ مَرَّتَينِ.

ثم أضافَ ذلكَ الحديثَ مَرَّةً إلى موسى ومَرَّةً إلى نفسِهِ إذْ ناداهُ؛ فظاهِرُهُ أنَّ اللهَ تعالى، هو الذي كلَّمَهُ، فأُضيفَ إلى اللهِ تعالى، لأنَّ أصلَهُ مِنَ اللهِ تعالى كما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وفي قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقه: ٤٠ و. . .].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي عَتا، وطَغَى في نِعَمِهِ، فاسْتَعْمَلَها في كُفرانِ نِعَمِهِ، فلم يَشكُرِ اللهَ تعالى بها.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي هل لكَ في إجابةِ مَنْ إذا أَجَبْتَ تَزَكَّيتَ؟ أو هل لكَ رغبةٌ إلى ما تَزْكو بِهِ نفسُكَ، وتَنْمو؟

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يدعُوَ آخَرَ إلى ما فيهِ رُشْدُهُ وصَلاحُهُ، فالواجبُ عليهِ أنْ يَدْعُوَهُ أوَّلاً بالرفقِ واللينِ كما أمَرَ بِهِ موسى وهارونَ عليهما السلام بقولِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وبقولِهِ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ثم إذا تَرَكَ الإجابةَ خَتَمَ كلامَهُ بالتَّعنيفِ كما فَعَلَ موسى عليه السلام بقولِهِ: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] بعدَ قولِهِ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ فَتَهْتَدِيَ، ثم تَخْشاهُ إذا اهْتَدَيتَ، أي عَرَفْتَ عظمتَهُ وجلالَهُ ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ عقوبَتَهُ، فيكونُ العلمُ مُثمِراً للخشيةِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾؟ [فاطر: ٢٨].

أو [يكونُ][2] ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ إلى طاعةِ ربِّكَ، وأُنذِرَكَ عقابَهُ إذا عَصَيتَهُ ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ فلا تَعْصِيهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ منهم مَنْ ذَكَرَ أنَّ الآيةَ الكُبْرَى هي اليدُ؛ سُمِّيَتْ كُبْرَى لأنَّ سِحْرَهُمْ عُمِلَ في الحِبالِ والعِصِيِّ، ولم يُعْمَلْ في اليدِ، فكانتْ هذهِ الآيةُ خارجةً عن نَوعِ سِحْرِهِمْ، فَسُمِّيَتْ كُبْرَى لهذا المَعْنَى.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الآيةَ الكُبْرَى، هي العصا، لأنَّ غَلَبَةَ موسى عليه السلام، على السَّحرةِ كانَتْ بالعصا حينَ[3] لَقِفَتْ ما أتَوا بِهِ مِنَ السِّحْرِ.

ولكنَّ كلَّ آياتِهِ كانَتْ كُبْرَى كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] فكانَتْ إحداهُما أكبرَ مِنَ الأُخرَى عندَ ذَوي الأحلامِ والنُّهَى لِمَنْ تَأَمَّلَ فيها، وتَدَبَّرَ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي كَذَّبَ بآياتِ اللهِ، وعَصَى نَبِيَّهُ موسى، فلم يُطِعْهُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ قالَ الحسنُ: كانَ خفيفاً طَيّاشاً، وإلّا فالملوكُ إذا دُعُوا إلى أمرٍ، تَدَبَّروا فيهِ، وتَفَكَّروا؛ إمّا ليُجيبوا الداعيَ إلى ما دَعاهُمْ [وإمّا][4] لِيَرُدُّوا عليهِ. فأمّا الإدبارُ والسَّعْيُ فليسَ إلّا مِنَ الخِفَّةِ والطَّيشِ.

وقالَ غيرُهُ: أدبرَ عنْ طاعتِهِ تعالى، وتَوَلّى عنهُ، وسَعَى في جَمْعِ السَّحَرةِ، أو سَعَى في جَمْعِ مَنْ قالَ لِموسى عليه السلام: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ [طه: ٥٨].

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/٥٧. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أو.

الآيتان ٢٣و٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وذلكَ اللعينُ قد عَلِمَ أنهُ ليسَ ربَّ السماءِ والأرضِ، ولكنْ قدِ اتَّخذَ لقومِهِ أصناماً، فأمَرَ العَوامَّ أنْ يَعْبُدوها لِيُقَرِّبَهُمْ ذلكَ إليهِ. لكنْ إذا صاروا منْ خاصَّتِهِ أَذِنَ لهمْ بأنْ يَعْبُدوهُ، وأمَرَ الخواصَّ منهمْ بِعبادتِهِ، فَسَمَّى نفسَهُ أعْلَى الأربابِ لهذا.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: أخذَهُ بِعُقوبةِ الكلمَتينِ جميعاً: الكلمةُ الأُولَى قولُهُ تعالى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] والكلمةُ الثانيةُ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: أخذَهُ بِعُقوبةِ ما تقدَّمَ مِنَ الأجرامِ وما تأخَّرَ إلى أنْ غَرِقَ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: أخذَهُ بالعقوبةِ في الدنيا والآخرةِ؛ فَغَرَّقَهُ في الدنيا، وعُذِّبَتْ روحُهُ بعدَ مَماتِهِ بقولِهِ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] ويدخلُ في النارِ مع أتباعِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ / ٦٢٥ ـ أ/ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فاتَّصلَتْ عقوبةُ الدنيا بِعُقوبةِ الآخِرةِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ وفي ذلكَ كلِّهِ عِبْرَةٌ، لكنَّ الذي يَعْتَبِرُ بها مَنْ يَخْشَى العواقبَ، ويَخافُ عُقوبةَ اللهِ تعالى.

الآية ٢٧ ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾. فجائزٌ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [الآية: ٦] وفي قولِهِ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ تقريرٌ لهُ أيضاً.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحَدُها: أنَّ إعادتَهُمْ خَلْقاً جديداً وبَعْثَهُمْ أيْسَرُ في عقولِ مُنْكِري البعثِ مِنْ خَلْقِ السمواتِ، وقد أقَرّوا أنهُ خالقُ السمواتِ.

[والثاني: إذا][1] لم يَتَعَذَّرْ عليهِ خَلْقُ السماءِ، وإنْ كانَ خَلْقُهُمْ[2] أشدَّ في عقولِهِمْ مِنْ خَلْقِ أمثالِهِمْ، فما بالُهُمْ يُنْكِرونَ بَعْثَهُمْ وإعادتَهُمْ إلى ما كانوا عليهِ، وذلكَ أهونُ في عقولِهِمْ؟

[والثالثُ:][3] أنَّ السماءَ مع شدةِ خَلْقِها أشْفَقَتْ على نفسِها، فأبَتْ قبولَ ما عَرَضَ مِنَ الأمانةِ، وخافَتْ نِقْمَةَ اللهِ تعالى، فما بالُ هذا الإنسانِ مع ضَعْفِهِ يَمْتَنِعُ عنِ الإجابةِ إلى ما دُعِيَ إليهِ، أفلا يُشْفِقُ على نفسِهِ، ولا يَخافُ نِقْمَةَ اللهِ تعالى؟ وما خُلِقَتِ النارُ والجنةُ إلّا لأجلِ الإنسِ، فَيُذَكِّرُهُمْ بهذا لِيُخَوِّفَهُمْ، ويَرْتَدِعوا عمّا هُمْ فيهِ[4] منَ الطغيانِ، ويُجيبوا إلى ما دَعاهُمْ إليهِ الرسولُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقولِهِ[5]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] فَيُخبِرُ أنَّ السماءَ مع شِدَّتِها وطواعِيَتِها، لا تقومُ بذلكَ اليومِ، فكيفَ يقومُ الإنسانُ لِهَوْلِ ذلكَ اليومِ معَ ضَعْفِهِ؟ فَيَرجِعُ هذا أيضاً إلى التَّخْويفِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي خَلَقَها ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ سَقْفَها ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بالأرضِ، أو سَوّاها على ما توجِبُهُ الحكمةُ، ويَدُلُّ على الوَحْدانِيَّةِ.

قالَ إمامُ الهُدَى أبو منصورٍ ﷺ: ثم لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنْ قولِهِ: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ما يُفْهَمُ مِنَ البناءِ المُضافِ إلى الخَلْقِ، ولا فَهِمَ مِنَ الرفعِ [ما يُفْهَمُ مِنَ الرفعِ][6] المضافِ إليهِمْ، ولا فَهِمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [الآية: ٣٠] ما يُفْهَمُ مِنَ البَسْطِ المَعروفِ المَنسوبِ إلى الخَلْقِ، فما بالُ بعضِ الناسِ فَهِموا مِنَ المَجيءِ الذي أُضيفَ إلى اللهِ تعالى ما فَهِموا مِنَ المَجيءِ الذي يُضافُ إلى الخَلْقِ؟

فلولا أنهُ حَمَلَتْهُمْ جهالَتُهُمْ على أنْ يَفْهَموا منهُ المَعْنَى المَكروهَ، وإلّا لم تَنْصَرِفْ أوهامُهُمْ إلى مِثْلِ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: فإذا. (٢) في الأصل وم: خلقه. (٣) في الأصل وم: ويَحْتَمِلُ وجهاً آخر، وهو. (٤) في الأصل وم: فيهم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٩ [وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ قيلَ أظلَمَ ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَنهَا﴾ نَفيُ إظلامِ الليلِ وإخراجُ الضُّحى ما يَنفي عن مُنكِري البعثِ الشُّبَهَ التي تَعْتَرِضُ لهمْ؛ وذلكَ أنهُ يَغْطِشُ في ساعةٍ لطيفةٍ، ويُغشِّي ظُلْمَتَها كلَّ شيءٍ، ثم يُتْلِفُها في أدنى وهلةٍ، ويُفنيها، كأنها لم تكنْ، ثم يُعيدُها بعدَ ما أتلَفَها، حتى لو أرادَ أحدٌ أنْ يُمَيِّزَ بينَ الأُولى والثانيةِ لم يَقْدِرْ عليهِ، بل وقَعَ عندَهُ أنَّ الأُولَى، هي الثانيةُ، والثانيةُ، هي الأُولَى. وهذا بعدَما تَلَفَتِ الظلمةُ الأُولَى، وذهبَتْ كلُّها حتى لم يَبْقَ منها أثرٌ.

فَلأنْ يكونَ قادراً على إعادتِهِمْ خَلْقاً جديداً بعدَ ما أفناهُمْ، وقد بَقِيَ مِنْ آثارِ الخَلْقِ الأوّلِ بعضُهُ، أولَى. ثم أضاف ذلكَ إلى السماءِ لأنَّ بُدُوَّها يَظْهَرُ مِنْ عندِنا.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَنهَا﴾ قالوا بَسَطَها؛ فمنهمْ مَنْ يقولُ: خَلَقَها مُجْتَمِعَةً، ثم بَسَطَها بعدَ ما خَلَقَ السمواتِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿دَحَنهَا﴾ ولم يَقُلْ خَلَقَها؟ ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهُ خَلَقَ سماءَ الدنيا أوّلاً، ثم خَلَقَ الأرضينَ بعدَ ذلكَ، ثم خَلَقَ السمواتِ السَّتَّ مِنْ بَعْدُ. ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنها كانَتْ قبلَ أنْ تُبْسَطَ تحتَ بيتِ[(٢)] المَقْدِسِ، ثم بَسَطَها بعدَ ذلكَ.

قالَ أبو بكرٍ: هذا لا يُحْتَمَلُ؛ لأنهُ لا يجوزُ أنْ تكونَ بِجُمْلَتِها وسَعَتِها تحتَ بيتِ المَقْدِسِ، واللهُ أعلَمُ.

ولكنَّ مَعْناهُ عندَنا، إنْ كانَ على ما قالوا مُنْصَرِفٌ إلى الجوهرِ، أي الجوهرِ الذي خُلِقَتْ منهُ الأرضُ، كانَ هنالكَ، لا أنْ كانَتْ بِجُمْلَتِها تحتَهُ كما خُلِقَ الإنسانُ مِنَ النُّطْفَةِ، وإنْ لم يكنْ بِكُلِّيَّتِهِ مِنَ[(٣)] النُّطفةِ، وخُلِقَ مِنَ الترابِ، وإنْ لم يكنْ بِكُلِّيَّتِهِ على ما هو عليهِ مِنَ[(٤)] الترابِ. وكانَ مَعْناهُ أنهُ خُلِقَ مِنْ ذلكَ الجوهرِ، فَعَلَى ذلكَ الحكمُ في ما ذَكَرَهُ.

ومنهمْ مَنْ زَعَمَ أنَّ خَلْقَهُمْ كانَ معاً، وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ أنَّ الأرضينَ خُلِقَتْ قبلَ السماءِ لِقولِهِ: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] وقولِهِ[(٥)] في موضعٍ آخرَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وقيلَ[(٦)]: اسمُ السماءِ ما ارْتَفَعَ [مِنَ الشيءِ][(٧)] كما يُقالُ للسقفِ سماءٌ لِارْتِفاعِهِ عنِ الإنسانِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَنهَا﴾ ذَكَرَ ما أنْشَأهُ لنا لِنَحْمَدَهُ، وما أخرَجَ منها للأنعامِ لِتَذكيرِ النِّعَمِ أيضاً، ونَشْكُرَهُ، ونَحْمَدَهُ عليهِ؛ إذِ الدوابُّ خُلِقَتْ لنا، فَما رَجَعَ إلى مَنافِعِها فهي راجعةٌ إلينا؛ إذْ بها ما يَصِلُ إلى الانْتِفاعِ بالدوابِّ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنهَا﴾ أثبَتَها لئلا تَميدَ بأهلِها.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَتَنعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ فيهِ أنَّ جَعْلَهُ مَتاعاً لنا قد جَعَلَ شيئاً مِنْ ذلكَ للدّوابِّ أيضاً، والذي جَعَلَهُ للأنعامِ لم يَجْعَلْ لنا فيهِ شِرْكاً، وذلكَ لأنَّ الذي أنشأهُ لِمَتاعِ البشرِ، منهُ ما يُسْتَخْبَثُ، ويُسْتَقْذَرُ، ومنهُ ما يُسْتَطابُ، ويُدَّخَرُ، فَجَعَلَ ما طابَ منهُ للبشرِ وما خَبُثَ منهُ لِمنافعِ الدَّوابِّ، والذي أنشَأهُ لِمنافِعِ الدَّوابِّ مِمّا تَسْتَخْبِثُهُ الطباعُ، وتَسْتَقْذِرُهُ، فَفَضَّلَ أغذيتَها مِنْ فَضْلِ مَنازِلِهِمْ.

ففي ما ذَكَرْنا دلالةُ إباحةِ التَّناوُلِ مِنَ الطَّيِّباتِ: أنَّ اللهَ تعالى مَنَّ على عبادِهِ أنْ جَعَلَ أغذيَتَهُمْ بما طابَ مِنَ الأشياءِ، وفَضَّلَهُمْ على الأنعامِ. فَمَنْ كَرِهَ [ذلكَ، فقد كَرِهَ][(٨)] الانْتِفاعَ بما أُنْشِئَ لِلانْتِفاعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ قيلَ[(٩)]: الطامَّةُ، هي الصَّيحةُ؛ سُمِّيَتْ طامَّةً لأنها تَطُمُّ الأشياءَ، وتَعُمُّها، وسُمِّيَتْ كُبْرَى لأنها طَمَّتْ بالعذابِ، فهو يدومُ، ولا يَنْقَطِعُ، وإنْ أحاطَتْ بالثوابِ والكرامةِ فهي[(١٠)] تدومُ، فَسُمِّيَتْ كُبْرَى لِدَوامِها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: البيت. (٣) في الأصل وم: في. (٤) في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: فهو.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ ما عَمِلَ، وتَذَكُّرُهُ يكونُ بوجهَين:

أحَدُهما: بقراءَتِهِ كتابَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

والتَّذَكُّرُ الثاني يكونُ بالجزاءِ.

فالتَّذَكُّرُ الأوَّلُ يكونُ باللُّطفِ مِنَ اللهِ تعالى، وإلّا فالمُرادُ قد تُكْتَبُ أشياءُ، ثم يَنْساها[1] إذا طالتِ المدةُ، ولا يَتَذَكَّرُ بالقراءةِ. ففي ما لم يَتَوَلَّ كتابَهُ أحقُّ ألّا يَتَذكَّرَ. لكنَّ الله تعالى بلطفِهِ يُذَكِّرُهُ بالقراءةِ، فَيَعْرِفُ صدقَ ما كَتَبَتْهُ الملائكةُ، ويَعْرِفُ أنهُ إذا عُوقِبَ عوقِبَ جزاءَ ما كَسَبَتْ يداهُ، ويكونُ الجزاءُ أبْلَغَ بالتَّذَكُّرِ، فَيَتَذَكَّرُ في ذلكَ الوقتِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ وقُرِئَ لِمَنْ تَرَى[2]، فتُضافُ الرُّؤيةُ إلى الجَحيمِ كقولِهِ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ الرؤيةُ كِنايةً عنِ الحضورِ والدخولِ، فيكونُ ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ أي لِمَنْ يَدْخُلُها، ويَحْضُرُها، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ومَعْناهُ: أنَّ رحمةَ اللهِ للمحسِنينَ، وقولِهِ[3] تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥و...] وأريدَ بالقُرْبِ التَّناوُلُ، فَكَنَّى عنهُ بالقُرْبِ. فجائزٌ أنْ تكونَ الرؤيةُ ههنا كِنايةً عنِ الدخولِ والحضورِ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ عنْ إحاطةِ العذابِ بجميعِ أبدانِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أهلُ الرؤيةِ، هُمْ أهلُ الجنةِ؛ يَرَونَها[4] مُشاهدةً، فَيَتَلَذَّذونَ بذلكَ لِما نَجَوا، وفازوا بالنِّعَمِ، كما تألَّموا بِذِكْرِها عندما كانَتْ / ٦٢٥ ـ ب/ غائبةً، لا يَرَونَها. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وقالَ[5]: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية [الطور: ٢٦و٢٧].

الآيتان ٣٧و٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي عَصَى، وتَمَرَّدَ، وطَغَى بأنْعُمِ اللهِ تعالى، فاسْتَعْمَلَها في مَعاصيهِ، أو جاوَزَ حدودَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ إيثارُهُ أنْ يَبْتَغِيَ مَحاسنَ[6] الحياةِ الدنيا حتى أنساهُ ذلكَ الآخِرةَ[7]، وإذا ابْتَغَى بها الحياةَ الدنيا لم يَبْقَ لهُ في الآخِرةِ نصيبٌ لأنهُ قد وُفِّيَ لهُ عَمَلُهُ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؟ [هود: ١٥].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي يأوي إليها.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالمَقامِ حِسابَ ربِّهِ أو مَقامَهُ عندَ ربِّهِ، فأُضيفَ إلى اللهِ تعالى لأنَّ البعثَ مُضافٌ إليهِ، فكلُّ أحوالِهِ أُضيفَتْ إليهِ أيضاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ الخوفُ راجعاً إلى الحالةِ التي هو فيها، فيخافُ أنْ يكونَ مَقامُهُ في مَوضعِ نَهْيِ اللهِ تعالى عنِ المَقامِ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فليسَ هذا نَهْيَ قولٍ، وإنما نَهْيُهُ إيّاها أنْ يَكُفَّها عنْ شَهَواتِها ولَذّاتِها، وكَفُّها أنْ يُشْعِرَها عذابَ الآخِرةِ، ويُخَوِّفَها آلامَها وعِقابَها. فإذا فَعَلَ ذلكَ سَهُلَ عليها تَرْكُ الشَّهَواتِ الحاضِرةِ، وسَهُلَ عليها العَمَلُ للآخِرةِ. والناسُ في نَهْيِ نفسٍ عنْ هواها على ضَرْبَينِ:

فمنهُمْ مَنْ يَقْهَرُها، فلا يُعْطيها شَهَواتِها، فهو أبداً في جَهْدٍ وعَناءٍ، ومنهمْ مَنْ يُذَكِّرُها العواقِبَ، ويُريها ما أُعِدَّ لأهلِ الطاعةِ، ويُعْلِمُها ما يَحُلُّ بالظَّلَمةِ، فَيَصيرُ ذلكَ لها كالعِيانِ، فَتَخْتارُ لَذّاتِ الآخِرةِ على لَذّاتِ الدنيا، لأنَّ ذلكَ أدوَمُ وألَذُّ، وسَهُلَ عليهِ العَمَلُ للآخِرةِ، والهَوَى، هو مَيْلُ النفسِ إلى شَهَواتِها ولَذّتِها.

ففيهِ أنَّ الأنفسَ جُبِلَتْ على حبِّ الشَّهَواتِ والمَيلِ إليها، ولا تَنْتَهي عنْ ذلكَ إلّا بِما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: ينساه. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٨/ ٦٤. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: فيرونها. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: بمحاسنه. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن.

الآية ٤١ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾][(١)].

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ وهي القيامةُ، سُمِّيَتْ ساعةً إمّا لِيَخِفَّ أمرُها على مَنْ إليهِ تدبيرُها، أو سُمِّيَتْ ساعةً لِسُرْعةِ كَونِها إذا أتى وقتُها، أو سُمِّيَتْ لِقُرْبِها إلى الحالةِ التي كانوا عليها كقولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

ثم [إنْ][(٢)] كانَ هذا السؤالُ مِنَ المؤمنينَ فهو سؤالُ اسْتِهْداءٍ؛ كأنهُ لمّا قيلَ لهمْ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] [وقيلَ][(٣)]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] قالوا: متى تكونُ الساعةُ، فنزلَتْ هذهِ الآيةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ السؤالُ مِنَ الكَفَرَةِ لِما ذَكَرْنا أنهُ ليسَ في تَبْيِينِ وقتِها كثيرُ منفعةٍ حتى تقعَ الحاجةُ للمسلمينَ إلى تَبْيِينِهِ بالسؤالِ، فَيَسألونَ سؤالَ اسْتِهْزاءٍ واسْتِخْفافٍ برسولِ اللهِ ﷺ فيَسْألونَهُ اسْتِعْجالَها بقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] فكانوا يَسْألونَهُ عنْ شيءٍ يَعْلَمونَ أنهمْ مُتَعَنِّتونَ في السؤالِ قَصْداً منهمْ [لِلتَّمويهِ][(٤)] والتَّلْبيسِ على الضَّعَفةِ والأتباعِ لأنهمْ كانوا يَعْلَمونَ أنَّ ذلكَ الوقتَ ليسَ هو وقتَ مَجيءِ الساعةِ.

وإذا طَلَبوا الاِسْتِعْجالَ عَلِموا أنهُ لا يَتَهَيَّأُ لهُ أنْ يُرِيَهُمْ في ذلكَ الوقتِ لأنَّ[(٥)] ذلك يَخْرُجُ مَخْرَجَ خِلافِ الوعدِ، فَيَحْتَجّونَ على الضَّعَفةِ أنهُ لو كانَ صادقاً في مَقالتِهِ: إنَّ الساعةَ تكونُ لكانوا متى طلبوا مجيئَها يأتِهِمْ بها.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي لَسْتَ أنتَ مِنْ عِلْمِها في شيءٍ. هذا إنْ ثَبَتَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَطَّلِعْ عليها.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي يَنْتهي إليهِ[(٦)] عِلْمُها، فيكونُ هذا نَهْيَ السائلينَ عنِ العَودِ إلى السؤالِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ فهو ﷺ كانَ مُنْذِراً للعالَمينَ جملةً بقولِهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] لكنهُ يَنْتَفِعُ بإنذارِهِ مَنْ يَخْشى الإنذارَ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ في هذهِ الآيةِ: إنهمْ إذا رَأَوا الساعةَ اسْتَقْصَروا هذهِ الأيامَ، وقَلَّتِ الدنيا في قلوبِهِمْ مَتى عايَنوا الآخِرةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ [أنهمْ لو رَأَوا][(٧)] الساعةَ لِلحالةِ التي هُمْ فيها لم يَلْبَثوا فيها عشيَّةً أو ضُحاها، فلا يَقَعُ ذلكَ موقعَ التَّهويلِ والتَّخْويفِ، واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ، وإليهِ المرجعُ والمآبُ][(٨)].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إذ. (٦) في الأصل وم: إليها. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لو أرادوا. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

سورة عبس

[وهي مكية](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ذَكَرَ الحَسَنُ أنَّ تَعَبُّسَ الوجهِ والتَّوَلِّيَ كانا بِنفسِ المجيءِ على ظاهرِ الآيةِ، فإنهُ ذَكَرَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ عندَهُ منْ عُظماءِ المشركينَ، يَعِظُهُمْ، ويَدعوهُمْ إلى الإسلامِ. فلمّا جاءَهُ ابنُ أُمِّ مَكتومٍ، يَسْألُهُ، أعْرَضَ عنهُ لِمكانِ أولئكَ القومِ، وعَبَّسَ وجْهَهُ رَجاءَ إسلامِهِمْ.

وذَكَرَ غَيرُهُ مِنْ أهلِ التفسيرِ أنهُ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ لمّا سألَهُ ابْنُ أمِّ مَكتومٍ عمّا فيهِ رُشْدُهُ وهُداهُ، فَعَبَّسَ وجهَهُ بِقَطْعِهِ الحديثَ.

ثم هذا التَّعَبُّسُ مِنْ ﷺ، كانَ في أمرٍ، لوَ الْتامَ، ثم وُزِنَ ذلكَ بخيراتِ أهلِ الأرضِ لَرَجَحَ على خَيراتِهِمْ ومَحاسِنِهِمْ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ كانَ مُقْبِلاً على رُؤساءِ الكَفَرَةِ، يَعِظُهُمْ، ويُحَرِّضُهُمْ على الإسلامِ رَجاءَ أنْ يُسْلِموا، فيكونُ في إسلامِهِمْ رَجاءُ إسلامِ كثيرٍ مِنَ القومِ، لأنهمْ كانوا منْ عِلْيَةِ القومِ وعُظَمائِهِمْ، فكانَ في إسلامِهِمْ رَجاءُ إسلامِ مَنْ يَتْبَعُهُمْ مِنْ قومِهِمْ، فَيَسْتَوجِبُ بإسلامِهِمْ مِنْ جزيلِ الثوابِ وعِظَمِ المنزلةِ مالا يَبْلُغُهُ آخَرُ بجميعِ محاسِنِهِ، فكانَ في سؤالِهِ إياهُ مَنْعُ ما قَصَدَ إليهِ مِنْ إحرازِ جزيلِ الثوابِ وكريمِ الخِصالِ.

وإذا كانَ هكذا [ففيهِ وجهانِ:

أحَدُهما: أنَّ تَعَبُّسَ](٢) الوجهِ [في](٣) مثلِ هذا الحالِ أمرٌ سَهْلٌ، لا يُسْتَبْعَدُ، ولا يُسْتَنْكَرُ.

والثاني: أنَّ تَعَبُّسَ الوجهِ على الأعمَى والإعراضَ عنهُ، لا يُظْهَرُ للأعمى، لأنهُ لا يراهُ، فلا يَعُدُّهُ جَفاءً، وكانَ في إقبالِهِ على أولئكَ القومِ وحُسْنِ صُحْبَتِهِ إياهُمْ رَجاءُ الإسلامِ منهمْ؛ إذْ إقبالُهُ وحُسْنُ صُحْبَتِهِ يَظْهَرُ لهمْ، وفي الإعراضِ عنهمْ ذهابُ ذلكَ الرجاءِ وإبداءُ الجَفاءِ منهُ إياهُمْ.

ومَنْ آثَرَ الوجهَ الذي فيهِ اتِّقاءُ الجَفاءِ والدعاءُ مِنَ الرَّدعِ إلى الهُدَى وصلاحُ الدينِ فهو محمودٌ عندَ ذَوي الأحلامِ والنُّهَى، ولأنَّ إقبالَهُ على القومِ إذا كانَ لِمكانَ دعائهِمْ إلى الإسلامِ، وقد أُمِرْنا بدعاءِ الكفرةِ إلى الإسلامِ، وإنْ كانَ في دعائِهِمْ إتلافُ أنفسِنا وأموالِنا، فَلأَنْ يُسَوِّغَ الدعاءُ مِنْ وجهٍ، ليسَ فيهِ تَعْبيسُ الوجهِ على واحدٍ مِنَ المسلمينَ أولَى.

ولكنَّ النبيَّ ﷺ /٦٢٦ ـ أ/ وُجِدَ منهُ هذا النوعُ مِنَ الإيثارِ اجْتهاداً ورأياً، والأنبياءُ ﷺ، قد جاءَهُمُ العِتابُ مِنَ اللهِ تعالى بِتَعاطيهِمْ أموراً، لم يَسْبِقْ مِنَ اللهِ تعالى لهمُ الإذنُ في ذلكَ، وإنْ كانَ الذي تَعاطَوهُ مِنَ الأمورِ أموراً محمودةً في تدبيرِ الخَلْقِ نَحْوَ ما عُوتِبَ يونسُ ﷺ، وعُوقِبَ بِمفارقةِ قومِهِ بِغَيرِ إذنٍ، وإنْ كانَ مثلُ تلكَ المُفارقةِ، لو وُجِدَ منْ واحدٍ مِنْ أهلِ الأرضِ اسْتوجَبَ بها الحَمْدَ وحُسْنَ الثناءِ، لأنَّ تلكَ المُفارقةَ لا تَخْلو مِنْ تلكَ الأمورِ الثلاثةِ(٤):

أحَدُها: أنَّ قومَهُ كانوا أهلَ كُفرٍ، وكانوا لهُ أعداءً في الدينِ، فَفارَقَهُمْ لِيَنْجُوَ منهمْ، ويَسْلَمَ لهُ دينُهُ، ومثلُ هذا لو وُجِدَ مِنْ غَيرِ الأنبياءِ ﷺ، عُدَّ ذلكَ مِنْ أفضلِ شمائِلِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فتعبس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ثلاثة.

والثاني: أنَّ في مُفارقتِهِ منْ بينِ أظهُرِهِمْ [تخويفاً لهم وتهويلاً][(١)] فيَدعوهُمْ ذلكَ إلى الإنقِلاعِ عمّا هُمْ عليهِ منَ الضلالِ والفَزَعِ إلى اللهِ تعالى، ومَنْ خوَّفَ آخَرَ بأمرٍ، يكونُ فيهِ دعاؤُهُ إلى الهُدَى ورَدْعُهُ عنِ الضلالِ، فقد أبلغَ في النصيحةِ[(٢)] واستَقامَ على الطريقةِ.

والثالثُ: أنهُ يفارقُهُمْ لِيَستَنْصِرَ بِغَيرِهِمْ[(٣)]، فيَنصُرونَهُ عليهِمْ، ويَتقَوّى بهِمْ لِيكونَ على دعائِهِمْ إلى الإسلامِ أمكَنَ وأقْدَرَ. ومَنْ كانَتْ مُفارقَتُهُ مِنْ قومِهِ على هذهِ النيَّةِ فَلَنِعْمَ المُفارِقُ هو، ثم عُوتِبَ معَ ذلكَ كلِّهِ.

وذكَرَ اللهُ تعالى في الكتابِ قصتَهُ لِلوَجْهِ الذي ذكَرْنا. فكذلكَ الوَجْهُ في مُعاتبةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ.

ومنهمْ مَنْ ذكَرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَقْصِدْ إلى تَعَبُّسِ الوَجْهِ على ابْنِ أمِّ مكتومٍ، ولا تَوَلّى عنهُ عَمْداً لِذلكَ. لكنْ لمّا قَطَعَ عليهِ حديثَهُ، وكانَ فيهِ قَطْعُ رجاءِ إسلامِ أولئكَ القومِ، شَقَّ ذلكَ عليهِ، واعتراهُ مِنْ ذلكَ هَمٌّ شديدٌ أثَّرَ ذلكَ في وَجْهِهِ، لا أنْ كانَ منهُ ذلكَ على القَصْدِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في قلبِهِ ﷺ منَ الشَّفَقَةِ والرحمةِ على العالَمينَ حتى بَلَغَ مِنْ شَفَقَتِهِ أنْ كادَتْ نفسُهُ تَذْهبُ على مَنْ [أعرَضَ عنْ][(٤)] دينِ اللهِ تعالى والإيمانِ بهِ حَسَراتٍ عليهِ، وحتى قالَ[(٥)] لهُ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] وقالَ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وتأويلُهُ: ألّا تَحْزَنَ بِمكانِهِمْ كلَّ هذا الحُزْنِ، فيكونُ فيهِ تخفيفُ الأمرِ عليهِ لا أنْ يكونَ فيهِ نَهْيٌ عنِ الحزنِ وعَنِ الحَسْرَةِ. ولذلكَ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١] ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: ألّا تُحَمِّلَ نفسَكَ كلَّ هذا التَّحْميلَ حتى تَمْتَنِعَ عنِ الإنْتِفاعِ بما أحلَّ اللهُ لكَ الإنْتِفاعَ بهِ طَلَباً لِمَرْضاتِهِنَّ، لا أنْ يَنْهاهُ عنِ ابْتِغاءِ مَرْضاتِهِنَّ، بل قد نَدَبَهُ[(٦)] إلى ابْتِغاءِ مَرْضاتِهِنَّ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥١].

فجائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ اشْتَدَّ عليهِ إعراضُ أولئكَ القومِ عنِ الإيمانِ، وكَبُرَ ذلكَ عليهِ حتى تَغَيَّرَ لونُ وجهِهِ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يُبَيِّنُ شدةَ ما اعْتَراهُ مِنَ الهمِّ حتى أثَّرَ ذلكَ في وجهِهِ، لا أنْ يكونَ فيهِ مَذَمَّةٌ ومَنْقَصَةٌ.

ثم في هذهِ الآيةِ فوائدُ أُخَرُ:

إحداها[(٧)]: جوازُ العملِ بالإجْتِهادِ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ فَعَلَ هذا النوعَ اجْتِهاداً لا نَصّاً؛ إذ لو كانَ الإذْنُ بالتَّوَلّي والتَّعْبيسِ سائغاً لم يكنْ يُعاتَبُ بفعلِ ما قد أُمِرَ بهِ.

فإنْ قيلَ: كيفَ لا تَدُلُّ المُعاتَبةُ على النهيِ على إقدامِهِ [على][(٨)] مثلِهِ، فيُحَرِّمُ عليهِ الإجْتِهادُ؟ قيلَ[(٩)] لهُ: لو كانَ نَهْياً لم يكُنْ يعودُ إلى العملِ بالإجْتِهادِ بعدَ ذلكَ، وقد وُجِدَ منهُ ﷺ، العَوْدُ بقولِهِ تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] وبقولِهِ[(١٠)]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ﴾ [التحريم: ١]. فَثَبَتَ أنهُ ليسَ فيهِ نَهْيٌ، وفيهِ أنَّ الكافرَ، وإنْ كانَ مُبَجَّلاً مُعَظَّماً في قومِهِ، فليسَ على المؤمنينَ أنْ يُعَظِّموهُ، ويُبَجِّلوهُ، بل يُسْتَرْذَلُ، ويُسْتَخَفُّ بهِ، وأنَّ المسلمَ ينبغي أنْ يُعَظَّمَ، ويُكَرَّمَ، وإنْ كانَ حقيراً في أعيُنِ الخَلْقِ.

[والثانية:][(١١)] آيةُ رسالةِ محمدٍ ﷺ ودلالةُ نُبُوَّتِهِ، وأنهُ لم يَخْتَلِقْ هذا الكتابَ مِنْ عندِ نفسِهِ؛ لأنَّ مَنْ يَتَعاطى فِعْلاً، حَقُّهُ السِّرُّ، فهو يَسْتُرُهُ على نفسِهِ، ولا يَهْتِكُ عليها السِّتْرَ، لِئلّا يُلْزَمَ عليهِ. فلو لم يكُنْ مأموراً بِتَبليغِ الرسالةِ لكانَ يَجْتَهِدُ في السِّرِّ على نفسِهِ، فلا يَنْبُذُهُ للخلائقِ. ولكنهُ كانَ رسولاً لم يَجِدْ مِنْ تَبْليغِهِ إلى الخَلْقِ بُدّاً، فَبَلَّغَهُ كما أُمِرَ.

---

(١) في الأصل وم: تخويف لهم وتهويل. (٢) في الأصل وم: الصحبة. (٣) في الأصل وم: بغيره. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: قيل. (٦) في الأصل وم: ندب. (٧) في الأصل وم: أحدها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقيل. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وفيه.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ و: لَعَلَّ منَ اللهِ واجبٌ. وقولُهُ: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي يَتَزَكَّى بِعِلْمِهِ ونِيَّتِهِ. وفي[1] هذهِ الآيةِ قَضاءٌ بإبطالِ قولِ مَنْ زَعَمَ أنَّ جميعَ ما في القرآنِ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ هو ممّا لم يَدْرِهِ.

يُرْوَى ذلكَ عنْ سُفيانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ﷺ وغيرِهِ أنهُ[2] قد أدراهُ ههنا بقولِهِ: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ و: لَعَلَّ مِنَ اللهِ واجبٌ. وإذا جَعَلْتَهُ واجباً، فقد زَكَّاهُ، وإذا زَكَّاهُ فقد عَلِمَهُ النَّبِيُّ ﷺ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ يَتَذَكَّرُ بِتَذَكُّرِكَ إياهُ، فَيَنتَفِعَ بِتَذَكُّرِكَ.

والثاني: أنْ يَتَذَكَّرَ في ما ذَكَّرْتَهُ منَ العواقبِ وما يَحِقُّ عليهِ في حالةٍ، فَيَنتَفِعَ بهِ.

فتكونُ المنفعةُ في التأويلِ الأوَّلِ بالتَّذَكُّرِ بنفسِ تَذَكُّرِ الرسولِ ﷺ وفي التأويلِ الثاني بِتَذَكُّرِهِ في ما ذَكَّرَهُ النبيُّ ﷺ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي بما اختارَهُ عمّا جِئْتَ بهِ منَ الدينِ، واسْتَغْنَى بالذي زَيَّنَ لهُ الشيطانُ عمّا جِئْتَ بهِ، أو يكونُ على الغِنَى المعروفِ، لأنَّ الذينَ أقبلَ عليهمْ بوجْهِهِ كانوا أهلَ ثَروةٍ وغِنًى، فأقبلَ عليهِمْ رَجاءَ أنْ يُسْلِموا، فَيَتْبَعَهُمْ أتباعُهُمْ في الإسلامِ، إذْ كانوا مِنْ رُؤَسائِهِمْ وأجِلَّتِهِمْ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي مُقْبِلٌ عليهِ بوجْهِكَ[3].

الآية ٧ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي ليسَ عليكَ غيرُ التَّذْكيرِ إذا أعرضَ عنكَ، وعاداكَ، لن يُمَكَّنْ مِنْ إلحاقِ ضَرَرٍ بكَ، بلِ اللهُ يَعْصِمُكَ، ويَدْفَعُ عنكَ شَرَّهُ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يَعْمَلُ للهِ تعالى، ويَخشاهُ.

فجائزٌ أنْ تكونَ الخَشيةُ عِلَّةً للسَّعْيِ، فيكونُ مَعْناهُ: أنَّ خَشيَتَهُ هي التي حَمَلَتْهُ إلى السَّعْيِ، وقد يجوزُ أنْ يُخَرَّجَ الكلامُ مُخْرَجَ العطفِ على جَعْلِ أحدِهِما عِلَّةً لِلأُخرى ودليلاً لهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فكانَ الإحياءُ الأوَّلُ دليلاً للإحياءِ الثاني في مَوضِعِ العطفِ والترتيبِ على الكلامِ الأوَّلِ.

أو أنْ يكونَ ابْتِداءً: فقولُهُ: ﴿جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ اللهَ تعالى، ويخافُ التَّبِعَةَ وحُلولَ النِّقْمةِ.

الآيتان ١٠ و١١ وقولُهُ تعالى: [﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾][5] ﴿كَلَّآ﴾ قالَ الحَسَنُ: مَعْناهُ أنَّ الذي فَعَلْتَهُ مِنَ التَّوَلّي عنِ المؤمنينَ والإقبالِ على الكَفَرةِ ليسَ مِنْ حُكْمي.

وذكَرَ أبو بكرٍ الأصمُّ لمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تَغَيَّرَ وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ وخافَ زَوالَ الرسالةِ، وأنْ يُمْحَى اسْمُهُ عنها. فلمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ عَلِمَ أنهُ لم يُوعِدْهُ ربُّهُ حينَ[6] نَهاهُ عنِ العَودِ إلى مثلِهِ.

وقالَ المُفَسِّرونَ: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا تَعُدْ إلى مِثْلِ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا مُنْصَرِفاً إلى السُّوَرِ[7] /٦٢٦ ـ ب/ كلِّها. وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى هذهِ السورةِ لأنَّ فيها إثباتَ التوحيدِ وإثباتَ الرسالةِ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا دلالةَ البعثِ وآياتِهِ أنَّ خَلْقَ البَشَرِ ليسَ على البعثِ، فهي تذكرةٌ لِمَنْ يَذَّكَّرُ بها. وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الآياتِ التي قَبْلَ هذا في هذهِ السورةِ، وهو أنَّ في ما تَقَدَّمَ في هذهِ السورةِ مِنَ الآياتِ تثبيتَ رسالتِهِ بما تَقَدَّمَ ذِكْرُنا لهُ جائزٌ أنْ يُقالَ: إنَّ هذهِ تذكرةٌ، أي هذهِ المُعاتبةَ تَذْكِرةٌ للنَّبِيِّ ﷺ ولجميعِ المؤمنينَ لِيَعْرِفوا مَنْ يَسْتَوجِبُ التَّعْظيمَ والتَّبجيلَ ومَنْ يَسْتَوجِبُ إهانَتَهُ والاِسْتِخْفافَ.

---

(١) من م، في الأصل: ومن في. (٢) في الأصل وم: لأنهُ. (٣) في الأصل وم: بوجهه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: السورة.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: مَنْ شاءَ اللهُ أنْ يُذَكِّرَهُ، أو شاءَ ذِكْرَهُ، أي قد مُكِّنَ كلٌّ التَّذْكيرَ، وإنهُ ليسَ أحدٌ بِمَمْنوعٍ ولا مَجْبورٍ على الفِعْلِ؛ فمَنْ تَرَكَ التَّذَكُّرَ فهو الذي ضَيَّعَ ذلكَ حينَ[1] آثَرَ، واختارَ ضِدَّهُ، واشْتَغَلَ بغَيرِهِ، وأعْرَضَ عنْ ذِكْرِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على تحقيقِ الفعلِ أي مَنْ تَذَكَّرَ بهِ فهو ذِكْرٌ لهُ، فَكَنَّى بالمَشيئةِ عنِ الفعلِ لِما ذَكَرْنا أنها تَقْتَرِنُ بالفعلِ، ولا تُزايِلُهُ، فيكونُ في ذِكْرِها ذِكْرُ الفعلِ، أو يكونُ على إرادةِ الفعلِ قبلَ وجودِهِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ قيلَ: هي الصُّحُفُ المُتَقَدِّمَةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨و١٩]. وقولُهُ: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ أي بأيدي الملائكةِ، وقولُهُ: ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي بما يُكَرِّمُها أهلُ الكرامةِ، وهمُ السَّفَرَةُ البَرَرَةُ، أو مُكَرَّمةٌ على اللهِ تعالى.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي مَرفوعةِ القَدْرِ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ مِنَ التناقُضِ والاخْتِلافِ، أو مُطَهَّرةٍ مِنْ أنْ تَنالَها أيدي العُصاةِ، أو مُطَهَّرةٍ مِنَ الأقذارِ والأدناسِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ فالسَّفَرَةُ الكَتَبَةُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ أي كِرامٍ على اللهِ تعالى بَرَرَةٍ في أعمالِهِمْ كما وَصَفَهُمُ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ قالوا: تأويلُهُ: لُعِنَ الإنسانُ.

وذَكَرَ الحَسَنُ والمعتزلةُ أنَّ هذا مِنَ اللهِ تعالى على الشَّتْمِ والتَّسْمِيةِ لهُ بذلكَ، واسْتَجازوا الشَّتْمَ منهُ.

والأصلُ أنْ ليسَ في الشَّتْمِ إلّا ظهورُ سَفَهِ الشاتِمِ وعَبَثِهِ؛ إذْ لا ضَرَرَ يَلْحَقُ بالمَشتومِ مِنْ جهةِ الشَّتْمِ، وإنما ضَرَرُ ذلكَ الشَّتْمِ على الشاتمِ خاصةً. وأمّا المَشتومُ فإنما يَصيرُ مَشتوماً بِفعلِهِ لا بِشَتْمِ الشاتمِ، وجَلَّ اللهُ تعالى عنْ أنْ يُنْسَبَ إليهِ فعلُ السَّفَهِ. فلذلكَ قلْنا: إنهُ لا يَتَحَقَّقُ مَعْنى الشَّتْمِ في الكلمةِ التي عُرِفَتْ في ما بَينَ الخَلْقِ إذا جاءَتْ مِنَ اللهِ تعالى كما لا يَتَحَقَّقُ في الكلمةِ التي عُرِفَتِ اغْتِياباً في ما بَينَ الخَلْقِ إذا جاءَتْ مِنَ اللهِ تعالى مَعْنى الاغْتِيابِ. بل يَحْتَمِلُ ذلكَ على الرَّدْعِ والتَّنْبيهِ، فيكونُ في ذِكْرِها تَخويفُ مَنْ خُوطِبَ بها، وتَذْكيرٌ لِلخَلْقِ سَفَهَهُ وجهلَهُ.

ألا تَرى أنَّ المرءَ في الشاهدِ قد يَتَكَلَّمُ بما فيهِ هتكُ السِّتْرِ على المُخاطبِ، ثم لا يُعَدُّ ذلكَ منهُ اغْتِياباً إذا قُصِدَ بِهِ وَعْظُهُ وزَجْرُهُ عمّا هو ورُشْدُهُ إلى ما فيهِ صَلاحُ آخِرَتِهِ وأُولاهُ؟ فكذلكَ اللهُ تعالى إذا جاءَ منهُ ما يُعَدُّ شتماً مِنْ غَيرِهِ واغْتِياباً لم يَلْحَقْهُ وصفُ الشَّتْمِ والغِيبةِ [ويكونُ][2] ذلكَ منهُ على التَّذكيرِ والتَّنبيهِ للخَلْقِ وعلى التَّخويفِ والتهويلِ لِمَنْ نُسِبَ إليهِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي ما أقْبَحَ كُفْرَهُ وأوحَشَهُ وأشْنَعَهُ لأنهُ عَلِمَ أنَّ جميعَ ما أُنْعِمَ بهِ مِنَ النِّعَمِ فَمِنَ اللهِ تعالى، ثم هو لم يَشْكُرْ نِعَمَهُ، ولا أطاعَهُ في ما دعاهُ إليهِ، بل وجَّهَ شكْرَهُ إلى مَنْ لا يَنْفَعُهُ ولا يَضُرُّهُ، فَعَبَدَ مَنْ لا يَسْمَعُ، ولا يُبْصِرُ، ولا يُغْني عنهُ شيئاً، ما هذا إلّا غايةُ الفُحْشِ ونهايةُ القُبْحِ، أو ما أوحشَ كُفْرَهُ وأقْبَحَهُ بما سَوَّى بَينَ الشَّكورِ والكَفورِ وبَينَ المُفْسِدِ والمُصْلِحِ وبَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ، والعقلُ يُوجِبُ التَّفرقةَ بَينَهما، فهو بإنكارِهِ البعثَ كابَرَ عقلَهُ، وعانَدَهُ، فما أشَدَّ كُفْرَ مَنْ هذا وصفُهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي أيُّ شيءٍ أكْفَرَهُ! فيكونُ في ذِكْرِهِ تَعْجيبٌ لِمَنْ آمَنَ مِنَ الخلائقِ وتَذْكيرٌ لهمْ عنْ سُوءِ مَنْ هذا فِعْلُهُ وسُوءِ مُعامَلَتِهِ معَ ربِّهِ.

الآيتان ١٨و١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ فكأنهُ قالَ: إنَّ الذي كَفَرَ، وقد عَلِمَ أنهُ خُلِقَ مِنْ نُطْفةٍ، وتلكَ النطفةُ مَواتٌ، لا سَمْعَ فيها، ولا عقلَ، ولا شيءَ مِنَ الجوارحِ، ثم اللهُ تعالى بلطفِهِ وعجيبِ حكمتِهِ، دبَّرَ

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: إذ.

فيها بَصَراً، يَرَى بِفَتْحةٍ واحدةٍ وفي أدْنَى وَهْلةٍ مَسيرةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ، وقَدَّرَ فيها عقلاً، يَرَى بِهِ مَلَكوتَ السمواتِ والأرضِ، وقَدَّرَ فيها السَّمْعَ والبَصَرَ وغَيرَهما مِنَ الجوارحِ.

أفتَرَى أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قدرتُهُ هذا يَعْجِزُ عنْ إحياءِ مَنْ أماتَهُ وعنْ بعثِهِ بأقلَّ مِنْ لحظةٍ؟ أو يكونُ قولُهُ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ تعريفاً[١] منهُ أنهُ خَلَقَهُ مِنْ نطفةٍ، ويكونُ في ذِكْرِهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الفوائدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي سَوّاهُ على وجهٍ تكونُ فيهِ دلالةُ ربوبيَّتِهِ وشهادةُ وحدانيَّتِهِ أو قَدَّرَهُ على ما فيهِ صَلاحُهُ ومَنْفعتُهُ أو قَدَّرَهُ على [ما][٢] يَشاءُ مِنَ القِصَرِ والطُّولِ والدَّمامةِ والمَلاحةِ وغَيرِ ذلكَ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ السبيلِ الدِّينَ؛ فكأنهُ يقولُ: يَسَّرَ لهُ دَرْكَ ذلكَ السبيلِ إلى اللهِ تعالى على ما ذَكَرْنا أنَّ الدِّينَ إذا أُطْلِقَ أُريدَ بهِ دينُ اللهِ تعالى، وكذلكَ الكتابُ المُطْلَقُ يُرادُ بهِ كتابُ اللهِ تعالى. فَعَلَى ذلكَ السبيلُ إذا ذُكِرَ مُطْلقاً كانَ مُنْصَرِفاً إلى سبيلِ اللهِ تعالى، أو يَسَّرَ لهُ السبيلَ سَبيلَ الهُدَى وسَبيلَ الضلالِ والسبيلَ [الذي لو سَلَكَهُ نَفَعَهُ والسبيلَ][٣] الذي يَضُرُّهُ، أو يَسَّرَ لهُ السبيلَ الذي عَلِمَ اللهُ أنهُ يختارُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥إلى١٠] أي يَسَّرَ عليهِ سَبيلَ الخروجِ مِنْ بطنِ أمِّهِ على ضيقِ ذلكَ الموضعِ وكِبَرِ جُثَّتِهِ لِيَعْلَموا أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قوتُهُ هذا فهو قادرٌ على [ما][٤] أرادَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ أمرٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ ففي ذِكْرِ هذا ذِكْرُ النِّعَمِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لِما يَخْبُثُ، ويَتَغَيَّرُ، كُنّاً يَكُنُّ فيهِ، فَيَسْتُرُهُ عنِ الخَلْقِ لئلا يَعافوهُ، ويَسْتَقْذِروهُ، ولم يَجعلْ ذلكَ لِغيرِهِمْ، وجَعَلَ لأنفسِهِمْ، إذا هي[٥] تَغَيَّرَتْ بالموتِ، وصارَتْ بحيثُ تُسْتَخْبَثُ، وتُسْتَقْذَرُ، كُنّاً تُسْتَرُ فيهِ[٦] لِتُغَيَّبَ عنِ الخَلْقِ، فلا يَتَأَذَّوا بها، فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيَشْكُروا.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، كذلكَ إذا شاءَ أنْشَرَهُ لأنَّ هذا كلَّهُ إخبارٌ في مَوضعِ الاِحْتِجاجِ؛ فكأنهُ قالَ: إنَّ الذي خَلَقَهُ مِنْ نطفةٍ، وقَدَّرَهُ، ثم أماتَهُ، فأقْبَرَهُ، فهو كذلكَ يَنْشُرُهُ إذا شاءَ، وكذلكَ هذا في قولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي إنَّ الذي أحياكُمْ ثم أماتَكُمْ، فكذلكَ هو الذي يُحْييكُمْ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا الخِطابَ في كلِّ أحدٍ، لا تَرَى إنساناً قَضَى جميعَ ما عليهِ مِنَ الأمرِ على حَدِّ ما أُمِرَ حتى لا يَغفُلَ عنهُ، ولا يُقَصِّرَ فيهِ، بل مَنَّ اللهُ تعالى على كلِّ أحدٍ في كل طَرْفَةِ عينٍ نِعْمَةً، لا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ أنْ يقومَ بِكُنْهِ شُكْرِها حتى لا [يَقَعَ][٧] منهُ في ذلكَ جَفاءٌ ولا تَقْصيرٌ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هذا في الكفارِ خاصّةً، لا يَقْضونَ ما أُمِرُوا بهِ مِنَ التوحيدِ.

فإذا كانَ على هذا فهو مُنْصَرِفٌ إلى ابْتِداءِ الأمرِ، وإنْ كانَ على الوجهِ الأوَّلِ[٨] فهو منصرفٌ إلى كُنْهِ الأمرِ، ويَسْتَقيمُ توجيهُهُ إلى الكافرِ على ما ذَكَروا، لأنَّ إيمانَ المؤمنِ، لهُ حُكْمُ التَّجَدُّدِ في كلِّ وقتٍ؛ إذْ هو في كلِّ وقتٍ مأمورٌ باجْتِنابِ الكُفْرِ، فهو يَجْتَنِبُهُ، فذلكَ يكونُ. وإذا كانَ كذلكَ/ ٦٢٧ ـ أ/ ثَبَتَ أنهُ في كلِّ وقتٍ مؤمنٌ بما[٩] أُمِرَ بِهِ، مُجْتَنِبٌ[١٠] عمّا نُهِيَ عنهُ، فهو بإيمانِهِ راجعٌ عنِ الزَّلاتِ في كلِّ حالٍ، مُعْتَقِدٌ للوفاءِ بِما أُمِرَ بهِ، لِذلكَ كانَ صرفُهُ إلى الكافرِ أوجَبَ[١١].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كيفَ قُدِّرَ لهُ حينَ[١٢] اسْتَعْمَلَ فيهِ السمواتِ والأرضينَ والهواءَ والشمسَ والقمرَ والليلَ والنهارَ؛ فاستعمالُ السماءِ في إنزالِ المطرِ منها، واستعمالُ الهواءِ في جَعْلِهِ[١٣] مَسْلَكاً للمطرِ، واستعمالُ الأرضِ في جَعْلِها قَراراً للمطرِ وإخراجِ[١٤] منها ما فيهِ قِوامُهُمْ ومنافِعُهُمْ، فيكونُ في ذِكْرِ هذا فوائدُ:

---

(١) في الأصل وم: تعريف. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: هم. (٦) في الأصل وم: فيها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: لما. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (١١) في الأصل وم: أوجه. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: جعلها. (١٤) في الأصل وم: وأخرج.

أحداها[1]: في مَوضِعِ التعريفِ للخلائقِ أنَّ مُنْشِئَ السمواتِ والأرضينَ ومُنْشِئَ الخَلْقِ والشمسِ والقمرِ واحدٌ لِاتِّصالِ مَنافِعِ بعضٍ ببعضٍ، إذْ لو لم يكنْ كذلكَ لكانَ لِمُنْشِئِ السماءِ أنْ يَمْنَعَ منافعَ السماءِ عن خَلْقِ مُنْشِئِ الأرضِ.

[والثانيةُ][2]: فيهِ تَذْكيرُ قوتِهِ وعجيبُ حكمتِهِ لِيَعْلَموا أنهُ قادرٌ على كلِّ ما يُريدُ فِعْلَهُ، لا يَضْعُفُ عنْ ذلكَ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ لأنهُ جَمَعَ بَينَ مَنافعِ ما ذَكَرْنا مع تَناقُضِها واخْتِلافِها في نفسِها، فَجَعَلَها مِنْ حيثُ المنافعُ مُتَّسِقَةً مُتَّفِقَةً، وجَعَلَ كلَّ واحدةٍ منهنَّ كالمُتَّصلةِ بالأُخرَى المُقْتَرِنةِ بها معَ بُعْدِ ما بَيْنَهما.

فَمَنْ قَدَرَ على الاتِّساقِ بَينَ الأشياءِ، وقَدَرَ على الوَصْلِ بَينَ الأشياءِ المُتباعِدَةِ بعضُها عنْ بعضٍ قادرٌ على إحياءِ الأمواتِ والبعثِ.

[والثالثةُ: تَذْكيرُهُمْ][3] هذا لِيُبَيِّنَ لهمْ حكمتَهُ وعلمَهُ لِيَعْلَموا أنهُ لا يَخْلُقُ عَبَثاً، ولا يَتْرُكُهُمْ سُدًى، لا يَسْتَأدي منهمُ الشكرَ، ولا يَبْعَثُهُمْ، بل يُنْشِئُهُمْ، ويُميتُهُمْ فقط، فَيَخرُجُ خَلْقُهُ على ما فيهِ خُروجٌ عنِ الحكمةِ.

[والرابعةُ: أنهُ][4] خَلَقَ البشرَ على وجهٍ، تَمَسُّهُمُ الحاجاتُ [فيهِ، وتَمَسُّهُمْ][5] الشَّهَواتُ، وقَدَّرَ الطعامَ على وجهٍ، إذا تناوَلَ [أحدٌ][6] منهُ دَفَعَ حاجتَهُ، وسَكَّنَ شَهْوَتَهُ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يُدْرِكَ[7] المَعْنَى الذي يَعْمَلُ في دفعِ الحاجةِ وتسكينِ الشَّهْوَةِ ما هو؟ لم يَصِلْ إلى تَعَرُّفِهِ، فَيُؤدِّي تَفَكُّرُهُ إلى رَفْعِ الشُّبَهِ والاعْتِراضاتِ التي تَعْتَريهِ في أمرِ البعثِ. وغَيرُهُ إذا كانوا يُقَدِّرونَ الأمرَ على قِواهِمْ، ويُسَوُّونَها على ما يَنْتَهي إليه تدبيرُهُمْ؛ فإذا وجَدوا في الطعامِ مَعانيَ، هي خارجةٌ عنْ تدبيرِهِمْ وقِواهُمْ، عَلِموا أنْ ليسَ الأمرُ على ما قَدَّروا، فَيَرْتَفِعُ عنهمُ الرَّيبُ والإشكالُ.

وكذلكَ لو أرادوا أنْ يَسْتَخْرِجوا مِنَ الماءِ المَعْنَى الذي بِهِ صَلَحَ أنْ تكونَ بهِ حياةُ الأشياءِ كلِّها معَ اخْتِلافِ الأشياءِ وتَفاوُتِها واخْتِلافِ طُعومِها وألوانِها لم يُمْكِنْهُمْ ذلكَ، فَيَعْلَموا أنَّ الذي بَلَغَتْ حكمتُهُ هذا المبلغَ قادرٌ على ما يَشاءُ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧و...] ويكونُ في النَّظَرِ في ما ذَكَرَ حاجَتَهُ وافْتِقارَهُ إلى غَيرِهِ، ويَتَبَيَّنُ أنَّ اللهَ تعالى لم يُنْشِئِ الخَلْقَ لحاجةِ نفسِهِ، وإنما خَلَقَهُ لحاجةِ البشرِ إليهِ.

الآيتان ٢٥و٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ لِيَقِرَّ الماءُ في شُقوقِها، فَيَصِلَ الخَلْقُ إلى الانْتِفاعِ بهِ، أو شَقَقْناها للنباتِ.

الآيتان ٢٧و٢٨ [وقولُهُ تعالى:][8] ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ فَذَكَرَ الحبَّ والعِنَبَ، وأخبرَ أنهُ أنْبَتَهُما في الأرضِ، وهما في الحقيقةِ غَيرُ نابِتَينِ في الأرضِ، ولكنْ أخرَجَهُما مِنْ أصلٍ، هو نابتٌ في الأرضِ، فأضافَهُما [إليهما لِما يَرْجِعُ][9] الابْتِداءُ إليها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] ورزقُنا مِنَ السماءِ المطرَ. لكنَّ الذي هو رِزْقُنا مِنَ الطعامِ وغَيرِهِ إنما يَنْبُتُ في الأرضِ، ويَخْرُجُ منها بالقطرِ مِنَ السماءِ، فأُضيفَ إليهِ.

فَعَلَى ذلِكَ أُضيفَ الحَبُّ والعِنَبُ إلى ما ذَكَرْنا لِلْمَعْنَى الذي وَصَفْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَضْبًا﴾ والقَضْبُ، هي الرَّطْبَةُ، سُمِّيَتْ قَضْباً لأنها تُقْضَبُ، وتُقْطَعُ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ.

الآية ٢٩ [وقولُهُ تعالى:][10] ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ففي ذِكْرِ الزيتونِ ما ذَكَرْنا مِنَ الفائدةِ، وهو أنَّ الزيتونَ أَلْيَنُ الأشياءِ نَبَتَ أصلُهُ في الجبالِ التي هي أصلَبُ الأرضِ، فَمَنْ قَدَرَ على إخراجِ أَلْيَنِ الأشياءِ مِنْ أصلَبِ الأشياءِ قادرٌ على الإنشاءِ والبعثِ؛ إذْ مَنْ قَدَرَ على أنْ يُخرِجَ أَلْيَنَ الأشياءِ مِنْ أصلَبِ الأشياءِ قادرٌ على أنْ يُلينَ القلوبَ القاسيةَ حتى تَلينَ بِذِكْرِ اللهِ تعالى.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ فالحدائقُ، هي البساتينُ التي أَحْدَقَتْ بالأشجارِ، وأحاطَتْ بها، والغُلْبُ الغِلاظُ؛ يُقالُ: رجلٌ أغلَبُ، إذا كانَ غَليظَ الرَّقَبَةِ، وقومٌ غُلْبُ الرِّقابِ أي غِلاظٌ. وقالوا أيضاً: الغُلْبُ الأشجارُ الكثيفةُ الطويلةُ.

---

(١) في الأصل وم: أحدها. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: وذكرهم. (٤) في الأصل وم: ولأنه. (٥) في الأصل وم: وتمسه.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يتدارك. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: إليهما ليرجع. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآيتان ٣١و٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾][1] والأبُّ الكلأُ؛ فَيُخبِرُ أنهُ أنشأَ هذهِ الأشياءَ لتكونَ مَتاعاً للخَلْقِ والأنعامِ لا لِمَنافعِ نفسِهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ قالَ الحَسَنُ: هي اسْمُ القيامةِ؛ يَصُخُّ لها كلُّ شيءٍ، وبهِ يقولُ أبو بكرٍ: إنهُ يَصُخُّ لِمَجيئِها كلُّ شيءٍ، أي يَخْشَعُ لها، ويُطَاطِئُ رأسَهُ للداعي كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

وقالَ القُتَبِيُّ: الصاخّةُ، هي الداهيةُ، فَذَكَرَ القيامةَ بالأحوالِ التي تكونُ فيها أو بالأفعالِ التي توجدُ فيها على ما ذَكَرْنا.

وقالَ الزَّجاجُ: الصاخّةُ المُصِمَّةُ، تَصُمُّ لها الأسماعُ عنْ كلِّ شيءٍ إلّا إلى ما تُدْعَى إليهِ[2].

الآيات ٣٤ و٣٥ و٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾][3] فجائزٌ أنْ يكونَ هذا على تحقيقِ الفرارِ، وجائزٌ ألّا يكونَ على التحقيقِ، ولكنْ وُصِفَ بالفِرارِ لِما يوجَدُ منهُ المَعْنَى الذي يوجَدُ مِنَ الفارِّ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] والوَجْهُ فيهِ أنَّ الأقرباءَ مِنْ شأنِهِمْ إذا اجْتَمَعوا اسْتَبْشَرَ بعضُهُمْ ببعضٍ، وأَنِسوا بالاجْتِماعِ، وإذا غابوا سألوا عنْ أحوالِهِمْ، واهْتَمُّوا لذلكَ.

ثم هُمْ في ذلكَ اليومِ يَدَعُونَ السؤالَ عندَ الغَيبةِ والاسْتِبْشارَ عندَ الحضرةِ، حتى كأنهُ لا أنسابَ بَيْنَهُمْ في الحقيقةِ[4]، ولكنْ ما يَحُلُّ بكلِّ واحدٍ مِنَ الاهتمامِ يَشْغَلُهُ عنِ السؤالِ [عنْ حالِهِ][5] والاسْتِبْشارِ برؤيتِهِ حتى يَصيرَ كالفِرارِ لِوقوعِ المَعْنَى الذي يوجَدُ مِنَ الفارِّ لا على تحقيقِ الفِرارِ لأنهُ قالَ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ فما يَحُلُّ مِنَ الشأنِ يَمْنَعُهُ عنِ الفِرارِ عنْ نفسِهِ وعنْ أقربائِهِ، أو يكونُ على حقيقةِ الفِرارِ.

وذلكَ أنَّ الأقرباءَ لا يوجَدُ منهمُ القيامُ بوفاءِ جُمْلةِ ما عليهِمْ مِنَ الحقوقِ حتى لا يوجَدَ منهمُ التَّقْصيرُ، فَيَخافوا[6] في ذلكَ اليومِ أنْ يُؤاخَذوا بذلكَ، فَيَحْمِلَهُمْ على الفِرارِ، ويَفِرَّ كلٌّ منهمْ مِنْ تَحَمُّلِ ثِقَلِ الأقرباءِ كما قالَ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨] وقد كانوا يَتَعاوَنونَ في الدنيا في تَحَمُّلِ الأثقالِ، فَيُخبِرُ أنهمْ لا يَتَعاونونَ في ذلكَ اليومِ، بل يَفِرّونَ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ هذا في الكَفَرةِ. وأمّا أهلُ الإسلامِ فإنهُ يجوزُ أنْ تَبْقَى بَينَهُمْ حقوقُ القرابةِ كما أُبْقِيَتِ المَوَدَّةُ في ما بَينَ الأخِلّاءِ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وإنْ كانَ في المسلِمينَ والكَفَرةِ جميعاً فجائزٌ أنْ يكونَ الفِرارُ في بعضِ الأحوالِ، وذلكَ في الوقتِ الذي لم يَتَفَرَّغْ [أحدٌ][7] عنْ شُغْلِ نفسِهِ. فأمّا إذا آمَنَ، وجاءَتْهُ البِشارةُ، فهو يقومُ بِشفاعتِهِ، ويَسْألُ عنْ أحوالِهِ، ولا يَفِرُّ منهُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ قالوا: أقْصَى كلَّ إنسانٍ ما يَشْغَلُهُ عنْ غَيرِهِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي مُضيئةٌ أو ناضِرةٌ ناعِمةٌ مُشْرِقةٌ. فيكونُ فيهِ إخبارٌ عمّا هُمْ مِنَ النَّعيمِ حتى يَظْهَرَ ذلكَ في وجوهِهِمْ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي مسرورةٌ بِنعيمِ اللهِ تعالى الذي أنعمَ عليهِمْ ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ برِضا اللهِ عنها.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ قالوا: هذا أوّلُ تَغَيُّرٍ يَظْهَرُ في وجوهِهِمْ، كأنّما علاها الغُبارُ، ثم تَسْوَدُّ /٦٢٧ ـ ب/ ثم تُطْمَسُ، وتُرَدُّ على أدبارِها كما قالَ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧].

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ قالَ أبو بكرٍ: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تَغْشاها الذِّلَّةُ، أو تَعلوها، ثم تَتَلَوَّنُ بعدَ ذلكَ، فتكونُ كأنّما عَلاها الغُبارُ، ثم تَسْوَدُّ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إليها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: بنسب. (٥) في الأصل وم: بحاله. (٦) في الأصل وم: فيخافون. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي الكَفَرَةُ بأنعُمِ اللهِ تعالى، الفَجَرَةُ المائلةُ عنِ الحقوقِ، واللهُ المُوَفِّقُ [وصلّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][1].

(١) من م، ساقطة من الأصل.

سورة [التكوير

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذا ليسَ بابتداءِ خِطابٍ، ولكنهُ جوابٌ عنْ سؤالٍ تقدَّمَ؛ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ السؤالُ عنْ وقتِ لِقاءِ الأنفسِ والأعمالِ[2]، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إشارةً إلى أحوالِ ذلكَ الوقتِ وآثارِها على ما يَذْكُرُ المَعْنَى الذي لهُ وَقَعَ لِتَبيينِ الأحوالِ دونَ تَبيينِ الوقتِ في سورةِ. ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

واختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هي فارسيةٌ مُعَرَّبَةٌ، وهي بالعربيةِ غُوِّرَتْ.

قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كُوِّرَتْ﴾ أي ذَهَبَ ضَوؤُها؛ يُقالُ: كَوَّرَ الليلُ على النهارِ، أي أذهبَ نورَهُ وضياءَهُ؛ فالتكويرُ يُغَطّي كَونَ الشيءِ عنِ الأبصارِ، فقيلَ: كُوِّرَتِ الشمسُ أي حُبِسَ ضَوؤُها على الأبصارِ بالطَّمْسِ [فيكونُ][3] فيهِ إنباءُ أنهُ يُطْمَسُ ظاهِرُها، ثم يَرِدُ التَّغْييرُ في نفسِها، فَتَتْلَفُ، وتتلاشَى، ومنهُ يُقالُ: كَوَّرَ العِمامةَ إذا لَفَّها على رأسِهِ، فَتُغَطِّيهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ تناثَرَتْ، وتساقَطَتْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] وقيلَ: ذهبَ ضَوؤُها؛ فكأنهُ يَذْهَبُ ضَوؤُها أوّلاً، ثم تَتَناثَرُ بعدَ ذلكَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي قُلِعَتْ عنْ أماكِنِها، وسُيِّرَتْ كما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وهي إذا قُلِعَتْ تَكَسَّرَتْ[4] حتى يَتَبَيَّنَ للناظرِ سَيرُها لِتَكَسُّرِها[5]، فَتَحْسَبُها جامدةً، وهي تَسيرُ. فهذا أوّلُ تَغَيُّرٍ يَظْهَرُ فيها، ثم تَصيرُ ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] ثم ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ثم ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] إلى أنْ تَتَلاشَى، وتَتْلَفُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ فالعِشارُ هي النوقُ الحوامِلُ التي أتَى على حَمْلِها عشرةُ أشهرٍ، وهي مِنْ أنفَسِ الأموالِ عند أهلِها؛ فَيُخْبِرُ أنَّ أربابَها، يُعَطِّلونها في ذلكَ اليومِ، ولا يَلْتَفِتونَ إليها لِشُغْلِهِمْ بأنفسِهِمْ في ذلكَ [اليومِ][6] وهو كما قالَ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قيلَ: جُمِعَتْ؛ وهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ تُجْمَعَ كلُّها، فَتَتْلَفُ، وتَهْلَكُ.

والثاني: أنْ تُحْشَرَ، في أنْ يُحْيِيَها بعدَ موتِها، فيصْنَعُ اللهُ تعالى فيها ما يشاءُ، فيكونُ في هذا إخبارٌ عنْ عِظَمِ ذلكَ اليومِ حتى يُؤَثِّرَ الهَولُ في الوحوشِ والشمسِ والقمرِ والسمواتِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قيلَ: فُجِّرَتْ، وسَنَذْكُرُ تأويلَ الفَجرِ في ما بعدُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى[7].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قيلَ: قُرِنَتْ. ثم اختُلِفَ في مَعْنَى القِرانِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: قُرِنَ زَوجُها إليها، قالَ بَعْضُهُمْ: يُقْرَنُ كلٌّ بأهلِ شيعتِهِ، فَيُقْرَنُ الكفرةُ بالشياطينِ، وأهلُ الشرابِ بأهلِ

---

(١) من م، في الأصل: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: تكثرت.
(٥) في الأصل وم: لتكثرها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) سيكون ذلك بإذن الله في تفسير الآية ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

الشرابِ، وأهلُ الزِّنى بأهلِ الزِّنى كقولِهِ[1] ﷺ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ إلى قولِهِ: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ و٣٧ و٣٨].

ففي هذا إخبارٌ أنَّ المُعَذَّبَ منهمْ، إذا رأى عَدُوَّهُ، يُعَذَّبُ عذابَهُ، ويكونُ في العذابِ الذي هو فيهِ لم يَتَسَلَّ بذلكَ شيئاً، ولم يَنَلْ بِهِ راحةً، وإنْ كانَ المرءُ في الدنيا إذا رأى عَدُوَّهُ، يُعَذَّبُ، يَتَسَلَّى بذلكَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ وقرأ بعضُهُمْ: وإذا الموؤودةُ سألَتْ[2]، وهذا هو الظاهرُ أنْ تكونَ هي السائلةُ، أي تَسْألُ إيّاهُمْ.

الآية ٩ ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ تقولُ: بأيِّ ذنبٍ قَتَلْتُموني؟ وكانتِ العربُ، تدفُنُ بناتِها؛ يُقالُ: وأدْتُهُ، أي دفَنْتُهُ.

ثم القراءةُ المعروفةُ ﴿سُئِلَتْ﴾ وهي تَحْتَمِلُ أوجهاً ثلاثةً:

أحَدُها: [ما][3] ذَكَرَ أبو عُبَيدَةَ، وقالَ: إنَّ قَتَلَتَها تُسْألُ ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ المَوؤودةُ؟

[والثاني:][4] أنْ تُسْألَ المَوؤودةُ عندَ حضرةِ الذينَ وَأدوها ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾؟ يُرادُ بالسؤالِ تَخويفٌ وتهويلٌ للذينَ وَأدوها، لا سؤالُ اسْتِخْبارٍ واسْتِفْهامٍ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وليسَ يُسْألُ عنْ هذا سؤالُ اسْتِخْبارٍ واسْتِفْهامٍ، ولكنْ يُسْألُ سؤالُ تَخويفٍ وتَهْويلِ مَنِ ادَّعَى أنَّ عيسى ﷺ، هو الذي أمَرَهُمْ أنْ يَتَّخِذوهُ وأُمَّهُ إلٰهَينِ مِنْ دونِ اللهِ.

[والثالثُ:][5] أنْ تُسْألَ الموؤودةُ: أتَدَّعِي؟ أم[6] لا تَدَّعِي؟ وما الذي تَدَّعِي عليهِمْ؟ فَيُبْدَأُ بها بالسؤالِ كما يُرى المُدَّعِي في الشاهدِ: هو الذي يُبْدَأُ بالسؤالِ، فيُقالُ لهُ: ما تَدَّعِي على هذا؟ فقولُهُ: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ كأنها إذا سُئِلَتْ عنِ الذي ادَّعَتْ، وقالَتْ: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أيِ الكُتُبُ نُشِرَتْ للحسابِ، وهي التي فيها أعمالُ بَني آدمَ وقتَ ما تُدْفَعُ إليهِمْ[7] بأيمانِهِمْ وشمائِلِهِمْ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قيلَ: نُشِرَتْ، وذلكَ أنْ تَتناثَرَ النجومُ، وتُطْمَسَ الشمسُ [وتُطْوَى السماءُ][8] ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقيلَ: كُشِفَتِ السماءُ، فكَشْفةُ السماءِ كما يُكْشَفُ الغِطاءُ عنِ الشيءِ، ويُقالُ: كُشِطَتْ، أي قُلِعَتْ كما يُقْلَعُ السقفُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يُحْدِثَ تَسْعيرُها، فيكونُ فيهِ عَلَمُ الحديثةِ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [الآية: ٦] يَحْتَمِلُ أنْ يُبْدَأَ تَسْجيرُها، [ولم تُسْجَرْ][9] مِنْ قبلُ.

[والثاني][10]: أنْ يُرادَ التَّسْجيرُ والتَّسْعيرُ على ما كانَ مِنْ قبلُ لقولِهِ تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤و...] وقد كانَ وَقودُها بِغَيرِ هذينِ. ثم يُرادُ في وَقودِها الناسُ والحجارةُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قيلَ: قُرِّبَتْ، فأُضيفَ إليها التَّقريبُ لأنَّ أهلَها إذا قَرُبوا إليها، فقد قُرِّبَتْ هي إليهِمْ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠] أو تَعْلَمُ ما أحضَرَ لها الملائكةُ الذينَ كَتَبوا.

---

(١) في الأصل وم: وقال الله. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٨٢. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وتحتمل. (٥) في الأصل وم: وجائز. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: إليها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ولما سجر. (١٠) في الأصل وم: وجائز.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ الأشياءُ التي وَقَعَ بها القَسَمُ تقتضي /٦٢٨ ـ أ/ أحكاماً ثلاثةً:

أحدُها: ما مِنْ شيءٍ خَلَقَهُ اللهُ تعالى إلّا وفيهِ دليلُ وَحدانيَّتِهِ وآيةُ رُبوبيَّتِهِ، إذا أُمعِنَ النَّظرُ فيه.

[والثاني: تَثْبيتُ][1] عِلْمِهِ وحِكمتِهِ يَدُلُّ على قدرتِهِ وسلطانِهِ.

[والثالثُ:][2] في تَثبيتِ القُدرةِ والسلطانِ إيجابُ القولِ بالرسالةِ ونَهْيٌ عنْ عبادةِ غَيرِ اللهِ.

فلو أمْعَنوا النَّظرَ فيها، وتَفكَّروا في أمرِهِ أدّاهُمْ ذلكَ إلى القولِ بالبعثِ، ودعاهُمْ إلى وَحدانيَّةِ الرَّبِّ والإقرارِ بالرسُلِ، فلا [كانوا][3] يَدَّعونَ أنَّ معهُ آلهةً أُخرَى، ولا كانوا يُنكِرونَ البعثَ، ولا يُكَذِّبونَ الرسولَ.

فأقسمَ بهذهِ الأشياءِ على التأكيدِ بِحُجَجِهِ لِيَعْلَموا أنهُ رسولٌ مِنْ عِنْدِهِ، أو أنَّ الأوامرَ مِنْ عِنْدِهِ، أو أنْ يكونَ القسمُ تَلْقيناً مِنَ اللهِ تعالى لرسولِهِ بأنْ يُقسِمَ لهمْ بهذهِ الأشياءِ لِيُزيلَ عنهمُ الشُّبَهَ والشكُوكَ التي اعْتَرَضَتْ للكَفَرَةِ في أمرِهِ ﷺ ويَدْعُوَهُمْ إلى النظرِ في حُجَجِهِ وآياتِهِ.

ثم القَسَمُ بما لَطُفَ مِنَ الأشياءِ، ودَقَّ، وبما كَثُفَ، وغَلُظَ، وبما كَبُرَ، وصَغُرَ، وبما ظَهَرَ، وخَفِيَ، تَتَّفِقُ كلُّها في إزالةِ الشُّبَهِ وإثباتِ التوحيدِ والرسالةِ والبعثِ. بلِ الأُعجوبةُ في ما لَطُفَ مِنَ الأشياءِ أعظَمُ منها بما كَثُفَ، وغَلُظَ. فأقسمَ مَرَّةً بالكواكبِ، ومَرَّةً بظلمةِ الليلِ وما يَضْحَى وبما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ.

إنَّ الخلائقَ كلَّها في الشهادةِ على وحدانيَّتِهِ وإثباتِ ربوبيَّتِهِ وإثباتِ علمِهِ وقدرتِهِ وسلطانِهِ مُتَّفِقَةٌ، ولأن ما لَطُفَ مِنَ الأشياءِ، وخَفِيَ منها، يَتَّصِلُ بما ظَهَرَ منها، فَيَتَضَمَّنُ ذِكْرُ ما خَفِيَ منها، واسْتَتَرَ، ذِكْرَ ما ظَهَرَ منها، وفي ذِكْرِ ما ظَهَرَ منها ذِكْرُ مُنْشِئِها، فيكونُ القَسَمُ في الحقيقةِ باللهِ تعالى.

ثم اخْتُلِفَ في الخُنَّسِ والكُنَّسِ؛ قالَ أبو بكرٍ: إنَّ الخُنَّسَ، هي النجومُ التي يَطْلُعْنَ منْ مَطالِعِها، ويَغْرُبْنَ في مَغارِبِها، والكُنَّسُ، هي النجومُ التي يَطْلُعْنَ منْ مَطالِعِها، ثم يَكْنُسْنَ، ويَخْتَفِينَ إلى أنْ يَعُدْنَ إلى مطالِعِهِنَّ، فَيَطْلُعْنَ.

وقيلَ: الخُنَّسُ الجواري الكُنَّسُ، هي خمسةُ كواكبَ، لَهُنَّ مَجارٍ في السماءِ، يُظْهَرْنَ بالليلِ، ويُسْتَرْنَ بالنهارِ، وسائرُ الكواكبِ ثوابتُ. ثم قيلَ: الخُنوسُ والكُنوسُ واحدٌ، وهو الاِخْتِفاءُ والغروبُ في مَغارِبِها والدخولُ فيها. وقيلَ: الكُنوسُ الاِخْتِفاءُ، والخُنوسُ التأخُّرُ، وكذا قالَ الفرّاءُ: هي النجومُ الخمسةُ [تَخْنُسُ][4] في مَجْراها، وترجِعُ.

وفي حديثِ كَعْبِ [الحَبْرِ][5] فَيَخْنُسُ بهمُ النهارُ كما تَخْنُسُ النجومُ الخُنَّسُ، أي يَحيدُ بهمْ، ويتأخَّرُ، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: [هي][6] الوحوشُ اللاتي تَخْنُسُ مِنَ الإنسِ، وتَكْنُسُ في مكانِهِنَّ. وأيّاً[7] كانَ، فهي كلُّها دالَّةٌ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ قيلَ: إذا أقبلَ، وقيلَ: إذا أدبرَ.

الآية ١٨ وقولُهُ[8] تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إذا انْفَجَرَ، وإذا ارْتَفَعَ.

وفي إقبالِ الليلِ وإقبالِ النهارِ تَثبيتُ القدرةِ والسلطانِ؛ وذلكَ أنَّ ظُلْمةَ الليلِ إذا غَشِيَتْ سَتَرَتْ وجودَ[9] الأشياءِ [ونورَ النهارِ][10] كَشَفَ عنها السِّتْرَ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يُغَطِّيَ الأشياءَ كلَّها بالحِيَلِ والأسبابِ لم يَتَمَكَّنْ [مِنْ ذلكَ][11] ولو أرادَ نَزْعَ الغِطاءِ عنها[12] لم يَملِكْ. فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيَعْلَموا أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قدرتُهُ هذا، فلا يُعْجِزُهُ أمرٌ، ولا يَتَعَذَّرُ عليهِ البعثُ، بل هو قادرٌ على إحيائِهِمْ وبعثِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: ويثبت. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وإنما. (٨) في الأصل وم: وفي قوله. (٩) في الأصل وم: عن وجوه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: منها. (١٢) في الأصل وم: عنهم.

الآية ١٩ [وقولُهُ تعالى](١): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فَمَوضِعُ القسمِ على هذا، وعلى قولِهِ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [الآية: ٢٢].

ثم تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي هذا الذي أتاكُمْ بِهِ محمدٌ ﷺ تَلَقَّاهُ عَنْ رسولٍ كريمٍ على ربِّهِ، وهو جبرائيلُ عليه السلام ثم نَسَبَ ههنا إلى الرسولِ ما سَمِعَ منهُ، ولم يَكُنْ مِنْ قِبَلِهِ، وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فَسَمَّاهُ كلامَ اللهِ على الموافقةِ أو لِما أنَّ ابْتِداءَهُ يرجِعُ إليهِ لا أنْ يكونَ المَسْموعُ كلامَهُ كما يُقالُ: هذا قولُ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، وهذا قولُ فلانٍ الشاعرِ، وليسَ الذي سمعْتَهُ قولَ مَنْ نُسِبَ إليهِ، ولكنْ نُسِبَ إليهِ لأنَّ ابْتِداءَهُ يَرْجِعُ إليهِ، فكذلكَ سَمَّى كلامَ اللهِ لأنهُ يَدُلُّ على كلامِهِ ولِما يَرْجِعُ إليهِ ابتداؤُهُ لا أنْ يكونَ نفسَ كلامِهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وفي وَصْفِهِ بالقوةِ فائدتانِ:

إحداهُما: ما ذَكَرْنا أنَّ فيهِ بَيانَ الأَمنِ مِنْ تغْيِيرٍ، يَقَعُ فيهِ مِنَ الأعداءِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والشياطينِ؛ والإنسُ يَحْتَجِزُ عنهمْ بقوتِهِ، فلا يَتَمَكَّنونَ منهُ حتى يُغَيِّروهُ، ويُبَدِّلوهُ. ووصَفَهُ بالأمانةِ في نفسِهِ لِيَأْمَنَ الخَلْقُ ناحيَتَهُ.

[والثانيةُ:](٢) وَصْفُهُ بالقوةِ على التَّخْويفِ والتَّحْذيرِ للذينَ عادَوا محمداً ﷺ فَيُخْبِرُهُمْ أنهُ معهُ يدفعُ عنهُ شَرَّهُمْ وكَيْدَهُمْ إنْ هَمُّوا بذلكَ بِهِ.

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لجبريلَ عليه السلام: «إنَّ اللهَ تعالى وَصَفَكَ بالقوةِ، فما أَثَرُ قوتِكَ؟ فقالَ: لمّا أَمَرَني اللهُ تعالى بإهلاكِ قومِ لوطٍ قَلَعْتُ قرياتِهِمْ، ورفَعْتُها بجناحٍ واحدٍ إلى السماءِ، ثم قَلَبْتُها» [الدّر المنثور: ٨/ ٤٣٣، وفيه عزو السيوطي إياهُ إلى تاريخ ابن عساكر عنْ معاويةَ بنِ قرة].

وليسَ بِنا إلى تَعَرُّفِ قوتِهِ حاجةٌ، وإنما بِنا الحاجةُ إلى أنْ نَعْرِفَ ما المَعْنَى والحكمةُ في ذِكْرِ قوتِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ فإنْ كانَ المرادُ مِنَ العرشِ المُلْكَ فَمَعناهُ: عندَ ذي المُلْكِ مَكينٌ، أي ذو قُدْرةٍ ومنزلةٍ، وقيلَ: العرشُ السريرُ؛ فإنْ كانَ كذلكَ فتأويلُهُ أنهُ مكينٌ عندَ مَنْ لهُ سريرُ المُلْكِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ قيلَ: إنَّ جبرائيلَ عليه السلام، رسولٌ إلى الملائكةِ كما هو رسولٌ إلى الناسِ. فإنْ كانَ كذلكَ ففيهِ إخبارٌ أنَّ الملائكةَ الذينَ يَعْبُدُهُمْ(٣) بعضُ الكَفَرَةِ يُطيعونَ جبرائيلَ عليه السلام، في ما يأمُرُهُمْ، ويَنْهاهُمْ، فما بالُهُمْ يَتْرُكونَ طاعتَهُ والائتِمارَ بأمرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي هُمْ يَأْتَمِنونَ بِهِ، ولا يَتَّهِمونَهُ في شيءٍ ممّا يَجيءُ بِهِ إليهِمْ، فكيفَ يَتَّهِمُهُ هؤلاءِ في ما يأتي إلى الرسولِ مِنَ الوَحْيِ؟

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ الكَفَرَةَ نَسَبوهُ إلى الجُنونِ حينَ رأى رسولُ اللهِ ﷺ جبرائيلَ على صورتِهِ، فَغُشِيَ عليهِ، وكانَ يَتَغَيَّرُ في كلِّ مَرَّةٍ يأتي بها(٤) جبرائيلُ عليه السلام، بالوَحْيِ(٥) لَونُ وجهِهِ، فَيَنْسُبونَهُ إلى الجُنونِ لهذا.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنما نَسَبوهُ إلى الجُنونِ لأنهُ أظهرَ المُخالَفَةَ لأهلِ الأرضِ، وكانَ في الأرضِ الجبابرةُ والفراعنةُ الذينَ مِنْ عادتِهِمُ القَتْلُ والتعذيبُ لِمَنْ أظهرَ الخِلافَ لهمْ، فكانَ ذلكَ منهُ مُخاطَرَةً بنفسِهِ وروحِهِ حينَ(٦) انتَصَبَ لِمعاداةِ مَنْ لا طاقةَ لهُ بهمْ [ومَنْ قامَ بخلافِ مَنْ لا طاقةَ لهُ بِهِ](٧) وانْتَصَبَ لِمُعاداتِهِ، فذلكَ منهُ حُمْقٌ وجُنونٌ في الشاهِدِ، نَسَبوهُ إلى الجُنونِ لهذا.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهمْ لم يَنْسُبوهُ إلى الجنونِ لِما ذَكَرْنا، ولكنْ شِدَّةُ سَفَهِهِمْ [هي التي حَمَلَتْهُمْ](٨) على هذا، فَنَسَبوهُ إلى

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: يعبدها. (٤) في الأصل وم: به. (٥) من م، في الأصل: الوحي.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: هو الذي حملهم.

الجُنونِ مَرَّةً وإلى أنهُ ساحرٌ أُخرى، ومرَّةً قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ومرَّةً قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] فكانوا يَنْسُبونَهُ إلى كلِّ ما ذَكَرْنا لا عَنْ بَحْثٍ منهمْ في حالِهِ ولكنْ على السَّفَهِ والعِنادِ.

ألا تَرَى أنهمْ يَنْسُبونَهُ إلى الجُنونِ مَرَّةً وإلى السِّحْرِ ثانياً، وهما أمرانِ مُتَناقِضانِ، لأنَّ الساحرَ، هو الذي بَلَغَ في العِلْمِ غايتَهُ، والجنونَ، هو النهايةُ في الجَهْلِ؟ ولو كانوا يقولونَهُ عنْ بَحْثٍ وتَدَبُّرٍ لكانوا لا يأتونَ بالمُخْتَلِفِ مِنَ القولِ، فَيَظْهَرُ جَهْلُهُمْ لِمَنْ يُريدونَ صَدَّهُ عنِ اتِّباعِ النَّبِيِّ ﷺ بل كانوا يَتَّفِقونَ على كلمةٍ واحدةٍ، فَيَصُدُّونَ عنها حتى يَقَعَ التَّلْبيسُ منهمْ مَوقِعَهُ، فَيَصِلونَ إلى مُرادِهِمْ مِنْ صَدِّ الناسِ عنِ اتِّباعِ النَّبِيِّ ﷺ.

وكذلكَ في ما زَعَموا أنهُ ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وأنهُ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤] أتَوا بالمُخْتَلِفِ مِنَ القولِ لأنَّ اخْتِلاقَهُ /٦٢٨ ـ ب/ وافْتِراءَهُ يُثْبِتُ أنهُ عالمٌ بنفسِهِ مُسْتَغْنٍ عنْ تعليمِ غَيرِهِ، وحاجَتَهُ إلى أنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ غَيرِهِ تُثْبِتُ عَجْزَهُ وجَهْلَهُ عنِ الاخْتِلاقِ بنفسِهِ.

فهذا كلُّهُ يَدُلُّ على أنهمْ لم يَنْسُبوهُ إلى الجُنونِ لأعلامٍ ظَهَرَتْ لهمْ، ولكنْ قَرَفوهُ بكلِّ ما حَضَرَهُمْ سَفَهاً منهمْ وعِناداً.

ثم إنْ كانوا نَسَبوهُ إلى الجنونِ لمّا غُشِيَ عليهِ عندما رأى جبرائيلَ ﷺ، على صورتِهِ، فقد أتاهُمْ بما لو تَفَكَّروا فيهِ لَعَلِموا أنهُ ليسَ بصاحِبِهِمْ جِنَّةٌ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وذلكَ أنهُ[1] أتاهُمْ بِحِكْمَةٍ أعْجَزَتْ[2] حكماءَ الإنسِ والجِنِّ عنْ إتيانِ مثلِها[3]، وأتاهُمْ بكتابٍ عَجِزَ أهلُ الكتابِ عنْ إتيانِ مثلِهِ.

فلو تَفَكَّروا فيهِ لَعَلِموا أنهُ ليسَ مِنْ فِعْلِ المجانينِ ولا مِنْ علومِهِمْ، ولكنهُ مِنْ عندِ اللهِ، أُكْرِمَ بِهِ، وإنْ كانوا بما نَسَبوهُ إلى الجُنونِ لمّا خاطَرَ بروحِهِ، فهمْ بحمدِ اللهِ تعالى لم يَتَهَيَّأْ لهمْ أنْ يَمْكُروا بِهِ ولا أنْ يَقْتُلوهُ، بل أظْفَرَهُ اللهُ عليهِمْ، وأظْهَرَهُ على الدينِ كلِّهِ، فصارَ ذلكَ الوجهُ الذي بِهِ نَسَبوهُ إلى الجنونِ آيةَ رسالتِهِ وعَلَمَ نُبُوَّتِهِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنهُ ﷺ رأى ربَّهُ بقلبِهِ، أي عظمتَهُ وسُلْطانَهُ مِنْ وجهٍ، لا يَقَعُ بِهِ تَشابُهٌ، وخَصَّ بالأُفُقِ لأنهُ مِنَ الأُفُقِ تَنْزِلُ الملائكةُ وأنواعُ الخيرِ كلُّها، أو المرادُ مِنْ ذلكَ الأماكنُ كلُّها.

[وقالَ][4] غَيرُهُ مِنْ أهلِ التفسيرِ: صَرَفَ الرُّؤيةَ إلى جبرائيلَ ﷺ، وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سَأَلَ جبرائيلَ ﷺ أنْ يَراهُ على صورتِهِ، فقالَ لهُ جبرائيلُ ﷺ، إنَّ الأرضَ لا تَسَعُني، ولكنْ إذا صَلَّيْتَ الفجرَ فانظُرْ إلى أُفُقِ السماءِ، فهنالكَ تراني، فَفَعَلَ، فَرَآهُ على صورتِهِ، ثم دنا منهُ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

فَذَكَرَ الأُفُقَ لأنَّ الشيءَ مِنَ البعدِ لا يَتَهَيَّأُ أنْ يُرى مِنْ أقطارِ الأرضِ، لذلكَ خَصَّ الأُفُقَ لأنَّ الشيءَ، إنْ كانَ كذلكَ، تَقَعُ رؤيتُهُ ممّا بَعُدَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وقُرِئَ بظنينٍ[5]. قالَ أبو عُبَيدٍ: والظَّنينُ أولى، لأنهُ، هو المُتَّهَمُ، والضَّنينُ البخيلُ، ولم يَنْسُبْ أحدٌ رسولَ اللهِ ﷺ إلى البُخْلِ بهذهِ الآيةِ، وقد كانوا يَتَّهِمونَهُ على الغيبِ، وهو القرآنُ، فكانوا ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وليسَ مِنْ عندِ اللهِ، ويقولونَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤] فَبَرَّأَهُ اللهُ تعالى ممّا قالوا بقولِهِ: وما هو على الغَيبِ بظَنينٍ.

ومَنْ قرأَ بالضادِ فهو يَحْتَمِلُ أوجهاً:

[أحَدُها][6]: ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ الأصَمُّ، وهو أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يكُنْ بضنينٍ بشيءٍ، عَلَّمَهُ اللهُ تعالى على أحدٍ مِنْ أصحابِهِ كما يَفْعَلُهُ غَيرُهُ مِنَ العلماءِ؛ لأنَّ العلماءَ، لا يُريدونَ أنْ يُعَلِّموا مَنِ اخْتَلَفَ إليهِمْ كلَّ ما عندَهُمْ مِنَ العلومِ حتى

(١) في الأصل وم: أنهم. (٢) في الأصل وم: أعجز. (٣) في الأصل وم: مثله. (٤) في الأصل وم: و. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٨٥. (٦) ساقطة من الأصل وم.

[لا][1] يَسْتَغْنِيَ عنهمْ. ورسولُ اللهِ ﷺ كانَ يَوَدُّ أنْ يُعَلِّمَ[2] جميعَ ما عَلِمَ مِنَ العلومِ أصحابَهُ؛ فكانَ يقومُ على تعليمِ كلٍّ منهمْ بِقَدْرِ طاقتِهِ، ولم يكنْ يَمْتَنِعُ عنِ التعليمِ بُخلاً منهُ وضَنّاً.

[والثاني][3]: أنْ يكونَ بَرَّأَهُ اللهُ تعالى مِنْ هذا لمّا عَلِمَ أنهُ في أمّةِ محمدٍ ﷺ مَنْ يَزْعُمُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خَصَّ بعضَ أصحابِهِ بتعليمِ أشياءَ، لم يُطْلِعْ عليها غيرَهُمْ، وتخصيصُ بعضٍ دونَ بعضٍ بتعليمِ ما عندَهُ، يَحُلُّ في الشاهِدِ؛ فكانَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ تكذيبُ أولئكَ الذينَ يَدَّعونَ هذا.

وهذا كما رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «صوموا لِرُؤيتِهِ وأفْطِروا لِرُؤيَتِهِ» [البخاري ١٩٠٩] فكأنهُ قالَ هذا لمّا عَلِمَ أنهُ يكونُ في أمتِهِ مَنْ يَتَقَدَّمُ الشهرَ بالصيامِ، فقالَ هذا لِيَتَعرَّفَ خَطأً ما يُتَقَدَّمُ مِنَ الشهرِ بالصيامِ على الخطإِ والجهالةِ ليسَ على إصابةِ الحقِّ. فَعَلَى ذلِكَ الحكمُ في ما ذَكَرْنا.

ثم صَرَفوا تأويلَ الغيبِ إلى القرآنِ، وهو عندَنا في القرآنِ وفي غيرِهِ مِنَ الأشياءِ التي أطْلَعَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ [عليها].

والثالث:][4] أنْ يكونَ الضَّنُّ مُنصَرِفاً إلى الشفاعةِ التي أكْرَمَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ بها. فهو لا يَخُصُّ بعضَ أمتِهِ دونَ بعضٍ بالشفاعةِ، بل يَعُمُّهُمْ جميعاً، فيكونُ هذا تَحريضاً على الاتِّباعِ لهُ والانْقِيادِ لطاعتِهِ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنهُ ليسَ بِضنينٍ في أداءِ شكرِ ما أنعَمَ اللهُ تعالى عليهِ، وقد[5] غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ، بلِ اجْتَهَدَ في أداءِ شُكْرِهِ حتى ذَكَرَ أنهُ تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ مِنْ طولِ القِيامِ، فقيلَ لهُ: ألَمْ يَغْفِرِ اللهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟ فقالَ: «أفلا أكونُ عبداً شَكوراً» [البخاري ١١٣٠ ومسلم ٢٨١٩و٢٨٢٠].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ النبيَّ ﷺ ليسَ مِنْ شَياطينِ الإنسِ ولا بمجنونٍ كما ذَكَرْتُمْ بل هو رسولٌ كريمٌ، والذي أتاكمْ بهِ مِنَ القرآنِ، لم يَتَلَقَّ مِنَ الشياطينِ، ولا هو مِنْ قِبَلِهِمْ كما تَلَقَّتْهُ الكهنةُ والسحرةُ مِنْ أفواهِهِمْ، بل هو ذِكْرٌ مِنَ اللهِ تعالى للعالَمينَ أنزلَهُ إليهِ الروحُ الأمينُ القويُّ الذي لا يَصِلُ [إليهِ][6] الشيطانُ، فَيُغَيِّرُهُ، ويُبَدِّلُهُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي فأينَ تَذهبونَ عنْ طاعتِهِ واتِّباعِهِ والانْقِيادِ لهُ، وقد أتاكُمْ ما يُلْزِمُكُمْ طاعتَهُ واتِّباعَهُ؟

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عظةٌ للعالَمينَ؛ يُذَكِّرُهُمْ بما يَحِقُّ عليهِمْ في حالِهِمْ، ويُبَيِّنُ لهمْ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى وما تَصيرُ إليهِ عَواقِبُهُمْ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي شَرَفٌ، قَدَّرَهُمْ بِهِ أئمةً يُقْتَدَى بهِمْ، ويُخْتَلَفُ إليهِمْ لِيُتَعَلَّمَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أوجهاً غيرَ ما ذَكَرْنا:

أحَدُها: أنَّ هذا القرآنَ الذي جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ تَلَقّاهُ مِنْ رسولٍ كريمٍ على اللهِ تعالى. فإذا لم تُؤمِنوا بهِ، ولم تَقْبَلوهُ، فما ذهبْتُمْ إلّا إلى قولِ الشيطانِ الرجيمِ.

[والثاني: أنّ قولَهُ:][7] ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ إلى مَنْ تَذهبونَ؟ وإلى مَنْ تَفزَعونَ إذا أتاكمْ بأسُ اللهِ ﷻ ونِقْمَتُهُ إذا لم تُؤْمِنوا باللهِ تعالى، وأنكَرْتُمُ البعثَ، ولم تُصدِّقوا الرسولَ ﷺ في ما أخْبَرَكُمْ بهِ؟ فإذا حلَّ بكمْ ما أنْذَرَكُمْ بهِ فإلى مَنْ تَلْجَؤونَ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

[والثالث: أنكُمْ][8] إذا لمْ تُؤمِنوا باللهِ تعالى، ولم تَتَّبِعوا ما أتاكُمْ بهِ محمدٌ ﷺ وقد تَقرَّرَ عندَكُمْ [صِدْقُ ما][9] أتاكُمْ مِنَ الآياتِ المُعْجِزةِ، فَبِأيِّ حديثٍ تُصدِّقونَ بعدَ ذلكَ، وتذهبونَ إليهِ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟ [المرسلات: ٥٠].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يعلمهم. (٣) في الأصل وم: وجائز. (٤) في الأصل وم: وجائز. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: صدقه إنما.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ معناهُ، واللهُ أعلَمُ، أن هذا القرآنَ ذِكْرٌ لِمَنْ شاءَ أنْ يَستقيمَ مِنَ العالَمينَ؛ فهو في نفسِهِ ذِكْرٌ وآياتٌ وهُدًى، ولكنْ يَنْتَفِعُ بهذا الذكرِ مَنْ شاءَ الاِسْتِقامةَ، ويَهْتَدي بِهِ مَنْ طَلَبَ الهدايةَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وهو في نفسِهِ هُدًى، ولكنْ يَهْتَدي بِهُداهُ المُتَّقونَ. ومَنْ ليسَ بِمُتَّقٍ، فهو عَمًى عليهِ ورِجْسٌ[١] وقالَ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] وهو كانَ يُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، ولكنَّ مَعْناهُ: أنهُ يَنْتَفِعُ بالذي يُنْذَرُ بِهِ مَنِ اتَّبَعَ الذكْرَ. وقالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣] وهي في أنفسِهِمْ آياتٌ، ولكنْ يَنْتَفِعُ بآياتِهِ أُولو الأبصارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ يُحْمَلَ على تحقيقِ المَشيئةِ، ويكونُ تأويلُهُ/ ٦٢٩ ـ أ/ أنَّ مَنْ أرادَ الاِسْتِقامةَ على أمرِ اللهِ تعالى أو على الحَقِّ، فهذا الذِّكْرُ، وهو القرآنُ يُقيمُهُ على الحقِّ وعلى الأمرِ، ويَهْديهِ إلى ذلكَ.

[والثاني:][٢] أنَّ هذا على تحقيقِ الفعلِ، فيكونُ مَعْناهُ: مَنِ اسْتَقامَ منكُمْ على الحقِّ والأمرِ، فهو ذِكْرٌ لهُ.

والأصلُ أنَّ المشيئةَ وصفُ فعلِ كلِّ مُختارٍ. وإذا كانَ هكذا صارتِ المَشيئةُ مُقْتَرِنةً [بهِ][٣] فإذا فَعَلَ فقد شاءَ، فكانَ في إثباتِ الفعلِ إثباتُ المَشيئةِ. لِذلكَ اسْتَقامَ حملُهُ على ما ذَكَرْنا، وهو أنْ يُجْعَلَ أحَدُهُما كِنايةً عنِ الآخَرِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ على تحقيقِ المَشيئةِ، فَمَعْناهُ: أنكُمْ لا تَشاؤونَ الاِسْتِقامةَ على ما ذَكَرْنا إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ.

وإنْ كانَ على تَحقيقِ الفعلِ فتأويلُهُ أنكُم ما اسْتَقَمْتُمْ على الطريقةِ إلّا بِمَشيئةِ اللهِ تعالى.

قالَ بَعْضُهُمْ: تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ إنزالَ هذا الكتابِ، فأنْزَلَهُ اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ بِغَيرِ مَشيئتِكُمْ. وهذا غيرُ مُحْتَمَلٍ عندنا لأنهُ قد سَبَقَ مِنَ القومِ الإرادةُ والسؤالُ بإرسالِ الرسولِ إليهِمْ بقولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] فَثَبَتَ أنهُ قد سَبَقَ منهمُ السؤالُ بإرسالِ الرسولِ وإنزالِ الكتابِ عليهِ، وكانَ[٤] تأويلُهُ ما ذَكَرْنا.

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ كلَّ مَنْ شاءَ اللهُ تعالى منهُ الاِسْتِقامةَ توجدُ منهُ الاِسْتِقامةُ، ولا يجوزُ أنْ يَشاءَ مِن أحدٍ اسْتِقامتَهُ، ولا يَسْتَقيمُ كما قالتِ المعتزلةُ لأنَّ اللهَ تعالى مَنَّ على مَنِ اسْتَقامَ بِمَشيئةِ اسْتِقامتِهِ. فلو لم توجدِ الاِسْتِقامةُ مِن كلِّ [مَنْ][٥] شاءَ الاِسْتِقامةَ لم يكُنْ لِلاِمْتِنانِ مَعْنًى، لأنَّ الاِسْتِقامةَ وغَيرَ الاِسْتِقامةِ تكونُ بِهِ لا باللهِ تعالى، واللهُ المُسْتعانُ [ولا حولَ، ولا قوةَ، إلّا باللهِ العَليِّ العظيمِ][٦].

---

(١) في الأصل وم: وعليه رجس. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ويكنه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

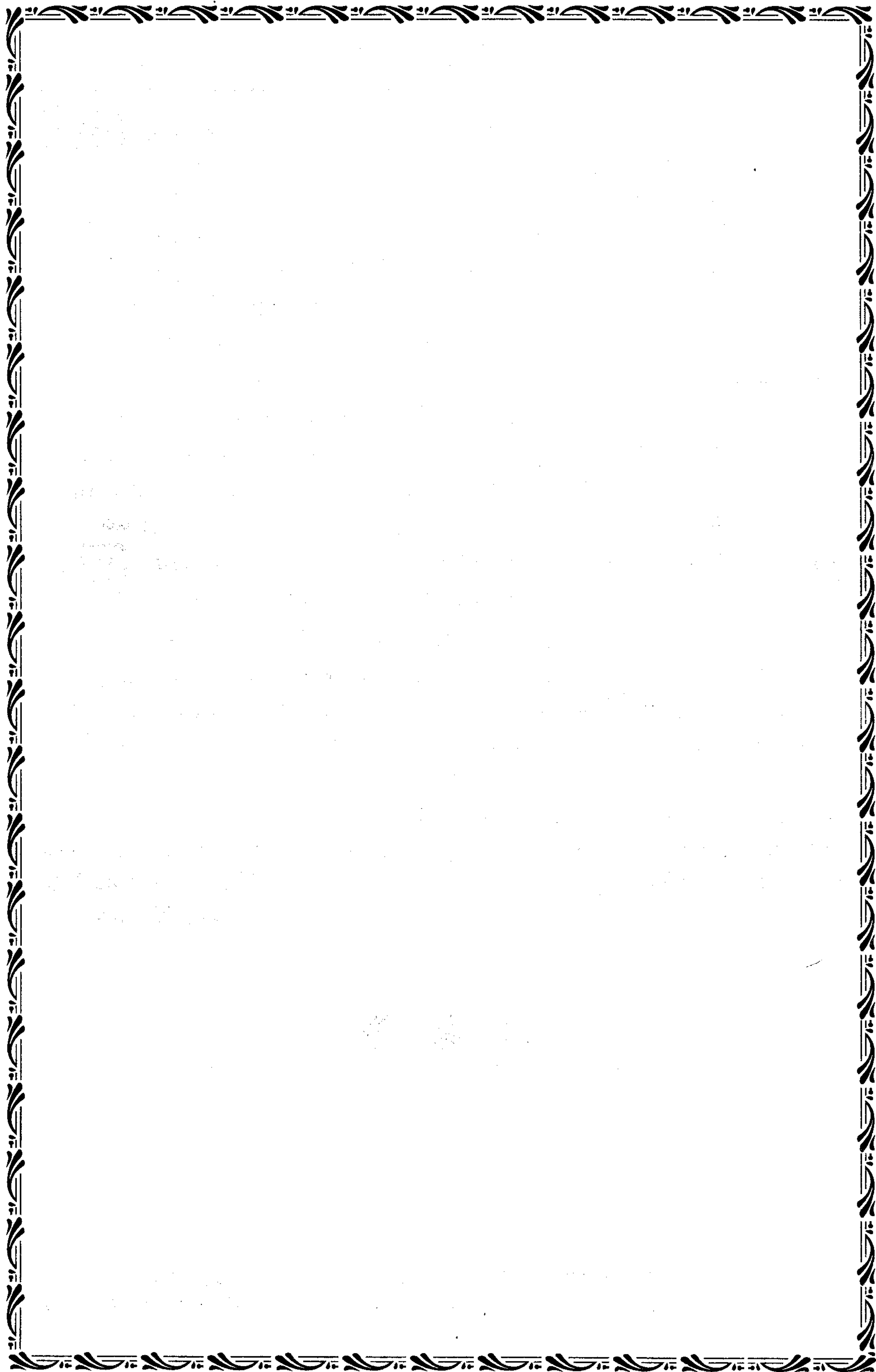

سورة الانفطار

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ هذا جوابٌ عنْ سؤالٍ تَقَدَّمَ، لم يُبيَّنِ السؤالُ عندَ ذِكْرِ الجوابِ، لأنهُ[2] إذا الجَوابُ عنْ سؤالٍ [كانَ][3] مَتى؟ فجائزٌ أنْ يكونَ سؤالُهُمْ ما ذُكِرَ في إتمامِ الجَوابِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الآية: ٥] فنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ الآياتُ إلى آخِرِها.

ثم ذَكَرَ الانفِطارَ ههنا، وهو الشَّقُّ، وذَكَرَ الفَتْحَ في موضعٍ آخَرَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩] وقولُهُ[4] في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات: ٩] [وقولُهُ][5]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

فمنهمْ منْ ذَكَرَ أنَّ شَقَّها وانفِطارَها أنْ تُفْتَحَ أبوابُها. ومنهمْ منْ حملَهُ على السؤالِ الذي يُعْرَفُ مِنْ شَقِّ الأشياءِ، وهذا أقربُ، لأنَّ الآيةَ في موضِعِ التَّخويفِ والتَّهويلِ، وليسَ في فَتْحِ أبوابِها. وإنما التَّخويفُ في انْشِقاقِها بِنَفْسِها.

ثم السؤالُ عنْ مُلاقاةِ الأعمالِ وعنْ عِلْمِ الأنفُسِ بها فسؤالٌ عنِ الساعةِ.

وفي ذِكْرِ انْفِطارِ السماءِ وانْتِشارِ الكواكبِ وتَفْجيرِ البِحارِ وتَسْيِيرِ الجبالِ وجَعْلِ الأرضِ قاعاً صَفْصَفاً وصْفُ أحوالِ الساعةِ وآثارِها، وليسَ فيهِ إشارةٌ إلى وقتِ كَونِها لأنهُ ليسَ في التَّوَقُّفِ على حَقيقةِ وقتِها تَخويفٌ وتهويلٌ، وفي ذِكْرِ آثارِها تَخويفٌ؛ وهو أنهُ عَظَّمَ هَولَ ذلكَ اليومِ، واشْتَدَّ، حتى لا تقومَ الأشياءُ القويةُ الغالبةُ في نفسِها، وهي الجبالُ والسمواتُ والأرضونَ، بل يؤثِّرُ فيها هذا التأثيرَ حتى تصيرَ ﴿ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وتصيرَ ﴿كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وتَنْشَقُّ السماءُ، وتصيرُ ﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا﴾ [طه: ١٠٦] فكيفَ يقومُ لها الإنسانُ الضعيفُ المَهينُ؟

وإذا كانتِ السمواتُ والأرضونَ والجبالُ معَ طواعِيَتِها لِرَبِّها، لا تقومُ لها وأفزاعِها، بل تَتَقَطَّعُ، فكيفَ يقومُ لها الآدميُّ الضعيفُ مع خُبْثِ عملِهِ وكَثْرَةِ مساويهِ معَ ربِّهِ؟

فَيُذَكِّرُهُمْ هذهِ الأحوالَ لِيَخافوهُ، ويهابوهُ، فَيَسْتَعِدّوا لهُ.

فلهذا، واللهُ أعلَمُ، ذُكِرَتِ الأحوالُ التي عليها حالُ ذلكَ اليوم، ولم يُبَيِّنْ متى وقتُهُ، ولهذا ما لم يُبَيِّنْ مُنْتَهى عُمُرِ الإنسانِ ليكونَ أبداً على خَوفٍ وَوَجَلٍ مِنْ حُلولِ الموتِ بِهِ، فيأخُذَ أُهْبَتَهُ، ويَتَشَمَّرَ لهُ.

ولو بَيَّنَ لهُ كانَ يَقَعُ لهُ الأمرُ بذلكَ، فَيَتْرُكُ التَّزَوُّدَ إلى دُنُوِّ ذلكَ الوقتِ، ثم يَتَأَهَّبُ لهُ إذا دنا انْقِضاءُ عُمُرِهِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ أحوالَ القيامةِ في مَواضِعَ، وجَعَلَ ذلكَ مُتَرادِفاً مُتَتابِعاً في القرآنِ، فيكونُ في ذلكَ مَعْنَيانِ:

أحَدُهما: أنَّ للقلوبِ تَغَيُّراً وتَقَلُّباً في أوقاتٍ؛ فَرُبَّ قلبٍ لا يَلينُ لحادثةٍ أوَّلَ مَرَّةٍ حتى يُعادَ عليهِ ذِكْرُها[6] مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وحالاً بَعْدَ حالٍ، ثم يَلينُ؛ فيكونُ في تتابُعِ ذِكْرِ البعثِ والقيامةِ مَرَّةً [بَعْدَ مَرَّةٍ][7] إبلاغٌ في النِّذارةِ وقَطْعُ عُذْرِ المَعْذورينَ يومَ القيامةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: لأن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: ذكره. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: أنَّ القومَ كانوا حَديثي العهدِ بالإسلامِ، وقد وَقَعَ الإسلامُ في قلوبِهِمْ مَوقعاً، فيكونُ في تكرارِ المواعظِ تَلْقيحُ لِعقولِهِمْ وتَلْيينٌ لقلوبِهِمْ على ما أكْرَمَهُمُ اللهُ تعالى مِنَ الإيمانِ ونُصْرَةِ رسولِ ربِّ العالَمينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ فإمّا أنْ يكونَ انْتِثارُها لأنها مَجعولةٌ لِمَنافعِ الخَلْقِ، فإذا اسْتَغْنَى عنها أهلُها فلا مَعْنَى لِبَقائها أو لِما جُعِلَتْ زينةً للسماءِ، فإذا انْفَطَرَتِ السماءُ لم يُحْتَجْ إلى زينةٍ بَعْدَها.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ قالَ قائلونَ: أي يُفَجَّرُ ماؤُها في بَحْرٍ واحدٍ، ثم يَفورُ ماءُ ذلكَ البحرِ الذي اجْتَمَعَ فيهِ المِياهُ إمّا بما تَنَشَّفُها الأرضُ [وإمّا بِجَعْلِها][1] في بطنِ الحوتِ التي ذُكِرَ أنَّ الأرضينَ، قرارُها على ظهرِهِ، أو في بَطنِ الثورِ. ثم يُسَوّي اللهُ تعالى الأرضَ كلَّها حتى لا يَبْقَى فيها عِوَجٌ ولا قَعْرٌ. فَتَيْبَسُ البحارِ بما شاءَ إمّا[2] بالجبالِ [وإمّا بِغَيرِها][3] وقالَ بَعْضُهُمْ: بل يَفورُ ماءُ كلِّ بحرٍ في مكانِهِ لا أنْ تُجْمَعَ المِياهُ كلُّها في مكانٍ واحدٍ وبحرٍ واحدٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: بل يَمْتَزِجُ بعضُها ببعضٍ، فَتصيرُ ناراً، يُعَذَّبُ بها أهلُها، وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] وقولُهُ[4]: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] واللهُ أعلَمُ أيَّ ذلكَ يكونُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي بُعِثَ مَنْ فيها، أي[5] تَقْذِفُ القبورُ مَنْ فيها.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي تَعْلَمُ الأنفسُ ما عَمِلَتْ إلى آخِرِ ما انْتَهَى عَمَلُها، فلا يَخفَى عليها شيءٌ مِنْ أمرِها.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: ما قَدَّمَتْ مِنْ خيرٍ وأخَّرَتْ مِنْ شرٍّ فَسَتَعْرِفُهُ في ذلكَ اليومِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ مِنَ العَمَلِ أي ما عَمِلَتْ بنفسِها ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي ما سَنَّتْ مِنَ السُّنَّةِ، فَعُمِلَ بها بَعدَها. وهذا الذي ذَكروهُ داخلٌ في تفسيرِ الجملةِ التي ذَكَرْنا أنها تَعْلَمُ مِنْ أوّلِ ما عَمِلَتْ إلى آخِرِ ما انْتَهَى عَمَلُها.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ/ ٦٢٩ ـ ب/ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ رَبِّكَ، فيكونُ تأويلُهُ أي شيءٍ غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ الكريمِ حتى اغْتَرَرْتَ بهِ، واغْتِرارُهُ بربِّهِ[6] الإعراضُ عَنْ طاعتِهِ وعبادتِهِ، وقد تُسْتَعْمَلُ الباءُ في مَوضعِ مِنْ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ومعناه: يَشْرَبُ منها، لا أنْ يَشْرَبَ[7] مِنْها كَرْعاً، أو يَجْعَلَ العينَ آنيةً لهمْ.

ثم وجهُ الجوابِ لِلْمُغْتَرِّ باللهِ تعالى في قولِهِ ﷻ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ وهو أنَّ كَرَمَهُ دعا الإنسانَ إلى ركوبِ المعاصي لأنهُ لم يأخُذْهُ بالعقوبةِ وقتَ جريمتِهِ، فَتجاوزَ عنهُ، أو تأخيرُهُ العقوبةَ حَمَلَهُ على الاغْتِرارِ؛ إذْ ظَنَّ أنهُ يُعْفَى عنهُ أبداً [لِذلكَ أقدمَ][8] عليها، وإلّا لو حَلَّتْ بهِ العقوبةُ وقتَ ارْتِكابِ المَعْصيةِ لَكانَ لا يَتَعاطَى المعاصيَ، ولا يرتكِبُها، فَعُذْرُهُ أنْ يقولَ: الذي حَمَلَني على الإغفالِ والاغْتِرارِ كَرَمُكَ أو حُمْقي كما قالَ عمرُ بْنُ الخطابِ رضي الله عنه حينَ تَلا هذهِ الآيةَ: الحُمْقُ يا ربُّ.

أو يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي أيُّ شيءٍ غَرَّكَ حتى ادَّعَيتَ على اللهِ تعالى أنهُ أمَرَكَ باتّباعِ آبائكَ، أو تَشْهَدَ عليهِ إذا ارْتَكَبْتَ الفَحْشاءَ أنَّ اللهَ تعالى أمرَكَ بهِ على ما قالَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ألَمْ أبْعَثْ إليكَ الرسولَ؟ ألَمْ أُنْزِلْ إليكَ الكتابَ، فَيَتَبَيَّنَ لكَ ما أمَرْتُ بهِ عمّا نَهَيتُ عنهُ؟

وقيل: نَزَلَتِ الآيةُ في شأنِ كَلَدَةَ [بنِ أُسَيدٍ الجُمَحِيِّ حينَ][9] ضربَ النَّبِيَّ ﷺ فلم يُعاقِبْهُ اللهُ تعالى، فأسلَمَ حمزةُ حَمِيَّةً لقومِهِ، فَهَمَّ كَلَدَةُ أنْ يَضْرِبَهُ ثانياً، فَنَزَلَتِ الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ [حينَ لم يُهْلِكْكَ][10] عند تناوُلِ رسولِ اللهِ.

---

(١) في الأصل وم: أو تجعل. (٢) من م، في الأصل: أو. (٣) في الأصل وم: أو بغير. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: عن ربه. (٧) في الأصل وم: يشربوا. (٨) في الأصل وم: كذلكَ فأقدم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث لم تهلك.

لكنْ لو كانتِ الآيةُ فيهِ، [لكانَ كُلُّ][1] الناسِ في مَعْنَى الخِطابِ على السواءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ ففي هذا التَّعريفِ المِنَّةُ لِيَسْتَأدِيَ منهُ الشكرَ، وفيهِ ذِكْرُ قُوَّتِهِ وسلطانِهِ حينَ[2] قَدَرَ على تَسْوِيَتِهِ في تلكَ الظلماتِ الثلاثِ التي لا يَنْتَهي إليها تدبيرُ البشرِ، ولا يَجري عليها سلطانُهُمْ لِيَهابوهُ، ويَحْذَروا مُخالَفَتَهُ.

وفيهِ ذِكْرُ حِكْمَتِهِ وعلمِهِ لِيَعْلَموا أنهمْ لم يُخْلَقوا عَبَثاً ولا سُدًى، لأنَّ الذي بَلَغَتْ حِكْمَتُهُ ما ذَكَرَ مِنْ إنشائِهِ في تلكَ الظُّلُماتِ الثلاثِ مِنْ وجهٍ، لا يَعْرِفُهُ[3] الخَلْقُ، لا يجوزُ أنْ يَخْرُجَ خَلْقُهُ عبثاً باطلاً، بل خَلَقَهُمْ لِيأمُرَهُمْ، ويَنهاهُمْ، ويُرْسِلَ إليهمُ الرسلَ، ويُنَزِّلَ عليهمُ الكتُبَ، فَيُلْزِمَهُمُ اتِّباعَها، ويُعاقِبَهُمْ إذا أعْرَضوا عنها، وتركوا اتِّباعَها.

وسَنَذْكُرُ وَجْهَ التَّسْوِيةِ بهِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢] أنهُ سَوّاهُ على ما تُوجِبُهُ الحكمةُ، أو سَوّاهُ مِنْ وجهِ الدلالةِ على معرفةِ الصانعِ، أو سَوّاهُ في ما خَلَقَ لهُ مِنَ اليدينِ والرجلَينِ والسَّمْعِ والبَصَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي سَوّاكَ، وَوَجْهُ التَّسْويةِ أنْ جَعَلَ لهُ يَدَينِ مُسْتَوِيتَينِ، لم يَجْعَلْ إحداهُما أطولَ مِنَ الأُخرى، وكذلكَ سَوّى بَينَ رجلَيهِ، وقُرِئَ بالتَّخْفيفِ والتَّشْديدِ[4].

قالَ أبو عُبَيدٍ: مَعْنَى قولِهِ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتَّخْفيفِ أي أمالَكَ، وليسَ في ذِكْرِهِ كثيرُ حكمةٍ، واختارَ التَّشْديدَ فيهِ.

وليسَ كما ذَكَرَ، بل في ذِكْرِ هذا مِنَ الأعجوبةِ ما في ذِكْرِ الآيةِ؛ فقولُهُ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي صَرَفَكَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ ووجْهُ صَرْفِهِ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ كانَ في الأصلِ ماءً مَهيناً في صُلْبِ الأبِ، فَصَرَفَ ذلكَ الماءَ إلى رَحِمِ الأمِّ، ثم أنْشَأهُ نُطْفَةً، ثم صَرَفَها إلى العَلَقةِ وإلى المُضْغَةِ إلى إنشائِهِ خَلْقاً سَوِيّاً. أو صَرَفَهُ على ما عليهِ الحالُ مِنَ الصِّحَّةِ إلى السُّقْمِ ومِنَ السُّقْمِ إلى البُرْءِ، فيكونُ في ذِكْرِ هذا التعريفِ المِنَّةُ والقُدْرةُ والحِكْمةُ كما في الأوَّلِ؛ ففيهِ أعظَمُ الفوائدِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ منهمْ مَنْ جَعَلَ: ما[5]: ههنا بِمَعْنى الذي. ثم قولُهُ: ﴿شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا عبارةً عمّا تَقَدَّمَ مِنَ الأوقاتِ، وهو أنهُ قد شاءَ تركيبَكَ على الصورةِ [التي][6] أنتَ عليها لا على صورةِ البهائمِ وغيرِها، فيكونُ في ذِكْرِهِ تَذْكيرُ المِنَنِ والنِّعَمِ لِيَسْتَأدِيَ منهُ الشكْرَ.

وَوَجْهُ التَّذْكيرِ أنهُ أنْشَأهُ على صورةٍ، يَتَمَنّاها، ولا يَتَمَنّى أنْ يكونَ بِغَيرِ هذهِ الصورةِ مِنَ الجواهِرِ، وأنشَأهُ على صورةٍ يَعْرِفُ [بها][7] المحاسِنَ والمَساوِئَ، ويَعْرِفُ الحِكْمةَ والسَّفَهَ، ويُمَيِّزُ بينَهما، ويُمَيِّزُ بَينَ المَضارِّ والمَنافِعِ، وأنشَأهُ على صورةٍ سُخِّرَ لهُ [بها][8] السمواتِ والأرضِينَ والأنعامَ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [لقمان: ٢٠] وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الآية [الإسراء: ٧٠] ولم يُسَخِّرْهُ لِغَيرِهِ. فَثَبَتَ أنَّ فيهِ تذكيرَ النِّعَمِ لِيَشْكُروهُ ويَقوموا بِحَمْدِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على الاسْتِئْنافِ في أنَّ تركيبَهُ على ما هو عليهِ، أي على صورةٍ شاءَ مِنَ الصُّوَرِ التي يَسْتَقْذِرُها؛ ويَمْسَخُهُ قِرداً وخِنزيراً لِمكانِ ما يَتَعاطَى مِنَ المَعاصي، فيكونُ في ذِكْرِهِ تذكيرُ القُدْرةِ والقوةِ لِيُراقِبَ اللهَ تعالى، ويَهابَهُ، فَيَتْرُكَ مَعاصِيَهُ، ويُسارِعَ إلى طاعتِهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ فإنْ حَمَلْتَ قولَهُ: ﴿كَلَّا﴾ على التَّنْبيهِ والرَّدْعِ فَيُمْكِنُ أنْ يُعْطَفَ على ما قَبْلَهُ وعلى ما بَعدَهُ، وكذلكَ إذا حَمَلْتَهُ على القَسَمِ بِمَعْنَى: حَقّاً، فإنهُ يَسْتَقيمُ عطفُهُ على الأمرَينِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلدِّينِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ دينُ الإسلامِ. والأصلُ أنَّ الدينَ إذا أُطْلِقَ أُريدَ بهِ الدينُ الحقُّ، وهو الإسلامُ، وكذلكَ الكتابُ المُطْلَقُ كتابُ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: فكل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: يعرفها. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٨٩. (٥) في الأصل وم: ألما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ويجوزُ أنْ يكونَ أُريدَ بِهِ البعثُ والجَزاءُ. وسُمّيَ يومُ الدينِ لِما ذَكَرْنا أنَّ الناسَ يُدانونَ بأعمالِهِمْ. والحكمةُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ أقرّوا بأنَّ اللهَ تعالى أحكمُ الحاكِمينَ. وتكْذيبُهُمْ بيومِ الدينِ يُوجِبُ أنْ يكونَ أسفَهَ[1] السفهاءِ لا أنْ يكونَ أحكَمَ الحاكمينَ، لأنَّ الدنيا، عواقِبُها الفَناءُ[2] والهلاكُ؛ فهمْ إذا كذَّبوا بالبعثِ، فقد زَعَموا أنهمْ ما أُنشِئوا إلّا لِلهلاكِ والفَناءِ، ومَنْ بَنَى بِناءً، ولم يَقْصِدْ بِبِنائِهِ سِوَى أنْ يَنْقُضَهُ، ويَهْدِمَهُ، فهو سفيهٌ عابثٌ في الفعلِ، فلم يَحْصُلوا مِنْ تكذيبِهِمْ إلّا على نَفْيِ الحِكْمةِ مِنَ الصانعِ وتثْبيتِ السَّفَهِ للهِ تعالى ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] وهو قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] وهمْ لم يكونوا يَدَّعونَ أنهما خُلِقَتا باطلاً، ولا يَظُنّونَ ذلكَ، ولكنَّ الإنكارَ الذي وُجِدَ منهمْ بالبَعثِ والجزاءِ يَقْتَضي خَلْقَهُما باطلاً. فَعَلَى ذلكَ إنكارُهُمُ البعثَ يُزيلُ عنهُ القولَ بأنهُ أحكمُ الحاكمينَ، ويُثْبِتُ ما ذَكَرْنا مِنَ السَّفَهِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ وهمْ لم يكونوا يقبلونَ الأخبارَ، ولا كانوا يُؤمنونَ بها، ثم أخبَرَهُمْ أنَّ عليهِمْ حُفّاظاً لأنَّ الذي حَمَلَهُمْ على الجهلِ تركُهُمُ الإنصافَ مِنْ أنفسِهِمْ، وإلّا لو أنْصفوا مِنْ أنفسِهِمْ لكانَ إعطاؤُهُمُ النَّصَفَةَ يُوصِلُهُمْ إلى تدارُكِ الحقِّ ومَعْرفةِ ما عليهِمْ مِنَ الواجبِ.

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ المرءَ إذا كانَ عليهِ حافظٌ أدّاهُ ذلكَ إلى المُراقبةِ، فَيَرْتَدِعُ عن تَعاطي ما يُؤخَذُ عليهِ، فَنَبَّهَنا أنَّ علينا حُفّاظاً لِنَحْتَشِمَ عنهمْ، ولا نأتيَ مِنَ الأمورِ ما يَسومُهُمْ، وَوَصَفَهُمْ أنهمْ كرامٌ لِنَصْحَبَهُمْ صُحْبةَ الكرامِ، ومِنْ صُحْبةِ الكرامِ أنْ نَحْتَرِمَهُمْ، ونَتَّقِيَ مُخالَفَتَهُمْ، ولا نَتَعاطَى ما يسومُهُمْ.

الآية ١١ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ وفي ذِكْرِ الكرامِ فائدةٌ أُخرَى، وذلكَ أنَّ قولَهُ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ هُمْ[3] على اللهِ تعالى، والكريمُ على اللهِ تعالى هو المُتَّقي. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فيكونُ فيهِ أمانٌ لهمْ أنهمْ لا يَزيدونَ، ولا يَنْقُصونَ في الكتابةِ، وإنما يكتبونَ قَدْرَ عَمَلِهِمْ كما ذَكَرْنا مِنَ الفائدةِ في وصفِ جبرائيلَ/ ٦٣٠ ـ أ/ عليه السلام، بالقوةِ والأمانةِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهمْ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قَبْلَ أنْ نَفْعَلَ بِما عَرَّفَهُمُ اللهُ تعالى، فيكونُ في تَعْريفِهِ إياهُمْ إلزامُ الحُجّةِ عليهِمْ، ويكونُ الذي يكتبونَ امْتِحاناً امْتُحِنوا بِهِ؛ إذْ قد فُوِّضَ إلى بعضِهِمْ أمرُ كتابةِ الأعمالِ وإلى بعضٍ إرسالُ الأمطارِ[4] ونحوُ ذلكَ.

[والثاني: أنهمْ][5] ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقتَ فِعْلِكُمْ جِهَةَ الفِعْلِ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، فيكونُ لِفِعلِ الخيرِ آثارٌ بها يَعرفونَ أنَّ الفاعلَ بِهِ قَصَدَ بِهِ جِهةَ الخيرِ، ويكونُ لِفِعلِ الشَّرِّ آثارٌ بها يَعْرِفونَ ذلكَ أيضاً.

ثم عُذْرُ المسلِمينَ في تَرْكِ المُراقبةِ أقلُّ مِنْ عُذْرِ المُكَذِّبينَ بالدينِ لأنَّ المسلِمينَ عَلِموا أنَّ عليهِمْ حُفّاظاً، يَحْفَظونَ عليهِمْ أعمالَهُمْ، ويكتُبونَها عليهِمْ، ثم هُمْ معَ ذلكَ يَفْعلونَ، ولا يَصْحَبونَهُمْ صُحْبةَ الكِرامِ، ويَتْرُكونَ التَّيَقُّظَ والتَّبَصُّرَ، والكَفَرَةُ يُنكِرونَ أنْ يكونَ عليهِمْ حُفّاظٌ، ومَنْ كانَ هذا حالُهُ فالإغفالُ عن مِثْلِهِ غَيرُ مُسْتَبْعَدٍ.

الآيتان ١٣و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ قد ذَكَرَ أنَّ البَرَّ أُعطَى ما طُلِبَ منهُ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على ما ذَكَرْنا أنَّ البِرَّ إذا ذُكِرَ دونَ التَّقْوَى اقْتَضَى المَعْنَى الذي يُرادُ بالتَّقْوَى لأنهُ أخبَرَ أنَّ البِرَّ، هو الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، ثم ذَكَرَ أنَّ الذي جَمَعَ بَينَ هذهِ الأشياءِ، هو المُتَّقي.

---

(١) من م، في الأصل: أريد. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الفساد. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: الأمصار.
(٥) في الأصل وم: أو.

ثم احتجَّ المعتزلةُ بقولِهِمْ بالتَّخليدِ في النارِ لِمَنِ ارْتَكَبَ الكبيرةَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ لأنَّ مَنِ ارتكَبَ الكبيرةَ فاجرٌ، وقد قالَ[1] اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾][2] وزعموا أنهُ ما لم يأتِ بالشرائطِ [التي][3] ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فهو غيرُ داخلٍ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

والأصلُ عندنا ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ وعيدٍ مذكورٍ مُقابلَ الوَعْدِ فهو في أهلِ التَّكْذيبِ [لِما ذَكَرَ مِنَ التَّكْذيبِ][4] عندَ التفسيرِ بقولِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: ٧إلى١٠] وقالَ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤و١٠٥] وإذا كانَ كذلكَ لم يَجِبْ قَطْعُ [القولِ][5] بالتَّخليدِ لِمَنِ ارتكَبَ الكبيرةَ، بل وَجَبَ القولُ بالوقْفِ فيهمْ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لأهلِ النارِ يومَ البعثِ أعلاماً ثلاثةً، بها يُعْرَفونَ، وتُبَيِّنُ أنهمْ من أهلِ النارِ، لم يَجْعَلْ شيئاً مِنْ تلكَ الأعلامِ في أهلِ السعادَةِ:

أحدُها: اسْوِدادُ الوُجوهِ [بقولِهِ: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]][6].

والثاني: بِما يُدْفَعُ إليهمْ كِتابُهُمْ بِشِمالِهِمْ ومِنْ وراءِ ظُهورِهِمْ، ويُدْفَعُ إلى أهلِ الجنةِ كُتُبُهُمْ بأيمانِهِمْ.

والثالثُ: في أنْ تَخِفَّ مَوازينُهُمْ، وتَثْقُلَ مَوازينُ أهلِ الحقِّ.

فهذهِ أعلامُ أهلِ الشقاءِ؛ وفي ما ذَكَرَ: اسْوِدادُ الوجوهِ قَرَنَ بهِ التَّكْذيبَ؛ قالَ[7]: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وفي ما ذَكَرَ دفعُ الكتابِ بالشِّمالِ ومِنْ وراءِ الظهورِ؛ قالَ فيهِ: ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٢و٣٣] وقالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [إلى قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾][8] [الانشقاق: ١٠إلى٢٥].

وقالَ تعالى عنهُ ما ذَكَرَ [في خِفَّةِ][9] الميزانِ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

ولم يذكُرْ شيئاً[10] مِنْ هذهِ الأعلامِ [في][11] غيرِ المُكَذِّبينَ، فثبتَ أنَّ الوَعيدَ في المُكَذِّبينَ لا في غَيرِهِمْ. لِذلكَ لم يَسَعْ لنا أنْ نُشرِكَ أهلَ الكبائرِ مع أهلِ التَّكْذيبِ في اسْتيجابِ العِقابِ وقَطْعُ القولِ بالتَّخليدِ. بل وَجَبَ الوقفُ في حالِهِمْ والإرجاءُ في أمرِهِمْ.

وقد[12] ذَكَرَ في مَواضعِ الإيمانِ باللهِ تعالى أدْنى مَراتِبِ أهلِ الإيمانِ، وَوَعَدَ عليهِ الجنةَ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١] وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٥٢] فَذَكَرَ في هذهِ الآياتِ التي تَلَوناها أدْنى مَنازِلِ أهلِ الإيمانِ، وَوَعَدَ عليها الجنةَ بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [العصر: ٣] وقولِهِ[13]: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

فجائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ الجميعِ على المُبالغةِ لا على جَعْلِهِ شَرْطاً، فيجبُ القولُ باسْتيجابِ الوَعْدِ بأدْنى مَراتبِهِ على ما ذَكَرَ في الآياتِ الأُخَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ [ذِكْرُ][14] الجميعِ في ما ذَكَرَ فيهِ ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ الإيمانَ باللهِ ورسُلِهِ مُضْمَراً[15]، أو يكونَ ذِكْرُ طَرَفٍ منهُ على الإيجازِ.

---

(١) في الأصل وم: وصف. (٢) في الأصل وم: ولا يغيب عنها. (٣) في م: الذي، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: بقوله. (٨) في الأصل وم: ﴿إِلَّآ﴾. (٩) في م: خفة، في الأصل: حفظة. (١٠) في الأصل وم: شيء. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: والثاني. (١٣) في الأصل وم: وقال. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: مضمر.

ألَا تَرى أنهُ ذَكَرَ الكُفرَ في بعضِ المواضِعِ، وأوعَدَ عليهِ النارَ، وذَكَرَ في بعضِ المواضعِ الكُفرَ مع أسبابٍ أُخَرَ، وأوعَدَ عليهِ النارَ بعدَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الآية [آل عمران: ٢١] وقولِهِ[1] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾؟ [المدثر: ٤٣و٤٤].

ثم لم يَعُدَّ جميعَ ما ذَكَرَ مِنَ السَّيِّئاتِ معَ الكُفرِ شَرْطاً، بل أوجَبَ القولَ بالتَّخليدِ لِمَنِ اقتَصَرَ على الكُفرِ خاصةً، فثبَتَ أنْ ليسَ في ذِكرِ المُبالغةِ دلالةُ جعلِ المبالغةِ شَرْطاً، بل جائزٌ أنْ يُستوجَبَ الوعيدُ بدونِهِ، فلذلكَ لم يَقْطعِ القولَ في أصحابِ الكبائرِ بالتَّخليدِ في النارِ ولا بأنهمْ مُستوجَبونَ للوعدِ، بل قيلَ فيهِمْ بالإرجاءِ.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: تأويلُهُ مُنصَرِفٌ إلى أهلِ النارِ وأهلِ الجنةِ؛ فأهلُ الجنةِ لا يَغيبونَ عنِ الجنةِ، ولا أهلُ النارِ [يَغيبونَ][2] عنِ النارِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: أُريدَ بها أهلُ النارِ خاصّةً أنهمْ لا يَغيبونَ عنها.

وأنكرَ بعضُ الناسِ الخُلودَ لأهلِ النارِ في النارِ ولأهلِ الجنةِ في الجنةِ، وقالوا: لو لم يكنْ لِنعيمِ الجنةِ انقِضاءٌ ولا لِعذابِ الآخِرَةِ انْتِهاءٌ لكانَ يَرتفعُ عنِ اللهِ تعالى الوصفُ بأنهُ أوَّلٌ وآخِرٌ لأنهما تَبقَيانِ أبداً، فلا يكونُ هو آخِراً، وقد قالَ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ [الحديد: ٣] فلابدَّ مِنْ أنْ يكونَ لهما انتهاءٌ حتى يَستقيمَ الوصفُ بأنهُ آخِرٌ.

ولأنهما لو لم يوصَفا بالانْتِهاءِ لَكانَ عِلْمُ اللهِ تعالى غَيرَ مُحيطٍ بِنهايَتِهما، فتكونُ النهايةُ مُجاوِزةً لِعلمِهِ، واللهُ ﷻ مُحيطٌ وعالمٌ مبادِئَهما ومُنتَهاهُما، فلابُدَّ مِنَ القولِ بِفَنائِهما حتى يكونَ عِلْمُهُ مُحيطاً بهما.

ولأنهمْ إنما اسْتَوجَبوا الجزاءَ بأعمالِهِمْ، وأهلُ النارِ اسْتَوجَبوا العِقابَ بِسَيِّئاتِهِمْ، فإذا كانَ لِسَيِّئاتِهِمْ نهايةٌ، ولِخيراتِ أولئكَ نهايةٌ، فكذلكَ يجبُ أنْ يكونَ للجزاءِ نهايةٌ أيضاً.

والأصلُ عندَنا [بوجهَينِ:

أحدُهما:][3] أنَّ كلَّ مَنِ اعْتَقَدَ مَذهباً فهو يَعتَقِدُ التَّدَيُّنَ بهِ أبداً ما بَقِيَ، لا يَترُكُهُ. ثم العقابُ جُعِلَ جَزاءً للكُفرِ، والثوابُ جُعِلَ جَزاءً لِلاتِّقاءِ مِنَ المهالِكِ بقولِهِ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقولِهِ[4]: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وإذا ثَبَتَ أنَّ لكلِّ واحدٍ منهما جزاءً لمذهبِهِ[5]، وكانَ الاعْتِقادُ للأبدِ، فكذلكَ جزاؤُهُ يَقَعُ للأبدِ والدوامِ لا للزَّوالِ والانْقِطاعِ.

والثاني: أنَّ العلمَ بزَوالِ النِّعَمِ مما يُنغِّصُ النَّعيمَ على أربابِها، ويُمَرِّرُ عليهِمْ لَذّاتِها، ويُكَدِّرُ عليهِمْ ما صَفا منها.

فإذا كانَ كذلكَ لم يَتِمَّ لهمُ النَّعيمُ. وأهلُ النارِ إذا تَذَكَّروا الخلاصَ مِنَ العذابِ تَلَذَّذوا بها، وهانَ عليهمُ العذابُ، فوجَبَ القولُ بالخلودِ لِيَتِمَّ النعيمُ على أهلِهِ والعذابُ على أهلِهِ.

والجوابُ عنْ قولِهِمْ[6]: إنهُ يرتفعُ عنهُ الوصفُ بأنهُ أوَّلٌ وآخِرٌ [أنهُ أوَّلٌ وآخِرٌ][7] بذاتِهِ لا بِغيرِهِ، وغَيرُهُ يَصيرُ أوّلاً وآخِراً بِغَيرِهِ/ ٦٣٠ ـ ب/ ثم ما مِنْ شيءٍ إلّا ولَهُ أوَّلٌ وآخِرٌ، ثم لا يوجِبُ ذلكَ إسقاطَ الأوَّلِيَّةِ والأُخرَوِيَّةِ. [والجوابُ عنْ قولِهِمْ][8]: بأنَّ اللهَ ﷻ لا يوصَفُ بالإحاطةِ بالأشياءِ لو وَجَبَ القولُ بالخُلودِ، فنقولُ بأنَّ العلمَ بما لا نهايةَ لهُ يوجِبُ الجَهْلَ لا العِلْمَ.

والجوابُ عنِ الفصلِ الثالثِ ما ذَكَرْنا أنهُ يُعتَقَدُ المذهبُ للأبدِ، وكذلكَ الجزاءُ يَتأبَّدُ، ولا يَنقَطِعُ.

الآيتان ١٧و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنكَ لم تكنْ تَدري، فأدراكَ اللهُ تعالى. وقالَ بَعْضُهُمْ: هذا على التَّعْظيمِ لذلكَ اليومِ والتَّهْويلِ عنهُ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: للمذهب.
(٦) في الأصل وم: قوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: قوله.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ وذلكَ اليومُ يومُ تُجزَى فيهِ الشّفاعاتُ، فَيَشْفَعُ الأنبياءُ لكثيرٍ مِنَ الخَلْقِ، فَيُشفَعُ بهمْ. وإذا كانَ كذلكَ فقد ملكَتْ نفسٌ لنفسٍ شيئاً. ولكنَّ تأويلَهُ يُخَرَّجُ على أوجهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنَّ الكَفَرَةَ كانوا يَتوادّونَ في ما بَينَهُمْ لِيُناصِرَ بعضُهُمْ بعضاً في النوائبِ، فقالَ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

[**والثاني**:][1] لا تملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً إلّا بَعدَ أنْ يُؤْذَنَ لها كما قالَ ﷻ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] وقد يجري التَّشَفُّعُ في الدنيا لا بالإِسْتِئذانِ من أحدٍ.

[**والثالثُ**: أنْ][2] يكونُ مَعْناهُ: أنَّ كلَّ نفسٍ سَيَتَبيَّنُ لها في ذلكَ اليومِ أنها لم تَمْلِكْ شيئاً إلّا بالتَّمليكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي لا يُتنازَعُ فيهِ، وهو في كلِّ وقت للهِ تعالى. لكنَّ الظَّلَمَةَ يَتنازعونَ في هذهِ الدنيا، أو ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي يَتَبَيَّنُ لكلِّ أحدٍ في ذلكَ اليومِ أنَّ الأمرَ للهِ تعالى في ذلكَ اليومِ وقَبْلَ ذلكَ اليومِ، واللهُ المُسْتَعانُ. [ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيمِ][3].

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

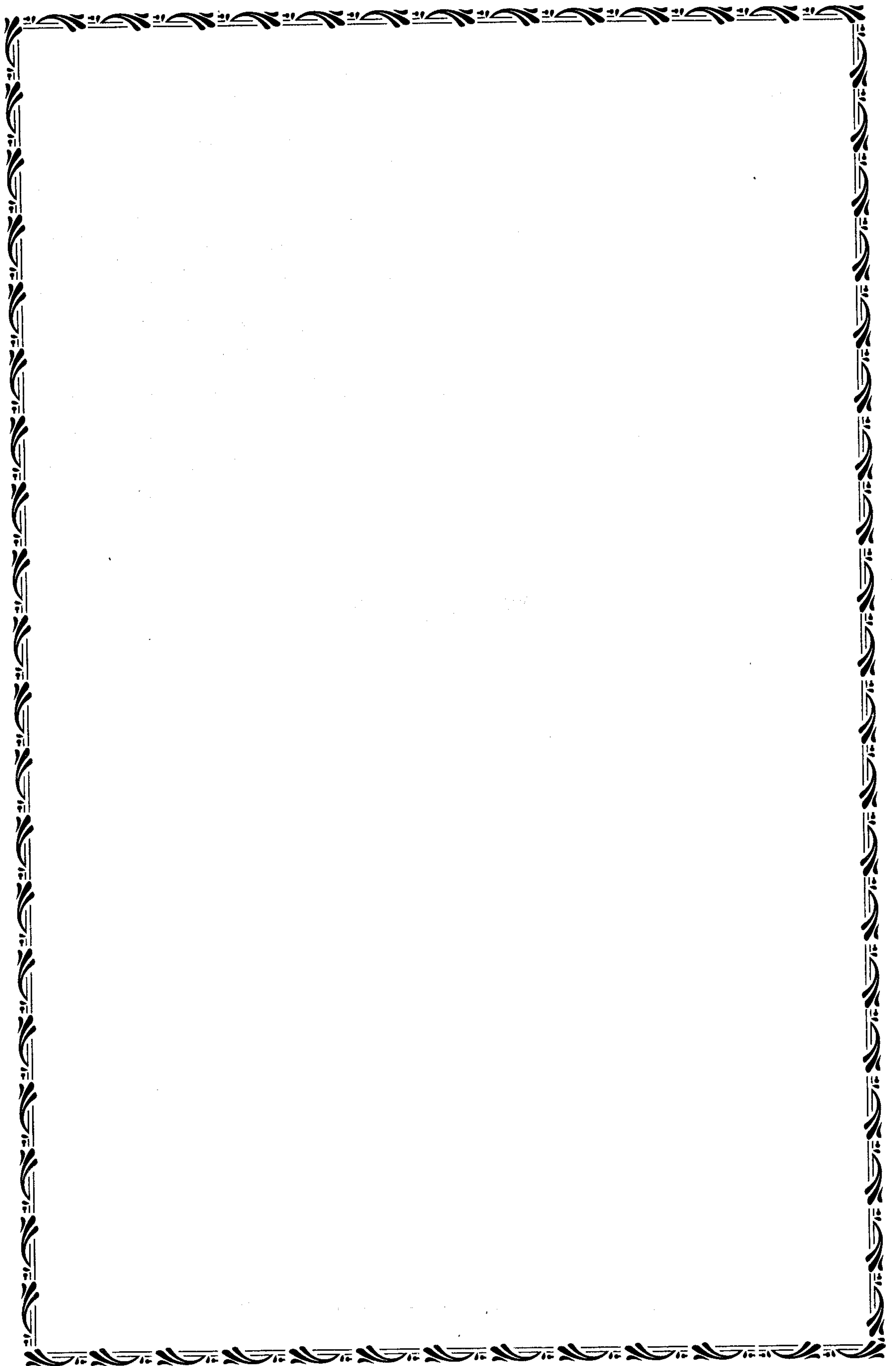

[سورة المطففين

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فوجهُ تَعْيِيرِهِمْ بالتَّطفيفِ وإلحاقِ الوعيدِ لمكانِهِ، وإنْ كانوا مُسْتَوجِبينَ للوعيدِ، وإنْ أوفَوُا المِكْيالَ، ولم يُطَفِّفوا فيهِ، إذا كانوا جاحدينَ باللهِ تعالى ومُكَذِّبينَ بالبعثِ.

هو أنَّ الكَفَرَةَ لم يكونوا اعْتَقَدوا الكُفْرَ باللهِ تعالى لِتَلَذُّذٍ، يَقَعُ لهمْ بنفسِ الكُفْرِ، ولا الْتَزموهُ على التَّحسينِ لهمْ إيّاهُ، وإنما أعْرَضوا عنِ الإيمانِ لحبِّهِمُ الرئاسةَ ولِمَأْكَلَةٍ كانتْ لهمْ، خافوا زَوالَها عنهمْ بالإسلامِ، وزَهِدوا فيهِ لِما يَلْزَمُهُمْ بالإيمانِ مُؤَنٌ، واختاروا الكُفْرَ لئلا يَلْزَمَهُمْ بالإيمانِ تَحَمُّلُها. فكانَ الذي يَحْمِلُهُمْ على الصَّدِّ عنِ الإيمانِ وتَرْكِ النَّظَرِ في آياتِ اللهِ تعالى وحُجَجِهِ ما ذَكَرْنا، فَعُيِّروا بالأفعالِ الدَّنيئةِ التي كانوا يَتَعاطَونَها في ما بَيْنَهُمْ مِنَ التَّطفيفِ والهَمْزِ واللَّمْزِ وتركِهِمْ إيتاءَ الزكاةِ بقولِهِ ﷻ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧] لِيَنْقَلِعوا عنها، فَيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على النَّظَرِ في القرآنِ والتَّدبُّرِ فيهِ، وهو كما ذَكَرْنا في القتالِ أنَّ فيهِ ما يَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ لأنهمْ كانوا يَتَزَهَّدونَ عنهُ لِحُبِّهِمُ الدنيا؛ فإذا قُوتِلوا ضاقَتْ عليهمُ الدنيا، فَبَعَثَهُمْ ذلكَ إلى الإيمانِ باللهِ تعالى وعلى النَّظَرِ في آياتِهِ.

وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا تَلا هذهِ الآيةَ على أهلِ المدينةِ[2] تركوا التَّطفيفَ فلم يُطَفِّفوا بعدَ ذلكَ. [ابن ماجة ٢٢٢٣].

قالَ أهلُ اللغةِ: التَّطفيفُ النُّقصانُ؛ يُقالُ: إناءٌ طَفّانُ إذا كانَ غيرَ مَمْلوءٍ. وقالَ الزَّجّاجُ: يُقالُ: شيءٌ طَفيفٌ أي يَسيرٌ، فَسُمِّيَ مُطَفِّفاً لِما يَسْرِقُ منهُ شيئاً فَشيئاً في كلِّ مِكْيالٍ، وفي هذا دلالةٌ أنَّ حُرْمَةَ الرِّبا عامَّةٌ على أهلِ الأديانِ، وفيهِ دلالةٌ أنَّ حُرْمَةَ الرِّبا ليسَتْ لمكانِ العاقِدينَ، وإنما هي حقٌّ على العاقِدينَ للهِ تعالى؛ وذلكَ أنَّ الذي يُكالُ لهُ كانَ يأخذُ ما يُكالُ لهُ على عِلْمٍ منهُ بِتطفيفِ البائعِ، ثم كانَ يَرْضَى بهِ، ويَتَجاوزُ عنْ ذلكَ، ومعَ ذلكَ لَحِقَهُ[3] التَّعْيِيرُ بالتَّطفيفِ، فَدَلَّ أنَّ حُرْمَتَهُ ليسَتْ لِمكانِ العاقِدينَ، ولكنها مِنْ حقِّ اللهِ تعالى.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ ومَعناهُ: ويلٌ للمُطَفِّفينَ على الناسِ إذا اكْتالوا، أو وَزَنوا، يَسْتَوفونَ. ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ ﴿عَلَى﴾ ههنا بِمَعْنَى مِنْ[4]، فكأنهُ يقولُ: ويلٌ للمُطَفِّفينَ الذينَ إذا اكْتالوا مِنَ[5] الناسِ يَسْتَوفونَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ فمنهمْ مَنْ حَمَلَ قولَهُ: هُمْ بعدَ ذِكْرِ الكَيلِ والوزنِ على التأكيدِ والمُبالغةِ.

فإنْ كانَ هذا على هذا فحقُّهُ الوقفُ على قولِهِ: كالوا وعلى قولِهِ: وَزَنوا.

ومنهمْ مَنْ قالَ: مَعْناهُ: وإذا كالوا لهمْ، أو وَزَنوا لهمْ، لأنَّ الألفَ بينَهما ليسَتْ بِمُثْبَتَةٍ في المصاحفِ، وهو مُسْتَعْمَلٌ: كِلْتُهُ، و: كِلْتُ لهُ لقولِهِ: وَعَدْتُهُ، وَوَعَدْتُ لهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: مكة. (٣) في الأصل وم: لحقهم. (٤) في الأصل وم: عن. (٥) في الأصل وم: عن.

فإنْ كانَ هذا مَعْناهُ لم يَسْتَقِمِ الوقفُ على قولِهِ: كالوا، و: وَزَنوا، لأنَّ قولَهُ: لهمْ تفسيرٌ لقولِهِ: كالوا، أو وَزَنوا، ولا يجوزُ قَطعُ التفسيرِ عمّا لهُ التفسيرُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ قالَ أكثرُ أهلِ التفسيرِ: ألَا يظنُّ؟ ألا يعلَمُ؟ وألَا يَتَيَقَّنُ؟

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ألا يَظُنُّ بِمَعْنَى ألا يَشُكُّ أولئكَ في البعثِ؟ وهو مُحتَمَلٌ لِما ذَكَرْنا لأنَّ الشَّكَّ يوجِبُ الرهبةَ، وارتفاعَهُ يوجِبُ الأمْنَ.

ألَا تَرَى أنَّ المرءَ إذا أرادَ أنْ يُسافِرَ إلى مكانٍ، فأخبَرَهُ إنسانٌ أنَّ في الطريقِ الذي يُريدُ أنْ يَسْلُكَ سُرّاقاً وقُطّاعَ الطريقِ، فإنهُ يَتَرَهَّبُ لذلكَ، فَيَسْتَعِدُّ لهُ بما يدفَعُ عنْ نفسِهِ ضَرَرَ قُطّاعِ الطريقِ وضَرَرَ السارقِ، وإنْ لم يَتَيَقَّنْ أنَّ المخبِرَ صادقٌ في مَقالتِهِ، ولا يَتَيَقَّنُ أنَّ السُّرّاقَ يَتَمَكَّنونَ مِنَ الإضرارِ؟ فكيفَ لا يَشُكُّ هؤلاءِ بكونِ البعثِ بِما يُخبِرُهُمُ النَّبيُّ ﷺ ويُقيمُ عليهِ الحُجَجَ، وهذا أقَلُّ منازِلِ الإخبارِ أنْ يورِثَ شكّاً؟

ثم الأصلُ أنَّ حَرْفَ الشَّكِّ عندَ اسْتِواءِ طَرَفَيِ الداعيَيْنِ، والظَّنُّ يُسْتَعْمَلُ عندَ اخْتِلافِ طَرَفَيِ الداعيَيْنِ، وهو أنْ تُغَلِّبَ إحدَى الدلالتَيْنِ على الأُخرَى، لذلكَ يَسْتَقيمُ الحكْمُ والقولُ بأكثَرِ الظَّنِّ، ولا يَسْتَقيمُ بأكثَرِ الشَّكِّ.

ثم الظَّنُّ يَتَوَلَّدُ مِنَ البحثِ عنِ الأمرِ والنَّظَرِ فيهِ. وإذا [تَدَبَّرَهُ المرءُ][1] فهو لا يَزالُ يرتَقي في الظَّنِّ درجةً درجةً حتى يَنْتَهِيَ نهايتَهُ [وهي][2] بلوغُ اليَقينِ ودَرْكُ الصوابِ.

فلذلكَ حَمَلَ أهلُ التفسيرِ تأويلَ الظَّنِّ ههنا على اليقينِ والعِلْمِ: أنَّ ذلكَ نهايةُ للظَّنِّ، وحَمَلَ أبو بكرٍ على الشَّكِّ لِما تَرْتَفِعُ الشُّبْهَةُ كلُّها في ما كانَ طريقَ معرفتِهِ الاجتِهادُ. / ٦٣١ ـ أ/

ومِثالُ الظَّنِّ ههنا الخوفُ الذي ذَكَرْنا أنهُ قد يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ العلمِ لأنَّ الخوفَ إذا بَلَغَ غايتَهُ صارَ عِلْماً كالذي يُهَدَّدُ بالقتلِ أو بِقَطعِ عُضوٍ بِشُربِ الخمرِ [مُدَّعِياً][3] أنهُ يُباحُ لهُ الشُّرْبُ، ويُجْعَلُ كالمُتَيَقِّنِ أنهُ بِهِ لا محالةَ لوِ امْتَنَعَ عنِ الشُّرْبِ لِبلوغِ الخَوفِ نهايتَهُ، وإنْ لم يكُنْ في الحقيقةِ مُتَيَقِّناً، لِما يجوزُ أنْ يَحْصُلَ بهِ ما يَمْنَعُهُ مِنَ القتلِ، فَعَلَى ذلِكَ الحُكْمُ في الظَّنِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ للحسابِ الذي يُحَصَّلُ عليهِمْ، فلا يجدونَ منهُ مَخْرَجاً، فَيَتَخَلَّصونَ مِنَ العذابِ، ليسَ على ما يُحَصَّلُ عليهِ الحسابُ في الدنيا، يَجِدُ [المرءُ][4] لنفسِهِ الخلاصَ ووجهَ المخرجِ منهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ سَمّاهُ عظيماً لما ذَكَرْنا مِنْ دَوامِ عذابِهِ ودَوامِ عقابِهِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لحكمِهِ أو لحسابِهِ أو لوعدِهِ ووعيدِهِ، أو يقومونَ لهُ مُسْتَسْلِمينَ خاضِعينَ بجملَتِهِمْ، وإنْ كانَ البعضُ منهمْ وُجِدَ منهُ الإمْتِناعُ عنِ الإسْتِسْلامِ في الدنيا؛ فإنَّ الظَّلَمَةَ يُنازِعونَهُ، ويَدَّعونَ لأنفسِهِمْ أشياءَ، فَيُنْكِرونَهُ[5]. فأمّا يومُ القيامةِ فإنهمْ جميعاً يُقِرّونَ لهُ، ويَنْقادونَ لِحُكْمِهِ وقَضائِهِ، لِذلكَ خَصَّهُ بِقيامِ الناسِ لهُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قالَ الحسنُ وأبو بكرٍ: حَقّاً، أي بَعثُهُمْ حقٌّ، فَيُبْعَثونَ. وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿كَلَّا﴾ حرفُ رَدْعٍ وتَنْبيهٍ، أي ليسَ الأمرُ على ما ظَنّوا أنهمْ لا يُبْعَثونَ، بل يُبْعَثونَ، ويُجازَونَ بأعمالِهِمْ، فيكونُ في هذا إيجابُ القولِ بالبعثِ مِنْ طَريقِ الاسْتِدْلالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ اخْتُلِفَ في السِّجِّينِ؛ فمنهمْ مَنْ جَعَلَهُ اسْمَ موضعٍ، وأشارَ إليهِ فقالَ: هو صخرةٌ تحتَ الأرضِ السابعةِ، يُوضَعُ كتابُ الفُجّارِ[6] تحتَهُ إلى يومِ القيامةِ.

---

(١) في الأصل وم: تدبر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فينكرون له.
(٦) في الأصل وم: الكافر.

ولكنْ [ليس][1] بنا إلى معرفةِ ذلكَ الموضعِ حاجةٌ، لأنَّ الذينَ امْتُحِنوا بجعلِهِ في ذلكَ الموضعِ [قد عرفوه][2] وهمُ الملائكةُ.

ومنهمْ مَنْ زَعَمَ أنهُ حرفٌ موجودٌ في كتبِ الأوَّلِينَ، فَذُكِرَ ذلكَ في القرآنِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ المَقْصودُ يَتحقَّقُ بدونِ الإشارةِ إليهِ، وجائزٌ أنْ يكونَ السِّجِّينُ المَوضِعَ الذي أُعِدَّ للكافرينَ في الآخِرَةِ للعذابِ.

ولكنْ أوَّلَ ما يَرِدُ عَمَلُهُ الذي أثبتَ في كتابِهِ، ثم يلْحَقُ بهِ الروحُ، ثم يَتْبَعُهما جَسَدُهُ في الآخِرَةِ على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ والآخِرَةُ سِجْنُ الكافرِ وجنةُ المؤمنِ» [بنحوِهِ: مسلم: ٢٩٥٦] فَيَرِدُ كتابُهُ إلى ذلكَ السِّجْنِ، ويَرِدُ كتابُ الأبرارِ إلى الجنةِ التي أُعِدَّتْ لهُ، ثم تَتْبَعُهُ روحُهُ ثم جَسَدُهُ فذلكَ قولُهُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [الآية: ١٨].

ومنهمْ مَنْ قالَ على التمثيلِ، ليسَ على تحقيقِ المَكانِ في العِلِّيِّينَ؛ وذلكَ أنَّ السِّجْنَ، هو مكانُ أهلِ الخُبْثِ في الدنيا، فَمُثِّلَتْ أعمالُهُمْ بذلكَ لِخُبْثِها وقُبْحِها، ومُثِّلَتْ أعمالُ الأبرارِ بما ذَكَرَ مِنَ العِلِّيِّينَ؛ وذلكَ مكانُ أهلِ الشَّرَفِ وأولي القَدْرِ، فَيُكَنِّي بذلكَ كِنايةً عنْ طيبِ أعمالِهِمْ.

وقالَ الكسائيُّ: السِّجِّينُ مُشتقٌّ مِنَ السِّجْنِ، كقولكَ: رجلٌ فِسِّيقٌ وشِرِّيبٌ وسِكِّيتٌ.

ثم ذَكَرَ كتابَ الفُجّارِ، والفجورُ يكونُ بالكُفرِ وبغيرِهِ، فهذا اسمٌ يَقَعُ بهِ الاشْتِراكُ بينَ أهلِ الكُفرِ وأهلِ الإسلامِ، لكنهُ أُلحِقَ عندَ التفسيرِ بما يجوزُ صَرْفُ الوعيدِ إلى الكُفّارِ بقولِهِ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الآية: ١٠] وكذلكَ نَجِدُ هذا الشرطَ مُلْحَقاً بالتفسيرِ في جميعِ ما جَرى بهِ الوعيدُ بالاسْمِ الذي يَقَعُ بهِ الاشْتِراكُ مِنْ نَحْوِ الفِسْقِ وتَرْكِ [الصلاةِ][3] بقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣] وفي ما جَرى مِنَ الوعيدِ في الذي لا يُؤتي الزكاةَ، فكانَ في ذِكْرِ التفسيرِ على تَقْييدِهِ بالتكذيبِ قَطْعُ الشهادةِ وإيجابُ العذابِ على المُكَذِّبينَ.

وفي ذِكْرِ الاسْمِ الذي يقعُ بهِ الاشْتِراكُ إيجابُ الخوفِ على المسلِمينَ الذينَ أُشْرِكوا في ذلكَ، فَتَرْكَ قَطْعَ الشهادةِ عليهِمْ بالوعيدِ بما لم يَذْكُرْ عندَ التفسيرِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ فهو تعظيمُ ذلكَ اليوم وَوَصْفُهُ بِنِهايةِ الشِّدَّةِ، أو على الامْتِنانِ على نَبِيِّهِ ﷺ أنهُ لم يكُنْ يَعْلَمُ ذلكَ حتى أطْلَعَهُ اللهُ عليهِ. وهكذا تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [الآية: ١٩].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أيِ الكتابُ الذي في السِّجِّينِ مَرْقومٌ. والمَرْقومُ: قالوا: مكتوبٌ ومُثْبَتٌ، والرَّقْمُ هو الإعلامُ؛ يقالُ: رَقَمَ الثوبَ إذا عَلِمَهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ عِلْمُهُ، هو أنْ يُخْتَمَ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ أنهُ لا يُزادُ على قَدْرِ ما عَمِلَ، ولا يُنْقَصُ منهُ[4]، وهو كما ذَكَرْنا مِنَ الفائدةِ في ما وَصَفَ جبرائيلَ ﷺ، بالقوةِ والأمانةِ بقولِهِ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠و٢١] فَوَصَفَهُ بالأمانةِ لِيُؤْمَنَ الخَلْقُ عنْ خِيانَتِهِ في الكتابِ وتَغْييرِهِ، وَوَصَفَهُ بالقوةِ لِيُعْلِمَ أنَّ غيرَهُ لا يَتَهيّأُ لهُ أنْ يَنْتَزِعَ منهُ ما أرسلَ على يدِهِ، ويُغَيِّرَهُ. فكذلكَ وَصَفَهُ بالخَتْمِ والإعلامِ لِيُؤْمَنَ مِنَ الزيادةِ والنُّقْصانِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي للمكَذِّبينَ بجميعِ ما يَحِقُّ عليهِمْ تَصديقُهُ، وذلكَ يكونُ بالإيمانِ باللهِ تعالى وبآياتِهِ ورسُلِهِ وبالبعثِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فالدينُ اسْمٌ لِشيئَينِ: اسْمٌ للجزاءِ واسْمٌ لِلاسْتِسلامِ والخُضوعِ؛ فَيُسَمّى يومُ الدينِ لِما يُدانونَ بأعمالِهِمْ أو لِما يَسْتَسْلِمونَ للهِ تعالى في ذلكَ اليومِ، ويَخْضَعونَ لهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: فعرفوه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: منها.

وفي تكذيبِهِمْ بيومِ الدينِ تكذيبٌ لِقدرةِ اللهِ تعالى وتكذيبُ رسُلِهِ، لأنَّ الرسُلَ كانوا يَدْعونَهُمْ إلى الإيمانِ بيومِ الدينِ، فكانوا يُكَذِّبونَهُمْ بِتكذيبِهِمْ بذلكَ اليومِ، فيكونُ تأويلُهُ مُنْصَرِفاً إلى ما ذَكَرْنا مِنْ تكذيبِهِمْ بجميعِ ما يَحِقُّ التَّصْديقُ بهِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فالمُعْتَدي هو الذي يَتَعَدَّى حدودَ اللهِ تعالى، والأثيمُ الذي يأثَمُ بربِّهِ، فتكونُ مُجاوَزَتُهُ عنِ الحدودِ والتَّأثيمُ بربِّهِ، هو الذي يَحْمِلُهُ على التَّكذيبِ، وإلّا لو قامَ بِحِفْظِ حدودِهِ، لم يأثَمْ بربِّهِ، لكانَ لا يُكَذِّبُ بيومِ الدينِ، أو يكونُ فيهِ إخبارُ أنَّ المُكَذِّبَ بهِ مُعْتَدٍ أثيمٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلُ الأوَّلينَ. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الأساطيرُ، هي التي لا أصْلَ لها. ومعناهُ عندَنا: ما سَطَرَهُ الأوَّلونَ، أي كَتَبَهُ؛ فالسَّطْرُ الكِتابةُ، فَيُخْبِرونَ أنها ليسَتْ مِنْ عندِ اللهِ تعالى، بل ممّا كَتَبَها الأوَّلونَ التي[1] لا نظامَ لها، ولم يكونوا[2] يقولونَ هذا في كلِّ ما يَتْلو عليهِمْ مِنْ أنباءِ الأوَّلينَ، وكانوا يَنْسُبونَهُ إلى السِّحْرِ، إذا أتاهُمْ بالآياتِ المُعْجِزاتِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ قيلَ: الرَّيْنُ السَّتْرُ والغِطاءُ، وقيلَ: الرَّيْنُ الصَّدَأُ. فاللهُ تعالى سَمَّى الإيمانَ الذي، هو في النهايةِ مِنَ الخيراتِ، نوراً، وسَمَّى الكُفْرَ الذي، هو في النهايةِ مِنَ الشرورِ، ظُلْمةً.

فإذا كانَ الإيمانُ مُنَوِّراً للقلبِ، والكُفْرُ مُظْلِماً، فإذا اشْتَغَلَ بالأسبابِ الداعيةِ إلى الكُفْرِ شيئاً بعدَ شيءٍ مِنَ الآثامِ، فكلُّ سببٍ مِنْ ذلكَ يَعْمَلُ في إظلامِ القلبِ حتى تَتِمَّ الظُّلْمةُ على ما رُوِيَ عنْ أبي هريرةَ ﷺ أنَّ الرسولَ ﷺ سُئِلَ عنْ هذهِ الآيةِ، فقالَ: «هو العبدُ يُذْنِبُ الذنبَ فَتُنْكَتُ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سَوداءُ، فإنْ تابَ منها صَقَلَ قلبُهُ، وإنْ لم يَتُبْ، فعادَ، فأذْنَبَ، نُكِتَتْ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سوداءُ، وإنْ عادَ نُكِتَتْ في قلبِهِ حتى يَسْوَدَّ القلبُ أجمعُ» [بنحوه: الترمذي: ٣٣٣٤].

فذلكَ الرَّيْنُ، ومَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ شيئاً فَشيئاً بأسبابٍ تَتَقَدَّمُ الإيمانَ حتى يَحْمِلَهُ ذلكَ على الإيمانِ، فذلكَ تَمامُ الانْشِراحِ.

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُ ما رُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ / ٦٣١ ـ ب/ أنَّ الإيمانَ يَبْدو لُمْظَةً بيضاءَ في القلبِ، كلَّما ازْدادَ عِظَماً ازْدادَ ذلكَ البياضُ، فإذا اسْتَكْمَلَ الإيمانُ ابْيَضَّ القلبُ كلُّهُ.

ومَعْنَى قولِهِ: يَبْدو لَمْظَةً في القلبِ بيضاءَ إلى قولِهِ: [ابْيَضَّ القلبُ كلُّهُ][3] عندَنا بالأسبابِ الداعيةِ إلى الإيمانِ، فلا يَزالُ يَنْشَرِحُ منهُ [شيئاً فشيئاً][4] حتى يُؤْمِنَ، لا أنْ يكونَ الإيمانُ ذا أجزاءٍ، ولكنَّ للإيمانِ مُقَدِّماتٍ يَنْشَرِحُ [شيئاً فشيئاً][5] بكلِّ مُقَدِّمةٍ منهُ حتى يُفْضِيَ بهِ إلى الإيمانِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى سَمَّى السواتِرَ[6] عنِ الإيمانِ أسامِيَ[7]: مَرَّةً قالَ: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣و...] ومَرَّةً قالَ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية [الأنعام: ٢٥ و...] ومَرَّةً قالَ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] فكانَ الذينَ وُصِفوا بالقُفْلِ على قلوبِهِمْ، همُ الذينَ انْتَهَوا في الكُفْرِ غايتَهُ، حتى لا يُطْمَعَ منهمُ الإيمانُ، وهمُ المُتَمَرِّدونَ المُعْتَقِدونَ التكذيبَ، وهمُ الرؤساءُ منهمْ والأئمَّةُ.

ومنهمْ مَنْ هو مَطْبوعٌ على قَلْبِهِ، وهمُ الذينَ اعْتَقَدوا الكُفْرَ لا عَنْ تَمَرُّدٍ وعِنادٍ، ولكنْ لِما لم تُلْمَحْ[8] لهمُ الأسبابُ الداعيةُ إلى الإيمانِ.

وذَكَرَ الزَّجاجُ أنَّ أوَّلَ منازِلِ السَّتْرِ الغَبْنُ، وهو السَّتْرُ الرقيقُ كالسَّحابِ الرَّقيقِ في السماءِ يَعْمَلُ في غشاءِ القلبِ غشاءَ السَّحابِ الرقيقِ بلونِ السماءِ، ثم إذا زادَ سُمِّيَ رَيناً، ثم يَرْتَقي إلى الطبعِ إلى أنْ يَصيرَ كالقُفْلِ على القلبِ؛ وفي هذا دليلٌ على أنَّ للهِ تعالى تدبيراً وصُنْعاً في أفعالِ العبادِ، لأنهُ أنشأ لِلكُفْرِ ظُلْمةً في القلبِ حتى تَمْنَعَهُ تلكَ الظُّلْمةُ عنْ دَرْكِ الخيراتِ

---

(١) في الأصل وم: الذين. (٢) في الأصل وم: يكن. (٣) في الأصل وم: حتى يستكمل الإيمان. (٤) و(٥) في الأصل وم: شيء فشيء. (٦) من م، في الأصل: التواتر. (٧) في الأصل وم: بأسامي. (٨) في الأصل وم: تلج.

ونورِ الإيمانِ؛ إذ كلُّ مَنْ اعْتقَدَ الكفرَ فهو ليسَ يَعْتَقِدُهُ لِيَمْنَعَهُ عن دَرْكِ الأنوارِ، وإذا لم يوجَدْ منهُ هذا يُثْبِتُ أنهُ صارَ كذلكَ بتدبيرِ اللهِ تعالى وصُنْعِهِ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ تَحْدُثَ ظُلْمةٌ في القلبِ إلّا بِمُحْدِثٍ لها، وإذا انْتَفَى الصُّنْعُ مِنَ الكافرِ[1] ثَبَتَ أنهُ بِتَدْبيرِ اللهِ تعالى ما صارَ كذلكَ، وأنهُ أنشأهُ مُظلِماً، واللهُ المُوفقُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فذكَرَ أبو بكرٍ الأصمُّ أنَّ هذا في الدنيا؛ يقولُ: إنهمْ حُجِبوا عنْ عبادةِ ربِّهِمْ بما عَبَدوا غَيرَ اللهِ تعالى، فصارتْ عبادَتُهُمْ غيرَ اللهِ حجاباً عنْ عبادتِهِ.

وذَكَرَ أهلُ التفسيرِ أنَّ هذا في الآخِرَةِ؛ ثم منهمْ مَنْ يقولُ: إنهمْ حُجِبوا عنْ لِقاءِ ربِّهِمْ، وأوجَبوا بهذا القولِ الرؤيةَ للمؤمنينَ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: همْ محجوبونَ: أي عنْ كرامتِهِ[2] التي أعَدَّها لأوليائِهِ وعنْ رحمتِهِ، فعوقِبوا بالحَجْبِ عنْ ذلكَ جزاءً لِصَنيعِهِمْ، لأنهمْ في الدنيا ضَيَّعوا نِعَمَ اللهِ تعالى، فلم يَتَقَبَّلوها بالشكرِ، ولم يُؤْمِنوا برسولِهِ الذي بعثَهُ رحمةً للعالَمينَ، فأُبْلِسوا منْ رحمتِهِ وكَرامتِهِ في الآخِرَةِ عقوبةً لهمْ ومُجازاةً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جَعَلَهُمْ كالشيءِ المَنْسِيِّ الذي لا يُعْبأُ بهِ، فَعَلَى ما [وُجِدَ منهمْ][3] مِنَ المعاملةِ لآياتِهِ وحُجَجِهِ بِتَرْكِهِمُ الالْتِفاتَ إليها عُومِلوا بِمِثْلِهِ في الآخِرَةِ وكقولِهِ[4] في آيةٍ أُخرى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ فَمَنْ صَرَفَ الحَجْبَ إلى الدنيا فهو يقولُ: ثم إنهمْ يَصْلَونَ الجَحيمَ بَعدَ ما عَبَدوا غَيرَ اللهِ تعالى، وانْحَجَبوا[5] عنْ عبادتِهِ. ومَنْ صَرَفَ التأويلَ إلى أمرِ الآخِرَةِ فهو يقولُ: إنهمْ يَصْلَونَ الجَحيمَ بعدَ ما ظَهَرَ فيهمْ منْ أثرِ الحِجابِ منْ سَوادِ الوجوهِ وإعطاءِ الكتابِ بِشِمالِهِمْ ومنْ وراءِ ظُهورِهِمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تأويلُهُ أنهمْ يُعَرَّفونَ أنهمْ صَلَوها بتكذيبِهِمْ بها، وحُجِبوا عنِ اللهِ بتكذيبِهِمْ بذلكَ اليومِ؛ وإلّا لو آمَنوا، وأقَرّوا أنَّ النارَ حقٌّ، والبعثَ حقٌّ، لم يكونوا يَصْلَونَها، فَيُعَرَّفونَ حتى يُقِرّوا بذلكَ بقولِهِ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

الآيات ١٨ و ١٩ و ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾][6] [ذَكَرَ الأبرارَ][7] ههنا مُقابِلَ الفُجّارِ في الأوَّلِ، ثم بَيَّنَ الفُجّارَ أنهمُ المُكَذِّبونَ بيومِ الدينِ، وذلكَ أوَّلُ مَنازِلِ الكفرةِ، فإذا أُريدَ بالفجارِ الكُفّارُ، وأُريدَ بالأبرارِ الذينَ آمَنوا، فلذلكَ قالَ[8]: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ هُمُ المؤمنونَ، والبَرُّ، هو الذي يَكثُرُ منهُ تَعاطي فِعْلِ البِرِّ، يُسَمَّى باراً إذا كَثُرَ منهُ البِرُّ، والفاجِرُ، هو الذي يكْثُرُ منهُ فعلُ الفُجورِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ الوَعيدُ في الذينَ بَلَغوا في الفجورِ غايتَهُ، ويكونَ حكمُ مَنْ دُونَهُمْ مَتْروكاً ذِكْرُهُ، فَيُوصَلُ إلى معرفةِ حكمِهِ بالِاسْتِدْلالِ، ويكونَ الوعدُ في الذينَ أكْثَروا أفعالَ البِرِّ، ويكونَ حكمُ مَنْ دُونَهُمْ مَعْروفاً بِغَيرِهِ مِنَ الأدِلّةِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فَذَكَرَ شهودَ المُقَرَّبينَ في كتابِ الأبرارِ، ولم يَذْكُرْ شُهودَهُمْ عندَ ذِكْرِ كتابِ الفُجّارِ؛ فجائزٌ أنْ يكونَ شُهودُهُمْ على التَّعظيمِ بِعِلْمِهِ والدعاءِ لهُ وغَيرِ ذلكَ.

وقيلَ: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ همْ مُقَرَّبو أهلِ كلِّ السماءِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ فالبَرُّ، هو الذي يَبْذُلُ ما سُئِلَ عنهُ، ويُجيبُ إلى ما دُعِيَ إليهِ، فإذا أجابَ اللهَ تعالى في ما دَعاهُ إليهِ مِنَ التوحيدِ، وَوَفَّى بأوامِرِهِ، وانْتَهَى عنْ مَناهيهِ، فهو مِنَ الأبرارِ.

ثم ما ذَكَرْنا يكونُ بوجهَينِ:

أحَدُهما: بالِاعْتِقادِ وبِتَحقيقِهِ بالفعلِ والمُعاملةِ، فهذا قد وَفَّى بما طُلِبَ منهُ قولاً وفِعْلاً، فيكونُ هذا مِمَّنْ يُقْطَعُ فيهِ القولُ باسْتيجابِ الوعدِ المذكورِ للأبرارِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الكلام. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ذَكَرَ الله. (٣) في الأصل وم: وجدت.
(٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: وحجبوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: قيل.

والثاني: أنْ يقومَ بوفاءِ ما طُلِبَ منهُ اعتِقاداً، ولم يَفِ ما اعتَقَدَهُ بِفِعْلِهِ. فالحكمُ في مثلِهِ الوَقفُ، ولا يُقطَعُ فيهِ القولُ باسْتيجابِ المَوعودِ، بل للهِ تعالى أنْ يُجازيَهُ بما ضَيَّعَ مِنْ حِفظِ حدودِهِ بِقَدْرِ ما وَجَدَ مِنَ التَّضْييعِ، ثم يُلْحِقَهُ بأهلِ كرامتِهِ، ولهُ أنْ يَعْفُوَ عنهُ بفضلِهِ وَسَعَةِ رحمتِهِ.

والفجورُ، هو المَيلُ، والمَيلُ يكونُ بِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: بِتَركِ الاعْتِقادِ والفعلِ جميعاً.

[والثاني: بميلٍ][1] في المُعاملةِ؛ وهو أنْ يُخالفَ فِعْلُهُ عَقْدَهُ.

فالذي وُجِدَ منهُ المَيلُ عنِ الوجْهَينِ جميعاً يَحُلُّ به ما أُوعِدَ، لا مَحالةَ.

وأمّا الذي خالَفَ فعلُهُ عقدَهُ فإنهُ يُوقَفُ فيهِ، ولا يُشْهَدُ أنهُ مِنْ جُملةِ مَنْ يَلْحَقُهُمُ الوعيدُ، لا مَحالةَ.

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ البِرَّ إذا ذُكِرَ على الإنْفِرادِ أُريدَ بِهِ ما يُرادُ بالتَّقْوى والبِرِّ[2] جميعاً، وكذلكَ التَّقْوَى إذا أُفْرِدَ اقْتَضَى مَعْنَى البِرِّ. فإذا قُرِنا جميعاً أُريدَ بالتَّقْوَى جِهَةٌ وبالبِرِّ جِهَةٌ؛ وذلكَ أنَّ التَّقْوَى، هو أنْ يَتَّقِيَ المَهالكَ؛ وذلكَ يكونُ بالإجابةِ إلى ما دُعِيَ إليهِ قَولاً وفِعْلاً والإنْتِهاءِ عمّا نُهِيَ عنهُ قَولاً وفِعْلاً، وهذا هو مَعْنَى البِرِّ أيضاً.

فإذا ذُكِرا معاً أُريدَ بالتَّقْوَى الإجْتِنابُ عنِ المَحارِمِ، وأُريدَ بالبِرِّ إتيانُ المَحاسِنِ.

وكذلكَ الإيمانُ إذا ذُكِرَ بالإنْفِرادِ أُريدَ بِهِ ما يَقْتَضي الإسلامُ مِنَ المَعْنَى والإيمانُ جميعاً. وكذلكَ الإسلامُ يَقْتَضي مَعْنَى الإيمانِ إذا ذُكِرَ بالإنْفِرادِ، لأنَّ الإسلامَ، هو أنْ تُرَى الأشياءُ كلُّها سالمةً للهِ تعالى، لا يُجْعَلُ لأحدٍ فيها شِرْكٌ[3]،

والإيمانُ أنْ تصَدِّقَ اللهَ تعالى بأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ. وإذا صَدَّقْتَ أنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ فقد جَعَلْتَ الأشياءَ كلَّها سالمةً لهُ.

فهذا مَعْنَى قولِنا[4]: إنهُ يُرادُ بالإيمانِ إذا ذُكِرَ بالإنْفِرادِ ما يُرادُ بالإسلامِ. فإذا ذُكِرا معاً أُريدَ بالإسلامِ ما يَقْتَضيهِ ظاهِرُهُ مِنْ جَعْلِ الأشياءِ كلِّها سالمةً لهُ، وأُريدَ بالإيمانِ ما يَقْتَضيهِ ظاهِرُهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥].

وكذلكَ الحكمُ في الخَوفِ والرَّجاءِ إذا ذُكِرَ كلُّ واحدٍ مِنَ الحرفَينِ مُنفرِداً اقْتَضَى / ٦٣٢ - أ/ كلُّ واحدٍ منهما مَعْنَى الآخَرِ. وإذا ذُكِرا معاً أُريدَ بكلِّ واحدٍ منهما ما يَقْتَضيهِ ظاهِرُهُ، ولم يُصْرَفْ إلى ما يُرادُ بالآخَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا في الآخِرَةِ؛ يَصِفُهُمْ أنهمْ أبداً في نَعيمٍ، وجائزٌ أنْ يكونوا في نَعيمِ الدنيا والآخِرَةِ؛ فيكونونَ في الدنيا في نَعيمِ العقولِ دونَ نَعيمِ الأبدانِ، وذلكَ أنهمْ يُطيعونَ العقلَ في ما يَدْعوهمْ إليهِ، فَيَتَنَعَّمونَ بعقولِهِمْ؛ وهمُ[5] الذينَ تدعوهُمْ إليهِ عقولُهُمْ لِما تأبَى أنفسُهُمُ الإجابةَ لهُ، ويَشْتَدُّ عليها ذلكَ، فهمْ في نَعيمِ العقولِ لا في نَعيمِ الأبدانِ.

ونَعيمُ الآخِرَةِ نَعيمُ البَدنِ والعقلِ جميعاً، فَتَتَنَعَّمُ أنفسُهُمْ وعقولُهُمْ، ولا يُحَمَّلُونَ ما تأبَى أنفسُهُمُ احتِمالَهُ[6]؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١] وقالَ تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الآيةَ [النحل: ٩٧] فَثَبَتَ أنهمْ في الدنيا والآخِرَةِ ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ كلَّ ما تَتَشَوَّقُ الأنفسُ، وتَشْتَهي في الدنيا، فَعَلَى مثلِهِ جَرَتِ البِشارةُ لأهلِ الجنةِ في الدنيا.

وذُكِرَ أنَّ أهلَ اليمنِ، كانَ إذا شَرُفَ قَدْرُ أحدِهِمْ، وعَلَتْ رُتْبَتُهُ في الدنيا، اتَّخَذَ لنفسِهِ أريكةً نُسِبَتْ إليهِ؛ فَيُقالُ: هذهِ أريكةُ فلانٍ، فَجَرَتِ البِشارةُ لأهلِها بالأرائكِ لِما يُرْغَبُ إلى مثلِها في الدنيا، لا أنَّ أرائِكَها شَبيهةٌ بالأرائكِ التي تُتَّخَذُ في

---

(١) في الأصل وم: وميل. (٢) في الأصل وم: أو البر. (٣) في الأصل وم: شركاً. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل وم: يكن.
(٦) في الأصل وم: احتمالها.

الدنيا لأنَّ أرائكَ الجنةِ مُطَهَّرَةٌ مِنَ الآفاتِ التي هي آثارُ الفَناءِ، لكنّها ذُكِرَتْ بهذا الاِسْمِ لِما لا وَجْهَ لِلْوُصولِ إلى تَعَرُّفِها بِغَيرِ الاِسْمِ المُعْتادِ في ما بَينَ الخَلْقِ، والأريكةُ هي السريرُ في الحِجالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ][1]:

أحَدُهما: أنْ يَقَعَ النَّظَرُ في الحَجَلِ، وذلكَ عندَ تَلاقي الإخوانِ واجْتِماعِهِمْ على الشرابِ.

والنَّظَرُ الثاني: يكونُ إلى مملكَتِهِ، فيكونُ ذلكَ خارجاً مِنَ الحِجالِ على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنةِ لَيَرَى جميعَ مالَهُ بنظرةٍ واحدةٍ، وأقلُّ ما يُعْطَى الرجلُ مثلُ سَعَةِ الدنيا وعَرْضِها».

فذلكَ النَّظَرُ يَتجاوَزُ عمّا في الحِجالِ، فَيَقَعُ خارجاً عنها.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي تَعْرِفُ لو نَظَرْتَ في وجوهِهِمْ نَظْرَةَ النَّعيم. فجائزٌ أنْ تكونَ النَّظْرَةُ مُنْصَرِفةً إلى نفسِ الخِلْقةِ، وهي[2] انهمْ أُنْشِئوا على خِلْقةٍ لا تَتَغَيَّرُ، ولا تَفْنَى، بل [تَزْدادُ][3] بَهْجَةً ونَضْرَةً، أو تكونَ نَضارتُهُمْ بِما أُنْعِموا مِنَ النَّعيمِ.

ثم خُصَّتِ الوجوهُ [لأمرَينِ:

أحَدُهُما][4]: لأنَّ النَّظَرَ مِنْ بعضٍ إلى بعضٍ يكونُ إلى الوجوهِ لا إلى غَيرِها مِنَ الأعضاءِ، فَخُصَّتِ الوجوهُ بالذِّكْرِ لهذا، لا أنْ تكونَ النَّضْرَةُ لها خاصّةً، بل النَّضْرَةُ تَشْتَمِلُ سائرَ البدنِ.

والثاني: لأنَّ السرورَ إذا اشْتَدَّ في القلبِ أثَّرَ في الوجوهِ، وكذلكَ الحزنُ يُؤَثِّرُ في الوجهِ إذا اعْتَرَى القلبَ، فيكونُ في ذِكْرِهِ ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ إخبارٌ عنْ غايةِ ما هُمْ عليهِ مِنَ السرورِ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الرحيقُ، هو الخمرُ الذي لا غِشَّ فيهِ، وهو أنْ يكونَ مُطَهَّراً مِنَ الآفاتِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو شيءٌ أعَدَّهُ اللهُ لأوليائِهِ، لم يُطْلِعْهُمْ على ماهِيَّتِهِ في الدنيا على ما قالَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] فهو شرابٌ، تَقَرُّ بِهِ أعيُنُهُمْ، ممّا أُخْفِيَ لهمْ إلى الوقتِ الذي يَشْرَبونَهُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّخْتُومٍ﴾ ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ راجعاً إلى حالِ الإناءِ الذي كانوا يُؤْثِرونَهُ في الدنيا، وأخبَرَ أنَّ خِتامَهُ بأنفسِ شيءٍ عَرَفوهُ في الدنيا، وهو المِسْكُ، ليسَ كالخِتامِ في الدنيا، لأنهمْ يَخْتُمونَ أوانِيَهُمْ في الدنيا بالشيءِ الرَّذْلِ وبما لا قَدْرَ لهُ عندَهمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الشارِبِينَ: إنهمْ لا يَشْربونَ أبداً، بل يكونُ لهُ خَتْمٌ، ولكنْ لا تَنْقَطِعُ لَذَّةُ الشرابِ عنهمْ، بل أبداً يَجِدونَ منْ ذلكَ ريحَ المِسْكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بِهِ الشرابَ الذي وَصَفَهُ في قولِهِ: ﴿رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ والتنافُسُ حرفٌ يُسْتَعْمَلُ في الخَيراتِ؛ كأنهُ يقولُ: فَلْيَرْغَبوا في الشرابِ الذي هذا وَصْفُهُ الذي ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] لا في الشرابِ الذي [يَذْهبُ][5] بالعقولِ، ويُضْعِفُ [الأبدانَ، ويُتْلِفُ][6] الأموالَ. أو فَلْيَتَنافَسوا في النعيمِ الذي وَصَفَ ههنا لا في النعيمِ [الذي][7] يَنْقَطِعُ، ولا يدومُ؛ فكأنهُ يقولُ: فَلْيَرْغَبوا في ما يُعْقِبُ لهمُ النعيمَ الدائمَ والشرابَ الذي لا تَنْقَطِعُ لَذَّتُهُ.

وقيلَ: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ ما بَقِيَ في الكاسِ مِنَ البقيةِ يكونُ ذلكَ مِسْكاً. والتّنافُسُ إنما يكونُ في المُسارعةِ في الخَيراتِ وتَرْكِ الاِتِّباعِ للشَّهَواتِ والاِنْتِهاءِ عنِ المَعاصي، وهو كقولِهِ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أي فَلْيَكُنْ عملُهُمْ لِما يُثْمِرُ لهمْ ما ذَكَرَ مِنَ النعيمِ، لا في الذي يَنْقَطِعُ، ويكونُ عُقْباهُ النارُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: يتلف. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ قيلَ: التسنيمُ شيءٌ أعَدَّهُ اللهُ تعالى لأوليائِهِ، لم يُطْلِعْهُمْ عليهِ في الدنيا، وهو ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧] التي لا تَعْلَمُها الأنفسُ: فوصَفَ مَرَّةً المِزاجَ[1] بالمِسْكِ ومَرَّةً بالكافورِ بقولِهِ: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] ومَرَّةً أخبَرَ أنهُ ممزوجٌ بالتَّسْنيمِ، ولم يُبَيِّنْ ما التَّسْنيمُ، والسَّنامُ ما ارْتَفَعَ منَ الشيءِ؛ فيجوزُ أنْ سَمَّى تسنيماً لأنهُ يَنْحَدِرُ إليهِمْ منَ الأعلى، وأخبَرَ أنهُ ممزوجٌ بما إلى مثلِهِ تَرْغَبُ الأنفسُ في الدنيا، وتَشتاقُ إليهِ. ألَا تَرى أنَّ الشرابَ في الدنيا إذا كانَ مَمْزوجاً فهو في القلوبِ أوقعُ منهُ، وتكونُ الأنفسُ إليها أرغَبَ منه إذا كانَ غيرَ ممزوجٍ، فرَغِّبوا بمثلِهِ في الآخِرَةِ؟

وذكَرَ بعضُ أهلِ التفسيرِ أنَّ المُقَرَّبينَ يُسْقَوْنَ مِنْ ذلكَ الشرابِ صِرْفاً، ويُمْزَجُ لِغَيرِهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ: المزاجُ يكونُ لِلْمُقَرَّبينَ وغَيرِهِمْ، وجُعِلَ المَمْزوجُ منهُ أشرَفَ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ همُ الذينَ يُسارعونَ في الخَيراتِ في الدنيا، فتَرَكوا مُنَى الأنفسِ، واتَّقَوُا المَهالِكَ والزَّلاتِ. فهمُ المُقَرَّبونَ.

وأضافَ التَّقريبَ إلى الغَيرِ لأنهمْ بِغَيرِهِمْ ما وُفِّقوا لِاكْتِسابِ الخَيراتِ، وعُصِموا عنِ ارْتِكابِ المَهالِكِ والزَّلاتِ لا بأنفسِهِمْ في الدنيا للأمورِ التي ذَكَرْنا.

الآيتان ٢٩و٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ [﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾][2] فوجهُ ذِكْرِ صَنيعِ الكَفَرَةِ بالمؤمنينَ في القرآنِ وجَعْلِهِ آيَةً تُتْلَى، وإنْ كانَ المؤمنونَ بذلكَ عارفينَ، يُخَرَّجُ على ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُها: في تَبْيينِ مَوقعِ الحُجَجِ في قلوبِ المؤمنينَ وعَمَلِها بهمْ؛ وذلكَ أنَّ المؤمنينَ لمّا امْتُحِنَتْ أنفسُهُمْ بِاحْتِمالِ الأذَى والمَكروهِ مِنَ الكافرينَ [الذينَ][3] انْتَصَبوا لِمُعاداةِ آبائهمْ وأجدادِهِمْ وأهاليهِمْ، رَفَضوا[4] شَهَواتِهِمْ، وتَرَكوا أموالَهُمْ، واختاروا اتِّباعَ محمدٍ ﷺ ودِينَهُ، ومَعْلومٌ أنهمْ لم يُحَمِّلوا أنفسَهُمْ كلَّ هذهِ المُؤَنِ طَمَعاً ورَغْبَةً في الدنيا لِما لم يَكُنْ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ ما يُرْغَبُ في مثلِهِ منْ نَعيمِ الدنيا، فثَبَتَ أنَّ الحُجَجَ، هي التي حَمَّلَتْهُمْ، ودَعَتْهُمْ إلى مُتابَعَتِهِ، لا غَيرُ؛ فيكونُ في ما ذَكَرْنا تَثبيتُ رسالتِهِ، وإنْ لم يكنْ في الآيةِ إشارةٌ إلى الحُجَجِ التي اضْطَرَّتْهُمْ إلى تصديقِهِ والانْقِيادِ لهُ، فيكونُ في ذِكْرِهِ تَقريرٌ لِمَنْ تأخَّرَ عنهمْ منَ المؤمنينَ لرسالتِهِ ﷺ.

والثاني: أنَّ أولئكَ المؤمنينَ صَبَروا على ما نالَهُمْ مِنَ المَكارِهِ، واسْتَقْبَلَهُمْ منْ أنواعِ الأذَى في قِيامِهِمْ بأمرِ اللهِ تعالى ليكونَ في ذِكْرِهِ تَذْكيرٌ لِمَنْ تأخَّرَ عنهمْ منَ المؤمنينَ أنَّ عليهمُ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ/ ٦٣٢ ـ ب/ عنِ المُنْكَرِ وأنهُ لا عُذْرَ لهمْ في الامْتِناعِ عنِ القيامِ بما ذَكَرْنا، وإنْ نالَهُمْ منْ ذلكَ أذًى ومكروهٌ. بل الواجبُ عليهمُ الصَّبْرُ على ما يُصيبُهُمْ والقِيامُ بما يَحِقُّ عليهمْ.

[والثالثُ:][5] ذِكْرُ ما لَقِيَ الأوائلُ مِنَ السَّلَفِ مِنَ المُعاداةِ والشدائدِ مِنَ الكَفَرَةِ بإظهارِهِمْ دينَ الإسلامِ ثم [ما][6] نِلْنا نحنُ هذهِ الرتبةَ، وأُكْرِمْنا بالهُدَى بِلا مَشَقَّةٍ وعَناءٍ، لِنَشكُرَ اللهَ تعالى بذلكَ، ونَحْمَدَهُ عليهِ لِعَظَمَةِ ثنائِهِ لِدِينِنا وجَزيلِ مِنَنِهِ علينا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ فَضِحْكُهُمْ يكونُ لأحدِ وجهَينِ:

إمّا على التَّعَجُّبِ منهمْ أنْ كيفَ اختاروا مُتابعةَ محمدٍ ﷺ وحَمَّلوا أنفسَهُمْ مِنَ الشدائدِ، ورَضُوا بزوالِ النَّعيمِ عنهمْ منْ غَيرِ مَنْفَعَةٍ لهمْ في ذلكَ، وهمْ قومٌ، كانوا لا يؤمنونَ بالبعثِ، يُكَذِّبونَ بما وُعِدَ المؤمنونَ مِنَ النَّعيمِ في الآخِرَةِ، فكانَ يَحْمِلُهُمْ ذلكَ على التَّعَجُّبِ، فَيَضحكونَ مُتَعَجِّبينَ منهمْ.

---

(١) في الأصل وم: بالمزاج. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ورفضوا. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

[وإمّا][1] كانوا يَضحكونَ على اسْتِهْزائِهِمْ بالمؤمنينَ، ويقولونَ[2]: إنَّ هؤلاءِ آمنوا بمحمدٍ ﷺ وصَدَّقوهُ في ما يُخبِرُهُمْ مِنْ نعيمِ الآخِرَةِ، ولا يَعْرِفونَ أنهُ كذلكَ، فكانوا يُجَهِّلونَ المؤمِنينَ على ما جَهِلوا بأنفسِهِمْ، وظَنّوا أنْ لا بَعْثَ ولا جنةَ ولا نارَ.

قالَ أبو بكرٍ: المجرمُ هو الوثّابُ في المعاصي، وذَكَرَ أبو بَكْرٍ أنَّ في ذِكْرِ صَنيعِ الكُفّارِ بالمؤمنينَ دلالةَ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ وذلكَ أنهمْ كانوا يَضحَكونَ مِنَ المؤمنينَ، ويَتَغامَزونَهُمْ، ويَنْسُبونَهُمْ إلى الضلالِ سِرّاً مِنَ المُسلِمينَ، فأطْلَعَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ، على ما أسَرُّوا مِنَ الأفعالِ لِيَجْعَلَ لهمْ مِنْ أفعالِهِمْ حُجَّةً عليهمْ لِنُبُوَّتِهِ ورسالتِهِ ﷺ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لاهينَ، أو مُعْجَبينَ بحالِ المؤمنينَ ومسرورينَ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣].

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ فيجوزُ أنْ يكونوا نَسَبوهُمْ إلى الضلالِ لِتَرْكِهِمْ دينَ آبائِهِمْ، ورَأَوا ما اختاروا مِنْ تَحَمُّلِ الشدائدِ، ورَضُوا مِنَ العيشِ ضَلالاً منهمْ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي لم يُرسَلوا لِحِفْظِ أعمالِ المسلمينَ، فيكونُ في ذِكْرِ هذا تَسْفيهُ أحلامِهِمْ، وهو أنهمْ تَرَكوا النَّظَرَ في أحوالِ أنفسِهِمْ، وجَعَلوا يَعُدُّونَ على المسلمينَ عيوبَهُمْ [كأنهمْ][3] أُرسِلوا عليهمْ حُفّاظاً، وما أُرسِلوا، أو يكونُ هذا إخباراً عنِ الكُفّارِ أنهمْ يقولونَ: ما أُرسِلَ على أحدٍ حافظٌ، يَحْفَظُ عليهِ أعمالَهُ، فيكونُ هذا على الإنكارِ منهمُ الكرامَ[4] الكاتِبينَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ويكونُ ضِحْكُهُمْ على المُجازاةِ لِلْكَفَرَةِ بما كانوا يَضحَكونَ منهمْ في الدنيا.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ فمنهمْ مَنْ وقفَ على قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ ومنهمْ مَنْ رَأى مَوضِعَ الوقفِ على قولِهِ: ﴿يَنظُرُونَ﴾.

فإذا وُقِفَ على قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ كانَ معناهُ أنهمْ يَنْظُرونَ هل جُوزِيَ الكُفّارُ بما أوعَدَهُمُ الرسلُ في الدنيا؟ أمْ[5] لا بَعْدُ.

وإذا وقَفْتَ على قولِهِ: ﴿يَنظُرُونَ﴾.

الآية ٣٦ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي قد جُوزِيَ الكفارُ ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فهمْ يَنْظرونَ كيفَ يُعاقَبونَ؟

ثم القولُ: أنْ كيفَ احْتَمَلَتْ أنفسُهُمُ النَّظَرَ إلى الكفارِ بما هُمْ فيهِ مِنَ التَّعْذيبِ؟ والمَرْءُ إذا رَأى أحداً في شدةِ العذابِ لم يَحْتَمِلْ طَبْعُهُ ذلكَ، ويَتَنَغَّصُ عليهِ العيشُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أنْشَأهمْ على خِلْقةٍ، لا تَقْبَلُ المَكارِهَ، ولا تَجِدُها، بل تَنالُ اللَّذّاتِ كلَّها والمَسارَّ، أوِ ارْتَفَعَ عنهمُ المكروهُ لِبلوغِ العَداوةِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أهلِ النارِ غايَتَها.

وكذلكَ يُرى المَرءُ في الشاهدِ إذا عادى إنساناً، واشْتَدَّتِ العداوةُ في ما بَيْنَهما، ثم رآهُ يُعَذَّبُ بألوانِ العذابِ، لم يَثْقُلْ عليهِ ذلكَ، بل أحَبَّ أنْ يُزادَ منهُ.

ثم جائزٌ أنْ يُرْفَعَ إليهمْ أهلُ النارِ إذا اشْتاقوا النَّظَرَ إليهمْ، فَيَروهُمْ[6]، أو يُجْعَلَ في بَصَرِهِمْ من القُوَّةِ ما يَنْتَهي إلى ذلكَ المكانِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بكرتم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: فيرونهم.

ثم ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ هذهِ السورةِ مكيةٌ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنها نَزَلَتْ بَينَ مكةَ والمدينةِ، وهي مكيةٌ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ [أنها في](١) أوَّلَها مدنيةٌ وآخرِها مكيةٌ [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ](٢).

(١) في الأصل وم: أن. (٢) ساقطة من م.

سورة [الانشقاق

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ هو جوابُ سؤالٍ تقدَّمَ لِما ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ ﴿إِذَا﴾ حَرْفُ جوابٍ، وليسَ بِحَرْفِ ابْتِداءٍ، فكأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنْ مُلاقاةِ الأعمالِ: متى وقتُها؟.

فقالَ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ فذلكَ[2] وقتُ مُلاقاةِ الأعمالِ.

وقيل: ذُكِرَ في الخَبَرِ أنَّ أخوَينِ: أحَدُهُما مسلمٌ، والآخَرُ كافرٌ، قالَ [الكافرُ][3] للمسلمِ: أتُراباً بعدَ الموتِ مَبْعوثونَ؟ قالَ لهُ: بَلَى والذي خَلَقَكَ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

فنَزَلَتْ هذهِ السورةُ تُبيِّنُ لهمْ وقتَ بعثِهِمْ أنهُ عندَ انْشِقاقِ السماءِ ومَدِّ الأرضِ ونَحْوِهِ.

ثم ذِكْرُ الجوابِ في ابْتِداءِ السورةِ ليكونَ المَرْءُ أذْكَرَ لها لأنهُ يكونُ أدْعَى لها، وإذا ذُكِرَ في وَسَطِ السورةِ لم يَتَحَفَّظْ إلّا بالتِّلاوةِ. ولهذا المَعْنَى، واللهُ أعلَمُ، جُعِلَتْ: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ رؤوسَ السُّوَرِ لأنَّ الكفرةَ كانَ مِنْ عادتِهِمْ الإعراضُ عنِ القرآنِ وتَرْكُ الاسْتِماعِ إليهِ، لِيَتَفَهَّموهُ.

فابْتُدِئَتْ [بعضُ السُّوَرِ][4] بما ذَكَرْتُ مِنَ الرموزِ والإشاراتِ لِيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على التَّفَكُّرِ فيهِ والنَّظَرِ، إذْ لم يَسْبِقْ منهمُ[5] العلمُ بمعرفةِ ما يُرادُ منْ قولِهِ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾.

ثم ذِكْرَ انْشِقاقِ السماءِ ومَدِّ الأرضِ وإلقائها لِما جَعَلَ فيها لِيَعْرِفوا شدةَ ذلكَ اليومِ، فَيَخافوهُ، ويَسْتَعِدُّوا لهُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ قيلَ: سَمِعَتْ لِرَبِّها، وأطاعَتْ، وأجابَتْ إلى ما دُعِيَتْ إليهِ.

ثم المُرادُ مِنَ الإذْنِ مُخْتَلِفٌ، فَحَقُّهُ أنْ يُصْرَفَ كلُّ شيءٍ إلى ما هو الأَولى بِهِ.

ألا تَرَى أنكَ إذا قُلْتَ: أَذِنَ الرجلُ لعبدِهِ في التجارةِ، فلستَ تُريدُ بقولِكَ: أَذِنَ ما تُريدُ بِهِ إذا أَذِنْتَ لِغَيرِكَ أنْ يَتَناوَلَ مِنْ طعامِكَ، بل تُريدُ بالإذْنِ للعبدِ الأمرَ بأنْ يَتَّجِرَ حتى إذا[6] لم يَفْعَلْ تُلْزِمُهُ على ذلكَ، وتريدُ بالآخَرِ إباحةَ التَّناوُلِ؟

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠٠] فكانَ المرادُ مِنَ الإذنينِ مُخْتَلِفاً[7].

فَثَبَتَ أنَّ حقَّهُ أنْ يَحْمِلَهُ إلى ما دعاهُ إليهِ أوجَهُ؛ وهو إلى الطاعةِ والإجابةِ ههنا / ٦٣٣ ـ أ/ أوجَهُ. لذلكَ حَمَلوهُ عليهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَحُقَّتۡ﴾ أي حُقَّ لها أنْ تَسْمَعَ، وتُطيعَ. وجائزٌ أنْ تكونَ الإجابةُ مُنْصَرِفَةً إلى أهلِها، ثم نُسِبَ إليها ذلكَ، وإنْ كانَ المُرادُ منهُ الأهلَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] ولا يُوجدُ مِنَ القريةِ عُتُوٌّ، وإنما يوجَدُ منْ أهلِها.

فإنْ كانَ كذلكَ ففيهِ أنهُ لا يَتَخَلَّفُ أحدٌ عنِ الإجابةِ إلى ما دعاهُ إليهِ الرَّبُّ تعالى خِلافاً لِما[8] كانوا عليهِ في الدنيا؛ فإنَّ كثيراً مِنْ أهلِ الدنيا أعْرَضوا عنْ طاعتِهِ، واشْتَغَلوا بِمَعصيَتِهِ.

---

(١) من م، في الأصل: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾. (٢) في الأصل وم: فكذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: السورة. (٥) في الأصل وم: منه. (٦) في الأصل وم: لو. (٧) من م، في الأصل: مختلف. (٨) في الأصل وم: على ما.

ثم الإجابةُ والطاعةُ والطَّوعُ والكَرْهُ ومثلُ هذهِ الأوصافِ إذا أُضيفَتْ إلى مَنْ هو مِنْ أهلِ الاختيارِ فهو على الطَّوعِ المَعروفِ والإجابةِ المعروفةِ، وإذا أُضيفَتْ إلى مَنْ ليسَ هو مِنْ أهلِ الاختيارِ فهو على تَعْيينِ الهيئةِ [على ما هي عليه الخِلقةُ نَحْوُ الأرضِ، تُوصَفُ بالحياةِ إذا أنْبَتَتْ، وتُوصَفُ بالموتِ إذا يَبِسَ [ما](1) عليها، وصارت مُتَهَشِّمةً، فَيُرادُ بهما أنهما صارَتا(2) بهيئةٍ لو وُجِدَتْ تلكَ الهيئةُ](3) في الروحانيِّينَ لصارَ أحَدُهُما عَلَماً لِحياتِهِ، والآخَرُ عَلَماً لِوَفاتِهِ، كقولِهِ(4) تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهما لا يُوصَفانِ بِطَوعٍ ولا كَرْهٍ؛ خُلِقَتا على هيئةٍ لو وُجِدَتْ تلكَ الهيئةُ في مَنْ وُصِفَ بالطَّوعِ والإكراهِ كانَ ذلكَ منهُ طَوعاً. وقولُ(5) إبراهيمَ ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] [وهي](6) في الحقيقةِ لا تُضِلُّ، ولكنها أُنْشِئَتْ على هيئةٍ، لو كانتْ تملِكُ الإضلالَ لَعُدَّ ذلكَ منها إضلالاً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ قيلَ: بُسِطَتْ، وسُوِّيَتْ بكسرِ الشِّعابِ، والأوديةُ [بكسرِ الجبالِ، وتماسُّنا، فصارَتْ](7) ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦و١٠٧].

الآيتان ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾](8) أي ألْقَتْ ما وُضِعَ فيها مِنَ المَوتى والكُنوزِ، فَتَخَلَّتْ عنها، فَنُسِبَ التَّخَلّي إليها، وإنْ كانَ مَنْ فيها، هو الذي تَخَلّى(9) عنها، وكانتْ هي الحابسةَ(10)، لأنهُ إذا [تَخَلّى عنها تَخَلَّتْ](11) هي عنهُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ الكادحُ، هو الساعي، وهو الذي اعْتادَ ذلكَ، وهذا في كلِّ إنسانٍ، تَراهُ أبداً ساعياً إمّا في عَمَلِ الخيرِ [وإمّا في](12) عَمَلِ الشَّرِّ وإمّا(13) في ما يَضُرُّهُ حتى إذا(14) هَمَّ بتَرْكِ السَّعْيِ لم يَقْدِرْ لأنَّ تَرْكَهُ السَّعْيَ نوعٌ مِنَ السَّعْيِ.

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ حينَ تَلا هذهِ الآيةَ قالَ: «أنا ذلكَ الإنسانُ» فهذا ليسَ أنهُ هو المخصوصُ بالخِطابِ لأنهُ بَيَّنَ الإنسانَ فقالَ: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١و...] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] [﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]](15) ولا يجوزُ أنْ يكونَ هو المُرادَ بهذا كلِّهِ؛ فكلُّ أحدٍ على الإشارةِ مُرادٌ بقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فلذلكَ قالَ النبيُّ ﷺ: «أنا ذلكَ الإنسانُ».

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: أنِ اجْعَلْ كَدْحَكَ إلى ربِّكَ في أنْ تَسْعَى إلى طاعتِهِ وطَلَبِ مرضاتِهِ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ فإنكَ مُلاقيهِ، لا مَحالةَ؛ أي تُلاقي جَزاءَ عَمَلِكَ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فَشَرٌّ.

وجائزٌ أنْ تكونَ المُلاقاةُ كِنايةً عنِ البعثِ؛ إذِ البعثُ قد يُكَنّى عنهُ بلقاءِ الرَّبِّ. قالَ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] وسُمِّيَ ذلكَ اليومُ يومَ المَصيرِ إلى اللهِ تعالى ويومَ البروزِ بقولِهِ تعالى: [﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقولِهِ تعالى](16): ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] ووجهُ التَّسْمِيةِ بهذهِ الأسامي ما ذَكَرْنا أنَّ المقصودَ مِنْ خَلْقِ العالَمِ العاقبةُ، فَسُمِّيَ بُروزاً لِما لِلْبُروزِ أُنْشِئَ، وسُمِّيَ مصيراً إلى اللهِ تعالى لِمَصيرِهِمْ إلى مالَهُ خُلِقوا، وإنْ كانَ الخَلْقُ كلُّهُمْ بارزينَ لهُ قبلَ ذلكَ، ولم يكونوا عنهُ غائبينَ، فَيَصيروا إليهِ خصوصاً لذلكَ اليومِ.

الآيتان ٧و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [فَسَمّاهُ حساباً يسيراً](17) لِوجوهٍ:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: صارت. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: بالجبال أو تماساً فصار، في م: بالجبال وتماساً فصار. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: خلا. (١٠) من م، في الأصل: الجاسية. (١١) في الأصل وم: خلا عنها ، خلت. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) في الأصل وم: لو. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُها: أنَّ المؤمنَ اعتقَدَ تَصديقَ الرَّبِّ في كلِّ ما دعاهُ إليهِ. فإذا كانَ [مُصدِّقاً][1] سَهُلَ عليه تَذكُّرُ[2] ما قد عَمِلَهُ بِتَفكُّرِ الجملةِ.

[والثاني][3]: أنهُ إذا نَظَرَ في كتابِهِ رأى حَسناتِهِ مَقبولةً وسَيِّئاتِهِ مَغفورةً، فَسَمَّى ذلكَ اليومَ يَسيراً لهُ لِما أُثبِتَ فيهِ مِنَ الخَيراتِ، ومُحِيَ عنهُ مِنَ السيئاتِ كما سُيِّمَتِ الخيراتُ يُسْرَى وسُمِّيَ ما يَجري عليها يُسْراً أيضاً، فكذلكَ الذي أُوتِيَ كتابَهُ بيمينِهِ، يَجرِيَ عليه الخَيرُ، يُسَمَّى حسابُهُ يسيراً.

[والثالثُ][4]: أنْ يكونَ المسلمُ، يُحاسَبُ في أنْ يُذَكَّرَ ما أُنعِمَ عليهِ في الدنيا، ولا يُحاسَبُ حسابَ تَوبيخٍ وتَهويلٍ بأنْ يُقالَ لهُ: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟ والكافرُ يُسألُ سؤالَ توبيخٍ، فيقالُ: فعلْتَ كذا على الإنحاءِ [بالملائمةِ على ما][5] فَعَلَ وفي ذلكَ تَعسيرٌ عليهِ.

ورُوِيَ عن عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ نوقِشَ في الحسابِ فهو مُعَذَّبٌ» [البخاري ٦٥٣٦].

وفي بعضها: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ» قالَتْ: قُلْتُ يا رسولَ اللهِ: ألم يَقُلِ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾؟ قالَ: «ذلكَ العرضُ، ولكنْ مَنْ نوقشَ الحسابَ هلكَ» [البخاري ٤٩٣٩].

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: في ظاهرِ قولِهِ ﷺ: «مَنْ نوقِشَ الحسابَ عُذِّبَ» [البخاري ٦٥٣٦] رَفْعُ ما قالتْهُ عائشةُ ﵂ لأنَّ الفَهمَ مِنْ قولِهِ ﷺ: «مَنْ نوقِشَ الحسابَ» غَيرُ الفَهمِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فليسَ في قولِهِ ظاهرُ جوابٍ لها، وكانَ الظاهرُ مِنَ الكلامِ الأوَّلِ على ما فَهِمَتْهُ عائشةُ ﵂ ولكنَّ وجهَ الجوابِ فيهِ أنَّ قولَهُ ﷺ: «مَنْ حوسِبَ عُذِّبَ» وقولَهُ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ﴾ ليسَ على كلِّ الحسابِ، وإنما هو على الحسابِ الذي لا يُناقَشُ فيهِ.

فأمّا الذي هو عَرْضٌ فليسَ مِمّا يُعَذَّبُ عليهِ، فيكونُ فيهِ إبانةٌ أنهُ لا يُفْهَمُ بالخطابِ العامِّ عُمومُ المُرادِ كما فَهِمَتْهُ عائشةُ ﵂ بل يجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ عامّاً، والمرادُ منهُ خاصّاً.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ وقالَ في شأنِ الذي ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾: [الآيات: ١٠ ـ ١٢] إنهُ كانَ في أهلِهِ مسروراً.

فهذا لأنَّ المسلمَ إنما تأهَّلَ على قَصْدِ تَحصيلِ النفعِ لنفسِهِ في العاقبةِ، وتكونُ مُعينةً لهُ على أمورِ الآخِرَةِ، فَحَصَلَ لهُ ذلكَ النفعُ بإحرازِهِ السُّرورَ الدائمَ بذلكَ. والكافرُ تأهَّلَ للمنافعِ الحاضرةِ، وسُرَّ بأهلِهِ[6] سروراً، أنساهُ السُّرورُ أمرَ العاقبةِ، فَحَقَّ عليهِ العذابُ لِتَركِهِ السَّعيَ للآخِرَةِ لا لِسُرورِهِ بأهلِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية [الإسراء: ١٨].

والكلُّ منّا يريدُ العاجلةَ، ولابُدَّ لهُ منها، لكنَّ الذي يَصْلَى جَهَنَّمَ، هو الذي ابْتَغَى العاجلةَ ابْتِغاءً أنساهُ ذلكَ الآخِرَةَ[7]، فكذلكَ المَسرورُ بأهلِهِ، إنما حَلَّتْ بهِ النِّقْمَةُ لِما مَنَعَهُ السُّرورُ عنِ النظرِ للعاقبةِ لا لنفسِ السُّرورِ، إذْ كلُّ متأهِّلٍ، لا يَخلو عنِ السُّرورِ بأهلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ فالإيتاءُ مِنْ وَراءِ الظهرِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنِ اسْتُقْذِرَ منهُ لِخُبْثِ مَنْظَرِهِ، فَأُوتِيَ من وراءِ ظَهْرِهِ مُجازاةً لهُ بما سَبَقَ مِنْ صُنعِهِ؛ وصُنْعُهُ أنهُ نَبَذَ كتابَ اللهِ تعالى وراءَ ظهرِهِ، وتَرَكَ أوامرَهُ ونواهِيَهُ كذلكَ وراءَ ظَهرِهِ، فَجوزِيَ أيضاً بِدفعِ كتابِهِ وراءَ ظهرِهِ، ودُفِعَ إلى المؤمنِ/ ٦٣٣ ـ ب/ كتابُهُ بيمينِهِ لِما في كتابِهِ مِنَ المَحاسنِ والبركاتِ، واليَمينُ أُنشِئَتْ لِتُستَعمَلَ في البركاتِ وأنواعِ [الخَيرِ][8]، وسُمِّيَتْ أيضاً باسمٍ مُشتَقٍّ مِنَ اليُمْنِ والبركةِ.

---

(١) في الأصل وم: على التصديق. (٢) في الأصل وم: تذكير. (٣) في الأصل وم: ووجه آخر. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: بما. (٦) في الأصل وم: بهم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك على. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

[والثاني: أن][1] الشّمالَ جُعِلَتْ لِتُسْتَعْمَلَ في الأقذارِ والأنجاسِ، فَدُفِعَ كتابُهُ مِنْ حيثُ عملُهُ إليهِ بشمالِهِ أيضاً أو مِنْ وراءِ ظهرِهِ، لأنَّ أهلَ الإيمانِ قَبِلُوا أمورَ[2] اللهِ تعالى ونواهيَهُ، واستَقبلوها بالتّعظيمِ والتّبجيلِ؛ ومَنْ أرادَ تَعظيمَ الآخَرِ في الشاهدِ وتَبجيلَهُ أخذَهُ بيمينِهِ، فَجوزوا في الآخِرَةِ بالتّعظيمِ لهمْ بأنْ أُوتُوا[3] كُتُبَهُمْ بأيمانِهِمْ.

وأمّا الكافرُ بأنهُ استَخفَّ بأمرِ اللهِ تعالى وطاعتِهِ فَجوزيَ في الآخِرَةِ بأنْ أُوتِيَ كتابَهُ بِشمالِهِ التي تُستَعْمَلُ في الأقذارِ إهانةً وتَحقيراً.

الآيات ١١ ـ ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾][4] الثُّبورُ والوَيلُ حرفانِ، يُتَكَلَّمُ بهما عندَ الوُقوعِ في المَهالكِ، فيكونُ في ذِكْرِ الثُّبورِ ذِكْرُ وقوعِهِ في المَهْلكةِ التي تَحِقُّ لهُ، ودعاءُ[5] الثُّبورِ والوَيلِ على نفسِهِ، دعا بهِ، أو لم يَدْعُ، على سبيلِ الكنايةِ عنِ الوقوعِ في المَهالكِ، وهو كقولِهِ تعال: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢] فالضّحكُ كنايةٌ عنِ السُّرورِ، والبُكاءُ كنايةٌ عنِ الحُزنِ؛ فَمعناهُ أنهُ يَستَقبِلُهُ ما يَحزَنُ بِهِ طويلاً، كانَ هناكَ بكاءٌ، أو لم يكُنْ.

الآيتان ١٤و١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾ فيهِ دلالةٌ أنهُ إنما حلَّ بهِ ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ، لأنهُ كانَ للبعثِ ظانّاً، ولم يكُنْ بِهِ مُتيَقِّناً.

وكذلكَ اللهُ ﷻ [حينَ][6] قَسَمَ الوعدَ والوعيدَ للفريقَينِ ذَكَرَ في آخِرِهِ ما يُبيِّنُ أنَّ الذي أُوعِدَ بالعذابِ، هو المُكذِّبُ، وذَكَرَ الوعيدَ ههنا، وبَيَّنَ أنَّ الذي يَحُلُّ بِهِ هذا الوعيدُ، هو الذي كانَ ظانّاً بالميعادِ، ولم يكُنْ مُتحقِّقاً. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] فَتبيَّنَ أنَّ الوعيدَ في المُكذِّبينَ، وقالَ تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤و١٠٥] لِيُعْلَمَ أنَّ الوعيدَ الدائمَ في المُكذِّبينَ خاصّةً؛ فيكونُ فيهِ دفعُ قولِ المعتزلةِ: إنَّ أهلَ الكبائرِ يُخَلَّدونَ في النارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي كانَ بصيراً بما سَبَقَ مِنْ أعمالِهِ الخبيثةِ، فَيُحاسِبُهُ على عِلْمٍ منهُ بما كَسَبَتْ يداهُ، ويُعَذِّبُهُ على عِلْمٍ منهُ باكتِسابِ ما استَوجَبَ مِنَ العذابِ خِلافاً لأمرِ ملوكِ الدنيا؛ إنهمْ يُحاسِبونَ على تَذكيرِ الغَيرِ لهمْ ما عليهِمْ[7] مِنَ الحسابِ، ويُعذِّبونَ على تَعريفِ الغَيرِ لهمْ ما استَوجَبَ بِهِ التّعذيبَ لا على عِلْمٍ منهمْ بذلكَ.

أو يكونُ مَعناهُ: أنهُ كانَ بِهِ بَصيراً في الأزَلِ أنهُ ماذا يَعمَلُ إذا أنشَأهُ وإلى ماذا يَنقلِبُ أمرُهُ إلى النارِ أو إلى الجنةِ، فَخلَقَهُ على عِلْمٍ أنهُ يُعادي أولياءَهُ، ويَعْمَلُ بِمعاصيهِ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّ المرءَ في الشاهدِ، لا يَشرَعُ في الأمرِ الذي يَعلَمُ أنهُ في العاقبةِ، يَضُرُّهُ، ولا يَنفَعُهُ، ولو شَرَعَ فيهِ، وأتَمَّهُ، كانَ مذموماً عندَ الناسِ، ولم يكُنْ محموداً، فأيُّ حِكمةٍ في إنشاءِ عَدُوِّهِ، وهو عالِمٌ أنهُ يَسعَى في مُعاداتِهِ.

فَجوابُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الذي يَشرَعُ في الأمرِ الذي عَلِمَ أنَّ إتمامَهُ، يَضُرُّهُ، ولا يَنفَعُهُ، إنما لَحِقَتْهُ المَذَمّةُ لِما سَعَى في إضرارِ نفسِهِ.

فأمّا الذي أعْرَضَ عنْ طاعةِ اللهِ، وكَفَرَ بهِ، فإنما اكتَسَبَ الضَّرَرَ على نفسِهِ خاصّةً بأنْ أوقَعَها في المَهالكِ، ولم يَضُرَّ غَيرَهُ، لذلكَ لم تَلْحَقْهُ المذمّةُ في خَلْقِهِ وإنشائِهِ.

وفي هذا دلالةٌ أنَّ اللهَ حينَ[8] خَلَقَ الخَلْقَ لم يَخلُقْهُمْ لِمَنفَعَةٍ لهُ ولا لِمَضَرَّةٍ تَلحَقُهُ منْ جِهَتِهِمْ، بل مَنافِعُهُمْ ومَضارُّهُمْ راجعةٌ إلى أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ فمنهمْ مَنْ حَمَلَ قولَهُ: ﴿فَلَآ﴾ على دفعِ مُنازَعةٍ، وقَعَتْ في ما بَينَ القومِ على ما نَذكُرُ في سورةِ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾[9] إنْ شاءَ اللهُ. والقَسَمُ قولُهُ ﷻ: ﴿أُقْسِمُ﴾ ومنهمْ مَنْ جَعَلَ لا بِحَقِّ الصِّلَةِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أمر. (٣) في الأصل وم: أوتي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: عليه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) هي سورة البلد. انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ١٥١.

فإنْ كانَ على الوجهِ الأوَّلِ لم يَجُزْ حذفُ لا مِنَ الكلامِ، بل حَقُّهُ أنْ يُقرأَ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾.

وإنْ كانَ بِحَقِّ الصِّلَةِ استَقامَ في حَذْفِهِ كما قرأَ بعضُ القُرَّاءِ: فَلَأُقسِمُ بالشَّفَقِ. [ثم الشَّفَقُ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ][1] أثَرُ النهارِ. فجائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ واقعاً على النهارِ كلِّهِ، وإنْ كانَ ذَكَرَ طَرَفاً منهُ.

والثاني: أنَّ الشَّفَقَ يَجتَمِعُ فيهِ أثَرُ النهارِ، وهو النورُ الذي فيهِ أثرُ الشمسِ، وهي الحُمْرَةُ التي تكونُ فيهِ، فيكونُ القسمُ واقعاً على النهارِ بما فيهِ كما كانَ واقعاً على الليلِ بما فيهِ لِقولِهِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ فتكونُ فيهِ حُجَّةٌ لِقولِ أبي حَنيفةَ ﷺ: إنَّ وقتَ العِشاءِ لا يدخُلُ حتى يَغيبَ الشَّفَقُ، لأنَّ وقتَها يدخُلُ بِغَيبوبةِ الشَّفَقِ، والشَّفَقُ وجَدْناهُ مُشتَمِلاً على البَياضِ والحُمْرَةِ، فما لم تَتِمَّ الغَيبوبةُ لم يَهجُمْ وقتُها.

ألا تَرَى أنَّ الصلاةَ التي تَلِي الغُروبَ لا يَدخُلُ وقتُها حتى يَتِمَّ غُروبُ الشمسِ؟ فَعَلَى ذلِكَ الصلاةُ التي تَلي غُروبَ[2] الشَّفَقِ، لا يَدخُلُ وقتُها حتى تَتِمَّ الغَيبوبةُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ قالَ بَعضُهُم: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أي وما حَمَلَ مَعَهُ [مِنَ][3] الظُّلمةِ والنَّجمِ والدابَّةِ وغَيرِ ذلكَ. والوَسْقُ الحِمْلُ، يُقالُ: وَسْقُ بَعيرٍ أي حِمْلُ بَعيرٍ.

قالَ بَعضُهُمْ: وَسَقَ: أي جَمَعَ، وساقَ كلَّ شيءٍ إلى مأواهُ مِنَ الطيرِ والسِّباعِ، فذكَرَ النهارَ والليلَ لِما فيهما مِنَ المَنافِعِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ فالاِتِّساقُ الاِجتِماعُ، ومَعْناهُ استَوَى، وكَمَلَ، إذْ ذلكَ اجتِماعُهُ، وذلكَ في ليالي البِيضِ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: مَعْناهُ أنهُ جُمِعَ، وسُوِّيَ، بعدَ أنْ كانَ ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] فَيُذَكِّرُهُمْ قُوَّتَهُ لِيَعْلَموا أنهُ قادرٌ على بَعْثِهِمْ[4].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ قُرِئَ بنَصْبِ[5] الباءِ ورَفْعِها، وكِلا القراءَتَينِ في المَعْنَى واحدٌ؛ إنْ كانَ في الظاهرِ، إحداهما للجمعِ، والأُخرَى للوُحدانِ، وإحدَى القراءَتَينِ بِحَرْفِ الجمعِ فَيُذْكَرُ بالرفعِ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ مُنْصَرِفٌ إلى كلِّ إنسانٍ في نفسِهِ خاصَّةً لا على الاِقْتِصارِ على شَخْصٍ واحِدٍ لِما ليسَ في قولِهِ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الآية: ٦] إشارةٌ إلى شخصٍ بِعَينِهِ، ولكنَّ المُرادَ منهُ الجُمْلَةُ، فَثَبَتَ أنَّ الخِطابَ مُنصَرِفٌ إلى الجُمْلَةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ قيلَ: حالاً بعدَ حالٍ. ثم جائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى دارِ الآخِرَةِ، فكأنهُ قالَ: لَتَرْكَبُنَّ حالَ الآخِرَةِ بعدَ حالِ الدنيا، فيكونُ فيهِ تَصْريحُ القولِ على إيجابِ البَعْثِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في الدنيا؛ فَيَنتَقِلُ إلى حالِ المُضغةِ بعدَ كَونِهِ [نُطْفَةً وإلى][6] حالِ العَلَقةِ وإلى حالِ الطفولةِ إلى أنْ يَبْلُغَ أشُدَّهُ، فلا يَزالُ يركَبُ حالةً بعدَ حالةٍ، فيكونُ في نَقْلِهِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ إبانةُ أنهُ لم يُرِدْ مِنْ إنشائِهِ أنْ تَتَغَيَّرَ عليهِ الأحوالُ فقط، بل أُريدَتِ العاقبةُ التي بها صارَ إنشاءُ الخَلْقِ حِكْمةً لا عَبَثاً. فيكونُ قولُهُ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ مُنصَرِفاً إلى كلِّ إنسانٍ في نفسِهِ خاصَّةً لا على الاِقْتِصارِ على شَخْصٍ واحِدٍ لِما ذَكَرْنا.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنما أرادَ بهذا الخِطابِ رسولَ اللهِ ﷺ ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ وعنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ.

ولكنْ قالَ ابنُ مَسْعودٍ ﷺ: لَتَرْكَبُنَّ يا محمدُ، وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: لَتَرْكَبُنَّ السماءُ حالاً بعدَ حالٍ.

فإنْ كانَ التأويلُ على ما ذَكَرَهُ ابنُ مَسْعودٍ ﷺ ففيهِ بِشارةٌ بإسلامِ قومِهِ وإجابتِهِمْ لهُ، فيقولُ: إنهمْ سَيُطيعونَكَ، ويَصيرونَ لكَ أنصاراً بعدَ صَدِّهِمُ الناسَ عنِ الإيمانِ وجَفْوَتِهِمْ إيَّاكَ.

---

(١) في الأصل: هو، في م: ثم الشفق هو. (٢) في الأصل وم: الغروب. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بعثه. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ١٠٣. (٦) في الأصل وم: مضغة إلى.

ومَنْ قالَ: لَتَرْكَبُنَّ سَماءً بعدَ سماءٍ فيقولُ: ذلكَ ليلةَ أُسْرِيَ بهِ.

والتأويلُ الأوَّلُ أقرَبُ لأنَّ مَوقِعَ / ٦٣٤ ـ أ/ القَسَمِ في قولِهِ تعالى: لَتَرْكَبُنَّ، والإسراءُ لم يكُنْ يَعرِفُهُ قومُهُ حتى يكونَ في ذِكْرِهِ دَفْعُ الاشْتِباهِ عنْ أولئكَ القومِ.

فأمّا ظهورُ الإسلامِ وعُلُوُّ النَّبِيِّ على أعدائِهِ فَمِمّا يُشاهِدُهُ الناسُ، فيَتَحقَّقُ في الآخِرَةِ ما أخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عنِ الغَيبِ، فيكونُ تأكيداً لرسالتِهِ. فَلِذلكَ قُلْنا: إنَّ الحَمْلَ على المَعْنَى الأوَّلِ أحَقُّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأصلُ أنَّ كلَّ مَنِ اعتَقَدَ مَذهباً فإنما يَعتَقِدُهُ بحجَّةٍ تقَرَّرَتْ عندَهُ أو شُبهةٍ اعتَرَضَتْ لهُ، ظَنَّها حُجَّةً. فأمّا أنْ يَعتَقِدَهُ حراماً فليسَ يَفعَلُهُ، فقالَ اللهُ تعالى في هؤلاءِ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. أي [أيُّ][1] حُجَّةٍ لهمْ تَمنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى وبرسولِهِ، وتدعوهُمْ إلى الشِّرْكِ والتزيُّنِ بهِ؟

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ ما خَرَجَ مَخرَجَ الاستِفهامِ مِنَ اللهِ تعالى فَحقُّهُ أنْ يُنظَرَ ما يَقتَضي ذلكَ الكلامُ مِنَ الجوابِ أنْ لو كانَ مِنْ مُستَفهِمٍ، فيُحمَلُ الأمرُ عليهِ، وحَقُّ جوابِ هذا الكلامِ أنْ يقولَ: لا شيءَ يَمنَعُهُ عنْ ذلكَ. فقولُهُ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا حُجَّةَ لهمْ في ما اختاروا مِنَ الشِّرْكِ، وإنما يَتَدَيَّنونَ بهِ تَشَهِّياً وتَمَنِّياً، فيكونُ هذا على النَّفْيِ في أنْ لا حُجَّةَ لهمْ، أو كأنهُ يخاطبُ رسولَهُ ﷺ، فيقولُ: سَلْهُمْ لِماذا لا يُؤمنونَ؟ وإذا سألَهُمْ لم يَجِدوا لأنفسِهِمْ حُجَّةً في الإعراضِ عنِ الإيمانِ، فَيَرجِعُ الأمرُ إلى ابْتِغاءِ الحجَّةِ أيضاً.

ثم المعتزلةُ احتَجَّتْ علينا بهذهِ الآيةِ في تَثبيتِهِمُ القُدْرَةَ قبلَ الفِعْلِ، وزَعَمَتْ أنهُ لو لم يكُنْ أعطَى قوةَ الإيمانِ لم يكُنْ يُعاتِبُ على تَرْكِهِ لأنهُ لا عُذْرَ للعبدِ أعظَمُ مِنْ أنْ يقولَ، إنْ قيلَ لهُ: لِمَ لا تُؤمِنُ[2]؟ لأني لا أقدِرُ عليهِ، ولأنَّ[3] قولَهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حرفُ تَعجيبٍ؛ ولو كانتِ القوةُ ممنوعةً قبلَ الفِعْلِ لكانَ لهُ أنْ يقولَ: إنما لم أُؤمِنْ لأني مُنِعْتُ عنهُ، فَيَرتَفِعَ عنهُ التَّعجيبُ، فَدَلَّ أنهُ أُعطِيَ القوةَ، فلم يَبْقَ لهُ في الخُلْفِ عنِ الإيمانِ عُذْرٌ.

والجوابُ عنِ الفصلِ الأوَّلِ أنَّ الكافرَ لَمّا[4] لَحِقَتْهُ كُلْفَةُ الإيمانِ لأنهُ هو الذي ضَيَّعَ القوةَ باختيارِهِ، فَعَلَ الكُفْرَ، وإنما ترتفعُ الكُلْفةُ إذا مُنِعَتْ عنهُ الطاقةُ.

وأمّا إذا كانَ هو الذي ضَيَّعَهُ فالكُلْفَةُ عليهِ قائمةٌ، والأصلُ أنَّ القُدْرةَ في الصحيحِ السليمِ تَحْدُثُ تِباعاً على قَدْرِ حِرْصِهِ على العبادةِ ومَيلِهِ إليها. ثم العبدُ متى اشْتَغَلَ بفعلٍ صارَ مُضَيِّعاً لِضِدِّهِ مِنَ الأفعالِ لا[5] إنْ كانَ مَمنوعاً عنِ الفعلِ الذي هو ضِدُّ هذا.

فلذلكَ إذا آثَرَ الكُفْرَ، وأتَى بهِ، فقد صارَ باختيارِهِ الكُفْرَ مُضَيِّعاً لقوةِ الإيمانِ لا[6] صارَ مَمنوعاً عنها، لذلكَ لَحِقَتْهُ كُلْفَةُ الإيمانِ.

وأمّا ما ذَكَرَ مِنَ التَّعجيبِ فقد وَصَفْنا وجهَ التَّعجيبِ في ذلكَ، وهو أنهمْ لم يُلزِموا الكَفَرَةَ بِحُجَّةٍ دَعَتْهُمْ إلى القولِ بهِ، والمَرْءُ إذا تَقَلَّدَ[7] مذهباً تَقَلَّدَهُ[8] لا عنْ حُجَّةٍ وبرهانٍ، فَعَجَّبَ الخَلْقَ باختيارِهِمُ الكفرَ لا عنْ حُجَّةٍ.

ثم لو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّتِ المعتزلةُ أنَّ اللهَ تعالى قد أعطاهُمْ جميعَ أسبابِ الهدايةِ، ولم يُبْقِ في خَزائنِهِ شيئاً، مَنَعَهُ عنهمْ، لكانَ التَّعجيبُ راجعاً إليهِ لا إلى الذينَ لم يُؤمِنوا، فيقولُ: مالي لا أصِلُ إلى هدايَتِهِمْ، ولم يَبْقَ عندي شيءٌ، بهِ هدايَتُهُمْ، إلّا وقد أعطيتُهُمْ، لا أنْ يُعَجِّبَ الخَلْقَ عنْ صُنْعِهِمْ، فليسَ الذي اختاروهُ في القولِ سِوَى وصفِهِمْ ربَّ العالَمينَ بالعَجْزِ، والعاجزُ لا يَصِحُّ أنْ يكونَ ربّاً، واللهُ الموفقُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ فمنهمْ مَنْ صَرَفَ التأويلَ إلى سجودِ الصلاةِ والمُرادُ منهُ

(١) من م: ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يؤمنون فيقول. (٣) في الأصل وم: ولأنه. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إذا. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ان. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ان. (٧) في الأصل وم: قلد. (٨) في الأصل وم: قلده.

عندَنا سُجودُ التِّلاوةِ، وهو سُجودُ الاِستِسْلامِ والخُضوعِ على الشُّكْرِ لِما أكرَمَ المرءَ مِنَ الإيمانِ، وهَدَى اللهُ، لأنَّ سُجودَ الصلاةِ يكونُ عندَ فِعلِ الصلاةِ لا عندَ ذِكْرِ التِّلاوةِ.

ثم في الآيةِ دلالةُ وُجوبِ السجدةِ على السامعِ لأنهمْ عُوتِبوا بِتَرْكِهِمُ السُّجودَ عندَما يُتْلَى عليهِمْ، وفُرِّعوا بِهِ، والتَّقريعُ يجري في تَرْكِ اللازمِ لا في تَرْكِ ما ليسَ عليهِ، ولأنَّ المَعْنَى الذي لهُ وَجَبَ السجودُ على التالي قائمٌ في السامعِ؛ إذِ التالي إنما لَزِمَهُ السجودُ لِما ذَكَرْنا مِنْ آياتِ اللهِ تعالى، وقامتْ عليهِ مِنَ الحُجَجِ، فَيَلْزَمُهُ أنْ يخضعَ لها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ يُكذِّبونَ رسولَهُ محمداً ﷺ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على التكذيبِ بالقرآنِ لأنهمْ إذا كَذَّبوا رسالَتَهُ لم يُصَدِّقوهُ في ما يأتي مِنَ الأخبارِ، لا أنْ يكونَ في الأخبارِ مَعْنًى يَحْمِلُهُمْ على [التَّكْذيبِ. بل القرآنُ يَحْمِلُهُمْ على][1] التَّصديقِ والإيمانِ لو أمْعَنوا النَّظَرَ فيهِ، وبَذَلوا مِنْ أنفسِهِمُ الإنصافَ.

[والثاني][2]: يكونُ معناهُ أنَّ الذينَ كَفَروا، هُمُ المُكَذِّبونَ، فيكونُ الكُفْرُ منهمْ تكذيباً، والتكذيبُ منهمْ كُفراً.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

أحَدُها: ما يُضْمِرونَ مِنَ الكَيدِ والمَكْرِ برسولِ اللهِ ﷺ فاللهُ أعلَمُ بِكيدِهِمْ؛ لا يَتَهَيَّأُ لهمْ أنْ يُنَفِّذوا كَيدَهمْ فيهِ إلّا ما كَتَبَ اللهُ عليهِ، فيكونُ فيهِ بِشارةٌ لهُ بالنَّصْرِ والتأييدِ.

والثاني: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ في قلوبِهِمْ مِنَ التَّصديقِ ويُظْهِرونَ مِنَ التكذيبِ بألسنَتِهِمْ، أو بما يُلْمِحونَ مِنَ التكذيبِ بألسنَتِهِمْ وقُلوبِهِمْ معاً؛ وذلكَ[3] أنَّ البعضَ منهمْ كانَ قد أيقَنَ برسالَتِهِ، فكانَ يُصَدِّقُهُ بِقلبِهِ، ويُكَذِّبُهُ بلسانِهِ على العِنادِ منهُ والتَّمَرُّدِ.

[والثالثُ][4]: منهمْ مَنْ لم يكُنْ عُرِفَ صِدْقُهُ بقلبِهِ لِما تَرَكَ الإنصافَ مِنْ نفسِهِ بإعراضِهِ عنِ النَّظَرِ في حُجَجِ اللهِ تعالى، فكانَ يُكَذِّبُهُ بِقلبِهِ ولِسانِهِ جميعاً.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالبِشارةُ إذا فُسِّرَتِ اسْتَقامَ حَمْلُها على الحُزْنِ والسرورِ جميعاً، وأمّا البِشارةُ المُطْلَقَةُ فإنما تُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ إدخالِ الفرحِ والسرورِ في القلبِ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى كلِّ مَنْ آمَنَ، وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى مَنْ آمَنَ مِنَ الذينَ كانوا ﴿يُوعُونَ﴾ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ نَذْكُرُهُ في سورةِ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ إن شاءَ اللهُ تعالى.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و.

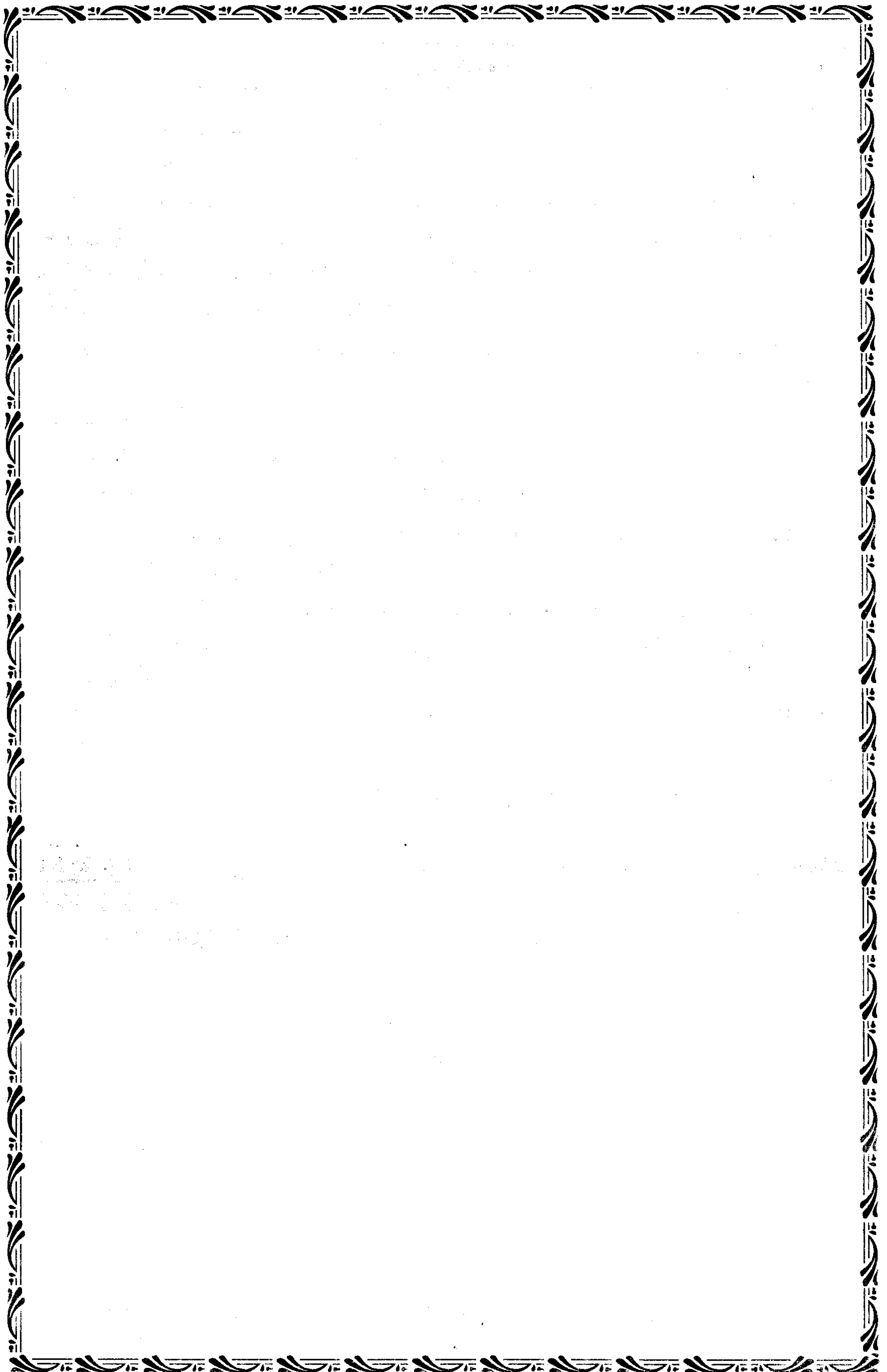

[سورة البروج

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ فقولُهُ: ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وكذلكَ ما ذُكِرَ عقيبَهُ. ثم اختُلِفَ في موضعِ القَسَمِ في هذه السورة:

فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ القَسَمَ لِمكانِ قولِهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [الآية: ٤] ومنهمْ مَنْ يقولُ: القَسَمُ، مَوضِعُهُ على قولِهِ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [الآية: ١٢] وهو أشبَهُ لأنهُ / ٦٣٤ ـ ب/ مَوضِعُ الاحتِجاجِ على الكَفَرَةِ.

وإذا[2] حُمِلَ القَسَمُ على قولِهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ كانَ ذلكَ مُنصَرِفاً إلى المؤمِنينَ، والمسلمونَ قد تَيَقَّنُوا بِصِدْقِ ما يأتي بهِ الرسولُ مِنَ الأنباءِ، والقَسَمُ يُذكَرُ على تأكيدِ ما يُقصَدُ إليهِ ليُزالَ عنهُ الرَّيبُ، وإذا كانَ المسلمونَ غَيرَ مُرتابِينَ في أنبائِهِ، اسْتَغنَوا عنْ تأكيدِهِ بالقَسَمِ.

فلذلكَ قُلنا: إنَّ صَرْفَهُ إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أليَقُ، فيكونُ فيهِ تَحذيرٌ لِمَنْ كَذَّبَ رسولَهُ ﷺ أنَّ بَطشَهُ لِمَنْ كَذَّبَ رسولَهُ شديدٌ، وقد عَلِموا ذلكَ بِما وَصَلَ إليهِمْ مِنْ نَبَإِ عادٍ وثمودَ وفرعونَ وغَيرِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَوضِعُ القسمِ على قولِهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ وذلكَ أنَّ أهلَ مكةَ كانوا أهلَ تعذيبٍ لِمَنْ آمَنَ بالنَّبِيِّ ﷺ فكانَ في ذِكرِ ما نَزَلَ بالمُتَقَدِّمينَ مِنَ الفراعنةِ مِنَ العذابِ وصَبرِ أولئكَ المُعَذَّبينَ على دينِهِمْ وضَنِّهِمْ بهِ وحُسْنِ ثناءِ اللهِ تعالى عليهِمْ تَصْبيرٌ لهمْ وتَهوينٌ على ما يَلْقَونَ مِنَ العذابِ لِيَنالوا حُسْنَ ثناءِ اللهِ تعالى لهمْ: ما نالَهُ مَنْ صَبَرَ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ السَّلَفِ.

وكذلكَ ذَكَرَ سَحَرَةَ فرعونَ، وأحسَنَ الثناءَ عليهِمْ بِصَبْرِهِمْ على تَعذيبِ فرعونَ [حينَ قالوا:][3] ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] ليكونَ ذلكَ عَوناً لهمْ على الصَّبْرِ بما يَلْقَونَ مِنَ التَّعذيبِ، ثم أكَّدَ الأمرَ بالقَسَمِ لأنهُ لا كلُّ مُسلِمٍ يُبْتَلَى بِتَعذيبِهِمْ يَبْلُغُ يَقينُهُ مَبْلغاً، لا يَعْتَريهِ الشَّكُّ، ولا تَتَخالَجُهُ شُبْهَةٌ في ذلكَ، فأكَّدَ الأمرَ بالقَسَمِ لِرَفْعِ الرَّيبِ والإشكالِ، وقالَ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وفي بعضِ القراءاتِ: قُتِلَ[4] معهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ.

فَذَكَّرَ المؤمنينَ ما لَقِيَ السلَفُ مِنَ الكَفَرَةِ، وابتُلوا بِقَتلِ الرسلِ، وثَباتَهُمْ على الدينِ لِيَستَعينوا بهِ على ما يُصيبُهُمْ في سَبيلِ اللهِ، ولا يَنقَلِبوا[5] على أعقابِهِمْ إذا أُخبِروا بِقَتلِ الرسولِ.

وفي ذِكرِ هذهِ الأنباءِ دلالةٌ أنَّ قولَ الرسولِ ﷺ لِعَمّارٍ ﷺ: «إنْ عادوا فَعُدْ» [البيهقي في الكبرى ٨/٢٠٩] حينَ أُكرِهَ على إجراءِ كلمةِ الكُفرِ على لسانِهِ، فأجرَى ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] ليسَ على الأمرِ بهِ والإيجابِ عليهِ والتحصيلِ بطريقِ العَزْمِ. بل مَعْناهُ: إنْ عادوا فَلَكَ العَوْدُ على سَبيلِ الرخصةِ، لأنهُ لو كانَ على الأمرِ لم يكنْ في ذِكرِ نَبَإ أصحابِ الأخدودِ وسَحَرَةِ فِرْعَونَ فائدةٌ سِوَى أنْ يُترَكَ العَمَلُ بهما.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ولو. (٣) في الأصل وم: فقالوا. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح٢/ ٧١. (٥) في الأصل وم: ينقلبون.

ومعلومٌ أنّ تلكَ الأنباءَ إنما ذُكِرَتْ ليُعْمَلَ بها لا ليُتْرَكَ بها العملُ. لذلكَ حُمِلَ قولُهُ [ﷺ][1]: «فَعُذْ» على الرُّخصَةِ لا على الأمرِ بهِ ويكونُ المرادُ منْ قولِهِ ﷺ أيضاً: «مَنْ لم يَقْبَلْ رُخَصَنا كما يَقْبَلُ عَزائِمَنا فليسَ مِنّا» [بنحوِه: أحمد ٢/ ٧١] أي لم يُرَ العملُ بهِ مُوَسَّعاً، بلِ اسْتُكْرِهَ، وأبِيَ قَبولُهُ، لا أنْ يكونَ أُمِرَ بتركِ العزيمةِ وإيجابِ العملِ بالرخصةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم نَرجِعُ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [منهمْ مَنْ قالَ: هي][2] البُروجُ المعروفةُ، وهي أطرافُ البناءِ، وإذا بَنَى [أحدُهُمْ][3] بناءً اتَّخَذَ على طَرَفِهِ بُرْجاً ليُشَدِّدَ بناءَهُ بهِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: البُروجُ القصورُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: البروجُ النجومُ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] وزينةُ السماءِ، هي ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦و٧]. ومنهمْ منْ قالَ: هي مجاري الشمسِ والقمرِ والكواكِبِ؛ فَمَنازِلُها هي البُروجُ.

ثم ذَكَرَ السماءَ بالبُروجِ ليُعْرَفَ حدَثُها ودخولُها تحتَ تدبيرِ الغيرِ؛ إذْ ذِكْرُها بالمنافعِ المَجْعولةِ[4] فيها ليَعْلَمَ الخَلْقُ أنها سُخِّرَتْ لِلْمنافعِ، فَيَعْرِفوا بها حدَثَها، إذِ المُسَخَّرُ لِمنافعِ الغيرِ داخلٌ تحتَ قدرةِ مَنْ سَخَّرَهُ، والمَقْدورُ يَحْدُثُ، وهمْ لم يَشْهَدوا بُدُوَّها ليَعْرِفوا بها حدَثَها، ولا كلُّ أحدٍ يَعْرِفُ حَدَثِيَّةَ الشيءِ لكونِهِ محدوداً في نفسِهِ، إذا لم يُشاهِدوا بُدُوَّهُ.

فَذِكْرُها حيثُ ذِكْرُها بما فيها مِنَ المنافعِ المَجْعولةِ للخَلْقِ إذْ ذلكَ أظْهَرَ وجودَ الدلالةِ على الحَدَثِيَّةِ ليَعْلَموا بها حَدَثَها. ألا تَرَى أنَّ إبراهيمَ، صلَواتُ اللهِ على نَبيِّنا وعليهِ، احْتَجَّ على قومِهِ بِنَفْيِ الإلهيَّةِ عنِ الكواكبِ بأفولِها، إذْ ذلكَ أظْهَرُ وُجوهِ الحَدَثِيَّةِ، ولم يَحْتَجَّ عليهمْ بانْتِقالِها مِنْ موضعٍ إلى موضعٍ ولا بكونِها محدودةً في نفسِها، بل احْتَجَّ عليهمْ بما ذَكَرْنا ليَتَحَقَّقَ عندَهمْ حُدوثُها ودُخولُها تحتَ سلطانِ الغيرِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ قيلَ: هو يومُ القيامةِ، يُسَمَّى موعوداً لِما وُعِدَ مِنْ جَميعِ الأوَّلينَ والآخِرينَ في ذلكَ اليومِ ثم أقسمَ بذلكَ اليومِ، وإنْ كانوا مُنْكِرينَ لهُ لَمّا قَرَّرَهُ عليهمْ بالحُجَجِ، والزَمَهُمُ القولَ بهِ.

وقيلَ: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ هو كلُّ يومٍ يأتي، فيأتي بما وَعَدَ فيهِ منَ الرِّزْقِ وغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ؛ فمنهمْ مَنْ قالَ: الشاهدُ، هو اللهُ تعالى، والمَشْهودُ، هو الخَلْقُ، واسْتَدَلَّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقيلَ: الشاهدُ الرسولُ ﷺ والمَشْهودُ أُمَّتُهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: الشاهدُ هو الكاتبانِ اللذانِ يكتبانِ على [ابْنِ آدمَ أعمالَهُ][5] والمَشْهودُ، هو الإنسانُ الذي يُكْتَبُ عليهِ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: الشاهدُ والمَشْهودُ، هو الإنسانُ نفسُهُ، أي جَعَلَ منْ نفسِهِ شهوداً بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: الشاهدُ يومُ الجمعةِ، والمَشْهودُ يومُ عرفةَ؛ سُمِّيَ يومُ الجمعةِ شاهداً لأنهُ هو الذي يَشْهَدُهُمْ، ويأتيهمْ، وسُمِّيَ يومُ عرفةَ مَشْهوداً لأنَّ عرفةَ اسْمُ مكانٍ، والناسُ يأتونَها، ويَشْهَدونَها، ولا تأتيهِمْ؛ فَعِظَمُ شأنِ عرفةَ لِما يُعَظِّمها أهلُ الأديانِ كلِّها، وعِظَمُ يومِ الجمعةِ لأنهُ يومُ عيدِ المسلمينَ، ولكلِّ أهلِ دينٍ يومٌ يُعَظِّمونَهُ، فأكْرَمَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بهذا اليومِ ليُعَظِّموهُ، فكانَ اليومَ الذي يُعَظِّمُهُ غيرُهُمْ منْ أهلِ الأديانِ، فأقْسَمَ بهما.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ؛ فمنهُمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى المُعَذِّبينَ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى المُعَذَّبينَ. فَمَنْ صَرَفَهُ إلى المُعَذِّبينَ حَمَلَ قولَهُ: ﴿قُتِلَ﴾ على اللَّعْنِ، أي لُعِنوا، كقولِهِ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [الذريات: ١٠] أي لُعِنوا، ومَنْ صَرَفَهُ إلى الذينَ عُذِّبوا حَمَلَهُ على القتلِ المَعْروفِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: قال بعضهم: هي، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: المجعول. (٥) في الأصل وم: بني آدم أعمالهم.

ثم اختُلِفَ في قصةِ أولئكَ الذينَ عُذِّبوا.

فإنْ كانَ القَسَمُ في الكَفَرَةِ فما يَنْبَغي أنْ يُفَسَّرَ على وَجْهٍ مِنْ ذلكَ ما لم يَتَواتَرْ فيهِ الخَبَرُ عنِ المُصْطَفَى ﷺ، لأنهمْ وَجَدوها مُوافقةً للأنباءِ المذكورةِ في كُتُبِهِمْ، وقد علموا أنهُ لم يَصِلْ إلى مَعْرِفَتِها [إلا باللهِ][1] تعالى؛ إذْ لم يَرْوِهِ يَخْتَلِفُ إلى مَنْ عندَهُ عِلْمُ الأنباءِ لِيَصِلَ إلى مَعْرفتِها بهِمْ.

فإذا فُسِّرَتْ على وَجْهٍ، أمكنَ أنْ يقعَ فيها زيادةٌ أو نقصانٌ على ما ذَكَروا في الكتابِ، فَيَجِدوا بهِ مَوضِعَ الطَّعْنِ والقَدْحِ لذلكَ، لم يَسَعْ أنْ يُزادَ [أو يُنْقَصَ عنِ][2] القَدْرِ الذي جَرَى ذِكْرُهُ في الكتابِ إلّا مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا.

وإنْ كانَ القَسَمُ في المؤمنينَ وَسِعَ القولُ بِحَمْلِ التأويلاتِ التي ذَكَرَها أصحابُ التفسيرِ لِارْتِفاعِ المَعْنَى الذي ذَكَرْنا في الكَفَرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم [في][3] ذِكْرِ هذهِ الأنباءِ تقريرُ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ ﷺ، لِما ذَكَرْنا أنهُ لم يَخْتَلِفْ إلى مَنْ عندَهُ عِلْمُ هذهِ الأنباءِ لِيَعْلَمَ بهِ. فإذا أنْبَأَهُمْ على وجْهِها تَيَقَّنوا أنهُ باللهِ تعالى / ٦٣٥ ـ أ/ عَلِمَ.

وفيهِ تَصْبيرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ وتَخْفيفُ الأمرِ عليهِ لأنهُ يُخْبِرُهُ أنَّ قومَكَ لَيسوا بأوَّلِ مَنْ [آذَوا، وعانَدوا][4] بل لم يَزَلْ سَلَفُهُمْ، تلكَ عادَتُهُمْ بأهلِ الإسلامِ.

وفائدةٌ أُخرى، ما ذَكَرْنا أنَّ في ذِكْرِهِ ما يَسْتَعينُ بهِ مَنِ ابْتُلِيَ بأذَى الكَفَرَةِ، وفيهِ أنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ بَلَغَ مِنْ ضَنِّهِمْ بِدينِهِمْ ما يُقاتِلونَ عليهِ[5] مَنْ أظْهَرَ مُخالَفَتَهُمْ في الدينِ لِيَعْلَموا أنَّ القِتالَ لِمكانِ الدينِ ليسَ بأمرٍ شاقٍّ خارجٍ عنِ الطِّباعِ، بل الطِّباعُ جُبِلَتْ على القِتالِ معَ مَنْ عاداهُمْ في الدينِ، فيكونُ فيهِ تَرْغيبٌ للمسلمينَ على القتالِ معَ الكَفَرَةِ إذا امْتُحِنوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [اخْتُلِفَ في تأويلِهِ][6] فمنهمْ مَنْ جَعَلَ الوَقودَ مِمَّنْ أُلْقِيَ فيها مِنَ المؤمنينَ، ومنهمْ مَنْ جَعَلَ الوَقودَ صفةَ تلكَ النارِ التي عُذِّبوا بها.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي عُظَماؤُهُمْ وكُبَراؤُهُمْ جلوسٌ عندَ الأخدودِ، وفيهِ أنَّ أتباعَهُمْ هُمُ الذينَ كانوا يَتَوَلَّونَ إلقاءَ المؤمنينَ في النارِ، وكُبَراؤُهُمْ جلوسٌ هنالكَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ الشهودُ، هُمُ العظماءُ والفراعنةُ.

[والثاني: أنْ][7] يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الأتباعِ، وهو أنَّ الأتباعَ، كانوا يُلْقُونَ المؤمنينَ في النارِ، ويَشْهَدونَ أنهمْ على الضلالِ وأنهمْ ورؤساءَهُمْ على الهُدَى والحقِّ، وهو كما قالَ في مَوضعٍ [آخَرَ][8]: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ذَكَرَ][9] العزيزَ الحميدَ لِيُعْلَمَ أنهُ لا يَلْحَقُهُ ذُلٌّ بِما يَحُلُّ مِنَ الذُّلِّ بأوليائِهِ وأهلِ طاعتِهِ، ولا في حَمْدِهِ قُصورٌ بِقَهْرِ أوليائِهِ خِلافاً لِما عليهِ مُلوكُ الدنيا؛ وذلكَ أنَّ ملوكَ الدنيا إذا حلَّ بأولياءِ واحدٍ منهمْ ذُلٌّ كانَ الذُّلُّ حالّاً فيهِ أيضاً، وإذا قُهِرَ بعضُ أتباعِهِ، فَتَرَكَ نَصْرَهُمْ، وهو قادرٌ على نَصْرِهم وإغاثَتِهِمْ، لم يَحْمَدوا ذلكَ منهُ، ولَحِقَتْهُ المذمَّةُ، وذلكَ لأنَّ المَلِكَ اسْتَفادَ العِزَّ بأتباعِهِ وأنصارِهِ، فإذا اسْتُذِلَّ أتباعُهُ زالَ ما بهِ نالَ العِزَّ، فَلَحِقَهُ الذُّلُّ، ونالَ الحَمْدَ أيضاً بالإحسانِ إلى مَمْلَكَتِهِ.

فإذا تَرَكَ نَصْرَهُمْ، وهو مُمَكَّنٌ من ذلكَ، فقد تَرَكَ إحسانَهُ إليهِمْ، فصارَ بهِ غيرَ مَمْدوحٍ ومَحْمودٍ. واللهُ تعالى، اسْتَحَقَّ

---

(١) في الأصل وم: إلى الله. (٢) في الأصل وم: عليٰ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أذوك وعاندوك. (٥) من م، في الأصل: عليهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فذكر.

العِزَّ والحَمْدَ بِذاتِهِ لا بأحدٍ مِنْ خَلائقِهِ، فلم يكنْ في إذلالِ أوليائِهِ ما يُوجِبُ النَّقْصَ في وصفِ الحمدِ ولا ما يوجِبُ قُصوراً في العِزِّ.

والثاني: أنَّ الدنيا وما فيها أُنْشِئَتْ للإهلاكِ، ولعلَّ الإهلاكَ بما ذَكَرَهُ أيسرُ عليهمْ مِنْ هَلاكِهِمْ حَتْفَ أنوفِهِمْ[١]، وكانَ في ذلكَ النوعِ مِنَ الهلاكِ نَيلُ درجةِ الشهداءِ، وهي التي ذَكَرَها اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ولا تُنالُ تلكَ الدرجةُ بموتِهِمْ حَتْفَ أنوفِهِمْ[٢]، فهذا أبلَغُ نصراً منهُ إياهُمْ.

ثم لِلْجزاءِ والعِقابِ دارٌ أُخرَى، فيها يَظْهَرُ تَعزيزُ الأولياءِ وقَمْعُ الأعداءِ[٣]؛ فلم يكنْ في تَرْكِ النصرِ في الدنيا ما يوجِبُ وَهْناً ولا ذُلّاً. وأمّا ملوكُ الدنيا إذا تركوا نَصْرَهُمْ وقتَ مُلْكِهِمْ لأوليائِهِمْ فلم يُتَوَقَّعْ منهمُ النَّصْرُ بعدَ ذلكَ، إذْ ليسَتْ في أيديهِمْ إلّا المَنافِعُ الحاضرةُ، لذلكَ لَحِقَتْهُمُ المَذَمَّةُ بِتَرْكِ النَّصْرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ليسَ في إهلاكِ أولئكَ القومِ الذينَ آمنوا واقْتِدارِهِمْ عليهِمْ إيهامٌ أنهمْ كانوا على الحقِّ والصوابِ وأنَّ المؤمِنينَ كانوا على الخَطَإِ، لأنَّ الإهلاكَ إنما يَصيرُ آيَةً إذا كانَ على خِلافِ المُعْتادِ، وإهلاكُهُمْ لم يَكُنْ كذلكَ، لأنَّ عَدَدَهُمْ كانَ كثيراً، وكانَ في المؤمنينَ قِلَّةٌ، وإهلاكُ الكثيرِ للقليلِ غيرُ مُسْتَبْعَدٍ، بل هو أمرٌ معتادٌ، وغَلَبَةُ الفِئَةِ القليلةِ[٤]، هي التي تَخْرُجُ مِنْ حَدِّ الاعْتِيادِ، فيكونُ فيها آيَةُ أنَّ الفِئَةَ القليلةَ على الحَقِّ، والأُخرَى على الباطِلِ، وذلكَ نَحْوُ غَلَبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ بدرٍ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ المسلمينَ معَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ وضَعْفِهِمْ في أنفسِهِمْ وكَثْرَةِ أتباعِ الكَفَرَةِ وقُوَّتِهِمْ وجَلادَتِهِمْ في أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي لم يكنْ مِنَ المؤمنينَ بِمكانِهِمْ جُرْمُ مَنْ يَنْتَقِمُ منهمْ بالإحراقِ سِوَى أنْ آمَنوا باللهِ تعالى [وقيلَ: ما عابوا عليهِمْ، وما أنْكَروا منهمْ، وفي هذا تَبْيينُ سَفَهِهِمْ وعُتُوِّهِمْ لأنهمْ عَلِموا أنَّ مالَهُمْ مِنَ النِّعَمِ كُلَّها مِنَ اللهِ تعالى، فكانَ الذي يَحِقُّ عليهِمْ أنْ يُؤمِنوا باللهِ تعالى][٥] ويَشْكُروهُ بما خَوَّلَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، ويَدْعوا غيرَهُمْ[٦] إلى الإيمانِ بِهِ، لا أنْ يَقْتُلوا، ويُعَذِّبوا مَنْ آمَنَ بِهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فالعزيزُ هو الذي لا وُجودَ لِمِثْلِهِ[٧] أو هو عزيزٌ، لا يَلْحَقُهُ ذُلٌّ، فيكونُ العِزُّ مُقابِلَ [الذُّلِّ][٨].

وقالَ أهلُ التَّفسيرِ: العِزُّ المَنْعُ، والعزيزُ، هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، والحميدُ[٩]: المُسْتَوجِبُ الحمدَ مِنْ كلِّ أحدٍ بِذاتِهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية؛ فَذِكْرُ هذا لِيُعْلَمَ أنهُ لا يَدْخُلُ في مُلْكِهِ قُصورٌ بِقَتْلِ أوليائِهِ وأنصارِ دينِهِ، لأنَّ الخَلْقَ كلَّهُمْ عَبيدُ اللهِ تعالى وإماؤُهُ، والسَّيِّدُ إذا قَتَلَ بعضُ مَماليكِهِ بعضاً لم يَلْحَقِ السَّيِّدَ بذلكَ ذُلٌّ ولا نَقْصٌ، وإنما يَدخُلُ عليهِ الذُّلُّ إذا قَتَلَهُمْ غيرُ مَماليكِهِ. فإذا كانَ الخَلْقُ بأجمَعِهِمْ عَبيدَ اللهِ لم يكنْ في قَتْلِ بعضٍ بعضاً نَقْصٌ، يدخُلُ في مُلْكِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي يَحْفَظُ عليهِمْ أعمالَهُمْ، فَيُجازيهِمْ بها، ولا يَعْزُبُ عنهُ شيءٌ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فالفِتْنةُ المِحْنةُ، وهي مأخوذةٌ مِنْ فَتْنِ الذهبِ إذا أذابَهُ، لأنهُ يُذيبُهُ لِيُمَيِّزَ بِهِ بَينَ ما خَبُثَ منهُ وبَينَ ما صَفَا وبَينَ الذَّهَبِ وبَينَ ما ليسَ بِذَهَبٍ، فاسْتُعْمِلَتْ في موضعِ الفِتْنَةِ، لأنَّ المِحْنةَ، هي الابْتِلاءُ لِيَتَبَيَّنَ بها الصادقُ مِنَ الكاذبِ والمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ؛ وذلكَ يكونُ بالأمرِ والنَّهْيِ؛ فَسُمِّيَ الأمْرُ والنَّهْيُ مِنَ اللهِ تعالى امْتِحاناً. هذا، وإنْ كانَ اللهُ تعالى لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

ثم وجهُ فِتْنَتِهِمْ أنهمُ اتَّخذوا الأخاديدَ، وأوقَدوا فيها النيرانَ لِيُلْقُوا فيها مَنْ ثَبَتَ على الإيمانِ، ودامَ عليهِ، ويَتْرُكوا إلقاءَ مَنْ رَجَعَ عنْ دينِهِ، فقيلَ: فُتِنوا لهذا.

---

(١) و(٣) في الأصل وم: أنفسهم. (٢) في الأصل وم: الأولياء. (٤) في الأصل وم: الكثيرة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: غير. (٧) في الأصل وم: له. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وهو الحميد.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ ففيهِ أنهمْ لو تابوا لكانَ يُعفَى عنهمْ، ولا يُعاقَبونَ، معَ عِظَمِ جُرْمِهِمْ بربِّهِمْ في ذاتِ اللهِ تعالى، فيكونُ فيهِ إظهارُ كرمِهِ وعطفِهِ على خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ فمنهمْ مَنْ صَرفَ قولَهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ إلى الدنيا، فقالَ: إنَّ تلكَ النارَ التي عَذَّبوا بها المؤمنينَ سُلِّطَتْ عليهمْ حتى أحرَقَتْهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ في جهنَّمَ أيضاً، فيكونُ فيهِ إخبارٌ بأنَّ نارَ جهنَّمَ تدومُ عليهمْ بالإحراقِ، ولا تَفْتُرُ عنهمْ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فمنهمْ مَنْ صَرفَ هذا الخِطابَ إلى الذينَ عُذِّبوا منَ المؤمنينَ، ومنهمْ مَنْ صَرفَهُ[1] إلى المُعَذِّبينَ، وهو أنهمْ لو آمَنوا معَ عِظَمِ جُرْمِهِمْ وإساءَتِهِمْ [إلى أولياءِ][2] اللهِ تعالى لكانَ يَعفو عنهمْ، وتَسَعُهُمْ رحمتُهُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فقولُهُ: ﴿مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: مِنْ تحتِ أهلِها.

والثاني: مِنْ تحتِ أشجارِها.

والجَنَّةُ اسْمٌ للمكانِ [الذي فيهِ][3] الأشجارُ المُلْتَفَّةُ، فَيُخبِرُ [أنَّ][4] الماءَ يَجري مِنْ تحتِ ما بهِ صارَ جَنَّةً، وهي الأشجارُ. وليسَ يُرادُ بقولِهِ: ﴿تَحْتِهَا﴾ الجَنَّةُ أي تحتَ ترابِها، لأنَّ تَحتَها تكونُ قناةٌ أو بئرٌ، إذْ ليسَ بهما كثيرُ نُزْهةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ والفائزُ، هو الذي يَظفَرُ بما يأمُلُ، ويَنْجو عمّا يَخافُ، ويَحْذَرُ. ووصفَ [الفوزَ][5] أنهُ كبيرٌ لأنهُ ليسَ لِما أنعمَ زَوالٌ ولا انْقِطاعٌ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي أخذَهُ لِلانْتِقامِ شديدٌ؛ يَشْتَدُّ على الذي يُعَذِّبُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: يُبْدِئُ العذابَ، ثم يُعيدُهُ. قالَ بَعضُهُمْ: يُبْدِئُ الخَلْقَ /٦٣٥ ـ ب/ ثم يُعيدُهُ بعدَ ما أماتَهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ الغفورُ، هو السَّتورُ، يَسْتُرُ على المذنبِ ذنبَهُ إذا تابَ حتى لا يُذَكَّرُ بهِ، ولولا ذلكَ لم يكنْ يَصفو لهُ نعيمُ الآخِرَةِ مِنَ التَّنغيصِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْوَدُودُ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: الوَدودُ][6] الذي يَتَوَدَّدُ إلى خَلْقِهِ في ما يُنْعِمُ عليهمْ، ويُحْسِنُ إليهمْ. قالَ النَّبِيُّ ﷺ وعلى آلِهِ: «جُبِلَتِ القلوبُ على حبِّ مَنْ أحْسَنَ إليها وبُغْضِ مَنْ أساءَ إليها» [أبو نعيم في الحلية ٤/ ١٢٠ وفي تذكرة الموضوعات ٦٨] فَجَعَلَ الإحسانَ سَبَبَ التَّوَدُّدِ.

والثاني: أنَّ كلَّ مَنْ وادَّ آخَرَ فالحقُّ عليهِ أنْ يَوَدَّهُ في اللهِ تعالى لأنهُ بهِ نالَ ما بهِ يَتَوَدَّدُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] فكأنهُ يقولُ: هو المُسْتَوجِبُ للمودةِ منَ الخَلْقِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ فمنهمْ مَنْ جَعلَ المَجيدَ نَعْتاً للعَرْشِ، ومنهمْ مَنْ جَعلَهُ نَعْتاً للهِ تعالى؛ فمنْ جَعلَهُ [نَعْتاً][7] للعَرْشِ، فهو مُستقيمٌ، لأنهُ وَصَفَهُ في مكانٍ آخَرَ بالكريمِ بقولِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] والمَجيدُ يَقْرُبُ مَعْناهُ لِمَعْنى الكريمِ [لأنَّ الكريمَ][8] هو الذي عَظُمَ قَدرُهُ وشَرَفُهُ، والمَجيدُ كذلكَ هو الشريفُ المُعَظَّمُ، وعَظُمَ قَدْرُ العَرْشِ في قلوبِ الخَلْقِ، وعَلا، حتى زَعَمَ بعضُ الناسِ أنهُ مَكانُ الرَّبِّ تعالى.

---

(١) من م، في الأصل: صرف. (٢) في الأصل وم: بأولياء. (٣) في الأصل وم: التي فيها. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

والكريمُ في الشاهدِ، هو الذي يُطمَعُ عندَهُ وجودُ ما يُرْجَى، ويُؤمَلُ، ويُؤمَنُ منهُ ما يُتّقَى ويُحذَرُ، وسَمّى اللهُ تعالى النباتَ كَريماً بقولِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠] لِما فيهِ مِنْ عِظَمِ المنافعِ للخَلْقِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنّ][1] ما يُريدُ تكوينَهُ يكونُ[2]، فيكونُ فيهِ إيجابُ القولِ [بِخَلْقِ أفعالِ][3] العبادِ، وأنهُ شاءَ لكلِّ أحدٍ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ لأنهُ امْتُدِحَ، جَلَّ، وعلا، بالفعلِ لِما يُريدُ. ولو لم يَثْبُتْ لهُ صُنْعٌ في أفعالِ العبادِ لكانَ لا يَختَصُّ بهذا الامْتِداحِ، بل يكونُ كلُّ واحدٍ مُستَوجِباً لهذا المدحِ، فَثَبَتَ أنّ كونَ حقائقِ الأشياءِ بما للهِ تعالى فيهِ صنعٌ.

والثاني: أنّ إحداثَ شيءٍ في سُلْطانِ آخَرَ وفي مَمْلَكَتِهِ مِنْ حيثُ لا يَشاؤُهُ، ولا يُريدُهُ آيةُ الضَّعْفِ والقَهْرِ، ومَنْ ذلكَ وَصْفُهُ لم يَجُزْ أنْ يكونَ ربّاً. لذلكَ لَزِمَ وصْفُ اللهِ تعالى بذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي البعثِ، وهو أنهُ أنشأَ هذا الخَلْقَ للعاقبةِ. وهكذا فِعلُ كلِّ مُختارٍ أنهُ يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ العاقبةَ لا[4] أنْ يكونَ جاهلاً بها.

الآيتان ١٧و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ فقد [وَصَفْناهُ][5] في ذِكْرِ الأنباءِ في[6] الفوائدِ، وقد ذَكَرْنا أنّ فيها إثباتَ رسالتِهِ على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ غيرَ مَرّةٍ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ أي كَفَروا بأنعُمِ اللهِ تعالى، فهمْ في تَكْذيبٍ بأنعُمِ اللهِ تعالى، أو لمّا جَحَدوا أنعُمَ اللهِ تعالى لم يُوَفِّقْهُمْ للإيمانِ بهِ، فَجُعِلوا على التّكْذيبِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ أي مِنْ وراءِ تَكْذيبِهِمْ محيطٌ بما يَنْزِلُ بهمْ مِنَ العذابِ، ليسَ يُوعِدُهُمْ عنْ غفلةٍ وخَيالٍ كما يَفْعَلُهُ ملوكُ الدنيا، قد يُوعِدونَ بالعذابِ، ولا يَدْرُونَ أنهمْ يَتَمَكّنونَ مِنْ ذلكَ أم لا. واللهُ يُنْزِلُ عليهِمْ عذابَهُ كما أوعَدَ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ أي عالمٌ بما يُسِرّونَ، ويُخْفونَ عنِ الخَلْقِ، لا يَعْزُبُ عنهُ شيءٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ فسمّاهُ مَجيداً وكَريماً وحَكيماً؛ وهذهِ أوصافٌ؛ مَنْ وُصِفَ بها في الشاهدِ فقدِ اسْتَحَقَّ الوَصْفَ بِفِعْلٍ وُجِدَ منهُ، ولا يوجَدُ في[7] القرآنِ فِعْلٌ [لا][8] يَسْتَحِقُّ بهِ الوصفَ؛ فالوصْفُ بهِ يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحدُها: ﴿مَّجِيدٞ﴾ أي يَصيرُ مَنْ تَبِعَهُ، وعَمِلَ بما فيهِ، مَجيداً حَكيماً كَريماً كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس: ٦٧ و...] أي يُبْصَرُ بهِ.

[[والثاني: أنْ][9] يكونَ قولُهُ: ﴿مَّجِيدٞ﴾ كريماً[10] أي على اللهِ تعالى.

[والثالثُ][11]: سَمّاهُ كَريماً مَجيداً حَكيماً لِعِظَمِ قَدْرِهِ.

[والرابعُ][12]: سَمّاهُ كَريماً مَجيداً حَكيماً لِما يُوجَدُ منهُ ما يوجَدُ مِنَ الكُرَماءِ والحُكَماءِ والأمجادِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى:][13] ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ فمنهمْ مَنْ حَقَّقَ اللّوحَ والقَلَمَ، وقد وَصَفَهُ أهلُ التفسيرِ، ومنهمْ مَنْ جَعَلَ اللّوحَ عبارةً عمّا يَلوحُ أي يُظْهِرُ لِلمالكِ مِنَ الأمرِ لا على تحقيقِ اللّوحِ.

وسَمَّتِ الباطِنيةُ القَلَمَ المُبْدِعَ الأوّلَ [واللّوحَ المُبْدِعَ الثانيَ، وجَعَلوا المُبْدِعَ الأوّلَ][14] عِلّةَ كونِ المُبْدِعِ الثاني، وزَعَموا أنّ المُبْدِعَ الأوّلَ بُذِلَ لهُ إنشاءُ المُبْدِعِ الثاني. فهو المُنْشِئُ لهُ. وسَمَّتِ المُبْدِعَ الأوّلَ بارِياً والمُبْدِعَ الثانيَ خالقاً رَحْماناً.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: بكونه. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إلا. (٥) في الأصل وم: وصفناها. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: من. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: أو. (١٠) في الأصل: كريم. (١١) في الأصل: أو. (١٢) في الأصل: أو. (١٣) ساقطة من م. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

وسمّتِ الفلاسفةُ المُبْدِعَ الأوّلَ عَقْلاً والثانيَ نَفْساً، ثم حَدَثَ التَّوالُدُ منَ الأنفسِ.

فأمّا جَعْلُهُمُ الأوّلَ أصْلاً وعِلّةً لِيَسْوُوا[1] ما ذَكَروا، فذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يُجْعَلَ الأوّلُ أصْلاً للثاني وعِلّةً كما اسْتَقامَ أنْ تُجْعَلَ النُّطْفةُ أصْلاً لِخَلْقِ البَشَرِ. ولكنهُ لا يجوزُ أنْ يُسَمّى بواحدٍ مِنَ الإسْمَيْنِ اللَّذينِ ذَكَرَتْهما الباطنيةُ والفلاسفةُ لأنهُ لا يجوزُ إنشاءُ الأسماءِ لهذهِ الأشياءِ اختِراعاً، أو[2] تَسْمِيَتُهما [بما جاءَتِ التَّسْمِيةُ منْ غَيرِ الحُجّةِ، وإنما جاءَتِ][3] التَّسْمِيةُ منْ عندِ الحُجّةِ باللَّوحِ والقَلَمِ، فلا تُسمِّيهما بِغيرهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ أي [مِنْ][4] أعدائِهِ، فلا يَتَمَكّنونَ مِنْ تَغْيِيرِهِ وتَبْديلِهِ. وأخبَرَ أنهُ أنزَلَهُ إليهِ على يَدَي رسولٍ قَويٍّ، فلا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يَغْلِبَهُ، فَيُحرِّفَ ما فيهِ، وَوَصَفَهُ بالأمانةِ في نفسِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ إلى قولِهِ ﷺ: ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠و٢١] لِيُؤْمَنَ تَغييرُهُ بنفسِهِ، واللهُ الهادي للعبادِ والموفِّقُ للرشادِ [ولا حَولَ ولا قوةَ إلّا باللهِ العَليِّ العظيمِ][5].

(١) في الأصل وم: ليسوا. (٢) في الأصل وم: بل. (٣) من نسخة الحرم المكي. (٤) في م: عن، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

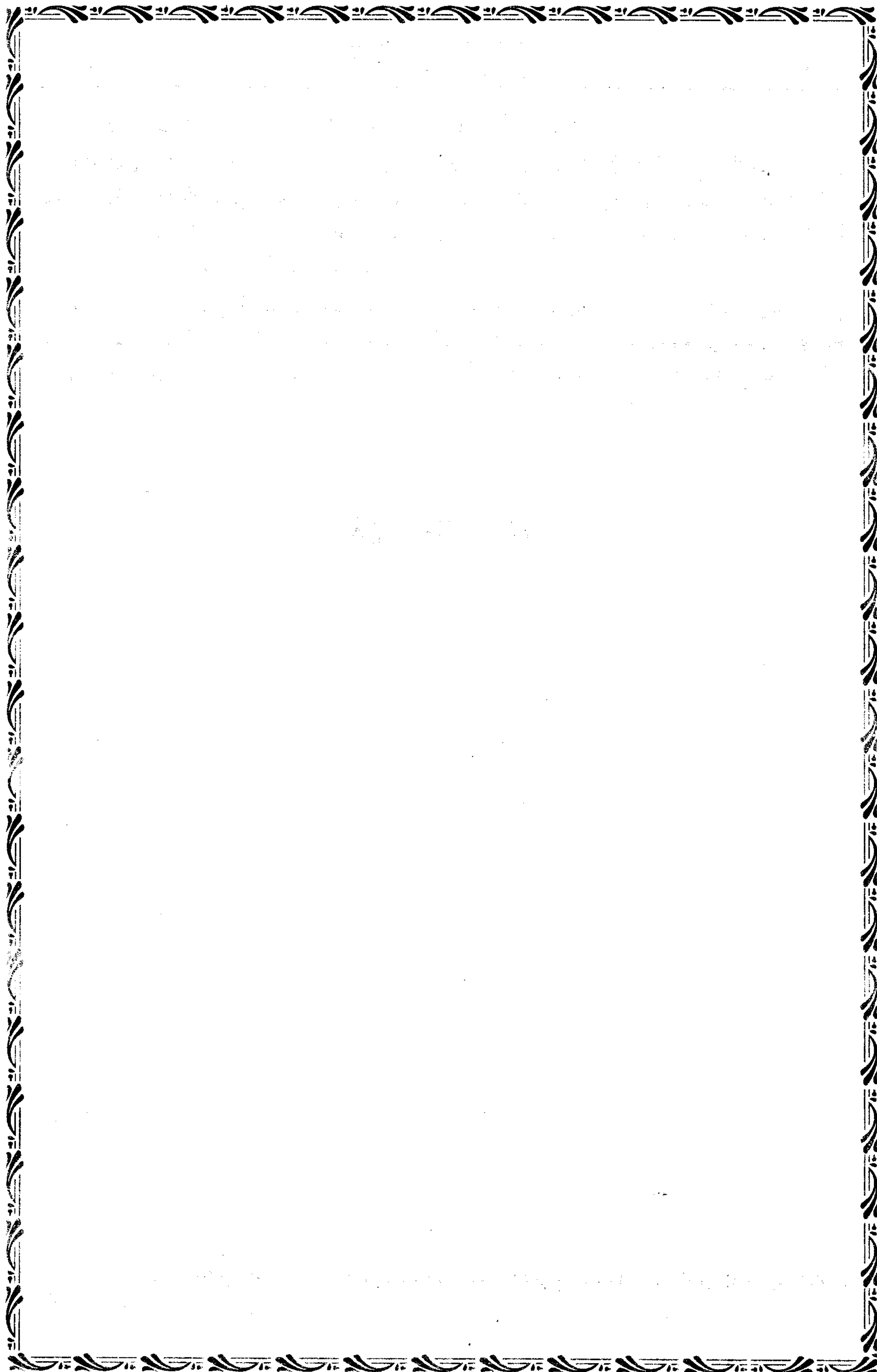

سورة الطارق

[وهي مكية](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ﴾ [﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الطَّارِقُ﴾](٢) إنَّ اللهَ، جَلَّ، وعَلا، عَظَّمَ قَدْرَ السماءِ في أعينِ الخَلْقِ لِمَا جَعَلَها مَعْدِنَ رزقِهِمْ ومَسْكَنَ أولي القَدْرِ مِنْ خَلْقِهِ، وهمُ الملائكةُ، وفيها خَلَقَ الجنةَ، وخَلَقَها بِغَيرِ عَمَدٍ، تُرَى. فأقْسَمَ بها لِمَا عَظَّمَ مِنْ شأنِها، وجَعَلَ مَصالِحَ الأغذيةِ بِزينَتِها، وهي الشمسُ والقمرُ [والكواكبُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أقسَمَ](٣) بالنجمِ الثاقبِ، وهو المُتَلألِئُ مِنَ النجومِ، المُضيءُ الذي يَثْقُبُ الشيطانَ، أو يَحْرِقُهُ، ولِما فيها أيضاً مِنْ عِظَمِ البركاتِ.

وبَرَكاتُها أنها جُعِلَتْ بحيثُ يُهْتَدَى بها في البَرِّ والبحرِ، ويوصَلُ بها إلى لَطائفِ التدبيرِ إلى أنْ ظَنَّ بعضُ [الناسِ](٤) أنَّ الأنجمَ السَّبْعةَ، هي المُدَبِّراتُ، وبها ما مَنَعَ الشياطينَ عنِ الصعودِ إلى السماءِ لِيُتَّقَى بها التَّلْبيسُ على الوَحْيِ، لأنهمْ لو لم يُمْنَعوا(٥) عنها لكانوا إذا وقَفوا على أخبارِها أسْرَعوا بِحَمْلِها إلى الكَهَنةِ، فَيُؤدِّي ذلكَ إلى التلبيسِ.

ومِنْ عِظَمِ قَدْرِها أنها تَقْطَعُ/ ٦٣٦ ـ أ/ في الليلةِ الواحدةِ مَسيرَةَ ألفِ شَهْرٍ، فأقسَمَ [بها](٦) أيضاً.

ويجوزُ أنْ يكونَ هذا مِنَ اللهِ تَعْليماً لِرسولِهِ ﷺ بأنْ يُقْسِمَ به دونَ أنْ يكونَ ذلكَ قَسَماً منهُ تعالى [ما](٧) لم يكونوا يَرْتابونَ في ألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وصِدْقِ أخبارِهِ، فزالَ عنهمُ الرَّيْبُ بالقَسَمِ [وإنْ كانوا يرتابونَ في رسالةِ محمدٍ ﷺ فَعَلَّمَهُ القَسَمَ بما ذَكَرَ لِيُؤكِّدَ أمرَهُ، فَيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على النَّظَرِ في أمرِهِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ القَسَمُ بِغَيرِ هذهِ الأشياءِ لِكَونِها مُعَظَّمةً عندَ الكَفَرةِ، وليسَ لِلْكَفَرةِ، وليسَ للمسلمينَ أنْ يُقْسِموا في ما بَيْنَهُمْ؛ إذْ يكونَ القَسَمُ بهذهِ الأشياءِ هو القَسَمُ بِخالِقِها، فكأنهُ أمَرَهُ بالقَسَمِ](٨) بِخالقِ هذهِ الأشياءِ على الإضمارِ، واللهُ أعلَمُ.

واخْتُلِفَ في تأويلِ ﴿الطَّارِقُ﴾ فقالَ بعضُهُمْ: ما يجيءُ بهِ الليلُ، يُقالُ: طَرَقْتُهُ بالليلِ إذا أتَيْتُهُ.

وقالَ الزَّجّاجُ: الطارقُ، هو الساكنُ، يُقالُ: أطْرَقَ في الكلامِ مَلِيّاً إذا وقَفَ، وسَكَتَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو النجمُ يَطْرُقُ بالليلِ، ويَخْتَفي بالنهارِ، وهو النجمُ الثاقبُ؛ ذَكَرَهُ تَفْسيراً للطارقِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿إِن﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أُريدَ بِهِ ههنا: ما، وقولُهُ: ﴿لَّمَّا﴾ صِلَةٌ في الكلامِ؛ فمعناهُ [في وجهَينِ:

أحَدُهما:](٩) ما مِنْ نفسٍ عليها حافظٌ، وإنّما الحافظُ على بعضٍ دونَ بعضٍ.

والثاني: أنْ يكونَ الحافظُ على بعضِ ما في النفسِ دونَ بعضٍ؛ وذلكَ البعضُ هو الذي يُظْهِرُهُ. فأمّا الذي يُخْفيهِ فإنهُ لا يَشْهَدُهُ كاتباهُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وأقسم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يحفظوا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَ قولَهُ تعالى: ﴿لَّمَّا﴾ على الِاسْتِثْناءِ، فقالَ: مَعْناهُ ما مِنْ نفسٍ إلّا عليها حافظٌ.

قالَ الزّجّاجُ: حَرْفُ ﴿لَّمَّا﴾ اسْتُعْمِلَ في مَوضِعِ الِاسْتِثْناءِ، يُقالُ: أقسَمْتُ عليكَ لمّا فَعَلْتَ كذا، أي إلّا فَعَلْتَ كذا. فإذا كانَ مَعناهُ ما ذَكَروا ففيهِ إلزامُ التَّيقُّظِ والتَّبَصُّرِ، والنفسُ مِنْ طَبْعِها إذا سُلِّطَ عليها مَنْ يُراقِبُها، ويَحفَظُها، احْتَشَمَتْ [مِنْ][1] مُراقِبِها، وخافَتْهُ، وتكونُ مُتَيَقِّظةً، ولا تَرْتَكِبُ مِنَ الأمورِ إلّا ما يُعْلَمُ أنهُ لا تَلْحَقُهُ التَّبِعَةُ مِنَ الحُفّاظِ.

[والمرءُ يُسَلَّطُ][2] عليهِ المَلَكانِ أيضاً ليكونَ مُتَيَقِّظاً في كلِّ قولٍ وفِعْلٍ، فلا يُقْبِلُ إلّا إلى ما فيهِ نَفْعُ العاجِلِ والآجلِ.

وسَمّى اللهُ تعالى المَلَكَينِ ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١] ومَنْ صَحِبَ المُكَرَّمَ مِنَ الخلائقِ احْتَشَمَ منهُ، وتَوَقّى عن إتيانِ ما يُسْتَحيَى مِنْ مِثْلِهِ. ومَنْ أرادَ أنْ يكتبَ إلى أحدٍ كتاباً، لم يُثْبِتْ في كتابِهِ شيئاً، يُؤخَذُ عليهِ، ويُذَمُّ بهِ، بل يُحْكِمُ الأمرَ، ويُصْلِحُهُ غايةَ ما يَحتَمِلُهُ الوُسْعُ، فكانَ في ذِكْرِ الحافظِ على الأنفسِ إلزامُ التَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ مِنَ الوَجهِ الذي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَافِظٌ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: يَحفظُ عليها رِزْقَها حتى تَسْتَوفِيَ بهِ. فإنْ كانَ على هذا فالحفظُ يكونُ لها لا عليها. قالَ بَعضُهُمْ: يَحفظُ عليها أعمالَها خيرَها وشرَّها.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ فالأصلُ أنَّ إمعانَ النظرِ في ما خُلِقَ منهُ الإنسانُ ممّا يُوصِلُ المُنكِرينَ للبعثِ والمُنكِرينَ للرسالةِ إلى القولِ، وذلكَ أنَّ النطفةَ التي خُلِقَ منها الإنسانُ، لو رُئِيَتْ مَوضوعةً على طَبَقٍ، ثم رامَ أحدٌ أنْ يَعرِفَ وأنْ يَنتزِعَ منها المَعْنَى الذي بهِ صَلَحَ أنْ تُنشأَ منها العَلَقَةُ والمُضغَةُ، وخُلِقَ منها الإنسانُ، لم يُدْرِكْ، ولو اجْتَمَعَ الإنسُ والجنُّ على أنْ يُرَكِّبوا عليها جارحةً مِنْ جَوارحِ الإنسانِ، لم يَتَهَيَّأْ لهمْ تَرْكيبُها، أو [أنْ][3] يَعرِفوا المَعنَى الذي [بهِ][4] صَلَحَ أنْ يُنشأَ منهُ السمعُ والبَصَرُ، لم يُوَفَّقوا لهُ.

فَتَبَيَّنَ أنَّ الذي بَلَغَتْ قدرتُهُ هذا لا يَخفَى عليهِ أمرٌ، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ، وتَبَيَّنَ لهمْ حكمتُهُ. وإذا عَرَفوا حكمتَهُ أدّاهُمْ ذلكَ إلى القولِ بالبعثِ، لأنهُ لولا البعثُ لكانَ[5] يَخرُجُ إنشاءُ الخَلْقِ عَبَثاً باطلاً، فَيَخرُجُ عن أنْ يكونَ حَكيماً، ولَزِمَهُمْ أنْ يُصَدِّقوا الرسلَ بجميعِ ما أخبَرَتْهُمْ.

وفيهِ دلالةُ خَلْقِ الشيءِ لا مِنْ شَيءٍ، إذْ لا يجوزُ أنْ يكونَ بكُلِّيَّتِهِ مِنَ النُّطفةِ مُستَحسَناً، فَظَهَرَ أنهُ لا يَسَعُ في الشيءِ الواحدِ ما لا يُحصَى ذلكَ مِنَ الأضعافِ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ عَمَلَ النطفةِ أيضاً، وإنها مَواتٌ، لا يُحتَمَلُ أنْ تَصيرَ كذلكَ إلّا بتدبيرِ مُدَبِّرٍ عليهمْ، فيكونُ في ما ذَكَرْنا إيجابُ القولِ بحدوثِ العالَمِ. ولأنها لو صارَتْ مُضغةً وعَلَقَةً وخَلْقاً سَوِيّاً بِطَبْعِها لكانَتْ لا تَخلو نُطفَةً إلّا وهي تَنتَقِلُ إلى ما ذَكَرْنا.

ألا تَرَى أنَّ النارَ لمّا كانَ مِنْ طَبْعِها الإحراقُ، والثَّلجَ إذا كانَ مِنْ طَبْعِهِ التَّبريدُ لم يَجُزْ أنْ يَنتَقِلَ واحدٌ منهما عن طَبْعِهِ الذي أُنشِئَ عليهِ؟ ثم قد وجَدْنا نُطَفاً، تَخلُو مِنْ هذهِ المعاني التي ذَكَرْنا، فَثَبَتَ أنها نُقِلَتْ إلى ما ذَكَرْنا بِتَدبيرِ حكيمٍ مُدَبِّرٍ لا بِطَبْعِها.

ثم الأعجوبةُ في ما فيهِ خَلْقُ الإنسانِ ليسَتْ بأقلَّ مِنَ الأعجوبةِ ممّا منهُ خُلِقَ؛ وذلكَ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ في الظُّلُماتِ على ما أرادَ اللهُ تعالى، وصَوَّرَهُ كيفَ شاءَ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَعلَمَ عِلْمَ ذلكَ أو يُصَوِّرَ مثلَهُ في حالةِ العِيانِ لم يَملِكْ [أو يَجعَلَ][6] ذلكَ المكانَ في ما يَنمو فيهِ الولدُ، ويَتَغَذَّى[7] فيهِ مَخصوصاً مِنْ بَينِ سائرِ الأماكنِ، ولو أرادَ حُكماءُ الإنسِ والجنِّ أنْ يَعرِفوا الوجهَ الذي بهِ صَلَحَ ذلكَ المكانُ للنَّماءِ والغِذاءِ، وأُعلِموا فيهِ فنونَ العِلْمِ، لم يَعرِفوا.

فَمَنْ تَفَكَّرَ في ما ذَكَرْنا عَلِمَ أنَّ قدرتَهُ ذاتيَّةٌ، لا يَلْحَقُها فَناءٌ ولا عَجزٌ، وعَلِمَ أنَّ عِلْمَهُ ذاتِيٌّ، ليسَ بِمُكتَسَبٍ، فيُتَوَهَّمُ خَفاءُ الأمورِ عليهِ.

---

(١) في الأصل وم: عليه المكان أيضاً. (٢) في الأصل وم: فسلط. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) قيال وإلا كان.
(٦) في الأصل وم: وجعل. (٧) في الأصل وم: ويغذو.

وقولُهُ تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ يعني النُّطفَةَ التي يَدْفُقُها الرجلُ في الرَّحِمِ، والدافِقُ مَدْفوقٌ، أي يُدْفَقُ بِهِ كقولِكَ: ليلٌ نائمٌ، أي يُنامُ فيهِ، وهو ناصِبٌ، أي يُنْصَبُ بِهِ. وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي ذي اندِفاقٍ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ؛ فمنهمْ مَنْ يقولُ: بَينَ صُلْبِ الرجُلِ وتَرائِبِ المرأةِ، وهي الأضلاعُ الثمانيةُ: أربعٌ عنْ يَمينِها وأربعٌ عنْ يَسارِها. قالَ بَعْضُهُمْ: التَّرائِبُ، هي الأطرافُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: التَّرائِبُ مَوضِعُ القِلادةِ منها، وقالَ بَعْضُهُمْ: التَّرائِبُ ما دونَ التَّراقي وفوقَ الصَّدْرِ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ صَرَفَ تأويلَها إلى الرجلِ خاصَّةً، فقالَ: قولُهُ: ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أُريدَ بِهِ صُلْبُ الرجلِ وتَرائِبُهُ، وزَعَمَ أنَّ الماءَ الذي يكونُ منهُ الولدُ، ليسَ مَعْدِنُهُ الصُّلْبَ خاصَّةً، بل يَجْتَمِعُ مِنْ أطرافِهِ كلِّها[1]. ومَنْ حَمَلَهُ على المَعاني الأُخَرِ صَرَفَ الأمرَ إليهما جميعاً؛ وهو أنَّ الماءَ الذي يُخلَقُ منهُ الولدُ يكونُ منهما جميعاً. وذلكَ ذَكَرَهُ أبو بكرٍ الأصَمُّ: أنَّ الصُّلْبَ كِنايةٌ عنِ الرجلِ، والتَّرائبَ كِنايةٌ عنِ المرأةِ، فيكونُ هذا اسْماً لهما مأخوذاً مِنْ أصلِ ما يكونُ منهما.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ الآيةَ؟ [النساء: ٢٣] فأضافَ الأبناءَ إلى الأصلابِ.

وفي إخراجِ الماءِ مِنَ الصُّلْبِ والتَّرائبِ لُطْفٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنهُ لوِ اجْتَهَدَ الخَلائقُ باسْتِخراجِهِ مِنْ بَينِ ما ذَكَرَ بِحِيَلِهِمْ وَقِواهُمْ ووَضْعِهِ في الرَّحِمِ لم يَقْدِروا عليهِ.

ثم اللهُ بِلُطْفِهِ وَضَعَ هذهِ الشَّهْوةَ في ما بَينَ الخَلْقِ، واسْتَخْرَجَ بها الماءَ مِنْ بَينِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ، لا أنْ يكونَ أحدٌ يَمْلِكُ إخراجَها بالأسبابِ والحِيَلِ كما وَضَعَ فيهِمْ شَهْوَةَ الأكلِ والشَّرابِ في كلِّ جارحةٍ مِنْ جوارحِ الأكلِ باللُّطفِ لا أنْ يكونَ ذلكَ العملُ بالأكلِ والشَّرابِ خاصةً. وكذلكَ يَرَى الإنسانُ إذا سَقَى أصلَ الشجرةِ ظَهَرَتْ مَنْفَعَةُ السَّقْيِ في أغصانِها وأوراقِها وأثمارِها. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَرَى[2] لأيِّ مَعْنًى صَلَحَ أنْ يكونَ الماءُ بالمَحَلِّ الذي ذَكَرْنا، وأرادَ أنْ يَسْتَخرِجَ المَعْنَى المَجعولَ في الطعامِ مِنَ القُوَّةِ التي ذَكَرْنا لم يُدرِكْ[3] ذلكَ.

فيكونُ في ما ذَكَرْنا أبْلَغُ حُجَّةٍ على الثَّنَوِيَّةِ لأنهمْ يُنْكِرونَ خَلْقَ الأشياءِ/ ٦٣٦ ـ ب/ لا مِنْ أشياءَ، وزَعَمُوا أنا لم نُشاهِدْ كونَ الشَّيءِ مِنْ لا شيءٍ، والشاهدُ دليلُ الغائبِ، فَلَزِمَ ذلكَ في الذي غابَ عنَّا.

فَمَنْ قَدَرَ على تَصويرِ الولدِ في تلكَ الظلماتِ وفي الأماكنِ الضَّيِّقةِ، وقَدَرَ أنْ يَجْعَلَ في الماءِ والطعامِ المَعانِيَ التي يَعْجَزُ الخَلْقُ عنْ إدراكِها[4] قادرٌ على إنشاءِ الخَلْقِ لا مِنْ شيءٍ؛ إذِ الأعجوبةُ في ما ذَكَرْنا، ليسَتْ بدونِ الأعجوبةِ مِنْ إنشاءِ شيءٍ [لا مِنْ شيءٍ][5].

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنهُ على ردِّهِ إلى صُلْبِ أبيهِ لَقادِرٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنهُ على بعْثِهِ لَقادِرٌ، وهذا أشْبَهُ التأويلَينِ لأنَّ الآيَةَ في مَوضِعِ الِاحتِجاجِ على الكفرةِ. ولم يُذْكَرْ عنْ أحدِ التَّنازُعُ في نَفْيِ الرَّدِّ إلى الصُّلْبِ وإنكارِهِ حتى تُدْفَعَ المُنازعةُ بهذا.

وكانوا أهلَ إنكارٍ بالبعثِ، فاحْتُجَّ عليهِمْ بابْتِداءِ الخِلْقةِ. وكذلكَ أكثَرُ ما جَرَى بِهِ الِاحتِجاجُ في إثباتِ البعثِ في القرآنِ، إنما احْتَجَّ عليهِمْ بالِابْتِداءِ.

[وإنْ][6] كانَ التأويلُ على ردِّهِ إلى صُلْبِ أبيهِ، فَوَجْهُ الرَّدِّ، هو أنْ يُرَدَّ مِنْ حالةِ الشَّيبِ إلى حالةِ الشبابِ ثم مِنْ حالةِ الكِبَرِ إلى حالةِ الصِّغَرِ ثم إلى حالةِ الطُّفوليَّةِ، ثم يُرَدُّ مُضغَةً، ثم يُرَدُّ عَلَقَةً ثم نُطفَةً، ثم تُرَدُّ النُّطْفَةُ إلى صُلْبِ أبيهِ، لا أنْ يُوصَفَ اللهُ تعالى بالقُدْرةِ على ردِّهِ، وهو على حالِهِ نَسَمةٌ عظيمةٌ إلى صُلْبِ أبيهِ مع ضيقِ ذلكَ المكانِ، ولأنَّ هذا محالٌ،

(١) في الأصل وم: كله. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) في الأصل وم: يتدارك. (٤) في الأصل وم: استدراكها. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، في الأصل: و.

واللهُ تعالى لا يوصَفُ بالقُدرَةِ على [مُحالٍ، وليسَ في مالا يُوصَفُ بالقدرةِ على][1] المُحالِ نَفيُ القُدرةِ عنهُ في الأزلِ. وبهذا يُجابُ من سألَ، فقالَ: أيَقْدِرُ اللهُ تعالى على إدخالِ الدنيا في بَيضةٍ؟ فَيُقالُ لهُ: إنْ أرَدْتَ إدخالَها في البيضةِ في أنْ تُصغِّرَ الدنيا، وتُضَيِّقَها، حتى تَجعَلَها أضيَقَ منَ البيضةِ أو [أنْ تُوسِّعَ البيضةَ حتّى تَسَعَ فيها][2] الدنيا، فهو على ذلكَ قادرٌ.

وإنْ أردْتَ أنهُ قادرٌ على إدخالِها فيها على إبقاءِ البَيضةِ بِحالِها وبقاءِ الدنيا بِحالها، فهذا مُحالٌ لِما فيهِ مِن انْقِلابِ البعضِ كُلّاً والكُلِّ بعضاً.

فكذلكَ يوصَفُ اللهُ تعالى [بالقُدرةِ][3] على رَدِّ النَّسمةِ إلى الصُّلْبِ بالوجهِ الذي ذَكَرْنا، لا أنْ يَرُدَّها على ما هي عليها إلى الصُّلْبِ لِما في ذلكَ مِنَ الإحالةِ.

وكذلكَ إذا سُئِلْنا عنْ حركاتِ أهلِ الجنةِ والسكونِ، هل لهما غايةٌ؟ فنقولُ: لا، فإنْ قالوا: هل يَعْلَمُ اللهُ تعالى غايَتَها وعَدَدَها؟ فنقولُ لهُ: يَعْلَمُها غيرَ منقطعةٍ لا يَعْلَمُها مُنْقَطعةً. ولم يكُنْ في قولِنا: إنهُ لم يَعْلَمْهُ مُنقَطِعاً، إثباتُ جَهْلٍ ولا نَفيُ العِلْمِ عنهُ، بلِ الجهلُ إنما يَتَحقَّقُ إذا وُصِفَ العلمُ بالانْقِطاعِ في مالا يَنْقَطِعُ.

فكذلكَ ليسَ في نَفْيِ الوصفِ بالقُدْرةِ على المُحالِ إثباتُ عَجْزِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي يَظْهَرُ ما كانَ أُخفِيَ منها. فجائزٌ أنْ يكونَ الإظهارُ مُنصَرِفاً إلى التي لم يَطَّلِعْ عليها الملائكةُ، فَتَكتُبَها عليهِ، فَيُذَكِّرَهُ اللهُ تعالى كيفَ شاءَ، فَيُقَرِّرَها عليهِ، أو تَنْطِقَ جوارِحُهُ بها كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [النور: ٢٤] أو يكونَ إظهاراً لقراءةِ ما عليهِ، فَيَظْهَرَ ذلكَ للخَلْقِ، وإنْ كانَ قد أسَرَّها عنهمْ في الدنيا.

ثم سَمّى ذلكَ ابْتِلاءً لأنَّ الابْتِلاءَ، هو الاخْتِبارُ؛ وإنما يكونُ الابْتِلاءُ بالسؤالِ أو بالأمرِ والنَّهيِ، فَسَمّى ما يُسْألُ عنهُ في الآخِرَةِ ابْتِلاءً.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ يَحْتَمِلُ [وُجوهاً:

أحَدُها:][4] أنْ ليستْ لهُ قوةٌ في كِتمانِ ذلكَ على نفسِهِ، ولا لَهُ قوةُ نَفْيِ العذابِ عن نفسِهِ.

[والثاني][5]: مالهُ مِنْ قوةٍ، يَمْتَنِعُ بها، ولا ناصرٍ، يَمْنَعُهُ عنْ نُزولِ العذابِ بهِ.

[والثالثُ][6]: أنَّ الكفارَ كانوا يَفْتَخِرونَ بِقُواهُمْ، وكَثْرَةِ أنصارِهِمْ في الدنيا، لا تَنْفَعُهُمْ في الآخِرَةِ، ولا تَدفَعُ عنهمْ بأسَ اللهِ تعالى، وكانوا يَعْبدونَ الأصنامَ لِتُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ تعالى، وتَنْصُرَهُمْ مِنَ العذابِ كما قالَ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] فَتَبيَّنَ أنها لا تُغْني عنهمْ مِنَ اللهِ شيئاً.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ قالَ أبو عُبَيدةَ: الرَّجْعُ هو الماءُ، أيِ السماءِ ذاتِ المَطَرِ. وقالَ غَيرُهُ: ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي تعودُ في كلِّ عامٍ إلى ما كانَتْ في العامِ الذي قَبْلَهُ بالمَطَرِ، والرَّجْعُ هو العَوْدُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي تَكَرُّرُ[7] إدرارِ بَرَكَتِها على الخَلْقِ لِيَسْتَقوا[8] منها.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ بالنباتِ، أو ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ أي ذاتِ أوديةٍ وأنهارٍ، يَجْتَمِعُ فيها الماءُ، فَيَنْتَفِعُ بها الخَلْقُ لِسَقْيِ أراضيهِمْ ودوابِّهِمْ، فَعَظَّمَ أمرَ السماءِ والأرضِ، فأقسَمَ بهما.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يعني القرآنَ.

الآية ١٤ [وقولُهُ تعالى:][9] ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: توسع فيه، في م: توسع البيضة حتى تسع فيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: ووجه. (٧) في الأصل وم: تتكرر إلى. (٨) في الأصل وم: ليستوفوا. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وفي إخراجِ النباتِ مِنَ الأرضِ حكمةٌ عجيبةٌ ولطفٌ وتَدبيرٌ؛ وذلكَ أنَّ النباتَ شيءٌ لَيِّنٌ [يَنْثني][١] بأدنى مَسٍّ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى بلُطفِهِ صَدَعَ لهُ الأرضَ اليابسةَ الصُّلْبَةَ، وأَخرَجَهُ[٢] منها غيرَ مُثنيٍّ ولا مُتكسِّرٍ لِيَعْلَموا أنَّ مُدبِّرَهُ حكيمٌ، فَيُلْزِمَهُمْ بالتوحيدِ[٣]، وجَعَلَ مَنافِعَ الأرضِ بِمَنافِعِ السماءِ مُتَّصِلَةً؛ إذِ الأرضُ إنما تَتَصَدَّعُ للنباتِ إذا أصابَها المطرُ مِنَ السماءِ، فيكونُ في ذلكَ إنباءٌ أيضاً أنَّ مُدَبِّرَهما واحدٌ. ولولا ذلكَ[٤] لم تَتَّصِلْ مَنْفَعةُ إحداهما بالأُخرَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي بَيِّنٌ؛ بَيَّنَ فيهِ الحَلالَ والحَرامَ وما يُتَّقى منهُ وما يُؤْتَى، وبَيَّنَ فيهِ الصوابَ مِنَ الخَطَإِ، وبَيَّنَ فيهِ الوَعْدَ والوَعيدَ، أو يكونُ مَعْنَى الفعلِ التفريقَ، وهو أنهُ فَرَّقَ الوَعْدَ مِنَ الوعيدِ والحَلالَ مِنَ الحرامِ والحَقَّ مِنَ الباطلِ، فَوَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، ولم يَخْلُطْ أحَدَهما بالآخَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي باللَّعِبِ والباطلِ.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أجْزيهمْ جَزاءَ كَيدِهِمْ، فَسَمَّى الجَزاءَ باسْمِ مالَهُ الجزاءُ، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ كَيداً، كما سَمَّى [جَزاءَ السَّيِّئَةِ][٥] سَيِّئَةً مثلَها، وإنْ لم يكُنِ الجَزاءُ سَيِّئَةً وكما سَمَّى جَزاءَ الاِعْتِداءِ، وإنْ لم يكُنِ الجَزاءُ اعْتِداءً بقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقولِهِ[٦]: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جَزاهُمْ جَزاءَ النِّسيانِ، أو جَعَلَهُمْ كالشَّيءِ المَنْسِيِّ الذي لا يُعْبَأُ بِهِ، لا أنْ يكونَ منهُ في الحقيقةِ نِسْيانٌ. فكذا سَمَّى جَزاءَ الكَيدِ كَيداً لا أنْ يكونَ الجزاءُ كَيداً.

[والثاني:][٧] أنَّ الكَيدَ في [حَقيقَتِهِ المَكْرُ، وهو][٨] أنْ يأخُذَهُ منْ وَجْهِ أمْنِهِ، فَيَلْحَقَ الكائدَ اسْمُ الذَّمِّ لأنهُ أخَذَهُ مِنْ وجْهٍ، لم يَشْعُرْ بهِ. وهذا المعنى في الكَيدِ الذي أُضِيفَ إلى اللهِ تعالى [غَيرُ موجودٍ لأنَّ اللهَ تعالى][٩] قد بَيَّنَ لهُ الطريقَ الذي إذا سَلَكَهُ وقَعَ [بما][١٠] أُريدَ الأمْنُ مِنَ الطريقِ الذي إذا سَلَكَهُ حلَّ / ٦٣٧ ـ أ/ بِهِ البَوارُ والهَلاكُ. فإذا سلكَ هذا الطريقَ كانَ سلوكُهُ عنْ عِنادٍ منهُ أو عنْ تَرْكِ الإنصافِ منْ نفسِهِ، فوجدَ ما يُكْرَهُ مِنَ الكَيدِ لا مِنَ المُكايِدِ، فلم يَلْحَقْهُ بذلكَ الوصفِ المَعْنَى المَكروهُ.

ثم كَيدُهُمْ برسولِ اللهِ ﷺ وبالمؤمنينَ [ما ذَكَرَ][١١] في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ فَمَهِّلْ، وأَمْهِلْ لغتانِ؛ فكأنهُ يقولُ: أمهِلْهُمْ ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ ولا تُجازِهِمْ بِصَنيعِهِمْ، فإنَّ اللهَ تعالى يُجازيهِمْ بصنيعِهِمْ عنْ قَريبٍ، وقد فَعَلَ ذلكَ بما سَلَّطَ رسولَهُ ﷺ [عليهِمْ][١٢] بقَتْلِهِمْ وسَبْيِهِمْ، فيكونُ في هذا بشارةٌ منهُ لرسولِ اللهِ ﷺ بالنصرِ عليهِمْ وبِغَلَبَتِهِ إياهُمْ.

وفي ذلكَ آيةُ رسالتِهِ لأنهُ قالَ لهمْ هذا عندَ قِلَّةِ أعوانِهِ وضَعْفِهِ. ثم إنَّ اللهَ تعالى كَثَّرَ أنصارَهُ، وأظْهَرَ عليهِمْ كما قالَ لهمْ لِيَعْلَموا أنهُ عَلِمَ ذلكَ بالوحيِ، واللهُ الموفِّقُ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وأخرج. (٣) في الأصل وم: به التوحيد. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وإلا. (٥) في الأصل وم: الجزاء للسيئة. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: ووجه آخر. (٨) في الأصل وم: الحقيقة المكر هو. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

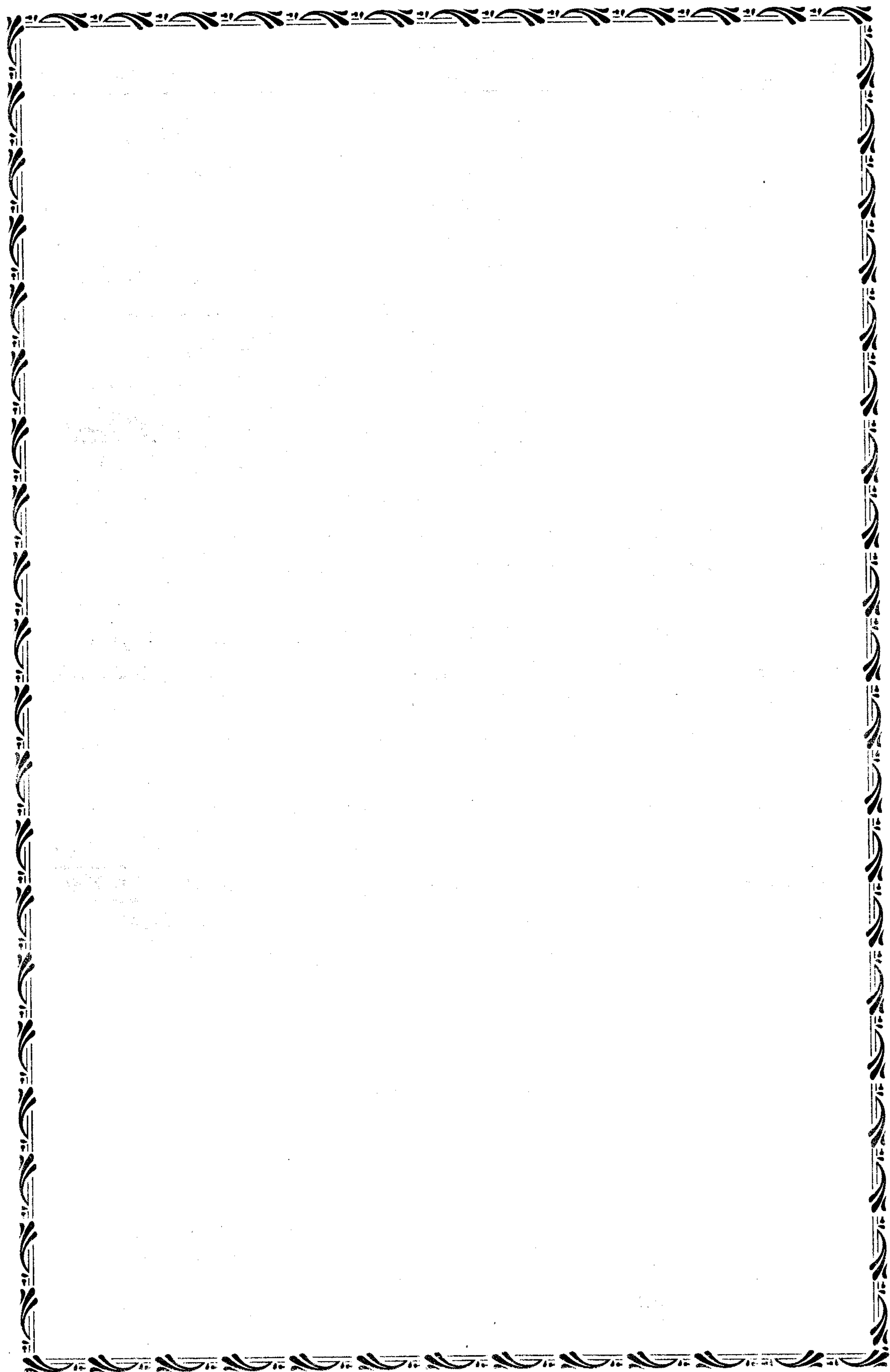

[سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قيلَ فيهِ مِنْ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنْ سَبِّحْ ربَّكَ، وقيلَ: سَبِّحِ اسْمَهُ، وقيلَ سَبِّحْ ربَّكَ بأسمائِهِ.

فَمَنْ قالَ: سَبِّحْ ربَّكَ فمعناهُ: أنْ نَزِّهْهُ(٢) عن جميعِ المعاني التي يَحتَمِلُها غيرُهُ مِنَ الآفاتِ والحاجاتِ والأضدادِ والأندادِ، فيكونُ القولُ بهِ توحيداً. ورُوِيَ عن مُقاتِلِ بنِ سليمانَ أنهُ قالَ: تأويلُهُ: وَحِّدْ ربَّكَ، والتوحيدُ ما ذَكَرْنا.

[والثاني: ما](٣) قالَ المفسرونَ: تأويلُهُ: أنْ صَلِّ لربِّكَ، وهذا مُحْتَمَلٌ لأنَّ الصلاةَ بِنفسِها تَسبيحٌ [لأنهُ](٤) بالإفتِتاحِ يَقْطَعُ وجوهَ المُعاملاتِ بَينَهُ وبينَ الخَلْقِ، ويَمْنَعُ نفسَهُ عن حوائِجِها، فَيَجْعَلُها للهِ تعالى، وهذا هو التوحيدُ والإيمانُ، لأنهُ بالإيمانِ تُجْعَلُ الأشياءُ كلُّها للهِ تعالى سالمةً، فصارتِ الصلاةُ تَسبيحاً لِعينِها لا للتَّسبيحِ [المجعولِ فيها. ومَنْ حَمَلَ التَّسبيحَ](٥) على الإسْمِ فقالَ: نَزِّهِ اسْمَهُ، فذلكَ يرجِعُ إلى الأسماءِ الذاتيةِ، وهو ألّا يُشْرِكَ [غَيرُهُ بها](٦) فَيُسَمِّيَهُ بها.

والأسماءُ الذاتيةُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وما أشبَهَهُ منَ الأسماءِ. والأسماءُ الصفاتيةُ بأنْ(٧) تُنَزِّهَها عنِ المعاني التي استَوجَبَ الخَلْقُ الوصفَ بها(٨) كقولكَ: عالمٌ، حكيمٌ، رَحيمٌ، مَجيدٌ.

فَمَنْ وُصِفَ بالعِلْمِ منَ الخَلائقِ فإنما استَوجَبَ الوصفَ به بأغيارٍ دَخَلْنَ فيهِ، واستَوجَبَ الوصفَ بالحكمةِ، والوصفُ بالمدحِ بالأغيارِ، واللهُ تعالى استَحَقَّ الوصفَ بهِ [بذاتِهِ](٩) لا بالأغيارِ، فَيَنْصَرِفُ التَّنزيهُ إلى الأغيارِ؛ إذْ صفاتُهُ ليستْ(١٠) بأغيارِ الذاتِ، وهي لا تُفارِقُ الذاتَ، فالإمْتِداحُ [الواقعُ بالصفاتِ امْتِداحٌ](١١) بالذاتِ الموصوفِ بها. واللهُ الموفِّقُ.

[والثالثُ: ما](١٢) قالَ بَعضُهُمْ: مَعْناهُ: سَبِّحْ بالحَمْدِ والثناءِ، وهو يَرْجِعُ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلِ الأوَّلِ؛ وهو أنْ نَحْمَدَهُ بالثناءِ الذي يَتَضَمَّنُ التَّوحيدَ والتَّنزيهَ عنْ معاني الخَلْقِ.

ومَنْ قالَ: سَبِّحْ ربَّكَ بأسمائِهِ فهذا ظاهرٌ؛ وهو أنْ نقولَ: لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ، وأسماؤُهُ مَعروفةٌ لا يُحتاجُ إلى إظهارِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ أي هو أعلَى منْ أنْ تَمَسَّهُ حاجةٌ أو تَلْحَقَهُ آفةٌ، وكذلكَ هذا في الأكبرِ، ويكونُ الأكبرُ والأعلَى في النهايةِ منْ تَنْزيهِ المعاني التي ذَكَرْنا. وهي كقولكَ: هو أحسنُ وأجمَلُ. فإذا قلْتَ: أحْسَنُ وأجملُ أردْتَ بهِ النهايةَ في الحسنِ والجمالِ، أو يكونُ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ بِمَعْنَى العَلِيِّ والأكبرُ بِمَعْنَى الكبيرِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

أحَدُها: أنْ يكونَ سَوّاهُ على ما قَدَّرَهُ خِلافاً لأفعالِ الخَلْقِ لأنَّ الفِعْلَ منَ الخَلْقِ يَخْرُجُ مَرَّةً سَوِيّاً على ما قَدَّرَهُ، ومَرَّةً بِخِلافِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: نزه. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في نسخة الحرم المكي: به، ساقطة من الأصل وم. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: به. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل: من. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: و.

[والثاني: أنْ](١) يكونَ سَوَّى الخَلْقَ كلَّهُ في دلالةِ وَحْدانيَّتِهِ وشهادَتِهِ؛ فما مِنْ خَلْقٍ خَلَقَهُ إلّا إذا تَفَكَّرَ فيهِ العاقلُ دَلَّتْ خِلْقَتُهُ على معرفةِ الصانعِ وَوَحْدانيَّةِ الرَّبِّ.

[والثالثُ: أنْ يكونَ](٢) سَوّاهُ على ما فيهِ مصلَحَتُهُ ومَنفَعَتُهُ.

[والرابعُ: أنْ يكونَ](٣) سَوّاهُ على ما لَهُ خَلَقَ.

ألا تَرَى أنَّ الإنسانَ إذا أُمِرَ بالركوعِ والسجودِ، خَلَقَهُ مِنْ وَجْهٍ يَتَمكَّنُ مِنَ الركوعِ والسجودِ؟ فهذا مَعْنَى قولِنا: إنهُ سَوّاهُ على ما لَهُ خَلَقَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحَدُها: هداهُ إلى ما أحوجَهُ إليهِ، فَهَدى العبدَ معيشَتَهُ مِنْ أينَ يأخُذُها، وهَدَى كلَّ دابَّةٍ إلى رِزْقِها وعيشِها، فَعَرَفَتْ كلُّ دابةٍ رِزْقَها.

[والثاني: أنْ](٤) يكونَ قولُهُ: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي هَدَى بهِ.

[والثالثُ: أنْ](٥) تكونَ الهدايةُ مِنْ أمْرِ الدينِ؛ وذلكَ يرجِعُ إلى الخُصوصِ مِنَ الخَلْقِ الذينَ لهمْ عقولٌ مُمَيِّزةٌ، فيكونُ مَعناهُ: هَدَى في مَنْ هَدَى.

وطَعَنَتِ المعتزلةُ علينا بهذهِ الآيةِ، فقالَتْ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وأنتمْ تقولونَ: قَدَّرَ، وأضَلَّ.

ولكنَّ هذا التَّحقيقَ راجعٌ إليهِمْ، لأنهمْ يَجْعلونَ تأويلَ الهدايةِ على البَيانِ. وإذا كانَ كذلكَ، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى سبيلَ الهُدَى وسَبيلَ الضلالِ جميعاً، فإذنْ قد أضَلَّهُمْ حينَ(٦) بَيَّنَ لهمْ سبيلَ الضلالِ على قولِهِمْ.

ثم ليسَ في قولِهِ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ نَفْيُ الإضلالِ؛ إذِ التَّخْصيصُ بالذِّكْرِ لا يَدُلُّ على نَفْيِ ذلكَ عمّا عداهُ، فلم يَجِبْ قَطْعُ الحكمِ على ما ذَكَرَهُ، وقد ذَكَرَ في موضعٍ آخرَ المُكَرَّمينَ بالهُدَى، فقالَ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الآية [البقرة: ١ و٢] فَثَبَتَ أنَّ الهُدَى راجعٌ إلى الخُصوصِ؛ فقولُهُ: ﴿قَدَّرَ﴾ أي لِخَلْقِهِ مَعايِشَهُمْ، وهداهُمْ وجْهَ أخذِ المعيشةِ.

الآيتان ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ ففي هذهِ الآياتِ(٧) تعريفُ الرَّبِّ الأعْلَى؛ كأنهُ يقولُ: الربُّ الأعْلَى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾/ ٦٣٧ ـ ب/ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾.

ثم ذَكَرَ هذهِ الأشياءَ التي يُعْرَفُ انْقِضاؤُها وبُدُوُّها وإنشاؤُها وإهلاكُها مِنَ المَرْعى وغَيرِهِ لأنَّ وَجْهَ الدلالةِ بمعرفةِ الصانعِ بالأشياءِ التي يُعْرَفُ بُدُوُّها وانْقِضاؤُها وحدوثُها وفَناؤُها أقرَبُ منهُ بمعرفةِ الصانعِ بالأشياءِ التي لم يَشْهَدِ الخَلْقُ بُدُوَّها ولا انْقِضاءَها؛ وهي السمواتُ والأرضونَ، إذِ المَرءُ لم يَصِلْ إلى وحدانيَّةِ الرَّبِّ ومَعْرِفةِ الصانعِ بالأشياءِ التي تَحْدُثُ، وتَتَغَيَّرُ، بأدْنَى نَظَرٍ وتأمُّلٍ، ولا يَصِلُ إلى ذلكَ في ما يَدومُ إلّا بِلَطائفِ الفكرِ وفَضْلِ تَبَصُّرٍ وزيادةِ تأمُّلٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ خَصَّ المَرْعَى، فكانَ قِوامُ هذا الخَلْقِ لأنهُ لابدَّ للبشرِ مِنَ الدوابِّ والأنعامِ للتَّعَيُّشِ، والدوابُّ حياتُها بالمَرْعَى، فكانَ قِوامُ الخَلْقِ في التَّحصيلِ بإخراجِ المَراعي، فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ.

وإذا كانتِ الدوابُّ لم تُنْشَأْ لأنفسِها، وإنما أُنْشِئَتْ لِلْخَلْقِ لِيَتَمَتَّعوا بها. ثم اللهُ تعالى أنشأَ للدوابِّ مَرْعىً، وقَدَّرَ لها أقواتَها، ولم يُضَيِّعْها، فكيفَ يُضَيِّعُ هذا الخَلْقَ، وهمُ الذينَ قَصَدَ إليهِمْ من خَلْقِ هذا العالَمِ، فلا يَرْزُقُهُمْ، ويُخْرِجُهُمْ من تدبيرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ قيلَ: الغُثاءُ اليابسُ الذي تَحْمِلُهُ السيولُ والأمطارُ ﴿أَحْوَىٰ﴾ أي أسْوَدَ مِنْ قِدَمِهِ. قيلَ: الأحْوَى، هو الأخضرُ الذي يَضْرِبُ إلى السَّوادِ، وهو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، أي جَعَلَهُ غُثاءً بَعدَ ما كانَ أحْوَى.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) و(٣) و(٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: الآية.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي سنحفَظُ عليكَ ما أوحَينا إليكَ مِنَ القرآنِ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ وفي حِفْظِهِ ﷺ ما يُوحِي إليهِ دلالةُ رسالتِهِ لأنهُ لم يكُنْ يَعْرِفُ الكتابةَ، ولا كانَ يَتْلو الكتبَ، ثم كانَ يَقْرَأُ جميعَ ما يُلْقَى إليهِ بِمَرَّةٍ واحدةٍ مع ما كانَ مأموراً ألّا يُحرِّكَ لسانَهُ بشيءٍ مِمّا يُوحَى إليهِ إلى أنْ يُقْضَى إليهِ الوحْيُ.

ومَنْ كانَتْ حالتُهُ تُعَذِّرُ عليهِ حِفْظَ ما يُلْقَى إليهِ بِمَرّاتٍ، وإنْ كانَ ذلكَ لسانُهُ، فكيفَ يَحْفَظُهُ[1] بِمَرَّةٍ واحدةٍ؟ فكانَ حِفْظُهُ بالمَرّةِ الواحدةِ نوعاً مِنْ آياتِ نُبُوّتِهِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ مِنْ ذلكَ، فإنهُ يُنْسيكَ ما أرادَ أنْ يُنْسِيَكَهُ. ولكنْ ما أرَى هذا التأويلَ صحيحاً؛ وذلكَ أنَّ الذي أوْحَى إليهِ آيَةُ نُبُوّتِهِ، فرسولُ اللهِ ﷺ إذا أُقْرِئَ[2]، ثم أُنسِيَ، فلَنْ يُطْعَنَ في رسالتِهِ، إنْ يَسْتَقْرِئْهُ تلكَ الآيَةَ، ولا يَتَهَيَّأُ لهُ أنْ يَقْرَأَها إذا كانَ قد أُنسِيَ، فَيَجِدَ موضعَ الطعنِ عليهِ.

وقد رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنهُ أُنسِيَ، ولكنهُ[3] مِنْ أخبارِ الآحادِ، ولا يجوزُ الحكْمُ بها، لأنَّ خَبَرَ الآحادِ يُوجِبُ عِلْمَ العَمَلِ بهِ، لا يُوجِبُ عِلْمَ الشهادةِ، وهو في موضعِ الشهادةِ ههنا.

ولكنَّ تأويلَهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ على أوجُهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنَّ الأنبياءَ ﷺ، لم يكونوا آمِنينَ على أنفسِهِمْ بالعصمةِ عنِ الزَّلّاتِ التي لَدَيها يُخافُ زَوالُ ما أُنْعِموا بهِ، وإنْ ظَهَرَتْ عصمتُهُمُ اليومَ عندَنا.

ألا تَرَى إلى قصةِ إبراهيمَ ﷺ، عندَ مُحاجّةِ قومِهِ: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقالَ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾؟ [إبراهيم: ٣٥] فخافَ زَوالَ ما أُكْرِمَ بهِ، وخَشِيَ أنْ يُبْتَلَى بما ابْتُلِيَ بهِ أهلُ المعاصي حتى فَزِعَ إلى الدعاءِ. وقالَ في قصةِ شُعَيبٍ ﷺ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقالَ في قصةِ يوسفَ ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [يوسف: ٧٦] فَثَبَتَ أنهُ لم يُبَيِّنْ لهمْ حقيقةَ العصمةِ عنِ الوقوعِ في الزَّلّاتِ التي تُزيلُ النِّعَمَ.

فكذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ لم يَأْمَنْ عما يَعْقُبُ الإنساءَ، بل قيلَ لهُ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؟ [الزمر: ٦٥] فَثَبَتَ أنهمْ كانوا على خوفٍ وَوَجَلٍ مِنِ ارْتِكابِ ما يُسْلَبُ بهِ الوحْيُ، ويُنْسَى.

[والثاني: أنْ][4] يكونَ الاستِثْناءُ راجعاً إلى إنساءِ[5] حُكْمِهِ، وهو أنْ يَنْسَخَ حكمَهُ حتى يُتْرَكَ، ويُنْسَى، ويَصيرَ كالمَنْسِيِّ كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جَعَلَهُمْ كالشيءِ المَنْسِيِّ بما أنساهُمْ مِنْ رحمتِهِ، لا أنْ يكونَ هناكَ حقيقةُ نِسيانٍ، فكذلكَ إذا نَسَخَ حُكْمَهُ، وتُرِكَ، صار كالمَنْسِيِّ، وإنْ لم يكُنْ فيهِ حقيقةُ نِسيانٍ، فيكونُ النسيانُ مُنْصَرِفاً إلى حُكْمِ التِّلاوةِ لا إلى عَينِها.

[والثالثُ: أنْ][6] يكونَ ﷺ، يذهبُ خاطِرُهُ عنْ وَهْمِهِ، كأنهُ نَسِيَهُ، وكانَ يعودُ ذلكَ إليهِ عندَ إحضارِهِ ذهنَهُ كما تَرَى المَرْءَ في الشاهدِ يَذْهَبُ عنْ وَهْمِهِ جميعُ ما في فاتحةِ الكتابِ مِنَ الحروفِ إذا أعْمَلَ رؤيَتَهُ في أشياءَ أُخْرَى حتى يَصيرَ كالناسي لها، وإنْ كانَ يعودُ إلى تَذَكُّرِها إذا رامَ أنْ يَقْرأَها.

فَعَلَى هذهِ التأويلاتِ يَسْتَقيمُ أنْ يُوجَّهَ إليهِ الاستِثْناءُ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ أي ما يَجْهَرُ بعضٌ لبعضٍ مِنَ الخلائقِ أو ما يُسِرُّ بعضٌ عنْ بعضٍ، أو يَعْلَمُ ما يَطَّلِعُ عليهِ الملائكةُ مِنْ أعمالِهِمْ، ويَعْلَمُ ما يَعْزُبُ عنهمْ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يضبطه. (٢) في الأصل وم: قرأ. (٣) في الأصل وم: ولكنها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، في الأصل: الإنسان. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم.

فَعِلْمُهُ في ما أسَرَّ العبدُ كَعِلْمِهِ في ما أظْهَرَ، وجَهَرَ بِهِ. فَذَكَّرَهُمْ هذا ليكونوا مُتَيَقِّظِينَ، فلا يُخفونَ[1] ولا يَجْهَرونَ إلا الذي يَحِقُّ عليهِمْ، إذِ اللهُ تعالى حفيظٌ عليهِمْ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ قالوا: ونُيَسِّرُكَ للخيرِ ولِعَمَلِ أهلِ الجنةِ، فَسُمِّيَتْ أعمالُ الخَيرِ يُسْرَى لأنها تَعْقُبُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ فظاهرُ هذا يَقْتَضي ألا يُذَكِّرَ إلا مَنْ نَفَعَتْهُ الذِّكْرَى.

ولكنَّ تَخصيصَ الحكمِ في حالٍ يُوصَفُ، لا يُوجِبُ قطعَ الحكمِ في ما كانَ الحالُ بِخلافِ ذلكَ الوصفِ، بل يَلْزَمُهُ أنْ يُذَكِّرَ مَنْ نَفَعَهُ ومَنْ لا يَنْفَعُهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ الآيةُ أمرٌ بالتَّذكيرِ على الإطلاقِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ ذَكِّرْ فقد نَفَعَتِ الذِّكْرَى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] [ومعْناهُ قد كانَ وعدُ ربِّنا مَفعولاً، وقد نَفَعَتِ][2] الذِّكْرَى لأنهُ بتذكيرِهِ أسْلَمَ مَنْ أسلَمَ منهمْ، وبهِ فازوا، وبهِ نالوا الدَّرَجاتِ العُليا، وقالَ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

[والثاني: أنْ][3] يكونَ قولُهُ ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ فَسيأتي على أقوامٍ لا تَنفَعُهُمُ الذِّكْرَى لَدَيها؛ وتلكَ حالةُ المُعاينةِ لِبأسِ اللهِ وعذابِهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي يَتَّعِظُ بها مَنْ يَخشَى اللهَ تعالى أو المَعادَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] أي بالقرآنِ؛ وذلكَ أنَّ الذي يَحمِلُهُمْ على الإيمانِ بالآخرةِ إيمانُهُمْ بهذا الكتابِ لأنَّ في القرآنِ تذكيراً بالآخرةِ وأمراً بالاستِعدادِ لها.

فتلكَ خشيةٌ تَحمِلُهُ على الاتِّعاظِ بالذِّكْرَى والانْتِفاعِ بها، والخشيةُ/ ٦٣٨ ـ أ/ هي الخوفُ اللازمُ في القلبِ.

الآيتان ١١و١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ فأضافَ التَّجنُّبَ ههنا إلى الأشقَى، وهي الأشقَى، وفي ما ذَكَرَ الأتقى أضافَ التَّجنُّبَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧و١٨] فيكونُ في هذا دلالةُ الإذنِ بإضافةِ الخَيراتِ إلى اللهِ تعالى. وفي الأولِ دلالةُ منعِ إضافةِ السرورِ إليهِ، وهذا لأنَّ إضافةَ الخَيراتِ إلى اللهِ تعالى تُخرَجُ مُخرَجَ الشكرِ لهُ، وهو حقيقٌ بأنْ تُشكَرَ نِعَمُهُ، وليسَ في إضافةِ السرورِ إلى آخَرَ شُكْرٌ لهُ، فلم يَصْلُحْ أنْ يُضافَ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا تَنْقَضي عنهُ أفعالُ الموتِ، وهي آلامُها وأوجاعُها، بل يَبْقَى في آلامِها أبداً. قالَ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي لا يَقضي عليهِ حتى يَتَخلَّصَ منْ أوجاعِها ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فقولُهُ: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يَرْتَفِعُ عنهُ ألمُ الموتِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيَسْتَريحَ[4] ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً يَتَلَذَّذُ بها.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي مَنْ أتَى بما تَزكو بهِ نفسُهُ، أو أتَى بما تَطْهُرُ نفسُهُ بهِ. وسنذكُرُهُ[5] في سورةِ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ معَ تأويلِ الفلاحِ[6] إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ أنواعُ العباداتِ لا الصلاةُ المَعروفةُ وحدَها، لأنَّ الصلاةَ اسْمٌ للدعاءِ والثناءِ ولأنواعٍ مِنَ الكراماتِ.

فإنهُ يقولُ: بِذِكْرِ الرَّبِّ ما يَصِلُ إلى العباداتِ، ومَنْ أعرضَ عنْ ذِكْرِهِ حُرِمَ مِنَ العباداتِ، أو يكونُ مُنْصَرِفاً إلى الصلاةِ

---

(١) في الأصل وم: يخافون. (٢) من م، في الأصل: وقد تعقب. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وسنذكر. (٦) في تفسير الآيتين ٩ و١٠.

المَعْروفةِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي يُصَلّي بِتَقديمِهِ اسْمَ الرَّبِّ، فيكونُ مُنْصَرِفاً إلى الافْتِتاحِ، فيكونُ حُجَّةً لأبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ: أنَّ المُصَلّيَ، لهُ أنْ يَفْتَتِحَ صلاتَهُ بأيِ أسماءِ اللهِ تعالى [إنْ][1] أحبَّ.

ثم ذِكْرُ اسْمِ الرَّبِّ يَقْتَضي المعانيَ التي ذُكِرَتْ في قولِهِ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

الآيتان ١٦ و١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي يُؤثِرونَ حياتَها على حياةِ الآخِرَةِ، ويكونُ الخِطابُ مُنْصَرِفاً إلى المُنافقينَ والكَفَرَةِ لا إلى أصحابِ النَّبيِّ ﷺ.

ثم كانوا في الإيثارِ مُخْتَلِفينَ؛ فمنهمْ مَنْ آثَرَها في أنْ يَنْظُرَ في الدنيا، وأعْرَضَ عنِ النَّظَرِ في الآخِرَةِ، وجَحَدَها، ومنهمْ مَنْ كانَ أغْلَبُ سَعْيِهِ لِأمْنِ الدنيا، ومنهمْ منْ كانَ [يُؤثِرُ بعضَ][2] أحوالِها على الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي إيثارُ الحياةِ الآخِرَةِ خيرٌ وأبقَى مِنْ إيثارِ الحياةِ الدنيا.

الآيتان ١٨ و١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الآياتُ الأربعُ في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ، أوّلُهُنَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وآخِرُها[3] ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: السورةُ كلُّها أُنْزِلَتْ على إبراهيمَ وموسى ﷺ، فإنْ كانتِ السورةُ كلُّها في الصُّحُفِ الأولَى فجميعُ ما في السورةِ ذُكِرَ[4] بِحَقِّ الحاجةِ لهمْ إلى تَعَرُّفِها، ويكونُ قولُهُ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ مذكوراً بِحَقِّ الثناءِ على رسولِ اللهِ ﷺ.

وَوَجْهُ الثناءِ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [الأعراف: ١٥٧] وهو يَسْتَحِقُّ [الثناءَ][5] وبهذا الحرفِ لِما في حفظِهِ ﷺ، جميعَ ما يوحي إليهِ بِمَرَّةٍ واحدةٍ إكرامٌ لهُ وتفضيلٌ. فَصَلَحَ أنْ يُثْنِيَ عليهِ بهذا.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ دلالةٌ أنَّ اخْتِلافَ الألسنِ لا يُغَيِّرُ الأشياءَ عن حقائِقِها لأنَّ اللهَ تعالى شَهِدَ بكونِ هذا في الصحفِ الأولَى بهذا اللسانِ، فيكونُ فيهِ حُجَّةٌ لأبي حنيفةَ في تجويزِ القراءةِ بالفارسيةِ [واللهُ أعلَمُ][6].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أغلب سعيه. (٣) في الأصل وم: إلى قوله. (٤) في الأصل: وذكر فيها، في م: ذكر فيها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

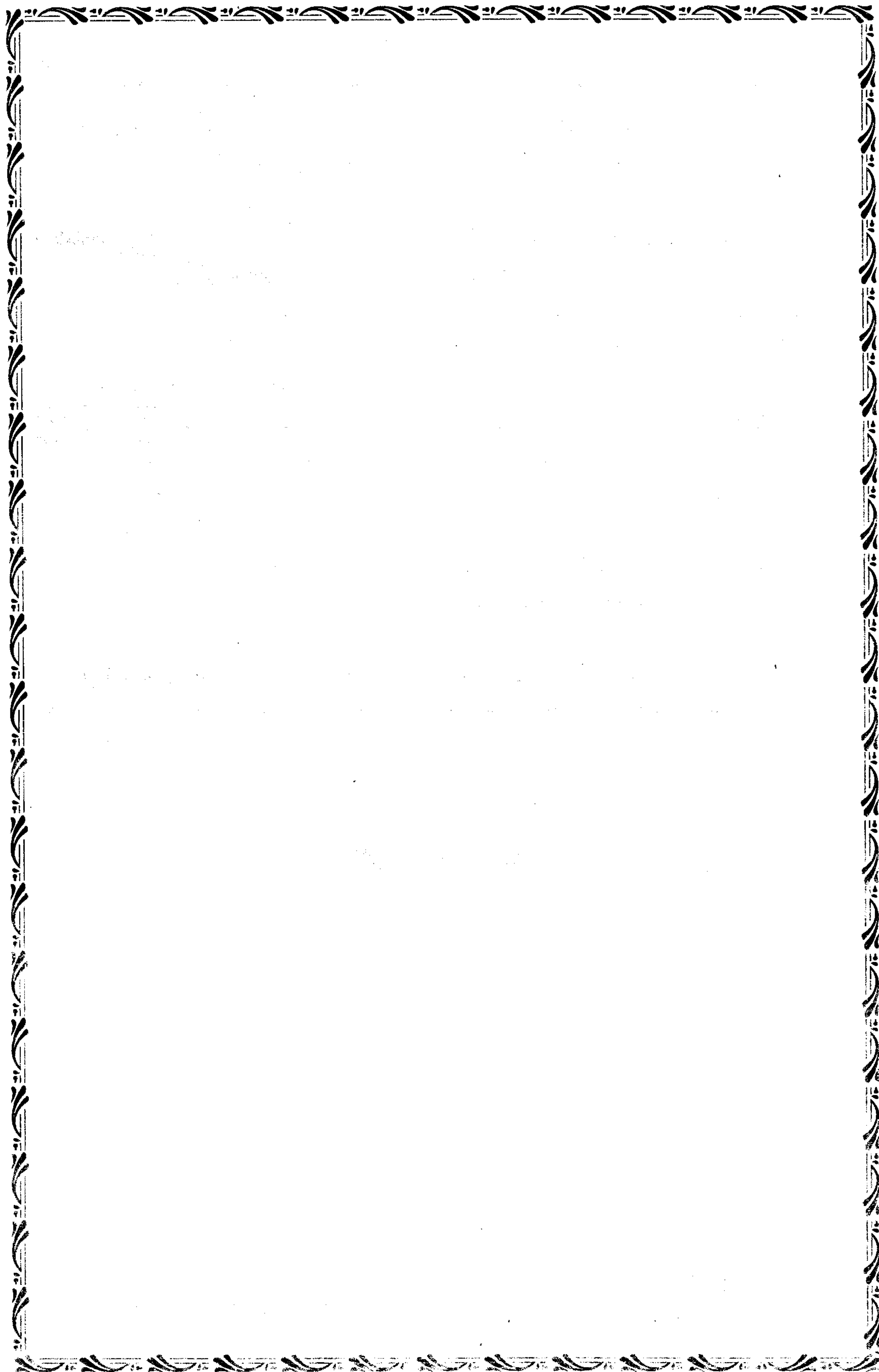

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ قيلَ معناهُ: قد أتاكَ حديثُ الغاشيةِ. فإمّا أنْ يكونَ الإتيانُ سابقاً [وإمّا][1] أتاهُ حديثُ الغاشيةِ بنفسِ هذهِ السورةِ.

ثم في هذهِ الآياتِ تَرْغيبٌ في ما تُحْمَدُ عاقبتُهُ، وتَحْذيرٌ عمّا يُذَمُّ في العاقبةِ، وتَبْيِينُ أنَّ العاقبةَ المَحْمودةَ مُتَّصِلَةٌ باكْتِسابِهِ وكَدْحِهِ، وكذلكَ العاقبةُ المَذْمومةُ يَنالُها بِعَمَلِهِ ونَصَبِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ الغاشيةِ؛ فقيلَ: الغاشيةُ النارُ تَغْشاهُمْ كما قالَ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: الغاشيةُ، هي الساعةُ، سُمِّيَتْ غاشيةً، لأنها تَغْشَى الصغيرَ والكبيرَ والمَحْمودَ والمَذْمومَ والشَّقِيَّ والسَّعيدَ، فَيَعُمُّهُمْ جميعاً. وهذا التأويلُ أقربُ لأنهُ ذَكَرَ الغاشيةَ أوّلاً، ثم ذَكَرَ الجزاءَ بعدَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الآيتان: ٢و٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الآيات: ٨و...].

الآية ٢ ثم قولُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلةٌ، وإنما خصَّ الوجْهَ بالذِّكْرِ لأنَّ الحُزْنَ والسرورَ إذا اسْتَحْكَما في القلبِ أثّرا في الوجهِ، فيكونُ في ذِكْرِ الوجهِ وَصْفُ الغايةِ التي همْ عليها مِنَ الذُّلِّ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: [جائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً][2] إلى عبادةِ الكَفَرَةِ، وهو أنهمْ بَقُوا أبداً في النَّصَبِ والعَمَلِ في الدنيا والآخرةِ.

[قالَ بَعْضُهُمْ:][3] جائزٌ أنْ يكونَ نَصَبُها وعَمَلُها في النارِ، وهو أنها لم تَعْمَلْ في الدنيا، بل تَكَبَّرَتْ عنْ طاعةِ اللهِ، فأعْمَلَها، وأنْصَبَها في الآخِرَةِ بِمُعالجةِ الأغلالِ والسَّلاسلِ في النارِ الحاميةِ، أو عَمِلَتْ في الدنيا بالمَعاصي، ونَصَبَتْ في الآخِرَةِ، فيكونُ فيهِ تَبْيِينُ العملِ والجَزاءِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي حارّةً، قد أحْماها اللهُ تعالى منْ يومِ خُلِقَتْ إلى الوقتِ التي تُسْقَى منها.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ قيلَ: الآني الذي قدِ انْتَهى في الحَرِّ غايتَهُ حتى لا حَرَّ لِآخَرَ فيهِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ اخْتُلِفَ في الضَّريعِ /٦٣٨ ـ ب/ فمنهمْ مَنْ يقولُ: سُمِّيَ ضريعاً لأنهمْ يَتَضَرَّعونَ عنهُ، ويَجْزَعونَ إذا أُطْعِموا. ومنهمْ مَنْ جَعَلَ الضريعَ لوناً مِنْ ألوانِ العذابِ، لم يُبَيِّنْهُ اللهُ تعالى للخَلْقِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: الضريعُ اسْمٌ لِنَبْتٍ عَرَفَتْهُ العربُ في ما بَيْنَهُمْ، يأكُلُهُ الإبلُ والدوابُّ ما دامَ رَطْباً، فإذا هاجَ، ويَبِسَ، تَرَكَتِ الدوابُّ أكلَهُ، وعافَتْهُ لِخُبْثِهِ وكَثْرَةِ ما عليهِ مِنَ الشوكِ، ويُسَمُّونَهُ شِبْرَقاً في الربيعِ، وإذا هاجَ، وخَفَّ، سَمَّوهُ ضَريعاً. فذلكَ النَّبْتُ في الدنيا يَعْمَلُ في إسمانِ الدابةِ، ويُغْنيها مِنَ الجوعِ.

الآية ٧ فَنَفَى اللهُ تعالى وجهَ الإسمانِ والإغناءِ، وحَصَّلَ[4] أمرَهُ على الخُبْثِ بقولِهِ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

وهو كقولِهِ: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨و٢٩] فالسِّدْرُ اسْمُ شجرةٍ ذاتِ شَوكٍ في الدنيا، فأُنْشِئَتْ في الآخِرَةِ بلا شَوكٍ.

وَوَصفَ خَمرَ الجنةِ، فقالَ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] والخَمْرُ في الدنيا تَعمَلُ في التَّصْديعِ، وهي تَنْزِفُ، فَنَفَى هذهِ الآفاتِ، وجَعَلَها لَذَّةً للشاربينَ، فكذلكَ الضَّريعُ نَفَى عنهُ ما يَقَعُ بِهِ الإسمانُ والإغناءُ، وحَصَّلَ أمرَهُ على الخُبْثِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي ناعمةٌ بِما عايَنَتْ مِنْ عاقبةِ عمَلِها الصالِحِ في الدنيا، ورَضِيَتْ بما أُوتِيَتْ جَزاءً عنْ سَعْيِها في الدنيا، جَعَلَ اللهُ تعالى في وُجوهِ الخلقِ يومَ القيامةِ آثارَ صَنائِعِهِمْ في الدنيا. فَمَنْ أطاعَهُ جَعَلَ عَلَمَ طاعتِهِ في وجهِهِ يومَ القيامةِ، ومَنْ عصاهُ جَعَلَ أثَرَهُ في وجهِهِ، يُعْرَفُ بِهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ قد عَلَا قَدْرُها، وعَظُمَ شأنُها، فيكونُ ﴿عَالِيَةٍ﴾ نَعْتاً للجنةِ، فوصَفَها بالعُلُوِّ مِنْ هذا الوَجْهِ.

والثاني: يَحْتَمِلُ العُلُوَّ مِنْ حيثُ الدرجاتُ والمكانُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ ما يَحِقُّ أنْ يُلْغَى مِنَ الشَّتْمِ ومِنْ كلِّ ما يُؤْثِمُ صاحبَهُ، بل هُمْ كما وصفَهُمُ اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

ثم الذي يَحمِلُ المرءَ على شَتْمِ المرءِ إمّا ضَمرٌ أضمَرَهُ في صَدْرِهِ [وإمّا][1] خُصومةٌ حدَثَتْ بينَهما [وإمّا][2] آفةٌ تدخُلُ في عقلِهِ بِسُكْرٍ وما أشْبَهَهُ، واللهُ تعالى نَفَى عنِ الشرابِ الآفاتِ[3] بقولِهِ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] ونَزَعَ الغِلَّ عنْ صدورِهِمْ، فارْتَفَعَتْ دواعي السَّفَهِ كلُّها، فلا يُسْمَعُ فيها ما يَحِقُّ أنْ يُلْغَى بِهِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي عيونُها جاريةٌ تأخذُها العينُ، وتَجْري على وَجْهِها، ليسَتْ كمياهِ الدنيا في أنَّ بعضَها يَجري على وجهِ الأرضِ وبعضَها تَحْتَها نحوَ ماءِ القناةِ وماءِ البئرِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ بعضُها فوقَ بعضٍ، تَرْتَفِعُ ما شاءَ اللهُ، فإذا جاءَ وليُّ اللهِ تعالى ليجلِسَ عليها تَطامَنَتْ لهُ. فإذا استَوَى عليها ارْتَفَعَتْ حيثُ شاءَ اللهُ تعالى. وقالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى المَرْفوعةِ ههنا أنها أُنْشِئَتْ مَرْفوعةَ القَدْرِ عندَ أهلِها، فَوَعَدَ في الآخِرَةِ على ما هي عليهِ رغبَتُهُمْ في الدنيا وإيثارُهُمْ لها. والمرءُ يَرْغَبُ في الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما في الدنيا. فَعَلَى مثلِهِ جَرَى الوَعْدُ في الآخِرَةِ، وكذلكَ يرغَبُ في الأكوابِ والنَّمارِقِ المَصْفوفةِ والزَّرابيِّ المَبْثوثةِ، فَوَعَدَ لهمْ مثلَها في الآخِرَةِ، وقالَ في مَوضعٍ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] ورفعُها يكونُ مِنَ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما في السُّرُرِ، فَوُعِدُوا بها أيضاً في الآخِرَةِ لرغبَتِهِمْ[4] فيها في الدنيا.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ والأكوابُ، هي الكيزانُ التي لا عُرا لها؛ فإمّا أنْ يكونَ وصْفاً لِكِبَرِ تلكَ الأكوابِ في أنفسِها، حيثُ لا عُرا لها كالحَبابِ في الدنيا، [وإمّا أنْ][5] يكونَ فيهِ لهمْ خَدَماً وَوِلْداناً يَتَوَلَّونَ نَقْلَها إلى أينَ أحَبّوا، وليسَتْ لها عُرًا، يَمُدّونَ أيديَهُمْ إليها، فَيَرْفَعونَها.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ [﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾][6] قيلَ: هي الوسائدُ وُضِعَتْ على البُسُطِ، وكذلكَ تُبْسَطُ الوسائدُ في الدنيا، فَرُغِّبوا بذلكَ[7] في الآخِرَةِ.

الآيات ١٧ ـ ٢٠ وقـولُـهُ تـعـالـى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: والآفات. (٤) في الأصل وم: لترغيبها. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كذلك.

نُصِبَتْ﴾](١) ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فَخصَّ الإبلَ بالذِّكرِ مِنْ بَينِ جملةِ الدوابِّ، وخَصَّ السماءَ والجبالَ والأرضَ بالذِّكرِ، وتَخصيصُها يكونُ لأحدِ وجهَين:

أحَدُهما: أنَّ الإبلَ كانَتْ مِنْ أخصِّ دوابِّ أهلِ مكةَ؛ عليها كانوا يُسافرونَ، وعليها كانوا يَنقلونَ ما احْتاجوا إليهِ(٢)، وهي أيضاً، أعني مكةَ، مَنْشَؤُهُمْ بينَ الجبالِ، فكانتْ لا تُفارِقُهُمُ الجبالُ، وكانَتِ السماءُ مِنْ فَوقِهِمْ، والأرضُ مِنْ تَحْتِهِمْ، فَخُصَّتْ هذهِ الأشياءُ بالذِّكرِ لِيَعْتَبِروا بها، ويَتَدَبَّروا.

[والثاني:](٣) أنَّ المنافعَ المجعولةَ في الدوابِّ كلِّها تجتمعُ في الإبلِ لأنَّ منافعَ الدوابِّ أنْ يُنْتَفَعَ بِظَهْرِها وبِضِرْعِها وبِصوفِها وبِلَحْمِها ونَسْلِها، فكلُّ ذلكَ في الإبلِ، فصارتْ في الإبلِ كالأنعامِ للمَنافِعِ المُتَّخَذَةِ في الدوابِّ والبركاتِ المَعْقودةِ فيها، وكذلكَ عِظَمُ المنافعِ والبركاتِ المَعْقودةِ فيها مُتَّصِلةٌ بالسماءِ؛ ففيها جُعِلَتْ أرزاقُهُمْ، وفيها عينُ الشمسِ التي بها صالحُ الأغذيةِ، ونَراها مُزَيَّنَةً بِزينةِ الكواكبِ؛ فهي أيضاً كالأمرِ في المنافعِ.

وكذلكَ الأرضُ كالأمِّ في المنافعِ؛ إذْ فيها مَأْوَى الخَلْقِ، قَدَّرَ فيها أقواتَ الخَلْقِ وأرزاقَهُمْ، ومنها يَخرُجُ ما يَتَّخِذونَ منهُ اللِّباسَ.

ثم بالجبالِ قِوامُ الأرضِ، ولولاها لكانَتِ الأرضُ تَميدُ بأهلِها. فَخُصَّتْ هذهِ الأشياءُ بالذِّكرِ لِما ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما: على الأمرِ، أي فَلْيَنْظُروا.

والثاني: أنْ يكونَ على سؤالٍ تَقَدَّمَ منهمْ لأمرٍ اشْتَبَهَ عليهمْ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى آخرِ الآياتِ(٤)، أي لو نَظَروا في هذهِ الأشياءِ لكانَ نَظَرُهُمْ فيها وتَفَكُّرُهُمْ بها نَزَعَ عنهمُ الإشكالَ، وَوَضَّحَ لهمْ ما اشْتَبَهَ عليهمْ.

وذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: لَمّا ذَكَرَ اللهُ تعالى ما ذَكَرَ مِنْ نَعيمِ الجنةِ عَجِبَتْ قريشٌ، وقالوا(٥): يا محمدُ ائْتِنا بآيةٍ أنَّ ما تقولُ حقٌّ، أنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟

ثم النَّظَرُ في رفعِ السمواتِ والتَّفَكُّرِ في خَلْقِها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] والنَّظَرُ والاعْتِبارُ في خَلْقِ الإبلِ ونَصْبِ الجبالِ وسَطْحِ الأرضِ، وهو البَسْطُ، ممّا يُوجِبُ القولَ بالبَعْثِ، ويَدْعو إلى وحدانيّةِ الرَّبِّ تعالى وإلى القولِ بإثباتِ الرسالةِ.

وذلكَ أنَّ الذي كانَ يَحْمِلُ على إنكارِ البعثِ، هو أنهمْ كانوا يُقَدِّرونَ الأشياءَ بِقِوَى أنفسِهِمْ/ ٦٣٩ ـ أ/ فكانوا يَظُنّونَ أنَّ القوةَ لا تَبْلُغُ هذا؛ إذْ إحياءُ المَوتى خارجٌ عنْ وُسْعِهِمْ.

فلو نَظَروا، وتَفَكَّروا في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ لَعَلِموا أنَّ قوةَ اللهِ غَيرُ مُقَدَّرَةٍ بِقِوَى الخَلْقِ؛ وذلكَ أنَّ السمواتِ خُلِقَتْ، ورُفِعَتْ في الهواءِ بِغَيرِ عَمَدٍ، وأُقِرَّتْ، كذلكَ لا تَنْحَدِرُ عنْ مَوضِعِها، ولا تَصْعَدُ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يُقِرَّ في الهواءِ رِيشةً حتى لا تَسْقُطَ، ولا تَتَصَعَّدَ، لم يَقْدِرْ عليهِ. فيكونُ في ذلكَ تنبيهٌ أنَّ قدرتَهُ قدرةٌ ذاتيةٌ، ليسَتْ بِمُسْتَفادةٍ.

وكذلكَ الجبالُ تَرَونَها معَ شُموخِها وارْتِفاعِها وصَلابَتِها زُيِّنَتْ بالمياهِ والأشجارِ المُلْتَفَّةِ مِنْ وجهٍ، لو تَفَكَّرَ فيهِ الخلائقُ، فاسْتَفْرَغوا مَجهودَهُمْ لِيَعْلَموا مِنْ أيِّ مَوضعٍ يَجْتَمِعُ الماءُ، وكيفَ يَنْبُعُ، وكيفَ تَنْبُتُ الأشجارُ مِنْ بَينِ الأحجارِ، لم يَصِلوا إلى معرفتِهِ، فَيَعْلَموا أنَّ عِلْمَهُ ليسَ بالذي يُحاطُ بهِ، فيكونُ في ذِكْرِ [هذهِ الأنباءِ](٦) أنهُ لا يَخْفَى عليهِ أمرٌ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، بلِ العالَمُ كلُّهُ تحتَ تدبيرِهِ، يَفْعَلُ بهمْ ما يَشاءُ، ويَحْكُمُ بما يُريدُ، وأنَّ الذي قَدَرَ على خَلْقِ هذا قادرٌ على

---

(١) في الأصل وم: إلى قوله. (٢) في الأصل وم: إليها. (٣) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر وهو. (٤) في الأصل وم: الآية. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: نبأ.

إحيائِهِمْ وبَعْثِهِمْ للجزاءِ، وفي خَلْقِ هذهِ الأشياءِ ما يَدْعوهُمْ إلى الوَحْدانيَّةِ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ منافعَ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ السماءِ؛ فالقَطْرُ يَنزِلُ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ غيرِ المُنْهَشِمةِ، فَيُنْبِتُ لهمْ منَ ألوانِ النباتِ رِزْقاً لهمْ ولأنعامِهِمْ.

فلو كانَ مُدَبِّرُ السماءِ غَيرَ مُدَبِّرِ الأرضِ لكانَ مَنَعَ منافعَ السماءِ عن خَلْقِ مُدَبِّرِ الأرضِ. فلو تَفَكَّروا فيها لكانَ يَزولُ عنهمُ الإشكالُ، فلا يَدْعونَ معَ اللهِ إلهاً آخرَ، ولا يقولونَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؟ [ص: ٥].

وقولُنا: إنَّ فيهِ إثباتَ الرسالةِ؛ وذلكَ أنهمْ بما أُنعِموا مِنَ النِّعَمِ التي ذَكَرْناها لابُدَّ أنْ يَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ، ولا يُعْرَفُ شُكْرُ كلِّ شيءٍ على الإشارةِ إليهِ، ثم يكونُ، فلابدَّ من رسولٍ يُطْلِعُهُمْ على ذلكَ.

فإنْ قيلَ: كيفَ أُمِروا بالنَّظَرِ في كَيفيَّةِ خَلْقِ هذهِ الأشياءِ، وهمْ لو نَظَروا [إلى][(١)] آخرِ الأبدِ لِيَعْرِفوا كيفَ خُلِقَتْ هذهِ الأشياءُ لم يَهْتَدوا إلى ذلكَ الوَجْهِ؟

فجوابُهُ أنهمْ لو أدركوا[(٢)] ذلكَ الوَجْهَ، وفَهِموهُ، لكانَ النَّظَرُ فيها لا يَرْفَعُ عنهمُ الإشكالَ، إذْ يُقَدِّرونَهُ بأفعالِ الخَلْقِ التي تَهْتَدي إليها. فارتفاعُ الإدراكِ[(٣)] وخُروجُهُ عنْ أوهامِهِمْ هو الذي يُوضِحُ لهمُ المُشْكِلَ، ويُزيلُ عنهمُ الشُّبَهَ، إذْ بهِ عَرَفوا أنهُ حاصلٌ بقُدْرةِ مَنْ لا تُقَدَّرُ قُوَّتُهُ بقُدْرَتِهِمْ وأنهُ خِلافُهُمْ مِنْ جميعِ الوجوهِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآيتان ٢١ و٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ففي [هاتينِ الآيَتَينِ][(٤)] واللهُ أعلَمُ، أمرٌ منَ اللهِ تعالى لِرَسولِهِ ﷺ ألا يُجازيَهُمْ بِصَنيعِهِمْ إذا استَقْبَلوهُ بما يُكْرَهُ مِنْ أذى يوجَدُ منهمْ واستِخفافٍ يَجيءُ منهمْ، فيقولُ: ذَكِّرْ باللهِ تعالى، وذَكِّرْهُمْ عِظَمَ نِعَمِهِ، وذَكِّرْهُمْ كيفَ هَلَكَ مُكَذِّبو الرُّسُلِ؟ وكيفَ نَجا مَنْ صَدَّقَهُمْ؛ وعَظِّمْ أمْرَهُمْ؟ ولا تُجازِهِمْ بِصَنيعِهِمْ، وكِلْ ذلكَ إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: بِمُسَلَّطٍ، قالَ بَعضُهُمْ: بِجَبّارٍ.

فإنْ أُريدَ بِهِ الوَجْهُ الأوَّلُ فهو ممّا يُحْتَمَلُ، ويجوزُ أنْ يُسَلَّطَ عليهمْ في أنْ يُؤْذَنَ [لهُ][(٥)] بِقِتالِهِمْ وأسْرِهِمْ وقَهرِهِمْ بِبَذْلِ الجِزيةِ. ولهذا قيلَ: إنَّ هذا كانَ قبلَ سورةِ ﴿بَرَاءَةٌ﴾.

وإنْ كانَ تأويلُهُ لَسْتَ بِجَبّارٍ عليهمْ على ما رُوِيَ عنْ مُجاهِدٍ فهذا الوَجْهُ ممّا يَرِدُ عليهِ النَّسْخُ، فلا يجوزُ أنْ يَصيرَ جَبّاراً عليهمْ، ولا يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الآية: ٢٣] اسْتِثْناءً، ويكونُ مَعْناهُ لكنَّ مَنْ تَوَلّى، وكَفَرَ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أي مَنْ أعرضَ عنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وكَفَرَ بِوَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى وبِكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾.

الآيتان ٢٣ و٢٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾][(٦)] على التأويلِ الذي قيلَ: المُسَيطِرُ، هو المُسَلَّطُ بالسيفِ والأسْرِ والقَهْرِ بالجزيةِ التي هي صَغارٌ عليهمْ يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ على الاِسْتِثْناءِ، أي مَنْ أعْرَضَ عنْ طاعةِ اللهِ، فَسَيُسَلَّطُ عليهمْ بالسيفِ والأسْرِ وأخذِ الجزيةِ. [وعلى ما][(٧)] قيلَ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي أعْرَضَ، ولَزِمَ الإعراضَ، فيكونُ مُسَيْطِراً عليهمْ، أو تَوَلّى وقتَ التَّذكيرِ، فَسَيُسَيطِرُ عليهمْ، وباللهِ النجاةُ.

وفي هذهِ الآياتِ[(٨)] بِشارةٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ بالظَّفَرِ على الذينَ تَوَلَّوا عنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وكَفَروا بهِ.

وفيها[(٩)] آيةُ رسالتِهِ لأنهُ قالَ هذا في وَقْتِ ضَعْفِهِ وقِلَّةِ أنصارِهِ. وكانَ الأمرُ كما قالَ [ﷺ: «نُصِرتُ][(١٠)] بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] وفُتِحَتْ لهُ الفُتوحُ لِيُعْلَمَ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي مَرْجِعَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تداركوا. (٣) في الأصل وم: التدارك. (٤) في الأصل وم: هذه الآية. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: الآية. (٩) في الأصل وم: وفيه. (١٠) في الأصل وم: أن نصره الله تعالى.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي مِنَ الحكمةِ أنْ نُحاسِبَهُمْ. وإذا كانَتِ الحكمةُ تُوجِبُ حسابَهُمْ وتعذيبَهُمْ، كانَ عليهِ أنْ يُحاسِبَهُمْ [وفي ما تَرَكَهُ][1] تَرْكُ الحكمةِ، وفي تَرْكِهِ سَفَهٌ، تعالى اللهُ عنْ ذلكَ، وباللهِ النجاة، ومنهُ التوفيقُ [والصلاةُ والسلامُ على رسولِهِ محمدٍ وآلِهِ الطاهرِينَ][2].

(١) الواو ساقطة من الأصل، في م: في تركه لما في تركه. (٢) ساقطة من م.

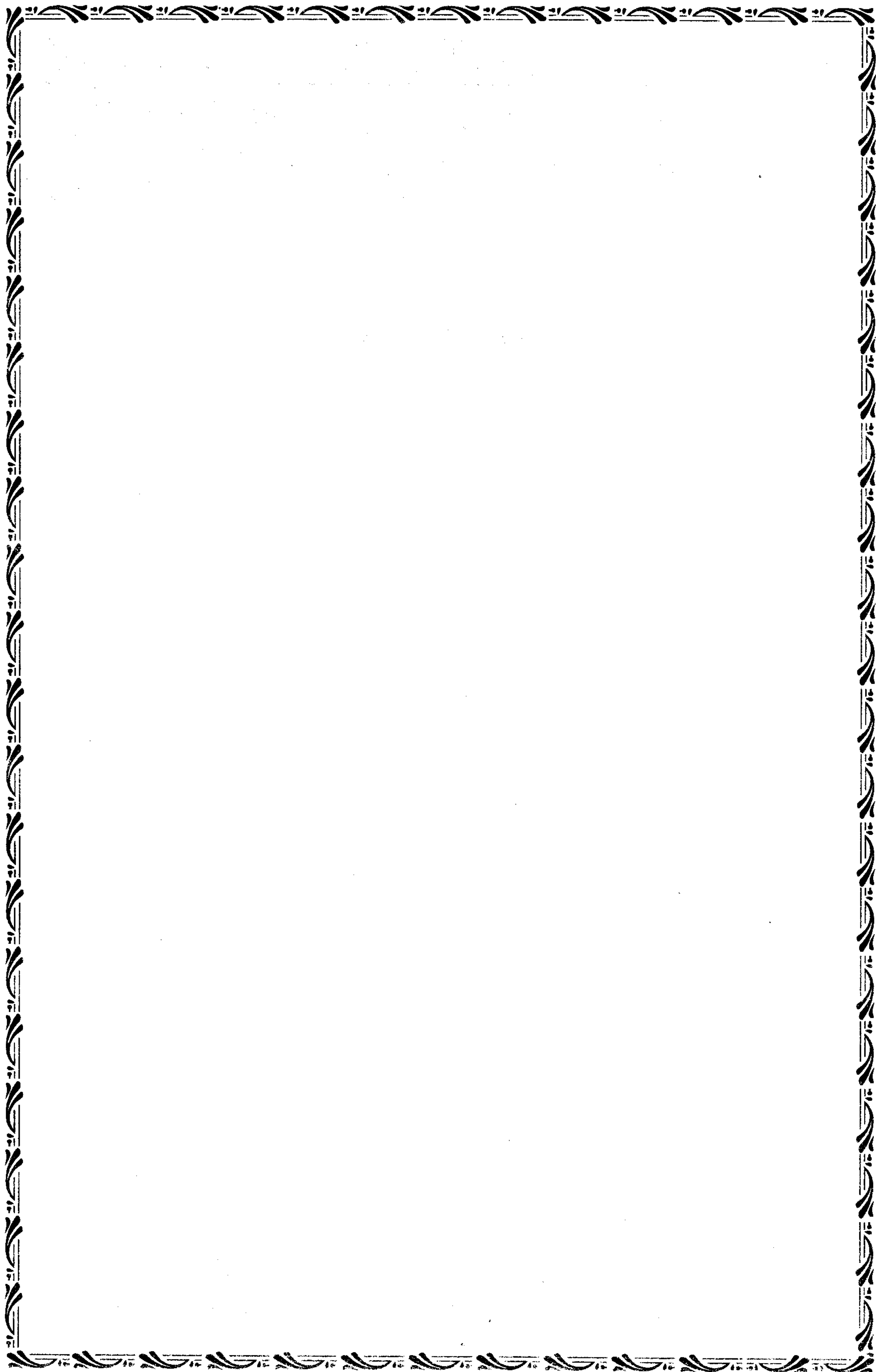

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ ـ ٣ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ كانتِ العربُ مِنْ عادَتِهِمْ أنهمْ إذا استَحْسَنوا شيئاً عَظَّموهُ، وإذا عَظَّموهُ أقْسَموا بِهِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في الحجِّ وأوقاتِهِ لَطائفَ مِنَ الحكمةِ وعجائبَ مِنَ التدبيرِ؛ فَمِنْ لطيفِ حكمتِهِ وعجائبِ تدبيرِهِ أنهُ جَعَلَ المكانَ الذي يُحَجُّ فيهِ مأمناً للخَلْقِ مِنْ وَجْهٍ لا يَعْرِفُ الخلائقُ المَعْنَى الذي بِهِ وَقَعَ الأمنُ والإلْفُ بَيْنَ الخَلْقِ حتى يَرْغَبوا جميعاً في الاجْتِماعِ هنالكَ مع تَباغُضِهِمْ وتَعاديهِمْ في ما بينَهُمْ مِنْ وَجْهٍ لا يُدْرَكُ معناهُ.

وجَعَلَ [أهلَ مكةَ][1] يَتَقَلَّبونَ في البلادِ آمنينَ، وسَخَّرَ[2] أهلَ الآفاقِ في حَمْلِ ما يقعُ لأهلِ مكةَ إليهِ حاجةٌ مِنَ المِيرةِ وغَيرِها، وجَعَلَهُمْ بحيثُ يَرْغَبونَ في الإتيانِ إليها معَ عِظَمِ ما يَلْزَمُهُمْ مِنَ المُؤَنِ إلى أسبابٍ إلى مكةَ للحجِّ. فَثَبَتَ أنَّ فيها مَعانِيَ ولَطائفَ، هي خارجةٌ عنْ قِواهِمْ وتدبيرِهِمْ، فكانَ في ذِكْرِها ما يوجبُ القولَ بالقدرةِ على البعثِ، ويُزيلُ عنهمُ الشُّبْهَةَ في أمرِهِمْ.

فأقْسَمَ لِما عَظَّمَ مِنْ شأنِها لِمكانِ أنها أوقاتُ الحجِّ، فغايةُ أركانِ الحجِّ تُؤَدّى فيها، وعادةُ العربِ أنهمْ يُقْسِمونَ بآبائهمْ وأجدادِهِمْ وأصنامِهِمْ لِما هي مُعَظَّمةٌ عندَهُمْ، وهذهِ الأشياءُ مُعَظَّمةٌ عندَهُمْ، فَجَرى القسمُ بها جَرْياً على عادتِهِمْ. ويدخُلُ في أوقاتِها الشَّفْعُ والوَتْرُ والفَجْرُ؛ فقالوا: ﴿وَٱلشَّفْعِ﴾ /٦٣٩ ـ ب/ يومُ النحرِ لأنهُ اليومُ العاشِرُ مِنَ الشهرِ ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ هو يومُ عَرَفَةَ لأنهُ اليومُ التاسعُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالشَّفْعِ والوَتْرِ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ جملةُ العباداتِ جملةً، إذْ ما مِنْ عبادةٍ إلا فيها شَفْعٌ ووَتْرٌ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي يَسْري بها، وفي ذلكَ كنايةٌ عنِ الجهادِ والإغارةِ بالليلِ كما يَذْكُرُ في قولِهِ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ١ و٢ و٣] فيكونُ هذا كلُّهُ إشارةً إلى جملةِ العباداتِ.

ووجهُ القَسَمِ بالعباداتِ أنَّ اللهَ تعالى عَظَّمَ أمرَ العباداتِ في قلوبِ الخَلائقِ حتى تَراهُمْ جميعاً يَسْتَحْسِنونَها، ويُعَظِّمونَ أمْرَها، وإنما يقعُ الاخْتِلافُ بينَهُمْ في ماهِيَّتِها، ولا يَقَعُ[3] التَّمانُعُ بَيْنَهمْ في أنفسِها، فأقسَمَ بها. وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالوَتْرِ هو اللهُ تعالى، وأُريدَ بالشَّفْعِ الخلائقُ؛ إذْ خَلَقَهُمْ أزواجاً، واللهُ تعالى، هو الواحدُ بذاتِهِ، فيكونُ القسمُ بذاتِهِ وبجميعِ الخَلْقِ، ويَحْتَمِلُ أنهُ أُريدَ بالشَّفْعِ والوَتْرِ [الخلائقُ جُملةً، وفيهِمْ معنيانِ جميعاً الشَّفْعُ والوَتْرُ، فيكونُ القسمُ بجميعِ الخلائقِ][4].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ أنَّ وجهَ القسَمِ بهذهِ الأشياءِ يعرِفُهُ ذَوُو الحِجْرِ، وهمْ ذَوُو الألبابِ والحِجا، لا أنْ يَعْرِفَهُ الجَهَلَةُ.

قالوا: ومَوضِعُ القَسَمِ على قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الآية: ١٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ وقَعَ التَّنازُعُ في ما بَيْنَهُمْ؛ وكانوا يَزْعُمونَ أنَّ أوقاتَ الحجِّ، هي الليالي العَشْرُ، والشَّفْعُ والوَتْرُ ليسَ بقسمٍ بها.

---

(١) في الأصل وم: أهلها. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقيل[(١)]: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي للعاقلِ إذا تَدبَّرَ فيها عَرَفَ أنَّ هذهِ الأوقاتَ [التي يُحتَمَلُ أنْ يُقسَمَ بها][(٢)] وهذهِ الأوقاتَ التي تَدُلُّهُمْ على القولِ بالبعثِ.

وقيلَ:[(٣)] إنما أقْسَمَ بهذهِ الأيامِ وخَطَرِها عندَهُمْ لِما فيها مِنْ صلاحِ مَعايِشِهِمْ، ويكونُ لهمْ فيها سَعَةُ العيشِ: أمّا الفُقراءُ فبالهدايا[(٤)] والبُدْنِ، وأمّا غيرُهُمْ فبأنواعِ[(٥)] المكاسبِ والتجاراتِ؛ فإنهمْ كانوا يُعِدّونَ[(٦)] الأشياءَ، ويُهَيِّؤونَها[(٧)] مِنَ السنةِ إلى السنةِ للتجارةِ في هذهِ الأيامِ [فأقْسَمَ اللهُ تعالى بها][(٨)] لِكَونِها مُعظَّمَةً عندَهمْ.

وقيلَ: إنَّ مَوضِعَ القسمِ غيرُ مذكورٍ في هذهِ السورةِ لأنهُ كانَ على إثْرِ حادثةٍ عندَهمْ معروفةٌ، اسْتغنَى عنْ ذِكرِها لِشُهرَتِها عندَهمْ، فأقسَمَ إنها لَحَقٌّ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٦ ـ ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾؟ في ذِكْرِ نَبَإِ عادٍ وثمودَ فوائدُ ثلاثٌ:

أحدُها: في موضعِ التَّخويفِ لأهلِ الذينَ كَذَّبوا رسولَهُ ﷺ وهو أنَّ أولئكَ القومَ كانوا أكثرَ أموالاً وأولاداً وأعداداً وأكثرَ في القوةِ مِنْ هؤلاءِ الذينَ كَذَّبوا محمداً، عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلام، فلم يُغْنِهِمْ ذلكَ كلُّهُ مِنَ اللهِ تعالى [شيئاً، بل اللهُ تعالى][(٩)] انْتقَمَ منهمْ لرسلِهِ ﷺ بما كَذَّبوهُمْ. فما بالُ هؤلاءِ الذينَ كَذَّبوا محمداً ﷺ لا يخافونَ مَقْتَهُ وحلولَ النِّقْمةِ بتكذيبِهِمْ رسولَهُ؟ وليسوا بأكثرَ مِنْ أولئكَ في العددِ والمالِ والقوةِ.

[والثانيةُ:][(١٠)] أنَّ أولئكَ كانوا يَزْعُمونَ أنهمْ باللهِ تعالى أولَى من أمةِ محمدٍ ﷺ وأتباعِهِ لِما بَسَطَ لهمْ مِنَ النعيمِ، وضَيَّقَ على الرسولِ وأتباعِهِ، فَتبَيَّنَ أنَّ الذينَ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ مُكذِّبي الرسلِ كانوا أرفَعَ منهمْ في القِوَى والأموالِ والأولادِ والأعدادِ، وكانتْ رسُلُهُمْ في ضيقٍ مِنَ العيشِ، ثم كانوا هُمْ أولَى باللهِ تعالى مِنَ المُكذِّبينَ المُفْتخِرينَ بكثرةِ الأعدادِ والقِوَى، فَبَيَّنَ لهمْ هذا لِيَعلَموا أنْ ليسَ الأمرُ على ما ظَنُّوا، وحَسِبوا.

والثالثةُ[(١١)]: أنهمْ كانوا يَمْتَنِعونَ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى وبرسلِهِ، وكانوا يقولونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فيكونُ في ذِكْرِ هذا نَفْيُ التقليدِ لِأولئكَ لأنهُ كانَ في آبائهمْ مَنْ أهلِكَ بتكذيبِهِمُ الرسلَ، وهمُ الفراعنةُ وأتباعُهُمْ، وفيهِمْ منْ نَجا، وهُمُ الرسلُ وأتباعُهُمُ المُصَدِّقونَ لهمْ، فما بالُهُمْ قَلَّدوا المُهْلَكينَ منهمْ دونَ الذينَ نَجوا؟

ثم الآيةُ لم تُسَقْ لِيُعْرَفَ نَسَبُ عادٍ وثمودَ وفرعونَ حتى يُشْتَغَلَ بِتَعَرُّفِهِ، وإنما سِيقَتْ لِلأوجُهِ التي ذَكَرْنا؛ فالاشْتِغالُ بِتَعَرُّفِ أنسابِهِمْ وأحوالِهِمْ نوعٌ مِنَ التَّكَلُّفِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ فقولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أي قد رأيتَ كما يُقالُ في الشاهدِ: ألم تَرَ إلى ما فَعَلَ فلانٌ، أي قد رأيتَ، وعَلِمْتَ، فَيُخبِرُهُ بصنيعِهِ على جهةِ التَّشَكِّي منهُ.

[والثاني][(١٢)]: أنهُ يكونُ هذا ابْتِداءَ إعلامٍ منهُ، فيقولُ لهُ: اعْلَمْ أنَّ ربَّكَ فَعَلَ بعادٍ كذا.

واختَلَفوا في قولِهِ تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ فقالَ بعضُهُمْ: هو أبو عادٍ، وقالَ بعضُهُمْ: أبو القبيلةِ، فَنُسِبَ إليهِ عادٌ كما يُقالُ: هو مِنْ بكرِ بنِ وائلٍ، وإنْ لم يكنِ ابنَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِرَمَ﴾ مساكنَ عادٍ، وقيلَ: هو اسْمُ الذي بَنَى تلكَ الأماكنَ.

---

(١) في الأصل وم: فقال. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يستعدون. (٧) في الأصل وم: ويهيؤون. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وفائدة أخرى. (١١) في الأصل وم: والثالث. (١٢) في الأصل وم: ويحتمل.

وقولُهُ: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذاتِ الأجسادِ الطِّوالِ كما ذُكِرَ في القصةِ، وقالَ بعضُهُمْ: ذاتِ البناءِ المَشيدِ المَرفوعِ في السماءِ كالعَمَدِ الطِّوالِ، فَيَرْجِعُ إلى الإرَمِ على تأويلِ مَنْ جَعَلَهُ عبارةً عنِ المساكِنِ، وقالَ بعضُهُمْ ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ هي الخيامُ، لها أطنابٌ وعَمَدٌ؛ كانوا أصحابَ خِيامٍ وقِبابٍ، وكانتْ مساكِنُهُمْ مَرفوعةً بالعِمادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا وصفُ القومِ بالشدةِ والقوةِ وعِظَمِ القوةِ والخِلْقةِ وفَضْلِ البَصَرِ في الأمورِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقولِهِ[1] حكايةً عنهمْ: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فوصَفَهُمْ بِفَضْلِ البَصَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بها المساكِنُ التي[2] بَنَوها أنْ ليسَ مثلُها في البلادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اتَّخذوا مِنَ الصخورِ جَوابِيَ أي قِصاعاً كما قالَ تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبإ: ١٣] وقالَ بعضُهُمْ: [نَحتوا][3] في الصخورِ بيوتاً كقولِهِ تعالى: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] فيكونُ في هذا إخبارٌ عنْ قواهُمْ وشِدَّتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ ذا الأوتادِ، والوَتَدُ الجَبَلُ، وقالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ ذا الأوتادِ لأنهُ كانتْ لهُ أوتادٌ نَصَبَهَا لِتعذيبِ مَنْ غَضِبَ عليهِ، وقالَ بعضُهُمْ: إنه كانَ نَصَّبَ على الطريقِ أُناساً: على كلِّ طَريقٍ إنساناً راصداً وحافظاً. وقيلَ: أي ذو قُصورٍ وبُنْيانٍ مَشيدةٍ مَرفوعةٍ تُشْبِهُ الجبالَ؛ إذْ هي أوتادُ الأرضِ.

الآيتان ١١ و١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ وطُغيانُهُمْ في البلادِ، وتَمَرُّدُهُمْ وعُتُوُّهُمْ فيها.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عذَّبَهُمْ بِسَوطِهِمُ الذي كانوا يُعَذِّبونَ الخَلْقَ /٦٤٠ ـ أ/ ويَضْرِبونَهُمْ [بهِ][4].

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: إنَّ السَّوطَ لَونٌ مِنَ العذابِ، فَعَذَّبَ عاداً بِلَونٍ منهُ، وعذَّبَ ثَمودَ بِلَونٍ منهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: يرصُدُ عذابَهُ بأعدائِهِ، يَنْتَظِرُ بِهِ آجالَهُمْ، ثم يُوقِعُ بهمُ العذابَ إذا أتى الأجَلُ.

وعندَنا أنهُ يرصُدُ عليهمْ ما عَمِلوا، فلا يَشْتَدُّ عليهِ، ولا يَعْزُبُ عنهُ شيءٌ مِنْ عملِهِمْ، بل يَحْفَظُ عليهمْ ما اسْتَتَرَ منها وما ظَهَرَ.

وقيلَ: أي لا يُجاوِزُهُ ظُلْمُ ظالمٍ، ولا يَفوتُهُ هاربٌ. فلا[5] يَنْصَرِفُ وَهْمُ أحدٍ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ إلى إيثارِ مكانٍ. فما بالُ بعضِ الناسِ انْصَرَفَ وهْمُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] إلى جعلِ العرشِ مكاناً لهُ؟

الآيات ١٥ و ١٦ و ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ والإشكالُ أنْ يقولَ قائلٌ: قولُ ذلكَ الإنسانِ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ و﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ خَرَجَ مُوافِقاً لِما قالَهُ الربُّ تعالى لأنهُ قالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ﴾ فَخَرَجَ قولُهُ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ على المُوافقةِ لِما قالَ، وكذا قولُ هذا الإنسانِ حينَ[6] ابْتُلِيَ بِنَقيضِهِ ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ خَرَجَ مُوافِقاً لِما قالَ: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾.

فإذا كانَ الأولُ إكراماً كانَ الثاني[7] يُضادُّهُ إهانةً. ألا تَرى أنَّ اللهَ تعالى سَمّى المالَ خيراً والفَقْرَ شرًّا، وسَمّى المُطيعَ

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: الذين. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم لم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: الله.

مُحْسِناً والعاصِيَ مُسِيئاً، فكذا إذا اسْتقامَ القولُ[١] بالإكرامِ عندَما يُنْعِمُ عليهِ، ويُكْرِمُهُ[٢]، اسْتقامَ القولُ[٣] بالإهانةِ إذا ضَيَّقَ عليهِ الرزقَ، ولم يُكْرِمْهُ[٤]؟

فإذا كانَ هكذا فكيفَ ردَّ عليهِ مَقالتَهُ بقولِهِ: ﴿كَلَّا﴾ وهو في ذلكَ صادقٌ؟.

ولكنْ نحنُ نقولُ: إنَّ الرَّدَّ بقولِهِ: ﴿كَلَّا﴾ لم يَقَعْ على نفسِ القولِ، ولا انْصَرَفَ إليهِ، وإنما انْصَرَفَ إلى ما أرادَهُ بقولِهِ؛ لأنَّ القائلَ بهذا كافرٌ باللهِ تعالى وباليومِ الآخِرِ، فكأنَّهُ[٥] يقولُ: لا بَعْثَ، ولا جَزاءَ. وإنما يُجازَوْنَ بأعمالِهِمْ في هذهِ الدنيا. فَمَنْ أحْسَنَ أُحْسِنَ إليهِ بهِ، ومَنْ أساءَ أُهينَ بهِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ أي ليسَ الأمرُ كما صَوَّرَهُ في نفسِهِ، بلِ الدنيا دارُ عملٍ، وللجزاءِ بالكفرِ والإيمانِ دارُ الآخِرَةِ.

وهـذا كـقـولـهِ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وهمْ لم يكونوا كاذبينَ في شَهادَتِهِمْ ومقالتِهِمْ، بل كانوا صادقينَ أنهُ رسولُ اللهِ وأنَّ اللهَ تعالى يَعْلَمُ أنهُ رسولُهُ، ولكنهمْ كانوا اعْتَقَدوا تكذيبَهُ في قلوبِهِمْ، فكانوا يُظْهِرونَ خِلافَ ما أضْمَروا في أنفسِهِمْ. [وإلى][٦] ما أضْمَروا انْصَرَفَ التكذيبُ لا إلى نفسِ القولِ؛ كذا هذا.

ولأنَّ أهلَ الكُفْرِ كانوا أصنافاً؛ فمنهمْ مَنْ كانَ يَرَى إذا بُسِطَ عليهِ النعيمُ في الدنيا، وأُكْرِمَ، فإنما بُسِطَ عليهِ لِما اسْتَوْجَبَهُ بِفِعْلِهِ، وإذا ضُيِّقَ عليهِ، وابْتُلِيَ بالشِّدَّةِ، فإنما ضُيِّقَ عليهِ بإساءتِهِ وبما كَسَبَتْ يداهُ، ومنهمْ مَنْ كانَ يَظُنُّ أنهُ مِنَ اللهِ بمنزلةٍ، وأنهُ اسْتَوْجَبَ الإنعامَ، وأنهُ إذا ابْتُلِيَ بِضيقِ العيشِ، وأصابَتْهُ شِدَّةٌ [فإنما][٧] أصابَهُ ذلكَ مِنْ عندِ محمدٍ ﷺ فَيَتَشاءَمُ بهِ. ألا يَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾؟ [النساء: ٧٨]. وعلى هذا كانَ ظَنُّ فرعونَ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١].

فقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي أكرمَهُ في نفسِهِ بأنْ أصَحَّ جِسْمَهُ، أو جَعَلَهُ رئيسَ قومِهِ ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي بَسَطَ الدنيا عليهِ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فكانَ يَبْطَرُ بذلكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي إذا اخْتَبَرَهُ، فَضَيَّقَ ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ فكانَ يُظْهِرُ بذلكَ الجزعَ. واللهُ تعالى اخْتَبَرَهُ بالنِّعَمِ لِيَسْتَأدِيَ بما أنْعَمَ [شُكْرَهُ][٨] وابْتَلاهُ بضيقِ العيشِ لِيَصْبِرَ، لا لِيَجْزَعَ؛ فلا شَكَرَ هذا النِّعَمَ، بل بَطِرَ، ولا صَبَرَ هذا على الشدائدِ، بل جَزِعَ. فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ مُنْصَرِفاً إلى هذا ردّاً لِاعْتِقادِهِمْ وصَنيعِهِمْ، وهو أنهُ لم يُكْرِمْ، ولم يُنْعِمْ لِيَبْطَرَ بهِ، ولا ضَيَّقَ عليهِ رزقَهُ لِيَجْزَعَ، بل إنما أنْعَمَ لِيَشْكُرَ، وقَدَرَ عليهِ رزقَهُ لِيَصْبِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فجائزٌ أنهمْ كانوا لا يُكْرِمونَهُ[٩]، ويُهينونَهُ معَ ذلكَ، لأنَّ إكرامَ اليتيمِ ليسَ بواجبٍ، أمّا أهانَتُهُ فحرامٌ[١٠].

وجائزٌ ألّا تَثْبُتَ الإهانةُ فيهمْ معَ نَفْيِ الإكرامِ، لأنَّ الإيجابَ إذا ذُكِرَ في مُضادَّةِ الإيجابِ اقْتَضَى ذلكَ إثباتَ المُقابَلةِ، وإذا ذُكِرَ الإيجابُ في مُضادَّةِ النَّفْيِ أمكنَ أنْ تَثْبُتَ فيهِ المُقابلةُ، وأمكنَ ألّا تَثْبُتَ.

ألَا تَرَى إذا قيلَ: فلانٌ جائرٌ كانَ إثباتُ المُقابَلَةِ، هو نَفْيُ العَدْلِ، لأنَّ قولَهُ: جائرٌ إثباتُ الجَورِ، فكانَ في ذِكْرِهِ نَفْيُ العَدالةِ، وفيهِ إثباتُ المُقابَلَةِ، وإذا قُلْتَ: ليسَ بِعَدْلٍ لم يكُنْ فيهِ تحقيقٌ لإثباتِ المُقابلةِ أيضاً؟ قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] فكانَ في نَفْيِ الربحِ إثباتُ المُقابَلةِ في أنها خَسِرَتْ.

ثم إكرامُ اليتيمِ ههنا يَحْتَمِلُ أوجُهاً ثلاثةً.

---

(١) في الأصل وم: القوم. (٢) في الأصل وم: ويكرم. (٣) في م، في الأصل: القوم. (٤) في الأصل وم: يكرم. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يكرمون. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أحدُها: أنْ يُكرِمَهُ في أنْ يَحفَظَ عليهِ مالَهُ حتى لا يُضيِّعَهُ، ويُكرِمَهُ في نفسِهِ، وهو أنْ يَتعاهَدَ أحوالَهُ عنْ أنْ يَدخُلَ فيها خَلَلٌ.

والوجهُ الثاني: أنْ يُكرِمَهُ، فيُعلِّمَهُ آدابَ الشريعةِ، ويرشِدَهُ إليها.

والوجهُ الثالثُ: أنْ يكرِمَهُ، فيَبذُلَ لهُ مِنْ مالِهِ قَدْرَ حاجتِهِ إليهِ، ويَصطَنِعَ إليهِ المعروفَ، فيكونُ التعبيرُ ههنا في إعالةِ اليتيمِ أنْ يُترَكَ الإكرامُ الذي هو مِنْ بابِ حِفظِ مالِهِ، فيكونُ تضييعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي لا تَحُثّونَ غيرَكُم[1] على إطعامِ المسكينِ.

وجائزٌ أنْ يَحُضُّوا، ولا يَلُوا بأنفسِهِمُ الإطعامَ، ويَحتَمِلُ ألّا يَلُوا ذلكَ بأنفسِهِمْ، ويَحُضّونَ غيرَهُمْ.

وفي هذهِ الآيةِ ترغيبُ المسلمينَ بإكرامِ اليتيمِ وتَعاهُدِ مالِهِ، وتَبيينُ أنَّ عليهِمْ أنْ يُطعِموا بأنفسِهِمْ، وأنْ يَحُثّوا الأغنياءَ على إطعامِ المسكينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ فاللَّمُّ الجمعُ؛ يُقالُ: لَمَّ المالَ أنْ جَمَعَ، فكأنهُ يقولُ: يَجمَعونَ ما لم يَرِثوهُ بأنفسِهِمْ، وذلكَ نصيبُ الأيتامِ إلى ما يَرِثوا مِنْ أنصبائِهِمْ، فيأكلونَهُ[2] جميعاً وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي شديداً.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ قالَ أبو بكرٍ: أي تُحِبونَهُ حُبّاً وافياً وافراً، ليسَ فيهِ قصورٌ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ عنْ غايةِ حبِّهِمُ الدنيا وشِدَّةِ حِرْصِهِمْ عليها.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، وهو أنهمْ يُحِبّونَ المالَ الجَمَّ حُبّاً أي[3] المالَ الكثيرَ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ [حرفُ][4] رَدْعٍ وتَنبيهٍ؛ فمنهمْ منْ ردَّ هذا الرَّدْعَ إلى قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ / ٦٤٠ ـ ب/ فكأنهُ يقولُ: كلّا، ليسَتْ هذهِ الدارُ دارَ جَزاءٍ، فتكونَ الإهانةُ والإكرامُ بِحَقِّ الجَزاءِ، وإنما هي دارُ مِحنةٍ وابتِلاءٍ.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على الابْتِداءِ، فقالَ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ دَكّا بِمَعْنى حقّاً، يُخبِرُ عنْ مَذَمَّةِ مَنْ تَرَكَ الإكرامَ لليتيمِ، وتَرَكَ إطعامَ المسكينِ والحَضَّ عليهِ، إذا دُكَّتِ الأرضُ، أي دُقَّتْ، وكُسِرَتْ، وذلكَ يومُ الحسابِ والبعثِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ يَحتَمِلُ أوجهاً:

أحَدُها: أنْ يكونَ مَعْناهُ: وجاءَ ربُّكَ بالمَلَكِ، إذْ يجوزُ أنْ تُستَعمَلَ الواوُ مكانَ الباءِ؛ ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾؟ [المائدة: ٢٤] ومَعْناهُ: بربِّكَ. وإذا حُمِلَ على هذا ارْتَفَعَتِ الشُّبْهَةُ، واتَّضَحَ الأمرُ، لأنهُ لو كانَ قالَ: وجاءَ ربُّكَ بالمَلَكِ لكانَ لا يَنصَرِفُ وَهْمُ أحدٍ إلى الانْتِقالِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وقالَ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، بِظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ لأنهُ قالَ في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] فَثَبَتَ أنَّ مَعْناهُ ما ذَكَرْنا. وإذا ثَبَتَ هذا ارْتَفَعَ الرَّيبُ والإشكالُ.

[والثاني][5]: أنَّ مَعْنى قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أمرُ اللهِ، دليلُهُ ما ذَكَرَ في سورةِ النحلِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] فذكَرَ مكانَ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أمر ربِّكَ.

[والثالثُ][6]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي جاءَ وَعْدُهُ ووَعيدُهُ، فَنَسَبَ المجيءَ إلى اللهِ تعالى، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ وَصْفاً لأنهُ لا يجوزُ أنْ تُنسَبَ آثارُ الأفعالِ إلى اللهِ تعالى نِسْبةَ حقيقةِ الفِعْلِ، وإنْ لم يوصَفْ بهِ كما قالَ اللهُ تعالى:

---

(١) في الأصل وم: غيرهم. (٢) في الأصل وم: فيأكلون. (٣) من م، في الأصل: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ومنهم من ذكر. (٦) في الأصل وم: ويحتمل.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] فأضيفَ النَّفْخُ إليهِ، وإنْ لم يوصَفْ بأنهُ نافخٌ، وقالَ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فأضيفَتِ الكتابةُ إليهِ، وإنْ لم يوصَفْ بأنهُ كاتبٌ لِما ظَهَرَ مِنْ آثارِ فِعْلِهِ.

ويُقالُ: المطرُ رحمةُ اللهِ أي آثارُ رحمتِهِ، لا أنْ تكونَ المطرُ صفةً لهُ.

[والرابعُ: ما][1] يُقالُ: الصلاةُ أمرُ اللهِ والزكاةُ أمرُ اللهِ أي بأمرِ اللهِ يُصَلَّى، وبِأمرِهِ يُزَكَّى، لا أنْ يكونا وصفَينِ، ووجهُهُ أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي جاءَ الوقتُ الذي بهِ صارَ إنشاءُ هذا العالمِ حكمةً؛ إذْ لولا البعثُ للجزاءِ لكانَ إنشاءُ هذا العالَمِ ثم الإهلاكُ خارجاً مَخْرَجَ العَبَثِ لِما وَصَفْناهُ مِنْ قَبْلُ لِقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فَثَبَتَ أنَّ[2] خلقَهُ إنما صارَ حكمةً بالبعثِ؛ قالَ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقد كانَ المُلْكُ لهُ قبلَ ذلكَ اليومِ، ولكنَّ ملكَهُ لكلِّ أحدٍ يَتَبَيَّنُ في ذلكَ الوقتِ، وقالَ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وقد كانَ كلُّ شيءٍ لهُ بارزاً. ولكنَّ معناهُ أنهُ أتى الوقتُ الذي لهُ بَرَزَ الخَلائقُ.

ثم الأصلُ في كلِّ ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى أنْ تَنْظُرَ إلى ما يَليقُ أنْ يوصَلَ بالمضافِ إليهِ، فَتَصِلَهُ بهِ، وتَجْعَلَهُ مُضمَراً فيهِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] لم[3] يُفْهَمْ إثباتُ الحضورِ، بل[4] كانَ مَعناهُ أنَّ عِلْمَهُ مُحيطٌ بهِمْ، وهو مُطَّلِعٌ عليهم، وقالَ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢] لم يُفْهَمْ بهِ الإنتِقالُ، بل كانَ مَعْناهُ: أنهُ جاءَهُمْ بأسُهُ، وجاءَ لأوليائِهِ نَصْرُهُ، وقالَ: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] لم[5] يُفْهَمْ بهذا الإتيانِ ما فُهِمَ مِنَ الإتيانِ الذي يُضافُ إلى الخَلْقِ، وقالَ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] بل[6] كانَ مَعْناهُ: إنْ تَنْصُروا دينَ اللهِ، لا أنَّ اللهَ تعالى يَلْحَقُهُ ضَعْفٌ يَحتاجُ إلى مَنْ يُقَوِّيهِ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] كانَ[7] مَعْناهُ: أنهُ يُحَذِّرُكُمْ عذابَهُ لا أنْ أُريدَ بِهِ تحقيقُ النفسِ، ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ، لا[8] يُحْصَى.

فَثَبَتَ أنَّ محلَّ الإضافاتِ ما ذَكَرْنا. فلذلكَ حُمِلَ على الوَعْدِ والوَعيدِ أو على الوقتِ الذي صارَ خَلْقُ العالَمِ حكمةً أو على ما صَلَحَ فيهِ مِنَ الإضمارِ.

ومِمّا يَدُلُّ على أنهُ لا يُفْهَمُ بالمجيءِ مَعْنىً واحدٌ، بل يَقْتَضي أنَّ المجيءَ إذا أُضيفَ إلى الأعراضِ فُهِمَ بهِ غَيرُ الذي يُفْهَمُ بهِ إذا أُضيفَ إلى الأجسامِ؛ فإنهُ إذا أُضيفَ إلى الأعراضِ أُريدَ بهِ الظهورُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] ومَعْناهُ: إذا ظَهَرَ نَصْرُهُ، ولم يُرِدْ بهِ الإنتِقالَ، ولو كانَ مُضافاً إلى الجسمِ فُهِمَ منهُ الإنتِقالُ مِنْ مَوضعٍ إلى مَوضعٍ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ومَعْناهُ: ظَهَرَ الحقُّ، واضمَحَلَّ الباطلُ، لا أنْ كانَ[9] الحقُّ في مكانٍ، فَنُقِلَ عنهُ إلى غَيرِهِ.

فَثَبَتَ أنَّ المجيءَ إذا أُضيفَ إلى شيءٍ، وَجَبَ أنْ يُوصَلَ بهِ ما يَليقُ بهِ لا أنْ يُفْهَمَ بهِ كلِّهِ مَعْنىً واحدٌ.

ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ حكايةً عنِ اللهِ تعالى: «مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبراً تَقَرَّبْتُ إليهِ باعاً، ومَنْ أتاني ساعياً أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [البخاري٧٤٠٥ ومسلم٢٦٧٥] لم يُفْهَمْ مِنْ هذا التَّقريبِ ما يُفْهَمُ بهِ إذا أُضيفَ إلى الخَلْقِ، وكانَ مَعْناهُ: مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ بالطاعةِ والعبادةِ تَقَرَّبْتُ إليهِ بالتوفيقِ والنصرِ أو بالإحسانِ والإنعامِ.

وقالَ موسى، على نَبِيِّنا وعليه السلام: «يارَبِّ أقريبٌ فأُناجِيَكَ أم[10] بعيدٌ فأُناديَكَ»؟ ولم يُرِدْ بهِ المكانَ، وإنما أرادَ بقولِهِ: أراضٍ أنتَ عني فأُناجيَكَ أم[11] ساخطٌ عليَّ فأُناديَكَ في أنْ أُعْلِنَ بالبكاءِ والتَّضَرُّعِ؟

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) في الأصل وم: ولم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: ولم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وكان. (٨) في الأصل وم: من ان. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: أو.

ثم الأصلُ في المَجيءِ المُضافِ إلى اللهِ تعالى أنْ يُتَوَقَّفَ فيهِ، ولا يُقْطَعَ الحكمُ على شيءٍ لِما ذَكَرْنا أنَّ المَجيءَ ليسَ يُرادُ بهِ [وجْهٌ واحدٌ][1] لأنهُ إذا أُضيفَ إلى الأعراضِ أُريدَ بهِ غَيرُ الذي يُرادُ بهِ إذا أُضيفَ إلى الأجسامِ والأشخاصِ، واللهُ تعالى[2] لا يوصَفُ بالجِسْميَّةِ حتى يُفْهَمَ منْ مَجيئِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ مجيءِ الأجسامِ، ولا يوصَفُ بالعَرَضِ لِيُرادَ بهِ ما يُرادُ مِنْ مجيءِ الأعراضِ؛ فَحَقُّهُ الوقفُ في تفسيرِهِ معَ اعْتِقادِ ما ثَبَتَ بالتَّنزيلِ منْ غَيرِ نِسْبةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ قيلَ فيهِ مِنْ أوجهٍ:

أحَدُها: أنها أُظْهِرَتْ، وبُرِّزَتْ لأهلِها على ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] لا أنها كانتْ في مكانٍ فَنُقِلَتْ عنهُ، وقد يُرادُ بالمَجيءِ الظهورُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ومَعْناهُ: ظَهَرَ لكُمْ لا أنْ كانَ في مكانٍ آخَرَ [جاءَ منهُ][3] إليهِمْ.

[والثاني: ما][4] قالَ بعضُهُمْ: جِيءَ بأهلِها إليها، أي إلى جهنَّمَ، فتكونُ حقيقةُ المجيءِ مِنَ الأهلِ، ثم نُسِبَ إليها لأنهمْ إذا أتَوها فقد أتَتْهُمْ هي، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ/ ٦٤١ ـ أ/ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] فَنُسِبَ الإتيانُ إلى الذي يأتيهِ الوَعْدُ، فيكونُ الوعدُ، هو الذي يأتي أهلَهُ.

[والثالثُ: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي يومئذٍ تَجيءُ زَفْرَتُها وشَهيقُها وتَغَيُّظُها على أهلِها لا أنْ تَعْبُرَ عنْ مَكانِها.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على حقيقةِ المجيءِ، فَذَكَرَ أنهُ يُؤْتَى بها، ولها سبعونَ ألفَ زمامٍ، على كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يَتَذَكَّرَ إشفاقَ الأنبياءِ ﷺ ونَصيحَتَهُمْ له[6]، فَيَعْلَمَ أنهُ كانَ في ما تَوَهَّمَ بهمْ مِنَ الظنونِ الفاسدةِ مُبْطِلاً، فيكونُ بذكرِهِ ذلكَ [مُصَدِّقاً للرسلِ][7] ﷺ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي لا يَنْفَعُهُ تصديقُهُ إياهُمْ، إذْ لم يُصَدِّقْهُمْ في الدنيا، أو ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ في أنْ يَتَلَهَّفَ على ما فَرَّطَ في جَنْبِ اللهِ مِنَ التَّقْصيرِ في حقوقِهِ والتَّضْييعِ الذي سَبَقَ منهُ حينَ[8] لم يَشْكُرْ نِعَمَهُ، ولم يُوَجِّهْ إليهِ العبادةَ، فيكونُ تَلَهُّفُهُ ذلكَ إيماناً، ولكنْ لا يَنْفَعُهُ تَلَهُّفُهُ في ذلكَ الوقتِ لأنَّ تلكَ الدارَ ليستْ بدارِ امْتِحانٍ، بل دارُ جَزاءٍ.

والذي يَحْمِلُهُ على التَّصْديقِ مُشاهَدَتُهُ الجزاءَ والحِسابَ، وعندَ المُشاهدةِ تَرْتَفِعُ المحنةُ، ويكونُ إيمانُهُ حينئذٍ[9] ضرورياً لا حقيقةً، فلذلكَ لا يَنْفَعُهُ، وإنما تَنْفَعُهُ الطاعةُ وقتَ مُلْكِهِ نفسَهُ.

فأمّا إذا خَرَجَ مُلْكُ نفسِهِ مِنْ يدِهِ لم يَقَعْ لهُ بالإيمانِ جَدْوَى.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي يَتَّعِظُ، وأنّى لهُ الانْتِفاعُ بالمَوعظةِ.

ثم في هذا التَّذَكُّرِ بَيانُ لُطْفٍ مِنَ اللهِ تعالى، يُعطيهِ [إياهُ][10] حتى يَتَذَكَّرَ، وإلّا فالإنسانُ يَذْهَبُ عليهِ ما قد كَتَبَهُ في وقتٍ إذا أتَى عليهِ حينٌ، حتى لو أرادَ أنْ يَتَذَكَّرَ وقتَ كتابتِهِ، لم يَقْدِرْ عليهِ.

ثم اللهُ تعالى يُذَكِّرُهُ في الآخِرةِ جميعَ ما سَبَقَ منهُ في الدنيا، فَيَتَذَكَّرُ ذلكَ.

الآية ٢٤ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي يا لَيتني قدمتُ لنفسي حياةً، تَسْلَمُ لي، أو حياةً تَبْقَى لي لَذَّتُها. فهذا هو تَلَهُّفُهُ وتَذَكُّرُهُ في ذلكَ اليومِ؛ يَتَلَهَّفُ على ما فاتَهُ مِنَ الخَيراتِ، ويَنْدَمُ على ارْتِكابِهِ المعاصِيَ وكُفْرانِهِ نِعَمَ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وجهاً واحداً. (٢) في الأصل وم: أعلم، في م: أعلم، والله تعالى. (٣) في الأصل وم: به. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: لهم. (٧) في الأصل وم: تصديقاً من الرسل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

ومَعْنَى قولِهِ[1]: ﴿لِحَيَاتِي﴾ حياةٌ تَسْلَمُ لي، فأتَلَذَّذُ بها، هو أنَّ الكافرَ، وإنْ كانتْ لهُ حياةٌ في الظاهرِ فإنما حياتُهُ للتعذيبِ، فتلكَ لهُ في الحقيقةِ ليسَتْ بحياةٍ، بل هي هلاكٌ.

ألَا تَرَى أنَّ الإنسانَ إذا أخذَ في النَّزْعِ، فهو في ذلكَ الوقتِ حيٌّ بَعدُ؟ لكنَّ حياتَهُ للهلاكِ، فليسَتْ هي في الحقيقةِ حياةً، لكنَّها [للهلاكِ][2] فَعَلَى ذلكَ حياةُ المُخلَّدِ في النارِ.

الآيتان ٢٥و٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ قُرِئَتْ [هاتانِ الآيتانِ][3] على نصبِ الذالِ والثاءِ[4] وعلى خَفْضِهِما[5].

فَمَنْ قَرَأَهُما على الخفضِ فهو يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ العذابَ في الدنيا، وإنِ اشْتَدَّ مِنَ الملوكِ على الإنسانِ، فهو لا يَبْلُغُ عذابَ اللهِ تعالى لأعدائِهِ في الآخِرَةِ، وإنْ خَفَّ.

[والثاني][6]: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي لا يَنْبَغي لأحدٍ في الدنيا أنْ يُعَذِّبَ أحداً بعذابِ اللهِ تعالى، وهو النارُ كما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا تُعَذِّبوا أحداً بعذابِ اللهِ» (البخاري٣٠١٧).

فإنْ كانَ على النَّصْبِ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحدُهما: أنْ يكونَ التأويلُ مُنْصَرِفاً إلى صِنْفٍ منَ الكَفَرَةِ، وهمُ الذينَ بَلَغُوا في الكُفْرِ أعْلَى مَرْتَبَةٍ، فلا يُعَذَّبُ مَنْ دونَهُمْ بعذابِهِمْ.

والثاني: لا يُعَذَّبُ أحدٌ مكانَ أحدٍ كما يَفْعَلُهُ ملوكُ الدنيا في أنهمْ يُعَذِّبونَ الوالدَ مكانَ الولدِ، ويُعَذِّبونَ مُتَّصِلِي الذينَ اسْتوجَبوا العذابَ.

الآيات ٢٧و٢٨و٢٩و٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾][7] فالمُطْمَئِنَّةُ، هي الساكنةُ التي لا تَرْتابُ، ولا تَضْطَرِبُ طمَأْنينَتُها بوَعْدِ اللهِ ووَعيدِهِ وأمْرِهِ ونَهْيِهِ وتَوحيدِهِ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ هذا في أمرِ الدنيا، فيكونُ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي ارجعي إلى ما أمَرَكِ ربُّكِ راضيةً بوَعْدِ اللهِ ووَعيدِهِ، فتكونُ راضيةً بالذي وَعَدَها في الآخِرَةِ جَزاءً لِكَدْحِها وسَعْيِها في الدنيا مَرْضِيَّةً عندَ اللهِ تعالى ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي عبادي الصالحينَ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ أي ادْخُلي في ما تُسْتَوجَبُ بِهِ الجنةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا في الآخِرَةِ؛ وهو [أنْ][8] يقالَ للنفسِ التي اطمأنَّتْ في الدنيا بِوَعْدِ اللهِ تعالى ووَعيدِهِ، وَعَمِلَتْ بِطاعتِهِ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

وقيلَ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بالدنيا ارْجِعي إلى طلبِ الآخِرَةِ وما أعَدَّ اللهُ لأوليائِهِ فيها.

وقيلَ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ارْجِعي إلى طاعةِ اللهِ، فإنكِ إذا فَعَلْتِ ذلكَ رَضِيَ اللهُ عنكِ، ورَضِيتِ بعَطاءِ اللهِ وثَوابِهِ إيَّاكِ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ][9].

(١) في الأصل وم: قولنا. (٢) من نسخة لحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هذه الآية. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية: ح٨/ ١٤٦و١٤٧. (٥) في الأصل وم: الخفض منهما. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ [بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿لَآ﴾[2]:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَآ﴾ ههنا في مَوْضِعِ الدَّفْعِ والرَّدِّ لِمُنازَعةٍ كانَتْ بينَ قومِهِ[3]، فَدَفَعَ اللهُ تعالى المُنازعةَ مِنْ بَينِهِمْ بقولِهِ: ﴿لَآ﴾ وكانتْ تلكَ المُنازعةُ مَعْروفةً في ما بَينَهُمْ، فَتَرَكَ ذِكْرَها لذلكَ كما ذَكَرَ الجوابَ في بعضِ السورِ، ولم يَذْكُرِ السؤالَ لِما كانَ السؤالُ عندَهُمْ مَعْروفاً، فَتَرَكَ ذِكْرَهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وغيرُ ذلكَ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ حَرْفَ ﴿لَآ﴾ مَرَّةً يُسْتَعْمَلُ في حقِّ الصِّلَةِ والتَّأكيدِ، ومَرَّةً في مَوضِعِ النَّفْيِ، فَيَظْهَرُ[4] مُرادُهُ بما يَعْقُبُهُ مِنَ الكلامِ. فإنْ كانَ الذي يَعْقُبُهُ إثباتاً فهو بِحَقِّ التَّأكيدِ، وإنْ كانَ الذي يَعْقُبُهُ مِنَ الكلامِ نَفْياً فهو في مَوضِعِ النَّفْيِ. ثم الذي عَقَبَهُ مِنَ الكلامِ [ههنا][5] إثباتٌ، وليسَ بِنَفْيٍ، فَدَلَّ أنهُ في مَوضِعِ التَّأكيدِ؛ فكأنهُ قالَ: لَأُقْسِمُ بهذا البَلَدِ.

ثم كانَ حقُّهُ أنْ يَقْرَأَ لَأُقْسِمَنَّ بهذا البَلَدِ بإثباتِ النونِ كما يُقالُ: لَأَفْعَلَنَّ في اليَمينِ، لكنَّ نونَ التَّأكيدِ قد تُذْكَرُ/ ٦٤١ ـ ب/ في مَوضِعٍ، وقد لا تُذْكَرُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النحل: ١٢٤] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ قالوا: أُريدَ بهذا البلدِ مكةُ، فأقْسَمَ بها بِما عظَّمَ شأنَها بما سَبَقَ ذِكْرُنا لهُ وبخاصَّةٍ هي مُعَظَّمَةٌ في أعينِ أهلِها؛ ثم كانَ مِنْ عادةِ الكَفَرَةِ القَسَمُ بكلِّ ما يُعَظِّمونَهُ، فعامَلَهُمُ اللهُ تعالى مِنَ الوجهِ الذي جَرَتِ العادةُ في ما بَيْنَهُمْ لِيُؤَكِّدَ ما قَصَدَ إليهِ بالقَسَمِ، فَيُزيلُ عنهمُ الشُّبَهَ التي اعْتَرَضَتْ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: وأنتَ نازلٌ بها، مِنَ الحُلولِ، وقالَ بعضُهُمْ: وأنتَ حَلالٌ بهذا البلدِ، والحِلُّ والحَلالُ لُغتانِ؛ فإنْ كانَ على هذا فالحِلُّ غَيرُ مُنْصَرِفٍ إلى نفسِهِ، وإنما انْصَرَفَ إلى ما أُحِلَّ لهُ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ بنفسِهِ حَلالاً أو حَراماً، فالحِلُّ والحُرْمَةُ إذا أُضيفا إلى مَنْ لهُ الحَلالُ والحرامُ فإنما يُرادُ بالحِلِّ والحُرْمةِ الشيءُ الذي أُحِلَّ لهُ والشيءُ الذي حُرِّمَ عليهِ، لا أنْ يكونَ الوصفُ راجعاً إلى المضافِ إليهِ.

فإذا قيلَ: هذا مُحَرَّمٌ أُريدَ بهِ أنَّ الأشياءَ مُحَرَّمَةٌ عليهِ، وإذا قيلَ: هذا حَلالٌ ليسَ بِمُحَرَّمٍ أُريدَ بهِ أنَّ الأشياءَ لهُ حَلالٌ.

وإذا أُضيفا إلى مَنْ لا يُخاطَبُ بالحِلِّ والحُرْمةِ أُريدَ بهما عَينُ ذلكَ الشيءِ كقولِهِ [ﷺ][6]: «هذا لحمٌ حَلالٌ أو صيدٌ حَلالٌ، وهذا لحمٌ حَرامٌ» [بنحوِهِ: أحمد ٣٢٦/١] فَيُريدُ أنَّ ذلكَ اللحمَ حَلالٌ، وكذلكَ الصيدُ حرامٌ أو حَلالٌ.

ثم اخْتَلَفوا في الذي أُحِلَّ لهُ: فمنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى القِتالِ، فقالَ: إنهُ أُحِلَّ لهُ القِتالُ فيها؛ وذلكَ يومُ فتحِ مكةَ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ أُحِلَّ لهُ الدخولُ فيها [إذا][7] جاءَ مِنَ الآفاقِ بِغَيرِ إحرامٍ، و لا يَحِلُّ ذلكَ لِغَيرِهِ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][8] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ فتحِ مكةَ:][9] «إنَّ مكةَ حرامٌ حَرَّمَها اللهُ تعالى يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ والشمسَ والقمرَ، وَوَضَعَ هذينِ الجَبَلَينِ، لم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلّا ساعةً مِنْ نهارٍ، وهي ساعتي هذهِ، لا يُخْتَلَى خَلاها ولا يُعْضَدُ شَوكُها، ولا يُنَفَّرُ صَيدُها ولا تُرْفَعُ لُقَطَتُها إلّا لِمَنْ نَشَدَها» فقالَ العباسُ رضي الله عنه إلّا الإذْخِرَ يا رسولَ اللهِ فإنهُ لا غِنَى لأهلِ مكةَ عنهُ للقبرِ والبُنيانِ، فقالَ ﷺ: «إلّا الإذْخِرَ» [البخاري ١١٢و٢٠٩٠ ومسلم ١٣٥٥/٤٤٧].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ١٥١. (٣) من م، في الأصل: قوم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: فإذا. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.

فَبَيَّنَ رسولُ اللهِ ﷺ أنها أُحِلَّتْ لهُ ساعةً مِنْ نهارٍ.

والحِلُّ يَحْتَمِلُ الوجهَينِ اللذينِ ذَكَرْناهُما. وذَكَرَ أبو بكرٍ الأصمُّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يؤذيهِ أهلُ مكةَ، فَيَتأذّى بهِمْ، فَيَخرجُ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ، فَيَحِلُّ لهُ الصيدُ في ذلكَ الوقتِ.

ولكنْ لا يَسَعُ صَرْفُ التأويلِ إلى هذا؛ إذْ لا يُعْرَفُ مثلُ هذا إلّا بالخَبَرِ والنَّقْلِ.

ثم في قولِ رسولِ اللهِ ﷺ على لسانِ العباسِ ﷺ «إلّا الإذْخِرَ» دلالةٌ أنَّ التحريمَ لم يكنْ مُنْصَرِفاً إليهِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ التحريمُ شاملاً لهُ، ثم اسْتَثْناهُ بِما ذَكَرَ العباسُ ﷺ مِنْ حاجةِ أهلِ مكةَ إليهِ لِما لم يكنْ بينَ ما ذَكَرَ مِنَ التَّحْريمِ والتَّحْليلِ كثيرُ مدةٍ، يجري في مثلِها النَّسْخُ، ولكنْ تَرَكَ بَيانَ الحِلِّ إلى أنْ سألَهُ العباسُ ﷺ ثم بَيَّنَهُ[1]، وهو دليلُ قولِ أصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ: إنَّ تأخيرَ البَيانِ جائزٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ القسمُ مُنْصَرِفاً إلى نفسِهِ، فأقسمَ بهِ لِما عَظَّمَ مِنْ أمْرِهِ وشأنِهِ، كأنهُ قالَ ﷻ: لا أقسمُ بهذا البلدِ وبالذي، هو حِلٌّ بهذا البلدِ.

[والثاني: أنْ][2] يكونَ مُنْصَرِفاً إلى مكةَ، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ التعريفِ لمكةَ لكونِهِ فيها، أي البلدِ الذي أنتَ نازلٌ بهِ وحالٌّ بهِ أو حَلالٌ فيهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الوالدُ هو آدمُ ﷺ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أولادُهُ وذُرِّيَّتُهُ. ولكنَّ آدمَ وأولادَهُ ﷺ ليسوا مَخصوصينَ بالدخولِ تحتَ اسْمِ الوَلَدِ والوالدِ، بل ذلكَ فيهمْ وفي جُمْلةِ الرُّوحانيِّينَ. فيكونُ القسمُ بالخلائقِ أجمعَ، ويكونُ ﴿وَمَا﴾ على هذا التأويلِ بِمَعْنَى الذي.

ومنهمْ مَنْ جَعَلَ الـ﴿وَمَا﴾ ما جَحَدَ، فقالَ: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أيِ الذي لا يَلِدُ، وهو العاقرُ، فأقْسَمَ بالبشرِ جُمْلةً مَنْ يَلِدُ منهمْ ومَنْ لا يَلِدُ، وأقسمَ بهِمْ أيضاً لِما جَعَلَهُمْ مُفَضَّلينَ على كثيرٍ مِنَ الخَلائقِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الكَبَدُ الانْتِصابُ، أخبرَ [أنهُ][3] خَلَقَ الإنسانَ مُنْتَصِباً، وخَلَقَ كلَّ دابةٍ مُنْكَبَّةً، وقالَ بعضُهُمْ: الكَبَدُ الشِّدَّةُ والمُعاناةُ. وقالَ بعضُهُمْ: خَلَقَهُ مُنْتَصِباً في بطنِ أُمِّهِ، ثم يَقْلِبُهُ[4] وقتَ الانْفِصالِ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: أيُّ حكمةٍ في ذِكْرِ هذا وفي تأكيدِهِ بالقسمِ؟ وكلٌّ يَعْلَمُ أنهُ خُلِقَ كذلكَ.

فجوابُهُ أنَّ في ذِكْرِ هذا إبانةَ أنهمْ لم يُخلَقوا عَبَثاً باطلاً، بل خَلَقَهُمُ اللهُ تعالى لِيَمْتَحِنَهُمْ، ويأمُرَهُمْ بالعبادةِ كما قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦].

فإنْ كانَ التأويلُ مُنْصَرِفاً إلى الشِّدَّةِ والمُعاناةِ فتأويلُهُ أنهُ خَلَقَهُمْ لِيُكابِدوا لِلمَعاشِ والمَعادِ جميعاً، وخَلَقَهُمْ للشِّدَّةِ لِيَعْتَبِروا، ويَتَذَكَّروا.

وإنْ كانَ مُنْصَرِفاً إلى الانْتِصابِ ففيهِ تَعْريفُ لِعِظَمِ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهمْ مِنْ غَيرِ أنْ كانوا مُسْتَوجِبِينَ لذلكَ لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ بذلكَ.

وإنْ كانَ التأويلُ على ما ذَكَرَ أنهُ خَلَقَهُ مُنْتَصِباً في بطنِ أُمِّهِ، ثم يَقْلِبُهُ[5] وقتَ الانْفِصالِ ففيهِ أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على ما يَشاءُ وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، [ولا يَتَهَيَّأُ][6] لأحدٍ أنْ يَقْلِبَ[7] أحداً، فَيَجعَلَ أعلاهُ أسفَلَهُ إلّا أنْ يَجِدَ مثلَهُ في المكانِ سَعَةً.

ثم إنَّ اللهَ تعالى قَلَبَهُ، فَجَعَلَ أعلاهُ أسفَلَهُ في ذلكَ المكانِ الضَّيِّقِ، فَتَبَيَّنَ لهمْ أنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، فَيَحمِلُهُمْ ذلكَ على الإيمانِ بالبعثِ والنُّشورِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بين. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يقلب. (٥) في الأصل وم: يقلب. (٦) في الأصل وم: لأنهُ لا يتهيأ. (٧) في الأصل وم: القلب.

ومَعْنى قولِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ عندنا: لقد خَلَقْنا الإنسانَ لِما لهُ مُكابَدَتُهُ في أمرِ الشيطانِ فهو للنارِ خُلِقَ. وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي ذَرَأَ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُؤثِرُ طاعةَ الشيطانِ وعِصْيانَ الرحمنِ لجهنَّم، وذَرأَ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَعْلَمُ أنهُ يَعْبُدُ اللهَ، ويُوَحِّدُهُ للعبادةِ بقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والأصلُ أنَّ الحكمَ أبداً تُقْصَدُ بِفِعْلِهِ العاقبةُ إلّا الذي ليسَتْ لهُ مَعْرِفةٌ بالعاقبةِ. فأمّا مَنْ عرَفَ العاقبةَ فابْتِداءُ فِعْلِهِ يَقَعُ لتلكَ العاقبةِ [فإنْ كانتْ عاقبتُهُ][1] النارَ فابْتِداءُ الخَلْقِ مِنَ اللهِ تعالى يَقَعُ/ ٦٤٢ ـ أ/ لذلكَ الوجهِ، وإنْ كانتِ العاقبةُ الجنةَ فهو لذلكَ الوجهِ الذي خُلِقَ.

فَعَلَى ذلكَ يُخَرَّجُ تأويلُ قولِهِ ﷺ: «السعيدُ سعيدٌ في بَطْنِ أُمِّهِ، والشَّقِيُّ شَقِيٌّ في بطنِ أُمِّهِ» (البزار في كشف الأستار ٢١٥٠) وهو لا يُوصَفُ بالسعادةِ والشَّقاوةِ في ذلكَ الوقتِ، ولكنَّ مَعْناهُ أنهُ إذا آثَرَ الشَّقاوةَ في حالةِ الامْتِحانِ خُلِقَ لذلكَ، وإذا آثرَ السعادةَ فلذلكَ أيضاً.

وقالَ نوحٌ ﷺ: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] وهمْ في وقتِ ما وُلِدوا غَيرُ موصوفينَ بواحدٍ مِنَ الوَصْفَينِ، بل يَصيروا كذلكَ، فَتَبَيَّنَ أنهمْ خُلِقوا لذلكَ.

وقد[2] وقعَ القسمُ على ما لهُ يُكابِدُ، ليسَ على المكابدةِ نفسِها، لأنَّ المُكابدةَ مِنَ الإنسانِ ظاهرةٌ لا يُحتاجُ إلى تأكيدِها بالقسمِ، وقولُنا: إنَّ المَقْصودَ مِنِ ابْتِداءِ الفعلِ قولُ النبيِّ ﷺ: «إذا أرَدْتَ أمراً فَتَدَبَّرْ عاقبتَهُ، فإنْ كانَ رُشداً فامْضِهِ، وإنْ كانَ غَيًّا فانْتَهِ عنهُ» (الزبيدي في الإتحاف ١٠/ ٩٣، وعزاهُ لابْنِ المباركِ في الزهد).

وزعمتِ المعتزلةُ أنَّ اللهَ تعالى لم يَخْلُقْ أحداً مِنَ البشرِ إلّا لِيَعْبُدَهُ، ولو كانَ الأمرُ على ما زَعموا، وظَنّوا لأدّى ذلكَ إلى الجهلِ بالعواقبِ، أو وَجَبَ أنْ يكونَ العقلُ خارجاً مَخرَجَ الخَطَإِ لأنَّ كلَّ مَنْ صَنَعَ أمراً يريدُ غيرَ الذي يكونُ [يكنْ][3] جاهلاً بالعواقبِ أو عابثاً بالفعلِ لأنَّ مَنْ أنشأَ الشيءَ يَعْلَمُ أنهُ لا يكونُ عُدَّ ذلكَ منهُ عَبَثاً، ولو كانَ غَيرَ الذي يريدُهُ، وهو أنْ يبنيَ لِيَسْكُنَ، كانَ الذي حملَهُ على البناءِ جَهلَهُ بالعواقِب، وجلَّ اللهُ تعالى عنْ أنْ يلحقَهُ خطأٌ في التدبيرِ أو جهلٌ بالعواقِبِ.

فَثَبَتَ بما ذَكَرْنا أنَّ اللهَ تعالى شاءَ لكلِّ فريقٍ ما عَلِمَ الذي يكونُ منهمْ، وخَلَقَهُمْ لذلكَ الوجهِ دونَ أنْ يكونَ خَلْقَ الجملةِ للعبادةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٥ و٦ و٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فالآياتُ[4] تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ حَسِبَ أنَّ اللهَ تعالى لا يَقْدِرُ على بَعْثِهِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿أَحَدٌ﴾ هو اللهُ تعالى ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي جَمّاً ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [﴿يَقُولُ﴾][5] أنْفَقْتُ منهُ مقدارَ ما يَخرُجُ عنِ الإحصاءِ، وقولُهُ: ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي لَمْ يَعْلَمْ أحدٌ مَبْلَغَ ما أنْفَقَ مِنْ ذلكَ.

[والثاني][6]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ألَمْ يَعْلَمْ أتباعُهُ الذينَ أنْفَقَ عليهِمْ مِقْدارَ ما أنْفَقَ عليهِمْ، فيكونُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ إظهارٌ منهُ السخاوةَ، وجودُهُ على الافْتِخارِ منهُ بذلكَ [وامتنانٌ منهُ][7] على أتباعِهِ.

فإنْ كانَ على هذا فهو [في][8] أمرِ الدنيا، وقد عَلِمَ اللهُ القدرَ الذي أنْفَقَ عليهِمْ، وعَلِمَ الخَلْقُ سَخاوتَهُ، لا بقولِهِ. فليسَ اشْتِغالُهُ في إظهارِ الجودِ والامْتِنانِ إلّا نوعٌ مِنَ السَّفَهِ، وكانَ الذي يَحِقُّ عليهِ الاشْتِغالُ بالشُّكْرِ للهِ تعالى وتوجيهِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فمن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فالآية. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الحمدِ إليهِ لِما عَلِمَ أنَّ الذي أنعمَ بهِ منَ المالِ الكثيرِ مِنَ اللهِ تعالى، وأنَّ تلكَ المَنْقَبَةَ، وهيَ السخاوةُ، نالَها باللهِ تعالى. وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] لم تنالوا ما تَذكُرونَ منَ الشَّرَفِ والمَناقبِ الحَميدةِ إلّا باللهِ تعالى، فاذْكُروهُ كَذِكرِكُمْ آباءَكُمْ.

وهذا النوعُ منَ الافْتِخارِ راجعٌ إلى الخصائصِ منَ القوةِ لا إلى الجملةِ؛ إذْ كلُّ أحدٍ يقولُ مثلَ ذلكَ: إنهُ أهلَكَ مالاً لُبَداً، وفَعَلَ كذا.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ على نَفْيِ القدرةِ على البعثِ. ففي ذِكْرِ العَينَينِ نَفْيُ تلكَ الشُّبْهةِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى أنشأَ لهُ بَصَراً يَرَى بفتحةٍ واحدةٍ ما بينَ السماءِ والأرضِ. فَمَنْ بَلَغَتْ قدرَتُهُ هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ أو يَخفَى عليهِ أمرٌ.

فقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ أي ألم نَخْلُقْ لهُ عَينَينِ يُدرِكُ بهما المحسوساتِ بالنظرِ، وجَعَلْنا لهما جُفوناً وأشعاراً يدفَعُ بهنَّ القَذَى عنْ عَينَيهِ، وبفضلِهِما يميلُ عنِ النظرِ إلى ما لا يَعْنيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِسَانًا﴾ أي خَلَقْنا لهُ لساناً يُحْضِرُ بهِ ما غابَ، واسْتَتَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ ففي خَلْقِ الشَّفَتَينِ وجهانِ منَ الحكمةِ:

أحدُهما: أنهُ جَعَلَهما طَبَقَتَينِ يَسْتُرانِ قُبْحَ ما في فمِهِ، ولولاهما لكانَ النظرُ إليهِ وقتَ مَضْغِهِ الطعامَ أو شيئاً منَ الأشياءِ اسْتُقْذِرَ ذلكَ منهُ.

[والثاني: أنهُ][1] جَعَلَهما طَبَقَينِ للسانِهِ لئلا يَمُدَّهُ، ويَسْتَعْمِلَهُ في ما لا يعنيهِ.

فَذَكَّرَهُمْ عِظَمَ نِعَمِهِ في خلقِ العَينَينِ واللسانِ والشَّفَتَينِ لِيَستأدِيَ منهمُ الشكرَ، ولِيَعْلَموا أنَّ الذي بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هذا ليسَ بالذي يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي بيَّنّا لهُ [ما عليهِ وما له][2] وما يُحْمَدُ عليهِ وما يُذَمُّ وما يَقْبُحُ ويَجْمُلُ. والنَّجْدُ الطريقُ. فَبَيَّنَ لِلْخَلْقِ الطريقَينِ جميعاً طريقَ الخيرِ والشَّرِّ، ومَكَّنَهُمْ مِنَ الفِعْلَينِ جميعاً. وقالَ بعضُهُمْ: النَّجدانِ الثَّدْيانِ، أي، أي هَدَيناهُ الثَّدْيَينِ في حالةِ الإرضاعِ، ولكنَّ السُّنَنَ والهدايةَ لم تَنْصَرِفْ إلى هذا خُصوصاً، بل هذا مِنْ بعضِ ما هداهُ، وبيَّنَهُ؛ فقد بَيَّنَ لهُ غيرَهُ مِنَ الأمورِ، ولا قَيَّدَ في اللفظِ، فَيُحْمَلُ على الإطلاقِ والعمومِ.

الآيات ١١ و١٢ و١٣ و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾][3] قيلَ فيهِ منْ وجهَينِ:

أحدُهما: فهلّا[4] اقْتَحَمَ العقبةَ. والثاني: أنهُ لم يَقْتَحِمْ.

فإنْ كانَ على الأوّلِ فَمعناهُ: أنَّ الذي قالَ: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ كيفَ لا كانَ إنفاقُهُ في فَكِّ الرَّقَبةِ وفي الإنفاقِ على اليتيمِ والمسكينِ الذي بَلَغَ بهِ الجَهْدُ إلى أنْ أُلصِقَ بالترابِ، ويكونَ مِنْ جُمْلةِ مَنْ آمَنوا باللهِ تعالى ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [الآية: ١٧] ليكونَ مِنْ أصحابِ المَيْمَنةِ، ويَكْتَسِبَ بذلكَ الحياةَ الطَّيِّبَةَ في الآخرةِ دونَ أنْ تكونَ العاقبةُ في الملاهي وشَهَواتِ النفسِ؟ فلم يُحَصِّلْ لنفسِهِ حَمْداً ولا أجْراً في العُقْبَى، بل صارَ مِنْ أصحابِ المَشْأَمةِ، فيكونُ ما بَعْدَ قولِهِ: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ صِلَةً لهُ وتَفْسيراً.

وإنْ كانَ التأويلُ على النَّفْيِ، ففيهِ تكذيبٌ في ما يَزْعُمُ أنهُ أنفقَ مالاً لُبَداً، فنقولُ: لو كانَ على ما يظُنُّ ذلكَ[5] بِفَكِّ الرِّقابِ والإنفاقِ[6] على اليتيمِ وعلى المسكينِ الذي، هو ذو مَتْرَبَةٍ، فيكونُ هذا كلُّهُ صِلَةَ قولِهِ ﷺ: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أيضاً.

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: فلا. (٥) في الأصل وم: ليظهر على. (٦) في الأصل وم: والمواساة.

ثم قيلَ في العَقَبةِ في وجْهَين:

أحدُهما: على تحقيقِ العَقَبةِ، وهو أنْ يكونَ في النارِ عَقَبةٌ، لا تُتجاوَزُ، ولا تُقْطَعُ إلّا بما ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرقَبَةِ والإطعامِ ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [الآية: ١٤] كقولِهِ تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ على تحقيقِ العَقَبةِ؛ معناهُ: وما يُدْريكَ بِمَ تُقْطَعُ تلكَ العقبةُ؟ ثم بَيَّنَ أنها تُقْطَعُ بما ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرَّقَبةِ ونَحْوِهِ.

[والثاني][1]: جائزٌ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ لا على التَّحقيقِ، ووجهُهُ أنهُ يَشْتَدُّ عليهِ بِحَمْلِ المُؤَنِ التي ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرَّقَبةِ وإطعامِ المساكينِ ومُواساةِ اليتيمِ، فتكونُ العَقَبةُ كنايةً عنْ تَحَمُّلِ المُؤَنِ لا على العَقَبَةِ / ٦٤٢ ـ ب/ نفسِها، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] إذْ يصيرُ الإيمانُ عليهِ في الشِّدَّةِ والثِّقَلِ كأنهُ كُلِّفَ الصُّعودَ إلى السماءِ. ويَشْتَدُّ على الأوّلِ تَحَمُّلُ المُؤَنِ [كما يَشْتَدُّ عليهِ قَطْعُ العَقَبةِ والصُّعودُ عليها.

والاقْتِحامُ هو رَمْيُ النفسِ في المَهالكِ، وقيلَ: الاقْتِحامُ، هو تَحَمُّلُ المُؤَنِ.

فإنْ كانَ على تَحَمُّلِ المُؤَنِ][2] فَوَجْهُهُ ما ذَكَرْنا أنْ كيفَ لم يَحْتَمِلْ هذهِ المُؤَنَ لِيَصيرَ مِنْ أهلِ المَيْمَنَةِ؟

وإنْ كانَ على الرَّمْيِ في المهالكِ لم يَحْتَمِلْ هذهِ المُؤَنَ ليَصيرَ مِنْ أهلِ المَيْمَنَةِ. فكأنهُ يقولُ: قد أهلَكَ نفسَهُ بِتَرْكِ الإنفاقِ في الوجوهِ التي ذَكَرَ والإعراضِ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى بِتَرْكِهِ فَكاكَ الرقَبَةِ.

ورَوَى أبو بكرٍ الأصَمُّ في تفسيرِهِ خبراً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنَّ رجلاً سألَهُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ دُلَّني على عملٍ أدخُلُ بهِ الجنةَ، فأمَرَهُ بِعِتْقِ النَّسمةِ وفَكِّ الرَّقَبةِ، فقالَ السائلُ: أليستا، هما واحدٌ؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: لا إنَّ عِتْقَ النَّسمةِ أنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِها، وفَكُّ الرَّقَبةِ أنْ تُعينَ على فَكاكِها» [أحمد٤/ ٢٩٩].

وفَكاكُ الرَّقَبةِ أنْ تُخَلِّصَها مِنْ وجوهِ المهالكِ، وذلكَ يكونُ بالتَّخليصِ من ذُلِّ الرِّقِّ، وأنْ تَرَى إنساناً هَمَّ بِقَتلِ آخَرَ بِغَيرِ حقٍّ، فَتَدْفَعَ عنِ المظلومِ شَرَّ الظالمِ، فَتَراهُ يَفْرَقُ، فَتُخَلِّصَهُ منْ ذلكَ، فيكونَ في ذلكَ كلِّهِ فَكاكُ الرَّقَبةِ مِنَ المَهالكِ، لِيَكْتَسِبَ بها الحياةَ الطَّيِّبَةَ في الآخِرَةِ.

فاخْتَلَفَ القُرّاءُ في هذا الحرفِ؛ فمنهمْ مَنْ قرأ: فَكَّ[3] رقَبَةً أو أطْعَمَ في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ على النَّصْبِ، فإذا قرأتَهُ بالنَّصْبِ فَمَعْناهُ: هلّا فَكَّ رَقَبَةً، أو أطْعَمَ، فيكونُ راجعاً إلى تفسيرِ الاقْتِحامِ، وإنْ قرأتَهُ بالرفعِ انْصَرَفَ التأويلُ إلى تفسيرِ العَقَبةِ، فكأنهُ قالَ: قَطْعُ العقبةِ يكونُ بالفكِّ وبما ذَكَرْنا.

وذُكِرَ عنْ سُفيانَ بْنِ عُيَيْنَةَ رضي الله عنه أنهُ قالَ: كلُّ ما في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أعْلَمَهُ، وأدراهُ، وكلُّ ما فيه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فهو لم يُعْلِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والمَسْغَبَةُ المَجاعةُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قرابةٍ منهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي ألصقَ بطنَهُ بالترابِ، وقيلَ: ليسَ لهُ شيءٌ يَحْجُبُهُ عنِ الترابِ.

ثم في قولِهِ: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ دلالةُ وجوبِ حقِّ اليتيمِ على القريبِ إذا كانَ مُحتاجاً، فيكونُ فيهِ حُجَّةٌ لقولِ أصحابِنا: إنَّ اليتيمَ إذا كانَ مُحتاجاً فُرِضَتْ نَفَقَتُهُ على أقربائِهِ.

وفي قولِهِ: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ دلالةُ أنَّ المسكينَ الذي وصفَهُ، وهو ألّا يكونَ بَيْنَهُ وبينَ الترابِ حائلٌ، فكِفايتُهُ تُلْزِمُ الخَلْقَ جملةً.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ١٥٢.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فتأويلُهُ أنهُ لا يَنفَعُهُ فكُّ الرَّقَبَةِ ولا الإطعامُ حتى يكونَ مؤمِناً معَ ذلكَ مُتَواصِياً بالصَّبْرِ والرَّحمةِ. فإذا كانَ كذلكَ فحينئذٍ يُجْعَلُ قاطعاً للعقبةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الصَّبْرُ أُريدَ بهِ الإيمانُ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] أي آمَنوا.

والتَّواصي بالصَّبْرِ والرَّحمةِ، هو الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ؛ إذِ التَّواصي مأخوذٌ منَ الوصيَّةِ، وهذا يوجبُ أنْ يكونَ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ في اعتِقادِ الإيمانِ.

الآية ١٨ [وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ]‏[1] أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي أصحابُ المَيامِنِ، وهمْ أهلُ اليُمْنِ.

الآيتان ١٩ و٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾]‏[2] أي أصحابُ الشُّؤمِ على أنفسِهِمْ حينَ[3] عملوا المعاصيَ، واستَوجَبوا بهِ ناراً مُوصَدَةً، وهي المُؤْصَدَةُ المُطْبَقَةُ المُبْهَمَةُ، ووصفُهُ الإطباقَ ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى، وذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقولُهُ[4] تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الآية [الكهف: ٢٩] واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ][5].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وقال الله. (٥) ساقطة من م.

[سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ قالوا: تأويلُهُ: والشمسِ وضَوئِها [وقيلَ: وحرِّها](٢) وقيلَ: ونهارِها. وهذا في مَوضِعِ القَسَمِ؛ وذلكَ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في الشمسِ مَعانيَ تَدُلُّ على لَطائِفِ حِكْمَتِهِ وعَجائِبِ تَدْبيرِهِ، وجَعَلَها(٣) في النهايةِ منَ البركاتِ وفي النهايةِ منَ الآياتِ.

فَمِنْ عجيبِ تدبيرِهِ أنهُ جَعَلَ نورَها بحيثُ تُهْلِكُ نورَ الظِّلِّ حتى إذا بَدَتْ في مكانٍ أذهبَتْ نورَ الظِّلِّ ونورَ السِّراجِ ونورَ القمرِ، وسَتَرَ نورُها الكواكبَ عنْ أنْ تُرَى، وجَعَلَها بحيثُ يَظْهَرُ بها هباءُ الهواءِ. فَبَيَّنَ أنَّ الهواءَ ذو هَباءٍ.

ألا تَرَى أنكَ إذا نظرتَ في المِشكاةِ حينَ تَسْقُطُ الشمسُ فيها تُبَيِّنُ لكَ بها [هباءَ](٤) الهواءِ، ولو أرادَ أحدٌ منَ الخلائقِ أنْ يَدْرِكَ المَعْنَى الذي بهِ اسْتَنارَتْ هذهِ(٥) الشمسُ كَلَّ، ولم(٦) يَقِفْ عليهِ؟

ثم [مِنْ](٧) بَرَكَتِها أنَّ بِحرارَتِها صالِحَ الأغذيةِ، وبها صالِحَ النباتِ، وبها يُكْبَسُ الحَبُّ، وبها تَنْضَجُ الفواكِهُ.

ومِنْ عجيبِ تدبيرِهِ أنهُ جَعَلَها بالنائي عنْ كلِّ شيءٍ لهُ بها صلاحٌ؛ إذْ لو دنَتْ منهُ(٨) لكانتْ تحرُقُ الأشياءَ كلَّها.

ومِنْ آياتها أنْ جُعِلَتْ بحيثُ تسيرُ، وتقطعُ كلَّ يومٍ مَسيرَةَ ألفِ عامٍ ما يَتَعَذَّرُ على الذي خُلِقَ للسَّيرِ والمَشْيِ قَطْعُ المسافةِ بمدةٍ كثيرةٍ، وهي أيضاً تُظْهِرُ جُودَ الرَّبِّ، جَلَّ جلالُهُ، لأنَّ مَنافِعَها تَعُمُّ الخَلْقَ كلَّهُمْ بَرَّهُمْ وفاجِرَهُمْ والوليَّ منهمْ والعَدُوَّ، فأقْسَمَ اللهُ بها لِيُزيلَ عنِ الكَفَرَةِ الشُّبْهَةَ التي تَعْتَرِضُ لَهُمْ مِنْ أمرِ الدينِ: إمّا في التوحيدِ [وإمّا](٩) في الرسالةِ [وإمّا](١٠) في البعثِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ فجائزٌ أنْ يَتْلُوَها في كلِّ ما ذَكَرْنا في الشمسِ مِنَ المَنافعِ والمَعاني، فيكونُ تالِيَها في العملِ، فإنهُ يقعُ بِهِ صلاحُ الأغذيةِ أيضاً، وهو يُذْبِرُ أيضاً. إلّا أنهُ لايَنْتَهي مُنْتَهاها، ولا يَبْلُغُ مَبْلَغَها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي يَتْلُوها في أوَّلِ ما يَهِلُّ، فإنهُ إذا وَجَبَتِ الشمسُ في آخِرِ اليومِ مِنَ الشهرِ إلى غُروبِها [بَدَا](١١) طُلوعُ الهلالِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ يَتْلوها إذا صارَ بَدْراً، وفي هذا دلالةٌ أنَّ مُنْشِئَهما واحدٌ لأنَّ مَنافِعَهما تَعُمُّ الخَلْقَ /٦٤٣ ـ أ/ جميعاً. ولو لم يَكُنْ مُدَبِّرُهما واحداً لكانَتْ لا تَعُمُّ، بل يَمْنَعُ كلُّ واحدٍ منهما الآخَرَ(١٢) عنْ إيصالِ النَّفْعِ إلى قومِ عَدُوِّهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النهارُ جَلَّى الدنيا، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جَلَّى الأرضَ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جَلَّى الشمسَ، ويَحْتَمِلُ أنْ يُجَلِّيَ الأبصارَ بِنورِها عنْ ظلمةِ الليلِ التي تَغْشاها.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ يَنْصَرِفُ إلى الأوجهِ التي ذَكَرْنا أيضاً، أي يَغْشى الدنيا أوِ الأرضَ أوِ الشمسَ، أو يَغْشَى الأبصارَ بظُلْمَتِها عنِ الخلائقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم لِلَّيلِ والنهارِ زيادةُ سلطانٍ ليستْ للشمسِ ولا للقمرِ، لأنَّ منْ سُلْطانِ الليلِ والنهارِ أنهما يُفْنِيانِ الآجالَ، ويَقطعانِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وجعل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: هذا. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: منها. (٩) في الأصل وم: منها. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: منشئه.

الأعمارَ، ولا يَتَهيَّأُ لأحدٍ الامْتِناعُ والتَّحرُّزُ مِنْ سُلْطانِهِما، أو يَتَهيَّأُ للخَلْقِ دَفْعُ أذَى الشمسِ والقمرِ عن أنفُسِهِمْ بالحِيَلِ والأسبابِ، فكانَ في ذِكْرِ الليلِ والنهارِ زيادةُ مَعْنىً، ليسَ ذلكَ في ذِكْرِ الشمسِ والقَمرِ.

الآية ٥ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قالَ الزَّجاجُ: ﴿وَمَا﴾ بِمَعْنَى الذي، وقد يُسْتَعْمَلُ في مثلِهِ كقولِ العربِ: سُبْحَنَ ما سَبَّحَتْ لهُ السمواتُ والأرضُ، أي سُبْحَنَ الذي سَبَّحَتْ لَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا﴾ ههنا بِمَعْنَى مَنْ؛ كأنهُ يقولُ: والسماءِ ومَنْ بَناها. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا﴾ ههنا تَجْعَلُ الفعلَ الماضيَ بِمَعْنَى المَصْدَرِ؛ تقولُ: أعْجَبَني [ما صَنَعْتَ أي أعْجَبَني][1] صُنْعُكَ، فيكونُ مَعْناهُ: والسماءِ وبِنائِها.

فإنْ كانَ التأويلُ على الوجْهَينِ الأوَّلَينِ يَرْجِعِ القَسَمُ إلى اللهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ وإلى ما تَقدَّمَ مِنَ الشمسِ والقمرِ والنهارِ والليلِ. وإنْ كانَ على التأويلِ الآخَرِ رَجَعَ القَسَمُ إلى ما خَلَقَ، وهو السماءُ؛ فإنَّ بناءَ السماءِ عَينُها.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: إنَّ هذهِ الآياتِ في قولِهِ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ تُخَرَّجُ على التَّعجيبِ على شرطِ التَّقْديمِ، وإنْ كانتْ مؤخَّرَةً في اللفظِ؛ [كأنَّ اللهَ تعالى قالَ][2] وما [أدراكَ ما][3] السماءُ! ثم أجابَ بأنْ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٨] ورفَعَها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢ ولقمان: ١٠].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي بَسَطَها.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ قالوا: تَسْوِيَتُها في أنْ خَلَقَها باليَدَينِ والرِّجْلَينِ والعَينَينِ ونَحْوِها.

فإنْ كانَ على هذا فالتسويةُ تَرْجِعُ إلى الأغلَبِ لا إلى الجملةِ؛ إذْ ليسَ لكلِّ نفسٍ هذهِ الجوارحُ جملةً، فيكونُ معناهُ أنهُ سَوَّى أكثرَ النفوسِ بما ذَكَرَ مِنَ اليَدينِ والرِّجلَينِ، وذلكَ جائزٌ في الكلامِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] [وقولِهِ][4]: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [عم: ١١] ومعناهُ: أنهُ [جَعَلَ الليلَ][5] سَكَناً ومَقَرًّا لأكثرِ الخلائقِ لا للجملةِ، وجَعَلَ النهارَ لأكثرِ الخلائقِ معاشاً لا للجملةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: سَوَّى جَوارِحَها وأطرافَها ما لو لم يكُنْ لهُ جارحةٌ مِنْ تلكَ الجوارحِ لَوُصِفَ بالنُّقْصانِ، وهذا أعَمُّ مِنَ الأوَّلِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿سَوَّىٰهَا﴾ على[6] ما عليهِ مَصْلَحَتُها، فَتَمْلِكُ التَّقَلُّبَ والتَّعَيُّشَ، ليسَ على ما عليهِ سائرُ الحيوانِ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿سَوَّىٰهَا﴾ أي جَعَلَها بحيثُ احْتِمالُ الكُلْفةِ والمِحْنةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] يُميِّزُ بينَ القَبيحِ والحَسَنِ، ويَعْرِفُ عَواقبَ الأمورِ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وهذا يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحدُها: أي بَيَّنَ لها فُجورَها وتَقْواها، وعَلَّمَها. فَمَنْ زَعَمَ أنَّ المَعارفَ ضروريةٌ خِلْقَةً يَحْتَجُّ بهذهِ الآيةِ، فيقولُ: أخبَرَ اللهُ تعالى أنهُ عَلَّمَها فُجورَها وتَقْواها وأنهُ وَضَعَ في نفسِهِ ما يَعْرِفُ بهِ قُبْحَ كلِّ قبيحٍ وحُسْنَ كلِّ حَسَنٍ.

والأصلُ فيهِ عندَنا أنهُ يُعْرَفُ حُسْنُ الأشياءِ وقُبْحُها جُمْلةً بِبَداهةِ العُقولِ، ولكنَّ العقولَ لا تَعرِفُ حُسْنَ كلِّ شيءٍ على الإشارةِ إليهِ ولا قُبْحَ كلِّ قبيحٍ على الإشارةِ إليهِ، وإنما يُعْرَفُ ذلكَ إمّا بِخَبَرٍ يَرِدُ على لُغَى الرسلِ ﷺ [وإمّا][7] باسْتِعْمالِ الفِكْرِ.

ألا تَرَى أنكَ تَجِدُ النفسَ مِنْ طَبْعِها أنها تَألَفُ المَلاذَّ والمنافعَ، وتَنْفُرُ عنِ المَكارِهِ والآلامِ، ولكنها لا تَعْرِفُ مَعْرِفةَ كلِّ مُنْتَفَعٍ على الإشارةِ، وإنما تعرفُ ذلكَ بالذَّوقِ.

وكذلكَ العينُ تُدْرِكُ الألوانَ، لكنها لا تَعْرِفُ [حُسْنَ اللَّونِ][8] وقُبْحَهُ، بلِ العقلُ هو الذي يَفْصِلُ بَينَهما.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: كانه يقول الله. (٣) ساقطة من الأصل وم. انظر تفسير الآية ٣ من سورة الحاقة والآية ٤ من سورة المرسلات والآيات المشابهة لها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: جعلها. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: غير. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: حسنه.

فَعَلَى ذلكَ قد جَعَلَ في طبعِ العقلِ قُبْحَ القَبائحِ جُمْلَةً وحُسْنَ الحَسَنِ، ولكنْ لا يَفْصِلُ بَينَهما على الإشارةِ إلى كلٍّ في نفسِهِ إلّا بِما ذَكَرْنا، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي جَعَلَ في نفسِها ما يُبَيِّنُ القبيحَ مِنَ الحَسَنِ والخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، ويُبَيِّنُ قُبْحَ الفُجورِ وحُسْنَ التَّقْوَى، ويُلْزِمُهُ المِحْنَةَ والكُلْفَةَ بذلكَ. ثم يَصِلُ إلى معرفةِ ذلكَ إمّا بالرسُلِ وإمّا باسْتِعْمالِ الفِكْرِ.

[والثاني][1]: أنْ يُلْهِمَها تَقْواها إذا وَفَى بِما للهِ تعالى عليهِ مِنَ الاسْتِقامةِ والمُجاهدةِ.

ألَا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؟ [العنكبوت: ٦٩] فوعَدَ الهدايةَ بالجهادِ، وقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ثم كانتِ الإجابةُ مُضَمَّنَةً شريطةً، وهي أنْ يَسْتَجيبَ لهُ الداعي إذا دعاهُ.

ألَا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] وقولِهِ[2] تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقولِهِ[3] تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾؟ الآيةَ [المائدة: ١٢] فَثَبَتَ أنَّ الذي يُلْهَمُ التَّقْوَى، هو الذي يقومُ بوفاءِ ما عليهِ. فإذا قامَ بِهِ أُلْهِمَهُ التَّقْوَى، وبَيَّنَ له سَبيلَ الفُجورِ.

[والثالثُ: ما][4] قالَ أبو بكرٍ الأَصَمُّ في قولِهِ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي ألْزَمَها فُجورَها وتَقْواها، [فيكونُ تَقْواها][5] لها وفُجورَها عليها، لا يُؤاخَذُ أحدٌ بِفُجورِ أحدٍ. وفي هذا دليلٌ على أنَّ التَّقْوَى إذا ذُكِرَ مُفْرَداً انْصَرَفَ إلى الخَيراتِ أجْمَعَ، وإذا قُرِنَ بهِ البِرُّ والإعطاءُ انْصَرَفَ إلى الاتِّقاءِ عنِ المحارمِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾][6] [الليل: ٥و٦] فإذا[7] بَرَّ، واتَّقَى، أُريدَ بهِ أنهُ بَرَّ بكلِّ ما يُحْمَدُ عليهِ، واتَّقَى عن كلِّ ما [يُذَمُّ عليهِ فاعِلُهُ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ فَمَوقِعُ ما تَقَدَّمَ مِنَ القَسَمِ بالشمسِ والقمرِ والليلِ والنهارِ على هذا.

فقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾][8] في الآخرةِ[9] [فيكونُ هذا مُنْصَرِفاً إلى الجزاءِ في الآخرةِ على][10] ما يَذْكُرُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤] فيكونُ في هذا إيجابُ القولِ بالبعثِ مِنَ الوجهِ الذي نَذْكُرُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

ثم اخْتَلَفوا في تأويلِ الفلاحِ: قالَ بعضُهُمْ: أفْلَحَ أي سَعِدَ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: أي بَقِيَ في الخَيراتِ، والفَلاحُ البقاءُ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: أفْلَحَ أي فازَ، والمُفْلِحُ في الجملةِ، هو الذي يَظْفَرُ بما يَأْمُلُ، ويَنْجو عما يَحْذَرُ، فيدخُلُ في تلكَ السعادةِ والبقاءِ والفوزِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصرِفاً إلى اللهِ تعالى، وجائزٌ أنْ يَنْصرِفَ إلى العبدِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] وقالَ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [يونس: ٥٨] فَبَيَّنَ اللهُ تعالى أنهُ هو الذي يُفَضِّلُ بتزكيتِهِ مَنْ زَكَا. وجائزٌ أنْ يكونَ يُصْرَفُ إلى العبدِ قولُهُ تعالى: ﴿زَكَّاهَا﴾ أي صاحِبُها. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ يَحْتَمِلُ هذينِ الوَجْهَينِ، فيكونُ / ٦٤٣ ـ ب/ اللهُ تعالى، هو الذي أنشأَ فعلَ الضلالِ، فيكونُ الفعلُ مِنْ حيثُ الإنشاءِ مِنَ اللهِ تعالى ومِنْ حيثُ الفعلُ مِنَ العبدِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي أخفاها، وإخفاؤها أنهُ صَيَّرَها بحيثُ لا تُذْكَرُ في المحافلِ إلّا بالذَّمِّ، وزَكَّى الآخَرُ [نَفْسَهُ: أي طَهَّرَها][11] حتى يَنْظُرَ إليها الناسُ بِعَينِ التَّبْجيلِ والتَّعْظيمِ. وهكذا شأنُ المُتَّقي أنْ يكونَ مُبَجَّلاً مُعَظَّماً في ما

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر وهو. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: قيل. (٨) ساقطة من م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل، في م: على. (١١) في الأصل وم: أظهرها.

بينَ الخَلْقِ، والفاجرُ يعيشُ مَذْموماً مُهاناً في ما بَينَ الخَلْقِ، أو يرجِعُ الإظهارُ والإخفاءُ إلى الآخِرةِ، فَيَجِلُّ قَدْرُ المُتَّقي المُزَكّي، ويَخْمُدُ ذِكْرُ الفاجرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿دَسَّىٰهَا﴾ منْ دَسَّسَ، فأسقطَ السينَ، وأبدلَ مكانَها الياءَ.

ثم الإضافةُ في قولِهِ ﴿دَسَّىٰهَا﴾ إلى اللهِ تعالى على خَلْقِ ذلكَ الفعلِ منهُ، وفي قولِهِ ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ على التوفيقِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ ولم يُبيِّنْ لِمَنْ كَذَّبوا، وقد بَيَّنَهُ في آيةٍ أُخرى، فقالَ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[١]: لأجلِ مَعْصِيَتِهِمْ[٢] وطُغْيانِهِمْ؛ إذِ الحاملُ لهمْ على التكذيبِ طُغْيانُهُمْ وتركُهُمُ التفكُّرَ في أمرِهِ، وإلّا لو تَفَكَّروا في ما جاءَهُمْ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ لم يَجِدوا موضعَ التكذيبِ.

والثاني: بأهلِ طَغْواها، أي كذَّبَتْ ثمودُ بسببِ أهلِ الطُّغْيانِ، فيكونُ في هذهِ الآيةِ أنهمْ لم يُكَذِّبوا رسولَهُمْ بِشُبْهَةٍ اعْتَرَضَتْ لهمْ أو بِحُجَّةٍ كانتْ لهمْ، بل كَذَّبوهُ عنْ عنادٍ منهمْ وتَيَقُّنٍ منهمْ برسالتِهِ؛ وذلكَ أنَّ نَبِيَّهُمْ صالحاً عليه السلام جاوَزَتْهُ الحُجَجُ، لأنهمْ أُوتوا الناقةَ على سؤالٍ سَبَقَ منهمْ وعلى تَعَدٍّ منهمْ في السؤالِ على شيءٍ يُشيرونَ إليهِ؛ فهمْ بإشارتِهِمْ إلى سؤالِ الناقةِ كانوا مُعْتَدِينَ فيهِ.

ثم مِنْ حكمةِ اللهِ أنَّ الحجَّةَ إذا كانتْ على إثْرِ السؤالِ، ثم ظَهَرَ التكذيبُ منَ السائلينَ، هي[٣] الإسْتِئصالُ في الدنيا، وقد وُجِدَ منْ أولئكَ القومِ السؤالُ والتكذيبُ، فَعُوقِبوا بالإسْتِئصالِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] فَبَيَّنَ اللهُ تعالى المَعْنَى الذي لم يرسِلِ الآياتِ التي سألَتِ الكَفَرةُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو أنهمْ لمّا أُوتوا، ثم عَنَدوا، اسْتُؤْصِلوا؛ فقد أرادَ اللهُ تعالى إبقاءَ أُمَّتِهِ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، وأرسلَهُ رحمةً للعالمينَ، وجَعَلَ حُجَّتَهُ منْ وجهٍ فيها رحمةٌ للعالمينَ، وهي القِتالُ، وكانَ في الجهادِ وما يُضَيِّقُ عليهمُ المعاشَ، ويَضْطَرُّهُمْ إلى النَّظَرِ في الحُجَجِ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على تصديقِهِ والإيمانِ بهِ، فَثَبَتَ أنَّ القِتالَ رحمةٌ عليهمْ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أي قامَ أشقاها، وصارَ أشقاها بما أحدَثَ منَ الكُفْرِ بِعَقْرِ الناقةِ ﴿ورُوِيَ عنْ عمّارِ بنِ ياسرٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه ألا أُخْبِرُكَ بأشقى الناسِ؟ [قالَ: بلى، فقالَ: رجلانِ][٤]: أُحَيْمِرُ ثمودَ عاقرُ الناقةِ، والذي يَضْرِبُكَ على هذهِ، وأشارَ إلى هامتِهِ، حتى تَبْتَلَّ منها هذهِ، وأشارَ إلى لِحْيَتِهِ﴾ [السيوطي في الدر المنثور ج٨/ ٥٣١] فصارَ [ضارِبُهُ كَعاقِرِ][٥] الناقةِ أشقى الناسِ لأنهُ اسْتَحَلَّ قتلَهُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أيِ احْذَروا ناقةَ اللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]

والثاني: أي قالَ احْذَروا ناقةَ اللهِ تَأْكُلُ في أرضِ اللهِ، وذَروا بَينَ الناقةِ ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ وشُرْبِها[٦] ثم أُضيفَتِ الناقةُ إلى اللهِ تعالى لِوَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ اللهَ تعالى لم يأذَنْ لأحدٍ بِتَمَلُّكِها[٧] حتى يُنْسَبَ إليهِ المُلْكُ، بل بقِيَتْ غَيرَ مَمْلوكةٍ لأحدٍ، فأضيفَتْ إلى اللهِ تعالى كما أُضيفَتْ إليهِ المساجدُ لِما لا مُلْكَ لأحدٍ عليها.

[والثاني: أنها][٨] أُضيفَتِ إلى اللهِ تعالى على مَعْنَى التَّفْضيلِ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: معصيتها. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: رجلين قال بلى يا رسول الله فقال.
(٥) في الأصل وم: عاقر. (٦) في الأصل وم: أو شربها. (٧) في الأصل وم: بالتملك عليه، في م: بالتملك عليها. (٨) في الأصل وم: أو.

والأصلُ: أنّ إضافةَ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى بحَقِّ الحُرُماتِ على تَفْضيل تلكَ الأجزاءِ منْ بَينِ غَيرِها. فإضافةُ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى بِحَقِّ اللهِ تعالى بِحَقِّ الكُلّيّاتِ يُخَرِّجُ مُخرَجَ تَعْظيمِ اللهِ تعالى؛ فإذا قيلَ: ربُّ المساجدِ أُريدَ بهِ تَفْضيلُ المساجدِ مِنْ بَينِ سائرِ البِقاعِ، وإذا قيلَ: ربُّ العرشِ أُريدَ بهِ تعظيمُ العرشِ، وكذلكَ إذا قيلَ: ربُّ الناقةِ أُريدَ بهِ تَعْظيمُ أمرِها، وإذا قيلَ: ربُّ العالَمينَ وربُّ كلِّ شيءٍ أُريدَ بهِ تَعْظيمُ الربِّ، جَلَّ جلالُهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ كَذَّبوا صالحاً ﷺ في رسالتِهِ، أو كَذَّبوهُ في ما أخبَرَهُمْ مِنْ حُلولِ العذابِ بهِمْ إذا عَقَروا الناقةَ، فَعَقَروها معَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي أطْبَقَ عليهِمُ العذابَ على الصغيرِ والكبيرِ، ومنهُ يُقالُ: بَعيرٌ مَدْمومٌ إذا كانَ سميناً، أطْبَقَ شَحْمُهُ على لَحْمِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: دَمْدَمَ عليهِمْ أي دَمَّرَ عليهِمْ ﴿رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ وذنْبُهُمْ ما تَعَدَّوا مِنْ تَكْذيبِهِمُ الرسولَ وعَقْرِهِمُ الناقةَ.

وقولُهُ تعالى ﴿فَسَوَّاهَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ سَوّاهُمْ[1] بالأرضِ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

[والثاني: أنهُ][2] سَوّى بَينَ الصغيرِ والكبيرِ في الإهلاكِ، فالصغارُ منهمْ يومئذٍ ماتوا بآجالِهِمْ، والكبارُ منهمُ اسْتُؤْصِلوا بِذُنوبِهِمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ فجائزٌ أنْ تكونَ الإضافةُ مُنْصَرِفةً إلى اللهِ تعالى، وهو أنْ يكونَ اللهُ تعالى لمّا أهلَكَهُمْ لم يَخَفْ تَبِعَةَ الإهلاكِ، وَوَجْهُ الخَوفِ، هو أنهُ في ما [أهْلَكَهُمْ][3] بما أوجَبَتِ الحكمةُ إهلاكَهُمْ، ولم يَلْحَقْهُ تَقْصيرٌ في الحكمةِ، ولا وَجَدَ الغائبُ في ذلكَ مَقالاً، وهكذا قالَ الحَسَنُ: ذاكَ ربُّنا لم يَخَفْ ممّا أنْزَلَ عليهِمُ العذابَ.

أو تكونَ مُنْصَرِفةً[4] إلى العاقرِ، فيكونَ معناهُ أنهُ عَقَرَها، ولم يَخَفِ العاقبةَ التي حَذَّرَهُمْ بها صالحٌ ﷺ في[5] قولِهِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي لم يَعْلَمْ ما يَحُلُّ بهِ منْ عَقْرِ تلكَ الناقةِ، ولو عَلِمَ لم يَفْعَلْ، ويجوزُ اسْتِعمالُ الخَوفِ في مَوضعِ العِلْمِ لأنّ الخَوفَ إذا بَلَغَ غايتَهُ صارَ عِلْماً.

ثم الحكمةُ في ذِكْرِ قصةِ ثمودَ وجهانِ:

أحَدُهما: أنّ في ذِكْرِها تثْبيتَ رسالةِ محمدٍ ﷺ وهو أنّ النَّبِيَّ ﷺ لم يُوجَدْ منهُ الاخْتِلافُ إلى مَنْ عندَهُ / ٦٤٤ ـ أ/ عِلْمُ الأنباءِ والأخبارِ [ولا][6] كانَ يَعْرِفُ الكتابةَ لِتَقَعَ لهُ المعرفةُ بها، فَثَبَتَ أنهُ بالوحيِ عَلِمَ.

والثاني: أنّ في ذِكْرِهِ تَحْذيراً لِمُكَذِّبي الرسُلِ، فَحُذِّروا بهِ لِيَمْتَنِعوا عنْ تكذيبِهِ، فلا يَحُلُّ بهمْ ما حَلَّ بِمُكَذِّبي صالحٍ ﷺ مِنْ بأسِهِ وعذابِهِ، واللهُ الهادي [وعليهِ اعْتِمادي][7].

(١) من م، في الأصل: سواه. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: منصرفاً. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من م.

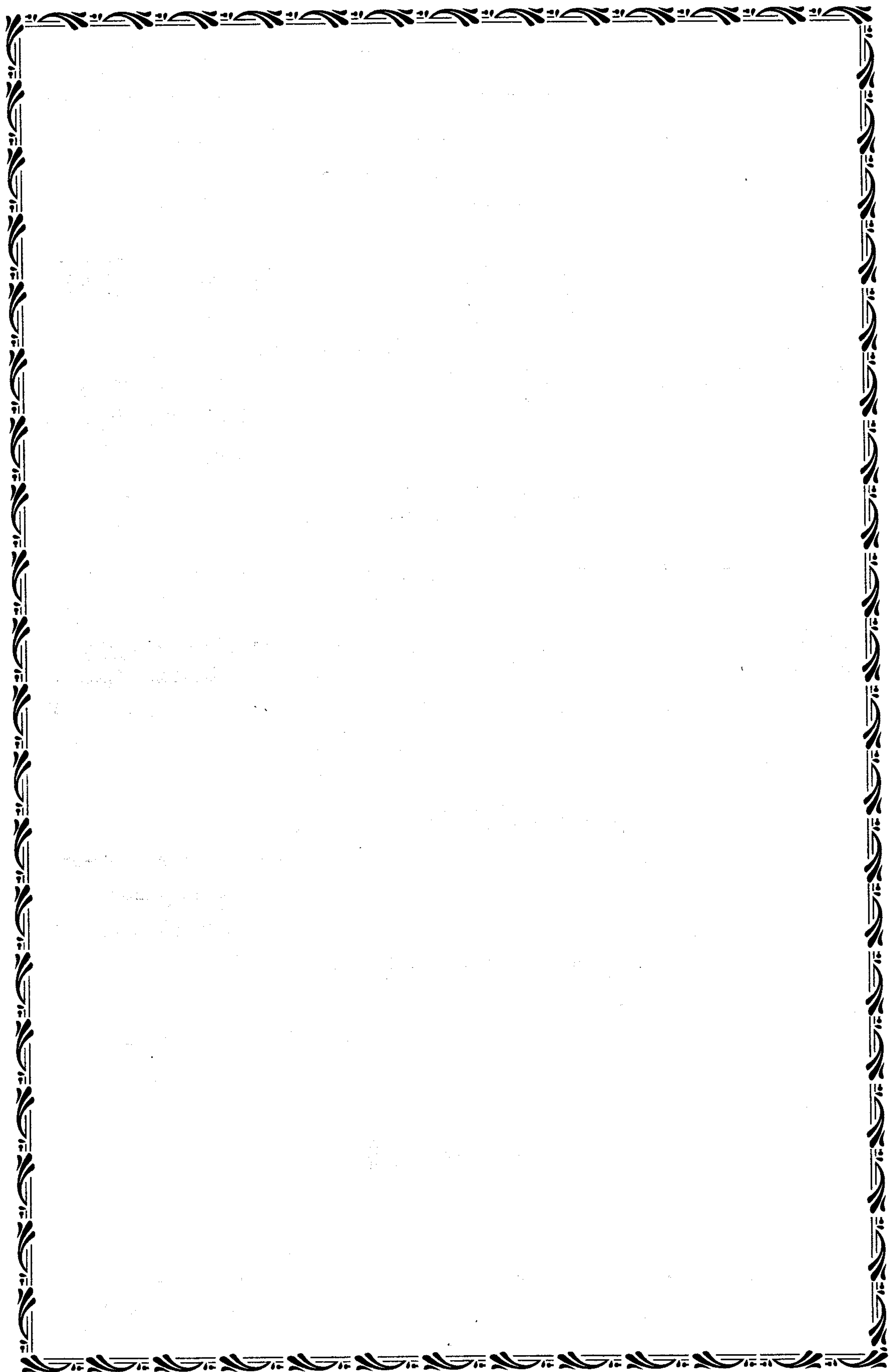

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى الليلَ والنهارَ آيتَينِ عظيمتَينِ ظاهرتَينِ مُكَرَّرتَينِ على الخلائقِ ما يَعْرِفُ كلُّ كافرٍ ومؤمنٍ وجميعُ أهلِ التنازُعِ الذينَ تَنازَعوا: أهلِ الإيمانِ والتّوحيدِ والجَبابرةِ[١] والفراعنةِ.

والقسمُ بقولِهِ: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [وقولِهِ][٢] ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١و٢] واحدٌ. وقد ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ إنما يُذْكَرُ في تأكيدِ ما يَقَعُ بهِ القسمُ ما لولا القَسَمُ لكانَ [ذلكَ][٣] يُوجَبُ دونَ القسمِ؛ وذلكَ لِعِظَمِ ما فيهما حتى قَهَرا جميعَ الفراعنةِ والجبابرةِ، وغَلَبا عليهِمْ في إتيانِهما وذَهابِهما حتى إنَّ مَنْ أرادَ منهمْ دفعَ هذا ومَجيءَ هذا ما قَدَرُوا عليهِ.

وفيهما دلالةُ وَحْدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، فاتِّساقُهُما[٤] أو جَرَيانُهما على حَدٍّ واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ مُذْ كانا، وأُنْشِئا مِنَ الظُّلْمةِ والنورِ والزِّيادةِ والنُّقْصانِ، فَدَلَّ جَرَيانُهما على ما ذَكَرْنا أنَّ مُنْشِئَهما واحدٌ؛ إذْ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لكانَ إذا جاءَ هذا، وغَلَبَ الآخَرَ، دامَتْ غَلَبَتُهُ عليهِ، وكذلكَ الآخَرُ يكونُ مَغْلوباً أبداً والآخَرُ غالباً. فإذا لم يَكُنْ ذلكَ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ.

ويَدُلُّ أيضاً على أنْ ليسَ ذلكَ عَمَلَ النورِ والظُّلْمةِ على ما تقولُهُ الثَّنَويَّةُ، ويدلُّ أيضاً [على أنَّ][٥] مَنافعَ أحدِهِما بِمنافعِ الآخرِ وعلى[٦] أنَّ ذلكَ عَمَلُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

ودَلَّ اتِّساقُ ما ذَكَرْنا ودَوامُهُ[٧] على حدٍّ واحدٍ على الاسْتِواءِ أنَّ مُنْشِئَهُما مُدَبِّرٌ عليمٌ، عنْ تدبيرٍ وعِلْمٍ خَرَجَ ذلكَ لا على الجُزافِ بلا تدبيرٍ. ودَلَّ مجيءُ كلِّ واحدٍ منهما بِطَرْفَةِ عينٍ على أنَّ مُنْشِئَهما قادرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ مِنْ بعثٍ وغَيرِهِ[٨].

ودَلَّ ما ذَكَرْنا أنَّ فاعلَ ذلكَ حكيمٌ، عنْ حِكْمةٍ خرجَ فِعْلُهُ، لا يُحْتَمَلُ أنْ يَتْرُكَهُمْ سُدىً، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ [ولا يَمْتَحِنُهُمْ][٩] بأمورٍ. وكذلكَ جَعَلَ في ما ذَكَرَ [مِنَ الذَّكَرِ][١٠] والأنثى مِنَ الدّلالاتِ والآياتِ مِنَ الازْدِواجِ والتَّوالُدِ والتَّناسُلِ وغَيرِ ذلكَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ حَرْفَ: ما متى قُرِنَ بالفعلِ الماضي صارَ بِمَعْنى المصدرِ، كأنهُ قالَ: وخَلْقِ الذَّكَرِ والأُنثى، فيكونُ قَسَماً بجميعِ الخلائقِ، إذْ لا يَخلو شيءٌ مِنْ أنْ يكونَ ذَكَراً أو أُنثى، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: [وخَلْقِ الذَّكَرِ والأُنثى][١١]. وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قَرَأَ كذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ما ههنا بِمَعْنَى الذي، كأنهُ قالَ: والذي خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثى، فيكونُ على هذا الوَجْهِ القَسَمُ باللهِ تعالى، وعلى التأويلِ الأوّلِ بالذَّكَرِ والأُنثى.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ قالوا: على هذا وَقَعَ القَسَمُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ كُلّاً يَعْلَمُ مِنْ كافرٍ ومُؤمنٍ أنَّ سَعْيَكُمْ لَمُخْتَلِفٌ، فما الحِكْمةُ والفائدةُ مِنْ ذِكْرِ القَسَمِ على ما يَعْلَمُ كلُّ ذلكَ؟

---

(١) في الأصل وم: من الجبابرة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ودوامها. (٨) في الأصل وم: ولا غيره. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: والذكر.

[قيلَ: الوجهُ][1] فيهِ، واللهُ أعلَمُ أنَّ ما يَقَعُ لهمْ بالسَّعْيِ وما يَسْتوجِبونَ بهِ مُخْتَلِفٌ في الآخِرَةِ، وهو جَزاءُ السَّعْيِ، كأنهُ قالَ: إنَّ جَزاءَ سعيِكُمْ وثوابَهُ لَمُخْتَلِفٌ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يقولونَ إنْ كانَتْ دارُ أُخرَى على ما يَقولُهُ محمدٌ ﷺ فنحنُ أحقُّ بها مِنِ اتِّباعِ محمدٍ ﷺ بقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ لأنَّ المُعْطِيَ في الشاهدِ يَنْفَعُ غيرَهُ، ويَضُرُّ نفسَهُ في الظاهرِ، والمُمْسِكَ يَنْفَعُ نفسَهُ[ويَضُرُّ غيرَهُ][2] ثم المُعْطي محمودٌ عندَ الناسِ. فلو لم تكنْ عاقبةٌ، يَنْتَفِعُ المُعْطي بما أعْطَى، ويَضُرُّ البخيلَ المنعُ لكانَ الناسُ بما حَمِدوا هذا، وذَمُّوا الآخَرَ، سُفَهاءَ. دَلَّ[3] أنَّ العاقبةَ، هي التي تُصَيِّرُ هذا مَحموداً، وأنَّ الخَلْقَ جميعاً مِنْ مسلمٍ وكافرٍ ومُحْسنٍ ومسيءٍ قدِ اسْتَوَوا في نِعَمِ هذهِ الدنيا ولَذَّاتِها بما ذَكَرْنا منْ مَمَرِّ الليلِ والنهارِ ممّا يَخْلُقُ فيهما مِنَ النباتِ والثمارِ والعيونِ والأشجارِ.

فإذا وَقَعَ الاسْتِواءُ في هذهِ الدارِ، وبهِ ورَدَتِ الأخبارُ عنِ النَّبيِّ المُخْتارِ أنَّ الناسَ شُرَكاءُ في الماءِ والنارِ والكَلإِ، فلا[4] بدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى للأشقياءِ والأبرارِ لِيَقَعَ بها التَّفاوُتُ بَيْنَ الأبرارِ و الأشرارِ أو النافعِ منهمْ نفسَهُ والضّارِّ.

وإذا ثَبَتَ أنهما اسْتَوَيا في منافعِ الليلِ والنهارِ وجميعِ ما في الدنيا مِنَ الأنزالِ وغيرِها، فإذا وَقَعَ الاسْتِواءُ بَيْنَهُمْ في الدنيا فلا بُدَّ منْ دارٍ أُخرَى يَقَعُ التَّفاوُتُ والتَّفاضُلُ بينَهُمْ، وفيها يُمَيَّزُ ما ذَكَرْنا.

الآيات ٥ - ١٠ ثم بَيَّنَ أنَّ السَّعْيَ [الذي][5] يَقَعُ الجزاءُ لهُ مُخْتَلِفٌ لِما[6] ذَكَرَ بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾][7] وهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

[أحدُها][8]: يَحْتَمِلُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي أعطَى ما [أَمَرَ اللهُ][9] بهِ، واتَّقَى عِصيانَهُ وكُفرانَ نِعَمِهِ، أوِ اتَّقَى المَنْعَ، أو [مَنْ][10] أعطَى التَّوحيدَ للهِ تعالى منْ نفسِهِ، واتَّقَى الشِّرْكَ والكفرانَ لِنِعَمِهِ، وصَدَّقَ بِمَوعودِ اللهِ تعالى﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ للأعمالِ والشرائعِ أو لِشَرْحِ صدرِهِ لِلتَّوحيدِ والأسلامِ، ونُيَسِّرُهُ عليهِ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ ولم يأتِ بالتَّوحيدِ ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عنِ اللهِ تعالى بماعندَهُ، وكَذَّبَ بموعودِ اللهِ تعالى﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ لِما يُعِدُّهُ مِنَ الأعمالِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: في حقِّ القَبولِ والعَزْمِ على وفاءِ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ أي قَبِلَ الإعطاءَ، وعَزَمَ على وفاءِ ذلكَ ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي عَزَمَ [على][11] اتِّقاءَ معاصي اللهِ ومَحارِمِهِ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي بِمَوعودِهِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي سَنُيَسِّرُهُ لوفاءِ ما عَزَمَ ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ أي [عَزَمَ][12] على البُخْلِ والمَنْعِ بذلكَ ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ بالذي لهُ عندَهُ، وكَذَّبَ بِمَوعودِ اللهِ تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ لوفاءِ ما عَزَمَ مِنَ الخِلافِ للهِ تعالى والمَعْصيةِ لهُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ/ ٦٤٤ - ب/ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنْ ذلكَ، فقالَ: «كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لهُ» [مسلم ٢٦٤٩] أو قالَ: «كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما عملَ» [البخاري ٤٩٤٩].

والثالثُ: يُخَرَّجُ على حقيقةِ إعطاءِ ما وَجَبَ مِنَ الحَقِّ في المالِ وحقيقةِ المنعِ؛ يقولُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما وَجَبَ مِنْ حقِّ اللهِ تعالى في ما لِهِ ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ نِقْمةَ اللهِ ومَقْتَهُ وعذابَهُ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي بِمَوعودِ اللهِ تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ في الخَيراتِ والطاعاتِ ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي مَنَعَ حَقَّ اللهِ تعالى الذي في مالِهِ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ بالذي وَعَدَ على ذلكَ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ في الإفضاءِ إلى ما وَعَدَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ قيلَ: إنْ أُهلِكَ، وماتَ، أو تَرَدَّى في النارِ.

وفي ظاهرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ دلالةٌ على أنَّ الآيةَ في حقيقةِ الإعطاءِ مِنَ المالِ والمَنْعِ.

[وقولُهُ تعالى][13]: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بالجنةِ، وقيلَ: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وقيلَ: بالخَلَفِ على ما أنفَقَ.

---

(١) في الأصل وم: فالوجه. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فدل. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) ساقطة من الأصل م. (٨) في الأصل وم: أمر. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

وجائزٌ أنْ تكونَ اليُسْرَى اسماً[1] للجنةِ، وكذلكَ الحُسْنَى، والعُسْرَى والسُّوأى النارَ. ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ اسماً لكلِّ ما طابَ، وحَسُنَ منَ العَمَلِ، والعُسْرَى ما خَبُثَ، وقَبُحَ مِنَ العَمَلِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الآيةَ نزلَتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ إنهُ اشْترى بلالاً مِنْ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ بِبُرْدَةٍ وعَشْرِ أواقٍ [مِنَ الذهبِ][2] فأعْتَقَهُ للهِ تعالى، فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ يعني سَعْيَ أبي بكرٍ وأُمَيَّةَ وأُبَيٍّ. وذُكِرَ في آخرِ السورةِ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أبو بكرٍ ﷺ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ [وأُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ][3] يَرْوي[4] عبدُ اللهِ بْنُ مسعودٍ ﷺ هذا.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: جائزٌ أنْ يكونَ ﴿عَلَيۡنَا﴾ أي لنا، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ جارٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ وكقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وكقولِهِ[5]: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦] أي لنا مُحاسَبَتُهُمْ [وكقولِهِ][6]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] أي للهِ قَصْدُ السبيلِ وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام: ٣٠] أي لربهمْ كما قالَ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]

ونحوُ ذلكَ كثيرٌ: أنْ يكونَ علينا بِمَعْنَى لنا، فيصيرُ كأنهُ قالَ: إنَّ لنا لَلْهُدَى كقولِهِ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وكقولِهِ: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] يكونُ فيهِ إخبارٌ أنَّ الهُدَى والدِّينَ الخالصَ لهُ. وأمّا سائرُ الأديانِ فهي[7] سبيلُ الشيطانِ، ليسَتْ للهِ تعالى.

على هذا جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ. والوجهانِ يُخَرَّجانِ على حقيقةِ على. لكنَّ أحَدَهما يُخَرِّجُ ذكْرُ الهُدَى على إرادةِ البَيانِ في تَبْيينِ الطريقِ، والآخَرَ على إرادةِ حقيقةِ الهُدَى [الذي][8] هو ضِدُّ الكفرِ ومُقابِلُهُ.

فأمّا على إرادةِ البَيانِ فكأنهُ قالَ: إنَّ علينا غايةَ البَيانِ في حقِّ الحِكْمةِ والعَدْلِ في ما يُمْتَحَنونَ حتى إنْ كانَ التَّقْصيرُ والتَّفْريطُ فإنما يكونُ مِنْ قِبَلِ أنفسِهِمْ لا مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالى، أو يُبَيِّنُ لهمْ كلَّ شيءٍ غايةَ البيانِ ونهايَتَهُ لِتَزولَ الشُّبْهَةُ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: جائزٌ][9] أنْ يقولَ: إنَّ علينا هِدايةَ مَنِ اسْتَهْداها[10]، واجْتَهَدَ في طَلَبِها كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

[والثالث:][11] أنَّ علينا إنجازَ ما وَعَدْنا على الهُدَى لِمَنِ اهْتَدَى.

وإنجازُهُ[12] يُخَرِّجُ تأويلَ الآيةِ على أنَّ إرادةَ البَيانِ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا. وأمّا على إرادةِ حقيقةِ الهُدَى الذي هو مُقابِلُ الكُفْرِ فكأنهُ قالَ: إنَّ علينا التَّوفيقَ والمَعونةَ والعِصْمةَ في حقِّ الإحسانِ والإفضالِ لا على أنَّ ذلكَ عليهِ لهمْ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: إنَّ علينا بَيانَ ما للآخِرَةِ والأولَى كيلا يَزِلَّ[13] عن قَصْدِ الطريقِ، فَتَهْلِكَ نفسُهُ في كلِّ مَضيقٍ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ، : إنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ لنا الآخِرَةَ والأولَى، وليسَ لِما تَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ الآخِرَةُ والأولَى، فكيفَ صَرَفْتُمْ عبادَتَكُمْ عَمَّنْ لهُ الآخرةُ والأولى إلى مَنْ ليسَ لهُ الآخرةُ والأولى على عِلْمٍ منكمْ بذلكَ؟ يُسَفِّهُهُمْ في اخْتِيارِهِمْ عبادةَ الأصنامِ على عبادةِ اللهِ تعالى.

(١) في الأصل وم: اسم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يرويه. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر وهو. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: استمد. (١١) في الأصل وم: ووجه آخر. (١٢) في الأصل وم: وإخباره. (١٣) في الأصل وم: يزول.

والثاني: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فما لكمْ تَبخَلونَ بالإنفاقِ على أنفسِكم وما تَرْجِعُ منفعتُهُ إليكمْ بما ليسَ لكمْ في الحقيقةِ، وإنما هو للهِ تعالى وهذا التأويلِ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ والأوّلُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي ناراً تتوقَّدُ، وتَتَلَهَّبُ، وتَتَشعَّبُ، على ما ذُكِرَ مِنْ صِفَتِها.

ثم الإنذارُ يكونُ للفريقَينِ لأهلِ التوحيدِ ولأهلِ الشِّرْكِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ قالتِ المعتزلةُ: هذا ليسَ على حقيقةِ التكذيبِ، ولكنْ على التَّقْصيرِ والتفريطِ في أمرِ اللهِ تعالى والوقوعِ في مَناهيهِ. فيُصَيِّرونَ الآيةَ إلى أصحابِ الكبائرِ بارتِكابِهِمُ الكبيرةَ، ويَصيرونَ[1] مُكَذِّبينَ ومُتَوَلّينَ لأنهمْ في ابْتِداءِ اعْتِقادِهِمُ التوحيدَ والإيمانَ اعْتَقَدوا وفاءَ كلِّ ما وقَعَ بِهِ الأمرُ وَوَفاءَ كلِّ ما يَليقُ بهِ والانْتِهاءَ عنْ كلِّ ما لا يَليقُ بهِ.

فإذا تَرَكَ [المرءُ][2] ذلكَ صارَ مُكَذِّباً لِما اعْتَقَدَ في الأصلِ وفاءَ ذلكَ.

لكنْ عندَنا لا يَصيرُ بِتَرْكِ الوفاءِ مُكَذِّباً، لكنْ يَصيرُ مُخالِفاً لِما وَعَدَ، واعْتَقَدَ.

واسْتَدَلَّتِ المُرْجِئةُ الذينَ لا يَرَونَ العذابَ إلّا لأهلِ الشِّرْكِ والكُفْرِ بهذهِ الآيةِ؛ يقولونَ: إنهُ لا يَصْلاها إلّا الذي كَذَّبَ، وتَوَلّى، والمسلمُ، وإنِ ارْتَكَبَ الكبيرةَ والصغيرةَ، فهو ليسَ بِمُكَذِّبٍ ولا مُتَوَلٍّ.

ولكنَّ تأويلَ الآيةِ عندَنا في الكَفَرةِ، ليسَتْ في أهلِ الإيمانِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ في بابٍ ودَرْكٍ دونَ دَرْكٍ وبابٍ [مِنَ النارِ][3] فإنَّ لكلِّ[4] فريقٍ دَرْكاً. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذا كما قالَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦]. فيكونُ الضريعُ الذي ذُكِرَ في بابٍ ودَرْكٍ منها والغِسْلينُ في بابٍ آخرَ، فجائزٌ على هذا ألّا يَصْلَى ذلكَ الدَّرْكَ إلّا الأشقى، ويجوزُ[5] أنْ يكونَ لصاحبِ الكبيرةِ دَرْكٌ خاصٌّ.

وأمّا ما ذَكَروا أنَّ أصحابَ الكبائرِ قد أُوعِدوا، وخُوِّفوا بِمَواعيدَ شديدةٍ، فلسْنا نُنْكِرُ المواعيدَ لهمْ وأنهمْ يُعَذَّبونَ، ولكنْ نقولُ: لا يكونونَ في الدَّرَكاتِ التي فيها الكفارُ، إنْ أُدْخِلوا في النارِ / ٦٤٥ ـ أ/ وجائزٌ أيضاً أنْ يُعَذَّبوا بعذابٍ سِوى العذابِ الذي ذُكِرَ بالنارِ والتَّلَظّي.

وعندَنا همْ في مَشيئةِ اللهِ تعالى؛ إنْ شاءَ عَذَّبَهُمْ، وإنْ شاءَ تَجاوزَ عنهمْ، وخَلّى عنهمْ سَبيلَهُمْ. وأمّا النارُ التي ذَكَرَ بِصِفَةِ التَّلَظّي، فهي للكُفّارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٧و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أخبرَ أنهُ يُجنِّبُ النارَ عنِ الأتقى، ويَقيهِ عنها.

ثم فيهِ دلالةُ أنهُ إنما يَتَجنَّبُها، ويَتَّقيها، بالأعمالِ التي يَعْمَلُها، فَدَلَّ أنَّ للهِ تعالى في أفعالِهِمْ صُنْعاً حينَ[6] أضافَ الوِقايةَ إليهِ والتَّجَنُّبَ عنها، وهو كقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الآيتان ١٩و٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وباب. (٤) من م، في الأصل: كل. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فأما يجوز. (٦) في الأصل وم: حيث.

أحدُهما: أنّ[١] ما لأحدٍ عندَ اللهِ تعالى مِنْ نعمةٍ يُجزَى بها، ولا يَدَ يَسْتَحِقُّ [الثوابَ][٢] بها. لكنْ إذا أدّى نِعْمةً مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى التي أعطاها إياهُ لِغَيرِهِ ابْتِغاءَ وجهِهِ، وطَلَبَ مَرْضاتَهُ، يَجْزيهِ بفضلِهِ، كأنهُ كانَتْ لهُ عندَهُ نعمةٌ، يُجْزي بها.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ[٣] صِلَةَ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي يَتَصَدَّقُ، ويَتَزَكّى لِابْتِغاءِ وجهِ اللهِ تعالى على مَنْ ليسَ عندَهُ نِعْمةٌ ويَدٌ يُجازيهِ بها، ويُنْفِقُ عليهِ جَزاءً لِصنيعٍ قد سَبَقَ منهُ في حقِّهِ؛ كأنهُ يقولُ: لا يُعطي الزكاةَ أحداً عنْ مجازاةِ [ما][٤] سَبَقَ منهُ إليهِ مِنْ نعمةٍ، إنما أعطاهُ لهُ لا مُجازاةً، ولكنْ للهِ تعالى خالصاً.

وفيهِ دليلٌ ألّا يُعْطِيَ الرجلُ زكاةَ مالِهِ مَنْ عندَهُ لهُ نِعْمةٌ أو مِنّةٌ لأنهُ يُخَرِّجُ ذلكَ مُخْرَجَ الإعطاءِ بِبَدَلٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي يَرْضَى بالذي يُجْزَى بهِ، ويُساقُ إليهِ مِنَ الثوابِ. وحَرْفُ: الـ: سوف و الـ: عسى مِنَ اللهِ تعالى واجِبٌ؛ كأنهُ يقولُ: يعطيهِ حتى يَرْضَى.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ، وهو قولُهُ ﷺ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ في أبي بكرٍ رضي الله عنه. وقالَ بعضُهُمْ: هذِهِ الآيةُ نَزَلَتْ في أبي الدَّحداحِ رضي الله عنه طَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ منهُ نَخْلَةً إلى آخِرِ القصةِ[٥].

وقالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ [الآية: ١١] في النارِ، أي سَقَطَ، ويُقالُ: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الرَّدَى، وهو الهلاكُ، و ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الآية: ٢] إذا بَدَا، و﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الآية: ٧] مِنَ التَّيْسيرِ، و ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الآية: ١٠] مِنَ التَّعْسيرِ. واللهُ أعلَمُ.

[والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبِهِ الطاهرينَ][٦].

(١) في الأصل وم: أي. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في م: قد، ساقطة من الأصل. (٥) لقد ذكر المؤلف خبراً آخر عن أبي الدحداح في تفسير الآية ٢٤٥ من سورة البقرة وتصدقه بحديقة له، انظر ج١/٤٣٨. (٦) ساقطة من م.

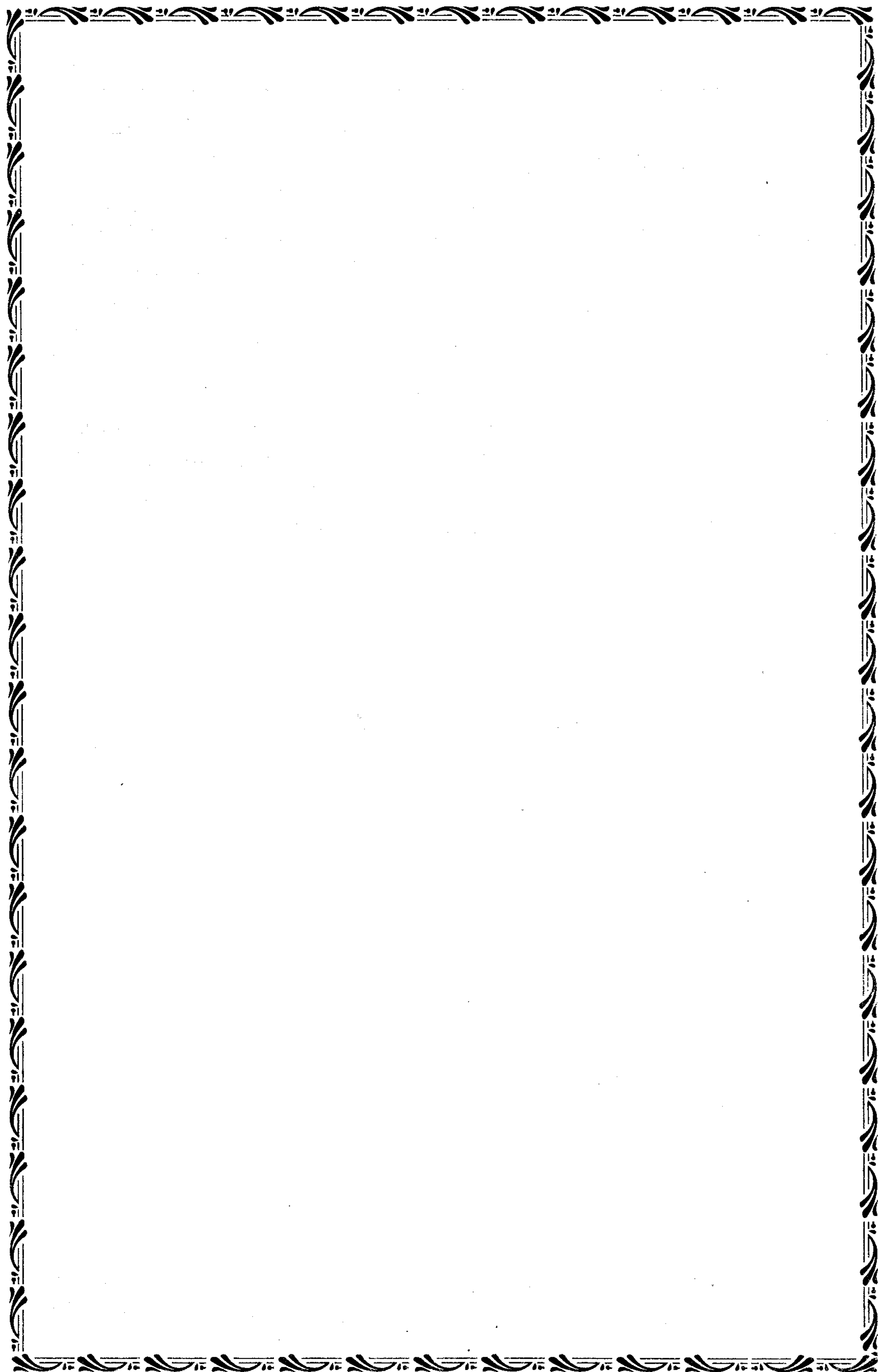

[سورة الضحى

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الضُّحى ضَوءُ النهارِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] أي وضَوئِها. وقالَ بعضُهُمْ: هو ساعةٌ مِنَ النهارِ، وهي مِنْ أوّلِ النهارِ. ويُقالُ: صلاةُ الضُّحى، وهي عندَ ضَحْوَةِ النهارِ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو كنايةٌ عنِ الحَرِّ كقولِهِ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨و١١٩] أي لا يُصيبُكَ الحَرُّ، واللهُ أعلَمُ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو كِنايةٌ عنِ النهارِ كلِّهِ؛ أقْسَمَ بِهِ وباللَّيلِ الذي ذَكَرَ.

فإنْ كانَ المُرادُ مِنَ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ هو ضَوءَ النهارِ ومِنَ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ظُلْمتَهُ، فَيُخرَّجُ القسمُ بهِ على أنَّ ظُلْمةَ الليلِ تَسْتُرُ الخَلائقَ كلَّهُمْ في طَرْفةِ عينٍ، وكذلكَ ضَوءُ النهارِ يَكْشِفُ السِّتْرَ، ويُجلّي بِطَرْفةِ عينٍ جميعَ الخلائقِ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ أحدٌ ثِقَلَ ذلكَ السِّتْرِ أو خِفّةَ ذلكَ الضوءِ. فأقْسَمَ بذلكَ لِعَظيمِ ما فيها مِنَ آلائِهِ.

وإنْ كانَ المُرادُ منهُ نفسَ الليلِ والنهارِ، فالقَسَمُ بهما لِما جَعَلَ اللهُ فيهما مِنَ المَنافِعِ الكثيرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: إذا استَوَى. وقالَ بعضُهُمْ: إذا سَكَنَ، ورَكَدَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ إذا غَشِيَ، وأظْلَمَ، وغَطّى كلَّ شيءٍ، وسَتَرَ، وهو مِنَ التَّسْجِيَةِ والتَّسَتُّرِ؛ يُقالُ: تَسَجّى قبرُ المرأةِ إذا تَسَتَّرَ، وتَغَطّى.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ على هذا وَقَعَ القَسَمُ. ثم اختُلِفَ في السببِ الذي نَزَلَ هذا: قالَ بعضُهُمْ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ سُئِلَ عنْ شيءٍ، إذْ طَلَبوا منهُ شيئاً، فقالَ: أفعلُ ذلكَ غداً، أو أُخبِرُكُمْ عنهُ غداً، ولم يَسْتَثْنِ، فاحْتَبَسَ عنهُ الوَحْيُ أياماً لِذلكَ فقالَ المشركونَ: وَدّعهُ ربُّهُ، وقَلاهُ، أي تَرَكَهُ، وأبغَضَهُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ أبطأَ عليهِ الوَحْيُ، فَجَزِعَ جَزَعاً شديداً، فقالَتْ لهُ خديجةُ ﵂: إني لأرَى قد قَلاكَ ربُّكَ، وودّعَكَ، [لِما رأتْ][2] مِنْ جزَعِهِ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ولسْنا نَدْري كيفَ كانَ الأمرُ.

فإنْ كانَ نَزَلَ ذلكَ لِقولِ قريشٍ فالقَسَمُ يَحتَمِلُ ذلكَ رَدّاً لِقولِهِمْ. [وإنْ كانَ][3] نَزَلَ لِقولِ خديجةَ ﵂ فهو غيرُ مُحتَمَلٍ لأنَّ خديجةَ تَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى، لم يُوَدِّعْهُ، ولا قَلاهُ، وكذا كلُّ مؤمنٍ مُعْتَقِدٌ أنَّ اللهَ تعالى لا يُوَدِّعُ أحداً مِنْ رسلِهِ، ولأنها تُصَدِّقُ الرسولَ ﷺ أنهُ لم يُوَدِّعْهُ، ولا قلاهُ، إذا أخبَرَها بِغيرِ قَسَمٍ، فلا مَعْنىً للقَسَمِ. دلَّ [أنَّ][4] هذا الوَجْهَ غيرُ مُحتَمَلٍ.

ثم صَرْفُ تأويلِ الآيةِ إلى غيرِ ما قالوا أشبَهُ عندَنا وأقرَبُ ممّا قالوا، وهو أنهُ ﷺ بُعِثَ إلى الفَراعِنةِ والجَبابِرةِ الذينَ كانتْ هِمَّتُهُمْ قَتْلَ مَنْ خالَفَهُمْ وإهلاكَ مَنِ استَقْبَلَهُمْ بالخِلافِ، ولم يكنْ معهُ فَضْلُ مالٍ وسَعَةٍ، يَسْتَميلُ بِهِ قلوبَ الناسِ، فيقولُ أولئكَ الكَفَرةُ: إنَّ ربَّهُ قد خَذَلَهُ، وتَرَكَهُ، وقَلاهُ، حينَ[5] بَعَثَهُ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ الفَراعِنةِ والجبابرةِ الذينَ كانتْ هِمَّتُهُمُ القَتْلَ وعادَتُهُمْ إهلاكَ مَنْ خالَفَهُمْ بلا أنصارٍ ولا أعوانٍ مِنَ الملائكةِ ولا مالٍ وسَعَةٍ يَسْتَميلُ بهِ القلوبَ والأنفسَ لأنَّ مَنْ سَلَّمَ إنساناً إلى أعدائِهِ الذينَ يَعْلَمُ أنهمْ أعداؤهُ، ويُخَلّي بينَهُ وبينَ الأعداءِ بلا أنصارٍ وأعوانٍ ولا مالٍ ولا سَعَةٍ مِنَ الدنيا،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: مما ترى. (٣) في الأصل وم: والقول الثاني أنه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.

فيُقالُ: إنهُ قد خذَلَهُ، وترَكَهُ، وقلاهُ؛ إذْ لا يُفعَلُ ذلكَ في الأصلِ إلّا لذلكَ. فعندَ ذلكَ قالوا: وَدَّعَهُ، وقلاهُ، وهو ما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ/ ٦٤٥ ـ ب/ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧و٨] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ونَحوُ ذلكَ ممّا قالوا.

فلولا صَرْفُ أهلِ التأويلِ تأويلَ الآيةِ إلى ما ذَكَروا، لكانَ[١] صَرْفُهُ إلى ما ذَكَرْنا أشبَهَ.

وفي[٢] قولِهِمْ: قد وَدَّعَهُ ربُّهُ [دلالتانِ:

أولاهما:][٣] أنهمْ قد عَرَفوا أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأقَرُّوا [بذلكَ][٤] حتى قالوا: نَزَلَ قولُهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

والثانيةُ[٥]: أنهُ لو كانَ يَختَرِعُ على ما كانَ يقولُ[٦] أولئكَ لكانَ لا يَحتَبِسُ عنِ الاختِراعِ، ويكونُ يَختَرِعُ أبداً حتى لا يقولوا: إنهُ وَدَّعَهُ. فَدَلَّ ظهورُ احتِباسِ الوحيِ أنهُ عن أمرٍ يُخبِرُ [عنهُ][٧] وأنهُ مأمورٌ بذلكَ.

ثم أخبَرَ أنهُ [لم يَبْعَثْهُ][٨] إلى هؤلاءِ الفراعنةِ والجبابرةِ لِما ذَكَرَ أولئكَ الكفَرَةُ أنهُ خذَلَهُ، وترَكَهُ، وقلاهُ، ولكنْ بَعَثَهُ، وهو يَنْصُرُهُ، ويُعِينُهُ على تَبليغِ ما أمَرَ بتَبليغِهِ إلى مَنْ أمَرَ بتبليغِهِ، ولم يَقْلِهِ، ولكنهُ اصطفاهُ، واختارَهُ، حتى يَعْلُوَ أمرُهُ، ويَكْثُرَ ذِكْرُهُ، وفي ذلكَ آيةٌ[٩] عظيمةٌ على إثباتِ الرسالةِ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُ بُعِثَ إلى مَنْ هِمَّتُهُمُ القتلُ والإهلاكُ لِمَنْ خالَفَهُمْ، فَقَهَرَهُمْ جميعاً، وغَلَبَ على الكُلِّ حتى أظْهَرَ الإسلامَ في مَنْ قَرُبَ منهُ[١٠] ومَنْ بَعُدَ[١١].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يقولُ: معَ ما أعطيتُكَ[١٢] في الدنيا منَ الشَّرَفِ والذِّكْرِ والغَلَبةِ على الفراعنةِ، فالآخِرةُ خَيرٌ لكَ مِنَ الأُولَى؛ يُرَغِّبُهُ في الآخِرةِ، ويُزَهِّدُهُ في الدنيا، أو يقولُ: إنَّ أولَى لكَ أنْ يكونَ سَعيُكَ للآخِرةِ مِنَ الأُولَى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ أي لَتُعطَى في الآخرةِ ما تَرْضَى منَ الكرامةِ والشَّرَفِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ في الدنيا منَ الذِّكْرِ والشَّرَفِ والمَنْزِلةِ والغَلَبةِ على الأعداءِ.

ويَحتَمِلُ: يُعطيكَ في أُمَّتِكَ ما تَرْجو، وتأمُلُ منَ الشفاعةِ لهمْ، وتَرْضَى.

ويقولُ بعضُ الناسِ: إنَّ أرْجَى آيةٍ هذهِ حيثُ وَعَدَهُ[١٣] أنهُ يُعطيهِ ما يَرْضَى، ولا يَرْضَى أنْ تكونَ أُمَّتُهُ في النارِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: أرْجَى آيةٍ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وهو قولُ ابنِ مَسْعودٍ.

وعندَنا: أرْجَى الآياتِ هي التي أمَرَ اللهُ تعالى رُسُلَهُ بالاستِغْفارِ للمؤمنينَ، وكذلكَ ما أمَرَ الملائكةَ بالاستِغْفارِ لهمْ، فاستَغْفَروا لهمْ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [آيةٌ ممّا][١٤] ذَكَرَ مِنَ الأحوالِ التي ذَكَرَ فيهِ: مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الآيات: ٦ و٧ و٨] وقولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ونَحوِ ذلكَ منَ الأحوالِ التي ذَكَرَ فيهِ [وهي][١٥] في الظاهرِ أحوالٌ تُذكَرُ للتَّبيينِ في مَنْ يُقالُ فيهِ.

لكنْ في ذِكْرِ ما ذُكِرَ فيهِ مِنَ الأحوالِ ذِكْرُ بِشارةٍ لرسولِ اللهِ ﷺ والنصرِ لهُ والعَونِ وآيةٌ لهُ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ؛ لأنَّ نَفاذَ القولِ وغَلَبةَ الأمرِ معَ الأحوالِ التي ذَكَرَ أعظَمُ في الأعجوبةِ مِنْ نَفاذِهِ في أحوالِ السَّعةِ وحالِ قوةِ الأسبابِ وتأكيدِها،

---

(١) في الأصل وم: وإلا. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: دلالة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: والثاني. (٦) في الأصل وم: يقولون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يبعث. (٩) في الأصل وم: لآية. (١٠) في الأصل وم: من. (١١) في الأصل وم: بعده. (١٢) في الأصل وم: أعطيت. (١٣) في الأصل وم: وعدله. (١٤) في الأصل وم: الآية ما. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

وهو[1] قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ونَحْوُهُ لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ كانوا يَنْسُبونَهُ إلى الافتِراءِ والاختراعِ مِنْ ذاتِ نفسِهِ، فأخبَرَ أنَّ اليتيمَ والفقيرَ، ليسَ يَبْلُغُ في العِلْمِ والمعرفةِ المَبْلَغَ الذي يَقْدِرُ على الاختِراعِ وإنشاءِ الشيءِ مِنْ ذاتِ نفسِهِ على وَجْهٍ يَعْجَزُ عَنْ مِثْلِهِ جميعُ الخلائقِ لِما لا يَجِدُ ما يُنْفِقُ في ذلكَ، ويَتَحمَّلُ المُؤَنَ حتى يَبْلُغَ مَبْلَغَ الاختراعِ. وكذلكَ ما ذَكَرَ حينَ[2] قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] لأنهمْ قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فالبشرُ إنما يَتَعلَّمونَ بالكتابةِ والخطِّ. فإذا لم يكُنْ لرسولِ اللهِ ﷺ [حظٌّ][3] مِنْ ذلكَ دلَّ أنهُ باللهِ تعالى عَرَفَ وَحْدَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ[4] قولُهُ: ﴿فَآوَىٰ﴾ وجوهاً:

أحدُها: وَجَدَكَ يتيماً فآواكَ إلى عمِّكَ حتى ربّاكَ، ودَفَعَ عنكَ كلَّ أذًى وآفةٍ وساقَ إليكَ كلَّ خيرٍ وبِرٍّ إلى أنْ بلغتَ [المَبْلَغَ الذي بلغتَ][5].

والثاني: يقولُ قد وَجَدَكَ يتيماً فآواكَ إلى عَدُوٍّ مِنْ أعدائِهِ[6] حتى تَوَلّى تربيَتَكَ، وبرَّكَ، وعَطَفَ عليكَ، وتَوَلّى عنكَ دَفْعَ المَكروهِ والأذى، يَذكُرُ مِنَّتَهُ وعظيمَ نِعَمِهِ عليهِ أنهُ كانَ ما ذَكَرَ، ثم صَيَّرَ عَدُوّاً مِنْ أعدائِهِ[7] أشفَقَ الناسِ عليهِ وأعطَفَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: قد وَجَدَكَ يتيماً فآواكَ إلى نفسِهِ، وعَطَفَ عليكَ، حتى اختَصَّكَ، واصطَفاكَ للرسالةِ والنُّبُوَّةِ حتى صِرْتَ مذكوراً في الدنيا والآخِرَةِ وحتى أحْوَجَ جميعَ الناسِ إليكَ؛ ليسَ ذلكَ مِنْ أمرِ اليتيمِ أنهُ يَبْلُغُ شأنُهُ وأمْرُهُ إلى ما بَلَغَ مِنْ أمرِكَ وشأنِكَ حتى صِرْتَ مَخصوصاً مِنْ بَيْنِ الناسِ جميعاً في ما ذَكَرْنا مِنِ اختِصاصِهِ إيّاكَ بالرسالةِ، وأحْوَجَ جميعَ الناسِ إليكَ؛ يَذْكُرُ عظيمَ مَنِّهِ ونِعَمِهِ عليهِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لولا أنَّ اللهَ تعالى هداكَ لدينِهِ، وَوَفَّقَكَ لهُ، لَوَجَدَكَ[8] ضالّاً، إذْ كانَ مَنْشَؤُهُ بَيْنَ قومٍ ضُلّالٍ، لم يكُنْ أحدٌ يَهْديهِ، ويَدْعوهُ إلى اللهِ تعالى، ولكنهُ هداكَ، وأرشَدَكَ، فلم يَجِدْكَ ضالّاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي لولا أنهُ أنقذَكُمْ منها لَصِرْتُمْ على شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النارِ، لو لم يُنْقِذْكُمْ منها، وكقولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] لأنَّ البشرَ أُنْشِئَ، وطُبِعَ على الرُّكونِ والمَيلِ إلى النِّعَمِ العاجلةِ واختِيارِ الأيْسَرِ والألَذِّ، ولكنهُ بفضلِهِ ولُطفِهِ ثَبَّتَكَ، وعَصَمَكَ، ولم يَكِلْكَ [إلى ما][9] طُبِعتَ، وأُنشِئتَ في أصلِ الخِلْقَةِ.

فَعَلَى ذلكَ يقولُ في قولِهِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي لولا أنهُ هداكَ لَوَجَدَكَ[10] ضالّاً، ولم يَهْدِكَ، ففيهِ أنهُ هداهُ، ولم يَجِدْهُ ضالّاً.

والثاني: يقولُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لا ضَلالَ كَسْبٍ واختِيارٍ، ولكنْ ضَلالَ الخِلْقَةِ التي أُنْشِئَ عليها الخَلْقُ، والضَّلالُ بِمَعْنى الجَهْلِ، لأنَّ الخَلْقَ في ابتِداءِ أحوالِهِمْ يكونونَ جُهّالاً لا جَهْلَ كَسْبٍ يُذَمّونَ عليهِ، أو يكونُ لهمْ عِلْمٌ يُحْمَدونَ عليهِ، ولكنْ جهلُ خِلْقَةٍ [وضَلالُ خِلْقَةٍ][11] لِما ليسَ معهمْ آلةُ دَرْكِ العِلْمِ، فلا صُنْعَ لهُ في كَسْبِ الجَهْلِ.

فأمّا بَعْدَ الظَّفَرِ بآلةِ العلمِ يكونُ الجَهْلُ مُكتَسَباً، فَيُذَمُّ عليهِ، وكذا العِلْمُ، فَيَتَرَتَّبُ عليهِ الحَمْدُ والذَّمُّ.

فَعَلَى ذلكَ يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي وَجَدَكَ جاهلاً على ما يكون في أصلِ الخِلْقَةِ وحالةِ الصِّغَرِ،

---

(١) في الأصل وم: أو أن يكون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أعدائك. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: دفع المكروه. (٨) في الأصل وم: وإلا وجدك. (٩) في الأصل: على، في م: على ما. (١٠) في الأصل وم: وإلا وجدك. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

فَهَداكَ إلى علمِكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ يَذكُرُ أنهُ لم يكُنْ /٦٤٦ ـ أ/ يَدْري شيئاً حتى أدراهُ، وعَلَّمَهُ.

والثالثُ: يقولُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي غافلاً عنِ [الأنبياءِ المُتقدِّمينَ][1] وأخبارِهِمْ حتى أطْلَعَكَ اللهُ تعالى على ذلكَ كقولِهِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

[والرابعُ][2]: يقولُ: وَوَجَدَكَ في أمرِ القرآنِ وما فيهِ جاهلاً غافلاً عنْ علمِهِ[3]، فأعْلَمَكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: وَوَجَدَكَ بينَ قومٍ ضُلّالٍ، فَهَداكَ، أي أخرجَكَ منْ بَينِهِمْ، ما لو لم يُخرِجْكَ مِن بينِ أظهُرِهِمْ لَدَعَوكَ إلى ما هُمْ عليهِ، وأجْبَروكَ على ذلكَ، ولم يَرْضَوا منكَ إلّا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ عنْ طريقِ مكةَ، فهداكَ للتَّوحيدِ.

ولكنَّ هذا وَحْشٌ منَ القولِ؛ إذْ لا يليقُ بهِ أنْ يُنْسَبَ إلى ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ فَهَداكَ لِلنُّبُوَّةِ. فهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي فقيراً فأغناكَ بما أراكَ مِنْ أمرِ الآخِرَةِ وما يَسوقُ إليكَ مِنْ نَعيمِها، أي بما أعَدَّ لهُ في الآخِرَةِ وما وَعَدَ لهُ مِنَ النَّعيمِ والكراماتِ، فهانَتْ عليهِ الدنيا حتى ذُكِرَ أنَّ الدنيا لم تكنْ تَعْدِلُ عندَهُ ﷺ جَناحَ بعوضةٍ. وكذلكَ رُوِيَ أنَّ «الغِنَى غِنَى القلبِ» [السهمي في تاريخ جرجان ص١٤٠].

ويَحْتَمِلُ أنهُ جَعَلَ لهُ[4] مالاً؛ بلطفِهِ أغناهُ كما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ «أنهُ نَهى عنِ الوِصالِ، فقيلَ: أنتَ تُواصِلُ يا رسولَ اللهِ، فقالَ ﷺ: أنا لَسْتُ كأحدِكُمْ إنَّ ربي يُطْعِمُني، ويَسْقيني» [البخاري ١٩٦٥].

فجائزٌ أنْ يكونَ للهِ ﷻ لُطْفٌ أغناهُ بهِ، وإنْ لم يُطْلِعْنا عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أغناكَ بمالِ خديجةَ ﵂ وقالَ بعضُهُمْ ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي فأرضاكَ بما أعطاكَ منَ الرزقِ، وأقْنَعَكَ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﵁ فأمّا اليتيمَ فلا تَكْهَرْ[5]، فالكَهْرُ الزَّجْرُ، كأنهُ قالَ: فلا تَزْجُرْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي لا تَمْنَعْ حقَّهُ، وادْفَعْ إليهِ حقَّهُ ومالَهُ، أو يكونَ ذَكَرَ هذا لِيَقولَ: كنتَ يتيماً، ورأيتَ حالَ اليتيمِ فيكونَ على الصِّلَةِ لقولِهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ اليتيمَ بعدَ ذلكَ.

الآية ١٠ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي كنتَ مُحتاجاً فقيراً، فَعَرَفْتَ مَحَلَّ الفقرِ والحاجةِ وشِدَّةَ حالِهِ ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ السائلَ، أي لا تَزْجُرْهُ، ولكنْ أعطِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمرُ [لا][7] على النَّهْيِ، ولكنْ على الأمرِ بالبِرِّ لهؤلاءِ والإعطاءِ لهمْ.

وجائزٌ أنْ يُرادَ في نَفْيِ شيءٍ إثباتُ ضِدِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]

أي خَسِرَتْ، وعلى هذا الحديثُ؛ وهو ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا أتاكُمُ السائلُ فلا تقطعوا عليهِ مسألَتَهُ حتى يَفْرُغَ منها، ثم رُدُّوا عليهِ بِرِفقٍ ولِينٍ إمّا بِبَذْلٍ يَسيرٍ أو بِرَدٍّ جميلٍ، فإنهُ قد يأتيكُمْ مَنْ ليسَ بإنْسٍ ولا جِنٍّ يَرى كيفَ صَنعُكُمْ في ما خَوَّلَكُمُ اللهُ تعالى».

وقالَ قومٌ: [في][8] تزويجِ اليتيمِ قَهْرُهُ، لما فيهِ مِنَ الإسْتِذْلالِ والإضرارِ، فلم يُزَوِّجوا مِن غَيرِ الأبِ والجَدِّ، وأجازوا بيعَ مالِهِ مِنْ وصيِّهِ، إنْ كانَ وَصّى الأبُ أوِ الجَدُّ وَصّى أنهُ في تَرِكَتِهِ[9].

---

(١) في الأصل وم: الأنباء المتقدمة. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: علم. (٤) في الأصل وم: فيه. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/١٨٣. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تركتها.

فَدَلَّ أنَّ تَزويجَ اليتيمِ ليسَ مِنْ قَهْرِهِ في شيءٍ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ زَوَّجَ بنتَ حمزةَ سَلَمَةَ بنَ أبي سَلَمَةَ، وهو صغيرٌ ويَتيمٌ، وزَوَّجَ ابْنَ عُمَرَ بنتَ أخيهِ، وهي صغيرةٌ، وزَوَّجَ عُرْوَةُ ابْنَتَهُ مِنْ مُصْعبٍ، [وهو صغيرٌ][1]، فَقَهْرُ اليتيمِ في ظلمِهِ والاعْتِداءِ عليهِ، وليسَ في التَّزويجِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: يقولُ: حَدِّثْهُمْ بِنِعَمِ اللهِ تعالى التي أنْعَمَ اللهُ عليكَ، وهو هذا القرآنُ؛ إذِ القرآنُ مِنْ أعظمِ ما أنْعَمَ اللهُ عليهِ، فأمَرَهُ بالتَّحدُّثِ بما عليهِ مِنَ النِّعَمِ لِيَعْرِفوا عظيمَ ما أنعمَ اللهُ عليهِ مِنَ الاخْتِصاصِ لهمْ حينَ جَعَلَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ ومن قومِهِ، أو أمَرَهُ أنْ يَقْرَأَهُ، ويُحَدِّثَ بما فيهِ.

وقد رُوِيَ عن أبي رجاءِ العطاءِ أنهُ قالَ. خَرَجَ عِمْرانُ بْنُ حُصَينٍ، وعليه مُطْرَفُ خَزٍّ لم يُرَ عليهِ قَبْلُ ولا بَعْدُ، فقالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ تعالى إذا أنْعَمَ على عَبدٍ نعمةً يُحِبُّ أنْ يَرَى أثَرَ نعمتِهِ عليهِ، ويَبْغُضُ البؤسَ و التَّبؤُّسَ» [أحمد ٣/ ٤٧٤].

وعنْ أبي الأحوصِ عنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أعطاهُ اللهُ تعالى خيراً فَلْيُرَ عليهِ، وابْدأْ بِمَنْ تَعولُ، وارْضخْ مِنَ الفَضْلِ، ولا تُلامُ على كَفافٍ، ولا تَعْجَزْ عنْ نفسِكَ» [بمعناه: البيهقي في الكبرى ٤/ ١٩٨].

وعنْ يَحْيَى عنِ عبدِ اللهِ عنْ أبيهِ عنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ قالَ:][3] «إذا بَسَطَ اللهُ تعالى على عبدٍ نعمةً فَلْتُرَ عليهِ» يعني بهِ الصدقةَ والمعروفَ.

[وقولُهُ عنِ][4] ابْنِ مسعودٍ ﷺ: «وابْدأْ بِمَنْ تعولُ» [البخاري ١٤٢٦]. دليلٌ عليهِ.

قالَ أهلُ الأدبِ: عالَ، أي كَثُرَ عِيالُهُ، ويقالُ: أسْجَيْتُهُ، أسْكَنْتُهُ، وقالوا[5]: الانْتِهارُ الكلامُ الخَشِنُ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ على محمدٍ وآلِهِ][6].

(١) في الأصل وم: وهي صغيرة. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقول. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في م: وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

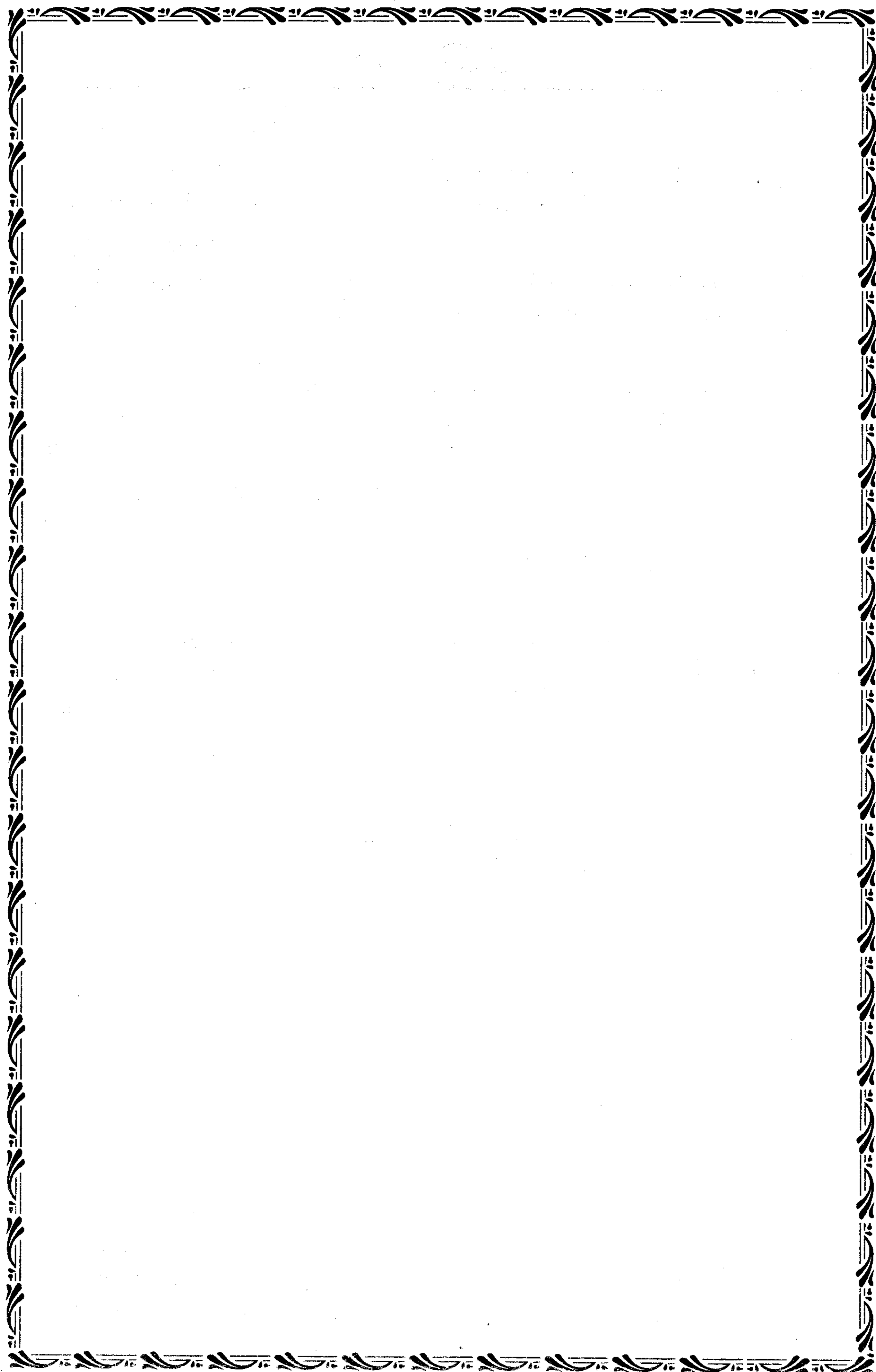

[سـورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾

وهي مكية](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الخِطابُ(٢) في هذهِ السورةِ مِنَ اللهِ تعالى لِرسولِهِ(٣) ﷺ خاطبَهُ [بهِ حينَ قالَ](٤): ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلى ما ذَكَرَ.

والمُخاطبةُ في سورةِ الضُّحى إذا كانتْ مِنْ غيرِ اللهِ تعالى إيَّاهُ؛ كانَ جبرائيلُ ﷺ خاطبَهُ في ذِكْرِ مِنَنِ اللهِ تعالى إيّاهُ وذِكْرِ نِعَمِهِ، إلّا أنهُ قالَ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الآية: ٣] ولم يَقُلْ: وَدَّعْناكَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ في سورةِ الضُّحى مِنَ اللهِ تعالى على المُغايبَةِ؛ يُقالُ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ يقولُ: كذا، أرادَ نفسَهُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: شَرَحَ صَدْرَهُ للإسلامِ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] أخبرَ أنَّ مَنْ شَرحَ صَدْرَهُ للإسلامِ، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ /٦٤٦ - ب/ والشَّرْحُ: قيلَ: هو التَّلْيينُ والتَّوسيعُ و الفَتْحُ، أي ألَمْ نُوَسِّعْ لكَ صَدْرَكَ، ونَفْتَحْ، ونُلَيِّنْ للإسلامِ.

وقد رُوِيَ في الخبرِ أنهُ لمّا نَزَلَ هذا قيلَ: يارسولَ اللهِ، وهل لذلكَ مِنْ علامةٍ؟ فقالَ: «بَلَى التَّجافي مِنْ دارِ الغُرورِ والإنابةُ إلى دارِ الخلودِ والاسْتِعدادُ للموتِ. قَبْلَ نُزولِهِ» [الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١١] ولكنْ يُعْرَفُ ذلكَ مِنْ رسولِ اللهِ بطريقِ الحقيقةِ، ويَظْهَرُ ذلكَ منهُ باليَقينِ. فأمّا مِنْ غَيرِهِ فإنما يُعْرَفُ بالتَّجافي مِنْ دارِ الغُرورِ والإنابةِ إلى دارِ الخلودِ بالتقارُبِ. وغالبُ الظَّنِّ أنَّ(٥) رسولَ اللهِ ﷺ كانتْ لهُ الآخِرةُ وأمورُها كالمُشاهدةِ والمُعاينةِ. وكذلكَ جميعُ الأنبياءِ والرُّسُلِ. فأمّا لِغَيرِهِمْ فلا يَبْلُغُ ذلك، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ رُؤيا الأنبياءِ كالعِيانِ، أي تُعْرَفُ بطريقِ اليقينِ بِخِلافِ رُؤيا غَيرِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: شَرَحَ صَدْرَهُ لأنهُ لمّا كُلِّفَ بتبليغِ الرسالةِ إلى الجِنِّ والإنسِ وإلى الفراعنةِ والجبابرةِ الذينَ هِمَّتُهُمْ إهلاكُ مَنْ يُخالِفُهُمْ والانْقِلاعُ عنْ عبادةِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ، ضاقَ صَدْرُهُ لذلكَ، وثَقُلَ على قلبِهِ، فَوَسَّعَ اللهُ صَدْرَهُ، وشَرَحَهُ حتى هانَ ذلكَ عليهِ، وخَفَّ، وهو قولُ أبي بكرٍ الأصَمِّ. إلّا أنهُ يقولُ فَعَلَ ذلكَ به، وحَقَّقَهُ(٦) بالآياتِ والحُجَجِ.

ونحنُ نقولُ باللُّطفِ منهُ حتى قامَ بوفاءِ ما كُلِّفَ، وأُمِرَ. أمّا هو فلا يقولُ باللُّطفِ والاخْتِصاصِ للبعضِ دونَ البعضِ لِقولِهِ بالأصْلَحِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ شَرْحِ صَدْرِهِ وتوسيعِهِ، هو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وخُلُقُهُ كانَ يُجاوِزُ وُسْعَهُ وطاقَتَهُ حتى كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ لِمكانِ كُفْرِ أولئكَ، وما يَعْلَمُ أنهُ يَنْزِلُ بهِمْ، إشفاقاً ورَحْمةً كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] وغيرُ ذلكَ مِنْ أمثالِ هذا، وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، ماوَصَفَ مِنْ خُلُقِهِ أنهُ عظيمٌ، فَوَسَّعَ صَدْرَهُ، وشَرَحَهُ، حتى يَخِفَّ ذلكَ عليهِ حينَ(٧) قالَ لهُ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] وقالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٧٠].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: المخاطب. (٣) في الأصل وم: رسوله. (٤) في الأصل وم: إياه حيث، في م: إياه حيث قال. (٥) في الأصل وم: لأن. (٦) في الأصل وم: وحقق. (٧) في الأصل وم: حيث.

وقالَ الحَسَنُ: في قولِهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ بَلَى قد شَرَحَ لهُ صَدرَهُ، ومَلأهُ عِلْماً وحِكْمةً، ثم قولُهُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلى ما ذَكَرَ إنْ كانَ المُخاطَبُ بهِ رسولَ اللهِ، وهو المُرادُ بهِ.

فتأويلُ السورةِ يُخَرَّجُ على ما ذَكَرَ مِنْ تَيْسيرِ[1] الأمرِ عليهِ وتَخْفيفِ ما حَمَّلَهُ عليهِ، وأمَرَ بهِ.

الآيتان ٢ و٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ على ابْتِداءِ وَضعِ الوِزْرِ والإثمِ على ما نَذْكُرُ، وإنْ كانَ المُخاطَبُ بهِ غَيرَهُ، وهمْ أُمَّتُهُ، وإنْ كانَ الخِطابُ أُضيفَ إليهِ فالأمرُ فيهِ سهلٌ.

وإنْ كانَ الخِطابُ على الِاشْتِراكِ فَيُحتاجُ إلى التأويلِ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما][2] قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ على تحقيقِ الوِزْرِ لهُ والإثمِ كقولِهِ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقولِهِ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] يقولونَ: أثْبَتَ لهُ الذنبَ والوِزْرَ، فَوَضَعَ ذلكَ عنهُ.

ولكنَّ هذا وحْشٌ مِنَ القولِ. لكنّا نقولُ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الوِزْرُ، هو الحِمْلُ والثِّقَلُ، كأنهُ يقولُ: قد خَفَّفْنا عليكَ مِنْ أمرِ النُّبُوَّةِ والرسالةِ والأحمالِ التي حَمَّلْنا[3] عليكَ، كأنهُ يقول: قد خَفَّفْنا[4] ذلكَ عليكَ مالو لم يكنْ تَخْفيفُنا إياهُ عليكَ لأنْقَضَ ظَهْرَكَ، أي أثْقَلَ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ابْتِداءَ وضعِ الوِزْرِ أي عَصَمَكَ، وحَفِظَكَ مالو لم تكنْ عصمتُهُ إيّاكَ[5] لكانَتْ لكَ أوزاراً وآثاماً كقولِهِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي لو لم يَهْدِكَ لوجَدَكَ ضالاً، لأنهُ كانَ بَينَ قومٍ ضُلّالٍ، ولكنْ هداهُ، فلم يَجِدْهُ [ضالاً، فَعَلَى][6] ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ وضعِ وِزْرِ ابْتِداءً، وهو كقولِهِ: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] أي عَصَمَهُمْ عنْ أنْ يَدْخُلوا فيها، لا أنْ كانوا فيها، ثم أخْرَجَهُمْ، ولكنْ [هو][7] ابْتِداءُ إخراجٍ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ وَضعِ وِزْرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثْقَلَ ظَهْرَكَ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ رَفَعَ ذِكْرَهُ لمّا ألزمَ الخَلْقَ الإيمانَ بهِ حتى لا يُقْبَلَ مِنْ أحدٍ الإيمانُ باللهِ والتَّوحيدُ لهُ والطاعةُ والعبادةُ إلّا بالإيمانِ بهِ والطاعةِ لهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقالَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ ذِكْرِهِ، هو أنهُ يُذْكَرُ حينَ[8] ذِكْرِ اللهِ، قَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ في الأذانِ والإقامةِ وفي الصلاةِ في التَّشَهُّدِ وفي غَيرِهِ مِنَ الخُطَبِ، واللهُ أعلَمُ. والأوّلُ عندنا أرفَعُ وأعظَمُ مِنَ الثاني.

وجائزٌ أنْ يكونَ رَفْعُ ذِكْرِهِ ماأضافَ اسْمَهُ إلى اسْمِهِ بما قالَ: رسولُ اللهِ، ونَبيُّ اللهِ، ولم يُسَمِّهِ باسْمِهِ على غَيرِ إضافةٍ إلى الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، فقالَ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ونَحْوَ ذلكَ، وهو المَخْصوصُ بهذا دونَ غَيرِهِ مِنْ إخوانِهِ، لأنهُ قَلَّما أضافَ اسْمَهُمْ إلى اسْمِهِ، وقَلَّما قَرَنَ أسماءَهُمْ باسْمِهِ، بل ذَكَرَهُمْ بأسمائِهِمْ كقولِهِ: [﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣] إلى قولِهِ: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ][9] وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ [الأنعام: ٨٦] ونَحْوَ ذلكَ، أو [أن يكونَ][10] رَفْعُ ذِكْرِهِ بما عظَّمَهُ، وشَرَّفَهُ عندَ الخَلْقِ كلِّهِ حتى إنَّ مَنِ اسْتَخَفَّ بهِ خَسِرَ الدنيا والآخِرَةَ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تبيين. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حمل. (٤) في الأصل وم: خفف. (٥) في الأصل وم: إياه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: واذكر اسماعيل واليسع وقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ رُوِيَ في الخبرِ أنهُ قالَ ﷺ: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» [الحاكم في المستدرك: ٢/٥٢٨].

قالَ بعضُهُمْ: إنما كانَ عُسْراً واحداً، وإنْ ذَكَرَهُ مَرَّتَيْنِ، لأنَّ العُسْرَ الثانيَ ذَكَرَهُ بحرفِ التعريفِ فهو والأوَّلُ واحدٌ، واليُسْرُ ذَكَرَهُ بحرفِ النكرةِ، فهو غيرُ الأوَّلِ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: كُلَّما كُرِّرَتِ المعرفةُ كانَتْ واحدةً[1]، والنكرةُ على العَدَدِ؛ يُقالُ في الكلامِ: إنَّ معَ الأميرِ غلاماً، إنَّ معَ الأميرِ غُلاماً، فالأميرُ واحدٌ، ومعهُ غُلامانِ، وإذا قيلَ: إنَّ معَ الأميرِ الغُلامُ، إنَّ معَ الأميرِ غلاماً، فالأميرُ واحدٌ، ومعهُ غُلامانِ، وإذا قيلَ: إنَّ معَ الأميرِ الغُلامَ، إنَّ معَ الأميرِ الغُلامَ، فالأميرُ واحدٌ، والغلامُ واحدٌ، وإذا قيلَ: إنَّ مع أميرٍ غُلاماً، إنَّ معَ أميرٍ غلاماً، فهما أميرانِ وغلامانِ. فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ ههنا.

ثم قولُهُ [ﷺ][2] «يُسْرَيْنِ» هما[3] يُسْرُ الإسلامِ والهُدَى، ويجوزُ أنْ يُطْلَقَ اسْمُ اليُسْرِ على الإسلامِ والدينِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٧] ويُسْرٌ آخَرُ ما وَعَدَ لهمْ منَ السَّعَةِ في الدنيا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ «يُسْرَيْنِ» أحدُهما: رجاءُ اليُسْرِ، والآخرُ وُجودُهُ، فهما يُسْرانِ: الرجاءُ والوُجودُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يُسْراً في الدنيا ويُسْراً في الآخرةِ، أو أنْ يكونَ توسيعاً[4] عليهمُ الدنيا ويُسْراً[5] ما يَفْتَحُ لهمُ الفتوحَ في الدنيا، ويسوقُ إليهِمُ المغانمَ والسَّبايا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالوا في قولِهِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ / ٦٤٧ ـ أ/ أي بعدَ العُسْرِ يُسْراً.

وأصلُهُ: أنَّ حرفَ: مع إذا أُضيفَ إلى الأوقاتِ والأحوالِ يقعُ على اخْتِلافِ الأوقاتِ في المكانِ الواحِدِ، وإذا أُضيفَ إلى المكانِ يقعُ على اخْتِلافِ المكانِ في وقتٍ واحِدٍ. وههنا أُضيفَ إلى الوقتِ، فهو على اخْتِلافِ الأوقاتِ واحدٌ بعدَ واحِدٍ. فإذا قيلَ: فلانٌ مع فلانٍ في مكانٍ فالوقتُ واحدٌ، والمكانُ مُخْتَلِفٌ مُتَفَرِّقٌ.

الآيتان ٧و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ قالَ بعضُهُمْ: إذا فَرَغْتَ مِنْ دُنياكَ فَانْصَبْ لِآخرتِكَ، وهو مِنَ النَّصَبِ أي التَّعَبِ.

وقالَ الحسنُ: أمَرَهُ إذا فَرَغَ مِنْ غَزْوَةٍ أنْ يَجْتَهِدَ في العبادةِ لهُ. لكنَّ هذا بعيدٌ لأنهُ نَزَلَ ذلكَ بمكةَ، ولم يكنْ أُمِرَ بالغَزْوِ والجهادِ بمكةَ إلّا أنْ يكونَ أُمِرَ بالجهادِ بمكةَ في أوقاتٍ، تأتيهِ في المستقبلِ، فيكونُ الحكمُ لازماً عليهِ في تلكَ الأوقاتِ لا في حالِ وُرودِ الأمرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: فإذا فَرَغْتَ مِنَ الصلاةِ فانصَبْ في الدعاءِ.

وقالَ قتادةُ: [أمَرَهُ][6] إذا فَرَغَ منَ الصلاةِ أن يُبالِغَ في دعائِهِ وسُؤالِهِ إياهُ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه [أنهُ][7] قالَ: فإذا فرغْتَ منَ الفرائضِ فانْصَبْ في قيامِ الليلِ.

ويَحْتَمِلُ عندَنا إذا فرغْتَ مِنْ تَبْليغِ الرسالةِ إليهِمْ فانْصَبْ لعبادةِ ربِّكَ والأمورِ التي بَيْنَكَ وبَيْنَ ربِّكَ على ما ذَكَرْنا في أحدِ التأويلَيْنِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] في أمرِ الرسالةِ والتَّبليغِ [أي اذْكُرِ][8] اسْمَ ربِّكَ في ما بَيْنَكَ وبَيْنَ ربِّكَ.

ويَجِبُ ألّا نَتَكلَّفَ تفسيرَ ما ذَكَرَ في هذهِ السورةِ منْ أوَّلِها إلى آخِرِها، لأنهُ أمرٌ بَيْنَه وبَيْنَ ربِّهِ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ ما أرادَ [بهِ في ما خاطَبَهُ][9] منَ الجميعِ وأنهُ في ما كانَ. وقد كانَ خصوصاً لهُ، وليسَ شيءٌ ممّا يجبُ علينا العملُ بهِ حينَ يُلْزِمُنا التَّكلُّفَ لِاسْتِخْراجِ ذلكَ سِوى الشهادةِ على اللهِ، فكانَ الإمساكُ عنهُ أَوْلَى، وتَرْكُ التَّكلُّفِ فيهِ والاشْتِغالِ بهِ أرفَقَ وأسلَمَ. واللهُ الموفقُ.

---

(١) في الأصل وم: واحداً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: توسيع توسيع. (٥) في الأصل وم: ويسريان. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: واذكر. (٩) من م، في الأصل: في ما خاطب.

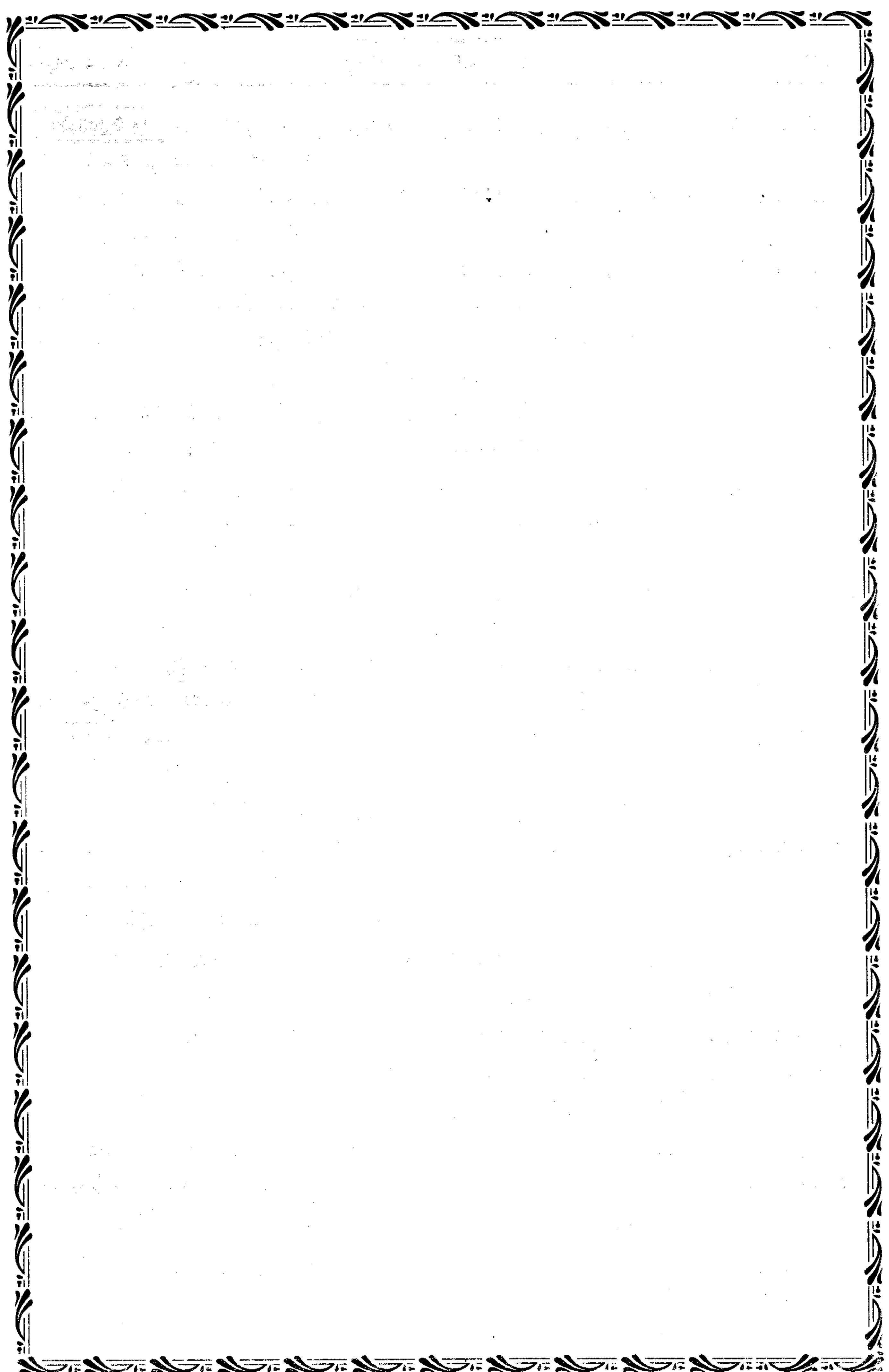

سورة التين

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ و٢ و٣ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾][2] قالَ [المُفسِّرونَ][3]: هذهِ السورةُ كلُّها نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ مكةَ، أمّا[4] سورةُ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [وسورةُ][5] ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ فإنهما جاءَتا في تذكيرِ مِنَنِ اللهِ لرسولِهِ:

إحداهُما: خاطبَهُ جبرائيلُ في تذكيرِ ما مَنَّ اللهُ عليهِ، والأُخرى خاطبَهُ ربُّهُ بذلكَ، وأمّا غيرُهما مِنَ السورِ فإنما جاءَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ مكةَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ قَسَمٌ أقسَمَ تأكيداً للحُجَجِ التي أقامَها ما لو لا القسمُ لكانَ ما ذَكَرَ يوجِبُ ذلكَ، لكنَّ في القسمِ تأكيدَ ما ذَكَرَ مِنَ الحجةِ.

ثم اختلَفَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو التِّينُ الذي يأكلُ الناسُ والزيتونُ الذي يَسْتَخرِجونَ منهُ الزيتَ. كذا رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ سُئِلَ عنِ التِّينِ والزَّيتونِ، فقالَ: تِينُكُمْ وزَيتونُكُمْ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: هما جبلانِ بالشامِ. وقالَ بعضُهُمْ: هما مَسْجِدانِ في الشامِ أحَدُهما: مَسْجِدُ بيتِ المَقْدِسِ، وقيلَ: التينُ مسجدُ أصحابِ الكهفِ، [والثاني][6]: الزَّيتونُ مَسْجِدُ نَبِيِّنا.

وعنْ قتادةَ أنهُ[7] قالَ: التِّينُ الجبلُ الذي عليهِ دمشقُ، والزَّيتونُ الجبلُ الذي عليهِ مَسْجِدُ بيتِ المَقْدِسِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: التِّينُ والزَّيتونُ جبلانِ بالشامِ يقالُ لهما: طورُ تينا وطورُ زيتا بالسُّرْيانيةِ سُمِّيا بالتِّينِ والزَّيتونِ لأنهما يَنْبُتانِ فيهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو جبلٌ بِسِينِينَ، والسِّينينُ اسْمُ مَوضعٍ، والطُّورُ الجبلُ، وكذا قالَ أبو عوسَجَةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: جبلٌ حَسَنٌ، والسِّينينُ، هو الحُسْنُ بالحَبَشِيَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ جبلٍ مُشَجَّرٍ، لهُ الثمرُ، فهو سِينينٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الجبلُ الذي أُوحِيَ عليهِ إلى موسى عليه السلام وهو طورُ سيناءَ، وقيلَ: هو الجبلُ المُبارَكُ.

ثم تُخَرَّجُ جهةُ القسمِ بالجبلِ وبما ذَكَرَ على وجوهٍ:

أحدُها: بما عَظَّمَ شأنَ الجبالِ في قلوبِ الخَلْقِ حينَ أوصلَ إليهِمْ أخبارَ السماءِ منْ جهةِ تلكَ الجبالِ وجَميعَ ما يَرجِعُ إلى مَنافعِ أنفسِهِمْ ودينِهِمْ على ما ذَكَرَ أنهُ أوحَى إلى موسى عليه السلام على جبلِ طورِ سيناءَ، وأوحَى إلى عيسى عليه السلام على جبلِ ساعورا، وأوحَى إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم على جبلِ فارانَ على ما ذُكِرَ في الخبرِ أنَّ موسى عليه السلام قالَ: أتاني ربي منْ جبلِ طورِ سيناءَ، وسيأتي وَحْيُ عيسى عليه السلام منْ جبلِ ساعورا، ويأتي الوَحْيُ إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم منْ فارانَ.

والثاني: أقسمَ بالجبالِ لِما أرساها في الأرضِ، وجَعَلَها أوتاداً لها لئلا تَميدَ بأهلِها، ولا تميلَ على ما ذَكَرَ [في غيرِ آيةٍ][8] منَ القرآنِ عظيمَ شأنِ الجبالِ منْ هذهِ الجهةِ في قلوبِ الخَلْقِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: سوى. (٥) من م، في الأصل: أن. (٦) في الأصل وم: والزيتون. (٧) من م، في الأصل أن. (٨) في الأصل: من غير آي، في م: في غير آي.

والثالثُ: لِما أخرَجَ منها معَ شِدَّتها وصَلابتِها وغِلَظِها وارْتِفاعِها المِياهَ الجاريةَ الصافيةَ الباردةَ، وهي مِنَ ٱلْيَنِ الأشياءِ، وأخرَجَ منها الأشجارَ المُثْمِرَةَ الكثيرةَ وغَيرَ المُثْمِرةِ مِن غَيرِ إنباتِ أحدٍ ولا غَرْسِهِ[١] وغَيرَ ذلكَ مِنَ المنافعِ التي جَعَلَ في الجبالِ ممّا لا يُمْكِنُ للخَلْقِ اسْتِخراجُ ذلكَ بِحِيَلِهِمْ وَتَكَلُّفِهِمْ.

فأقسَمَ بها لِعَظيمِ ما جَعَلَ في الجبالِ مِنَ المَنافعِ والبَرَكاتِ.

[والرابعُ][٢]: كذلكَ أنْ كانَ القسمُ بالتِّينِ الذي يُؤكَلُ والزَّيتونِ الذي يُخرَجُ منهُ الزيتُ لِما جَعَلَ لهمْ في ذلكَ مِنَ المَنافعِ العِظامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

فَمِنْ هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا يَحتَمِلُ القَسَمُ بالجبالِ والتِّينِ والزَّيتونِ، أو ذِكْرُ التينِ والزَّيتونِ، والمُرادُ بهما الجبلُ لِما في الجبلِ يكونانِ عندَهمْ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وهو مكةُ، سَمّاهُ أميناً لِما يَأمَنُ مَنْ دَخَلَهُ، أو يُؤمِّنُ مَنْ دَخَلَهُ، ويَحفَظُهُ لأنَّ الأمينَ عندَ الناسِ، هو الذي يَحفَظُ مِنَ الثَّمينِ عليهِ وفيهِ، وهو المأمونُ بهِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ بالبلدِ لأهلِ مكةَ ولأهلِ الشِّرْكِ لِما عَظُمَ شَأنُهُ وأمرُهُ عندَهُمْ وفي قلوبِهِمْ، وأقسَمَ بالجبالِ لِعَظيمِ قَدْرِها وَمَنْزِلَتِها ومحلِّها في قلوبِ أهلِ الكتابِ لِما كانوا يؤمنونَ ببعضِ الوَحْيِ، وأهلُ مكةَ لا يؤمنونَ بالرسُلِ وبالوَحْيِ، ولكنْ يُعَظِّمونَ ذلكَ البَلَدَ. وجائزٌ أنْ يكونَ القسمُ بما ذَكَرَ كلِّهُ لهمْ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: على هذا وَقَعَ القسمُ، لكنَّ القَسَمَ بِغَيرِهِ أولى وأقْرَبُ، لأنهمْ قد شاهَدوا، وعَرَفوا أنهُ خُلِقَ الإنسانُ على أحسَنِ تَقْويمٍ؛ إذْ لم يَتَمَنَّ أحدٌ أنْ يكونَ على غَيرِ هذا التَّقويمِ وعلى غَيرِ هذهِ الصورةِ التي أنْشَأها عليهِ.

والأشبَهُ أنْ يكونَ القسمُ واقعاً على قولِهِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [الآية: ٥] لِما فيهِ دفعُ الإنكارِ والتَّكْذيبِ، وهو نارُ جهنَّمَ، فأكَّدَ ذلكَ بالقَسَمِ، كأنهُ قالَ تعالى: مَعَ أنّا خَلَقْنا الإنسانَ في أحسنِ تَقويمٍ نَرُدُّهُمْ إلى أسفلِ السافلينَ لِكُفرِهِمْ وعِنادِهِمْ سِوَى المؤمنينَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أحْسَنُ صورةٍ يُشاهِدونَ، ويُعاينونَ، لأنَّ الملائكةَ جَعَلَهُمْ أحْسَنَ صورةً وأحْسَنَ تَقْويماً مِنَ البشرِ، ولكنْ يَرجِعُ إلى سائِرِ /٦٤٧ ـ ب/ الخلائقِ دونَهُمْ، وذلكَ لأنَّ خَلْقَ البشرِ على صورةٍ، لا يَتَمَنّى أحدٌ منهمْ أنْ يكونَ على غَيرِ صورةِ البشرِ، دَلَّ أنهُ خَلَقَهُمْ على أحْسَنِ صورةٍ.

والثاني: على أحْسَنِ تقويمٍ أي على أحكَمِ تقويمٍ وأتقَنِهِ لأنهُ جَبَلَهُمْ، وأنْشأهُمْ على هيئةٍ، تُهَيِّئُ[٣] لهمُ اسْتِعْمالَ الأشياءِ كلِّها في مَنافِعِهِمْ والانْتِفاعَ بها بِحِيَلٍ وأسبابٍ عَلَّمَهُمْ [إياها، وجَعَلَها][٤] فيهم، ومكَّنَ لهمْ ذلكَ.

[والثالثُ][٥]: يَحتَمِلُ ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي أحكَمِ وأتقَنِ على الدلالةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ.

[والرابعُ][٦]: جَعَلَهُمْ أهلَ تَمْييزٍ ومَعْرِفةٍ بحيثُ يكونُ منهُم الخَيراتُ في أنواعِ الطاعاتِ التي يُثابونَ عليها، ويَنالونَ بها الثوابَ الجزيلَ والكرامةَ العظيمةَ ما لا يكونُ لِغَيرِهِمْ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ هو يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وهو جهنَّمُ؛ يَرُدُّ الكافرَ إلى جهنَّمَ، وهي[٧] أسفَلُ السافلينَ، والمؤمنُ رَدَدْناهُ إلى الجنةِ، وهيَ[٨] ما استَثْنى بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الآية: ٦] في الجنةِ.

---

(١) في الأصل وم: غرسها. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: يتهيأ. (٤) في الأصل وم: وجعل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: وهو.

والثاني: رَدَدْناهُ إلى أسفَلِ ما اختارَ منَ الأعمالِ والأفعالِ، وهو ما اختارَ منْ فِعْلِ الشِّرْكِ والكُفْرِ، وردِّ المؤمنَ إلى أعلى ما اختارَ منَ الأعمالِ العاليةِ الرفيعةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: ثم رَدَدْناهُ إلى أرْذَلِ العُمُرِ وأسفَلِهِ.

الآية ٦ ثم استَثْنى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لهمْ ذلكَ. وهذا التَّأويلُ إنما يَصِحُّ، إذْ لو استَثْنَى المُحْسِنينَ مِنَ المؤمِنينَ منهمْ. فأمّا إذا استَثْنَى أهلَ الإيمانِ منْ أهلِ الكُفْرِ فإنَّهُ لا يَحتَمِلُ، والأوَّلُ أشبَهُ.

الآيتان ٧و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾][1] إنْ كانَ الخِطابُ بهِ لكلِّ إنسانٍ كَذَّبَ بالدينِ بقولِهِ، فما[2] الذي دعاكَ إلى تكذيبِكَ بالدينِ، وقد عَرَفْتَ أنَّ اللهَ أحكَمُ الحاكِمينَ لا يَفْعَلُ إلّا [ما][3] هو حكمةٌ. ولو لم يكُنْ يومُ الدينِ كانَ فِعْلُهُ عَبَثاً باطلاً، لأنهُ أنْشَأكُمْ، ثم ربّاكُمْ إلى أنْ بَلَغْتُمْ. فلو لم يكُنْ بعثٌ لكانَ يَخرُجُ فِعْلُهُ عَبَثاً باطلاً، أو نقولُ: لَمَا سَوّى بَينَ ما اختارَ وِلايَتَهُ وبَينَ ما اختارَ الوِلايةَ في هذهِ الدنيا، وفي الحِكْمَةِ التَّفريقُ بينهما، فلا بُدَّ منْ مكانٍ يُفَرِّقُ بَينَهما هنالكَ.

وإنْ كانَ الخِطابُ في قولِهِ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ لرسولِ اللهِ تعالى فيقولُ[4]: أيُّ حُجَّةٍ لهُ في تكذيبِكَ بما تُخبِرُهُ مِنَ الدينِ؟ أي لا حُجَّةَ لهُ في ذلكَ، أو نقولُ: ما الذي دعاهُ إلى تكذيبِهِ بالدينِ بعدَ ما عَرَفَ أني أحْكَمُ الحاكمينَ؟

وقالَ بعضُهُمْ: أحْكَمُ القاضِينَ، أي أعْدَلُهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: أحْكَمُ الحُكماءِ، وإلّا فَناءٌ بلا بَعْثٍ فِعْلُ السُّفهاءِ لا فِعْلُ الحكماءِ، وهو أحْكَمُ الحاكِمينَ، أي أعْدَلُ القاضينَ في التفريقِ بَينَ الأولياءِ والأعداءِ، وقدِ اجْتَمَعوا في الدنيا، فلا بدَّ منْ دارٍ يُفَرِّقُ بَينَهما فيها، واللهُ الموفِّقُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يقول.

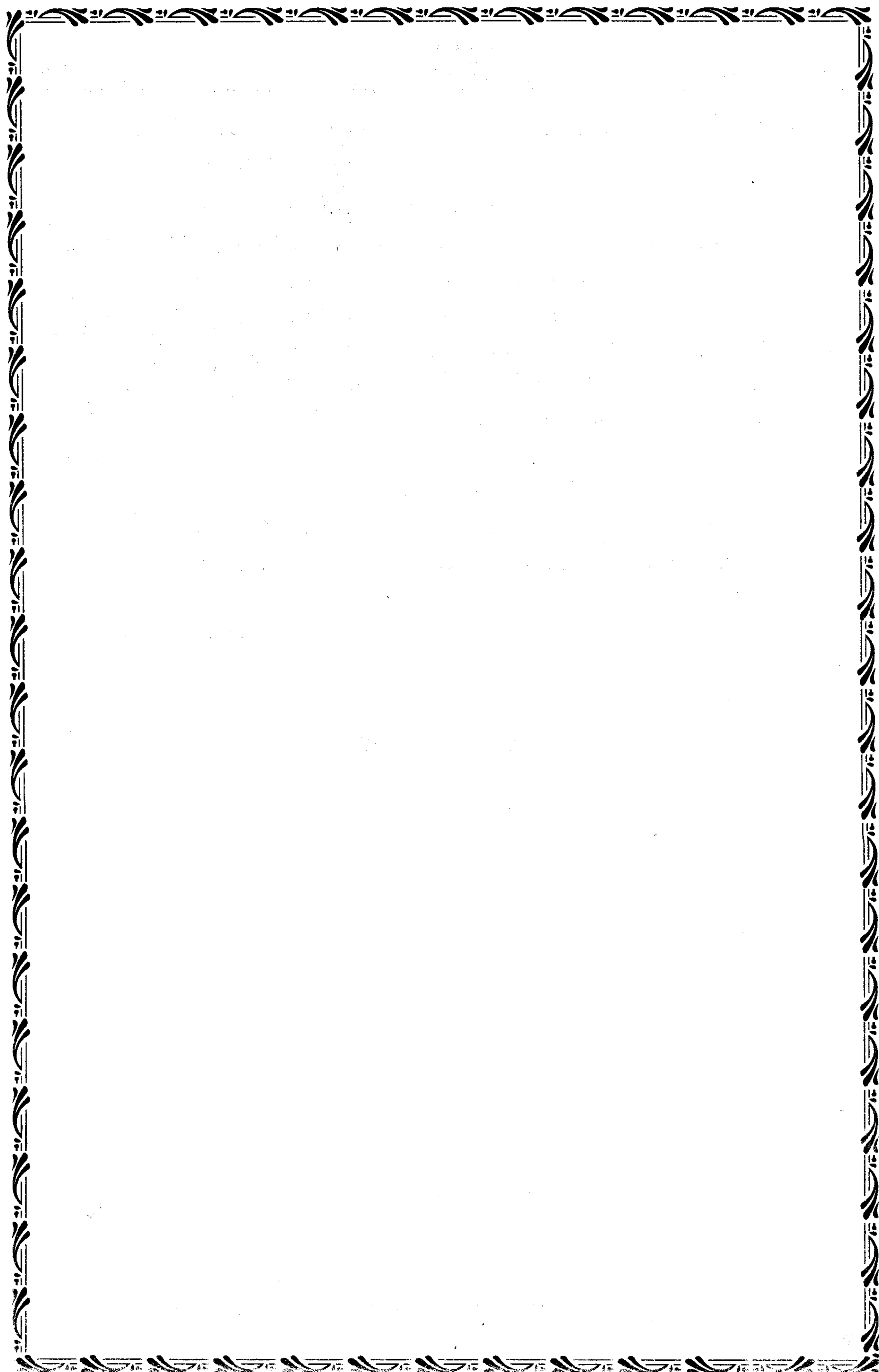

سورة العلق

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ هذهِ أوَّلُ سورةٍ نَزَلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ وأوَّلُ وَحْيٍ أوحِيَ إليهِ. وقيلَ: غيرُ هذهِ، هي الأوَّلُ.

ثم الإشكالُ أنهُ أُمِرَ بأنْ يَقْرأَ ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وحقُّ هذا ونَحْوِهِ إذا قيلَ لهُ: اقْرَأْ، أوِ افْعَلْ ألّا يقولَ لهُ: اقْرَأْ، أوِ افْعَلْ مثلَ ما قيلَ لهُ: اقْرَأْ، أوِ افْعَلْ، لأنهُ أمْرٌ في الظاهرِ، وإنما[2] يكونُ عليهِ الإئتِمارُ بذلكَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] وقولُهُ[3]: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقولُهُ[4]: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وقولُهُ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] وكذلكَ على هذا قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] وأمثالُ ذلكَ يَجبُ ألّا يقولَ لهُ مثلَ ما قيلَ لهُ: ﴿قُلۡ﴾ أوِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ولكنْ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ويقولُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [ويقولُ:][5] ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [ويقولُ:][6] ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هذا هو وَجْهُ الكلامِ.

ومَعْناهُ وجوابُهُ أنهُ يَحْتمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنهُ أُريدَ بهذا أنْ يكونَ قرآناً يُقْرأُ هكذا، في حقِّ القراءةِ يُتْلَى، ويُثْبَتُ في المَصاحفِ إلى آخِرِ الدهرِ لِيُعْلَمَ كيفَ قيلَ لرسولِ اللهِ ﷺ وكيفَ أُوحِيَ إليهِ.

[والثاني][7]: أنهُ لم يَتْرُكْ ممّا قيلَ لهُ حرفاً واحداً ليكونَ حجّةً لرسالتِهِ وآيةً لِنُبُوَّتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ][8]: أنْ يكونَ كذلكَ على خِلافِ المَفْهومِ مِنْ كلامِ [الناسِ][9] لئلّا يكونَ المفهومُ مِنْ وَحْيِ السماءِ والمُنَزَّلِ منها كَخِطابِ بعضٍ بعضاً، ولكنْ خلافُ [فيهِ.

[والرابعُ: أنْ][10] يكونَ الخِطابُ][11] منهُ لكلِّ أحدٍ ومنْ كلِّ أحدٍ لآخَرَ خِطابَ جبريلَ رسولَ اللهِ بهِ وأمْرُهُ أنْ يَقْرأَ، ثم يأمرُ رسولُ اللهِ غَيرَهُ بذلكَ، وذلكَ الغَيرُ يقولُ لآخرَ كذلكَ، فيكونُ الخطابُ منهُ لكلِّ أحدٍ ومنْ كلِّ أحدٍ لآخَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ يَحْتمِلُ [وجوهاً:

أحَدُها:][12] أنْ يُريدَ بهِ أنِ افْتَتِحِ القراءةَ باسْمِ ربِّكَ على ما جَعَلَ افْتِتاحَ كلِّ شيءٍ باسمِ الرَّبِّ لِيَنالَ برَكَةَ ذلكَ فيهِ.

والثاني: أنْ يكونَ ما ذَكَرَ على إثْرِ اسمِ ربِّهِ، هو تَفْسيرُ اسْمِ ربِّهِ حينَ[13] قالَ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [الآية: ٢] فيكونُ هذا تفسيراً لِما ذَكَرَ مِنِ اسْمِ ربِّهِ.

[والثالثُ: أنْ][14] يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ كما يُقالُ: أسألُكَ باسْمِكَ الذي إذا دُعيتَ بهِ أجبْتَ، وإذا سُئِلْتَ بهِ أعطيتَ. وذلكَ الاسْمُ مكتومٌ بينَ أسمائِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: ويحتمل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في م: والثاني. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: أو.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ تُخرَّجُ إضافتُهُ إليهِ مُخْرَجَ التَّعْظيمِ لرسولِ اللهِ وخصوصيَّتُهُ لهُ على ما ذَكَرْنا أنَّ إضافةَ خاصِّيَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى تُخرَّجُ مُخْرَجَ تَعْظيمِ ذلكَ الخاصِّ؛ مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقولُهُ[1]: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣و . . .] [وقولُهُ:][2] ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] ونَحْوُ ذلكَ مِنْ إضافةِ خاصِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ.

وإضافةُ كليَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى تُخرَّجُ [مُخرَجَ][3] تعظيمِ الرَّبِّ والمَحْمَدَةِ لهُ نَحْوُ قولِهِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧و . .] [وقولِهِ][4]: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ثم /٦٤٨ ـ أ/ لاتجوزُ إضافةُ الخاصِّ الذي لا خُصوصِيَّةَ ظَهَرَتْ لهُ إلى اللهِ تعالى؛ لايجوزُ أنْ يقالَ: ياربَّ زيدٍ، ويا ربَّ عَمْرٍو، ونَحْوُ ذلكَ، إنما يجوزُ ذلكَ في مَنْ ظَهَرَتْ لهُ خُصوصيَّةٌ وفضلٌ منَ الأنبياءِ والرسلِ والملائكةِ ﷺ والبقاعِ والأمكنةِ التي ظَهَرَتْ لها خُصوصيَّةٌ وفَضلٌ ليكونَ ذلكَ تعظيماً لها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ العَلَقُ الدمُ الجامدُ. ثم قولُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أرادَ كلَّ إنسانٍ، وقولُهُ[5]: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الآية: ٥] كذلكَ، لِيُعْلَمَ أنَّ اسْمَ الفردِ إذا دَخَلَهُ لامُ التعريفِ أُريدَ بِهِ العمومُ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

وفي الآيةِ دلالةٌ على إبطالِ قولِ مَنْ يَدَّعي طَهارةَ النُّطْفَةِ بِعِلَّةِ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ منها؛ فإنهُ أخبَرَ أنهُ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ نَسَبَ خَلْقَ الإنسانِ إليهِ، ولا شَكَّ أنَّ العَلَقَ نَجِسٌ، ثم أخبَرَ أنهُ خَلَقَ الإنسانَ منهُ. فَعَلَى ذلكَ أنْ تكونَ النُّطفةُ التي منها يُخلَقُ الإنسانُ نَجِسَةً، وذلكَ غيرُ مُسْتَحيلٍ.

ثم أضافَ خَلْقَهُ مَرَّةً إلى الأحوالِ التي قُلِبَ منها حينَ[6] قالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وأضافَ ههنا إلى حالٍ واحدةٍ، وهي العَلَقَةُ [التي][7] ذَكَرَ، وإنْ لم يكنِ الإنسانُ في الحقيقةِ مَخلوقاً مِنَ العَلَقَةِ والنُّطْفَةِ والترابِ الذي ذَكَرَ، لأنَّ هذهِ الأسماءَ أسامي هذهِ الأشياءِ باعْتِبارِ خاصِّيّاتٍ فيها. وتلكَ الخاصِّيّاتُ تَتَقَدَّمُ باعْتِراضِ حالٍ أُخرَى عليها، وإنما يَخْلُقُ الإنسانَ مِنَ المُضْغَةِ، وإنما ذَكَرَ خَلْقَ الإنسانِ منهُ، ونَسَبَهُ إلى ما ذَكَرَ لِما أنَّ الإنسانَ، هو المَقْصودُ مِنْ خَلْقِ ذلكَ، وهو النهايةُ التي ينتهي إليها، فَذَكَرَ بالذِّكْرِ [ما] ينتهي إليهِ مِنَ الغايةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣ و٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ذَكَرَ الأكْرَمَ لِيُعْلَمَ أنَّ اخْتِيارَهُ واصْطِفاءَهُ لرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ [وتعليمَهُ القرآنَ][8] ابْتِداءُ إحسانٍ منهُ إليهِ وتَفَضُّلٌ عليهِ، لا لِحَقٍّ لهُ عليهِ؛ إذْ ذَكَرَ في موضِعِ المِنَّةِ والفَضْلِ والكَرَمِ؛ إذِ الأكْرَمُ، هو الوَصْفُ بغايةِ الكَرَمِ كالأعلَمِ، هو وصفٌ بإحاطةِ العلمِ وكَمالِهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى القَلَمَ سبباً، بهِ يَحْفَظُ، وبهِ يُثْبِتُ، وبهِ يُوصِلُ ما يُخافُ فَوتُهُ ونِسيانُهُ مِنْ أمرِ دينِهِمْ ودُنْياهُمْ ما لو لم يكنِ القلمُ، لم يَسْتَقِمْ أمرُ دينِهِمْ ولا دُنْياهُمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ أي عَلَّمَ الخَطَّ والكتابةَ بالقَلَمِ، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ وحَفصةَ ﷺ مَنْ[9] عَلَّمَ الخَطَّ بالقَلَمِ، ثم أضافَ التعليمَ بالقَلَمِ إلى نفسِهِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لِما يَخْلُقُ منهمْ فِعْلَ تَعَلُّمِهِمْ.

[والثاني][10]: إضافتُهُ إليهِ للأسبابِ التي جَعَلَها لهمْ في التَّعْليمِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: وتعليم. (٩) من م، في الأصل: ومن. (١٠) في الأصل وم: ويحتمل.

ثم ذلكَ التّعْليمُ بالقَلَمِ لِأُمَّتِهِ [لا][١] لرسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ علَّمَهُ إياهُ بلا كِتابةٍ ولا خَطّ حينَ[٢] قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

ثم في تعليمِ رسولِ اللهِ ﷺ بلا قَلَمٍ ولا كتابةٍ آيةٌ عظيمةٌ لرسالتِهِ حينَ[٣] جعلَهُ بحالٍ يَحفَظُ بقلبِهِ بلا إثباتٍ ولا كتابةٍ ولا خَطٍّ، خَطَّهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ يَحتَمِلُ رسولَ اللهِ ﷺ كقولِهِ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود:٤٩] وقولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢].

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كلَّ إنسانٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨].

الآيتان ٦ و٧ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ طَغَى بالغِنَى، أي تَكَبَّرَ، وافْتَخَرَ بما رَأى نفسَهُ غَنِيَّةً. وعلى هذا ما رُوِيَ في الخَبَرِ[٤] مِنَ التَّعَوُّذِ مِنْ غِنىً يُطْغي وفَقْرٍ يُنْسِي، لأنَّ الغِنَى يَحمِلُ على التَّكَبُّرِ والاِفْتِخارِ والطُّغْيانِ، والطُّغْيانُ، هو المُجاوزةُ عنِ الحَدِّ والتَّعَدِّي فيهِ، والفَقْرُ المُنْسِي، هو المُجْهِدُ الذي يُنْسي غَيرَهُ مِنَ النِّعَمِ؛ أعني يُنْسِي غَيرَ المالِ مِنْ صِحَّةِ البَدَنِ والعقلِ والعلمِ ونَحْوِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ليسَ هذا وصفَ ذلكَ الكافرِ بعينِهِ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ أبي جَهْلٍ، لَعَنَهُ اللهُ، ولكنْ [هو وصفُ][٥] كلِّ كافرٍ يَطْغَى أنْ رَأى نفسَهُ غنيَّةً.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي المَرجِعُ، كذا قالَ أبو عُبَيدٍ[٦]. وقالَ غيرُهُ: الرجوعُ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي المَرجِعُ للكلِّ إلى ما أعَدَّ لهمْ؛ أعَدَّ للكافرِ النارَ وللمؤمنِ الجنةَ على ما ذَكَرَ في الآيةِ. وجائزٌ أنْ يكونَ إخباراً عنْ رجوعِ الكلِّ إليهِ.

ثم قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أُريدَ بهِ إنسانٌ دونَ إنسانٍ؛ إذْ لم يَطْغَ كلُّ إنسانٍ، ولا خُلْفَ يَقَعُ في خَبَرِ اللهِ، فكانَ المرادُ منهُ البعضَ لِيُعلَمَ أنَّ الفَهمَ بِظاهرِ الخطابِ، والعُمومَ ليسَ بواجبٍ، ولكنْ على حَسْبِ قِيامِ الدليلِ على المرادِ منهُ.

وفيهِ إنَّ المُرادَ منهُ قد يكونُ مُنَبَّهاً مَقروناً بهِ، وقد يكونُ مطلوباً غَيرَ مقرونٍ بهِ.

الآيتان ٩و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الذي يَنْهَى أبو جَهْلٍ، لعنَهُ اللهُ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ رسولَ اللهِ ﷺ وذلكَ أنهُ كانَ يُصلِّي في الحِجْرِ، فكانَ يَنهاهُ أبو جهلٍ، فَنَزَلَ [قولُهُ تعالى][٧] ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

الآيات ١١و١٢و١٣و١٤ [وقولُهُ تعالى][٨]: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾][٩].

جائزٌ أنْ يَجمَعَ هذا كلَّهُ في الوعيدِ الذي ذَكَرَهُ على إثْرِ ذلكَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ كأنهُ قالَ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أرأيتَ الذي يَنْهَى مَنْ ﴿كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ وهو رسولُ اللهِ؛ كانَ يَنهاهُ ذلكَ الكافرُ إذا صَلَّى، ويَنهاهُ عنِ الهُدَى وعنِ الأمرِ بالتَّقْوى ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ رسولَ اللهِ ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن طاعةِ اللهِ تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

يدخُلُ جميعُ ما ذَكَرَ في هذا الوعيدِ، فيكونُ ذلكَ جواباً لِما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) انظره في الترمذي: ٢٣٠٦. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في نسخة الحرم المكي: عبيدة. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ جوابُ قولِهِ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ مَسْكوتاً عنهُ، تُرِكَ لِلْفَهْمِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي ألم يَعْلَمْ بأنَّ اللهَ يَراهُ[1] [فَيَنْتَقِمَ منهُ لرسولِ اللهِ، أو ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾][2] فَيَدْفَعَهُ عمّا هَمَّ برسولِ اللهِ. فهو وعيدٌ.

ثم قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما: قد عَلِمَ بأنَّ اللهَ يَرَى جميعَ ما يقولُهُ، ويَفْعَلُهُ، ويَهُمُّ بهِ، لكنهُ قالَ ذلكَ على المُكابَرَةِ والعِنادِ.

والثاني: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ على نَفْيِ العِلْمِ لهُ بذلكَ؛ إذْ لو عَلِمَ بأنَّ اللهَ يَرَى، ويَعْلَمُ ما يَفْعَلُهُ مِنَ النَّهْيِ عنِ الصلاةِ والمَكْرِ بهِ لكانَ لا يَفْعَلُ ذلكَ بهِ.

الآيتان ١٥ و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي حقاً لئنْ لم يَنْتَهِ عنْ صَنيعِهِ الذي يَصْنَعُ برسولِ اللهِ لَنَسْفَعَنَّ[3] ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ﴾ أي لَنَأخُذَنَّ بالناصِيَةِ؛ كأنهُ عبارةٌ عنِ الأخذِ الشديدِ والجَرِّ الشديدِ على النّاصِيَةِ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ الوعيدُ لهُ في الدنيا أنهُ /٦٤٨ ـ ب/ لو لم يَنْتَهِ عمّا ذُكِرَ.

فإنْ كانَ في الدنيا فيكونُ السَّفْعُ كنايةً عنِ العذابِ أي لَنُعَذِّبَنَّ. وقيلَ: قد أُخِذَ بِناصِيَتِهِ يومَ بدرٍ، فأُلقِيَ بَينَ يَدَي رسولِ اللهِ قتيلاً، وإنْ كانَ في الآخِرةِ فهو عنْ حقيقةِ أخذِ النّاصِيَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨].

وقالَ أهلُ العربيةِ ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أي نَقْبِضُ، وسَفَعْتُ ناصِيَتَهُ، أي قبضتُ، ويقالُ: سَفَعَهُ بالعصا، أي ضَرَبَهُ، ويُقالُ: اسْفَعْ بيدِهِ، أي خُذْ بيدِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [أنْ يكونَ][4] كنايةً عنِ النفسِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كنايةً عنِ الناصِيةِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها.

الآيتان ١٧و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أي أهلَ مجلِسِهِ في الإعانةِ لهُ بما يَهُمُّ برسولِ اللهِ ﷺ ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ نحنُ في الدفعِ عنهُ لنَرى هلْ يَقْدِرُ أنْ يَفْعَلَ ما هَمَّ بهِ.

ويَحْتَمِلُ ذلكَ في الدنيا، وقد ذُكِرَ أنهُ قُتِلَ يومَ بدرٍ. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ الدفعُ مِنَ الزَّبانِيةِ [في الآخِرةِ، وسُمُّوا زَبانيةً][5] لِلدَّفْعِ أي يَدْفَعونَ أهلَ النارِ في النارِ.

وقيلَ: الزَّبانِيَةُ الشُّرَطُ، والواحدُ: زِبْنِيَةٌ، والنادي المجلسُ، يريدُ بهِ قومَهُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي لا تُطِعْ ذلكَ الكافرَ، وكانَ ما ذُكِرَ: لم يُطِعْهُ حتى ماتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا خِطاباً للنَّبِيِّ، أي صَلِّ، واقْتَرِبْ إلى اللهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ خِطاباً للنَّبِيِّ، أي صَلِّ، وقولُهُ: ﴿وَٱقْتَرِب﴾ خِطاباً لأبي جهلٍ، أي اقْتَرِبْ إلى محمدٍ حتى تَرَى، على سبيلِ الوعيدِ، ولِما كانَ يَقصِدُ المَكْرَ بالنَّبِيِّ ﷺ في حالِ الصلاةِ.

وعلى[6] التأويلِ الظاهرِ الآيةُ حجةٌ لنا على أهلِ التشبيهِ، فإنهُ لم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱقْتَرِب﴾ القُرْبُ مِنْ حيثُ المكانُ وقُرْبُ الذاتِ. ولكنْ قُرْبُ المَنْزِلةِ والقَدْرِ.

وكذلكَ ما ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ: «مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليهِ ذراعاً» [البخاري ٧٤٠٥] ونَحْوُ ذلكَ لا يُفْهَمُ منهُ قُرْبُ الذاتِ، ولكنْ قُرْبُ المَنْزِلةِ والقَدْرِ بالإجابةِ، وكذلكَ جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ القربِ قُرْبُ المَنْزِلةِ والقَدْرِ.

---

(١) في الأصل وم: يرى. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/١٩٨. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

ثم في هذهِ السورةِ السجدةُ لِما رُوِيَ عنْ أبي هريرَةَ ﵁ أنَّه قالَ: سَجَدَ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أبو بكرٍ وعُمَرُ ﵄ ومَنْ هو خَيرٌ منهما.

ورُوِيَ عنْ عليٍّ أنهُ قالَ: في اقْرَأْ مِنْ عَزائِمِ السُّجودِ، وأبي[1] عُبَيدةَ عن عبدِ اللهِ أنهُ سَجَدَ فيها.

(١) في الأصل وم: وأبو.

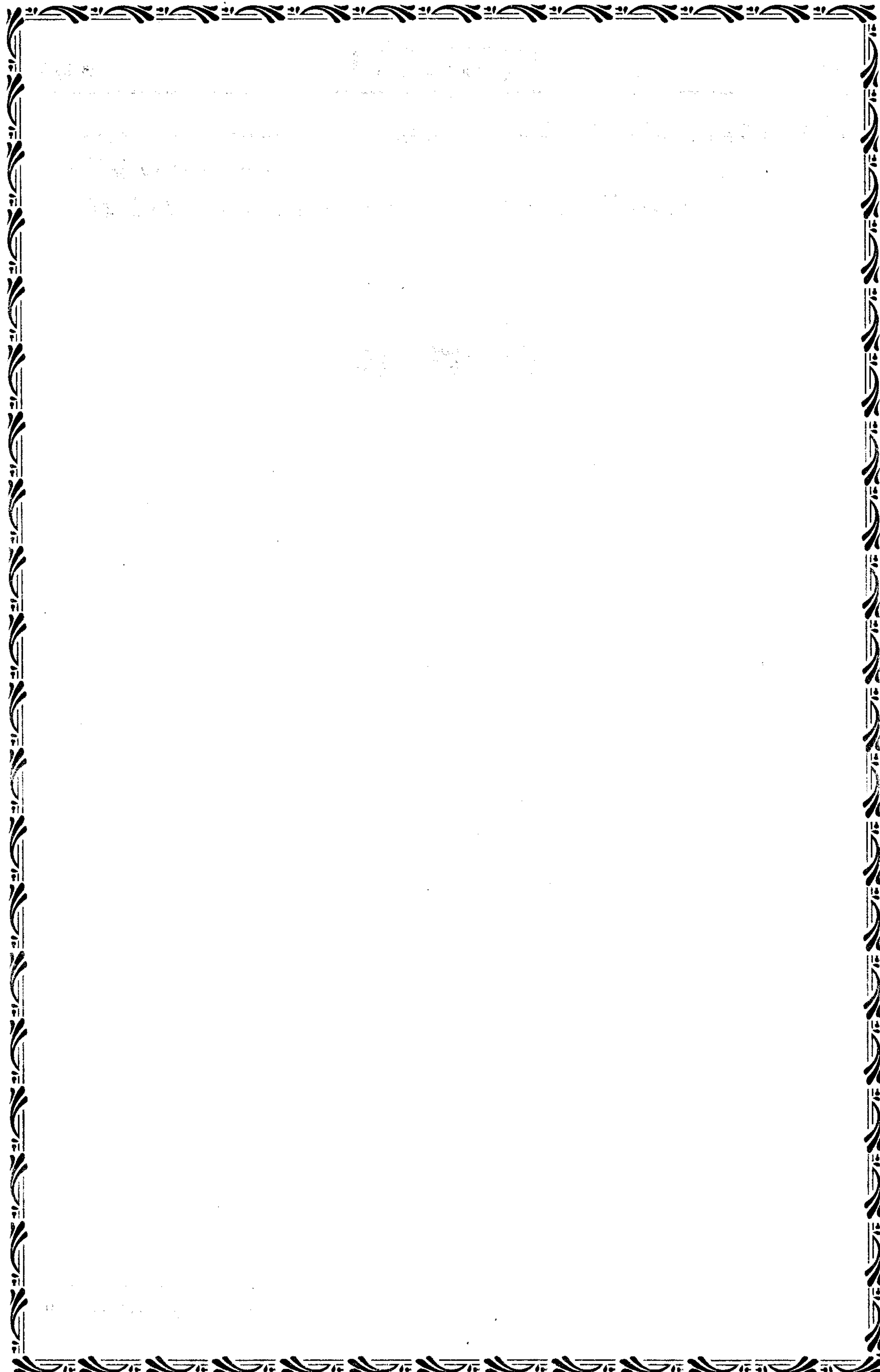

سورة القدر

[وهي مكية](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ قولَهُ: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني [القرآنَ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني](٢) السلامَ الذي ذُكِرَ في آخرِ السورةِ حيثُ قالَ: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ [الآيتان ٤و٥].

فَمَنْ قالَ: أُنزِلَ القرآنَ في ليلةِ القَدْرِ، فهمْ مُخْتَلِفونَ؛ قالَ بعضُهُمْ: أُنْزِلَ القرآنُ جملةً إلى السماءِ الدنيا مِنَ اللوحِ المحفوظِ في تلكَ الليلةِ، وهي في شهرِ رمضانَ كقولِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي أُنزِلَ مِنَ اللوحِ المحفوظِ، ثم أُنْزِلَ مِنَ السماءِ الدنيا على رسولِ اللهِ ﷺ بالتفاريقِ على قَدْرِ الحاجةِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والحَلالِ والحَرامِ والمَواعِظِ وكلِّ ما يُحْتاجُ إليهِ إلى العامِ القابلِ جملةً. ثم أُنْزِلَ على رسولِ اللهِ ﷺ نُجوماً بالتَّفاريقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم لا نَدري أنَّ تلكَ الفضيلةَ التي جُعِلَتْ لهذهِ الليلةِ لِفَضْلِ عبادةٍ جُعِلَتْ فيها، امْتُحِنَ الخَلْقُ بأدائِها على التَّرغيبِ والأدبِ، أو فُضِّلَتْ لِمكانِ ما امْتَحَنَ الملائكةَ، وكَلَّفَهُمْ بالنُّزولِ فيها والعبادةِ للهِ في الأرضِ وإنزالِ القرآنِ ونحوِ ذلكَ، أو لِحِكْمَةٍ ومَعْنىً فُضِّلَتْ، لم يُطْلِعْ على ذلكَ المَعْنَى أحداً.

وقد جُعِلَتْ لبعضِ الأمكنةِ الفضيلةُ لعباداتٍ جُعِلَتْ فيها نَحْوُ ما ذُكِرَ [عنِ النَّبِيِّ ﷺ](٣): «صلاةٌ واحدةٌ في المسجدِ الحرامِ تَعْدِلُ مئةَ ألفِ صلاةٍ في غَيرِهِ، وصلاةٌ واحدةٌ في مسجدي هذا تَعْدِلُ ألفَ صلاةٍ في غَيرِهِ سوى المسجدِ الحرامِ» [ابن ماجه ١٤٠٦]. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] خُصَّتْ هذهِ البِقاعُ بالفضيلةِ على غَيرِها لِعباداتٍ جُعِلَتْ فيها. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ تُخَصَّ بعضُ الأوقاتِ دونَ بعضٍ بالفضيلةِ لمكانِ عباداتٍ جُعِلَتْ فيها. لكنْ بَيَّنَ تلكَ الأماكنَ، ولم يُبَيِّنْ تلكَ الأوقاتَ المُفَضَّلَةَ [ولم يَجْعَلْها](٤) مطلوبةً مِنْ بينِ غَيرِها مِنَ الأوقاتِ؛ فهو، واللهُ أعلَمُ [أنهُ لو بَيَّنَها، وأشارَ](٥) إليها لكانَ لا مَؤُونَةَ تَلْزَمُ في ذلكَ لأنهُ يُحْفَظُ ذلكَ الوقتُ وتلكَ الليلةُ خاصةً، وأمّا المكانُ فَتَلْزَمُ(٦) المَؤُونَةُ في إتيانِ ذلكَ المكانِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما لم يُبَيِّنْ وقتَ خُروجِ روحِ الإنسانِ منْ بدنِهِ، لأنهُ لو بُيِّنَ، وأُعْلِمَ نهايةَ عُمُرِهِ، لَتَعاطَى الفِسْقَ، وارْتَكَبَ المعاصيَ آمِناً إلى آخِرِ أجزاءِ حياتِهِ، ثم يتوبُ، فلم يُبَيِّنْ ليكونَ أبداً على خوفٍ وحَذَرٍ ورجاءٍ. فَعَلَى ذلكَ لم يُبَيِّنْ تلكَ الليلةَ لِتُطْلَبَ منْ بينِ الليالي جميعاً، لِتُحْيَى الليالي غَيرُها، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنْ كانَ السؤالُ عنِ القرآنِ، هو المُنَزَّلُ في تلكَ الليلةِ، فيكونُ دليلُهُ قولَهُ: ﴿حمٓ﴾ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ١-٣] وإنْ كانَ السؤالُ عنْ ليلةِ القدرِ، فيكونُ البيانُ عنها.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: ما كنتَ تدري حتى أدراكَ كقولِهِ: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجعلها. (٥) في الأصل وم: أن لو بين وأشير. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم.

[والثاني](١): قولُهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ على التَّعظيمِ لها والتَّعجيبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: نُزولُ هذهِ الآيةِ يكونُ على مَعْنَى التَّسَلّي؛ أعطاهُ فَضْلَ هذهِ الليلةِ /٦٤٩ ـ أ/ والعَمَلِ بها.

الآية ٢ ثم بَيَّنَ فَضْلَها حينَ(٢) قالَ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُرِيَ بَني أُميَّةَ على مِنْبَرِهِ، فساءَهُ ذلكَ، فنَزَلَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أي مِنْ ألفِ شهرٍ يَمْلِكُها بَعْدَكَ بَنو أميّةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [أي العَمَلُ فيها خيرٌ مِنَ العَمَلِ في ألفِ شَهْرٍ](٣) سِواها.

وقيلَ أيضاً: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ لأصحابِهِ أنَّ رجلاً جاهدَ ألفَ شهرٍ في سبيلِ اللهِ، فَعَظُمَ ذلكَ عليهِمْ، فنَزَلَ قولُهُ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾» [البيهقي في الكبرى ٤/ ٣٠٦] أي العَمَلُ فيها خيرٌ مِنْ جهادِ ذلكَ الرجلِ في ألفِ شهرٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذِكْرُ ألفِ شهرٍ على سَبيلِ التَّمْثيلِ لا على التَّوقيتِ، أي خيرٌ مِنْ ألفِ شهرٍ وأكثَرَ؛ إذِ التَّقديرُ قد يكونُ لِبَيانِ العددِ نفسِهِ، وقد يكونُ لِبَيانِ شَرَفِ ذلكَ الشيءِ وعَظَمَتِهِ، فلا يكونُ الغَرَضُ، هو القَصْرُ على العَدَدِ، وهو كقولِهِ: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٨٠] ونحوُ ذلكَ.

ثم اخْتُلِفَ في تَسْمِيةِ ليلةِ القدرِ؛ قالَ بعضُهُمْ: هي ليلةُ الحكمِ والقضاءِ؛ فيها يَحْكُمُ، ويَقضي ما يُريدُ أنْ يكونَ في ذلكَ العامِ المُقْبلِ كقولِهِ: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وسُمِّيَتْ ليلةَ القدرِ لأنها ليلةٌ لها قَدْرٌ ومنزلةٌ عندَ اللهِ لِما يُوصَفُ الشيءُ العظيمُ بالقَدرِ والمَنزِلةِ، أو سُمِّيَتْ ليلةً مُباركةً لأنهُ تَنزِلُ فيها البركاتُ والرحمةُ مِنَ اللهِ تعالى على خَلْقِهِ، أو سُمِّيَتْ مُباركةً لِكَثْرةِ ما يُعْمَلُ فيها مِنَ العباداتِ.

الآيتان ٤ و ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: الروحُ ههنا جبرائيلُ كقولِهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقالَ بعضُهُمْ: خَلْقٌ مُوكَّلونَ [بالملائكةِ كما أنَّ الملائكةَ مُوكَّلونَ](٤) بِبَني آدمَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الرُّوحُ هنا، هو الرحمةُ، أي تَنزَّلُ الملائكةُ بالرحمةِ فيها على ما سُمِّيَتْ مباركةً بما تَنزَّلُ فيها مِنَ البركاتِ.

ثم اختَلَفوا في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي في تلكَ الليلةِ تَنزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ، وقيلَ: ﴿فِيهَا﴾ أي في الملائكةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ أي يَنْزِلونَ بإذْنِ ربِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي بكلِّ أمرٍ يُقَدَّرُ في تلكَ السنةِ على الأرضِ. وكذا قالَ القُتَبِيُّ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾. وقيلَ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ يُدَبِّرُهُ اللهُ تعالى؛ أي الملائكةُ، لا عِلْمَ لهمْ في ما يُقَدِّرُ اللهُ تعالى إلّا أنْ يُطْلِعَهُمْ عليهِ، فكأنهمْ يَطَّلِعونَ على [ما](٥) يُقَدَّرُ في تلكَ السنةِ مِنَ الأمورِ، فيَنْزِلونَ بها بأمرِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ قيلَ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تَخْفُقُ بأجنِحَتِها بالسَّلامِ مِنَ اللهِ والرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ.

وقيلَ(٦): أي هي ليلةٌ لا يَحدُثُ فيها شرٌّ، ولا يُرْسَلُ فيها شيطانٌ ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: هو سلامُ الملائكةِ، أي يُسَلِّمُ الملائكةُ على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي مِنْ كلِّ آفةٍ وبَلاءٍ سلامٌ، وكذلكَ ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ يَحْفَظونَهُ مِنْ عذابِ اللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: يَحْفَظونَهُ بأمرِ اللهِ تعالى، فلذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ هذينِ الوَجْهَينِ.

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقال.

وقولُهُ تعالى: ﴿هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ يَحتَمِلُ أي تلكَ البركاتُ التي ذُكِرَتْ إلى مَطْلَعِ الفجرِ، ويَحتَمِلُ ذلكَ السلامَ الذي ذُكِرَ إلى مَطْلَعِ الفجرِ، ويَحتَمِلُ الملائكةَ، يكونونَ في الأرضِ إلى مَطْلَعِ الفجرِ. ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قرأ ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ وقالَ: يعني الملائكةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: اخْتَلَفَتِ الرواياتُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ في ليلةِ القدرِ. متى تكونُ؟ واخْتَلَفَ الصحابةُ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، فيها:

يَروي عبدُ اللهِ بْنُ أُنَيسٍ [الجُهَنِيُّ][1] عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: «الْتَمِسوها في العشرِ الأواخِرِ، واطْلُبوها في كلِّ وِتْرٍ» [البخاري ٢٠٢٧ عن أبي سعيد الخدري] ورَوَى عبدُ اللهِ بْنُ مسعودٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ليلةَ [تسعَ عشرةَ][3] مِنْ رمضانَ» أو «ليلةَ إحْدى وعشرينَ» أو «ليلةَ ثلاثٍ[4] وعشرينَ» [الترمذي: ٧٩٢] ورَوَى ابْنُ عُمَرَ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «تَحرَّوا ليلةَ القدرِ في السَّبْعِ الأواخِرِ» (مسلم١١٦٥/٢٠٦) ورَوَى أنها في سَبْعٍ وعشرينَ. [وعن][5] عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أنهُ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عنْ ليلةِ القدرِ، وأنا أسمعُ، قالَ: «هي في كلِّ رمضانَ» [أبو داوود١٣٨٧]. وعنْ [زِرِّ أنهُ][6] قالَ: قُلْتُ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أَخْبِرْني عنْ ليلةِ القدرِ يا أبا المُنْذِرِ، فإنَّ صاحبَنا[7] عبدَ اللهِ بْنَ مَسْعودٍ سُئِلَ عنها، فقالَ: «مَنْ يُقِمِ الحَولَ يُصِبْها» [مسلم: ٧٦٢] فقالَ: نعمْ، رَحِمَ اللهُ أبا عبدِ الرحمنِ، واللهِ لقد عَلِمَ أنها في رمضانَ، كَرِهَ أنْ يَتَّكِلوا، واللهِ إنها في رمضانَ ليلةَ سَبْعٍ وعشرينَ.

ثم ليسَ لنا ولا لأحدٍ أنْ يُشيرَ إلى تلكَ الليلةِ، فيقولَ: هي ليلةُ كذا: ليلةُ سَبْعٍ وعشرينَ أو تِسْعٍ وعشرينَ إلّا أنْ يَثْبُتَ بالتَّواتُرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في ذلكَ خَبَرٌ بالإشارةِ إليها، فعندَ ذلكَ يَسَعُ، وإلّا كانَتْ مطلوبةً في الليالي.

وعلى هذا الوجهِ تُخَرَّجُ الأخبارُ المَرْوِيَّةُ على التَّوافُقِ دونَ المناقَضةِ، وتكونُ كلُّها صَحيحةً، فتكونُ في سَنَةٍ [في][8] بعضِ الليالي وفي سَنَةٍ أُخْرَى في غيرِها، وفي سَنَةٍ[9] في العَشْرِ الأواخِرِ منْ رمضانَ، وفي سَنَةٍ في العَشْرِ الأوسطِ منْ رمضانَ، وفي سَنَةٍ في العَشْرِ الأوَّلِ، وفي سَنَةٍ في غيرِ رمضانَ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ[10].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تسعة عشر. (٤) في الأصل وم: ثلاثة. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: زبير. (٧) في الأصل وم: صاحبه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: سبع. (١٠) من م، في الأصل: بذلك.

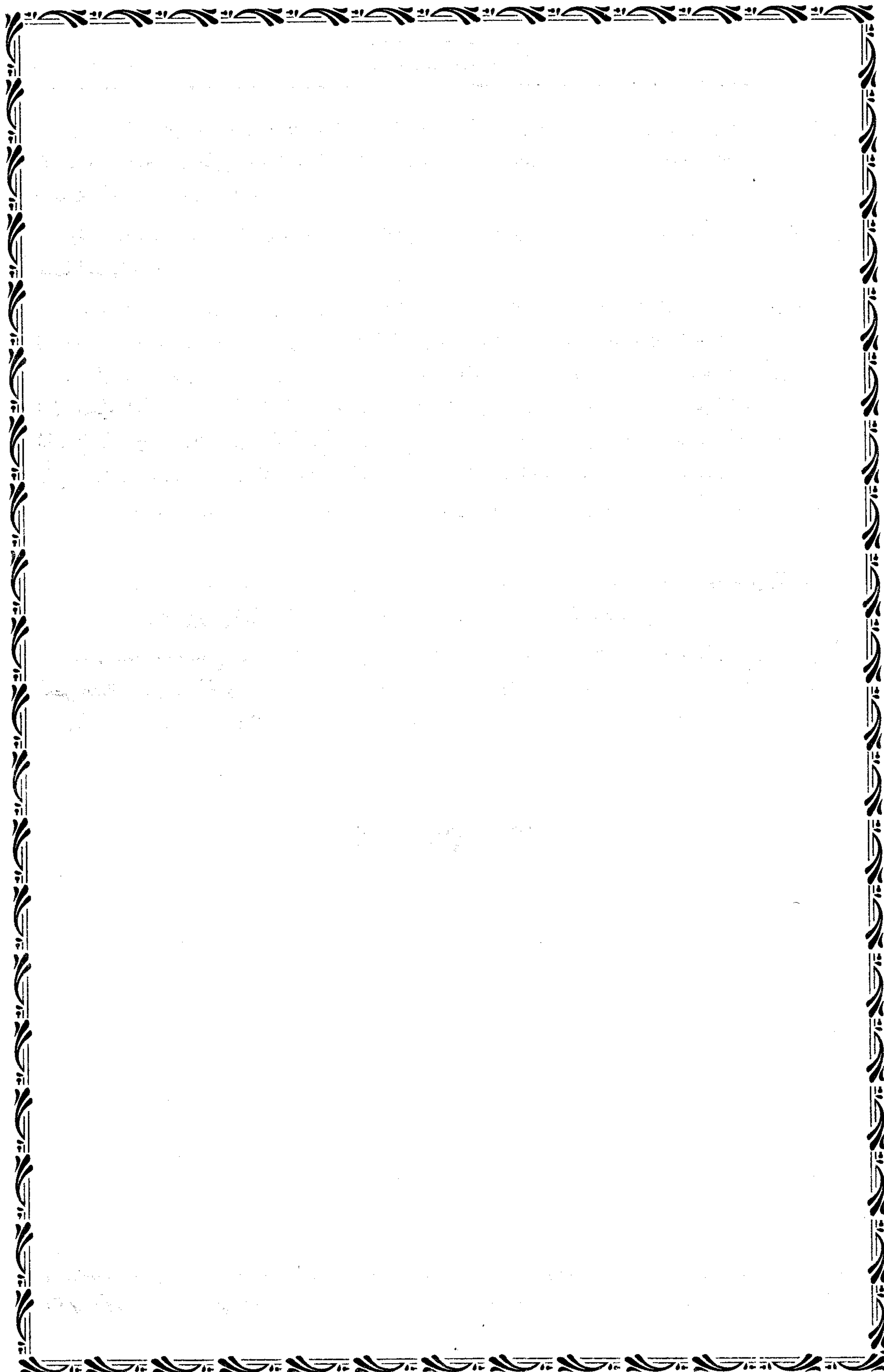

[ســورة البيـنـة

وهي][1] مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ذَكَرَ في حقِّ أهلِ الكتابِ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بحرفِ ﴿مِنْ﴾ وهو لِلتَّبْعيضِ، ولم يَقُلْ أهلَ الكتابِ، وذَكَرَ في حقِّ أهلِ الشِّرْكِ[2] والمُشركينَ لأنَّ أهلَ الكتابِ كانوا فِرَقاً:

منهمْ مَنْ كانَ آمَنَ برسولِ اللهِ /٦٤٩ ـ ب/ ﷺ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، فلمّا بُعِثَ آمَنَ بِهِ، ولَزِمَ الإيمانَ، ومنهمْ مَنْ كانَ كافراً بِهِ، فلما بُعِثَ، وأُرسِلَ لَزِمَ الكُفْرَ بِهِ، ولم يُؤمِنْ، فلما كانوا أصنافاً وفِرَقاً لذلكَ قالَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بِحَرْفِ ﴿مِنْ﴾.

وأمّا المُشركونَ فإنهمْ كانوا صِنفاً واحداً، ثم لم يُبيِّنْ بأنهمْ إذا أتاهُمُ البيِّنةُ يَنفكّونَ أو لا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ إلى قولِهِ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي لم يكنْ بعضُ أهلِ الكتابِ وبعضُ المُشركينَ مُنفكّينَ مِنَ الكَفَرةِ لأنهُ عَطَفَ المُشركينَ على أهلِ الكتابِ، بل كانوا أهلَ كُفرٍ وشِرْكٍ إلى آخِرِ عُمُرِهِمْ، وإنْ أتتْهُمُ البيِّنةُ.

والبيِّنةُ، هي ما [في][3] خِلْقةِ كلِّ أحدٍ مِمّا يَدُلُّ على أُلوهِيَّتِهِ وَوَحْدانيَّتِهِ. ويَحْتَمِلُ أنَّ بعضاً مِنَ الفريقَينِ على الشِّرْكِ حتى تأتيَهُمُ البيِّنةُ، وهي مُعايَنةُ العذابِ عندَ الموتِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤] ونحوُ ذلكَ.

وذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: لم يكنِ المُشرِكونَ وأهلُ الكتابِ مُنفكّينَ، وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ما كانَ الذينَ أشْرَكوا مِنْ أهلِ الكتابِ والمُشركينَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ ﷻ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ خارِجينَ مِنَ الدنيا ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

ثم اخْتَلَفوا في البيِّنةِ التي ذَكَرَ أنها تأتيهِمْ؛ قالَ بعضُهُمْ: البيِّنةُ رسولُ اللهِ ﷺ لِما[4] قالَ على إثْرِهِ ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [الآية: ٢] وقالَ بعضُهُمْ: ما جاءَ بِهِ محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الحُجَجِ.

فَمَنْ جَعَلَ قولَهُ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مُنْتَهِينَ زائِلِينَ يَجْعَلِ البيِّنةَ رسولَ اللهِ ﷺ سُمِّيَ بَيِّنةً لأنهُ بِهِ يُعْرَفُ كلُّ خيرٍ وكلُّ إحسانٍ، وبِهِ يَتَبيَّنُ الحقُّ والباطلُ وكلُّ شيءٍ مِنْ أمرِ المَعادِ والمَعاشِ وكذلكَ القرآنَ، جاءَ بِهِ.

ومَنْ قالَ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ خارِجينَ مِنَ الدنيا يَجْعَلِ البيِّنةَ التي ذَكَرَ أنها تأتيهِمُ العذابَ مُعايَنةً جَهْراً كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] أي خارِجينَ مِنَ الدنيا حتى يُعايِنوا[5] العذابَ، فعندَ ذلكَ يؤمنونَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ على التأويلِ الأوَّلِ في البيِّنةِ يكونُ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ تفسيراً للبيِّنةِ.

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أن هذه السورة البينة. (٢) في الأصل وم: الكتاب. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: يعلموا.

وعلى الثاني يُخرَّجُ على الابْتِداءِ؛ يقولُ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ سَمّى القرآنَ وَحْدَهُ صُحُفاً على المُبالغةِ؛ إذْ قد يُسَمّى الواحدُ بِاسْمِ الجَمْعِ على المُبالغةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا﴾ القرآنَ وسائرَ الصُّحُفِ لأنَّ سائرَ الصُّحُفِ فيهُ، وكذلكَ [قولُهُ][1]: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [الآية: ٣] جائزٌ أنْ يكونَ سَمّى كتابَهُ المُنْزَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ، كُتُباً على الإبْلاغِ والتأكيدِ على ما ذَكَرْنا.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وكُتُباً عليهِمْ، وهي التوراةُ والإنجيلُ والزبورُ؛ كانَ هذا القرآنُ في تلكَ الكتبِ في هذا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨و١٩] أخبرَ أنهُ في تلكَ الكتبِ، وأنَّ الكُتُبَ الأولَى فيهِ، فيَصيرُ بتلاوةِ هذا عليهِمْ كأنهُ تلا تِلْكَ الكتبَ عليهم.

وعلى هذا قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء: ٢٤] وقولُهُ تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ يَحتمِلُ ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ مِنْ أنْ يكونَ للباطلِ فيها[2] حُجَّةٌ أو مَدْخَلٌ، أو ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ مِنَ الافْتِعالِ والافْتِراءِ، أو ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ مِنْ أنْ تحتَمِلَ ما ذَكَرَهُ أولئكَ الكَفَرةُ.

وقالَ قتادةُ: سَمّى كتابَهُ بأحْسَنِ الأسماءِ، وأثْنى عليهِ بأحْسَنِ الثّناءِ؛ سَمّاهُ نوراً وهُدىً ورَحْمَةً وبَرَكَةً وآيةً وشِفاءً ونَحْوَهُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: فيها كُتُبٌ صادقةٌ، وقالَ بعضُهُمْ: عادلةٌ، وقالَ غيرُهُمْ: مُسْتَقيمةٌ على ما تُوجِبُهُ الحكمةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي أحكامٌ كثيرةٌ مُسْتَقيمةٌ على ما توجِبُهُ الشريعةُ والحِكْمَةُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ يقولُ أهلُ التأويلِ: إنما تفرّقوا مِنْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّنةُ، وهو محمدٌ ﷺ.

قالَ أبو بكرٍ: هذا التأويلُ خَطأٌ لأنهمْ كانوا مُتَفَرِّقينَ قبلَ ذلكَ، فلا مَعْنَى لذلكَ[3].

وعندَنا: ليسَ كما تَوَهَّمَ هو، وهو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما تَفَرَّقوا في محمدٍ ﷺ إلّا مِنْ بعدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بهِ؛ عندَ ذلكَ تفرّقوا فيهِ، فأمّا قَبْلَ ذلكَ فكانوا[4] مُجْتَمِعينَ فيهِ كُلُّهُمْ.

[والثاني][5]: ما تَفَرَّقوا فيهِ في الدينِ والمذهبِ إلّا منْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّنةُ، أي عنْ بَيانٍ وعِلْمٍ تَفَرَّقوا في الدينِ.

وفي ما تَفرَّقوا فيهِ هو[6] ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ واحدٍ دلالةُ التّوحيدِ والرّبوبيّةِ لهُ ما لو تَفَكّروا لَعَرَفوا أنَّ اللهَ واحدٌ. والبيِّنةُ تَحتَمِلُ منْ هذا الموضعِ رسولَ اللهِ ﷺ والقرآنَ ونفسَ الخِلْقةِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي ما أُمِرَ أوائلُهُمْ وأواخِرُهُمْ في تلكَ الكتبِ إلّا لِيَعْبُدوا اللهَ تعالى، ولا يَعْبُدوا مَنْ دونَهُ، أو ما أُمِروا إلّا لِيَعْبُدوا اللهَ تعالى، ولا يَعْبُدوا مَنْ دونَهُ، أو ما أُمِروا إلّا لِيَجْعَلوا الألوهِيَّةَ للهِ والوَحْدانِيَّةَ لهُ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ على أنَّ تأويلَ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيه. (٣) في الأصل وم: كذلك. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: وهو.

[الذاريات: ٥٦] على إضمارِ الأمرِ أي إلّا ليأمُرَهُمْ بالعبادةِ على كلِّ حالٍ، لأنهُ لو خَلَقَهُمْ للعبادةِ ما قَدَروا غَيرَهُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ على الخصوصِ، خَلَقَ عنْ عِلْمٍ أنهُ يَعْبُدُهُمْ[1] للعبادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: ﴿لَهُ﴾ يُخرجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يُخلَصَ لهُ الدينُ، ويُصفّى، لا يُشرَكَ فيهِ غَيرُهُ، ويكونُ منْ خُلوصٍ وصفاءٍ[2].

والثاني: الدينُ الخالصُ، هو الدائمُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] وكذلكَ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿حُنَفَآءَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: المسلمونَ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حُنَفَآءَ﴾ مُتّبعينَ، والحَنَفُ الميلُ، كأنهُ قالَ: مائلينَ إلى الإسلامِ، وقيلَ: ﴿حُنَفَآءَ﴾ الحُجّاجُ، وقيلَ: الحَنِفُ المُستَقيمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحتَمِلُ القَبولَ، أي قَبِلوا إقامةَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ، أي تابوا، وقَبِلوا ذلكَ، ليسَ على حقيقةِ الإقامةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على حقيقةِ الإقامةِ والإتيانِ، وأيُّهما كانَ ففيهِ أنَّ أوائِلَهُمْ كانوا مأمورينَ بالصلاةِ والزكاةِ.

ثم المَعْنى الذي في الصلاةِ والزكاةِ، لا يَحتَمِلُ النسخَ في وقتٍ منَ الأوقاتِ، لأنَّ الصلاةَ، مَعْناها الاستِسْلامُ والخُضوعُ لهُ، والزكاةَ، هي تَزْكِيَةُ النفسِ وطَهارَتُها، وذلكَ لا يَحتَمِلُ النسخَ [أصلاً][3].

وقولُهُ[4] تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ / ٦٥٠ ـ أ/ والدينُ مُذكَّرٌ، والقَيِّمَةُ مؤنّثٌ. فجائزٌ أنْ يكونَ الذي ذُكِرَ، هو المِلَّةُ، ويَحتَمِلُ دينَ الأُمّةِ القَيِّمَةِ، وهو قولُ الزَّجّاجِ، أو يقولُ: ذلكَ الدينُ قَوَّمَتْهُ الحُجَجُ، والبراهينُ أُضيفَتْ إلى الحُجَجِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ القَيِّمَةَ على التَّسْوِيةِ بَينَ ما سَبَقَ، وتَقَدَّمَ منْ أواخِرِ الآيِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وقولِهِ[5]: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ وقولِهِ[6]: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ تَسْوِيَةً بَينَ ما تَقَدَّمَ وما تأخَّرَ مِنْ قولِهِ: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وقولِهِ[7]: ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾. وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ: [ذلكَ الدينُ القَيِّمُ لِغَيرِهِ][8].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وجهانِ:

أحدُهما: تحذيرٌ لهذهِ الأُمّةِ لئلا يَتَفرّقوا كما تَفرّقَ أولئكَ في رسولِ اللهِ ﷺ وفي ما جاءَ بهِ.

والثاني: يكونونَ دائماً فَزِعينَ إلى اللهِ تعالى في كلِّ وقتٍ خائفينَ منهُ وألّا يَكِلُوا إلى البَيانِ الذي جاءَهُمْ، فَيَتَفرّقوا كما تَفرّقَ أولئكَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ تأويلَ قولِهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١] أي بعضُ المُشركينَ في النارِ لا كلُّ المُشركينَ، ولكنْ مَنْ كَفَرَ مِنَ المُشركينَ كانَ كَمَنْ كَفَرَ مِنْ أهلِ الكتابِ ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ لكنَّ الكُفرَ، هو الشِّرْكُ، والشِّرْكَ، هو الكُفرُ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فَدَلَّ أنَّ الكُفرَ والشِّرْكَ واحدٌ، وكلُّ كافرٍ مُشرِكٌ، فكأنهُ قالَ ﷻ: إنَّ الذينَ أشرَكوا ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ثم جاءَ هذا التَّشديدُ لهؤلاءِ لأنَّ أهلَ الكتابِ ادَّعَوا أنهمْ مِنْ نَسْلِ الأنبياءِ، ثم تَرَكوا اتِّباعَهُمْ، والمشركينَ قد ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] ثم نَقَضُوا ذلكَ العهدَ.

وأهلُ الكتابِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم [مُّهْتَدُونَ﴾ وقالوا: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾][9] [الزخرف: ٢٢ و٢٣]. فتَركوا اتِّباعَ الصالحينَ منْ آبائِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: يعبده. (٢) في الأصل وم: وصفائه. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال.
(٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: القيمة لغيرها. (٩) ساقطة من الأصل وم.

والعربُ أيضاً كانوا أقْرَبَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ غيرِهِمْ، فَحقُّهُ عليهِمْ ألْزَمُ وأوجَبُ. فَشَدَّدَ [على][1] هؤلاءِ لهذا المَعْنَى.

ثم إنْ كانَ [لَفظُ][2] ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ مَأخوذاً مُقدَّراً منَ البرَى، وهو الترابُ، ويَرْجِعُ تأويلُ الآيةِ إلى البَشَرِ، فكأنهُ قالَ: أولئكَ همْ شَرُّ ما أُنْشِئوا منَ الأرضِ، وإنْ كانَ مَأخوذاً [مُقدَّراً][3] منَ البَرْءِ، وهو الخَلْقُ، فيصيرُ كأنهُ قالَ: أولئكَ همْ شَرُّ ما خُلِقوا، فَيَدخُلُ في ذلكَ الملائكةُ والجِنُّ والبَشَرُ، وفي الأوّلِ لا يَدْخُلُ إلّا البَشَرُ خاصَّةً.

الآية ٧ وكذلكَ ما ذَكَرَ منْ أهلِ الإيمانِ حينَ[4] قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ فإنْ كانَ [لَفظُ][5] ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ مأخوذاً منَ البَرْءِ، فهو يرجِعُ إلى الأصنافِ جميعاً، وإنْ كانَ مِنَ البَرَى، وهو الترابُ، فهو يَرْجِعُ إلى البَشَرِ خاصَّةً، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: شَرُّ أهلِ البشرِ مِنْ جنسِهِمْ، وخيرُ أهلِ الخَيرِ مِنْ جِنسِهِمْ لأنهمْ صاروا قادةً في الهُدَى والخَيرِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ فإنْ كانَ العَدْنُ، هو المُقامُ، فجميعُ الجِنانِ عَدْنٌ، وجميعُ الجِنانِ[6] نَعيمٌ. ثم قد قَسَّمَ الخَلْقَ صِنفَينِ [صِنفاً][7] جَعَلَهُ شَرَّ البَرِيَّةِ [وصِنفاً][8] جَعَلَهُ خَيرَ البَرِيَّةِ. ثم يكونُ منْ كلِّ صِنفٍ شَرٌّ منْ شَرٍّ وخيرٌ منْ خيرٍ، وسَوَّى بينَ مَنْ نَشَأَ على الكُفْرِ، ودامَ عليهِ في التَّأبيدِ والتَّخليدِ، وبينَ منْ أحدَثَ الكُفْرَ في آخرِ عُمُرِهِ، وكذلكَ مَنْ دامَ على الإيمانِ ومَنْ أحدَثَهُ سَوَّى بينَهما، ولم يَجْعَلْ لِما مَضَى مِنَ الكُفْرِ جَزاءً ولا عِقاباً، وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، هو أنَّ مَنِ اعْتَقَدَ إيماناً إنما[9] يَعْتَقِدُ للأبدِ، وكذلكَ مَنْ يَعْتَقِدُ الكُفْرَ إنما يَعْتَقِدُ للأبدِ.

فإذا أحدَثَ الإيمانَ بعدَ الكُفْرِ اعْتَقَدَ قُبْحَ [ما][10] عَمِلَ في حالِ كُفْرِهِ وشَرِّهِ وحُسْنَ ما أحدَثَ منَ الإيمانِ والتَّوحيدِ. وكذلكَ مَنْ أحدَثَ الكُفْرَ بعدَ الإيمانِ اعْتَقَدَ فَسادَ ما عَمِلَ في حالِ إيمانِهِ.

لذلكَ [سَوَّى][11] بينَ مَنْ أحدَثَ وبينَ مَنْ دامَ عليهِ، وليسَ كَمَنْ يُذنِبُ في وقتٍ، ويَتوبُ في وقتٍ، لأنهُ [ليسَ][12] يَعْتَقِدُ حُسْنَ ذلكَ ولا قُبْحَهُ في الأبدِ، واللهُ المُوفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ][13]:

أحَدُهما: يقولُ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِعَمَلِهِمُ الذي عَمِلوا لأنفسِهِمْ وسَعْيِهِمُ الذي سَعَوا في الدنيا لهمْ، رَضِيَ اللهُ عنْ سَعْيِهِمْ لهمْ، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رَضُوا همْ عنهُ بما أكْرَمَهُمْ، وَوَفَّقَهُمْ للأعمالِ التي عَمِلوا لأنفسِهِمْ في الدنيا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أي إنْ قَبِلوا ما أحْسَنَ إليهِمْ، وأحسَنوا صُحْبَةَ إحسانِهِ إليهِمْ يَرْضَ ذلكَ لهمْ.

وهذا يدلُّ أنَّ ما يَعْمَلونَ منْ خَيرٍ أو شَرٍّ إنما يَعْمَلونَ لأنفسِهِمْ ولِمَنْفَعَةٍ تَرْجِعُ إليهِمْ أو مَضَرَّةٍ تَنْدَفِعُ عنهمْ.

والثاني: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أكْرَمَهُمْ منَ الثوابِ لأعمالِهِمُ التي عَمِلوا لأنفُسِهِمْ ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بِكرامتِهِ التي أكْرَمَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هذا منهُ إفضالٌ وإنعامٌ حينَ[14] ذَكَرَ رِضاهُ عنهمْ.

وإنْ ذِكْرَ العَفْوِ والتَّجاوُزِ كانَ حَقًّا. ولكنَّ هذا كما ذَكَرَ مِنْ لَطيفِ مُعامَلَتِهِ عبادَهُ حينَ[15] سَمَّى ما ادَّخَروا في وقتِ حاجتِهِمْ إليهِ قَرْضاً حَسَناً حينَ[16] قالَ: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] وسَمَّى بَذْلَهُمْ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ شِراءً[17] وما يَعْمَلونَ لأنفسِهِمْ جَزاءً وشُكْراً، وأموالَهُمْ وأنفسُهُمْ في الحقيقةِ لهُ.

ولكنْ سَمَّى الذي ذَكَرْنا لُطفاً منهُ وفَضلاً. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ رِضاهُ عنهمْ بهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، في الأصل: تاماً. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ذَكَرَ رِضاهُمْ عنهُ بِفَضْلِهِ ولُطْفِهِ، وإلّا فَمِنْهُمُ[1] الرِّضا عنِ اللهِ تعالى.

ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ سِوَى ما ذَكَرْنا:

أحَدُهما: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما امْتَحَنَهُمْ في الدنيا بالمِحَنِ الشديدةِ العظيمةِ، وإنِ اشْتَدَّتْ، وثَقُلَتْ[2] على أنفسِهِمْ، إذا رَأَوا إحسانَ اللهِ تعالى وفَضْلَهُ في الآخِرَةِ.

والثاني: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالنِّعَمِ التي أكْرَمَهُمْ في الجنةِ ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ ولا يُريدونَ غَيرَها، ولا يَمَلُّونَ [على ما يَمَلُّونَ][3] في الدنيا.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي لا يزالونَ على هذهِ الحالِ؛ يقولُ الرجلُ: ما انْفَكَكْتُ أفعلُ كذا وكذا. وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عُبَيدٍ وغيرُهما: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ زائِلِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي الذي ذَكَرَ مِنَ الجزاءِ لِمَنْ خَشِيَ نِقْمَتَهُ أو خَشِيَ سُوءَ صُحْبَةِ نِعَمِهِ.

وأصلُهُ: أنَّ مَنِ اجْتَنَبَ المَعاصِيَ، وعَمِلَ بالطاعاتِ فإنما يَفْعَلُ ذلكَ لِخَشْيةِ ربِّهِ ﷻ فكلُّ مَنْ [هو][4] أعلَمُ بربِّهِ فهو أخشَى لربِّهِ تعالى، ومَنْ [هو][5] أجْهَلُ بِهِ فهو أجْرَأُ [على مَعْصِيَتِهِ][6].

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا﴾ [فاطر: ٢٨].

وقالَ الحَسَنُ: الخشيةُ، هي[7] الخوفُ اللازمُ في القلبِ الدائمُ فيهِ، أي[8] خَشِيَ خلافَهُ وكُفْرانَ نِعَمِهِ، واللهُ أعلَمُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: أو.

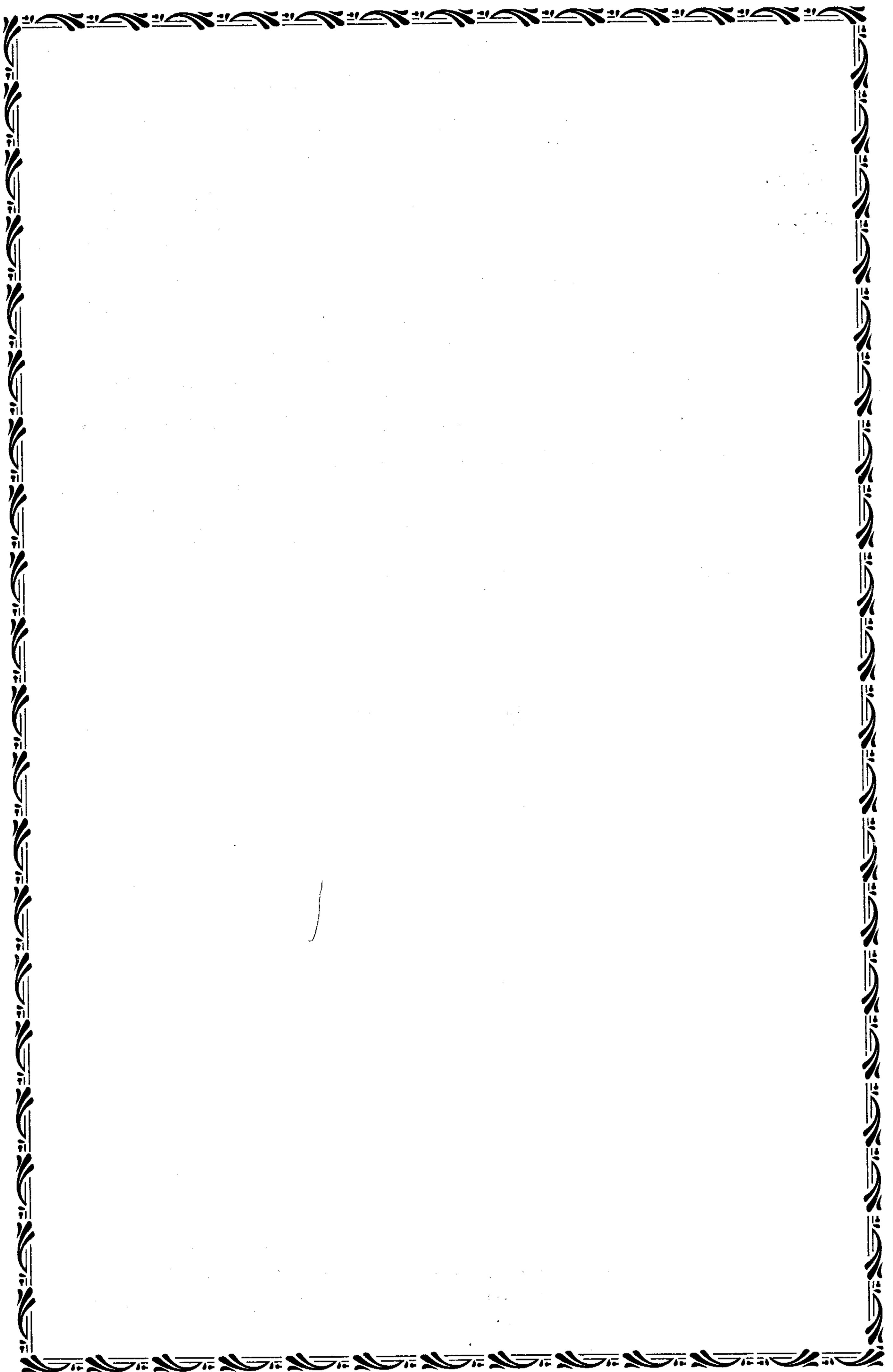

سورة[1] الزلزلة

مكية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم /٦٥٠ ـ ب/

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ ﴿إِذَا﴾ يُذْكَرُ عن سؤالٍ سَبَقَ منهمْ؛ كأنهمْ سألوا عنِ الوقتِ الذي كانوا يُوعَدونَ فيهِ، وإنْ لم يُذْكَرِ السؤالُ، لأنهُ قد يكونُ في الجوابِ بيانُ السؤالِ، وفي السؤالِ بيانُ الجوابِ، وإنْ لم يُذْكَرْ. فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أخبَرَهُمْ عنْ أحوالِ يومِ القيامةِ والحِسابِ، ولم يُخْبِرْهُمْ عنْ وقتِها، وقد ذُكِرَ في غيرِ موضعٍ.

ثم قولُهُ ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي حُرِّكَتِ الأرضُ تَحريكاً شديداً لِهَولِ ذلكَ اليومِ، وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: جائزٌ أنْ تكونَ تُتَزَلْزَلُ، وتُحرَّكُ حتى تُلْقِيَ ما ارْتَفَعَ منها منَ الجبالِ الرواسي في الأوديةِ حتى تَسْتَوِيَ الأرضُ، فلا يَبْقَى فيها هُبوطٌ ولا صُعودٌ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧].

[والثاني][3]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ أي تُزَلْزَلُ، وتُحرَّكُ بِغَيرِ الجبالِ الرواسي حتى تَصيرَ كما ذُكِرَ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤و٥].

وقولِهِ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. فإذا فَنِيَتْ، وتلاشَتْ، بقِيَتِ الأرضُ مُستويةً على ما ذَكَرَهُ.

ويَحتمِلُ أنْ تكونَ تُتَزَلْزَلُ، وتُحرَّكُ، حتى تصيرَ غيرَ تلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٨].

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تَبديلُها وتَحريكُها ومَدُّها، هو تَغَيُّرُ صِفاتِها على ما ذَكَرْنا في الوَجهَينِ الأوَّلَينِ.

قالَ الزَّجّاجُ: لا تَصِحُّ هذهِ[4] القراءةُ لأنَّ الزِّلزالَ مِنَ المُضاعفِ، إنما تكونُ بالخَفضِ مصادرُها. أمّا الأسماءُ فقد[5] تكونُ نَصْباً كقولِهِ تعالى: ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ [الحجر: ٢٦و...] ونَحْوَهُ. والزِّلزالُ مَصْدَرٌ، فيكونُ في الأصلِ المُطَّرِدِ فيهِ، هو الكَسْرُ، والنَّصْبُ يكونُ نادراً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي أحمالَها لِهَولِ ذلكَ اليومِ كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤].

ثم يَحتمِلُ ﴿وَأَخْرَجَتِ﴾ و﴿وَأَلْقَتْ﴾ مافيها مِنَ المَوتَى مِنْ أوّلِ ما دُفِنَ فيها من كلِّ شيءٍ مِنَ الحيوانِ وغيرِها إلى آخِرِ ما يُجْعَلُ فيها مِنَ الكنوزِ وغَيرِها ممّا يَحتمِلُ الحسابَ وممّا لا يَحتمِلُ مِنَ البشرِ وجميعِ المُمْتَحَنينَ وغَيرِهِمْ.

ويَحتمِلُ ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ المُمْتَحَنينَ خاصّةً مِمَّنْ يُحاسَبونَ، ويُثابونَ، ويُجْزَونَ.

الآيتان ٣ و٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ [﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾][6] قالَ الكافرُ مالَها تَتَحرَّكُ؟ فقالَ بعضُهُمْ: أحْمَقُ في الدنيا وأحْمَقُ في الآخِرةِ حينَ[7] يسألُ: الأرضُ مالَها تَتَزَلْزَلُ، وتَتَحرَّكُ؟ يَظُنُّ أنها بنفسِها تَفْعَلُ ذلكَ،

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) في الأصل وم: و. (٤) المقصود بها: زلزال بالفتح، وهي قراءة عاصم الجحدري وعيسى بن عمر بالفتح، انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٢١٨. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث.

لا لِفَزَعِهِ ممّا[1] يَرَى مِنْ أهوالِ ذلكَ اليومِ وتَغْيِيرِ أحوالِها على ما لم يَنْظُرْ في الدنيا في الآياتِ والحُجَجِ حتى يَقْبَلَها، ويَخْضَعَ لها.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ كأنهُ يقولُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ تَشْهَدُ، وتُخْبِرُ بما عَمِلَ على ظَهْرِها.

ثم [قولُهُ تعالى][2]: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: أنها تُخْبِرُ، وتُحَدِّثُ بما عَمِلَ على ظهرِها من خيرٍ أو شَرٍّ أو طاعةٍ أو مَعْصِيَةٍ. لكنْ لا يَحْتَمِلُ ﴿أَخْبَارَهَا﴾ الخيرَ لأنها إنما تَشْهَدُ عليهِمْ لإنكارِ أهلِ الكُفرِ ما كانَ منهمْ مِنْ فِعْلِ الكُفْرِ والمَعْصِيَةِ. وأمّا أهلُ الجنةِ فإنهمْ يكونونَ مُقِرِّينَ بالخَيراتِ، واللهُ تعالى يُصَدِّقُهُمْ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ شهادةِ الجوارحِ؛ إنما تَشْهَدُ عليهِمْ على ما يُنْكِرونَ مِنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ وغيرِ ذلكَ مِنَ المعاصي. فَعَلَى ذلكَ التَّأويلِ يكونُ ﴿أَخْبَارَهَا﴾ على حقيقةِ النطقِ والكلامِ.

[والثاني: ما][3] قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ ما ذُكِرَ مِنْ تَزَلْزُلِها وتَحَرُّكِها والأحوالِ التي تكونُ فيها، هو تَحْديثُها وأخبارُها التي تكونُ منها.

[والثالثُ: ما][4] قالَ بعضُهُمْ: يومئذٍ تَبَيَّنُ، وتَقَعُ أخبارُها التي أُخْبِروا في الدنيا، فكَذَّبوها، يومئذٍ يَتَبَيَّنُ لهمْ ذلكَ، وتَقَعُ لهمُ المُشاهدةُ عِياناً مِنَ الحِسابِ والثّوابِ والعِقابِ.

وفي الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أتَدْرونَ ما أخبارُها؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ، قالَ: أخبارُها أنْ تَشْهَدَ على كلِّ عَبْدٍ وأمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهْرِها» [الترمذي: ٢٤٢٩].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ مَنْ قالَ بأنَّ أخبارَها مِنْ شَهادَتِها بما عَمِلوا على ظَهْرِها [فيكونُ تأويلُ][5] قولِهِ تعالى: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ مِنْ شَهادَتِها بما عَمِلوا على ظَهْرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أذِنَ لَها بالشهادةِ، فَتَشْهَدُ.

ومَنْ قالَ: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ هو تَزَلْزُلُها وتَحَرُّكُها والأحوالُ التي تكونُ منها، فيقولُ على إسقاطِ ﴿لَهَا﴾: يقولُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ﴾ أي فَعَلَ ذلكَ بها.

والوَحْيُ قد يكونُ الوَحْيَ والإلهامَ والأمرَ، ويُسْتَعْمَلُ في ما يَليقُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ صدورُ الناسِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدُهما: يَصْدُرونَ مِنْ قبورِهِمْ إلى الحسابِ لِيُرَوا كتابةَ أعمالِهِمْ، أي لِيُرَوا ما كُتِبَ مِنْ أعمالِهِمُ التي عَمِلوا في الدنيا.

[والثاني][6]: صُدورُهُمْ على ما أعَدَّ لهمْ في الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ والعقابِ. فَعَلَى هذا التأويلِ لِيُرَوا جزاءَ أعمالِهِمُ التي عَمِلوا في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] هذا تفسيرُ قولِهِ: ﴿أَشْتَاتًا﴾.

الآيتان ٧ و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَرَى الكافرُ ما عَمِلَ مِنْ خَيرٍ في الدنيا، وأمّا في الآخِرَةِ فلا يَرَى لأنهُ لا يُؤْمِنُ بها، ولا يَعْمَلُ لها، كقولِهِ تعالى:

(١) من م، في الأصل: ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يكون تأويله. (٦) في الأصل وم: ويحتمل.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] والمؤمنُ يَرى ما عَمِلَ مِنْ شرٍّ في الدنيا وما عَمِلَ [مِنْ خَيرٍ][(١)] في الآخِرَةِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ «أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ كانَ جالساً مع رسولِ اللهِ ﷺ فَنَزَلَتِ الآيةُ، فقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ لِرسولِ اللهِ ﷺ: أكلُّ ما عَمِلَ منْ شرٍّ يَراهُ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ما تَرَونَ في الدنيا ممّا تكرَهونَ فهو منْ ذاكَ، ويُدَّخَرُ الخيرُ لأهلِهِ في الآخِرَةِ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٢و٥٣٣].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ على الإحصاءِ والحِفْظِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ أي لا يَذهبُ عنهُ شيءٌ قليلٌ ولا كثيرٌ حتى الذَّرَّةُ.

ويَحتمِلُ وجهاً آخرَ، وهو[(٢)] أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ أي مَنْ يَعْمَلْ مِنَ المؤمنينَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهْ في الآخِرَةِ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ ومَنْ يَعْمَلْ مِنَ الكفارِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهْ في الآخِرَةِ، لأنَّ اللهَ تعالى قد أخبرَ في غيرِ آيةٍ[(٣)] مِنَ القرآنِ أنهُ يَتَقَبَّلُ حسناتِ المؤمنينَ، ويَتَجاوَزُ عنْ سَيِّئاتِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ليسَ إرادةَ حقيقةِ الذَّرَّةِ، ولكنْ على التَّمثيلِ.

ثم قيلَ: مِنْ أخبارِ الأرضِ وما ذَكَرَ مِنْ شهادةِ الجوارحِ أنْ كيفَ احْتَمَلَ ذلكَ، وهي[(٤)] أمواتٌ، والأمواتُ[(٥)] لا عِلْمَ لها؟

فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَجْعَلُ لها عِلْماً، ويُنْطِقُها بذلكَ، وأنَّ لها بذلكَ عِلْماً على جَعْلِها آيةً في قولِهِ تعالى: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ دلالةً أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. وقولَهُ [ﷺ][(٦)]: «لا تُسافروا بالقرآنِ إلى أرضِ /٦٥١ - أ/ العَدُوِّ» [مسلم١٨٦٩/ ٩٤]. وقولَ الناسِ: يُقرأُ كلامُ ربِّ العالمينَ، وفي المصاحفِ [قرآنٌ، لا يُرادُ بهِ حقيقةُ كلامِ اللهِ تعالى في المصاحفِ][(٧)] ولا حقيقةُ كونِ القراءةِ فيها والسفرِ بهِ ولا حقيقةُ سماعِ كلامِهِ تعالى، ويكونُ على ما أرادَ مِنْ سماعِ ما بهِ يُفْهَمُ كلامُهُ، ويُسْمَعُ ما يُعَبَّرُ بهِ عنْ كلامِهِ، وكذلكَ يكونُ في المصاحفِ ما يُفْهَمُ بهِ كلامُهُ أو ما يُعَبَّرُ بهِ عنْ كلامِهِ على ما ذَكَرْنا مِنْ رؤيةِ الأعمالِ وأعيُنِ الأعمالِ، ولكنْ يُرَى ما يَدُلُّ عليها، وهو المكتوبُ مِنْ أعمالِهِمْ في الكتبِ التي فيها أعمالُهُمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ [وصلّى اللهُ تعالى على محمدٍ، وسلَّمَ. تَمَّتْ هذه السورةُ][(٨)].

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: و. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) من م، في الأصل: وهو. (٥) في الأصل وم: والموات. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م.

سورة[1] العاديات

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ إلى آخِرِه؛ قالَ عليٌّ، كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ، وعبدُ اللهِ، ﷺ: هي الإبلُ، وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ وغيرُهُ منْ أهلِ التأويلِ: هي الخَيلُ، غيرَ أنَّ علياً ﷺ قالَ: ذلكَ يومُ بَدْرٍ، وقالَ ابْنُ مسعودٍ ﷺ ذلكَ.

ومَنْ قالَ: هي الخَيلُ، قالَ ذلكَ في سَرِيَّةٍ بَعَثَها رسولُ اللهِ ﷺ فأبطأَ عليهِ خَبَرُها، فاغْتَمَّ رسولُ اللهِ ﷺ فَنَزَلَ جبرائيلُ، صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ، بِخَبَرِها على ما ذَكَرَ، وَوَصَفَ، فَسُرَّ بذلكَ المؤمنونَ.

فإنْ كانَ في أمرِ السَّرِيَّةِ والخَيلِ على ما قالَهُ ابْنُ عباسٍ ﷺ فَجِهَةُ القَسَمِ بذلكَ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنهُ مِنْ عِلْمِ الغيبِ؛ إذ لا يَعْلَمُ بِحالِهِمْ، وما وَصَفَ مِنْ أمرِ الخيلِ، لا يكونُ إلّا بالوَحْيِ مِنَ السماءِ أو مَنْ شَهِدَ ذلكَ. فإذا لم يُخْبِرْهُمْ[2] أحدٌ مِمَّنْ شَهِدَها، ثم أخْبَرَ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ ثم ظَهَرَ عندَهُمْ على ما أخْبَرَ رسولُ اللهِ ﷺ عَلِموا بذلكَ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأنهُ إنما عَرَفَ بالوَحْيِ مِنَ اللهِ تعالى، وذلكَ مِنْ أعظمِ آياتِ الرسالةِ.

[والثاني:][3] أنْ يكونَ بما ذَكَرَ مِنْ شِدَّةِ الخيلِ وقُوَّتِها وحِدَّةِ بَصَرِها حينَ[4] عَدَتْ في ليلٍ مُظْلِمٍ، لا قَمَرَ فيهِ، ولا نورَ، عَدْواً، تَخْرُجُ النارُ منْ شِدَّةِ عَدْوِها مِنَ الحجارةِ التي تَضْرِبُ بِحَوافِرِها، ما لا يُقْدَرُ لإنسانِ العَدْوُ في مكانٍ مُسْتَوٍ فَضْلاً ألّا[5] يَقْدِرَ على ذلكَ مِنَ الصعودِ والهُبوطِ وما ذَكَرَ مِنْ إثارةِ النَّقْعِ مِنْ شِدَّةِ عَدْوِها وتَوَسُّطِها في العَدْوِ.

[والثالثُ: أنْ][6] يذْكُرَ مُوافقةَ مُرادِهِمْ وحُصولَ غَرَضِهِمْ في الإغارةِ على عَدُوِّهِمْ في أغْفَلِ ما يكونُ العَدُوُّ، وهو وقتُ الصبحِ.

ثم القَسَمُ يقولُ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ وما ذَكَرَ مِنَ الموريات وغَيرِهِ، هو صفةُ العادياتِ ونُعوتُها، وفيهِ [بِشاراتٌ ثلاثٌ: إحداها:][7] أنهُ لم تَحْدُثْ لهمْ حادثةٌ، والثانيةُ[8]: الإغارةُ على العَدُوِّ. والثالثةُ[9]: أنهمْ توسَّطوا العَدُوَّ.

ومن قالَ: هي الإبلُ، وذلكَ في أمرِ الحَجِّ، يَذْكُرُ سرعةَ سَيرِها وشِدَّةَ عَدْوِها في الليلةِ المُظْلِمةِ التي فيها الأوديَةُ والهُبوطُ والصعودُ.

الآية ٢ ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ على هذا التأويلِ؛ أي تَضْرِبُ الحجرَ بالحجرِ فَتَخْرُجُ منهُ النارُ مِنْ شِدَّةِ سَيرِها وعَدْوِها، وفي الخَيلِ شِدَّةُ ضَرْبِ الحَوافرِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ على هذا التأويلِ يقولُ بعضُهُمْ: نُزولُهُمْ في تلكَ الغاراتِ والأوديَةِ في وقتِ الصُّبْحِ. والأشبَهُ أنْ يكونَ خُروجُهُمْ في تلكَ الغاراتِ والأوديَةِ في ذلكَ الوقتِ لأنَّ ذلكَ الوقتَ وقتُ الخُروجِ منها والرَّواحِ[10] لا وقتُ المُقامِ، أو يكونَ قدِ استَقْبَلَهُمُ العَدُوُّ هنالكَ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) في الأصل وم: يحضرهم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: بشارة ثلاثة أحدها. (٨) في الأصل وم: والثاني. (٩) في الأصل وم: والثالث. (١٠) في الأصل وم: والدفع.

ومَنْ أرادَ بهمُ الشرَّ فتكونُ المُغيراتُ على الإغارةِ عليهمْ، إنْ كانَ ثَمَّ عَدُوٌّ.

الآيتان ٤ و٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾][1] ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ على هذا التأويل الجَمْعُ في الحجِّ، وهو الجَمْعُ المَعْروفُ.

ومَنْ قالَ ذلكَ في الخَيلِ يكونُ تَوَسُّطُهُنَّ في جَمْعِ العَدُوِّ.

الآية ٦ ثم الذي وَقَعَ بِهِ القسمُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أيِ الإنسانَ لِنِعَمِ ربِّهِ لَكَفورٌ، لا يَشْكُرُها، وهو أنَّ الإنسانَ يذكُرُ مَصائِبَهُ وما يُصيبُهُ مِنَ الشِّدَّةِ في عُمُرِهِ أبداً، ويَنْسَى جميعَ ما أَنْعَمَ عليهِ ولا[2] يُفارِقُهُ طَرْفَةَ عينٍ. وكذلكَ قالَ الحَسَنُ: الكَنودُ، هو الذي يَعُدُّ المصائبَ، ويَنْسَى النِّعَمَ.

وقيلَ: الكَنودُ القَتورُ البَخيلُ الشَّحيحُ في الإنفاقِ، ويَجبُ أنْ يكونَ وصفُ كلِّ إنسانٍ ما ذَكَرَ. لكنَّ المؤمنَ يَتَكَلَّفُ شكرَ نِعَمِ اللهِ تعالى، ويَجْتَهِدُ في ذلكَ، ويَصْبِرُ على المصائبِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩] وقولِهِ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وهو كلُّ إنسانٍ. ثم اسْتَثْنى ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢] منهمْ، وهمُ المؤمنونَ، أي كذلكَ خُلِقَ، وطُبِعَ كلُّ إنسانٍ. لكنَّ المؤمنَ يَتَكَلَّفُ إخراجَ نفسِهِ مِنْ ذلكَ الطَّبْعِ [الذي][3] أُنْشِئَ عليهِ، وطُبِعَ إلى غَيرِها مِنَ الطبائعِ كالبهائمِ والسِّباعِ التي طَبْعُها النفورُ مِنَ الناسِ بالاسْتيحاشِ عنهمْ، ثم تَصيرُ بالرياضةِ ما تستقرُّ عندَهُمْ، وتُجيبُهُمْ عندَ دعوَتِهِمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الإنسانَ على ما فَعَلَهُ في الدنيا لَشَهيدٌ في الآخِرَةِ على ما جَمَعَهُ، أي يَشْهَدُ ذلكَ، ويَعْلَمُهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي ذلك الإنسانُ بِبُخْلِهِ وامْتِناعِهِ عنِ الإنفاقِ لَشَهيدٌ، أي يَتَوَلَّى حِفْظَ مالِهِ وإحصاءَهُ بنفسِهِ، لا يَثِقُ بغَيرِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني اللهَ تعالى ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي عالمٌ؛ يُحْصيهِ، ويَحْفَظُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي ذلك الإنسانُ لَشديدُ الحبِّ للمالِ، فَذَكَرَ بُخْلَهُ وشُحَّهُ في المالِ في تَرْكِ الإنفاقِ والبَذْلِ. وعلى ذلكَ طُبِعَ كلُّ إنسانٍ على ما ذَكَرْنا، لكنَّ المؤمنَ يَتَكَلَّفُ إخراجَ نفسِهِ ممّا طُبِعَ بالرياضةِ، ويَجْتَهِدُ بالإنفاقِ. والحبُّ هنا حبُّ إيثارٍ أي يُؤْثِرُ لنفسِهِ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾][4] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أفلا يَعْلَمُ قدرةَ ربِّهِ وسلطانَهُ وحكمَتَهُ في إنشائِهِ أنهُ يَسْتَخْرِجُ ما في القبورِ، ويُحْيِيهِمْ؟ أو يقولُ[5]: أفلا يَعْلَمُ أي فَيَعْلَمُ ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي ربَّهُمْ يومئذٍ لَخبيرٌ بما كانَ منهمْ في الدنيا.

[وقولُهُ تعالى:][6] ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ يقولُ: فَهَلّا يَعْلَمُ أيضاً أنهُ يُمَيِّزُ ما في الصُّدورِ، ويُبَيِّنُ، ويُظْهِرُ ما فيها، لا يَتْرُكُ فيها[7] غيرَ مُمَيَّزٍ ولا مُبَيَّنٍ، بل يُظْهِرُ، ويُمَيِّزُ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي [على عِلْمٍ][8] بذلكَ، يُخْبِرُهُمْ[9]، ويَجزيهمْ بما[10] يَجْزيهِمْ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ دلالةُ أنَّ حُصولَ الأعمالِ وخُلوصَها وما يُثابُ عليها، ويُعاقَبُ بالقلوبِ [وبالثَّباتِ لا بنفسِ الأعمالِ حينَ][11] قالَ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾][12].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يكون.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كذلك. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عن علمه له. (٩) في الأصل وم: أحدهم. (١٠) في الأصل وم: مما. (١١) في نسخة الحرم المكي: حيث. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

قالَ أهلُ اللغةِ وأبو عوسَجَةَ: ﴿ضَبْحًا﴾ الضَّبْحُ صَوتٌ في الصُّدور، ضَبَحَ يَضْبَحُ /٦٥١ ـ ب/ ضَبْحاً، فهو ضابحٌ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي هَيَّجْنَ الغبارَ بِحوافِرِهِنَّ، والنَّقْعُ الغُبارُ، والنُّقوعُ جماعةٌ ﴿فَوَسَطْنَ﴾ مِنَ التَّوَسُّطِ، أي صِرْنَ في الوَسْطِ، و﴿لَكَنُودٌ﴾ كفورٌ، ﴿وَحُصِّلَ﴾ أي اختُبِرَ، يقالُ: حَصَّلْتُ أي اختَبَرْتُ.

وقالَ بعضُهُمْ والقُتَبِيُّ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ الخيلُ، والضَّبْحُ صَوتُ حُلوقِها إذا عَدَتْ. وقيلَ: الضَّبْحُ والضَّبْعُ واحدٌ في السَّيرِ، يُقالُ: ضَبَحَتِ الناقةُ، وضَبَعَتْ ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ أي أورَتِ النارَ بِحوافِرِها، والأرضُ الكَنودُ التي لا تُنْبِتُ شيئاً. وقالَ: ﴿بُعْثِرَتْ﴾ أي قُلِبَتْ، فَجُعِلَ أسفَلُها أعلاها ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي اختُبِرَ ما فيها مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ واليَقينِ. واللهُ أعلمُ بالصوابِ[1].

(١) ساقطة من م.

[سورة القارعة][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ ـ ٣ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾][2] قالَ: القارعةُ عندَهُمْ، هي الداهيةُ الشديدةُ مِنَ الأمورِ، وهي في هذا المَوضِعِ وصفٌ لِشِدَّةِ هَولِ يوم القيامةِ، وهو مِنَ اللهِ تعالى تذكيرٌ لِعبادِهِ وتَعْجيبٌ لهُ عمّا يكونُ في ذلكَ اليوم منَ الأحوالِ والأفعالِ، وسَمّى اللهُ تعالى في كتابِهِ ذلكَ اليومَ بما يكونُ فيهِ مِن اختِلافِ الأحوالِ نَحْوَ قولِهِ: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وما أشبَهَ ذلكَ.

فكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ تذكيرٌ لهمْ بما وَصَفَ منْ حالِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِهِ لِيَتَفكَّروا في العَواقبِ، ويَتَدَبَّروا ما يَسْتَقْبِلُهُمْ في الأواخِرِ منَ العذابِ، فَيَمْتَنِعوا بذلكَ عمّا نهاهُمُ اللهُ تعالى عنهُ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ في بَني آدمَ نَفساً تُدرِكُ بها الشَّهَواتِ واللَّذّاتِ في الدنيا وعقلاً تَتَذكَّرُ بهِ عَواقبَ الأمورِ وأواخِرَها، ويَزِيدُهُ ذلكَ تَيَقُّظاً وتَبَصُّراً، ثم العقلُ مَرَّةً يَدعوها إلى نَفْسِهِ حتى تميلَ إلى ما يَدْعوهُ في جَزاءِ ما أطْمَعَ في العاقِبةِ، والنَّفْسُ مَرَّةً تدعو [إلى الشَّهواتِ واللَّذاتِ][3]، فَيَصيرُ هواهُ ومَيلُهُ في ما يَتَلَذَّذُ مِنَ الشَّهَواتِ في دنياهُ. وعلى ذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣] أي يَرْحَمُهُ، ويَعْصِمُهُ عنِ اختيارِ السوءِ، أي رَحِمَهُ حتى جَعَلَ هواهُ في ما توجِبُهُ العواقبُ منَ الجَزاءِ والثوابِ.

فكذلكَ ذَكَّرَ اللهُ تعالى عبادَهُ بما يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنَ الأحوالِ في ذلكَ اليومِ لِيُعْمِلوا عقولَهُمْ في [أذكارِهِ وتَذَكُّرِهِ][4]، فَيَنْزَجِروا عمّا زَجَرَهُمْ عنهُ، أو يَتَذَكَّروا ما[5] وَعَدَ لهمْ مِنَ الجزاءِ في ذلكَ اليومِ، فَيَزْدادوا بذلك حِرْصاً في الخيراتِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ اختَلَفوا في تأويلِهِ مِنْ وُجوهٍ، لكنهُ في الحاصلِ يرجِعُ إلى مَعْنًى واحِدٍ: فمنهمْ مَنْ قالَ أي كالجَرادِ المُنتشِرِ حينَ أراداتِ الطيرانَ، ومنهمْ مَنْ قالَ: كالجَرادِ الذي يَموجُ بعضُهُمْ في بعضٍ، ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ الذي يَتَهافَتُ في النارِ، فَيَحْتَرِقُ. وكلُّ ذلكَ يُؤَدّي مَعْنَى الحَيرةِ والاِضْطِرابِ مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ.

وأصلُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] فكأنَّ اللهَ تعالى قالَ: إنهمْ يَصيرونَ في الحَيرةِ منْ هَولِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِهِ كالطائرِ الذي لا يَدْري أينَ يطيرُ؟ وأينَ يَثْبُتُ؟ وأينَ يَنْزِلُ؟

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كالصوفِ المصبوغِ، وقالَ بعضُهُمْ: كالمَنْدوفِ مِنَ الصوفِ.

فإنْ كانَ على التأويلِ الأوَّلِ فَمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الجبالَ في ذلكَ اليوم تَتَلَوَّنُ ألواناً من شِدَّةِ ذلكَ اليومِ بِلَونِ العِهْنِ، ألا تَرَاهُ يقولُ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: ٨٨] ويقولُ[6]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] فكذلكَ هذا على ذلكَ المَعْنَى.

وإنْ كانَ على التأويلِ الآخَرِ فَمَعْناهُ: أنّ الجبالَ معَ شِدَّتِها وصَلابَتِها تَصيرُ في الرَّخاوَةِ والضَّعْفِ مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ كالصوفِ المَنْدوفِ، إنَّ ذلكَ أضعفُ أحوالِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إليه. (٤) في الأصل وم: أفكاره والتذكير عنه. (٥) في الأصل وم: عما. (٦) في الأصل وم: وقال.

وقالَ قتادةُ: شَبَّهَهُمْ بِغَنَمٍ لا راعِيَ لها، وذَكَرَ العِهْنَ كِنايةً عنِ الغَنَمِ.

الآيتان ٦ و٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ اختَلَفوا في تأويلِ الميزانِ مِنْ وجوهٍ، ولكنَّ أقْرَبَها عندَنا وجْهانِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جُمْلَةَ المؤمنينَ، وقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جُملةَ الكُفّارِ، ويكونُ الوجهُ في ذلكَ أنَّ المؤمنَ لمّا عَظَّمَ حقَّ اللهِ تعالى، وأقامَ حدودَهُ كانَ لهُ ميزانٌ وقيمةٌ وخَطَرٌ عندَ اللهِ تعالى في ذلكَ، والكافرُ لمّا تَرَكَ ذلك خَفَّ وَزْنُهُ وقيمتُهُ وخَطَرُهُ. وقد يُطْلَقُ، واللهُ أعلَمُ، هذا الكلامُ على مَعْنَى الجاهِ والمَنْزِلَةِ؛ يُقالُ: لِفلانٍ عندَ فلانٍ وَزْنٌ وقيمةٌ، وليسَ عندَهُ ذلك الوَزْنُ. فكذلكَ هذا.

والوجهُ الثاني مِنْ وَزْنِ السّرائرِ التي لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى على ملائكتِهِ الذينَ يكتبونَ أعمالَ بَني آدمَ ذلكَ.

ومعلومٌ أنَّ ذلك إنما يَحْصُلُ مِنَ المؤمنينَ دونَ الكَفَرَةِ. وقد وصَفْنا مسألةَ الميزانِ[1]، وبَيَّنّاها، فلذلكَ اخْتَصَرْنا الكلامَ في هذا الموضعِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ منهمْ مَنْ قالَ ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨] يَرْضَى أهلُ الجنةِ بتلكَ العيشةِ، فهي مَرْضِيَّةٌ، ومنهمْ منْ قالَ: ذاتُ رِضاً كقولِهِ تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي ذاتِ انْدِفاقٍ. ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ أضافَ الرِّضا إلى العيشِ، لأنهُ بِهِ يَرْضَى.

الآيات ٨ ـ ١٠ وقولُهُ تعالى: [﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾][2] منهمْ مَنْ قالَ: سَمَّى النارَ أمّاً للكافرِ لأنهُ إليها يأوي. ومنهمْ مَنْ يقولُ: المُرادُ مِنَ الأمِّ أُمُّ رأسِهِ أي يُلْقَى في جهنَّمَ على أمِّ رأسِهِ منكوساً.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَاوِيَةٌ﴾ أي يَهوي بِهِ حينَ[3] لا يكونُ لهُ ثبتٌ ولا قرارٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي تَحْميهِ، وتُنْضِجُهُ. ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي شديدةُ الحَرِّ، واللهُ أعلَمُ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ][4] على سيدنا محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ.

(١) في قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ و١٠٣]. (٢) في الأصل وم: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في م: وصلى الله.

[سورة التكاثر][(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم /٦٥٢ ـ أ/

الآيتان ١ و ٢ قولُهُ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي شَغَلَكُمُ التَّفاخُرُ بالتَّكاثُرِ. ثم لم يَقُلْ عَمّاذا شَغَلَهُمْ. فيجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي شَغَلَكُمْ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ عنْ توحيدِ اللهِ تعالى أو عنِ التَّفَكُّرِ في حُجَجِ رسولِ اللهِ ﷺ أو عنْ ذِكْرِ البعثِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يَحتَمِلُ تأويلَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ الغَرَضُ [مِنَ الخِطابِ][(٢)] بهذهِ الآيةِ آباءَهُمْ وسَلَفَهُمُ الذينَ تَقَدَّموا بالأخبارِ عنْ قُبْحِ صَنيعِهِمْ واشْتِغالِهِمْ بالسَّفَهِ، فيكونُ هذا صِلَةَ آياتٍ أُخَرَ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم [مُّهْتَدُونَ﴾ وقولِهِ: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾][(٣)] [الزخرف: ٢٢ و٢٣] وغيرِ ذلكَ، فكأنَّ اللهَ تعالى يُخْبِرُهُمْ بآبائِهِمْ، ويَنهاهُمْ عنِ الاقْتِداءِ بآبائهِمْ لأنهمْ تَعاطَوا أفعالاً تَخرُجُ عنِ الحِكْمةِ حتى ماتوا. وذلكَ يَقَعُ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ مَنْ أنْعَمَ اللهُ عليهِ نعمةً، فَجَحَدَها، ولم يُؤَدِّ شُكْرَها، اسْتَوجَبَ المَقْتَ والعقوبةَ؛ يقولُ: كيفَ تَقْتَدونَ بآبائِكُمْ، وإنهمْ كَفَروا بِنِعمةِ اللهِ، وجَحَدوا بها، بلِ الواجبُ عليكُمْ أنْ تَتَّبِعوا [النَّبِيَّ الذي][(٤)] جاءَ هُدًى [لا ما][(٥)] وجَدْتُمْ عليهِ آباءَكُمْ.

والثاني: أنْ يكونَ فيهِ علامةُ [دلالةِ البعثِ][(٦)] أنَّ آباءَهُمْ لِما فَعَلوا ما يُسْتَوجَبُ بهِ المَقْتُ والعقوبةُ، وماتوا مِنْ غيرِ أنْ يُصيبَهُمْ ذلكَ في دنياهُمْ وأنَّ[(٧)] لهم داراً أُخرى يُعاقَبونَ فيها بما فَعَلوا.

وإنْ كانَ الخِطابُ إذا انْصَرَفَ [إليهمْ][(٨)] ففيهِ إخبارُهُمْ عنْ سَفَهِهِمْ أنهُ شَغَلَهُمُ التَّفاخُرُ بالتَّكاثُرِ حتى جَحَدوا آياتِ رسولِهِ ﷺ أو أنْ يكونَ فيه إخبارٌ عنْ سَفَهِهِمْ منْ وَجْهٍ آخَرَ، وهو أنَّ الافْتِخارَ كيفَ وَقَعَ بالأمواتِ، والتَّفاخُرُ بالأمواتِ غيرُ مُسْتَقيمٍ! أوِ أنْ يكونَ فيهِ وجهٌ ثالثٌ: إنما تَفاخَروا بما لا صُنْعَ لهمْ فيهِ [لأنهمْ][(٩)] إنما افْتَخَروا بالأموالِ والأولادِ، وذلكَ مِنْ لُطْفِ اللهِ تعالى وجَميلِ صُنْعِهِ، فيكونُ في هذا كلِّهِ ذِكْرٌ لهمْ بما [هم][(١٠)] فيهِ مِنَ السَّفَهِ والخَرَفِ.

ثم التَّعْييرُ بذِكْرِ هذهِ الأسبابِ إنما وَقَعَ، واللهُ أعلَمُ، دونَ ما هُمْ فيهِ مِنَ الكفرِ، لأنَّ هذهِ الأسبابَ مِمّا يُبْتَلَى بهِ المؤمنُ في بعضِ الأحوالِ، فَعَيَّرَهُمُ اللهُ تعالى بذلكَ ليكونَ فيهِ تَذْكِرَةٌ ومَوعِظةٌ للمؤمنينَ.

ولو خَرَجَ ذِكْرُ الكفارِ مِنْ[(١١)] هذا لكانَ لا يَجتَنِبُ المؤمنُ شيئاً[(١٢)] مِنْ هذهِ الأفعالِ.

وقد رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقالَ: «يقولُ ابْنُ آدمَ مالي مالي، ومالَكَ مِنْ مالِكَ إلا ما أكَلْتَ فأفْنَيْتَ»[(١٣)] [مسلم ٢٩٥٨].

فهذا على أنَّ الوعيدَ على الإطلاقِ مِنْ غيرِ تَصْريحٍ بأهلِ الكفرِ لِمَوعِظةِ المُسْلِمينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يَحتَمِلُ حَقيقةَ زيارةِ المَوتَى، وذلكَ مِمّا يُذَكِّرُهُمْ أنَّ التَّكاثُرَ مِمّا لا يَنْفَعُهُمْ إذا كانتْ عاقِبَتُهُمْ هذا. ويَحتَمِلُ أي صِرْتُمْ إلى المَقابِرِ بعدَ الموتِ، فحينئذٍ تَذْكُرونَ حَقَّ اللهِ تعالى، ثم لا يَنْفَعُكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بالخطاب. (٣) في الأصل وم: مقتدون. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فما. (٦) في الأصل وم: ودلالة للبعث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) و(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: شيء. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: الخبر.

الآيتان ٣ و٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَلَّا﴾ بِمَعْنى النَّفْيِ والتَّعْطيلِ، وقالَ بعضُهُمْ: مَعْنى قولِهِ: ﴿كَلَّا﴾ أي حَقّاً.

فإنْ كانَ على الأوّلِ، فكأنهُ قالَ: ليسَ كما حَسِبْتُمْ، وتَوَهَّمْتُمْ، وقَدَّرْتُمْ عندَ أنفسِكُمْ، وتَعْلَمونَ ذلكَ إذا نَزَلَ بكمُ العذابُ، وهو على الإبْتِداءِ.

وإنْ كانَ على مَعْنى حقّاً، فكأنهُ قالَ: سَتَعْلَمونَ أنهُ ليسَ كما قَدَّرْتُمْ عندَ أنفسِكُمْ.

وكلُّ ذلكَ يرجِعُ إلى الوجوهِ التي وصَفْنا: أنكمْ سَتَعْلَمونَ غداً حقّاً أنَّ الذي ألهاكُمْ، وشَغَلَكُمْ عنْ توحيدِ اللهِ تعالى أوِ التَّفَكُّرِ في حُجَجِ رسولِ اللهِ ﷺ أوِ الإيمانِ بالبعثِ كانَ عبثاً باطلاً، وأنهُ كانَ منَ الواجبِ عليكُمْ أنْ تُؤمِنوا باللهِ ورسولِهِ، وتَنْظُروا في حُجَجِ رسولِ اللهِ ﷺ وتُؤمِنوا بالبعثِ.

وفائدةُ التَّكْرارِ بِما جَرَى مِنَ العادةِ في تَكرارِ الكلامِ عندَ الوَعيدِ وعندَ الإياسِ أوِ الرَّجاءِ نَحْوُ قولِهِمْ: الوَيلُ الوَيلُ، وقولِهِمْ: بَخٍ بَخٍ وغَيرُ ذلكَ. فكذلكَ هذا.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَ كلَّ لفظةٍ منْ ذلكَ على تأويلٍ على حِدَةٍ: أنَّ قولَهُ ﷻ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عندَ الموتِ عندَ ما تَرَونَ العذابَ أنَّ الأمرَ ليسَ كما حَسِبْتُمْ، وتَعْلَمونَ في يومِ البعثِ أنهُ حقٌّ يقينٌ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يَعْني بهذا، واللهُ أعلَمُ، إبطالَ ما كانوا عليهِ منَ الظُّنونِ والحُسْبانِ[1] في هذهِ الدنيا.

ألَا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؟ [الجاثية: ٣٢] فإذا نَزَلَ بهمُ العذابُ تَحقَّقَ عندَهُمْ، وعَلِموا عِلْماً يقيناً؟ فقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حينَ نَزَلَ بكُمُ الموتُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبرِ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: كنا نَشُكُّ في عذابِ [القبرِ][2] حتى نَزَلَتْ هذهِ السورةُ.

وفيهِ وجهٌ ثانٍ، وهو أنهمْ كانوا عندَ أنفسِهِمْ علماءَ وأنهمْ على حقٍّ، ولكنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ لهمْ أنَّ عِلْمَهُمْ كانَ حُسْباناً.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فيظهَرُ لهمْ عندَ ذلكَ أنَّ اليَقينَ ما نَزَلَ بهمْ وأنَّ الذي عَلِموا لم يكنْ عِلْمَ يَقينٍ، بل كانَ شَكّاً وحُسْباناً؟

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: تَرَونَها عندَ الموتِ.

والثاني: أي تَرَونَها بالتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِهِ في الدنيا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ لهُ مَعْنَيانِ:

أحدُهما: عِياناً ومُشاهدةً.

والثاني: أنْ تكونَ رؤيَتُهُمْ بِعَينِ اليَقينِ ليسَ على ما كانَ عندَهُمْ: أنهمْ لو فُتِحَ لهمْ بابٌ منَ السماءِ، وعَرَجوا إليها ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥] يقولُ اللهُ تعالى: يرتفعُ السحرُ عنْ أبصارِهِمْ، فَيَرَونَها عينَ اليقينِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ظاهرُ هذا يَقْتَضي أنْ يكونَ سؤالُهُمْ بعدَ ما دَخَلوا النار، لأنهُ قالَ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ بعدَ ما وَصَفَ أنهم يدخُلونَ النارَ، فَبانَ أنهُ في ذلكَ الوقتِ.

فإنْ[3] كانَ على ذلكَ، فهو في مَوضعِ التَّقْريرِ عندَهُمْ أنهمُ اسْتَوجَبوا المَقْتَ والعُقوبةَ لأنهُ كانَ عندَهُمْ أنَّ مَنْ أنْعَمَ اللهُ

---

(١) في الأصل وم: والحساب. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: قال.

عليهِ بِنِعمةٍ، فلم يَشْكُرْها، اسْتَوجبَ المَقْتَ والعقوبةَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَسْأَلُهُمْ في ذلكَ الوقتِ عنْ شُكْرِ ما أنعمَ عليهِمْ لِيُقَرِّرَ عندَهمُ اسْتِيجابَ العُقوبةِ.

ويجوزُ هذا عندَ الحِسابِ لأنهُ قالَ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ ولم يَقُلْ: قَبْلَ ذلكَ، أو بَعدَهُ، بل قالَ على الإطلاقِ، فَيُعْمَلُ بهِ.

وإذا احْتَمَلَ ذلكَ الوجهُ إلى المؤمنينَ والكافرينَ، وكانَ الوجْهُ في سؤالِ المؤمنينَ تَذكيراً لهمْ أنَّ أعمالَهُمْ [لم][1] تبلُغ ما يَستوفي بها شُكْرَ النعمةِ التي أنْعَمَها عليهم، ولِيَعْلَموا أنَّ اللهَ تعالى تَفَضَّلَ عليهِمْ، وتَجاوَزَ عنهمْ، لا أنْ بَلَغَتْ إليهِ حَسَناتُهُمْ، فاسْتَوجَبوا رحمتَهُ بها، بل بِكَرَمِهِ وفضْلِهِ.

وإنْ كانَ في الكافرينَ، فهو تقريرُ ما اسْتَوجَبوا منْ نِقْمَتِهِ حينَ[2] تَركوا شُكْرَ نِعَمِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إنْ[3] كانَ السؤالُ لِلْكَفَرَةِ[4]، فإنهمْ يُسْألونَ عَمّا تَرَكوا مِنَ الإيمانِ وعَمّا[5] أتَى إليهمُ الرسولُ ﷺ [وعنْ غيرِ][6] ذلكَ مِنَ النِّعَمِ.

وإنْ كانَ للمؤمنينَ[7] فهو في سائرِ النِّعَمِ مِنَ المأكولِ والمَشْروبِ والمَلْبوسِ ونَحْوِها، واللهُ أعلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وإن. (٤) في الأصل وم: من الكفرة. (٥) في الأصل وم: وبما. (٦) في الأصل وم: وبغير. (٧) في الأصل وم: من المؤمنين.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم /٦٥٢ - ب/

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ خرَجَ قولُهُ: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ مَخرجَ القَسَمِ، والقَسَمُ موضوعٌ في الشاهدِ لِتأكيدِ ما ظَهَرَ مِنَ الحقِّ الخَفِيِّ أو لِنَفْيِ شُبْهةٍ اعترَضَتْ أو دَعْوى ادُّعِيَتْ، فكذلكَ في الغائبِ.

ثم الأصلُ بعدَ هذا أنهُ ليسَ في جَميعِ القرآنِ شيءٌ ممَّا وَقَعَ عليهِ القَسَمُ إلّا إذا تأمَّلَهُ المرءُ، واستَقْصَى فيهِ المَعْنَى الذي أوجَبَهُ القَسَمُ.

ثم اختَلَفوا في تأويلِ[1] قولِهِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾: فمنهُمْ مَنْ قالَ: هو الدهرُ والزمانُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: هو آخرُ النهارِ، فذلكَ وقتٌ يَشْتَمِلُ على طَرَفِي النهارِ وأوّلِ الليلِ، فكأنَهُ أرادَ بهِ الليلَ والنهارَ.

وقالَ أبو معاذٍ: يقولُ العربيُّ[2]: لا أُكَلِّمُكَ العصرَ إنْ يُرِدِ[3] الليلَ والنهارَ، وفي مُرورِ الليلِ والنهارِ مُرورُ الدهورِ والأزمنةِ لأنهما يأتيانِ على الدهورِ والأزمنةِ وما فيهما، فكانَ في ذِكْرِ الليلِ والنهارِ ذِكْرُ كلِّ شيءٍ، والقَسَمُ بكلِّ شيءٍ قَسَمٌ بِمُنْشِئِهِ لأنَّ كلَّ شيءٍ مِنْ ذلكَ إنْ نَظَرْتَ فيهِ دَلَّكَ على صانِعِهِ ومُنْشِئِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إنَّ الدنيا وما فيها كأنها خُلِقَتْ، وأُنْشِئَتْ، مَتْجراً[4] لِلخَلْقِ، والناسُ فيها تُجّارٌ كما ذُكِرَ في غيرِ آيةٍ[5] منَ القرآنِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] وقالَ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] أي ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ مِن تِجارتِهِ ومُبايَعَتِهِ.

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى:][6] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية. لِقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ استَثْنَى أهلَ الرِّبحِ منْ أهلِ الخُسْرانِ، ولم يَسْتَثْنِ أهلَ الخُسرانِ مِنْ أهلِ الرِّبحِ؟ فنقولُ: إنَّ الإنسانَ لَفي رِبحٍ إلّا الذينَ كَفَروا، واسْتِثْناءُ هذهِ الفِرْقةِ منْ تلكَ أولَى في العقولِ مِنْ تلكَ.

والجوابُ عنْ هذا أنَّ هذهِ الآيةَ إنما نزلَتْ بِقُرْبٍ مِنْ مَبْعَثِ رسولِ اللهِ ﷺ والقومُ أجْمَعُهُمْ كانوا أهلَ كُفْرٍ وخَسارٍ، فكذلكَ وَقَعَ الاسْتِثْناءُ على ما ذُكِرَ؛ إذِ اسْتِثْناءُ القليلِ مِنَ الكثيرِ، هو المُسْتَحْسَنُ عندَ أهلِ اللغةِ، وإنْ كانَ الكثيرُ في حدِّ الجوازِ، والقرآنُ في أعلَى طبقاتِ الكلامِ في الفَصاحةِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اسْمُ [جِنسٍ][7] فكأنهُ أرادَ جميعَ الناسِ. ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؟ ولا تُسْتَثْنَى الجماعةُ منَ الفردِ، فكأنهُ يقولُ على هذا: إنَّ الناسَ في أحوالِهِمْ واختياراتِهِمْ في خُسْرٍ إلّا مَنْ كانَتْ تِجارَتُهُ في تلكَ الحالةِ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي كانَتْ مَعْروفةً في الكُفْرِ والإسلامِ مِنْ حُسْنِ الأخلاقِ وغيرِهِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؟ [آل عمران: ١١٠] يقولُ: المَعروفُ، هو المَعروفُ الذي هو مَعروفٌ في الطَّبْعِ والعَقْلِ، والمُنْكَرُ الذي يُنْكِرُهُ العقلُ، ويَنْفُرُ عنهُ الطَّبْعُ.

---

(١) في الأصل وم: تأويله. (٢) في الأصل وم: العرب. (٣) في الأصل وم: يريدون. (٤) في الأصل وم: متحركا. (٥) في الأصل وم: آي.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وإنْ كانَ المُرادُ منهُ الكُفْرَ فكأنهُ قالَ: إنَّ الكافرينَ في هلاكٍ وخُسْرانٍ إلّا مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى ورسلِهِ، وعَمِلَ صالحاً.

ثم في هذهِ الآيةِ ذَكَرَ الذينَ آمنوا، وعَمِلوا الصالحاتِ، وكذلكَ ذَكَرَ الصالحاتِ في سورةِ التينِ [الآية: ٦] وتَرَكَ ذِكْرَ الصالحاتِ في سورةِ البلدِ؛ فكأنَّ اللهُ تعالى [تَرَكَ][1] ذِكْرَ الصالحاتِ في تلك السورةِ لِما قد كانَ ذَكَرَها بعدَ[2] ذلكَ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾؟ [البلد: ١٤] وغَيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ الحَقُّ في الأصلِ كلُّ ما يُحْمَدُ عليهِ فاعِلُهُ، والصَّبْرُ، هو الكَفُّ عنْ كلِّ ما يُذَمُّ عليهِ فاعِلُهُ. فكانَ التَّواصي بالحقِّ تَواصِياً بكلِّ ما يُحْمَدُ عليهِ، والتَّواصي بالصَّبْرِ تَواصِياً عنْ كلِّ ما يُذَمُّ عليهِ.

[ثم][3] ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية ما يُوجِبُ أنَّ مَنْ لم يَجْمَعْ بينَ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ فيكونُ ظاهِرُهُ حُجَّةً للخَوارجِ والمعتزلةِ، إلّا أنَّ الانْفِصالَ عنْ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ تعالى، وَعَدَ الجَنَّةَ لِمَنْ جَمَعَ هذهِ الأشياءَ التي ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ، وذَكَرَ الإيمانَ مُفرداً في آيةٍ أُخرَى، ووَعَدَ عليهِ الجَنَّةَ، فلا يَخْلُو وَعْدُهُ الجَنَّةَ عنِ الإيمانِ المفردِ في تلكَ الآيةِ مِنْ أحدِ وَجْهَينِ:

إمّا أنْ يكونَ ذَكَرَ الإيمانَ مُفْرَداً، وأرادَ بهِ الاكْتِفاءَ عنْ ذِكْرِ الجملةِ، فيكونُ في ذِكْرِ طَرَفٍ منهُ ذِكْرٌ لِجُمْلَتِهِ.

[وإمّا أنْ][4] يكونَ في إيجابِ الجَنَّةِ لهُ على مُفْرَدِ الإيمانِ، فالحالُ فيهِ مَوقوفةٌ.

ولأنَّ اللهَ تعالى أوجَبَ الجَنَّةَ، ولم يَنْفِ إيمانَهُ عمَّنْ يَنْتَقِصُ عنْ ذلكَ، فالحالُ فيهِ مَوقوفةٌ على دليلِهِ.

وإذا كانَ كذلكَ لم يَقْطَعِ القولَ على إيجابِ الجَنَّةِ لِمَنْ أتَى بالإيمانِ مُفْرَداً على إيجابِ النارِ، فيكونُ السبيلُ فيهِ على الرَّجاءِ، لأنهُ لو لَمْ يَذْكُرْهُ[5] كانَ يَقَعُ بهِ اليأسُ.

وأصلُ كلِّ عبادةٍ في الدنيا إنما بُنِيَتْ على الرَّجاءِ والخَوفِ، فكذلكَ كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنا، أو نقولُ بأنَّ اللهَ تعالى أوجَبَ النارَ على مَنْ أتَى بجميعِ السَّيِّئاتِ، ولم يكُنْ فيهِ دليلٌ على مَنْ أتَى بالكُفْرِ وحدَهُ، لا يَسْتَوجِبُ بهِ ناراً. فكذلكَ اللهُ ﷻ وإنْ أوجبَ الجَنَّةَ لِمَنْ جَمَعَ بَينَ هذهِ الأعمالِ فلا يدلُّ على أنَّ مَنْ أتَى بالإيمانِ وحدَهُ، لا يَسْتَوجِبُ الجَنَّةَ.

وعلى أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ اسْتِثْناءُ كلِّ مَنْ أتَى بشيءٍ من هذهِ الأعمالِ بالانْفِرادِ، فيكونَ فيهِ اسْتِثْناءُ كلِّ طائفةٍ منْ ذلكَ على حِدَةٍ؛ كأنهُ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وإلّا الذينَ ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وإذا كانَ كذلكَ لا يكونُ حُجَّةً لهمْ، وإذا أُريدَ بهِ الجمعُ يكونُ حُجَّةً، فجاءَ التَّعارضُ والاحْتِمالُ، فَوَجَبَ التَّوَقُّفُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُرادَ بهِ الاعْتِقادُ، أي ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مَنْ آمَنَ، واعْتَقَدَ هذهِ الأعمالَ الصالحةَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥] واللهُ أعلَمُ [والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][6].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قبل. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: يذكر. (٦) ساقطة من م.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ اختَلَفوا في مَعْنَى الهُمَزَةِ واللُّمَزَةِ، فقالَ بعضُهُمْ: مَعْناهما واحدٌ، وهو الدَّفْعُ والطَّعْنُ، وقالَ بعضُهُمْ: الهُمَزَةُ، هو الذي يُؤْذي جَليسَهُ بلسانِهِ، واللُّمَزَةُ الذي يُؤْذي بِعَينِهِ، وقالَ: بعضُهُمْ: الهُمَزَةُ الذي يَطْعَنُهُ /٦٥٣ ـ أ/ عندَ حَضرَتِهِ، واللُّمَزَةُ الذي يَطْعَنُهُ عندَ غَيبَتِهِ. وهذا إنما يُسَمَّى بِهِ مَنْ يَعتادُ ذلكَ الفعلَ.

وأهلُ اللغةِ وَصَفوا هذا المِثالَ، وهو فِعْلُ مَنْ يَعْتادُ ذلكَ، ويَحْتَرِفُهُ.

قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الآيَةَ في الكفارِ، لكنَّ بعضَهُمْ قالوا: نَزَلَتْ في الأخنسِ ابْنِ شُرَيقٍ، وقيلَ: نَزَلَتْ في الوليدِ بْنِ المُغيرَةِ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في الكفارِ، وكذلكَ كثيرٌ مِنَ الآيِ: كقولِهِ[1] تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ [المطففين: ١ و٢] ونَحْوُهُ[2]، ومعلومٌ [أنَّ مَنْ][3] وُجِدَ منهمْ هذا الفِعْلُ أو مِثْلُهُ[4] اسْتوجَبوا ما ذَكَرَ مِنَ العقوباتِ وأشَدَّ، مَعَ أنَّ الذي فيهِ مِنَ الكُفرِ أقْبَحُ مِنْ هذينِ الفِعْلَينِ، فكيفَ وَقَعَ تَعييرُهُمْ بذلكَ؟

والجوابُ عنْ هذا وأمثالِهِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ [المطففين ١ و٢] وقولِهِ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾... ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٦] [في وجوهٍ:

أحَدُها: أنهمْ][5] وإنْ أقاموا الصلاةَ، وأعطَوُا الزكاةَ، لم يُزَلْ عنهمْ عقوبةَ النارِ. والجوابُ عنهُ أنَّ الإيمانَ لم يَحْسُنْ لِاسْمِهِ، ولا قَبُحَ الكُفرُ لِنَفْسِ اسْمِ الكُفْرِ لأنهُ ليسَ أحدٌ مِمَّنْ يَذْهَبُ مَذهَباً، أو يَدينُ دِيناً إلّا وهو يَكْفُرُ بِشَيءٍ، ويؤمِنُ بِشَيءٍ لأنَّ المُسْلِمَ مؤمنٌ باللهِ تعالى كافرٌ بالطاغوتِ، والكافرَ يَكْفُرُ بالرحمنِ، ويؤمِنُ بالطاغوتِ، ويَعْبُدُهُ.

فَثَبَتَ أنَّ الإيمانَ ليسَ يَحْسُنُ لِنَفْسِ اسْمِ الإيمانِ، ولا قَبُحَ الكُفْرُ لِعَينِ اسْمِ الكُفْرِ، ولكنَّ الإيمانَ باللهِ تعالى إنما يَحْسُنُ بِحُسْنِ [مِنْ حينِ][6] أوجَبَتِ الحِكْمَةُ الإيمانَ بِهِ، ويَقْبُحُ الكُفْرُ لأنَّ الحِكْمةَ أوجَبَتْ تَرْكَ الكُفْرِ باللهِ تعالى؛ فالإيمانُ حَسَنٌ لِما فيهِ مِنْ [مَعْنَى الإيمانِ][7]، والكُفْرُ قَبيحٌ لِما فيهِ مِنْ مَعْنَى الكُفْرِ.

وهذانِ الفعلانِ قبيحانِ في نفسيهما[8] لا بِغَيرِهِما، فكانَ التَّعْيِيرُ الذي يَقَعُ بهذينِ الفِعْلَينِ أكْثَرَ وأبْلَغَ منهُ في تَعْيِيرِهِمْ بالكُفْرِ. لذلكَ عَيَّرَهُمُ اللهُ تعالى بهذينِ الفِعْلَينِ.

[والثاني:][9] أنَّ هذا يَخْرُجُ مُخرَجَ المَوعظةِ لأمَّةِ محمدٍ ﷺ وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُهْمَزُ بِهِ، ويُسْخَرُ منهُ لَمّا يَأْمُرُهُمْ بالمَعروفِ، ويَنْهاهُمْ عنِ المُنْكَرِ، ولا يُحَمِّلُهُ ما كانوا يَتَعاطَونَ على تَرْكِ أمرِهِمْ بالمَعروفِ ونَهْيِهِمْ[10] عنِ المُنْكَرِ لِما يَخْشَى أنْ يُسْخَرَ بِهِ، أو يُسْتَهْزَأَ.

والثالثُ: أنْ يكونَ هذا على وجهِ المُكافأةِ والانْتِقامِ لِما كانوا يَفْعَلونَ بِنَبِيِّنا محمدٍ ﷺ على الزَّجْرِ والرَّدْعِ عنْ ذلكَ؛ إذِ العقلاءُ يَمْتَنِعونَ عنِ الأفعالِ القبيحةِ.

فَعَلَى هذهِ الوجوهِ يَحْتَمِلُ مَعْنَى تَعْيِيرِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: من قوله. (٢) في الأصل وم: ونحوها. (٣) في الأصل وم: انه. (٤) في الأصل وم: عدمه. (٥) في الأصل وم، فهم.
(٦) في الأصل: من حيث. ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: المعنى. (٨) في الأصل وم: أنفسهما. (٩) في الأصل وم: ووجه آخر. (١٠) في الأصل وم: والنهي.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ قُرِئَ على التَّخفيفِ. جَمَعَ مِنَ الجَمْعِ، أي جَمَعَ مالَهُ عندَهُ، ولم يُفَرِّقْهُ، وعَدَدَهُ، وذَكَرَهُ؛ أي حَفِظَ عَدَدَهُ، وذَكَرَهُ على الدوامِ لئلا يُنْقِصَهُ، وَصَفَهُ بالبُخلِ والشُّحِّ.

ومَنْ قَرَأَ بالتَّشديدِ[1] فَمَعْناهُ أنهُ جَمَّعَهُ، وادَّخرَهُ بِمَمَرِّ الزمانِ، ولم يُجَمِّعْ ذلكَ في أيامٍ قصيرةٍ. والأصلُ: جَمَعَهُ بالتَّخفيفِ، لكنْ شَدَّدَهُ[2] لِما فيهِ منْ زيادةِ الجَمْعِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ يَتَوَجَّهُ بوجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ يكونَ على الحقيقةِ أنهُ [قَدَّرَهُ عندَ][3] نفسِهِ أنهُ يَبْقَى لِبقاءِ الأموالِ لهُ لِما يَرَى بقاءَهُ منْ حيثُ الظاهرُ بها، فتَقَرَّرَ عندَهُ أنَّ ما آتاهُ اللهُ تعالى منَ الأموالِ، هو رِزْقُهُ، فَيَعيشُ إلى أنْ يَسْتَوفِيَ جميعَ رزقِهِ، فَيَجْمَعُهُ، ويَدَّخِرُهُ لكي يَزيدَ في عُمُرِهِ.

والوجهُ الثاني: أنْ يكونَ على الظَّنِّ والحُسْبانِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ جمعَ مَنْ يَظُنُّ أنَّ مالَه يزيدُ في عُمُرِهِ.

فإنْ كانَ على التَّأويلِ الأوّلِ فقولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ عليهِ، أي ليسَ كما قَدَّرَهُ عندَ نفسِهِ، وإنْ كانَ على التَّأويلِ الثاني فَعَلَى إيجابِ عقوبةٍ مُبْتَدَأةٍ.

وقيلَ: عَدَّدَهُ: أي أكثرَ عَدَدَهُ، وقالَ الحَسَنُ: عَدَّدَهُ أي صَنَّفَهُ، فَجَعَلَ مالَهُ أصنافاً، وجعلَ أنواعاً منَ الإبلِ والغنمِ والبقرِ والدّورِ والعقارِ والمَنْقولِ وغيرِها، وقيلَ: عَدَّدَهُ: أي اسْتَعَدَّهُ، وأعَدَّهُ، وهَيَّأَهُ.

الآية ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾][4] قيلَ: بابٌ مِنْ أبوابِ النارِ، وقيلَ: هي صفةُ النارِ، والحَطْمُ، هو الكَسْرُ، فكأنهُ قالَ: النارُ التي يُعَذَّبُ بها الكَفَرَةُ، وتُكَسِّرُ عِظامَهُمْ، وتُحَطِّمُهُمْ.

الآيتان ٦ و٧ وقولُهُ تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ قيلَ: إنَّ النارَ تأتي على جُلودِهِمْ وعُروقِهِمْ ولُحومِهِمْ وعِظامِهِمْ حتى تأكُلَها، وتُكَسِّرَ العظامَ، فَتَطَّلِعُ على أفْئِدَتِهِمْ، فحينَئذٍ يَتَبَدَّلونَ جلوداً غيرَها لِيَذوقوا العذابَ. وقيلَ: إنما تَحرِقُ النارُ منهمْ كلَّ شيءٍ سِوَى الفؤادِ لأنَّ الفؤادَ إذا احْتَرَقَ لم يَتَألَّمْ بعدَ ذلكَ، ولم يَشْعُرْ بالعذابِ. والمرادُ مِنَ الإحراقِ إلحاقُ الألَمِ والضَّرَرِ بهمْ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ قُرِئَ عُمُدٍ[5] بِرَفعِ العَينِ والميمِ، وقُرِئَ بالنَّصْبِ فيهما. وذُكِرَ عنِ الفَرّاءِ أنهُ قالَ: العُمُدُ والعَمَدُ جماعاتُ العَمودِ والعِمادِ.

وقالَ بعضُهُمْ: العَمَدُ جَمْعُ العَمَدَةِ نَحْوُ بَقَرَةٍ وبَقَرٍ. وقالَ الكَلْبِيُّ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ أي النارُ عليهِمْ مُطْبَقَةٌ، يقولُ: أطْبِقَتْها[6] مُمَدَّدَةً في عَمَدٍ منْ نارٍ مُمَدَّدَةٌ عليهِمْ مِنْ فَوقِهِمْ، والعَمَدُ كَعَمَدِ أهلِ الدنيا، غيرَ أنها منْ نارٍ تُمَدُّ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ [والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][7].

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٢٣٣. (٢) في الأصل وم: شددها. (٣) في الأصل وم: قدر عنده. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٢٣٥. (٦) في الأصل وم: طبقها. (٧) ساقطة من م.

[سـورة الفيـل

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾؟ اختلَفوا في السببِ الذي به وَقَعَ القَصْدُ مِنْ أصحابِ الفيلِ إلى تَهْديمِ البيتِ وتَخريبِهِ.

فمنْهُمْ مَنْ قالَ: إنهمُ اتَّخذوا بيتاً في بلادِهِمْ، وسَمَّوهُ كعبةً لكي يَنسابَ الناسُ [إليهِ كما يَنسابونَ][2] إلى الكعبةِ، فأبَى الناسُ إتيانَ[3] ذلكَ البيتِ، فغاظَهُمْ ذلكَ حتى قَصَدوا تَهْديمَ هذا البيتِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ العربَ حَرَقوا بَيعةً، كانَتْ لهمْ، وخَرَّبوها، فغاظَهُمْ ذلكَ حتى أرادوا تهديمَ هذا البيتِ جزاءً بما فَعَلَتِ العربُ بهمْ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهمْ كانوا ملوكاً وفراعنةً، ومِنْ عادَتِهِمْ أنهمْ يُعادونَ مَنْ ضادَّهُمْ في مُلْكِهِمْ وسُلْطانِهِمْ.

وأيُّ ذلكَ كانَ فلا حاجةَ إلى مَعْرفتِهِ، وإنما حاجَتُنا إلى تَعْريفِ المَعْنَى الذي بِهِ أُنزِلَتِ السورةُ، وثُبِّتَتْ.

وتأويلُ ذلكَ يُخَرَّجُ على أوجهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَّرَهُمْ تلكَ النِّعَمَ التي أنْعَمَها عليهِمْ في صَرْفِ مَنْ أرادوا إهلاكَهُمْ؛ فإنهمْ قَصَدوا قَتْلَ أهلِ مكةَ وسَبْيَ نِسائِهِمْ وذراريهِمْ وأخذَ[4] أموالِهِمْ، فَذَكَّرَهُمُ اللهُ تعالى جميلَ صُنْعِهِ بهِمْ / ٦٥٣ ـ ب/ لِيَشْكُروا لهُ، ويَعْبُدوهُ حقَّ عبادتِهِ، ويَنْزَجِروا عنْ عبادةِ غَيرِهِ.

والوجهُ الثاني أنَّ اللهَ تعالى خَوَّفَ أهلَ مكةَ، وَوَجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى لمّا أهلكَ أصحابَ الفيلِ بما ضَيَّعوا حُرْمَةَ بيتِهِ، فلا يأمَنُ أهلُ مكةَ منْ إهلاكِهِ إيّاهُمْ وتَعْذيبِهِمْ بما ضَيَّعوا حُرْمةَ رسولِهِ ﷺ مَعَ أنَّ حُرْمَةَ الرسولِ ﷺ أعظمُ من حُرْمةِ البيتِ. وقد[5] نَزَلَ بأولئكَ ما نَزَلَ لِما جاءَ منهمْ مِنْ تَضْييعِ حُرْمةِ بيتِهِ، فَلَأَنْ يُخْشَى عذابُهُ ونِقْمَتُهُ مِنْ تَضْييعِ حُرْمةِ رسولِهِ أولَى.

والوجهُ الثالثُ: أنَّ اللهَ تعالى لمّا أهلكَ أولئكَ لمّا أراهُمْ منْ آياتِهِ لم يَنْصَرِفوا، لأنهُ ذُكِرَ أنهمْ كانوا إذا وَجَّهُوا الفيلَ نَحْوَ البيتِ امْتَنَعَ، وَوَقَفَ، وإذا وَجَّهُوهُ نحوَ أرضِهِمْ هَرْوَلَ، وتَسارَعَ. فلمّا رَأَوا ذلكَ، ولم يَنْصَرِفوا، أهْلَكَهُمُ اللهُ تعالى. فلا يُؤْمَنُ على أهلِ مكةَ أيضاً، لأنهمْ[6] لمّا رَأَوُا الآياتِ المُعْجِزَةَ مِنَ الرسولِ ﷺ فلم يُؤْمِنوا [تَوَعَّدَهُمْ بأنْ][7] يُهْلِكَهُمُ اللهُ ﷻ ويَنْتَقِمَ منهمْ بِعُقوبتِهِ.

فَعَلَى ما ذَكَرْنا يُخَرَّجُ مَعْنَى نُزولِ السورةِ.

وقيلَ: إنهُ على البِشارةِ لرسولِ اللهِ ﷺ على الإشارةِ أنهُ لم يَكُنْ للبيتِ ناصِرٌ في ذلكَ الوقتِ ولا مُعينٌ، بل كانَ وحدَهُ، فَنَصَرَهُ اللهُ تعالى، حتى لم يُمَكِّنْ أعداءَهُ منْ هَدْمِهِ، فَعَلَى ذلكَ يَنْصُرُكَ، ويُعينُكَ، ويُهْلِكُ عَدُوَّكَ، وإنْ كُنْتَ أنتَ وَحْدَكَ؛ إذْ كانَ وقتَ نُزولِ هذهِ السورةِ لم يكُنْ لهُ كثيرُ أعوانٍ، وقد فَعَلَ ذلكَ يومَ بَدْرٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: إليه كما ينسابوا، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إلى. (٤) في الأصل وم: وأخذوا. (٥) في الأصل وم: فلما. (٦) في الأصل وم: أنهم. (٧) في الأصل وم: ان.

ثم قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حَرْفُ اسْتُعْمِلَ في تَذاكُرِ أُعجوبةٍ قد كانَتْ، وعَرَفُوها، ثم غَفَلُوا عنها، أو في ما لم يكُنْ، فَيُعَجِّبُهُمْ بما فَعَلَ بأعدائهِ لِيَحْمِلَهُمْ على الزَّجْرِ والاِنْتِهاءِ عمّا حَرَّمَ اللهُ تعالى، فكأنهُ قالَ: رأيتَ ربَّكَ كيفَ فَعَلَ بأصحابِ الفيلِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ منهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ والمُرادُ غيرُهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا خِطاباً لكلِّ واحدٍ منهمْ.

ثم تَسْمِيَتُهُمْ أصحابَ الفيلِ، ونِسْبةُ الفيلِ إليهمْ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أيِ الذينَ صَحِبوا الفيلَ. والثاني: أصحابُ الفيلِ أي أربابُ الفيلِ كما يُقالُ: ربُّ الدارِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ أي أبْطَلَ ما قَدَّرُوهُ عندَ أنفسِهِمْ مِنْ تَخريبِ البيتِ وتَهْديمِهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جماعاتٍ مُتفرِّقَةً جماعةً جماعةً، وهكذا السُّنَّةُ في الخُروجِ لِمُحاربةِ أعداءِ اللهِ تعالى أنْ يَخْرُجوا جماعةً جماعةً. وقيلَ: هي طيرٌ، لم يُرَ قَبْلَها ولا بَعْدَها مِثْلُها، لها رؤوسٌ كالسِّباعِ، وقيلَ: شَبيهةٌ برجالِ الهندِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ اخْتَلَفوا في السِّجِّيلِ؛ قالَ بعضُهُمْ: هو اسْمُ مَوضِعٍ خُلِقَتْ حِجارتُهُ لِتَعْذيبِ الفراعنةِ وإهلاكِهِمْ، وقالَ بعضُهُمْ: فارِسِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ، وهي سَنْك وكِلْ، وهو الآجُرُ في التَّقْديرِ، وقالَ بعضُهُمْ: هذهِ عبارةٌ عنْ شدةِ الحجارةِ وقُوَّتِها[1].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قالوا: العَصْفُ هو وَرَقُ الزَّرْعِ أو وَرَقُ كلِّ نابتٍ.

وقولُهُ: ﴿مَّأْكُولٍ﴾ يَنْحو نَحْوَينِ، ويَتَوَجَّهُ وجهَينِ: إلى ما قد أُكِلَ وإلى ما لم يُؤكَلْ؛ إذْ ما لم يُؤكَلْ إذا كانَ مُعَدّاً للأكلِ سُمِّيَ مَأكولاً.

فإنْ كانَ غَيرَ المَأكولِ فكأنهُ[2] قالَ: جَعَلَهُمْ في الضَّعْفِ والرَّخاوَةِ معَ قُوَّتِهِمْ وسُلْطانِهِمْ كَعَلَفِ الدَّوابِّ حتى لا يُخافُ منهمْ بعدَ ذلكَ أبداً.

وإنْ كانَ على المأكولِ فهو أنهُ تعالى، جَعَلَهُمْ كالمَأكولِ [الذي أكَلَتْهُ][3] الدُّودُ، فيكونُ [فيهِ ثُقوبٌ][4]، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

(١) في الأصل وم: وقوته. (٢) من م، في الأصل: فإنه. (٣) في الأصل وم: التي أكلتها. (٤) في الأصل وم: فيها ثقب.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ ـ ٣ قولُهُ تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾][١] هذا يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: ما قالَ الفَرّاءُ: إنّ اللامَ لامُ الاِعْتِدالِ لأنَّ السورةَ صِلَةُ سورةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قالَ: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ كأنهُ يقولُ: أهْلَكْتُ أصحابَ الفيلِ، وفَعَلْتُ بهِمْ ما فَعَلْتُ لِتأليفِ قُريشٍ بذلكَ المكانِ كما أَلِفوا بِهِ الرِّحلتَينِ اللَّتَينِ جَعَلْنا لهمْ في الشتاءِ والصيفِ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: أَلْزَمْتُ الخَلْقَ عبادةَ ربِّ هذا البيتِ، وحُمِّلوا ما تَحتاجُ إليهِ قريشٌ وأهلُ ذلكَ المَكانِ مِنَ الطعامِ وما يَتَعَيَّشونَ بهِ لِتَأَلُّفَ قريشٌ عبادةَ هذا البيتِ ما لولا ذلكَ لم يَتَهَيَّأْ لهمُ المُقامُ بذلكَ المَكانِ، لأنهُ لا زَرعَ فيهِ، ولا نباتَ، ولا ما يُتَعَيَّشُ بهِ، وهو كما قالَ إبراهيمُ ﷺ: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وإنَّما تَعَيُّشُهُمْ في ذلكَ المَكانِ بما يَحْلُ إليهِمْ مِنَ الآفاقِ والأمكنةِ النائيةِ كقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾؟ الآية [القصص: ٥٧].

و[الثالث:][٢] قالَ بعضُهُم: أُمِرَتْ قُريشٌ أنْ يَألَفوا عبادةَ ربِّ هذا البيتِ بإيلافِهِمْ رحلةَ الشتاءِ والصيفِ؛ يقولُ: كما أَلِفْتُمْ هاتَينِ الرِّحلتَينِ فَألَفوا عبادةَ ربِّ هذا البيتِ.

[والرابعُ:][٣] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ أهلَ مكةَ كانوا يَرتَحِلونَ تُجّاراً آمِنينَ في البلدانِ، لا يَخافونَ شيئاً لِحُرْمَتِهِمْ، لأنَّ الناسَ يَحْتَرِمونَهُمْ لِمكانِ الحَرَمِ حتى لا يَتَعَرَّضَ لهمْ بشيءٍ، ولا يُؤذيهِمْ أحدٌ، حتى إنْ كانَ الرجلُ منهمْ لَيُصابُ في حيٍّ مِنَ الأحياءِ، فيقالُ: هذا حَرَمِيٌّ، فَيُخَلّى عنهُ وعنْ مالِهِ تعظيماً لذلكَ المكانِ، وهو ما قالَ: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [الآية: ٤].

[والخامسُ:][٤] قيلَ: إنَّ العربَ كانَ يَغيرُ بعضُهُمْ على بعضٍ، ويَسْبي بعضُهُمْ بعضاً، وأهلُ مكةَ كانوا آمنينَ في حَرَمِ اللهِ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؟ [العنكبوت: ٦٧] فذَكَّرَ عظيمَ نِعَمِهِ عليهِمْ ومِنَنِهِ لِيَعلَموا ذلكَ أنهُ منهُ.

الآية ٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾][٥] أصلُهُ أنَّ اللهَ تعالى لمّا كانَ مِنْ حِكْمَتِهِ وإرادتِهِ جَعْلُ الرسالةِ في قريشٍ وإبقاؤُها إلى الوقتِ الذي أرادَ أنْ تَبْقى جَعَلَ لهمْ مِنَ الأمرِ في ذلكَ المكانِ والأرزاقِ التي تُجْبى إليهِمْ وما يَتَعَيَّشونَ [بهِ][٦] في ذلكَ الوقتِ لِيَبْقَوا إلى ذلكَ الوقتِ الذي أرادَ إبقاءَهُمْ إليهِ، فيكونُ ما أرادَ على ما أرادَ.

فكما أنْشأَ هذا العالَمَ للبقاءِ إلى الوقتِ الذي أرادَ أنْ يَبْقوا فيهِ[٧] جَعَلَ لهمْ مِنَ الأرزاقِ ما يَبْقَونَ إلى الوقتِ الذي أرادَ ليكونَ ما أرادَ. / ٦٥٤ ـ أ/ فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

قالَ القُتَبيُّ: الإيلافُ مصدرُ آلَفْتُ فلاناً كذا إيلافاً كما تقولُ: أَلْزَمْتُهُ إلزاماً. وقالَ الكِسائيُّ: أَلِفْتُ المكانَ آلَفُهُ لُغتانِ. وعنِ ابْنِ عباسٍ ﵄: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أي لِصنيعِ قريشٍ ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ صنيعِهِمْ ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ السِّنينَ الذي أصابَهُمْ ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ العَدُوِّ، واللهُ أعلَمُ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][٨].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فيها. (٨) ساقطة من م.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ ـ ٣ قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾][1]؟ اختلَفوا في نزولِهِ، قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: هي مَدَنيةٌ، وقالَ مُقاتلٌ ومُجاهدٌ وجماعةٌ: هي مَكِّيَّةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أوَّلُها نَزَلَ بمكةَ لأنَّ الذي ذَكَرَ أنها نَزَلَتْ في شأنِهِ كانَ مَكِّيّاً، وهو العاصُ بْنُ وائلٍ السَّهْمِيُّ مع ما أنهمْ همُ الذينَ يُكذِّبونَ بيومِ الدِّينِ، وآخِرُها نَزَلَ بالمدينةِ، لأنَّ في آخِرِها وَصْفَ المنافقينَ، وهو ما ذُكِرَ مِنَ المُراآةِ في الصلاةِ ومَنْعِ ما ذُكِرَ.

ثم إنْ كانَ نزولُها في الكَفَرَةِ فالجِهَةُ فيهِ والمَعْنَى غيرُ الجِهَةِ والسَّبَبِ لو كانَتْ نَزَلَتْ في المُنافقينَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ حَرْفٌ يُستَعْمَلُ في مَوضِعِ السُّؤالِ والِاسْتِفهامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ اسْتِعمالُهُ على وَجْهِ التَّقريرِ على[2] السائلِ لِما يُرادُ بِهِ إعلامُهُ على سبيلِ ما رُوِيَ في الخَبَرِ: «أرأيتَ لو كانَ على أبيكَ دَينٌ، فَقَضَيتَهُ، أما قُبِلَ منك؟» (أحمد ٦/٤٢٩) وكانَ ذلكَ في مَوضعِ التقريرِ. فكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، اِنِ اعْلَمْ أنَّ ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ هو الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ [قالَ أهلُ التأويلِ جميعاً: يُكَذِّبُ بالدِّينِ][3] أي بالحِسابِ والبعثِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ الذي يُظْهِرُ لكَ، ولا يُحَقِّقُ.

فإنْ كانَ في المُنافقينَ، لأنَّ أهلَ النِّفاقِ كانوا يُكَذِّبونَ [فهو مَنْ][4] يُظْهِرُ المُوافقةَ لِرسولِ اللهِ ﷺ والمؤمنينَ.

[وإنْ كانَ في أهلِ الكُفرِ، فهو في الرُّؤساءِ منهمْ؛ فتكذيبُهُمْ بالدِّينِ، هو ما كانوا يُظْهِرونَ لأتباعِهِمْ مِنَ الجَهْدِ والشِّدَّةِ، يُمَوِّهونَ بذلكَ على أتباعِهِمْ لِيَقَعَ عندَهُمْ أنَّ الذي هُمْ عليهِ حَقٌّ وأنَّ الذي عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ باطِلٌ، فَيُكَذِّبونَ بالدينِ الذي يَرَونَ مِنْ أنفسِهِمْ، ويُظْهِرونَ بالتَّمويهاتِ التي يُمَوِّهونَ بها عليهِمْ، فكيفَ أنْ كانَتْ نَزَلَتْ في المُنافِقينَ أو في أهلِ الكُفرِ أو في الذي كَذَّبَ بالحسابِ والبعثِ أو في الذي ذَكَرْنا أنهُ يُظْهِرُ خِلافَ ما يُضْمِرُ؟

فيهِ عِظَةٌ وتَنْبيهٌ لِلْمؤمنينَ][5] وزَجْرٌ لهمْ عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ لأنهُ نَعْتُ الذي كَذَّبَ بالدِّينِ؛ إذْ كانَ المُرادُ بهِ الحِسابُ أوِ الدِّينُ نفسُهُ حينَ[6] قالَ: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ هو ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يَظْلِمُ اليتيمَ، وحقَّهُ يَمْنَعُ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، للمؤمنينَ: لا تَظْلِموا اليتيمَ، ولا تَمْنَعوا حقَّهُ، ولا تُسيؤوا صُحْبَةَ اليَتيمِ كما فَعَلَ مَنْ كَذَّبَ بالدينِ [وما حَضَّ][7] على طعامِ المسكينِ؛ يَصِفُ بُخْلَهُمْ واسْتِهانَتَهُمْ باليتيمِ والمساكينِ وسُوءَ مُعامَلَتِهِمُ التي عامَلوها؛ يَعِظُ المؤمنينَ، ويَزْجُرُهُمْ عنْ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لِما عندَهُمْ أنَّ مَنْ أُعطِيَ المالَ، وَوُسِّعَ عليهِ الدنيا، إنما أُعْطِيَ ذلكَ لِكَرامةٍ لهُ عندَ اللهِ تعالى، ومَنْ ضُيِّقَ عليهِ، ومُنِعَ ذلكَ عنهُ، لِهَوانٍ لهُ عندَهُ وحَقارةٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر ١٥ و١٦] وقولِهِ ﷻ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عند. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ما. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وحضوا.

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾؟ [يس: ٤٧] يظُنّونَ أنَّ اللهَ تعالى مَنَعَ مَنْ[1] مَنَعَ ذلكَ لِهوانٍ لهُ عندَهُ، ومَنْ وَسَّعَ عليهِ وَسَّعَ لكرامةٍ لهُ عندَهُ [فيقولونَ: كيفَ نُكرِمُ][2] مَنْ أهانَهُ اللهُ تعالى؟.

فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ أنهُ لا يَحُضُّ على طعامِ المسكينِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُ على ظُلْمِهِ اليتيمَ وتَرْكِهِ إطعامَهُ تَكْذيبُهُ بالبَعْثِ لأنهُ ليسَ لليَتيمِ مَنْ يَنصُرُهُ، ويَقومُ بِدَفْعِ مَنْ يَقْصِدُ ظُلْمَهُ، ويَمْنَعُ حقَّهُ، وكانَ لا يَخافُ عقوبةَ البعثِ؛ إذْ لا يُؤمِنُ بهِ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أنْ يكونَ في الاِعْتِقادِ والرُّؤيةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في حقِّ الفِعْلِ نفسِهِ.

فإنْ كانَ في الاِعْتِقادِ والرُّؤيةِ فأهلُ الإسلامِ لا يَعْتَقِدونَ، وإنْ كانَ في حَقِّ الفِعْلِ فإنهمْ ربَّما يَفْعَلونَ ذلكَ.

وحَمْلُهُ عندَنا على الاِعْتِقادِ أوجَبُ وأقرَبُ لِما وَصَفْنا أنَّ اليَتيمَ لا ناصِرَ لهُ، وليسَ للكافرِ خَوفُ العاقبةِ لِما لا يُؤمِنُ بذلكَ، وإنما يُمْنَعُ المَرْءُ مِنْ سُوءِ الصُّحْبَةِ لِهذينِ: إمّا رغبةٌ في جزاءِ الآخِرةِ [وإمّا][3] خوفُ المُكافآتِ في الدنيا.

والمساكينُ ليسَ لهمْ في الدنيا ما يكافِئُهُمْ، ويُجازيهِمْ، وليسَ لليتيمِ ناصرٌ لِيُخافَ منهُ، ولم يكُنْ للكافِرِ رغبةٌ في ثوابِ الدنيا والآخِرةِ مِنَ العِقابِ لِعَدَمِ تَصْديقِهِ بذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ هو النهايةِ في وَصْفِهِ بالبُخْلِ لأنَّ الحَثَّ على الصَّدَقةِ أنْ يُرْجِيَهُ، ويُطْمِعَهُ في ثوابِهِ. فإذا لم يُرْجِ [هو][4] بنفسِهِ، فكيفَ يُرْجي غَيرَهُ معَ ما أنَّ الحِكْمةَ عندَ هؤلاءِ الكَفَرةِ: مَنْ جَرَّ إلى نفسِهِ نفعاً، فهو الحكيمُ، ومَنْ ضَرَّ نفسَهُ، فهو جائرٌ غَيرُ حكيمٍ، وهو إذا مَنَعَ الصَّدَقةَ نَفَعَ نفسَهُ، وإذا أوفَى اليتيمَ حقَّهُ ضَرَّها؟ فلذلكَ لا يَرْغَبُ فيها. فهذا المَعْنَى الذي وصَفْناهُ دعانا إلى توجيهِ التَّأويلِ إلى الاِعْتِقادِ.

الآيات ٤ - ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾][5] إنْ كانَ هذا في أهلِ النِّفاقِ، كذلكَ كانوا لا يَفْعَلونَ شيئاً مِنَ الطاعاتِ إلّا وكانوا عنها لاهِينَ ساهِينَ، وإذا فَعَلوا شيئاً منها فَعَلوا مُراآةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤] فَذَكَرَ كَسَلَهُمْ وبُخْلَهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ في المُنافقينَ على ما ذَكَرْنا مِنْ نَعْتِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في أهلِ الكُفْرِ، وأهلُ الكُفْرِ يُصَلُّونَ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أخْبَرَ أنَّ صلاتَهُمْ في الحقيقةِ ليسَتْ بصلاةٍ، فجائزٌ / ٦٥٤ - ب/ أنْ تكونَ على صورةِ الحقيقةِ، وقد ذُكِرَ أنهمْ كانوا يُصَلُّونَ مُسْتَقْبِلينَ نَحْوَ أصنامِهِمْ، يُرُونَ الناسَ كثرةَ اجْتِهادِهِمْ في طاعةِ الأصنامِ حتى إذا رآهُمْ مَنْ نَأَى عنهمْ ظَنَّ أنهُ حقٌّ، فيكونُ في ذلكَ صَدٌّ عنْ إجابةِ الرسولِ ودَفْعُ وجوهِ القومِ عنهُ. فذلكَ قولُهُ: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ كنايةً عنِ الخُضوعِ والتَّذَلُّلِ، فيكونُ مَعْناهُ: وَيْلٌ للذينَ لا يَخْضَعونَ، ولا يَخْشَعونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي سَهَوا عنْ صَلاتِهِمْ لأنفسِهِمْ، وصلاتُهُمُ التي هي لأنفسِهِمْ، هي أنْ تكونَ الصلاةُ للهِ تعالى، ويَجْعَلونَها لهُ، ولا يُصَلّونَ لِغَيرِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغيرِها، لأنَّ مَنْ صلّى للهِ تعالى يُرجِعُ مَنْفَعَتَهُ في الحقيقةِ إليهِ لِما تعلَّقَ بها مِنَ الجزاءِ الجميلِ، فهمْ بالسَّهْوِ عنْ تلكَ الصلاةِ وتَرْكِها يُلْحِقونَ الضَّرَرَ بأنفسِهِمْ، وإنْ[6] جَعَلوها للأصنامِ التي لا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ.

والثاني: سَهْوَتُهُمْ [عنِ][7] الصلاةِ حينَ أضاعوها، وهو ما ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ في قولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فيقولُ: [سَهَوا عنِ][8] الصلاةِ، فلم يَمْتَنِعوا عمّا ذَكَرَ.

---

(١) في الأصل وم: ممن. (٢) فيقول كيف أكرم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إذ. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: سهيتم.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ مرفوعاً: «همُ الذينَ يُؤَخِّرونَها عنْ وقْتِها» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣١١]. وقالَ مجاهدٌ: «الساهي الذي لا يُبالي صَلَّى أم لم يُصَلِّ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣١١] ألَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾. وقالَ الحَسَنُ: «همُ المُنافقونَ، يُؤَخِّرونَها عن وقتِها، ويُراؤونَ إذا صَلَّوا» [بنحوه: الطبراني في الأوسط ٢٢٩٧]. وقالَ سعدُ [بْنُ أبي وَقّاصٍ][1]: «السَّهْوُ[2] عنِ الوقت» [بنحوه: الطبراني في الأوسط ٢٢٩٧]. وقالَ أبو العاليةِ: «الساهي هو الذي لا يَدْري عنْ شَفْعٍ انْصَرَفَ أو عنْ وِتْرٍ» [الدر المنثور ٨/ ٦٤٣]. ورُوِيَ عنْ سليمانَ أنهُ قالَ: الحمدُ للهِ لأنهُ[3] لم يَقُلْ: في صلاتِهِمْ، ولكنهُ قالَ ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ «هو الزكاةُ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٦] رواهُ ابْنُ الزُّبَيرِ وعِكْرِمةُ ومُجاهدٌ عنهُ. ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ «هو الزكاةُ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٦]. وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ في روايةٍ أُخرَى «هو العاريةُ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٦]. وعنِ ابْنِ عمرَ قالَ: «هو الذي لا يُعْطى حَقُّهُ، وهو الزكاةُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣١٥].

ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ في روايةٍ: «الماعونُ مَنْعُ القِدْرِ والدَّلْوِ والفأسِ» [الطبراني في الأوسط: ١٤٩٥]. وعنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ مِثْلُهُ. وكذا عنِ ابْنِ عباسٍ في روايةٍ أُخرَى. وقالَ أبو عُبَيدةَ: كلُّ ما فيهِ مَنْفَعَةٌ، فهو الماعونُ. وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: «ما جاءَ هؤلاءِ[5] بَعْدُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣١٩].

فإنْ كانَ ذلكَ على العَواري فالمَعْنَى منها ذَمُّ البخيلِ، وأَشَدُّهُ مَنْعُ القَرْضِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الماعونُ كلَّ معروفٍ وكلَّ ما يُعانُ [بهِ][6]؛ يدخُلُ في ذلكَ الزكاةُ وغيرُها؛ ففيهِ ذِكْرُ بُخْلِهِمْ وشُحِّهِمْ ومَنْعِ الحقِّ منَ المُسْتَحِقِّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يَضْرِبُ، ويَدْفعُ في قَفاهُ؛ يُقالُ: دَعَّ يَدُعُّ دَعّاً، فهو داعٌّ ومَدْعوعٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يَدْفَعُهُ، وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي يُدْفَعونَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ لا يُحَرِّضُ، ولا يَحُثُّ ﴿سَاهُونَ﴾ غافلونَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ لاهونَ، وكذلكَ في حَرْفِ أُبَيٍّ ﷺ واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ ما أرادَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الترك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في تفسير الطبري: أهلها.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

سورة(١) الكوثر

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ هذا خَرَجَ مَخْرَجَ الامْتِنانِ على رسولِ اللهِ ﷺ والإنعامِ والإفضالِ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ والخُضوعَ لهُ.

ثم اخْتَلَفوا في الكوثرِ [قالَ بعضُهُمْ:](٢) هو الخيرُ الكثيرُ [والخيرُ الكثيرُ](٣) ما أُعْطِيَ مِنَ النُّبُوَّةِ والرسالةِ وما لا يَنْجو أحدٌ مِنْ سُخْطِ اللهِ تعالى إلّا بهِ، وهو الإيمانُ بهِ والتَّصديقُ لهُ وما صَيَّرَهُ مَعْروفاً مَذْكوراً في الملائكةِ، وما قَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، ورَفَعَ قَدْرَهُ ومَنْزِلَتَهُ في جميعِ الخلائقِ، وغَيرُ ذلكَ ممّا لا يُحْصَى. وهو ما قالَ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وقالَ بعضُهُمْ: نَهَرٌ في الجنةِ. وعلى ذلكَ جاءَتِ الأخبارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ الكوثَرِ، فقالَ: «نَهَرٌ في الجنةِ» [الترمذي ٣٣٥٩] أو قالَ ذلكَ منْ غَيرِ سؤالٍ.

فإنْ ثَبَتَتِ الأخبارُ فهو بذاكَ(٤) كُفينا عنْ ذِكْرِهِ، وإنْ لم تَثْبُتِ الأخبارُ فالوجهُ الأوّلُ أقْرَبُ عندنا، لأنهُ ليسَ في إعطائِهِ النَّهَرَ تَخْصيصٌ في التَّشريفِ والعَطِيَّةِ، لأنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ لأُمَّتِهِ ما هو أكثرُ مِنْ هذا لِما رُوِيَ في الأخبارِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ لأهلِ الجنةِ في الجنةِ ما لا عَينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [البخاري ٣٢٤٤ ومسلم ٢٨٢٤]. ونحنُ نَعْلَمُ أنَّ هذا في الإنعامِ أكثرُ مِنَ النَّهَرِ الذي وَصَفَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الكوثَرُ شيءٌ أعطاهُ اللهُ تعالى رَسولَهُ، لا يُعْرَفُ.

وأصلُهُ: أنهُ شيءٌ، خاطَبَ بهِ رسولَهُ، وهو قد عَرَفَهُ، فلا يَجِبُ أن يَتَكَلَّفَ [أحدٌ](٥) مَعْرِفَتَهُ وتَفسيرَهُ، لأنهُ إنْ أخطأَهُ(٦) لَحِقَهُ الضَّرَرُ، وإنْ أصابَهُ لم يَنْتَفِعْ(٧) بهِ كثيرَ نَفْعٍ.

وقيلَ: الكوثَرُ، هو حَرْفٌ أُخِذَ مِنَ الكتبِ المُتَقَدِّمةِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: حقيقةُ الصلاةِ، هي الخُضوعُ والخُشوعُ والدُّعاءُ، أمَرَهُ بجميعِ ما يُعَبِّدُهُ في نفسِهِ، وأمَرَهُ أنْ يأتِيَ بما تَعَبَّدَهُ مِنَ القَرابينِ والذَّبائِحِ والضَّحايا التي فيها نِفارُ الطِّباعِ حتى إنَّ مِنَ الكَفَرَةِ مَنْ يُحَرِّمُ الذبائحَ والنَّحْرَ للآلامِ التي فيها، والطِّباعُ تَنْفُرُ عنْ ذلكَ، فَتَعَبَّدَهُ بالذي فيهِ مُناقَضَةُ طَبْعِهِ ونِفارُهُ عنهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على الأمرِ(٨) بالصلاةِ والنَّحْرِ، ولكنَّ معناهُ: إذا فَعَلْتَ ذلكَ فافْعَلْ للهِ، لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ كانوا يُصَلّونَ للأصنامِ، ويَذْبَحونَ لها كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ فأمَرَهُ أنْ يَجْعَلَ ذلكَ للهِ تعالى.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ذاك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أخطأ. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ينفع. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: رأي.

وقالَ الحَسَنُ: صَلِّ لربِّكَ صلاةَ العيدِ، وانْحرِ البُدْنَ بَعْدَها. وقالَ مجاهدٌ وعطاءٌ: صَلِّ الصُّبْحَ بِجَمْعٍ، وانْحَرْ بِمِنًى.

وقالَ بعضُهُمْ: صَلِّ لربِّكَ حقيقةَ الصلاةِ، وهي الصلاةُ المَعْروفةُ المَفْروضةُ «وهي مُخُّ العبادةِ» [بنحوه: الترمذي ٣٣٧١]. على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ، وكذلكَ ما ذُكِرَ: «إنَّ المُصَلِّيَ مُناجِ الرَّبِّ تعالى» [أحمد ٢/ ٦٧].

وهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ ما منْ عبادةٍ إلَّا وفيها شيءٌ منَ اللَّذَّةِ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ للنفسِ وأمانيها مِنَ السَّيرِ والرُّكوبِ والأكلِ والشُّرْبِ والكلامِ والانْتِقالِ منْ مَوضعٍ [إلى مَوضعٍ][1] وغَيرِ ذلكَ منَ الطاعاتِ ممّا فيهِ شيءٌ مِنَ اللَّذَّةِ للنفسِ وقَضاءِ شَهْوَتِها، وإنْ قَلَّ، مِنَ الحَجِّ / ٦٥٥ ـ أ/ والزكاةِ والجهادِ وغَيرِ ذلكَ، إلّا الصلاةَ نفسَها فإنَّ فيها قَطْعَ النفسِ عنْ جَميعِ شَهَواتِها وأمانيها وعنْ جَميعِ ما يُتَلَذَّذُ بهِ منْ أنواعِ اللَّذّاتِ. وعلى ذلكَ ما سَمَّى موسى ﷺ كليمَ اللهِ ونَجِيَّهُ، لأنهُ فارقَ قومَهُ وجميعَ ما للنفسِ فيهِ لَذَّةٌ وراحةٌ، وأتى جَبَلاً، ليسَ فيهِ أحدٌ، وكلَّمَهُ ربُّهُ في ذلكَ، فَسُمِّيَ نَجِيَّ اللهِ. وعلى ذلكَ سُمِّيَ المُصَلِّي مُناجياً ربَّهُ، وخُصَّ بذلكَ الاِسْمِ لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ هو ما ذَكَرْنا منْ نَحْرِ البُدْنِ الذي يُعَبِّدُهُ للكلِّ لِما فيهِ مِنْ نِفارِ النَّفْسِ بالتَّألُّمِ الذي يَحْصُلُ لِغَيرِهِ بِفِعْلِ غَيرِهِ. فالتَّألُّمُ بهِ يَفْعَلُ بنفسِهِ أكثرَ منَ التَّألُّمِ بِفِعْلِ غَيرِهِ، وهو مُجاهدةُ النفسِ، ويُغَيِّرُ ما امْتَحَنَهُ ﷺ بِتَحَمُّلِ المَشَقَّةِ لوجْهِهِ تعالى مَرَّةً بالتَّبليغِ إلى الكَفَرَةِ معَ الخَطَرِ على نفسِهِ ومَرَّةً بِمُجاهدةِ نفسِهِ بالقِيامِ بالليلِ ومَرَّةً بإتيانِ خِلافِ الطَّبْعِ، وهو ذَبْحُ البُدْنِ؛ إذِ الطَّبائعُ تَنْفُرُ عنْ إراقةِ الدماءِ، معَ أنهُ مِنْ أشْفَقِ الناسِ وأرْحَمِهِمْ على خَلْقِهِ.

فَبَلَغَ منْ حسنِ إجابتِهِ لهُ وطاعتِهِ لهُ أنْ ساقَ مئةَ بَدَنةٍ، فَنَحَرَ سِتِّينَ منها بيدِهِ، وَوَلَّى علياً ﷺ نَحْرَ أربعينَ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ: [أحمد ١/ ٣١٤ و٣١٥].

ورَوَى أبو الجوزاءِ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ وَضْعُ اليَمينِ على الشِّمالِ في الصلاةِ، وكذا رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ وعنْ عاصمٍ الجَحْدَرِيِّ [أنهُ][3] قالَ: هو وَضْعُ اليَمينِ على الشِّمالِ في الصلاةِ.

ومنْ قَولِ الثَّنَوِيَّةِ أنهمْ لا يَرَونَ ذَبْحَ شيءٍ منَ الأشياءِ لِما فيهِ منَ الألَمِ والأذَى. وقولُهُمْ هذا، ليسَ بصحيحٍ لأنّا نَعْلَمُ أنَّ إماتَةَ الروحِ بالذَّبْحِ أهوَنُ على المَذْبوحِ مِنْ مَوتِهِ حَتْفَ أنفِهِ، فإذا جازَ في الحِكْمةِ أنْ يُزْهِقَ روحَهُ بِغَيرِ الذَّبْحِ [فَلَأَنْ يجوزَ بالذَّبْحِ][4] أحَقُّ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ هذهِ السورةَ نَزَلَتْ في مُخاطبةِ رسولِ اللهِ ﷺ وهو المَقصودُ بهِ مِنْ بينِ الناسِ، وهو أعْلَمُ[5] بالذي خاطَبَهُ بهِ منَ الصلاةِ والنَّحْرِ والكوثرِ وغَيرِ ذلكَ، فلا نَتَكَلَّفُ نحنُ تَفْسيرَهُ مَخافَةَ الكذبِ على اللهِ سِوَى أنْ نَذْكُرَ أقاويلَ أهلِ التأويلِ.

الآية ٣ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ يَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنَّ فلاناً سَمَّى رسولَ اللهِ ﷺ أبْتَرَ، فَنَزَلَ أنَّ الذي سَمّاكَ أبْتَرَ، هو الأبتَرُ، لا يُعَرِّفُهُ حقيقةً، لأنهُ لم يُذْكَرْ أنَّ أحداً منْ أولادِ الفراعنةِ وأعداءِ الرسلِ ﷺ افْتَخَرَ بأبيهِ، أو أحداً منْ أوليائِهِمْ [أو المُنْتَمِيَ إليهِمُ افْتَخَرَ بهِمْ][6] وافْتَخَرَ أولادُ[7] أولياءِ رسولِ اللهِ ﷺ على الناسِ حتى يَتَعَيَّنوا بذلكَ في ما بَيْنَهُمْ.

يقولُ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أي مُعادِيَكَ ومُبْغِضَكَ، هو الأبْتَرُ دونَكَ، أو يقولُ: أعداؤكَ، همُ الذينَ يُبْتَرُ ذِكْرُهُمْ، وأولئكَ مَذْكورونَ أبداً على ما قُلْنا.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنهُ خاطَبَ بهِ رسولَ اللهِ ﷺ وقد عَرَفَ ذلكَ، ونحنُ لا نَعْلَمُ في أيِّ شيءٍ كانتِ القصةُ؟ وفيمَ نَزَلَتِ الآيةُ؟ واللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يعلم. (٦) في الأصل وم: المتمين بهم. (٧) ساقطة من م.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الشانِئُ المُبْغِضُ، يُقالُ: شَنَأْتُهُ أبْغَضْتُهُ، والأبترُ، هو الذي لا وَلَدَ لَهُ ذَكَراً، ولا عَقِبَ لهُ.

وفي قولِهِ ﷻ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ بِشارةٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ بالغَلَبَةِ عليهمْ والقَهْرِ لهمْ والنُّصْرَةِ عليهمْ وإظهارِ دينِ اللهِ تعالى في البلادِ والآفاقِ، إذْ أخبَرَ أنَّ الذي عاداهُ، وباغَضَهُ، هو المُنْقَطِعُ والأبْتَرُ، لا هو، واللهُ المُسْتَعانُ.

سورة[1] الكافرون

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخِرِها، ذُكِرَ أنها نزلَتْ في مُنابَذَةِ المُتَمَرِّدينَ المعانِدينَ الذينَ لا يؤمنونَ أبداً، ولا يَرْجِعونَ عمّا هُمْ عليهِ مِنْ عبادةِ الأوثانِ إلى التوحيدِ والإسلامِ، لأنهُ لا كلُّ كافرٍ يكونُ على وَصْفِ أنهُ لا يَعْبُدُ اللهَ تعالى في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ؛ إذْ قد يجوزُ أنْ يكونَ في وقتٍ [كافرًا][2] ثم يُسْلِمُ في وقتٍ آخَرَ. فَدَلَّ ما ذَكَرْنا أنها نزلتْ في المُتَمَرِّدينَ المُعانِدينَ الذينَ عَلِمَ اللهُ أنهمْ يَثْبُتونَ على الكُفْرِ، ولا يُؤمِنونَ أبداً، وكانَ كما أخْبَرَ.

وفيهِ[3] دلالةُ إثباتِ الرسالةِ، إذْ أخْبَرَ أنهمْ لا يُؤمنونَ، فلم يُؤمِنوا، وماتوا على الكُفْرِ.

الآيات ٢ ـ ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتمُ الآنَ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ في ما بعدَ اليومِ [﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾][4].

وقالَ بعضُهُمْ: الأوّلُ في ما مَضَى مِنَ الوقتِ، والثاني: إخبارٌ عنِ الحالِ، والآخَرُ في ما بَقِيَ مِنَ الوقتِ، ولكنْ لا يَجيءُ أنْ يكونَ هكذا، بل يَجيءُ بهِ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في حادثِ الوقتِ، لأنَّ حَرْفَ: ﴿لَآ﴾ إنما يُسْتَعْمَلُ في حادثِ الأوقاتِ؛ يقولُ الرجلُ: لا أفْعَلُ كذا؛ يريدُ بهِ حادثَ الوقتِ، وقولُهُ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ كذلكَ أيضاً في حادثِ الأوقاتِ، أو إخبارٌ عنِ الحالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ إنما هو إخبارٌ عنِ الماضي منَ الأوقاتِ؛ كأنهُ يقولُ: لم أكُنْ أنا عابداً [﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾][5] قَطُّ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ. وهذا يدلُّ على أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَكُنْ عَبَدَ غيرَ اللهِ قَطُّ.

وفي هذهِ السورةِ وجْهانِ منَ الدلالةِ:

أحدُهُما: ما ذَكَرْنا منْ إثباتِ الرسالةِ.

والثاني: إخبارٌ عنِ الإياسِ لهمْ منْ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ أنْ يَرْجِعَ إلى دينِهِمْ أبداً وقَطْعِ رَجائِهِمْ وطَمَعِهِمْ في ذلكَ.

وفيهِ أيضاً أنَّ مَنْ أشرَكَ [غيرَ اللهِ في عبادتِهِ][6] ﷺ وعَبَدَ غيرَهُ دونَهُ على رجاءِ القُرْبةِ إلى اللهِ تعالى، فهو ليسَ بعابدِ اللهِ تعالى ولا مُوَحِّدٍ لهُ، لأنَّ أولئكَ إنما عَبَدوا الأصنامَ رَجاءَ أنْ تَشْفَعَ لهمْ ورَجاءَ أنْ تُقرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى. أخْبَرَ أنها لا تُقرِّبُهُمْ زُلْفَى وأنهمْ ليسوا بِمُوَحِّدينَ ولا عابدينَ للهِ تعالى.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ[7]:

أحدُهما: لكُمْ جَزاءُ دينِكُمْ، ولي جَزاءُ ديني الذي دِنْتُ.

والثاني: على المُنابَذةِ والإياسِ: لكُمْ ما اخْتَرْتُمْ مِنَ الدينِ، ولي ما اخْتَرْتُ، لا يَعودُ واحدٌ مِنّا إلى دينِ الآخَرِ. وكانَ قبلَ ذلكَ يَطْمَعُ كلُّ فريقٍ عَوْدَ الفريقِ الآخَرِ إلى دينِهِمُ الذي هُمْ عليهِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ففيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غيره في عبادة الله. (٧) في الأصل وم: وجهان.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ليسَ على الأمرِ [على ما ذَكَرْنا في سورةِ الإخلاصِ والمُعَوِّذتين؛ إذْ لو كانَ على الأمرِ لَلَزِمَ[١] أنْ يقولَ كلُّ واحدٍ منا لكلِّ كافرٍ ذلكَ. فإذا لم يَلْزَمْ دلَّ أنهُ ليسَ على الأمرِ][٢].

وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ قُلْ للذينَ / ٦٥٥ ـ ب/ كَفَروا: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾][٣] ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

وعنهُ أنهُ قالَ: منْ قَرَأَ هذهِ السورةَ فقد أكْثَرَ، وأطْنَبَ.

وفي حديثٍ مرفوعٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ لرجلٍ: «إذا قَرِبْتَ إلى فراشِكَ فاقْرَأْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فإنهُ بَراءةٌ مِنَ الشِّرْكِ» [الترمذي ٣٤٠٣].

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: إنَّ سَبَبَ نزولِ هذهِ مُنابَذَتُهُ إياهُمْ: أنَّ رهطاً مِنْ قريشٍ قالوا: يا رسولَ اللهِ ﷺ هَلُمَّ فَلْتَعْبُدْ ما نَعْبُدُ، واعبُدْ ما نَعْبُدُ نحنُ، فيكونُ أمرُنا أمراً واحداً فَنَزَلَتْ هذهِ السورةُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الدِّينُ العادةُ؛ تقولُ: هذا ديني أي عادتي.

ثم المَعْنَى الذي وقعَ عليهِ التكرارُ لهذهِ الأحرفِ عندَنا أنَّ التَكرارَ حَرْفٌ جَرَى الِاسْتِعمالُ بهِ في موضعِ المُبالغةِ والتأكيدِ لِما قَصَدَ بهِ منَ الكلامِ [في أيِّ كلامٍ][٤] كانَ: رَجاءً أو وَعيداً أو غَيرَهُ كقولِهِمْ: بَخٍ بَخٍ والوَيلُ [الويلُ][٥] وهيهاتَ هيهاتَ وغَيرُ ذلكَ، فكذلكَ في هذا المَوضِعِ لِما وقَعَ الإياسُ مِنْ إيمانِهِمْ باللهِ تعالى بما عَلِمَ النَّبِي ﷺ بطريقِ الوَحْيِ أنهمْ لا يُؤمنونَ، كَرَّرَ هذا الكلامَ تأكيداً للإياسِ وإبلاغاً، واللهُ أعلَمُ [والحمدُ للهِ ربِ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ][٦] على سيدِنا محمدٍ [وآلِهِ وصحبِهِ أجمَعينَ][٧].

(١) في م: فهو يلزم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم.(٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في م: وصلى الله. (٧) ساقطة من الأصل.

سورة[1] النصر

مكية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ هو مكةُ والنصرُ الذي نَصَرَ رسولَ اللهِ ﷺ على أهلِ مكةَ.

قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: هذا يَحتَمِلُ لأنَّ فَتْحَ مكةَ كانَ بعدَ الهجرةِ بِثماني سِنينَ، ونزولَ هذهِ السورةِ كانَ بعدَ الهجرةِ بِعَشْرِ سِنينَ، ولا يُقالُ للذي قَضى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ولكنْ أرادَ سائرَ الفُتوحِ التي فَتَحها لهُ، أو كلامٌ نحوُ هذا.

ولكنْ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ بِمَعْنى إنْ جاءَ. وجائزٌ ذلكَ في اللغةِ، وفي[3] القرآنِ كثيرٌ: إذا مكانَ إنْ. فإنْ كانَ على هذا فَيَسْتَقيمُ حَمْلُهُ على فَتْحِ مكةَ على ما قالَهُ أولئكَ، أو [أنْ][4] يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ أي قد جاءَ نَصْرُ اللهِ، أي أنْ يكونَ أرادَ بما ذَكَرَ مِنَ النَّصْرِ والفَتْحِ الفُتوحَ التي كانَتْ لهُ مِنْ بَعْدُ حينَ دَخَلَ الناسُ في دينِ اللهِ أفواجاً على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي عَونُ اللهِ وخِذلانُهُ لأعدائِهِ أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ هو[5] فتوحَ الأمورِ التي فَتَحها اللهُ ﷺ عليهِ مِنْ تَبْليغِ الرسالةِ إلى مَنْ أَمَرَ تَبْليغَها إليهِمْ والقيامِ بالأمورِ التي أمَرَهُ أنْ يقومَ بها، فَتَحَ تلكَ الأمورَ عليهِ، وأتَمَّها.

فإنْ كانَ على هذا فَتَصيرُ فُتوحُ تلكَ الأمورِ لهُ نَعْياً بالدلالةِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنهُ نَعْيٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ نفسَهُ، وجِهَةُ الاستِدْلالِ الوجوهُ التي ذَكَرْنا.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنهُ كانَ قَبْلَ ذلكَ يدخُلُ واحدٌ واحدٌ. فلمّا كانَ فَتْحُ مكةَ جَعَلوا يدخُلونَ دينَهُ أفواجاً أفواجاً وقبيلةً قبيلةً.

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ سائِرِ الفُتوحِ أي فُتوحِ الأمورِ التي ذَكَرْنا على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهرَينِ شهراً أمامي وشهراً ورائي» (الطبراني في الكبير ٦٦٧٤).

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ نَعْيُ رسولِ اللهِ ﷺ من وجوهٍ، وقد ذُكِرَ في الأخبارِ أنهُ نُعِيَ إليهِ نفسُهُ بهذهِ السورةِ:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا مِنْ جِهَةِ الاستِدْلالِ عَرَفَ أنهُ قد دَنَا أجَلُهُ [حينَ أتَمَّ][6] ما أُمِرَ بهِ، وفَرَغَ منهُ مِنَ التَّبليغِ والدعاءِ.

والثاني: عَرَفَ ذلكَ اطّلاعاً مِنَ اللهِ تعالى أطْلَعَهُ عليهِ بِعلاماتٍ جَعَلَها لهُ، فَفَهِمَ رسولُ اللهِ ﷺ ما لا تُدْرِكُ أفهامُنا ذلكَ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: هي. (٦) في الأصل: حيث، في م: حيث أتم.

والثالثُ: لَمّا كُفِيَ مَؤونةَ القيامِ بالتبليغِ بنفسِهِ عَرَفَ بذلكَ حُضورَ أجلِهِ، وهو نوعٌ مِنَ الدلالةِ.

ووَجْهُ الدلالةِ أنَّ القومَ لمّا دَخَلوا في دينِ اللهِ فَوجاً فَوجاً دَلَّ ذلكَ على ظُهورِ الإسلامِ وكَثْرَةِ أهلِهِ، فكانَتِ الغَلَبَةُ والنَّصْرُ دليلَ الأمنِ مِنَ الزَّوالِ عمّا هُمْ عليهِ مِنَ الدِّينِ إذا زالَ الرسولُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي صَلِّ بأمرِ ربِّكَ.

وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ التَّسبيحَ، هو التَّنزيهُ، والتَّنزيهُ عنْ جميعِ مَعاني الخَلْقِ، والوصفُ بما يَليقُ بهِ. قالَ: نَزِّهْهُ، وبَرِّئْهُ بالثَّناءِ عليهِ، وصِفْهُ بالصِّفاتِ العُلا، وسَمِّهِ بالأسماءِ الحُسْنَى التي عَلَّمَكَ ربُّكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قُلْ: سُبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ على ما جاءَ في الأخبارِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُكْثِرُ مِنْ دعائِهِ: «سُبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ أستَغْفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ» [مسلم ٤٨٤/ ٢٢٠].

وهذا لأنَّ «سُبحانَ اللهِ» حَرْفٌ جامعٌ يَجْمَعُ جميعَ ما يَسْتَحِقُّ مِنَ الثناءِ عليهِ والوصفِ لهُ بالعُلُوِّ والعظمةِ والجلالِ والتَّنزيهِ عنْ جميعِ العُيوبِ والآفاتِ وعنْ جميعِ معاني الخَلْقِ؛ جَعَلَ لهمْ هذا الحَرْفَ الجامعَ لِما عَرَفَ عَجْزَهُمْ عنِ القيامِ بالوصفِ بجميعِ ما يَسْتَحِقُّ مِنَ الثناءِ عليهِ.

وكذلكَ حَرْفُ: «الحمدُ للهِ» هو حَرْفٌ جامعٌ يَجْمَعُ جميعَ شُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ؛ جَعَلَ لهمْ ذلكَ لِما عَرَفَ عَجْزَهُمْ وقِلَّةَ شُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ واحدٍ بعدَ واحدٍ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: «اللهم صلِّ على محمدٍ» (البخاري ٦٣٥٧) أَمَرَهُمْ أنْ يَجْعَلوا الصلاةَ على رسولِ اللهِ ﷺ بقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ولمّا لم يَجْعَلْ في وُسْعِهِمُ القِيامَ بِما يَسْتَحِقُّهُ أَمَرَهُمْ أنْ يقولوا: «اللهمَّ صلِّ على محمدٍ» ليكونَ هو المُتَوَلِّيَ ذلكَ بنفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: دلَّ قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ على أنْ كانَ منهُ تَقْصيرٌ وتَفريطٌ في أمرِهِ حتى أَمَرَهُ[1] بالاِسْتِغْفارِ عنْ ذلكَ.

لكنَّ هذا كلامٌ وَحْشٌ، لا يَصِفُ رسولَ اللهِ ﷺ /٦٥٦ - أ/ بالتَّقْصيرِ في شيءٍ ولا بالتَّفريطِ في أمرٍ، ولكنْ قد جَعَلَ اللهُ تعالى على كلِّ أحدٍ مِنْ نِعَمِهِ وفَضْلِهِ وإحسانِهِ في طرفةِ عينٍ ولحظةِ بَصَرٍ ما ليسَ في وُسْعِهِ وطاقتِهِ القِيامُ بِشُكْرِ واحدٍ منها، وإنْ لَطُفَ، وطالَ عُمُرُهُ.

فأمَرَهُ بالاِسْتِغْفارِ لِما يَتَوَهَّمُ منهُ التَّقْصيرَ في أداءِ شُكْرِ نِعَمِهِ عنِ القِيامِ بذلكَ أو أنْ يكونَ لأُمَّتِهِ لا لنفسِهِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: ما مَعْنَى أمرِهِ بالاِسْتِغْفارِ؟ وقد ذَكَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ.

فالجوابُ عنهُ مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ أمَرَهُ[2] بالاستِغْفارِ لأُمَّتِهِ نحوِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

[والثاني:][3] أنْ يكونَ اللهُ تعالى وَعَدَ لهُ المَغْفِرَةَ إذا لَزِمَ الاِسْتِغْفارَ، ودامَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ أي كانَ، ولم يَزَلْ تَوّاباً ليسَ أنْ صارَ تَوّاباً بأمرِ اكْتَسَبَهُ، واحْدَثَهُ، على ما تقولُهُ المعتزلةُ: إنهُ صارَ تَوّاباً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿تَوَّابًۢا﴾ [يحتملُ وجُوهاً:

أحَدُها:][4] على التَّكثيرِ، أي يَقْبَلُ تَوبةً بَعْدَ تَوبةٍ، أي إذا تابَ مَرَّةً، ثم ارْتَكَبَ الحُرُمَ، وعَصاهُ، ثم تابَ ثانياً وثالثاً، وإنْ كَثُرَ فإنهُ يَقْبلُ تَوبَتَهُ.

---

(١) في الأصل وم: أمر. (٢) في الأصل وم: أمر. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: تَوَّاباً أي رَجّاعاً يُرْجِعُهُمْ، ويَرُدُّهُمْ عنِ المَعاصي إلى أنْ يَتوبوا، أي هو الذي يوفِّقُهُمْ إلى[1] التوبةِ.

[والثالثُ:][2] قالَ ﴿تَوَّابَۢا﴾ ولم يَقُلْ غَفّاراً، وحَقُّ مثلِهِ مِنَ الكلامِ أنْ يُقالَ: إنهُ كانَ غَفّاراً كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

ولكنَّ المَعْنَى عندَنا أنَّ المُرادَ مِنَ الاِسْتِغْفارِ، ليسَ قولُهُ: اسْتَغْفِرُ اللهَ، ولكنْ أنْ يَتوبَ إليهِ، ويَطْلُبَ منهُ المَغْفرةَ بالتوبةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

[والرابعُ][3]: يجوزُ أنْ يكونَ فيهِ إضمارٌ؛ كأنهُ قالَ ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وتُبْ إليهِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

[والخامسُ:][4] يجوزُ ذِكْرُ[5] الاِسْتِغْفارِ في السؤالِ عنْ ذِكْرِهِ في الجوابِ اجْتِزاءً[6] بِذِكْرِ التوبةِ [منهُ][7] في الجوابِ عنْ ذِكْرِها في السؤالِ، ويجوزُ مثلُ هذا في الكلامِ.

ثم الدِّينُ اسْمٌ يَقَعُ على ما يَدينُ بهِ الإنسانُ حقّاً كانَ أو باطلاً. وعلى ذلكَ أضافَ النَّبيُّ ﷺ ما كانَ يدينُ بهِ إلى نفسِهِ وما دانَ بهِ الكَفَرَةُ إليهِمْ حينَ[8] قالَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وأمّا إضافتُهُ إلى اللهِ تعالى حينَ[9] قالَ: ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [الآية: ٢] [فهو][10] الدِّينُ الذي أمَرَهُمْ بهِ، ودَعاهُمْ إليهِ. لذلكَ خَرَجَتِ الإضافةُ والنِّسْبةُ إليهِ [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][11] [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمَعينَ][12].

(١) في الأصل وم: على. (٢) في الأصل وم: ثم. (٣) و(٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: تذكر. (٦) في الأصل وم: واجترى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من م.

سورة ﴿تبَّتْ [يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خَسِرَتْ، وخابَتْ. كذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ؛ يُقالُ: تَبَّ يَتُبُّ تَبّاً وتَباباً. ثم ما ذَكَرَ منْ قولِهِ: ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ يَحْتَمِلُ حقيقةَ اليدِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذَكَرَ اليدَ على الصِّلَةِ.

فإنْ كانَ على إرادةِ حقيقةِ اليدِ، فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ.

أحَدُها: ما ذُكِرَ أنهُ كثيرُ الإحسانِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ والإنفاقِ عليهِ والصَّنائعِ إليهِ. وكانَ يقولُ: إنْ كانَ الأمرُ لمحمدٍ يومئذٍ فيكونُ لي عندَهُ يدٌ، وإنْ كانَ لقريشٍ فلي عندَها يدٌ، فأخْبَرَ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ خَسِرَ في ما طَمِعَ، ورَجا مِنَ اليدِ التي لهُ عندَهُ والإحسانِ الذي أحْسَنَ إليهِ، إذْ لم يُصَدِّقْهُ، ولم يؤمِنْ بهِ، وخَسِرَ أيضاً ما ادَّعَى مِنَ اليدِ لهُ عندَ قريشٍ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِنْ أبي لهبٍ تَخويفٌ لرسولِ اللهِ ﷺ بالبَطْشِ والأخذِ باليدِ، فأمَّنَ اللهُ تعالى رسولَهُ ممّا خَوَّفَهُ بهِ حينَ(٢) قالَ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خَسِرَتْ يداهُ، ولا يَقْدِرُ على البَطْشِ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ اليدُ كِنايةً عنِ القُوَّةِ في نفسِهِ ومالِهِ في دفعِ العذابِ عنْ نفسِهِ(٣) لقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنهُ لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] جَمَعَ عشائِرَهُ الأقرَبَ فالأقرَبَ منهمْ، وقالَ: «إني لا أملِكُ لكمْ منَ اللهِ نَفْعاً في الدنيا والآخِرَةِ إلّا بَعْدَ أنْ تقولوا شهادةَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني رسولُ اللهِ، فقالَ أبو لهبٍ عندَ ذلكَ: تَبّاً لكَ يا محمدُ ألهذا دَعَوتَنا؟ فنَزَلَ عندَ ذلكَ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾» [بنحوه: البخاري ٤٧٧٠] مُجازاةً لهُ.

فهذا، وإنْ لم يكُنْ في فِعْلِهِ في القصةِ استِعْمالُ اليَدَينِ، فَيَجوزُ أنهُ كانَ يَصْرِفُ الناسَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ بيدِهِ، أو حينَ دُعِيَ إلى الإيمانِ باللهِ تعالى مَدَّ يَدَهُ على التَّعَجُّبِ منْ ذلكَ، وقالَ: ألهذا دَعَوتَنا، فَرَدَّ اللهُ تعالى ذلكَ، وعَيَّرَهُ بهِ.

وقد يجوز، وإنْ [لم](٤) يَظْهَرْ في الجوابِ مُقَدِّمةُ السؤالِ، وإنْ لم يُذْكَرْ ذلكَ في السؤالِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾؟ [البقرة: ٢٢٢] فعُلِمَ بذلكَ أنَّ السؤالَ إنما كانَ عنْ قُرْبانِهِنَّ في المَحيضِ، فكذلكَ الأوَّلُ.

وإنْ كانَ ذَكَرَ اليدَ على الصِّلَةِ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ذَكَرَ اليدَ كِنايةً عنِ العملِ والفِعْلِ، إلّا أنهُ ذَكَرَ اليدَ لِما باليَدِ يَقومُ، ويَعْمَلُ كقولِهِ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] [وقولِهِ تعالى](٥): ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وذلكَ على الكِنايةِ عمّا كانَ منهُ مِنَ الصنيعِ، أو خَسِرَتْ أعمالُهُ، وبَطَلَتْ.

والثاني: ذَكَرَ اليدَ على إرادةِ قُدّامٍ وأمامٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] أي أمامِهِ وخَلْفِهِ، فيكونُ مَعْناهُ ما قَدَّمَ مِنَ الأعمالِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: أنفسهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و.

ثم تخصيصُ أبي لَهَبٍ بالذِّكرِ مِنْ بَينِ سائرِ الكَفَرَةِ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: خَصَّهُ بالِاسْمِ لأنهُ كانَ مِنَ الفَراعِنةِ والأكابِرِ، وهو المَقْصودُ بِهِ، والفَراعِنةُ قد يُذْكَرونَ بأسمائِهِمْ لِما هُمُ المَقْصودونَ بِهِ، وإنْ كانَ مَنْ دونَهُمْ يُشارِكونَهُمْ في ذلكَ كَذِكْرِ فِرعَونَ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهِمْ.

والثاني: كانَ شديدَ الهَيبةِ والخَوفِ، فَذَكَرَهُ باسْمِهِ، وخَصَّهُ بِهِ لِيَعْلَمَ أنَّ محمداً ﷺ لا يَهابُهُ، ولا يَخافُهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: أنهُ كثيرُ الأيادي والصَّنائعِ بِحَقِّ رسولِ اللهِ ﷺ فلو كانَ الخِطابُ بهذا يَعُمُّ الكَفَرَةَ لكانَ يَظُنُّ بِما سَبَقَ مِنهُ مِنَ الأيادي أنهُ غَيرُ داخلٍ تَحْتَ الخِطابِ، فَخَصَّهُ بالذِّكْرِ لِيَعْلَمَ أنهُ لا يُغْنيهِ مِنَ اللهِ شيءٌ.

ثم ذِكْرُهُ بالكُنْيَةِ يَخْرُجُ على وجوهٍ:

أحدُها: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بالكُنْيةِ /٦٥٦ ـ ب/ عُرِفَ عندَ الناسِ، وبها كانَ[1] مَعْروفاً دونَ اسْمِهِ، فَذَكَرَهُ بالذي كانَ مَعْروفاً بِهِ.

والثاني: ما ذُكِرَ أنَّ اسْمَهُ كانَ عبدَ العُزّى، فلم يُرِدْ أنْ يَنْسُبَهُ إلى غَيرِهِ، وهو العُزّى، فَذَكَرَهُ بالكُنْيَةِ لهذا.

والثالثُ: أنهُ عَيَّرَهُ بأشياءَ، وخَوَّفَهُ بِمَواعيدَ. فلو ذَكَرَهُ باسْمِهِ، فَلَعَلَّهُ يَصْرِفُ ذلكَ الخِطابَ والوعيدَ الذي كانَ لهُ إلى غَيرِهِ لِمَا شَرَكَ غَيرُهُ في الِاسْمِ إذْ[2] كانوا يُسَمُّونَ أولادَهُمْ، ويَنْسُبونَهُمْ إلى أصنامِهِمْ، ولم يَكُنْ أحَدٌ شَرَكَهُ في كُنيةٍ، فلا يُمْكِنُهُ التَّحويلُ إلى غَيرِهِ.

وقيلَ: ذِكْرُهُ بالكُنْيةِ يَخْرُجُ مُخْرَجَ الوعيدِ لهُ، أي تَصيرُ النارُ كالِابْنِ، وهو كالِابْنِ لها، وذلكَ لأنَّ هذِهِ الكُنَى إنما تُذْكَرُ في المُتَعارَفِ على وَجْهِ التَّفاؤُلِ كما يُقالُ: أبو منصورٍ على رَجاءِ أنْ يُولَدَ لهُ ابْنٌ يُسَمِّيهِ[3] مَنْصوراً.

ثم إنَّ اللهَ تعالى سَمَّى النارَ في بعضِ الآياتِ أُمّاً للكافرِ كقولِهِ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] وفي بعضِها مَولًى حينَ[4] قالَ: ﴿مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥] فجائزٌ أيضاً أنْ تكونَ النارُ إذا قَرُبَتْ منهُ، وانْضَمَّتْ إلى جُحْرِهِ، أنْ تَصيرَ في التَّمْثيلِ كالوَلَدِ، ويَصيرَ هو أباً لها، فقالَ: ﴿أَبِى لَهَبٍ﴾ على هذا الوَجْهِ مِنَ التَّأويلِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ، وهو أنَّ ذِكْرَ الكُنيةِ، وإنْ كانَ يُرادُ بها التَّعظيمُ، فعندَ ذِكْرِ المواعيدِ والعُقوباتِ يُرادُ بها الِاسْتِخفافُ والإهانةُ، وهو على ما ذُكِرَ في البِشارةِ أنها، وإنْ كانَتْ تُذْكَرُ عندَما يُبَشَّرُ، ويُبْهَجُ في الأغلَبِ؛ فعندَ ذِكْرِ العقوبةِ نِذارةٌ كقولِهِ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

فَعَلَى ذلكَ الكُنيةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ هذا يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي لم يُغْنِ مالُهُ وقُوَّتُهُ وما كَسَبَ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً على ما يقولونَ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

والثاني: أيَّ شيءٍ ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾؟

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يَحْتَمِلُ الوَلَدَ؛ أي ما أغنى عنهُ ما جَمَعَ مِنْ مالِهِ وما كَسَبَ مِنَ الوَلَدِ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ: رَوَى أبو الأسودِ عنْ عائشةَ رضي الله عنها عنِ النَّبِيِّ ﷺ [قولَهُ][5]: «إنَّ أطْيَبَ ما يأكُلُ الرجلُ مِنْ كَسْبِهِ، وإنَّ ابْنَهُ مِنْ كَسْبِهِ» [النسائي ٧/ ٢٤١].

وسُئِلَ[6] ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما أيأخُذُ الرجلُ مِنْ مالِ وَلَدِهِ؟ فَتَلا: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ما. (٢) في الأصل وم: إذا. (٣) في الأصل وم: يسمى. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) أدرج بعدها في الأصل وم: عن.

[الشورى: ٤٩] فهو ممّا وَهَبَ اللهُ لنا، فهمْ وأموالُهُمْ لنا، واللهُ أعلَمُ، ما أغنَى عنهُ ما جَمَعَ مِنَ المالِ وما كَسَبَ مِنَ العَمَلِ والإنفاقِ الذي أنْفَقَ على الطَّمَعِ الذي فَعَلَ، أي لم يُغْنِهِ شيئاً، أو ما كَسَبَ مِنْ صَدِّ الناسِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ والدخولِ في دينِهِ والاتِّباعِ لهُ وسُوءِ المَقالِ الذي قالَ فيهِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ وقد تبَّ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ وما اكْتَسَبَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي ذاتَ الْتِهابٍ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ حينَ[1] أخبَرَ أنهُ ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ ولا يَصْلَى النارَ إلّا بَعْدَ ما يَخْتُمُ بالكُفْرِ، ثم كانَ كما أخبَرَ؛ دَلَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وفي هذهِ السورةِ دلالتانِ أُخرَيانِ تَدُلّانِ على نُبُوَّتِهِ:

إحداهُما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنما قَرَأَ هذهِ السورةَ عليهِمْ بمكةَ حينَ لم يكُنْ لهُ ناصرٌ في الدينِ، وكانَتِ المَنَعَةُ والقُوَّةُ لِلْكَفَرَةِ، وكانوا جميعاً أولياءَ أبي لَهَبٍ وأنصاراً لهُ عنْ آخِرِهِمْ[2]. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ محمدٌ ﷺ يَقْرأُ هذهِ السورةَ عليهِ، وفيها[3] سَبٌّ لهُ وتَعْيِيرٌ إلى يومِ القِيامةِ معَ قِلَّةِ أوليائِهِ وكَثْرَةِ أعدائِهِ؛ إذْ فيهِ خَوْفُ هلاكِهِ، إلّا بِرَبِّ[4] العالَمينَ.

[والثانيةُ:][5] أنهُ ﷺ كانَ موصوفاً بِحُسْنِ العِشْرَةِ وجَمالِ الصُّحْبَةِ معَ الأجانبِ، فما ظَنُّكَ بالعَشيرَةِ والأقاربِ؟ مَعَ ما أنهُ كانَ مُتَنَزِّهاً عنِ الفُحْشِ في جميعِ أوقاتِهِ.

فما جازَ لهُ هذا إلّا بأمرٍ مِنَ اللهِ تعالى، فَدَلَّ ذلكَ على نُبُوَّتِهِ ورسالتِهِ.

الآيتان ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾][6] قالَ بعضُهُمْ: أي حمّالةَ النَّميمةِ والحديثِ بَينَ الناسِ، فأوعَدَها اللهُ تعالى لذلكَ في الآخِرَةِ بِما ذَكَرَ ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ وهي السِّلْسِلَةُ، ومنهُ يُقالُ: فُلانٌ يَحْطِبُ إذا أغْرَى.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَتْ حَمّالَةَ الحَطَبِ حقيقةً؛ كانَتْ تَحْمِلُ الحَطَبَ الذي فيهِ الشَّوكُ، وتَطْرَحُهُ[7] في طريقِ رسولِ اللهِ ﷺ والمُسْلِمينَ، فأوعَدَها[8] اللهُ تعالى بِما ذَكَرَ مِنْ حَبْلٍ مِنْ مَسَدٍ في الآخِرَةِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنها كانَتْ كذلكَ في الدنيا، تَحْمِلُ الحَطَبَ إلى مَنْزِلِها، وكانَ في جِيدِها حَبْلٌ مِنْ ليفٍ، فَعَيَّرَها بذلكَ لأنها كانَتْ تُعَيِّرُ رسولَ اللهِ ﷺ بالفَقْرِ والحاجةِ.

وذُكِرَ أنها كانَتْ تُمْسِكُ في عُنُقِها حَبْلاً مِنْ ليفٍ سِرّاً مِنْ زَوجِها، وذلكَ مِمّا لا تَتَحَلَّى بها النساءُ، وليسَ هو مِنْ أسبابِ الزينةِ، فأخبَرَ اللهُ تعالى عنْ سَفَهِها وجَهْلِها ليكونَ ذلكَ سَبّاً وتَعْيِيراً مُجازاةً لِما كانَتْ تقولُ في رسولِ اللهِ ﷺ وكذلكَ قالتْ لأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ: أمَا رَضِيَ مُحمدٌ أنْ يَهْجُوَ عمَّهُ حتى هَجاني، أو قالتْ: حتى هَجاني ربُّ محمدٍ [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ][9].

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: إخراجهم. (٣) في الأصل وم: وفيه. (٤) أي: بإذن رب. (٥) في الأصل وم: ومعنى آخر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتطرح. (٨) من م، في الأصل: فأوعد. (٩) في م: صلى الله تعالى عليه وسلم.

سورة الإخلاص

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ذُكِرَ أنَّ أهلَ مكةَ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ نِسْبَةِ اللهِ تعالى، وقيلَ: عنْ صِفَتِهِ، وقيلَ: عنِ اللهِ تعالى، ما هو؟ فنزلَتْ هذهِ السورةُ مُعْلِمَةً لِجميعِ مَنْ يَسألُ عنهُ جوابَهُ، ولذلكَ أثبتَ: ﴿قُلْ﴾ لتكونَ مُخاطبَةُ كلِّ مسؤولٍ عنْ ذلكَ أنْ ﴿قُلْ﴾ لا على تَخْصيصِ الرسولِ ﷺ بهذا الأمرِ؛ إذْ ليسَ في حقِّ الِائْتِمارِ بالأمرِ إعادةُ حرفِ الأمرِ في الِائْتِمارِ، فَتَبيَّنَ بذلكَ أنهُ ليسَ على تَخصيصِ الرسولِ ﷺ بالتَّعلُّمِ، بل هو أحقُّ مَنْ سَبَقَ لهُ الغِنَى عنْ تَعَلُّمِ الإجابةِ بهذا عندَ حَضْرَةِ هذا السؤالِ، كما سَبَقَتْ منهُ الدعوةُ إلى اللهِ تعالى بِحقيقةِ ما جَرَى بهِ السؤالُ، وكما أثبتَ ذلكَ[2] لِيُقْرأَ أبداً.

وحَقُّ المَخصُوصِ /٦٥٧ ـ أ/ بالأمرِ أنْ يأتمِرَ، ولا يَجْعَلَ ذلكَ مَتْلُوّاً كذلكَ في الوقتِ الذي لا يَحْتَمِلُ المأمورُ الأمرَ بهِ. ثَبَتَ أنَّ ذلكَ على ما شاءَ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿قُلْ﴾ أنهُ على أمرٍ سَبَقَ عنهُ السؤالُ، فيكونُ في ذلكَ إجابةٌ لِما سَبَقَ عنهُ السؤالُ، وكذلكَ جميعُ ما في القرآنِ: ﴿قُلْ﴾ فيهِ[3] أحدُ أمرينِ: إمّا إجابةٌ عنْ أمرٍ سَبَقَ عنهُ السؤالُ، فَيَنزِلُ بِحَقِّ تَعْريفِ كلِّ مسؤولٍ عنْ مثلِهِ [وإمّا أنْ][4] يكونَ اللهُ تعالى إذْ عَلِمَ أنهُ ﷺ أو مَنْ يَتْبَعُهُ يسألُ عمّا يَقْتَضي ذلكَ الجوابَ، فأنْزَلَ ما بهِ يَبْقَى في أهلِ التَّوحيدِ مَنّاً منهُ وفَضْلاً.

ثم لم يَجِبْ تَحْقيقُ الحرفِ الذي وَقَعَ عنهُ السؤالُ إلّا لِمَنْ شَهِدَ، وسَمِعَ، وقد يَتَوَجَّهُ هذا الحرفُ الذي وَقَعَ عنهُ إلى ما ذَكَروا مِنَ الأسبابِ وغَيرِها، وفي ما نَزَلَ يَصْلُحُ جوابَ ذلكَ كلِّهِ، ويَليقُ بهِ، وإنْ كُنّا لا نَشْهَدُ على حقيقةِ ما كانَ أنهُ ذا دونَ ذا، ونجيبُ بذلكَ لو سُئِلْنا عمّا ذَكَرْنا وعَنْ كلِّ حَرْفٍ يَصِحُّ في العَقْلِ، والحكمةُ الجوابُ بِمِثْلِ ما اقْتَضَتْهُ هذهِ السورةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ: مِنَ الناسِ مَنْ قالَ: هو إضافةٌ إلى الذي عنهُ كانَ، أو يكونُ السؤالُ المُقْتَضي ما جَرَى بهِ البَيانُ مِنَ الجوابِ الذي يَسْألونَ عنهُ: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ إلى آخِرِ السورةِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: هو اسْمُ اللهِ أكْبَرُ؛ يُروَى ذلكَ عنْ بعضِ أولادِ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه أنهُ كانَ يقولُ في دعائِهِ: يا هُوَ، يا مَنْ لا هُوَ إلّا هُوَ، يا مَنْ بهِ كانَتْ هُوِيَّةُ كلِّ هُوَ، وذلكَ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ هُوَ بذاتِهِ وهُوِيَّةُ كلِّ مَنْ سِواهُ لِما هُوَ يكونُ مُحْتَمِلاً للتَّلاشي والوجودِ إلّا هُوَ، سُبْحانَهُ لم يَزَلْ، ولا يَزالُ هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] على ما اقْتَضَى بَيانُ وحدانِيَّتِهِ في هذهِ السورةِ. وعلى ذلكَ قيلَ: هو الأحدُ بذاتِهِ، المُنْشِئُ أحدِيَّةَ كلِّ الآحادِ، المُتَعالي عنْ كلِّ مَعاني أحَدِيَّةِ مَنْ سِواهُ.

والثاني: أنْ تكونَ إضافتُهُ إلى اسْمِهِ الذي لا يَحْتَمِلُ اللِّسانُ، وهو الذي لم يَطَّلِعْ عليهِ الخَلائقُ، وهو الذي يُرادُ في الدعاءِ: باسْمِكَ الذي مَنْ سألكَ بهِ أعطيتَهُ ومَنْ دَعاكَ بهِ أجَبْتَهُ، فيكونُ السؤالُ ممّا يُكَنَّى عنهُ مِنَ الوجهِ [الذي][5] ذَكَرْتُ لا أنْ يَسَعَهُ اللِّسانُ، أو يَحْتَمِلُ الطَّوقُ التَّفَوُّهَ بهِ، تعالى.

---

(١) في الأصل: وهي، ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: كذلك. (٣) في الأصل وم: ما ففيه. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

والتأويلُ الأوّلُ أقربُ إلى الأفهامِ وأحقُّ أنْ يكونَ على ذِكرِ مَنْ يَقتضي عنهُ السؤالُ، ثم التَّفسيرُ على ما جَرَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ اختُلِفَ في المَعْنَى الذي جَرَى هذا في حقِّ أهلِ هذا اللِّسانِ [في وجهَينِ:

أحدُهما: ما قالَ قومٌ:][1] إنهُ ممّا اشتُقَّ مِنْ أمرٍ عَرَفوهُ أوّلاً عنْ أمرٍ عَرَفوهُ؛ إذْ في كلِّ لسانٍ ما أُريدَ بهِ عندَ الذِّكرِ لِبيانِ العربِ اسْمٌ يُدْعَى بهِ، ويُسَمَّى، وإنِ اختَلَفَ وزنُ كلٍّ مِنْ ذلكَ على اختِلافِ الألسنِ لِيُعْلَمَ أنَّ الأحْرُفَ والتقطيعَ في التَّكَلُّمِ إنما هي[2] لِيُفْهَمَ المَقصودُ لا على تَوَهُّمِ حقيقةِ الِاسْمِ بتلكَ الحروفِ والتَّقطيعِ؛ وذلكَ كما يُعَبِّرُ عن تكوينِهِ الخلائقَ بِـ: ﴿كُن﴾ لا على تحقيقِ كافٍ ونونٍ في التَّكوينِ. فَعَلَى ذلكَ جميعُ ما يُسَمِّي اللهُ تعالى لا على تحقيقِ [الحروفِ التي][3] يُجْرَي بها التَّسْمِيَةَ، ثم لا يَحْتَمِلُ طَوقُهُ إلّا بها، لكنْ على ما يَقْرُبُ إلى الأفهامِ المُرادَ في التَّفَوُّهِ بهِ.

[والثاني: ما][4] قالَ قومٌ: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو المعبودُ في لسانِ العربِ لا على الِاسْتِحْقاقِ، لكنْ على وَضْعِ ذلكَ كذلكَ. دليلُهُ تَسْمِيَتُهُمْ كلَّ مَنْ عَبَدوهُ وكلَّ شيءٍ عَبَدوهُ إلهاً، وإنْ كانَ جميعُ ما سِوَى إلهِ الحَقِّ مِمَّنْ عُبِدَ لا يَحْتَمِلُ شيئاً مِنْ تلكَ المعاني التي زَعَمَ مَنِ ادَّعَى الِاشْتِقاقَ عنها مِنَ الِاحْتِجابِ وَالِالْتِجاءِ إليهِ ونَحْوِ ذلكَ. فَثَبَتَ أنهُ اسْمٌ مَوضوعٌ للمعبودِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] أي مَعْبودُهُ ما يَهْواهُ لا أنَّ لِلْهَوَى شيئاً مِنْ ذلكَ، فيكونُ المَعْبودُ الحَقُّ، هو اللهُ تعالى لِما لهُ في كلِّ شيءٍ أثرُ عُبودةِ ذلكَ الشيءِ ودلالةُ الرُّبوبيَّةِ لهُ عليهِ، سُبْحانَهُ، هو المَعْبودُ بذاتِهِ لِمَعْنًى مُسْتَحِقٍّ بذاتِهِ العبادةَ مِنْ جميعِ خَلْقِهِ والِاسْتِسْلامَ لهُ والخُضوعَ بما ذَكَرْتُ مِنَ المَوضوعِ في كلِّ آيةِ ذلكَ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وهذا تَحقيقُ ما ذهبْنا إليهِ أنهُ خالقٌ بذاتِهِ رَحْمانٌ رحيمٌ بذاتِهِ موصوفٌ بهِ في الأزلِ، وإنْ كانَ الذي وَصَلَ إليهِ أثرُ رحمتِهِ، وفيهِ ظهورُ دلالةِ تدبيرِهِ، حَدَثَ بعدَ أنْ لم يكُنْ على ما كانتِ العبادةُ والِاسْتِحْقاقُ كانَ مِمَّنْ حَدَثَ وفي مَنْ كانَ بَعدَ أنْ لم يكُنْ، وهو إلهٌ، لم يَزَلْ، ولا يزالُ.

وعلى ذلكَ قولُهُ ﷺ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] [وقولُهُ:][5] ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وإنْ كانَ مِنَ الأشياءِ ما سيكونُ لا أنها كانَتْ كائنةً، وكذلكَ يومُ الدينِ، فَعَلَى ذلكَ أمرُ خالقٍ ونَحْوُ ذلكَ.

ومِنْ هذا الوجهِ أنكَرَ قومٌ أنْ يكونَ الإلهُ اسْمَ مَعْبودٍ في الحقيقةِ أوِ اسْمَ مُشْتَقٍّ عنْ لسانٍ؛ إذْ هو لم يَزَلْ إلهاً، ومَنْ بهِ العبادةُ وعنهُ الِاشْتِقاقُ حادثٌ.

والأصلُ عندنا ما ذَكَرْنا أنهُ بجميعِ ما وُصِفَ بذاتِهِ؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ التَّغَيُّرَ والِاسْتِحالَةَ ولا نَيلَ مَدْحٍ بِغَيرِ مُمَدِّحٍ، وإنما يُمْدَحُ بهِ لذاتِهِ لأنهُ اسْتَحَقَّ مِنْ كلِّ ذلكَ الوقتِ كونَ ذلكَ القولِ بالعالِمِ والقادرِ أنهُ كذلكَ، وإنْ كانَ الذي عَلِمَهُ مِمَّنْ سِواهُ، وكلُّ مَقْدورٍ عليهِ حادثٌ بَعْدَ أنْ لم يكُنْ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقالَ الضَّحّاكُ: ﴿ٱللَّهُ﴾ اسْمُهُ الأكبرُ لأنهُ يُبْتَدأُ بهِ في كلِّ موضعٍ.

ثم اخْتُلِفَ في مَعْنَى الِاشْتِقاقِ؛ فمنهمْ مَنْ يقولُ: أصلُهُ إلهٌ مِنْ ألِهَ الرجلُ إلى آخَرَ، أي الْتَجأَ إليهِ، واسْتَجارَهُ، فَأَلَهَهُ بِمَعْنَى أجارَهُ، وآمَنَهُ، فَسُمِّيَ إلهاً على وزنِ الفِعالِ كما يُسَمَّى إماماً لِما يُؤْتَمُّ بهِ، وفُخِّمَ[6] بإدخالِ الألفِ واللامِ، ثم لُيِّنَ، وحُذِفَتِ الهمزةُ كما هو لغةُ قريشٍ، ثم أُدْغِمَ أحدُ اللّامينِ في الآخرِ، فَشُدِّدَ، فصارَ اللهُ.

وعلى ذلك تأويلُ الصَّمَدِ أنْ يُصْمَدَ إليهِ في[7] الحوائجِ، ويُسْتَغاثَ بهِ، ويُلْتَجأَ إليهِ.

وقيلَ: إنَّ اشْتِقاقَهُ مِنْ وَلِهَ يالَهُ وَلَهاً، إذا فُزِعَ إليهِ [فَسُمِّيَ بهِ لأنهُ المَفزَعُ إليهِ][8] وهو قريبٌ مِنَ الأوّلِ، ولكنْ حقُّ ذلكَ في الِاسْمِ أنْ يكونَ وِلاهاً، فأُبْدِلَتِ الواوُ ألِفاً كما يُقالُ في وِكافٍ: إكافٌ، وكذلكَ أهلُ الحجازِ يَجْعَلونَ الواوَ ألِفاً. قالَ الشاعرُ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: الحرف الذي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) يقصد جعله علما للخالق. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

فأقبلتْ إليها تكلى على عجلٍ [كُلٌّ دهاها، وكُلٌّ عندَها اجتَمَعا][1]

وقيلَ: سُمِّيَ بهِ لأنهُ إلهُ كلِّ شيءٍ، أي ذَلَّلَهُ، وعَبَّدَهُ؛ تألَّهَ لهُ أي عَبَدَهُ. قالَ قائلُهُمْ:

ألَنْتَ إلهكَ واحداً متفرِّداً ساد الملوكَ بِعِزَّةٍ، وتمجَّدا

وقالَ آخرونَ: سُمِّيَ بهِ لاستِتارِهِ، ومنهُ يُقالُ: لِهتَ، فلا تُرَى. وقالَ الشاعرُ:

لاهَ ربِّي عنِ الخلائقِ طُرّاً خالقُ الخلقِ لا يُرَى، ويَرانا

وقيلَ: سُمِّيَ بهِ لِتحَيُّرِ القلوبِ عنِ التَّفكُّرِ في عَظَمَتِهِ كقولِهِ: ألاهني الشيءُ حتى ألِهتُ، ومنهُ مفازةٌ مُلْهِيَةٌ؛ يعني العقلَ يَحارُ عندَ النَّظَرِ إلى عظمتِهِ، ومنهُ ألِهَ يألَهُ، فهو إلهٌ. وقال الشاعرُ:

وبَهماءَ تيهٍ تألَهُ العينُ وَسْطَها مُخَفَّقَةٍ أعلامَ بَيداءَ سَمْلَقِ

قالَ رضي الله عنه: والأصلُ عندَنا الإغضاءُ عنْ هذا لِما أنَّ الحاجةَ إلى تَعَرُّفِ الاشتِقاقِ والوضعِ لِتَعَرُّفِ مَحَلِّ الأمرِ وموقِعِ الحكْمِ ومِنْ جميعِ ما اشتَقُّوا بهِ الاسْمَ تَحْتَمِلُ تَسْمِيةَ الغيرِ بكلِّ ذلكَ وتحقيقَ الإضافةِ إلى ذلكَ وتَسْمِيَتُهُ إلهاً أو إضافةَ ما بهِ عُرِفَتِ الحقيقةُ لا يَحْتَمِلُ غيرَهُ، ﷻ ولا تجوزُ التَّسْمِيَةُ بهِ. ثَبَتَ الغِنَى في مَعْرِفَتِهِ عنْ جميعِ الوجوهِ التي أُريدَ الاستِخراجُ؛ إذْ هيَ طريقٌ تُوصِلُ بهِمْ إلى العِلْمِ بالمَقصودِ والوقوفِ على المُرادِ، وقد عُرِفَ دونَ الذي ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

والأصلُ عندَنا /٦٥٧ ـ ب/ أنَّ اللهَ ﷻ بِلُطفِهِ يَمْنَعُ الخَلْقَ عنْ تَسْمِيةِ أحدٍ إلهاً إلّا منْ جهةِ أحوالٍ تَعْتَرِضُ، فَسَمَّوا بهِ على مَعْنَى جَعْلِ الاسْمِ الذي جَرَتِ التَّسْمِيةُ بهِ حقيقةً لهُ، فَسَمَّوا ظَنّاً منهمْ أنَّ بذلكَ التَّوَسُّلَ والتَّقَرُّبَ لا أنْ يَرَوُا الشَّيءَ منْ ذلكَ حقيقةَ ذلكَ، بل قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] لِيُعْلَمَ أنهمْ عَرَفوا اللهَ بما ادَّعَوا لأنفسِهِمْ في ذلكَ مَعانِيَ، تَرُدُّهُمْ إلى اللهِ ﷻ فَذَكَروا مَجازاً عنْ أحدِ لِسانَيْنِ، واللهُ أعلَمُ:

[أحدُهما: عنْ][2] لسانِ الرسلِ في ذِكْرِ اللهِ تعالى في أمورٍ تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ تعالى لقولِهِ تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وقولِهِ[3]: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقولِهِ[4]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وَصَفَ مُبايَعَةَ العبيدِ ونَصْرَهُ أو نَصْرَ دينِهِ نَصْرَ اللهِ ومُبايَعَتَهُ بما يُقَرِّبُ ذلكَ إليهِ، فَعَلَى ذلكَ تَسْمِيَتُهُمْ مَنْ عَبَدوها لا أنهمْ رَأوها[5] آلِهةً في الحقيقةِ.

[والثاني][6]: عنْ ألسنِ الفلاسفةِ أنْ ليسَ للهِ اسْمٌ ذاتِيٌّ، وإنّما هو سُمِّيَ بِذِكْرِ كلِّ ذي شَرَفٍ ومَنْزِلةٍ عندَهُ، فَعَلَى ذلكَ أنَّ مَحَلَّ مَنْ يَعْبُدونَ عندَهُمْ ما ذَكَرْنا منَ القولِ عنهمْ، فَسَمَّوا بهِ لا أنْ حَقَّقوا كما ذَكَروا حقيقةَ ذلكَ الاسْمِ إلى مَنْ عَرَفوهُ أنهُ إلهٌ رَدُّوا أمْرَهمْ في ذلكَ؛ وذلكَ لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالى في ما سَخَّرَهُمْ عليهِ كَتَسْمِيَةِ الخالقِ والرحمنِ أنهمْ لا يُسَمُّونَ أحداً بهما، وإنْ كَثُرَتْ أفعالُهُ، وعَظُمَتْ رحمتُهُ في الخَلْقِ لِيُعْلَمَ أنها أسماءُ اللهِ تعالى، مَنَعَ الخَلْقَ عنِ التَّسَمِّي بها باللُّطفِ منْ حيثُ لا يُعْرَفُ سَبَبُهُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي الأمرُ، هو اللهُ أحدٌ كما تَقولُ: إنهُ زيدٌ قائمٌ، أيِ الأمرُ، زيدٌ قائمٌ، جوابُ مَنْ يَسْألُكَ ما الأمرُ والشّأنُ [في أنْ][7] قُمْتَ ههنا؟ فَتقولُ: الأمرُ زيدٌ قائمٌ، أي قُمْتُ لأجلِهِ. إلى هذا يذهبُ الزَّجّاجُ؛ كأنهُ يذهبُ إلى أنهُ لمّا قالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقيلَ لهُ: ما الأمرُ والشّأنُ؟ قالَ[8]: الأمرُ اللهُ أحدٌ لِيَعْرِفوا أنهُ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَحَدٌ﴾ يَتَوَجَّهُ إلى واحدٍ، ثم واحدٌ اسْمٌ يَنْفي المِثْلَ في الإضافةِ. كما يُقالُ: هو واحدُ الزمانِ

---

(١) هذا عجز البيت وهو للأعشى الأكبر ميمون بن قيس، انظر الديوان ص١٠٥. (٢) في الأصل وم: إما. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: رأوا. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فإن. (٨) في الأصل وم: فقال.

وواحدُ الخَلْقِ على نَفْيِ التشبيهِ لهُ عمّا أُضيفَ إليهِ، ويكونُ واحداً منْ حيثُ العَدَدُ بما عنْ مثلِهِ يُبْتدأُ الحسابُ، ولا يُبْتَدَأُ مِنْ أحدٍ، فيصيرُ أحداً مِنْ ذا الوجهِ، وإنْ كانَ اللهُ تعالى بأيِّ حَرْفَينِ ذُكِرَ، ففيهِ ذلكَ، وهو الواحدُ الذي يَسْتحيلُ أنْ تكونَ وحدانيَّتُهُ مِنْ وَجْهٍ يَحْتَمِلُ ثانياً أو منْ وَجْهِ تَعديلٍ؛ هو الواحدُ الإلهُ الخالقُ المُتعالي عنْ مَعْنَى الأعدادِ والأندادِ، وهو على ما ذَكَرَ الحكيمُ في الآحادِ أنهُ أربعةٌ[1]:

واحدٌ: [هو كُلٌّ، لا يَحْتَمِلُ التَّضعيفَ[2] لإحالةِ كونٍ وراءَ الكُلِّ.

وواحدٌ][3]: هو الأقلُّ، وهو الذي لا يَحْتَمِلُ التَّنصيفَ والتَّجزيءَ لأنهُ أقلُّ الأشياءِ، فإذا يُنَصَّفُ يكونُ ذلكَ النِّصْفُ أقلَّ منهُ.

وواحدٌ: هو واسطٌ، وهو الذي [يَحْتَمِلُ التَّنصيفَ والتَّضعيفَ جميعاً.

والرابعُ: هو الذي][4] قامَ بهِ الآحادُ؛ هُوَ ولا هُوَ أخفى مِنْ هو [هو][5] الذي انْخَرَسَ عنهُ اللسانُ، وانْقَطَعَ عنهُ البَيانُ، وانْحَسَرَتْ عنهُ الأوهامُ، وحارَتْ فيهِ الأفهامُ.

فذلكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ.

والأصْلُ في ذلكَ أنهُ لا سَبيلَ إلى العِبارةِ عنهُ بِغَيرِ هذا اللسانِ [ولا وَجْهَ][6] لِلتَّقريبِ إلى الأفهامِ بهذا اللسانِ إلّا بما جَرَى بهِ الاعْتِيادُ، وظَهَرَتْ بهِ المَعارفُ في ما ذَكَرْنا مِنَ الضرورةِ جعلَ التَّوحيدِ في الحقيقة بالأدلّةِ وبالبراهينِ في ضِمنِ التَّسْمِيةِ في عبارةِ اللسانِ، وحَقُّهُ بما أخْبَرْتُ منْ ضَروراتِ الأحوالِ في إرادةِ التَّقريبِ إلى الأفهامِ إلى عباراتِ اللسانِ المؤسَّسِ[7] على الاعْتِيادِ في إظهارِ المَعارِفِ، فَعَلَى ذلكَ القولُ بواحدٍ وبأحدٍ لا على أحَدِيَّةِ غَيرِهِ منْ جِهَةِ التَّوسُّطِ أو [مِنْ][8] جِهَةِ القِلَّةِ أو [مِنْ][9] جِهَةِ الكَثْرَةِ مع ما كلُّ مَنْ هو في مَعْنَى واحدٍ، فهو واحدُ الآحادِ المُجتَمِعةِ إلى الواحدِ الذي يُقالُ: جُزْءٌ، لا يَتَجزَّأُ، وهو: مِنْ غَيرٍ في الجملةِ مُتَجزِّئٌ عنْ تَوَهُّمِ ذلكَ الجُزْءِ، غَيرُ مُتَجزِّئٍ في الوَهْمِ، أو هو الأقلُّ منه، وهو جُزْءٌ في الحقيقةِ، واللهُ يَتَعالى عنِ الوَصْفِ بالكلِّ والبعضِ والقليلِ والكثيرِ والواحدِ ممّا لهُ حَقُّ الإبعاضِ أو الكُلِّ أو رُتْبةُ القليلِ والكثيرِ، جَلَّ ثَناؤهُ.

بل هو الذي [جَمَعَ جميعَ][10] ما وَصَفْتُ، بل هو الذي خَلَقَ ما وَصَفْتُ، وجَعَلَ لكلٍّ منْ ذلكَ مُقابلاً بما ذَكَرَ لِيَصيرَ كلٌّ مِنْ ذلكَ زَوجاً، فتكونُ الوَحْدانيَّةُ الحَقُّ لهُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ قد ذَكَرَ أنهُ أحدٌ، وذَكَرَ أنهُ الصَّمَدُ في تحقيقِ ما وَصَفَ مِنَ الأحَدِيَّةِ، وهو، واللهُ أعلَمُ، أنهُ أخرَجَ جَميعَ مَنْ سِواهُ حتى تَحقَّقَ قَصْدُ جميعِ مَنْ سِواهُ بالحاجاتِ إليهِ بالكونِ في الخِلْقةِ وفي الصلاحِ بَعدَ الكونِ وفي الذي، بهِ الدوامُ بَعدَ الوُجودِ والوُجودُ بَعدَ العَدَمِ، ما احْتَمَلَ الوُجودُ دونَهُ ولا البَقاءُ إلّا بهِ، أحاطتِ الحاجاتُ بكلٍّ ليكونَ لهُ الغِنَى عنِ الكلِّ في الوُجودِ والبَقاءِ لِيَتَحقَّقَ أنهُ المَوجودُ بذاتِهِ [والباقي بذاتِهِ والمتعالي بذاتِهِ][11] عنْ مَعْنَى وُجودِ غَيرِهِ، سُبْحانَهُ، وهو ما ذَكَرْنا مِنْ عَجْزِ الألسنِ عنِ البَيانِ عنهُ بالعبارةِ إلّا على التَّقريبِ إلى الأفهامِ بالمَجعولِ منْ آثارِ [هُوِيَّةِ أُلوهِيَّتِهِ][12] في جميعِ الأنامِ.

ثم قيلَ في ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بوجوهٍ، تَرْجِعُ جميعَ ذلكَ إلى ما بَيَّنّا:

أحدُها: السَّيِّدُ الذي قدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ، ومَعْنَى ذلكَ المَفْهومُ[13] مِنَ السُّؤْدُدِ في صَرْفِ الحوائجِ إليهِ ورجاءِ كلِّ المَحائجِ إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: أربع. (٢) أي التعدد. (٣) من م، في الأصل: واحد. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، في الأصل: والأوجه. (٧) من م، في الأصل: المؤتسين. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: جمع، في م: جميع. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: في المتعالى. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: هويته.
(١٣) من م، في الأصل: في المعنى.

والثاني: في أنْ لا جَوفَ لهُ، وذلكَ في وَصْفِ الوَحْدانيَّةِ والتَّعالي عنْ مَعْنى أحَدِيَّةِ غَيرِهِ مِن اجْتِماعِ أجزاءٍ، مُمْكِنٌ بها القَرْحُ والثُّقوبُ[١] التي لا كالأجوافِ، أو على ما فَسَّرَ قومٌ بالذي هو ظاهرٌ [في][٢] ظاهرِ العبارةِ مَخْرَجُ الكتابِ، وهو الذي ذَكَرَ على إثْرِه، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأنَّ كلَّ ذي الكونِ ذو جَوفٍ، عنهُ يَتَوَلَّدُ الأولادُ، ويكونُ في ذلكَ إحالةُ قولِ مَنْ نُسِبَ إليهِ الولدُ.

فنقولُ: كيفَ يكونُ لهُ ولدٌ، وقد تَعْلَمونَ أنهُ ليسَ بذي جَوفٍ كما قالَ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] في قومٍ نَزَّهوهُ عنِ الصاحبةِ، وهمْ لم يَشْهَدوا الوِلادةَ إلّا عنْ ذي جَوفٍ؟ فيكونُ في هذا نَقْضُ قولِ هذا الفريقِ فيهِ بالولادِ بما نَزَّهوهُ عنِ الجَوفِ كما في الأوَّلِ بما بَرَّؤوهُ عنِ الصاحبةِ.

[والثالثُ:][٣] بما لِذي الأجوافِ مِنَ الحاجاتِ، فَيَرْجِعُ إلى التَّأويلِ الأوَّلِ أنَّ المَصْمودَ إليهِ بالحوائجِ.

وظَنَّ قومٌ أنهُ إذا نُفِيَ عنهُ الجَوفُ يَثْبُتُ أنهُ مُصْمَتٌ، وذلكَ مَعْنى اجْتِماعِ أجزاءٍ، تَتَداخَلُ، فَتَتَكاثَرُ كذي الجوفِ، هو اجْتِماعُ أجزاءٍ، تَتَّفِقُ.

فإذا تَحَقَّقَ التَّنْزيهُ عنْ أحدِ الوَجْهَينِ تَحَقَّقَ التَّنْزيهُ عنِ الوَجْهِ الآخَرِ [إذْ][٤] في الوَجْهَينِ نَفْيُ الوَحْدانيَّةِ وتَحْقيقُ ازْدِواجِ الأجسادِ مع ما قد تُنْفَى عنْ أشياءَ أمورٌ، لا تَتَحَقَّقُ لها المُقابلةُ كما يُنْفَى عنِ الأعراضِ السَّمْعُ والبَصَرُ والعِلْمُ لا على إثباتِ مُقابَلَتِها بما عَلِموا أنَّ الأعراضَ لا تَحْتَمِلُ الاعْتِراضاتِ. فَعَلَى ذلكَ العِلْمُ بِوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى والتَّنْزيهُ عنِ احْتِمالِ الازْدِواجِ[٥] يُحَقِّقُ القولَ الذي ذَكَرْتُ.

وقد قيلَ في الصَّمَدِ: إنهُ الدائمُ /٦٥٨ ـ أ/ وذلكَ أيضاً يَرْجِعُ إلى ما ذَكَرْتُ أنهُ لا يَحْتَمِلُ التَّغَيُّرَ والاسْتِحالةَ وإصابةَ أثرِ الحاجةِ، وهو الصمودُ إليهِ بالحوائجِ.

وقد قالَ قائلٌ في التَّأويلِ الأوَّلِ:

لَقَدْ بَكَّرَ الناعي بِخَيْرَي بَني أسَدْ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[٦]

ويقالُ: صَمَدْتُ إلى فلانٍ، أي قَصَدْتُ إليهِ، وهذا يُوَضِّحُ مَعْنَى الصَّمَدِ، أي يُصْمَدُ إليهِ في الحوائجِ.

الآيتان ٢ و ٤ وقيلَ في ذلكَ: إنَّ الصَّمَدَ، تأويلُهُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

قالَ الشيخُ أبو منصورٍ ﷺ: الأصلُ أنهُ، تعالى، أعظَمَ القولَ بالوِلادِ ما عَظَّمَ بِجَعْلِ الشُّرَكاءِ؛ وذلكَ أنَّ مَعْنى الوِلادِ أنْ يكونَ بجوهرِ مَنْ لهُ ولدٌ، فيكونُ بذلكَ شريكاً، وذلكَ يَنْفي التَّوحيدَ. فَعَلَى ذلكَ القولُ بالوِلادِ. ولذلكَ أعظَمَ القولَ بهِ، وألْزَمَ[٧] مَنْ عَرَفَهُ بالأدِلَّةِ القولَ ببراءتِهِ عنِ الوِلادِ كما يُثْبِتُ [نَفْيَ][٨] الاشْتِراكِ مِنَ الوَجْهِ الذي بَيَّنّا، وقد شَهِدَ العالَمُ بِكُلِّيَّتِهِ بِحَقِّ الخِلْقةِ على اللهِ، تعالى مَنْشَؤُهُ عنِ الشُّرَكاءِ والأشباهِ جميعاً، فَيُبْطِلُ القولَ بالذي ذَكَرْنا مع ما كانَ جميعُ الخلائقِ على الإشارةِ إلى كلٍّ، منهُ يَحْتَمِلُ الازْدِواجُ، ومنهُ يكونُ التَّوالُدُ، واللهُ مُتعالٍ عنْ ذلكَ.

وبعدُ فإنَّ كلامَ العالِمِ على الإشارةِ إلى آحادٍ مُتَوَلِّدٍ عنْ غَيرٍ أو يَتَوَلَّدُ منهُ غَيرُهُ، وهما أمرانِ راجعانِ إلى ما عليهِ خَلْقُ هذا العالَمِ، وعليهِ مَوضوعُهُمْ، وقد ثَبَتَ تعاليهِ عنْ جميعِ معاني غيرِهِ، إذْ كلُّ غَيرٍ، لهُ بجميعِ معانيهِ حَدَثَ بَعدَ أنْ لم يكنْ أتى عليهِ تدبيرُ غَيرِهِ، وجَرَى عليهِ تقديرُ سلطانِ[٩] غيرِهِ. واللهُ، تعالى، لو كانَ يَتَوَهَّمُ شيءٌ منْ ذلكَ فيهِ، يُسْقِطُ لهُ الألوهيَّةَ، ويُحَقِّقُ لهُ الحاجةَ إلى غَيرِهِ، ويُوجِبُ جَرْيَ تقديرِ[١٠] سلطانِ غَيرِهِ عليهِ؛ وهذا يوجبُ غيراً خارجاً [عنْ][١١] هذهِ المعاني حتى تَسْلَمَ الأدلَّةُ لهُ على حَدِّ المَوضوعِ، وتَصْفو لهُ الشهادةُ على ما قامَتْ، وأُنْطِقَتْ بالخِلْقةِ وبما فيهِ مِنَ الحِكمةِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

---

(١) في الأصل وم: الثقب. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وقيل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الأزواج. (٦) القائل هو سَبْرةُ بنُ عمرو الأسدي، انظر مجاز القرآن ٢/٣١٦. (٧) جاء بعدها في الأصل وم: على. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: سلطانه. (١٠) في الأصل وم: بعد. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وعلى ذلكَ خَتْمُ السورةِ [بقولِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾](١) أنْ ليسَ لهُ أحدٌ كُفُوٌ لأنهُ [بالخِلْقَةِ](٢) منْ ذلكَ يوجبُ المُماثَلَةَ، وفي المُماثلةِ اشْتِراكٌ، وقد ثَبَتَ فسادُ العالَمِ بِتَوَهُّمِ الاشْتِراكِ في تدبيرِهِ، وقد لَزِمَ التَّعالي عنِ المَعاني التي لِلازْدِواجِ بها يقومُ التَّدبيرُ، ويَجري سلطانُ التَّقديرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَخْرَجُ السورةِ في تحقيقِ نعتِ مَنْ قد عرفوهُ بإحدَى [خِصْلتَينِ:

إحداهُما:](٣) بالتَّلْقينِ لِكُلٍّ عنْ كُلٍّ إلى أنْ يَنْتَهِيَ ذلكَ إلى عَلّامِ الغُيوبِ؛ فَسَخَّرَهُمْ بذلكَ، وأنْشَأَهُمْ على ذلكَ حتى أيقَنَ مَنْ جَحَدَ ذلكَ أنهُ بعدَ تلقينٍ مَتوارَثٍ(٤) ظاهرٍ، لا يَحْتَمِلُ مثلُهُ الخَطأَ في حقِّ توارثِ الأمورِ بما يُبْطِلُ المعارفَ كلَّها، بأسْرِها أُنْشِئوا، وبها تَعاملوا، وذلكَ كأوّلِ علومِ الخَلْقِ وكالشيءِ المَطبوعِ الذي لا يُسْتَطاعُ جَحْدُهُ إلّا بما بهِ لِعِلَّةِ(٥) الطباعِ المَخلوقةِ على جهةِ الرياضةِ وأنواعِ الحِيَلِ.

والثانيةُ(٦): بالتَّأمُّلِ فيها في كلِّ جُزْءٍ منْ أجزاءِ العالَمِ مِنَ الأدِلَّةِ عليهِ والشهادةِ لهُ، فَبَيَّنَ بالآيةِ أنَّ الذينَ عَرَفُوهُ بأحدِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا نَعْتَهُ بكذا لِيَقْطَعَ بهِ تَوَهُّمَ المِثْلِ لهُ أوِ العِدْلِ في أمرٍ لِيَعْرفوا أنَّ القولَ بِغَيرِ خارجٌ عنِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا وأنهُ يَرْجِعُ إلى ضَرْبٍ [مِنَ](٧) التَّلْقينِ، ليسَ لهُ حقُّ الطباعِ ولا حقُّ التَّلْقينِ الذي لهُ صفةُ الكِفايةِ(٨) والكُلِّيَّةِ في التَّلْقينِ ولا في حقِّ شهادةِ الكلِّ بذلكَ التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ، فَيَمْتَنِعَ عنْ ذلكَ، ويرجِعَ إلى حقيقةِ ما جَرَى [بهِ](٩) النَّعْتُ دونَ غَيرِهِ مِمّا لَغَوا فيهِ، يَرْجِعُ إلى تَلْقينٍ مِنْ ذِكْرٍ وتَلْبيسٍ بلا حُجَّةٍ. لذلكَ لا يُضاهي شيئاً مِمّا ذَكَرْتُ مع ما في كلِّ ذلكَ جميعُ ما في غَيرِ ذلكَ إحالةُ الألوهيَّةِ منْ كلِّ الوجوهِ مِنْ شهادةِ الخِلْقةِ والحاجةِ فيها إلى غَيرِهِ مِنَ الإيجادِ والإبقاءِ، وهو الأحدُ بما لا دَليلَ لِغَيرِهِ، بل في ذلكَ إحالةُ الألوهيَّةِ مِنْ كلِّ الوجوهِ الثلاثةِ؛ وهو الصَّمَدُ بِمَعْنَى المَصْمودِ إليهِ في الحوائجِ، المالكُ لِقضائها، وهو الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو المُتعالي عنِ احْتِمالِ وِلادٍ فيهِ ومنهُ لِما ذَكَرْتُ مِنْ فسادِ الألوهيَّةِ الثابتةِ بما ذُكِرَ مِنَ الوجوهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لِما في كلِّ أحدٍ سِواهُ الوجوهُ التي منها يُعْرَفُ سلطانُ غَيرِهِ عليهِ وأنهُ دليلٌ لِمَنْ ذَلَّ لهُ كلُّ شيءٍ على السَّواءِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ، ومنهُ الاسْتِهداءُ.

ولِما ذَكَرْتُ سُمِّيَتْ هذهِ السورةُ سورةَ الإخلاصِ أنها في إخلاصِ التَّوحيدِ للهِ ونَفْيِ الأشباهِ والشُّرَكاءِ في الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ سِواهُ مَرْبوبُهُ ومملوكٌ لهُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على نَبِيِّنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ](١٠).

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: خصال ثلاث: إما. (٤) من م، في الأصل: توارث. (٥) في الأصل وم: لعل. (٦) في الأصل وم: وإما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الكافية. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من م.

[سورة الفلق

وهي مدنية][١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: الأمرُ بالتَّعَوُّذِ بِهِ يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحَدُها: على التَّعْليمِ لا لنازلةٍ كانَتْ في ذلكَ الوقتِ. لكنْ لِما عَلِمَ اللهُ تعالى منْ عظيمِ شَرِّ مَنْ ذَكَرَ بما يَظُنُّ بالأغْلَبِ أنَّ شَرَّ ما ذَكَرَ يَتَّصِلُ بالذي ذَكَرَ في عِلْمِ اللهِ تعالى، فأمَرَهُمْ بالتَّعَوُّذِ بِهِ كما أخْبَرَ في أمرِ الشيطانِ أنهُ عَدُوٌّ لهمْ وأنهُ يَراهُمْ مِنْ حيثُ لا يَرَونَهُ ليكونوا أبداً مُعِدِّينَ مُتَيَقِّظينَ أو فَزِعينَ إلى اللهِ تعالى مُعْتَصِمينَ، وهذا أحقُّ في التَّعليمِ مِنَ الذي ذَكَرَهُ في سورةِ الناسِ لأنهُ أضَرُّ مِنْ ذلكَ العَدُوِّ لأنَّ ضَرَرَهُ إنما يَتَّصِلُ بهِ بإتيانِهِ ما دعاهُ الشيطانُ وما يُوَسْوِسُ في صَدْرِهِ الوَسواسَ؛ وذلكَ فِعْلُهُ، يُمكِنُهُ الامْتِناعُ عنهُ، وهذا الضَّرَرُ يَقَعُ بِفِعْلِ غَيرِهِ مِنْ وجْهٍ، لا يَعْلَمُ مأتاهُ، أعني شَرَّ النَّفّاثاتِ ونَحْوَ ذلكَ. فهو أحقُّ في تَعْليمِ العبادِ فيهِ والأمرِ بالفَزَعِ إلى مَنْ بِلُطْفِهِ جَعَلَ ذلكَ الفِعْلَ مِمَّنْ ذَكَرْنا مَعْمولاً [فيهِ][٢] مُؤَثِّراً.

والثاني: ما قيلَ: نَزَلَ جبريلُ ﷺ على رسولِ اللهِ ﷺ [فقالَ لهُ][٣] إنَّ عفريتاً مِنَ الجِنِّ يَكيدُكَ، فَتَعَوَّذْ بـ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ /٦٥٨ - ب/ مِنْ شَرِّهِ إذا أَوَيتَ إلى الفراشِ.

والثالثُ: قيلَ: إنَّ واحداً مِنَ اليهودِ سَحَرَ رسولَ اللهِ ﷺ فَنَزَلَ هذا.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ذَكَروا في هذهِ [السورةِ][٤] حديثاً مِمّا لا يجوزُ، فَتَرَكْتُهُ[٥].

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: ولكنْ عندَنا في ما قيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُحِرَ، وجهانِ في إثباتِ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ:

أحَدُهما: بما عَلِمَهُ بالوَحْيِ أنهُ سُحِرَ؛ وذلك فِعْلٌ فَعَلوهُ سِرّاً، ولا وُقوفَ لأحدٍ على الغَيبِ إلّا بالوَحْيِ.

والثاني: بما أبْطَلَ عَمَلَ السِّحْرِ بِتِلاوةِ القرآنِ، فَيَصيرُ لِتِلاوتِهِ في إبطالِ عَمَلِ السِّحْرِ ما لِعَصا موسى ﷺ [وإنَّ هذا في كونِهِ آيةً أعْظَمُ مِمّا فَعَلَ موسى ﷺ][٦] لأنَّ ذلكَ يَتَنَوَّعُ بِنَوعِ ما لَهُ الفِعْلُ والعَمَلُ مِنْ حيثُ الجوهرُ والطَّبْعُ مِنْ حيثُ مَرْأى العينِ ما بِهِ ثُعباناً تَلَقَّفَ ما صَنعوا.

فأمّا إبطالُ السِّحْرِ وعَمَلِهِ بِتِلاوةِ القرآنِ فلا[٧] يكونُ إلّا باللُّطْفِ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ في هذا عندَنا قد ثَبَتَ الأمرُ [بالتَّعَوُّذِ بقولِهِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وقد بَيَّنّا حقَّ الاشْتِراكِ في مَنْ يَتَضَمَّنُ هذا الأمرَ][٨] إنْ كانَ على نازلةٍ في واحدٍ أو على ابْتِداءِ التَّعْليمِ، فهو أمْرٌ، فيهِ رجاءُ الفَرَجِ والمَخْرَجِ مِنَ الأمورِ الضارةِ بما يُعْتَصَمُ فيها باللهِ تعالى بِما عندَهُ مِنَ اللطائفِ.

فجائزٌ تَمْكينُهُ مِنْ أمورٍ ضارَّةٍ باللُّطْفِ مِنْ حيثُ لا يَعْلَمُ البَشَرُ، ولعلَّ الذي يَعْمَلُ بهِ لا يَعْلَمُ حقيقةَ ذلكَ العملِ الذي جَعَلَ اللهُ لذلكَ العملِ [إلّا بما][٩] يَسْبِقُ مِنْ وقوعِ ذلكَ.

وقد يجوزُ الأمرُ [بأشياءَ، والنَّهيُ][١٠] عنها عنِ الأفعالِ لِمَكانِ[١١] ما يَتَوَلَّدُ عنها مِنَ المَنافعِ والمَضارِّ باللُّطفِ مِنْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: فتركه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الفاء ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: الذي. (١٠) في الأصل وم: والنهي بأشياء. (١١) في الأصل وم: المكان.

حيثُ الفعلُ في حقيقةِ ذلكَ للخَلْقِ، وإنما ذلكَ لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالى نَحْوُ ما نَهَى عنْ أكلِ أشياءَ وأمَرَ بها ممّا بها الإعْتِداءُ والقَتْلُ مِنْ غَيرِ أنْ نَعْلَمَ حقيقةَ وصولِ ذلكَ إلى ما يَغدو أو يَقْتُلُ وأيَّ حكمةٍ مِنْ ذلكَ ومَعْنًى لهُ، وكذلكَ الموضوعُ في المَناكحِ يُطْلَبُ الولدُ، وتُسْقَى الأشجارُ والزرعُ بما يُحْدِثُ اللهُ فيها، وإنْ كانَ وجْهُ العملِ بالمأمورِ بهِ والمَنْهِيِّ عنهُ وحقيقتُهُ لِغَيرِ الذي لهُ ذلكَ.

وعلى ذلكَ الأمرُ بالإسْتِماعِ والنَّظَرِ لِما يُلْقَى إليهِ، ويَراهُ، وإنْ لم تَكُنْ حقيقةُ الإدراكِ فِعْلَهُ.

وعلى ذلكَ التقديرُ جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَجْعَلُ النَّفْثَ بالعزائمِ أو بأنواعِ السِّحْرِ أو بأنواعِ الرُّقَى أعمالاً: المَقصودُ بها مِنَ النَّفْعِ والضَّرِّ لا تُعْلَمُ حقيقةُ الوقوعِ والمَعْنَى الموضوعِ فيهِ، لهُ مَنْ منهُ ذلكَ الفعلُ، وهو بهِ مأمورٌ وعنهُ مَنْهِيٌّ، بما لهُ مِنْ حقيقةِ الفِعلِ، وإنْ لم يكُنِ النافعُ بهِ في حقيقةِ فعلِهِ.

ثم قولُهُ ﷺ: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ اختَلَفوا فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الصُّبْحُ، وقيلَ: كلُّ شيءٍ يَنْفَلِقُ مِنْ جميعِ ما خَلَقَ نَحْوُ الأرحامِ لِيُتَعَرَّفَ ما فيها والحَبِّ والنَّوَى والهوامِّ.

فَمَنْ ذهبَ إلى تخصيصِ الصُّبحِ فهو لأنهُ آخرُ الليلِ وأوّلُ النهارِ، وقد جَرَى تدبيرُ اللهِ تعالى في إنشاءِ هذينِ الوقتَينِ على جميعِ العالَمِ بحيثُ لا يَمْلِكُ أحدٌ الإمْتِناعَ عنْ حُكْمِهِما في ما جَعَلَ لهما، وهما النهايةُ في العِلْمِ، يَعْلَمُ اللهُ تعالى الغيبَ؛ إذْ جَرَى مِنْ تدبيرِهِ في آخِرِ الأوقاتِ في الليلِ والنهارِ على حدٍّ واحدٍ، كلٌّ عالمٌ بما فيهما مِنَ الرحمةِ للخَلْقِ وأنواعِ المِحْنةِ، ومَنَّ عليهما بما يَأتيانِ الخَلْقَ، ويَذهبانِ، فكأنما ذَكَرَ جميعَ الخَلْقِ على ما ذُكِرَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] فيكونُ فيهِ، لو قُصِدَ بالذِّكْرِ، ما في الكلِّ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما مِنْ شَرِّ خَلْقِهِ لِما أضافَهُ إلى فِعْلِهِ كما يُقالُ: مِنْ شرِّ فِعْلِ فلانٍ أو مِنْ شرِّ يَفْعَلُهُ.

[والثاني:][1] مِنْ شَرٍّ يكونُ مِنْ خَلْقِهِ.

لكنَّ الإضافةَ إليهِ بما هو خالقُ كلِّ شيءٍ مِنْ فِعْلِ خَلْقِهِ ومِنْ خَلْقِ ما لَهُ الفعلُ، ولا فِعْلَ.

والأوّلُ كأنهُ أقربُ لِما ذُكِرَ في بقيةِ السورةِ الواقعِ بِخَلْقِهِ المُكْتَسَبِ مِنْ جِهَتِهِمْ، وأُضيفَ إليهِ لِما بيَّنّا، ولأنَّ كلَّ شَرٍّ اكْتَسَبَهُ الخَلْقُ، فذلكَ مَنسوبٌ إلى اللهِ تعالى خَلْقاً، وهو فِعْلُ المُكْتَسِبِ وكَسْبِهِ.

فمَتَى كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ هذا النَّوعَ، فكانَ ذِكْرُ ما بَعْدَهُ، يكونُ تَكْريراً. وإذا حُمِلَ الأوّلُ على مَحْضِ التَّخليقِ في ما لا صُنْعَ للخَلْقِ فيهِ مِنَ الشُّرورِ كانَ ذِكْرُ ما لهمْ صُنْعٌ فيهِ، وإنْ كانَ خَلْقُ اللهِ تعالى لا يكونُ تَكْريراً، فيكونُ هذا التأويلُ أحقَّ معَ ما قد بيَّنّا أنهُ يَمْنَعُ في فِعْلِ غَيرِهِ بِلُطْفٍ أو إعجازٍ [وفي الإعجازِ][2] لا يُحْتَمَلُ التَّعَوُّذُ مِنْ شَرِّ مَنْ لا يَقْدِرُ على فِعْلٍ يَتَّصِلُ بهِ الشَّرُّ.

وفي ذلكَ إثباتُ التَّمْكينِ لِما يَقَعُ بهِ الشَّرُّ، فَيَجوزُ التَّعَوُّذُ مِنَ الذي منهُ؛ إذْ بهِ يكونُ مِنْ غَيرِهِ على [ما][3] بيَّنّا مِنْ جوازِ الأمرِ والنَّهْيِ عنْ أفعالٍ لِمكانِ ما يَقَعُ بها، وإنْ لم يكُنِ الواقعُ في الحقيقةِ لهمْ.

فَعَلَى ذلكَ التَّعَوُّذُ مِنْ شَرِّ خَلْقِهِ، وهو المَكينُ والمُسْتَعانُ.

وفي هذا تَعَلَّقَ بعضُ مَنْ يقولُ بالقُوَّةِ تَسْبِقُ الفعلَ: إنهُ لو لم تكُنْ لهُ قوةٌ على الشَّرِّ كيفَ كانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ شَرٍّ، لا يَقْوَى عليهِ؟ والجوابُ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ التَّعَوُّذَ يكونُ بما سَيُفْعَلُ بما يَمْلِكُ هو ما يَقَعُ لديهِ الفِعْلُ، وهو الآلاتُ السليمةُ، والقدرةُ تَحْدُثُ تِباعاً على حدوثِ الأفعالِ، ويُحدِثُ لما يَختارُ هو، فصارتِ القدرةُ في كونِها لِما يَختارُ كَكَونِ ما يَختارُ مِنَ الفِعلِ بالإختيارِ بحدوثِ القدرةِ حالةَ الفعلِ، فَيَتَعَوَّذُ منهُ لِعِلْمِهِ أنَّ الذي بهِ كأنهُ في يدِهِ.

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: أنْ قد جَرَتِ العادةُ بالعِلْمِ بما يَقَعُ في المُتَعارفِ كالعِلْمِ بما هو واقعٌ في الرَّغْبةِ والرَّهْبةِ.

ألا تَرَى أنهُ يَتَعَوَّذُ مِنْ ظُلْمِ الجبابرةِ والظَّلَمةِ على ما بَيْنَهُمْ مِنْ بُعْدِ الأمكنةِ وطولِ المُدَدِ لإمكانِ الوصولِ بما اعْتَقَدَ منهمْ بلوغَ أمثالِ ذلكَ؟ وإنْ كانتِ القدرةُ على الظُّلْمِ في حقِّهِ للحالِ مَعْدومةً، لا يَبْقَى في مِثْلِ هذهِ المُدّةِ. فَعَلَى ذلكَ الأمرُ بالأوّلِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قيلَ: الغاسقُ هو الليلُ المُظْلِمُ، والغَسَقُ الظُّلْمةُ، وقيلَ: سُمّي الليلَ غاسقاً لأنَّ الغاسقَ الباردُ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٤ و٢٥ و٢٦] والليلُ أبردُ مِنَ النهارِ، لِذلكَ سُمّيَ غَسّاقاً.

والأصلُ في هذا أنَّ الذي ذَكَرَ، لا يكونُ منهُ ضَرَرٌ، يُتَعَوَّذُ منهُ. لكنهُ يَرْجِعُ إلى مَنْ كانَ في ظُلَمِ الليلِ، إذْ في نورِ القمرِ مَنِ الذي يأتي منهُ الضّارُّ؟ ومَعْلومٌ أنَّ مِنَ الشُّرورِ ما لا يُمَكَّنُ منها إلّا في ظُلَمِ الليلِ، ومنها في اللّيالي [ما لا يُمَكَّنُ منها][(1)] إلّا بنورِ القمرِ.

فأمرُ التَّعَوُّذِ ممّا يكونُ فيها لا أنْ يكونَ منها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧ و...] بما يَقَعُ بهِ الإبصارُ، لا أنهُ يَقَعُ منهُ ذلكَ.

وهذا، واللهُ أعلَمُ، ليسَ على تَخْصيصِ الليلِ بذلكَ لأنهُ ليسَ لهُ فِعْلُ الضَّرَرِ، لكنْ قد يَعْرِضُ بهِ الإمكانُ /٦٥٩ ـ أ/ مِنَ الشَّرِّ لِما المَعْلومُ أنَّ مِنَ الشُّرورِ ما لا يُمَكَّنُ منها إلّا في ظُلَمِ الليلِ، ومنها في الليلِ لا يُمَكَّنُ [منها][(2)] إلّا في ضَوءِ القمرِ.

فأمرُ التَّعَوُّذِ منهُ عمّا يَتَحَقَّقُ فيه. فَعَلَى ذلكَ يجوزُ التَّعَوُّذُ مِنْ شَرِّ النهارِ على تأويلِ ما يَقَعُ بهِ مِنَ التَّمَكُّنِ مِنَ الشَّرِّ، ويوجَدُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ اخْتَلَفوا في مَعْنَى ﴿وَقَبَ﴾ قيلَ: إذا جاءَ، وقيلَ: مَعْناهُ القمرُ إذا خُسِفَ؛ أمَرَ بالاِسْتِعاذةِ مِنْ ذلكَ؛ إذ هو عَلَمٌ مِنْ أعلامِ الساعةِ، لهذا قالَ: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذِ القمرُ لا يُخْسَفُ إلّا في الليلِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ فهذا تَعَوُّذٌ مِنْ [شَرِّ كلٍّ][(3)] بِحَسْبِ سَبَبِهِ، لكنهُ في الحقيقةِ فُعِلَ لهمْ، وفي الأوّلِ يَقَعُ سَبَبُهُ بلا صَنيعٍ لهمْ، فكأنهُ في الجملةِ أمرَ بالتَّعَوُّذِ مِنْ كلِّ أسبابٍ خَفيّةٍ[(4)]، تَوَلَّدُ الشَّرُّ منهُ، فِعْلاً كانَ ذلكَ[(5)] أو لم يَكُنْ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى ﷻ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؟ [لقمان: ٣٣ و...]

وقد يكونُ للشيطانِ فعلٌ في الحقيقةِ، ولا يكونُ للحياةِ الدنيا فِعْلٌ، فَوَقَعَ النَّهْيُ عنِ الاِغْتِرارِ بهما. فَعَلَى ذلكَ التَّعَوُّذُ مِنْ شَرِّ الأمرَيْنِ، وإنْ لم يكُنْ لأحدِهِما فِعْلٌ بما يَقَعُ فيهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مِنْ هذا الوَجْهِ في الملائكةِ [مِحْنةٌ][(6)] في الدَّفْعِ والحِفْظِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] قيلَ فيهِ: أي بأمرِ اللهِ يَقَعُ حِفْظُهُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ في هذهِ الأمورِ الخَفِيّةِ وأنواعِ المَضارِّ مِنْ حيثُ لا يُعْلَمُ إلّا بَعْدَ جَهْدٍ يَقَعُ الحِفْظُ باللهِ تعالى على اسْتِعْمالِ الملائكةِ.

وعلى ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ أمرُ سلامةِ المَطاعمِ والمَشاربِ والمَنافعِ التي للبشرِ مِنْ إفسادِ الجِنِّ؛ يَحْفَظُهُ مَنْ ذَكَرَ ليكونَ فيها مِحْنةٌ للملائكةِ على ما كانَ مكانَ وَسْواسِ الشيطانِ إيقاظُ الملائكةِ ومَعونَتُهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: لا يمكن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: شرهم. (٤) في الأصل وم: خيف. (٥) جاء بعدها في الأصل وم: له. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ لم يُمَكِّنْهُمْ إفسادَ ما ذَكَرْنا، وإنْ مَكَّنَهُمُ الوَسواسُ؛ إذْ باللُّطفِ يَمْنَعُ مِن حيثُ لا يُعْلَمُ.

وقيلَ أيضاً: مِنْ أمرِ اللهِ عذابُهُ وأنواعُ البَلايا إلى وقْتِ إرادةِ اللهِ تعالى الوقوعَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: إذا كانَ الحاسدُ دونَ المَحْسودِ، ولا يَقْوَى على الشَّرِّ لِيَفْعَلَ بهِ، والشَّرُّ المُتَوَهَّمُ منهُ يكونُ مِنْ شَرِّهِ[١] عينِهِ، وعَمَلُ الحَسَدِ إرادةُ زَوالِ نِعَمِ المَحْسودِ وذهابِ دَولتِهِ.

[والثاني:][٢] أنهُ جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ بِلُطْفِهِ يَجْعَلُ في بعضِ الأعيانِ عملاً يُنادي بالنَّظَرِ إلى ما يَسْتَحْسِنُهُ مِنَ النِّعَمِ إلى الزَّوالِ، ويُؤْثِرونَ ذَهابَ الدَّولةِ عنهُ، فأمرَ بالتَّعَوُّذِ.

هذا وقد بيَّنَّا لكَ المُتَوَلِّداتِ مِنَ الأفعالِ بما جَعَلَ اللهُ تعالى فيها مِنَ المَضارِّ والمَنافعِ ما لا يَبْلُغها علومُ الخَلْقِ، بل لو أرادَ الخَلْقُ أنْ يَعرِفوا ما في البَصَرِ مِنَ الحكمةِ التي تُدرَكُ بِفَتْحِ البصرِ ما بينَ السماءِ والأرضِ مِنْ غَيرِ كثيرِ مُهْلَةٍ، لم يَقْدِروا عليهِ.

ورَوى عِمْرانُ بْنُ حُصَينٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا رُقْيَةَ إلّا مِن عَينٍ أو حُمَّةٍ» [أبو داوود ٣٨٨٤]. وعنِ ابْنِ عباسٍ ﵄ [قولَهُ ﷺ][٣] «العَينُ حقٌّ فإنْ كانَ شيءٌ يَسْبِقُ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَينُ» [مسلم ٢١٨٨] وفي خَبَرٍ آخَرَ: «لا شَرَّ في الهامِ، والعَينُ حقٌّ» [الترمذي ٢٠٦١] ويَدُلُّ عليهِ في قصةِ يوسفَ ﵇ [ما][٤] قالَ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقد فَسَّرَ قومٌ وجْهَ عملِ العَينِ وكيفيَّتَهُ [بأمرَينِ:

أحدُهما: أنهُ][٥] أمرٌ كعَمَلِ الشمسِ في العَينِ نفسِها في ما تُبْصِرُ الشمسَ، وتَنْظُرُ إليها، فإنها تَضُرُّهُ، وتَغْلِبُهُ عنِ النظرِ على بُعْدِها[٦] مِنَ العَينِ بما جَعَلَ اللهُ تعالى، وذلكَ مِنَ اللطفِ والحكمةِ، وكذلكَ عملُ العَينِ في المَعْيونِ.

والثاني: أنْ يكونَ بِما حَسَدَ أنْ يَبْعَثَ حَسَدَهُ على الحِيَلِ وأنواعِ ما بهِ العينُ مِنَ السَّعْيِ في الأمورِ التي بها الفسادُ على ضَعْفِهِ في نفسِهِ.

قالَ اللهُ تعالى في صفةِ المُنافقينَ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] فَمَعَ ما بَيَّنَ مِن فَشَلِهِمْ وضَعْفِهِمْ أمَرَهُمْ بالحَذَرِ منهمْ، وقالَ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ثم أمَرَ بالتَّعَوُّذِ مِن شَرِّهِ. فكذلكَ الحاسدُ، واللهُ أعلَمُ [بالصواب][٧].

---

(١) في الأصل وم: شر. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لكنه. (٦) في م: بعد. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

[سورة الناس

مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فظاهِرُهُ أمرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ وشيءٌ مُشارٌ إليهِ، وهو التَّعَوُّذُ، وفي[2] الإجابةِ في مِثْلِهِ أنْ يقولَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنْ يكونَ ذلكَ أنْزلَهُ حتى[3] يَصيرَ ذلكَ أمراً لكلِّ مَنْ بَلَّغَهُ وتَعْليماً بالذي عليهِ بِالاعْتِصامِ باللهِ تعالى والالْتِجاءِ إليهِ مِنْ شَرِّ الذي ذَكَرَهُ لِيُعيذَهُ. وتكونُ الإعاذةُ بوجهَين:

أحَدُهما: في تَذْكيرِ ما عَرَّفَهُ مِنَ الحُجَجِ في دَفْعِ ما يَخْطُرُ ببالِهِ والمَكْروهِ.

والثاني: باللُّطْفِ الذي لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الخَلْقِ، ولا تُدْرِكُهُ عقولُهُمْ؛ ممّا لَدَيهِ يَقَعُ الأمنُ مِنَ الزَّيغِ، ممّا حَقُّهُ الإفضالُ. والذي ذلكَ حَقُّهُ [فللّهِ تعالى أنْ يُكْرِمَ العبدَ مُبْتَدَأً، ولهُ أنْ يُقَدِّمَ فيهِ مِحْنَةَ السؤالِ والاعْتِصامِ بهِ على الإكرامِ أيضاً، ويُكْرِمَ مَنِ اعْتَصَمَ بهِ مِنَ الزَّلَّةِ، أو هُدِيَ إلى سُنَّةِ الشُّكْرِ للهِ تعالى][4] في ما ابْتَدَأَهُ أو أكْرِمَ بهِ عندَ السؤالِ.

والوَجْهُ الثاني مِنْ وَجْهَيِ الخِطابِ: أنْ يكونَ الخِطابُ لِغَيرِهِ، وإنْ كانَ راجِعاً إلى مُشارٍ إليهِ؛ فهو ممّا يَشْتَرِكُ في مَعْناهُ غَيرُهُ، فأبْقى، وأثْبَتَ ما بهِ يَصيرُ مُخاطِباً مَنْ بُلِّغَ ذلكَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ حتى يدومَ هذا إلى آخِرِ الدهرِ. وعلى [هذا جميعُ ما][5] فيهِ حَرْفُ الكُلْفَةِ والمِحْنَةِ، أعني صِيغَةَ الأمرِ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخِرِ السورةِ وجْهانِ مِنَ الحِكْمَةِ فيهما نَقْضُ قولِ أهلِ الاعْتِزالِ:

أحَدُهما: أنَّ المِحْنَةَ قد ثَبَتَتْ بالامْتِناعِ عن طاعةِ الشيطانِ والمُخالفةِ لهُ. فأمّا إنْ كانَ اللهُ تعالى قد أعطاهُ، فهو يَطْلُبُ ذلكَ بالتَّعَوُّذِ والاعْتِصامِ باللهِ تعالى، كاتماً لِما أعطاهُ طالباً ما ليسَ عندَ اللهِ تعالى، فيكونُ الأمرُ بالتَّعَوُّذِ مِحْنَةً وأمراً بما بهِ كِتْمانُ ذلكَ، وذلكَ حينَ اسْتَوفاهُ بكونِ إنكارِهِ سَتْرَ نِعَمِ اللهِ، وقد تَبَرَّأَ /٦٥٩ ـ ب/ مِنَ الأمرِ بالفَحشاءِ والمُنْكَرِ، وبَيَّنَ أنَّ ذلكَ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ.

[والثاني][6]: في المِحْنَةِ بهذا مِحْنَةُ الاسْتِهزاءِ باللهِ تعالى لأنهُ يَطْلُبُ منهُ ما يَعْلَمُ أنهُ لا يَمْلِكُهُ، ولا يَجِدُهُ عندَ نفسِهِ؛ وذلكَ مِنْ عِلْمِ الهُزْءِ وعِنْدِ ذَوي العقولِ.

فَمَنْ ظَنَّ أنَّ اللهَ تعالى يَمْتَحِنُ عبادَهُ، ويأمُرُهُمْ بِشيءٍ ممّا ذَكَرْنا، فهو جاهلٌ باللهِ تعالى وبِحِكْمَتِهِ، وإنْ لم يكُنِ اللهُ تعالى أعطاهُ، فعندَهُ بعدُ ذلكَ.

ثم كانَ مِنْ مَذْهَبِهِمْ أنهُ ليسَ للهِ تعالى أنْ يَمْتَحِنَهُمْ بِفِعْلٍ إلّا بَعْدَ إيتاءِ جميعِ ما عندَهُ ممّا فيهِ قِوامُهُ ووجودُهُ، ففي ذلكَ اعْتِرافٌ بِلُزومِ المِحْنَةِ، وتَوَجُّهُ التَّكليفِ قَبْلَ إيتاءِ جميعِ ما عندَهُ ممّا بهِ الوصولُ إلى ما أَمَرَ بهِ؛ وذلكَ تَرْكُ مذهَبِهِمْ معَ ما كانَ عندَهُمْ أنهُ لو كانَ عندَ اللهِ أمرٌ ومَعْنًى لا يَقَعُ فِعْلُ المُختارِ لأجلِ أنهُ[7] لا يُعطيهِ ذلكَ، لم يكُنْ لهُ أنْ يَمْتَحِنَهُ، وهو بالامْتِحانِ جائرٌ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: بحق أن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: جميع لما، في م: جميع ما. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: لأنه.

فأمّا إنْ سألوهُ بفعلٍ قد أمرَ بهِ، وإنْ لم يَكُنْ أعطاهُمْ ذلكَ، وهمْ ما وَصَفوا اللهَ تعالى بمِثْلِ ذلكَ أو بفِعْلٍ يَتْلُو وقتَ الأمرِ بذلكَ، ويكونُ أعطاهُمْ ذلكَ وقتَ الأمرِ، فكأنَهُ ظَنٌّ أنْ يُؤمَروا، ولا يُعطي حتى يُسْأَلَ، وذلكَ حَرْفُ الجَورِ.

ثم الأصلُ الذي اطْمَأَنَّتْ بهِ قلوبُ الذينَ يَعرفونَ اللهَ تعالى: أنهُ متى هَدَى الهدايةَ التي سُئِلَ، أو عَصَمَ العِصْمةَ التي تُطْلَبُ، أو وَفَّقَ لِما يُرْجَى مِنَ الفِعْلِ، أو أعانَ عندَ ما يُخافُ: أنهُ كانَ ذلكَ، لا مَحالةَ، وتَحقَّقَ بلا شُبْهَةٍ، ويُؤْمَنُ لَدَيهِ مِنَ الزَّيغِ والضّلالِ، وعلى ذلكَ جُبِلوا ممّا لا تَجِدُ غَيرَ مُعْتَزِليٍّ إلّا وقدِ اطْمَأَنَّ قلبُهُ بهِ حتى يُعْلَمَ أنَّ هذا منهُ وَقَعَ، المَجْبولَ عليهِ، بالتقليدِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ تعالى.

الآيتان ٢ و٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يَقُلْ أعوذُ بربِّ الخَلْقِ، وهذا أعمُّ منَ الأوّلِ، وإضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ أو إضافَتُهُ إلى الكلِّ بالرُّبوبيّةِ مِنْ بابِ التَّعظيمِ للهِ تعالى، فما كانَ أعَمَّ فهو أقرَبُ في التَّعظيمِ. فهذا، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ على أوجهٍ:

أحدُها: أرادَ التعريفَ، وبهذا تقَعُ الكِفايةُ في معرفةِ مَنْ يَفزَعُ إليهِ مِمَّنْ يَمْلِكُ ذلكَ لِيَعوذَ منهُ. لكنهُ ذَكَرَ ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] في مَوضعٍ، و﴿بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٧] و﴿بِكَ﴾ [المؤمنون: ٥٨] في مَوضعٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقالَ: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ و. . .] لِيُعْلِمَ بهِ مِنْ سَعَةِ الأمرِ وتحقيقِ الفَزَعِ والرجوعِ إلى اللهِ تعالى عندَ نزولِ ما يَنْزِلُ بالمرءِ ممّا يَخافُ على نفسِهِ، ويَشْغَلُ قلبَهُ، أنَّ لهُ ذِكْرَ ما يَحْضُرُهُ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى أيَّ اسْمٍ كانَ؛ إذْ ما مِنِ اسْمٍ إلّا وفيهِ دلالةٌ على نِعَمِهِ وسُلْطانِهِ وقُدْرتِهِ وعَظَمتِهِ لِيكونَ في ذلكَ توجيهُ الشُّكْرِ[1] إليهِ وإخلاصُ الحمدِ لهُ بإضافةِ النِّعَمِ [إليهِ][2] ليكونَ ذلكَ مِنْ بعضِ ما بهِ الشَّفْعُ إلى اللهِ تعالى مِنْ ذِكْرِ قُدْرتِهِ وإحسانِهِ أرفَعَ في ذِكْرِ الناسِ بالإضافةِ إليهِ.

والثاني: أنَّ الذينَ عُرِفَ فيهِمُ الأربابُ والملوكُ والعباداتُ لِمَنْ دونَ اللهِ تعالى، هُمُ الإنسُ دونَ غَيرِهِمْ، فأمَرَ أهلَ الكرامةِ بمعرفةِ اللهِ تعالى والعِصْمةِ عنْ عبادةِ غَيرِهِ والاعْتِرافِ بالمُلْكِ والرُّبوبيةِ لهُ أنْ يَفْزَعوا إليهِ عما ذَكَرَ ذاكرينَ لذلكَ واصِفينَ بأنهُ الربُّ لهمْ والمَلِكُ عليهِمْ والمُسْتَحِقُّ للعبادةِ لا غَيرُهُ.

أو لَمّا كانَ للوجوهِ التي ذكَرْنا ضَلَّ القومُ مِنِ اتِّخاذِهِمْ أرباباً دونَ اللهِ تعالى أو نُزولِهِمْ على رأيِ ملوكِهِمْ في الحِلِّ والحُرْمةِ وفي البَسْطِ والقَبْضِ أو عبادتِهِمْ غَيرَ اللهِ تعالى وفزَعِهِمْ إليهِ؛ فأمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الكرامةِ بما ذَكَرْتُ الفَزَعَ [إلى الذي يُذْكَرُ بهذهِ الأوصافِ على الحقيقةِ على نَحْوِ فَزَعِ][3] الضالينَ إلى أربابِهِمْ وملوكِهِمْ والذينَ [عبدوهُمْ دونَهُ][4] إذْ إليهِ مَفْزَعُ الكَفَرَةِ أيضاً عندَ الإياسِ مِمَّنِ اتَّخَذوهُمْ دونَ اللهِ لِنُصْرَتِهِمْ ومَعونتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: أنَّ المَقصودَ مِنْ خَلْقِ هذا العالَمِ همُ الذينَ نزلَتْ فيهِمْ هذهِ السورةُ، وغَيرُهُمْ كالمَجعولِ المُسَخَّرِ لهمْ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩] وقالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ﴾ الآية [النحل: ١٤] وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ الآية [البقرة: ٢٢].

فإذا قيلَ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ فكأنهُ قيلَ: بربِّ كلِّ شيءٍ لأنَّ ما سِواهُمْ جُعِلَ لهمْ، وذِكْرُ الخَلْقِ والتَّوَجُّهُ إليهِ في الاسْتِعاذةِ والاسْتِعانةِ، هو اعْتِرافٌ ألّا يَمْلِكَ غَيرُهُ ذلكَ، فاسْتَوَى الأمرانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ في: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ مُصْلِحِ الناسِ، وذلكَ يَرْجِعُ إلى أنَّ بهِ صَلاحَهُمْ في الدينِ وفي النفسِ.

وقيلَ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ على الإخبارِ بأنَّ المُلْكَ لهُ فيهِمْ جميعاً وفي الخَلْقِ ممّا لم يُذْكَرْ فيهِ وَجهُ المُلْكِ، فَبَيَّنَ أنَّ ذلكَ كلَّهُ في التَّحقيقِ للهِ تعالى ومُلْكِهِ، ولِغَيرِهِ يكونُ مِنْ جِهَتِهِ على ما أعطى لهمْ بقدرِ ما احْتاجوا إليهِ.

وقيلَ: سَيِّدُهُمْ، لكنَّ لفظةَ السَّيِّدِ لا تُذْكَرُ لِمالِكِ غَيرِ الناسِ، ويوصَفُ بالربِّ والمَلِكِ والمالكِ على الإضافةِ لا مُطْلَقاً؛ يُقالُ: ربُّ الدارِ، ومالكُ الجاريةِ، وملكُ المِصْرِ، ونَحْوُ ذلكَ فكأنهُ أقربُ.

---

(١) في الأصل وم: الملك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: عبدوه دونهم.

الآية ٤ وقولهُ تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ فَسَمَّى الذي يُوَسْوِسُ بأنهُ وَسْواسٌ وخَنَّاسٌ. وقيلَ في تأويلِهِ مِنْ [وجوهٍ:

أحدُها][1]: أنهُ يُوَسْوِسُ لِذي الغَفْلةِ، ويَخْنُسُ عندَ ذِكْرِ اللهِ تعالى، أي يَخْرُجُ، ويذْهبُ.

[والثاني: أنهُ][2] يَخْنُسُ، لا يُرَى، ولا يَظْهَرُ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] ولهذا قيلَ في: ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] إنهنَّ يَطْلُعْنَ مِنْ مطالِعِهِنَّ، وتَخْنُسُ بالنهارِ أي تختفي.

الآيتان ٥ و٦ [والثالثُ: جائزٌ][3] أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[4]؛ صَيَّرَ المُوَسْوَسَ في صدورِ الناسِ مِنَ الجنةِ والناسِ.

[والرابعُ:][5] على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ معناهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ مِنَ الجنةِ والناسِ الذي يُوَسْوِسُ في صدورِ الناسِ.

أمّا الوَسْوَسةُ فهي أمرٌ معروفٌ، وذلكَ مما يُلْقَى مِنَ الكلماتِ التي تَشْغَلُ القلبَ، وتُحَيِّرُهُ، لِما في أمرِ الدينِ ما[6] لا يُعْرَفُ الذي يُلْقَى إليهِ المُخْرَجُ مِنْ ذلكَ.

وعلى ذلك أمرُ أهلِ الأهواءِ وأصنافِ الكَفَرَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وأمّا شياطينُ الجِنِّ فهو أمرٌ ظاهرٌ عندَ جميعِ أهلِ الأديانِ ومَنْ آمَنَ بالرسلِ ﷺ لكنَّ الدَّهْرِيَّةَ ومُنْكِري [الرسُلِ][7] يقولونَ: ليسَ في الجِنِّ شياطينُ، وإنما هو أمرٌ يُخَوِّفُ بِهِ مُدَّعو الرسالةِ لِيُلْزِموا الخَلْقَ الإسْتِماعَ إليهِمْ في تعريفِ الجُهَّلِ، وما عندَهُمْ في دَعْواهُمْ مِنَ العلومِ والمَعارفِ [شيءٌ][8] وهذا لِسَفَهِهِمْ قالوهُ[9]. ولو أنهمْ تأمَّلوا في ذلكَ لَعَرَفوا أنهمْ على غَيرِ بحثٍ عمّا ألزمَهُمْ ضرورةُ الفعلِ الطلبَ، ودَعَتْهُمْ إلى البحثِ عنهُ ما مَسَّهُمْ مِنَ الحاجةِ؛ وهي الخواطرُ التي تَقَعُ في القلوبِ، والخيالاتُ التي تَعْرِضُ في الصدورِ / ٦٦٠ ـ أ/ [منها ما][10] إذا صُوِّرَتْ وُجِدَتْ قِباحاً، ومنها[11] ما إذا صُوِّرَتْ وُجِدَتْ حِساناً.

ولا يجوزُ وقوعُ أمرٍ أو كونُ شيءٍ بَعدَ أنْ لم يكنْ مِنْ قِبَلِ نفسِهِ للإحالةِ في أنْ يَصيرَ، لا شيءَ بنفسِهِ، شيئاً قبيحاً أو حسناً بلا مُدَبِّرٍ، وقد عَلِمَ جميعُ الإنسانِ بالذي ذَكَرْتُ مِنَ الإبْتِلاءِ بِهِ ممّا يَعْلَمُ أنهُ لم يَكُنْ مِنْ نفسِهِ مَعْنًى يُحْدِثُ لهُ ذلكَ.

فَثَبَتَ أنْ قد كانتِ الضرورةُ تُلْزِمُ البحثَ عنْ ذلكَ. ثم لا يُعْلَمُ مِنْ حيثُ طَلَبُ الأبدانِ المُوجِبَةُ لها، ولا في العقولِ دَرْكُها، فيجبُ بها أمرانِ مَنَعاهُمْ عنِ العلمِ بهما [هما][12] القُنوعُ بالجهلِ وحبُّ الراحةِ: أحدُهما القولُ بالصانعِ ودخولُ العالَمِ تحتَ تدبيرِ حكيمٍ عليمٍ قديرٍ. والآخرُ القولُ بالرسالةِ، تأتيهِمْ مِنْ عندِ عَلّامِ الغُيوبِ. وإذا كانَ ذلكَ بحيثُ لا يَبْلُغُهُ علمُ البشرِ، فَيَعْرِفَ حقيقةَ ذلكَ، فَيَعْلَمَ عندَ النَّظَرِ والبحثِ أمرَينِ عظيمَينِ:

أحدُهما: الرسلُ بما مَعَهُمْ مِنَ المُعْجزاتِ؛ فيقولونَ بهِمْ وبالتوحيدِ بما رَأَوا مِنَ الآياتِ الصدقَ، وإذْ قد عَلِموا أنَّ في الأخبارِ صِدْقاً؛ لولا ذلكَ لكانوا لا يَدَعونَ شيئاً، إذْ هو خَيرٌ لهمْ[13].

والثاني: يُلْزِمُهُمْ بما يُعايِنونَ مِنْ خروجِ الأمرِ مِنْ غَيرِ الحكماءِ أنها تَقَعُ مُتفاوِتةً مُضْطَرِبةً، والعالِمُ بما خَرَجَ مُنْتَسِقاً على الحِكمةِ والمَصْلَحةِ، فَعَلِموا أنهُ كانَ يَعْلَمُ[14] ما بِهِ الصالحُ، فَيَلْزَمُهُمْ بِهِ أمرانِ أيضاً: التوحيدُ والرسالةُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وجهين. (٢) في الأصل وم: وقيل. (٣) في الأصل وم: وقيل: و. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: الآية. (٥) في الأصل وم: وقيل أيضاً. (٦) في الأصل وم: بما. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ومنهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: له. (١٤) في الأصل وم: بعد.

والأصلُ عندنا بِتَمْكينِ الشيطانِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوَسْوَسَةِ: أنَّ الشيطانَ والمَلَكَ خَلْقانِ للهِ تعالى، عَرَفْناهما بالرُّسُلِ ﷺ وبما بَيَّنّا مِنْ ضرورةِ الحاجةِ إلى العِلْمِ بمنْ بالغايةِ يَصيرُ عندَ التصويرِ قبيحاً أو حَسَناً، فيأتيانِ جميعاً بما مَكَّنَهُما اللهُ تعالى مِنَ الأمرَينِ جميعاً: أَمْرُ الملائكةِ الخَيرُ والحكمةُ، فَيَسْهُلُ عليهِ سبيلُهُ بِتيسيرِ اللهِ تعالى وفضلِهِ، وأَمْرُ الشيطانِ الضَّلالُ والشَّرُّ، فَيَيْسُرُ عليهِ حتى صارَ الخيرُ للأوّلِ كالطبعِ والشَّرُّ للثاني كذلكَ.

فإذَنْ كانَ كلُّ واحدٍ مُمَكَّناً مِنَ الأمرَينِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]وقالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ثم الأصلُ في الإنسِ أنهمُ امْتُحِنوا بحقوقٍ بينَهُمْ وبينَ اللهِ تعالى وبحقوقٍ في ما بَينَهُمْ، وكُلِّفوا بتَثْبيتِ الملائكةِ إياهُمْ [بقولِهِ][1] ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] وأُمِروا بِرَدِّ ما يُوسوِسُ إليهِمُ الشيطانُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وغيرِ ذلكَ.

وعلى ذلكَ خُلِقَتِ الملائكةُ مُمْتَحَنينَ بالكتابةِ على البشرِ بقولِهِ: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١] فتكونُ الحكمةُ في تكليفِ التَّمْكينِ لِما وصَفَ مِنْ محنةِ اللهِ تعالى إيّاهُمْ طاعتَهُمْ في أنفسِهِمْ وفي ما مُكِّنوا مِنْ غَيرِهِمْ على ما ذَكَرْتُ مِنْ أمرِ الإنسِ.

وحكمةُ ذلكَ للإنسانِ[2] إلزامُ التَّيَقُّظِ والنَّظَرِ في ما يَقَعُ في قلبِهِ مِنَ الخواطرِ لِيَعْلَمَ الذي لهُ مِنَ الذي عليهِ، وكذلكَ في تكليفِ الملائكةِ كتابةَ قَولِهِ وفِعلِهِ ليكونَ مُتَيَقِّظاً ومُنْتَبِهاً في كلِّ أفعالِهِ وأحوالِهِ كَتَيَقُّظِهِ في ما كانَ الأولياءُ والأعداءُ مِنَ الكاتبينَ الظاهرينَ عليهِ أنهُ يَحْذَرُ كلَّ الحَذَرِ عمّا يؤذي وَلِيَّهُ، ويُقْبِلُ على كلِّ أمرٍ فيهِ يَطْمَعُ بما أمَلَ، ويَحْذَرُ عَدُوَّهُ أشدَّ الحذرِ لئلّا يؤذِيَهُ مِنْ حيثُ لا يَعْلَمُ، فَيَتَّهِمُهُ كلَّ تُهَمَةٍ.

ثم معلومٌ ألّا يَمَلَّ الكَتَبَةُ إلّا بعدَ إحكامِهِ وإصلاحِهِ غايةَ ما يُحْتَمَلُ الوُسْعُ.

فَعَلَى ذلكَ في ما خَفِيَ؛ إذْ هُمْ في العقولِ في [دَرْكٍ][3] ما منهمْ وما عليهِمْ كالذينَ ذَكَرَ منهمْ مِمَّنْ ظَهَرَ وألّا يُضارَّهُمْ، واللهُ الموفِّقُ.

وكذلكَ صَلَحَتِ المِحْنةُ والأمرُ في صحبةِ الأولياءِ والأعداءِ بِحَقِّ الوِلايةِ والعَداوةِ في ما لا يَرونَ صلاحَها وفي ما يَرونَ، إذْ مِنَ الوجهِ الذي فيهِ الوِلايةُ والعَداوةُ مُزَيَّنَةٌ لأبصارِ القلوبِ والعقولِ فَيُمَكِّنُ الحذرَ والمُعاملةَ جميعاً.

وعلى هذا التقديرِ لم يُمَكِّنِ اللهُ أعداءَهُ الذينَ لا يُرَونَ مِنْ مُعاداتِهِمْ بأفعالٍ مِنْ أبدانِهِمْ وأموالِهِمْ بالسَّلْبِ والتَّنجيسِ والإفسادِ، وقد مَكَّنَ أعداءَهُمْ مِنَ الإنسِ ذلكَ لِتَمَكُّنِهِمُ الدفعَ عنْ ذلكَ والحذَرَ عنهُ بما وقَعَ الوقوفُ لبعضٍ على حِيَلِ بعضٍ والصرفُ عنْ ذلكَ.

وما هذا إلّا كَدَرْكِ الحواسِّ بأفعالِها وأسبابِها بالحسِّ، وكذلكَ أمرُ الملائكةِ.

لكنَّ مَنْ لا يَحْتَمِلُ عقلُهُ معرفةَ الصانعِ والتوحيدَ مع شهادةِ العقلِ وكلِّ شيءٍ، فَجَهْلُهُ بالشيطانِ غيرُ مُسْتَبْعَدٍ ولا مُسْتَنْكَرٍ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ ﷺ: ثم اخْتُلِفَ في وجهِ تَمَكُّنِ الشيطانِ مِنَ الإنسِ في ما يُوَسْوِسُ إليهِ: قد رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ «أنهُ يجري فيهِ مَجْرَى الدَّمِ» [مسلم ٢١٧٤] فأنْكَرَ ذلكَ قومٌ، وليسَ ذلكَ ممّا يُنْكَرُ بعدَ العلمِ باحْتِمالِ جَرْيِ الدمِ فيهِ وجَرْيِ قوةِ الطعامِ والشرابِ وما بهِ حياةُ الأبدانِ والحَواسِّ ممّا لَطُفَ مَجْراهُ في جميعِ العروقِ والأعصابِ. وكلُّ شيءٍ بِلَطافةِ ذلكَ [فِعْلُ ذلكَ][4] الشيطانِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: للإنس. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وعلى ما رُوِيَ في أمرِ المَلَكِ ممّا يَكْتُبُ ما لا يُعْلَمُ مَوضعُ تَعَوُّذِهِ، ولا يُسْمَعُ صريرُ قلمِهِ، ولا ما يَكْتُبُ علينا مِنْ ذلكَ أمرُ الذي ذكَرْتُ.

ثم قد ثَبَتَ القولُ بأمرِ اللهِ تعالى نَبِيَّهُ أنْ يَتَعَوَّذَ بِهِ مِنْ هَمْزِهِ ونَزْغِهِ وحضورِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠ وفصلت ٣٦] وقولِهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقولِهِ[١] تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] وقولِهِ[٢]: ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٥] ثَبَتَ أنَّ أمرَهُ على ما يشاءُ.

ثم القولُ في أيِّ مَوضعٍ لِوَقتٍ ما لَهُ مِنَ الوَحْيِ والمَسِّ والنَّزْغِ أمرٌ لا يُحتاجُ إليهِ بحقٍّ، لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَنا أنّا لا نَراهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ولكنَّ الذي رجَعَتِ المِحْنةُ إلى أفعالِهِ التي يَقَعُ لها آثارٌ في الصدورِ، وقد مُكِّنّا بِحَمدِ اللهِ تعالى مِنهُ[٣] لِنُدرِكَ مَنْهُ. وإنما علينا التَّيَقُّظُ لِما يَقَعُ في الصدورِ مِنْ أفعالِهِ وَوَساوِسِهِ لِنَدْفَعَ بما مَكَّنَنا اللهُ تعالى مِنَ الأسبابِ، وعَرَّفَنا مِنَ الحُجَجِ نَقْضَ الباطلِ والتَّمَسُّكَ بالحقِّ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] ورَجَعوا إلى اللهِ تعالى بالتَّعَوُّذِ في طَلَبِ اللطفِ الذي جَعَلَهُ اللهُ تعالى للدفاعِ كقولِ يوسفَ ﷺ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ الآية [يوسف: ٣٣] على العِلْمِ فيه بِطوائفِ الأشياءِ مِنَ المَجْعولِ لِدَفْعِ كَيدِهِنَّ.

وكذلكَ قولُ الراسخينَ في العِلْمِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ الآية [آل عمران: ٨].

لكنْ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: هو يَعْلَمُ النفسَ في ما تَهوى، فَيُزَيِّنُ لها ذلكَ، والعقلُ في ما يَدعو إلى ذلكَ، يَمْنَعُهُ[٤] عن ذلكَ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: لا. لكنْ في ذلكَ آثارٌ مِنَ الظُّلْمةِ والنُّورِ والطَّيِّبِ والخَبيثِ، فَتُعْرَفُ بالآثارِ، وفيها موقعُ وَسْواسِهِ حتى يَصِلَ إلى العقلِ. وقد يكونُ عملُ الهَوَى والعقلِ جميعاً في الجَسَدِ وخارجٍ منهُ وبخاصّةِ آثارِ الأعمالِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: ليسَ لهُ بشيءٍ مِنْ ذلكَ عِلْمٌ / ٦٦٠ ـ ب/ لكنْ بكلِّ ما يَرْجو العملَ مِنَ التَّغريرِ أو في التَّمويهِ والتَّلبيسِ كالأعمَى في ما يَمَسُّ، ويَطْلُبُ المَضارَّ مِنَ المَنافِعِ ونَحوَ ذلكَ، لكنَّ ذلكَ كلَّهُ طريقُ عملِ الشيطانِ وطريقُ إمكانِهِ وحِيَلِهِ، وذلكَ مَنْ لم يؤمِنْ بِمَعْرفتِهِ، وإنما علينا مُجاهَدَتُهُ في منعِ ذلكَ بالتَّيَقُّظِ أو بِدَفْعِهِ بما نَتَذَكَّرُ. هكذا ذُكِرَتْ في الآياتِ أو بالفَزَعِ إلى اللهِ تعالى في دفْعِهِ ومَنْعِهِ إنْ حَضَرَ بما عندَهُ مِنَ اللَّطائفِ التي لَدَيها يَقَعُ الأمنُ عنِ الزَّيغِ والظَّفَرُ بالرشدِ.

ويُؤَوِّلُ كثيرٌ منهمْ أنهُ يُوَسْوِسُ في صدورِ الجِنِّ كما يُوَسْوِسُ في صدورِ الناسِ، وذلكَ مُمْكِنٌ بما يكونُ مِنْ كلِّ جِنسٍ ضُلّالٌ وغُواةٌ وأخيارٌ وأبرارٌ.

فأمّا حقُّ تأويلِ السورةِ [فهو][٥] على ما وصَفْنا في ذِكْرِ وَسْواسِ الجِنِّ والإنسِ.

ثم القولُ في المُعَوِّذَتَينِ: إنهما مِنَ القرآنِ أوليسَتا مِنَ القرآنِ:

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: لنا مِنْ أمرِهِما أنهما أُنْبِهَتا بما أُنْبِهَتْ إلى أهلِ هذا العصرِ معرفةُ القرآنِ في الجميعِ بينَ اللَّوحَينِ بِتوارُثِ الأمةِ. ولسنا نحنُ مِمَّنْ يَعْرِفُ بالمِحْنةِ والسِّرِّ بما بِهِ نَعْلَمُ أنهما مُعجزتانِ أوْ لا. وإنما حقُّ ذلكَ [الأخذِ عن أهلِ ذلكَ [العصرِ][٦]][٧] والشهادةِ بعدَ ذلكَ أنهما منَ القرآنِ، وأنهُ مُعجِزٌ، حقُّ أمثالِنا فيهِ الاتِّباعُ، وقدِ اتَّضَحَ بما بِهِ جَرَى التَّعارُفُ في جميعِ الشرائعِ التي بها يَشْهَدُ أنها عنِ اللهِ تعالى وأنها حقٌّ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

لكنْ ذُكِرَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ لم يَكْتُبْهُما في مُصْحفِهِ. وذلكَ عندَنا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) و(٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: ومنه. (٤) في الأصل وم: فيمنعه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من م. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُهما: أنهُ لم يكُنْ سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ [أنهُ][1] قالَ فيهما شيئاً أنهما منَ القرآنِ أو[2] لا.

[والثاني:][3] لم يكُنْ أيضاً رأى على نفسِهِ السؤالَ عنْ ذلكَ حقّاً واجباً لأنَّ القرآنَ وما جاءَ بهِ الرسولُ ﷺ في ما يُلْزِمُ عِلْمَ الشهادةِ والعَمَلَ بهِ واحدٌ؛ إذِ المَقصودُ منْ كلِّ ذلكَ القيامُ بالمَقصودِ مِنْ حقِّ الكُلْفةِ لا التَّسْمِيةِ. ولم يكُنِ النُّجباءُ يَمْتَحِنونَ أنفسَهُمْ بالسِّرِّ في الوجوهِ [التي][4] بها يَعرفونَ المُعْجِزَ مِنْ غَيرِ ذلكَ أنهُ قرآنٌ أو غَيرُهُ. وإنما ذلكَ مِنْ عملِ المُرْتابينَ الشاكِّينَ في خَبَرِ الرسولِ ﷺ لِيَعرِفوا أنهُ مَبعوثٌ مُرسَلٌ.

فأمّا مَنْ تَقَرَّرَ عندَهُ، واطْمأنَّ بهِ قلبُهُ، وزالَ عنهُ الحَرَجُ في ما آتاهُمْ فقد كَفُّوا [عنْ][5] ذلكَ.

وكذلكَ يجوزُ تَرْكُ البحثِ عنْ ذلكَ لِما ذَكَرْتُ، لا أنَّ عندَهُ أنهما ليسَتا مِنَ القرآنِ.

وفي خَبَرِ عُقْبَةَ [بْنِ عامرٍ][6] الجُهَنِيِّ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ لأصحابِهِ: «نَزَلَ اليومَ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهُنَّ قطُّ، قيلَ: ما هُنَّ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: المُعَوِّذَتانِ» [مسلم ٨١٤/ ٢٦٥]. دلَّ أنهما مِنَ القرآنِ.

وأيَّدَ أيضاً ما ذَكَرْتُ في تركِ الكتابةِ ما رُوِيَ عنْ أُبَيِّ بْنِ كعبٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخبَرَهُ بهما: «قالَ [لي. . قالَ: فنحنُ نقولُ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ][7]» [البخاري ٤٦٩٣] لم نَشْهَدْ في تلكَ بأنهما منهُ، ولا ليسَتا منهُ، بما لم يكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ أخبَرهُ بهما.

فَعَلَى ذلكَ أمرُ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ.

ويُؤيِّدُ ذلكَ أيضاً أمرُ اسْتِعاذةِ القرآنِ أنها مُقَدَّمةٌ على القراءةِ، وحقُّ هاتينِ السورتَينِ لو كانتا منهُ لَتَعَيَّنَ أنْ تكونا في افْتِتاحِ المصحفِ كالاِسْتِعاذةِ لِلقرآنِ.

فهذا أيضاً بعضُ [الذي][8] يَمْنَعُ [العِلْمَ][9] بحقيقةِ ذلكَ عنهُ، وقد بيَّنّا جوازَ وجهِ الإشكالِ معَ ما كانَ الإنزالُ لِحاجةِ العبادِ. وعلى ذلكَ جَرَى العملُ بهما منْ رسولِ اللهِ ﷺ وغَيرِهِ، فهو أمرٌ لا [يَضُرُّهُ الجهلُ بالوجهِ][10] الذي ذَكَرْتُ.

وعنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: لو عَلِمْتُ أنَّ أحداً أعلَمُ بالقرآنِ مني، وحَمَلَتْني مَطِيَّتي، لأتَيتُهُ.

وقد رُوِيَ عمَّنْ ذَكَرَ عنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَعْرِضُ [القرآنَ][11] على جبرائيلَ ﷺ مَرَّةً [في][12] العامِ إلّا في العامِ الذي قُبِضَ، عرضَهُ[13] عليهِ مرَّتَينِ، وقد شَهِدَهما جميعاً عندَ اللهِ» [أحمد ١/ ٣٢٥].

وإذا كانَ كذلكَ لم يكُنْ هو ممنْ يَسْألُ في هذا البابِ غَيرَهُ لِيُثْبِتَ عندَهُ السماعَ أنهما أُثْبِتَتا في المصحفِ، فَبَقِيَ قولُهُ بحيثُ لا نَعْرِفُ حقيقتَهُ.

ووجهٌ آخَرُ: أنْ يكونَ رآهما منهُ، لكنْ لم يَكْتُبْهما[14] لِوَجْهَينِ:

أحدُهما: لِما لم يكُنْ موضِعُ الكتابِ والتَّدبيرِ على ما ذَكَرْنا أنْ تكونا[15] في أوَّلِ المَصاحفِ، فَكَرِهَ أنْ يَكْتُبَهُما[16] بتدبيرِهِ، ويَتَخَيَّرَ لهما[17] موضِعاً للكتابةِ، فلم [يَكْتُبْهما لذلكَ][18].

والثاني: أنهُ يَكْتُبُ لِيَحْفَظَ، ولا يَنْسَى، وقد أَمِنَ عليهما النِّسيانَ لأنهما بحيثُ يَجبُ تلاوَتُهُما في أوائلِ النهارِ ومَبادِئِ الليلِ وعندَ النوازلِ، يَنْفَعُ التَّعَوُّذُ بهما عن كلِّ شَرٍّ وكيدٍ على نَحْوِ الاِسْتِعاذةِ وأنواعِ الدَّعَواتِ المَدْعُوَّةِ. فلمّا أَمِنَ خَفاءَهما لم يَكْتُبْهما[19].

وعلى ذلك تَرَكَ كتابةَ فاتحةِ الكتابِ، واللهُ أعلَمُ [والحمد للهِ ربِّ العالمينَ][20].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يضر الجهل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: عرض. (١٤) في الأصل وم: يكتب. (١٥) في الأصل وم: تكون. (١٦) في الأصل وم: يكتب. (١٧) في الأصل وم: له. (١٨) في الأصل وم: يكتب كذلك. (١٩) في الأصل وم: يكتب. (٢٠) في م: بالصواب تمت.

الخـاتـمـة

احْمَدُ اللّه تعالى الذي أقْدَرَني

على إنجازِ هذا العملِ، وأسألُهُ أنْ يُقَيِّضَ

لهُ مَنْ يَفيهِ حقَّهُ فَهْماً وعَمَلاً، ونُرَدِّدَ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

الاثنين ١٢ / ٥/ ١٤٢٥هـ

٢٨ / ٦/ ٢٠٠٤م

فاطمة يوسف الخيمي

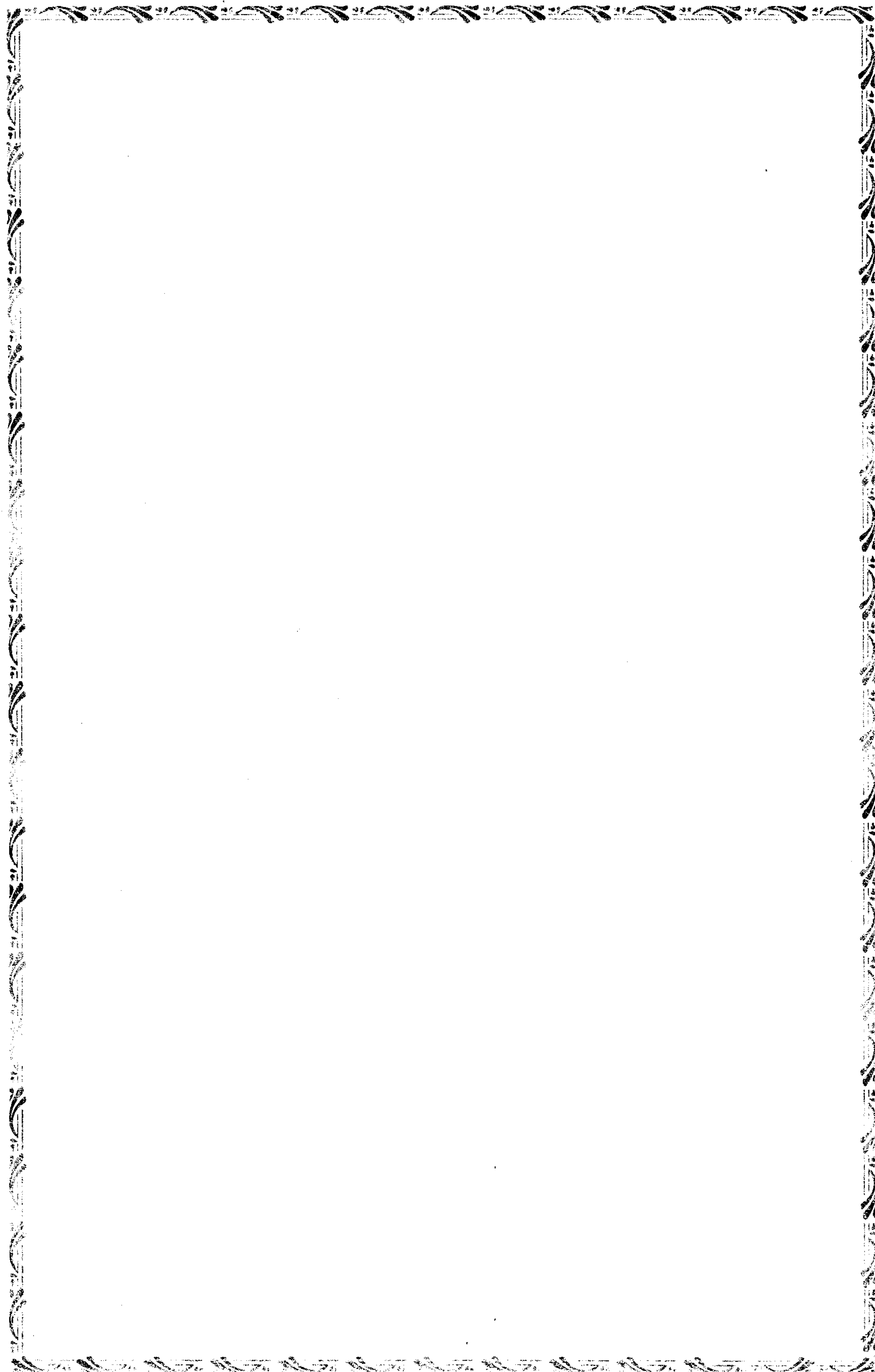

المراجع

١- أبو منصور الماتريديْ، حياته وآراؤه العقدية، الدكتور بلقاسم الغالي، تونس، دار التركي للنشر ١٩٨٩م.

٢- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، محمد الحسيني الزبيدي المُرْتَضَى، أبو الفيض، المتوفى ١٢٠٥هـ، بيروت، دار الفكر.

٣- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١ هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤- أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصّاص، الحنفي، أبو بكر، المتوفى ٣٧٠هـ، بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٣٥هـ.

٥- إشارات المرام من عبارات الإمام، أحمد بن حسن البياضي، كمال الدين، المتوفى ١٠٩٨هـ، تحقيق يوسف عبد الرزاق، ط١ القاهرة ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٩م.

٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١ بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٢م.

٧- الأنساب، عبد الكريم بن محمد السمعاني، أبو سعد، المتوفى ٥٦٢هـ، ط١ دار الجنان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨- البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف، الأندلسي الغرناطي، أبو حيان، المتوفى ٧٥٤هـ، بيروت، دار الفكر ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٩- البداية والنهارية، الحافظ ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء، المتوفى ٧٧٤هـ، القاهرة، دار الحديث ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م.

١٠- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، المتوفى ٧٩٤هـ، تحقيق المرعشلي والذهبي والكردي، ط١ بيروت دار المعرفة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١١- تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ، الجزء الأول، تحقيق الدكتور إبراهيم عوضين والسيد عوضين، القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

١٢- تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، الحنفي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ، تحقيق سورة البقرة الدكتور محمد مستفيض الرحمن، بغداد، مطبعة الإرشاد ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

١٣- تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد القتبي، المتوفى ٢٧٦هـ، شرح ونشر أحمد صقر، القاهرة، دار التراث ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٤- تاج التراجم في طبقات الحنفية، قاسم بن قطلوبغا، السودوني، زين الدين، ط١ دار القلم، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٥- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان.

١٦- تاريخ جرجان، حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي، المتوفى ٤٢٧هـ، ط٣ بيروت، عالم الكتب ١٩٨١م.

١٧- تاريخ المذاهب الإسلامية في تاريخ المذاهب الفقهية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

١٨- تبين كذب المفتري في ما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، المتوفى ٥٧١هـ، بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٩- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

٢٠- تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن علي الهندي الفُتَني، المتوفى ٩٨٦هـ، الناشر أمين دمج، بيروت.

٢١ـ **تفسير غريب القرآن**، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد القتبي، المتوفى ٢٧٦هـ، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء التراث العربية، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٢٢ـ **جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير**، جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١هـ، جمع وترتيب أحمد صقر، وأحمد عبد الجواد، دمشق، مطبعة هاشم الكتبي.

٢٣ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، المبارك بن محمد، الأثير، الجزري، مجد الدين، أبو السعادات، المتوفى ٦٠٦هـ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ط١ بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٤ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أو تفسير الطبري**، محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، المتوفى ٣١٠هـ، بيروت، دار الفكر ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٥ـ **الجامع الصحيح**، أو سنن الترمذي، عيسى بن محمد بن سورة الترمذي، أبو عيسى المتوفى ٢٧٩هـ تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، دار إحياء التراث العربي ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٢م.

٢٦ـ **الجامع الصحيح**، أو سنن الترمذي، عيسى بن محمد بن سورة الترمذي، أبو عيسى، المتوفى ٢٧٩هـ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، الرياض، مكتبة المعارف.

٢٧ـ **الجامع الصحيح، أو سنن الترمذي**، عيسى بن محمد بن سورة، المتوفى ٢٧٩، تحقيق وشرح أحمد بن محمد شاكر، ط١ القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٩م.

٢٨ـ **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد، الأنصاري القرطبي، أبو عبد الله، المتوفى ٦٧١هـ، صححه أحمد عبد العليم البردوني ط٢ بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.

٢٩ـ **جامع المسانيد**، محمد بن محمود الخوارزمي، أبو المؤيد، المتوفى ٦٦٥هـ، بيروت، دار الكتب العلمية.

٣٠ـ **جنة المرتاب بنقد المغني عن الحفظ والكتاب**، عمر بن بدر الموصلي، أبو حفص، المتوفى ٦٢٢هـ، ط١ دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣١ـ **الجواهر المضية في طبقات السادة الحنفية**، عبد القادر بن أبي الوفاء محمد القرشي محيي الدين، المتوفى ٧٧٥هـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، حيدرآباد، الدكن، ١٣٣٢هـ.

٣٢ـ **حجة القراءات**، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، أبو زرعة، تحقيق وتعليق سعيد الأفغاني، ط٤ بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م.

٣٣ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أحمد بن عبد الله، الأصفهاني، الحافظ أبو نعيم، المتوفى ٤٣٠هـ، ط٤ دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٣٤ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١هـ، ط١ بيروت دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٥ـ **ديوان الأعشى الكبير**، ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، نشر مكتبة الجماهير، القاهرة ١٩٥٠م.

٣٦ـ **ديوان الأعشى الكبير**، ميمون بن قيس، تقديم وشرح وضبط ووضع فهارس الدكتور محمد أحمد قاسم، ط١، بيروت المكتب الإسلامي ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

٣٧- ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتوثيق ودراسة الدكتور عبد الحفيظ السطلي، دمشق، المطبعة التعاونية ١٩٧٤م.

٣٨- ديوان زهير بن أبي سلمى، طبعة وزلرة الثقافة والإرشاد القومي مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩١٩٦٤م.

٣٩- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، الدكتور عزيزرة نوال بادس، بيروت، دار الجيل ١٩٩٥.

٤٠- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج جمال الدين، المتوفى ٥٩٧هـ، حَقَّقَهُ الدكتور محمد بن عبد الرحمن، وخرّج أحاديثه محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، ط١ بيروت، دار الفكر، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤١- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السّيّء في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، ط١ الرياض، مكتبة المعارف ١٩٩٢م.

٤٢- سنن أبي داوود، الإمام الحافظ أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، المتوفى ٢٧٥هـ، مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي.

٤٣- سنن الدارقطني، علي بن عمر الحافظ المتوفى ٣٨٥هـ، علق عليه، وخرج أحاديثه مجدي بن منصور بن سيد الشوري، ط١ بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٤٤- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، أبو بكر، المتوفى ٤٥٨هـ، ط١ بيروت، دار المعرفة ١٣٥٦هـ.

٤٥- سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي، المتوفى ٣٠٣هـ، شرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، اعتنى به، ورقمه، ووضع فهارسه عبد الفتاح أبو غرة، ط٢ بيروت دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٦- سير أعلام النبلاء، الإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، شمس الدين، المتفى ٧٤٨هـ، تحقيق محب الدين العمروي، ط١ بيروت، دار الفكر، ١٩٩٧م.

٤٧- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة، ط١ دمشق دار القلم، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٤٨- شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين، المتوفى ٦٧٦هـ، راجعه الشيخ خليل الميس، ط١ بيروت، دار القلم ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤٩- شرح الفقه الأكبر، النعمان بن ثابت، المتوفى ١٥٠هـ، شرح الإمام محمد بن محمد بن محمود الحنفي الماتريدي السمرقندي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ عني بطبعه، وراجعه عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية. طبع سنة ١٣٢١هـ، حيدرآباد، الدكن.

٥٠- شرح مشكل الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، أبو جعفر، المتوفى ٣٢١هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط١ بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م.

٥١- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، أبو بكر، المتوفى ٤٥٨هـ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، ط١ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٥٢- شفاء الصدور في تفسير القرآن الكريم، محمد بن الحسن النقاش الموصلي، أبو بكر، المتوفى ٣٥١هـ.

٥٣- صحيح ابن حَبّان، محمد بن حَبّان بن أحمد البُسْتي، أبو حاتم، تأليف الأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي، المتوفى ٣٥٤هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٢ مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م.

٥٤- **صحيح سنن الحافظ**، محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه، أبو عبد الله، المتوفى ٢٧٥هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١ بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٥٥- **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، أبو الحسين، المتوفى ٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٥٦- **ضحى الإسلام**، أحمد أمين، القاهرة ١٩٣٦م.

٥٧- **طبقات المفسرين**، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١هـ، مراجعة لجنة من العلماء بإشراف الناشر، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٨- **ظهر الإسلام**، أحمد أمين، ط٥، بيروت، دار الكتاب العربي.

٥٩- **العالم والمتعلم**، النعمان بن ثابت الكوفي، أبو حنيفة، المتوفى ١٥٠هـ، حيدر آباد، الدكن، المطبعة الحيثلية ١٩١١م.

٦٠- **غريب القرآن على حروف المعجم**، محمد بن عزيز السجستاني، أبو بكر، المتوفى ٣٣٠هـ، دراسة وتحقيق أحمد عبد القادر صلاحية، دمشق، دار طلاس ١٩٩٣.

٦١- **فتح الباري بشرح صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري**، أبو عبد الله المتوفى ٢٥٦ هـ، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى ٨٥٢هـ، بيروت، دار الفكر.

٦٢- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والتفسير**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المتوفى ١٢٥٠ هـ، وثق أصوله، وعلق عليه سعيد محمد اللحام ط١. بيروت، دار الفكر ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٦٣- **الفردوس بمأثور الخطاب**، شيرويه الديلمي الهمذاني أبو شجاع الملقب إلكيا المتوفى ٥٠٩هـ، إعداد محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط١بيروت دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٦٤- **الفتح المبين في طبقات الأصوليين**، عبد الله مصطفى المراغني، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٤م.

٦٥- **الفهرست**، محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم، المتوفى ٣٨٠هـ، شرحه وعلق عليه الدكتور يوسف علي الطويل، وضع فهارسه أحمد شمس الدين، ط١ بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٦٦- **الفوائد البهية في تراجم الحنفية**، محمد عبد الحي اللكنوي المتوفى ١٣٠٤هـ، بيروت، دار المعرفة.

٦٧- **فيض القدير بشرح الجامع الصغير**، محمد عبد الرؤوف المُناوي، المتوفى ١٠٣١هـ، ط١ بيروت، دار المعرفة ١٣٩١هـ ١٩٧٢م.

٦٨- **الكامل في ضعفاء الرجال**، عبد الله بن عُدَيّ الجرجاني، المتوفى ٣٦٥هـ، بيروت، دار الكتب العلمية.

٦٩- **كتاب التوحيد**، محمد بن محمد بن محمود، الماتريدي السمرقندي الحنفي، المتوفى ٣٣٣هـ، حققه وقدم له، فتح الله خليف الإسكندرية، دار الجامعات المصرية ١٩٩٥م.

٧٠- **كتاب سيبويه**، عمر بن عثمان، أبو بشر، المتوفى ١٨٠هـ تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط٢ الهيئة المصرية العامة ١٩٧٩م.

٧١- **كتاب الزهد والرقائق**، عبد الله بن المبارك المروزي، المتوفى ١٨١هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، نشر محمد عفيف الزعبي، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٧٢ـ **الكشاف في غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، محمد بن عمر الزمخشري جار الله، المتوفى ٥٣٨هـ، تحقيق أحمد عبد الموجود و. . . ، ط١ الرياض، مكتبة العبيكان.

٧٣ـ **كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة**، علي بن أبي بكر الهيثمي، نور الدين، المتوفى ٨٠٧هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.

٧٤ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، إسماعيل بن محمد العجلوني، الجراحي، المتوفى ١١٦٢هـ، أشرف على طبعه وتصحيحه أحمد القلاش، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٧٥ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبد الله، القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلبي والمعروف بحاجي خليفة، المتوفى ١٠١٧هـ، دار الفكر، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٧٦ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علي المتقي بن حسام الدين علاء الدين الهندي البرهان فوري، المتوفى ٩٧٥هـ، ضبطه الشيخ بكري حياني، صححه ووضع فهارسه الشيخ صفوت السقا، حلب، منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

٧٧ـ **لسان العرب**، محمد بن مكرم، ابن منظور المصري، أبو الفضل، المتوفى ٧١١هـ.

٧٨ـ **مجاز القرآن**، معمر بن المثنى، التيمي، أبو عبيدة، المتوفى ٢١٠هـ، عارضه بأصوله، وعلق عليه الدكتور محمد فؤاد سزكين، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٥٤م.

٧٩ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، نور الدين، المتوفى ٨٠٧هـ، ط١ بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م.

٨٠ـ **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القرآن والإيضاح عنها**، عثمان بن جني، أبو الفتح المتوفى ٣٩٢هـ، تحقيق على النجدي ناصف والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة ١٣٨٦هـ.

٨١ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أو تفسير ابن عطية**، عبد الحق بن عطية الأندلسي، أبو محمد، المتوفى ٥٤١هـ، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري وعبد العال السيد إبراهيم، ط١، قطر.

٨٢ـ **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه**، المتوفى ٣٧٠هـ، تحقيق ج. براجشتراسر، القاهرة، مكتبة المتنبي ١٩٨٠م.

٨٣ـ **مذاهب الإسلاميين**، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ط٢، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.

٨٤ـ **مرجع العلوم الإسلامية**، الدكتور محمد وهبي، الزحيلي، دمشق، دار المعرفة.

٨٥ـ **مساوئ الأخلاق ومذمومها**، محمد بن جعفر بن سهيل، السامري الخرائطي، ط١ مكتبة السوادي، ١٩٩٢م.

٨٦ـ **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبد الله بن محمد، الإمام الحاكم، أبو عبد الله، المتوفى ٤٠٥هـ، إشراف الدكتور يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار المعرفة.

٨٧ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المتوفى ٢٤١هـ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط١، بيروت، دار الفكر ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٨٨ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ط٥ بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م.

٨٩- **مسند الدارمي المعروف بـ: سنن الدارمي**، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الحافظ الدارمي، المتوفى ٢٥٥هـ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، ط١ الرياض، دار ابن حزم، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٩٠- **مشكل القرآن**، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، أبو جعفر، المتوفى ٣٢١هـ، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الدكن، الهند ١٣٣٣هـ، محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي ١٩٨٠م.

٩١- **معاني القرآن وإعرابه**، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، أبو إسحاق، المتوفى ٣١١هـ، شرح وتحقيق الدكتور عبد العزيز عبده شلبي، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٩٢- **معجم الأحاديث القدسية**، عصام الدين الضبابطي، أبو عبد الرحمن، القاهرة دار الريان للتراث.

٩٣- **معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم**، الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة والدكتور عبد الحميد مصطفى السيد، ط١، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٩٤- **معجم البلدان**، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي الإمام أبو عبد الله، المتوفى ٦٢٦هـ، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٩٥- **المعجم الصغير**، سليمان بن أحمد بن أيوب، الطبراني، أبو القاسم، المتوفى ٢٦٠هـ، تقديم كمال يوسف الحوت، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٩٦- **معجم القراءات القرآنية**، الدكتور عبد العال سليم مكرم والدكتور أحمد مختار عمر، ط١، مطبوعات جامعة الكويت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٩٧- **معجم المؤلفين**، تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، بيروت دار إحياء التراث العربي.

٩٨- **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، أي . ي ونستك ليدن، مكتبة بريل، ١٩٨٨م.

٩٩- **مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير**، محمد بن عمر الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله، المتوفى ٦٠٦هـ، القاهرة ١٣٠٧م.

١٠٠- **مفردات ألفاظ القرآن**، الحسين بن محمد بن المفضل، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، المتوفى ٥٠٢هـ، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ط١، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية.

١٠١- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، علي بن إسماعيل، الأشعري، أبو الحسن، المتوفى ٣٢٤هـ، عني بتصحيحه هلموت ريتر، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٠م.

١٠٢- **الملل والنحل**، محمد بن عبد الكريم بن محمد، الشهرستاني، المتوفى ٥٤٨هـ، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة.

١٠٣- **مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن**، أحمد بن عثمان الذهبي، أبو عبد الله، الإمام الحافظ، المتوفى ٧٤٨هـ، تحقيق محمد زاهد الكوثري وأبو الوفاء الأفغاني، نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدرآباد، الدكن، ط٣، الهند، لبنان ١٤٠٨هـ.

١٠٤- **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**، علي بن أبي بكر، الهيثمي، نور الدين المتوفى ٨٠٧هـ، تحقيق وتعليق شعيب الأرناؤوط ومحمد رضوان العرقسوسي، ط١ بيروت مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٠٥ـ **موسوعة أطراف الحديث النبوي**، محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، عالم التراث، ط١، بيروت، دار الفكر ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٠٦ـ **موسوعة فقه عمر بن الخطاب**، الدكتور محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، ط٣، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٠٧ـ **موطأ الإمام مالك بن أنس المتوفى ١٧٩هـ**، رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد راتب عرموش، ط٦، دار النفائس بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٠٨ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المبارك بن محمد المبارك الجزري ابن الأثير، مجد الدين، المتوفى ٦٠٦ هـ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت دار إحياء التراث العربي.

١٠٩ـ **النهر الماد في البحر المحيط**، محمد بن يوسف، الأندلسي الغرناطي، أبو حيان، المتوفى ٧٤٥هـ، تحقيق الدكتور عمر الأسعد، ط١، دار الجيل، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥.

١١٠ـ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون**، إسماعيل باشا ابن محمد أمير بن مير سليم، البابانى أصلاً، البغدادي مولداً وسكناً، المتوفى ١٠٣٩هـ، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١١١ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أحمد بن محمد بن خلكان، أبو العباس، شمس الدين، المتوفى ٦٨١هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٤٨م.

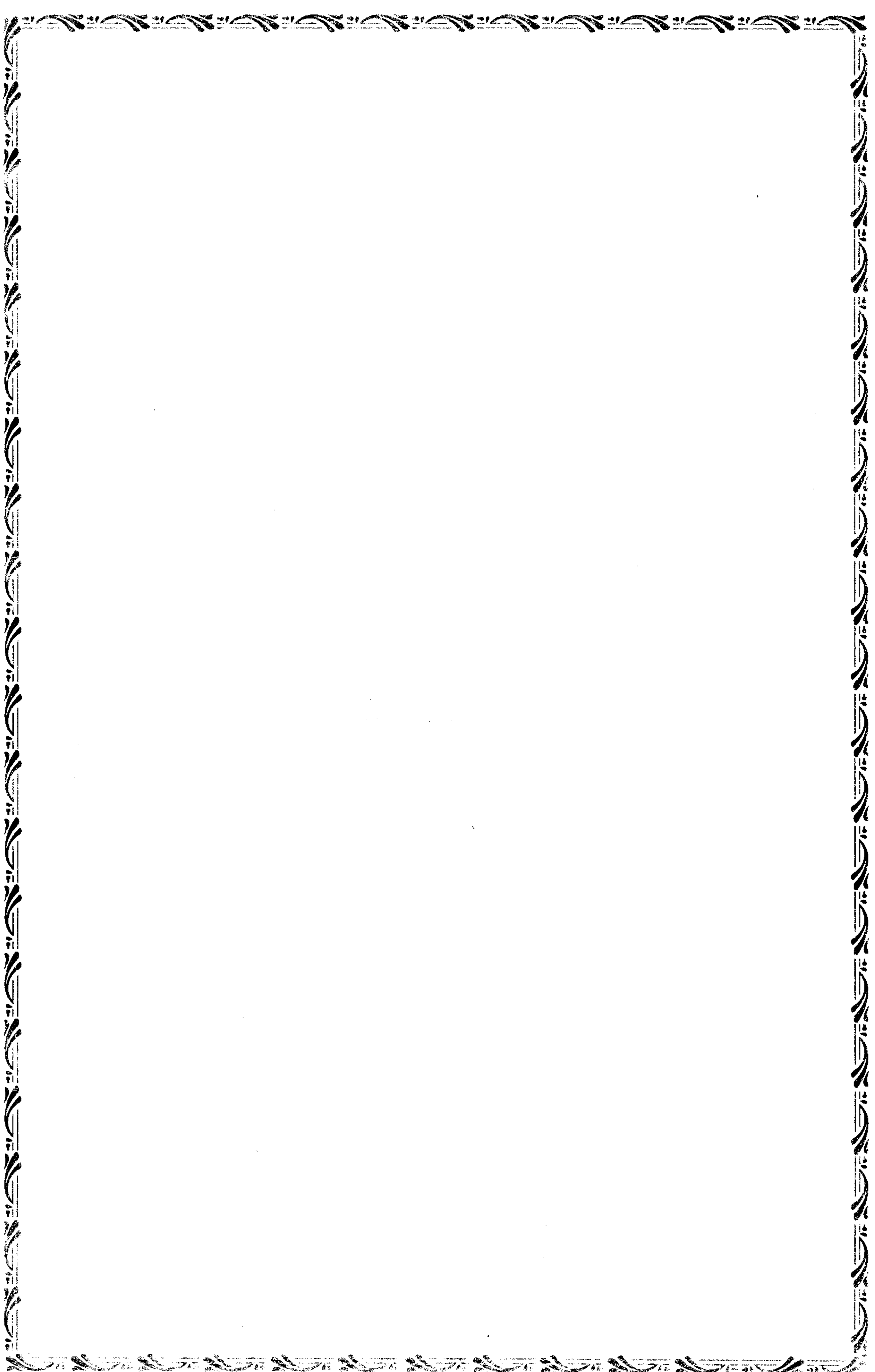

فهرس تفسير السور

تم بحمد الله